كتاب
صبح الأعشى
تأليف
الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٠ ه — ١٩٢٢ م

دار الكتب المصرية

صبح الأعشى

الجزء الأوّل

طبع
بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة
١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الأوّل

طبـــع

بمطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٤٠ هـ — ١٩٢٢ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله جاعل المرء بأصغريه، قلبه ولسانه . والمتكلمَ بأجمليه، فصاحته وبيانه . راقِم حقائق المعانى بأقلام الإلهام على صفحات الأفكار . جامع اللسان والقلم على ترجمة ما فى الضمائر، ذاك للأسماع وهذا للأبصار. الذى حفِظ برسوم الخطوط ما تكلُّ الأذهان السليمة عن حفظه . وتَبْلُغ بوسائطها على البعد ما يعسر على المتحمل تأديتُه بصورة معناه ولفظه .

أحمده على أنْ وهب من بنات الأفكار ما يربو فى الفخر على ذُكُور الصوارم . ومنح من جواهر الخواطر ما يزكو مع الإنفاق ولا ينقص بالمكارم .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يُوَقَّع لصاحبها بالنجاة من النار . ويُكْتَب قائلها فى ديوان الأبرار . وأن محمدا عبده ورسوله الذى آهتزَّت لهيبته الأسِرَّة وشَرُفت بذكره المنابر . وضاقت عن دَرْك وصفه الطروس ونَفِدت دون إحصاء فضله المحابر . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين قُلِّدوا أمورَ الدين فقاموا بواجبها . وحُمِّلوا أعباءَ الشريعة فانتشرت بهم فى مشارق الأرض ومغاربها . صلاةً تُسَطَّر فى الصحف . وتفوق ببهجتها الروضَ الأُنُف .

وبعـدُ فلمـا كانت الكتابة من أشرف الصنائع وأرفعها . وأربح البضائع وأنفعها . وأفضل المـآثر وأعْلاها . وآثرِ الفضائل وأغلاها . لاسيما كتابة الإنشـاء التى هى منها بمنزلة سلطانها . وإنسان عينها بل عين إنسانهـا . لا تلتفِت الملوكُ إلا إليها . ولا تعوِّل فى المهمات إلا عليها . يعظِّمون أصحابها ويقرِّبون كُتَّابها . فخليفها أبدا خليق بالتقديم . جدير بالتبجيل والتكريم .

تَسُحُّ مَجَانيهـا إذا ما جَنىٰ الظَّمَا * وتُرْوِى مَجارِيها إذا بَخِل القَطْر

وكانت الديار المصريه . والمملكة اليوسفيه . أعز الله تعالى حماها ! . وضاعف عُلَاها ! قد تعلقتْ من الثريَّا بأقراطها . ورجحت سائرَ الأقاليم بقيراطها . بشَّر بفتحها الصادقُ الأمين، فكانت أعظم بُشرىٰ . وأخبر سيد المرسلين أن لأهلها نسبا وصهرا . فتوجهت إليهـا عزائم الصحابة زمَنَ الفاروقِ فجاسُوا خِلالَ الديار وَعْرها وسهلها . وآقتطعتها أيدى المسلمين من الكفار ﴿وكانوا أحقَّ بِهَا وأهْلَها﴾ .

ثم لم يزل يعلو قدرها . ويسمو ذكرها . إلىٰ أن صارت دار الخلافة العباسيه . وقرار المملكة الإسـلاميه . ونَخَرتْ مملكتها بخـدمة الحرَمَيْن . وخدمها سائرُ الملوك والأمم لحيازة القِبْلتيْن .

تَنَاهَتْ عَلاءً والشَّـبَابُ رداؤُها * فما ظَنُّكُمْ بالفَضْلِ والرَّأْسُ أَشْيَبُ؟

وحَظِيتْ من فُضلاء الكُتَّاب بمـا لم تَحْظَ مملَكةٌ من الممـالك، ولا مصر من الأمصار . وحَوَتْ من أهل الفضل والأدب مالم يَحْوِقُطْر من الأقطار . فما بَرِحتْ متوَّجةً بأهل الأدب فى الحـديث والقديم . مطرّزةً من فضلاء الكُتَّاب بكل مكينٍ أمينٍ، وحفيظ عليم .

نُجُومُ سَمـاءٍ كُلَّما غابَ كَوْكَبٌ * بَدَا كَوْكَبٌ تأْوِى إليه كَوَاكِبُهْ

هـذا . والمؤلفون فى هذه الصنعة قد ٱختلفتْ مقاصدهم فى التصنيف . وتباينتْ مواردُهم فى الجمع والتأليف . ففِرْقة أخذتْ فى بيان أُصول الصنعة وذكر شواهِدِها . وأُخرىٰ جنحَتْ إلىٰ ذكر المصطلَحات وبيانِ مقاصدها . وطائفة ٱهتمّت بتدوين الرسائل ليُقْتبَسَ من معانيهـا ويُتَمَسَّك بأذيالها . وتكونَ أُنْموذَجا لمن بعـدهم يسلك سبيلها، مَن أراد أن يَنْسِجَ علىٰ مِنْوالهـا . ولم يكن فيها تصنيف، جامعٌ لمقاصدها . ولا تأليف، كافلٌ بمصادرها الجليلة ومَواردها . بل أكثرُ الكتب المصنَّفة فى بابها . والتآليفِ الدائرة بين أربابها . لايخرُجُ عن علم البلاغة المرجوع فيها إليه . أو الألفاظ الرائقة ممـا وقع ٱختيار الكُتّاب عليه . أو طَرَف من ٱصـطلاح قد رُفِض . وتغير أُنموذَجُه ونُقِض . فلا يغنِي النظر فيه المقلِّدَ من كُتّاب الزمان . ولا يكتفِي به القاصرُ فى أوانٍ بعد أوانٍ . علىٰ أن معرفة المصطلَح هى اللازم المحتَّم . والمهمُّ المقدّم . لعموم الحاجة إليه . وٱقتصار القاصر عليه .

إنّ الصَّنيعةَ لا تَكُونُ صَنِيعةً * حتّىٰ يُصَابَ بها طريقُ المَصْنع

وكان الدُّسْـتُور الموسومُ "بالتعريف . بالمصطلح الشريف" . صنعة الفاضـل الألمعىّ . والمِصْقَع اللوذعىّ . مَلِك الكتابة وإمامِها . وسلطانِ البلاغة ومالك زمامِها . المقرّ الشهابىّ "أحمد بن فضل الله العدوىّ العمرىّ" سقىٰ الله تعالىٰ عهده العِهاد ! . وألبسه سوابغ الرحمة والرِّضوان يوم المَعَاد ! . هو أنفَس الكتبِ المصنَّفة فى هذا الباب عِقْدا . وأعدلُها طريقا وأعذبُها وِرْدا . قد أحاط من المحاسن بجوانبها . وأُعْقِمت الأفكارُ عن مثله ففاز من الصنعة بأحمدِ مذاهِبها . فكان حقيقا بقوله فى خطبته :

"يا طالِبَ الإنْشاءِ خُذْ عِلمَه * عَنِّى فعِلْمى غير مَنْكُورِ !"

"ولا تَقِفْ فى بابِ غَيْرِى فما * تَدْخُـلُه (إلا بدُسْتُورِى)"

إلا أنه قد أهمـل من مقاصد المصطلح أمورا لا يسُوغ تركُها . ولا ينجبر بالفِدْية لدىٰ الفوات نُسُكُها . كالبطائق، والملطفات، والمطلقات . المكبرة فى جملة كثيرة من المكاتبات . فلم يقع الغِنىٰ به عما سواه . ولا الاكتفاءُ بالنظر فيه عما عَداه .

ثم تلاه المقرّ التقوى ٱبن ناظر الجيش (رحمه الله!) بوضع دُستوره المسمّٰى "بتثقيف التعريف" مقتفيا أثره فى الوضع، وجاريا علىٰ سَنَنه فى التأليف . مع إيراد ما أهمله فى تعريفه . وذِكْرِ ما فاته من مصطلَح مايُكتَب أو حدَثَ بعد تأليفه . فاشتهر ذكره وعز وُجوده . ووقع الضنُّ به حتّٰى بَخِل بإعارته مَن عُرِف كرمُه وَجُوده . وكان مع ذلك قد ترك مما تضمنه التعريف مقاصدَ لا غنىٰ بالكاتب عنها . ولا بُدّ للتلبس بهذه الصناعة منها . كالوصايا والأوصاف، التى هى عمدة الكاتب . ومراكز البَرِيد وأبراج الحَمَام، وغير ذلك من متمات الواجب، ومالا يتم الواجب إلا به فهو واجب . فصار كلٌّ من الدُّستورَيْن منفردًا عن الآخَر بقدر زائد . ولم تقع الغُنْية بأحدهما عن الآخر، وإن كانا فى معنًى واحد .

وكيفما كان فالاقتصار علىٰ معرفة المصطلح قُصور . والإضراب عن تعرُّف أصول الصنعةِ ضَعْف همَّةٍ وفُتُور . والمقلِّد لايوصف بالاجتهاد . وشتَّانَ بين مَن يعرِف الحكم عن دليل ومن جمد على التقليد مع جَزْم الاعتقاد .

وَلَمْ أرَ فى عُيُوبِ الناسِ شَيْئًا * كنَقْصِ القادرينَ على التَّمـامِ

وقد ثبت فى العُقول أن البناء لايقوم علىٰ غير أساس . والفرعَ لاينبُت إلا علىٰ أصل، والثمَرَ لا يُجتنىٰ من غير غِرَاس .

وكنت فى حدود سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة عند ٱستقرارى فى كتابة الإنشاء بالأبواب الشريفة السلطانية، عظم الله تعالى شأنها! . ورفع قدرها! وأعز سلطانها!

أنشأت مقامة بنيتها على أنه لابدّ للإنسان من حرفة يتعلق بها . ومعيشة يتمسَّك بسببها . وأن الكتابة هى الصناعة التى لايليق بطالب العلم من المكاسب سواها . ولا يجوز له العُدُول عنها إلى ماعداها . وجنَحت فيها إلى تفضيل كتابة الإنشاء وترجيحها . وتقديمها على كتابة الأموال وترشيحها . ونبَّهت فيها على ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من المواد . وما ينبغى أن يسلُكه من الجَوادّ . وضمنتها من أصول الصنعة ما أرْبَتْ به على المطوّلات وزادت . وأوْدعتُها من قوانين الكتابة ما آستولَتْ به على جميع مقاصدها أو كادَتْ . وأشرت فيها إلى وجه تعلُّقِى بحبال هذه الصنعة وإن لم أكن بمطلوبها مَلِيّاً (١) . وآنتسابى إلى أهلها وإن كنت فى النسبة إليها دَعِيًّا .

وليس دَعِىُّ القومِ فى القَوْمِ كالَّذى * حَوى نَسَباً فى الأكْرَمينَ عَرِيقا

إلا أنها قد وقعَتْ موقِعَ الوَحْى والإشاره . ومالتْ إلى الإيجاز فاكتفَتْ بالتلويح عن واسع العباره . فعزّ بذلك مطلَبُها . وفات على المجتنِى ببُعد التناوُل أطيَبُها . فأشار مَنْ رأيه مقرون بالصواب . ومَشُورته عرِيَّة عن الآرتياب . أن أُتْبِعها بمصنَّف مبسوط يشتمل على أصولها وقواعدها . ويتكفَّل بحلّ رموزها وذِكْر شواهِدها . ليكون كالشرح عليها . والبيان لما أجملته والتَّتمةِ لما لم يَسُقْه الفكر إليها . فامتثلت أمره بالسمع والطاعه . ولم أتلكَّأ وإن لم أكن من أهل هذه الصناعه . غير أن القريحة بذلك لم تسمَحْ . وصار المقتضِى يضعُف والمانعُ يترجَّح . لأعذار قد تشابه مُحْكَمُها . وضرورات ، إن لم يعلمها الخلق فالله يعلمُها . إلى أنْ لاحتْ لى بوارقُ الفتح . وظهرت ولله الحمدُ آثار المَنْح . فعند ذلك بلغتْ النفس أملَها . وأضْفَتْ مواهبُ الآمتنان حُلَلَها . وتلا لسانُ العناية على الغبى الحاسد ﴿مايَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لهَا﴾ .

(١) أى موسرا .

فشرعت فى ذلك بعد أن آستخرت الله تعالىٰ (وما خَابَ مَنِ استَخَار) . وراجعت أهل المَشُورة (وما نَدِمَ مَنِ اسْتَشار) . مستوعبا من المصطلَح ما آشتمل عليه "التعريف" و"التثقيف". موضحا لما أبهماه بتبيين الأمثلة مع قُرْب المأخَذ وحُسْن التأليف . متبرعا بأمور زائدة على المصطلح الشريف لايسَع الكاتبَ جهلُها . مُتَنَقِّلًا من توجيه المقاصد، وتبيين الشواهد، بما يُعرَف به فرعُ كل قضية وأصلُها . آتيًا من مَعَالم الكتابة بكل معنًى غريب . ناقلًا الناظرَ فى هذا المصنَّف عن رتبة أن يَسألَ فلا يجاب إلىٰ رُتبة أن يُسئَلَ فيجيب . منبِّها علىٰ مايحتاج إليه الكاتب من الفنون، التى يخرج بمعرفتها عن عُهدة الكتابة ودَرَكها(1) . ذاكرًا من أحوال الممالك المكاتَبة عن هذه المملكة مايُعرف به قدرُ كل مملكة ومَلِكها . مبينًا جهةَ قاعدتها، التى هى محل الملك شرقا أو غربا، أو جنوبا أو شمالا . معرّفا الطريقَ الموصل إليها، برا وبحرا، وآنقطاعا وآتصالا . ذاكرا مع كل قاعدة مشاهيرَ بُلْدانها، إكمالًا للتعريف . ضابطا لأسمائها بالحروف كى لايدخُلَها التبديل والتحريف .

وسمّيته (صبح الأعشىٰ فى كتابة الإنشا) راجيا من الله تعالىٰ أن يكون بالمقصود وافيا . وللغليل شافيا .

ولْيعذرِ الواقف عليه، فنتائج الأفكار على آختلاف القرائح لاتتناهىٰ . وإنما ينفق كل أحد علىٰ قدر سعته ﴿لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا ألّا ما آتَاهَا﴾ . ورحم الله من وقف فيه علىٰ سهو أو خطإ فأصلحه عاذرا لا عاذلا . ومُنيلا لا نائلا . فليس المبرَّأ من الخطَل إلا من وقىٰ اللهُ وعصَم . وقد قيل: الكتّاب كالمكلف لايسلم من المؤاخذة ولا يرتفع عنه القلم، والله تعالى يقرنُه بالتوفيق! . ويُرشِد فيه إلىٰ أوضح طريق! . ﴿وما تَوْفِيقِي إلّا باللهِ عَلَيْهِ تَوكَّلْتُ وإليه أُنِيبُ﴾ .

وقد رتّبتُه علىٰ مقدّمة، وعشر مقالات، وخاتمة .

(1) الدَّرَك ويسكن التبعة .

المقـــدّمة

في مبادٍ يجب تقديمها قبل الخوض فى كتابة الإنشاء ؛ وفيها خمسة أبواب

البـاب الأوّل

فى فضل الكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذمّ حَمْقاهم؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأول — فى فضل الكتابة .

الفصـــل الثانى — فى مدح فضلاء الكُتَّاب وذمّ حَمْقَاهم .

البـاب الثـانى

فى ذكر مدلول الكتابة لغةً وٱصطلاحًا، وبيان معنىٰ الإنشاء، وإضافة الكتابة إليه، ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسل، وتفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائرأنواع الكتابة، وترجيح النثر على الشعر . وفيه ثلاثة فصول .

الفصـــل الأول — فى ذكرمدلولها، وبيان معنىٰ الإنشاء وإضافتها إليه . ومرادَفة التوقيع لكتابة الإنشاء فى عرف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسُّل .

الفصـــل الثانى — فى تفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائرأنواع الكتابة .

الفصـــل الثالث — فى ترجيح النثر على الشعر .

البـاب الثـالث

فى صفات الكُتَّاب وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأول — فى صفاتهم الواجبة والعرفية .

الفصـــل الثانى — فى آدابهـــم .

البـاب الرابع

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء وأصل وضعه فى الإسلام

وتفرّقه بعد ذلك فى الممـالك ؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى التعريف بحقيقته .

الفصـــل الثانى — فى أصل وضعه فى الإسلام وتفرقه بعد ذلك فى الممـالك بالديار المصرية وغيرها .

البـاب الخـامس

فى قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله ، وآداب أهله ؛ وفيه أربعة فصول

الفصـــل الأوّل — فى بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله ولقبه الجارى عليه فى القديم والحديث .

الفصـــل الثانى — فى صفة صاحب هذا الديوان وآدابه .

الفصـــل الثالث — فيما يتصرف فيه متولى هذا الديوان ويدبره ويصرفه بقلمه .

الفصـــل الرابع — فى ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وما يلزم رب كل وظيفة منهم، وما كان عليه الأمر فى الزمن القديم ، وما آستقرّ عليه الحال بعد ذلك .

المقـالة الأولى

فيما يحتاج اليه الكاتب، وفيها بابان

البـاب الأوّل

فى الأمور العلميـــة ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصـــل الأوّل — فيما يحتاج اليه الكاتب فى الجملة .

الفصـــل الثانى — فيما يحتاج الكاتب إلىٰ معرفته من موادّ الإنشـاء ، من معرفة اللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع ، وحفظ كتاب الله تعالىٰ ، والكثير من الأحاديث النبوية ، وخطب البلغاء ورسائلهم ومكاتباتهم ومحاوراتهم ومراوضاتهم ، (وأشعار العرب) والمولدين والمحدّثين ، (وأمثال العرب) ومن جرى مجراهم ؛ والمعرفة بالتاريخ (وأنساب العرب) ، ومفاخراتهم ، ومنافراتهم ، وحروبهم ، وأوابدهم فى الجاهلية ، وأحوال الأمم والأحكام السلطانيـة ، وأصـناف العلوم ، ومَن بَرَع فى كل علم منها ، والكتب الفائقة فى كل فنّ من فنونها وما يجرى مجرىٰ ذلك ؛ والمعرفة بصنعة الكلام وكيفية إنشائه ونظمه ، وتأليفه ، وترصيفه ، وما يحمد من ذلك وما يذم .

الفصـــل الثالث — فى معرفة الأزمنة والأوقات : من الأيام والشهور والسـنين على اختلاف الأمم فيها وتفاصـيل أجزائهـا ، وما ينخرط فى سلك ذلك من الفصول الأربعة وأعياد الأمم .

البـاب الثـانى

فيما يحتاج اليه الكاتب من الأمور العَمَلية ، من الخط وتوابعه ولواحقه ؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأول — فى ذكر آلات الخط من الدُّوِىّ وما تُتَّخذ منه ومقاديرِها وكيفياتها ، ومعرفة أصـناف الأقلام وصنعة بِرَايتها : فتحا ونحتا وشقًّا وقطًّا ؛ ومقادير أطوالهـا وعدد ما يكون فى الدواة منها ، وكيفية عمل الحبر ، وحلّ الذهب ، وإذابة اللازورد والمَغَرة العراقية ، وغير ذلك ممـا يُحتاج إليه فى كتابة الديوان .

الفصـــل الثانى — فى الكلام علىٰ نفس الخط وأصل وضعه وآختلاف الأمم فيه ، وما يختص من ذلك بالخط العربىّ من تنويع أقلامه التى أحدثها أئمة الكتابة وتباين

أشكالها وٱختلاف أوضاعها، وما يستعمل منها فى ديوان الإنشاء، وما يلتحق بذلك من النَّقْط والشكل والهجاء .

المقـالة الثانيـــة

فى المسالك والممـالك، وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

فى ذكر الأرض علىٰ سبيل الإجمال، وفيه ثلاثة فصول

الفصـــل الأوّل ـــ فى معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها ، وبيان جهاتها الأربع، وما ٱشتملت عليه من الأقاليم السبعة الطبيعية، وبيان موقع الأقاليم العرفيـة كمصر والشام من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعة لها .

الفصـــل الثانى ـــ فى ذكر البحار التى يتكرر ذكرها بذكر البُلْدان فى التعريف بها والسفر إليها من البحر المحيط والبحار المنبثَّة فى أقطار الأرض ونواحى الممـالك ممـا هو متصل به ومنقطع عنه وما بها من الجزائر المشهورة .

الفصـــل الثالث ـــ فى ٱستخراج جهات البُلْدان والأبعاد الواقعة بينها .

البـاب الثـانى

فى ذكر الخلافة ومَنْ وليها من الخلفاء ومقرّاتهم فى القديم وما ٱنطوت عليه ممـالكهم من الأقطار، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل ـــ فى ذكر الخـلافة ومَنْ وليها من الخلفاء الراشدين من الصحابة (رضوان الله عليهم)، وخلفاء بنى أمية بالشام، وخلفاء بنى العباس بالعراق، ثم بالديار

المصرية، وخلفاء الفاطميين بمصر، وخلفاء بنى أمية بالأنْدُلُس، والمدّعين الخلافةَ من بقايا الموحدين بأفريقية .

الفصـــل الثانى — فيما ٱنطوت عليه الخلافة العباسـية فى الزمن القديم وما كانت عليه من الترتيب وما هى عليه الآن .

البـاب الثـالث

فى ذكر الديار المصرية ومضافاتها من البلاد الشامية وما يتصل بها ؛

وفيـــه ثلاثة فصول

الفصـــل الأول — فى الديار المصرية وذكر فضائلها ومحاسنها ، وخواصّها وعجائبها وما بها من الآثار القديمة ، وذكر نيلها ومبدئه ونهايته ، وزيادته ونقصه ، ومقاييسه، وما ينتهى اليه فى الزيادة وما يصـل اليه فى النقص ، والخلجان المتفرّعة عنه، وجسورها الحابسة لميـاه النيل علىٰ أرضها، وبحيرات الديار المصرية؛ وجبالها وزروعها ورياحينها وفواكهها، ومواشـيها ووحوشها وطيورها ؛ وذكر حدودها وٱبتداء عمارتها وتسميتها مصر، وتفرّع الأقاليم التى حولها عنها؛ وذكر أعمالها وقواعدها القديمة، والمبانى العظيمة الباقية علىٰ ممر الأزمان، وقواعدها المستقرّة وما ٱشتملت عليه من محاسن الأبنية؛ وذكر مَنْ ملكها جاهليةً وإسلاما قبل الطُّوفان وبعده ؛ وترتيب أحوالها ؛ وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب مملكتها فى القديم والحديث ؛ وبيـان وظائف دُوَلها القديمة والمستقرّة لأرباب السيوف والأقلام .

الفصـــل الثانى — فى البلاد الشاميــة وما يتصل بهــا من بلاد الجزيرة الفراتيــة وبلاد الثغور والعواصم المعبر عنها الآن ـ ببلاد الأرمن ـ وبلاد الدربندات المعروفة الآن ـ ببلاد الروم ـ مما هو مضاف الىٰ مملكة الديار المصرية، وفضل الشام وخواصه

وعجائبـه وحدوده وٱبتـداء عمارته وتسميته شاما ، وذكر أنهاره وبحـيراته وجباله المشهورة ، وذكر زروعه وفواكهه ومواشـيه ووحوشه وطيوره ، وذكر أعمـاله وجهاته وأجناده وكُوَره القديمة والمسـتقرّة وقواعده العظام وما كانت عليه فى الزمن السابق ومَنْ ملكها جاهليةً وإسلاما وما ٱسـتقرّت عليه الآن من النيابات، وترتيب أحوالهـا ، وذكر معاملاتها ونقودها ، وترتيب نياباتهـا وما بها من وظائف أرباب السيوف والأقلام وما ٱشتملت عليه من العُرْبان(١) .

الفصـــل الثالث — فى البلاد الحجازية وما ينخرط فى سلكها ، وذكر فضل الحجاز وخواصّـه وعجائبه وٱبتـداء عمارته وتسميته حجازا، وذكر مياهه وعيونه وجبـاله المشهورة وزروعه وفواكـهه ورياحينه ومواشيه ووحوشـه وقواعده وأعمـاله ونواحيه ومعاملاته ونقوده وملوكه جاهلية وإسلاما .

البـاب الرابع

فى الممـالك والبُلْدان المحيطة بمملكة الديار المصرية من الجهات الأربع والطرق الموصلة اليها، وفيه أربعة فصول

الفصـــل الأوّل — فى الممـالك والبُلْدان الشرقية عن الديار المصرية، وما سامَتَ ذلك ووالاه من الجهة الجنوبية والجهة الشمالية، وما ٱشتملتْ عليه هذه الجهة من مملكة إيران التى هى مملكة الفُرْس قديما، وما ٱنطوت عليه من بلاد الجزيرة الفراتية وبلاد العراق وبلاد خُوزِسْتانَ وبلاد الأهواز وبلاد فارس وبلاد كَرْمانَ وبلاد سِجِسْتان وبلاد أَرمينية وأَذْرَبِيجان وبلاد الجبـال المعبَّر عنها بعراق العجم وبلاد الدَّيْلم وبلاد الجيل المعبر عنها بكِيلان وبلاد مازندران وبلاد قومس وبلاد زابلستان وبلاد الغَوْر

(١) اشتهر هذا الجمع على الألسنة ولم نعثر عليه فى معاجم اللغة التى بأيدينا وان كان القياس لا يأباه .

وغيرها، ومملكة تُوران المعروفة بمملكة الترك قديما، وما آشتملت عليه من قسم ماوراء النهر من بخارىٰ وسَمَرْقند ومضافاتهما و بلاد تركستان وما مع ذلك ، وقسم خوارزم ودشت القبجاق المشتمل علىٰ خوارزم والدشت وأعمال السراى و بلاد القرم و بلاد الأزق وما ينضم إلىٰ ذلك من بلاد السرب والبلغار و بلاد الأولاق و بلاد الآص و بلاد الروس وغيرها، وقسم مابِيَدِ صاحب التخت المعبر عنه (بالقان الكبير) المشتمل علىٰ بلاد الخطا و بلاد الصين، وما آتصل بهاتين المملكتين مما يلى الجنوب من بلاد البحرين ومملكة اليمن وما منها بيد أولاد رسول وما منها بيد إمام الزيدية، وممالك الهند المتصلة ببلاد الصين والواقعة فى جزائر البحر الهندى" .

الفصل الثانى — فى الممالك والبُلْدان الغربية عن مملكة الديار المصرية، من مملكة تونس المشتملة علىٰ بلاد أفريقية، ومملكة تِلِمْسان المشتملة علىٰ بلاد الغرب الأوسط، ومملكة فاس المشتملة علىٰ بلاد الغرب الأقصىٰ إلى البحر المحيط وما إلىٰ ذلك من ممالك جزيرة الأندلس وما بقى منها بيد المسلمين وما آستعاده منها ملوك الكفر.

الفصل الثالث — فى الممالك والبُلْدان الجنوبية عن مملكة الديار المصرية وما آشتملت عليه من بلاد السُّودان من مملكة البرنو ومملكة الكانم ومملكة مالى ومملكة الحبشة، و بيان ما من ذلك بيد ملوك المسلمين وما منه بيد ملوك الكفر .

الفصل الرابع — فى الممالك والبُلْدان الشمالية عن مملكة الديار المصرية مما بيد المسلمين من البلاد المعروفة الآن ببلاد الروم وما بيد ملوك النصارىٰ من جزائر بحر الروم كجزيرة قبرس وجزيرة رودس وجزيرة أَقْرِيطِش وجزيرة المصطكى وجزيرة صِقِلِّيَّة وغيرها وما إلىٰ ذلك مما شمالى بحر الروم من مملكة القسطنطينية ومملكة البندقية ومملكة جنوه ومملكة رومية ومملكة فرنسة وغير ذلك .

المقـالة الثالثـــة

فى ذكر أمور تشترك فيهـا أنواع المكاتَبَات والوِلَايات وغيرهمـا من ذكر الأسماء والكُنىٰ والألقاب، وكيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعاتِ ونحوها علىٰ كُتَّاب الإنشاء، ومقادير قِطَع الورق وما يناسب كلَّ مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض فى أوّل الدَّرْج وحاشيته وبُعد ما بين السطور فى الكتابات، وبيان المستندات التى يصدر عنها ما يكتب من ديوان الإنشاء من المكاتبات والولايات وغيرها، وكتابة الملخَّصات، وبيان الفواتح والخواتم؛ وفيها أربعة أبواب .

البـاب الأوّل

فى الأسماء والكُنىٰ والألقاب؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى الأسماء والكُنىٰ ومواضع ذكرهما فى المُكاتبات والولايات وما يجرى مَجْراهما .

الفصـــل الثانى — فى ذكر الألقاب وأصْـل وضعها وما ٱستعمله الـكُتَّاب منهـا وما كان يلقَّب به أهلُ كل دولة وما حدث من الزيادة بعـد ذلك حتّٰى صار الأمر إلىٰ ما عليه الحال فى زماننا، والألقاب التى ٱصطُلِح عليها لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم وما وُضع منها لأهل الكفر، وبيان معنىٰ كل لقب فى اللغة ومَن يقع عليـه فى الٱصطلاح، وكيفية ترتيب بعضها علىٰ بعض .

البـاب الثـانى

فى بيان مقادير قِطَع الورق وما يناسب كلَّ مقدار منها من الأقلام، ومقادير البياض الذى يراعيه الكاتب فى كتابته؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى مقادير قِطَع الورق المستعملة بدواوين الإنشاء فى القديم والحديث

الفصل الثانى — فى بيان ما يناسب كل مقدار من مقادير قِطَع الورق المتقدّمة الذكر من الأقلام ، ومقادير البياض الذى يراعيه الكاتب فى أعلى الدَّرْج وحاشيته وبُعْد ما بين السطور فى الكتابة .

الباب الثالث

فى بيان المستندات وكتابة الملخصات ، وكيفية التعيين ، ومقادير قِطَع الورق وما يناسبها من الأقلام ، وفيه فصلان

الفصل الأول — فى بيان المستندات التى يصدر عنها كتابة ما يكتب من تلق كاتب السر الأمر فى ذلك عن السلطان أو تلقيه وتلق كتّاب الدست بدار العدل ، أو شمول القصة بالخط الشريف ، أو كونه برسالة الدوادار أو بإشارة النائب الكافل أو إشارة أستاذ الدار أو إشارة الوزير أو بقائمة من ديوان الخاص وغيره ، وكتابة الملخَّصات التى تكتب من الكتب المطوّلات الواردة على الديوان ، وترجمة الكتب الواردة بغير العربية إلى العربية .

الفصل الثانى — فى بيان كيفية تعيين صاحب ديوان الإنشاء القصص والمربعات وما فى معناها ، وبيان مقادير قطع الورق المستعمل فى دواوين الإنشاء من الكامل والثلثين والنصف والثلث والعادة وما يناسب كل مقدار منها من مختصر الطومار وثقيل الثلث وخفيفه والتوقيعات والرقاع ومقادير البياض المرعيَّة فى الكتابة فى أعلى الدَّرْج وحاشيته وبُعْد ما بين السطور .

البـاب الرابع

فى الفواتح والخواتم واللواحق ؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأول — فى الفواتح من البسـملة والحمدلة والتصلية والسـلام فى أوّل الكتب والبعديّة التى يقع بها فصل الكلام، وبيان أصول ذلك وأصل مشروعيته .

الفصـــل الثانى — فى الخواتم واللواحق من كتابة إن شـاء الله فى آخر المكتوب وكتابة التـاريخ ومعرفة معنـاه ومعرفة التواريخ القـديمة وأصـل وضع التـاريخ فى الإسلام والتاريخ بالهجرة والوقت الذى يؤرّخ فيه؛ وبيان بناء التاريخ العربىّ على الليالى دونَ الأيام، وآختلاف مذاهب النحاة والكتّاب فى التعبير عن ذلك، وبناء تاريخ العجم على الأيام دون الليـالى، ومعرفة آستخراج كل تاريخ من تواريخ الأمم من الآخر، وكتابة المستند والحَمْدلة فى آخر الكتب والتصلية على النبي صلى الله عليه وسلم بعدها، والآختتام بالحَسْبَلة، وبيان مواضع ذلك جميعه من الورق وكيفية وضعه .

المقـالة الرابعة

فى المكاتبـات؛ وفيها بابان

البـاب الأوّل

فى أمور كلية : تتعلق بالمكاتبات؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى مقدّمات المكاتبات من أصـول يعتمدها الكاتب فيهـا من حسن الآفتتاح وبراعة الآستهلال وتقديم مقدّمة تناسب المكتوب فيـه فى أوّل المكاتبة، ومعرفة الفرق بين الألفاظ الجارية فى الخطاب ونحوه فى المكاتبات وما يناسب المكتوب إليه منها، ومواقع الدعاء فيها، والإتيـان لكل مَقْصَد من مقاصد المكاتبات بما يناسبه، ومخاطبة كل أحد من المكتوب اليهم علىٰ قدر طبقته

من اللغة العربية، ومراعاة الفصاحة والبلاغة فى الكتابة إلىٰ مَنْ يتعاناها ، ومراعاة رتبة المكتوب عنه والمكتوب إليه، ومواقع الشعر من المكاتبات وحسن الآختتام وما يجرى مَجْرىٰ ذلك، وبيان مقادير المُكاتبَات وما يناسبها من البَسْط والإيجاز وما يلائمها من المعانى، ومعرفة ما يختص من ذلك بالأجوبة وبيان ترتيبها .

الفصـــل الثانى — فى بيـان أصول المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ومَذَاهب الكُتَّاب فيما تُفْتَتَح به المكاتبَات فى القديم والحديث، وما يخاطب به أهل الإسلام وأهل الكفر فى المكاتبات، وبيان كيفية طىّ الكتاب وختمه وحمله وتأديته وفضه وقراءته وحفظه فى الإضْبارَة .

البـاب الثـانى

فى مُصْطَلَح المكاتبات الدائرة بين كُتَّاب الإسلام فى كل زمن من الصدر الأوّل وإلىٰ زماننا، وفيه ثمانية فصول

الفصـــل الأوّل — فى الكُتُب الصادرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ أهل الإسلام وملوك الكفر، وآختلاف آفتتاحها بحسب المقاصد .

الفصـــل الثانى — فى الكتب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم، وخلفاء بنى أمية، وخلفاء بنى العبَّاس، وخلفاء الفاطميين، وخلفاء بنى أمية بالأندلس وبقايا الموحدين بأفريقية : آبتداء وجوابا .

الفصـــل الثالث — فى الكتب الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم ممـا كُتِب به إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والخُلَفاء الراشدين من الصحابة رضوان الله عليهم ، وخلفاء بنى أميـة، وخلفاء بنى العباس، وخلفاء الفاطميِّين بالديار المصرية، وخلفاء

بنى أمية بالأندلس، وبقايا الموحدين بأفريقية؛ وما كتب به عن الملوك ومَنْ فى معناهم إلى الملوك ومَنْ فى معناهم من المكاتبات الدائرة بين مُلُوك الديار المصرية ومُلُوك الشرق والغرب ، ووُزَراء الخلفاء ومُنَفِّذِى أمرِ الخلافة اللاحقين بشَأْو الملوك، وما يَلْتحق بذلك من المكاتبات الصادرة إلىٰ ملوك الكفر وآختلاف الآفتتاح فى ذلك .

الفصـــل الرابع — فى الكُتُب الصادرة عن ملوك الديار المِصْريَّة علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ من آبتداء الدولة التُّركيَّة وإلىٰ زماننا علىٰ رأس الثمانمائة مما أكْثَرُه مأخوذ من ترتيب الدولة الأيُّوبية، التى هى أصل الدولة التركية مما هو صادر عنهم إلىٰ خلفاء بنى العباس، وإلى أهـل المملكة بمصر والشام والحجاز، وإلىٰ عظماء القانات بممالك الشرق كقان مملكة إيران الجامع لحدودها علىٰ ما كان الأمر عليـه إلىٰ آخر أيام أبى سعيد ثم مَنْ بعده ممن يبلغ شَأْوَه من القانات الصِّغار كالشيخ واويس ومَنْ تلاه إلىٰ زماننا، ومَنْ بهذه المملكة من صـغار الملوك والحُكَّام، وقانات مملكة تُوران من صاحب ما وراءَ النهـر من بخارىٰ وسَمَرْقند وما معهما، وصاحب خُوارِزْم والدَّشْت والقانِ الكبير صاحب التخت، وصاحب الهند، وصاحب اليمن وإمام الزيديَّة بها . وملوك بلاد المغرب كصاحب تُونُس، وصاحب تِلِمْسان، وصاحب فاس، وصاحب غَرْناطةَ من الأندُلس ، وملوك بلاد السُّودان كملك البرنو وملك الكانم ، وصاحب مالى ، وملوك الأتراك بالبلاد المعروفة ببلاد الرُّوم من الجهة الشمالية، وملوك الكفر كملك الحبشة من البلاد الجَنُوبية وملك القُسْطنطِينِيَّة وسائر ملوك الفرنج وحُكَّامهم بجزائر الروم وغيرها ممن تقدّم ذكره فى الكلام على المسالك والممالك .

الفصـــل الخامس — فى الكتب الواردة على الأبواب السلطانية بالديار المِصْرية من ملوك الممالك المتقدّمة الذكر وحُكَّامها من أهل الإسلام والكُفْر ممن تَرِدُ مكاتبته علىٰ هذه المملكة .

الفصــــل السادس — فى المكاتبات الإخوانيَّات ممـا كان عليه مُصطَلَح السلف فمَنْ بعدهم فى كل زمن وما آستقرّ عليه الحال فى زماننا .

الفصــــل السابع — فى مقاصد المكاتَبَات من الأمور الخاصة بالملوك والخُلَفاء . كالكتب بالبِشَارة بولاية الخِلاَفة، والجلوس علىٰ تَخْت السلطنة، والدَّعاية إلى الدِّين، والحثّ على الجِهاد، والإخبار عن الفتوحات، والأمر بلزوم الطاعة، والتنبيه علىٰ مَوَاسم العبادة، والمَوَاعِظ عند حدوث الآيات السماوِية، والأوامر والنواهى، والنَّهْى عن التنازع فى الدين، والكتب إلىٰ مَنْ نكث العهد أو خلَع الطاعة، والتضييق علىٰ أهل الجرائم، والبِشارة بالمواسم، والأعياد، ووفاء النيل، وركوب الميادين، والعَوْد من الغزو، والكتب بالتلقيب علىٰ ما كان الأمر عليه فى الزمن المتقـدّم، و بالإحماد والإذمام، والكتب قريـن الإنعام السلطانى من الخيل والجوارح، وسائر أصناف الإنعام، والاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ونحوها، والأجوبة عن ذلك، وما يشترك فيه الملوك ومَنْ عَدَاهم من التهانى كالتهنئة بالوظائف، وتكرمة السـلطان، وتجدّد الأولاد، والمساكن، والعَوْد من الحج، والقُدُوم من السفر، والإبْلال من المرض، ورضا السلطان وغُرّة السـنة، وشهر رمضان، وعيد الفطر، وعيد الأضحى، والنَّيْروز، والمهرجان، والدخول فى دين الإسلام، والصَّرْف عن الخدمة فى سلامة؛ ومن التعازى كالتعزية بالأب والأم والولد والقريب والصـديق، والتشوُّقات، والشَّفاعات، والتهادى، والآستزارة، وآستماحة الحوائج، وآختطاب المودّة، وخطْبة التزويج، والشـكر، والشكوىٰ، والآعتذار، والعتاب، والمداعبة، وغير ذلك .

الفصــــل الثامن — فى معرفة إخفاء مافى الكتب من السرّ إمّا بطريق المترجم، و إمّا بالكتابة بما يظهر بالمعالجة من عرضه على النار، أو جعل دواء عليه وما أشبه ذلك .

المقـالة الخـامسة

فى الولايات ؛ وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

فى بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصـــل الأوّل — فى بيـان طبقات الوِلايات وما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابتها ممـا يكتب فى وِلاية الخلافة والسـلطنة والوِلايات الصادرة عن الخلفاء والملوك ، وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية والشام والحجاز لأرباب السُّيُوف وأرباب الأقلام وأرباب الوظائف الدِّيوانيَّة والوظائف الدِّينِيَّة، وغير ذلك .

الفصـــل الثانى — فى بيـان ما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة الولايات علىٰ سبيل الإجمال .

الفصـــل الثالث — فى بيان ما يَقَع به التفاوُت فى رُتَب الولايات .

البـاب الثـانى

فى البَيْعات ؛ وفيـــه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى معنى البَيْعات .

الفصـــل الثانى — فى ذكر تنويع البيعات مما يكتب للخلفاء، وأصل مشروعيتها ؛ وبيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعيــة ، وما يجب علىٰ الكاتب مراعاته فى كتابة البَيْعة ؛ وبيان صورة ما يكتب فيها ، وآختلاف مذاهب الكُتَّاب فى ذلك ؛ وذكر نسخ من بَيْعات الخلفاء ممـا كان يُكتَب به فى الخلافة العبَّاسـية بالعراق ، وخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ، وخلفاء بنى أمية بالأَنْدَلُس وما يلتحق بذلك مما يكتب به لخُلَفاء بنى العباس الآن بالديار المصرية ، وما يكتب من البيعات للملوك علىٰ ما آصطلح عليه كُتَّاب بلاد الغرب والأندَلُس .

الباب الثالث

فى العهود، وفيه فصلان

الفصل الأول — فى معنى العهد .

الفصل الثانى — فى بيان أنواع العُهُود مما يكتب به للخلفاء عن الخلفاء، ومايكتب به للملوك عن الخلفاء، ومايكتب به عن الملوك لوُلَاة العهد بالسلطنة وللملوك المنفردين بصغار البُلْدان ، ومذاهب الكُتَّاب فى ذلك ، وذكر نُسَخ من ذلك جميعه مما كتب به ببلاد المشرق والمغرِب والديار المصرية .

الباب الرابع

فى الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب، من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم ؛ وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأول — فيما كان يُكتَب من ذلك عن الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ، وخلفاء بنى أمية بالشام ، وخلفاء بنى العباس بالعراق ، وخلفاء بنى أمية بالأندَلُس ، وخلفاء الفاطميين بمصر ، ومدّعين الخلافَة من بقايا الموحدين ببلاد المغرب ، ومذاهب كُتَّاب الدُّول فى ذلك .

الفصل الثانى — فيما يكتب من الولايات عن الملوك لأرباب السُّيُوف والأقلام وغيرهم من مصطلَح كُتَّاب المشرق بعد آنقراض الخلافة العباسية من العراق، ومصطلَح كُتَّاب المغرب والأندلس فى القديم والحديث، ومصطلَح كُتَّاب الديار المصرية فى الدولة الطُّولُونية وماوليها من الدولة الإخشيدية، والدولة الأيُّوبية وماوليها من الدولة التركية، وما آستقرّ عليه الحال فيها الىٰ زماننا، مما يكتب لأرباب السيوف

والأقلام وغيرهم عن الأبواب السلطانيــة بالديار المصرية من التقاليــد والتفاويض والمراسيم والتواقيع على آختلاف مرَاتبها .

الفصـــل الثالث — فيما يكتب عن نُوّاب السلطنة بالممالك الشاميّة لأرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، وذكر نسخ من ذلك .

المقـالة السادسة

في الوَصَايا الدينية، والمُسامحات، والإطلاقات، والطرخانيات، وتحويل السنين، والتذاكر، وذكر نسخ من ذلك؛ وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

في الوَصَايا الدينية؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما لقُدماء الكُتّاب من ذلك .

الفصـــل الثانى — فيما يكتب من ذلك، فى زماننا .

البـاب الثـانى

فى المسامحات، والإطلاقات؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فيما يكتب فى المسامحات .

الفصـــل الثانى — فيما يكتب فى الإطلاقات .

البـاب الثـالث

في الطرخانيات؛ وفيه فصـلان

الفصـل الأوّل — في طرخانيات أرباب السُّيوف .

الفصـل الثانى — في طرخانيات أرباب الأقلام .

البـاب الرابع

في تحويل السنين، وما يكتب في التوفيق بين السنين القمرية والشمسية، وما يكتب في التذاكر؛ وفيه فصلان

الفصـل الأوّل — في تحويل السنين والتوفيق بين السنين الشمسية والقمرية .

الفصـل الثانى — في التذاكـر .

المقـالة السـابعة

في الإقطاعات والمُقاطَعات، وذكر نُسَخ من ذلك؛ وفيها بابان

البـاب الأوّل

في ذكر مقدّمات الإقطاعات؛ وفيه فصلان

الفصـل الأوّل — في ذكر أمور تتعلق بالإقطاعات : من بيان معناها، وأصل وضعها في الشرع، وأوّل مَنْ وضع ديوان الجَيْش في الإسلام ، ومَنْ يستحق إثباتَه في الديوان، وكيفية ترتيبهم فيه .

الفصـل الثانى — في بيان حُكْم الإقطاع وآنقسامه إلىٰ إقطاع تمليك وآستِغْلال.

البـاب الثـانى

فيما يكتب فى الإقطاعات فى القديم والحديث؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل ـــ فى أصل ذلك فى الشرع، وبيان ماأقطعه النبيّ صلى الله عليه وسلم من البلاد والأرضين .

الفصـــل الثـانى ـــ فى صورة ماكان يكتب فى الإقطاعات فى الزمن القديم عن خُلَفاء بنى العبّاس بالعراق، وخُلَفاء الفاطميين بمصر، وعن الملوك القائمين على الخُلَفاء بالعراق، وملوك بنى أيُّوبَ بالديار المصرية، وما يكتب فى الإقطاعات فى زماننا مما استقرّ عليه الحال، ومايكتب فى ذلك من ديوان الجَيْش من المُربّعات وماهى مترتبة عليه، ومايكتب فى ذلك من ديوان الإنشاء من المَنَاشير، وبيان مراتبها؛ وذكر قطع الورق الذى يكتب فيه؛ ومايكتب فى طُرَر المناشير ومايلتحق بذلك من الطُّغْراوات المشتمِلة على الألقاب السلطانية التى كانت تُلصَق بأعلى المناشير بين الطُّرّة والبسملة؛ وما يختص من ذلك بالزيادات والتجديدات .

المقـالة الثـامنة

فى الأيمـان؛ وفيهـا بابان

البـاب الأوّل

فى أصول يتعين على الكاتب معرفتُها قبل الخوض فى الأيمـان؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل ـــ فيما يقع به القَسَم من الأقسام التى أقسم الله تعالىٰ بها، والأقسام التي يُقسِم بها الخلق من أقسام العرب فى الجاهلية، والأقسام الشرعية التي يحلف بها

الفصـــل الثانى — فى بيان اليمين الغَمُوس ولَغْو اليمين ، والتحذير من الحِنْث والوقوع فى اليمين الغَمُوس .

البـاب الثـانى

فى نسخ الأيمـان الملوكية، وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى نسخ الأيمـان المتعلقة بالخُلَفاء .

الفصـــل الثانى — فى الأيمـان المتعلقة بالملوك ممـا يحلف به المسلمون من أهل السُّنَّة وأرباب البِدَع وأهل الملل من اليهود والنصارىٰ، والمجوس وما يحلف به الحُكماء.

المقـالة التـاسعة

فى عقود الصُّلْح والفُسُوخ الواردة علىٰ ذلك، وفيه خمسة أبواب

البـاب الأوّل

فى الأمانات ، وفيـــه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى عقد الأمان لأهل الكفر .

الفصـــل الثانى — فى كتابة الأمانات لأهل الإسلام، وذكر أصل ذلك من السُّنَّة، وإيراد نسخٍ من ذلك .

البـاب الثـانى

فى الدفن ، وفيـــه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصله وكونه مأخوذا عن العرب .

الفصـــل الثانى — فيما يكتب فى الدفن عن الملوك .

البـاب الثـالث

فيما يكتب فى عقد الذِّمّة وما يتفرّع على ذلك؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى الأصول التى يرْجِع إليها هذا العقد .

الفصـــل الثانى — فى صورة مايكتب فى متعلّقات أهل الذمة، و إلزامهم بالجَرْى علىٰ ما يقتضيه عقدُ الذمة لهم .

البـاب الرابع

فى الهُدَن الواقعة بين ملوك الإسلام، وملوك الكفر؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصول يتعين على الكاتب معرفتها من بيان معنى الهُدْنة وما يرادفُها من الألفاظ، و بيان أصل وضعها فى الشرع، وما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابتها .

الفصـــل الثانى — فى صورة ما يكتب فى المُهَادَنات وآختـلاف مذاهب كُتَّاب الشرق والغرب والديار المصرية فى ذلك، وذكر نسخ منها، و بيان ما يكتب من ذلك من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية وما يرِدُ من ذلك مما يكتب عن ملوك الكفر .

البـاب الخامس

فى عُقُود الصلح الواقعة بين مَلِكَيْن مسلميْن؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل — فى أصول تُعتَمد فى ذلك .

الفصـــل الثانى — فيما يُكْتب فى عقد الصلح، وذكر نسخ من ذلك مما كتب به عن الخلفاء والملوك فى القديم والحديث إلىٰ زماننا .

المقالة العاشرة

فى فنونٍ من الكتابة يتداولها الكُتَّاب ويتنافَسُون فى عملها ليس لها تعلُّق بكتابة الدواوين السلطانية ولا غيرها؛ وفيها بابان

الباب الأوّل

فى الجِدِّيات؛ وفيه ستة فصول

الفصـــل الأوّل — فى المقامات وذكر نُسَخ منها .

الفصـــل الثانى — فى الرسائل : من الرسائل الملوكية المشتملة على الغَزْو والصيد ونحو ذلك ، والرسائل الواردة مورِد المدح ، والرسائل الواردة موردَ الذمّ ، ورسائل المفاخرات بين الأشياء النفيسة : كالمفاخرة بين العلوم والسيف والقلم ونحو ذلك، والرسائل المشتملة على الأسئلة والأجوبة، والرسائل المكتَتَبة بالحوادث والمـاجَريات وذكر نسخ من ذلك جميعه .

الفصـــل الثالث — فى قدمات البندق، وذكر نسخ منه .

الفصـــل الرابع — فى الصَّدَقات الملوكية، وصَدَقات الأعيان .

الفصـــل الخامس — فيما يُكتَب عن العلماء وأهل الأدب : من الإجازة بالفتَاوِى وعِراضات الكتب والمرْويَّات، ومايكتب على الكُتُب المصنَّفة والقصائد من التقريظات، ومايكتب عن القُضَاة من التقاليد الحُكْمية وإسجالات العدالة والمطلقات وغير ذلك .

الفصـــل السادس — فى العُمُرات التى تكتب للحاجّ.

البـاب الثـانى

فى الهَزْلِيَّـات؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل ــ فيما آعتنت الملوك ببعضه .

الفصـــل الثانى ــ فى سائر أنواع الهَزْل .

الخاتمـــة

فى ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة؛ وفيها أربعة أبواب

البـاب الأوّل

فى الكلام على البريد؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل ــ فى مقدّمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها: من معرفة معنى البريد وأوّل مَنْ وضعه فى الجاهلية والإسلام، وبيان مَعَالمه .

الفصـــل الثانى ــ فى ذكر مراكز البريد بالديار المصرية والبلاد الشّامية على آختلاف طُرُقها .

البـاب الثـانى

فى مَطَارات الحَمَام الرسائلىّ، وذكر أبراجها المقرّرة بالديار المصرية والبلاد الشامية؛ وفيه فصلان

الفصـــل الأوّل ــ فى ذكر مَطَاراته وآعتنـاء الملوك بشأنه فى القـديم والحديث ومسافات طَيَرانه .

الفصـــل الثانى ــ فى الأبراج المقرّرة له بالديار المِصرية والبلاد الشّاميّة .

الباب الثالث

فى ذكر مراكب الثلج الواصل من البلاد الشامية إلى الملوك بالديار المصرية؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فى مراكبه .

الفصل الثانى — فى هُجُنه .

الباب الرابع

فى المَنَاور والمُحْرِقات؛ وفيه فصلان

الفصل الأول — فى المناور التى كان يُستعلم بها حركة التتار إلى البلاد الإسلامية .

الفصل الثانى — فى المُحْرِقات التى كان يتوسل بها إلى إحراق زروع التتار ومراعيهم بأطراف بلادهم .

المقــــــدّمة

فى المبادى التى يجب تقديمها قبل الخوض فى كتابة الإنشاء،

وفيهـا خمســـة أبواب

البـاب الأوّل

فى فضل الـكتابة، ومدح فضلاء أهلها، وذم حَمْقاهم؛

وفيــه فصلان

الفصل الأوّل

(فى فضـــل الكتابة)

أعظم شاهد لجليل قدرها، وأقوىٰ دليل علىٰ رفعة شأنها، أن الله تعالىٰ ! نسب تعليمها إلىٰ نفسه، وآعتدّه من وافر كرمه و إفضاله فقال عز آسمه : ﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ مع ما يُروىٰ أن هذه الآية والتى قبلها مفتَتَح الوحى، وأول التنزيل علىٰ أشرف نبىّ، وأكرم مرسَل صلى الله عليه وسـلم! وفى ذلك من الآهتمام بشأنها و رفعة محلها ما لا خفاء فيه .

ثم بيّن شرفها بأن وصف بهـا الحَفَظة الكِرام من ملائكته فقال جلّت قدرته : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كاتِبِينَ ﴾ ولا أعلىٰ رتبةً وأبذخ شرفًا ممـا وصف الله تعالىٰ به ملائكته ونعت به حفَظَته؛ ثم زاد ذلك تأكيدا و وفر محله إجلالا وتعظيما بأن أقسم بالقَـلَم الذى هو آلة الكتابة وما يُسـطر به فقـال تقدّست عظمته : ﴿ نٓ والقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ما أنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ والإقسام لا يقع منه

سبحانه إلا بشريف ما أبدع، وكريم ما ٱخترع : كالشمس والقمر والنجوم ونحوها إلىٰ غير ذلك من الآيات الدالة علىٰ شرفها ورفعة قدرها .

ثم كان نتيجةُ تفضيلها، وأَثَرة تعظيمها وتبجيلها، أن الشارع نَدَب إلىٰ مقْصدها الأسنىٰ، وحَثَّ علىٰ مطلبها الأغنىٰ، فقال صلى الله عليه وسلم : "قَيِّدُوا العِلْمَ بالْكِتَاب" مشيرا إلى الغرض المطلوب منها، وغايتها المُجْتناة من ثمرتها؛ وذلك أن كل ذى صَنْعة لا بدَّ له فى معاناتها من مادّة جسمية تظهر فيها الصورة، وآلة تؤدى إلىٰ تصويرها، وغرض ينقطع الفعل عنده، وغاية تُسْتَثْمَر من صنعته .

والكِتابة إحدى الصنائع فلا بدَّ فيها من الأمور الأربعة .

فمادّتها، الألفاظ التى تخَيَّلها الكاتب فى أوهامه، وتصوّر من ضمّ بعضها إلىٰ بعض صورةً باطنة تامة فى نفسه بالقوة؛ والخَطُّ الذى يخطه القلم، ويقيد به تلك الصُّوَر . وتصير بعد أن كانت صورةمعقولة باطنة صورةً محسوسة ظاهرة . وآلتها القلم . وغرضها الذى ينقطع الفعل عنده تقييدُ الألفاظ بالرسوم الخطية، فتكمل قوّة النطق وتحصل فائدته للأبْعد كما تحصل للأقرب، وتحفظ صُوَره، ويؤمَن عليه من التغير والتبدّل والضَّياع . وغايتها الشىء المستثمَر منها، وهى ٱنتظام جمهور المَعاون والمَرافق العظيمة، العائدة فى أحوال الخاصة والعامّة بالفائدة الجسيمة فى أمور الدين والدنيا .

ولما كان التقييد بالكِتابة هو المطلوبَ، وقع الحضُّ من الشارع عليه، والحث على الاعتناء به تنبيها علىٰ أن الكتابة من تمام الكمال، من حيث إن العمر قصير والوقائعَ متسعة؛ وما ذا عسى أن يحفظه الإنسانُ بقلبه أو يحصِّلَه فى ذهنه .

قال ذو الرمّة لعيسى بن عمر : "اُكْتُبْ شِعرِى فالكِتابُ أعجبُ إلىّ من الحفظ إن الأعرابىّ لينسى الكلمة قد سَهِرتُ فى طلبها ليلةً فيضَع موضِعَها كلمة فى وزنها لاتساويها، والكِتاب لاينسىٰ ولا يبدّل كلاما بكلام" .

وقد أطنب السلف فى مدح الكتابة والحث عليها فلم يتركوا شأوًا لمادح حتّى قال سعيد بن العاص: "مَنْ لم يكتبْ فيمينه يُسرىٰ". وقال مَعْن بن زائدة: "اذا لم تكتب اليد فهى رِجْل". وبالغ مكحول فقال: "لاديةَ ليد لاتكتُب". قال الجاحظ: ولو لم يكن من فضل الكتابة إلا أنه لا يسَجِّل نبيّ سِجِلًّا ولا خليفة مرضيّ ولا يقرأ كتاب علىٰ منبر من منابر الدنيا إلا اذا ٱستُفْتح بذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم وذكر الخليفة ثم يذكر الكتاب كما هو مشهور فى السجلات التى سجلها رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل نَجْرانَ وغيرهم وأكثرها بخط أمير المُؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فى شرفه ونبله وسابقته ونجدته .

ومن ثم قال المؤيد : "الكتابة أشرف مناصب الدنيا بعد الخلافة؛ إليها ينتهى الفضل، وعندها تقف الرغبة" .

ومن كلام أبى جعفر "الفضل بن أحمد" فى جملة رسالة "الكتابة أُسّ المُلك، وعماد المملكة، وأغصانٌ متفرّقة من شجرة واحدة. والكتابة قُطْب الأدب، ومِلاك الحكمة، ولسان ناطقٌ بالفصل، وميزان يدل علىٰ رَجَاحة العقل . والكتابة نور العلم، وفدامة(١) العقول ومَيْدان الفضل والعدل . والكتابة حِلْية وزينة ولَبُوس وجمال وهَيْبة ورُوحٌ جارية فى أقسام متفرّقة، والكتابة أفضل درجةً وأرفع منزلة، ومَنْ جهل حق الكتابة فقد وُسِم بوسم الغُواة الجَهَلة، وبالكتابة والكُتّاب قامت السياسة والرياسة، ولو أن فضلا ونُبْلا تصوّرا جميعا تصوّرت الكتابة، ولو أن فى الصناعات صناعةً مربُوبة لكانت الكتابة رَبًّا لكل صنعة .

قال صاحب موادّ البيان : ومن المعلوم أنّ جميع الصنائع وسائلُ إلىٰ دَرْك المطالب ونَيْل الرغائب، وأن عوائدها متفاضلة فى الكثرة والقلة بحسب تفاضلها فى الرِّفعة

(١) من معاني الفدامة المصفاة وهي مناسبة هنا .

والضَّـعَة، اذا كان منها ما لا يفى بالبُلْغة من قِوَام العيش : نحو الصنائع المَهِينة السُّوقيَّـة الداخلة فى المرافق العامية، ومنها ما يوصل إلى الثروة ويجاوز حدّ الكفاية ويُحظى بالمـال والنِّعم الخطيرة وهى الصنائع الخاصَّة، و إذا تُؤمِّل ما هذه صفته منها عُلِم أنه ليس منها ما يلحق بصناعة الكتابة ولا يساويها فى هذا النوع، ولا ما يُكْسب ما تُكْسِبه من الفوائد والمَعَاون مع حصول الرَّفاهِيَـة والتنزه عن دَناءة المكاسب ولا ما يوصل إليه من الحظوية ورَفاهِيَة العيش ومشاركة الملوك فى ٱقتناء المسا كن الفسيحة، والملابس الرفيعة، والمراكب النبيلة، والدوابّ النفيسة، والخَدَم المستحسَنة وغير ذلك من آلات المروءة والأدوات الملوكيـة فى أقرب المُدَد وأقلّ الأزمنـة ؛ وناهيك بذلك من فضل هذه الصناعة وشرفها وٱرتفاع خَطَرها وسموّ قَدْرها اذ كان لها سَعة لمثل هذه الجدوىٰ التى لا يوجد مثلها فى غيرها من الصنائع .

وكفىٰ بالكتابة شرفا أنّ صـاحب السـيف يزاحم الكاتب فى قلمه ولا يزاحمـه الكاتب فى سيفه .

قال فى موادّ البيـان : ”ومن ثَمَّ صار السلطان الذى هو رئيس الناس ومستخْدِم أرباب كلّ صـناعة ومُصَرِّفهم علىٰ أغراضه يفتخر بأن تكون فضيلتها حاصلةً له مع ترفُّعه عن التلبُّس بصناعة من الصنائع الحسنة، وأَنَفته أن يقع اسمٌ من أسمائها عليه“ قال : وذلك أنا نرىٰ كل ملك وسلطان يُؤْثر أن يكونَ له حظ من بلاغة العِبارة وجَوْدة الخط، وفى ذلك ما يدل علىٰ أنها أشرف الصنائع رتبةً وأعلاها درجة، وأن المشاركين للسلطان فيها ممن تكتنفه سياسته أفضلُ من سائر المتحلِّين بغيرها من الصنائع الأُخَر فقد عُلِم أن الصنائع كلَّها مَعاوِن ومَرَافق، لا تنتظم عِمَارة العالم إلا بتضافُرها ومُرافَدة بعضها لبعض . و إنها علىٰ ضربين : خاصية وعامية، فالعاميَّة صنائع المِهَنة وأهل الأسواق والحِرَف و إن شاركهم الخاصَّـة فى الحاجة إليها لأنّ بها تنتظم أمورُ المعاملات وتعمُر

البلاد؛ والخاصيَّة التى تقع فى حيِّز الملوك والسلاطين، ويتوزعها أعوانُهم وأتْباعهم؛ وهذه الصنائع إنما يقع التميز بين أقدارها بالنظر إلىٰ مقدار عائدتها فى أمور المُلك والسلطان والرعية مما كان معلّقا بالأمر الأهمّ، وكانت الحاجة إليه ألزم، وقدر المنفعة به أجسم، والفساد العائد بوقوع خَلَل فيه علىٰ أسباب المملكة أعظم، ومرتبته فى الصنائع الخاصة أشرف وألطف .

وليس من الصنائع صناعةٌ تجمع هذه الفضائل إلا صناعة الكتابة، وذلك لأن الملك يحتاج فى آنتظام أمور سلطانه إلىٰ ثلاثة أشياء لا ينتظم ملكه مع وقوع خلل فيها .

أحدها رسم ما يجب أن يُرْسَم لكلٍّ من العمال والمكاتِبِين عن السلطان ومخاطبتهم بما تقتضيه السياسة من أمر ونهى، وترغيب، ووعد ووعيد، وإحماد وإذمام .

والثانى آستخراج الأموال من وجوهها . وآستيفاء الحقوق السلطانية فيها .

والثالث تفريقها فى مستحقها من أعوان الدولة وأوليائها الذين يحمُون حَوْزَتها، ويسدُّون ثُغورها ويحفظون أطرافها، ويذُبُّون عنها وعن رعاياها، وغير ذلك من وجوه النفقات الخاصة والعامة؛ ومعلوم أن هذه الأعمال لا يقوم بها إلا كُتّاب السلطان ولا سبيل للكُتَّاب إلى الكتابة فيها إلا بالتدبر فى صناعة الكتابة، فهى إذَنْ من أشرف الصنائع لعظيم عائدتها على السلطان ودولته . قال الجاحظ : "من أبْيَن فضلها أن جُعِلت فى عِلْية الناس" قال صاحب موادّ البيان : "وقد عُرِف أن الذين وضعوها وآبتدعُوها ورسموا رسومَها هم الأنبياء عليهم السلام" .

وقد ذكر علماء التاريخ : أن يوسفَ عليه السلام كان يكتُب للعزيز، وهارونَ ويوشعَ بن نون كانا يكتبانِ لموسىٰ عليه السلام، وسليمانَ بن داود كان يكتب لأبيه، وآصفَ بن برخيا ويوسف بن عنقا كانا يكتبان لسليمان عليه السلام، ويحيىٰ بن زكريا كان يكتب للمسيح عليه السلام .

وقد انتقل جماعة منها إلى الخلافة . فأبو بكر كان يكتب لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ثم صارت الخلافة إليه بعد ذلك . وعمـر بن الخطاب كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسـلم ثم صارت الخلافة إليه . وعثمان بن عفان كان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ثم كتب لأبي بكر بعده ثم صارت الخلافة إليه . ومعاوية كان يكتب للنبي صـلى الله عليه وسـلم ثم صارت الخلافة إليـه بعد الحسن . ومروان بن الحكم كان يكتب لعثمان بن عفّان ثم صـار الأمر إليه فيما بعـدُ وعبد الملك بن مروان كان يكتب لمعاوية بن أبي سفيان ثم انتقل الأمر إليه . إلىٰ غير هؤلاء من أهل هذه الصـنعة ممن فَرَع الذِّروة العلية من السيادة ، والسَّنام الباذخ من الرياسة ، علىٰ تغير الدُّول وتنقلها بين العرب والعجم ؛ وفى ذلك ما يدل علىٰ علو خَطَرها ، وارتفاع قدرها .

قال صاحب العقد وقد تنبَّه قوم بالكتّابة بعدَ الخُمُول ، وصاروا الى الرتب العلية ، والمنازل السنية . منهم سرجون بن منصور الرومى كان روميًّا خاملا فَرفَعته الكتّابة وكتب لمعاوية ويزيدَ بن معاوية ومَرْوانَ بن الحكم وعبد الملك بن مَرْوانَ . ومنهم حَسَّانُ النَّبَطيّ كاتب الحجاج ، وسالمٌ مولىٰ هشام بن عبد الملك ، وعبد الحميد الأكبر ، وعبدالصمد ، وجَبَلَة بن عبدالرحمن ، وقَحْذم جدّ الحجاج (١) بن هشام القَحْذَميّ ، وهو الذى قلب الدواوين من الفارسية إلى العربية ، والربيعُ ، والفضلُ بن الربيع ، ويعقوب بن داود ، ويحيىٰ بن خالد ، وجعفر بن يحيىٰ ، وابن المقفَّع ، والفضل بن سهل ، وجعفر بن الأشعث ، وأحمد بن يوسف ، وابن عبدالسلام الجُنْدَيْسَابوريّ ، وأبو جعفر محمد بن عبد الملك الزيات ، والحسنُ بن وهب ، وإبراهيم بن العباس ،

(١) فى العقد الفريد جدّ الوليد بن هشام .

ونجـاح بن سلمة، وأحمد بن عبد العزيز، وزاد صاحب الريحان والريعان(١) : مروانَ ابن الحكم، وعبدَ الملك بنَ مروان . قلت : وهؤلاء بعض من شرفته الكتابة ورفعت قدره . ولو آعتبر من شرُف بالكتابة وارتفع قدرُه بها لفاتوا الحصر وخرجوا عن الحدّ . وهذا الوزير المهلبيّ كان فى أوّل أمره فى شدّة عظيمة من الفقر والضائقة، وكان قد سافر مرة ولقى فى سـفره ضِيقةً حتّى اشتهى اللحم ولم يتمدر عليه فقـال آرتجالا :

أَلَا مَوْت يُبَـاع فأشْتَرِيه! * فهذا العَيْشُ ما لا خَيْرَ فيه!
أَلَا موتٌ لذيذُ الطَّعْمِ يأتِى * يُخَلِّصُنِى من المَوْتِ الكريهِ!
أَلَا رحِمَ المُهَيْمِنُ نَفْسَ حُرٍّ * تصدّق بالوفَاةِ علىٰ أخيه!

وكان معه رفيق له فاشترىٰ لحما وأطعمه . ثم ترقّى بالكتابة حتّى وُزِّر لمعزّ الدولة آبن بويه الديلمىّ فى جلالة قدره . وهذا القاضى الفاضل أصله من بَيْسان من غير بيت الوزارة رفعتْه الكتابة حتّى وُزِّر للسلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب، وعلَتْ رتبته عنده حتّى بلغ من رتبته لديه أنْ كان يكتب فى كتب السلطان صـلاح الدين عن نفسه بما أحب، فكتب مرةً السلام على الملك العزيز آبن السلطان صلاح الدين فى كتاب عن أبيه، ثم كتب شعرا منه .

وغريبـةٍ قد جِئْتُ فيهـا أوّلًا * ومَنِ اقْتَفَاها كان بَعْدِى الثانِى
فرَسُولىَ السُّلْطانُ فى إرسالهـا * والنـاسُ رُسْلُهُمُ إلى السُّلْطان

وأبلغ من ذلك كله أبو إسحاق الصابى صاحب الرسائل المشهورة، كان علىٰ دين الصابئة مشدّدا فى دينه ، وبلغَتْ به الكتابة إلىٰ أن تولى ديوان الرسائل عن الطائع

(١) أى فيمن نَبُهوا بالكتابة . وأما عدّهما السابق ففى المكتوب لهم .

والمطيع وعز الدولة بن بويه : وجَهَد فيه عز الدولة أن يسلم فلم يقعْ له ؛ ولمـا مات رثاه الشريف الرضيّ بقصيدة فلامه الناس لكونه شريفا يرثى صابئيا ، فقال : انمـا رثيت فضله .

قال فى موادّ البيان : "ولا عبرة بمَنْ قعد به الجَدُّ ، وتخلّف عنه الحَظُّ من أهل هذه الصناعة ؛ إذ العبرة بالأكثر لا بالقليل النادر . على أن المبرِّز فى هذه الصناعة إن قعدتْ به الأيام فى حالٍ فلا بد أن يُرْفَع قدرُه فى أخرى : لأنَّ دَوْلة الفاضل من الواجبات ، ودَوْلة الجـاهل من الممكنات ؛ خصوصا إذا صادف الكاتبُ الفاضلُ ملكا فاضلاً أو رئيسـا كاملاً ، فإنه يوفيه حقه و يرقِّيه إلى حيثُ آستحقاقُه . فمن كلام بعض الحكماء : تَسْقُط الحظوظ فى دولة الملك الفاضل فلا يتسنَّم الرتبة العليَّة إلا مستوجبُها بالفضيلة .

و بالجملة ففَضْل الكتابة أكثر من أن يُحصىٰ وأجلُّ من أن يُستقصىٰ ؛ وانما حرِّمت الكتابة على النبي ، صلى الله عليه وسلم ! ردّا على الملحدين حيثُ نسبوه إلى الآقتباس من كتب المتقدّمين كما أخبر تعالىٰ بقوله ﴿ وقالُوا أساطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَها فَهِى تُمْلىٰ عليه بُكْرَةً وأَصِيلًا ﴾ وأكد ذلك بقوله ﴿ وما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ ولا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَارْتابَ الْمُبطِلُونَ ﴾ .

وقد كان ، صلى الله عليه وسـلم ! يأتى من القِصَص والأخبار المـاضية منْ غير مُدارسـة ولا نظر فى كتاب بمـا لا يعلمه إلا نبيٌّ ، كما رُوِى أن قريشا بمكة وَجَّهت الى اليهود : أنْ عَرّفونا شيئاً نسأله عنه ؛ فبعثوا إليهم أن سَلُوه عن أنْبياءَ أخذوا أحدَهم فرمَوْه فى بئر و باعُوه ، فسألوه فنزلت سورة يوسف جملةً واحدة بمـا عندهم فى التوراة وزيادة .

قال العتبي : "الأُمِّيّة فى رسول الله، صلى الله عليه وسلم! فضيلةٌ وفى غيره نَقِيصة لأن الله تعالى لم يعلِّمه الكتابة لتمكُّن الإنسان بها من الحيلة فى تأليف الكلام، وآستنباط المعانى فيتوسل الكُفَّار إلىٰ أن يقولوا آقتدر بها علىٰ ما جاء به" .

قال صاحب موادّ البيان: "وذلك أنّ الإنسان يتوصل بها إلىٰ تأليف الكلام المنثور وإخراجه فى الصُّوَر التى تأخذ بمجامع القلوب، فكان عدم علمه بها من أقوى الحجج علىٰ تكذيب معانِديه، وحسم أسباب الشك فيه" .

وقد حكىٰ أبو جعفر النحَّاس: أن المأمون قال لأبى العلاء المِنْقَرِىّ "بلغنى أنك أُمِّىٌّ، وأنك لاتقيم الشعر، وأنك تَلْحَن فى كلامك" فقال: "ياأمير المؤمنين! أما اللحن فربَّما سبقنِي لسانى بالشىء منه، وأما الأمية وكَسْر الشعر فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمِّيًّا وكان لايُنْشِد الشعر". فقال له المأمون: "سألتك عن ثلاثة عُيُوب فيك فزِدْتنى رابعا وهو الجهل، ياجاهلُ! ذلك فى النبى، صلى الله عليه وسلم! فضيلة وفيك وفى أمثالك نَقِيصة" .

قال الجاحظ : "وكلام أبى العلاء المنقرى هذا مِنْ أوابِد ماتكلَّم به الجُهَّال". علىٰ أن أصحابنا الشافعية رحمهم الله قد حكَوْا وجهيْن فى أنه صلى الله عليه وسلم هل كان يَعْلَم الكتابة أم لا وصححوا أنه لم يكن يعلمها معجزةً فى حقه كما تقدّم .

قال أبو الوليد الباجى من المالكية: "ولو كتب، صلى الله عليه وسلم! لكان مُعْجِزة لخَرْق العادة . قال : وليست بأوّل مُعْجِزاته صلى الله عليه وسلم ! " .

وإذا كانت الكتابةُ من بين سائر الصِّناعات بهذه الرتبةِ الشريفة والذِّروة المُنِيفة، كان الكُتَّاب كذلك من بين سائر الناس. قال الزبير بن بَكَّار : "الكُتَّاب ملوك وسائر الناس سُوقةٌ". وقال آبن المقفَّع : "الملوك أحوج إلى الكُتَّاب من الكتّاب إلى الملوك". ومن كلام المؤيد "كُتَّاب الملوك عيونُهم المبصرةُ، وآذانُهم الواعية، وألسنتهم الناطقة".

وكانت ملوك الفرس تقول: "الكُتّاب نِظام الأُمور، وجَمَال المُلْك، وبَهاءُ السلطان وخُزّان أمواله، والأُمَناء علىٰ رعيته وبلاده وهم أولى الناس بالِحباء والكرامة، وأحقُّهم بمحبة السلام".

ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد "للكُتّاب أقرّت الملوك بالفاقة والحاجة، وإليهم أُلْقِيت الأعِنّة والأزِمّة، وبهم آعتصَمُوا فى النازلة والنّكْبة، وعليهم اتّكلوا فى الأهل والولد والذخائر والعَقْد ووُلاة العَهْد وتدبير المُلْك وقِرَاع الأعداء، وتوفير الفيء، وحِياطة الحريم، وحفظ الأسرار، وترتيب المراتب، ونظم الحروب".

قال فى موادّ البيان: "وما من أحد يتوَسّل إلى السلاطين بالأدب، ويمُتُّ إليهم من العلم بسبب، إلا وهو باقلُه لاينوِّل مايُنوِّلُه الا على وجه الإرفاق، خلا الكاتبَ فإنه يُنَوّل الرغائب العظيمة من طريق الآستحقاق، لموضع الآفتقار إليه والحاجة، ومن المعلوم أنه لا بدَّ من واسطة تقوم بين الملوك والرعية لبُعْد مابين الطبقتين: العُلْيا والدُّنْيا، وليس من طبقات الناس من يُساهِم الملوكَ فى جَلالة القدر وعظيم الخَطَر، ويُشارك العامّة فى التواضع والآقتصاد سوى الكُتّاب فاحتيج إليهم للسِّفارة فى مصالح الرعيّة عند السلاطين، وآستيفاء حقوق السلاطين من الرعية والتلطف فى الصلة بينهما". قال: "ولعلم الملوك بخَطَر هذه الصناعة وأهلها وعائدتها فى أمور السلطان صرَفوا العِنـاية إلى الكَتَبة وخَصُّوهم بالحُظْوة وعرَفوا لهم فَضْـل ما جمعوه من الرأى والصناعة، وكانت ملوك الفُرْس لرفعة رتبة الكتابة عندهم تجمع أحداثَ الكُتّاب ونواشئهم المعترضين لأعمال الملك ويأمرون رؤساء الكتابة بامتحانهم فمن رُضى أُقِرّ بالباب ليستعان به، ثم يأمر الملك بضمهم إلى العُمّال، وآستعمالهم فى الأعمال، وينقّلهم فى الخِدَم علىٰ قدر طبقاتهم من حال إلىٰ حال حتّى ينتهىَ بكل واحد منهم الىٰ

ما يستحقه من المنزلة ، ثم لا يُمَكَّن أحد ممن عُرض آسمه على الملك من الخدمة عند أحد إلا باذن الملك .

وفى عهد سابورَ — "وليكن كاتبُك مقبولَ القول عندك ، رفيع المنزلة لديك ، يمنعه مكانُه منك وما يُظَنّ به من لطافة موضعه عندك من الضَّراعة لأحد والمُداهنَة له ، ليحمله ما أوْليته من الإحسان علىٰ محض النصيحة لك ، ومنابَذَة من أراد عيبك وآنتقاصَ حقك" . ولم يكن يركبُ الهماليج فى أيامهم إلا الملكُ والكاتبُ والقاضى .

قلت : ولشرف الكتابة وفضْل الكُتَّاب صرف كثيرٌ من أهل البلاغة عنايتهم إلىٰ وَضْع رسائل فى المفاخَرَة بين السيف والقلم ، إشارةً إلىٰ أن بهما قِوامَ الملك وترتيبَ السلطنة ، بل ربما فضل القلمُ على السيف ورُجِّح عليه بضروب من وجوه الترجيح كما قال بعضهم مفضلا للقلم بقَسَم الله تعالىٰ به :

اِن آفْتَخَر الأبطالُ يوماً بسَيْفِهم * وعَدُّوه مما يُكْسِب المَجْدَ والكَرَمْ
كَفىٰ قَلَمَ الكُتَّاب عِزًّا ورِفْعةً * مَدَى الدَّهْرِ أَنّ اللهَ أقسَمَ بالقَلَمْ

وكما قال آبن الرومى :

إن يخدُمِ القلمُ السيفَ الذى خَضَعَتْ * لهُ الرِّقابُ ودانَتْ خَوْفَه الأُمَمُ
فالموتُ ، والمَوْتُ لا شيءٌ يغالبُهُ ، * ما زَالَ يتبَعُ ما يَجْرِى به القَلَمُ
كذا قضى اللهُ للأقلام مُذْ بُرِيَتْ * أنّ السُّيوفَ لها مُذْ أُرهِفَتْ خَدَمُ

والمعنىٰ فى ذلك أنها تؤثر فى إرهاب العدوّ علىٰ بُعْدٍ والسيوف لا تؤثر إلا عن قُرْب مع ما فُضِّل به القلم من زيادة الجَدْوىٰ والكَرَم ، وإلىٰ ذلك يشير بعضهم بقوله مشيرا للقلم

فَلَكَمْ يَفُلُّ الجيشَ ، وهو عرَمْرَمٌ ، * والبِيضُ ما سُلَّتْ من الأغْمادِ
وَهبَتْ له الآجامُ حين نَشَا بِها * كرمَ السُّيول وَصَوْلَةَ الآساد

الفصل الثــانى

(فى مَدْح فضلاء الكُتَّاب وذمّ حَمْقاهم)

أما فُضَلاء الكتّاب فلم يزل الشـعراء يَلْهَجون بمدح أشراف الكُتّاب وتقريظهم ويتغالَوْن فى وصف بلاغاتهم وحُسْن خطوطهم . فمن أحسن مامُدِح به كاتب قولُ ٱبن المعتز :

إذا أخَذَ القِرْطـاسَ خلْتَ يمينَهُ * تُفَتِّــح نَوْرا أو تُنَظِّـم جَوْهَرا

وقول الآخر :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثُورَ مَنْطِقُــه * ويَنْظِمُ الدُّرّ بالأقلام فى الكُتُبِ

وقول الآخر :

وَكَاتب يَرْقُم فى طِرْسِــه * رَوْضًـا بِه تَرْتَعُ أَلْحـاظُهُ
فالدُّرُّ ما تَنْظِــم أقلامُه * والسِّحْر ما تَنْثُرُ ألفـاظُه

وقول الآخر :

إنْ هَزَّ أقلامَهُ يومًا لِيُعْمِلَها * أنْساكَ كُلَّ كَمِىٍّ هَــزَّ عامِلَه
وإنْ أقَرَّ علىٰ رَقٍّ أنامِلَهُ * أقَــرَّ بالرِّقِّ كُتَّابُ الأنَامِ لَهُ

وقول الآخر :

لا يُخْطِر الفِــكْر فى كتابَتِــه * كأنّ أقلامَهُ لَهَــا خاطِـــرُ
القَوْلُ والفِعْلُ يجْرِيَانِ مَعًــا * لا أوّلٌ فِيهِـمَا ولا آخِر

وقول الآخر :

وشادنٍ من بَنِى الكُتَّابِ مُقْتَدِرٍ * على البَلاغة أحْلَى الناس إنشاءَ
فَلا يُجارِيهِ فى مَيْــدانِهِ أحَدٌ * يُرِيكَ سَحْبانَ فى الإنْشاءِ إنْ شاءَ

وكذلك أُولِعُوا بذَمِّ حَمْقَ الكُتَّاب ولَهِجُوا بهَجْوهم فى كل زمن .
فمن ذلك قول بعض المتقدّمين يهجُو كاتبًا :

حمارٌ فى الكِتَابةِ يدَّعِيها * كدَعْوىٰ آلِ حَرْبٍ فى زِيَادِ
فدَعْ عنكَ الكِتَابَةَ لَسْتَ منها ! * ولو غَرِقتْ ثِيابُك فى المِدَاد

وقول الآخر :

وكاتبٍ كُتْبه تُذَكِّرِنى الـ * ـقرءانَ حتّى أظلّ فى عَجَبِ
فاللَّفْظ "قالوا قُلُوبُنا غُلُفٌ". * والخَطُّ "تَبَّتْ يدَا أبِى لَهَب"

وقول الآخر :

يَعِى غيْرَ ما قُلْنا ويَكْتُبُ غيْرَمَا * يَعِيهِ ويَقْـرَا غيْرَ ما هو كاتبُ

وقول الآخر :

وكاتبٍ أقلامُـهُ * مُعَوّداتٌ بالغَلَطْ
يَكْشِطُ مايَكْتُبُهُ * ثم يُعِيدُ ما كَشَطْ

وقول ٱبن أبى العَيْناء يهجو أسد بن جَهْور الكاتب .

أو ما ترىٰ أسَدَ بنَ جهورَ قد غَدَا * مُتَشَبِّهًا بأجِلَّةِ الكُتَّابِ؟
لكِنْ يُخَرِّقُ ألْفَ طُومارٍ إذا * ما ٱحْتِيجَ منه إلىٰ جوابِ كِتَابِ

وقد أكثر الناس من الحكايات المضحكة عن هذا النوع من الكُتَّاب مما صاروا به هزؤا علىٰ ممرّ الزمان وتعاقب الأيام . كما حكى عن محمد بن يحيى الكاتب أنه قرأ علىٰ بعض الخُلَفاء كتابا يذكر فيه حاضرطى" فصحَّفه حاضرطى فسخِر منه أهل المجلس .

ويروىٰ إن كُتّاب الدواوين ألزموا بعضَ العمال مالًا مخرجًا عليه فبعث بحسابه إلىٰ عبيد الله بن سليمان فوقَّع عليه "هذا هذا" وردّ الحساب إلىٰ العامل فقدّر العاملُ

بضَعْف آدابه أنه صحَّح حجتــه وقَبِل الحساب منــه كما يقال فى تثبُّت الشيء هو هو وأخرج التوقيع إلى الكُتَّاب وناظرهم علىٰ أنّ ذلك يوجب إزالة المـال الذى لزمه عنه فلم يفهم أحد منهم ما أراد عبيد الله بن سليمان فرُدّ التوقيع إلىٰ عبيد الله فلم يزده فى الجواب علىٰ أن شدّد الكلمة الأخيرة ووقَّع تحتها "الله المستعان" إعلامًا له أن لفظ هذّا بالتشديد بمعنى الهذيان .

وحكى العبَّاس بن أســد : أن أبا الحسن علىَّ بن عيسىٰ كتب إلىٰ أبى الطيب أحمد بن عيسىٰ كتابًا من مكة(١) فقرأه ثم رمىٰ به إلىّ فقال : اقرأ . فقرأت : كتابى إليك يوم القُرّ، بالرفع . فقال : ما معنَى يوم القُرّ ؟ فقلت : القُرّ البرد فقال : انمـا هو يوم القَرّ بالفتح ، حين يَقِرّ الناس بمِنًى ، وهو اليوم الثانى من النحر . ومثل ذلك كثير .

قال صاحب نهـاية الأرب : "وقد اتَّسع الخَرْق فى ذلك ودخل فى الكتابة مَنْ لايعرفها البتَّة ، وزادوا عن الإحصاء ، حتّى إن فيهم مَنْ لا يفرق بين الضاد والطاء . قال : ولقد بلغنى عن بعض مَنْ أدخل نفسه فى الكتابة وتوسَّل إلىٰ أنْ كتب فى ديوان الرسائل : أنه رُسِم له بكتاب يكتُبه فى حقِّ رجل اسمه طرنطاى فقال لكاتب إلىٰ جانبه طرنطاى يكتب بالساقط أو بالقائم . قال : وصار الآنَ حدّ الكاتب عند هؤلاء الجُهَّال أنه يكتب على المجوِّد مدّة ويُتْقن بزعمه أسطرا فاذا رأىٰ من نفسه أنّ خطه قد جاد أدنىٰ جودة أصــلح بِزَّته ، وركب بِرْذَوْنه أو بغلتــه ، وسعىٰ فى الدخول إلىٰ ديوان الإنشاء والانضمام إلىٰ أهله ؛ ولعل الكتابة انمـا يحصل ذمّها بسبب هؤلاء وأمثالهم . ولله درّ القائل !

تَعِس الزمانُ ! فقدْ أتىٰ بعُجَابِ(٢) * ومحـا فُنُون الفَضْل والآداب
وأتىٰ بكُتَّابٍ لو انْبسَطَتْ يَدِى * فيهِــمْ رَدَدْتُهُمُ إلى الكُتَّابِ"

(١) فى ضوء الصبح (من منى) .
(٢) فى الأصل بعجائب وقد اخترنا رواية الضوء .

قلت : وإنما تقاصرت الهمم عن التوغل فى صناعة الكتابة والأخذ منها بالحظ الأوفىٰ لاستيلاء الأعاجم على الأمر، وتوسيد الأمر لمن لا يفرّق بين البليغ والأنوك لعدم إلمامه بالعربية والمعرفة بمقاصدها، حتىّٰ صار الفصيح لديهم أعجم(١)، والبليغ فى مخاطبتهم أبكم؛ ولم يسع الآخذ من هذه الصناعة بحظ إلا أن ينشد :

وصِناعَتِي عَرَبِيَّةٌ وكأنَّنِي ✻ ألْقىٰ بأكثرِ ما أقُولُ الرُّوما
فلِمَنْ أقُول؟ وما أقُول؟ وأيْنَ لى؟ ✻ فأسيرَ، لا بل أيْنَ لى فأُقِيما؟

وقد حكىٰ أبو جعفر النحاسُ عن بعضهم أنه قال : حضرت مجلس رجل فأحجمتُ عن مسألة حاجتى لكثرة جَمْعه، فرأيته وقد أملىٰ علىٰ كاتبه "ولم أكتب بخطّى إليك خوفا من أن تقِف علىٰ رداوته" فكتب كاتبه "رداءته" علىٰ ما يجب فقال: أما تُحْسِن الهجاء ؟ أين الواو ؟ فأثبتها الكاتب فخسّ حينئذ فى عينى، فآجترأت عليه فدنوت منه وسألته حاجتى .

وحكىٰ صاحب ذخيرة الكُتّاب عن بعض الوزراء : أنه تقدّم إلىٰ كاتبه بأن يكتب ألقاب أمير ليثبتها علىٰ بُرْج أنشأه فكتب "أمر بِعمارة هـذا البُرْج أبو فلان فلان" وآستوفىٰ ألقابه إلىٰ آخرها، ودفع المثال إلى الوزير ليقف عليه فلما قرأه غضِب حتّىٰ ظهر الغضب فى وجهه ، وأنكر على الكاتب كونه كتب أبو فلان بالواو ولم يكتب أبى فلان بالياء محتجًّا عليه بأن أبو من ألفاظ العامة فلا تعظيم بها . فقال الكاتب : إن الحال آقتضتْ رفعَه من حيث إنه فى هذا الموضع فاعل؛ فزاد إنكاره عليه وقال : متىٰ رأيت الأمير فاعلا فى هـذا الموضع يحمل الطين وينقل الحجارة علىٰ رأسه حتّىٰ تنسبه إلىٰ هذا ؟ والله لولا سالفُ خدمتك لفعلت بك ! .

(١) فى الأصل أعجما . . . أبكما .

قال آبن حاجب النعمان: ولمّـا كان أرباب الأمور وولاتُها من الخلفاء فمَنْ دونهم يَنْقُدون مايكتب به الكُتّاب عنهم وما يرد عليهم من الكُتُب، ويناقشون على ما يقع فيها من خطإ أو يدخُلُها من خلل، ويقدّمون الفاضل ويرفعون درجته، ويؤخرون الجاهل ويحطون رتبته، كان الكتّاب حينئذ يتبارَوْن على آقتناء الفضيلة. ويترفّعون عن أن يعلَق بهم من الجهل أدنى رذيلة. ويجْهَدون فى معرفة ما يحسِّن ألفاظهم، ويزين مكاتباتهم، لينالوا بذلك أرفع رتبة، ويفوزوا بأعظم منزلة.

ولمـا آنعكست القضـية فى تقديم من غَلِط بهم الزمان. وغفل عنهم الحِدْثان. وآستولَتْ عليهم شِرّة الجهْل. ونفرت منهم أوانس الرياسة والفضْل. وصار العالم لديهم حَشَفا، والأديب مُحارَفا، والمعرفة مَنْكَرة، والفضيلة مَنْقَصة، والصمت لُكْنه، والفصاحة هُجْنة، آجتُنِبت الآداب آجتناب المحارم، وهُجرت العلوم هَجْر كبائر المآثم.

ولو أنصف أحد هؤلاء الجُهّال، لكان بالحَشَف أولى، وبالحُرْفَة والمَنْقصة أجدر وأحرى، لكنه جهل الواجبات وأضاعها (١). وسَـفِه حقّ المرُوءة وأفســد أوضاعها ويوصف بالحىّ الناطق، والصامتُ أرجى منه عند أهل النظر وذوى الحقائق.

الباب الثانى

من المقدّمة

فى ذكر مدلول الكتابة لغة وآصطلاحا، وبيان معنى الإنشاء وإضافة الكتابة إليه؛ ومرادفة لفظ التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسل؛ وتفضيل كتابة الإنشاء على سائر أنواع الكتابة وترجيح النثر على الشعر؛ وفيه ثلاثة فصول.

(١) فى الأصل وأوضاعها بواو زائدة وهى من زيادة الناسخ كما هو ظاهر.

الفصـــل الأوّل

فى ذكر مدلولها وبيان معنى الإنشاء وإضافتها إليه ومرادفة التوقيع لكتابة الإنشاء فى عُرْف الزمان، والتعبير عنها بصناعة الترسل

الكتابة فى اللغة مصدر كتب يقال كتب يكتُب كَتْبا وكتَابًا وكِتابةً ومَكْتَبة وكِتْبة فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تكتَّبت القومُ إذا آجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كَتِيبة، وكَتَبْت البغلة إذا جمعتَ بين شُفْريها بحَلْقة أو سيْر ونحوه، ومن ثَمَّ سمّى الخَطّ كتابة لجمع الحروف بعضها إلىٰ بعض كما سمّى خَرْز القربة كتابةً لضمّ بعض الخُرَز إلىٰ بعض . قال آبن الأعرابىّ : وقد تطلق الكتابة على العلم ومنه قوله تعالىٰ ﴿ أم عِنْدَهُمُ الغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبونَ ﴾ أى يعلمون . وعلىٰ حدّ ذلك قوله صلى الله عليه وسلم فى كتابه لأهل اليمن حينَ بعث إليهم معاذا وغيره " إنِّى بَعَثْتُ إلَيْكُم كاتِبًا " . قال آبن الأثير فى غريب الحديث " أراد عالما سُمِّى بذلك لأن الغالب علىٰ مَنْ كان يعلم الكتابة أن عنده علمًا ومعرفةً وكان الكاتبُ عندهم قليلًا وفيهم عزيزًا" .

أما فى الأصطلاح فقد عرّفها صاحب موادّ البيان : بأنها صناعة رُوحانِيَّة تظهر بآلة، جُثْمانيَّة، دالةٌ على المراد بتوسط نظمها . ولم يبين مقاصد الحدّ ولا مادخل فيه ولا ماخرج عنه، غير أنه فَسَّر فى موضع آخر معنى الرُّوحانية فيها بالألفاظ التى يتخيلها الكاتبُ فى أوهامه ويصوِّرُ من ضمِّ بعضها إلىٰ بعض صورةً باطنة قائمةً فى نفسه . والجُثْمانية بالخط الذى يَخُطُّه القلم وتقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورةً معقولةً باطنـة صورةً محسوسةً ظاهرة . وفسر الآلةَ بالقلم وبذلك يظهر معنى الحدّ وما يدخل فيه ويخرج عنه؛ ولا شك أن هذا التحديد يشمل جميع ما يُسَطِّره القلم ممـا يتصوّره الذهن ويتخيله الوَهْم فيدخل تحته مطلَقُ الكتابة كما هو المستـفاد من

المعنى اللغوىّ . على أن الكتابة ، وإن كثرت أقسامها وتعدّدت أنواعها ، لاتخرج عن أصلين : همـا كتابة الإنشاء ، وكتابة الأموال وما فى معناهما علىٰ ماسـيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

إلا أنّ العرف فيما تقدّم من الزمان قد خصّ لفظ الكتابة بصـناعة الإنشاء حتّى كانت الكتابة إذا أُطْلقت لا يُراد بها غير كتابة الإنشاء والكاتب اذا أُطلِق لايراد به غير كاتبها حتّى سمّى العسكرىّ كتابه "الصناعتين الشعر والكتابة" يريد كتابة الإنشاء ، وسمّى آبن الأثير كتابه "المَثَل السائر فى أدب الكاتب والشاعر" يريد كاتب الإنشاء إذ هما موضوعان لمـا يتعلق بصناعة الإنشاء من علم البلاغة وغيرها .

ثم غلب فى زماننا بالديار المصرية اسم الكاتب علىٰ كاتب المـال حتّى صار الكاتب إذا أطلق لا يُراد به غيره وصار لصناعة الإنشاء آسمان : خاصّ يستعمله أهل الديوان ويتلفظون به وهو كتابة الانشاء ، وعامّ يتلفظ به عامّة النـاس وهو التَّوْقيع . فأما تسميتها بكتابة الإنشاء فتخصيص لها بالإضافة إلى الإنشاء الذى هو أصل موضوعها وهو مصدر أنشأ الشىءَ إذا آبتدأه أوآخترعه علىٰ غيرمثال يَحْتذيه ، بمعنى أن الكاتب يخترع ما يؤلِّفه من الكلام ويبتكِره من المعانى فيما يكتُبه من المكاتَبَات والوِلَايات وغيرهما أو أن المكاتَبات والوِلاياتِ ونحوَها تنشأ عنه .

وأما تسميتُها بالتوقيع فأصله من التوقيع علىٰ حواشى القِصَص وظُهورِها كالتوقيع بخط الخليفــة أو السلطان أو الوزير أو صـاحب ديوان الإنشاء أو كُتَّاب الدست ومن جرىٰ مَجْراهم بما يُعتَمد فى القضية التى رُفِعت القِصَّة بسببها ، ثم أُطْلِق علىٰ كتابة الإنشاء جملة .

قال آبن حاجب النعمان فى ذخيرة الكُتَّاب : ومعناه فى كلام العرب التأثير القليلُ الخفيفُ ، يقال : جَنْب هذه الناقة مُوَقَّع إذا أثّرت فيه حبال الأحمال تأثيرا خفيفًا .

وحُكِى أنّ أعرابيَّة قالت لجارتها "حديثُك تَرْويع وزيارَتُك تَوْقيع" تريد أن زيارتها خفيفة. قلت: ويحتمل أن يكون من قولهم وَقَع الأمر إذا حَقَّ ولزِم ومنه قوله تعالىٰ ﴿ووَقَعَ القَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا﴾ أى حَقَّ، أو من قولهم وَقَّع الصَّيْقَلُ السيفَ إذا أقبل عليه بمِيقَعته يجلُوه لأنه بتَوقيعه فى الرُّقْعة يجلو اللَّبْس بالإرشاد إلىٰ ما يُعتَمَد فى الواقعة، أو من مَوْقَعَة الطائر - وهى المكان الذى يألفه من حيثُ إن الموقِّع علىٰ الرقعة يألف مكانًا منها يُوقِّع فيه كحاشية القِصَّة ونحوها، أو من الموقعة بالتسكين (١) - وهو المكان المرتفِع فى الجبل لارتفاع مكان الموَقِّع فى الناس وعُلُوّ شأنه أو غير ذلك .

ووجْه إطلاقه على كتابة الإنشاء أنه قد تقدّم أن التوقيع فى الأصل آسم لما يُكْتَب على القِصَص ونحوها وسيأتى أن ما يكتب من ديوان الإنشاء من المُكاتَبَات والوِلايات ونحوها إنما يبنىٰ علىٰ مايخرُج من الديوان من التوقيع بخط صاحب ديوان الإنشاء أو كُتَّاب الدست ومَنْ فى معناهم؛ وحينئذ فيكون التوقيع هو الأصل الذى يَبْنِى عليه المنشئ، وقد يكون سمِّى بأصله الذى نشأ عنه مجازا؛ وقد يعبر عنها بصناعة الترسُّل تسميةً للشيء بأعم أجزائه إذ الترسل والمكاتَبَات أعظم كتابةِ الإنشاء وأعمُّها من حيثُ إنه لا يَستغنى عنها مِلك ولا سُوقةٌ، بخلاف الوِلايات فإنها مختصَّة بأرباب المناصب العليَّة دُون غيرهم؛ وعلىٰ ذلك بنى الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبىّ رحمه الله تسمية كتابه "حُسْن التوسُّل، إلىٰ صناعة الترسُّل" .

---

(١) عبارة اللسان والقاموس والوقع بالتسكين المكان المرتفع من الجبل . فلعل ما فى الأصول من تصحيف الناسخ فتأمل .

الفصـــل الثـانى

(فى تفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة)

قد تقدّم فى الفصل الذى قبله أن الكتابة و إن كثرتْ أقسامها وتعدّدتْ أنواعُها لاتخرج عن أصلين : كتابةِ الإنشاء، وكتابةِ الأموال .

فأما كتابة الإنشــاء فالمراد بها كل مارجع من صــناعة الكتابة إلى تأليف الكلام وترتيب المعانى : من المكاتَبَات والولايات والمسامَحَات والاطلاقات ومناشِـــير الاقْطاعات والهُدَن والأمانات والأيمان وما فى معنى ذلك ككتابة الحكم ونحوها .

وأما كتابة الأموال فالمراد بها كل ما رجع من صناعة الكتابة إلى تحصيل المــال وصَرْفه وما يجرى مَجْرى ذلك ككتابة بيت المــال والخزائن السُّلطانيــة ، وما يُجْبىٰ إليها من أموال الخرَاج وما فى معناه ، وصرف ما يصرف منها من الجارى والنفقات وغير ذلك ، وما فى معنىٰ ذلك ككتابة الجيوش ونحوها ممــا يجرّ القولُ فيه إلى صَنْعة الحُسَّاب ، ولا شك أن لكلٍّ من النوعين قدرًا عظيماً وخَطَرا جسيًا ، إلا أنّ أهــل التحقيق من علماء الأدب ما بَرِحُوا يرجِّحون كتابةَ الإنشاء و يفضلونها و يميزونها علىٰ سائر الكتابات و يقدّمونها ، و يحتجُّون لذلك بأمو ر .

منهــا أن كتابة الإنشاء مستلزِمة للعــلم بكل نوع من الكتابة ، ضرورة أن كاتب الإنشاء يحتاج فيما يكتبُه من ولاياته ومكاتَبَاته مما يتعلق بكتابة الأموال إلىٰ أن يُمَثِّل لهم فى وصاياه من صِناعتهــم مايعتمِدونه ، و يبينَ لهم مايأتونه و يذَرُونه ، فلا بُدّ أن يكون عالمًــا بصناعة مَنْ يكتب له . بخِلاف كاتب الأموال فإنه إنما يعتمد علىٰ رسوم مقرّرة وأُنْمُوذَجات محرّرة لا يكاد يخرج منها ، ولا يحتاج فيهــا الىٰ تغيير ولا زيادة ولا نقص .

ومنها آشتمالُ كتابة الإنشاء علىٰ البيان الدالّ علىٰ لطائف المعانى التى هى زُبَد الأفكار وجَوَاهِرُ الألفاظ، التى هى حِلْية الألسنة، وفيها يتنافسُ أصحابُ المناصب الخطيرة، والمنازل الجليلة، أكثرَ من تنافسهم فى الدرّ والجوهر .

ومنها ماتستلزمه كتابة الإنشاء من زيادة العلم، وغزارة الفضيلة، وذَكاء القريحة، وجَوْدة الرويّة : لمـا يحتاج إليه من التصرف فى المعانى المتداوَلة والعبارة عنها بألفاظ غير الألفاظ التى عَبَّر بهـا مَنْ سـبق إلىٰ آستعمالها مع حِفْظ صورتهـا وتأديتها إلىٰ حقائقها؛ وفى ذلك من المشقّة مالا خفاءَ فيه علىٰ مَنْ مارس الصِّناعة، خصوصًا إذا طلب الزيادة والعُلُو علىٰ مَنْ تقدمه فى آستعمالها، أو حذا حَذْوَ رسوم المبرِّزين الذين ينتحلون الكلام ويُوقِعُونه مواقِعه مع مراعاة رَشَاقة اللفظ، وحلاوة المعنىٰ، و بلاغته ومناسبته مع ما يحتاجه من آختراع المَعَانى الأبكار للأمور الحادثة التى لم يقع مثلُها، ولا سبق سابق إلىٰ كتابتها ـ لأنّ الحوادث والوقائع لاتتناهىٰ ولا تقف عند حدّ .

ومن هنا تنقَّص الوزيرُ ضياءُ الدين بنُ الأثير فى المَثَـل السائر المقاماتِ الحريريَّةَ وآزدراها جانحًا إلىٰ أنها صور موضوعة فى قوالب حكايات مبنيَّة علىٰ مبدإ ومَقْطع بخلاف الكتابة فان أهوالها غير متناهية ؛ ولو رُوعِى حال مايكتبه الكاتب فى أدنىٰ مدّة لكان مثل المقامات مرّات .

ومنها آختصاص كاتب الإنشاء بالسلطان وقُرْبه منه و إعظام خواصِّه وآعتمادهم فى المهمات عليه، مع كونه أحرز (١) بالسلامة من أرباب الأقلام المتصرفين فى الأموال. وقد قال بعض الحكماء : الكُتَّاب كالجوارح كل جارحة منها تَرْفِد الأخرىٰ فى عملها بمـا به يكون فعلها، وكاتب الإنشاء بمنزلة الروح الممازجة للبدن المدبرة لجميع جوارحه وحواسِّه .

(١) لعله مصحف عن أجدر أو أحرى ـ كما سيأتى له بعدُ .

قال فى موادّ البيان "ولا شك فى صحة هذا التمثيل : لأنّ كاتب الإنشاء هو الذى يمثل لكل عامل فى تقليده ما يعتمد عليه ويتصفح ما يرد منه ويصرفه بالأمر والنهى علىٰ ما يؤدّى إلىٰ ٱستقامة ماعَدق به(١)، وهو حلية المملكة وزينتها لمـا يصدر عنه من البيان الذى يرفع قدرَها، ويُعْلِى ذكرها، ويعظم خَطَرها، ويدلُّ علىٰ فضل ملكها، وهو المتصرف عن السلطان فى الوعد والوعيد، والترغيب، والإحماد والإذمام، وٱقتضاب المعـانى التى تُقِرّ الوالِىَ علىٰ ولايته وطاعته، وتَعْطف العدوّ العاصىَ عن عداوته ومعصيته . علىٰ أن بعض المتعصبين قد رجَّح كتابة الأموال علىٰ كتابة الإنشاء بمغالطات أوردها، وتزويرات زخرفها ونَمَّقها، لا تخفىٰ علىٰ متأمّل، ولا تتغطّىٰ علىٰ ذى ذهن سليم .

وقد أورد الحريرىّ فى "المقامة الثانية والعشرين" المعروفة بالفراتيَّة ألفاظا قلائل فى المفاخرة بين كتابتى الإنشاء والأموال فقال علىٰ لسان أبى زيد السروجى .

"اِعلموا أنّ صِناعة الإنشاء أرفَع ، وصناعة الحِسَاب أنْفَع ، وقلَم المكاتبـة خاطب، وقلَم المحاسبة حاطب، وأساطيرَ البلاغة تُنْسَخ لتُدْرَس، ودساتيرَ الحُسْبانات تنســخ وتُدْرَس، والمنشئ جُهَينةُ الأخبار، وحَقيبة الأسرار، ونَجِىُّ العظماء، وكبيرُ النُّدَماء، وقلمُه لسان الدوله، وفارسُ الجَوْله، ولُقْمان الحِكْمه، وتَرْجُمان الهِمَّه، وهو البشير والنذير، والشفيع والسفير، به تُسْتَخْلَص الصَّياصِى، وتُملَك النَّواصِى، ويُقْتاد العاصى، ويُسْتَدْنىٰ القاصى، وصاحبه برىء من التَّبِعات، آمنٌ كيدَ السُّعات، مقرّظ بين الجَمَاعات، غير معرّض لنظم الجِمَاعات .

ثم عقب كلامه بأن قال :

(١) فى الضوء عزق بالعين المهملة والزاى وهو المناسب ولعل مافى الاصل تصحيف .

"إلا أن صناعةَ الحِسَاب موضوعةٌ على التحقيق ، وصناعة الإنشاء مبنيّة على التلفيق ، وقلمَ الحاسب ضابط ، وقلم المنشىء خابط ؛ وبينَ إتَاوة توظيف المعامَلات ، وتلاوة طوامير السِّجلَّات ، بون لا يُدْركه قِياس ، ولا يعتوره التباس ؛ إذ الإتَاوةُ تملأ الأكياس ، والتِّلاوة تفرّغ الراس ، وخَرَاج الأوارِج يُغْنى الناظر ، وٱستخراج المَدَارج يُعَنِّى الخاطر .

ثم إن الحَسَبة حَفَظة الأموال ، وحَمَلة الأثقال ، والنَّقَلة الأثبات ، والسَّفَرة الثِّقات ، وأعلامُ الإنصاف والٱنتصاف ، والشهود المَقَانع فى الٱختلاف ؛ ومنهم المستوفى الذى هو يَدُ السلطان ، وقُطْبُ الديوان ، وقِسْطاس الأعمال ، والمهيمن على العُمَّال ، وإليه المآل فى السِّلْم والهَرْج ، وعليه المدار فى الدَّخْل والخَرْج ، وبه مَنَاط الضَّرّ والنَّفْع ، وفى يَده رِباط الإعطاء والمنع ؛ ولولا قلم الحُسَّاب ، لأودَتْ ثمرةُ الٱكتساب ، ولٱتَّصلَ التَّغابُن إلى يوم الحِساب ، ولكان نظامُ المعاملات محلولا ، وجُرْح الظُّلامات مَطْلولا ، وجِيدُ التناصُف مغلولا ، وسَيْفُ التظالُم مسلولا . على أنّ يراعَ الإنشاء متقوِّل ، ويراعَ الحِساب متأوّل ، والحاسب مناقِش ، والمنشىء أبو بَرَاقِش ؛ ولكلَيْهما حُمَة حين يَرْقى ، إلى أن يُلقى ويُرقى ، وإعْنات فيما يُنْشا ، حتّى يُغشى ويُرشى ﴿ إلَّا الَّذِين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحات وَقَلِيلٌ مَاهُمْ ﴾ " .

قلت : وقد أوردت فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء المشار إليها بالذكر فى خطبة هذا الكتاب مِن فضلِ الكتابة ما يَشْدُو بِذكره المترنِّم ، وأودعتها من شرف الكُتَّاب ما يُذْعِن له الخصم ويسلِّم .

الفصل الثـالث

(فى ترجيح النثر على الشـــعر)

اعلم أن الشعر وإن كان له فضـيلة تخصه ومزية لا يشاركه فيها غيره من حيث تفرّدُه باعتدال أقسامه وتَوازُنِ أجزائه وتَساوِى قوافى قصائده، ممـا لا يوجد فى غيره من سائر أنواع الكلام، مع طُول بقائه على ممرّ الدهور وتعاقب الأزمان، وتداوُله على ألسِـنة الرُّواة وأفواه النَّقَلة لتمكُّنِ القوّة الحافظة منـه بآرتباط أجزائه وتعَلُّقِ بعضها ببعض، مع شُـيوعه وآستفاضته وسرعة آنتشاره وبُعْد مَسيره وما يؤثِّره من الرِّفْعة والضَّعَة باعتبار المدح والهجاء، وإنشاده بمجالس الملوك الحافلة والمواكب الجامعـة بالتقريظ وذكر المفاخر وتعديد المحاسن، وما يحصل عليه الشاعر المُجِيـد من الحِباء الجسيم والمَنْح الفائق، الذى يستحقه بحسن مَوْقِع كلامه من النفوس وما يحدثه فيها من الأرْيحيَّـة، وقبوله لمـا يرد عليه من الألحان المطربة المؤثِّرة فى النفوس اللطيفة والطباع الرقيقة وما اشتمل عليـه من شواهد اللغة والنحو وغيرهما من العلوم الأدبية وما يجرى مَجْراها وما يُستَدَلُّ به منها فى تفسير القرآن الكريم وكلامِ مَنْ أُوتِىَ جوامع الكلم، ومجَامع الحِكم، صلى الله عليه وسلم ! وكونه ديوانَ العرب ومجتمَع تمكنها والمحيط بتواريخ أيامها وذكر وقائعها وسائر أحوالها — إلى غير ذلك من الفضائل الجمَّه، والمَفَاخر الضَّخْمه، فان النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مَقَاما، وأحسن نِظاما، إذ الشعر محصور فى وزْنٍ وقافيةٍ يحتاج الشاعر معها إلى زيادة الألفاظ والتقديم فيها والتأخير، وقصر الممدود ومدّ المقصور، وصرف مالا ينصرف ومنع ماينصرف من الصرف، وآستعمالِ الكلمة المرفوضة وتبديل اللفظة الفصيحة بغيرها، وغير ذلك ممـا تُلْجِئ اليه ضرورةُ الشعر فتكون معانيه تابعةً لألفاظه؛ والكلام المنثور لايُحتاج فيه إلى شيء من ذلك فتكون ألفاظه تابعةً لمعانيه؛ ويؤيد ذلك أنك إذا آعتبرت ما نُقِل

من معانى النثر إلىٰ النظم وجدتَه قد ٱنحطَّت رتبته . ألا ترىٰ إلىٰ قول أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه ! "قيمةُ كلِّ ٱمرئٍ مايُحْسِن" : أنه لمـا نقله الشاعر إلىٰ قوله

فَيَالائِمى دَعْنِي أُغالِي بِقِيمَتِي * فَقِيمةُ كلِّ الناسِ مايُحْسِنُونه

قد زادت ألفاظه وذهبت طَلَاوته ، وإن كان قد أفرد المعنىٰ فى نصف بيت فإنه قد ٱحتاج الىٰ زيادة مثـل ألفاظه مَرَّة أخرىٰ توطئةً له فى صـدر البيت ومراعاةً لإقامة الوزن ، وزاد فى قوله فقيمة فاء مستكرهة ثقيلة لا حاجة إليها وأبدل لفظ ٱمرئ بلفظ الناس ولا شكّ أنّ لفظ ٱمرئ هنا أعذب وألطف ،وغَيَّر قوله يُحْسن إلىٰ قوله يُحْسِنونه ، والجمع بين نونين ليس بينهما إلا حرف ساكن غير معتدّ به مستوخَم ،وإذا ٱعتبرت ،انقِل من معانى النظم إلىٰ النثرِ وجدته قد نقصت ألفاظه وزاد حُسْنًا و رَوْنقا ألا ترىٰ إلىٰ قول المتنبي يصف بلدا قد عُلِّقت القَتْلىٰ علىٰ أسوارها ؟ :

وكانَ بها مِثْلُ الجُنُونِ فأصبحَتْ * ومِن جُثَثِ القَتْلىٰ عليها تَمَـائِم

كيف نثره الوزير ضيـاء الدين بن الأثير فى قوله يصف بلدا بالوصف المتقدّم : "وكأنما كان بها جُنُون فبعث لها مِن عزائمه عزائِم ،وعَلّق عليها من رءوس القتلىٰ تمائم" فإنه قد جاء فى غاية الطَّلاوة خصوصا مع التورية الواقعـة فى ذكر العزائم مع ذكر الجنون؛ وهذا فى النظم والنثر الفائقين ولا عبرة بمـا عداهما .

وناهيك بالنثر فضيلةً أن الله تعالى أنزل به كتابه العزيز ونورَه المبين الذى ﴿لايَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ﴾ ولم ينزله على صفة نظم الشعر بل نزَّهه عنه بقوله ﴿وَمَا هُوَ بقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ وحرّم نظمه علىٰ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم تشريفًا لمحلِّه وتنزيهًا لمَقَامه منها علىٰ ذلك بقوله ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِى لَهُ﴾ وذلك أن مقاصد الشعر لا تخلو عن الكذب والتحويل علىٰ الأمور المستحيلة ، والصفات

المجاوِزة للحدّ، والنعوتِ الخارجة عن العادة، وقذف المُحْصَنات، وشهادة الزُّور، وقول البهتان، وسبِّ الأعراض، وغير ذلك مما يجب التنزه عنه لآحاد الناس فكيف بالنبي صلى الله عليه وسلم! ولا سيما الشعر الجاهليّ الذى هو أقوى الشعر وأفحله . بخلاف النثر فإن المقصود الأعظم منه الخُطَب والترسُّل ، وكلاهما شريف الموضوع حسن التعلق، إذ الخُطَب كلام مبنيّ على حمد الله تعالى وتمجيده وتقديسه وتوحيده والثناء عليه والصلاة على رسوله صلى الله عليه وسلم ، والتذكير والترغيب فى الآخرة والتزهيد فى الدنيا والحض على طلب الثواب ، والأمر بالصَّلاح والإصـلاح ، والحث على التعاضُد والتعاطُف ، ورَفْض التباغُض والتقاطُع ، وطاعة الأئمة ، وصلة الرحم ، ورعاية الذمم ، وغير ذلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ ممـا هو مستحسَن شرعًا وعقلا . وحَسْبُك رتبـةً قام بها النبي صلّى الله عليه وسلم ! والخُلَفاءُ الراشدون بعده . والترسُّل مبنيّ على مصالح الأمة وقِوام الرعية لمـا يشتمل عليه من مكاتبات الملوك وسَرَاة الناس فى مهمّات الدِّين وصلاح الحـال وبيْعات الخلفاء وعُهُودهم ، وما يصـدُر عنهم من عهود الملوك، وما يلتحق بذلك من وِلايات أرباب السيوف والأقلام الذين هم أركان الدولة وقواعدها . إلى غير ذلك من المصالح التى لا تكاد تدخُل تحت الإحصاء ولا يأخذها الحصر .

قال فى موادّ البيـان " وقد أحسَّت العرب بانحطاط رتبـة الشِّعر عن الكلام المنثور كما حُكِي أن آمرأ القيس بن حُجْر همَّ أبوه بقتله حين سمعه يترنَّم فى مجلس شرابه بقوله :

أسْـقِيَا حُجْرًا على عِلَّاته * مِنْ كُمَيْتٍ لَوْنُها لَوْنُ العَلَق

وما يروى أنّ النابغة الجعدىّ كان سيدا فى قومه لايقطعون أمرا دُونه وأنّ قول الشعر نقصه وحطّ رُتْبته". قال: "ولا عبرة بما ذهب إليه بعضهم من تفضيل الشعر علىٰ النثر آتباعا لهواه بدون دليل واضح".

قال فى الصناعتين: "ومع ذلك فإن أكمل صفات الخطيب والكاتب أن يكونا شاعرين كما أن مِن أتم صفات الشاعر أن يكون خطيبا كاتبا". قال: "والذى قصَّر بالشعر كثرتُه وتعاطِى كل أحد له حتّى العامّة والسِّفْلة فلحقه بالنقص (1) مالحق الشِّطْرَنْج حين تعاطاه كل أحد". وسيأتى الكلام علىٰ آحتياج الكاتب للشعر فى بيان مايحتاج إليه الكاتب فيما بعدُ إن شاء الله تعالى!

الباب الثالث

فى صفاتهم وآدابهم؛ وفيه فصلان

الفصل الأوّل

(فى صفاتهم؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الصفات الواجبة التى لايسع إهمالُها؛ وهى عشر صفات)

الصفة الأولى، الإسلام — ليؤمَن فيما يكتبه ويُمْليه. ويُوثَق به فيما يذَره ويأتيه إذ هو لسان المملكة، المرهبُ للعدوّ بوقع كلامه، والجاذبُ للقلوب بلطف خطابه فلا يجوز أن يولّى أحد من أهل الكفر، إذ يكون عينا للكفّار علىٰ المسلمين، ومُطْلعا لهم علىٰ خفَايَاهم فيصلون به إلىٰ ما لايمكن آستدراكه، وقد قال تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ

(1) لعله من النقص وحرر.

آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ والمراد بالبطانة فى الآية من يَطّلع علىٰ حال المسلمين كالاطّلاع علىٰ مقدار خزائنهم من المـال، وأعداد جيشهم من الخيل والرجال .

قال أبو الفضل الصُّورى فى تذكرته "وإن من الفِطرة التى جُبل كل أحد عليها حنينَ كل شخص من الناس إلىٰ مَن يرىٰ رأيه ويدين دِينه" قال : "وهذا أمر يجده كل أحد فى نفســه ، ولذلك شرط بعضهم فى الكاتب أن يكون علىٰ مذهب المِلك الذى يتمذهب به من مذاهب المسلمين ليكون موافقا له من كل وجه".

ولـما فتحت الصحابة (رضوان الله عليهم) مصر ، بعث عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلىٰ عمرو بن العاص يأمره أن لا يستعمل فى عمل من أعمـال المسلمين كافرا فأجابه عمرو : بأن المسلمين إلىٰ الآنَ لم يَعْرِفوا حقيقة البلاد ، ولم يَطَّلِعوا علىٰ مقادير خراجها ، وقد اجتهدْتُ فى نصرانىّ عارف منسوب إلىٰ أمانة إلىٰ حين معرفتنا بهـا فنعزله ، فغضب عمر رضى الله عنــه وقال : كيف تؤمِّنهم وقد خوّنهم الله؟ وكيف تُعزُّهم وقد أذلهم الله؟ وكيف تقرّبهم وقد أبعدهم الله؟ ثم تلا ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾ الآية وقال فى آخر كتابه "مات النصرانىّ والسلام".

وقد روى أن أبا موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قدم علىٰ عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومعه كاتب نصرانىّ فأُعْجِب عمرُ بخطه وحسابه ، فقال عمر "أحضر كاتبك ليقرأ" فقـال أبو موسى "إنه نصرانىّ لايدخل المســجد" فَزَبَره عمر رضى الله عنــه وقال "لاتؤمِّنوهم ، وقدخوّنهم الله ، ولا تُدْنوهم ، وقد أبعدهم الله ، ولا تُعزُّوهم وقدأذلهم الله".

وقد قال الشافعى رضى الله عنه فى كتابه الأمّ : "ماينبغى لقاضٍ ولا والٍ أن يتخذ كاتبا ذمِّيا ، ولا يضعَ الذمىّ موضعا يفْضُل به مسلما . ويَعزُّ علىٰ المسلمين أن يكون لهم

حاجة إلى غير مسلم . وجزم الماوردى والقاضى أبو الطيب والبندنيجى وابن الصباغ وغيرهم من أصحابنا الشافعية رحمهم الله أنه يشترط فى كاتب القاضى أن يكون مسلما وهو الأصح الذى عليه الفتيا فى المذهب .

وإذا اشترط الإسلام فى كاتب القاضى والوالى ففى كاتب السلطان أولى لعموم النفع والضرّ به .

قال أبو الفضل الصُّورى : "ولا شك أن كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى فى أثناء محاوراته وفصول مكاتباته ، والتمثل بنواهيه وأوامره ، والتدبر لقوارعه وزواجره ؛ وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات ؛ وهو الذى يشدّ قوى الكلام ، ويثبّت صحته فى الأفهام ؛ فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن ، عاريةً من الفضائل : لأنه الحجة التى لا تُدْحَض ، والحقيقة التى لا تُرْفَض ؛ فإذا كان الكاتب غير مسلم لم يكن لديه من ذلك شيء ، وكانت كتابته مغسولةً من أفضل الكلام . وخاليةً مما يتبرك به أهل الإيمان والإسلام . ومقصّرةً عن رتبة الكمال . ومنسوبة إلى العجز والإخلال . فإن تعاطى الكاتب الذمىّ حفظ شيء منه وكتبه فقد أُبيحت حرمة كتاب الله تعالى وانتهكت ، وأمكن منه مَنْ يتخذه هُزُوا ولعبا والله سبحانه يقول فى كتابه المكنون ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ . فقد صح أنه لا يجوز أن يرقى إلى هذه الرتبة إلا مسلم" قال : "ولا يُحتج بالصابئ وأنه كتب للطيع والطائع من خلفاء بنى العباس ، ومعزّ الدولة ، وعز الدولة من ملوك الديلم ، وهما يومئذ عُمْدة الإسلام وعَضُد الخلافة ، وهو على دين الصابئة . فإن الصابئ كان من أهل ملة قليلٍ أهلها ، ليس لهم ذكر ولا مملكة ، وليس منهم محارب لأهل الإسلام ، ولا لهم دولة قائمة فتُخشى غائلته وتُخاف عاقبتُه .

الصفة الثانية، الذكورة — فقد صرَّح أصحابنا الشافعية، بأنه يُشْتَرط فى كاتب القاضى أن يكون ذكرا، وإذا آشـتُرِط ذلك فى كاتب القاضى ففى كاتب السلطان أولىٰ لما تقدّم من عموم النفع والضرّ به . وقد روى أن عمر بنَ الخطاب رضى الله عنه قال فى حق النساء "جَنِّبوهُنّ الكتابَةَ، ولا تُسْكنُوهُنَّ الغُرَف، وآستَعينُوا عليهن بلا : فانَّ نعم تُضَرِّيهِنَّ فى المسألة" . ومرّ علىّ كرّم الله وجهه علىٰ رجل يعلّم آمرأة الخط . فقال " لَا تَزِدِ الشَّرّ شَرّا " .

ورأىٰ بعض الحكماء آمرأة تتعلم الكتابة فقال : "أفعىٰ تُسقىٰ سُمًّا" ولله البسامىّ حيث يقول ! :

ما لِلنِّســـاءِ ولِلْكِتَا * بةِ والعِمَالَة والخطَابَهْ !
هٰـذا لَنَـا ولَهُنَّ مِنَّـا * أن يَبِتْنَ علىٰ جَنَـابَهْ

فإن قيــل : قد كُنّ جماعةٌ من النساء يكتبْنَ ولم يرِد أن أحدا من السلف أنكر عليهن ذلك . فقد روىٰ أبو جعفر النحاس بسنده إلىٰ الحسن أن عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها ! كانت تكتُب فى مكاتباتها بعد البسملة : من المُبَرَّأة عائشــةَ بنتِ أبى بكرٍ حبيبةِ حبيبِ الله . وحكى جعفر بن سـعيد أنه ذُكِر لعمر بن مَسْعدة كاتبِ المأمون توقيعاتُ جعفر بن يحيىٰ فقال : " قرأتُ لأمِّ جعفر توقيعاتٍ فى حواشى الكُتُب وأسافلها فوجدتها أجود آختصارا وأجمـعَ للمعـانى " . وذكر محمد بن علىّ المدائنى فى كتاب القــلم والدواة أن عاملا لزُبَيْـدَةَ كتب إليها كتابا فوقَّعتْ فى ظهره "أنْ أصلِحْ كتابَك وإلّا صَرَفْناك عن عَملك" فتأمله فلم يظهر له فيه شىء، فعرضه علىٰ بعض إخوانه فرأىٰ فيه فى الدعاء لها وأدام كرامتَك، فقال : "إنها تخيلتْ أنك دعوتَ عليها فإنّ كرامة النساء دَفْنُهنّ" فغيّر ذلك وأعاد الكتاب إليها فقبلته ؛ ومَنْ كان هذا شأنه فكيف يقال أنه لم يؤهل للكتابة ؟ .

فالجواب أن حديث عائشة لم يصرَّح فيه بأنها كتبتْ بنفسها ولعلها أمرت مَنْ يكتب فكتب كذلك بإملائها أو دُونه، وإن ثبت ذلك عنها فغيرها لا يُقاس عليها؛ ومَنْ عداها من النساء لا عِبْرة به .

الصفة الثالثة، الحُرّية — فقد شرطوا فى كاتب القاضى أن يكون حرا : لما فى العبد من النقص، فلا يُعتمَد فى كل القضايا، ولا يُوثَق به فى كل الأحوال؛ فكاتب السلطان كذلك بل أولىٰ كما تقدّم.

الصفة الرابعة، التكليف — كما فى كاتب القاضى فلا يعوّل علىٰ الصبيّ فى الكتابة إذ لا وُثوقَ به ولا ٱعتمادَ عليه .

الصفة الخامسة، العَدَالة — فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا فإنه بمنزلة كبيرة، ورتبة خطيرة، يحكُم بها فى أرواح الناس وأموالهم : لأنه لو زاد أدنىٰ كلمة أو حذف أيسَرَ حرفٍ أو كتم شيئًا قد علمه أو تأوّل لفظا بغير معناه أو حرّفه عن جهته، أدّى ذلك إلى ضرر مَنْ لا يستوجب الضرر، ونَفْع مَنْ يجب الإضرار به، وكان قد موّه علىٰ الملك حتّى مدح المذمومَ وذمّ الممدوح . فمتىٰ لم يكن له دِين يحجُزُه عن ٱرتكاب المآثم ويَزَعُه عن ٱحتقاب المحارم كان الضرر به أكثر من الآنتفاع، وأثَّر فعله من الأضرار مالم تؤثِّره السيوف، ولله القائل !

وَلَضَرْبةٌ مِنْ كاتِبٍ بِبَنَانِهِ * أَمْضىٰ وأَقْطَعُ مِن رَقِيقِ حُسَامِ
قَوْمٌ إذا عَزَمُوا عَداوةَ حاسِدٍ * سَفَكُوا الدِّما بِأَسِنَّةِ الأَقْلامِ

وأيضا فإنه لا يُقْبل قول الفاسق فتضِيعُ به المصالح، وربما حمله الفِسْق وعدم الاكتراث بأمور الدِّينِ علىٰ وَهْن يدخله علىٰ الدِّين بقلمه، أو ضرر يجْلُبه بلسانه .

وأيضا فالكتابة وِلاية شرعية والفاسق لا تصح توليتُه شيئًا من أمور المسلمين؛ وقد أطلق القاضى أبو الطيبِ والمـاوردِىُّ من أصحابنا الشافعيـة القولَ باشـتراط العَدالة فى كاتب القاضى فيجب مثلُه فى كاتب السلطان بل أَوْلىٰ على ما تقدّم .

الصفة السادسة، البَلاغة — بحيث يكون منها بأعلىٰ رُتْبـة وأسنىٰ منزلة؛ فإنه لسان السلطان الذى يَنْطِق به، ويدُه التى بهـا يكتُب . ورُبَّ كاتبٍ بليغ أصاب الغرض فى كتابته فأغنىٰ عن الكتائب، وأعمل القلم فكفاه إعمالَ البيضِ القواضِب؛ واذا كان جَيِّد الفِطْنة صائبَ الرأى حسَنَ الألفاظ، تتأتّى له المعانى الجَزْلةُ فيجلوها فى الألفاظ السهلة، ويختصر حيث يكون الاختصار، ويُطيـل حيث لايجد عن الإطالة بُدًا ويتهدّد فيملأ القلوبَ رَوْعةً، ويشْكُر فيُلْقِى علىٰ النفوس مَسَرَّة؛ وإن كتب إلى ملك كبير وذى رتبة خطيرعَظَّم مملكة سلطانه وفخَّمها فى معَارض كلامه من غير أن يُوجد أن ذلك قَصْدُه .

الصفة السابعة، وُفُور العقل، وجَزَالة الرأى — فان العقل أُسُّ الفضائل وأصلُ المناقب؛ ومَنْ لا عقلَ له لا انتفاع به، وكلام المرء ورأيُه علىٰ قدر عقله؛ فاذا كان تامّ العقل كامل الرأى، وَضَع الأشـياء فى مكاتَباته ومخاطَباته فى مواضـعها، وأتىٰ بالكلام مِن وجهه، وخاطب كلَّ أحد عن سلطانه بمـا يقتضيه الحـال التى يكون عليها؛ فيشتدّ ما كانت الشدّةُ نافعة، ويلِين حينَ يكون إلىٰ اللِّين محتاجًا، ويُوَبِّخ مَنْ لا يقتضى فعـلُه أكثَرَ من التوبيخ، ويذُمُّ مَن تعدّىٰ الى ما يستوجب الذمّ؛ ويأتى بالمكاتبات التى يقتضيها اختلاف الأحوال واقعةً مواقعَها صائبةً مراميَها .

الصفة الثامنة، العِلم بموادّ الأحكام الشرعية، والفنون الأدبية، وغيرها مما يأتى بيـانه — إذ الجاهل لا تمييزَ له بين الحق والباطل، ولا معرفةَ تُرْشِـده إلى الطرق المعتبرة فى الكتابة؛ ومَنْ سلك طريقا بغيردليل ضل . أو تمسك بغير أصل زَلّ .

الصفة التاسعة، قوة العزم وعلو الهمة وشرف النفس — فإنه يكاتب الملوك عن ملكه. وكل كاتب يجذبه طبعه وجبلته وخيمه فى الكتابة إلى ما يميل إليه؛ ومكاتبة الملوك أحوج شىء إلى التفخيم والتعظيم، وذكر التهاويل الرائعة والأشياء المرغبة؛ فكلما كان الكاتب أقوى نفسا وأشد عزما وأعلى همة، كان فى ذلك أمضى وعليه أقدر، ومهما نقص فى ذلك نقص من كتابته.

الصفة العاشرة، الكفاية لما يتولاه — لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن فى أمر المسلمين؛ وربما عاد عليهم عجزه بالوبال، أو أدى بهم ضعفه إلى الاضطراب والاختلال.

الضرب الثانى
(الصفات العرفية)

قال المهذب بن مماتى فى كتابه "قوانين الدواوين": "ينبغى أن يكون الكاتب أديبا، حاد الذهن، قوى النفس، حاضر الحس، جيد الحدس، حلو اللسان، له جراءة يثبت بها الأمور على حكم البديهة، وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر له على حد الروية، شريف الأنفة، عظيم النزاهة، كريم الأخلاق، مأمون الغائلة، مؤدب الخدام".

قال محمد بن ابراهيم الشيبانى: من صفة الكاتب اعتدال القامة، وصغر الهامة، وخفة اللهازم وكثاثة اللحية، وصدق الحس، ولطف المذهب، وحلاوة الشمائل، وخطف الإشارة، وملاحة الزى. قال: ومن حاله أيضا أن يكون بهى الملبس، نظيف المجلس، ظاهر المروءة، عطر الرائحة، دقيق الذهن، حسن البيان، رقيق حواشى اللسان، حلو الإشارة، مليح الاستعارة، لطيف المسلك، مستفره المركب،

ولا يكون مع ذلك فَضْفَاضَ الجثة، متفاوِت الأجزاء، طويل اللحية، عظيم الهامة؛ فإنهم زعموا أن هذه الصفات لا يليق بصاحبها الذكاء والفطنة؛ ولله القائل!

وشَمُولٍ كأنَّما آعتصَرُوها * مِنْ مَعانِى شَمَـائِلِ الكُتَّابِ"

وقال أبو الفضل الصُّورىُّ: "ينبغى أن يكون الكاتب فصيحًا بليغًا أديبًا، سنِىّ الرتبـة، قوىّ الحجة، شديد العارضة[(١)]، حَسَن الألفاظ؛ له مَلَكة يقتدر بها علىٰ مدح المذموم وذم المحمود".

قال المهذب بن مماتى: "أمّا حُسن الهيئة فإنه يرجع فى ذلك إلىٰ ما يعلمه من حال مخدومه من إيثاره إظهار نعمته علىٰ مَنْ هو فى خدمته أو إخفائها". قلت: وهذا قد يخالف ما تقدّم: من أنه ينبغى أن يكون الكاتب بهِىَ المَلْبَس. وبالجملة ففصاحة اللسان، وقوة البيان، والتقدُّمُ فى صناعة الكتابة هو الذى يرفع الرجل ويعظِّمه دون أثوابه البهية، وهيئته الزاهية. بل ربمـا كان التعظيم فى الفضل لرَثِّ الحالة المنحط الجانب أكثَرَ، وترجيحه علىٰ غيره أقرب.

وقد قال سهل بن هرون كاتبُ المأمون، وهو من أئمة هذه الصناعة: "لو أنّ رجلين خَطَبا أو تحدّثا أو آحتجّا أو وصَفَا وكان أحدهما جميلا بهيّا، ولَبّاسا نبيلاً. وذا حسب شريف؛ وكان الآخر قليـلا قميئًا: وباذَّ الهيئة دميـا[(٢)]، وخامل الذِّكْر، مجهولا: ثم كان كلامهما فى مقدارٍ واحد من البلاغة، وفى دَرْب واحد من الصواب، لتصدّع عنهما الجمع وعامّتهم يقضى للقليل الدميم علىٰ النبيل الجسيم، وللباذِّ الهيئة علىٰ ذى الهيئة؛ ويشغَلهم التعجُّب منه عن مناوأة صاحبه، ولصار التعجب علىٰ مساواته له سببا للتعجب به، والإكثار فى شأنه علة للإكثار فى مدحه. لأن النفوس كانت له أحقر، ومن بيانه أيأس، ومن حسده أبعد؛ فلما ظهر منه خلافُ ما قدّروه وتضاعف

(١) فى الأصل المعارضة وهو تصحيف من الناسخ.
(٢) هو فعيل من دم الرجل باهمال الدال بمعنى قبح منظره و إعجامه فى الأصول تصحيف فتنبه.

حُسْن كلامه فى صدورهم كبُر فى عيونهم : لأن الشىء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أبعدَ فى الوهم كان أظرف ، وكلما كان أظرفَ كان أعجب ، وكلما كان أعجب كان أبدع ، وإنما ذلك كنوادر الصِّبيان ومُلَح المجانين ؛ فإنّ آستغراب السامعين لذلك أعجب ، وتعجُّبهم منه أكثر". قال : "والناس مُوَكَّلون بتعظيم الغريب وآستطراف البديع ، وليس لهم فى الموجود الراهن ولا فيما تحت قدرتهم من الرأى والهوىٰ مثلُ الذى معهم فى الغريب القليل وفى النادر الشاذ ، وعلىٰ هذا السبيل يستظرفون القادم إليهم ، ويرحلون إلىٰ النازح عنهم ، ويتركون مَنْ هو أعَمُّ نفعا ، وأكثر فى وجوه العلم تصرفا ، وأخف مؤنةً وأكثر فائدة"" .

الفصـــل الثـانى

(فى آداب الكُتّاب ، وهى علىٰ نوعيْن)

النـــوع الأوّل

(حُسْن السيرة وشرف المذهب ، ولذلك شروط ولوازم)

منها اعتماد تقوىٰ الله تعالىٰ فى الإسرار والإعلان ، والإظهار والإبطان ، والمحافظةُ عليها ، والآستنادُ إليها فى مبادى الأمور وعواقبها . فإنها العُروة التى لا تنفصم ، والحبل الذى لا ينصرم ، والركن الذى لا ينهدم ، والطريق التى مَنْ سلكها آهتدىٰ ، ومَنْ حاد عنها ضلَّ وتردّى ؛ والمحافظةُ علىٰ شرائع الدين التى فرضها الله تعالىٰ علىٰ خلقه ، والحَذَرُ من الآستخفاف فيها بحقه ، وتَوَقِّى غضبه بتأديتها ، والآستجنان من شقاء الدنيا والآخرة بتوقّيها[1] .

(١) كذا فى الأصول من الوقاية ولعله بتوفيتها من الوفاء تأمل .

ومنها طلب الأجر[١] بما يُنيله من عز سلطانه ويُجْدِيه من فواضل نعمائه؛ وهذا هو أصح الأغراض التى يجب علىٰ كل عاقل أن يقدّمه علىٰ كل غرض، ويحصُلَ منه علىٰ السهم الوافر؛ فلا خير فى دنيا تنقطع السعادةُ عنها، وإنما السعادة بعد الموت ﴿ والدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ ﴾؛ ومن آختار الفانى المنصرم علىٰ الباقى الدائم، فقد خَسِرت صفقته، وبارَتْ تجارتُه .

والطريق الموصِّل إلىٰ هــذا المقصِد صلاحُ النية فيما يتولاه من أمور السلطان، وقصدُ النفع العامِّ له ولرعيته، والآجتهادُ فى إغاثة الملهوف، والأخذ بيد الضعيف، والنفع بجاهه عند سلطانه، وحمله علىٰ العدل فى الرعيّة، فإذا توخّى ذلك فاز بثواب الله تعالىٰ، وقضى حقَّ السلطان فيما عرضه له من الشكر والأجر، وقابل نعمة الله التى أقدره بها علىٰ هذه الأفعال الجميلة بما يرتبطها عنده ويستقرّ بها لديه .

ومنها : مجانبة الرِّيَب والتنزهُ عنها، والطهارةُ منها . فانها تُسْخط الله تعالى، وتَذْهب بمَهَابة المرء، وتُسْقطُه من العيون والقلوب . وأحقُّ مَنْ راعىٰ ذلك من نفســه مِنْ بين أتباع السلطان أهل هــذه الصناعة لآختصاصهم به، ولُطْف منْزِلتهم عنــده . إذ المشهور عند نَقَلَة الآثار أن الذين تقدّموا من صدورها ومشايخها كانوا من جِلَّة العلماء، وسادة الفقهاء، وأفاضل أهل الورع، المبرئين من الدَّنَس والطمَع، المميزين علىٰ القضاة والحُكّام، فى الاستقلال بعلوم الإسلام؛ المتميزين عنهم بفضل الآداب، ورواية الأشعار، والعلم بالأيام والسير، والآرتياض بآداب الملوك وعِشرتهم ورسوم صحبتهم، وغير ذلك ممــا ينتظم فى صناعتهم . فقد ساوَوْهم فى علم الدِّين، وفاقُوهم فيما تقدّم ذكره مما لا يشاركونهم فيه . والسلطان والدِّين قرينان لا يفترقان، وعَوْنان علىٰ صلاح البلاد والعباد، فلا يحتمل السلطان ما ينكره الدِّين لأنه تابعه ورديفه .

(١) أى الثواب ولعله مصحف عن الآخرة كما يدل عليه السياق .

ومنها لزوم العَفَاف والصِّيانة فيما يتولاه للسلطان من أعماله، ويتصرف فيه من أشغاله، والتعفف عن المطامع الذميه. والمَطَاعم الوخيمه، والترفُّع عن المكاسب اللئيمه؛ فان ذلك يجمع القُرْبة إلىٰ الله تعالىٰ والحُظْوة عند السلطان، وجميلَ السيرة عند الرعية — حتّى إن هذه الطريقة قد تقدّم بها عند السلطان المتخلفون فى الفهم والمعرفة، وسادوا على مَنْ لايقاربونه فى غَنَاء ولا كفاية، وحصلوا على الأحوال السنية، والمنازل العلية؛ وقرب بها مَنْ كان بعيدا على من كان قريبا، ومن لا مكانةَ له ولا حرمة علىٰ من له مكانة وحُرْمة، وٱستُدْنِيَ لأجلها مَنْ لا يترشح لخدمة السلطان. ثم الذى يلزمه أن يعتمد التمسك بالصيانة والعَفَاف الذى عليه نظام معيشته، والٱرتفاق فيما يحل و يطيب له من جاه خدمته — فانه قد قيل "الزم الصحة يلزمك العمل"(١). لا أنه يمتنع من المنافع التى تصل إليه من أطيب المكاسب، وتسلم من تبعات العاجل والآجل، وتخلُص من قبيح الأُحْدوثة و إطلاق أَلْسُن الحَسَدة بالطعن والتأنيب، و ينال بجاه السلطان ونفوذ الأمر من غير خيانة للمؤتمن ولا اشتكاء للرعية — فانه اولا هذه المنافع لغنِي الانسان بالقَنَاعة، ورضِي بالكَفَاف، وسلم من المخاطرة بدينه ودنياه فى سلامة السلطان. اذ لايجوز أن يستفرغ وُسْعه و يعرّض نفسه للخطر فيما لاتحسن له عائده، ولا تخلص منه فائده، فى جاه ولا مال. وقد عُلِم ما كان عليه أهل هذه الطبقة فى سائر الدول وما حصلوه من الذخائر وٱقتنَوْه من القُنْيات النفيسة، التى أقدرتهم علىٰ إظهار مُرُوءاتهم، واتخاذ الصنائع عند الأحرار، وحراسة النعم علىٰ الدوائر(٢) والأعقاب. و إنما حصلوا علىٰ ذلك من حيث معرفتهم بوجوه المكاسب، وأبواب المرافق، لا من الخيانة وذميم الطعم(٣) — لأنهم كانوا فى أزمنة لايغضىٰ فيها عن متَكَسِّب من رشوة ولا مصانعة ولا اغتصاب ولا سبب من أسباب الظلم وان جلت منزلته وعظمت مرتبته

(١) هكذا بالأصل. (٢) لعله علىٰ الذرارى تأمل. (٣) لعله الطمع.

ومنها طلب الثناء والحمد وهو من أفضل المقاصد السنية وأعلاها رتبة — لأنه يتلو الأجر فى البقاء والدوام ، وكلما كانت الهمة أعظم وأشرف ، كانت اليه أرْغَبَ و به أكْلَفَ . ولفضل هذا رغب فيه الاشراف وعِلْية الناس حتّى قال الخليل عليه السلام ﴿واجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ . وأوْلى الناس باقتناء ذخائر الحمد واقتراض فرض الشكر من عرّض الله تعالى جاهه ، وطوّل يده ، وأمضىٰ عند السلطان لسانه ، فينبغى أن يختار هذه المَكْرُمة ، ويقوم بالنصيب الأوفَر منها ، ولا يَبْخَل بجاهه ولا ماله علىٰ قاصـد ولا مؤمل ولا ذى رَحِم وذِمَام ، ولا يُضَجِّع فى أمر بطانتـه وحاشيته وأصحابه ، ولا يضَيِّق عليهم مع سَعَته ، ولا يقصِّر بهم فى كِفَايته ، ويجعل اكتسابها بجاهه وماله دون أموال سلطانه — فإن كثيرا من المتصرفين بذلوا ماأؤتُمنوا عليه فى هذا الغرض ورَضُّوا به أهل الشفاعات والرسائل ، فأعقبهم ذلك زوالَ النعم ، وسقوطَ الرتبة وذَهابَ المـال ، والوسمَ بِميسم الخيانة والبَوَار إلىٰ الأبد . ولا يبالغ فى ابتناء المعالى واقتناء المحامد وبذل الرغائب وارتفاع الهمم ، فإن ذلك مما يختص بالملوك ولا ينبغى لأحد من أتباعهم من كاتب ولا غيره الإقدام عليه مُفاخِرا ولامُكاثِرا ولا مقايِسا ، فيكون قد عدا طَوْره ، وأضلّ رُشْده ، وتعرّض للعَطَب مع سلطانه ، وأوجد الطريق إلىٰ سُوء الظن به ، وفوّق سهام الحَسَدة إليه ، وأطلق ألسنتهم بالطعن عليه ؛ وربمـا أدّى به ذلك إلىٰ سقوط المنزِلة ان سلمت نفسه .

ومنها الاقتصاد فى طلب اللذة ، والاقتصار من ذلك على ما يُقيم المُروءة من أفضل الأخلاق وأشرفها : بأن يكون تناوُلُهم ما يتناولونه من ذلك بسلوك طريقـة محمودة يظهر فيها أثر التدبير السديد والرأى الأصيل ، من غير خروج الى الإقبال علىٰ اللذات ، والانهماك فى الشهوات . فان ذلك غيرُ مستحسَن لملِك ولا سُوقة لأنه جالب للأسقام ، قاطع عن الأمور المهمة التي يجب صرف العناية إليها فى صلاح المعاش

وأمر الآخرة؛ ولكن لا يكلَّف تركَ اللذات جملة — اذ لا بد لكل أحد من ذوى الرتبة العلية من الأخذ بنصيب منها ، لما جُبِلت عليه الطبائع من الميل إليها والرَّغبة فى الاستمتاع بالنعم والملاذ ولكل منها حظ يضاهى رتبته .

وأهل هذه الصناعة لاختلاطهم بالملوك ومشاركتهم لهم فى آدابهم لا غنى بهم عما يقيم مروءاتهم من اللذات المشابهة لأقدارهم ومواضعهم من السلطان .

النـــوع الثـانى

حُسْن العِشْرة — التى هى من أفضل الخلائق الموجودة فى الغرائز طبعا والحاصلة بالتخلق تكسبا وتطبعا ، وأعونها لمصالح الحياة والمعاش ومحبة الخاصة والعامّة وحصول الثناء والشكر والمودّة من الأفاضل الأخيار ، وكفاية الأراذل الأشرار ، وان لم يلتزمها الكاتب طوعا حمل عليها كرها .

واعلم أن أدب المعاشرة على خمسة اضرب :

الضرب الأوّل

(عِشْرة المـــلوك والعظماء)

قال علىّ بن خلف : ولا يقُوم بآدابها وأكمل رسومها إلا مَنْ علَتْ فى الأدب درجَتُه ، وسَمَتْ فى رَجَاحة العقل منزلته ، وتميَّزَ بغريزة فاضــلة وأدب مكتَسَب ، وصبَرَ على المشاقِّ فى التحلِّى بالهمم الشريفة ، والسموّ إلى المنازل اللطيفة ، من عز السلطان ومساعدة الزمان ، وتمكَّنَ من تصريف النَّفْســيْنِ الحيوانية والشهوانية على أغراض الناطقية ومطاوعتها ، وأخْذِهما بقبول ما تُرْشد اليه وتبعث عليه لأن صحبة السلطان أمر عظيم وصاحبَه راكب خَطَر جسيم ، بتمليكه نفسه لمتحكم فى شَعره و بَشَره ، قادر على نفعه

وضُره؛ لا يردّه عن مقابلته على يسير الخيانة بكبير النّكاية إلا ما يؤمِّل من صَفْحه ومسامحته، و يرجو من عَطْفه و رأفته . وأوّل ما يجب علىٰ المتصل بخِدمة السلطان النظرُ فى عواقب أموره وحفظُ نفسه من جَرِيرة يجُرّها عليها باغفاله فرضا من فروض طاعته، وتضييعه المحافظةَ علىٰ حقوق خِدْمته، والعلم بأن لكل مصحوب خُلُقا يغلب عليه، و يرجع بغرِيزة الطبع اليه، لا يمكنه النزوع عنه ولا المفارقةُ له؛ إذ الآنتقال عن الطِّباع، شديد الامتناع، فى الخدم والأتْباع؛ فكيف الملوكُ والرؤساءُ الذين لا يقابَلُون بلوم علىٰ خُلُق مذموم؛ بل العـادة جارية فى أدب خَدَمتهم بأن يصوّبوا ما يركبونه من خطإ ويُحَسِّنُوا ما يواقعونه من قبح. فعليه أن ينزل عن أخلاقه لأخلاق سلطانه، وما خالف سجيته فى إصـلاح زمانه؛ وأن ينزل عن هواه لهواه، و يتّبعَ فيما يَسْخَطه و يأباه، ما يُؤثره سلطانه و يرضاه . و ينبغى أن لا يعرّض نفسَه لمـا يُسقِط منزلته ويُفْسد عاقِبتَه ولا يُوجِدَ للزمن طريقا إلىٰ التنكر له، ويُعينه بتفويق سِهَامه والتصدّى لمواقعها . وقد علم أن الزمان وإن عَمَّ بنوائبه فإنه يخُصُّ صاحبَ السلطان منها بمـا يزيد على نصيب غيره . ومن أشق الأحوال أن يُدْفَعَ الإنسان إلىٰ تغير السلطان مع كون السبب فى ذلك شيئا جرّه إلىٰ نفسه بسوء آختياره، لمـا يجتمع عليه فى ذلك من مرارة النَّكْبة، وحرارة المَغَبَّة، و تقريع مَنْ يُزْرى علىٰ عقله ، و يؤنِّبه بجهله .

ثم انه يلزمه بعد الآحتياط فيما تقدّم عدّة خصال أيضا .

منها الإخلاص وهو قِوَام الأمر فى المصاحبة؛ فإنَّ من صَحِب سلطانا بعقيدة مدْخُولة فى ولايته، مَشُوبة فى محبتـه، لم ينتظم له ولا لسلطانه أمر : لأن الضمائر المذوقة (١) والنيات السقيمة لا بد أن يصرِّح بمـا فيها ويظهرَ ما فى دخيلتها؛ و إذا آتضح ذلك للسلطان لم يقنع إلا بإتلاف نفسه، وإذهاب مُهْجته .

(١) لعله المذوقة . أى غير الخالصة من قولهم مذق فلان الودّ إذا لم يخلصه . تأمل .

ومنها النصيحة، وهى ترْب الإخلاص . والطريق الموصل إلىٰ التوفية بها أن يُطالع السلطانَ بكل ما يفتقر إلىٰ العلم به من خاصّ أموره وعامِّها؛ وعلىٰ مَن آستخلصه السلطانُ لنفسه، وآئتمنه علىٰ رعيته، وأنطقه بلسانه، وأخذ وأعطىٰ بيده، وأورد وأصدر برأيه، وتخيَّره لهذه المنزلة من بين رؤساء دولته وأعيان مملكته : أن لا يستُرَ عنه دقيقًا ولا جليلا من أحوال ما فوّضه إليه، ولا يقف عن إنهاء تفاصيله وجُمَله توقِّيًا من لوم لائم، ولا يحمله فرطُ النصح له علىٰ الإضرار برعيته، ولا الرغبةُ فى إثبات حقه علىٰ تضييع حقوقها، ولا القِيام بما يجب له دون ما يجب لها — فإنها به وهو بها .

ومنها الآجتهاد فيما يباشره من أحوال سلطانه بما يعود عليه نفعه بحيث لا يُبقِى فى ذلك ممكنا، ولا يدَع فيه شأْوًا للاحق .

ومنها كِتْمان السر . وهو من أفضل الآداب فى صُحْبة السلطان وغيره، وأعْوَدِها بالفلاح علىٰ صاحبها : لأن كثرة الآنتشار الداخل علىٰ الدول إنما توجَّه بتفريط بطائنها وصاحبها فى أسرارها، وإظهارهم بما تقرّر فى أذهان الملوك وعزائمهم قبل أن يظهروه؛ فيَجِد العدوّ بذلك الطريقَ إلىٰ معالجة آرائهم بما ينقُضها، ومقابلتها بما يُفْسِدها . علىٰ أن إفشاء السر من الأخلاق التى طُبِع أكثرُ الناس عليها، وحِيل بينهم وبين الإقلاع عنها؛ فمن عَلِم من نفسه ذلك فليحذَر معاملة السلطان فى أسراره وبواطِن أموره، ولا سيما ما وُجِد منها فى باب حروبه ومكايده، فإنه إن ظُهِر منه علىٰ خيانة فى السر، عرض نفسه للهلكة .

ومنها الشُّكْر فانه وان كان واجبا علىٰ الإنسان مع أكفائه ونُظَرائه فانه مع السلطان الذى يَستظِلُّ بظله، ويستدرّ أخْلاف فَضْله أوجب . إذ المرء قد يقدر علىٰ مكافأة عارفة (١) صديقه بما يُضاهيها ويزيد عليها، ولا يقدِر علىٰ مكافأة سلطانه إلا

(١) العارفة المعروف كالعرف بالضم . قاموس .

بشُـكْر نعمته، والمحافظة علىٰ حقوق خدمتـه . ثم الشـكر بالقول يرتفع بين الرئيس والمرءوس، والخادم والمخدوم، إلا اليسير الذى يقضِى به حقُّ الخدمة : لأن الإكثار منه داخل فى حكم الملَق والتثقيل؛ وإنمـا يظهر شُكر الخادم من أفعاله .

ومنها الوفاء . وهو من أهمّ الخصال اللازمة وآكدِها؛ إذ هو الطريق إلىٰ صَلاح العباد وعِمارة البلاد؛ بل هو رأس مال الكاتب وربحُه ودوام عمله، والسبب الذى لأجله ترغَب السلاطين فى صحبته : لأنهم ما بَرِحوا يقرّبون صاحب هذه الخَصْلة ويرَوْنه أهلا للاختصاص، موضـعًا للثّقة؛ ولا أسوأَ حالا ممن نزل هذه المنزلةَ وهو بخلافها .

ثم الوفاء يكون بإظهار النصيحة، وبذل الاجتهاد، وقصدالمخالَصة، ومقابلَةَ كل نعمة تُفَاض عليه بالنهضة فيما آستند(١) اليه : ليدعوَ ذلك سلطانَه إلىٰ ربِّ(٢) النعمة لديه، وإقرارها عليه .

ومن شروط الوفاء أن يلتزمه صاحبه لسلطانه، فى حال سعادته، وإقبال دولته، وفى حال تولّيها عنه وعُطْلته . أمّا فى حال إقبال الدولة عليه فأن يصحَبَه بقلبه دُون بدَنه ولا يتطلبَ صاحبا غيره ينتقل إلىٰ صحبته، ويسـتبدلُ بخدمتــه من خِدْمته؛ ولا يحدّث نفسَــه بأنه متىٰ وجد أنفع منه عدل إليه؛ ولا أن يرتِّبَ له جهة أخرىٰ يجعله مقدّمة لأمر يترقّبه : لمـا فى ذلك كله من الخروج عن حدّ الإخلاص المقدّم وجوبه . وأما فى حال آنصراف الدولة عن صاحبــه، فإنه لا يباينه مباينَةَ المساعد للزمان عليــه، الموافِق للمقادير فيه، ولا يخونُه عند حاجته إليه، ولا يُضيع حقوقَه عنده وصنائعَه لديه؛ ولا ينحاز بكُلِّيَّته إلىٰ من أقبلت أمور السلطان عليه؛ فإن ذلك

(١) فى الضوء . أسند . وهى أوضح .

(٢) أى زيادة النعمة .

ممـا يدل علىٰ خُبْث السجيَّة ومقابلتهـا علىٰ الإحسان بالإساءة ، وآستعمال العُقُوق ، وآطِّراح الحُقُوق .

ومنها مجانبَةَ الإدْلال . إذ الدالَّة علىٰ السلطان والرئيس من أعظم مَصارع التَّلَف ، وأقرب الأشياء إلىٰ زوال النعم ، ولأجلها هلك مَنْ هلك من بِطانة السلطان وخاصته ووزرائه ؛ وفى قَصَصهم عِبْرة لمن أنعم النظر فى تأمُّلها . وعليه أن يعوّل فى الآعتداد بخِـدَمه ونصائحه له علىٰ آشتهارها وظهورها ، ولا يفيض فى تعديدها وذكرها ، ولا يواصل التثقيل بأغراضه والإلحافَ بأسئلته ، ولا يظهر التشحُّب عنـد التقصر به ، ولا الغضب اتِّكالا علىٰ سالِف خدمة ، وقليـل حرمة ؛ وأن يتناسىٰ ما أسـلفه من الخِـدْمة والصحبة ، ويكون فى كل حال عارفا بعوارفه ، معتدّا بفواضـله ، موجبا الفروضَ له لاعليه ، فإن السلطان مجبول علىٰ أنفَة النفس وعِزَّتها ، ولا يحتمل التنازل لأحد : لتنزيله الكلَّ منازل الخَدَم والأرقَّاء ، وآعتقاده أنه سبب النعمة السابغة علىٰ الكافَّة ، وثقتِه بوجود العِوَض عمَّن يفقِدُه من الأعوان والأصحاب ، ومثابرة الناس علىٰ خدمته والآنتساب إلىٰ متابعته لمـا يصلون إليه من الحُظوة ، وينالونه من الجاه والثروة . وان كان فى باطن حاله علىٰ خلاف ما يؤثر ، أظهر الشكر والآعتداد وتلَطَّف فى بلوغ الغرض بأحسن تعريض ، ولم يطلق قلمَه كاتبا ، ولا لسانَه مخاطبا ؛ فإن ذلك إزراء علىٰ همة المصحوب ، ودلالة علىٰ إخلاله بتفقد الصاحب ، لكن يذكر النعمة وسُبُوغها ، والمِنَّة وشيوعها ، ويسأل الزيادة فيها ومضاعفتها . فإن ذلك يفضى ببلوغ آماله ، وسَدَاد أموره ، وسُهولة مطالبه . واذا زاده السلطان رِفْعة وتشريفا آزداد له تعظيما وتوقيرا . وإذا بسط يديه أن ينقبض عن كل مايَشِينه ، وإذا خَصَّه بأَثَرة وتقريب أن يزيد الخاصَّة والعـامّة بشرا وإيناسا ، وان آتهمه بهَفْوة لم يأته فى إقامة العُذْر والآحتجاج علىٰ براءة الساحة إلىٰ الغاية القُصْوىٰ . بل يتوسط فى ذلك ويسأل

من حُسْن الصَّفح والإقالة وجميل التغَمُّد[1] والعفو مايجعل للإحسان وجهًا ، ولتعَقُّبه للسخط سببا . فإنه اذا صدع بالحجة فى براءة الساحة، فلا وجه لمعذرته وفيه تكذيب لرئيسه، وربمـا أدّى إلىٰ فساد ومُفاقَة .

ومنها التمسك بآداب الخدمة بالمواظبة عليها، وصرفِ الاهتمام إليها، إذ هى أعظم الذرائع إلىٰ نيل الرتب وبلوغ المآرب، والسبب الذى يقرّب البُعَداء، ويرفعهم علىٰ أهل الوسائل والحُرَم، وذوى المَوَاتّ[2] والخَدَم؛ ويُعمِى عن كل شَيْن، ويُصِمُّ عن كل طعن . وما نال أحد عند السلطان مرتبةً إلا والمواظبة علىٰ خدمته سببُها والمواصلة موجِبُها . وأولىٰ الناس بلزوم السلطان كُتَّابُه الذين لاغِنى به عن حُضورهم، فى ليله ونهاره، وأحيان شغله وفراغه : لأنه ربما بَدَهه ما يحتاج إلىٰ آستكفائه إيّاه وإسناده إليه، وإن تأخرعنـه فى تلك الحال آسـتدعىٰ من مَوْجِدته وآستجَرَّ من لائمته مالا يُزِيله العذر إلا فى المدّة الطويلة . ورُبَّمـا آضطُرَّ لغَيْبته إلىٰ احضار من يستكفيه ماعَرَض له وأدّى ذلك إلىٰ آصطناعه وتصييره فى مَقَامه وان كان لايساويه فى فضل ولا علم ولا غَنَاء، بخلاف ما إذا وجده مُسارعا إلىٰ أمثلته؛ فإن ذلك يزيد فى حُظْوته، ويدعو إلىٰ آستخلاص مودّته .

فيجب عليه أن يخصَّ سلطانَه من زمانه بالقِسم الأوْفَر، والنصيب الأغْزَر، ولا يُؤْثِر نيلَ لذةٍ عليه، ولا بلوغَ وَطَر إذا أدّى إلىٰ تنكُّره؛ فإن آستطاع أن يوافقه علىٰ وقت يفرِضه له يتمكن فيه من بلوغ أوطاره، والوصول إلىٰ مَقاصده، كان أحمَدَ لعاقبته وأبلغ لقصده، وأحسَم لأسباب اللائمة فى غَيْبته . ولا يَنْهمِك فى الملاذّ آنهماكَ الآمن

(١) التغمّد الستر من قولهم تغمده الله برحمته أى ستره .

(٢) جمع ماتّة — وهى الحرمة والوسيلة .

بل يقف عند الحدّ الذى يُبْقِي فيه فَضْلةً لعوارض السلطان ومُهِمّاته الحادثةِ فى آناء الليل، وساعات النهار . فإن تعبه فى صلاح زمانه وراحة سلطانه مستَبْقٍ لِنعْمتِه ، مستَدْعٍ لزيادته . ولا يشتغل بكبير الأمور عن صغيرها ، ولا يبتهج بما أصلحه منها حتّى ينظر فى عواقبه ، ويسُوس ما رُدّ إليه بالسياسة الفاضلة : فَيلينُ فى غير ضَعْف ، ويشتدُّ فى غير عُنْف ، ويعفُو عن غير خَوَر ، ويَسْطُو من غير جَوْر ، ويقرّب بغير تدله ، ويُبْعد بغير نُكر ، ويخُصُّ فى غير مجازاة ، ويعُمُّ فى غير تضييع ، فلا يَشْـقى به المُحِقُّ وإن كان عدوّا ، ولا يسعد به وإن كان وليا .

ومنها إذا حضر بين يدىْ سلطانه أو رئيسه فى المجلس الخاصّ أو العامّ أن يعتمد مقابلته بالإجلال والإعظام ، والتوقير والإكرام ، ولا يحمـله تأكد الخدمة وتطاوُل الصحبة علىٰ إهمال ذلك بل يحفظ رسْمه ولا يغيِّر عادته .

ومنها أن يتخير لخطابه فى الأغراض والأوطار أوقاتاً يعلم خلو سِرِّه فيها ، وفَرَاغ باله ، وٱنشراحَ صدره ، وٱرتفاعَ الأفكار عن خاطره : إلا إن كان ما يخاطبه فيـه أمرا عائدا بانتظام سلطانه ، وٱستقامة زمانه ، داخلاً فى مهمات أعمـاله التى متىٰ أخّرها نُسِب إلى التقصير ، فيقدّم الكلام فيها خفّ أو ثقُل . وإذا خاطبه رئيسه من سلطان أو غيره فى أمر من الأمور ، فعليه أن يُرْعِيه عيْنَه ويُنصت إليه سمْعَه ، ويَشْغَل به فكره ، ولا يستعمله فيما يعوقه عنه حتّى يستوعب ما يلقيه إليه ، ويجيبه عنه أحسن الجواب . ولا يلتفت فى حال إقباله عليه إلى غيره ، ولا يَصْغىٰ إلى كلام متكلم ، ولا حديث متحدّث ، حتّى لو ٱمتحنه باستعادة ما فاوضه فيه وجده قد أحرز جميعه ، فإن التقصـير فى ذلك ممـا ينكره الملوك والرؤساء ، ويستدلّون به علىٰ ضَعف المخاطَب . وإن كان فيما خاطبه فيه أمر يحتمل التأخير بادر بالاعتـذار عنه : لئلا ينسب إلىٰ التقصير بتأخيره عنـد الكشف عنه ، وإن كان فيه مايخالف الصواب

أمضاه؛ وإن تعـذر السبيلُ إلىٰ فعله لم يظهر التقاعُس عنـه لتخطئته، بل يقابله بالآستصواب . ثم يتلطف فى تعريفه مكان الخطإ فيما رآه .

ومنها أن يجرى فى الحال فى مجالســه علىٰ ما يعود بوفائه و إرادته . فإن مال إلىٰ الآنبساط أطلق عِنَانه فيه إطلاقَ المتجنِّب للهُجْر والفُحْش، ورَفَث القول تابعًا لإيثاره، قاضيا لأوطاره . وإن أظهر الآنقباض ذهب مذهَبَه فى ذلك، ولا ينبغى أن يخالفــه فى حال من أحواله، فإنّ من شروط هـذه الخدمة أن يتصرف صاحبها فى كل ما يُصرِّف فيه، ويُسرعَ الآنقيادَ إلىٰ كل ما يُدْعى إليه؛ ولا يكثر من الدعاء لرئيسه والثناء عليه والشكر علىٰ ما يوليه من العوارف فإن مثل ذلك يستثقل .

ومنها أن لا يحضُر سلطانَه فى ملابســه التى جرت العادة أن ينفرد بهـا كالوشى ونحوه؛ إلا أن يكون هو الذى يشرِّفه بها، وأن يقتصد فى لباسه : فينحطّ عما يلبَسُه سلطانه و يرتفع عما يلبسه السُّوقة، و يصرف عنايته إلىٰ التنظُّف والتعطُّر، وقطع الرائحة الكريهة من العَرَق وغيره، حتّى لاتقع عينُ رئيسه علىٰ دَنَس فى أثوابه، ولا يجدَ منه كريه رائحة فى حال دنوّه منه؛ و يواصل آسـتعمال الطيب والبَخُور الفائق والتضمُّخ بالمسك؛ فإن الملوك ترىٰ أن مَنْ أغفل تعهُّد نفسه كان لغيرها أشدّ إغفالا .

ومنها أن يتجنب التفاصُح والتعمُّق فى مخاطبة رئيســه، والآفتخارَ عليــه بالبلاغة والبيان : لمـا فى ذلك من الترفع عليه فى الكلام . بل يجعل ما يُلقيه إليه ضمن ألفاظٍ تدلُّ علىٰ معانيها بسهولة مع غضٍّ مـن صوته، وخفضٍ من طَرْفه، وسكونٍ من أعضائه : لأنه انما يُتَسامح بالإتيان بالفصاحة والذَّهاب بمذهب الجَزَالة للخطباء الذين يُثْنون علىٰ الملوك فى المواقف العـامّة ضرورةَ آحتياجهم إلىٰ آستعمال ألفـاظ تقع فى الأسماع أحسن المواقع .

ومنها أنه إذا تميز عند رئيسه وآرتفعت رتبته لديه أن يُجْمِل القول فى خاصّته وعامّته، ويحسنَ الوَسَاطة لحاشيته ورعيته، ويتجنبَ القدحَ عنده فى أكفائه ونظرائه من بطانته، والمقربين من حضرته، ليكون ذلك داعيا إلىٰ محبته والثناء عليه مكافأةً له وإمساكِ الألسُن عن الطعن فيه.

ومنها أن يبادر إلىٰ المَشُورة عليه بالصواب فيما يستشيره فيه، ويوردَه إيراد مستفيد لا مُفيد، ومتعلم لا معلّم، ويتلطَّف فى أن يُوقِعه من نفسه موقعا يدعوه إلىٰ العمل به. فإنّ من عادة الملوك والرؤساء الأَنَفَةَ من الآنقياد إلىٰ ما ينتحله غيرهم من الآراء ولو كانت صائبة، وإن تمكّن من صياغة حديث يودعه فيه فعل مخادَعة بذلك لنفسه الأبيّة وعزّته المتقاعسة.

الضرب الثانى
(آداب عِشرة الأكفاء والنُّظَراء)

قال علىّ بن خلف: ولا شك أنّ طريقة الآعتدال فى ذلك الموافاة فى الإخاء، والمساواة فى الصَّفاء، ومقابلةُ كل حالة بما يُضاهيها. أما المسامحة بالحقوق والإغضاءُ عمن قصَّر، والمحافظةُ علىٰ ودّ من فرّط، فلا خلاف فى فضله والتمدّح بمثله، لا سيما لمثل أهل هذه الصناعة التى يرتفع حقُّ الآعتزاء اليها عن حقوق القرابات الدانية، والأنساب الراسخة. ولذلك وقع فى كلام بعضهم «الكتابة نَسَب». قال علىّ ابن خلف: والمعنىٰ فيه أن التناسبَ الحاصلَ بين أهلها تناسُبٌ نفسانىّ لاجِسمانىّ، يحصل عن تناسب الصور القائمة فى نفوسهم بالقوّة، وعن تناسبها بعد خروجها وظهورها من القوة إلىٰ الفعل، بدليل ما نراه من آتفاق خواطرهم علىٰ كثير من المعانى التى يستنبطونها، وتوارُدِهم فيها. ولولا تناسُبُ الغرائز وتشابهها، لم يكن أن يتواطئُوا فى أكثر الأحوال علىٰ معانٍ متكافئة متوافية.

قال : "وإذا كنا نحفظ من مَتَّ إلينا بالأنساب الجسْميَّة التى لاتعارُف بينها فأولىٰ أن نحفظ مَن مَتَّ إلينا بالأنساب النفسانية التى يصح منها التعارف . ولذلك قال الحسن بن وهب : «الكتابة نفسٌ واحدة تجزأتْ فى أبدان متفرّقه» . وقال : لاعِبرة بمـا يقع بين بعضهم من التنافر والتباين، لأن المناسبة إنما تَقَع عند المساواة. أما من وقع دون رتبة الآخر من الفضيلة فليس بمناسب له فيصيرُ القاصِر حاسدا لمن فوقه، للتقصير الذى فيه" .

وبكل حال فإنه يجب عليه أن يعرف لأكفائه حقهم، ويحفظ مناسبتهم، ويتوخّى مساهَمَتهم، ويتلقّاهم بالإكرام والتميز، ويجعلَهم فى أعلى المراتب عنده، ويزيدهم علىٰ الإنصاف ولا يقصِّربهم عمـا يستوجبونه ويستحقونه، ويخوّل بمثل ذلك نُظَراءه فى الرياســة من غير الكُتَّاب . وإن تعذر عليه الوصول إلىٰ ملتمَسهم أطاب قلوبهم بالوعد الجميل فى المستقبل، وآجتهد فى الوفاء به .

الضرب الثـالث

(آداب عِشــرة الأتبــاع)

قال علىّ بن خلف : وهى لاحقة بعِشرة الأكفاء : لأن الذين يستعينُ بهم الكاتبُ يُدْعَوْن كُتَّابا ولا يُدْعَوْن أعوانا، وانمـا الأعوانُ خُدّام الشُّرْطة ومَن يجرى مجراهم . قال : "وهم وإن كانوا أصحاب الكاتب ومرءُوسيه وأتباعَه، فاسم الكتابة يجمع بينه وبينهم، ومعاشَرتهم داخلة فى باب التكرم، والتفضـيل، والآستئثار بمحاسن الأفعال ومكارم الشيم" .

ثم قال بعد ذلك : "وينبغى أن يخصَّهم بالنصيب الأوفر، من إكرامه، والقِسْم الأغْزَر، من ملاحظته وآهتمامه، ويفرض لهم من التقـديم والآختصاص وتفقد

الأحوال والشئون، والذى ينتهى اليه أمل المرءوس من الرئيس : ليجعل خِدْمتهم له بذلك خدمةَ مِقَة ومودّة، لاخدمةَ خوف و رهبة ؛ وأن يحبِّب خدمته إليهم بترك مناقشتهم ، والتضييق عليهم ؛ و إنالتهم من الترفيه فى بعض الأوقات ما يجِدُون به السبيل إلىٰ الأخذ بنصيبٍ من لذاتهم وأوطارهم التى تميل النفوس إليها، وتتهافت عليها ؛ فإنهم متىٰ لحقهم التعب والنصَب، ٱعترضهم الضَّجَر والمَلَال، فقصَّروا فى الأعمال، وتهاونوا بالأشغال؛ فلا بدّ لهم من راحة تصفو بها أذهانهم ويزول عنها الكَلَال ، ولا يفسح لهم فى مواصلة الراحة والإخلال بما يلزمهم ؛ فإن ذلك يحمل علىٰ سُوء العادة وقبح المذهب . وعليه أن يَحْفَظ لهم حقوقَ الصُّحْبة والخِدْمة ويُوجدهم من الإعانة مافيه صلاح حالهم ؛ فإنه يستعبِدُهم بذلك ويستخلص مودّتهم إذ القلوب مجبولة علىٰ حبّ من أحسن اليها " .

الضرب الرابع

(آداب عِشْرة الرعيــة)

قال ٱبن خلف : "وهو أمر عظيم النفع ، جسيم العائدة ، قاضٍ بالسلامة . إذ لايطيب لأحدٍ عَيْش مع بُغض الرعية له ، ونفورِهم عنه، وإن علت عندالسلطان رتبتُه، وٱرتفعت طبقته، وظنّ بنفسه الآستغناء عنهم" . قال : "فينبغى أن يُوَفِّر العناية على ٱستصلاحهم له ، وٱستمالة أهوائهم إليه ، ولين الجانب ، ووَطَاءة الكَنَف(١) ، وخَفْض الجَناح ، والبَسْط والإيناس وتألُّفهم : كما يوفرها علىٰ ٱستصلاح السلطان وسياسته ، لتصحَّ له رتبةُ التوسُّط بين الطبقتين ، ويسلَمَ من طَعْن الطاعن ، ولوم اللائم ، ويبرأ من البُغْض والشَّحْناء ، وينقُلَهم عمـا تسرع إليه الطِّباع الرديئة :

---

(١) أى دماثة الأخلاق كما يؤخذ من القاموس .

من الحسد والإيذاء إلىٰ التألُّف والمودّة . وقد أدّب الله تعالىٰ نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى ﴿ولو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ " .

الضرب الخامس

(آداب عِشرة من يمُتُّ إليه بحُرْمة ، كالجار ، والقاصد ، والآمل ، والمُدِلِّ بحق المُفاوضة ، والمطاعمة ، والمحاضرة ، والسلام والمعرفة فى الصِّبا ، والصداقة بين الآباء وغير ذلك من الحُرَم التى لا يَطَّرِحها أهلُ المروءات)

قال ابن خلف : " وينبغى أن يوفيهم حقوقَهم ، وينهَض بما يسنَح من أوطارهم ومهمَّاتهم ، ويُعينَهم علىٰ ما يحـدُث من نوائب زمانهم ، ويُسْعِد فى بلوغ مَطَالبهم من سلطانهم ، ولا يَضِنّ عليهم بجاه ولا مال ، ولا يُخَيِّب أملَ آملهم ولا قصْدَه ، ويفرض لهم من إذعانه واعتنائه ما يُعزُّ جانبَهم ، ويسهِّل مآربهم ، ويكفّ الضيم والظلم عنهم ، ويبسُط العدل والإنصاف عليهم . فإنه اذا التزم ذلك لهم التزموا له الإعظامَ والإجلال ، وأطلقوا ألسنتهم بالثناء عليه ، والاعتداد بأياديه ، وأشاعُوا ذلك بين أمثالهم فاجتلبوا له مودّتهم وتعصُّبَهم له " .

قلت : ومن تمام آداب الكاتب وكمالها أن يعرف حقوقَ مشايخ الصناعة وأئمتها الذين فتَحُوا أبوابها ، وذلَّلُوا سُبُلها ، وسهَّلوا طرقها ؛ ويعاملَهم بالإنصاف فيما أعملوا فيه خواطرَهم ، وأتعبُوا فيه رَوِيَّاتِهم فيُنْزِلهم منازلهم ولا يَبْخسهم حقوقَهم . فمن آفات هـذه الصنعة علىٰ ذوى الفضـل من أهلها أن القاصر منهم لا يمتنع من ادّعاء منزلة المبرِّز بل لا يُعْفيه من ادعاء التقدّم فى الفضـل عليه ، والمبرِّز فى الفضل لا يقدر علىٰ إثبات نقص المتخلف ﴿واللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ .

ثم أصل هذه الآداب الذى ترجع اليـه، ويَنْبُوعها الذى تفجَّرت منـه، رسالة عبد الحميد بن يحيىٰ الكاتب، التى كتبها إلىٰ الكُتَّاب يوصيهم فيها . وهى :

أما بعدُ، حفِظكم اللهُ ياأهل صناعة الكِتَابة، وحاطكم ووفَّقكم وأرشدكم ! فإن الله عز وجل جعل الناس بعدَ الأنبياء والمرسلين، صلوات الله عليهم أجمعين، ومِنْ بَعْدِ الملوك المكرمين أصنافًا، وإن كانوا فى الحقيقة سواءً، وصَرَّفهم فى صُنُوف الصناعات، وضُرُوب المحاوَلات إلىٰ أسباب معايشهم، وأبواب أرزاقهم؛ فجعلكم معشرَ الكُتَّاب فى أشرف الجهات أهلَ الأدب، والمُروءة، والعـلم، والرواية . بِكُمْ تنتظم للخـلافة محاسنُها، وتستقيم أمورُها؛ وبنصائحكم يصلحُ الله للخلق سلطانَهم، وتعْمُر بلادهم . لايستغنِى الملكُ عنكم، ولا يوجد كافٍ إلا منكم؛ فَمَوْقِعُكم من الملوك مَوْقِعُ أسماعهم التى بها يسمعون، وأبصارهم التى بها يُبْصِرون، وألسنتهم التى بها ينطِقون، وأيديهم التى بها يبطِشُون . فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ! ولا نَزَع عنكم ماأضفاه من النِّعمة عليكم ! .

وليس أحدٌ أحوجَ إلىٰ آجتماع خِلال الخير المحمودة، وخصال الفَضْل المذكورة المعدودة، منكم أيُّها الكتّاب، إذا كنتم علىٰ مايأتى فى هـذا الكتاب من صفتكم فإن الكاتب يحتاج من نفسه، ويحتاج منه صاحبه الذى يثق به فى مُهِمَّات أموره أن يكون حليماً فى موضِع الحلم، فهيما فى موضع الحُكْم، ومِقْداما فى موضع الإقدام، ومُحْجِما[(1)] فى موضع الإحجـام، مُؤْثرًا للعفاف، والعدل والإنصاف، كَتُوما للأسرار، وَفيًّا عند الشدائد، عالمـا بما يأتى من النوازل، ويضع الأمور مواضِعَها، والطوارق أماكنها . قد نظر فى كل فنّ من فنون العلوم فأحكمه، فان لم يُحْكِمْه أخذ منه بمقدار يكتفى به . يعرف بغَرِيزة عقله، وحُسْن أدبه، وفضل تجرِبته، مايرد عليه قبل وروده

(١) فى غير هذا الكتاب ومِحْجاما .

وعاقبةَ مايَصْدر عنه قبل صدوره؛ فيعدّ لكل أمر عدّته وعَتاده، ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته . فتنافَسُوا يامعشر الكُتّاب، فى صُنُوف الآداب، وتفقهوا فى الدِّين؛ وٱبدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض، ثم العربيَّة فانها ثِقَاف ألسنتكم .

ثم أجيدوا الخَطّ فإنه حِلْية كتبكم، واروُوا الأشعار، وٱعرفوا غريبَها ومعانيها؛ وأيامَ العَرَب والعجم، وأحاديثَها وسيرها؛ فان ذلك معين لكم علىٰ ماتسمُو إليه هِمَمُكم . ولا تضيِّعوا النظر فى الحِساب فإنه قِوام كُتّاب الخراج؛ وٱرغبوا بأنفسكم عن المطامع سنِيِّها ودنيِّها، وسَفْساف الأمور ومحَاقرها، فإنها مَذَلَّة للرقاب، مَفْسَدة للكُتّاب؛ ونزهوا صِناعتكم عن الدَّناآت، وٱربَؤُا بأنفسكم عن السِّعاية والنميمة وما فيه أهل الجهالات؛ وإياكم والكبرَ والصلف والعَظَمةَ، فإنها عداوة مجتلَبة من غير إحْنة، وتحابُّوا فى الله عز وجل فى صناعتكم، وتواصَوْا عليها بالذى هو أليق بأهل الفضل والعدل والنُّبْل من سلفكم .

وإن نبا الزمان برجل منكم فٱعطِفُوا عليه وواسُوه حتّى يرجعَ إليه حاله، ويثوب إليه أمرُه؛ وإن أقعد أحدَكم الكِبَرُ عن مَكْسَبه ولقاء اخوانه، فزوروه وعظموه وشاوروه، وٱستظهروا بفضل تجربته، وقِدَم معرفته . وليكن الرجل منكم علىٰ مَن ٱصطنعه وٱستظهر به ليوم حاجته إليه أحفَظَ منه علىٰ ولده وأخيه . فان عرَضَتْ فى الشغل محمَدَة فلا يضيفها إلا إلىٰ صاحبه، وإن عرضت مَذَمّة فليحملها هو من دونه . ولْيحذر السَّقْطة والزلة والمَلَل عند تغيُّر الحال، فان العيب إليكم معشر الكتّاب أسرع منه إلىٰ القرّاء؛ وهو لكم أفسد منه لها .

فقد علمتم أن الرجل منكم اذا صحبه الرجل، يبذُل له من نفسه مايجب له عليه من حقه؛ فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه، وشكره، وٱحتماله، وصبره، ونصيحته، وكتمان سرّه، وتدبير أمره، ماهو جزاء لحقه . ويصـدّق ذلك بفعاله عند الحاجة إليه، والاضطرار إلىٰ مالديه .

فاستشعروا ذلكم وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء، والشدّة، والحرمان، والمواساة، والإحسان، والسراء، والضراء، فنعمت الشِّيمة هـذه لمن وُسِم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ! . فاذا وُلِّى الرجل منكم أو صُيِّر إليه من أمر خلق الله وعياله أمر، فليراقب الله عز وجل، وليؤثر طاعته ، وليكن على الضعيف رفيقا، وللمظلوم منصفا، فإن الخلق عيال الله وأحبهم اليـه أرفقهم بعياله . ثم ليُكن بالعدل حاكما وللأشراف مُكرِما ، وللفىء موفِّرا، وللبلاد عامرا ، وللرعية متألفا، وعن إيذائهم متخلفا، وليكن فى مجلسه متواضعا حليما، وفى سِجِلَّات خراجه ، وآستقضاء حقوقه رفيقا . وإذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه، فإذا عرف حَسَنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحَسَن وآحتال لصرفه عما يهواه من القبيح بألطف حيلة، وأجمل وسيلة . وقد علمتم أن سائس البهيمة إذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها، فإن كانت رَمُوحا لم يَهِجْها اذا ركبها، وإن كانت شَبُوبا اتّقاها من قِبَل يديها ، وإن خاف منها شُرُودا توقَّاها من ناحية رأسها ، وإن كانتْ حَرُونا قَمَع برفق هواها فى طريقها ، فإن آستمرت عطَفها يسيرا فيَسْلَس له قيادُها . وفى هذا الوصف من السياسة دلائلُ لمن ساسَ الناس وعاملهم وخدَمهم وداخلَهم .

والكاتب بفضل أدبه، وشريف صنعته، ولطيف حيلته، ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره، ويفهم عنه أو يخاف سَطْوته، أولى بالرفق بصاحبه، ومداراته، وتقويم أوَده من سائس البهيمة التى لا تُحير جوابا، ولا تعرف صوابا، ولا تفهم خطابا، إلا بقـدر ما يصيِّرها اليـه صاحبها الراكبُ عليها . ألا فأمعِنوا رحمكم الله فى النظر، واعملوا فيـه ما أمكنكم من الروِيَّة والفِكْر، تأمنوا بإذن الله ممن صحبتموه النَّبوة، والآستثقالَ والجَفْوة، ويصير منكم (١) الى الموافقة ، وتصيروا منه الى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله تعالى .

(١) كذا فى الأصل . ولعل ثبوت الياء قبل الراء من زيادة الناسخ

ولا يجاوزَنَّ الرجلُ منكم فى هيئة مجلِسه وملْبَسه ومرْكَبه ومَطْعَمه ومَشْربه وبِنائه وخَدَمه وغير ذلك من فنون أمره، قدرَ حقه . فإنكم مع ما فضَّلكم الله به من شَرَف صنعتكم خَدَمة لا تُحمَلون فى خدْمتكم علىٰ التقصير، وحَفَظَة لا تُحتمَل منكم أفعال التضييع والتبذير : وٱستعينوا علىٰ عَفَافكم بالقَصْد فى كل ما ذكرته لكم وقصَصْته عليكم . وٱحذروا مَتَالف السرف، وسوء عاقبة التّرَف؛ فإنهما يُعقِبان الفقر ويُذِلّان الرِّقاب؛ ويفْضَحان أهلهما ولا سيَّما الكُتَّاب، وأرباب الآداب؛ وللأمور أشباه وبعضها دليل علىٰ بعض، فاستدلوا علىٰ مؤتَنَف أعمالكم بما سبقت إليه تجربتُكم؛ ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحَها محَجَّة، وأصدَقَها حجَّة، وأحمدها عاقبة .

وٱعلموا أن للتدبير آفةً مُتْلِفة — وهى الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ عمله ورؤيته؛ فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصدَ الكافى من منطقه، وليُوجِزْ فى ٱبتدائه وجوابه؛ وليأخذ بمجَامع حُجَجه؛ فإن ذلك مصلحة لفعله، ومَدْفَعة للتشاغل عن إكثاره . وليضْرَع إلى الله فى صِلَة توفيقه، وإمداده بتسديده، مخافَةَ وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه؛ فإنه إن ظن منكم ظانّ، أو قال قائل، إن الذى برز من جميل صنعته وقوّة حركته، إنما هو بفضل حيلته، وحسن تدبيره، فقد تعرّض بظنه أو مقالته إلىٰ أن يكِلَه الله عز وجل إلىٰ نفسه، فيصير منها إلىٰ غير كاف، وذلك علىٰ من تأمله غير خاف .

ولا يقُلْ أحد منكم إنه أبصَرُ بالأمور وأحملُ لعبء التدبير من مُرَافقه فى صناعته ومُصاحِبه فى خدمته؛ فإن أعقل الرجلين عند ذوى الألباب مَنْ رمى بالعُجْب وراء ظهره، ورأىٰ أن صاحبه أعقلُ منه وأحمدُ فى طريقته . وعلىٰ كل واحد من الفريقين أن يعرِف فضل نِعَم الله جلّ ثناؤه من غير اغترار برأيه، ولا تزكية لنفسه، ولا تكاثُر

علىٰ أخيه أو نظيره، وصاحبه وعشيره، وحمدُ الله واجب علىٰ الجميع : وذلك بالتواضُع لعظمته، والتذلل لعزته، والتحدّث بنعمته" .

وأنا أقول فى كتابى هـذا ماسبق به المثل (مَن يلزم الصحة[1] يلزمه العَمَل) وهو جوهر هـذا الكتاب وغُرَّة كلامه، بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل ؛ فلذلك جعلته آخرا وتممته به . تولانا الله وإياكم يامعشر الطلبة والكتبة بما يتولّى به مَنْ سبق علمُه بإسعاده وإرشاده! فإن ذلك اليه وبيده . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

الباب الرابع

من المقدّمة

في التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء، وأصل وضعه فى الإسلام، وتفرّقه بعد ذلك فى الممالك؛ وفيه فصلان

الفصل الأوّل

(فى التعريف بحقيقته)

لا خفاء فى أنه ٱسمٌ مركَّب من مضاف وهو ديوان ومضاف اليه وهو الإنشاء ، أما الديوان فاسمٌ للوضع الذى يجلِس فيه الكُتّاب وهو بكسر الدال . قال النحاس فى صناعة الكتّاب "وفتحها خطأ" قال : "وأصله دِوّان فأبدلت إحدى الواوين ياء فقيل ديوان" ويجمع علىٰ دواوين . وٱختلف فى أصله ، فذهب قوم الىٰ أنه عربىّ . قال النحاس : "والمعروف فى لغة العرب أن الديوان الأصل الذى يُرجَع اليه ويُعمَل

---

(١) فى نسخة النصيحة .

بما فيه" ومنه قول ٱبن عباس : « إذا سألتمونى عن شىء من غريب القرآن فالتمسوه فى الشّعر فإن الشّعر ديوانُ العرب » . ويقال دوّنته أى أثبته وإليه يميل كلام سيبويه وذهب آخرون إلىٰ أنه عجمىّ وهو قول الأصمعىّ وعليه ٱقتصر الجوهرىّ فى صحاحه ، فقال الديوان « فارسىّ معرّب » . وقد حكى المـاوردىّ "فى الأحكام السلطانية" فى سبب تسميته بذلك وجهين :

أحدهما ــ أن كسرىٰ ذات يوم ٱطّلع علىٰ كُتّاب ديوانه فى مكانٍ لهم وهم يحسُبون مع أنفسهم فقال "ديوانه" أى مجانين فسمّى موضعهم بهذا الأسم ولزمه من حينئذ ثم حذفت الهاء من آخره لكثرة الأستعمال تخفيفا ، فقيل ديوان وعليه ٱقتصر أبو جعفر النحاس فى صناعة الكتاب .

والثانى ــ أن الديوان بالفارسـية ٱسم للشياطين ، وسمّى الكتّاب بذلك لحذقهم بالأمور ووقوفهم علىٰ الجلىّ منها والخفىّ .

وأما الإنشاء فقد تقدّم أنه مصدر أنشأ الشىء ينشئه اذا ٱبتدأه وٱخترعه ، وحينئذ فإضافة الديوان للإنشاء تحتمل أمرين :

أحدهما ــ أن الأمور السلطانية من المكاتبات والولايات تُنشأ عنه وتُبتدأ منه .

والثانى ــ أن الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالا . وقد كان هذا الديوان فى الزمن المتقدّم يعبر عنه بديوان الرسائل تسميةً له بأشهر الأنواع التى تصدر عنه لأن الرسائل أكثرُ أنواع كتابة الإنشاء وأعمُّها ، وربمـا قيل ديوان المكاتبات . ثم غلب عليه هذا الأسم وشُهِر به وٱستمرّ عليه إلىٰ الآن .

الفصـــل الثـانى

(فى أصل وضعه فى الإسلام وتفرّقه عنه بعد ذلك فى الممـالك)

اعلم أن هـذا الديوان أوّل ديوان وضع فى الإسلام؛ وذلك أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يُكاتب أُمراءه، وأصحابَ سَرَاياه من الصحابة؛ رضوان الله عليهم! ويكاتبُونه . وكَتَب إلىٰ مَن قَرُب من ملوك الأرض يدعوهم إلىٰ الإسلام؛ وبعث إليهم رُسـله بكُتُبه : فبعث عمرو بن أميَّة الضَّمْرىّ إلىٰ النجَاشىّ ملِك الحبشـة، وعبـدَ الله بن حُذَافة إلىٰ كِسرى أبرويز ملك الفرس، ودِحيـةَ الكلبىّ إلىٰ هِرَقْل ملك الروم، وحاطِبَ بن أبى بَلْتعةَ إلىٰ المُقَوْقس صاحب مصر، وسَلِيطَ بن عمرو إلىٰ هَوْذَةَ بن علىّ ملك اليمـامة ، والعَلاءَ بنَ الحضرمىّ إلىٰ المنـذر بن ساوىٰ ملك البحرين إلىٰ غير ذلك من المكاتبـات . وكتب لعَمْرو بن حزم عهـدًا حين وجَّهه إلىٰ اليمن . وكتب لتميم الدارىّ وإخوته بإقطاع بالشام . وكتب كتاب القَضيَّة بعقد الهُدْنة بينه وبين قُرَيش عامَ الحديبية . وكتب الأمانات أحيانا . إلىٰ غير ذلك ممـا يأتى ذكره فى الاستشهاد به فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وهذه المكتوبات كلها متعلَّقها ديوان الإنشاء بخلاف ديوان الجيش ، فإن أوّل مَن وضعه ورتَّبه أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته .

علىٰ أنّ القضاعىّ قد ذكر فى تاريخه "عيون المعارف . وفنون أخبار الخلائف" أن الزبير بن العوّام، وجُهَيم بن الصَّلْت كانا يكتبان للنبى صلى الله عليه وسلم أموالَ الصَّدَقات، وأن حُذَيفة بن اليمان كان يكتب له خَرْص النخل، وأن المُغيرة بن شُعبة والحُصَين بن نُمَير كانا يكتبان المدايَنَـات والمعاملات . فان صح ذلك فتكون هـذه الدواوين أيضا قد وُضِعت فى زمنه صلى الله عليه وسلم، إلا أنهـا ليست فى الشهرة وتَواتُر الكتابة فى زمانه صلى الله عليه وسـلم : كما تقدّم من متعلَّقات كتابة الإنشاء .

وقد رأيت فى سِـيرة لبعض المتأخرين أنه كان للنبىّ صلى الله عليه وسـلم نَيِّفٌ وثلاثون كاتبا : أبو بكر الصـدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلىّ بن أبى طالب، وعامر بن فُهَيرة، وخالد بنُ سعيد بن العاص بن أمية، وأبانٌ أخوه، وسـعيد أخوهما، وعبد الله بن الأرقم الزُّهرىّ، وحنظلة بن الربيـع الأسـدى، وأُبَىّ بن كعب، وثابت بن قيس بن شَمَّاس، وزيد بن ثابت، وشُرَحْبِيل بن حَسَنة، ومعاوية بن أبى سُفيان، والمُغيرة بن شُعبة، وعبدُ الله بن زيد، وجُهَيْم بن الصَّلْت، والزُّبير بن العوّام، وخالد بن الوليـد، والعَلَاء بن الحضرمىّ، وعمرو بن العـاص، وعبدُ الله بن رَوَاحة، ومحمد بن مَسْلمة، وعبد الله بن عبد الله بن أُبَىّ، ومُعَيقب بن أبى فاطمة، وطلحة بن زيد بن أبى سفيان، والأرقم بن الأرقم الزُّهرىّ، والعلاء بن عُتْبة، وأبو أيوب الأنصارىّ، وبُرَيدة بن الحصيب، والحصين بن نمير، وأبو سَلَمة المخزومىّ، وحُوَيطب بن عبد العُزّى، وأبو سفيان بن حرب، وحاطب بن عمرو، وعبد الله بن سعد بن أبى سرح؛ وكان ألزمَهم له فى الكتابة معاويةُ بن أبى سفيان، وزيدُ بن ثابت .

وكتب لأبى بكر عثمانُ بن عَفَّان، وزيدُ بن ثابت؛ وعثمانُ هو الذى كتب عهدَ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه بالخلافة عن أبى بكر رضوان الله عليه كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وكتب لعمر رضى الله عنه زيدُ بنُ ثابت، وعبد الله بن خَلَف .

وكتب لعثمان رضى الله عنه مَرْوانُ بن الحكم .

وكتب لعلى عبدُ الله بن أبى رافع مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسـلم، وسعيد ابن نَجْرانَ الهَمْدانىّ .

وكتب للحسن بن علي رضى الله عنهما عبدُ الله بن أبى رافع كاتب أبيه .

ثم كانت دولة بنى أمية فتوالت خلفاؤهم من معاوية بن أبى سفيان فمن بعده ، وأمْر ديوان الإنشاء فى زمن كل أحد مفوَّضٌ إلىٰ كاتبٍ يُقيمه إلىٰ حين ٱنقراض دولتهم . وكان الخليفة هو الذى يوقِّع على القِصَص ويُحْدثها بنفسه ، والكاتب يكتُب مايَبْرُز إليه من توقيعه ويصرِّفه بقلمه على حُكْمه . وكان ممن اشتهر من كُتَّابهم بالبلاغة وقوة المَلَكة فى الكتابة حتّٰى سار ذكره فى الآفاق ، وصار يُضرَب به المَثَل علىٰ ممرّ الأزمان عبد الحميد بن يحيىٰ كاتب مروان بن محمد آخرِ خلفائهم .

فلما بزغتْ شمس الخلافة العباسية بالعِراق ووَلِى الخلافة أبو العبَّاس السَّفَّاح أوّل خلفاء بنى العباس ، ٱستوزر أبا سلمة الخَلَّال . وهو أوّل من لُقِّب بالوزارة فى الإسلام علىٰ ما سيأتى ، وتوالت الوزراء بعده لخلفاء بنى العباس من يومئذ . وكان ديوان الإنشاء تارة يُضاف إلىٰ الوزارة ، فيكون الوزير هو الذى ينفذ أموره بقلمه ، ويتولّٰى أحواله بنفسه ، وتارة يُفْرَد عنه بكاتب ينظر فى أمره ، ويكون الوزير هو الذى ينفذ أموره بكلامه ، ويصرِّفها بتوقيعه علىٰ القِصَص ونحوها ؛ وصاحب ديوان الإنشاء يعتمد مايرد عليه من ديوان الوزارة ، ويمشى علىٰ ما يُلْقىٰ إليه من توقيعه ؛ وربما وقَّع الخليفة بنفسه حتّٰى بعد غلبة ملوك الأعاجم من الديلم وبنى سلجوق وغيرهم علىٰ الأمر والأمر علىٰ ذلك تارة وتارة إلىٰ ٱنقراض الخلافة من بغداد .

وكان ممن ٱشتهر من وُزَرائهم بالبلاغة حتّٰى صار يضرَب به المثل يحيىٰ بن خالد وزير الرشيد ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مَسْعَدة كاتب المأمون ، وٱبن المقفَّع مترجم كتاب "كليلة ودمنه" ، وسَهْل بن هرون الذى ترجمها ، والأستاذ أبو الفضل ٱبن العميد ، والصاحب كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد ، وأبو إسحاق الصابى فى جماعة آخرين منهم .

ثم لما آنقرضت الخلافة من بغدادَ فى وقعة هُولاكُو ملك التتار فى سنة (ست وخمسين وستمائة) وآستولت المغل والأعاجم على بغداد، بطل رسم الكتابة المعتبرة وصار أكثر ما يُكْتَب عن ملوك التتار بالمغلية أو الفارسية؛ والأمر على ذلك إلى زماننا على ماسيأتى بيانه فى الكلام على دواوين الأمصار فى المكاتَبات والوِلايات وغيرهما إن شاء الله تعالى .

وكانت بلاد الغرب والأنْدَلُس بأيدى نُوَّاب الخلفاء من حين الفتح الإسلامىّ فى خلافة عثمان بن عفان رضى الله عنه، ولا عنايةَ لهم بديوان الإنشاء للتقرّب من البَدَاوة، وغايته المكاتبة إلى ديوان الخلافة ونحو ذلك؛ فلما غلب بَنُو العباس على الخلافة هرب طائفة من بنى أمية إلى بلاد المغرب، وجازت البحر إلى الأنْدَلُس فآنتزعوه من النوّاب الذين كانوا به ومَلَكوه، وصاروا يَنْصِبون فيه خليفة بعد خليفة، جارين على سَنَن ما كانوا عليه بالشأم من ألقاب الخلافة، مضاهين لخلافة بنى العباس ببغداد : من إقامة شِعار الخلافة، واتخاذ ديوان الإنشاء، وآستخدام بُلَغاء الكُتَّاب وتعدّت دولتهم إلى برّ العُدوة من بلاد المغرب فحكموه . ثم تقاصر أمرهم بعد ذلك شيئا فشيئا باستيلاء المستَوْلين المستبدّين عليهم بالأمر إلى أن آنقرضت دولتهم من الأندلس وبلاد المغرب، وآستولت عليهما طوائف من الملوك وتنقلت بهم الأحوال فى آستيلاء الملوك على كل ناحية منهما، وتتابعت الدول فى كل حين كلما خَبَتْ دولة نَجَمَتْ أخرى على ما سيأتى ذكره فى مكاتبات ملوكهما إن شاء الله تعالى .

وكان حال ديوان الإنشاء فيهم بحسب ما يكونون عليه من الحَضَارة والبَداوة، فأوائل الدول القريبون عهدا بالبادية لاعناية لهم بكتابة الإنشاء، وإذا آستحْضَرت الدولةُ صرفت آهتمامها إلى ديوان الإنشاء وترتيبه إلى أن استقرّ ما بقى من الأندلس بعد ما آرتجعته الفريج منه بأيدى بنى الأحمر، والغربُ الأقصى بيد بنى مرّين،

والغربُ الأوسطُ بيدِ بنى عبد الواد، وإفْرِيقيَّة بيد بقايا الموحدين من أتباع المهدىّ آبن تُومَرت، وداخلَتْهم الحَضَارة، فأخذوا فى ترتيب دواوين الإنشاء بهذه الممالك، ومعاناة البلاغة فى المكاتبات ونحوها، وآستمرّ الحال علىٰ ذلك إلىٰ زماننا .

وممن آشتهر بالبلاغة من كُتَّاب المغاربة والوزراء به أبو الوليد بن زَيْدون، والوزير أبو حفص بن برد الأصغر الأندلسىّ، وذو الوزارتين أبو المغيرة بن حزم، والوزير أبو القاسم محمد بن الحد فى جماعة أخرىٰ من متقدّمى كتّابهم . ومن متأخريهم عبد المهيمن كاتب السلطان أبى الحسن المرّينى، وأربىٰ علىٰ كثير من المتقدّمين آبن الخطيب وزير آبن الأحمر صاحب غَرْناطة من الأندلس ممن أدركه من عاصرْناه .

أما الديار المصرية فلديوان الإنشاء بها خمسُ حالات :

الحالة الأولى — ما كان الأمر عليه من حينِ الفتح وإلىٰ بداية الدولة الطُّولونيَّة، ونُوَّاب الخلفاء تتوالىٰ عليها واحدا بعد واحد فلم يكن لهم عنايةٌ بديوان الإنشاء، ولا صرفُ همة إليه : للاقتصار علىٰ المكاتبات لأبواب الخلافة، والنزر اليسير من الولايات ونحو ذلك . ولذلك لم يصدُر عنهم مايُدوّن فى الكتب ولا يتناقل بالألسنة .

الحالة الثانية — ما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونيَّة من آبتداء ولاية أحمد بن طُولون، وآستفحال مُلْك الديار المصرية فى الإسلام، وترتيب أمرها، وإلىٰ حين آنقراض الدولة الاخشيديه، وفى خلال ذلك ترتَّبَ ديوان الإنشاء بها، وآنتظم أمر المكاتبات والولايات، وكان ممن آشتهر من كُتّابهم بالبلاغة وحُسْن الكتابة، أبو جعفر محمد بن أحمد بن مَوْدود بن عبد : كان كاتبَ أحمد بن طولون، وكان مبدأَ الكُتَّاب المشهورين بها . وكتب بعده لخمَارَويُه بن أحمد بن طولون إسحٰقُ بن نصر العبادىّ النصرانىّ، وتوالت الكُتَّاب بالديوان بعد ذلك .

الحالة الثالثة — ما كان الأمر عليه من ٱبتداء الدولة الفاطمية و إلىٰ ٱنقراضها .

ولما وَلِيَ الفاطميون الديارَ المصرية ، صَرَفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكُتَّابه ، فارتفع بهم قدرُه ، وشاع فى الآفاق ذكره ، ووَلِى ديوان الإنشاء عنهم جماعةٌ من أفاضل الكُتَّاب وبلغائهم : ما بين مسلمٍ وذمىّ ؛ فكتب للعزيز بالله ٱبن المعز أبو المنصور بن سوردين النصرانىّ ، ثم كتب بعده لٱبنه الحاكم ومات فى أيامه ، فكتب للحاكم القاضى أبو الطاهر البهزكىّ ، ثم كتب بعده لٱبنه الظاهر . وكتب للستنصر القاضى ولىُّ الدين بن خيران ، ثم ولىُّ الدولة موسىٰ بنُ الحسن قبل ٱنتقاله إلىٰ الوزارة ، وأبو سعيد العميدىّ . وكتب للآمر والحافظ الشيخُ الأجلُّ أبو الحسن علىّ بن أبى أسامة الحلبىّ إلىٰ أن تُوفِّى سنة ٱثنتين وعشرين وخمسمائة . فكتب بعده ولدُه الأجلُّ أبو المكارم إلىٰ أن توفِّى فى أيام الحافظ ؛ وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرِّآسة أبو القاسم علىّ بن سليمان بن منجد المبصرى المعروف بابن الصيرفىّ ، والقاضى كافى الكُفَاة محمود ٱبن القاضى الموفَّق أسعد بن قادوس ، وابن أبى الدم اليهودىّ . ثم كتب بعد الشيخ أبى المكارم بن أبى أسامة المتقدمِ ذكره القاضى الموفَّق ٱبن الخَلَّال أيامَ الحافظ ، و إلىٰ آخر أيام العاضد ؛ وبه تخرّج القاضى الفاضل البَيْسانى . ثم شَرَّك العاضدُ مع الموفَّق ٱبنِ الخَلَّال فى ديوان الإنشاء القاضىَ جلالَ الملك محمودَ بن الأنصارى وكان فى أيامه القاضى المؤتمن كاسيبويه . ثم كتب القاضى الفاضل بين يدى الموفَّق ابن الخلَّال قرب وفاته فى سنة ست وستين وخمسمائة فى وزارة الملك الناصِر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدّة سجلَّات ومكاتَبات عن العاضد آخرِ خلفائهم .

الحالة الرابعة — ما كان الأمر عليه من ٱبتداء دولة بنى أيوب إلىٰ آخر انقراضها .

قد تقدّم أن القاضيَ الفاضلَ رحمه الله كان قد كتب بين يدَيِ الموفّق آبن الخلّال فى وزارة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله عن العاضد آخر خلفاء الفاطميين، فلما آستقلّ السلطان صلاح الدين المذكور بالمُلْك وخَطَب لبنى العبّاس علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ ملوك مصر، فوّض إلىٰ الفاضل الوزارةَ وديوان الإنشاء فكان يتكلم فيهما جميعا، وأقام علىٰ ذلك إلى أن مات السلطان صلاح الدين، فكتب بعده لآبنه العزيز وأخيه العادل أبى بكر . ثم مات؛ وكتب للكامل بن العادل القاضى أمينُ الدِّين سليمانُ المعروف بكاتب الدَّرْج إلىٰ أن توفِّى، فكتب بعده للكامل الشيخُ أمين الدين عبد المُحْسن الحلبى مدّةً قليلة ؛ وتوالت كتّاب الإنشاء فى الولاية إلىٰ أن ولى الملك الصالح نجم الدين أيوبُ فولّى ديوانَ الإنشاء الصاحبَ بهاءَ الدين زُهيرا . ثم صرفه وولّى بعده الصاحبَ فخر الدين إبراهيم بن لقمان الإسْعَرْدِىَّ ؛ فبقَى إلىٰ آنقراض الدولة الأيوبية .

الحالة الخامسة — ما كان الأمر عليه فى الدولة التركية مما هو مستقِرّ إلىٰ الآن .

قد تقدّم أن الصاحبَ فخر الدين بنَ لقمان بقَى فى ديوان الإنشاء إلىٰ آخر الدولة الأيوبيـــة .

ولمـا صارت المملكة إلىٰ الدولة التركيـة، بقى فى صَحابة ديوان الإنشاء أيام أيبك التركمانى، ثم أيام المظفّر قطز، ثم أيام الظاهر بيبرس، ثم أيام المنصور قلاوون . فبـاشر ديوان الإنشاء فى أيامه مدّةً ، ثم نقله إلىٰ الوزارة، وولّى مكانه بديوان الإنشـاء القاضىَ فتح الدين بنَ القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى حياة والده ، فبقى حتّى توفى المنصور قلاوون، وآستقرّ بعده آبنه الأشرف خليل ، وآستمّر عنده فى كتابة السرّ برهة من الزمان وسافر معـه الى الشام ، فمـات بالشام فولّى الأشرفُ مكانَه القاضىَ تاج الدين أحمد بن الأثير، وقفل السلطانُ راجعا إلىٰ مصر ، فمـات

القاضى تاجُ الدين فى أثنـاء الطريق بمضىّ شهر من ولايتـه ، فولّى مكانه القاضىَ شرف الدين عبدَ الوهاب بنَ فضلِ الله فأقام بقية أيام الأشرف بن قلاوون ، وأيامَ أخيـه الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الأُولىٰ ، وأيامَ العادل كتبغا ، وأيام المنصور لاچين ، وأيامَ الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية ، وأيامَ المظفر بيبرس الجاشنكير ، و برهةً من أيام الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الثالثة .

ثم نقله إلىٰ كتابة السرّ بدمشق المحروسـة عوضًا عن أخيه القاضى محيي الدين بن فضل الله ، وولّى مكانه بمصر علاء الدين بن الأثير لسابق وعدٍ له منه حين كان معه فى الكَرَك ، وبقى حتّى مرض بالفالج وبطلت حركته ، فآستدعىٰ الملك الناصر القاضىَ محيي الدين بن فضـل الله من الشأم ، فولّاه ديوان الإنشاء بالديار المصرية فى المحرم سنة تسع وعشرين وسبعمائة .

وكان ولدُه القاضى شهابُ الدين هو الذى يقرأ البريد علىٰ السلطان وينَفِّذ المهمَّات إلىٰ سـنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة فأعادهما الملك الناصر إلىٰ دمشق ، وولّى مكانهما القاضى شرف الدين بن الشهاب محمود فى شعبان من السنة المذكورة ، فبقى حتّى حَجَّ السلطان وعاد إلىٰ مصر ، فأعاد القاضى محيي الدين وَولَده القاضى شهاب الدين إلىٰ ديوان الإنشاء بالديار المصرية ، فبقيا إلىٰ سنة ثمـان وثلاثين وسبعمائة .

وفى أواخر ذلك تغير السلطان علىٰ القاضى شهابِ الدين المذكـور وصَرَفه عن المباشَرة وأقام أخاه القاضىَ علاءَ الدين مكانَه يباشر مع والده ، وبقى الأمر علىٰ ذلك مدّة لطيفة .

ثم سأل القاضى محيي الدين السلطان فى العود إلىٰ دمشق ، وقد كَبِرتْ سنُه وضعُفتْ حركته ، فأعاده وصحبتُه ولدُه القاضى شهابُ الدين وكتب له تقليد فى قطع

الثلثين : بأن يستمرّ علىٰ صحابة دواوين الإنشاء بالممالك الإسلامية، وأن يكون جميعُ المباشرين لهـذه الوظيفة بالبـاب الشريف فمَنْ دونَه نُوَّابَه ، وأنه حيث حلّ يقرأ القِصَص والمظالم ، ويقرِّر الولاياتِ والعزلَ والرواتبَ وغير ذلك ، ويوقِّع فيها بمـا يراه، وتُجهَّز إلىٰ مصر ليعلّم عليها العلامةُ الشريفة ؛ وفوّض أمر ديوان الإنشاء بالديار المصرية لولده القاضى علاء الديـن آستقلالا ، وتجهَّز القاضى محيي الدين للسفر، فمرض ومات بعد أيام قلائل فى شهر رمضان سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة بالقاهرة . ثم نُقل إلىٰ دمشق سـنة تسع ، وبقى ولده القاضى علاء الدين فبقى فى الوظيفة بقية أيام الملك الناصر، ثم أيامَ ولده المنصور أبى بكر، ثم أخيه الأشرف كجك، ثم أخيه الملك الناصر أحمد .

فلما خلَع الناصر أحمدُ نفسَـه فى سنة ثلاث وأربعين وتوجه إلىٰ الكَرَك ، توجه القاضى علاءُ الدين معه ، فأقام عنده ؛ وآستقرّ الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون فى السلطنة بعد أخيه أحمد ، فقرّر فى ديوان الإنشاء القاضىَ بدرَ الدين محمد بـن محيي الدين بن فضل الله ، فبقى فى الوظيفة إلىٰ أن عاد أخوه القاضى علاءُ الدين من الكَرَك ، فأعِيد إلىٰ منصِـبه ، وبقِى بقيةَ أيام الملك الصالح إسماعيل ، ثم أيامَ أخيه الكامل شعبان ، ثم أيام أخيه المظفَّر حاجِّى ، ثم أيامَ أخيه الناصر حسن فى سلطنته الأولىٰ، ثم أيام أخيـه الصالح صالح، ثم أيام النـاصر حسن ثانيا، ثم أيام المنصور محمد بن حاجِّى بن محمد بن قلاوون ، ثم أيام الأشرف شـعبان بن حسين بن محمد ابن قلاوون فتُوفِّى؛ وولى الوظيفةَ بعده ولدُه القاضى بدرُ الدين محمد، فبقى بقيةَ أيام الأشرف شعبان ، ثم أيام ولده المنصور على، ثم أيامَ أخيه الصالح حاجى بن شعبان إلىٰ أن خُلِـعَ ؛ وجاءت الدولة الظاهرية برقوقَ فقرّر فى ديوان الإنشاء القـاضىَ أوحد الديـن عبدَ الواحد بن التركمانى ، فبقى حتّى تُوُفِّى فأُعيد القاضى بدرُ الدين

المذكور وبقى حتّى خُلِـع الظاهر برقوق وعاد المنصور حاجّى بن الأشرف شـعبان إلىٰ السلطنة وهو مستمرّ المباشرة .

فلما عاد الظاهر برقوق من الكَرَك حضر معه القاضى علاءُ الدين علىّ الكَرَكى ، فولّاه كتابة السرّ وبقى حتّى توجه صُحبة السلطان إلىٰ الشام فى طلب مِنْطاش ، فمات القاضى علاء الدين ، وكان القاضى بدر الدين صحبتَه فأُعيد إلىٰ الوظيفة فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وعاد مولًى صحبةَ الركاب الشريف السلطانىّ . ثم توجه صحبتَه إلىٰ الشـام عند وُصُول تمرلنك لبغداد ، فمرض ومات هناك ، فولّى الظاهرُ مكانَه القاضىَ بدر الدين محمود السراى الكلستانىّ فى شوّال سـنة ست وتسعين وسبعمائة ؛ وحضر صُحبةَ الركاب الشريف إلىٰ الديار المصرية ، فبقى حتّى تُوُفّى فى جُمادىٰ الأولىٰ سنة إحدىٰ وثمانمائة ، فولّى الظاهر مكانَه المقرّ العالى الفتحى فتْح الله ، ففتح اللهُ به من أبواب ديوان الإنشاء ما كان مُغْلَقا ، وأصفىٰ به من وِرْده ما كان مكدَّرا .

وآنتقلت السلطنة بعد وفاة الظاهر برقوق إلىٰ ولده الناصر فرج ، فأجراه من المباشرة والإجلال والتعظيم علىٰ عادة أبيـه . ثم صرفه عن الوظيفة فى شهور سـنة ثمان وثمانمائة ، وأقام مكانه فى الوظيفة المَقَرّ السعدىّ إبراهيم بن غراب ، وهو يومئذ مشير الدولة بعد تنقله فى وظائف الديار المصرية والمشارُ إليه . وأقام بها مدّة لطيفة ، وعادت إلىٰ المَقَرّ الفتحىّ فتح الله المشار إليه ، وقيل : ﴿ هَـٰذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ فجرىٰ فيها علىٰ الأُسْلوب الأوّل والمَهْيَع السابق : من العدل والإنصاف ، والإحسان إلىٰ الخلق ، وإيصال البرّ إلىٰ مستحقيه ، والمساعدة فى الله لمن عَرَف ومن لم يعرِف ؛ والله هو المكافئ لعباده علىٰ جميل الصنع !

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لم يَعْـدَمْ جَوازِيَه * لَنْ يَذْهَبَ العُرْفُ بيْنَ اللهِ والناس

الباب الخامس

من المقدّمة

في قوانين ديوان الإنشاء، وترتيب أحواله، وآداب أهله ؛ وفيه أربعة فصول

الفصل الأوّل

(فى بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره وشرف محله
ولقبه الجارى عليه فى القديم والحديث)

أما رِفْعة محله وشرفُ قدره، فأرفعُ محل وأشرفُ قدر، يكاد أن لا يكون عند الملك أخصُّ منه ولا ألزمُ لمجالسته ؛ ولم يزل صاحب هذا الديوان معظَّما عند الملوك فى كل زمن، مقدَّما لديهم على من عداه : يُلْقون إليه أسرارهم، ويَخُصُّونه بخفايا أمورهم، ويُطْلعونه على مالم يطَّلع عليه أخص الأخصاء : من الوزراء والأهل والولد، وناهيك برتبةٍ هذا محلها !

قال صاحب موادّ البيان " ليس فى منزلة خَدَم السلطان والمتصرِّفين فى مهماته أخصُّ من كاتب الرسائل . فإنه أوّل داخل على الملك وآخرُ خارج عنه، ولا غِنًى له عن مفاوضته فى آرائه، والإفضاء اليه بمهمانه، وتقريبه من نفسه فى آناء ليله وساعات نهاره وأوقات ظهوره للعامة وخلواته، وإطلاعه على حوادث دولته ومهمَّات مملكته ؛ فهو لذلك لا يثق بأحد من خاصّته ثِقَتَه به، ولا يركَنُ إلى قريب ولا نسيب رُكونَه إليه، ومحلُّه منه فى عائدة خدمته وأثَرَة دولته محلُّ قلبِه الذى يؤامره فى مشكِل رأيه حتّى يتنقحَ، ويراجعُه فى مهمّ تدبيره حتّى يتضح ؛ ولسانِه الذى يقرّر بترغيبه أولياءَه على الطاعة والموافقة، ويستقر (١) بترْهيبه عن المعصية والمشاققَة، ويقر بأوامره

---

(١) كذا فى الأصل ولعله مصحف عن يُنَفِّر . أو يستنفر كما يقتضيه المقام .

ونواهيه أمور سلطانه، ويُنْزِلها منازلها فى ممهد مجالسها، ويتمكن من سياسة أجناده، وعِمارة بلاده، ومصلحة رعيته، وآجتلاب مودّتهم، وآستخلاص نياتهم؛ وعينِه التى تلاحظ أحوال سلطانه، ويُرْعِيها مهمات شانه؛ وأذنه التى يثق بماوَعَتْه، ولا يرتاب بما سمعتْه؛ ويده التى يبسُطُها بالإنعام، ويبطِشُ بها فى النقض والإبرام " .

قال : ومن كانت هذه رتبتَه فالسبب الذى رتَّبه فيها أفضلُ الأسباب، وأجدرها بالتقديم على الاستحقاق والآستيجاب .

قال ابن الطوير فى ترتيب الدولة الفاطمية " وكان هـذا المنصب لا يتولّاه فى الدولة الفاطمية إلا أجلُّ كتّاب البلاغة، ويُخاطَب بالأجلّ، وإليه تسلَّم المكاتَبة واردة مختومة فيَعْرِضها على الخليفة من يده؛ وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها وربما بات عند الخليفة ليالىَ؛ وهذا أمر لا يصل إليه غيره " . قال "وهو أوّل أرباب الإقطاعات فى الكِسوة والرسوم والملاطفات، ولا سبيل أن يدخل إلى ديوانه أحد ولا يجتمع بأحد من كتّابه إلا الخواص؛ وله حاجب من الأمراء الشيوخ، وله فى مجلسه المرتبة العظيمة والمَخَادّ والمُسْنَد، والدواة العظيمة الشأن؛ ويحمل دواته أستاذ من خواصّ الخليفة عند حضوره إلى مجلس الخلافة " .

قلت : ومرتبته فى زماننا أرفع مرتبة، ومحله أعظم محل؛ إليه تلقَى أسرارُ المملكة وخَفَاياها، وبرأيه يُستضاء فى مشكلاتها، وعلى تدبيره يعوّل فى مهماتها، وإليه تَرِدُ المكاتبات، وعنه تصدر؛ ومن ديوانه تُكْتَب الولايات السلطانية كافَّة، ويقوم توقيعُه على القِصَص فى نفوذ الأوامر مَقَامَ توقيع السلطان؛ وجميعُ ما يعلِّم عليه السلطان من جليل وحقير فى مرتبته حتّى ما يُكْتَب من ديوان الجيش من المناشير، وما يُكْتَب من ديوان الوزارة وديوان الخاص وغيرهما من المُرَبَّعات ونحوها . وليس

لأحد من المتولين لهذه المناصب التعرُّضُ لأخذ علامة سلطانيّة البتةَ، وناهيك بذلك رفعةً وشرفا باذخًا .

وأمّا لَقَبه الجارى عليه فى كل زمن فقد تقدّم أنهم كانوا فى زمن بنى أُمَيَّة وما قبله يعبّرون عنه بالكاتب، لا يعرفون غير ذلك كما أشار اليه القُضاعىُّ فى "عيون المعارف". فلما جاءت الدولةُ العباسيَّة، وآستقر السّـفّاح أوّلُ خلفائهم فى الخلافة، لقَّب كاتبَه أبا سلمة الخَلَّال بالوزارة وترك اسم الكاتب؛ وآستقرّ لقب الوزارة علىٰ مَنْ يليها من أرباب السيوف والأقلام إلىٰ انقراض الخلافة من بغداد . وتقدّم أيضا أن هـذا الديوان كان تارة يضاف إلىٰ الوزارة فيكون الوزير هو الذى يباشره بنفسه أو يفوّضه إلىٰ مَنْ يتحدّث فيه عنه، وتارة ينفرد عنها، فحيث آنفرد عن الوزارة لُقِّب متوليـه بمـا يتضمن إضافته إلىٰ صحابة الديوان وولايته بحسب ما يشتهر به الديوان فى ذلك الزمن .

فحيث كان الديوان مشهورا بديوان الرسائل، كما كان فى الزمن الأوّل، لقِّب متوليه بصاحب ديوان الرسائل أو متولِّى ديوان الرسائل، وربمـا قيل صاحب ديوان المكاتبات، أو متولِّى ديوان المكاتبات، وحيث كان الديوان مشهورا بديوان الإنشاء كما فى زماننا بالديار المصرية لُقِّب متوليه بصاحب ديوان الإنشاء . وربمـا جمعوا لفظ الديوان تعظيما لمتوليه، فقالوا صاحب دواوين الإنشاء بالممـالك الإسلامية . وعلىٰ هـذا مصطلَح كُتَّاب الديوان فى زماننـا فى تعريفه فيما يكتب له من تقليـد أو غيره؛ علىٰ أنه لو قيـل ناظر دواوين الإنشـاء لكان أعلىٰ فى الرتبة لمـا آشتهر فى العرف من أن لفظ ناظر الديوان أعلىٰ من صاحب الديوان .

قال ابن الطوير : "وكانوا يلقبونه فى الدولة الفاطميـة بالديار المصرية كاتب الدَّسْت" .

قلت : وٱنتهى الأمر إلىٰ أوائل الدولة التركية والحـال فى ذلك مختلف، فتارة يلى الديوان كاتبٌ واحد يعبر عنه بكاتب الدَّسْت، وربمـا عُبِّر عنه بكاتب الدَّرْج، وتارة يليه جماعةٌ يعبر عنهم بكُتَّاب الدَّسْت . ويقال إنهم كانوا فى أيام الظاهر بيبرس ثلاثة نفر، أرفعُهم درجةً القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر. وبقى الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن ولىَ الديوانَ القاضى فتحُ الدين بن عبد الظاهر فى أيام المنصور قلاوون علىٰ ما تقدّم ذكره، فلُقِّب بكاتب السر، ونقل لقب كاتب الدَّست إلىٰ طبقة دُونَه من كُتَّاب الديوان . وٱستمر ذلك لقبًا علىٰ كل من وَلِىَ الديوان إلىٰ زماننا علىٰ ماسيأتى ذكره . ويضاهيه فى ذلك من العُرْف العامّ متولى ديوان الإنشاء بدمشق، وبحلب، وبطرابلس، وبحمـاه، وبصَفَد؛ إلا أنه لا يقال فى واحد منهم فى مصطَلَح الديوان صاحب دواوين الإنشاء كما يقال فى متولى ديوان الإنشاء بالديار المصرية؛ بل يقال فى متولى ديوان دمشق صـاحب ديوان الإنشاء بالشام، وفى متولى ديوان حَلَب صاحب ديوان المكاتَبَات بحلب، وكذا فى الباقيات. أما غَزَّة، والكَرَك، والإسكندرية وغيرُها من النيابات الصِّغار فإنمـا يقال فى متولى شئ من دواوينهـا كاتب دَرْج ولا يطلق عليه كاتب سرّ بوجه .

وٱعلم أن العامة يبدلون الباء من كاتب السِّرّ بميم فيقولون كاتم السر، وهو صحيح المعنىٰ إما لأنه يكتُم سِرَّ الملك، أو من باب إبدال الباء بالميم علىٰ لغة ربيعة وان كانوا لا يعرفون الثانى .

الفصـــل الثـانى

(فى صفة صاحب هذا الديوان وآدابه)

قال أبو الفضل الصورى فى مقدّمة تذكرته : "يجب أن يكون صبيحَ الوجه، فصيحَ الألفاظ، طَلْق اللسان، أصيلًا فى قومه، رفيعا فى حَيِّـه، وَقُورا، حليما

مُؤْثِرا للجِدّ على الهزل، كثير الأَناة والرفق، قليلَ العَجَلة والخُرْق، نَزْر الضحك، مَهِيب المجلس، ساكن الظِّل، وَقُور النادى، شديدَ الذَّكاء، متوقد الفهم، حَسَن الكلام إذا حدَّث، حسن الإصغاء إذا حُدِّث، سريعَ الرضا، بطىء الغضب، رءُوفا بأهل الدين، ساعيا فى مصالحهم، محبًّا لأهل العلم والأدب، راغبا فى نفعهم؛ وأن يكون محبا للشُّغْل أكثر من محبته للفراغ، مقسِّما للزمان على أشغاله : يجعل لكل منها جزءا منه حتّى يستوعبه فى جميع أقسامها، ملازما لمجلس الملك إذا كان جالسا، وملازما للديوان إذا لم يكن الملك جالسا : ليتأسّى به سائر كتّاب الديوان، ولا يجدوا رخصة فى الغيبة عن ديوانهم؛ وأن يُغَلِّب هوى الملك على هواه ورِضاه على رضاه — مالم ير فى ذلك خللا على المملكة، فإنه يجب أن يُهْدِى النصيحة فيها للملك من غير أن يُوجده فيما تقـدّم من رأيه فسادا أو نقصا، لكن يتحيل لنَقْص ذلك وتهجينه فى نفسـه وإيضاح الواجب فيه بأحسن تأنٍّ وأفضل تلطف؛ وأن يَنْحَل الملك صائبَ الآراء ولا ينتحلها عليه؛ ومهما حدث من الملك : من رأيٍ صائب أو فعل جميل أو تدبير حميد، أشاعه وأذاعه، وعظمه وفخمه، وكرر ذكره، وأوجب على الناس حمدَه عليه وشكره . وإذا قال الملك قولا فى مجلسه أو بحضرة جمـاعة ممن يخدُمه فلم يره موافقا للصواب، فلا يَجْبَهْه بالرد عليه واستهجان ما أتىٰ به — فان ذلك خطأ كبير؛ بل يصبر الى حين الخلوة، ويُدخل فى أثناء كلامه ما يوضِّح به نهجَ الصواب من غير تلقٍّ بردّ، ولا يتبَجَّح بمـا عنده، ويكون متابعا للملك على أخلاقه الفاضلة، وطِباعه الشريفة : من بَسْط المَعْدَلَة ومدّ رُوَاق الأَمَنة، ونَشْر جَنـاح الإنصاف، وإغاثة الملهوف، ونُصْرة المظلوم، وجَبْر الكسير، والإنعام على المُعْتَرِّ المستحق، والتوفُّر على الصدقات، وعِمـارة بيوت الله تعالى، وصَرْف الهِمَم الى مصالحها، والنظرِ فى أحوال الفقهاء، وحَمَلة كتاب الله العزيز بمـا يَصْلُح، والآلتفاتِ الى عِمـارة البلاد، وجِهَاد الأعداء،

ونشر الهيبة، و إقامة الحدود فى مواضعها، وتعظيم الشريعة ، والعمل بأحكامها . فيكون لجميع ذلك مؤكِّدا ، ولأفعاله فيــه موطِّدا ممهِّدا . و إن أحسَّ منه بخَلَّةٍ تُنافى هذه الخلالَ، أو فَعْلةٍ تخالف هذه الأفعال، نقله عنها بألطف سَعْى وأحسن تدريج، ولا يَدَعُ ممكنا فى تبيين قُبْحها، و إصــلاح رداءة عاقبتها، وفضـيلة مخالفتها إلا بينه وأوضحه الى أن يعيــده إلى الفضائل التى هى بالملوك النبــلاء أليقُ ؛ وأن يكونَ مع ذلك بأعلى مكانة من اليَقَظة والآســتدلال بقليلِ القول على كثيره ، وببعض الشىء على جميعه ، ويستغنى عن التصريح بالإشارة والإيماء ، بل الرمز والإيحاء : لينبه الملك على الأمور من أوائلها ، و يعرّفه خواتم الأشياء من مُفْتَتَحاتها ، ويحذِّره حين تبــدو له لوائح الأمر من قبل أن يتساوى فيه العالم والجاهل — كما حكى عن خالد بنِ برمك : ”أنه كان مع قَحْطَبَةَ فى معسكر ، جالسين فى خَيْمة إذ نظر خالد إلى سِرْب من الظباء قد أتى حتّى كاد يخالط العســكر ، فأشار على قحطبةَ بالركوب فسأله عن السبب ، فقال الأمر أعجل أن أبيِّن سببه . فركب وأركب العسكر، فلم يستتمُّوا الركوب إلا و العدوّ قد دهمهم، وقد آســتعدّوا له فكانت النُّصرة لهم على العدوّ . فلمــا آنقضى الحربُ سأل قَحْطَبةُ خالدا من أين أدركت ذلك ؟ فقال : رأيت الظِّباء وقد أقبلَتْ حتّى خالطت العسكر، فعرفتُ أنهــا لم تفعل ذلك مع نُفورها من الإنس إلا لأمر عظيم قد دهمها من ورائها “ . وأن لا يكتب عن الملك إلا مايقيم مَنَار دولته و يعظِّمها ، ولا يخرج عن حكم الشريعة وحدودها ؛ ولا يكتبُ ما يكون فيه عيب على المملكة ولا ذمٌّ لها على غابر الأيام، ومستأنَف الأحقاب؛ و إن أمر بشىء يخرُج عن ذلك، تلطَّفَ فى المراجعة بسببه ، وبيَّن وجه الصواب فيه إلى أن يرجع به الى الواجب .

وأن يكون من كتمان السر بالمنزلة التى لا يُدانيه فيها أحد، ولا يقاربُه فيها بشر، حتّى يقرّر فى نفسه إماتةَ كلِ حديث يعلمه، و يتناسيَ كلَّ خبر يسمعه . وأن لا يُطْلِع والدا

ولا ولدا، ولا أخا شقيقا، ولا صديقا صَدُوقا، علىٰ ما دَقَّ أو جلَّ؛ ولا يُعْلمه بما كثُر منه ولا قلّ؛ ويتوهم بل يتحقق أنّ فى إذاعته ما يعلَم به وَضْع منزلته وحَطَّ رتبته، ويجتهد فى أن يصير له ذلك طَبْعا مركّبا وأمرا ضروريًّا .

قلت : وهذه الصفة هى الشرط اللازم، والواجب المحتَّم : بها شُهِر، وبالإضافة إليها عُرِف . وقد قال المأمون وهو من أعلىٰ الخلفاء مكاناً، وأوسعهم علما : "الملوك تحتملُ كلَّ شيء إلا ثلاثة أشياءَ : القَدْح فى الملك، وإفشاءُ السِّر، والتعرّضُ للحُرَم".

ومن كلام بعض الحكماء : "سرُّك من دمِك" قال صاحب العقد : يعنُون أنه ربّما كان فى إفشاء سرك سَفْكُ دمك . وإلى ذلك يشير أبو مِحْجَن الثقفىّ بقوله :

قد أطْعَنُ الطَّعْنة النجْلاءَ عَنْ عُرُضٍ * وأكْتُمُ السِّرَّ فيه ضَرْبةُ العُنقِ

وقال الوليد بنُ عتبة لأبيه : "إن أمير المؤمنين أسرّ إلىّ حديثًا أفلا أُخْبرك به ؟ قال يا بُنىّ : إنَّ مَن كَتَم سرَّه كان الخيار له ومن أفشاه كان الخيار عليه ؛ فلا تكُنْ مملوكا بعد أن كنتَ مالكا" . وقد كانت ملوك الفرس تقول "أعظمُ الناس حقًّا علىٰ جميع الطَّبَقات مَن وَلِىَ أسرار الملوك" .

وٱعلم أنه إذا كان إفشاء السر ربما أفضىٰ إلى الهَلَكة خصوصا أسرارَ الملوك، فعلىٰ صاحب هذه الوظيفة القيامُ من ذلك بواجبه وكِتمانُ السِّر حتّٰى عن نفسه ؛ فقد حكى صاحب "الرَّيحان والرَّيعان" : أن عبد الله بن طاهر تذاكر الناس فى مجلسه حفظَ السر، فقال عبد الله :

ومُسْتَوْدِعِى سِرًّا تضَمَّنْتُ سَتْره * فأوْدَعْتُه فى مُسْتَقَرّ الحَشَا قَبْرا

فقال ٱبنه عبيد الله، وهو صبىّ :

وما السِّرُّ من قلبى كثاوٍ بحُفْرةٍ * لأنّى أرى المدْفُونَ يَنْتَظرُ الحَشْرا
ولٰكنّني أُخْفيه حتّٰى كأنّنى * مِنَ الدَّهر يومًا ما أحطْتُ به خُبْرا

وعلى صاحب هـذه الرتبة الاحتياط حالةَ تلقِّى السرّ عن الملك بأن لا يتلقَّاه عنه بحضرة أحد . فقد حكى أنّ بعض ملوك العجم استشار وزيريه ، فقال أحدهما : "لا ينبغى للملك أن يستشير منَّا أحدا إلا خالياً فإنه أصْوَنُ(١) للسرّ وأحْزَم للرأْى وأجدَرُ بالسلامة وأعفىٰ لبعضنا من غائلة بعض، فإن إفشاء السر إلى رجل واحد أوثَقُ من إفشائه إلى اثنين و إفشاؤه إلى ثلاثة كإفشائه إلى جماعة ، لأن الواحد رَهْن بما أُفْشِى اليه . والثانى مُطْلق عليه ذلك الرهن . والثالث علاوة ، واذا كان السر عند واحد كان أحْرَى أن لا يُظْهره رغبةً أو رَهْبَةً ، و إن كان عند اثنين كان علىٰ شبهة واتسعت عن(٢) الرجلين المعاريض ، فان عاقبهما عاقب اثنين بذنبٍ واحد ، و إن اتهمهما اتهم بريئا بجناية مُجْرِم ، و إن عفا عنهما كان العفوُ عن أحدهما ولا ذَنْب له ، وعن الآخر ولا حجةَ معه" .

قلت : وكما يجب عليه الاحتياط حالة تلقِّى السر عن الملك فكذلك يجب عليه الاحتياط حالة إلقائه إلى كاتب يكتُبه ، فلا يلقيه إلى كاتبين جميعا ، ولا يخاطب فيه أحدَهما بحضرة الآخر لتكون العهدة فى دَرَكه علىٰ واحد بعينه . على أنه ربما أُفْشِىَ السر مع احتراز صاحبه عن إفشائه ، فقد قيل : إن الجنّ تنقل الأخبار ، وتُفْشِى ماتطَّلع عليه من الأسرار . وقد حكى عن علىّ بن الجَهْم أنه قال : دخلتُ علىٰ أمير المؤمنين المتوكِّل فرأيت الفتح بن خاقان وزيرَه واقفا على غير مرتبته التى يقوم عليها ، متكئا على سيفه ، مُطْرِقا إلى الأرض فأنكرت حاله ، وكنت إذا نظرت اليه نظر الخليفة إلىّ ، و إذا صرفت وجهى إلى نحو الخليفة أطرق ؛ فقال لى الخليفة ياعلىّ أنكرت شيئًا ؟ — قلت نعم يا أمير المؤمنين ! — قال : ماهو ؟ — قلت : وقوف الفتح بن خاقان فى غير منزلته ، — قال : سوء اختياره أقامه ذلك المقام ، — قلت :

(١) فى الأصل أموت . وهو تصحيف ظاهر .
(٢) لعل الأظهر علىّ .

ما السبب ياأمير المؤمنين ؟ — قال : خرجتُ من عند جارية لى فأسررت إليه سِرًّا فما عدانى السرُّ أن عاد إلىّ . — قلت لعلك أسررت الى غيره ، — قال : ما كان هذا ! — قلت فلعل مستمعا آستمع إليكما ، — قال لا ولا هذا أيضا . قال فأطرقت مليًّا ثم رفعت رأسى ، فقلت : ياأمير المؤمنين قد وجدت له مما هو فيه مخرجا . — قال وما هو؟ — قلت : خبر أبى الجوزاء ، حدثنا أبو نُعَيم الفضلُ بن دُكَيْنٍ قال حدّثنا المعتمر بن سليمان عن أبى الجوزاء قال : طلقت آمرأتى فى نفسى وأنا بالمسجد ثم آنصرفت إلىٰ منزلى ، فقالت لى آمرأتى : طلقتنى ياأبا الجوزاء ! قلت من أين لك هذا ؟ قالت حدّثتنى به جارتى الأنصاريَّة قلتُ : ومِنْ أينَ لها هذا؟ قالت ذكرتْ أنَّ زوجها خَبَّرها بذلك قال : فغدوت علىٰ آبن عباس رضى الله عنهما فقصصْت عليه القِصَّة فقال : أمَا علمت أن وَسْواس الرجل يحدّث وَسْواس الرجل ؟ فمن هنا يفشو السر ، فضحك المتوكل ، وقال إلىّ يا فتحُ ! فصَبَّ عليه خِلعة ، وحمله علىٰ فرس ، وأمر له بمال ، وأمر لى بدُونِه فانصرفت إلىٰ منزلى ، وقد شاطرنى الفتح فيما أخذ فصار إلىّ الأكثرُ .

قال أبو نعيم وكان فى نفسى من حديث أبى الجوزاء شىء حتّى حدّثنى حمزة آبن حبيب الزيات . قال : خرجت سنةً أريد مكة فبينا أنا فى الطريق إذ ضلَّت راحلتى فخرجت أطلُبها فإذا أنا بآثنين قد قبضا علىّ أُحِسُّ حِسَّهما ولا أرى شخصهما بل أسمع كلامهما ، فأخذانى إلىٰ شيخ قاعِد وهو حَسَن الشَّيْبة فسلمت عليه فردّ علىّ السلام فأفرخ رَوْعى (١) . ثم قال من أين والىٰ أين ؟ قلت من الكوفة إلىٰ مكة . قال : ولِمَ تخلَّفت عن أصحابك ؟ قلت ضلَّتْ راحلتى فجئت أطلُبها ، فرفع رأسه الىٰ قوم عنده ، وقال : أنِيخوا راحِلتَه ، فأُنِيخَتْ بين يدَىَّ . ثم قال : تقرأ القرآن؟

(١) فى الأصول بالجيم وهو تصحيف . وصوابه بالخاء المعجمة يقال أفرخ روعه أى زال فزعه . أنظر القاموس .

قلت نعم . قال فاقرأ ، فقرأت حَم الأحقـاف حتّى أتيت ﴿وإذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الجنِّ﴾ فقال مكانَك ، أتدرى كم كانُوا ، قلت لا . قال كُنَّا أربعـةً : وكنتُ أنا المخاطِبَ عن النبي صلى الله عليه وسلم لهم ، فقلت : ﴿ياقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ﴾ ثم قال أتقول الشعر ؟ قلت لا . قال فترْويه ؟ قلت نعم . قال هاته ، فأنشـدته قصيدة زُهَير بن أبى سُلْمىٰ "أَمِنْ أُمِّ أوفى" فقال لمن هذه؟ قلت لزهير بن أبى سُلْمىٰ قال الجنىّ ؟ قلت لا بل الإنسىّ . ثم رفع رأسه الى قوم عنده ، فقال ائتُونى بزهير فأُتِيَ بشَيخ كأنه قِطعة لحم فأُلْقِي بين يديه — قال يا زهير — قال لبيك ! قال "أمن أم أوفىٰ" لمن هى؟ قال لى — قال هذا حمزة الزيات يذكر أنها لزُهَيْر بن أبى سُلْمىٰ ؛ قال : صدق وصدقتُ ، قال وكيف هـذا ؟ قال هو إلفى من الإنس وأنا تابعـه من الجنّ ، أقول الشيء فألقيه اليه فى فهمه و يقول الشيء فآخُذ عنه ، فأنا قائلها فى الجنّ وهو قائلها فى الانس . قال أبونعيم : فصدق عندى حديثُ أبى الجوزاء أن وَسْواس الرجل يحدّث وَسْواس الرجل .

الفصـــل الثـالث

(فيما يتصرف فيه صاحبُ هذا الديوان بتدبيره ، ويصرِّفه بقلمه ، ومتعلَّق ذلك اثنا عشرَ أمرًا)

الأمر الأوّل

(التوقيـــع والتعيين)

أما التوقيع فهو الكتابة علىٰ الرِّقاع والقِصَص بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبـات فى الأمور المتعلقة بالمملكة ، والتحدّث فى المظالم ؛ وهو أمر جليـل ، ومنصب حفيل ، إذ هو سبيل الاطلاق والمنْع ، والوصل والقطْع ، والوِلاية والعزل

إلى غير ذلك من الأمور المهمات والمتعلقات السَّنِيَّة . واعلم أن التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء، فكان الخليفة هو الذي يُوَقِّع في الأمور السلطانية ، وفصل المظالم، وغيرهما .

الأمر الثاني

(نظره في الكُتُب الواردة عليه)

قال أبو الفضل الصوري : "كان الواجب أن لا يقرأ الكُتُبَ الواردة على الملك إلا هو بنفسه ؛ ولما كان ذلك متعذرا عليه لوُفُورها ، واتساع الدولة ، وكثرة المكاتبين من أصناف أرباب الخدَم ، ووُصُول الكُتُب إليه من الأقطار النائية ، والممالك المتباعدة ، وضِيق الزمان عن تفرُّغه لذلك ، وجب تفويضه إلى متولِّي ديوان رسائله". قال : "ولما كان حال متولي صاحب الديوان كذلك لاشتغاله بالحُضُور عند الملك في بعض الأوقات لقراءة الكتب الواردة، وتقرير ما يُجاب به عن كل منها ، مع شَغْله بتصَفُّح ما يكتَب في الديوان والمقابلة به ، احتاج أن يردّ أمْرَها إلى كاتب يقوم مقامَه" على ما سيُذكر في صفات كُتَّاب الديوان فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الأمر الثالث

(نظره فيما يتعلق بردّه الأجوبة عن الكُتُب الواردة على لسانه)

قال أبو الفضل الصوري : "ومن أهم ما يلزم صاحبَ هذا الديوان إشعارُ الملك ما يراه من الآراء الصائبة ويعلمه أنّ من أعظمها خَطَرا أن يُصْدَر جواب كل كتاب يصل إليه في يومه ولا يؤخرَه إلى غَدِه ويؤرّخ في آخره بتاريخ ذلك اليوم" فيقال "وكُتِب في يوم وُصُول كتابك ، وهو يوم كذا" فإن ذلك يقيم للملك هيبة كبيرة ، ويدل

علىٰ تطلّعه للأمور، وٱنتصابه للتدبير، وقلة إهماله لأمور دولته، وكثرة احتفاله باستقامة شُئونهـا، ويؤثّر فى نفس المكاتَبين تأثيرا كبيرا، ويستشعرون منه حَذَرا وخِيفة".

قال : "وينبغى أن يأخذ جميعَ أرباب الخِدَم فى البلاد بتاريخ كُتُبهم ويحذّرَهم من ترك ذلك؛ فإن فى إهمـاله ضررا كبيرا من حيث إنه إذا ورد غير مؤرّخ لم يعلم بُعْدُ العهد بما ذ كر فيه من قُرْبه، ولا هل فات وقت النظر فيما تضمّنه أم لا؛ وإذا كان مؤرّخا عرف ذلك وزالت الشبهة فيه، وإذا وصل اليه كتاب ٱقتضى تاريخه زيادة زمنٍ علىٰ مسافة الطريق، أنكر ذلك علىٰ حامله فإن خرج عن العهدة بإقامة الحجـة علىٰ أنه لم يتأخر به قدرا زائدا علىٰ مسافة طريقه، وأن العذر من تقدّم التاريخ قبل إرساله، أنكر ذلك علىٰ مرسله إنكارا يردَعُه عن ذلك ويزجُره عنه .

الأمر الرابـــع

(نظره فيما تتفاوت به المراتب فى المكاتَبات والوِلايات : من الٱفتتاح والدعاء، والألقاب، وقطع الورق ونحو ذلك)

وقد كان هذا الباب فى الزمن المتقدّم فى غاية الضَّبْط والتحرير، خصوصًا فى زمن الخُلَفاء من بنى العبـاس والفاطميين؛ لا يُزاد أحد فى الألقاب علىٰ مالقّبه به الخليفة كبيرا كان أو صغيرا، ولا يُسمَح له بزيادة الدعوة الواحدة فضلا عما فوقها . أما الآن فقد صار ذلك موكولا إلىٰ نظر صاحب ديوان الإنشاء ينزل كل أحد من المكاتَبين وأرباب الوِلايات مَنْزِلتـه علىٰ مايقتضيه مصطلَح الزمان من عُلو وهُبوط؛ وحينئذ فعليـه أن يحتاط فى ذلك ويؤاخِذَ كُتّاب الإنشاء بالمشاحّة فيه، والوقوف عند ماحُدّ لهم من غير إفراط ولا تفريط . فقد قال صاحب موادّ البيان : " إن الملوك تسمَح ببَدَرات المال، ولا تسمَحُ بالدعوة الواحدة" وناهيك بذلك تشديدا وٱحتياطا .

الأمر الخامس

(نظره فيما يُكتَب من ديوانه وتصفُّحه قبل إخراجه من الديوان)

قال أبو الفضل الصورى : " علىٰ متولِّى الديوان أن يتصفح ما يُكتَب من ديوانه من الوِلايات والمَنَاشِير والمُكاتَبات ؛ إذ الكاتب غير معصوم من الخطإ واللحن وسبق القلم ؛ وعيب الإنسان يَظْهر منــه لغيره مالا يَظْهر له ، فما أبصَره من لحن أو خطإ أصلحه ونبه كاتبه عليه فيحْذَر من مثله فيما يستأنِفُه ، فإنْ تكرر منه زجَره عن ذلك ، وردَعه عن العَوْد إلىٰ مثله ؛ إذ الغرض الأعظم أن يكون كلُّ ما يُكتَب عن الملك كاملَ الفضيلة خطًّا ولفظًا ومعنًى وإعراباً حتّى لايجد طاعن فيه مطْعَنَا ، فربما زَلَّ الكاتب فى شىء فيَزِل بسببه متولِّى الديوان . بل السلطان . بل الدولة بأسرها . قال : فإذا فرغ من عَرْض الكتاب والوقوفِ عليه ، كتب عليه بخطه ما يدلُّ علىٰ وقوفه عليه ليكونَ ملتزما بدَرَكه " .

وكأنه يشير إلىٰ ماتقدّم من كلامه : من أنه إن كان رسالة كتب عنوانها بخطه ؛ وإن كان منشوراً ونحوه ، كتب تاريخه بخطه .

ثم قال : " فان كان متولِّى الديوان مشتغلا بحُضُور مجلِس السلطان ومخاطَبَاته والتلَقِّى عنه ، ولا يمكنه مع ضِيق الزمان توفيةُ كلِّ ما يُكتَب بالديوان حقَّ النظر فيه وتصفُّحُ ألفاظه ومعانيه ، نصب له فى ذلك نائبا كاملَ الصنعة حسَنَ الفِطْنة موثوقًا به فيما يأتى ويذَر ، يقوم مَقَامه فى ذلك " . قال : " وليس ذلك لأنه يغنى عن نظر متولى الديوان ، ولكن ليتحمل عنه أكثرَ الكل ويصيرَ اليــه وقد قارب الصحةَ أو بلغها فيحصُل علىٰ الراحة من تعبها ، ويصرف نظره إلىٰ ما لعله خفى علىٰ المتصفح من دقائق المعانى وعَوِيص المَدارك (١) ، فيقلُّ زمنُ النظر عليه ، ويظْفَر بالغرض المطلوب فى أقربِ وقت " .

---

(١) العويص بالعين المهملة وهو ما يعسر فهمه . وإعجامه فى الأصول تصحيف .

الأمر السادس

(نظره فى أمر البريد ومتعلقاته، وهو من أعظم مهمات السلطان، وآكد روابط الملك)

قال زياد لحاجبه : "وَلَّيتك حِجابى وعزلتك عن أربع : هذا المنادِى إلىٰ الله فى الصــلاة والفَلاح فلا تَعُوجَنَّه عنى ، ولا سلطان لك عليه ؛ وصاحبُ الطعام، فإن الطعام اذا أُعِيد تسخينه فسدَ؛ وطارقُ الليل فلا تحجُبْه فشَرٌّ مَّاجاء به، ولو كان خيرا ما جاء فى تلك الساعة ؛ ورسولُ الثَّغْر ، فإنه ان أبطأ ساعة أفسد عمل سـنةٍ فأدْخِلْه علىّ ولو كنت فى لِحافِى" . وقد تقدّم أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذى يتلقّى المكاتبات الواردة ويقرؤها علىٰ السلطان ويجاوبُ عنها، فيجب علىٰ صاحب هذه الوظيفة أن يكون متيقِّظا لمـا يَرِدُ على السلطان من نواحى ممـالكه وقاصيات أعمالِه فإنه المعتمد عليه فى ذلك والمعوَّل عليه فى أمره .

وقد كان أمرُ البريد فى الزمن المتقــدّم والدواداريَّةُ يومئذ أمراء صغار وأجناد معدّون لصاحب ديوان الإنشاء، تخرج رسالة السلطان علىٰ لسان بعض الدوادارية بمـا يرسُم به لمن يركب البريد فى المهمات السلطانية وغيرها ويأتى بها إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء فيعلق رسالته على ما تقدّم فى تعليق الرسالة ويعمل بمقتضاها . وكان للبريد ألواح من نُحاس كلُّ لوح منها بقدر راحة الكَفِّ أو نحوها منقوشٌ علىٰ أحد وجهَيْه ألقابُ الســلطان ، وعلىٰ الوجه الآخر لا إله إلا الله محمد رسول الله أرْسَــلَه بالهُدىٰ ودينِ الحقِّ ليُظْهِرَه علىٰ الدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِه المُشْرِكُون. وفى رقبته شُرَّابةٌ من حرير أصــفر يجعلها راكب البريد فى عنقه ويرسل اللوح على صــدره علامة له . فإذا حضرت الرسالة إلىٰ كاتب السر دفع إلىٰ البريدىّ لوحا من تلك الألواح وكتب له ورقة بخطه إلىٰ أميراخور البريد بالإصطبل السلطانىّ بمـا تبرُزُ به الرسالة من الخيل،

ويكتبُ ٱسمَه فى آخر الكتاب الذى يُنْفَذ معه بين السطور ، ويختِم الكتاب ، ويُسَلِّم اليه ، ويكتب له ورقة طريق بالتوجه إلىٰ جهة قصده ، وحَمْله علىٰ ما رُسِم له به من خيل البريد علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ كتابة أوراق الطريق ، ويترك ٱسمَه وتاريخ سَفرِه ، والجهةَ التى توجه إليها ، والشُّغْل الذى توجه بسببه بدفترٍ بالديوان .

فلما عظم أمر الدوادارِيَّة وٱستقرّ عند الدوادار كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت يعلِّق عنه الرسالة علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ تعليق الرسالة ، رجع أكثَرُ الأمر فى ذلك إلىٰ الدَّوادار ، وصار كاتبُ الدَّسْت الذى يخدُمه يعلّق الرسالة ء.ه بذلك كما يعلّقها عنه فى غيره علىٰ ما تقدّم . فإن كان البريد إلىٰ جهة الشام كتب فى ورقة لطيفة يرسم برسالة المقرّ المخدوم الفلانى أمير دوادار الناصرى أو الظاهرىّ مثلا أعز الله تعالىٰ أنصاره أن يكتب ورقة طريق شريفة باسم فلان الفلانى المرسومِ له بالتوجه إلىٰ الجهة الفلانية ، ويُحْمَل على فرس أو فرسين أو أكثر من خيل البريد . ثم يؤرّخ . وإن كان البريد إلىٰ الوجه القبلىّ أو البحرىّ أو غير ذلك كتب : أن يكتب ورقة فرسِ بريد باسم فلان الفلانى من غير تعرّض لذكر ورقة طريق ، وباقى الكلام علىٰ نحو ما تقدّم ، ويؤرّخ ويجهّز تلك الورقة صحبة البريدىّ إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء فيخلّد الورقة بديوانه عند دواداره فى جملة أَضَابِيرِ الديوان ، ويكتب له فى ورقة صغيرة أيضا ما مثاله : أميراخور البريد المنصور ، يُحمل فلانٌ الفلانىُّ علىٰ فرس واحد أو أكثر من خيل البريد المنصور عند توجهه إلىٰ الجهة الفلانية ويؤرّخ ، ويدفع إلىٰ البريدىّ ليدفعها إلىٰ أميراخور البريد تخلَّد عنده ، ويكتب اسم البريدىّ فى آخر الكتاب علىٰ ما سيأتى فى أوّل المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ ، ويُختَم الكتاب ويدفع اليه .

قلت : وقد بطل الآن ما كان من أمر الألواح وتركت ، وصار كل بريدىّ عنده شُرّابة حرير صفراءُ يجعلها فى عنقه من غير لوح . اللهم إلا أن يتوجه البريدىّ إلىٰ مملكة من الممالك النائية ، فيحتاج إلىٰ اللوح لتعارف أمر المملكة القديمة . وكذلك الحكم فيمن يتوجه إلىٰ الأبواب السلطانيـة من نيـابة من نيابات المملكة فى ورقة الطريق وخيـل البريد . ولصاحب ديوان الإنشـاء التنبُّه علىٰ مصالح مراكز خيل البريد فى الديار المصرية وغيرها .

وسيأتى الكلام علىٰ مراكز البريد بمصر والشام ، مفصلة فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ .

وآعلم أنه يجب علىٰ الناظر فى أمر البريد : من الملك فمن دونه أن يحتـاط فيمن يرسله فى الأمور السلطانية ، فيوجه فى كل قضية من يقوم بكفايتها وينهَض بأعبائها ، ويختصّ الملوكَ وأكابرَ النوّاب بأكابر البريدية وعقلائهم وأصحاب التَّجارِب منهـم ، خصوصا فى المهمات العظيمة التى يحتاج الرسول فيها إلىٰ تمنيق الكلام ، وتحسـين العبارة ، وسمـاع شبهة المُرْسَـل إليه ، وردّ(١) جوابه واقامة الحجة عليـه ، فإنه يقال : يُستدَلُّ علىٰ عقل الرجل بكتابه وبرسوله . وقد قيل : من الحق علىٰ رسول الملك أن يكون صحيحَ الفِكْرة والمِزَاج ، ذا بيانٍ وعارضـةٍ ولينٍ وآستحكام مَنَعة ؛ وأن يكون بصيرا بمخارج الكلام وأجوبته ، مؤدّيا للألفاظ عن الملك بمعانيها ، صَدُوقا بريئا من الطمع . وعلىٰ مرسـله آمتحانُه قبل توجيهه فى مقاصِده ؛ ولا يُرسِل إلىٰ الملوك الأجانب ، إلا من آختبره بتكرير الرسائل إلىٰ نوّابه وأهل مملكته . فقـد كان الملوك فيما سلف من الزمن إذا آثَرُوا إرسال شخصٍ لمهمٍّ ، قدموا آمتحانه بإرساله إلىٰ بعض خواص الملك ممن فى قَرَار داره ، فى شىء من مهمّاته ، ثم يجعل عليه عَيْنا فيما يُرْسَل به من حيث لا يشـعُر ، فاذا أدّى الرسول رسالته رجع بجوابها وسأل الملكُ عينَه ، فإن

(١) فى الأصل ويرد وهو تصحيف ظاهر .

طابق ما قاله الرسول ما أتىٰ به من هو عَيْن عليه وتكرر ذلك منه، صارت له المِيزةُ والتَّقْدِمة عند الملك ووجَّهه حينئذ فى مهمَّات أموره .

وكان أردشير بن بابك آخرُ ملوك الفرس يقول : "حقٌّ علىٰ الملك الحازم إذا وَجَّه رسولا إلىٰ ملك أن يُرْدِفه بآخَرَ، وإن وَجَّه برسولين وجَّه بعدهما باثنين، وإن أمكنه أن لا يجمع بين رُسُله فى طريقٍ فعل" .

ومن الحزم أن الرسول اذا أتاه برسالة أو كتاب فى خير أو شر أن لا يُحْدث فى ذلك شيئا حتّٰى يُرْسل مع رسول آخر يحكى له كتابه أو رسالته حرفًا حرفًا ومعنًى معنًى فإن الرسول ربما فاته بعضُ ما يؤمِّله فٱفتعل الكُتُب، وغيَّر ما شُوفِهَ به فأفسد ما بَيْنَ المُرْسل والمرسَل إليه : من ملك أو نائب ونحوهما، وربما أدّىٰ ذلك إلىٰ وقوع فتنة بين المَلِكين، أو خروج النائب عن الطاعة وتفاقَمَ الأمر بسبب ذلك وسرىٰ إلىٰ ما لا يمكن تداركه .

وقد حكى أن الإسكندر وجَّه رسولا إلىٰ بعض ملوك الشرق فجاء برسالة شكَّ الإسكندر فى حرف منها فقال له : "وَيْلَك ! إن الملوك لا تخلو من مقوِّم ومسدِّد اذا مالت وقد جئتنى برسالة صحيحة الألفاظ بينة المعانى، وقد وجدتُ فيها حرفًا ينقضُها، أفعلىٰ يقين أنت من هذا الحرف أم شاكٌّ فيه ؟ فقال بل علىٰ يقين منه أنه قاله . فأمر الإسكندر أن تُكتَب الألفاظ حرفًا حرفًا ويعاد إلىٰ الملك الذى جاء ذلك الرسول من عنده مع رسولٍ آخر فيُقرأ عليه ويتَرْجَم له . فلما وصل الرسول الثانى إلىٰ ذلك الملك وقرأ عليه ما كَتَب اليه به الاسكندر فى أمر ذلك الرسول، أنكر ذلك الحرفَ الذى أنكره الإسكندر وقال للترجم : "ضَعْ يدك علىٰ هذا الحرف" فوضعها فأمر أن يُعَلَّم بعلامة وقال : "إنى أُجِلّ ما وصل عن الملك أن أقطعه بالسِّكِّين، ولكن ليصنَعْ هو فيه وفى قائله ما شاء" . وكتب إلىٰ الإسكندر : "إن من أُسِّ المملكة صحةَ لَهْجة الرسول، إذ كان عن لسانه ينطق، وإلىٰ أذنه

يؤدّى". فلما عاد الرسول إلىٰ الإسكندر دعا برسوله الأوّل وقال : "ما حملك علىٰ كلمة قصدتَ بها إفساد ما بين ملكين ؟ " فأقرّ أن ذلك كان منه لتقصير رآه من الملك، فقال له الإسكندر: "فأراك قد سعيت لنفسك لا لنا ! فاتَكَ ما أمّلتَ مما لا تستحقه علىٰ من أُرسِلت اليه فجعلت ذلك ثأرا تُوقِعه فى الأنفس الخطيرة الرفيعة ! ثم أمر بلسانه فنزع من قفاه." وكأنه رأىٰ إتلاف نفس واحدة أولىٰ من إتلاف نفوس كثيرة بما كان يُوقِعه بين الملكين من العداوة ويثير من الإحَن وضغائن الصُّدُور .

وقد كان أردشير بن بابك يقول : "كم من دمٍ سفَكَه الرسولُ بغير حِلّه ! وكم من جُيُوش هُزِمت وقُتِل أكثرها ! وكم حُرْمة آنتُهِكت ! وكم مالٍ نُهِب وعقد نُقِض بخيانة الرسُل وأكاذيب ما يأتون به ! " .

الأمر السابع

(نظره فى أمر أبراج الحمام ومتعلّقاته)

سيأتى فيما بعدُ ان شاء الله تعالىٰ أن بالديار المصريةِ أبراجا للحمام الرسائلىّ يحمل البطائق فى أجنحته من مكان إلىٰ مكان ؛ منها بُرْج بقلعة الجبل، وأبراجٌ بطريق الشام بمدينة بِلبِيس، وأبراجٌ بطريق الإسكندرية . وكان قبل ذلك يدرج الىٰ قوص، ومنها إلىٰ أُسْوان وعَيْذاب ما يقطع[1] ذلك الآن . وحمام كل برج يُنْقل منه فى كل يوم الىٰ البرج الذى يليه ليطلُب برجه الذى هو مستوطِنه إذا أُرْسِل . فإذا عرض أمرٌ مهم أو ورد بريد أو غيره ممن[2] يحتاج إلىٰ مطالعة الأبواب السلطانية به إلى مكان من الأمكنة التى فيها برج من أبراج الحمام، كتب واليها المتحدِّثُ فيها بذلك للأبواب السلطانية، وبعث بها علىٰ أجنحة الحمام . وقد جرت العادة

(١) كذا فى الأصل ولعله فانقطع ذلك الآن .

(٢) صوابه مما كما هو واضح .

أن تكتب بطاقتان وتُؤَرَّخان بساعة كتابتهما من النهار ، ويعلَّق كل منهما فى جناح طائر من الحمام الرسائلىّ ويُرْسَلان ، ولا يكتفىٰ بواحد لاحتمال أن يعرض له عارض يمنعه من الوصول إلىٰ مقْصِده . فاذا وصل الطائر إلىٰ البرج الذى وُجِّه به اليه ، أمسكه البَرَّاج وأخذ البِطاقةَ من جناحه وعَلَّقها بجناح طائر من حمام البُرْج الذى يليه أى من المَنْقول إلىٰ ذلك البرج ، وعلىٰ ذلك حتّٰى ينتهى إلىٰ برج القلعة فيأخُذُ البَرَّاج الطائرَ والبِطاقةُ فى جناحه ويُحْضِرُه بين يدَىِ الدَّوادار الكبير فيُعرَض عليه ، فيضع البطاقة عن جناحه بيده . فإن كان الأمر الذى حضرت البِطاقة بسببه خفيفا لا يحتاج إلىٰ مُطالَعة السلطان به ، آستقلَّ الدوادار به ؛ وإن كان مهمًّا يحتاج إلىٰ إعلام السلطان به ، آستدعى كاتبَ السر وطالع لقراءة البطاقة علىٰ السلطان كما يفعل فى المكاتَبَات الواردة . وكذلك الحكم فيما يطرأ من المهمَّات بالأبواب السلطانية فإنَّه يوجَّه بالحمام من برج القلعة إلىٰ الجهة المتعلِّقة بذلك المهم . وفى معنىٰ ذلك كل نيابة من النيابات العِظام بالممالك الشامية كدِمَشْق ، وحَلَب ، وطَرَابُلُس ونحوها مع ما تحتها من النيابات الصغار والولايات ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثامن

(نظره فى أمور الفِداوية)

وهم طائفة من الإسماعيلية المنتسِبين إلىٰ إسماعيل بن جَعْفرٍ الصادق بنِ محمدٍ الباقر بنِ علىّ زين العابدين بنِ الحسين السِّبط إبنِ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ! ، من فاطمة بنت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم . وهم فِرْقة من الشِّيعة معتَقَدُهم معتقَدُ غيرهم من سائر الشِّيعة أن الإمامة بعد النبى صلى الله عليه وسلم !

ٱنتقلتْ بالنص إلىٰ علىّ بن أبى طالب رضى الله عنــه، ثم إلىٰ ٱبنه الحسن، ثم إلىٰ أخيه الحسين، ثم تنقَّلتْ فى بَنى الحُسَين إلىٰ جعفر الصادق، ثم هم يدَّعُون ٱنتقالَ الإمامة من جعفر الصادق إلىٰ ٱبنه إسماعيل، ثم تنقلت فى بنيه .

وسُمُّوا الفِداوية لأنهم يُفادُون بالمـال علىٰ مَن يقتُلونه . ويُسمَّوْن فى بلاد العجم بالباطنية لأنهم يُبطِنون مذهبهم ويُخْفُونه، وتارة بالمَلاحدة لأن مذهبهم كلَّه إلحاد . وهم يُسمُّون أنفسهم أصحابَ الدعوة الهـادية . وسيأتى الكلام عند ذكر تحليفهم فى الكلام علىٰ الأيمان إن شاء الله تعالىٰ . وكانوا فى الزمن المتقدّم قد علَتْ كلمتُهم، وٱشتدَّتْ شَكيمتُهم، وقَوِيتْ شوكَتُهم، وٱستولَوْا علىٰ عِدّة قلاع ببلاد العجم وبلاد الشأم . فأمّا بلاد العجم فكان بِداية قوتهم وانتشارُ دعوتهم فى دولة السلطان ملكشاه السلجوقىّ فى المائة الخامسة . وذلك أنه كان من مقدَّميهم رجل ٱسمه عطاش فنشأ له ولد يسمّى أحمد فتقدّم فى مذهبهم وٱرتفع شأنه فِيهم، وألَمَّ به مَنْ فى بلاد العجم منهم، فغلب علىٰ قلعة بأصْبَهَـانَ، كان قد بناها السلطان ملكشاه المتقدّم ذكره، وقلعــةٍ بالطالَقَان تعرف بقلعة الموت؛ وكان من تلامذته رجل يقال له الحسن بن الصباح ذو شهامة وتقدُّم فى علم الهندسة والحساب والنجوم والسِّحر، فٱتهمه بالدعوة للخلفاء الفاطميين، وهم من جملة طوائف الإسمـاعيلية ففرّ الحسن بن الصباح منه هاربا الىٰ مصر، وبها يومئذ المستنصرُ بالله خامسُ خلفاء الفاطميين فأكرمه وأحسن نُزُله، وأمره بأن يخرج إلىٰ البلاد للدعوة الىٰ إمامته فأجابه الىٰ ذلك، وسأله مَن الإمام بعده، فقال له : ابنى نِزار وهو الذى تنسب إليه النِّزارية منهم . فخرج ٱبن الصَّبَّاح من مصر وسار إلىٰ الشام، والجزيرة، وديار بكر، وبلاد الروم يدعو إلىٰ إمامة المستنصر . ثم ٱبنه نِزار من بعده، وسار إلىٰ خُرَاسان وجاوزها إلىٰ ما وراء النهر، ودخل كاشْغَر يدعو إلىٰ ذلك، ثم عاد إلىٰ الطالَقَان وٱستولىٰ علىٰ قلعة الموت فى سنة ثلاث وثمانين

وأربعمائة، ثم آستولى على قلعة أصْبهان وآستضاف اليها عِدّة قلاع بتلك النواحى فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وقويتْ شوكة هذه الطائفة بتلك البلاد، وعَظُم أمرها، وخافها الملوكُ وسائر الناس، وبقى آبن الصباح على ذلك حتّى مات فى سنة ثمانَ عشرةَ وخمسمائة. وتنقّلت تلك القلاعُ بعدَه حتّى صار أمرها إلى شخص من عقبه يسمّى جلالَ الدين بن حسن ألكيا الصيّاحىّ فأظهر التوبة فى سنة سبع وخمسين وخمسمائة، وبقِيَ على ذلك إلى سنة ثمان وستمائة، فأظهر شعائر الإسلام، وكتب إلى جميع قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم والشام، فأقيمت فيها، وبقى حتّى تُوُفِّى سنة ثمانَ عشرةَ وستمائة، وقام بعده آبنه علاءُ الدين محمد، وتداول مقدّموهم تلك القلاع إلى أن خرج هُولاكو على بلاد العجم فى سنة ست وخمسين وستمائة باستصراخ أهل تلك البلاد من عَيْثهم وفسادهم، فخرّب قِلَاعهم عن آخرها.

وأما بلاد الشأم فكان أوّل قوّتهم بها أنه دخل منهم إلى الشأم رجل يسمى بَهْرام بعد قتل خاله إبراهيم الأسدابادى ببغداد فى أيام تاج الملوك بورى صاحب الشام، وصار إلى دمشق ودعا إلى مذهبه بها، وعاضده سعيد المردغانىّ وزيرُ بورى حتّى علتْ كلمته فى دِمَشْق وسلم له قلعة بانياس (١)، فعظُم أمر بَهْرام وملك عدّة حصون بالجبال أظنها القلاع المعروفة بهم إلى الآن، وهى سبع قلاع بين حماه وحمص متصلةٌ بالبحر الرومىّ على القُرب من طَرَابُلُس: وهى مِصْياف، والرُّصَافة، والخَوَابى. والقُدْموس، والكَهْف، والعليقة، والمينقة؛ ومن هنا سمّيتْ بقلاع الدعوة. وكان آخر الأمر من بهرام أنه قُتِل فى حرب جرَتْ بينه وبين أهل وادى التَّيْم، وقام مَقامَه بقلعة بانياس (١) رجل منهم آسمه إسماعيل، وأقام الوزيرُ المردغانىُّ عوضَ بهرام بدمشق رجلا منهم آسمه أبو الوفاء فعظُم أمره بدمشق حتّى صار الحكم له بها، وهَمّ بتسليمها

(١) لعلها بُلُنْياس. قال ياقوت كورة ومدينة صغيرة وحصن بسواحل حمص.

للفرنج على أن يسلّموا له صُورَ عوضًا منها، فشَعَر به بورى صاحب دمشق فقتله وقتل وزيرَه المردغانىّ ومَنْ كان بدمشق من هــذه الطائفة، ولم يزل أمرهم يتنقّل بالشام لواحد بعد واحد من مقدّميهم إلىٰ أن كان المقــدّمَ عليهم فى أيام الســلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أبو الحسن راشدُ الدين سِنانٌ البصرىّ وكان بينهم وبين السلطان صلاحِ الدين مباينةٌ ووثبوا عليه مراتٍ ليقتُلوه فلم يظْفَروا بذلك إلىٰ أن حاصر قِلَاعهم فى ســنة آثنتين وسبعين وخمسمائة وضيق عليهم، فسألوه الصَّفْح عنهم فأجابهم إلىٰ ذلك وبقى راشدُ الدين سنانٌ مقدّما عليهم حتّى مات فى سنة ثمــان وثمــانين وخمسمائة .

قال فى مسالك الأبصار : "وهم يعتقدون أن كل مَنْ ملك مصر كان مَظْهَرا لهم، ولذلك يتولّوْنه ويَرَوْن إتلاف نفوسهم فى طاعته لمــا ينتقل إليــه من النعيم الأكبر بزعمهمْ". قال : "ولصاحب مصر بمشايعتهم مزيَّةٌ يخافه بها أعداؤه (١) لأنه يرسل منهم مَنْ يقتله ولا يبالى أن يُقْتَل بعده، ومَنْ بعثه إلىٰ عدوّله فجُبِن عن قتله قتله أهلُه إذا عاد إليهم، وإن هرب تبِعوه وقتلوه" .

قلت : وكانوا فى الزمن المتقدّم يُسمُّون كبيرهم المتحدِّث عليهم تارة مقدَّم الفداويَّة، وتارة شيخ الفِداويَّة . أما الآن فقد سَمَّوْا أنفسهم بالمجاهدين وكبيرهم بأتابك المجاهدين؛ وقد كانت السلاطين فى الزمن المتقدّم تمنع هؤلاء من مخالطة الناس فلا يخرجون من بلادهم إلىٰ غيرها الا من رُسِم له بالخروج لمــا يتعلق بالسلطان ولا يُمَكَّن أحدٌ من التجار من الدُّخول إلىٰ بلادهم لشراء قُمَــاش وغيره . وكان يكتب بذلك مراسيم من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ويوجَّه بها لنائب الشام المحروس . وسيأتى إيراد شىء من نسخ هذه المراسيم عند ذكر مرسوم أتابكهم فى الولايات إن شاء الله تعالى !

(١) لعله عدوّه بالافراد .

الأمر التاسع

(نظره فى أمر العيون والجواسيس)

وهو جزء عظيم من أُسّ المُلك وعماد المملكة . وعلىٰ صاحب ديوان الإنشاء مَداره وإليه رجوع تدبيره وٱختيارُ رجاله وتصريفُهم . فيجب عليه الاحتياط فى أمر الجواسيس أكثَرَ مما يحتاط فى أمر البريديَّة والرُّسُل : لأن الرسول قد يتوجه إلىٰ الصديق وقد يتوجه إلىٰ العدوّ والجاسوسُ لا يتوجه إلا إلىٰ العدوّ ، واذا وَثِق بجاسوسه فإنه إلىٰ مايأتى به صائر ، وعليه معتمد ، وبه فاعل .

وقد شرطوا فى الجاسوس شروطا :

منها أن يكون ممن يُوثَق بنصيحته وصدقه ، فإن الظنين لا يُنتفَع بخبره وإن كان صادقًا لأنه ربما أخبر بالصدق فاتُّهِم فيه فتفوت فيه المصلحة . بل ربما آثر الضررَ لمن هو عَيْن له إذ المتهم فى الحقيقة عينٌ عليك لاعَوْن لك . وكيف يكون المتهم أمينا ! لاسيما فيما يصرف فيه جليل الأموال من القضايا العظيمة إن سلمت نفيسات النفوس .

ومنها أن يكون ذا حَدْس صائب وفِراسة تامّة : ليدرك بوُفُور عقله وصائب حَدْسه من أحوال العدوّ بالمشاهدة ما كتموه عن النطق به ، ويستدلَّ فيما هو فيه ببعض الأمور علىٰ بعض فإذا تفرّس فى قضية ولاح له أمر آخر يعضدها قوِىَ بحثُه فيها بانضمام بعض القرائن إلىٰ بعض .

ومنها أن يكون كثير الدَّهاء والحيل والخديعة : ليتوصل بدهائه إلىٰ كل موصل ، ويدخل بحيلته فى كل مَدْخَل ، ويدرك مقْصده من أىّ طريق أمكنه . فإنه متىٰ كان قاصرا فى هذا الباب أو شك أن يقع ظَفَر العدوّ به أو يعودَ صِفْر اليدين من طَلِبته .

ومنها أن يكون له دُرْبةٌ بالأسفار ومعرفةٌ بالبلاد التى يتوجه إليها : ليكون أغنىٰ له عن السؤال عنها وعن أهلها ، فربمـا كان فى السؤال تنبُّه له وتيقُّظ لأمره فيكون ذلك سببا لهلاكه ؛ بل ربمـا وقع فى العقوبة وسئل عن حال ملكه فدلَّ عليه وكان عَيْنا عليه لا له .

ومنها أن يكون عارفا بلسان أهل البلاد التى يتوجه إليها لِيَلْتقط مايَقَع من الكلام فيما يَذهب بسببه ممَّن يخالطه من أهل تلك المملكة وسُكَّانِ البلاد العالمين بأخبارها ، ولا يكون مع ذلك ممن يُتَّهم بمُمَالأة أهل ذلك اللسان من حيث إن الغالب علىٰ أهل كل لسان ٱتحادُ الجنس ، والجنسيَّةُ علة الضم .

ومنها أن يكون صَبُورا على ما لعله يصير إليه من عُقُوبة إنْ ظفر به العدوّ بحيث لا يخبر بأحوال مالِكه ولا يُطْلِـع علىٰ وَهْن فى مملكته ؛ فإن ذلك لا يخلِّصه من يد عدوّه ، ولايدفَع سطوتَه عنه . بل ولايعترف أنه جاسوس أصلا ؛ فإن ذلك ممـا يحتِّم هلاكه ويُفْضِى إلىٰ حَتْفه : إلىٰ غير ذلك من الأمور التى لايسع استيعابُها . فإذا وَجَدَ من العيون والجواسيس مَنْ هو مستكمل لهـذه الشرائط وما فى معناها ، فعليه أن يُظْهر لهم الوُدّ والمصافاةَ ولا يُطلِـعَ أحدا منهم فى زمن تصرُّفه له أنه يتَّهمه ولاأنه غير مأمون لديه ؛ فربمـا أدّاه ذلك فى أضْيق الأوقات أنـ يكون عينا عليه ؛ فإن الضرورة قد تلجئه لمثل ذلك ، خصوصًا ان جَذَبه الىٰ ذلك جاذب يستميله عنـه مع ما هو عليه من الضرورة ، والضرورة قد تحمل الإنسان علىٰ مفاسـد الأمور ، ويُجْزِلَ لهم الإحسان والبرّ ، ولا يُغْفل تعاهُدَهم بالصِّلات قبـل ٱحتياجه إليهم . ويزيدَ فى ذلك عند توجههم إلىٰ المهمات ، ويتعهدَ أهلِيهم فى حضورهم وغَيْبتهم ليملك بذلك قلوبَهم ويَستصْفِيَ به خواطرَهم . وان قُضِى على مَنْ بعثه منهم بقضاء أحسنَ إلىٰ مَن خَلَّفه من أهله ، وجعل لهم من بعـده من الإحسان ما كان يجعله له

اذا ورد بنفسه عليه ليكون ذلك داعيا لغيره علىٰ النصيحة . وإن قُدِّر أنْ عاد منهم أحد غيرَ ظافر بقَصْـد أو حاصل على طِلبةٍ وهو ثقة، فلا يستَوْحِش منـه بل يُوليه الجميل، ويعامله بالإحسان؛ فانه إن لم ينجَح المرَّةَ نجح الأخرىٰ . وعليـه أن يحترز عن أن تعرِف جواسيسُه بعضُهم بعضا لا سيما عند التوجه للمهمَّات . وإن آستطاع أن لا يجعل بينه وبينهم واسطةً فعل، وإن لم يمكنه ذلك جعل لكل واحد منهم رجلا من بعض خاصته يتولّى إيصاله إليه فإنه إذا علم بعضهم ببعض ربما أظهره، بخلاف ما إذا آختص الواحدَ بالسرّ . وأيضا فانه لا يؤمَن آتفاقهم عليـه وممالأتُهم لعدوّه . وكذلك يحترز عن تعرّف أحد من عسكره عيونَه وجواسيسَه؛ فان ذلك ربما يؤدّى إلى آنتشار السرّ والعَوْدِ بالمَفْسدة . وعليه أن يصغىٰ إلى مايلقيه إليه كلٌّ من جواسيسه وعيونه وإن آختلفتْ أخبارُهم ويأخُذ بالأحوط فيما يؤدّيه إليـه آجتهاده من ذلك ولايجعل إختلافهم ذنبا لأحد منهم، فقد تختلف أخبارهم وكل منهم صادق فيما يقوله؛ إذ كل واحد قد يرىٰ ما لا يرىٰ الآخرُ، ويسمعُ ما لا يسمعه . وإذا عثر علىٰ أحد من جواسيسه بزَلَّة فليستُرْها عنه وعليه، ولا يُعاقبه على ذلك ولا يوَبِّخه عليه فان وَبَّخه ففى خلوة بلطف مذكرا له أمر الآخرة وما فى ممالأة العدو والخيانةِ من الوَبَال فى الآخرة . ولا بأس بأن يُجْرى له ذكر ما عليه من مصافاته ومودّته وأنه مع العدوّ على غَرَر لا يدرى ما هو صائر إليه؛ فان ذلك أدعىٰ لآستصلاحه . ولا شك أن آستصلاحه إمّا فى الوقت أو فيما بعدُ خير من ثبات فساده، فربما أدّاه ذلك الى ممالأة العدوّ ومباطَنته، لا سيما اذا كان العدوّ معروفا بالحلم والصفح، وكثرة البذل والعطاء. وإذا حضر اليه جاسوس بخبر عن عدوّه آستعمل فيه التثبت ودوامَ البشر ولا يُظْهِر تهافتا عليه تظهر معه الخفَّة، ولا إعراضا عنه يفوت معه قدر المناصحة، ولا يُظْهِر له كراهة ما يأتيه به من الأخبار المكروهة فان ذلك مما يستدعى فيه كتمانَ السرّ عنه فيما يكره فيؤدّى الى الإضرار به .

وقد حكى عن بعض الملوك أنه كان يعطى من يأتيه بالأخبار المكروهة من الجواسيس أكثَرَ مما يعطى من يأتيه بالأخبار السارّة .

واعلم أنه لا يمكن أحدا ممّن(1) يمنع بلاده أو عسكره من جواسيس عدوّه . فيجب الاحتراز منهم بكتمان السرّ وسَتْر العورة ما أمكنه ؛ على أنه ربمـا دعتِ الضرورة فى بعض الأحيان إلىٰ أن يعرّف الملكُ عدوّه بعض أموره علىٰ حقيقته لأمر يحاول به مكيدته . والطريق فى ذلك أن يتلطف الى أن يصيِّرَ جاسوسَ عدوّه جاسوسا له بأن يتودّد اليه بالاستمالة والبرّ وكثرة البذل حتّى يستخرج نصيحته ، فحينئذ يلقى إليه ما أراد تبليغه إلىٰ صاحبـه الاوّل ممـا فيه المكيدة فيوصله إليه فيكون أقرَب لقبوله من بلوغه له من غيره ممن يتّهمه .

الأمر العـاشر

(نظره فى أمور القُصّاد الذين يسافرون بالملَطّفات من الكتب عند تعذر وصول البُرُد الى ناحية من النواحى)

وهو من أعظم مهمات السلطنة وآكدها . وقد ذكر ابن الأثير فى تاريخه : أن أوّل مَن اتخذ السُّعاة من الملوك معزّالدولة بن بويه أوّلُ ملوك الديلم بعدالثلاثين والثلثمائة :

وكان سبب ذلك أنه كان ببغداد ، وأخوه ركنُ الدولة ابن بويه بأصبَهان ومامعهما فأراد معز الدولة سُرعةَ إعلام أخيه ركنِ الدولة بتجدّدات الأخبار فأحدث السُّـعاةَ وانتشىٰ فى أيامه ساعيان اسم أحدهما فضل والآخرِ مرعوش ، وكان أحدهما ساعىَ السُّنة والآخرُ ساعى الشِّـيعة ، وتعصّب لكل منهما فرقة ، وبلغ من شأنهما أن كل

---

(1) كذا فى الأصل . ولعل صوابه "لا يمكن أحدا أن يمنع الخ" فتنبه .

واحد منهما كان يسير فى كل يوم نَيِّفا وأربعين فرسخا ، وآستمرّ حكم السُّعاة ببغداد إلىٰ زماننا حتّٰى إنّ منهم ساعيين لرِكَاب السلطان يمشيان أمامه فى المواكب وغيرها علىٰ قرب .

قلت : "وقد رأيتهما فى خدمة السلطان أحمد بن أويس صاحب بغداد حين قدم مصر فى دولة الظاهر برقوق فارّا من تمر" . أمّا الديار المصرية فإنه لا يتعانىٰ ذلك عندهم إلا خِفافُ الشباب من مكارية الدواب ونحوهم ممن يعتاد شدّة العَدْو إلا أنه اذا طرأ مهم سلطانىّ يقتضى إيصال ملطّف مكاتبةً عن الأبواب السلطانية إلىٰ بعض النواحى وتعذر إيصاله علىٰ البريد لحيلولة عدوّ فى الطريق أو آنقطاع خيل البريد من المراكز السلطانية لعارض ، آنتدب كاتبُ السرّ بأمر السلطان مَنْ يُعْرَف بسرعة المشى وشدّة العدو للسفر ليوصل ذلك الملَطِّف إلىٰ المكتوب إليه والإتيانِ بجوابه . وربما كُتِب الكتابان فأكثرُ إلى الشخص الواحد فى المعنىٰ الواحِد ويجهز كل منهما صحبة قاصد مفرد خوف أن يُعترَض واحد فيمضى الآخر إلىٰ مقْصده كما تقدّم فى بطائق الحمام الرسائلىّ . وقد أخبرنى بعض من سافر فى المهمات السلطّانية من هؤلاء أنهم فى الغالب عند خوف العدو يمشُون ليلا ويكْمُنون نهارا وإذا مشَوْا فى الليل يأخذون جانبا عن الطريق الجادّة ، يكون بين كل آثنين منهم مقدار رمية سهم حتّٰى لايسمع لهم حِسّ فاذا طلع عليهم النهار كَمَنوا متفرّقين مع مُواعدتهم علىٰ مكان يتلاقَوْن فيه فى وقت المسير .

الأمر الحادى عشر
(نظره فى أمر المَنَاور والمُحْرِقات)

أما المَنَاور فسيأتى أنه فى الزمن المتقدّم عند وقوع الحروب بين التتار وأهل هذه المملكة ، كان بين الفُرَات بآخر الممالك الشامية وإلىٰ قريب من بِلْبِيس من أعمال

الديار المصرية أمكنةٌ مرتَّبة برءوس جبال عوالٍ، بها أقوام مقيمون فيها، لهم رزق على السلطان من إقطاعات وغيرها إذا حدث حادث عدوّ من بلاد التتار، وآتصل ذلك بمن بالقلاع المجاورة للفرات من الأعمال الحَلَبية : فإن كان ذلك فى الليـل أُوقِدت النار بالمكان المقارب للفرات من رءوس تلك الجبـال فينظره مَنْ بعده، فيُوقد النار فينظره مَنْ بعده، فيُوقد النار وهكذا حتّى ينتهى الوقود إلى المكان الذى بالقرب من بِلْبيس فى يوم أو بعض يوم، فيرسل بِطاقَته على أجنحة الحَمـام بالإعلام بذلك فيُعْلَم أنه قد تحرّك عدوّ فى الجملة فيُؤخذ فى التأهُّب له حتّى تصل البُرُد بالخبر مفصَّلا .

وأمّا المُحْرِقات فسيأتى أنه كان أيضا قوم من هــذه المملكة مرتَّبُون بالقرب من بلاد التتار يتحيلون على إحراق زروعهم بأن تُمسَـك الثعالبُ ونحوها وتُربط الخرق المغموسة فى الزيت بأذناب تلك الثعالب وتوقد بالنار وتُرسَل فى زروعهم إذا يبست فيأخُذُها الذُّعْر من تلك النار المربوطة بأذنابها فتذهب فى الزروع آخذة يمينا وشمالا فمـا مَرَّت بشىء منه الا أحرقته وتواصلت النار من بعضها إلى بعض فتُحرق المزرعة عن آخرها .

قلت : وهذان الأمران قد بطل حكمُهما من حين وقوع الصلح بين ملوك مصر وملوك التتار على ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الأمر الثـانى عشر

(نظره فى الأمور العامّة ممـا يعود نفعه على السلطان والمملكة)

قد تقدّم فى أوّل هذا الفصـل فى الكلام على بيان رُتْبة صاحب ديوان الإنشاء من كلام صاحب موادّ البيان أنه ليس فى منزلة خَدَم السلطان والمتصرفين فى مهماته

أخصّ منه ، من حيث إنه أوّل داخل علىٰ الملك وآخر خارج عنـه وأنه لاغِنى به عن مفاوَضته فى آرائه والإفضاء إليه بمهماته ، وتقريبه من نفْسه فى آناء ليله وساعات نهاره ، وأوقات ظهوره للعامة وخلواته ، وإطلاعه علىٰ حوادث دولتـه ومهمات مملكته ، وأنه لا يَثِق بأحد من خاصته ثِقتَه به ، ولا يركن إلىٰ قريب ولا نسيب رُكونَه إليه ؛ ومَنْ كان بهذه الرتبة من السلطان والقرب منه ، وجب عليه أن لا يألُوَه نُصْحا فيما يعلم أنه أصلح لمملكته وأعمر لبـلاده وأرغم لأعاديه وحُسّاده وأثبت لدولتـه وأقوى لأسباب مملكته .

فقد حكى عن علىّ بن زيد الكاتب : أنه صحِب بعضَ الملوك فقال للملك : "أصحبك علىٰ ثلاث خلال — قال وما هى ؟ — قال لا تَهْتِكُ لى سترا ، ولا تَشْتِم لى عِرْضا ، ولا تقبلُ فِىَّ قولَ قائل حتّٰى تستبرئ . فقال له الملك — هذه لك عندى فمالى عندك ؟ قال : لا أُفشى لك سرّا ، ولا أؤخِّر عنك نصيحةً ، ولا أُوثِر عليك أحدا — قال نِعْمَ الصاحبُ المستصحَب أنت ! .

فإذا آنتهىٰ إلىٰ صاحب الديوان خبر يتعلق بجَلْب منفعة إلىٰ المملكة أو دَفْع مضَرّة عنها ، أطلع السلطان عليه فى أسرع وقت وأعجله قبل فوات النظر فيه ونَحَلَه فيـه صائب رأيه ، ثم ردّ النظر فيه إلىٰ رأى السلطان ليخرج عن عهدته . وإن آرتاب فى خبر المخبر أحضره معه إلىٰ السلطان ليشافِهَه فيه حتّٰى يكون بريئا عن تبعته ، ولا يهمل تبليغ خبره بمجرّد الريبة لآحتمال صحته فى نفس الأمر فيلحق بواسطة إهماله ضرر لا يمكن تداركه . وكذلك الحال فى سائر ما يرجع إلىٰ صـلاح المملكة وحسن تدبيرها .

الفصـــل الرابع

(فى ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وما يلزمُ ربَّ كل وظيفة منهم فيما كان الأمر عليه فى الزمن القديم وآستقرّ عليه الحال فى زماننا)

أما فى الزمن القديم فقد ذكر أبو الفضل الصُّورىّ فى مقدّمة تذكرته أن أرباب الوظائف فيه علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل ـــ الكُتَّاب

(وقد عدّاهـــم إلى ســـبع(١) كــتاب)

الأوّل ـــ كاتب ينشئ ما يُكتَب من المكاتبات، والولايات، تتصدّىٰ للإنشاء ملكته وغريزة طبعه . قال : ويجب أن يكون هذا الكاتب لاحقًا بصفات متولّى الديوان بحيث يكون كاملا فى الصفات، مستوْفيا لشروطِ الكتابة، عارفا بالفنون التى يحتاج إليها الكاتب، مشتملا علىٰ التقدّم فى الفصاحة والبلاغة، قوىَّ الحجة فى المعارضة، واسعَ الباع فى الكلام بحيث يقتــدر بملكته علىٰ مَدْح المذموم وذم المحمود وصرف عِنَــان القول إلىٰ حيث شاء، والإطناب فى موضع الإطناب، والإيجاز فى موضع الإيجاز؛ فإنه أجلُّ كُتَّاب الديوان، وأرفعُهم درجةً لأنه يتولّى الإنشاء من نفسه، وتلقىٰ إليه الكلمة الواحدة والمعنىٰ المفرد فينشئ علىٰ ذلك كلاما طويلا، ويأتى منه بالعبارة الواسعة؛ وهو لسانُ الملك المتكلمُ عنه، فمهما كان كلامه أبدعَ، وفى النفوس أوقَع، عظُمت رتبة الملك، وآرتفعت منزلته علىٰ غيره من الملوك . وهو الذى ينشئ العهود والتقاليد فى الولايات والكُتُبَ فى الحوادث الكبار، والمهمّات العظيمة التى

---

(١) الصواب تأنيث آسم العدد كما هو واضح .

تتلىٰ فيها الكتب علىٰ صَيَاصِى المنابر ورءوس الأشهاد . فقد حكى أن يزيد بن الوليد كتب إلىٰ إبراهيم بن الوليد، وقد همَّ بالعصيان : أما بعد فإنى أراك تقدِّم رِجْلا وتؤخر أخرىٰ فٱعتمد علىٰ أيهما شئت والسلام؛ فكان سببا لإقلاعه عما همَّ به .

الثانى — كاتب يكتب مكاتَبَاتِ الملوك عن ملِكه؛ وقد شرط فيه مع ماشرط فى المتصدّى للانشاء المتقدّم ذكرُه ان كان هو الذى ينشئ المكاتَبات بنفسه عن الملِك أن يكون على دِين الملك الذى يكتُب عنه ومذهبِه ؛ لما يحتاج إليه فى مكاتبة الملك المخالف من الٱحتجاج علىٰ صحة عقيدته، ونصرة مذهبه، وإقامة الدلائل علىٰ صحة ذلك، ولن يحتجَّ للملة أو المذهب مَنِ ٱعتقد خلافه بل المخالف إنما تبدُو له مواضعُ الطعن لا مواضعُ الحِجَاج . وكذلك أن يكون من عُلُوِّ الهِمَّة، وقوّة العزم، وشرف النفس بالمحلِّ الأعلىٰ، والمكان الأرفع؛ فإنه يُكاتِب عن ملكه، وكل كاتب فإنه يجرّه طبْعه وجبِلّته وخِيمُه إلىٰ ما هو عليه من الصفات . فكلما كان الكاتب أقوىٰ جانبا وأشدّ عزما وأعلىٰ همة، كان علىٰ التفخيم والتعظيم، والتهويل والترغيب والترهيب أقدرَ، وكلما نقص من ذلك نقص مِنْ كتابته بقدره؛ وأن يكون عالما بقدر طبقة المكتوب إليه فى معرفة اللسان العربىّ فيخاطب كل قوم علىٰ قَدْر رتبتهم فى ذلك وما يَعْرِف من فهمهم .

الثالث — كاتب يكتُب مكاتَبَاتِ أهل الدَّوْلة وكبرائها، ووُلاتها، ووجوهها من النوّاب والقضاة والكتّاب والمشارفين والعمال، وإنشاءَ تَقليدات ذوى الخِدَم الصِّغار والأمانات، وكُتْب الأيمان والقسامات . قال : وهى وإن كانت دون الرتبتين المتقدّمتين فهى جليلة الخطَر عالية القَدْر؛ ويجب أن يكون لاحقًا برُتَب الخَدَمة منها، وأن يكون مأمونًا علىٰ الأسرار، كافَّ اليد، نَزِه النفْس عن العَرَض

الدنيوىّ لأنه يطّلع علىٰ أكثر مايجرى فى الدولة، ويعلم بالوالى قبل تولّيه والمعروف قبل صَرْفه، ويكون مع ذلك سريعَ اليدِ فى الكتابة، حَسَن الخط اذكان هذا الفنّ أكثرَ ما يُستعمَل ولا يكاد يقلّ فى وقت من الأوقات

الرابع — كاتب يكتُب المَنَاشير والكُتُبَ اللّطافَ والنُّسخ . قال : وهذه المنزلة لاحقةٌ بالمنزلة التى قبلها وكأنها جزءٌ منها . ويجب أن يكون هذا الكاتب مأموناً كَتُوماً للسر، فيه من الأدب مايأمَن معه من الخطإ واللحن فى لفظه وخطه، ويكون حَسَن الخط أو بالغا فيه القَدْر الكافى . ولكن لما كان هذا الشغل واسعا وهو أكثر عمل الدِّيوان والذى لاينفك منه، لم يكد يستقِلُّ به رجل واحد فيحتاج إلىٰ معاضَدَته بآخر يكون دونه فى المنزلة، ويُجْعَل برسم تسطير المناشير والفصول المتقدّمة الى المقيمين بالحضرة، وكتابة تذاكر المستخدمين، ونقلها مما يمليه صاحب الديوان و يصدُر عنه فى نسخ تكون مخلدة فيه لا تُغادر المبيَّضَه بحرف لتكون موجودة متىٰ آحتيج اليها .

الخامس — كاتب يبيِّض ما ينشئه المنشئ مما يحتاج إلىٰ حُسْن الخط، كالعهود والبَيْعات ونحوها . قال الصورىّ : لما كانت البلاغةُ التامّة التى يصلح صاحبها للإنشاء وحُسْنُ الخط قلما يجتمعان فى أحد، وجب أن يُختار للديوان مبيِّض برسم الإنشاءات والسِّجلات والتقليدات، ومكاتبات الملوك، وأن يكون حسن الخط إلىٰ الغاية الموجودة بحيث لايكاد يوجد فى وقته أحسَنُ خطا منه لتصدُرَ الكتب عن الملك بالألفاظ الرائقة والخط الرائع . فإن ذلك أكمل للمملكة، وأكثر تفخيما عند مَنْ يكاتبه وتعظيما لها فى صدره . ويجب أن يكون مع ذلك فى الأمانة، وكِتْمان السر، ونَزَاهة النفْس علىٰ ماتقدّم .

السادس — كاتب يتصفَّح ما يُكتَب فى الديوان . قد تقدم أنه لما كان كلُّ واحد ممن تقدّم ذكره غيرَ معصوم من السهو والزلل والخطإ واللحن وعَثَرات القلم . وكل واحد

يتغطى عنه عيب نفسه ويظهر له عيبُ غيره، وكان زمن متولِّى الديوان أضيقَ من أن يُوفِى بكل مايكتَب بديوانه حقَّ النظر، وكان القصد أن يكون كل مايكتب عن الملك كامل الفضيلة خطًّا ولفظا ومعنًى وإعرابا، حتّٰى لا يجد طاعنٌ فيه مطعنًا، وجب أن يستخدم متولِّى الديوان معيَّنا يتصفح جميعَ الإنشاءات والتقليدات والمكاتَبَات وسائر مايُسَطَّر فى ديوانه .

قال أبو الفضل الصورىّ : وينبغى أن يكون هذا المتصفِّح عالِى المنزلة فى اللغة والنحو وحفظِ كتاب الله تعالىٰ، ذكِيًّا، حسَن الفِطنة، عاقلا، مأمونًا وأن يكون مع ذلك بعيدا من الغرض والعداوة والشحناء حتّٰى لا يبخس أحدا حقَّه، ولا يُحابِىَ أحدا فيما أنشأه أو كتبه — بل يكون الكل عنده فى الحق علىٰ حدٍّ واحد لا يترجح واحد منهم علىٰ الآخر . وعليه أن يُلزم الكُتَّاب بعرض جميع ما يكتُبونه وينشِئونه عليه قبل عرضه علىٰ متولِّى الديوان — فاذا تصفحه وحرره كتب خطه فيه بما يعرّف رضاه عنه ليلتزم بدَرَك ما فيه ويبرأ منشئه .

السابع — كاتب يكتب التذاكر والدفاتر المضمَّنة لمتعلَّقات الديوان .

قال الصُّورىّ : ويجب أن يُختار لذلك كاتبٌ مأمونٌ، طويل الروح، صبور علىٰ التَّعَب، قال : والذى يلزمه من متعلَّقات الديوان أمور :

أحدها — أن يضع فى الديوان تذاكر تشتمل علىٰ مهمَّاتِ الأمور التى تُنهىٰ فى ضِمْن الكتب، ويظن أنه ربما سُئِل عنها أو آحتيج إليها، فيكون آستخراجها من هذه التذاكر أيسر من التنقيب عليها والتنقير عنها من الأضابير . قال : ويجب أن تسلَّم إليه جميعُ الكتُب الواردة بعد أن يُكتَب بالإجابة عنها ليتأملَها وينقُل منها فى تذاكره مايُحتاج إليه، وإن كان قد أجيب عنه بشيء نقله، ويجعل لكل صفقة

أوراقا من هــذه التذاكر علىٰ حِدَة، تكون علىٰ رءُوس الأوراق علاماتٍ باسم تلك الصفقة أو الجهة ، ويكتب علىٰ هــذه الصفقة فصلٌ من كتاب فلان الوالى ، أو المُشارِف ، أو العامل — ورد بتاريخ كذا — مضمونه كذا — أجيب عنه بكذا — أو لم يجب عنه إلىٰ أن تفرُغ السنة يستجدّ للسنة الأخرى التى تتلُوها تذكِرة أخرىٰ. وكذلك يجعل له تذكرة يسطّر فيها مهماتِ ما تخرُج به الأوامر فى الكتُب الصادرة لئلّا تُغفل ولا يجابَ عنها ؛ وتكون علىٰ الهيئة المتقــدّمة من ذكر النواحى وأرباب الخِدَم. وإذا ورد جواب عن شيء مهمٍّ نُزِّل عنده فيقول: ورد جوابه عن هذا الفصل بتاريخ كذا يتضمّن كذا ، فإنه اذا ٱعتمد هــذا وجد السلطانُ جميع ما يُسأل عنــه حاضرا فى وقته غير متعذر عليه .

الثــانى — أن يضع فى الديوان دفترا بألقاب الوُلاة وغيرهم من ذوى الخِــدَم ، وأسمائهم، وترتيب مخاطباتهم؛ وتحت اسم كل واحد منهم كيف يخاطَب : بكاف الخطاب أو هاء الكناية ، ومقدار الدعاء الذى يُدْعىٰ له به فى السِّجلات والمكاتَبات والمناشير، والتوقيعات : لٱختلاف ذلك فى عُرْف الوقت . وكذلك يَضَع فيــه ألقابَ الملوك الأباعد والمكاتَبين من الآفاق وكُتَّابِهم وأسماءَهم ، وترتيب الدعاء لهم، ومقداره . ويكون هــذا الدفتر حاضرا لدىٰ كُتَّاب الإنشاء ينقُلون منه فى المكاتَبات مايحتاجُون إليه : لأنه ربمــا تعذَّر حِفْظ ذلك عليهم — ومتى تغير شيء منــه كتبه تحته . ويكون لكل خِدْمة ورقة مفرَدة فيها ٱسم متولِّيها ولقبُه ودُعاؤه — ومتى صُرِف كتب عليه صُرِف بتاريخ كذا ، وٱستُخْدم عوضا منه فلانٌ بتــاريخ كذا وأُجرِى فى الدعاء علىٰ منهاجه، أو زيد كذا أو نقص . ولا يتغافَل عن ذلك : فإنه متَى أُهْمل شيء من ذلك زلَّ بزلله الكُتَّاب وصاحبُ الديوان بل والسلطانُ نفسُه .

الثالث — أن يضع بالديوان دفترا للحوادث العظيمة وما يتلوها مما يجرى فى جميع المملكة، ويذكر كلا منها فى تاريخه؛ فإن المنفعة به كثيرة حتّى إنه لو جمع من هذين الدفترين تاريخ لاجتمع .

الرابع — أن يعمل فهرستا للكُتُب الصادرة والواردة مفصّلا مُسانَهة ومشاهَرة ومُياومة، ويكتُب تحت اسم كل مَن ورد من جهته "كتاب ورد بتاريخ كذا"، ويشير إلىٰ مضمونه إشارةً تدل عليه أو ينسَخُه جميعَه إن دعت الحاجة إلىٰ ذلك، ويسلمه بعد ذلك إلىٰ الخازن ليتولّى الاحتفاظ به علىٰ ما سيأتى ذكره .

الخامس — أن يعمل فهرستا للانشاءات، والتقاليد، والأمانات، والمناشير وغير ذلك مشاهَرة فى كل سنة بجميع شهُورها؛ وإذا انقضت سنة استجدّ آخرَ، وعمل فيه علىٰ مثل ما تقدّم .

السادس — أن يعمل فهرستا لترجمة ما يترجَم من الكتب الواردة علىٰ الديوان بغير اللسان العربىّ من الرومىّ والفرنجىّ وغيرهما مصرِّحا بمعنىٰ كل كتّاب ومَنْ ترجمه علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه . قال الصورىّ : فإذا رُوعِيتْ هذه القوانينُ انضبطت أمورُه ولم يكد يخِلّ منه شيء، وكان جميع ما يُلتَمس منه موجودا بأيْسر سعْيٍ فى أسرع وقت .

الضرب الثانى

(غير الكتّاب، وهما اثنان)

أحدهما الخازن . قال الصورىّ : "ينبغى أن يختار لهذه الخدْمة رجلٌ ذكىٌّ فَطِن عاقلٌ مأمونٌ بالغٌ فى الأمانة والثِّقة ونَزاهةِ النفسِ وقِلّةِ الطمَع إلىٰ الحدّ الذى لا يزيد عليه : فإن زمام جميع الديوان بيده؛ فمتىٰ كان قليلَ الأمانة ربّما أمالَتْه الرِّشْوة إلىٰ

إخراج شيء من المكاتبات من الديوان، وإفشاء سرّ من الأسرار فيضرُّ بالدولة ضَرراً كبيرا . ويجب أن يكون ملازما للحُضور بين يدَىْ كُتَّاب الديوان فمتىٰ كتب المنشئ أو المتصدّى لمكاتبة الملوك، أو المتصدّى لمكاتبة أهل الدولة، أو لكتابة المناشير وغيرها شيئا، سلمه للمتصدّى للنَّسْخ فينسخُه حرفا بحرف، ويكتُب بأعلىٰ نسخه كتاب كذا — ويذكر التاريخ بيومه وشهره وسنته علىٰ ماتقدّم فى موضعه، ويسلمه للخازن. وكذلك يفعل بالكتب الواردة بعد أن يأخذ خَطَّ الكاتب الذى كتب جوابَها بما مثاله . «ورد هذا الكتابُ من الجهة الفلانية بتاريخ كذا، وكتب جوابه بتاريخ كذا» . وإن كان لاجواب عنه، أخذ عليه خط صاحب الديوان أنه لاجواب عنه لتبرأ ذمّتُه منه ولا يتأوّل عليه فى وقت من الأوقات أنه أخفاه ولم يُعْلِم به . ثم يجمع كلَّ نوع إلىٰ مثله، ويجمع متعلّقات كل عمل من أعمال المملكة من المكاتبات الواردة وغيرها، ويجعل لكل شهر إضْبارَة، يجمع فيها كُتُب من يكاتَب من أهل تلك الأعمال، ويجعل عليها بطاقةً مثل أن يكتب «إضبارة لما ورد من المكاتبات بالأعمال الفلانية فى الشهر الفلانىّ» ثم يجمع تلك الأضابير ويجعلها إضبارةً واحدة لذلك الشهر ويكتب عليها بطاقة بذلك ليسهل ٱستخراج ما أراد يستخرجه من ذلك . قال : ويجب علىٰ هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما فى هذا الديوان من الكتب الواردة ونُسَخ الكتب الصادرة، والتذاكر، وخرائط المهمّات، وضرائب الرسوم ٱحتفاظا شديدًا" .

الثـانى — حاجب الديوان . قال الصورىّ : "ينبغى لصاحب ديوان الإنشاء أن يُقِيم لديوانه حاجباً لا يمكّن أحدا من سائر الناس أن يدخُل إليه، ماخلا أهلَه الذين هو معدوق بهم(١)، فإنه يجمع أسرارَ السلطان الخفيــةَ فمن الواجب كتمُها ومتىٰ أُهْمِل

(١) فى الضوء معزوق بهم بالعين المهملة والزاى [وهى أصرح فى المقام ففى القاموس عزق به كفرح لصق] .

ذلك لم يؤمَن أن يُطّلع منها على ما يكون باظهاره سبب سقوط مرتبته وإذا كثر الغاشُون له والداخلون إليه، أمكن أهلَ الديوان معه إظهارُ الأسرار اتّكالا علىٰ أنها تُنْسَب إلىٰ أولئك، فإذا كان الأمر قاصرا عليهم احتاجوا إلىٰ كِتْمان مايعلمُونه خشيةَ أن يُنْسَب إليهم إذا ظهر".

وأمّا ما استقر عليه الحال فى زماننا فكُتّاب الديوان علىٰ طبقتين :

الطبقة الأولىٰ — كُتّاب الدَّسْت، وهم الذين يجلسون مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل فى المواكب علىٰ ترتيب منازلهم بالقُدْمة(١) ويقرءُون القِصَص علىٰ السلطان بعد قراءة كاتب السر علىٰ ترتيب جلوسهم ويوقّعُون علىٰ القِصَص كما يُوقّع عليها كاتب السر. وسُمُّوا كُتّاب الدست إضافة إلىٰ دست السلطان وهو مَرْتبة جلوسه : لجلوسهم للكتابة بين يديه؛ وهؤلاء هم أحقُّ كُتّاب ديوان الإنشاء باسم الموَقّعين : لتوقيعهم علىٰ جوانب القِصَص بخلاف غيرهم.

وقد تقدّم أنهم كانوا فى أوائل الدولة التركية فى الأيام الظاهرية بيبرس وما والاها قبل أن يلَقّب صاحبُ ديوان الإنشاء بكاتب السر ثلاثةَ كُتّاب، رأْسهم القاضى محيي الدين بنُ عبد الظاهر، ثم زادوا بعد ذلك قليلا إلىٰ أن صاروا فى آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عشرة أو نحوها، ثم تزايدوا بعد ذلك شيئا فشيئا خصوصا فى سلطنة الظاهر برقوق، وابنه الناصر فرج حتّىٰ جاوزوا العشرين وهم آخذون فى التزايد.

وقد كانت هذه الرتبة لاحقةً بشاوِ كتابة السر فى الرفعة والرياسة إلىٰ أن دخل فيها الدخيل، وقدّم فيها غيرُ المستحِق، ووليَها من لا يُؤَهّل لما هو دُونَها، وانحطّت رتبتها وصار أهلها فى الحضيض الأوهد من الرياسة بعد أوْجها الا الأفذاذ ممن علَتْ رتبته وقليلٌ ماهُمْ.

(١) القدمة بالضمّ السبق. ولعل مراده السبق فى الفضل.

الطبقة الثانية — كُتَّاب الدَّرْج، وهم الذين يكتُبون مايوقِّع به كاتبُ السر أو كُتَّاب الدست أو إشارةَ النـائب أو الوزير، أو رسالةَ الدوادار ونحو ذلك من المكاتبات والتقاليـد والتواقيع والمراسيم والمناشير والأيمـان والأمانات ونحو ذلك ممـا يجرى مجراه. وسُمُّوا كُتَّابَ الدَّرْج لكتابتهم هذه المكتوبات ونحوها فى دُرُوج الورق، والمراد بالدَّرْج فى العُرف العامّ الورق المستطيل المركَّب من عدّة أوصال، وهو فى عُرْف الزمان عبارة عن عشرين وصلا متلاصقة لاغير. قال آبن حاجب النعمان فى ذخيرة الكُتَّاب: وهو فى الأصـل اسمٌ للفعل أخْذا من درَجْت الكتاب أدْرُجه دَرْجا اذا أسرعتَ طيَّه وأدرجْته إدراجا فهو مُدْرَج اذا أعدته علىٰ مطاويه وأصلُه الإسراع فى حالة، ومنه مَدْرَجة الطريقِ التى يُسْرِع الناس فيها وناقةٌ دَرُوج اذا كانت سريعة. ويجوز أن يطلق عليهم كتّاب الإنشـاء لأنهم يكتُبون ما يُنْشأ من المكاتبات وغيرها ممـا تقدّم ذكره؛ ولا يجوز أن يطلق عليهم لَقَب الموقِّعين لمـا تقدّم من أن المراد من التوقيع الكتابةُ علىٰ جوانب القصَص ونحوها. وكما زاد كتَّاب الدَّسْت فى العدد زاد كتّاب الدَّرْج حتّى خرجوا عن الحـدّ، وبلغوا نحوا من مائة وثلاثين كاتبـا، وسقطت رياسة هذه الوظيفة وآنحط مقـدارها حتّى إنه لم يرضها إلا من لم يكن أهلا. علىٰ أن كُتَّاب الدست الآن هم المتصـدّون لكتابة المهم من كتابة الدَّرْج: كمتعلّقات البريد المختصةِ بالسلطان من المكاتبَـات والعهود والتقاليد وكبارِ التواقيع والمَراسيم والمَناشير، وصار كتّاب الدَّرج فى الغالب مخصوصين بالمكاتَبَات فى خَلَاص الحقوق وما فى معناها. وكذلك صـغار التَّواقيع والمراسيم والمَنَاشير ممـا يكتب فى القَطْع الصغير، وربمـا شارك أعلاهم كُتَّاب الدست فى التقاليد وكِبَار التواقيع وما فى معناهما إذا كان حَسَن الخط، ولا نظر إلى البلاغة جملةً بل كل أحد يلفِّق ما يتهيَّأ له من كلام المتقدّمين غيرَ مُبـالٍ بتحريفه ولا تصحيفه مبْتهجا بذلك مطالعا

لغيره فى أنه الذى ٱبتدعه و إبتكره . وكل من لفّق منهم شيئا أو أنشأه كتبه بخطه على أىّ طبقة كان فى الخط، ما خلا عهودَ السلطنة ومكاتباتِ القانات من مُلُوك الشرق فانه رُبّما ٱنتخِب لها أعلى أهلِ الزمان خَطًّا، تنويهاً بذكرها، ورفعةً لقدرها .

أما كتابة التذاكر والدفاتر فقد كان الأمر مستمرّا فى بعضها ككتابة ما فى المُكاتَبات الواردةِ والصادرةِ بدفْتر فى الديوان إلى آخر مباشَرة القاضى بدر الدّين بن فضل الله فى الدولة الظاهرية برقوق، ثم رُفِض ذلك وتُرِك وٱقتصر على ما يَرِد من المكاتَبات وما يكتب من الملخَّصات وكتابة الموقِّع الذى يكتب الجواب بسدّ كل فصل تحته ليس إلا وترك ما وراء ذلك، وٱكتفى من الخازن بدوادار كاتب السر، وصار هو المتولِّىَ لحفْظ ذلك وإيداعه فى الأَضَابِير على نحو ما تقدّم؛ وكذلك صار أمر حِجَابة الديوان إليه . ثم للديوان أعْوان يسمَّوْن المدرا (١) جمع مدِير، شأنهم أخذُ القِصَص ونحوها وإدارتها على كاتب السر فمن دُونَه من كُتَّاب الديوان ليكتبَ كلٌ منهم ما يلزمه من متعلّقها ولذلك سُمُّوا بهذا الآسم .

---

(١) كذا فى الأصل والقواعد لا تساعد .

المقـالة الأولى

بعد المقدّمة

(فى بيان ما يحتاج إليه كاتبُ الإنشاء من الموادّ، وفيه بابان)

البـاب الأوّل

(فيما يحتاج إليه الكاتبُ من الأمور العِلْميَّة، وفيـــه ثلاثة فصول)

الفصـــل الأوّل

فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال

وقد آختلفتْ مقاصِدُ المصنِّفين فى ذلك : فابنُ قتيبة بعد أن بنى كتابه أدبَ الكاتب على أمور من اللُّغَة والتصريف وطَرَف من الهجاء قال : "وليس كتابُنا هذا لمن لم يتعَلَّقْ من الإنسانيـة إلا بالجسم ، ولا من الكتابة إلا بالرَّسْم، ولم يتقدّم من الأداه ، إلا بالقَلَم والدواه : ولكنه لمن شَدَا[(١)] شيئا من الإعراب فعرف الصَّدْر والمَصْـدَر ، وآنقلابَ الياء عن الواو، والألف عن الياء ، وأشـباهَ ذلك من النظر فى الأشكال لمساحة الأرَضين حتّى يعرِفَ المثلَّث القائمَ الزاوية ، والمثلثَ الحـادّ ، والمثلَّث المنفرِج ، ومَساقط الأحجار، والمربَّعات المختلفات، والقِسِيّ، والمدوَّرات، والعمودَيْن؛ وتُمتَحَن معرفتـه بالعمل فى الأرَضين لا فى الدفاتر، فإن المخبَرَ عنه ليس كالمُعايَن . وذكَر أن العجَم كانت تقولُ : من لم يكُنْ عالمـا بإجراء المياه، وحَفر فُرَض

(١) كذا فى الأصل وأدب الكاتب . وفى القاموس شدا أخذ طرفا من الأدب وهو معنى مناسب هنا . والذي فى الضوء سدّد .

المَشارب ورَدْم المَهاوِى ، ومَجَارى الأيَّام فى الزيادة والنقصان ، ودَوَرانِ الشمس ، ومَطالِـع النجوم ، وحالِ القمر فى آستهلاله وآتصاله ، ووَزْنِ الموازين ، وذَرْع المثلث والمربَّع والمختلف الزَّوايا ، ونَصْب القناطر ، والجُسُور ، والدَّوالِى ، والنَّواعير على المياه ، وحال أدوات الصُّنَّاع ، ودقائق الحساب ، كان ناقصا فى حال كتابتـه . ثم قال : ولا بدَّ له مع ذلك من النَّظَر فى جُمَل من الفقه والحديث ، ودِراسـة أخبار النَّاسِ ، وحِفْظ عُيون الأخبار ليُدْخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا بها اذا كتب ، أو يصل بها كلامه اذا حاوَرَ . وختم ذلك بأن قال : ومدار الأمر فى ذلك كلِّه علىٰ القُطْب وهو العقل وجودة القريحة ؛ فإن القليل معهما بإذن الله تعـالى كافٍ ، والكثير مع غيرهما مقصر" .

وتابعه أبو هلال العسكرىّ فى بعض ذلك فقال فى بعض أبواب كتابه «الصناعتين» : "ينبغى أن تعـلم أنّ الكتابة تحتاج إلى آلات كثيرة ، وأدَوَات جَمَّـةٍ : من معرِفة العربيَّة لتصحيح الألفاظ وإصابة المعنى ؛ وإلى الحساب ، وعلم المساحة ، والمعرفة بالأزْمنة والشهور والأهِلَّة وغير ذلك ممـا ليس هذا موضِعَ ذكره وشرحه" .

ولا يخفى أن ما ذكره بعض ما ذكره آبن قتيبة ، يتواردان فيه فى المعنى وإن آختلف اللفظ . وخالف أبو جعفر النحاس فى كثير من ذلك فذكر فى أوّل كتابه "صـناعة الكتّاب" فى المرتبة الثانية منه بعد ما يتعلق بالخط : أن من أدوات الكتابة البلاغة ، ومعرفةَ الأضداد ممـا يقع فى الكتب والرسائل ، والعلمَ بترتيب أعمـال الدواوين ، والخِبْرة بمَجَارى الأعمال ، والدُّرْبة بوجوه آستِخْراج الأموال ، ممـا يجب ويمتَنِـع . ثم قال : فهذه الآلات ليس لواحد منها تميُّز بذاته ، ولا آنفرادٌ باسمٍ يخصه ؛ وإنمـا هو جُزْء من الكتابة وأصـلٌ من أركانها . أما الفِقْه والفرائض والعِلْم بالنحو واللغة وصناعة الحساب والمساحة والنُّجومِ ، والمعرفةُ باجراء المياه ، والعلمُ بالأنساب فكل

واحد منها منفرد على حدته وإن كان الكاتب يحتاج إلى أشياءَ منها نحو ما يُكتَب بالألف والياء، وإلى شيء من المقصور والممدود. ولو كلف الكاتبُ ما ذكره مَنْ ذكره لَجُعِل الأصعبُ طريقا للأسهل والأشَقُّ مِفْتاحا للأهون وفى طِباع الناس النِّفَار عما أَلْزَمهم من جميع هذه الأشياء .

قلت : والتحقيق أن ذلك يختلف باختلاف حال الكتابة بحسب تنوّعها، فكلُّ نوع من أنواعها يحتاجُ إلى معرفة فنّ أو فنون تختصُّ به .

وقد حكى أن عمرو بن مَسْعدة وزيرَ المعتصم قال : لما خرج المعتصِم من بلاد الروم وصار بناحية الرَّقَّة، قال لى ويْلكَ يا عمرو! لم تزل تخدَعُنى حتَّى ولَّيتُ عُمَر بن الفَرَج[(١)] الرُّخَّجِى الأهوازَ، وقد قَعد فى سُرَّة الدنيا يأكُلُها خَضْما وقَضْما! فقلت يا أمير المؤمنين فأنا أبعث إليه حتَّى يُؤْخَذ بالأموال ولو على أجنحة الطَّيْر — قال : كَلَّا بل تخرج اليه بنفسك كما أشرتَ به — فقلت لنفسى : إن هذه منزلة خَسِيسة، بعدَ الوزارة أكونُ مستَحِثًّا لعاملِ خراجٍ! ولم أجِدْ بُدًّا من الخُروج رِضًا لأمير المؤمنين — فقلت : ها أنا خارج اليه بنفسى يا أمير المؤمنين! قال : فضَعْ يدَك على رأسك وآحلف أنك لا تُقِيم ببغدادَ، ففعَلْت وأحدثْت عهدا باخوانى ومنزلى وأُتِىَ إلىّ بزَوْرق ففُرِش لى فيه، ومضيت حتّى إذا صِرْت بيْنَ دَيْر هِرقْل ودَيْر العاقول إذا شابٌّ على الشط يقول: يا ملَّاحُ! رجل غريب يريد دَيْر العاقول فاحملنى يأْجُرْك الله! — فقلت: يا غلامُ

(١) فى الأصل عمرو ... ... الرحجى . والصواب ما أثبتناه فقد قال ياقوت فى الكلام على رُخَّج مثال زُمَّج : وينسب الى الرخج فرج وابنه عُمَر بن فرج وكانا من أعيان الكتّاب فى أيام المأمون الى أيام المتوكل وكان عبد الصمد بن المعذل يهجو عمر بن فرج . فمن قوله فيه يخاطب نجاح بن سلمة

أبلغ نجاحا فتى الكتّاب مألكة * تمضى بها الريح إصدارا وإيرادا
لا يخرج المال عفوا من يدى عمر * أو تغمد السيف فى فوديه إغمادا
الرُّخَّجيّون لا يوفون ما وعدوا * والرُّخَّجيات لا يخلفن ميعادا ا هـ

قرِّب له — فقال : جُعلت فِداك ! يؤذيك ويُضيِّق عليك — فقلت : قرِّب له لا أمّ لك ! فقرّب له وحمله على مؤخَّر الزورق . وحضر الطعامُ ، فهمَمْت أن لا أدعُوه إلى طعامى، ثم قلت : هلُمَّ يا فتى ، فوثَب وجلَس ، فأكل أكْلَ جائعٍ نَهِم إلا أنه نظيف الأكل ؛ فلما فرغ من الطعام أحبَبْتُ أن يفعلَ ما يفعُلُ العوّام فيتنحّى ويغسلَ يديه ناحيةً فلم يفعلْ ، فغمزه الغِلْمانُ ليقومَ فلم يفعلْ ، فتناوَمْت عمدًا لينهَض فلم يفعلْ ، فاستويت جالسا وقلت يا فتى ! ما صِناعتك ؟ فقال جعلت فداك ! أنا حائك . فقلت فى نفسى : أنا والله جلَبْت هذه البليةَ ، وتغير لونى ، ففطِن أنى آستثقلتُه ، فقال : جعلتُ فِداك ! انك قد سألتنى عن صناعتى فأجبتك ، فأنت ما صناعتك ؟ فقلتُ : هذه والله أضرُّ من الأولى ألا ينظر إلى غلمانى ونِعْمتِى فيعلَم أن مثل هذا لايُسْئل عن الحِرْفة؟ ولم أجد بُدّا من الجواب ، فلم أذهبْ إلى المرتبة العظمى من الوزارة لكنى قَرّبت عليه ، فقلت : أنا كاتب — فقال جعلتُ فِداك الكُتّاب خمسة فأيهم أنت ؟ فأورد علىّ مالم أسمع به قبلُ — فقلت : بيِّنهم لى — قال نعم ، هُم كاتبُ رسائلَ يحتاج إلى أن يَعْرِف المفصُولَ والمَوْصُول ، والمقْصُور والممدود ، والآبتداء والجواب ؛ حاذقا بالعُقود والفتوح — قلت : أجل وماذا ؟ قال : كاتب خَراجٍ يحتاجُ أن يعرِف السُّطُوح(١) والمِساحةَ والتَّقسيط ، خبيرًا بالحِساب والمُقاسَمات . قلت : وماذا ؟ قال : كاتب قاضٍ يحتاجُ أن يعرِف الحَلالَ والحرام ، والتأويلَ والتنزيل — والمُتشابهَ والحُدود القائمة والفرائض ، والآختلاف فى الأموال والفروج ، حافظا للأحكام ، حاذقا بالشروط — قلت : وماذا ؟ قال : وكاتبُ جُنْدٍ يحتاج أن يعرف الحِلَى والشِّيات — قلت : وماذا ؟ قال : وكاتبُ شُرْطة يحتاج أن يعرف القصاصَ والجِراحات ، وموضعَ الحُدُود ، ومَواقِعَ العَفْو فى الجنايات — قلت حَسَن . قال : فأيُّهم أنت ؟ فكُنتُ متّكِئا فاستويت جالسًا مُتعَجِّبا من قوله ، فقلت :

(١) فى نسخة الطسّوج . وهو كتنور الناحية ، وربع دانق معرب اه قاموس .

أنا كاتبُ رسائلَ — قال : فإن أخًا من إخوانك واجبَ الحقِّ عليك معتنيا بأمورك لا يغْفُل منها عن صغير ولا كبير يكاتبك فى كل محبوب ومكروه وأنت له على مثل ذلك تزوّجتْ أمُّه كيف تكتب إليه ؟ أتُهنيه أم تُعَزيه؟ — قلت أهنيه . قال فهَنِّه فلم يتَّجِه لى شيء — فقلت : لا أُعَزِّيه ولا أُهَنِّيه، فقال : إنك لا تغْفُل له عن شيء ولا تجِدُ بُدّا من أن تكتب إليه — فقلت : أقِلْنى فأنا كاتب خَرَاج — قال : فإنَّ أمير المؤمنين وجَّه بك إلى ناحيةٍ من عَمَله ، وأمرك بالعَدْل والإنصاف وأنك لاتَدَع شيئًا من حقِّ السلطان يذهب ضَيَاعا ، وحذَّرك الظُّـلم والجور ، فخرجتَ حتَّى قدِمْتَ الناحيةَ فوقَفُوك على قَرَاحِ أرض خطه قابل قسيا كيف تمسَحُه — قلت : آخُذ وسَطه وآخُذ طُولَه فأضربُه فيه — قال : تختلِف عليك العُطُوف — قلت : آخُذ طُوله وعَرْضه من ثلاثة مواضِعَ — قال : إن طرَفَيْــه محدُودان وفى تحديده تقْوِيس وذلك يختلف فأعْيانِى ذلك — فقلت : أقلنى فأنا كاتب قاضٍ — قال : فإنَّ رجلا هلك وخلَّف زوجةً حرَّةً وسُرِيَّةً حاملتَيْن فوضَعتا فى ليلة واحدة وضَعتِ الحرّة جاريةً، ووضعتِ السُّرِّيَّة غلاما، فوُضعت الجاريةُ فى مَهْد السُّرِّيَّةِ ، فلما أصبحت السُّرِّية قالت الغلامُ لِى ، وقالت الحُرّة بل هو لى كيف تحكم بينهما؟ — قلت : لاأدرى فأقِلْنى ، فأنا كاتب جندٍ ، قال : فإن رجُلين من أصحاب السلطان أتياك ٱسمُهما واحد، وأحدُهما مشقوق الشَّفَة العُلْيا، والآخر مشقُوق الشفة السُّفْلى؛ ورِزْق أحدهما مائةٌ والآخَر ألف كيف تُحلِّيهما ؟ — قلت : فلان الأعلَمُ وفلان الأعلم، قال : إذَنْ يجىء هـذا ورزقه مائة فيأخُذ الألفَ ، ويجىء هذا ورِزْقه ألفُ فيأخُذ المـائةَ — قلت أقلنى : فأنا كاتب شُرْطة، — قال : فإن رجلين تواثبا فشجَّ أحدُهما صاحبَه مُوضِحةً، وشجَّه الآخَر مأمومةً كيف يكون الحكم فيهما ؟ — قلت : لا أدرى فأقلنى ، . قال فقلت : إنك قد سألتنى فبيِّن لى — قال نعم .

أما الذى تزوّجتْ أمُّه فتكتبُ إليه : أما بعـد فإن الأمورَ تجرى علىٰ غير محَابِّ المخلوقين والله يختارُ لعباده، فخَـار اللهُ لك فى قَبْضها إليـه فإن القُبور أكرم الأكفاء والسلام .

وأما القراح من الأرض، فإنك تمسح ٱعوِجاجَه حتى تعلم كم قَبْضة تكون فيـه فإذا ٱسـتوىٰ فى يدك عِقْد تعرفه ضربت طَرفَه فى وسـطه . وأما الحرّة والسُّرِّية فيُوزَن لبنهما فأيُّهما كان لبَنُها أخفَّ فالبنت لهـا . وأما المشقُوق الشَّفةِ العُلْيا فأعلَمُ والمشْقُوق الشَّفة السُّفْلىٰ فأفلَحُ . وأما المأمومة ففيها ثلث الدية وهى ثلاث وثلاثون من الإبل وثلثٌ . وأما الموضحة ففيها خمسٌ من الإبل . فقلت : ألست تزعم أنك حائك ؟ فقال : أنا حائكُ كلام لا حائك نِسَاجة . قال عمرو بنُ مَسْعدةَ : فأحسنت جائزتَه وٱستصحبته معى حتّى عُدْت إلىٰ المعتصِم، فسألنى عمّـا لقِيتُ فى طريق، فقصَصْت عليه القِصَّـة فأُعْجِب به وقال : لِمَ يصلح ؟ فقلت : للعمائر . فقرّره فيها وعلَتْ رتبَتُه، فكنتُ ألقاه فى الموكِب النبيل فيترجَّلُ لى فأنهاه، فيقول : هـذه نعمتك وأنت أفَدْتَها .

فقد تبين بهذه الحكاية أن لكل نوع من الكتابة مادّة يُحتاج إليها بمفردها، وآلةً تخصها لا يُستغنىٰ عنها .

على أن كاتب الإنشاء فى الحقيقة لا يستغنِي عن علم ولا يسَعُه الوقوف عند فنٍّ، فقد قال الوزير ضياءالدين بن الأثير فى "المثل السائر" إن صاحب هذه الصناعةِ يحتاج إلىٰ التشبث بكل فنّ من الفنون حتّى إنه يحتاج إلىٰ معرفة ما تقوله النادبةُ بين النساء، والماشطة عند جَلْوة العروس، وإلى مايقوله المنادى فى السُّوق علىٰ السِّلعة فمـا ظَنُّك بمـا فوق هذا وذلك لأنه مؤهَّل أن يَهِيم فى كل واد، فيحتاج إلىٰ أن يتعلق بكل فنّ .

بل قد قيل إن كل ذى علم يسوغ أن يُنْسَب إليه ، فيقال فلان النحوىّ ، وفلان الفقيه ، وفلان المتكلِّم ، ولا يجوز أن ينسب المتعلق بالكتابة إليها ، فلا يقـال فلان الكاتب لمـا يفتقر إليه من الخوض فى كل فن .

وآعلم أن كاتب الإنشاء و إن كان يحتاج إلىٰ التعلق بجميع العلوم والخوض فى سائر الفنون فليس آحتياجُه إلىٰ ذلك علىٰ حدٍّ واحد بل منها ما يحتاج إليه بطريق الذات وهى موادّ الإنشاء التى يستمدّ منها و يقتَبِس من مقاصدها : كاللغة التى منها آستمدادُ الألفاظ ، والنحو الذى به آستِقامةُ الكلام ، وعلوم البلاغة : من المعانى والبيان والبديع التى هى مَنَاط التحقيق والتحسين والتقبيح ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ . وعلىٰ هـذا آقتصر الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" وتبعه علىٰ ذلك الشيخُ شهابُ الدين محمودُ الحلبىّ رحمه الله فى كتابه "حسن التوسل" . ومنها ما يَحتاج إليه بطريق العَرَض كالطِّبِّ والهندسة والهيئة ونحوها من العلوم ، فإنه يحتاج إلىٰ معرفة الألفاظ الدائرة بين أهل كل علم ، وإلىٰ معرفة المشهورين من أهـله ومَشاهير الكُتُب المصنَّفة فيه لينظِم ذلك فى خلال كلامه فيما يكتُب به من متعلّقات كل فنّ من هـذه الفنون كالألفاظ الدائرة بين أهل الطب ومشاهير أهله وكتبه فيما يَكتُب به لرئيس الطب . ونحو ذلك من الهيئة فيما يكتُب به لمنجِّم ، ونحوه من الهَنْدسة فيما يكتُبُ به لمهندس . و ربمـا آحتاج إلىٰ معرفة ماهُو دون ذلك فى الرتبـة كمعرِفة مصطلَح رُماة البُنْدق فيما يكتُب به فى قدمات البندق ، ومعرفة مصطلَح الفِتْيان فيما يكتب به فى دَسْكرة فُتُوّة ونحو ذلك ، بل ربَّمـا آحتاج إلىٰ معرفة مصطلَح سفَل النـاس لكتابة أمورٍ هَزْلِيَّة : كمعرفة أحوال الطُّفيليَّة فيما يكتب به لطفيلىّ آقتراحا أو آمتحانا للخاطر أو ترويحا للنفس ، مع معرفة مايجبُ عليه من وَصْف ما يَحتاجُ إلىٰ

وصفه كأوصاف الأبطال والشُّجعان، والجوارى والغلمان، والخيل والإبل، وجليل الوَحْش وسائر أصنافه، وجوارح الوَحْش والطير، وطير الواجب، والحمام الهدى، وسائر أنواع الطير، والسلاح بأنواعه، وآلات الحصار، والآلات المُلوكيَّة، وآلات السفر، وآلات الصَّيْد، وآلات المعاملة، وآلاتِ اللَّهْو والطَّرَب، وآلات اللاعب، وآلات الشربة، والمدن، والحصون، والمساجد، و بيوت العبادات ، والرياض، والأشجار، والأزهار، والثمار، والبَرارى، والقفار، والمفاوز ، والجبال، والرمال، والأودية ، والبحار، والأنهار، وسائر المياه ، والسفن، والكواكب ، والعناصر ، والأزمنة، والأَنواء، والرياح، والمَطَر، والحر، والبَرْد، والثلْج، وما يتعلق بكل واحد من هذه الأشياء أو ينخرط فى سلكه ، ونحو ذلك مما تدعو الحاجة إلىٰ وصفه فى حالة من حالات الكتابة علىٰ ماسيأتى بيانه فى آخر الفصل الثانى من هذا الباب إن شاء الله تعالى .

الفصـــــل الثـانى

من البـابْ الأوّل من المقـالة الأولىٰ

(فيما يحتاجُ الكاتب إلىٰ معرفته من موادّ الإنشاء، وفيه طَرَفان)

الطـــرف الأوّل

(فيما يَحتاجُ إليه من الأدَوات؛ ويشتمل الغَرَض منه علىٰ خمسة عشر نوعا)

النـــوع الأوّل

(المعرفةُ باللغة العربيـــة؛ وفيه أربعة مقاصـــد)

المقْصِـــد الأوّل

(فى فضلها وما ٱختصَّت به علىٰ سائر اللغات)

أما فضـلها فقد أخرج ٱبنُ أبى شَيْبَة بسنده إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب (رضى الله عنه) أنه قال : "تعلَّمُوا اللَّحْنَ والفَرَائِضَ فإنَّهُ مِنْ دِينِكُمْ" . قال يزيد بن هارون: "اللَّحْن هو اللُّغة". ولا خَفاء أنها أمتنُ اللغات وأوضَحُها بيانا، وأَذْلقُها لسانا، وأمدُّها رُوَاقا، وأعذَبُها مَذَاقا؛ ومن ثَمَّ ٱختارها الله تعالىٰ لأشرف رُسُله، وخاتَمِ أنبيائه، وخِيرته من خَلْقِه، وصَفْوته من بَرِيَّته؛ وجعلها لغةَ أهلِ سمائه وسُكانِ جنته، وأنزل بها كتَابَه المُبين الذى لا يأْتِيه الباطِلُ من بَيْنِ يدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه .

قال فى صِناعة الكُتَّاب : "وقد ٱنْقادتِ اللُّغات كلُّها للُغة العرب، فأقبلتِ الأمم إليها يتعَلَّمونها".

وأما ما ٱختصَّتْ به علىٰ غيرها من اللغات، فقد حكىٰ فى "صناعة الكتّاب" أنها اللُّغة التامَّةُ الحُروف، الكاملةُ الألفاظ، لم ينقص عنها شيء من الحروف فيَشينها نُقْصانُه، ولم يزِد فيها شيء فيعيبَها زيادتُه؛ وإن كان لها فروع أخرىٰ من الحُروف فهى راجعةٌ إلىٰ الحُروف الأصلية؛ وسائرُ اللُّغات فيها حروف مولَّدة، وينقُص عنها حروفٌ أصليَّة : كاللغة الفارسية : تجِد فيها زيادةً ونُقْصانا . وكذلك يُوجد فيها من الأسماء مالا يُوجَد فى الفارسية وغيرها : كالحَقّ والباطِل، والصواب والخطإ، والحلال والحرام، فلاينطق به أهلُ تلك اللغة إلا عربيا . قال الفراء : "وجدنا للغة العرب فَضْلا علىٰ لغة جميع الأمم ٱختصاصًا من الله تعالىٰ وكرامةً أكرمَهُم بها؛ ومن خصائصها أنه يُوجَد فيها من الإيجاز مالا يُوجَد فى غيرها من اللغات" . قال : "ومن الإيجاز الواقع فيها أن للضَّرْب كلمةً واحدةً فتوسَّعوا فيها ، فقالوا للضرب فى الوجه لَطْم ، وفى القَفَا صَفْع ، وفى الرأس إذا أَدْمىٰ شَجّ ؛ فكان قولُهم لُطِم أوجزَ من ضُرِب علىٰ وجهه" . قال فى "المثل السائر" : "حضَرْت مع رجلٍ يهودىّ عارفٍ باللُّغات فجرىٰ ذكر ٱسم الجمَل فقال : لا شَكَّ أن العربِيَّة أوجزُ اللغات، فأنَّ اسمَ الجمل بالعِبرانيَّة كومل فسقط منه الواو وحُوِّلت الكافُ إلىٰ الجيم" . قال أبو عبيد : وللعرب فى كلامها علاماتٌ لا يَشْرَكُهم فيها أحدٌ من الأُمَم كعلامة إدخالهم الألفَ واللامَ فى أوّل الاسم، وإلزامهم إياه الإعرابَ فى كل وجه مع نقلهم كلَّ ما ٱحتاجُوا إليه من كلام العجم إلىٰ كلامهم؛ فقد نُقِل ما قالتْ حكماء العجم والفلاسفةِ إلىٰ العربية ولم يقدر أحد من الأمم علىٰ نقل القرءان إلىٰ لغته لكمال لغة العرب . علىٰ أنَّ الكثيرَ من الناس حاولُوا ذلك فعَسُر عليهم نقلُه ، وتعذَّرت عليهم ترجمته ؛ بل لم يَصِلوا إلىٰ ترجمة البسملة إلا بنقل بعيد .

المقْصِـــد الثـانى

(فى وَجْه آحتياج الكاتب إلىٰ اللغة)

لامِرْيةَ فى أن اللُّغة هى رأسُ مال الكاتِب، وأُسُّ كلامه، وكَنْز إنفاقه؛ من حيثُ إن الألفاظ قوالِبُ للمعانِى التى يَقَع التصرُّف فيها بالكتابة؛ وحينئذ يحتاج إلىٰ طول الباع فيها، وسَعة الخَطْو، ومعرِفة بسائطها: من الأسمـاء والأفعال والحروف، والتصرُّفِ فى وجوه دلالتها الظاهرة والخفية: ليقتدِر بذلك علىٰ آستعمالها فى محالِّها، ووَضْعها فى مواضعها اللائقة بها، ويجدَ السبيلَ إلىٰ التوسُّع فى العبارة عن الصُّوَر القائمة فى نَفْسه فيَتَّسِع عليه نطاقُ النُّطْق، ويَنْفَسِح له المَجالُ فى العبارة، ويَنْفتِح له باب الأوصاف فيما يَحتاجُ إلىٰ وصـفه، وتَدْعو الضرورة إلىٰ نَعْته؛ فيستظهِر علىٰ ما يُنشِيه، ويُحيط علمًا بمـا يَذَرُه ويأتيه؛ إذ المعانِى وان كانتْ كامنةً فى نفْس المعبِّر عنها فإنمـا يقوىٰ علىٰ إبرازها وإبانتها مَنْ توفَّر حظُّه من الألفـاظ، وآقتـداره علىٰ التصرُّف فيها: ليأمنَ تداخُلَها وتكريرَها المُهَجِّنيْن للمعانى — وناهيك أن آبنَ قتيبة لم يُضَمِّن كتابه "أدب الكاتب" غيرَ اللُّغة إلا النَّزْر اليسير من الهِجاء؛ وأبا جعفر النحاسَ ضَمَّن كتابه "صـناعة الكتّاب" جزءًا وافرا من اللغـة؛ وأبا الفتح كُشاجِمَ لم يزد فى كتابه "كنز الكتّاب" علىٰ ذكر الألفاظ وصورة تركيبها.

المقْصِـــد الثالث

(فى بيان مايحتاج إليه الكاتبُ من اللغة؛ ويرجع المقصود منه إلىٰ خمسة أصناف)

الصنف الأوّل — الغَرِيب، وهو ماليس بمألوفِ الآستعمال، ولادائرٍ علىٰ الألْسِنة وذلك أن مَدار الكتابة علىٰ آستخراج المعانى من القرءانِ الكريم، والأحاديث النبويّة، والشعر؛ وألفاظُها لا تخلُو عن الغَريب؛ بل ربَّمـا غلب الغريبُ منها فى الشِّعر علىٰ

المألوف لاسيَّما الشعرُ الجاهليُّ . وقد قال الأصمعيّ "توسَّلت بالمُلَح ونِلْت بالغريب".
قال صاحب "الريحان والريعان" : والغريب وإن لم يُنْفِق منه الكاتبُ فإنه يجب أن يُعلَم ويُتطَلَّع إليه ويُستَشْرَف ؛ فرُبَّ لفظةٍ فى خِلال شِعْر أو خُطْبة أو مَثَل نادر أو حكاية ، فإن بقيتْ مُقْفَلة دونَ أن تُفْتَح لك ، بقى فى الصدر منها حزازة تُحْوج إلىٰ السُّؤال ؛ وإن صُنْت وجهك عن السؤال ، رضيت بمنزلة الجُهَّال . وقد عاب ٱبنُ قتيبة رجلا كتب فى وصْف بِرْذَوْن : "وقد بعثْتُ به أبيضَ الظهر والشَّفَتين" فقيل له : هَلَّا قلت فى بياض الشفتين أَرْثَم أَلْمَظ ، فقال لهم : فبياض الظهر، قالوا لا نَدْرِى ، فقال : انما جَهِلت من الشفتيْنِ ما جَهِلتُم من الظَّهر. وذَمّ قوما من وُجُوه الكُتَّاب بأنه ٱجتمع معهم فى مجلس فتذاكَرُوا عُيوبَ الرقيق فلم يكن فيهم من يُفرّق بين الوَكَع والكَوَع ، ولا بين الحَنَف والفَدَع[(١)] ، ولا بين اللَّمىٰ واللَّطع . ثم قال : "وأىُّ مقام أخزىٰ لصاحبه من رجُل من الكُتَّاب ٱصطفاه بعضُ الخُلَفاء، وٱرتضاه لسِرِّه ، فقرأ عليه يومًا كتابًا فيه مُطِرْنَا مطرا كثُرعنه الكَلَأُ ، فقال له الخليفة ممتحنا له : وما الكَلَأُ ؟ فتردّد فى الجواب ، وتعثَّر لسانُه ثم قال : لاأدرى ؛ فقال : سَلْ عنه".
قال أبو القاسم الزجاجىُّ فى شرح مقدّمة أدب الكاتب : وهذا الخليفة هو المعتصم والكاتب أحمد بن عَمَّار ، وكان يتقلَّد العَرْض عليه ؛ وكان المعتصمُ ضعيفَ البَصَر بالعربية ؛ فلما قرأ عليه أحمدُ بن عمَّار الكِتَابَ وسأله عن الكَلإ فلم يعرفه ، قال : إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون ! خليفةٌ أمىّ ، وكاتب عامىّ ؛ ثم قال مَنْ يقْرُب منا من كُتَّاب الدار فعُرِّف مكان محمد بن عبد الملك الزيات ، وكان يقف علىٰ قَهرمة الدار فأمر بإشخاصه ، فلما مَثَل[(٢)] بين يديه ، قال له ما الكلا ؟ قال : النبات كلُّه رَطْبه

(١) هو بالفاء والدال المهملة اعوجاج الرُّسْغ من اليد أو الرجل حتى ينقلب الكف أوالقدم الى انسيها . قاموس . وفى الأصل القذع بالقاف والذال المعجمة وهو تصحيف ظاهر فتنبه .
(٢) هو من باب دخل كما فى المختار .

و يابِسه، فإذا كان رطْبا قيل له خَلًا، واذا كان يابسا قيل له حَشِيش، وأخذ فى ذكر النبات من ٱبتدائه إلىٰ ٱكْتهاله إلىٰ هَيْجه؛ فقال المعتصم "ليتقلّدْ هذا العَرْضَ علينا." ثم خُصَّ به حتّى ٱستوزره.

فقد ظهر أن معرفة الغريب من الأمور الضروريّة للكاتب التى هى من أهم شأنه، وأعنىٰ مقاصده. وجُلُّ كتب اللغة المصنَّفة فى شأنها راجعة إليه، كصحاح الجوهرىّ، ومُحْكَم ٱبن سيده، ومُجْمَل ٱبن فارس وغيرها من المصنَّفات التى لا تكاد تُحصىٰ كثرةً والصحاح أقربها مأخذًا، والمحكم أمثلُها طريقــة، وأكثَرُها جمعا، وأكملُها تحقيقا. وقد صرف قوم من المصنِّفين العناية من ذلك إلىٰ الٱقتصار علىٰ ذكر الأسمـاء والأوصاف: كأوصاف الرجال والنساء المحمودةِ والمذمومةِ، ومايختص من ذلك بالرجال والنساء؛ وأوصاف الخيل، وأعضائِها، وألوانها، وشِيَاتها، وأسنانها، وسَيْرها، وعَدْوها وما يخص الذكورَ والإناث منها؛ وأوصاف الوُحوش: من السباع والظِّباء والوُعُول والبَقَر والحُمُر الوحشِيِّيْنِ؛ وأسماء الطيْر: من الجوارح الصائدة والطيور المصيدة، وبُغَاث الطيرِ كالرخَم، وصِغَاره كالنحْل والجراد؛ وأوصاف الهوامّ كالحَشَرات: من الحيَّات والوَزَغ ونحو ذلك؛ وأوصاف العُلْوِيَّات: من السماء والسَّحاب والرِّياح والأمطار؛ والأزمنة كأوقات الليل والنهار، وأوقات الشهر وفصول السنة ونحو ذلك؛ وأسماء النَّبَات: من الشجر البَرِّىّ كالطَّلْح والأَراك، والبُستانِىّ كالنخل والعِنَب؛ والنبات البَرِّى كالشِّيح والقَيْصُوم؛ وأنواع المَرْعىٰ؛ وأسماء الأماكن: من البَرارِى والقِفَار، والرمال والجبال والأحجار، والمياه والبِحار والأنهـار والعُيون والسُّيُول؛ والرِّياض والمَحَالِّ والأبنية؛ وأسماء جواهر الأرض: من اليواقيت ونحوها؛ وسائر مستخرجات المعادن، كالنُّحاس والرَّصَاص وما يجرى مجراها؛ ومستخْرَجات البحر: من اللُّؤْلؤ والعَنْبر والمَرْجان وغيرها؛ وأسمـاء المأكولات: من الحُبوب، والفواكه، والأطعمة

المصنوعة والأطبخة؛ وأسماء الأشربة : كالمـاء، واللّبَن، والعسل، والخمر؛ وأسماء السِّلاح : من السيوف، والرِّماح، والقِسِيِّ، والسِّهام، والدروع وغيرها؛ وأسمـاء اللباس : من الثياب علىٰ آختلافها؛ وأسماء الأمتعة، والآنية وسائر الآلات؛ وأسماء الطيب : من المِسك، والنَّدّ، والغالية، والزَّعْفران، وما أشبهها . وكذلك كل مايجرى هذا المجرىٰ. و" كفاية المتحفظ" لآبن الأجدابى، و"المذهبة والمعقبة" لآبن أصبغ كافلتان بالكثير من ذلك . وفى " أدب الكاتب " لآبن قتيبة و " فِقْه اللغة" للثعالبى الجزء الوافر من ذلك .

وصرف آخرون عنايتهم إلىٰ التأليف فى الأفعال وتصاريفها كابن درستويه وغيره . وفى " فصـيح ثعلب " جزء وافر من ذلك ؛ ولعَصْرِيِّنا الشيخ مُقْبل الصَّرْغَتْمشىّ النحوىّ كتاب زاد فيه عليه جمعا ووضوحا .

الصنف الثانى — الفروع المتشعِّبة فى المعانى المختلِفة، وهى فروع كثيرة متَّسِعة الأرجاء، متباينة المقاصد؛ لا يكاد يجمعها مصنَّف، وإن كان الكاتب لا يَستغنِي عن شيء منها، ولا يحسن به تَرْكُه .

منهـا المتباين والمُترادِف . فأما المتباين فهو ما دلَّ لفظُ الكلمة منـه على خلاف ما دلت عليه الكلمة الأخرى، كالسواد والبياض، والطول والعَرْض؛ ويحتاج إليه فى التعبيـر عن المعـانى المختلفة لاتساع نطاق الكلام . وأما المترادف فهو المتوارِد الألفاظ علىٰ مسمًّى واحد كالأسـد والسبع للحيوان المفـترس ؛ والثَّنِيَّة والقَلُوص للناقة، ونحو ذلك . ويحتاج إلىٰ معرفة ذلك للتَخَلّص عند ضِيق الكلام عليه فى موضع لطول لفظة أو قِصَرها أو آختلاف وَزْنها فى شـعر، أو رعاية الفاصلة آخر الفقرة فى نثر، أو غير ذلك ممـا يُضْطَر فيه إلىٰ إيراد بعض الألفاظ بدل بعضٍ، كما فى قوله :

وثَنِيَّـــةٍ جاوزتهـا بثَنِيَّةٍ * حَرْفٍ يُعارِضها جَنِيبٌ أَدْهَمُ

فإنه أراد بالثنية الأولىٰ العقبة ، وبالثنية الثانية الناقة ؛ والجنيب الأدهم استعارةٌ لظلها . فالثنيَّة من حيثُ وقوعُها علىٰ النـاقة والعقبةِ أوفقُ للتجنيس من الناقة ، إذ لو ذكر الناقة مع الثنية التى هى الطريق لفاته التجنيس . ومحل الكلام عليهما كتب الفقه(١) ونحوها .

ومنهـا الحقيقة والمجـاز . والحقيقة هى اللفظ الدالُّ علىٰ موضوعه الأصلىّ كالأسَد للحيوان المفترس ، والحمـارِ للحيوان المعروف . والمجازهو ما أريد به غير الموضوع له فى أصل اللغة ، كالأسَد للرجُل الشجاع بعلَاقة الشجاعة فى كل منهما ، والحمار للبليد بعلاقة البلادة فى كل منهما ؛ ويحتاج إليه لنقل الألفاظ من حقائقها إلىٰ الاستعارة والتمثيل والكناية لمـا بينهما من العلاقة والمناسبة ، كاليَد فإنها فى أصل اللغة للجارحة أُطْلِقت علىٰ القوة والنعمة مجازا ، من حيث إن القوّة تَظْهَر فى اليد والنعمة تُولَى بها ومحل ذكرهما أصول الفقه وما فى معناها .

ومنهـا الألفاظ المتضادّة وهى التى تَقع كل لفظة منها علىٰ ضدّ ما تقع عليه الأخرىٰ كالأمانة والخيـانة ، والنصيحة والغش ، والفَتْق والرتْق ، والنقْض والإبرام ، ونحو ذلك فإن الكلام كثيرا ما يبنى علىٰ الأضداد وربما غلط الكاتب بجعل مقابل الشىء غيرَ ضدّه فيلزمه النقصُ فى صناعته ، وفوات ما يقصده من المقابلة والطِّباق اللذين هما من أحسن أنواع البـديع . وفى "صناعة الكُتَّاب" لأبى جعفر النحاس جملة صالحة من ذلك ، وفى "كَنْز الكُتَّاب" لأبى الفتح كُشَاجِمَ جملةٌ جيدة منه أيضا .

ومنهـا تسـمية المتضادَّيْن باسم واحد كالجَوْن للأسود والأبيض ، والقُرْء للطُّهْر والحيض ، والصَّرِيم للّيل والنهارِ ، ووراء لخلَف وقدّام ، ونحو ذلك . ويُحتاج إليـه للتمييز بين الحقائق التى يقَع اللَّبْس فيها . وفى "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

(١) لعله كتب أصول الفقه .

ومنها المَقْصور والممدود كالنـدىٰ للجُود ونَدىٰ الأرض ، والحَفَا لكَلَال القَـدَم والحافِر ؛ والممدود كالسماء للفَلَك وكلّ ما علاك ، والبقاء لِضِـدّ الفَناء ، ونحو ذلك ؛ وما يجوز فيه المدّ والقَصْر جميعا كالزِّناء والشِّرَاء (١) وما أشبههما . ويَحتاج إليه الكاتب من ثلاثة أوجُه : أحدها أن الدلالة تختلف باعتبـار المدّ والقصر كلفْظ الهَوَى فإنه إن قُصِر كان بمعنى هَوىٰ النفس ، وإن مدّ كان بمعنىٰ ما بين السماء والأرض . الثانى أنه إذا أُضِيف الممدود أضيف بزيادة واو فى الكتابة فى حالة الرفع وزيادة ياء فى حالة الخفض ، وإذا أضيف المقصور لم يُحتجْ إلىٰ زيادة واو ولا ياء ؛ ولو كان ممـا يجوز (٢) فيه المدّ والقصر ، جاز فيه بعض حركاته . ربما يمد كالبَلَاء والقَلاء ، فإنه اذا كُسر أوّلها قُصِرا وكُتِبا بالياء واذا فتح مُدًّا وكتبا بالألف . وكالباقلاء فإنه إذا خفِّف مُدّ وإذا شُدّد قُصِر ؛ فمتىٰ لم يعرف الكاتب ذلك كان قاصرا فى صناعته ، وفى "أدب الكاتب" من ذلك جملة .

ومنها المذكر والمؤنث فإنه تختلِفُ أحوالُه باعتبار التذكير والتأنيث فى كثير من الأمور . وذلك أن المؤنث علىٰ ضربين : أحدهما مافيه علامة من علامات التأنيث الثلاثِ ؛ وهى الهاءُ نحو حمزةَ وطلحةَ ، والألفُ الممدودة نحو حمراء ، والألفُ المقصورة نحو حُبْلىٰ . وضرب لا علامةَ فيه وانمـا يؤخذ من السَّماع : كالسماء ، والأرض ، والقَوْس ، والحَرْب ، وما أشبهها . وربمـا كان منه ما يجوز فيـه التذكير والتأنيث كالطَّريق ، والسبيل ، والموسىٰ ، واللِّسان ، والسُّلْطان ، وما أشبهها ؛ فإن من العرب من يذَكّر ذلك ومنهم من يؤنِّثه . وربمـا وقع لفظ التأنيث علىٰ الذكر والأنثىٰ جميعا

(١) أهمله فى الأصل وهو من اهمـال الناسخ .

(٢) قوله ولو كان ممـا يجوز الخ كذا فى الأصـل وهو كما ترى غير مفهوم وهو محـل الوجه الثـالث الذى سقط من قلم الناسخ وحاصله أن الداعى إلى معرفتهما إما أن يرجع إلىٰ المعنىٰ وهو الأوّل أو إلىٰ الرسم والكتابة وهو الثانى أو إلىٰ النطق والرسم وهو الثالث الساقط فتأمل .

كالسَّخْلة والحَيَّة والحَمَامة والنَّعامة والبَطَّة ونحوها . وأيضا فإن مِنْ وَصْف المؤنث ما يُحذَف منه الهـاء باعتبار تأويلٍ آخَرَ كصـيغة فَعِيل : فإنه إن كان بمعنى مفعول كقَتِيل بمعنى مقتول وخَضِيب بمعنىٰ مخضوب، حُذِفت الهـاءُ من مؤنَّثه : فيقال آمرأةٌ قتيلٌ وكَفٌّ خَضِيب وما أشبه ذلك، وإن كان بمعنى فاعل كعَلِيم بمعنى عالم ورحيم بمعنى راحم، تثبُت الهاء فى مؤنَّثه : فتقول فيه عَلِيمة ورَحِيمة . وعلى العَكْس من ذلك فَعُول فإنه إن كان بمعنى فاعل كان بغير هاء نحو امرأةٌ صَبُور وشَكُور بمعنى صابرةٍ شاكرة، وإن كان بمعنىٰ مفعول كان مؤنَّثُه بالهـاء كالحَلُوبة بمعنىٰ المحلوبة، والرَّكُوبة بمعنىٰ المركوبة ؛ وصيغةُ مُفْعِل ممـا لا يُوصَف به الذكورُ تكون بغير هاء كامرأة مُرْضِع، فان أرادُوا الفعلَ قالوا مُرْضِعة؛ وصيغةُ فاعل ممـا لا يكون وَصْفا لمذكر تكون بغير هاء أيضا نحو امرأة طالِق وحامل، وربَّمـا حُذِفت الهاءُ مما يكون للذكر والمؤنَّث جميعا فتقول امرأة عاقِر ورجلٌ عاقِر . وفى "أدَب الكاتب" و"فصيح ثعلب" جملة من ذلك . وفى كتب النحو المبسوطة قواعدُ موصِّلة إلى مقاصده .

ومنها المَهْموزُ وغيرُ المهموز فإن المعنىٰ قد يختلف فى اللفظ الواحد باعتبـار الهمز وعَدَمه : كما تقول عَبَّأْت المتاعَ بالهمز، وعَبَّيت الجيشَ بغير همز، وبارَأْتُ الكَرِيّ بالهمز من الإبراء، وباريتُ فلانا من المُفاخرة بغير همز. وتقول زنىٰ من الزِّنَا بغير همز، وزَنَأ فى الجبل إذا رَقِيَ فيه ونحو ذلك . وربما جاء الهمزُ وعدمُه فى الكلمة الواحدة كما تقول شِئْت بالهمز وشِيت بإسكان الياء من غير همز ونحو ذلك . فمتىٰ لم يكن الكاتب عارفا بالهمز ومواضعه ضَلَّ فى طريق الكتابة . وفى "أدب الكاتب" باب مفردٌ لذلك .

ومنها ما ورد من كلام العرب مُزْدَوِجا كقولهم الطِّمّ والرِّمّ، يريدون بالطِّمِّ البحرَ وبالرِّمِّ الثرىٰ، وكقولهم الحَجَر والمَدَر، فالحجر معروف والمَدَر التراب النَّدىٌّ ونحو ذلك .

فاذا عرف الكاتب ذلك تمكّن من وَضْعه فى مواضعه لتحسين الكلام وتميقه فى الطباق والمقابلة؛ وفى "أدب الكاتب" نبْذة من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مثنًّى إمّا علىٰ سبيل التغليب : كقولهم القَمرانِ يريدون الشمسَ والقمرَ، والعُمَران يريدون أبا بَكْر وعُمَر، وإما علىٰ الحقيقة : كقولهم ذَهَب مِنْه الأَطْيَبانِ، يريدون الأكْل والنكاحَ واختَلَف عليه المَلَوانِ أو الجَديدانِ، يريدون الليلَ والنهار، ونحو ذلك؛ وفى "أدب الكاتب" أيضا طَرَف منه .

ومنها ما ورد من كلام العرب مرتَّبا كقولهم أوَّلُ النوم النُّعاس، وهو الاحتياجُ إلىٰ النَّوْم ؛ ثم الوَسَن، وهو ثِقَل النُّعَاس ؛ ثم الكَرَىٰ والغَمْضُ، وهو أن يكونَ بين النائم واليَقْظان؛ ثم التَّغْفيق، وهو النوم وأنت تسمعُ كلام القَوْم؛ ثم الإغْفاء، وهو النوم الخَفيف؛ ثم التَّهْجاع ، وهو النوم القليل ؛ ثم الرُّقاد ، وهو النوم الطويلُ ؛ ثم الهُجُوع ، وهو النوم الغَرِق؛ ثم التَّسْبيخ(١)، وهو أشدّ النوم، وما أشبه ذلك، وفى "فقه اللغة" للثعالبىّ قدرٌ صالح من ذلك .

ومنها ماورد من كلامهم مَوْرِد الدعاء : إما علىٰ بابه فى الدعاء كقولهم "آستَأْصَلَ الله شأْفَتَه" يريدون أذهَبَ الله أثَرَه كما يَذْهَب أثر الشَّأْفة، وهى قَرْحة تَخْرج فى القَدَم فتُكوىٰ فتَذْهَب؛ وقولهم "أبادَ اللهُ خَضْراءهم" أى سَوادهم ومُعْظَمَهم . أو لم يُقصَد به حقيقة الدعاء، كقولهمْ "تَرِبَتْ يَدَاكَ" أى أُلْصِقتْ بالتراب من الفاقة ، وقولهم "أرْغَمَ اللهُ أنْفَه" أى ألْصَقَه بالرَّغَام، وهم لا يَقْصِدون به الدعاءَ . وفى "أدب الكاتب" جملة من ذلك .

---

(١) أهمله فى الأصل وهو من إهمال الناسخ .

ومنها ما تختلف أسمــاؤُه مع المشابهة فى المعنىٰ كالظُّفُر للإنسان، والحافر للفَرَس والبَغْل والحِمــار؛ والظِّلْف للبقر، والمَنْسِم للبعير، والبُرْثُن للسِّباع، وما يجرِى هذا المجرىٰ. وفى "فقه اللغة" جزء وافر منه.

ومنها ما تختلف أسمــاؤه وأوصافه باختلاف أحواله كالكأس لا يُقال فيه كأس إلا اذا كان فيه شَرَاب وإلا فهو قَدَح، ولا مائدةٌ إلا اذا كان عليها طعام والا فهى خِوَان، ولا قَلَم إلا اذا كان مبْرِيًّا والا فهو أُنْبُوبة، ولا خاتَمٌ إلا وفيه فَصّ وإلا فهو فَتَخَة ونحو ذلك، وفى "فقه اللغة" جملة منه.

ومنها معرفة الأُصُول التى تُشتَقُّ منها الأسماء كتسمية القمر قَمَرًا لبياضه، إذ الأقْمَر هو الأبيض؛ وكتسمية ليلة الرابع عشر من الشهر ليلَةَ البَدْر لُمبادَرة الشمسِ القمرَ بالطلوع، أو لتَمامه وآمتلائه حينئذ من حيثُ إن كل تامّ يقــال له بَدْر؛ وكتسمية النَّجْم نَجْما، أخذًا من قولهم نَجَم إذا طَلَع ونحو ذلك، وفى "أدب الكاتب" جملة من ذلك.

ومنها مانَطَقَتْ به العَجَم علىٰ وَفْق لغة العَرَب، لعدم وجوده فى لغتهم[(١)] وهو المعرَّب كالكَفِّ والسَّاق والدَّلَّال والوَزَّان والصَّرَّاف والجَمَّــال والقَصَّاب والبَيْطار وما أشبه ذلك؛ وفى "فقه اللغة" جزء من ذلك كافٍ.

ومنها ما آشترك فيه العربية والفارسيَّة، كالتَّنُّور، والخَمِير، والدِّينار، والدِّرْهم، والصَّابُون، وما أشبه ذلك؛ وفى "فقه اللغة" أيضا نبْذة منه.

ومنها مااضْطُرَّت العربُ إلىٰ تعريبه وآستعماله فى لغتهم من اللُّغة العجمية كالكُوز، والإِبْريق، والطَّسْت، والخِوَان، والطَّبَق، وغيرها من الآنية؛ والسِّكْباج، والزيرباج، والطَّباهج، والجُوذاب، ونحوها من الأطعمة؛ والجُلَّاب، والسَّكَنْجَبِين، ونحوهمـا

(١) قوله وهو المعرب كذا فى الأصل.

من الأَشْربة ،والخُولَنْجان ، والكافُور ، والصَّنْدل ، وغيرها من الأَفَاويه ، والطِّيب ونحو ذلك ؛ وفى "فقه اللغة" من ذلك جملةٌ جيِّدة . إلى غير ذلك من الأمور التى لايَسَع استيفاؤها ممـا فى أدب الكاتب وفقه اللغة الكثيرُ منه .

ومنها ماتعدّدت لغاتُه ؛ ولْتَعلم أن لغة العرب متعدّدة اللُّغات متسعة أرجاء الأَلْسُن بحيث لا تُساويها فى ذلك لغة . فمن ذلك مافيه لغتان كقولهم رِطْل ورَطْل بكسر الراء وفتحها وسَمٌّ وسُمٌّ بفتح السين وضمها ؛ وما فيــه ثلاث لغات مثل بُرْقُع بضم القاف وبُرْقَع بفتحها وبُرْقُوع بضم البـاء وزيادة الواو ، وخاتِم بكسر التاء وخاتَم بفتحها وخَيْتام ؛ وما فيــه أربع لغات مثل نِطْع بكسر النون وفتحها وسكون الطاء ونَطَع بفتح النون والطاء جميعا وكَسْر النون ؛ وصَدَاق بفتح الصاد وصِدَاق بكسرها وصُداق بضمها وصُدْقة بضم الصاد وسكون الدال ؛ ومافيه خمس لغات كقولهم رِيح الشَّمال بفتح الشين من غير همز ، والشَّمْأل بالهمز ، والشَّامَل بغير همز ، والشَّمَل بفتح الميم ، والشَّمْل بسكونها ؛ وما فيــه سِتُّ لغات كفُسْطاط بضم الفاء وفِسْطاط بكسرها ، وفُسْتَاط بضم الفـاء وإبدال الطاء تاء ، وفِسْتاط بكسر الفاء ، وفُسَّاط بضم الفـاء وتشديد السين ، وفِسَّاط بكسر الفاء ؛ وما فيــه تسع لُغات كالأَنْمـلة بفتح الهمزة وضمهـا وكسرها مع فتح الميم وضمِّها وكسرها ؛ وما فيــه عَشْر لغات كالأصبع بفتح الهمزة وضمِّها وكسرها مع فتح البـاء وضمها وكسرها والعاشر أُصْبوع . وفى "أدب الكاتب" جملة من هذا النمط .

الصنف الثالث — الفصـيح من اللغة . وآعلم أن اللغة العربيّـة قد تنوّعت وآختلفتْ بحسَب تنوّع العرب وآختلاف ألسِنَتهم ؛ والذى آعتمده حُذَّاق اللغـة وجَهابِذة العربية من ذلك مانطق به فُصَحاء العرب ، وهم الذين حَلُّوا أوساطَ بلاد العرب ، ولم يخالِطْهم مَنْ سِـواهم من الأمم كثيرَ مخالطةٍ ، ولم يُصَاقِبُوا بلاد العجم

فبقيتْ ألفاظُهم سالمة من التغييرِ والآختلاط بلغةِ غيرهم : كَقُرَيش، وهُذَيل، وكِنَانَة، وبعضِ تميم، وقَيْسِ عَيْلان، ونحوهم من عَرَب الحجاز، وأوْساط نَجْدٍ . بخلاف الذين حلُّوا فى أطراف بلاد العـرب، وجاوَرُوا الأعاجمَ فتغيرتْ ألفاظُهم بمخالطتهم : كَحِمْيَرَ، وهَمْـدانَ، وخَوْلانَ، والأَزْد : لمجاورتهم بلادَ الحبشة، وطيِّئ وغَسَّانَ : لمجاورتهم بلاد الرُّوم بالشام، وبعضِ تميم، وعبد القيس : لمجاورتهم أهلَ الجزيرة وفارس .

وآعلم أن التغيير يدخلُ فى لغة العرب من عِدَّة وجوه :

منها أن تُبْدل كلمةٌ بغيرها : كما يَستعمل أهلُ اللغة الحميريَّة "ثِبْ" بمعنىٰ آجلس، وهى فى عامَّة لغة العرب للأمر بالطَّفْرة . قال القاضى الرشيدُ فى شرح أُمْنِيَّة الألمعىّ "وربمـا غلَبتِ العُجْمة علىٰ أحدهم حتّٰى لا يُفْهَم عنه شىء" .

ومنها أن تُبْدل حرفا من الكلمة بحرف آخر : كما تُبْدل حميرُ كاف الخطاب شِينا معجمة فيقولون فى قُلتُ لك قلت لَش ؛ وربمـا أبدلُوا التاء أيضـا كافًا فيقولون فى قلت قُلْكُ، وكما تُبْـدل ربيعةُ الباء الموحدة ميما فيقولون فى بكر مَكْر ونحو ذلك، وكما يُبْـدل بعض العرب الصادَ المهملة بالسين المهملة فيقولون فى صابر سابر، وكما يُبْـدل بعضهم الطاءَ المهملة بتاء مثناة فوقُ فيقولون فى طالَ تالَ وتُسْمَع من عرب أهل الشرْق كثيرا، وكما يبدل قوم التاء المثناة فوقُ بضاد معجمة فيقولون فى أتْرّ أضر .

ومنها أن يُعاقَب بين حرفين فى الكلمة كما يقول بعضهم فى بَلْخ فَلْخ، وفى أَصْبَهَان أَصْفهان .

ومنها أن يأتى بحرفٍ بين حرفين فيأتُون بكاف بجيم فيقولون فى كَمَل جمل . قال آبن دريد : " وهى لغـة فى اليمن كثيرة فى أهـل بغداد " ويأتون بجيم ككاف

على العكس من الأوّل فيقولون فى رَجُل رَكُل يقرّبونها من الكاف، ويأتون بشين معجمة بجيم فيقولون فى ٱجتَمَعوا ٱشْتَمَعوا، ويأتون بصاد مهملة كزاى فيقولون فى صِرَاط زِرَاط، ويأتُون بجيم كزاى فيقولون فى جابِر زابر، ويأتون بقاف بين القاف والكاف المعقودة، قاله ٱبن سعيد عن سماعه من العرب؛ ولا يكاد يوجد منهم من يَنْطِق بها علىٰ أصلها الموصوف فى كتب النحويين. وقد ذكر الشيخ أثيرُ الدِّين أبو حيان ذلك جميعَه فى شرحه علىٰ تسهيل ٱبن مالك.

الصنف الرابع — ما تَلْحَن فيه العامة وتغيِّره عن موضعه بأن يكون مفتوح الأوّل والعامّةُ تكسِره: كقولهم فى جَفْن العين بفتح الجيم جِفْن بكسرها؛ أومفتوح الأوّل والعامّة تضمُّه: كقولهم فى القَبُول الذى هو خلاف الرّد قُبُول بضمها؛ أومكسور الأوّل والعامّة تفتحه: كقولهم فى دِرْهم بكسر الدال دَرْهم بفتحها؛ أومكسور الأوّل والعامّة تضمُّه: كقولهم فى التِّمساح بكسر التاء تُمْساح بضمها؛ أو مضمُوم الأوّل والعامّة تفتحه: كقولهم فى العُصْفور بضم العين عَصْفُور بفتحها؛ أو مضموم الأوّل والعامّة تكسره: كقولهم فى الظُّفُر بضم الظاء ظِفر بكسرها؛ أومفتوح الوَسَط: كقولهم فى القالَب بفتح اللام قالِب بكسرها؛ أو مكسُور الوسط والعامّة تفتَحُه: كقولهم فى الرجل المُوَسْوِس، والبُرّ المسوِّس، والجبن المدوِّد بكسر الواو فى الثلاثة: مُوَسْوَس ومُسَوَّس ومدوَّد بفتحها؛ أو مضموم الوسط والعامّة تفتحه كقولهم فى الجُدُد جمع جديد جُدَد بفتحها؛ أومحرّك الوسط والعامّةُ تسكِّنه: كقولهم فى التُّحَفة بفتح الحاء تُحْفة بإسكانها؛ أوساكن الوسط والعامّة تحرّكه: كقولهم فى الحَلْقة بإسكان اللام حَلَقة بفتحها؛ أو مشدّدا والعامّة تخفِّفه: كقولهم فى العاريَّة بتشديد الياء عارِيَة بتخفيفها؛ أو مخففا والعامّة تشدّده: كقولهم فى الكَرَاهِيَة بتخفيف الياء كراهِيَّة بتشديدها؛ أو مهموزا والعامّة تحذف الهمز من أوّله: كقولهم فى الإهْلِيلَج بإثبات همزةٍ فى أوّله

هِلِيلَج بحذفها ، أومهموز الوسط والعامّة تسهله : كقولهم فى المِرْءاة بإثبات الهمزة مراة بحذفها ، أو غير مهموز الأول والعامّة تثبت الهمزة فى أوّله : كقولهم فى الكُرَة ، أُكْرَة[1] ؛ أو كان بالظـاء المعجمة فجعلته بالضاد المعجمة كالوظيفة ونحوها ، أو بالضاد فجعلته بالظاء : كقول بعضهم فى البَيْضة بَيْظة ، أو بالذال المعجمة فجعلتــه بالدال المهملة كالذراع ، أوكان بالجيم فجعلته بالقاف : كقولهم فى مَجَاديف السفينة مَقَاديف ؛ أو بالدال المهملة فجعلَته بالتاء المثنَّاة فوق : كقولهم فى دَخَارِيص القميص تَخَارِيص ، ونحو ذلك ممـا شاع وذاع وفى "أدب الكاتب" لآبن قتيبة نُبْـذَة من لحن أهل المشرق ، وكتاب "تثقيف اللسان" لآبن مَكِّى التونسى موضوع فى لحن أهـل الغرب ، وفصيحُ ثعلب مشتمل علىٰ كثير من هذا المقصد .

الصنف الخامس — الألفاظ الكتابية ، وهى ألفاظٌ آنتخبها الكُتَّاب وآنتقَوْها من اللغـة آستحسانا لهـا وتمييزًا لهـا فى الطَّلاوة والرَّشاقة علىٰ غيرها . قال الجاحظ "ما رأيتُ أمثَل طريقةً من هؤلاء الكُتَّاب ، فإنهم آلتَمَسُوا من الألفـاظ ما لم يكن متوعِّرا حُوشِيًّا ، ولاساقطا سُوقِيًّا" . وقد ذكر آبن الأثير فى "المثل السائر" : أن الكُتَّاب غَرْبَلُوا اللغةَ وآنتقَوْا منها ألفاظًا رائقةً آستعملوها .

ثم هذه الألفاظ أسمـاء وأفعال : فالأسماء كقولك فى المدح فلانٌ غُرَّة القبيلة ، وسَنَامها ، وذُؤابتها ، وذِروتها ؛ وهو نَبْعة أَرُومته وأبْلَق كَتِيبته ومِدْرَه عَشِيرته ونحو ذلك . والأفعال كقولك فى إصلاح الفاسد : أصلح الفاسدَ ، ولَمَّ الشَّعَثَ ، ورَأَبَ الشَّعْب ، وضَمَّ النَّشَر ، ورَمَّ الرَّثَّ ، وجمَعَ الشَّتَات ، وجَبَر الكسر ، وأسَا الكَلْم ، ورَقَع الخَرْق ، ورَتَق الفَتْق ، وشَعَب الصَّدْع . وفى "كتاب الألفاظ" لعبد الرحمن آبن عيسى الكاتب كفايةٌ من ذلك . وله مختصَر أربىٰ عليه . وفى "كنز الكُتَّاب" لكُشَاجِمَ ما فيه مَقْنَع .

(١) هى لغة كما فى القاموس .

المقصد الربع

(فى كيفية تصرف الكاتب فى الألفاظ اللُّغوِيَّة . وتصريفها فى وُجوه الكتابة)

لاخفاءَ أنه إذا أكْثَر من حفظ الألفاظ اللغوية ، وعَرَف الألفاظَ المترادفةَ علىٰ المعنىٰ الواحد والمتقارِبَةَ المعانى ، تمكَّنَ من التعبير عن المعانِى التى يُضْطَّر إلىٰ الكتابة فيها بالعبارات المختلِفة ، والألفاظ المتبايِنَة ؛ وسَهُل عليه التعبيرُ عن مقصوده ، وهانَ عليه إنشاءُ الكلام وترتيبُه . وفى الأمثـلة التى أوردها كُشَاجمُ فى "كنز الكُتَّاب" حيث يعبر عن المعنىٰ الواحد بعبارات متعدّدة مايُرشِد إلىٰ الطريق فى ذلك ، ويَهْدِى إلىٰ سُلُوك الجادَّة المُوصِّلة إلىٰ القَصْد منه .

وهذه نسخة مكاتبة منه فى التهنئة بمولود يُستضاءُ بها فى ذلك ، وهى :

قد جَعَلك اللهُ من نَبْعةٍ طابتْ مَغارِسُها ؛ أَرومةٍ رَسَخَتْ عُرُوقها ؛ شجرةٍ زَكَتْ غُصُونها ؛ فَرْعٍ شرُفتْ منابِتُه ؛ معدِنٍ زكتْ علائقُه ؛ جوهرٍ شاعَتْ مكارِمُه ؛ عنصرٍ بَسَقت فُروعه ؛ مَحْتِـد ذاعَتْ محامِدُه ؛ أصلٍ نَجُبتْ مآثِره ؛ سِنْخٍ خَلَصت مناقِبُه ؛ نِصابٍ صَرُحت مَفاخِره ؛ نَجْرٍ نَمتْ مَسَاعِيه ؛ أصلٍ فَضَلت معالِمُه ؛ عُنْصرٍ نُصِرَتْ محاسِنُه ، منتمًى كَثُرتْ مناقبه . فالزيادة فيها زيادة فى جوهر الكَرَم ، مُظَاهِر فى مَحْو ثرىٰ الإفضال ، ذَخِيرةٌ نَفيسـةٌ لذوى الآمال ، نِعْمةٌ كاملةُ السـعادة ، غِبطة شاملةُ البَشَاشة ، سرورٌ يواجه الأولياء ، حُبورٌ تَجْتويه الأعداء ، غِبْطة تَصلُ إلى الأحرار ، ٱبتهاج لذوى الأخْطار . فتولَّى الله نِعمه عندك بالحِراسة الوافية ، بالوِلاية الكافِية ، الكِفَاية المُتظاهِرة ، الدِّفَاع الكالى ، الحِفَاظ الداعى ، الصُّنْع الجميل ، الدِّفاع الحَسَن ، العافية المتكاثِفَة . وبلغنى الخبرُ بهبة الله المستجِدّة ، الوَلَد المبـارَك ، الفَرْع الطيِّب ، السليل الرَّضِىّ ، الوَلَدِ الصالح ، الأبنِ السارّ ، الثمرة المُثْمِرة ، السُّلالة الزكِيَّة ، النجل

الميمون، الذى عَمَر أفْنِيَةَ السِّـيادة . زاد فى مواثيق العهد والرياسة، أرسىٰ قَواعِدَ السيادة، ثبّت أَسَاسَ الرِّفعة، أوثَقَ عُرى المجد، مكّن أركانَ الفَضْل، وطّد أساس المَكَارِم، أكّد علائِقَ الشَّرَف، أبّدَ أوَاخىَ الكرم، أبرَمَ حِبالَ الجُود، أمَرّ أسْبابَ الطَّوْل، شَـيَّدَ بُنْيان الكمال، أحْصَفَ أيْدِى السَّماحة، أحكَمَ قُوىٰ الرَّجاحة، أوْثَقَ عَقْد العُلا، رَفع دعائم الطَّهارة، أنار أعلامَ الغارة، أظْهَر علاماتِ الخَيْر . فتباشَرتُ به، ٱبْتهجتُ، ٱجتذَلْتُ، ٱغتبطْتُ، فرِحتُ، سُرِرت، ٱستَبْشَرتُ . جعله الله بَرّا تقِيًّا، سيِّدا، حَميدا، مَيْمونًا، مُباركًا، طَيِّبا، عَزيزا، سَعيدا، ظَهيرا، عَوْنا، ناصرًا، راجحًا، زَكِيًّا، وَزَرًا، مَلْجأً . يتقَيَّل(١) سلفه، ويَقْتفِى أثرَهم، يَسْلُك مِنْهاجَهُم، يَسُنّ سُنَّتهم، يَتْبَع قَصْدهم، يَسِير سَيْرَتَهم، يَسعىٰ مَساعِيَهُم، يَنْحُو مِثالَهم، يَحذو حَذْوهم، يتخَلَّق بأخلاقِهِم، يتَبصَّر بصيرتَهم، ينوط أفعالهم، يترسَّم رُسومَهم . وأيْمَن به عددَك، كَثَّر به ذُرِّيتك، أراكَ فيه غاية أمَلِك، شَفَعه الله بإخْوة بَرَرة، وفَّقه الله لأداء حقِّك، جعله خيرَ خَلَف كما هو لخير سَلَف . زَيَّن به العَشِـيرة، وَهَب له النَّمـاء، بلَغ به أكْلَأَ العُمُر، مكَّن له فى رَفِيع المراتب، حَقَّق فيه فِراسَتَك، وَهَب له تمامَ الفَضِيلة، وأوْزَعَك الشكر عليه، أجارك فيه من الثُّكل، سَرَّك بفائدته، أسعدك برؤيته، أطابَ عيْشَك به، متَّعك بعَطِيَّته، ألْهمَكَ شُكْرَ ماخوّلك، وأصَلَ لك المَزِيدَ برحمته .

فإنه إذا أراد الكاتب أن يستخرج من ألفاظ هذا الكتاب عِدّة كتب بتهنئة بولد، فعل . كما إذا قال : قد جعلك اللهُ من نَبْعةٍ طابتْ مغارِسُها، فالزيادةُ فيها زيادةٌ فى جَوْهَرِ الكرم ، فتولّى الله نعمه عندك بالحِراسـة ؛ وبلغنى الخبرُ بهبة الله الجديدة المستجِدّة، الولدِ المبارَك الذى عَمَر أفْنِيَةَ السيادة، فتباشَرْتُ به ، جعله الله تعالىٰ بَرّا

(١) فى القاموس تقيّل أباه أشبهه .

تقيا، يتقيّل سَلَفه، وأيمَن به عَددَك، وأوزَعَكَ الشكر عليه، وواصَلَ لك المزيد برحمته، كان ذلك كتابا كافيا فى هذا النوع. فتأمّل ذلك وقِسْ عليه .

النـــوع الثـانى

(المعرفة باللغة العجمية، وهى كل ما عدا العربية : من التركية، والفارسيَّة، والرُّوميَّة، والفِرِنْجية، والبربريَّة، والسُّودان، وغيرهم؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ معرفة اللُّغات العجمية)

لا يخفىٰ أن الكاتب يحتاج فى كماله إلىٰ معرفة لغــة الكتب التى تَرِد عليــه للملكه أو أميره ليفهَمَها ويُجيب عنها من غير ٱطّلاع تَرْجُمان عليها، فإنه أصونُ لسرّ ملكه، وأبلغُ فى بُلوغ مقاصده .

وقد روى محمد بن عمر المدائنى فى "كتاب القلم والدواة" بسنده إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال : قال لى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «إنه يَرِدُ علَيَّ أشياءُ من كَلامِ السُّرْيانيَّة لا أُحسِنُها فتعَلَّمْ كلامَ السُّرْيانيَّة فتعَلَّمْتُها فى سِتَّةَ عَشَرَ يوما» وفى رواية قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أتُحسِنُ السُّرْيانيَّة؟ فإنَّه يأتِينِى كُتُبٌ بها، قلتُ لا . قال فتعَلَّمْها فتعَلَّمْتها فى سبْعَةَ عَشَر يوما، فكنت أجيبُ عن رســول الله صلى الله عليه وســلم وأقرأُ كُتُبَ يَهُودَ اذا وردَتْ عليه» وفى رواية، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : «يازَيْدُ تعَلَّمْ كتابَ يَهُودَ فإنّى واللهِ لا آمَنُ يَهُودَ علىٰ كتابِى قال فتعلمتُ كتابَتَهم فما مَرّ لى سِتَّ عشرةَ ليلةً حتّى حَذَقته فكُنْتُ أقرأ له كُتُبَهم إذا كتبُوا إليه وأُجيبُ اذا كتب» وفى روايةِ العِبْرانية بدل السُّرْيانية .

قال محمد بن عمر المدائنى بل قد قيل إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يفهم اللغات كلها و إن كان عربيا لأن الله تعالىٰ بعثه إلى الناس كافّةً ولم يكن اللهُ بالذى يبعثُ نبيًّا إلىٰ قومٍ لا يفهم عنهم، ولذلك كلَّم سَلْمان بالفارسية . وساق بسنده إلىٰ عكرمة أنه قال: سُئِل ٱبنُ عبَّاس هل تكلَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالفارسيَّة قال نَعَمْ، دخَلَ عليه سَلْمانُ فقال له درسته وسادته قال محمد بن أمْيَل : أظنه مَرْحبًا وأهلا . وحينئذ فيكون النبى صلى الله عليه وسلم إنَّما أمر زيدا بتعلُّم كتابةِ السُّرْيانية أو العِبْرانية لتحريم الكتابة عليه لا أنه أمره بتعلُّم لغتهم .

المقصـــد الثـانى

(فى بيان ما يتصرَّف فيه الكاتبُ من اللغة العجمية)

اعلم أن الذى ينبغى له تعلُّمــه من اللغـات العجمية هو ما تتعلَّق به حاجتُـه فى المخاطَبة والمكاتَبة .

أما المخاطبة فبأن يكونَ لسانُ ملكه بعضَ الألسُن العَجَمية أو كان الغالبَ عليه لسانٌ عجمىٌّ مع معرفته بالعربية : كما غلبت اللغة التركية علىٰ ملوك الديار المِصرية، وكما غَلَبتِ اللغة الفارسـية علىٰ ملوك بلاد العِراق وفارس، وكما غلب لسانُ البربر علىٰ ملوك بلاد المغرب مع تبعيَّة عسكر كل ملك فى اللسان الغالب عليه له فى ذلك فيحتاج الكاتب إلىٰ معرفة لسان السلطان الذى يتكلم به هو وعسكره ليكون أقربَ إلىٰ حصول قصدِه : من فهم الخطاب وتفهيمه، وسُرْعة إدراك ما يلقىٰ إليه من ذلك، وتأدية ما يقصــد تأديتـه منه؛ مع ما يحصــل له من الحُظْوة والتقريب بالموافقة فى اللسان؛ فإن الشخص يميل إلىٰ مَنْ يخاطبه بلسانه لا سيما إذا كان من غير جنسه

كما يميل نفوسُ ملوكِ الديار المصرية وأمرائها وجُنْدها لمن يتكلم بالتركية : من العُلَماء والكُتّاب ومَنْ فى معناهم علىٰ ما هو معلوم مشاهد .

وأما المكاتبة فبأن يكونَ يعرِف لسان الكُتُب الواردة علىٰ ملكه ليترجَمها له ويُجيبَ عنها بلغتها التى وردتْ بها ؛ فإن فى ذلك وقعًا فى النفوس ، وآستجلابا للقلوب ، وصونا للسر عن آطّلاع ترجمان عليه ؛ وأمْرُ النبى صلى الله عليه وسلم لزيد بن ثابت بتعلُّم السريانية أو العبرانية على ماتقدّم ظاهرٌ فى طلب ذلك من الكاتب وحثّه عليه .

ثم اللغات العجمية علىٰ ضربين : أحدهما ماله قَلَم يُكتَب به فى تلك اللغة كاللغة الفارسية ، واللغة الرومية ، واللغة الفرنجية ونحوها ؛ فإن لكل منها قلما يخصُّه يُكتَب به فى تلك اللغة . والثانى ماليس له قلم يكتب به ، وهى لغات القوم الذين تغلب عليهم البَدَاوة كالترك والسُّودان . ولأجل ذلك ترد الكُتُب من القانات ملوكِ الترك ببلاد الشِّمال المعروف فى القديم ببيت بركة ، والآن بمملكة أزبك باللغة المغلية بالخط العربى ؛ وترد الكتب الصادرةُ عن ملوك السودان باللفظ العربى والخط العربى . أما اللغات التى لها أقلام تخصها فإن كتبهم ترد بخطهم ولغتهم : كالكتب الواردة من ملوك الروم والفِرِنج ونحوهما ممن للغته قلم يخصه علىٰ اختلاف الألسنة واللغات .

النــوع الثـالث
(المعرفة بالنحو ؛ وفيــه مَقْصِدان)

المقصــد الأوّل
(فى بيان وجه آحتياج الكاتب إليــه)

لا نزاعَ أن النحو هو قانون اللغة العربية ، ومِيزان تقويمها ؛ وقد تقدّم فى النوع الأوّل أن اللغة العربية هى رأسُ مال الكاتب ، وأُسُّ مَقاله ، وكنز إنفاقه . وحينئذ

فيحتاج إلى المعرفة بالنحو وطُرُق الإعراب، والأخذِ فى تعاطِى ذلك حتّٰى يجعله دأْبَه، ويُصيِّره ديدنه : ليرتسم الإعرابُ فى فِكْره، ويَدُورَ علىٰ لسانه، وينطلِقَ به مَقالُ قلمه وكَلِمه، ويزولَ به الوهم عن سجِيَّته، ويكونَ على بصيرة من عبارته . فإنه إذا أتىٰ من البلاغة بأعلىٰ رتبة ولحنَ فى كلامه، ذهبتْ محاسن ما أتىٰ به، وٱنهدمتْ طبَقة كلامِه وأُلغِيَ جميع ما حسَّنه، ووُقِف به عند ما جهله . قال فى "المثل السائر": وهو أوّل ما ينبغِي إثبات معرفته؛ علىٰ أنه ليس مختصًّا بهذا العلم خاصَّةً بل بكل علم؛ لا : بل ينبغى معرفتــه لكل أحد ينطِق باللســان العربىّ ليأمنَ مَعَرّة اللحن . قال صاحب "الرَّيحان والرَّيعان" ولم يزل الخلَفاءُ الراشدون بعد النبي صلى الله عليه وسـلم يحُثُّون علىٰ تعلُّم العربيَّة، وحفْظِها والرِّعاية لمعانيها، إذ هى من الدِّين بالمكان المعلوم، والمحلِّ المخصوص . قال عثمان المهرىُّ : « أتانا كتابُ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه، ونحن بأَذْرَبِيجانَ يأمرنا بأشياءَ، ويذكر فيها : " تعلَّمُوا العربيَّة فإنها تثبِّت العقلَ، وتزيد فى المُرُوءة " . وكان خالد بن يزيد بن معاوية أخٌ فجاءه يوما فقــال : إن الوليــدَ ٱبن عبد الملك يَعْبَثُ بى ويحتَقِرُنى، فدخل خالد علىٰ عبد الملك والوليدُ عنده فقال ياأمير المؤمنين ! : إن الوليد قد ٱحتقر ٱبنَ عمه عبدَ الله وٱستصغره، وعبد الملك مُطْرِق فرفع رأسَه وقال : ﴿إنَّ المُلُوكَ إذا دَخَلُوا قَرْيَةً أفْسَدُوها﴾ الآية ــ فقال خالد : ﴿وإذا أَرَدْنا أنْ نُهلِكَ قَرْيةً﴾ الآية ــ فقال عبدُ الملك : أفى عبد الله تكلِّمُنى؟ وقد دخل علىّ فمــا أقام لسانَه لَحْنا ــ فقال خالد : أفعلَى الوليد تُعوِّل؟ فقال عبد الملك : إن كان الوليد يلْحَن فإن أخاه سليمانُ ــ فقال خالد : وإن كان عبد الله يلْحَن فإن أخاه خالدٌ فى كلام كثير طويل ليس هذا موضع ذكره .

وقال الرشيد يوما لبنيه : "ما ضرّ أحدَكم لو تعلَّم من العربيَّة ما يُصلِح به لسانه ؟ أيسُرّ أحدَكم أن يكونَ لسانُه كلسان عبــده وأَمَتِه ؟ " . ومن كلام مالك بن أنس

"الإعراب حَلْيُ اللِّسانِ فلا تَمْنَعوا أَلْسِنَتَكُم حُلِيَّها". ولله درّ أبى سعيد البصرى! حيث يقول:

النَّحْوُ يَبْسُطُ مِنْ لِسَانِ الأَلْكَنِ * والمَرْءُ تُكْرِمُـه إذا لم يَلْحَنِ
وإذا طَلَبْتَ من العُلُومِ أَجَلَّهـا * فأَجَلُّها عِنْدِى مُقِيمُ الأَلْسُنِ

قال صاحب "الريحان والريعان" واللحنُ قبيح فى كبراء الناس وسَرَاتهم، كما أن الإعرابَ جمال لهم، وهو يرفع الساقط من السِّفْلة ويرتقِى به إلىٰ مرتبة تُلحِقه بمن كان فوقَ نَمَطه وصِنْفه. قال وإذا لم يتجه الإعراب فسد المعنىٰ؛ فإن اللحن يغيِّر المعنىٰ واللفظ ويقلِبُه عن المراد به إلىٰ ضـدّه حتّٰى يفهم السامعُ خلاف المقصود منه. وقد رُوِى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ ﴿إِنَّ اللهَ بَرِىءٌ مِنَ المُشْرِكِينَ ورَسُولِه﴾ بجرّ رسوله فتوهم عطفه علىٰ المشركين فقال: أوَ بَرِئَ اللهُ من رسوله؟، فبلغ ذلك عمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنه فأمر أن لا يَقرأ القُرءان إلا مَنْ يُحْسن العربيـة. على أن الحسن قد قرأها بالجرّ علىٰ القسَم وقد ذهب علىٰ الأعرابىّ فهمُ ذلك لخفائه. وقرأ آخَرُ ﴿إِنَّمـا يخشىٰ اللهُ مِن عِبَادِهِ العلماءَ﴾ برفع الأوّل ونصب الثانى، فوقَع فى الكفر بنقل فتحة إلىٰ ضمة وضمة إلىٰ فتحة فقيل له: يا هذا إن الله تعالى لا يخشى أحدا! فتنبه لذلك وتفطَّن له. وسمع أعرابىّ رجلا يقول: أشهد أن محمدا رسولَ الله بفتح رسول الله فتوهم أنه نصبه على النعت فقال يفعل ماذا؟. وقال رجل لآخر ما شانَك؟ بالنصب فظنّ أنه يسأل عن شينٍ به فقال عِظَم فى وجهى. وقال رجل لأعرابىّ: كيف أهْلِك؟ بكسر اللام وهو يريد السؤال عن أهـله فتوهَّم أنه يسأل عن كيفية هلاك نفسه فقال صَلْبا. ودخل رجل علىٰ زيادِ بنِ أبيه فقال: إنَّ أبُونا ماتَ وإن أخِينا وَثَبَ علىٰ مال أبانا فأكله — فقال زياد لَلَّذى أضعـتَه من كلامك أضَرُّ عليك ممـا أضعْتَه من مالك. وقيل لرجل من أين أقبلت؟ فقال مِنْ عند أهْلُونا، فحسده آخر

حين سمعه وظن ذلك فصاحةً فقال أنا واللهِ أعلم من أين أخذها ؟ من قوله ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوالُنا وأَهْلُونا﴾ فأضحكَ كلٌّ منهما من نفســه . قال صاحب "الريحان والريعان" وكان مَن يُؤْثَرعقلُه من الخلفاء يعاقِب علىٰ اللحن وينفِر من خطإ القول، ولا يجيز أن يُخاطَب به فى الرسائل البُلْدانية ، ولا أن يُوقَف به على رءوسهم فى الخُطب المَقَاميَّة قال : وهو الوجه . فأنْديتُهم مَطْلَب الكمال ، ومَظانُّ الصواب فى إحكام الأفعال ، فكيف فى إحكام الأقوال . قال آبن قادم النحوىّ : "وجه إلىّ إسحاق بن إبراهيم المُصْعَبىّ : وهو أمير فأحضرنِى فلم أدْرِ ما السببُ ، فلما قَرُبت من مجلســه تلقَّانى كاتبُه علىٰ الرسائل ميمونُ بنُ إبراهيم وهو علىٰ غاية الهَلَع والجَزَع ، فقال لى بصوت خفىّ إنه إسحاق ! ومرّ غير متلبث حتّى رجع إلىٰ إسحاق ، فراعنى ما سمعتُ ، فلما مَثَلْت بين يديه ، قال كيف يقال وهذا المـال مالٌ أو وهذا المـالُ مالا ، فعلمت ما أراد ميمونٌ الكاتبُ فقلتُ له الوجهُ وهذا المـال مالٌ ويجوز وهذا المـال مالًا ، فأقبل إسحاق علىٰ ميمون كاتبه بِغلظة وفَظَاظة ثم قال : «آلزم الوجهَ فى كُتُبك ودَعْ ما يجوز ! » ورمىٰ بكتاب كان فى يديه ، فسألت عن الخبر فإذا بميمون قد كتب عن إسحاق إلى المأمون وهو ببلاد الروم وذكر مالا حمله إليه فقال «وهذا المـالُ مالا» ، نخط المأمون على الموضع من الكتاب ووقَّع بخطه فى حاشيته تُكاتِبنى باللحن ؟ ويقال إنه لم يتجـاوز موضع اللحن فى قراءة الكتاب فقامتْ عنـد إسحاق ؛ فكان ميمونٌ الكاتبُ بعـد ذلك يقول : لا أدرى كيف أشـكُر آبنَ قادم بَقَّ علىّ رُوحى ونعْمتى . ووقف بعضُ الخُلفاء على كتاب لبعض عُمَّاله فيه لحن فى لفظه فكتب إلى عامله : قَنِّعْ كاتِبَك هذا سوطًا معاقبةً علىٰ لحنه . قال أحمد بن يحيى : كان هذا مقدارَ أهل العلم ، وبحسبه كانت الرَّغبةُ فى طلبه والحِذْر من الزَّلل . قال صاحب "الريحان والريعان" : فكيف لو أبصر بعضَ كُتَّاب زماننا هـذا ؟ . قلت قد قال ذلك فى زمانه هو وفى الناس بعض الرَّمق والعلمُ ظاهر وأهلُه مُكرَمُون ، و إلا فلو عَمَر إلى زماننا نحن لقال ﴿تلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ .

ثم المَرجِع فى معرفة النحو إلىٰ التلقِّى من أفواه العلماء الماهرين فيه ، والنظر فى الكُتُب المعتمَدة فى ذلك من كتب المتقدّمين والمتأخرين .

وٱعلم أن كتب النحو : من المبسوطات والمختصرات والمتوسطات أكثر من أن يأخذها الحصر . ومن الكتب المعتمدة فى زماننا عند أبناء المشرق "المفَصَّل" للزمخشرى و"الكافية" لأبن الحاجب . وعند المصريين كتبُ آبن مالك : كالتسهيل والكافية الشافية والألفية وغير ذلك من كتب آبن مالك وغيرها .

قال أبو جعفر النحاس : وقد صار أكثر الناس يطعُنُ علىٰ متعلِّمى العربية جهلا وتعدّيا حتّٰى إنهم يحتجُّون بما يَزْعُمون أن القاسم بن مُخَيْمِرة قال : «النحو أوّله شُغل وآخره بَغْى» قال : وهذا كلام لامعنىٰ له لأن أول الفقه شُغْل وأوّل الحساب شُغْل وكذا أوائلُ العلوم . أفترىٰ الناس تاركين العلومَ من أجل أن أوّلها شغل؟ . قال وأمّا قوله « وآخره بغى » إن كان يريد به أن صاحب النحو إذا حذقه صار فيه زَهْوٌ وٱستحقَرَ مَنْ يلْحَن فهذا موجود فى غيره من العلوم : من الفقه وغيره فى بعض الناس وإن كان مكروها . وإن كان يريد بالبغى التجاوُزَ فيما لا يحِلُّ فهذا كلامٌ مُحال فإن النحو إنما هو العلم باللغة التى نزل بها القرءانُ وهى لغة النبى صلى الله عليه وسلم وكلامُ أهل الجنة وكلامُ أهل السماء . ثم قال بعد كلامٍ طويل : وقد كان الكُتَّاب فيما مضى أرْغبَ الناس فى علم النحو وأكثَرَهم تعظيما للعلماء حتّٰى دخل فيهم مَنْ لايستحقُّ هذا الآسم فصَعُب عليه باب العدد فعابوا من أعرب الحساب ، وبَعُدَتْ عليهم معرفة الهمزة التى ينضَمُّ وينفتح ما قبلها ، أو تختلف حركتها وحركة ما قبلها فيكتبون يقرؤه بزيادة ألف لامعنى لها : فى كلام آخر يتعلق بالهجاء ليس هذا موضع ذكره . ـــ أمّا التعمُّق فى الإعراب والمبالغةُ فيه فإن حكمه فى الآستكراه حكُم التقَعُّر فى الغريب ، وقد كانوا يذُمّون مَنْ يتعاناه ، ويَسْخَرون بمن يتعاطاه . قال الأصمعى

خاصمَ عيسىٰ بن عمــر النحويُّ رجلا إلىٰ بلال بن أبى بُرْدَةَ فجعــل عيسىٰ يُشْبِــع الإعراب ويتعمَّق فى الألفاظ ، وجعل الرجل ينظر إليه — فقال له القاضى : "لأن يَذْهَبَ بعضُ حَقِّ هذا أحَبُّ إليه مِنْ تركه الإعرابَ ، فلا تتشاغَلْ به واْقصدْ بحُجَّتك". وخاصم نحوىٌّ نحويًّا آخرَ عند بعض القُضاة فى دَيْن عليه فقال : "أصْلَحَ الله القاضى ! لى علىٰ هذا دِرْهمان" — فقال خصمه : "والله أصلحك الله ! إن هى إلا ثلاثةُ دراهم ولكنه لظهُور الإعراب ترك من حقه درهمــا" . فهذا وشبهه قد صــار مذموما والمتشبِّثُ به مَلُوما ؛ ولذلك كان بعضُ الكُتّاب لشدّة اْقتداره علىٰ الإعراب يُعرِب كلامه ولا يُخَيِّل إلىٰ السامع أنه يُعْرِب ، فإن عرض مع التعمق فى الإعراب لحن ، كان ذلك أبلغَ فى الشَّناعة ، وأجْدَرَ بتوجُّه اللوم علىٰ صاحبه والسخرية من المتكلِّم به . وقد قال الجــاحظ : « إنــ أقبح اللحن لحنُ أصحاب التقعير والتشديق والتمطيط والجهورية والتفخيم » . قال « وأقبح من ذلك لَحْنُ الأعاريب النازلين علىٰ طريق السابلة وبقُرْب مجامع الأسواق » . وعلىٰ الجملة فالنحو لا يُستغنىٰ عنه ولا يوجد بدٌّ منه ، إذ هو حَلْىُ الكلام ، وهو له كما قيل كالملح فى الطعام . قال فى "المثل السائر" : والجهل بالنحو لا يقْدَح فى فَصاحةٍ ولا بلاغةٍ ولكنه يقْدَح فى الجهل به نفسِه لأنه رُسومٌ قوم تواضَعُوا عليه وهم الناطقُونَ باللغة فوجب اْتباعهم ؛ ولذلك لم ينظم الشاعر شعره وغرضُه منه رفعُ الفاعل ونصبُ المفعول أو مجرى مَجْراهما وإنما غرضهُ إيراد المعنىٰ الحسَنِ فى اللفظ الحسن المتصفَيْن بصفة الفصاحة والبلاغة . قال : ولذلك لم يكن اللحنُ قادحا فى نفسِ الكلام : لأنه اذا قيل جاء زيد راكبٌ بالرفع لو لم يكن حســنا إلا بأن يقال جاء زيد راكبا بالنصب لكان النحو شرطا فى حسن الكلام وليس كذلك فتبين أنه ليس الغرض من نظم الشــعر إقامة إعراب كلمــاته وإنمــا الغرضُ أمر وراء ذلك — وهكذا يجرِى الحكم فى الخُطَب والرسائل من المنثور مع

ما حُكِي أن اللحن وقع لجماعة من الشعراء المتقدّمين فى شعرهم ، كقول أبى نُوَاس فى محمد الأمين :

يا خَيْرَ مَنْ كانَ وَمَنْ يَكُونُ * إلا النَّبيُّ الطاهرِ المأمونُ

فرفع المستثنى من الموجب . وكقول المتنبى :

أرأيتَ هِمَّــةَ ناقتِى فى ناقةٍ * نَقَلَتْ يَدًا سُرُحا وخُفًّا مُجْمَرَا
تَرَكَتْ دُخَانَ الرِّمْثِ فى أوْطانِها * طَلَبًا لقَوْمٍ يُوقِدُون العَنْــبرَا
وتَكَرَّمتْ رُكَبَاتُها عن مَبْرَكٍ * تَقَعانِ فيه وليس مِسْكا أذْفَرَا

فجمع فى حالة التثنية ، لأن الناقة ليس لها إلا رُكْبتانِ وقد قال رُكَبَاتها .

وٱعلم أن اللحن قد فَشَا فى الناس ، والألسِنَةَ قد تغيرت حتّى صار التكلم بالإعراب عَيْبا ، والنطقُ بالكلام الفصيح عِيًّا . قلت : والذى يقتضيه حالُ الزمان ، والجرى علىٰ منهاج الناس أن يحافَظَ علىٰ الإعراب فى القرءان الكريم ، والأحاديثِ النبوية ، وفى الشعر والكلام المسجوع ، وما يُدوّن من الكلام ، ويُكتَب من المراسلات ونحوها ؛ ويغتفر اللحنُ فى الكلام الشائع بين الناس الدائرِ علىٰ ألسنتهم مما يتداولُونه بينهم ويتحاوَرُون به فى مخاطباتهم ؛ وعلىٰ ذلك جَرَت سُنَّة الناس فى الكلام مذ فَسَدت الألْسِــنة ، وتغيرت اللغة حتّى حكى أن الفرّاء مع جلالة قدره وعلوّ رتبته فى النحو دخل يوما علىٰ الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه ؛ فقال جعفر بن يحيى يا أمير المؤمنين إنه قد لحن — فقال الرشيد للفرّاء أتلْحن يا يحيىٰ؟ فقال يا أمير المؤمنين ! : إن طباع أهل البَدْو الإعرابُ وطباع أهلِ الحَضَر اللحنُ فاذا حفِظتُ أو كتبت لم أَلْحَن وإذا رجعت الى الطبع لَحَنت — فاستحسن الرشيد كلامه . وقد قال الجاحظ فى كتابه "البيــانِ والتبيين" « ومتى سَمِعت حفظك اللهُ نادرةً من كلام الأعراب فإياك أن

تَحْكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ؛ فإنك إن غيرتهـا بأن لَحَنت فى إعرابها أو أخرجْتها مَخرَج كلام المولَّدين والبلَديِّين، خرجتَ من تلك الحكاية وعليك فضلٌ كبير، وإن سمعتَ نادرة من نوادر العوامّ ومُلْحةً من مُلَحهم فإيَّاك أن تسـتعمل لها الإعرابَ أو تتخيرَ لهـا لفظا حسـنا ، فإن ذلك يُفْسِد الإمتاع بهـا ويُخْرجها من صُورتها التى وُضعت لها ويُذْهبُ ٱستطابتَهم إياها » . قال : "واللحن من الجوارِى الظِّراف، ومن الكَواعب النَّواهِد، ومن الشَّوابِّ الملاح، ومن ذوات الخُدُور أيسرُ وربمـا ٱستَمْلح الرجلُ ذلك منهنّ مالم تكن الجارية صاحبةَ تكلُّف" ولكن إذا كان اللحن علىٰ سجيَّة سُكَّان البلد كما يستملحون اللَّثْغاء إذا كانتْ حديثة السنّ فإذا أسنت وٱكتهلَتْ سُئِم ذلك الاَستملاح . قال : "ومن ٱستملح اللحن فى النساء مالكُ بنُ أسماء فقال فى بعض نسائه :

أَمُغَطًّى مِـنِّى علىٰ بَصَرى لِلْـ * ـحُبِّ أم أنتِ أكملُ الناسِ حُسْنا؟
وحــديثٍ ألَذُّه هو مِمَّـا * تَشْتَهِيه الأسمـاع يُوزَنُ وَزْنا
مَنطِقٌ صـائِبٌ وتَلْحَنُ أحيـا * نًا وخَيْرُ الحَديثِ ما كانَ لَحْنا"

والناس فى ذلك كله بحسب البلاد وأهلها ،ألا ترىٰ أن العرب وإن تغيرت ألسِنَتُهم بمخالطة مَنْ عداهم فإنهم لا يخْلُو كلامُهم من مُوافقة الإعراب فى بعض الكلام والجرْيِ علىٰ قواعد العربية خصوصا عَرَب الحجاز وأهل البـادية منهم . وقد قال الجاحظ فى أثناء كلامه «ولأهل المدينة ألْسِنَة ذَلِقة، وألفاظ حَسَنة، وعبارة جيِّدة؛ واللحن فى عوامِّهم فاشٍ وعلىٰ مَنْ لم ينظر منهم فى النحو غالبٌ» .

المقصـــد الثـانى
(فى كيفية تصرّف الكاتب فى علم العربيـــة)

وآعلم أن آنتفاع الكاتب بالنحو من وجهين : أحدهما الإعراب وما يُلْحَق به . ومن أهم ما يُعتنىٰ به من ذلك النَّسَبُ لكثرة آستعماله فى الألقاب ونحوها ، وكذلك العَدَدُ فإنه مما يقَعُ فيه اللَّبْس على المبتدئ؛ ومحل ذلك كلّه كتبُ النحو. الثانى فيما يقع الكاتب فيه بطريق العَرَض ، فيحتاج من ذلك إلىٰ معرفة النُّحاة ومشاهير أهل العربية كأبى الأسود الدؤلى ، وسيبويه ، والفرّاء ، وأبى على ، وأبى عثمان المـازنىّ وغيرهم من المتقدّمين ؛ وآبن عُصْفور وآبن مالك وآبن مُعْطى وغيرهم من المتأخرين ؛ وكذلك أسماء كتبهم المشهورة فى هـذا الفن : من المبسوطـات والمختَصرات من كتب المتقدّمين والمتأخرين ومصطلحاتهم التى آصطلحوا عليها : من ذكر الآسم ، والفعل ، والمعرفة ، والنكرة ، والمبتدإ ، والخبر ، والحال ، والتمييز ، وألقاب الإعراب : من الرفع والنصب والجرّ والجزم وغير ذلك ممـا تجرى به عباراتهم ، ويدور على ألسنتهم فى آستعمالاتهم : من قولهم ضرب زيد عمرا ونحو ذلك ليُدْرِج ما عَنّ له من ذلك فى خلال كلامه حيث آحتاج إليه فى التواقيع والمكاتَبات وغيرها .

قال فى «التعريف» فى وصية نحوىّ : وهو زيد الزّمان ، الذى يضربُ به المثَل ، وعمرو الأوان ؛ وقد كَثُر من سيبويه المَلَل ومازِنىُّ الوقت لكنه لم يَسْتَبِح الإبل ، وكسائىُّ الدهر الذى لو تقدّم لمـا آختار غيرَه الرشيدُ للأمون ، وذو السُّودد لا أبو الأسود على أنه ذو السـابقة والأَجْر الممنون . وهو ذو البِرّ المأثور ، والقـدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذيلُ فخَاره المجرور . والمعروف بما لا يُنْكَر لمثله من الحَزْم ، والذاهبُ عملُه الصالح بكل العوامل التى لم يبق منهـا لحسوده إلا الجَزْم . وهو ذو الأبنِيَة التى

لا يفصِح عن مثلها الإعراب ، ولا يُعَرف أفصحُ منهـا فيما أُخِذ عن الأعراب . والذى أصبحتْ أهدابُه فوق عمائم الغمائم ثلاث ، ولم يزل طُولَ الدهر يُشْكَر منه أمسُـه ويومُه وغدُه وإنما الكلمات ثلاث . فلْيتصدّ للإفاده ، ولْيعلّمْهم مثل ما ذكر فيه من علم النحو نحو هـذا وزياده . ولْيكُنْ للطلبة نَجْما به يُهْتدىٰ ، وليرفعْ بتعليمه قدر كل حبر يكون خبرًا له وهو المبتدا . ولْيقدّم منهم كلَّ من صلَح للتبريز ، وآستحق أن يُنصَب إماما بالتميز . وليُورِدْ من موارِده أعذبَ النِّطاف ، وليجرّ إليه كلَّ مضاف إليه ومضاف . وليوقفهم علىٰ حقائق الأسماء ، ويعرّفْهم دقائق البحوث حتّٰى آشتقاقَ الآسم هل هو من السموّ أو من السِّماء . ولْيُبيِّن لهم الأسماء العجمية المنقولَة والعربية الخالصه ، ويدلّهم علىٰ أحسن الأفعال لا ما يتشبَّه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصه ، ولْيُحفِّظْهم المثل وكلماتِ الشعراء ، ولْينصب نفسه لحدّ أذهان بعضهم ببعض نَصْب الإغراء . وليعامل جماعةَ المستفيدين منه بالعَطْف ، ومع هذا كله فليترفَّقْ بهم فما بلغ أحدٌ علما بقوّة ولا غايةً بعَسْف .

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نُباتة رحمه الله من جملة توقيع مدرس : «ولأنه فى البيان ذو الآنتقاد والآنتقاء . والعربىّ الذى كان لرِقَاب الفضلاء آبنَ مالك فإنّ قريبه أبو البقاء .

وكما كتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر فى رسالة آقترِحت عليه فى هـذا الباب وهى : «حرس الله نعمة مولاى ! ، ولا زال كَلِمُ السعد من آسمه ، وفعله ، وحرف قلمـه يأتلف ، ومنادَى جُوده لا يُرخَّم وأحمدُ عيشه لا ينصرف . ولا عَدِم مستوصلُ الرِّزق من براعته التى لا تقف الوصلَ (١) ولا عَدِمت نُحاة الجُود

(١) بياض فى الأصل .

من نَواله كلَّ موزون ومعدود ، ومن فضله وظله كل مقصور وممدود . ولا خاطَبتِ الأيام مُلتَمِسه إلا بلام التوكيد ، ولا عدوّه الا بلام الجحود . هذه المفاوضة اليه أعزه الله ! تفهمه أنا بلغنا أن فلانا أضمر سيدُنا له فِعلا غدا به منتصبا للمكايد ومعتَلًّا وليس موصولا كالذى بصلة وعائد . وما ذاك إلا لأن معرفتَها داخلها التنكير ، وقُدِّر لها من الاحتمالات أسوأ التقدير . ونعوتَ صُحْبته تكررت لجاز قَطعُها بسبب ذلك التكرير . وسيدُنا يعلم بالعلمية المذْكونَ[1] من الإنافة ، وما لإضافته إلى جلالته من الانتماء الذى يجب أن يكون لأجله عيْشُه به خفضا على الإضافة . وكان الظنّ أنّ الأشغالَ التى جُمِعت له لا تكون جمعَ تكسير بل جمع سلامة ، وآية لاتكلف تعليما على وصول لأنه فى الديوان كالحرف لا يخبر به ولا عنه والحرفُ ليست له علامة . وحاش لله ! أن يُصبِح معرَبُ إحسانه مبنيّا ، وأن نزيلَ كرمه يكون للنكرات بأىّ محكيّا أو أن يأتى سيدُنا بالماضى من الأفعال فى معنى الاستقبال ، أو أن يجعل بَدلَ غلطه الإبدال للاشتمال . أو يدغم من مودّته مُظهَرا ، أو أنه لا يجعل لمبتدا محبته مُخْبَرا ، أو أن لا يكون له من أبنية تدبير سيدنا مصدرا . ولا بَرِح سيدُنا نسيجَ وحدِه فى أموره ! ولا زال حلمُه يتناسى الهفوات لا يشتغِلُ مفعولُه عن فعله بضميره .

النــوع الرابع
(المعــرفة بالتصــريف)

ويجب على الكاتب المعرفة به ليعرف أصل الكلمة ، و زيادتها ، وحذفها ، و إبدالها فيتصرّف فيها بالجمع والتصغير والنسبة إليها وغير ذلك : لأنه إذا أراد جمع الكلمة أو تصغيرَها أو النسبةَ اليها ولم يعرِف الأصلَ فى حروف الكلمة و زيادتَها وحذفَها و إبدالَها ، ضلّ حينئذ عن السبيل ، ونشأ من ذلك مجال للعائب والطاعن .

(١) كذا فى الاصل بالدال المهملة . ودُكْن المتاع تنضيد بعضه على بعض وهو غير مناسب فلعله مصحف عن المزكون بالزاى بمعنى المعلوم فتأمل .

قال ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر": وتظهر لك فائدة ذلك ظُهورا واضحا فيما إذا قيل للنحوىّ الجاهل بعلم التصريف كيف تصغِّر لفظةَ اضطراب فإنه يقول ضُطَيريب(١)، ولا يلام فى ذلك لأنه الذى تقتضيه صناعة النحو . لأن النحاة يقولون إذا كانت الكلمة علىٰ خمسة أحرف وفيها حرف زائد أو لم يكن حذفته منها، نحو قولهم فى منطلق مطيلق وفى جَحْمِرش جحيمرش(٢) . ولفظة منطلق علىٰ خمسة أحرف وفيها حرفان زائدان هما الميم والنون ، إلا أن الميم زيدت فيها لمعنًى فلذلك لم تُحذَف وحُذِفت النون. وأما لفظة جَحْمَرِش فخماسية لا زيادة فيها وحذف منها حرف أيضا. فإذا بنىٰ النحوىُّ علىٰ هذا الأصل، فإما أن يحذف من لفظة اضطراب الألف أو الضاد أو الطاء أو الراء أو الباء، وهذه الحروف غير الألف ليست من حروف الزيادة فلا تحذف بل الأولى أن يحذف الحرف الزائد ويترك الحرف الأصلى فيصغر لفظة اضطراب حينئذ علىٰ ضطيريب، ولم يعلم النحوى أن الطاء فى اضطراب مبدلة من تاء وأنه إذا أريد تصغيرها تعاد إلىٰ الأصل الذى كانت عليه . فيقال ضتيريب فإن هذا مما لا يعلمه إلا التصريفىّ والنحاة أطلقوا ما أطلقوه من ذلك اتكالا منهم علىٰ تحقيقه من علم التصريف، إذ كل من النحو والتصريف علم منفرد برأسه، فتكليف النحوىّ الجاهل بعلم التصريف إلىٰ معرفة ذلك كتكليفه ماليس من علمه.

قال : فثبت بما ذكر أن علم التصريف مما يُحتاج إليه لئلا يغلط فى مثل ذلك.

قال: ومن العجب أن يقال إنه لا يُحتاج إلىٰ معرفة التصريف وهذا نافع بن أبى نعيم وهو من أكبر القرّاء السبعة قدرا وأفخمهم شأنا قد قال فى مَعَايِش معائش بالهمز، وهذه اللفظة مما لايجوز همزه بإجماع من علماء العربية : لأن الياء فيها ليست

(١) أى باثبات الياء بعد الراء وهى ياء التصغير وليست منقلبة عن ألف الأفتعال كما قد يتوهم بل ألف الأفتعال محذوفة .

(٢) كذا فى الأصل وصوابه جحيمر كما تقتضيه القواعد الصرفية . أُنظر باب التصغير من الكتاب .

مبدلة من همزة وإنما الياء التى تبدل(١) من الهمزة فى هذا الموضع تكون بعد ألف الجمع المانع من الصرف ويكونُ بعدها حرفٌ واحد ولايكون عينا نحو سَفَائن، ولم يعلم نافع الأصلَ فى ذلك فأُخِذ عليه وعيبَ عليــه من أجله وذلك أنه ٱعتقدَ أن مَعيشةً علىٰ وزن فَعِيلة تجمع علىٰ فَعائِل ولم ينظر إلىٰ أن الأصل فى مَعِيشة مَعْيِشة علىٰ وزن مَفْعِلة لأن أصل هذه الكلمة من عاشَ لكن(٢) أصلها عيش علىٰ وزن فَعَل، ويلزم مضارع فَعَل المعتــل العين يفعل لتصح الياء نحو يَعْيِشُ ثم تنتقل حركةُ العين إلىٰ الفاء فتصير يَعِيش ثم يبنىٰ من يَعِيشُ مفعول فيقال مَعْيُوشٌ به كما يقال مَسْيُور به ثم يخفف ذلك بحذف الواو فيقال مَعِيش به كما يقال مَسِير به ثم تؤنَّث هذه اللفظة فتصير مَعِيشة . ومن جمـلة من عابه أبو عثمان المــازنى فقال فى كتابه فى التصريف : إنـ نافعا لم يدر ما العَرَبيّة .

وحكى أبو جعفر النحاس أن عبيد الله بن سليمان نظر فى بعض كُتُب الكُتَّاب فإذا فيه حرف مُصْلَح هو : وقد لَهَوْت عن جباية الخراج، فاغتاظ وقال لايحكه غيرى فحكّه فأصلحه وقد لَهِيت باليــاء بدل الواو . قال وحكى عن أحمد بن إسرائيل مع تقدّمه فى الكتابة أنه قال : وكانت رسومهم مُسَاناةً ثم صارت مشاهرة ثم صارتْ مُياومةً ثم صارت مُساعاةً، فأخطأ، وكان يجب أن يقول مُساوَعة . قال فى "المثل السائر" : وكثيرا مايَقع أهلُ العلم فى مثل هذه المواضع فكيف الجُهَّال الذيــن لا معرفةَ لهم بها ولا ٱطِّلاعَ لهم عليها؛ وإذا علم حقيقة الأمر فى ذلك لم يقع الغلط فيما يُوجِب قَدْحا ولا طَعْنــا . قال : وقد وقع الغَلَط لأبى نُوَاس فيما هو أظهر من ذلك، وهو قوله فى صفة الخمر :

كأنَّ صُغْرىٰ وكُبْرىٰ مِنْ فَوَاقِعِها(٣) * حَصباءُ درٍّ علىٰ أرضٍ من الذَّهَب

(١) أى التى تكون الهمزة بدلا منها .
(٢) لعله التى كما يقتضيه السياق .
(٣) المشهور فقاقعها . انظر شرح الأشمونى فى باب أفعل التفضيل .

فإن فُعْلىٰ أفعلَ لا يجوز حذف الألف واللام منها وإنما يجوز حذفهما من فُعْلىٰ التى لا أفْعَلَ لها نحو حُبْلىٰ الا أن تكون فُعْلىٰ أفعلَ مضافةً، وها هنا قد عَرِيت عن الإضافة وعن الألف واللام وكان الصواب أن يقال كأن الصُّغْرىٰ والكُبْرىٰ أو كأن صُغْراها وكُبْراها . فانظر كيف وقع أبو نُوَاس فى مثل هذا الموضع مع قُرْبه وسُهُولته . وغلط أبو تمام أيضا فى قوله :

بِالْقائِم الثَّامِنِ الْمُسْتَخْلَفِ ٱطَّادَتْ * قَواعِدُ الْمُلْك مُمتَـدًّا لَهَـا الطُّول

فقال ٱطَّادت والصواب ٱتَّطَدَتْ لأن التاءَ تُبْدل من الواو فى موضعين أحدهما مقيس عليه كهذا الموضع : لأنك إذا بنيت ٱفتعل من الوعد قلت ٱتَّعدَ وكذلك ٱتَّطَدَتْ فى البيت فإنه من وَطَد يَطِد كما يقال وَعَد يَعِد، فإذا بُنِى منه ٱفْتَعل قيل ٱتَّطَدتْ ولا يقال ٱطَّاد . وأما غير المَقِيس فقولهم فى وُجاه تُجاه وقالوا تُكْلان وأصله الواو لأنه من وَكَل فأبدلت الواو تاء للٱستحسان . ثم قال : إن المخطئ فى التصريف أندرُ وقوعا من المخطئ فى النحو لأنه قلَّما تَقَع له كلمة يحتاجُ فى ٱستعمالها إلىٰ الإبدال والنقل فى حروفها . والمعصوم من عصمه الله، والكلام فى تصرُّف الكاتب فى التصريف علىٰ ما تقدّم فى النحو .

النـــوع الخـامس

(المعرفة بعلوم المعانى ، والبيان، والبديع؛ وفيه مقصدان)

المَقْصِـــد الأوّل

(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

اعلم أنه لما كانتْ صناعةُ الكتابة مبنيَّة علىٰ سلوك سُبُل الفصاحة وٱقتفاء سَنَن

البلاغة، وكانتْ هذه العلومُ هى قاعدةَ عمود الفصاحة ومَسْقِطَ حجرِ البلاغة، اضْطُرَّ الكاتب إلىٰ معرفتها، والإحاطةِ بمقاصدها: ليتوصَّل بذلك إلىٰ فهم الخطاب، وإنشاء الجواب، جاريا فى ذلك علىٰ قوانين اللغة فى التركيب، مع قُوة المَلَكة علىٰ إنشاء الأقوال المركَّبة المأخوذةِ عن الفصحاء والبلغاء: من الخُطَب والرسائل والأشعار من جهة بلاغتها وخُلوها عن اللَّكَن، وتأدية المطلوب بها، وتكميل الأقاويل الشِّعرية نَثْرا كانت أو نَظْما، فى بلوغها غايتَها وتأدية ماهو مطلوب بها، وأنها كيف تتعيَّن بحسب الأغراض لتفيد ما يحصل بها من التخيل الموجب لانتقال النفس من بسط وقبض، والشىء يُذْكَر بضدّه، فيذكُر المحاسنَ بالذات والعيوبَ بالعرض.

قال أبو هلال العسكرى: "فإن صاحب العربية إذا أخَلَّ بطلب هذه العلوم، وفَرَّط فى التماسها، فاتَتْه فضيلتها، وعَلِقتْ به رذيلة فوتْها، وعَفَّى علىٰ جميع محاسنه، وعَمَّى سائر فضائله، لأنه إذا لم يَفْرُق بين كلامٍ جيِّد، وآخر ردىءٍ، ولفظٍ حَسَن، وآخر قبيح، وشِعْر نادر، وآخَرَ بارد، بانَ جهلُه، وظهَر نقْصه، وإذا أراد أن ينشئ رسالة أو يَضَعَ قصيدة وقد فاتته هذه العلوم، مزَجَ الصَّفْوَ بالكَدَر، وخلط الغُرر بالعُرَر، فجعل نَفْسه مَهْزأة للجاهل، وعبرةً للعاقل. وكذلك إذا أراد تصنيفَ كلام منثور أو تأليفَ شِعر منظوم وتخطَّى هذه، ساء اختيارُه، وقَبُحت آثارُه، فأخذ الردىءَ المردود، وترك الجَيِّد المقبول، فدلّ علىٰ قصور فهمه، وتأخر معرفته، مع ما فى هذه العلوم الثلاثة من الوسيلة إلىٰ فهم كتاب الله تعالىٰ وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم اللذينِ منهما يستمدُّ الكاتب شريفَ المعانى، ويستعير فَصِيح الألفاظ، بل منهما تُستفاد سائر العلوم، وتُقْتَبَس نفائس الفضائل". قال: "وقبيحٌ لعمرى بالفقيه المؤتَمِّ به، والقارئ المقتدىٰ بهديه، والمتكَلِّم المشار إليه فى حسن

مناظرته، وتمـام آلته فى مجادلته، وشدّة شكيمته فى حِجَاجه؛ وبالعربىّ الصَّليب، والقُرَشىّ الصريح، أن لا يعرِف فَهْمَ إعجاز كتاب الله إلا من الجهــة التى يعرفها منها الزِّنجىّ والنَبَطىّ، وأن يستدلّ عليه بما يستدلُّ به الجاهل الغبىّ".

علىٰ أن الشيخ بهاء الدين الســبكى رحمه الله قد ذكر فى شرح تلخيص المفتاح أن أهل مصر لا يحتاجون إلىٰ هذه العلوم وأنهم يَدْرُونها بالطبع، فقال فى أثناء خطبته: "أما أهل بلادنا فهم مستَغْنُون عن ذلك بما طبعهم الله تعالى عليه من الذَّوْق السليم، والفهم المستقيم، والأذهان التى هى أرقُّ من النسيم، وألطفُ من ماء الحياة فى المُحَيَّا الوسـيم، أكْسَبَهُم النيلُ تلك الحَلاوه، وأشار إليهم بأصابعه فظهَرتْ عليهم هــذه الطَّلاوه؛ فهم يدركون بطِبَاعهم ما أفْنَتْ فيه العلمـاء فضلا عن الأغمار، الأعمار، ويرَوْن فى مِرْءاة قلوبهم الصقيلةِ ما آحتجَبَ من الأسرار، خلف الأستار.

والسَّيْفُ ما لم يُلْفَ فيه صَيْقَلٌ * مِنْ طَبْعِـه لم يَنْتَفِـعْ بصِقَال

فيالهـا غنيمةٌ لم يُوجَف عليها من خَيْل ولا رِكاب، ولم يُزْحَف إليها بعْدَ وِعيدِيَّةٍ(١) ولا بلَحَاق لاحِقٍ وآنسِكاب سَـكَاب؛ فلذلك صرفُوا هِمَمهم إلىٰ العُـلوم التى هى نتيجةٌ أو مادّة لعلم البيان، كاللغة والنحو والفقه والحديث وتفسير القرءان". ثم قال: "وأما أهــل بلاد الشرق الذين لهم اليدُ الطُّولىٰ فى العلوم، ولا سِيَّمـا العلوم العقليَّة والمَنْطق، فاستوْفَوْا هِمَمهم الشامخةَ فى تحصيله، وآستولوا بجِدّهم علىٰ جملته وتفصيله. ووردوا مناهل هذا العلم فصَـدَروا عنها بمَلْء سِجَالهم، وكيف لا وقد أجْلَبُوا عليــه بخيلهم ورَجْلهم. فلذلك عَمَروا منه كل دارس، وعبَرُوا من حُصُونه المَشيدة ما رقد عنه الحارس. وبلغوا عَنانَ السماء فى طلبه، و"لو كان الدِّينُ فى الثريا لنالَهُ رِجالٌ من

(١) أى نوق نجائب منسوبة الى بنى العيد حىّ من العرب. ولاحق وسكاب فرسان للعرب مشهوران. انظر اللسان.

فارس" . إلىٰ أن خرج عنهم المِفْتاح، فكأنّ الباب أُغْلِق دُونهم ، وظهر من مِشْكاة بلاد الغرب المصباح ،فكأنما حِيل بينه و بينَهُم . وأدارت المنون علىٰ قُطْبهم الدوائر، فتعطّلت بوفاته من علومه أفواهُ المحابر و بُطون الدّفاتر . وآنقطعتْ زهَراتُهم الطّيبة عن المقتطِف، وتسلّط علىٰ العَضُد لسانُ من يعرف "كَيْفَ تُؤْكَلُ الكَتِف" . فلم نظفر بعــد هؤلاء الأئمةِ رحمهم الله من أهل تلك البلاد بمن مَحَض هــذا العلم فألقىٰ للطالب زُبْدتَه، ومَحَض النُّصح فنشر علىٰ أعطاف العارى بُرْدته ، ولا حملتْ قَبُول القَبُول إلينا عنهم بِطاقه ، ولا حصَلتْ للتطلّعين لهذا العلم علىٰ تلك الأبواب طاقه، ولا رأينا بعد أن آنطمَست تلك الشموسُ المشرِقه، وآندرستْ طبقةُ تحرّى الفرقه، ولم يبق إلا رسوم هى من فضائلهم مسترَقه . مَنْ أطلع غُصنٌ قلمه من روض الأذهان زهرةً علىٰ ورقه ، ولا من علّق شنه بطبقتهم فيقال وافَقَ شَنٌّ طَبَقه ، بل ركَدَتْ بينهم فى هذا الزمان رِيحه، وخبَتْ مصابيحه، وناداهم الأدب سِواكُم أعنِي: و "رُبَّ كلمةٍ تَقُول دَعْنِي" .

وما بَعْضُ الإقامة فى دِيارٍ * يُهانُ بها الفتَى إلا بَلاء

فعند ذلك أزمع هذا العلم الترحل، وآذن بالتحوّل .

وإذا الكَرِيمُ رأىٰ الخُمولَ نَزِيلَه * فى مَنْزِلٍ فالرَّأْىُ أن يَتحَوّلا

وفَزِع إلىٰ مصر فألقىٰ بها عصا التّسْيار ، وأنشد مَنْ نادىٰ من تلك الديار .

أقمْتُ بأرضِ مِصْرَ فلا وَرائى * تَخُبُّ بى الرِّكابُ ولا أَمامِى"

ولقد أحسن رحمه الله فى بيانِ السبب، والتعويل فى آنجِبال أهل مصر علىٰ هذا العــلم علىٰ عَلاقة الصِّهْر والنسَب . حيث قال فى أوائل خطبته فى أثنـاء الصــلاة على النبي صلى الله عليه وسلم : صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه ما خَفَقت للبلاغة راية

مَجْدٍ فى بنى غالبِ بنِ فِهْر ، وتعلَّقت بأزمّة الفصاحة أهــل مصر : لمـا لهم من نسب وصِهرْ ".

قال الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي رحمــه الله فى كتابه " حســن التوسل إلىٰ صناعة الترسل": وهذه العلوم وإن لم يُضطَرَّ اليها ذو الذِّهن الثاقب، والطبع السليم، والقَريحة المطاوعة والفكرة المنقِّحة، والبديهة المُجيبة، والروية المتصرِّفة ، لكن العالم بها متمَكِّن من أزمّة المعانى، وصناعة الكلام، يقول عن علم، ويتصرف عن معرفة، وينتقِد بحُجة، ويتخير بدليل، ويستحسِن ببرهان، ويصوغ الكلامَ بترتيب" .

وحقيق ما قاله . فإن الأديب والكاتب العارِيَيْنِ عن هــذه العلوم قاصرانِ عن أدنىٰ رُتَب الكمال يحيدان ، ولا يَدْرِيان كيف يُجيبان . فلو سئل كل منهما عن علة معنًى آستحســنه أو لفظ آستحلاه أو تركيب آستجاده ، لم يقدِر علىٰ الإتيان بدليل علىٰ ذلك .

وقد حكىٰ الإمام عبــد القادر الجُرْجانى قال : " ركب الكِنْدىُّ المُتفلسِفُ إلىٰ أبى العبَّاس وقال له : إنى أجِدُ فى كلام العرب حَشْوا — فقال له أبو العباس فى أىّ موضع — قال : وجدت العربَ تقول عبــد الله قائم ثم يقولون إن عبــد الله قائم ثم يقولون إن عبد الله لقائم فالألفاظ متكررة والمعنى واحد — فقال له أبو العباس : لا ، بل المعانى مختلفة لآختلافِ الألفاظِ ، فقولهم عبــدُ الله قائم إخبار عن قيامه ، وقولُهم إن عبدالله قائم جواب عن سؤال سائل، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب علىٰ إنكار منكر قيامه، فمــا أحار المتفلسفُ جوابا . فإذا ذهب مثلُ هذا علىٰ الكندىّ فمــا الظنُّ بغيره ؟ وإن كان من محاسن الكلام ما لا يحكم فى آمتزاجه بالقــلوب غيرُ الذوق الصحيح كما قال الشاعر :

شَيءٌ به فُتِن الورىٰ غيْرُ الذى * يُدعىٰ الجمَال ولستُ أدرِى ما هُو

لكن الغالب فى الكلام أن يعلم سببُ تحسينه، وتعليل موادّ تمكينه . ويُجابَ عن العلة فى ٱنحطاطه وٱرتفاعه ، ويذكَر المعنىٰ فى ٱرتقائه من حَضِيض القول إلىٰ يَفَاعِه .

قلت : وهذا العلم وإن شحَن أَئمةُ[1] الكُتّاب — كما قال أبو هلال العسكرى فى كتابه "الصناعتين" والوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المَثَل السائر" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى "حسن التوسل" فإنه ليس مختصا بفنّ الكتابة بل هو آلة لكل كلامٍ ٱقتضىٰ البلاغة ، كما أن المَنْطِق آلةٌ لكل العلوم العقلية، التى يُحتاج منها إلىٰ تصحيح الفكر .

وقد أكثر الناس من المصنَّفات فيه كالرُّمَّانى والجُرْجانىّ وغيرهما ؛ وأكثر ٱعتماد أهل الزمان فيه علىٰ تلخيص المِفتاح للقاضى جلال الدين القَزْوِينىّ فأغنىٰ ما وضع فيه عن إيراده هنا .

المقصد الثانى

(فى كيفية ٱنتفاع الكاتب بهذه العلوم)

غير خاف أنه إذا مهر فيها وعرف طُرُقها، أتىٰ فى كلامه بالسِّحر الحلال ؛ وصاغ من ألفاظه ومعانيه مايقضِى له بالفصاحة التامّة، والبلاغة الكاملة، من وجوه تحقيق الكلام، وتحسينه وتَدْبِيجه وتنميقه . وإذا فاتَتْه هذه العلوم ، أوكان ناقصا فيها، نقصتْ صناعته بقدر ما يَنْقُص من ذلك . ثم كما يحتاج إلىٰ هذه العلوم بطريق الذات، كذلك يَحتاج إليها بطريق العَرَض من جهة المعرفة بالبُلَغاء الذين يُضرَبُ

---

(١) لعله وان شحن به أئمة الكتاب كتبهم وحرر .

بهم المَثَل فى البلاغة كقُسِّ بن ساعدة ، وسَحْبانِ وائل ، وعَمْرو بن الأهْتم ، ونحوهم من بلغـاء العرب؛ وآبن المقفَّع ونحوه من المُحدَثين . وكما قيل فى عىّ باقِل — وهو رجل آنتهىٰ به العِىُّ إلىٰ أنه آشـترىٰ ظبيـا بأحدَ عشرَ درهما ، فسأله سائل فى الطريق ، وهو ممسك الظبيَ : بكم آشتريتَهُ ؟ فلم يُحْسن التعبير عن أحد عشر، ففرّق أصابعه العشرة وأخرج لسانَهُ مشيرا إلىٰ أحدَ عَشَر فتفلَّت الظبيُ وفرّ هاربا — . وكمعرفة أئمة الصِّناعة : كالجُرجانى والرُّمَّانى . وكذلك المعرفة بالأسماء التى آصطلَح عليها أهلُها : من الفَصْـل ، والوَصْل ، والتشبيه كما تقـدّم ، والمقابلة ، والمطابَقَة ، وغير ذلك من أنواعها .

أما آحتياجه إلىٰ المعرفة بأسماء البُلَغاء ولغةِ أهل الصناعة ، فلأنه ربمـا آحتاج إلىٰ تفضيل بعض مَنْ يكتب له ممن يُنْسَب مثله إلىٰ البلاغة فيفضِّله بمساواته لبليغ من البلغاء ، أو إمام من أئمة الصنعة : كما كتب الوزير ضياء الدين بن الأثير فى ذمّ كاتب : هَـذا وهو يدَّعى أنه فى الفصاحة أُمَّة وحده ، ومَنْ قُسُّ إياد وسَحبانُ وائل عنـده؛ وكما قال بعضهم يهجو ضيفا له :

أتانَا وَمَا دَاناهُ سَحْبانُ وائِلٍ * بَيانًا وعِلْمًا بالذى هو قائِلُ
فما زَالَ عِنْدَ اللَّقْمِ حتّى كأنَّه * مِنَ العِىّ لَمَّا أنْ تَكَلَّمَ باقِلُ

ومما أتىٰ علىٰ ذكر جماعة من أهل هذا الشأن قولى فى كلام قليل جاء ذكره فى آخر رسالةٍ كتبتُ بهـا فى تقريظ المقـرّ الفتحى ، صاحب دواوين الإنشاء الشريف ، بالأبواب السلطانية بالديار المصرية — وهو : "علىٰ أنّى أستقيل من التقصـير فى إطرائه ، والتعرّض فى مدحه لمـا لا أنهض بأعبائه . فلو أن الجاحظ نَصيرى ، وآبن المقفَّع ظَهيرى ، وقُسَّ بن ساعدة يُسْعدنى ، وسَحْبـانَ وائلٍ يُنْجِدنى ، وعَمْرو

آبن الأهتم يُرْشدنى ؛ لكان آعترافى بالتقصير أبلغ مما آتيه ، و إقرارى بالقُصُور أولىٰ مما أخفيه ، من تَوَالى طَوْله وأياديه" .

وأما آحتياجه إلىٰ معرفة ألفاظ أهل الصناعة ، فلأنه ربمـا ورّى بها فى تفاصيل كلامه ونحو ذلك — كما كتب الشيخ زينُ الدين أبو بكر بن العجمىّ علىٰ البديعيّة التى نظمها عيسىٰ العالية الشاعر ، مضاهيا بها بديعية الصفىّ الحلىّ فقال :

"وبعدُ فقد وقفتُ علىٰ هـذه المعجزة التى أحيا بها عيسىٰ مَيِّتَ البديع ، وجوّد ماشاء فيها من التَّصْريع والترصـيع ، وَرَقم لأعطافها حُلَل التَّوشيح والتَّوْشيع ، ونظم لأجياد أبياتها فرائد المَعانى المستخْرَجةَ من بحر فكره علىٰ يَدِ يراعه المُريع ، وقلدها من دُرَر لفظه بمـا هو أزهىٰ من زَهْر الزُّهْر علىٰ نهر المَجرة وهالات البُدُور ، وشَنَّفَ المسامعَ منها بمـا هو أبْهىٰ من النور فى العُيون وأوقعُ من الشفاء فى الصُّدور ، وأوْلج الليل فى النهار بما طَرّس به الطُّروس ، وأطلعَ فى ذلك الليل من ناصع معانيه نجومًا تزْهى علىٰ الشموس ، وأوْدعَ المَهارِقَ(١) شُـذُورا تُزَيِّف ذهب الأصائل ، وتُسْفِر عن وجوهٍ حِسان تفوق آبْتسامَ ثُغورالأزاهر بين الخمـائِل ، وسلك فى البـديع طريقة مُثْـلىٰ ، أظهر فيها من شَهْد ألفاظه وجواهر مَعانيـه ماحَلا وحَلّى ، ولم يَدَع للحِلِّىّ فى بهجتها محلّا ، وأحسن التذييل والترشيح والتهكم عليه ، من غير آلتفات لمـا أهمله ولم يتعرّض إليه ، وعادت المعانى تأوِى من حُسْن تصرفه إلىٰ ركنٍ شديد ، وتحْوى بشَبَا أقلامه كل مارامه من تأبيد التأييد ، وتلقِى مقاليدَها منه إلىٰ ملىّ بحسن التحيُّل والتحوُّل فى نظمه ونثره ، وتحكم لمن حَكَم له بكمال وصفه ووَصْف كماله بأنه نسيجُ وحدِه وفريد عصرِه ، وأجرىٰ فى حَلْبة البديع جيادَ أقلامه فحاز قَصَب الرِّهان ، وأصفىٰ لها موارد النَّفْس فارتوت وآستخرجَتْ من ظُلُمـاته جواهِرَ البيان ، ونطقَتْ بمـا هو

(١) المهرق كمكرم الصحيفة معرب جمعه مهارق . قاموس .

المألوف من غرائب حِكَمِه الحسان ؛ وتأملتها فوجدتُها قد أجاد فيها براعة المَطْلَع ، وبالغَ فى تحسـين المَنْزَع والمَقْطَع ؛ ودخل جِنان الجناس فاجتنىٰ من قُطوفها الدانية ماراق ، وٱطَّردتْ له أنهارُها فٱسـتطرد منها فى أعلىٰ الطِّبَـاق ؛ وقابل وجوهَ حُورها أحسن المقابله ، آمنًا فيها من الاشتراك والمماثله ؛ وأوضح الفُروق بين التَّوْرِيَة والإبهام ، والتوجيه والاستخدام ؛ وأبان فى التتميم نقصَ أبى تَمَّـام ، وأوجب فى إبهامه عقدَ الخناصر علىٰ نظمه ، وفوّض بنزاهته التسليمَ له وطلبَ سِلْمِه ؛ ولم يقنع بمـا فيه الاكتفاء من التذييل والتذنيب ، بل أتىٰ فى الاسـتدراك علىٰ من تقدّمه بالعَجَب العَجيب ؛ معتمدًا فى تكميـل مقاصـده الاقتصار والإيجاز ، ولو ادّعىٰ الإعجاز علىٰ الحقيقة لا المجاز لجاز ؛ وتحققتُ أن ليس له فى هذا الفن مُقاوٍ ولا مقاوم ، ولا مساوٍ ولا مساوم ؛ فكم جلب من بحر براعته دُرّة أشرقت فى ليالى الفترة المسودّة ، وكم حلب من ثدى يراعتـه دِرّة(١) لهـا ألف زُبْده ؛ وكم بلغ الناظر من وصف بيانه مجمع البحرين ، وسمع ورأىٰ من فصـله الجزل وفضـله الجزيل ماهو عين المراد ومراد العيـن ؛ وكم جلا من عرائس أفكاره وٱبتكاره صَـبَاحَ الوجوه الصِّباح ، وخَفَق فى الخافقين لمَقاصـده وبصائره جَناحُ النجاح . قد أصبحت كلمـاتُه لحُصور الفرائد مَناطق ، ولبـدُور الفوائد مَشارق ؛ ولطلائع أسرار المَبَانى ، آلات ، ولمَطالع أقمـار المعانى ، هالات ؛ وقد وقعتُ حين وقفْتُ علىٰ بديعيته هـذه بين داءين كل منهما الأخطر ، وبين أمرين أَمَرَّيْن كل منهما الأعسر ؛ إن لم أكتبْ عليهـا شيئا فقد أخللت بالفرض الواجب ، وإن كتبتُ فقد فضحتُ نفسى وعرّضتها للمعـايب ؛ ولكنى رُحت علىٰ ظَلْعى متحاملا ، وغدوتُ علىٰ حسب طاقتى فى هذا الباب قائلا :

---

(١) الدرة بالفتح المرة وبالكسر هيئة الدر وكثرته . مصباح [وقد أعجم الذال فى الأصل وهو من إهمال الناسخ كما هو ظاهر] .

عَاشَ البَدِيعُ وكانَ مَيْتًا وٱنثنىٰ * بادِى المَحاسِنِ زاهِيًا مَحْروسَا
أحياه عيسىٰ نجلُ حَجَّاجٍ وكَمْ * مِنْ مَيِّتٍ أحْياه قِدْما عِيسىٰ

النــوع الســادس

(حفظ كتاب الله العزيز، وفيه مقصدان)

المقصــد الأوّل

(فى بيـان آحتياج الكاتب إلىٰ ذلك فى كتابته)

قال فى "حسن التوسـل" ولا بد للكاتب من حفظ كتاب الله تعالىٰ، وإدامة قراءته، وملازمة درســه، وتدبر معانيـه، حتّى لا يزال مصوّرا فى فكره، دائرا علىٰ لسانه، ممثلا فى قلبه ليكون ذاكرا له فى كلامه وكل مايرد عليه من الوقائع التى يحتاج إلىٰ الاستشهاد به فيها، ويفتقر إلىٰ قيـام قواطع الأدلة عليها ﴿فَلِلّٰهِ الحُجَّـةُ البالِغَةُ﴾ وكفىٰ بذلك مُعِينا له علىٰ قصده، ومُغْنيا له عن غيره. قال تعالىٰ ﴿مافَرّطْنا فى الكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقال جل وعز ﴿تِبياَنًا لِكُلِّ شىء﴾. قال فى "المثل السائر" كان بعضهم يقول: لو ضاع لى عِقَال لوجدته فى القرءان الكريم. قال فى "حسن التوسل" وقد أخرج من الكتاب العزيز شواهدُ لكل مايدور بين الناس فى محاوراتهم، ومخاطباتهم، مع قُصور كل لفظ ومعنًى عنه، وعجز الإنس والجن عن الإتيان بسورة من مثله — كما حكى أن سائلا سأل بعض العلماء أين تجد فى كتاب الله معنىٰ قولهم "الجارُ قبلَ الدار"؟ قال فى قوله تعالىٰ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا ٱمْرأَتَ فِرْعَوْن إذْ قالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لى عِنْدَكَ بَيْتًا فِى الجَنَّةِ﴾ فطلبت الجار قبـل الدار، ونظائر ذلك كثيرة.

وقد اختُلف في جواز الاستشهاد بالقرءان الكريم في المكاتبات ونحوها : فذهب أكثر العلماء إلىٰ جواز ذلك مالم يُحَلْ عن لفظه ولم يتغير معناه . فقد ثبت في الصحيح : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كَتَبَ في كِتَابِهِ إلىٰ هِرَقْلَ ﴿ قُلْ يٰـأَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إلىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ إلىٰ قوله مسلمون ؛ و روى ذلك عن غير واحد من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم ، فكتب أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه في عهده لعمر بن الخطاب ﴿ وِلِكُلِّ ٱمْرِئٍ ما ٱكْتَسَبَ مِنَ الإِثْمِ . وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ علىٰ ما سيأتى في ذكر عهود الخلفاء عن الخلفاء إن شاء الله تعالىٰ . وكتب علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه في آخر كتاب إلىٰ معاوية "وقد علمتَ مواقعَ سُيُوفنا في جَدِّك وخالك وأخيك ﴿ وَمَاهِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ . وقال للمغيرة ٱبن شعبة لما أشار عليه بتولية معاوية ﴿ وما كُنْتُ مُتَّخِذَ المُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾ . وكتب إلىٰ عامل من عُمَّاله بعد البسملة ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ ولا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ . وقال الحسن بن علىّ لمعاوية حين نازعه في الخلافة ﴿ وإنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ ومَتَاعٌ إلىٰ حِينٍ ﴾ . ويروى عن ٱبن عباس مثلُه . وكتب الحسن إلىٰ معاوية : أما بعد فإن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رحمةً للعالمين وكافَّةً للناس أجمعين ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ عَلَىٰ الكَافِرِينَ ﴾ . وكتب محمدُ بن عبد الله بن الحسن بن علىٍّ إلىٰ المنصور في صدر كتاب ﴿ طسم تِلْكَ ءاياتُ الكِتَابِ المُبِينِ ، نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴾ . ولم يزل العلماء وفضلاء الكتَّاب يستشهدون بالقرءان الكريم في مكاتباتهم في القديم والحديث ، من غير نكير ، وذلك كله دليل الجواز . ونقل عن الحسن البصرىّ ما يدل علىٰ كراهة ذلك

حيث بلغه أن الحجاج أنكر علىٰ رجل ٱستشهد بآية فقال : أنسى نفسه حين كتب إلىٰ عبد الملك بن مروان : بلغنى أن أمير المؤمنين عَطَس فشمَّته مَنْ حضر فردّ عليهم ﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ . قال فى "حسن التوسل" : وإذا صحت هذه الرواية عن الحسن فيمكن أن يكون إنكاره علىٰ الحجاج لكونه أنكر علىٰ غيره ما فعله هو . وذهب بعضهم إلىٰ أنّ كل ماأراد الله به نفسه لا يجوز الاستشهاد به إلا فيما يضاف إلىٰ الله سبحانه مثل قوله ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ وقوله ﴿ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ونحو ذلك ممـا يقتضيه الأدب مع الله تعالىٰ .

فأما تغيير شىء من اللفظ أو إحالة معنًى عما أريد به فلا يجوز بحال .

قال فى "المثل السائر" وإذا ضُمِّنت الآياتُ فى أماكنها اللائقة بها ، ومواضعها المناسبة لهـا ، فلا شبهة فيما يصـير للكلام من الفَخَامة والجزالة والرونق . قال فى "حسن التوسل" : ومِن شرفِ الاستشهاد بالقرءان الكريم إقامةُ الحجة ، وقطعُ النزاع ، وإذعانُ الخصم . قال فى "حسن التوسل" : وأين قول العرب — القَتْلُ أنفىٰ للقتل — لمن أراد الاستشهاد فى هذا المعنى من قوله تعالىٰ ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ . وقد روى أن الحجاج قال لبعض العلماء : أنت تزعم أن الحسين من ذرّية رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتنى علىٰ ذلك بشاهد من كتاب الله تعالىٰ وإلا قتلتك فقرأعليه ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ ﴾ فعيسى ٱبن بنتـه فأسكت الحجاج . وأيضا فإن الآية الواحدةَ تقوم فى بلوغ الغرض ، وتوفيَة المقاصد مالا تقومُ به الكتب المطوّلة والأدلة القاطعة .

فمن أخْصَر ماوقع فى ذلك وأبلغ أنه كان علىٰ الروم بهِرَقْلَةَ فى أيام الرشـيد ٱمرأةٌ منهم ، وكانت تُلاطفُ الرشـيدَ ولها ٱبن صغير ، فلما نشأ فوضتْ الأمر إليه فعاثَ

وأفسدَ وخاشَنَ الرشيد؛ فخافَتْ علىٰ مُلْك الروم فقتلَتْ ولدَها، فغضب الروم لذلك، فخرج عليها رجل منهم يقال له يَقْفُور فقتلها وآستولىٰ علىٰ المُلْك وكتب إلىٰ الرشيد: أما بعد، فإن هــذه المرأةَ وضــعَتْك موضِعَ الشاه، ووضعَتْ نفسَها موضعَ الرُّخّ، وينبغي أن تعلَمَ أني أنا الشاه وأنت الرُّخّ فأدّ إلىَّ ما كانت المرأةُ تؤدّي إليك! فلما قرأ الكتاب. قال للكُتَّاب: أجيبُوا عنه فأتَوْا بمـا لم يَرْتضه، وكان الرشيد خطيبا شاعرا. فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلىٰ يَقْفُور كلبِ الروم. أما بعدُ، فقد فهِمت كتابَكَ، والجوابُ ما تراه لا ماتسمَعُه، والسلام علىٰ مَنِ آتّبَع الهُــدىٰ.

ثم خرج في جمع له لم يُسمَع بمثله فتوغَّل في بلاده وفتك وسبىٰ. فأوقد يَقْفُور في طريقه نارا شديدةً فخاضها محمد بن يزيد الشيباني، وتبعه الناس حتّى صاروا من ورائها؛ فلمـا رأى يقفُور أنه لا قِبَـلَ له به، صالحه علىٰ الجزية يؤدّيها عن رأسه وعن سائر أهل مملكته.

وكتب ملك الروم إلىٰ المعتصم يتوعَّدُه ويتهدّده فأمر الكتّاب أن يكتبُوا جوابه فلم يُعْجِبه ممـا كتبوا شيء فقال لبعضهم اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم أما بعــد، فقد قرأت كتابك، وفهمت خطابك، والجوابُ ما ترى لا ماتسمع (وسَيَعْلَمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقْبىٰ الدار). هذا مع ماينسبُ إليه المعتصم من ضعف البَصَر بالعربية كما تقدّم في الكلام علىٰ اللغة. ولا يستكْثَرُ مثلُ ذلك علىٰ الطبع السليم، والرجوع إلىٰ سلامة العُنْصُر وطِيب المَحْتِد.

ومثل ذلك في الجواب وأخصر منه أنَّ الأدفونش ملك الفرنج بالأَنْدَلس. كتب إلىٰ يعقوب بن عبد المؤمن أمير المسلمين بالأندلس، بخط وزيرله يقال له

آبن الفخار : بآسمك اللهمَّ فاطِرَ السموات والأرض والصلاة علىٰ السيد المسيح آبن مريم الفصيح ، أما بعدُ: فلا يخفىٰ علىٰ ذى ذهنٍ ثاقب ، وعقل لازِب ، أنى أميرُ الملة النصرانية ، كما أنك أمير الملة الحنيفية ، وقد علمتم ماهم عليه رؤساءُ جزيرةِ الأندلُس من التخاذُل والتواكُلِ والإخلاد إلىٰ الراحة وأنا أسُومُهم الخسف وأُخْلِي منهم الديار ، وأجُوسُ البلاد ، وأَسْبِي الذرارىّ ، وأقتُل الكهولَ والشُّبّان لايستطيعون دفاعا ، ولا يُطِيقون آمتناعا ، فلا عذر لك فى التخلف عن نَصْرهم ، وقد أمكنَتْك يدُ القدرة ، وأنتم تعتقدون أن الله عز وجل فَرَض عليكم قِتال عشرةٍ منا بواحد منكم ، والآن خَفَّف اللهُ عَنْكُمْ وعَلِم أنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فلتُقاتِلْ عشرة منكم الواحدَ منا ؛ ثم بلغنى أنك أخذْتَ فى الآحتفال ، وأشرفْتَ علىٰ ربوة الإقبال ، وتُماطِل نفسك عاما بعد عام : وأراك تُقَدِّم رجلا وتؤخِّر أخرىٰ ؛ ولست أدرى إن كان الجُبْنُ أبطاك أو التكذيبُ بما أنزل عليك ربُّك ؛ ثم حُكِي لى أنك لا تجد إلىٰ الجواز سبيلا لعلة لا يجوز لك التفخم[1] به معها ؛ فأنا أقول ما فيه الراحةُ لك ، وأعتذِرُ لك وعنك ، علىٰ أن تفِي لى بالعُهود والمواثيق والآستكثار من الرهن ، وترسل إلىّ بجملة من عبيدك بالمراكب والشَّوانى ، وأجُوز بجُملتى إليك ، وأبارزك فى أعز الأماكن عليك ؛ فإن كانتْ لك فغنيمةٌ وُجِّهتْ إليك ، وهديَّة عظيمة مَثَلتْ بين يديك . وإن كانتْ لى كانت يدى العُليَا عليك وأستوجب سيادة الملتين ، والحكم علىٰ الدِّينَيْن ، والله تعالىٰ يسهِّل ما فيه الإراده ، ويوفق للسعاده ؛ لارب غيره ، ولا خير إلا خيره .

فكتب رحمه الله جوابا علىٰ أعلىٰ كتابه ﴿ آرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ .

(١) كذا فى الأصل بالفاء والخاء المعجمة ويظهر أنه تصحيف عن التقحم بالقاف والحاء المهملة والتقحم فى الشيء الاقدام عليه من غير روية ولا تدبر وتأمل .

ونظير ذلك أن السلطان صلاحَ الدين يوسفَ بن أيوب كتب إلىٰ الديوان العزيز ببغـداد كتابا يعدّد فيـه موَاقِفه فى إقامة دعوة بنى العبـاس بمصر . فكُتِب جوابه من ديوان الخلافة ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَـانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

المقصـــد الثـانى

(فى كيفية ٱستعمال آيات القرءان الكريم)

وٱعلم أن تضمين الكلام بعضَ آى القرءان الكريم ينقسم عنـد أهل البلاغة إلىٰ قسميـن :

أحدهمـا ـــ الٱستشهادُ بالقرءان الكريم ، وهو أقلهما وُقُوعا فى الكلام ودَوَرانا فى الٱستعمال : وهو أن يضمَّن الكلام شيئا من القرءان الكريم وينبه عليه مثل قول الحريرى فى مقاماته : فقلت وأنت أصدق القائلين ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ . وقول أبى إسحاق فى عهدٍ لملك عن خليفةٍ بعد الأمر بالتقوى والحثّ عليها : فإذا ٱطّلع الله منـه علىٰ نَقاء جيبه ، وطَهارة ذيلِه ، وصِحّة مرُوءته ، وٱستقامة سيرته ، أعانه علىٰ حفظ ما ٱستحفظه ، وأنهضه بثِقْل ما حمله ؛ وجعل له مخلصا من الشُّبْهة ، ومَخْرجا من الحَيْرة . فقـد قال الله تعالىٰ ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ وقد قال الله تعالى عز وجل ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وقال عز ٱسمه ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ إلىٰ آيٍ كثيرة حضّنا بهـا علىٰ كَرَم الخُلُق ، وأَسْـلَم الطُّرُق ؛ فالسعيد من نَصَبها رأْى ناظره ، والشقىُّ مَن نبذَها وراء ظهره ، وأشقىٰ منه من يَحُثُّ عليها وهو صادفٌ عنها ، فأجاب إليها وهو بعيد منها . وله ولأمثاله يقول الله عز وجل ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ

وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أفلا تَعْقِلُونَ ﴾ وأكثرُ مشى الصابى فى كتابه علىٰ هذا الأسلوب من الاستشهاد، والتنبيه علىٰ آى القرءان فى خلال كلامه، دون الإشارة إليه؛ والاقتصار علىٰ اقتباس معناه .

ومن ذلك قول علاء الدين بن غانم من خطبة قَدْمة(١) كَتَب بها لمظَفَّر الدين موسى بن أقوش وقد صَرَع لَغْلَغَة، وادَّعىٰ بها للملك المؤيَّد صاحب حماه : نحمده علىٰ توفيقه الذى ساد به من ساد وسما، وأصاب بتَفْويقه بمعونة ربه طيرَ السما، فحُسن أن يتلىٰ ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمىٰ ﴾ .

ومن ذلك قولى فى المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء، فى الكلام علىٰ فضل الكتابة : فقد نطق القرءان الكريم بفضلها، وجاءت السُّنَّة الغرّاء بتقديم أهلها، فقال جل ثناؤه، وتقدّست أسماؤه ﴿ اقْرأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْلَمْ ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه عَلَّم بالقلم، حيث وصف نفسه بالكرم، إشارة إلىٰ أن تعليمها من جزيل نعمه، وإيذانا بأن مَنْحَها من أوفر جوده وفائض دِيَمه؛ وقال جلت قدرته ﴿ نۤ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فأقسم بالقلم، وما سطرته الأقلام، وأتىٰ بذلك فى آكد قسم، فكان من أعظم الأقسام . وقال جلّت عظمته ﴿ وإنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ . فجعل الكتابةَ من وصف الكِرام، كما قد جاء فِعلُها عن جماعة الأنبياء عليهم السلام، وإنما مُنعها النبيُّ صلى الله عليه وسلم معجزةً قد بين الله تعالى سببها، حيث ذكر أخبارهم بقوله ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ﴾ .

وقولى من هذه المقامة فى التعبير عن المقرّ البدرى بن فضل الله :

(١) أى ان الخطبة عملت لتقال تحية لقدوم المظفر بعد صرع العدو المسمى لغلغة .

قلت حَسْبُك قد دلنى عليه عُرْفه ، وأرشدَنى إليه وَصْفُه ؛ وبان لى مَحْتِدُه الفاخر وحَسَبُه الصميم ، وعرفت أصلَه الزاكِىَ وفرعَه الكريم ﴿ ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيــمِ ﴾ .

وقولى فى آختتام هــذه المقامة معبرًا عن المقرّ البدرىّ المشار إليه : فلما تحقَّقت أنى قد أُثبتُّ فى ديوانه ، وكنت من جُمــلة غِلْمــانه ، رجعْتُ القهقرىٰ عن طلب الكسب ، وتساوىٰ عندى المَحْل والخِصْب ؛ فآستغنَيْتُ بنظَرى إليه عن الطعام والشراب ، وتحققْت أن نظرة منه تُرَقِّينى إلىٰ السحاب ، وتلوتُ بلسان الصدق علىٰ الملإ وهم يســمعون ﴿ قُلْ بِفَضْــلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِــه فَبِذَٰلكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَــيْرٌ مِمَّــا يَجْمَعُون ﴾ .

وقولى فى بَيْعة خليفة أنشأتُها بعد ذكر تحاليف أهل البَيْعة : وَأَشْهَدُوا عليهم بذلك مَنْ حضر مجلسَ العقد من الأئمــة الأعلام ، والشهود والحُكَّام ، وجعــلوا الله علىٰ ما يقولون وكيلا ، فآســتحق عليهــم الوفاء بقوله تعــالىٰ ﴿ ولا تَنْقُضُوا الْأَيْمَــانَ بَعْدَ تَوْكِيدها وقَدْ جعلْتُمُ اللهَ عليــكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وهم يرغَبون إلىٰ الله تعــالىٰ أن يُضاعف لهم بحسن نيتهم الأُجور ، ويلجَــئُون إليه أن يجعل أئمتهم ممن أشار تعالىٰ إليه بقوله ﴿ الَّذِينَ إنْ مَكَّنَّاهُمْ فِى الْأَرْضِ أقامُوا الصَّــلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ ونَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وللهِ عَاقِبَةُ الأُمُور ﴾ .

وقولى فى بيعة أخرىٰ : والله يجعل آنتقالَهم من أدنىٰ إلىٰ أعلىٰ ، ومن يُسرىٰ إلىٰ يمنىٰ ، ويحقّق لهم بمن آســتخلفه عليهم وعدَه الصادق بقوله تعــالى ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا منْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَــاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الْأَرْضِ كَمَا آسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى آرْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

الثاني — الاقتباس وهو أن يضمّن الكلام شيئا من القرءان، ولا ينبه عليه : كقوله فى خطبة "التعريف" : نحمده على فواضلَ زادت محاسنَ العلوم . وعرَّفتْ تفاوت درجات الأولياء اذ قالوا ﴿ وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴾ . وقوله بعد ذلك : وسماء الشبيبة بضحى المَشيب قد تجلّت، والنفسُ قد ﴿ أَلْقَتْ ما فِيهَا وتَخَلَّتْ ﴾ .

وقول ابن نباتة السعدى فى بعض خطبه : فيأيها الغَفَلة المُطْرِقون . أما أنتم بهذا الحديث مُصَدِّقون . مالكم لاتسمعون . ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾ . وقوله يوم يبعث الله العالَمين خَلْقا جديدا، ويجعل الظالمين لنار جهنم وَقُودا . يوم تكونوا (١) ﴿ شهداء على الناس ويَكُونَ الرَّسُولُ عليكم شهيدا ﴾ . ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ﴾ .

وقول غيره : أتظنون أنكم دون غيركم مخلَّدون ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقول الحريرى : فلم يكن ﴿ إلا كَلَمْحِ البَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ﴾ . حتّى أنشد فأغرب . وقوله : ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ ﴾ . وأميز صحيح القول من عليله .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى فصل من كتاب فى مدح الجُود وذمّ البخل : وقد علم أن المال الذى يُخْتَزَن ، كالماء الذى يُحْتَقَن ، فكما أن هذا يَأْجُنُ بتعطيل الأيدى عن امتياح (٢) مَشارِبه . فكذلك يأجُنُ هذا بتعطيل الأيدى عن امتناع مَواهبه . وأىّ فرق بين وُجوده وعدمه لولا أن تُمْلَكَ به القلوب . وتُفَلَّ به الخُطُوب . ويُرْكَبَ به ظهرُ العزم الذى ليس برَكُوب ؛ ومن بسطَ يده فيه ثم قبضها بُخْلُه ، فإنه

(١) فى الضوء . ثم تكونون شهداء الخ .
(٢) لعله امتناح بالحاء المهملة .

يقف دون الرجال مغْمُورا . ويقْعُد عن نيل المَعـالِي محسورا . وإذا أدركته منيَّتُه مضىٰ وكأنه لم يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُورا * وقوله فى وصف كاتب : له بنتُ فكرٍ ما تمخَّضتْ بمعنًى إلا نُتِجتْه من غيرِ ما تُمهِله . و﴿أتَتْ به قَوْمَها تحمِلُه﴾ . ولم تُعْرَض علىٰ مَلإٍ من البلغاء إلا ألْقَوْا أقلامَهُم أيُّهم يستعيرُه لا أيُّهم يكفله .

وقول الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى من عهد لسلطان : وجمع بك شَمْلَ الأمة بعد أن كادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهم ، وعَضَدك(١) لإقامة إمامتِه بأولياءِ دولتِك الذين رضى الله عنهم ، وخصَّك بأنصارِ دينِه الذين نَهَضُوا بِمـا أُمِروا به من طاعتك وهم فارهون ﴿ وقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جاءَ الحَقُّ وظَهَـرَ أَمْرُ الله وهم كارِهُون ﴾ . وقوله من عهد السلطان الملك المنصور لاچين : وجعل عدوّه وإن أعرض بجيوش الرُّعْب محصورا . وكفاه بالنصر علىٰ الأعداء التوغُّلَ فى سـفك الدماء فلم ﴿ يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إنَّهُ كانَ مَنْصُورا ﴾ . وقوله فى خطبة صداق فى وصف نكاح : وأحيا به الأمم وقد قضىٰ دينهم . وجمع بين متفرّقِينَ ﴿لَوْ أنْفَقْتَ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ماأَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِـمْ ولَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾. وقوله من توقيع بإمامة صـلاة : وليعلم أنه فى المحراب مُنَاجٍ لربه . واقفٌ بين يدَىْ من ﴿ يَحُولُ بَيْنَ المَرْءِ وقَلْبِه ﴾ .

وقولى فى خطبة هـذا الكتاب فى الإشارة إلىٰ فتح الديار المصرية : فتوجَّهَتْ إليها عزائم الصحابة زمنَ الفاروق فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيارِ ، وَعْرَها وسهلها . واقتطعتْها أيدى المسلمين من الكُفَّار ، وكَانُوا أحَقَّ بِهَـا وأهْلَها . وقولى فى المقامة المتقدّمة الذكر : قال إذَنْ قد تعلَّقتَ من الصنعة بأسبابها . وأتيتَ البيُوت مِنْ أبوابِهـا . وقولى فيها : قلت قد بانت لى عُلُومها . فمـا رُسُومها؟ — قال إن أعباءها لباهظة حِملا . وإنَّها لَكبِيرةٌ إلا . ولكن سأُحْدِثُ لَكَ ذِكْرا . وأُنبِّئُكَ بِما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرا .

(١) هو من باب نصر بمعنى أعانك .

وقولى فى المفاخرة بين السيف والقلم فى الصلاة علىٰ النبى صلى الله عليه وسلم : صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين قامت بنُصْرتِهم دولةُ الإسلام فسمَتْ بهم على سائر الدول . وكَرَعتْ فى دماء الكفر سيوفُهم فعادت بخَلُوق النَّصر لا بحُمْرة الخَجَل . صلاة ينقضى دون ٱنقضائها تعاقُبُ الأيام . وتَكِلُّ ألسِنة الأقلام عن وصفها وَلَوْ أَنَّ مَا فِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرةٍ أَقْلَام .

وربما ٱقتصر علىٰ التلويح والإشارة خاصة : كقول القاضى الفاضل فيما كتب به عن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب إلىٰ الديوان العزيز ببغداد فى ٱلٱستصراخ وتهويل أمر الفرنج : رَبِّ إنِّى لا أَمْلِكُ إلَّا نَفْسِى ، وها هى فى سبيلك مبذوله ، وأخِى وقد هاجر إليك هِجْرة يرجوها مقبوله .

وقول ضياء الدين بن الأثير فى وصف غُبار الحرب : وعقَدَ العجاجُ سقفا فانعقد . وأرانا كيف رفع السماء بغَيْر عَمَد . غير أنها سماء بُنيتْ بسَنابك الجياد . وزينت بنُجوم الصِّعاد . ففيها ما يُوعَد من المنايا لا ما يُوعَد من الأرزاق . ومنها تُقذَف شياطينُ الحرب لا شياطينُ الٱستراق .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله : "والطريق فى ٱستنباط المعانى من القرءان الكريم وٱستعمال الآيات فى خلال الكلام أن تعمِدَ إلىٰ سورة من القرءان ، وتأخُذ فى تلاوتها وكلما مرَّ بك معنًى أثبتَّه فى ورقة مفردة حتّٰى تنتهى إلىٰ آخرها ، ثم تأخُذ فى ٱستعمال تلك المعانى التى ظهرت وإدخالها فى خلال الكلام وكلما عاودت التلاوة وكررتها ظهر لك من المعانى مالم يظهر لك فى المرّة التى قبلها" .

ولتعلم أن الآية الواحدة قد تقع فى الٱستعمال علىٰ عدَّة وجوه يورده الناثر فى معنى ثم ينقله لمعنًى آخر غيره كما فعل ضياء الدين بن الأثير فى قوله تعالىٰ حكاية

عن يوسف عليه السلام ﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ . فقال فى دعاء كتاب : وصل كتاب من الحضرة السامية أحسن الله أثرها ، وأعلىٰ خَطَرها ، وقضىٰ من العلياء وطَرها ، وأظهر علىٰ يدها آياتِ المكارم وسُوَرَها ، وأسجد لها كواكب السيادة وشمسَها وقمرها . ثم أبرزه فى معنى آخر فقال أكرمُ النعم ما كان فيه ذكرىٰ للعابدين . وتقدّمه إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَعَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ . فهذه النعمة هى التى تأتى بتيسير العسير . وتجلو ظُلمة الخَطْب بإيضاح المنير . فٱنظر إلىٰ أَثَرِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . ثم نقله إلىٰ معنًى آخر فقال من تقليد يكتب من ديوان الخلافة لبعض الوزراء : وقد علم أن أمير المؤمنين أدنىٰ مجلسه من سمائه ، وآنسه علىٰ وحدة الأنفراد بحُفَّل نَعمائه . ورفعه حتّٰى ودّت الشمس لو كانت من أترابه والقمر لو كان من نُدَمائه . وذلك مقام لا تَستطيع الجُدود أن ترقىٰ إلىٰ رتبته . ولا الآمال أن تَطُوفَ حول كعبته ، ولا الشِّفاه أن تتشرَّف بتقبيل تُرْبته . فليَزْدَدْ إعجابا بما نالَته من مواطئ أقدامه ، ولينظُرْ إلىٰ سجود الكواكب له فى يَقَظته لا فى منامه .

قال فى "حسن التوسل" والناس فى ٱستخراج المعانى من القرآن الكريم ، وٱستعمالها فى الكلام علىٰ قدر طبقاتهم وتفاوُت درجاتهم . فمفرط فى الحسن ومفرّط وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم .

قلت : وكما يحتاج الكاتب إلىٰ حفظ كتاب الله تعالى والعلم بتفسيره ليقتبس من معانيه كذلك يحتاجُ إلىٰ معرفة العلوم المختصَّة به كالعلم بالقراءات السبع والشواذ ، ومعرفة رجالها ، ومن ٱشتهر منهم وعرف بجودة القراءة ، ومعرفة أعيان المفسرين ورءوسهم ، ليماثل بأفاضلهم ويقايس بأعيانهم ، فى خلال ما يعرض له من الكلام

مطابقا لذلك كما قال فى "التعريف" فى وصية مقرئ فى القسم الثالث من الكتاب : وليدُمْ علىٰ ماهو عليه من تلاوة القرءان، فإنه مصباح قلبه . وصَلاح قُرْبه، وصَباح القبول المؤذن له برضا ربه؛ وليجعل سُوَره له أسوارا، وآياته تظهر بين عينيه أنوارا . وليتل القرءان بحروفه وإذا قرأ ٱستعاذ، وليجمَعْ طُرُقه وهى التى عليها الجمهور ويترك الشواذّ . ولا يرتَدّ دون غاية لإقصار، ولا يقِفْ فبعد أن أتمَّ لم يبق بحمد الله إحصار، وليتوسع فى مذاهبه ولا يخرج عن قراءة القراء السبعة أئمة الأمصار، وليبذل للطلبة الرِّغاب ، وليُشْبع فإنَّ ذوى النَّهْمة سِغاب . ولْيُرِ النـاسَ ما وهبه الله من الاقتدار فإنه ٱحتضن السَّبع ودخل الغاب ، وليتَّم مبانِىَ ما أتم ٱبن عامر وأبو عمرو له التعمير، ولَفَّه الكسائىّ فى كِساه ولم يقلْ جَدّى ٱبنُ كثير، وحُمَّ به لحمزة أن يعودَ ذاهب الزمان، وعرف أنه لاعاصمَ من أمر الله يلجأ معه إليه وهو الطُّوفان، وتدفّق يتفجَّر علمـا وقد وقفت السـيول الدوافع ، وضرَّ أكثرَ قراء الزمان لعدم تفهيمهم وهو نافع، وليُقْبِل علىٰ ذوى الإقبال علىٰ الطلب ، وليأخذهم بالتربيـة فما منهم إلا من هو إليـه قد ٱنتسب . وهو يعلم ما مَنَّ الله عليـه بحفظ كتابه العزيز من النعماء، ووصل سبَبَه منه بحبـل الله الممتدّ من الأرض إلى السماء . فليقدُرْ حقَّ هذه النعمة بحسن إقباله علىٰ التعليم، والإنصاف إذا سئل فعلم الله لا يتناهىٰ وفَوْقَ كلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ .

النـــوع السابع

(الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

قال "فى حسن التوسل" لابد للكاتب من حفظ الكثير من الأحاديث النبوية، والآثار المروية عن الصحابة رضوان الله عليهم؛ وخصوصا فى السير، والمغازى،

والأحكام؛ وتأمُّلِ فصاحتها، والنظر فى معرفة معانيها وغريبهـا ؛ وفقه ما لا بدَّ من معرفته من أحكامها لينفقَ منها علىٰ سَعة، ويستشهدَ بكل شىءٍ فى موضعه، ويحتجَّ بمكان الحجة، ويستدلَّ بموضع الدليل، ويتصرف عن علم بموضوع اللفظ ومعناه، ويبنىَ كلامه علىٰ أصل لا يُزَلْزَل، ويسوق مقاصده إلىٰ سبيل لا يَضِل عنه، فإن الدليل علىٰ المقصِد إذا آستَنَد إلىٰ النص قويت فيه الحجة، وسلَّم له الخصم، وأذعن له المعاند؛ والفصاحة والبلاغة إذا طُلِبت غايتها فإنها بعــد كتاب الله فى كلام من أُوتِىَ جوامعَ الكلم وقال : "أنا أَفْصَحُ مَنْ نَطَق بالضَّاد" .

وقد كان الصدر الأول من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم يحتجون بالحديث، ويستدلون به فى مواطن الخلاف والنزاع، فينقاد الجَمُوح ويستسهل الصَّعْب، وقد رجع الأنصار يوم السَّقِيفة إلىٰ حديث "الأئمَّةُ مِنْ قُرَيْش" حيث رواه لهم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، وأذعنوا له، وبايعوه بعــد ما آجتمعوا إلىٰ سعد بن عُبَادة وقالوا : "مِنَّا أميرٌ ومِنْكُمْ أَمِيرٌ" . علىٰ ما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله . ورجع عمر رضى الله عنــه لحديث النهى عن دُخُول بلد الطاعون فعاد إلىٰ المدينــة بعد أن قارب الشأم حين بلغه أن به الطاعونَ . وقال علىّ رضى الله عنه فى حق الأنصار : "لو زالُوا لَزُلْتُ معهم" لقول رسول الله صــلى الله عليه وسلم : "أَزُولُ مَعَكُمْ حَيْثُ ما زُلْــتُمْ" .

ثم الذى أشار إليه آبن قتيبة فى "أدب الكاتب" أن الأحاديث التى ينبغى للكاتب حفظها الأحاديثُ المتعلقة بالفقه وأحكامه : كقوله صــلى الله عليه وسلم : "البَيِّنةُ علىٰ المُدّعِى . واليَمِينُ علىٰ المدَّعىٰ عليه . والخَرَاج بالضَّمان . وجَرْح العَجْماء جُبَار .

ولا يَغْلَق الرهنُ[1] . والمِنْحة مردودة . والعـارية مؤدّاة . والزَّعيم غارم . ولا وصيَّة لوارث . ولا قَطْعَ فى ثَمر ولا كَثَر . ولا قودَ إلا بحديدة . والمرأة تُعاقل الرجلَ إلىٰ ثلُث ديتها . ولا تعقِلُ العاقلةُ عمـدا ولا عَبْـدا ولا صُلْحا ولا ٱعترافا . ولا طَلاقَ فى إغلاق ، والبَيِّعانِ بالخيار ما لم يتفرّقا . والجارُ أحقُّ بصَـقَبه . والطلاقُ بالرجال والعِـدّة بالنساء . وكنهيه فى البيوع عن المُخابَرة والمحاقَلة ، والمزابَنـة ، والمُعاوَمة ، والثُّنْيا ، وعن ربح ما لم يُضْمَن ، وعن بَيْع ما لم يُقْبض ، وعن بَيْعتَيْنِ فى بَيْعة ، وعن شرطَيْن فى بَيْع ، وعن بَيْعٍ وسَـلَف ، وعن بَيْع الغرر و بيع المُواصفة ، وعن الكالِئ بالكالئ ، وعن تلَقِّى الركبان . وما أشبه ذلك ليغتنى بحفظها وتدبر معانيها عن إطالات الفقهاء " .

قلت : والتحقيق أن حاجة الكاتب لا تختص بأحاديث الأحكام ودلائل الفقه ، بل تتعلق بمـا هو أعم من ذلك خصوصا الحِكَم والأمثـال والسير وما أشـبه ذلك ممـا يكثُرُ الاستشهاد به فى الكتابة والاقتباس من معانيه . قال فى "المثل السائر" : وينبغى أن يكون أوّلَ ما يحفظه من الأخبار ما تضمَّنه كتابُ "الشهاب فى المواعظ والآداب" للقضاعى ، فإنه كتاب مختصر وجميع ما فيـه يستعمل لأنه يتضمَّن حِكَمًا وآدابا ، فإذا حفظته وتدرّبت بٱستعماله ، حصل عندك قوة علىٰ التصرف والمعرفة بمـا يدخل فى الاستعمال وما لا يدخل ، وعند ذلك تتصفَّح كتاب صحيح البخارى ، ومسلم ، والموطإ ، والترمذى ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وغيرها من كتب الحديث ، وتأخذ ما تحتاج إليه ، و "أهْلُ مَكَّةَ أخبرُ بشِعَابِها" . قال والذى تأخذه إن أمكنك

---

(١) الحـديث فى المصباح لا يَغلَق الرهن بمـا فيه . أى لا يسـتحقه المرتهن بالدَّين الذى هو مرهون به .

درســه وحفظه فهو المراد لأن ما لا تحفظه فلست منه على ثقة؛ وإن كان لك محفوظاتٌ كثيرة : كالقرءان الكريم، ودواوين كثيرة من الشعر، وما ورد من الأمثال السائرة، وغير ذلك مما تقدّمت الإشارة اليه وما يأتى ذكره، فعليك بمداومة المطالعة للأخبار، والإكثار من آستعمالها فى كلامك، حتّى ترتقم على خاطرك فتكون إذا آحتجت منها إلى شيء وجدته، وسهُل عليك أن تأتى به آرتجالا؛ فتأمل ذلك وآعمل به . ثم قال وكنت جرّدت من الأخبار النبوية كتابا يشتمل على ثلاثة آلاف خبر تدخل كلها فى الآستعمال، وما زلت أواظب مطالعته مدّة تزيد على عشر سنين، فكنت أُنْهِى مطالعته فى كل أسبوع مرة حتّى دار على ناظرى وخاطرى ما يزيد على خمسمائة مرة وصار محفوظا لا يشذ منه عنى شيء .

المقصـــد الثـانى

(فى بيان كيفية آستعمال الأحاديث والآثار فى الكتابة)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير : وآعلم أن أكثر الأحاديث تدخل فى الآستعمال، ولا يخرج عنه إلا القليل النادر، ولقد دار بينى وبين بعض علماء الأدب فى هـذا الأُسلوب كلامٌ فآستوعره وآستنكره، وقال : هذا لا يتهيأ إلا فى الشيء اليسير من الأخبار النبوية — فقلت لا ؛ بل يتهيأ فى الأكثر منها — فقـال قد ورد عن النبيّ صلى الله عليه وسلم : "أَنهُ آختُصِم إليه فى جنين فقضى على مَنْ أسقطه بغرّةٍ عبد أو أمة" فأين تستعمل هذا؟ فأفكَرت فيما ذكره، ثم أنشأت هذا الفصل من الكلام، وأودعته فيه وهو : "قد كثُر الجهل حتّى لا يقـال فلان عالم وفلان جاهل وضُرِب المثلُ بباقل وكم فى هـذه الصورة الممثَّلة من باقل، ولو عرف كل إنسان قدرَه لما مشى بدنٌ إلا تحت رأسه، ولا آنتصب رأسٌ إلا على بدنه، ولكان صاحبُ العمامة

أحقّ بعمامته وصاحب الرسن أحقّ برسنه . وكنت سمعتُ بكاتب من الكُتّاب كَلِمُه إلىٰ غَثَاثه، وقَلَمُه بُغاثةٌ لا يَستَنْسر وأىُّ بطش لُبُغَاثَه . و إذا وجب الوضوء علىٰ غيره بالخارج من السبيلين، وجب عليه من سُبُل ثلاثه . هذا وهو يدَّعى أنه فى الفصاحة أُمَّة وحده، ومَنْ قُسُّ إيادٍ أو سَحْبانُ وائلٍ عنـده؛ و إذا كُشِف خاطره وجد بليدا لايخرُجُ عن العَمَه والكَمَه، و إن رام أن يستنتجَه فى حينٍ من الأحيان قضى عليه بغرّةٍ عبد أو أمَه؛ وكثيرا مايتقدّم ونقيصتُه هذه علىٰ الأفاضل من العلماء، وقد صار الناس إلىٰ زمان يعلُو فيه حضيضُ الأرض علىٰ هام السماء". فلما أوردته عليه، ظهرت أمارة الحسد علىٰ صفحات وجهه مع إعجابه به وٱستغرابه فيه إياه .

ثم قال : وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث وهو "لاتَدْخُلُ الملائكة بَيْتًا فيه صُورةٌ ولاتمثالٌ" فهذا أين يُستعمل من المكاتبات؟ فتروّيت فى قوله تروّيا يسيرا ثم قلت : هذا يستعمل فى كتاب إلىٰ دِيوان الخلافة، وأمليت عليه الكتاب، فجاء هذا الحديث فى فصل منه، وهو : "إذا أفاض الخادمُ فى وصف وَلَائه، نَكَصَتْ هممُ الأولياء عن مقامه؛ وعلموا أنه أخذ الأمرَ بزِمامه؛ فقد أصبح وليس بقلبه سوىٰ الوَلاء والإيمان، فهذا يظهر أثرُه فى طاعة السِّرّ وهذا فى طاعة الإعلان؛ وما عداهما فإن دخولَه إلىٰ قلبه من الأشياء المحظوره، والملائكة لاتدخُل بيتا فيه تِمْثال ولاصُوره، فليعوّل الديوان العزيزُ منه علىٰ سيف من سيُوف الله يَفْرِى، بلا ضارب؛ ويَسْرِى، بلا حامل؛ ولا يُسَـلُّ إلا بيد حق، ولا يُغْمَدُ إلا فى ظهر باطل . وليَعْلَمْ أن كَرِشَه وعَيْبَتَه فى تضمُّن الأسرار، وأنه أحد سعديْه إذا عُدَّتْ مواقف الأنصار" .

فلما رأىٰ هذا الفصـل بُهِت له وعَجِب منه . قال : ولم أقنع بإيراد الحديث الذى ذكر حتّى أضفتُ اليه حديثا آخر، وهو قول النبى صلى الله عليه وسلم : "الأنصار كَرِشى وعَيْبتِى" .

ثم تضمين الكلامِ شيئًا من الأحاديث علىٰ ما تقدّم فى القرءان الكريم ؛ فينقسم إلىٰ الٱستشهاد والٱقتباس علىٰ ما تقدّم .

فأما الٱستشهاد فهو أن يضمِّن الكلام شيئا من الحديث، وينبه عليه : كقول أبي إسحاق الصابى فى وصية عهدٍ من خليفة لسلطان : وأن يقومَ بما يعقِده الرجل من عَرْض المسلمين ، فإن ذمّته ذمّة جميع المؤمنين ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "المسلِمُون يَسْعىٰ بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ، وهُمْ يَدٌ علىٰ مَنْ سِوَاهُمْ" .

وكما كتب بعض الكُتَّاب فى صدر كِتابٍ لديوان الخلافة : والحمد لله علىٰ أن صار إلىٰ أمير المؤمنين مِيراثُ الطاهرين من آبائه، وخصَّه بما حاز له من جَزِيل الفضل وحِبَائه، وحقَّق للدولة العباسية وعد النبي صلى الله عليه وسلم إذ يقول لعمه العباس رضوان الله عليه "أَلَا أُبَشِّرُكَ ياعَمِّ! بِي خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ وبِوَلَدِكَ تُخْتَمُ الخِلَافة" . وكقوله من عهدٍ آخر : وأمره أن يضَعَ الرصَد علىٰ مَنْ يختار[1] فى الحمالة من أُبَّاق العبيد، والٱحتياط عليهم وعلى ما يكون معهم : إلىٰ أن قال وأن يعرِّفوا اللُّقَطَ ويتَّبِعوا أثرَها، ويُشِيعوا خبَرَها، فإذا حضر صاحبُها وعلم أنه مستوجِبُها، سُلِّمت إليه ، ولم يُعْتَرَض فيها عليه . والله جل وعز يقول : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلىٰ أهلِها ﴾ . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "ضَالَّةُ الْمُؤْمِنِ حَرَقُ النَّار" إلىٰ غير ذلك من الٱستشهادات .

وأما الٱقتباسات فهو أن يضمِّن الكلام شيئا من الحديث ولا ينبِّه عليه .

فمن ذلك ماذكره الحريرىّ فى مقاماته من قوله : وكِتمانُ الفَقْر زَهَاده ، وٱنتظارُ الفَرَج بالصبْرِ عباده . وقوله : شاهَتِ الوُجُوه، وقُبِحَ اللُّكَعُ ومَنْ يَرْجُوه .

وقد أكثر الوزير ضياء الدين بن الأثير من هذا الباب .

(١) لعله على من يجتاز فى العمالة .

فمن ذلك قوله فى دعاء كتاب : "أعاذ اللهُ أيامَهُ من الغِيَر، وبيَّن بخَطَر مجده نَقْصَ كل خَطَر . وجعل ذِكْره زادًا لكل ركب ، وأُنْسًا لكل سَمَر . ومنحه من فضله ما لا عَيْنٌ رأتْ ولا أذنٌ سَمِعتْ ولا خَطَر علىٰ قَلْب بَشَر". أخذ ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم فى وصْف نعيم الجنة "فيهَا ما لَا عَيْنٌ رأَتْ ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَر علىٰ قلبِ بَشَر" فنقله إلىٰ الدعاء .

ومن ذلك ماذكره فى النصر علىٰ العدوّ فى مواطن القتال ، وهو : "أخذنا بسُنَّة رسول الله فى النصر الذى نرجوه ، ونَبَذْنَا فى وجه العدوّ كفًّا من التراب وقلنا شاهت الوجوه ، فثبَّتَ الله ماتزلزل من أقدامنا ، وأقدِمْ حيزُومُ فأغنىٰ عن إقدامنا" .
أخذ المعنى الأوّل من حديث غزوة حنين وأن النبى صلى الله عليه وسلم أخذ قَبْضَةً من التُّراب وألقى بها فى وُجُوه الكفار وقال : "شاهتِ الوجوهُ" . وأخذ المعنى الثانىَ من حديث غزوة بدر : وذلك أن رجلا من المسلمين لاقىٰ رجلا من المشركين وأراد أن يَضْرِبَه فخرّ علىٰ الأرض ميتا قبل أن يصل إليه ، وسمع الرجل المسلم صوتًا من فوقه وهو يقول أَقْدِم حَيْزُومُ فجاء النبىَّ صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال : "ذلك من مَدَدَ السماء الثالثة" .

ومن ذلك ماذكره فى ضِيق مَجَال الحرب ، وهو : "وضاق الضرب بين الفريقين حتّى ٱتصلَتْ مواقعُ البِيض الذُّكور ، وتصافحَتِ الغُرَر بالغُرَر والصُّدورُ بالصدور . وٱستُظِلَّ حينئذ بالسيوف لٱشتباك مَجَالها وتُبوِّئتْ مقاعدُ الجنة التى هى تحت ظلالها" . أخذ ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم "الجنةُ تَحْتَ ظِلَال السُّيُوف" .

ومن ذلك ما ذكره فى وصف بعض البلاد الوخمة ، وهو : "ومن صفاتها أنها مَدَرَة مُسْتَوْبَلة الطينه ، مجموعٌ لها بين حَرّ مكَّةَ ولأْواء المَدينه . إلا أنها لم يؤمن

حَرُّها من الخَطْفه، ولا نُقلت حُمَّاها إلىٰ الجحفه . أخذ المعنىٰ الاوّل من قوله صلى الله عليه وسلم "مَنْ صَبَرَ علىٰ حَرِّ مَكَّةَ ولَأْواءِ المَدينةِ ضمنْتُ له علىٰ الله الجنَّةَ" . والمعنىٰ الثانىَ من قوله صلى الله عليه وسلم فى دُعائه للمدينة : "اللهمَّ حَبِّبْها إلينا كما حَبَّبْتَ إلَيْنا مكَّةَ وآنْقُلْ حُمَّاهَا إلىٰ الجُحْفة" . ورشَّح ذلك بمعنى قوله تعالى ﴿أوَ لَمْ يرَوْا أنَّا جعَلْنا حَرَمًا آمِنًا ويُتَخَطَّفُ الناسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ حيث قال إلا أنها لم يؤمن حَرُّها من الخطفة .

ومن ذلك ماذكره فى وصف كريم ، وهو : " فأغنىٰ بجوده إغناءَ المطر ، وسَما إلى المَعالِي سُمُوّ الشمس وسار فى منازلها مَسيرَ القمر . ونُتِج من أبكار فضائله ما إذا آدّعاه غيرُه قيل للعاهر الحَجَر" . أخذ ذلك من قول النبى صلى الله عليه وسلم "الوَلَدُ لِلْفراشِ ولِلْعاهِرِ الحَجَر" . إلىٰ غير ذلك من مقتبساته المستكْثَره، وآستنباطاته التى هى غير قاصرة ولا مستنكَره .

ومن ذلك ما ذكرته أنا فى المفاخرة بين السيف والقلم، وهو : "وبدأ القلم فتكلَّم، ومضىٰ فى الكلام بصدق عَزْم فما توقَّف ولا تلعْثَم ؛ فقال بآسم الله تعالىٰ أستفتح، وبحمده أتيَمَّنُ وأستنجح ؛ إذ من شأنى الكتابه ، ومن فَنِّى الخَطَابه ، وكلُّ أمرٍ ذى بالٍ لا يُبْدَأُ فيه بآسم الله تعالىٰ فهو أجْذَم ، وكل كلام لا يُفْتَتَحُ بحمد الله فأَساسُه غيرُ مُحْكَم" . أخذت ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم "كُلُّ أمْرٍ ذى بالٍ لا يُبْدأُ فيه باسِمِ اللهِ أوبِحَمدِ اللهِ فهو أجْذَمُ" علىٰ آختلاف الرواية فى ذلك .

وآعلم أنه كما يحتاج الكاتب إلىٰ حفظ الأحاديث والآثار بطريق الذات للآستشهاد بها ، والآقتباس من معانيها علىٰ ماتقدّم بيانه : كذلك يحتاج إلىٰ المعرفة بأنواع الحديث وأقسامها : كالصحيح ، والحَسَن ، والمُرْسَل ، والمرفوع ، والمُسْنَد ، والمتصل ، والمنقطع ، ونحو ذلك . وكذلك المعرفة بأسماء الرجال ، والمشاهير من المحدّثين :

كالبخاريّ، ومسلم، وأبى داود، والنسائى وغيرهم : ليورد ما يحتاج إليه من ذلك فى غُضُون كلامه عند آحتياجه إليه فى كتابة ما يتعلق بذلك من توقيع محدّث ونحوه كما قال فى "التعريف" فى وصية لمحدّث فى قسم الوصايا من الكتّاب "وقد أصبح بالسنة النبوية مُضطلِعا، وعلىٰ ما جمعه طُرُق أهل الحديث مُطَّلعا، وصح الصحيح أن حديثه الحسن، وأن المُرْسَل منه فى الطلب مقطوع عنه كلُّ ذى لَسَن. وأن مُسْنَدَه هو المأخوذ عن العوالى، وسماعه هو المرقص منه طول الليالى. وأن مثله لا يوجد فى نسبه المُعْرِق، ولا يُعْرَف مثله للحافظين : ابنِ عبد البر بالمغرب وخطيبِ بغداد بالمَشْرِق. وهو يعرف مقدارَ طلب الطالب فإنه طال ما شدّ له النِّطَاق، وسعىٰ له سَعْيه وتجشَّم المشاق. ورحل له يشتدّ به حرصه والمطايا مزمومة، ويُنبِّهه له طلبُه والجُفونُ مُقْفَلة والعيون مَهمُومه. ووقف علىٰ الأبواب لا يُضْجِره طولُ الوقوف حتّٰى يؤذَنَ له فى وُلُوجها، وقَعد القُرْفُصاءَ فى المجالس لا تَضِيق به فُرُوجُها. فليعامل الطلبة إذا أتَوْه للفائده معاملةَ من جرّب، وليَبْسُط للأقرباء منهم ويُؤْنِس الغُرَبَاء فما هو إلا ممن طلب آوِنةً من قريب وآوِنة تغرّب. وليُسفِرْ لهم صباحُ قصده عن النجاح، وليَفْتُقْ لهم من عُقُوده الصحاح، وليُوضح لهم الحديثَ، وليُرِحْ خواطرهم بتقريبه ما كان يسار إليه السيْرَ الحثيث، وليؤْتِهم مما وسَّع اللهُ عليه فيه المَجَال، ويعلِّمْهم ما يجب تعليمُه من المُتُون والرجال، ويُبَصِّرْهم بمواقع الجَرْح والتعديل، والتوجيه والتعليل، والصحيح والمعْتَل الذى تتناثر أعضاؤه سَقَما كالعليل. وغير ذلك مما لرجال هذا الشأن به عنايه، وما يُنَقَّب فيه عن دراية أو يُقْنع فيه بمجرّد روايه. ومثله ما يزاد حلما، ولا يعرّف بمن رخَّص فى حديثٍ موضوع أو كتم علما". وسيأتى ذكر هذه الوصية فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ.

وكما قال الشيخ جمال الدين بن نباتة من جملة توقيع لبعض مدرّسى الشام : "ولأنه الحافظ الذى أحيا ذكر ابن نُقْطة بعد ما دارت عليه الدوائر، وأغنىٰ وحده دمشقَ عمن أتىٰ فى النسَب بعساكر" .

النـــــوع الثـامن

(الإكثار من حفظ خُطَب البلغاء، والتفنُّن فى أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان)

المقصـــــد الأوّل

(فى وجه ٱحتيـاج الكاتب إلىٰ ذلك)

قال أبو جعفر النحاس : "وهى من آكد ما يحتاج اليه الكاتب ، وذلك أن الخطب من مستَوْدَعات سرّ البلاغة، ومجامع الحكم ؛ بها تفاخرت العرب فى مَشَاهدهم ، وبها نطقت الخُلَفاء والأمراء علىٰ منابرهم ؛ بها يتميز الكلام ، وبها يُخاطَب الخاصُّ والعامّ، وعلى منوال الخَطابة نُسِجت الكتابه، وعلى طريق الخُطَباء مشَتِ الكُتَّاب . وقد قال أبو هلال العسكرى رحمه الله فى "الصناعتين" : والرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية، وقد يتشاكلان أيضا من جهة الألفاظ والفواصل ، فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكُتَّاب فى السهولة والعذوبة؛ وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل" . قال : "والفرق بينهما أن الخطبة يُشافَه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كلفة" .

واعلم أنه كان للعرب بالخطب والنثر غايةُ الاعتناء حتّى قال صاحب "الريحان والريعان" : إن ماتكلمت به العرب من أهل المَدَر والوبَر من جيِّد المنثور ومزْدَوِج

الكلام أكثر مما تكلمتْ به من الموزون إلا أنه لم يُحفَظْ من المنثور عُشره ، ولا ضاع من الموزون عُشْره . لأن الخطيب إنما كان يخطُب فى المقام الذى يقوم فيه فى مشافهة الملوك ، أو الحالات ، أو الإصلاح بين العشائر ، أوخِطْبة النكاح ؛ فإذا آنقضىٰ المقام حفِظه مَنْ حفِظه ، ونسيه من نسيه . بخلاف الشعر فإنه لايضيع منه بيت واحد . قال : " ولولا أن خطبة قُسّ بن ساعدةَ كان سنَدُها مما يتنافَسُه الأنام ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذى رواها عنه فأطار ذكرها ، ماتميزت عما سواها " .

قلت : وليس ماأشار إليه لرفض النَّثْرعندهم وقلَّة آعتنائهم به ؛ بل لسهولة حفظ الشعر وشيوعه فى حاضرهم وباديهم ، وخاصّهم وعامّهم ؛ بخلاف الخَطَابة فإنه لم يتعاطَها منهم إلا القليل النادر من الفصحاء المَصَاقِع : فلذلك عزّ حِفْظُها وقلّ عنهم نقلُها . وقد كانت تقوم بها فى الجاهلية ساداتُ العرب ، ورؤساؤُهم ممن فاز بقِدْح الفضل ، وسبق إلىٰ ذُرىٰ المجد ، ويخُصُّون ذلك بالمواقف الكرام ، والمَشَاهد العظام ، والمجالس الكريمة ، والمجامع الحَفِيلة ، فيقوم الخطيب فى قومه فيحمد اللهَ ويُثْنِي عليه . ثم يذكر ماسنح له من مُطابق قَصده ومُوافِق طلبه : من وعظ يذكّر أو فخرأو إصلاح أو نكاح ، أو غير ذلك مما يقتضيه المقام .

فمن خُطَبهم فى الجاهلية خطبة كعب بن لؤى جدّ النبي صلى الله عليه وسلم فيما ذكره أبو هلال العسكرى فى كتاب الأوائل . وهى : اسمعُوا وَعُوا ، وتعلَّمُوا تَعْلَموا ، وتَفَهَّمُوا تَفْهَموا ، ليلٌ ساج . ونهارٌ صاج(١) ، والأرض مِهاد ، والجبال أوتاد ، والأوّلون كالآخرين ، كلُّ ذلك إلى بَلاء ، فصِلُوا أرحامكم ، وأصلحوا أموالكم ، فهل رأيتم مَنْ

(١) لعله ضاج من قولهم ضج القوم يضجون اذا صاحوا وجلبوا . وفى الضوء ليل داج ونهار ساج تأمل

هلك رجع، أوميتا نُشِر، الدار أمامكم والظن خلاف ما تقولون، زَيِّنوا حَرَمكم وعظموه، وتمسَّكوا به ولا تُفارِقوه، فسيأتي له نَبأ عظيم، وسيخرج منه نبيٌّ كريم. ثم قال:

نَهارٌ ولَيلٌ واختِلافُ حَوادِثٍ * سَــواءٌ علينا حُلْوها ومَريرُها
يئُوبان بالأحداث حتّى تأوّبا * وبالنِّعَم الضافِي علينا سُتُورُها
صُرُوفٌ وأنباءٌ تقلَّبَ أهلُها * لها عُقَد ما يستحيل مَرِيرها
على غَفْـلةٍ يأتِي النبيُّ محمدٌ * فيُخْبِرُ أخبارًا صَدُوقا خَبِيرُها

ثم قال:

ياليْتَنِي شاهِــدٌ فَحْواءَ دَعْوته ! * حِينَ العَشِيرَةُ تَبْغِي الحَقَّ خِذْلانَا

ومن ذلك خطبة قُس بن ساعدة الإيَادِيّ، بسُوق عُكَاظ فيما نقله أصحاب السِّيَر عن إخبار النبي صلى الله عليه وسلم عنه وهي: أيها الناس! اسمعُوا وعُوا، مَن عاش ماتَ، ومَن مات فات، وكلُّ ماهو آتٍ آت، ليل داج، ونهار ساج، وسماءٌ ذاتُ أبراج، ونُجومٌ، تَزْهَر، وبحار تَزْخَر، وجبال مُرْساه، وأرض مُدْحاه، وأنهار مُجْراه. إنَّ في السماء لَخَبَرًا، وإن في الأرض لَعِبَرًا! مابالُ الناسِ يَذْهَبُون ولا يَرْجِعُون. أرَضُوا فأقامُوا، أم تُرِكُوا فنامُوا. يُقْسِم قُسٌّ باللهِ قسمًا لا إثم فيه إنّ لله دِينًا هو أرضىٰ له وأفْضَــلُ من دينكم الذي أنتم عليه، إنكم لتأتون من الأمر منكرا!. ويروىٰ أن قُسًّا أنشأ بعد ذلك يقول:

في الذّاهِبِينَ الأوّلِيــ * ـنَ من القُرُونِ لَنَا بَصائِرْ
لَمّـا رَأَيْتُ مَــوَارِدًا * للموتِ لَيْس لَهَـا مَصادِرْ
ورَأَيْتُ قَوْمِي نَحْــوَها * تَمْضِي: الأكابِرُ والأَصَاغِرْ
لا يَرْجِــعُ المَـاضِي إلىَّ ولا مِنَ الباقِينَ غَابِرْ
أيقنْــتُ أنِّي لا مَحَـا * لَةَ حَيْثُ صارَ القَوْمُ صَائِرْ

قال صاحب الأوائل : ويروىٰ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "يُعْرَضُ هذا الكلام يوم القيامة علىٰ قُسِّ بن ساعدةَ فإن كان قاله لله فهو من أهل الجنة" .

ومن ذلك خطبة أبي طالب حين خَطَبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم خديجةَ وهي : الحمدُ لله الذي جَعَلَنَا من زَرْعِ إبراهيم ، وذُرّية إسماعيل ، وجعل لنا بيتا مَحْجوجا ، وحَرَما آمنا . ثم إن محمدَ بنَ عبد الله بن عبد المطلب ابنَ أخي مَنْ لا يُوازَن بأحد إلا رجَحَه ، ولا يُعْدَلُ بأحد إلا فَضَله ، وإن كان في المال قُلٌّ فإن المال ظلٌّ زائل ؛ وله في خديجةَ رغبة ولها فيه مثلُها ؛ وما كان من صداق ففي مالِي ؛ وله نَبَأٌ عظيم وخبرٌ شائع .

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم "أيها الناسُ كأنَّ الموتَ فيها علىٰ غَيْرِنا قَدْ كُتب ، وكأنَّ الحقَّ فيها علىٰ غيرنا قد وَجَبْ ، وكأنَّ الذي نُشَيِّع من الأموات سَفْرٌ عمَّا قليلٍ إلينا راجعون ، نبوِّئُهُم أجداثَهم ، ونأكُل من تُراثِهم كأنَّا مخلَّدُون بعدهم ، ونسِينا كُلَّ واعظة وأمِنَّا كلَّ جائحة ، طُوبىٰ لمن شغَله عَيْبُه عن عُيوب الناس ، طُوبىٰ لمَنْ أنفق مالًا آكتسبه من غير معصية ، وجالَسَ أهلَ الفِقْه والحِكْمة ، وخالَطَ أهْلَ الذُّلِّ والمَسْكنة ، طُوبىٰ لمن زكَتْ وحَسُنَتْ خَلِيقَتُه ، وطابَتْ سَرِيرتُه ، وعَزَل عن الناس شرَّهُ ، طُوبىٰ لمن أنْفَقَ الفضلَ من ماله ، وأمسك الفضلَ من قوله ، ووَسِعَتْه السُّنَّة ولم تَسْتَهْوِه البِدْعة !"

ومن خطب أبي بكر الصديق رضى الله عنه فيما ذكره أبو جعفر النحاس في "صناعة الكتاب" وهي : ألا إن أشْقىٰ الناس في الدنيا والآخرة الملوك ، الملك إذا مَلَك زهَّده اللهُ جلّ وعز فيما عنده ، ورَغَّبه فيما في يدَىْ غيره ، وآنتقصه شَطْر أجله ، وأَشْرَب قلْبَه الإشفاق ، وإذا وجبَتْ نفسُه ، ونَضَبَ عمرُه وضَحَا ظلُّه ،

حاسبه اللهُ جل ثناؤه وأشـدَّ حسابَه، وأقلَّ عَفْوه، وستَرَوْن بعدِى مُلْكًا عَضُوضا، وأمَّة شِحَاحا، ودَمًا مُباحا، وإن كانت للباطل نَزْوةٌ، ولأهل الحق جَوْلة، يعفُو لهـا الأثر وتموت السُّنَن، فالزموا المساجِدَ واستشيروا(١) القُرءان، وليكن الإبرامُ بعد التَّشاور، والصَّفْقةُ بعد التناظُر.

ومن خطب عمر رضى الله عنه: أيها الناس! إنَّه أتى علىّ حينٌ وأنا أحْسَب أنَّ مَنْ قرأ القرءانَ إنما يريدُ اللهَ وما عنْدَه، ألا وإنه قد خُيِّل إلىّ أن أقواما يقرءُون القرءان يُريدون ما عند الناسِ! ألا فأرِيدُوا اللهَ بقراءتكم، وأرِيدُوه بأعمالكم، فإنما كنا نعرِفكم إذ الوحىُ ينزِل وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بَيْنَ أظْهُرنا، فقد رُفع الوحىُ وذهبَ النبىُّ عليه السلام، فإنما أعرِفكم بما أقولُ لكم: ألا فمن أظهرَ لنا خيرا ظَنَنَّا به خيرا وأثنينا به عليه!، ومَنْ أظهر لنا شرا ظننا به شرا وأبغضناه عليه!، اقْدَعُوا هذه النفوسَ عن شَهَواتها، فإنها لَمَلِقة، وإنكم إلَّا تَقْدَعُوها تَنْزِعْ بكم إلى شَرِّ غايةٍ. إن هذا الحَقَّ ثقيلٌ مَرِىء، وإن الباطل خَفِيف وَبِىء، وتركُ الخطيئة خيرٌ من مُعالَجَة التَّوْبة، ورُبَّ نظرةٍ زرَعَتْ شَهوة، وشَهْوةِ ساعةٍ أورثَتْ حُزْنا طويلا!.

ومن خطب عثمان رضى الله عنه: وقد أنكروا عليه تقديم بَنِى أُمَيَّة على غيرهم: أمّا بعدُ فإنَّ لكلّ شىء آفةً، وآفَة هذا الدِّين وعاهةَ هـذه المِلَّة قومٌ عَيَّابون، طَعَّانون، يُظْهِرون لكم ما تُحِبُّون ويُسِرُّون ما تكْرَهُون. أما والله يامعشَر المهاجرينَ والأنصـار! لقد عِبْتُمْ علىّ أشياءَ ونَقَمْتم منّى أُمورا قد أقررتم لابن الخطَّاب بمثلها ولكنه وَقَمَكم وَقْما، ودَمَغكم(٢) حتّى لايجترئ أحد منكم يملأُ بصرَه منه ولا يُشير بطَرْفه

(١) كذا فى الأصول بالشين المعجمة ولعله تصحيف عن الثاء المثلثة ففى اللسان وثوّر القرآن بحث عن معانيه وعن علمه. وأورد فى ذلك حديث عبدالله أثيروا القرآن فان فيه خير الأولين والآخرين. وحديثا آخر. من أراد العلم فليثوّر القرآن. (٢) فى غير هذا الكتاب وقمكم والوقم والدمغ القهر والإذلال.

إلا مُسارقةً إليه ؛ أما والله لأنا أكثرُ من ٱبن الخطّاب عَددا، وأقربُ ناصرا وأجدر إن قال هَلُمَّ[1] أن يُجَاب . هل تفقِـدُون من حقوقكم وأعطيَاتِكم شيئا فإنّى إلّا أفعلْ فى الفضل ما أريد فلِمَ كنت إماما إذَنْ ؟ أما والله ما عاب علَىّ مَنْ عاب منكم أمرا أجهَلُه ولا أتيتُ الذى أتيتُ إلا وأنا أعْرِفُه .

ومن خطب على كرم الله وجهه : حين بُويِـع بالخلافة : إن الله أنزل كتابا هاديا بيّنَ فيه الخيرَ والشر، فخُـذُوا بالخير ودَعُوا الشر؛ الفرائضَ أدّوها إلى الله تؤدّيكم إلىٰ الجنة . إن الله حَرّم حُرَما غير مجهولة ، وفَضَّل حُرمةَ المسلم علىٰ الحُرَم كلها، وسدّد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين . فالمسلِمُ مَنْ سَلِمَ المسلِمُون من لسانه ويده إلا بالحق؛ لا يحِل أذىٰ المسلم إلا بما يجب، فأدُّوا أمر العامّة، وخاصةُ أحدكم الموتُ . فإن الناس أمامَكُم و إنما خَلْفَكُم الساعة تُذَكّرُكم . تخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فإنما ينتظر بالناس أُخْراهم . اتقوا اللهَ عبادَ الله فى عباده و بلاده، فإنكم مسئُولون حتّى عن البِقَاع والبهـائم ؛ أطيعُوا اللهَ ولا تَعْصُوه . و إذا رأيتم الخير فخذوا به ، وإذا رأيتم الشر فدَعُوه، وٱذْكُروا إذ أنتُمْ قليلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فى الأرْضِ .

ومن خطب الحسن بن على رضى الله عنه : اعلموا أن الحلم زين ، والوقارَ مَوَدّة، والصِّلة نعمة ، والإكثار صَلَف ، والعَجَلة سَفَه ، والسَّفَه ضَعْف ، والقَلَق ورطة، ومجالسة أهل الدناءة شَيْن، ومخالَطة أهل الفسوق رِيبة .

ومن خطب معاوية بن أبى سفيان رضى الله عنه بصِفّين : أيها الناس ! إن الحرب صَعْبة ، وإن السَّلْمَ مَنّ ومَبَرّة ! ألا وقَدْ زَبَنَتْنَا الحربُ وزبَنّـاها

(١) فى غير هذا الكتاب وأقمن إن قلت هلم أن تجاب دعوتى من عمر . والروايات متقاربة .

وأَلِفْتَنا وأَلِفْناها، فنحن بنُوها وهي أُمُّنَا . أيها الناس ! آستقيموا علىٰ سبيل الهدىٰ، ودَعُوا الأهواء المُضِـلَّة ، والبِدَع المُرْدِيَة ، ولستُ أراكم تزدادُون بعد الوَصاة إلا آستجراء ، ولن أزداد بعد الإعذار والحجة عليكم إلا عقوبة ! ، وقد آلتقينا نحن وأنتم عند السِّيف فمن شاء فليتحرّك أو يتَقَهْقَر وما مَثَلِي ومثلُكم إلا كما قال آبن قيس آبن رفاعة الأنصاري .

مَنْ يَصْلَ نَارِى بِلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ * يَصْـلَىٰ بنـارِ كريمٍ غيرِ غَدَّار
أنَا النـذيرُ لكُمْ مِنِّى مُجَاهِرةً * كَىْ لا أُلامَ علىٰ نَهْيِى وإنذارى

ومن خطب عتبة بن أبي سفيان، وهو يومئذ أمير مصر وقد بلغه عن أهلها أمور أن صعد المنبر[1] وقال : يا حامِلِي ألأم أنوفٍ رُكِّبتْ بينَ أعيُنٍ ! إنمـا قلَّمتُ أظفارى عنكم ليَلِينَ مَسِّى إياكم، وسألتكم صلاحكم لكم إذ كان فسادكم راجعا عليكم؛ فأمّا إذ أبيْتم إلا الطَّعْن على الأمراء والعَتْبَ علىٰ السلف والخلفاء، فوالله لأُقَطِّعَنَّ بُطونَ السـياط علىٰ ظهوركم ! فان حسَمْت مُستشرِىَ دائكم وإلا فالسيف من ورائكم . فكم من عظةٍ لنَـا قد صَمَّت عنها آذانُكم ، وزَجْرةٍ مِنَّا قد مجَّتْها قلوبكم ؛ ولست أبخل عليكم بالعقوبة إذا جدتم علينا بالمعصية ، ولا مؤيسا لكم من المراجعة إلىٰ الحسنىٰ إن صرتم إلىٰ التى هى أبرّ وأتقىٰ .

ومن خطب زياد بن أبيه حين قدم إلىٰ البصرة : أما بعدُ فإن الجَهالة الجَهْلاء ، والضَّلالَة العمياء ، والغَيَّ المُوفى بأهله على النار ما فيه سُفَهاؤكم، ويشتمل عليـه حُلَماؤكم من الأمور التى ينبُت فيها الصغير ، ولا يتحاشىٰ عنها الكبير ؛ كأنكم لم تقرءوا كتاب الله ولم تسمعوا ماأعدّ الله من الثواب الكريم لأهل طاعته، والعذاب

---

(١) لعل عاملٍ أن محذوف والأصل فما كان منه الا أن الخ .

الأليم لأهل معصيته، فى الزمن السرمدىّ الذى لا يَزُول . إنه ليس منكم إلا مَنْ طَرَفت عينَه الدنيا ، وسدّت مسامعَه الشهَوات ، وآختار الفانية على الباقية ؛ ولا تذكرون أنكم أحدثتم فى الإسلام الحَدَث الذى لم تُسبَقوا إليه : من تركِكم الضعيفَ يُقْهَر، والضعيفة المسلوبة فى النهار لا تُنْصر(١)، والعدد غير قليل، والجمع غير مفترق . ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغُواة عن دَلَج الليل وغارة النهار ! قرَّبتم القرابة ! وباعدتم الدِّين، تعتذرون بغير العذر ، وتُغْضُون على النُّكْر . كل آمرئ منكم يردّ عن سفيهه صُنْعَ من لا يخاف عقابا ولا يرجو معَادا . فلم يَزَل بهم ما تَرَوْن من قيامكم دُونَهم حتّى آنتهكوا حُرَم الإسلام ثم أطرفوا وراءكم كُنُوسا فى مَكَانِس الرِّيَب ، حرام علىّ الطعام والشراب حتّى أضَع هذه المواخيرَ(٢) بالأرض هَدْما وإحراقا ! . إنى رأيت آخرَ هذا الأمر لا يصلحُ إلا بما صَلَح به أوله : لينٌ فى غير ضَعْف ، وشدّة فى غير عُنْف ، وإنى لأقسم بالله لآخذنَّ الولىّ بالمَوْلى، والمقيمَ بالظاعن، والمطيع بالعاصى، حتّى يلقى الرجل أخاه فيقولَ "آنْجُ سَعْدُ فقد هَلَك سَعيد" أو تستقيم لى قَناتُكم . إنّ كِذْبة الأمير بَلْقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىَّ بكذبة فقد حلتْ لكم معصيتى ؛ وقد كان بينى وبين قوم إحَنٌ فجعلْتُ ذلك دَبْرَ أذنى وتحت قَدمى . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السُّلُّ من بُغْضى لم أكشف له قِناعا، ولم أهتك له سترا، حتى يُبْدِىَ لى صَفْحته، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فاستأنفوا أموركم وراعوا(٣) على أنفسكم ، فربَّ مبتَئِس بقدومنا سيُسَرّ، ومسرورٍ بقُدُومنا سيَبْتئِس ! . أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسةً، وعنكم ذادةً نَسُوسكم بسلطان الله الذى أعطانا ، ونذود عنكم بفىء الله الذى خوّلنا، فلنا عليكم السمعُ والطاعة فيما أحببنا، ولكم علينا العدلُ فيما وَلينا، فاستوجِبُوا عدلنا وفَيْئنا بمُناصحتِكم لنا ،

(١) فى العقد الفريد والصفقة المسلوبة فى النهار المبصر . (٢) وقع فى الأصل المناخير وهو تصحيف عن المواخير انظر اللسان والعقد الفريد . (٣) فى العقد الفريد وأعينوا .

فقام إليه عبد الله بن الأهتم وقال : "أشهد أيها الأمير لقد أُوتيتَ الحِكمةَ وفصلَ الخِطَاب" قال : "كذبْتَ" ذاك نَبِيُّ الله داودُ !

ومن خطب عبد الملك بن مروان، لما قتل عَمْرا الأشدق بنَ سعيد بن العاص : إرمُوا بأبصاركم نحوَ أهل المعصية، وآجعلوا سَلَفكم لمن غَبَر منكم عِظَة، ولا تكونُوا أغفالا من حُسْن الآعتبار، فَتَنْزِلَ بكم جائحةُ السَّطوات، وتَجُوسَ خِلالَكم بَوادرُ النَّقِمات، وتَطَأَ رِقَابَكم بثِقَلها العقوبة فتجعلكم هَمَدا رُفاتا، وتشتمل عليكم بطونُ الأرض أمواتا . فإيَّاى من قول قائل، ورَشْقة جاهل ! فإنما بيني وبينكم أن أسمع النعوة (١) فأُصَمِّم تصميمَ الحُسام المَطْرور (٢)، وأَصولَ صِيالَ الحَنِق المَوْتُور، وإنما هى المصافَحَة والمكافَحَة بظُبات السُّيوف وأَسِنَّة الرماح، والمعاودةُ لكم بسُوء الصَّباح، فتاب تائب، وهدل خائب (٣)، والتوْب مقبول، والإحسان مبذول، لمن عرف رُشْده وأبصر حظه . فآنظروا لأنفسكم، وأقبِلوا علىٰ حظوظكم، ولتكن أهلُ الطاعة يدا علىٰ أهل الجهل من سفهائكم، وآستديموا النعمة التى آبتدأتكم برغيد عيشها ونفيس زينتها، فإنكم من ذلك بين فضيلتين : عاجلِ الخَفْض والدَّعة، وآجلِ الجزاء والمَثُوبة عصمكم الله من الشيطان وفتْنته ونزغه، وأمدّكم بحُسن معزته وحفظه . انهَضُوا رحمكم الله إلى قبض أعطياتكم غيرْ مَقطوعة عنكم، ولا مكدَّرةٍ عليكم .

فخرج القوم من عنده بِدارا كُلُّهم يخاف أن تكون السطوةُ به .

ومن خطب الحجاج بن يوسف الثقفىّ عند قدومه الكوفة أميرا علىٰ العراق : يا أهل العراق أنا الحجاج بن يوسف ! .

(١) كذا فى الأصل الإهمال وهو تصحيف عن المعجمة . والنغوة والنغية أوّل الخبر قبل أن تستبينه .

(٢) المطرور برا ين المحدود المشحوذ وفى الأصل بالدال المهملة وهو تصحيف .

(٣) فى الأصل بالهاء واهمال الدال واعجام حائب ولعله بالميم واعجام الذال بمعنى ضجر وقلق واهمال الحاء من حائب لخرر .

أَنَا ٱبْنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنَايَا * مَتى أَضَعِ العِمامةَ تَعْرِفُونى

والله يا أهل العراق: إنى لأَرىٰ رءوسا قد أينعتْ وحان قطافها، وإنّى لصاحبها! والله لكأنى أنظر إلى الدماء بين العمائم واللّحى. يا أهل العراق ما يُغمز جانبى كتَغْماز التّين، ولا يُقعقَع لى بالشِّنان. ولقد فُرِرْت عن ذكاء، وفُتِّشْت عن تجربة، وأجريتُ من الغاية؛ وإن أمير المؤمنين عبد الملك نَثر كنانتَه بين يديه فعجَم عيدانَها عُودا عُودا فوجدنى أمرّها عودا. وأشدّها مَكْسرا، فوجّهنى اليكم ورماكم بى يا أهلَ الكُوفة، أهلَ الشِّقاق والنفاق، ومَسَاوى الأخلاق: لأنكم طالما أوضعتُم فى الفتنة، وٱضطجَعْتم فى مَنامِ الضَّلال، وسَنَنْتُم سُنَن الغىّ، وٱيم الله لألْحُوَنَّكم لَحْوَ العُود، ولأقْرَعَنَّكم قَرْع المروة، ولأَعْصِبَنَّكم عَصْبَ السَّلَمة، ولأضربَنَّكم ضَرْب غريبة الإبل. إنى والله لاأحلف إلّا صدَقْت، ولا أعدُ إلّا وَفَيت. إيَّاى وهذه الزَّرافاتِ، وقال وما يقولُ، وكان وما يكون. وما أنتم وذاك يا أهل العراق. إنما أنتم أهل قرية كانَتْ آمِنَةً مُطْمئنَّةً يأْتِيها رِزْقُها رَغَدا مِنْ كُلِّ مَكانٍ فكَفَرتْ بِأَنْعُمِ اللهِ، فأتاها وعيدُ القُرىٰ من ربها. فٱستَوْثِقُوا وٱعتدِلُوا ولا تميلوا، وٱسمعُوا وأطيعوا، وشايعُوا وبايعُوا.

وٱعلموا أن ليس منى الإكثارُ والإهذار ولا مع ذلك النِّفار ولا الفِرار؛ إنما هو ٱنتضاءُ هذا السيف، ثم لا يُغْمَد الشتاءَ ولا الصيف، حتّى يُذِلَّ الله لأمير المؤمنين عِزَّكم، ويُقيم له أوَدَكم وصَعَركم. ثم إنى وجدتُ الصدق من البِر، ووجدت البرّ فى الجنَّة، ووجدت الكذبَ من الفُجُور، ووجَدْت الفُجُور فى النار. وإن أمير المؤمنين أمرنى أن أُعطيَكم أعطياتكم، وأُشْخِصَكم لمجاهدة عدوّكم وعدوّ أمير المؤمنين؛ وقد أمرتُ لكم بذلك وأجَّلْتكم ثلاثا، وأعطيت الله عهدًا يؤاخذنى به ويستوفيه منّى: لئن تخلَّف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربَنّ عُنُقَه وأنهبَنّ ماله.

ثم ٱلتفتَ الى أهل الشام فقال أنتم البِطانةُ والعشيرة ! والله لرِيحُكم أطيبُ من ريح المســك الأذْفَر، و إنما أنتم كما قال الله تعالى ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية .
وٱلتفتَ الى أهل العِراق فقال والله لَرِيحُكم أنتَنُ من رِيح الأَبْخَر، و إنما أنتم كما قال الله ﴿ومَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرةٍ خَبِيثَةٍ﴾ الآية .

ومن خطبه لمـا قدم البصرة يتهدّد أهل العراق و يتوعدهم :

أيُّها الناس : مَنْ أعياه داؤه فعندى دواؤه ! ، ومَن ٱستطال أجلَه ، فعليّ أن أُعْجِله ؛ ومن ثَقُل عليه رأسُــه وضعت عنه ثِقْله ، ومَنِ ٱستطال مَاضِيَ عُمُرِه قصّرت عليــه باقيَه . إنّ للشيطان طَيْفا ، وللسلطان سَيْفا ! ، فمن سَقِمتْ سريرتُه ، صحتْ عقوبته ؛ ومَنْ وضعه ذَنبه ، رفعه صُلبه ؛ ومن لم تسَعْه العافية ، لم تَضِقْ عنه الهَلَكة ؛ ومن سبقَتْه بادرة فمه ، سَبَق بدنَه بسفْك دمه ؛ إنى أُنْذِرُ ثم لا أُنظِر ، وأحَذِّر ثم لا أُعْذِر ؛ وأتوعد ثم لا أعفو . إنمـا أفسدكم ترنيق وُلاتكم ؛ ومن ٱسترخى لبه ، ساء أدبُه . إن الحزمَ والعزم سكنا فى وَسَطِى ، وأبدلانى به سيفى : فقائمُه فى يدِى ، ونِجادُه فى عنق ، وذُبابُه قلادة لمن عصانى ! ، والله لا آمر أحدكم أن يخرج من باب من أبواب المسجد فيخرج من الباب الذى يليه إلا ضربتُ عنقه .

ولعمر بن عبد العزيز ، وسليمانَ بنِ عبد الملك من خلفاء بنى أميــة ؛ وأبى جعفر المنصور ، وهارونَ الرشيد ، وٱبنِه المأمون من خلفاء بنى العباس وغيرهم ، من خلفــاء الدولتين وأمرائهــم خطبٌ فائقة ، وبلاغات معجبة رائقة ، يضيق هــذا الكتاب عن إيرادها ، وقد أوردنا من ذلك ما فيه كفاية للبيب ، ومقنع للأريب .

ومن خطب أبى بكر بن عبد الله أمير المدينة النبوية علىٰ ساكنها أفضــل الصلاة والسلام ، والتحية والإكرام ، وقد بلغه عن قوم من أهل المدينة أنهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويُسْعِفُهم آخرون على ذلك :

أيها النـاس! إنى قائل قولا فمن وعاه وأدّاه فعلىٰ الله جزاؤه، وَمَن لم يَعِه فلا يَعْدُ من ذِمَامها (١)؛ إن قصَّرتم عن تفصيله، فلن تعجِزُوا عن تحصيله. فأرْعُوه أبصاركم وأوْعُوه أسمـاعَكم وأشعروه قلوبكم؛ فالموعظَة حياةٌ؛ والمؤمنون إخوة؛ وعَلَى الله قَصْـدُ السَّبِيل ولو شاءَ لَهَدا كُمْ أجْمَعِينَ. فأْتُوا الهـدىٰ تهتدوا، وآجتنِبُوا الغَىّ ترْشُـدوا. وأَنِيبُوا إلىٰ اللهِ جَمِيعًا أيُّها المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ. والله جل جلاله. وتقدّست أسمـاُؤه أمركم بالجماعة ورَضِيها لكم. ونهاكم عن الفُرْقة وسَخِطها منكم. فاتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُون. وآعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا وآذْكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليكم إذ كُنْتُمْ أعْداءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فأَصْـبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إخوانًا وكُنْتُم علىٰ شَـفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّـارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْها. جعلنا الله وإياكم ممن يتَّبع رضوانَه ويجتنب سُخْطه فإنا نحن به وله. وإن الله بعث محمدا صـلى الله عليه وسـلم بالدِّين، وآختاره على العالمين، وآختار له أصحابا على الحق وُزَراء دون الخلق. إختصَّهم به وآنتخبهم له، فصدَّقوه ونصروه وعَزَّروه ووقَّروه؛ فلم يُقْدِموا إلا بأمره، ولم يُحْجِموا إلا عن رأيه، وكانوا أعوانَه بعهده، وخلفاءه من بعـده. فوصـفهم فأحسن وصفهم وذكرهم فأثنىٰ عليهم فقال وقوله الحق ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلىٰ الكُفَّارِ ﴾ إلىٰ قوله ﴿ مَغْفِرَةً وأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ فمن غاظه كفر وخاب وفجر وخسر. وقال الله جل وعز ﴿ للفُقَراءِ المُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وأَمْوالِهِم يَبْتَغُونَ فَضْـلًا مِنَ اللهِ ورِضْوانًا ﴾ إلىٰ قوله ﴿ رَبَّنَا إنك رَءُوفٌ رَحِيم ﴾ فمن خالف شريطة الله عليه لهم وأمْرَه إياه فيهم فلا حقَّ له فى الفىء، ولا سهم له فى الإسـلام فى آى كثيرة من القرءان، فمرق مارقةٌ من الدين. وفارَقُوا المسلمين وجعلوهم عِضِين. وحزبوا أحزابا، أُشَابات وأوْشابا. فخالفوا كتاب الله فيهم فخابوا وخسروا

(١) كذا فى الأصل ولكن بإهمال الياء من يعد ولعل مراده فلا يخرج عن حرمتها أى المقالة.

الدنيا والآخرة . ذلكَ هُوَ الخُسْرانُ المُبين . أفَمَنْ كانَ علىٰ بيِّنةٍ من ربِّه كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمله واتَّبَعُوا أهْواءَهُمْ . مالى أَرىٰ عُيونا خُزْرا، ورِقابًا صُعْرا، وبطُونا بُجْرىٰ[١]، شَجى لا يُسيغه المـاء، وداءٌ لا يُشْرب فيه الدواء . أفَنَضرب عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفحا أنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفين . كَلَّا والله بل هو الهِنَاء والطِّلاء حتّى يظهر العُذر، ويبُوح السرّ، ويَضِحَ العيب، ويَسُوسَ الجيب . فإنكم لم تُخلقوا عبثا ولم تتركوا سُـدًى، ويْحَكُمْ إنِّى لستُ أتاويًّا[٢] أعلَّم، ولَا بدَوِيًّا أُفَهَّم . قد حَلَبْتُكم أشْطُرا، وقلَّبتكم أبْطُنـا وأَظْهُرا . فعرفت أنحاءكم وأهواءكم، وعلمت أن قوما أظهروا الإســلام بألسنتهم، وأسرُّوا الكفر فى قلوبهم، فضربُوا بعض أصحاب رسول الله صــلى الله عليــه وسلم ببعض، وولَّدوا الروايات فيهـم، وضَرَبوا الأمثـال، ووجدوا علىٰ ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانا يَأْذَنُون لهم، ويَصْغَوْن اليهم، مَهْلا مَهْلا ! قبل وُقُوع القوارع وطول الروائع . هذا لهذا ومع هذا، فلستُ أعتنش[٣] آئبا ولا تائبا، عَفَا اللهُ عَمَّـا سَلَفَ ومَنْ عادَ فيَنْتَقِمُ اللهُ مِنْه واللهُ عزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ . فأسِرّوا خيرا وأظهروه، وآجهَروا به وأخاصوه . وطالمـا مشَيْتُم القَهْقَرىٰ ناكصين . وليعلم من أدبر وأصرّ أنها موعظة بين يدىْ نِقْمة، ولست أدعوكم إلىٰ هوًى يُتَّبع، ولا إلىٰ رأْى يبتدَع . إنما أدعوكم إلىٰ الطريقة المُثلىٰ، التى فيها خير الآخرة والأُولىٰ، فمن أجاب فإلىٰ رُشْده، ومَنْ عَمِىَ فعن قصده . فهَلُمَّ إلىٰ الشرائع، الجدائع، ولا تُوَلُّوا عن سبيل المؤمنين، ولا تستبدلوا الذى هو أدْنَى بالذى هو خَيْرٌ ﴿بِئْس للظالمين بَدَلا﴾ . إياكم وبُنَيَّـاتِ الطريق، فعندها الترنيق والتَّرْهيق . وعليكم بالجادّة فهى أسدُّ وأورد، ودَعُوا الأمانِىَّ

---

(١) لعله بُجْرا جمع أبجر والبَجَر عظم البطن .

(٢) الأتاوىّ الغريب الذى ليس فى وطنه .

(٣) أى أظلم راجعا ولا تائبا ممـا حصل . ووقع فى الأصل أعيش وهو تصحيف لا معنى له هنا .

فقد أودتْ مَنْ كان قبلكم . وأنْ لَيْسَ لِلإنسان إلّا ماسَعىٰ . ولله الآخِرةُ والأُولى . ولا تَفْتَرُوا علىٰ الله الكَذِبَ فيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وقَدْ خَابَ مَنِ آفْتَرىٰ . ربَّنا لاتُزِغْ قُلوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّاب .

ومن خطب خالد بن عبدالله أمير البصرة : أيُّها الناس ! نافِسُوا فى المَكارم وسارعوا إلىٰ المغانم . وآشتَرُوا الحمدَ بالجُود، ولا تكسِبوا بالمَطْل ذَمًّا ، ولا تعتَدُّوا بالمعروف ما لم تُعَجِّلوه، ومهما يكُنْ لأحد منكم عند أحد نعمةٌ فلم يبلغ شكرها ، فالله أحسنُ لها جزاء ، وأجزلُ عليها عطاء . وآعلموا أن حوائج الناس إليكم ، نعمةٌ من الله عليكم؛ فلا تَمَلُّوا النِّعم فتُحوِّلوها نِقَما . وآعلموا أنّ أفضل المال ما أكْسَبَ أجرا، وأوْرث ذِكْرا . ولو رأيتم المعروف رجلا، رأيتموه حسنا جميلا يسُر الناظرين . ولو رأيتم البخل رجلا ،رأيتموه مشوّها قبيحًا تنفِر عنه القلوب ،وتُغْضِى عنه الأبصار. أيها الناس ! إن أجود الناس مَنْ أعطى مَنْ لا يرجوه، وأعظمَ الناس عَفْوا مَنْ عفَا عن قُدرة، وأوصلَ الناس مَنْ وصل مَنْ قطعه؛ ومن لم يطِبْ حرثُه لم يَزْكُ نبته؛ والأصول عن مَغَارسها تَنْمو ، و بأصولها تسمُو . أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

ومن خطب قَطَرىّ بن الفُجاءة خطبته المشهورة فى ذمّ الدنيا والتحذير عنها، وهى :

أما بعد : فإنى أُحذِّركم الدنيا ، فإنها حُلْوة خَضِرة، حُفَّتْ بالشهوَات ، وراقَتْ بالقليل . وتحببت بالعاجلة ، وحَلِيتْ بالآمال ، وتزينَتْ بالغُرور . لاتدوم نَضْرتها ، ولا تُؤْمَن فَجْعتها . غَرَّارة ، ضَرَّارة . وخاتلة ، زائلة . ونافدة ، بائدة . أكَّالة ، غَوّالة . لا تعدُوا إذا تناهتْ إلىٰ أمنيَّة أهل الرغبة فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالىٰ ﴿ كَماءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّماءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ

الرِّيَاحُ وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرا ﴾ مع أن آمرأً لم يكن منها فى حَبْرة، إلا أعقبته بعدها عَبْرة؛ ولم يلق من سَرَّائها بطنا ، إلا منحته من ضَرَّائها ظَهْرا . ولم تَصله غيثة (١) رَخاء ، إلا هطلَتْ عليــه مُزْنةُ بلاء . وحَرِيّة إذا أصبحتْ له منتصرة أن تُمسى له خاذلة متنكِّرة . وأىُّ جانبٍ منها آعذَوْذب وآحْلَوْلىٰ ، أمَرَّ عليه منها جانب وأوبا (٢) . فإن آتت آمرأً من غصونها ورقًا أرهقته من نوائبها تعبا . ولم يُمْسِ منها آمرُؤ فى جناح أمْن إلا أصبح منها علىٰ قوادم خوف؛ غَرَّارة غُرُور ما فيها ، فانية ، فانٍ مَنْ عليها؛ لاخير فى شىء من زادها إلا التقوىٰ . مَنْ أقلَّ منها آستكثر مما يؤمِّنه . ومن آستكثَرَ منها ، استكثر ممـا يوبقه ويُطيل حُزْنه ، ويُبْكى عَيْنه . كم واثقٍ بها قد فَجَعتــه ، وذى حُكْم ثنته اليها قد صرعَتْه ، وذى آختيال فيهـا قد خدعَتْه . وكم ذى أُبَّهة فيها قد صيرَّته حقيرا ، وذى نَخْوة قد ردّتْه ذليلا . ومن ذى تاجٍ قد كَبَّتْه لليدين والفم . سلطانها دُوَل . وعَيْشها رَنَق ، وعَذْبها أُجَاج ، وحُلْوها صَبِر ، وغذاؤها سِمَام ، وأسبابها رِمَام . قِطَافُها سَلَع . حيُّها بعَرَض موت ، وصحيحُها بعرَض سُقْم . منيعُها بعَرَض آهتضام . ومُلْكها مسلوب ، وعزيزها مَغْلوب . وسليمها منكوب ، وجارُها مَحْروب . مع أن وراء ذلك سـكَرات الموت ، وهولَ المُطَّلع ، والوقوف بين يدَي الحَكَم العَدْل ﴿ لِيَجزِيَ الذين أَسَاءُوا بِمَـا عَمِلُوا ويَجْزِىَ الَّذِينَ أحْسَنُوا بالحُسْنَى ﴾ . ألستم فى مساكن مَنْ كان قبلكم أطولَ منكم أعمــارا ، وأوضحَ منكم آثارا ، وأعَدّ عَديدا ، وأكْثَفَ جُنودا . وأشــدّ عُتُودا . تعبَّدُوا للدنيا أى تعبُّــد ، وآثَرُوها أىَّ إيثار ، وظَعَنُوا عنها بالكره والصَّغَار . فهل بلغكم أن الدنيا سمَحتْ لهم نفْسًا بفِدْية ، أو أغنَتْ عنها فيما قد أهلكتهم بخطب بل أرهقتْهم بالقوادح ، وضعضعَتْهم بالنوائب ،

(١) فى غير هذا الكتاب ولم تطله من الطل . و يظهر أن غيثة مصحفة عن غبية . والغبية الدفعة من المطر .

(٢) فى نسخة وأولى .

وعَقَرتهم بالفجائع . وقد رأيتم تنكُّرها لمن رادها وآثرها وأخلد إليها ، حينَ ظَعَنوا عنها لِفراقٍ إلىٰ الأبد إلىٰ آخر الأَمَد . هل زوّدتْهم إلا السَّغب ؟ ، وأَحَلَّتهم إلا الضنك ، أو نوّرت لهم إلا الظُّلمة ، أو أعقبَتْهم إلا النّدامة ؟ أفهذه تُؤثِرون ، أم علىٰ هذه تَحْرِصون أم إليها تطمَئِنُّون ؟ . يقول الله جل ذكره ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الحياةَ الدُّنيا وزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُون ﴾ بئست الدارُ لمن أقام فيها ! فآعلموا إذ أنتم تعلمون أنكم تاركوها الأبد ، فإنما هى كما وصفها الله تعالى باللعب واللهو ، وقد قال تعالى ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيةً تَعْبَثُونَ وتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ وإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ .

إلىٰ غير ذلك من خطب خلفاء الدولتين وأمرائهم مما يطول القول بإيراده ، ويخرج الكتاب بذكره عن حدّه .

المقصد الثانى

(فى كيفية تصرُّف الكاتب فى الخُطَب)

قد تقدّم فى أوّل المقصد الأوّل من هذا النوع قول أبى هلال العسكرى : إن الرسائل والخطب متشاكلتان فى أنهما كلام لا يلحَقُه وزن ولا تقفية والمشاكلةُ فى الفواصل وإن الخطب يُشَافَه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة والخطبة تجعل رسالة فى أيسر كُلْفة . وحينئذ فإذا أراد الكاتبُ نقل الخطبة إلىٰ الرسالة أمكنه ذلك ، فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الخطب البليغة ، وعلم مقاصد الخَطَابة وموارد الفَصاحة ومواقع البلاغة ، وعرف مَصاقِع الخطباء ومشاهيرهم ، آتسع له المَجَال فى الكلام وسَهُلت عليه مستَوْعرات النثر ، وذُلِّلت له صِعابُ المعانى ، وفاض علىٰ لسانه فى وقت الحاجة ما كَمَن من ذلك بين ضُلُوعه فأودعه فى نثره ، وضمنه فى رسائله ،

فاستغنىٰ عن شَغْل الفكر فى ٱستنباط المعانى البديعة، ومشقّة التعب فى تتبُّع الألفاظ الفصيحة، التى لاتنهَض فِكرته بمثلهــا ولو جَهَد ، ولا يسمَحُ خاطره بنظـيرها ولو دأَب . إن الخطب جزء من أجزاء الكتابة ، ونوع من أنواعها، يحتاج الكُتّاب إليها فى صــدور بعض المكاتبات ، وفى البَيْعات والعهود والتقاليــد والتفاويض وكبار التواقيع والمراسيم ، والمناشير، على ماسـيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعـالى ؛ وما لعله يُنْشئه من خُطبة صداق أو رسالة أو نحو ذلك . وكذلك يعرِف مَصَاقع الخطباء، ومشاهير الفصحاء ، والبلغاء ، كقُسّ بن ساعدة الإيادىّ الذى تقدّمت خطبته آنفا فى صدر الخطب . وسَحْبانَ الوائلىّ : وهو رجل من بنى وائل، لَسِنٌ بليغ يُضَرب به المثل فى البيان، وغيرهما ممن يُضْرَب به المَثل فى الفصاحة والبلاغة؛ ومن يُنْسَب إلىٰ العىّ والغَبَاوة كباقل : وهو رجل من العرب ٱشترىٰ ظبيا بأحدَ عشَر درهما فقيل له بكم ٱشتريته ففتح كفيه وفرّق أصابعه العشرة وأخرج لسانه؛ يشير بذلك إلىٰ أحد عشر ولم يحسن التعبير عنهــا ، فانفلت الظبى فضُرِب به المثـل فى العِىّ . فإذا عرف البليغَ وغيرَ البليغ ، وعالِىَ الرتبــة وسافِلَها، عرّض حينئذ بذكر من أراد منهم مقايسا للفاضل بمثله، وللغبىّ بنظيره : كما قال القــاضى الفاضل فى بعض رسائله ، فى جواب كتاب ورد عليه من بعض إخوانه :

فأما شوقُه لعبده فالمولىٰ قد[1] أبقاه الله قد أُوتى فصاحة لسان . وسَحَب ذيل العىّ علىٰ سَحْبان .

وكما قال الشيخ ضياء الدين أحمد القرطبى من رسالة كتب بهــا للشيخ تقىّ الدين ٱبن دقيق العيد ، يصف رسالة وردت منه عليــه : إنَّ كلمها يَميس فى صُـدُورها وأعجازها ، وتنثال عليها أعراض المعانى بين إسهابها وإيجازها ؛ فهى فرائد ٱئتلفَتْ فى أبكار الوائلىّ والإيادىّ .

(١) لعل كلمة قد هنا زائدة .

النـــــوع التـاسع

(ممـا يحتاج إليه الكاتب من[1] حفْظ جانب جيد من مكاتَبَات الصدر الأوّل، ومحاوراتهم، ومراجعاتهم، وما آدّعاه كل منهم لنفسه أو لقومه، والنظر فى رسائل المتقدّمين : من بلغاء الكتّاب؛ وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصـــد الأوّل

(فى وجه آحتياج الكاتب إلىٰ معرفة ذلك)

أما حفظ مكاتبات الصدر الأوّل ورسائلهم فلأنها مع[2] مبتدع البلاغة وكنز الفصاحة غير ملابسة لطريقة الكُتّاب فى أكثر الأمور؛ فيستعان بحفظها علىٰ مواقع البلاغة ولا يطمع الخاطر بالآتكال علىٰ إيراد فصل منها برمّته لمخالفته لأسلوب الكتّاب فى أكثر الأمور .

وأما النظر فى رسائل البلغاء من فضلاء الكتّاب، فلما فى ذلك من تنقيح القريحة، وإرشاد الخاطر، وتسهيل الطُّرق، والنسج علىٰ مِنْوال المُجيــد، والآقتداء بطريقة المُحسن، وآستدراك مافات، والآحتراز ممـا أظهره النقد، وردّ مابَهْرَجَه السبـك . وآقتُصِر علىٰ النظر فيها دون حفظها لئلا يتكل الخاطر علىٰ ما يأتى به بأصله مما ليس له فيتشبع بما لم يُعطَ فيكون كلابس ثَوْبَىْ زُور . اللهم إلا أن يريد بحفظها المحاضَرَة دون الإنشاء فإن اللائق به الحفظُ دون غيره .

---

(١) كذا بالأصل بزيادة من وفى الضوء إسقاطها وهو الصواب .

(٢) بياض بالأصل .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر شىء من مكاتبات الصدر الأوّل يكون مَدْخَلا إلىٰ معرفة مايُحتاج إلىٰ حفظه من ذلك)

أما مكاتباتهم المشتملةُ علىٰ المحـاورة والمراجعة ، فمنهـا ماكتب به معاوية بن أبى سُفْيان رضى الله عنه إلىٰ أمير المؤمنين على بنِ أبى طالب رضى الله عنه فى زمن المشاجرة بينهما، وهى : (١)

أما بعد، فإن الله ٱصطفىٰ محمدا ، وجعله الأمينَ علىٰ وحيه، والرسولَ إلىٰ خلقه؛ وٱختار له من المسلمين أعوانا أيَّده بهم ، وكانوا فى مَنازلهم عِنْـده علىٰ قدر فضائلهم فى الإسلام؛ فكان أفضلُهم فى الإسـلام، وأنصحُهم لله ولرسوله الخليفةَ ، وخليفةَ الخليفة ، والخليفةَ الثالثَ؛ فكلَّهم حسَدْتَ ، وعلىٰ كلهم بغَيْتَ . عرفْنا ذلك فى نظرك الشَّزْر ، وتنفُّسك الصُّعَداء ، وإبطائك علىٰ الخلفاء ، وأنت فى كل ذلك تُقاد كما يُقاد البعير المَخْشُوش(٢) حتّٰى تُبايع وأنت كاره ، ولم تكن لأحد منهم أشدّ حَسَدا منك لٱبن عمِّك عثمان ، وكان أحقَّهم أن لاتفعلَ ذلك به ، فى قرابته وصِهْره؛ فقطعْتَ رحمه ، وقبَّحتَ محاسِـنه ، وألَّبْت عليــه الناسَ حتّٰى ضُرِبت إليه آباطُ الإبل ، وشُهر عليه السلاح فى حرم الرسُول ، فقُتل معك فى المَحَلَّة وأنت تسمع فى داره الهائعة(٣)؛ لاتؤدّى عن نفسك فى أمره بقول ولا فعلٍ برّ؛ أُقسم قسما صادقا ! لو قمتَ فى أمره مَقاما واحدا تنهنِهُ الناسَ عنه ، ماعُدِل بك ممَّنْ قبلنا من النـاس أحد ، ولمَحَا ذلك عنـك ماكانوا يعْرِفُونك به : من المجانبــة لعثمان والبغْى عليه . وأخرى أنت بها عند أولياء

---

(١) كتاب معاوية بيّض له فى الأصل فنقلناه من العقد الفريد لٱبن عبد ربه جزء ٢ صحيفة ٢٨٥

(٢) أى المجعول فيه الخِشاش . وهو عود يجعل فى عظم أنف البعير . مصباح .

(٣) الهائعة الصوت المفزع .

ابن عفّان ضنين ، إيواؤك قتلة عثمان ، فهم بطانتك ، وعضدك وأنصارك . فقد بلغنى أنك تنتفى من دمه فإن كنت صادقا فادفع إلينا قتلته نقتلهم به . ثم نحن أسرع الناس إليك ، وإلا فليس لك ولا لأصحابك عندنا إلا السيف ! والذى نفس معاوية بيده لأطلبن قتلة عثمان فى الجبال ، والرمال ، والبر ، والبحر ؛ حتى نقتلهم أو تلحق أرواحنا بالله ! .

فكتب إليه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى جواب ذلك :

أما بعد فقد أتانى كتابك ! تذكر فيه اصطفاء الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم لدينه وتأييده إياه بمن أيده به من أصحابه ، فلقد خبأ لنا الدهر منك عجبا ! أفطفقت تخبرنا بآلاء الله عندنا ، فكنت كناقل التمر إلى هجر أو داعى مدره إلى النضال ؛ وزعمت أن أفضل الناس فى الإسلام فلان وفلان فذكرت أمرا إن تم اعتزلك كله ، وإن نقص لم يلحقك ثلمه ؛ وما أنت والفاضل والمفضول والسائل والمسئول ! . وما للطلقاء وأبناء الطلقاء والتمييز بين المهاجرين الأولين ، وترتيب درجاتهم ، وتعريف طبقاتهم ؛ هيهات لقد حنّ قدح ليس منها ، وطفق يحكم فيها من عليه الحكم لها ، ألا تربع على ظلعك ، وتعرف قصور ذرعك ، وتتأخر حيث أخرك القدر ، فما عليك غلبة المغلوب . ولا لك ظفر الظافر . وإنك لذهاب فى التيه ، رواغ عن القصد . ألا ترى غير مخبر لك ولكن بنعمة الله أحدّث ، أن قوما استشهدوا فى سبيل الله ولكل فضل حتى إذا استشهد شهيدنا قيل سيد الشهداء ، وخصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بسبعين تكبيرة عند صلاته عليه ، أولا ترى أن قوما قطعت أيديهم فى سبيل الله ولكلّ فضل حتى إذا فعل بواحد منا ما فعل بواحد منهم قيل الطيار فى الجنة وذو الجناحين ، ولولا ما نهى عن تزكية المرء نفسه لذكر ذاكر فضائل جمة ،

(١) المدره المقدّم فى القتال وزعيم القوم وخطيبهم .

تعرفها قلوبُ المؤمنين ، ولا تمجّها آذان السامعين . فدع عنك من مالت به الرمية فإنا صنائع ربنا ، والناس بعدُ صنائع لنا ، لم يمنعنا قديمُ عزنا ، ومديد طَوْلنا على قومك أن خلطناهم بأنفسنا : فنكَحْنا وأنكَحْنا ، فِعلَ الأكفاء ولستم هناك ، وأنّى يكون ذلك كذلك ! ومنا النبيّ ومنكم المكذب ، ومنا أسدُ الله ومنكم أسدُ الأحلاف ، ومنا سيدا شبابِ أهل الجنة ، ومنكم صِبْية النار ، ومنا خير نساء العالمين ، ومنكم حَمّالة الحطب ، فإسلامنا قد سمع وجاهليّتنا لا تدْفع ، كتابُ الله يجمع لنا ما شذَّ عنا وهو قوله سبحانه وتعالى ﴿ وأُولُوا الأرْحَامِ بَعْضُهُمْ أوْلىٰ ببَعْضٍ فِي كِتَابِ الله ﴾ وقوله تعالىٰ ﴿ إنَّ أوْلىٰ النَّاسِ بإبْراهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوه وهَذَا النَّبِيُّ والَّذِينَ آمَنُوا والله وليُّ المُؤْمِنِين ﴾ فنحن مرّة أولىٰ بالقرابة وتارة أولىٰ بالطاعة . ولما ٱحتج المهاجرون علىٰ الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فَلَجُوا عليهم ، فإن يكن الفَلَج به فالحقُّ لنا دُونكم ، وإن يكُنْ بغيره فالأنصار علىٰ دعواهم . وزعمتَ أنّى لكل الخلفاء حَسَدت ، وعلىٰ كلهم بغَيْتُ ، فإن يك ذلك كذلك فليست الجناية عليك ، فتكونَ المعذِرةُ إليك * وتِلْكَ شَكَاةٌ ظاهِرٌ عنك عارها *

وقلت إنى كنتُ أُقاد كما يُقاد الجمل المَخْشُوش حتّى أبايع . ولعَمْر الله ! لقد أردتَ أن تذم فَحمدتَ ، وأن تَفضَح فٱفْتَضَحْت ، وما علىٰ المسلم من غَضَاضة فى أن يكون مظلوما مالم يكن شاكًّا فى دينه ، ولا مُرتابا فى يقينه . وهذه حجّتى إلىٰ غيرك قصدها ، ولكنى أطلقتُ لك منها بقدر ما سنح لك من ذكرها .

ثم ذكرتَ ما كان من أمرى وأمر عثمان ، فأيُّنا كان أعدىٰ له وأهدىٰ إلىٰ مَقَاتله : أمَنْ بذل له نُصرته فٱستقعده وٱستكَفَّه أم مَنِ ٱستنصره فتراخى عنه وبثَّ المنونَ إليه ، حتى أتىٰ قدره عليه . كلا والله ! لقد علم الله المُعوِّقِينَ مِنْكُمْ والقَائلِينَ لإخْوانِهِم هَلُمَّ إلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ البَأْسَ إلا قليلا . وما كنت أعتذر من أنّى كنت أنقم عليه

أحداثا فإن يكن الذنبُ إليه إرشادى وهدايتى له "فربَّ ملوم لاذنْبَ له . وقد يستفيدُ الظِّنَّة المُتنصِّحُ" وما أردتُ إلا الإصلاحَ ما استطعْتُ وما توفيقى إلا بالله عليه توكَّلْتُ وإليه أُنيبُ .

وذكرت أنه ليس لى ولأصحابى إلا السيف فلقد أضحكتَ بعد استعبار ! متىٰ ألفيْتَ بنى عبد المطلب عن الأعداء ناكلين؟ أو بالسيوف مخوَّفين .

(ف)لَبِّث قليلًا يَلْحقِ الهَيْجا حَمَل * سيطلُبك مَنْ تطْلُب، ويقرُب منك ما تستبعد، وأنا مُرْقِل نحوك فى جَحْفَل من المهاجرين، والأنصار والتابعين لهم بإحسان، شديدٍ زحامهم، ساطع قَتامهم، مُسَرْبَلين سرابيلَ الموت . أحبُّ اللقاء إليهم لقاءُ ربهم . قد صحبتهم ذُرّية بدرِيَّة وسُيوف هاشميَّة قد علِمْتَ مواقِعَ نِصالِها فى أخيك وخالك، وجدّك، وأهلك ﴿ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴾ .

وكما كتب "أبو جعفر المنصور" ثانى خلفاء بنى العباس ، وهو يومئذ خليفة، إلىٰ محمد بن عبد الله بن الحسن المثنّى بن الحسن السبط ، حين بُويع له بالخلافة وخرج علىٰ المنصور يريد انتزاعها منه . من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلىٰ محمدبن عبد الله . أما بعد : فـ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ . ولك ذمةُ الله وعهدُه وميثاقه وحقُّ نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إن تُبْتَ من قبل أن يُقدَر عليك أن أؤمِّنك علىٰ نفسك وولدك وإخوتك ومَنْ بايعك وجميع شيعتك ، وأن أُعطيكَ ألفَ ألفِ درهم، وأُنزِلَك من البلاد حيث شئتَ ، وأقضى لك ماشئت من الحاجات، وأن أُطلق مَنْ فى سِجْنى من أهل بيتك وشيعتك وأنصارك، ثم لا أُتْبِع أحدا منكم بمكروه

وإن شئت أن تتوثّق لنفسك فوجّه إلىّ مَنْ يأخذ لك من الميثاق والعهد والأيمان ما أحببت . والسلام .

فأجابه محمد بن عبد الله بما نصه :

من محمد بن عبد الله أمير المؤمنين إلىٰ عبد الله بن محمد . أما بعد : ﴿طسٓم ، تِلْكَ آياتُ الكِتابِ المُبِينِ تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسىٰ وَفِرْعَوْنَ بالحَقّ لِقَوْم يُؤْمِنُونَ إنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلىٰ الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ . وأنا أعرض عليك من الأمان مثل الذى أعطيتَنى ، فقد تعلم أنَّ الحقَّ حقُّنا ، وأنكم إنما أُعطيتُموه بنا ، ونَهضتم فيه بسَعْينا وحُظْتُموه بفضلنا ، وأن أبانا عليا عليه السلام ، كان الوصىَّ والإمام ، فكيف وَرِثتموه دوننا ، ونحن أحياء ! وقد علمت أنه ليس أحد من بنى هاشم يمُتُّ بمثل فَضْلنا ولا يَفْخَر بمثل قديمنا وحديثنا ونسبِنا ، وإنا بنُو أمّ أبى رسول الله : فاطمةَ بنتِ عمرو فى الجاهلية دُونكم ، وبنو ٱبنته فاطمة فى الإسلام من بينكم ، فأنا أوسطُ بنى هاشم نسبًا ، وخيرهم أما وأبا ، لم تلدنى العجَم ، ولم تُعْرِق فىّ أمّهات الأولاد . وإن الله عز وجل لم يزل يختار لنا فوَلَدنى من النبيين أفضلُهم : محمد صلى الله عليه وسلم . ومن أصحابه أقدمُهم إسلاما ، وأوسعُهم علما ، وأكثرهم جهادا : علىّ بن أبى طالب ؛ ومن نسائه أفضلُهن : خديجةُ بنت خويلد أوّل مَنْ آمن بالله وصلّى إلىٰ القبلة ؛ ومن بناته أفضلُهن ، وسيدةُ نساء أهل الجنة ، ومن المولودين فى الإسلام الحسنُ والحسينُ سيدا شباب أهل الجنة . ثم قد علمت أن هاشما ولَدَ عليا مرتين ، وأنّ عبد المطلب ولد الحسن والحسين مرّتين ، وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم

وَلَدَنى مرّتين من قِبَل جدَّىَّ الحسن والحسين ، فما زال الإلهُ يختارُ لى حتّى آختار لى فى النار فولَدَنى أرفعُ الناس درجةً فى الجنة ، وأهونُ أهل النار عذاباً يوم القيامة ، فأنا آبنُ خير الأخيار ، وآبن خير الأشرار ، وآبن خير أهل الجنة ، وآبن خير أهل النار . ولك عهدُ الله إن دخلتَ فى بَيْعتى أن أؤمنكَ علىٰ نفسك و ولدِك وكلِّ ما أصبته إلا حدّا من حدود الله تعالىٰ ، أو حقا لمسلم أو معاهَد . فقد علمت مايلزمك فى ذلك فأنا أوفىٰ بالعهد منك ، وأنت أحرىٰ بقبول الأمان منى . فأما أمانك الذى عرضت علىّ فأىُّ الأمانات هو؟ أأمان آبن هبيرة ، أم أمانُ عمك عبدِالله بن علىٍّ ، أم أمان مسلم والسلام .

فأجابه المنصور : من عبدالله عبد الله أمير المؤمنين إلى محمد بن عبد الله ، أما بعد فقد أتانى كتابُك ، وبلغنى كلامُك ، فإذا جُلُّ فخرك بالنساء ، لتُضِلَّ به الجُفاة والغوغاء ، ولم يجعل الله النساء كالعمومة ، ولا الآباء كالعصبة والأولياء . وقدجعل الله تعالىٰ العمَّ أبا ، وبدأ به علىٰ الوالد الأدنىٰ . فقال جل ثناؤه عن نبيه يوسف عليه السلام ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِى إبْرَاهِيمَ و إسْحَاقَ ويَعْقُوبَ﴾ .

ولقد علمتَ أن الله تبارك وتعالىٰ بعث محمدا صلى الله عليه وسلم ، وعمومتُه أربعة فأجاب آثنان أحدهما أبى ، وكفر آثنان أحدهما أبوك .

وأما ماذكرتَ من النساء وقراباتهن ، فلو أُعْطِين علىٰ قدر الأنساب ، وحقِّ الأحساب ، لكان الخير كلُّه لآمنة بنتِ وهب ، ولكن الله يختار لدينه مَنْ يشاء من خلقه .

وأما ماذكرت من فاطمةَ بنتِ أسدٍ أم علىّ بن أبى طالب ، وفاطمة بنت الحسين وأن هاشما وَلَد عليا مرّتين ، وأن عبد المطّلب ولَد الحسن مرّتين ، فخير الأولين

والآخرين رسول الله صـلى الله عليه وسلم ولم يَلِده هاشم إلا مرّة واحدة ، ولم يلده عبد المطلب إلا مرّة واحدة .

وأما ماذكرت من أنك ٱبنُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الله عز وجل قد أبىٰ ذلك فقال ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللّٰهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ ولكنكم قرابة ٱبنته ، وإنها قرابة ذرّيته ، غير أنها ٱمرأة لاتحوز الميراث ، ولا يجوز أن تَؤُمّ فكيف تُورَث الإمامة من قبلها ! ولقد ظلمها أبوك من كل وجه فأخرجها تُخاصِم ، ومَرَّضها سرّا ، ودفنها ليلا ، فأبىٰ الناس إلا تقديم الشيخين . ولقد حضر أبوك وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وسـلم فأمر بالصلاة غيرَه . ثم أخذ الناسُ رجالا فلم يأخذوا أباك فيهم . ثم كان فى أصحاب الشُّورىٰ فكلٌّ دفعه عنها ، وبايع عبدُالرحمن عثمانَ وقبلها عثمانُ وحارب أباك طلحةُ والزبيرُ ، ودعا سعدا إلىٰ بيْعته فأغلق بابَه دُونه . ثم بايع معاويةَ بعده ، وأفضىٰ أمر جدّك إلىٰ أبيك الحسن فسلمه إلىٰ معاوية بخِرَق ودراهم وخرج إلىٰ المدينة ، فدفع الأمر إلىٰ غير أهله ، وأخذَ مالا من غير حله . فإن كان لكم فيها شيء فقد بعتموه .

وأما قولك إن الله ٱختار لك فى الكُفْر فجَعل أبُوك أهونَ أهل النار عذابا فليس فى الشر خيار ، ولا من عذاب الله هَيِّن ؛ ولا ينبغى لمسـلِم يؤمنُ بالله واليوم الآخر أن يفتخِر بالنار . ستَرِد فتعلم ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ .

وأما قولك إنه لم تَلِدْك العجم ، ولم تُعْـرِق فيك أمَّهاتُ الأولاد ، وإنك أوسطُ بنى هاشم نسـبا ، وخيرُهم أمًّا وأبا ، فقد رأيتك فَخَرت علىٰ بنى هاشم طُرًّا ، وقدّمتَ نفسـك علىٰ من هو خير منك أوّلا وآخرا ، وأصلا وفصلا . فَخَرت علىٰ إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلىٰ والدِ ولده ؛ فانظر ويحك أين تكون من الله تعالى غدا وما وُلد فيكم مولود بعـد وفاة رسول الله صـلى الله عليـه وسلم أفضل من علىّ

آبن الحسين وهو لأمّ ولد، ولقد كان خيرا من جدّك حسن بن حسن. ثم آبنه محمد بن علىّ خيرٌ من أبيك وجدّته أمّ ولد . ثم آبنُه جعفر وهو خير منك ولدته أمّ ولد . ولقد علمت أن جدّك عليا حَكَّم حكمَيْن وأعطاهما عَهْده وميثاقه علىٰ الرضا بما حكما به فآجتمعا علىٰ خَلْعه ، ثم خرج عمُّك الحسينُ علىٰ آبن مرجانة وكان الناس معه عليه حتّى قتلوه، ثم أتَوْا بكم علىٰ الأقتاب من غير أوطية كالسَّبْى المجلوب إلىٰ الشأم. ثم خرج منكم غيرُ واحد فقتلكم بنو أميـة وحَرَّقوكم بالنار وصلَّبوكُمْ علىٰ جذوع النخل حتّى خرجنا عليهم فأدركنا بثأركم إذ لم تُدْركوه ، ورفعنا أقداركم ، وأورثناكم أرضَهم وديارهم بعد أن كانوا يلعَنونَ أباك فى أدبار الصلاة المكتوبة كما تُلعنُ الكَفَرة فمنعناهم وكفَّرناهم، وبينا فضـله وأشَدْنا بذِكره، فآتخذت ذلك علينا حجة ، وظننت أنا بما ذكرنا من فضـل علىّ قدّمناه علىٰ حمزةَ والعباس وجعفر ، كل أولئك مضوا سالمين سلما منهـم وآبتُلِى أبوك بالدماء . ولقد علمت أن مآثرنا فى الجاهلية سقاية الحاج الأعظم ، وولاية زمزم ، وكانت للعباس دُونَ إخوته فنـازع فيهـا أبوك إلىٰ عمر فقضىٰ لنا عمر بها . وتُوفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس من عمومته أحدٌ حيًّا إلا العباس فكان وارثَه دُونَ بنى عبـد المطلب ، فطلب الخلافة غير واحد من بنى هاشم فلم ينَلْها إلا ولده . فآجتمع للعباس أنه أبو رسولِ الله صلى الله عليه وسلم خاتِم الأنبياء، وبَنُوه القـادةُ الخلفاء، فقد ذهب بفضل القديم والحديث، ولولا العباس أُخْرج إلىٰ بدر كُرْها لمات عَمَّاك طالب وعقيل جُوعا أو يَتَجشَّمان جِفَان عُتْبة وشيبة، فأذهب عنهما العار والشَّـنَار . ولقد جاء الإسلام والعباس يَمُون أبا طالب للأزْمة التى أصابتْهم . ثم فدىٰ عَقيـلا يوم بدر فقدْ مُنَّاكم فى الكفر، وفديناكم من الأسر، وورثنـا دونكم خاتَمَ الأنبيـاء ، وحزنا شرف الآباء ، وأدركنا بثأركم إذ عجزتم عنـه ووضعناكم حيث لم تضَعُوا أنفسكم والسلام .

ومن مكاتبات ملوك الفرس البلغاء ما كتب به أرسطوطاليس إلى الإسكندر : إنه إنما تملك الرعيّة بالإحسان إليها، وتظْفَر بالمحبة منها؛ فإنّ طلبك ذلك بإحسانك، هو أدومُ بقاءً منه باعتسافك بعنفك. وآعلم أنه إنما تُمْلَك الأبدان، فآجمع إليها القلوب بالمحبة. وآعلم أن الرعية إذا قدرَتْ على أن تقول قدرت أن تفعل؛ فآجتهد أن لا تقول تَسلَمْ من أن تفعل .

ومما كتب به أبرويز إلى آبنه شيرويه يوصيه بالرعية كتابا فيه : ليكن مَنْ تختاره لولايتك رجلا كان فى وَضِيعة فرفَعْته، وذا شَرَف كان مهمَلا فآصطنعته . ولا تجعله امرأ أصبته بعقوبة فاتّضع لها ، ولا أحدا ممن يقع بقلبك أن إزالةَ سلطانك أحبُّ إليه من ثبوته؛ وإياك أن تستعمله ضريعا، غَمْرا، كثيرا إعجابُه بنفسه، قليلا تجربتُه فى غيره، ولا كبيرا مُدْبِرا، قد أخذ الدهر من عَقْله، كما أخذت السِّنُّ من جِسمه .

ومما كتب به أبرويز إلى آبنه شيرويه أيضا : إن كلمةً منك تَسْفِك دما، وأُخرى تحقِن دما، وإن سَخَطك سيفٌ مسلول على من سَخِطت عليه، وإنّ رضاك بَركة مفيدة على من رضيت عنه، وإن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فآحترس فى غضبك من قولك أن يُخطِئ، ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخفّ؛ فإن الملوك تعاقب حُزْما، وتعفو حِلْما .

ومما كتب به أردشير إلى رعيته : من أردشير المؤيد، ملك الملوك، وارث العظماء، إلى الفقهاء الذين هم حملة الدين ، والأساورة الذين هم حَفَظة البيضة ، والكُتّاب الذين هم زَيْن المملكة، وذوى الحروب الذين هم عمدة البلد . السلام عليكم، فإنا نحمد إليكم الله سالمين، وقد وضعْنا عن رعيتنا بفضل رأفتنا بها إتاوتَها الموظَّفة عليها، ونحن مع ذلك كاتبون بوصية : لا تستشعروا الحقد فيَدْهَمكم العدوّ، ولا تحتكروا فيشمَلَكم

القحط ، وتزوّجوا القرائب فإنه أمس للرحم ، وأثبت فى النسب ، ولا تَعُدّوا هذه الدنيا شيئا ، ولا ترفُضوها ، فإن الآخرة لا تدرك إلا بها .

وأما رسائلهم ومخاطباتهم . فمن ذلك رسالة الصدّيق رضى الله عنه إلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه حين تلكَّأ عن مبايعته ، على لسان أبى عبيدة بن الجرّاح رضى الله عنه ، مع ما انضم إلى ذلك من كلام أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه وما كان من جواب علىّ عنها .

قال أبو حَيَّانَ علىُّ بن محمد التوحيدى البغدادى : سَمَرنا ليلةً عند القاضى أبى حامد أحمد بن بشر المَرْوَرُّوذىّ ببغداد ، فتصرف فى الحديث كل متصَرَّف ، وكان غزير الرواية ، لطيف الدراية ، فجرى حديثُ السقيفة ، فركب كلَّ مَرْكَبا ، وقال قولا ، وعرّض بشىء ، ونزع إلى فنّ . فقال : هل فيكم مَن يحفَظ رسالةً لأبى بكر الصديق ، رضى الله عنه إلى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وجوابَ علىّ عنها ، ومبايعتَه إياه عقيب تلك المناظرة . فقال الجماعة : لا والله ، فقال : هى والله من بنات الحقائق ، ومخبآت الصنادق ، ومنذ حفِظتها ما رويتها إلا لأبى محمد المهلَّبىّ فى وزارته ، فكتبها عنى بيده ، وقال : لا أعرِف رسالة أعقلَ منها ولا أبينَ ، وإنها لتدلُّ على علم وحلم ، وفصاحة ونباهة ، وبُعْد غور ، وشدّة غوص — فقال له العبّادانىّ : أيها القاضى فلو أتممت المِنّة علينا بروايتها ، أسمِعْناها ، فنحن أوعى لك من المهلبىّ ، وأوجب ذِماما عليك ، فاندفع وقال :

" حدّثنا الخزاعى بمكة ، عن أبى مَيْسرة ، قال حدّثنا محمد بن أبى فُلَيح عن عيسى بن دوأب بن المتّاح ، قال : سمعت مولاى أبا عُبيدة يقول : لما استقامت الخلافةُ لأبى بكر رضى الله عنه بين المهاجرين والأنصار ، بعد فتنةٍ كاد الشيطانُ بها ، فدفع الله شرها ويسّر خيرها ، بلغ أبا بكر عن علىّ تلكّؤ وشِماس ، وتهمّم ونِفَاس ،

فكره أن يتمـادىٰ الحالُ فتبدُوَ العورة، وتشتعلَ الجمرة، وتتفرّق ذاتُ البَيْن؛ فدعانى بحضرته فى خلوة، وكان عنده عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنـه وحده فقـال : يأبا عبيـدة ما أَيْمَنَ ناصِيَتَك، وأبْيَنَ الخـيْرَ بين عينيك؛ وطالمـا أعزَّ الله بك الإسلام وأصلح شأْنَه علىٰ يديك، ولقـد كنت من رسول الله صـلى الله عليه وسلم بالمَكان المَحُوط، والمحل المَغْبوط؛ ولقد قال فيك فى يوم مشهود "لكُلِّ أمّةٍ أمِينٌ وأمِينُ هذه الأمّة أبو عُبَيْـدَةَ" ولم تزل للدِّين ملتجا، وللمؤمنيـن مُرْتَجا؛ ولأهلك ركنا، ولإخوانك ردءًا . قد أردتك لأمرٍ خَطِرٍ مَخُوف، و إصلاحه من أعظم المعروف، ولئن لم ينـدمل جُرْحه بيسارك و رِفْقـك، ولم تُجِب حيته برقيتك، وقع اليأس، وأعضل البأس؛ وآحتيج بعد ذلك إلىٰ ماهو أمرّ منه وأعلَق، وأعسرُ منه وأغْلق؛ والله أسأل تمامه بك، ونظامه علىٰ يديك. فتأتَّ(١) له أبا عبيدة وتلطفْ فيه، وآنصح لله عز وجل ولرسوله صـلى الله عليه وسلم، ولهذه العصابة غيرَ آلٍ جَهْـدا، ولا قالٍ حمدا، والله كالئك وناصرك، وهاديك ومبَصِّرك، إنـ شاء الله . امض إلىٰ علىّ وآخفِضْ له جناحَك، وآغضُضْ عنده صوتَك، وآعلم أنه سُلَالة أبى طالب، ومكانُه ممن فقَدْناه بالأمس صلى الله عليه وسلم مكانُه، وقل له البحرُ مَغْرقة، والبر مفرقة، والجوّ أكْلَف، والليلُ أغْدَف، والسماء جَلْواء، والأرض صَلْعاء، والصُّعود متعذِّر، والهُبُوط متعسِّر، والحق عَطُوف رءُوف، والباطل عَنُوف عَسُوف، والعُجْب قَدَّاحة الشر، والضِّغن رائد البَوار، والتعريض شِجار الفِتْنة، والقِحَة ثَقُوب العَداوة، وهذا الشيطان متَّكئ علىٰ شِمـاله، متحَيِّل بيمينه، نافخٌ خُصْييه لأهله، ينتظر الشَّـتات والفُرقة، ويدبُّ بين الأمّة بالشـحناء والعداوة، عنادًا لله عز وجل أوّلا، ولآدم ثانيًا، ولنَبِيِّه صلى الله عليه وسلم ودِينِه ثالثا، يُوَسْوِس بالفُجور، ويُدْلِى بالغُرور، ويمنِّى أهلَ الشُّرور . يُوحى إلىٰ أوليائه زُخْرُفَ القول غرورا بالباطل، دأبا له منذ

(١) تأتّى فلان للامر تهيأ له وأتاه من وجهه .

كان علىٰ عهد أبينا آدم صلى الله عليه وسلم، وعادةً له منذ أهانه الله تعالىٰ فى سالف الدهر لامَنْجَى منه إلا بعَضِّ الناجذ علىٰ الحق، وغَضّ الطرف عن الباطل، ووطْء هامة عدوّ الله بالأشدّ فالأشد، والآكد فالآكد، وإسلامِ النفس لله عز وجل فى ٱبتغاء رضاه . ولا بُدَّ الآن من قول ينفع إذا ضرَّ السُّكوت وخِيف غِبُّه؛ ولقد أرشدك من أفاء ضالَّتك، وصافاك مَنْ أحيا مودّته بعتابك، وأراد لك الخير مَنْ آثر البقاءَ معك؛ ما هذا الذى تُسوِّل لك نفسُك، ويدوى به قلبُك، ويلتوِى عليه رأيك، ويتخاوصُ دونَه طَرْفُك، ويسرى فيه ظَعْنك، ويترادّ معه نَفَسك، وتكثُر عنده صُعَداؤك، ولا يَفِيضُ به لسانك . أعُجمةٌ بعد إفصاح؟ أتلبيس بعد إيضاح؟ أدينٌ غير دين الله؟ أخُلُق غير خُلُق القرءان؟ أهدْى غير هدْي النبى صلى الله عليه وسلم، أمثلى "تمشِى له الضَّرَاءَ وتدبُّ له الخَمَر؟"[1]، أم مثلك ينْقبِض عليه الفضاء، ويُكْسَف فى عينه القَمَر؛ ماهذه القَعْقعة بالشِّنان؟ وما هذه الوعوعة باللسان؟ إنك والله جِدُّ عارفٍ بٱستجابتنا لله عز وجل ولرسوله صلى الله عليه وسلم، وبخروجنا عن أوطاننا وأموالنا وأولادنا وأحبتنا، هجرةً إلىٰ الله عز وجل، ونصرةً لدينه فى زمان أنت فيه فى كِنّ الصبا، وخِدْر الغَرارة، وعُنْفُوان الشَّبيبة، غافلٌ عما يُشِيب ويُريب، لاتعِى مايُراد ويُشَاد، ولا تحصِّل مايُساق ويُقاد، سوىٰ ماأنت جارٍ عليه إلىٰ غايَتِك التى إليها عُدِل بك، وعندها حُطَّ رحلك، غير مجهول القدر ولا مجحود الفضل؛ ونحن فى أثناء ذلك نُعانِى أحوالا تُزِيل الرَّواسى، ونُقاسِى أهوالا تُشيب النواصى، خائضِينَ غِمارها، راكبين تيَّارها، نتجرّع صابَها، ونَشْرَج عِيابها، ونُحكم آساسها، ونُبْرم أمْراسَها، والعيون تُحدِّج بالحسد، والأنوف تَعطَّس بالكِبْر، والصُّدور تستَعِر بالغَيظ، والأعناق تتطاوَلُ بالفخر، والشِّفار تُشْحَذ بالمكر، والأرض تميد

(١) مثل يضرب لمن يختل صاحبه .

بالخوف ؛ لا ننتظر عند المَساء صَباحا ، ولا عنـد الصَّباح مَساء ، ولا نَدْفَع فى نحرِ آمرئ إلا بعد أن نحسُوَ الموتَ دُونه ، ولا نبلغُ مرادا إلا بعـد الإيَاس من الحياة عنده؛ فادِينَ فى جميع ذلك رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالأبِ والأُم ، والخـال والعم ، والمـال والنَّشَب ، والسَّـبَد واللَّبَـد ، والهَلَّة والبِلَّة ، بِطيب أنفُس ، وقُرّة أعين ، ورَحْبِ أعطان ، وثَبات عزائم ، وصِحَّة عقول ، وطَلَاقة أوجه ، وذَلاقة أَلْسُن ؛ هذا مع خَفِيَّات أسرار ، ومكنُونات أخبار ، كنتَ عنها غافلا ، ولولا سِنُّك لم تكن عن شىء منهـا ناكلا ، كيف وفُؤادك مشْهُوم؟ (١) ، وعُودُك معْجُوم . والآنَ قد بلغ اللهُ بك وأنهض الخيْرَ لك ، وجعـل مُرادَك بين يديك ، وعن علم أقول ماتسمع ؛ فآرتقبْ زمانَك ، وقَلِّص أردانَك ، ودع التقَعُّس والتجَسُّس لمن لا يَظْلع لك إذا خَطا ، ولا يتزحْزَح عنك إذا عَطَـا ؛ فالأمرُ غض ، والنفوس فيهـا مَضّ ، وإنك أديمُ هذه الأمّة فلا تحْلَمْ لجَاجا ، وسيفُها العَضْب ، فلا تنبُ آعوِجاجا ، وماؤها العذب ، فلا تَحُلْ أُجاجا . والله لقد سألتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذا الأمر ، فقال لى يا أبا بكر هو لمن يرغَبُ عنه لالمن يُجاحِش عليه ، ولمن يتَضاءَلُ عنه لالمن يتَنفَّج إليه ؛ هو لمن يُقال هو لك لالمن يقُول هو لى .

ولقد شاورنى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى الصِّهر ، فذكر فِتيانا من قريش فقلت أين أنتَ من علىّ ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنى أكْرَه لفاطمة مَيْعةَ شَبابِه ، وحَداثةَ سـنّه . فقلت له متىٰ كنفَتْه يدُك ورعَتْـه عينُـك ، حفَّت بهما البركة ، وأُسْبِغت عليهمـا النِّعمة ؛ مع كلام كثيرٍ خاطبته به رغبةً فيك ، وما كنت عرفت منك فى ذلك لاحَوْجاء ولالَوْجاء ، فقلت ماقلت وأنا أرىٰ مكان غيرك ، وأجد رائحة سِواك ؛ وكنتُ إذ ذاك خيراً لك منك الآن لى ؛ ولئن كان عرّض بك رسـولُ الله صلى الله عليه وسـلم فى هذا الأمر ، فلم يكن مُعْرِضا عن غيرك ، وإن كان قال فيك

(١) بالشين المعجمة أى ذكىّ متوقد .

فما سكت عن سِواك، وإن تلجلجَ فى نفسك شىء، فَهَلُمَّ فالحُكم مَرْضىّ، والصواب مسمُوع، والحقُّ مُطاع. ولقد نُقِل رسول الله صلى الله عليه وسلم الىٰ الله عز وجل، وهو عن هذه العِصابة راض وعليها حَذِر: يسرُّه ماسرها، ويسوءه ماساءها، ويكيده ما كادها، ويُرْضيه ما أرضاها، ويُسْخِطه ما أسخطها. أما تعلم أنه لم يَدَعْ أحدا من أصحـابه، وأقاربه، وسُجَرائه(١)، إلا أبانه بفضيلة، وخَصَّـه بمزية، وأفرده بحالة. أتظنُّ أنه صلى الله عليه وسلم ترك الأمّة سُدًى بَدَدا، عباهِلَ(٢)، مَبَاهِل، طَلاحىٰ مفتونةً بالبـاطل، مغبونةً عن الحق، لا رائد ولا زائد، ولا ضابط ولا حائط، ولا ساقىَ ولا واقى، ولا هادىَ ولا حادى كلا! ، والله ما آشتاق إلى ربه تعالى، ولا سأله المصير إلى رضوانه وقُرْبه، إلا بعد أن ضرب المدى، وأوضح الهُدى، وأبان الصُّوىٰ، وأمّن المسالك والمَطارح، وسهل المبارك والمَهايع، وإلا بعد أن شَدَخ يافوخ الشرك بإذن الله، وشَرَم وجه النفاق لوجه الله سبحانه، وجَدَع أنفَ الفتنة فى ذات الله، وتَفَل فى عين الشيطان بعون الله، وصدَع بملء فيه ويده بأمر الله عز وجل.

وبعد، فهذه المهاجرون والأنصار عندك ومعك فى بُقعة واحدة، ودار جامعة، إن آستقالونى لك، وأشاروا عندى بك، فأنا واضعٌ يدى فى يدك، وصائرٌ إلىٰ رأيهم فيك. وإن تكن الأخرىٰ فآدخُل فيما دخل فيـه المسلمون، وكن العونَ علىٰ مَصالحهم، والفاتِحَ لَمغالِقهم، والمرشد لضالَّتهم، والرادع لغَوَايتهم. فقد أمر الله تعالىٰ بالتعاوُن علىٰ البر والتقوىٰ، والتناصُر علىٰ الحق. ودَعْنا نقضى هذه الحياةَ الدنيا بصدور بريئة من الغِلّ، ونَلْق الله تعالىٰ بقلوب سليمة من الضِّغن.

وبعد فالناس ثُمامةٌ فَآرْفُق بهم، وآحنُ عليهم ولِنْ لهم، ولا تُشْق نفسَك بنا خاصَّة

---

(١) بالسين المهملة جمع سجير كأمير وهو الصديق.

(٢) بالباء الموحدة فى الوزنين ومعناهما مهملة. أنظر اللسان.

فيهم، وأترُك ناجمَ الحقد حصيدا، وطائرَ الشرِّ واقعا، وباب الفتنة مُغْلَقا، فلا قال ولا قيل ولا لوم ولا تبيع والله على ما نقول شهيد، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تأهّبت للنهوض، قال عمر رضى الله عنه كنْ لدىٰ الباب هُنيهة فلى معك دَوْر من القول، فوقفت وما أدرى ما كان بعدى، إلا أنه لحقنى بوجه يَنْدىٰ تهللا، وقال لى قل لعلىٍّ الرُّقاد مَحْلَمه، والهوىٰ مَقْحمه، وما منا إلّا له مقام معلوم، وحقٌّ مشاعٌ أو مقسوم، ونبأٌ ظاهر أو مكتوم، وإن أكْيَس الكَيْس من منح الشارد تألُّفا، وقارب البعيد تلطُّفا، ووزن كلَّ شىء بميزانه، ولم يخلط خبره بعِيانه، ولم يجعل فِتْرَه مكان شِبره دِيناً كان أو دُنْيَا، ضلالا كان أو هدًى. ولا خير فى علم مستعملٍ فى جهل، ولا خير فى معرفة مشوبةٍ بنُكْر. ولسنا كجلدة رُفْغ البعير بين العِجّان والذنَب، وكل صالٍ فبناره، وكل سيل فإلىٰ قَراره. وما كان سكوت هذه العصابة إلىٰ هذه الغاية لعِيّ وشَىّ، ولا كلامها اليوم لفَرَق أو رفق. وقد جدع اللهُ بمحمد صلى الله عليه وسلم أنفَ كلِّ ذى كِبْر، وقصمَ ظهر كل جبّار، وقطع لسانَ كل كَذُوب، فماذا بَعْدَ الحَقِّ إلّا الضَّلَال. ما هذه الخُنْزُوانة التى فى فَرَاش رأسك؟ ما هذا الشَّجا المعترضُ فى مَدَارج أنفاسك؟ ما هذه القَذَاة التى تغشَّت ناظرَك؟ وما هذه الوَحَرة التى أكلتْ شراسيفَك؟ وما هذا الذى لبِست بسببه جلد النَّمر، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكُر، ولسنا فى كِسْروِيَّة كِسرىٰ، ولا فى قَيْصَريَّة قيصر! تأملْ لإخوان فارس وأبناء الأصفر! قد جعلهم الله جَزَرا لسُيُوفنا، ودريئة لرِماحنا، ومرمًى لطِعَاننا، وتبعا لسُلطانِنا؛ بل نحن فى نور نُبُوّة، وضياء رسالة، وثمرةِ حكمه، وأثَرة رحمه، وعُنْوان نِعمه، وظل عصمه، بل أمّة مهديَّة بالحق والصدق، مأمونةٍ علىٰ الرَّتْق والفَتْق، لها من الله قلب أبِىّ، وساعدٌ قوىّ، ويدٌ ناصره، وعينٌ باصره. أتظن ظنا ياعلىّ أن أبا بكر وثب علىٰ هذا الأمر مُفْتاتا علىٰ الأمة خادعا لها،

أو متسلطا عليها ؟ أتُراه حل عُقُودها وأحال عقولها؟ أتراه جعل نهارها ليلا ، ووزْنها كَيْلا ، ويَقَظَتها رُقادا ، وصَلاحها فَسادا ؛ لا والله سلا عنها فولِهتْ له ، وتطامن لها فصِقتْ به ، ومال عنها فمالت إليه ، وٱشمأزّ دونها فاشتملت عليه ، حَبْوة حباه الله بها ، وعاقِبة بلَّغه الله إليها ، ونعمة سَرْبَله جَمالها ، ويدٌ أوجب الله عليه شكرها ، وأُمّةٌ نظر الله به إليها . والله أعلم بخلقه ، وأرأف بعباده ، يختار ما كان لهم الخيَرة . وإنك بحيث لايُجهل موضعُك من بيتِ النبوّة ، ومعدِن الرسالة ، ولا يُجْحَد حقُّك فيما آتاك الله ، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمنكِب أضخَم من منكبك ، وقُرْبٍ أَمَسَّ من قرابتك ، وسنّ أعلىٰ من سنك ، وشيبةٍ أروعَ من شيبتك ، وسيادةٍ لها أصلٌ فى الجاهلية ، وفرعٌ فى الإسلام ، ومواقفُ ليس لك فيها جمل ولا ناقه ، ولا تُذْكَر منها فى مقدّمة ولا ساقه ، ولا تَضرِبُ فيها بذراع ولا إصبع ، ولا تخرُج منها ببازل ولا هُبَع . ولم يزل أبو بكر حَبَّةَ قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعِلاقة نفسه ، وعَيْبة سره ، ومفْزَع رأيه ومشورَته ، وراحةَ كفه ، ومَرْمَق طَرْفه . وذلك كله بمحضر الصادر والوارد من المهاجرين والأنصار ، شُهْرته مغنية عن الدليل عليه . ولعَمْرى إنك أقرب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة ، ولكنه أقربُ منك قُرْبة ، والقَرابة لحم ودم ، والقُربة نفس ورُوح . وهذا فرقٌ عرفه المؤمنون ولذلك صاروا إليه أجمعون ، ومهما شككت فى ذلك ، فلا تشكَّ أن يدَ الله مع الجماعه ، ورضوانَه لأهل الطاعه ، فٱدخل فيما هو خير لك اليوم ، وأنفع لك غدًا ، وٱلفِظْ مِن فيك ما يعْلَق بلَهَاتِك ، وٱنفُث سخيمةَ صدرك عن تُقَاتك ، فإن يكُ فى الأمد طُول ، وفى الأجل فسحة ، فستأكله مريئا أو غير مرىء ، وستشربه هنيئا أو غير هنىء ، حين لا رادَّ لقولك إلا من كان آيسا منك ، ولا تابعَ لك إلا من كان طامعا فيك يَمُضُّ إهابَك ، ويعرُك أديمك ، ويُزْرى علىٰ هديك . هنالك تقرَع السنّ من ندم ،

وتجرّع المـاء ممزوجا بدم، وحينئـذ تأسىٰ علىٰ ما مضىٰ من عمرك ، ودارج قوّتك ، فتودّ أن لو سُـقيت بالكأس التى أبيتَها، ورُددت إلىٰ حالتك التى آستغويتها ، ولله تعالىٰ فينا وفيـك أمر هو بالغُه ، وغيب هو شاهـده ، وعاقبـة هو المرجوّ لسَرّائها وضرّائها ، وهو الولىّ الحميد، الغَفُور الودود .

قال أبو عبيدة، فتمشيت مترملا أنوء كأنمـا أخطو علىٰ رأسى، فَرَقًا من الفُرقة، وشفقًا علىٰ الأمّة، حتّىٰ وصلْت إلىٰ علىّ رضى الله عنه فى خلاء، فآبتثثته بَثّى كلَّه، وبرئت إليه منـه ، ورفَقت به . فلما سمعها ووعاها ، وسَرتْ فى مفاصله حُمَيَّاها ، قال : " حلَّتْ مُعْلَوّطه، وولّت مُخْرَوّطه " ، وأنشأ يقول :

إحدىٰ لَيَالِيكِ فَهِيسِى هِيسِى * لاتَنْعَمِى اللَّيْـلَةَ بالتَّعْرِيس

نعم ياأبا عبيدة أكلُّ هذا فى نفس القوم، ويُحِسُّون به، ويَضْطبِعون عليه ؟ قال أبو عبيدة : فقلت لاجوابَ لك عنـدى إنمـا أنا قاضٍ حقَّ الدِّين ، وراتقٌ فتقَ المسلمين، وسادّ ثُلْمةَ الأمّة . يعلم الله ذلك من جُلْجُلان قلبى، وقَرارة نفسى .

فقال علىّ رضى الله عنه : والله ما كان قُعُودى فى كِنّ هذا البيتِ قصدًا للخلاف، ولا إنكارا للمعروف، ولا زِرايةً علىٰ مُسلم؛ بلْ لمـا قد وَقَذنِى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من فِرَاقه ، وأودعَنِى من الحُزْن لفَقْده . وذلك أننى لم أشهد بعده مَشْهدا إلاجدّد علىّ حُزْنا، وذَكَّرنى شَجَنا. وإن الشوق إلىٰ اللّحاق به كافٍ عن الطَمَع فى غيره . وقد عكفتُ علىٰ عهد الله أنظُر فيه ، وأجمع ماتفرّق ، رجاءَ ثواب مُعَدٍّ لمن أخلص لله عملَه ، وسلَّم لعلمه ومشيئته، وأمرِه ونهيِه . علىٰ أنى ماعلمتُ أن التظاهرَ علىّ واقعٌ، ولا عن الحق الذى سبقَ إلىّ دافع؛ وإذ قد أُفْعِم الوادى بى، وحُشِد النادى من أجلى، فلا مَرْحبا بمـا أساء أحدا من المسلمين وسرَّنى . وفى النفس كلام لولا

سابقُ عقــد ، وسالفُ عهد ، لشفَيْت غيظى بخِنْصَرى وبِنْصَرى ، وخُضْت لُجَّته بأخْمَصِى ومَفْرِقى ، ولكننى مُلْجَم إلىٰ أن ألقىٰ اللهَ ربى ، وعنده أحتسِب ما نزل بى . وإنى غادٍ إلىٰ جماعتكم ، مبايعٌ صاحبَكم ، صابرٌ علىٰ ما ساءنى وسرّكم ﴿ لِيَقْضِىَ اللهُ أمرًا كَانَ مَفْعُولًا ﴾ .

قال أبو عبيدة : فعُدْت إلى أبى بكر رضى الله عنــه فقَصَصْت عليه القول علىٰ غَرِّه ، ولم أختزل شيئا من حُلوه ومُرّه ، وبكَّرت غُدوةً إلىٰ المسجد ، فلما كان صباح يومئـذ وإذا علىّ مخترق الجماعة إلىٰ أبى بكر رضى الله عنهما ، فبايعه ، وقال خيرا ، ووصف جميلا ، وجلس زَمِيتًا(١) ، وآستأذن للقيام فمضىٰ وتبعه عمر مُكْرِمًا له ، مستأثرا لمــا عنده .

فقال علىّ رضى الله عنه : ماقعدتُ عن صاحبكم كارهًا ، ولا أتيتُه فَرِقا ، ولا أقول ما أقول تَعِــلة . ولإنى لأعرف مُنتهىٰ طَرْفى ومَحَطّ قدمى ومَنْزَع قوسى ، ومَوقع سهمى ؛ ولكن قد أَزَمْت علىٰ فأسى ثِقةً بربى فى الدنيا والآخرة .

فقال له عمر رضى الله عنه : كَفْكِفْ غَرْبك ، وآستوقِف سِربك ، ودَع العِصِىَّ بلِحائها ، والدِّلاء علىٰ رشائها . فإنا مِنْ خلفها وورائها ، إن قدَحْنا أورينا ، وإن متَحْنا أرْوَيْنا ، وإن قَرَحنا أدمينا ، ولقد سمعتُ أماثيلك التى لغزْت بهــا عن صدر أُكِل بالجَوىٰ ، ولو شئت لقلت علىٰ مقالتك ما إن سمعتَه ندمت علىٰ ما قلت . وزعمت أنك قعدتَ فى كِنّ بيتك لمــا وقَذَك به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من فقدِه ، فهو وقذك ولم يَقِذْ غيرك ؟ بل مُصابُه أعظم وأعمُّ من ذلك ، وإنّ من حق مُصابه أن لا تَصدَع شَمْل الجماعة بفرقةٍ لا عصام لها ، ولا يُؤْمن كيد الشيطان فى بقائها . هذه

---

(١) أى حليما وقورا .

العَرَب حولنا، والله لو تداعتْ علينا فى صُـبْح نَهار لم نلتقِ فى مَسَائه . وزعمت أن الشوقَ إلىٰ اللَّحاق به كافٍ عن الطمع فى غيره ! فمن علامة الشوق إليه نصرة دينه، وموازَرة أوليـائه، ومعاوَنتهم . وزعمت أنك عَكَفت علىٰ عهـد الله تجمعُ ما تفرَّق منـه؛ فمن العُكُوف علىٰ عهد الله النصيحة لعباد الله، والرأفةُ علىٰ خلق الله، وبذل ما يَصْلُحُون به، ويَرْشُدون عليه . وزعمت أنك لم تعلم أن التظاهُر واقع عليـك وأىّ حق لُطَّ(١) دُونَك . قد سِمعتَ وعلمتَ ما قال الأنصـار بالأمس سِرّا وجَهرا، وتقلبتَ عليـه بَطْنا وظَهرا، فهل ذكَرَتْ أو أشارَتْ بك أو وجدْت رِضاهم عنك ؟ هل قال أحد منهم بلسانه إنك تصلُح لهذا الأمر ؟ أو أومأ بعينه ؟ أو هَمّ فى نفسه ؟ أتظن أن النـاس ضلُّوا من أجْلك، وعادوا كُفَّارا زُهْدا فيك، وباعوا اللهَ تحاملا عليك ؟ . لا والله ! لقد جاءنى عَقيل بن زياد الخزرجىُّ فى نفَر من أصحـابه ومعهم شُرَحْبِيل بن يعقُوب الخزرجىّ وقالوا : إن عليًّا ينتظر الإمامة، ويزعم أنه أولىٰ بها من غيره، ويُنْكِر علىٰ مَنْ يعقد الخلافةَ، فأنكرتُ عليهم، ورددتُ القول فى نحرهم حيث قالوا : إنه ينتظر الوحىَ ويتوكَّف مناجاة المَلَك . فقلتُ ذاك أمرٌ طواه الله بعـد نبيه محمد صلى الله عليه وسـلم، أكان الأمر معقودا بأُنْشُوطه، أو مشـدودا بأطراف لِيطه ؟ كلا ! والله لا عجماءَ بحمـد الله إلا أفصحت، ولا شوكاء إلا وقد تفتَّحتْ . ومن أعجب شأنك قولك : ولولا سالف عهد وسابقُ عَقْد، لشفيتُ غيظى؛ وهل ترك الدينُ لأهله أن يشفُوا غيظهم بيدٍ أو بلسان ؟ تلك جاهليَّة وقد استأصل الله شأْفَتَها واقتلع جُرْثُومتها، وهوّر ليلَها، وغوّر سيْلَها، وأبدل منها الرَّوْح والرَّيْحان، والهُدَى والبُرهان . وزعمت أنك مُلْجَم؛ ولعمرى إن مَن آتقى الله، وآثر رِضاه، وطلب ما عندهُ، أمْسكَ لسانه وأطبق فاه، وجعل سَعْيه لما وراه .

(١) لُطَّ . أى جحد . ووقع فى بعض النسخ لك وفى بعضها ليط وكلاهما تصحيف .

فقال عليّ رضى الله عنه : مَهْـلًا ياأبا حفص والله مابذَلْت مابذَلْت وأنا أريد نَكْثه، ولا أقْرَرت ما أقْرَرت وأنا أبتغى حِولا عنه . وإن أخسر النـاس صفقةً عنـد الله مَنْ آثَرَ النفاق ، وٱحتَضَنَ الشِّقاق وفى الله سَلْوة عن كل حادث ، وعليه التوكُّل فى جميع الحوادث . ارجع ياأبا حفص إلىٰ مجلسك ناقعَ القلب ، مبرودَ الغليل ، فسيحَ اللَّبان ، فَصِيح اللِّسان ؛ فليس وراء ما سمعت وقلت إلا ما يشدُّ الأزر ، ويَحُط الوِزر ، ويضع الإصْر ، ويجمع الأُلْفة بمشيئة الله وحسن توفيقه .

قال أبو عبيدة رضى الله عنه : فٱنصرف عليّ وعمر رضى الله عنهما . وهذا أصعبُ ما مرّ على بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن ذلك كلام عائشة رضى الله عنها فى الٱنتصار لأبيها .

يروىٰ أنه بلغ عائشـةَ رضى الله عنها أن أقواما يتناولون أبا بكر رضى الله عنه ، فأرسلتْ إلىٰ أزْفَلةٍ من الناس فلمـا حضروا ، أسدَلَت أستارَها ، وعلَتْ وِسادَها . ثم قالت أبى : وما أبِيَه ! أبى والله لاتَعْطُوه الأيدى ، ذاك طَوْدٌ منيف ، وفَرْع مَديد ، هيهاتَ كذبَتِ الظُّنون ، أنجحَ إذ أكْدَيتم ، وسَبَق إذ ونَيْتم * سَبْقَ الجوادِ إذا ٱستولىٰ علىٰ الأمد * فتىٰ قريش ناشئا ، وكهفها كَهْلا ، يفُك عانيَها ويَرِيشُ مُمْلِقَها ، ويرأبُ شَعْبها ، ويلُمُّ شَعَثَها حتّى حَلِيَتْه قلوبُها ، ثم ٱستَشرىٰ فى دِين الله فمـا بَرِحتْ شكيمتُه فى ذات الله عز وجل حتّى ٱتخذ بفِنائه مَسْجِدا يحيي فيه ما أمات المبطلون ؛ وكان رحمه الله غَزِير الدَّمْعة ، وقِيذَ الجوانح ، شَجِيَّ النَّشيج ، فانقضَّتْ إليـه نِسوانُ مكةَ ووُلْدانُها يَسْخَرون منه ويستهزئون به (اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ويمدُّهُمْ فى طُغْيانهم يعْمَهُون) فأكبرتْ ذلك رِجالاتُ من قريش فحَنت قِسِيَّها وفوّقتْ سِهامها وٱنتَثلوه غرضا ، فما فَلُّوا له صَفاة ، ولا قَصَفُوا له قناة ، ومرَّ علىٰ سِيسائه ، حتّي إذا ضرب الدِّينُ بجرانه ،

ورسَتْ أوتاده ، ودخل الناسُ فيه أفواجا، ومن كل فِرْقة أرسالا وأشتاتًا، آختار الله لنبيِّه ما عنـده، فلما قبض الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم ضربَ الشَّيطانُ رُواقَه، ومدّ طُنُبه، ونَصَب حبائله ، وأجْلب بخَيْله ورَجْله ، وآضطربَ حبلُ الإسـلام ، ومَرِج عهـدُه وماجَ أهلُه ، وبُغِى الغوائل، وظنَّتْ رجال أن قد أ كثبتْ أطماعَهم نُهَزُها ولاتَ حينَ الذى يرجون ، وأنَّى والصـدّيق بين أظهُرهم . فقام حاسِرا مشَمِّرا، فجمع حاشِيتَيْه ورَفَع قُطْريْه ، فردّ رسَنَ الإسـلام علىٰ غَرْبه(١)، ولَمَّ شـعثه بِطِبِّه، وآنتاشَ الدين فنعَشَه، فلما أراح الحقَّ علىٰ أهله ، وقرَّر الرءُوسَ علىٰ كواهلها، وحَقَن الدماء فى أُهُبِها، أَتَتْه منيته، فسدّ ثُلْمته بنظيره فى الرحمة ، وشقيقه فى السيرة والمَعْدَلَة . ذاك آبنُ الخطاب لله دَرّ أمّ حَملتْ به ودرّتْ عليه ! لقد أوحدَتْ به ، ففنَّخ الكَفَرة وديَّخَها ، وشرَّد الشِّرك شَـذَر مَذَرَ، وبعَج الأرضَ وبَخَعها فقاءتْ أُكْلَها ، ولفظَتْ خَبْأها، تَرْأَمُه ويَصْدِف عنها، وتصدّىٰ له ويَأْباها. ثم وَزَّع فيها فيأها ووَدَّعها كما صَحِبها . فأرونى ماذا تَرْتـُون وأىّ يومَىْ أبى تنقِمُون : أيوم إقامته إذ عدل فيكم أم يوم ظَعْنه إذ نظر لكم ؟ أقول قولى هـذا وأستغفر الله لى ولكم . ثم أقبلتْ علىٰ الناس بوجهها فقالت أنشُدُكم الله هل أنكرتم ممـا قلت شيئا ؟ قالوا آللهم لا .

ومن ذلك كلام أمّ الخَيْر : بنت الحُرَيش البـارقيّة يوم صِفِّين فى الآنتصار لعلىّ رضى الله عنه .

يروىٰ أن معاوية كتب إلىٰ واليه بالكوفة أن يحمل إليه أمَّ الخير بنت الحريش البارقية برحلها ، وأعلمه أنه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا وبالشرّ شرّا . فلما ورد

(١) فى بعض الكتب فردّ نشر الدين على غره ولم شعثه بطبه .

عليه كتابُه، ركب إليها فأقرأها الكتاب، فقالت أما أنا فغيرُ زائغة عن طاعةٍ ولا معتلة بكذب! ولقد كنتُ أُحِبُّ لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صَدْرى. فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها يا أم الخير: إن أمير المؤمنين كتب إلىَّ أنه يجازينى بقولكِ فىّ بالخير خيرا وبالشر شرا، فما عندكِ؟ : قالت ياهذا لا يُطْمِعنَّك بِرُّك بى أن أُسُرّك بباطل، ولا تُؤْيِسْك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق. فسارتْ خير مَسِير حتّى قدمت علىٰ معاوية فأنزلها مع حريمه، ثم أدخلها عليه فى اليوم الرابع، وعنده جلساؤه فقالت: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. قال لها وعليك السلام يا أمّ الخير، وبالرغم منك دَعَوْتِنِى بهذا الأسم. قالت مَهْ يا أمير المؤمنين! فإن بَدِيهة السلطان مَدْحَضة لما يجب علمه ﴿ولِكُلِّ أجَلٍ كِتابٌ﴾. قال صدقت. فكيف حالك ياخالَة؟ وكيفَ كنتِ فى مَسيرِكِ؟. قالت لم أزل فى عافيةٍ وسلامةٍ حتّى صرتُ إليك فأنا فى مجلس أنيق، عند مَلِك رفيق — قال معاوية بحُسن نيتى ظفِرتُ بكم — قالت ياأمير المؤمنين أعيذك بالله من دَحضِ المَقَال وما تُرْدِى عاقبتُه قال ليس هذا أردنا. أخبِرينى كيف كان كلامُك يوم قُتِل عَمَّار بن ياسر؟ قالت لم أكن والله زوّرته قبْلُ ولا روَّيته بعد. وإنما كانت كلماتٌ نفَثَهن لسانى حينَ الصَّدْمة فإن شئتَ أن أُحْدث لك مقالا غير ذلك فعلت — قال لا أشاء ذلك. ثم التفت إلىٰ أصحابه فقال أيكم يحفَظ كلام أمّ الخير فقال رجل من القوم أنا أحفَظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد — قال هاتِه — قال: نعم كأنى بها ياأمير المؤمنين فى ذلك اليوم عليها بُرْد زبيدىّ كثيفُ الحاشية، وهى علىٰ جمل أرْمكَ وقد أُحِيط حولها، وبيدها سَوْط منتشر الظفر (١)، وهى كالفحل يهدر فى شِقشِقته تقول:

(١) لعله الضفر بالضاد المعجمة أى الفتل.

﴿ يأيها الناسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إنَّ زَلْزَلَةَ الساعةِ شىءٌ عَظِيمٌ ﴾ ! إن الله قد أوضح الحقَّ ، وأبان الدليـــل ، ونوّر السبيل ، ورفع العِلْم ، فلم يَدَعْكم فى عمياءَ مُبْهمة ! ولا سوداءَ مدلهِمَّة فإلىٰ أين تريدون رحمكم الله . أفِرارا عن أمير المؤمنين ، أم فِرارا من الزَّحْف ، أم رغبةً عن الإسلام ، أم آرتدادا عن الحق . أما سمعتم الله عز وجل يقول : ﴿ وَلَنبْلُوَنَّكُمْ حتّى نَعْلَمَ المُجاهِدِينَ مِنْكُمْ والصابِرِينَ ونَبْلُوَ أخْبارَكُمْ ﴾ .

ثم رفعتْ رأسها إلىٰ السماء وهى تقول .

قد عِيل الصبر ، وضَعُف اليقين ، وآنتشرت الرَّغْبة ، وبيَدِك يارب أزِمَّةُ القُلوب فاجمع الكلمة علىٰ التقوىٰ ، وألِّف القلوب علىٰ الهــدىٰ ، هَلُمُّوا رحمكم الله إلىٰ الإمام العادل ، والوصىّ الوفِىّ ، والصدّيق الأكبر! إنها إحَنٌ بدريّه ، وأحقاد جاهليه ، وضغائن أُحُديه ، وثب بها معاوية حينَ الغفلة ليُدْرِك بها ثارات بنى عبد شمس .

ثم قالت ﴿ قاتِلُوا أئِمَّةَ الكُفْرِ إنَّهُمْ لا أَيْمــانَ لَهُمْ لَعلَّهُمْ يَنْتَهُون ﴾ . صبرًا معشرَ المهاجرِين والأنصار ، قاتلوا علىٰ بصيرة من ربكم ، وثَبَات من دينكم ، وكأنى بكم غدًا قد لقِيتم أهلَ الشأم كحُمُر مستنفِرة ، فرّتْ من قَسْورة . لا تدرى أين يُسْلَك بها من فِجاج الأرض ، باعوا الآخرة بالدنيا ، واشتَرَوُا الضــلالة بالهدىٰ ، وباعوا البصــيرة بالعمىٰ وعَمّا قليل ليُصْبِحُنَّ نادمين ، حين تَحُلّ بهم الندامة فيطلبون الإقالة ! إنه والله مَنْ ضــلَّ عن الحق وقع فى الباطل ، ومن لم يسكن الجنة نزل فى النار . أيها الناس إن الأكياس آستقصروا عمر الدنيا فرفَضُوها واستبطــُؤوا مدّة الآخرة فسعَوْا لهــا . والله أيها الناس لولا أن تبطُلَ الحقوق ، وتعطَّلَ الحُدود ، ويظهرَ الظالمون ، وتقوىٰ كلمة الشيطان ، لمــا آخترنا ورود المنايا علىٰ خَفْض العيش وطِيبه ؛ فإلىٰ أين تريدون رحمكم الله عن آبن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوْج ابنته وأبى آبنيه ؟ خُلق

من طِينَتِه ، وتفرّع عن نَبْعته ، وخصّه بسِرّه ، وجعله باب مدينته ، وأعلم بحبه المسلمين ، وأبان ببغضه المنافقين . فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضى علىٰ سَنَن ٱستقامته ، لا يعرّج لراحة اللذّات ، وهو مُفَلّق الهام ، ومكسّر الأصنام إذ صلّى والناسُ مشركون ، وأطاع والناس مرتابون . فلم يزل كذلك حتّى قتل مُبارزى بدر ، وأفنىٰ أهل أحد ، وفرّق جمع هوازن ، فيالها وقائع ! زرعتْ فى قلوب قوم نفاقا ، ورِدّة وشِقَاقا ، وقد ٱجتهدت فى القول ، وبالغت فى النصيحة وبالله التوفيق والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

فقال معاوية : والله يا أم الخير ما أردتِ بهذا إلا قتلى ! والله لو قتلتك ماحَرِجْت فى ذلك .

قالت : والله ما يسوءنى يابن هند أن يُجْرِىَ الله ذلك علىٰ يدَىْ مَنْ يُسْعدنى الله بشقائه — قال هيهاتَ يا كثيرة الفُضُول ، ماتقولين فى عثمان بن عفان؟ — قالت وما عسيت أن أقول فيه : ٱستخْلَفه الناسُ وهم كارهون ، وقَتَلوه وهم راضون — فقال إيهًا يا أم الخير هذا والله أصلكِ الذى تبنين عليه — قالت لكن الله يشهد وكفىٰ بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ، ولقد كان سَبّاقا إلىٰ الخيرات ، وإنه لرفيع الدرجة — قال فما تقولين فى طلحةَ بنِ عبيد الله؟ — قالت وما عسىٰ أن أقول فى طلحة ٱغتيل من مَأْمنه ، وأُتِىَ من حيث لم يَحْذَر ، وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم الجنةَ — قال فما تقولين فى الزبير؟ قالت ياهذا لا تَدَعْنى كَرَجِيع الضَّبُع يُعْرَك فى المِرْكَن — قال حقا لتقولنّ ذلك وقد عزمت عليك — قالت وما عسيت أن أقول فى الزبير ٱبنِ عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحَوَارِيّه ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة ، ولقد كان سبّاقا إلىٰ كل مكْرُمة فى الإسلام . وإنى أسألك بحق الله يامعاوية فإن قريشا تحدّث أنك من أحلمها أن تسعَنِي بفضل حلمك ،

وأن تُعفيني من هـذه المسائل، وآمض لمـا شئت من غيرها — قال نعم وكرامةً قد أعفيتك، وردّها مكرمة إلىٰ بلدها .

ونحو ذلك كلام الزرقاء بنت عدىّ بن قيس الهَمْدانيَّة يوم صفِّين أيضا .

يروىٰ أنها ذُكرت عند معاويةَ يوما، فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها؟ — قال بعضهم نحن نحفظه ياأمير المؤمنين — قال فأشيروا علىّ فى أمرها فأشار بعضهم بقتلها — فقال بئس الرأى أيحسُن بمثلى أن يقتــل آمرأة ؟ . ثم كتب إلىٰ عامله بالكوفة أن يُوفدها إليه مع ثِقةٍ من ذوى مَحْرِمها وعِدّة من فُرْسان قومها، وأن يمهِّد لهـا وِطاء لينا، ويستُرَها بستر خَصِيف، ويُوسع لهـا فى النفقة . فلما دخلتْ علىٰ معاوية، قال مرحبا بك وأهلا ! قَدِمتِ خير مقدم قدمه وافد، كيف حالك؟ — قالت بخير ياأمير المؤمنين أدام الله لك النعمة ! — قال كيف كنتِ فى مَسِيرك ؟ قالت ربيبة بيتٍ أو طِفْلا مُمَهَّدا — قال بذلكِ أمرناهم . أتدرين فيم بعثت إليك — قالت وأنَّى لى بعلم مالم أعلم؟ وما يعلم الغيب إلا الله عز وجل — قال ألست الراكبة الجملَ الأحمر، والواقفةَ بين الصفَّيْن بِصفِّينَ تَحُضِّين الناس علىٰ القتال، وتُوقدين الحرب؟ فما حملك علىٰ ذلك؟ — قالت ياأمير المؤمنين مات الرأسُ، وبُتِر الذَّنَب، ولن يعود ماذهب، والدهر ذو غِيَرٍ، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر — قال لهـا معاوية أتحفظين كلامَكِ يومئذ؟ — قالت : لا والله ولقد أُنْسِيته — قال لكنى أحفَظُه لله أبوك حين تقولين :

أيهـا الناس ارعَوُوا وآرجعُوا ! إنكم أصبحتم فى فتنة غَشَّتْكم جَلابِيبَ الظُّلَم، وجارتْ بكم عن قَصْد المحجَّة . فيالها فتنة عمياء، صمـاء، بَكْماء لا تسمَعُ لناعقها، ولا تَسْلَسُ لقائدها . إن المصباح لايُضىء فى الشمس، والكواكب لاتنير مع القمر، ولا يقطَع الحديدَ إلا الحديد . ألا منِ آسترشَــد أرشدناه، ومن سألنَـا أخبرناه .

أيها الناس إن الحق كان يطلبُ ضالَّتــه فأصابها ! فصَــبْرا يامعاشر المهاجرين والأنصار علىٰ الغُصَص، فكأنْ قد ٱندمل شَعْب الشَّتات، وٱلتأمت كلمة التقوىٰ، ودمَغ الحقُّ باطــله ! فلا يجهَلنّ أحد فيقولَ كيف العدل وأنّىٰ : لِيَقْضِى اللهُ أمرًا كان مفعولا . ألا و إن خِضاب النساء الحِنَّــاء ، وخِضَاب الرجال الدِّماء ! ولهذا اليوم مابعده ، والصــبر خير فى عواقب الأمور . إيهًــا لحرب قُدُما غير ناكصين، ولا متشاكسين .

ثم قال لها يازرقاء لقد شَرَكْت عليا فى كل دم سَفَكه — قالت أحسن الله بشارتَكَ، وأدام سلامتك، فمثلُك من بَشَّر بخير وسر جليسَه — قال و يسرك ذلكِ؟ — قالت : نعم سُرِرتُ بالخبر فأنّىٰ لى بتصــديق الفعل ؟ فضحك معاوية وقال : لَوَفاؤكم له بعد موته أعجبُ عندى من حُبِّكم له فى حياته ! اذكرى حاجتك . قالت ياأمير المؤمنين آليت علىٰ نفسى أن لاأسأل أميرا أعنتُ عليه أبدا، ومثلك من أعطىٰ من غير مسألة، وجاد من غير طِلْبة — قال صدقت، وأمر لها وللذين جاءوا معها بجوائز وكُسًا .

وقريب من ذلك كلام عكرشةَ بنت الأطْرش يوم صِفِّين أيضا .

يروىٰ أنها دخلتْ علىٰ معاوية متوكِّئة علىٰ عُكَّازٍ لهــا فسلمتْ عليــه بالخلافة ، ثم جلستْ — فقال لهــا معاوية : الآن صرتُ عندك أمير المؤمنين؟ قالت : نعم إذ لاعلىّ حىّ ! — قال ألستِ المتقلدةَ حمائلَ السيف بِصفِّين ؟ وأنت واقفــة بين الصفين تقولين : أيها الناس! عليكُم أنفُسَكُم لا يضُرُّكُم مَنْ ضَلَّ إذا اهْتَدَيْتُم . إن الجنــة لا يحزَنُ مَنْ قطَنها ، ولا يَهْرم مَنْ سكَنَها ، ولا يموت مَنْ دخلها؛ فٱبتاعوها بدار لا يدوم نعيمها ، ولا تنصرم هُمُومها . وكونوا قوما مستبصرين فى دينهــم مستظهِرين علىٰ حقهم؛ إن معاوية دَلَف إليكم بعجم العرب، لايفقَهُونَ الإيمــان، ولا يدرون ما الحِكْمة . دعاهم إلىٰ الباطل فأجابوه، وٱستدعاهم إلىٰ الدنيا فلبَّوْه .

فاللهَ اللهَ عباد الله فى دين الله ! و إياكم والتواكُلَ فإن ذلك ينقض عُرىٰ الإسلام، ويطفئ نور الحق. هذه بَدْر الصغرىٰ، والعقبة الأخرىٰ؛ يامعشر المهاجرين والأنصار آمضوا علىٰ بصيرتكم، واصبِروا علىٰ عزيمتكم. فكأنّى بكم غدا وقد لقيتم أهل الشام كالحُمُر الناهقة تقصَعُ قَصْعَ البعير:

ثم قال: فكأنى أراكِ علىٰ عصاكِ هذه قد آنكفأ عليكِ العسكران يقولون هـذه عكرشةُ بنت الأطرش فإنْ كدتِ لتَقْتُلِين أهل الشام لولا قَدَرُ الله وكَانَ أَمْرُ الله قَدَرًا مَقْـدُورا؛ فمـا حملك علىٰ ذلك؟ — قالت يا أمير المؤمنين يقول الله جل ذكره ﴿يا أَيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْـياءَ إن تُبْـدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ الآية، وإن اللبيب إذا كره أمرا لايحب إعادته — قال صدقتِ فاذكرى حاجتك — قالت كانت صدقاتُنا تؤخَذ من أغنيائنا فتُرَدّ علىٰ فقرائنا وقد فقدنا ذلك، فما يُجْبَر لنا كسير، ولا يُنْعَش لنا فقير. فإن كان عن رأيك فمثلك من آنتبـه من الغـفلة وراجع التوبة، وإن كان عن غير رأيك فمـا مثلك من آستعان بالخَوَنة ولا آستعمل الظَّلَمة — قال معاوية: ياهذه، إنه ينوبُنا من أمور رعيتنا ثغور تنفتق، وبُحُور تندفق. — قالت سبحان الله! والله مافرض الله لنا حقًّا فجعل فيه ضررا لغيرنا وهو علّام الغيوب — قال معاوية هيهاتَ يأهل العراق نَبَّهكم علىٌّ فلن تُطاقوا. ثم أمر بردّ صدقاتهم فيهم وإنصافهم.

والشاهد فى هـذه الحكايات كلام هؤلاء النسوة مع ما فيها: من المراجَعات، والمخاطَبات، والمقاولات، والمحاوَرات، الصالحة للاستشهاد للفصل المتقدّم قبـل ذلك. وهذا باب متسع لايسع استيفاؤه، ولا يمكن استيعابه وفيما ذكرنا مَقْنع.

ومن ذلك ماروى أنّ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه! أرسـل إلىٰ معاويةَ بالشام كتابا صحبة صعصعةَ بن صُوحانَ، فسار به حتّى أتىٰ دمشق؛ فأتىٰ باب معاوية فقال لآذنه: آسـتأذن لرسول أمير المؤمنين على بن أبى طالب؛ وبالبـاب جماعةٌ

من بنى أميّة ، فأخذته النعال والأيدى لقوله : "أمير المؤمنين" . وكثُرت عليه الجَلَبة ، فاتّصل ذلك بمعاوية فأذن له ، فدخل عليه ، فقال السلام عليك يابن أبى سُفيان هذا كتاب أمير المؤمنين — فقال معاوية أمَا إنه لو كانت الرسل تُقْتَل فى جاهلية أو إسلام ، لقتلتك . ثم اعترضه معاوية فى الكلام ، وأراد أن يستخبره ليعرف طَبْعا أو تكلفا — فقال له ممن الرجل — قال من نِزَار — قال وما كان نِزَار قال كان اذا غزا انكمش ، واذا لقى افترش ، واذا انصرف احترش(١) . قال فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال من ربيعة — قال وما كان ربيعة ؟ — قال : كان يطيل النِّجاد ، ويعُول العباد ، ويضْرِب ببقاع الأرض العِماد — قال : فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال من جَدِيلة — قال وما كان جدِيلة ؟ — قال كان فى الحرب سَيْفا قاطعا ، وفى المَكْرُمات غيثا نافعا ، وفى اللقاء لَهَبا ساطعا — قال فمن أىّ أولاده أنت ؟ — قال : من عبد القيس — قال وما كان عبد القيس ؟ — قال كان حَسَنا أبيضَ وهابا ؛ يقدّم لضيفه ما وجد ، ولا يسأل عما فقد ، كثير المَرَق ، طيب العَرَق ، يقوم للناس مَقام الغيث من السماء — قال ويحك يابن صُوحان ! فما تركت لهذا الحى من قُريش مجدا ولا فخرا ، — قال بلىٰ والله يابن أبى سفيان ! تركت لهم ما لا يصلح إلا لهم ، تركت لهم الأحمر والأبيض والأصفر ، والسرير والمِنْبر ، والملك إلىٰ المحشَر ؛ ففرح معاوية وظن أن كلامه يشتمل علىٰ قريش كلها ، قال صدقت يابن صُوحان إن ذلك لكذلك فعرف صَعْصَعة ما أراد ؛ فقال ليس لك ولا لقومك فى ذلك إصدار ولا إيراد . بَعُدتم عن أنف المرعىٰ ، وعلَوْتم عن عَذْب الماء — قال ولِمَ ذلك ويْلَك يابن صُوحان ! فقال الويل لأهل النار ، ذلك لبنى هاشم — قال قم فأخرجوه — فقال : صعصعة الوَعْد بينى

(١) أى جدّ . الأصمعى انكمش فى أمره وانشمر وجدّ بمعنى واحد . وقوله افترش أى صرع . يقال لقى فلان فلانا فافترشه إذا صرعه وهو مناسب هنا . وقوله احترش أى كسب أو صاد .

وبينك لا الوعيد مَنْ أراد المُناجَزة يَتْبَل المحاجزة[1] — فقال معاوية لشيء مّا سوّده قومُه ووَدِدْت أنى من صُلْبه؛ ثم ٱلتفت إلىٰ بنى أمية فقال : هكذا فلْتكُن الرجال .

ومن ذلك ما روى أن سعيد بنَ عثمان بن عفّان رضى الله عنه دخل علىٰ معاوية وابنُه يزيدُ إلىٰ جانبه فقال له : ائتَمَنك أبى، وٱصطَنَعك حتّى بلّغك باصطناعه إياك المدىٰ الذى لا يجـارىٰ، والغايةَ التى لا تُسامَى؛ فما جازيتَ أبى بآلائه حتّى قدّمت هذا علىّ، وجعلت له الأمر دُونى . "وأومأ إلىٰ يزيد" والله لأبى خيرٌ من أبيه وأمى خير من أمّه ولأنا خير منه ! — فقال له معاوية . أمّا ما ذكرتَ يابن أخى من تواتُر آلائكم علىّ، وتظاهُر نَعْمائكم لدىّ، فقد كان ذلك ووجب علىّ المكافأة والمجازاة، وكان من شُكرى إياه أن طلبتُ بدمه حتّى كابدت أهوال البلاء، وغَشِيتُ عساكر المنايا إلىٰ أن شُفِيت حَزازات الصدور وتجلّتْ تلك الأمور . ولست لنفسى باللائم فى التشمير، ولا الزارى عليها فى التقصير .

وذكرت أن أباك خير من أبى هـذا "وأشـار بيده إلىٰ يزيد" فصـدقت لعمر الله لعثمانُ خير من معاوية ! أكْرَم كريما، وأفضَـل قديمـا، وأقربُ إلىٰ محمد صلى الله عليه وسلم رحما . وذكرت أن أمّك خير من أمه فلعمرى إنّ ٱمرأةً من قريش خيرٌ من ٱمرأة من بنى كلب . وذكرت أنك خير من يزيد فوالله يابن أخى ما يسرّنى أن الغُوطة عليهـا رجال مثلُ يزيدَ . فقال له يزيدُ "مَهْ يا أمير المؤمنين ! ٱبنُ أخيك ٱستعمل الدالّةَ عليك، وٱستَعْتَبك لنفسه، وٱستزاد منك فَزِدْه وأجْمِل له فى ردّك، وٱحمل علىٰ نفسك، وولّه خُراسان بشفاعتى وأعِنْه بمال يظهر به مَرُوءته" فولاه معاوية خراسانَ، وأجازه بمـائة ألف درهم؛ فكان ذلك أعجبَ ما ظهر من حلم يزيد .

(١) الذى فى المثل من أراد المحاجزة فقبل المناجزة . ولعل ما هنا تصحيف ان لم يكن من تصرف المنشئ .

ومن ذلك ما يروى أن زيد بن منبه قدم على معاوية فشكا إليه دَيْنا لزمه فأعطاه ستين ألف درهم، وكان عتبة بنُ أبى سفيان قد تزوّج ٱبنة يعلى أخى زيد بن منبّه، وهو يومئذ عامل بمصر — فقال له معاوية : الحَقْ بِصِهرك "يعنى عتبة" فقدم عليه مصر فقال : "إنى سرت إليك شهرين أخوض فيهما المَتَالف : ألبَس أرديَةَ الليل مرّةً وأخوض فى لجج السراب أخرى، مُوقَرا من حُسْن الظن بك، وهاربا من دهر قَطِم، ودَيْن أزِم، بعد غِنًى جدَعْنا به أنوفَ الحاسدين، فلم أجد إلا إليك مَهْربا وعليك معوّلا — فقال عتبة : مرحبًا بك وأهلا ! إن الدهر أعاركم غِنًى وخلطكم بنا ثم ٱستردّ وأخذ ما أمكنه أخذُه، وقد أبقى لكم منا مالاضِيقةَ معه وأنا رافع إليك يدى بيد الله" فأعطاه ستين ألفا كما أعطاه معاوية .

ومن ذلك ما يحكى أن عبد العزّى بن زُرَارة وفد على معاوية وهو سيد أهل الوَبَر، فلما أذن له وقف بين يديه وقال يا أمير المؤمنين لم أزل أهُزُّ ذوائب الرجاء إليك، ولم أجد معوّلا إلا عليك، أمتَطِى الليل بعد النهار، وأسِمُ المَجَاهل بالآثار، يقودُنى إليك أمل، ويسوقُنى إلَيْك بلوى، والمجتهد يُعْذر، وإذ بلغتك فقط . فقال معاوية فاحطُطْ عن راحلتك رَحْلَها .

وخرج عبد العزّى هذا مع يزيد بن معاوية إلى الصائفة وأبوه زُرارةُ عند معاوية فهلك هناك : فكتب يزيد إلى أبيه معاوية بذلك — فقال معاوية لزرارة : أتانى اليوم نَعْىُ سيد شَباب العرب — قال زرارة يا أمير المؤمنين هو ٱبنى أو ٱبنك؟ — قال بل ٱبنك فقال "للموت ما تلد الوالدة" . أخذ بعضهم هذا المعنى فقال

وللْمَوْتِ تغذُو الوالدتُ سِخَالَهَا * كما لِخَراب الدَّهْرِ تُبْنَى المَسَاكِنُ

ومن ذلك ما يروى، أن مروانَ بن الحكم، وهو والٍ على المدينة فى خلافة معاوية حبس غلاما من بنى ليث فى جِناية جناها بالمدينــة، فأتته جدّة الغــلام "وهى أمّ

سِنانٍ بنتُ جشمية بن خرشــة المذحجية (١)، فكلمتْه فى الغلام ، فأغلظ لهـا مروانُ ، فخرجت إلىٰ معاوية فدخلتْ عليه فٱنتسبتْ له فعرفها، فقال : مرحبا بابنة جشمية ما أقدمك أرضَنا ؟ وقد عهدتُكِ تَشْتِمينا، وتُحضّين علينا عدوَّنا، قالت : ياأمير المؤمنين! إن لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة، وأعلاما ظاهرة، لايَجْهَلون بعد علم، ولا يَسْفَهُون بعد حِلْم ، ولا ينتقمون بعد عفو ، وإن أولىٰ الناس بٱتباع ماسنّ آباؤه لأنتَ، قال "صدقتِ نحن كذلك فكيف قولك :

عَزَب الرُّقادُ فمُقْلَــتِي لاترْقــدُ * واللّيْـــلُ يُصْدِرُ بالهُمُومِ ويُورِد
ياآلَ مذحِجَ لامُقــامَ فشَمّروا * إنّ العَـدُوّ لآل مَذْحِجَ يقْصِــد
هــذا علِيٌّ كالهــلال تحفُّــه * وَسَطَ السماء من الكواكب أسْعُدُ
خَـيْرُ الخلائقِ وٱبنُ عَمّ محمدٍ * إنْ يَهْدِكُمْ بالنُّور مِنْـهُ تَهْتَدُوا
ما زالَ مُذْ شَهِد الحُروبَ مظَفَّرا * والنَّصْرُ فَــوْقَ لِوائِهِ ما يُفْـقَدُ"

قالت قد كان ذلك ياأمير المؤمنين وأرجو أن تكون لنـا خَلَفا بعده، فقال رجل من جلسائه كيف ياأمير المؤمنين؟ وهى القائلة :

إمَّا هلَكْتَ أبا الحُسَيْنِ فلَمْ تزَلْ * بالحقّ تُعْــرَفُ هادِيًا مَهْـدِيًا
فٱذهبْ عليْكَ صلاةُ ربِّكَ مادعَتْ * فَوْقَ الغُصونِ حَمامةٌ قُمْــرِيًّا
قَدْ كُنْت بَعْـدَ محمدٍ خَلَفا لَنـا * أوصىٰ إليكَ بنـا وكُنْتَ وَفيًّا
واليــومَ لاخلَفٌ يُؤَمَّل بَعْــدَه * هيهـاتَ نَأْمُلُ بعـدَهُ إنسِــيًّا

قالت ياأمير المؤمنين : لسانٌ نطق، وقولٌ صدق، ولئن تحقق فيك ماظنناه، فحظُّك الأوفر، والله ما أورثك الشَّنآنَ، فى قلوب المسـلمين إلا هؤلاء، فأدْحِض

(١) لم نعثر على آسم بهذه الصيغة فليحرر .

مَقالتهـم، وأبْعِدْ منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تَزْدَدْ من الله قُرْبا ، ومن المسـلمين حُبًّا . قال وإنك لتقولين ذلك ؟ قالت : سـبحان الله ! والله ما مِثْلُك من مُدِح بباطل، ولا آعتُذِر إليه بكذب، وإنك لتعلم ذلك من رأينا، وضمير قلبنا . كان علىّ والله أحبَّ إلينا منك، وأنت أحبُّ إلينا من غيرك . قال ممن ؟ . قالت من مروان وسعيد بن العاص — قال وبم آستحققت ذلك عندك؟ — قالت بسَعةِ حلمك ،وكريم عَفْوك — قال وإنهما يَطْمعَان فى ذلك — قالت هما والله من الرأى على ما كنتَ عليه لعثمانَ بن عفَّان — قال لقد قاربت فما حاجتك ؟ — قالت : ياأمير المؤمنين ! إن مروان تَبَنَّكَ(١) فى المدينة تبنُّكَ من لا يريد منها البَرَاح ، لا يحكُم بعدل، ولا يقضِى بسُنَّة ؛ يتتبع عَوْرات المؤمنين؛ حبس آبن آبنى فأتيتـه فقال كَيْت وكَيْتَ ، فأسمعتُه أخشن من الحجر، وألقمته أمرّ من الصَّبِر. ثم رجعت إلى نفسى باللائمة، وقلت لِم لا أصرِف ذلك إلى مَنْ هو أولى بالعفو منه؛ فأتيتك يا أمير المؤمنين، لتكون فى أمرى ناظرا، وعليه مُعْدِيا — قال صدقت لا أسألك عن ذنبه ، والقيام بحجته ،اكتبوا لها بإطلاقه — قالت ياأمير المؤمنين وأنَّى بالرجعة وقد نَفِد زادى ، وكلَّتْ راحلتى ، فأمر لها براحلة موطَّأة وخمسة آلاف درهم .

ومن ذلك ماروى أن معاوية حج فسأل عن آمرأة من بنى كنانة كانت تنزِل الحَجُون يقال لها الدارِميَّة ، وكانت سوداءَ كثيرةَ اللحم ، فأُخْبِر بسلامتها فجىء بها ، فقال ما حالكِ يا آبنة حامٍ؟ — قالت لستُ لحامٍ أُدْعى ، إن عِبْتنى أنا آمرأة من بنى كنانة — قال : صدقتِ أتدرين لِمَ أرسلت إليك؟ قالت لا يعلم الغيب إلا الله — قال : بعثت إليك لأسألك علام أحببْتِ عليا وأبغضتينى ، وواليتيه وعاديْتِينى ؟ — قالت أو تُعْفِينى

(١) أى أقام اقامة من انخ .

ياأمير المؤمنين — قال لا أُعْفيك — قالت أما إذا أبيت، فإنى أحببت عليا علىٰ عَدْله فى الرعية، وقَسْمه بالسوية، وأبغضتك علىٰ قتالك مَنْهو أولىٰ بالأمر منك، وطلبك ما ليس لك بحق، وواليتُ عليا علىٰ ماعُقِد له من الوِلَاية، وعلىٰ حبّــه المساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك علىٰ سفكك الدّماء، وجَوْرك فى القضاء، وحكمك بالهوىٰ — قال ولذلك ٱنتفخ بَطْنُكِ، وعظُم ثدياك، وربَتْ عجيزَتُك — قالت ياهذا بهند كانت تضرب الأمثال، لابى — قال ياهذه ٱربَعِى فإنا لم نقل إلا خيرا إنه إذا ٱنتفخ بطن المرأة تَمَّ خلْق ولدها، وإذا عظُم ثدياها تَروى رضيعها، وإذا عَظُمت عجيزتها رزُن مجلسها فرجعت وسكنَتْ — قال لهـا فهل رأيت عليـا؟ قالت لقد كنت رأيتُه — قال كيف كنت رأيتِيه، قالتْ رأيته لم يفتنه المُلْك الذى فتنك، ولم تشغله النّعمة التى شغلتك — قال لها: فهل سمعتِ كلامه؟ قالت: نعم، والله كان يجلُو القلوبَ من العمىٰ، كما يجلو الزيت الطّست من الصدإ — قال: صدقت فهل لك من حاجة؟ قالت: وتفعل إذا سألتك؟ — قال نعم — قالت: تعطينى مائة ناقة حمراءَفيها فحْلُها وراعيها — قال تصنعين بها ماذا؟ — قالت أُغذّى بألبانها الصِّغار، وأستحيي بها الكِبارَ، وأُصْلح بها بين العشائر — قال فإن أعطيتك ذلكِ فهل أحُلُّ عندك مَحَلَّ علىٍّ؟ — قالت ماءٌ ولا كصَدّاء، ومرعًى ولا كالسَّعْدان، وفتًى ولا كمالك، ياسبحان الله أو دُونَه، فأنشأ معاوية يقول:

إذا لم أَعُدْ بالحِــلْم مِنِّى إليكُمُ * فَمَنْ ذَا الَّذِى بَعْدِى يُؤَمَّلُ للحِلْمِ؟
خُذِيها هنيئًا وٱذْكُرِى فِعْل ماجِدٍ * جَزَاكِ علىٰ حَرْبِ العَدَاوةِ بالسِّلْمِ.

ثم قال: أما والله! لوكان عليا ما أعطاكِ منها شيئا — قالت والله ولا وبَرَةً واحدة من مال المسلمين.

ومن ذلك ما يروىٰ أن أم البراء بنتَ صفوانَ آستأذنت علىٰ معاوية فأذن لها فدخلتْ عليه، وعليها ثلاثةُ دُروع بُرود تسحَبها ذراعا، قد لاثتْ علىٰ رأسها كَوْرا كالمِنْسَف فسلَّمت وجلست، فقال لها معاوية كيف أنتِ ياآبْنةَ صفوان؟ — قالت بخير يا أمير المؤمنين — قال كيف حالك؟ — قالت كَسِلْت بعد نَشاط — قال شتَّان بينكِ اليومَ وحينَ تقولين :

يازَيْدُ دُونَكَ صارِمًا ذَا رَوْنَقٍ * عَضْبِ المَهَزَّةِ لَيْس بالخَوَّار
أَسرِجْ جَوَادَكَ مُسْرِعًا ومشَمِّرًا * للحرْبِ غيْرَ مُعَوَّد لِفرَار
أَجِبِ الإمامَ وذُبَّ تحْتَ لِوَائِهِ * والقَ العَدُوَّ بِصارِمٍ بَتَّارِ
ياليْتَنِي أصبَحْتُ لستُ قَعِيدَةً * فأَذُبَّ عَنْهُ عَساكِرَ الفُجَّار

قالت قد كان ذلك، ومثلك مَنْ عفا عمَّا سلف ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ الله منه﴾. قال هيهاتَ، أما والله لو عاد لعُدتِ، ولكنه اخْتُرِم منك — قالت أجل! والله إني لعلىٰ بينة من ربي وهُدًى من أمري — قال كيف كان قولك حين قتل؟ — قالت أُنْسيته؛ قال بعض جلسائه هو والله حين تقول :

ياللَّرجال لِعُظْمِ هَوْلِ مُصيبةٍ * فَدَحتْ فلَيْسَ مُصابُها بالحائِل
الشَّمسُ كاسِفةٌ لفَقْدِ إمامنَا * خَيْرِ الخلائق والإمامِ العادِلِ
حاشىٰ النبيِّ لقد هَدَدتَ قُواءنا (١) * فالحقُّ أَصْبح خاضِعًا للباطِلِ

فقال معاوية : قاتلك الله فما تركت مقالا لقائل، آذكُري حاجَتك — قالت أما الآن فلا، وقامتْ فعثَرتْ، فقالت تَعِس شانئُ علىّ! فقال زعَمتِ أن لا؛ قالت هو كما علمتَ؛ فلما كان من الغد بعث إليها بجائزة، وقال إذا ضيَّعتُ الحلْمَ فمَنْ يحْفَظه؟

(١) جمع القوّة قوى مقصور وإنما مد للضرورة.

ومن ذلك أن عمر بن عبد العزيز كتب إلىٰ عدىّ بن أرطاةَ : أن ٱجمع بين إياس بن معاوية والقاسمِ بن ربيعة فولِّ القضاء أنفَذهما ، فجمع بينهما ، وكانا غير راغبين فى القضاء . فقال إياسٌ : أيها الرجلُ سَلْ عنى وعن القاسم فقيهَى المصر الحسنَ وٱبنَ سِيرين، وكان القاسم يأتى الحسنَ وٱبنَ سيرين، وإياسٌ لايأتيهما، فعلم القاسم أنه إن سألهما عنه أشارا به، فقال له : لاتسأل عنى ولا عنه، فوالله الذى لاإله إلا هو إن إياس بن معاوية أفقه منى وأعلم بالقضاء، فإن كنتُ كاذبا فما أشير عليك أن توليني وأنا كاذب، وإن كنت صادقا فينبغى لك أن تقبل قولى — قال له إياس إنك جئت برجل فوقفْتَ به علىٰ شفير جهنم فنجّى نفسه منها بيمين كاذبة يستغفر الله منها وينجو مما كان — قال له عدىّ : أما إذ فهمتها فأنت لها فٱستقضاه .

ومن ذلك : ماحكاه صاحب العقد عن زياد عن مالك بن أنس ، قال "خطَب أبو جعفر المنصور، فحمِد الله، وأثنىٰ عليه، ثم قال : أيها الناس ٱتقوا اللهَ، فقام إليه رجل من عرَض الناس، فقال أُذَكِّرك الذى ذكَّرتنا به. فأجابه أبو جعفر بلا فكر ولا روِيّة : سمْعًا سمْعا لمن ذكَّر بالله ، وأعوذ بالله أن أذَكِّرك به وأنساه فتأخُذُنى العِزّة بالإثم ؟ لقد ضَلَلْت إذًا وَمَا أنَا مِنَ الْمُهْتَدِين، وأما أنت فوالله ما اللهَ أردتَ بهذا، ولكن ليقال قام فقال، فعُوقِب فصبرَ، وأهْوِنْ بها لو كانت ، وأنا أنذركم أيها الناس أختها، فإن الموعظة علينا نزلت، وفينا ٱنْبَتَّتْ . ثم رجع إلىٰ مكانه من الخطبة .

ومن ذلك : مايحكىٰ عن الربيع قال : كنا وقوفا علىٰ رأسِ المنصور، وقد طُرِحت للمهدىّ بن المنصور وسادةٌ إذ أقبل صالح بن المنصور، وكان قد رَشَّحه أن يولِّيه بعض أمره ، فقام بين السِّماطين والناس علىٰ قدر أنسابهم ومواضعهم ، فتكلم فأجاد ، فمدّ

المنصورُ يدَه إليه، ثم قال يا بُنَىّ ! وآعتنقه، ونظر فى وجوه أصحابه هل فيهم أحد يذكر مقامه ويصف فضلَه ، فكلهم كره ذلك وهاب المهدىّ، فقام شبة بن عقال التميمىّ، فقال : "لله درّ خطيب قام عندك ياأمير المؤمنين ! ما أفصحَ لسانَه ! وأحسن بيانَه ! وأمضى جَنانَه ! وأبلّ ريقَه ! وأسهل طريقه ! . وكيف لايكون كذلك وأمير المؤمنين أبوه، والمهدىّ أخوه، وهو كما قال زُهَير بن أبى سُلْمىٰ :

يَطْلُبُ شَأْوَ آمْرأَيْنِ قَدّمَا حسنًا * بَذَّا الملوك وبَذَّا هذه السُّوَقَا
هُوَ الجَوَادُ فإن يَلْحَق بشَأْوِهما * علىٰ تَكَالِيفِه فمثلُهُ لَحِقَا
أوْ يَسْبِقاهُ علىٰ ما كان من مَهَل * فمثلَ ما قدّما مِنْ صَالِحٍ سبقا

قال الربيع : فأقبل علىّ بعضُ من حضر، وقال والله ما رأيت مثل هذا تخلُّصا[(١)] أرضىٰ أميرَ المؤمنين ، ومدح الغلام، وسلِمَ من المهدىّ . فالتفت إلىّ المنصور ، وقال : ياربيع لاينصرِفُ التميمى إلا بثلاثين ألف درهم .

ومن ذلك ما حكى أنّ رجلا دخل علىٰ المهدىّ ولىّ عهد المنصور ، فقال ياأمير المؤمنين إن أمير المؤمنين المنصورَ شتَمَنى وقذف أمى، فإما أمرتنى أنْ أحلِّله ، وإما عوَّضتنى فاستغفرت له — قال ولم شتمك ؟ — قال شتمت عدوّه بحضرته ، فغضب — فقال ومَنْ عدوّه الذى غضِب لشتمه — قال إبراهيم بن عبد الله بن حسن — قال إن إبراهيم أمسُّ به رَحِما ، وأوجبُ عليه حقا ، فإن كان شتمك كما زعمت فعن رَحِمه ذَبَّ ، وعن عرضه دفَع ، وما أساء مَنِ آنتصر لآبن عمه — قال فإنه كان عدوّه — قال فلم ينتصر للعَداوة ، إنما آنتصر للرحم ، فأُسْكِت الرجل ، فلما ذهب ليوَلِّى قال : لعلك أردتَ أمرا فلم تجد له ذريعةً عندك أبلَغَ من هذه الدعوىٰ؟ — قال نعم، فتبسم وأمر له بخمسة آلاف درهم .

---

(١) فى الضوء محاجيا .

ومن ذلك ما حكى: أن المنصور قال لبعض قواده: صدق الذى قال "أَجِعْ كَلْبَكَ يَتْبَعْكَ" فقال له أبو العباس الطوسى: أما تخشىٰ يا أمير المؤمنين أن يلوّح له غيرُك رغيفا فيتبعَه ويَدَعَك.

ومن ذلك ما يحكى: أنه وفد أهل الحجاز من قريش علىٰ هشامِ بنِ عبد الملك بن مَرْوان، وفيهم محمد بن أبى الجَهْم بن حذيفة العَدَوى، وكان أعظمهم قدرا، وأكبَرَهم سنا؛ فقال — أصلح الله أمير المؤمنين، إنّ خُطباء قريش قد قالت فيك، وأقلَّتْ وأكثرتْ وأطنبت، وما بلغ قائلُهم قدرَك، ولا أحصىٰ مُطْنِبهم فضلك؛ وان أذنتَ فى القول قلت — قال قُلْ وأَوْجِز — قال تولّاك الله يا أمير المؤمنين بالحسنىٰ، وزينك بالتقوىٰ، وجمع لك خير الآخرة والأولىٰ! إن لى حوائج أفأذكرها، قال هاتها — قال كبِرتْ سِنِّى ودقَّ عظمى، ونال الدهر منى؛ فإن رأىٰ أمير المؤمنين أن يَجْبُرَ كَسْرِى، وينفِيَ فقرى — قال: وما الذى ينفى فقرك ويجبر كسرك؟ — قال ألف دينار، وألف دينار، وألف دينار. فأطرق هشام طويلا، ثم قال: هيهات يآبن أبى الجَهْم، بيتُ المال لا يحتمل ماسألت — فقال: أما إن الأمر لواحد، ولكن الله آثرك لمجلسك فإن تعطنا فحقَّنا أدّيت، وإن تمنعنا نسأل الذى بيده ما حويْت؛ إنّ الله جعل العطاء مَحبَّة، والمنع مَبْغضة، ولأن أُحِبَّك[(١)] أحبُّ إلىّ مِنْ أن أُبْغِضَك — قال: فألف دينار لماذا؟ — قال أقضى بها دينا قد حُمَّ قضاؤه، وحَنَانِى حَمْله، وأضرَّبى أهلُه — قال: فلا بأسَ تُنَفِّس كُرْبة، وتؤدِّى أمانة؛ وألفُ دينار لماذا؟ — قال أُزَوِّج بها مَنْ بلغ من وَلَدى — قال: نعم المَسْلك سلكْت، أغْضَضْت بصرا، وأعففْت ذكرا، ورَوّجْت نسلا؛ وألف دينار لماذا؟ — قال

(١) فى الأصل. ولئن وهو خطأ فى الرسم.

أشترِي بها أرضا يعيشُ بها وَلَدى ، وأستعين بفضلها على نوائب دهرى ، وتكون ذُخْرا لمن بعدى ؛ قال : فإنا قد أمرنا لك بما سألت — قال فالمحمودُ اللهُ على ذلك ، وخرج — فقال هشام : مارأيت رجلا أوجز فى مَقال ، ولا أبلغ فى بيان منه ، وإنا لنعرِف الحقَّ إذا نزل ، ونكره الإسراف والبَخَل ، وما نُعْطى تبذيرا ، ولا نمنع تقتيرا ، وما نحن إلا خُزَّان الله فى بلاده ، وأمناؤه على عبادِه ، فإن أذِن أعطينا ، و إذا مَنَع أبينا ، ولو كان كل قائل يصدق ، وكلُّ سائل يستحِقُّ ، ماجَبَهْنا قائلا ، ولا ردَدْنا سائلا ؛ فنسأل الذى بيده ما آستَحْفَظنا أن يُجْرِيَه على أيدينا فإنه يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ويَقْدِر، إنَّه كانَ بِعِبادِهِ خَبِيرًا بَصِيرا . فقالوا يا أمير المؤمنين لقد تكلَّمْتَ فأبْلغتَ ، وما بلغ فى كلامه ما قَصَصْتَ ، فقال إنه مبتدى ، وليس المبتدى كالمُقْتدى .

والحكايات والأخبار فى ذلك كثيرة ، والإطناب يُخْرج عن المقصود ، ويؤدّى إلى المَلَال ، وفيما ذكرنا من ذلك مَقْنَع والله أعلم .

المقصد الثالث

(فى كيفية تصرُّف الكاتب فى مثل هذه المكاتبات والرسائل)

غير خاف على مَن تعاطى صناعة النثر والنظم أنه لا يستقِلُّ أحد باستخراج جميع المعانى بنفسه ، ولا يستغنى عن النظر فى كلام مَنْ تقدّمه : لآقتباس مافيه من المعانى الرائقة ، والألفاظ الفائقة ، مع معرفة ترتيب أهل كل زمن وآصطلاحهم ، فيَنْسِج على منوالهم ، أو يقترح طريقة تخالفهم ؛ وتوارُد الكُتّاب والشعراءِ على المعانى غير مجهول ، فإن التوارد يقع فى الشعر الذى هو مبنىّ على أصل واحد من وزن وقافية ، فإنه إذا وقف على المعنى وترتيب الكلام ، عرف كيف ينسج الكلام ؛ مثل أن

يكتب فى تهنئة بمولود: قد جعلك اللهُ من نَبْعة طابتْ مَغارِسها، ورسخَتْ عُروقها، فالزيادةُ فيهـا زيادةٌ فى جوهَر الكرم، وذخيرةٌ نفيسة لذوِى الإقبـال، فتولّى الله نِعمَه عنـدكَ بالحراسة الوافيه، والوِلاية الكافيـه. وقد بلغنى الخبر بحُدُوث الولد المبـارك، والفَـرْع الطيب، الذى عَمَر أفنيـةَ السياده، وأضحك مطْلَع السعاده، فتباشرتُ بذلك وآبتهجتُ به، فجعله الله بَرّا تقِيًّا، سـعيدا حميدا، يتقيّل سلَفَه، ويقتفى أثَرهم، وأيمَنَ به عددكَ، وكثّرَ به ذرّيتك، وأوْزعَك الشكرَ عليه، وأجارك فيه من الثُّكْل برحمته.

فيأخذ آخَرُ المعنىٰ، ويورده بألفـاظ أخرىٰ، فيقول: قد جعلك الله من شجرة زكَتْ غُصُونها، وفرع شَرُفت مَنَابته، فالنموّ فيها نعمة كاملةُ السعادة، وغِبْطةٌ شاملة السرور، فتولّى الله فضلَه عليك بالحِفَاظ الراعى، والدِّفاع الكالِى؛ وقد آتصل بى خبر السليل الرضِىّ، والولد الصالح الذى جدّد فوائدَ السيادة، وثبّت أساس الرفعة، فاغتبطْتُ به وآستبشرتُ، جعله الله تعالىٰ ولدا ميْمُونا، ونجلا سعيدا، يسلك مَنَاهج سلَفه، ويحْذُو فى المحاسن حذوهم، وزاد به فى ثروتك، وأراكَ فيه غايةَ أملك، وسرّكَ بوجوده، وأسعدكَ برؤيته.

فالمعنى والفصـل واحد، والألفـاظ مختلفة. وكذلك ما يجرى هذا المجرى وما فى معناه.

قلت: ولا ينهض بمثـل ذلك إلا مَنْ رسَخَتْ فى صنعة الكتابة قدمه، وآمتزَج بأجزاء الفصاحة والبلاغة لحمه ودَمُه؛ وهذا المنهج هو أحد أنواع الإعجاز فى القرءان الكريم، فإن القِصَّة الواحدة تتكرر فيـه مرارا فى سُوَر متعدّدة، ترِدُ فى كل سورة بلفظ وتركيب غير الذى وردت به فى الأخرى، مع آستيفاء حدِّ البلاغة ونهاية أمَدِ الفصاحة؛ ولذلك قلّ مَنْ سلك هذا المنهج، أو آرتقى هذه الذِّرْوة، وقد أتىٰ علىّ بن

حمزة بنِ طلحة فى كتابه "الاقتداء بالأفاضل" من ذلك بالعَجَب العُجاب، فإنه قد استحسن كلامَ الخطيب ابن نُباتة الفارقىّ، والأمير قابوس الخُراسانىّ، والوزير أبى القاسم المقرى، والصاحب ابن عباد، وأبى إسحاق الصابى، الذين هم رؤساء الكِتابة، وأئمة الخطَابة، من الرسائل والعهود البديعة، والخُطَب الموجَزة الرائقة، فجرّد معانيَها من ألفاظها، واخترع لها ألفاظا غير ألفاظها، مع زيادة تمنيق، ومراعاة ترصيف، علىٰ أتم نظام، وأحسن التئام .

وهاتان نسختا كتابين، الأُولىٰ منهما كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة ابن بُوَيه جوابا عن كتاب وصل إليه عن أخيه عَضُد الدولة يخبره بمولود وُلِد له . والثانية عارض بها علىّ بن حمزة المذكور أبا إسحاق الصابى فى ذلك بألفاظ أُخرىٰ مع اتحاد المعنىٰ .

فأما التى كتب بها أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة إلىٰ عضد الدولة فهى :

"وصل كتابُ سيّدى الأميرِ عضد الدولة أطال الله بقاءه بالخبر السارّ للأولياء، الكابتِ للأعداء، فى الولد الحبيب الأثير، والسيد المُقبَّل الخطير، الذى زاد الله به فى عددنا، وجدّد نعمه عندنا، وحقق فيه آمالَنا والآمال لنا ؛ فأخذ ذلك منى مأْخَذ الاغتباط ونزل عِندى أعلىٰ منازل الابتهاج، وسألت الله تعالىٰ أن يختصه بالبقاء الطويل، والعُمُر المديد، وأن يجعل مواهبه لسيدى الأمير نامية بنموّه، ناشية بنشوّه : ليكون كلُّ يوم من أيامه مُمِدّا له من فضله عاده، وواعدًا له من غَدِه بزياده، ومُحدِثا لديه مِنْحةً تتضاعف إلىٰ ما سبق من أمثالها، ومجدّدا له عازمة تتلو ما سلف من أشكالها ؛ وأن يريه إياه غرّةً فى وجه دولته، ووارثا بعد سالفه البقاء لمنزلته، قائما للملك قيامه، وسادّا منه مكانه ؛ ويهَبَ له بعد الأكابر النجباء السابقين، أترابا من الإخوة لاحقين،

• تابع منهم من مباراة المتبوع، وشافع من مجاراة المشفوع، فى فائدة تقـدَم بمَقْدَمه، وعائدة تَرِد بمورِده؛ ويحرس هذه السعادة من خلل يعترض آتصالها، أو فَتْرة تخترم زمانها، أو نائبة تشوبها، أو تنغصها، أو رزِيّة تَثْلِمها، أوتنقصها. إلا أنها[1] الأمدالأبعد والعمر الأطول؛ ثم تُفْضِى به غَضارة هذه الدار الدنيا، إلى قرارة الدار الأخرى، مبوّأ أوْفَى مراتبها، مبلَّغا أقصى مبالغها، حالّا أرفع درجاتها، مختصا بأنعُمها، مبتهجا بها، مستثمرا ما قدّمه لصالح سعيه، ومستوفِيًا ما أفاءه عليه مَتْجَرُه الرابح، وآثاره البادية لإنفاقه فى أيام نظرى[2] التى آستشعَرتْ نُورا من سـنائه، وآنستْ جمالا من بهائه، وثابَتْ مصالحها ببركتِه، وتوافتْ خيراتها بيمينه؛ وآعتقدتُ أن السعادات طالعةعلىّ بمطْلَعه، وأسبابها ناجمة إلىّ بمَنْجَمه؛ فلو آستطعت أن أكون مكان كتابى هذامشافها بالتهنئة لسيدى الأمير عضُدِ الدولة أطال الله بقاءه ومقبِّلالبساطه، لكنت أولى عبيده بالمسارعة إلى بابه، وأحقَّهم بالمبادرة إلى فِنائه: لأننى معوَّق عن تلك الخدمة بخدمة أنافيهامن قبله، ومقيم بهذه الحضرة، إقامةَ المتصرفين تحت أمره، وقد وفَّيت نعمةالله تعالى، الواهبِ منه أيده الله تعالى مايُقِرّ عينَ الولِىّ، ويُقْذِى عينَ العدوّ ويطرفها، حقَّها من الشكر المترى للمُقـام والمزيد، بدوام العز والتأييـد؛ وأسأل الله تعالى أن يجعل ذلك مَقْبولا عنه، ونافعًا له، وعائدًا عليـه وعلينا بطُول العُمُر وبباهى النُّشُوّ والنمـاء، وأن يعرّف سيدى الأمير عضدَ الدولة أيده الله بَركةَ مولده، ويُمْنَ مورده، ويبقيه حتّى يراه والأمراءَ السابقين أيدهم الله تعالى آباءَ أمثالهم، وأشياخ ذريتهـم، مُبلَّغا فى كل منهم أفضلَ مارَشَّحته له أمانيه، وأعلى ما آنبسطت آماله فيه، بقدرته.

وأنا أتوقع الكتاب بمـا يقـرّر عليه آسم الأمير السـيد وكنيته، أعلاها الله تعـالى لأستأنف إقامة الرسم فى مكاتبته، وتأديةَ الفرض فى خدمته؛ وسيدى عضد الدولة،

(١) لعله الى إنهاء كما يفيده السياق. (٢) كذا فى الأصول وليحرر.

أطال الله بقاءه، أعلى عينا فيما يراه بمطالعتى بذلك وبكل ما يُولِيـه الله من مستأنَف نِعَمه، ويجدّده له فى حادث مواهبه له، لآخُذَ بحظى منهما، فأضربَ بسهمى فيهما، وتصريفى بين أمره ونهيه، وتشريفى بعوارض خدمته، إن شاء الله تعالى .

وأما التى عارضها بها علىّ بن حمزة بن طلحة فهى :

وصلنى كتابُ سـيدى الأمير عضد الدولة ، أطال الله بقاءه ، بالبشرى المبتَسِمة عن ناجذ السعد الآنف، والنُّعْمَى المنتَسِمة عن صَبا المجد المتضاعف ؛ التى أشرقتْ مطالع الإقبال عن مُحَيَّاها، وتضوعتْ نَفَحاتُ دَرْك الآمال عن رَيَّاها ، وصـدقت من الأولياء ظُنونهم المرتقَبه، وآنتخبَتْ من الأعداء عُيونَهم المرتعِبه ؛ بالولد النجيب الخطير، الأمير الحبيب الظَّهير، المجيد المعمَّر، المقَبَّل المؤمَّر، الذى كثر الله به عدَدَنا معشر أهليه، وعُدَدنا بما نرتقبه منه ونُراعيه، وهو تكْرِمة تُحَقِّق ظنوننا بمـا له نرتجيه، وما نؤمِّله من السـعادة المقبلة فيه؛ فاسـتفزتنى غِبْطة آستحوذتْ علىٰ جوامع لُبِّى ، وتملكتنى بهجةٌ ثوتْ فى مَرَابع قلبى؛ وطفِقتُ مبتهلا، وتضرَّعت متوسلا، إلىٰ ذى العَرْشِ المجِيـد، الفَعَّالِ لِمَـا يُرِيد، أن يجمع له بين العُمُر المديد، والجدّ السعيد، كِفاءَ ماقرن له بين المجد العتيد ، والمُلْك الوطيد ؛ وأن يجعل تحيَّاتِ أياديه لدىٰ سـيدى الأمير متضاعفـة الأعداد، مترادفة الأمداد ، مبشرة بِنُجَباء الأولاد، يربى آنفُها علىٰ السالف بسـعده، ويُلْهِى عن تالدها الطارفُ بعلو مجده ؛ وأن يريه إيَّاه علىٰ مَفْرَق دولته، وغُرَّة تُشْرِق فى جبهة ذرّيته، وناهضا بأعباء مملكته، وقائما بنصرة دَعْوته، حتّى يرىٰ أولاد أولاده جُدُودا، مظفرا سعيدا؛ وأن يُتْبعه أترابا من الإخوة النجباء؛ الأماجد السعداء؛ متجارين فى حَلَبات علو الهمم، متبارين فى مَزِيَّات إيلاء النعم ؛ ليترايدَ آزدحام وُفُود السـعادة فى عَتَبات بابه، ويترافد آقتحام جنود الإقبال رحيب جَنَابه؛ ويحرُسَ لديه ماخوّله من مواهبه وأياديه، ويحفظ عليه مابه فَضَّله من مناقبه

ومعاليه ؛ ويقيه من كيد عاند إذا عند ، ويحميه من شَرّ حاسدٍ إذا حسد ؛ وأن يؤتيه عائدتى العاجلة والعقبىٰ ، ويُحْظِيه بسعادتى الآخرة والأولىٰ ؛ وأن يجعل سعيه فى مصالح عباده مشكورا ، ونظَرَه فى مَنَاجح بلاده مبرورا ؛ وأن يُغادر مَتَاجِر بره وتقواه رابحه ، كما جعل خواطرَ سره ونجواه صالحه ؛ فرياض الأيام بعدله نواضر ، ونواظر الأنام إلىٰ فضـله نواظر ؛ ومصالحهـم بيُمْنه وبركته موافيه ، وبراعتهم بهمته وسـعادته مواتيه ؛ وإنى لأعتقد أن مَقِيلى فى أفياء السعاده ، ونَيْلى كلَّ مأمول وإراده ، وتوفيق فيما أُوفَّق فيه ، بمـا أعتمِده وآتيه ، جَدْول من تيَّار فضـله وسعادته ، مَنُوط العُرىٰ بسموّ همتِه ؛ وأودّ أن أكونَ عوضًا عن كتابى هذا إليه ، وخطابِى الوارد آنفا عليه ؛ لأسعدَ بلألاء غُرَّته ، وأحظىٰ بالأشرف من خِدْمته ؛ أدام الله أيام دولتـه : لأنى أجدر عبيده بالمهاجَرة إلىٰ بابه ، وأولىٰ خَدَمه بالمبادرة إلىٰ جنابه ؛ ولولا تحمّلى أعباءَ خدمته التى طوّقنيها ، وكونى نائبه لدىٰ هـذه الحضرة فيهـا ، ثاويا بأوامره ونواهيه فى مَغَانيها ، لَمَـا شَقَّ غبارى من أمّ ذُراه ، ولا ٱتَّبع آثارى مُسرعٌ رام لُقْياه . ولقد قمت بالواجب علىّ للنعمة أيده الله المُنْزلةِ إلىّ ، والمَوْهِبـة بمَقدَمه كلأه الله المُكْمَلَة لدىّ ، التى أضحت بها نواجذ المخلِص ضاحكةً مسـتبشره ، وأمستْ بسببها وجوه الكاشحين عابسةً مستبسره : من وافر شكرٍ يمترِى المَزيد ، وعتقِ الإماء والعبيد ، والصدقة الدارّة علىٰ التأبيد ؛ وأنا أرغب إلىٰ الله تعالىٰ رغبةَ متوسل إليه ، آمل بمـا لديه ، أن يجعل بركةَ كل خير درّتْ به أخلافه ، وكَرّت لأجله أحلافه ، عائدةً عليه ، ومَيامِنَه ثائبة إليه ، مؤذنة بتعميره مَلِكا حُلاحِلا ، لايلقىٰ مؤمّلوه لِيَمِّ فضله ساحلا ؛ وأن يمدّ لسـيدى عضدِ الدولة فى البقاء ، ويمتعه به وبسابقيه من إخوته الأمراء ؛ ويريه فيهم وفيه ، قُصْوىٰ ماتسمو إليه همه وأمانيه . وإنى لمتوكف لمـا يصلنى من كتاب ينبئ عن ٱسمه الكريم وكنيته ، لأعتمد ما أستوجبه فى خدمته ومكاتبته ؛

وسيدى عضد الدولة أدام الله عُلاه، ولىّ مايستصوبه ويراه : من الأمر بمكاتبتى بذلك وبمتجددات النعم، وأوانف المواهب الغالية القيم، لآخذ وافر سهمى من السرور، وجزيل قَسْمى من الجَذَل والحبور، وتصريفى بين أمره الممتثل المطاع، ونهيه المقابَل بالاتباع، إن شاء الله تعالىٰ .

النوع العاشر

الاستكثار من حفظ الأشعار الرائقة، خصوصا أشعارَ العرب وما توفرت دواعى العلماء بها علىٰ اختياره : كالحماسة، والمفَضَّليَّات، والأصمعيات، وديوان هذيل، وما أشبه ذلك؛ وفهم معانيها واستكشاف غوامضها، والتوفر علىٰ مطالعة شروحها؛ ويلتحق بذلك شعرُ المولَّدين من العرب،وهم الذين كانوا فى أوّل الإسلام : كجرير والفرزدق، والأخطل وغيرهم؛ وكذلك حفظ جانب جيد من شعر المفلقين من المحدَثين: كأبى تمام، ومسلم بن الوليد، والبحترى، وابن الرومى، والمتنبى ونحوهم؛ وفيه مقصدان :

المقصد الأوّل

(فى بيان احتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

أما شعر العرب والمولدين فلما فى ذلك من غزارة الموادّ، وصحة الاستشهاد، وكثرة النقل، وصَقْل مرْآة العقل، وانتزاع الأمثال، والاحتذاء فى اختراع المعانى علىٰ أصح مثال، والاطلاع علىٰ أصول اللغة وشواهدها، والاضطلاع من نوادر العربية وشواردها . وقد كان الصدر الأوّل يعتنون بذلك غاية الاعتناء . قال محمد بن سلام عن بعض مشايخه "كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه لايكاد يَعْرِض له أمر إلا أنشد

فيه بيت شعر". وذكر صاحب "الريحان والريعان" عن سعيد بن المسيب أنه قال: كان أبو بكر وعمر وعليّ يجيدون الشعر وعليّ أشـعر الثلاثة . قال : وكان عمر بن الخطاب يقول أفضل صناعات الرجل الأبيات من الشعر يقدّمها بين يدى حاجته يستعطف بها الكريم ، ويستنزل بها اللئيم . وقد ذكر عن الشافعيّ رضى الله عنـه أو غيره من بعض الأئمة الأربعة : أنه كان يحفظ ديوان هذيل ، وأما قول الشافعيّ رضى الله عنه .

وَلَوْلا الشِّعْرُ بالعُلماء يُزْرِى * لكُنْتُ اليومَ أشعرَ من لَبِيد

فإنه يريد مَنْ صرف همته إلىٰ الشعر، بحيث صار شأنَه وديدنَه ، وهو المعنيّ بقوله صلى الله عليه وسلم "لَأَنْ يَمْلَأَ أَحَدُكُمْ جَوْفَه قَيْحا خَيرٌ مِنْ أَنْ يَمْلَأَه شِعْرا" أى أراد صرف همته إليه حتّٰى يملأ جوفه منه . وقد قال صلى الله عليه وسلم " إنَّ منَ الشِّعْر لَحِكْمَـةً" . وكان عمر رضى الله عنـه يسمع البيت يُعجِبه فيكرره مراتٍ كما ذكره الحـافظ وغيره . وقد ذكر أبو البركات بن الأنبارىّ فى كتاب " طبقات الأدباء" فى ترجمة أبى جعفر أحمد بن إسحاق البهلول بن حسان الأنبارىّ : أنه كان فقيها ، عالمـا ، واسع الأدب وتقلد القضاء لعدّة من الخلفاء . ثم حكىٰ عن ولده أبى طالب أنه قال كنت مع والدى فى جَنازة بعض أهل بغـداد من وجوه الناس وإلىٰ جانبه أبو جعفر الطبرىّ ، فأخذ أبى يعظ صاحبَ المُصيبة ويُسَلِّيه ، ويُنْشـد أشعارا ، ويروِى له أخبارا ، فداخله الطبرىُّ فى ذلك ، ثم ٱتسع الأمر بينهما فى المذاكرة ، وخرجا الى فنون كثيرة من الأدب والعلم ٱستحسنها الحاضرون وأُعْجِبوا بها ، وتعالىٰ النهار وٱفترقنا ، فقال لى أبى يا بُنَيَّ مَنْ هذا الشيخ الذى داخلنا فى المذاكرة؟ فقلت : يا سيدى كأنك لم تعرفه ، فقال لا ، فقلت : هذا أبو جعفر الطبرىّ ، فقال إنا لله ! ما أحسنْتُ عِشْرتى معه ، فقلت كيف ياسـيدى ؟ قال : ألا نَبَّهْتنى فى الحـال ،

فكنت أذاكره بغير تلك المذاكرة؟ هذا رجل مشهور بالحفظ والآتساع فى صنوف العلوم ، ماذاكرته بحسبها ؛ ومضت علىٰ ذلك مدة فحضرنا فى حقٍّ آخر وجلسنا ، وإذا بالطبرىّ قد دخل إلىٰ الحقّ . فقلت له : أيها القاضى هذا أبو جعفر الطبرىّ قد جاء مقبلا ، فأومأ إليه بالجلوس عنده ، فعدل إليه وجلس إلىٰ جانبه ، وأخذ يحاريه ، فكلما جاء إلىٰ قصيدة ذكر الطبرىّ منها أبياتا ، قال أبى : هاتها ياأبا جعفر إلىٰ آخرها فيتلعثم الطبرىّ فينشدها أبى إلىٰ آخرها ، وكلما ذكر شيئا من السِّيَر ، قال أبى هذا كان فى قصة فلان ، ويوم بنى فلان ، مرّ يا أبا جعفر فيه فربما مرّ فيه ، وربما تلعثم ، فيمرّ أبى فى جميعه . ثم قمنا ، فقال لى أبى : الآن شفيتُ صَدرى .

وأما أشعار المحدثين ، فللطف مأخذهم ، ودوران الصناعة فى كلامهم ، ودقة توليد المعانى فى أشعارهم ، وقرب أسلوبهم من أسلوب الخَطَابة ، والكتابة ؛ وخصوصا المتنبى ، الذى كأنه ينطق عن ألسنة الناس فى محاوراتهم ، وكثر الآستشهاد بشعره حتّى قلَّ من يجهله ؛ فإذا أكثَرَ المترشحُ للكتابة من حفظ الأشعار وتدبُّر معانيها ، ساقه الكلام إلىٰ إبراز ذخيرة ما فى حفظه منها ، فاستعملها فى محلها ، ووضعها فى أماكنها ، علىٰ حسب مايقتضيه الحال فى إيرادها وآقتباس معانيها .

المقصد الثانى

(فى كيفية آستعمال الشعر فى صناعة الكتابة)

علم أن للكاتب فى آستعمال الشعر فى كتابته ثلاث حالات :

الحـالة الأولى

(الآستشهاد)

وهوأن يُورد البيتَ من الشعر، أو البيتين، أو أكثرَ فى خلال الكلام المنثور مطابقا لمعنىٰ ما تقدّم من النثر، ولا يشترط فيه أن ينبه عليه بقال ونحوه كما يشترط فى الآستشهاد بآيات القرءان والأحاديث النبوية، فإن الشعر يتميز بوَزْنه وصيغته عن غيره من أنواع الكلام، فلا يحتاج إلىٰ التنبيه عليه. وأكثر مايكون ذلك فى المكاتبات الإخوانيات: مثل ماكتب به القاضى الفاضل إلىٰ بعض إخوانه يستوحِشُ منه، ويتشوّق إليه:

فيارَبِّ إن البَيْنَ أضحتْ صُرُوفُه * علىّ، ومالِى مِنْ مُعِينٍ فكُنْ معِى
علىٰ قُرْبِ عُذَّالِى وبُعْدِ أحِبَّتِى * وأمْواهِ أجْفـانِى ونِيرانِ أضْلُعِى!

هذه تحية القلب المعذَّب، وسريرةُ الصبر المُذَبْذَب، وظُلامةُ عزم السلوّ المكذَّب، أصدرتها إلىٰ المجلس وقد وَقَدَ فى الحشا نارُها، الزفيرُ أوارها، والدُّمُوع شَرارها، والشوق آثارها، وفى الفؤاد ثارُها:

لَوْ زارنِى مِنْكُمْ خيالٌ هاجِرٌ * لَهَدَتْه فى ظَلْمـائه أنْوارُها

أسفًا على أيام الآجتماع التى كانت مواسمَ السرور والأسرار، ومباسمَ الثغور والأوطار، وتذكُّراً لأوقات عَذُب مَذاقها، وآمتدّ بالأُنس رواقها، وزوّجت بكرها، ودوعب ذكرها:

واللهِ ما نَسِيَتْ نَفْسِى حَلاوتَها! * فكَيْفَ أذْكُرُ أنِّى اليَوْمَ أذكُرُها؟

ومذ فارقت الجَناب، لازال جَنا جَنابه نَضيرا، وسَنا سَنائه مستطيرا، ومُلْكه فى الخافقين خافقَ الأعلام، وعزُّه علىٰ الجديدين جديدَ الأيام، لم أقف منه علىٰ

كتاب تخلف سطوره ما غسل الدمع من سواد ناظرى ، ويقدم ببياض منظومه ومنثوره ما وزّعه البين من سويداء خاطرى

ولم يبق فى الأحشاء إلّا صبابةٌ * من الصبر تجرى فى الدموع البوادر

وأسأله المناب ، بشريف الجناب ؛ وأداء فرض ، تقبيل الأرض ؛ حيث تلتقى وفود الدنيا والآخره ، وتعمر البيوت العامره ، المننُ الغامره ، وفضل الظل غير منسوخ بهجيره ، ويبشّر المجدُ بشخص لا تسمح الدنيا بنظيره :

تظاهر فى الدنيا بأشرف ظاهر * فلم نر أنقىٰ منه غير ضميره !
كفانى فخرا أن أسمّى بعبده * وحسبى هديًا أن أسير بنوره !
فأىّ أمير ليس يشرف قدره * اذا ما دعاه صادقًا بأميره ؟

وإنى فى السؤال بكتبه أن يوصلها ليوصل بها لدىّ تهانى تملأ يدى ويودع بها عندى مسرّةً تقدح فى الشكر زندى .

عهدتك ذا عهد هو الورد نضرةً * وما هو مثل الورد فى قصر العهد

وأنا أترقب كتابه ٱرتقاب الهلال : لتفطر عين عن الكرىٰ صائمه ، وترد نفس عن موارد الماء حائمه اه .

بل ربما كان كلّ المكاتبة أو جلها شعرا ، وقد يكون صدر المكاتبة شعرا وذيلها نثرا ، وبالعكس . وقد يكون طرفاها نثرا وأوسطها شعرا ، وعكس ذلك بحسب مايقتضيه الترتيب ، ويسوق إليه التركيب ؛ وربما ٱكتفى بالبيت الواحد من الشعر فى الدلالة علىٰ المقصد وبلوغ الغرض فى المكاتبة : كما كتب بعض ملوك الغرب إلىٰ من كرر كتبه ورسله إليه بقول المتنبى :

ولا كتب إلا المشرفيّةُ عنده * ولا رسلٌ إلا الخميس العرمرم

إلىٰ غير ذلك من المكاتبات المتضمنة للأشعار . أما مكاتبات الملوك الآن فقلَّ أن تستعمل فيها الأشعار، أو يستشهد فيها بالمنظوم والمنثور ، وقد تجيء التلقيحات بأبيات الشعر فى غير المكاتبات من الرسائل الموضوعة لرياضة الذهن ، وتنقيح الفكر كالرسائل الموضوعة فى صيد ملك أو فتح بلد أو نحو ذلك؛ وقد أودعت المقامة التى أنشأتها فى كتابة الإنشاء جمــلةً من الأبيات الشعرية، أوردتها مورد الاستشهاد علىٰ ما يقتضيه المقام ، ويسوقُ إليه سياقُ الكلام ، علىٰ ماسلف ذكره عند الكلام علىٰ فضل الكتابة فيما تقدّم . وعند مطالعة كلامهم، والوقوفِ علىٰ رسائلهم، ترىٰ من أصناف الاستشهادات ما يروقك نظره، ويُطربك سَمْعُه .

الحـالة الثـانيـــة

(التضمين)

وهو أن يضمَّن البيتُ الكامل من الشعر أو نصفُ البيت لبعض القرينة . أما تضمين البيت الكامل من الشعر أو نصف البيت لبعض القرينة فمثل ما كتب به القاضى الفاضل :

وصل من الحضرة

كتابٌ به ماءُ الحيـاةِ ونَقْعُـه الـ * ـحَيَا فكأَنِّى إذ ظَفِرْتُ بِهِ الخضْر

فوقفت عنده منه علىٰ

عقود، هى الدُّرّ الذى أنْتَ بَحْرُه * وذلِكَ ما لا يَدَّعِى مثْـلَه البحرُ

ورتعت منه فى

رياض يدٍ تجنى وعينٍ وخاطرٍ * تَسابَقَ فيهـا النَّوْرُ والزَّهْرُ والثَّمْر

وكرعت منه فى حياض

تَسُرُّ مَجانِيهـا إذا ما جَنىٰ الظَّما * وتُرْوِى مجارِيها إذا بَخِل القَطْرُ

وما زلت منه أنشده

كأنِّىَ سارٍ فى سَرِيرة ليلةٍ * فلمَّا بَدَا كبَّرْتُ إذ طَلَع الفَجْرُ

و وافىٰ علىٰ ما كنت أعهد

تخَلْتُ بأن العَيْنَ من سُحْبِ كَفِّه * فِمنْ ذا ومنْ ذا فيه يَنْتثِر الدُّرّ

وآسترجع فائت الدماء من مَوْرِده

وما كان عِنْدِى بَعْدَ ذَنْبِ فِراقِهِ * بأنِّى أرىٰ يَوْمًا بِهِ بَعْد الدَّهْرُ

ونَفَّس عن النَّفْس بأبيض أثمادِه وعَيَّن العَيْن بأسْوَد إثمده

به لَهُما سَبْحٌ(١) طويل فهـذه * علىٰ خاطرٍ بَرْدٌ ، وفى خَطَرٍ بَدْر

وجدّد إليه أشواقا جَدِيدُها

يَمُرّ بِه ثَوْبُ الجَدِيدَيْنِ دائمًا * فيَبْلىٰ ولا يَبْلىٰ و إن بَلِيَ الدَّهْر

وذَكَّر أيامًا لا يزالُ يَستعيدُها :

وهَيهاتَ أن يَأْتِى من الأمر فائتٌ * فدَعْ عَنْكَ هذا الأمْرَ قَدْ قُضِى الأمْرُ

وأما تضمين نصف البيت فمثل قول القاضى الفاضل :

وصل كتاب مولاىَ بعـدما ... * أجابَ المُنادِى للصَّلاةِ فأعْتَما

فلما آستقرّ لدىّ ... ... * تجلَّى الَّذِى مِنْ جانبِ البَدْرِ أظْلَما

فقـرأته ... ... * بعَيْنٍ إذا آسْتَمْطَرْتَها أمْطَرتْ دَمَا

وساءلته ... ... * فَسَاءلْتُ مَصْرُوفًا عن النُّطْقِ أعْجَما

(١) فى نسخة سمح . وفى أخرى سح . وكلاهما تصحيف كما هو ظاهر اذ يشير إلىٰ الآية الكريمة (إن لك فى النهار سبحا طويلا) .

ولم يردّ جوابا، ... ... * وَمَا ذَا عَلَيْـهِ لَوْ أجابَ الْمُتَيَّما ؟
وردّدتُه قراءةً، ... ... * فَعُوجِلْتُ دُونَ الحِـلمِ أنْ أتَحَلَّمَـا
وحفِظته، ... ... * كَمَا يَحْفَظُ الحُـرُّ الحَـدِيثَ المُكَتَّمَا
وكرّرته، ... ... * فَمَـن حَيْثُ ما واجَهتُـه قدْ تَبَسَّما
وقبَّلتـه، ... ... * فَقَبَّلْتُ دُرًّا فى العُقُود مُنَظَّـمَا
وقُمتُ له، ... ... * فكُنْتُ بمَفْـرُوضِ المَحبَّـةِ قَيِّما
وأخلصتُ لكاتبه، ... ... * ولَيْس علىٰ حُكْمِ الحَوَادِث محكما
ولم أصدّقه ! ... ... * ولكِنَّـــه قَدْ خالَطَ اللَّحْمَ والدَّمَا
وأرّخت وصوله، ... ... * فكَانَ لايدى(١) الوسائم موسما
وشفيتُ به غليـل ... ... * فؤادٍ أُمَنِّيــهِ وقَدْ بَلغَ الظَّـما
وداويت عليل ... ... * حَشًّـا ضَرَّما فيـه من النار ضَرَّمَا
فأما تلك الأيام التى ... ... * حَمَاهـا علىٰ اللَّوْمِ المُقامُ علىٰ الحِمَـا
والليالى العِذاب التى ... ... * مَلأت بحُورَ الليــلِ بِيضًا وأنْجُما
وأرسلتُ الزفرة ... ... * فلَوْ صافَحَتْ رَضْوىٰ لَرُضَّ وهُدِّما
وأسبلتُ العبرة ... ... * كما أنشأ الأفقُ السحابَ المُدَيَّمـا
وخطبت السَّلْوة ... ... * فأسألُ مَعْـدومًا وآمُـل مُعْـدِما
فأما الشكر فإنما ... ... * أُفَضُّ به مِسْـكًا عليْـهِ مُخَتَّما
وأقوم منه بفرض ... ... * أرانى بِهِ دُونَ البرِيَّةِ أقْـوما
وأوفى واجب فرض ... ... * وكيْفَ تُوَفِّى الأرضُ قَرْضًا من السما

(١) كذا فى الأصل ولعله جمع يد وأضيف للتكلم .

وربما ركبت القرينـة الكاملة على البيت أو نصف البيت كما كتب به القاضى الفاضل أيضا :

ورد كتاب الحضرة بعد أن عددت الليالى ليلة بعد ليلة لطلوع صديعه * وقد عشتُ دهرا لا أعدُّ اللياليا

وبعد أن انتظرتُ القيظَ والشتاءَ لفصل ربيعه ... ... * فما للنوى ترمى بليلى المراميا؟

واستروحت إلى نسيم سَحَره ... * إذا الصَّيفُ ألقى فى الدِّيار المَرَاسيا

ومددتُ يدى لاقتطاف ثمره ... * فلله ما أحلى وأحمى المجانيا !

ووقفت على شكواه من زمانه ... * فبتُّ لشكواه من الدَّهر شاكيا

وعجبت لعمى الحظ عن مكانه ... * وقد جمع الرحمٰن فيه المَعانيا

وتوقَّعت له دولةً يعلوبها الفضل ... * إذا هزّ من تلك اليراع عواليا

ورتبةً يرتقى صَهْوتَها بحُكم العدل ... * فربَّ مراقٍ يعتددن مهاويا

وإلى الله أرغب فى إطلاع سعوده ... * زواهرَ فى أفق العلاءِ زواهيا

وفى إنهاض عثرات جُدوده ... ... * فقد عثَّرتْ بعد النُّهوض العواليا

وربما رُكِّب نصف البيت على نصف القرينة ؛ كما ذكرتُ فى المفاخرة بين السيف والقلم فى الكلام على لسان السيف فى مخاطبته للقلم . وهو : وأنت وإن ذُكرت فى التنزيل ، وتمسكتَ من الامتنان بك فى قوله ﴿علَّمَ بالْقَلَمِ﴾ بشُبهة التفضيل ، فقد حَرَّمَ الله تعالى تعلُّم خطك على رسوله ، وحَرَمك من مسِّ أنامله الشريفة ما يُؤسى على فوته ويُسَرّ بحصوله ؛ لكنى قد نِلْت من هـذه الرتبة أسنى المقاصد ، وشهدت معه من الوقائع ما لم تُشاهِدْ ، وحَلّانى من كفه شرفا لا يزول حَلْيُه أبدا ، وقمت بنصره

فى كل مُعْتَرك . ، * فَسَلْ حُنَيْنًا وسَـلْ بَدْرا وسَلْ أُحُدا * ؛ فركّبت نصفَ بيت البردة علىٰ نصـف قرينـةٍ . وما ذكرته فى الرسالة التى كتبتها للمقرّ الفتحى" صاحب ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وهو قد لبِس شرفا لا تطمع الأيام فى خلعـه ، ولا يتطلّع الزمان إلىٰ نزعه ، وآنتهى إليه المجد فوقّف ، وعرف الكرم مكانه فانحاز إليـه وعطف ، وحلّت الرياسةُ بفنَائه فآستغنَتْ به عن السِّوىٰ، وأناخت السيادة بأفيائه * فألقتْ عصَاها وآستقَرّ بها النوى *

وقد يضمِّن الكاتب بعض القرينة نصفَ بيت، ثم يستطرد فيذكر أبياتًا كاملة الأجزاء علىٰ نَمَط أنصاف الأبيات التى يوردها، كما فعل الشيخ ضياء الدين أحمد بن عمر بن يوسـف القرطبيّ فى رسالته للشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد تغمدهمـا الله برحمته فى قوله :

وينهىٰ ورود عذرائه التى ... * لهَاَ الشَّمْسُ خِدْنٌ والنُّجُومُ وَلائدُ
وحسنائه التى ... ... * لهَـا الدُّرّ لفظٌ والدَّرارِى قلائدُ
ومشرفته التى ... ... * لهَـا مِنْ بَراهِينِ البيَاَنِ شَواهِدُ
وكريمته التى ... ... * لهَـا الفَضْل وِرْد والمعالِى مَوَارِدُ
وآيتها الكبرىٰ التى دلَّ فضلُهـا * علىٰ أنَّ مَنْ لم يَشْهَدِ الفَضْلَ جاحِدُ
وأنكَ سَـيْفٌ سـلَّهُ اللهُ للهدىٰ * وليس لسَـيْفٍ سَــلَّهُ اللهُ غامِدُ

وقد يخالف بين قوافى أنصاف الأبيات التى يمزجها ببعض القرائن كما يخالف بين فواصل القرائن : كما فى قول البديع الهمذانى

أنا لقرب دار مولاى ... ... * كما طَرِب النَّشْوَانُ مالَتْ بِهِ الخَمْـرُ
ومِنَ الآرتياح إلىٰ لقائه ... ... * كما آنتَفَضَ العُصْـفُورُ بَلَّلَهُ القَطْرُ

ومن الآمتزاج بولائه ... ... * كما ٱلتقت الصَّهْباءُ والبارِدُ العَذْبُ
ومن الآبتهاج بمزاره ... ... * كما اهتزَّ تحتَ البارح الغُصُن الرَّطْبُ

إلىٰ غير ذلك من فنون الآمتزاج التى يزاوج فيها بين المنثور والمنظوم، وينتهى فيها الكاتب إلىٰ ما يبلغ به القدَر المحتوم .

أما تضمين بعض أبيات العرب فى بعض قصائد المحدثين كما فعل القاضى الأرّجانىّ فى قوله من قصيدة مدح بها بعض الوزراء :

وأهْدِ إلىٰ الوزير المدحَ يَحْمِلْ * لَكَ المِرْباعُ مِنْها والصَّفَايَا
وَرَافِقْ رُفْقَةً رَحلُوا إليـــه * فآبُوا بالنِّهَابِ وبالسَّبَايَا
وقُلْ للراحلين إلىٰ ذُرَاه * أَلَسْتُمْ خَيرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايا
ولا تَسْلُكْ سِوىٰ طُرُقِى فإنى * أنا ٱبْنُ جَلا وطَلَّاعُ الثَّنَايَا

فإن ذلك من وظيفة الشاعر لا الكاتب، و إن كان الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى رحمه الله قد أشار فى كتابه "حسن التوسل" إلىٰ التمثيل بذلك لما نحن بصدده .

الحالة الثالثة

(الحَلّ)

وهو أن يعمِد الكاتب إلىٰ الأبياتِ من الشِّعر ذواتِ المعانى فيحُلَّها من عُقُل الشعر، ويَسْبُكها فى كلامه المنثور، فإن الشعر هو المادّة الثالثة للكتابة بعد القرءان الكريم والأخبار النبوية، علىٰ قائلها أفضل الصلاة والسلام، وخصوصا أشعارَ العرب فإنها ديوان أدَبهم، ومستودَع حِكَمهم، وأنفَس علومهم فى الجاهلية، به يفتخرون، و إليه يحتكمون . فإذا أكثر من حفظ الشعر وفهم معانيه، غَزُرت لديه الموادّ، وترادفت عليه المعانى، وتواردتْ علىٰ فكره، فيسهُل عليه حينئذ حَلُّها، ووضْعُها

فى مكانها اللائق بها بحسب مقتضيات الكتابة . قال صاحب "الريحان والريعان": وهو شأنُ حُذّاق الكتّاب فى زماننا، وفيه من الجمـال فنون .

منها أنه يدل علىٰ حَفَالة أدب المُجيد ، وٱتّساع الحفظ، والتيسير والتأتّى لسـبْك اللفظ .

ومنها أنه ليس يُشْهَر منها إلا النـادر للغاية فى الحُسْن ، فهى إذا حُلّت يحاورها المنشئ بما يناسب حسنها فى البراعه ، وهذا كثير فى هـذه الصناعه . قال فى "المثل السـائر" وإنمـا جعل المنظوم مادّة للمنثور بخلاف العكس لأن الأشـعار أكثر، والمعانِىَ فيها أغزر، قال : وسبب ذلك أن العرب الذين هم أهـل الفصاحة كان جُلُّ كلامهم شعرا ، ولا يوجد الكلام المنثور فى كلامهم إلا يسيرا، ولو كثر فإنه لم يُنْقَل عنهم بل المنقول عنهم الشـعر فأودعُوا أشعارَهم كل المعـانى كما قال الله تعالىٰ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ﴾ . ثم جاء الطِّراز الأوّل من المُخَضْرَمين فلم يكن لهم إلا الشعر . ثم ٱستمرّ الحال علىٰ ذلك فكان الشعر هو الأكثَر، والكلامُ المنثور بالنسبة إليه قطرةٌ من بحر، فلذلك صارت المعانى كلها مُودعة فى الأشعار . قال فى "حسن التوسل" والحَلُّ باب متسع علىٰ المجيد مجَاله ، وتتصرَّف فى كلام العارف به رويته وٱرتجاله .

قال صاحب "الريحان والريعان" وأوّل مَن فك رِقابَ الشعر، وسرَّح مقيَّده إلىٰ النثر، عبد الحميد الأكبر، كاتب بنى أمية إلىٰ ٱنقضاء خلافتهم . قال : وربما رامه غير المطبوع المتصرّف فعقده وأفسده كما قال القائل : وبعضهم يَحُلُّ فيعقِد . قال : وكيفيـة الحل أن يتوخّى هـذا البيت المنظومَ وحَلَّ فرائده من سلكه . ثم ترتيبَ تلك الفرائد وما شابهها ترتيبَ متمكّن لم يحظُره الوزن ولا ٱضطرّته القافية ، ويبرزَها

فى أحسن سلك، وأجمل قالَبٍ وأصح سبك، ويُكمّلها بما يناسبُها من أنواع البديع إذا أمكن ذلك من غير كلفة ، ويتخير لها القرائن . وإذا تم معه المعنىٰ المحلول فى قرينة واحدة فيفرض له من حاصل فكره، أو من ذخيرة حفظه، مايناسبه . وله أن ينقُل المعنىٰ إذا لم يفسده إلىٰ ماشاء ؛ فإن كان نسيبا وتأتّى له أن يجعله مديحا فليفعل ؛ وكذلك غيره من الأنواع . وإذا أراد الحل بالمعنىٰ فلتكن ألفاظه مناسبةً لألفاظ البيت المحلول غيرَ قاصرةٍ عنها، فمتىٰ قصَرَتْ ولو بلفظة واحدة، فسد ذلك الحل وعُدّ مَعِيبا . وإذا حلَّ اللفظ فلا يتصرف بتقديم وتأخير ولا تبديل، إلا مع مراعاة تدبير الفصاحة، وآجتناب ماينقُصُ المعنىٰ أو يحُطُّ رتبته .

قال : وهذا الباب لاتنحصر المقاصد فيه، ولا حجر علىٰ المتصرف فيه .

ثم حل الأبيات الشعرية وآستعمالها فى النثر علىٰ ثلاثة أضرب :

الضــــرب الأوّل

(أن يأخذ الناثر البيت من الشعر فينثُره بلفظه، وهو أدنىٰ مراتب الحَلّ)

قال فى "المثل السائر" وهو عيب فاحش إذ لم يزد فى نثره علىٰ أنه أزال رونق الوزن وطَلَاوة النظم لاغير . قال ومثَلُه كمن أخذ عِقْدا قد أُتقِن نظمه، وأُحْسِن تأليفه، فأوهاه وبدّده؛ وكان يقوم عذره فى ذلك لو نقله عن كونه عِقدا إلىٰ صورة أخرىٰ مثله أو أحسنَ منه . وأيضا فإنه إذا نثَر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهورَ السرقة فيقال هذا شعر فلان بعينه لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء .

وبالجملة فحَل الشعر بلفظه لايخرج عن حالين :

الحال الأوّل — أن يكون الشعر مما يمكن حله بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها ، وله فى حله طريقان :

الطريق الأوّل — أن يَحُله بالتقـديم والتأخير من غير زيادة فى لفظه : كما ذكر صاحب "الصناعتين" عن بعض الكتّاب أنه حلّ قول البحترى :

أطِلْ جَفْوةَ الدُّنيا وتَهوِينَ شَأنِها * فما الغافِلُ المَغْرُورُ فِيها بِعاقِل
يُرَجِّى الخُلُودَ مَعْشَرٌ ضَلَّ سَعْيُهُمْ * ودُونَ الَّذِى يَرجُونَ غَوْلُ الغَوائِل
إذا ما حَرِيزُ القَـوْمِ باتَ وما لَهُ * مِنَ اللهِ واقٍ فهو بادِى المَقَاتِل

فقال فى نثرها : أطِلْ تهوينَ شأنِ الدنيا وجَفْوتَها، فما المغرورُ الغافل فيها بعاقل. ويرجو مَعْشَرٌ ضلَّ سعيُهم الخلودَ، وغولُ الغوائل دون مايرجُون . وإذا بات حرِيزُ القوم وماله من الله واقٍ فهو بادى المَقَاتل . فلم يزد فى ألفاظها شيئا .

الطريق الثانى — أن يَحُلَّه بزيادة علىٰ لفظه كما حكىٰ الجاحظ عن قليب المعتزلىّ أنه سمع منشدا يُنْشد للعتبىّ :

أفلَتْ بِطَالتُـه وراجَعهُ * حِلْم وأعقبَـهُ الهَوىٰ نَدَما
ألقىٰ عليـه الدَّهْرُ كَلْكَلَه * وأعاره الإقتـار والعَـدَما
فإذا ألمّ بِهِ أخُو ثِقَـةٍ * غَضَّ الجُفُونَ وَجَمْجَمَ الكَلِمَا

فنثرها فقـال يسـتعطف بعض الملوك علىٰ رجل من أهـله : جعلنى الله فِداك ليس هو اليوم كما كان، إنه وحياتِك أفلَتْ بَطَالته، إى والله وراجعه حلمه، وأعقبَه وحقك الهوىٰ ندما . أخنى الدهرُ عليـه والله بكلكله، فهو اليوم إذا رأىٰ أخا ثقةٍ غضَّ بصره وجمجم كلامه . فزاد فى نثره ألفاظا علىٰ ألفاظ الشعر .

ونحو ذلك ما حكاه ضـياء الدين بن الأثير عن بعض العراقيين أنه نثر قول بعض شُعراء الحماسة :

وألدَّ ذِى حَنَقٍ علَىّ كأنَّما * تَغْلِي عداوةُ صَدْرِه فى مِرْجَل
أرْجَيتُه عَنِّى فأبصرَ قَصْدَه * وكَوَيْتُه فَوْقَ النَّواظِرِ مِنْ عَلِ

فقال فى نثره : فكَمْ لقِيَ ألدّ ذا حَنَقٍ كأنه يَنْظُر إلىٰ الكواكب من عل وتغلى عداوة صدره فى مِرْجَل فكواه فَوْقَ ناظِرَيْه، وأكبَّه لِفَمِه ويديه .

الحال الثانى — أن يكون الشعر مما لا يمكن حَلُّه بتقديم بعض ألفاظه وتأخير بعضها ، فيحتاج فى نثره إلىٰ الزيادة فيه ، والنقص منه ، وتغيير بعض ألفاظه حتّى يستقيم كقول الشاعر :

لِسَانُ الفتىٰ نِصْفٌ ونِصْفٌ فُؤادُه * فَلَمْ يَبْقَ إلَّا صُورَةُ اللَّحم والدَّمِ

فإن المصراع الثانى من البيت لا يمكنُ حلُّه بالتقديم والتأخير لأنك تقول فى المصراع الأوّل : فُؤاد الفتىٰ نصف ولسانه نصف ولا يمكن ذلك فى المِصراع الثانى حتّى تزيد فيه أو تنقُص منه فتقول مثلا فُؤاد الفتىٰ نصف ولسانُه نصف علىٰ ماتقدّم . ثم تقول وصورته من اللحم والدم فضلةٌ لاغَناء بها دُونَهما ، ولا معوّل عليها إلا معهما .

قال فى "الصناعتين" : و زيادة الألفاظ التى تحصل فيه ليست بضائرة لأن بسط الألفاظ فى أنواع المنثور شائع ؛ ألا ترىٰ أنها تحتاج إلىٰ الآزدواج ؛ ومن الآزدواج ما يكون بتكرير كلمتين لهما معنًى واحدٌ وليس ذلك بقبيح ؛ إلا إذا آتفق لفظاهما ؛ إلا أن أكثَرَ مايحسُن فيه إيراد المعنىٰ علىٰ غاية مايمكن من الإيجاز ، ومعنىٰ قوله فلم يبق إلا صورة اللحم والدم داخل فى قوله * لسان الفتى نصف ونصف فؤاده * والمصراع الثانى تذييل للمصراع الأوّل . قال : فإذا أردت أن تَحُلَّه حلا مقتصرا بغير لفظه ، قلت الإنسان شَطْران : لسان وجنان، وقريب من ذلك قول أبي نُوَاس .

أَلَا يابْنَ الذين فَنُوا وبادُوا * أَمَا واللهِ ماذَهَبُــوا لِتَبْقَىٰ

فإن المِصراع الأوّل يمكن حله بأن تقول ألا يابن الذين بادوا وفَنُوا فيكون مستقيما . أما المصراع الثانى فإنه إن قُدِّم فيه أو أخر بأن قيل ماذهبوا لتبقىٰ أما والله فإنه لايستقيم فتحتاج فى نثره إلىٰ تغيير وزيادة فتقول : ألا يا ٱبن الذين ماتوا ومضَوْا وظعَنُوا ونأَوْا أما والله ماظعنوا لتقــيم ، ولا راموا لتَرِيم ، ولا مُوِّتُوا لتحْيَا ، ولا فَنُوا لتبقىٰ . قال فى "الصناعتين" وفى هذه الألفاظ طول وليس بضائر علىٰ ما تقدم . قال : وإن أردت ٱختصاره قلت أما والله إن الموت لم يصــبك فى أبيك إلا ليُصيبَك فيك .

الضـــرب الثـانى

(وهو أعلىٰ من الضرب الأوّل أن ينْثِر المنظوم ببعض ألفاظه ويَغْرَم عن البعض ألفاظا أُخَر . ويحسن ذلك فى حالين)

الحال الأوّل — أن يكون فى الشِّعر ألفاظ لايقوم غيرُها من الألفاظ مَقامها بأن تكون مثلا سائرا أو جارية مجرىٰ المثل : كقول بعض شعراء الحماسة :

لو كُنْتُ مِنْ مازِنٍ لم تَسْتَبِح إبِلِي * بَنُو اللَّقِيطةِ منْ ذُهْلِ بْنِ شَيْبانَا

فإن لفظ بنى اللقيطة لا يقوم غيره من الألفاظ مَقامَه لكونه علَمــا علىٰ قوم مخصوصين فيحتاج الناثر أن يبقيه بلفظه ، كما فعل "ضياء الدين بن الأثير" فى قوله فى نثر البيت المذكور : لست ممن تسبيح إبلَه بنو اللقيطه ، ولا الذى إذا هَمَّ بأمر كانت الآمال إليــة وسيطه ، ولكنى أحمِى الهَمَل ، وأفوت الأمل ، وأقول سَــبق السَّيْفُ العذَل . وكذلك كل ماجرىٰ هذا المجرىٰ ونحوه .

الحال الثانى — أن يكون فى البيت لفظ رائق : قد أخذ من الفصاحة بزمامها، وأحاط من البلاغة بجوانبها؛ فيبقيه على حاله ، ويقرنه بلفظ يماثله ويوازنه ، قال فى "المثل السائر" : وهناك تظهر الصنعة فى المماثلة والمشاكلة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المرتجلة ؛ فإنه إذا أخذ لفظا لشاعر مجيد ، قد نقحه وصححه ،فقرنه بمالا يلائمه كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة؛ ولا خفاء بما فى ذلك من الانتصاب للقدح ، والاستهداف للطعن . قال : وهو عندى أصعب منالا من نثر الشعر بغير لفظه؛ لأنه يسلك مضيقا، لما فيه من التعرّض لمماثلة ما هو فى غاية الحسن والجودة . بخلاف نثر الشعر بغير لفظه فإن ناثره يتصرف فيه على حسب ما يراه ، ولا يكون مقيدا فيه بمثال يُضْطَّر إلى مؤاخاته ؛ ومثل لذلك بقول أبى تمام فى وصف قصيد له :

حَذَّاء تَمْلأُ كُلَّ أُذْنٍ حِكْمَةً * وبَلاغَةً وتُدِرُّ كُلَّ وَرِيدِ

ثم قال : فقوله تملأ كل أذن حكمةً من الكلام الحسن، وهو أحسن مافى البيت وأشهر، فلو قال قائل لمن هذا؟ قيل وهل يَخْفَى القَمَر، وإذا عُرِف الكلام صارت المعرفة له علامه، ولم يُخْشَ عليه سرقة إذ لو سُرِق لدلت عليه الوَسَامه، ومن خصائص صفاته أنه يملأ كلَّ أذن حكمه ، ويجعل فصاحة كلِّ لسان عُجْمه . فبقِّى لفظ تملأ كل أذن حكمة وأتى معها بما يناسبها من الألفاظ الحسنة الرائقة. ونحو ذلك ماذكره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى : أنه يؤاخى القرينة المحلولة بمثلها من عنده كما فعل هو فى تقليد من التقاليد فقال : * فكَمْ مُلَّ ضَوْءُ الصُّبحِ مِمَّا يُغيره * ثم قال : وظلامُ النَّقْع مما يُثيره . وقال أيضا : وفُلَّ حَديدُ الهِنْدِ مما يُلَاطِمه * ثم قال : والأجل مما يسابِقُه إلى قبض النفوس ويُزاحمه . والقرينتان الأوليان نصفا بيتين للمتنبى فأضاف إلى كل قرينة ما يناسبها . قال : وهذا من أكثر ما يستعمل فى الكتابة .

الضرب الثـالث .

(وهو أعلىٰ من الضربين الأوّلين أن يأخذ المعنىٰ فيكسُوَه ألفاظا من عنده ويصُوغَه بألفاظ غير ألفاظه)

قال فى "المثـل السائر" : وثَمَّ يتبيَّنُ حِذق الصائغ فى صياغته ؛ فإن آستـطاع الزيادة علىٰ المعنىٰ فتلك الدرجة العاليـة ، وإلا أحسن التصرف وأتقن التأليف ؛ ليكون أولىٰ بذلك المعنىٰ من صاحبه الأوّل .

ولْتعلم أن الأبياتَ الشعريةَ فى حلها بالمعنىٰ لهـا حالان .

الحال الأوّل — أن يكون البيت الشعر ممـا يتسع المَجالُ لناثره فى نثره فيورده بضروب من العبـارات . قال آبن الأثير " وذلك عنـدى شبيه بالمسائل السيالة فى الحساب التى يجاب عنها بعدّة من الأجوبة ". فمن ذلك قول أبى الطيب المتنبي :

لا تَعْذِلِ المُشْتَاقَ فِى أَشْوَاقِه * حتّٰى تكُونَ حَشَاكَ فى أحْشَائهِ

فهذا البيت يُتَصَرَّف فى نثره فى وجوه من المعانى . وقد نثر آبن الأثير هذا البيت فقال : "لاتعذِلِ المحبَّ فيما يهواه ، حتّٰى تطوِىَ القلب علىٰ ما طواه" . ونثره علىٰ وجه آخر فقال : "إذا آختلفت العينانِ فى النظر ، فالعذل ضرب من الهَذَر" . وكذلك قول المتنبي أيضا :

إنَّ القَتِيلَ مُضَرَّجاً بدموعِه * مثلُ القتِيلِ مضَرَّجا بِدِمائه

نثره آبن الأثير فقال : "القتيل بسيف العُيُون ، كالقتيل بسيف المَنُون ؛ غير أن ذلك لا يُجَرّد من غِمْدِه ، ولا يُقادُ صاحبه بعَمْده" . فزاد علىٰ المعنىٰ الذى تضمنه البيت عدمَ القود بالعَمْد . ونثره علىٰ وجه آخر فقـال : "دمُ المُحب ودم القتيل ، متفقان فى التشبيه والتمثيل ، ولا تجد بينهما بونا ، سوىٰ أنهما يختلفان لونا". قال وهذا أحسن من الأوّل .

وعلى هذا النهج يجرى قول ابن الرومى فى وصف الحديث :

وَحَدِيثُها السِّحْرُ الحَلَالُ لَوَ انَّهُ * لم يَجْنِ قَتْلَ المُسْلِمِ المُتَحَرِّزِ

نثره الشيخ شهاب الدين محمود الحلبيّ فى وصف السيوف فقال : وكفى السيوفَ فخرا أنها للجَنَّة ظلال، وإلى النصر مآل؛ وإذا كان من بيان الحديث سِحْر، فإنَّ بيان حديثها عمن كَلَّمته هو السحر الحلال . ثم نقله إلى وصف الأسنة فقال : حَسْبُ ألسِنة الأسِنَّة شرفا أنَّ كَشْف خبايا القلوب يُذَمُّ إلا منها، وأن بثَّ أسرار الضمائر تُكْرَه روايته إلا عنها؛ فكرَّر حديثها فى ذلك لا يُفْضِى إلى ملاَل، وإذا لم يكن حُسْنُ حديثها الذى يَسْحَر الألباب مما يحِلُّ ، فليس فى الحديث سِحْرٌ حلال . ثم نقله إلى وصف البلاغة فقال : البلاغة تَسْحَر الألباب حتّى تخيل العرض جوهرا وتُحِيل الهواءَ المُدرَك بالسمع لانسجامه وعُذُوبته فى الذوق نهرا ؛ لكنه سِحر لم يَجْنِ قتلَ المُسْلِمِ المُتَحرِّز، فيتأوّلَ فى حِلّه ، وإذا كان فى الحديث ما هو عُقْلة للمستوفِز، فهذا أنْشُوطة نَشَاط البليغ وحَلُّ عِقال عقله . ونقله إلى وصف الكتابة . فقال : خَطُّه شَرَك العقول ، وفتنة تَشغَل المطمئن بملاحة المرْئىّ المكتوب ، عن فصاحة المسموع المَقُول؛ ولو لم يكن البيان سحرًا، لما تجسَّدت منه فى طِرْسه هذه الدُّرَر، ولو لم يكن بعضُ السحر حلالا ، لما انجلى ظَلامُ النِّقْس عما يُهتدى به من هذه الأوضاح والغُرَر .

الحال الثانى — أن يكون البيت الشعر مما يَضِيق المَجَال فيه فيعسُر على الناثر تبديل ألفاظه ، وذلك قليل بالنسبة إلى ما يتسع فى حَلّه المَجَال . قال فى "المثل السائر" وسببه أن المعنى ينحصر فى مقصِد من المقاصد حتّى لا يكاد يأتى إلا فذًّا . فمن ذلك قول أبى تمام الطائىّ من قصيدة .

تَرَدَّى ثِيَابَ المَوْتِ حُمْرًا فَمَا أَتَى * بِهَا اللَّيْلُ إلَّا وَهْيَ مِنْ سُنْدُسٍ خُضْرِ

فإن أبا تمام قصد المؤاخاة فى ذكر لونى الثياب بين الأحمر والأخضر، وجاء ذلك واقعا علىٰ المعنىٰ الذى أراده : من لون ثياب القتلىٰ وثياب الجَنَّة ؛ فإن ثيابَ القتلىٰ حُمْر وثياب الجنة خضر .

قال ٱبن الأثير : فإذا فُكَّ نظم هـذا البيت وأريد صوغُه بغير لفظه لم يمكن ؛ فيجب علىٰ الناثر أن يحسن الصنعة فى فكّ نظامه ؛ لأنه يتصدّى لنثره بألفاظه ؛ فإن كان عنده قوّةُ تصرُّف، وبَسْطة عبارة، فإنه يأتى به حسنا رائقا . وقد نثر هذا البيت فقال : لم تكسُه المنايا نَسْج شِفَارها ، حتّى كسته الجنةُ نَسْج شِعارها : فبُدِّل أحمرُ ثوبه بأخضره، وكأسُ حِمَامه بكأس كَوْثَره . قال : وهـذا من الحُسْن علىٰ غاية يكون كَمَدُ حسُودها، من جُمْلة شُهودها . ومن ذلك قول أبى الطيّب :

وكَانَ بِهَامِثْلُ الجُنُونِ فأصبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْلىٰ عَلَيْهَا تَمَائِمُ

فإن أبا الطيّب بنىٰ بيته علىٰ واقعة مخصوصة . وذلك أن حِصْنا من حصون سيف الدولة قصده الروم، وٱنتزعوه، وخرَّبوه؛ فنهَدَ سيفُ الدولة إليه وٱسترجعه، وجدّد بناءه، وهزم الروم، ونصب جملةً من جُثَث القتلىٰ علىٰ السور؛ فنظم أبو الطيّب فى هذا قصيدا أوّله .

* علىٰ قَدْرِ أهلِ العَزْمِ تأتِى العَزائمُ *

ولما ٱنتهى إلىٰ ذكر الحصن ، جاء بهـذا البيت فى جملة أبيات ، فشرح صورة الحال، فى ٱرتجاع الحصن بالقتال وتعليق القتـلىٰ عليه ؛ وأبرز ذلك فى معنىٰ التمثيل بالجنون والتمائم . وهـذا لا يمكن تبديل لفظه؛ فيجب علىٰ الناثر حسن الصنعة فى حله ونثره . وقد نثره ٱبن الأثير أيضا فقال : سرىٰ إلىٰ حصن كذا مستعيدًا منه سَبِيَّة نزعها العدوّ ٱختلاسا ، وأخذها مُخادَعة لا ٱفتراسا ؛ فما نزلها حتّى ٱستقادها،

ولا نازلها حتى آستعادها ، فكأنما كان بها جنون فبعث لها من عزائمه عزائم ، وعلق عليها من رءوس القتلى تمائم ، ثم قال : وفى هذا من الحسن ما لا خفاء فيه . فمن شاء أن ينثر شعرا فلينثره هكذا و إلا فليترك . ثم نقله إلى معنى آخر ، وأبرزه فى صورة أخرى فأضاف إليه البيت الذى قبله من القصيدة فصار على هذه الصورة .

بَنَاهَا فأعْلىٰ والقَنَا تَقْرَعُ القَنَا * ومَوْجُ المَنَايَا حَوْلَهَا مُتَلَاطِمُ
وكانَ بِها مِثْلُ الجُنُونِ فأصبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْلىٰ عليها تَمائِمُ

ثم نثرهما فقال : بناها والأسنة فى بنائها متخاصمه ، وأمواج المنايا فوق أيدى البانِينَ متلاطمه ؛ وما أجلَتِ الحربُ عنها حتى زُلْزِلت أقطارها برَكْض الجياد ، وأُصيبتْ بمثل الجنون فعُلِّقت عليها تمائمُ من الرءوس والأجساد . ولا شك أن الحربَ تُعرِّد(١) عمن عزَّ جانبُه ، وتقول ألا هكذا فليَكسِب المجدَ كاسبه . قال وهذا أحسن من الأول وأتمُّ معنًى . ثم تصرف فيه بزيادة على هذا المعنى فقال : بناها ، ودُونَ ذاك البناءِ شَوْكُ الأسَل ، وطُوفانُ المنايا الذى لا يقالُ ساوِى منه إلى جبل ؛ ولم يكن بناؤها إلا بعد أن هُدِمت رءوس عن أعناق ، وكأنما أصيبت بجنون فعُلِّقت القتلى عليها مكان التمائم أو شِيذت بعطَل فعُلِّقت مكان الأطواق . قال وهذا الفصل فيه زيادة على الفصل الذى قبله .

قلت : وكما ينبغى الإكثار من حفظ الأشعار على ما تقدّم ليوردها فى خِلال كلامه آستشهادا وتضمينا أو يَحُلَّها و يقتبس معانيها فى نثره على ما تقدم بيانه كذلك ينبغى له معرفة المشاهير من الشعراء الطائرى السمعة : من شعراء الجاهلية كآمرئ القيس آبن حُجْر ، والنابغة الذُّبيانىّ ، وطَرَفة بن العَبد ، وأوْس بن حَجَر ، وزُهَير آبن أبى سُلمى ، والأفوه الأودىّ ، والمتلمس ، والأعشى ، وعلقمةَ بن عَبَدَة ، وعمرو

---

(١) أى تفرّ وتجبُن يقال عرّد الرجل عن قرنه إذا فر ونكل . انظر اللسان .

آبن كُلْثوم، والمرقِّش، والنمر بن تَوْلب، ومُهَلْهِل، وطُفيل الغَنَوِىّ، وعُرْوة بن الورد، وقيس بن الخَطِيم، والشَّماخ بن ضِرار، وعنـترة، والسَّمَوْءَل بن عادِيا، ومن جرىٰ مَجْراهم .

ومن المخضرمين، وهم الذين أدركوا الجاهليَّةَ والإسلام جميعا : كحسَّان بن ثابت رضى الله عنه، ولَبِيد بن أبى ربيعة، وكعب بن زُهَير، وزيد الخيل الطائى، والنابغة الجعدىّ، وأميَّـةَ بن أبى الصلت، والحُطَيْئة، وعمرو بن معدى كرب، والزِّبرِقان آبن بدر التميمىّ، والعبَّاس بن مِرْداس السُّلَمىّ، والخَنْساء بنت عمرو بن الشَّرِيد، ومن فى معناهم .

ومن المولَّدين، وهم الذين وُلِدوا من العرب فى الإسلام : كالفرَزْدق، وجَرير والأخطل، والقَطَامىّ، والكُمَيْت بن زيد الأسدىّ، والمُساوِر بن هند، وعدىّ بن الرِّقاع، وكُثَيِّر عَزَّة، وعُمَر بن أبى ربيعة، والراعى، وآبن مُقْبِل، وآبن مُفَرِّغ، وليلىٰ الأخيليَّة، ومن آنخرط فى سلكهم .

ومن المُحْدَثين، وهم الذين أتَوْا بعـد المولَّدين كإبراهيم بن هِرْمَةَ، وآبن أُذَينة، وأبى نُوَاس، وأبى العَتاهِيَة، وطُفَيل الكنانىّ، وسِلْم الخاسر، وآبن مَيَّادة، وصالح آبن عبد القُدّوس، وأبى عُيَينة، والعبَّاس بن الأحنف، والعتَّابىّ، وأشجَع السُّلَمىّ، والعَكَوّك، وآبن أبى زُرْعة الدّمشقىّ، وأبى الشِّيص، والحمدونىّ، والعُتبىّ، ودِعْبِل الخُزَاعىّ، وإسحاق بن إبراهيم المَوْصِلىّ، وإبراهيم بن إسحاق الموصلىّ، وأبى علىّ البصير، وأبى تمَّـام الطائىّ، وأبى عُبَـادة البُحْتُرِىّ، وأبى الطيّب المتنبى، وآبن بسَّام، والسرىّ الموصلىّ، وأبى الفتح كُشَاجِم، وأبى الفتح العَبْسىّ، وأبى الفرج الببغا، وآبن الساعاتى، وآبن قلاقِس، والواوا الدِّمَشْقىّ، والعفيف التلمسانىّ، وآبنه، وآبن سَنَا الملك، وآبن شمس الخلافة، وآبن النبيه، والصفىّ الحلِّىّ ونحوهم .

ومعرفة الفرسان منهم : كآمرئ القيس، وخُفَاف بن نُدْبة، والزِّبْرقان بن بدر وعَنْترَة، وعمرو بن معدى كرب، ودُرَيد بن الصِّمَّة .

ومن كان منهم راجلا يسعىٰ علىٰ رجليه كسُلَيك بن السُّلَكة، وآبن بَرَّاقة، وتأبط شرًّا، والشَّنْفرىٰ وغيرهم .

ومن تقدّم منهم فى نوع من الشعر، كمعرفة طفيل الغنوىّ بوصف الخيل، وأمية بن أبى الصلت فى أمر الآخرة وذكر الحرب ، وعمر بن أبى ربيعة فى وصف النساء ، وعُتَيبة بن مِرْداس بمراكب الإبل، وكُثَيِّر فى الأمثال، والفرزدق فى الأخبار ، وجرير فى المعانى .

ومعرفة من هو أكثرهم حفظا : كالأغلب الشاعر : قيل إنه كان يحفظ أربع عشرة ألف أرجوزة، ومعرفة أىّ القبائل كانت الشعراء فيها أكثر كهُذيل؛ فقد قيل إنه كان فيها أربعون شاعرا مُفْلِقا كلهم يَعْدُو على رجليه، ليس فيهم فارس؛ وأىّ قبيلة كان الشعراء فيها أقلّ : كشَيْبانَ، وكلب؛ فقد قيل إنه ليس فى الدنيا قبيلة أقلّ شعراء منهما وإنه ليس لكاب فى الجاهلية شاعر قديم علىٰ أنها مثل شيبان أربع مرات .

وقد ذكر آبن رشيق فى "عمدته" عن عبد الله بن سلام الجُمَحِىّ وغيره : أن الشعر كان فى الجاهلية فى ربيعة فكان منهم مُهَلْهِل بن ربيعة، وهو خال آمرئ القيس بن حُجْر، ويقال إنه أول من قصَّد القصائد والمُرَقّشان الأكبرُ والأصغر، وطَرَفة بن العبد، وعمرو بن قَمِيئة، والحارث بن حِلِّزة، والمتلمس، والأعشىٰ، والمسيَّب بن عَلَس وغيرهم؛ ثم تحوّل الشعر إلىٰ قيس فكان منهم النابغتان الذُّبيانىّ والجَعْدىّ، وزُهَير بن أبى سُلْمىٰ، وآبنُه كعب، ولبيد، والحطيئة، والشمَّاخ . ثم آستقرّ الشعر فى تميم فكان منهم أوس بن حَجَر، ولم يتقدّمه أحد حتّى كان النابغةُ وزهير فأخملاه .

قلت : والمراد أن الشعر غلب فى هـذه القبائل وظهر فيها ، وكان فيها الشعراء المجيدون ؛ وإلا فالشعر موجود فى قبائل العرب قبل ذلك : كحِمْير وكَهْلان من اليمن ؛ بل فى عادٍ وثمودَ علىٰ ما تشهد به كتب السير والأخبار . فإذا عرف الكاتب ذلك ، آستعان به فى المساواة بمن شاء منهم فى التقريظات والتفضيل عليه كما كتبت فى تقريظ شاعر : فامرؤ القيس يَغْرَق فى مِقْياس معانيه ، والنابغة الذُّبيانِىُّ يقْصُر عن أن يبلغَ مدىٰ شأوه أو يُدانيه ، وزُهَيْر يقتطف زَهَرات البلاغة من أفانينه ، وأوسُ بن حَجر يَنْسِج علىٰ مِنْواله و يأتمُّ بقوانينه ، وطُفَيل الغنوىّ يتطفَّل علىٰ موائد شعره ، وطَرفَة بن العبد يقصُر عنه فى شيوع ذِكْره ، والأعشىٰ يعشو إلىٰ ضوء ناره ، وعمرو بن كُلْثوم يسعىٰ إلىٰ بابه ويقف بِفناء داره ، وكُثَيِّر فى أمثاله لا يعدّ من أمثاله ، وجَرير فى مَفَاخره يتمسك من الفَخَار بأذياله ، والفَرَزْدَق فى أوصافه يقلبه ما بين يمينه وشماله ؛ فلو رآه عبدُالملك بن مروان لآختاره علىٰ الأخطل ، أو آجتمع مع أبى نُوَاس لدىٰ الأمين لقال هذا هو المقدّم الأفضل ؛ أو أدركه أبو تمّام ، لآعترف له بالتمـام ؛ أو بَصُر به أبو عُبَـادة لقال أنا له عبـد وغلام ؛ أو عاصره المتنبي لآعترف بفضله ، أو آبن الساعاتى لقال لا يأتى الزمان دون قيام الساعة بمثله . ونحو ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ .

وكذلك ينبغى أن يعرف مصـطلَح أهـل العروض الذى هو ميزان الشـعر مثل الوَتِد ، والسبب ، والفاصلة ، والعروض ، والضرب ؛ وأسماء البحور : من الطويل ، والمديد ، والبسيط ، وأخواتها ؛ وألقاب الزحاف : كالخَبْن ، والخَبْل ، والقبض وغيرها : ليـدخلها تضاعيفَ كلامه عند آحتياجه إلىٰ ذلك كما قال صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ فى أوّل ألفيته فى العروض .

الحمدُ للهِ المليكِ الغافرِ * ذى الطَّوْلِ والفضلِ المديدِ الوافِرِ
سبحانَهُ ماذا يقول البارعُ * فى كاملٍ ليس له مُضَارِعُ
ورِزقه فى عَدْله بسيطُ * وعلمه بخلقه مُحِيط

وما ينخرط فى هذا السلك من الكلام المنثور أيضا .

النوع الحادى عشر
(الإكثار من حفظ الأمثال ؛ وفيه مقصِدان)

المقصد الأوّل
(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلىٰ النظر فى كتب[(١)] الأمثال الواردة عن العرب نثرا ونظما والنظر فى الكتب المصنفة فى ذلك : كأمثال الميدانىّ ، والمفَضَّل بن سلمة الضبِّىّ ، وحمزة الأصبهَانىّ ، وغيرهم . وكذلك أمثال المولَّدين الواردة فى أشعارهم : كالأمثال الواردة فى شعر جرير ، والفرزدق ونحوهما ، إلىٰ غير ذلك من الأمثال الواردة نثرا ونظما ، والنظر فى أمثال المحدَثين الواردة فى أشعارهم : كأبى العَتَاهِيَة ، وأبى تمَّام ، والمتنبى ؛ فحكم ما ورد من الأمثال فى شعر المولدين والمحدَثين حكم أمثال العرب الشعرية ؛ أمّا فى شعر المولدين فلجريهم علىٰ أسلوب العرب ، وركوب جادّتهم ؛ وأما المحدَثين فللطافة مأخذهم ، وٱستطراف مايأتون به مما يجرى مجرىٰ النثر والنظم : من الأمثال الموضوعة علىٰ ألسنة الحيوان عن العرب وغيرهم ؛ فيستشهد به فى موضعه ، ويورده فى مكانه عارفا بأصل ذلك وما بُنِى عليه ، وذلك أن المثل له مقدّمات وأسباب قد عرفت ، وصارت مشهورة بين الناس معلومة عندهم ؛ وهذه

(١) لعل لفظ كتب زائد من قلم الناسخ .

الألفاظ الواردة فى المَثَـل دالة عليها، معـبرة عن المراد بها، بأخصَر لفظ وأوجزه، ولولا تلك المقــدّمات المعلومة، والأسـباب المعروفة، لمـا فهم من هـذه الألفاظ القلائل تلك الوقائع المطوّلات، وأما الأمثال الواردة نثرا، فإنها كلمـات مختصرة، تورَد للدلالة علىٰ أمور كاية مبسوطة، كما تقدّمت الإشارة إليه، وليس فى كلامهـم أوجز منها . ولمـا كانت الأمثال كالرموز والإشارة التى يلَوَّح بها علىٰ المعانى تلويحا، صارت من أوجز الكلام وأكثره آختصارا . وحيث كانت بهـذه المكانة لاينبغى الإخلال بمعرفتها، قال صاحب العقد "والأمثال هى وَشْى الكلام، وجوهر اللفظ، وحَلْى المعانى، والتى تخيَّرتْها العرب، وقدّمتها العجم، ونُطِق بها فى كل زمان علىٰ كل لسان، فهى أبقىٰ من الشـعر، وأشرف من الخَطابة، لم يَسِرْ شىء كسيرها، ولا عَمَّ عمومَها، حتّٰى قالوا : أَسْيَرُ من مَثَل، قال الشاعر :

ما أنْتَ إلّا مَثَلٌ سائرُ * يَعْرِفُه الجاهِلُ والخابِرُ

وقد ضرب الله تعالىٰ الأمثال فى كتابه فقال ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمةً طَيِّبَةً كَشَجَرةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثابتٌ وفَرْعُها فِى السَّماءِ﴾، وقال تعالىٰ ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكا لا يَقْدِر عَلىٰ شَىْءٍ ومَنْ رَزَقْناهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنا﴾ الآية، وقال ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلَين أحَدُهما أبكَمُ لا يَقْدِرُ علىٰ شَىْءٍ وهُوَ كَلٌّ علىٰ مَوْلاهُ أيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بالعَدْلِ﴾ الآية، وقال ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيةً كانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ الآية وقال ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وما يَعْقِلُها إلّا الْعَالِمُونَ﴾ إلىٰ غير ذلك من آى القرءان .

وضرب رسولُ الله صـلى الله عليه وسلم الأمثالَ فقال " ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مستقيما، وعلىٰ جَنْبَيِ الصِّراطِ أبوابٌ مُفَتَّحةٌ، وعَلىٰ الأبواب سُتُور مُرْخاةٌ، وعلىٰ رَأْسِ الصِّراطِ داعٍ يقول آدْخُلوا الصِّراطَ ولا تُعَرِّجُوا : فالصِّرَاطُ الإسلامُ، والسُّتُور

حُدودُ الله ، والأبوابُ مَحارِمُ الله ، والداعى القرءانُ " إلىٰ غير ذلك من الأمثال التى ضربها صلى الله عليه وسلم . ومحل الكلام علىٰ أمثال القرءان وأمثال الرسول صلى الله عليه وسلم، ما تقدّم من الكلام علىٰ القرءان الكريم والأخبار .

ثم هى علىٰ ضربين : قريبِ الفهم بظهور معناه ، وكثرة دورانه بين النـاس ؛ وبعيد الفهم لخفائه ، وقلة دورانه بين الناس . فالقريب من الفهم الكثير الدوران علىٰ الألسنة مثل قولهم ، " عِنْدَ الصَّباحِ يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرىٰ " ، وهو مثل يُضرَب للترغيب فى السير فى الليل، والحث عليه؛ وأول من أرسله مثلا خالد بن الوليد رضى الله عنـه ، قاله فى صبح ليلة قطع فيها مفازةً كانت فى طريقه من العِراق إلىٰ الشام؛ وقولهم "أساءَ سَمْعًا فأَسَاءَ جابَةً" . وأول من قال ذلك سُهَيْل بن عمرو وكان تزوّج صفِيَّةَ بنتَ أبى جهل فولدت له ٱبنَه أنسا ، فرآه الأخنسُ بن شَرِيق الثقفىُّ معه فقال من هذا ؟ فقال سُهَيل ٱبنى ــ فقال الأخنس حَيَّاك الله يابُنَىَّ ! أين أُمُّك؟ فقال: لا والله ما أُمّى ثَمَّ ، ٱنطلقتْ إلىٰ بيتِ أمّ حنْظلةَ تطحَن دقيقا ــ فقال أبوه أساء سمعًا فأساء جابة ــ فلما رجعا قال أبوه فضَحَنى ٱبنكِ اليومَ قال كذا وكذا ــ فقالت إنمـا ٱبنى صبىٌّ وأنت لا تحبـه ــ فقال " أشبهَ ٱمرُؤ بعضَ بَزّه " فأرسلها مثلا .
والبعيد من الفهم، مثـل قولهم " إنْ يَبْغِ علَيْكَ قَوْمُكَ لايبغ عليك القَمَر " . وهو مثل يضرب لمن ينكر الأمر الظاهر عِنادا . والأصل فى ذلك كما ذكره المفضَّل بنُ سلمَة الضبىّ أن بنى ثعلبة بن سـعد بنِ ضبّة فى الجاهليـة تراهنُوا علىٰ الشمس ، فقالت طائفة : تطلُعُ الشمس والقمرُ يُرىٰ ، وقالت طائفة : يغيب القمر قبل أن تطلُع الشمس ، فتراضَوْا برجل جعلوه بينهم حكَمًا، فقال واحد منهم : إن قومى يبغون علىّ، فقال الحكَم إن يَبْغ عليك قومك لا يبْغ عليك القمر ، فجَرتْ مثـلا . ومن المعلوم أن قول القائل إن يبغ عليك قومك لا يبغ عليك القمر، إذا أُخذ علىٰ حقيقته

من غير نظر إلىٰ القرائن المنوطة به، والأسـباب التى قيل من أجلها، لا يعطى من المعنىٰ ما قد أعطاه المَثَل ؛ بل ما كان يُفهَم من هذا القول معنًى يفيد لأن البغى هو الظلم ، والقمر ليس من شأنه أن يظلم أحدا، فكان يصـير معنى المثل — إن كان يظلمك قومك لا يظلمك القمر — وهو كلام مختل المعنىٰ ليس بمستقيم .

وقد أكثر الناس فى تصنيف كتب الأمثال، فمن ذلك الأمثال لأبى عبيد، وهو مرتب علىٰ ترتيب الوقائع التى تقع فيها الأمثال . ومن ذلك أمثال الميدانىّ ، وهى مرتبة علىٰ حروف المعجم وفى آخرها جملة من أيام حروب العرب، إلى غير ذلك من كتب الأمثال المصنفة فى هذا الباب : كأمثال الضبىّ، والقمىّ، وغيرها .

وأما الأمثـال الواردة نظما، فهى كلمات ٱستُحسِنت فى الشعر . وطابقتْ وقائع عامّةً جاريةً بين الناس ، فتداولهـا الناس ، وأجروها مجرىٰ الأمثال النثرية . وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم، كان يتمثل بقول طَرَفة .

* وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ *

وهو نصف بيت مجموعه :

سَتُبْدِى لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالْأَخْبَـارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ

ويروىٰ أنه صلى الله عليه وسلم كان يُخْرِجه عن الوزن، ويُحِيله عن طريق الشعر فكان يقول : "وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تُزَوِّدْ بِالأخبـارِ" فرارا من قول الشعر المنزِّه عنـه مَقامهُ العلىّ، وشرفه الرفيع ، لكن ثبت فى الصحيح أنه صلى الله عليه وسـلم قال : "أَصْدَقُ كَلِمةٍ قَالَهـا شاعر كَلمةُ لبيد :

* أَلَا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ باطِلُ * "

والمحرم عليه صلى الله عليه وسلم، إنمـا هو نظْم الشعر دون إنشاده وسماعه . وقد بسطت القول على ذلك فى كتابى المسمّى "بالغيوث الهوامع، فى شرح جامع المختصرات ومختصر الجوامع" فى الفقه فراجعـه هناك ، ويروىٰ أن عمر رضى الله عنـه تمثل بقول النابغة :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّــــه * علىٰ شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ

ثم قال : لمن هذا؟ فقيل له للنابغة، فقال : ذاك أشعرُ شعرائكم ؛ والمثل السائر فيه فى قوله : أىُّ الرِّجَال المهَذَّبُ ؛ وأمثال ذلك مما تمثل به الصحابة رضوان الله عليهم كثيرٌ، ولذلك وقع فى أمثال المحدثين الواردة فى أشعارهم مايستظرف ويستحلىٰ كقول القاضى الأرّجانىّ :

تَأَمَّلْ مِنْهُ تَحْتَ الصُّدْغِ خَالًا * لِتَعْــلَمَ كَمْ خَبَـايَا فى الزَّوَايَا

يشير بذلك إلىٰ المثل الجارى علىٰ ألسنة الناس فى قولهمْ "فى الزَّوايا خَبَايَا" وهو من الأمثلة المستفيضة علىٰ ألسنة العامَّة الشائعة بينهم، وقول ٱبن عبد ربه .

قالُوا شَبابُكَ قَدْ وَلَّى فقُلْتُ لَهُمْ : * هَلْ مِنْ جَدِيدٍ علىٰ كَرِّ الجَدِيدَيْنِ ؟
صِلْ مَنْ هَوِيتَ وإنْ أبدى مُعَاتَبَةً * فَأَطْيَبُ العَيْشِ وَصْلٌ بينَ إلْفَيْنِ !
وٱقطَعْ حَبَائِلَ خِدْنٍ لا تُلَائِمُـهُ * فرُبَّمـا ضَاقَتِ الدُّنْيـا بِإثْنَيْنِ .

وقول الآخر :

وَعَادَ مَنْ أهْوَاهُ بَعْدَ القِلَىٰ * شَـقِيقَ رُوحٍ بَيْنَ جِسْمَيْنِ
وأَصْـبَحَ الدَّاخِلُ ما بَيْنَنَـا * كَسَـاقِطٍ بينَ فِرَاشَـيْنِ
قَدْ أُلْبِسَ البَغْضَاءَ مِنْ ذَا وذَا * لا يَصْلُحِ الغِـمْدُ لِسَـيْفَيْنِ
ما بَالُ مَنْ لَيْسَـتْ لَهُ حَاجَةٌ * يَكُونُ أَنْفًـا بَيْنَ عَيْنَيْنِ ؟

قال الأصمعى : ولم أجد فى شعر شاعر بيتا أوّله مَثَل وآخره مثل ، إلا ثلاثة أبيات بيتُ الحطيئة :

مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جَوازِيَهُ * لا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ والناسِ

و بيتا آمرئ القيس :

وأفْلَتَهُنَّ عِلْباءُ جَرِيضًا * ولَوْ أدْرَكْتَهُ صَفِرَ الوِطَابُ

وَقَاهُمْ جَدُّهم بِبَنِى أبِيهِمْ * وبالأشْقَيْنَ ما كانَ العِقَابُ

قال صاحب العقد : "ومثل هذا كثير فى القديم والحديث، ولا أدرى كيف أغفل القديمَ منه الأصمعىُّ"، ومنه

* سَتُبْدِى لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا *

البيت المتقدّم؟ وهو من أشرف الأبيات وأعظمها بابا .

وأما الأمثال الموضوعةُ على ألسنة الحيوانات، فكما روى أنّ علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، حين رأى خلاف أصحابه وتَخَاذُلَهم، تمثل بقولهم "إنَّما أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثورُ الأبْيَضُ" يعنى إنما خُذِلت يَوْمَ خُذِل عثمان ؛ وحكاية هذا المثل أنهم قالوا : آصطحب أسدٌ، وثور أحمر، وثور أبيض، وثور أسود فى أَجَمَة؛ فقال الأسد للأحمر والأسود : هذا الأبيض يَفْضَحُنا بلونه ، ويُطْمِع فينا مَنْ يقصِدنا ! فلو تركتمانى آكُلُه، أمِنَّا فضيحةَ لونه؛ فأذِنَا له فى ذلك فأكله؛ ثم قال للأحمر : هذا الأسودُ يخالِفُ لونى ولونَكَ ولو بقيتُ أنا وأنت ، ظنك مَنْ يراك أسدا مثلى فدعنى آكُلْه، فسكت عنه فأكله؛ ثم قال للثور الأحمر : لم يبق إلا أنا وأنت، وأريد أن آكلك ! فقال إن كنتَ فاعلا ولا بدّ ، فدعنى أصعَدُ تلك الهَضْبة، وأَصيحُ ثلاثة أصوات، فقال : آفعل ماتريد، فصعِد وصاح ثلاثة أصوات : "ألا إنَّما أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثورُ الأبيضُ" فجرت مثلا .

ويحكىٰ أن عبد الملك بنَ مَرْوان حج وقدم المدينة ، فقال علىٰ المنبر : ياأهل المدينة إنكم قُتِل عثمانُ بين أظهركم فنحن لانحبكم ! وأرسلنا مَسْلمة بن عُقْبة فقتلكم فى وَقْعة الحرّة ، فأنتم لاتحبُّوننا ، فمثلنا ومثلكم كما قال النابغة :

كما لَقِيتْ ذاتُ الصَّفا مِنْ حَلِيفها * وكانتْ تُرِيه المالَ غِبًّا وظاهِرَهْ
فَلَمَّا رأىٰ أنْ قَدْ تَثَمّر مالُه * وأثّل مَوْجودًا وسَدَّ مَفَاقِرَهْ
أكَبَّ علىٰ فأس يُحِدّ غُرَابَها * مُذَكَّرةٍ مِنَ المَعَاوِلِ باتِرَهْ
فلَمَّا وَقَاها اللهُ ضَرْبَةَ فأْسِه * ولله عَيْنٌ لا تُغَمَّضُ ناظِرَهْ
فقالَ تَعالَىْ نَجْعَلِ اللهَ بَيْنَنا * علىٰ مالنَا أو تُنْجِزِى لِىَ آخِرَهْ
فقالَتْ يَمِينَ اللهِ أفعلُ إنَّنِى * رأَيْتُكَ سُخْرِيًّا يمينُكَ فاجِرَهْ
أَبىٰ لىَ قَبْرٌ لا يَزَالُ مُقَابِلِى * وضَرْبَةُ فأسٍ فوْقَ رَأْسِىَ فاقِرَهْ

وهذه الحكاية مشهورة فى الموضوعات علىٰ ألسُن الحيوان ؛ وهى أن أخوين هبطا بغنمهما واديًا يرعيان فيه ، فخرجتْ حية من تحت الصَّفا وفى فمها دينار فألقته إليهما وأقامت كذلك أياما ؛ فقال أحدهما لابدّ من قتل هذه الحية وأخذ هذا الكنز ! فنهاه أخوه فلم يقبل ، فخرجت فضربها بفأس فى يده ، فشجَّها وشدّتْ عليه فقتلته ؛ فدفنه أخوه مُقابِلَها ؛ فلما خرجَتْ قال لها هلِ لكِ أن نتعاهدَ علىٰ المودّة وعدم الأذية ، وتعطينى ذلك الدينار كل يوم؟ فقالت : لا ! — قال ولم؟ — قالت لأنك كلما نظرت إلىٰ قبر أخيك لاتصفو لى ، وكلما ذكرتُ الشجَّةَ التى فى رأسى لاأصْفُو لك .

المقصد الثانى

(فى كيفية آستعمال الأمثال فى الكتابة)

فإذا أكثر صاحب هذه الصناعة من حفظ الأمثال السائغ استعمالها ، آنقادتْ إليه معانيها ، وسِيقت إليه ألفاظها ، فى وقت الآحتياج إلىٰ نظائرها من الوقائع

والأحوال ، فأودعها فى مكانها، وآستشهد بها فى موضعها . والطريق فى آستعمالهـا فى النثر ، كما فى حل الأشعار وآستعمالهـا ، إلا أن الأمثال لا يجوز تبديل ألفاظها ، ولا تغيير أوضاعها : لأنها بذلك قد عُرِفت وآشتهرت .

فمما آستعمله أهــل الصناعة من الأمثال المنثورة وأوردوه فى كلامهم قول المقــرّ الشهابىّ آبن فضــل الله فى "التعريف" فى وصية أمير مكة المعظمة "ولأنه أحقّ بنى الزَّهْراء بمـا أبقَتْه له آباؤه، وألقَتْه إليه من حديث قُصَىٍّ جدّه الأقصىٰ أبناؤه ؛ وهو أجدر مَنْ طَهَّر هذا المسجد من أشياءَ تَنَزَّهَ أن يلحق به خُش عابها، وشَنْعاءَ هو يعْرِف كيف يتَتَبَّعُها "وأهلُ مَكَّةَ أخْبَرُ بشِعَابها" ، فاستعمل المثل السائر فى قوله : وأهــلُ مكة أخبر بشعابها؛ وقد وقع هذا المثــل فى كلامه أحسن موقع ، وجاء علىٰ أجمل نظام : لأنه قد أتىٰ به فى مكانه اللائق به ، ومحله المخصوص بوصفه ؛ وقد نقله الشيخ جمال الدين بن نُباتة رحمه الله فآستعمله فى غير هــذا المعنىٰ ، فجاء منحطًّا عن هذه الدرجة، وقاصرا عن رتبتها، فقال فى وصية خطيب، : و وصايا هذه الرتبة متشعبه، وهو كأهل مكة أخبَرُ بِشِعابِها، وأحوالها مترتبه، وهو علىٰ كل حال أدرَبُ وأدرىٰ بها ؛ إلا أنه قد ظَرَّف بذكر الجناس الآشتقاقىّ فى قوله متشعبة مع قوله بشعابها .

ومن ذلك قول الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبىّ رحمــه الله فى خطبة تقليد بفتوّة عن ملك : "ونشهد أن محمدا عبده و رسوله" ، الذى نُورُ شريعته جَلِىّ ، وجاهُ شَفاعته ملِىّ ، و بسيفه و به جاء النصر والشرف من آنتمائنا إليه ، فلا سَيْفَ إلا ذُو الفَقَار ولا فَتَى إلَّا علىّ . وهذا علىٰ ماهو شائع علىٰ الألسنة، وأن ذلك قيل فى يوم ضَربَ علىّ رضى عنه كافرا آسمُه مَرْحَب ، فشقَّ البيضة علىٰ رأسه نصفين ، وتمـادىٰ السيف فيه وفى جواده فشقَّهُما كذلك وخَلَص السيفُ بينهما فغاص فى الأرض شِبْرَيْنِ ؛ إلا أن المعروف عند المحدّثين وأصحاب السير أن ذا الفقار آسم سيف للنبىّ صلى الله عليه

وسلم، ٱصطفاه من خيبر لنفسه حينَ ٱصطفى صفِيَّة بنتَ حُيَيِّ بن أَخْطَبَ رضى الله عنها، ولعله صلى الله عليه وسلم، أعطاه علياً رضى الله عنه بعد ذلك .

ومن ذلك ما ذكرته فى المفاخرة بين السيف والقلم فى الكلام علىٰ لسان القلم : وهو "أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيقها المُرَجَّب، وكَرِيمها المبجل، وعالمها المهذب". فالقرينة الأُولىٰ فيها مَثَلان ، وأوّل من قالها الحُباب بن المنذر الأنصارىّ يومَ السَّقِيفة ، حينَ ٱجتمع الأنصار إلىٰ سعد بن عُبادَةَ، يوم مات النبىّ صلى الله عليه وسلم فى سقيفة بنى ساعدة، وأرادوا تأميره فذهب إليهم أبو بكر وعمر، وأبو عبيدة ٱبنُ الجرَّاح، وقال الحُباب بنُ المنذر : مِنَّا أمير ومنكم أمير، إلىٰ أن كان من كلامه هذان[1] المثلان . والجُذَيل تصغير جِذْلٍ، واحد الأَجْذال ، وهى أصول الشجر العظام، وكانت العرب إذا جَرِبت الإبل نصبت لها جِذْلا فى باطن الوادى تحتك فيه ، فلذلك قال جُذَيلُها المحكَّك ، أراد أنه يُستشفىٰ برأيه ، كما تستشفِى الإبل بالحك فى ذلك الجِذْل ، والعَذْق بفتح العين النخلة بحملها ، وكان من عادتهم أن النخلة الكريمة يبنى حولها بناء يمنعُها من السُّقوط ، فذلك هو الترجيب ، أراد أنه كريم فى قومه عزيز عليهم . وما ذكرته فى المفاخرة بين السيف والقلم أيضا علىٰ لسان السيف وهو : "فالشمس من شُعاعى فى خَجَل، والليل من ضوئى فى وَجَل، وما أسرعتُ فى طلب ثأر إلا قيل فات ما ذُبِح، وسبق السيفُ العَذَل". ففى القرينة الأخيرة مَثَلان أحدهما "فات ما ذبح" وهو مثل يضرَب لمن طلب الشيءَ بعد فَواته ، وأصله أن بعض الملوك رأىٰ مع أعرابىٍّ بازيا ، فأعجبه فأرسل فى طلبه قاصدا ، فأتىٰ الأعرابىّ ولم يكن عنده ما يضيفه به ، فذَبَح البازى وطبخه وقدّمه إليه، غير عالم بقصده ، فلما فرغ من أكله ذكر للأعرابى

(١) فى الأصل هذين المثلين ولعله سبق قلم من الناسخ .

أمرَ البـازى وما كان من طلب الملك له ، فقـال "فات ماذُبح" إنك أتيتنى ولم يكن عندى ما أضيفك به ، فذبحت البازى وطبختــه ؛ وهو الذى قدّمته إليك .

والمثل الثانى "سَبَقَ السـيفُ العَذَل" وهو مثل لمن يلوم علىٰ فعل شىء بعد وقوعه وفوات أمره .

ومما حُلَّ من الأمثال الواردة نظما، وآستعمل فى النثر، قول القاضى شهاب الدين آبن فضــل الله فى "التعريف" فى وصــية أمير مكة المعظمة أيضا فى الوصية علىٰ وُفُود الحجيج : "وكل هؤلاء إنمـا يأتون فى ذِمَام الله ببيته الذى مَنْ دخله كان آمنا ، وإلىٰ محل آبن بنت نبيّــه الذى يلزمه من طريق بِرِّ الضـيف ما أَخذَ لَهُم، وإن لم يكن ضامِنا ؛ فليأخذ بمن أطاع مَنْ عصىٰ ، وليردع كل مفسد ولا سيما العبيد، فإن العبد لا يردَعُه إلا العصا ، فقوله فان العبد لا يردعه الا العصـا يشـير به إلىٰ قول آبن دريد فى مقصورته .

والَّلومُ للحُــرِّ مُقيمٌ رادِعٌ * والعَبْدُ لا يَرْدَعُه إلَّا العَصَا

وقد آشتهر النصف الثانى من هذا البيت حتى جرىٰ مجرىٰ المثل ولعله كان مثلا سائرا قبل أن ينظمه آبن دُرَيد .

ومنه قول الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة رحمه الله من توقيع بنَظَر مدرسـة بعد أن قدّم أنــ أهلها رفعوا قِصَصهم فى طلب ذلك الناظر : "وكيف لا وهو نِعْمَ الناظرُ والإنسان، وفى مصالح القول والعمل ذو اليدين واللِّسَان، وذو العزائم الذى تقيَّدتْ فى حُبه الرُّتَب ومن وجد الإحسان" يريد البيت المشهور :

* ومَنْ وجَدَ الإحسانَ قيْدًا تقيَّدا *

وقد أتىٰ فيه بالآكتفاء، فزاد فى كلامه حُسنا وطَلَاوة .

وأعلىٰ منــه وأوقع فى النفوس قوله بعــد ذلك فى التوقيع المذكور "فاقتضىٰ علوّ الرأى أن يجاب فى طلبه إليهم سُؤالُ القوم، وأن يتصل أمسُ الإقبال باليوم، وأن

يَعْرُب ، بن يَشْجُب ، بن نابت ، بن إسمـاعيل ، بن إبراهيم الخليل عليهما السـلام ٱبن تَارح ؛ وهو آزَر ، بن أرْغُو ، بن فالغ ، بن عابَر ، بن أرفَخْشَذ ، بن سام ، بن نوح عليه السلام ، ٱبن يرد ، بن مهليل ، بن قينن (١) ، بن تاتش ، بن شيث ، بن آدم عليه السلام .

قال النووىّ : "والاتفاق على هذا النسب الشريف إلى عدنان ، وليس فيما بعده إلى آدم طريق صحيح " وفيما بعد عدنان ، إلى إسمـاعيل عليه السلام خلاف كثير ، قال القضاعىّ فى "عيون المعارف فى أحكام الخلائف" وقد روى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال "لا تُجاوِزُوا مَعَدَّ بنَ عَدْنانَ ، كَذَبَ النَّسَّابُون ، ثم قرأ وقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ولو شاء أن يُعلّمه لعَلَّمه " قال : والصحيح أنه من قول ٱبن مسـعود رضى الله عنه .

المقصـــد الثـانى

(فى أنساب العرب ؛ وفيه مَهْيَعان)

المهيــــع الأوّل

(فى أمور تجب معرفتها قبل الخوض فى النسب)

وأول ما تجب معرفته من ذلك مَنْ يقع عليه لفظ العرب ، قال الجوهرىّ "العرب جيل من الناس وهم أهل الأمصار ، والأعراب سُكّان البادية ، والنسبة إلى العَرَب عَرَبىّ ، وإلى الأعراب أعرابىّ" والتحقيق إطلاق لفظ العرب على الجميع ، وأن الأعراب نوع من العرب ، ثم ٱتفقوا على تنويع العرب إلى نوعين عارِبَة ومُسْتَعْرِبة . فالعاربة هم العرب الأُوَل الذين فهّمهم الله اللغة العربيـة ٱبتداءً فتكلموا بهـا . قال

(١) فى القاموس قينان بن أنوش بن شيث .

الجوهرى "وقد يقال فيهم العَرب العَرْباء" . والمستعْرِبة هم الداخلون فى العربيّة بعد العجمية . قال الجوهرى "وربما قيل لهم المتَعرِّبة" . وقد آختلف فى العاربة والمستعربة فذهب آبن إسحاق والطبرى إلىٰ أن العاربة هى عادٌ وثمودُ وطَسْم وجَدِيسُ وأُمَيم وعَبِيل والعَمالقة وعَبْد ضَخْم وجُرْهُم الأولىٰ، ومَنْ فى معناهم . والمستعرِبةُ بنو قَحْطان بن عابر بن شالخ بن أرفَخْشذ بن سام بن نوح وبنو إسماعيل عليه السلام لأن لغة عابر وإسماعيل كانت سريانية أو عبرانية ، فتعلم بنو قحطان العربية من العاربة ممن كان فى زمانهم كعادٍ ونحوهم ، وتعلم إسماعيل العربية من جُرْهُم من بَنِى قحطانَ النازلين علىٰ إسماعيل وأمّه بمكة . وذهب آخرون منهم المؤيَّد صاحب حماه إلىٰ أن بنى قَحْطان هم العاربة ، وأن المستعربة هم بنو إسماعيل فقط ، والذى رجحه صاحب العبر الأوّل .

ثم قد قسم المؤرّخون العرب أيضا الىٰ بائدة وغيرها ، فالبائدةُ هم الذين بادُوا ودَرَسَتْ آثارُهم كعادٍ ، وثمودَ ، وطَسْم ، وجَديس ؛ وغير البائدة هم الباقون فى القرون المتأخرة بعد ذلك من القَحْطانية : كطيئ ، ولَخْم ، وجُذَام ونحوهم ، ومن العَدْنانية كفَزَارة وسُلَيم وقريش ، ومن فى معناهم . ثم قد عدّ الماوردى وغيره طبقات أنساب العرب ست طبقات :

الطبقةُ الأُولى — الشَّعْب بفتح الشين وهو النَّسَب الأبعد الذى تُنْسب إليه القبائل كعَدْنانَ ، ويجمع علىٰ شُعوب ؛ وسمى شَعْبا لأن القبائل تتشعَّب منه .

الطبقة الثانية — القَبِيلة ، وهى ما آنقسم فيه الشعب كربيعة ومضر ، وتجمع علىٰ قبائل ، وسميت قبيلةً لتقابل الأنساب فيها ، وربما سميت القبائل جَمَاجِم .

الطبقة الثالثة — العِمارة بكسر العين ، وهى ما آنقسم فيه أنساب القبيلة كقُرَيش وكِنَانة وتجمع علىٰ عَمَائر وعِمَارات .

الطبقة الرابعة ــ البَطْن وهى ما آنقسم فيه أنساب العِمَارة كبنى عبـدِ مناف، وبنى مَخْزوم وتجمع علىٰ بطون وأبطُن .

الطبقة الخامسة ــ الفَخِذ ، وهى ما آنقسم فيه أنساب البطن : كبنى هاشم ، وبنى أُمَيَّة، وتجمع علىٰ أفخاذ .

الطبقة السادسة ــ الفصيلة ــ بالصاد المهملة ــ وهى ما آنقسم فيه أنساب الفَخِذ كبنى العَبَّـاس وبنِى أبى طالب ، وتجمع علىٰ فصائل ؛ فالفخذ يجمع الفصائل ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والعمارة تجمع البطون ، والقبيـلة تجمع العمائر ، والشَّعْب يجمع القبائل . قال النووىّ وزاد بعضهم العَشِيرة قبل الفصيلة ، قال الجوهرىّ "وعَشِيرة الرجل رَهْطه الأَدْنَوْن" وحكىٰ أبو عبيدة عن آبن الكلبىّ عن أبيه تقـديم الشعب علىٰ القبيلة ، ثم الفصيلة ، ثم العمارة ، ثم الفخذ ، فأقام الفصيلة مقام العمارة فى ذكرها بعد القبيلة ، والعمارة مقام الفصيلة فى ذكرها قبل الفخذ . وبالجملة فأكثر ما يدور علىٰ الألسـنة من الطبقات الست المذكورة القبيـلة ، ثم البطن ، وقَلَّ أن تذكر العمارة والفخذ والفصيلة ، وربما عَبَّروا عن كل من الطبقات الست بالحىّ ، إما بالعموم مثل أن يقال حىّ من العرب ، وإما علىٰ الخصوص مثل أن يقال حىّ من بنى فلان .

ومما يجب علىٰ الناظر فى الأنساب أن يعرف عشرة أمور :

الأوّل ــ قال المـاوردىّ إذا تباعدت الأنساب ، صارت القبائل شعوبا ، والعمائر قبائل ؛ يعنى وتصير البطون عمائر ، والأفخاذ بطونا ، والفصائل أفخاذا ، والحادثُ من النسب بعد ذلك فصائلَ .

الثانى ــ قد ذكر الجوهرىُّ أن القبيلة هم بنو أبٍ واحد ، وقال آبن حزم جميع قبائل العرب راجعة إلىٰ أبٍ واحد سوىٰ ثلاث قبائل : وهى تَنُوخ ، والعُتَق ، وغَسَّان

فإن كل قبيــلة منهم مجتمعة من عدّة بطون، وذلك أن تَنُوخا آسم لعشر قبائل آجتمعوا وأقاموا بالبحرين، فسُمُّوا بتَنُوخ أخذا من التَّنُّخ وهو المُقَام؛ والعُتَق جمعٌ آجتمعوا على النبيّ صـلى الله عليه وسـلم فظفِر بهم فأعتقهم فسُمُّوا بذلك . وغَسَّان عدّة بطون من الأزد نزلوا على ماء يسمّى غَسَّان فسُمُّوا به .

الثالث — تخصيص الرجل من رجال العرب بانتساب القبيلة إليه دون غيره من قومه بأن يُشْهَر آسمه بهـم لرياســة، أو شجاعة، أو كثرةِ ولد، أو غيره فتُنْسَب بنُوه وسائر أعقابه إليــه؛ وربمـا آنضم إلى النسبة إليــه غير أعقابه من عشيرته كإخوته ونحوهم، فيقال فلان الطائىُّ، فإذا أتى من عقبه مَنِ آشـتهر منهم أيضا بسببٍ من الأسـباب المتقدّمة نُسبت إليه بنُوه، وجعلت قبيلة ثانية؛ فإذا آشتمل النسب على طبقتين فأكثر كهاشم، وقُريش، ومُضَر، وعدنانَ، جاز لمن فى الدرجة الأخيرة من النسب أن يُنْسب إلى الجميع : فيجوز لبنى هـاشم أن يُنْسَـبوا إلى هـاشم، وإلى قريش، وإلى مضر، وإلى عدنان: فيقال فى أحدهم الهاشمىّ، والقُرَشىّ، والمُضَرىّ، والعدنانىّ؛ بل قال الجوهرىّ : إن النسبة إلى الأعلى تغنى عن النسبة إلى الأسفل فإذا قلت فى النسبة إلى كلب بن وَبَرَة الكَلْبىّ آسـتغنيت أن تنسُـبه إلى شىء من أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع فى النسب بين الطبقة العُلْيا والطبقة السُّـفلى . ثم بعضهم يرى تقديم العُلْيا على السفلى : مثل أن يقـال القرشىّ العَـدَوىّ وبعضهم يرى تقديم السفلى على العليا، فيقال العدوىّ القرشىّ .

الرابع — قد ينضم الرجل إلى غير قبيلته بالحِلْف والمُوالاة فينسب إليهم : فيقال فلان حَلِيفُ بنى فلان أو مَوْلاهم .

الخامس — إذا كان الرجلِ من قبيلة ثم دخل فى قبيلة أخرىٰ، جاز أن ينسب

إلىٰ قبيلته الأُولىٰ، وأن ينسب إلىٰ القبيلة الثانية التى دخل فيها ، وأن ينسب إليهما جميعا مثل أن يقال التميمى ثم الوائلى، أو الوائلى ثم التميمى وما أشبه ذلك .

السادس — القبائل فى الغالب تسمّى باسم أبى القبيلة : كربيعة ومُضَر، والأَوْس والخَزْرج، وما أشبه ذلك . وقد تسمّى القبيلةُ باسم الأم : كخِنْدِف، وبَجِيلة ونحوهما ؛ وقد تسمّى بآسم خاصّةٍ خَصّتْ أصل تلك القبيلة ونحو ذلك . وربما وقع النسب علىٰ القبيلة لحدوث سبب كغَسّان (١) ، حيث نزلوا علىٰ ماء باليمن كسعد والحارث وغيرهما .

السابع — أسماء القبائل فى آصطلاح العرب علىٰ خمسة أضرب :

أوّلها — أن يطلق علىٰ القبيلة لفظ الأب كعاد، وثمودَ، ومَدْيَن، ومَنْ شاكلهم ؛ وبذلك ورد القرءان الكريم (وإلىٰ عَادٍ . وإلىٰ ثَمُودَ . وإلىٰ مَدْيَنَ) يريد بنى عاد، وبنى ثمود، وبنى مَدْيَنَ ، ونحو ذلك . وأكثر ما يكون ذلك فى الشُّعوب والقبائل العِظام بخلاف البطون والأفخاذ ونحو ذلك .

وثانيها — أن يطلق علىٰ القبيلة لفظ البنوّة : فيقال بنو فلان ؛ وأكثر ما يكون ذلك فى البطون والأفخاذ .

وثالثها — أن يرد ذكر القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالِبِيِّين والجَعَافِرة ونحوهما ؛ وأكثر مايكون ذلك فى المتأخرين دون غيرهم .

ورابعها — أن يعبّر عنها بآل فلان : كآل ربِيعة، وآل فَضْل، وآل مُرّ، وآل على ، وماأشبه ذلك ؛ وأكثر مايكون ذلك فىالأزمنة المتأخرة، لاسيما فىعرب الشام فى زماننا . والمراد بالآل الأهل .

---

(١) كذا فى الأصل ويظهر أن فيه سقطا .

وخامسها — أن يعـبر عنها بأولاد فلان؛ ولا يوجد ذلك إلا فى المتأخرين من أفخاذ العرب علىٰ قلة : كقولهم أولاد زعازع، وأولاد قُريش ونحو ذلك .

الثـامن — أسماء غالب العرب منقولة عمّـا يدور فى خزانة خيالهم مما يُخالطونه ويُجاوِرونه؛ إما من الحيوان المفترِس كأسَـدٍ، ونَمِر؛ وإما من النبات كنبت، وحَنْظَلَة؛ وإما من الحشرات كحَيَّة، وحَنَش؛ وإما من أجزاء الأرض كفِهْر، وصخْر ونحو ذلك .

التاسع — الغالب علىٰ العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء : ككَلْب، وحَنْظلة، ومُرَّة، وضِرار، وحَرْب، وما أشبه ذلك؛ وتسميةُ عبيدهم بمحبوب الأسماء: كفَلَاح ونَجَاح، ونحوهما. والمعنىٰ فى ذلك ماحكى أنه قيل لأبى الدُّقَيش[1] الكلابى: لِمَ تُسَمُّون أبناءكم بِشَرّ الأسماء نحو كلب وذِئب، وعبيدَكُم بأحسن الأسماء نحو مَرْزوق ورَباح؟ فقال : إنمـا نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيـدَنا لأنفُسنا (يريد أن الأبناء مُعدّة للأعداء فاختاروا لهم شر الأسماء، والعبيد معدّة لأنفسهم فاختاروا لأنفسهم خير الأسماء) .

العاشر — إذا كان فى القبيلة ٱسمان متوافقان : كالحارث والحارث، وأحدهما من ولد الآخر أو بعـده فى الوجود عَبَّروا عن الوالد أو السابق منهما بالأكبر، وعن الولد أو المتأخر منهما بالأصغر؛ وربما وقع ذلك فى الأخوين إذا كان أحدهما أكبر من الآخر .

المهيـــع الثـانى

(فى معرفة تفاصـــيل أنساب العرب)

وٱعلم أن العرب علىٰ قسمين :

---

(١) أهمله فى الأصل وصوابه الإعجام .

القسم الأوّل

(العـــرب البـائدة)

وهم الذين بادُوا ، ودَرَسَت آثارهم ، وآنقطعت تفاصـيل أخبارهم إلا القليل ؛ والمشهور منهم قبائل :

القبيلةُ الأولى — عاد ؛ وهم بَنُو عادِ بنِ عَوْص بنِ إرَم بنِ سـام بن نوح عليه السلام ، وكانت منازلهم بالأحقاف بين اليمن وعُمَانَ : من البحرين إلىٰ حضرموت والشِّحْر ؛ وهم الذين بعث الله تعالىٰ إليهم هُودا عليه السـلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح كما ورد به القرءان الكريم .

القبيلةُ الثانية — ثمود ، وهم بنو ثمود بن جاثر ، (ويقال كاثر بالكاف بدل الجيم) آبن إرَم بن سام بن نوح عليه السـلام ، وكانت منـازلهم بالحِجْر ووادى القُرَىٰ ، بينَ الحجـاز والشام ؛ وكانوا يَنْحِتُون بُيوتَهم من الجبال مراعاةً لطول أعمارهم . بعث الله تعالىٰ إليهم صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا ، فأهلكهم الله بصَيْحة من السماء كما ورد به القرءان الكريم .

القبيلةُ الثالثة — العَمَالقة ، وهم بنو عِمْليق ، (ويقال عِمْلاق) بن لاوَذ بن إرَم بن سام بن نوح ؛ وهم أمة عظيمة يُضْرَبُ بهم المَثَلُ فى الطول والجُثْمان . قال الطبرى : وتفرّقت منهـم أمم فى البلاد ، فكان منهم أهـل عُمَان ، والبحرين ، والحجاز ، وملوك العِراق ، والجزيرة ، وجَبَابرةُ الشام ، وفَرَاعِنَة مصر .

القبيلةُ الرابعة — طسم ، وهم بنو طَسْم . قال آبـن الكلبى : وهم بنو طسم آبن لاوَذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السـلام . وذكر الجوهرى : أنهم من عاد ،

قال : وكانت منازلُهم الأحقافَ باليمن . وذكر فى "العبر" أن ديارَهم كانت باليمامة؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين إخوانهم جَدِيس الآتى ذكرهم .

القبيلة الخامسة — جَدِيس وهم بنو جَدِيس بن إرمَ بن سام بن نوح . وقال الطبرىّ جَدِيسُ بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام ، وكانت مساكنهم بجوار طَسْم المقدَّم ذكرهم ؛ وكان هلاكهم بالحرب بينهم وبين المذكورين أيضا .

القبيلة السادسة — عَبْد ضَخْم ، وهم بنو عَبْدِ ضخم بنِ إرم بن سام بن نوح . قال فى "العبر" : كانوا يسكُنُون الطائف فهلكوا فيمن هلك . قال : ويقال إنهم أوّل من كتب بالخط العربىّ .

القبيلة السابعة — جُرْهُم الأولىٰ . قال آبن سعيد : وهم قبيلة من العرب كانوا علىٰ عهد عاد فبادُوا .

القبيلة الثامنة — مَدْيَن، وهم بنو مَدْيَن بن إبراهيم عليه السلام ؛ وهم أمة كبيرة قبائلُ وشُعوب، وكانت ديارهم ديارَ عاد وأرض مَعَان من أطراف الشام مما يلى الحجاز قريبا من عشيرة[(1)] قوم لُوطٍ بعث الله إليهم شُعَيْبا فلم يؤمنوا .

القســـم الثـانى

(من العرب الباقية أعقابهم علىٰ تعاقُب الزمان)

وأكثر مَنْ تدعو حاجة الكاتب إلىٰ معرفته مَنْ بَقِىَ أعقابه منهم متفرّقةً فى أقطار الأرض إلىٰ الآن، وهم علىٰ ثلاثة أضرب :

---

(١) فى سبائك الذهب من أرض قوم لوط فتنبه .

الضرب الأوّل

(العــرب العـاربة)

قال الجوهرىّ : ويقال فيهم العرب العَرْباء ، وهم بنو قَحْطان ، بن عابَر ، بن شالَخ ٱبن أرْفَخْشذ ، بن سام ، بن نوح عليه السلام ، وهم عرب اليمن . والمشهورمنهم شَعْبان .

الشَّعْب الأوّل — جُرْهم (بضم الجيم وسكون الراء وضم الهـاء) وهم بنو جُرْهُم بن قحطان ، وهم غير جُرْهم الأولىٰ المقدّم ذكرها فى جملة العرب البائدة .

وكانت منازلهم أوّلا اليمنَ ، ثم ٱنتقلوا إلىٰ الحجـاز فنزلوه ، فأقاموا به حتّىٰ كان من نزول إسماعيل عليه السلام مع أبيه مكة ما كان ، فنزلوا عليه بمكة ، وٱستوطنوها علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ العرب المستعربة إن شاء الله تعالىٰ .

الشَّعْب الثانى — يَعْرُب ، وهم بنو يعرُب بن قحطان المقدّم ذكره . ويقال إن العرب إنمـا سُمِّيت عَرَبا به ، وهو أصل عرب اليمن الذين أقاموا به ومنه تناسـلُوا فوُلِد له يَشْجُب ، وَوَلَد يَشْجُب سَبأً ، ومنه تفرّعت جميع قبائلهم .

ومرجع المشهور فيه إلىٰ قبيلتين :

القبيلة الأُولىٰ — حِمْير وهم حِمْيرُ بن سبإٍ (بكسر الحاء وٱسمه العَرَنْجج) . وقد ذكر ٱبن الكلبىّ : أنه كان لحميَرٍ عشرة أولاد من عَقِبه وكان غالبُ وجُلُّ قبائل حِمْير من ٱبنَيْـه : الهَمَيْسَع ، ومالِك ملوك اليمن ، وكانت بلادهم مشارقَ اليمن فظَفارِ وما حولهـا . ولحمير بقايَا موجودُون إلىٰ الآن ، ومنه غالب قبائل قُضَاعة ، ومنه غالب قبائل حمير ، وهو قُضَاعة ، بن مالك ، بنِ عمرو ، بن مُرَّة ، بن زيد ، بن مالك ، بن حِمْير ، وقيل قضاعة بن مالك بن حمير . وذهب بعض النَّسَّابة إلىٰ أن قُضَاعة من العَدْنانيَّة الآتى ذكرُهم . قال السهيلىّ : والصحيح أن أمّ قُضاعة (وهى جكرة) مات عنها مالكُ

آبن حمير وهى حامل، فتزوّجها مَعَدُّ بن عدنانَ ، فولدت قُضاعةَ علىٰ فراشــه فتبنَّاه فنُسِب إليه. قال المؤيد صاحب حماه: "وكان قضاعة مالكا لبلاد الشِّحْر وقبرُه بجبل الشِّحْر موجود" . ولقضاعة بقايا إلىٰ الآن ينسب إليهم، وإليهم يُنْسب القُضَاعىّ المصرىّ صاحبُ كتاب "الشهاب فى المواعظ والآداب" فى الحديث، وخطط مصر وغيرهمــا .

والمشهور من قضاعة سبعة أحياء :

الحىّ الأوّل — بَلِىّ (بفتح الباء) وهم بنو بَلِىّ، بن عمرو، بنِ الحافِى، بنِ قُضَاعةَ، ولهم بَقَايَا بالديار المصرية بصعيدها الأعلىٰ ، منهم بنو ناب وغيرهم ، وبقَايَا بالحجــاز وغيرهما، والنسبة إليهم بلَوِىٌّ بزيادة واو مكسورة قبل ياء النسب .

الحىّ الثانى — جهينة (بضم الجيم وفتح الهاء والنون)، وهم بنو جُهينة، بن زيد، آبن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافِى، بن قضاعة، وهى قبيلة عظيمة، ولهم بَقَايَا ببلاد الصــعيد من الديار المصرية وبالحجاز وغيرهمــا . والنسبة إليهم جُهَنِىٌّ بحذف الياء بعد الهــاء .

الحىّ الثالث — كلب، وهم بنوكلب، بن وَبَرَةَ، بن ثعلبة، بن حُلْوان، بن عِمْران، آبن الحافى ، بن قُضاعة ، ومنهم حارثة الكلبىُّ أبو زَيدِ بنِ حارثةَ مولىٰ رســول الله صلى الله عليه وسلم .

قال صاحب حماه : وكان بنو كلب فى الجاهليــة ينزلون دُومةَ الجندل، وتبوكَ، وأطراف الشام . قال آبن سعيد : ومنهم الآن خَلْق عظيم علىٰ خليج القُسْطَنْطِينيَّة مسلمون . قال فى «مسالك الأبصار» : وبشَيْزَرَ، وحَلَب وبلادها، وتَدْمُر، والمَنَاظر أقوام منهم، والنسبة اليهم كَلْبىٌّ .

الحىّ الرابع — عُذْرةُ (بضم العين المهملة وسكون الذال المعجمة) وهم بنو عُذْرة

ابن سعيد(١)، بن هُذَيم، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلم، بن الحافى، بن قضاعة، وإلى عُذْرة هؤلاء يُنسَبُ العشق والتتيُّم، ومنهم عُرْوة بن حِزَام صاحب عَفْراء أحد المتيَّمين وجَميل صاحب بُثَينة . ومن أحسن ما يحكى أنه قيل لرجل منهم : ما بالُ العِشق يقتُلكم يا بنى عُذْرة ؟ قال لأنّ فينا جمالا وعِفَّة : وقيل لآخر منهم : ما بالُ الرجل منكم يموتُ فى هوى آمرأة ؟ إنما ذلك ضَعْف فيكم يا بنى عُذْرة — فقال : أما والله ! لو رأيتم النواظر الدُّعْج ، تحتَها المَبَاسِمُ الفُلْج ، فوقَها الحوَاجِبُ الزُّجُّ ، لآتخذتموها اللَّاتَ والعُزَّى، ولهم بقايا بالدَّقَهْلِية والمُرْتاحيَّة من الديار المصرية، وبقايا بالشام أيضا .

الحىّ الخامس — بَهْراء (بفتح الباء الموحّدة وسكون الهاء وألف بعد الراء المهملة)، وهم بنو بَهْراء، بن عَمْرو، بن الحافى: بن قُضَاعة، ومنهم جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، منهم المِقْداد بن الأسود، أحدُ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقال : إن خالدَ بن بَرْمَك من آل بهراء . قال فى العِبَر : وكانت منازلهم شِمَالىّ منازل بَلِىّ من اليَنْبُع إلى عَقَبة أيلةَ ، ثم جاور بحرَ القُلْزُم منهم خلق كثير ، وآنتشروا ما بين بلاد الحَبَشة وصعيد مصر، وكَثُروا هناك ، وغلبوا على بلاد النُّوبة، وهم يحاربون الحبشة إلى الآن .

الحىّ السادس — بنو نَهْد، بن زيد، بن ليث، بن سُود، بن أسلَمَ، بن الحافى، بن قُضَاعة، وكانت منازلهم باليمن، وإليهم كتب النبىّ صلى الله عليه وسلم كِتَابَهُ المشهور، وكان منهم طائفة بالشام أيضا فيما ذكره أبو عبيد . ومن مَشَاهِير نَهد الصَّقْعَب، قال صاحب حماه : وكان رئيسا فى الإسلام .

---

(١) فى القاموس سعد بن هذيم بدون ياء وهو الصواب وهذيم عبد حبشى حضن سعدا فنسب إليه وإلا فهو سعد بن زيد بن ليث فليس زيد جدّا له كما قد يتوهم من العبارة فتنبه .

الحىّ السابع — جَرْم ،وهم بنو جَرْم وٱسمه عِلَاف ، بن زَبّان ، بن حُلْوان ، بن عِمْران ، ٱبن الحافى ، بن قُضَاعة . قال الحمدانىّ : ومنهم بنو جُشَم ، وبنو قُدامة ، وبنو عَوْف . قال فى العِبَر : ومنهم جماعة من الصحابة رضى الله عنهم . قلت ووهم القاضى ولىّ الدين بن خلدون بجعلهم هم الذين ببلاد غَزَّة ، وقد تقدّم أن أولئك هم جرم طيئ لا جرم قُضَاعة . وعدّ صاحب حماه فى تاريخه منهم تَنُوخ (بفتح التاء المثناة فوق وضم النون وخاء معجمة فى الآخر) قال الجوهرىّ : ولا تشدّد نونه ، والتحقيق ماقاله أبو عبيد : أنهم ثلاثة أبطن من القحطانية نِزَار(١) ، والأحلاف . قال : وسُمُّوا بذلك لأنهم حلفوا علىٰ المُقام بمكان بالشام والتَنَّخ المُقَام . قال ٱبن سعيد : ومن الناس من يطلق تَنُوخَ علىٰ الضَّجاعِمة ، ودَوْس الذين تنخوا بالبحرين . قال صاحب حماه : وكان بينهم وبين اللَّخْمِيين ملوكِ الحِيَرة حروب ، ولتَنُوخَ بقايا بالمعرّة من بلاد الشام فيما ذكره الحمدانىّ .

القبيلة الثانية — من القَحْطانية كَهْلان (بفتح الكاف وسكون الهاء)، وهم بنو كَهْلانَ بن سبإ . قال أبو عبيد : وشعوبهم كلها متشعبة من زيد بن كَهْلانَ ، وكانوا متداوِلِينَ المُلْكَ باليمن مع بنى حِمْير ، ٱنفرد بنو حمير بالملك ، وبقيت بطون كهلان علىٰ كثرتها تحت ملكهم . قال فى العبر : ثم تقاصَرَ مُلْك حمير وبقيت الرياسة علىٰ العرب بالبادية لبنى كَهْلانَ ، وهم أحياء كثيرة .

والمشهور منهم أحَد عشر حياًّ :

الحىّ الأوّل — الأزد (بفتح الهمزة وسكون الزاى وبالدال المهملة) ، قال أبو عبيد : ويقال بالسين بدل الزاى . قال الجوهرىّ : بالزاى أفصح ، وهم بَنُو الأزد ، بن الغَوْث ، بن نَبْت ، بنِ مالك ، بن أُدَد ، بن زيد ، بن كهلان ، وهم من أعظم الأحياء وأكثَرِهم بُطُونا . وقد قَسَّم الجوهرىّ الأزْد إلىٰ ثلاثة أقسام :

(١) أى أسد وغطفان فهما ٱثنان ونزار الثالث .

أحدهما — أزدُ شَنُوءة، وهم بنو نَصر بن الأزْد، وشَنُوءة لقب لِنَصْر غلب علىٰ بنيه .

الثانى — أزد السَّراة، بإضافة أزد إلىٰ السَّراة (بالسين المهملة)، وهو موضع بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعُرِفوا به .

الثالث — أزْدُ عَمَّان بإضافة أزد إلىٰ عمان (بفتح العين المهملة وتشديد الميم)(١)، وهى مدينة بالبحرين نزلها قوم منهم فعُرِفوا بها . وللأزد بقَايَا ببلاد الشام بزُرَع وبُصْرىٰ فيما قاله فى "مسالك الأبصار" .

ثم الأزد بطون كثيرة . منها غَسَّان (بفتح الغين المعجمة وتشديد السين المهملة ونون فى الآخر)، قال أبو عبيد : وهم بَنُو جَفْنة، والحارثُ وهو مُحَرِّق، وثَعْلبةُ وهو العَنْقاء(٢)، وحارثة، ومالك، وكَعْب، وخارجة، وعَوْف بنُ عمرو، بنِ عامرٍ ماء السماءِ، ٱبن حارثَةَ الغِطْريف، بن ٱمرئ القيس البِطْرِيق ويقال البُهْلول، ٱبن ثعلبة، بن مازن، بن الأزد؛ وإنما سُمُّوا غسان لماء نزلوا عليه ٱسمه غَسَّان فشَرِبوا منه فسُمُّوا به . قال فى العبر : وهو علىٰ القرب من بلاد اليمن . قال أبو عبيد : وفى ذلك يقول بعض الأنصار :

إمَّا سألْتَ فإنَّا معشَرٌ نُجُبٌ * الأزْدُ نِسْبَتُنَا والماءُ غَسَّانُ

ولغسان هؤلاء كان مُلْكُ العرب بالشام بعد سَلِيح المقدّم ذكْرهم إلىٰ أن كان آخِرَهم جَبَلَةُ بن الأيهم الذى أسلم فى زمن عمر ثم ٱرتدّ، ولحق ببلاد الكُفْر . وقد ذكر فى «مسالك الأبصار» أن لهم بقايا ببلاد الشام بالبَلْقاء واليَرْمُوك وحِمْص . ومنها الأَوْس والخَزْرَج ٱبنا حارثَةَ، بن ثعلبَةَ، بن عَمْرو مُزَيْقِيَا، بن عامِرٍ ماءِ السماء، بن حارثة الغِطْرِيف، بن ٱمرئ القيس البِطْرِيق، بن ثعلبَةَ، بن مازن، بن الأَزْد؛ وكانت منازلهم

(١) هذا الضبط مخالف لما ضبطه الجوهرى بالقلم والقاموس أيضا وضبطه شارحه بالعبارة . فقال : كغراب بلد بالبحرين وكذا ياقوت وفيه أيضا أن المفتوح المشدّد بلد بأطراف الشام فحرر .

(٢) لقب بذلك لطول عنقه ووقع فى الأصل بالمثناة وهو تصحيف .

يَثْرِبَ؛ ومنهم كانت أنصارُ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ولهم بَقَايَا كثيرة متفرّقة بالمَشْرق والمَغْرِب . وقد ذكر الحمدانيّ : أن منهم جماعةً بمَنْفَلُوط من صعيد مصر من عَقِب حَسَّانَ بن ثابت، وسعد بنِ معاذ سيد الأوْس رضى الله عنهما .

الحيّ الثانى — من كهلان طَيِّئ (بفتح الطاء وتشديد الياء بهمزة فى الآخر) أخذا من الطاءة علىٰ وزن الطاعة : وهى الإيغال فى المرعىٰ، وهم بنو طيّئ، بن أُدَدَ آبن زيد، بن يَشْجُب، بن عَرِيب، بن زيد، بن كَهْلانَ؛ والنسبة إليهم طائىّ، وإليهم ينسب حاتِم الطائىّ المشهور بالكرم، وأبو تَمَّام الطائىّ الشاعر المشهورُ، وهم كثير . قال فى العبر : وكانت منازلهم باليمن فخرجُوا منها علىٰ إثر خُروج الأزد عند تفرّقهم بسيل العَرِم، فنزلوا بنَجْد والحجاز علىٰ القُرْب من بنى أسد؛ ثم غلبوا بنى أسد علىٰ جبلَىْ أجَأ وسَلْمىٰ من بلاد نَجْد، فنزلوهما فعرِفا بجبلَىْ طيّئ إلىٰ الآن؛ ثم آفترقوا فى أوّل الإسلام زمَنَ الفُتُوحات فى الأقطار، ولهم بطون كثيرة . منهم ثُعَلُ (بضم الثاء المثلثة وفتح العين المهملة ولام فى الآخر) وهم بنو ثُعَل، بن عمرو، بن الغَوْث، آبن طيِّئ . قال أبو عبيد : ومنهم البيت والعدد . قال صاحب حماه : ومنهم زيد الخيل .

ومنها جَدِيلةُ (بفتح الجيم وكسر الدال وسكون الياء وفتح اللام وهاء فى الآخر)، ذكرهم الجوهرىّ ولم يرفع نسبهم؛ ثم قال : وجَدِيلةُ أُمُّهم عرفوا بها : وهى جَديلة بنت سُبَيْع بن عمرو من حمير .

ومنها نَبْهان (بفتح النون وسكون الباء الموحّدة ونون بعد الألف)، وهم بنو نَبْهان، واسمه سُودانُ، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيِّئ .

ومنها بَوْلانُ (بفتح الباء الموحدة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف) وهم بنو بَوْلانَ، وآسمه غُصَيْن، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيِّئ . ومنهم الثلاثة نفر الذين يقال

إنهم وضعوا الخط العربىّ على ما سيأتى ذكره فى الكلام على الخط فيما بعد إن شاء الله .

ومنها هِنَاء، وهم بنو هِنَاء، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ .

ومنهم إياس بن قَبِيصة الذى ملك بعد النُّعمان بن المنذر .

ومنها سُدُوس (بضم السين والدال المهملتين وسين مهملة فى الآخر)، وهم بنو سُدُوس بن أصمع من بنى سعد، بن نَبْهان، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ .

ومنهم جعفر بن عَطِيَّة الذى يقول :

مَدَحْت نَسِيبِى جَعْفَرًا إن جَعْفَرًا * تُحَلِّبُ كَفَّاه النَّدى وأنامِلُه

ومنها سَلَامانُ (بفتح السين المهملة ونون فى الآخر)، وهم بَنُو سَلَامان، بن ثُعَل، ٱبن الغوث، بن طيئ .

ومنها بُحْتُر (بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة فوق وراء مهملة فى الآخر)، وهم بنو بُحْتُر، بن عَتُود، بن عُنَيْز، بن سَلَامان، بن ثُعَل، ٱبن عمرو، بن الغوث، بن طيئ؛ منهم أبو عُبَادة البحترىُّ الشاعر الإسلامىّ المشهور.

ومنها زُبَيد (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر)، وهم بَنُو زُبَيْد، بن مَعْن، بن عَمْرو، بن عُنَيْز، بن سَلَامانَ، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ . قال ٱبن سعيد : وزُبَيْد هؤلاء هم الذين ببرِيَّة سِنْجار من الجزيرة الفُراتِيَّة، وهم الذين ذكرهم المقرّ الشهابىّ بن فضل الله، وسماهم زُبَيد الأحلاف .

ومنها سُنْبُس (1) (بضم السين المهملة وسكون النون وضم الباء الموحدة وسين مهملة فى الآخر) وهم بنو سُنْبُس بن معاوية، بن جَرْوَل، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغوث، بن

(1) ضبطه السويدىّ فى سبائك الذهب فقال بفتح السين وذكر فى القاموس أنه بالكسر وكذلك هو فى الصحاح واللسان بضبط القلم فتنبه .

طيئ. وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بثغر دِمْياط، وأنه كان لهم شأن أيام الخلفاء الفاطميّين، وعدّ منهم ثلاثة بطون: وهم الخَزَاعلة، وعبيــد، وجَمُوح. والإمرة فى زماننا هذا فيهم، فى الخزاعلة، فى بنى يوسف بمدينة سخا من الأعمال الغربية. قال الحمدانى: ومنهم طائفة بالبطائح من بلاد العراق.

ومنها جرم (بفتح الجيم وسكون الراء وميم فى الآخر)، وهم بنو ثعلبة بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ. وقال الحمدانىّ جَرْم آسم أمه غلب عليه: وهى جرم بنت الغَوْث آبن طيئ؛ وهؤلاء هم جرم الذين ببلاد غَزَّة من البلاد الشامية. قال الحمدانىّ: وكانوا متفقين مع ثعلبة بالشام علىٰ تدافع الفرنج عن المسلمين، فلما فتح السـلطان صلاحُ الدين البلادَ، دخلت طائفة منهم مصر، وبقى بقاياهم بمكانهم ببلاد غَزَّةَ. وقد ذكر الحمدانىّ منهم ثلاثة بطون: وهم شمجان، وقمران، وجَيَّان. ثم قال: والمشهور من جَرْم الآن جَذِيمة، ويقال إن لهم نسبا فى قريش، وزعم بعضهم أنها ترجع إلىٰ مَخْزُوم، وقيــل بل من جذيمة بن مالك، بن حنبل، بن عامر، بن لؤى، بن غالب، بن فِهْر. ثم قال وجَذِيمــة هؤلاء هم آل عَوْسَجة، وآلُ أحمد، وآل محمود. ثم قال: ومنهم أسلَم، وشبل، ورضيعة، ونيور، والقذرة، والأَحامدة، والرفثة، وكور، وموقع. ومنهم من بنى غوث العاجلة، والعبادلة، وبنو تمام، وبنو جميل، وبنو مقدام، وآل نادر. ومنهــم من بنى غوث بنو بها، وبنو خولة، وبنو هرماس، وبنو عيسىٰ، وبنو سهيل؛ وأرضهم الداروم؛ وجاورهم قوم من زبيــد يعرفون ببنى فهيد. ثم آختلطوا بهم.

ومنها ثعلبة، وضبطُه معروف؛ وهم بنو ثَعْلَبة بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغوث، بن طيئ، وهم رِعْيان دَرْما وزريق، آبنى عَوْف بن ثعلبة، وقيل آبنا ثعلبة وآسم دَرْما عمرو، ودرما آسم أمه غلب عليه. قال الحمدانى: وكانوا مع جرم بالشام يدا مع

الفرنج على المسلمين، فلما فتح السلطان صلاح الدين البلادَ انتقلت طائفة منهم إلى مصر ونزلوا أطراف بلاد الشرقية؛ فمن بُطون دَرْما سلامةُ، والأحمر، وعمرو، وقصير، وأويس، وشبل، والحنابلة، والمراونة، والحَيَّانيّون؛ ومن بطون زريق بها بنو وهم والطليحيون؛ ومن الطليحيين آل حجاج، وآل عمران، وآل حفصان، والمصالحة؛ ومن بنى زريق أيضا الصبيحيون، ومن الصبيحيين الغيوث، والزُّموت، والروايات، والنمورة، والشمخيّون، والسَّعَالى، والرمالى، والمَعامرة، والسِّنْديُّون، والبَحَابحة، والعُقَيليون، والمساهرة، والمعافرة؛ ومنهم أيضا العليميّون . قال الحمدانىّ: وكان مقدّمهم قديما عمرو بن عسيلة أُمِّر بالبوق والعَلَم . ومن العليميّين القمعة، والرياحين، والغوفة . قال الحمدانىّ: وكان فيهم رجال ذوو ذكر ونَبَاهة، خدموا الدول، وعضدوا الملوك، وقاموا ونصروا . ومنهم من أمر بالبوق والعلم . ومن بطون ثعلبة هؤلاء أيضا الجواهرة .

ومنها غَزِيَّة (بفتح الغين المعجمة وكسر الزاى وتشديد الياء المثناة تحت وهاء فى الآخر)، وهم بنو غَزِيَّة بن أفلَتَ، بن ثُعَل، بن عمرو، بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغَوْث، بن طيئ . قال الحمدانىّ: وهم بالشام والعراق والحجاز، وفيما بين العراق والحجاز . قال فى العبر: وفيهم الإمارة فى العراق إلى الآن ولهم صَوْلة عظيمة . وهم بطون كثيرة: فمن بطونهم البطنين، وأفخاذهم، آل دعيج، وآل روق، وآل رفيع، وآل سرية، وآل مسعود، وآل تميم، وآل شرود . ومن بطونهم الأجود وأفخاذهم آل منيع، وآل سنيد، وآل منال، وآل أبى الحزم، وآل علىّ، وآل عقيل، وآل مسافر . هذا ما ذكره الحمدانىّ . وزاد فى مسالك الأبصار عن نصر بن برجس المشرقىّ، وأولاد الكافرة، وساعدة، وبنى جميل، وآل أبى مالك . قال فى "المسالك": ودِيار

آل أجود منهم الرخيميّة، والرقبىٰ، والفردوس، ولينة، والحدق. وديار آل عمرو بالحوف. وديار بقاياهم النصيف، والكمن، واليحموم، والأم، والمعينة. ويليهم ساعدة وديارهم من الحضر إلىٰ برية زرود، إلىٰ سقارة، إلىٰ البقعاء، إلىٰ التيب، إلىٰ الساسة، إلىٰ حضر.

ومنها لام. وهم بنو لام بن عمرو، بن طَرِيف، بن عمرو، بن بَجِيلة، بن مالك، بن جَدْعاء، بن ذُهْل، بن رُومان، بن جُنْدَب، بن خارجة، بن سعد، بن قَطرة، بن طيئ. قال ابن سعيد: ومساكنهم المدينة النبوية وما حولها. وقال الحمدانيّ: ديارهم جبل أجأ وسلمى. ثم قال وظَفِير من لام، ومنازلهم الظعن قبالة المدينة النبوية، علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

ومنها آل ربيعة، عرب الشام. وهم بنو ربيعة، بن حازم، بن عليّ، بن مفرج، بن دَغْفل، بن جراح، بن شبيب، بن مسعود، بن سعيد، بن حَرْب، بن السَّكَن، بن ربيع، ابن عَلْقىٰ، بن حَوْط، بن عمرو، بن خالد، بن مَعْبَد (١)، بن عديّ، بن أفلت، بن سلسلة، بن غنم، بن ثَوب، بن مَعْن، بن عَتُود، بن عُنَيْن، بن سَلَامان، بن ثُعَل، بن عمرو، بن الغَوْث، ابن طيئ. قال في "مسالك الأبصار": وتقول بنُو ربيعة الآن إنهم من ولد جعفر ابن يحيي، بن خالد، بن برْمك من العَبَّاسة بنت المهديّ، أخت الرشيد، ويزعمون أنه كان يحضر مع الرشيد مجلسه الخاص وأنه كلمه في تزويجها ليحِلّ له نظرها لاجتماعهما بمجلسه فعقَد له عليها بشرط أن لا يطأها، فعانقها علىٰ حين غفلة من الرشيد، فحملت منه بولد كان ربيعة هذا من ولده. قال: ويقولون في نسبه إنه ربيعة بن سالم، ابن شبيب، بن حازم، بن عليّ، بن جعفر، بن يحيىٰ، بن خالد، بن برمك؛ ويزعمون أن نكبة البرامكة كانت بسبب ذلك. ثم قال: وأصلهم إذا نسبوا إليه أشرف لهم:

(١) في العبر ابن معبد بن عمرو.

لأنهم من سلسلَةَ بن عُنَيز، بن سلامان ، بن طيئ ، وهم كرام العرب وأهل البأس والنجدة؛ والبرامكة وإن كانوا قوما كراما فإنهم قوم عجم وشتّانَ بين العـرب والعجم؛ وقد شرف الله تعالىٰ العرب أن بعث منهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنزل فيهم كتابه، وجعل فيهم الخلافة والملك، وآبتزّ لهم ملك فارس والروم، ونزع بأسنتهم تاجَ كسرىٰ وقيصر، وكفىٰ بذلك شرفا لا يُطاوَل، ونخرا لا يُتناوَل . وذكر فى "التعريف" نحوه قال فى العبر : وكانت رياسة طيئ فى أيام الفاطميّين لبنى الجرّاح ، ثم صارت لآل ربيعة . قال الحمدانىّ : وكان ربيعة هذا قد نشأ فى أيام الأتابك زنكى وآبنه نورالدين الشهيد صاحب الشام ونبغ بين العرب وولِد له أربعة أولاد : وهم فضل، ومرا ، وثابت، ودغفل، ومنهم تفرّعت بطون آل ربيعة . ثم المشهور من آل ربيعة الآن ثلاثة بطون : وهم آل فضل، وآل مرا، وآل علىّ : فآل فضل هم بنو فضل بن ربيعة وآل مرا بنو مرا بن ربيعة . وأمّا آل علىّ فمن آل فضل، وهم بنو علىّ بن حَدِيثة، بن عُقْبة بن فضل المقدّم ذكره؛ وقد صارت آل فضل أيضا بعد ذلك بيوتا أرفعها قدرا بيتُ عيسىٰ بن مُهَنَّا، بن مانع، بن حديثة، بن عقبة، بن فضل . قال فى "مسالك الأبصار" وفيهم الإمرة دون سائر آل فضل . قال : ثم صار آل عيسىٰ بيوتا، بيت مهنا بن عيسىٰ، وبيت فضـل بن عيسىٰ، وبيت حارث بن عيسىٰ، وبيت محمد آبن عيسىٰ، وبيت هبة بن عيسىٰ . وسيأتى الكلام علىٰ تقسيم الإمرة فيهم فى الكلام علىٰ عرب الشام فى المسالك والممالك إن شاء الله .

الحىّ الثالث ــ من كهلان مَذْحِج (بفتح الميم وسكون الذال المعجمة وكسر الحاء المهملة وجيم فى الآخر)، وهم بنو مَذْحِج وآسمه مالك، بن أُدَدَ، بن زيد، بن يَشْجُب، آبن عَريب ، بن زيد ، بن كهلان هكذا قاله أبو عبيد، وقال الجوهرىّ : مَذْحِج

آبنُ يُحابِر، بن مالك، بن زيد، بن كهلان. وقد ذكر الحمدانىّ: أنهم إنمـا سمّوا مَذْحِج لشجرة تحالَفُوا عندها آسمها مَذْحِج، فسُمُّوا بآسمها . ثم لمذحج بطون كثيرة :

منها خَوْلان، (بفتح الخاء المعجمة وسكون الواو ونون بعد اللام ألف)، وهم بنو خَوْلانَ بن مالك، وهو مَذْحِج وإليهم ينسب أبو إدريس الخَوْلانىّ . قال فى العبر : وبلاد خَوْلانَ فى بلاد اليمن من شرقيّه، قال : وقد آفترقوا فى الفتوحات، وليس منهم اليوم ذرّية إلا باليمن، ثم قال وهم غالبون علىٰ أهله .

ومنها جَنْب (بفتح الجيم وسكون النون وباء موحدة فى الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه، والحـارث، والغـلى، وسـبحان، وشمران، وهفان بن يزيد، بن حرب، بن عِلَّةَ، آبن جَلْد، بن مَذْحِج . قال أبو عبيـد : وسُمُّوا بجنب لأنهم جانبوا عَمَّهم صُدَاءً، وحالفوا سعدَ العشيرةِ، وحالفت صُدَاءُ بنى الحارث بن كعب . ومن جَنْبٍ معاوية الخير الجنبىُّ صاحب لواء مَذْحِج فى حرب بنى وائل .

ومنها سعد العشيرة، وهم بنو سعد العشيرة بن مَذْحِج، وسُمِّى بذلك لأنه لم يمت حتّى ركب معه من وَلَده وولَد وَلَده ثلثمائة رجل، فكان إذا سئل عنهم يقول هؤلاء عشـيرتى دفعـا للعين عنهم، فقيل له سَعْد العشيرة . ثم من بُطون سـعد العشيرة أَوْذ (بفتح الهمزة وسكون الواو وذال معجمة فى الآخر)(١)، وهم بنو أَوْذ بن صَعْب بن سعد العشيرة، وإليهـم ينسب الأفوه الأوذىّ الشاعر المشهور . ومن بطون سعد العشـيرة أيضا جُعْفِىٌّ (بضم الجيم وسكون العين المهملة وكسر الفاء وياء مثناة تحت فى الآخر) وهم بنو جُعْفِىّ بن سـعد العشيرة والنسبة إليهم جُعْفِىّ علىٰ مثـل لفظه، وإليهم ينسب الإمام البخارىّ بالمُوالاة، فيقال الجُعْفِىُّ مولاهم . ومن بطون سـعد

(١) صوابه ودال مهملة آنظر القاموس وشرحه فى مادة أود على أنه لم توجد مادة أوذ بالمعجمة فيما بأيدينا من المعاجم فتنبه .

العشيرة زُبَيْد (بضم الزاى وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر)، وهم بنو مُنَبِّه بن صَعْب بن سعد العشيرة، وتُعَرف ز بيدٌ هؤلاء بزُبَيْد الأكبر، وهم زبيد الحجاز. قال فى مسالك الأبصار: وعليهم دَرَك الحاجّ المصرىّ من الصَّفراء إلى الجحفة ورابغ. ومن زُبَيْد هؤلاء بطنٌ تعرف بزُبَيد الأصغر، وهم بنو مُنَبِّهٍ الأصغر بنِ ربيعة بن سَلَمَة بن مازن بن ربيعة بن مُنَبِّه الأكبر. قال أبو عبيد ومن زُبَيْد هؤلاء عمرو بن معدى كرب.

ومنها النَّخْع (بفتح النون وسكون الخاء المعجمة وعين مهملة فى الآخر)(1)، وهم بنو النخع وآسمه جَسْر بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مَذْحج. قال أبو عبيد: وسمى النَّخع لأنه آنتَخع عن قومه أى بَعُد، ومنهم الأشتر النَّخعِىُّ أحد تابعى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذى ولاه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه مِصْر، وكتب له بها عهدا على ما سيأتى ذكره فى الكلام على العهود عند ذكر الولايات فيما بعدُ إن شاء الله تعالى. وإليهم ينسَب إبراهيم النَّخعىُّ الإمام الكبير المشهور.

ومنها عَنْس (بفتح العين المهملة وسكون النون وسين مهملة فى الآخر)، وهم بنو عَنْس بن مذحج، منهم عَمَّار بن ياسر الصحابىُّ المشهور، وإليهم ينسب الأسود العنسىُّ الكَذَّاب، الذى أخبرَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم بخروجه فآدَّعى النبوّة باليمن بعد ذلك.

ومنها بنو الحارث، ويقال بَلْحارثِ بن كعب، وهم بنو الحارث بن كَعْب بن عمرو بن عِلَّة بن جَلْد بن مذحج. قال فى "العبر": وديارهم بنواحى نَجْرانَ من اليمن مجاورُون لبنى ذُهْل بن مُزَيقياء، منهم بشِير الحارثىُّ الذى قدم على النبى صلى الله عليه وسلم فقال له: ما آسمك قال: أكبر، قال: بل أنت بشِير.

(1) الذى فى القاموس النخع بالتحريك قبيلة وفى المصباح والنخع بفتحتين قبيلة من مذحج فلينظر.

الحىّ الرابع — من بَنِي كَهْلان هَمْدانُ (بفتح الهـاء وسكون الميم ودال مهملة ثم ألف ونون)، وهم بنو هَمْدان، بن مالك، بن زَيْد، بن أَوْسلَة، بن رَبِيعَةَ، بن الخِيَار، آبن زيد، بن كَهْلان، . قال فى "العبر": وكانت ديارهم باليمن من شَرقيّه، ولما جاء الإسلام تفرّق من تفرّق منهم، وبقى مَنْ بقى باليمن . قال : وكانت هَمْـدانُ شيعةً لأمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه عنـد وُقُوع الفتن بين الصحابة ؛ وفيهم يقول رضى الله عنه :

فَلَوْ كُنْتُ بَوّاباً علىٰ بابِ جَنَّةٍ * لَقُلْتُ لِهَمْدَانَ آدْخُلِي بِسَلَام

قال فى "مسالك الأبصار": وبالجبل المعروف بالطيّبين من الشام فرقة من همدان .

الحىّ الخـامس — من بنى كهلان كِنْدة (بكسر الكاف وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر)، وهم بَنُو كِندة، وآسمه ثَوْر، بن عُفَير، بن عَدِىّ، بن الحارث، بن مرّة، بن أدد، بن زيد، بن يَشْجُب، بن عَرِيب، بن زَيْد، بن كَهْلان . قال صاحب حماة : وسمى كِنْدة لأنه كند أباه أى كَفَر نعمته . قال : وبلادهم باليمن قِبلىَّ حَضرمَوْتَ، وكان لهم مُلْك بالحجاز واليمن؛ ومنهـم الأشعثُ بن قَيْس الصحابىُّ المشهور ؛ ومنهـم أيضـا القـاضى شُرَيْح قاضى علىّ رضى الله عنـــه . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن باللّوىٰ من بلاد الشام قوما ينسبون إلىٰ كِنْـدة ، ولهم بطون منها السُّكُون (بضم السين المهملة والكاف ونون بعد الواو)، وهم بنو السُّكون آبن أَشْرَس بن كِنْدة ؛ ومنهم معـاوية بن حُدَيْج قاتلُ محمـد بن أبى بكر الصـدّيق رضى الله عنهما ؛ وعدّ منها صاحب حماة السَّكاسِك أيضا (بفتح السين الأولىٰ وكسر الثانية)، والذى ذكره أبو عبيد أنه من حِمير، وقال : هم بنو السَّكاسِك بن واثلةَ بن حمير . قال الجوهرىّ : والنسبة إلىٰ السَّكاسك سَكْسَكِىٌّ ردًّا له إلىٰ أصله كما يُنسب إلىٰ مساجد مَسْجِدىّ .

الحيّ السادس — من بنى كَهْلان مُرَاد (بضم الميم وفتح الراء المهملة ودال مهملة بعد الألف)، وهم بنو مرادِ، بنِ مالك، بنِ أُدَدَ، بن زيد، بن يشْجُب، بن عَرِيب، آبن زيد، بن كَهْلان، قال الجوهرىّ : ويقال إن آسمه يُحابر فتمرّد فسمى مُرَادا . وجعلهم فى العبر بَطْنا من مَذْحِج، فقال مراد بن مذحج . قال صاحب حماه : وبلادهم إلىٰ جانب زَبِيدَ من بلاد اليمن، قال : وإلىٰ مراد هذا ينسب كل مُرادىّ من عرب اليمن .

الحيّ السابع — من بنى كهلان أنمارٌ (بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الميم وراء مهملة بعد الألف)، وهم بنو أنمـار، بن أراش، بن عمرو، بن الغوث، بن نَبْت، بن مالك، بن زيد، بن كَهْلان . ولهم بطنان — الأولىٰ بَجِيلةُ (بفتح الباء الموحدة وكسر الجيم وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر)، وهم بنو عَبْقَر، والغوثُ، وصُهَيبة، وحَزِيمة(1) بن أنمـار، بن أراش . قال أبو عبيد : وبجيلة أمهم، عُرِفوا بها — وهى بجيلةُ بنت صَعْب بن سعد العشيرة، قال فى العبر : وكانت بلادهم فى سَرَوات اليمن والحجـاز إلىٰ تَبَالة . ثم آفترقوا أيام الفتح الإسـلامىّ فى الآفاق، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليل، قال الجوهرىّ : ويقال إنهم من العَدْنانية، لأن نزار بن معـدّ بن عدنان وُلِد له مُضَرُ وربيعة وإياد وأنمـار، وولد لأنمـار بجيلة وخَثْعم فصاروا إلىٰ اليمن، وإلىٰ بجيـلة هؤلاء ينسب جَرِير بن عبـد الله البجلىّ، صاحب رسول الله صـلى الله عليه وسـلم، وكان جميلا فائق الجمـال، حتّى إنه كان يقال له يُوسُف الأمة، وفيه يقول بعض الشعراء يمدحه :

لَوْلَا جَرِيرٌ هلكَتْ بَجِيـله * نِعْم الفتىٰ وبِئْستِ القَبِيله

الثانيـة — خَثْعَم (بفتح الخاء المعجمة وسكون الثاء المثلثة وفتح العـين المهملة وميم فى الآخر)، وهم بنو خَثْعم بن أنمـار بن أراش المقدّم ذكره آبن هِنْد بنت مالك

(1) بفتح الحاء المهملة وكسر الزاى كما ضبطه كذلك فى سبائك الذهب .

ٱبن الغافِق بن الشاهد بن عد ، وفيهم مثـل ماتقدّم من كلام الجوهرى فى الكلام علىٰ بَجِيـلة أنهم من العدنانية : لأن خَثْعَمَ و بجيـلةَ يرجعون إلىٰ أنمـار . وكانت مساكنهم مع إخْوتِهم بجيـلة بسَرَوات اليمن فافترقوا فى الفتوحات الإسـلامية ، فلم يبق منهم فى مواطنهم إلا القليلُ . ومن خَثْعم هؤلاء أكْلُب (بفتح الهمزة وسكون الكاف وضم اللام و باء موحدة فى الآخر)، وهم بنو أكْلُب ، بن عُفَير ، بن خَلَف[1] ، بن خَثْعم . قال أبو عبيد : و يقال إن أكلب من رَبِيعة بنِ نزار . قال الحمدانىّ : وهم بطون كثيرة ، ومنازلهم بِبِيشةُ ، شرقىَّ مكة المشرفة . ومن خثعم أيضا بنومُنَبِّه والفرْع ، وبنو نَضْـلة ومعاوية ، وآل مهـدىّ ، وبنو نصر ، وبنو حام ، والورد ، ونادر ، وآل الصعافير ، والشماء ، و بلوس ، قال الحمدانىّ : ومنازلهم علىٰ القرب من بِيشــةَ شرقىّ مكة أيضا .

الحىّ الثـامن — من بنى كهلان جُذَام (بضم الجيم وفتح الذال المعجمة وألف ثم ميم) ، وهم بنو جُذام ، بن عَدِىّ ، بن الحـارث ، بن مُرَّة ، بن أُدَد ، بن زيد ، ٱبن يشْجُب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كهلان ، هذا ماذكره أبو عبيد : وجعلهم صاحب حمـاه فى تاريخه من ولد عمرو بن سبإ . قال الجوهرى ، وتزعم نسابة مُضَر أنهم من مُضَر يعنى من العدنانية ، وأنهم ٱنتقلوا إلىٰ اليَمَن فنزلوها ، فحُسِبوا من اليمن ، وٱستشهد له بقول الكُمَيت يذكر ٱنتقالهم إلىٰ اليمن بانتسابهم فيهم :

نَعَاءِ جُذَامًا غَيْرَ مَوْتٍ ولا قَتْلِ * ولـٰكِنْ فِرَاقًا للدَّعائم والأَصْل !

وٱستشهد له الحمدانى أيضا بقول جُنَادة بن خَشْرم الجُذامىّ :

وَمَا قَحْطَـــانُ لِى بأبٍ وأمٍّ * ولا تَصْطادُنِى شُبَهُ الضَّلال
ولَيْسَ إليهـــمُ نَسَبِى ولٰكِنْ * مَعَـدِّيًّا وجَدْتُ أبِى وخَالِى

(١) أعجمه فى الأصل . وقال فى سبائك الذهب « حلف بفتح الحاء المهملة بنوه بطن من خثعم » .

قال الحمدانى : ويقال إنهم من ولد أعصر(١) بن مَدْين بن إبراهيم عليه السلام، وآستشهد لذلك بما رواه محمد بن السائب أنه وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفد جُذَام، فقال "مَرْحَبًا بقَوْمِ شُعَيْبٍ وأصهارِ مُوسَى". قال صاحب حماة : وكان فيهم العَدَدُ والشَّرَف. قال الحمدانى : وهو أوّل من سكن مصر من العرب حين جاءُوا فى الفتح مع عَمْرو بن العاص رضى الله عنه، وأُقْطِعوا فيها بلادا بعضها بأيدى بنيهم إلى الآن. وكان لجُذام ولدان : هما حِشْم (بكسر الحاء المهملة وسكون الشين المعجمة وميم فى الآخر)، وحَرَام (بفتح الحاء والراء المهملتين وألف ثم ميم)؛ ومن ولد حِشْم عَتِيت (بفتح العين المهملة وكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وتاء مثناة فوق فى الآخر) وهم بنو عَتِيت(٢) بن أسلم، بن مالك، بن شَنُوءة، بن تديل، آبن حِشْم بن جُذام. قال أبو عبيد : وهم اليوم ينتسبون فى بنى شَيْبان، ويقولون عِتِيت(٢) بن عوْف بن شيبان. قال وإليهم تنسب حُفْرة عِتِيت(٢) بالبصرة، قال الجوهرى : أغار عليهم بعض الملوك فسبى الرجال، فكانوا يقولون إذا كَبِر صبيانُنا لم يتركونا، حتّى يفتكّونا، فلم يزالوا عنده حتّى هلكوا فضرب لهم العرب مثلا فقالوا : أودى عَتِيت(٢)، وفى ذلك يقول الشاعر :

تُرَجِّيها وقد وقَعَتْ بقُرٍّ * كما تَرْجُو أصاغِرَها عَتِيت(٢)

ثم لجذام الآن بطون كثيرة متفرقة فى الأقطار، منهم بالشرقية من الديار المصرية من بنى زيد بن حَرَام بن جُذَام، وبنى مَخْرمة بن زيد بن حَرَام بن جُذَام؛ فأما بنو زيد فمنهم بنو سُوَيْد، وبعجةُ، وبَرْدعة، ورِفَاعة ونائِل، من بنى زيد بن حَرَام بن جُذَام، فمن ولد سُوَيد هَلْبا سويد، وهم بنو هَلْبا بن سُوَيد بن زيد بن حَرَام

(١) فى سبائك الذهب . يعفر . (٢) كذا رسم فى السبائك أيضا وهو بالباء الموحدة فى الصحاح والقاموس وأنشد الأوّل البيت بالباء الموحدة ومثله فى ياقوت فتنبه .

آبن جُذَام . قال الحمدانى . ومنهم العَطويون، والجابريُّون ، والغَتَاورة، وحَمْدان ، ورُومان ، وصمران ، وأسود . والحميديون ؛ ومن الحميديين ، أولاد راشد ؛ ومنهم البراجسة ، وأولاد يبرين والجَرَاشنة ، والكعوك ، وأولاد غانم ، وآل حمود ، والأخيوه ، والزرقان ، والأساورَة ، والجمـاريون . ومن بنى راشد أيضا الجَرَاقيص ، والخَنافيس ، وأولاد غالى ، وأولاد جَوَّال ، وآل زيد ؛ ومن النجابية أولاد نجيب وبنو فضيل .

ومن هَلْبا سُوَيد أيضا بنو الوليد ، وهم بنو الوَلِيد بن سُوَيد المقدّم ذكره . ومنهم الحَيَادرة ، وهم بنو حَيْـدَرَةَ ، بن يعرب ، بن حبيب ، بن الوليد ، بن سُويد . قال الحمدانى : وهم طائفة كبيرة ، ومنهم بنو عمارة ، وهو عمـارة بن الوليد . ومنهم عدد ، والحَبّيون : وهم بنو حبة بن راشـد بن الوليد . ومن ولد الوليد بن سُوَيد المذكور طريفٌ بن بكتوت الملقب زين الدولة ، كان من أكرم العرب ، وكان فى مضـيفته أيامَ الغـلاء آثنا عشر ألفا تأكل عنـده كل يوم ؛ وكان يَهْشِم الثريد فى المراكب ؛ ومن أولاده من أُمِّر بالبوق والعَلَم ؛ وعدّ من أحلافهم أولاد الهوبرية ، والرداليين ، والحليفيـين ، والحضينيين ، والربيعيـين ، وهم أولاد شريف النجابين ، وذكر الحمدانى أن لهم نسبا فى قريش إلىٰ عبد مناف ، بن قُصَىّ . ومن هلبا سويد هؤلاء هلبا مالك ، وهم بنو مالك بن سويد ؛ ومن هلبا مالك بنو عبيـد وهم بنو عبيد بن مالك ؛ ومن بنى عُبَيد المـذكور الحَسَنِيُّون ، وهم بنو الحسن بن أبى بكر بن مَوْهُوب بن عبيد ؛ والغَوَارنة ، وهم بَنُو الغَوْر بن أبى بكر بن مَوْهُوب بن عُبَيد ؛ وبنو أسـير ، وهم بنو أسير بن عبيد ؛ ومن هلبا مالك أيضا اللَّبيديون ، والبَكْريون ، والعقيليون ، وهم بنو عُقَيل بن قُرّة بن موهوب بن عُبَيد . ومنهم بنو رديني ، وهم بنو رُدَيْنِيّ بن زياد ، بن حُسَين ، بن مسعود ، بن مالك ، بن سُوَيد . ومن ولد بَعْجَة هَلْبا بعجة ، وهم بَنُو هَلْبا ، ومنظور ، وردا ، ونائل بنى بعجة بن زيد بن سُوَيد بن بَعْجة ؛ فمن ولد

هلبا بعجة مُفَرّج بن سالم ، أمَّره المعز أيبك بالبوق والعلم ، ثم خلفه علىٰ إمرته ولده حَسَّان . ومنهم أولاد الهُرَيم من بنى غياث بن عِصْمة بن نِجَاد بن هلبا بن بعجة .

ومنهم جَوْشَن بن منظور بن بَعْجة ، وهو صاحب السَّرَاة المضروب به المثل فى الكرم والشجاعة .

ومن ولد ناثل مُهَنَّا بن عُلْوان بن علىٰ بن زبير بن حبيب بن ناثل ، كان جَوادا كريما طرقته ضُيُوف فى شتاء ولم يكن عنده حَطَب لطعامهم فأوقد أحمال بَزٍّ كانت عنده . ومن بنى حَرَام بن جُذَام أيضا بنو سَعْد . قال الحمدانى : وفى جُذَام خمس سعود آختلطت بمصر ، وهم سَعْد بن إياس بن حَرام بن جُذَام . وسَعْد آبن مالك بن أفصىٰ بن سَعْد بن إياس بن حَرَام بن جُذام ، وإليه ينسب أكثر السَّعْدِيِّين . وسعد بن مالك بن حَرَام بن جُذَام(١)، وسعد بن سامة بن عَنْبس بن غَطَفان بن سعد بن مالك بن حرام بن جذام ، وهم عشائر كثيرة منهم بنو فَضْل ، والسَّلاحمة ، وبرشاش ، وجَوْشَن ، وعَذْلان ، وفَزَارة . قال وأكثرهم مشايخ بلاد وخفراء ، ولهم مزارع ومآكل ، وفسادهم كثير ، وسكنهم مُنْية غمر إلىٰ ريفها . ومنهم شاوَر وزير العاضد الفاطمى ، وإليه تنسب أولاد شاور كبار منية غمر وخفراؤها ؛ علىٰ أن آبن خلكان قد ذكر أنه من سعد الذين أُرْضِع فيهم النبى صلى الله عليه وسلم . وأما بنو محرمة فنهم الشَّوَاكر ، وهم بنو شاكر بن راشد . ومنهم أولاد العجار أدِلاء الحاجّ من زمن السلطان صلاح الدين وهلمّ جَرًّا .

ومن جذام أيضا بالشرقية العائد ، وهم بطن من جذام عليهم دَرَك الحاج إلىٰ العَقَبة . ومنهم أيضا بالشرقية بنو حَرَام . وقال الحمدانى : وقلَّ فى عرب مصر مَنْ يعرفها . ومنهم بالدقهلية عمرو وزُهَير ، عدّ منهم الحمدانى الحضينيين ، وردالة ،

(١) فى الأصل الخط تكرار فى الأسماء ونقص من العدد و يؤخذ من السبائك أن الساقط هو سعد آبن ربيل بن إياس بن حرام بن جذام فتنبه .

والأحامدة ، والحمَـارنة ، وهم بنو حُمْران . قال الحمـدانى : وفى زُهَير هؤلاء من بنى عَمِرين ، وبنى شَبِيب ، وبنى عبـد الرحمن ، وبنى مالك ، وبنى عُبَيـد ، وبنى عبد القوىّ ، وبنى شاكر ، وبنى حَسَن ، وبنى سمان . وهم يتواردون فى أسماء بعض البطون مع غيرهم .

ومن جذام أيضا ببلاد الشام بنو صَخْر بالكَرَك ، وبنو مَهْدىّ بالبلقاء ، وبنو عُقْبة ، وبنو زُهَير بالشّوبك . ومنهم بنو سـعيد بصَرْخَد ، وحَوْران ؛ ومنهـم جماعة ببلاد الغَوْر ، وجماعة ببلاد البربر من بلاد السُّودان .

الحى التاسع — من بنى كهـلان لَخْم (بفتح اللام وسكون الخاء المعجمة وميم فى الآخر) ، وهم بنو لَخْم بن عدِىّ بن الحارث بن مُرَّة بن أُدَد بن زَيد بن يَشْجُب بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كَهْلان ؛ ولخم أخو جُذَام المقدّم ذكره ، وكل منهما عمٌّ لِكِنْدة المقدّمِ ذكره أيضا . وعدّ صاحب حماة لَخْمًا من بنى عمرو بن سبإٍ كما عدّ جُذَاما إذ كانا أخوين كما تقدّم . وقد كان للفاوزة من اللخميين مُلْك بالحِيرَة من بلاد العِراق ، ثم كان لبنى عَبَّاد من بقاياهم بالأندلس مُلْك بإشبيلِيَة . وذكر القضاعى أنهم حضروا فتح مصر ، واختلطوا بها ، هم ومَنْ خالطهم من جُذام . قال الحمدانى : وبصعيد الديار المصرية منهـم قوم يسكنون بالبر الشرقى ، ذكر منهم الحمدانى سبع أبطن . الأولى سِمَاك ، وهم المعروفون بالسماكين ، وبنو مُرّ ، وبنو مليح ، وبنو نَبْهان ، وبنو عَبْس ، وبنو كريم ، وبنو بُكَير ، وديارهم من طارف ببا بالبهنسا إلى مُنْحَدر دير الجمـيزه فى البر الشرقى . الثانيـة بنو حدّان ، وهم بنو محمد ، وبنو على ، وبنو سالم ، وبنو مُدْلج ، وبنو رعيش ؛ وديارهم من دير الجميزة ، الى ترعة صول . الثالثة بنو راشد ، وهم بنو معمر ، وبنو واصل ، وبنو مِرَا ، وبنو حِبَّان ، وبنو معَاد ، وبنو البِيض ، وبنو حُجْرة ، وبنو شَـنُوءة . وديارهم من مسـجد موسى الى أسكر ، ونصف بلاد

إطْفيح . ولبنى البيض الحىُّ الصغير ، ولبنى شنوءة من ترعة شريف إلى مَعْصَرة بوش . الرابعة بنو جَعْد ، وهم بنو مسعود ، وبنو حُدَير ، وهم المعروفون بالحُدَيْريين ، وبنو زُبَير ، وبنو ثمال ، وبنو نَصّار . ومسكنهم ساحل إطفيح . الخامسة بنو عدىّ ، وهم بنو موسى ، وبنو محرب ، ومساكنهم بالقرب منهم . السادسة بنو بحر ، وهم بنو سهل ، وبنو مِعْطار ، وبنو فَهْم ، وهم المعروفون بالفَهْميين ، وبنو عَسِير ، وبنو مسند ، وبنو سِبَاع ، ومسكنهم الحىّ الكبير . السابعة قيس ، وهم بنو غُنَيم ، وبنو عمرو ، وبنو حجرة ، ولبنى غنيم منهم العَدَوية ، ودَيْر الطِّين إلى جِسْر مصر ؛ ولبنى عمرو الرستق ولهم نصف حُلْوان ، ولبنى حجرة النصف الثانى ، ونصف طُرا .

ومن بطون لخم بنو الدار رَهْطُ تميم الدارىّ صاحب النبى صلى الله عليه وسلم ، وهم بنو الدار بن هانئ ، بن حبيب ، بن نمارة ، بن لخم . قال الحمدانى وبلد الخليل عليه السلام معمور من بنى تميم الدارىّ رضى الله عنه ، وبيد بنى تميم هؤلاء الرُّقعةُ التى كتبها النبى صلى الله عليه وسلم لتميم وإخوته بإقطاعهم بيت حَبْرُون التى هى بلد الخليل عليه السلام وبعض بلادها ويقال إنها مكتوبة فى قطعة من أدم من خُفّ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه وبخطه .

الحى العاشر — من بنى كهلان الأشعرِيُّون . وهم بنو الأشعر بن أُدَد ، بن زيد ، بن يَشْجُب ، بن عَرِيب ، بن زيد ، بن كهلان . قال وسُمِّى الأشعرَ لأن أمه ولدته وهو أشعرُ . وجعله صاحب حماة من بنى أشعر بن سبإ ، وهم رهط أبى موسى الأشعرىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الحى الحادى عشر — من بنى كهلان عامِلةُ . وهم بنو عاملة ، واسمه الحارث ، بن عُفَير ، بن عدِىّ ، بن الحارث ، بن وَبَرة ، بن أُدَد ، بن زيد ، بن يشجُب ، بن

عريب، بن زيد، بن كهلان؛ وذكر أبو عبيد أن بنى عاملةَ هم بنو الحارث بن مالك؛ يعنى آبن الحارث بن مُرّة بن أدد، وأنه كان تحته عاملةُ بنتُ مالك بن وَدِيعة بن عُفَير، آبن عدىّ، بن الحارث، بن مُرة بن أدد فعُرِفوا بها . وذكر صاحب حماة أنهم من ولد عاملةَ بن سبإ. وقد ذكر الحمدانى أن بجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجَمَّ الغفير.

الضـــرب الثـانى

(من العرب الباقين علىٰ ممرّ الزمان العرب المستعربة)

قال الجوهرىّ : ويقال لهم المتعرّبة أيضا ، وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، سُمُّوا بذلك لأن لسان إسماعيل عليه السلام كان العِبرانيَّة أو السُّرْيانية، فلما نزل جُرْهُم من القحطانِيَّة عليه وعلىٰ أمه بمكة المشرّفة، تزوّج منهم، وتعلم هو وبنوه العربيةَ من جُرهُم المذكورين فسُمُّوا لذلك المستعربةَ . وآعلم أن الموجودين من العرب من ولد إسماعيل عليه السلام كلهم من بنى عَدْنان بن أُدَدَ المقدّم ذكره فى عمود النسب علىٰ خلاف فى نسبه إلىٰ إسماعيل يطول ذكره. قال فى العبر: ومَنْ عدا عدنانَ من ولد إسماعيل قد آنقرضوا، ولم يبق لهم عَقِب؛ ولذلك عُرِفت هذه العرب بالعَدْنانيَّة .

ثم العدنانية صنفان :

الصنف الأول [illegible] لقبائلهم المتفرّعة من عمود النسب ستة أصول :

الأصل الأول — [illegible] معدّ بن عدنان ؛ والمتفرّع منه علىٰ حاشية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولىٰ — إياد (بكسر الهمزة ودال مهملة فى الآخر) وهم بنو إياد بن نِزار المقدّم ذكره : قال المؤيد صاحب حماة وفارق إيادٌ الحجاز وسار بأهله إلىٰ أطراف العراق فأقام به .

ومن إياد قُسّ بن ساعدة الإيادىّ، وكعبُ بن مَامَة الذى يضرب به المثل فى الكَرَم؛ يقال إنه كان معه ماء لايفضل عنه وله رفيقٌ فسقاه رفيقَه ومات عطشا.

القبيلة الثانية — أنمار (بفتح الهمزة وراء مهملة فى الآخر) وهم بنو أنمار بن نزار المقدّم ذكره؛ وقد آختلف فى تَعْقيبه، فذهب ذاهبون إلىٰ أنه ذهب إلىٰ اليمن ونزل بالسَّروَات من مشارق اليمن، وتناسل بنوه بها فعُدُّوا فى اليمانيَة؛ وذهبَ آخرون إلىٰ أنه لا عقب له إلا من بنتٍ له زوّجها لأراش من اليمانيَة، فولدت له أنمارَ بنَ أراش المقدّم ذكره فى اليمانية؛ فَبنو أنمار المعدودون فى اليمانيَة هم بنو أنمار بن أراش المقدّم ذكره فى اليمانية من بنت أنمار بن نِزار؛ ولذلك وقع اللبس فيهما، قاله السهيلىّ.

القبيلة الثالثة — رَبيعةُ، وهم بنو ربيعة بن نِزَار ويعرف بربيعة الفَرَس: لأن أباه نزارًا أوصىٰ له من ماله بالخيل. قال فى "مسالك الأبصار" وبالرَّحبة قوم منهم.

ولربيعة بطنان. وهما أسد، وضُبَيْعة آبنا ربيعة، ولكل منهما عِدّة أفخاذ، وديارهم إلىٰ الآنَ بالجزيرة الفُراتية تُعرَف بديار ربيعة. أما أسَدٌ فأكثرهما أفخاذا.

فمن أسد بنو عَنزَة (بفتح العين المهملة والنون والزاى وهاء فى الآخر) وهم بنو عَنزَة آبن أسد المقدّم ذكره؛ وكانت منازلهم خَيْبَر من ضواحى المدينـة. وجَدِيلة (بفتح الجيم وكسر الدال المهـملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم بنو جَديلة بن أسد المقدّم ذكره، والنسبة إليهم جَدَلىّ بحذف الياء بعد الدال.

ومن جديلة عَبْدُ القيس، وهم بنو عبدِ القيس، بن أفْصَى، بن دُعْمىّ، بن جَدِيلة. قال فى العبر: وكانت ديارُهم بتِهامةَ حتّى خرجوا إلىٰ البحرَيْن وزاحمُوا مَنْ بهـا من بكر بن وائل وتميم، وقاسموهم المواطنَ، والنسبة إليهم عَبْـدِىٌّ، ومنهم من يَنْسُب إليهم عبدىّ قيسىّ، وبعضهم يقول عَبْقَسىّ.

ومن عبد القيس هؤلاء الأشجّ الذى قال له رسول الله صــلى الله عليه وسلم "إنّ فيك لخَصْلتينِ يُحِبُّهما اللهُ : الحِلْمُ والأَنَاةُ" .

ومن جديلة أيضا بنو النَّمِر (بفتح النون وكسر الميم) وهم بنو النمر بن قاسِط بن هِنْب آبن دُعْمِىّ بن جَديلة . قال فى العبر وديارُهم رأسُ العين من أعمال الجزيرة الفُراتيّة .

ومن جديلة أيضا بنو وائل (بالياء المثناة تحتُ) وهم بنو وائل بن قاسِط بن هِنْب ابن أفصىٰ ، بن دُعْمِىّ ، بن جديلة المقدّم ذكره .

ومن وائل بَكْر (بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف) وتَغْلِب (بالتاء المثناة فى أوّله والغــين الساكنة المعجمة وكسر اللام وباء موحدة) وهم بنو بكر وتغلب آبنى وائل المقدّم ذكره .

ومن تغلب بن وائل كليب ملِك بنى وائل الذى قتــله جَسَّاس ، وهاجتْ بسببه الحرب المعروفة بالبَسُوس أربعين سنةً .

ومن تغلبَ أقوام بزُرَع ، وبُصْرىٰ ، وبالقريتين منهم نفر .

ومن بكر أقوام بجِبِنِينَ وبلادها ، وبالرَّحبَة قوم منهم .

ومن بنى تغلبَ كانت بنو حَمْدان ملوكُ حلَبَ قديمـا .

ومن بكر بن وائل شَيْبانُ ، وهم بنو شَيبانَ بن ثعلبة ، بن عُكَابة ، بنُ صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر .

ومن بنى شَيْبانَ هؤلاء مُرّة وآبنُه جَسَّاس قاتل كُلَيب المذكور . ومنهم طَرَفة ابن العبد الشاعر .

ومن بنى شيبان أيضا سَدُوس (بفتح السين المهملة فى أوّله وسين ثانية فى آخره) وهم بنو سَدُوس بن ذُهْل بن شيبان .

ومن بكر بن وائل أيضا بنو حَنِيفة رَهْطُ مسيلمة الكذاب الذى تنبأ فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وقُتِل فى خلافة الصدّيق رضى الله عنه ، وهم بنو حنيفة بن لجيم ، بن صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر ، بن وائل .

ومن بكر أيضا بنو عِجْل ، بن لجيم ، بن صَعْب ، بن علىّ ، بن بكر ، بن وائل . قال فى العبر : وكانت منازلهم من اليمامة إلى البصرة ؛ قال ثم خَلَفهم الآن فى تلك البلاد بنو عامر المُنْتَفِق ، بن عَقِيل ، بن عامر ، بن صَعْصعةَ . وذكر الحمدانىّ أن بلادهم فى زمانه الجزيرةُ من بلاد حَلَب وأنه كان لهم دولة بالعراق .

وأما ضُبَيْعة بن ربيعة (فبضم الضاد المعجمة وفتح الباء الموحدة تصغير ضَبعة) وهى قبيلة لم تكثر بطونها . ومنهم المتلمس الشاعر الباهلىّ المشهور .

الأصل الثانى — مضر (بضم الميم وفتح الضاد المعجمة) وهو مُضَر بن نِزار المقدّم ذكره ، ويُعْرف بمُضَر الحمراءِ : لأن أباه أوصى له من ماله بالذَّهَب وما فى معناه ؛ وهى قبيلة عظيمة إلا أن أكثرها آندرج فيما بعدها لكونها على عمود النسب ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بنابُلُس من بلاد الشام بقيةً من مُضَر ، وبالرَحبة رجال منهم ، وله على حاشية عمود النسب فَرْع واحد قد جمع عدّة قبائل ، وهو قيس وقد آختلف فى نسبه فقيل قيس بن عيلان (بالعين المهملة) وآسمه الناس (بالنون) آبن مضر ؛ وقيل هو قيس بن مضر لصلبه ، وعَيْلانُ المضافُ إليه قيل فرسه وقيل كَلْبه . قال صاحب حماة : وجعل الله تعالى لقيس من الكثرة أمرًا عظيما ، ولكثرة بطونه غلَب على سائر العَدْنانية حتّى جعل فى المثل فى مقابل عرب اليمن قاطبةً فيقال قيس ويمن .

فمن قبائل قيس هَوَازِنُ ، وهم بنو هَوَازِنَ بن منصور بن عِكْرِمَةَ بن خَصَـفة بن قيسِ عَيْلانَ، وهم الذين أغار عليهم النبيّ صلى الله عليه وسلم، وسباهُمْ .

ومن هوازن بنو سَعْد الذين كان رسول الله صلى الله عليه وسلم، رضيعًا فيهم، وهم بنو سَعْد بن بكرِ بن هوازنَ . قال فى العبر : وقد آفترق بنو سَـعْد هؤلاء فى الإسلام ولم يبق لهم حىّ فيُطرَق إلا أن منهـم فِرقةً بإفريقيَةَ من بلاد المغرب بنواحى باجةَ يعسكِرونَ مع جُنْد السلطان .

وقد ذكر آبن خلّكان أن شاوَرَ السعدىّ وزير العاضد الفاطمىّ خليفةِ مصر منهم وإن كان الحمدانىّ قد ذكر أنه من سَعْد جُذَام من القَحْطانية بالشرقية من الديار المصرية علىٰ ما سبق ذكره هناك .

ومن هوازن أيضا بنو عامر بن صَعْصَعةَ . وهم بنو عامر بن صَعْصعةَ بن مُعاوية آبن بَكْرِ بنِ هوازن؛ وإليهم يُنْسَب مجنون بنى عامرٍ الشاعرُ الذى كان يُشَبِّب بليلىٰ . ومن بنى عامر بن صعصعة بنُو كِلاب، وهم بنو كِلاب بن ربيعةَ بن عامرِ بن صعصعةَ . قال فى العبر : وكان لهم فى الإسلام دولة باليمـامة، وكانت ديارهم حِمىٰ ضَرِيَّةَ وهو حِمىٰ كُلَيب، وحِمىٰ الربَذَة فى جهات المدينة النبوية ، وفَدَكُ والعوالى ؛ ثم آنتقلوا بعـد ذلك إلىٰ الشأم فكان لهم فى الجزيرة الفراتيـة صِيتٌ وملكوا حَلَبَ ونواحِيَها، وكثيرا من مدن الشام، ثم ضَعُفوا . قال، وهم الآن تحت خِفَارة الأمراء من آل ربيعة من عرب الشام .

وذكر فى "مسالك الأبصار" أنهم يُنْسَـبون إلىٰ عبد الوهاب المذكور فى سيرة البَطَّال وذكر أن آسمه عبد الوهاب بن نُوبَخْت .

ثم قال، وهم بأطراف حلب، وهم عرب غُزّ يتكلمون بالتركية، ويركبون الأكاديش، ولهم غارات عظيمة، وأبناءُ الروم وبناتُهم لايزالون يباعُون من سباياهم. وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بحلب وبلادها طائفةً من بنى كلاب.

ومن بنى عامر بن صعصعة أيضا بنو هِلال، وهم بنو هِلَال بن عامر بن صعصعةَ. قال الحمدانى: وكان لهم بلادُ صعيدِ مصرَ كلُّها، وذكرهم ٱبن سعيد فى عرب بَرقَةَ، وقال منازلهم فيما بين مصر وإفريقيَةَ. قال فى العبر: وكانت رياستهم أيام الحاكم العُبيدى لماضى بن مقرب، ولما بايعوا لأبى رَكْوَةَ بالمغرب وقتله الحاكم، سلّط عليهم الحُبوشَ والعرب فأفناهم، وٱنتقل مَنْ بقى منهم إلىٰ المغرب الأقصىٰ فهم مع بنى جُشَم هناك. وذكر الحمدانى أن بحلب طائفةً منهم، ثم صار لهم بلاد أُسوانَ وماتحتها. ثم قال: وبإخميمَ منهم بنو قُرَّة، إلىٰ عيذابَ، وبساقية قُلْتَةَ منهم بنو عمرو وبطونُهم، وهم بنو رفاعةَ، وبنو جُحَير، وبنو عزيز. وبأَصْفُون وإسْنا منهم بنو عُقْبة، وبنو جَميلة.

ومن بنى هلال حرب فيما ذكره ٱبن سعيد. قال الحمدانى، وهم ثلاث بطون بنو مسروح، وبَنُو سالم، وبنوعُبَيدالله. قال: ومساكنهم الحجاز ومن حَرب زبيد الحجاز فيما ذكره الحمدانى، وذكر أن منهم بنى عمرو. ثم قال: ومن بنى عامر نُمَير بن عامر ٱبن صعصعة. قال فى العبر: وكانت منازلهم الجزيرة الفراتية والشام بعُدْوتَي الفُرات. قال وهم إحدىٰ جَمَرات العرب، وكان لهم كثرة وعِدّة فى الجاهلية والإسلام، ودخلوا الجزيرة الفراتية وملكوا حَرَّان وغيرها، ثم غلبهم عليها خلفاء بنى العباس أيامَ المعتز بالله فهلكوا بعد ذلك وبادُوا.

ومن بنى عامر بن صعصعةَ أيضا بَنُو عُقَيل (بضم العين المهملة وفتح القاف) وهم بنو عُقَيل بن كَعْب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة. قال فى العبر: وكانت

مساكنهم بالبحرين فى كثير من قبائل العرب ، وكان أعظم القبائل هناك بَنُو عُقَيل هؤلاء ، وبنو تغلِبَ وبنو سُلَيم ، وكان أظهَرَهم فى الكثرة والغَلَب بنو تغلِبَ؛ ثم آجتمع بنو عُقَيــل وبنو تغلِب علىٰ بنى سُلَيم فأخرجوهم من البحرين؛ ثم آختَلَف بنو عُقيــل وبنو تغْلِبَ بعد مدّة فغلب بنو تغلب علىٰ بنى عُقَيــل فطردوهم عن البحرين،فساروا إلىٰ العراق ، وملكوا الكُوفةَ والبلادَ الفُراتيّــةَ وتغلبوا علىٰ الجزيرة والمَوْصل، وملكوا تلك البلاد؛ وكان منهم المقلد وقِرْواش وقُرَيش وآبنه مسلم ملوك الموصــل ، وبقيت بأيديهــم حتّى غلبهم عليها ملوك بنى سلجوق، فتحوّلوا عنها إلىٰ البحرين حيث كانوا أوّلا فوجدوا بنى تغلبَ قدضَعُف أمرهم فغلبوهم علىٰالبحرين، وصار الأمر بالبحرين لبنى عُقَيل .

ومن بنى عقيل هؤلاء آل عامر ، وهم بنو عامر بن عُقيــل المذكور،وهم الذين بيدهم بلاد البحريــن . قال آبن سعيد : سألت أهل البحرين فى سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة حين لقيتهم بالمدينة النبوية عن البحرين فقالوا : المملكة بها لبنى عامر بن عُقَيل، وبنو تغلبَ من جملة رعاياهم؛ علىٰ أن الحمدانىّ قد وَهِم فقــال : وهــم غير عامر المُنْتَفِق، وعامر بنـــ صعصعة ، وتبعـه علىٰ ذلك فى "مسالك الأبصار" . وقد ذكر فى "مسالك الأبصــار" أن بحلب وبلادها طائفــة من بنى عُقيــل.

ومن بنى عُقَيل أيضا بنو عُبَادة(بضم العين المهملة و بالباء الموحدة والدال المهملة) وهم بنو عُبادة بن عُقَيل . قال آبن سعيد: ومنازلهم بالجزيرة الفراتيّة مما يلى العراق لهم عَدَد وكثرة . قال : ومنهــم الآن بقيةٌ بين الخازر والزّابِ، يقال لهم عرب شَرف الدولة فى تجمُّل وعُدَد، ولهم إحسان من صاحب الموصل . ثم قال : وهم عدد قليل نحو المـائة فارس .

ومن بنى عُقَيل أيضا خَفَاجةُ (بفتح الخاء المعجمة وفتح الفاء وجيم مفتوحة بعد الألف وهاء فى الآخر) وهم بنو خَفَاجة بن عمرو بن عُقَيل، وفيهم الإمرة بالعراق إلىٰ الآن .

ومن بطون هوازن أيضا بنو جُشَم (بضم الجيم وفتح الشين المعجمة وميم فى الآخر) وهم بنو جُشَم بن معاوية بن بكر بن هَوازنَ . قال فى العبر : وكانت مساكنهم بالسَّرَوات، وهى تلال تفصل بين تِهامةَ ونجد، متصلةٌ من البحرين إلىٰ الشام كسَرَوات الجبل . قال : وسَرَوات جُشَم متصلة بسَرَاة هُذَيل . ثم قال : وقد ٱنتقل بعضهم إلىٰ المَغْرب، وهم الآن به، ولم يبق بالسَّراة منهم إلا من ليس له صولة . قال صاحب حماة : ومن جُشَم هؤلاء دُرَيد بن الصِّمَّة .

ومن بطون هوازن أيضا ثَقِيفٌ (بفتح الثاء المثلثة وكسر القاف وسكون الياء وفاء فى الآخر) وهم رَهْط الحجاج بن يوسُف : وهم بنو ثقيف وٱسمه قَسِىُّ بن مُنَبِّه بن بكر بن هَوازِنَ؛ ويقال إنهم من إياد بن نِزَار المقدّم ذكره . وعن بعض النَّسابة أن ثقيفا من بقايا ثَمُودَ، وكان الحجاج ينكره ويقول كذبوا، قال الله تعالىٰ : ﴿وثَمُودَ فما أَبقىٰ﴾ أى أهلكهم ولم يبق منهم أحدا . قال فى العبر : وثَقِيف بطن واسع ، وكانت منازلهم بالطائف : وهى مدينة من أرض نجْد علىٰ مرحلتين من مكة فى شرقيِّها وشماليِّها كانت فى القديم للعَمَالقة ، ثم نزلها ثمودُ قبل وادى القُرىٰ : ويقال إن الذى سكنها بعد العَمَالقة عَدْوانُ . ثم غلبهم عليها ثقيفٌ فهى الآن دارُهم .

ومن قبائل قيس أيضا باهِلةُ، وهم بنو سَعدِ مَناة بن مالك بن أعْصُر، وٱسمه مُنَبِّه ابن سعد بن قَيس عيلان؛ وجعلهم فى العبر بنى مالك بن أعْصُر . وباهلةُ أمّ سعدِ مناة عُرِفوا بها : وهى باهلةُ بنت صَعْب بن سعدِ العشيرة من مَذْحِج، منهم أبو أُمامة الباهلىّ صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومن قبائل قيس بنو مازِنٍ ، وهم بنو مازِنِ بن منصور بن خَصَفة بن قَيْس عَيْلانَ . قال فى العبر : وعددهم قليل .

ومن قبائل قيس أيضا بنو غَطَفانَ بن قَيْس عيلان . قال فى العبر : وهم بطن متسعٌ كثير الشعوب والبطون . قال : وكانت منازلهم مما يلى وادىَ القُرىٰ وجَبَلَىْ طيئٍ أجإ وسَلْمىٰ ، ثم تفرّقوا فى الفتوحات الإسلامية ، وآستولىٰ علىٰ مواطنهم هناك قبائل طيئٍ .

ومن بطون غَطَفان بنو عَبْس (بفتح العين وسكون البـاء الموحدة وسين مهملة فى الآخر) وهم بنو عَبس بن بَغِيض بن رَيْث بن غطفان . منهم زُهير بن قيس صاحب حرب داحسَ والغَبْراء . وهمـا فرسان كانت إحداهما وهى داحسُ(١) لَعَبْس والأخرىٰ وهى الغبراء لفزارةَ فأُجْرِيَتا فوقع الحرب بسببهما .

ومن عبسٍ هؤلاء عنترة بن شدّاد الشاعر الفارس المشهور .

ومن غَطَفان أَشْجعُ (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الجيم وعين مهملة فى الآخر) وهم بنو أَشْجَعَ بن رَيْث بن غَطَفان . قال فى العبر : وكانوا هم عربَ المدينة النبويّة ، وكان سيدُهم معقلَ بن سِنَان الصحابىّ . قال : ولم يبق أحد منهم بنجد إلا بَقايَا حولَ المدينة . ثم قال : وبالمغرب الأقصىٰ منهم حىّ عظيم يظعَنُون مع عرب معْقِل بجهات سِجِلْماسة ولهم عدد وذكر .

ومن غطفان أيضا ذِبْيانُ ، قال الجوهرىّ (بكسر الذال يعنى المعجمة وضمها) وهم بنو ذُبْيان بن رَيْث بن غَطفَان ومنهم النابغة الذبيانىّ الشاعر المشهور .

ومن ذبيان فَزَارة (بفتح الفاء والزاى والراء المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو فزارة آبن ذُبْيان . قال فى العبر : وكانت فزارةُ بنجد و وادى القُرىٰ ، فلم يبق منهم بنَجْد أحدٌ

(١) أنث الفرس المسمي بداحس ومقتضي القاموس تذكيره وقد صرفه فيه فليحرر .

ونزل جيرانهم من طيئ مكانهم . وذكر أن بأرض بَرْقة إلى طَرَابُلُس الغرب منهم قبائل : رَوَاحة، وهِيت، وفَزان . قال : و بإفريقية والمغرِب منهم الآن أحياء كثيرة ٱختلطوا مع أهله، يحتاج المعقل من عرب المغرب الأقصى إلى الآستظهار بهم . قال ومنهم مع سليم بإفريقية طائفة أخرى أحلاف لأولاد أبى الليل من شعوب بنى سُليم، يستظهِرون بهم فى مواقف الحرب، و يقيمونهم لأنفسهم مقام الوزراء للملوك . ثم قال وفى برقة ببلاد هِيت جماعةٌ منهم نازلُون بها؛ ومنهم طائفة بصحراء المغرب. قال الحمدانى : ومنهم بالديار المصرية جماعةٌ بالصعيد ، وجماعة بضواحى القاهرة فى قليوب وما حولها، وبهم عُرِفت القرية المسماة بخَرَاب فَزَارة هناك . ومن فزارة بنو مازِنٍ ، وبنو بدر ؛ فأمّا بنو مازن فهم بنو مازن بن فزارة؛ وأما بنو بدر فهم بَنُو بَدْر بن عَدِىّ بن فزارة : قال فى العبر، وفيهم كانت رياسة بنى فَزَارة فى الجاهليّة ، يرأسون جميع غَطَفان وتدينُ لهم قيسٌ وإخوانهم بنو ثعلبة بن عدىّ ؛ ومنهم كان حذيفةُ بن بدر صاحب الفَرَس المعروفة بالغَبْراء المقدّم ذكرها ؛ ومن بَنِى بدر هؤلاء وبنى عمهم بنِى مازنٍ جماعةٌ بالقليوبية من الديار المصرية .

قلت : وبَنُو بدر هم قبيلتنا التى إليها نعتزى ، وفيها ننتسب؛ وأهل بلدتنا قَلْقَشَنْدة نصفهم من بنى بدر ونصفهم من بنى مازن .

ومن قبائل قيسٍ أيضا بنو سُلَيم (بضم السين وفتح اللام) وهم بنو سليم بن منصور ٱبن عِكْرمة بن خَصَفةَ بن قَيْس عيلان . قال الحمدانى : وهم أكبر قبائل قيس . وكان لسُلَيم من الولد بُهْثَة (١) (بضم الباء الموحدة فى أوّله وفتح المثناة بعد الهاء) ومنه جميع أولاده . قال فى العِبَر : وكانت منازلهم فى عاليةَ نجْد بالقرب من خيبر .

(١) ذكره فى القاموس فى باب الثاء المثلثة فقال و بهثة رجل من سليم فتنبه .

ومن منازلهم حَرَّة سُـلَيم، وحرَّة النار بين وادى القُرىٰ وتَيْمـا . قال : وليس لهم الآن بنجد عَدَد ولا بقيَّة . ثم قال : وبإفريقِيَةَ منهم حىّ عظيم، وقد تقدّم أنه كان منهم جماعة بالبحريْنِ فغلَبهم عليها بنو عُقَيل بن كَعْب وبنو تغْلِب . وقال الحمدانى : ومساكنهم بَرْقَةُ ممـا يلى المغرب وممـا يلى مصر . قال : وفيهـم الأبطال الأنجاد، والخيل الجِيَـاد . قال فى العبر : وقد آسْـتَوْلَوْا علىٰ بَرْقَة، وهى إقليم طويلٌ واسعُ الأطراف، وخربوا مدنه ولم يتركـوا بها ولاية ولا إمرة إلا لمشايخهـم . قال فى "مسالك الأبصار" : والإمرة الآن فيهـم فى بنى عزاز، وهى الآن فى زمانـنـا لبنى عريف .

ومن سُلَيم هؤلاء لَبِيد ببرَقَةَ ؛ وهم بطون كثيرة العدد .

ومن قبائل قيسٍ عَدْوان (بفتح العين وسكون الدال المهملتين ونون فى الآخر) وهـم بنو عَدْوانَ وآسمُه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان . قال أبو عبيد : وسمى عَدْوان لأنه عدا علىٰ أخيه فَهْمٍ فقتله . قال فى العبر : وهم بطنٌ متسع، وكانت منازلهم بالطائف من أرض نجد نزلوها بعد إيادٍ والعمالقةِ، ثم غلبهم عليها ثقيفٌ، فخرجوا إلىٰ تِهامة . وبإفريقيَةَ الآن منهم أحياء بادية . وقد عدّ الحمدانىّ عَدْوان من عرب برية الحجاز من أحلاف آل فَضْل من عرب الشام، فيحتمل أنهم هؤلاء وأنهم غيرهم .

الأصـل الثالث — إلياس (بكسر الهمزة وسكون اللام وفتح الياء المثناة تحت وسين بعد الألف) وهو إلياس بن مُضَر المقدّم ذكره، وكانت تحته خِنْدِف (بكسر الخاء وسكون النون وكسر الدال المهملة وفاء فى الآخر) وهى خِنْدف بنت حُلْوان ابن عِمْران بن الحافى بن قُضاعة ، فعُرِف بنوه بها فقيـل لهم خِنْدِف : لأن زوجها

إلياس رآها يوما تمشى، فقال لها : مالك تُخَنْدِفين ؟ والخَنْدَفة أن يقلب ظهر قدمه إلىٰ الأرض عند مشيه . وله فرعان علىٰ حاشية عمود النسب .

الفرع الأوّل — طابخةُ (بفتح الطاء المهملة وكسر الباء الموحدة بعد الألف وفتح الخاء المعجمة وهاء فى الآخر) وهم بنو طابخة، وآسمه عمرو بن إلياس بن مُضَر، وسمى طابخة لأنه كان هو وأخوه مدركةُ الآتى ذكره علىٰ عمود النسب، وكان آسمه عامرا، فى إبل لهما فصادا صيدا، وقعدا يطبُخانه فعدَتْ عادية علىٰ إبلهما فآستاقتها، فقال عامر لعمرو أتُدْرِك الإبل أم تطبخ الصيد ؟ فقال عمرو : بل أطبُخ الصيد، فلحق عامر الإبل فجاء بها فلما جاءا أباهما أخبراه الخبر، فقال لعامر : أنت مُدْرِكةُ . وقال لعمر : أنت طابخةُ فسميا بذلك .

ويتفرّع عن طابخةَ قبائلُ كثيرة .

فمن قبائل طابخة تميم (بفتح التاء المثناة فوق وكسر الميم وسكون الياء المثناة تحت وميم فى الآخر) وهم بنو تَميم بن مُرّ بن مُرَاد بن طابخة . قال فى العبر : وكانت منازلهم بأرض نجد دائرةً من هنالك علىٰ البصرة واليمامة، وآمتدّت إلىٰ العُذَيب من أرض الكوفة، ثم تفرّقوا بعد ذلك فى الحواضر، ولم يبق منهم باديةٌ، وورِث مساكنهم غَزِيّةُ من طيئ وخفاجَةُ من بنى عُقَيل بن كعب .

ومن بطون تميم بنو العنبر، وهم بنو العنبر بن عمرو بن تميم، وإليهم يُنْسَب جَدِيلة آبن عبد الله العنبرىّ الصحابىّ .

ومن بطون تميم بنو حَنْظلة وضبطه معروف، وهم بنو حَنْظلَة بن مالك آبن زيد مناة بن تميم، ويقال لهم حَنظلةُ الأكرمون . قال الجوهرى : وهم أكبر قبيلة فى تميم .

ومن حنظلة بنو يربوع (بفتح الياء المثناة تَحتُ وسكون الراء المهـملة وضم الباء الموحدة وسكون الواو وعين مهملة فى الآخر)؛ وهم بنو يَرْبُوع بن حنظلة .

ومن بنى يربوع بنو العنبر بن يربوع ؛ ومنهم سَجَاحِ التى تنبأتْ فى زمن مسيلِمةَ الكذاب وهم غير بنى العنبر المقدّم ذكرهم .

ومن قبائل طابخة بنو ضَبَّة (بفتح الضاد المعجمة وتشديد الباء) . قال فى العبر : وكانت ديارهم بالناحيــة الشمالية من نجد بجِوَار بنى تميم ثم ٱنتقلوا فى الإســلام إلىٰ العراق، وهم الذين قتلوا المتنبى الشاعر .

ومن قبائل طابخة أيضا مُزَيْنة (بضم الميم وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح النون وهاء فى الآخر) وهم بنو عثمان وأوس، ٱبنى عمرو، بن أُدّ بن طابخة، ومُزَيْنة أمهما عُرِفوا بها ؛ وهى مزينة بنت كَلْب بنِ وَبَرَة . ومنهم كعبُ بنُ زهير ناظمُ القصــيدة المعروفة ببانَتْ سُعاد ، وإليهم يُنْسب الإمام إسماعيل بن إبراهيم المزنىّ صاحب الإمام الشافعى رضى الله عنه .

الفرع الثانى — قَمَعة (بفتح القاف والميم والعين المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو قَمَعة بن إلياس بن مضر . قال الجوهرىّ إن أباه سماه قَمَعة لمـا ٱنقمع فى بيته أى ٱنقهر وذل ولم يشتهر عقبه .

الأصــل الرابع — مُدْركة (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر الراء المهملة وفتح الكاف وهاء فى الآخر) وهم بنو مدركة بن إلياس بن مُضَر ؛ وقد تقدّم سبب تسميته مدركة . وله فرع واحد علىٰ حاشية عمود النسب وهو هُذَيل (بضم الهـاء وفتح الذال المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) وهم بنو هُـذَيل بن

مدركة . وهى قبيلة متسعة لهـا بطون كثيرة والنسـبة إليها هُذَلىّ بحذف الياء بعد الذال، وإليهم يُنْسَب عبد الله بن مسعود الصحابىّ رضى الله عنه .

الأصل الخامس — خُزَيْمة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى وسكون الياء المثناة تحت وفتح الميم وهاء فى الآخر) وهو خُزَيمة بن مُدْرِكة . وله فرعان علىٰ حاشية عمود النسب، وهما الهُون وأسد .

فأما الهون (فبضم الهاء وسكون الواو ونون فى الآخر) وهو الهُون بن خُزَيمة، وهى قبيلة مشهورة .

ومن بطون الهُون عَضَد(1) (بفتح العين المهملة والضاد المعجمة ودال مهملة فى الآخر)، وهم بنو عَضَد بن الهُون .

ومن بطون الهُون أيضا الديش (بكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وشين معجمة فى الآخر) وهم بنو الدِّيش بن مُلَيح بن الهُون، ويقال لهاتين القبيلتين وهما عَضَد والدِّيش القارَة . قال أبو عبيد : وسُمُّوا بذلك لأن الشَّدَّاخ الليثىّ أراد أن يفرّقهم فى بطون كنانةَ فقال بعضهم : دعُونا قارةً لا نتفرّق فسُمُّوا القارةَ .

وأما أَسَدٌ وضبطه معروف، فهم بطن كبير متسع . قال فى العبر : ومنازلهم ممـا يلى الكَرْخَ من أرض نَجْد فى مجاورة طيئ . قال : ويقال إن بلاد طيئ كانت لبنى أسد، فلما خرج بنو طيئ من اليمن تغلبوا علىٰ أجإ وسَلْمىٰ، وتفرّق بنو أسد بسبب ذلك فى الأقطار ولم يبق لهم حىّ . قال آبن سعيد : وبلادهم الآن لطيئ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبغسل وما ينضم إليها من بلاد الشام قوم من بنى أسد .

(1) صوابه ولام فهو عضل لا عضد آنظر القاموس .

ومن بطون أســد الكاهليَّة ، وهم بنو كاهل بن أسد . ومن بطونهم دُودانُ بن أسد أيضا .

الأصل السادس — كِنانة (بكسر الكاف ونون بعدها ألف ثم نون مفتوحة بعدها هاء) وهو كِنانةُ بن خزيمة، وهى قبيــلة عظيمة آشتهرت على عمود النسب . وقد ذكر الحمدانى أن منهــم جماعة بالإخميمية من صــعيد الديار المصرية يُعرفون بكنانة طلحة، وذكر فى "مسالك الأبصار" أن طائفة منهم قَدِموا الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رزيك ونزلوا دِمياطَ وما حولهـا . وله على حاشية عمود النسب خمسة فروع :

الفرع الأوّل — مَلْكان (بفتح الميم وسكون اللام ونون فى الآخر) ، وهم بنو مَلْكان بن كنانة .

الفرع الثانى — عَبْد مناة بإضافة عبد إلى مناة (بميم مفتوحة بعدها نون)، وهم بنو عبد مناة بن كنانة، ولهم عدّة بطون .

منهم غِفَار (بكسر الغــين المعجمة وفتح الفاء وراء بعد الألف)، وهو بنو غِفار آبن عبد مناة بن كنانة ، وهم رهط أبى ذرّ الغِفَارىّ صاحب رســول الله صــلى الله عليه وسلم، وإليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم "غِفَارُ غَفَر اللهُ لها" .

ومنهم بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، ومن بكر هؤلاء الدُّئل . وهم بنو الدُّئل بن بكر آبن عبد مناة، وإليهم ينسب أبو الأسود الدؤلى واضع علم النحو بأمر أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

ومنهم بنو لَيْث، وهم بنو ليث بن بكر بن عبد مناة منهم الصعْب بن جَثَّامة الليثىّ الصحابىّ رضى الله عنه . وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم طائفةً بساقية قُلْتة بالإخميمية من صعيد مصر .

ومنهم بنو الحارث، ويقال فيهم بَلْحارث؛ وهم بنو الحارث بن عبد مناة .

ومنهم بنو مُدْلِج (بضم الميم وسكون الدال المهملة وكسر اللام وجيم فى الآخر)، وهم بنو مُدْلِج بن مُرة بن عبد مناة . وفى بنى مُدْلِج هؤلاء عِلْم القيافة، وهو إلحاق الابن بالأب ونحو ذلك بالشَّبَه . ومنهم طائفة الآن بصَرْخَد وحَوْران من بلاد الشام، وطائفة بالأعمال الغربية من الديار المصرية .

ومنهم بنو ضَمْرة (بفتح الضاد المعجمة وسكون الميم وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو ضَمْرة، بن بكر، بن عبد مناة، وإليهم ينسب عمرو بن أُمَيَّة الضَّمْرى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمدانى أن منهم طائفةً بساقية قُلْتة وما يليها من بلاد إخْمِيمَ من صعيد مصر .

الفرع الثالث — عمرو بن كِنانة؛ وإليه ينسب العَمْريُّون من بنى كنانة .

الفرع الرابع — عامر بن كنانة؛ ومنه العامريُّون من كنانة .

الفرع الخامس — مالك بن كِنانة . ومن عَقِبه بَنُو فِراس، بن غنم، بن ثعلبة، بن الحارث، بن مالك . وفى بنى فِراس هؤلاء يقول أمير المؤمنين علىّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه لبعض من كان معه : "لَوَدِدتُ أن يَكُونَ لى بألف منكم سبعةٌ من بنى فِراس بن غنم". وقد ذكر الحمدانى أن منهم جماعة بساقية قُلْتة وما يليها من الإخميمية بمصر . وذكر الحمدانى أيضا أن من كنانة بنُ خَزيمة طائفةً بصعيد مصر بالأُشْمونَيْن وما حولها تُعْرَف بكنانة طلحة .

الصنف الثانى من العرب العدنانية — قُرَيش (بضم القاف وفتح الراء المهملة)، وهم بنو النَّضْر (بفتح النون وسكون الضاد المعجمة) ابن كنانة وقيل فى تسميته بذلك إنه كان فى سفينة ببحر فارِس إذ خرجتْ عليهم دابة عظيمة يقال لها قُرَيش نخافها أهل

السفينة علىٰ أنفسهم فأخرج سهما من كنانته ورماها فأثبتها، ثم قُرِّبت السـفينة منها فأمسكها وقطع رأسها وحملها معه إلىٰ مكة فسُمِّي باسمها . وقيــل سمِّي بنوه بذلك لغلبتهم القبائل وقهرهم إياهم، تشبيها بالدابة المقدّم ذكرها من حيث إنها تقهر سائر دوابِّ البحر وقيــل أخذا من التقرُّش، وهو الاجتماع لأن قُصَيًّا جمعهم عليه عنــد ولايته أمر قُرَيش . وقيل لتجارتهم أخذا من التقرّش، وهو التجارة .

ثم لقريش عشرة أصول علىٰ عمود النسب :

الأصل الأول — فِهْر بن مالك، ويتفرّع عن فهر علىٰ حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولىٰ — بنو الحــارث، وهم بنو الحارث بن فِهْر . ومن بني الحــارث هؤلاء بنو الجَرّاح رهطُ أبي عُبَيدة بن الجراح، أحد العشرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم المقطوعِ لهم بالجنة .

القبيلة الثانية — بنو محارب بن فهر، المقدّم ذكره . ومنهم الضَّحّاك بن قيس أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الأصل الثاني — غالب بن فهر . ويتفرّع عنه علىٰ حاشية عمود النسب قبيلة واحدة، وهم بنو الأدرم بن لؤيّ(١) بن غالب؛ والأدْرم هو الناقص الذَّقَن .

الأصل الثــالث — لُؤَيّ بن غالب . ويتفرّع منه علىٰ حاشــية عمود النسب ثلاث قبائل :

القبيلة الأولىٰ — سـعد، وهم بنو سـعد بن لؤي بن غالب، كان له من الولد عمار، وعماري، ومخزوم، من امرأته بُنَانَة (بضم الباء الموحدة) وبها يُعرفونَ فيقال لهم بنو بُنَانة، ومنهم أبو الطُّفَيل أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) فيه نظر فإن تيم الأدرم ابن غالب كما في القاموس في مادة ت ي م فلعــل لفظ ابن لؤي مما طغى به قلم الناسخ .

القبيلة الثانية — خُزَيمة (بضم الخاء المعجمة وفتح الزاى) وهم بنو خزيمة بن لؤىّ ؛ وكان تحته عائذة (بالعين المهملة والياء المثناة تحت والذال المعجمة) بنت الخِمس بن قُحافة فعُرِف ولده بها فقيل لهم بنو عائذةَ .

القبيلة الثالثة — بنو عامر، وهم بنو عامر بن لُؤَىّ ، وكان له من الولد حِسْل وبَغِيض . ومن ولد حِسْل سُهَيل بن عمرو الذى عقد الصُّلْح مع النبىّ صلى الله عليه وسلم، يوم الحُدَيْبِيَة لقريش؛ ومنهم عمرو بن عبدِ وُدّ العامرىّ فارس العرب الذى قتله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

الأصل الرابع — كعب بن لُؤَىّ بن غالب ، ويتفرّع منه خارجا عن عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولىٰ — هُصَيْص (بضم الهاء وفتح الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت وصاد مهملة فى الآخر). ومن هُصَيْص بنو سَهْم، منهم عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ وكانت خُطَّة بنى سَهْم بفُسْطاط مصر حولَ الجامع العتيق . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى عمرو بن العاص أشتاتاً بالصعيد، ولهم حصة فى وقف عمرو علىٰ أهله بمصر .

ومنهم بنو جُمَح (بضم الجيم وفتح الميم وحاء مهملة فى الآخر) وهم بنو جُمَح بن هُصَيْص المقدّم ذكره؛ ومنهم أُمَيَّة بن خَلَف عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن من بنى جُمَح قوما بأذرعات من بلاد الشام .

القبيلة الثانية — بنو عَدِىّ ، وهم بنو عدىّ بن كعب؛ ومنهم أمير المؤمنين عمرُ آبن الخطاب رضى الله عنه وسعيد بن زيد أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة ؛ وقد ذكر القاضى شهاب الدين بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" أنه وفد من بنى عدىّ جماعة إلىٰ الديار المصرية فى وزارة الصالح طلائع بن رُزِّيك وزير الفائز الفاطمىّ .

ومنهم رجال من بنى عُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنـه ومقـدّمهُم خَلَفُ بن نصر العُمَرىّ وأنهم لَقُوا من الصالح طلائع بن رُزِّيك وافرَ الإكرام ، ونزلوا بالبَرَلُّس[(١)] من سواحل الأعمال الغربية . وذكر أن من العُمَريين ببلاد الشام فرقةً بوادى بنى زيد وفرقةً بعجلون .

الأصـل الخامس — مُرَّة بن كعب ، ويتفرّع عنـه قبيلتان على حاشـية عمود النسب :

القبيلة الأولى — تَيْم ، وهم بنو تيم بن مرة بن كعب . ومنهم أبو بكر الصـدّيق رضى الله عنه ، وطلحةُ أحد العشرة المقطوع لهم بالجنة . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى الصـدّيق رضى الله عنه من بنى عبد الرحمن وبنى محمد ولدى أبى بكر رضى الله عنه جماعةً بالأُشْمُونَيْن والبَهْنسائية من صعيد مصر . قال الحمدانىّ ، وهم ثلاث فرقهم وأقرباؤهم وأُطْلِق على الكل بنو طلحة . فالفرقة الأولى منهم بنو إسحاق ، ويقال إن إسحاق ليس أبا لهم وإنما هو (إسحاق) مكان تحالفوا عنده فسُمُّوا به . والفرقة الثانية فضاء طلحة ، وهم بطون كثيرة ، وأكثرهم أشتاتٌ كثيرة فى البلاد لاحدّ لهم . والفرقة الثالثة بنو محمد ، وهم بنو محمد بن أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه ، ومنازلهم بالبرجين وسَفْط سُكَّرة ، وطحا المدينة من بلاد الأُشْمونْين فيما ذكره الحمدانىّ ، وأكثرهم الآن بدَهْروط من البهنسائية ، وخرج منهم جماعة من العلماء على مذهبِي الإمامين : مالك والشافعىّ رضى الله عنهما .

القبيلة الثانية — بنو يَقَظَة ، وهم بنو يقظة بن مُرَّة . ومنهم بنو مخزوم (بفتح الميم وسكون الخاء المعجمة وضم الزاى وسكون الواو وميم فى الآخر) وهم بنو مخزوم بن

(١) قال ياقوت برلس بفتحتين وضم اللام وتشديدها وفى القاموس بُرُلُّس بالضمات وشدّ اللام .

يَقظة بن مُرَّة بن كعب ، وبه ٱشتهرت القبيلة دون أبيه يَقظة لكثرة عَقِبه دون أبيه . منهم خالد بن الوليد أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو جَهْل ٱبن هشام عدوّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأخُوه العاص بنُ هشام ، قُتِلا يوم بدر كافرَيْن ، وأخوهما سلمَةُ بن هشام ، أسلم وكان من خيار المسلمين . ومنهم سَعِيد بن المسيّب التابعيّ المشهور ، وقد ذكر الحمدانيّ أن من بنى مخزوم جماعة بصعيد مصر بالأُشْمُونَيْن وفيهم بأس وشدّة . وذكر أيضا أن منهم خالد حمص وخالد الحجاز . وذكر أن كلا منهم يَدَّعِى بنوّة خالد بن الوليد رضى الله عنه . ثم قال : وقد أجمع أهل العلم بالنسب علىٰ ٱنقراض عقبه . قال ولعلهم مِنْ سواه من بنى مخزوم فهم أكثر قريش بقيةً وأشرفُهم جاهلية .

الأصل السادس — كلاب بن مُرَّة ، ويتفرّع منه علىٰ حاشية عمود النسب قبيلةٌ واحدة ، وهى زُهْرة (بضم الزاى وسكون الهاء وفتح الراء وهاء فى الآخر) وهم بنو زُهْرة بن كلاب بن مُرَّة قاله أبو عبيد وغيره . وقد ذكر الجوهرىّ أن زُهْرَةَ ٱسم ٱمرأة كلاب نُسِب ولده إليها . منهم سعد بن أبى وَقَّاص ، وعبدُ الرحمن بنُ عَوْف كلاهما من العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلم . ومنهم آمنةُ بنتُ وهبٍ أمُّ رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقد ذكر الحمدانىّ أن منهم جماعة ببلاد الأشمونين بصعيد مصر .

الأصل السابع — قُصَىّ بن كلاب بن مرة ، وكان قُصَىٌّ عظيما فى قريش ، وهو الذى جَمَعهم بعد التفرّق ، وفى ذلك يقول الشاعر :

أَبُوكُم قُصَىٌّ حِينَ يُدْعَى مُجَمِّعا * بِهِ جَمَعَ اللهُ القبائِلَ مِنْ فِهْرِ

وآرتجع مفاتيح الكعبة من خُزَاعة بعـد أن كانوا آنتزعوها من بنى إسمـاعيل على ما تقدّم ذكره . ويتفرّع منه على حاشية عمود النسب قبيلتان :

القبيلة الأولى — بنو عبد الدار ، وهم بنو عبد الدار بن قُصَىّ ، وبيـد بنيه كانت مفاتيح الكعبة دون سائر بنى قُصَىّ . وذلك أن قُصَيًّا لما أخذ مفاتيح الكعبة من أبى غَبْشَانَ الخُزَاعىّ ، أرسلها مع آبنه عبـد الدار هذا إلى البيت وقال : يا بنى إسمـاعيل هذه مفاتيح بيت أبيكم إبراهيم وقد أعادها الله تعالى إليكم . فبقيت بيده من حينئذ ، ومن ولده عثمان بنُ طلحة الحَجَبِىّ الذى آنتزع النبىُّ صـلى الله عليه وسلم منه مفاتيح الكعبة عام حَجَّة الوداع حين طَلَبهـا منه لتدخُل عائشـةُ رضى الله عنها البيتَ ليلا فامتنع من ذلك وقال : إن الكعبة لم تُفْتَح ليلا قط فأنزل الله تعالى ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أَهْلِهَا﴾ فأعادها إليه وقال "هِىَ فيكم إلى يومِ القيامة". وقد ذكر فى المسالك أن بحَماة أقواما من بنى عبد الدار .

ومن بنى عبد الدار بَنُو شيبةَ بن عثمان المقدّم ذكره ، آبن طلحة ، بن أبى طلحة ، بن عبد العزّى ، بن عثمان ، بن عبد الدار ، وهم حَجَبة الكعبة ، ومفاتيحُها بيدهم إلى الآن . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى شيبة هؤلاء قوما بصعيد مصر بسفْط وما يليها من بلاد البهنسائية يعرفون بجماعة نَهَار .

القبيلة الثانية — بنو عبد العُزّى ، وهو عبد العزى بن قُصَىّ ، منهم هَبَّار بن الأسْود كان يهجو النبىَّ صلى الله عليه وسلم ، ثم أسلم فحُسن إسلامه ومدحه .

ومن بنى عبد العزّى هؤلاء بنو أسد ، وهم بنو أسد بن عبد العزى المقدّم ذكره .

ومن بنى أسـد هؤلاء الزُّبَير بن العوّام ، أحدُ العشرة المقطوع لهم بالجنة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ومنهم خديجة أمّ المؤمنين، زوجُ النبيّ صلى الله عليه وسلم، ووَرَقَةُ بن نَوْفل الذى أتته خديجةُ فى أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم، فى آبتداء النبوّة حين جاءه المَلَك بحِرَاء . وقد ذكر الحمدانىّ أن من بنى الزبير طائفةً بصعيد مصر ببلاد البهنسا وما يليها . فمن ولد عبد الله بن الزبير بَنُو بدر، وبنو مصلح، وبنو رمضان .

ومن بنى مُصْعَب بن الزبير جماعةٌ يعرفون بجماعة محمد بن ورّاق . ومن ولد عروة آبن الزبير بنو غَنّى .

الأصل الثامن — عبد مناف بن قصى، ولبنى عبد مناف فى قريش النسب الصَّميم، والحسب الكريم، وإلىٰ هذا أشار أبو طالب بقوله :

إذَا ٱفْتَخَرتْ يَوْمًا قُرَيْشٌ بمَفْخَرٍ * فعَبْـدُ مَنَافٍ أصْـلُهَا وصَمِيمُها

ويتفرّع منه علىٰ حاشية عمود النسب ثلاثُ قبائل :

القبيلة الأولىٰ — بنو عبد شمس بنِ عبد مناف . ومن عبد شمس بنو أُمَيَّة، وهم بنو أُمَيَّة الأكبرِ وأمية الأصغرِ آبنى عبد شمس بن عبد مناف .

فأما أُميَّةُ الأكبر، فكان له عشرة أولاد : أربعة منهم يسمَّوْن الأعياص، وهم العاص، وأبو العاص، والعِيص، وأبو العِيص، وستة يسمَّوْن العَنَابِس، وهم حرب، وأبو حرب، وسُفْيان، وأبو سُفْيان، وعمرو، وأبو عمرو .

ومن بنى أمية الأكبر أمير المؤمنين عثمانُ بن عفَّان رضى الله عنه، ومعاويةُ بن أبى سفيانَ بنِ حرب، والحَكَمُ بن العاص . ومن ولده كانت المَرَاوِنةُ خلفاء بنى أُمَيَّة .

وأما أمية الأصغر فيقال لأولاده العَبَلات، ومن عقب أمية الأصغر الثُّرَيا بنتُ عبد الله بن الحارث بن أمية، التى كان يشبِّب بها عُمرُ بن أبى ربيعة، وكان تزوّجها سُهَيْل بن عبد الرحمن بن عوف، وفيهما يقول عمر بن أبى ربيعة :

أَيُّهَا الْمُنْكِحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلًا * عَمْرَكَ اللهَ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَّةٌ إذا ما ٱستقلَّتْ * وسُهَيْلٌ إذا ٱستَقَلَّ يَمَانِي

وقد ٱختلف فى النسبة إلىٰ أمية علىٰ مذهبين، أحدهما أنه أُمَوِىّ بضم الهمزة جريا علىٰ اللفظ فى أمية ، وإليه يميل كلام الشيخ أثير الدين أبى حَيَّان فى شرح التسهيل ، الثانى أنه ينسب إليها أَمَوِىٌّ بفتحها لأن أُمَيَّة تصغير أَمَة فإذا نسبت رددته إلىٰ أصله وعليه ٱقتصر الجوهرىّ .

القبيلة الثانية — نَوْفل ، وهم بنو نَوْفل بن عبد مَناف، ومنهم نافع بن طريب[(١)] ٱبن عمرو بن نوفل الذى كتب المصاحف لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وكان نوفل وعبد شمس متآلفين فجرىٰ بنوهما علىٰ ذلك .

القبيلة الثالثة — بنو الْمُطَّلب ، وهم بنو المطلب بنِ عبد مناف ، وكان الْمُطَّلب متآلفا مع أخيه هاشم بن عبد مناف المقدّم ذكره فجرىٰ بنوهما علىٰ ذلك ، حتّى قال النبىّ صلى الله عليه وسلم "لم يَفْتَرِق هاشِمٌ والْمُطَّلِبُ فى جاهِلِيَّةٍ ولا إسلام" . ومن بنى المطلب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه .

الأصل التاسع — هاشم بن عبد مناف، وٱسمه عمرو، وسمى هاشما لَهَشْمه الثريد أيام المجاعة، وفى ذلك يقول الشاعر :

عَمْرُو الَّذِى هَشَمَ الثَّرِيدَ لِقَوْمِه * ورِجالُ مَكَّةَ مُسْنِتُونَ عِجَافُ

وٱنتهت إليه سيادة قريش . وكان له علىٰ حاشية عمود النسب أربعة أولاد . وهم نَضْلة، وأسد، وصيفىّ، وأبو صيفىّ، ولم يشتهروا كل الاشتهار .

الأصل العاشر — عبد المطلب بن هاشم ، وكان له ٱثنا عشر ولدا : عبدُ الله أبو النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب ، والزُّبير، وعبد الكعبة ، والعباس ،

(١) كذا فى سبائك الذهب أيضا والذى فى العقد الفريد شافع بن ظرب .

وضِرَار، وحَمْزة، وحَجْل، وأبو لَهَب، وقُثَم، والغَيْداق الملقب بالمُقَوِّم، والحارث أعمام النبيّ صلى الله عليه وسلم على خلاف فى العدد فيهم . قال أبو عبيد : والعقب منهم لستة : حمزة والعباس رضى الله عنهما، وأبو لهب، وأبو طالب، والحارث، وعبد الله .

فأما عبد الله فمن ولده النبيّ صلى الله عليه وسلم، خلاصةُ الوجود، وزُبْدة العالَم . وأما العبـاس فمن ولده الخلفاء من زمن أبى العَبَّاس السَّفَّاح أوّل خلفائهم وهلم جرا إلى المستعين بن المتوكل خليفة العصر . وأما حمزة فقد ذكر ٱبن حزم وغيره أن عقبه ٱنقرض . وأما أبو طالب فله ثلاثة أولاد، وهم أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وجَعْفر، وعَقِيل؛ فمن ولد أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه الحَسَنُ والحُسَيْن عليهما السـلام، من فاطمة بِنْت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعَقِبهما قد ملأ الشرق والغرب؛ وقد ذكر الحمدانىّ أن منهـم بصعيد مصرَ جماعةً من الجَعَافِرة بنِى جَعْفر الصادق من ولد الحُسَيْن بن علىّ وقال مسكنهم من بحرىّ مَنْفَلُوط إلى سَمَلُّوط غربا وشرقا، وعدّ من بطونهـم الحَيادِرة، وهم أولاد حَيْدرة، والسلاطنة، وهم أولاد أبى جُحَيش، وذكر أنه كان منهم الشريف حِصْن الدِّين بن تَغلب صاحب دَرْوة سَرَبَام من الأُشْمونين، وبه عرفت بدَرْوة الشريف، وكان قد سَمَتْ نفسُه إلى المُلْك فى أواخر الدولة الأيوبية وبقى حتّى ملك الظاهر بيبرس، فأعمل له غوائل الغدر حتّى قبض عليـه وشنقه بالإسكندرية . قال ومن بنى الحُسَـيْن قوم بحَرَجة مَنْفلُوط، وبنى الحُسَـيْن هؤلاء تعرفُ القرية المسماة ببنى الحُسَين . وفى أسيوط جماعة من أولاد جَعْفر الصادق يُعرَفون بأولاد الشَّريف قاسم . وذكر فى "مسالك الأبصار" أنّ بسَلَمِيَّة وحَلَب وبلادهما جماعةً من بنى الحسين .

ومن ولد جعفر بن أبي طالب أقوام ببلاد الشام بوادى بنى زيد، وبصَرْخد وبلادها جماعةٌ من عامر بن هلال، يَدَّعون أنهم من بنى جعفر بن أبى طالب أيضا. وفى بعض قُرىٰ أذْرِعات قوم يدّعون أنهم منهم . وأما الحارث وأبو لهب فقد ذكر فى العبر أن لهما عقبا موجودا ولم يصرح بمحله .

الضرب الثـالث

(من العرب الموجودين المتردّد فى عروبتهم)

وهم البَرْبَرُ (بباءين موحدتين مفتوحتين بينهـما راء مهملة ساكنة وراء مهملة فى الآخر) . قال الجوهرى : ويقال فيهم البَرابِرة والهاء للعجمة والنسب ولا يمتنع حذفها . وقد آختُلف فى نسبهم آختلافا كثيرا فذهبت طائفة من النسابين إلىٰ أنهم من العرب . ثم آختلِف فى ذلك فقيل أوزاع من اليمن ، وقيـل من غَسَّانَ وغيرهم تفرّقوا عند سَيْل العَرِم قاله المسعودى؛ وقيل خَلَّفهم أبرهةُ ذو المَنَار أحدُ تَبَابِعة اليمن حين غزا المغربَ ؛ وقيـل من ولد لُقْمان بن حِمْير بن سَبَإ، بعث سرية من بنيه إلىٰ المغرب ليعْمُروه، فنزلوا وتناسلوا فيه؛ وقيل من لخم وجُذام ، كانوا نازلين بِفَلَسْطِينَ من الشام إلىٰ أن أخرجهم منها بعض ملوك فارس فلجئـوا إلىٰ مصر فمنعهم ملوكها من نزولهـا فذهبوا إلى المغرب فنزلوه؛ وذهب قوم إلىٰ أنهم من ولد لقشان بن إبراهيم الخليل عليه السلام . وذكر الحمدانى أنهم من ولد بَرْبَر بن قَيْدار بن إسماعيل عليه السلام، وأنه آرتكب ذَنْبا فقال له أبوه البَرَّ البَرَّ آذهب يابر فمـا أنت بِبَرّ، وقيل هم من ولد بَرْبَر بن ثميلا بن مازيع بن كَنْعان بنِ حام بن نُوح عليـه السلام ، وقيل من ولد بَرْبَر بن كسلاجيم بن حام بن نوح ؛ وقيل من ولد ثميلا بن ماراب بن عمرو آبن عمْلاق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح؛ وقيل من ولد قِبْط بن حام بن نوح ؛

وقيل أخلاط من كَنْعانَ والعماليق ؛ وقيل من حِمْيَرَ ومصر والقِبْط ؛ وقيل من ولد جالُوتَ ملك بنى إسرائيل، وإنه لما قتله داود تفرّقوا فى البلاد فلما غزا إفريقش البلادَ نقلهم من سواحل الشام إلىٰ المغرب ، وهو الذى رجحه صاحب العبر . وبالجملة فأكثر الأقوال جانحة إلىٰ أنهم من العرب وإن لم نتحقق من أىّ عرب هم، وهم قبائل متشعبة وبطون متفرقة ، وأكثرهم ببلاد المغرب ؛ وبديار مصر منهم طائفة عظيمة، قال فى العبر : وهى علىٰ كثرتها راجعة إلىٰ أصلين لا تخرُج عنهما : أحدهما البَرَانس، وهم بنو برنس بن بربر . والثانى البُتْر، وهم بنو مادغش الأبتر بن بربر . وبعضهم يقول إنهم يرجعون إلىٰ سبعة أصول ، وهى اردواحة ، ومصمودة، وأَوْرَبّة، وعجية، وكُتَامة، وصنْهاجة، وأوريغة . وزاد بعضهم لمطة، وهسكورة، وكزولة . وقد ذكر صاحب العبر منهم الجمّ الغفيرَ؛ والذى تدعو الحاجة إلىٰ ذكره من ذلك طائفتان :

الطائفة الأولى — الذين كان منهم ملوك المغرب للحاجة إلىٰ ذلك لمعرفة أنساب الملوك عند المكاتبة إليهم، وهم ثلاث قبائل :

القبيلة الأولىٰ — مَصْمُودة (بفتح الميم وسكون الصاد المهملة وضم الميم وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر) وهم بنو مَصْمُودَة بن برنس بن بَرْبَر . قال فى العبر : وهم أكبر قبائل البربر، وأكثرهم عددا، وأوسعهم شعوبا، ومنهم الموحدون أصحاب المهدىّ بن تومرت القائم بقاياهم بإفريقية إلىٰ الآن .

ومن مَصْمُودة هَنتاتة (بفتح الهاء وإسكان النون وفتح التاء المثناة فوق وبعدها ألف ثم تاء ثانية مفتوحة وهاء فى الآخر) ومنهم أبو حفص أحد أصحاب المهدىّ بن تُومرت المقدّم ذكره ، وهو الذى ينسب إليه الحَفْصِيُّون ملوكُ إفريقية القائمون بتونس إلىٰ الآن علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المسالك والممالك .

القبيلة الثانية — زِنَاتة (بكسر الزاى وفتح النون وبعـد الألف تاء مثناة فوق مفتوحة وهـاء فى الآخر) وهم بطن من البُتْر بن البربر . قال فى العبر : وآسم زِناتة جانا بالجيم ويقال شانا بالشين، آبن يحيي، بن صولات، بن ورساك، بن ضرى، بن رحيك، بن مادغش، بن بربر. ونقل آبن حزم عن بعضهم أن ضرى، بن شقعو، بن تبدواد، بن ثملا، بن مادغش، بن هوك، بن برسق، بن كداد، بن مازيع، بن هراك، آبن هريك، بن بدّا، بن بديان، بن كنعان، بن حام، بن نوح عليه السلام. وقيل: جانا آبن يحيي، بن ضريس، بن جالوت، بن هريك، بن جديلات، بن جالود، بن رديلات، آبن عصى، بن بادين، بن رحيك، بن مادغش الأبتر، بن قيس عيلان، وحينئذ تكون من العرب العدنانية. وقيل: جالوت، بن جالود، بن ديال، بن قحطان، بن فارس فتكون من الفرس . قال فى العبر: وتزعم نَسَّابة زِنَاتة الآن أنهم من حمير من التبابعة فيكونون من القَحْطانية، وبعضهم يقول إنهم من العمالقة . وقد تقدّم عددهم فى العرب .

ومن زِنَاتة بنو مَرِين (بفتح الميم وكسر الراء المهـملة وسكون اليـاء المثناة تحت ونون فى الآخر) وهم بنو مَرِين، بن ورتاجن، بن ماخوخ، بن وجريج، بن فاتن، آبن بدر، بن يحفت، بن عبد الله، بن زرتبيص، بن المعز، بن إبراهيم، بن رحيك، بن واشين، بن نصبين، بن سراء، بن احيا، بن ورسيك، بن اديت، بن جانا، وهو زناتة.

ومن بنى مَرِين هؤلاء بنو عبد الحق ملوك فاس القائمون بها إلىٰ الآن علىٰ ما يأتى ذكره فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك إن شاء الله .

ومن زناتة أيضا بنو عبد الواد ملوك تلمسان من المغرب الأوسط القـائمون بها إلىٰ الآن .

القبيلة الثالثة — صَنْهاجة (بفتح الصاد المهملة وسكون النون وفتح الهـاء وألف بعدها جيم مفتوحة وهاء فى الآخر) وهم بنو صَنْهاجة، بن برنس، بن بربر.

وقيل صَنْهاج، بن أوريغ، بن برنس، بن بربر. ويقال إنهم من حمير من عرب اليمن قاله ابن الكلبي" والطبرى" والبيهقى" والمسعودى" وعبد العزيز الجرجانى" .

وحكى ابن حزم : أن صنهاج إنما هو ابن امرأة اسمها بَصْلى وليس له أب معروف وأنها تزوّجت بأوريغ، وهو معها، فولدت له هوّارة(١)، فكان صنهاج أخا هوّارة لأمّه .

ومن صَنْهاجة لَمْتُونة (بفتح اللام وسكون الميم وضم التاء المثناة فوق وفتح النون وهاء فى الآخر) ؛ ومن لمتونة ملوك المُرابِطين الذين كان منهم أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين بانى مدينة مَرَّاكُش من الغرب الأقصى ، وهم الذين انقرض مُلْكُهم بدولة المُوَحِّدين .

الطائفة الثانية — الذين منهم بالديار المصرية . قال فى العبر : وهم قبيلتان :

القبيلة الأولى — هَوَّارة (بفتح الهاء وتشديد الواو وفتح الراء المهملة بعد الألف وهاء فى الآخر)، وهم بنو هَوَّارة بن أوريغ، بن برنس، بن بربر. وذكر الحمدانى" أنهم من ولد بَرّ، بن قَيْذار، بن إسماعيل عليه السلام . قال فى العبر : ونَسَّابتهم يقولون إنهم من عرب اليمن . فتارة يقولون إنهم من عامِلةَ إحدى بطون قُضاعة، وتارة يقولون إنهم من ولد المِسْور، بن السَّكاسِك، بن وائل، بن حمير، وتارة يقولون من ولد السَّكاسك، بن أشرَس، بن كِنْدة، فيقولون هوّار، بن أوريغ، بن حيور، بن المثنّى، ابن المسور . وقد عدّ الحمدانى" من بطونهم بالديار المصرية بنى مجريش، وبنى اسرات، وبنى قطران، وبنى كُريب، ولكنهم الآن قد اتسعت بطونهم، وكَثُرت شعوبهم، وصار لهم بطون كثيرة .

منها بنو محمد، وأولاد مأمن، وبندار، والعرايا، والشللة، وأشحوم، وأولاد مؤمنين، والروابع، والروكة، والبروكية، والبهاليل، والأصابغة، والداجلة، والمواسية

(١) فى العبر بدون هاء التأنيث وقد اختلف الأصل الذى بيدنا فتارة يثبتها وتارة يحذفها .

والبلازد ، والصوامع ، والسدادرة ، والزيانية ، والجيافشة ، والطردة ، والأهلة ، وازلتين، واسلين ، وبنو قمير، واتيه، والتبابعة ، والغنائم، وفزارة ، والعبابدة، وساورة، وغلبان، وحديد، والسبعة . وذكر فى "مسالك الأبصار" أن لهم بالديار المصرية البحيرة ، ومن الإسكندرية غربا إلىٰ العقبة الكبيرة ، ولم يزل الأمر علىٰ ما ذكره إلىٰ آخر المائة الثامنة فى الدولة الظاهرية الشهيدية برقوق فغلبهم علىٰ البحيرة زنارة وحلفاؤهم من بقية عرب البحيرة ، فخرجوا عنها إلىٰ صعيد مصر، ونزلوا به بالأعمال الإخميمية فى جرجا وما حولها . ثم قوِىَ أمرهم، وآشتدّ بأسهم ، وكثر جمعهم، حتّى آنتشروا فى معظم الوجه القبلىّ فيما بين أعمال قوص، وإلىٰ غربىّ الأعمال البهنسائية ، وأُقْطِعوا بها الإقطاعات، وصارت الإمرة فى بلاد إخميم لأولاد عمر ، وفى أعمال البهنسا وما حولها لأولاد غريب، والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

القبيلة الثانية — لَوَاتة (بفتح اللام والواو والثاء المثلثة[1] وهاء فى الآخر) قال الحمدانىّ : ويقال لَوَاتا بالألف، وهم بنو لَوَاتا الأصغر، بن لَوَاتا الأكبر، بن رحيك، آبن مادغش الأبتر، بن بربر . قال الحمدانىّ : وهم يقولون إنهم من قيس من غطفان، بن سعد، بن قيس عيلان . وذُكِر عن بعض النسابين أنهم من ولد برّ، بن قَيْذار، بن إسماعيل عليه السلام، وأنه تزوّج آمرأة من العماليق فولدت له أولادا منهم لَوَاثة .

وحكى آبن حزم عن بعض النسابة : أن لَوَاثة من القِبْط . ثم قال : وليس بصحيح . قال الحمدانىّ : ولهم بمصر بطون كثيرة، منهم بنو بلار، وجد وخاص، وبنو مجدول وبنو جديدى، وقطوفة، وبركين، ومالو، ومزورة . قال: وبنو جديدى تجمع أولاد

---

(١) ذكرها صاحب القاموس بهذا الضبط فى باب التاء المثناة من فوق فليتنبه .

قريش، وأولاد زَعَازِع، وهم أشهر مَنْ فى الصعيد . وقطوفة تجمع مَغَاغة وواهلة . وبركين تجمع بنى زيد وبنى روحين . ومزورة تجمع بنى وركان وبنى غرواسن . ثم قال : فأما بنو بلار ففرقتان فرقة بالبهنسائية، وهم بنو محمد، وبنو علىّ، وبنو نِزار، ونصفُ بنى شهلان .

وأما الفرقة التى بالجيزية، فبنو مَجْدول، وسَقَّارة، وبنو أبى كَثير، وبنو الحلالس (١) . قال : ويقال لهذه الفرقة جد وخاص، ويقال للأولىٰ البلارية؛ ومنهم مَغَاغة، ولهم سَمَلُّوط إلىٰ الساقية، ولبنى بركين قَلُوسَنا وما معها إلىٰ بحرىّ طَنْبَدى (٢)، ولبنى جد وخاص الكفور الصولية، وسَفْط أبو جِرْجا إلىٰ طنبدى (٢)، وإهريت . ومنهم بنو محمد، وبنو علىّ المقدّم ذكرهما، وأمراؤهم بنو زعازع .

وأما مزورة، فبنو وركان، وبنو غرواسن، وبنو جماز، وبنو الحكم، وبنو الوليد، وبنو الحجاج، وبنو الحرمية .

وأما بنو نزار . فمن بنى زرية؛ ومنهم نصف بنى عامر، والحماسنة، والضباعنة؛ وهم فى إمارة بنى زعازع . ومنهم أيضا بنو زيد وأمراؤهم أولاد قريش، ومساكنهم النُّوَيْرة؛ وبالجيزة منهم صلامس : عرب البدرشين، وبنو منصور : عرب منية رهينة، وبنو بكْم : عرب سَقَّارة، وبنو مَجْدول، وبنو يرنى، وبنو يوسف، وبهم تعرف الكفور الثلاثة المسماة باسمهم . وبالمنوفية منهم بنو يحيىٰ، والسوة، وعبيد، ومصلة، وبنو مختار . ومن لَوَاتَة هؤلاء زُنَّارة (بضم الزاى وتشديد النون وألف ثم راء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر)، وهم بنو زُنَّارة من ولد بر، بن قَيْذار، بن إسماعيل عليه السلام، وقال : إنه أخو هَوّارة، وأكثر زُنَّارة ببلاد المغرب ؛ ومنهم جماعة

---

(١) فى السبائك بنو الجلاس بالجيم وحرر .
(٢) فى معجم ياقوت طبنذة بالذال المعجمة وهاء التأنيث .

بالبحيرة وجماعة بالمنوفية . وقد عدّ الحمدانيّ من بطونهم بالبحيرة بنى مزديش، وهم مزداشة، وبنى صالح، وبنى سام وزمران، وأوريغة ، وعزهان، ولقان . وزاد بعضهم بنى حبون، وواكدة، وفرطيطة، وغرجومة، وطازولة، ونفاث، وناطورة، وبنى السعوية، ومزداشــة، وبنى أبى سعيد، وهم عرب بدر بن ســلام . ومن لواتة أيضــا مزاتة (بضم الميم وفتح الزاى والتاء المثناة فوق وهاء فى الآخر) ، وهم بنو مُزَاتة ، بن لَوَاتَةَ الأصغرِ، ومنازلهم من البحيرة غربا إلى العقبة الكبيرة ببَرْقة .

المقصد الثـالث

(فى معـــرفة أنساب العجـــم)

وهم مَنْ عدا العربَ من الفُرْس ، والتُرْك ، والرُّوم ، وغيرهم . ويُحتاج إلى ذلك فى المكاتبات إلى ملوكهم، وعَقْد الهُدَن معهم، ونحو ذلك .

والمشهور من الأمم العجمية ست وعشرون أمة :

الأولى ــ الترك (بضم التاء المثناة فوقُ وسكون الراء المهملة وكاف فى الآخر) ، وهم الأمّة المشهورة الذين منهــم مُلُوك الديار المصرية الآن ، وهم من بنى تُرْك ، بن كومر بن يافِث ، بن نوح عليه السلام؛ وقيل من بنى طيراش ، بن يافث، ونسبهم ابن سعيد إلى ترك ، بن عابَر، بن شمويل، بن يافث . قال فى العبر : ويدخل فى جنس الترك القفجاق، وهم الخفشاج ، والطغرغر؛ وهم التتر . ويقال فيهــم التتار بزيادة ألف ، والططر بإبدال التــاء طاء، والخطا، والخزلجيــة والخَزَر؛ وهم الغــز الذين كان منهم ملوك السّــلاجقة، والهَيَاطلة، وهم الصغدر والغور والعلان ، ويقال : اللان ، والشركس، والأزكش ، والروس فكلُّهم مــن جيل الترك ونسبهم داخل فى نسبهم .

الثانية — الجَرَامِقة (بفتح الجيم وكسر الميم وفتح القاف وهاء فى الآخر)، وهم أهل المَوْصِل فى الزمن القديم . قال آبن سعيد: وهم من ولد جُرْموق، بن أشور، بن سام، آبن نوح عليه السلام . وقال غيره : من ولد كاثر، بن إرم، بن سام .

الثالثة — الجيل (بكسر الجيم وسكون المثناة تحت ولام فى الآخر) ، وهم أهل كيلان من بلاد الشرق . قال آبن سعيد : وهم من بنى باسل، بن أشور، بن سام، آبن نوح عليه السلام .

الرابعة — الخَزَر (بفتح الخاء والزاى المعجمتين وراء مهملة فى الآخر) ، وهم التركمان . فى الإسرائيليات أنهم من ولد توغرما، بن كومر، بن يافث، بن نوح؛ وقيل هم من بنى طيراش بن يافث؛ وقيل نوع من الترك .

الخامسة — الديلم (بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وميم فى الآخر) ، وهم الذين كان منهم ملوك بنى بُوَيه الخارجين على خلفاء بنى العَبَّاس ببغداد . قال فى العبر : هم من بنى ماداى ، بن يافث ، بن نوح ؛ وقال آبن سعيد : من بنى باسل ، بن أشور ، بن سام، بن نوح ، وقيل هم من العرب وضعفه أبو عبيد .

السادسة — الرُّوم وضبطهم معروف ، وهم الأمة المعروفة الذين منهم ملوك القُسْطَنْطِينِيَّة الآن؛قيل هم من بنى كيتم بن يونان، وهو يابان، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد رومى، بن يونان، بن علجان، بن يافث، بن نوح، وقيل من ولد رعويل آبن عيصو، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام . وقال الجوهرىّ : من ولد رُوم، بن عِيصُو بن إسحاق .

السابعة — السُّرْيَان (بضم السين وسكون الراء المهملتين وفتح الياء المثناة تحت

وألف ثم نون)، قال آبن الكلبيّ : من بنى سُوريان، بن نبيط، بن ماش، بن آدم، آبن سام، بن نوح .

الثامنة ــ السِّنْد (بكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة فى الآخر)، فى الإسرائيليات أنهم من ولد شبا، بن رعما، بن كوش، بن حام، بن نوح؛ وحكىٰ الطبرى عن آبن إسحاق : أنهم من بنى كوش بن حام .

التاسعة ــ السُّودان وضبطهم معروف . قال آبن سعيد : جميع أحيائهم من ولد حام بن نوح؛ ونقل الطبرىّ عن آبن إسحاق : أن الحبشــة من ولد كوش بن حام والنُّوبة، والزِّنج، والزَّغَاوة من ولد كَنْعان بن حام . وذكر آبن سعيد : أن الحبشة من بنى حَبَش والنُّوبة من ولد نُوبة أو بنى نوبى ، والزِّنج من بنى زَنج ، ولم يرفع فى نسبهم فيحتمل أنهم من بنى حام، وأنهم من بنى غيره .

العاشرة ــ الصَّقَالبة (بفتح الصاد المهملة وفتح القاف وألف بعدها لامٌ مكسورة وباء موحدة مفتوحة وهاء فى الآخر)، وهم عند الإسرائيليين من بنى بازان بن يافث آبن نوح، وقيل هم من بنى اشكنّاز، بن توغرما، بن كومر، بن يافث .

الحادية عشرة ــ الصِّين وضبطهم معروف، قيل هم من بنى صينى، بن ماغوغ آبن يافث، بن نوح؛ وقيل من بنى طوبال بن يافث . وذكر "هرشيوش" مؤرّخ الروم أنهم من بنى ماغوغ بن يافث .

الثانية عشرة ــ العِبْرانيُّون (بكسر العين المهـملة وسكون البـاء الموحدة وفتح الراء المهملة وألف بعـدها نون مكسورة وياء مثناة تحتُ مشدّدة مضمومة وواو ساكنة ثم نون)، وهم الذين يتكلم اليهود بلسانهم إلىٰ الآن . قال الطبرىّ: وهم من ولد عابَر، بن شالخ، بن أرنخشذ، بن سام، بن نوح .

الثالثة عشرة — الفُرْس (بضم الفاء وسكون الراء المهملة وسين مهملة فى الآخر) وهم الذين كان منهم ملوك الأكاسرة . قال آبن إسحاق : هم من ولد فارس، بن لاوَذ، آبن سام، بن نوح . وقال آبن الكلبيّ : هم من ولد فارس، بن طيراش، بن أشور، بن سام، بن نوح؛ وقيل من ولد طيراش، بن همدان، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من بنى أَمِيم، بن لاوذ، بن سام . ووقع للطبرىّ : أنهم من ولد رعو يل، بن عيصو، بن إسحاق، آبن إبراهيم عليه السلام . قال فى العبر : ولا آلتفاتَ إلىٰ هذا القول لأن مُلْك الفُرْس أقدم من ذلك .

الرابعة عشرة — الفرنج (بفتح الفاء والراء المهملة وسكون النون وجيم فى الاخر) قيل من ولد طو بال، بن يافث؛ وقيل من ولد غطرما، بن كومر، بن يافث .

الخامسة عشرة — القبط (بكسر القاف وسكون الباء الموحدة وطاء مهملة فى الآخر)، وهم الذين كان منهم أهل مصر فى القديم . قال إبراهيم بن وصيف شاه : هم من بنى قبطيم، بن قفط، بن مصر، بن بيصر، بن حام، بن نوح؛ وعند الإسرائيليين أنهم من ولد قفط بن حام .

السادسة عشرة — القُوط (بضم القاف وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر)، وهم أهل الأَنْدَلُس فى القديم . قال "هرشيوش" هم من ولد ماغوغ، بن يافث، بن نوح؛ وقيل هم من ولد قُوط، بن حام، بن نوح .

السابعة عشرة — الكُرْد (بضم الكاف وسكون الراء المهملة ودال مهملة فى الآخر)، وهم الذين كان منهم بنو أيُّوبَ ملوكُ مصر بعد الفاطميين . قال فى العبر : هم من بنى إيران بن أشور، بن سام، بن نوح . قال المقرّ الشهابىّ آبن فضل الله فى كتابه "التعريف" : ويقال فى المسلمين الكُرْد، وفى الكفار الكرج، وحينئذ فيكون الكُرْد والكُرْج نسبا واحدا .

الثامنة عشرة — الكَنْعانِيُّون (بفتح الكاف وسكون النون وفتح العين المهملة وضم الياء المثناة تحتُ المشدّدة)، وهم الذين كان منهم جبابرة الشام من ولد كنعان ابن حام، بن نوح .

التاسعة عشرة — أَلَمَان (بلام مفتوحة وميم بعدها ألف ونون)، وهم الذين كانوا قصدوا سواحل الشام فى الدولة الأيُّوبِيَّة ومواطنُهم فى شمالىّ البحر الرومىّ غربا بشمال . قال فى العبر : وهم من ولد طوبال، بن يافث، بن نوح .

العشرون — النَّبَط (بفتح النون والباء الموحدة وطاء مهملة فى الآخر)، وهم أهل بابل من العِراق فى الزمن القديم، وإليهم تنسب الفِلاحة النَّبَطِيَّة لابن وَحْشِيَّة . قال ابن الكلبىّ : هم من بنى نبيط، بن ماس، بن إرم، بن سام، بن نوح . وقال ابن سعيد : هم من بنى نبيط، بن أشور، بن سام، بن نوح .

الحادية والعشرون — الهِنْد وضبطه معروف . فى الإسرائيليات أنهم من ولد دادان، بن رعما، بن كُوش، بن حام، ونقل الطبرىّ عن ابن إسحاق أنهم من بنى كوش، بن حام، بن نوح من غير واسطة .

الثانية والعشرون — الأَرْمَنُ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم ونون فى الآخر) وهم أهل إِرْمِينِيَة الذين بقاياهم ببلاد سيس؛ قيل هم من ولد قهويل، بن ناحور، بن تارخ، وهو آزر، وتارخ أبو إبراهيم عليه السلام .

الثالثة والعشرون — الأَشْبان (بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة وألف ثم نون) قيل هم من ولد ماشح، بن يافث، بن نوح . وعند الإسرائيليين من ولد ياوان وهو يونان بن يافث، وعند آخرين أنهم من شعوب بنى عِيصُو بن

إسحاق؛ وقال الطبرى: أشك أنهم من ولد رعويل بن عيصو بن إسحاق، وهو قريب من الذى قبله .

الرابعة والعشرون اليونان — وهم الأمة الذين كان منهم الحُكَماء شرقىّ الخليج القُسْطَنْطِينىّ، وهم من ولد يونان، وهو ياوان، بن يافث، بن نوح . وقال البيهقىّ: هم من ولد يونان، بن خلجان، بن يافث . وشذ الكِنْدىّ فقال: يونان، بن عابَر، بن شالَخ، ابن أرنخشذ، بن سام بن نوح؛ فجعل يونان أخا لقَحْطان أبى عَرَب اليمن . وقال: إنه خرج من بلاد العرب مغاضبا لأخيه قَحْطَانَ فنزل شرقىّ الخليج القُسْطَنْطِينىّ، وردّ عليه أبو العباس الناشى بقوله :

تُخَلِّط يُوناناً بقَحْطانَ ضِـلَّةً * لَعَمْرِى لقد باعَدْتَ بينَهُما جِدّا

ثم اليونانية على ثلاثة أصناف اللَّطِينيُّون، وهم بنو لَطِين بن يُونان، والإغريقيُّون وهم بنو إغريقن بن يونان، واللّكيم، وهم بنو اللكيم بن يونان، وهى أصل الروم فيما يقال على ما تقدّم .

الخامسة والعشرون زُوَيْلة — (بضم الزاى وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر) وهم أهل بَرْقة فى القديم، ومنهم الطائفة الذين وَصَلوا صُحْبَةَ جوهر المُعِزّىّ بانى القاهرة المنسوب إليهم باب زُوَيْلَةَ بالقاهرة، يقال إنهم من بنى حوبلا بن كوش بن حام بن نوح .

السادسة والعشرون يأجوج ومأجوج — وضبطهما معروف . قيل إنهم من ولد ماغوغ، بن يافث، بن نوح؛ وقيل من ولد كومر، بن يافث .

النوع الثـالث عشر

(المعرفة بمفاخَرات الأمم ومنافَراتهم ، وما جرىٰ بينهم فى ذلك من المُحاوَرات والمراجَعات والمُناقَضات ؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأول

(فى بيان وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

لاخفاء أنه يتعين علىٰ الكاتب معرفة المفاخَرات الواقعة بينهم (١) ، من معرفة وجوه الآفتخار التى يمدح بمثلها : ممـا يُستعان بمثله علىٰ المدح والإطراء الواقع فى الولايات وما يُفَضَّل به كل واحد من البلغاء علىٰ خَصْمه ، وما يردُ عليه من الأجوبة المبطلة له لينسِجَ علىٰ منوال ذلك فيما يرد عليه من المخـاطبات ، والمكاتبات عند دِعايَةِ ضرورته إليه ، وٱحتياجه إلىٰ إيراده .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر أُنموذَج من المفاخرات ، والمنافرات يُنْسَج علىٰ منواله)

فأمّا المفاخرات ، فمنها مارُوِى أنه لمـا وَفَد علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وَفْد بنى تميم سنَةَ الوُفود بعد فتح مكة ، فيهم عُطَارد بن حاجب ، بنِ زُرارة ، بن عُدَسَ التميمىّ ، وقَيسُ بن عاصم ، وقيسُ بن الحـارث ، ونُعَيم بن زيد ، وعُتْبة بن حِصْنٍ آبنِ حُذَيفــة بن بدر ، والأقرَعُ بن حابس ، فى لَفِّهِم ولَفِيفهـم ، ودخلُوا المسجد ونادَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من وراء حُجُراته أنْ ٱخرُج إلينا يامحمدُ ، فتأذّى رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، من صِياحهم فخرج إليهم — فقالوا : يا محمدُ جِئْناك

(١) لعله والتمكن من معرفة الخ كما يفيده السياق .

لنُفاخِرك . فأذنْ لشاعرِنا وخَطِيبنا ـ قال "قَدْ أذِنْتُ لِخَطِيبِكُمْ فَلْيَقُلْ" فقام عُطارِدُ بن حاجِبٍ فقال :

"الحمدُ للهِ الذى لَهُ عَلَيْنا الفضْلُ ، وهو أهلُه ، الذى جَعَلَنا مُلُوكا ، ووهبَ لنا أمْوالًا عِظَاما نفعل منها المعروف ، وجَعلَنا أعزَّ أهل المَشْرِق وأكثَرَه عددا ، وأشدّه عُدّة ، فَمَنْ مِثْلنا فى الناس ؟ ألسنا برءُوس الناس وأولِى فضلهم ؟ فمن فاخَرنا فليعْدُد مثلَ ماعَدَدْناه ، وإنا لو نشاءُ لأكْثَرْنا الكلامَ ولكنا نتحَيَّا عن الإكثار ، وأقول هذا لأن تأتُوا بمثل قَوْلِنا ، وأمْرٍ أفضل من أمرِنا" ثم جلس

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لثابت بن قيس الخزرجىّ : "قُمْ فأَجِبِ الرجُلَ فى خُطْبته" فقام ثابت بن قيس فقال :

"الحمد للهِ الذى السَّمٰواتُ والأرضُ خَلْقُهُ ، قضىٰ فيهن أمْرَه ، ووسع كرسيُّه علمَه ولم يكُنْ شىءٌ قطُّ إلا من فِعْله ، ثم كان من قُدْرته أن جعَلَنا مُلُوكًا واصطفىٰ من خير خلقه رسولًا ، أكرَمَه نسبًا ، وأصدَقَه حديثًا وأفضلَه حَسَبا ، فأنزل عليه كتابَه ، وائتمنه علىٰ خَلْقه ، وكان خِيرةً من العالمين ، ثُمَّ دعا الناسَ إلىٰ الإيمان به ، فآمن برسول الله المهاجِرُونَ من قومه وذَوِى رَحِمِه ، أكرمُ الناس أحسابا ، وأحسَنُهم وجوها ، وخيْرُ الناس فِعالًا ، ثم كان أوّلَ الخلق إجابةً ، واستجابَ لله حينَ دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم نَحْنُ ، فنحن أنصارُ الله ، ووُزَراء رسول الله ، نُقاتِل النَاسَ حتّى يؤمِنوا ، فمن آمنَ بالله ورسوله مُنِّع بماله ودمه ، ومَنْ كفر جاهَدْناه فى الله أبدا ، وكان قتْلُه علينا يسيرا ، أقول هذا وأستغفر الله لى وللمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم" .

فقام الزبرقان بنُ بَدْر التميمىّ فقال :

نَحْنُ الكِرامُ فلا حَىٌّ يُفَاخِرُنا * مِنَّا المُلُوكُ وفِينا تُنْصَب البِيَعُ
وكَمْ قَسَرْنَا مِنَ الأَحْيَاء كُلِّهِم * عِنْدَ النِّهاب وفَضْلُ العِزِّ يُتَّبَع
ونَحْنُ نُطْعِم عِنْدَ القَحْطِ مُطْعَمنا * من الشِّواء إذا لم يُونَسِ القَزَعُ

وهى أبيات .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحَسَّانَ بن ثابت "قُم فأجِبِ الرجُلَ فيما قال" فقال حسان رضى الله عنه :

إنَّ الذَّوائبَ منْ فِهْرٍ وإخْوتِهِمْ * قَدْ بَيَّنُوا سُنَّةً للنَّاسِ تُتَّبَعُ
يَرْضىٰ بِهَا كُلُّ مَنْ كَانَتْ سَرِيرَتُه * تَقْوىٰ الإلٰهِ وَكُلَّ الخَيْرِ يُصْطَنَعُ
قَوْمٌ إذا حارَبُوا ضَرُّوا عَدُوَّهُمُ * أو حاوَلُوا النَّفْعَ فى أشياعِهِمْ نَفَعُوا
سَجِيَّةٌ تِلْكَ مِنْهُمْ غَيْرُ مُحْدَثَةٍ * إن الخَلائق فٱعْلَمْ شَرُّهَا البِدَعُ
إن كانَ فِى الناسِ سَبَّاقُونَ بَعْدَهُمُ * فكُلُّ سَبْقٍ لأَدْنىٰ سَبْقِهِمْ تَبَعُ
لا يَرْقَعُ الناسُ ما أَوْهَتْ أَكُفُّهُمُ * عِنْدَ الدِّفَاعِ ولا يُوهُونَ ما رَقَعُوا
أَكْرِمْ بِقَوْمٍ رَسُولُ اللهِ شيعَتُهُمْ * إذا تفاوَتَتِ الأَهْوَاءُ والشِّيَعُ

وهى أبيات .

ويروىٰ أن الزبرقان بن بدر قال :

أَتَيْنَاكَ كَيْمَا يَعْلَمَ الناسُ فَضْلَنَا * إذا ٱختَلَفُوا عِنْدَ ٱحتِضارِ المَوَاسِمِ
فإنَّا فُرُوعُ النَّاسِ فى كُلِّ مَوْطِنٍ * وأن لَيْسَ فى أرضِ الحِجَازِ كدارِمِ
وإنا بُدُورُ العالَمِينَ إذا ٱنْتَخَوْا * ونَضْرِبُ رَأْسَ الأَصْيَدِ المُتَفاقِمِ
وإنا لَنَا المِرْبَاعُ فى كُلِّ غارَةٍ * نُغِيرُ بِنَجْدٍ أو بأَرْضِ الأعاجِمِ

(١) فى سيرة ٱبن هشام . نذود المعلمين .

فقام حَسَّان بن ثابت فأجابه فقال :

هَلِ المَجْدُ إلا السُّودَدُ العَوْدُ والنَّدىٰ * وَجاهُ المُـلُوكِ وٱحتمالُ العَظائمِ
نَصَـرْنا وآوَيْنَـا النبيَّ مُحَمَّـدًا * علىٰ أنْفِ رَاضٍ منْ مَعَدٍّ ورَاغمِ
نَصَرْناهُ لَمَّا حَلَّ وَسْـطَ دِيَارِنَا * بِأَسْيَافِنَا مِنْ كُلِّ بَاغٍ وظَالِمِ
جَعَلْنَـا بَنِينَـا دُونَهُ وبَنَاتِنَـا * وَطِبْنَـا لَهُ نَفْسًا بفَيْءِ المَغَـانِمِ
ونَحْنُ ضَرَبْنَا النَّاسَ حَتّىٰ تَتَابَعُوا * علىٰ دِينِـهِ بالمُرْهَفاتِ الصَّـوارِمِ
ونَحْنُ ولَدْنَا مِنْ قُرَيْشٍ عَظِيمَهَا * ولَدْنَا نَبِيَّ الخَـيْرِ مِنْ آلِ هاشِمِ
بَنِي دارِمٍ لاتَفْخَرُوا إنّ فَخْرَكُمْ * يَعُودُ وَبَالًا عِنْـدَ ذِكْرِ المَكَارِمِ
هَبِلْـتُمْ عَلَيْنـا تَفْخَرُونَ وأَنْتُمُ * لَنـا خَوَلٌ مِنْ بَيْنِ ظِئْرٍ وخادِمِ؟
فإنْ كُنْتُمُ جِئْـتُمْ لِحَقْنِ دِمَائِكُمْ * وأَمْوالِكُمْ أن تُقْسَمُوا فى المَقَاسِمِ
فلا تَجْعَـلُوا للهِ نِدًّا وأَسْـلِمُوا * ولا تَلْبَسُـوا زِيًّا كَزِيِّ الأعَاجِمِ

فلما فرغ حَسَّان من قوله، قال الأقرع بنُ حابس: وأبِى! إن هذا الرجل مُراد، لَخطيبُه أخطَبُ من خطيبنا، ولَشاعرُه أشعرُ من شاعرِنا، ولأصواتُه أعلىٰ من أصواتنا، فأسلَمُوا وأحسن رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، جوائزَهم .

ففى هـذا الوفد نزل ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ واللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ .

قلت: وهذه مكابَرةٌ ظاهرة، وتجاهُلٌ فاحش من بنى تميم، حيث طلَبُوا المفاخرة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكلُّ العرب علىٰ ٱختلاف شُعُوبهم، وتتابع قبائلهم معترِفُون لبنى هاشم بالسَّبْقِ فى الشرف، والتقدّم فى الفضلِ، مع مافضَّل الله تعالىٰ به

رسوله صلى الله عليه وسلم، وخَصَّه به من رفيع الشَّرَف الذى لم يبلغه نبىّ مرسَل، ولا مَلَك مقرّب .

وقد تعرّض أبو نُوَاس فى بعض أشعاره لمدح بَنِى تميم، و بالغ فى فخرهم فأفحش، فقال:

خُزَيْمَـةُ خَيْرُ بَنِى خازِم * وخَازِمٌ خَـيْرُ بَنِى دارِمِ
ودارِمٌ خَـيْرُ تميمٍ ومَا * مِثْـلُ تميمٍ فى بَنِى آدَمِ

ونقضـه عليه الشيخ فتح الدين بن سَيِّد الناس اليعمرىّ، فقال رحمه الله فأجاد القولَ، وفاز بالقِدْح المُعلَّى فقال :

مُحَمَّدٌ خَـيْرُ بَنِى هاشِمِ * فَمَن تَمِيمٌ وبَنُو دارِمِ؟
وهاشِمٌ خيرُ قُرَيْشٍ وَمَا * مِثْلُ قُرَيْشٍ فى بَنِى آدَمِ!

وهو مأخوذ من قول الأوّل :

قُرَيْشٌ خِيَـارُ بَنِى آدَم * وخيرُ قُرَيشٍ بَنُو هاشِمِ
وخَيْرُ بَنِى هاشِمٍ أحْمَدٌ * رسولُ الإلٰهِ إلىٰ العالَمِ

وإليه ينظر قول ٱبن عرسية :

لله مِمَّـا قَدْ بَرَا صَـفْوةٌ * وصَفْوةُ الخَلْقِ بَنُو هاشِمِ
وصَفْوةُ الصَّفْوةِ مِنْ بينِهِمْ * محمدُ النُّـورِ أبُو القـاسِمِ

ولقد أنصف إسحاق بن إبراهيم الموصلىّ حيث قال :

إذا مُضَرُ الحمراءُ كانَتْ أُرُومَتِى * وقامَ بِنَصرِى خازِمٌ وٱبنُ خازِمِ
عَطَستُ بأنفٍ شامخٍ وتناوَلَتْ * يداىَ الثُّرَيَّا قاعِدًا غـــيْرَ قائمِ

فإنه جعل مُضَر التى هى أُرومةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أصلَ فخره وقُعْدُدَ سُودَده فأصاب الفخر فى قوله، وفاز بالشرف فى شعره .

قال المولىٰ صلاح الدين الصَّفَدىّ رحمه الله فى شرح لامية العجم "وإنما ذكر خازما لأنه مولىٰ خُزيمةَ بنِ خازم التميمىّ، وإنما نزل أبوه الموصلَ فنُسِب إليها".

ومن لطيف ما يحكىٰ أن معاوية بن أبى سُفيان كان جالسا وعنده جماعة من الأشراف، فقال معاوية "مَنْ أكرمُ الناس أبا وأُمًّا، وجَدًّا وجدّة، وعَمًّا وعَمَّة، وخالا وخالة؟" — فقام النُّعمان بن العجلان الزُّرَقىّ بعد ما أخذ بيد الحسن فقال "هذا أبوه علىّ بن أبى طالب، وأُمُّه فاطمةُ، وجدّه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، وجدّته خديجةُ، وعمُّه جعفر، وعمتُـه أمّ هانئ ٱبنةُ أبى طالب، وخالُه القاسم، وخالته زينب، فهذا هو الشرف الذى لا يُدانىٰ والفضل الذى لا يُبارىٰ".

وقريب من ذلك ما يحكىٰ أنه جرىٰ بين عبد الله بن الزبير وبين معاويةَ كلامٌ طويل فى آخره — "فقال ٱبن الزبير، ما مِثْلى يُهارَشُ، ولكن عندك من قريش والأنصار، ومن ساكِنِى الحُجُون والآطامِ مَنْ إن سألتَه حملك علىٰ محجَّةٍ أبيَنَ من ظهر الجَفير — قال : ومَنْ ذلك — قال هذا ؟ يعنى أبا الجَهْم بن حُذَيفة — فقال معاوية تكلَّمْ يا أبا الجَهْم — فقال أَعْفِنى — فقال عزمْتُ عليك لتقولنّ — قال : نعم : أمُّك هند، وأمه أسماءُ بنتُ أبى بكر، وأسماء خير من هند، وأبُوك أبو سُفيان وأبوه الزُّبير ومعاذ الله أن يكون أبو سفيان مثلَ الزبير، وأما الدنيا فلك، وأما الآخرة فله إن شاء الله تعالىٰ.

ومن ذلك ما حكاه ٱبن الكلبىّ. قال : قال كِسْرىٰ للنُّعمان بن المنذر يوما هل فى العرب قبيلة تشْرُف علىٰ قبيلة؟ قال نعم — قال فبأىّ شىء ؟ قال : مَنْ كانت له ثلاثة آباء متواليةٌ رؤساء، ثم ٱتصل ذلك بكمال الرابع فالبيت مَنْ قبيلتهُ فيه ويُنْسب إليه — قال فٱطلُبْ ذلك فطلبه فلم يصبه إلا فى آل حُذَيفة بن بدر، وآل حاجِب ٱبن زُرارة، وآل ذى الجَدَّيْنِ، وآل الأشعث بن قيس بن كِنْدة — قال فجمع هؤلاء

الرهطَ ومَنْ تبعهم من عشائرهم وأَقعد لهم الحُكَّام والعُدول ، وقال ليتكلم كل رجل منكم بمآثر قومه وليَصْدُقْ ، فكان حذيفةُ بنُ بدر الفزارىّ أوّل متكلم ، وكان أَلْسَن القوم ، فقال : قد علمتِ العربُ أن فينا الشرفَ الأقدمَ والأعزَّ الأعظم ، ومأثرةً للصنيع الأكرم — فقال مَنْ حوله ولِمَ ذاكَ يا أخا فزارة ؟ فقال أَلَسْنا الدعائمَ التى لا تُرام، والعزّ الذى لا يُضام ؟ قيل صدقت . ثم قام شاعرهم فقال :

فَزَارةُ بَيْتُ العِزِّ والعِزُّ فِيهِمُ ! * فَزَارةُ قَيْسٍ حسبُ قَيْسٍ نِضالُها
لها العِزَّةُ القَعْساءُ والحَسَبُ الذى * بَنَاه لقَيْسٍ فى القَديم رِجالُها
فهَيْهاتَ قد أَعْيا القُرونَ التى مَضَتْ * مآثرُ قَيْسٍ مَجْدُها وفعالُها
وهَلْ أحَدٌ إن هَزَّ يومًا بكَفِّه * إلىٰ الشَّمْسِ فى مَجْرىٰ النُّجُوم ينالُها
فإن يَصْلُحُوا يَصْلُحْ لذاكَ جميعُها * وإن يَفْسُدوا يَفْسُدْ من الناس حالُها

ثم قام الأشعث الكندىّ ، وإنما أُذِن له أن يقوم قبل ربيعةَ وتميم لقرابته من النعمان بن المنذر ، فقال ، قد علمت العرب أنا نُقاتِل عديدَها الأكثرَ ، وزحْفَها الأكبرَ ، وإنا لَغِياث الكُرُبات ومَعْدِنُ المكْرُمات — قالوا ولم يا أخا كِندةَ ؟ قال لأنا ورِثْنا ملكَ كِندةَ فآستظلانا بأفيائه ، وتقلدنا منكبه الأعظم ، وتوسطنا بُحْبُوحه الأكرم ، ثم قام شاعرهم ، فقال :

إذا قِسْتَ أبياتَ الرِّجالِ بِبيْتِنَا * وجَدْتَ لنا فَضْلًا علىٰ مَنْ يُفاخِر
فَمَنْ قال كَلّا أو أتانا بُخطةٍ * ينافِرُنا فيها فنحنُ نُخاطِر
تعَالَوْا قِفُوا كَىْ يعلمَ الناسُ أيُّنَا * لَهُ الفَضْلُ فِيمَا أَوْرَثَتْهُ الأكابِرُ

ثم قام بِسْطامُ الشَّيبانىّ فقال " قد علمت العرب أنا بُناةُ بيتها الذى لا يزولُ ، ومَغْرس عزِّها الذى لا يحول ، قالوا ولِمَ يا أخا شيبان — قال لأنا أدركهم للثار ، وأضْرَبُهم للملك الجَبّار ، وأقومهم للحُكْم ، وأَلَدُّهم للخصم . ثم قام شاعرهم فقال :

لَعَمْرِى بِسْطامُ أحَقُّ بفَضْلِها * وأوّلُ بيتِ العِزِّ عِزُّ القبائِلِ
فسائِلْ (أبَيْتَ اللَّعْنَ) عن عِزِّ قومِها * إذا جدّ يومَ الفخر كلُّ مُناقِلِ
ألَسْنا أعزَّ الناس قوماً ونُصرةً * وأضْربَهُم للكَبْش بين القبائلِ
وقائعُ عزٍّ كلُّها رَبعيَّةٌ * تَذِلُّ لها عِزًّا رِقابُ المَحافِلِ
إذا ذُكِرتْ لم يُنْكِرِ الناسُ فَضْلَها * وعاذَ بِها مِنْ شَرِّها كُلُّ وائِلِ
وإنا مُلوكُ الناسِ فى كُلِّ بَلْدةٍ * إذا نزلَتْ بالناس إحدىٰ الزَّلازِلِ

ثم قام حاجبُ بنُ زُرارة التميمىّ. فقال: قد علمت مَعَدٌّ أنَّا فرعُ دعامتِها، وقادةُ زَحْفِها — قالوا: ولِمَ ذاك ياأخا بنى تميم؟ قال لأنا أكثر الناس عديدا، وأنجبهم طُرًّا وليدا، وأنا أعطاهُم للجزيل، وأحمَلُهم للثقيل؛ ثم قام شاعرهم فقال:

لَقَدْ عَلِمَتْ أبناءُ خِنْدِفَ أننا * لنا العِزُّ قِدْما فى الخُطُوب الأوائِلِ
وأنا كِرامٌ أهلُ مَجْدٍ وثَرْوةٍ * وعِزٍّ قديم ليس بالمتضائِلِ
فكَمْ فِيهِمُ من سَيِّدٍ وآبنِ سَيِّدٍ * أغرَّ نجيبٍ ذى فعَالٍ ونائِلِ
فسائِلْ (أبَيْتَ اللعنَ) عنَّا فإنَّنا * دعائمُ هذا الناسِ عِنْد الجَلائِلِ

ثم قام قيسُ بن عاصم السعدىّ فقال: لقد علم هؤلاء أنا أرفَعُهم فى المَكْرُمات دعائم، وأثبتُهم فى النائبات مقادم؛ قالوا: ولِمَ ذاك يا أخا بنى سعد؟ قال لأنا أدركهم للثار، وأمنعهم للجار؛ وأنا لا نَنْكُل إذا حملنا، ولا نُرام إذا حلَلْنا. ثم قام شاعرهم فقال:

لَقَدْ عَلِمَتْ قَيْسٌ وخِنْدِفُ أنَّنا * وجُلُّ تميم والجميع الذى ترىٰ
بأنَّا عِمادٌ فى الأُمُور وأننا * لنا الشَّرفُ الضَّخْمُ المُرَكَّبُ فى الندىٰ
وأنا لُيوثُ الناس فى كُلِّ مأزِقٍ * إذا جُزَّ بالبِيضِ الجماجِمُ والطُّلىٰ(١)

(١) الطلى بالضم جمع طلية وهى الأعناق.

فَمَنْ ذا لِيَوْمِ الفَخْرِ يَعْدِل عاصِمًا * وقَيْسًا إذا مَرّتْ ألوفٌ إلى العُلا
فَهَيهاتَ قد أعْيا الجَميعَ فِعالُهُمْ * وقاموا بيوم الفَخْرِ مَسْعاة من سَعى

فقال كِسرى حينئذ : ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه ، وأسنى حِباءَهم ، وأعظم صِلاتِهم ، وكرّم مآبهم .

قال أبو عبيدة : كانت العرب تعدّ البُيوتاتِ المشهورةَ بِعظَم القدر والشرف : تُعَدّ بيتَ هاشم بن عبد مَناف ، وتعدّ أربعة ، أوّلها بيت آلِ حُذَيفة بن بدر ، وبيت آل زُرارة الدارِميِّين : بيت بنى تميم ، وبيت آل ذى الجَدَّين : عبد الله بن عمرو بن الحارث بن هشام : بيت بنى شيبان ، وبيت بنى الدَّيّان من بنى الحارث بن كعب بيت اليمن . قال : فأما كندة فلا يُعَدّون فى البيوتات إنما كانوا ملوكا .

واعلم أن المفاخرة قد تكون بحقيقة الحسب . وقد تكون فيها الفصاحة واللَّسن مَقامَ الحسب : كقول أبى تمام الطائىّ يفتخر :

أنا ابْنُ الّذينَ اسْتُرْضِع المجدُ فِيهمُ * وسُمِّى فيهمْ وهو كَهْلٌ ويافِعُ
مَضَوْا وكأنّ المَكْرُماتِ لديهِمُ * لكَثْرةِ ما وَصَّوْا بهنّ شَرائعُ
فأىُّ يدٍ فى المجد مُدّتْ فلم يَكُنْ * لها راحةٌ من مَجْدِهم وأصابِعُ
هُمُ استَوْدَعُوا المعروفَ محفوظَ مالِنا * فضاعَ وما ضاعتْ لدينا الوَدائِعُ

وقوله أيضا :

جرى حاتِمٌ فى حَلْبةٍ منه لو جَرى * بها القَطْرُ شَأْوًا قيل أيُّهما القَطْرُ؟
فتًى ذَخَر الدُّنْيا أُناسٌ ولم يَزَلْ * لها باذلًا فانْظُرْ لِمَنْ بَقِىَ الذُّخْر
فمَنْ شاءَ فلْيَفْخَرْ بما شاء من نَدًى * فليس لِحَىٍّ غيرِنا ذلك الفَخْرُ
جمَعْنا العُلَا بالجُودِ بَعْدَ افْتِراقها * إلينا كما الأيامُ يجمعُها الشَّهْرُ

قال فى شرح اللامية : وعنــد أكثر الناس أن أبا تمــام كان أبوه نصرانيا يقال له تدرس العطار، من جاسم : قرية من قُرىٰ حَوْران من الشام، فغير آسم أبيه وآندس فى بنى طيّ ؛ وذكر صاحب الأغانى أن رجلا قال لجرير: من أشعَرُ الناس؟ قال : قم حتّى أعرفك الجواب، فأخذ بيده وجاء به إلىٰ أبيه عطيةَ، وقد أخذ عَنْزًا له فاعتقَلَها وجعل يَمصُّ ضَرْعَها، فصاح به آخرُجْ يا أبت، فخرج شيخ دَمِيم، رثُّ الهيئة . وقد سال لبن العنز علىٰ لِحيْته ، فقال ترىٰ هــذا ؟ قال نعم . قال أو تعرفه قال لا . قال هذا أبى، أو تدرى لم كان يشرب من ضرع العنز؟ قال لا، قال مخافة أن يسمع صوتُ الحَلْب فيطلب منه؛ ثم قال أشعرُ الناس من فاخر بهذا الأب ثمــانين شاعرا وقارعهم فغلبهم .

قال الصلاح الصفدىّ : ما هذه إلا وقاحة عظيمة من جرير فى مفاخرته أولئك الشعراء وهذا أبوه، لكنه تغفر له هذه الوقاحة بآعترافه لذلك الرجل، و إظهار بخل أبيه .

و ربمــا كان الآفتخار بالتورية والتعريض بالأمور المقتضية للشرف، بحيث يظن السامعُ حقيقة الآفتخار والشرف بمجرد السماع، فإذا عرف المقصــد تبين له خلاف ذلك، كقول أبى الحسن الجزار :

أَلَا قُــلْ لِلَّذِى يَسْأَ * لُ عَنْ قَوْمِى وعَنْ أهْلِى
لَقَــدْ تَسْأَلُ عَنْ قومٍ * كِرَامِ الفَرْعِ والأصْلِ
يُرِيقُــونَ دَمَ الأَنْعَــا * مِ فى حَزْنٍ وفى سَهْلِ
وما زالُوا لمــا يُبْـدُو * نَ من باسٍ ومِنْ بَذْلِ
يُرَجِّيهِـــمْ بَنُو كَلْبٍ * ويَخْشَــاهُمْ بنو عِجْــلِ

وقوله أيضا :

إِنِّى لَمِنْ مَعْشَرٍ سَــفْكُ الدِّماءِ لَهُمْ * دَأْبٌ، وسَلْ عَنْهُمُ من رَبِّ تَحْقيق

تُضِيءُ بالدَّم إشراقًا قواضِبُهُمْ * فكلُّ أيَّامِهِـمْ أيَّامُ تَشْرِيقِ

وعلىٰ هـذا المَنْهَج ما حكاه بعضهم ، قال : وجدت علىٰ قبرٍ مكتوبا أنا ٱبنُ من كانت الريحُ طوعَ أمره ، يحبسها إذا شاء ، ويُطْلِقها إذا شاء ، قال فعَظُم فى عينى ؛ ثم ٱلتفتُّ إلىٰ قبر آخر قبالته فإذا عليه مكتوب : لا يغتر أحدٌ بقوله ، فما كان أبوه إلا بعض الحدّادين ، يحبس الريح فى كِيره إذا شاء ، ويرسلها إذا شاء ؛ قال : فعجبت منهما يتسابّان ميتين ، فإذا طرق السمع شيء من ذلك ظنّ السامع أنه فى غاية الفخر والشرف حتّى يعلم حقيقته ؛ وأشباه ذلك ونظائره كثيرة ، وليس هذا موضعَ ٱستيعاب القول فى المفاخرة الحقيقية ولا غيرها .

وأمّا أيام المنافرة وهى المحاكمة فى الحسب ، فمن ذلك ما يحكىٰ أن الأعشىٰ أتىٰ علقمة ، بن عُلاثَةَ ، بن عَوْف ، بن الأحْوَص ، بن جعفر ، بن كلاب ، وهو يريد سلامةَ ذو فائش[1] الحميرىّ من التبابعة ، فسأل الأعشىٰ علقمة أن يُتْلِيَـه أى يجيره ، فقال له علقمةُ : أُتْليك علىٰ بنى الأحوص — قال لا يُقْنِعني — قال : فعلى بنى كلاب قال لا يقنعنِي — قال : فليس عندى أكثرُ من هذا ؛ فأتىٰ عامرَ بنَ الطُّفَيْل بنِ مالك ٱبن جَعْفر بن كِلاب ، قال قد أُتْليك علىٰ الجنّ والإنس ، ثم أتىٰ سـلامةَ فٱنصرف من عنده بحبائه .

وكان عامر وعلقمةُ المذكوران لمـا أسنّ أبو بَرَاء وهو عامر بن مالكِ ، بن جعفر ، ٱبن مُلَاعب الأسِنَّة تنازعا فى الرياسة .

فقال علقمة كانت لجدِّى الأحوصِ وإنمـا صارت لعمك بسببه وقد قعَد عمُّك عنهـا وأنا ٱسترجعتُها فأنا أولىٰ بها منك ، فشَرِيَ الشرُّ بينهما وساروا إلىٰ المنـافرة ،

(١) وقع فى الأصل وأقالفس وهو تصحيف من الناسخ .

وقدِم الأعشىٰ علىٰ تَفِيئة[1] ذلك فصار هو ولبيد مع عامر، وصار مع علقمة الحُطيْئةُ، والسَّنْدرىُّ، وتنافروا .

فقال عامر لعلقمة : والله إنى لأكرم منك حَسَبا ، وأثبتُ منك نَسَبا ، وأطولُ منك قَصَبا .

فقال علقمة : والله لأنا خيرٌ منك ليلا ونَهارا .

فقال عامر : والله لأنا أحب إلىٰ نسائك أن أُصْبح فيهنّ منك .

فقال علقمة : أنافرك إنى لبر، وإنك لفاجر، وإنى لولُود، وإنك لعاقر، وإنى لعَفٌّ، وإنك لَعَاهِر، وإنى لوافٍ، وإنك لغادر .

فقال عامر : أنت رجل ولُود وأنا رجل عقيم وقد وَفَيت لبنى عَمْرو بن تميم .

وقد زعموا أنى غَدَرت بهم وهم كاذبُون؛ ولكنى أنافرك : أنا أنْحر منك لِلّقَاح، وخير منك فى الصَّبَاح، وأطعم منك فى السنة الشِّيَاح[2] .

فقال علقمة : أنت رجل تقاتل والناس تزعم أنى جَبَان ؛ ولأن تلقىٰ العدوّ وأنا أمامك أعزُّ لك من أن تلقاهم وأنا خَلْفَك ؛ وأنت رجل جواد والناس يزعمون أنى بخيل ولست كذلك ، وأنت تعطِى العشيرةَ إذا ألَمَّت ؛ ولكنى أنافرك : أنا خير منك أثرًا، وأحدّ منك بصرا، وأشرف منك ذِكْرا .

فقال عامر : أنت رجل فانٍ ، وليس لبنى الأحوص فضل علىٰ بنى مالك فى العَدد ، وبصرى ناقص وبصرك صحيح ؛ ولكنى أنافرك أنى أسمىٰ منك سُمَّه ، وأطول منك قِمَّه ، وأحسنُ منك لِمَّه ، وأجعد منك جُمَّه، وأسرعُ منك رحمه ، وأبعدُ منك هِمَّه .

(١) أى على أثره انظر القاموس فى مادة ف ى أ . (٢) الشياح بالكسر القحط .

فقـال علقمة : أنت رجل جسيم وأنا رجل قَضيف ، وأنت جميل وأنا قبيح ؛ ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى .

فقال عامر : آباؤك أعمامى ، ولم أكن لأنَافرك فيهم ؛ ولكنى أنافرك : أنا خيرٌ منك عَقِبا ، وأطعمُ منك جَدْبا .

فقـال علقمة : قد علمتُ أن لك عقبا وقد أطعمت طيبا ؛ ولكنى أنافرك أنى خير منك وأولىٰ بالخير منك .

فقال عامر : إنى والله لأركبُ منك فى الحُمَاه ، وأقتَلُ منك للكماه ، وخير منك للموالاه .

فقـال بعض بنى خالد بن جعفر ، وكانوا يدا مع بنى الأحوص علىٰ بنى مالك بن جعفر : إنك لن تطيق عامرا ، ولكن قل له أنافرك لخيرنا ، وأقربنا للخيرات .

فقال علقمة : له ذلك .

فقال عامر : عير(١) وتيس وتيس وعنز فأرسلها مثلا نعم علىٰ مائة من الإبل إلىٰ مائة يعطاها الحكم أينا ينفر عليه صاحبُه أخرجها ففعلوا ، و وضعوا بها رَهْنا من أبنائهم علىٰ يدىْ رجل يقال له خُزَيمة بن عمرو بن الوَحيد فسُمِّى الضمِينَ ، وصارت علما عليــه إلىٰ الآن ، وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد وعامر فيمن معه من بنى مالك وقد أتىٰ عامرُ بن الطفيل عمَّه عامرَ بن مالك بن جعفر وهو أبو براء ، فقـال : يا عماه أعِنِّى — فقال : ياآبن أخى سُبَّنى ، فقال : لا أسُبُّك وأنت عمى — قال : فسُبَّ الأحوص — فقال : عامر(٢) ولا أسُبُّ والله الأحوص وهو عمى ، فقال : ولكن دونك بعلى فإنى قد رَبَعت فيها أربعين مِرْباعا فاستعِنْ بها علىٰ منافرتك ، وجعلا منافرتهما إلىٰ أبى سفيان

(١) هكذا فى الأغانى .
(٢) لعله إبلى .

ٱبن حرب بن أمية فلمْ يقل بينهما شيئا، وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما، وقال لهما أنتما كرُكْبتيِ البعيرِ الأدْرَم، وأبىٰ أن يقضى بينهما، فٱنطلقا إلىٰ أبى جهل بن هشام، فأبىٰ أن يقضى بينهما، فوثب مروانُ بن سُراقة. بن قتادة، بن عمرو، بن الأحوص وكان مع علقمة فقال :

يا لَقُرَيْشٍ بَيِّنُوا الكَلَامَا * إنَّا رَضِينَا مِنْكُم الأَحْكَامَا

فَبَيِّنُوا إذْ كُنْتُمُ الحُكَّامَا * كانَ أبُونا لهم إمَامَا

وعَبْدُ عَمْرو مَنَع الفِئَامَا * فى يومِ فَخْرٍ مُعْلَمٍ إعلاما

يُحْسِنُ فيه الكَرَّ والإقْدامَا * ودِعْلِج أقدمهُ إقداما

لولا الذى أجْشَمْتُمُ إجشاما * لا تَّخَذَتْهُمْ مَذْحِج أنعاما

فأبوا أن يقولوا بينهما شيئا، فأتيا غيلان بن سلمة بن معتب الثقفىّ فردّهما إلىٰ حرملة بن الأشعر المرّىّ، فردّهما إلىٰ هَرِم بن قُطْبة بنِ سنان الفَزارىّ، وإنهما ساقا الإبل معهما حتّى أشتَتْ وأربعت لا يأتيان أحدا إلا هاب أن يقضى بينهما، فوعدهما هَرِمٌ إلىٰ العام القابل، فأتيا للوعد، وقال لبيد وكان مع عامر يومئذ يرتجز :

يا هَرِمُ، وأنت أهلُ عَدْلِ * هل يَذْهَبَنَّ فَضْلُهُمْ لِفَضْلِى(١)

إن يفْخَرِ الأحْوصُ يوماً قبلِى * ليَذْهَبَنَّ أهلُه بأهْلِى

لا تجمعَنَّ شكْلَهُمْ وشكْلِى * ونَسْلَ آبائِهِمُ ونَسْلِى

* قد علموا أنَّا كِرامُ الأصْلِ *

وقال أيضا :

إنِّى ٱمْرُؤٌ مِن مَالك بن جَعْفرِ * عَلْقَمَ قد نافرْتَ غيرَ مُنْفَرِ

* نافرت سَقْبا من سِقاب العَرْعَرِ *

(١) لعله بفضلى بالباء .

فقال لُحَافة بنُ عوف بن الأحوص بن جعفر :

نَهْنِه إليكَ الشِّعْرَ يا لَبِيدُ * واْصْدُدْ فقد يَنْفَعُكَ الصُّدود

سادَ أبُونا قبْلَ أنْ تَسُودُوا * سُودَدُكُمْ صَغِيرُه زَهِيدُ

ثم قال :

إنِّى إذا ما نُسِى الحَيَاءُ * وضاعَ يَوْمَ المَشْهَدِ اللِّواءُ

أُنْمىٰ وقَدْ حُقَّ لِىَ النَّماءُ * إلىٰ كُهُول ذِكْرُها سَنَاءُ

إذ لا تَزال حُلْوَةٌ كَوْماءُ * مَبْقُورَةً لَسَقْبِها رُغاءُ

لم يَنْهَنا عَنْ نَحْرِها الصَّفَاء * لَنَا عليْكُمْ سَوْرَةٌ وَلاء

* المَجْدُ، والسُّودَدُ، والعَطَاءُ *

ثم قال :

أَنْتُمْ عَزَلْتُمْ عامِرَ بنَ مالِكِ * فى سَنَواتِ مُضَرَ الهَوالكِ

* يا شَرَّ أحْيَاء وشَرَّ هالِكِ *

وكان السندرىّ مع علقمة فارتفع صوته، فقيل مَنْ ذا ؟ فقال :

أنَا لِمَنْ أنْكَرَ صَوْتِى السَّنْدَرِىّ * أنا الفَتَىٰ الجعْدُ الطُّوالُ الجَعْفَرِىّ

* مِنْ وَلَدِ الأحْوَصِ أخْوالِى غَنِىّ *

فقال عامر للبيد : أجبه ! فرغب عن إجابته، وكان السندرىّ يقال لجدّته عَيْساء، وكانت أمةً لفاختة ابنة جعفر بن كلاب، امرأةِ شُرَيح بن الأحوص، فوقع عليها شُرَيح فولدت له زَبَّان، ويزيد، وشهابا، فقال لبيد :

لَمَّا دَعانِى عامِرٌ لأَسُبَّهُمْ * أبيْتُ وإنْ كان ابنُ عَيْساءَ ظالِمَا

ألَا أُنَيْا ما كان شَرًّا لمالك * فلا زال يَلْقىٰ فى الحَيَاة المَلاوِمَا

لِكَيْلا يَكُونَ السَّنْدَرِىُّ نَدِيدَنا(١) * وأشْتُمَ أعْمـامًا عُمُوما عَمَاعِمَـا

وأَنْشُرَ مِنْ تَحْتِ القُبُورِ أُبُوَّةً * كِرَامًا هُمُ شَـدُّوا عَلَىَّ التَّمَائِمَـا

لَعِبْتُ علىٰ أكْتافِهِمْ وحُجُورِهِمْ * وَلِيدًا وسَمَّوْنى ولِيـدا وعاصِمَـا

بَلىٰ أيُّنـا ما كانَ شَرًّا لِمَـالِكٍ * فَلَا زالَ فِى الدُّنْيا مَلُوماً ولائِمَـا

ووثب الحطيئة فقال :

مايُحْسِنُ الحُكَّامُ بالفَصْلِ بَعْدَمَا * بَدَا سـابِقٌ ذُو غُرَّةٍ وحُجُولِ ؟

حتّى أتىٰ علىٰ قصيدة كاملة ، ثم قال :

يا عامِ قَدْ كُنْتَ ذَا بَاعٍ ومَكْرُمةٍ * لَوْ أَنَّ مَسْـعاةَ مَنْ جَارَيْتَه أَمَمُ

وأقام القوم علىٰ ذلك أيامًا ، فأرسـل هَرِمٌ إلىٰ عامر فأتاه سِرّا لا يعلم به أحد ، فقال : ياعامر كنتُ أحْسَب أن لك رأيًا ، وأن فيك خيرا ، وما حبَسْتك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك ، أتنـافِر رجلا لاتفخَرُ أنت ولا قومُك إلا بآبائه ، فما الذى أنت به خير منه؟ فقال عامر : أنشُدُك الله والرحمَ أن لا تفضِّل علىّ علقمة ، فوالله لئن فعلتَ لا أُفْلِح بعدها أبدا ! هذه ناصيتى لك فٱجْزُزها وٱحتكم فى مالى ، فإن كنت لا بدّ فاعلا فسوّ بينى و بينه — فقال ٱنصرف فسوف أرىٰ رأْيِى : فخرج عامر وهو لايشك أنه سيفضله عليه ، ثم أرسل إلىٰ علقمة سرا ، وقال له مثل ماقال لعامر ، فردّ عليـه علقمة بمـا ردّ به عامر وٱنصرف وهو لا يشـك أنه ينفِّر عامرا عليه ، ثم إن هَرِما أرسـل إلىٰ أخيه و بنى أخيه : إنى قائل غدا بين هذين الرجلين مقالةً ، فإذا فرغت فليطرد بعضكم عَشْر جزائر فلينحرْها عن علقمة ، وليطرد بعضكم مثلها فلينحرها عن عامر ، وفرِّقوا بين الناس أن لا يكون لهم جماعة . وأصبح

(١) فى اللسان نديدتى وأجعل — أى ندّى . وعماعما أى متفرقة .

هَرِم فجلس مجلِسَه وأقبل الناس ، وأقبل علقمة وعامر حتّى جلسا ، فقال لبيد :

يا هَرِمُ آبنَ الأكْرمِين مَنْصِبا ❊ إنَّكَ قَدْ وَلِيتَ أمْرًا مُعْجِبا
فٱحْكُمْ وصوِّبْ رأْىَ مَنْ تُصوِّبا ❊ إنَّ الّذِى كُنْتَ عَلَيْهِ تُرْتُبا
لَخَيْرُنا خالًا وأُمًّا وأَبَا ❊ وعامِرٌ خَيْرُهُما مُرَكَّبا
❊ وعامِرٌ أدْنىٰ لِقَيْسٍ نَسَبا ❊

فقال هَرِم : إنكما يابَنِى جعفر قد تحاكمتما عِنْدى وأنتما كرُكْبَتِى البعيرِ الفحلِ تقعان الأرض معا ، فليس منكما واحد إلا وفيه ماليس فى صاحبه ، وكِلَاكما سيّدٌ كريم ، فعمد بنو هَرِم وبنو أخيه إلىٰ تلك الجُزُر فنحرُوها حيث أمرهم هَرِم ، وفرّقوا بين الناس ، ولم يفضِّل هرم واحدا منهما علىٰ صاحبه ، وكره أن يجلُب بذلك شرًّا علىٰ الفتيين، وهما آبنا عم؛ فلما رأىٰ ذلك الأعشىٰ ، خرج وهو يقول :

شاقَكَ مِنْ قَتْلَةَ أطلالُها ❊ بالشَّطِّ فالوِتْرِ إلىٰ حاجِرِ
وقَدْ رآها وَسْطَ أترابِها ❊ فى الحَىِّ ذِى البَهْجةِ والسَّامِر
إذْ هِىَ مِثْلُ الغُصْنِ مَيَّالَةٌ ❊ تَرُوقُ عينَىْ ذِى الحِجَا الزائِرِ
كَدُمْيةٍ صُوِّرَ مِحْرابُها ❊ بمُذْهَبٍ فى مَرْمَرٍ مائِرِ
تَشْفِى غلِيلَ النَّفْسِ لاهٍ بها ❊ حَوْراءُ تَسْبِى نَظَرَ النَّاظر
عَهْدِى بها فى الحَىِّ قَدْ سُرْبِلَتْ ❊ هَيْفاءُ مِثْلُ المُهْرةِ الضَّامِر
مَمْشُوقةُ القَدِّ غُلَامِيَّةٌ ❊ مَوْصُوفَةٌ بالخُلُقِ الطَّاهر
قَدْ نَهَدَ الثَّدْىُ علىٰ نَحْرِها ❊ فِى مُشْرِقٍ ذِى صُبُحٍ نائر
لَوْ أسْنَدَتْ مَيْتًا إلىٰ نَحْرِها ❊ عاشَ ولم يُنْقَلْ إلىٰ قابِر
حتّى يقولَ الناسُ مِمّا رَأَوْا ❊ يا عَجَبًا للمَيِّتِ النَّاشِر
عَلْقَمَ ما أنْتَ إلىٰ عامِرٍ ❊ النَاقِضِ الأوْتارَ والوَاتِر

والفارسِ الخيْل بخَيْــلٍ إذَا * ثارَ غُبارُ الكَبَّةِ الثَّائرِ
سُدْتَ بَنِي الأحوصِ لم تَعْدُهُمْ * وعامرٌ سادَ بَنِي عامــرِ
إنَّ الّذى فِيــهِ تَمارَيْتُمَا * بَيِّنٌ لِلسَّامِعِ والنَّاظِرِ
حَكَّمْتُــمُوهُ فقَضىٰ بَيْنَــكم * أبلَجُ مِثْــلُ القَمرِ الزَّاهِرِ
لا يَأْخُذُ الرِّشْــوَةَ فِي حُكْمِهِ * وَلَا يُبَــالِي غَبَنَ الخاسِرِ
فأعْجَبُ الدهْرَ متىٰ سُوِّيا ؟ * كمْ ضَاحِكٍ مِنْ ذا ومِنْ ساخِرِ ؟
فاقْنَ حَيــاءً أنْتَ ضَيَّعتَه * مالَكَ بَعْدَ الشَّيْبِ مِنْ عاذِرِ
ولَسْتَ بالأكْثَرِ مِنْهُمْ حَصًى * وَإنَّمــا العِــزَّةُ للكَاثِرِ
أَقُولُ لَمَّا جاءنِي فَخْــرُه * سُبْحانَ مِنْ عَلْقَمَةَ الفَاخِرِ!
عَلْقَمَ لا تَسْفَهْ ولا تَجْعَلَنْ * عِرْضَــكَ للوارِدِ والصَّادِرِ
قَدْ قُلْتُ قَوْلا فقضىٰ بَيْنَــكُمْ * وَاعْــتَرَفَ المَنْفُورُ للنَّافِرِ

وعاش هَرِم حتّى أدرك خلافةَ عمر رضى الله عنه ، فقال : يا هرم أىّ الرجلين كنت مفضِّلا لو فعلتَ ؟ فقال : لو قلتُ ذلك اليومَ ياأمير المؤمنين، عادَتْ جَذَعة، ولبلَغَتْ شَعَفَاتِ هَجَر — فقال عمر رضى الله عنه : "نِعْمَ مُسْتَوْدَعُ السِّرِّ أنتَ ياهَرِم! مِثْلُك فلْيَسْتَوْدِع العشيرةُ أسرارهم، وإلىٰ مثلك فلْيَسْتَبْضِع القومُ أحكامهم" .

قال أبو عبيدة : ومات علقمةُ بحَوْران وهو والى عُمَر بن الخطاب . وأما عامرُ ابنُ الطُّفَيل فأصابته دعوةُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته الغُدّة ومات فى بيت سَلُوليَّة، فقال : أغُدّةٌ كغُدّة البعير وموتٌ فى بَيْت سَلُولِيَّة ؟

وفى هذه القصــة مَقْنَع فى المنافرة عن غيرها ، وفى كتاب "الريحان والريعان" لبعض الأندلسيين جملة من هذه المفاخرات والمنافرات :

النوع الثـالث عشر

(المعرفة بأيام الحروب الواقعة، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصـــد الأوّل

(فى وجه ٱحتياج الكاتب إلىٰ ذلك)

قد ذكر فى "حسن التوسـل" : أن الكاتب يحتـاج إلىٰ معرفة أيَّام العرب، وتسمية الأيام التى كانت بينهم، ومعرفة يوم كل قبيلة علىٰ الأخرىٰ، وما جرىٰ بينهم من الأشعار، والمناقضات؛ وذكر فارسٍ مشهور، أو ملِك مذكور، أو واقعة معينة لشخصٍ خاصّ؛ وما ادَّعاه كل منهم لنفسه أو ليومه : لمـا فى ذلك من العلم بمـا يستشهد به من واقعة قديمة، أو يردُ عليه فى مكاتبة من ذكر يوم مشهور، أو فارسٍ معيَّن، ونحو ذلك مما مضىٰ عليه أمر الجاهلية، أو حدَث فى الإسلام؛ فإن الكاتب إذا لم يكن عارفا بالوقائع، عالمـا بما جرىٰ منها، لم يدر كيف يُجيب عما يَرِد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها .

المقصـــــد الثـانى

(فى ذكر أيام من ذلك تُرْشد إلىٰ معرفة المقصد منه)

ومن أشهرها ذكرا، وأعظمها حربا . يوم خُزَاز (خُزَازُ ٱسم جبـل بين البَصْرة ومكة كانت الواقعة عنده فعرِفت به)؛ وكانت الحرب فيه بين بنى ربيعة الفَرَس، وهو ربيعة نِزار، وبين قبائل اليمن؛ وكانت الغلبة فيه لبنى ربيعة، نقتلوا من قبائل اليمن خلقا كثيرا، وكان قائدَ ربيعـة كُلَيبُ بن ربيعة ملكُ بنى وائل (وٱسمه وائل وكليب لقب عليه) وهو من ربيعة الفَرَس؛ وكان قد مُلِّك علىٰ بنى معدّ وقبـائل

جموع العرب وهزمهم وعظُم شأنه ، وبقى زمانا من الدهر، ثم داخله زَهْو شديد، وبغىٰ علىٰ قومه فصار يحمِى عليهم مواقع السَّحاب، ولا يُرعىٰ حِماه، ويقول : وحْشُ أرض كذا فى جِوَارى ، فلا يُصاد، ولا تَرِدُ إبل مع إبله ، ولا تُوقَد نار مع ناره ، وبقِىَ كذلك حتّٰى قتله جَسَّاس بن مُرَّة الوائلىّ أيضا ، ولما قُتِل كُلَيب توالت الحروبُ بسبب قتله بين بنى تغلِبَ، وبين بكر آبنى وائل ، وكان قائدَ بنى تَغلِبَ مُهَلْهِل أخو كليب، وقائدَ بنى بكر مُرَّةُ أبو جَسَّاس المقدّم ذكره ، فكان بينهم يوم عُنَيزَةَ، وتكافأَ فيه الفريقان، ثم كان بينهم يوم وارِدَات، وآنتصر فيه بنو تغلبَ علىٰ بكر، ثم كان بينهم يوم الحِنْو، وآنتصرت فيه بكر علىٰ تغلب، ثم كان بينهم يوم العُصَيَّات ، وآنتصرت فيه تغلب علىٰ بكر، وأصيب بنو بكر حتّٰى ظنوا أنهم قد بادُوا ، ثم كان بينهم يوم قِضَّةَ ، وهو يوم التحالُق كثُر فيه القتل بين الفريقين ، فى أيام أُخَر لم يشتدّ فيها القتال .

ومن أيام غيرهم المشهورة يوم عَيْن أُبَاغ ، وعَيْنُ أُبَاغ موضع يقال له ذات الخيار، وكان الحرب فيه بين غَسَّان ولَخْم ، وكان قائدَ غسَّان الحارثُ الذى طلب أدْرُعَ آمرئ القيس، وقيل غيره ، وكان قائدَ لخم المنذرُ بن ماء السماء بغير خلاف ، وفى هذا اليوم قُتِل المنذر، وآنهزمت لَخْم، وتبعتهم غَسَّان إلىٰ الحِيرَة وأكثروا فيهم القتل . ويوم مَرْج حليمة، وكان بين غَسَّان ولخم أيضا ، وكان من أعظم الأيام وأشدّها حربا ، بلغت الجيوش فيه عددا كثيرا ، وعظُم الغُبار حتّٰى قيل إن الشمس احتجبت وظهرت الكواكب التى فى غير جهة الغبار . ويوم الكَدِيد، وكان بين كِنانةَ وسُلَيم ، وآنتصرت فيه سُلَيم علىٰ كنانة، وقتل فيه ربيعةُ بن مُكَدَّم فارسُ كنانة ، وبه يضرب المثل فى الشجاعة ، وكان يُعْقَر علىٰ قبره فى الجاهلية، ولم يُعْقَر علىٰ قبر غيره . ويوم الكُلَاب الأوّل ، والكُلَاب موضع بين البصرة والكوفة ، وكان بين

الأَخَوينِ : شَرَاحيل وسَلَمة ٱبنى الحارث بن عمرو الكندىّ؛ وشَرَاحيلُ هو الأكبر وكان معه بكر وائل وغيرُهم، وسلمة الأصغر؛ وكان معه تغلب وائل وغيرهم، وٱشتدّ القتال بينهـم ، وٱنتصر سلمة وتغلبُ علىٰ شراحيل و بكر ، وٱنهزم شراحيـلُ وتبعته خيل أخيه فقتلوه . و يوم الكلاب الثانى ، وكان بين بكر ووائل . و يوم أُوَارةَ ، (وأُوَارة ٱسمُ جبل) وكانت الحرب فيه بين المنذر بن ٱمرئ القيس ملك الحِيَرة ، و بين مُنْذِر وائل بسبب الحِيَرة ، وظفر فيه المنذر ، وأقسم أنه لا يزال يذبَحُهم حتّى يسيلَ دمُهم من رأس أُوارةَ إلىٰ حَضِيضه ، وبَقِى يذبَحُهم والدم يجمُد فسكب عليه ماء حتّى سال الدم من رأس الجبـل إلىٰ حضيضه ، وبَرَّت يمينه . و يوم رَحْرَحانَ ، (ورَحْرَحانُ ٱسم واد بالحجاز) وكانت الحرب فيه بين الأحوص بن جعفر بن كلاب ، و بنى دارِم ، و بنى ماوِيَّةَ ، و بنى مَعْبَد بن زُرَارة ، و بنى تميم ؛ وٱنهزمت فيه بنو تميم ومن معهم ، وأُسِر مَعْبد بن زُرَارة ؛ وقصـد أخوه لقيطُ بن زرارة أن يَسْتَفِكَّه فلم يقدر ، وعذّبوا معبَدا حتّى مات . و يوم شِعْب جَبَلة ، وشِعْبُ جَبَلة هَضبة حمراء بين الشُّريف والشَّرف . وكان من شأنه أنه لما ٱنقضت وقعة رحرحان المتقدّمة ، ومضىٰ لها سنة ، وذالك فى العام الذى وُلد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ٱستنجد لقيطُ بنُ زُرارة التميمى بنى ذُبيان لثأر أخيه فأنجدته ، وتجمعتْ بنو تميم غيرَ بنى سعد ، وخرجتْ معه بنو أسد ، وسار بهم لَقيط إلىٰ بنى عامر و بنى عَبْس فى طلب ثأر أخيه مَعْبَـدٍ ، فأدخلتْ بنو عامر وبنو عَبْس أموالهـم فى شِعْب جَبَلَة ، فحضرهم لقيط فخرجوا عليه من الشِّعب و كسروا جمائع لقيط وقتلوا لقيطا ؛ وأسَرُوا أخاه حاجب بن زُرَارة ، وٱنتصرت بنو عامرٍ وبنو عَبْس نصرا عظيما ؛ وقُتِل أيضا من بنى ذُبْيـان و بنى تميم ومن بنى أسد جماعة مستكثرة ؛ و كان هذا اليوم من أعظم أيامهم . و يوم ذى قارٍ ، وهو أقرب الوقائع المشهورة فى الجاهلية عهدا ، و كان فى سنة أربعين من مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وقيل عام بدر .

وكان من حديثه أن كسرىٰ أبرويز غضب علىٰ النعمان بن المنذر ملك الحيرة ، فحبسه فهلك فى الحبس ؛ وكان النعمان قد أودع حلقته (وهى السلاح والدروع) عند هانئ بن مسعود البكرى ، فأرسل أبرويز يطلبها من هانئ ، فقال هذه أمانة ، والحر لا يسلم أمانته ؛ وكان أبرويز لما أمسك النعمان جعل مكانه فى ملك الحيرة إياس بن قبيصة الطائى ، فآستشار أبرويز إياسا ، فقال إياس : المصلحة التغافل عن هانئ بن مسعود حتى يطمئن ونتبعه فندركه — فقال أبرويز : إنه من أخوالك لا تألوه نصحا — فقال إياس : رأى الملك أفضل ؛ فبعث أبرويز الهزبران(١) فى ألفين من الأعاجم ، وبعث ألفا من بهراء ، فلما بلغ بكر بن وائل خبرهم أتوا مكانا من بطن ذى قار ، فنزلوه ووصلت إليهم الأعاجم ، وآقتتلوا ساعة فآنهزمت الأعاجم هزيمة قبيحة ؛ فيروىٰ أن النبى صلى الله عليه وسلم ، خبر بذلك أصحابه ، فقال "اليوم أول يوم آنتصف فيه العرب من العجم وبى نصروا" .

ولأبى عبيدة مصنف مفرد فى أيام العرب ، وقد أورد منها آبن عبد ربه فى كتاب "العقد" جملة مستكثرة ، وفى آخر كتاب الأمثال للميدانى نبذة محررة من ذلك ، وليس بنا حاجة إلىٰ آستيعابها هنا .

وأما الحروب الواقعة فى صدر الإسلام . فمنها وقعة الجمل ، وكانت بين على كرم الله وجهه ، ومعه أهل الكوفة ، وبين عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ؛ وكانت راكبة يومئذ علىٰ جمل آسمه عسكر وبه عرفت الوقعة ، وقتل بين الفريقين خلق كثير ، وكانت النصرة فيه لعلى ومن معه .

ومنها وقعة صفين ، وكانت بين على كرم الله وجهه ومعه أهل العراق ، وبين معاوية بن أبى سفيان ، ومعه أهل الشام ، وكان آبتداؤها فى سنة ست وثلاثين ، وكان مدة مقامهم بصفين مائة وعشرة أيام أوقعوا فيها وقعات كثيرة ؛ قيل تسعين

(١) فى العقد الفريد ، ومعجم البلدان الهامرز ، وفسره بالمرزبان .

وقعة ؛ وكانت عدّة القتلىٰ بينهم فيما يقال من أهل الشام خمسةً وأربعين ألفا ، ومن أهل العراق ستة وعشرين ألفا ، منهم ستة وعشرون من أهل بدر ؛ وكان عمّار بنُ ياسِر مع علىّ رضى الله عنه ، وقاتل حتّى قُتِل ، وقد ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، قال : "يَقْتُلُ عمّـارا الفِئَةُ الباغِيَةُ" ومضت عليهما مدّة ، وعلىّ رضى الله عنه علىٰ العراق ، ومعاوية علىٰ الشـام ومصر إلىٰ أنـ قتـل علىّ رضى الله عنه .

ولا حاجة بنا إلىٰ الخوض فى أكثَرَ من ذلك ، فإن ذلك محمول على آجتهادهم ، والإمساك عما شجر بينهم واجب .

ومنها وَقْعة مَرْج راهِطٍ ؛ وكان من حديثها أنه لمـا هلك يزيدُ بنُ معاوية ، كان سعيدُ بن بَحْدَلٍ علىٰ قِنَّسْرِينَ ، فوثب عليه زُفَر بن الحارث فأخرجه منها وبايع عبدَالله آبن الزُّبَيْر ، فلما قعد زُفَرُ علىٰ المِنْبر ، قال : الحمد لله الذى أقعدنى مَقْعَد الغادر الفاجِر وحَصِر ، فضَحِك الناس من قوله ؛ وكان حَسَّان بن بحدل علىٰ فِلَسْطِين ، والأردُنّ ، فآستعمل علىٰ فلسطينَ رَوْح بن زِنْباع الجُذَامىّ ، ونزل هو الأردنَّ ، فوثب ناتل بن قيس الجُذَامىّ علىٰ رَوْح بن زنباع فأخرجه من فِلَسْطِين وبايع آبن الزبير ؛ وكان النعمانُ آبن بَشِير علىٰ حمص فبايع لآبن الزبير ، وكان الضَّحّاك بن قيس علىٰ دمشق ، فجعل يقدّم رجلا ويؤخر أُخْرىٰ ، فقدِم عليه مروان بن الحكم فقال الضحاك هل لك أن تقدم علىٰ آبن الزبير ببيعة أهل الشام ، قال نعم ووافق علىٰ ذلك بنو أمية ، واليمانيُون ؛ فلما فشا ذلك أرسل الضحاك إلىٰ بنى أمية تصـدر إليهم ؛ وقال لمروان وعمرو بن سعيد : آكتبوا إلىٰ حسان بن بحدل فيسـير من الأردن حتّى ينزل الجابية ، ونسير نحن من هنا حتّى نلقاه فننظر هناك رجلا ترضونه ؛ فلما آسـتقلت رايات الضحاك من دمشق ، قالت القيسية لا نصحبك دعوتنا إلىٰ بيعة آبن الزبير ، وهو رجل هذه

الأمة، فلما بايعناك خرجت تابعا لهذه الأعراب بنى كلب، فأجابهم إلى إظهار بيعة ٱبن الزبير، وسار حتّى نزل مرج راهط، وأقبل حسان حتّى لقى مروان، فسار مع مروان حتّى لَقَوُا الضحاك، وهم نحو من سبعة آلاف، والضحاك فى نحو ثلاثين ألفا وٱقتتلوا، فقتل الضحاك وقُتِل معه أشراف من قريش .

المقصـــد الثـالث

(فى كيفية ٱستعمال الكاتب ذكر هذه الوقائع فى كلامه)

لا يخفى أن الكاتب المترشح للكتابة إذا كان من[1] المعرفة بأيام الحرب، والعلم بتفاصيل أخبارها، ومَنْ يعدّ من فُرْسان حروبها، ومصاقِع خطبائها، ومُفْلِق شعرائها، وما جرى بينهم فى ذلك من الخُطَب والأشعار والمناقضات، كان مستعدًا لما يَستشهِد به من واقعة قديمة، أو يرد عليه فى مكاتبة : أو شعر : من ذكر أيام مشهورة، أو ذكر فارس معيّن، كما قال أبو تمام الطائىّ يمدح بنى شَيْبان :

إذا ٱفتَخَرَتْ يومًا تَمِـيمٌ بقَوسِها * وزَادَتْ عَلىٰ ما وَطَّدَتْ مِنْ مَنَاقِب
فَأنتم بِذِى قارٍ أمالَتْ سُيُوفُكُمْ * عُرُوشَ الّذِين ٱسْترهَنُوا قَوْسَ حاجِبِ

يشير إلى أن حاجب بن زُرَارة التميمىّ وفد على كسرى فى سنة جَدْب فقال الحاجب مَنْ أنتَ؟ قال رجل من العرب، فلما دخل على كسرى قال له من أنت ؟ قال سيد العرب — قال ألم تقل بالباب إنك رجل من العرب — ؟ قال كنت بالباب رجلا منهم فلما حضرت بين يدى الملك سُدْتُهم ، فملأ فمه دُرّا ؛ وشكا إليه مَحْلَ الحجاز، وطلب منه حِمْل ألف بعير بُرّا على أن يعيد قيمتَها، — فقال وما ترهَنُنى على ذلك — قال قَوْسِى، فاستعظم همته وقال قبلتُ، وأعطاه حِمْل ألف بعير بُرّا ، ومات حاجب فأحضر بَنُوه المال بعد موته وطلبوا منه قوس أبيهم فافتخرت تميم بذلك .

(١) لعله إذا كان على جانب من المعرفة بأيام الخ كما هو ظاهر .

فأشار أبو تمـام فى بيتيه إلىٰ هذه المنقبة : يقول يابنى شَيْبانَ فى يوم ذى قار أبدتم جيوش كسرىٰ الذى آسترْهنَ قوس حاجب .

وكما قال أبو نصر "الفتح بن خاقان" فى خطبة كتابه "قلائد العقيان": لو جاوره كُلَيْب ما طرق حِمَاه، أو آستجار به أحد من الدهر حَمَاه؛ أو كان بوادى الأخْرم، لطاف به ربيعـةُ وأحرم؛ أو آستنجده الكِنْدىُّ ما كساه المُلاءه، أو كان حاضرًا بِسطام لمـا خرّ علىٰ الألاءه .

وكما قلت فى المفاخرة بين السيف والقلم عند التعرض لذكر المقرّ الزينىّ أبى يزيد الدوادار الذى من أجله وضعت "فلو لقِيَه فارسُ عَبْس لولّى عابسا، أو طرق حِمىٰ كُلَيْب لبات من حِمَـاه آيسا؛ أو قارعه رَبيعة بنُ مكَدَّم لعلا بالسيف مَفْرَقه؛ أو نازله بِسْطامٌ لبدّد جمعه وفرّقه" .

إلىٰ غير ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ وينتظم فى هذا السلك .

قال فى "حسن التوسل" : وإذا لم يكن صاحب هذا الفن عارفا بكل يوم من هذه الأيام، عالمـا بمـا جرىٰ فيها، لم يَدْر كيف يُجيب عما يرد عليه من مثلها، ولا ما يقول إذا سئل عنها . قال : وحسبه ذلك نقصا فى صناعته، وقصورا عما يتعين عليه من معرفته وحسن الجواب عنه عند السؤال عنه (١) .

وأما الوقائع التى وردت فى حوادثَ خاصة بأقوام فقد قال الوزير "ضياء الدين بن الأثير" رحمه الله فى "المثل السائر": إنها كالأمثال فى الآستشهاد بها وذكر لها أمثلة . منها قوله من كتاب : ولا يُعدّ البرّ برّا حتّى يلحق الغُيَّب بالحضور، ويصل مَنْ لم يَصله بجزاء ولا شُكور، فزنة الغائب بالشاهد من كرم الإحسان، ولهذا نابتْ شِمَال (٢) رسول الله عن يمين عثمان . يشير إلى أنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم، فى بيعة الحديبية

(١) لعل من زائدة من قلم الناسخ . (٢) فى بعض النسخ العقبة .

كان قد أرسل عثمانَ بنَ عفَّان رضى الله عنه إلى مكة فى حاجة ، ولم يحضر البيعةَ ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بيده الشِّمالِ على اليمين وقال "هذِهِ عَنْ عُثْمان وشِمَالِى خَيْرٌ مِنْ يَمينه" .

ومنها قوله من تقليد لبعض الملوك من ديوان الخلافة : "وإذا آستعنْت بأحد على عملك فاضرب عليه بالأرصاد ، ولا تَرْضَ بما عرفته من مبدإ حاله ، فإن الأحوال تنتقل بِنَقْل الأجساد ، وإياك أن تُخْدَع بصلاح الظاهر كما خُدِع عمرُ بن الخطاب بالرَّبِيع بن زياد .

يشير بذلك إلى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه آستدعى أبا موسى الأشعرىَّ ومن يليه من العمال وكان منهم الربيع بن زياد الحارثىُّ ، فذهب الربيع بن زياد إلى بعض موالى عمرَ وسأله عما يَرُوج عنده ويَنْفَق عليه ، فأشار إلى خُشُونة العيش فمضى ، ولَبِس جُبَّة صوف ، وعمامةً رثّاء ، وخُفًّا مطابَقا ، وحضر بين يديه فى جملة العُمَّال ، فصوّب عمرُ نَظَره وصعّده فلم يقع إلا عليه ، فأدناه وسأله عن حاله ، ثم أوصى أبا موسى الأشعرىَّ به .

ومنها قوله فى معارضة كتّاب القاضى الفاضل إلى ديوان الخلافة يُعَدِّد فيه مساعىَ الملك الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب" وما قاساه فى الفتوح من الأهوال وهو : ومن جملتها ما فعل الخادم فى الدولة المصرية . وقد قام بها مِنْبر وسَرير ، وقالت منا أمير ومنكم أمير ، فردّ الدَّعوة العباسيَّة إلى مَعَادها ، وأذكر المنابر ما نسيَتْه بها من زَهْو أعوادها . يشير بذلك إلى ما تقدّم من آجتماع الأنصار فى اليوم الذى مات فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم، فى سَقِيفة بنى ساعدة إلى سعد بن عُبَادة ، وكيف ذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وقال الحباب بن المنذر : مِنّا أَمِيرٌ ومنكم أمير ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : لا ، ولكنَّا الأمراءُ وأنتم الوزراء . إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى وينتظم فى هذا السِّلك .

النـــوع الرابع عشـــر
(فى أَوَابد العـــرب)

وهى أمور كانت العرب عليها فى الجاهلية، بعضها يجرى مجرى الديانات، وبعضها يجرى مجرى الاصطلاحات والعادات، وبعضها يجرى مَجْرى الخُرافات، وجاء الإسلام بإبطالها. وهى عدّة أمور:

منها الكَهَانة، وكان موضوعها عندهم الإخبارَ عن أمور غيبية بواسطة استراق الشياطين السمعَ من السماء، وإلقاء مايستمعونه من الغَيْبِيَّات إليهم. وقد كان فى العرب قبل البِعْثة عدّةُ كَهَنة تعتمد العرب كلامهم، ويرجعون إلى حكمهم فيما يُخْبِرُون به.

ومن عجيب أخبارهم فى ذلك أن هنـدَ ابنة عُتْبة بنِ رَبيعة كانت تحت الفاكه ابن المغـيرة المخزومىّ، وكان له بيت للضـيافة يغشاه النـاس من غير إذن، فخـلا البيت يَوما فاضطجع الفاكهُ هو وهند فيه، ثم نهض الفاكِه لبعض حاجته، وأقبل رجل ممن كان يغشى البيت فولجه فلما رآها ولّى هاربا وأبصره الفاكه فأقبـل إلى هند فركضها برجله وهى نائمة فانتبهت — فقال من ذا الذى خرج من عندك — فقالت لم أَرَ أحدا وأنت الذى أنبهتنى — فقال لهـا اذهبى إلى بيت أبيـك فأقيمى عنده! وتكلم الناس فيها — فقال له أبوها إنك قد رميت ابنتى بأمر عظيم، فحاكمنى إلى بعض كُهَّان اليمن، فخرجا فى جماعة من قومهما إلى كاهن من كُهَّان اليمن ومعهما هند ونسوة أُخَر، فلما شارَفُوا بلادَ الكاهن، قالت هند لأبيها إنكم تأتون بَشَرا يصيب ويخطئ ولا آمنه أن يَسِمَنى مِيسَمًا يكون علىّ سُبَّة — فقال أبوها سأختبِره لكِ فصَفَّر لفرسه حتَّى أدلى، فأدخل فى إحليله حبةَ حنطة وشـدّ عليها بسير، فلما دخلوا على الكاهن، قال له عتبة: إنا قد جئناك فى أمر وقد خبَأت لك خَبْأ أختبرك به فانظر ماهو فقال ثَمَرة فى كَمَرة — فقال أريد أبينَ من هذا — فقال حبـة برّ، فى إحليل

مُهْر — فقال له ٱنظر فى أمر هؤلاء النِّسوة، فجعل يدنُو من إحداهنّ فيضربُ بيده علىٰ كتفها ويقول ٱنهَضِى حتّٰى دنا من هند فقال لهـا : ٱنهضى غير رَسْحَاءَ (١) ولا زانيه ولَتَلِدِنّ ملِكا ٱسمُه معاويه، فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها، فجذبتْ يدَها من يده، وقالت إليك عَنِّى ! فوالله لأَحْرِصُ علىٰ أن يكُونَ من غَيْرِك ، فتزوّجها أبو سفيان ابنُ حرب فولدت له معاويةَ ، فكان من أمره ما كان إلىٰ أن ٱنتهت به الحال إلىٰ الخلافة . وقد أخبر جماعة من الكَهَنة بمَبْعَث النبىّ صلى الله عليه وسلم قُربَ ظهوره منهم سَطِيح الكاهن وغيره .

ولمـا بُعثَ النبىّ صلى الله عليه وسلم، حُرِست السماءُ ومُنعت الشياطين من ٱستراق السمع كما أخبر تعالىٰ بقوله ﴿وأنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْها مَقَاعِدَ للسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدا﴾ .

ومنها الزَّجْر والطِّيَرَة : وهما فى معنًى واحد، وأصله أنهم كانوا إذا أرادوا فعل أمر أو تركَه زجروا الطير حتّٰى يطير، فإن طار يمينا كان له حكم، وإن طار شمالا كان له حكم، وإن طار أماما كان له حكم، وإن طار من فوق رأسه كان له حكم، ومن ثَمَّ سميت الطِّيَرَة أخذا من ٱسم الطير، وأكثر ماعوّلوا عليه من ذلك الغرابُ، ثم تعدَّوْه إلىٰ غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا ذلك إلىٰ ما يحدُث فى الجمـادات من كسر أو صَدْع أو نحو ذلك، وربمـا ٱنتهىٰ بعض الزجر إلىٰ حدّ الكَهَانة .

وممـا يحكى من زجر الطير أن رجلا من لِهْبٍ : وهم بطن من العرب يُعرَفون بالعِيَافة ، خرج فى حاجة له ، ومعه سـقاء من لبن فسار صَـدْرَ يومه فعطِش فأناخ ليشربَ فإذا غُراب فنَعَب فأثار راحلتـه ، ثم سـار حتّٰى كان وقتُ الظهيرة أناخ ليشرب ، فنَعَب الغراب وتمرّغ فى التراب ، فضرب الرجل السِّـقاء بسيفه فإذا فيه

(١) الرسحاء بالمهملات من النساء القبيحة ووقع فى الأصل بإعجام الشين وهو تصحيف فٱحذره .

ثُعبان عظيم فقتله ، ثم سار فإذا غراب واقع علىٰ سِدْرة فصاح به فوقع علىٰ سَلَمة ، فصاح به فوقع علىٰ صخرة فآنتهىٰ إليها ، فأثار من تحتها كنزا ؛ فلما رجع إلىٰ أبيه قال له ما صنعت؟ قال سِرْت صـدْرَ يومى فأنختُ لأشرب فنعب الغراب — فقال : أثِرْ راحلتك وإلا فلست بِٱبْنِي — قال فعلت — قال ثم ماذا؟ قال سرت حتّى وقت الظهيرة فأنخت لأشرب فنعَبَ الغراب ، وتمرّغ فى التراب — فقال آضرب السِّقاء وإلا فلست بآبنى . قال فعلت ؛ فوقع علىٰ صخرة قال أثِرْ ماتحتها وإلا فلستَ بابنى . قال فعلت ؛ فوجدت كنزا .

وقد وردت السـنة بإبطال حكم الزجر والطِّيَرة بقوله صلى الله عليه وسلم "أقِرُّوا الطَّيْرَ فى وُكُناتِها" وقوله صلى الله عليه وسلم "لا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ" وآستحسن صلى الله عليه وسلم ، الفأْل فقال "ويُعْجِبُنِى الفَأْلُ وهى الكلمة الطَّيِّبة أسمعها". وقد فرق العلماء بين الفال والطيرة بأن الطيرة تُقْصَد والفأل يأتى من غير قصد .

ومنها المَيْسِر : وهو ضرب من القِمار كانوا يقتسمون به لحمَ الجُزُر التى يذبحونها بحسب قِدَاح يضربُونها ، لكل قِدْح منها نصيب معلوم : وهى أحد عشر قِدْحا : سبعة منها لها حظ إن فازتْ وعليها غرم إن خابتْ بقدر مالها من الحظ عند الفوز ، وأربعة منها تُثَقَّل بهـا القداح لا حظَّ لهـا إن فازت ، ولا غرم عليها إن خابت . فأما السبعة التى لهـا الحظ إن فازت وعليها الغرم إن خابت . فأوّلهـا الفَذُّ : وهو قِدْح فى صَـدْره حَزٌّ واحد ، وله نصيب واحد فى الأخذ والغُرْم . والثـانى التَّوءَم ، وفى صـدره حَزَّان ، وله نصيبان فى الأخذ والغُرْم . والثالث الضَّرِيب (ويسـمّى الرقيب) وفيه ثلاثة حزوز ، وله ثلاثة أنصباء . والرابع الحِلْس وفيه أربعة حزوز وله أربعة أنصباء . والخامس النافِسُ وفيه خمسة حُزُوز ، وله خمسة أنصباء . والسادس المُسْبِل ، ويسمّى المُصْفَح أيضا ، وفيه ستة حزوز وله ستة أنصباء . والسابع المُعَلَّى ،

وفيه سبعة حزوز، وله سبعة أنصباء، وهو أوفرها حظًّا ، ولذلك يُضربُ به المثــل فى الحظ فيقال قِدْحُه المُعَلّى .

وأما الأربعة التى تُثَقَّل بها القداح فهى السَّفِيح ، والمَنِيحُ ، والمُضَعَّف ، والوَغْد ، وكان طريقهم فى ذلك أن القوم يجتمعون فيشــترُون جَزُورا فينحَرُونها ويُفَصِّلُونها علىٰ عشرة أجزاء، ويسْتَهِمُون فيها علىٰ سبعة أنصباء لا أكثر ، وتسمى الأنصباء فيها الأيْسار ، فإن كانوا أقلّ من ســبعة وأراد أحدهم قِدْحين أو أكثر ، أخذ وكان له فوزها ، وعليه غرمها ؛ فإذا جزءوا الجزور علىٰ ذلك ، أتَوْا برجل يسمونه الحُرُضَة[(1)] ، من شأنه أنه لم يأكُلْ لحمــا قطُّ بثمن ، ويؤتىٰ بالقداح فتشَــدُّ مجموعة فى قطعة جلد تســمّى الرِّبابَة ، ثم يَلُفُّ الحُرُضَــةُ علىٰ يده اليمنىٰ ثوبا لئلا يجد مس قِدْح ، له مع صاحبه هوًى فيحابيه فى إخراجه ، ثم يؤتىٰ بثوب أبيض يسمّى المِجْوَل ، فيُبْســط بين يدَىِ الحُرْضة ، ويقوم علىٰ رأسه رجل يسمّى الرَّقِيب ، ويدفع رِبابة القِدَاح إلىٰ الحُرْضَة ، وهو محوَّلُ الوجه عنها ، فيأخذ الرِّبابة التى تُجمع فيها القِدَاحُ ، ويدخل يدَه تحت الثَّوب فينكر القداح فاذا نهد فيها قِدْح يناوله دُفْعة إلىٰ الرقيب ، فإن كان ممــا لاحظّ له ، ردّ إلىٰ الرِّبابة فإن خرج بعــده المُسْبِل مثــلا أخذ الثلاثة الباقية وغرم الذين خابوا ثلاثة أنصباء من جزور آخر ، وعلىٰ ذلك أبدا يُفْعل بمن فاز ومن خاب ، فربمــا نحروا عِدّة جُزُر ، ولا يغرم الذين فازوا من ثمنها شيئا ، وإنمــا الغُرْم علىٰ الذين خابوا ، وكان عندهم أنه لايحل للخائبين أن يأكلوا من ذلك اللحم شيئا ؛ فإن فاز قِدْح الرجل فأرادوا أن يُعيدوا قدحه ثانية علىٰ خطإ فعــلوا ذلك به ؛ وقد نظم الصاحب إسماعيل بن عبَّاد أسماء القداح التى لها النصيب فَوْزا وغرما فى أبيات فقال :

(١) الحرضة بالضم والراء المهملة والضاد المعجمة أمين المقامرين . ووقع فى الأصل الحوصة بالواو والصاد المهملة وهو تصحيف من النساخ فاحذره .

إنَّ القِـداحَ أَمْرُها عَجِيبُ * القَـــذُّ والتَّــوْءم والرَّقيب
والحِلْسُ ثم النافِسُ المُصِيب * والمُصْفَحُ المشتهرُ النَّجِيب
ثم المُعَـــلَّى حَظُّه الرَّغيبُ * هَاكَ فَقَدْ جَاء بهـا الترتيبُ

ومنها الأزلام : وهى ضرب من الطِّيَرة، كانوا إذا أرادوا فعـل أمر ولا يدرون ما الأمر فيه، أخذوا قِدَاحا مكتوبًا علىٰ بعضها ٱفعل ، لاتفعَلْ ، وعلىٰ بعضها نعم، وعلىٰ بعضها لا ، وعلىٰ بعضها خُذْ، وعلىٰ بعضها سِرْ ، وعلىٰ بعضها سريع ، فإذا أراد أحدهم سـفَرا مثلا أتىٰ سادنَ الأوثان؛ فيضرب له بتلك القِداح ويقول : اللهـم أيُّها كان خيرا له فأخرِجْه فما خرج له عمل به ، وإذا شكُّوا فى نسب رجل أجالوا القداح وفى بعضها مكتوبٌ صريح، وفى بعضها مكتوب مُلْحق؛ فإن خرج الصريح أثبتوا نسـبَه، وإن خرج المُلْحَق نَفَوْه . وإن كان بين ٱثنين ٱختلاف فى حق سمّى كل منهما له سهما وأجالوا القِدَاح فمن خرج سهمُه فالحق له وقد نهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك بقوله ﴿ وأنْ تَسْتَقْسِمُوا بالأَزْلَامِ ﴾ .

ومنها البَحِيرة، والسائِبَةُ، والوَصِيلة، والحامِى .

فأما البَحِيرة ، فكانت الناقة إذا أُنْتِجَتْ خمسة أبطن عَمَدُوا إلىٰ الخامس منها مالم يكن ذكرا فشَقُّوا أذنها وتركوها ،فلا يُجَزُّ لها وبر، ولا يُحْمَل عليها شيء ولا يُذْكَر عليها إن ذُكِّيت ٱسمُ الله تعالىٰ، وتكون ألبانُها للرجال دون النساء .

وأما السائبة فكان الرجل يُسيِّب الشيء من ماله : بهيمةً أو عبدا، فيكون حراما أبدا وتكون منافع ذلك للرجال دون النساء .

وأما الوَصِيلة فكانت الشاة إذا ولدتْ سبعةَ أبطن عمَدُوا إلىٰ السابع فإن كان ذكرا ذُبِح، وإن كان أنثىٰ تُركت فى الغنم ، وإن كان ذكرا وأنثىٰ قيل وصلتْ أخاها فَحَرُما جميعا، وكانت منافعهما ولبن الأنثى منهما للرجال دون النساء .

وأما الحامى، فكان الفحل إذا صار من أولاده عشرةُ أبطن، قالوا حَمىٰ ظهره، فيُترك، ولا يُحمَلُ عليه شيء، ولا يُركَب، ولا يُمْنَع ماءً، ولا مرعًى؛ وقد أخبر الله تعالىٰ ببطلان ذلك بقوله: ﴿ماجَعَلَ اللهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حامٍ﴾ .

ومنها إغلاق الظهر: كان الرجل منهم إذا بلغت إبله مائة عمد إلىٰ البعير الذى كملت به مائة فأغلق ظهره بأن ينزِعَ شيئا من فقراته ويعقر سنامه كى لا يُركَب لُيُعْلم أن إبل صاحبه قد أَمْأَتْ .

ومنها التَّفقِئة، والتَّعْمِيَة. كان الرجل إذا بلغت إبله ألفا فقأ عين الفحل: وهى التفقئة، فإن زادتْ علىٰ ذلك فَقَأَ العينَ الأخرىٰ وهى التعمية، ويزعُمُون أن ذلك يدفع العين عن الإبل قال الشاعر:

وَهَبْتَها وأنتَ ذُو آمتنانِ * تُفْقَأُ فيها أعْيُنُ البُعْرانِ

ومنها نكاح المَقْت: وهو نكاح زوجةِ الأبِ — وكان من شأنهم فيه أن الرجل إذا مات قام أكبرُ ولده، فألقى ثوبَهُ علىٰ آمرأة أبيه فورِث نكاحَها، فإن لم يكن له فيها حاجة يُزَوِّجها بعضَ إخْوته بمهر جديد، فكانوا يتوارثُون النكاح كما يرِثُون المال، فأنزل الله تعالى ﴿ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أن تَرِثُوا النِّساءَ كَرْهًا ﴾، وحرم زوجة الأب بقوله ﴿ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ ءابَاؤُكُم مِنَ النِّسَاء إِلَّا مَا قَد سَلَفَ إِنَّه كانَ فَاحِشَةً ومَقْتًا وسَاءَ سَبِيلًا ﴾ ومن ثَمَّ سمى نكاحَ المَقْت .

ومنها رَمْىُ البعرة: كانت المرأة فى الجاهلية إذا مات زوجُها، دخلَتْ حِفْشا (يعنى خُصًّا) ولبستْ شَرَّ ثيابها ولم تَمَسَّ طِيبا حتَّى تَمضِىَ عليها سنةٌ، ثم يُؤْتى بدابة: حمارٍ أو شاةٍ أو طير، فتفْتَضُّ به أى تَمَسَّح به فقلّما تَفْتَضُّ بشىء إلا مات، ثم تخرُج بعد ذلك فتُعْطىٰ بعرةً فترمى بها، ثم تُراجع ما شاءت من طيب أو غيره فنَسَخ

الإسلامُ ذلك بقوله تعالىٰ ﴿ والَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أربعةَ أَشْهُرٍ وعَشْرا ﴾ .

ومنها وَأْدُ البنات (وهو قتلهنّ) . كانوا يقتلوهنّ خشيةَ العار، وممن فعل ذلك قيس ٱبن عاصم المِنْقرىّ، وكان من وجوه قومه ومن ذوى المـال ، وكان سبب ذلك أن النعمان بن المنذر أغزاهم جيشا فسبَوْا ذراريّهـم فأناب القومُ وسألوه فيهم فقال النعمان : كل ٱمرأة ٱختارت أباها رُدّت إليـه ، وكل من ٱختارت صاحبها تُرِكت معه ، فكلهنّ ٱخترن آباءهنّ إلا ٱبنةً لقيس بن عاصم فإنها ٱختارت صاحبها عمرو بن الجَمُوح ، فنذر قيس أنه لا يولَدُ له ٱبنة إلا قتلهـا فكان يقتلهنّ بعد ذلك . وورد القرءان بإعظام ذلك بقوله ﴿ وإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَىّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴾ .

ومنها قتل الأولاد خشيةَ الإمْلاق والفاقة ، فكان الرجل منهم يقتُل ولده مخافة أن يَطْعَمَ معه إلىٰ أن نهىٰ الله تعالىٰ عن ذلك بقوله ﴿ ولا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْـيَةَ إِمْلَاق نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كان خِطْأً كَبِيرًا ﴾ .

ومنها حَبْس البَلَايا ، كانوا إذا مات الرجل يَشُدّون ناقتَه إلىٰ قبره ويُقْبِلون برأسها إلىٰ ورائها ويُغَطُّون رأسها بولية (١) وهى البرذعة فإذا أفلتت لم تردّ عن ماء ولا مرعًى ، ويزعُمون أنهم إذا فعلوا ذلك حُشِرتْ معه فى المَعَاد ليركبها قال أبو زبيد (٢) :

كالبَـلَايَا رُءُوسُهَا فى الوَلَايَا ✻ مانحاتِ السَّمُوم حُرَّ الخُدُودِ

ومنها الهـامَةُ — كانوا يزعمون أن الإنسان إذا قُتل ولم يطالَبْ بثأْره ، خرج من رأسِه طائر يسمّى الهـامَةَ ، وصاح : ٱسْقُونِى ٱسـقُونِى حتّى يُطالَبَ بثأره ، قال ذو الأصبع :

(١) فى الأصل بزلية وكذلك جمعها فى البيت زلايا وهو تصحيف فأحذره .
(٢) فى الأصل أبو زيد وهو تصحيف .

يا عَمْرُو إلَّا تَدَعْ شَتْمِي ومَنْقَصَتِي * أَضْرِبْكَ حتَّى تقُولَ الهامَةُ ٱسْقُونِي

ومنها تأخير البكاء علىٰ المقتول للأخذ بثأره — كان النساء لا يَبْكِين المقتولَ منهم حتّى يؤخَذَ بثأره، فإذا أُخذ به بكَيْنه حينئذ، قال الشاعر :

مَنْ كانَ مَسْرُورًا بمَقْتَلِ مالكٍ * فلْيأْتِ نِسْوَتَنَا بوَجْهِ نَهارِ

يَجِدِ النِّساءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبْنَه * يَلْطِمْنَ حُرَّ الوجْهِ بالأَسْحارِ

ومنها تَصْفِيق الضالّ — كان الرجل منهم إذا ضلَّ فى الفَلَاة، قلب ثيابَهُ وحَبَس ناقته وصاح فى أُذُنِها كأنه يُومِئ إلىٰ إنسان وصفَّق بيديه قائلا : الْوَحَا الْوَحَا النَّجاء النَّجاء هيكل : الساعةَ الساعةَ إلىَّ إلىَّ عجِّل، ثم يحرّك ناقته فيزعمون أنها تهتدى، إلىٰ الطريق حينئذ . قال الشاعر :

وآذَنَ بالتَّصْفِيقِ مَنْ ساءَ ظَنُّهُ * فلم يَدْرِ مِنْ أىِّ اليَدَيْنِ جَوابُها

يريد إذا ساء ظنُّه بنفسه حين يَضِلُّ .

ومنها الغُول — كانوا يزعمون أن الغُولَ تَتَراءى لأحدهم فى الفلاة فيتبعُها فتستهويه؛ وربما ٱدّعى أحدهم أنه قابلها وقاتلها قال تأبط شرًّا :

أَلَا مَنْ مُخْبِرٍ فِتْيانَ فَهْمٍ(١) * بما لاقَيْتُ عِنْدَ رَحَا بِطَانِ

بأَنِّى قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِى * بَسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ

فقُلْتُ لَهَا كِلَانَا نِضْوُ أَرْضٍ * أَخُو سَفَرٍ فَخَلِّى لِى مَكَانِى

فشَدَّتْ شَدَّةً نَحْوِى فأَهْوَتْ * لها كَفِّى بمَصْقُولٍ يَمَانِى

فأَضْرِبُها بلا دَهَشٍ فخَرّتْ * صَرِيعًا لليَدَيْنِ ولِلجِرَانِ

ومنها ضَرْب الثور ليشرب البقرُ — كانوا يزعمون أنّ الجنّ تركَبُ الثّيرانَ فتصُدّ البقر عن الشرب، فيضربون الثورَ ليشرَبَ البقرُ، قال الشاعر :

(١) فى نسخة فهر . وفى ياقوت قومى . وقوله فى البيت الثانى بسهب فى الأصل بسيف وهو تصحيف .

كَذَاكَ الثَّوْرُ يُضْرَبُ بالْهَرَاوَى(١) * إذا ما عافَتِ البَقَـــرُ الظِّماءُ

ومنها تعليق سِنّ الثَّعْلب وسنّ الهرّة وحيض السَّمُرة — كانوا يزعمون أن الصبىّ إذا خيف عليه نظرةٌ أو خَطْفة فعُلّق عليه شىء من ذلك، سلم من آفته، وأن الجنية إذا أرادته لم تقدر عليه؛ قالت امرأة تصف ولدا :

كانَتْ عَلَيْهِ سِـــنّةٌ مِنْ هِرَّه * وثَعْلَبٍ والحيضُ حَيْضُ السَّمُره

ومنها تعليق كعب الأرنب — كانوا يعلّقونه علىٰ أنفسهم، ويزعمون أنه وِقايةٌ من العين والسِّحر، قائلين إن الجنّ تنفر من الأرنب لكونها تحيض، قال الشاعر :

ولا يَنْفَعُ التَّعْشِـيرُ إن حُمَّ واقِعٌ * ولا وَدَعٌ يُغْنِي ولا كَعْبُ أرْنَبَ

ومنها تعليق الحُلِىّ علىٰ السليم (وهو الملسوع) — كانوا إذا لُسع فيهم إنسان عَلَّقوا عليه الحُلِىَّ من الأساور وغيرها، ويتركونه سبعة أيام ويمنع من النوم فيُفِيق، قال النابغة :

يُسَهَّدُ من وَقْتِ العِشاء سَلِيمُها * لِحَلْىِ النِّساء فى يَدَيْهِ قَعَـاقِعُ

ومنها وطء المَقَالِيت القَتْلىٰ — كانوا يزعمون أن المرأة المِقْلاتَ (وهى التى لا يَعِيش لها ولد) إذا وَطِئت قتيلا شريفًا بقِى أولادها، قال بشر بن أبى خازم :

يَظَلُّ مَقَالِيتُ النِّساء يَطَأْنَهُ * يَقُلْنَ ألَا يُلْقىٰ علىٰ المَرْءِ مِئْزَرُ

ومنها مسح الطارف عين المطروف — كانوا يزعمون أن الرجل إذا طَرَف عين صاحبه فهاجتْ فمسح الطارفُ عينَ المطروف سبع مرات يقول فى كل مرة : بإحدىٰ جاءت من المدينة : باثنتين جاءتا من المدينة، بثلاث جئن من المدينة إلىٰ سبع سكن هَيَجانها .

---

(١) فى الأصل بالهوادى وهو تصحيف فاحذره .

ومنها كىّ السليم من الإبل ليبرأ الجَرِب منها — كانوا يزعمون أن الإبل إذا أصابها عُرّ (وهو الجرب) فكَوَوْا صحيحا إلىٰ جانبه ليشَمَّ رائحتـه برئ ، وربمـا زعموا أنه يؤَمِّنُ معه العدوىٰ، قال النابغة :

وكَلَّفتنِي ذَنْب ٱمْرِئٍ وتركْتَـهُ * كذِى العُرّ يُكْوىٰ غَيْرُه وهو راتِـعُ

ومنها ذَهَاب الخَدَر من الرجل — كانوا يقولون إن الرجُل إذا خَدِرتْ رجله فذكر أحبَّ الناس إليه ذهب عنه الخَدَر، قالت ٱمرأة من كلاب :

إذا خَدِرَتْ رِجلى ذَكَرْتُ ٱبنَ مُصْعَبٍ * فإنْ قُلْتُ عَبْد الله أجْلَى فُتُورها

ومنها الحَلَى(1) عن الصبيان بجِبَاية الحىّ و إطعامه الكلابَ — كانوا يَرَوْن أن الفتىٰ إذا ظَهَر فيه الحَلَى بشَفَته (وهى بُثُور تنبُت بالشَّفَة) فيأخذ منخلا علىٰ رأسه ويمرّ بين بيوت الحىّ وينادى الحَلَى الحَلَى فيُلْقَى فى منخله من هنا تَمْرة ، ومن هنا كِسرة ، ومن هنا قطعة لحم فإذا ٱمتلأ نثره بين الكلاب فيذهَب عنه الحَلَى .

ومنها شقُّ الرداء والبُرْقع ، لدَوَام المحبة — زعموا أن المرأة إذا أحبَّتْ رجلا أو أحبها ولم تَشُقَّ عليه رداءَه و يشُقَّ عليها برقُعَها فسد حبهُّما ، قال الشاعر :

إذا شُـقَّ بُرْدٌ شُقَّ بالبُرْدِ برقُعٌ * دَوَالَيْـكَ حتَّى كُلُّنا غيرُ لابِسِ

فكَمْ قَدْ شَقَقْنا من رداء مُحَبَّر * ومِنْ بُرْقُعٍ عَنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عانِسِ

ومنها رمى سن الصبىّ المُثغِر فى الشمس — يقولون : إن الغلام إذا أثْغَر فرمىٰ سنَّه فى عينِ الشمس بسبَّابته و إبهامه وقال أبدلينى بها أحسن منها ، أَمِن علىٰ أسنانه العَوج والفَلَج والنَّغَل، قال طَرَفة :

بَدَّلَتْه الشَّمْسُ مِنْ مَنْبِتِـه * بَرَدًا أبيضَ مَصْقول الأُشُر

(1) لعله دفع الحلى عن الخ . وهو فى الأصول مقصور وأورده القاموس واللسان فى باب المهموز وقال الأخير إن بعضهم لا يهمز .

ومنها التعشير — زعموا أن الرجل إذا أراد دخول قرية فخاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها فعشّر كما ينهق الحمــار ثم دخلها ، لم يصبه وباؤها ، قال عُرْوة آبن الورد :

لَعَمْرِى لَئِنْ عَشَّرْتُ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدىٰ * نُهَـاقَ حَمِـيرٍ إنَّنِى لجَـزُوع

ومنها عَقْد الرَّتَم — وهو نَبْت معروف — كان الرجل إذا أراد سـفَرا عَمَد إلىٰ رَتَم فعقده فإن رجع ورءاه معقودا، آعتقد أن آمرأته لم تَخُنْـه ، وإن رءاه محلولا آعتقد أنها خانته، قال الشاعر :

خانَتْه لَمَّا رأتْ شَيْبًا بمَفْرِقه * وغَرَّه حِلْفُها والعَـقْدُ للرَّتَمِ

ومنها آعتبار دائرة المَهْقُوع[1] — وهى دائرة تكون فى عنق الفرس يقال لهـا الهَقْعة علىٰ مايأتى ذكره فى الكلام على الخيل فى الطَّرَف الآتى — كانوا يزعمون أن الفرس المهقوع إذا عَرِق تحت صاحبِه آغتلَمَتْ حليلته، وطَلَبت الرجال، قال الشاعر :

إِذَا عَرِقَ المَهْقُوع بالمَرْءِأَنْعظَتْ * حَلِيلَتُــه وآزْدادَ حَرًّا عِجَانُها

ومنها خِضَاب نحر الفرس السابِق — كان من عادتهم إذا أرسـلُوا خَيْلا علىٰ صَيْد فسبَق أحدُها خضبوا صَدره بدَمِ الصيد علامةً له ، قال الشاعر :

كأَنَّ دِماءَ العاوِيات[2] بنَحْـرِه * عُصارَةُ حِنَّاءٍ بشَيْبٍ مُرَجَّل

ومنها جز ناصـية الأسير — كانوا اذا أسروا رجلا ثم مَنُّوا عليـه فأطلقوه، جَزُّوا ناصيته ووضعُوها فى كنانة، قالت الخنساء .

جَزَزْنا نَواصِىَ فُرْسانِهِمْ * وكانوا يَظُنُّون أن لاتُجَزَّا

---

(١) فى اللسان فى زور الفرس أو عرض زوره . وسيأتى تفسيره بذلك فى الدوائر .

(٢) فى نسخة العاديات .

النوع الخامس عشر
(فى معرفة عادات العرب، وهى صنفان)

الصنف الأوّل
(نيران العرب)

قد ذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" للعرب ثلاثَ عَشْرةَ نارا .

الأُولىٰ نار المزدلفة — وهى نار تُوقَد بالمزْدلِفة من مشاعر الحج ليراها مَنْ دفع من عرفةَ . وأوّل مَنْ أوقدها قُصَىّ بن كلاب، فهى تُوقَد إلىٰ الآن .

الثانية نار الاستمطار — كانوا فى الجاهلية الأُولىٰ إذا احتبس المطرُ جمعوا البَقَر وعَقَدُوا فى أذنابها وعراقيبها السَّلَع والعُشَر، ويُصَعِّدون بها فى الجبل الوَعْر، ويُشْعِلون فيها النار، ويزعمون أن ذلك من أسباب المطر، قال الشاعر :

أَجَاعِلٌ أَنْتَ بَيْقُورًا مُسَلَّعَةً * وَسِيلَةً مِنْكَ بَيْنَ اللهِ والمَطَرِ

الثالثة نار الحِلْف — كانوا إذا أرادوا عَقْد حِلْف أوقدوا النار وعقدوا الحلف عندها، ويذكُرون خيرها، ويدعُون بالحِرْمان من خيرها علىٰ من نقَض العهدَ، وحلّ العقْد . قال العسكرىّ "وإنما كانوا يخُصُّون النار بذلك لأن منفعتها تختص بالإنسان، لايشاركه فيها شىء من الحيوان غيره" .

الرابعة نار الطَّرْد — وهى نار كانوا يُوقِدونها خَلْف مَن يمضِى ولا يحبُّون رجوعه .

الخامسة نار الحرب — كانوا إذا أرادوا حربا أو توقعوا جيشا ، أوقدوا نارا علىٰ جبلهم ليبلغَ الخبرُ أصحابَهم .

السادسة نار الحرَّتين : كانت فى بلاد عَبْسٍ فإذا كان الليل تضىء نار تسطع

وفى النهار دخان مرتفع ، وربما بَدَر منها عُنُق فأحرق مَنْ مرّ بها ، فحفر خالدُ بنُ سنان النبيّ، فدفنها ، فكانت معجزة له .

السابعة نار السَّعَالِى — تُرْفَع للتقفّر فيتبعها فتهوِى به الغُولُ علىٰ زعمهم كما تقدّم فى الكلام علىٰ أوابد العرب .

الثامنة نار الصيد — وهى نار تُوقَد للظباء تغشاها إذا نظرت إليها .

التاسعة نار الأسد — وهى نار توقد إذا خافوا الأسَدَ لينفِر عنهم فإن من شأنه النِّفارَ عن النار، يقال إنه إذا رأىٰ النار حدث له فكر يصدّه عن قصده .

العاشرة نار القِرىٰ — وهى نار تُوقَد ليلا ليراها الأضياف فيهتدوا إليها .

الحادية عشرة نار السليم (وهو الملسوع) : كانوا يُوقِدون النار للملسوع إذا لُدِغ يُساهِرونه بها ، وكذلك المجروح إذا نَزَف دمُه ، والمضروب بالسِّياط ومن عضَّه الكلب كى لا يناموا فيشتدّ الأمر بهم فيؤدّيهم إلىٰ الهلَكة .

الثانية عشرة نار الفِداء — كان الملوك منهم إذا أسروا نساء قبيلة خرجت إليهم السادة منهم للفِداء أو الآستيهاب فيكرهون أن يَعْرِضوا النساء نهارا فيفتضِحْن أو فى الظلمة فيخفىٰ قدر مايحبِسُونه لأنفسهم من الصَّفِىّ ، فيوقدون النار لعَرْضهنّ .

الثالثة عشرة نار الوسم — وهى النار يَسم بها الرجل منهم إبله فيقال له ماسمة إبلك؟ فيقول كذا :

الصـــنف الثـانى

(أسواق العرب المعروفة فيما قبل الإسلام)

قد كان للعرب أسواق يُقيمونها فى شهور السنة ، وينتقلون من بعضها إلىٰ بعض ويحضُرها سائر قبائل العرب : ممن قرُب منهم وبعُد . فكانوا ينزلون دُومة الجَنْدل

أوّل يوم من ربيع الأوّل، فيُقِيمون أسواقها بالبيع والشراء، والأخذ والعطاء؛ وكان يَعْشُوهم فيها أُكَيْدِرُدُومةَ — وهو ملكها — وربما غلب على السوق كَلْبٌ، فيعشُوهم بعض رؤساء كلب فيقوم سوقهم هناك إلىٰ آخر الشهر . ثم ينتقلون إلىٰ سُوق هَجَر من البحرين فى شهر ربيع الآخر، فتكون أسواقهم بها، وكان يعشُوهم فى هذا السوق المنذرُ بن ساوىٰ أحد بنى عبد الله بن دارم — وهو ملك البحرين . ثم يرتحلون نحو عُمَان من البحرين أيضا فتقوم سوقُهم بها . ثم يرتحلون فينزلون إرَم وقُرىٰ الشِّحر من اليمن فتقوم أسواقهم بها أياما . ثم يرتحلون فينزلون عَدَنَ من اليمن أيضا فيشترون منه اللَّطائم وأنواع الطيب . ثم يرتحلون فينزلون حضرموت من بلاد اليمن، ومنهم من يجوزها فيرد صنعاء فتقوم أسواقهم بها ويَجْلبُون منها الخَرَز والأدَمَ والبُرود، وكانت تُجْلَب إليها من مَعَافر . ثم يرتحلون إلىٰ عُكَاظَ فى الأشهر الحُرُم، فتقوم أسواقهم ويتناشدون الأشعار، ويتحاجُّون؛ ومن له أسير سعىٰ فى فدائه، ومن له حكومةٌ ٱرتفع إلىٰ من له الحكومة؛ وكان الذى يقوم بأمر الحكومة فيها من بنى تميم؛ وكان آخِرَ من قام بها منهم الأقرعُ بن حابس التميمىّ . ثم يقفون بعرفة ويقْضُون مناسك الحج . ثم يرجعون إلىٰ أوطانهم قد حصلوا علىٰ الغنيمة، وآبوا بالسلامة .

النوع السادس عشر

(النظر فى كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال)

اعلم أن الكاتب يحتاج إلىٰ معرفة وقائع التاريخ، وتفاصيلها؛ ولا يكاد يستغنى عن العلم بشىء منها لأمور . منها العلم بأزمنة الوقائع والماجَرَيات؛ وأحوال الملوك والأعيان والحوادث، والماجَرَيات الحاصلة بينهم؛ فيحتج بكل واقعة منها فى موضعها، ويستشهد بها فيما يلائمها، ويحتج لمثل ذلك؛ فإنه متىٰ أخلَّ بمعرفة ذلك

آحتج بالقصة فى غير موضعها ، أو نسبها إلىٰ غير من هى له ، أو لبَّس عليه خصمه بالآستشهاد بواقعة لا حقيقة لها ، أو نسبها إلىٰ غير من هى له ليظهر حُجته عليه ، وما يجرى مجرى ذلك ؛ وفيه مقصدان .

المقصـــــد الأوّل

(فى ذكر نبْذة تاريخية لا يسَع الكاتبَ جهلُها ممـا يحتج به الكاتبُ تارة ويذاكر به ملِكَه أو رئيسه أخرىٰ)

اعلم أن التاريخ بحر لا ساحل له ، وقد أكثر الناس فيه من التصنيف علىٰ آختلاف فنونه : مابين مختصَر ، ومبسوط : من مقتصِر علىٰ فن ، ومستوعِب لفنون ، وفى خلال تلك المصنَّفات نوادر غريبة ، ولطائف عجيبة ، لا يحصـل الوقوف عليها إلا بعد آستيعابها بالمطالعة ، كما لا يقع الظَّفَر بالجوهرة فى المعدن إلا بعد عمل كثير يحصل فى خلالهـا بغتـة ، فإذا التُقطت الجواهر من المعْـدِن ، سَهُل تناوُلُهـا لمريدها ؛ وهى علىٰ ضربين .

الضـــرب الأوّل

(الأوائل)

وهى معرفة مبادئ الأمور المهمة ، وقد أفردها أبو هلال العسكرىّ بالتصنيف ، وأورد الثعالبيُّ منهـا فى كتابه "لطائف المعارف" نبذة صالحة ، وتضمنت كتبُ التاريخ منها جملة مما لم يتعرضا إليه ، وقد آقتصرت منها علىٰ ما تتشوّف نفوس أكثر الناس إلىٰ معرفته والآطِّلاع عليه : ممـا توفرت الدواعى عليـه ، فاستمر وجوده ، وآنسحب عليه حكم الآستعمال إلىٰ الآن ، أو آشتهر فى مبدإ أمره ، ثم زال بعد ذلك ؛ جاريا فى ترتيبه علىٰ وجه يقرب تناوله ، مقدّما الأهم فالأهم بالنسبة إلىٰ حال الكاتب :

أمور تتعلق بالأنبيـاء عليهم السـلام
(سِوىٰ ما يأتى ذكره مما شاكل غيره)

أوّل من استَرَقَّ الرقيقَ إدريس عليه السلام . أوّل من شاب إبراهيم الخليل عليه السلام؛ وهو أوّل مَنْ قَصَّ شاربه ، وأوّل من فَرَق شعره ، وأوّل من تَمَضْمَض ، وأوّل مَنِ آستاك ، وأوّل من قَلَّم الأظفار ، وأوّل من آستنجىٰ ، وأوّل من آختتن ، وأوّل من رمىٰ الجِمَار .

الخلافة وما يتعلق بها

أوّل من سُمِّى خليفةً أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حين وُلِّى الخلافة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يخاطب بخليفة رسول الله؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الألقاب فى المقالة الثالثة إن شاء الله تعالىٰ؛ وهو أوّل من آستَخْلَف من الخلفاء : آستخْلَف عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فى مرض موته ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ولاية الخلفاء فى المقالة الخامسة؛ وهو أوّل خليفة فُرِض له العطاء فى بيت المال عن الخلافة، ولما أدركته الوفاة أوصىٰ باعادة جميع ما حُمِل إليه من ذلك إلىٰ بيت المال من ماله .

أوّل من سمِّى أميرَ المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ هذا اللقب فى جملة الألقاب فى المقالة الثالثة؛ وهو أوّل من رَتَّب بيت المال فيما ذكره العسكرى ، لكنه قد ذكر فى موضع آخر أن عمر كان علىٰ بيت المال من قِبَل أبى بكر رضى الله عنه، فيكون أبو بكر قد سبقه إلىٰ ذلك ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ وَكَالة بيت المال فى المقالة الخامسة ؛ وهو أوّل من كوّر الكُوَر ومَسَح أرض السَّواد ، ورتَّب الخراج علىٰ الأَرَضِينَ ، والجِزْيَةَ علىٰ

الجَمَاجم؛ وهو أوّل من حَمَل الطَّعام من مصر إلىٰ الحِجاز؛ وذلك فى عام الرمادة عند غلوّ(١) السعر بالحجاز. وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ خليج القاهرة فى أوائل المسالك والممالك .

أوّل من أقطع القطائع من الخلفاء أمير المؤمنين عثمانُ بن عفان رضى الله عنه؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الإقطاعات فى المقالة السادسة، وهو أوّل من حَمَىٰ الحمىٰ لنَعَم الصدقة من الخلفاء، وهو أوّل من ٱتخذ صاحب شُرْطة من الخلفاء .

أوّل من ٱتخذ بيتا تُرمى فيه قِصَص أهل الظُّلامات أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه، وبقى حتّى كُتِب له شتمه فى رُقْعة، وطُرِحت فى البيت فتركه؛ ثم ٱتخذه المهدىّ بعده، ثم ترك بعد ذلك .

أوّل من سُلِّم عليه بالخلافة فقيل السلام عليك يا أمير المؤمنين معاوية؛ وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم؛ وهو أوّل من عَهِد إلىٰ ابنه بالخلافة، عهد بها إلىٰ ابنه يزيد، ثم تبعه الكثير من الخلفاء علىٰ ذلك؛ وهو أوّل من ٱستَخْلَف فى حال صحته وإلا فأبو بكر لم يستخلف عمرَ إلا فى مرض موته، وعمر لم يجعل الأمر شُورىٰ إلا وهو مطعون؛ وسيأتى ذكر ذلك جميعه فى الكلام علىٰ ولاية الخلفاء فى المقالة الخامسة، وهو أوّل من ٱتخذ المقصورةَ فى المسجد لصلاة الجمعة؛ وقيل ٱتخذها(٢) مروان قبله، وقيل عثمان؛ وهو أوّل من نهىٰ عن الكلام بحضرته من الخلفاء، وكان الناس قبل ذلك يردّون علىٰ الخليفة ويعترضونه فيما يقول؛ وهو أوّل من اتخذ ديوان الخاتم لختم الكتب؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ اللواحق من المقالة الثالثة، وهو أوّل من ٱتخذ البريد فى الإسلام؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ البريد فى خاتمة الكتاب .

---

(١) فى الأصل الزيادة وهو تصحيف .

(٢) يظهر أن قبله سقطا وما بعده يدل على أن المتكلم فيه الآن عبد الملك بن مروان فانه أوّل من نهى عن الكلام بحضرة الخلفاء فليحرّر .

أوّل من سار فى الناس بالجَبَرِيّة من الخلفاء وأمر أن لا يُخاطب باسمه كما يخاطب الخلفاء قبله الوليدُ بن عبد الملك فاتفق أن خالف رجل فخاطبه باسمه فأمر به فوُطِئ.

أوّل من رَتّب مراتب الخلافة وأقام حاجبا للاستئذان عليه أبو جعفر المنصور، وآتخذ فى قصره بيتا يجلس فيه الناس حتّى يُؤْذَن لهم؛ وهو أوّل من آتخذ الأتراك اتخذ حَمّادا التركى، ثم آتخذ المهدىُّ بعده مباركا التركى، ثم أكثر الخلفاءُ من الأتراك بعد ذلك .

أوّل من جلس للصائب من الخُلَفاء علىٰ البساط دون الأنماط هارون الرشيد حين نُعِى إليه قريبه : إبراهيم بن علىّ؛ فاتخذ الخلفاء ذلك دأبا فى المآتم .

أوّل من نُعِت علىٰ المِنْبر بنعت الخلافة الأمينُ بن الرشيد فقيل : اللهم وأصلح عبدك وخليفتك عبدَ الله محمدا الأمين .

أوّل من أضيف لقبه من الخلفاء إلىٰ اسم الله المعتصِمُ فقيل المعتصم بالله ، ثم تبعه الخلفاء علىٰ ذلك؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخلفاء فى المقالة الثانية .

أوّل من حوّل السنة الشمسية إلىٰ السنة القمرية وأقرّ النيروز المتوكّلُ ؛ وسيأتى ذكره فى تحويل السنين فى المقالة السابعة، وهو أوّل من أمر بتغيير زِىّ أهل الذّمة؛ وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ عقد الصلح لأهل الذمة فى المقالة السابعة .

أمور تتعلق بالملوك والأمراء

أوّل من لبس التاج الضَّحّاك أحد ملوك الفرس وهو النمرود فيما يقال؛ وفى زمنه كان إبراهيم الخليل عليه السلام .

أوّل من مسح الأرَضِين ، ووضع الدواوين ، ووضع الخَرَاج علىٰ الأرَضِين ، ووظّف الموظّفات علىٰ البلاد قيذار أحد ملوك الفرس ، وآتخذ لذلك ديوانا وسماه ديوان العدل .

أوّل من جلس علىٰ السرير من ملوك العرب جَذِيمة الأبرش، وهو أوّل من وقعت له الشَّمْعة من ملوك العرب، وأوّل من لبس الطَّوْقَ منهم .

أوّل من مشَت الرجال معه وهو راكب الأشعثُ بن قيس، كانت بنو عمرو بن معاوية ملّكوه عليهم وتوجُوه .

أوّل من مُشِى بين يديه بالأعمدة الحديد زيادُ ٱبنُ أبيه، وهو أوّل من جلس الناسُ بين يديه علىٰ الكراسيّ، وهو أوّل من ٱتخذ العَسَس والحَرَس .

أوّل من سُلِّم عليه بالإمرة المغيرة بن شعبة فقيل السلام عليك أيها الأمير، وكانوا قبل ذلك يقولون السلام عليكم، ثم تبعه الأمراء علىٰ ذلك .

أوّل من حُمِل إليه الثَّلْج الحَجَّاج بن يوسف، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ حَمْل الثلج لصاحب الديار المصرية فى خاتمة الكتاب .

أوّل مَنْ نَقَش ٱسمه من الملوك علىٰ الدنانير والدراهم مع الخلفاء عِزُّ الدَّوْلة بن بُوَيه وإخوته ملوك الديلم القائمين علىٰ الخلفاء العبّاسيين ببغداد، فى سنة أربع وثلاثة وثلثمائة، ثم تبعهم الملوك علىٰ ذلك .

أوّل من حُمِل السَّنْجَق علىٰ رأسه من الملوك غازى بن زنكى صاحب الموصل، وهو أوّل من ٱختار الأجناد أن يركبوا بالسيوف فى أوساطهم والدَّبابيس تحت ركبهم .

أوّل من حُمِل الشمع معه علىٰ البغال فى الليل من ملوك الديار المصرية محمد بن طُغْج الإخشيد، وكانت الشمعة تجعل علىٰ مؤخر البغل وفرّاش راكب أمامها، وهو يلتفت فى كل قليل يصلحها، فأبدلها الملوك بعده بهذه الفوانيس التى تحمل علىٰ البغال مع الفانوسِيَّة أمام ملوك الديار المصرية فى الليل .

أوّل من لقِّب من وزراء الفاطميين بالديار المصرية بالملك فلان رضْوان بن ولخشى وزير الحافظ : لقب بالملك الأفضل، وكان مَنْ قَبْله من الوزراء لا ينعت بالملك .

أوّل من لف العمامة علىٰ الكلوتة من ملوك الديار المصرية الأشرف خليل بن قلاوون، وكانت ملوك بنى أيوب يَلْبَسون كلوتة صفراء بغير عمامة ولذلك تراهم يطلقون علىٰ أرباب الأقلام المتعممين فى مقابلة أن الجند كانوا بغير عمائم .

أوّل من ٱعتاد حلق رأسه من ملوك الديار المصرية الملك الناصر محمد بن قلاوون حين حج ، وتبعه الأمراء والجند علىٰ ذلك وٱستمر الأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن ، وكان لهم قبل ذلك غدائر شعر مرسلةٌ كعرب الحجاز ونحوهم .

الــوزراء

أوّل من سمى وزيرا فى الإسلام أحمد بن سليمان الخَلَّال، وزير السفَّاح أوّل خلفاء بنى العباس، ثم تبعه وزراء الخلفاء والملوك علىٰ ذلك، وكانوا قبل ذلك يقولون كاتبا .

أوّل من لُقِّب بالصاحب من الوزراء، كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد، وكان السبب فى ذلك أنه كان يصحب الأستاذ ٱبنَ العميد فكانوا يقولون صاحب ٱبن العميد ، ثم غلب عليه اللقب حتّى قيل له الصاحب مجرّدا وتبعه الخلفاء علىٰ ذلك، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ هذا اللقب فى المقالة الثالثة .

أوّل من لقب بالملك الفلانىّ من وزراء الفاطميين بالديار المصرية رضوان بن ولخشى وزير الحافظ، لُقِّب الملك الأفضل ، ثم صار رسما لوزرائهم بعد ذلك ، وتبعهم ملوك الديار المصرية علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

القضــاة

أوّل قاض كان فى الإسلام عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه ، ٱستقضاه أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه، فى خلافته فمكث سنة لا يأتيه أحد فى قضية .

أوّل قاض بالمدينة النبوية عبد الله بن نَوْفَل ، آستقضاه عليها أمير المؤمنين عمر آبن الخطاب رضى الله عنه فى خلافته .

أوّل قاض بالكوفة جُبَير بن القَشْعم .

أوّل قاض بالبصرة أبو مَرْيَم الحنفىّ ، أحد بنى حنيفة ، آستقضاه أميرها عُرْوة آبن غَزْوان فى سنة أربع عشرة من الهجرة .

أوّل قاض بمصر قيس بنُ أبى العاص السَّهْمىّ ، آستقضاه عليها عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى خلافته فى سنة ثلاث وعشرين من الهجرة .

أوّل قاض جمع له القضاء والشُّرْطة بمصر عابس بن سعيد وليهما من قِبَل أميرها مَسْلَمة بن مُخَلَّد .

أوّل قاض بمصر نظر فى الأحباس يعنى الأوقاف بمصر أبو مِحْجن تَوْبةُ فى خلافة هشام بن عبد الملك ، وكانت الأوقاف قبل ذلك بيد أربابها أو أوصيائهم — فقال : هذه مآلها إلىٰ الفُقَراء والمساكين فأنا أضع يدى عليها ، فما مضت له سنة حتّى صار لهـا ديوان عظيم .

أوّل قاض بمصر خرج لرؤية الهلال عبدُ الله بنُ لَهِيعة . قال أبو عمر الكندىّ ، وهو أوّل قاض وَلِىَ مصر عن خليفة ، وليها عن أبى جعفر المنصور فى أوّل سنة خمس وخمسين ومائة .

أوّل قاض ولى مصر ممن يقول بقول أبى حنيفة أبو الفضل إسمـاعيل بنُ اليَسَع الكندىّ ، وكان أهل مصر قبله لم يعرفوا مذهب أبى حنيفة ولم يألفوه ، وكان يرىٰ بطلان الأوقاف ، فكتب الليث فيه إلىٰ أبى جعفر المنصور فكتب إليه بعزله .

أوّل قاض بمصر أدخل النصارىٰ فى خصوماتهم إلىٰ المسجد أبو عبد الرحمن محمد ٱبن مسروق ، وكانتْ ولايته لها من قِبَل الرشيد فى سنة سبع وسبعين ومائة ، وهو أوّل من ٱتخذ لمجلسه الشهود من قُضاة مصر .

أوّل قاض وَلِىَ مصر ممن يقول بقول مالك أبونُعَيْم إسحاق بن الفُرَات مولىٰ معاوية ٱبن حُدَيج ، وللشافعى عليه ثناء جميل فى معرفة الخلاف ، وهو أوّل قاض ٱتخذ للشهود ديوانا وكتب أسماءهم فيه ، وكانت ولايته من قِبَل الرشيد فى سنة بضع وثمانين ومائة .

أوّل قاض وَلّى علىٰ المصاحف أمينا بجامع الفُسْطاط الحارثُ بن مِسْكِينَ ، وكانت ولايته فى خلافة المتوكل .

أوّل ما ٱستقرّت قُضاة الديار المصرية أربعةً ، من كل مذهب قاضٍ فى سلطنة الظاهر بيبرس البندقدارى . وذلك أن القضاء بها كان بيد القاضى تاج الدين ٱبن بنت الأعز وكان شافعيًّا ، فكانت تأتيه المكاتيب المخالفة لمذهبه فيتوقف فيها فشقّ ذلك علىٰ السلطان والأمراء فٱتفق رأيهم علىٰ أن يجعلوا من كل مذهب قاضيا ليقضى كل منهم بمذهبه .

أوّل ما خُصّ قاضى القضاة الشافعىّ بالديار المصرية بالتولية فى أعمالها دون رُفْقته الثلاثة فى سلطنة المنصور قلاوون فى شوّال سنة ثمان وسبعين وستمائة ، ذكره ٱبن المكرم فى تذكرته .

الأمور العلمية

أوّل من أخطأ فى القياس إبليس ، حيث قال ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ أو لم يعلم أن ما ألقى إلىٰ جوهر الطين زاد ونما ، وما ألقى إلىٰ جوهر النار اضمحل وتلاشىٰ .

أوّل من نطق بالحكمة أنوش بن شِيث بن آدم عليه السلام .

أوّل مَنْ دلَّ علىٰ تركيب الأفلاك ، وقدّر مسير الكواكب ، وكشف عن أحوال تأثيراتها ، ونبه علىٰ عجائب الصنع فيها إدريس عليه السلام .

أوّل من نظر فى الطب افريدون ملك الفرس بعد الضَّحاك ، وفى أيامه ظهرت الفلاسفة وتكلموا فى علومهم .

أوّل من وضع النحو أبو الأسود الدُّؤَلى بأمر أمير المؤمنـين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وهو أوّل من نقط المصاحف النقط الأوّل علىٰ الإعراب .

أوّل من صَنَّف فى علم الكلام واصل بن عطاء المعتزلىّ .

أوّل من تُرْجِم له كتب الطب والنجوم وغيرها من كتب العلوم الفلسفيّة خالد بن يزيد ، ثم تلاه المأمون فأكثَرَ من ذلك .

أوّل من صنَّف فى غريب القرءان أبو عُبَيدة مَعْمَر بن المثنّى .

أوّل من صنَّف فى أصول الفقه الإمام الشافعى رضى الله عنه ، صنَّف فيه كتابه الرسـالة .

أوّل من صنَّف فى الفقه مالك بن أنس صنف كتابه المُوطَّأ .

أوّل من عمل العروض الخليـل بن أحمد ، وهو أوّل من صنف اللغة مرتبة علىٰ حروف المعجم صنف كتابه " العين " .

أوّل من صنف فى علم البديع عبد الله بن المعتز .

أوّل من سنّ الإساءة والأجتراء فى البحث فرعونُ ، بينا هو وموسىٰ عليه السـلام فى مقام المُناظرة حيث قال ﴿وما رَبُّ العالَمِين﴾ فأجابه موسىٰ بقوله ﴿رَبُّ السَّمٰوات والأَرْضِ وما بَيْنَهُـمَا إن كُنْتُم مُوقِنِينَ﴾ إلىٰ آخر المناظرة بينهما إذ قال ﴿لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ المَسْجُونِينَ﴾ .

الخطـابة

أوّل من جَمَع قُرَيشا وخطبهم ونبه علىٰ أن النبي "صلى الله عليه وسلم" منهم قُصَىُّ ٱبن كلاب، وسيأتي ذكره فى الكلام علىٰ مكة فى المسالك والممالك فى المقالة الثانية.

أوّل من خطب علىٰ العصا وعلىٰ الراحلة قُسُّ بن ساعدة الإِيادىّ ، وقد تقـدّم ذكر خطبته التى خطبها علىٰ الراحلة فى الكلام علىٰ الخُطَب .

أوّل من عَمِل المِنْبر تميم الدارىُّ عمله للنبيّ صلى الله عليه وسلم، وكان قد رأىٰ منابر الكنائس بالشام .

أوّل من أُرْتِج عليه فى الخطبة عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه فقال : أيها الناس إن اللَّذيْنِ كانا من قبـلى كانا يُعِدّان لهذا المقام مقالا، وأنتم إلىٰ إمام عادل أحوجُ منكم إلىٰ إمام قائل، وستأتيكم الخطبة علىٰ وجهها فى الجمعة الأخرىٰ ثم نزل .

أوّل من خطب جالسا معاويةُ حين كَثُر شحمه .

أوّل من أقام الجُمعة بالمدينة قبل مَقْدَم النبي صلى الله عليه وسلم، أسعدُ بنُ زُرَارة الأنصارىّ ببنى بَيَاضة .

أوّل من رفع يده فى الخطبة يوم الجمعة عُبيدُ الله بن عبد الله بن عمر .

أوّل من أخرج المنبر فى العيد مروانُ بن الحكم ولم يكن قبل ذلك يُخْرَج .

الخـــط

أوّل من خط بالقلم فى الجملة قيل آدم عليه السلام وقيل إدريس .

أوّل من كتب بالعربية قيل هود عليه السـلام أنزل عليه ، وقيل إسمـاعيل ، وقيل ثلاثة نفر من بَوْلانَ من طيءٍ ٱصطلحوا علىٰ ذلك ، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخط فى الباب الثانى من هذه المقالة .

كتابة الإنشـاء

أوّل من كتب فى أوّل الكتب بسم الله الرحمن الرحيم سليمان عليه السلام، حين كتب لبلْقِيسَ كما أخبر الله تعـالىٰ عنه بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ ثم كتبها النبيّ صلى الله عليه وسلم لمـا نزلت .

أوّل من كتب فى أوّل الكتب باسمك اللهم أُمَيَّةُ بن أبى الصَّلْت، فكتبها قُرَيْشٌ فى كتبهم، وكان النبي صلى الله عليه وسـلم، يكتبها فى ٱبتداء الأمر، وسيأتى ذكر جميع ذلك فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة .

أوّل من كتب من فلان إلىٰ فلان قُسُّ بن ساعدة فيما قاله العسكرى وأقرّه النبي صلى الله عليه وسـلم، فى مكاتباته، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الفواتح فى المقالة الثالثـــة .

أوّل من زاد فى أوائل الكتب بعد التحميد "وأسأله أن يصـلى علىٰ محمد عبـده ورسوله" هارون الرشيد، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة .

أوّل من أرّخ بالهجرة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الخواتم فى المقالة الثالثة .

أوّل من كتب فى آخر كتابه وكتب فلان بن فلان أُبَىُّ بن كعب قاله العسكرى .

أوّل من ختم الكتب سليمان عليه السـلام فقد قيل فى قوله تعـالىٰ حكاية عن بِلْقِيسَ ﴿ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ إن المراد به المختوم . وأوّل من ختمها فى الإسلام النبىَ صلى الله عليه وسـلم، حين قيل له : إن ملوك الأعاجم لا يقرءون كتابا غير مختوم فاتخذ خاتما نقش فصه محمد رسول الله فكان يختم به الكتب، وسيأتى ذكر ذلك فى الكلام علىٰ الخواتم .

أوّل من آتخذ الطين لختم الكتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، قاله الثعالبي فى "لطائف المعارف" .

أوّل من آتخذ ديوان الخاتم معاويةُ بن أبى سفيان ، حين كتب لرجل بمائة ألف درهم ففك الكتاب فأصلحها مائتين ، قاله الثعالبى فى "لطائف المعارف" .

كتابة الأموال وما فى معناها

أوّل من آتخذ الديوان فى الإسلام أمير المؤمنين عمرُ بن الخطاب ، وضع ديوان الجيوش . وسيأتى ذكره فى الكلام على الإقطاعات فى المقالة السادسة .

أوّل من جعل الحساب فى دفاترَ خالدُ بن برمك فيما قاله الثعالبى ، وكان قبل ذلك فى أدراج من كاغَدٍ ورق .

أوّل من نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية الحجاجُ بن يوسف فى خلافة عبد الملك بن مروان ؛ نقله له صالح بن عبد الرحمن ؛ كاتب كاتبِه زاذانَ فَرُّوخ فكان كُتَّاب(1) العراقين علماءَ وتلاميذَ .

أوّل من نقل ديوان الشام من الرومية إلى العربية عبدُ الملك بن مَرْوان ، نقله له سليمانُ بن سعيد مولى الحُسَين كاتبِ رسائل عبد الملك ، فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام .

أوّل من نقل ديوان مصر من القِبْطيَّة إلى العربية عبدُ العزيز بن مروان فى إمارته على مصر، ذكره صاحب "المنهاج فى صنعة الخراج" .

أوّل من وسَّع فى أرزاق الكُتَّاب الفضلُ بن سهل وزير المأمون .

(1) فى الأصل فروح بالمهملة فكان كبار العراقين وهو تصحيف فآحذره ؛

الخَرَاج والجِزْية

أوّل من وضع الخَرَاجَ وأزال المقاسمة كسرىٰ أنُوشروانَ؛ وذلك أنه مر علىٰ زرع وآمرأة تمنع ولدها منه؛ فسألها عن ذلك، فقالت : إن للملك فيه حقا، ولا نستحله حتّىٰ يأخذ الملك حقه، فقرّر علىٰ الزرع قدرا معلوما وخلّىٰ بين الغَلّة وأصحابها .

أوّل من وضع الخراج علىٰ الأرَضينَ والجزيةَ علىٰ الجماجم فى الإسلام أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب حين مسح السَّواد؛ ثم رسم بالمقاسمة أبو جعفر المنصورُ حين خرِب السـواد .

أوّل من ألزم الخراج كلفة الحمل ومؤنته زياد آبن أبيـه فبقى حتّىٰ أسقطه زياد آبن أبيـه[(١)] .

أوّل من عَرَّف العرفاء علىٰ الناس لجباية المـال وغيره زيادٌ، وكان يقول : العُرَفاء كالأيدى والمناكِبُ فوقها .

المعامـلات

أوّل من ضرب الدنانير والدراهم فى الإسلام عبد الملك بن مروان ، ضربها بالشأم من فضة خالصة، وكان الناس قبل ذلك يتعاملون بدراهم الفُرس والرُّوم؛ ولما ضربها عبد الملك كتب إلىٰ الحجاج بالعراق بإقامة رسم ذلك، فضرب الدراهم ونقش عليها قُلْ هُو اللهُ أحَدٌ إلىٰ آخر السورة ، فسمِّيت الدراهمَ الأحديَّة ، وكرهها الناس لنقش القرءان عليها، مع أنه قد يحملها المحدث، فسميت المكروهة .

قلت : وقد رأيت درهما من هذه الدراهم الأحدية، أرانيه بعضُ أعيان حلب، وذكر لى أن فلاحا أصاب رِكَازا لطيفا بها فأحضره إلىٰ نائب حلب خوفَ عُهْدته ،

---

(١) كذا فى الأصل .

فاقتسمه هو وأهلُ مجلسه، وعوّضه من كل درهم أضعافه، فحصل لوالد ذلك الرئيس هذا الدرهم فوصل إليه بعده .

أوّل من شدّد فى العيار فى الدراهم يوسف بن عمر، أمر أن لا يضرب درهم ينقص حبة فما فوقها، ثم آستخَفّ درهما فوجده ينقص حَبَّة، فأمر أن يضرب كل رجل من الضرَّابين ألف سوط، وكانوا مائة ضَرَّاب، فضرب فى نقص حبة واحدة مائة ألف سوط .

أوّل من شدّد فى خلوص الذهب أحمد بن طُولون صاحب مصر والشام، وذلك أنه حين وجد الكنزُ المشهورُ بعين شمس، وأُتِىَ له منه بميِّت وعلىٰ صدره لوح ذهب مكتوب بالقِبْطية فعُرِّب فإذا فيه : أنا أكبر الملوك وذهبى أخلص الذهب؛ فقال : قاتل الله من يكون هذا اللَّعين أكبرَ منه أو ذهبُه أخلص من ذهبه، ثم شدّد فى التعليق حتّى كان قاضى القضاة يحضُره بنفسه، وسيأتى الكلام علىٰ ذلك فى معاملة الديار المصرية فى المقالة الثانية .

أوّل من ضرب الدراهم الزُّيُوف فى الإسلام عبيد الله بن زياد .

أوّل من آتخذ ألسنة الموازين من الحديد عبدُ الله بن عامر أميرُ المدينة من قبل عثمان .

أوّل من عمل الأوزان الحجاجُ بن يوسف، عملها له سمير اليهودىّ، وذلك أن الحجاج حين ضرب الدراهم الأَحَدِيَّة علىٰ ما تقدّم ضربها سمير اليهودى من فضة خالصة أيضا وجعل فيها ذهبا فأراد الحجاج قتله، فقال : ألا أدلك علىٰ ما هو خير للسلمين من قتلى؛ قال : هاته، فوضع الأوزان، وزن ألف، ووزن خمسمائة، ووزن ثلثمائة إلىٰ وزن ربع قيراط فجعلها حديدا ونقشها وأتىٰ بها إلىٰ الحجاج فعفا عنه، وكان الناس قبل ذلك إنما يأخُذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره .

أوّل من ٱتخــذ الذراع التى يُذْرَع بهــا الأرضون أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين مسح السَّواد . وقيــل أوّل من ٱتخذها زياد ، نظر إلىٰ ثلاثة نفر من أطولهم ذراعا وأوسطه وأقصره فجمعها وأخذ ثلثها فجعلها ذراعا .

العــــــمارة

أوّل بيت وضع فى الأرض الكعبة ، بنتها الملائكة ؛ قال تعالىٰ ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ .

أوّل مَنْ جعل للكعبة بابا أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

أوّل من سقف بمكة سقفا قُصَىٌّ بن كلاب ، وكان الناس قبل ذلك إنمــا ينزلون فى العريش .

أوّل من بوّب بمكة بابا حاطبُ بن أبى بَلْتَعة .

أوّل من ٱتخذ بمكة رَوْشَنا بُدَيْل بنُ ورقاءَ الخُزَاعىّ . وهو أوّل من بنىٰ بهــا بيتا مربَّعا ، وكانوا قبل ذلك يتحامَوْن التربيع فى البناء كيلا يُشْبِه بناء الكعبة .

أوّل قرية بُنِيت بعــد الطُّوفان قرية ثمــانينَ ، من الجزيرة الفُرَاتية ؛ بناها نوح عليه السلام ، وأنزل بها من كان معه فى السفينة وهم ثمانون رجلا .

أوّل مدينة بُنِيت بمصر بعد الطُّوفان مدينة مَنْف وأصلها بالسُّريانية مافه ومعناها ثلاثون ؛ سميت باسم جماعة مِصْر بن بَيْصر الذين كانوا معه ، وسيأتى ذكرها فى جملة قواعد مصر القديمة فى المقالة الثانية .

أوّل من عمل الحَمَّام سليمان عليه السلام ، صنعها له الجنّ وعملوا له النُّورة لإزالة شعرٍ كان علىٰ بلقيس حين تزوّجها فيما يقال .

أوّل من ٱتخذ الآجُرَّ هامانُ لفرعون حيث قال له ﴿ فأوْقِدْ لى ياهامانُ علىٰ الطينِ فٱجْعَلْ لِى صَرْحًا ﴾ .

أوّل من بنى بالجِصّ والآجُرِّ فى الإسلام زياد ابن أبيه بالبصرة .

الــــزرع

أوّل من غرس النخلة أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام .

الصـــناعات

أوّل من خاط الثياب إدريس عليه السلام ، وكان الناس قبل ذلك يلبَسُون الجلود .

أوّل من عمل القراطيس يوسف عليه السلام . وقيل غيره ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام على ما يُكتَب فيه فى المقالة الثالثة .

أوّل من عمل الصابونَ سليمان عليه السلام ؛ قاله الثعالبىّ .

أوّل من عمل الكيمياء قارون ، ويقال إنه المراد بقوله تعالى حكاية عنه ﴿قَال إنَّمَا أُوتِيتُهُ علىٰ عِلْمٍ عِنْدِى﴾ .

أوّل من عمل الزجاج ملكى أحد ملوك مصر بعد الطوفان ، وسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوكها فى المقالة الثانية .

أوّل من ٱتخذ الرِّحال عِلَافُ بن زَبَّانَ(١) الحميرىّ ، وكانت العرب قبل ذلك يركبون المخَاصر .

أوّل من كسا الكعبة فى الجاهلية تُبَّعٌ : أسْعَدُ أبو كَرِب .

(١) وقع فى المخصص ربان بإهمال الزاى وفى القاموس والصحاح بإعجامها وهو الأقرب .

أوّل من ٱتخذ المحامل لَهُ الحجاجُ بن يوسف .

أوّل من ٱتخـذ السياط الأصبحُ بنُ مالك ، أحدُ ملوك اليمن فقيل السِّـياط الأصْبَحيَّة .

اللبـاس

أوّل من لَبِس الثياب الحُمْر قارون ، ويقال إنه المراد بقوله تعالى ﴿فَخَرَج على قَوْمِه فِي زِينَتِهِ﴾ . وهو أوّل من أطال ثيابه وسحبها علىٰ الأرض عُجْبا وتيهاً .

أوّل من قوّر طَيْلَسانا من العرب فى الإسـلام عبدُ الله بن عامر أميرُ المدينـة من قبل عثمان . والطَّيْلَسان المقوّر علىٰ نحو الطَّرْحة التى يلبَسُها الوزراء وقُضـاة القُضاة الآن ، وكانت وُزَراء الفاطميين يلبسونها . وهو أوّل من لَبِس الخز ، فقال أهـل المدينة لبِس الأمير جلدَ دُبّ .

أوّل ما لبس بنُو العبّاس السَّوادَ حين قَتـل مروانُ بن محمد آخِرُ خلفاء بنى أمية إبراهيمَ بنَ محمد الإمامَ أوّلَ قائم منهـم بطلب الخلافة حُزْنا عليه ، فٱستمرّ فيهم ؛ وفيه كلام يأتى فى المقالة الثانية عند الكلام علىٰ لِبْس الخلفاء .

أوّل من لبِس الخِفَاف الساذَجَة بالبصرة زياد ٱبن أبيه .

أوّل من ٱحتذىٰ النِّعال من العرب جَذيمة الأبرشُ .

أوّل من خلع نعلَيْه عند دخول الكعبة فى الجاهلية الوليدُ بنُ المغيرة .

أوّل من لبِس النِّعَال الصَّرَّارة المروانىُّ كان قصـيرا فاتخذ النعال الغلاظ الصرارة لتزيد فى طوله وليسمَعَه جواريه وحُرَمُه عند دخول بيته فتُصْلح شأنَها من كانت علىٰ غير هيئةٍ صالحة . قال العسكرىّ : من ثَمَّ ٱتخذ الناسُ نِعال الخشب يعنى القَباقيبَ .

أوّل من أمر بتغيير زىّ أهل الذمة المتوكّل، أمرهم أن يلبَسُوا العَسلىَّ، ويتخذوا رُكب الخشب ونحو ذلك فيمتازوا عن المسلمين؛ وسيأتى ذكره فى عقد صلح أهل الذمة فى المقالة السابعة .

الحـــرب وآلاته

أوّل من ركب الخيل إسماعيلُ عليه السلام، وكانت قبله وُحُوشا لا تُركَب فراضها وركبها، وتعلّم بنوه رِيَاضتها منه، فصارت فيهم إلىٰ الآن . ولذلك العرب أعرفُ الناس بالخيل . وهو أوّل من ميّز بين العتَاق منها والهُجُن فى سهام أصحابها، فسبقت العِتاقُ الهُجُنَ .

أوّل من ٱتخذ الدروع ولَبِسها داودُ عليه السلام إذ يقول تعالىٰ ﴿ وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سابِغَاتٍ وقَدِّرْ فِى السَّرْدْ ﴾ وكانوا قَبل ذلك يلبسون تَنَانِير(١) من حديد .

أوّل من ٱتخذ السِّلاح وجاهد سليمانُ عليه السلام فيما قاله العسكرىّ وفيه نظر .

أوّل من ٱتخذ الحديدَ من العرب ذُو يزَنَ الحِمْيرىّ، وكانت أسِنّتُهم قبــل ذلك صَيَاصِىَ البقر .

أوّل من ٱتخذ الحصن من الجبل للكمائن الإسكندر .

أوّل من ٱتخذ المنجنيق الضَّحاك حين أراد إلقاء إبراهيم عليه السلام فى النار، وضعه فيه ورمىٰ به فى النار فكانت عليه بَرْدا وسلاما . وأوّل من ٱتخذه من العرب جَذِيمة الأبرشُ .

أوّل من ٱتخذ الجواسيس والعُيون علىٰ العدوّ الإسكندر .

أوّل لواء عقده النبىّ صلى الله عليه وسلم، لِوَاء أبيضُ لعمه حمزةَ وقال "خُذْه يا أَسَدَ الله" وذلك فى رمضان من السنة التى هاجر فيها، وحمله له يزيد بن أبى يزيد .

(١) لعل مراده صفائح من حديد كما هو نص الأوائل والتفاسير واللفظة فى نسخة الخط غير مجوّدة .

أوّل ما عُقِدت الرايات فى الإسلام يوم حُنَين، عقد صلى الله عليه وسلم، راية سَوداء من بُرْد عائشةَ، وكانوا قبل ذلك لا يعرفون إلا الألوية قاله العسكرىّ .

أوّل من قتله النبي صلى الله عليه وسلم، بيده أبىّ بنُ خلف لعنه الله، طعنه صلى الله عليه وسلم طعنة خفيفة فوجد لها ألما شديدا فقيل له لن تبالِىَ فقال : لو أن مابى بأهل الأرض لقتلهم، ومات منها .

أوّل حرب كان بين أهل القِبْلة يومُ صِفِّين ، بين عائشة وعلىّ رضى الله عنهما .

الأسمـاء والألقاب

أوّل من سُمّى المصحف مُصْحفا أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه حين جمع القرءان .

أوّل من سُمِّى باسم النبىّ صلى الله عليه وسلم ، محمدُ بنُ حاطب حين وُلِد بأرض الحبشة فى الهجرة الأولى .

أوّل من سمى بالحَسَن والحسين السِّبطانِ ولَدَا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب من فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال أبو أحمد العسكرىّ فى كتابه " التصحيف والتحريف " قال المفضل حجب الله هذين الاسمين عن أن يسمَّى بهما حتّى سُمّى بهما النبي صلى الله عليه وسلم، ابنيه عليهما السلام أما حَسْن وحَسِين الموجودان فى أنساب طيئ فالأوّل بسكون السين والثانى بفتح الحاء وكسر السين .

أوّل من سمِّى عبد الملك فى الإسلام عبدُ الملك بن مروان .

أوّل من سمِّى بعد النبي صلى الله عليه وسلم أحمد أبو الخليل واضع العَرُوض ولذلك يقال فيه الخليل بن أحمد .

أوّل من سَمّى الغالية غالية معاويةُ بن أبى سفيان شمَّها من عبد الله بن جعفر فوصفها له فقال إنها غالية .

أوّل ما سميت العَطِيَّات جوائز فى زمن عثمان رضى الله عنه، وذلك أن آبن عامر كان على العراق من قبل عُثمان فبعث جيشا مع قَطَن بن عبد عوف الهلالىّ إلى كِرْمان، بجرى الوادى بسيل خِيفَ منه الغرق، فقال قَطَن من عَبَره فله ألف درهم، فعبَره رجلٌ ثم آخر ثم آخر حتّى جاز جميعهم فأعطاهم قَطَنٌ ألفا ألفا فكان جملة ذلك أربعة آلاف ألف، فاستكثرها آبن عامر فكتب بها إلى عثمان فأجازها، وقال : كلُّ ما كان فى سبيل الله فهو جائز .

أوّل ما لُقِّب بفلان الدولة فى أيام المكتفى بالله .

أوّل ما لقب بفلان الدين فى أيام القادر بالله ؛ وسيأتى ذكره فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة .

الضِّيفان

أوّل من قرى الضيف إبراهيمُ الخليل عليه السلام حتّى كُنِّى أبا الضِّيفان لكثرة قِرَاه لهم .

أوّل من سنَّ للضيف صدر المجلس بهرام جور : أحدُ ملوك الفُرْس .

أوّل من هَشَم الثَّرِيد للقِرى فى زمن المَحْل هاشمُ بن عبد مَنَاف، وبذلك سمى هاشما وكان آسمه قبلُ عمرا .

أوّل من فَطَّر جيرانه فى شهر رمضان عبيدُ الله بن العباس بن عبد المطلب . وهو أوّل من حمل الطعام على رءوس الناس لكثرته وأوّل من أنهبه .

وجوه البِرّ

أوّل من اتخذ البيمارستان بالشام للمرضى الوليدُ بن عبد الملك .

أوّل من ٱتخذ البيمارســتان بمصر أحمدُ بن طولون بناه بالفُسْطاط ، وهو موجود إلىٰ الآن .

أوّل من فوّض إلىٰ الناس إخراج زكاتهم بأنفسهم عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه .

الأعيـاد والمواسم

أوّل من ٱتخذ النَّيْروز من الفرس جما الملك ، وهو الذى بنىٰ مدينة طوس ، يقال إنه كان فى زمن هود عليه السلام ، كان الدِّين قبله قد تغير وظهر الجور ، فلما ملك جدّد الدين وأظهر العدل فسمى اليوم الذى ملك فيه نَوْروز أى يوم جديد عرّبتـه العرب فقلبوا الواو ياء فقالوا نَيْروز .

أوّل هدية كانت فى النَّيْروز لجما الملك المتقدّم ذكره ، وذلك أنه لم يظهر القصبُ إلا فى أيامه فذاقه بعض الناس فاسـتحلاه فصنع منـه السكر فوافق فراغه فى أول يوم ملك فيه جما وهو يوم النَّيْروز فأهدىٰ إليه منه فى ذلك اليوم ، فصار سنة عندهم ، فهم يتهادَوْن فيه بالسكر ، ثم توسعوا فيه فتهادَوْا بغير السُّكَّر .

أوّل ما ظهر المهرجان فى زمن أفريدون القـائم بعد الضحّاك من ملوك الفُرْس ، وذلك أنه لـمـا ظفر بالضحاك فقيده وٱنقطع ما كان فى زمنه من الظلم والفساد سمّى اليوم الذى ظفر به فيه المهرجان . قال العسكرىّ : والمهر الوفاء كأن معناه سلطان الوفاء ، وكان سبيل الملوك فيه سبيل النَّيْروز .

أوّل من ٱفتتح المكاتبـة بتهنئة النيروز والمهرجان أحمد بن يوسـف أهدىٰ الىٰ المأمون سَفَط ذهب فيه قِطعةُ عُودٍ هندىّ فى طُوله وعَرْضه ، وكتب معه "هـذا يومٌ جرت فيه العاده ، بإلطاف العبيد الساده" .

الأقــوال

أوّل من قال أما بعد داود عليه السلام، ويقال إنها فصــل الخطاب المشار إليه بقوله تعالىٰ ﴿وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخِطَابِ﴾ . وقيل أوّل من قالها قُسّ بن ساعِدة .

أوّل من قال مَرْحَبًا سيْفُ بن ذِى يَزَنَ، قال ذلك لعبدالمطلب جدّ النبي صلى الله عليه وســلم ، حين وَفَد عليه ليهَنِّئه برجوع المُلْك إليه ، فقال له "مَرْحَبا وأهلا ، وناقةً ورَحْلا ، ومُنَاخا سَهْلا ، ومَلِكا رِبَحْلا(١) ، يُعطِى عطاءً جَزْلا" .

أوّل من قال جعلت فِدَاك عبدُ الله بن عمر رضى الله عنهما قالها لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الفتنةَ، فقال "جُعِلْتُ فِدَاكَ يارَسُولَ اللهِ فما أصْنَعُ ؟" . وقيــل أوّل من قالها له علىّ بن أبى طالب حين دعا عمرُو بنُ وَدّ العامرىّ إلىٰ المبارزة، فقال علىّ "جُعِلتُ فِداك يارسول الله أتأذن لى؟" ثم آستعملها الكُتّاب بعد ذلك فى مكاتباتهم .

أوّل من قال أطال الله بقــاءك عمر بن الخطاب رضى الله عنه : تكلم علىّ رضى الله عنــه بحضرته فى العدل بكلام أعجبه، فقال له : صدقت أطال الله بقاءك ؛ ثم نقلها الكتّاب إلىٰ استعمالها فى مكاتباتهم .

أوّل من قال أيَّدك الله عمر بن الخطاب قاله لعلىّ عليه السلام أيضا .

الشعر والغِنَــاء

أوّل من قصَّد القصــائد مُهلْهِل خال آمرئ القيس؛ والقصــيد ما زاد علىٰ سبعة أبيــات .

---

(١) فى نسخة الخط والمطبوع السابق ونحلا وهو تصحيف وقد ذكرت الكلمة فى اللسان فى مادة ر ب ح ل .

أوّل من أطال الرَّجَز العجّاجُ . قيـل إن الرجز كان فى الجاهليـة إنمـا يقول منه الرجل البيتين أو الثلاثةَ فى الحرب ونحوه حتّى جاء العجّاج ففتح أبوابه وشـبهه بالشـعر، ووصف فيه الديار وأهلها ، والرسوم والفلوات، ونعت الإبل والطُّلول ؛ وكان فى أوّل الإسلام يشبه بامرئ القيس .

أوّل من آستخرج اللطيف من المعانى فى الشعر وجرىٰ علىٰ طريقه البديع مسلم آبن الوليد .

أوّل من أخرج الغِنَاء العربىّ جرادةُ جاريةُ آبنِ جُدْعان فيما قاله العسكرىّ . وفيه نظر فإن الغنـاء معهود من عهد عاد حتّى كان من جمـلة مغنّيَاتهم الجرادتان اللتان يضرب بهما المثل فيقال "غَنَّتْه الجَرَادتان" .

أوّل من علم الجوارىَ المُنَمْنمات الغناءَ إبراهيم الموصلى، وكان الناس بمكة لا يعلّمون الجارية الحسناء الغِناء .

النســـاء

أوّل آمرأة خُفِضت هاجَرُ أمّ إسمـاعيل؛ وذلك أنها حين تغيرتْ عليها سارةُ لتَسَرِّى[1] إبراهيم عليه السلام بها حلفَتْ لتقطعَنَّ شيئا من جسدها فأشار عليها إبراهيم أن تخْفِضَها، وتثقبَ أذنيها، وتجعل فيهما قُرْطين ففعلتْ فزادت حُسْنا .

أوّل آمرأة آكتحلت بالإثمد زرقاءُ اليمـامة، وكانت تنظر مسيرةَ ثلاثة أيام .

أوّل آمرأة تنبأت سَجَاحِ التميميةُ التى تزوجها مُسَيْلِمة الكذّاب .

---

(١) فى نسخة الخط لبشرى وهو تصحيف ظاهر .

أوّل آمرأة لبست المصبّغات فى الإسلام شُمَيلة زوج عباس ، وهى أوّل من عَبَأت الطِّيب (١) .

الموت والدفن

أوّل آمرأة حُمِلت فى نعش زينبُ بنتُ جحش زوج النبى صلى الله عليه وسلم .

أوّل من دُفِن بالبقيع عثمانُ بنُ مظعون ، وهو أوّل من مات من المهاجرين بالمدينة .

أوّل من دُفِن بقرافة مصر رجلٌ آسمه عامر فقال عمرو بن العاص : عَمَرتْ والله .

أمور تنسب للجاهلية

أوّل من حَرَّم الخمر فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، وقيل قيسُ بن عاصم ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من حَرَّم القِمَار فى الجاهلية الأقرع بن حابس التميمى ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من رَجَم فى الزنا فى الجاهلية ربيع بن حدّان ، ثم جاء الإسلام بتقريره فى المُحصَن .

أوّل من حكم أن الولد للفِرَاش فى الجاهلية أكثمُ بن صَيْفِىّ حكيم العرب ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من قطع فى السرقة فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، ثم جاء الإسلام بتقريره .

أوّل من سنّ الدية مائةً من الإبل عبدُ المطلب جدّ النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وذلك أنه نذر إن ولد له عشرةُ ذكور ليذبحنَّ العاشرَ فوُلِد له عشرة ، وكان عاشرهم عبدُ الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم ، فرام ذبحه ، فعارضه قريش فى أمره ، وأُشِير عليه بأن يُقْرِع بينه وبين الإبل حتّى تخرج القرعةُ على الإبل ؛ فأقرع بينه وبين عشرة

(١) فى اللسان يقال عبأ الطيب ... يعبؤه عبأ صنعه وخلطه .

فخرجت القرعة عليه ،ثم زاد عشرة بعد عشرة وهى تقع عليه حتّى بلغ مائة من الإبل فوقعت القُرْعةُ عليها فنحرها ، فكان النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول " أنا ابن الذَّبِيحَيْنِ " يعنى إسماعيلَ وعبدَ الله ، ثم جاء الإسلام بتقريرها .

أوّل من أوقد النار بالمزدلفة حتّى يراها من بالموقف قصيٌّ بن كلاب ، فهى تُوقَد إلى الآن .

أوّل من أهدى البُدْن إلى البيت إلياس بن مُضَر .

أوّل من أظهر التوحيد بمكة قبل البعثة قُسُّ بن ساعدة .

أوّل من خَضَب بالوَسْمة من قريش عبدُ المطلب .

أوّل من نَسَّأ النسيء، وسيَّب السوائب ، وجعل الوصيلة والحامِيَ عَمْرُو بن لُحَيٍّ وهو أبو خزاعة .

الضـــرب الثانى

(من النبذ التاريخية التى لا يسع الكاتب جهلُها نوادر الأمور ولطائف الوقائع والمـاجريات)

العـــراقة وشرف الآباء

قال الثعالبى ، أشرف(١) الأنبياء فى النبوّة يعنى تواصل الآباء فيها يوسُفُ بنُ يعقوب ابنِ إسحاق بن إبراهيم عليه السلام ، وشاهد ماقاله أن النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول " الكَرِيمُ ابنُ الكريم ابنِ الكريم ابنِ الكريم يوسُفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاق بن إبراهيم " ولا يخفى أن إخوته عليهم السلام فى هذه الرتبة فى العَرَاقة .

أعْرَق الأكاسرة فى المُلْك شيرويه بن أبرويز بن أردشير بن بابك ملكٌ ابن ملك ابنِ ملِكٍ ابنِ ملك .

(١) مراده أعرق الأنبياء كما تقتضيه العبارة بعد .

أعرق الناس في صُحْبة النبيّ صلى الله عليه وسلم، محمدُ بنُ عبد الرحمن بن أبي بكر الصدّيق بن أبي قُحَافة رضى الله عنهم، أربعتهم رأَوُا النبيّ صلى الله عليه وسلم، وصَحِبوه.

أعْرَق الخلفاء في الخلافة المنتصرُ، بن المتوكل، بنِ المعتصِم، بن الرشيد، بن المهدىّ، بن المنصور في آبائه خمسة آباء خلفاء وهو سادسهم فيها. وفي معناه أخواه المعتمد والمعتز، أما عبد الله بن المعتز وإن زاد أبا في الخلافة فإنه لم تمض عليه مدّة تعتبر، ولذلك لا يعدّه أكثر المؤرّخين في جملة الخلفاء.

أعرق الناس في المُلْك والخلافة جميعا بآعتبار الأصول والحواشي من الذكور والإناث يزيدُ بنُ الوليد بن عبد الملك بن مروان. أما من جهة الخلافة فهو خليفة، وأبوه خليفة، وجدّه خليفة، وجدّ أبيه خَليفة، وعُمُومته خلفاء. وأما من جهة المُلْك فأمه شاهفرند بنتُ فَيْروز، بن يزدجرد، بن شهريار، وأمها من بنات شيرويه آبن أبرويز، وأمّ شيرويه مريم بنتُ قيصر، وأمّ فيروز بنت خاقان ملك الترك.

أعرقُ الوُزَراء في الوزارة أبو علىّ الحسينُ، بن القاسم، بن عبيد الله بن سليمان بن وهب، وأخوه أبو جعفر محمد بن القاسم، فإن القاسم وُزِّر للمقتدر ومحمد وُزِّر للقائم وأباهما القاسم وُزِّر للمعتضد ثم للمكتفى بعده، وعبيد الله وُزِّر للمعتضد، وسليمان وزر للمهتدى وبعده للمعتمد فكل من الحسين ومحمد وزير آبن وزير آبن وزير آبن وزير يعني في آبائه ثلاثة وزراء، وهو الرابع فيها.

أعرق الناس في القتل عُمَارة بن حمزة بن مُصْعَب بن الزبير بن العوّام بن خُوَيلد، قُتل عمارةُ، وأبوه حمزةُ جميعا يوم قُدَيد في حرب الإباضيَّة، وقتل مُصْعب بدير الجاثَلِيق في الحرب بينه وبين عبد الملك، وقتل الزُّبَيْر بوادى السِّباع في نَوْبة الجمل،

وقتل العَوّام فى حرب الفِجار ، وقُتِل خُوَيْلِد فى حرب خُزَاعة . قال الثعالبىّ ولا يعرف فى العرب والعجم ستةٌ مغبونون فى نَسَق واحد إلا آل الزبير .

أعرق الناس فى الفقه إسماعيلُ بن حَمَّاد بن أبى حنيفة ، كان كل من إسماعيل وحماد فقيها وأبو حنيفة الإمامُ الأعظم .

أعرق النـاس فى القضاء بلالُ بنُ أبى بُرْدة بنِ أبى موسىٰ الأشـعرى رضى الله عنه : كان بلال قاضيا علىٰ البصرة ، وأبو بُرْدة قاضيا علىٰ الكوفة ، وأبو موسىٰ قاضيا لأمير المؤمنين عمرَ رضى الله عنه .

أعرق الناس فى حِجَابة الخلفاء العَبَّاسُ بن الفضل بن الرَّبيع ، فإن العباس حجب الأمين ، والفضل حجب الرشيد قبل أن يتقلد عنه الوزارة ، والربيع حجب المنصور والمهدىّ ؛ وفى ذلك يقول أبو نُوَاس من أبيات :

سَادَ الرَّبِيعُ وَسَادَ فَضْـلٌ بَعْدَهُ ＊ وَنَمَتْ بِعَبَّـاس الكَرِيم فُـرُوعُ
عَبَّاسُ عَبَّاسٌ إذا ٱحتَدَمَ الوَغىٰ ＊ والفَضْل فَضْلٌ والرَّبِيعُ رَبِيعُ

أعرق الناس فى الشعر سعيدُ بنُ عبد الرحمن بنِ حسَّانَ بن ثابتِ بنِ المنـذر بنِ حرام ، ستة كلُّهم شعراء علىٰ نَسَق ؛ ثم كانت العَرَاقة فى الشـعر بعـده مع زيادة آباء لمتوّج ، بن محمود ، بن مروان ، بن يحيىٰ ، بن مروان ، بن الحبوب ، بن مروان ، ٱبن سليمان ، بن يحيىٰ ، بن أبى حفصة : مولىٰ عثمان بن عفان رضى الله عنه ؛ عشرة علىٰ نَسَق :

الغايات من طبقات الناس

أشرف الناس فى الأمّة نسبا الحسنُ والحسين عليهما السلام ، رسول الله صلى الله عليه وسلم جدّهمـا ، والقاسم بن رسـول الله صلى الله عليه وسـلم خالهما ، وعلى بن

أبى طالب أبوهما ، وفاطمةُ بنتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمهما ، وخديجة بنت خُوَيلد جدّتهما .

أشرف النساء فى النسب والصِّهْر فاطمةُ ؛ رسول الله صلى الله عليه وسلم أبوها ، وخديجةُ أمها ، وعلىّ بن أبى طالب زوجها ، والحسن والحسين سيدَا شباب أهل الجنة ولداها .

أشرفُ النـاس فى المصاهرة عبدُ الله بن عمرو بن عثمان ، تزوّج إليه أربعة من الخلفاء؛ تزوج الوليد بن عبد الملك بنته عَبْدة ، وسليمانُ بن عبد الملك بنته عائشة ، ويزيدُ بن عبد الملك بنته أمَّ سعيد ، وهشام بن عبد الملك بنته رُقَيَّة : قال الثعالبىّ ولا يُعرَف رجل له أربعة أختان خلفاء إلا هو .

غرائب أمور تتعلق بالخلفاء

امرأةٌ ولَدَها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وطلحة والزبير ؛ وهى حفصــة آبنةُ محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ؛ أبوها محمد المديَّج ؛ وأمها خديجة بنتُ عثمان بنِ عُروة بنِ الزبير ، وأم عُرُوة أسماء بنت أبى بكر ، وأمُّ المدَبَّج فاطمة بنت الحسـين بن علىّ ؛ وأمُّ الحسين فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ وأمُّ فاطمة بنت الحسين أمُّ إسحاق بنت عُبَيد الله ؛ وأمُّ عبد الله بن عمرو زينبُ بنتُ عبد الله بن عمَر بن الخطاب ، فهى من ولد كلٍّ من المذكورين .

أربع نسوة فى الإسلام ولدت كل واحدة منهنّ خليفتين ؛ فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، ولدت الحسن والحسَيْن ، وقد بُويِـع لهما بالخلافة ؛ ووِلّادة بنتُ العباس العَبْســية زوجةُ عبد الملك بن مروان ولدتْ له الوليدَ وسليمانَ ؛ وهما

خليفتان؛ وساهر بنت فَيْروز بن يزدجرد زوجة الوليد بن عبد الملك ولدت له يزيدَ وإبراهيم فوُلِّيا الخلافة، والخَيْزُران ولدت للمهدىّ موسىٰ الهادى وهارونَ الرشيد.

آمرأة لهـا آثنا عشر مَحْرما كل منهم خليفة، وهى عاتكةُ بنت يزيدَ بن معاوية، يزيد أبوها، ومعاوية بن أبى سفيان جدّها، ومعاويةُ بن يزيد أخوها، وعبدُ الملك آبنُ مروان زوجُها، ومَرْوان بن الحكم حَمُوْها، ويزيدُ بن عبدالملك آبنُها، والوليدُ وسليمان وهشام أبناءُ عبد الملك أولاد زوجها (١).

ومثلها من بنى العباس زُبَيدة بنتُ جعفر بن المنصور، جدُّها المنصور، وأخو جدِّها السفّاح، وزوجُها الرشيد، وعمُّها المهدى، وآبنها الأمينُ، وأبناءُ زوجها المأمون والمعتصِم والواثق والمتوكل.

خليفة سـلم عليه بالخلافة عمُّه وعمّ أبيه وعمّ جدّه، وهو هارونُ الرشيد سلم عليه سليمانُ بن المنصور، والعباس بن محمد عمُّ أبيه المهـدىّ، وعبدُ الصمد بن علىّ عم جدّه أبى جعفر المنصور.

خليفة سلم عليه من أهل بيته سبعة كل منهم آبن خليفة، وهو المتوكل؛ سلم عليه أحمد بن الواثق، وأحمد بن المعتصم، وسليمان بن المأمون، وعبـد الله بن الأمين، وأبو محمد (٢) بن الرشيد، والعباس بن الهـادى، ومنصور بن المهدىّ.

خليفة قَبَّل هو وآبنه يد خليفة فأجاز آبنه بجائزة ثم قبـل المقبَّلةُ يدُه هو وآبنه يد المقبِّل أوّلا وهو خليفة فأجاز آبنه بمثـل تلك الجائزة؛ وهو المعتصم، وقف لإبراهيم آبن المهـدىّ أيام خلافته ثم نزل المعتصم فقبَّل يده ثم أدنىٰ منـه آبنه هارون فقبل يده، وقال ياأمير المؤمنين عبدك هارون آبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم، فلما

(١) المعدود تسعة فقط وكذا فى المثل بها فتنبه.

(٢) كذا فى الأصل.

ٱستُخْلِف المعتصم وقف له إبراهيم بن المهدى ثم ترجل فى ذلك الموضع بعينه وقبَّل يده وأدنى منه ٱبنه هبةَ الله فقبَّل يده ، وقال : يا أمير المؤمنين عبدك هبة الله ٱبنى فأمر له بعشرة آلاف درهم . قال الصولى ولا يعرف مثل ذلك لخليفتين وابنيهما .

خليفة جرت أموره كلها على ثمانية ، وهو المعتصم ، فهو الثامن من خلفاء بنى العباس ، ومولده سنة ثمان وسبعين ومائة ، وعمره ثمان وأربعون سنة ، وكان ثامنَ أولاد الرشيد ، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام ، وخلف ثمانية بنين ، وثمان بنات ، وثمانية آلاف دينار ، وثمانية وعشرين ألف درهم ، وثمانية عشر ألف دابة ، وله ثمان فتوحات ، وتوفى لثمان بقِين من شهر ربيع الأوّل ومن ثَمَّ سمى المثمَّن .

خليفة له عشرة أولاد وعشرة إخوة ، وعشرة أولاد إخوة ، وهو مروان بن الحكم فأولاده العشرة عبد الملك ، ومعاوية ، وعبد العزيز ، وقُسّ ، وعمر ، ومحمد ، وعبيد الله ، وعبد الله ، وأيوب ، وداود . وإخوته (١) عبد الواحد ، وعبد الملك ، وعبد العزيز ، وسعيد بنو الحارث بن الحكم ؛ وحرب ، وعثمان ، وعمر بنو عبد الرحمن ٱبن الحكم ، ويوسف ، وسليمان ، ويحيى بنو يحيى بن الحكم .

ليلة ولد فيها خليفة ، ومات فيها خليفة ، وولى فيها خليفة ؛ وهى ليلة السبت لأربع بقيت من ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة ؛ ولد فيها المأمون ، ومات فيها الهادى ، واستخلِف فيها الرشيد ؛ ولا يعهد مثل ذلك فى زمن من الأزمان .

خليفتان أحدهما ٱبن الآخر بين قبريهما بُعْد كبير ؛ وهما الرشيد والمأمون ، قبر الرشيد بطُوس وقبر المأمون بطَرَسُوس .

---

(١) المعدود أولاد اخوة وسقطت الاخوة من قلم الناسخ .

خليفة ركب البَرِيد ؛ وهو موسىٰ الهــادى ، مات أبوه المهدىّ وهو نائبــه علىٰ جُرْجان ، فكتب إليه الرشيد بالخبر والبيعة ووجه إليه الخاتم والبُرْدة والقضيب فركب البريد وأتىٰ إلىٰ بغداد بعد ثلاثة عشر يوما من موت المهدىّ ، ولا يعرف خليفة ركب البريد غيره .

خليفتان آسم كل منهما جعفر قتل كل منهما فى يوم الأربعاء وهمــا المتوكــل والمقتدر .

خليفة وَلِىَ الخلافة ستين سنة متوالية ؛ وهو المستنصر بالله الفاطمىّ خليفة مصر علىٰ أن الثعالبىّ فى "لطائف المعارف" قال آستقرت ولاية معاوية بن أبى سفيان أربعين سنة عشرون منها إمارة وعشرون منها خلافة .

خليفة كانت خلافته يوما أو بعض يوم ، هو عبــد الله بن المعتز ، بويع بعد خلع المقتدر ، فلمــا كان من الغد حار به غِلْمــان المقتدر وعاونهم العامّة فهرب وآختفىٰ ثم ظفر به .

أربعة إخوة ولى كل منهم الخلافة ، وهم الوليد ، وسليمان ، ويزيد ، وهشام أولاد عبد الملك بن مروان .

لم يل الخلافة من أبوه حىّ سوىٰ أبى بكر الصــدّيق والطائع لله وكلاهمــا آسمه أبو بكر .

لم يل الخلافة مَن أبواه هاشميَّان سوىٰ الحسن بن علىّ من فاطمة ومحمد الأمين آبن الرشيد من زبيدة .

لم يل الخلافة من آسمه العباس ســوىٰ أمير المؤمنين المستعين بالله أبى الفضــل العباس بن المتوكل علىٰ الله محمد خليفة العصر ، علىٰ كثرة هذا الآسم فى أولاد الخلفاء العباســيين وكونه آسم جدّهم الأكبر . قلت : وقد أخبرنى أمير المؤمنين المستعين

المشار إليــه أن تسميته العباس كانت برؤيا رآها الشــيخ بدر الدين البهنسىّ بمكة المشرفة، رأىٰ العباس بن عبد المطلب رضى الله عنــه فى النوم، وهو يقول له قل لولدى محمد، (يعنى المتوكل علىٰ الله) إذا ولد له ولد يسميه العباس .

وســيأتى ذكر ذلك فى الكلام علىٰ العهد الذى أنشأه قبل ولايتــه الخلافة بنحو ثمان سنين آمتحانا للخاطر فى جملة العهود فى المقالة الخامسة .

﴿أعجوبة﴾ قال الصولى : الناس يَرَوْن أن كل سادس يقوم بأمر الدِّين منذ أوّل الإسلام لا بد أن يخلع، النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، والحسن نخلع . ثم معــاوية، ويزيد، ومعاوية، ومروان، وعبد الملك، وعبد الله آبن الزبير نخلع . ثم الوليد بن عبد الملك، وسليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، ويزيد، وهشام، والوليد بن يزيد نخلع . ثم كان منهم يزيد بن الوليد، وابراهيم بن الوليد، ومروان بن محمد وهو آخرهم ولم يكن من بعده من بنى أمية من يتم العدد بهم ستة فألغى .

ثم كانت الدولة العباسية فكان السفّاح، والمنصور، والمهدىّ، والهادى، والرشيد، والأمين نخلع . ثم المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين نخلع . ثم المعتز، والمهتدى، والمعتمد، والمعتضد، والمكتفى، والمقتدر نخلع فى فتنة المعتز . ثم ردّ إلىٰ الخلافة ثم قتل؛ ولم يعتدّ بخلافة آبن المعتز لخلعه فى يومه . قال صاحب "رأس مال النــديم" والثعالبىّ فى "لطائف المعارف" : ثم القاهر، ثم الراضى، ثم المتقى، ثم المستكفى، ثم المطيع، ثم الطائع نخلع . قال الصلاح الصفدى : ثم القادر، والقائم، والمقتدى، والمستظهر، والمسترشد، والراشد، نخلع . ثم المقتفى، والمستنجد، والمستضىء، والناصر، والظاهر، والمستعصم نخلع وقتل أيام هولاكو عند آستيلائه علىٰ بغداد .

قلت : هذا غلط فاحش من الصلاح الصفدىّ لا يليق بمثله فانه أســقط قبل المستعصم المستنصر وهو السادس .

وقد ذكر الشيخ شمس الدين آبن نباتة فى تاريخ الخلفاء أنهم لمـا بايعوا المستنصر المذكور خلعوه ثم أعادوه فرارا من التطير بخلع السادس ، وحينئـذ فيكون من بعد المستنصر المستعصمُ المذكور ثم المستنصر أحمد، الذى أتى به الظاهر بيبرس وتوجه إلى الديار المصرية، ثم الحاكم أحمـد، ثم آبنه المستكفى سليمان ، ثم آبنه المستعصم أحمد، ثم الواثق، إبراهيم فخلع . ثم المعتضد أبو بكر بن المستكفى، ثم آبنه المتوكل، ثم المعتصم زكريا ، ثم الواثق عمر، ثم المستعين أبو الفضـل العباس خليفة العصر أدام الله أيامه وهو الخامس والله تعالى أعلم بمن يكون السادس وما يكون من أمره .

قال الصلاح الصفدى : وكذلك العُبَيْدِيُّون المعروفون بالفاطميين كان منهم بالمغرب عبد الله المهدىّ، والقائم بأمر الله، والمنصور، والمُعِزّ بانى القاهرة بالمغرب ثم بمصر والعزيز، والحاكم فقتلته أخته . ثم الظاهر، والمستنصر، والمستعلى، والآمر، والحافظ، والظافر فخلع وقتل؛ ثم الفائز، والعاضد وهو آخرهم . قال وكذلك بنو أيوب فى ملك مصر أوّلهم صلاح الدين، ثم ولده العزيز، وأخوه الأفضل بن صلاح الدين، والعادل الكبير أخو صلاح الدين ، والكامل ولده ، والعادل الصغير فخلع . ثم كان منهم الصالح نجم الدّين أيوب، ثم المعظم توران شاه، ثم أم خليل شجرة الدّر، ثم الأشرف موسى وهو الرابع ولم يكن منهم من يكمل الستة . قال : وكذلك دولة الأتراك ملوك مصر أوّلهم المعز أيبك، وآبنه المنصور، والمظفر قُطز، والظاهر بيبرس، وآبنه السعيد بَرَكة، وأخوه العادل سلامش فخلع؛ وملك السلطان الملك المنصور قلاوون .

قلت : ثم آبنه الأشرف خليل، ثم المعظَّم بيدرا ولم يعتدّ به لخلعه من يومه كما لم يعتدّ بابن المعتز فى الخلفاء، ثم الناصر محمد بن قلاوون، ثم العادل كتبغا، ثم المنصور لاچين، ثم المظفر بيبرس الجاشنكير فخلع؛ ثم المنصور أبو بكر بن الناصر محمد، ثم الأشرف كجك ابن الناصر محمد، ثم الناصر أحمد بن الناصر محمد، ثم الصالح إسماعيل بن الناصر محمد،

ثم الكامل شعبان بن الناصر محمد ، ثم المظفر حاجى بن الناصر محمد نخلع ؛ ثم الناصر حسن بن الناصر محمد، ثم الصالح صالح بن الناصر محمد، ثم المنصور محمد بن المظفر حاجى ، ثم الأشرف شعبان بن حسين بن الناصر محمد ، ثم آبنه المنصور على ، ثم الصالح حاجى بن الأشرف شعبان نخلع ؛ ثم الظاهر برقوق ، ثم الناصر فرج سلطان العصر وهو الثانى والله أعلم بمن يكون السادس .

غرائب تتعلق بالملوك

ملك مُلِّك وهو فى بطن أمه ؛ وهو سابور ذو الأكتاف أحد ملوك الفرس ، مات أبوه وهو حمل ولم يكن له ولد سواه ، فعقَدوا التاج علىٰ رأس أمه علىٰ أن يكون من فى بطنها هو الملك كائنـا من كان ، فلما وضعته ملَّكوه .

ثلاثة من ملوك فارس آبن وأب وجدّ آسمهم واحد ، وهم بهرام بن بهرام بن بهرام ؛ ومثلهم من ملوك غسان من العرب الحارث بن الحارث بن الحارث . قال الثعالبيّ : وهذا التناسق لا يقع إلا فى الأكابر والرؤساء وقد جاء من هذا النمط فى سادات الإسلام الحسن بن الحسن بن الحسن السبط .

ملكان إسلاميان أول آسم كل واحد منهما عين قتل كل واحد منهما ثلاثة ملوك أول آسم كل واحد منهم عين ، أحدهما عبد الملك بن مروان قتـل عمرَو بن سعيد وعبدَ الله بن الزبير وعبدَ الرحمن بن محمد بن الأشعث . والثانى أبو جعفر المنصور اسمه عبد الله قتـل أبا مسلم الخراسانى وآسمه عبد الرحمن وعمه عبد الرحمن بن على وعبد الجبار بن عبد الرحمن والى خراسان .

قال الثعالبيّ : أربعة فى الإسلام قتل كلُّ واحد منهم أكثر من ألف ألف رجل ، وهم الحجاج بن يوسف ، وأبو مسلم الخراسانى ، و بابك ، والبرقعي .

قلت : وقد وقع لتيمور كور كان المعروف بتمرلنـك صاحب ما وراء النهر على رأس الثمانمائة من الهجرة ما هو أكثر من ذلك، فإنه قد فتح من الهنـد إلى الخليج القسطنطيني، وقتل من كل إقليم من الخلق مالا يحصى حتى كان يبنى بالرءوس فى كل مدينة يفتحها منارا .

غرائب تتعلق بسَرَاة الناس

ثلاثة بنو أعمام فى زمن واحد، كل منهم سيد جليل، لم يصلحُ للإمامة أو الرياسة ثم كان لكل منهم ٱبن ٱسمه محمد كذلك ، وهم علىّ بن عبد الله بن عباس وٱبنه محمد وعلىّ بن الحسـين بن علىّ بن أبى طـالب وٱبنه محمد، وعلىّ بنُ عبدِ الله بن جعفر ابن أبى طالب وٱبنه محمد . قال الجاحظ وهذا من غرائب ما يتفق فى العالَم ، فإن هذا أمر لم يشاركهم فيه أحد .

أب وٱبن تقارب ما بينهما من العمر تقاربا شديدا وهما عمرو بن العـاص وٱبنه عبد الله كان بينهما فى السن ثلاث عشرة سنة . قال الثعالبىّ ولا يعهد مثل ذلك .

أخوان تباعد ما بينهما فى السن تباعدا شديدا وهما موسى بن عبيدة الرَّبَذى(١) المحدّث وأخوه عبد الله كان بينهما فى السن مائة سنة ولم يعرف مثل ذلك فى غيرهما .

أربعة إخوة كل واحد منهم أسنّ من الآخر بعشر سنين ، وهم أولاد أبى طالب كان طالب أسنَّ من عَقِيل بعشر سنين، وعَقِيل أسنَّ من جعفر بعشر سنين، وجعفر أسنَّ من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب بعشر سنين .

ثلاثة إخوة ولدوا فى سنة واحدة وقتلوا فى يوم واحد وسن كل واحد منهم اثنتان وأربعون سنة، وهم مِزْيد ، وزياد، ومدرِك أولاد المهَلَّب بن أبى صُفْرة . وهذه من غرائب النوادر .

(١) فى الأصل الزبيرى وهو تصحيف عن الربذى كما يعلم من الخلاصة للخزرجى .

رجل مكث عشر سنين لا يولَد له إلا رجل ولا يموت له إلا أنثى، وهو المهلّب آبن أبي صُفْرة في غير أولاده الثلاثة المذكورين .

أربعة رجال في الإسلام لم يمت كل منهم حتّى رأىٰ من ولده وولد ولده أكثر من مائة فيما قاله الثعالبيّ وغيره ، وهم أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخليفة بن براء السعديّ ، وعبد الرحمن بن عمر الليثي ، وجعفر بن سليمان الهاشمي؛ ومنهم من يذكر بدله أبا بكرة مولى النبي صلى الله عليه وسلم .

خمسة إخوة تباعدت قبورهم أشدّ تباعد، وهم بنو العباس بن عبد المطلب قبر عبد الله بالطائف، وقبر عبيد الله بالمدينة، وقبر مَعَبْد بافريقيَة، وقبر الفضل بالشام، وقبر قُثَم بسَمَرْقَند .

قاض قضى في الإسلام خمسا وسبعين سنة وهو شريح بن الحارث الكِنْديّ آستقضاه عمر علىٰ الكوفة فبقي بها خلافة عمر وما بعدها إلىٰ تمام المدّة المذكورة لم يتعطل منها سوىٰ ثلاث سنين آمتنع فيها من القضاء في فتنة آبن الزبير .

أوصاف جماعة من المشاهير

"من كان من الخلفاء أصْلَعَ" قال الثعالبيّ : كان الصَّلَع في عمر ، وعثمان ، وعليّ ، ومروان بن الحكم ، وعمر بن عبد العزيز؛ قال ثم آنقطع الصلع من الخلفاء .

"من كان في غاية الطول" ، كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كأنّه راكب والناس يمشُون لطوله؛ وكان عديّ بن حاتم إذا ركب تكاد رجلاه تخط في الأرض؛ وكذلك جَرِير بن عبد الله البَجَليّ ، وكان قُسُّ بن ساعدة في نِهاية الطول والجَسَامة ، وكان عبد الله بنُ زياد إذا رءاه الرائي وهو ماشٍ ، ظن أنه راكب لطوله ؛ وكان عليّ بن عبد الله بن عباس في غايةٍ من الطُّول، وكان أبوه عبد الله أطولَ منه ، وجدّه

العباس أطولَ من أبيه؛ ويقال إن جَبَلة بن الأيهم الغَسَّانيّ كان طوله اثنَىْ عشر شبرا .

"من كان فى غاية القصر" قال الثعالبيّ : كان عبدُ الله بن مسعود رضى الله عنه شديدَ القِصَر يكاد الجُلُوس يوازونه من قصره؛ وكان إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف قصيرا دَحْداحا، وكان الحُطَيئة الشاعر مُفْرط القصر، ولذلك لُقِّب بالحُطَيئة، وكان ذو الرُّمَّة الشاعر قصيرا جدّا؛ ورأيت فى بعض التواريخ أن كُثَيِّر عَزَّةَ كان طوله ثلاثة أشبار؛ وكان العباس بن الحسن فى غاية من القِصر وفيه قيل :

لا تَنْظُرَنَّ إلى العَبَّاسِ مِنْ قِصَرٍ * وٱنظُرْ إلى الفَضْل والمَجْد الذى شادَا

إنَّ النُّجومَ نُجُومَ الجَوِّ أصغَرُها * فى العَيْنِ أبعَدُها فى الجَوِّ إصْعادا

"من عُرِف بالدهاء من العرب" مُعاوِيَة بن أبى سفيان، زِيادُ ابن أبيه، عمرو بن العاص، المُغِيرة بن شُعْبة، قَيْس بن سَعْد بن عُبَادة، عبدُ الله بن بُدَيل الخُزاعى .

"من نُسِب منهم إلى الحُمْق" عامر بن كُرَيْز، معاوية بن مَرْوان بن الحكم، بَكَّار ٱبن عبد الملك بن مروان، العاص بن هشام، عبد الله بن معاوية بن أبى سفيان، سهل بن عمرو وأخوه سُهَيل، العاص بن سعيد بن العاص .

"المؤلفة قلوبهم فى أوّل الإسلام" قال الثعالبيّ : هم من قريش أبو سفيان ٱبنُ حرب، وسُهَيل بن عمرو، وحُوَيطب بن عبد العُزّى، وهَبَّار بن الأسود، والحارثُ بن هشام، وحَكِيم بن حِزام، وصَفْوان بن أُمَيَّة، وأنس بن عدى . ومن فَزَارة عُيَيْنة بن حِصْن . ومن تميم الأقرع بن حابس . ومن بنى سُلَيم العَبَّاس بن مِرْداس . ومن ثَقِيف العَلَاء بن الحارث .

"من أصيبت عينه" أبو سفيان بن حرب، ذهبت عينه يوم الطائف ثم عمِى بعد ذلك . الأشعث بن قَيْس، ذهبت عينه يوم اليَرْمُوك، المغيرة بن شُعْبة كذلك

الأشتر النخَعِيّ جَرِير بن عبد الله البَجَلى، عدىّ بن حاتم، عُتْبة بن أبى سفيان، المختار آبن أبى عُبَيد، الأحنف بن قَيْس، المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرة، طاهرُ بن الحسين، عمرو آبن الليث الصَّفَّار .

" من سُمِلتْ عيناه من الخلفاء والملوك " أما من الخلفاء فالقاهر، والمتقى، والمكتفِى؛ وأما من الملوك فهُرْمزُ بن أنو شروان أحد الملوك الأكاسرة، صَمْصام الدولة بن بويه، منصور بن نوح بن منصور السامانى .

" من كان مكفوف البصر من أشرف الناس " زُهْرة بن كلاب بن كعب؛ عبدُ المطلب بنُ هاشم؛ العَبَّاس بن عبد المطلب؛ الحَكَم بن العاص؛ أبو سفيان بن حرب؛ الحارث بن العبَّاس بن عبد المطلب؛ مُطْعِم بن عدى بن نَوْفَل بن عبد مناف؛ أبو بكر بنُ عبد الرحمن بنِ الحارث بن هشام بن المغيرة؛ عُتْبة بن مسعود الهذلى، عبد الله بن عُبَيْد الله بن عُتْبَة؛ أبو أحمد بن جَحْش بن مسعود الأسدى؛ جابر بن عبد الله الأنصارى، عبد الله بن أرقم؛ البَرَاء بن عازب؛ حَسَّان ابن ثابت؛ أبو أُسَيْد الساعدى؛ قتادة بن دِعامة؛ دُرَيد بن الصِّمَّة الجُشَمىّ؛ عزمة ابن نَوْفل الزُّهْرى؛ الفاكه بن المغيرة المخزومىّ؛ جَذيمة بن حازم النهشلى؛ أبو العباس الشاعر؛ على بن زيد بن جُدْعان؛ المغيرة بن مِقْسَم الضبىّ؛ الترمذىّ الكبير الحافظ الفقيه؛ منصور الشاعر المِصرىّ؛ آبن سِيده اللُّغوىّ؛ أبو العَلَاء المَعَرّى؛ بَشَّار بن بُرْد؛ أبو البقاء العُكْبَرىّ؛ أبو العَيْناء هشامُ بن معاوية الضرير النحوىّ الكوفىّ؛ أبو القاسم السُّهَيْلى صاحب الروض الأُنُف؛ أبو القاسم الشاطبىّ؛ الصرصرىّ الشاعر؛ أبو الحسن علىّ بن عبد الغنى الحصرى؛ أبو عبد الله بن خَلَصة المغربى النحوى؛ أبو عبد الله بن الخَيَّاط .

أصحاب العاهات من الملوك

من ملوك اليونان الإسكندر، كان أحنَف . ومن ملوك الفُرْس أَنُو شَرْوان كان أعور، يزدجرد كان أعرجَ . ومن ملوك العرب جَذِيمة الوَضَّاح، كان أبرص، النُّعمان آبن المنذر، كان أحمر العينين والشَّعر . ومن الخلفاء عبدُ الملك بنُ مرْوان أَبْخَر، يزيد آبن عبد الملك أفقَم، هِشَام بن عبد الملك أحْوَل، مَرْوان الحِمار أشقر أزرق، موسىٰ الهادى شفته العُلْيا متقلصة، حتّى كان أبوه المهدى قدرتَّب له خادما يلازمه متىٰ غَفَل وفتح فاه قال: موسىٰ أطبق، إبراهيم بن المهدى كان أسود سَمِينا يلقَّب بالتِّنِّين .

ومن أشراف قريش وغيرهم أبو طالب أعرجُ، وأبو جَهْل أحولُ، أبو لَهَب كذلك، وكذلك زِياد، وعدىٌّ بن زيد . الأحنفُ بن قيس، أحنفُ متراكب الأسنان، صَعِل الرأس، مائل الذَّقَن . والرَّبيع بن زِياد أبرصُ، وكذلك الحارث بن حِلِّزة، وأيْمَن بن خُرَيم، والحسن بن قَحْطَبة، وكان عَبِيدة السَّلْمانىُّ أصمَّ، وكذلك آبن سيرينَ والكُمَيتُ الشاعر، والمرَقِّش الأكبر الشاعر أجدع .

أصحاب النوادر

ابن أبى عَتِيق، أشعبُ الطَّمِع، أبو الغُصن جُحَا، أبو العِبَر، أبو العَنْبَس، ابن الجصاص مِزْيد المدنىّ .

أجواد الإسلام

عُبيد الله بن عباس بنِ عبد المطلب، عبدُ الله بن جعفر بن أبى طالب، سعيدُ آبن العاص بن سعيد بن العاص بن أُمَيَّة، عبد الله بن عامر بن كُرَيز، حمزَة بنُ عبد الله بن الزبير بن العوّام، عُمَر بن عبيد الله بن مَعْمَر التيمىّ (١)، خالد بن عبد الله

(١) فى العقد الفريد اسم الجوَاد عبيد الله بن معمر القرشىّ ثم التيمى .

ابن خالد بن أسد بن العاص ، قيس بن سعد بن عُبَادة الأنصارى ، عَتَّاب بن أبى وَرْقاء الحنظلىّ ، أسمـاء بن خارجة بن حِصن بن بدر الفَزَارىّ ، عبد الله بن أبى بكرة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الطَّلَحات المعروفون بالجُود

طلحة الفَيَّاض — وهو طلحة بن عبيد الله أحدُ العشرة ؛ وطلحة الجُود — وهو طلحة بن عمر بن عبيد الله بن معْمَر التيمى ؛ وطلحة الدراهم — وهو طلحة بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن أبى بكر الصدّيق ؛ وطلحة الخير — وهو طلحة بن الحسن بن علىّ آبن أبى طالب ؛ وطَلْحة الندىٰ — وهو طلحة بن عبد الله بن عوف الزُّهْرى ؛ وطَلْحة الطَّلَحات — وهو طلحة بن عبد الله بن خَلَف الخُزَاعىّ .

أزواد الركب ثلاثة من قريش وهم مسـافر (١) بن أبى عمرو بن أُمَيَّـة ، وزمعـة (١) ابن الأسود بن المطلب بن عبد العُزّى بن قُصَىّ ، والمغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم : سُمُّوا بذلك لأنهم لم يتزوّد معهم أحد فى سفر قطّ لجُودهم .

من آشتهر عند أهل الأثر بلقبه

غَسيل الملائكة ، وهو حنظلة بن أبى عامر الأنصارى أصِيبَ يوم أُحُد فأخبر النبى صلى الله عليه وسـلم أن الملائكة غَسَّلته . قتيل الجن ، هو سـعد بن عُبَادة ، بال فى جُحْر فقتله الجن . مُصَافح الملائكة ، هو عِمْران بن حُصَيْن . حَمِىّ الدَّبْر ، هو عاصم بن ثابت بن أبى الأفلح ، حَمتْه النحلُ إلىٰ أن كان الليـلُ . ذو الشَّهادتين هو خُزَيمة بن ثابت الأنصارى ، شهد لرسول الله صلى الله عليه وسلم بقضاء دينِ اليهودىّ حين أخبر النبىُّ صلى الله عليه وسـلم أنه وفَّاه ، اعتمادا علىٰ خبر النبى صـلى الله عليه

(١) فى الأصل مسلمة ... ... وربيعة وهو سبق قلم من الناسخ والتصحيح من القاموس وشرحه .

وســلم ، فجعل صلى الله عليه وســلم شهادتَه بشهادتين . ذو العَيْن ، هو قتادة بن النعمان ، أصيبت عينه يوم أحد فردّها رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ . ذو اليدين هو عُبَيْد بن عَبْدِ عمرو الخزاعيّ كان يعمل بيــديه معا . ذو العِمامة ، هو أبو أُحَيْحة سعيدُ بن العاص بن أُميّة ، كان إذا لبِس عمامته لم يلبَس قرشيٌّ عمامته حتّى ينْزِعها . ذو الثُّدَيَّة ، كانت إحدى يديه مُخْدَجة كالثدى ، كان رأس الخَوارج . ذو الثَّفِنَات ، كان يقال ذلك لعلىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب ، ولعلىّ بن عبد الله بن عباس لمـا علىٰ أعضاء السَّجَدات منهما من شبه ثَفِنات البعير . ذو السَّيْفين ، هو أبو الهيثم ٱبن التَّيِّهان ، سمى بذلك لتقلُّده فى الحرب بسيفين . سَيْف الله ، هو خالد بن الوليد . أســدُ الله ، هو حمزة بن عبد المطلب . ذات النِّطَاقين ، هى أسمــاءُ بنتُ أبى بكر ، سميت بذلك لأنها شَقَّت نِطاقها للسُّفرة فى الليلة التى هاجر النبى صلى الله عليه وســلم هو وأبوها إلىٰ المدينة . عُرْوة الصَّعَاليك ، هو عُرْوة بن الوَرْد ، كان إذا شَكَا إليه أحد أعطاه فرسا ورُمْحا وقال له : إنـ لم تستغْنِ بذلك فلا أغناك الله . سُلَيك(١) المَقانب ، هو سُلَيك بن سُلَكة ، كان أعدىٰ الناس حتّى إن الفرس لا يُدْرِكه . طُفَيل الأعراس ، رجل من غَطَفان ؛ وقيل هو من مَوَالى عُثْمان بن عفَّان رضى الله عنه ، كان يتتبع الأعراس فيأتيها من غير دَعْوة وإليه تنسب الطُّفَيليَّة . أشجُّ بنى أمية هو عمرُ بنـ عبد العزيز . جبارُ بنى العَبَّاس هو هارونُ الرشيد : لأنه أغزىٰ ٱبنَه القاسمَ الرومَ فقتل منهم خمسين ألفا ، وأخذ منهم خمسة آلاف دابَّة بالسُّروج واللُّجُم الفِضَّة ، وأغزىٰ علىَّ بنَ عيسى بن ماهانَ بلادَ التُّرك فقتل منهم أربعين ألفا ، وغزا هو بنفسه بلاد الروم ففتح هِرَقْلَة ، وأخذ الجزية من مَلِك الروم . بَنَات طارق ، هنّ بنــات العلاء بن طارق بن أُمية بن عبد شمس ؛ سُمِّين بجَدِّهنّ ، يضرب بهنّ المثل

(١) فى الأصل سليل باللام وهو تصحيف انظر اللسان فى مادة س ل ك .

فى الحسن والشرف . بنات الحارث ، هنّ بنات الحارث بن هشام ؛ يُضرب بهنّ المثل فى الحُسْن وغلو المهر .

من كان فردا فى زمانه بحيث يضرب به المثل فى أمثاله

كان الإسكندر ، فى طَوَفان الأرض ، وكسرى أنُوشَرْوان ، فى العدل ، وزرقاءُ اليمامة ، فى حِدّة النظر ، وحاتم الطائىّ ، فى الكرم ، وكعبُ بنُ مامةَ ، فى الإيثار ، وارسطاطاليس ، فى الحكمة ، وبقراط ، فى الطب ، وقُسّ بن ساعدة ، فى الفَصاحة ، وسَحْبان وائل ، فى البلاغة ، وعمرو بن الأهتم ، فى البيان ، وباقل ، فى العِىّ ، وأبو بكر الصدّيق رضى الله عنه ، فى معرفة الأنساب ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فى قوّة الهَيْبة ، وعثمان بن عفان رضى الله عنه ، فى التِّلاوة ، وعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى القَضاء ، ومعاوية ، فى كثرة الاحتمال ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ، فى الأمانة ، وأبو ذرّ ، فى صدق اللّهْجة ، وأبىّ بن كعب ، فى القرءان ، وزيدُ بن ثابت ، فى الفرائض ، وابنُ عباس ، فى تفسير القرءان ، وعمرو بن العاص ، فى الدّهاء ، وأبو موسىٰ الأشعرىّ ، فى سَلامة الباطن ، والحسن البصرىُّ ، فى الوعظ والتذكير ، ووهْب بن منبِّه ، فى القصَص ، وابن سِيرينَ ، فى تعبير الرؤيا ، ونافع ، فى القراءة ، وأبو حنيفة ، فى القياس فى الفقه ، وابن إسحاق ، فى المغازى ، ومقاتل ، فى التأويل ، والكلبىّ ، فى قصَص القرءان ، وابن الكلبىّ الصغير ، فى النسب ، وأبو الحسن المدائنى ، فى الأخبار ، ومحمد بن جرير الطبرىّ ، فى عُلوم الأثر ، والخليل بن أحمد ، فى العَروض ، وفُضَيل بن عياض ، فى العبادة ، ومالك بن أنس ، فى العلم ، والشافعىّ ، فى فقه الحديث ، وأبو عبيدة ، فى الغَرِيب ، وعلىّ ابن المدِينى ، فى عِلَل الحديث ، ويحيىٰ بن مَعِين ، فى رجال الحديث ، وأحمد بن حنبل ، فى السنة ، والبخارى ، فى نقد الصحيح ، والجنيد ، فى التصوّف ، ومحمد بن نصر المروزىّ ،

فى الاختلاف، وأبو علىّ الجُبّائى، فى الاعتزال، وأبو الحسن الأشعرىّ، فى علم الكلام، وأبو القاسم الطبرانى، فى عَوالى الحديث، وعبدُ الرزاق، فى ارتحال الناس إليه، وابن مَنْده، فى سعة الرحلة، وأبو بكر الخطيب، فى سُرْعة القراءة، وابن حزم، فى مَذْهب الظاهر، وسيبويه، فى النحو، وأبو الحسن البكرى السيرى، فى الكذب، وإياسُ بن معاوية، فى الذكاء والتفرّس، وعبدالحميد، فى الكتابة والوفاء، وأبو مسلم الخُراسانىّ، فى علُوّ الهمة والحزم، وإسحاق الموصلىّ النـديم، فى الغِناء، وأبو الفرج الأصفَهانى صاحب الأغانى، فى المحاضرة، وأبو معشر، فى النُّجُوم، والرازى، فى الطِّب، وعَمّار بن حمزة، فى التِّيه، والفضل بن يحيىٰ، فى الجُود، وجعفرُ بن يحيىٰ، فى التوقيع، وابن زيدُونَ، فى سَعَة العبارة، وابن القِرِّية، فى البلاغة، والجاحظ، فى الأدب والبيان، والحريرىُّ، فى المقامات، والبديع الهَمَذانى، فى الحفظ، وأبو نُوَاس، فى المُجُون والخَلاعة، وابن حَجَّاج الشاعر، فى سُخْف الألفاظ، والمتنبى، فى الحِكَم والأمثال شعرا، والزمخشرىّ، فى تَعاطِى العربية، والنَّسَفى، فى الجَدَل، وجَرير الشاعر، فى الهجاء الخبيث، وحَمّاد الراوية، فى شعر العرب، والاحنف بن قيس، فى الحِلْم، والمأمون، فى حُبِّ العفو، والوليد، فى شُرْب الخمر، وعطاء السُّلمىّ، فى الخوف من الله تعالىٰ، وابن البوّاب، فى الكتابة، والقاضى الفاضل، فى الترسُّل، والعِماد الكاتب، فى الجِناس، وأشعبُ، فى الطمع، وأبو نصر الفارابى، فى معرفة كلام القدماء ونَقْله وتفسـيره، وحُنَين بن إسحاق، فى ترجمة اليونانى إلىٰ العربى، وابن سينا، فى الفلسفة وعلوم الأوائل، والإمام فخر الدِّين الرازى، فى الاطِّلاع علىٰ العلوم، والجاحظ فى سَـعَة العبـارة، والسيف الآمِدىّ، فى التحقيق، والنصير الطُّوسى، فى معرفة المجسطى، وابن الهيثم، فى الرياض ونجم الدين الكاتبى، فى المنطِق، وابن الأعرابى، فى الاطلاع علىٰ اللغة، وأبو العيناء، فى الأجوبة المسكتة، ومزْيد، فى البخل، والقاضى أحمد بن أبى دواد، فى المروءة

وحُسْن التقاضى؛ وآبن المعتز، فى التشبيه، وآبن الرُّومى، فى التطيُّر، والصولى فى الشِّطْرنج، والغزالى، فى الجمع بين المعقول والمنقول، وأبو الوليد بن رُشْد، فى تلخيص كتب الأقدمين الفلسفية والطبية، ومحيي الدين بن عربى، فى علوم التصوّف، وجابر ابن حيان فى علم الكيمياء .

غرائب آتفاق

اتفاقية جليلة — وُلِد النبي صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين، وبُعِث يوم الاثنين، وهاجر يوم الاثنين، وتُوفِّى يوم الاثنين .

اتفاقيــة أخرى — قَتَل عبدُ الله بن زياد الحسيــنَ بنَ علىّ عليهما السـلام يوم عاشوراء، وقتله الله علىٰ يد إبراهيم بن الأشتر فى يوم عاشوراء .

أخرىٰ — قال عبد الملك بن عمير الليثىّ : رأيت فى قصر الإمارة بالكوفة رأس الحسين بنِ علىّ بين يدى عبــد الله بن زياد علىٰ تُرْس، ثم رأيت فيه رأس عبــد الله آبن زياد بين يدى المختار بن أبى عُبيد، ثم رأيت فيه رأس المختار بين يدىّ مُصْعَب آبن الزبير، ثم رأيت فيه رأس مُصْعَبٍ بين يدى عبــد الملك بن مروان . قال : فحدّثت بهذا عبد الملك بن مروان فتطير منه ففارق مكانه .

أخرى — قال الصولى : حدّثنى الحسين بن يحيىٰ الكاتب أنه لمـا وَلِى المعتز لم تمض مدّة لطيفة حتّى أحضر الناس وأُخْرِج المؤيد[1] وقيل آشهدوا أنه دُعِىَ فأجاب، وليس به أثر؛ ثم مضت مدّةُ شهر فأحضر الناس وأُخْرِج المستعين وقال : إن منيته أتت عليه، وها هو لا أثر به فآشهدوا ؛ ثم خُلِـع المعتز، وآستخلف المهتدى ؛ ولم يمض إلا مُدَيْدة حتّى أُخْرِج المعـتزُّ ميتا وقال : اشهدوا، أنه قد مات حتف أنفه

(١) أى ميتا .

ولا أثر به؛ ثم لم تكمل السنة حتى ٱستُخْلِف المعتمد فأُخْرِج المهتدى ميتا وقال: اشهدوا أنه قد مات حَتْفَ أنفه من جراحته، فتعجب الناس من تلاحُقِهم فى مدّة يسيرة .

عِبْرة — مات المكتفى بالله عن مائةِ ألف ألف دينار؛ ولما غُسِّل لم توجد مِجْمَرة يبخر فيها إلا مجمرةً من خَزَف أحمر، وكان فيما خلف ألوف من مجامر الذهب والفضة .

قال أحمد بن أبى دواد : لقد شددت لحيٍ المأمون، والمعتصم، والواثق، بعد موتهم فلم أجد خرقة أشدّ بها لَحْيَىْ واحد منهم إلا ما أخرقه من الدراريع التى تكون علىّ .

لطيفة — فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين أمر المعتضد بردّ فاضل سِهام المواريث علىٰ ذوى الأرحام، وأبطل ديوانَ المواريث، وكتب بذلك إلىٰ الآفاق .

لطيفة — فى سنة أربع وثمانين ومائتين أخبر المنجمون بغَرَق أكثر الأقاليم بسبب كثرة الأمطار وزيادة الأنهار فتحفَّظ الناس من ذلك فقلَّت الأمطار حتى ٱستَسْقَوْا ببغداد مرَّات .

غريبة — ذكر ٱبن سينا فى المقالة الأولىٰ من كتابه الشفاء أنه نزل بجُرْجان صاعقةٌ من الهواء فنشبت فى الأرض، ثم نبَتْ نَبْوة الكُرة وسمع الناس لذلك صوتا عظيما هائلا فحفَرُوا عليها فإذا هى قطعة من حديد تقدير مائة وخمسين مَنًّا، وهى أجزاء جاوَرْسيَّة صغارٌ مستديرة؛ التصق بعضها ببعض، فكتب محمود بن سبكتكين، صاحب خراسان بانفاذه إليه أو قطعة منه فتعذر نقله لثِقَله فحاولُوا كسر قطعة منه فلم تعمل فيه الآلات، فعُولج كسره فقطع منه قطعة لطيفة، وحملت إليه فرام أن يطْبَع منها سيفا فتعذر عليه .

لطيفة أخرى — فى سنة إحدىٰ عشرة وخمسمائة جاء سيلٌ عظيم فغرّق مدينة سِنْجار من بلاد الجزيرة، وهدم المنازل، وأغرق خلقا كثيرا . ومن غريب ما حكي

أن السيل حمل مَهْدا فيه صبىّ صغير فتعلق المهد بشجرة زيتون ، وغاض المـاء، وبقى المهد معلّقا بالشجرة فسلم الصغير .

أُعجوبة — فى سنة ستين وأربعمائة كان بمصر وفِلَسْطِين زَلْزلة عظيمة، طلع فيها المـاء من رءوس الآبار، وزال البحر عن الساحل مسيرة يوم، فنزل الناس إلىٰ أرض البحر يلتقطون ما آنكشف البحر عنه ممـا فى أرضه فرجع المـاء عليهم فأهلك منهم خلقا كثيرا .

ثم فى سنة آثنتين وخمسين وخمسمائة وقع ببلاد الشام زلزلة عظيمة خربت شيزر، وحمـاة ، وحمص ، وحِصْن الأكراد، وطرابُلُس وأنطاكِيَة، وغيرها من البلاد التى حولها؛ ووقعت الأسواق والقلاع حتّى تداركها نور الدين الشهيد رحمه الله بالعمارة.

فائدة — فى سنة اثنتين وخمسمائة قلع المقتفى الخليفةُ باب الكعبة، وعمل عوضه بابا مصَفَّحا بالفضة المُذْهَبة؛ وعمل لنفسه من الباب الأوّل تابوتا ليُدْفَن فيه .

نادرة — فى سنة خمس وستين وسبعمائة وقع ثلجٌ عظيم بالشام فكسر الأشجار وقطع الطرق لا سيما بعُكْبَراء وما حولها .

أخرىٰ — فى سنة سبعين وسبعمائة ظهر بالشام جراد عظيم لم يُسمع بمثله ، وآمتدّ من مكة إلىٰ الشام؛ وعظم بحَوْرانَ حتّى أكل الأشجار ، والأخشاب ، وأبواب الدور ، وما وصل إليه من الأصـبغة والقُماش ، وسُدّت أعين المـاء خوفا من أن يُفْسِـدها ، وكان من شأنه بعَجْلُون أنه امتلأت منه المدينـة وغُلِّقت الأسواق ، وطُبِّقت أبواب الدكاكين والطاقات ، وسدّت الأبواب وحضروا لصـلاة الجمعة فملأ عليهم الجامع ، وترامىٰ علىٰ الخطيب علىٰ المنبر حتّى شغله عن الخطبة، وكذلك حيَّر الناس حتّى خرجوا من الجامع يَخُبُّون فيه خبا إلىٰ الركب؛ وأنتنت لكثرة ما قتل منه حتّى صار أهل البلد يَشَمُّون القَطِران ليغطّى رائحته ﴿وما يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إلَّا هُو﴾.

أخرىٰ — فى سنة ٱثنتين وسبعين وسبعمائة رأىٰ أهل الشام فى السماء بعد مَغيب الشَّفَق حُمْرةً عظيمة من جهة الشمال ، ثم ٱشتدّت الحمرةُ حتّٰى صارت كالنار الموقدَة وانتشرت فى السماء حتّٰى كاد يغطى ثلثها ، وعم بلاد الشام حتّٰى كان بدِمَشْـق ، وبَعْلَبَكّ وحلَب ، وقاقُونَ ، والرملة ، والقُدْس ، وطرابُلُس ؛ حتّٰى خاف جميع أهل هذه البلاد علىٰ أنفسهم الهلاكَ ، وضَرَعوا إلىٰ الله تعالىٰ ، وٱبتهلوا إليه ، فكشف الله عنهم بعد نصف الليل .

قلت — : وقد رأيت مثل هذه الآية العظيمة بمصر فى سنة ٱثنتى عشرة وثمانمائة : وهو أنه ظهرت حمرة عظيمة من جهة الغرب فوق حمرة النار ، وجاء من وراء تلك الحمرة برق ساطع ، فصار كلما لمع البرق داخل تلك الحمرة يخال الناظر أنها نار لا محالة حتّٰى داخلنى منه أنه عذاب قد صُبّ علىٰ الناس ، ثم ٱنقشع بعد العشاء بقليل فلذلك لم ينتبه له أهل مصر . وبالجملة فوقائع الدهر وعجائبه أكثر من أن تحصر ، ولا يحتمل هذا الموضع أكثر من هذا القدر .

واللّيالِى كَما عَلِمتَ حَبالىٰ * مُقْرِباتٌ يَلِدْنَ كُلَّ عَجِيبِ

المقصـــد الثانى

(فى وجه بيان ٱستعمال الكاتب ذلك فى خلال كلامه)

لايخفىٰ أن الكاتب إذا عرف أحوال المتقدّمين وسِيَرَهم ، وأخبارهم ، ومَنْ بَرَع منهم ، صار عنده علم بما لعله يُسأل عنه ، وٱعتدادٌ لما يرد عليه من ذكر واقعة بعينها أو يحتَجُّ عليه به من صورة قديمة : ليكون علىٰ يقين منها ، مع ما يحتاج إلىٰ إيراده فى خلال مكاتباته ورسائله : من ذكر من حَسُن الآحتجاج بذكره فى أمر من الأمور أو حالة من الحالات : كما كتب به البديع الهمذانىُّ إلىٰ أبى الحسين بن

فارس وقد بلغه أنه ذكر فى مجلسه فقال: إن البديع قد نسىَ حق تعليمنا إياه، وعقَّنا، وشمَخ بأنفه عنا، والحمد لله علىٰ فساد الزمان، وتغير نوع الانسان. فكتب إليه:

" نعم أطال الله بقاء الشيخ الإمام، إنه الحَمَأ المسنون، وإن ظُنَّت الظنون؛ والناس لآدم، وإن كان العهد قد تقادم؛ وآرتكبت الأضداد، وآختلط الميلاد. والشيخ يقول فسد الزمان، أفلا يقول متىٰ كان صالحا؟ أفى الدولة العباسية، وقد رأينا آخرها وسمعنا أوّلها؟ أم المدّة المروانية، وفى أخبارها " لاتَكْسَع الشَّوْل بأغبارها؟ " أم السنين الحربية، والسيف يُغْمَد فى الطُّلا، والرُّمح يُرْكَز فى الكُلَا، وميتٌ بحجر فى الفلا، والحرتان وكربلا، أم البَيْعة الهاشمية، وعلىٌّ يقول: ليت العَشْرةَ منكم براس، من بنى فراس؟ أم الأيام الأُمويَّة، والنفير إلىٰ الحجاز، والعيون إلىٰ الأعجاز؟ أم الإمارة العَدَوية، وصاحبها يقول: وهل بعد البُزُول إلا النزول؟ أم الخلافة التيمية، وصاحبها يقول: طوبىٰ لمن مات فى نأناة الإسلام(١)؟ أم علىٰ عهد الرسالة ويومَ الفتح قيل آسكُتِى يافلانه، فقد ذهبت الأمانه؟ أم فى الجاهلية ولبيد يقول:

ذَهَب الذين يُعَاشُ فى أكْنافِهِمْ * وبَقِيتُ فى خَلْف كِجلْد الأجْرَبِ.

أم قبل ذلك وأخو عاد يقول:

بلادٌ بِهَا كُنَّا وكُنَّا نُحِبُّها * إذ النَّاسُ ناسٌ والزَّمانُ زَمانُ.

أم قبل ذلك، ويروىٰ لآدم عليه السلام:

تَغيَّرتِ البِلادُ ومَنْ عَلَيْها * فَوَجْهُ الأرضِ مُسْوَدٌّ قَبِيح!

أم قبل ذلك والملائكة تقول: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾؟ وما فَسَد الناس، ولكن آطَّرد القياس؛ ولا ظَلَمت الأيام، إنما امتدّ الإظلام؛ وهل

(١) أى فى أوّل الاسلام قبل أن يقوى أنظر اللسان.

يفسُد الشيء إلا عن صلاح، ويمسى المرء إلا عن صَباح؛ ولعمرى ! لئن كان كَرَم العهد كتابا يَرِد وجوابا يصدُر إنه لقريب المنال، وإنى علىٰ توبيخه لى لفقير إلىٰ لقائه، شفيق علىٰ بقائه، منتسب إلىٰ ولائه، شاكر لآلائه .

والغاية القُصوىٰ فى ذلك ما كتب به ذو الوزارتين "أبو الوليـد بن زيدونَ" رحمه الله علىٰ لسان محبوبته وَلَّادة بنت محمد بن عبد الرحمن الناصر إلىٰ إنسان استمالها عنه إلىٰ نفسه وهى :

أما بعدُ أيها المصابُ بعقله، المورَّط بجهله، البَيِّن سَقَطه، الفاحش غلطه، العاثر فى ذيل ٱغتراره، الأعمىٰ عن شمس نهاره، الساقطُ سُقُوطَ الذُّباب، علىٰ الشراب، المتهافت تهـافُتَ الفَرَاش فى الشِّهاب، فإن العُجْب أكذبُ، ومعرفةَ المرء نفْسَـه أصوب، وإنك راسلتنى مستهديا من صِلتِى ما صَفِرت منه أيدى أمثالك، متصدّيا من خُلَّتى لمـا قُدِعت فيه أنوفُ أشكالك، مرسلا خليلتَكَ مرتاده، مستعملا عشيقتك قَوَّاده، كاذبا نفسك فى أنك ستنزل عنها إلىّ، وتخلف بعدها علىّ :

ولَسْتَ بأوَّلِ ذِى هِمَّـةٍ * دعَتْهُ لمـا لَيْس بالنائِلِ !

ولا شكَّ أنهـا قلَتْك إذ لم تضِنَّ بك، وملَّتْك إذ لم تَغرْ عليك، فإنهـا أعذرت فى السِّـفَارة لك، وما قَصَّرت فى النيابة عنك، زاعمةً أن المُروءة لفظٌ أنت معناه، والإنسـانيةَ ٱسم أنت جسمه وهَيُولاه، قاطعة أنك ٱنفردت بالجمال، وٱسـتأثرت بالكمال واستعلَيْت فى مراتب الخِلَال، حتّٰى خيَّلتْ أنَّ يوسف عليه السلام حاسَنَك فغضَضْت منه، وأن امرأة العزيز رأتْك فسَلَتْ عنه، وأن قارونَ أصاب بعضَ ما كَنَزْت، والنطِفَ عَثَر علىٰ فضْل مارَكَزْت، وكِسرىٰ حمل غاشيَتَك، وقيْصَر رعىٰ ماشِيَتك، والإسكندرَ قتل دارًا فى طاعتك، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخُروجهم عن جماعتك، والضحاكَ ٱستدعىٰ مُسالمتك، وجَذيمةَ الأبرَش تمنّٰى منادمتك وشِيرين

قد نافست بُورانَ فيك، وبِلْقِيس غايَرتِ الزَّبَّاء عليك؛ وأن مالك بن نُوَيْرة إنما أَرْدَف لك، وعُروةَ بن جعفر إنما رَحَل إليك؛ وكُلَيب بن رَبيعة إنما حمَى المَرْعَى بعزّتك، وجَسَّاسا إنما قتله بأنَفَتك، ومُهَلْهِلا إنما طلب ثأرَه بهمَّتك؛ والسَّمَوْءَل إنما وفَى عن عهدك، والأحنفَ إنما آحتبَى فى بُرْدك؛ وحاتما إنما جاد بوَفْرك، ولقِىَ الأضياف بِبِشْرك؛ وزيد بن مُهَلْهِل إنما ركب بفَخِذيك، والسُّلَيْك بن السُّلَكة إنما عدا على رجليك؛ وعامرَ بن مالك إنما لاعب الأسِنَّة بيديك؛ وقيس بن زُهَيْر إنما آستعان بدَهَائك، وإياس بن معاوية إنما آستضاء بمصباح ذَكَائك؛ وسَحْبان وائل إنما تكلم بلسانك، وعمرو بن الأهتم إنما سَحَر ببيانك. وأن الصلح بين بكر وتغلِبَ تَمَّ برسالتك، والحَمَالاتِ فى دِماء عَبْس وذُبْيانَ أُسْنِدتْ إلى كَفَالتك؛ وأن آحتيال هَرِم لعامر وعلقمةَ حتّى رضيَا كان عن إشارتك، وجوابه لعُمرَ، وقد سأله عن أيهما كان ينفِّر وقع بعد مَشُورتك؛ وأن الحجاج تقلد وِلاية العراق بجِدّك، وقُتَيبةَ فتح ما وراء النهر بسَعْدك، والمهلَّب أوهن شَوْكةَ الأزارقة بأيْدك، وأفسد ذات بينهم بكيدك؛ وأن هرمس أعطى بيلينوس ما أخذ منك، وأفلاطون أورد على أرسطاطاليس ما حدّث عنك؛ وبطليموس سوّى الإصطرلاب بتدبيرك، وصوّر الكُرَة على تقديرك؛ وأبقراط علم العلل والأمراض بلُطْف حِسِّك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدِقَّة حَدْسك؛ وكلاهما قلَّدك فى العِلاج، وسألك عن المِزاج؛ وآستوصفك تركيب الأعضاء، وآستشارك فى الداء والدواء؛ وأنك نَهَجْت لأبى معشر طريق القضاء، وأظهرت جابر بن حَيَّان على سر الكيمياء؛ وأعطيت النظَّام أصلا أدرك به الحقائق، وجعلت للكِنْدىّ رسما آستخرج به الدقائق؛ وأن صناعة الألحان آختراعُك، وتأليف الأنقار توليدك وآبتداعُك؛ وأن عبد الحميد بن يحيى بارِى أقلامك، وسهل بن هارون مدوّن كلامك؛ وعمرو بن بحر مستمليك، ومالك بن أنس مُسْتفتيك؛ وأنك الذى

أقام البراهين ، ووضـع القوانين ؛ وحدّ المـاهيّه ، وبين الكيفية والكمّيه ؛ وناظر فى الجوهر والعرض ، وميز الصحة من المرض ؛ وحلّ المعَمَّى ، وفصل بين الآسم والمسمَّى ؛ وضرب وقسَّم ، وعلّل وقوّم ؛ وصنف الأسماء والأفعال ، وبوّب الظَّرف والحال ؛ وبنىٰ وأعرب ، ونفىٰ وتعجب ؛ ووصـل وقطع ، وثنَّى وجمع ؛ وأظهر وأضمر ، وآبتدأ وأخبر ؛ وآستفهم وأهمل ، وقيـد وأرسل ؛ وأسند وبحث ، ونظر وتصفَّح الأديان ، ورجَّح بين مذهبى مانى وغيلان ؛ وأشار بذبح الجعد ، وقتل بَشَّار آبن بُرْد ؛ وأنك لو شئت خَرَقْت العـادات ، وخالفت المعهودات ؛ فأحلت البحار عَذْبه ، وأعدت السِّلام رَطْبه ؛ ونقلت غدًا فصار أمسا ، وزدت فى العناصر فكانت خمسا ؛ وأنك المقول فيك "كلُّ الصَّيد فى جَوْف الفَرا" ، والمقول فيك :

لَيْس علىٰ اللهِ بمستَنْكَرٍ * أن يَجْمَع العالَمَ فى واحِدِ

والمعنىُّ بقول أبى تمـام :

فَلَوْ صَوَّرت نَفْسَكَ لم تَزِدْها * علىٰ ما فيكَ مِنْ كَرَمِ الطِّبَاعِ

والمرادُ بقول أبى الطيِّب :

ذُكِرَ الأَنَامُ لَنا فكَان قَصيدةً * كنتَ البَدِيعَ الفَرْدَ مِنْ أبْياتِها

فكَدَمْتُ فى غير مَكْدم ، وآستسمنْتُ ذا وَرَم ، وَنَفخْتُ فى غير ضَرَم ، ولم تجد لرج مَهَزًّا ، ولا لشَـفْرة مَحَزًّا ، بل رضِيتُ من الغنيمة بالإياب ، وتمنَّيتِ الرجوع بخُفَّىْ حنين ، لأنى قلت لهـا :

* لَقدْ ذَلَّ مَنْ بالَتْ عليه الثَّعالِبُ *

وأنشـــدت :

علىٰ أنَّها الأيَّامُ قَدْ صِرنَ كُلُّها * عجائِبَ حتَّى لَيْس فِيها عَجائِب

ونخرتْ وكفَرَتْ ، وعبَستْ وبَسَرت ، وأبدأتُ وأعَدْتُ ، وأبرقتُ وأرعدت ،

وهَمَمتُ ولم أفعل، وكِدتُ وليتنى، ولولا أن لِلجوار ذِمَّة، وللضِّيافة حُرْمة، لكان الجواب فى قَذَال الدُّمُسْتُق ، والنعل حاضرة إن عادت العَقْرب ، والعُقُوبة ممكنة إن أصرّ المُذْنِب، وهَبْها لم تلاحِظْك بعينٍ كليلة عن عيوبك مِلْؤُها حبيبُها وحَسَنٌ فيها من تودّ ، وكانت إنما حَلَّتك بحِلاك، ووسَمَتْك بسِماك، ولم تُعِرْك شهاده، ولا تكلَّفَتْ لك زياده، بل صدَقت سِنَّ بكرها فيما ذكرتْه عنك، ووضَعتِ الهِنَاءَ مواضع النَّقَب فما نسبَته إليك، ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك ، فالمُعَيْدِىّ تسمعُ به خير من أن تراه ، هجينُ القَذال ، أرْعَن السِّبال، طويل العُنق والعِلاوه، مُفرِط الحُمْق والغَبَاوه ، جافى الطبع ، سيئُ الإجابة والسمع ، بغيض الهيئه ، سخيف الذَّهاب والجَيْئه، ظاهرُ الوَسواس، مُنتن الأنفاس، كثير المعايب، مشهور المثالب، كلامك تمتمه، وحديثك غمغمه، وبيانُك فَهْفَهه، وضحكُك قَهْقهه، ومشيك هروله ، وغِناك مسأله ، ودِينك زندقه، وعلمك مخرقه :

مَسَاوٍ لو قُسِمْنَ على الغَوَانِى * لَمَا أُمْهِرْنَ إلَّا بالطَّلاقِ

حتّى إن باقلًا موصوفٌ بالبلاغة إذا قُرِن بك، وهَبَنَّقَة مستحقٌّ لاسم العقل إذا أُضيف إليك، وأبا غبشان (١) محمود منه سَدَاد الفعل إذا نسب إليك، وطُوَيسا مأثور عنه يمنُ الطائر إذا قِيس عليك، فوُجودك عدم، والاعتناء بك نَدَم ، والخيبة منك ظَفَر، والجنة معك سَقَر، كيف رأيت لُؤْمك لكرمى كفاء ! وضَعتَك لشرفى وفاء ؛ وأنّى جهلت أن الأشياء إنما تنجذبُ إلى أشكالها ، والطيرَ إنما تقع على آلافها ، وهلّا علمت أن الشرق والغرب لا يجتمعان، وشَعرت أن نارَى المؤمن والكافر لاتتراءيان، وقلت الخبيثُ والطيِّب لايستويان، وتمثلت :

* عَمْرَكَ اللهَ كيف يلتقِيَان *

(١) هذه الفقرة ساقطة فى بعض شروح الرسالة .

وذكرت أنى عِلْق لا يُباع ممن زاد، وطائر لا يصيده من أراد، وغَرَض لا يصيبه إلا من أجاد، فما أحسَبُك إلا قد كنت تهيأت للتهنيه، وترشحت للترفيه، لولا أن جُرْح العجماء جُبَار، للقيتَ ما لَقِيَ من الكواعب يَسَار، فما همّ إلا بدُون ما همَمْت به، ولا تعرّض إلا لأيسرَ مما تعرّضت له؛ أين ٱدّعاؤك رِوايةَ الأشعار، وتعاطيك حفظَ السِّيَرِ والأخبار؛ أما ثاب لك قول الشاعر:

بَنُو دارِم أكفاؤُهم آلُ مِسْمَع * وتُنْكَح فى أكفائها الحَبَطات

وهلّا عَشَّيْت ولم تغْتَرّ، وما أمَّنك أن تكون وافد البَرَاجِم، أو ترجعَ بصحيفة المتلَمِّس، أو أفعلَ بك ما فعله عَقِيل بن عُلَّفَة(١) بالجُهَنىّ الذى جاء خاطبا، فدهن ٱسته بزيت وأدناه من قرية النمل؛ ومتى كَثُر تلاقينا، وٱتَّصل ترائينا؟ فيدعُوَنى إليك ما دعا ٱبنةَ الخُسّ إلىٰ عبدها من طُول السَّواد، وقُرب الوِساد؛ وهل فَقَدتُ الأراقِمَ فأنكِحَ فى جَنْب، أو عضَلَنى هُمَام بن مُرّة، فأقول زوجٌ من عُود، خير من قُعود، ولعمرى لو بلغت هذا المبلغ لٱرتفعت عن هذه الخِطّة، وما رضيت بهذه الخُطَّة، فالنار ولا العار، والمَنِيَّة ولا الدَّنيَّه، والحُرّة تجوعُ ولا تأكل بثَدْيَيْها:

فكَيْفَ وفى أبناء قَوْمِى مَنْكَح * وفِتيانِ هِزّانَ الطِّوالِ الغَرانِقه

ما كنت لأتخطَّى المِسْك إلىٰ الرَّماد، ولا أمتطِى الثَّوْر دُونَ الجَوَاد؛ وإنما يتيمَّم من لايجد ماء، ويرعىٰ الهَشيم، من عَدِم الجَميم؛ ويركب الصَّعْب من لاذَلُولَ له؛ ولعلك إنما غَرَّك من عُلِمتْ صَبْوتى إليه، وشُهِرتْ مساعَفَتى له من أقمار العَصْر، ورياحين المِصْر، الذين هم الكواكب عُلُوَّ هِمَم، والرياضُ طِيبَ شِيَم.

* مَنْ تَلْقَ مِنْهم تقُلْ لاقيتُ سَيِّدَهم *

---

(١) فى الأصل علقمة وهو تصحيف أنظر مادة ع ل ف فى القاموس.

فَنَّ قِدْح ليس منها، ما أنت وهم؟ وأين تقع منهم؟ وهل أنت إلا واوَ عَمْرو فيهم؟ وكالوَشِيظَة فى العظم بينهم؛ وإن كنت إنما بلغتَ قَعْر تابو بتك، وتجافيت لقَميصك عن بعض قُوتك؛ وعطَّرت أردانَك، وجَرَرت هِمْيانك، وآختَلْتَ فى مِشْيتك، وحَذَفْت فُضُول لِحيتك، وأصلحت شارِبَك، ومطَطت حاجِبَك، ورقَّقت خَطَّ عذارك، وآستأنفت عَقْد إزارك، رجاءَ الاكتنان فيهم، وطمعاً فى الاعتداد منهم فظننت عَجْزا، وأخطأت آستُك الحُفْرة. والله لو كساك محرِّقُ البُرْدين، وحلَّتك مارِيَةُ بالقُرْطين، وقلَّدك عمْرُو الصِّمْصامة، وحَمَلك الحارث علىٰ النَّعامة، ما شككتُ فيك، ولا تكلمتَ بملء فيك، ولا سترتْ اياك، ولا كنت إلا ذاك. وهبك سامَيْتَهم فى ذِرْوة المجد والحسَب، وجاريتهم فى غاية الظَّرف والأدب؛ ألستَ تأوِى إلىٰ بيت قعيدته لَكَاع، إذ كلهم عَزَب خالى الذراع، وأين من أنفرد به ممن لا غَلَب إلا علىٰ الأقلّ الأخَسِّ منه؛ وكم بين من يعتمدنى بالقوّة الظاهره، والشهوة الوافره، والنفس المصروفة إلىّ، واللذة الموقوفة علىّ، وبين آخر قد نزحَتْ بِيره، ونضب غَدِيره، وذهب نَشاطه، ولم يبق إلا ضُرَاطه. وهل كان يجتمع لى فيك إلا الحَشَفُ وسُوء الكِيله، ويقترن علىّ بك إلا الغُدّة والموت فى بيت سلوليه:

تعالىٰ اللهُ ياسلمُ بنَ عَمْرٍو * أذلَّ الحِرْصُ أعناقَ الرِّجالِ

ما كان أخلقك بأن تُقدِّر بذَرْعك، وترْبَع بذلك علىٰ ظَلْعك، ولا تكون براقِش الدالَّةَ علىٰ أهلها، وعنْز السُّوء المستثيرة لحَتْفها؛ فما أُراك إلا قد سَقَط العَشَاءُ بك علىٰ سِرْحان، وبك لابظَبْى أعْفر؛ قد أعذرت إن أغنيت شيًا، وأسمعتُ لو ناديتُ حيًّا، وقرعتُ عَصا العِتاب، وحذَّرت سوء العِقاب.

إنَّ العَصَا قُرِعَتْ لِذِى الحِلْم * والشىء تحقره وقد يَنْمِى

فإن بادرْت بالنَّدامة، ورجعت علىٰ نفسك بالملامه؛ كنت قد آشتريت العافية لك بالعافية منك؛ وإن قلت جَعْجَعة ولاطِحْن، فرُبَّ صَلَفٍ تحت الراعدة، وأنشدت:

لا يُونسنّكَ من مُخَدَّرة * قولٌ تُغَلّظُه وإن جَرَحا

فعُدتَ لمـا نَهيتُ عنه ، وراجعْتَ ما آستعفيتُ منه ، بعثتَ من يُزْعِجك إلى الخَضْراء دفعا ، ويستحِثُّك نحوها وَكْزا وصَفْعا ، فإذا صرت إليها عبثَتْ أكَّارُوها بك ، وتسلط نَواطِيرُها عليك : فمن قَرْعة مُعْوجَّة تقوّم فى قَفَاك ، ومن فُجْلة منْتِنة تُرْمىٰ بها تحت خِصَاك ، ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاك ، لِكَىْ تَذُوقَ وَبالَ أمْرِكَ ، وترىٰ ميزان قَدْرِك :

فَمَنْ جَهِلَتْ نَفْسُه قَدْرَهُ * رأىٰ غَيْرُه منْه مالَا يَرىٰ

فلولا المعرفةُ بالتاريخ ، والإحاطةُ بالوقائع والسِّيَر ، والأقاصيص ، والأمثال السائرة فى معنىٰ ذلك ، لمـا تأتى للناثر الاقتدار علىٰ سبك هذه الوقائع ، والتلويح بمقتضَياتها .

النوع السابع عشر

(المعرفة بخزائن الكتب ، وأنواع العلوم ، والكتب المصنفة فيها وأسمـاء الرجال المبرِّزين فى فنونها ، وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى ذكر خزائن الكتب المشهورة)

قد كان للخُلَفاء والملوك فى القديم بها مزيد آهتمام ، وكمال آعتناء ، حتّٰى حصّلوا منها علىٰ العَدَد الجَمّ ، وحصلوا علىٰ الخزائن الجليلة . ويقال إن أعظم خزائن الكُتُب فى الإسلام ثلاثُ خزائن :

إحداها — خِزانة الخلفاء العباسيين ببغداد ، فكان فيها من الكتب ما لا يُحصىٰ كثرةً ، ولا يقوّم عَلَيْه نفاسـة ، ولم تزل علىٰ ذلك إلىٰ أن دَهَمت التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصِمَ آخرَ خلفائهم ببغداد ، فذهبت خِزَانة الكُتُب فيما ذهب ، وذهبت معالمها ، وأعفيت آثارها .

الثانية — خِزانة الخلفاء الفاطميين بمصر، وكانت من أعظم الخَزَائن، وأكثرها جمعا للكتب النفيسة من جميع العلوم علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب مملكة الديار المصرية فى المقالة الثانية. ولم تزل علىٰ ذلك إلىٰ أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم، واستيلاء السلطان صلاح الدين يوسفَ بن أيوب علىٰ المملكة بعدهم، فاشترىٰ القاضى الفاضل أكثَرَ كتب هذه الخزانة، ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب ملوخيا بالقاهرة، فبقيت فيها إلىٰ أن استولت عليها الأيدى فلم يبق منها إلا القليل.

الثالثة — خزانة خلفاء بنى أُمَيَّة بالأندَلُس، وكانت من أجلّ خزائن الكتب أيضا. ولم تزل إلىٰ انقراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف علىٰ الأندلس، فذهبت كتبها كلَّ مَذْهَب.

أما الآنَ فقد قَلَّت عناية الملوك بخزائن الكتب، اكتفاء بخزائن كُتُب المدارس التى ابتَنَوْها من حيث إنها بذلك أَمَسُّ.

واعلم أن الكتب المصنَّفة أكثَرُ من أن تُحصىٰ، وأجل من أن تُحْصَر، لا سيما الكتب المصنفة فى المِلَّة الإسلامية فإنها لم يصنَّفْ مثلُها فى ملة من الملل، ولا قام بنظيرها أمة من الأمم؛ إلا أن منها كتبا مشهورة قد توفرت الدواعى علىٰ نقلها، والإكثار من نسخها، وطارت سُمْعتها فى الآفاق ورُغِب فى اقتنائها.

المقصد الثانى

(فى ذكر العلوم المتداولة بين العلماء، والمشهور من الكتب المصنَّفة فيها ومؤلفيهم ويرجع المقصد فيها إلىٰ سبعة أصول، يتفرّع عنها أربعة وخمسون علما)

الأصل الأوّل

(علم الأدب، وفيه عشرة علوم)

الأوّل علم اللغة — من الكتب المختصرة فيه المنتخَب، والمجرَّد لكُرَاع، وأدب الكاتب لابن قتيبة، وفقه اللغة للثعالبىّ، والفصيح لثعلب، وكفاية المتحفظ

لابن الأجدابى، والألفية لابن أصبع . ومن المتوسطة فيه المُجمَل لابن فارس، وديوان الأدب للفارابى، وإصلاح المنطق لابن السكيت . ومن المبسوطة الجامع للأزهرى والعباب الزاخر للصاغانى، والصحاح للجوهرى . قال فى إرشاد القاصد : ولا أنفعَ ولا أجمعَ من المحكم لابن سيده .

الثانى علم التصريف — من الكتب المختصرة فيه التصريف الملوكى لابن جنى والتعريف لابن مالك . ومن المتوسطة تصريفُ ابن الحاجب، وهو من أحسن الكتب الموضوعة فيه وأجمعها . ومن المبسوطة فيــه الممتع لابن عُصْفور، وشروح تصريف ابن الحاجب وغيره .

الثالث علم النحو — من الكتب المختصرة فيه الكافية لابن الحاجب، والدرّة الألفية لابن معطى، والخُلاصة لابن مالك . ومن المتوسطة المفصَّــل للزمخشرى والمقرب لابن عصــفور، والكافيــة الشافية لابن مالك، وتسهيــل الفوائد له وهو الجامع على شدّة اختصاره . ومن المبسوطة كتاب سيبويه وشروحه، وشرح ابن قاسم على الألفية، وشرحه على التسهيل، وشرح شهاب الدين السمين عليه، وأوسع الكل شرح الشيخ أثير الدين أبى حَيَّان على التسهيل .

الرابع علم المعــانى — من الكتب المنفردة فيــه مصــنَّف تميثم الحرى (١)، وهو عزيز الوجود .

الخامس علم البيان — من الكتب المنفردة به كتاب نهاية الإعجاز للإمام فخرالدين الرازى، والجامع الكبير لابن الأثير الجزرى .

السادس علم البديع — من الكتب المنفردة به المختَصرة فيــه زَهْر الربيع للطرزى . ومن المتوسطة فيــه البديع للتِّيفاشى، وشرح البديعية للصفىّ الحلىّ . ومن المبسوطة كتاب التحبير لابن أبى الأصبع .

(١) هكذا بهذا الرسم فى الأصل ولم نعثر عليه بعد البحث .

(تنبيه) ومن الكتب المشتملة علىٰ علوم المعانى والبيان والبديع روض الأزهار لآبن مالك ، والإيضاح لآبن مالك ، وأعظمها شهرة بالديار المصرية تلخيص المفتاح لقاضى القضاة جلال الدين القَزْوينىّ وعليه عِدّة شروح . منها شرح الخلخالى ، وشرح الشيخ أكمل الدين ، وشرح الشيخ بهاء الدين السبكى ، وهو من أجل شروحه ، والمعوّل عليه منها شرح الشيخ سعد الدين التفتازانىّ .

السابع علم العروض — من الكتب المختصرة فيه عَرُوض آبن مالك ، ولآبن الحاجب فيه لاميّة كافية ، اعتنىٰ الناس بشرحها ، وممن شرحها الشيخ جمال الدين آبن واصل ، والشيخ جمال الدين الأسنوىّ . وللساوى لاميّة ضاهىٰ فيها لامية آبن الحاجب ، وللإمام القَزْوينى عليها شرح حسن ، وللأيكى فيه مختصر بديع ، وللجوهرىّ فيه مختصر . ومن المتوسطة فيه عَرُوض ابن القَطّاع ، وعَرُوض آبن الخطيب التبريزى . ومن المبسوطة كتاب الأمين المحلى ، وعروض الأستاذ أبى الحسن العروضى المعروف بأستاذ المقتدر . وقد نظم فيه صاحبنا شعبان الآثارى محتسب مصر ألفيةً فائقة سماها "هداية الضِّلِيل إلىٰ علم الخليل" جمع فيها فأوعىٰ .

الثامن علم القوافى — من الكتب المختصرة فيها قوافى الأيكى . ومن المتوسطة قوافى آبن القَطّاع ، ومن المبسوطة قوافى ابن سيده .

التاسع علم قوانين الخط — فى أصول الخط ألفية لشعبان الآثارى ، ولآبن الحسين كتاب فى قلم الثلث ، ولآبن الشيخ عز الدين بن عبد السلام مصنّف فى قلم النسخ ، وفى صناعة الهجاء المختصة بالقرءان الرائية للشاطبى ، وفى خلال كتب النحو الجامعة كالتسهيل وغيره جملة من الهجاء ، وقد أودعت فى هذا الكتاب ما فيه كفاية من ذلك .

العاشر قوانين القراءة — فيه كتاب التنبيه لأبى عَمْرو الدانى .

الأصل الثـاني

(العلوم الشرعية، وفيه تســعة علوم)

الأوّل علم النواميس المتعلقُ بالنبوّات — وفيـه كتاب لأرسطاطاليس، وكتاب لافلاطن، وأكثر مسائله في "كتاب المدينة الفاضلة" لأبي نصر الفارابي، وفي آخر الطوالع والمصباح (١) للبيضاوى مسائلُ من ذلك.

الثانى علم القراءات — من الكتب المختصرة فيه التيسير لأبي عمرو الدانى، ونظمه الشاطبيّ في قصيدته التي وسمها بحرز الأماني، فأغنتْ عما سواها من كتب القراءات وآعتنى الناس بشرحها، ولآبن مالك داليَّة بديعة في علم القراءات لكنها لم تشتهر. ومن الكتب المبسوطة فيه كتاب الروضة في القراءات، وشروح الشاطبية كالفاسى وغيره.

الثالث علم التفسير — من الكتب المختصرة فيه زاد المَسِير لآبن الجوزيّ، والوجيز للواحديّ، والنهر لأبي حيان. ومن المتوسطة فيـه الوسـيط للواحديّ والكشاف للزَّمَخْشَرِيّ، ومعالم التنزيل للبغويّ. ومن المبسوطة البســيط للواحديّ، وتفسـير القرطبيّ، وتفسير الامام فخر الدين، والبحر المحيط لأبي حيان.

واعلم أن كل واحد من المفسرين قد غلب عليه فنّ من الفنون يميل إليه في تفسيره، فالتِّيفاشيُّ (٢) تغلبُ عليه القصص، وآبن عطية تغلب عليه العربية، وآبن عطية تغلبُ عليه أحكام الفقه، والزجاج تغلب عليه المعاني وغير ذلك.

الرابع علم رواية الحـديث — أضبطُ الكتب المصنفة فيه وأصحُّها روايةً صحيحُ البخاريّ، وصحيح مسـلم رضى الله عنهما، وبعدهما بقيةُ كتب السنن المشهورة، كسـنن أبي داود، والترمذي، والنَّسائى، وآبن ماجه، والدارقطنى. والمسنَدات المشهورة كمسنَد أحمد، وابنِ أبي شيبة، والبزار ونحوها.

(١) هو كتاب للبيضاوى في علم الكلام. (٢) هما مفسران أحدهما متقدّم على الآخر وكلاهما مسمى بأبي محمد عبدالله الا أن المتقدّم دمشقيّ والمتأخر غرناطيّ كذا يؤخذ من كشف الظنون.

ومن كتب السِّير السيرة لابن هشام ، وزهر الخمائل لابن سيد الناس .

ومن الكتب المبسوطة المشتملة على متون الأحاديث دون الرُّواة جامع الأصول لابن الأثير. ومن المتوسطة الجمع فى ذلك الجمعُ بين الصحيحين للحُمَيْدىّ ، ومختصر جامع الأصول لمصنفه (١) . ومن المختصرة فيما يتعلق بالأحكام ، الإلمام بأحاديث الأحكام ، للشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد ، وعمدة الأحكام للحافظ عبد الغنى المقدسىّ .

ومما يتعلق بالترغيب والترهيب رياض الصالحين للنووىّ . ومما يتعلق بالأدعية كتاب الأذكار له ، وسلاح المؤمن لابن الامام . إلى غير ذلك من أنواع المصنَّفات المختلفة المقاصد مما لا يُحصى كثرةً .

الخامس علم دراية الحديث — من الكتب الموصلة للدخول فى ذلك علوم الحديث لابن الصلاح ، وتقريب التيسير للنووىّ ، وعلوم الحديث للحاكم ، والكفاية للخطيب أبى بكر ؛ وفى أوّل جامع الأصول المقدّم ذكره فى كتب رواية الحديث قطعةٌ من ذلك . ومن الكتب المبسوطة فى أسماء الرجال الكمال . ومن الكتب المبسوطة فى معانى الحديث شرح البخارى لابن بطال ، وشرحه لابن التين المغربى ، وشرحه لمغلطاى ، وشرحه للكرمانى ، وشرحه لشيخنا سراج الدين بن الملقن ، وشرح مسلم للقاضى عياض ، وشرحه للشيخ محيي الدين النووى ، وشرح سنن أبى داود للخطابى ، وشرح العمدة للشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، وشرحها للشيخ تاج الدِّين الفاكهانى .

ومن الكتب فى غريب الحديث كتاب الغريبين للهروى ، والنهاية لأبى السَّعَادات ابن الأثير ، وغير ذلك من سائر الأنواع .

السادس علم أصول الدين — من الكتب المختصرة فيه الطَّوالع للقاضى ناصر الدين البيضاوى ، والمصباح له ، وقواعد العقائد للخواجا نصير الدين الطُّوسى ، وكتاب الأربعين

(١) أي ابن الأثير الجزري .

للقاضي جمال الدين بن واصل . ومن المتوسطة المحصل للإمام فخر الدين، والصحائف للسمرقندى، وشرح الطوالع للسيد العِبْرىّ، وشرحها للشيخ عز الدين الأَصْفَهانىّ .

السابع علم أصول الفقه — من الكتب المختصرة فيه مختصر ابن الحاجب، ومنهاج البيضاوى، والتنقيح للقرافى، والقواعد لابن الساعاتى . ومن المتوسطة فيه التحصيل للأرموىّ . ومن المبسوطة فيه الإحكام للآمدى، والمحصول للإمام فخر الدين، وشروح مختصر ابن الحاجب : كشرح القطب الشيرازى، وشرى المسيلى، وشرح الشيخ شمس الدين الأصْفَهانىّ، وأتقن شرح عليه للعضد؛ وكشرح منهاج البيضاوى لابن المطهر، وشرحه للشيخ جمال الدين الأسنوى، وغير ذلك؛ وكشرح التنقيح لمصنفه .

الثامن علم الجدل — من الكتب المختصرة فيه المُغْنِي للأَبْهَرِىّ، والفُصُول للنسفىّ والخُلاصة للراغى، والمَعُونة لأبى إسحاق الشيرازى . ومن المتوسطة فيه النفائس للعميدىّ، والوسائل للأرموىّ . ومن المبسوطة تهذيب النكت للأَبْهِرِىّ .

التاسع علم الفقه — من كتب الشافعية المختصرة مختصر المُزَنِىّ، ومختصر البُوَيْطِىّ والوجيز للغزالى، والتنبيه لأبى إسحاق الشيرازى، والمحرَّر للرافعى، والمنهاج للنووىّ والحاوى الصغير لعبد الغفار القَزْوينى، والعَجَب العُجاب، وجامع المختصرات، ومختصر الجوامع للشيخ كمال الدين الشيبانىّ . ومن المتوسطة المهذب لأبى إسحاق الشيرازىّ، والوسيط للغزالى، والشرح الصغير للرافعى، والروضة للنووى، والجواهر للقَمُولى، وأجمعُها على اختصارٍ المنتقى للشيخ كمال الدين الشيبانىّ . ومن المبسوطة الأمّ للامام الشافعىّ، والحاوى للماوردى، والبحر للرُّويانىّ، والنهاية لإمام الحرمين، والبسيط للغزالى، والشامل لابن الصَّبَّاغ، والتتمة للمتولى، والعُدّة لأبى المَكارم الرُّويانىّ، والشرح الكبير على الوجيز للرافعى، وشرح المهذب للنووى انتهى فيه إلى

أثناء الربا ، ولو كل لأغنىٰ عن جُلّ كتب المذهب، والكفاية فى شرح التنبيه لابن الرِّفْعة ، والمطلب فى شرح الوسيط له ، والبحر المحيط فى شرح الوسيط للقَمُولى . ومن محاسنها المُهمَّات علىٰ الرافعى، والروضة للشيخ جمال الدين الأسنوى .

ومن كتب الحنفية المختصرة البداية، والنافع، والكنز، ومجمع البحرين ، ومختار الفتوى . ومن المتوسطة الهداية . ومن المبسوطة المحيط، والمبسوط ، والتحرير والجامع الكبير وغير ذلك .

ومن كتب المالكية المختصرة التلقين للقاضى عبد الوهاب، ومختصر ابن الجَلَّاب، ومختصر ابن الحاجب . ومن نفيس المختصرات فيها مختصر الشيخ خليل المالكى ، حذا فيه قريبا من حذو جامع المختصرات . ومن المتوسطة التهذيب للبرادعى ، والجواهر لابن شاس، ونظم الدرّ للشارِمْسَاحِىّ . ومن المبسوطة النوادر لابن أبى زيد، والبيان والتحصيل، وكتاب ابن يونس ؛ وشرح التلقين للمازَرى ، وليس بكامل، والذخيرة للقَرَافى .

ومن كتب الحنابلة المختصرة مختصر الخِرْقى، والنهاية الصغرى لابن رَزِين . ومن المتوسطة المُقْنِع، والكافى . ومن المبسوطة المغنى لابن قُدَامة .

ومن كتب الخلاف فى المذاهب الأربعة الاختلافُ والجمع لابن هبيرة الحنبلى . ومن المشتمل علىٰ مذاهب السلف الإشراف لابن المنذر .

الأصل الثالث

(العلم الطبيعى، وفيه اثنا عشر علما)

الأوّل علم الطب — من الكتب المختصرة فيه الموجَز لابن النفيس، والفصول لأبقراط، ومن المتوسطة المختار لابن هُبَل، والمائة للمسيحى، والشافى لابن القف . ومن المبسوطة كامل الصناعة المعروف بالملكي، والقانون للرئيس أبى علىّ بن سينا

وهو الذى أخرج الطب من التلفيق إلىٰ التهـذيب والترتيب ، وهو أجمـع الكتب وأبلغها لفظا وأحسنها تصنيفا .

الثانى علم البيطرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب حنين بن اسحاق .

الثالث علم البيزرة — من الكتب المصنفة فيه كتاب القانون الواضح وفى كتاب العلاجين لابن العوام جملة كافية من البيطرة والبيزرة .

الرابع علم الفِراسة — من الكتب المصنفة فيه كتاب أرسطاطاليس وكتاب الفِراسة للامام فخر الدين الرازى ، ولفيلن فيه كتاب مختص بالتفرّس فى النساء .

الخامس علم تعبير الرؤيا — من الكتب المختصرة فيه فوائد الفرائد لابن الدقّاق ، وتعبير الحنبلى المرتب على حروف المعجم . ومن المتوسطة فيه شرح البدر المنير للحنبلى . ومن المبسوطة فيه تأليف أبى سهيل المسيحى ، والبشرىٰ فى شرح كتاب الكرمانى .

السادس علم أحكام النجوم — من الكتب المختصرة فيه مجمل الأصول لكوشيار ، والجامع الصغير لمحيي الدين المغربى . ومن المتوسطة كتاب التاريخ والمغنى لابن هنبتا . ومن المبسوطة مجموع ابن سريح . ومن الكتب المنفردة ببعض أجزائه الأدوار لأبى معشَر ، والإرشاد لأبى الريحان البيرونى ، والمواليد للخصيبى ، والتحاويل للسحرتى ، والمسائل للقيصرانى ، ودرج الفلك لسكلوشا . ومن المدخل إليه مدخل القبيصى ، والتفهيم للبيرونى مدخل إلىٰ هذا الفن ، وفيه ما يحتاج إليه من الرياض أيضا .

السابع علم السحر ، وعلم الحرف والأوفاق — ومن كتب السحر المعتبرة فى بعض طرائقه السر المكتوم المنسوب للامام فخر الدين ، وكتاب الجمهرة للخوارزمى ، وكتاب طيمارس لارسطاطاليس ، وفى غاية الحكم للمجريطى فصول كافية فى بعض طرقه أيضا .

ومن كتب علم الحرف كتاب لطائف الإشارات للبونى ، وشمس المعـارف له ، وهو عزيز الوجود ، وفى النسخ المعتبرة من اللمعة النورانية للبونى قطعة كافية منه ،

الثامن علم الطِّلَّسْمات — فى كتاب طبتانا الذى نقله ابن وحشيَّة عن النبط أُنْمُوذج لعمل الطِّلَّسْمات ومدخل إلى علمها، وفى غاية الحكم للجريطى قواعد هـذا العلم . قال فى إرشاد القاصد إلا أنه ضنَّ بالتعليم كل الضن، ولأبى يعقوب السكاسكى فيه كتاب جليل القدر .

التاسع علم السيميا — رأيت فيه كتبا مجهولة المصنِّفين .

العاشر علم الكيميا — من الكتب المطوّلة فيه كتب جابر بن حَيَّان. قال فى إرشاد القاصد : وأمثل كتب الإسلاميين فى ذلك التذكرة لابن كمونه ، ورُتْبة الحكيم للجريطى، وشرح الفصول لعون بن المنذر . ومن النظم الرائق فيه نظم الشذورى .

الحادى عشر علم الفلاحة — من الكتب المختصرة فيه الفِلاحة المصرية . ومن المبسوطة فيه الفلاحة النبطية، ترجمة أبى بكر بن وحشية .

الثانى عشر علم ضرب الرمل — من الكتب المصنفة فيه تجارب العرب، وفى مثلثات ابن محقق(١) حصر صوره .

تنبيه — لارسطاطاليس ثمانية كتب فى الطبيعى يختص كل كتاب منها بجزء جردها ابن سينا فى مختصر ترجمه بالمقتضبات ، ولخصها أبو الوليد بن رشد تلخيصا مفيدا، والمتأخرون جمعوا فى غالب كتبهم بينه و بين الالهى فى التصنيف كما فى الطوالع والمصباح للبيضاوى .

الأصـل الرابع

(علم الهندسـة، وفيه عشرة علوم)

الأوّل علم عقود الأبنية — من الكتب المصنفة فيه مصنف لابن الهيثم ، ومصنف للكرخى .

---

(١) فى كشف الظنون محقوق .

الثانى علم المناظر — من الكتب المختصرة فيه كتاب اقليدس . ومن المتوسطة كتاب على بن عيسى الوزير . ومن المبسوطة كتاب ابن الهيثم .

الثالث علم المَرَايا المُحرِقة — من الكتب المصنفة فيه كتاب لآبن الهيثم .

الرابع علم مراكز الأثقـال — من الكتب المعتبرة فيـه كتاب آبن الهيثم ، وفيه كتاب لأبى سهل الكوهى .

الخامس علم المسـاحة — من الكتب المختصرة فيـه كتاب آبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطة كتاب آبن المختار . ومن المبسوطة، كتاب ارشميدس .

السادس علم إنباط الميـاه — للكرخىّ فيه مختصر جليل ، وفى خلال الفلاحة النبطية لآبن وحشية مهمات هذا العلم .

السابع علم جرّ الأثقال — فيه كتاب لفيلن .

الثامن علم البنكامات — فيه كتاب لارشميدس عمدة فى بابه .

التاسع علم الآلات الحربية — فيه كتاب لبنى موسٰى بن شاكر .

العاشر علم الآلات الروحانية — أشهر كتبه الكتاب المعروف بحيل بنى موسى، وفيه كتاب مختصر لفيلن، وكتاب مبسوط للبديع الجزرى .

الأصل الخامس

(علم الهيئة، وفيه خمســـة علوم)

الأوّل علم الزيجات — قال فى إرشاد القاصد : أقرب الزيجات عهدا بالرصـد الزيج العـلائى . قال وأهل مصر فى زماننا إنمـا يقيمون دفتر السنة من زيج لفقوه من عدّة أزياج ولقبوه بالمصطلح؛ وأتم الزيجات فى زماننا الذى نحن فيه زيج الشيخ علاء الدين بن الشاطر الدمشقي، وهو عزيز الوجود لم ينتشر ولم تكثر نسخه بعد .

الثانى علم المواقيت — من الكتب المختصرة فيه نفائس اليواقيت فى علم المواقيت . ومن المبسوطة جامع المبادى والغايات لأبى على المُرَّاكشى .

الثالث علم كيفية الأرصاد — من الكتب المعتبرة فيه كتاب الأرصاد لآبن الهيثم ، وكتاب الآلات العجيبة للحارثى يشتمل عليه .

الرابع علم تسطيح الكُرَة — من الكتب القديمة فيه كتاب تسطيح الكرة لبطليموس . ومن الكتب المحدثة فيه الكامل للفرغانى ، والآستيعاب للبيرونى ، وآلات التقويم للمرّاكشى .

الخامس علم الآلات الظلية — فيه عدّة مصنفات ، ولابراهيم بن سنان الحرّانى فيه كتاب مبرهن .

الأصل السادس

(علم العدد المعروف بالارتماطيق ، وفيه خمسة علوم)

الأوّل علم الحساب المفتوح — من الكتب المختصرة فيه مختصر آبن مجلى الموصلى ومختصر آبن فلوس المارديني ، ومختصر السموءل بن يحيى المغربى . ومن المتوسطة الكافى للكرخى . ومن المبسوطة الكامل لأبى القاسم بن السمح .

الثانى علم حساب التخت والميل — من الكتب المصنفة فيه على طريق الهندى كتب معدّة ، ومن الكتب المصنفة فيه على طريق الغبار كتاب الحصار ، وكتاب المدخل وغيرهما .

الثالث علم الجبر والمقابلة — من الكتب المختصرة فيه نصاب الجبر لآبن فلوس المارديني ، والمفيد لآبن مجلى الموصلى . ومن المتوسطة فيه كتاب المظفر الطوسى . ومن المبسوطة جامع الأصول لآبن المجلى ، والكامل لأبى شجاع بن أسلم .

الرابع علم حساب الخطأين — وفيه من الكتب الجامعة كتاب لزين الدين المغرّى

الخامس علم حساب الدور والوصايا — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب لأفضل الدين الحويحى .

الأصل السابع

(العلوم العملية، وفيه ثلاثة علوم)

الأوّل علم السياسة — ومن الكتب المصنفة فيه كتاب السياسة لارسطاطاليس الذى ألفه للاسكندر، وكتاب المدينة الفاضلة لأبى نصر الفارابى، وللشيخ تقى الدين ابن تيمية كتاب حسن فى السياسة الشرعية .

الثــانى علم الأخلاق — ومن الكتب المختصرة فيــه ، كتاب للشــيخ أبى على آبن سينا . ومن المتوسطة كتاب الفوز لأبى على بن مسكويه . ومن المبسوطة كتاب للامام فخر الدين الرازى .

الثالث علم تدبير المنزل — ويحصل الآنتفاع فيهــا بالآطلاع علىٰ السير الفاضلة المحمودة للملوك وغيرهم، ولا أنفع من السيرة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

فإذا عرف الكاتب هذه العلوم والفنون وما صنف فيهــا من الكتب ، أمكنه التصرف فيها فى كتابه بذكر علم نبيل لمساواته أو التفضيل عليه، وذكر كتاب مصنف فى ذلك حيث تدعو الحاجة إلىٰ ذكره : كما وقع لى فى تقريظ مولانا قاضى القضاة شيخ الإسلام جلال الدين عبد الرحمن، آبن سيدنا شيخ الإســلام أبى حفص عمر البلقينى الكنانى الشافعى " إن تكلم فى الفقه فكأنمــا بلسان الشافعىّ تكلم ، والربيع عنه يروِى ، والمزنىّ منه يتعلم، أو خاض فى أصول الفقه قال الغزالى هذا هو الإمام باتفاق، وقطع الســيف الآمدىّ بأنه المقدّم فى هذا الفن علىٰ الإطلاق ، أو جرىٰ فى التفســير قال الواحدىّ هذا هو العالم الأوحد، وأعطاه آبن عطية صفقة يده بأن مثله فى التفسير لا يوجد، وآعترف له صاحب الكشاف بالكشف عن الغوامض، وقال الإمام فخر الدين هــذه مفاتيح الغيب وأسرار التنزيل فارتفع الخــلاف واندفع المعارض، أو أخذ فى القراءات والرسم أزرى بأبى عمرو الدانى، وعدا شأْو الشاطبىّ

فى الرائية وتقدّمه فى حرز الأمانى؛ أو تحدّث فى الحديث شهد له السفيانان بعلوّ الرتبة فى الروايه، وآعترف له آبن معين فى التبريز[1] والتقدّم فى الدرايه؛ وهتف الخطيب البغدادىّ بذكره على المنابر، وقال آبن الصلاح لمثل هذه الفوائد تتعين الرحلة، وفى تحصيلها تَنْفَد المحَابر؛ أو أبدى فى أصول الدين نظرا تعلق منه أبو الحسن الأشعرىّ بأوفى زِمام، وسدّ باب الكلام على المعتزلة حتّى يقول عمرو بن عُبَيْد وواصل بن عطاء ليتنا لم نفتح بابا فى الكلام؛ أو دقق النظر فى المنطق بهر الأَبْهَرِىَّ فى مناظرته، وكتب الكاشى وثيقة على نفسه بالعجز عن مقاومته؛ أو ألمّ بالجَدَل رمى الأرموىُّ نفسَه بين يديه، وجعل العميدىُّ عمدتَه فى آداب البحث عليه؛ أو بسط فى اللغة لسانه آعترف له آبن سيده بالسياده، وأقرّ بالعجز لديه الجوهرى وجلس آبن فارس بين يديه مجلس الآستفاده، أونحا إلى النحو والتصريف أربى فيه على سيبو يه، وصرف الكسائىّ له عزمه فسار من البعد إليه، أووضع أنموذجا فى علوم البلاغة، وقف عنده الجرجانى، ولم يتعدّ حدَّه آبنُ أبى الأصبع ولم يجاوز وضعَه الرُّمَّانى؛ أو روى أشعار العرب، أزرى بالأصمعىّ فى حفظه، وفاق أبا عُبَيدة فى كثرة روايته وغزير لفظه؛ أو تعرض للعَرُوض والقَوَافى استحقهما على الخليل، وقال الأخفش عنه أخذت المتدارَك وآعترف الجوهرىّ بأنه ليس له فى هذا الفن مثيل؛ أو أصَّل فى الطب أصلا، قال آبن سينا هذا هو القانون المعتبر فى الأُصُول، وأقسم الرازى بمحيي الموتى إن بقرط لو سمعه لما صنَّف الفصول؛ أو جنح إلى غيره من العلوم الطبيعية فكأنما طبع عليه، أو جذبه بزمام فانقاد ذلك العلم إليه، أوسلك فى علوم الهندسة طريقا لقال اقليدس هذا هو الخط المستقيم، وأعرض آبن الهيثم عن حل الشكوك وولّى وهو كظيم، وحمد المؤتمن بن هود عدم إكمال

(١) لعله بالتبريز .

كتابه الآستكمل ، وقال عرفت بذلك نفسى وفوق كل ذى علم عليم ، أو عرّج علىٰ علوم الهيئة لآعترف أبو الريحان البيرونى أنه الأُعْجوبة النادره ، وقال آبن أفلح هذا العالم قطب هذه الدائره ؛ أو صرف إلىٰ علم الحساب نظره لقال السموءل آبن يحيي ، لقد أحيا هذا العزّ الدارس ، وآنجلت عن هذا العلم غَيَاهبه حتّى لم يبق عَمَهٌ لعامِهٍ ولا غُمَّة علىٰ ممارس :

وقد وجَدْت مكانَ القولِ ذا سَعَةٍ * فإن وجَدْتَ لساناً قائلا فقُلِ

وسوف أورد هذه الرسالة فى موضعها من هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ ؛ وكذلك يجرى القول فيما يكتب به من إجازات أهل العلوم ونحوها فى كل علم ، وقد تقدّم ذكر شيء مما يجرى هذا المجرىٰ فى الكلام علىٰ النحو ونحوه .

تم الجـــزء الأوّل

ويليه الجزء الثانى ، أوّله "النوع الثامن عشر — المعرفة بالأحكام السلطانية"

(المطبعة المصرية ١٧/١٩٢٢/١٠٠٠)

فهرست الجزء الأوّل من كتاب صبح الأعشى

صحيفة

خطبة الكتاب ٥

المقــدّمة فى المبادى التى يجب تقديمها قبـل الخوض فى كتابة الإنشـاء ؛
وفيها خمسة أبواب... ... ... ٣٥

البـاب الأوّل — فى فضل الكتابة ، ومدح فضلاء أهلها ، وذم حمقاهم ؛
وفيه فصلان ٣٥

الفصل الأوّل — فى فضل الكتابة ٣٥

الفصل الثانى — فى مدح فضلاء الكتّاب وذم حمقاهم... ... ... ٤٦

البـاب الثـانى — فى ذكر مدلول الكتابة لغة وآصطلاحا الخ ؛
وفيه ثلاثة فصول ٥٠

الفصل الأوّل — فى ذكر مدلولها الخ ٥١

الفصل الثانى — فى تفضيل كتابة الإنشاء علىٰ سائر أنواع الكتابة ... ٥٤

الفصل الثالث — فى ترجيح النثر علىٰ الشعر ٥٨

البـاب الثـالث — فى صفاتهم وآدابهم ؛ وفيه فصلان ٦١

الفصل الأوّل — فى صفاتهم ؛ وهى علىٰ ضربين ٦١

الفصل الثانى — فى آداب الكتّاب ؛ وهى علىٰ نوعين ٦٩

النوع الأوّل — حسن السيرة وشرف المذهب ، ولذلك شروط ولوازم ٦٩

النوع الثانى — حسن العشرة التى هى من أفضـل الخلائق الخ ؛
وهى علىٰ خمسة أضرب... ... ... ٧٣

صحيفة

الباب الرابع — فى التعريف بحقيقة ديوان الإنشاء الخ؛ وفيه فصلان ٨٩

الفصل الأوّل — فى التعريف بحقيقته ٨٩

الفصل الثانى — فى أصل وضعه فى الإسلام وتفرّقه عند بعد ذلك
فى الممالك ٩١

الباب الخامس — فى قوانين ديوان الإنشاء وترتيب أحواله وآداب
أهله؛ وفيه أربعة فصول ١٠١

الفصل الأوّل — فى بيان رتبة صاحب هذا الديوان ورفعة قدره الخ ١٠١

الفصل الثانى — فى صفة صاحب هذا الديوان وآدابه ١٠٤

الفصل الثالث — فيما يتصرف فيه صاحب هذا الديوان بتدبيره الخ؛
وفيه آثنا عشر أمرا... ... ... ١١٠

الفصل الرابع — فى ذكر وظائف ديوان الإنشاء بالديار المصرية الخ؛
وفيه ضربان ١٣٠

المقالة الأولى

فى بيان ما يحتاج إليه كاتب الإنشاء من الموادّ؛ وفيه بابان... ... ... ١٤٠

الباب الأوّل — فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العلمية ؛ وفيه
ثلاثة فصول ١٤٠

الفصل الأوّل — فيما يحتاج إليه الكاتب على سبيل الإجمال... ... ... ١٤٠

الفصل الثانى — فيما يحتاج الكاتب إلى معرفتــه من موادّ الإنشاء ؛
وفيه طرفان (صوابه ثلاثة أطراف) ١٤٨

الطرف الأوّل — فيما يحتاج إليه من الأدوات ؛ ويشتمل العرض منه
على خمسة عشر نوعا (صوابه تسعة عشر نوعا) ١٤٨

	صحيفة
النوع الأول — المعرفة باللغة العربية؛ وفيه أربعة مقاصد	١٤٨
النوع الثانى — المعرفة باللغة العجمية الخ؛ وفيه مقصدان	١٦٥
النوع الثالث — المعرفة بالنحو؛ وفيه مقصدان...	١٦٧
النوع الرابع — المعرفة بالتصريف	١٧٧
النوع الخامس — المعرفة بعلوم المعانى والبيان والبديع؛ وفيه مقصدان	١٨٠
النوع السادس — حفظ كتاب الله العزيز؛ وفيه مقصدان...	١٨٩
النوع السابع — الاستكثار من حفظ الأحاديث النبوية؛ وفيه مقصدان	٢٠١
النوع الثامن — الإكثار من حفظ خطب البلغاء، والتفنن فى أساليب الخطباء؛ وفيه مقصدان	٢١٠
النوع التاسع — مما يحتاج إليه الكاتب الخ؛ وفيه ثلاثة مقاصد ...	٢٢٧
النوع العاشر — الاستكثار من حفظ الأشعار الرائقة الخ؛ وفيه مقصدان	٢٧١
النوع الحادى عشر — الإكثار من حفظ الأمثال؛ وفيه مقصدان ...	٢٩٥
النوع الثانى عشر — معرفة أنساب الأمم من العرب والعجم	٣٠٦
النوع الثالث عشر — المعرفة بمفاخرات الأمم وإفراتهم الخ؛ وفيه مقصدان	٣٧٢
النوع الثالث عشر (مكرر) المعرفة بأيام الحروب الواقعة؛ وفيه ثلاثة مقاصد	٣٩٠

صحيفة

النوع الرابع عشر — فى أوابد العرب ٣٩٨

النوع الخامس عشر — فى معرفة عادات العرب؛ وهى صنفان ٤٠٩

النوع السادس عشر — النظر فى كتب التاريخ والمعرفة بالأحوال؛
وفيه مقصدان ٤١١

النوع السابع عشر — المعرفة بخزائن الكتب وأنواع العلوم الخ؛
وفيه مقصدان ٤٦٦

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الثانى

طبـــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣١ هـ
١٩١٣ م

فهـــــرست الجزء الثـانى

من كتاب صبح الأعشىٰ

صحيفة

النوع الثامن عشر ــ المعرفة بالأحكام السـلطانية ٦

الطرف الثانى ــ فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه فى أصناف الكتابة الخ، ويشتمل علىٰ أنواع ٧

النوع الأول ــ ممـا يحتاج إلىٰ وصـفه النوعُ الإنسـانى ، وهو علىٰ ضربين ٨

النوع الثانى ــ ممـا يحتاج إلىٰ وصفه هى دوابّ الركوب، وهى أربعة أصناف ١٧

النوع الثالث ــ ما يحتـاج إلىٰ وصـفه من جليـل الوحش الخ ، وهو أصناف ٣٦

النوع الرابع ــ فيما يحتـاج إلىٰ وصـفه من الطيور ، وهو علىٰ أربعـة أصـــناف ٥٢

النوع الخامس ــ ما يحتـاج إلىٰ وصـفه من نفائس الأحجار ، وفيه اثنا عشر صـنفا ٩٤

النوع السادس ــ نفيس الطيب ، وفيه أربعة أصناف ١١٣

النوع السابع ــ ما يحتاج إلىٰ وصـفه من الآلات ، وهى أصناف ... ١٢٥

النوع الثامن ــ ممـا يحتاج إلىٰ وصـــفه الأفلاك والكواكب ، وفيه مقصدان... ... ... ١٤٦

النوع التاسع ــ ممـا يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه العلويات مما بين السماء والأرض ، وهى علىٰ أصناف ١٦٦

صحيفة

النوع العاشر ـ مما يحتاج الكاتب إلى وصفه الأجسام الأرضية، وهى على أصناف ١٧٧

الطرف الثالث ـ فى صنعة الكلام ومعرفة كيفية إنشائه ونظمه وتأليفه، وفيه مقصدان ١٨٣

الفصل الثالث ـ فى معرفة الأزمنة والأوقات الخ، وفيه أربعة أطراف ٣٢٩

الطرف الاول ـ فى الأيام، وفيه ست جمل ٣٢٩

الطرف الثانى ـ فى الشهور، وهى على قسمين طبيعىّ واصطلاحىّ ... ٣٥٨

الطرف الثالث ـ فى السنين، وفيه ثلاث جمل ٣٨٦

الطرف الرابع ـ فى أعياد الامم ومواسمها، وفيه خمس جمل ٤٠٦

الباب الثانى ـ فيما يحتاج إليه الكاتب من الامور العملية، وهو الخط وتوابعه ولواحقه، وفيه فصلان ٤٣٠

الفصل الأوّل ـ فى ذكر آلات الخط ومباديه وصوره وأشكاله الخ، وفيه ثلاثة أطراف ٤٣٠

الطرف الأول ـ فى الدواة وآلاتها، وفيه مقصدان ٤٣٠

الطرف الثانى ـ فى الآلات التى تشتمل عليها الدواة، وهى سبع عشرة آلة الخ ٤٣٤

الطرف الثالث ـ فيما يكتب فيه، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة الخ، وفيه ثلاث جمل ٤٧٢

(تم فهرست الجزء الثانى من كتاب صبح الأعشى)
ويليه الجزء الثالث وأوله

(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى
فى الكلام على نفس الخط)

بسم الله الرحمن الرحيم

النوع الثامن عشر

(المعرفة بالأحكام السلطانية)

ليعرف[1] كيف يخاص قلمه على حكم الشريعة المطهرة ، وما يشترط فى كل ولاية من الشروط ، فينبه عليها ويقف عندها ، وما يلزم ربَّ كل وظيفة من أرباب الوظائف وما يندب له ، فيورده فى وصاياه . وقد أورد أقضى القُضاة أبو الحسن على بن حبيب[2] الماوردى رحمه الله فى الأحكام السلطانية مافيه مَقْنَع من ذلك ؛ ونحن نورد فى هذا الكتاب ، نَبْذةً من كل باب ، مما به يستغنِى الناظرُ فيه عن مراجعة غيره . والذى تكلم عليه الماوردى من الوظائف الأصولِ الإمامةُ ، والوزارة ، وتقليد الإمارة على البلاد ، وتقليد الإمارة على الجهاد ، والولاية على ضُروب المصالح ، وولاية القضاء ، وولاية المظالم ، وولاية النِّقابة على ذوى الأنساب ، والولاية على إقامة الصلوات ، والولاية على الحج ، والولاية على الصدقات ، وقَسْم الفىء والغنيمة ، ووَضْع الجِزْية والخَراج ، ومعرفة ماتختلف أحكامه من البلاد ، وإحياء الموات ، وآستخراج المياه ، والحِمى ، والأوقاف ، وأحكام الإقطاع ، وأحكام الديوان ، وأحكام الجرائم ، وأحكام الحِسْبة . وأنا أقتصر من ذلك هنا على ماتفضى إليه حاجة الكاتب من الأحكام ، دُونَ ماعداه من الفروع الزائدة على ذلك ؛ فإذا عرف حكم كل ولاية من

---

(١) أى الكاتب . (٢) هو على بن محمد بن حبيب انظر كشف الظنون .

هذه الولايات، وما يوجب توليتها، وما يعتبر فى متوليها من الشروط، وما يلزمه من الأمور إذا تولاها، وما ينافى أمورها، ويجانب أحوالها، عرف ما يأتى من ذلك، وما يذَر، فيكون ماينشئه من البيْعات، والعُهود، والتقاليد، والتفاويض، والتواقيع، وما يجرى مجرىٰ ذلك جاريا منه علىٰ السداد، ماشيا علىٰ القواعد الشرعية التى من حاد عنها ضلَّ، ومن سلك خلاف طريقها زلَّ. وكذلك المناشير المتعلقة بالإقطاعات، وعقد الجزية والمُهادَنَات والمفاسَخات، وما يجرى مجرىٰ ذلك من الأمور السلطانية. فإذا عرف حكم كل قضية، وما يجب علىٰ الكاتب فيها، وفَّاها حقها، وأتىٰ بذكر مايتعلق بها من الشروط، وجرىٰ فى وصايا الولايات بما يناسب كل ولاية منها؛ فجرىٰ الأمر فى ذلك علىٰ السَّداد، ومشَتْ كتابته فيها علىٰ أتم المراد؛ إن كتب بَيْعة، أو عهدًا لخليفة، تعرّض فيه إلىٰ وجوب القيام بأمر الخلافة، ونَصْبِ إمام للناس يقوم بأمرهم، وتعرّض إلىٰ آجتماع شروط الخلافة فى المولّى، وأنه أحق بها من غيره. ثم إن كانت بيعة نشأت عن موت خليفة، تعرّض لذكر الخليفة الميت، وما كان عليه أمره من القيام بأعباء الخلافة، وأنه دَرَج بالوفاة، وأن المولّى آستحقها من بعده دون غيره. وإن كانت ناشئة عن خلع خليفة تعرّض للسبب الموجب لخلعه: من الخروج عن سَنَن الطريق، والعدول عن مَنْهَج الحق ونحو ذلك مما يوجب الخلع لتصح ولاية الثانى. وإن كان عهدا تعرّض فيه إلىٰ عهد الخليفة السابق إليه بالخلافة، وأنه أصاب فى ذلك الغرَض، وجرىٰ فيه علىٰ سَوَاء الصراط، ونحو ذلك مما يجرى هــذا المجرىٰ من سائر الولايات علىٰ ما سيأتى ذكره فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه فقرة من بيعة أنشأتها توضح ماأشرت إليه من ذلك.

فمن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلى وجوب القيام بالإمامة :

أما بعد، فإن عقد الإمامة لمن يقوم بها من الأمة واجب بالإجماع، مستند لأقوىٰ دليل تنقطع دون نقضه الأَطْماع، وتنبو عن سماع مايخالفه الأسماع .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلىٰ آجتماع شروط الخلافة فى المولّٰى وهو : وكان فلان أمير المؤمنين ، هو الذى جمع شروطها فَوَفَّاها ، وأحاط منها بصفات الكمال وآستوفاها ،ورامت به أدنىٰ مراتبها فبلغت أغياها ،وتسوّر مَعاليَهَا فَرقِىَ إلىٰ أعلاها ، وآتحد بها فكان صورتَها ومعناها .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلىٰ عقد البَيْعة : فجمع أهلَ الحل والعَقْد، المعتبِرين للآعتبار والعارفين بالنقد : من القضاة والعلماء ، وأهل الخَيْر والصُلَحاء ، وأرباب الرأى والنُّصَحاء، وآستشارهم فى ذلك فصوّبوه، ولم يروا العدُول عنه إلىٰ غيره بوجه من الوجوه .

ومن ذلك ماقلته فيها مشيرا إلىٰ القبول ، وقابل عَقْدَها بالقَبُول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت ، ومضىٰ حكمُها علىٰ الصحة فانبرمت ، إلىٰ غير ذلك مما ينخرط فى هذا من سائر الولايات وغيرها .

قات : وكما يجب عليه معرفة الأحكام السلطانية، يتعين عليه معرفة ماعدا ذلك من الأمور الصناعية التى ينتظم أصحابها فى سلك الولايات كالهندسة ونحوها، وسيأتى التنبيه فيما يجب علىٰ كل واحد من أرباب الولايات عند ذكر ولاية كل منهم فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ .

الطرف الثانى

(فى معرفة ما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه فى أصناف الكتابة مما تدعوه ضرورة الكتابة إليه علىٰ آختلاف أنواعها، ويشتمل علىٰ أنواع)

النوع الأوّل

(ممـا يحتاج إلىٰ وصفه النوعُ الإنسانى، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أوصافه الجسمية، وهى علىٰ ثلاثة أقسام)

القسم الأوّل

(مايَشترِك فيه الرجال والنساء، وهى عِدّة أمور)

منهـا حُسْن اللون، والألوانُ فى البَشَر، ترجِع إلىٰ ثلاثة أصول : وهى البياض، والسُّمْرة، والسَّواد ؛ ويعبَّر عن السواد بشدّة الأُدْمة ، وربما عبر عن البياض برِقَّة السُّـمْرة. ويستحسن من هـذه الألوان البياضُ ؛ وأحسنُ البياض ما كان مُشْرَبا بحمرة، وقد جاء فى حديث ضِمام بن ثعلبة أنه حين سألَ عن النبى صلى الله عليه وسلم عند وُفوده عليه بقوله : "أيُّكم ابنُ عبدِ المُطَّلب ؟ قيل هو ذاك الأمغَرُ المُتَّكئُ" ، والامغرهو المُشْرَب بحمرة، اخذا من المَغْرة : وهى الصِّبْغ المعروف. وقد جاء فى وصفه صلى الله عليه وسـلم انه "أزْهَرُ اللَّوْن" . والأزهر هو الأبيض بصُفْرة خفيفةٍ . والسُّمْرة مستحسَنة عنـد كثير من الناس ، وهو الغالب فى لون العَرَب ، وقد قيل فى قوله صلى الله عليه وسلم ، "بُعثتُ إلىٰ الأحْمَرِ والأسْوَدِ" إن المراد بالأحمر العجم لغلبة البياض فيهم، والمراد بالأسود العربُ لغلبة السُّمرة فيهم ؛ أما السواد فإنه غير ممدوح بل قد ذمَّ الله تعالىٰ السواد، ومدح البياضَ بقوله ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية. علىٰ أن كثيرا من الناس قد جَنَحُوا إلىٰ آستحسان السُّودان والميل إليهم، وتأنقوا فى الآحتفال بأمرهم؛ وقد نص أصحابنا الشافعية علىٰ أنه لو قال لزوجته إن لم

تكونى أحسن من القمر فأنت طالق و إن كانت زنجيةً سوداء، فقد قال تعالىٰ ﴿وصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ . و بالجملة فالحَسَن فى كل لون مستحسن ولله القائل :

إنَّ المَلِيحَ مَلِيحٌ * يُحَبُّ فى كُلِّ لَوْنِ

ومنها حُسْن القدّ، وأحسنُ القدُود الرَّبْعة : وهو المعتدل القامة، الذى لا طُول فيه ولا قصَر، وليس كما يقع فى بعض الاذهان من أنَّ المراد منه دُون الآعتدال . وقد جاء فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم، "أنَّهُ كان رَبْعَةً" . و يستحسن فى القدّ القَوَام والرَّشَاقة، و يشبَّه بالرمح و بالغُصْن ، وأ كثر ما يشبه به فى ذلك أغصان البان لقوَامها .

ومنها سواد الشعر، وأ كثر ما يكون ذلك فى السُّمْر، فإن آجتمع مع البياض سواد الشعر كان ذلك فى غاية من الحسن، و يشبَّه سواد الشعر بالليل، و ربما وقعت المبالغة فيه فشُبِّه بفَحْمة الليل، و بدُجىٰ الليل، و بفَحْمة الدُّجىٰ، وقد يشبَّه بالآبنُوس ونحوه مما يغلب فيه حَلَك السَّواد. وقد اختلف الناس فى جُعُودة الشعر وسُبُوطته ايهما احسن؟ فذهب قوم إلىٰ استحسان الجُعودة : وهى آنقباض الشعر بعض آنقباض وهو مما يستحسنه العرب،و إليه ذهب الفقهاء حتّى لو شرط البائع فى عبد كونَه جعدَ الشعر وظهر سَبِطَ الشعر رُدّ بذلك بخلاف العكس. وذهب آخرون إلىٰ آستحسان السُّبُوطة، وهى آسترسال الشعر وآنبساطه من غير آنكماش، وأ كثر ما يوجد ذلك فى الترك ومَنْ فى معناهم . ثم الذاهبون إلىٰ آستحسان الجُعُودة يستحسنون التواء شعر الصُّدْغ ،و يشبِّهونه بالواو تارَة و بالعقرب أُخرىٰ .

ومنها وضوح الجبين، وسَعةُ الجبهة، وآنحسارُ الشعر عنها، فيُستقبَحُ الغَمَم : وهو عموم الجبهة أو بعضها بشعر الرأس .

ومنها وَسَامة الوجه وحُسْن المُحيَّا . و يشبَّه الوجه فى الحسن بالشمس،و بالقمر،

وبالسيف إلا أن التشبيه بالشمس وبالقمر أتمُّ من التشبيه بالسيف لما فيه من صورة الاستطالة؛ وقد جاء فى بعض الآثار أنه قيل لبعض الصحابة رضى الله عنهم: "هل كان وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم كالسيف؟ فقال بل كالشمس والقمر".

ويستحسن فى الوجه حمرةُ الوجنتين؛ ويشبَّه لونُهما بالورد، وبالشَّقيق، وبالعَقيق، وبالعَنْدَم، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك مما تغلب فيه الحمرة المُشرِقَة.

ومنها بَلَج الحاجبين وزَجَجُهما، فالبَلَجُ انقطاع شعر الحاجبين: بأن لايكون بينهما شعَر يصل ما بينهما، وهو خلاف القَرَن؛ وربما استُحسن الخفىُّ من القَرَن، وهو الذى دقَّ فيه شعر ما بين الحاجبين حتّى لايظهر فيه إلا خضرة خفِيَّة. والزَّجَج دقة الحاجب مع طوله بحيث ينتهى إلىٰ مُؤْخِر العين، وقد جاء فى وصف النبى صلى الله عليه وسلم "أنَّهُ كانَ أَزَجَّ الحاجِبَيْنِ".

ويستَحْسَن فى الحاجبين سواد شعرهما، وأن يكونا مقوَّسين؛ ويشبَّه تقويسُهما بالنون تارة، وبالقوس أُخرىٰ.

ومنها حُسْن العينين؛ ويستحسَنُ فى العين الحَوَر: وهو خُلُوص بياض العين، والنَّجَلُ وهو سعتُها ويقال فيه حينئذ أنْجَلُ وربما قيل أعْيَنُ، ومنه قيل للحُور عِين، والدَّعَج: وهو شِدّة سواد الحَدَقة، والكَحَل: وهو أن تسودّ مواضع الكُحْل من العين خِلْقة.

وتشبه العين بالصاد تارة، وبالجيم أُخرىٰ. وتشبه بالنَّرْجس وربما شبهت بنَوْر الباقِلَّى؛ واعترِض بأن فيه حَوَلا. وربما شبهت العينُ بالسيف، وبالسَّهْم، وبالسِّنَان. وقد يستحسن فى العينين الفُتُور وضعفُ الأجفان.

ومنها حُسْن الأنف؛ ويستحسن فيه القَنَا: وهو ارتفاع وسطِ الأنف قليلا عن طرفيه مع دِقَّةٍ فيه، وهو الغالب فى العرب؛ وقد جاء فى وصفه صلى الله عليه وسلم "أنَّهُ كان أقْنىٰ الأنْفِ". ويستحسن فيه الشَّمَم أيضا: وهو استواء قَصَبة الأنف وعلُوُّ أَرْنبته. ويشبه الأنف بالسيف فى برِيقه.

ومنها حسن الفَمِ . ويستحسن فيه الضِّيق . ويشبَّه بالميم، وبالصاد، وبالخاتم.

ومنها حُسْن الشفتين . ويُستحسن فيهما الحمرة . وتشبه حُمْرتهما بما تُشَبَّه به الوجنة من الورد والعقيق والمرجان ونحوها . ويستحسن فيهما اللَّمىٰ : وهو سمرة تعلو حمرتَهما .

ومنها حسن الأسنان . ويستحسن فيها الشَّنَب : وهو بياض وبريق يعلوهما. وتشبه الأسنان فى البياض وحُسْن النظم باللؤلؤ، وبالبَرَد، وبالطَّلْع : وهو نبت أبيض، والأَقَاح، وبالحَبَب : وهو الذى يعلو الكأس عند شَجِّه (١) بالماء. وقد تشبه بالجوهر؛ ويستحسَن فيها الأَشَر : وهو تحديد الأسنان كما يقع فى كثير من الصِّبيان؛ ويستحسن فى السِّنْخ : (وهو لحم الأسنان) حمرة لونه . ويشبه بالعقيق والورد وسائر مايشبه به الخدّ

ومنها حسن الجِيد : وهو العنق . ويستحسن فيه طُوله وبياضُه من الأبيض . ويشبه بإبريق فضة .

ومنها دِقَّة الخَصْر، وهو مَعْقِد الإزار حتّى إنهم يشبهونه بدَوْر دُمْلُج، ودور خَلْخال وما أشبه ذلك .

قلت : وهذه الصفات وإن كانت مستحسنة فى الرجال والنساء جميعا فإنها فى النساء آكدُ . فإن الأمر فى الحسن منوط بهن، فمهما كانت المرأة أحسنَ كان أعظم لشانها، وأعز لمكانها؛ وقد قيل لرجل من بنى عُذْرة : ما بال الرجُل منكم يموتُ فى هوىٰ امرأة إنما ذلك لضعف فيكم يابنى عُذْرة ـ فقال "أما والله لو رأيتم النَّواظر الدُّعْج، فوقها الحواجب الزُّجّ، تحتها المَبَاسم الفُلْج، لاتَّخذتموها اللاتَ والعزّىٰ !"

وقد أكثر الشعراء من التغزل بهذه المحاسن بما ملأ الدفاتر مما لا حاجة بنا إلى ذكره هنا .

(١) أى مزجه يقال شج الخمر بالماء اذا مزجها به . انظر اللسان

القسم الثـانى

(ما يختص به الرجال)

وأخص ما يختص به الرجال من المحاسن اللِّحية ، وقد قيل فى قوله تعالى ﴿ يَزِيدُ فِي الخَلْقِ ما يَشَاء ﴾ إن المراد اللحية ، علىٰ خلاف فى ذلك . ويستحسن فى اللحية ٱستدارتها وتوسُّطها فى المقدار ، وسواد شعرها . فإذا حسُنت اللحية من الرجل كَمُلت محاسنه . وتزيد الأحداث علىٰ الرجال فى الحُسْن بمقدّمات ذلك : فيستحسن منهم خُضْرة الشارب ، وخُضْرة العارض والعذار ، ويشبه كل منهما بالآس ، وبالريحان ، وبدَبِيب النمل ونحو ذلك . ويشبَّه العذار بالألف ، وباللام ، وبالباء . ويشبه الشارب الأخضر فوق حمرة الشفتين بقوس قُزَحَ ، وبالآس مع الورد ونحو ذلك ؛ علىٰ أن أهل الفِرَاسة قد ٱستحسنوا فى الرجل أمورا تخالف ما تقدّم .

منها سَعَة الفم وغِلَظ الشفتين وما أشبه ذلك قائلين إن ذلك مما يدل علىٰ الشجاعة وهو أمر مطلوب فى الرجل كما تقدّم .

القسم الثالث

(ما يختص به النسـاء)

ومما ينفرد به النساء من الأوصاف الجسميَّة السِّمَنُ ، فهو أمر مَطلوب فى المراة ما لم يُفْرِط ويخرُج عن الحدّ المطلوب ؛ ففى الصحيحين من حديث أمّ زرع "بنتُ أبِى زَرْعٍ وما بِنْت أبى زَرْع؟ مِلْءُ كِسائِهـا ، وغَيْظُ جارِتها " إشارة إلىٰ امتلائها بالشحم . ووصف أعرابىّ ٱمرأة فقال "بَيْضاءُ رُعْبُوبه ، بالشَّحْم مَكْروبه ، بالمِسْك مَشْبُوبه" . وهذا بخلاف الرجال فإن المطلوب فيهم الخِفَّة وقلة اللحم لأجل قوّة النَّهْضة ، وسرعة الحركة فى الحرب وغيره ، والسِّمَن يمنع ذلك ، مع ما يقـال إن فيه تبليدا للذهن قال بعضهم : "ما رأيت حَبْرا سمينا إلا محمد بن الحسن" يعنى

صاحب أبي حنيفة رضى الله عنه . وربما آستحسن قلة اللحم فى المرأة أيضا، وتوصف حينئذ بالهَيَف .

ومن ذلك ثِقَل الرِّدف فهو مما يتمدّح به فى النساء بخلاف الرجل فإن ذلك فيه غير محمود .

ومن غريب ما يحكىٰ فى ذلك أن رجلا أخذ خَطَرا من قوم علىٰ أن يُغْضِب معاوية بنَ أبى سُفْيان مع غلبة حِلْمه، فعمد إلىٰ معاوية وهو ساجد فى الصلاة، فوضع يده علىٰ عجيزته وقال : ماأشبه هذه العجيزةَ بعجيزة هند! ـ يعنى أم معاوية ـ فلما سلم من صلاته، التفت إلىٰ ذلك الرجل وقال : "يا هذا إن أبا سفيان كان محتاجا من هند إلىٰ ذلك و إن كان أحد جعل لك شيئا علىٰ ذلك فخذه" .

ومما يستحسن فى المرأة طول الشعر فى الرأس، ودِقّة العظم، وصغَر القدم، ونُعُومة الجسد، وقلة شعر البدن، فى أمور أخرىٰ يطول ذكرها .

الضرب الثانى

(الصفات الخارجة عن الجسد، وهى علىٰ ثلاثة أقسام أيضا)

القسم الأوّل

(ما يشترك فيه الرجال والنساء)

وهو يرجع إلىٰ أصلين : العقلِ والعِفَّة ؛ ويدخل تحت كل من هذين الأصلين عِدّة من أوصاف المدح . فأمّا العقل فيدخل تحته العلم . وصفاته المعرفة، والحياء، والبيان، والسِّياسة، والكِفَاية، والصَّدْع بالحُجّة، والحلم عن سفاهة الجَهَلة وغير ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ . ولا يخفى أن هذه الأوصاف مطلوبة فى الرجال والنساء جميعا و إن كان أكثرها بالرجال أليق .

وأما العِفّة فيـدخل تحتها القَناعة ، وقِلّة الشَّرَه، وطهارة الإزار، وغير ذلك ممـا لايستغنِى عنه رجل ولا آمرأةٌ؛ و إذا رُكِّب العقلُ مع العفَّة حدث عنهما صـفاتٌ أُخرىٰ ممـا يتمدّح به : كالنَّزاهة ، والرغبة عن المسألة ، والآقتصار علىٰ أدنى معيشة ، ونحو ذلك ممـا ينخرط فى هذا السلك .

القسم الثـانى

(ما يختص به الرجال دون النساء)

وهو يرجع إلىٰ أصلين أيضا : وهمـا العَدْل والشجاعة ؛ ويدخل تحت كل من الأصلين عدّة أوصاف من أوصاف المدح ، فيدخُل تحت العدل السَّماحة ، والتبرُّع بالنائل ، و إجابة السائل ، وقِرىٰ الضيف ، وما شابه ذلك . ويدخل تحت الشجاعة عدّة أوصاف كالحِمَاية والدِّفاع ، والأخذ بالثأر ، والنِّكاية فى العدو ، والمَهَابة ، وقتل الأقران ، والسير فى المَهَامِه المُوحشة ، وما أشبه ذلك ؛ و إذا رُكِّب العقل مع الشجاعة حدث عنهما صفات أُخرىٰ ممـا يتمدح به كالصبر علىٰ الملمات ونوازل الخطوب ، والوفاء بالوعد ونحو ذلك .

القسم الثالث

(ما يختص به النســاء)

ويرجع إلىٰ أصلين مذمومين فى الرجل : وهما الجُبْن والبُخْل ؛ وذلك أن المرأة إذا جَبُنت كفَّت عن المَسَـاوى خوفا علىٰ نفسها أو عِرْضها ، و إذا بَخِلت حفظت مال زوجها عن الضَّياع والإتلاف ؛ وحينئذ فتكون أوصاف الرجال الممدوحة أربعة أوصاف : آثنان يشتركون فيهما مع النساء ــ وهما العقل والعفة ؛ وآثنان ينفردون بهما عن النساء ــ وهما العدل والشجاعة . وتكون أوصاف النساء الممدوحة أربعة أيضا اثنان يشترْكن فيهما مع الرجال وهما العقل والعفة ، واثنان ينفَردن بهما عن الرجال وهما

الجُبْن والبُخْل ؛ فيمدح كل من الصنفين بما هو مشتمل عليه بحسب ما يقتضيه المقام وما يوجبه الحال .

قال قُدَامة بن جعفر الكاتب فى نقد الشعر : "ومدائح الرجال تنقسم بحسب الممدوحين من أصناف الناس فى الآرتفاع والآتضاع وضروب الصناعات والتبدّى والتحضُّر، فيحتاج إلى الوقوع على المعنى اللائق بمدح كل ؛ فمدح الملوك يكون بما يلائم قدرهم من رفعة القدر وعلوّ الرتبة والآنفراد عن المِثل والقرين : كقول النابغة فى النعمان بن المنذر .

أَلَمْ تَرَ أنّ اللهَ أعْطاكَ سَوْرَةً ✽ تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونها يتَذَبْذَبُ
بأنك شمسٌ والمُلُوكُ كواكبٌ ✽ إذا طَلَعَتْ لم يَبْدُ منهنّ كَوْكَبُ

وما يجرى مجرى ذلك ؛ ومدح الوزير والكاتب بما يليق بالعقل والدُّرْبة ، وحسن التنفيذ والسياسة ، فإن أضيف إلى ذلك الوصف بالسرعة فى إصابة الحزم ، والآستغناء بحضور الذهن عن الإبطاء لطلب الإصابة كان أحسن وأكمل للمدح كما قيل :

بَدِيهَتُهُ مِثْلُ تَفْكيرِه ✽ مَتى رُمْتَهُ فهوَ مُسْتَجمع

وكما قيل :

يُرَى ساكِنَ الأَوْصَالِ باسِطَ وَجْهِه ✽ يُرِيك الهُوَيْنَى والأمُورُ تَطِيرُ

ويُمْدَح القائد يعنى الأمير الذى يقود الجيش بما يجانس البأس والنجدة ، ويدخل فى باب البطش والبَسَالة ، فإنْ أضيف إلى ذلك المدحُ بالجُود والسماحة والحِذْق والبَذْل والعطية ، كان أحسن وأتم : من حيث إن السخاء أخو الشجاعة ، وهما فى أكثر الأمور موجودان فى ذوى بُعْدِ الهِمَّة ، والإقدام والصولة : كما قال بعضهم جامعا بين البأس والجود :

فَتًى دَهْرُه شَطْرانِ ممَّا يَنُوبه ✽ ففى بأسِه شَطر وفى جُودِه شَطر

فَلَا مِنْ بُغَـاة الخَـيْرِ فى عَيْنِهِ قَذًى * ولامِنْ زَئِيرِ الحَرْب فى أُذْنِهِ وَقْـر

قال: "وتمدح السُّوقة والمتعيشون بأصناف الحِرَف وضُروب المكاسب والصَّعاليك بما يضاهى الفضائل النفسانية من العقل والعِفَّة والعَدل والشَّجاعة، خاليا عن مثل مدح الملوك ومن تقدّم ذكره من الوزراء والكُتَّاب والقُوَّاد

ويمدح ذوو الشجاعة منهم بالإقدام والفتك والتشمير والتيقُّظ والصبر مع التحذُّق والسَّماحة وقلَّة الاكتراث بالخطوب الملمة ونحو ذلك".

قلت: ويؤخذ مما ذكره قدامةُ أن القضاة والعلماء يُوصَفون بما يليق بمحلهم من ذلك فيوصف العالم بثَقَابة الذهن، وحِدَّة الفهم، وسَعَة الباع فى الفضل، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك، ويُوصَفُ القُضاة بذلك وبالعدل والعفة ومباينة الجور ونحو ذلك، وستقف فى قسم الولايات فى نسخ البيعات والعهود والتقاليد والتواقيع والتفاويض والمراسيم ونحوها من ذلك بما (١) يتضح لك به سواء السبيل.

واعلم أن الكاتب كما يحتاج إلىٰ معرفة الصفات المحمودة من النوع الإنسانىّ كذلك يحتاج إلىٰ معرفة الصفات المذمومة منه، فربما احتاج إلىٰ الكتابة بذم شئ من ذلك فيكون عنده من العلم بالصفات المذمومة ماينفق معه (٢): كما حكى أن بعض العمال بعث إلىٰ الرشيد بعبد أسود فقلَب كتابه ووقَّع عليه "أما بعدُ فإنَّك لو وجَدْتَ عَدَدًا أقل من الواحد، أو لَوْنا شرًّا من السواد لبعثت به إلينا والسلام".

ولا يخفى أن كل ما خالف صفة من الصفات المستحسنة المتقدّمة فهو مستقْبَح مع ماهو معلوم من الصفات المذمومة الجسمية: كالحَدَب والحَوَل ونحوهما، ومن الصفات المعنوية: كسُوء الخُلُق وبَذَاءة اللسان ونحو ذلك. وفى هذا مَقْنَع فى الإرشاد إلىٰ المراد والتنبيه علىٰ القَصْد.

(١) أى على مايتضح. (٢) لعله منه.

النوع الثـانى

(ممـا يحتاج إلىٰ وصفه هى دوابّ الركوب، وهى أربعة أصناف)

الصنف الأوّل

(الخيـــل)

ويحتاج إلىٰ المعرفة بوصفها فى مواضع ؛ من أهمها وصفُها عنـد بعث شئ منها فى الإنعام والهدايا ، والجوابِ عن ذلك . ووصفُها فى ترتيب الجُيُوش والمَوَاكب وذكرها فى مَجَالات الحرب، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك . ويشتمل الغرض منه علىٰ معرفة أصـنافها، وألوانها، وشِيَاتها؛ وما يُستَحْسَن ويستقبح من صفاتها؛ ومعرفة الدوائر التى تكون فيها؛ والبصَرِ بأمور أسنانها وأعمارها .

أما أصنافها فثلاثة

الأوّل ــ العِرَاب : وهى أفضلها وأعلاها قيمةً، وأغلاها ثمنا ، تطلب للسبق واللَّحاقِ؛ والملوك تتغالىٰ فى أثمانها وتُعِدّها لمهم الحرب . وتُوجَد ببلاد العرب ومحلاتهم فى أقطار الأرض : كالحجاز، ونجد، واليمن ، والعراق ، والشام ، ومصر ، وبَرْقة ، وبلاد المغرب وغيرها .

الثانى ــ العَجَمِيَّات : وهى البَرَاذين ويقال لها الهَمَاليجُ ، وتُعرَف الآن بالأكاديش وتُجلَب من بلاد الترك ، ومن بلاد الروم . وغالبُ ما تُوجد مشقوقةَ المناخر ، وتطلب للصبر علىٰ السير وسرعة المشى .

الثالث ــ المُولَّد بين العراب والبَرَاذين : فإن كان الأبُ عَجَمِياً والأم عربيَّة قيل له هَجِين ، وإن كان بالعكس قيل له مُقْرِف ؛ وهى تكون فى الجَرْى والمشىِ متوسطة بين النوعين .

وأما ألوانهـا فقد ذكر آبن أبى أصبع أن أصول الألوان فيهـا ترجع إلىٰ أربعة ألوان، وما سواها مفرّع عنها .

الأول ــ البياض : وقلّ أن يخْلُص من لون يخالطه، فإن صفا بياضه قيل فيه أشهبُ قِرْطاسِيٌّ، فإن كان أذناه وقوائمه وعُرْفه وذيلُه سُودا، قيل مُطَرَّف، فإن خالط البياض شعرٌ أسود والأغلب فيه البياض قيل أشهبُ كافوريٌّ، وإن كان السوادُ فيه أغلبَ قيل أشهبُ حديديٌّ، وأشهبُ أشمَطُ، وأشهبُ مخلّس(١)، فإن كان فيه نُكَتٌ سُود قيل أشهب مُفَلَّس، فإن آتَّسعتْ قليلا قيـل أشهبُ مُدَنَّر، فإن كان فى شُهْبته طرائقُ، قيل أشهبُ مُجَزَّع، فإن كان فيه بُقَع من أىّ لَوْن كان دون البياض قيل مبَقَّع، فإن صغُرت تلك البُقَع قيل أبقَعُ، فإن تفرّقتْ وآختلفَتْ مقاديرُها قيل أشيَمُ، فإن تعادَلَ ذلك اللونُ مع البياض مع صِغَر النُّقَط من اللونين قيل أنْمَش، فإن تناهَتْ فى الصغر، قيل أبْرَشُ، فإن كان البياض نُكَتًا صـغيرة فى ذلك اللون قيل مُفَوَّف، فإن كان شئ من ذلك كله فى عضو واحد قيد به، مثل قولك مُفَوَّف القَطَاة، وأنمش الصدر وما أشبه ذلك .

الثانى ــ السَّواد : فإذا كان الفرس شـديدَ السواد قيل فيه أدْهَمُ، فإن آشـتدّ سوادُه قيل أدْهَمُ غَيْهَبِىّ، فإن علا السوادَ خضرةٌ قيل أحْوَى والجمع حُوٌّ، فإن خالط سوادَه شُقْرة قيل أدْبَسُ، فإن آنضم إليه أدنىٰ حمرةٍ أو صُفْرةٍ قيل أحَمُّ، فإن ضرب سوادُه إلىٰ يَسيرِ بيـاض قيل أوْرَقُ، ونحوه الأَكْهَبُ، وفى دونه من السواد يقـال أرْبَدُ .

الثالث ــ الحمرة : إذا كان الفرس خالص الحمرة، وعُرفه وذَيْلُه أسودان، قيل فيه أوْرَد والجمع وِرَاد والأنثى وَرْدة، فإن خالط حُمرتَه سوادٌ فهو كُمَيْت، الذكر والأنثى فيه سواء، فإن صفت حمرته شيئا قليلا قيل كميت مُدَمًّى، فإن كان صافيا قليل

(١) فى الأصل بالصاد وهو تصحيف كما يفهم من مراجعة القاموس واللسان فى مادة خ ل س .

الحمرة وعُرْفه وذيله أشقران قيل أشْقر . فإن كان أحمر وذيلُه وعرفه كذلك قيل أمْغَر ، فإن خالط شُقرةَ الأشقر أو الكميتَ شَعْرَةٌ بيضاء قيل صِنَابِيٌّ أخذا من الصِّنَاب وهو الخَرْدل بالزبيب ، فإن كانت حمرته كصدإ الحديد ، قيل أصدأُ ، فإن زاد فيه السواد شيئا يسيرًا قيل أجْأَى والاسم الجُؤْوَة .

الرابع - الصُّفْرة : فإن كانت صُفرته خالصةً تُشْبه لون الذهب وعُرْفه وذيله أَصْهبانِ مائلان إلى البياض قيل أصفر خالِصٌ ، فإن كانا أبيضين قيل أصفر فاضح فإن كانا أسودين قيل أصفر مطرّف وهو الذى يسمونه فى زماننا الحبشيّ ، فإن كان أصفر ممتزجا ببياض قيل أشهب سَوْسنِيّ ، فإن كان فى أكارعه خُطوط سُود قيل مَوْشِيٌّ .

وأما شياتها وهى البياض المخالف للونها ، فمنها الغُرّة : وهى البياض الذى يكون فى وجه الفرس اذا كان قَدْرُهفوق الدِّرْهم ، فإن كان دُونَ الدرهم قيل فى الفَرس أقْرَحُ والعامة تقول فيه أغَرُّ شعرات ، فإن جاوز البياضُ قدرَ الدرهم قيل فيه أعْرَمُ(١) ، ثم أوّل رتبة الغرّة يقال له النَّجْم ، فإن سالت الغُرّة ورَقَّت ولم تجاوِز جبهته ، قيل فيه أغرّ عُصْفُورِيّ ، فإن تمادَتْ حتّى جلّلت خَيْشُومه ولم تبلغ جَحْفَلته ، قيل أغرّ شِمْراخيّ ، فإن ملأتْ جبهته ولم تبلغ العينين قيل أشْدَخُ ، فإن أصابتْ جميع وجهه إلا أنه ينظر فى سوادٍ ، قيل مُبَرْقَع ، فإن فشَتْ حتّى جاوزتْ عينيه وآبيضّت منها أشفارُه ، قيل مُغْرَب ، فإن أصابت منه خدًّا دون خدّ قيل لَطِيم أيْمنُ أو أيسرُ ، فإن كان بشَفَته العُليا بياض قيل أرثَمُ ، وإن كان بالسفلى بياض قيل ألْمَظُ(٢) ، فإن نالهما جميعا قيل أرثمُ ألْمَظُ .

---

(١) وقع فى الأصل أغرم باعجام الغين وهو تصحيف .

(٢) فى الأصل أنمط بالنون والطاء وهو تصحيف .

ومنهـا التحجيل فى الرِّجْلين وما فى معنىٰ ذلك ؛ إن كان البياض فى مؤخر الرُّسْغ لم يستـدِرْ عليه قيل فى الفَرَس مُنْعَل ؛ وإن كان فى الأربع قيل مُنْعَل الأربع ؛ او فى بعضها أضيف إليـه فقيل مُنْعَل اليـدين أو الرجلين أو اليد أو الرجل ، اليمنىٰ او اليسرىٰ ؛ فإن آسـتدار علىٰ الرُّسْغ وهو المَفْصِـل الذى يكتنفُه الوظيفُ والحافرُ وكان فى إحدىٰ الرجلين ، قيـل أرجَلُ ، وإن كان فى الرجلين جميعا قيـل مُخَـدَّم وأخْدَمُ ؛ فإنْ جاوز رُسْغ الرِّجل وآتصل بالوَظِيف : وهو مابين الكعب وبين أسفله ولم يجاوز ثُلُثيه ، قيل مُحَجَّل ، أخذا من الحِجْل : وهو الخلخال ؛ فإن كان فى رِجْل واحدة ، قيل مُحَجَّل الرجل اليمنىٰ أو الرجل اليُسرىٰ ؛ فإن كان فى الرجلين جميعا قيـل محجَّل الرجلين ؛ فإن كان معه فى إحدىٰ اليدين بياض يجاوز الرُّسْغ إلىٰ دون ثلثى الوظيف قيل محجَّل الثلاث مطلقُ اليد اليمنىٰ أو اليسرىٰ ؛ فإن كان البياض فى اليد الأخرىٰ كذلك ، قيل محجَّل الأربع ؛ فإن كان البياض فى اليدين فقط قيل أعصَمُ ، سواء جاوز الرسغ أم لا ؛ ولا يُطْلق التحجيل علىٰ اليـدين أو إحداهما إلا بانضمام إلىٰ تحجيل الرجلين أو احداهما ؛ فإن كان فى اليد الواحدة قيل أعْصَمُ اليد اليمنىٰ أو اليسرىٰ ؛ وإن كان فيهما قيل أعصَمُ اليديْن ، وإن كان التحجيل فى يد ورجل من جانب واحد قيل مُمْسَك ، وإن كان ذلك من الجانب الأيمن قيل مُمْسَك الأَيامِن مطلقُ الأَياسر ؛ وإن كان بالعكس قيل مُمْسَـك الأياسر مطلقُ الأيامن ؛ وإن كان التحجيل فى يد ورجل من خلاف فهو الشِّكَال . وقيل الشكال بياضُ القائمتين من جانب ، وقيل بياض ثلاث قوائمَ ، فإن تعدّى البياضُ حتّى جاوز عُرْقوبَىِ الرِّجلين أو ركبتَىِ اليدين ، قيل فيه مُجبَّب ؛ فإن علا البياضُ حقْوىْ(١) رجليه ومِرْفَقىْ يديه قيـل أبلَقُ ، فإن زاد علىٰ ذلك حتّى بلغ الأفخاذ والأعضاد ، قيـل أبلقُ مُسَرْوَل ؛ فإن آختص البياض بيدَيْه

(١) كذا فى الأصل بالقاف ولعله مصحف عن النون لان الحقو الخاصرة وبقية الكلام يأباه أما الحِنْو فهو الاعوجاج والغرض جاوز البياض العرقوبين ولم يبلغ الأفخاذ الخ .

وطال حتّى بلغ مِرْفَقَيْه قيل أقْفَز ومُقَفَّز ، فإن كان البياض فى الوظيف غير متصل بالرسغ ولا بالعُرْقوب ولا بالرُّكبة قيل مُوَقَّف .

ومنهـا الشِّيات التى تتخلل سائر جسدها ، فإن كان الفرس مبْيَضّ الأذنين أو فى أذنيه نَقْش بياض دون سائر اونه قيل فيه أَذْرأ ، وإن كان مبيض الرأس قيـل أصْقَع ، فإن ٱبيضَّ قفاه قيل أقْنَف ، فإن شابت ناصيته قيل أسْعَف ، فإن ٱبيضَّتْ جميعها قيل أصبغُ الناصية ، فإن غَشَّى البياض جميع رأسه قيل أغْشَى ، وربمـا قيل فيه أرْخَم ، فإن ٱبيضَّ رأسه وعنقه جميعا قيل أدْرَعُ ، فإن ٱبيض ظهره قيل أرْحَلُ ، فإن كان ذلك البياض من أثَر الدَّبَر قيل مصرد ، فإن ٱبيضَّ بطنه قيل أَنْبَطُ ، فإن ٱبيضَّ جَنْباه قيل أخْصَفُ ، فإن كان البياض بأحد جَنْبيه قيل أخصَفُ الجنب الأيمن أو الأيسر ، فإن ابيضَّ كفَلُه قيل آزَرُ ، فإن ابيض عَرْض ذَنَبه من أعلاه قيل أشعَلُ ، فإن ٱبيض بعض هُلْبه دون بعض قيل مُخَصَّـل ، فإن ٱبيضَّ جميعُ هُلْبه قيل أصبغ هُلْب الذَّنَب ، فإن عدى عرقوبه البياض جملة قيل بَهِيم ومُصْمَتٌ من أىّ لون كان .

وأما مايُستحسَن من أوصافها فقد قال العلماء بأمر الخيل : يستحَبُّ فى الفرس دِقَّة الأُذنين وطولهُما وٱنتصابهُما ، ودقة أطرافهما ، وقُرْب مابينهما ، وكل ذلك من علامات العِتْق . وفى الناصية ٱعتدال شعرها فى الطُّول ، بحيث لاتكون خفيفة الشعر ولا مُفْرِطةً فى كثرته . ويقال فى هذه الناصية الجَثْلة . ويُستحبُّ مع ذلك لِينُ الشَّكِير (وهو ماطاف بجَنْب الناصِـيَة من الزَّغَب) . ويستحب عِظَم الرأس وطُوله وسَعة الجبهة ، وأَسالة الخدّ ، ومَلاسته ، ودِقّته ، وقلّة لحم الوجه ، وعُرْىُ الناهِضَين (وهما عظمان فى الخدّ) وسَـعةُ العين ، وصفاء الحَدَقة ، وذلك كله من علامات العِتْق . ويستحبُّ فى العين السُّمُوّ والحِدّة ورقّةُ الجُفُون وبعدُ نظره . قال ٱبن قتيبة : وهم يصـفونها بالقَبَل والشَّوَس والخَوَص ، وليس ذلك فيها عيبا ولا هو خلقـةً ، وإنمـا

تفعله لعزة أنفسها . ويستحَبُّ فى المَنْخَر السَّعة : لأنه إذا ضاق شقَّ عليه النَّفَس . قال وربمـا شُقَّ مُنْخُره لذلك وبعد مابين المنخرين . ويستحب فى الفم الهَرَت (وهو طول شَقّ شِدْقيه من الجانبين) لأنه أوسع لخروج نَفَسه ، ورقة الجَحْفَلتين وهما الشـفتان لأنه دليل العِتْق ، وطولُ اللسان ليكثر ريقه فلا ينبهر ، ورقته لأنه أسرع لقضمه العلف ، وصـفاء الصهيل لأنه دليل صحة رئته وسهولة نَفَسه . ويسـتحب فى العُنُق الطُّول فقد كان سَـلْمان بن ربيعة يفرق بين العِتاق والهجن فدعا بطست من ماء فوضعت بالأرض ثم قدمت الخيـل اليها واحدا واحدا فمـاثنىٰ سُنْبُكه منها ثم شرب هجَّنـه ، وما شرب ولم يثن سنبكه جعله عتيقا لأن فى أعناق الهجن قِصَرا فلا تنال المـاءَ حتّٰى تثنى سنابكها ؛ وقد روى أنه هجَّن فرس عمرو بن معـدى كرب فٱستعدىٰ عليه أميرَ المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فقال سَلْمانُ ٱدع بإناء فيه ماء ثم أُتِى بفرس عتيق لاشك فى عتقه فأشرع فى الإناء فصف بين سُنْبُكَيه ومدَّ عنقَه فشرب . ثم قال ائتونى بهَجين لاشك فيه فأشرع فبرك فشرب ، ثم أُتِى بفرس عمرو بن معـدى كرب فأشرع فصف بين سنبكيه ومدّ عنقـه ثم ثنىٰ أحد سنبكيه قليلا فشرب فقال عمر أنت سلمانُ الخيـل . ويسـتحب فيها مع ذلك الكبر لأنه أقرب لٱنقياده وعَطْفِه ، وغلظُ مُرَكَّبِ عنُقه ودقةُ مَذْبَحه . ويستحب فيه ٱرتفاع الكَتِفين والحـارِك والكاهِل ، وقِصَر الظهر وعِرَض الصَّهوة (وهى مقعَد الفارس من الظهر) وٱرتفـاع القَطَاة (وهى مقعد الرِّدْف من الظهر أيضا) وقلة لحم المتنَيْن وهما ماتحت دفتى السرج من الظهر . ويستحب فى الكفل الٱستواء والٱستدارة والمَلَاسـة والتدوير . ويستحب طُول السَّبِيب : وهو الشعر المسترسِلُ فى ذيله ، وقِصرُ العَسِيب : وهو عَظْم الذنب وجلدُه ؛ ولذلك قال بعض الأعراب "اخترْه طويلَ الذَّنب قصـير الذَّنَب" يعنى طويل الشعر قصير العَسيب . قال ٱبن قتيبة

ويستحب أن يرفع ذَنَبه عند العَدْو، ويقال إن ذلك من شدّة الصُّلْب . ويستحب عِرَض الصدر : وهو ماعَرُض حيثُ ملتقىٰ أعلىٰ لببه، ويسمّى اللّبان والكَلْكَل؛ وكذلك آرتفاعه عن الأرض مع دِقّة الزَّوْر، وهو ما استدق من صدره بين يديه، بحيث يقرُب مابين المِرْفقين لأنه أشدّ له وأقوىٰ لجريه . ويستحب فيه عِرضُ الكتف وغِلَظه وقِصَر النَّسا : وهو عِرْق فى الساق مستبطِن الفَخِذ، وشَنَجُه، وقِصَر وَظيف اليد : وهو قَصَب يديه، وقِصَر الرُّسْغ، ودِقَّة إبرة العُرْقوب وتحديده : لأنه أشدّ لقَصَب الساق، وطُولُ وَظيف الرجل ليخْذِف الأرضَ بها فيكون أشدّ لعدوه، وغِلَظُ عَظْم القوائم، وغِلَظُ الحِبَال : وهى عَصَب الذراعين، ولُطْف الرُّكْبة، وقُرْب مابين الركبتين، وشِدّة كَعْبه : لأن ضَعْف الكعب داعية الجَرَد(١)، وآنحناء الرجلين وتَوتُّرهما، وبُعْدُ مابين الرجلين : وهو الفَحَج : لأنه أشد لتمكُّن رجليه من الأرض. ويستحب صفاءُ الحافر، وصَلابتُه، وسعتُه، وكونه أزرقَ أوأخضَرَ غيرمَشُوب ببياض : لأن البياض دليل الضعف فيه، وأن يكون مع ذلك فيه تقعُّب، ولُطْف نُسُوره : وهى شئ فى باطن حافره كالنوىٰ : لأنه إذا ضاق موضعها كان أصلب لحافره، وأن تكون أطراف سَنَابكه وهى مَقَادم حوافرِه رقيقةً . ويستحب فيه مع ذلك كلّه آتساع إهَابه وهو جلده، ورقَّة أديمه، وصفاء لونِه، ولِينُ شعره، وكثرةُ عُرْفه، وكثرة نومه، وسَعة خطوه، وخِفَّة عِنانه، ولِين ظهره، وحُسْن آستقلاله فى أوّل سيره، وخِفَّة وَقْع قوائمه علىٰ الأرض إذا مشىٰ، وشدّة وقعها اذا عَدَا، مع حِدَّة نفسه وسُرعة عَدْوه، وآتساع طرقته، وقد يغتفر القِطَاف فى المشى فى دوابّ الجرْى . ثم إنه قد يحتمل فواتُ آلة الحسن والفَرَاهة فى المشى ولا يُغتفَر النقص فى آلة الجَوْدة وشِدّة العَدْو والصَّبْر : لأن بهما يدرك مايطلُب، وينجو ممّا يهرُب .

(١) فى اللسان الجرد ورم فى مؤخر عرقوب الفرس يعظم حتّى يمنعه المشي والسعي .

وأما مايُستقبح ويُذَمّ من أوصافها، فقد ذكروا للفرس عدّة عيوب، بعضها خِلْقية وبعضها حادثة .

فمن العيوب الخلقية البدد : وهو بُعْد مابين اليدين، والصَّمَم وهو أن لايسمع : وعلامته أن يراه يَصُرُّ أذنيه أبدا إلىٰ خلفُ، وإذا جُرّ خلفه خشبةٌ ونحوها لايشعر ولم ينفر عنها، والِخذاء : وهو أن يكون أذناه مسترخيتين منكوستين نحوَ العينين أوالخذّين كآذان الكلاب السَّلُوقيَّة ، والطَّوَل وهو أن تطول إحدىٰ أذنَيْه وتقصر الأخرىٰ ، وكونه أسَكَّ : وهو أن يكون صغير الأذن .

ومنها السَّفا : وهو قلَّة شعر الناصية، والغَمَم : وهو أن يكثُر شعر الناصية ويطُولَ حتّٰى يغطِّيَ العين : وهو عيب خفيف والسَّفا(١) : وهو خفة الناصية .

ومنها القَرَح : وهو أن يكون البيــاض الذى فى الوجه دُون قدر الدرهم كما تقدم إلا أن يكون معه بياض آخر من تحجيل ونحوه فلا يكره حينئذ، فإن كان فى وسط البياض فى الوجه سواد كان عيبا يُتشاءم به .

ومنها العَشا : وهو أن لا(٢) يُبْصِر ليلا فيصير بمثابة نصــف فرس لأنه لا ينتفع به فى الليــل دون النهار، وكونه قائم العين : وهو الذى يكون علىٰ ناظره سواد يضرب للخُضْرة والكُدْرة يقل معها بصرُه، والحَوَل : وهو أن يكون بإحدىٰ عينيــه بياضٌ خارجَ سواد الحدقة من فوق، ويكون خلاف العين الأخرىٰ وهو مع ذلك مما يتبرَّك به بعض الناس ويقول : إذا كان فى العينين كان أعظم لبركته، والخَيَف : وهو أن تكون إحدىٰ عينيه زرقاءَ : وهو ممــا يُتشاءم به لاسيمــا إذا كانت الزُّرقة فى العين اليسرىٰ، فإن آزرقَّت العينان جميعا كان أقلّ لشُؤمه، وغُــؤور العينين : وهو دخولهما فى وجهه، والغَرَب : وهو بياض أشفار العينين، يكون عنه ضعف بصره فى القمر والحرّ الشديد، والكُمْنة : وهو أن يبصر قدّامه، ولا يبصر عن يمينه ولاشماله .

---

(١) أى ان السفا بهذا المعنى عيب خفيف . (٢) فى الخط إسقاط لا وفى المطبوع اثباتها وهو الظاهر .

ومنها القَنَا : وهو ٱحدِيدَاب فى الأنف، ويكون فى الهُجْن، والخَنَس : وهو أن يُرىٰ فوق مَنْخِريه منخسفا : لأنه يضيق نَفَسه إذا ركَض .

ومنها الفَطَس : وهو أن تكون أسنانه العُلْيا داخلة عن أسنانه السُّفلىٰ، والطَّبْطَبة وهو أن تسترخىَ جَحْفاته السفلىٰ فإذا سار حركها وطبطبها كالبعير الأهْدَل، وأن يكون فى حنكه شامةٌ سوداء وسائر فمه أبيض .

ومنها قِصَر اللسان لأنه إذا قَصُر لسانه قلَّ ريقه فيُسرِع إليه العَطَش، والخَرَس وعلامته أن تراه يصهَلُ ولا يُحَمْحِم، وهو عيب لطيف .

ومنها القَصَر : وهو غلظ فى العنُق، واللَّفَف : وهو ٱستدارة فيه مع قصر، والدَّنَن وهو طُمَأْنينة فى أصل العنق، والهَنَع : وهو طمأنينة فى وَسَط العنق، والقَوَد : وهو يُبْس فى العنق بحيث لايقدِر الفرسُ أن يدير عنقَه يمينا ولا شمالا ولا يرفع رأسه إذا مشىٰ، وهو عيب شديد، والجَسَأُ : وهو يُبْس المَعْطِف .

ومنها الكَتَف : وهو ٱنفراج يكون فى أعالى كَتِفَى الفرس مما يلى الكاهل؛ والقَعَس : وهو أن يطمئِنَّ الصُّلْب من الظهر وترتفع القَطاةُ، والبَزَخ : وهو أن يطمئن الصُّلْب والقَطَاة جميعا، وهو عيب ردىء يَضرُّ بالعمل؛ وكونُ الكَفَل فيه تحديد ويكون العجُز صغيرا، والفَرَق : وهو نُقصان إحدى حَرْقفَتِي الوركَيْنِ، فإن نقصتَا جميعا فهو ممسُوح الكفل ولا عيْب فيه .

ومنها الدَّنَن : وهو تطامُن الصدر ودُنُوُّه من الأرض، وهو من أسوإ العيوب، والزَّوَر : وهو دخول إحدىٰ فَهْدتى الصدر وخروج الأخرىٰ .

ومنها الهَضَم : وهو ٱستقامة الضُّلوع ودخول أعاليها؛ والإخطاف : وهو لُحوق ماخلف المَحْزِم من بطنه، والثَّجَل : وهو خروج الخاصرة ورِقَّة الصِّفاق .

ومنهـا العَصَل : وهو التواء عَسِيب الذَّنَب حتَّى يبرُز بعضُ باطنه الذى لاشعرَ عليه، والكَشَف : وهو أكثر من ذلك، والصَّبَغ : وهو بياض الذَّنَب، والشَّعَل : وهو أن يبيضَّ عَرْض الذنب وهو وسطه .

ومنهـا الفَحَج وهو إفراط بُعْد مابين الكعبين ، والخَلَل : وهو رَخَاوة الكعبين، و يلتحِقُ به تقويسُ اليدين ، وهو عيبٌ فاحش، والطَّرَق : وهو أن ترىٰ ركبتيه مفسوختين كالمقوّستين إلىٰ داخل ، وهو عيب فاحش، والقَسَط وهو أن ترىٰ رجلاه منتصبتين غير مُحَنَّبَتين ، والبَدَد : وهو بُعد مابين اليدين ، والفَحَج وهو إفراط بُعدِ مابين العُرْقوبين، والقَفَد : وهو انتصاب الرُّسْغ و إقبـالُه علىٰ الحافر ولا يكون إلا فى الرِّجْل، والصَّدَف : وهو تدانِى الفخذين وتباعدُ الحافرَيْنِ فى التواء من الرُّسْغين بحيث ترىٰ رُسْغَى يديه مفتوحين، والتَّوْجِيه : وهو نحو منه إلا أنه أقل من ذلك، والفَدَع وهو التواء الرُّسْغ من عُرْضه الوحشىِّ من الجانبين (١) من رأس الشَّظىٰ ، ووطْؤُه علىٰ وحشىِّ حافريه جميعا وهو الجانب الخارجُ، والارتهاشُ : وهوأن يصُكَّ بعُرْض حافره عُرْض عُجَايته من اليـد الأخرىٰ وذلك لضَعْف يده، والحَنَف : وهو أن يكون حافرا يديه مكبوبين إلىٰ داخل، والنَّقَد : وهو أن يرىٰ الحـافر كالمتقشر، والشَّرَج : وهو أن يكون ذو الحافر له بيضة واحدة، والأَرَحُّ : وهو أن يمس الأرض بباطن حافره .

ومنها البَدَد فى اليدين : وهو أن يكون إذا مشىٰ يدير حافِرَه إلىٰ خارج عند النَّقْل وليس فيه ضرر فى العمل، والتلقُّف (٢) وهو أن يخبِط بيـديه مسـتوى لا يرفعُهما إلىٰ بطنه وهو خلاف البَدَد .

ومنها التَّلْويح : وهو أن يكون الفرس إذا ضربته حَرَّك ذَنَبه، وهو عيب فاحش فى الجُورة لأنه ربمـا بالت الجِجْر ورشَّت به صاحبَها .

---

(١) لعله أو من الجانبين . (٢) فى اللسان . فى آستنانه .

الضرب الثـانى

(العُيوب الحادثةُ وهى عِدّة عيوب)

منها الحَدَب، و يكون فى الظهر بمثابة حَدَبة الإنسان، وهو عيبٌ فاحش، والغُدّة وتكون فى الظهر أيضا بإزاء السُّرة .

ومنها العنق : وهوآنتفاخ ووَرَم بقدر الرُّمانة أو أقلُّ مما يلى الخاصرة، وهو عيب فاحش لاعلاج فيه .

ومنها الحَمَر — وهو عيب يحدث عن تُخَمَة الشعير، وربما كان من شرب المـاء علىٰ التعب فيحدث عنه ثِقَل الصدر .

ومنها الآنتشار : وهو آنتفاخ العَصَب بواسطة التَّعَب، ويكون من فوق الرُّسْغ إلىٰ آخر الركبة، وهو عيب فاحش .

ومنها تَحرُّك الشَّظَاة : وهو عظم لاصق بالذِّراع، وهو علىٰ الفرس أشق من الآنتشار .

ومنها الرَّوَح : وهو داء يكون منه غِلَظٌ فى القوائم كمثل داء الفيل فى البشر .

ومنها المَشَش : وهو داء يكون فى بدء أمره ماءً أصفرَ، ثم يصير دمًا، ثم يصير عظما . ويكون علىٰ الوظيف وفى مَفْصِل الركبة، وهو علىٰ العَصَب والركبة شرٌّ منه علىٰ الوظيف .

ومنها القَمَع، ويكون فى الرجلين فى طرف العُرْقوبين، وهو غِلَظ يعتريهـما . والمَلَح، ويكون فى الرجلين تحت القَمَع من خَلْف : وهو آنتفاخٌ مستطيلٌ لايضر بالعمل، والجَرَذ : وهو كالعظم الناتئ يكون فى الرجلين تحت العُرْقوبين علىٰ المَفْصِل من داخل ومن خارج، وهو عيب فاحش تَـئُول منه الدابة إلىٰ العَطَب، والنَّفَخ :

وهو آنتفاخ يكون فى مواضـع الجَرَذ . وهو من دواعى الجَرَذ؛ والعُقَال : وهو أن تَقْلِص رجلُه ، وذلك يكون فى عصَب الرجل الواحدة دون الأخرىٰ ، وربمـا كان فى الرجلين جميعا؛ وهو عيب فاحش يضُرّ بالعمل؛ وهو فى البرد أشدّ منه فى الحرّ .

ومنها الشُّقَاق : وهو داء يصيبه فى أرساغه ، وربما آرتفع إلىٰ وظيفه؛ والسَّرَطان : وهو داء يأخذ فى الرُّسْغ فيُيَبِّس عروقَه حتّى ينقلب حافره .

ومنها العَرَنُ : وهو جُسوءٌ فى رُسْـغ رجله . والدَّخس : وهو ورم يكون فى حافره . والقَفَد : وهو تَشَنُّج عصب رُسْغه حتّى ينقلب حافره إلىٰ داخل فيمشى علىٰ ظاهر الحافر .

ومنها النَّمْلة : وهى شَقٌّ فى الحافر من ظاهره : والرَّهْسة : وهى مايكون فى الحافر من صَدْمة ونحوها ، والعامة تقولهـا بالصاد . والقَشَرُ وهو أن تتقَشر حوافِرُه ، وهو عيب فاحش؛ والنَّاسُور : وهو الذى تسميه العامة الوَقْرة : وهو داء يحدث فى نُسُور الدابة فإذا قُطِع سال الدمُ منه .

ومنهـا الأُدْرة : وهى عِظَم الخُصْيتين ، وربمـا عَظُمت خُصْيتاه فى الصـيف وآحمرت (١) فى الشتاء . والمُدْلِى : وهو الذى يدلى ذكَرَه ثم لا يردّه ؛ وهو عيبٌ قبيح بحيث يقبحُ ركوب الفرس الذى به هذا العيب .

ومنها البَرَص : وهو بياض يعترى الفرَس فى مَرَقّاته : كالجَحْفَلَة وجُفُون العينين وبينَ الفخذين والخُصْيتَين .

ومنها الخلد : وهو داءٌ شديد ينقُب موضعه من بَدَن الدابة يسيل منه ماءٌ أصفرُ، فإذا كُوِى بالنـار برَأ وآنفتح موضعٌ آخرُ، فلا يزال كذلك حتّى تعطَب الدابة؛ وهو

(١) لعله واضطمرتا

عيب فاحش ؛ فى عيوب أخرىٰ يطول ذكرها . وفى كتب البَيْطرة ذكر الكثير من ذلك مع علاج ماله عِلاجٌ منه وبيانِ مالا عِلاجَ له .

وأما الدوائر التى تكون فى الخيل فقد عدّها العرب ثمانِى عشرةَ دائرةً ، بعضها مستحب وبعضها مكروه . الأُولىٰ دائرة المُحَيَّا وهو الوجه : وهى اللاحقة بأسفل الناصية . الثانية دائرة اللَّطَاة : وهى دائرة تكون فى وسط الجبهة . الثالثة دائرة النَّطِيح : وهى دائرة ثانية فى الجبهة بأن يكون فى الجبهة دائرتان . الرابعة دائرة اللَّهْزِمة : وهى دائرة تكون فى لِهْزِمة الفرس . الخامسة دائرة المِقْوَد(١) : وهى التى تكون فى موضع القِلادة . السادسة دائرة السَّمَامَة : وهى دائرة تكون فى وَسَط العنق . السابعة والثامنة دائرتا البَنِيقتيْنِ : وهما دائرتان فى نَحْر الفرس فيما قاله الأصمعى . وقال أبو عبيد البَنِيقة الشعر المختلف فى منتهىٰ الخاصرة والشاكلةِ . التاسعة دائرة الناحر : وهى دائرة فى باطن الحلق إلىٰ أسفل من ذلك . العاشرة دائرة القالع : وهى دائرة تكون تحت اللِّبْد . الحادية عشرة دائرة الهَقْعة : وهى دائرة تكون فى عُرْض الزَّوْر . الثانيةَ عشرةَ دائرة النافذة : وهى دائرة ثانية تكون فى الزَّوْر بأن تكون فيه دائرتان فى الشِّقين فى كل شِقّ منهما دائرة وتسمّى النافذةُ دائرةَ الحزام أيضا . الثالثةَ عشرةَ والرابعةَ عشرةَ دائرتا الحَرَب : وهما اللتان يكونان تحت الصَّقرين وهما رأسا الجبتين اللتين هما العظمان الناتئان المشرفان علىٰ الخاصرتين كأنهما صَقْران . الخامسة عشرة والسادسة عشرة دائرتا الصَّقْرين : وهما دائرتان بين الجَبتين والقُصْرييْن . السابعة عشرة والثامنة عشرة دائرتا الناخس : وهما دائرتان تكونان تحت الجاعرتين . قال ابن قتيبة وهم يكرهون منها أربع دوائر — وهى دائرة الهَقْعة مع ذكره أن أبقىٰ الخيل المَهْقُوع . ودائرة القالع . ودائرة الناخس . ودائرة النطيح . قال وما سوىٰ ذلك من الدوائر فليس بمكروه .

(١) فى المخصص . العُمُوم .

وذكر صاحب زهر الآداب فى اللغة أنهم يستحبون من الدوائر دائرة المِقْوَد[(١)]، ودائرة السَّمامَة، ودائرة الهَقْعة احتجاجا بأن أبقى الخيل المَهْقُوع؛ ويكرهون دائرة النَّطيح، ودائرة اللَّهْزمة، ودائرة القالع .

ورأيت فى بعض كتب البيطرة أن المستحب منها ثلاث دوائر دائرة المِقْود ودائرة السَّمامَة ، ودائرة الهَقْعة وما عدا ذلك فهو مكروه ، وكره حكماء الهند دوائر أخرى ذكروها وهى أن يكون فى مقدَّم يده دائرةٌ ، أو فى أصل ذنبه من الجانبين دائرتان أو على ناصيته دائرة، أو على مَحْجره دائرة، أو فى جَحْفلته السُّفْلى دائرة، أو على سُرَّته دائرةٌ، أو على مِنْسَجه دائرتان .

وأما أسنان الخيل فأول ما تَضع الحِجْرة جنينَها قيل مُهْر، والأنثى مُهْرة . فإذا فُصِل عن أمه قيل فَلُوٌّ . فإذا آستكمل حَوْلا قيل حَوْلىّ والأنثى حَوْلِيَّة . فإذا دخل فى الثانية قيل جَذَعٌ والأنثى جَذَعة . فإذا دخل فى الثالثة قيل ثنىٌّ والأنثى ثَنِيَّة . فإذا دخل فى الرابعة قيل رَبَاع والأنثى رَبَاعِيَة . فإذا دخل فى الخامسة قيل قارِح للذكر والأُنثى . وفى الغالب يلقى أسنانَه فى السنة الثالثة ، وربما تأخر إلقاؤها إلى السنة الرابعة : وذلك إذا كان أبواه شابَّين، وقد يلقى أسنانه فى حول واحِد : وذلك إذا كان أبواه هَرِمين، ثم لكل مُهْر اثنتا عَشْرَةَ سِنًّا : سِتّ من فوقُ وستٌّ من أسفَلُ، ويليها من كل جانب نابٌ، ويليها الأضراس . وتنبت ثَنَاياه بعد وضعه بخمسة أيام . وتنبت رَبَاعِيَاته بعد ذلك إلى مدّة شهرين . وتَنْبُت قوارحه بعد ذلك إلى ثمانية أشهر . ويختص التبديل منها بالأسنان الاثنتى عشْرة دُون الأنياب والأضراس . وربما ألقى المهر بعضَ أسنانه، ثم لاتنبُت . وإذا قَرَح المهر آصفرّت أسنانُه، وآسودّت رءوسها وطالتْ فيبقى كذلك خمس سنين ؛ فإذا جاوزت ذلك

(١) فى المخصص العموم .

ٱبيضت وحَفِى رءُوسها ، ثم تنتقل فتصير كلون العسل خمسَ سنين ، ثم تبيض فتصير كلون الغُبَار ويزداد طولها . وربما دلَّس النَّخَّاسون فنشروا أسنانها وسوَّوْها .

ومما وجد فى الكتب القديمة أنّ الفرس تتحرك ثناياه فى سبع وعشرين سنةً ، وتتحرّك الرَّباعِيَات فى ثمان وعشرين سنة ، وتتحرّك القَوارِح فى تسع وعشرين سنة ، ثم تسقُط الثنايا فى ثلاثين سنة ، والرَّباعِيَات فى إحدىٰ وثلاثين سنة ، والقَوَارِح فى ٱثنتين وثلاثين سنة وهو عمر الدابة .

وأما التفرّس فى الخيل فاعلم أن المُهْر وإن ظهرت فيه علامات النَّجابة أو العكس لا عبرة بذلك ، فإنه قد يتغير فيقبُح منه ما كان حَسَنا ، ويحسن منه ما كان قبيحا ، وإنما يتفرّس فيه إذا ركبه لحم العَلَف ، وذهب عنه لحمُ الرَّضاع . وأفضل الفِراسة فى المهر أخذُه فى الجرْى ، فإنه صنعتُه التى خلق عليها وإليها يئول ، فإذا أحسن الأخذ فى الجرى فهو جَوَاد ، ولكنه ربما تغير أخذه للجرى إذا رُكِب لضَعْف فيه حينئذ ، وقصور عن بلوغ مدىٰ قوّته ؛ وقد لا يجرى جَذَعا ويجرى ثنِيًّا ، وقد لا يجرى ثنِيًّا ويجرى رباعِيًا ، وقد لا يجرى رباعِيًا ويجرى قارحًا حين تجتمع له قوّته . ويعرَف ضَعف الضعيف منها بتلوّيه تحت فارسه وعجْزه عنه وفترته إذا نزل عنه .

ومما يدل علىٰ جَوْدة الفرس وحُسن جريه أنه يراه إذا أخذ فى الجرى سَمَا بهاديه ، وأثبتَ رأسه ، ولم يستعن بهما فى حُضْره وٱجتمعت قوائمُه ، وسَبَح بيديه وضَرَح برجليه ، ولها فى حُضْره ، وامتدّ ، وبسط ضَبْعيه حتّى لا يجد مزيدا ، وتكون يداه فى قَرَن ، ورجلاه فى قَرَن ، فإذا كان الفرس كذلك فهو الجَواد السابق . وقد قيل : إن خير الخيل الذى إذا مشى تكفَّأ ، وإذا عدا بسط يديه ، وإذا أدبر جَفَا ، وإذا أقبل أقعىٰ .

الصنف الثـانى

(البِغـال)

وفيها نوعيّة من الخيل والحَمير : من حيث إنها تتولّد بين حِصَان وأتان، أو بين حمار وحِجْرة (١) . وفيها النفيس المختار لركوب الرؤساء : من العلمـاء، والوُزَراء، والحكام وسائر رؤساء المتعمّمين . و إنه صلى الله عليه وسلم، فى يوم أُحُد كان راكبا بغلةً، ولولا شرَفُها ونَفاستُها وقيامُها مَقام الخيل لمـا ركبها النبيّ صلى الله عليه وسـلم فى موْطِن الحرب؛ وألوانها وأسـنانها علىٰ ماتقدّم فى الخيل، ويستحسن فيها غالب مايستحسن فى الخيـل؛ وقد قيل إن خيار مايقتنىٰ من البِغَال ما آشـتدّت قوائمه، وعظُمت قَصَرتُه، وعنُقُـه وهامَتُـه ، وصـفَتْ عيناه ، ورحب جوفُه، وعَرُض كفَلُه ، وسلم من جميع العيوب والعِلَل ،

وممـا يستحسن فى البغال دون الخيل السَّفَا : وهو خفة شعر الناصية . وأن يكون بيديها ورجليها خُطُوط مختلفة : جُلُّ ماتكون للسِّنَّور : ويقال إن خير مايختار للسرج والركوبِ البِغالُ المصرية : لأن أمَّهاتِها عِتاق وهُجْن ، وخيار ما يُحتاج إليـه للسَّرايا والمواكب والرَّكْض مع الخيل بِغالُ الجزيرة وإفريقِيَة .

وممـا ينبغى التنبيه عليه أن فى البغلات منها شدّةَ محبة للدوابّ إذا ربطت معها وفسادا للدواب إذا آعتادتها حتّى يصير أحدهما لا يفارق الآخر إلا بمشقة . ويحسن فى البغال الخَصْى ، وفى البغلات التَّحْويص ، ولا يُعاب ركوب شىء منها حينئذ إذا كان نفيسا .

---

(١) قد تكرر فى هذا المقام تأنيث الحجر بالهـاء، وفى القاموس مانصه والحجر الأنثى من الخيل وبالهـاء لحن قال شارحه وهو عامى مسترذل ثم نقل عن الشهاب تصحيحه فتنبه .

الصنف الثالث

(الإبل)

ويشتمل الغرض منها علىٰ معرفة أنواعها ، وألوانها ، وأسنانها ؛ وما يُستقبَح ويُستحسن من صفاتها .

أما أنواعها فإنها ترجع إلىٰ نوعين . الأوّل البَخَاتِيُّ : وهى جمال جُفَاة القُدُود، طويلةُ الوَبَر، تجلَب من بلاد الترك . الثانى العِرَاب وهى الإبل العربية وأصنافها لايأخذها الحَصْر . وأما ألوانها فترجع إلىٰ ثلاثة أصول .

الأوّل البياض، فالجملُ إذا كان خالص البياض قيل آدمُ والأنثىٰ أدْماء علىٰ الضدّ من بنى آدم، فإن خالط البياضَ يسيرُ شُقْرة قيل أعْيَسُ والأنثىٰ عَيْساء .

الثانى الحُمْرة فإن ٱحمرّ وغلبت عليه الشُّقْرة قيل أصْهَبُ والأنثىٰ صَهْباء ، فإن خلَصت حمرتُه قيل أحمرُ والأنثىٰ حمراءُ، فإن خالط حمرته قُنُوءٌ قيل كُمَيت ، فإن صفتْ حمرتُه قيل أحمر مُدَمًّى ، فإن خالط الحمرة خُضرةٌ قيل أحْوىٰ ، فإن خالطها صُفْرة قيل أحمر رادِنِىّ بكسر الدال . فإن خالطها سَوادٌ قيل أَرْمَكُ والأنثىٰ رَمْكاءُ . فإن كانت حمرته كصَدَإ الحديد قيل أَجْأَى .

الثالث السواد، فإن كان السواد فيه ضعيفا قيل أَكْلَفُ، فإن خالط السواد صفرةٌ قيل أحْوىٰ ، فإن عَلِق بسواده بياضٌ قيل أوْرَقُ . فإن زادت وُرْقته حتّى أظْلم بياضُه قيل أدهم، فإن ٱشتدّ سواده قيل جَوْن، فإن كان بين الغُبْرة والحمرة قيل خَوَّار والأنثىٰ خَوَّارة .

وأما أسنانها فإنه يقال لولد الناقة عند الوضع قبل أن يُعرفَ أذكر أم أنثىٰ سَلِيل . فإن بان أنه ذكر قيل سَقْب ، وإن بان أنه أنثىٰ قيل حائل . ثم هو حُوَار حتّى

يُفْطم، فإذا فُطِم وفُصِل عن أمه قيل فصيل . وذلك فى آخر السنة الأُولىٰ من وضعه، فإذا دخل فى الثانية قيل آبن مَخَاض: لأن أُمَّه فيها تكون من المخاض (وهى الحوامل) والأنثىٰ بنت مخاض، فإذا دخل فى الثالثة قيل آبن لَبُونٍ: لأن أمَّه فيها تكون ذات لبن والأنثىٰ بنت لبون، وإذا دخل فى الرابعة قيل حِقٌّ: لأنه يستحق أن يحملَ عليه والأنثىٰ حقَّة ، فإذا دخل فى الخامســة قيل جذَع والأنثىٰ جذَعة ، فإذا دخل فى السادسة قيل ثَنِيّ لأنه يُلْقى فيها ثنيَّته والأنثىٰ ثَنِيَّة . فإذا دخل فى السابعة قيل رَبَاع (بفتح الراء) لأنّ فيها يلقى رَبَاعِيَته والأنثىٰ رَبَاعِيَة بالتخفيف ، فإذا دخل فى الثامنة قيل سَدِيس وسَــدَس الذكرُ والأنثىٰ فيه سواء، وربمــا قيل فى الأنثىٰ سَــدِيسة . فإذا دخل فى التاســعة قيل بازِلٌ لأنه فيها يَبْزُل نابُه، والذكر والأنثىٰ فيه سواء، وقد يقال فيه فاطِر، فإذا دخل فى العاشرة قيل مُخْلِف ،وليس وراء ذلك للإبل ضَبْط بل يقال مُخْلِف عامٍ ومخْلِف عامين فأكثر، فإذا علا السنّ بعد ذلك قيل فيه عَوْد والأنثىٰ عَوْدة، فإن علا عن ذلك قيل قَحْر، فإن تكسرتْ أنيابه لطُول هَرَمه قيل ثِلْب والأنثىٰ ثِلْبــة، ويقال فى الناقة إذا كان فيها بعضُ الشباب عَزُوم، وربما قيل شارِف .

وأما ما يستحسن من صفاتها فقد رأيت فى بعض المصنَّفات أن كلَّ ما يستحب فى الفَرَس يستحب فى البعير خلا عِرَض غاربه ، وفتــل مِرْفَقِه، ونَكْس جاعِرَته وهى أعلىٰ الوَرِك ، وآندِلاق بطنه ، وتفرّش رجليه ، فإن ذلك يستحب فى الإبل دون الخيل .

وقد صرح الشعراء فى أشعارهم بعدّة أوصاف مستحسنة فى الناقة، منهــا دقة الأُذُن، وتحديد أطْرافها ، وكِبَر الرأس ، وآستطالة الوجه ، وعِظَم الوجنتين، وقُنُوّ الأنف ، وطول العُنق وغلَظه، ودقة المَذْبَح ، وطُول الظهر، وعظم السَّنَام . وهى الكَوْماء، وطُول ذنبها، وكثرةُ شعره، غليظةُ الأطراف ، قليلة لحم القوائم، ليست

رَهِلة ، ولا مسترخيةً ، وأن تكون مع ذلك كثيرة اللحم ، مَلْساءَ الجلد ، تامَّةَ الخلق ، قويَّةً ، صُلْبة ، خفيفة ، سَريعة السير .

وأما كرمها فإنه يقال لكل كريم خالص من الإبل هِجَان من نِتاج مَهْرَةَ : وهى قبيلة من قُضاعةَ باليمن ، والعيديَّة منسوبة إلى بنى العِيد من قبيلة مَهْرة المذكورة ، والأرْحَبِيَّة منسوبة إلى بنى أرحَب ، والغُرَيريَّة منسوبة إلى غُرَيْرٍ ، وهو فحل كريم مشهور فى العرب . والشَّذْقَمِيَّة منسوبة إلى شَذْقَم : فحل كريم أيضا ، والجَديليَّة منسوبة إلى جَديل : فحل كريم ، والدَّاعِريَّة منسوبة إلى داعر : فحلٍ كريم كذلك . قال فى كفاية المتحفظ ، والشَّدَنِيَّة منسوبة إلى فحل أو بلد .

الصنف الرابع

(الحمير)

ومنها النَّفِيس الغالى الثمنِ وخيرها حُمُر الديار المصرية ، وأحسنُها ماأُتِى به من صعيدها . وهى تنتهى فى الأثمان إلى مايقارب أثمانَ أوساطِ الخيل ، وربما يميَّز العالى القدر منها على المنحط القدر من الخيل ، والأحسن فيها ما كان غليظ القوائم ، تامّ الخَلْق ، حَديدَ النفس . ولا عيبَ فى ركوب الحمار ولا وَهِيصةَ (١) فقد ثبت فى الصحيح أن النبيّ صلى الله عليه وسلم ، "رَكِبَ الحِمار" ولا عبرة برَفْع من ترَفَّع عن ركوبه بعد أن ركبه النبي صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مراده ولا نقص ولكن لم نقف فى مادة ر ه ص ولا و ه ص على هذا المعنى .

النوع الثـالث

(مايحتاج إلىٰ وصفه من جليل الوحش وكريم صيوده، وهو أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(جليل الوحش)

وهو مايتخذه الملوكُ للزِّينة وما فى معناها، ويحتاج الكاتب إليه لوصفه فى الهدايا والمواكب، وما يجرى مجراهما .

والمعوّل عليه من ذلك خمسة أضرب .

الأوّل الأَسَد — ويجمع علىٰ أُسْد وأُسُد وأُسُود وآساد، ويقال له أيضا اللَّيْث والضَّيْغم، والضِّرْغام، والهِزَبْر، والهَيْصَم، والهِرْماس، والفُرَافِصَة، وحَيْدرةُ، والقَسْوَرَةُ . وله أسمـاء كثيرة سوىٰ هذه، لا تكاد تدخل تحت الحصر، حتّٰى قال ٱبن خالويه للأسد خمسمائةِ ٱسم . ويقـال لولده الشِّبْل ولأُنْثاه اللَّبُؤة . قال ٱبن السندى فى كتابه "المصايد والمطارد" : وإذا تأملت أصنـاف الحيوان وبحثت صُوَرها وما أُعطِيتْ من الأَسْلِحة ومقادير الخَلْق، وجدتَ الأسـد أعظم خلْقة، وأكثر آبِدةً، وأشدّ إقداما من جميعها، ليست له غريزة فى الهَرَب البتَّة .

ومن خصائصه وعجيب خَلْقه أن عَظْم عُنُقِه عظمٌ واحد ليست له خَرَز عظام كما فى غيره من الحيوان بدليل أنه لايَلْوِى عنقَه، ولا يلتفت، ومع ذلك فهو يبتلع الشئ العظيم، ولَبْوَته لاتلد إلا جِرْوا واحدا، وإنما تضعه كاللَّحْمة ليس فيه حِسٌّ ولا حركة فتحرُسه ثلاثةَ أيام، ثم يأتى أبوه فينفُخ فيه المرَّةَ بعد المرّة حتّٰى يتحرّك، ثم تأتى أمُّه فتُرْضعه، ولا يفتح عينيه إلا بعد سبعة أيام، ويكتسب لنفسه بالتعليم من أبويه بعد ستة أشهر، وهو قليل الشرب للمـاء وإن كان لا يفارق الغِيَاض، وله صبر علىٰ

الجوع ولكنه إذا جاع ساءت أخلاقُه، وليس يُلْقِى رَجِيعه إلا مرةً واحدة فى اليوم، ويرفع رجله عند البول كما يفعل الكلب، ويبول إلىٰ خَلْف كما تبول الجِمَال، وهو أشدّ السِّباع ضَراوةً علىٰ أكل بنى آدم، وإذا ٱفترس فريسةً وأكل منها، لا يعود إليها، ولا يطأ أثَرَه شئ من السباع . قال ٱبن السندى فى "المصايد والمطارد" ولا يأكل من فريسةِ غيره من السباع . وقد قيل إنه يهرُب من الهرّ، ومن الجِرْو، ومن الدِّيك الأبيض، وإنه إذا رأىٰ النار عرضت له فكرة أورثته بَهْتة، وأنه يهرُب من عُوَاء الجِرْو إذا عُرِكَتْ أذنه، ويقال إن جلده إذا جعل فيما يخاف عليه السُّوس من الثياب وغيرها أمِنَ من ذلك، وإنه إذا عمل منه وَتَرقوس وأُضِيف إلىٰ أوتارٍ من فِرَاء ومِعًى أو غيرهما أبطل أصواتها وعلا صوته عليها، ومن طبعه أنه لا يشرب ماء وَلَغ فيه كلب وإن مات عَطَشا .

الثانى النُّمُور — جمع نَمِر (بفتح النون وكسر الميم) ويجمع أيضا علىٰ أنمار ونِمَار، والأنثىٰ نَمِرة، وهو حيوان مُرَقَّع اللون بسَواد وبياض، أقربُ شئ من خِلْقة الفَهْد، وهو أَخبَثُ من الأسد، لا يملك نفسَه عند الغضب حتّى إنه ربما قتل نفْسَه من شدّة غضبه . قال : ابن السندى : وهو وَدُود لجميع الحيوان، عَدُوٌّ للنَّسْر، وينام ثلاثةَ أيام، والحيوان يُطِيف به ويميل إليه، ٱستحسانا لجلدته .

وهو جنسان أحدهما عظيم الجُثّة، صغير الذَّنَب، والثانى صغير الجُثّة عظيم الذنب . قال فى "المصايد والمطارد" ويصاد بالخمر لأنه يحبها . قال : ومَن أراد قتله تَمسَّحَ بشحم ضَبُع ودخل عليه فقتله .

الثالث الكَرْكَدَنّ — (بفتح الكافين وسكون الراء المهملة وفتح الدال المهملة ونون مشدّدة فى الآخر)(١) قال الزمخشرى فى "ربيع الأبرار" : وهو وَحْش يكون ببلاد الهِنْد يسمّى الحِمَار الهندىّ، له قرن واحد فى جبهته يبلغ غِلَظُه شبرين، وهو

(١) ضبطه فى القاموس بشدّ الدال أى وتخفيف النون وقال والعامة تشدّد النون

محدّد الرأس إلا أنه ليس بالطويل وأنه إذا قطع ظهرت فيه صور عجيبة : وانه رُبّما نطح الفيل فبعَجَه بقَرْنه ، وأن أُنثاه تحمل سبع سنين ، وأنه إذا كان بأرض لم يدع شيئا من الحيوان حتّى يكون بينه وبينه مائة فرسخ من جميع جهاته هيبةً له وهربا منه .

الرابع الفيل ــ وهو حيوان يُؤْتىٰ به من بلاد الهند والحبشة . قال الجاحظ : وهو من الحيوانات المائية وإن كان لا يسكُن الماء ، وهو من ذوات الخَراطيم ، وخرطومه أنفه كما أن لكل شيء من الحيوان أنفا ، وهو يده ، وبه يَتناوَل الطعام والشراب ، ومنه يُغَنِّي ويجرّ فيه الصوتَ كما يجرُّه الزامر فى القصبة بالنفخ . قال : وأصحابنا يزعُمون أن بينه وبين السِّنَّور عداوة وأن الفيلَ يهرُب منه هَرَبا شديدا . وذكر صاحب "الحيل فى الحروب" أنه يقصر(١) عن صوت الخنزير وأنه بذلك ينَفَّر فى الحروب . وقد ذكر الجوزى أن للفيل إقداما علىٰ السبع . قال الجاحظ : وهو يعادى البعوضَ لأنه يثْقُب جلده بقرصه ، ومن ثم يرىٰ الفيل دائما يحرك آذانه ليطرد عنه الناموس ، وهو مخصوص بخفة وقع قوائمه علىٰ الأرض إذا مشىٰ حتّى لو أن إنسانا كان جالسا وجاء الفيل من خلفه لما شعر به . وذكر عبد القاهر(٢) البغدادىُّ أن الفِيلةَ تحمل سبْعَ سنين ، وقيل سنتيْنِ ، وقيل ثَلاث(٣) قبل أن تضع ، وأن لسان الفيل مقلوب : طرَفُه داخلَ حَلْقه وأصله من خارج علىٰ العكس من سائر الحيوان ، وأن ثدييها علىٰ كبدها وترضع أولادها من تحت صدرها . وقد ذكر الغزالى أن فرجها تحت بطنها فإذا كان وقت الضِّراب ارتفع و برز للفحل حتى يتمكن من إتيانها .

الخامس الزَّرافة ــ (بفتح الزاى وضمها) وهى حيوان يؤتىٰ به من بلاد الحبشة واليمن ، طويلُ اليدين ، قصيرُ الرجلين ، ذَنَبه وحوافره كذَنَب البقر وحوافِرها ،

(١) لعله يقصو بالواو بدل الراء أى يبعد .

(٢) فى حياة الحيوان عبد اللطيف وسيأتى بعد صحائف على الصواب مرارا .

(٣) كذا فى الاصل وعبارة الحياة ولا ينزو عليها اذا وضعت الا بعد ثلاث سنين .

ورقبته ورأسه كرقبة الجمل ورأسه، ولونه مُوَشًّى بالبياض والصُّفْرة. قال الجاحظ: وقد زعموا أن الزرافة تتولد من الناقة من نُوق الحبشة وبين بقَر الوحش وبين الذِّيخ - وهو ذكر الضِّبَاع. وذلك أن الذيخ يعرض للناقة فيسفِدُها فتلقح بولد يجيء خلقه بين الناقة والضبع فإن كان الولد أنثى عَرَض لها الثور الوحشى فيضربها فيأتى الولد زرافةً، وإن كان ذكرا تعرّض للمهاة فألقحها فيأتى الولد زرافة أيضا. قال: ومنهم من يزعم أن الزَّرافة الأنثى لا تَلْقَح من الزَّرافة الذكر. ثم قال وهذا مشهور باليمن والحبشة. ثم إن كانتْ أسنانها سُودا دلت علىٰ هَرَمها، وإن كانت بيضًا دلت علىٰ حَدَاثة سِنِّها.

ومن أمراضها الكَلَب (وهو كالجنون يعتريها كما يعترى الكلب فيقتلها) وكلُّ من عضته وهى علىٰ هذه الحالة قتلته إلا ٱبن آدم فإنه ربما عولج فسلم. ومن أمراضها أيضا الذِّبْحة والنِّقرس.

الصنف الثانى

(مُعَلَّمات الصيد)

وقد يعبر عنها بالضَّوَارى. وهى كل ما يقبل التعليم من الوُحُوش كائنا ما كان حتّٰى حكى عن السُّودانىّ القَنَّاص أنه بلغ من حذقه أنه ضرّى ذِئبا حتّٰى ٱصطاد به الظباءَ وما دونها، وألَّفه حتّٰى رجع إليه من ثلاثين فرسخا، وضرّٰى أسدا حتّٰى ٱصطاد به حُمُر الوحش. ويقال إن ٱبن عِرْس يُجْعَل حبل فى عنقه ويُدخَل علىٰ الثعلب فلا يخرج إلا به. وهى علىٰ ضربين.

الأوّل الفُهُودة - جمع فَهِد (١) بكسر الهاء. وقد زعم أرسطوطاليس أنه يتولد من أسد ونَمِرة أو من نمر ولَبُوة؛ وهو من السباع التى تصادُ ثم تُؤنَّس حتّٰى تصيد،

---

(١) فى المصباح الجمع فهود كفَلْس وفلوس وكذا بقية معاجم اللغة فلعل مافى الاصل من التحريف والتصحيف وهو الأقرب.

وهو من الحيوان المحدّد الأسنان ، وأسنانه يدخل بعضها فى بعض كالكلب وغيره قال : فى " التعريف " وأوّل من صاد به كسرى أنوشَروان أحدُ ملوك الطبقة الأخيرة من الفُرس قال : فى "المصايد والمطارد" و يصطادونه بضروب من الصيد .

منها الصوت الحَسَن فإنه يصغى إليه إصغاء شديدا .

ومنها كدّه وإتعابُه حتّى يحمىٰ و يعيا و ينبهر ويحفى ، فإذا أخذ غُطِّيت عيناه وأُدْخِل فى وعاء ، وجعل فى بيت مادام وحشيًّا ، ووضع عنده سراج ولازمه سائسه ليلا ونهارا ولم يدَعْه يرىٰ الدنيا ، ويجعل له مَرْكَبًا كظهر الدابة يعوّده رُكوبَه و يُطعمه علىٰ يده فلا يزال كذلك حتى يتأنّس ، فإذا ركب مؤخَّر الدابة فقد صار داجنا وصاد .

و فى طباعه أمور .

منها كثرة النوم حتّى يضرَب بنومه المَثَل فيقال "أنْوَمُ مِنْ فَهْد" . وكثرةُ الحياء حتّى إنه لا يعلم أنه عاظَـلَ أنثىٰ بين يدى الإنس ، وقد عُنِى بمراعاته فى ذلك فلم يوقَف عليه . وان كان الأسد يفعل ذلك كثيرا . ونقل ٱبن السندى عن بعض الفَهّادة أن سائسه إذا أمرّ يده عليه اطمأن إليه ومال فإذا وضع يده علىٰ فرجه نفَر وعضَّ يده .

ومنها الغَضَب حتّى إنه إذا أُرْسل علىٰ صيد فلم يحصِّلْه احتد ، وان لم يأخذ سائسه فى تسليته قتل نفسه أو كاد . قال : صاحب " المصايد والمطارد " والمسنّ من الفُهُود إذا صيد كان أسرع فى الصيد من الجِرو الذى يُربّى و يؤدَّب ، والأنثىٰ أصيدُ من الذكر كعامّة إناثِ الجَوَارح . قال : وليس شىء من الوحش فى قدر جِرْم الفهد إلا والفَهْد أفضل منه . قال : فى " المصايد والمطارد " وضدُّ الفهد الظباءُ والوعول علىٰ اختلاف أجناسها .

الثانى الكلاب ــ جمع كَلْب ويجمع علىٰ أَكْلُب أيضا وعلىٰ كَلِيب كعبد وعَبِيد والأنثىٰ كَلْبة ، وتجمع علىٰ كلبات بالفتح ، وهو حيوان شديد الرِّياضة ، كثير الوَفاء

مشتَرِك الطِّباع بين السبع والبهيمة : لأنه لو تم له طباع السَّبُعية لما ألف النَّاسَ ولو تم له طِباع البهيمية لما أكل اللحم . ويقال إنه يحتلم وأُنْثاه تحيض ، وتحمل أنثاه ستين يوما ، وربما حملت أقلَّ من ذلك ، ويَسْفِد بعد سَنة ، وربما تقدّم على ذلك . ولها عند السِّفاد آشتباك عظيم ، وإذا سفَدَ الأنثى كلبان مختلِفان أتت من كل واحد بلونه . وفيه من اقتفاء الآثار وشَمِّ الرائحة ما ليس لغيره من الحيوان ، والمَيْتةُ أحبُّ إليه من اللحم الغَرِيض .

ومن طبعه أنه يحرُس صاحبه شاهدا أو غائبا ، ذاكرا أو غافلا ، ونائما أو يقظانَ ، وهو أيقَظُ حيوان فى الليل ، وإذا نام كَسر أجفانَ عينيه ولا يُطْبقها لخِفَّة نومه . ومن عجيب شأنه أنه يكرم الرئيسَ من الناس فلا ينبَحُه وإنما ينبَح أَوْباش الناس . ومن طبعه أن الضبع إذا مشَتْ على ظله فى القمر رمى بنفسه بين يديها فتأكله ، وإذا ظَفِر بكلب غريب كاد يفترسه .

وقد أجاز الشارع آتخاذها للصيد ونحوه ، وأباح صَيْدها مع نجاسة عينها . قال فى "التعريف" : وأول من آتخذها للصيد دارًا أحدُ ملوك الفُرْس قال فى "المصايد والمطارد" : وإذا كسر الكلب الأرانب فهو نهاية وإن كان يُطيق فوق ذلك . والكلب يمسك لصاحبه ، ولذلك لا يأكُل من الصيد بخلاف سائر الجوارح . قال : وإناثها أسرع تعلُّما من الذكور ، وأطول أعمارا حتَّى إنها تعيش عشرين سنة .

ومن خاصية الكلب أنه إذا عايَنَ الظِّباء قريبةً كانت أو بعيدة ، عرف منها العليلَ من غيره ، والعنز من التيس فيتبع التيس منها دون العنْز وإن كان التيس أشدّ عَدْوا وأبعدَ وَثْبةً : لأنه يعلم أن التيس إذا عدا شَوْطا أوشوطين غلب عليه البولُ ولا يستطيع إرساله فى عدوِه فيقلُّ عند ذلك عَدْوُه ويقصر مَدَى خُطاه فيدركه الكلب ، بخلاف العنز فإنها إذا اعتراها البول أرسلته لسَعَةِ مَسِيله ، والكلب يعرف ذلك كلَّه طبعا ،

وكذلك يعرف جِحَرة الأرانب والثَّعالِب وإن ركبها الثلج والجليد بشمه فيقف عليه ويثير مافيها من الوحش، وإذا صَعِد منه أرنبٌ إلىٰ أعلىٰ جبل شاهق، كان له من التلطُّف فى الارتقاء والصعود ما لا يلحقه غيره بل لا يخفى عليه من الصيد الميتُ من المُتماوِت .

ومن خصائص الأنثىٰ أنها تحمل ستين يوما ويبقى جِرْوها بعد الولادة اثنَىْ عشرَ يوما أعمىٰ . وأكثَرُ ماتضع ثمانيةُ أجْراء، وربما وضعت واحدا فقط، ورأس الكلب كله عظمٌ واحد، والكلب يطرح مَقادِمَ أسنانه ويخلفها ولكنه لا يظهر لكثير من الناس لانه لا يُلقِى منها شيئاً حتّى ينبت فى مكانه غيرُه، والفرق بين الذكر والأُنثىٰ أن الذكر إذا أدرك يرفع رجله عند البول والأنثىٰ تبول مُقْعية وربما رفعت رجلها، والذكر يَهِيج للسِّفاد فى السنة قبل الأنثىٰ، وأسنان الذكر أكثر ومَضْغه أشدّ .

قال الجاحظ : وخير الكلاب ما كان لونه يذهب إلىٰ لون الأسد بين الصفرة والحمرة ثم البِيض اذا كانت عيونها سَوْداء . وذكر صاحب "المصايد والمطارد" أن الأبيض أفرهُ والأسودَ أصبرُ علىٰ الحرّ والبرد . ومن علامة النجابة والفَراهة فيه أن يكون تحت حنكه طاقةُ شعر مفردةٌ غليظة، وأن يكون شعر خدّيه جافيا . ومن علامة الفَراهة طُول ما بين يديه ورجليه وقِصَر ظهره وصِغَر رأسه وطُولُ عُنُقه وغَضَف أُذُنيه وبُعْدُ مابينهما، وزُرْقة عينيه، وضخامة مُقْلتيه، ونتوُ حدقته، وطولُ خَطْمه وذَقَنه، وسَعَةُ شِدْقه، ونتو جبهته وعِرَضها . ويستحب فيه أن يكون قصير اليدين طويل الرجلين، طويل الصدر، غليظه، قريبَهُ من الأرض، ناتئَ الزور، غليظ العَضُدين مستقيم اليدين، منضمّ الأظافير، عَريض ما بين مفاصل الأعطاف، عَريض ما بين عظمَىْ أصل الفخذين مع طولها وشدّة لحمهما، دقيق الوسَط، مستقيم الرجلين، قصير الساقين، غير مَحْنِىّ الركبتين، قصير الذنب إن كان ذكرا مع دقة وصلابة، وإن الكلبة

إذا ولدت واحدا كان أفرَه من أبويه وإن ولدت اثنين كان الذكر منهما أفرَه من الأنثى وإن ولدت ثلاثة فيها أنثى فى شَبَه الأم كانت أفره من الثلاثة وإن كان فى الثلاثة ذكر واحد كان أفرهها وإذا أُلْقِيت الجِراءُ وهى صغار فى مكان ندىّ فأيها مشى على أربع فهو أفره .

ومن أعظم أدوائها الكَلَب (بفتح اللام) وهو داء كالجنون يعترى الكَلْب يؤثّر فيمن عضه أنه يخرج من ذكره جِراءٌ صغار .

ومن عجيب ما يحكى فى ذلك أن رجلا عضّه كَلْب كَلِب فتلقاه بكمه فأصابته أسنانه ولُعَابه فشمر كُمَّه ساعةً ثم نشره فتساقط منه جِراءٌ صغار .

ثم كلاب الصيد على ضربين : سَلُوقيّة (بفتح السين) وزُغَاريّة (بضم الزاى) . فأمّا السَّلُوقية فمنسوبة إلى سَلُوقَ بلدة من اليمن كما قاله صاحب "المصايد والمطارد" والمؤيد صاحب حماه فى تقويم البُلْدان والمقرّ الشهابى آبن فضل الله فى "التعريف" قال فى "التعريف" : وهى مولدة بين الثعالب والكلاب، ولذلك لا تقبل التعليم إلا فى البطن الثالث منها ؛ قال : ولها سِلَاح جيد ؛ قال فى "المَصَايد والمَطَارد" ولها أنساب كأنساب الخيل، قال : وقلّ أن يعرِض لها مَرَضُ الكَلَب . وأمّا الزُّغَاريّة فهى ألطفُ قدّا من السَّلُوقية ولم أدر إلى ماذا تُنْسَب .

الصنف الثالث

(ما يعتنى بصيده من الوحش والمشهور منه عشرون ضربا)

الأوّل الحمارة العتابية — وهى حيوان فى صورة البِرْذَوْن موشّى الجلد بالبياض والسَّواد يَرُوق الناظرَ حسنُها، وقد كان أُهْدِى للظاهر برقوق سقى الله عهده حمارةٌ من هذا النوع فأقامت مدّة، ثم أعطاها فقيرا من فقراء العجم فكان يركبها كما تركب

الخيل والحمير ويمشى بها فى القاهرة ، ثم عوّضــه الناصر بن الظاهر سلطانُ العصر عنها عِوضًا ، وٱعتادها منه ، وأرسلها فى هديَّة لآبن عثمان صاحب بلاد الروم غربىّ الخليج القُسْطنطينى .

الثـانى البقر الوحشية ـ وتعرف بالمَهَا ، وهى دونَ البقر الأهلية فى المِقدار ، ولها قَرْنان فى رأسها ، فى كل قرن منهما شُعَب ، وهى من جليل الصيد ، ويقال للفتِىّ منها المَهَا ، وبها يضرَب المثل فى حُسْن العُيون وسوادِها . ومن طبْعه الشَّبَق وشِدّة الشهوة ، ولذلك إذا حملت أنثاه هرَبَتْ منه خوفا من تعبُّثه بها وهى حامل ، وربما ركب الذكرُ الذكرَ لشدّة شـبقه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وكل إناث الحيوان أرق صوتا من الذكور إلا البقر الوَحْشـية فإن الأنثىٰ أفخم صوتا وأظهر من الذكر . ومواضعها من البرية الوَهَدات ، وما ٱستوىٰ من الأرض ودنا من المـاء والعُشْب ، وليست ممـا يسكُن الجبـلَ ، ولذلك عِيب فى ذلك محمدُ بن عبد الملك الزيَّاتُ كاتبُ المعتصم ووزيرُه حيث وصـف ثورا من ثِيرانها برَعْيِه فى الجبـل . وهى ممـا يُصاد بالطَّرْد علىٰ الخيل ، ويقال إن أوّل مَنْ طردها علىٰ الخيل ربيعة بن نِزَار بن معَدّ بن عدنان فإنه أوّل من ركب الخيـل علىٰ قول ، ولمـا ركبها رأىٰ بقرة وحشية فطرَدَها فلجأت إلىٰ مكان يمكنه أخذها منه فرَقَّ لهـا وتركها . ويقال : إن من الكلاب ما يتسلط عليها ويتعلّق بها ، وأقدر مُعِين له عليها من جوارح الطير العُقاب . قال ٱبن السندىّ : ودمها أسرع إلىٰ الجُمُود من دم سائر الحيوان .

الثالث الحُمُر الوحشية ـ ويقال للأنثىٰ من حُمُر الوحش أتانٌ وللذكر حِمَار وعَيْر كما يقال فى الحُمُر الإنسية ، وربمـا قيل الفَرَأُ ، وهو من أشدّ الصـيد عَدْوا ولذلك يُضْرَب به المثل فيقال "كلُّ الصَّيْدِ فى جَنْبِ الفَرَا" أو "فى جَوْف الفَرَا" . وبه تشـبِّه العرب خيْلَها وإبلَها فى السُّرْعة ، ويقال إن الحمـار الوحشىّ لا ينْزُو إلا إذا

كان له من العُمرُ ثلاثون شهرا وإن الانثى لا تَلْقَح منه حتّٰى يتم له ثلاث سنين، وقيل سنتان وستة أشهر . ويوصف بشدّة الغيرة علىٰ أتنِه حتّٰى يقال إن فيها ماإذا وُلِد له ولد ذَكَرٌ كَدَم قضيبَه وخُصيَيْه حتّٰى يقطعهما . قال فى "المصايد والمطارد" وليس يتعلّق به شيء من الضَّوارِى ولا الجوارح إلا العُقَاب، ولا شيءَ أبلغُ فى صيده من الرمى بالنُّشَّاب .

الرابع الغِزْلان — ويقال لها الظِّباء بكسر الظاء واحدها ظَبْى؛ ثم الظِّباء علىٰ ثلاثة أضرب : أحدُها البِيض، ويقال لها الآرَام جمع رِئْم، ومساكنُها الرمل، ويقال هى ضأْن الظِّباء . وثانيها الأُدْم؛ وهى ظِباءٌ سُمْر الظُّهور، بيضُ البُطون، طويلةُ الأعناقِ والقوائم؛ وهى أسرعُها عَدْوا . ومساكنها الجبال والشِّعاب . وثالثها العُفْر وهو صنف يعلوه مع البياض حُمْرة؛ قِصار الأعناق؛ ومسكنها صِلَاب الأرض .

ويصيد جميعَها الفَهْدُ والكلبُ والعُقَاب . وتُصاد أيضا بالحِبَالة والشَّرَك، وربما صِيدَت بإيقاد النار بإزائها : لأن الظبى إذا رأىٰ النار فى الليل تأملها وأدْمنَ النظر إليها وعَشِى بصرُه وذَهل؛ وقد يُضاف إلىٰ النار تحريكُ جَرَس ونحوه فيزداد ذُهُوله فيؤخذ . وتصاد بأمور أخرىٰ غير ذلك .

الخامس الأيابيل — جمع أُيَّل (بضم الهمزة وتشديد الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) . وهو حيوان قريبُ الشَّبَه من الظباء، له قرنان فى رأسه كالظبى . قال فى "المصايد والمطارد" وهو معتصم بالجبل قلَّما يحُلُّ السهلَ، وقُرونه مُصْمَتة لا تجويفَ فيها، ويخلُفها فى كل عام غيرها، ويبتدئ فى ذلك بعد مضىّ سنتَيْن من ولادته، وله أربع أسنان فى كل ناحية من ناحيتَىْ فيه؛ وذكَرُه عَصَب لا لحم فيه ولا غُضْروفَ ولا عَظْمَ؛ ودمُ كل حيوان يَجْمُد إلا دمه؛ وليس للأُنثىٰ منها قرونٌ البتَّةَ؛ وأصوات ذكورها أحمدُ من أصوات إناثها؛ وهو يَرتاح لسماع الغناء . وإذا

مر بشجرة الزيتون ذَلَّ لها، ويأكل الحيات ولا يضره سمها، وسيأتى فى الكلام على الأحجار أن البادزهر الحيوانى من صنف منه . ومن خواصه أنه إذا بخر بقرنه مع كِبْريت أحمر هَرَبت الحيَّات .

السادس الأرانب – جمع أَرْنَب والأرنب مؤنَّثة (١) وهى حيوان صغيرة الجُثَّة قصيرة اليدين قريبٌ من لون الثعلب، وليس شىء مما يُوصَف بقِصَر اليدين أسرعَ منها .

ومن خصائصها كثرة الشَّعر حتَّى إنه لينبت فى بطون شدقَيْها وتحت رجليها . وقضيبُ ذكر الأرنب من عَظْم ؛ وربما ركبت الأنثى الذكر فى السِّفَاد، ولا ينام الأرنبُ الا مفتوح العين . ومن طبعها أنها تطأ الأرض بباطن كفها لتُعفِّى أثَرَها إلا أن الكلب الماهر يدرك أثر قوائمها .

ومن شأنها أن لا تأوى إلى ساحل البحر، وإذا طُردت لجأَتْ إلى الجبال واشتدّ عدْوها فيها، والأنثى لاتسمن، وهى عند العرب مما يحيض، وتُسفَد وهى حبلى، وتلد الأول والثانى على مافى بطنها .

السابع الذِّئاب – جمع ذئب وهو حيوان فى صورة الكلب فى لونه بَلَق بكُمُودة والذئبة أَجْرأُ من الذئب وأشدّ عَدْوا، وأسنانه عظم مخلوق فى فكيه ليست مغروسة فيهما كسائر الحيوان . قال ٱبن السندى : وأخبرنى أبو بكر الدقيشى أن هذه الخلقة فى أسنان الضبع أيضا، والذئب صاحب خلوة وٱنفراد . ومتى رأى الإنسانَ قبل أن يراه أخفى صوتَه؛ وإن رآه جَزع منه ٱجترأ عليه وساوره، وإذا تسافد هو وأنثاه التحما التحاما شديدا حتّى يقال إنه إذا هجم عليهما داخلٌ فى هذه الحالة قتلهما كيف شاء ولذلك يبعُدان فى هذه الحال إلى مكان لا يُريان فيه، وإذا تهارش ذئبان فأدمى أحدهما الآخر عدا الذى أَدْمى على المُدْمى فقتله خوفًا من أخذ الثار ،

(١) فى المصباح ويقع على الذكر والانثى وقد يؤنث بالهاء فتدبر .

وإذا عجز الذئب عن الدفع عوىٰ فاجتمع إليه الذئاب نُصْرةً له ، وإذا لقى الفارسَ والأرض مثلوجة نَحَش الثلج بيديه ورمىٰ به فى وجه الفارس ليُدْهِشه ثم يعقر دابّته فيتمكّن منه ، ومتىٰ وطئ الفرسُ أثرَ الذئب رُعِد وخرج الدُّخَان من جسده كله ولذلك قلّ مَنْ يطرد من الفُرْسان ولا يتفطّن لوطء أثره . ويصاد بالكلاب وغيرها وقد تقدّم أن السودانيَّ ضرّى ذئبا حتّٰى آصطاد له الظباء .

الثامن الثعالب — جمع ثعلب . وهو حيوان معروفٌ، موصوفٌ بكثرة الرَّوَغان فى عَدْوه وبالحيل حتّٰى إنه يتماوَتُ عند رؤية الغُراب فينزل عليه الغرابُ علىٰ ظنّ موته ليأكل منه فيقبضَه هو . ومن خُبْثه وحيلته يختاط بكبار الوُحُوش وجِلّتها ، قال فى "المصايد والمطارد" . ومن فضائله تشبيههم مِشْية الخيل بمِشيته التى يقال لها الثعلبية .

ومن عجائبه أن قضيبه فى خلقة الأنبوبة أو سطُه عظم فى صورة الثقب والباقى عَصَب ولحم . وهو كريم الوَبَر ، والأسود من وبره فى الغاية القُصوىٰ ، والأبيض منه لا يكاد يُفرَق بينه وبين الفَنَك .

ومن خصائصه أنه يتمرّغ فى الزرع فلا ينبُت موضعُه ، وربما سَفَد الكلبة فولدت كلبا فى خِلْقة السَّلُوقىّ الذى لا يُقدر علىٰ مثله . وقد تقدّم ذكر ذلك فى الكلام علىٰ الكلاب السَّلُوقية . ومواضعه الكروم والآجام ؛ ويصيده الفهد والكلب وجوارح الطير

التاسع الضِّباع — جمع ضبع ، ويقال لها أم عامر ، وهى مما يؤكل وإن كانت من ذوات الناب لورود النص بذلك ، وتزعُم العرب أنها تكون سنة ذكرا وسنة أنثىٰ .

ومن خصائصها أنها إذا رأت الكلب فى ليلة مقمرة علىٰ سطح ووطئت ظلّه وقع فأكلته ، وإذا آقتحم عليها مقتحم وِجارَها وقد سدّ جميع منافذ جحرها حتّٰى يمتنع

منه الضوء فلا يبقى فيه خرم إبرة، ربطها بحبل وخرج بها؛ وإن بقىٰ مايدخل منه الضوء، ولو قَدْرَ سَمِّ إبرة وثبَتْ عليه فأكلته. ومن كان معه شئ من الحنظل لم تقربْه الضبع.

العاشر سِنَّور البر ــ وهو التفا، وفى حله عند الشافعية وجهان أصحهما التحريم وَصَيدُه يحتاج إلىٰ علاج كبير، وربمـا وثب علىٰ وجوه الناس، وطردُه بالحيل من أعسر الطراد، وأولىٰ مايُصاد به الرمى، ومنهم من يعدّه فى السباع قال فى "المصايد والمطارد" وقلَّمـا ٱنتُفِع به فى صـيد إلا أنه يَثب علىٰ الكُرْكىّ وما فى مقـداره من الطيور فيصيدُه. أما السِّنَّور الأهلىّ، وهو الهر المعروف فغير مأكول ولا يصيد إلا الفأر وما فى معناه من خَشَاش الأرض، ولذلك قال النبي صـلى الله عليه وسلم، فى الهِرّة ولكنها من الطَّوّافين عليكم بمعنى أنها تطُوف علىٰ النائم فى بيته فتقبض ما لعله يسرح عليه من الخَشَاش.

الحادى عشر الدُّب ــ وهو حيوان قريب فى الصورة من السبع، وهو يسكن الجبال والمغاير(١)، والأنثىٰ ترفع ولدها أياما هَرَبا به من الذرّ والنمل لأنها تضعه كقِطعة لحم فلا تزال تنقله وتراعيه حتّى تشتدّ أعضاؤه، وتجعله تحت شجرة الجوز وتصعَدُها فتجمع الجوزَ فى كفها ثم تضربُ اليمنىٰ علىٰ اليسرىٰ وترمى إليـه، فإذا شـبع نزلتْ وربمـا قطعتْ من الشجرة العُودَ الذى يعجز الناسُ عنه وتقبض عليـه فى موضع مقبِض العصا وتشدّ به علىٰ الفارس وغيره فلا تُصيب به شيئا إلا أهلكته. ومن خصيصته أنه يستتر فى الشتاء فلا يظهر إلا فى الصيف بخلاف سائر الحيوان.

الثانى عشر الخنزير ــ وهو حرام بنص القرءان، نجس فى مذهب الشافعى رضى الله عنه قياسا علىٰ الكلب؛ بل قالوا إنه أسوأ حالا منـه لعدم حِل ٱقتنائه إلا أنه مباح القَتْل فيكون فى معنىٰ الصيد. وهو حيوان فى نحو مِقدار الحمار وشعرُه كالإبر

(١) الاولى والمغارات كما لا يخفى.

وله نابان بارزان من فَكِّه الأسفلِ. ومن خاصَّته أنه لا يُلْقِي شيئا من أسنانه، بخلاف سائر الحيوان فإنها تلقى أسنانَها خلا الأضراسَ؛ وهو كَثير السِّفاد، كثير النَّسْل، حتَّى إنه ربما بلغت عدّة خَنَانيصه[1] وهى أولاده اثنَىْ عشر خِنَّوْصًا[1]. قال فى "المصايد والمطارد" وهو من الحيوان البرىّ الجاهل الذى لا يقبَل التأديب والتعليم، ويقبل السِّمَنَ سريعا، ويقال إنه إذا جعل بين الخيل سَمِنت.

الثالث عشر السَّمُّور ـ (بفتح السين وبالميم المشدّدة المضمومة على وزن السَّفُّود والكَلُّوب). وهو حيوان برّى يشبه السِّنَّوْر، وقد يكون أكبر منه. قال عبد اللطيف البغدادى: وهو حيوان جَرِىء ليس فى الحيوان أجرأُ منه على الإنسان، لا يُصاد إلا بالحِيَل؛ ووقع للنووى فى تهذيب الأسماء واللغات أن السَّمُّور طير، ولعله سبق قلم منه وأغرب ابن هُشام البستىّ فى شرح الفصيح فقال: إنه ضرب من الجن. والتحقيق أنه من جملة الوحوش كما تقدّم. وحكمه حِلُّ أكله، ومنه يتخذ نَفِيس الفِراء التى لا يلبَسُها إلا الملوك وأكابر الأعيان ممن يدانى الملوك لحُسْنها ودِفائها؛ وأحسنه ما كان منه شديدَ النُّعومة مائلا إلى السواد.

الرابع عشر الفَنَك ـ (بفتح الفاء والنون) وهو دُوَيْبَّة لطيفة، لها وبَرحسَنٌ أبيض يخالطه بعضُ حمرة يُتَّخذ من جُلودِه الفراء. قال ابن البيطار: وفروُه أطيبُ من جميع الفِراء، ومزاجه أبردُ من السَّمُّور وأحر من السنجاب، ويصلح للأبدان المعتدلة قال وكثيرا مايُجلَب من بلاد الصَّقَالبة.

الخامس عشر القاقُمُ ـ (بقافين الثانية منهما مضمومة) وهو دُوَيْبَّة فى قدر الفأر لها شعر أبيض ناعم، ومنه يُتَّخذُ الفراء، وهو أبرد مِزَاجا وأرطبُ من السِّنْجاب؛ ولذلك كان لونُه البياضَ، وهو أعز قيمة من السنجاب.

(١) فى الأصل بالسين وهو تصحيف أنظر كتب اللغة.

السادس عشر الدَّلَق ـ (بفتح الدال المهملة واللام وقاف فى الآخر) فارسىّ معرّب، وهو دُوَيْبَّة تقرب من السَّمُّور . قال عبد اللطيف البغدادى: وهو يفترِس فى بعض الأحايين ويكْرَع فى الدم . وذكر ٱبن فارس أنه النِّمس . وقد ذكر الرافعىّ أنه يسمّى ٱبن مُقْرِض والمعروف أن الدَّلَق حيوان تتخذ منه الفِراء .

السابع عشر السِّنجاب ـ وهو حيوان أكبر من الفأر وو بَرُه فى غاية النُّعومة وجلده فى نهاية القوّة . وحكمه الحِلُّ ، وقال بتحريمه بعض الحنـابلة . ويتخذ من جلده الفِرَاء النَّفِيسة التى يلبَسها أعيانُ الناس ورؤساؤُهم . ومن شأنه أنه إذا أبصر الإنسان صَـعِد الشجر العالى ، وفيها يأْوِى ، ومنها يأكل ؛ وهو كثير ببلاد الفرنج والصقالبة ؛ وأحسن ألوانه الأزرقُ ؛ ثم إنه يقال إنه ربمـا تبقىٰ زُرْقته (١) لأنه يُخنَق ولا يُذَكَّى ، فإن صح ذلك فهو ميتـة لا يطهرُ شـعره بالدباغ علىٰ أظهر القولين من مذهب الشافعى رضى الله عنه خلافا للأستاذ أبى إسحاق الاسفراينى وٱبن أبى عَصْرون فإنهما يريان طهارة الشـعر بالدباغ وهو رواية الربيع الجيزىّ عن الشافعى وٱختاره الشيخ تقىّ الدين السبكى رحمه الله .

الثامن عشر سِنَّور الزَّباد ـ وهو فى صورة السِّنَّور الأهلىّ إلا أنه أطول ذَنَبا منه وأكبرُ جثّة، ولونه إلىٰ السواد أميلُ، وربمـا كان أنمَر، وهو يُجْلَب من بلاد الهند والسند؛ والزَّبَاد فيه شبيه بالوسخ الأسود اللزج، ذَفِر الرائحة، يخالطه طِيب كطيب المسـك، ويوجد فى باطن إبطه ، وباطن أفخـاذه، وباطن ذنبه، وحول دُبُره . فيؤخذ من هذه الأماكن بمِلْعقة ونحوها .

التاسع عشر السِّنَّور الأهلىّ ـ (وهو الهرّ) ويقال فى أصل خلقه إن أهل السفينة شكَوْا إلىٰ نوح عليه السلام ضرر الفأر فمسح علىٰ وجه الأسـد بيده فعَطَس فخرج السِّنَّور من أنفه ولذلك هو يشبهه فى التكوين وكيفية الأعضاء ، وفيه مشاركة

(١) كذا بالأصل .

للإنسان فى خصال . منها أنه يَعْطِسُ ، و يتثاءب ، ويتناول الشيء بيده ، ويأكل اللحم ، ويمسح وجهه بلُعابه كأنه يغسله ، وإذا آتسخ شيء من بدنه نظَّفه ، وإذا قضىٰ حاجته خبأ ما يخرج منه ، ويشَمُّه حتَّى تخفىٰ رائحته . ويقال إنه يفعل ذلك كيلا يشَمَّه الفأر فيهرُب ، وهو يهيج للسِّفاد فى آخر الشتاء ، ويُكثِر الصياح حينئذ ، وتحمل الأنثىٰ منه مرة فى السنة ، وتُقِيم حاملا خمسين يوما ، وإذا ألف منزلا منع غيره من السنانير من الدخول إليه ، وإذا طرده أهل البيت تملَّق لهم وترقق ، وإذا آختطف شيئا هرب به خوفَ المعاقبة عليه . والهرّةُ إذا جاعت أكلت أولادها ـ ويقال إنها تفعل ذلك من شدّة الحنوّ . وقد ذكر القَزْوِينىُّ أن نوعا من السنانير له أجنحة كأجنحة الخفافيش متصلة من أذنها إلىٰ ذنبها .

العشرون النِّمْس ـ قال الجوهرى : وهو دُوَيْبَّة عريضة كأنها قطعة قَدِيد ، تكون بأرض مصر تقتل الثُّعْبان ، والنِّمْس بمصر معروفٌ ـ وهو حيوان قصير اليدين والرجلين أغبَرُ اللون ، طويل الذَّنَب ، يصيد الدَّجاج ، وإذا رأىٰ ثعبانا قبض عليه وقتله ، وربما صيد وأُنِّس فتأنَّس .

فإذا علم الكاتب صفاتِ الوحوش وخصائصَها ، عرف كيف يُورد الجليل منها من الأسد والفيل ونحوها موارِدَه فى الوصف ، وكيف يصف ضوارِىَ الصيد كالفَهْد وكيف يصف وحوش الصيد كالظِّباء ، وبقر الوحش ، وحُمُر الوحش وغيرها . وكذلك ما يقع من التشبيهات بشيء من الحيوان كما قال بعض الشعراء :

وتَجْتَنِبُ الأُسُودُ وُرُودَ ماءٍ * إذا كان الكلابُ يَلَغْنَ فيه

وكما أنشد الجاحظ :

جاءتْ مع الأفشين فى هَوْدج * تُزْجِى إلىٰ البَصْرة أجنادَها
كأنَّها فى فِعْلها هِرَّة * تُرِيد أن تأكُلَ أولادَها

مشيرا بذلك إلىٰ ماتقدم من أكل الهرّة أولادها وغير ذلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ وسيأتى ذكر مافى معنىٰ ذلك من الرسائل المتعلقة بأوصاف الحيوان فى المقالة العاشرة المعدّة لذلك إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الرابع
(فيما يحتاج إلىٰ وصفه من الطيور)

ويحتاج الكاتب إلىٰ ذلك فى رسائل الصيد، و إهداء الجوارح، والجواب عن إهدائها، وكتابة قدم البُنْدق، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك؛ وهو علىٰ أربعة أصناف .

الصـــنف الأوّل
(الجـــوارح)

وهى يُصاد بها الطير والوحش؛ ويحتاج الكاتب إلىٰ وصفها فى الرسائل الصيديَّة وفى إهداء شىء من الجوارح أو الجواب عنها .

واعلم أن الصائد الكبير الجُثَّة المعتبرَ فى الصيد فى جميع أجناس الجوارح هى الإناث ؛ أما ذكورها فإنها ألطف فى المقدار وأضعَفُ فى الصـيد علىٰ مايأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ . قال فى "التعريف" ويستحب فى الجوارح كِبَرهامتها ، ونتو صدْرها ، وآتساع حَمَاليقها ، وقوّة إبصارها ، وحدّة مَنَاسِرها ، وصفاءُ ألوانها ، ونُعومة رِيَاشها ، وقوّة قَوادمها ، وتكاثُف خَوَافيها ، وثِقَل محملها ، وخِفَّةُ وَثَباتها ، وآشتدادها فى الطلب ، ونَهَمها فى الأكل ؛ وقد قسمها فى "التعريف" إلىٰ قسمين : صُقُور و بُزَاة ، وفرّق بينهما بأن الصَّقْر ما كان أسودَ العين والبازِىَ ما كان أصفر العين علىٰ آختلاف المسَمَّيات ، ثم قال " أما العُقَاب فإنه لا يعدّ فى الصُّقور ولا فى البُزَاة وهو معدود فى الجوارح ، وفى الطير الجليل" . و بالجملة فالجوارح علىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل

(العُـــقَاب ، وهو ضربان)

الضرب الأوّل ـ المخصوص باسم العُقَاب وهى مؤنّثة لاتذكّر، ويجمع علىٰ عِقْبان وأَعْقُب . قال فى "المصايد والمطارد" وهى من أعظم الجوارح ، وليس بعد النَّسْر فى الطير أعظم منها . وأصل لونها السواد .

فمنها سوداء دَجُوجِيّة، وخُدَارِيَّة، وهى التى لابَيَاضَ فيها . ومنها البَقْعاء ـ وهى التى يخالط سوادَها بياضٌ . ومنها الشَّقْراء ـ وهى التى فى رأسها نُقَط بياض . قال أبو عبيدة و يونس : و يقال لذكر العُقَاب الغَرَنُ بفتح الغين والراء المهملة ـ و يقال إن ذُكور العُقْبان من طير آخر لِطافِ الجرم، لاتُساوى شيئا، تلعب بها الصِّبْيان . والعُقَاب من أسرع الطير طَيَرانا ، فقد حُكى أن عُقَابا حملت كفَّ عبد الرحمن بن عَتَّاب ابن أسيد المسمّى بيَعْسُوب قريش، المقتول يوم الجمل بالكوفة، فألقتْها بمكة فأُخذتْ فوُجِد بها حَلْقَـة فعرف أنها كفه ، وأُرِّخ ذلك الوقت فتبـيّن أنها ألقتها يوم الجمل الذى قتل فيه، وأوّلُ مَن صادها أهلُ المغرب، فلما نظرت الرُّوم إلىٰ شِدّة أمرها و إفراط سُلَاحها قال حكماؤهم هذا لايفِى خيرُه بشرِّه .

وصفة الوثيق النجيب منها وَثَاقَةُ الخلق، وثُبُوت الأركان، وحُمْرة اللون، وغُـُـور العين بالحماليق، وأن تكون صَقْعاء، عَجْزاءَ، لا سيما ما كان منها من أرض سُرْتَ أو جبال المَغْرب. وهى تصيد الظِّباءَ والثَّعالِبَ والأرانب، وقد تصيد حُمُر الوحش، وطريق صيدها إيَّاها أنها إذا نظرتْ حِمار الوحش رمتْ بنفسها فى المـاء حتّى يبتلّ جناحاها ثم تخرج فتقع علىٰ التراب فتحمل منه ومن الرمل ما يَعْلَق بهـما ، ثم تطير طَيَرانا ثقيـلا حتّى تقع علىٰ هامته فتُصفِّق علىٰ عينيه بجناحيها فيمتلئان ترابا من ذلك

التراب الذى عَلِق بجناحيها، فلا تستطيع المَسيرَ بعد ذلك فيدركها القانُص فيأخذها وربما كسَرت الآدمىَّ .

ومما يحكىٰ فى ذلك أن قيصر ملك الرُّوم أهدىٰ إلىٰ كسرىٰ ملك الفُرْس عُقَابا، وكتب إليه إنها تعمل أكثَرَ من عمل الصُّقُور، فأمر بها كسرىٰ فأُرسلتْ علىٰ ظبْي فاقتنصته، فأعجبه ما رأىٰ منها فٱنصرف وجوّعها ليصيد بها فوثبت علىٰ صبىّ له فقتلته، فقال كسرىٰ : إن قيصر قد جعل بيننا و بينه دما ثائرا بغير جَيْش . ثم إن كسرىٰ أهدىٰ إلىٰ قيصر نَمِرا وكتب إليه : أن قد بعثت إليك فَهْدا يقتل الظباء وأمثالها من الوحش، وكتم ماصنعت العُقَاب فأَعجَبَ قيصرَ حسنُ النمر ووافق صفتُه ما وصف من الفهد وغفل عنه فافترس بعض فِتْيانه فقال صادنا كسرىٰ .

ومن شأنها أنها لاتطلب شيئا من الوحش الذى تصيده، وهى لاتقرُب إنسانا أبدا خوفا من أن يطلب صيدها، ولاتزال مرقبة (١) علىٰ مرقب عال، فإذا رأت بعضَ سباع الطير قد صاد شيئا ٱنقضّت عليه، فإذا أبصرها هرب وترك الصيد لها، فإن جاعتْ لم يمتنع عليها الذئبُ فى صيدها، وربما ٱغتالت البُزَاة فقتلتْها،

ومن خصائصها أنها أشدّ إخفاء لفِراخها من سائر الطير . قال غِطْريف بن قُدَامة الغسانى صاحب صَيْد هشام بن عبد الملك : "وأوّلُ من لعب بالعُقَاب أهلُ المغرب"، فلما عرفوا أسرارها نَفَّذوه إلىٰ ملك الروم فاستدعىٰ جميع حكمائه فقال لهم : ٱنظروا فى قوة هذا الطير، وعِظَم سلَاحه، كيف تجب تربيته، وتعرّفوا أسراره فى صيده وتعليمه، وكيف ينبغى أن يكون ـ فأجابوا جميعا بأن هذا الطائر دون سائر أجناسه كالأسد فى سائر الوحوش وكما أن الأسد ملك كذلك هذا ملك بين سائر سباع الطير ـ وعند العداوة والغضب كلُّ الأجناس عنده من سائر الحيوان

(١) لعله مرتقبة

على آختلاف أنواعه واحد لقوّة غضبه وشدّة بأسه فهو لا يستعظم الآدمىّ ولا غيره من الحيوان .

الضرب الثانى ــ الزُّمَّج (بضم الزاى وفتح الميم المشدّدة ثم جيم) والعامّة تبدل الزاى جيما والجيم زايا ــ وهو طائر معروف تصيد به الملوكُ الوحشَ، وأهل البيْزرة يعُدّونه من خِفَاف الطير الجوارح، إلا أنهم يصفُونه بالغَدْر وقِلّة الإلف لكثافة طبعه وكونه لا يقبل التعليم إلا بعد بطء،

ومن عادته أنه يصيد على وجه الأرض . وأحسن صفاته أن يكون أحمر اللون . وقال الليث : الزُّمَّج طائر دون العُقاب حمرتُه غالبة، والعجم تسميه دُوْبَرَا دَرَان ومعناه أنه إن عجز عن الصيد أعانه عليه أخوه .

القسم الثانى

(من الجوارح البُزَاة . وهى ما آصفرت عينُه، وهى على خمسة أضرب)

الأوّل ــ البازى المختص فى زماننا باسم البازى؛ وفى ضبطه ثلاثُ لغات أفصحها بازِى بكسر الزاى وتخفيف الياء فى الآخر، والثانى بازٍ بغير ياء فى آخره، والثالث بازىّ بإثبات الياء وتشديدها حكاها آبن سيده؛ ويقال فى التثنية بازِيَان وفى الجمع بوَازٍ وبُزَاة ــ ولفظه مشتق من البَزَوان ــ وهو الوَثْب . وهو خفيف الجَنَاح، سريع الطَّيَران . وهو من أشرف الطُّيور الجوارح، وأحرصها على طَلَب صيده . ففى أخبار نصر بن سَيَّار أن بعض كُبَراء الدَّهَاقِين غَدَا عليه بطَبَرِسْتان ومعه مِنْديل فيه شىءٌ ملفّف، فكشف عنه بين يديه فإذا فيه شِلْو بازٍ ودُرّاجة، فأطلقه عليها فأحسَّت به، وكنت قد أمرت بإحراق قَصَب قد أفسد أرضا لى فتحاملت الدُّرّاجة حتّى

آقتحمت النارَ هاربة من البازى ،وآشتدّ طلبه لها وحرصه عليها فلم تردّه النارُ عنها وآقتحمها فى أثرها فأسرعَتْ فيهما فأدركهما وقد آحترقا ، فأحضرهما إلى الأمير ليراهما فيرىٰ بهما ثمرَة إفراط الحرص و إفراط الجُبْن . وهو من أشدّ الحيوان كبْرا وأضيقها خُلُقا . قال القَزْوينىّ ولا يكون إلا أنْثىٰ ، وذكرها نوع آخر من حِدأة أو شاهينٍ أو غيرهما . ولذلك تختلف أشكالُها . والبازى قليل الصبر علىٰ العطَش ومأواه مساقِطُ الشجَرِ .

ومن فضيلته أن الصيد فيه طبيعةٌ لأنه يؤخذ من وَكْره فرخا من غير أن يكون يَصيد مع أبويه فيصيد آبتداء وقريحةً من غير تضرية ، بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ قبل أن يتصيد مع أبويه لم يَنْجُب ولم يصِدْ ، و إذا كان قد لحق أبويه وصاد معهما ثم عُوِّد أكثرَ مما يوجد عنده فى تلك الحال وجُرِّئَ علىٰ ما هو أكبر من الظباء اعتاد ذلك ومَهَر فيه . قال صاحب "المصايد والمطارد" : وعددُ ريش جَناح البازى عشرون ريشةً ، أربع قوادم ، وأربع مناكِبُ ، وأربع أباهِرُ ، وأربع كُلًى ، وأربع خَوافٍ . ويقال سبعُ قوادمُ ، وسبعُ خَوَافٍ ، وسائره لَغَب . والخَوَافى أخفُّ من القوادم .

والمستحب من صفاته صغر المِنْسَر ، والرأس ، وغِلَظ العنق ، وسَعة اللحيين ، ودائرتى الأذنين والشِّدْقين ، وسَعةُ الحَدَقة ، وطُول القَوَادم ، وقِصرُ الخوافى والذَّنَب ، وشِدّة اللحم ، وعِرَض مابين المنكبين والزَّوْر ، وسَعة الحَوْصَلاء ، وسَعة ماينتقل إليه طُعْمه ، وعِرَض المَخالب ، ورَزَانة المَحْمَل ، وغِلَظ خُطوط الصدر ، وذَكاء القلب ، والتشميرُ ، وكثرةُ الأكل ، وتتابعُ النَّهْش ، وسُرعةُ الاستمراء ، وشدّة الآنتفاض ، وضخامة السُّلاح (١) ، و بُعدالذَّرْق . وأن تراه كأنه مُقْعِيًا (١) إذا استقبلته علىٰ يد حامله تشبيها بالغُراب الأبْقع . قال صاحب " المصايد والمطارد " : والمختار من ألوانها الأحمرُ

(١) كذا فى الاصل .

الأكثرُ سوادا ، الغليظُ خطُوط الصدر ، والأشهبُ الشديدُ الشُّهبة ، الشَّبيه بالأبيض، والأصفر المدبَّج الظهر . قال : وسواد لسانه أدلُّ علىٰ نجابته ،

والبازى يصيد الكلبَ، والأرنبَ، والغزالَ، والكُرْكِيّ ومافى معناه، والدُّرّاجَ، والحجلَ، وسائر الحمام، والبطّ، وسائر طيور الماء .

ومن محاسن البازى عدمُ الإباق فإنه إن صاد بَقِيَ علىٰ فريسته و إن لم يصد وقف مكانه فلا يحتاج إلىٰ كدّ ولا تعب ولا طَرْد خيل . وأوّل من صاده من الملوك قُسْطنطين ملك الروم ـ وذلك أنه مر يوما بلِحْف جبل فرأىٰ بازياً يطير ثم نزل علىٰ شجرة كثيرة الأغصان كبيرة الشوك، فأعجبته صورته ، وراقه حسنُ لباسه ، فأمر بأن يصاد له جملةٌ من البُزاة فصيدتْ له وحملت إليه فارتبطها فى مجلسه ، فعرض لبعضها فى بعض الايام أيْمٌ(١) فوثب عليه فقتله ـ فقال : هذا ملك يُغضبه ما يغضبُ الملوك فنصب له بين يديه كندرة ، وكان هناك ثعلب داجنٌ، وهو الذى يربَّى فى البيوت فوثَب عليه فما أفْلت إلا جريحا ـ فقال هذا ملك جبَّار لايحتمل ضيما ـ ثم مرّ به طائر فكسَره ونهش منه ـ فقال هذا ملكٌ نوعه لما جاع أخذ طعامه بسلطان وقدرة ـ فحمله علىٰ يده وصاد به .

الثانى الزُّرّق ـ (بضم الزاى المعجمة وتشديد الراء المهملة المفتوحة وقاف فى الآخر) وهو ذكر البازى قال فى "المصايد والمطارد" وهو يصيد ما يصيد البازى من دِقّ الطير ولا ينتهى إلىٰ صيد الكُرْكِيّ .

الثالث الفقيمى(٢) ـ وهو بازٍ قضيفٌ قليل الصيد ذاهلُ النفس .

الرابع الباشَق ـ (بكسر الشين وفتحها) فارسى معرّب وهو طائر لطيف

(١) الايم الحية انظر القاموس (٢) فى حياة الحيوان العقصى ولم نجدهما فى القاموس .

وصـفاته المحمودة كصفات البازى المحمودة . وأفضلها أثقلها وزنا قال فى" المصايد والمطارد" وهو يصيد العصافير وما قاربها . وقال فى حياة الحيوان : إنه يصيد أكثر مايصيده البازى وهو الدُّرّاج والحَمَام والوَرَشان، وإذا قوىَ على صـيده لايتركه إلا أن يتلَفَ أحدهمـا .

الخامس البَيْدق ـ وهو دون الباشق، وصيدُه العصافيرُ .

القسم الثـالث

(من الجوارح الصقور ـ وهى السُّود العيون من الجوارح ؛ وهى ضربان)

الضرب الأوّل ـ الشَّواهين (واحدها شاهين) وهى صنفان . الأوّل المشتهر باسم الشاهين وقد ذكر العلمـاء بالجوارح أن الشَّواهين هى أسرع الجَوارِح كلها وأشجَعُها وأخفُّها وأحسنُها تقلبا، وإقبالا، وإدبارا، وأشدّها ضَراوةً على الصيد؛ إلا أنهم عابوها بالإبَاق وما يعتريها من شدّة الحِرْص، حتّى إنها ربمـا ضربَتْ نفسها على الغَلْظ من الأرض فماتتْ، وهى أصلب عظاما من غيرها من سائر الجوارح ـ ويقال إن صدرها عَصَب مجدول مُلْحم . ولذلك تجدها تضرب بصدرها ثم تَعْلَق بكفها، وهم يحمَدُون منها ماقَرْنَص داجناً دُون ماقرنص وحشِيًّا .

ومن كلام بعضهم : الشاهين كآسمه يعنى كالميزان المسمّى بالشاهين، فإنها لا تحمل أيسر حال من الشبع ولا أيسر حال من الجوع؛ بل حالُها معتدل كاعتدال الميزان . ويقال إن الحمـام يخافها أكثَرَ ممـا يخاف غيرها من الصقور .

ثم المختار من صـفاتها فيما ذكره صاحب " المصايد والمطارد" الأحمرُ اللونِ إذا كان عظيم الهامة، واسع العينين حادّهما، سائل السُّفْعتين، تامّ المَنْسِر، طويلَ العُنُق، رَحْب الصـدر، ممتلئ الزَّوْر، عرِيض الوسَـط، جليل الفخذين، قصير

الساقين ، قريب القعدة من القفا ، طويلُ الجناحين ، قصير الذَّنَب ، سَبْط الكف ، غليظ دائرة الخَصْر ، قليل الريش لَيِّنه ، تامّ الخَوافى ، ممتلِئ العكوة ، رقيق الذَّنَب إذا صلب عليه جناحيه لم يفضل عنهما شيء من ذنبه . قال صاحب "المصايد والمطارد" وأهل الاسكندرية يزعمون أن السود منها هى المحمودة وأن السواد هو أصل لونها وإنما انقلبت إلىٰ لون البرارى لخالت . قال والحمر منها تكون فى الأرياف والمواضع السَّهْلة ، والشُّهُب فى الجبال والبرارى . ثم قال ولا يصيد منها الكركىّ والحَبْرَج إلا البَحْريَّة . وأوّل من صادها فيما يقال قُسْطنطين ملكُ الروم أيضا ، وذلك أنه رأىٰ شاهينا محلّقا علىٰ طير الماء يصطاده فأعجبه ماعاين من فَرَاهته ، وسُرْعة طيرانه وحُسْن صيده ؛ فإنه رآه يحَلِّق فى طيرانه حتّٰى يلحق بعَنَان الجوّ ثم يعود فى طرفة عين فيضْرِب طيرَ الماء فيأخذُه قِنَاصا . فقال ينبغى أن يصاد هذا الطائر ويُعلَّم ، فإن كان قابلا للتعليم ظهر منه أُعْجوبة فى أمر الصيد ، فأمر بصيده وتعليمه فصيد وعلم وحمله علىٰ يده . قال فى "المصايد والمطارد" وانه كان من رتبة ملوك الروم أنه إذا ركب سارت الشواهين حائمة علىٰ رأس الملك حتّٰى ينزل فتقع حَوْله إلىٰ أن ركب بها ملك منهم ، وسار وهى علىٰ رأسه فطار طائر فانقضّ بعض تلك الشواهين عليه فاقتنصه وأُعْجب الملك به فضَرَّاها علىٰ الصيد وصاد بها .

وقال ابن عُفَير : كانت ملوك العرب إذا ركبت فى مواكبها طيّروا الشواهين فوق رءوسهم ، وكان ذلك عندهم هو الرتبة العظيمة .

الثانى من الشواهين الأنيوه (١) قال فى "المصايد والمطارد" وهو دونَ الشاهين فى القوة ، وله سُرْعة لاتزيد علىٰ صيد العصافير .

الضرب الثانى — من الصقور ماعدا الشواهين وهى أصناف .

الأوّل السُّنْقر . قال فى "التعريف" وهو أشرفُ الجَوَارح وإن كان لا ذِكْرَ له

(١) لم نعثر على هذا الاسم .

فى القـديم . قال والسَّناقر تُجْلَب من البحر الشامىّ مغالًى فى أثمانها . ثم قال وكان الواحد منها يبلُغ ألف دينار، ثم نزل عن تلك الرتبة، وآنحط عن تلك الهَضْبة .

الثانى ــ المخصوص فى زماننا باسم الصَّقْر ويجمع علىٰ أصْقُر وصُقُور وصُقور وصَقورَة قال فى ”التعريف“ والعرب تسمى هذا النوع الحُرّ . ويقال له الأكدر، والأجْدل . قال فى ”المصايد والمطارد“ ويقال لها بِغَال الطير : لأنها أصبر علىٰ الأذىٰ، وأحمل لغليظ الغـذاء، وأحسن إلفا ، وأشـدّ إقداما علىٰ جِلَّة الطير، ومِزَاجُه أبرد من البازى والشاهين، وبسبب ذلك يُضَرَّى علىٰ الغزال والأرنب ولا يُضَرَّى علىٰ الطير لأنه يفوته، وهو أهدىٰ من البازى نَفْسا، وأسرع آستئناسا بالناس وأكثرها قُنعا، وأبردُ مِزاجا ، لا يشرب ماءً وإن أقام دهرا . ونوع يُوصـف بالبَخَر ونَتْن الفم ومسكنه المغائر والكهوف وصُـدوع الجبال دون رءوس الأشجـار وأعالى الجبال، والعـرب تحمَدُ من الصُّقُور ما قَرْنص وحشيًّا ، وتذم ما قرنص داجناً ، وتقول إنه يتبلد ولا يكاد يفلح . وهى تصيد الكُرْكىّ ومافى معناه، والبَطَّ وسائر طير المـاء .

والصقور من أثبت الجوارح جنَانا فى الطيران ، وأحرصها فى آتباع الصيد، حتىّ يحكى أن بعض ملوك مصر أرسـل صقرا علىٰ كركىّ صبيحة يوم الجمعـة بمصر فبينما الناسُ يصلُّون الجمعة بدمشق إذ وقع هو والكركىّ بالجامع الأموىّ بدمشق ، فأخذ فوجد فيـه لَوْحُ السلطان فعرف به، فكتب نائب الشام إلىٰ السلطان يخبره وأرسله إليه هو وصيده . قال فى ”المصايد والمطارد“ ومن ألوان الصقر كونه أحمر، وأبغَثَ، وأحوىٰ، وأبيضَ، وأخْرجَ، وهو الذى فيه نقط بيض . قال ويستحب فى الصقر أن يكون أحمرَ اللون، عظيمَ الهـامة، واسعَ العينين، تامّ المَنْسِر، طويلَ العُنُق، رَحْب الصَّـدْرِ، ممتلئ الزَّوْر، عريض الوَسَـط، جليل الفَخِذين، قصير الساقيْنِ، قريب القَعْدة من القفا، طويلَ الجناحيْنِ، قصيرَ الذَّنَب، سَبْط الكف،

غليظَ الأصابع فيروزَجَها، أسود اللسان . قال وتجمع هذه الصفاتُ الفَرَاهةَ والوَثَاقةَ والسرعةَ . قال أدهم بن محرز : وأوّل من لعب بالصقر الحارثُ بن معاوية بن كِنْدَة الكِنْدِيّ – خرج يوما الى الصيد فرأى صيَّادين قد نصبوا شِبَاكا عِدّة، فوقع فيها عصا فير عِدّة فحين رآها صقر من الجوّ آنقضّ عليها يطلُبها فأمر الحارث بنصْب الشباك للصقور فنُصبت لها فآصطاد منها جملةً . ويقال إن صيد الصقر غير طبيعيّ له . وإنما يستفيد ذلك بالتعليم بدليل أن فراخ الباز إذا أخذت من العُشّ وعلِّمت آصطادت أجودَ صيد لأن صيدها طبيعيّ بخلاف الصقر فإنه إذا أخذ من الوَكْر ثم كَبِر فإنه لايصطاد غير طُعْمه فلذلك يُنْهى عن تربية الصقر .

الثالث الكُونَج – قال فى حياة الحيوان نسبته من الصقور كنسبة الزُّرّق إلى البازى إلا أنه أحرُّ منه، ولذلك كان أخفَّ جناحا وأقلَّ بَخَرا . قال ويصيد أشياءَ من طير الماء ويعجز عن الغَزال لِصغره .

الرابع الكُوهِيَّة – وهى موشّاة بالبياض والسواد يخالط لونَها صُفْرة ، قال فى "التعريف" وتجلب من البحر .

الخامس السقاوة، وهى قريبة الشكل من الصقر .

السادس اليُؤْيُؤ – (بضم الياء المثناة تحت وهمزة بعدها وضم الثانية وهمزة بعدها أيضا) قال فى "المصايد والمطارد" وتسميه أهل مصر والشام الجَلَم، وبهذا سمّاه فى "التعريف" وهو طائر صغير أسود اللون يَضْرِب للزُّرْقة ، وهى مع صغرها يجتمع الاثنان منها على الكركىّ فيصيدانه، وسمَّوْه الجَلَم أخذا من الجَلَم : وهو المِقصّ تشبيها به لأن له سرعةً كسُرْعة المِقَص فِى قطعه، ومزاجُه بالنسبة إلى الباشَق بارد رَطْب لأنه أصبر نَفَسا منه ، وأثقل حركةً . وهو يشرب الماء شُرْبا ضروريا كما يشربه الباشَق، ومزاجه بالنسبة إلى الصقر حارّ يابس ولذلك هو أشجعُ منه . ويقال

إن أوّل من ضرّاه على الصيد وآصطاد به بهْرام جور : أحدُ ملوك الفرس ، وذلك أنه رأى يُؤْيُؤا يطارد قُنْبُرة ، ويراوغها ، ويرتفع معها ثم لم يتركها حتّى صادها ؛ فأمر بتأديبه والصيد به .

الصـــــنف الثـانى

(الطير الجليـــل)

وهو المعبر عنه بطير الواجب ، وبه تعتنى رماة البندق ونحوها ، وتفتخر بإصابته وصَرْعه ويحتاج إليه فى الرسـائل الصـيدية ، وفى كتابة قدم البندق ونحوها . وهو أربعـة عشر طائرا ؛ وهى على ضربين .

الضرب الأوّل ـ طيور الشتاء ـ وهى التى يكثر وُجْدانها فيه ـ وهى عشرة طيور .

الأوّل الكُرْكِىّ ـ وهو طائر أغبَرُ ، طويل الساقين ، فى قدر الإوزّة ، ويجمع على كَراكِىّ ؛ وفى طبعه خَوَر يحمله على التحارُس ، حتّى إنه إذا آجتمع جماعة من الكَراكِىّ لابدّ لهـا من حارس يحرسُها بالنَّوْبة بينها . ومن شأن الذى يحرُس منها أن يهتف بصوت خَفِىّ كأنه ينذر بأنه حارس فإذا قضى نوبتـه ، قام واحد ممن كان نائمـا يحرُس مكانَه حتّى يقضى كلٌّ منها نوبتَه من الحِراسة ، ولا تطير متفرّقة بل صـفًّا واحدا ، يقْدَمها واحد منها كالرئيس لها وهى تتبعه ، يكون ذلك حينا ثم يخلفه آخرُ منها مقدّما حتّى يصـير الذى كان مقدّما مؤخّرا ، وفى طبعها التناصُر والتعاضُد . ومن خاصتها أنّ أنثاها لاتقعد للسفاد بل يَسْفِدها وهى قائمة ، ويكون سفاده سريعا كالعصفور . وذكر جُمَيع بن عمير التميمى أنّ الكراكِىّ تبيض فى السماء ، ولا تقع فِراخُها ، وكذبه المحدّثون فى ذلك وإن كان قد روى عنه أهل السنن .

قال القَزوِينى فى عجائب المخلوقات ، والكُرْكىّ لايمشى على الأرض إلا بإحدى رجليه

و يعلّق الأُخرىٰ ، و إن وضعها وضعا خفيفا مخافة أن تُخسَف به الأرضُ قال فى "المصايد والمطارد" وهو من أبعد الطير صَوْتا يُسمَع علىٰ أميال . قال و إذا تقدّم مجيئها فى الفصل استُدِلّ بذلك علىٰ قوّة الشتاء . و يقال إن الكراكىّ تأتى إلىٰ مصر من بلاد التُّرك . وفى طلبه وصيده تتغالىٰ ملوكُ مصر تغَاليا لايدرك حدّه ، وتنفق فى ذلك الأموال الجَمَّة التى لانهاية لهـا . وكان لهم من علو الشأن بذلك مالا يكون لغيرهم . وأكله حلال بلا نِزاع .

الثانى الإوز ـ بكسر الهمزة وفتح الواو ـ واحدته إوزّة و جمعوه علىٰ إوزُّون والمراد هنا الإوز المعروف بالتركىّ ، وهو طير فى قدر الإوز البلدىّ أبيضُ اللون . وله تبختُر فى مِشيته كالحَجَل ، وهو من جملة طير المـاء مقطوع بحل أكله .

الثالث اللَّغْلَغ ـ وهو دون الإوز فى المقدار ، لونه كلون الإوز الحبشىّ إلىٰ السواد ، أبيض الجَفْن ، أصفر العين . ويعرف فى مصر بالعِرَاقى ، ويأتى إليها فى مبادئ طلوع زرعها فى زمن إتيان الكراكىّ إليهـا . ومن شأنها أن يتقدّمها واحد منها كالدليل لهـا ، ثم قد تكون صفا واحدا ممتدّا كالحبل ودليلُها فى وسطها متقدّمٌ عليها بعضَ التقدّم . وقد يصُفُّ خلفه صفين ممتدّين يلْقيانِه فى زاوية حادّة حتى يصير كأنه حرف جيم بلاعراقة ، متساوية الطرفين . ومن خاصتها أنها إذا كبِرت حدث فى بياض بطونها وصدورها نقطٌ سُود ، والفرخ منها لا يعتريه ذلك .

الرابع الحُبْرج ـ (بضم الحاء المهملة وسكون الموحدة وضم الراء المهملة وجيم فى الآخر) ـ وهو الحُبارىٰ . قال فى "المصايد والمطارد" ويقع علىٰ الذكر والأنثى ويجمع علىٰ حُبارَيات وذكر غيره أنّ واحده وجمعه سواء . وبعضهم يقول إنّ الحُبْرُج هو ذكر الحبـارىٰ . قال فى "المصايد والمطارد" وهو طائر فى قَـدْرِ الديك ، كثير الرِّيش : و يقال لها دَجاجة البَرّ . قال فى حياة الحيوان : وهى طائر طويل العُنُق ،

رَمَادىّ اللون ، فى مِنْقاره بعضُ طول ، يقـال لذكر الحبارىٰ الخَرْب (بفتح الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وباء موحدة فى الآخر) (١) ـ ويجمع علىٰ خِرَاب وأخرابٍ وخِرْبان .

ومن خاصته أنّ الجارح إذا آعتنقها أرسلت عليه ذَرْقا حاصلا معها، متى أحبت أرسالته ، فيه حدَّة تمعِّط ريشَه ، ولذلك يقال : سُـلاحُها سِلاحها . قال فى حياة الحيوان : وهى من أشدّ الطير طَيَرَانا ، وأبعدها شَوْطا ، فإنها تُصاد بالبصرة فيوجد فى حواصلها الحبةُ الخضراء التى شجرُها البُطْم، ومنابتُها تُخوم بلاد الشام، وإذا نُتِف ريشها وأبطأ نباته ماتت كمدا ـ قال وهى من أكثر الطير جَهْدا فى تحصيل الرزق، ومع ذلك تموت جُوعا بهذا السبب . قال فى "المصايد والمطارد" : وهى مما يُعاف لأنها تأكل كلَّ شئ حتّٰى الخنافس ـ وقال فى حياة الحيوان : حكمها الحلُّ لأنها من الطيبات، وآستشهد له بحديث الترمذى من رواية سَفِينة مولىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال : "أكلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حُبارىٰ" ويقال لولدها اليَحبُور، وربمـا قيل له نَهَار كما يقال لولد الكَرَوان ليل .

الخامس التَّمُّ ـ بفتح التاء وتشديد الميم ـ وهو طائر فى قدر الإوز أبيضُ اللون، طويلُ العنق، أحمرُ المِنْقار، وهو أعظم طيور الواجب وأرفعها قدرا .

السادس الصوغ ـ بضم الصاد المهملة وغين معجمة فى الآخر (٢) ـ وهو طائر مختلط اللون من السواد والبياض، أحمرُ الصدر، وأكثر ميله إلىٰ الخضرة والأشجار .

السابع العُنَّاز ـ بضم العين المهملة وتشديد النون وزاى معجمة فى الآخر ـ وهو طائر أسودُ اللون، أبيضُ الصدر، أحمر الرجلين والمِنْقار .

---

(١) لعله وفتح الراء . أنظر القاموس .

(٢) ذكره المجد وغيره فى فصل الضاد المعجمة من باب العين المهملة وضبطه كصرد فليتنبه .

الثامن العُقَاب وقد تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ الجوارح حيث هو معدود منها ومن طير الواجب؛ومما يتعلق بهذا المكان أنها منها الأسود،والخوخية،والسُّفْع، والأبيض، والأشقر. ومنها ما يأْوِى الجبال، وما يأْوِى الصحارىٰ، وما يأْوِى الغِياض، وما يأْوِى حول المُدُن .

وقد تقدّم ذكر الخلاف فى أن ذَكَرها من جنسها أو من جنس آخر فى الكلام علىٰ الجوارح . وحكمُها تحريم الأكل لأنها من ذوات المِخْلَب من الطير، وآختلف فى قتلها هل هو مستحبٌّ أم لا فجزم الرافعىّ والنووىّ من أصحابنا الشافعية فى الحج باستحباب قتلها. وجزم النووىّ فى شرح المهذب بأنها من القسم الذى لايستحب قتله ولا يكره،وهو مايجتمع فيه نفع ومضرة،وبه جزم القاضى أبو الطيب رحمه الله.

التاسع النسر بفتح النون، ويجمع فى القلة علىٰ أَنْسُر. وفى الكثرة علىٰ نُسُور، وسمى نَسْرًا لأنه ينْسُر الشئ ويبتلعه . والنَّسر ذو مَنْسِر وليس بذى مِخْلَب وإنما له أظفار حِدَاد كالمخالب، وهو يَسْفِد كما يسفِد الديك . وزعم قوم أن الأنثىٰ منه تبيض من نظر الذكر إليها وهى لاتحضُن بيضَها، وإنما تبيض فى الأماكن العالية الظاهرة للشمس فيقوم حرّ الشمس للبيض مَقام الحَضْن . والنسر حادّ البصر يرىٰ الجيفة من أربعمائة فرسخ، وكذلك حاسَّة شمه فى الغاية؛ ويقال إنه إذا شم الرائحة الطيبة مات لوقته؛ وهو أشدّ الطير طَيرانا وأقواها جناحا حتّى يقال إنه يطير مابين المشرق والمغرب فى يوم واحد . وإذا وقع علىٰ جيفة وعليها عِقْبان تأخرتْ ولم تأكل مادام يأكل منها، وكل الجوارح تخافه، وهو فى غاية الشَّرَه والنَّهَم فى الأكل إذا وقع علىٰ جيفة وآمتلأ منها لم يستطع الطيران حتّى يثب وَثَبات يرفع بها نفسَه طبقةً فى الهواء حتى يدخل تحت الريح، وربما صاده الضعيف من الناس فى هذه الحالة، والأنثى منه تخاف علىٰ بيضها وفراخها الخُفَّاشَ فتفرُش فى أوكارها ورق الدُّلب لتنفر منه

الخُفَّاش ، وهو من أشــدّ الطير حزنا علىٰ فراق إلْفه حتّٰى إذا فارق أحدُهمـا الآخَر مات حُزْنا .

وهو من أطول الطير أعمارا حتّٰى يقال إنه يُعمَّر ألفَ سنة . وحكمه تحريم أكله لأنه يأكل الجِيَف .

العاشر الأنيسة ـ قال فى حياة الحيوان : بذلك تسميه الرُّماة وإنما اسمه الأَنِيس . قال : وهو طائر حادّ البصر، يشبه صوتُه صوتَ الجمل، ومأواه قربَ الأنهار والأماكن الكثيرة المياه الملتفة الأشجار، وله لونٌ حسَن، وتدبير فى معاشه . وقال ارسطو : إنه يتولد من الشِقِرّاق والغراب . وذلك بيِّن فى لونه . ويقال إنه يحب الأنس، ويقبل الأدب والتربية، وفى صَفيره وقَرْقَرَته أعاجيبُ ، حتّٰى إنه ربمـا أفصح بالأصوات كالقُمرىّ، وغذاؤه الفاكهةُ واللحم وغير ذلك . ومن شأنه أُلفة الغِياض . وحكمه الحل لأنه طيب غير مستخْبَث . فإن صح تولده من الشِّقِرَّاق والغراب فينبغى تحريمه . والأَنِيســة ذات ألوان مختلفةٍ، بدنُها يميل إلىٰ الغُبْرة، وعنقُها يشتمل علىٰ خضرة وزُرْقة، ويقال إنها أشرف طيور الواجب وأعزُّها وجودا .

الضرب الثانى طيور الصيف ـ وهى التى يكثر وجودها فيه، وهى أربعة أطيار .

الأوّل الكى (١) بضم الكاف : وهو طير أغبر اللون إلىٰ البياض، أحمر المِنْقار والحَوْصَلَة، رجلاه تَضْرِبان إلىٰ السواد .

الثانى الغِرْنَوْق ـ بكسر الغين المعجمة وفتح النون ـ ويقال فيه غُرْنَيْق ـ بضم الغين وفتح النون، ويجمع علىٰ غَرانيقَ . قال الجوهرى : وهو طائر أبيض من طير الماء طويلُ العنق، وتبعه الزمخشرىّ علىٰ ذلك . وقال أبو خيرة : وسمى غُرْنَيْقا لبياضه . وقال صاحب "المصايد والمطارد" الغرنيق كركىّ إلا أنه أخضرُ طويل المِنْقـار ،

(١) لم نعثر عليه فى حياة الحيوان ولم يذكر فى معاجم اللغة .

وقيل : لونه كلون الكركىّ إلا أنه أسود الصدر والرأس ، وله ذُؤابتان فى رأسه . وقال : ومن خصائصها أن ريشها فى شبيبتها يكون رَمَاديًّا، فإذا كبِرت آسودّ وليس ذلك فى سائر الطير، فإن الريش لا يحوّل بياضــه إلىٰ السواد بل يحوّل سواده إلىٰ البياض : كما فى الغِرْبان والعصافير والخَطَاطِيف .

الثالث المرزم ــ وهو طير أبيضُ فى أطراف ريشه حُمْرة، طويل الرجلين والعُنُق، وهو حلال الأكل .

الرابع الشُّبَيْطر ــ بضم الشــين المعجمة وفتح الموحدة والطاء المهملة ، ويسمّى اللَّقْلَق أيضا، ويعرف بالبلارح (١) . وكنيته عند أهل العراق أبوخَدِيج ــ وهو طائر أبيض، أسودُ طرفَىِ الجناحين، ورجلاه ومنقارُه حُمْر، وهو يأكل الحيَّات ولكنه يوصف بالفِطْنة والذكاء . وفى حله عند الشافعية وجهان أصحهما فى شرح المهذَّب والروضة الحرمة وإن كان من طير المــاء .

وسيأتى الكلام علىٰ ما يحمل من هذه الطيور الأربعةَ عشرَ بأعناقه وما يحمل منها بأسيافه فيما يتعلق بمصطلَح الرماة فى الكلام علىٰ كتابة قدم البندق فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . وطيور الواجب كلُّها حلال إلا النَّسْر والعُقَاب.

الصــــنف الثــالث

(ما عدا الطير الجليل ممــا يُصاد بالجوارح وغيرها، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل مايحل أكله ــ وهو أنواع كثيرة لايأخذه الحصر، ونحن نقتصر علىٰ ذكر المشهور من أنواعه .

فمنها النَّعام ــ وهو آسم جنس الواحدة نَعَامة ، وهو طائر معروف مركَّب من

---

(١) مصحف لم نهتد اليه . ولعله البارح .

صورتَى جَمَل وطائر ولذلك تسميه الترك دَواقش بمعنى طير جمل، وتسميه الفُرْس آشترمرك، ومعناه جمل وطائر. ويجمع النعامة علىٰ نعامات، ويسمّى ذكرها الظَّلِيمَ؛ ومن المتكلمين علىٰ طبائع الحيوان من لم يجعلها طيرا وإن كانت تبيض لعدم طَيَرانها؛ ومن الناس من يظنّ أنها متولدة من جمل وطير ولم يصح ذلك . ومساكنها الرملُ، وتضع بيضها سطرا مستطيلا بحيث لو مدّ عليها خيط لم تخرج واحدة منها عن الأخرىٰ، ثم تعطى كلَّ بيضة منها نصيبها من الحَضْن : لأنها لاتستطيع ضم جميع البيض تحتهـا ، وإذا خرجت للطُّعْم فوجدت بيض نعامة أخرىٰ حضنَتْه ونسِيَتْ بيضها ، فربمـا حضَنتْ هـذه بيض هذه ، وربمـا حضنَت هذه بيضَ هذه ؛ ولذلك توصف فى الطير بالحُمْق؛ ويقال إنها تقسم بيضها أثلاثا فمنه ماتحضُنه، ومنه ما تجعله غِذاءً لهـا، ومنه ما تفتحه وتجعـله فى الهواء حتّى يتولد فيه الدود فتتغذّى به أفراخها إذا خرجَتْ. وليس للنعام حاسّةُ سمع ولكنه قوىّ الشم، يستغنى بشمّه عن سمـاعه حتّى يقال إنه يَشَمُّ رائحة القـانص من بُعْد؛ والعرب تقول إن النعامة ذهبت تطلُب قَرْنَين فقطعوا أذُنَيْها . وهو لا يشرب ماء ، وإن طال عليه الأمد ، ولذلك يسكن البرارىَّ التى لا ماء فيها . وأكثر ما يكون عَدْوُها إذا آستقبلت الريح .

ومن خصائصها أنها تبتلع العظم الصُّلْب والحجر والحديد فتذيبُه معدتُها حتّى تدفعه كالماء، وتبتلع الجمر فيطفئه جوفُها، وإذا رأت فى أذنِ صغير لؤلؤةً أوحَلْقة آختطفتها. وحكمُه حِلُّ أكله إجماعا . ومن خاصته أن مرارته سَمٌّ وَحِىّ .

ومنها الإوزُّ ــ بكسر الهمزة وفتح الواو ــ وهو آسم جنس واحده إوزَّة، وجمعوه علىٰ إوَزُّون، وهو ممـا يُحِبُّ السِّباحة فى البحر، وإذا خرج فرخه من البيضة سبح فى الحال، وإذا حضنت الأنثىٰ قام الذكر يحرسها لايفارقها، ويخرُج فرخها فى دون الشهر من البيضة . وهو من الطيبات، وغِذاؤه جيد إلا أنه بطىء الهضم .

ومنها البَطُّ ، وهو من طيور المـاء واحده بَطَّة للذكر والأنثىٰ وليس بعربىّ ، وهو عند العرب من جملة الإوز .

ومنها القِرِلىّ ـ بكسر القاف ، ويسمّى مُلَاعِبَ ظِله . وهو طائر صغير الجرم من طيور المـاء ، سريعُ الاختطاف ، لا يزال مرفرِفا علىٰ وجه المـاء علىٰ جانب كطيران الحِدَأة ، يهوِى بإحدىٰ عينيه إلىٰ قعر المـاء طمعا ، ويرفع الأخرىٰ حذرا ؛ فإن أبصر فى المـاء ما يستقلُّ بحمله من السمك أو غيره انقضَّ عليه كالسهم المرسَل فأخرجه من قعر المـاء ، وإن أبصر فى الجوّ جارحا ، مرّ فى الأرض . وبه يضرب المثل فى الإقبال علىٰ الخير والإدبار عن الشرّ ، فيقال : "كأنه قِرِلّى ، إن رأىٰ خيرا تدلّى ، أو رأىٰ شرّا تولّى ".

ومنها الغَطَّاس ـ ويقـال له الغوّاص ، وهو طائر أسودُ نحو الإوَزَّة ، يغوص فى المـاء فيستخرج السمك فيأكله ؛ ووَهِم فيه فى حياة الحيوان بجعله القِرِلىّ .

ومنها الدجَاجُ ـ بفتح الدال المهملة وكسرها وضمها ، حكاه ابن معن الدِّمشْقِىّ وابن مالك وغيرهمـا ، وأفصحها الفتح وأضعفها الضم ، والواحدة دجاجة والذكر والأنثىٰ فيه سواء . قال ابن سِيده : وسميت دجاجةً لإقبالها وإدبارها ، يقال : دَجَّ القوم إذا مَشَوْا بتقارب خَطْوٍ ، وقيل إذا أقبلوا وأدبروا ، والفرخ يخرج من البيضة بالحَضْنِ ، وتارة بالصنعة والتدفئة بالنار ، وإذا خرج الفرخ من البيضة خرج كاسيا ، ظريفا ، سريع الحركة ، يُدْعىٰ فيُجِيب ؛ ثم كلمـا مرّت عليه الأيام حَمُقَ ونقص حسنه . وممـا يعرف به الذكر من الأنثىٰ فى حالة الصغر أن يعلق الفرخُ بمنقاره فإن اضطرب فهو ذكر ، وإلا فهو أنثىٰ . والدجاج يبيض فى جميع السنة ، وربمـا باضت الدجاجة فى اليوم مرتين ، ويتم خلق البيض فى عشرة أيام وتخرج لينة القشر

فإذا أصابهـا الهواء تصلّبت . وتشتمل البيضة علىٰ بياض وصُفرة ويسمّى المُحّ ، ومن البياض يتخلق الولد ، والصفرة غذاء له فى البيضة يتغذاه من سُرّته ، وربمـا كان للبيضـة بياضان ، ويتخلق من كل بياض فرخ فإذا كبرت الدجاجة ، لم يبق لبيضها مُحٌّ وحينئذ فلا يخلق منه فرخ . ثم الدجاج من الطيور الدواجن فى البيوت ، وقد ورد فى سُـنَنِ ٱبن ماجه من رواية أبى هريرة رضى الله عنـه أمر الاغنيـاء باتخاذ الغنم وأمر الفقراء باتخاذ الدجاج . قال عبـد اللطيف البغدادىّ : أمر كل قوم من الكسب بحسب مَقْدُرَتهم .

ومن عجيب أمر الدجاجة أنها تمرّ بها سائر السبـاع فلا تحَاماها فإذا مرّ بها ٱبن آوىٰ وهى علىٰ سطح رمت نفسها إليـه ، وهى توصف بقلة النوم وسرعة الٱنتباه ، ويقال إن ذلك لخوفها وخَوَرِ طباعها .

ومن الدجاج نوع يقـال له الحبَشِىّ . أرقط اللون ، متوحش ، وربمـا ألف البيوت . والحكم فى الجميع الحل .

ومنها الديك — وهو ذكر الدجاج ، ويجمع علىٰ دِيَكَةٍ ودُيُوك ، وهو أبْلَهُ الطبيعة حتّىٰ إنه إذا سقط من حائط لم يكن له هداية ترشده إلىٰ دار أهله ، ومع ذلك فقد خصه الله تعالىٰ بمعرفة الأوقات حتّىٰ رجح الرافعىّ من مذهب الشـافعىّ رضى الله عنه ٱعتماد الديك المجرّب وِفَاقا لِلْمُتَوَلِّى والقاضى حسين .

ومن عجيب أمره أنه يُقَسِّطُ أوقات الليل تقسـيطا لا يُخِلُّ فيه بشئ طال الليل أم قصر . لكن قد ورد فى معجم الطبرانىّ وغيره : إنّ لله سـبحانه وتعـالىٰ ديكا أبيض ، جَناحاه مُوَشّـيان بالزَّبَرْجَد والياقوت واللُّؤْلؤ ، له جَناحٌ بالمشرق وجناح بالمغرب ، رأسه تحتَ العرش ، وقوائمه فى الهواء ، يُؤَذِّنُ كلّ سَحَر فيسمَع تلك

الصيحةَ أهلُ السموات وأهل الأرض إلا الثقلين : الجنَّ والإنسَ، فعند ذلك تُجيبه دُيوكُ الأرض ؛ وحينئـذ فيكون الديك فى ذلك تابعـا . وقد ورد عدّةُ أحاديثَ فى النهى عن سَبِّ الديك، ومدحِ الديك الأبيض، والحثِّ علىٰ آتخاذه .

ومن حميد خصال الديك أنه يسوّى بين دجاجه : ولا يُؤْثِرُ واحدة علىٰ الأخرىٰ . ويقال إنه يبيض فى السنة بيضة ؛ ويَفْرُق بين بيضته وبيضة الدجاجة أن بيضته أصغر من بيضة الدجاجة، وهى مدوّرة لا تحديد فى رأسيها .

ومنها القَطَا ــ بفتح القاف : وهو طائر معروف واحده قطاة ويجمع علىٰ قَطَوَاتٍ وقَطَيَاتٍ، وأكثر ما يبيض ثلاث بيضات، ويسمّٰى قَطَا لحكاية صوته : لأنه يصيح "قطَا قطَا" ولذلك تصـفها العرب بالصدق . قال الجوهرىّ ، وهو معدود من الحَمَـام ، وبه قال آبن قتيبة، وعليه جرىٰ الرافعىّ فى الحج والأطعمة : قال الشيخ محب الدين الطبرىّ : والمشهور خلافه .

ثم القطا نوعان : كُدْرِىٌّ وجُونِىٌّ، وزاد الجوهرىّ نوعا ثالثا وهو الغَطَاط ، فالكدرىّ غُبْرُ اللون ، رُقْش البطون والظهور ، صـفر الحلوق، قصار الاذناب . والجُونِىُّ سُـودُ بطون الأجنحة والقوادم ، وظهرها أغبرُ أرقطُ، تعلوه صُفْرة، وهى أكبر جِرْمًا من الكُدْرِىّ ، تعـدِل كلُّ جُونيَّة كُدْرِيَّتين ، والكدرية تُفْصِح باسمها فى صياحها، والجُونِيَّة لا تفصح بل تُقَرْقِرُ بصوت فى حلقها .

ومن خاصتها أنها لا تسير إلا جماعة . ومن طبعها أنها تبيض فى القَفْرِ علىٰ مسافة بعيدة من المـاء . وتطلب المـاء من مسافة عشرين ليلة وفوقها ودونها . وتخرج من أفاحيصها فى طلب المـاء عند طلوع الفجر فتقطع إلىٰ حين طلوع الشمس مسيرةَ سبع مراحل، فترد المـاء فتشربُ ثم تُقِيمُ علىٰ المـاء ساعتين أو ثلاثا ثم تعود إلىٰ

المـاء ثانية . والجُونية تخرج إلىٰ المـاء قبل الكُدْرِيَّةِ ،وهى توصف بالهداية فتأتى أفاحيصَها ليلا ونهارا فلا تضلّ عنها ، وتوصف بحُسْن المشْى ، و بقلة النوم .

ومنها الكَرَوَانُ — بفتح الكاف والراء — وهو طائر فى قدر الدجاجة ، طويل الرجلين ، حسن الصوت ، لا ينـام الليل ، ويجمع علىٰ كِرْوَان بكسر الكاف والأنثىٰ كَرَوانة .

ومنها الحَجَلُ — بفتح الحاء المهملة والجيم ، وهو طائر علىٰ قدر الحَمَامِ كالقَطَا ، أحمر المِنْقار والرجلين ، ويسمّٰى دَجَاجَ البر ، ويقع علىٰ الذكر والأنثىٰ ، وقد يقال له القَبْجُ أيضا بفتح القاف وسكون الموحدة وجيم فى الآخر ، يقال للذكر والأنثىٰ منه قَبْجة ، ويسمّٰى الذكر منه اليَعقوب ، والقَبَجُ(١) بفتح القاف والموحدة وجيم فى الآخر ، ويقال فى الأنثىٰ منه حَجَلة . وهو صِنْفان : نَجْدِىٌّ وتِهامِىٌّ ،فالنجدىّ أحمر الرجلين ، والتهامىّ فيه بياض وخضرة ، ومن شَأْنه أنه يأتى إلىٰ مصر عند هَيَجان زرعها ويصيح صياحا حَسَنًا ، تقول العامّة : إنه يقول فى صياحه : "طَابَ دَقِيقُ السَّبَلِ" . ومن شأن الأنثىٰ منه إذا لم تَلْقَحْ ، أنها تمرغ فى التراب وتصبه علىٰ أصول ريشها فَتَلْقَحُ ، ويقال : إنها تلقح بسماع صوت الذكر ، وبريح يَهُبُّ من قِبَـلِهِ ؛ وإذا باضت ميز الذكرُ الذكورَ منها لحضـنها ، وتحضنُ الأنثىٰ الإناثَ . وكذلك فى التربية ، وفرخها يخرج كاسيا بِزَغَبِ الريش كما فى الدَّجاج ، وفى " المصايد والمطارد " أن القَبَجَ كثير السِّفاد ، وأنه إذا اشتغلت عنه الأنثىٰ ورأى بيضها ، كسره . قال التوحيدى : ويعيش الحجل عشر سنين ويعمل عُشَّيْن ، يجلس الذكر فى واحد والأنثى فى واحد ، وهو من أشدّ الطيور غَيْرَةً علىٰ أنثاه حتّٰى إن الذكرين ربما قتل أحدهما الآخر بسبب الأنثىٰ ، فمن غلب منهما دانت له .

(١) هذا معطوف على القبج الاول اشارة الى لغة أخرى وليس معطوفا على اليعقوب كما قد يتوهم .

ومن طبعه أنه يأتى عُشّ غيره فيأخذ بيضه ويحضُنه، فإذا طارت الفراخ لحقت بأمهاتها التى باضتها؛ وفيه من قوّة الطيران ما يظنه مَنْ لم يُحَقِّقْهُ عند طيرانه أنه حجر رُمِىَ بِمِقْلاع لسرعته .

ومنها القُمْرِىُّ ـ بضم القاف وسكون الميم : وهو طائر معروف حسن الصوت، ويجمع علىٰ قَمَارِىَّ غير مصروف . قال فى المحكم : ويجمع علىٰ قُمْرٍ أيضا؛ والأنثىٰ منه قُمْرِيَّةٌ، ويقال للذكر منه الوَرَشَانُ ـ بفتح الواو والراء المهملة والشين المعجمة، ويقال له أيضا سَاقُ حُرّ . قال البَطَلْيَوْسِىّ : وسُمِّى ساقَ حُرّ حكاية لصوته كأنه يقول ذلك، ويكنىٰ أبا الأخضر، وأبا عِمْران، وأبا الناجية . قال ٱبن السمعانىّ : والقُمْرِىّ منسوب إلىٰ القُمْرِ، وهى بلدة تشبه الجِصّ لبياضها . قال : وأظنها بمصر . وقال ٱبن سِيده القُمْرِىّ طير صغير، وعدّه فى المحكم من الحَمَام . ويقال : إن الهوامّ تهرُب من صوت القمارىّ . قال القَزْوِينى : ومن خاصية القَمارىّ أنها إذا ماتت ذكورها لم تتزاوج إناثُها؛ والوَرَشَانُ الذى هو ذكر القُمْرِىّ يوصف بالحُنُوّ علىٰ أولاده حتّىٰ إنه ربما قتل نفسه إذا رءاها فى يد القانص . قال عطاء : وهو يقول فى صياحه "لِدُوا لِلْمَوْتِ وَٱبْنُوا لِلْخَرَابِ" . ومنه نوع أسود حجازىّ يقال له النوىٰ، شجىّ الصوت جدّا .

ومنها الفاخِتة ـ بالفاء والخاء المعجمة والتاء المثناة والجمع الفواخت بفتح الفاء وكسر الخاء : وهى طائر من ذوات الأطواق، حِجَازية فى قدر الحَمَام، حَسَنة الصوت، ويقال إنّ الحيّات تهرُب من صوتها . حتّىٰ يحكى أنّ الحياتِ كثُرت بأرض، فشكا أهلُها ذلك إلىٰ بعض الحكماء، فأمرهم بنقل الفواخت إليها فانقطعت الحَيَّات عنها؛ وفى طبعها الأنس بالناس، وتعيش فى الدُّور، إلا أن العرب تسِمها بالكَذِب فإن صوتها عندهم تقول فيه هذا أوان الرطب، وهى تقول ذلك والنخل لم يُطْلِعْ بَعْدُ، ولذلك تقول العرب فى أمثالهم : "أَكْذَبُ مِنْ فَاخِتَه" .

ومنها الدُّبْسِىُّ ـ بضم الدال، وهو طائر صغير منسوب إلىٰ دِبْسِ الرُّطَبِ ـ بكسر الدال، وذلك أنهم يُغَيِّرونَ فى النسب فيقولون فى النسـبة إلىٰ الدَّهْر دُهرِىّ ونحو ذلك، وهو ضرب من الحمام. ثم هو أصناف : مصرى، وحجازى، وعِراقىّ؛ وكلها متقاربة، لكن أنخرُها المصرىّ، ولونه الدُّكنة، وقيل هو ذكر اليمـام . وفى طبع الدُّبْسِىّ أن لا يُرىٰ ساقطا علىٰ وجه الأرض، بل فى الشتاء له مَشْتًّى، وفى الصيف له مَصِيفٌ، لا يعرف له وَكْرٌ .

ومنها الشَّفْنِينُ ـ بفتح الشين (١) المعجمة وسكون الفـاء ونون مكسورة بعـدها ياء مثناة تحت ثم نون : وهو الذى تسميه العامّة بمصر اليمام، وهو دون الحمام فى المقدار ولونُه الحمرة مع كُمُودَةٍ، وفى صوته ترجيع وتحزين . ومن شأنها أنها تَحْسُنُ أصواتها إذا ٱختلطت . ومن طبعه أنه إذا فَقَدَ أُنثاه، لم يزل أَعْزَبَ إلىٰ أن يموت، وكذلك الأنثىٰ إذا فَقَدتْ ذكرها، وفيه أُلْفة للبيوت، وعنده ٱحتراس .

ومنها الدرَّاجُ ـ بفتح الدال (٢)، وكنيته أبو الحجَّاج وأبو خَطَّار : وهو طائر ظاهر جناحيه أغبرُ وباطنهما أسودُ، علىٰ خِلْقة القَطَا إلا أنه ألطفُ . وهو يطلق علىٰ الذكر والأنثىٰ، والجاحظ يَعُدُّه من جنس الحَمَـام لأنه يجمع بيضـه تحت جَنَاحه كما يفعل الحمام، والناس يُعبِّرون عن صوته بأنه يقول "بِالشُّكْرِ تَدُومُ النِّعَم". ويقال إنه طائر مبارك، وهو كثير النتاج، يبشر بقُدُوم الربيع ، وهو يصلح بهبوب الشَّمَال ، وصفاء الهواء، ويسوء حاله بهبوب الجَنُوب حتّى لا يقدر علىٰ الطيران .

ومنها العُصْفُورُ ـ بضم العين، وحكى ٱبن رَشِيقٍ فى كتاب الغرائب فتحَها، والأنثىٰ عُصْفورة، وكنيته أبو الصَّفْوِ، وأبو مُحْرِز، وأبو مُزاحم، وأبو يعقوب . قال حمزة :

---

(١) الذى فى حياة الحيوان أنه بالكسر اهـ .

(٢) فى حياة الحيوان والقاموس ضبطه بضم الدال أما الذى بالفتح فهو القنفذ .

سمى عصفورا لأنه عصى وفرّ، وهو أنواع كثيرة وأشهرها المعروف بالدُّورِىّ، وَوَكْرُه العُمْران تحت السقوف خوفا من الجوارح، فإذا خلتْ مدينة من أهلها ذهبت العصافير منها، وهو كثير السِّفَاد حتّى إنه ربما سَفَدَ فى الساعة الواحدة مائة مرة، ولفرخه تدرّب على الطيران حتّى إنه يُدْعى فيجيب . قال الجاحظ : بلغنى أنه يرجع من فرسخ .

ومنها الشَّحْرُورُ (١) ـ بفتح الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة ، وهو طائر أسود فُوَيْقَ العصفور له صوت شجىّ، ويكون بأرض الشَّأْم كثيرا .

ومنها الهَزَارُ ـ بفتح الهاء والزاى المعجمة، طائر نحو العصفور له صوت حسن ويسمّى العَنْدَلِيبَ أيضا ويجمع على عَنَادِلَ .

ومنها البُلْبُلُ ـ بضم الموحدتين وسكون اللام الأولى والثانية (٢) ، وهو طائر أسود فوق العصفور ، والحمرى منه فوق ذلك ؛ ويقال له النُّغَرُ ـ بضم النون وفتح الغين المعجمة وراء مهملة فى الآخر، والكُعَيْت ـ بضم الكاف وفتح العين المهملة ومثناة فوقية فى الآخر، والجُمَيْلُ ـ بضم الجيم، وقد ثبت فى الصحيحين من رواية أنس رضى الله عنه أنه قال : ”كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أحسَنَ الناس خُلُقا، وكان لى أخٌ لأمّى فَطِيمٌ يقال له عُمَيْرٌ فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا جاءنا قال : ياأبا عُمَير، ما فَعَلَ النُّغَير؟ لنُغَر كان يلعب به“ .

ومنها السُّمَانَى ـ بضم السين المهملة وفتح النون ولا تشدّد ميمه ،وهو طائر معروف فوق العصفور ويجمع على سُمَانَيَات : وهو من الطيور التى لايعرف من أين تأتى، بل يأتى فى البحر المِلْح يغوص بأحد جناحيه فى الماء ويقيم الآخر كالقِلْع للسفينة

(١) قال فى حياة الحيوان انه كسحنون وكذلك ضبطه فى القاموس بالضم .

(٢) لعل هذا اللفظ من زيادة الناسخ .

فتدفعـه الريح حتّى يأتىَ الساحل ، وكثيرا ما يوجد ببلاد السواحل ، وله صـوت حسن . ومن شأنه أنه يسكت فى الشتاء فإذا أقبل الربيع صاح .

ومنها الحَسُّون ـ وتسميه أهـل الجزيرة والشأم وحلب وتوابعها زقيقية ، وهو طائر فَطِنٌ ، ويسميه الأندلسيُّون أبو الحسن والمصريون أبو زقاية ، وربما أبدلوا الزاى منه سينا ، وهو عصفور ذو ألوان : حُمْرة وصُفْرة وبياض وسواد وزرقة وخضرة ؛ وهو قابل للتعليم يُعَـلَّمُ أخذَ الشئ كالفَلْس ونحوه من يد الإنسان على البعد والإتيانَ به لصاحبه .

ومنها أبو بَرَاقِش ـ بكسر القاف وبالشين المعجمة : وهو طائر كالعصفور يتلوّن ألوانا ، وبه يضرب المثل فى التلوّن .

ومنها الزاغ ـ بزاى وغين معجمتين بينهما ألف : وهو ضرب من الغِرْبانِ صغير أخضرُ اللون لطيفُ الشكل حسنُ المَنْظَرِ ، وقد يكون أحمرَ المِنقار والرجلين ، وهو الذى يقال له غراب الزيتون ، سمى بذلك لأنه يأكل الزيتون .

ومنها الغُدَافُ ـ بضم الغين المعجمة وبالدال المهملة والفاء فى آخره ، وهو غراب الغيط (١) ويجمع على غِدْفان بكسر الغين ؛ قال ابن فارس : هو الغراب الضخم ، وقال العبدرىّ : هو غراب صغير أسودُ لونه كلون الرَّماد ، وقد قال النووىّ فى الروضة بتحريمه وإن كان الرافعىّ قد جزم بحِلّه ورجحه صاحب المهمات .

ومنها غراب الزرع ـ وهو غراب أسودُ المِنقار ، وفيه وجه بالتحريم .

الضرب الثـانى ـ ما يحرم أكله

وهو أنواع كثيرة أيضا .

منها الطاوس ـ ويجمع على طواويس ، وهو طائر فى نحو مقدار الإوَزّة حسن

(١) الذى فى القاموس وحياة الحيوان غراب القيظ .

اللون ، والذكر منه غايةٌ فى الحُسْنِ ؛ له فى رأسه رياش خضر قائمة كالشربوش ، وفى ذنبه ريش أخضر طويل فى أحسن مَنْظَرٍ ، وليس للأنثى شئ من ذلك ؛ وهو فى الطير كالفرس فى الدواب عزا وحُسْنا ؛ وفى طبعه الزَّهْو بنفسه والخُيَلاَءُ والإعجاب بريشه ، والأنثى منه تبيض بعد ثلاث سنين من عمرها ، وفى هذا الحدّ يكمل ريش الذكر ويتم لونُه ، وبيضه مرةٌ واحدة فى السنة ، ويكون بيضه من آثنتى عشرة بيضة إلى ما حولها ، ولا يبيض متتابعا ، وسِفَادُهُ فى أيام الربيع ، وفى الخريف يُلْقِى ريشه كما يُلْقِى الشجر ورقَه حينئذ ، فإذا بدا طلوع أوراق الأشجار طلع ريشه ؛ وهو كثير العَبَثِ بالأنثى إذا حَضَنَتْ وربما كسر بيضها ؛ ولذلك يُحْضَنُ بيضُه تحت الدَّجاج لكن لا تقوى الدجاجة على حَضْنِ أكثر من بيضتين منها ، وتُتعاهدُ الدجاجة بالطُّعْمَةِ والسقية وهى راقدة عليه ، كيلا تقومَ عنه فيفسد بالهواء إلا أن ما تحضُنُه الدجاجة يكون ناقصَ الجثة عما تحضُنُه أنثاه ، وليس له من الحسن والبهجة ما لذلك ؛ ومدّة حضنه ثلاثون يوما ؛ وفرخه يخرج من البيضة كالفرُّوج كاسيا بالريش يلقط الحب للحال .

ومنها السَّمَنْدَلُ ــ بفتح السين المهملة والميم وسكون النون وبفتح الدال المهملة ولام فى الآخر ، وقال الجوهرىّ : السَّنْدل بغير ميم . وقال آبن خَلِّكَانَ : السَّمَنْدُ بغير لام : وهو طائر يكون بأرض الصِّينِ والهند ؛ ومن خاصته أنه لا تؤثر النار فيه حتّى يقال إنه يبيض ويُفْرِخُ فيها ويستلذ بمكثه فيها ، ويتخذ من ريشه مناديل ونحوها فإذا آتسخت ألقيت فى النار فتأكل النار وسخها ولا تتأثر هى فى نَفْسها . قال آبن خَلِّكَانَ فى ترجمة يعقوب بن صابر المنجنيق : رأيت منه قطعة ثخينة منسوجة على هيئة حزام الدابة فى طوله وعرضه ، فألقيت فى النار فما أثَّرت فيها فغُمِس أحد جوانبها فى الزيت وجُعِل فى النار فآشتعل وبقى زمانا طويلا ثم أطفئ ، وهو على حاله

لم يتغير، قال : ورأيت بخط عبداللطيف البغدادىّ أنه أُهْدِىَ للظاهر ٱبن السلطان صلاح الدين صاحب حلب قطعةٌ منه عرض ذراع فى طول ذراعين ، فغُمِست فى الزيت وقربت من النار فاشتعلَتْ حتّى فَنِيَ الزيتُ، ثم عادت بيضاء كما كانت ، وبعضهم يقول إنه وحش كالثعلب وإن ذلك يعمل من وَبَرِه .

ومنها البَبَّغَاء ـ ببـاءين مفتوحتين الأولىٰ منهـما مخففة والثانية مشدّدة وغين معجمة بعـدها ثم ألف ؛ وهو المعبر عنه بالدُّرَّة بدال مهملة مضمومة ، وقال ٱبن السمعانى فى الأنساب : هى باسكان البـاء الثانية، وهى طائر أخضرُ اللون فى قدر الحمام يحاكِى مايسمعه من اللفظ؛ ثم هى علىٰ ضربين : هِنْدِىٌّ وهى أكبر جثةً ومنقارها أحمرُ، ونُوبِىٌّ وهى أدونهـا ومنقارها أسود، ويقال : إن منها نوعا أبيضَ، ويذكر أنه أُهْدِى لمعز الدولة ٱبن بُوَيْهِ بَبَّغَاء بيضاءُ اللون سوداءُ المِنْقَارِ والرجلين ، علىٰ رأسها ذؤابة فُسْتُقِيَّةٌ ؛ وهى طائر دَمِث الأخلاق ، ثاقب الفهم ، له قوّة علىٰ حكاية الأصوات وقبول التلقين ، تتخذه الملوك والأكابر لِيَنِمَّ بمـا يسـمع . ومن شأنه أنه يتناول طُعْمَهُ برجله كما يتناوله الإنسان بيده ؛ والهندىّ منـه أقرب إلىٰ التعليم من النوبىّ .

ومنها أبو زُرَيْقٍ ـ بزاى مضمومة ثم راء مهملة وفى آخره قاف، ويقال له القِيق بكسر القـاف والزِّرْيَابُ بزاى معجمة مكسورة ثم راء مهملة ساكنة ثم ياء مثناة تحت وبعد الألف باء موحدة؛ وهو طائر ألوف للناس يقبل التعليم، سريع الإدراك لمـا يعلَّم ، وقد يزيد علىٰ الببغاء إذا أنجب ، بل إذا تعلم جاء بالحروف مُبَيَّنَـةً حتّى يظن سامعُه أنه إنسان، بخلاف الببغاء فإنها لا تُفْصِحُ كلَّ الإفصاح .

ومن غريب ما يحكى فى أمره ما حكاه صاحب "مَنْطِقِ الطير" أن رجلا خرج من بغداد ومعـه أربعمائة درهم ، لا يملك غيرها ، فوجد فى طريقه عدّة من فراخه

فاشتراها بما معه ثم رجع إلى بغداد فعلقها فى أقفاص فى حانوته، فهبت عليها ريح باردة فماتت كلُّها إلا واحدا كان أضعفَها وأصغرَها فثقل ذلك عليه و بات ليلته تلك يبتهل إلى الله تعالى بالدعاء وينادى ياغياث المستغيثين أغثنى ، فلما أصبح إذا ذلك الفرخ الذى بقى يصيح بلسان فصيح : ياغياث المستغيثين أغثنى ، فٱجتمع الناس عليه يسمعون صوته فٱجتازت جارية للخليفة فٱشترته منه بألف درهم .

ومنها الهُدْهُدُ ـ بضم الهاءين وإسكان الدال المهملة بينهما، وهو طائر معروف ذو خطوط مَوْشِيَّةٍ وألوان، ويجمع على هَدَاهِدَ، ويذكر عنه أنه يرى الماء من باطن الأرض كما يراه الإنسان فى باطن الزجاج ، قُوَّةٌ ركبها الله تعالى فيه، ولذلك عُنِيَ به سليمانُ عليه السلام مع صِغَرِه كما قاله البيهقى فى "شُعَب الإيمان". ويقال : إنه كان دليلا لسليمانَ عليه السلام على الماء ، وقصته مع سليمان مذكورة فى التنزيل . وقد ذكر الزمخشرىّ أن سبب تخلفه عن سليمان أنه رأى هُدْهُدا آخر، فحكى له عظيم مُلْك سليمان، فحكى له ذلك الهدهدُ عظيمَ مُلْك بِلْقِيس باليمن، فذهب ليكشف الخبرَ فلم يرجع إلا بعد العَصْر، فلما عاد إليه توعَّدَه فأرخى رأسه وجناحيه تواضعا بين يديه، وقال : يانبىّ الله ٱذكر وقوفك بين يدى الله! فٱرتعد سليمان وعفا عنه .

ومنها الخُطَّافُ ـ بضم الخاء المعجمة ويجمع على خَطَاطِيفَ، وهو طائر فى قدر العصفور، أسودُ، وباطن جناحيه إلى الحمرة ، والناس يسمونه عصفور الجنة لأنه يُعْرِضُ عن أقواتهم ويقتات البعوضَ والذُّبَاب . ومن شأنه السكنى فى البيوت المعمورة بالناس فى أفاحيص يبنيها من الطين، ويختار منها السقوف والأماكن التى لا يصل إليه فيها أحد . وقد ذكر الثعلبى فى تفسيره فى سورة النمل أن سبب قُرب الخطاطيف من الناس أن الله تعالى لما أَهْبط آدم إلى الأرض، ٱستوحش، فآنسه الله تعالى بالخُطَّافِ وألزمه البيوت فهو لا يفارق بنى آدم أُنْسًالهم ، والخُفَّاش يعاديه

فلذلك إذا أفرخ جعـل فى عُشّه قُضْبانَ الكَرَفْسِ لينفّر الخُفَّاشَ عنها .

ومن عادته أنه لا يُفْرِخُ فى عُشٍّ عتيق حتى يُطَيِّنَهُ بطين جديد، ولا يلقى شيئا من ذَرْقِه فى عُشه بل يلقيه إلىٰ ما شاء ؛ وإذا سمع حس الرعد يكاد يموت ، ويوجد فى عُشّــه حَجَرُ اليَرَقَانِ وهو حجر صغير فيه خطوط بين الحمرة والسواد إذا علق علىٰ من به اليَرَقَانُ أو شرب من سُحالته بَرِئَ؛ وإنمـا يأتى بهذا الحجر إذا أصاب فراخَه اليَرَقَانُ ، ولذلك يحتال بعضُ الناس بلطخ فراخه بالزعفران ليظن أن اليَرَقَانَ قد أصابها فيأتى إليها بهذا الحجر فيُؤْخذ منه .

ومن الخطاطيف نوع آخر ألطفُ قدرا من هذا ، يَسْكُن شطوط الأنهار وجوانبَ المياه ، وعدّوا من أنواعه أيضا الذى يسميه أهل مصر الخُضَيْرِى ، وهو طائر أخضر دون البَبَّغاء فى المقدار لا يزال طائرا وهو يصيح ، يقتات الفَرَاشَ والذباب .

ومنهـا الصُّرَد ــ بضم الصاد وفتح المهملة ودال مهملة فى الآخر ، ويجمع علىٰ صِرْدَان . قال ابن قتيبة : وسمى صُرَدًا ، حكاية لصوته ، ويسمَّى الواقِ بكسر القاف ، وكنيته أبو كثير ، وهو طائر فوق العصفور ، نصــفه أبيض ونصــفه أسود ، ضخم الرأس ، ضخم المنقار والبراثن ، لا يُرىٰ إلا فى شَعَفَة أو شجرة بحيث لا يَقْدِر عليه أحد ، وله صَفِير مختلف . ومن شأنه أنه يصيد العصافير وما فى معناها ، فيصَفِّر لكل طير يريد صيدَه بلغته ، يدعوه إلىٰ التقرّب منه فيثِب عليه فيأكله ، والعرب تتشاءم به وتنفر من صياحه ، وهو ممـا وردت الشريعة بالنهى عن قتله .

ومنها العَقْعَقُ ــ بعينين مهملتين مفتوحتين بينهما قاف ساكنة ، وربما قيل فيه القَعْقَع علىٰ القلب ، قال الجاحظ : سمى بذلك لأنه يَعُقُّ فراخه فيتركهــم أياما بلا طُعْم . ويقال لصوته العَقْعقة : وهو طائر علىٰ قدر الحمامة فى شكل الغُراب وجَناحاه أكبر من جناحى الحمامة ، ذو لونين : أبيضَ وأسودَ ، طويلُ الذَّنَب . ومن شأنه أنه

لا يأوِى تحت سقف ولا يستظل به، بل يهيئ وكْره فى المواضع المُشْرِفة، وفى طبعه الزنا والخيانة، ويوصف بالسرقة والخُبْث، وإذا رأى حُلِيًّا أو عِقْدا، آختطفه؛ والعرب تضرب به المَثَل فى جميع ذلك، وإذا باضت الأنثى منه أخفتْ بيضها بورق الدُّلْب خوفًا عليه من الخُفَّاش، فإنه متى قرُب من البيض مَذِرَ وتغير من ساعته. ويقال إنه يخبأ قُوتَه كما يخبؤه الإنسان والنملة إلا أنه ينسى مايخبؤه؛ وبعضهم يعدّه فى جملة الغِرْبان؛ وفيه وجه عندنا بحل أكله.

ومنها الشَّقْرَاقُ — بفتح الشين المعجمة وسكون القاف وألف بين الراء المهملة والقاف الثانية، ويجوز فيه كسر الشين أيضا، وربما قلبوه فقالوا الشَّرْقاق، ويسمّى الأخيلَ أيضا، وهو طائر صغير بقدر الحمام أخضر مُشْبَع الخُضْرة، حسنُ المنظر فى أجنحته سواد، والعرب تتشاءم به. وفى طبعه الشَّرَهُ حتّى إنه يَسْرِقُ فِراخَ غيره وعدّه الجاحظ نوعا مِن الغرْبان، ويكثر ببلاد الشام والروم وخُرَاسَانَ. ولا يزال متباعدا من الإنس، يألف الرَّوابِىَ ورُءوس الجبال، إلا أنه يَحْضُنُ بيضه فى عوالى العُمْران التى لا تَنالُها الأيدى. وعُشُّه شديد البُنْيان، وله مَشْتًى ومَصِيف. قال الجاحظ: وهو كثير الآستغاثة، إذا مرّ به طائر ضربه بجناحه وصاح كأنه هو المضروب. وفيه وجه بحِلِّ أكله.

ومنها الغُرَابُ الأبقع — قال الجوهرىّ: وهو الذى فيه بياض وسَواد، ويسمّى غراب البين أيضا، قال صاحب "المجالسة" سمى بذلك لأنه بان عن نوح عليه السلام حينَ أرسله لينظر الماء فذهب ولم يرجع. قال آبن قتيبة: وجعل فاسقا لأجل ذلك، ويسمّى الأعور إمّا لأنه يُغْمِضُ إحدى عينيه لقوة بصره، وإما لصفاء عينيه وحدّة بصره من باب الأضداد. ومن طبعه الخيانة والسرقة والعرب تتشاءم به وتكره صوته. وقد سبق القول على ذلك فى أوابد العرب من هذه المقالة.

ومن طبع الغراب ٱلاستتار عند السِّـفاد وأنه يَسْفِدُها مواجهة مُلْقاة علىٰ ظهرها ، والأنثىٰ تبيض أربع بيضات وخمسا ، وإذا خرجت الفِراخ من البيض نفرعنهـا الأبوان لبشاعة مَنْظَرِها حينئذ فتغتذى من البعوض والذباب الكائن فى عُشِّها حتّٰى ينبت ريشها فيعود الأبوان إليها ، وعلىٰ الأنثىٰ الحَضْنُ وعلىٰ الذكر أن يأتيهَا بالطُّعْم ؛ وفيه حَذَر شـديد وتناصُر ، حتّٰى إنه إذا صـاح الغراب مستنصرا ٱجتمع إليه عدّة من الغِرْبان .

ومنها الغُراب الأسود الكبير ـ وهو الجَبَلِىّ ؛ وفيه وجه بحله .

ومنهـا الحِدَأَةُ ـ بكسر الحاء والهمز الطائر المعروف ويجمع علىٰ حِدَإ وحِدْءَانٍ . ومن ألوانها السُّودُ والرُّمْدُ ، وهى لا تصـيد بل تخطَف ، ومن طبعها أنها تَصُـفُّ فى الطيران وليس ذلك لشىء من الكواسر غيرها ، وزعم ٱبن وحشية وٱبن زهر أن الحِدَأَةَ والعُقَابَ يتبدّلان فتصير الحِدأةُ عُقابا والعُقابُ حدأةً . وربمـا قيل الغراب بدل العُقاب ؛ ويقال : إنها تصير سنةً ذكرا وسنةً أنثىٰ ، ويقال : إنها أحسن الطير مجاورة لما جاورها من الطير حتّٰى لو ماتت جوعا لاتعدو علىٰ فرخ جارتها . وفى طبعها أنها إنما تختطف ممن تختطف منه من يده اليمنىٰ دون اليسرىٰ حتّٰى يقال إنها عسراء ؛ وقد ثبت فى الصحيحين حل قتلها فى الحل والحرم .

ومنها الرَّخَمة ـ بفتح الراء المهملة والخاء المعجمة ، وكنيتها أم جِعْرانَ ، وأمّ رِسَالَةَ وأمّ عَجِيبة ، وأم قَيْس ، وأم كثير(١) . ويقال لها الأَنُوقُ بفتح الهمزة : وهى طائر أبقع ببياض وسواد فوقَ الحِدَأَةِ فى المقدار تأكل الجِيَف ، وهى معدودة فى بُغَـاثِ الطير ، وهى تسكُن رءوس الجبال العالية وأبعدها من أماكن أعدائه ، ولذلك تضرب العرب المثل

(١) الذى فى حياة الحيوان "أم كبير" .

ببيضه فيقولون : "أَعَزُّ مِنْ بَيْضِ الأَنُوقِ" والأنثىٰ لا تمكن من نفسها غيرَ ذكرها وتَبِيض بيضة واحدة وربما باضت بيضتين .

ومنها البُومة ـ بضم الباء الموحدة وفتح الميم ـ للذكر والأنثىٰ : وهو طائر من طير الليل فى قَدْر الإوزَّة ، لها وجه مستدير بالريش النابت حوله ، يشبه وجه الآدمىّ فى صفرة عينين وتوقُّدِهما ؛ ويقال للذكر منها الصَّدىٰ والضُّوَعُ ـ بضم الضاد المعجمة ـ والفَيَّادُ ـ بالفاء وتشديد المثناة تحت ، ويقال للأنثىٰ الهامَةُ . وكنية الأنثىٰ أمُّ الخَرَاب ، وأمُّ الصِّبيان ؛ ولها فى الليل قوّةُ سلطان لايحتملها شىءٌ من الطير ؛ تدخل علىٰ كل طائر فى وَكْره فى الليل فتُخْرِجه منه وتأكل فِراخَه وبَيْضه ، ولا تنام الليلَ ؛ والطير بجملته يُعاديها من أجل ذلك ، فإذا رأوْها(١) فى النهار قتلوها ونَتَفُوا ريشها ، ومن ثم يجعلها الصيَّادون فى شِباكهم ليقع عليها الطير فيَقْتَنِصُونها ؛ فهى لا تظهر بالنهار لذلك . ونقل المسعودىّ فى مروج الذهب عن الجاحظ أنها إنما تمتنِع من ظُهُورها فى النهار خَوفًا من أن تصاب بالعين لحسنها وجمالها ، لأنها تصوّر فى نفسها أنها أحسن الحيوان . ومن طبعها سكنىٰ الخراب دون العامر .

ومن غريب مايُحكى ماذكره الطرطوشى فى "سراج الملوك" : أن عبدالملك بن مَروان أرِقَ ليلةً فاستدعىٰ سَمِيرا يحدّثه ، فكان مما حدّثه أن قال : ياأمير المؤمنين كان بالبصرة بُومة وبالمَوْصِل بُومة فخطبت بُومة الموصل إلىٰ بُومة البصرة بنتها لابنها ـ فقالت بومة البصرة : لاأفعل حتّىٰ تجعلى فى صداقها مائة ضيعةٍ خراب ـ فقالت بومة الموصل : لاأقدر علىٰ ذلك الآن ولكن إن دام والينا سلَّمه الله علينا سنة واحدة فعلت ؛ فاستيقظ لها وجلس للمظالم .

---

(١) عبارة حياة الحيوان فاذا رآها الطير . . . قتلها ونتفن وهى أصوب .

ومنها البُؤة — بضم الباء وفتح الهمزة — (١) قال الجوهرى : وهو طائر يشبه البُومة إلا أنه أصـغر منها . وذكر ابن قتيبة فى أدب الكاتب نحوَه ، ويقـال له البُوهة أيضا ، وهى من طير الليل أيضا ، ولا يخفى أنها التى يسميها الناس فى زماننا المَصَّاصَة ويزعمون أنها تنزل على الأطفال فتمَصُّ أُنُوفَهم .

ومنها الخُفَّاش — بضم الخاء المعجمة وتشديد الفاء وبالشين المعجمة ، ويجمع على خَفَافِيشَ — وهو طائر غريب الشَّكْل والوصف لا ريشَ عليه ، وأجنحتُه جلدة لاصقة بيديه ، وقيل لا صـقة بجنبه ؛ وسمى خُفَّاشا لأنه لا يبصِر نهارا ، وبه سمى الرجل أخفشَ ، والعامّة تسميه الوَطْواط ، وقيل الخُفَّاش الصغير ، والوَطْواط الكبير ، ويقال إن الوطواط هو الخُطَّاف لا الخُفَّاش . وليس هو من الطير فى شئ ، فإن له أسنانا وخُصيتين ، ويحيض ، ويضحك كما يضحك الإنسان ، ويبول كما تبول ذوات الأربع ، ويُرضِع ولده من ثديه . ولما كان لا يبصر نهـارا آلتمس وقتـا يكون بين الظلمة والضوء وهو قريب غروب الشمس : لأنه وقت هَيَجان البعوض فالبعوض يخرج فى ذلك الوقت يطلب قُوتَه من دماء الحيوان ، والخُفَّاشُ يخرج لطلب الطُّعْم فيقع طالبُ رزق على طالب رِزْق ؛ ويقـال إنه هو الذى خلقـه المسيح عليه السـلام من الطين ، ونفخ فيه فكان طيرا بإذن الله . قال بعض المفسرين : ومن أجل ذلك كان مبـاينا لغيره من الطيور ، ولذلك سائر الطيور مُبْغِضَـةٌ له وتسطو عليه ؛ فما كان منها يأكل اللحم أكله ، وما كان منهـا لا يأكل اللحم قتله ؛ وهو شديد الطَّيَران ، سريع التقلب ، يقتات البعوض والذباب وبعضَ الفواكه ؛ وهو موصوف بطول العمر حتّى يقال : إنه أطول عمرا من النَّسْر ، وتلد الأنثى ما بين ثلاثة أفراخ وسبعة ، وكثيرا ما يَسْفِدُ وهو طـائر فى الهواء ، وهو يحمل ولده

(١) لم يهمزه أحد من اللغويين بل ذكروه فى باب الهاء وقد رسم فى الصحاح بالواو وكذا فى القاموس وقال بالضم .

معه إذا طار، تحت جناحه، وربما قبض عليه بفيه حُنُوًّا عليه، وربما أرضعت الأنثى ولَدها وهى طائرة . وفى طباعه أنه متى أصابه ورق الدُّلْب خَدِرَ ولم يطر، وقد ورد النهى عن قتله .

فإذا عرف الكاتبُ أحوالَ الطير وخواصَّها ، تصرّف فيها بحسب ما يحتاج إليه فى نظمه ونثره كما فى قول الشاعر :

وإذا السعادةُ لاحظَتْكَ عيونُها، * نَمْ ، فالمَخَاوِفُ كلُّهنّ أمانُ
وآصْطَدْ بها العنقاءَ فهى حبائلُ ، * وآقْتَدْ بها الجَوْزاءَ فهى عِنانُ

إشارةً إلى عِظَم العنقاء وعدمِ القدرة على مقاومتها، ومع ذلك تنقاد بالسعد . وكما فى قول أبى الفتح كُشَاجم، مخاطبا لولده يطلب البرّ منه :

اتَّخِذْ فِىَّ خُلَّةَ فى الكَرَاكِى * أَتَّخِذْ فيك خُلَّةَ الوَطْوَاط
أنا إن لم تَبَرَّنِى فى عناء * فببرى ترجو جَوَازَ السراط

يشير إلى ما تقدّم من أنّ فى طبع الكُرْكِىّ بِرَّ والديه إذا كَبِرَا ، كما أن فى طبع الوَطْوَاط برَّ أولاده بحيث يحملها معه إلى حيث توجه، وكما فى قول الشاعر :

مثل النهار يَزِيدُ إبصارَ الورى * نُورا ، ويُعْمِى أعيُنَ الخُفَّاش

إشارة إلى أنّ الخُفَّاشَ لا يُبْصِرُ نهارا، بخلاف سائرأرباب الأبصار، وكما قيل فى وصف شارد عن القتال :

وهُمْ تركوه أَسْلَحَ مِنْ حُبَارَى(١) ، * رأى صقرا ، وأَشْرَدَ من نَعَامِ

يريد ما تقدّم مما يَعْرِضُ للحبارى من إرسالها سَلْحَهَا على الجارح عند آقتناصه لها، وأنّ النَّعام فى غاية ما يكون فى البرية من الشِّراد والنِّفار، ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرى .

---

(١) ورد هذا البيت فى حياة الحيوان هكذا : وهم تركوك ... ... رأت

الصـــنف الرابع
(الحمـام)

وقد آختلف فى الحمـام فى أصـل اللغة فنقل الازهرىّ عن الشافعىّ رضى الله عنه أن الحمام يطلق علىٰ كل ماعَبّ وهدر و إن تفرّقت أسماؤه، فيدخل فيه الحمام، واليَمَام، والدَّباسِىّ، والقَمَارِىّ، والفواخت وغيرها. وذهب الأَصْمَعِىّ إلىٰ أن الحمام يطلق علىٰ كل ذات طوق كالفواخت والقمارىّ وأشـباهها . ونقل أبو عُبَيْدٍ عن الكسائىّ سماعا منه أن الحَمَام هو الذى لا يألَفُ البيوت، وأن اليمام هو الذى يألف البيوت لكن الذى غلب عليه إطلاق الحمـام هذا النوع المخصوص المعروف .

ثم هو علىٰ قسمين .

أحدهمـا ما ليس له آهتـداءٌ فى الطيران من المسافة البعيـدة . والثـانى ماله آهتداء، ويعرف بالحمـام الهدى وهو المراد هنا ؛ وقد آعتنى الناس بشأنه فى القديم والحديث، وآهتم بأمره الخلفاء : كالمهدىّ ثالثِ خلفاءِ بنى العباس، والواثقِ، والناصرِ وتنافس فيه رؤساء النـاس بالعراق، لاسيما بالبَصْرَةِ . فقد ذكر صاحب "الروض المعطار" أنهم تنافسوا فى آقتنائه، ولَهِجُوا بذكره، وبالغوا فى أثمانه حتّٰى بلغ ثمنُ الطائر الفارِهِ منها سَبْعَمائة دينار ؛ ويقال إنه بلغ ثمن طائر منها جاء من خليج القسطنطينية أَلْفَ دينار ؛ وكانت تباع بيضة الطائر المشهور بالفراهة بعشرين دينارا ، وإنه كان عندهم دفاتر بأنساب الحمـام كأنساب العرب، وإنه كان لا يمتنع الرجل الجليل ولا الفقيه ولا العَدْلُ من آتخاذ الحمام والمنافسة فيه والإخبارِ عنها، والوصف لأثرها والنعتِ لمشهورها، حتّٰى وجه أهل البصرة إلىٰ بكار بن قتيبة البكراوى، قاضى مصر، وكان فى فضله وعقله ودينه ووَرَعه ما لم يكن عليه قاض، بحمامات لهم مع ثِقَات، وكتبوا إليه يسألونه أن يتولّٰى إرسالها بنفسه، وكان الحمام عندهم مَتْجَرًا من المتاجر لا يَرَوْنَ بذلك بأسا .

وذكر المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" أن الحمام أوّل مانشأ ـ يعنى فى الديار المصرية والبلاد الشامية ـ من الْمَوْصِلِ وأنّ أوّل مَن آعتنىٰ به من الملوك ونقله من الموصل الشهيدُ نور الدين بن زنكى صاحب الشام رحمه الله فى سنة خمس وستين وخمسمائة ، وحافظ عليه الخلفاء الفاطميون بمصر ، و بالغوا حتّى أفردوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام . وقد آعتنىٰ بعض المصنفين بأمره، حتّى صَنَّفَ فيه أبو الحسن بن ملاعب القوّاس البغدادىّ، كتابا للناصر لدين الله العباسى ، ذكر فيه أسماء أعضاءِ الطائر، ورياشِه، والوشومِ التى توشم فى كل عُضْوٍ، وألوانَ الطيور، وما يستحسن من صفاتها ، وكيفيةَ إفراخها ، وبعضَ المسافات التى أُرْسِلَتْ منها، وذكر شيء من نوادرها وحكاياتها ، وما يجرى مجرىٰ ذلك . وذكر فى "التعريف" أن القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر صنف فيها كتابا سماه "تمائم الحمائم"

ويتعلق الغرض منها بأمور .

الأمر الأوّل

(ذكر ألوانها)

قال أبو الحسن القوّاسُ : وقد أكثر الناس من ذكر ألوانها ويرجع القصد فيها إلىٰ ذكر ألوان ستة .

اللون الأوّل البياض ـ ومنه الأبيض الصافى، والأشقر : وهو ما كان يعلوه حمرة؛ فإن كان الغالب فى شُقْرَتِهِ البياض، قيل فِضِّىٌّ؛ فإن زاد، قيل أشقرُ .

اللون الثانى الخضرة ـ إن كانت خضرته مُشْبَعةً إلىٰ السواد،قيل أخضر مسنّىّ؛ فإن كان دون ذلك، قيل نَبْتِىٌّ الخضرة؛ فإن كان دون ذلك، قيل صافى الخضرة؛ فإن تكدّرت خضرته بأن لم يكن صافى الخضرة، قيل أسمر .

اللون الثالث الصُّفْرة ـ وهى عبارة عن أن تكون خضرته تميل إلى البياض، فإن كان صافيا، قيل أصفر قرطاسىّ .

اللون الرابع الحمرة ـ إذا كان شديدَ الحمرة، قيل عُنَّابِىّ، فإن كان دون ذلك، قيل خَمْرِىّ ؛ فإن كان دون ذلك، قيل خَلُوقىٌّ، فإن كانت حُمْرَته تضرب إلى الخضرة، قيل أَكْفَأ، فإن كانت حمرته تضرب إلى البياض، قيل أحمر صَدَفِىّ .

اللون الخامس السواد ـ إذا كان شديد السواد لا بياض فيه، قيل أسود مُطْبِق ؛ فإن كان لون سواده ناقصا، قيل أسود أخْلَس، فإن كان سـوادُه يضرب إلى الخضرة، قيل أسود رَمادِىّ، فإن كان فى سواده مائية، قيل أسود بَرَّاق، فإن كان ساقاه أيضا أسودين، قيل أسود حالك وأسود زِنْجِىّ .

اللون السادس النَّمرِىّ ـ وهو أن يكون فى الطائر نقط يخالف بعضُها بعضا، ويختلف الحال فيه باختلاف كِبرِ النُّقَط وصِـغَرِهَا، فتارة يقال مدَنَّر، وتارة يقال مَلَمَّع، وتارة يقال أبَرَش، وتارة يقـال مُوَشَّح، وتارة يقال أبْقَع، وتارة يقال أبْلَق، وتارة يقال دبَاسِىّ، وتارة يقال مُدَرَّع إلى غير ذلك مما لا يُستوفى كثرةً . ثم إن كان الطائر أكحَلَ العينين وحَولَ عينيه حمرةٌ، قيـل فقيع، فإن كان أصـفر العين، قيل أصفَرُ زِرْنِيخِىّ، فإن كان أبيض العنق، قيل هِلالىّ، وهو أحسنها، والأصفرُ العينِ بعده، فإن كانت العين بيضاءَ وفيها حمرة، قيل رُمّانىّ العين .

الأمر الثـانى

(فى عدد ريش الجناحين والذنب المعتدّ به وأسمائها)

أما الجناحان فإن فيهما عشرين ريشة، فى كل جناح منهما عشرُ ريشات، الأولى منها ـ وهى التى فى طرف الجناح ـ تسمّى الصمة، والثانية وهى التى بعدها تسمّى

المُضَافة الرئيسية ، والثالثة وهى التى بعدها تُسمّى الواسطية ، والرابعة وهىَ التى بعدها تسمّى المُضَافة ، والخامسة وهى التى بعـدها تسمّى المِنْظفة ، والسادسة وهى التى بعدها تسمّى المُنْحدِرة ، والسابعة وهى التى بعـدها تسمّى الناقصةَ ، والثامنة وهى التى بعدها تسمّى المُؤْنسة ، والتاسعة وهى التى بعدها تسمّى الزَّامِلَة ، والعاشرة وهى التى بعدها تسمّى المُعِينة .

وبعضهم يسمى الأولىٰ الصغيرة ، والثانيـة الرقيقة ، والثالثـة الموفية ، والرابعة الباحلة ، والخامسة الحيرة ، والسادسة الصرافة ، والسابعـة ممسكة الرمى ، والثامنة والتاسعة الحافظتين ، والعاشرة الملِكة .

وربمـا كان فى كل جناح إحدىٰ عشرة ريشةً فيسمّى الطائر حينئذ أعلم .

ولهذه الريشات العشرِ عشرُ ريشـات مع كل واحدة منها رادفةٌ : وهى الريش الصِّـغَارُ التى تغطّى قصَب الجَنَـاح من ظاهره ، ولكل ريشة من هذه الريشات العشر ريشة صغيرة تغطى قصبتها ، لكل واحدة منها آسم يخصها .

ومن ريش الجناح أيضا الخوَافِى ، وهى الريش المسَطَّر مع العشر ريشات الطِّوال المنقلبُ برءُوسه إلىٰ مُؤخَّر الجناح . وهى تسع ريشات ، الأولىٰ منها تسمّى الحدقة ، والثانية الرَّتَمة ، والثالثة الغرّة ، والرابعة الحز ، والخامسة الجائزة ، والسادسة المسلِّمة ، والسابعة الملازمة ، والثامنة الشعثة ، والتاسعة اللامعة . وبعضهم يسمِّى الأولىٰ بنت الملكة ، والثانية الإبرة ، والثالثة المقشعرّة ، والرابعة الصافية ، والخامسة المصفية ، والسادسة المصفرة ، والسابعة الزرقاء ، والثامنة السوداء ، والتاسعة المزرَّقة . وعدّ فيها عاشرة تسمّى المخضرَّة — ولكل ريشة من الريشات التِّسع ريشةٌ صغيرة تغطى قصبتها لهـا آسم يخصها أيضا .

وبعد الخوافى الغفار ، ولكل ريشة من الغِفَار ريشة صغيرة من باطنها تغطِّى قَصَبتها .

ومن ريش الجناحين المُقَوِّمات : وهى ثلاث ريشات فى طَرَف الجناح ، تسمّى الزوائد . ومن فوقها ثلاثُ ريشات صغارٌ تغطى قصبتها ، تسمّى الغَوافِى ، وأصلها مع أصلِ[1] أيضا .

وأما الذَّنَبُ ، فالمعتبر فيه ٱثنتـا عشرة ريشةً من كل جانب : منه ست ريشات تسمّى الأولىٰ منها الغزالة ، والثانية العَرُوس ، والثالثة الباشِقة ، والرابعة الباقيـة ، والخامسة المجاورة ، والسادسة العمود ، ومن الجانب الآخر كذلك .

الأمر الثـالث

(الفرق بين الذكر والأنثىٰ)

وقد ذكروا بينهما فروقا ؛ منها أنّ الأنثىٰ إذا تمشت ، قدّمتِ الرِّجْلَ اليسرىٰ ؛ والذكرُ يقدّم الرِّجلَ اليُمْنى . ومنها أن يُرىٰ الذكر مُقْتَدِرًا فى الأرض مُسْتَشِـيطا ، والأنثىٰ بالضـدّ من ذلك ؛ ومنها أنّ ريشَ الذكر أعرضُ وأطولُ وأحسنُ ٱستواءً من الأنثىٰ ؛ ومنها أن مَذْبَحَ الذكر يكون عريضا ومذبَح الأنثىٰ دقيقا ؛ ومنها أن يكون وجه الذكر عريضَ الخـدّ والأنثىٰ بالضـدّ من ذلك ؛ ومنها أنّ الأنثىٰ إذا طارت فتحت جناحيها والذكر إذا طار أخرج عَشْرَيه .

الأمر الرابع

(فى بيان صفة الطائر الفارِه)

قال أبو الحسن القوّاس : علامته أن يكون رأسه مكعبا ، وعينه معتدلَةً ، غيرَ ناتئة ولا غائرة ، ولا فاترة ، ولا قلقة منزعجة ؛ وأن يكون مِنقاره غليظا قصيرا ؛ وأن يكون وسط المَنْخِرَين ، مُكَاثِمَ القُرطِمَتَيْن ، أَهْرَتَ الشِّدْقَيْن ، واسعَ الصدر ، نَقِيَّ الريش ،

(١) لعله مع أصل الزوائد أيضا كما يفيده المقام تأمل .

طويلَ الفَخِذين ، قصيرَ الساقين ، غليظَ الاصابع ، شَثْنَ البراثن ، طويلَ القَوادِم من غير إفراط .

ويستحب فيه قِصَرُ الذنب ، ودِقّتُه ، واجتماع ريشه من غير تفرّق ، وأن يكون ظهره معتدلا وإلى القِصَر أقرب ، وأن يكون جُؤْجُؤُه : وهوجانب الصدر طويلا ممتدّا ، وعُنُقُه طويلا منتصبا ، وريش قَوادمه وخوافيه مَبْنِيًّا متطابقا بعضُه مع بعض من غير تفرّق ولا تَمَعُّط ، وأن يكون شديد اللحم ، مكتنزا غير رِخْوٍ ولا رَهِلٍ .

ويستحب فيه أيضا أن يكون قليلَ الرِّعْدة عند الفزع ، سريع اللَّقْطِ للحب ، خفيفَ الحركة والنُّهوض ، والنزول من غير طَيْش ولا اختلاط ، وأن يكون ظهره مُسَطَّحًا لا أحدبَ ولا أوقصَ ؛ ويستحب فيه إذا وقف ، أن ينصب صدرَه ، ويرفع عُنُقَه ، ويفتح ما بين فَخِذَيْه شبه البازى .

ومن علامة فَرَاهته أنه إذا طال عليه الطَّيَران[1] وأراد النزول على سطحه أن لا يُدَلِّيَ رجليه حتّى يقع صدره على سطحه لانه إذا دلّى ساقيه ، كان عيبا عظيما يقولون قد انحلت سراويله بمعنى أنه قد أدّى جميع ما عنده من القوّة والطاقة ؛ ويكره فيه دقة المَغْرِز ، وطولُ الذَّنَب ، وتفرّق الريش .

الأمر الخامس

(الفِرَاسة فى الطائر من حال صغره قبل الطيران)

قالوا من علامة الطائر الفاره فى صِغَرِه أن يكون حديدَ النظر ، شديدَ الحِذْر ، خفيفَ اللحم ، قليلَ الريش ، سريعَ النَّهْضة ، كثيرَ التَّلَفُّتِ فى الجو ، ممتدَّ العظم ، مستويا ، لطيفَ الذَّنَب ، خارجَ العُنُقِ ، قصيرَ الساقين ، طويل الفَخِذَيْنِ ، مُحَجَّلا ،

---

(١) لعلّ الجار ومجروره من زيادة الناسخ .

مذيلَ المنقار، مدوّرَ القَرَاطم، مضاعفَ المحَاجِر، يلزم موضعا واحدا من صغره إلىٰ ازدواجه، فإذا ٱزدوج علىٰ السَّطْح يكون حريصا علىٰ طائرته، حسنَ الأخلاق معها لا يَطْرُدُها طردَ الكلاب ، ولا يغتالُ غِيلَةَ الذئاب ، قليــلَ الذَّرْق ، كثيرَ الدهن ، مُدِلًّا بنفسه، كأنه يعلم أنه فاره. فإن كان فيه بعضُ هذه الخصال، كانت فراهته علىٰ قدر مافيه من ذلك .

قال أبو الحسن الكاتب : ومن علامة شهامة الفرخ أن تكون فيــه الحركة وهو تحت أبيه وأمّه، وكلما جمعتْه لتضمَّه تحتها ، خرج من تحتها و يعتلق للخروج، وأن يكون ريش رأسه كأن فيه جَلَحا ، وريشُ جســده وجناحه مســتطيلا عند نَبْعه من جســده ، وأن يطول ريشُه حتّٰى يغطّىَ ظهره ولا ينتشر إلا بعــد ذلك، وأن يكون منَ جؤجؤ الصدر إلىٰ مَغْرِزِه أقصر من بطنه إلىٰ رأس بَرَاثِنه .

وفى الحمام طائر يقال له الأندم، وصفته أن يكون أسود المِنْقار ليس فيه بياض، ورأس مِنْقاره وأصله سواء، لاتحديد فى رأسه، عريضَ القَرَاطم، غليظَ الشِّدقين، منتشر المَنْخِرَين ، جَهْوَرِىَّ الصوت ، غائرَ العين ، قال أبو الحسن القوّاس : ولا تكون هذه الصفة إلا فى الطائر الفاره الأصيل، الكريم الأب والأم .

الأمر السادس

(بيان الزمان والمكان اللائقين بالإفراخ)

أما الزمان فأصلح أوقات التأليف أيلول ، وتشرين الأوّل ، وتشرين الثـانى ، وأذار ، ونيسان ، وايار ، فإذا وقع الإفراخ فى شئ من هذه الأوقات كانت الفراخ أقو ياء، نُجَباء، أذكياءَ، ونُهوا عن الإفراخ فى كانون الأول، وكانون الثانى، وشباط، وآب، وتموز، وحزيران، فإن الذى يُفْرِخ فيه لا يزال ناقصَ البدن، قليلَ الفطْنة، يلقى ريشَه فى السنة مرتين فيضْعف .

وأما المكان فقد حكى عن إقليمن الهندى أن أولى ما أفرخ الحمامُ بالسُّطوح، وذلك أنّ الفرخ يخرج من القشر فيلقى خشونة الهواء وحَرّ الموضع فيصير له عادة ثم لاينهض حتّى يعرِف وطنه وينقلب إليه أبوه وأمه بالزَّقّ والعَلَف فيعرف السَّطْح حقَّ المعرفة، وينتقل خلفهما فيعلمانه الصُّعود والهُبوط . وربما أخذاه إلى الرَّعْى بالصحراء فلا يكمل حتّى يصير شهما عارفا بأمور الطيران . بخلاف ما إذا أفرخ بالسُّفْل فإنه يتربّى جسده على برودة الفَىْء ولين الهواء، فإذا كمل وترقّى إلى السطح لقيه خشونة الهواء وقوّة الحرّ، فيُحْدِث له الحرّ الجامد بفؤاده الكُبَادَ والدِّقّ .

الأمر السابع

(فى مسافة الطيران)

قد تقدّم أنّ طائرا طار من الخليج القُسْطنطينىّ إلى البَصْرة، وأن الحمام كان يُرَسَل من مصر إلى البصرة أيضا . وذكر ابن سعيد فى كتابه "جنى المحل وجنى النحل" أنّ العزيز ثانِىَ خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيره يعقوب بن كلس أنه ما رأى القَراصِيَة البعلبكية، وأنه يحب أن يراها، وكان بدمشق حمامٌ من مصر وبمصر حَمام من الشام، فكتب الوزير بِطَاقةً يأمر فيها مَنْ بدمشق أن يجمع ما بها من الحمام المصرىّ ويعلق فى كل طائر حبَّاتٍ من القَراصِيَة البعلبكية وتُرسَل ففعل ذلك فلم يمض النهار إلا وعنده قدر كثير من القَراصِية فطلع بها إلى العزيز من يومه . وذكر أيضا فى كتابه "المُغْرب فى أخبار المَغرِب" أن الوزير اليازورى المغربى وزير المستنصر الفاطمى وجه الحمام من مدينة تونس من افريقيةَ من بلاد المغرب إلى مصر فجاء إلى مصر .

وقد ذكر أبو الحسن القوّاس فى كتابه فى الحمـام أنَّ حماما طار من عَبَّـادانَ إلىٰ الكُوفة ، وأن حماما طار من التُّرْنَاوَذ إلىٰ الأُبُلَّةِ ونحو ذلك ، وسـيأتى الكلام على أبراج الحمام بالديار المصرية فى المقالة العاشرة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

النوع الخـامس

(مايحتاج إلىٰ وصفه من نفائس الأحجار)

ويحتاج الكاتب إليه من وجهين : أحدهما من حيث مخالطةُ الملوك فلا بدّ أن يكون عارفا بصـفات الجواهر وأثمـانها والنَّفِيس منها وخواصِّها لأنه ربمـا جرىٰ ذكر شئ من ذلك بحضرة ملكه ، فتكون مشاركته فيه زيادة فى رِفْعة محله ، وعلوّ مِقداره ، وهذا هو الذى عوّل عليه صاحب "موادّ البيان" فى آحتياج الكاتب إلىٰ ذلك . والثانى أن يحتاج إلىٰ وصف شئ من ذلك مع هدية تصدُر عن ملكه أو هديةٍ تصل إليه ، مع مايحتاج إليه من ذلك لمعرفة التشبيهات والآستعارات التى هى عمودُ البلاغة ، فمن لم يكن عارفا بأوصاف الأحجار ، ونفائس الجواهر لايُحسِن التعبير عنها ؛ ألا ترىٰ إلىٰ تشبيهات آبن المعتز ووصفه للجواهر كيف تقَعُ فى نِهاية الحُسْنِ ، وغاية الكمال لمعرفته بالمشاهدة فهو يقول عن علم ، ويتكلم عن معرفة "وليس الخبرُ كالمعاينة" وقد آعتنى الناس بالتصنيف فى الأحجار فى القديم والحديث .

فممن صنف فيـه فى القديم من حكماء الفلاسفة أرسطوطا ليس ، وبلينوس ، و ياقوس الإنطاكى .

وممن صنَّف فيه من الإسلاميين أحمد بن أبى خالد المعروف بآبن الجزار ، و يعقوب بن إسحاق الكِنْدىّ وغيرهما . وأحسن مصنَّف فيه مصنَّف أبى العباس أحمد بن يوسف التِّيفاشِىّ .

والذى يتعلق الغرض منه بذلك آثنا عشر صنفا .

الصنف الأوّل

(اللؤلؤ)

وهو يتكوّن فى باطن الصَّدَف ؛ وهو حيوانٌ من حَيَوان البحر المِلْح له جِلْد عَظْمِىٌّ كالحَلَزون، ويغوص عليه الغوّاصُون، فيستخرجُونه من قعر البحر، ويصْعَدُون به فيستخرجُونه منه . وله مَغَاصات كثيرة ، إلا أن مَظَانَّ النفيس منه بسَرَنْدِيبَ من الهند، وبكِيش ، وعُمَانَ ، والبحرين من أرض فارس ؛ وأفخرُه لؤلؤ جزيرة خارَكَ ، بين كِيش والبحرين .

أمّا مايوجد منه ببحر القُلْزم وسائر بحار الحِجاز فردِىء ولو كانت الدُّرّة منه فى نهاية الكبر : لأنه لا يكون لها طائل ثمن . وجَيِّد اللؤلؤ فى الجملة هو الشَّفَّاف الشديد البياض، الكبيرُ الجِرم ، الكثيرُ الوزْن ، المستدير الشكل ، الذى لا تَضْرِيس فيه، ولا تَفَرْطُحَ، ولا آعوجاجَ . ومن عيوبه أن يكون فى الحبة تفَرْطُح، أو آعوجاجٌ، أو يلصق بها قِشْر أو دودة، أو تكون مجوّفة غير مصمتة، أو يكون ثقبها متسعا .

ثم من مصطلح الجوهريين أنه إذا اجتمع فى الدرّة أوصاف الجَوْدة ، فما زاد علىٰ وزن درهمين، ولو حبة يسمّٰى درّا . فإن نقصت عن الدرهمين ولو حبة سمِّيتْ حَبَّة لؤلؤ ؛ وإذا كانت زنتها أكثر من درهمين وفيها عيب من العيوب ، فإنها تسمّٰى حبَّة أيضا ؛ ولا عبرة بوزنها مع عدم اجتماع أوصاف الجَوْدة فيها، وتسمّٰى الحبة المستديرةُ الشكلِ عند الجوهريين الفارة ، وفى عرف العامّة المُدَحْرَجة .
ومن طبع الجوهر أنه يتكوّن قشورا رقاقا طبقةً علىٰ طبقة حتّٰى لو لم يكن كذلك فليس علىٰ أصل الخلقة بل مصنوع .

ومن خواصه أنه إذا سُحِق وسُقِى مع سَمْن البقر نفع من السُّمُوم .

وقال ارسطوطاليس: من وقف على حل اللؤلؤ من كباره وصغاره حتّٰى يصير ماء رَجْراجا ثم طَلَى به البرص أذهبـه ؛ وقيمة الدرّة التى زنتُها درهمـان وحبة مثـلا أو وحبتان مع اجتماع شَرائط الجَوْدة فيها سبعمائة دينار ؛ فإن كان اثنتان على هـذه الصفة كانت قيمتهما ألفى دينار كل واحدة ألف دينار لاتفاقهما فى النظم ؛ والتى زنتها مثقال وهى بصفة الجودة قيمتها ثلثمائة دينار، فإن كان اثنتان زنتهما مثقال وهما بهذه الصفة على شكل واحد لا تفريق بينهما فى الشكل والصورة ، كانت قيمتهما أكثر من سبعمائة دينار . وقد ذكر ابن الطوير فى تاريخ الدّولة الفـاطمية أنه كان عنـد خلفائهم دُرّة تسمّٰى اليتيمة زنتها سبعة دراهم تجعل على جبهة الخليفة بين عينيه عند ركوبه فى المواكب العظام على ماسيأتى ذكره فى الكلام على ترتيب دولتهم فى المسالك والممـالك إن شاء الله تعالى .

ويضُرُّه جميع الأدهان، والحُمُوضات بأسرها لاسيما الليمون، ووهج النار، والعَرَق، وذَفَر الرائحة، والاحتكاك بالأشياء الخشنة ؛ ويجلوه ماء حماض الأترج إلا أنه إذا أُلِحَّ عليه به قَشَره ونقَص وزنه ، فإن كانت صـفرته من أصل تكوّنه فى البحر فلا سبيل إلى جِلائها .

الصنف الثـانى

(اليـاقوت)

قال بلينوس : وهو حجر ذهبيٌّ ، وهو حصًى يتكوّن بجزيرةٍ خلفَ سَرَنْدِيبَ من بلاد الهند بنحو أربعين فرسخا ، دورها نحو ستين فرسخا فى مثلها ، وفيها جبل عظيم يقال له جبل الرَّاهُون تُحْدِر منه الرياحُ والسيولُ الياقوتَ فيُلْتَقَط ، والياقوتُ حصباؤه . وهو الجبل الذى أهبط الله تعالى عليه آدم عليه السـلام ، فإذا لم تُحدِر السيولُ منه

شيئا، عمد أهلُ ذلك الموضع إلىٰ حيوان فذبحوه وسلَخُوا جلده وقَطَّعوه قِطَعا كبارا وتركوه فى سفح ذلك الجبل فيختطفه نُسُور تأوِى إلىٰ ذلك الجبل فتصعَد باللحم إلىٰ أعلاه فيلصق بها الياقوت ثم تأخذه النسور وتنزل به إلىٰ أسفل فيسقط منه ماعَلِق به من الياقوت؛ فإذا أخذ كان لونه مظلما ثم يشف بملاقاة الشمس ويظهر لونه علىٰ أىّ لون كان .

ثم هو علىٰ أربعة أضرب .

الضرب الأوّل الأحمر ـ ومنه البَهْرَمان ، ولونه كلون العُصْفُر الشديد الحمرة الناصع فى القوّة الذى لايشوب حمرته شائبة، ويسمّى الرُّمّانىَّ: لمشابهته حبَّ الرُّمّان الرائقِ الحب ،وهو أعلىٰ أصناف الياقوت وأفضلها وأغلاها ثمنا .

ومنه الخِيرىُّ : وهو شبيه بلون الخيرىِّ : وهو المنثور، ويتفاضل فى قوّة الصبغ وضعفه حتى يقرب من البياض .

ومنه الوَرْدِىُّ : وهو كلون الورد ويتفاضل فى شدّة الصبغ وضعفه حتّى يقرب من البياض .

وأردأ ألوانه الوردىُّ الذى يضرب إلىٰ البياض ،والسُّمّاقىّ الذى يضرب إلىٰ السَّواد .

الضرب الثانى الأصفر ـ وأعلاه الجُلَّنارىُّ ، وهو أشدّه صفرة ، وأكثره شُعاعا ومائيةً ، ودونه الخَلُوقىّ ، وهو أقلُّ صُفرةً منه ،ودونه الرقيق وهو قليل الصفرة كثير الماء ساطع الشُّعاع .

وأردأ الأصفر ما نقص لونه ومال إلىٰ البياض .

الضرب الثالث الأبيض ـ ومنه المهانِىُّ :وهو أشدّها وأكثرها ماءً وأقواها شُعاعا؛ ومنه الذكر : وهو أثقلُ من المهانىّ وأقلُّ شُعاعا وأصلبُ حَجَرًا؛ وهو أَدْوَنُ أصناف

الياقوت وأقلها ثمنا . وأجود الياقوت الأحمرُ البهرمانيّ والرمانيّ والورديّ النيّر المشرقُ اللون الشَّفَّافُ، الذى يَنْفُذُه البصر بسرعة. وعيوبه الشَّعْرَةُ : وهى شبه تشقيق يُرىٰ فيه، والسُّوس : وهو خروق توجد فيه باطنة ويعلوها شئ من ترابية المَعْدِنِ .

ومن أردإ صفاته قبح الشكل .

ومن خواصّ الياقوت أنه يقطع كلَّ الحجارة كما يقطعها المَـاسُ؛ وليس يقطعه هو علىٰ أيّ لون كان غيرُ المَـاسِ .

ومن خواصه أيضا أنه لا ينحكُّ علىٰ خشب العُشَر الذى تجلىٰ به جميعُ الأحجار، بل طريق جلائه أن يُكَسَّر الجَزْعُ اليمـانى ويحرَق حتّى يصيرَ كالنُّورة ثم يسحق بالمـاء حتّى يصـير كأنه الغِرَاءُ ثم يحك علىٰ وجه صفيحة من نحاس حجرُ الياقوت ، فينجلى ويصيرُ من أشد الجواهر صَقَالَةً .

ومن خواصــه أنه ليس لشيء من الأحجار المُشِفَّةِ شعاعٌ مثـله ، وأنه أثقل من سائر الأحجار المساوية له فى المقدار، وأنه يصبر علىٰ النار فلا يتَكَلَّسُ بها كما يتكلس غيره من الحجارة النفيسة، وإذا خرج من النـار بَرَدَ بسرعة حتّى إنّ الإنسانَ يضعه فى فيه عَقِبَ إخراجه من النار فلا يتأثر به ، إلا أن لون غير الأحمر منه كالصـفرة وغيرها يتحوّل إلىٰ البياض ، أمّا الحمرة فإنها تَقْوىٰ بالنار، بل إذا كان فى الفص نُكْتَةٌ حمراء ، فإنها تَتَّسِعُ بالنار وتنبسط فى الحجر. بخلاف النكتة السوداء فيه، فإنها تنقُص بالنار فمـا ذهبت حمرته بالنار فليس بياقوتٍ بل ياقوت أبيضُ مصـبوغ ، أو حجر يشبه الياقوت .

ومن منافعه ما ذكره أرِسْطاطاليس ، أنـ التختم به يمنع صـاحبَه أن يصيبه الطاعونُ إذا ظهر فى بلد هو فيه ، وأنه يعظم لا بِسه فى عيون الناس، ويسهلُ عليـه

قضاء الحوائج، وتتيسر له أسباب المعاش، ويقوّى قلبه ويشجعه، وأن الصاعقة لاتقع علىٰ من تختم به . وإذا وضع تحت اللسان، قطع العطش . وآمتحانه أن يُحَكّ به ما يشبهه من الأحجار، فإنه يَجْرَحُها بأسرها ولا تؤثر هى فيه . قال التيفاشى : وقيمة الأحمر الخالص علىٰ ماجرىٰ عليه العُرْف بمصرَ والعراقِ أن الحجرَ إذا كان زنتُه نصفَ درهم، كانت قيمته ستةَ مثاقيل من الذهب الخالص، والحجرَ الذى زنته درهمٌ قيمته ستة عشر دينارا، والحجرَ الذى زنته مثقالٌ قيمته بدينارين القيراط، والحجرَ الذى زنته مثقال وثلثٌ قيمته ثلاثة دنانيرَ القيراط إلىٰ ثلاثة ونصف، ويزيد ذلك بحسب زيادة لونه ومائيته وكبر جرمه حتّى ربما بلغ مازنته مثقال من جيده مائةَ مثقال من الذهب إذا كان بهرمانا نهايةً فى الصِّبْغ والمائية والشعاع، قد نقص منه بالحك كثيرٌ من جِرْمه ؛ وقيمة الأصفر منه زنة كل درهم بدينارين ؛ وقيمة الأزرق والماهانىّ كل درهم بأربعة دنانير؛ وقيمة الأبيض علىٰ النصف من الأصفر . ويختلف ذلك كله بالزيادة والنقص فى الصِّبغ والمائية مع القرب من المَعْدِنِ والبعد عنه ؛ وقد ذكر آبن الطوير فى ترتيب مملكة الفاطميين أنه كان عندهم حجرُ ياقوت أحمر فى صورة هلالٍ زنته أحد عشر مثقالا يُعْرَفُ بالحافر، يجعل علىٰ جبين الخليفة بين عينيه مع الدّرّة المتقدّمة الذكر عند ركوبه .

الصنف الثالث

(البَلَخْشُ)

قال فى مسالك الأبصار : ويسمّى اللَّعْلَ . قال بلينوس : وآنعقاده فى الأصل ليكون ياقوتا إلا أنه أبعده عن الياقوتية عِلَلٌ من اليُبْس والرطوبة وغيرهما، وكذلك سائر الأحجار الحُمْر؛ ومعدن البَلَخْش الذى يتكوّن فيه بنواحى بلَخْشَان، والعجمُ

تقول : بَذَخْشَان بذال معجمة وهى من بلاد الترك تتاخم الصين[1] . قال التيفاشى : وأخبرنى من رأىٰ مَعْدنَه من التِّجَارِ أنه وجد منه فى المعدن حجرا وفى باطنه ما لم يكمل طبخه وٱنعقاده بعد، والحجر مجتمع عليه؛ وهو علىٰ ثلاثة أضرب : أحمر مُعَقْرَبٌ وأخضر زَبَرْجَدِىٌّ، وأصفر؛ والأحمر أجوده. قال التيفاشى : وليس لجميعه شىء من خواص الياقوت ومنافعه ، وإنما فضيلته تشبهه به فى الصِّبْغ والمائية والشعاع لا غير. قال : وقيمته فى الجملة غالبا علىٰ النصف من قيمة الياقوت الجيد . قال فى مسالك الأبصار : وهو لا يؤخذ من مَعْدِنِه إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد لا يوجد بعد التعب والإنفاق ، ولهذا عز وجودُه ، وغَلَتْ قيمتُه، وكثر طالبُه، والتفتت الأعناق إلىٰ التحلى به . قال : وأنفس قطعة وصلت إلىٰ بلادنا من البَلَخْش قطعة وصلت مع تاجر فى أيام العادل كتبغا وأُحضرت إليه وهو بدِمَشْق، وكانت قطعةً جليلةً مثلثة علىٰ هيئة المُشْطِ العُودىّ . وهى فى نهاية الحسن وغاية الجَوْدَةِ ، زنتها خمسون درهما ، كاد المجلس يُضِىء منها، فأحضر الصاحبُ نَجمَ الدين الحنفىَّ الجوهرىَّ وسأله عن قيمتها فقال له نجمُ الدين الجوهرىُّ : إنما يعرف قيمتَها من رأىٰ مثلها ، وأنا وأنت والسلطان ومن حضر لم نر مثلها فكيف نعرف قيمتها ؟ فأُعْجِب بكلامه، وصالح عليها صاحبها .

الصنف الرابع
(عَيْنُ الْهِرِّ)

قال التيفاشى : وهو فى معنى الياقوت إلا أن الأعراض المقتصرةَ به اقعدته عن الياقوتية ، ولذلك إنما يوجد فى مَعْدِنِ الياقوت المتقدّم ذكره ؛ وتخرجه الرياح

---

(١) فى ياقوت أنها فى أعلى طخارستان متاخمة لبلاد الترك .

والسيول كما تُخْرِجُ الياقوتَ علىٰ ما تقدّم ، قال : ولم أجده فى كتب الأحجار، وكأنه مُحْدَثُ الظهور بأيدى الناس ، والغالب علىٰ لونه البياض بإشراق عظيم ومائية رقيقة شفافة، إلا أنه تُرىٰ فى باطنه نُكْتة علىٰ قدر ناظر الهِرّ الحامل للنور المتحرك فى فَصّ مقلته وعلىٰ لونه : علىٰ السواد، و إذا تحرّك الفَصُّ إلىٰ جهة، تحركت تلك النكتة بخلاف جهته . فإن مال إلىٰ جهة اليمين، مالت النكتة إلىٰ جهة اليسار و بالعكس، وكذلك الأعلىٰ والأسفل، وإن كسر الحجر أو قطع علىٰ أقل جزء ، ظهرت تلك النكتة فى كل جزء من أجزائه، ولذلك يسمّى عينَ الهر .

وأجوده ما اشتدّ بياض أبيضه وشفيفُه، وكثرت مائية النكتة التى فيه مع سرعة حركتها وظهور نورها و إشراقها ؛ ولا يخفىٰ أن حُسْنَ الشكل وكِبَرَ الجرم يزيدان فى قيمته كسائر الأحجار . قال التيفاشى : والمشهور من منافعه عند الجمهور أنه يحفظ حامله من أعين السوء . ونقل عن بعض ثقات الجَوْهَرِيِّين أنه يجمع سائر الخواصّ التى فى الياقوت البهرمانىّ فى منافعه، و يزيد عليه بأن لا يَنْقُصَ مالُ حامله ولا تعتريه الآفات ، وأنه إذا كان فى يد رجل وحضر مَصافَّ حرب وهُزِم حزبه فألقىٰ نفسه بين القتلىٰ ، رآه كل من يمرّ به من أعدائه كأنه مقتول متشحط فى دمه ؛ وان ثمنه بالهند مع قُرَب معدِنه أغلىٰ من ثمنه ببلاد المغرب بكثير، لعلمهم بخواصه ؛ وقيمته تختلف بحسب الرغبة فيه ؛ و إذا وقع ببلاد المغرب بيعَ المثقالُ منه بخمسة دنانير، و يزيد علىٰ ذلك بحسب الغرض .

وذكر التيفاشى عن بعض التجار أن حجرا منه بِيعَ فى المَعْبَر من بلاد الهند بمائة وخمسين دينارا وأنه بيع منه حجر ببلاد الفُرْس بسبعمائة دينار .

الصنف الخامس
(الْمَـاسُ)

قال بلينوس فى كتاب الأحجار : وآبتدأ فى مَعْدِنِه لينعقد ذهبا، فأبعدته العوارض عن ذلك، وهو يتكوّن فى مَعْدِنِ الياقوت المقــدّم ذكره وتخرجه الرياح والسـيول من معدنه كما تخرج الياقوت، وهو ضربان : أحدهما أبيض شــديد البياض يشبه البِلَّوْرَ يسمّى البِلَّوْرِىَّ لذلك ، والثانى يخالط بياضَه صفرةٌ فيصير كلون الزُّجَاج الفرعونى، ويعبر عنه بالزيتى . قال الكندىّ : والذى عاينته من هــذا الحجر ما بين الخردلة إلىٰ الجوزة ولم أر أعظم من ذلك .

ومن خواصه أنه يقطع كل حجر يمرّ عليه ، وإذا وضع علىٰ سـندال حديد ودُقَّ بالمِطْرَقَةِ لم ينكسر، وغاص فى وجه السندال والمِطْرَقَةِ وكسرهما، ولا يلتصق بشىء من الأجساد إلا هَشِمَ ويمحو النقوشَ التى فى الأحجار كلِّها . وإنمـا يكسر بأحد طريقين : أحدهما أن يُجْعَلَ داخلَ شىء من الشمع ويدخل فى أنبوب قصب وينقر بمطرقة أو غيرها برفق بحيث لا يباشر جسمُه الحديد ، فينكسر حينئذ ؛ أو يجعـل فى أُسْرُبٍّ وهو الرَّصَاصُ ويفعل به ذلك فيكسر أيضا .

ومن خواصه أن الذباب يشتهى أكلَه فمـا سقطت منـه قطعة صغيرة إلا سقط عليها الذباب وآبتلعها أو طار بها، ومتىٰ آبتلع منه الإنسانُ قطعةً، ولو أصغر مايكون خَرَقَتْ أمعاءه وقتلته علىٰ الفور . قال أرسطوطاليس : وبينــه وبين الذهب محبة يَتَشَبَّثُ به حيث كان .

ومن خاصــته أن كلَّ قطعة تؤخذ منــه تكون ذاتَ زوايا قائمةِ الرأس : ستِّ زوايا وثمـان زوايا وأكثر، وأقله ثلاث زوايا ، وإذا كسر لا ينكسر إلا مثلثا ،

وبه يثقب الدرّ والياقوت والزُّمُرُّد وغيرها من جميع ما لا يعمل فيه الحديد من الأحجار كما يثقب الحديد الخشب، بأن يُرَكَّب فى رأس منقار حديد منه قطعةٌ بقدر ما يراد من سعةِ الثَّقْبِ وضِيقِه ثم يثقب به، فيثقب بسرعة .

ومن منفعته فيما ذكره ارسطوطاليس أن مَنْ كان به الحصاة الحادثة فى المثانة فى مجرى البول إذا أخذ حبة من هذا الحجر وألصقها فى مِرْوَدِ نُحاس بمُصْطَكى إلصاقا مُحْكَماً ثم أدخل المِرْوَدَ إلى الحصاة فإنها تثقبها . قال أحمد بن أبى خالد : وبذلك عالجت وصيفا الخادمَ من حصاة أصابته وآمتنع من الشق عليها بالحديد . وقال آبن بوسطر : وإذا عُلِّقَ على البطن من الخارج، نفع من المَغْس الشديد ومن فساد المعدة، وقيمته الوُسْطى فيما ذكره التيفاشى أن زنة قيراط منه بدينارين، ونقل عن الكِنْدِىّ أن أغلى ما شاهد منه ببغداد المثقال بثمانين دينارا وأرخصَ ما شاهد منه ببغداد أيضا المثقال بخمسة عشر دينارا، وأنه إذا بدرت منه قطعة كبيرة تصلح لفَصٍّ قدرِ نصف مثقال يضاعف ثمنها على ما هو قدر الخردلة أو الفلفلة ثلاثةَ أضعاف وأربعةً وخمسةً .

الصنف السادس
(الزُّمُرُّد)

يقال بالذال المعجمة والمهملة . قال بلينوس : والزُّمُرُّدُ آبتدأ لينعقد ياقوتا، وكان لونه أحمرَ إلا أنه لشدّة تكاثف الحمرة بعضها على بعض عَرَضَ له السوادُ وامتزجت الحمرة والسواد فصار لونه أخضرَ، ومَعْدِنُه الذى يتكوّن فيه فى التخوم بين بلاد مصرَ والسودان خلف أسوان من بلاد الديار المصرية ، يوجد فى جبل هناك ممتدٍّ كالجسر فيه معادن . قال فى مسالك الأبصار : وبينه وبين قُوص ثمانية أيام بالسير

المعتدل ولا عمـارة عنده ولا حوله ولا قريبا منه، والمـاء عنده علىٰ مسيرة نصف يوم أو أكثر فى موضع يعرف بغَدِير أعيَن . فمنه مايوجد قِطَعًا صغارا كالحصى منبثةً فى تراب المعْدِن وهى الفصوص وربما أصيب العرْقُ منه متصلا فيُقْطَع وهو القصب وهو أجوده . قال فى مسالك الأبصار : وتلك العُروق منبثةٌ فى حَجَرٍ أبيضَ تستخرج منه بقطع الحجر . قال التيفاشى : ويوجد علىٰ بعضه تُرْبة كالكُحْل الشديد السواد، وهو أشدّه خضرة وأكثره ماء . وقد ذكر المؤيد صاحبُ حَمَاه فى تاريخه أن السلطان صلاحَ الدين يوسفَ بن أيُّوب رحمه الله لما آستولىٰ علىٰ قصر الفاطميين بعد موت العاضد، وجد فيه قصبة زُمُرُّدٍ طولهـا أربعة أذرع أو نحُوها .

وهو علىٰ ثلاثة أضرب .

الأوّل الذُّبَابِىّ — وهو شديد الخُضْرة، لايشوب خضرتَه شئ آخرُ من الألوان : من صفرة ولا سواد ولا غيرهما، حسنُ الصِّبغ، جيدُ المـائية، شديدُ الشُّعاع، ويسمّى ذبابيا لمشابهة لونه فى الخضرة لونَ كِبار الذُّباب الأخضر الربيعىّ : وهو من أحسن الألوان خُضْرةً وبصيصا . قال فى مسالك الأبصار : وهو أقلُّ من القليل بل لا يكاد يوجد .

الثانى الرَّيْحَانِىُّ — وهو مفتوح اللون، شبيه بلون ورق الرَّيْحَان .

الثالث السِّلْقِىّ — وخضرته أشبه شئ بلون السِّلْق .

الرابع الصابونىّ — ولونه كلون الصابون الأخضر، قال فى "مسالك الأبصار": وإذا آســتخرج الزُّمُرُّدُ من المَعْدِن ، جُعِل فى زيت الكَتَّان ثم لُفَّ فى قطن وصرّ فى خرقة كَتَّان ونحوها، ولم يزل العمل فى هذا المعدن إلىٰ أثناء الدَّوْلَةِ الناصرية محمد آبن قلاوون فتُرِكَ لكثرة كُلْفته .

وأفضل أنواعه وأشرفها الذبابىّ، ويزداد حسنه بِكِبرِ الجرم ، وآستواء القصبة،

وعدم الاعوجاج فيها . ومن عيوب الذبابيّ اختـلافُ الصِّبغ بحيث يكون موضع منـه مخالفا للوضع الآخر، وعدمُ الاستواء فى الشكل، والتشعيرُ : وهو شِبْه شُقُوق خفية إلا أنه لا يكاد يخلو منه ، والرَّخاوة ، وخفة الوزن ، وشدّة المَلاَسة والصِّقَال والنُّعومة، وزيادةُ الخضرة والمائية إذا ركب علىٰ البطانة؛ وهو ينحل بالنار ويتكلس فيها، ولا يثبت ثباتَ الياقوت .

ومن خاصِّـيَّة الذبابيّ التى امتاز بها عن سائر الأحجار أن الأفاعِيَ إذا نظرت إليه ووقع بصرها عليه ، انفقأتْ عيونُها . قال التيفاشى : وقد جربت ذلك فى قطعـة زُمُرُّدٍ ذبابيّ خالصٍ ، فحصَّلتُ أفعىٰ وجعلتها فى طَشْتٍ وألصـقته بشمع فى رأس سهم وقرَّبته من عينها فسمعت قعقعة خفيـة كما فى قَتْل صُؤابةٍ فنظرت إلىٰ عينيها فإذا هما قد بَرَزَتَا علىٰ وجهها وضَعُفت حركتها. وبهذه الخاصّة يمتَحن الزُّمُرُّدُ الخالص من غيره كما يُمْتحن الياقوت بالصَّبر علىٰ النار .

ومن منافعه أن من أدْمن نظَرَه أذهب عن بصره الكَلاَل؛ ومن تختم به دفع عنـه داء الصَّرْع إذا كان قد لبسه قبل ذلك ؛ ومن أجل ذلك كانت الملوك تعلقه علىٰ أولادها؛ وإذا كان فى موضع لم تقربه ذوات السـموم؛ وإذا سُحِل منه وزن ثمـان شعيرات وسقيتَه شارب السُّم قبل أن يعمل السم فيه ، خلصته منه ؛ وإذا تختم به من به نَفْث الدم أو إسهاله ، منع مر ذلك ؛ وإذا عُلِّق علىٰ المعدة من خارج، نفع من وَجَعِها؛ وشُربُ حُكَاكَتِه ينفع من الجُذَام. وقيمة الذبابيّ الخالص فى الحجر الذى زِنَتُه درهم أربعة دنانير القـيراط، ويتضاعف بحسب كِبَرِه، وينقص بحسب صِغَرِه؛ إلا أنه لاينقص بالصِّـغَر نقصَ غيرِه من الأحجـار لوجود خاصيته فى الكبير والصـغير والمُعْوجّ والمستقيم . أما بقية أصناف الزُّمُرُّدِ ، فإنه لاقيمة لهـا يعتدّ بها لعدم المنافع الموجودة فى الذبابيّ .

الصـــنف السابع

(الزَّبَرْجَدُ)

وهو حجر أخضرُ يتكوّن فى مَعْدِنِ الزُّمُرُّدِ، ولذلك يظنه كثير من الناس نوعا منه إلا أنه أقلُّ وجودا من الزُّمُرُّدِ . قال التِّيفاشى : أما فى هـذا الزمان فإنه لا يوجد فى المَعْدِن أصلا، وإنمـا الموجود منه بأيدى الناس فصوص تستخرج بالنبش من الآثار القـديمة بالإسكَنْدرية؛ وذكر أنه رأى منـه فَصًّا فى يد رجل أخبره أنه آستخرجه من هنالك، زِنته درهم، لا يكاد البصر يُقْلِعُ عنه لرقة مائه، وحسن صفائه . وأجوده الأخضر المعتدل الخُضرة، الحسن المـائية، الرقيق المستشَفّ، الذى يَنْفُذه البصر بسرعة؛ ودونه الأخضر المفتوح اللون؛ وليس فيـه شئ من خواص الزُّمُرُّدِ إلاّ أن إدمان النظر إليه يجلو البصرَ . وقيمة خالصه نصف درهم بدينار .

الصـــنف الثـامن

(الفَيْرُوزَجُ)

وهو حجر نُحاسىّ يتكوّن فى مَعَادن النُّحَاس من الأبخرة الصاعدة منهـا، إلا أنه لا يوجد فى جميع معادن النُّحاس؛ ومعدنه الذى يوجد فيه بِنَيْسَابُورَ، ومنه يجلب إلىٰ سائر البُلْدَان؛ ومنـه نوع آخر يوجد فى نشاور إلا أنّ النيسابورىّ خير منه؛ وهو ضربان بسحاقىّ وخَلَنْجِىّ(١)، والخالص منه العتيق هو البسحاقىّ وأجوده الأزرق الصافى اللون، المشرق الصفاء، الشديد الصَّقالة، المستوى الصِّبغ؛ وأكثر ما يكون فصوصا؛ وذكر الكِنْدىُّ أنه رأىٰ منه حجرا زنته أوقية ونصف .

ومن خاصته أنه يصفو بصـفاء الجوّ ويكْدُر بكُدْرَتِه وإذا مسـه الدُّهن أذهب حسنه وغيَّر لونَه، والعَرَقُ يطفئ لونَه، والمسك إذا باشره، أفسده وأذهب حسنه؛

---

(١) فى مفردات ابن البيطار سنجابى ولعل مافى الأصل تصحيف .

وإذا وضع الفَصُّ الجيد منه إلىٰ جانب ماهو دونه فى الجَوْدَةِ، أذهب بهجته؛ وإذا وضع إلىٰ جانب الدَّهْنَجِ غلب الدهنج علىٰ لونه فأذهب بهجته ولو كان الفَصُّ الفَيْرُوزَجُ فى غاية الحسن والجَوْدَةِ .

ومن منافعه أنه يجلو البصرَ بالنظر إليه ؛ وإذا سحق وشرب نفع من لدغ العقارب ؛ وقيمته تختلف باختلاف الجَوْدَةِ آختلافا كثيرا فربما كان الفَصَّانِ منه زنتهما واحدة وثمن أحدهما دينار وثمن الآخر درهم . وبالجملة فالخَلَنْجِىّ الجيد علىٰ النصف من البسحاقى الجيد . قال التيفاشى : وأهل المَغْرِبِ أكثر الناس له طلبا وأشدّهم فى ثمنه مغالاة، وربما بلغوا بالفَصِّ منه عشرةَ دنانير مَغْرِبية ويَحْرِصون علىٰ التختم به، وربما زعموا أنه يدخل فى أعمال الكيمياء .

الصنف التاسع

(الدَّهْنَجُ)

وقد ذكر أَرَسْطوطاليس أنه ايضا حجر نُحَاسِىّ يتكوّن فى معادن النحاس يرتفع من أبخرتها وينعقد، لكنه لايوجد فى جميع معادن كِرْمَانَ وسِجِسْتَانَ من بلادفارس . قال : ومنه ما يؤتى به من غار بنى سُلَيْم من برية المغرب، فى مواضع أخرىٰ كثيرة .

وأجودأنواعه أربعة : وهى الافرندىّ، والهندىّ، والكِرْمَانىّ، والكركىّ؛ وأجوده فى الجملة الأخضر المُشْبَع الخضرة، الشبيه اللون بالزُّمُرُّدِ، معرّق بخضرة حسنة، فيه أَهِلَّة وعيون بعضها من بعض حسان، وأن يكون صُلْباً أملسَ يقبل الصَّقالة .

ومن خاصته فى نفسه أن فيه رخاوةً بحيث إنه إذا صنع منه آنية أو نُصُبٌ للسكاكين ومرت عليه أعداد سنين ، ذهب نوره لرخاوته وآنحل ، ولذلك إذا حُكَّ آنحك سريعا، وإذا خرط خرزا أو أوانى أوغيرَ ذلك، كان فى خرطه سهولة،

وإذا نقع فى الزيت ٱشتدّت خضرته وحَسُن، فإن غُفِلَ عنــه حتّى يطول لُبْثُه فى الزيت، مال إلىٰ السواد .

ومن منافعه أنه إذا مسح به علىٰ مواضع لدغ العقرب، سكنه بعض السكون؛ وإذا سحق منه شيء وأذيب بالخل ودلك به موضعُ القوبة الحادثة من المِرَّة السوداء، أذهبها .

ومن عجيب خواصِّه أنه إذا سقى من سُحَالته شارب سُمٍّ نفعه بعضَ النفع؛ وإن شَرِب منه من لم يشرب سمــا، كان سما مفرِطا يُنَفِّطُ الأمعاء، ويُلْهِب البــدن، ويحدث فيه سما (١) لايبرأ سريعا، لاسيما إذا حُكَّ بحديدة؛ ومن أمسكه فى فيه ومصه أضرَّبه؛ وقيمته أن الافريدىّ الخالص منه كل مثقال بمثقالين من الذهب، ويوجد منــه فصوص وغيرها . وقد ذكر يعقوبُ بن إسحاق الكندىّ أنه رأىٰ منه صحفةً تسع ثلاثين رِطلا .

الصنف العاشر
(البِلّوْرُ)

قال بلينوس : وهو حجر بُورَقِىٌّ وأصله الياقوتية إلا أنه قعدتْ به أعراضٌ عن بلوغ رتبة اليــاقوت؛ وقد ٱختلف أصحابنــا الشافعيةُ رحمهــم الله فى نفاســته علىٰ وجهين، أصحهما أنه من الجوهر النفيس كالياقوت ونحوه، والثانى أنه ليس بنفيس لأن نفاسته فى صنعته لا فى جوهره . ويوجد بأماكن، منها برية العرب من أرض الحجاز وهو أجوده، ومنه مايؤتىٰ به من الصين وهو دونه، ومنه ما يكون ببلاد الفرنجة وهو فى غاية الجَوْدَة، ومنه معادن توجد بأَرْمِينِيَةَ تميل إلىٰ الصفرة الزجاجية . وقد ذكر التيفاشى أنه ظهر فى زمنه مَعْدِنٌ منــه بالقرب من مَرَّاكُش من المغرب

(١) فى مفردات ابن البيطار بثرا . وهى أوضح .

الأقصى إلا أن فيه تشعيرا، وكثر عندهم حتى فرش منه لملك المغرب مجلسٌ كبير: أرضا وحيطانا . ونقل عن بغض التجَّارِ أن بالقرب من غَزْنة من بلاد الهند على مسيرة ثلاثة عشر يوما منها بينها و بين كاشْغَر، جبلين من بلور خالص مطلّين على وادٍ بينهما وأنه يُقْطَعُ فى الليل لتأثير شُعَاعه إذا طلعت عليه الشمس بالنهار فى الأعين . وأجوده أصفاه وأنقاه وأشفُّه وأبيضه وأسلمُه من التشعير، فإن كان مع ذلك كبيرَ الجِرْم، آنية أو غيرها كان غاية فى نوعه . وقد ذكر الكندى أن فى البلور قطعا تخرج كل قطعة منه من المَعْدِنِ أكبرَ من مائة منّ . ونقل التيفاشى : أنه كان بقصر شهاب الدين الغورى صاحب غزة أربعُ خوابٍ للماء كل خابية تسع ثلاث رَوَايَا ماء على محاملَ من بلور، كل محمل مابين ثلاثة قناطير إلى أربعة. وذكر أيضا أنه رأى منه صورةَ دِيك مخروط من صنعة الفرنج إذا صب فيه الشراب ظهر لونه فى أظفار الديك .

ومن خاصَّتِه ما ذكره أو فرسطس الحكيم أنه يذوب بالنار كما يذوب الزجاج ويقبل الصِّبْغَ .

ومن خاصته أيضا أنه إذا آستقبل به الشمس ووجه موضع الشعاع الذى يخرج منه إلى خِرْقَةٍ سوداءَ، آحترقت وظهر فيها النار .

ومن منافعه أن من تختم به أو علقه عليه لم ير منام سوء . وقيمته تختلف بحسب كِبَرِ آنيته وصغرها وإحكام صنعتها . قال التيفاشى : وبالجملة فالقطعة التى تحمل[1] منه رطلا إذا كانت شديدةَ الصَّفاء سالمةً من التشعير، تساوى عشرة دنانير مصرية .

---

(١) مراده تزن ولكنه كثيرا مايستعمل بعض لغات العامة .

الصنف الحادى عشر
(المَرْجَانُ)

وهو حَجَر أحمرُ فى صورة الأشجار المتشعبة الأغصـان، ومَعْدِنه الذى يتكوّن فيه بموضع من بحر القُلْزُم بساحل إفريقية، يعرف بمرسى الخرز، ينبت بِقَاعِه كما ينبت النبات، وتُعْمَلُ له شِبَاك قوية مُثَقَّلة بالرَّصاص، وتدار عليه حتّى يَلْتَفَّ فيها، و يجذب جذبا عنيفا فيطلُعُ فيها المَرْجَان . وربمـا وجد ببعض بلاد الفِرنْجَـة إلا أن الأكبر والأكثر والأحسن بمرسى الخرز، ومنـه يجلب إلى بلاد المشرق . ولأهل الهنـد فيه رغبةٌ عظيمة، وإذا آستخرج، حك على مِسَنّ المـاء، ويجلى بالسُّنْبَاذَج المعجون بالماء على رُخَامَةٍ فيظهر لونه، ويحسن، ويثقب بالفولاذ أو الحديد المسقى. وأجوده ماعظم جِرْمه، وآستوت قَصَبَاته، وآشتدّت حُمْرته، وسَلِمَ من التسويس : وهوخروق توجد فى باطنه حتّى ربمـا كان منه شئٌ خاوٍ كالعَظْم، وأردؤه مامال منه إلى البياض أو كثرت عُقَدُهُ وكان فيه تشطيب، ولا سبيل إلى سـلامته من العُقَد لوجود التشعب فيه، فإن آتفق أن تَقَعَ منه قطعة مُصْمَتَة مستوية لا عُقَدَ فيها ولا تشطيبَ، كانت فى نهاية الجَوْدَة . وقد يوجد منـه قِطَع كِبَار فتحمَل إلى صاحب إفْرِيقِيَـة فيعمل له منها دُوِىٌّ وأنصِـبةُ سكاكينَ . قال التيفاشى : رأيت منهـا مَحْبَرة طول شبر ونصف، فى عرض ثلاث أصابع، وآرتفاع مثلها، بغطائها فى غاية الحمرة وصفاء اللون . وقد ذكر آبن الطوير فى تاريخ الدَّولة الفاطمية بالديار المصرية وترتيبها : أنه كان لخلفـاء الفاطميين دَوَاة من المَرْجَان تُحمل مع الخليفـة إذا ركب فى المواكب العظام أمامَ راكب على فرس، كما سيأتى ذكره فى الكلام على المسالك والممـالك، فى المقالة الثانية فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ومن خاصته فى نفسه أنه إذا ألقى فى الخل لَانَ وآبيضَّ، وإن طال مكثه فيـه

ٱلخلّ، وإذا ٱتخذ منه خَاتَم أو غيرهُ ولُبِّس جميعه بالشـمع ثم نقش فى الشمع بإبرة بحيث ينكشف جِرْم المَرْجَان وجعل فى خل الخمر الحاذق يوما وليلة أو يومين وليلتين ثم أخرج وأزيل عنـه الشمع ، ظهرت الكتابة فيه حَفْرا بتأثير الخل فيه ، وبقية الخَاتَم علىٰ حاله لم يتغير . قال التيفاشى : وقد جربنا ذلك مرارا ؛ ومتىٰ ألقى فى الدهن ظهرت حُمْرته وأشرقَ لونها .

ومن منافعه فيما ذكره الإسكندرُ أنه إذا علق علىٰ المصروع أو مَنْ به النِّقْرِسُ ، نفعه ؛ وإن أحرق وٱسْتُنَّ به ، زاد فى بياض الأسنان وقلع الحفر منها وقوّى اللِّثَةَ ؛ وطريق إحراقه أن يجعَل فى كوز فخار ويُطيَّنَ رأسه ويوضع فى تَنُّور ليلة ؛ وإذا سحق وشَرِبَه من به عسر البول ، نفعه ذلك ؛ ويحالل أورام الطحال بشربه ، وإذا علق علىٰ المَعِـدَة نفع من جميع عللها كما فى الزُّمُرُّد ؛ وإذا أحرق علىٰ ما تقدّم وشرب منه ثلاثة دوانق مع دانِق ونصف صمغ عربىّ ببياض البيض وشرب بماء بارد ، نفع من نَفْثِ الدم . قال التيفاشى : وقيمته بإفريقيَةَ غشيما الرطل المصرىّ من خمسة دنانيرَ إلىٰ سبعة مَغْرِبية ، وهى بقدر دينارَين إلىٰ مايقاربهما من الذهب المصرى ، وبالإسكندرية علىٰ ضِعفَىْ ذلك وثلاثةِ أضعافه ، ومن اسكندرية يحمل إلىٰ سائر البلاد ؛ ويختلف سعره بحَسَب قرب البلاد وبعدها ، وقلتِه ، وكثرته ، وصغره ، وجَوْدَتِه ، ورداءته ، وحسنِ صَنعته .

الصـــنف الثـانى عشر

(البادزهر الحيوانىّ)

وهو حجر خفيف هَشّ . وأصل تكوّنه فى الحيوان المعروف بالأيِّل بتخوم الصين . وإن هـذا الحيوان هناك يأكل الحيات ، قد ٱعتاد ذلك غذاء له ، فيحدث عن ذلك

وجود هذا الحجر منه علىٰ ماسيأتى بيانه، وقد آختلف الناس فى أىّ موضع يكون من هذا الحيوان، فقيل إنه يتكوّن فى مآقِى عينيه من الدموع التى تسقط من عينيه عند أكل الحيات ويتربّىٰ الحَجَر حتّىٰ يكبر فيَحْتَكَّ فيسقط عنه. وقيل يكون فى قلبه فيصاد لأجله ويذبح ويستخرج منه. وقيل فى مرارته. قال أرسطاطاليس: وله ألوان كثيرة منها الأصفر والأغبر المُشْرَبُ بالحمرة والمشرب بالبياض. وأعظم مايوجد منه من مثقال إلىٰ ثلاثة مثاقيل. وأجوده الخالص الأصفر الخفيف الهَشُّ. ويستدلّ علىٰ خلوصه بكونه ذا طبقات رِقاق متراكبة كما فى اللؤلؤ، وبه نقط خفية سُود، وأن يكون أبيض المَحَكّ مُرّ المذاق. قال التيفاشى: وكثيرا ما يُغَشُّ فتصنع حجارة صغار مطبقة من أشياء مجموعة تشبه شكل البادزهر الحيوانىّ ولكنها تتميز عن البادزهر الحقيقىّ بأن المصنوع أغبر كَمِدُ اللون ساذَج غير منقط، والبادزهر الحقيقىّ الخالص أصفر أو أغبر بصفرة فيه نقط صغار كالنَّمَش، وطبقاته أرقّ من طبقات المصنوع بكثير، وهو أحسن من المصنوع وأهش ومَحَكُّه أبيض.

ومن خاصته فى نفسه أن آحتكاكه بالأجسام الخشنة يخشّنه ويغيّر لونه وسائرَ صفاته حتّىٰ لا يكاد يعرف. وقد ذكر التيفاشى أنه كان معه حجر منه، فجعله مع ذهب فى كيس وسافر به فآحتك بالذهب فتغير لونُه ونقص وزنُه حتّىٰ ظَنّ أنه غير عليه، وأنه ربطه بعد ذلك فى خرقة وتركه أياما فعاد فى الصفة إلىٰ ما كان، إلا أنه بَقِيَ علىٰ نقص ماذهب منه.

ومن منافعه دفع السموم القاتلة وغيرِ القاتلة، حارّةً كانت أو باردةً: من حيوان كانت أو من نبات، وأنه ينفع من عضّ الهوامّ ونهشها ولدغها، وليس فى جميع الأحجار ما يقوم مَقَامه فى دفع السموم. وقد قيل إن معنىٰ لفظ بادزهر النافى للسم، فإذا شرب منه المسموم من ثلاث شعيرات إلىٰ آثنتى عشرة شعيرة مسحوقة

أو مسحولة أو محكوكة على المِبْرَد بزيت الزيتون أو بالماء، أخرج السم من جسده بالعَرَق، وخلصه من الموت . وإذا سحق وذُرّ على موضع النهشة جذب السم إلى خارج وأبطل فعله . قال ٱبن جمع : وإن حُكَّ منه على مِسَنّ فى كل يوم وزن نصف دانِق وسقيته الصحيح على طريق الٱستعداد والٱحتياط، قاوم السموم القَتَّالة ولم تخش له غائلة ولا إثارة خلط، ومن تختم منه بوزن ٱثنتى عشرة شعيرة فى فَصِّ خَاتَم ثم وُضِع ذلك الفَصُّ على موضع اللدغة من العقارب وسائر الهوامّ ذوات السموم، نفع منها نفعا بينا، وإن وضع على فم الملدوغ أو من سُقِى سما نفعه.

قلت : هذه هى الأحجار النفيسة الملوكية التى تلتفت الملوك إليها وتعتنى بشأنها، أما غيرها من الأحجار كالبنفش، والعقيق، والجَزْع، والمِغْناطيس، واليشم، والسبج، واللّازِوَرْد وغيرها مما ذكره المصنفون فى الأحجار فلا ٱعتدادَ به ولا نظر إليه ولذلك أهملت ذكرَه .

النوع السادس
(نفيس الطيب)

ويحتاج الكاتب إلى وصفه عند وصوله فى هَدِيَّةٍ وما يجرى مَجْرَى ذلك، والمعتبر منه أربعة أصناف .

الصنف الأوّل
(المِسْك)

وهو أجلُّها . قال محمد بن أحمدَ التميمىّ المقدسى فى كتابه "طيب العروس" : وأصل المسك من دابة، ذات أربع، أشبهِ شئ بالظبى الصغير، قيل لها قرن واحد، وقيل قرنان، غير أن له نابين رقيقين أبيضين فى فكه الأسفل خارجين من فيه قائمين

فى وجهه كالخِنزير . قال بعض أهل المعرفة بالمسك : وهو فضلٌ دمويّ يجتمع من جسمها إلىٰ سرتها، بمنزلة الموادّ التى تَنْصَبُّ إلىٰ الأعضاء فى كل سنة فى وقت معلوم، فيقع الوَرَمُ فى سُرَّتِها ويجتمع إليها دم غليظ أسودُ فيشتدّ وجعها حتّٰى تُمْسِكَ عن الرَّعْىِ وورود المياه حتّٰى يسقط عنها .

ثم قيل إن تلك الظباءَ تصاد وتذبح وتؤخذ سُرَرُها بما عليها من الشعر، والمسك فيها دم عَبِيط : وهى النوافج، فإن كانت النافجة كثيرة الدم ، اكتفى بما فيها ؛ وإن كانت واسعة قليلة الدم ، زيدَ فيها من غيرها، ويصب فيها الرصاص المذاب وتخاط بالخوص وتعلق فى حلق مستراح أربعين يوما، ثم تخرج وتعلق فى موضع آخر حتّٰى يتكامل جفافها وتشتد رائحتها ، ثم تُصَيَّر النوافج فى مزاودَ صغار وتخيطها التُّجّار وتحملها . وقيل انه يبنىٰ لهذه الظباء حين يَعْرِض لها هذا العارض بناءٌ كالمنارة فى طول عَظْم الذراع لتأتىَ الظباء فتحك سُرَرَها بذلك البناء فتسقط النوافج، حتّٰى إنه يوجد فى تلك المراغة ألوفٌ من النوافج ما بين رَطْب وجامد .

ثم قيل إن هذه الظباء توجد بمفازات بين الصين وبين التُّبَّت والصُّغْد من بلاد الترك، وإن أهل التُّبَّتِ يلتقطون ما قرب إليهم، وقد قيل إن المسك يحمل إلىٰ التُّبَّت من أرض بينها وبين التُّبَّتِ مسيرةُ شهرين .

وبالجملة فإنه تختلف أسماء أنواعه باختلاف الأماكن التى ينسب إليها، إما باعتبار أصل وجوده فيها، وإما باعتبار مصيره إليها . وأجوده فى الجملة ماطاب مرعىٰ ظبيه، ومرعىٰ ظِبائه النباتُ الذى يتخذ منه الطيب كالسنبل ونحوه ، ولا يخفىٰ أن بعضَ نبات الطيب أطيبُ رائحةً من بعض حتّٰى يقال إن منه مارائحته كرائحة المِسْك . وقيل أجوده ما كَمُل فى الظبى قبل بينونته عنه . وقال أحمد بن يعقوبَ : وأجود المسك فى الرائحة والنظر ما كان تُفَّاحِيًّا تشبه رائحتُه رائحةَ التفاح اللُّبْنَانِىّ،

وكان لونه يغلب عليه الصُّفْرة ، ومقاديره وسطا بين الجِلاَل والرِّقَاق ، ثم ما هو أشدُّ سوادا منه إلا أنه يقاربه فى الرأى والمنْظَر ، ثم ماهو أشدّ سوادا منه ، وهو أدناه قدرا وقيمةً . قال : وبلغنى عن تُجَّار الهند أن من المسك صِنْفَين آخرين يُتَّخذان من نبات أرض : أحدهما لايفسد بطول المُكْثِ ، والثانى يفسد بطول المُكْثِ ؛ والمشهور منه عشرة أصناف .

ونحن نوردها على ترتيبها فى الفضل مقدَّما منها فى الذكر الأفضلُ فالأفضل على ما رتبه أحمد .

الأول التُّبَّتى ـ وهو ما حمله التِّجَار من التُّبَّت إلى خُرَاسانَ على الظهر لطِيب مَرْعاه ، وحملِه فى البر ، دون البحر .

الثانى الصُّغْدىّ ـ وهو ماحمِل من الصُّغْد من بلاد التُّرك على الظهر إلى خُراسانَ .

الثالث الصِّينىّ ـ وإنما نقَصت رتبته لأن مَرْعاه فى الطِّيب دون مرعى التُّبَّتِّى ، ولما يلحَقُه من عُفُونة هواء البحر بطول مكثه فيه . وأفضل الصينىّ ما يؤتى به من خانفو : وهى مدينة الصين العظمى ، وبها ترسو مراكب تجار المسلمين ، ومنها يحمل فى البحر إلى بحر فارس ، فإذا قرب من بلد الأُبلَّة ٱرتفعت رائحته ، وإذا خرج من المركب جادت رائحته وذهبت عنه رائحة البحر .

الرابع الهندى ـ وهو ما يحمل من التُّبَّت إلى الهند ثم يحمل من الهند إلى الدَّبِيل ثم يحمل فى البحر إلى سِيرافَ من بلاد العجم ، وعُمَان من البحْرين ، وعدَنَ من اليمن ، وغيرها من النواحى . وسبب ٱنحطاط رتبته عن الصينىّ وإن كان من جنس التُّبَّتى مع أنه أقربُ مسافةً من الصينىّ ما ذكره المسعودىّ : أنه إذا حمل إلى الهند أخذه كَفَرَة الهند فلطَّخوه على أصنامهم من العام إلى العام ثم يبدِّلونه بغيره ، ويبيعه سدنةُ الأصنام فبِطُول مُكْثِه على الأصنام تضعف رائحته . على أن محمد بن العباس قد فضَّل الهندىّ على الصينى لقرب مسافة حمله فى البحر .

الخامس القنبارى — ويؤتىٰ به من بلد تسمّى قنبار بين الصين والتُّبَّت . قال أحمد بن يعقوب : وهو مِسْك جيد إلا أنه دون التبتى فى القِيمة ، والجوهر ، واللون ، والرائحة . قال : وربما غالطوا به فنسبوه إلىٰ التبتى .

السادس الطُّغُرْغزىّ — وهو مِسْك رَزِين يضرب إلىٰ السَّواد ، يؤتىٰ به من أرض الترك الطغرغز وهم التتر ، وهو بطىء السحق ، ولا يسلم من الخشونة إلا أنهم ربما غالطوا به أيضا .

السابع القصارىّ — ويؤتىٰ به من بلد يقال لها القصار بين الهند والصين . قال ابن يعقوب : وقد يُلْحَق بالصينىّ إلا أنه دونه فى الجوهر والرائحة والقيمة .

الثامن الجَزِيرىّ — وهو مِسْك أصفر ، حسَن الرائحة ، يشابه التبَّتىّ إلا أن فيه زَعَارة .

التاسع الجبلىّ — وهو مسك يؤتىٰ به من السِّند من أرض المولِيان ، وهو كبير النوافج حسن اللَّوْن إلا أنه ضعيف الرائحة .

العاشر العصمارى — وهو أضعف أصناف المِسك كلها وأدناها قيمة ، يخرج من النافجة التى زنتها أوقية زنةُ درهم واحد من المِسْك .

قلت : أمّا المسك الدارىُّ فإنه منسوب إلىٰ دارِينَ : وهى جزيرة فى بحر فارس معدودة من بلاد البحرين ترسو إليها مراكب تُجَّار الهند ، ويحمل منها إلىٰ الأقطار وليست بمعدِن للسك .

الصنف الثـانى

(العنــبر)

قال محمد بن أحمد التميمى : والأصــل الصحيح فيه أنه ينْبُع من صُخُور وعُيُون فى الأرض ، يجتمع فى قَرَار البحر ، فإذا تكاثَفَ ٱجتذبته الدَّهَـانة التى هى فيه علىٰ

آقتطافه من موضعه الذى تعلّق به، وطفا علىٰ وجه الماء، وهو حارّ ذائب فتقطّعه الريحُ وأمواج البحر قطعا كبارا وصغارا فترمى به الريح إلىٰ السواحل، لا يستطيع أحد أن يدنو منه لشدّة حره وفورانه، فإذا أقام أياما وضربه الهواء جمد، فيجمعه أهلُ السواحل. قال أحمد بن يعقوب: وربما ابتلعته سمكة عظيمة يقال لها الكيال وهو فائر فلا يستقرّ فى جوفها حتّى تموت فتطفو ويطرحُها البحر إلىٰ الساحل فيُشَقُّ جوفُها ويُستخرَج منها، ويسمّى العنبر السَّمَكِىّ، والعنبر المَبْلوع. قال التميمى: وهو فى لونه شبيه بالنار، ردىء فى الطيب: للسُّهوكة التى يكتسبها من السمك. قال: وربما طرح البحر القِطعة العنبر فيبصِرُها طائر أسودُ كالخُطّاف فيرفرف عليها بجناحيه، فإذا سقط عليها ليختطف بمنقاره منها تعلّق منقاره ومخاليبه بها فيموت ويبلىٰ ويبقىٰ منقاره ومخاليبه فيها، ويعرف بالعنبر المَناقِيرِىّ.

قال التميمى: ولأهل سواحل البحر التى يوجد بها العنبر نُجُب يركبونها مؤدَّبةٌ تعرِف العنبر، يسيرون عليها فى ليالى القَمَر علىٰ شاطئ البحر فإذا رأت العنبر وقد نام راكِبُها أو غفلَ، بركت بصاحبها حتّى ينزل عنها فيأخُذَه.

قال التميمى: وألوان العنبر مختلفةٌ. منها الأبيض: وهو الأشهب، والأزرق، والرَّمادى، والجزازى: وهو الأبرش، والصفايح: وهو الأحمر، وهما أدنى العنبر قَدْرا. قال: وأفضل العنبر وأجوده ما جمع قوّةَ رائحةٍ، وذكاءً بغير زعارة.

قال أحمد بن يعقوبَ: وأنواع العنبر كثيرة، وأصنافه مختلفة، ومعادنه متباينة. وهو يتفاضل بمعادنه وبجوهره، والذى وقفت علىٰ ذكره منه ستة أضرب.

الأوّل الشَّحْرِىُّ — وهو ما يقذفه بحر الهند إلىٰ ساحل الشَّحْرِ من أرض اليمن. قال: وهو أجود أنواع العنبر، وأرفعه، وأفضله، وأحسنه لوناً، وأصفاه جوهرًا وأغلاه قيمةً.

الثانى الزَّنْجِىُّ — وهو ما يقذفه بحر البربر الآخذُ من بحر الهند فى جهة الجنوب إلىٰ سواحل الزَّنج وما والاها . قال التميمى : وزعم الحسـين بن يزيدَ السيرا فىّ أنه أجود العنبر وأفضله ، ويؤتىٰ به منها إلىٰ عدن ، ولونه البياضُ .

الثالث السـلاهطى — قال التميمى : وأجوده الأزرق الدَّسِمُ الكثير الدُّهْن ، وهو الذى يستعمل فى الغَوَالى .

الرابع القَاقُلِّىّ — وهو ما يؤتىٰ به من بحر قَاقُلَّةَ من بلاد الهند إلىٰ عَدَن من بلاد اليمن ، وهو أشهبُ جيد الريح ، حسن المَنْظَرِ خفيف ، وفيه يبس يسير . وهو دون السلاهطى لا يصلح للغوالى إلا عن ضرورة . وهو صالح للذرائر والمُكَلَّسات .

الخـامس الهِنْدِىّ — وهو ما يؤتىٰ به من سواحل الهنـد الداخلة ، ويحمل إلىٰ البَصْرَة وغيرها ؛ ومنه نوع يؤتىٰ به من الهند يسمّى الكرك بالوس ؛ يأتون به إلىٰ قرب عُمَانَ تشتريه منهم أصحاب المراكب .

السادس المَغْرِبِىُّ — وهو ما يؤتىٰ به من بحر الأَنْدَلُس فتحمله التُّجار إلىٰ مصرَ ، وهو أردأ الأنواع كلِّها . وهو شبيه فى لونه بالعنبر الشَّحْرِىِّ . قال التميمى : ويغالط به فيه .

قال التميمى : ومن العنـبر صـنف يعرف بالنَّدِّ ، ونقـل عن جمـاعة من أهل المعرفة أن دابة تخرج من البحر شبيهةً ببقر الوحش فتلقيـه من دبرهـا فيؤخذ وهو لَيِّن يمتدُّ فمـا كان منـه عَذْبَ الرائحة حسنَ الجوهر فهو أفضله وأجوده . قال : وهو أصـناف أحدها الشَّحْرِىُّ : وهو أسودُ فيه صفرة ، يَخْضِبُ اليدَ إذا لُمِس ، ورائحته كرائحة العنبر اليابس ، إلا أنه لا بقاء له علىٰ النار . وإنما يستعمل فى الغوالى إذا عزَّ العنبر السلاهطى ؛ ومنـه الزَّنْجِىُّ : وهو نظـير الشَّحْرِىّ فى المَنْظَرِ ودونه فى الرائحة : وهو أسودُ بغير صُفْرَة ؛ ومنه الخمرىُّ : وهو يَخْضِبُ اليد وأصولَ الشعر خَضْبا جيدا ، ولا ينفع فى الطيب .

قلت : أمّا المعروف فى زماننا بالعنبر ممـا(١) يلبسه النساء فإنمـا يقال له النَّد، وفيه جزء من العنبر . قال فى نهاية الأرب : وهو علىٰ ثلاثة أضرب .

الأوّل المُثَلَّث ــ وهو أجودها وأعطرها؛ وهو يركّب من ثلاثة أجزاء : جزء من العنبر الطيِّب، وجزء من العود الهندىّ الطيّب، وجزء من المسك الطيب .

الثـانى وهو دونه أن يجعل فيه من العنبر الخام الطيّب عشرةُ مثاقيلَ، ومن النَّدِّ العتيق الجيد عشرةُ مثاقيل، ومن العود الجيد عشرون مثقالا .

الثالث ــ وهو أدناها أن يؤخذ لكل عشرة مثاقيلَ من الخام عشرةُ مثاقيلَ من النَّدِّ العتيق وثلاثون مثقالا من العود، ومن المسك ما أحب .

الصنف الثـالث

(العـــود)

قال التميمىّ : أخبرنى أبى عن جمـاعة من أهل المعرفة أنه شجرٌ عظامٌ تنبت ببلاد الهنـد، فمنه مايجلب من أرض قِشْمير الداخلة : من أرض سَرَنْدِيبَ، ومن قَمَـارِ، وما اتصل بتلك النواحى،وأنه لاتصيرُ له رائحة إلا بعد أن يَعْتُقَ . ويُقَشَّرُ فإذا قشر وجفف، حمل إلىٰ النواحى حينئذ . قال : وأخبرنى بعضُ العلماء به أنه لا يكون إلا من قلب الشـجرة، بخلاف ما قارب القِشْر كما فى الآبَنُوس والعُنَّاب ونحوهمـا من الأشجار التى داخلها فيـه دَهَانَةٌ وما فى خارجها خشب أبيض؛ وأنه يقطَع ويقلَع ظاهره من الخشب الأبيض، ويدفن فى التراب سـنينَ حتّى تأكل الأرض ما داخله من الخشب ويبقىٰ العود لا تؤثر فيه الأرض .

وحكىٰ محمـد بن العباس أنه يكون فى أودية بين جبال شاهقـة، لا وصولَ

---

(١) مراده باللبس الاستعمال .

لأحد إليها لصعوبة مَسْلَكها، فيتكسر بعض أشجاره أو يتعفَّن بكثرة السيول لِمَمَرّ الأزمان فتأكل الأرض مافيه من الخشب ويبقى صميمُ العود وخالصُه فتجرّه السيول وتُخْرِجُه من الأودية إلى البحر فتقذفُه الأمواج إلى السواحل فيلتقطه أهلُ السواحل ويجمعونه فيبيعونه . ويقال إنه يأتى به قوم فى المراكب إلى ساحل الهند فيقفون على البعد بحيث لاترى أشخاصهم، ثم يطْلُعون ليلا فيضعونه بفرضة تلك البلاد، ويخرج أهل البلد نهارا فيضعون بإزائه بضائعَ ويتركونها إلى الليل، فيأتى أصحابُ العود فَمَنْ أعجبه ما بإزاء متاعه أخذه وإلا تركه ؛ فيزيدونه حتّى يُعْجِبَه فيأخذه، كما يحكى فى السَّمُّورِ وغيره فى ساكنى أقصى الشّمال .

وأجود العود ما كان صُلْبًا، رزينا، ظاهرَ الرُّطوبة، كثير المائية والدُّهْنية، الذى له صبر على النار، وغَلَيَانٌ، وبقاء فى الثياب .

أمّا اللون فأفضله الأسود والأزرق الذى لا بياض فيه ؛ ثم منهم من يفضل الأسود على الأزرق ؛ ومنهم من يفضل الأزرق على الأسود .

وهو على ثمانية عشر ضربا .

الأول المَنْدَلِىُّ — نسبة إلى مَعْدِنِه ؛ وهو مكان يقال له المَنْدَلُ من بلاد الهند .
قال محمد بن العباس الخشيكى : وهو أرفع أنواع العُود وأفضلُها وأجودُها وأبقاها على النار وأعبقها بالثياب . على أن التُّجَّار لم تكن تَجْلُبُه فى الجاهلية وإلى آخر الدولة الأُمَوِيَّةِ، ولا ترغب فى حمله للمرارة فى رائحته إلى أن دخل الحسين (١) بن بَرْمك إلى بلاد الهند هاربا من بنى أمية ، ورأى العود المندلىّ فآستجاده ورغَّب التجارَ فى حمله ، فلما غلب بنو العباس على بنى أمية، وحضر بنو برمك إليهم وقرَّبوهم، دخل الحسين

(١) هكذا بالاصل .

آبن برمك يوما علىٰ المنصور فرآه يتبخر بالعود القَمَارِىّ فأعلمه أن عنده ماهو أطيب منه، فأمره بإحضاره، فأحضره إليه فاستحسنه، وأمر أن يكتب إلىٰ الهند بحمل الكثير منه، فاشتهر بين الناس وعز من يومئذ، وآحتمل مافيه من مرارة الرائحة و زعارتها لأنها تقتل القمل وتمنع من تكوُّنه(١) فى الثياب .

الثانى القَامِرُونِىّ — وهو مايجلب من القامِرُون : وهو مكان مرتفع من الهند. وقيل القامِرُون آسم لشجر من شجر العود ؛ وهو أغلىٰ العودِ ثمنا وأرفعُه قدرا .

قال التميمى : وهو قليل لايكاد يُجْلَب إلا فى بعض الحِين ؛ وهو عود رطب جدّا ، شديد سوادِ اللون ، رزينٌ ، كثير المـاء . وذكر الحسين بن يزيد السيرافىّ أنه ربما ختم عليه فآنطبع وقَبِلَ الختَم للينه . قال : ويكون فيه ما قيمة المنّ منه مائتا دينار .

الثالث السَّمَنْدُورِىّ — وهو مايجلب من بلاد سَمَنْدُور ، وهى بلد سُفالةَ الهند ، ويسمّٰى لطيب رائحته رَيْحَانَ العود ، وبعضه يفضُل بعضا . قال التميمى : وتكون القطعة الضخمة منه منًّا واحدا .

الرابع القمارِىُّ — وهو ما يجلب من قَمَـار ، وهى أرض سُفالةَ الهند ، وبعضه يفضل بعضا أيضا ، وتكون القطعة منه نصفَ رطل إلىٰ مادون ذلك .

الخامس القَاقُلِّىُّ — وهو ما يجلب من جزائر بحر قَاقُلَّة ، وهو عود حسن اللون ، شديد الصَّلابة دسِم ، فيه رَيْحَانِيَّة خُمْرَةٍ ، وله بقاء فى الثياب إلا أن قُتَارَهُ ربما تغير علىٰ النار فينبغى أن لا يُستقصىٰ إلىٰ آخره .

السادس الصَّنْفِىُّ — وهو ما يجلب من بلد يقال لها الصَّنْف ببلاد الصين ، وهو من أحلىٰ(٢) الأعواد وأبقاها فى الثياب . قال التميمى : ومنهم من يفضله علىٰ القَاقُلِّىّ ويرىٰ أنه أطيب وأعبق وآمن من القُتَار ، وربما قدّموه علىٰ القَمَارِىّ أيضا . قالوا :

(١) فى الاصل تلوثه وهو تصحيف (٢) فى ياقوت . وهو من أردإ العود لافرق بينه و بين الخشب الا اليسير .

وأجود الصَّنفِىّ الأسودُ الكثير المـاء، وتكون القطعة منه مَنّاً وأكثر وأقلّ. ويقال إن شجره أعظم من شجر الهندىّ والقَمارِىّ .

السابع الصندفورى ـ وهو ما يجلب من بلاد الصندفور من بلاد الصين، وهو دون الصَّنْفِىّ . ويقال إنه صِنْفٌ منه ولذلك كانت قيمته لاحقةً بقيمته، وفيه حسن لون وحلاوة رائحة، ورَزَانة، وصَلَابة؛ إلا أنه ليس بالقِطَع الكبار .

الثامن الصِّينِىُّ ـ ويؤتى به من الصِّينِ ، وهو عود حسن اللون ، أوّل رائحته تشاكل رائحة الهندىّ إلا أن قُتَارَهُ غير محمود ، وتكون القطعة منه نصف رطل وأكثر وأقلّ .

التاسع القطعى ـ وهو عود رطب حلو طيب الرائحة، وهو نوع من الصِّينِىّ .

العاشر القسور ـ وهو عود رطب حُلْوُ طيّب الرائحـة؛ وهو أعذب رائحةً من القطعىّ إلا أنه دونه فى القيمة .

الحـادى عشر الكاهى ـ وهو عود رطب يمضغ ، وفيه زَعَارَةٌ، وشدّة مرارة للدّهانة التى فيه، وهو من أعبق الأعواد فى الثياب وأبقاها .

الثـانى عشر العولاتى ـ وهو عود يجلب من جزيرة العولات بنواحى قَمـار من أرض الهند .

الثالث عشر اللوقينى ـ وهو مايجلب من لوقين : وهى طرف من اطراف الهند وله خُمْرَةٌ فى الثياب إلا أنه دون هذه الأعواد فى الرائحة والقيمة .

الرابع عشر المـانطائى ـ وهو ما يجلب من جزيرة ما نطاء، وقيمته مثـل قيمة اللوقينى، وهو خفيف ليس بالحسن اللون . قال أحمد بن العباس : وهو قطع كبار، مُلْسٌ لا عُقَدَ فيها إلا أن رائحته ليست بطيبة وإنمـا يَصْلُح للأدوية .

الخامس عشر القندغلى ــ ويؤتى به من ناحيــة كَلَه(١) ، وهى ساحل الزنج ، وهو يشبه القَمَارِى إلا أنه لاطِيبَ لرائحته .

السادس عشر السمولى ــ وهو عود حسن المَنْظَرِ، فيه خُمْرَةٌ وله بقاء فى الثياب .

السابع عشر الرانِجِىُّ ــ وهو عود يشــبه قرون الثيران ، لا ذَكاءَ له ، ولا بقاءَ فى الثياب .

الثامن عشر المُحَرَّم ــ سمى بذلك لأنه قد وقع بالبصرة فشــكَّ الناس فى أمره ، فحرّمه السلطان ومنعه فسمى المحرّم ، وهو من أدنى أصناف العود ، وجعل بعضهم بين الصَّنِفِىِّ والقَاقُلِّىّ صِــنْفا يقال له العطلى يؤتى به من الصِّــينِ ، وهو عود صُلْبٌ خفيف حسن المَنْظَر إلا أنه قليل الصبر على النار . وقد ذكر أحمد بن العباس بعد ذلك أصنافا من العود ليست بذات طائل . منها الأفليق ــ وهو عود يؤتى به من أرض الصِّينِ ، يكون فى العِظَم مثل الخَشَب الرانجى الغِلاظ يباع المنّ منه بدينار وأقل وأكثر . والعود الطيب الريح فى قشوره ، وداخلُه خشب خفيف مثــل الخلاف ، وإذا وضع على الجمر وجد له فى أوّله رائحة حُلْوَةٌ طيبة ، فإذا أخذت النار منه ظهرت منه رائحة رديئة كرائحة الشعر .

الصــــنف الرابع
(الصَّنْدَل)

وهو خشب شجر يؤتى به من سُفَالة الهند ، وهو على سبعة أضرب .

الأوّل المَقَاصِيرىّ ــ وهو الأصفر ، الدَّسِم ، الرَّزِين ، الذى كأنه مُسِحَ بالزَّعْفران الذَّكِىّ الرائحة . واختلف فى سبب تسميته بالمقاصيرىّ فقيــل نسبة إلى بلد تسمّى

(١) الذى فى معجم البلدان لياقوت أنها كَلْوَة وأما كَلَه فقد قال إنها فرضة بالهند اهـ .

مقاصير، وقيل إن بعض خلفاء بنى العباس آتخذ لبعض أمهات أولاده ومَحَاظِيّه بمقاصيرَ منه ؛ وهو شجر عظام يُقْطع رطبا ، وأجوده ما آصفرّ لونه وذكت رائحته ولم يكن فيه زَعَارة . قال التميمى : وهو يدخل فى طيب النساء : الرطب واليابس؛ وفى البرمكيات ، والمثلثات ، والذَّرائر، ويتخذ منه قلائد ، ويدخل فى الأدوية ؛ ويقال إن صاحب اليمن الآن يعمل له منه الأَسِرّةُ وإنه يأمر بقطع مايحمل منه من اليمن إلىٰ غيرها من البلاد قِطَعا صغارا حتّى لا يكون منها مايعمل سريرا لغيره من الملوك .

الثانى الأبيض منه الطيب الريح ــ وهو من جنس المقاصيرى المتقدّم ذكره لايخالفه فى شىء إلا فى البياض؛ ويقال إنّ المقاصيرى هو باطن الخشب وهذا الأبيض ظاهره .

الثالث الجَوْزى ــ وهو صُلْب العود أبيض ، يَضرِب لونُه إلىٰ السُّمْرة ، ويؤتىٰ به من موضع يقال له الجَوْز ، وهو طيب الرائحةِ إلا أنه أضعف رائحة من الذى قبله .

الرابع الساوس ويقال الكاوس ــ وهو صندل أصفرُ طيب الرائحة إلا أنّ فى رائحته زعارةً ، ويستعمل فى الذرائر ، والمثلثات : فى الطيب والبَخُورات .

الخامس ، يضرب لونه إلىٰ الحمرة ــ وهو علىٰ نحو من الذى قبله .

السادس صندل جعد الشعرة ــ لا بَسَاطةَ فيه إذا شقق بل يكون فيه تجعيد كما فى خشب الزيتون ، وهو أذكى أصناف الصندل إلا أنه لايستعمل فى شىء سوىٰ البَخُورات والمثلثات .

السابع أحمر اللون ــ وهو خشب حسن اللون ، ثقيل الوزن لا رائحة له ، إلا أنه تتخذ منه المنجورات والمخروطات كالدُّوِىّ وقِطَعِ الشِّطْرَنْج ونحوها مع ما يدخل فيه من الأعمال الطيبة .

قلت : هذا ما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه من أصناف الطيب النفيسة مما يهدىٰ أو يرد هدية، ويجرى ذكره فى مكاتبات الملوك، أما ماعدا ذلك من أصناف الطيب كالسُّنْبُلِ، والقَرَنفلِ، والكافور، فليس من هذا القبيل .

النوع السابع
(ما يحتاج إلىٰ وصفه من الآلات : وهى أصناف)

الصنف الأوّل
(الآلات الملوكية)

ويحتاج الكاتب إلىٰ وصفها عند وصف المواكب الحفيلة ، التى يركب فيها السلطان وهى عدّة آلات .

منها الخَاتَمُ بفتح التاء وكسرها، وحكىٰ فيه ٱبن قتيبةَ والجوهرىُّ وغيرهما خِيْتام وخَاتَام، وهو مايجعل فى الإصبع من الحلىّ، وهو مأخوذ من الختم، وهو الطبع : سمى بذلك لأنه يختم بنقشه علىٰ الكتب الصادرة عن الملوك . وسيأتى فى الكلام علىٰ خَتْمِ الكتب "أن النبي صلى الله عليه وسلم أرادَ أنْ يكتُبَ إلىٰ بعض ملوك الأعاجم فقيل له إنهم لا يَقْرءُون كتابا غيرَ مختومٍ فٱتخذ خاتَمًا من وَرِقٍ وجعل نقشه محمد رسول الله وٱقتدىٰ به فى ذلك الخلفاء بعده ، ثم توسعوا فيه إلىٰ أن جعلوا للكتب طَابَعا مخصوصا وأفردوا له ديوانا سموه "ديوان الخاتم" وٱقتفىٰ الملوك أَثَرهم فى ذلك، ثم غلب بمملكتنا وماناهزها الاكتفاءُ فى المكاتبات باللِّصاق، وصار ٱسم الخاتَم مقصورا علىٰ ما يجعل فى الإصبع خاصة سواء كان فيه نقش أم لا ، وصارت الملوك إنما تَلْبَسُ الخواتم بفصوص الجواهر من اليواقيت ونحوها تَجَمُّلًا ، وربما بَعَثَتْ بها فى تأمين الخائف علامة للرضا عليه والصفح عما جناه وٱقترفه .

ومنها المِنْديل بكسر الميم ، وهو مِنْديل يُجعل فى المِنْطَقَةِ المشدودة فى الوسط مع الصولق وغيره، ثم جرى ٱصطلاح الملوك علىٰ البعْثِ به فى الأمانات كما تقدّم فى الخاتم؛ والمِنْديل آلة قديمة للملوك؛ فقد حكى أنه كان للأفضل بن أمير الجيوش أحدِ وزراء الفاطميين مائةُ بَدْلة معلقة علىٰ أوتاد من ذهب، علىٰ كل بَدْلة منها مِنْديل من لونها؛ ولم يكن المنديل من آلات الخلافة بل إنما كان من آلاتها البُرْدَةُ علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها التَّخْتُ، ويقال له السرير: وهو ما يجلِسُ عليه الملوك فى المواكب؛ ولم يزل من رسوم الملوك قديما وحديثا ، رفعةً لمكان الملك فى الجلوس عن غيره حتّى لا يساويه غيرُه من جُلسَائه ؛ وقد أخبر تعالىٰ فى كتابه العزيز أنه كان لسليمان عليه السلام كرسيٌّ بقوله "وأَلْقَيْنَا علىٰ كُرْسِيِّهِ جَسَدًا" ورأيتُ فى بعض التواريخ أنه كان له كرسيٌّ من عاج مُغَشًّى بالذهب .

ثم هذه الأسِرَّة تختلف بٱختلاف حال الملوك، فتارة تكون من أبنية : رُخام ونحوه، وتارة تكون من خشب، وتارة من فُرُشٍ محشوّة متراكبة؛ وقد حكى أنه كان لملوك الفُرْس سريرٌ من ذهب يجلسون عليه ؛ وكان عمرو بن العاص رضى الله عنه وهو أمير مِصْرَ يجلس مع قومه علىٰ الأرض غير مرتفع عليهم، ويأتيه المُقَوْقِسُ ومعه سرير من ذهب، يحمل معه علىٰ الأيدى، فيجلس عليه فلا يمنعه عمرو من ذلك، إجراءً له علىٰ عادته فى المُلْكِ فيما قيل، لما عقده له من الذمّة وٱتخذه معه من العهد .

ومنها المِظَلَّةُ، وٱسمها بالفارسية الجتر بنون بين الجيم والزاى المعجمة، ويعبر عنها العامّة الآنَ بالقُبَّة والطَّيْر : وهى قبة من حرير أَصْفر، تحمل علىٰ رأس الملك، علىٰ رأس رمح بيد أمير يكون راكبا بحذاء الملك، يُظَلِّلُه بها حالةَ الركوب من الشمس فى المواكب

العظام، وسيأتى ذكرها فى الكلام على ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية . وهذه الدولة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالى .

ومنها الرَّقَبَةُ : وهى لباس لرقبة فرس السلطان من حرير أصفر، قد طُرِّزت بالذهب الزَّرْكَش حتّى غلب عليها وصار الحرير غيرَ مرئىّ فيها، تشدّ على رقبة فرس المَلِك فى المواكب العظام لتكون مضاهيةً لما يركب به من الكنبوش الزركش المغطّى لظهر الفرس وكَفَله .

ومنها الغاشِيَة، وهى غاشية سَرْج من أديم مخروزةٌ بالذهب، يظنها الناظر كلَّها ذهبا، يلقيها على يديه يمينا وشمالا .

ومنها الجفتاه، وهى فَرَسَان أشهبان قريبا الشبه، برقبتين من زركش، وعدّة تضاهى عدّة مركوب السلطان كأنهما مُعَدَّان لأن يركبهما السلطان، يعلوهما مملوكان من المماليك السلطانية قريبَيِ الشبه أيضا، على رأس كل منهما قُبَّعَةٌ من زَرْكَشٍ مشابه للآخر .

ومنها المِنْطَقَةُ بكسر الميم : وهى مايشدّ فى الوسط، وعنها يعبِّر أهل زماننا بالحِيَاصة، وهى من الآلات القديمة فقد روى أن أمير المؤمنين : علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه كان له مِنْطَقَةٌ . وهذه الآلة قد ذكرها فى "التعريف" فى الآلات الملوكية، على أن ملوك الزمان لم تجرِ لهم عادةٌ بشدّ مِنْطَقَةٍ، وإنما يُلْبِسها الملكُ للأمراء عند إلباسهم الخِلعَ والتشاريفَ، وهى تختلف بحسب اختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصّع بالفُصُوص، ومنها ماليس كذلك .

ومنها الأعلام : وهى الرايات التى تُحْمل خلف السلطان عند ركوبه، وهى من شعار المُلْك القديمة، وقد ورد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم كان يَعْقِدُ لأمراء

سراياه الراياتِ عنـد بَعْثها ؛ ثم قد يعـبَّرُ عن بعضها بالعصائب جمع عِصَابة : وهى الألوية، أخذا من عصابة الرأس : لأن الراية تَعْصِبُ رأس الرمح من أعلاه ؛ وقد يعبر عنها بالسَّنَاجق جمع سَنْجَقٍ ، والسَّنْجَق باللغـة التركية معناه الطعن ؛ سميت الراية بذلك لأنها تكون فى أعلىٰ الرمح، والرمح هو آلة الطعن يسمّى بذلك مجازا .

ومنها الطُّبُول ، ويقال لها الدَّبَادِبُ ، والبُوقَاتُ ، والزمر المعروف بالصهان الذى يُضْرَبُ به عشيَّةَ كل ليلة بباب الملك وخلفَه إذا ركب فى المواكب ونحوها ، وهى المعبر عنها بالطَّبْلَخَانَاه، وهى من شعار المُلْك القديم . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن الطبل فى بلاد المَغْرِب يختص ضربه بالسلطان دون غيره من كل أحد كما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مملكة المغرب فى المسالك والممـالك إن شاء الله تعالىٰ . والسر فيها إرهابُ العدو ، وتخذيلُه كما كتب به أرسْطُو فى كتاب "السياسة" للإسكندر، أو تقويةُ النفوس وتشجيعُها علىٰ الحرب كما قاله الغزالى رحمـه الله فى "الإحيـاء" وكلمـا كثرت أعدادها ، كان أفخم لشأن المَلِك وأبلَغ فى رفعـة شأنه . وقد حكى أن دبادب الإسكندر كانت أربعين حملا .

قلت : وقد ذكر فى "التعريف" من جمـلة الآلات الملوكية الدواةُ، والقـلمُ، والمِرْمَلَةُ . ولا يخفىٰ أنها بآلات الكُتَّابِ أليق وإن كان السلطان لا يسـتغنِى عنها؛ وسيأتى الكلام عليها فى الكلام علىٰ آلات الكتابة من هذه المقالة إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــنف الثانى

(آلات الركوب ـ وهى عدّة آلات)

منها السرج ـ وهو ما يقعُد فيـه الراكب علىٰ ظهر الفرس ؛ واشكال قوالبـه مختلفة، ثم من السرج مايكون مُغَشًّى بالذهب، وهو ممـا يصلح للملوك .

ومنها مايكون مغشًّى بالفضة البيضاء، وكل منها قد يكون منقوشا وقد يكون غير منقوش، ومنها ما يكون بأطراف فضة، ومنها مايكون ساذَجا .

ومنها اللِّجام ــ وهو الذى يكون فى فَكِّ الفرس يمنعه من الجِمَاح؛ وقوالبه أيضا مختلفة؛ ثم منها مايكون مطليًّا بالذهب، ومنها مايكون مطلياً بالفضة، ومنها مايكون ساذَجًا، ومنها مايكون رأسه وجنباه محلًّى بالفضة، ومنها مايكون غير محلًّى .

ومنها الكنبوش ــ وهو مايستر به مؤخرُ ظهر الفرس وكَفَلُه ؛ وهو تارةً يكون من الذهب الزركش، وتارةً يكون من المخايش : وهى الفِضة المُلَبَّسَةُ بالذهب، وتارة يكون من الصوف المرقوم؛ و به يركب القضاةُ وأهلُ العلم .

ومنها العباءة بالمدّ ــ وهى التى تقوم مقام الكنبوش .

ومنها المِهْمَازُ ــ وهو آلة من حديد تكون فى رِجْل الفارس، فوق كعبه، فوق الخف وما فى معناه، ومؤخره إصبع محدَّدُ الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحرّكت وأسرعت فى المشى أو جدّت فى العَدْوِ . وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من فِضَّة، وتارة يكون من حديد مَطْلِىٍّ بالذهب أو الفضة؛ وقد اعتاد القضاة والعلماء فى زماننا تركَهُ .

ومنها الكُور ــ وهو ما يقْعُد فيه الراكب فى ظهر النجيب : وهو الهَجِين، والعرب تسميه الرَّحْلَ ؛ ثم قد يكون مقدّمه ومؤخره مغشًّى بالذهب أو الفضة، وقد يكون غير مغشًّى .

ومنها الزِّمَام ــ وهو مايُقاد به النَّجيب، ويَضْبِطُه به الراكب كما يَضْبِطُ الفارس الفرس بالعِنَان .

ومنها الرِّكَابُ ــ وهو ماتجعل فيه الرِّجْلُ عند الركوب، وكانت العرب تعتاده

من الجلد والخشب ، ثم عُدِل عن ذلك إلىٰ الحــديد . قال أبو هلال العسكرىّ : فى كتابه "الأوائل" وأوّل من اتخذه من الحديد المُهَلَّبُ بنُ أبى صُـفْرَة ، وكانت رُكُبُ العرب من خَشَب فكان الفارس يصُكُّ الراكب(١) بركابه فيوهن مِرْفَقَه .

ومنها السَّوْط ــ وهو ما يكون بيــد الراكب يَضْرِبُ به الفرسَ أو النجيبَ ، وأهل زماننا يعبرون عنه بالمِقْرعة لأنه يُقْرَع به المركوب إذا تقاعس، وهو بدل من القضيب الذى كان للخلفاء علىٰ ما سـيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـالث

(آلات السفر، وهى عدّة آلات)

منها المِحَفَّةُ بكسر الميم : وهى مَحْمِلٌ علىٰ أعلاه قُبَّة ،وله أربعة سواعد : ساعدان أمامَها وساعدان خلفَها، تكون مغطاة بالجوخ تارة و بالحرير أخرىٰ، تُحْمَل علىٰ بغلين أو بعيرين يكون أحدهمــا فى مقدّمتها، والآخر فى مؤخرتها، إذا رَكِبَ فيها الراكب صار كأنه قاعد علىٰ سرير، لا يلحقــه انزعاج ؛ وقد جرتْ عادة المــلوك والأكابر باستصحابها فى السفر خشية مايَعْرِضُ من المرض .

ومنها المِحْمَلُ بكسر الميم الأولى وفتح الثانية(٢) :وهو آلة كالمِحَفَّةِ إلا أنه يحمل علىٰ أعلىٰ ظهر الجمل بخلاف المِحَفَّةِ فإنها تحمل بين جملين أو بغلين .

ومنها الفَوَانِيس، جمع فانُوس ، وهى آلة كُرِيَّةٌ ذات أضلاع من حديد، مغشَّاةٌ بخرقة من رقيق الكَتَّانِ الصافى البياض يتخذ للاستضاءة بغرز الشمعة فى أسفل باطنه

(١) لعله المركوب.

(٢) ضبطه فى القاموس والصحاح كمجلس . ولعل مافى الأصل لغة ثانية نظرا لكونه آلة .

فيشِفّ عن ضوئها ، ومن شأنها أن يحمل منها آثنان أمامَ السلطان أو الأمير فى السفر فى الليــل .

ومنها المَشَاعل جمع مَشْعَل : وهى آلة من حديد كالقَفَص مفتوحُ الأعلىٰ ، وفى أسفله حرقة لطيفة ، توقد فيه النار بالحطب فيبسط ضوءه ، يحمل أمام السلطان ونحوه فى السفر ليلا أيضا .

ومنها الخِيَام جمع خَيْمَةٍ ، ويقال لها الفُسْطَاطُ والقُبَّة أيضا : وهى بيوت تتخذ من خِرَق القطن الغليظ ونحوه ، تحمل فى السفر لوقاية الحرّ والبرد ؛ وكانت العرب تتخذها من الأديم ، وقد آمتنّ الله تعالىٰ عليهم بذلك فى قوله تعالىٰ "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ" والملوك تتناهىٰ فى سَعَتِها ، وتتباهىٰ بكبرها . وسيأتى فى الكلام علىٰ ترتيب الدولة الفاطميــة أنه كان لبعض خلفائهم خَيْمَةٌ تسمّى القاتول سميت بذلك لأن فَرَّاشًا من الفَرَّاشين وقع من أعلىٰ عمودها فمات لطوله .

ومنها الخركاه : وهى بيت من خشب مصنوع علىٰ هيئة مخصوصة ويغشّى بالجوخ ونحوه ، تحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للبيت فى الشتاء لوقاية البرد .

ومنها القُدُورُ ، جمع قِدْرٍ : وهى الآلة التى يطبخ فيها وتكون من نُحَاس غالبا ، وربما كانت من بِرَام . والملوك تتباهىٰ بكثرتها وعِظَمِها : لأنها من دلائل كرم الملك وكثرة رجاله ؛ وقد أخبر الله تعالىٰ عن سليمان عليه السلام بعظيم قَدْرِ ما كانت الجن تعمله له من القُدور بقوله "يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ" .

ومنها الأَثَافِيّ ، وهى الآلة المثلثة التى تعلّق عليها القدْر عند الطبخ ، وتكون من حـــديد .

ومنها النار التى يوقد بها للطبخ ونحوه؛ وقد تقدم فى الكلام على نيران العرب ذكر نار القِرىٰ، وهى نار كانت تُرْفَعُ ليلا ليراها الضيف فيهتدىَ بها إلىٰ الحىّ .

ومنها الجِفَانُ جمع جَفْنَةٍ : وهى الآنية التى يوضع فيها الطعام،وقد تقدّم فى الكلام علىٰ القدور أنها ممـا كانت الجن تعمله لسليمان عليه السـلام أيضا . وقد كانت العرب تفتخر بِكِبَرِ الجِفَانِ لدلالتهـا علىٰ الكرم ، وفى ذلك يقول الأعشىٰ فى مدح الْمُحَلَّق ليلَةَ بات عليه :

نفىٰ الذَّامَ عَنْ آلِ الْمُحَلَّق جَفْنَةٌ * كَجَابِيَةِ الشَّـيْخِ العِراقِىّ تَفْهَقُ

قيل أراد بالشيخ العراقىّ كِسْرىٰ، فشبه جفنته بجفنته .

ومنها حِيَاضُ المـاء : وهى حياض من جلد تحمل فى السفر ليبقىٰ المـاء فيها لسقى الدَّوابّ ونحوها، وكِبَرُ قَدْرها دليل علىٰ رِفْعة قدر صاحبها وفخامته : لدلالتها علىٰ كثرة دوابه، وآتساع عَسْكره .

الصـــنف الرابع

(آلات السلاح ؛ وهى عدّة آلات)

منهـا السَّيف : وهو معروف . وسيأتى فى الكلام علىٰ الألقاب فى المقالة الثالثة أنه مأخوذ من قولهم : ساف إذا هَلَكَ لأنه به يقع الْهُلْكُ .

وٱعلم أن السيف إن كان من حديد ذَكَرٍ : وهو المعبَّر عنه بالفُولاذ، قيل سيف فُولاذ ، وإن كان من حديد أنثىٰ : وهو المعبر عنه فى زماننا بالحديد ، قيل سـيف أَنِيث ؛ فإن كان متنُه من حديد أنثىٰ وحدّاه من حديد ذكر كما فى سيوف الفِرِنْجَة ، قيل سـيف مُذَكَّر ؛ ويقال إن الصاعقة إذا نزلت إلىٰ الأرض وردّت (١) ، صارت حديدا ، وربما حفر عليها وأخرجت فطبعت سيوفا ، فتجىء فى غاية الحُسْنِ والمَضَاء .

---

(١) هكذا فى الأصل ولعلها مصحفة عن بردت .

ثم إن كان عريض الصَّفيح ، قيل له صَفيحة ؛ وإن كان محدقا (١) لطيفا ، قيل له قَضيب ؛ فإن كان قَصِيرا قيل أبْتَر ؛ فإن كان قِصَرُه بحيث يحمل تحت الثياب ويُشتمَل عليه ، قيل مِشْمَلٌ بكسر الميم ؛ فإن كان له حدّ واحد وجانبه الآخر جاف، قيل فيه صَمْصامة ، وبهذا كان يُوصَفُ سيفُ عمرو بن معدى كرب فارس العرب . فإن كان فيه حُزُوز مستطيلة (٢) قيل فيه فَقَارات، وبذلك سمى سيفُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذا الفَقَار ، يروى أنه كان فيه سبعَ عشرةَ فَقَارة . ثم تارة ينسب السيف إلى الموضع الذى طبع فيه ، فيقال فيما طبع بالهند هِنْدىٌّ ومُهَنَّد ، وفيما طبع باليمن يَمانٍ ، وفيما طبع بالمَشَارف : وهى قُرًى من قُرى العرب قريبة من رِيف العِراق، قيل له مَشْرَفِىٌّ ؛ فإن كان من المعدن المسمّى بقُسَاس : وهو معْدِن موصوف بجَوْدة الحديد قيل له قُسَاسىّ ، وتارة ينسب السيفُ إلى صاحبه كالسيف السُّرَيْجىّ نسبة إلى قَيْن من قُيُون العرب ٱسمه سُرَيج معروف عندهم بحُسْن الصنعة . ويوصف السيف بالحُسَام : وهو القاطع أخذا من الحَسْم : وهو القطع ، وبالصارِم : وهو الذى لاينبو عن الضَّرِيبة . والناس يبالغون فى تحلية السُّيوف فتارة تُرصَّع بالجواهر، وتارة يُحَلُّونها بالذهب ، وتارة يحلونها بالفِضة ؛ وإن كان الاعتبار إنما هو بالسيف لا بالحِلية .

ومنها الرُّمْح : وهو آلة الطعن . والرماح ضربان : أحدهما متَّخَذ من القَنَا ، وهو قَصَب مسدود الداخل ، ينبُت ببلاد الهند يقال للواحدة منه قَنَاة ، ويقال لمَفَاصلها أنابيبُ ، ولعُقَدها كُعُوب ؛ فإن كان قد نشأ فى نباته مستقيما بحيثُ لا يحتاج إلى تثقيف ، قيل له الصَّعْدة ــ بفتح الصاد وسكون العين المهملتين ، وإن ٱحتاج إلى تقويم مقوّم قيل له مثقَّف . ويُوصَف القنا بالخطِّىّ ــ بفتح الخاء المعجمة، نسبة إلى

(١) لعله مدققا (٢) كذا بالاصل . وصوابه مطمئنة كما فى المخصص واللسان .

الخَطّ : وهى بلدة بالبحرين تجلَبُ إليها الرِّماح من الهند ، وتنقل منها إلىٰ بلاد العرب، وليست تُنْبِت القَنا كما توهَّمه آبن أصبغ فى أرجوزته المذهبة .

الثانى ما يُتَّخذ من الخشب كالزان ونحوه، ويسمّى الذابِل (بالذال المعجمة وكسر الموحدة) .

ويقــال للحديد الذى فى أعلىٰ الرُّمح السِّــنان ، وللذى فى أسفله الزُّجُّ والعَقِب . ويُوصف الرُّمْح بالأسمر : لأن لون القَنَا السُّمْرةُ ، وبالعَسَّال : وهو الذى يضطَرِب فى هزه ، وباللَّدْن : وهو اللين، وبالسَّمْهرىّ نسبة إلىٰ بلدة يقال لهــا سَمْهَرة من بلاد الحبشة، وقيل إلىٰ السَّمْهرة، وهى الصَّلَابة .

ومنها الطَّبَر، وهو باللغة الفارسية الفأسُ ، ولذلك يسمّى السُّكَّر الصُّلب بالطَّبَرْزَذ يعنى الذى يكسَر بالفاس . وإلىٰ الطَّبَر تنسب الطَّبَرْدارِيَّة : وهم الذين يحملون الأطبار حولَ السلطان علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المسالك والممالك إن شاء الله تعالىٰ .

ومنهــا السِّكِّين ، وسيأتى ذكرها فى آلات الدَّواة فى الكلام علىٰ آلات الكتابة وإنمــا سميت سِكِّينا لأنها تُسكِّن حركة الحيوان . وتسمّى المُدْيَةَ أيضا لأنها تقطع مَدىٰ الأجَلِ ، وهــذه الآشتقاقات أوْلىٰ بآلة الحرب من آلة الكتابة . وحاصل الأمر أن السكين تختلفُ أحوالُها بحسَب الحاجة إليها ، فتكون لكل شىء بحسب ما يناســبه .

ومنها القَوْس ، وهى مؤنثة . والقِسِىُّ علىٰ ضربين : أحدهمــا العربيــة ، وهى التى من خشب فقط، ثم إن كانت من عُودٍ واحد قيل لها قَضِيب ، وإن كانت من فِلْقَيْن قيل لهــا فِلْق . الثانى الفارسية : وهى التى تُرَكَّب من أجزاء : من الخشب والقَرْن والعَقَب والغراء . ولأجزائها أسمــاء يخص كلَّ جزء منها آسمٌ ، فموضع إمساك

الرامى من القوس يسمّى المَقبِض ، ومجرى السهم فوق قَبْض الرامى يسمّى كَبِد القوس ،وما يُعْطَف من القوس يسمّى سِيَة القوس ،وما فوق المَقْبِض من القوس، وهو ماعلى يمين الرامى يسمّى رأس القوس ، وما أسفله ، وهو ماعلى يسار الرامى يسمّى رِجْل القوس .

ومنها النُّشَّاب، والنَّبْل، فالنَّبلُ ما يرمى به عن القِسِىّ العربية، والنُّشَّاب ما يرمى به عن القِسِىّ الفارسيَّة حكاه الأزهرى ؛ ومَجْرى الوَتَر من السَّهم يسمّى الفُوق ؛ وحديدُه يسمّى النَّصْلَ ؛ والريشُ يسمّى القُذَذ ؛ والسهم قبل تركيب الريش يسمّى القِدْحَ (بكسر القاف وسكون الدال المهملة) .

ومنها الكِنَانَةُ، ويقال لها الجَعْبَةُ : وهى بكسر الكاف : وهى ظَرْف السهام، وتكون تارةً من جلد، وتارةً من خَشَب .

ومنها الدَّبُّوس، ويسمّى العامودَ : وهو آلة من حديد ذات أضلاع ينتفع بها فى قتال لابس البيضة ومَنْ فى معناه . ويقال إن خالد بن الوليد رضى الله عنه به كان يقاتل .

ومنها العصا : وهى آلة من خشب تفيد فى القتال نحو إفادة الدبُّوس .

ومنها البَيْضَةُ : وهى آلة من حديد توضع على الرأس لوقاية الضرب ونحوه ، وليس فيه مايرسل على القفا والآذان، وربما كان ذلك من زَرَدٍ .

ومنها المِغْفَرُ، بكسر الميم : وهو كالبيضة إلا أن فيه أطرافا مسدولة على قفا اللابس وأذنيه، وربما جعل منها وقايةً لأنفه أيضا، وقد تكون من زَرَدٍ أيضا .

ومنها الدِّرْعُ : وهو جُبَّة من الزَّرَدِ المنسوج يلبَسها المقاتل لوقاية السيوف والسهام، وهى تذكر وتؤنث، وقد أخبر الله تعالى عن داود عليه السلام أنه أُلِينَ

له الحديد فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالىٰ ﴿وأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ وقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ ولذلك تنسب الدروعُ الفائقةُ إلىٰ نَسْجِ داودَ عليه السلام .

ومن الدروع ما يقال لها السَّلُوقِيَّةُ نِسبةٌ إلىٰ سَلُوقَ ، قريةٌ من قُرىٰ اليمن ، وربما قيل دُرُوع حطومِيَّةٌ[1] بضم الحاء المهملة نسبة لحطوم رجل من عَبْدِ القَيْسِ .

وٱعلم أن لِبْسَ العرب فى الحرب كان الزردَ ، أما الآن ، فقد غلب عمل القَرْقَلاتِ من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضُها ببعض .

ومنها التُّرْس : وهو الآلة التى يتقىٰ بها الضرب والرمى عن الوجه ونحوه ، وتسمّى الجُنَّـةَ أيضا بضم الجيم أخذا من الاجتنان وهو الاختفاء ، وربمـا قيل لهـا الحَجَفَةُ بفتح الحاء المهملة والجيم ؛ ثم هى تارة تكون من خشب ، وتارة تكون من حديد ، وتارة تكون من عيـدان مضموم بعضُها إلىٰ بعض بخيط القطن ونحوه ؛ فإن كانت من جلد ، قيل لهـا دَرَقَةٌ بفتح الدال والراء المهملتين .

الصنف الخـامس

(آلات الحصار ؛ وهى عدّة آلات)

منها المَنْجَنِيقُ ، بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وكسر النون الثانية وسكون الياء وقافٍ فى الآخر ، وحكىٰ ٱبن الجوَاليقى فيه كسرَ الميم ، وحكىٰ فيه أيضا منجنوق بالواو ومَنْجَمِيق بإبدال النون الثانيـة ميمـا ، وهو ٱسم أعجمىّ ؛ فإن الجيم والقاف لايجتمعان فى كلمة عربية ، ويجمع علىٰ مجانيق ومنَاجيق . قال الجوهرىّ : وأصله مَنْ جِى نِيك وتفسيره بالعربية ما أجودنى . قال ٱبن خلكان : تفسـير مَنْ وتفسير جى ايش ، وتفسير نيك جيد ، قال ٱبن قُتَيْبَة فى كتابه "المعارف" وأبو هلال العسكرىّ

---

(١) لعل زيادة الواو من تحريف النساخ . والصواب حُطَمية نسبة الى حُطَم رجل الخ . أنظر اللسان والقاموس .

فى " الأوائل " : وهو آلة من خشب لهـا دَفَّتَانِ قائمتان بينهما سهم طويلٌ رأسه ثقيل وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كِفَّةُ المَنْجَنِيقِ التى يجعل فيها الحجر ، يجذب حتّى ترفع أسافله علىٰ أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبُه الذى فيه الكِفَّةُ فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه .

وأول من وضع المَنْجَنِيقَ جَذِيمَةُ الأبرشُ مَلِكُ الحِيرَةِ علىٰ العرب . وذكر الواحدىّ فى تفسير سورة الأنبياء : أن الكفارَ لما أضرموا النار لإحراق إبراهيم عليه السلام لم يَقْدِروا علىٰ القرب من النار لِيُلْقوه فيها ، فجاءهم اللَّعين إبليس فعلمهم وضع المنجنيق فعَمِلوه وأَلْقَوْهُ فيه فقذفوا به فى النار ، فكان أوّل مَنْجَنِيقٍ عُمِلَ .

ومما يلتحق بالمنجنيق الزيارات : وهى اللَّوالب والحبال التى يجذب بها المنجنيق حتّى ينحط أعلاه ليرمىٰ به الحجر .

ومنها السِّهام الخطاية (1) ، وهى سهام عِظَامٌ يرمىٰ بها عن قِسِىٍّ عِظَام توتر بلَوَالِبَ يجرّ بها و يرمىٰ عنها فتكاد تَخْرِقُ الحجر .

ومنها مَكَاحل البارود ، وهى المدافع التى يرمىٰ عنها بالنِّفْط . وحالها مختلف : فبعضها يرمىٰ عنه بأسهم عِظَام تكاد تَخْرِقُ الحجر ، وبعضها يرمىٰ عنه ببُنْدُقٍ من حديد من زِنَةِ عشرة أرطال بالمصرىّ إلىٰ مايزيد علىٰ مائة رِطْل ؛ وقد رأيت بالإسْكَنْدَرِيَّةِ فى الدَّولة الأشرفية . شَعْبَانَ بن حُسَين ، فى نيابة الأمير صلاح الدين بن عَرَّام رحمه الله ، بها مدفعا قد صُنِع من نُحَاس و رَصاصٍ وقُيِّد بأطراف الحديد رُمِىَ عنه من المَيْدَانِ ببُنْدُقَةٍ من حديد عظيمةٍ محماة ، فوقعتْ فى بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهى مسافة بعيدة .

---

(1) لعله مصحف والذى يؤخذ من المخصص أن السهم الخاطى هو السهم الغليظ الحادر فلعل هذا منه كما يفيده التفسير بعد تأمل .

ومنها قوارير النِّفط، وهى قدور ونحوها يجعل فيها النِّفْطُ ويرمىٰ بها علىٰ الحصون والقِلَاع للإحراق، علىٰ أن القوارير فى اللغة آسم للزُّجَاج وإنما آستعيرت فى آلات النِّفْطِ مجازا .

ومنها الستائر، وهى آلات الوقاية من الطوارق، وما فى معناها ممـا يستر به علىٰ الأسوار والسفن التى يقع فيها القتال ونحو ذلك .

الصنف السادس

(آلات الصيد ؛ وهى عدّة آلات)

منها قوس البُنْدُق (ويسمّى الجُلَاهِق) قوس يتخذ من القَنَا ويلف عليه الحرير ويغرّىٰ، وفى وسط وَتَرِه قطعةٌ دائرة تسمّى الجوزَة، توضع فيها البُنْدُقَةُ عند الرَّمْيِ.

ومنها الجراوة ، وهى آلة من جلد يجعـل فيها البُنْدُقُ الطين الذى يرمىٰ به عن القوس المقدّم ذكره .

ومنها الشِّبَاكُ ، رهى آلة تتخذ تعقد من خِيطَانٍ وتنصب لآقتناص الصيد، وكذلك تطرح فى المـاء فيصاد بها السمك .

ومنهـا الزَّبَطَانَةُ(١)، وهى آلة من خشب مســتطيلةٌ كالرمح مجوّفةُ الداخل يجعـل الصائد بُنْدُقَةً من طين صــغيرةً فى فِيهِ ، وينفخ بها فيها فتخرج منها بحدّة فتصيب الطير فترميه، وهى كثيرة الإصابة .

ومنها الفَخُّ، وهو آلة مُقَوَّسةٌ لهـا دَفَّتَانِ تفتحان قسرا ، وتعاقان فى طرف شَظَاة ونحوها إذا أصابها الصيد، آنطبقت عليه .

ومنها الصَّنَانِيرُ جمع صِنَّارَةٍ، وهى حديدة مُعَقَّفَةٌ محدّدة الرأس يصاد بها السمك .

(١) فى الأصل الزبربطانة . والتصحيح من القاموس .

الصنف السابع
(آلات المعاملة، وهى عدّة آلات)

منها الميزان، وهو أحد الآلات التى يقع بها تقدير المقدّرات ، فالموازين قديمة الوضع قال تعالى : ﴿ والسَّماءَ رفعهَا ووضعَ الميْزانَ أَلَّا تطْغَوْا فى المِيْزانِ وأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ ولاَ تُخْسِرُوا الْمِيْزانَ ﴾ وأمر شعيب عليه السلام قومه بإقامة القِسْطِ بالوَزْن كما أخبر تعالى عنه بقوله ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيم﴾ . قال أبو هلال العسكرىّ : وأوّل مَن آتخذ الموازينَ من الحديد عبد الله بن عامر . قال : وأوّل من وضع الأوزانَ سمير اليهودىّ ، وذلك أن الحجّاجَ ضرب الدراهم بأمر عبد الملك آبن مَرْوانَ ونهى أن يضربها احدٌ غيره ، فضربها سمير فأمر الحجاجُ بقتله لآجترائه عليه . فقال سمير : أنا أَدُلُّك على ماهو خير للسلمين من قتلى، فوضع الأوزانَ : وزْنَ ألفٍ، وخمسمائة، وثلثمائة، إلى وزن رُبْع قيراط، وجعلها حديدا، فعفا عنه . وكان الناس قبل ذلك إنما يأخذون الدرهم الوازن فَيَزِنُونَ به غيره، وأكثرُها يؤخذ عددا .

ومنها الذراع، مؤنثة، وهى إحدى الآلات التى تقدّر بها المقاديرُ أيضا ، بها تقدّر الأرضون، ويقاس البَزُّ وما فى معناه، ولم تزل الناس قديمًا وحديثًا يتعاملون بها على آختلافها ، وقد ورد ذكرها فى القرءان الكريم فى قوله تعالى ﴿فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ . وقد ذكر المَاوَرْدِىّ فى الأحكام السلطانية سبعَ أذرع .

إحداها الْعُـمَرِيَّةُ، وهى الذراع التى قدّرها أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه لمسح سَوَاد العراق. قال موسى بن طلحة : وطولها ذراع وقبضة وإبهام . قال الحكم بن عتيبة : عَمَـدَ عمرُ رضى الله عنه إلى أطولها ذراعا وأقصرها ذراعا ، فجمع منها ثلاثة وأخذ الثُّلُثَ منها وزاد عليها قبضةً وإبهاما قائمةً ، ثم ختم فى طَرَفَيها بالرَّصاص، وبعث بذلك إلى حُذَيْفَةَ وعثمانَ بن حُنَيفٍ فمسحا بها السَّوادَ .

الثانية الهـاشمية ، وتسمّى الزيادية . قال : وهى أربع وعشرون إصـبعا، كل إصبع سبع شعيرات مُعْتَدِلات معترضات ، ظَهْرًا لبطنٍ ، كل شعيرة عرض سبع شَعَرَات من شعر البِرْذَوْنِ، وهذه الذراع التى يعتمدها الفقهاء فى الشرعيات ، وبها قدّروا البريد المعتبَر فى مسافة قصر الصلاة وغيرها ، وربما عَبَّروا عنها بذراع الملك؛ وسميت بالهـاشمية لأن أبا جعفرٍ المنصورَ ثانىَ خلفـاء بنى العباس آعتـبرها وعَمِل بمقتضاها فى المساحة وتبِعَه سائرُ خلفائهم علىٰ ذلك ، وبنو العباس من بنى هـاشم، فنسبت إلىٰ بنى هاشم مباينةً لِمَنْ تقدّمهم من خلفاء بنى أُمَيَّةَ . قال المَـاوَرْدِىُّ : وتسمّى الزِّيَادِيَّةَ : لأن زيادا مسح بها السَّواد أيضا .

الثالثة البِلاَلِيَّةُ ، وهى أنقص من الهـاشمية المقدّم ذكرها ثلاثةَ أرباع عُشْرِها ؛ وإنمـا سميت البِلاَلِيَّةَ لأن بلال بن أبى بُرْدَةَ بن أبى موسىٰ الأشعرى هو الذى وضعها، وذكر أنها ذراعُ جدّه أبى موسىٰ .

الرابعة السَّوْدَاءُ ، وهى دون البلالية باصـبعين وثلثى اصبع ؛ وأوّل من وضعها الرشيد، قدّرها بذراعِ خادم أسودَ، كان قائما علىٰ رأسه . قال المـاوردىّ : وهى التى يتعامل بها الناس فى ذرع البَزّ والتجارة والأبنية وقياس نيل مصر .

الخـامسة اليُوسُفِيَّة ، وهى دون الذراع السوداء بثلثى إصـبع ؛ وأوّل من وضعها أبو يوسـفَ صاحبُ أبى حنيفة . قال المَـاوَرْدِىّ : وبها يَذْرَعُ القضاةُ الدُّورَ ببَغْدَادَ .

السادسة القصـبة ، وهى أنقصُ من الذراع السوداء بإصبع وثلثى إصبع ؛ وأوّل من وضـعها آبن أبى ليلىٰ القـاضى . قال المـاوَرْدِىّ : وبها يتعامل أهل كَلْوَاذىٰ .

السابعة المَهْرانية، قال الماوَرْدِىّ : وهى بالذراع السوداء ذراعان وثلثا ذراع؛ وأوّل من وضعها المأمونُ، وهى التى يُتَعامل بها فى حفر الأنهار ونحوها .

ومنها المِقَصُّ (بكسر الميم) وهو الآلة المعروفة، ويُنْتفع به فى أمور مختلفة .

الصنف الثامن
(آلات اللَّعِب ؛ وهى عدّة آلات)

منها النَّرْد (بفتح النون وسكون الراء المهملة) وهو من حِكَم الفُرْس ؛ وضعه أردَشِيرُ بن بَابَك أوّلُ طبقة الأكاسرة، من ملوكهم، ولذلك قيل له نَرْدَشِير، وضعه مثالا للدّنيا وأهلها، فرتب الرقعةَ آثنى عشرَ بيتا بعدد شهور السنة، والمهاركَ ثلاثين قِطْعَةً بعدد أيام الشهر، وجعل الفصوصَ بمثابة الأفلاك، ورميَها مثلَ تقلبِها ودَوَرانِها، والنُّقَطَ فيها بعدد الكواكب السيارة كل وجهين منها سبعة، وهى الشش، ويقابله اليك، والبنج، ويقابله الدو، والجهار، ويقابله الثا، وجعل مايأتى به اللاعبُ من النقوش كالقضاء والقَدَر : تارة له وتارة عليه، وهو يصرف المهاركَ علىٰ ماجاءت به النقوش، إلا أنه إذا كان عنده حُسْن نظر عرف كيف يتالى وكيف يتحيل علىٰ الغَلَب وقهر خَصْمِه، مع الوقوف عند ما حكمت به الفصوص كما هو مذهب الأشاعرة؛ لكن قد وردت الشريعة بذمّه قال صلى الله عليه وسلم "مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدَشِير فكأنما غَمَس يده فى لحم خِنْزِير" وفى رواية "ملعونٌ مَنْ لَعِبَ بالنَّرْدِشير". وفى تحريمه عند أصحابنا الشافعية وجهان، أصحهما التحريم، والثانى الكراهة . وإذا قلنا حرام، فالأصح أنه صغيرة وقيل كبيرة .

ومنها الشَّطْرَنْجُ (١)، بفتح الشين المعجمة أو السين المهملة لغتان ، والأولىٰ منهما

(١) الذى فى القاموس أنه بكسر الشين ولا يفتح أوّله وفى لسان العرب أن الكسر فيه أجود ليكون من باب جِرْدَحْل .

أفصح ، وهو فارسىّ معرَّب ، وأصله بالفارسية شش رنك ، ومعناه ستة ألوان وهى الشاه (والمراد بها المَلِكُ) والفرزان ، والفيل ، والفرس ، والرُّخّ ، والبيدق ؛ ثم الشِّطْرَنْجُ من أوضاع حكماء الهند وحِكَمِهم . وضعه صصه بن داهر الهندىّ لبلهيب مَلِك الهند مساواة لأردشير بن بَابَك فى وضعه النرد ، وعرضه على حكماء زمانه فقضَوْا بتفضيله ، ثم عرضه على الملك وعرّفه أمرَه ، فقال : آحتكم علىّ ، فتمنّى عليه عددَ تضعيف بيوته ، من قمحة إلى نهاية البيوت ، فاستصغر همته وأنكر عليه مواجهته بطلب نَزْرٍ يسير ، فقال هذه طَلِبَتِى فأمر له بذلك ، فحَسَبَه أربابُ دواوينه فقالوا للملك : إنه لم يكن عندنا مايقارب القليل من ذلك ، فأنكر ذلك فأوضحوه له بالبرهان ، فكان إعجابه بالأمر الثانى أكثرَ من الأوّل . قال آبن خلِّكانَ : ولقد كان فى نفسى من هذه المبالغة شىء حتّى آجتمع بى بعض حُسَّاب الإسكندرية فأوضح لى ذلك و بينه ، وذلك أنه ذكر أنه ضاعف الأعداد إلى البيت السادس عشر ، فأثبت فيه آثنين وثلاثين ألفا وسبعمائة وثمانيةً وستين حبةً ، وقال : تجعل هذه الجملة مقدار قَدَحٍ ، ثم ضاعف السابع عشر إلى البيت العشرين فكان فيه ويبة ، ثم آنتقل من الويبات إلى الإردب ، ولم يزل يُضَعِّفُها حتّى آنتهى فى البيت الأربعين إلى مائة ألف إردب وأربعة وسبعين ألف إردب وسبعمائة وآثنين وستين إردبا وثلثى إردب ، وقال : هذا المقدار شونة ، ثم ضاعف الشُّوَن إلى بيت الخمسين فكانت الجملة ألفا وأربعا وعشرين شونة ، وقال : هذا المقدار مدينة ؛ ثم إنه ضاعف ذلك البيت إلى الرابع والستين ، وهو نهايتها ؛ فكانت الجملة ست عشرة ألف مدينة وثلثمائة وأربعا وثمانين مدينة ، وقال : تعلم أنه ليس فى الدنيا مدن أكثر من هذا العدد

قال الصلاح الصَّفَدِىّ فى شرح اللامية : وآخر ما آقتضاه تضعيف رقعة الشِّطْرَنْجِ ثمانية عشر ألف ألف ست مرات ، وأربعمائة وستةٌ وأربعون ألفا خمس مرات ،

وسبعُمائة وأربعةُ وأربعون ألفا أربع مرات ، وثلاثة وسبعون ألفا ثلاث مرات ، وسبعُمائة وتسعة آلاف مرتين ، وخمسمائة وأحد وخمسون ألفا وستمائة وخمس عشرة حبة عددا .

قال الشيخ شمس الدين الأنصاريّ : إذا جمع هذا العدد هَرَمًا واحدا مُكَعَّبا ، كان طوله ستين ميلاً ، وعرضُه كذلك ، وآرتفاعه كذلك ، بالميل الذى هو أربعة آلاف ذراع .

واللعب بالشِّطْرَنْج مباح ؛ وقد ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازىّ رحمه الله فى "المهذب" أن سعيد بن جُبَيْرٍ الإمامَ الكَبيرَ التابعىَّ المشهورَ كان يلعب الشِّطْرَنْج عن آستدبار . وممن يضرب به المثل فى لَعِبِ الشِّطْرَنْج الصُّولِى : وهو أبو بكر محمد آبن يحيىٰ بن عبد الله بن العباس بن صُول تكين الكاتب ؛ ويقال إن المأمونَ كان لايجيد لَعِبَ الشِّطْرَنْج ، فكان يقول : عجباً منى كيف أدبِّرُ مُلْك الأرض من الشرق إلىٰ الغرب ولا أُحْسن تدبيرَ رقعة : ذراعين فى ذراعين . ثم فى حِلّه عند أصحابنا الشافعية ثلاثة أوجه أصحها أنه مكروه والثانى أنه مباح والثالث حرام ، فإن آقترن به رَهْن من الجانبين أو أحدهما ، فإنه محرّم بلا نزاع .

الصنف التاسع

(آلات الطرب : وهى عدّة آلات)

منها العُودُ : وهو آلة من خشب مخرقةٌ ؛ له عنق و رأسه ممـال إلىٰ خلفه ، وهو آلة قديمة ، وتسميه العرب المِزْهَر بكسر الميم ، وهو أفخر آلات الطرب وأرفعُها قدرا وأطيبُها سماعا ، حتّى يقال إنه قيل له هل يُسْمَع أحسن منك ؟ فقال : لا ، وأمال رأسه إلىٰ خلفه فهى ممـالة لأجل ذلك .

ومنها الجنك، قال فى "التعريف" : وهو آلة مُحْدَثَةٌ طيبة النَّغْمة، لذيذ السماع يقارب العود فى حسنه، وشكلُه مباين لشكل العود، ورأسه ممال إلىٰ أسفل؛ يقال إنه قيل له : هل يُسْمَع أحسنُ منك ؟ فقال : نعم، يريد العود .

ومنها الرَّبَابُ (بفتح الراء) : وهى آلة مجوّفة مركب عليها خُصْلَةٌ لطيفة من شعر مُمَرّ عليها بقوس وَتَرُه من شعر فيسمع لهـا حِسٌّ طَيِّبٌ؛ وأكثر من يعانيها العربُ .

ومن أنواعها نوع يعبر عنه بالكَمَنْجة لطيف القدر فى تدوير، أطيب حسا وأشجىٰ من الرَّباب .

ومنها الدُّفّ (بضم الدال) : وهو معروف، ثم إن كان بغير صُنُوج، وهى المعبر عنها فى زمننا بالصراصير، حلَّ سمـاعُه، أو بصُنُوج، فالأصح كذلك .

ومنها الشَّبَّابَةُ (بفتح الشين) : وهى الآلة المتخذة من القَصَبِ المجوّف، ويقال لها اليَرَاع أيضا تسميةً لها بآسم ما آتخذت منه، وهو اليراع يعنى القصبَ، وربمـا عُبِّر عنهـا بالمِزْمار العراقىّ؛ وتصحيح مذهب الشافعى رضى الله عنه يختلف فيها فالرافعى رحمه الله يجيز سَماعها والنَّوَوِىُّ يمنع من ذلك .

الصـــنف العاشر

(المسكرات وآلاتها ؛ وهى عدّة أشياء)

منها الخَمْرُ : وهى ما آتخذ من عصير العِنَب خاصَّـة ؛ وهى مُحَرَّمَةٌ بنصِّ القرءان. قال تعالىٰ : ﴿إِنَّمَـا الخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾ وأبو حنيفةَ يبيحها للتداوى والعطش، ولم تُبَحْ عند الشافعية إلا لإساغة لقمة المغصوص خاصّةً؛ وشاربها يحدّ بالآتفاق؛ وحكم بنجاستها تغليظا فى الزجر عنها، وأباح أبو حنيفةَ المُثَلَّثَ : وهو ماذهب ثلثاه وبقى ثلثه وقال بطهارته ، وجرىٰ عند أصحابنا الشافعية وجه بالطهارة .

أما المتخذ من الزبيب والتمر وما شاكله ، فإنما يقال له نبيذ، وقد ذهب الشافعيّ رضى الله عنه إلى القول بتنجيسه والحدِّ بشربه و إن لم ينته منه إلى قدر يحصل منه سُكْر . ومنع أبو حنيفةَ الحدَّ فى القدر الذى لا يُسْكِر ؛

ثم للخمر أسماء كثيرة باعتبار أحوال فتسمَّى الخمرَ لأنها تُخَمِّرُ العقلَ : أى تغطيه، والحُمَيَّا لأنها تُحْمِى الجسد، والعُقَارَ لأنها تعاقر الدَّنَّ : أى تطول مدّتها فيه إلى غير ذلك من الأسماء التى تكاد تجاوز مائةً .

ومنها الإبريق : وهو الإناء الذى يُصبّ منه؛ والإبريق فى أصل اللغة ماله خرطوم يصبُّ منه .

ومنها القَدَحُ : وهو إناء من زجاج ونحوه يصبُّ فيه من الإبريق المقدّم ذكره .

ومنها الكَأْس : وهو القَدَحُ بعد امتلائه، ولا يسمَّى كَأْسًا إذا كان فارغا بل قَدَحًا كما تقدّم .

ومنها الكُوبُ بالباء الموحدة : وهو الذى لا عُرْوَةَ له يُمسك بها، أما إذا كانت له عروة، فإنه يقال له كوز بالزاى المعجمة .

قلت : والعَجَبُ ممن يُذْهِب طيِّباته فى حياته الدّنيا ، ويفوز بما وَصْفُهُ المرارة وطبعه إزالة العقل الذى به تُدْرَكُ اللذة، ويفوت النعيمُ المقيمُ فى دار البقاء! فقد ورد "أن من شَرِب الخمر فى الدُّنيا لم يَطْعَمْهَا فى الآخرة". قال العلماء : إذا رآها، لا يشتهيها ولم تطلبها نفسُه، وقد وصف الله تعالى حال خمر الجنة بقوله : "يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنْزِفُونَ" وأتبع ذلك بكمال النعمة فى قوله : "وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا ."

اللهم لا عيشَ إلّا عيش الآخرة ! فلا تحرِمنا خير ما عندك بشر ما عندنا .

ومنها الحَشيشَةُ التى يأكلها سَفِلَةُ الناس وأراذلهم ، وتسميها الأطباء الشَّهْدَانِج ، وعبر عنها ٱبن البيطار فى مفرداته بالقِنَّب الهِنْدِىّ . وهى مذمومة شرعا، مضرة طبعا، تُفْسِد المِزاج ، وتؤثر فيه الجَفاف وغلبــةَ السوداء، وتفسد الذهن ، وتورث مَسَاءة الأخلاق ، وتَحُطُّ قدرَ متعاطيها عند الناس إلىٰ غير ذلك من الصــفات الذميمة المتكاثرة . وكلام القاضى حُسَيْن يدل علىٰ أنه لايحدّ متعاطيها وإن فُسِّقَ، فإنه قال : وغير الخمر مثل البَنْجِ، وجَوْزِمَاثِلٍ، والأفيونِ لا يحدّ متعاطيه بحال ؛ بل إن تعمد تناوُلَه فُسِّقَ به ، وإن تناوله غَلَطًا أو للتداوى به ، لم يُفَسَّــقْ ؛ وقد أفرد ٱبن القسطلانى الحشيشة بتصنيف سمــاه "تَكْرِمَةَ المَعِيشه، فى ذمّ الحشيشه" ذكر الكثيرَ من معانيها ومساوى متعاطيها، أعاذنا الله تعالىٰ من ذلك .

النوع الثامن

(ممـا يحتاج إلىٰ وصفه الأفلاك والكواكب، وفيه مقصدان)

المقصـــــد الأوّل

(فى بيان ما يقع عليه ٱسم الفَلَك وعددِ أُكَرِه(١)، وما بين كل كُرَتَيْنِ وحركة الأفلاك فى اليوم والليلة)

أما ما يقع عليه ٱسم الفلك، فالمراد بالأفلاك السموات . قال صــاحب "مناهج الفكر" : تواطأت الأمم علىٰ تسمية أجرام السموات أفلاكا ، وقال ٱبن قُتَيْبَة فى "أدب الكاتب" : الفلك مَدَار النجوم الذى يضمها ، وٱحتج بقوله تعالىٰ بعد

(١) فى القاموس الأُكرة لغية فى الكرة . وقد جمعها المؤلف علىٰ هذه اللغة وفى اللسان أن أُكرا جمع كرة مقلوب اللام إلىٰ موضع الفاء فانظره .

ذكر النجوم : ”وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ“ قال : وسمى فَلَكاً لآستدارته ومنه قيل فَلْكَةُ المِغْزَلِ لآستدارتها .

وأما شكل الفلك وهيئته، فقد آختلف علماء الهيئة فى ذلك : فذكر الأكثرون منهم أنها كُرِيَّةٌ لا مسطَّحة ، لأن أسرع الأشياء حركةُ السموات وأسرعَ الأشكال حركة الكُرَة لأنها لاتثبت علىٰ مكان من الأمكنة إلا بأصغر أجزائها .

وأما عدد أُكَرِه ، فقد ذكر الجمهور من علماء الهيئة : أن الفلك عبارة عن تسع أُكَرٍ متسقة، ملتفة بعضها فوق بعض التفافَ طبقات البصلة، بحيث يماس محدّب كلِّ كُرَةٍ سُفلىٰ مقعر كُرَةٍ أخرىٰ عُليا إذ لاخَلاَء بينهما عندهم . قالوا : وأقربُ هذه الأُكَرِ إلىٰ الأرض كُرَةُ القَمرِ ، ثم كُرَةُ عُطَارِدَ، ثم كرة الزُّهَرَةِ ، ثم كرة الشَّمس ، ثم كرة المِرِّيخ ، ثم كُرة المُشْتَرِى ، ثم كرة زُحَلَ، ثم كرة الكواكب الثابتة ، ثم كرة الفَلَك الأطلس ، وسمى بالأَطْلَس لأنه لا كواكب فيه ، ثم الفَلَكُ المحيط . ويسمّى فَلَكَ الكل، وفلكَ الأفلاك ، والفلكَ الأعلىٰ ، والفلك الأعظم ، وحكىٰ البومحسى (١) فى ”كتاب الآراء والديانات“ أن بعض القدماء ذهب إلىٰ أن كُرَةَ الشمس أعلىٰ من سائر كُرَات الكواكب ، وبعدها كُرَة القمر ، وبعدها كرة الكواكب المتحيرة ، ثم كرة الكواكب الثابتة . والمتفلسفون من الإسلاميين لما حكمت عليهم نصوص الكتاب والسنة بالآقتصار علىٰ ذكر سبع سموات، زعموا أن الفلك الثامن من الأفلاك التسعة هو الكُرْسِىّ، والفلكَ التاسع هو العرشُ . وذهب بعض القدماء من علماء الهيئة إلىٰ أنّ فوق الكُرَة التاسعة كُرَةً عاشرة هى المحرّكة لسائر الأُكَرِ . وذهب آخرون إلىٰ أن وراء نهاية الأجرام السماوية خَلاَءً لانهاية له ، وذهب بعض الفلاسفة إلىٰ أن وراءها عالَمَ الصورة، ثم عالَم النفس، ثم عالَم السياسة، ثم عالَم العِلَّة الأولىٰ، ويعنون به البارى تعالىٰ عن الجهة . والصابئة يسمون هذه العوالم أفلاكا .

(١) أهمله فى الأصل ولم نعثر عليه بعد البحث .

وأما ما بينَ كل كُرَتَينِ ، فذهب أهــل الهيئة إلىٰ أنها متراصَّة لاخلاء بينها لكن قد ورد الشرع بمــا يخالف ذلك، فأطبق القُصَّاصُ من أهل الأثر علىٰ أن بين كلِّ سماء وسماء خَمْسَمِائة سنة؛ وفى سُنَنِ التِّرْمِذِىّ أن" بين كل سماء وسماء واحدة أو آثنتان أو ثلاثٌ وسبعون سنة" .

وأما حركة الأفلاك اليوميةُ، فإن الفَلَكَ الأطلسَ المقدَّمَ ذكُره يتحرّك بما فى ضمْنه فى اليوم والليلة حركةً واحدة دَوْرِيَّةً علىٰ قُطْبَيْنِ مائلين يسميان قُطْبَيِ العالَمِ أحدهمــا(١) عظمى تقطع هذا الفَلَكَ نصفين تسمّٰى دائرة مُعَدَّلِ النهار، لأن الشمس متىٰ حَلَّتْ بها ، آعتدل النهار فى سائر الأقطار ، وتقاطع هذه الدائرةَ دائرةٌ أخرىٰ متوهَّمة تقسم هذا الفَلَكَ نصفين علىٰ نقطتين متقابلتيـــن ، يصير نصفها فى شَمَــالِيِّ مُعَدَّلِ النهار ونصفها الآخر فى جَنُوبِيِّه ، ويسمّٰى مِنْطَقَةَ البروج، وهذه الدائرة ترسمها الشمس بحركتها الخاصــة فى السنة الشمسية ، ومن ثَمَّ قسمت آثنى عشر قسما ويسمّٰى كُلُّ قسم منها برجا .

المقصـــد الثـانى

(فى ذكر الكواكب ومحلها من الأفلاك ؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الكواكب الســـبعة السيّارة)

وهى زُحَلُ ، والمُشْــتَرِى ، والمِرِّيخُ ، والشَّمْسُ ، والزُّهَرَةُ ، وعُطَارِدٌ ، والقمر ويتعلق القول بها من جهة مراتبها ، وآشــتقاقِ أسمــائها، ومقاديرِ أبعادها من الأرض،وقدر مُحَطِّ كل كوكب منها .

---

(١) فى المواعظ للقريزى . [و يقسم الفلك خط من دائرة تقسمه نصفين ... ... وتسمى هذه الدائرة دائرة معدل النهار .] فلعل فى عبارة الأصل سقطا من الناسخ وحرر .

فأما القمر، فمأخوذ من القُمْرَة : وهى البياض، سمى بذلك لبياضه ؛ وقد تقدّم أنّ فلَكَه أقرب الأفلاك إلىٰ الأرض ، وهو المعبر عنه بالسماء الدّنيا ، ودَوْرُه ألف ومائة وخمسةٌ وثمـانون ميلاً، وهو جزء من تسعة وثلاثين جزءًا من الأرض، وبُعْدُه عن الأرض مائة ألف وسبعة آلاف وخمسُمائة وتسعون ميلاً . وهو يسمّى هلالا الليلةَ الأولىٰ والثانيةَ والثالثةَ، ثم هو قمرٌ إلىٰ آخر الشهر . ويسمّى فى ليلة أربعَ عشرة بالبدر، قيل لمبادرته الشمس(١) قبل الغروب، وقيل لتمامه وآمتلائه كما قيل لعشرة آلافٍ بَدْرَةٌ لأنها تمـام العدد ومنتهاه ؛ ويَسْتَتِرُّ ليلة فى آخر الشهر، وربمـا آسْتَتَرَّ ليلتين فلا يُرىٰ بمعنىٰ أنه يختفى فلا يُرىٰ، ويسمّى هذا الآختفاءُ السِّرارَ .

وأما عُطَارِدٌ، فمعناه النافذ فى الأمور، ولذلك سمى الكاتِبَ؛ وهو فى الفلك الثانى بعد فلَكَ القمر؛ ودَوْرُ قُرْصِه سبعُمائة وعشرون ميلا، وهو جزء من آثنين وعشرين جزءًا من الأرض؛ وبُعْدُ ما بينه وبين الأرض مائتا ألف وخمسةُ آلاف وثمانُمائة ميل .

وأما الزُّهَرَةُ ، فمأخوذة من الزاهر وهو الأبيض ، سميت بذلك لبياضها ؛ وهى فى الفلك الثالث من القمر ، ودَوْرُ قرصها ستةُ آلافٍ وسبعة وأربعون ميلًا ، وهى جزء من ستة وثلاثين جزءا من الأرض ، وبعدها عن الأرض خمسمائة ألف وخمسة وثلاثون ألفا وستمائة وأربعة عشر ميلاً .

وأما الشمس ، فسميت بذلك لشبهها بالشمسة : وهى الواسطة التى فى المِخْنَقة لأن الشمس واسطة بين ثلاثة كواكبَ سُفْلِيَّةٍ : وهى القمر وعُطَارِدُ والزُّهَرَةُ، وبين ثلاثة عُلْوِيَّة : وهى المِرِّيخُ والْمُشْتَرِى وزُحَلُ، وذلك أنها فى الفَلَك الرابع من القمر؛ ودور قرصها مائة ألف وثمـانمُـائة وثمـانون ميلا ؛ وهى مثل الأرض مائة وستٌّ وستون مرة وربع وثمن مرةً، وبُعْدُها عن الأرضِ ثلاثة آلافِ ألفٍ وخمسةُ آلاف وآثنان وتسعون ألفًا ومائة وثلاثةٌ وأربعون ميلاً .

---

(١) أى بطلوعه قبل غروب الشمس .

وأما المِرِّيخُ، فمأخوذ من المَرْخ : وهو شجر تَحْتَكُّ أغصانه فتورى النـارَ، فسمى بذلك لشـبهه بالنار فى آحمراره ، وقيل المِرِّيخُ فى اللغة هو السهم الذى لا ريشَ له ، والسهم الذى لاريشَ له يلتوى فى سيره ، فسمِّى النجم المذكور بذلك لكثرة التوائه فى سيره ؛ وهو فى الفَلَك الخامس من القمر ، وهو مثل الأرض مَرَّةً ونصفا ؛ وبُعْده عن الأرض ثلاثة آلاف ألف وتسعمائة ألف وآثنا عشر ألفا وثمـانمائة وستة وستون مِيلًا .

وأما المُشْتَرِى ، فسمى بذلك لحسنه كأنه آشترىٰ الحسنَ لنفسه، وقيل لأنه نجم الشِّراء والبيع عندهم ؛ وهو فى الفلك السادس من القمر، ودَوْرُ قرصه أحدٌ وتسعون ألفا وتِسْعُمائة وتسعةٌ وسبعون ميلا ،وهو مثل الأرض خمس وسبعون مرة ونصف وثمنُ مَرَّةٍ، وبُعْدُه عن الأرض ثمـانية وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وثمانيةٌ وستون ألفا ومائتا مِيلٍ .

وأما زُحَلُ، فمأخوذ من زَحَلَ إذا أبطأ، سمى بذلك لبطئه فى سيره، وقد فَسَّر به بعض المفسرين قولَه تعالىٰ "النَّجْمُ الثَّاقِبُ" ودَوْرُ قرصه تسعون ألفا وسبعُمائة وتسعة عشر مِيلًا، وبُعْده عن الأرض ستة وأربعون ألفَ ألفٍ ومائتا ألفٍ وسبعُمائة وسبعةٌ وسبعون مِيلًا ، وأهـل المغرب يسمون زُحَلَ المُقَـاتِلَ ، ويسمون المِرِّيخَ الأحمرَ، ويُسَمُّون عُطَارِدَ الكاتبَ .

والفُرْسُ يسمون الكواكب السبعةَ بأسماءٍ بلغتهم فيسمون زحلَ كِيوَانَ،والمُشْتَرِى تير، والمِرِّيخَ بهرامَ،والشمسَ مهر،والزهَرَةَ أناهيد،وعُطَارد هرمس، والقمر ماه .

وآعلم أن لكل من هذه الكواكب السبعة حركتين ، إحداهمـا قَسْرِيَّةٌ ، وهى حركته بحركة فلك الكل فى اليوم والليلة حركةً تامةً، وتسمَّى الحركةَ السريعةَ ؛ والثانية حركة ذاتية يتحرك فيها هو بنفسـه من المغرب إلىٰ المشرق وتسمَّى الحركةَ البطيئة ،

ويختلف الحال فيها بالسير باختلاف الكواكب فلكل واحد منها سيرٌ يخصه ، وهذه الحركة فى القمر أبينُ لسرعة سيره ، إذ يقطع الفَلَكَ بالسير من المغرب إلى المشرق فى كل ثمانية وعشرين يوما مرة . وقد مثَّل القدماء من الحكماء للحركتين المذكورتين بمثالين ، أحدهما بحركة السفينة براكبها إلى جهة جريان الماء وتحرك الراكب فيها إلى خلاف تلك الجهة ، والثانى تحرّك نملة تدبُّ على دُولاب إلى ذات الشِّمال والدُّولاب يدور إلى ذات اليمين .

الضرب الثانى

(الكواكب الثابتة)

وهى الكواكب التى فى الفَلَكِ الثامن على رأى علماء الهيئة ، وسميت ثابتة لأنها ثابتة بمكانها من الفَلَكِ لاتتحرك من المَغْرِبِ إلى المَشْرِق ، كما تتحرك السبعة السيارة ، إلا حركة يسيرة جدّا ، وإنما تتحرك بحسب حركة فلَكِ الكل بها من المشرق إلى المغرب فى اليوم والليلة ؛ والذى يُحتاج إلى ذكره منها الكواكبُ المشهورة مما نُتَعرّف به الأزمنة على ما تقدّم ذكره ، أو ما يدخل تحت الوصف والتشبيه .

وهى ثلاثة أصناف .

الصِّنْفُ الأوّل

(نجوم البروج التى تنتقل فيها الشمس فى فصول السنة)

وهى اثنتا عشرة صورة فى اثنى عشر برجا ، بعضها من منازل القمر ، وبعضها من صور أخرى جَنُوبيةٍ وشَمَاليةٍ ، وبعضها من كواكبَ متفرّقةٍ لاتنسب إلى صورة .

الأول الحَمَلُ : وهو الكَبْشُ ، وهو صورة كبش على خط وسط السماء مُقَدَّمُهُ فى المغرب ومؤخره للشرق ، وأوّل مايطلُعُ منه فَمُهُ وهو الكوكب الجنوبيّ المنفرد من

الكوكبين الشَّماليين من مَفْصِلِ اليد من الشَّرَطَين ، وعلىٰ قرنيه الكوكبان الجنوبيان المقتربان من الشَّرَطينْ ، وعلىٰ عينه اليمنى الكوكَبُ الشَّمالىّ المضىء من الشَّرَطين ، وعلىٰ عينه اليسرىٰ كوكبٌ خفىّ بقرب الشَّمالىّ من الشَّرَطين ، وعلىٰ لَحْيَيْه آخرُ مثلُه ، وعلىٰ مَفْصِـلِ يده الكوكبان الشَّماليان اللذان علىٰ عَقِبِ الرِّجل اليسرىٰ من الثريا ، وهو الذى يقال له البُطَيْنُ ، ويده وساقاه ممتدّان إلىٰ الشَّمال ، وكأنه إنمـا يظهر منه يد واحدة ورِجْلٌ واحدة ، والثريا علىٰ طرف أَلْيَتِهِ .

الثانى الثَّوْرُ : وهو صورة ثور علىٰ خط وسط السماء ، مُقَدَّمُهُ إلىٰ المشرق ومؤخره إلىٰ المغرب ، وظهره إلىٰ الشمال ، ويداه ورِجْلاه إلىٰ الجنوب ، وعلىٰ مؤخره أربعة كواكب تسمَّى القَطْعَ أى هى موضع ذنبه المقطوع ، والدَّبَرَانُ وجهُه ، وركن الدَّبَرَانِ فَمُهُ ، والكوكب المضىء الذى فى الدَّبَرَانِ عينهُ ، وكوكبان خارجان عن الدَّبَرَانِ فَرْدَة قَرنِهِ ، وقرنه الآخر كوكبٌ متباعد عن الدَّبَرَانِ نفسه إلىٰ الشَّمال ، وليس وجهه مستويا ولكنه شبيه بالمقطوع الذى جُعِل خدّه علىٰ رأس عُنُقه ويداه منحطتان إلىٰ الجَنُوب ، ويظهر منه رِجْل واحدة ويدان ، وذَنَبُهُ أبتر ، والثريا خارجة عنه إلىٰ الشَّمال وكذلك اللَّطْخة ، وهى ثلاثة أنجم تشبه الثريا بين الثريا والدَّبَرَانِ وليستا من صورته .

الثالث التَّوْءَمُ : وهو المعبر عنه فى أَلْسِنَةِ الناس بالجوزاء . قال الحسين بن يونس الحاسبُ فى كتابه فى " هيئة الصُّوَر الفلكية " : والنـاس مخطئون فى ذلك وإنمـا الجوزاء هى الصورة المعروفة بالجَبَّار فى الصور الجنوبية ، وقدم التوءم الأيمن(١) بعض كواكب الجَبَّار التى علىٰ تاجه . قال : والتوءم علىٰ خط وسـط السماء جَسَدان ملتصقان برأسين ، يظهر لكل واحد منهـما يد واحدة ورِجْل واحدة ، والرأسان فى جهة المشرق ، ورجلاهما فى جهة المغرب ، والذراع الشامىّ هو الرأسان ، ويده

(١) لعل الصواب اليمنى .

اليمنى وهى التى فى جهة الشَّمال هى الذراع اليمانى والمضىء من الذِّراع اليمانىّ يسمَّى الشِّعْرى الغُمَيْصَاء، ويده اليسرى ممتدّة إلى التوابع .

الرابع السَّرَطَانُ : وهو صورة سَرَطَانٍ على وسط السماء، رأسه إلى الشَّمال ومؤخره إلى الجنوب، والنَّثْرَةُ على صدره، وعيناه كوكبان خفيَّان تحت النثرة يُدْعَيَانِ بالحمارين وزُبَاناه كوكبان فيهما خفاء، وأحدهما أضوا من الآخر، يكونان شَمَالِيين من التوءم ومؤخّره كفُّ الأسد .

الخامس الاسـد، فى وسط السماء، فَمُهُ مفتوح إلى النَّثْرة، وعلى رأسه كواكب مضيئة، والطَّرْف على عنقه، والجبهة على صدره، وقلبه الكوكب الجنوبىّ المضىء من النَّثْرة، وهو عظيم النور، وكاهله كواكب خفية خارجة عن الطَّرْف والجبهة إلى الشَّمال والخراتان خاصرته، والصَّرْفة ذنبه، وكَفُّه المتقدّمة فى آخر السَّرطَان، وكفه الأخرى بعد هذه الكف إلى المشرق، ورجله الأولى تخرج من الكوكب القبلىِّ من الخَرَاتين إلى الجنوب، والأخرى تحت هذه للشرق، وكبده كوكب يتوسط مع الجبهة شمالىّ منها، وسائر فقاراته إلى المشرق .

السادس العَـذْراء، فى وسط السماء . قال حسين بن يونس : والعرب تسميها السُّنْبُلَة، وهو خطأ، وإنمـا هى حاملة السنبلة، ورأسها فى الشَّمال بميلة إلى المغرب ورِجْلاها فى الجنوب، وهى مستقبلة المَشرق وظهرها إلى المغرب . قال : ورأسها كواكبُ صغار مستديرة كٱستدارة رأس الإنسان تكون جنوبية من كوكبى الخَرَاتين ومَنْكِباها أربعـة كواكب تحت هـذه إلى الشرق، وجَنَاحها الأيمن ستة كواكب كهيئة الجَنَاح .

السابع الميزان، وهو صورة ميزان، كِفَّتَاها(١) إلى جهة المشرق وقَبُّها إلى جهة المغرب، والسماك الأعزل على قَبِّها من الجهة اليمنى ومقابله كوكب آخر على قَبِّها

(١) فى المصباح «الميزان مذكر» فلعل تأنيث المؤلف له باعتبار أنه صورة.

من الجهـة الشّمالية، وكوكب آخر خارج من وسطها إلىٰ المغرب علىٰ علاقتهـا ، وهو علىٰ قصبة السُّنْبُلَةِ، وكوكبان من الغَفْرِ علىٰ محامله مع كواكبَ أُخَرَ؛ وزُبَانيـا العقرب كِفَّتَاه .

الثامن العقرب، وهو صورة عَقْرَب علىٰ وسـط السماء، رأسه فى المغرب وذَنَبُه فى المشرق، وإحدىٰ رِجْليه فى الجنوب، والأخرىٰ فى الشَّمال، والغَفْرُ علىٰ رأسه والزُّبَانيان اللذان همـا كِفَّتَا الميزان زُبَانياه، وعيناه كوكبان خفيان فيما بينهما وبين الإكليل ، والإكليل علىٰ صدره ، والقلب هو قلبه ، ونِيَاط القلب كوكبان خفيان والقلب فى وسطهما ، وهو خارج عنهما إلىٰ الشَّمال ، والشَّوْلة ذَنَبه ، والكواكب التى علىٰ طرفها جبهته، وإبرته لَطْخة مستطيلة فيما بين الشَّوْلة والنَّعائم الصادرة؛ ففيـه من منازل القمر خمسُ منازلَ : وهى الغَفْر، والزُّبَانان، والإكليل، والقلب، والشَّوْلة؛ وأظهرُ ماتكون صورةُ العقرب وهو علىٰ الأنف عند الغروب؛ ففيه من منازل القمر ثلاثُ منازلَ : الإكليلُ والقلبُ والشولةُ .

التاسع القَوْس، ويسمَّى الرامى، ونجوم هذا البرج نصفه شبه فرس، وهو مؤخره إلىٰ جهة المغرب، ونصفه وجه إنسان تقوس وهو فى جهة المشرق، ورأسه فى الشَّمال ورجلاه فى الجنوب؛ والنَّعائم الواردة علىٰ وسطه، وهو علىٰ الجسـد الذى يشبه بدن القوس، وذنبه يشبه لَطْخة مستطيلة مع كوكب صغير تحتها والكواكب بدعمان (١) أى النعائم، والبَلْدَة علىٰ مقْبِض القوس ويده اليمنىٰ قابضة علىٰ رأس السهم، وهى كواكب تكون تحت لطخة صغيرة قريبة منها .

العاشر الجَدْىُ : وهو صورة جَدْىٍ مستلقٍ علىٰ ظهره مُقَـدَّمه فى المغرب ومؤخَّره فى المشرق، وظهره للجنوب ويداه ورجلاه إلىٰ الشَّمال، وهو شبيه بالمنقلب إلىٰ القوس

(١) كذا فى المخطوط ولم نهتد الى ايضاحه .

وقرناه إلىٰ بطنه، وفمه إلىٰ القوس، وليس له إلا يد واحدة، والكوكب الشّمالىّ من سَعْد الذابح أحدُ قَرْنَيْه، والجنوبىّ منه قرنه الاخر، وكوكب آخر خفىّ تحت سهم القوس غربىّ سَعْد الذابح فمُه، وعلىٰ كَتِفِه سعد بُلَع، وعلىٰ وَرِكه سَعْد السُّعود، والمضىء من سعد السعود حُقُّ وَرِكه وشق الحوت الجنوبىّ علىٰ ظهره، وطَرَف يده ثلاثة كواكب مضيئة بقرب اللامح فيها خفاء، وطرف رجله الكوكبُ المسمّى رأس الدّلو .

الحادى عشر الدَّلْو: وهو صورة رَجُل قائم بيده دَلْو، رأسه إلىٰ الشّمال، ورجلاه إلىٰ الجنوب، وظهره إلىٰ المشرق، ووجهه إلىٰ المغرب، والكواكب التى تسمّى الخِبَاءَ من سعد الأخبية رأسُه، ويده اليسرىٰ من فوق رأسه حتّى تنزل إلىٰ الدَّلْوِ الذى عن يمينه، وسعد الأخبية مِرْفَقُه الأيسر، و بطنه يسمّى الجرّة، ودلوه أربعة سعود من السُّعود السبعة التى ليست من منازل القمر، هى سعد نَاشِرَة، وسَعد المَلك، وسعد البِهَامِ وسعد الماتح، وكل سعد منها كوكبان، وعلىٰ رِجْله اليسرىٰ كوكب عظيم النور، وعلىٰ رِجْله اليمنىٰ كوكب أبيض يقرب فى العِظَم من الذى قبله، والفَرْغ المقدّم خارج عن صورته إلىٰ الشّمال .

الثانى عشر الحُوت : وهو صورة سمكتين إحداهما المنزلة التى تسميها أصحاب المنازل بطن الحُوت وهى شمالية ، والثانية جنوبية عنها ، وهى أطول منها وأخفىٰ الكواكب ، والكواكب السبعةُ السيارةُ ترسُم الجنوبيةَ منهما بمسيرهن ، وشِق السمكة الجنوبية ثلاثة من السُّعود السبعة التى من غير منازل القمر هى سعد الهُمَام وسعد البارِع وسعد الماطر (١) ، وليس الفَرْغ المؤخّر فى جسم الحوت بل خارج عنه إلىٰ الشّمال والمغرب .

---

(١) الذى فى القاموس سعد مطر .

الصـــــنف الثـانى

(نجوم منازل القمر التى ينتقل فيها القمر من أوّل الشهر إلىٰ الثامن والعشرين منه)

وهى ثمـان وعشرون منزلة يداخل أكثرُها صورَ البروج الاثنى عشر المتقدّمة .

الأولىٰ الشَّرَطانِ ، والشَّرَطان تثنية شَرَط ، وهو العلامة كأنه سمى بذلك لكونه علامةً علىٰ طلوع الفجر عند طلوعه ،وتسمّٰى أيضا النَّطْحَ والناطحَ : لأنها عند أصحاب الصور قَرْنا الحَمَل ؛ وهمـا كوكبان نَيِّران بينهـما قابُ قَوْسين ، أحدهمـا فى الشَّمال والآخر فى الجنوب إلىٰ الجـانب الجنوبىّ ، ومنها كوكب ألطف منه يعدّ معه أحيانا ولذلك يسمِّى بعضهم هـذه المنزلةَ الأشراطَ علىٰ الجمع لا علىٰ التثنية ، وهذه الثلاثة الكواكب إذا ظهرت فى المشرق ، ظهرت كأنها مقلوبة منكَّسة ، وواحد منها أحمرُ مضىء وتحته آخر خفىّ والثالث فى الشَّمال وهو أحمرُ مضىء .

الثانية البُطَيْنُ ، تصغير بطن ، وإنما صُغِّر فرقا بينه وبين بطن الحوت الآتى ذكره فى جملة المنازل ؛ والبُطَيْنُ ثلاثة كواكب مثـل أثَافِىّ القِدْرِ : وهى الشكل المُثَلَّثُ الذى ينصب عليه القِدْر عند الطبخ ؛ وهى علىٰ القرب منها فى موضع بطن الحَمَل من الصورة ؛ وواحد منها مضىء واثنان خفيان ، والخفيان يَطْلُعان قبل المضىء .

الثالثة الثُّرَيَّا ، ويسمّٰى النجم عَلَما عليها ، وبه فسر قوله تعالىٰ ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوىٰ﴾ وهى ستة أنجم صغار يظنها بعض الناظرين سبعةَ أنجم ، وهى فى شكل مثلثٍ متساوى الساقين ، وبين نجومها نجومٌ صـغار جدّا كالرشاش ، ومطلَعُها إلىٰ الشمال عن مطلع الشَّرَطَينِ والبُطَيْنِ ؛ وأوّل ما يطلُع منهـا ويغيب هو الجانب العريض دون الأنخاذ منها ؛ وهى عنـد أصحاب الصور بالقرب من محل ذَنَبِ الثور المقطوع . قال ابن يونس : وليست من صورة الثور ، وبعضهم يسميها أَلْيَـةَ الحمل لقربها منه .

الرابعة الدَّبَرَانُ ، ويسمّى تَالِيَ النجم لكونه يطلع تِلْوَ الثريّا ، وربما سمى حادِيَ النجم لذلك ، ويسمّى أيضا المُجْدَحَ وعينَ الثور ، وهذه المنزلة سبعة أنجم تشبه شكل الدال ، واحد منها مضيء أحمر عظيم النُّور ، واسم الدَّبَرَان واقع عليه فى الأصل ثم غلب عليه وعلىٰ باقى المنزلة . وهذه الكواكب السبعة عند أصحاب الصور هى رأس الثَّور ، وأوّل ما يطلع منه طرف الدال ، ويكون رميها إلىٰ الجنوب وفتحها إلىٰ الشَّمال ، والكوكب الأحمر المضيء هو آخر ما يطلع منها ؛ والعرب تقول للكوكبين القريبين منه : كَلْباه ، والباقى غَنَمهُ ، وربما قالوا : قِلَاصه ، ويقولون فى خرافاتهم : إنّ الدَّبَرَانَ خطب الثريّا إلىٰ القمر فقالت : ما أصنع بِسُبْرُوتٍ ؟ فساق إليها الكواكبَ المسماة بالقِلَاص مَهْرًا ، فهربت منه فهو يطلبها أبدا ، ولا يزال تابعا لها ، ومن ثَمّ قالوا فى أمثالهم : "أَوْفى من الحَادِى[1] وأغدر من الثريّا" .

الخامسة الهَقْعَةُ ، سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون فى عُنُق الفرس ، وقد مر القول عليها فى الكلام علىٰ أوصاف الخيل ؛ وهى ثلاثة كواكبَ محاذية صغار تسمّى الأثافِيَّ ، وهى علىٰ أعلىٰ القدم اليسرىٰ من التوءم المعبر عنه بالجوزاء .

السادسة الهَنْعَةُ : وهى خمسة أنجم علىٰ شكل الصَّوْلَجَانِ : أربعة منها علىٰ خط مستقيم ، الثالث منها يسمّى قوسَ الجَوْزَاءِ ، والخامس منعطف إلىٰ جهة الجنوب مقدارَ شِبْرٍ فى رأى العين ، وسميت هَنْعَةً لانعطافها أخذا من قولهم : هنعتُ الشئَ إذا عطفتَه ، وبعضهم يسميها التحية[2] ، وهى عند أصحاب الصُّوَر خلاف لأحد التوءمين المعبر عنهما بالجوزاء ، ويقال : الهنعة قوس الجوزاء يرمى بها ذراع الأسد ، وقائل ذلك يزعم أنها ثمانية أنجم فى صورة قوس من مقبضها النجمان اللذان يقال

(١) المراد بالحادى الدبران كما تقدم فى كلامه وكما يشير اليه قول الشاعر : * كما وفى بقلاص النجم حاديها * ووقع فى الأصل الجارى وهو تصحيف .

(٢) الذى فى القاموس واللسان فى مادة (ه ن ع) أنها تحياة وجمعها تحايى .

لها الهنعة، و بعضهم يقول : إن الهَنْعَة كوكبان مقترنان ، الشّمالىّ منهمـا أضوءُهمـا وحذاءَهما ثلاثة كواكبَ تسمّى التّحَايِي ر بمـا عدل القمر فنزل بها .

السابعة الذّراع : وهى كوكبان : أحدهما نيّر والآخر مظلم، بينهما قدر سوط فى رأى العين، وفيما بينهما كواكبُ صِغَار تسميها العرب الأظفارَ، وسميت هذه المنزلة بالذراع لأنها عندهم ذراع الأسد وللأسد ذراعان : مقبوضـةٌ وفيها ينزل القمر، وهى جنوبية، وسميت مقبوضةً لأن الأخرىٰ أرفع منها فى السماء، ولهذا سميت مبسوطةً، وهى مثلها فى الصورة، وأصحاب الصور يجعلون هذه الذراع فى صورة الكلب الأصغر، و ر بمـا عدل القمر عن المقبوضة فنزل بها .

الثـامنة النّثْرة ، وهى لَطْخة كقِطْعـة سحاب يجعلها أصحاب الصُّوَر علىٰ صـدر السَّرطَان . وسميت نَثْرة لأن إلىٰ جانبها نجمين صغيرين همـا عند العرب علىٰ مَنْخِرى الأسد، وتسميهما الحمارين ، وقيل إنها لما كانت أمامَ جبهة الأسد شبهت بشئ نثره من أنفه، و يقال إنها فم الأسد ومنخراه، وتسمّى اللَّهَاةَ أيضا وتشبَّه بالمِعْلَف .

التاسعة الطَّرْفُ ، وهى كوكبان خفيان مقترنان بين يدى الجَبْهَةِ ، سميا بذلك لموقعهما موقع عينى الأسد، وقدّامهما ستة كواكبَ صـغار تسميها العرب الأشفار آثنان منها فى نَسَقِ الطَّرْفِ، والأربعة البواقى بين يديه .

العاشرة الجَبْهَةُ، ثلاثة كواكب نيرة قد عدل أوسطها إلىٰ الشرق، فهى لذلك علىٰ شكل مُثَلَّثٍ مسـتطيل القاعدة قصير الساقين، و إلىٰ الجنوب عنها نجم أحمرُ مضىء جدّا يسمّى قلبَ الأسد يرسمه المنجمون فى الأسطرلاب ، وأصحاب الصور يجعلون الجبهة علىٰ كَتِفِ الأسد .

الحادية عشرة الخراتان، وتسمّى الزُّبْرَة وعُرف الأسـد والزبرتين، وهما كوكبان نيّران بينهما فى رأى العين مقدارُ ذراعين ، وهما معترضان ما بين المشرق والمغرب ،

يمتدّان عند التوسط مع خط الآستواء، وسميا الخراتان تشبيها بثُقْبَين في السماء، ومنه خَرْتُ الإِبْرَة ، وتحتَ هذين النجمين تسعةُ أنْجُم صغار. وسميت الزُّبْرَة لشعر يكون فوق ظهر الأسـد ممـا يلي خاصرته ، وعدّوا الجميع أحد عشر كوكبا منها نجمان همـا الخراتان والتسعة الشعر.

الثانية عشرة الصَّرْفَةُ : وهي كوكب نيِّر، وهو عند أصحاب الصور قُنْبُ الأسـد والقُنُبُ وعاء القضيب، وبالقُرْب من هذا الكوكب سبعة أنجم صغار طُمْس ملاصقةٌ له ، وسمى هذا الكوكبُ بالصَّرْفَة لآنصراف الحَرِّ عند طلوعه مع الفجر من المشرق وآنصراف البرد إذا غرب مع الشمس، ويقال الصَّرْفَةُ نابُ الدَّهر لأنَّها تَفْـتَرِع عن فَصْل الزمانين، ويشكل مع الخَرَاتان مثلَّثا له زاوية قائمة وإحدىٰ ساقيه أطولُ من الأخرىٰ وفي قاعدته قِصَر.

الثالثة عشرة العَوَّاء، وهي خمسة كواكبَ نيِّرةٌ علىٰ شكل لام(١)، كان آعتبِر آبتداؤها من الشَّمال وعطفها من جهة الجنوب لكن المصطف منها أربعة والمنعطف واحد، ويقال لهـا أيضا وَرِكَى الأسـد، وتشبهها العرب بكلاب تَعْوِى خلف الأسد لأنها وراءه، ولذلك سميت العَوَّا، وأصحاب الصور يجعلونها في السُّنْبُلَة علىٰ صدرها.

الرابعة عشرة السِّمَاكُ، وهو السِّماكُ الأعزل : وهو كوكب نَيِّر يميل لونه إلىٰ الزُّرْقة وسمى سِمَاكًا لكونه قريبا من سَمْتِ الرأس، وسَمْتُ الرأس أعلىٰ ما يكون من الفَلَك وسَمَّته العربُ الأعزلَ لأنه يطلُع إلىٰ جانبه نجمٌ مضيء يسمونه السِّماكَ الرَّامِحَ لكوكب صغير بين يديه، والأعزلُ لاشيء بين يديه ففرق بينهـما، وأحدهما جنوبيّ، وهو المنزلة، وأصحاب الصُّوَر يثبتون السماكين : الأعزلَ والرامحَ في صورة العذراء، وهى السنبلة، والعرب تجعلهما ساقى الأسد، وربما عدل القمرُ فنزل بعَجُزِ الأسد، وهو أربعة كواكبَ بين يدى السِّماك الأعزل، يقال لها عرش السِّماك، وتسمَّى أيضا

(١) في لسان العرب كأنها كتابة ألف ... ويقال كأنها نون .

الِخبَاء، والأحمال، والغُراب، وهذه المنزلة حدّ مابين المنازل اليمانية والمنازل الشامية، فما كان أسفل من مَطْلَعه فهو يمانى ، وهو شِق الجنوب، وما كان فوقه فهو شامى، وهو شِقُّ الشَّمال .

الخامسة عشرة الغَفْرُ، ثلاثة كواكب خفية علىٰ خَطٍّ فيه تقويس، وسميت بذلك لخفائها مأخوذة من المَغْفِرَةِ التى تستُرُ الذنبَ وتخفيه يوم القيامة، ومنه المِغْفَر الذى فوق الرأس، وقيل لأنها زُبَانَىٰ العقرب، وقيل مأخوذة من الغَفْرَة : وهى الشعر الذى فى طرف ذَنَب الأسد، وأصحاب الصور يجعلونها بين ساقَىِ الأسد.

السادسة عشرة الزُّبَانَانِ ، وهما كوكبانِ نَيِّران هما عند العرب يد العقرب يترس بهما : أى يدفع عن نفسه، وأصحاب الصُّوَر يجعلونهما كِفَّتَى الميزان، و بينهما فى رأىِ العين قدرُ قامة الرجل .

السابعة عشرة الإكْليلُ ، وهو ثلاثة كواكبَ مجتمعةٌ فى خفاء الغَفْرِ مصطفَّةٌ معترضة، بين كل كوكب وكوكب منها قدرُ ذراع فى رأى العين، سميت بذلك لأنها فوق جبهة العقرب كالتاج، وهى عند أصحاب الصُّورَ علىٰ عمود الميزان .

الثامنة عشرة القَلْبُ ، وهو كوكب أحمرُ نَيِّرٌ مضطرب قريب من الجبهة بين كوكبين خفيين تسميهما العرب نِيَاطَى القلب أى عِلَاقتيه ، وسَمَّتْه أصحاب الصُّوَر قَلْبا لوقوعه موضع القلب من صورة العقرب ، والقلوب أربعة هذا أحدها، والثانى قَلْب السمكة ، والثالث قلب الثور ، والرابع قلب الأسد . وحيثُ ذكر القلب علىٰ الإطلاق دون إضافة فالمراد قلب العقرب هذا .

التاسعة عشرة الشَّوْلَةُ، وهى كواكبُ متقاطرة علىٰ تقويس فى بُرْج العقرب أشبه شئ بذَنَب العقرب إذا شالته، ولذلك سميت الشَّوْلَةَ، وفى الشولة كوكبان خفيّان

ملتصقان يظهران كأنهما كوكب واحد مشقوق يسميان الإبْرَة والحُمَة ، وخلفهما نجم صغير لا يزايلهما يقال له التابع . وقال قوم : إنما ينزل القمر الشَّوْلة على المحاذاة ولا ينحط إليها لأنها منحدرة عن طريقه ، وربما نزل بالسفار فيما بين القلب والشَّولة ، وهى ستة كواكبَ بيض منعطفة .

العشرون النَّعَائم ، وكواكبها ثمانية ، منها أربعة يمانية نَيِّرة تشكل مربَّعا فيه أطراف تسمى الواردة وهى المنزلة ، وسميت واردة : لأنها لما كانت قريبة من المَجَرَّة شبهت بنَعَام وردت نهرا ، والأربعة الأخرىٰ تسمَّى النعائم الصادرة : لأنها لما كانت بعيدة من المجرَّة شبهت بنَعَام وردت ثم صدرت ، والواردة التى هى المنزلة عند أصحاب الصُّوَر واقعة فى يد الرامى الذى يجذب بها القوس .

الحادية والعشرون البَلْدَةُ ، وهى فُرْجَةٌ فى السماء مستديرة شبه الرُّقعة ليس فيها كواكبُ ، والبلدة فى كلام العرب الفُرْجَةُ من الأرض ، ويقال لصدر الإنسان البَلْدة لأنها قطعة مستطيلة ، ويدل عليها ستةُ كواكبَ مستديرةُ صغار خفية تشبه القوسَ ، وبعضهم يسميها الأُدْحِىَّ لأن بالقرب منها كواكبَ تسميها العرب البَيْضَ لقربها من النعائم ، وربما عدل القمر فنزل بالأُدْحِىّ ، وأصحاب الصور يجعلون البلدة علىٰ جبهة الرامى .

الثانية والعشرون سعدُ الذَّابحُ ، وهو كوكبان صغيران بينهما فى رَأْىِ العين أقلُّ من قدر ذراع ، أحدهما مرتفع فى ناحية الشَّمال والآخر منخفض فى ناحية الجَنُوب سمى سعدا لانهمال الأمطار فى أيام طلوعه ، وسمى ذَابِحًا لقوّة البرد فى إبَّانِ طلوعه فتموت المواشى ببرده ، وقيل سمى ذابحا لأن بالقرب من نجمه الشَّمالِىِّ نجما صغيرا كأنه ملتصق به ، تقول العرب : هو شَاتُه التى تُذْبح ، ولذلك جعلوا الذابحَ صفةً لسعد

بخلاف سائر السعود ، فإنها يضاف إليها ما بعدها كما قاله الزجاج فى مقدّمة أدب الكاتب، وأصحاب الصُّوَر يثبتون هذا السعد فى موضع قَرْنَى الجَدْى من الصورة .

الثالثة والعشرون سعد بُلَعَ ، وهو نجمان أيضا يشبهان سعدا الذابحَ فى المسافة التى بينهما لكن أحد الكوكبين خَفِىّ، وهو الذى بلَعه، وهذا السعد عند أصحاب الصُّوَر على كَعْب ساكب الماء القريبِ من صورة الدَّلْوِ، وسمى بُلَعَ لأنه فى أيامْ طلوعه تغيض الأنهار وتزيد الآبار، فكأن الأرض ٱبتلعت ماءها، وقيل لأنه يطلُع فى الوقت الذى قيل فيه "يَا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى" زمن نوح (عليه السلام) .

الرابعة والعشرون سعد السُّعُود، وعدّته كوكبان أيضا على ماتقدّم فى السعدين من البُعْد، وقيل هو ثلاثة كواكبَ أحدها نَيِّر والآخران دونَه فى النور، وأصحاب الصُّوَر يثبتونه على صدر ساكب الماء القريب من صورة الدَّلْو، وربما قصر القمر فنزل سعدَ نَاشِرَةَ ، وهو أسفل من سعد السعود ، ويسمِّى أصحاب الصور نجميه بالمُحِبَّيْنِ، وهما فى مؤخر الجَدْى، ومنهم من يثبت سعد السعود نجما واحدا .

الخامسة والعشرون سعد الأخْبِيَةِ، والناس مختلفون فيه ؛ فمنهم من يقول : إنه كوكبٌ واحد حوله ثلاثة كواكب مثلثة تشبه رِجْلَ بَطَّةٍ والكوكب هو السعد والثلاثة الخباء، ومنهم من يجعل الكوكب الذى فى وسط الثلاثة عمودَ الخباءِ ، وهو عند أصحاب الصُّوَر على الكَتِف الشرقية من جسد ساكب الماء ، وسمى سعدَ الأخبية لخروج المخبآت فيه من الثمار والحشرات ، وكانت العرب تتبرك به لٱخضرار العود فيه .

السادسة والعشرون الفَرْغ المقدّم ، ويقال فيه مقدّم الدَّلْوِ والفرغ الأوّل والفرغ الأعلى وعَرْقوة الدَّلْو العُلْيا، وهو كوكبان نيِّران بينهما فى رأى العين نحوٌ من خمسة أذرع، وأصحاب الصُّوَر يزعمون أن الشَّمالىَّ منهما على متن الفرس .

السابعة والعشرون الفَرْغُ المؤَخَّر، ويقال له مؤخر الدَّلْو السُّفْلىٰ ، وهو كوكبان يشبهان ما تقدّم ، احدهما شَمالىٌّ والآخر جنوبىٌّ ، وهما عند أصحاب الصُّور علىٰ مؤخر الفرس، وربما قصر القمر فنزل فى الكَرَبِ الذى فى وسط العَرَاقِى، وربما نزل ببَلْدة الثعلب .

الثامنة والعشرون الحُوتُ ، وهو آخر المنازل ، ويقال لها السَّمَكة ، وتسمّى الرِّشَاء أيضا ، وهى ثمانية عشر كوكبا تشكل شكلَ سمكة رأسها فى جهة الشَّمال وذَنَبُها فى جهة الجنوب، وفى الشرقىِّ منها كوكب نيِّر، يسمى سُرَّةَ الحُوت ، وبطنَ الحوت،وبطنَ السمكة،وقلبَ السمكة،وربما عدل القمر فنزل بالسمكة الصُّغرىٰ، وهى من السمكة الكبرىٰ فى الشَّمال مثل صورتها إلا أنها أعرضُ منها وأقصرُ؛ وأصحاب الصُّوَر يجعلون الكوكب النَّيِّرَ من الحوت فى حدّ المرأة المسلسلة ، ورأسها هو الشمالىُّ من الفَرْغ المؤخَّر.

الصنف الثالث

(من النجوم الثوابت ماليس داخلا فى شىء من البروج ومنازل القمر مما هو مشهور مما ذكرتْه العرب فى شعرها، وشبهت به، وضربت به الأمثال)

وهى عدّة نجوم .

منها بنات نَعْشٍ : وهى سبعة أنجم علىٰ القرب من القُطْب الشَّمالىّ ، منها أربعة فى صورة نَعْشٍ وثلاثةٌ أمامه مستطيلةٌ، وهى المعبَّر عنها بالبنات ، وتُعْرَفُ هذه ببنات نعش الكُبرىٰ، وبالقرب منها سبعةُ أنجم علىٰ شكلها .

ومنها الجَدْىُ الذى تعرف به القِبْلة ، وهو نجم صغير علىٰ القرب من القُطْب الشَّمالىّ يستدلّ به علىٰ موضع القُطْب، ويقال له جَدْى بنات نعشِ الصغرىٰ .

ومنها الفَرْقَدَانِ، وهما كوكبان متقاربان معدودان فى بنات نَعْشٍ .

ومنها السُّهَا ، وهو كوكب خفىّ فى بنات نَعْشٍ الكبرىٰ ، والنـاس يَمْتَحِنُون به أبصارَهم لخفائه .

ومنها السِّماك الرامحُ ، وهو غير الأعْزَلِ المقدّم ذكره فى منازل القمر ، سمى رامحا لكوكب يقْدُمه ، تقول العرب : هو رُمْحُهُ بخلاف الأعزل فإنه الذى لارُمْحَ معه .

ومنها النَّسْرُ الواقع ، وهو ثلاثة أنجم كأنها أثافى ، سمى الواقعَ لأنهم يجعلون آثنين منه جنَاحيه ويقولون : قد ضمهما إليه كأنه طائروقع .

ومنها النَّسْر الطائر، سمى بذلك لأنهم يجعلون آثنين منه جَنَاحيه، ويقولون : قد بسطهما كأنه طائر، والعامّة تسميه الميزانَ .

ومنها الكَفُّ الخَضِيب ، وهو كف الثُّرَيَّا المبسوطةُ ، ولهـا كف أخرىٰ يقال لهـا الجَذْماء، وهى أسفل من الشَّرَطين .

ومنها العَيُّوقُ ، وهو فى طَرَف المجَرَّة الأيمن، وعلىٰ أثره ثلاثةُ كواكبَ بَيِّنَةٌ يقال لهـا الأقلام، وهى من مواقع العَيُّوقِ .

ومنهـا سُهَيْلٌ ، وهو كوكب أحمرُ منفرد عن الكواكب ولقربه من الأُفُقِ كأنه أَبَدًا يضطرب ، وهو من الكواكب اليمـانية ، قال آبن قُتَيْبَةَ : ومطْلَعه عن يسار مُسْتَقْبِلِ قبـلةِ العراق . قال : وهو يُرىٰ فى جميع أرض العرب ، ولا يرى فى شىء من بلاد أَرْمِينِيَةَ .

ومنها الشِّعْرَيَانِ : العَبُورُ، وكانت تعبد فى الجاهلية لقوله تعالىٰ : "وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرىٰ" وهى فى الجوزاء ، والشِّعْرىٰ الغُمَيْصَاءُ ، ومع كل واحدة منهـما كوكب يقال له المِرْزَمُ .

ومنها سعد ناشِرةَ، وسعد المَلِكِ، وسعد البِهَامِ، وسعد الهُمَامِ، وسعد البارع، وسعد مَطَر؛ وكل سعد منها كوكبان، بين كل كوكبين فى رَأْيِ العين قَدْرُ ذراع فهى متناسقة؛ وهذه السعود الستة غير السعود الأربعة المتقدّمة فى منازل القمر؛ تكون جملةُ السعود عشرةً .

فإذا عَرَفَ الكاتب أحوالَ الأفلاك والكواكب وأسماءَها وصفاتِها، عرف كيف يصفها عند آحتياجه إلىٰ وصفها، وكيف يعبِّر عنها عند جَرَيَان ذكرها .

كما قال بعضهم يمدح بعض الرؤساء :

لَا زِلْتَ تَبْقىٰ وتَرْقىٰ للعُـلَا أبدًا * ما دام للسبعةِ الأفلاكِ أحكامُ
مَهْرٌ ومَاهٌ وكِيوَانٌ وتيرُ معـا * وهِرْمِسٌ وأناهيـدٌ وبَهْـرَام

مشيرا بذلك إلىٰ ذكر الأفلاك السبعة، وما لهـا من الكواكب السبعة السيارة بالأسمـاء الفارسية المقدّم ذِكرُها .

وكما قال الطُّغْرائى فى لامية العجم :

وإن عَلَانِى مَنْ دُونِى، فـلا عَجَبٌ * لِى أُسْوَةٌ بانحطاطِ الشمس عن زُحَلِ

مشيرا إلىٰ كون فَلَك زُحَلَ أعلىٰ من فَلَك الشمس لمـا تقدّم أنها فى الرابع، وهو فى السابع .

وكما قال بعضهم يَصف خُضْرة السماء، وما لهـا من الكواكب :

كأنّ سَمَاءَنا، والشُّهْبُ فيهـا * وأَصْغَرُهَا لأَكْبرها مُزَاحِمْ
بِسَاطُ زُمُرُّدٍ نُثِرتْ عليـه * دنانيرٌ يخالِطُهـا دَرَاهِـمْ

وكما قال ذو الرُّمّة وقد ذكر الثريّا :

يَدِفُّ علىٰ آثارهـا دَبَرَانُهـا * فلا هو مَسْـبُوقٌ ولَا هو يَلْحَقُ
بعشرين من صُغْرىٰ النجومِ كأنها * وإيَّاه فى الخَضْراء لو كان يَنْطِقُ

قِلَاصٌ حَدَاها راكِبٌ متعمِّمٌ * إلىٰ الماء من جَوْز التَّنُوفة مُطْلَقُ

مشيرا إلىٰ ماتقدّم من خِطْبَةِ الدَّبرَانِ الثريَّاَ وهَرَبِها منه وإمهارِه إياها بالقلائص: وهى النجوم التى حولها .

وكما قال أبو الفَرَج البَبَّغَا ذاكرا حال مختفٍ يُرْجىٰ له الظهورُ :

سَتَخْلُصُ من هذا السِّرارِ وأيُّما * هلالٌ توارىٰ فى السِّرار فما خلص

مشيرا بذلك إلىٰ حالة توارِى القمر حالة السِّرار ثم خلوصه عند إهلاله .

النوع التاســـع

(ممـا يحتاج الكاتبُ إلىٰ وصفه العُلْويَّات ممـا بين السماء والأرض، وهى علىٰ أصـــناف)

الصـــنف الاوّل .

(الريح)

وهى مؤنثة، يقال هبت الريح تَهُبُّ هبوبا، وتجمع علىٰ رياح، وقد دل الاستقراء علىٰ أنها حيث وردتْ فى القرءان الكريم فى مَعرِض العـذَاب ، كانت بلفظ الإفراد وحيث وردت فى معرض الرحمة، كانت بلفظ الجمع . قال تعالىٰ فى جانب العذاب : "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" وقال : "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِـمْ رِيحًا صَرْصَرًا" وقال فى جانب الرحمـة : "وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِـهِ" وقال جلت قدرته : "اللهُ الَّذِى يُرْسِـلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً" إلىٰ غير ذلك من الآيات . ومن ثَمَّ كان رسول الله صـلى الله عليه وسلم إذا اشتدّت الريح قال : "اللّهمَّ اجْعَلْها رِيَاحًا ولا تَجْعَلْها رِيحًا" وقد ورد القرءان الكريم بأن الله تعالىٰ هو الذى يرسلها، قال تعالىٰ : "اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً"

وذهبت الفلاسفة إلىٰ أنها تَحْدُثُ عن الطبيعة، وأن سبب ذلك دُخَان يرتفع من الأرض فيضربه البرد فى ٱرتفاعه فيتنكّس و يتحامل علىٰ الهواء و يحرّكه الهواء بشدّة فيحصل الريح .

وأصول الرياح أربعة :

الاولىٰ الصَّبَا : وهى التى تأتى من المَشْرِق، وتسمّى القَبُول أيضا : لأنها فى مقابلة مُسْتَقْبِلِ المشرق، قال فى صناعة الكُتَّاب : وأهل مِصْر يسمونها الشرقيةَ : لأنها تأتى من مَشْرِق الشمس ، وهى التى نُصِر بها النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب كما أخبر صلى الله عليه وسلم بقوله : "نُصِرْتُ بالصَّبَا" .

الثانية الدَّبُورُ ، ومَهَبُّها من مغرب الشمس إلىٰ حدّ القطب الجنوبىّ ، وسميت الدَّبُورَ لأن مستقبِل المشرق يستدبرها ، وتسمّى الغربيةَ لهبوبها من جهة المغرب ، وبها هلَكَتْ عاد كما أخبر عليه السلام بقوله : "وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ" .

الثالثة الشَّمَالُ ، ويقال فيها شَمَال وشَمْأَلٌ وشَامَلٌ وشَأْمَلٌ مهموزا وغير مهموز ، ومَهَبُّها من حدّ القطب الشمالىّ إلىٰ مغرب الشمس ، وسميت شَمَالًا لانها علىٰ شمال من ٱستقبل المشرق ، قال فى صناعة الكُتَّاب : وتسمى البَحرية لأنها يُسَار بها فى البحر علىٰ كل حال .

الرابعة الجَنُوبية ، ومَهَبُّها من حدّ القطب الأسفل إلىٰ مطلع الشمس ، وتسمّى بالديار المصرية القِبْلِيَّةَ لأنها تأتى من القبلة فيها ، وتسمّى بها أيضا المَرِيسيَّة لأن فى الجهة القبلية بلاد المَرِيس : وهم ضرب من السُّودان ، وهى أردأ الرياح عند اهل مصرَ. وقال النحاس : وكل ريح جاءت من مَهَبَّىْ ريحين تسمّى النَّكْباء، سميت بذلك لأنها نَكَبَتْ عن مَهَابِّ هذه الرياح وعَدَلت عنها، قال فى "فقه اللغة": وإذا

جاءت بنَفَسٍ ضعيف ورَوْحٍ فهى النسيم ؛ وإن ٱبتدأت بشِـدَّة قيل لهـا النافجة ؛ فإن حركت الأغصـانَ تحريكا شـديدا وقلعت الأشجار قيـل زَعْزَع ؛ فإن جاءت بالحَصْـباء قيـل حاصبة ؛ فإذا هَبَّتْ من الأرض كالعـمود نحو السماء قيـل لهـا إعْصار . وقد ورد بها القرءان فى قوله تعـالىٰ : "فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ" والعامّة تسميها الزَّوْبَعَةَ ، ويزعمون أن الشيطان هو الذى يثيرها ، ومن ثَمَّ سمـاها الترك نعـيم بك يعنى الشـيطان ؛ فإذا كانت باردة ، فهى الصَّرْصَر . وقد وقع ذكرهـا فى قوله تعـالىٰ : "إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا" ؛ فإذا لم تُلْقِح شجرا ولم تحمل مَطَرا ، فهى العَقِيم . وقد قال تعالىٰ فى قصة عاد : "إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ" كانت لامطر فيها .

الصـــــنف الثانى

(السَّحاب)

وهو الأجرام التى تَحْمِل المطرَ بين السماء والأرض يُنْشِئُها الله سبحانه وتعالىٰ كما أخبر بقوله : "وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ" ويسوقهـا إلىٰ حيث يشاء كما ثبت فى الصحيح "أنّ رجلا سمِـع صوتا من سَحابة : ٱسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ" .

وذهب الحكماء إلىٰ أنه بُخَار متصاعد من الأرض مرتفع من الطبقة الحارّة إلىٰ الطبقة الباردة فيثقُل ويتكاثف وينعقِد فيصير سحابا . قال الثعالبىّ فى "فقه اللغة" : وأوّل ماينشأ يقال له النَّشْء ؛ فإذا ٱنسحب فى الهواء ، قيل له سَحاب ؛ فإذا تغيرت به السماء ، قيل له غَمَام ، فإن سُمِـع صوت رعده من بعيد قيل فيه عَقْر ؛ فإذا أظل ، قيل عارِضٌ .

وقد أخبر تعالىٰ عن قوم عاد بقوله : "فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا

هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا"؛ فإن كان بحيث إذا رُؤى ظُنَّ أنّ فيه مطرا، قيل له مُخَيِّلَةٌ؛ فإن كان السحاب أبيض، قيل له مُزْنٌ؛ فإذا هراق مافيه، قيل جَهَامٌ، وقيل الجَهَامُ هو الذى لامطَر فيه .

وقد أُولِع أهل النظم والنثر بوصفه وتشبيهه .

الصنف الثالث

(الرعد)

وهو صوت هائل يُسمَع من السحاب، وقد آختلف فى حقيقته فروى أنه صوت مَلَكٍ يزجُرُ به السحاب، وقيل غير ذلك؛ والنصيرية من الشِّيعة يزعمون أنه صوت أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه حيث زعموا أنّ مسكنه السحابُ؛ وذهبت الفلاسفة إلى أنه دُخَان يتصاعد من الأرض ويرتفع حتّى يتصل بالسحاب ويدخُلَ فى تضاعيفه ويَبْرُدَ فيصيرَ ريحا فى وسط الغيم، فيتحرّك فيه بشدّة فيحصل منه صوت الرعد، ويقال منه رَعَدت السماء؛ فإذا زاد صوتها، قيل آرتجست؛ فإذا زاد، قيل أرْزَمَتْ ودَوَّتْ؛ فإذا آشتدّ، قيل قصَفَت وقعقَعَتْ؛ فإذا بلغ النهاية، قيل جَلْجلت وهَدْهَدتْ .

الصنف الرابع

(البرق)

وهو ضوء يُرى من جوانب السحاب، وقد آختلف فيه أيضا فروى أنّ الرعدَ صوت مَلَكٍ يزجُرُ به السحابَ وأنّ البرق ضَحِكُه؛ والنصيرية من الشِّيعة يزعمون أنه ضَحِكُ أمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه أيضا، والفلاسفة يقولون إنه دُخَان يرتفع

من الأرض حتّى يتصل بالسحاب كما تقدّم فى الرعد ، ثم تَقْوىٰ حركته فيشتعِل من حرارة الحركة الهواءُ والدخانُ فيصير نارا مضيئة وهو البرق؛ و يقال وَمَضَ البرق إذا لمع لَمَعَانا قويًّا ، وأومض إذا لمع لَمَعَانا خفيًّا؛ فإن أطمع فى المطر ثم ظهر أن لامطر فيه، قيل خُلَّبٌ .

الصـــــنف الخامس

(المطـــر)

وهو المـاء الذى يخلقه الله تعالىٰ فى السحاب و يسوقه إلىٰ حيث يشاء .

وقد ذهب الحكماء إلىٰ أنه بُخَـار يتصاعد (من الأرض أيضا فيه أو فى حرارة الشمس أو فيهما)(١) فيجتمع ، و ربمـا أعانت الريحُ علىٰ جمعه بأن تسوق البعض إلىٰ البعض حتّى يتلاحق ؛ فإذا آنتهىٰ إلىٰ الطبقة البـاردة تكاثف وصار ماء وتقاطر كالبخار الذى يتصاعد من القِدْرِ و ينتهى إلىٰ غِطاء القـدر وعنـد أدنىٰ برودة ينعقد قَطَرات .

ثم للطر زمان يكثر فيـه ، و زمان يَقِلُّ فيـه ؛ وقد رتب العرب ذلك علىٰ أنواء الكواكب التى هى منازل القمر، وجعلوا لكل منها نَوْءًا ينسب إليه . قال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرِىُّ فى "كتاب الأنواء الكبير" : كانت العـرب تقول : لا بدّ لكل نَوْء كوكبٍ من أن يكون فيه مطر، أو ريح ، أو غيم ، أو حر، أو برد . ينسبون ما كان فيه من ذلك إليه ؛ وقد آختلف فى معنىٰ النَّوْءِ فذهب ذاهبون إلىٰ أن النَّوْءَ فى اللغة النُّهوضُ ؛ وذهب الفرّاء إلىٰ أنه السُّقوط والمَيَلان؛ وذهب آخرون إلىٰ أنه يطلق علىٰ النهوض والسقوط جميعا ، علىٰ أنهم متفقون أن العرب كانت ترىٰ الأمر للسقوط

---

(١) كذا بالأصل . ولعل الصواب من الارض أيضا أو من حرارة الشمس أو منهما .

دون الطلوع، فمن ذهب إلىٰ أن المراد بالنَّوْءِ السقوطُ يجريه علىٰ بابه، ومن ذهب إلىٰ أن المراد بالنوء النهوضُ يقول: إنما سمى نوءًا لطلوع الكوكب لا لسقوط الساقط، ومنهم من يطلق النَّوْءَ علىٰ السقوط وإن كان موضوعه فى اللغة النهوض من باب التفاؤل كما يقال للديغ سَلِيم وللمَهْلَكَةِ مفازة، علىٰ أن بعضهم قد ذهب إلىٰ أن الكوكب ينوء بمعنى يَنْهَضُ ثم يسقط، فإذا سقط فقد مضىٰ نَوْءُهُ ودخل نوء الكوكب الذى بعده، قال أبو حنيفة الدِّينَوَرِىُّ: وهو التأويل المشهور الذى لا ينازع فيه لأن الكوكب إذا سقط النجم الذى بين يديه، أَطَلَّ هو علىٰ السُّقوط وكان أشبه حالا بحال الناهض. وقد عدّها أبو حنيفة ثمانيةً وعشرين نوءًا بعدد منازل القمر المتقدّمة الذكر، وذكر ان بعضها أجهرُ وأشهر من بعض.

الأوّل نوء الشَّرَطَيْنِ، وهو ثلاث ليال، وأثره محمود عندهم.

الثانى نوء البُطَيْنِ، وهو ثلاث ليال، وليس بمذكور عندهم ولا محمود. قال ٱبن الأعرابى: يقال إنه مانَاء البُطَين والدَّبَرَان أو أحدهما فكان له نظر، إلا كاد ذلك العام يكون جَدْبا.

الثالث نوء الثريّا، وهو خمس ليال وقيل سبع، وأثره محمود عندهم مشهور.

الرابع نوء الدَّبَرَان، وهو ثلاث ليال وقيل ليلة، وليس بمحمود عندهم، ولم يسمع فى أشعارهم له ذكر.

الخامس نوء الهَقْعَةِ، وهو ست ليال، ولا يذكرون نَوْءَهَا إلا بنوء الجوزاء التى الهقعةُ رأسها، والجوزاء مذكورة النوء مشهورة.

السادس نوء الهَنْعَةِ، وهو ثلاث ليال لايكاد ينفرد عن نَوْءِ الجوزاء.

السابع نوء الذِّراعِ المقبوضة، وهى خمس ليال، وقال ٱبن كناسة: ثلاث ليال،

وهو أوّل أنواء الأسد ، وأثره محمود عنـدهم موصوف؛ و ربمـا نسب إلىٰ المِرْزَمِ، وهو أحد كوكبي الذراع المذكورة، وربما نسب إلىٰ الشِّعْرىٰ الغُمَيْصَاءِ، وهو كوكبها الآخر الذى هو أنور من المِرْزَمِ ؛ وقد ذكر العرب مع الذراع المقبوضة الذراعَ المبسوطة فتجمعهُمَا معا فى النوء، وهما لاينوآن معا بل ولا يطلعان معا، لكن لكثرة صحبة إحداهمـا للأخرىٰ فى الذكر وآجتماعهما فى آسم واحد مع تجاورهما وكونهما عُضْوَىْ صورة واحدة، وهى صورة الأسد .

الثامن نوء النَّثْرَةِ، وهو سبع ليال، وله عندهم ذكر مشهور .

التـاسع نوء الطَّرْفَةِ ، وهو ست ليال ، ولم يسمع به مفردا لغلبـة الجبهة الآتية الذكر عليه .

العاشر نوء الجبهة، وهو سبع ليال، وذكره مشهور لديهم .

الحادى عشر نوء الزُّبْرَةِ، ونوءها أربع ليال، وقلما تنفرد لغلبة الجبهة عليها أيضا .

الثـانى عشر نوء الصَّرْفَةِ ، وهو ثلاث ليـال ، ولا يكاد يوجد لهـا ذكر عندهم فى أشعارهم .

الثالث عشر نوء العوّاء، وهو ليلة واحدة، وليس من الانواء المشهورة .

الرابع عشر نوء السِّمَاكِ الأعزل، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور، وكثيرا مايذكر معه السِّماك الرامح ، وليس له نوء معه ولكنهما متقاربان فى الطلوع، وحينئذ فإفراد السِّماك الرامح بالنوء خطأ .

الخامس عشر نوء الغَفْر، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة ، وما بينه و بين نوء الهنعة المتقدمة الذكر من أنواء الأسد، وهى ثمانية أنواء أوّلها الذراع، وآخرها نوء السماك؛ وليس له فى السماء نظير فى كثرة الأنواء .

السادس عشر نوء الزُّبانى، وهو ثلاث ليال .

السابع عشر نوء الإكليل، وهو أربع ليال .

الثامن عشر نوء القلب، وهو ليلة واحدة، وليس بمحمود .

التاسع عشر نوء الشَّوْلَةِ، وهو ثلاث ليال، وقلما يذكر.

العشرون نوء النعائم، وهو ليلة واحدة، وليس له ذكر .

الحادى والعشرون نوء البَلْدَةِ، وهو ثلاث ليال، وقيل ليلة .

الثانى والعشرون نوء سعدِ الذابِح، وهو ليلة واحدة .

الثالث والعشرون نوء سعدِ بُلَعَ، وهو ليلة واحدة .

الرابع والعشرون نوء سعد السعود، وهو ليلة، وليس بمحمود، ولا مذكور .

الخامس والعشرون نوء سعدِ الأخبية، وهو ليلة واحدة .

السادس والعشرون نوء الفَرْغ المقدّم، وهو أربع ليال، وله ذكر مشهور .

السابع والعشرون نوء الفرغ المؤخر، وهو أربع ليال، وله ذكر أيضا .

الثامن والعشرون نوء الحُوت، وهو ليلة واحدة، وليس بالمذكور من حيث إنه يغلب عليه ما قبله وما بعده فلا يذكر . قال أبو حنيفة الدِّينَوَرِىُّ : والأيام فى هذه الأنواء تابعة لليالى لتقدّم الليل عليها، قال : وإنما جعلوا لهذه النجوم أنواءً موقوتة وإن لم تكن جميع فصول السنة مَظِنَّةَ الأمطار لأنه ليس منها وقت إلا وقد يكون فيه مَطَر، وقال ٱبن قُتَيْبَةَ : أوّل المَطَر الوَسْمِىُّ سمى بذلك لانه يَسِمُ الأرض بالنبات، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم . قال الثعالبى عن أبى عمرو : إقبال الشتاء الخريف، ثم الوَسْمِىُّ، ثم الربيع، ثم الصيف، ثم الحميم (١) .

(١) فى فقه اللغة الصميم .

الصـــــنف السادس

(الثـــلج)

وهو شيء ينزل من الهواء كالقطن المندوف فيقع علىٰ الجبال وعلىٰ سطح الأرض فتُذِيب الشمسُ منـه مالاقته شدّةُ حرارتها، ويبقى فى أماكنَ مخصوصـةٍ من أعالى الجبال بالأمكنة الباردة جميعَ السنة؛ وقد ذكر الحكماء أنه بُخَار يتصاعد من الأرض إلىٰ الهواء كما يتصاعد المطر فيصيبه برد شديد قبل أن ينعقد قطرات فيتساقط أجزاء لطيفة، ثم ينعقد بالأرض إذا نزل إليها، ويوصف بشـدّة البرد وشـدّة البياض؛ وسيأتى الكلام علىٰ ماينقل منه من الشام إلىٰ ملوك الديار المصرية فى خاتمة الكتاب إن شاء الله تعالىٰ.

الصـــــنف السابع

(البَرَد بفتح الراء)

وهو حب يسـقط من الجوّ؛ وقد ذكر الحكماء أنه بخـار يتصاعد من الأرض أيضا ويرتفع فى الهواء فلا تدركه البرودة حتّى يجتمع قطرات، ثم تدركه حرارة من الجوانب فتنهزم برودتها إلىٰ مواطنها فتنعقد؛ وحب هذا البَرَد متفاوت المقـادير منه ماهو قدر الحِمّص فـما دونه، ومنه ماهو فوق ذلك؛ ويذكر أنه يقع منه ماهو بقدر بيض الحمـام والدَّجاج. قال الحكماء: ولا يتصوّر وقوعه إلا فى الخريف والربيع ويوصف بـما يوصف به الثلج من شدّة البرد وشـدّة البياض، ويُشَبَّهُ به أسنانُ الإنسان الناصعة البياض.

الصـــنف الثـامن
(قوس قُزَحَ)

وهو قوس يظهر فى الجوّ من حُمرة وخضرَة ، وقد ورد النهى عن تسميته قوسَ قُزَحَ، وتسميتُه قوسُ الله لأن قزح آسم للشيطان . قال الحكماء : والسبب فيه أن الهواء إذا صار رطبا بالمطر مع أدنىٰ صـقالة صار كالمرآة، والمحاذى له إذا كان الشمس فى قفاه يرىٰ الشمس فى الهواء كما يرىٰ الشمس فى المـرآة، ويشتبك ذلك الضوء بالبخار الرطب فيتولد منه هذا القوس .

قال الحكماء : ويكون له ثلاثة ألوان يعنون حُمْـرَةً بين خضرتين أو خضرةً بين حمرتين، وربما لا يكون اللون المتوسط، ويكون مرتفعا آرتفاعا قريبا من الأرض، فإن كان قبل الزوال، رُؤى ذلك القوس فى المغرب، وإن كان بعد الزوال، رؤى فى المشرق، وإن كانت الشمس فى وسط السماء، فلا يمكن أن يرىٰ إلا قوسا صغيرا فى الشتاء إن اتفق .

وفيه تشبيهات للشعراء يأتى ذكرها فى آخر المقالة العاشرة إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــنف التـاسع
(الهَـالَة)

وهى الدائرة التى تكون حول القمر . قال الحكماء : والسبب فيها أن الهواء المتوسط بين البَصَر وبين القمر صقيل رَطْبٌ ، فيُرىٰ القمر فى جزء منه، وهو الجزء الذى لو كان فيــه مرآة لرؤى القمر فيها ، ثم الشئ الذى يُرىٰ فى مرآة من موضع لو كانت فيــه مَرَاءٍ كثيرةٌ محيطة بالبصر، وكانت موضوعةً علىٰ تلك النســبة فيُرىٰ

الشيء فى كل واحدة من المَرَائى ، فإذا تواصلت المرائى رؤى فى الكل ، فتُرى
حينئذ دائرة .

ولأهل النظم والنثر فيها وصف وتشبيه .

الصـــنف العـاشر
(الحَـــرُّ)

وسُلْطانه أواخِرَ فصـل الربيع وأوائلَ فصل الصـيف ، والسبب فيه مسامتة الشمس للرءُوس، فتشتدّ ثائرةً فى الهواء وجِرْمِ الأرض، لاسيما الحجازَ وما فى معناه.

وأهل النظم، والنثر مُولَعون بوصف شدّة حرّه .

الصنف الحـادى عشر
(الـــبَرْدُ)

وسلطانه أواخِرَ فصل الخريف وأوائل فصل الشتاء .

وأهل النظم والنثر مُكْثِرون من ذكره ووصفه، حتّى إنه ربمـا أفرد بعضُ الناس ماقيل فيه وفى وصفه بالتصنيف .

الصنف الثـانى عشر
(الهَبَـاءُ)

وهو الذى يحصل من ضوء الشمس عند مقابلتها كَوَّةً يدخل منها الضوء، فيكون شبه عمود ممتدّ من الكَوَّة إلىٰ حيث يقع ضوء الشمس من الأرض ، وفيـه أجزاء لطيفـة متفاوتة تُحَسُّ بالنظر دون اللمس ؛ وقد شـبه الله تعالىٰ به أعمـال الكُفَّار

فى القيامة فقال جل من قائل : "وقَدِمْنَا إلىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً" ومن النـاس من يزعم أن الواحدةَ من أجزائه هى المراد بالذَّرَّةِ المذكورة فى القرءان بقوله تعـالىٰ : "فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ" ولأهل النظم والنثر أيضا فيه الوصف والتشبيه .

النوع العـاشر

(ممـا يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه الأجسام الأرضية، وهى علىٰ أصناف)

الصـــنف الأوّل

(الجبـال، والأودية ، والقِفَار)

فأما الجِبَال فهى أوتاد الأرض ، أرسىٰ الله تعالىٰ بها الأرض حيث مادَتْ لَمَّـا دحاها الله تعالىٰ علىٰ المـاء . وقد روى أن الكعبة كانت رابيةً حمراء طافيةً علىٰ وجه المـاء قبل أن يدحو الله الأرض، وأن الأرض منها دُحِيتْ ، فلما مادتْ وأُرْسيت بالجبال ، كان أوّلُ جبل أُرْسِيَ منها جبل أبى قُبَيْسٍ بمكة المشرَّفةِ فلذلك هو أقرب الجبال من الكعبة مكانا . وقد نقل أن قاف جبـلٌ محيط بالدنيا عنه تتفرّع جميع جبال الأرض، والله أعلم بحقيقة ذلك . وتوصـف الجبال بالعَظَمَةِ فى القَدْر والعُلُوّ وصعوبة المَسْلك، وما يجرى مجرىٰ ذلك .

وأما الأودية ، فهى وِهَاد فى خلال الجبال جعلها الله تعالىٰ مجارى للسيل ونباتِ الزرع ومدارج الطُّرق وغير ذلك . وتوصف بالاتساع و بُعْد المسافة والعُمْقِ، وربما وصفت بخلاف ذلك .

وأما القفار، فهى البرارى المتسعةُ الأرجاء الخاليةُ من الساكن . وتوصف بالسَّعَةِ وبُعْد المسافة وقلةِ المـاء والإيحاش وصعوبة المَسْلَك، وما يجرى مجرىٰ ذلك .

الصــنف الثــانى

(الميـاه الأرضـيـة ؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل — المـاء الملح

ووقع فى لغـة الإمام الشـافعى رضى الله عنه المـاء المـالح ؛ وهو أحد العناصر الأربعة ، وسيأتى فى الكلام علىٰ الأرض فى المقالة الثانية أنه محيط بالأرض من جميع جهاتها إلا ما اقتضـته الحكمة الإلهية لعمارة الدنيا من كشف بعض ظاهرها الأعلىٰ ، وأنه تفرّعت منه بحار منبثّة فى جهات الأرض لتجرىَ السفنُ فيها بما ينفع الناس ؛ وقد ذكر الحكماء أنّ فى المـاء الملح كَثَافةً لا توجد فى المـاء العَذْب ، ومن أجل ذلك لا ترسب فيه الأشياء الثقيلة كما ترسب فى المـاء العذب، حتّٰى يقال : إن السفن التى تَغْرَقُ فى البحر المِلْح لا تبلُغ أرضَه بخلاف التى تَغْرَقُ فى الأنهار فإنها تنزل إلىٰ قعرها . وشاهد ذلك أنك إذا طرحتَ فى المـاء العذب بيضـةَ دَجاجة ونحوها غَرِقت فيـه ، فإذا أذبتَ فى ذلك المـاء مِلْحا بحيثُ يغلب علىٰ المـاء وطرحت فيه البيضة ، عامت ؛ وقد اختلف فى المـاء المِلْح هل هو كذلك من أصـل الخلقة أو عرضت له الملوحة بسبب ما لاقاه من سَبَخ الأرض علىٰ مذهبين ؛ ومن خصائص البحر الملح أنه فى غاية الصَّـفاء حتّٰى إنه يُرىٰ ما فى قعره علىٰ القرب من شَـطِّه . ويوصف البحرُ بالسَّعة والطول والعرض وكثرة العجائب حتّٰى يقال فى المثل "حَدِّثْ عَنِ الْبَحْرِ وَلَا حَرَجَ" .

الضرب الثانى — المـاء العذب

قالت الحكماء والسبب فيه أن الأبخرة تتصاعد من قعر الأرض فتدخل فى الجبال وتحتبس فيها ، ولا تزال تتكامل ويتحصل منها مياه عظيمة فتنبعث لكثرتها .

وهو على ثلاثة أنمـاط :

النَّمَط الأوّل — ماء الأنهار ، وهى ما بين صغار وكبار وقريبة المَدىٰ وبعيدته ، وقد وردت الأخبار بأن أفضلها خمسة أنهار، وهى سَيْحون، وجَيْحون، والدِّجلة، والفُرات ، ونِيل مِصْرَ؛ والنيل أفضل الخمسة وأعذبها وأخفُّها ماء على ما سيأتى ذكره فى المقالة الثانية إن شاء الله تعالىٰ؛ وفى الأنهار الكبار تسير السفن .

النمط الثـانى — العيون : وهى مياه تَنْبُعُ من الأرض وتعلو إلىٰ سطح الأرض ثم تسرح فى قُنِيٍّ قد حُفِرت لهـا ، وهى منبثة فى كثير من الأقطار .

النمط الثالث — البِئَار : وهى حفائرُ تحفر حتّى ينبُع المـاء من أسـفلها ويرتفع فيها آرتفاعا لا يبلغ أعلاها ؛ وقد آختلف فى المـاء الذى نبع من الأرض هـل هو الذى نزل من السماء أو غيره ، فذهب ذاهبون إلىٰ أنه هو الذى نزل من السماء محتجين لذلك بقوله تعـالىٰ : "وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَـدَرٍ" الآية ، وذهب آخرون إلىٰ أن الذى نبع من الأرض غير الذى نزل من السماء محتجين بقوله تعالىٰ : "فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا". ويوصف الماء للاستحسان بالعذوبة ، والصـفاء ، والرقة ، والخِفَّة ، وشدّة البرد؛ وفى معناه الشَّبِمُ . ويشَّـبه فى شدّة البرد بالزُّلَالِ : وهو مايتربّى داخل الثَّلْج فى تجاويف توجد فيـه فيكون من أشدّ المـاء بَرْدا .

الصـــنف الثالث

(النبات ، وفيه ثلاثة مقاصدَ)

المقصد الأوّل — فى أصل النبات

قد ذكر المسعودى فى مروج الذهب : أن آدم عليه السلام لما هبط إلىٰ الأرض ، خرج من الجنة ، ومعه ثلاثون قَضِيبا مودعةً أصناف الثمر ، منها عشرة لها قِشْر : وهى الجَوْز ، واللَّوْز ، والجِلَّوْز ، والفُسْتُق ، والبَلُّوط ، والشاه بَلُّوط ، والصَّنَوْبر ، والنَّارَنْج ، والرُّمَّان ، والخَشْخَاش . ومنها عشرة لثمرها نَوًى : وهى الزَّيْتون ، والرُّطَب ، والمِشْمِش ، والخَوْخ ، والإجَّاص ، والغُبَيراء ، والنَّبق ، والعُنَّابَ ، والمُخَيْطى(١) ، والزُّعرور . ومنها عشرة ليس لها قِشْر ولا نَوًى : وهى التُّفَّاح ، والسَّفَرْجل ، والكُمَّثرىٰ ، والعِنَب ، والتِّين ، والأُتْرُجّ ، والخُرْنوب ، والتُّوت ، والقِثَّاء ، والبِطِّيخ .

المقصـــد الثـانى

(فيما تختص به أرض دونَ أرض من أنواع النبات)

اعلم أن النبات منه ما يوجَد فى كثير من الآفاق ، ومنه مايختَصّ ببعض الأماكن دُونَ بعض ؛ وقد حكى أبو بكر بن وحشيَّة فى كتاب الفِلاحة النبطيَّة : أن ببلاد سِجِلْماسة من جَنوبىّ بلاد المغرب الأقصىٰ شجرةً ترتفع نصف قامة أو أرجح ، ورقُها كورق الغار ، إذا عُمِل منها إكليل ولبسه الرجلُ علىٰ رأسه ومشىٰ أو عدا أو عَمِل عملًا ، لم ينَمْ مادام ذلك الإكليل علىٰ رأسه ، ولا ينالُه من ضرر السَّهر وضَعْف القوّة ما ينالُ من سَهر وعَمل . وفى بلاد إفْرنجة شجرة إذا قعد الإنسان تحتها نصفَ ساعة مات ، وإن مسَّها ماسٌّ أو قطع منها غصنا أو ورقة أو هَزَّها مات .

---

(١) كذا فى المفردات لابن البيطار أيضا ولكن فى القاموس (وكثمامة وجميز) فلعل فيه لغة ثالثة .

قلت ومما يختصُّ بأرض دونَ أرض البَلَسانُ : وهو شجرة لطيفة علىٰ نحو ذراع تتفرّع فروعا، لا تنبُت فى سائر الدنيا إلا فى الديار المِصْرية بموضع مخصوص من بَلْدة يقال لها المَطَرية، علىٰ القُرْب من مدينة عَيْن شمس، وتسقىٰ من بئرٍ هناك؛ ويقال إنه آغتسل فيها المسيحُ عليه السلام ولذلك النصارىٰ يعظمون البَلَسانَ ويتبرّكُون به .

المقصـــد الثـالث

(فى ذكر أصناف النبات التى أُولِـع الكُتَّاب والشعراءُ بوصفها وتشبيهها : وهى علىٰ أضرب)

الضرب الأوّل ـــ ماله ساقٌ

وهو الشجَر، وأكثر ما أُولِـع أهلُ النظم والنثر بِثمارها أو نَوْرها، فى الوصف والتشبيه نثرا ونظما : كاللَّوْز، والفُسْتُق، والجِلّوز : وهو البُنْدق، والشاه بَلُّوط : وهو القَصْطَل، والصَّنَوْبر، والرُّمَّان، والجُلَّنار، والإجَّاص، والقَراصيا، والزُّعْرور، والخَوْخ، والمِشْمِش، والعُنَّاب، والنَّبِق، والعِنَب، والتِّينُ، والتُّوت، والتُّفَّاح، والسَّفَرْجَل، والكُمَّثرىٰ، واللُّفَّاح، والخَرُّوب، والأُتْرُجُّ، والنارَنْج، واللَّيْمُون، والطَّلْع، والبَلَح، والبُسْر، والتمر، والرَّانَج : وهو جوز الهند؛ والتُّجّار يسمُّونه النارَجيل . وربما وقع الوصف والتشبيه لبعض أصول الشجر : كالنخل والكرم وغيرهما .

الضرب الثانى ـــ ماليس له ساق

وقد أُولِعوا بالوصف والتشبيه منه؛ فمن ذلك الزرع : من البُرّ والشعير ونحوهما، ويتبَعُ ذلك نَوْر الباقِلاء، وكذلك الخَشْخاش، والكَتَّان، والبِطِّيخ الهندىّ : وهو الأخضر، والخُراسانىّ : وهو العَبْدلىّ؛ نسبة إلىٰ عبد الله بن طاهر، فإنه أوّل من نقله

من خُراسان إلىٰ مصر، والبِطِّيخ الصينىّ : وهو الأصفر، والرسنيتو : وهو المعروف باللُّفَّاح، والقِثّاء، والخِيار، والباذنجان، والسَّلْجم : وهو اللِّفت، والجَزَر، والثُّوم، والبَصَل، والكُرَّاث، والرِّيباس، والهِلْيَوْن، والنَّعناع، وغير ذلك .

الضرب الثالث ـــ الفواكه المشمومة

والذى أولِـع بوصفه وتشبيهه منــه الوردُ علىٰ آختلاف ألوانه : من أحمرَ، وأبيضَ، وأصفَرَ ، وأزرقَ، وأسودَ، والنِّسْرِينُ ، والبانُ، والخِلاَف ، والنَّيْلُوفَر ، والبَنَفْسَج ، والنَّرْجِس ، والياسَمِين ، والآس ، والزَّعْفَران ، والرَّيحان .

الضرب الرابع ـــ الأزهار

والذى وقع الوَلُوع بوصفه وتشبيهه من ذلك الخِـيرِىُّ : وهو المنثور : من أصفرَ أو أزرق، والسَّوْسَن ، والآذَريون : وهو ورد أصفر له ريح، والخَزَم : وهو الخُزامىٰ ، والشَّقِيق (١) . ويسمَّى الشقَاق ، ويقال له شَقائقُ النُّعمان : لأن النُّعمان بن المنـذر حمىٰ ظهر الكوفة وبه هذا النبات فعُرِف به ، والبَهار : وهو نَوْر أحمر ، والأُقْحُوان ، وغير ذلك .

الضرب الخامس ـــ الرياض

وهى الأماكن المشـتملة علىٰ الأشجار ، والأزهار ، والمياه الجارية ونحو ذلك . وقد آتفق جوّابُو الأرض علىٰ أن منتزهات الأرض أربعــةُ مواضعَ : وهى سُـغْد سَمَرْقَندَ، وشِعْب بَوَّانَ، ونهر الأُبُلَّة، وغُوطة دِمَشْقَ .

وقد أكثر الشعراء فى وصف الرياض ووَلِـع الكُتّاب بمثل ذلك .

---

(١) لعله والشقيقة ففى اللسان أن الشقائق لاواحد له أو واحدته شقيقة وعلل لذلك فانظره .

الطرف الثالث من الباب الأوّل من المقالة الأولىٰ

(فى صنعة الكلام، ومعرفة كيفية إنشائه، ونظمه، وتأليفه : وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى الأصول التى يبنىٰ الكلام عليها : وهى سبعة أصول)

الأصـــل الأوّل

(المعرفة بالمعانى . والنظر فيه من وجهين)

الوجه الأوّل

(فى شرف المعانى ، وفضلها)

اعلم أن المَعانِىَ من الألفاظ بمنزلة الأبدان من الثِّياب . فالألفاظ تابعة، والمعانى متبوعة؛ وطلب تحسين الألفاظ إنما هو لتحسين المعانى؛ بل المعانى أرواح الألفاظ وغايتهـا الّتى لأجلها وُضِـعت ، وعليها بُنِيتْ؛ فاحتياج صاحب البلاغة إلىٰ إصابة المعنىٰ أشـدّ من ٱحتياجه إلىٰ تحسـين اللفظ : لأنه إذا كان المعنىٰ صوابا واللفظ منحطًّا ساقطا عن أُسْـلُوب الفَصاحة ، كان الكلام كالإنسان المشوّه الصورةِ مع وجود الرُّوح فيـه ، وإذا كان المعنىٰ خطأً كان الكلام بمنزلة الإنسان الميِّت الذى لارُوحَ فيه، ولو كان علىٰ أحسن الصُّور وأجملها .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" : وممـا رأيته من المدّعين لهذا الفنّ الذين حَصَلوا منه علىٰ القُشُور ، وقَصروا معرفتهم علىٰ الألفاظ المسجوعة الغَثَّة ، التى لا حاصلَ وراءها، أنهم إذا أُنْكِرتْ هذه الحالةُ عليهم ؛ وقيـل لهم إن

الكلام المسجوعَ ليس عبـارةً عن تواطُؤ الفِقَر علىٰ حرف واحد فقط، إذ لو كان عبارة عن هذا وحده لأمكن أكثرَ الناس أن يأتُوا به من غير كُلْفة، وإنمـا هو أمر وراء هذا، وله شروط متعدّدة؛ فإذا سمعوا ذلك أنكروه لخلوّهم عن معرفته؛ وإذا أُنْكِر عليهـم الاقتصارُ علىٰ الألفاظ المسـجوعة، وهُدُوا إلىٰ طريق المعانى، يقولون: لنا أُسْوة بالعرب الذين هم أربابُ الفصاحة؛ فإنهم إنما اعتَنَوْا بالألفاظ، ولم يعتَنُوا بالمعانى اعتناءهـم بالألفاظ. فلم يكفِهِم جهلُهم فيما ارتكبوه حتّى ادّعَوُا الأُسْوة بالعرب فيـه فصارت جَهالتُهم جَهَالتين. قال: ولم يعلموا أن العرب، وإن كانت تعتنىٰ بالألفاظ فتُصْلِحها وتهذّبهـا فإن المعانى أقوىٰ عنـدها، وأكرم عليها، وأشرف قَدْرا فى نُفُوسها. ولمـا كانت الألفاظ عُنوانَ المعانى وطريقَها إلىٰ إظهار أغراضها أصلَحُوها، وزيَّنُوها وبالغوا فى تحسينها: ليكون ذلك أوقع لهـا فى النفس، وأذهب بها فى الدِّلالة علىٰ القصد. ألا ترىٰ أن الكلام إذا كان مسجوعا لَذَّ لسامعـه حِفظه، وإذا لم يكن مسجوعا لم يَأْنَسْ به أُنْسَه فى حالة السجع؛ فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحَسَّـنُوها ورقَّقُوا حواشِيَها وصقَلُوا أطرافها، فلا تظُنَّ أن العناية إذ ذاك إنمـا هى بالألفاظ فقط؛ بل هى خدمة منهـم للمعانى، فصار ذلك كإبراز صورة الحَسْناء فى الحُلَل الموشَّاة والأثواب المحبَّرة؛ فإنا قد نجد من المعانى الفاخرة ما شوّه من حسـنه بَذَاذة لفظه وسوءُ العبارة عنه.

قال أبو هلال العسكرى رحمه الله: ومَنْ عرف ترتيب المعانى واستعمل الألفاظ علىٰ وجوهها بلُغة من اللُّغات ثم انتقل إلىٰ لغة أخرىٰ، تهيأ له فيها من صَنْعة الكلام ماتهيأ له فى الأُولىٰ. ألا ترىٰ أن عبد الحميد الكاتب استخرج أمثلةَ الكِتَابة التى رسمها لمن بعده من اللسان الفارسىّ، وحوّلها إلىٰ اللسان العربىّ. فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من تَكَمَّل لإصابة المعنىٰ وتصحيح اللفظ والمعرفة بوجوه الاستعمال.

قال فى "المثل السائر" : وٱعلم أن المعانى الخَطَابية قد حُصِرت أصولُها، وأوّل من تكلم فى ذلك حكماء اليونان ؛ غير أن الحصر كلىّ لا جزئىّ ، ومُحَال أن تُحصر جزئيات المعانى وما يتفرّع عليها من التفريعات التى لا نهايةَ لها، لا جَرَمَ أن ذلك الحصر لا يستفيد بمعرفته صاحبُ هذا العلم ، ولا يفتقر إليه ؛ فإن البدوىّ البادىَ راعِىَ الإبل ما كان يمرّ شئ من ذلك بفهمه، ولا يخطُر بباله ، ومع هذا ؛ فإنه كان يأتى بالسِّحر الحلال إن قال شعرا أو تكلم نثرا . قال : ولقد فاوَضَنى بعضُ المتفلسفين فى هذا ، وٱنساق الكلام إلىٰ شيء ذكره لأبى علىّ بن سينا فى الخَطَابة والشِّعر، وذكر ضَرْبا من ضُروب الشعر اليونانىّ يقال له اللوغاذيا ، وقام فأحضر كتاب الشفاء لأبى علىّ ووقفنى علىٰ ماذكره، فلما وقفت عليه ٱستجهلته؛ فإنه طوّل فيه وعَرَّض كأنه يخاطب بعض اليونان وكل هذا الذى ذكره لغو ، لا يستفيد به صاحب الكلام العربىّ شيئا، ثم مع هذا جميعه فإن معوَّل القوم فيما يذكر من الكلام الخَطَابىّ أنه يُورَد علىٰ مقدّمتين ونتيجة، وهذا مما لم يخطُر لأبى علىّ بن سينا ببال فيما صاغه من شعر أو كلام مسجوع عمله ، وعند إفاضته فى صَوْغ ماصاغه لم تخطُر المقدّمتان والنتيجة له ببال ، ولو أنه فكَّر أوّلا فى المقدّمتين والنتيجة ، ثم أتىٰ بنظم أو نثر بعد ذلك، لما أتىٰ بشيء يُنْتفَع به، ولطال الخَطْب عليه. قال : بل إن اليونان أنفسَهم لما نظموا مانظموه من أشعارهم، لم ينظموه فى وقت نظمه وعندهم فكرة فى مقدّمتين ولانتيجة، وإنما هذه أوضاع توضَع وتطول بها مصنَّفات كتبهم فى الخَطَابة والشعر، وهى كما يقال :

قَعاقِعٌ لَيْس لها طائِلٌ * كأنَّها شِعْر الأَبِيوَرْدِى

الوجه الثـانى

(فى تحقيق المعانى، ومعرفة صوابها من خَطَئها، وحُسْنها من قبحها .
وقد قسم صاحب الصناعتين المعانى علىٰ خمسة أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(ما كان من المعانى مستقيما حسنا : كقولك رأيت زيدا ،
وهو أعلىٰ الأنواع الخمسة وأشرفها)

قال فى الصناعتين : والمعنىٰ الصحيح الثابت ينادِى علىٰ نفسه بالصحة، ولا يحوج إلىٰ التكلُّف لصحته حتّى يوجد المعنىٰ فيه خطيبا .

فأما المعنىٰ المستقيم الجَزْل من النظم، فمن الوعظ قول النَّمِر بن تَوْلَب يذم طول الحيـاة :

يَوَدُّ الفَتىٰ طُولَ السَّـلامَةِ والغِنىٰ * فكيف تَرىٰ طُولَ السلامة يَفْعَلُ ؟
يَكادُ الفَتىٰ بَعْدَ ٱعْتِـدالٍ وصِحَّةٍ * يَنُوء إذا رام القِيـامَ ويُحْمَــلُ

وقول أبى العَتاهِيَة فى الوعظ بزوال العز والنعمة بالموت :

وكانتْ فى حَياتِكَ لِى عِظَاتٌ * وأنتَ اليومَ أوْعَظُ منك حَيًّا !

وفى وصف الأيام قول أبى تَمَّـام :

علىٰ أنها الأيَّامُ قد صِرْنَ كُلُّها * عجائِبَ حتّى ليس فيها عجائِبُ

ومن المدح قول أمية بنِ أبى الصَّلْت :

عَطاؤكَ زَيْنٌ لآمرئ إنْ حَبَوْتَه * بسَيْبٍ وما كُلُّ العَطَـاءِ يَزِينُ
وليس بشَيْنٍ لآمْرِئٍ بَذْلُ وَجْهِه * إليـكَ كما بعضُ السُّؤال يَشِينُ

وقول أبي تمام :

يَسْتَعْذِبُونَ مَنَايَاهُمْ كَأَنَّهُمُ * لايَيْئَسُونَ من الدُّنْيا إذا قُتِلوا

وقول الاخر :

هُمُ الأُولىٰ وهَبُوا للمَجْدِ أنْفُسَهُم * فَما يُبالُون مانالُوا إذا حُمِدُوا

ومن الفخر قول مَعْن بن أوس :

لعَمْرُكَ ما أهْدَيتُ كَفِّي لِرِيبةٍ * ولا حَمَلَتْنِي نحوَ فاحِشةٍ رِجْلِي !

ولا قادَنِي سَمْعِي ولا بَصَرِي لها * ولا دَلَّنِي رأْيِي عَلَيْها ولا عَقْلِي !

وأعْلَمُ أنِّي لم تُصِبْنِي مُصيبةٌ * من الدَّهْرِ إلا قدأصابَتْفَتًى قبْلِي !

ولَسْتُ بماشٍ ماحَيِيتُ لِمُنْكَرٍ * من الأمرِ لايَمْشِي إلىٰ مِثْله مِثْلِي !

ولا مُؤْثِرٍ نَفْسِي علىٰ ذِي قَرابةٍ * وأُوثِرُ ضَيْفِي ما أقام، علىٰ أهْلِي !

وقول الآخر :

ولَسْتُ بنَظَّارٍ إلىٰ جانِبِ الغِنى * إذا كانَتِالعَلْياءُ فىجانِبِ الفَقْرِ

وقول الشنفرىٰ :

أُطِيلُ مِطالَ الجُوعِ حتَّى أُمِيتَه * وأَضْرِبُ عنه القَلْبَ صَفْحا فيَذْهَلُ

ولولا آجتِنابُ العارِلم يُلْفَ مَشْرَبٌ * يُعاشُ بِهِ إلا لَدىَّ ومَأْكَلُ

ومن الغزل قول جرير :

إن العُيونَ التي فى طَرْفِها حَوَرٌ * قتَلْنَنا ثم لَمْ يُحيِينَ قَتْلانَا

يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّحتَّىلاحَرَاكَبِهِ * وهُنَّ أضْعفُ خَلْقِ اللهِ أرْكانَا

وقول النظام :

تَوَهَّمَه طَرْفِي فآلَمَ خَدَّه * فصار مَكانَ الوَهْمِ من نَظَرِيأَثْرُ

وصافَحَـــهُ قَلْبِي فلَمْ كفَّـــه * فَمِنْ صَفْحِ قَلْبِي فى أنامِلِه حَفرُ
ومَرّ بفِكْرِي خاطِرًا بجَرْحتـه * ولم أرَ خَلْقا قطُّ يَجْرحُه الفِكْر

ومن التشبيب قول القائل :

ومِنْ عَجَبٍ أنّى أَحِنُّ إليهِمُ * وأسألُ عَنْهُمْ مَنْ أرىٰ وهُمُ معِى
وتَطْلُبهم عَيْنِى وهُمْ فى سَـوَادِها * ويَشْتاقُهُمْ قلبِى وهُم بينَ أضْلُعِى

وقول الآخر :

إن لم أزُرْ رَبْعَكُمْ سَعْيا علىٰ حَدَقِى * فإنَّ وُدِّى مَنْسوبٌ إلىٰ المَلَق
تَبَّتْ يَدِى إن تَنَنْى عن زِيارَتِـكُمْ * بِيضُ الصِّفَاح ولوسُدّتْ بها طُرُقِى

ومن الحكمة قول المتنبي :

والظُّلم من شِيَم النُّفوس فإنْ تَجِدْ * ذا عِفَّـــةٍ فلِعِـلّةٍ لا يَظْـلِمُ

وقول الآخر :

إذا أنت لم تَشْرَبْ مِرَارا علىٰ القَذىٰ * ظَمِئتَ وأىُّ الناس تَصْفُو مَشَارِبُهْ؟

وقول الآخر :

ولَسْتَ بمسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّـــه * علىٰ شَعَثٍ أىُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ؟

ومن الهجو قول الطرمّاح فى تميم :

تَميمٌ بِطُرْق اللُّؤم أهْدىٰ من القَطا * ولو سلَكَتْ سُبْلَ المَكارِمِ ضَلَّتِ

وقول الآخر :

لَوِ ٱطَّلَعَ الغُرابُ علىٰ تميمٍ * وما فيها من السَّوْءاتِ شابَا

إلىٰ غير ذلك من معانى الشعر الحسنة البهيجة الرائقة .

ومما ينخرط فى هذا السلك من النثر ما يُحكىٰ أن أعرابيا وقف علىٰ عبد الملك بن مَرْوان برملة اللِّوىٰ فقال : رحم الله امرأً لم تمجَّ أذُناه كلامى، وقدَّم معَاذه من سوء مُقامِى، فإن البلاد مُجْدِبه، والحال مُسْغِبه، والحياء زاجر، يمنع من كلامكم، والفقر عاذِر، يدعو إلىٰ إخباركم، والدعاء إحدىٰ الصدَقتين، فرحم الله امرأ أمر بمَيْر، أو دعا بخَيْر .

ومعانى القاضى الفاضل هى التى ترقُص لها القلوب، وتطرَبُ لها الألباب، ويهجُم قَبولُها علىٰ النفوس من غير حاجب ولا بَوَّاب . فمن ذلك قوله :

"يابنى أيُّوبَ لو ملكتُم الدهرَ لامتطيتُمْ لياليَه أداهِم، وقلَّدتم أيامه صَوَارِم، وأفنيتم شموسه وأقماره فى الهِبات دنانيرَ ودَراهم، وأيَّامكُم أعراس وما ثَمَّ فيها علىٰ الأموال مآتِم، والجُود فى أيديكم خاتَم، ونفس حاتِم فى نقش ذلك الخاتَم".

فهذا هو السِّحر الحلال، والمعانى التى تخضع لها شُمُّ الجبال، ولا يقال فيه قيل ولا قال .

الصنف الثانى

(ما كان مستقيما قبيحا كقولك قد زيدا رأيت)

قال فى "الصناعتين" وإنما قَبُح لأنك أفسدت نظام اللفظ بالتقديم والتأخير . وهذا النوع يسميه علماء المعانى التعقيد . وسماه ابن الاثير فى "المثل السائر" المُعاظَلة المعنوية، وهو تقديم ما الأَوْلىٰ به التأخير : كتقديم الصفة أو ما يتعلَّق بها علىٰ الموصوف، وتقديم الصِّلة علىٰ الموصول ونحو ذلك؛ وهو من المذموم المرفوض عند أهل الصنعة : لأن المعنىٰ يختلُّ به ويَضْطرب. قال فى "المثل السائر" وهو ضدّ

الفصاحة : لأن الفَصَاحة هى الظُّهور والبيان ، وهذا عارٍ عن هذا الوصف . فمن ذلك قول بعضهم :

فأصبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجتِها * كأن قَفْراً رُسُـومَهَا قلمـا

يريد فأصبحت بعدَ بهجتِها قَفْرا كأنَّ قلمًا خط رسومَها فقدَّم خبر كأنّ، وهو خَطَّ عليها لجاء مختلا مضطربا ؛ وأقبح منه وأكثر ٱختلالا قول الفرزدق :

إلىٰ مَلِكٍ ماأمُّه من مُحارِبٍ * أبُوه، ولا كانَتْ كُلَيْبٌ تُصاهِره

يريد إلىٰ ملك أبوه ماأُمُّه من محارب ، والمعنىٰ ماأم أبيـه من محارب ؛ يمدحه بذلك ذمًّا لمحارب . وكذلك قوله ، يمدح خال هشام بن عبد الملك :

وما مِثْلُه فى الناسِ إلا مملَّكا * أبوُ أُمِّه حَىٌّ أبُوه يُقـارِبُه

يريد وما مثـله فى الناس حىٌّ يقاربه إلا مُمَلَّكا أبو أمه أبوه ، وهو خاله ؛ فلمـا ٱستعمل فيـه التقديم والتأخير فى غير موضـعه جاء مشوَّها رثًّا كما تراه . قال الوزير "ضياء الدين ٱبن الأثير" : وقد ٱستعمل الفرزدق من التعاظل كثيرا كأنه يقصد ذلك ويتعمَّده لأن مثله لايجىء إلا متكلَّفا مقصودا ، وإلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفْسَه تجرى علىٰ سجيَّتِها وطبعِها فى الآسترسال ، لم يعرض له شىء من هـذا التعقيد ؛ ألا ترىٰ أن المقصود من الكلام معدوم فى هـذا النوع ، إذ المقصود من الكلام إنمـا هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنىٰ ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصودُ من الكلام ، ذهب المراد به . ولا فرق عنـد ذلك بينـه وبين غيره من اللغات كالفارسـية والرومية وغيرهمـا .

الصـــنف الثـالث

(ما كان مستقيما ولكنه كَذِب : كقولك حَمَلْتُ الجبلَ ،
وشربت ماءَ البحر، وما أشبه ذلك)

وٱعلم أن المعانى المستعملةَ فى الشعر والكتابة أكثرُها جارٍ علىٰ هذا الأُسْلُوب خصوصا المعانِى الشعريَّة، فإنه مقدّمات تخييلية تُوجب فى النفس ٱنقباضاً وٱنبساطا علىٰ ماهو مقرر فى علم المنطق . وقد قال فى "الصناعتين" إن أكثر الشعر مبنىّ علىٰ الكذب والٱستحالة : من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادة، والألفاظ الكاذبة : من قذف المُحْصَنات ، وشهادة الزُّور ، وقول البهتان ، ولا سيما الشعر الجاهلىّ الذى هو أقوىٰ الشعر وأفحله . قال : وليس يراد منه إلا حُسْن اللفظ وجَوْدة المعنىٰ، فهذا الذى سوّغ ٱستعمال الكذب وغيرِه مما جرىٰ ذكره فيه . وقيل لبعض الفلاسفة : فلان يكذب فى شعره . فقال : يراد من الشاعر حسن الكلام ، والصدق يُراد من الأنبياء عليهم السلام . قال الشيخ زكى الدين بن ابى الأصبع رحمه الله فى كتابه تحرير التحبير : وأنا أقول قد ٱختُلِف فى المبالغة، فقوم يرون أن أجود الشعر أكذبه، وخير الكلام مابُولِغ فيه ، ويحتجُّون بما جرىٰ للنابغة الذُّبيانىّ مع حسان بن ثابت رضى الله عنه فى ٱستدراك النابغة عليه تلك المواقع الجمية فى قوله :

لنا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يلمَعْنَ بالضُّحىٰ * وأسيافُنا يَقْطُرْنَ من نَجْدةٍ دَمَا

فإن النابغة إنما عاب علىٰ حسان تركَ المبالغة، والقصة مشهورة . قال : والصواب مع حسان وإن رُوِى عنه ٱنقطاعه فى يد النابغة ؛ وقوم يرون المبالغة من عيوب الكلام ، ولا يرون من محاسنه إلا ماخرج مَخْرجَ الصدق، وجاء علىٰ مَنْهَج الحق ، ويزعمون أن المبالغة من ضَعْف المتكلم وعَجْزه عن أن يخترع معنىً، أو يفرّع

معنًى من معنًى، أو يحلِّى كلامه شيئا من البديع، أو ينتخبَ ألفاظا موصوفة بصفات الحسن، ويجيد تركيبها؛ فإذا عجز عن ذلك كله عدل إلىٰ المبالغة يسدّ بها خَلَله ويتم نقصه : لما فيها من التهويل علىٰ السامع، ويَدَّعون أنها ربما أحالت المعانى فأخرجتها عن حدّ الإمكان إلىٰ حدّ الآمتناع . قال : وعندى أن هذين المذهبين مردودان . أما الأوّل فلقول صاحبه إن خير الكلام ما بولغ فيــه، وهذا قول من لا نظَرَ له لأنا نرىٰ كثيرا من الكلام والأشعار جاريا علىٰ الصــدق المحض خارجا مخرَجَ البحث، وهو فى غاية الجَوْدة، ونهاية الحسن، وتمام القوة، وكيف لا والمبالغة ضرب واحد من المحاسن، والمحاسن لاتُحصر ضروبُها؛ فكيف يقال إن هذا الضرب علىٰ آنفراده يفضُل سائر ضروب المحاسن علىٰ كثرتها؛ وهذا شعر زُهير والحطيئة وحسان؛ ومَنْ كان مذهبُه توخِّى الصدقِ فى شعره غالبا، ليس فوقَ أشــعارهم غايةٌ لمترقٍّ؛ ألا ترىٰ إلىٰ قول زهير :

وَمَهْما يَكُنْ عِنْدَ آمْرِئٍ من خَلِيقةٍ * وإن خالهــا تَخْفىٰ علىٰ الناسِ تُعْــلَم

وإلىٰ قول طَرَفة :

لَعَمْرُكَ إنَّ المَوْتَ ماأخْطأ الفَتىٰ * لَكَا لطِّوَلِ المُرْخىَ وثِنْياهُ فى اليَدِ

وإلىٰ قوله :

ستُبْدِى لكَ الأيّامُ ماكُنْتَ جاهِلًا * ويَأْتيكَ بالأخْبــارِ مَنْ لم تُزَوِّد

وإلىٰ قول الحطيئة :

مَنْ يفْعَلِ الخيْرَ لايَعْدَمْ جوَازِيَهُ * لايَذْهَبُ العُرْفُ بيْنَ اللهِ والناسِ

فإنك تجد هــذه الأشعار فى الطبقة العُلْيا من البلاغة، وإن خلَتْ من المبالغة؛ والذى يدل علىٰ أن مذهب أكثر الفُحول ترجيح الصِّدق فى أشــعارهم علىٰ الكذب

ماروِى عن الحرورية آمرأةِ عمرانَ بن حِطَّانَ قاضى الصُّـفْرِيَّةِ من الخوارج أنها قالت له يوما : أنت أعطيتَ الله تعـالىٰ عهـدا أن لا تكذب فى شـعرك ، فكيف قلت :

فهُنـاك مَجْـزَأَةُ بنُ ثَوْ * رٍ كان أشجَعَ من أُسامه .

فقال : ياهذه إن هـذا الرجل فتح مدينةً وحده وما سمعت بأسـد فتح مدينة قط ، وهذا حسان يقول :

وإنمـا الشعر لُبُّ المرء يَعْرِضُه * علىٰ المَجَالس إن كَيْسًا وإن حمقَا

وإنَّ أشـعَرَ بيتٍ أنت قايِلُه * بيتٌ يقال إذا أنشدتَه : صَدَقا

علىٰ أن هؤلاء الفحولَ وإن رَجَّحوا هـذا المذهب ، لا يكرهون ضدّه ، ولا يَجْحَدُون فضله ، وقلَّمـا تخلو بعض أشعارهم منه إلا ان توخِّىَ الصدق كان الغالبَ عليهم ، وكانوا يكثرون منه ، ومَنْ أكثر من شيء عُرِفَ به كما أن النابغـة ومن تابعه علىٰ مذهبه لايكرهون ضدّ المبالغة ، وإلا فكل آحتجاج جاء به علىٰ النُّعْمان فى الآعتذار جار مجرىٰ الحقيقة كقوله :

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسك رِيبةً * وليس وراءَ اللهِ للمـرء مَذْهَبُ

فعائب الكلام الحَسَنِ بترك المبالغة فقط مخطئ ، وعائب المبالغة علىٰ الإطلاق غير مصيب ، وخير الأمور أوساطها .

والتحقيق أن المبالغة إذا لم تخرج عن حدّ الإمكان ، ولم تَجْرِ مَجْرىٰ الكَذِب المحض ، فإنها لاتُذَمّ بحال ، كقول قيس بن الخَطِيم :

طَعَنْتُ آبنَ عبد القيس طَعْنَة ثائر * لهـا نَفَذٌ لولا الشُّعاعُ أضـاءَها

ملكتُ بهـا كفِّى فأنْهَرْتُ فَتْقَها * يرىٰ قائمٌ من دونِهـا مَنْ(١) وراءَها

(١) فى اللسان ما . ولعلها رواية .

فإن ذلك من جيـد المبالغة ، إذ لم يكن خارجا مَخْرَجَ الاستحالة مع كونه قد بلغ النهاية فى وصف الطعنة؛ وكذلك قول أبى تمَّـامٍ .

تكاد تَنْتَقِلُ الأرواحُ لو تُرِكَتْ * من الجُسُوم إليهـا حين تَنْتَقِلُ

فإنه لم يقنع بصحيح المبالغة وقربها من الوقوع فضـلا عن الجواز بتقديم كَادَ، حتّى قال : لو تُرِكت، قال : وهذا أصح بيت سمعته فى المبالغة وأحسنه، وعلى حدّه ورد قول شاعر الحَمَاسة، وقد بالغ فى مدح ممدوحه فقال :

رهَنْتُ يَدِى بالعَجْزِ عن شُكْرِ بِرِّه * وما فوقَ شُـكْرِى للشَّكُورِ مزيدُ
ولو كان ممـا يُسْتَطاعُ استطعتُه * ولكنّ مالا يُسْـتطاعُ شـديدُ

فإن هـذا الشاعر ألقى بيـده وأظهر عجزه ، واعترف بقصوره عن شكر بِرِّ هذا الممدوح ، وفَطِنَ أنه لو اقتصر على ذلك، لاحتمل أن يقـال له : عجزك عن شكره لا يدل على كثرة برّه : لاحتمال أن يكون لضعف مادّتك عن الشكر، إذ لا يلزم من عجز الإنسان عن شئ تعظيم ذلك الشئ ولا بُدَّ : لاحتمال أن يكون العجز لضـعف الإنسان، فاحترز عن ذلك بقوله :

* وما فَوْقَ شُكْرِى للشَّكُورِ مَزِيدُ *

ثم تمم المعنى بأن قال للشَّكُور، للمبالغة فى الشكر، فإن شكورا معدول عن شاكر للمبالغة كما تقدّم؛ ثم أظهر عذرَه فى عجزه بأن قال فى البيت الذى يليه :

* ولو كان ممـا يُستطاع استطعته *

ثم ذيل هذا المعنى بإخراج بقية البيت مُخْرَجَ المثل السائر ليكثر دَوَرَانُه على الألسنة فيحصل تجديد مدح الممدوح كل حين، والتنويهُ بذكره فى كل زمان حيث قال :

* ولكنّ مالا يُسْتَطَاعُ شَديدُ *

أما إذا خرجت المبالغة عن حدّ الإمكان، وجرت مجرى الكذب المحض، فإنها مذمومة فى الشرع، وإن كان الشعراء يستبيحون مثل ذلك، ولا يتحاشَوْنَ الوقوع فيه. وقد أخبر تعالى عنهم بالكذب بقوله: "أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَالَا يَفْعَلُونَ" وفى قوله صلى الله عليه وسلم: "أَصْدَقُ كلمةٍ قالها شاعِرٌ كلمةُ لَبِيدٍ:

* أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ماخَلَا اللهَ بَاطِلُ" *

إشارةٌ لذلك أيضا.

فمن المبالغة فى الشعر المنتهية إلى حدّ الكذب قول البُحْتُرِىّ:

ولو قِسْتَ يومًا حِجْلَها بِحِقابِها * لكانا سواءً، لا بل الحِجْلُ أوسعُ

وَصَفَها بِرِقَّةِ الخَصْرِ وغِلَظِ الساق حتّى جعل حِجْلَها الذى يدور على ساقها أوسعَ من حِقَابِهَا الذى يدور على خَصْرِها، وأبلغ منه قول الآخر:

من الهِيف لو أنَّ الخَلَاخِيلَ صُيِّرت * لها وُشُحًا، جالَتْ عليها الخَلَاخِلُ

فجعل الخَلْخَال يجول فى جميع بَدَنها، لكنه ليس من المدح فى شئ لأن الخَلْخَالَ لو صار وُشَاحًا للمرأة، لكانت فى غاية الدَّمامة حتّى تصير فى خِلْقَةِ الجِرْوِ[1] والهِرِّ. وأبلغ منه قول الآخر.

ورَحْبُ صَدْرٍ لو أنَّ الأرضَ واسعةٌ * كَوُسْعِه، لم يَضِقْ عن أهلِه بَلَدُ

فجعل صدره فى السَّعَةِ والرُّحْبِ أوسَع من الأرض، ونحوُه قول الآخر:

ويوم كَطُولِ الدّهرِ فى عَرْض مِثْلِه * وَوَجْدَى من هـذا وهَاذَاك أطولُ

إلا أنه آستعمل العَرْض فى غير موضعه، إذ الدهر يوصف بالطول لا بالعَرْض، وهو قد جعل له طولا وعَرْضا، ويقرب منه قول أبى الطَّيِّب:

كفى بِجِسْمِى نُحُولًا أنَّنِى رجلٌ * لولا مخاطَبَتِى إيَّاكَ، لم أبنِ[2]

(١) الجرو مثلث الجيم (٢) المشهور فى الرواية لم ترنى وهى التى شرح عليها العكبرى.

فجعل كلامه هو الذى يدل عليه من شدّة النُّحُول. قال الشيخ زكىّ الدين بن أبى الأصبع : ومما يجرى به التمثيل فى باب المبالغة قولُ بعض العرب يذم إنسانا بقوله : فلان تَكُونُ له الحاجةُ فيَغْضَبُ قبل أن يطلُبَها، وتكون إليه فيردُّها قبل أن يفهمَها . وقول بعض بلغاء الكُتَّاب : إن من النعمة على المُثْنِي عليك أن لايخلوَ من مساعد، ولا يخشىٰ من معاند، ولا تلحقه نقيصة المُكَذِّب، ولا يُكْرِهُه عَوَزُ الأوصاف بالتطلب، ولا ينتهى من القول إلىٰ منتهًى إلا وجد بعده مقتضًى ووراءه منحًى . وسيأتى من المبالغة فى أوصاف الخيل والسلاح، وغيرها فى قسم الأوصاف من ذلك مافيه مَقْنَعٌ إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــنف الرابع

(ما كان محالا : وهو مالا يمكن كونه البتة : كقولك آتيك أمس، وأتيتك غدا، وما أشبه ذلك)

قال فى الصناعتين : فإن ٱتصل الكذب بمحال، صار كذبا محالا كقولك : رأيت قاعدا قائما، ومررت بيقظانَ نائمٍ، فإنه كذب للإخبار بخلاف الواقع، ومحال لعدم إمكان الجمع بين النقيضين، وقد تقدّم فى النوع الثالث أن أكثر الشعر مبنىٌّ علىٰ الكذب والٱستحالة : من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادة، وذلك فى الكذب مما لانزاع فى كثرته فى الشعر كما تقدّم .

أما المحال فإنه قليل الوقوع، نادر فى النظم والنثر، معدود من المعايب، محكوم عليه بالردّ .

فمن ذلك قول عبد الرحمٰن بن عبد الله القَسّ :

وإنّى إذا ما الموتُ حَلَّ بنفْسها، * يُزَالُ بنفسِى قبْلَ ذاكَ فأُقْبَرُ

قال العسكرى : هذا من المحال الذى لاوجه له ، قال : وهو شبيه بقول القائل : إذا دخل زيد الدار ، دخل عمرو قبله ، ثم قال : وهذا عين المحال الممتنع الذى لا يجوز . يريد أنه قد توقف كل من الأمرين على الآخر لأنه لا يوجد إلا به فيلزم الدَّوْر، وهو محال، فيحكم فيه بالبطلان وقطع الدَّوْر .

ومما يلتحق بالمحال وينخرط فى سلكه تناقض المعانى وآضطرابها .

فمن ذلك قول المُسَيَّبِ بن عَلَسٍ فى وصف ناقة :

قَتُسُلّ حاجتها اذا هى أعرضَتْ * بخَمِيصَةٍ سُرُحِ اليدين وَسَاعِ

فكأنَّ قَنْطَرَةً بموضع كُورِهَا * ملساءَ بينَ غَوَامِضِ الأَنْسَاعِ

وإذا أطفتَ بها، أطفتَ بِكَلْكَلٍ * بِيضِ الفَرَائِصِ مُجْفَرِ الأضْلَاعِ

قال فى "الصِّناعتين" : وهذا من المتناقض لأنه قال بخميصة ، ثم قال موضع كُورِهَا قَنْطَرَةٌ، وهى مُجفَرة الأضلاع فكيف تكون خَمِيصة وهذه صفتها ؟

وقريب منه قول الحُطَيْئَة :

حَرِجٍ يلاوذُ بالكِناس كأنَّهُ * متطوِّف حتّى الصباح يدُور

حتّى إذا ما الصُّبْحُ شَقَّ عمودَه * وعلاه أسْطَعُ من سَنَاه مُنِير

وحصى الكَثِيبِ بصفحتيه كأنَّهُ * خَبَثُ الحديدِ أطارَهُنَّ الكِيرُ

زعم أنه لم يزل يطوف حتّى أصبح وأشرف على الكثيب، فمن أين صار الحصى بصفحتيه ؟ . وقول المُرَقِّش الأصغر :

صَحَا قلبُه عنها على أنّ ذُكْرَةً * إذا خطرتْ دارتْ به الأرضُ قائما

وكيف صحا عنها مَنْ إذا ذكرت دارت به الأرض ؟ .

الصـــــنف الخامس

(ما كان غَلَطًا : وهو أن تريد الكلام بشئ فَيَسْبِقَ لسانك إلىٰ خلافه ، كقولك : ضَرَبَنِي زيدٌ وأنت تريد ضربتُ زيدًا)

قال فى "الصناعتين" : فإن تعمدْت ذلك، صار كَذِبا، وهذا النوع أكثر وقوعا من الذى قبله، قال : وقد وقع فيه الفحول من الشعراء .

وأصناف الغلط فى المعانى كثيرة : فمن ذلك الغلط فى الأوصاف، وهى علىٰ وجوه : منها وصف الشئ بخلاف ما هو عليه وذكره بما ينافيه .

فمن غريب هذا النوع قول الراعى فى وصف المِسْك :

يَكْسُو المَفَارِقَ واللَّبَّاتِ ذا أَرَجٍ * من قُصْبِ مُعْتَلِفِ الكافُورِ درّاجِ

فجعل المِسْكَ من قُصْبِ الظَّبْيِ، وهو مِعاهُ، وجعل الظَّبْيَ يعتلف الكافورَ فيتولد منه المسك، وهذا من طرائف الغَلَط . وقريبٌ منه قولُ زُهَيرٍ يصف الضَّفادعَ :

يَخْرُجْن من شَرَبَاتٍ ماؤها طَحِلٌ * علىٰ الجُذُوع تَخافُ الغَمَّ والغَرَقَا(١)

ظن أن الضفادع يخرجن من الماء مخافة الغرق، ونشوءُها فيه . وقريب منه قولُ ذى الرُّمَّةِ :

إذا ٱنجابت الظَّلْمَاء ، أضحتْ رءُوسها * عليهن من جَهْدِ الكَرىٰ وهي ضُلَّعُ

فوصف الرءوس بالضَّلَع . قال ٱبن أبي فروة : ما أغفلتُ هـذا ، ولقد قلت لذى الرمة : ماعلمتُ أحدا أَضْلَعَ الرءُوسَ غيرَك، قال : أَجَلْ .

(١) فى اللسان يخفن فـا فى الاصل رواية له .

قال فى الصناعتين : ومما لم يُسمع مثلُه قط قول عَدِىّ بن زيد فى الخمر :

والمُشْرِفُ الهَيْـدَبُ يسعىٰ بها * أخضرَ مطموثًا بمـاء الحَرِيص

فوصف الخمر بالخضرة، والحريصُ السحابة تَحْرِصُ وجه الأرض أى تَقْشُرُها ، ومنه سميت إحدىٰ الشِّجَاجِ فى الرأس الحارصة لأنها تشق الجلد .

ومنها وصف الشئ علىٰ خلاف المعهود والعادة المعروفة .

فمن ذلك قول المَرَّار :

وخَالٍ علىٰ خَدَّيْكَ يبـدُو كأنه * سنَا البدرِ فى دَعْجَاءَ بادٍ دُجُونُها

والمعروف أن الخِيلَانَ سُودٌ أو سُمْرٌ ، والخدود الحسان إنما هى البيض ، فأتىٰ هذا الشاعر بقلب المعنىٰ؛ ومثله قول الآخر :

كأنّمـا الخِيلانُ فى وجْهه * كواكبٌ أَحْدَقْنَ بالبَـدْر

قال أبو هلال العسكرىّ : ويمكن أن يُحْتَجَّ لهذا الشاعر بأن يقال : تشبيه الخِيلَانِ بالكواكب من جهة الآستدارة لا من جهة اللون .

ومن ذلك قول آمرئ القيس فى وصف الفرس أيضا :

وللسوط أُلْهُوبٌ وللساق دِرَّة * وللزَّجْر منه وَقْعُ أَخْرجَ مُهْذِبِ

قال أبو هلال العسكرىّ : فلو وصف أخسّ حمارٍ وأضعفَه ، ما زاد علىٰ ذلك ؛ وقول القائل :

صبَبْنا عليها ظالمينَ سِيَاطَنَا * فطارتْ بها أيدٍ سراعٌ وأرجُلُ

فجعل ضربها بالسـوط من باب الظلم لأنها لا تحوجه إلىٰ ذلك؛ ومن ذلك قول امرئ القيس :

وأَرْكَبُ فى الرَّوْع خَيْفانَةً * كَسَا وجْهَهَا سَعَفٌ مُنْتَشر

شــبه ناصــية الفرس بسَعَف النخلة لطُولهـا، وإذا غطّى الشــعر عينَ الفرس لم يكن كريمـا .

ومثله قول طَرَفَة يصف ذَنَبَ البعير :

كأنَّ جَنَـاحَىْ مَضْرَحِىٍّ، تكنَّفَا * حِفَافَيْه، شُكَّا فى العَسِيبِ بِمِسْرَدِ

فجعـل ذَنَبَه كثيفا ، طويلا عريضا ، وإنمـا توصـف النجائب بخفـة الذَّنَب ورِقَّة الشعر .

ومنها أن يجرىَ فى مقاصد المعـانى علىٰ خلاف المألوف المعروف ، وذلك قول جُنَـادة :

من حبها أتمنّى أن يُلَاقِيَنِى * من نَحْوِ بَلْدَتِها ناعٍ فينعاها

لِكَىْ يكونَ فراقٌ لا لِقَـاءَ لَه * وتُضمِرَ النفسُ يأْسًا ثم تَسْلَاها

فإذا تمـنّى المحب للحبيب الموتَ فمـا ذا عسىٰ أن يتمنّى البغيضُ لبغيضـه ؟ وقول الآخر :

وَلَقَـدْ هَمَمْتُ بقتلها من حُبّها * كيما تكونَ خَصِيمَتى فى المَحْشَرِ

فذكر أن شدّةَ الحبِّ حملته علىٰ قتل محبوبته حتّى تخاصمَه فى الحشر لطلب حقها، وشدّةُ الحب لا تحمل إلا علىٰ الإكرام والبِرّ، علىٰ أنها قد تكون تكرهه، فتترك حقَّها له حتّى لا يطول وقوفها معه للخصام، وقول نُصَيْبٍ :

فإن تَصِلِى، أَصِلْك وإن تعودى * بهَجْرٍ بعـــد ذاك ، فلا أُبَالِى

والعاشق يلاطف قلبَ محبوبه ولا يُحَاجُّه، ويلاينه ولا يُلَاجُّه .

الأصــــل الثــانى

(من صناعة إنشاء الكلام النظر فى الألفاظ، والنظر فيها من وجهين)

الوجه الأوّل

(فى فضــــل الألفــاظ وشرفها)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المعانى أن الألفاظ من المعانى بمنزلة الثياب من الأبدان فالوجه الصبيح يزداد حسنا بالحُلَلِ الفاخرة، والملابس البهيّة، والقبيح يزول عنـه بعض القُبْحِ: كما أن الحَسَنَ ينقصُ حُسْنُه بِرَثَاثَةِ ثيابه وعدم بهجة ملبوسه، والقبيح يزداد قبحا إلىٰ قُبْحه. فالألفاظ ظواهر المعانى، تَحْسُنُ بحسـنها وتَقْبُحُ بِقُبْحِها؛ وقد قال أبوهلالٍ العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين": ليس الشأْنُ فى إيراد المعانى، لأن المعانِىَ يعرفها العربىّ والعجمىّ والقَرَوِىُّ والبـدوىّ، وإنمـا هو فى جَوْدَةِ اللفظ، وصَفَائه. وحسنه وبهائه، ونزاهته ونقَائه، وكثرة طَلَاوَتِه ومائه، مع صحة السَّبْك والتركيب، والخلوّ من أوَدِ النظم والتأليف. قال: وليس يطلب من المعنىٰ إلا أن يكون صوابا، ولا يُقْنَعُ من اللفظ بذلك حتّى يكون علىٰ ماتقدّم من نعوته. ثم قال: ومن الدليــل علىٰ أن مَدَار البلاغة تحسينُ اللفظ أن الخُطَبَ الرائعة، والأشعار الرائقة، ماعملت لإفهام المعانى فقط لأن الردىء من الألفاظ يقوم مقام الجيد منها فى الإفهام، وإنمـا يدل حسنُ الكلام وإحكام صنعته، ورونق ألفاظه، وجَوْدَةُ مَقَاطعه، وبديع مباديه، وغريب مبانيه، علىٰ فضل قائله، وفهم مُنْشِئِه؛ وأكثر هــذه الأوصاف ترجع إلىٰ الألفاظ دون المعانى، وتَوَخّى صوابِ المعانى أحسنُ من توخّى هذه الأمور فى الألفاظ، فلهذا يَتَأَنَّقُ الكاتبُ فى الرسالة، والخطيبُ فى الخُطْبَةِ، والشاعرُ فى القصيدة، ويبالغون فى تجويدها، ويُغْلُونَ فى ترتيبها، ليدُلُّوا علىٰ براعتهم،

وحِذْقِهِم بصناعتهم، ولو كان الأمر فى المعانى لطَرَحُوا أكثر ذلك فرَبِحُوا كدًّا كثيرا، وأسـقطوا عن أنفسهم تعبا طويلا ؛ وأيضا فإن الكلام إذا كان لفظه حُلْوًا عَذْبا، وسَلِسًا سهلا، ومعناه وَسَطًا، دخل فى جمـلة الجيِّـد، وجرىٰ مع الرائع النادر، كقول الشاعر :

ولمـا قَضَيْنَا من مِنًى كُلَّ حاجة، * ومَسَّحَ بالأركان مَنْ هو ماسِحُ،
وشُدَّتْ علىٰ حُدْبِ المَهارىٰ رِحَالُنا * ولم يَنْظُرِ الغَادِى الذى هو رائحُ،
أخَذْنا بأطراف الأحاديثِ بيننـا، * وسَالَتْ بأعنـاق المطِىِّ الأباطِحُ

وليس تحت هذه الألفاظ كثيرُ معنًى، وهى رائقة مُعْجِبَةٌ، وإنمـا هى : ولمـا قَضَيْنَا الحَجَّ ومَسَّحْنَا بالأركان، وشُدَّتْ رِحَالُنا علىٰ مَهازيل الإبِل، ولم ينتظر بعضُنا بعضا، جعلنـا نتحدّث وتسـير بنا الإبِلُ فى بطون الأودية ؛ وإذا كان المعنىٰ صوابا واللفظ بارِدا فاترا كان مستهجنا مَلْفُوظًا، ومذموما مردودا، كقول أبى العَتاهِيَة فى أبى عثمان سعيدِ بنِ وَهْبٍ :

مَاتَ وَاللهِ سعيدُ بنُ وَهْبِ * رَحِمَ اللهُ سَعيدَ بنَ وَهْبِ
يا أبا عثمانَ أبْكَيْتَ عينى * يا أبا عُثْمَانَ أوجعت قَلْبِى

الوجه الثـانى

(الألفاظ المفردة، وبيان ما ينبغى آستعماله منها، وما يجب تركه)

اعلم أن الذى ينبغى أن يستعمل فى النظم والنثر من الألفاظ هو الرائق البَهِجُ الذى تقبله النفس، ويميل إليه الطبع، وهو الفصيح من الألفاظ دون غيره .

والفصيح فى أصل اللغة هو الظاهر البـيِّنُ، يقال أفصح الصبح إذا ظهر وبان ضوءه، وأفصح اللبن إذا تجلت عنـه رغوته وظهر، وأفصح الأعجمىّ وفَصُحَ إذا

أبان بعد أن لم يكن يُبِينُ ، وأفصح الرجل عما فى نفسه، إذا أظهره . قال فى المَثَل السائر : وأهل البيان يَقِفُونَ عند هذا التفسير، ولا يكشفون عن السر فيه . قال : وبهذا القول لا تتبين حقيقةُ الفصاحة لأنه يلزم أنه إذا لم يكن اللفظ ظاهرا بينا لم يكن فصيحا جَيِّدًا ، ثم إذا ظهر وتبين صار فصيحا ؛ علىٰ أنه قد يكون اللفظ ظاهرا لزيد ولا يكون ظاهرا لعمرو، فيكون فصيحا عند واحد دون آخرَ، وليس كذلك، بل الفصيح مالم يُخْتَلَفْ فىفصاحته : لأنه إذا تحقق حدّ الفصاحة وعُرِفَ ما هى ، لم يبق فى اللفظ المختص بها خلاف ؛ وأيضا فإنه لو جىء بلفظ قبيح ينبو عنه السمْع ، وهو مع ذلك ظاهر بَيِّن ، فينبغي أن يكون فصيحا ، وليس كذلك لأن الفَصَاحة وصفُ حُسْنِ اللفظ لا وصفُ قُبْحِه . قال : وتحقيق القول فى ذلك أن يقال : الكلام الفصيح هو الظاهر البَيِّنُ ، والظاهر البين أن تكون ألفاظه مفهومة لايحتاج فى فهمها إلىٰ آستخراج من كتب لغة ؛ وإنما كانت بهذه الصفة لأنها تكون مألوفةَ الآستعمال بين أرباب النظم والنثر دائرةً فى كلامهم ، وانما كانت مألوفة الاستعمال دائرة فى الكلام دون غيرها من الألفاظ لمكان حُسْنها ، وذلك أن أرباب النظم والنثر غَرْبَلُوا اللغة باعتبار ألفاظها ، وسَبَرُوا وقسَّموا فاختاروا الحَسَن من الألفاظ فاستعملوه ، ونَفَوْا القبيحَ منها فلم يستعملوه ، فَحُسْنُ الألفاظِ سبب آستعمالِها دون غيرها ، وآستعمالُها دون غيرها سبب ظهورها وبيانها ؛ فالفصيح إذَنْ من الألفاظ هو الحَسَنُ . ثم قال : والمرجع فى تحسين الألفاظ وقبحها إلىٰ حاسة السمع ، فما يستلذه السمع منها ويميل إليه هو الحَسَن ، وما يكرهه وينفر عنه هو القبيح ، بدليل أن السمع يستلذ صوت البلبل من الطير وصوت الشُّحْرُورِ ، ويميل إليهما ؛ ويكره صوت الغراب وينفِر عنه ، وكذلك يكره نَهِيقَ الحِمَارِ ، ولا يجد ذلك فى صهيل الفرس ، والألفاظ جارية هذا المجرىٰ ، فإنه لا خلاف فى أن لفظة المُزْنَة والدِّيمة يستلذهما السمع ، ولفظة البُعَاق

قبيحة يكرهها السمع ، والألفاظ الثلاثة من صفة المطر ومعناها واحد ، وأنت ترىٰ لفظتى المُزنَةِ والدِّيمَـةِ وما جرىٰ مجراهمـا مألوفةَ الآســتعمال وترىٰ لفظَ البُعَاقِ وما جرىٰ مجراه متروكا لايستعمل، وإن آستعمل فإنما يستعمله جاهل بحقيقة الفصاحة أو مَنْ ذَوْقُه غير سليم، لا جَرَمَ أنه ذمّ وقدح فيه، ولم يلتفت إليه، وإن كان عَرَبِيًّا محضا من الجاهلية الأقدمين، فإن حقيقة الشئ إذا علمت، وجب الوقوف عندها، ولم يُعَرَّجْ علىٰ ما خرج عنها .

إذا علمت ذلك فلا يوصف اللفظ المفرد بالحُسْنِ حتّٰى يتصف بأربع صفات:

الصـــــفة الأولىٰ

(أن لايكون غريبا : وهو ماليس مأنوسَ الآستعمال ولا ظاهرَ المعنىٰ)

ويسمّٰى الوحشىَّ أيضا، نسبة إلىٰ الوحش لِنفَاره وعدم تأنُّسه وتألُّفه، وربما قُلِب فقيل الحُوشِىّ نسبة إلىٰ الحوش : وهو النِّفار (١) . قال الجوهرى : وزعم قوم أن الحُوش بلاد الجنّ وراء رمل يَبْرِين، لايسكنها أحد من الناس، فالغريب والوحْشِىُّ والحُوشِىُّ كله بمعنى.

ثم الغريب علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ــ ما يُعاب آستعمالُه مطلقا : وهو مايُحتاج فى فهمه إلىٰ بحث وتنقيب، وكَشْف من كتُب اللغة : كقول آبن جَحْدَر .

حلَفْتُ بمـا أرقَلَتْ حولَهُ * هَمَرجَلةٌ خَلْقُهـا شَـيْظَمُ
وما شَبْرَقَتْ من تَنُوفيَّةٍ * بها من وَحٰى الجنّ زِيزيَم

فالإرقال ضرب من السير : وهو نوع من الخَبَب، يقال منه أرقلت الناقةُ تُرْقِل إرقالا، والهَمَرْجلةُ الناقة السريعة، وقال أبو زيد: الهمَرْجَلة الناقة النَّجيبة الراحلة.

---

(١) كذا فى الضوء أيضا وفيه تساهل لان النفار معنًى لانحاش لالحاش انظر القاموس .

والشَّيْظَمُ الشديد الطويل وهو من صفات الابل والخيل والأنثىٰ شَيْظَمةٌ . والشَّبْرقة القَطْع، يقال شبْرَقْتُ الثوب أُشَبرقه شَبْرقة إذا قطعته، وشبرقت الطريق إذا قطعتها والتَّنُوفة المفازة، ويقال فيها تَنُوفِيَّة أيضا . والوَحىٰ هنا الصوت الخفِىُّ، يقال سمعت وَحاةَ الرعد: وهو صوته الممتدُّ الخفِىّ، وقوله زيزيزَم حكاية لأصوات الجن إذا قالت زى زى؛ وحاصله أنه يقول حلفْتُ هذه الحلفة بما سارت هذه الناقة الشديدة السير العظيمة الخَلْق، وما قطعت من مَفَازة لايُسمع فيها إلا أصواتُ الجنّ ؛ وهذا مما لايوقف علىٰ معناه إلا بكدّ وتعب فى كشفه وتتَبُّعه من كتب اللغة .

الضرب الثانى — مايحتاج إلىٰ تدقيق النظر فى التصريف وتخريج اللفظ علىٰ وجه بعيد : كلفظ مسرّج من قول العجاج .

ومُقْلةً وحاجِباً مُزَجَّجا * وفاحِماً ومَرْسِناً مُسَرَّجا

فالمُقلة شحمة العين، والحاجب معروف، والمزجج المُقوّس مع طُولٍ ودقّةٍ فى طَرَفه والفاحم الشَّعر الأسود الذى لونُه كلون الفَحْم، والمَرْسِنُ الأنف، وصفه بكونه مُسَرّجا إما أنه كالسيف السُّرَيْجِىّ فى الدِّقَّة والآستواء، والسُّرَيْجِىُّ نسبة إلىٰ قَيْن يسمّى سُرَيْجا تنسب إليه السُّيوفُ، وإما أنه كالسِّراج فى البَرِيق واللَّمَعان ؛ أو من قولهم سَرّج الله وجهَه إذا بَهَّجه وحسَّنه . فهذا ومثله مما لا يقف علىٰ معناه إلا من عرف التصريف وأتقنه .

إذا تقرر ذلك فآعلم أن اللفظ يختلف فى الغَرابة وعدمها باختلاف النِّسَب والإضافات ؛ فقد يكون اللفظ مألوفا متداوَلَ الآستعمال عند كل قوم فى كل زمن، وقد يكون غريبا متوحِّشا فى زمن دون زمن، وقد يكون غريبا متوحشا عند قوم، مستعملا مألوفا عند آخرين .

وهو أربعة أصناف .

الصـــنف الأوّل

(المألوف المتداوَلُ الاستعمال عند كل قوم فى كل زمن)

وهو ما تداول استعمالَه الأوّلُ والآخِرُ من الزمان القديم وإلىٰ زماننا : كالسماء والأرض ، والليل والنهارِ ، والحرّ والبرد ، وما أشبه ذلك ؛ وهو أحسن الألفاظ ، وأعذبُها ، وأعلاها درجة وأغْلاها قيمةً ؛ إذ أحسن اللفظ ما كان مألوفا متداوَلا كما تقدّم ؛ وهذا لايقع عليه اسم الوحشيّ بحال . قال فى : "المثل السائر" وأنت إذا نظرت إلىٰ كتاب الله العزيز الذى هو أفصحُ الكلامِ ، وجدتَه سهلا سَلِسا ، وما تضمنه من الكلمات الغريبة يسير جِدّا ـ هذا وقد أنزل فى زمن العرب العَرْباء ، وألفاظه كلُّها من أسهل الألفاظ ، وأقربها استعمالا وكفىٰ بالقرءان الكريم قُدْوةً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ، "ما أُنْزِلَ فى التَّوْراةِ ولا فى الإنْجِيل مثلُ أمِّ القُرْءان وهى السَّبْعُ المَثَانِى" يريد فاتحة الكتاب . وإذا نظرت إلىٰ ما اشتَملت عليه من الألفاظ ، وجدتها سَهْلة قريبة يَفْهَمُها كل أحد حتّى صبيانُ المكاتبِ وعوامُّ السُّوقة ، وإن لم يفهموا ما تحتها من أسرار الفصاحة والبَلاَغة ، فإن أحسن الكلام ماعرف الخاصةُ فضْلَه ، وفهم العامّة معناه ؛ وهكذا فلتَكُن الألفاظ المستعملةُ فى سهولة فهمها وقُرب متَناوَلها ؛ والمقتدى بألفاظ القرءان يكتفى بها عن غيرها من جميع الألفاظ المنثورة والمنظومة ؛ وقد كانت العرب الأُوَل فى الزمن القديم تحاشىٰ اللفظَ الغريب فى نظمها ونثرها ، وتميل إلىٰ السهل وتستعذِبُه ؛ ويكفى من ذلك كلام قَبِيصةَ بن نُعَيْم لما قدم علىٰ امرئ القيس فى أشياخ بَنِى أسد يسألونه العفْوَ عن دمِ أبيه ، فقال له : "إنك فى المحلّ والقَدْر من المعرفة بتصرُّف الدَّهْر وما تُحْدِثه أيّامُه وتنتقل به أحوالُه بحيث لاتحتاجُ إلىٰ تذكيرٍ من واعظ ، ولا تبصيرٍ من مجرِّب ، ولك من سُودَد مَنْصِبك وشَرَف أعْراقك ، وكَرَم أصْلك فى العرب مَحْتِدٌ يحتمل ما حُمِّل عليه :

من إقالة العـثْرة ورُجوعٍ عن الهَفْوة ؛ ولا تتجاوزُ الهِمَم إلىٰ غاية إلا رجعَتْ إليك فوجدَتْ عندك من فضيلة الرأى ، وبصيرة الفَهْم ، وكرم الصَّفْح مايطوِّلُ رَغَباتها ، ويستَغْرق طَلِباتها ، وقدكان الذى كان : من الخَطْب الجَليل ، الذى عمَّتْ رزيَّتُه نِزارا واليَمَن ،ولم تُخْصَص بذلك ِكنْدةُ دُونَنا: للشرف البارِع الذى كان لحُجْر، واوكان يُفْدىٰ هالكٌ بالأنفس الباقيةِ بعده لما بَخلت كَرَائمنا بها علىٰ مثله ، ولكنه مضٰى به سبِيلٌ لايَرْجعُ أُخْراه علىٰ أُولاه ؛ ولا يَلْحقُ أقصاه أدْناه ، فأحمَدُ الحالاتِ فىذلك أن تَعْرِف الواجبَ عليك فى إحدىٰ خِلالٍ ثلاث : إما أن اخترتَ من بنىأسدٍ أشرفَها بيتا ،وأعلاها فىبناء المَكْرُمات صوتا ،فقُدْناه إليك بنسعة تذهب مع شَفَرات حُسامك بباقى قَصَرته ، فنقول : رجل امتُحِن بهالكٍ عزيزفلم يستَلَّ سَخِيمتَه إلا تمكينُه من الآنتقام . أو فداء بما يَرُوح علىٰ بنى أسـد من نَعَمِها ، فهى أُلُوف تجاوز الحِسْبَة فكان ذلك فِداءً رجعتْ به القُضُب إلىٰ أجفانها لم يرددها تسليط الإحَن علىٰ البرءاء . وإما أن وادَعْتنا إلىٰ أن تضَعَ الحواملُ فتُسدل الأزُر وتعْقد الخُمُر فوق الرايَات".

فبكى آمرُؤ القيس ساعةً، ثم رفع رأسَه فقال .

"لقد علِمَتِ العربُ أنه لا كُفْءَ لحُجْر فىدم،وأنى لن أعتاضَ به جملا ولا ناقةً، فأكتسبَ به سُبَّة الأبدِ، وفتَّ العَضُد ؛ وأما النَّظِرة فقد أوجبتها الأجنَّة فى بطون أمهاتها، ولن أكون لعطَبها سببا ؛ وستعرفون طلائع ِكنْدة من بعد ذلك، تحمل فى القلوب حَنَقا وفوق الأسنَّة علَقا .

إذا جالَتِ الحرْبُ فى مَأْزِقٍ ٭ تُصافِحُ فيه المَنَايَا النُّفوسا !

أتقيمون أم تنصرفون؟ " قالوا بل ننصرف بأسوإ الآختيار وأبلىٰ الاجترار، بمكروه وأذيَّة، وحَرْب وبليَّه .

ثم نهضوا عنه وقبيصة يتمثل :

لَعلَّك أن تستَوخِمَ الوِرْدَ إن غدَتْ * كتائبُنا فى مأزقِ الحرب تُمْطِر

فقال آمرؤ القيس لا والله ! ولكن أستعذبه ، فرويدا ينفرِجْ لك دُجاها عن فُرْسان كِندةَ وكتائب حِمْير . ولقد كان ذِكر غير هذا بى أولىٰ إذ كنتَ نازلا بربعِى، ولكنك قلت فأوجبت .

فقال قبيصة مايُتوقَّع فوق قدر المعاتبة والإعتاب، فقال آمرؤ القيس هو ذاك .

قال فى : "المثل السائر" فلينْظر إلىٰ هذا الكلام من الرجلين : قبيصةَ وآمرئ القيس حتّى يدَعَ المتعمقُون تعمُّقهم فى آستعمال الوحشىّ من الألفاظ . فإن هذا الكلام قد كان فى الزمن القديم قبل الإسلام بما شاء الله ، وكذلك هو كلام كل فصيح من العرب مشهور ، وما عداه فليس بشئ . قال : وهذا المشار إليه هاهنا هو من جَزْل كلامهم ، وهو علىٰ ما تراه من السَّلاسَة والعُذُوبة ؛ وإذا تصفَّحت أشعارَهم أيضا وجدت الوحشىّ من الألفاظ قليلا بالنسبة إلىٰ المسلسَل فى الفَمِ والسمع ؛ وعلىٰ هذا المنْهج فى الجَزالة والسُّهولة يجرى من النظم قولُ آمرئ القيس :

فلَوْ أنَّ ماأسعَى لِأدْنىٰ مَعيشةٍ ، * كَفَانِى ولم أطْلُبْ قليلٌ من المالِ
ولكنّما أسْعىٰ لمجْدٍ مُؤثَّل * وقد يُدْرِكُ المجْدَ الموثّل أمثالِى

فآنظر إلىٰ هذين البيتين ليس فيهما لفظةٌ غريبة ، ولا كره مع مافيهما من الجزالة وكذلك أبيات السَّمَوءل المشهورة وهى .

إذا المَرْءُ لم يَدْنَسْ من اللُّؤم عِرْضُه * فكُلُّ رِداءٍ يَرْتَديهِ جَميلُ
وإنْ هُو لم يَحْمِل علىٰ النَّفْسِ ضَيْمَها، * فلَيْس إلىٰ حُسْنِ الثَّناء سَبيلُ
تُعَيِّرُنا أنّا قَليلٌ عَديدُنا * فقُلْتُ لها إنّ الكِرامَ قَليلُ
وما ضَرَّنَا أنا قليلٌ وجارُنَا * عَزيزٌ وَجارُ الأكْثَرين ذَليلُ

يُقرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالَنَا لَنَا * وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ فتطُولُ
وما ماتَ مِنَّا سيِّدٌ فى فِرَاشِهِ * ولا طُلَّ مِنَّا حيثُ كانَ قَتِيلُ
وأسْيافُنا فى كُلِّ غَرْبٍ ومَشْرِقٍ * بها مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ فُلُولُ
مُعوَّدةٌ أنْ لاتُسَلَّ نِصَالُها * فتُغْمَدَ حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ

فإذا نظرت ماتضمنته هذه الأبيات من الجَزَالة، خِلْتَها زُبَرًا من الحديد مع ماهى عليه من السُّهولة والعُذُوبة وأنها غير فَظَّة، ولا غليظة . وقد ورد للعرب فى جانب الرِّقة من الأشعار مايكاد تَذُوب لِرقَّته القلوبُ : كقول عروة بن أُذَينة :

إن التى زَعَمَتْ فؤادَكَ مَلَّها * خُلِقَتْ هَوَاكَ كما خُلِقْتَ هَوًى لها
بَيْضاءُ باكَرَها النَّعِيمُ فصَاغَهَا * بلَبَاقَةٍ فَأَدَقَّهَا وأَجَلَّها
حَجَبَتْ تحيتَها فقلتُ لصاحِبِى : * ماكان أكثرَها لنا وأقلَّها !
وإذا وجَدْتُ لها وَساوِسَ سَلْوَةٍ، * شَفَعَ الضميرُ إلى الفؤادِ فسلَّها

وقول يَزِيدَ بن الطَّثَرِيَّة فى محبوبته من بنى جَرْم .

بنَفْسِىَ من لو مرَّ بَرْدُ بَنَانه * على كَبِدِى، كانت شفاءً أنامِلُه

وإذا كان هذا قول ساكن الفَلَاة، لايرى إلا شيحة أو قيصومة ولا يأكل إلا ضبا أو يَرْبُوعًا، فما بَالُ قوم سكنوا الحَضَر، ووجدوا رِقَّة العيش يتعاطَوْنَ وَحْشِىّ الألفاظ وشَظِفَ العبارات ؟ ولا يُخْلِدُ إلى ذلك إلا جاهلٌ بأسرار الفصاحة، أو عاجزٌ عن سلوك طريقها، فإن كل أحد ممن حصل على نَبْذَةٍ من علم الأدب يمكنه أن يأتىَ بالوَحْشِىّ من الكلام، إما بأن يلتقطه من كتب اللغة، أو يتلقفه من أربابها . وأما الفصيح المُتَّصِفُ بصفة الملاحة، فإنه لايَقْدِر عليه ولو قَدرَ عليه لما علم أين يضع يده فى تأليفه وسَبْكه .

قال : و إن مارىٰ فى ذلك مُمـارٍ، فلينظر إلىٰ أشعار علماء الأدب ممن كان يُشار إليه حتّى يعلم صحةَ ذلك ؛ فإن ٱبن دُرَيْد قد قيل إنه أشعر علماء الأدب و إذا نظرتَ إلىٰ شعره، وجدته بالنسبة إلىٰ شعر الشعراء المجيدين مُنْحَطًّا، مع أن أولئك الشعراء لم يعرفوا من علم الأدب عُشْرَ مِعْشَـار ما علمه ، وأين شـعره من شعر العباس ٱبن الأحنف ؟ وهو من أوائل الشـعراء المُحْدَثِينَ ، وشعره كمَرّ نسـيم علىٰ عَذَبَاتِ أغصان، أو كاؤلؤاتِ طَلٍّ علىٰ طُرَرِ رَيْحَان، وليس فيه لفظة واحدة غريبة يُحتاج إلىٰ ٱستخراجها من كتاب من كتب اللغة، كقوله :

و إنّى لَيُرْضينى قليـــلُ نوالِكم * وإن كنتُ لاأَرْضىٰ لكم بقليل

بِحُرمةِ ماقد كانَ بَيْنِى و بينَــكُمْ * من الوُدّ إلا عُدْتُمُو بجميل

وقوله فى محبو بته فَوْز :

يا فَوْزُ يا مُنْيــــةَ عَبَّـاسِ * قلبي يُفَدِّى قلبَكِ القـاسِى

أسأتُ إذ أحسنتُ ظَنِّى بكم * والحَزْمُ سُوءُ الظنِّ بالنـاسِ

يُقْلِقُنِى شَـــوْقِى فآتِيـــكُمُ * والقلبُ مملوءٌ من اليأسِ

وهل أعذبُ من هذه الأبيات؟ وأعلقُ بالخاطر، وأسرى فى السمع؟ ولمثلها تسهر راقدات الأجفان ، وعن مثلها تتأخر السوابق عند الرِّهان ؛ ومن الذى يستطيع أن يسلك هذه الطريقَ التى هى سَهْلَةٌ وَعْرَة، قريبة بعيدة؟ .وقد كان أبو العتاهية أيضـا فى غُرَّة الدولة العباسية، وشعر العرب إذ ذاك موجود كثيرا، وإذا تأملت شعره وجدتَه كالمـاء الجارى، رقَّةَ ألفاظٍ ، ولَطافَةَ سبك ، وليس بركيك ولا واهٍ ، وٱنظر إلىٰ قصيدته التى يمدح بها المهدىَّ و يشبب بجاريته عتب وهى :

أَلَا مَا لِسَـــيِّدَتِى ما لَهَـا * تُدِلُّ، فأحْمِـــلُ إِدْلَالَهَـا

ألا إنَّ جاريةً للإما * م قد أُسْكِنَ الحُسْنُ سِرْبَالَهَا
لقد أَتْعَبَ اللهُ قَلْبِي بها * وأَتْعَبَ في اللَّوْمِ عُذَّالَهَا
كأنَّ بعينيَّ فِي حَيثُ ما * سلكت من الأرض تِمْثَالَهَا

فلما وصل إلىٰ المديح قال من جملته :

أَتَتْه الخِلَافَةُ منقادةً * إليه تُجَرِّرُ أذيالَهَا
فلم تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ * ولم يَكُ يصْلُح إِلَّا لَهَا
ولو رامها أحدٌ غيرُه، * لزُلْزِلَتِ الأرضُ زِلْزَالَهَا
ولو لم تُطِعْهُ نِيَاتُ القُلوب، * لَمَا قَبِلَ اللهُ أَعمالَهَا

فهذه الأبيات من أَرَقِّ الشعر غَزَلًا ومديحا، وقد أذعن لمديحها الشعراءُ من أهل ذلك العصر، وهى علىٰ ماتَرىٰ من السَّلاسَةِ واللَّطافة علىٰ أقصىٰ الغايات، حتّىٰ قال بَشَّارٌ عند سماع المهدىِّ لها من أبى العتاهية : "انظروا إلىٰ أمير المؤمنين هل طار عن أَعْوَادِه" يريد هل زال عن سريره طَرَبا بهذا المديح . وعلىٰ هذا الأسلوب كان أبو نُوَاسٍ فى السهولة والسَّلاسَة والرِّقَةِ ، ولذلك قُدِّم علىٰ شعراء عصره مع مافيه من فحول الشعراء ومفلقيهم كمسلم بن الوليد وغيره ، وذلك لرقة شعره وسهولته : كقوله فى محبوبته جِنَان :

أَلم تَرَ أَنِّي أفنيتُ عُمْرِى * بِمَطْلَبِهَا ومَطْلَبُهَا عَسِير
فَلَمَّا لم أجِدْ سَبَباً إليها * يُقَرِّبُنِى وأَعْيَتْنِى الأُمُور
حَجَجْتُ وقلت : قد حَجَّتْ جِنَان * فيجمعُنى وإيَّاها المَسِير

فانظر إلىٰ هذه الأبيات ليس فيها لفظة منغلقة، وكذلك سائر شعره؛ وكان هو وأبو العَتَاهِيَة كأنما يُنْفِقَانِ من كيس واحد . ومن لطيف مايحكى فى تَوَافُقِ طريقتهما

واتحاد مأخذهما أن أبا نُوَاس جلس يوما إلىٰ بعض التُّجَّار ببغدادَ هو وجماعة من الشعراء فاستسقىٰ أبو نُوَاسٍ ماءً فلما شرب قال :

* عَذُبَ المَـاءُ وَطَابَا *

ثم قال : أجيزوه، فأخذ أولئك الشعراءُ يتردّدون فى إجازته وإذا هم بأبى العتاهية مجتازا فقال : ما شأنكم مجتمعين ؟ فقالوا كَيْتَ وكَيْتَ وقد قال أبو نُوَاسٍ :

* عَذُبَ المَـاءُ وَطَابَا *

فقال أبو العتاهية مجيزا له :

* حَبَّذَا المَـاءُ شَرَابَا *

فَعَجِبُوا لقوله علىٰ الفور من غير تلبث، فهذا هو الكلام السهل الممتنع تراه يُطْمِعُكَ أن تأتىَ بمثله ، فإذا حاولت مماثلته راغ عنك كما يروغ الثعلب ؛ وهكذا ينبغى أن يكون مَنْ خاض فى كتابة أو شعر ، فإن خير الكلام مادخل الأُذُنَ بغير إذْنٍ .

ومن النثر قول سَعيد بن حُمَيْدٍ : وأنا مَنْ لايُحَاجُّكَ عن نفسه ، ولا يغالطك عن جُرْمِهِ، ولا يستدعِى بِرَّك إلا من طريقته ، ولا يَسْتَعْطِفُكَ إلا بالإقرار بالذَّنْبِ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجُرْمِ ، نَبَتْ بى عنك غِرَّة الحَدَاثة ، وردّتنى إليك الحُنْكَةُ، وباعدتْنى منك الثقةُ بالأيَّام، وقادتْنى إليك الضَّرورة، فإن رأيتَ أن تستقبل الصنيعة بقبول العُـذْر، وتجدّد النعـمة باطِّراح الحِقْد ، فإنَّ قَديم الحُرْمة وحديث التوبة يمحقانِ ما بينهما من الإساءة، وإن أيامَ القدرة وإن طالت قصيرة، والمُتْعَةَ بها وإن كَثُرت قليلة ، فَعَلْتَ إن شاء الله تعالىٰ .

فانظر إلىٰ قوّة هذا الكلام فى سهولته، وقُرْب مأخذه مع بُعْـد تنـاوله والإتيان بمُشَاكله . وأجزلُ منـه مع السهولة قول الشَّعْبِىِّ للحَجَّاج ، وأراد قتله لخروجه عليه

مع ابن الأشعث : "أجْدبَ بنا الجَنَابُ، وأحْزنَ بنـا المَنْزِل، فاسْتَحْلَسْنَا الحَـذَرَ، وا كْتَحَلْنَا السهرَ، وأصابَتْنا فتنةٌ لم نكن فيها بَرَرَةً أتقياء، ولا فَجَرَةً أقوياء" فعفا عنه.

قال صاحب الصناعتين : وقد غلب الجهل علىٰ قوم فصاروا يَسْتَجِيدُونَ الكلامَ إذا لم يَقِفوا علىٰ معناه إلا بِكَدٍّ ، ويستفصحونه إذا وجدوا ألفـاظه كَزَّةً غليظة ، وجَاسِيَةً غريبة، ويستحقرون الكلام إذا رَأَوْهُ سَلِسًا عَذْبا، وسهلا حُلْوًا، ولم يعلموا أن السهل أمنعُ جانبا، وأعزُّ مطلَبا ، وهو أحسن موقعا، وأعذب مُسْتَمَعًا ، ولهذا قيل "أجود الكلام السَّهْلُ الممتنع" وكان المُفَضَّل يختار من الشعر ما يَقِلُّ تداول الرواة له ، ويكثر الغريب فيـه . قال العسكرى : وهذا خطأ فى الاختيار : لأن الغريب لم يكثر فى كلام إلا أفسده، وفيه دِلَالَةٌ علىٰ الاستكراه والتكلف .

ووصف الفضلُ بنُ سهلٍ عَمرو بنَ مَسْعَدَةَ فقال : هو أبلغ الناس، ومن بلاغته أن كل أحد يظن أنه يكتُب مثل كُتُبه ، فإذا رامها ، تعذرت عليه،

وقال العباس بن ميمون : قلت للسيد : ألا تستعمل الغريب فى شعرك ؟ فقال ذلك عِيٌّ فى زمانى، وتَكَلُّفٌ منى لو قلتـه، وقد رُزِقت طبعا واتسـاعا فى الكلام، فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولايحتاج إلىٰ تفسير، ثم أنشدنى :

أيا رَبِّ إنِّى لم أُرِدْ بالذى به * مَدَحْتُ عَلِيًّا غيرَ وجهِك فارحم

قال فى الصناعتين : فهذا كلامُ عاقلٍ يَضَعُ الكلام موضعه، ويستعمله فى إبَّانِه .

ومن كلام بعض الأوائل : تلخيص المعانى رِفْقٌ، والتشادق فى غير أهله نقص، والنظر فى وجوه الناس عِیّ، ومس اللِّحْيةِ هُلْكٌ، والاستعانة بالغريب عَجْز، والخروج عمـا بُنِيَ عليه الكلامُ إسهاب؛ فأجود الكلام ما كان جَزْلا سهلا، لا ينْغَلِقُ معناه، ولا يَسْتَبْهِم مَغْزاه، ولا يكون مكدودا مستكْرَها، ومتوعرا مُتَقَعِّرًا، ويكون بريئا من

الغَثَاثة، عاريا من الرَّثَاثة، فالكلام إذا كان لفظُه غثًّا، ومَعْرِضُه رثًّا، كان مردودا، ولو آحتوىٰ علىٰ أجلِّ معنًى وأنبله ، وأرفعِه وأفضلِه . قال فى "المثل السائر": أما البداوة والعُنْجُهِيَّةُ، فتلك أمة قد خَلَتْ ، ومع أنها قد خَلَتْ وكانت فى زمن العرب العاربة فإنها قد عِيبتْ علىٰ مستعملها فى ذلك الوقت فكيف الآن ، وقد غلب علىٰ الناس رقة الحَضَر ؟

الصـــــنف الثانى

(الغريب المتوحش عند كل قوم فى كل زمن)

وهو ما لم يكن متداول الآستعمال فى الزمن الاوّل ولا ما بعده، بل كان مرفوضا عند العرب كما هومرفوض عند غيرهم، ويسمّى الوَحْشِيَّ الغليظ، والعِكْر، والمتوعِّر

وهو علىٰ ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(مايعاب آستعماله فى النظم والنثر جميعا)

قال فى "المثل السائر": والناس فىقبح آستعماله سواء، لا يختلف فيه عربِىٌّ بَادٍ، ولا قَروِىٌّ مُتَحَضِّرٌ . قال : وليس وراءه فى القبح درجة أخرىٰ ، ولا يستعمله إلا أجهلُ الناس ممن لم يخطِر بباله شيء من معرفة هذا الفنّ أصلا، وهو مامَجَّهُ سمعُك ، ونَبَا عنه لسانك، وثَقُل عليك النطقُ به ؛ علىٰ أنه قد وقع منه ألفاظ لبعض الشعراء المُفْلِقِينَ من العرب والمُحْدَثين . فمن ذلك لفظ الجَحِيش فىقول تأبط شرًّا من أبيات الحَمَـاسَةِ :

يَظَـــلُّ بِمَوْماةٍ ويُمسِى بِغَـــيْرِهَا ＊ جَحِيشًا ويَعْرَوْرِى ظُهورَ المَسَالِكِ

فإن لفظة جَحيشٍ من الألفاظ المُنْكَرَةِ القبيحة، قال في "المَثَل السائر" : ويالله العجب ! أليس أنها بمعنى فَرِيد ؟ وفريدٌ لفظة حَسَنَةٌ رائقة لو وضعت في هذا البيت موضع جَحِيشٍ لما آختل شيء من وزنه، فتأبط شرا ملوم من وجهين : أحدهما آستعماله القبيحَ، والثاني أنه كانت له مندوحة عن آستعماله فلم يعْدِل عنها؛ وأقبح من ذلك لفظ آطْلَخَمَّ في قول أبي تَمَّام :

قد قلتُ لما آطْلَخَمَّ الأمر وآنْبَعَثَتْ * عَشْوَاءُ تَالِيَةً غُبْسًا دَهَارِيسَا

فإن لفظةَ اطْلَخَمَّ من الألفاظ المنكرة التي جمعت الوصفين القبيحين من أنها غريبة، وأنها غليظة في السمع، كريهة على الذَّوْق؛ وكذلك لفظة دَهَاريس في آخر البيت المذكور .

وعلى حدّ ذلك ورد لفظ جَيْدَر في قوله من أبيات في وصف فرس :

نِعْم متاعُ الدّنيا حَبَاكَ به * أَرْوَعُ لاجَيْدَرٌ ولا جِبْسُ

فلفظة جيدر وحشية غليظة، وأغلظ منها لفظة جَفَخَتْ في قول أبي الطَّيِّب المتنبي :

جَفَخَتْ وهم لا يَجْفَخُونَ بها بهم * شِيَمٌ على الحسب الأغرِّ دلائلُ

فإن لفظة جَفَخَ مُرَّةُ الطعم، وإذا مرّتْ على السمع آقْشَعَرَّ منها، وكان له مندوحة عن آستعمالها فإنَّ جَفَخَتْ بمعنى فَخَرَتْ وهما في وزن واحد، فلو أتى بلفظ فَخَرَتْ ويَفْخَرُونَ مكان جَفَخَتْ ويَجْفَخُونَ، لآستقام وزن البيت وحَظِيَ في آستعماله بالأحسن، فهو في ذلك كتأبَّطَ شَرًّا في لفظة جَحِيشٍ في توجه الملامة عليه من وجهين .

قال في "المثل السائر" : وما أعلم كيف يذهب هذا وأمثاله على هؤلاء الفحول من الشعراء؟ هذا ما أورده آبن الأثير من هذا النوع؛ ويشبه أن يكون منه لفظ الحَقَلَّد في قول زُهَيْرٍ :

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لم يُكَثِّرْ غنيمةً * بِنَهْكَةِ ذي قُرْبىٰ ولَا بِحَقَلَّدِ

والحَقَلَّدُ السيئ الخلق. قال فى "الصناعتين"(١): وقد أخذ الرُّواة علىٰ زُهَيْرٍ فى لفظة الحَقَلَّد فاستبشعوها، وقالوا: ليس فى لفظ زُهَيْر أنكَرُ منها، وكذلك لفظ الجِرِشَّى فى قول أبى الطَّيِّبِ فى مدح سيف الدولة بن حمدان وآسمه عَلِىّ:

مُبَـارَكُ الاسْمِ أغَرُّ اللَّقَبْ * كَرِيمُ الجِرِشَّى شَرِيفُ النَّسَب

فلفظ الجِرِشَّى مما يكرهه السمع، وينبو عنه اللسان، والجِرِشَّى بمعنى النَّفْسِ فجعل آسمه مباركا، ولقبَه أغرَّ، ونفسَه كريمةً، ونسبه شريفا، وذلك أنه كان يسمَّى عَلِيّاً وهو آسم مبارك لموافقة آسم أمير المؤمنين: علىّ كرم الله وجهه ويلقب سيفَ الدولة وهو لقب أعرابى مشهور، وأغَرُّ أخذا من غرّة الفرس لأنها أشهر ما فيها، ووصفه بكرم النفس إما باعتبار الحَسَبِ والعَـرَاقَةِ، وإما باعتبار بَذْل المـال وكثرة العطاء، وأشار إلىٰ شرف نسبه باعتبار عَرَاقَته فى بيت الملك وعَرَاقَةِ حَسَبِه.

الضرب الثـانى

(مايعاب آستعماله فى النثر دون النظم)

وهذا الضرب مما ذكر صاحب المثل السائر أنه آستخرجه بفكره، ولم يجد فيه قولا لغيره. قال: وهذا ينكره مَنْ يسمعه حتّى ينتهىَ إلىٰ ماأوردتُه من الأمثلة، ولربما أنكره بعد ذلك إما عنادا وإما جهلا لعدم الذوق السليم عنده، ثم ذكر منه أمثلة.

منها لفظ شَرَنْبَثَةٍ من قول الفَرَزْدَق:

ولولا حَياءٌ، زِدتُ رأسَك شَجَّةً * إذا سُبِرَتْ ظَلَّتْ جَوَانِبُهَا تَغْلِي

شَرَنْبَثَةً شَمْطَاءَ مَنْ يرَ مَابِهَا * يُشَبِّهُ وَلَوْ بَيْنَ الخُمَاسِيِّ وَالطِّفْلِ

---

(١) فى القاموس «الحقلد فى قول زهير الاثم» ومثله فى لسان العرب.

قال : فلفظة شَرَنْبَثَة من الألفاظ الغريبة التى يسوغ ٱستعمالها فى الشعر، وهى هاهنا غير مستكرهة إلا أنها لو وردت فى كلام منثور من كتاب أو خطبة ، لعيبت علىٰ مستعملها .

ومنها لفظة مُشْمَخِرٍّ الواردةُ فى أبيات بِشْرٍ فى وصفه لقاءَهُ الأسد حيث قال :

وأطلقتُ المُهَنَّدَ عن يمينى * فَقَدَّ لَهُ من الأضلاع عَشْرَا
فَخَرَّ مُضَرَّجًا بِدَمٍ كأَنِّى * هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًّا

وكذلك فى قول البُحْتُرِىِّ فى قصيدته التى يصف فيها إيوان كسرىٰ :

مُشْمَخِرٌّ تَعْلُو لَهُ شُرُفَاتٌ * رُفِعَتْ فِى رُءوسِ رَضْوىٰ وَقُدْسِ

فإن لفظةَ مُشْمَخِرٍّ لا يحسُن ٱستعمالها فى الخطب والمكاتبات ، ولا بأس بها فى الشعر، وقد وردت فى خُطَب الشيخ الخطيب ٱبن نُبَاتَةَ كقوله فى خُطبة يذكر فيها أهوال يوم القيامة : ٱقْمطَرّ وَبَالُها، وٱشْمَخَرَّ نَكَالُهَا، فما طابت ولا ساغت .

ومنها لفظة الكَنَهْوَرِ من أوصاف السحاب كقول أبى الطَّيِّب :

يَا لَيْتَ بَاكِيَةً شَجَانِى دَمْعُهَا * نَظَرَتْ إليكَ كما نظرتُ فَتَعْذِرَا
وتَرَىٰ الفَضِيلَةَ لَا تُرَدُّ فَضِيلَةً * الشَّمْسَ تُشْرِقُ والسَّحَابَ كَنَهْوَرَا

فلفظة الكَنَهْوَرِ لاتعاب نظما، وتعاب نثرا .

ومنها لفظة العِرمِس، وهو ٱسم الناقة الشديدة فإن هذه اللفظة يسوغ ٱستعمالها فى الشعر ولا يُعاب مُسْتَعْمِلُها كقول المتنبى :

ومَهْمَهٍ جُبْتُهُ علىٰ قَدَمِى * تَعْجِزُ عنه العَرَامِسُ الذُّلُلُ

فإنه جمع هذه اللفظة ولا بأس بها، ولو ٱستعملت فى الكلام المنثور من

الخطب لمـا طابت ولا ساغت ، وقد جاءت مُوَحَّدَةً فى شعر أبى تمـام فى قوله :

هى العِرْمِسُ الوَجْناء وابن مُلِمَّـةٍ * وجاشٌ علىٰ مايُحْدِث الدهرُ خافِضُ

ومنها لفظة الشَّدَنِيَّةِ فى قول أبى تمـام أيضا .

* يامُوضِع الشَّدَنِيَّةِ الوجناء *

وهى ضرب من النُّوقِ ، فإن الشدَنيَّة لاتعاب شـعرا وتعاب لو وردت فى كتابة أو خطبة . هـذا ما أورده فى "المثل السائر" لهذا الضرب من الأمثلة . ثم قال : وهكذا يجرى الحكمُ فى أمثال هذه الألفاظ ، وعلىٰ هذا فٱعلم أن كل مايسوغ ٱستعماله فى الكلام المنثور يسوغ ٱستعماله فى الكلام المنظوم ، وليس كل ما يسوغ ٱستعماله فى الكلام المنظوم يسوغ ٱستعماله فى الكلام المنثور . قال : وذلك شئ ٱستنبطته وٱطلعت عليه لكثرة ممـارستى هـذا الفن ، ولأنّ الذوق الذى عندى دَلَّنى عليه ، فمن شاء أن يقلِّدَنى فيـه ، وإلا فليُدْمِنِ النظرَ حتّى يطَّلع علىٰ ما ٱطلعت عليه . والأذهان فىمثل هذا المقام تتفاوت ، علىٰ ان الشيخ سعد الدين التفتازانى رحمه الله قد تابعه علىٰ ذلك فى شرح التلخيص فلا أعلم أقلده فى ذلك أمْ ذوقه أدّاه إليه ؟ .

الضرب الثـالث

(مايعاب ٱستعماله بصيغة دون صيغة)

قال فى "المثل السائر" : وهذا الضرب من هذهالصناعة بمنزلة علِيَّة ، ومكانةٍشريفة ، وجُلُّ الأسرار اللفظية منوط به . قال : وقد لقيت جماعة من مُدَّعِى فنّ الفصاحة وفاوضتهم وفاوضونى ، وسألتهم وسألونى ، فمـا وجدت أحدا منهم يتقن معرفة هذا الموضع كما ينبغى ، وقد ٱستخرجت فيه أشياء لم أُسْـبَق إليها فإن اللفظة الواحدة قد

تنتقل من هيئة إلىٰ هيئة، أو من صفة إلىٰ صفة، فتنتقل من القُبْح إلىٰ الحُسْنِ وبالعكس فيصير القبيح حَسَنًا، والحَسَنُ قبيحا، والمرجع فى ذلك إلىٰ الذوق الصحيح والطبع السليم؛ وقد نبه منه علىٰ تسعة أنماط .

النمط الأوّل ـ مايترجح فيه الآسم فى الآستعمال علىٰ الفعل، وذلك فى مثل لفظ خَوْدٍ، فإنها عبارة عن المرأة الناعمة، فإذا نقلت إلىٰ صيغة الفعل، قيل خَوَّدَ علىٰ وزن فَعَّلَ بتشديد العين ومعناها أسرع . يقال : خوّد البعير إذا أسرع فى مَشْيِهِ، فهى علىٰ صيغة الآسم حسنة رائقة، قد وردت فى النظم والنثر كثيرا، وإذا جاءت علىٰ صيغة الفعل، لم تكن حسنة كقول أبى تمّـام :

وإلىٰ بنى عبدِ الكريم تَوَاهَقَتْ * رَتْكَ النَّعَامِ رأىٰ الطريقَ(١) فَخَوَّدَا

إلا أن لفظةَ خَوَّدَ قد آستعملت علىٰ غير هـذا الوجه فى بعض المواضع فزال عنها بعضُ القُبْح وإن لم تلحق بدرجة الرائق الحسن، كقول بعض شعراء الحماسة :

أقولُ لنفسى حين خَوَّدَ رَألُهَا : * رُوَيْدَكِ لما تُشْفِقِى حين مَشْفَقِ

رُوَيْدَكِ حتّى تَنْظُرِى عَمَّ تَنْجلِى * عَمَـايَةُ هـذا العـارِضِ المتألّقِ

والرَّألُ النعام، والمراد أن نفسه فرّت وفَزِعت، شبه بإسراع النعام فى فِراره وفزعه فلمـا أورد ذلك علىٰ سبيل المجـاز، زال بعض القبح . قال : وهـذا يدركه الذوق الصحيح فهى فى بيت أبى تَمَّامٍ قبيحةٌ سمجةٌ، وهاهنا بينَ بينَ، ويقاس علىٰ ذلك أشباهُه ونظائرُه .

النمط الثانى ـ مايترجح فيه فعل الأمر والمستقبل فى الآستعمال علىٰ الفعل الماضى وذلك فى مثل لفظة وَدَعَ، وهى فعل ماض ثلاثىّ لاثِقَلَ بها علىٰ اللسان، ومع ذلك

(١) فى المثل السائر . الظَّلام . وكذا فى ديوان أبى تمام .

فإنها لا تستعمل علىٰ صيغتها الماضـية إلا جاءت غير مُسْتَحْسَنَةٍ، فإذا ٱستعملت علىٰ صـيغة الأمر أو الٱستقبال، جاءت حسنة بهجة رائقة، أما علىٰ صيغة الأمر فكما فى قوله تعالىٰ : "فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا"(١) ولم ترد فى القرءان الكريم إلا علىٰ هـذه الصـيغة، وأما علىٰ صـيغة الٱستقبال فكقول النبى صلى الله عليه وسلم وقد واصل فى شهر رمضانَ فواصل معه قوم، فقال : "لو مُدّ لنـا الشَّهرُ لواصَلْنَا وِصالًا يَدَعُ له المتَعَمِّقُون تعمُّقَهم" وقد ٱستعملها أبو الطَّيِّبِ علىٰ هذا الوجه فى قوله :

تَشُقُّكُمْ بِقَنَاهَـا كُلُّ سَـاهِبَةٍ * والضَّرْبُ يَأْخُذُ مِنكُمْ فوق مَايَدَعُ

فجاءت فى كلامه بهجة رائقـة، وأما المـاضى من هذه اللفظة، فلم يستعمل إلا شاذا ولا حُسْنَ له، كقول أبى العتاهية :

أَثْرَوْا فلم يُدْخِلُوا قبورَهُم * شيئًا من الثَّرْوَةِ التى جَمَعُوا

وَكَانَ ماقَدَّمُوا لأنفسهم * أعظمَ نَفْعًا من الذى وَدَعُوا

فلم تقع فى كلامه من الحسن موقعا، ولا أصابت من الطَّلاوة غَرَضًا؛ وهذه لفظة واحدة لم يتغير شئ من أحوالها سوىٰ أنها نقلت من صيغة إلىٰ صيغة؛ وكذلك لفظة وَذَرَ فإنها لاتستعمل ماضية، وتستعمل علىٰ صيغة الأمر كقوله تعالىٰ : "ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا". وتستعمل مستقبلة أيضا كقوله تعالىٰ: "سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَاسَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ" ولم ترد فى القرءان الكريم إلا علىٰ هاتين الصيغتين؛ وكذلك فى غير القرءان الكريم من فصيح الكلام، أما فى حالة المضىّ، فإنها أقبح من لفظة وَدَعَ، وقد ٱستعملت ماضية مع شذوذ، وهذه لم تستعمل أصلا .

النمط الثالث — مايترجح فيه الإفراد فى الٱستعمال علىٰ التثنية، وذلك فى مثل لفظ

(١) كان عليه أن يمثل بقوله تعـالىٰ : "وَدَعْ أَذَاهُمْ" .

الأَخْدَع ، فإنها يحسن ٱستعمالها فى حالة الإفراد دون التثنية ؛ فما وردت فيه مفردة فجاءت حسنة رائقة، قول الصِّمَّةِ بن عبد الله من شعراء الحماسة :

تَلَفَّتُّ نَحْوَ الحَىِّ حتَّى وَجَدْتُنِى * وَجِعْتُ مِنَ الإصْغَاءِ لِيتاً وَأَخْدَعا

ومما ورد فيه لفظ التثنية فجاء ثقيلا مستكرها قول أبى تمَّام :

يَادَهْرُ قَوِّمْ مِنْ أَخْدَعَيْكَ فَقَدْ * أَضْجَجْتَ هَذَا الأَنَامَ مِنْ خُرُقِكْ

هكذا ذكره فى المَثَلِ السائر، ثم قال : وليس لذلك سبب إلا أنها جاءت مُوَحَّدَةً فى أحدهما فَحَسُنَتْ، وجاءت مثناة فى الآخر فقُبُحت .

النمط الرابع ــ ما يترجح فيه الإفراد فى الٱستعمال علىٰ الجمع ، وذلك كلفظة الأرض فإنها لم ترد فى القرءان الكريم إلا مفردة، سواء أفردت بالذكر عن السماء كما فى قوله تعالىٰ : "وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً" أو قُرِنت بالسماء مفردة كما فى قوله تعالىٰ : "وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَىٰ الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ" أو مجموعةً كما فى قوله تعالىٰ : "الْحَمْدُ لِلهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ" ولو كان ٱستعمالها بلفظ الجمع مستحسنا، لكان هذا الموضعُ وشبهُهُ به أليق لمقابلة الجمع فى السموات، ولما أراد أن يأتىَ بها مجموعةً قال : "اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ" وكذلك لفظة البُقْعَة ، وكذلك لفظة طَيْفٍ فى ذكر طَيْف الخيال ، فإنها تجمع علىٰ طُيُوف ، وهى فى حالة الإفراد من أَرَقِّ الألفاظ وألطفها؛ فإذا جمعت زالت عنها تلك الطَّلاوة، وفارقتها تلك البَهْجَةُ ، ولذلك وردت فى القرءان الكريم بلفظ الإفراد قال تعالىٰ : "إِنَّ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَيْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ". ولم تزل الشعراء فى القديم والحديث يستعملونه بلفظ الإفراد فيقع أحسنَ موقع ، ولم يُلِمُّوا بٱستعماله مجموعا، قال فى المَثَل السائر : ويالله العجب ! من هذه اللفظة ومن أختها

عدّة ووزنا، وهى ضيف فإنها تستعمل مفردة ومجموعة، وكلاهما فى الآستعمال حسن رائق، قال : وهذا ممـا لا يُعْلَمُ السرّ فيه ، والذوق السليم هو الحاكم فى الفرق بين هاتين اللفظتين وما يجرى مَجْراهمـا، وكذلك يجرى الحكم فى جميع المصـادر، فإنها فى حالة الإفراد أحسنُ منها فى حالة الجمع، وقد جاء منها بعض ألفاظ مجموعة فجاءت غَثَّة مستكرهة، كما فى قول عنترة :

فإن يَبْرَأْ فلمْ أَنفِثْ عليْهِ ✻ وإن يُفْقَدْ فَحُقَّ لَهُ الفُقُودُ

فالفقود جمع مصدر من قولنا : فقد يفْقِد فَقْدا، وليس له من الرَّوْنق والطَّلاوة ما لمفرده، وهو لفظ فَقْدٍ، وإن كان جائزا من جهة العربية .

النمط الخامس ـــ ما يترجح فيه الجمع فى الآستعمال علىٰ الإفراد كلفظة اللُّبّ الذى هو العقل، فإن آستعمالها بصيغة الجمع فى غاية الحسن والبهجة والطَّلاوة، وقد ورد بهذه الصيغة فى غير موضع من القرءان الكريم، كقوله تعالىٰ : ”وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ“ وقوله : ”وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَـابِ“ إلىٰ غير ذلك من الآيات الوارد فيها ذلك بصـيغة الجمع ، أما فى حالة الإفراد فإنها قليلة الآستعمال مع أنها لفظة ثلاثية خفيفة علىٰ النطق ، بعيدة المخـارج، ليست بمستثقلة ولا مكروهة ، قال فى المَثَل السائر : وإذا تأملت القرءان الكريم ودققتَ النظر فى رموزه وأسراره، وجدتَ هـذه اللفظة قد رُوعى فيها الجمع دون الإفراد فإن أضـيفت أو أضيف إليها، حسن آستعمالهـا، وساغ فى طريق الفصاحة إيرادها . أما إضـافتها فكقول النبى صلى الله عليه وسلم فى ذكر النساء : ”مَارَأَيْتُ نَاقِصَـاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ يَامَعْشَرَ النِّسَاءِ“ وأما الإضافة إليها فكقول جرير :

إنّ العُيونَ التى فى طَرْفِها حَـوَرٌ ✻ قَتَلْنَنَا، ثم لم يُحْيِينَ قَتْـلانَا

يَصْرَعْنَ ذَا اللُّبِ حتّى لَاحَرَاكَ به ✻ وهُنّ أضـعفُ خلقِ اللهِ إنسانا

قال فى المَثَل السائر : فإن عَرِيت هـذه اللفظة عن الجمع والإضـافة ، لم تأت حسنة . قال : ولا تجد دليلا علىٰ ذلك إلا مجرّدَ الذوق السليم ؛ وكذلك لفظة كوب فإنها لم ترد فى القرءان الكريم إلا مجموعة ، وهى و إن لم تكن مستقبحة فى حالة الإفراد ، فإن الجمع فيها أحسن . وٱنظر إلىٰ ماعليها من الطَّلاوة والمـائية فى قوله تعالىٰ : "يَطُوفُ عَلَيْهِـمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَعِينٍ" وعلىٰ هـذا النحو لفظ رَجًا بالقصر ، ومعناه الجانب ، فإنهـا قد وردت فى القرءان بلفظ الجمع فى قوله تعـالىٰ : "والْمَلَكُ عَلىٰ أَرْجائِها" أى جوانبها ، ولم تستعمل مفردة : لأن الجمع يُكْسِبها من الحسن ما لم يوجد لهـا حالة الإفراد ؛ فإن أضـيفت حالة الإفراد كرجا البـئر ونحوه ، حسنت كما فى حالة الجمع . قال فى المَثَل السائر : وليس كذلك لفظ الصُّـوف والأصواف ، و إن كان لم يرد فى القـرءان الكريم إلا مجموعا حيث قال تعـالىٰ : "وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأَنْعَـامِ بُيُوتًا تَسْـتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْـعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَـاعًا إِلىٰ حِينٍ" لأن لفظ الصوف مسـتحسنٌ فى حالة الإفراد كما فى حالة الجمع . قال : وإنمـا قَبُح ذكره فى قول أبى تَمَّـامٍ :

كَانُوا بُرُودَ زمانِهِم فتصدّعوا * فكأنّمـا لَبِسَ الزمانُ الصُّوفَا

لأنها جاءت مجازية فى نسبتها إلىٰ الزمان . قال : وعلىٰ هـذا النَّهْجِ وردت لفظة حِبْر وأحبار فإنها مجموعةً أحسنُ منها مفردةً ، ولم ترد فى القرءان الكريم إلا مجموعة .

النمط السادس ــ ما يترجح فيه بعضُ الجموع فى الٱستعمال علىٰ بعض كما فى جمع صـائب من قولك : سهم صائب ، فإنه يقـال فى الجمع سِهَام صوائبُ وصائبات وصُيَّبٌ بالتشديد ، وهذه الجموع كلها حسنة ، رائقة ، مُعْجِبَةٌ ، دائرة علىٰ ألسنة أرباب النثر والنظم ، ويقال فى جمعه أيضا صُيُبٌ علىٰ وزن كُتُب ، وهو جمع قبيح ،

مرفوض الاستعمال ، ثقيل على النطق ، جاف عن السمع ، وقد استعمله أبو نُوَاسٍ في شعره حيث قال :

ماأَحلَّ اللهُ ماصَنَعَتْ * عينُه تلك العشيةَ بِي

قَتَلَتْ إنسانُها كَبِدى * بسِهام للردى صُيُبِ

فجاءت غَثَّةً كريهة نابيــة عن السمع ، نافرة عن اللسان ، وكذلك الجمع فى قَيْدٍ ، فإنه يجمع على قيود ، وهو جمع سائغ القبول ، شائع الاستعمال ، ويقال فى جمعه أيضا أقياد ، وهو من الجموع المستكرهة الخارجة عن الاستعمال ، وقد ورد فى قول عُوَيْفِ القوافى من أبيات الحماسة :

ذهب الرُّقَادُ فما يُحَسُّ رُقَادُ * مما شَجَاكَ ونامت العُوَّادُ

لما أتانى من عُيَيْنَةَ أنه * أمست عليه تُظَاهَرُ الأَقْيَادُ

فلم يحسن ولم يَرُقْ ، وكذلك القول فى جمع قُبَّةٍ ، فإنه يجمع على قبــاب وهو جمع حسن دائر على ألســنة الفصحاء من أهل النظم والنثر ، ويجمع أيضا على قُبَبٍ ، وليس بمستحسَن ، وإن كان هو فى الكراهة دون أقياد فى جمع قَيْدٍ ، وقد استعمله ابن مُحْكَانَ التَّمِيمِىُّ فى قوله :

مَا ذَا تَرَيْنَ أَنَدْنِيهِــمْ لِأَرْحُلِنَا * فِى جَانِبِ الْبَيْتِ أَمْ نَبْنِى لَهُمْ قُبَبَا ؟

فلم يحسن كحسن قباب بل جاءت كريهة مستشنعة ، وأعجب ما فى هذا الباب أن الجمع قد يكون متفقا فى لفظة واحدة إلا أنها مختلفة المعنى فيختلف الاســتعمال فى الجمع باختلاف المعـانى حتّى لو جىء بجمع فى مكان جمع لم يحسن اســتعماله وإن كان جائزا من جهة العربيــة : كلفظ العين ، فإنها تطلق من جمـلة مدلولاتها على العين الباصرة ، والعين من الناس ، وهو النَّبِيهُ منهم ، والعينُ الباصرة تجمع على

عيون، والعين من الناس تجمع علىٰ أعيان، وقد شذ هذا الموضع علىٰ المتنبي فى قوله :

وَالْقَوْمُ فِى أَعْيَانِهِمْ خَزَرٌ * وَالْخَيْلُ فِى أَعْيَانِهَا قَبَلُ

فجمع العين الباصرة علىٰ أعيان فى الموضعين، قال فى "المَثَل السائر" : وكأن الذوق يأبىٰ ذلك ولا يجد له علىٰ اللسان حلاوةً و إن كان جائزا، وأعجبُ من ذلك كله أنك ترىٰ وزنا واحدا من الألفاظ، فتارةً تجد مفردَه حسنا، وتارة تجد جمعه حسنا، وتارة تجدهما جميعا حسنين .

فمما مفرده أحسن من جمعه حُبْرُورٌ : وهو فَرْخُ الحُبَارىٰ، فإنه يجمع علىٰ حَبَارِيرَ ومفرده أحسنُ من جمعه، وكذلك طُنْبُورٌ وطنابير، وعُرْقُوبٌ وعراقيبُ، وما أشبه ذلك .

ومما جمعه أحسن من مفرده بُهْلُولٌ وبَهَاليل، ولُهْمُومٌ ولهاميم، وهذا ضدّ الأوّل .

ومما مفرده حسن و جمعه حسن جُمْهُورٌ و جماهير، وعُرْجُونٌ وعَرَاجينُ وما أشبه ذلك .

النمط السابع — مايترجح فيه أحد صور الوزن الواحد بٱختلافه بالحركة والسكون كلفظ الثلث والربع إلىٰ العشر، فإنها فى حالة سكون الوسط كلها حسنة سائغة الاستعمال فإذا تحركت أوساطها فقلت ثُلُث، ورُبُع، وخُمُس وكذلك إلىٰ عُشُر، فإن الحسن من ذلك جميعه ثلاثة وهى الثُّلُثُ، والخُمُس، والسُّدُس أما الربُع، والسبُع، والثمُن، والتُسع، والعُشر فليس كذلك فى حسنه . قلت : إنما يظهر ذلك فى السبُع، والتُسع، والعُشر خاصة فان الثِّقَلَ ظاهر فيها، أما الربُع والثمُنُ فانهما فى الحسن مع تحريك الوسط كالثلُث، والخمُس، والسدُس، وقد ورد القرءان بتحريك الوسط فيهما فى سورة النساء حيث قال تعالىٰ : "وَلَكُمْ نِصْفُ مَاتَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ

لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ" وقوله: "وَلَهُنَّ الرُّبعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّـا تَرَكْتُمْ" وأىُّ حُسْن وفصاحة بعـد وروده فى القرءان الكـريم ؟

النمط الثامن ـ ما تترجح فيه أبنية بعض أسمـاء الفاعلين فى الاستعمال علىٰ بعض كاسم الفاعل المبنىّ من فَعِلَ بفتح الفاء وكسر العين، فإنه يبنى علىٰ فاعل وفَعِلٍ بكسر العين وفَعْلَانَ نحو حَمِدَ فهو حامد، وحَمِدٌ، وحَمْدَانُ، وفَرِحَ فهو فَرِحٌ، وفارح، وفرحانُ، وغَضِبَ فهو غَضْبان، وغاضب، فالأفعال الثلاثة علىٰ وزن واحد، وصيغُ أسمـاء الفاعلين المبنية منها مختلفةٌ فى الأحسن الغالب استعماله، فحامد من حَمِدَ أحسن من حَمِدٍ وحَمْدَانَ، وفَرِحٌ من فَرِحَ أحسن من فارح وفرحان، وغضبان من غَضِبَ أحسن من غاضب، وإن كان جائزا؛ وقد جاء بناء اسم الفـاعل من فَرِحَ علىٰ فارح فى قول بعض شعراء الحَمَـاسة:

فما أنا من حُزْنٍ وإن جَلَّ جَازِعٌ * ولَا بِسُرُورٍ بعْـدَ مَوْتِكَ فَارِحُ

فلم يحسن كحسن فَرِحٍ، أما ماجاء منه علىٰ وزن فُعَلَةٍ نحو هُمَزَةٍ ولُمَزَةٍ وجُثَمَةٍ ونُوَمَةٍ ولُكَنَةٍ وحُتَنَةٍ، وما أشبه ذلك، فقد قال فى "المَثَل السائر": الغالب علىٰ هذه اللفظة أن تكون حسنة.

النمط التاسع ـ ما يترجح من أوزان الأفعال بعضها علىٰ بعض كلفظة فعل وافتعل فإن لفظةَ فعل لهـا موضع تستعمل فيه: ولفظةَ افتعل لهـا موضع تستعمل فيه، تقول: قعـدت إلىٰ فلان إذا جلستَ اليه، واقتعدت غارب الجمل، إذا ركبتَ عليه، ولا يحسن أن تقول اقتعدت إلىٰ فلان وقعدت علىٰ غارب الجمل، وإن كان ذلك جائزا، وكذلك أفعل وافْعَوْعَلَ فإنك تقول أَعْشَبَ المكان، فإذا كثر عُشْبُهُ قلت: اعشَوْشَبَ فلفظة افعوعل للتكثير، وهى علىٰ مافيها من تَكْرار الحروف طيّبةٌ

عَذْبة، وكذلك سائر ما فى وزنها نحو آخشَوْشَن المكان، وآغْرَوْرَقت العين، وآحلَوْلَى الطعم، وما أشبه ذلك، قال فى "المَثَل السائر" : وهذا كله مما أخذته بالآستقراء، وفى اللغة مواضع كثيرة من ذلك لا يمكن آستقصاؤها .

فانظر إلىٰ ما يفعله آختلاف الصيغة بالألفاظ، وعليك بتفقُّد أمثال هذه الكلمات لتعلَم كيف تضع يدك فى آستعمالها، فكثيرا ما يَقع لفحول الخطباء والشعراء فى مثلها، ومؤلِّف الكلام من كاتب وشاعر إذا مرَّتْ به الألفاظ عرضها علىٰ ذوقه الصحيح، فما يجده الحسُّ منها مُوَحَّدًا وحَّده، وما يجده الحس منها مجموعا جمعه ؛ وكذلك يجرى الحكم فيما سوىٰ ذلك من الألفاظ .

الصنف الثالث

(المتوحش فى زمن دون زمن)

وهو ما كان متداوَل الآستعمال فى زمن العرب، ثم رُفِضَ وتُرِك بعد ذلك، وبهذا لا يعاب آستعماله علىٰ العرب لأنه لم يكن عندهم وَحْشِيًّا، ولا لديهم غريبا كما سيأتى التنبيه عليه، وإنما يُعاب آستعماله علىٰ غيرهم ممن قَصُر فهمهم عنه، وَقَلَّتْ معرفتُهم به ؛ وقد كان كلام العرب مشحونا به فى نظمهم ونثرهم، دائرا علىٰ ألسنتهم فى مخاطَباتهم ومحاوَراتهم، غير معيب ولا ملوم عليه ؛ وآنظر إلىٰ ما تضمنته خطبهم وأشعارهم من الغريب ترىٰ ذلك عِيَانا ؛ فمن ذلك قول أبى المُثَلَّم الهُذَلِّى :

آبِى الهَضِيمَة نَابٍ بِالعَظِيمَة مِتْـ * ـلافُ الكَرِيمَة جَلْدٌ غَيرُ ثُنْيَان
حَامى الحَقِيقَة نَسَّالُ الوَدِيقَة مِعْـ * ـتَاقُ الوَسِيقة، لا نِكْسٌ ولا وَان
رَبَّاءُ مَرْقَبَةٍ مَنَّاعُ مَغْلَبَةٍ * وَهَّابُ سَلْهَبَةٍ، قَطَّاعُ أَقْرَان
هَبَّاطُ أَوْدِيَةٍ حَمَّالُ أَلْوِيَةٍ * شَهَّادُ أَنْدِيَةٍ سِرْحَانُ فِتْيَان

وقول أعرابىّ فى وصـف إبل : كُومٌ بهَازِر ، مكد خنَاجر ، عِظَامُ الحَنَاجر ، سِباطُ المَشَافر ، أجوافها رِغَاب ، وأعطانها رِحَاب ، تُمنَع من البَهم ، وتبرك للجُمَم . يريد بالكُوم جمع كَوْماءَ ، وهى الناقة العظيمة السَّنَام ، والبَهَازِر جمع بُهْزُرة : وهى الناقة العظيمة ، والمُكُد جمع مَكُودٍ : وهى الناقة الغزيرة اللبن ، والخناجر جمع خُنْجور : وهى بمعـنى المَكُود أيضا ، والعِظَام الحناجر غِلَاظُ الأعنـاق ، وسِبَاطُ المَشَافر أى مرسَلات المشافر ، والمِشْفَرُ من الناقة كالجَحْفَلَةِ من الفرس ؛ ونحو ذلك مما يجرى هذا المجرىٰ وينخرط فى هـذا السِّلْك ؛ فهذا ومثله لايعاب ٱستعماله علىٰ العرب لأنه لم يكن عندهم غريبا ولا لديهم وَحْشِيًّا ، بل شائعا بينهم ، دائرا علىٰ ألسنتهم فى نظمهم ونثرهم ؛ وأعظم شاهد لاستحسان ٱستعماله عندهم ووضوح مَنْهَجِه لديهم أن القرءان الكريم الذى هو أفصح كلام وأبهج لفظ قد ٱشتمل علىٰ ألفـاظ من ذلك كقوله تعـالىٰ : "وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ دُحُوراً وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ" وقوله : "إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ" وما أشبه ذلك ؛ وهذه الألفاظ كانت مفهومة عند العرب ، معلومةَ المعـانى عند المخاطَبين : لأنّ الله تعالىٰ قد خاطبهم به وأمرهم فيه ونهاهم ، والخطاب بما لا يُفْهَم بعيد ، وقد قال تعالىٰ : "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ" . وكذلك ورد فى الأخبار النبوية جملة مستكْثَرة من ذلك ، وهى المعبر عنها بغريب الحديث . كقوله صلىٰ الله عليه وسلم "مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لم يَذْكُرِ اللهَ تعالىٰ فيه كانت عليه من الله تعالىٰ تِرَةٌ" أى نقص ، وقيل تَبِعَة ، وقيل حَسْرة . وقوله صلىٰ الله عليه وسلم "لِيَسْتَرْجِعْ أحدُكم حتّى فى شِسْعِ نَعْلِهِ فإنها من المَصَائب" والشِّسْعُ أحد سيور النعل ؛ وقوله صـلىٰ الله عليه وسـلم : "أَلِظُّوا بياذا الجَلَال والإكرام" أى ٱلزموا هذه الدعوة وأكثروا منها . وقوله صلىٰ الله عليه وسلم فى الدعاءِ : "وٱغْسِلْ حَوْبَتِي وٱسْلُلْ سَخِيمَةَ قلبى" وأشباه ذلك .

وحديث أمّ زَرْعٍ صريح فى شيوع ذلك فيهم، وعمومه فى مخاطَبَاتهم ومكالَمَاتهم، وهو ماثبت فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : "جَلَس إحدىٰ عشرةَ آمرأةً فتعاهَدْنَ وتعاقَدْنَ أن لا يَكْتُمْنَ من أخبار أزواجهن شيئا .

قالت الأولىٰ : زوجى لَحْمُ جَمَلٍ غَثٍّ علىٰ رأس جبل، لاسَهْلٍ فيرتقىٰ ولا سمينٍ فيُنْتَقىٰ، وفى رواية فينتقل .

قالت الثانيــة : زوجى لاأَبُثُّ خبَره، إنّى أخافُ أن لاأَذَرَه، إن أذكُرْه أذكُرْ عُجَرَهُ وبُجَرَهُ .

قالت الثالثــة : زوجى العَشَنَّقُ، إن أَنْطِقْ أُطَلَّقْ، وإن أسكُتْ أُعَلَّقْ .

قالت الرابعة : زوجى كلَيْلِ تِهَامَه، لاحَرٌّ ولا قُرٌّ ولا خوفٌ ولا سَآمه.

قالت الخامسة : زوجى إن دخل فَهِد، وإن خرج أَسِد، ولا يَسْأل عما عَهِدَ.

قالت السادسة : زوجى إن أَكَلَ لَفَّ، وإن شَرِب آشْـتَفَّ ، وإن آضطَجَعَ آلْتَفَّ، ولايُولِجُ الكَفَّ، ليعلم البَثَّ.

قالت السابعة : زوجى عَيَـايَاءُ طَبَاقَاءُ، كلُّ داءٍ له داء، شَجَّكِ أو فَلَّكِ أو جَمَعَ كُلًّالَكِ .

قالت الثامنــة : زوجى الريحُ ريحُ زَرْنَب، والمَسُّ مَسُّ أرنَب .

قالت التاسعة : زَوْجِى رَفِيعُ العِمَادِ، طَوِيلُ النِّجَاد، عظيم الرَّماد،قريبُ البيتِ من النَّاد .

قالت العاشرة : زوجى مَالِكٌ وما مَالِكٌ ؟ مالك خيرٌ من ذلك، له إبلٌ قليلاتُ المَسَارح، كثيراتُ المَبَارِك ، وإذا سِمعْنَ صوت المِزْهَرِ أيقَنَّ أنهنَّ هَوَالِك .

قالت الحاديةَ عشْرةَ : زوْجِى أبو زَرْع وما أَبُو زَرع ؟ أَنَاسَ من حُلِيٍّ أُذُنَيَّ ،

وملأ من شحم عضدى، وبجّحني فبجحت إلىّ نفسى، وجدنى فى أهل غنيمة بشِقٍّ، فجعلني فى أهل صهيلٍ وأطيطٍ ودائسٍ ومنقٍّ، فعنده أقول فلا أُقبّح، وأرقد فأتصبّح، وأشرب فأتقنّح، (وفى رواية فأتقمّح)، أُمّ أبى زرعٍ فما أُمّ أبى زرعٍ؟ عكومها رداحٌ، وبيتها فساحٌ، ابن أبى زرعٍ فما ابن أبى زرعٍ؟ مضجعه كمسلّ شطبةٍ، وتشبعه ذراع الجفرة، بنت أبى زرعٍ فما بنت أبى زرعٍ؟ طوع أبيها، وطوع أمّها، وملء كسائها، وغيظ جارتها، جاريةُ أبى زرعٍ فما جارية أبى زرعٍ؟ لا تنثّ حديثنا تنثيثًا (وفى رواية لا تبثّ حديثنا تبثيثًا)، ولا تنقّث ميرتنا تنقيثًا، ولا تملأ بيتنا تعشيشًا. قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تمخض، فلقى امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمّانتين فطلّقنى ونكحها، فنكحت بعده رجلا سريًّا، ركب شريًّا، وأخذ خطّيًّا، وأراح علىّ نعمًا ثريًّا، وأعطانى من كلّ رائحةٍ زوجًا، (وفى رواية فأعطانى من كل ذابحةٍ زوجا). وقال: كُلى أُمّ زرعٍ وميرى أهلكِ، فلو جمعت كلّ شىءٍ أعطانِى ما بلغ أصغر آنيةِ أبى زرعٍ

قالت عائشة: قال لى رسولُ الله صلىٰ الله عليه وسلم كنتُ لكِ كأبى زرعٍ لأُمّ زرعٍ (وفى رواية غير أنّى لا أطلّقك).

فاذا كان هذا كلامَ نسائهم الدائرَ فيما بينهن من محادثاتهن مع بعضهن فى خلواتهنّ، فما ظنك بفرسان الكلام فى نظمهم ونثرهم؟ فأنّى يُعاب عليهم ذلك، ويُنكر عليهم الإتيان بمثله؟

وقد اختصم رجل وامرأة إلىٰ يحيىٰ بن يعمر، وهو من أكابر التابعين وجلّتهم، فقال للرجل: أأنْ سألتك ثمن شكرها وشبرك، أنشأت تطلّها وتضهلها؟. أما غير العرب ممن تكلف ذلك وأتىٰ به فى كلامه المعتاد فى مخاطباته أو نثره ونظمه فإنه يعاب عليه ذلك، ويحطّ به عن درجة الفصاحة، ويخرج به عن قانونها؛ إذ

المقصـود من الكلام إنما هو الإفهام لا غير ، فيخاطب كلُّ أحد بما يفهـمه ولا يُكَلَّفُ بما لا يعلمه ، وخير الكلام ماجاد وأفاد . قال بِشْرُ بن المعتمر : إيَّاكَ والتَّوعُّرَ ، فإنه يُسْلِمك إلىٰ التعقيد والتقييد ، وهو الذى يستهلِكُ معانيَكَ ، و يمنعك مَرَاميَكَ .

قال أبو هلال العسكرى : ور بما غلب سوءُ الرأى وقلةُ العقل علىٰ بعض علماء العربية فيخاطبون السُّوقِىَّ ، والمملوكَ والأعجمىَّ ، بألفاظ أهل نجد ، ومعانى أهل السَّراةِ ؛ وحكاياتهم فى ذلك كثيرةٌ . قال أبو نَصْرٍ الجوهرىّ : سقط عيسىٰ بن عُمَرَ عن حمار له فاجتمع عليه النـاس فقال : مَا لَكُمْ تَكَأْكَأْتُمْ عَلَىَّ تَكَأْكُؤَكُمْ علىٰ ذى جِنَّةٍ ؟ افْرَنْقِعُوا عَنِّى . أى ما لكم ٱجتمعتم علىّ ٱجتماعَكُم علىٰ ذى جِنَّة تفرّقوا عنى . وذكر الجاحظ هذه الحكايةَ عن أبى عَلْقَمَةَ النحوىّ بزيادة فقال : مر أبو عَلْقَمَةَ ببعض طُرُق البصرة فهاجت به مِرَّةٌ فوثب عليـه قوم يَعَضُّونَ إبهامَه و يؤذِّنون فى أذنه ، فأَفْلَتَ من أيديهم وقال : مَا لَكُمْ تَكَأْكَأْتُمْ علىّ كَمَا تَكَأْكَؤُونَ علىٰ ذى جِنَّةٍ افْرَنْقِعُوا عَنِّى . فقال بعضهم : دَعُوه فإن شيطانه يتكلم بالهِنْدِيَّة .

وقال أبو علقمة يوما لحاجمه : أُشْدُدْ قَصَبَ المَلَازم ، وأَرْهِفْ ظُبَاتِ المَشَارط ، وأَمِرَّ المسحَ ، وٱستَنْجِل الرَّشْحَ ، وخَفِّفِ الوطء ، وعَجِّل النَّزْعَ ، ولا تُكْرِهَنَّ أَبِيًّا ، ولا تردّن أَتِيًّا ؛ فقال له الحَجَّامُ : ليس لى علم بالحروف .

ونظر إليه رجل وتحتـه بَغْل مِصْرىّ حسن المَنْظَرِ ، فقال : إن كان مَخْبَرُ هذا البغل كَمَنْظَرِه فقد كَمَل ! فقال أبو عَلْقَمَةَ : والله لقد خرجتُ عليه من مِصْرَ فتنكَّبتُ الطريقَ مخافة السُّرَّاقِ وجَوْرِ السلطان ، فبينا أنا أَسِيرُ فى ليلة ظَلْمَاءَ ، قَتْمَاءَ ، طَخْيَاءَ مُدْلَهِمَّةٍ ، حِنْدِسٍ ، داجيـة ، فى صَحْصَحٍ أَمْلَسَ ، إذ أحس بِنَبْأَةٍ من صوت نُغَرٍ ، أو طَيَرَانِ ضُوَعٍ ، أو نَغْضِ سُبَدٍ ، فَحَاصَ عن الطريق مُتَنَكِّبًا لِعِزَّةِ نفسه ، وفَضْلِ

قُوَّتِه ، فبعثته باللجام فَعَسَلَ ، وحَرَّكته بالركاب فَنَسَل ، وٱنْتَعَلَ الطريق يغتاله مُعْتَزِمًا ، والْتَحَفَ الليل لايهابه مُظْلِمًا ، فوالله ماشبهته إلا بظَبْيَة نافرة تَحْفِزُها فَتْخَاءُ شَاغِيَةٌ ، فقال الرجل فادعُ اللهَ وسَلْهُ أن يحشرَ معك هذا البغلَ يوم القيامة ، قال : ولِمَ ؟ قال : ليُجيزَكَ الصِّراطَ بطَفْرةٍ .

وكانت ٱمرأة تأكل الطِّين(١) فحصل لها بسببه إسهال مَرِضَت منه ، وكان لها ولد يتكلم بالغريب ، فكتب رِقَاعا وطَرَحها فى المسجد الجامع بمدينة السَّلام . فيها صِينَ ٱمْرُؤٌ وَرُعِيَ ، دعا لامرأة إنْقَحْلَة مُقْسَئِنَّة قد مُنِيَتْ بِأَكْلِ الطُّرْمُوق فأصابها من أَجلِه الاَسْتِمْصَالُ أن يمُنَّ الله عليها بالاَطْرِغْشَاشِ . فكل من قرأ رُقعته ، دعا عليه ولعنه ولعن أمه .

وحكى محمد بن أبى المغازى الضبى عن أبيه قال : كان لنا جار بالكوفة لا يتكلم إلا بالغريب ، فخرج إلى ضَيْعة له على حِجْرٍ ، معها مُهْر فأفْلَتَتْ ، فذهبت ومعها مُهْرُها فخرج يسأل عنها ، فمرّ بخَيَّاطٍ فقال : ياذا النِّصَاحِ وذَاتِ السَّمِّ ، الطاعنَ بها فى غير وَغًى لغير عِدًّى ، هل رأيت الخَيْفَانَةَ القَبَّاءَ يتبعها الحَاسِنُ المُسْرَهَفُ ؟ كأنّ غُرَّتَه القمر الأزهر ، ينير فى حُضْرِه كالْحَلب الأجرد ، فقال الخَيَّاط : ٱطْلُبها فى ترللج ؟ فقال : وَيْحكَ ما تقول ! قَبَحك الله ، فإنى ما أعرف رَطَانَتَكَ . قال : لعن الله أبغضَنا لفظًا وأخطأَنا مَنْطقا .

وضرب عمرُ بنُ هبيرةَ عيسى بنَ عمر النحويَّ ضربا كثيرا من أجل وديعة فكان يقول وهو يضرب : ماهى إلا أثيَّابٌ فى أُسَيفَاط أخذها عَشَّارُوك . وسأله رجل عن مسألة . فقال : ليست مسألتك يَتْنًا : أى ليست مستوية ، وأصل اليَتْن خروج رِجْل الولد قبل رأسه . وسأله آخر عن كتابته ، فقال : كتبت حتّى ٱنقطع

(١) كذا فى الصناعتين أيضا ولعله مصحف عن الطير بالراء بدليل بقية الكلام فان الطرموق اسم للخفاش وهو من الطير .

سوائى أى ظهرى ، على ان أبا جعفر النحاسَ قد عدّ عيسى بن عمر من المطبوعين فى ذلك . قال الجاحظ : رأيتهم يديرون فى كتبهم هذا الكلامَ فإن كانوا إنما رَوَوْهُ ودوّنوه لأنه يدل على فصاحة و بلاغة، فقد باعده الله من صفة الفصاحة والبلاغة، و إن كانوا فعلوا ذلك لأنه غريب فأبيات من شعر العَجّاج وشعر الطِّرِمَّاح وأشعار هُذَيْلٍ تأتى لهم مع الرصف الحسن على أكثر من ذلك . فلو خاطب أحد الأَصْمَعىّ بمثل هذا الكلام، لظننتُ أنه يستجهل نفسه، وهذا خارج عن عادة البلغاء .

الصنف الرابع
(الغريب المتوحش عند قوم دون قوم)

وذلك ككلام أهل البادية من العرب بالنسبة إلى أهل الحَضَر منهم، فإن أهل الحَضَر يألفون السَّهْلَ من الكلام، و يستعملون الألفاظ الرقيقةَ، ولا يستعملون الغريب إلا فى النادر ، وأهل البادية يألفون اللفظ الجَزْل و يميلون إلى ٱستعمال الغريب، و إذا نظرتَ إلى أهل مكةَ وكلامِ قريش الذين نزل القرءان بلغتهم و بُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم من أَرُومَتِهِمْ، وكلامِ أهل حَضْرَمَوْتَ وما جاورها من اليمنِ ومَخَاليف الحجاز، علمتَ فرقَ مابين الكلامين، وتبايُنَ مابين الطَّرَفين، حتّى كأنَّ البادى يَرْطُنُ بالنسبة إلى الحاضر، و يتكلم بلغة غير العربية ؛ وكانت لغة رسول الله صلى الله عليه وسلم التى يتكلم بها على الدوام ، و يخاطب بها الخاص والعامَّ، لغة قريش وحاضرةِ الحجاز، إلا أنه صلى الله عليه وسلم أُوتِىَ جوامع الكلم وجمع إلى سُهُولة الحاضرة جزالةَ البادية، فكان يخاطب أهل نجد وتِهَامَةَ وقبائلَ اليمن بلغتهم، و يخاطبهم فى الكلام الجزل على قدر طبقتهم .

فمن ذلك كلامه صلى الله عليه وسلم لِطَهْفَةَ النَّهدىّ وكتابُه إلى بنى نَهْدٍ، وذلك أنه لما قَدِمَ وُفودُ العرب على النبىّ صلى الله عليه وسلم قدم عليه طَهْفَةُ بن أبى زُهَيرٍ

النَّهْـدِىّ . فقال : أتيناك يارسول الله من غَوْرِ تِهَامَةَ على أكوار المَيْس ، ترتمى بنا العِيسُ ، نستحْلِب الصَّبيرَ ، ونستخْلِب الخَبِيرَ ، ونَسْتَعْضِدُ البَرِيرَ ، ونَسْتَحِيلُ الرِّهَامَ ، ونَسْتَخِيلُ الجَهَامَ ، من أرض غائلة النِّطَاء ، غليظة الوِطَاء ، قد جَفَّ المُدْهُنُ ، ويَبِس الجِعْثِنُ ، وسَـقَطَ الأُمْلُوجُ ، ومات العُسْلُوجُ ، وهَلَكَ الهَدِىُّ ، وفادَ الوَدِىُّ ، بَرِئْنا إليك يارسول الله من الوَثَنِ والعَنَنِ ، وما يُحْدِثُ الزمنُ ، لنا دعوةُ السلام ، وشريعة الإسلام ماطَمَا البحر ، وقَامَ تِعَارُ ، ولنا نَعَمٌ هَمَلٌ أغْفَالٌ ، ماتَبِضُّ بِبِلَالٍ ، ووَقِيرٌ كثير الرَّسَلِ ، قليل الرِّسْلِ ، أصابتها سُنَيَّةٌ حمراء مُؤْزِلَةٌ ، ليس لها عَلَلٌ ولا نَهَلٌ . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهمّ بارك لهم فى مَحْضِها ومَخْضِها ومَذْقِها وفَرْقِها ، وابعث راعيها فى الدَّثْرِ بيانع الثَّمرِ ، وافْجُرْ لهم الثَّمَد ، وبارك لهم فى المال والوَلَد ، مَنْ أقام الصلاة ، كان مسلما . ومَنْ آتى الزكاة ، كان مُحْسنا . ومَنْ شهد أن لا إله إلا الله ، كان مُخْلِصا . لكم يابَنِى نَهْدٍ ودائعُ الشِّرك ، ووَضائع المُلْك ، لا تُلْطط فى الزكاة ، ولا تُلْحِدْ فى الحياة ، ولا تَتَثاقَلْ عن الصلاة" .

وكتب معه كتابا إلى بنى نَهْدٍ فيه "بسم الله الرحمن الرحيم السلام على مَنْ آمنَ بالله ورسوله ، لكم يابنى نَهْدٍ فى الوظيفة الفريضـةُ ، ولكم العارضُ والفَرِيشُ وذو العِنَان الرَّكُوب ، والفَلُوُّ الضَّبِيسُ ، لا يُمْنع سَرْحُكُم ، ولا يُعْضَدُ طَلْحُكم ولا يمنع دَرُّكم مالم تُضْمِروا الإمْآقَ ، وتأكلوا الرِّباقَ ، من أقرّ فله الوفاء بالعهد والذِّمَّة ، ومن أبى فعليه الرِّبْوَةُ ."

ومن ذلك كتابه صـلى الله عليه وسـلم إلى قبيلة هَمْدَانَ ، وذلك أنه لما قَدِمَ عليه صـلى الله عليه وسلم وفود العرب قَدِمَ وَفْدُ هَمْـدانَ على رسول الله صـلى الله عليه وسـلم منهم مالك بن نَمَطٍ أبو ثَوْرٍ ، وهو ذو المِشْـعار ، ومالك بن أيفع ، وضِمَـام ابن مالك السلمانى ، وعميرة بن مالك الخَارِفِىّ ، فلَقَوْا رسول الله صـلى الله عليه وسلم

مَرْجَعَهُمْ من تَبُوكَ وعليهم مُقَطَّعات الحِبَرَاتِ والعمائم العَدَنِيَّة، برحال المَيْس على المَهْرِيَّة والأرحَبِيَّة، ومالكُ بن نَمَطٍ ورجلٌ آخر يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما:

هَمْدَانُ خيرُ سُوقَةٍ وأقيالْ * لَيْسَ لَهَا فى العالَمِينَ أمثالْ

مَحَلُّهَا الهَضْبُ ومنها الأبْطالْ * لها إطاباتٌ بها وآكالْ

ويقول الآخر:

إِلَيْكَ جاوَزْنَ سَوَادَ الرِّيفِ * فى هَبَوَاتِ الصَّيْفِ والخَرِيفِ

* مُخَطَّمَاتٍ بِحِبَالِ اللِّيفِ *

فقام مالك بن نَمَطٍ بين يديه، ثم قال: يارسول الله! نَصِيَّةٌ من هَمْدَانَ من كل حاضر وبادٍ، أَتَوْكَ على قُلُصٍ نَوَاجٍ، متَّصِلةٌ بحبال الإسلام، لاتأخذُهم فى الله لومةُ لائم، من مِخْلَافِ خَارِفٍ، ويامٍ، وشاكرٍ، أهل السَّواد والقُرى، أجابوا دَعْوة الرسول، وفارقوا آلهة الأنصاب، عهدُهم لاينقضُ ماأقام لَعْلَعٌ، وماجرى اليَعْفُورُ بِصُلَّعٍ.

فكتب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم! هذا كتابٌ من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم لِمِخْلَافِ خَارِفٍ وأهل جناب الهَضْبِ وحِقَاف الرَّمْلِ، مع وافدها ذى المِشْعار: مالك بن نَمَطٍ، ولِمَنْ أسلم من قومه على أن لهم فِراعَها وَوِهاطَها ما أقاموا الصلاة وآتَوُا الزكاة، يأكلون عِلافَها ويَرْعَوْنَ عافِيَها، لهم بذلك عهدُ الله وذِمَام رسوله، وشاهِدُهُم المهاجرون والأنصار."

فقال فى ذلك مالك بن نَمَطٍ:

ذَكَرْتُ رسولَ الله فى فَحْمَةِ الدُّجى * ونحنُ بأعلى رَحْرَحَانَ وصَلْدَدِ

وهُنَّ بنا خُوصٌ طلائحُ تَغْتَلِى * برُكْبانها فى لَاحِبٍ مُتَمَدِّدِ

على كُلِّ فَتْلَاءِ الذِّراعَيْنِ جَسْرَةٍ * تَمُرُّ بنا مَرَّ الهِجَفِّ الخَفَيْدَدِ

حَلَفْتُ بِرَبِّ الرَّاقِصاتِ إلىٰ مِنًى * صَوادرَ بالرُّكْبانِ من هَضْبِ قَرْدَدِ
بأن رسولَ الله فينا مُصَـــدَّقٌ * رسولٌ أتىٰ من عند ذى العَرْش مُهْتَدِ
فما حَمَلَتْ من نَاقَةٍ فوق رَحْلِهَا * أبرَّ وأوفىٰ ذمّةً من مُحَمَّـــدِ
وأعطىٰ إذا ما طَالِبُ العُرْفِ جاءَهُ * وأمضىٰ بِحَـدِّ المَشْرَفِيِّ المُهَنَّـــدِ

وفى رواية أن فى كتابه إليهم، إن لكم فِراعها ووِهاطها وعَزازها تأكلون عِلافها وتَرْعَوْنَ عَفاءها، لنا من دِفْئِهِم وصِرامهم ما سلَّمُوا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصَّدَقة الثِّلْبُ والنَّـابُ، والفَصِـيلُ والعارضُ، والدَّاجِنُ والكَبْشُ الحَوَرِىّ، وعليهم فيها الصَّالِـغُ والقَـارِحُ .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسلم لِأُكَيْدِر دُومَةَ. قال أبو عبيدة أنا قرأته فإذا فيه "بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسولِ الله، لأُكَيْدِرَ حين أجاب إلىٰ الإسلام، وخَلَعَ الأَنْدَادَ والأصنامَ، مع خالد بن الوليد، سيفِ الله فى دُومَةِ الجَنْدَلِ وأكنافها، إنّ لنـا الضَّاحِيَــةَ من الضَّحْلِ(١) والبَوْرَ والمَعَامِىَ وأغْفَالَ الأرض، والحَلْقَةَ والسِّلاحَ والحَافِرَ والحِصْنَ، ولكم الضَّامِنَةَ من النخل، والمَعِينَ من المعمور، لاتُعْدَلُ سَارِحَتُكُمْ، ولا تعدّ فَارِدَتُكُمْ، ولا يُحْظَرُ عليكم النبات، تُقِيمون الصلاة لوقتها، وتُؤْتون الزكاة بِحَقِّهَا، عليكم بذلك عهدُ اللهِ والميثاقُ، ولكم بذلك الصـدقُ والوفاءُ، شهد اللهُ ومَنْ حضر من المسلمين" .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسـلم إلىٰ وائل بنِ حُجْرٍ وأهل حَضْرَمَوتَ، وهو "بسمِ الله الرحمن الرحيم، من محمد رسولِ الله إلىٰ الأقيالِ العَبَاهِلَةِ من أهل حَضْرَمَوتَ بإقامة الصـلاة وإيتاء الزكاة، علىٰ التِّيعَةِ الشَّاةُ، والتِّيمَةُ لصَاحِبِهَا، وفى السُّيُوبِ

(١) الضحل بالسكون القليل من الماء ويروى " لكم الضاحيــة من البعل " وهو النخل

الخُمُسُ ، لاخِلَاطَ ولا وِرَاطَ ، ولا شِنَاقَ ولا شِغَارَ ، ومن أَجْبَىٰ فقد أربىٰ ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ . وفى رواية أنه كتب إليهم "إلىٰ الأقيال العَبَاهِلَةِ والأَرْوَاع المَشَابِيب ، وفى التِّيعَةِ شاةٌ لامُقْوَرَّةُ الأَلْيَاطِ ولا ضِنَاكٌ ، وأنْطُوا الثَّبَجَةَ وفى السُّيُوبِ الخُمُسُ ، ومن زنىٰ من آمْبِكْرٍ فآصْقَعُوه مائة ، وآسْتَوْفِضُوه عاماً ، ومَنْ زَنىٰ من آمْثَيِّبِ فَضَرِّجوه بالأَضَامِيم ، ولا تَوْصِيمَ فى الدين ، ولا غُمَّةَ فى فرائض الله تعالىٰ ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ ، ووائل بن حُجْرٍ يترفَّل علىٰ الأقيال" .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله "فى المَثَلِ السائر" : وفصاحة رسول الله صلى الله عليه وسلم ! لاتقتضى آستعمال هذه الألفاظ ، ولا تكاد توجد فى كلامه إلا جوابا لمن يخاطبه بمثلها كحديث طَهْفَةَ وما جرىٰ مجراه ، علىٰ أنه قد كان فى زمنه أوّلا متداولا بين العرب ولكنه صلى الله عليه وسلم ! لم يستعمله إلا يسيرا لأنه أعلم بالفصيح والأفصح .

الصفة الثانية

(للفظ الفصيح أن لايكون مبتذلا عاميًّا ، ولا ساقطا سُوقِيًّا)

واللفظ المبتذل علىٰ قسمين

القسم الأول

مالم تغيره العامّة عن موضعه اللغوىّ إلا أنها آختصت باستعماله دون الخاصة فابتذل لأجل ذلك وسَخُف لفظُه ، وآنحطّت رتبته لآختصاص العامّة بتداوله ، وصار من آستعمله من الخاصة مَلُوما علىٰ الإتيان به لمشاركة العامة فيه ؛ وقد وقع ذلك لجماعة من فحول الشعراء فَعِيبَ عليهم .

فمن ذلك قول الفرزدق من قصيدة :

وأَصْبَحَ مُبْيَضُّ الضَّرِيبِ كأنه * علىٰ سَرَوات النَّبْتِ قُطْنٌ مُنَدَّفُ

فقوله منّدف من الألفاظ العامية المبتذلة ، و إن كان له أصل فى اللغة يقال نَدَف القُطْنَ إذا ضربه بالمِنْـدَفِ، ولذلك قيل للقُطْنِ المندوف نَديف .

ومن ذلك قول أبى نُوَاسٍ :

وَمُلِحَّةٍ بالعَذْلِ تَحْسَبُ أننى * بالجهل أَترُكُ صُحْبَةَ الشُّطَّارِ

فالشطار جمع شاطر، وهو فى أصل اللغة آسم لمن أعيا أهلَهُ خُبْثًا، يقال منه شَطَر وشَطُر بالفتح والضم شَطَارَةً بالفتح فيهما، ثم آستُعمِل فى الشجاع الذى أعيا الناس شجاعةً، وغلب دَوَرَانُه علىٰ لسان العامة فآمتُهِن وآبتُذِل ، فآستعمال أبى نُوَاسٍ له غير لائق، وكذلك قوله أيضا :

يامَنْ جَفَـانى ومَلَّا * نَسِيتَ أهلًا وسَهْلا
وما تَمَـرْحَبْتَ لمـا * رأيتَ مالىَ قَــلَّا
إنى أظُنُّـــك فيما * فعلتَ تَحْـكِى القِرِلَّى

فلفظ القِرِلَّى من أشدّ ألفاظ العامة آبتذالا ، وهو آسم لطائر صغير من طيور الماء يخطَفُ صِغَار السمك من المـاء برجليه ومِنْقَاره، فإذا سقط علىٰ المـاء ولم يحصـل علىٰ صيد، آرتفع بسُرْعة، فتضرب به العامة المَثَل تقول : فلانٌ كأنه قِرِلَّى، إن وَجَدَ خيرا تَدَلَّى، و إن وجد شرا تَعَلَّى .

وقوله أيضا :

وأَنْمِرِ الجِـلْدَةِ صَـيَّرْتُه * فى النـاس زَاغًا وشِقِرَّاقَا
مَازِلْتُ أُجْرِى كَلْكَلِى فَوْقَهُ * حتّى دعا من تحتِه قَاقَا

فقوله قَاقَا حكاية لصوت يضرب به المثل لصياح المغلوب ، يقال فعلت بفلان كذا وكذا حتّى قال : قاق ؛ وأقبح من ذلك كله فى الآبتـذال بين العامة والسَّخافة قول المتنبي :

ومن النـاس مَنْ يَجُوزُ عليهِمْ * شُـعَراءُ كأنهـا الخَـازِ بازِ

قال فى "المثل السائر" : وهـذا البيت من مضحكات الأشعار وهو من جملة البِرْسام الذى ذكره فى قوله :

إن بعضًا من القَرِيض هُذاءُ * ليس شيئا ، وبعضَه أحْكامُ -
فيـه مايَجْلُبُ البراعةُ والفَهْـمُ ، وفيـه مايَجْلُبُ البِرْسَامُ

وعدّ منه فى "المثل السائر" قول البُحْتُرِىّ :

وجوهُ حُسَّادِكَ مُسْوَدَّةٌ * أم صُبِغَتْ بعدى بالزَّاج ؟

قال : فلفظة الزاج من أشدّ ألفاظ العامة آبتذالا ، وكذلك عدّ منه قول النابغة الذُّبْيـانِىّ :

أو دُمْيَةَ فى مَرْمَرٍ مرفوعة * بُنِيَتْ بِآجُرٍّ يُشَادُ بِقَرْمَـدِ

قال : فلفظة آجُرّ مبتذلة جدّا ، وإذاشئت أن تعلم شيئا من سرّ الفصاحة التى تضمنها القرءان الكريم ، فآنظر إلىٰ هذا الموضع فإنه لما جىء فيه بذكر الآجُرّ لم يذكر بلفظه ، ولا بلفظ القَرْمَدِ أيضا ، ولا بلفظ الطُّوبِ الذى هو لغة أهل مِصْرَ ، فإن هذه الأسماء مبتذلة لكن ذكر فى القرءان علىٰ وجه آخر ، وهو قوله تعالىٰ : "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَـأَيُّهَا الْمَلأُ مَاعَلِمْتُ لَكُم مِنْ إِلَهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَاهَامَانُ عَلىٰ الطِّينِ فَاجْعَـلْ لِى صَرْحًا" فعبر عن الآجُرّ بالوُقُود علىٰ الطين ؛ نَعَمْ من الألفاظ المبتذلة السخيفة لفظة الكَنْس ، وما آشـتق منه ، ولذلك عابها القاضى الفاضل رحمه الله تعالىٰ علىٰ آبن سـناء الملك فى بعض أشعاره حيث قال من أبيات :

يُزَخْرَفُ منها وجهُها فهو جَنَّــةٌ * ويَخْضَرُّ منها نَضْرَةً فهو سُنْدُسُ
صِلِيني وهذا الحسنُ بَاقٍ فرُبَّمَـا * يُعَزَّلُ بيتُ الحُسْنِ منه ويُكْنَسُ

فلمـا وقف القاضى الفاضل رحمه الله علىٰ هذه القصـيدة، كتب إلىٰ ٱبن سناء الملك من جملة فصل: وما قلت هذه الغاية، إلا وتعلمنى أنها البدايه، ولا قلت هذا البيت آية القصيدة إلا تلا مابعده: وَمَا نُرِيهِم مِنْ آيَةٍ . أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَاتُبْصِرُونَ . ولا عيب فى هذه المحاسن إلا قصور الأفهام، وتقصير الأنام، وإلا فقد لَهِجَ الناس بمـا تحتها، ودوّنوا مادُونَهَا ، وشغلوا التصانيف والخواطر والأقلام بمـا لايقاربها ، وسارت الأشعار وطالت بمـا لايبلغ مُدَّها ولا نَصِيفه، والقصيدة فائقة فى حسنها، بديعــة فى فَنِّها ، وقد ذَلَّت السين فيها وٱنقادت، فلو أنها الراء لمـا رادت ؛ وبيت يُعَزَّل ويكنس أردت أن أكْنُسَه من القصيدة ، فإن لفظة الكنس غير لائقة فى مكانها .

فأجابه ٱبن سناء الملك قائلا : وعلم المملوكُ مانبه عليه مولانا من البيت الذى أراد أن يكنُسَه من القصيدة، وقد كان المملوك مشغوفا بهذا البيت ، مستحِليا له متعجبا منه، معتقدا أنه قد مَلَّح فيه، وأنَّ قافية بيته أميرة ذلك الشعر وسيدةُ قوافيه ، وما أوقعه فى الكنس إلا ٱبن المعتز فى قوله :

وقَوَامِى مثـلُ القَنَاةِ من الخطِّ * وخدّى من لِحيتى مكنوسُ

والمولىٰ يعـلم أن المملوك لم يزل يجرى خلف هذا الرجل ويتعثَّر، ويطلب مطالبه فتتعسر عليه وتتعذر، ولا آنَسَ نارَه إلا لَمَّاً وجدعليها هُدًى ، ولا مال المملوك إلا إلىٰ طريق مَنْ ميَّلَهُ إليه طبعهُ ، ولا سار قلبه إلا إلىٰ مَنْ دَلَّهُ عليه سمعُه، ورأىٰ المملوك أبا عُبَادَةَ قد قال :

وياعاذلِى فى عَبْرَةٍ قد سَفَحْتُها * لِبَيْنٍ، وأُخْرىٰ قبلها للتجَنُّب
تُحَـاوِلُ منِّى شيمةً غيرَ شيمتى، * وتطْلُبُ منِّى مَذْهَبا غيرمَذْهَبى؟

وقال :

وما زارنى إلّا وَلِهتُ صَبابةً * إليه، وإلّا قلتُ : أهْلا ومرْحبا

فعلم المملوك أنّ هذه طريقةٌ لا تُسْلَك ، وعَقِيلة لا تُمْلَك ، وغاية لاتُدْرَك ؛ ووجد أبا تمّام قد قال :

* سَلِّم علىٰ الرَّبْع من سَلْمىٰ بِذِى سَلَم *

وقال : * خَشُنْتِ عَلَيْهِ أُخْتَ بَنِى خُشَيْنِ * ؛

فاشمأزّ من هذا النَّمَط طبعُه، وآقشعرّ منه فهمه ، ونَبَا عنه ذوقُه ، وكاد سمعه يتجرّعه ولا يكاد يُسيغُهُ، ووجد هذا السيد عبد الله بن المعتز قد قال :

وَقفتُ فى الرَّوض أبكِي فَقْدَ مُشْبِهِهِ * حتّى بكَتْ بدُموعى أعيُنُ الزَّهَرِ

لو لم أُعِرْهَا دُموعَ العينِ تَسْفَحُها * لرحمتى، لآسْتعارتْها من المَطَر

وقال :

قَدُّكَ غُصْنٌ لاشَكَّ فيه كما * وجْهُك شمسٌ نهارُه جَسَدُك

فوجد المملوكُ طبعه إلىٰ هذا النَّمَط مائلا، وخاطره فى بعض الأحيان عليه سائلا؛ فَنَسَجَ علىٰ هذا الأسلوب، وغلب عليه خاطرُه مع علمه أنه المغلوب؛ "وَحُبُّكَ الشيء يُعْمِى ويُصِمّ" فقد أعماه حبُّه وأصمه إلىٰ أن نظم تلك اللفظة فى تلك الأبيات تقليدا لآبن المعتز حيث قالها، وحَمَل أثقالها ؛ وهى تُغْفَر لذاك فى جَنْبِ إحسانه، فأما المملوك فهى عَوْرة ظهرت من لسانه ؛

فأجابه القاضى الفاضل رحمه الله بقوله : ولا حجة فيما آحتج به عن الكنس فى بيت آبن المعتز ، فإنه غير معصوم من الغلط ، ولا يُقَلَّد إلا فى الصواب فقط؛ وقد علم ماذكره آبن رَشِيقٍ فى عمدته من تهافُت طبعه ، وتباين وضعه ؛ فذكر من محاسنه مالا يُعَلَّق معه كتاب، ومن بارده وغَثِّه مالا تُلبس عليه الثياب .

وقد تَعَصَّبَ القاضى السعيد علىٰ أبى تَمَّامٍ فنقصه من حظه ، وللبُحْتُرِىّ فأعطاه أكثَرَ من حقه، وما أنصفهما :

ولو كان هذا مَوْضِعَ العَتْبِ لَاشْتَفَىٰ * فُؤادِى ولكنْ للعِتَاب مواضعُ

قال المولىٰ صلاح الدين الصَّفَدِىّ رحمه الله تعالىٰ فى شرح لامية العجم : وقد ٱستعمل ٱبن سناء الملك رحمه الله تعالىٰ هـذه اللفظة فى غير هذا الموضع ولم يتَّعظ بنهى الفاضل ولا ٱرعوىٰ، ولا ٱزدجَرَ عما قبحه لأنه غلب عليه الهوىٰ، فقال :

تَوَسْوَسَ شِـعْرِى به مُدّةً * وما بَرِحَ الحَلْىُ والوَسْوَسه

وخَلَّصَنِى من يدَىْ عِشْقِه * ظلامٌ علىٰ خدّه حَنْدَسَـه

كَنَسْتُ فؤادىَ من عِشْقِه * ولِحْيتُـه كانت المِكْنَسَه

قال : وأما القاضى الفاضل، فما أظنه خلا فى هذا الإيراد، من ضعف ٱنتقاد، وأحاشى ذاك الذهن الوَقَّاد، من هـذا الٱعتقال فى ورطة هذا الٱعتقاد ، وما أراه إلا أنه تعمّد أن يعكس مراده ، ويُوهِىَ ماشـدّه ويُوهنَ ماشاده، ويرميـه ببلاء البَلَاده، إما علىٰ سبيل النَّكال أو النَّكاده : لأن الفاضــل رحمه الله ممن يتوخّى هذه الألفاظ ويقصدها، وينشيها ويُنْشدها، ويورى زِنَادَها ويُوردها .

فمن كلام القـاضى الفاضل فى بعض رسائله ، وما ٱستطاعت أيديهم أن تَقْبِضَ جمره ، ولا ألبابهم أن تسيغ خمره ، ولا سيوفهم أن تكنُس قميمه . قال فى "المثل السائر" : ومثل هذه الألفاظ إذا وردت فى الكلام ، وضعتْ من قدره ولو كان معناه شريفا . قال : وهذا القسم من الألفاظ المبتذلة لايكاد يخلو منه شعر شاعر، لكن منهم المُقِلُّ ومنهم المُكْثِر .

القسم الثانى

(ما كان من الألفاظ دالًّا علىٰ معنًى وضع له فى أصل اللغة فغيرته العامة وجعلته دالًّا علىٰ معنًى آخر. وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل ـ ماليس بمستقبح فى الذكر ولا مستكره فى السمع. وذلك كتسميتهم الإنسانَ إذا كان دَمِثَ الأخلاق، حَسَن الصورة أو اللباس أوماهذا سبيله ظريفا، والظَّرْفُ فى أصل اللغة مختص بنُطْق اللسان فقط، كما أن الصَّبَاحَةَ مختصة بالوجه، والوضاءةَ مختصة بالبَشَرة، والجمالَ مختص بالأنف، والحلاوةَ مختصة بالعينين، والملاحةَ مختصة بالفم، والرَّشَاقةَ مختصة بالقدّ، واللّباقةَ مختصة بالشمائل؛ فالظَّرْفُ إنما يتعلق بالنطق فغيرته العامة عن بابه ونقلته إلىٰ أعمّ من موضوعه كما تقدّم؛ وممن وقع له الذُّهول عن ذلك فغلِط فيه أبو نُوَاسٍ فى قوله :

اِختَصَم الجُودُ والجَمالُ * فيك فصارا إلىٰ جِدَال
فقال هذا يمينه لى * للعُرْف والبَذْلِ والنوالِ
وقال هذاك وجهه لى * للظَّرْفِ والحُسْنِ والكمال
فافترقا فيك عن تَرَاضٍ * كلاهما صادقُ المَقَال

فوصف الوجه بالظَّرْفِ، وهو من صفات النطق كما تقدّم؛ وكذلك أبو تمّامٍ فى قوله :

لَكَ هضْبَةُ الحِلْمِ التى لو وازنت * أَجاً إذًا ثَقُلَتْ، وكان خفيفا
وحلاوةُ الشِّيَمِ التى لو مازَجَتْ * خُلُقَ الزمان الفَدْمِ، عاد ظريفا

فوصف الشِّيَمَ بالحلاوة وهى مختصة بالعينين، ووصف الخُلُقَ بالظَّرْفِ وهو مختص بالنطق كما تقدّم بيانه .

الضرب الثـانى ــ ما يُسـتقبح ذكره كما فى لفظ الصُّرم بالصاد المضمومة والسُّرْم بالسـين، فإن الصُّرم بالصاد فى أصل اللغة عبارة عن القطع، يقال صرمه يَصْرِمُه صَرْما وصُرْما بالفتح والضم إذا قطعــه، وبالسين عبارة عن المحل المخصوص، وقد كانت العرب تستعمله بالصاد المضمومة فى أشعارها بهــذا المعنىٰ فلا يعاب عليها؛ قال أبو صخر الهُذَلىّ :

قد كان صُرْمٌ فى المَمَات لنا * فعجِلْت قبلَ المَوْتِ بالصّرْم

فٱستعمله بمعنى القطع ولم يُعَب عليــه لأن الألفاظ فى زمن العرب لم تتغير بل كانت باقيةً علىٰ أوضاعها الأصلية، فقلبت العامة السين من المحل المخصوص صادا وٱستعملت لفظ الصُّرْم الذى هو القطع فى المحل المخصوص، فصار لفظه مستقبحا وسماعه مستكرها، وعيب علىٰ أبى الطَّيِّب ٱستعماله فى قوله :

أذاق الغَوانِى حُسْنُه ماأذقْنَنِى * وعَفَّ،فجازاهنّ عنِّىَ بالصُّرْمِ

علىٰ أنه إنما يكره ٱستعماله بصيغة الٱسم لمـا تقدّم، أما إذا ٱستعمل بصيغة الفعل مثل صَرَمَ ويَصْرِمُ وما شاكل ذلك، فإنه لا حَجْر فى ٱستعماله، وقد ٱسـتعمله ٱبن الرومى بالسين علىٰ بابه فجاء أقبحَ وأشنعَ، فقال يهجو الوَرْد :

كأنه سُرْم بغل حيــن يُخْرِجه * عند البِراز، وباقِى الرَّوْثِ فى وَسَطِه

قال الصلاح الصَّفَدِىّ : وأين هذا التشبيه القبيح من قول الآخر فى الورد أيضا :

كأنّهُ وَجْنةُ الحبيبِ وقدْ * نَقَّطها عاشِـقٌ بدينـار

قال : فانظر إلىٰ هذا، وَجْنة، وحبيب، ودينــار؛ وإلىٰ ذلك، سُرْمٌ، وبغل، ورَوْث . وشَتَّانَ ما بينهما .

الصـــــفة الثالثة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح أن لا يكون متنافرَ الحروف ، فإن كانت حروفه متنافرةً بحيث يثقُل علىٰ اللسان ويعْسُر النطقُ به فليس بفصيح)

وذلك نحو لفظ الهُعْخُع فى قول بعض العرب عن ناقة : تركتها ترْعىٰ الهُعْخُعَ : بالخاء المعجمة والعين المهملة ، وهو نبت أســود ، وكذلك لفظ مستَشْزِرات من قول آمرئ القيس فى قصيدته اللامية التى من جملة القصائد السبع الطِّوال :

غَـــدَائِرُهُ مُسْتَشْزِرَاتٌ إلىٰ العُلىٰ * تَضِلُّ المَدَارِى فى مُثَنًّى ومُرْسَلِ

فلفظ مستشزرات من المتنافر الذى يثقل علىٰ اللسان، ويعسُر النطق به . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى "المَثَل السائر": ولقد رءانى بعض الناس وأنا أَعيب علىٰ آمرئ القيس هذا اللفظ فأكْبَرَ ذلك لوقوفه مع شبهة التقليد فى أن آمرأ القيس أشعرُ الشعراء، فعجبت من آرتباطه بمثل هذه الشبهة الضعيفة، وقلت له : لايمنع إحسانُ آمرئ القيس من آســتقباح مَالَه من القبيــح ، بل مثال ذلك كمثال غَزَال المِسْك فإنه يخرج منه المِسْك والبَعْر ، ولايمنعُ طِيبُ مايخرج من مسكه من خُبْثِ ما يخرج من بَعْره ، ولا تكون لَذَاذَةُ ذلك الطِّيب حاميةً للخبيث من الآستكراه، فَأُسْكِتَ الرجلُ عند ذلك .

إذا علمتَ ذلك ، فإن معظم اللغة العربية دائرة علىٰ ذلك ، لأن الواضع قسَّمها فى وضعه إلىٰ ثلاثة أقسام ؛ ثُلاثيًّا ، ورُباعيًّا ، وخُماسيًّا، فالثلاثىّ من الألفاظ هو الأكثر، ولايوجد فيه مايكره آستعماله إلا النادر؛ والخماسىّ هو الأقلُّ، ولايوجد فيه مايستعمل إلا الشاذ النادر؛ والرباعىّ وسط بين الثُّلاثىّ والخُمَـاسىّ فى الكثرة عَدَدا وآستعمالا، فيكون أكثر اللغة مستعملا غير مكروه . قال : ولا تقتضى حكمة هــذه

اللغة التى هى سـيدة اللغات إلا ذلك ، ولذلك أسـقط الواضعُ منها حروفا كثيرة فى تأليف بعضها مع بعض ٱستثقالا وٱستكراها، فلم يؤلِّف بين حروف الحلق كالحاء والعين ، وكذلك لم يؤلف بين الجيم والقاف، ولابين اللام والراء، ولا بين الزاى والسين ، وذلك دليـل علىٰ عنايته بتأليف المتباعِد المخارج دون المتقارب ، وكيف كان الواضع يُخِلُّ بمثل هذا الأصل الكلىّ فى تحسين اللغة وقد ٱعتنىٰ بأمور جزئيـة دون ذلك ؟ كمماثلته بين حركات الفعل فى الوجود وبين حركات المصدر فى النطق كالغَلَيَانِ ، والضَّرَبَانِ ، والنَّقَزَانِ ، والنَّزَوَانِ ، وغير ذلك ممـا يجرى هـذا المجرىٰ ، فإن جميع حروفه متحركات ليس فيها حرف ساكن ، وهى ممـاثلة لحركات الفعل فى الوجود .

ومن نظر فى حكمة وضع هذه اللغة إلىٰ هذه الدقائق التى هى كالأطراف والحواشى فكيف كان يخلّ بالأصل المعوّل عليه فى تأليف الحروف بعضها إلىٰ بعض ؟ .علىٰ أنه لو أراد الناظم أو الناثر أن يعتبر مَخَارج الحروف عنـد ٱستعمال الألفاظ ، أهى متباعدة أو متقاربة ؟ لطال الخَطْب فى ذلك وعَسُر، ولَمَـا كانـ الشاعر يَنْظِم قصيدا، ولا الكاتب ينشئ كتابا إلا فى مدّة طويلة، والأمر بخلاف ذلك، فإن حاسَّة السمع هى الحاكمة فى هـذا المقام فى تحسين لفظ وتقبيح آخر، .علىٰ أنه قد يجىء من المتقارب المَخارِج ما هو حسن رائق ، ألا ترىٰ أن الحروف الشَّجْرِيَّة : (وهى الجيم والشين والياء) متقاربةُ المخارج : لأنها تخرُج من وَسَط اللسان بينه وبين الحَنَك، وإذا تركب منها لفظ جاء حسـنا رائقا، فإن لفظة جَيْشٍ قد ٱجتمع فيها الحروف الشَّجْرية الثلاثة، وهى مع تقارب مخارجها حسنة رائقة، وكذلك الحروف الشَّفَهية (وهى الباء والميم والفاء) متقاربة المخارج فإن مَخرَجَ جميعها من الشَّفَة، وإذا تركب منهـا لفظ جاء سَلِسا غير متنافر، كقولك أكلت بفمى ، وهو فى غاية الحسن ،

والحروف الثلاثة الشفهية مع تقارب مخارجها مجتمعة فيها؛ وقد يجيء من المتباعد المخارج ما هو قبيح متنافر كقولك مَلَع بمعنى عدا، فإن الميم من الشفة والعينَ من حروف الحلق واللام من وسط اللسان، فهذه الحروف كلها متباعدة من بعضها ومع ذلك فإنها كريهة الاستعمال، ينبُو عنها الذوق السليم، ولو كان التباعد سببا للحسن لما كان سببا للقبح؛ على أنه لو عُكِست حروف هذه اللفظة صارت علم وعاد القبح منها حُسْنا مع انه لم يتغير شيء من مخارجها، على أن اللام لم تزل فيها وَسَطا والميم والعين يكتنفانها من جانبيها؛ ولو كانت مخارج الحروف معتبرة فى الحسن والقبح لما تغيرت هذه اللفظة بتقديم بعض الحروف وتأخير بعض، وليس ذلك لأن إدخال الحروف من الشَّفَةِ إلى الحلق فى مَلَع أعسَرُ من إخراجها من الحلق إلى الشَّفَة فى عَلِم، فإنّ لفظة بَلَعَ فيها الباء وهى من حروف الشفة واللام وهى من وَسَط اللسان والعين وهى من حروف الحَلْق وهى غير مكروهة.

قال فى "المَثَل السائر": ولربما اعترض بعض الجهال بأن الاستثقال فى لفظ مستَشْزِرات إنما هو لطولها وليس كذلك، فإنا لو حذفنا منها الألف والتاء وقلنا مستشزر، لكان ثقيلا أيضا لأن الشين قبلها تاء وبعدها زاى، فَثَقُلَ النطق بها، نعم لو أبدلنا من الزاى راءً ومن الراء فاءً فقلنا مُسْتَشْرِفٌ لزال ذلك، ومن ثَمَّ ظهر لك أن اعتبار ابن سنان تركيب الكلمة من أقل الأوزان تركيبا غيرُ معتبر، وقد ورد فى القرءان العظيم ألفاظ طِوَالٌ لا شكَّ فى حسنها وفصاحتها كقوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ فإن لفظ فسيكفيكهم مركب من تسعة أحرف، ولفظ ليستخلفنهم مركب من عشرة أحرف، ولفظ مستشزرات مركب من ثمانية أحرف. قال: والأصل فى هذا الباب أن الأصول لا تحسُن إلا فى الثلاثىّ وفى بعض الرُّباعىّ: كقولك عَذْب وعَسْجَدٌ، فالأولى ثُلاثيَّة

والثانية رُبَاعيَّـة ، أما الْخُمَـاسىّ من الأصول، فإنه قبيح كقولك : صَهْصَلِق وَجَحْمَرِشٌ، وما جرىٰ مَجْراهما، ولهذا لا يوجد فى القرءان الكريم من الخماسىّ الأصولِ شىء إلا ما كان من آسم نبىّ عُرِّب آسمـه ، ولم يكن فى الأصل عربيـا كإبراهيم وإسماعيل ونحوهما .

الصـــــفة الرابعة

(من صفات اللفظ المفرد الفصيح، أن لا يكون علىٰ خلاف القانون المستنْبَط من تتبع مفردات ألفاظ اللغة العربية، وما هو فى حكمها)

كوجوب الإعلال فى نحو قام والإدغام فى نحو مدّ ، وغير ذلك ممـا يشتمل عليه علم التصريف ، فإنه لو فَكَّ الإدغام فى مدّ فقـال مَدَد ، لم يكن فصيحا، وعلىٰ حدّ ذلك جاء قول بعض العرب .

* الحمدُ للهِ العَـلِىِّ الأَجْلَلِ *

فإنّ قياس بابه الإدغام فيقال الأجَلّ .

قال الشيخ سـعد الدين التفتازانى فى شرح التلخيص : وأما نحو أبىٰ يأبىٰ وعَوِر وآستحْوَذَ وقَطِط شعره وما أشبه ذلك من الشواذ الثابتة فليست من المخالفة فى شىء لأنها كذلك ثبتت عن الواضع، فهى فى حكم المستثناة .

فهذه الصفات الأربع هى عمود الفَصَاحة فى اللفظ المفرد، وقطب دائرة حسنه، فمتىٰ آتصف بها وسلم من أضـدادها، كان بالفصاحة متَّسِما، وبالحسن والرونق مشـتملا ، وللطبع ملائمـا ، وللسـمع موافقا ، ومتىٰ عَرِى عن ذلك خرج عن طرائق الفصاحة ، وحاد عن سبيل الحسن ، ومال إلىٰ الْهُجْنة، فَمَجَّه السمع ، وقَلاه الطبع ورفضَـتْه النفوس ، ونفَرت منه القلوب ، فلزم العيبُ قائلَه، وتوجه العَتْبُ علىٰ مسـتعمله . قال آبن الأثير رحمه الله : وقد رأيت جماعة من الجُهَّال إذا قيـل

لاحدهم : إن هذه اللفظة حسنة وهذه قبيحة ، أنكر ذلك وقال : بل كل الألفاظ حسن والواضع لم يضع إلا حسنا . قال : ومن يبلغ جهله إلىٰ غاية لا يفرق بين لفظة الغصن ولفظة العُسْلوج ، وبين لفظة المدامة ولفظة الإسْفِنْط ، وبين لفظة السَّيْف ولفظة الخَنْشَلِيل ، وبين لفظة الأسد ولفظة الفَدَوْكَس ، فلا ينبغى أن يُخَاطَبَ بخطاب ، ولا يُجاب بجواب ، بل يترك وشأنَه كما قيل : "أُتركُوا الجاهلَ بجهله ، ولو ألقىٰ الجَعْرَ فى رَحْلِه"

وما مثاله فى ذلك إلا كمن يسوّى بين صورة زنجية سوداءَ مظلمة السواد، شوهاء الخَلْق ذاتِ عين محمّرة ، وشَفَةٍ غليظة، وشعر قَطَط ، وبين صورةِ رُوميَّة بيضاء مُشْرَبة بحمرة، ذات خدّ أَسِيل، وطَرْف كحيل، ومَبْسِم كأنما نُظِم من أَقَاح، وطُرّة كأنها ليل علىٰ صَبَاح . فإذا كان بإنسان من سُقْم النظر أن يسوّىَ بين هذه الصورة وهذه ، فلا يبعد أن يكون به من سُقْم الفكر أن يسوّىَ بين هذه الألفاظ وهذه ، ولافرق بين السمع والنظر فىذلك ، فإن هذه حاسَّة وهذه حاسَّة، وقياس حاسة علىٰ جاسة غيرُ ممتنع ، ولا عبرةَ بمن يستحسن الألفاظ القبيحة ، ويميل إلىٰ الصورة الشنيعة، فإن الحكم علىٰ الكثير الغالب، دون الشاذ النادر الخارج عن الآعتدال، فإنا لورأينا من يُحِبُّ أكل الفَحْم والجِصِّ والتراب، ويختار ذلك علىٰ مَلَاذّ الأطعمة، فإنا لانستجيد هذه الشهوةَ بل نحكم عليه بالمرض وفساد المَعِدة، وأنه يحتاج إلىٰ العلاج والمُداواة ، ومن له أدنىٰ بصيرة يعلم أن للالفاظ فى الأذن نَغْمة لذيذة كنغمة الأوتار، وصوتا مُنْكَرًا كصوت الحمار، وأن لها فى الفم حلاوةً كحلاوة العسل، ومرارة كمرارة الحَنْظَل . ولا حجة لآستعمال العرب لهذه الألفاظ، فإن آستحسان الألفاظ وآستقباحها لا يؤخذ بالتقليد من العرب ، لأنه ليس للتقليد فيه مَجَال . وإنما له خصائص وهيئات وعلامات إذا وُجدت، عُلم حسنه من قبحه والله أعلم .

الأصـــل الثالث

(من صناعة إنشاء الكلام تركيب الكلام، وترتيب الألفاظ)
(والنظر فيه من وجوه)

الوجه الأوّل

(فى بيان فضل المعرفة بذلك، ومسيس حاجة الكاتب إلىٰ معرفته، والإشارة إلىٰ خفىّ سره وتوعُّر مَسْلَكه)

قال أبو هلال العسكرىّ : وأجناس الكلام المنظوم ثلاثة : الرسائل، والخُطَب، والشعر، وجميعها يحتاج إلىٰ حُسْن التأليف، وجَوْدَةِ التركيب؛ وحسنُ التأليف يزيد المعنىٰ وضوحا وشرحا ، ومع سُوء التأليف ورداءة الرّصف والتركيب شُعْبَةٌ من التعمية، فإذا كان المعنىٰ سيِّئا، ورصف الكلام رديئا، لم يوجد له قبول، ولم تظهر عليه طَلَاوة . فإذا كان المعنىٰ وسطا ورَصْف الكلام جيدا، كان أحسن مَوْقِعا وأطيب مُسْتَمَعًا ، فهو بمنزلة العِقْد إذا جُعِل كل خرزة منه إلىٰ مايليق بها ، كان رائقا فى المرأىٰ ، وإن لم يكن مرتفعا نبيلا؛ وإن آختلّ نظمه فَضُمَّت الحبة منه إلىٰ ما لا يليق بها، آقتحمته العين وإن كان فائقا ثمينا؛ وحُسْنُ الرَّصْفِ أن توضَع الألفاظ فى مواضعها ، وتمكَّن من أماكنها ، ولا يستعمل فيها التقديم والتأخير، والحذف والزيادة إلا حذفا لا يُفْسِد الكلام ، ولا يُعَمِّى المعنىٰ ، وتُضم كل لفظة منها إلىٰ شكلها وتُضاف إلىٰ وَفْقِها؛ وسوء الرَّصْفِ تقديم ماينبغى تأخيره منها، وصرفها عن وجوهها، وتغيير صيغتها، ومخالفة الآستعمال فى نظمها. وقد قال العتابىّ : الألفاظ أجساد والمعانى أرواح، وإنما تراها بعيون القلوب، فإذا قدّمتَ منها مؤخرا وأخرتَ منها مقدّما ، أفسدتَ الصورة وغيرت المعنىٰ ، كما أنه لو حُوّل رأسٌ إلىٰ موضع يدٍ أو يدٌ إلىٰ موضع رأس أو رِجْلٍ، لتحوّلت الخلقة وتغيرت الحِلْيَةُ .

قال فى "الصناعتين" : وقد أحسن فى هذا التمثيل .

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى "المَثَل السائر": وهذا الموضع يَضِلُّ فى سلوك طريقه العلماءُ بصناعة صوغ الكلام من النظم والنثر، فكيف الجهالُ الذين لم تَنْفَحْهُمْ منه رائحة ؟ ومَنِ الذى يؤتيه الله فِطْرة ناصعة يكاد زيتها يضىء ولولم تمسسه نار، حتّى ينظر إلىٰ أسرار ما يستعمله من الألفاظ فيضعَها فى مواضعها ؟ وذلك أن تفاوت التفاضل لم يقع فى تركيب الألفاظ أكثر مما يقع فى مفرداتها، إذ التركيب أعسر وأشقُّ، ألا ترىٰ أن ألفاظ القرءان الكريم من حيث آنفرادها قد آستعملتها العرب ومَنْ بعدهم، وهى مع ذلك تفوق جميع كلامهم وتعلو عليه، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب . وآنظر إلىٰ قوله تعالىٰ : " وَقِيلَ يا أَرْضُ ٱبْلَعِى مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ الْمَـاءُ وَقُضِىَ الْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلىٰ الْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ "وما آشتملت عليه هذه الآية من الحُسن والطلاوة والرونق والمائية الّتِى لايقدرالبشر علىٰ الإتيان بمثلها،ولايستطيع أفصحُ الناس وأبلغُ العالَم مضاهاتها، علىٰ أن ألفاظها المفردة كثيرة الآستعمال دائرة علىٰ الألسنة، فقوّة التركيب وحسن السبك هوالذى ظهر فيه الإعجاز وأَفْحمت فيه البلاغةُ من حيث لاقت اللفظةُ الأولىٰ بالثانية والثالثة بالرابعة، وكذلك سائر الألفاظ إلىٰ آخر الآية. ويشهد لذلك أنك لو أخذت لفظة منها من مكانها وأفردتها عن أَخَواتها لم تكن لابسة من الحُسْن والرونق مالبِسَتْه فى موضعها من الآية، ولِكُلِّ كَلِمَةٍ مَعَ صَاحِبَتِهَا مَقَامٌ .

قال آبن الأثير : ومن عجيب ذلك أنك ترىٰ لفظتين يدلّان علىٰ معنى واحد، كلاهما فى الآستعمال علىٰ وزن واحد وعدّة واحدة ، إلا أنه لايحسن آستعمال هذه فى كل موضع تستعمل فيه هذه ، بل يُفْرَق بينهما فى مواضع السَّبْك ، وهذا مما لا يدركه إلا من دَقَّ فهمُه، وجلّ نظره . وإذا نظرت إلىٰ قوله تعالىٰ : "مَا جَعَلَ ٱللهُ

لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ" وقوله تعالىٰ : "رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا" رأيت ذلك عِيانا ، فإن الجوف والبطن بمعنى واحد ، وقد آستعمل الجوف فى الآية الأولىٰ والبطنُ فى الآية الثانية ولم يُستعمل أحدهما مكان الآخر، وكذلك قوله تعالىٰ: "مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ" وقوله : "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ" فالقلب والفؤاد سواء فى الدلالة وإن كانا مختلفين فى الوزن، ولم يستعمل أحدُهما موضع الآخر .

ومما يجرى هذا المجرىٰ قول الأعرج من أبيات الحماسة :

نَحْنُ بَنُو الموت إذا المَوْت نَزَلْ * لا عَارَ بالموت إذا حُمَّ الأَجَلْ

* الموت أحلىٰ عِنْدنا من العَسَل *

وقول أبى الطيب المُتَنَبِّي :

إذا شِئْتُ حَفَّتْ بى علىٰ كل سابح * رِجالٌ كأنَّ المَوْتَ فى فَمِها شَهْدُ

فلفظة الشهد ولفظة العسل كلاهما حَسَنٌ مستعمل ، وقد جاءت لفظة الشهد فى بيت أبى الطَّيِّب أحسن من لفظة العسل فى بيت الأعرج ، علىٰ أن لفظة العسل قد وردت فى القرءان دون لفظة الشهد فجاءت أحلىٰ من الشهد فى موضعها ؛ وكثيرا ماتجد أمثال ذلك فى أقوال الشعراء المُفْلِقِينَ وبُلَغاء الكُتَّاب ومصاقع الخطباء، وتحتها دقائقُ ورموز، إذا عُلِمتْ وقِيسَ عليها كان صاحب الكلام قد آنتهىٰ فى النظم والنثر إلىٰ الغاية القصوىٰ فى وضع الألفاظ فى مواضعها اللائقة بها . قال : وأعجب من ذلك أنك ترىٰ اللفظة الواحدة تَرُوقك فى كلامٍ، ثم تراها فى كلام آخر فتكرهها، وقد جاءت لفظة فى آى القرآن الكريم بَهِجة رائقة ، ثم جاءت تلك اللفظة بعينها فى كلام آخر فجاءت ركيكة نابيةً عن الذوق ، بعيدة من الآستحسان ؛ فمن ذلك لفظة يؤذى فإنها وردت فى قوله تعالىٰ : "إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي

منكُمْ وَاللهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ " فجاءت فى غاية الحسن ونهاية الطلاوة، و وردت فى قول أبى الطيب :

تَلَذُّ له المُرُوءةُ وهى تُؤْذِى * ومَنْ يَعْشَقْ يَلَذُّ له الغَرامُ

فجاءت رَثَّةً مستهجنة، وإن كان البيت من أبيات المعانى الشريفة، وذلك لقوة تركيبها فى الآية وضعف تركيبها فى البيت الشعر، والسبب فى ذلك أن لفظة تؤذى إنما تحسن فى الكلام إذا كانت مندرجة مع ما يأتى بعدها متعلقةً به كما فى الآية الكريمة حيث قال : " إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى النَّبِيَّ " وفى بيت المتنبى جاءت منقطعة ليس بعدها شئ نتعلق به حيث قال :

* تَلَذُّ له المُروءةُ وهى تُؤْذِى *

ثم آستأنف كلاما آخر فقال :

* ومَنْ يَعْشَقْ يلَذُّ له الغَرامُ *

وقد جاءت هذه اللفظة بعينها فى الحديث النبوىّ مضافةً إلىٰ كاف خطاب، فأخذت من المحاسن بِزِمَامِها، وأحاطتْ من الطَّلاوة بأطرافها، وذلك أنه لما آشتكى النبىّ صلى الله عليه وسلم جاءه جبريل فَرَقَاهُ فقال : " بسم الله أَرْقِيكَ، مِنْ كُلِّ داءٍ يُؤْذِيك" فصارت إلىٰ الحُسْن بزيادة حرف واحد، وهذا من السِّرِّ الخفىّ الذى يَدِقُّ فهمه . وعلىٰ نهج لفظة يؤذى يردُ لفظة لى، فإنها لا تَحْسُن إلا أن تكون متعلقة بما بعدها، ولذلك لحِقَها هاء السَّكْتِ فى قوله تعالىٰ : " مَا أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَانِيَهْ " لما لم يكن بعدها ما نتعلق به، بخلاف قوله : "إِنَّ هَذَا أَخِى لَهُ تِسْعٌ وتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ" فإنه لم تلحقها هاءُ السكت آكتفاء بما هى متعلقة به .

ومما يجرى مثل هـذا المجرىٰ لفظة القُمَّلِ، فإنها قد وردتْ فى قوله تعالىٰ : "فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ والقُمَّلَ والضَّفادِعَ والدَّمَ" فجاءت فى غاية الحسن، ووردتْ فى قول الفرزدق :

مِنْ عِزِّهِ ٱجْتَحَرَتْ كُلَيْبٌ عنده * زَرْبا كأنَّهُمُ لَدَيْهِ الْقُمَّلُ

فجاءت منحطة نازلة ، وذلك لأنها قد جاءت فى الآية مندرجةً فى ضمن كلام لم ينقطع الكلامُ عندها ، وجاءت فى البيت قافيةً ٱنقطع الكلام عندها . هذا ملخص ما ذكره ٱبن الأثير، وقال : إنه لم يُسْبَق إليه، وجعل الحاكم فيه الذوق السليم دون غيره . وعلىٰ الجملة فلا نزاع فى أن تركيب الألفاظ يُعْطِى الكلامَ من القوّة والضَّعف ما تزيد به قيمةُ الألفاظ الفصيحة ، ويرتفع به قدرها ، أو يُحُطّ مقدارها عن درجة الفصاحة والحسن إلىٰ رتبة القبح والٱستهجان .

الوجه الثانى

(فى بيان ما ينبنىٰ عليه تركيبُ الكلام وترتيبه . وله ركنان)

الركن الأول — أن يُسْلك فى تركيبه سبيل الفصاحة والخروج عن اللُّكْنَةِ والهُجْنة .

والفصاحةُ فى المركب بأن يتصف بعد فصاحة مفرداته بصفات .

الصفة الأولىٰ

(أن يكون سليما من ضَعْفِ التأليف)

بأن يكون تأليف أجزاء الكلام علىٰ القانون النحوىّ المشتهر فيما بين معظم أصحابه حتّى لا يمتنع عند الجمهور ، وذلك كالإضمارِ قبل الذكر لفظًا أو معنًى ، نحو ضرب غلامُه زيدا ، فإنه غير فصيح وإن كان ما ٱتصل بالفاعل فيه ضميرَ المفعول به

مما أجازه الأخفش وتبعه ٱبن جنى لشدّة ٱقتضاء الفعل المفعول به كالفاعل ، وٱستشهد بقوله :

لما عصى أصحابُه مُصْعَباً * أدّى إليه الكيلَ صَاعًا بِصَاع

وقوله :

جزى بَنُوه أبَا الغِيلَانِ عن كِبَرٍ * وحُسْنِ فِعْلٍ كَمَا يُجْزَى سِنِمَّارُ

وقوله :

ألَا ليتَ شِعْرِى ، هَلْ يَلُومَنّ قومُه * زُهَيرًا على ما جَرَّ من كُلِّ جانِبِ

الصفة الثانية

(أن يكون سليما من التعقيد)

وهو أن لا يكون الكلام ظاهرَ الدلالة على المعنى الذى يُراد منه ، وهو على ضربين .

الضرب الأوّل ــ وهو الذى يسميه ابن الأثير (المعاظلة المعنوية) أن لا يكون ترتيب الألفاظ على وَفْق ترتيبِ المعانى بسبب تقديم أو تأخير ، أو حذف أو إضمار ، أو غير ذلك مما يوجب صُعوبةَ فهمِ المراد ، وإن كان ثابتا فى الكلام ، جاريا على القوانين كقول الفَرَزْدَقِ ، فى مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزوميّ ، خالِ هشامِ بن عبد الملك :

وما مِثْلُهُ فى الناس إلا مُمَلَّكًا * أبو أمّه حَىٌّ أبُوه يُقارِبه

أىْ وما مثل هذا الممدوح فى الناس حىٌّ يقاربه ويُشْبهه فى الفضائل إلا مُمَلَّكًا ، أبو أمّ ذلك المملَّك أبو الممدوح ، فيكون الممدوح خالَ المُمَلَّكِ ، والمعنى أنه لا يماثل

أحدُ هذا الممدوحَ الذى هو إبراهيم بن هشام إلا آبن أخته هشام، افسده وعقّد معناه، وأخرجه عن حدّ الفصاحة إلىٰ حدّ اللُّكْنة، وكذلك قوله فى الوليد بن عبد الملك :

إلىٰ مَلِك، ما أُمُّــه من مُحَارِبٍ * أبوه، ولا كانَتْ كُلَيْبٌ تُصَاهِرُهْ

يريد إلىٰ مَلِكٍ ماأمّ أبيه من مُحَارِبٍ، وقوله :

تعَالَ فإن عاهَدْتَنِي لا تَخُونُنِي * نَكُنْ مثلَ مَنْ ياذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ

يريد نكن ياذئب مثلَ مَنْ يصطحبان، وقوله :

وليست خُرَاسَانُ التى كان خالِدٌ * بها أَسَــدٌ، إذ كان سيفا أميرُها

يريد أن خالد بن عبد الله كان قد وَلِىَ خراسَانَ ووليها أَسَــدٌ بعده ، فمدح خالدا بأنه كان سيفا، بعد أن كان أسدٌ أميرَها، فكأنه يقول وليست خراسان بالبلدة التى كان خالد بها سيفا إذ كان أسد أميرها . قال آبن الأثير : وعلىٰ هــذا التقدير ففى كان الثانية ضميرُ الشأن والحديث، والجملة بعدها خبرٌ عنها، وقد قُدِّمَ بعض ما إذْ مضافةٌ إليه وهو أســد عليها، وفى تقديم المضاف إليه أو شىء منه علىٰ المضاف من القبح مالا خفاء به . قال : وأيضا فإن أسدا أحدُ جزأى الجملة المفسِّرَةِ للضمير، والضمير لايكون تفسيره إلا من بعده، ولو تقدّم تفســيره قبله لمــا آحتاج إلىٰ تفسير، ولمــا سماه الكوفيون الضمير المجهول، وعلىٰ نحو ذلك ورد قول الآخر :

فَأَصْبَحَتْ بَعْدَ خَطَّ بَهْجَتِهَا * كَأَنَّ قَفْرًا رُسُــومَهَا قَلَمَــا

يريد فأصبحت بعــد بهجتها قَفْرا كأنّ قَلَمًا خط رسومها ، فقــدّم خبر كأنَّ وهو خَطَّ عليها لجاء مختلًّا مضطربا، قال فى "المَثَل السائر" : وهذا البيتُ من أقبح هذا النوع لأن معانيَه قد تداخلتْ، وركب بعضُها بعضا؛ علىٰ أن ذلك قد وقع لجمع من فحول شعراء العرب . كقول آمرئ القيس :

هُمَا أَخَوَا فى الحَرْب منْ لَاأَخَا لَهُ * إذا خاف يوما نَبْــوَةً فَدَعَاهُمَــا

يريد أخوا من لاأخوَىْ له فى الحرب، وقول النابغة :

يُثِرْنَ الـثَّرىٰ حتّى يبُاَشِرْنَ بَرْدَهُ * ، إذا الشمسُ مجَّتْ ريقها، بالكَلَاكِلِ

قال أبو هلال العسكرىّ : وهذا البيت مستهجَن جِدًّا لأن المعنىٰ تَعَمَّى فيـه ، يريد يُثِرْنَ الثرىٰ حتّى يبـاشرن برده بالكلاكل إذا الشـمس مجّتْ ريقها ؛ وقول أبى حَيَّةَ النُّمَيْرِىِّ :

كَمَا خُطَّ الكِتَابُ بِكَفِّ، يوما، * يهُـودِىٍّ يُقَـارِبُ أو يُزِيلُ

يريد كما خط الكتاب بكف يهودىّ يوما يقارب أو يزيل؛ وقول ذى الرمة :

نَضا البُرْدَ عنه وهو مِنْ،ذو،جُنُونِه * أجارِىَّ،صَهَّالٌ وصوتُ مُبَرْسَمَ

يريد وهو من جنونه ذو أَجارِىَّ؛ قال فى "الصناعتين": كأنه تخليط كلامِ مجنون أو هُجْرُ مبرسَمٍ؛ وقول الشماخ :

تَخَامُصَ عن بَرْدِ الوِشَاحِ إذا مَشَتْ * تَخَامُصَ حَافِى الخَيْلِ فى الأمْعزِ الوَجىٰ

يريد تَخَامُصَ حافى الخيل فى الوجىٰ الأمعز؛ قال أبو هلال العسكرىّ : وليس للمُحْدَثِ أن يجعل هـذه الأبياتَ حجةً و يبنِىَ عليها فإنه لايعْذَر فى شئ منها ، لإجماع الناس اليومَ علىٰ مجانبة أمثالهـا وآستجادة مايَضِحُ من الكلام و يستبين ، وآسترذال ما يُشْكِلُ منه و يَسْتبهم؛ وقد كان عمر رضى الله عنه يمدح زهيرا بأنه لم يكن يعاظل بين الكلام .

قال فى "المثل السائر" : والفرزدق أكبر الشعراء تعاظلا وتعقيدا فى شعره، كأنه كان يقصـد ذلك ويتعمَّده، لأن مثله لايجىء إلا متكلَّفا مقصودا، و إلا فإذا ترك مؤلف الكلام نفسَـه تجرِى علىٰ سَجِيَّتِها وطبعها فى الآسترسال لم يعرِض له شيء من هذا التعقيد، بدليل أن المقصود من الكلام معدوم فى هذا النوع ، إذ المقصود من

الكلام إنما هو الإيضاح والإبانة وإفهام المعنىٰ ، فإذا ذهب هذا الوصف المقصود من الكلام ذهب المراد به، ولا فرقَ عند ذلك بينه وبين غيره من اللغات كالفارسية والرومية وغيرهما .

الضرب الثانى من التعقيد ـ أن لايكون الكلام ظاهر الدلالة علىٰ المراد بخلل فى ٱنتقال الذهن من المعنىٰ الأوّل المفهومِ بحسب اللغة إلىٰ الثـانى المقصود، لإيراد اللوازم البعيدة المفتقرة إلىٰ الوسائط الكثيرة، مع خفاء القرائن الدالة علىٰ المقصود، كقول العبَّاس بن الأحنف :

سَأَطْلُبُ بُعْدَ الدَّارِ عنكم لِتقْرُبُوا * وتَسْكُبُ عَيْنَايَ الدُّموعَ لِتَجْمُدَا

يريد إنى أطلب بُعْدَ الدار عنكم لتقربوا منى ، وتسكبُ عينـاى الدّموع لتجمد وتكُفَّ الدمعَ بحصول التلاقى ، والمعنىٰ أنّى طبت نفسا بالبعد والفِراق ، ووطّنْتُ نفسى علىٰ مقاساة الأحزان والأشـواق ، وأتجرّعُ الغُصَص ، وأحتمل لأجلها حُزْنا يُفيضُ الدّموع من عينَيّ لأتسببَ بذلك إلىٰ وصل يدوم، ومَسَرَّة لا تزول، فتجمُد عينى ويرقأدمعى ، فإن الصـبر مِفْتَاحُ الفَرَجِ ، فكنّى بسَكْبِ الدموع عن الكا بة والحُزْن ، وهو ظاهر المعنىٰ لأنه كثيرا ما يُجعـل دليلا عليـه ، يقال أبكانى الدهرُ وأضحكنى بمعنى ساءنى وسرّنى، وكنّى بجمود العين عما يوجبه دوامُ التلاقى من الفرح والسرور، فإن المتبادر إلىٰ الذهن من جمود العين بخلُها بالدمع عند إرادة البكاء حال الحزن ، بخلاف ماقصـده الشاعر من التعبير به عن الفَرَح والسرور ، وإن كانت حالة جمود الدمع مشتركةً بين بخل العين بالدمع عند إرادة البكاء، وبين زمن السرور الذى لم يُطلب فيه بكاء، وكذلك يجرى القول فى كل لفظ مشترك ينتقل الذهن فيه من أحد المعنيين إلىٰ الآخر إذا لم يكن هناك قرينة تصرفه إلىٰ أحدهما ، كما صرح به الرمانىّ وغيره، خصوصا إذا كان أحد المعنييـــن الذى يدلّ عليه اللفظ المشترك

مستقبَحا كما نبه عليه ابن الأثير فى الكلام على فصاحة اللفظ المفرد؛ ألا ترى أن لفظة التعزير مشتركة بين التعظيم والإكرام، وبين الإهانة بسبب الخيانة التى لا توجب الحدّ: من الضرب وغيره، والمعنيان ضدّان فحيث وردت معها قرينة صرفتها إلى معنى التعظيم جاءت حَسَنَةً رائقة، وكانت فى أعلى درجات الفصاحة؛ وعلى نحو ذلك ورد قوله تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وقوله: "فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ" الآية فإنه لما ورد معها قرينة التوقير فى الآية الأولى وقرينة الإيمان والنصر فى الآية الثانية زال اللبس وحَسُنَ الموْقع، ولو وردت مهملةً بغير قرينة بإرادة المعنى الحسن، لسبق الفهم إلى المعنى القبيح، كما لوقلتَ عزَّر القاضى فلانًا وأنت تريد أنه عظمه، فإنه لا يتبادر من ذلك إلى الفهم إلا أنه أهانه، وعلى هذا النَّهج يجرى الحكم فى الحسن والقبح مع القرينة وعدمها.

قال ابن الأثير رحمه الله: فمما ورد مع القرينة فجاء حسنا قول تأبط شرا:

أقول لِلَحْيَانٍ، وَقد صَفِرَتْ لَهُمْ * وِطَابِى ويَوْمِى ضَيِّقُ الجُحْرِ مُعْوِرُ

فإنه أضاف الجُحْرَ إلى اليوم فأزال عنه هُجْنة الاشتباه لأن الجحر يطلق على كل ثقب كجحر الحَيَّة واليربوع ونحوهما، وعلى المحل المخصوص من الحيوان فإذا ورد مهملا بغير قرينة تُخَصِّصُه سبق إلى الفهم المعنى القبيحُ لاشتهاره دون غيره[(١)]. ومما ورد مهملا بغير قرينة فجاء قبيحا قول أبى تَمَّام:

أعطيتَنِى ديةَ القتيلِ وليس لى * عَقْلٌ ولا حَقٌّ عليك قَدِيمُ

فإن المتبادر إلى الأفهام من قوله وليس لى عقل أنه من العقل الذى هو ضدّ الجنون ولو قال وليس لى عليك عقل لزال اللبس. قال: فيجب إذًا على صاحب هذه الصناعة أن يراعىَ فى كلامه مثل هذا الموضع.

---

(١) أى الفرج.

الصـــفة الثالثة

(أن يكون الكلام سليما من تَنافُر الكلمات وإن كانت مفرداته فصيحة)

وقد ٱختلف فى معنىٰ هذا التنافر علىٰ ثلاثة مذاهب .

المذهب الأول ـ أن المراد بتنافر الكلمات أن يكون فى الكلام ثِقَلٌ علىٰ اللسان ويَعْسُرُ النطقُ به علىٰ المتكلم، وإليه ذهب السَّكَّاكىّ وغيره من علماء البيان .

وهو علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ـ أن يكون فيه بعض ثقل، كقول أبى تَمّـام :

كَرِيمٌ متىٰ أمدحهْ أمدحهْ والورىٰ * معى، وإذا مالُمْتُه، لُمْتُه وَحْدِى

فقوله أمدحه أمدحه فيه بعضَ الثِّقَل علىٰ اللسان فى النطق به، وذلك أن الحاء والهـاء متقاربان فى المخرج، وقد ٱجتمعا فى قوله أمدحه، ثم تكررت الكلمة فى البيت مع تَقَارُبِ مخرج الحرفين فثقلت بعض الثقل .

وأوّل من نبه علىٰ ذلك الأستاذ ٱبن العَميد رحمه الله .

وممـا يحكىٰ فى ذلك أن الصاحب بن عَبَّادٍ أنشد هذا البيت بحضرة ٱبن العميد، فقال له ٱبن العميد : هل تعرف فى هذا البيت شيئا من الهُجْنَة ؟ فقال : نعم، مقابلة المدح باللوم وإنمـا يقابل المدح بالذم والهجاء ، فقـال له ٱبن العميد : غيرَ هـذا أريدُ ، قال : لا أرىٰ غير ذلك . فقال ٱبن العَميد : هـذا التكرير فى أمدحه أمدحه مع الجمع بين الحاء والهاء وهما من حروف الحلق خارج عن حدّ الاعتدال ، نافر كلَّ التنافر ، فاستحسن الصاحب بن عَبَّادٍ ذلك .

قال الشيخ سعد الدّين التفتازانىّ فى شرح تلخيص المِفْتاح : ولا يجوز أن يراد الثقل فى لفظة أمدحه دون تكرار، فإنّ مثل ذلك واقع فى التنزيل نحو قوله تعالىٰ :

"فسبّحه" والقول باشتمال القرءان علىٰ كلام غير فصيح مما لايجترئ عليه المؤمن .

الضرب الثانى ـ ما كان شديد الثقل بحيث يضطرب لسان المتكلم عند إرادة النطق به، كقوله :

وَقَبْرُ حَرْبٍ بِمَكَانٍ قَفْرِ * وليس قُرْبَ قَبْرِ حَرْبٍ قَبْرُ

قال فى عجائب المخلوقات : إن من الجن نوعا يقال له الهاتف، فصاح واحد منهم علىٰ حَرْبِ بن أُمَيَّة فمات، فقال ذلك الجِنِّىّ هذا البيتَ . قال المسعودىّ فى "مروج الذهب" : والدليل علىٰ أنه من شعر الجن أمران ، أحدهما الرواية ، والثانى أنه لا يقوله أحد ثلاث مرات متواليات إلا تَعْتَعَ فيه . قال ضياء الدين بن الأثير : والسبب فى ثقل البيت تكرير حرفى الباء والراء فيه، فهذه الباءات والراءات فيه كأنها سِلْسِلة ، ولا خَفَاءَ بما فى ذلك من الثقل . قال : وكذلك يجرى الحكم فى كل ما تكرر فيه حرف أو حرفان إلا أنه لم يُطْلِق علىٰ ذلك آسمَ التنافر، وجعل التنافر قسما مستقلا برأسه كما سيأتى ، وعدّ هذا من أنواع المعاظلة اللفظية، ثم ذكر من أمثلته قول الحريرى فى مقاماته :

وآزْوَرَّ مَنْ كان له زَائِرًا * وعافَ عَافِى العُرْفِ عِرْفَانَهُ

وقول كُشَاجِم :

والزَّهْرُ والقَطْرُ فى رُبَاهَا * مابينَ نَظْمٍ وبين نَثْرِ
حدائقٌ ، كَفُّ كلِّ رِيحٍ * حلَّ بها خَيْطُ كُلِّ قَطْرِ

وقول الآخر :

مَلِلْتُ مِطَالَ مولود مُفَدًّى * مَلِيحٍ مانع مِنِّى مُرَادى

وقول المتنبى :

كَيْفَ تَرْثِى التى ترىٰ كُلَّ جَفْنٍ * رَاءَهَا غَيْرَ جَفْنِهَا غَيْرَ رَاقى

وعاب بيت الحريرىّ لتكرر العين فيه فى قوله :

* وَعَافَ عَافِى العُرْفِ عِرْفَانَهُ *

وعاب البيت الثانى من بيتى كشاجم لتكرر الكاف فيه فى "كَفّ وكُلّ" الاولىٰ و"كل" الثانية، وقال هذا البيت يحتاج الناطق به إلىٰ بِرْكارٍ يضعه فى شِدْقِهِ حتّٰى يديره له ؛ وعاب البيت الذى يليه لتكرر الميم فيه فى أوائل الكلمات ، وقال : هذه الميمات كأنها عُقَدٌ ، متصـلة بعضها ببعض ؛ وعاب بيت المتنبى لتكرر الجيم والراء فى أكثر كلماته ، وقال : هذا وأمثاله إنمـا يَعْرِض لقائله فى نوبة الصَّرْع التى تنوبه فى بعض الأيام . قال : وكان بعض أهـل الأدب من أهل عصرنا يستعمل هذا القسمَ من المعاظلة كثيرا فى كلامه نثرا ونظما ، وذلك لعدم معرفتـه لسلوك الطريق كقوله فى وصف رجل سخىّ : "أنت المُرِيح كَبِد الريح ، والمُلِيح إن تجهَّم المَلِيح بالتكليح ؛ عند سائل يَلُوح ، بل تفوق إذ تَرُوق مَرْأىٰ يُوح ؛ يامغْبوقَ كأسِ الحمد يامَصْبُوح ضاق عن نَدَاك اللَّوح ، وببابك المفتوح يستريح ويُرِيح ذو التَّبْرِيح ، ويُرَفَّه الطَّلِيح" فانظر إلىٰ حرفى الراء والحاء كيف لزمهما فى كل لفظة من هذه الألفاظ لجاء علىٰ ما تراه من الثقل والغَثَاثة .

ثم قال : وآعلم أن العرب الذين هم الأصـل فى هذه اللغة قد عَدَلُوا عن تكرير الحروف فى كثير من كلامهـم ، وذاك أنه إذا تكرر الحـرف عنـدهم أدغموه آستحسانا ، فقالوا فى جعـل لك : جَعَلَّكَ ، وفى تضربوننى تضربُونِّى ، وكذلك قالوا : آستعدّ فلان للأمر إذا تأهب له ، والأصل فيه آستعدد، وآسْتَتَبَّ الأمر إذا تهيأ والأصـل فيه آستتبب ، وأشـباه هـذا كثير فى كلامهم حتّٰى إنهم لشِدّة كراهتهم لتكرير الحروف أبدلوا الحرفينِ (١) المكررين حرفا آخر غيره ، فقالوا : أمليتُ

(١) صوابه أحد الحرفين كما هو نص العبارة فى المثل السائر .

الكتّاب ، والاصل فيه أمللت ، فأبدلوا اللامَ ياءً طلبا للخفة وفِرارا من الثقل ، وإذا كانوا قد فعلوا ذلك فى اللفظة الواحدة فما ظنك بالالفاظ الكثيرة التى يتبع بعضها بعضا .

قلت : ليس تكرار الحروف مما يوجب التنافر مطلقا كما يقتضيه كلامه بل بحسب التركيب ، فقد تتكرر الحروف وتترادف فى الكلمات المتتابعة مع القطع بفصاحتها وخفّتها على اللسان ، وسهولة النطق بها ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قِيلَ يَانُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ كيف ٱجتمع فيه ست عشرة ميما فى آية واحدة ، قد تلاصق منها أربع ميمات فى موضع وميمان فى موضع ، مع ما ٱشتملت عليه من الطّلاوة والرَّوْنَقِ الذى ليس فى قدرة البَشَر الإتيان بمثله ، والله أعلم .

المذهب الثانى — أن المراد بتنافر الكلمات أن تكون أجزاء الكلام غير متلائمة ، ومعانيه غير متوافقة بأن يكون عجز البيت أو القرينة غير ملائم لصدره ، أو البيت الثانى غير مشاكل للبيت الأول ، وعليه جرى العسكرى فى "الصناعتين" فمما ٱختلفت فيه أجزاء البيت الواحد قول السموءل :

فَنَحْنُ كَماءِ المُزْنِ مافِى نِصابِنَا * كَهَامٌ ولا فِينَا يُعَدُّ بَخِيلُ

فليس بين قوله مافى نصابنا كَهَامٌ وقوله فنحن كماء المزن مناسبة لأن المراد بالكَهَام الذى لا غَناءَ به ولا فائدة فيه ، يقال قوم كَهَامٌ أى لَا غَناءَ عندهم ، ورجل كَهَامٌ أى مُسِنٌّ ، كذلك سَيْفٌ كَهَامٌ أى كَلِيلٌ ، ولسان كَهَامٌ أى عَيِيٌّ ، وفرس كَهَامٌ أى بطىء ، فهو يصف قومه بالنَّجْدَةِ والبأس ، وأنه ليس فيهم من لا يُغْنِى ، وماء المزن إنما يحسُن فى وصف الجود والكرم . قال فى "الصناعتين" : ولو قال : ونحن لُيُوثُ الحرب وأولو الصَّرامة والنجدة ، ما فى نِصَابنا كَهَامٌ ، لكان الكلام مستويا ،

أو فنحن كماء المزن صَفَاءَ أخلاق وبذل أَكُفٍّ، لكان جيدا، ومن ذلك قول طَرَفة :

ولستُ بِحَلَّالِ التِّـلَاعِ مخـافةً * ولكن متىٰ يَسْتَرْفِدِ القومُ أَرْفِد

فالمصراع الثانى من البيت غير مشاكل لصورة المصراع الأوّل وإن كان المعنىٰ صحيحا لأنه أراد ولست بحلّال التِّلَاعِ مخافةَ السؤال ولكنى أنزل الأمكنة المرتفـعة ليَنتابونى وأَرْفِدَهم، وهذا وجه الكلام فلم يعبر عنه تعبيرا صحيحا ولكنه خلطه وحذف منه حذفا كثيرا فصار كالمتنافر، وأدواء الكلام كثيرة، ومنه قول الأعشىٰ :

وإنّ آمرأً أسرىٰ إليْكِ ودُونَهُ * سُهُوبٌ ومَوْمَاةٌ وبيداء سَمْلَقُ،

لَمَحْقُوقَةٌ أن تَسْتَجِيبِي لِصَوْتِهِ * وأن تَعْلَمِى أن المُعَانَ مُوَفَّقُ

فقوله : وأن تعلمى أن المُعَانَ موفق غير مشاكل لمـا قبله، وعلىٰ نحو ذلك ورد قول عَنْتَرَةَ :

حَرِقُ الجَنَاحِ كأنَّ لَحْيَيْ رَأْسِه * جَلَمَـانِ بالأخبار هَشٌّ مُولَعُ

إنَّ الذِينَ نَعَبْتَ لِى بِفِراقِهِم * هُمْ أسلمُوا لَيْلَ التَّمامِ وَأَوْجَعُوا

فليس قوله بالأخبار هشٌّ مُولَعُ من صفة جناحيه ولَحْيَيْه، وقريب منه قول أبى تَمَّـام :

مُحَمَّدُ إنَّ الحاسدِينَ شُهُودُ * وإنَّ مُصَابَ المُزْنِ حيث تُرِيدُ

فليس النصف الثانى من النصف الأوّل فى شىء، وكذلك قول الطالبىّ :

قومٌ هدىٰ اللهُ العبادَ بجدّهم * والمُؤْثِرُون الضيفَ بالأزْواد

فلا مناسبة بين صدر البيت وعَجُزه بوجه .

وعدّ بعض الأدباء من هذا النوع قول آمرئ القيس :

كأَنِّىَ لم أرْكبْ جوادًا لِلذَّة، * ولم أَتبَطَّنْ كاعِبًا ذاتَ خَلْخَالِ

ولم أَسْبَإِ الزِّقَّ الرَّوِىَّ ولم أقُلْ * لِخَيْلِيَ كُرِّى كَرَّةً بعـد إجفال

وقال : لو وضع مصراعَ كل بيت من هـذين البيتين فى موضع الآخر، لكان أحسن وأدخل فى آستواء النسج، فكان يقال :

كأنى لم أركب جوادا، ولم أقل * لخيلى كُرِّى كرة بعـد إجفال

ولم أسبإ الزق الروىّ للذة، * ولم أتبطَّنْ كاعبا ذات خَلْخَال

لأن ركوب الجواد مع ذكر كرور الخيل أجود، وذكر الخَمْر مع ذكر الكواعب أحسن . قال فى "الصـناعتين" : قال أبو أحمد : والذى جاء به آمرؤ القيس هو الصحيح لأنّ العرب تضع الشىء مع خلافه، فيقولون : الشدّة والرخاء، والبُؤْس والنعيم، ونحو ذلك . وكذلك كل مايجرى هذا المَجْرىٰ . قال أبو هلال العسكرىّ : أخبرنى أبو أحمد قال : كنت أنا وجماعةٌ من أحداث بغـدادَ ممن يتعاطىٰ الأدبَ نختلف إلىٰ مُدْرِك نتعلم منـه الشعر، فقال لنا يوما : إذا وضعتم الكلمة مع لِفْقِهَا، كنتم شعراء . ثم قال : أجيزوا هـذا البيت :

* أَلَا إنَّمـا الدُّنيا مَتَـاعُ غُرُورِ *

فأجازه كل واحد منا بشىء، فلم يَرْضَهُ . فقلت أنا :

* وإن عَظُمَتْ فى أَنْفُسٍ وصُدُورِ *

فقال : هـذا هو الجيِّد المختار . قال : وأخبرنى أبو أحمد الشطنىّ قال : حدثنا أبو العباس بن عربىّ، قال : حدثنا حمـاد بن يزيد بن جبلة ، قال : دفن مسلمةُ رجلا من أهله ثم قال :

* نَرُوحُ ونَغْدُو كُلَّ يومٍ وليلةٍ *

ثم قال لبعضهم : أجز فقال :

* فحتّىٰ متىٰ هذا الرَّواحُ مَعَ الغُدُوّ *

فقال مسلمة : لم تصنع شيئا ، ثم قال لآخر : اجز فقال :

* فيالك مَغْدًى مرَّةً ومَرَاحا *

فقال : لم تصنع شيئا، ثم قال لآخر: أجز فقال :

* وعمَّا قليلٍ لا نَرُوحُ ولا نَغْدُو *

فقال : الآن تم البيت ، وأشباه ذلك ونظائره كثيرة . ومما آختلف فيه البيت الأوّل والثانى قول آبن هرْمَةَ :

وإنِّى وتركى ندى الأكرمين * وقَدْحى بِكَفِّىَ زَنْدًا شَحَاحَا
كتاركةٍ بَيْضَهَا بالعَـــرَاء * ومُلْبِسَةٍ بيضَ أخرى جَنَاحَا

وقول الفَرَزْدَقِ :

فإنَّكَ إذ تَهْجُو تميمًا وترتشِى * سَرَابيلَ قَيْسٍ أو سُحُوقَ العمائم
كمُهْرِيقِ ماء بالفَلاةِ، وغَرَّهُ * سَرَابٌ أَذَاعَتْهُ رِيَاحُ السَّمائم

كان ينبغى أن يكون بيت آبن هرْمَةَ الأوّلُ مع بيت الفرزدق الثـانى ، وبيتُ الفرزدق الأوّلُ مع بيت آبن هرْمَةَ الثانى، فيقال فى الأوّل :

وإنى وتركى ندى الأكرمين * وقدحى بِكَفِّىَ زَنْدًا شحاحا
كمهريق ماءٍ بالفـلاة وغرّه * سراب أذاعته رياح السمائمِ

مع تغيير إحدى القافيتين، ويقال فى الثانى :

وإنك إذ تهجو تميما وترتشى * سرابيلَ قَيْسٍ أو سحوقَ العمائمِ
كتاركة بيضهـا بالعـــراء * وملبسة بيض أخرى جَنَاحا

مع تغيير إحدى القافيتين حتّى يصح التشبيه للشاعرين جميعا .

المذهب الثالث ـ أن المراد بتنافر الكلمات أن تذكر لفظة أو ألفاظ يكون غيرها مما فى معناها أولىٰ بالذكر، فتجيء الكلمة غير لائقة بمكانها، وهو ما اصطلح عليه ابن الاثير فى "المَثَل السائر" . وهو علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل ، ما يوجد منه فى اللفظة الواحدة فيمكن تبديله بغيره مما هو فى معناه، سواء كان ذلك الكلام نظما أو نثرا، وهو علىٰ أنواع شتّى .

منها فك الإدغام فى غير موضع فكّه، كقول ابن أمّ صاحب :

مَهْلًا أعاذلَ قد جَرَّبْتِ من خُلُقِى * أنى أجودُ لأقوام وإنْ ضَنِنُوا

ففكّ الإدغام فى ضننوا، وكان الأحسن أن يقال : وإن ضنوا أى بَخِلُوا .

وعلىٰ حدّ ذلك ورد قول المتنبي :

فلا يُبْرَمُ الأمرُ الذى هو حَالِلٌ * ولا يُحْلَلُ الأمرُ الذى هو يُبْرِمُ

فلو أدغم لجاءت اللفظة قارّة فى مكانها، غير قلقة ولا نافرة، وكذلك كل ما جاء علىٰ هذا النهج فلا يحسن أن يقال بَلَّ الثوبَ فهو باللِ، ولا سَلَّ السيفَ فهو سالل، ولا همَّ بالامر فهو هامم، ولاخط الكتاب فهو خاطط، ولاحَنَّ إلىٰ كذا فهو حانن، وهذا لو عُرِض علىٰ من لاذوق له أدركه، فكيف من له ذوق صحيح كابى الطيب ؟ لكن لابدّ لكل جواد من كبوة .

ومنها زيادة حرف فى غير موضعه، كقول دِعْبِلٍ :

شفيعَك فاشكُرْ فى الحوائج، إنّهُ * يَصُونُكَ عن مكروهها وهو يَخْلَقُ

فالفاء فى قوله فاشكر زائدة فى غير محلها، نافرة عن مكانها . قال الوزير ضياء الدين ابن الاثير : أنشدنى بعض الأدباء هذا البيت فقلت له : عجز هذا البيت حسن، واما صدره فقبيح : لأن سبكه قَلِقٌ نافر، والفاء فى قوله فاشكر كأنها رُكْبَةُ البعير،

وهى فى زيادتها كزيادة الكَرِش، فقال : لهذه الفاء فى كتاب الله تعالىٰ أشباه : كقوله تعالىٰ : ﴿يٰأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ فقلت له بين هذه الفاء وتلك فرق ظاهر يدرك بالعلم أوّلا وبالذوق ثانيا، أما العلم فإن الفاء فى قوله تعالىٰ : "وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ" فهى الفاء العاطفة إذ وردت بعد قوله : "قُمْ فَأَنْذِرْ" وهى مثل قولك : ٱمْشِ فأسْرِع، وقلْ فأبْلِـغْ، وليست الفاء التى فى قول دِعْبِلٍ : شفيعك فاشكر من هذا القبيل ، بل هى زائدة ولا موضع لها ، وإنما نسبتها أن يقال ربك أو ثيابك فطهر من غير تقدّم معطوف عليه(١)، وحاشا فصاحة القرءان من ذلك. فأذعن بالتسليم ورجع إلىٰ الحق . قال : ومثل هذه الدقائق التى ترد فى الكلام نظما كان أو نثرا لايتفطَّن لها إلا الراسخُ فى علم الفصاحة .

ومنها وصل همزة القطع فى الشعر وإن كان ذلك جائزا فيــه بخلاف النثر كقول أبى تمَّـام :

قَرَانِى اللُّها والوُدَّ حتّىٰ كأنَّمـا ٭ أفاد الغِنَى من نائلِي وفوَائِدى

فأصْبَح يلْقانِى الزَّمانُ مِنَ ٱجْله ٭ بإعْظَامِ مـــولُودٍ ورأفةِ والِدِ

فقوله من ٱجله بوصل همزة القطع من الكلام النافر، وعلىٰ حدّه ورد قول أبى الطَّيِّب :

يُوَسِّــطُهُ المَفَـاوِزَ كلَّ يَوْم ٭ طِلَابُ الطَّالِبِينَ لَاا لِٱنْتِظَارُ

فقوله لا الٱنتظار بوصل همزة الانتظار كلام نافر .

ومنها قطع همزة الوصل فى الشعر أيضا وإن كان جائزا فيه كقول جميل :

أَلَا لَا أرىٰ إثْنَيْنِ أجمـلَ شِـيمَةً ٭ علىٰ حَدَثَانِ الدَّهْرِ مِنّى ومن جُمْلِ

(١) لم يذكر الثانى وقد ذكره فى "المثــل السائر" فقال . وأما الذوق فانه ينبو عن الفاء الواردة فى قول دعبل ويستثقلها ... الى أن قال فلمـا سمع ماذكرته أذعن الخ .

وقوله أيضا :

إذا جاوزَ الإثْنين سِرٌّ فإنَّهُ * بِنَشْرٍ وتكْثِيرِ الوُشَاةِ قَمِينُ

فقطع ألف الوصل فى لفظ الاثنين فى البيت الأوّل والثانى .

ومنها أن يفرّق بين الموصوف والصفة بضمير من تقدّم ذكره كقول البُحْتُرِىّ :

حَلَفْتُ لهـا باللهِ يَوْمَ التفرُّقِ * وبالوجْدِ مِنْ قَلْبِي بها المُتَعَلِّقِ

تقديره من قلبي المتعلق بها، فلما فصل بين الموصوف الذى هو قلبي والصفة التى هى المتعلق بالضمير الذى هو بها ، قَبُحَ ذلك . ولو قال من قلب بهـا متعلق لزال ذلك القبح وذهبت تلك الهُجْنة . ونحو ذلك .

الأصـــــل الرابع

(المعرفة بالسجع الذى هو قِوام الكلام المنثور وعُلوّ رتبته، ويتعلق به ستة أغراض)

الغرض الأوّل

(فى معرفة معناه فى اللغة والاصطلاح، وبيان حكمه فى حالتى الدرج والوقف)

اما فى اللغة فقال فى "موادّ البيان" : إنه مشتق من الساجع : وهو المستقيم لاستقامته فى الكلام، واستواء أوزانه . وقيل من سجع الحمامة : وهو ترجيعها الصوت على حدٍّ واحد، يقال منه سَجَعَتِ الحمـامةُ تَسْجَعُ سَجْعا فهى ساجعة ؛ سُمِّى السجع فى الكلام بذلك لأن مقاطع الفصـول تأتى على ألفاظ متوازنة متعادلة ، وكلمـات متوازية متمـاثلة . فأشبه ذلك الترجيعَ .

وأما فى الاصطلاح، فقال فى "موادّ البيان" : هو تقْفِيَة مقاطع الكلام من غير وزن، وذكر نحوه فى "المثل السائر" فقال : هو تواطؤ الفواصل من الكلام المنثور على حرف واحد؛ ويقال للجزء الواحد منه سجعة ، وتجمع على سَجَعاتٍ ، وفِقْرةٍ (بكسر

الفاء) أخذا من فِقْرَةِ الظهر : وهى إحدىٰ عظام الصُّلْبِ، وتجمع علىٰ فِقَرٍ وفِقْرات بكسر الفاء وسكون القاف وفتحها ، وربمـا فتحت الفاء والقاف جميعا ، ويقـال لهـا أيضا قَرِينَـة لمقارنة أختها وتجمع علىٰ قرائنَ ، ويقال للحرف الأخير منها حرف الرَّوِىّ والفاصلة .

وأما بيـان حكمه فى الوقف والدّرج فآعلم أن موضوع حكم السـجع أن تكون كلمات الأسجاع ساكنة الأعجاز، موقوفا عليها بالسكون فى حالتى الوقف والدّرج: لأن الغرض منها المناسبة بين القرائن ، أو المزاوجة بين الفِقَر، وذلك لايتم إلا بالوقف. ألا ترىٰ أن قولهم : ما أبْعَدَ مافات ، وما أقْرَبَ ماهوآت ، لو ذهبت تصل فيه لم يكن بدّ من إعطاء أواخر القرائن ما يعطيـه حكم الإعراب فتختلف أواخرُ القرائن ويفوت الساجع غرضُه .

الغرض الثانى

(فى بيان حُسْن موقعه من الكلام)

قال فى "الصناعتين" : لا يحسن منثور الكلام، ولا يحلو حتّى يكون مُزْدَوِجًا ، ولا تجد لبليغ كلاما محلولا من الآزدواج، وناهيك أن القرءان الكريم الذى هو عنصر البلاغة ومَنَاطُ الإعجاز مشحونٌ به ، لاتخلو منه سورة من سُوَرِهِ وإن قَصُرَتْ. بل ربمـا وقع السجع فى فواصل جميع السورة ، كما فى سورة النجم، وآقتربت، والرحمن وغيرها من السُّوَر . بل ربمـا وقع فى أوساط الآيات، كقوله تعالىٰ : ﴿الَّذى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ وقوله : "لَوْ نَشَاء أَصَبْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ" وقوله : "وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ" وما أشبه ذلك. وكذلك وقع فى الكثير من كلام رسول الله صلى الله عليه وسـلم كقوله عليه السلام

عند قدومه المدينة الشريفة : "أَفْشُوا السَّلام، وأَطْعِمُوا الطَّعَام، وصِلُوا الأرْحام، وصَلُّوا بالَّيْل والنَّاسُ نِيَام، تَدْخُلوا الجنَّةَ بسَلَام". بل ربما صرف صلى الله عليه وسلم الكلمة عن موضوعها فى تصريف اللغة طلبا للمزاوَجَة : كقوله فى تعويذه لآبن آبنته : "أُعِيذُه مِنَ الهَامَّة والسامَّه، والعَيْن اللَّامَّه" وأصلها فى اللغة المُلِمَّة لأنها من أَلَمَّ، فعبر عنها باللامة لموافقة الهامَّة والسامَّة ؛ وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم للنساء : "آنْصَرِفْنَ مَأْزُورات غَيْرَ مَأْجُورات" والأصل فى اللغة أن يقال مَوْزُورات أخذا من الوِزْر، فعبر بمأزورات لموافقة مأجورات ؛ وعلى ذلك كان يجرى كلام العرب فى مُهِمّ كلامهم من الدعاء وغيره : كقول بعض الأعراب وقد ذهب السيل بابنه : اللهم إن كُنْتَ قد أَبْلَيْتَ ، فطَالَما عافَيْت . وقول الآخر : اللهم هَبْ لنا حبك ، وأَرْضِ عنا خلقك، ونحو ذلك . أما ماورد من أنه صلى الله عليه وسلم حين قضى على رجل فى الجَنِين بغرّة عبدٍ أو أمةٍ، فقال الرجل : أَأَدِى من لاشَرِب ولا أكل، ولا نَطَقَ ولا آستَهَل، ومثل ذلك يُطَل . فقال النبى صلى الله عليه وسلم "أسجعا كسَجْع الكُهَّان" فليس فيه دلالة على كراهة السجع فى الكلام وإن تمسك به بعض من نَبَا عن السجع طبعُه ، ونفرت منه قريحته . إذ يحتمل أنه صلى الله عليه وسلم إنما كره السجع من ذلك الرجل لمشابهة سجعه حينئذ سجعَ الكُهَّان، لما فى سجعهم من التكلُّف والتعسُّف كما وجهه أبو هلال العسكرى ، وإما لجريانه على عادتهم فى الجواب فى الأحكام وغيرها بالكلام المسجوع كما وجهه غيره ؛ أو أنه إنما كره حكم الكاهن الوارد باللفظ المسجوع بانكار إيجاب الدية لا نفس السجع المأتى به كما آختاره صاحب "المَثَل السائر" ولو كره صلى الله عليه وسلم السجع نفسَه، لاقتصر على قوله أسجعا ولم يقيده بسجع الكُهَّان .

الغرض الثالث

(فى بيان أقسام السجع ، وهى راجعة إلىٰ صنفين)

الصـــنف الأوّل

(أن تكون القرينتان متفقتين فى حرف الرَّوِىّ، ويسميه الرُّمَّانِىُّ السجع الحالِى وعليه عمل أكثر الكُتَّاب من زمن القاضى الفاضل، وهَلُمَّ جرّا إلىٰ زماننا، وفيه ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ ــ أن تكون ألفاظ القرينتين مستوية الأوزان متعادلة الأجزاء ويسمّى التصريع، وهو أحسن أنواع السجع وأعلاها . ومنه فى النثر قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ وقوله : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ . وقول النبى صلى الله عليه وسلم فى دعائه : "اللَّهُمَّ اقْبَلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي". وقوله للأنصار "إنكم لَتَكْثُرُونَ عند الفَزَع، وتَقِلُّونَ عِنْد الطَّمَع" وقول بعض الأعراب فى وصف سنةٍ جَدْبة : سنة جَرَدتْ، وحالٌ جَهَدَتْ، وأيدٍ جمدت، ونحو ذلك . ومثاله فى النظم قول الخنساء :

حَامِى الحقيقةِ، محمودُ الخليقة، مهــدىُّ الطريقــةِ ، * نَفَّاعٌ وضَرَّارُ !

جوّاب قاصيــةٍ ، جَزّازُ ناصيــة، * عــدّاد ألوية، للخيــل جرّارُ !

المرتبة الثانية ــ أن يختص التوازن بالكلمتين الأخيرتين من الفِقْرتين فقط ، دون ماعداهما من سائر الألفاظ، كقوله تعالىٰ : ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ﴾ ثم قال : ﴿وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ﴾ . وكقول الحريرى فى مقاماته : أَلْجَأَنِى حُكْمُ دَهْرٍ قَاسِطْ، إلىٰ أن أَنْتَجِعَ أرضَ وَاسِط . وقوله : وأَوْدىٰ الناطقُ والصَّامت، ورَثىٰ لنا الحاسدُ والشَّامِت، وما أشبه ذلك .

المرتبة الثالثة ـ أن يقع الاتفاق فى حرف الرَّوِىّ مع قطع النظر عن التَّوازُن فى شىءٍ من أجزاء الفِقْرة فى آخِرٍ ولا غيره، ويسمّٰى المطرّف . كقوله تعالىٰ : ﴿مَالَكُمْ لَاتَرْجُونَ لِلّٰهِ وَقَارًا وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ وقولهم : جَنابه مَحَطُّ الرِّحال، ومُخَيَّمُ الآمال. وما يجرى هذا المَجْرىٰ .

الصنف الثانى

(أن يختلف حرف الرَّوِىّ فى آخر الفِقْرتين، وهو الذى يعبرون عنه بالازدواج . والرُّمانىّ يسميه السَّجْع العاطل، وعليه كان عملُ السلف من الصحابة ومَن قارب زمانهم : وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أن يقع ذلك فى النثر : وفيه مرتبتان)

المرتبة الأولىٰ ـ أن يراعىٰ الوزن فى جميع كلمات القَرِينتين أو فى أكثرها، مع مقابلة الكلمة بما يُعادلها وَزْنا ، ويسمّٰى التوازُن وهو أحسنها وأعلاها . كقوله تعالىٰ: "وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ" وكقول الحريرىّ: اسْوَدّ يومى الأبيض، وآبْيَضّ فَوْدِى الأسْوَد .

المرتبة الثانية ـ أن لا يُراعىٰ التوازُنُ إلا فى الكلمتين الأخيرتين من القَرِينتين فقط، ويسمّٰى التوازنَ أيضا ، ومنه قوله تعالىٰ : " وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ " وقولهم : اِصْبِرْ علىٰ حَرِّ القِتال ، ومَضَضِ النِّزَال، وشِدّة النِّصاع، ومُداوَمة البِرَاز ، وما أشبه ذلك .

الضرب الثانى
(السَّجْع الواقع فى الشِّــعر)

ويسمَّى التصريعَ فى البيت الأول، ومحل الكلام عليه علمُ البديع. وقد ذكره فى «المثل السائر» فى أعقاب الكلام على السجع فى الكلام المنثور، وجعله على سبع مراتب .

المرتبة الأولى ــ وهى أعلاها درجةً ــ أن يكون كل مصراع من البيت مستقلًّا بنفسه، غيرَ محتاج إلى ما يليه؛ ويسمَّى التصريعَ الكاملَ : كقول آمرئ القيس :

أَفَاطِمَ مَهْلًا بعضَ هــذا التَّـدَلُّلِ * وإن كُنْتِ قد أَزْمَعْتِ هَجْرِى فأَجْمِلِى

فإن كل مصراع من البيت مفهوم المعنى بنفسه، غير محتاج إلى ما يليه فى الفهم، وليس له به آرتباط يتوقف عليه .

المرتبة الثانية ــ أن يكون المِصْراع الأول مستقلًّا بنفســه ، غير محتاج إلى الذى يليه إلا أنه مرتبط به، كقول آمرئ القيس أيضا :

قِفَا نَبْك مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ ومَنْزِلِ * بِسِقْطِ اللِّوَى بين الدَّخُولِ فَحَوْمَلِ

فإنّ المِصْراع الأول منــه غير محتاج إلى الثـانى فى فهم معناه ، ولكنه لمـا جاء الثانى صار مرتبطا به .

المرتبة الثالثة ــ أن يكون الشاعر مخيَّرا فى وضع كل مصراع موضع الآخر، ويسمَّى التصريع المُوَجَّه، كقول آبن حَجَّاج :

مِنْ شُروطِ الصَّبُوح فى المَهْرجانِ * خِفَّــةُ الشُّرْب مع خُلُوِّ المَكَانِ

فإنه لو جعل المِصْراع الثانى أوّلا والآخر ثانيا، لساغ له ذلك .

المرتبة الرابعة ــ أن يكون المِصْراع الأول غيرَ مستقلّ بنفسه، ولا يُفْهَم معناه إلا بالثانى؛ ويسمَّى التصريعَ الناقصَ، وليس بمستحسَن . كقول المتنبى :

مَغَانِى الشِّعب طيبًا فى المَغَانِى * بمَنْزِلَةِ الربيع مِنَ الزَّمَانِ

فإنّ المِصْراع الأوّل لايستقلّ بنفسه فى فهم معناه دون المِصْراع الثانى .

المرتبة الخامسة ــ أن يكون التصريعُ فى البيت بلفظة واحدة فى الوسط والقافية، ويسمّى التصريعَ المكررَ، ثم اللفظة التى يَقَع بها التصريع قد تكون حقيقةً لا مجازَ فيها، كقول عبيدِ بن الأبرص :

وكُلُّ ذِى غَيْبةٍ يَـئُوبُ * وغائبُ الموتِ لا يَـئُوب

وقد تكون اللفظة التى يَقَع بها التصريع مجازيَّة كقول أبى تمَّـامٍ الطائىّ :

فَتًى كانَ شِرْبًا للعُفَاةِ ومَرْتَعَا * فأصبحَ للهِنْدِيَّةِ البِيضِ مَرْتَعَا

المرتبة السادسة ــ أن يكون المصراع الأوّل معلَّقا علىٰ صفة يأتى ذكرها فى أوّل المصراع الثانى، ويسمّى التصريع المعلَّق . كقول ٱمرئ القيس :

أَلَا أيُّها الليلُ الطَّوِيلُ ألا ٱنجَلِى * بِصُبْحٍ وما الإصْباحُ فيك بأمْثَلِ

فإن المصراع الأوّل معلق علىٰ قوله بصُبْحٍ، وهو مستقْبَح فى الصنعة .

المرتبة السابعة ــ أن يكون التصريع فى البيت مخالِفًا لقافيته، ويسمّى التصريعَ المشطورَ، وهو أنزل درجات التصريع وأقبحُها . كقول أبى نُوَاسٍ :

أَقِلْنِى قَدْ نَدِمْتُ علىٰ الذُّنوبِ * وبالإقرارِ عُذْتُ من الجُحُودِ

فإنه قد صَرَّع فى وسط البيت بالباء ثم فى آخره بالدال .

قلت وإنمـا أوردت هذا الصنف مع السجع وإن كان من خصوصيات الشعر لأنه قد يَقَع مثله فى النثر إذ الفِقْرة من النثر كالبيت من الشعر، فالفقْرتان كالبيتين، وأيضا فإن الشعر من وظيفة الكاتب :

الغرض الرابع

(فى معرفة مقادير السَّجعات فى الطُّول والقِصَر، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(السَّـــجَعات القِصَـار)

وهى ماصيغ من عشرة ألفاظ فما دونها، قال فى "حسن التوسل": وهى تدل علىٰ قوّة التمكن وإحكام الصنعة، لا سيما القصير منها للغاية، وأقل مايكون من لفظتين كقوله تعالىٰ: ﴿يَأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ وقوله: ﴿والْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا﴾ وما أشبه ذلك، وأمثاله فى القرءان الكريم كثير إلا أن الزائد علىٰ ذلك أكثر. كقوله تعالىٰ: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوىٰ مَاضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوىٰ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ﴾ وقوله: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ وقوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ونحو ذلك.

الضرب الثـانى

(السـجعات الطِّوال)

قال فى "حسن التوسل": وهى ألذُّ فى السمع، يتشوّق السامع إلىٰ مايرد متزايدا علىٰ سمعه، وأقلُّ ما تتركب من إحدىٰ عشرة كلمة فما فوقها، وغالب ما تكون من خمس عشرة لفظة فما حولها، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ فالأُولىٰ من إحدىٰ عشرةَ لفظة، والثانية من ثلاث

عشرَة لفظة ، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ فالأُولىٰ من أربعَ عشرةَ لفظة ، والثانية من خمسَ عشرةَ ، وقوله : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلٰكِنَّ اللهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ فالأُولىٰ عشرون لفظة ، والثانية تسع عشرةَ ، وهذا غاية ما ٱنتهىٰ إليه الطُّول فى القرءان الكريم . وينبغى أن يكون ذلك نهاية الطول فى السجع وقوفاً مع ماورد به القرءان الكريم الذى هو أفصح كلام، وأقومُ نظام، وإن كان الوزير ضياء الدين بن الأثير، والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى وغيرهما، قد صرحوا بأنه لاضابط لأكثره .

وٱعلم أنه قد جرتْ عادة كُتَّاب الزمان ومصطلَحُهم أن تكون السجعة الأولىٰ من ٱفتتاح الولاية من تقليد أو توقيع أو غير ذلك قصيرةً بحيث لايتعدّىٰ آخرها السطر الثانى فى الكتابة ليقع العلم بها بمجرّد وقوع النظر علىٰ أوّل المكتوب . وعلىٰ هذا فيختلف القِصَرُ فيها باختلاف ضيق الورق وسعته فى العرض .

الغرض الخامس

(فى ترتيب السجعات بعضِها علىٰ بعض فى التقديم والتأخير باعتبار الطول والقصر، وله حالتان)

الحالة الأُولىٰ

(أن لايزيد السجع علىٰ سجعتين، وله ثلاث مراتب)

المرتبة الأُولىٰ ــ أن تكون القرينتان متساويتين لاتزيد إحداهما علىٰ الأُخرىٰ كقوله تعالىٰ : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ وقوله : ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا

فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴾ وأمثال ذلك .

المرتبة الثانية — أن تكون القرينة الثانية أطول من الأولىٰ بقَدْر يسير كقوله تعـالىٰ : ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴾ فالأولىٰ ثمان كلمات ، والثانية تسع ونحو ذلك ؛ أما إذا طالت الثـانية عن الأولىٰ طولا يخرج عن الاعتـدال ، فإنه يستقبح حينئذ ، ووَجَّهَهُ فى "حسن التوسل" بأنه يُبْعِـد دخول القافيـة علىٰ السامع فيقلّ الالتذاذ بسماعها . والمرجع فى قدر الزيادة والقِصَر إلىٰ الذوق .

المرتبة الثالثة — أن تكون القرينة الثانية أقصر من الأُولىٰ . قال فى "المثل السائر" : وهو عنـدى عيب فاحش ، لأن السمع يكون قد استوفىٰ أَمَدَه من الفصل الأول بحكم طوله ، ثم يجىء الفصل الثانى قصيرا فيكون كالشىء المبتور ، فيبقىٰ الإنسان عند سماعه كمن يريد الانتهاء إلىٰ غاية فيعثُر دُونها ؛ وفيما قاله نظر ، فقد تقدّم فى قوله تعالىٰ : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيـلًا ﴾ الآيتين أن الأولىٰ عشرون كلمة والثـانية تسع عشرة ، بل قد اختار تحسين ذلك أبو هلال العسكرىّ فى "الصناعتين" محتجًّا له بكثرة وروده فى كلام النبوّة كقوله صلى الله عليه وسلم للأنصـار : " إِنَّكُمْ لَتَكْثُرُونَ عِنْدَ الفَزَعِ ، وَتَقِلُّونَ عِنْدَ الطَّمَعِ " وقوله : " المُؤْمِنُونَ تَتَكَافَؤُ دِمَاؤُهم ، وهم يَدٌ علىٰ مَنْ سِوَاهم " وقوله : " رَحِمَ اللهُ من قال خيرا فَغَنِم ، أو سَكَتَ فسَلِم " .

الحالة الثانيـــــة

(أن يزيد السجع علىٰ سجعتين . ولهـا أربع مراتب)

المرتبة الأُولىٰ — أن يقع علىٰ حدّ واحد فى التّساوى ، وهو مستحْسَن ، وقد ورد فى القرءان الكريم بعض ذلك كقوله تعالىٰ : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ

فِي سِدْرٍ مَخْضُودٍ وَطَلْحٍ مَنْضُودٍ وَظِلٍّ مَمْدُودٍ﴾ فهذه السجعات الثلاث مركبة من لفظتين لفظتين .

المرتبة الثانية — أن تكون الأولى أقصر والثانية والثالثة متساويتين كقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ فالأولى من ثمان كلمات، والثانية والثالثة من تسع تسع .

المرتبة الثالثة — أن تكون الأولى والثانية متساويتين، والثالثة زائدة عليهما؛ وقد أشار إلى هذه المرتبة فى "حسن التوسل" حيث قال : فإن زادت القرائن على آثنتين فلا يضر تساوى القرينتين الأوليين وزيادة الثالثة، ولم يمثّل لها .

المرتبة الرابعة — أن تكون الثانية زائدة على الأولى، والثالثة زائدة على الثانية. قال فى "المثل السائر" : وينبغى أن تكون فى هذه الحالة زيادة الثالثة متميزة فى الطول على الأولى والثانية أكثر من تميز الثانية على الأولى . ثم قال : فإذا كانت الأولى والثانية أربع لفظات أربع لفظات تكون الثالثة عشر لفظات أو إحدى عشرة لفظة، ومثّل له فى "حسن التوسل" بقوله تعالى : ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ فالأولى من ثمان كلمات ، والثانية من تسع ، والثالثة من عشر، ومثل له فى "المثل السائر" بقوله فى وصف صديق : فقلت : الصديق مَنْ لم يَعْتَضْ عنك بِخَالِف، ولم يُعَامِلْكَ معاملة الحالف، وإذا بَلَّغَتْهُ أُذُنُه وشايةً أقام عليها حدَّ السارق أو القاذف؛ فالأولى : وهى لم يعتض عنك بخالف والثانية بعدها أربع كلمات ، والثالثة عشر كلمات . ثم قال : وينبغى أن يكون مايستعمل من هذا القبيل، فإن زادت الأولى والثانية على هذه العدّة زادت

الثالثة بالحساب ، وإن نقصت الأولىٰ والثانية ، فكذلك . لكن قد ضبط فى "حسن التوسل" الزيادة فى الثالثة بأن لاتجاوز المِثْل ، والأمر فيما بين الضابطين قريب ، ولا يخفىٰ حكم الرابعة فى الزيادة مع الثالثة . قال فى "حسن التوسل" : ولا بدّ من الزيادة فى آخر القرائن .

الغرض السادس

(فيما يكون فيه حسن السجع وقبحه)

أما حسنه ، فيُعتبر فيه بعد ما يقع فيكون به تحسين الكلام من أصناف البديع ونحوها بأمور أخرىٰ .

منها أن يكون السجع بريئا من التكلف ، خاليا من التعسف ، محمولا علىٰ ما يأتى به الطبع وتُبْديه الغريزة ، ويكون اللفظ فيه تابعا للمعنىٰ ، بأن يُقْتَصر من اللفظ علىٰ ما يُحتاج إليه فى المعنىٰ دون الإتيان بزيادة أو نقص تدعو إليه ضرورة السجع ، حتّى لو حصلت زيادةٌ أو نقص بسبب السجع دون المعنىٰ ، خرج السجع عن حيِّز المدح إلىٰ حيز الذم .

ومنها أن تكون الألفاظ المسجوعة حُلوةً حادّة ، لاغَثَّة ولا باردة ، مُونَقَة المعنىٰ ، حَسَنة التركيب ، غيْرَ قاصرة علىٰ صورة السجع الذى هو تواطؤ الفِقَر ، فيكون كمن نقش أثوابا من الكُرْسُف ، أو نظم عِقْدا من الخَرَز الملون . قال فى "المَثَل السائر" : وهــذا مقام تَزِلُّ عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب هذا الفن بعد الواحد . قال : ومن أجل ذلك كان أربابه قليلا ، ولولا ذلك كان كل أديب سَجَّاعًا إذ مامنهم من أحد إلا وقد يتيسر عليه تأليف ألفاظ مسجوعة فى الجملة .

ومنها أن تكون كلُّ واحدة من الفِقْرتين المسجوعتين دالَّة علىٰ معنى غير المعنىٰ الذى دلَّت عليه أختها ، لأن ٱشتمال السجعتين علىٰ معنى واحدٍ يمكن أن يكون فى إحداهما بمفردها هو عين التطويل المذموم فى الكلام ، وهو الدلالة علىٰ المعنىٰ بألفاظ يمكن الدلالة عليه بدونها علىٰ ماهو مقرّر فى علم البيان . قال فى "المَثَل السائر" : فلا يكون مثْلَ قول الصابى فى وصف مُدَبِّر : "يسافر رأيُه وهو دان لم يَنْزَح ، ويسير تدبيرُه وهو ثاوٍ لم يَبْرَحْ" ولو قال : يسافر رأيه وهو دان لم ينزح ، ويُثْخِنُ الجِراح فى عدوّه وسيفُه فى الغِمْد لم يجرح ، لَسَلِمَ من هُجْنَةِ التكرار : فإنه تصير كل سجعة محتوية علىٰ معنًى بحياله .

ومنها أن يقع التحسين فى نفس الفواصل ، كقولهم : إذا قَلَّتِ الأنصار ، كَلَّت الأبصار ، وقولهم : ماوراءَ الخَلْقِ الدَّميم ، إلَّا الخُلُقُ الذميم ، ونحو ذلك .

ومنها أن يقع فى خلال السجعة الطويلة قرائن قصار فتكون سجعا فى سجع ، كقوله تعالىٰ : ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلىٰ أَمْوَالِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ وقوله : ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُواْ فِيهِ وَٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ فإن قوله : ﴿علىٰ أموالهم﴾ وقوله : ﴿علىٰ قلوبهم﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها ﴿حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ وقوله : ﴿بآخذيه﴾ وقوله : ﴿تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ سجعتان داخلتان فى السجعة التى آخرها : ﴿غَنِيٌّ حَميد﴾ وعدّ العسكرىّ منه قولهم : عاد تَعْرِيضُك تصريحا ، وتَمْرِيضُك تَصْحيحا .

وأما قبحه فيعتبر بأمور .

منها التجميع ، وهو أن تكون فاصلة الجزء الأوّل بعيدة المشاكلة لفاصلة الجزء الثانى كما حكىٰ قُدَامَةُ : أن كاتبا كتب فى جواب كتاب ، وصل كتابك فوصل به

ما يَسْتَعْبِدُ الحرّ، وإن كان قديمَ العبودية، ويَسْتَغْرِقُ الشكر؛ وإن كان سالف فضلك لم يُبْقِ شيئا منه؛ فإن العبودية بعيدة عن مشاكلة منه .

ومنها التطويل ، فيما ذكر قَدَامَةُ وغيرُه : وهو أن يجيء الجزء الأوّل طويلا فيحتاج إلىٰ إطالة الثانى بالضرورة . كما حكىٰ قُدَامَةُ أن كاتبا كتب فى تعزية : إذا كان للمحزون فى لقاء مِثْلِه كبيرُ الراحة فى العاجل، وكان طويل الحُزْنِ راتبا إذا رجع إلىٰ الحقائق وغيرَ زائل . قال فى "الصناعتين" : وذلك أنه لما أطال الجزء الأوّل ، وعَلِمَ أن الجزء الثانى ينبغى أن يكون مثله أو أطول، ٱحتاج إلىٰ تطويل الثانى فأتىٰ باستكراه وتكلف . قال فى "موادّ البيان" والإطالة بقوله وغير زائل . .

الأصل الخامس

(حسن الاتباع، والقدرة علىٰ الاختراع)

وٱعلم أن لكاتب الإنشاء مسلكين :

المسلك الأوّل

(طريقـــة الاتبـاع)

وهى نظر الكاتب فى كلام من تقدّمه منَ الكُتَّابِ ، وسلوك منهجهم ، وٱقتفاء سبيلهم، وسماها ٱبن الأثير التقليدَ؛ وهى علىٰ صنفين .

الصنف الأوّل

(الاتبـاع فى الألفـاظ)

وهو ٱعتماد الكاتب علىٰ ما رتبه غيره من الكُتَّابِ، وأنشأه سواه من أهل صناعة النثر، بأن يَعْمِدَ إلىٰ ما أنشأه أفاضلُ الكُتَّابِ ورتبه علماء الصناعة : من نثر أو نظم فيأخذه بِرُمَّتِه، ويأتِى عليه بصيغته؛ وغايته أن يكون ناسخا ناقلا لكلام غيره، حاكيا

له . ولمثل ذلك تُوضَع الدساتير ، وتُدوَّن الدواوين . علىٰ أنه ربما غيَّر وبدّل، وحرّف وصحّف ، وأزال اللفظ عن وضعه ، وأحال المعنىٰ عن حكمه . وبعضهم ربما حملته الأَنَفَةُ والخوف من أن يقال أخذ كلام فلان برمّته ، فعدل إلىٰ كلام غيره، فالتقط من كل مكان سجعتين أو سجعات، ورتب بعضها علىٰ بعض حَتّٰى تقوم بمقصوده، وينتهى إلىٰ مراده .

فإن كان لطيفَ الذوق ، حَسَنَ الاختيار ، رائق الترتيب ، فاختار من خلال السجع لطيفَه ، وأحسن رَصْفَهُ وتأليفه ، جاء بَهِجًا رائقا . لأنه أتىٰ من كل كلام بأحسنه ، إلا أن فيه إخراجَ الكلام عن وضعه الذى قصده الناثر، وتفريقَ مادُوّن من كلام الأفاضل ،وتبديدَ شمله ،وخروجَ الكلام عن أن يُعْرَفَ قائلُه، ويعلم منشئه، فيقعَ من القلوب بمكان صاحبه ويهتدىٰ بهديه، وينسج علىٰ منواله .

وإن لم يكن لطيف الذوق، ولا حَسَنَ الاختيار ، جاء مالَفَّقَهُ من كلام غيره رَثًّا ركيكا، نابيًا عن الذوق، بَعِيدا عن الصنعة، يُعاد من النسخ إلىٰ المسخ، وأخرج الكلام عن موضوعه، وأفسده فى وضعه وتركيبه . فإن صحبه التصحيف والتحريف فتلك الطامَّة الكبرىٰ،والمُصِيبة العظمىٰ . ثم لايكتفى بذلك حتّٰى يتبجح به،.ويعتقد أن ذلك عين الإنشاء وحقيقته،محتجا فى ذلك بقول الحريرى: "إن صِناعةَ الحِسَابِ موضوعةٌ علىٰ التحقيق،وصناعةَ الإنشاء مبنية علىٰ التلفيق". ظانًّا أن التلفيق هو ضم سجعات منتظمة، وفِقَرات مؤلَّفة بعضها إلىٰ بعض . ولم يعلم أن المراد بالتلفيق ضم لفظة إلىٰ أختها، وإضافة كلمة إلىٰ مشاكِلتها . وشَتَّانَ ما بين التلفيقين، وبُعْدًا لما بين الطريقين :

وللزُّنْبُورِ والبَازِى جميعًا * لَدَىٰ الطَّيَرانِ أَجْنحَةٌ وخَفْقُ
ولٰكِنْ بَيْنَ ما يَصْطَادُ بَازٍ * وَمَا يَصْطَادُهُ الزُّنْبُورُ فَرْقُ

وقد عابوا أخذ المعنىٰ إذا كان ظاهرا مكشوفا فما ظنُّك بمن يأخذ الكلام برمته، واللفظ بصورته، فيصيرُ ناسخا لكلام غيره، وناقلا له؟ فأىّ فضيلة فى ذلك؟ وقد قيل من أخذ معنًى بلفظه كان سارقا، ومن أخذ بعض لفظه كان سالخا، ومن أخذه فكساه لفظا من عنده كان أولىٰ به ممن تقدمه، وأين من هو أولىٰ بالشىء ممن سبقه إليه ممن يُعَدّ سارقا وسالخا؟ ويقال إن أبا عُذْرَةِ الكلام مَنْ سبك لفظه علىٰ معناه. ومن أخذ معنى بلفظه فليس له فيه نصيب. هذا فيمن أخذ سجعة أو سجعتين فى خطبة أو رسالة، أو بيتا أو بيتين فى قصيدة وما قارب ذلك؛ أما من أخذ القصيدة بكمالها، أو الخطبة أو الرسالة بِرُمَّتِهَا، أو لَفَّقها من خطب أو رسائلَ فذاك إنما يعدّ ناسخا إن أحسن النقل، أو ماسخا إن أفسده.

وٱعلم أن الناثر الماهر والشاعر المُفْلِقَ قد يأتى بكلام سبقه إليه غيره، فيأتى بالبيت من الشعر أو القرينةِ من النثر أو أكثر من ذلك بلفظ الأوّل من غير زيادة ولا نقصان، أو بتغيير لفظ يسير، وهذا هو الذى يسميه أهل هذه الصناعة وقوع الحافر علىٰ الحافر. وقد سئل أبو عمرو بن العلاء عن الشاعرين يتفقان علىٰ لفظ واحد ومعنى، فقال: عقول رجال توافت علىٰ ألسنتها.

والواقع من ذلك فى كلامهم علىٰ قسمين.

القسم الأوّل

(ما وقع الٱتفاق فيه فى المعنىٰ واللفظ جميعا)

كقول الفَرَزْدَق:

وغُرّ قد وَسَقْتُ مُشَمَّراتٍ * طوالِعَ لا تُطِيقُ لها جَوَابا
بكُلِّ ثَنِيَّةٍ وبكُلِّ ثَغْرٍ * غَرائِبُهُنَّ تَنْتَسِبُ ٱنْتِسابا
بَلَغْنَ الشمسَ حِينَ تكون شرقا * ومَسْقَطُ رأسِها من حيثُ غابا

ووافقه جرير فقال مثل ذلك من غير زيادة ولا نقص . ويروى أنّ عُمَر بن أبى ربيعة أنشد ٱبن عباس رضى الله عنه :

* تَشُـــطُّ غَدًا دارُ جِيرانِنـا *

فقال ٱبن عباس رضى الله عنه :

* ولَلدَّارُ بَعْـدَ غدٍ أبعَـدُ *

فقال عمر: والله ماقلتُ إلا كذلك. قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين": وأنشدت الصاحب إسماعيل بن عَبَّادٍ رحمه الله :

* كانت سَرَاةُ الناس تَحْتَ أَظَلِّهِ *

فسبقنى وقال :

* فَغَدَتْ سراةُ النـاسِ فوق سَرَاتِهِ *

وكذلك كنتُ قُلْتُ . قال الوزير ضياء الدين بن الأثير رحمه الله فى كتابه "المَثَل السائر" : ويحكى أن آمرأة من عُقَيل يقال لهـا ليلىٰ، كان يتحدّث إليها الشَّبَابُ، فدخل الفَرَزْدَقُ إليها وجعل يحادثها، وأقبل فتًى من قومها كانت تَأْلَفُهُ فدخل إليها فأقبلت عليه وتركت الفَرَزْدَقَ، فغاظه ذلك فقال للفتىٰ : أتصارِعُنِى؟ فقال : ذاك إليك، فقام إليه فلم يلبَثْ أن أخذ الفَرَزْدَقَ فصَرَعه وجلس علىٰ صـدره فضَرِط، فوثب الفتىٰ عنه وقال ياأبا فِرَاسٍ : هذا مَقَام العائذ بك، والله ما أردت ماجرىٰ، قال : ويحك ! والله ما بى أنك صرعتنِى ولكن كأنّى بابن الأتان، (يعنى جريرا) وقد بلغه خبَرِى، فقال يهجونى :

جَلَسْتَ إلىٰ ليلىٰ لِتَحْظىٰ بِقُرْبِهَا * فخـانك دُبْرٌ لا يزالُ يَخُونُ
فلو كنتَ ذَا حَزْمٍ شَدَدْتَ وِكَاءَهُ * كَمَا شَـدَّ جُرْبَانَ الدِّلَاصِ قُيُونُ

فمـا مضىٰ إلا أيام حتّى بلغ جريرًا الخبر، فقال فيـــه هذيـــن البيتين . قال: وهذا من أغرب مايكون فى هذا الموضع وأعجبه! قال فى "الصناعتين" : وإذا كان القوم فى قبيلةٍ واحدة، فى أرض واحدة، فإن خواطرهم تقع متقاربةً، كما أن أخلاقهم وشمائلَهم تكون متضارعة. قال فى "المثل السائر" : ويقال إن الفَرَزْدَق وجريرا كانا ينطِقان فى بعض الأحوال عـــن ضمير واحد . قال : وهذا عندى مستبعَد، فإن ظاهر الأمر يدل علىٰ خلافه، والباطن لايعلمه إلا الله تعالىٰ، وإلا فإذا رأينا شاعرا متقدّم الزمان قد قال قولا ثم سمعناه من شاعر أتىٰ من بعده، علمنا بشهادة الحال أنه أخذه منه . وهب أن الخواطر تتفق فى ٱستخراج المعانى الظاهرة المتداولة، فكيف تتفق الألسنة أيضا فى صوغ الألفاظ ؟ وكلام العسكرىّ فى "الصناعتين" يوافقه بالعَتْبِ علىٰ المتأخر، وإن ٱدّعى أنه لم يسمع كلام الأوّل فى مثل ذلك .

القسم الثـانى

(ماوقع الاتّفاق فيه فى المعنىٰ وبعض اللفظ؛ وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما ٱتفق فيه المعنىٰ وأكثرُ اللفظ)

كقول ٱمرئ القيس :

وُقُوفًا بها صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهـــم * يقولون : لاتَهْلِكْ أَسًى ، وتَجَمَّلِ

وقول طَرَفَةَ :

وُقُوفًا بها صَحْبِى عَلَىَّ مَطِيَّهـــم * يقولون : لاتَهْلِكْ أَسًى، وَتَجَلَّدِ

فالتخالف بينهما فى كلمة القافية فقط .

وقول البَعيث :

أَتَرْجُو كُلَيْبٌ أن يَجِيء حَدِيثُها * بِخَيْرٍ، وقد أعْيَا كُلَيْباً قَدِيمُها ؟

وقول الفَرَزْدَق :

أَتَرْجُو رَبِيعٌ أن تجِيء صِغَارُهَا * بِخَيْرٍ وقد أَعْيَا رَبِيعًا كِبَارُها ؟

فالتخالف بينهما فى موضعين من البيت ، كلمة القافية وآسم القبيلة .

وقول بعض المتقدّمين يمدح مَعْبَدًا صاحبَ الغِنَاء :

أجادَ طُوَيْسٌ والسُّرَيْجِيُّ بعدَه * وما قَصَبَاتُ السَّبْقِ إلا لِمَعْبَدِ

وقول الفَرَزْدَق بعده :

مَحَاسِنُ أصنافِ المُغَنِّينَ جملةٌ * وما قَصَبَاتُ السَّبْق إلا لِمَعْبَد

فاتفقا فى النصف الثانى، وآختلفا فى النصف الأوّل . إلىٰ غير ذلك من الأشعار التي وقعت خواطرُ الشعراء عليها، وتوافقت عقولهم عندها .

الضرب الثانى

(ما آتفق فيه المعنىٰ مع يسير اللفظ ؛)

فمن ذلك قول البُحْتُرِىّ فى وصف غلام :

فوق ضَعْفِ الصغيرِ إنْ وُكِلَ الأمـ * ـرُ إليه ، ودُونَ كَيْدِ الكِبَارِ

أخذه من قول أبى نُوَاسٍ :

لم يَخْفَ من كِبَرٍ عما يُرَادُ به * من الأمور، ولا أزرىٰ به الصِّغَرُ

وقول أبى تَمَّامٍ :

ولم أمدَحْك تفخيما بِشِعْرِى * ولٰكنِّى مدحتُ بك المَدِيحَا

أخذه من قول حسانَ بن ثابت ، يمدح النبيّ صلى الله عليه وسلم :

ماإنْ مَدَحْتُ محمدًا ! بمَقالَتِي * لكِنْ مَدَحْتُ مَقالَتِي بمحَمَّد !

وقول أبى الطَّيِّبِ :

أين أزْمعتَ أيُّهـاذا الهُـمَامُ * نحْنُ نَبْتُ الرُّبَا،وأنت الغَمَامُ

أخذه من قول بَشَّارٍ :

كأنَّ الناسَ حين تَغِيبُ عَنْهُم * نباتُ الأرضِ أخطأه القِطَارُ

الصنف الثـانى

(التقليـــد فى المعـانى)

وهذا مما لايَسْتغنى عنه ناظم ولا ناثر . قال أبو هلال العسكرىّ رحمه الله فى كتابه "الصناعتين" : ليس لأحد من أصناف القائلين غِنًى عن تناول المعانى ممن تقدّمهم والصَّبِّ علىٰ قوالب مَنْ سبقهم، ولكن عليهم إذا أخذوها ، أن يكسوها ألفاظا من عندهم، و يبرزوها فى معارضَ من تأليفهم،و يوردوها فى غير حِلْيتها الأُولىٰ، و يزيدوا عليها فى حسن تأليفها وجَوْدَةِ تركيبها، وكمال حليتها ومعرضها ، فإذا فعـلوا ذلك فهم أَوْلىٰ بها ممن سـبق إليها . قال : ولولا أن القائل يؤدّى ما سمع لمـا كان فى طاقته أن يقول، و إنمـا ينطق الطفل بعد آستماعه من البالغين . وقد قال أمير المؤمنـين علىّ كرّم الله وجهه ! : لولا أن الكلام يعاد، لنَفِدَ . ومن كلام بعضهم : كلُّ شىء إذا ثَنَيْتَه قَصُر إلا الكلام،فإنك إذا ثنيته طال، والمعانى مشتركة بين العقلاء، فربمـا وقع المعنىٰ الجيّد للسُّوقِىّ والنَّبَطِىِّ والزِّنجىّ . و إنما يتفاضل الناس فى الألفاظ ورصـفها، وتأليفها ونظمها . وقد أطبق المتقدّمون والمتأخرون علىٰ تداوُل المعانى

بينهم ، فليس علىٰ أحد فيـه عيبٌ إلا إذا أخذه بكل لفظه ، أو أفسـده فى الأخذ وقصَّر فيه عمن تقدّمه . قال فى "الصناعتين" : وما يُعْرَف للتقدّم معنى شريفٌ إلا نازعه فيه المتأخر، وطلب الشركة فيه معه، إلا بيت عنترة :

وخَلَا الذُّبَابُ بها فلَيْس ببارِحٍ * غَرِدًا كفِعْل الشارب المُتَرَنِّمِ

هَزِجًا يَحُـكُّ ذراعَهُ بذراعِه * قَدْحَ المُكِبِّ علىٰ الزِّنَادِ الأجْذَمِ

فإنه مانُوزِع فيه علىٰ جَوْدَتِه . قال : وقد رامه بعض المحدَثين فافتضح مع العلم بأن آبتكار المعنىٰ والسبق إليـه ليس فيه فضـيلة ترجع إلىٰ المعنىٰ ، وإنمـا ترجع الفضـيلة فيه إلىٰ الذى آبتكره وسبق إليه ؛ فالمعنىٰ الجيّد جيِّد ، وإن كان مسبوقا إليه ، والوسط وسط ، والردىء ردىء وإن لم يكن مسبوقا إليهما . علىٰ أن بعض علمـاء الأدب قد ذهب إلىٰ أنه ليس لأحد من المتأخرين معـنًى مُبْتَـدَعٌ ، محتجًّا لذلك بأن قول الشعر قديم مذ نُطِق باللغة العربية، وأنه لم يبق معنًى من المعانى إلا وقد طُرِق مرارا . قال فى "المثل السائر": والصحيح أن باب الآبتداع مفتوح إلىٰ يوم القيامة، ومَن الذى يحجُر علىٰ الخواطر وهى قاذفة بمـا لا نهاية له؟ إلا أنَّ من المعانى ما يتساوىٰ فيه الشـعراء ولا يُطْلَق عليه آسم الآبتداع لأوّل قبـل آخر لأن الخواطر تأتى به من غير حاجة إلىٰ آتباع الآخر الأوّلَ . كقولهم فى الغَزَل :

عَفَتِ الدّيارُ وماعَفَتْ * آثارُهُنّ من القُـلُوب

وقولهم فى المديح : إن عطـاءه كالبحر أو كالسَّحاب ؛ وإنه لا يمنع عطاءُ اليوم عَطاءَ غَدٍ؛ وإنه يجود بمالِه من غير مسألة ؛ وأشباه ذلك .

وقولهم فى المَرَاثى : إن هذا الرزء أوّل حَادِثٍ ؛ وإنه آستوىٰ فيه الأباعد والأقارب ؛ وإن الذاهب لم يكن واحدا وإنما كان قبيلةً ؛ وإنَّ بعد هـذا الذاهب لا يُعدّ للمنيَّة ذنب ؛ وما أشبه ذلك . وكذلك سائر المعانى الظاهرة التى تتوارد عليها الخواطرمن

غير كُلْفَة ، ويستوِى فى إيرادها كُلُّ بارع . قال : ومثل ذلك لا يُطْلَق علىٰ الآخِرِ فيه آسم السرقة من الأوّل ، وإنما يطلق آسم السرقة فى معنًى مخصوص . كقول أبى تَمَّام :

لا تُنْكِرُوا ضَرْبى له مَنْ دُونَه * مَثَلًا شُرودًا فى النَّدىٰ والبَاسِ

فاللهُ قد ضَرَبَ الأقلَّ لنُورِه * مَثَلًا من الْمِشكاةِ والنِّبْراسِ

فإن هذا معنًى آبتداعُه مخصوص بأبى تَمَّام ، وذلك أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدتَه السينيةَ التى مطلعها :

* مافِى وُقُوفِك ساعةً مِن باس *

آنتهى إلىٰ قوله منها :

إقْدام عَمْرو فى سَمَاحةِ حاتمٍ ، * فى حِلْمِ أَحْنَفَ ، فى ذَكاء إياسِ

فقال الحكيم الكِنْدِىّ : وأىّ فخر فى تشبيه آبن أمير المؤمنين بأجلاف العرب؟ فأطرق أبو تَمَّام ثم أنشد هذين البيتين معتذرا عن تشبيهه إيَّاه بعمرو وحاتم وإياس . فالحال يشهد بابتداعه هذا المعنىٰ ، فمن أتىٰ بعده بهذا المعنىٰ أو بجزء منه كان سارقا له ، وكذلك كُلُّ ماجرىٰ هذا المجرىٰ . ولم يزل الشعراء والخطباء يقتبسون من مَعَانى مَنْ قبلهم ، ويبنون علىٰ بناء مَنْ تقدّمهم .

فمما وقع للشعراء من ذلك قول أبى تَمَّامٍ :

خُلِقْنا ، رجالا للتَّجلُّدِ والأَسىٰ * وتِلْكَ الغَوانِى للبُكَا والمآتِمِ

أخذه من قول عبد الله بن الزُّبَيرِ لما قتل مُصْعَبُ بن الزبير : وإنما التسليم والسُّلُوّ لحُزَماء الرجال ، وإن الجزَع والهلَع لربَّاتِ الحِجَال ، وقوله أيضا :

تَعَجَّبُ أن رأَتْ جسْمِى نحِيفًا * كأَنَّ المَجْدَ يُدْرَكُ بالصِّراع

أخذه من قول زياد ابن أبيه لأبى الأسود الدؤلى : لولا أنك ضعيف لآستعملتك، وقول أبى الأسود له فى جواب ذلك : إن كنتَ تُرِيدنى للصِّراع فإنى لا أصْلُح له وإلا فغير شديد أن آمُرَ وأنهىٰ؛ وقوله من قصيدة البيت المتقدّم :

أطالَ يَدِى علىٰ الأيَّام حتّٰى * جَزَيْتُ صُروفَها صاعا بِصَاعِ

أخذه من قول أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه :

فإن تُقْتَلا أو يُمْكِنِ اللهُ مِنْكُمَا، * نَكِلْ لَكُمَا صاعًا بصاعِ المُكَايِلِ

وقول أبى الطَّيِّب المتنبي :

وإذا كانتِ النُّفُوسُ كِبَارا * تَعِبتْ فِى مُرادها الأجسامُ

أخذه من قول أرسطوطاليس : إذا كانت الشهوةُ فوق القُدْرة، كان هلاكُ الجسم دونَ بلوغ الشهوةِ .

وقول الخاسر :

مَنْ راقب الناسَ مات غَمًّا * وفازَ باللَّذَّةِ الجَسُورُ

أخذه من قول بَشَّارٍ :

مَنْ راقب الناسَ لم يَظْفَرْ بحاجَتِه. * وفاز بالطَّيِّباتِ الفاتِكُ اللَّهِجُ

فلما سمع بَشَّارٌ بيت الخاسر، قال : ذهب آبنُ الفاعلة ببيتى . ومثل هذا وأشباهه مما لا ينحصر كثرةً، ولا يكاد أن يخلوَ عنه بيت إلا نادرا .

ومما وقع للكُتَّاب من ذلك ما كتب به إبراهيم بن العبَّاس من قوله فى فصل من كتاب : إذا كان للمحسن من الثواب مايُقْنِعُه، وللمسىء من العقاب مايَقْمَعُه، آزداد المحسنُ فى الإحسان رَغْبه ، وآنقاد المُسِىء للحقّ رَهْبه . أخذه من قول علىّ كرم الله وجهه ! : يجب علىٰ الوالى أن يتعهَّد أموره ، ويتفقَّد أعوانَه، حتّٰى

لا يَخْفىٰ عليه إحسان مُحْسِنٍ، ولا إساءة مُسِيء، ثم لا يترك واحدا منهما بغير جزاء، فإنْ تركَ ذلك تهاون المحسنُ واجترأ المسيء، وفسَد الأمر، وضاع العمَل .

وما كتب به بعض الكُتَّاب فى فصل وهو : لو سكتَ لسانى عن شُكْرِك، لنطق أثَرُك علىّ . وفى فصل آخر : ولو جحدتُكَ إحسانَك، لأكذبَتْنِى آثارُك، ونَمَّتْ علىّ شواهدُها . أخذه من قول نُصَيْبٍ :

* ولو سَكتُوا أثْنتْ عليك الحَقائبُ *

وما كتب به أحمدُ بن يوسفَ من فصل ،وهو : أحقُّ مَنْ أثبت لك العذرَ فى حال شُغْلك، مَنْ لم يخلُ ساعةً من بِرِّك فى وقت فَرَاغك . أخذه من قول علىّ رضى الله عنه ! : لاتكونن كَمَنْ يعجِز عن شُكْرِ ما أُولِى، ويلتمسُ الزيادة فيما بَقِى .

والاقتباس من الأحاديث والآثار كثير، وقد تقـدّم الكلام عليـه قبل ذلك . قال فى "الصناعتين" : ومِنْ أخفىٰ أسباب السرقة أن يأخذ معنًى من نظم فيوردَه فى نثر، أو من نثر فيوردَه فى نظم، أو ينقل المعنىٰ المستعملَ فى صفة خمر فيجعلَه فى مَدِيح . أو فى مديح فينقله إلىٰ وصف . إلا أنه لا يصل لهذا إلا الُمبرِّز الكاملُ المقـدّم .

وقال فى " المَثَل السائر" : أشْكَلُ سرقات المعانى، وأدقُّها، وأغربها، وأبعدها مذهبا أن يؤخَذ المعنىٰ مجرّدا من اللفظ . قال : وذلك ممـا يصعُب جدّا ولا يكاد يأتى إلا قليلا، ولا يتفطَّنُ له ويستخرجه من الأشـعار إلا بعضُ الخواطر دون بعض .

فمن ذلك قول أبى تمَّـام فى المدح :

فَتًى ماتَ بينَ الضَّرْبِ والطَّعْنِ مِيتَةً * تقومُ مَقامَ النَّصْرِ إذْ فَاتَه النَّصْرُ

أخذه من قول عُروة بن الورْد من شعراء الحماسة :

ومَنْ يكُ مِثْلِي ذا عِيَالٍ ومُقْتِرًا * من المال، يَطْرحْ نفسَه كلَّ مَطْرَحِ
لِيُبْلِغَ عُذْرًا أو يَنَالَ رَغِيبَةً * ومُبْلِغُ نَفْسٍ عُذرَها مثلُ مُنْجِحِ

فعروة جعل ٱجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمّامٍ جعل الموت فى الحرب الذى هو غايةُ ٱجتهاد المجتهد فى لقاء العدوّ قائما مقام الأنتصار . قال فى "المثل السائر": وكلا المعنيين واحد، غير أن اللفظ مختلف . وأظهرُ من ذلك أخذا قول القائل :

وقد عزّى ربيعةَ أن يومًا * عليها مثلَ يومِكَ لايَعودُ

أخذه من قول ٱبن المُقَفَّع فى باب المَرَاثى من الحماسة :

وقد جَرَّ نَفْعا فَقْدُنا لك أننا * أَمِنَّا علىٰ كلِّ الرَّزَايا مِنَ الجَزَعْ

علىٰ أنه ربما وقع للمتأخر معنًى سبقه إليه مَنْ تقدّمه، من غير أن يلم به المتأخر ولم يسمعه . ولا ٱستبعاد فى ذلك كما يستبعد ٱتفاق اللفظ والمعنىٰ جميعا . قال أبو هلال العسكرىّ : وهذا أمر قد عرفتُه من نفسى فلا أَمْتَرِى فيه ! وذلك أنى كنت عملت شيئا فى صفة النساء، فقلت :

* سَفَرْنَ بُدُورا وٱنْتَقَبْنَ أَهِلَّةً *

وظننت أنى لم أُسبَق إلىٰ جمع هذين التشبيهين حتّى وجدت ذلك بعينه لبعض البَغْداديين فكثُر تعجبى ، وعزمت علىٰ أن لا أحكم علىٰ المتأخر بالسرقة من المتقدّم حكما حتما .

إذا تقرر ذلك فسرقة المعنىٰ المجرّد عن اللفظ لا تخرُج عن ٱثنى عشر ضربا .

الضرب الأوّل

أن يؤخذ المعنىٰ ويستخرجَ منه مايشبهه ، ولا يكون هو إيَّاه . قال فى "المَثَـل السائر" : وهذا من أدق السرقات مَذْهبا وأحسنها صورة ، ولا يأتى إلا قليـلا . فمن ذلك قول المتنبي :

وإذا أتتْكَ مَذَمَّتِي من نَاقِصٍ ، * فهى الشَّهادةُ لِى بأنِّى كَامِـلُ

وهذا المعنىٰ ٱستخرجه المتنبي من قول بعض شعراء الحَمَاسة ، وإن لم يكن صريحا فيه حيث يقول :

لَقَـــدْ زادَنِى حُباًّ لِنَفْسِىَ أنَّنِي * بَغِيضٌ إلىٰ كلِّ ٱمرئٍ غيرِ طَائِلِ

قال فى "المَثَل السائر" : والمعرفة بأنّ هذا المعنىٰ من ذلك المعنىٰ عَسِرٌ غامض غير متبيِّن إلا لمن أعرق فى ممـارسة الشـعر ، وغاص علىٰ ٱستخراج المعـانى . قال : وبيـان ذلك أن الأوّل يقول : إن بغض الذى هو غير طائل إيَّاى قد زاد نفسى حبـا إلىّ أى قد جَمَّلها فى عيني وحسنها عنـدى كونُ الذى هو غير طائل منقصى ؛ والمتنبي يقول : إن ذم الناقص إياه بفضله كتحسين بُغْضِ الذى هو غير طائل نفسَ ذلك عنده .

وأظهر من ذلك أخذا من هذا الضرب قول البُحْتُرِىّ فى قصيدة يفخَرُ فيها بقومه :

شَيْخَانِ قد ثَقُلَ السِّلاحُ عليهما * وعداهما رَأْىُ السميعِ المُبْصِرِ

رَكِبا القَنَا من بعد ما حَمَلاَ القَنَا * فى عَسْكرٍ متحاملٍ فى عَسْكَرِ

أخذه من قول أبى تمَّـامٍ فى وصف جَمَلٍ :

رَعَتْه الفَيَافِى بعـد ما كان حِقْبَـةً * رَعَاها ، وماءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُه

فأبو تمّـام ذكر أن الجمَل رعىٰ الارض، ثم سار فيها فرعَته أى أهزلَته، فكأنها فعلَتْ به مثلَ ما فعـل بها؛ والبُحتُرِىّ نقله إلىٰ وصف الرجل بعلو السنّ والهرَم، فقال: إنه كان يحمل الرح فى القتال، ثم صار يركب الرُّمْح أى يتوكا منه علىٰ عصا، كما يفعل الشيخ الكبير.

وأوضح من ذلك وأكثر بيانا فى الأخذ قول البُحْتُرِىّ أيضا:

أَعَاتِكَ ما كانَ الشَّبَابُ مُقَرِّبِى * إلَيْكِ، فَأَلْحَىٰ الشَّيْبَ إذْ هُوَ مُبْعِدِى

أخذه من قول أبى تمّـام:

لا أَظْلِمُ النَّأْىَ، قد كانتْ خلائقُها * من قَبْلِ وَشْكِ النّوىٰ عِندِى نَوًى قُذُفَا

الضرب الثـانى

أن يُؤخذ المعنىٰ فيعكس، قال فى "المَثَل السائر": وذلك حَسَنٌ يكاد يخرجه حسنه عن حدّ السرقة.

فمن ذلك قول أبِى نُوَاسٍ:

قالوا: عَشِقْتَ صغيرةً، فأجَبْتُهم * أشْهىٰ المَطِىِّ إلىّ ما لم يُرْكَبِ.
كَمْ بَيْنَ حَبّـةِ لؤلؤ مَثْقُوبةٍ * نُظِمتْ وحَبَّةِ لُؤْلؤ لم تُثْقَبِ؟

وقول ابن الوليد فى عكسه:

إن المَطِيّـةَ لا يَلَذُّ رُكُوبها * حتى تُذَلَّلَ بالزِّمام وتُرْكَبا.
والدُّرّ ليس بنـافِعٍ أربابَهُ، * حتّى يُزَيَّنَ بالنِّظام ويُثْقَبا.

ومنه قول ابن جعفر:

ولَمّـا بدَا لى أنها لا تُرِيدُنِى * وأنَّ هواها ليسَ عَنِّى بمُنْجَلِى،
تمنَّيت أن تَهوىٰ سِوَاىَ لعلَّها * تَذُوقُ صَبابَاتِ الهوىٰ فترِقَّ لِى

وقول غيره فى عكسه :

وَلَقَدْ سَرَّنِى صُـدُودُكِ عَنِّى * فى طِلَابِيكِ ، وٱمتناعُكِ منِّى

حَذَرًا أنْ أكونَ مِفْتَاحَ غَيْرِى ، * وإذا ما خَلَوتُ ، كنتِ التَّمَنِّى

أما ٱبن جعـفر فإنه ألقىٰ عن منكبيه رداء الغَيْرَة ، وأما الآخر ، فإنه جاء بالضدّ من ذلك وبالغ غايةَ المبالغة .

ومنه قول أبى الشِّيص :

أَجِدُ المَلَامةَ فى هَوَاكِ لذيذة * شَغَفًا بذِكْرِكِ ، فلْيَلُمْنِى اللُّوَّمُ

وقول أبى الطيب فى عكسه :

أَأُحِبُّهُ وأُحِبُّ فيه ملَامةً ، * إنّ المَلَامةَ فيـه من أَعْدَائِهِ

ومنه قول أبى تمّـام :

ولولا خِلَالٌ سَنَّهَا الشِّعْر ما دَرىٰ * بُغَاةُ العُلىٰ من أين تُؤْتى المَكَارِمُ

وقول الوزير ضياء الدين بن الأثير فى عكسه :

لَوْلا الكِرام وما سَنُّوهُ من كَرَمٍ ، * لم يَدْرِ قائلُ شِعْرٍ كيف يَمْتَدِحُ

الضرب الثـالث

(أن يؤخذ بعضُ المعنىٰ دون بعض)

فمن ذلك قول أُمَيَّةَ بن أبى الصَّلْتِ يمدح عبدالله بن جُدْعانَ :

عطاؤكَ زَيْنٌ لٱمرئٍ إن حَبَوْتَهُ * بِبَـذْلٍ ، وما كُلُّ العطاء يَزِينُ

وقول أبى تمّـام بعده :

تُدْعىٰ عطاياه وَفْرًا ، وهْىَ إنْ شُهِرَتْ ، * كانتْ فَخَارًا لمن يَعْفُوه مُـؤْتَنِفَا

ما زِلتُ منتَظِرا أُعْجُـوبةً زمَنًـا * حتّى رأيتُ سُـؤالا يُجْتَنىٰ شَرَفَا

فأمية بن أبى الصَّلتِ أتىٰ بمعنيين : أحدهما أن عطاءك زَيْن ، والآخر أن عطاءَ غيرِك ليس بزين؛ وأبو تَمَّـام أتىٰ بالمعنىٰ الأوّل فقط .

ومنه قول علىّ بن جَبَلة :

وأَثَّلَ ما لم يَحْوِهِ مُتَقَـدِّمٌ، * وإن نال منه آخِرٌ، فهو تابعُ

وقول أبى الطَّيِّب بعده :

تَرَفَّعَ عن عُونِ المكارمِ قَدْرُهُ ، * فما يَفْعَـلُ الفَعْلَاتِ إلا عَذَارِيَا

فٱبن جبلة أتىٰ بمعنيين، أحدهما أنه فعل ما لم يفعله أحد ممن تقدّمه ، وإن نال الآخِرشيئا فهو مقتدٍ به وتابعٌ له ؛ وأبو الطَّيِّب أتىٰ بالمعنىٰ الأوّل فقط ،وهو أنه فعل مالم يفعله غيره مشيرا إلىٰ ذلك بقوله : فما يفعل الفَعْلَاتِ إلا عَذَارِيَا أى يستبكرها ويُزِيل عُذْرتها .

ومنه قول الآخر :

أَنْتِجِ الْفَضْلَ أو تَخَلَّ عن الدنـ * ـيا، فهَاتَانِ غايَةُ الهِمَمِ

وقول البُحْتُرِىّ بعده :

إدْفَعْ بأمثـالِ أبى غَالِبٍ * عاديةَ العُدْمِ، أو ٱسْتَعْفِفِ

فالبُحْتُرِىُّ ٱقتصر علىٰ بعض المعنىٰ ولم يستوفه

الضرب الرابع

أن يؤخذ المعنىٰ فيزاد عليه معنى آخَر. قال فى "المَثَل السائر" : وهذا النوع من السَّرِقات قليل الوقوع بالنسبة إلىٰ غيره .

فن ذلك قول الأخنس بن شِهاب :

إذا قَصُرَتْ أسيافُنَا، كان وَصْلُها * خُطَانَا إلىٰ أعدائِنـا، فنُضَارِب

وقول مسلم بن الوليد بعده :

إنْ قَصُر الرُّمحُ لم نَمْشِ الخُطا مَدَدا * أو عَرّدَ السيفُ لم نَهْمُمْ بتعريد

أخذ مسلم المعنىٰ الذى أورده الأخنس : وهو وصْل السـلاح إذا قَصُر بالخُطا إلىٰ العدوّ وزاد عليـه عدم تعريدهم أى فِرارهم إذا عرّد السيف . ومنه قول جرير فى وصف أبيات من شعره :

غَرائِب آلاف إذا حانَ وِرْدُها * أخذْنَ طريقًا للقصائِدِ مُعْلَمـا

وقول أبى تمـام بعده :

غرائبُ لاقَتْ فى فِنائِكَ أُنْسَها * من المَجْدِ فَهْىَ الآن غَيْرُ غرائِبِ

فزاد أبو تمـام علىٰ جرير قِرَان ذلك بالممدوح ومدحه مع الأبيات . ومنـه قول المُعَذَّل بن غيلان :

ولسْتُ بنَظّارٍ إلىٰ جانِبِ الغِنىٰ * إذا كانَتِ العَلْياءُ فى جانِبِ الفَقْرِ

وقول أبى تمـام بعده :

يَصُدُّ عنِ الدُّنْيا إذا عَنَّ سُودَدٌ * ولو بَرَزَتْ فى زِىِّ عَذْراءَ ناهِدِ

فزاد عليه قوله :

* ولو برزتْ فى زىّ عذْراء ناهِدِ *

وممـا آتفق لى نظمه فى هـذا الباب أنه لمـا عُمِّرت مدرسـة الظاهر برقوق بين القصرين بالقاهرة المحروسة ، وكان القائم بعمارتها الأمير جركس الخليلىّ أميراخور الظاهرىّ ، وكان قد آعتمد بناءها بالصُّخور العظيمة التى لاتُقِلُّها الجِمال حَمْلا ، ولا تحمَلُ إلا علىٰ العجل الخَشَب فأُولِع الشعراءُ بالنظم فى هذا المعنىٰ ؛ فنظم بعض الشعراء أبياتا عرّض فيها بذكر الخليلىّ وقيامه فى عمارتها ، ثم قال فى آخرها :

وبَعْضُ خُدّامه طَوْعًا لخدْمته * يدعو الصُّخُور فتأتيه علىٰ عَجَل

وألزمني بعضُ الإخوان بنظم شيء في المعنىٰ، فوقع لي أبيات من جملتها :

وبالخليلىّ قد راجَتْ عِمَارَتُها * في سُرْعةٍ بُنِيَتْ من غَيْرِ ماَمهَلِ
كَمْ أظْهَرَتْ عَجَباً أسْواطُ حِكْمَتِهِ * وقد غَدَتْ مثلاً ناهيكَ مِنْ مَثَلِ
وكَمْ صُخُورٍ تَخَالُ الجِنَّ تَنْقُلُها * فإنَّها بالوَحَا تأتِي وبالعَجَلِ

فزدت عليه ذكر الوَحَا الذي معناه السرعة أيضا وصار مطابقا لما يأتي به المعزِّمون في عزائمهم من قولهم الوحَا الوحا العَجَلَ العجَلَ مع ما تقدّم له من التوطئة بقولي تخال الجنّ تنقلُها، علىٰ أني لستُ من فُرْسان هذا المَيْدان، ولا من رجال هذا الوَغىٰ

الضرب الخامس

أن يُؤْخَذَ المعنىٰ فيُكْسىٰ عبارةً أحسن من العبارة الأُولىٰ قال في "المثل السائر" وهذا هو المحمود الذي يَخْرُج به حُسْنُه عن باب السرقة، فمن ذلك قول أبي تمام :

إنَّ الكِرَامَ كَثِيرٌ في البِلَادِ وإنْ * قَلُّوا كما غيرُهم قُلٌّ وإن كَثُروا

أخذه البحْتُرِيُّ فقال :

قَلَّ الكِرامُ فصار يَكْثُرُ فَذُّهُمْ * ولقد يَقِلُّ الشيُ حَتَّى يَكْثُرا

ومنه قول أبي نُوَاس :

يَدُلُّ علىٰ مافي الضَّمِيرِ مِنَ الفَتىٰ * تَقَلُّبُ عيْنَيْهِ إلىٰ شَخْصِ مَنْ يَهْوىٰ

وقول أبي الطيب بعده :

وإذا خَامَرَ الهوىٰ قَلْبَ صَبٍّ * فعلَيْهِ لِكُلِّ عَيْنٍ دَلِيلُ

ومنه قول أبي العلاء بن سليمان في مَرْثِيَّة :

وما كُلْفَةُ البَدْرِ المُنِيرِ قَدِيمةٌ * ولكِنَّها في وَجْهِهِ أَثَرُ اللَّطْمِ

وقول القيسرانىّ بعده :

وأهوىٰ الّذِى يَهْوِى لَهُ البَدْرُ ساجدًا * ألَسْتَ ترىٰ فى وَجْهِـهِ أثَرَ التُّرْبِ

ومنه قول ٱبن الرومىّ :

إذا شَنَأَتْ عيْنُ امْرِئٍ شَيْبَ نَفْسِه * فعَيْنُ سِــوَاهُ بالشَّنَاءَةِ أجْــدَرُ

وقول مَنْ بعده :

إذا كان شَيْبِى بَغِيضًا إلَىَّ * فكَيْفَ يَكُونُ إليْهَـا حَبِيبًا

الضرب السادس

أن يؤخذ المعنىٰ ويسبك سَبْكا مُوجَزا قال فى "المثـل السائر" وهو من أحسن السرقات : لـما فيه من الدلالة علىٰ بَسْطة الناظم فى القولِ وسَعَة باعه فى البلاغة ، فمن ذلك قول أبى تمـام :

بَرَّزْتَ فى طَلَبِ المَعَالِى واحِدا * فيهـا تَسِـيرُ مُغَوِّرًا أو مُنْجِدَا

عَجَبـا بأنَّكَ سَالِمٌ من وَحْشَـةٍ * فى غايةٍ ما زِلْتَ فيهـا مُفْـرَدَا

وقول ٱبن الرومى بعده :

غرَّبَتْهُ الخَلَائِقُ الزُّهْرُ فى النَّا * سِ وما أوْحَشَـتْه بالتَّغْرِيبِ

فأخذ معنىٰ البيتين فى بيت واحد، ومنه قول أبى العَتَاهِيَة :

وإنِّى لَمَعْـذُورعلىٰ فَرْطِ حُبِّها : * لأنَّ لهـا وَجْهًا يَدُلُّ علىٰ عُذْرِى

أخذه أبو تمـام فقال :

لَهُ وَجْـــهٌ إذا أبْصَرْ * تَهُ ناجاكَ عَنْ عُذْرِى

فأوجز فى هذا المعنى غاية الإيجاز، ومنه قول أبى تمام يمدح أحمد بن سعيد :

كانتْ مُسَاءلَةُ الرُّكْبَانِ تُخْــبِرُنِى * عَنْ أحْمدَ بنِ سَعِيدٍ أطْيَبَ الخَبَرِ

حتّى التقينا فلا واللهِ ما سمِعتْ * أُذْنِى بأحسنَ مما قد رأى بصرِى !

أخذه أبو الطيب فأوجز فى أخذه فقال :

وأستكبِرُ الأخبارَ قبلَ لِقائِه * فلمّا التقينا صغّر الخبرَ الخبْرُ

ومنه قول بعض الشعراء :

أمِنْ خوفِ فقْرٍ تعجّلْتَه * وأخّرْتَ إنفاقَ ما تجْمَعُ ؟

فصِرتَ الفقيرَ وأنتَ الغنىّ * وما كُنتَ تعْدُو الذى تصْنَعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

ومن يُنْفِقِ الساعاتِ فى جَمْعِ مالِهِ * مخافةَ فقْرٍ فالذى فعَلَ الفقْرُ

الضرب السابع

زيادة البيان مع المساواة فى المعنى، بأن يؤخذ المعنى فيُضْرب له مثال يوضحه، فمن ذلك قول أبى تمام :

هو الصُّنْع إن يُعْجَلْ فنَفْع وإن يُرِثْ * فلَلرَّيْثُ فى بعضِ المواطِنِ أنفعُ

أخذه أبو الطيب فقال :

ومِنَ الخيرِ بُطْءُ سَيْبِكَ عنّى * أسْرَعُ السُّحْبِ فى المَسيرِ الجَهَامُ

فزاده وضوحا بضرب المثال له بالجهام : وهو السحاب الذى لا مطر فيه .

ومنه قول أبى تمام أيضا :

قد قلَصتْ شفتاهُ من حَفيظَتِه * فخِيلَ مِنْ شدّةِ التَّعبيسِ مُبْتَسِما

أخذه أبو الطيب فقال :

وجاهِلٍ مدّه فى جهْلِهِ ضَحِكى * حتّى أتتْهُ يدٌ فرّاسةٌ وفَمُ

إذا رأيتَ نُيوبَ اللّيْثِ بارِزَةً * فلا تَظُنَّنّ أنّ اللّيْثَ مُبْتَسِمُ

فضرب له مثالا بظهور أنياب الليث فزاده وضوحا .

ومنه قول أبي تمـام أيضا :

وكذاكَ لم تُفْرِطْ كآبَةُ عاطِـلٍ * حتّى يُجاوِرَها الزَّمانُ بِحالِ

أخذه البحتريُّ فقال :

وقد زادَها إفراطَ حُسنٍ جِوارُها * لأخْلاقِ أصْفارٍ من المَجْدِ خُيَّبِ

وحُسْنُ دَرارِيِّ الكَواكِبِ أن تُرىٰ * طَوالِـعَ فى داجٍ من اللَّيْلِ غَيْهَبِ

فضرب له مثالا بالكواكب فى ظَلام الليل، فأوضحه وزاده حُسْنا .

الضرب الثـامن

اتحـاد الطريق وآختلاف المَقْصود ، مثل أن يسْلُك الشاعران طريقا واحدةً فتخرجَ بهما إلىٰ مَوْرِدين، وهناك يتبين فضل أحدهما علىٰ الآخر .

فمن ذلك قول النابغة :

إذا ماغَزا بالجَيْشِ حلَّقَ فَوْقَهُ * عَصَائِبُ طَيْرٍ تَهْتَدى بِعَصَائِبِ

جَوَانحُ قدْ أيْقَنَّ أنَّ قَبِيلَهُ * إذا ما الْتَقىَ الجَمْعَانِ أوَّلُ غالِبِ

وهذا المعنىٰ قد توارده الشعراء قديما وحديثا، وأوردوه بضروب من العبارات،

فقال أبو نُوَاس :

يَتَوخّى الطَّيْرُ غَزْوتَهُ * ثِقَةً باللَّحْمِ من جَزَره

وقال مسلم بن الوليد :

قَدْ عَوّدَ الطَّيرَ عاداتٍ وَثِقْنَ بها * فهُنَّ يَتْبَعْنَهُ فى كُلِّ مُرْتَحَـلِ

وقال أبو تمـام :

وقد ظُلِّلَتْ عِقْبانُ أَعلامه ضُحًى * بِعِقْبانِ طَيْرٍ فى الدِّمَاءِ نَوَاهِـلُ

أقامَتْ مع الرَّاياتِ حتّىٰ كأنَّها * من الجَيْش إلا أنَّها لاتُقَاتِلُ

وكل هؤلاء قد أتَوْا بمعنًى واحد لا تفاضُلَ بينهم فيه إلا من جهة حُسْن السبك أو من جهة الإيجاز . قال ولم أر أحدا أغرب فى هذا المعنىٰ فسلك هـذا الطريق مع آختلاف مَقْصِده إلا مسلم بن الوليد فقال :

أَشْرَبْتَ أرواحَ العِـدَا وقُلُوبَها * خَوْفاً فأنفُسُها إليـكَ تَطِـيرُ

لو حاكَمْتَكَ فطالَبَتْكَ بذَحْلِها * شَهِدتْ عليك ثَعَالِبٌ ونُسُورُ

فهذا قد فضل به مسلم غيْرَه فى هذا المعنىٰ، ولما آنتهى الأمر إلىٰ أبى الطيب سلك هذه الطريق التى سلكها مَنْ تقدّمه إلا أنه خرج فيها إلىٰ غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع، وحاز الإحسان بجملته، وصار كأنه مبتدِع لهذا المعنىٰ دون غيره فقال :

سَحَابٌ من العِقْبانِ يَزْحَفُ تحتَها * سَحَابٌ إذا آستَسْقَتْ سَقَتْها صَوارِمُهُ

فَحَوىٰ طرفَيِ الإغراب والإعجاب

الضرب التاسع

بياض بالأصل(١)

---

(١) اقتصر فى الضوء علىٰ أحد عشر نوعا وجعل العاشر تاسعا الخ وكذلك عدّها صاحب المَثَل السائر .

الضرب العـاشر

أن يكون المعنىٰ عاماً فيجعلَ خاصًّا أو خاصًّا فيجعل عامًّا، وهو من السرقات التى يسامَحُ صاحبها، فأما جعل العام خاصا، فمن ذلك قول الأخطل (١) .

لاتَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وتَأْتِىَ مِثْـلَهُ * عارٌ عَلَيْـكَ إذَا فَعلْتَ عَظِيمُ

أخذه أبو تمـام فقال :

أأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وأغْتَدِى * للبُخْلِ تِرْبًا ؟ ساءَذاكَ صَنِيعًا !

فالأخطل نهىٰ عن الإتيان بمـا ينهىٰ عنه مطلقا فجاء بالخُلُقُ منكَّرا فجعله شائعا فى بابه ؛ وأبو تمـام خصَّص ذلك بالبُخْل ، وهو خُلُق واحدٌ من جملة الأخلاق .

وأما جعل الخاص عاما، فمن ذلك قول أبى تمـام .

ولو حارَدَتْ شَوْلٌ عَذَرْتُ لِقاحَها * ولكِنْ مَنَعْنَ الدَّرّ والضَّرْعُ حافِلُ

أخذه أبو الطيب فجعله عاما فقال :

وما يُؤْلِمُ الحِرْمانُ من كَفِّ حارِمٍ * كما يُؤْلمُ الحِرْمانُ من كَفِّ رَازِقِ

الضرب الحادى عشر

قلبُ الصورة القبيحة إلىٰ صُورة حسنة . قال فى "المثل السائر" وهذا لايسمَّى سرقة بل يسمَّى إصلاحا وتهذيبا ، فمن ذلك قول أبى نُوَاس فى أُرْجوزة يصف فيها اللَّعِبَ بالكُرَة والصَّوْلَجَان فقال من جملتها :

جِنٌّ علىٰ جِنٍّ وإن كانوا بَشَرْ * كأنَّمـا خِيطُوا عليْها بالإبَرْ

أخذه المتنبى فقال :

فكأنَّهـا نُتِجَتْ قِيامًا تحْتَهُمْ * وكأنَّهُمْ خُلِقُوا علىٰ صَهَواتِها

(٢) كذا فى "المثل السائر" أيضا — وفى ديوان الأخطل صحيفة ٣٣٨ أن هذا البيت للتوكل الليثى .

فهذا فى غاية العلو والارتقاء بالنسبة إلى قول أبى نُوَاس ، ومنه قول أبى الطيب .

لو كانَ ماتُعْطِيهِمُو من قَبْلِ أنْ * تُعْطِيهمو لم يَعْرِفُوا التَّأْمِيلَا

وقول ٱبن نباتة السعدىّ :

لم يُبْقِ جُودُكَ لِى شَيْئًا أؤَمِّلُهُ * تَرَكْتَنِى أَصْحَبُ الدُّنْيا بلا أَمَلِ

فكلام ٱبن نباتة أحسن فى الصورة من كلام المتنبى هنا ، وإن كان مأخوذا منه .

الضرب الثانى عشر

قلب الصورة الحسنة إلى صورة قبيحة ، وهو الذى يعبِّر عنه أهل هذه الصناعة بالمسخ ، وهو من أرذل السرقات وأقبحها ، فمن ذلك قول أبى تمام :

فَتًى لايَرَى أنّ الفَرِيصةَ مَقْتَلٌ * ولكِنْ يَرَى أَنَّ العُيوبَ مَقَاتِلُ

أخذه أبو الطيب فمسخه فقال :

يَرَى أَنَّ مَا مَابَانَ مِنْكَ لِضَارِبٍ * بأَقْتَلَ مِمَّا بَانَ مِنْكَ لعَائِبِ

ومنه قول عبد السلام بن رغبان :

نَحْنُ نُعَزِّيكَ ومِنْكَ الهُدَى * مُسْتَخْرَجٌ والصَّبْرُ مُسْتَقْبَلُ

أخذه أبو الطيب فمسخه فقال من أبيات :

وبِأَلْفاظِكَ ٱهتَدَى فإذا عَزَّاكَ قال الَّذى له قُلْتَ قَبْلَا

المسلك الثانى
(طريقة الاختراع)

قال الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" فهى أن لايتصفح كتابة المتقدّمين ولا يطَّلع على شىء منها ، بل يصرفُ هِمَّته إلى حفظ القرءان الكريم وكثير من الأخبار النبوية وعدّة من دواوين لفحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادةُ

فى المعانى والألفاظ ، ثم يأخذ فى الاقتباس من القرءان والأخبار النبوية والأشعار فيقوم ويقع ،ويُخْطِئ ويُصيب ،ويَضِلّ ويهتدى ، حتّى يستقيم إلىٰ طريق يفتحها لنفسه ،وأخْلِقْ بتلك الطريق أن تكون مبتدَعة غريبة ، لاشركة لأحد من المتقدّمين فيها ! . قال : وهذه الطريق هى طريق الاجتهاد وصاحبها يعدّ إماما فى الكتابة كما يعدّ الشافعىّ وأبو حنيفة ومالك وغيرهم من المجتهـدين فى علم الفقه ، إلا أنها مستوْعرة جدّا ، لايستطيعها إلا من رزقه الله تعالىٰ لسانا هَجّامًا ، وخاطرا رَقّاما . قال : ولا أريد بهذا الطريق أن يكون الكاتب مُرْتَبِطا فى كتابته بما يستخرجه من القرءان الكريم ، والأخبار النبوية والأشعار ، بحيث إنه لاينشئ كتابا إلا من ذلك ، بل أريد أنه إذا حفظ القرءان الكريم ، وأكثر من حفظ الأخبار النبوية والأشـعار ، ثم نقَّب عن ذلك تنقيبَ مطَّلع علىٰ معانيه ، مفتش علىٰ دفائنه ، وقَلَبَه ظهرًا لبطن ، عرف حينئذ من أين تؤْكل الكَتِف فيما ينشئه من ذات نفســه ، واستعان بالمحفوظ علىٰ الغريزة الطبيعيــة . علىٰ أنه لابدّ للكاتب المرتقِى إلىٰ درجة الاجتهـاد فى الكتابة مع حفظ القرءان الكريم ، والاستكثار من حفظ الأخبار النبوية ، والأشعار المختارة ، من العلم بأدوات الكتابة وآلات البيان : من علم اللغة ، والتصريف ، والنحو ، والمعانى ، والبيان ، والبديع : ليتمكن من التصرف فى اقتباس المعانى واستخراجها فيرقىٰ إلىٰ درجة الاجتهاد فى الكتابة ؛ كما أن المجتهد من الفقهاء إذا عرف أدوات الاجتهاد : من آيات الأحكام ، وأحاديثها ، ونعتها ؛ وعرف النحو والناسخ والمنسوخ من الكتاب والسـنة ، والحسابَ والفرائض وإجماع الصحابة ، وغير ذلك من آلات الاجتهاد وأدواته ، استخرج بفكره حينئذ مايؤدّيه إليه اجتهاده . فالمجتهد فى الكتابة يستخرج المعانى من مظانّها من القرءان الكريم ، والأخبار النبوية ، والأشـعار ، والأمثال ، وغير ذلك بواسـطة آلة الاجتهاد ، كما أن المجتهد فى الفقهيات يستخرج

الأحكام من نصوص الكتاب والسنة بواسطة آلة الاجتهاد . فإذا أراد الكاتب المتصف بصفة الاجتهاد فى الكتابة إنشاء خطبة أو رسالة أو غيرهما مما يتعلق بفنّ الإنشاء

بياض بالأصل

الأصل السادس

(وجود الطبع السليم، وخلو الفكر عن المشوّش)

أما وجود الطبع فقال فى "موادّ البيان" : أوّل مَعَاوِن هذه الصناعة الجليلة القريحةُ الفاضلة، والغَرِيزة الكاملة، التى هى مبدأ الكمال، ومَنْشأ التمام، والأساس الذى يبنىٰ عليه، والركنُ الذى يُستند اليه، فإن المرء قد يجتهد فى تحصيل الآداب، ويتوفَّر علىٰ اقتناء العلوم واكتسابها، وهو مع ذلك غير مطبوع علىٰ تأليف الكلام فلا يفيده ما اكتسبه، بخلاف المطبوع علىٰ ذلك، فإنه وإن قصَّر فى اقتباس العلوم واكتساب الموادّ فقد يُلْحَق بأوساط أهل الصناعة ؛ وذلك أن الطبع يخص الله تعالىٰ به المطبوعَ دون المتطبِّع، والمناسبَ بغريزته للصناعة دون المتصنِّع، ولا سبيلَ إلىٰ اكتساب سُهولة الطبع ولا كَزَازته ، بل هو مَوْهَبة تَخُصُّ ولا تعُم ، وتوجد فى الواحد وتُفْقَد فى الآخر.

قال ابن أبى الأصبع فى "تحرير التحبير" ومن الناس من يكون فى البديهة أبدعَ منه فى الرَّوية، ومن هو مُجِيد فى الرَّوية وليست له بَدِيهة ؛ وقلَّما يتساويان.

ومنهم مَنْ إذا خاطب أبدع ، وإذا كاتب قصَّر، ومن هو بضد ذلك ، ومن قَوِى نثره ضَعُف نظمه ، ومن قَوِى نظمه ، ضعُف نثره ، وقلما يتساويان . وقد يُبَرِّز الشاعر فى معنًى من مقاصد الشعر دون غيره من المقاصد، ولهذا قيل : أشعرُ الناس آمرؤُ القيس إذا ركب، وزُهَيْر إذا رَغِب، والنابغة إذا رَهِب ، وعنترة إذا كَلِب(١) ، والأعشىٰ إذا طَرِب . قال فى "المثل السائر" بل ربما نَفَذَ فى بعض أنواع الشعر دون بعض فيُرىٰ مُجِيدا فى المدح دون الهَجْو، أو بالعكس، أو ماهرا فى المَقَامات ونحوها دُونَ الرسائل، أو فى بعض الرسائل دون بعض . قال آبن أبى الاصبع : ولربما واتاه العملُ فى وقت دون وقت ، ولذلك قال الفرزدق : إنى ليمرّ علَىَّ الوقت ولقَلْعُ ضِرس من أضْراسى أيسرُ علىّ من قول الشعر، ولذلك عز تأليف الكلام ونظمه علىٰ كثير من العلماء باللغة والمهرَة فى معرفة حقائق الألفاظ من حيث نُبُوّ طباعهم عن تركيب بسائط الكلام الذى قامت صور معانيه فى نفوسهم وصَعُب الأمر عليهم فى تأليفه ونظمه ، فقد حكى أن الخليل بن أحمد مع تقدّمه فى اللغة ومهَارته فى العربية، وآختراعه علم العروض، الذى هو ميزان شعر العرب، لم يكن يتهيأ له تأليف الألفاظ السهلة لديه الحاصلة المعانى فى نفسه علىٰ صورة النظم إلا بصُعوبة ومشقَّة، وكان إذا سئل عن سبب إعراضه عن نظم الشعر يقول يأبانى جيِّدُه وآبىٰ رديئه، مشيرا بذلك إلىٰ أن طبعه غير مساعد له علىٰ التأليف المرضىّ الذى تحسُن نسبته إلىٰ مثله . وقيل للفضَّل الضبِّىّ ألا تقول الشعر وأنت أعلم الناس به، فقال علمى به يمنعنى من قوله وأنشد :

أبىٰ الشِّعْرُ إلا أن يفِىءَ رَدِيئَه * علَىّ ويأْبىٰ منه ما كانَ مُحْكَما
فياليتنى إنْ لم أجِدْ حَوْكَ وَشْيِه * ولم أَكُ من فُرْسانِه كنت مُفْحَما

(١) أى غضب .

وأنشد أبو عبيدة خَلَفًا الأحمرَ شعرا له فقال : اخْبَأْهُ هذا كما تَخْبَأُ السِّنَّورة حاجتها، مع ما كان عليه أبو عبيدة من العلم باللغة وشعر العرب وأمثالها وأيام حروبها، وما يجرى مجرىٰ ذلك من موادّ تأليف الكلام ونظمه . ويحكىٰ عن أبي العباس المبرِّد أنه قال : لا أحتاج إلىٰ وصف نفسى : لأن الناس يعلمون أنه ليس أحد بين الخافقَيْنِ تختلج فى نفسه مسئلةٌ مُشْكلة إلا لقِينى بها وأعدّنى لها ، فأنا عالم ومُعَلِّم، وحافظ ودارس، لايخفىٰ علىّ مشتبه من الشعر، والنحو، والكلام المنثور، والخُطَب، والرسائل ؛ ولربما احتجت إلىٰ اعتذار من فَلْتة ، أو التماس حاجة، فأجعل المعنىٰ الذى أَقصِد نُصْب عينى ثم لاأجد سبيلا إلىٰ التعبير عنه بيدٍ ولا لسان؛ ولقد بلغنى أن عبيد الله بن سليمان ذكرنى بجميل فحاولْت أن أكتب إليه رُقْعة أشكُره فيها وأعرِّض ببعض أُمُورى فأتعبت نفسى يوما فى ذلك فلم أقدر علىٰ ما أرتضيه منها، وكنت أحاول الإفصاح عما فى ضميرى فينحرف لسانى إلىٰ غيره، ولذلك قيل زيادة المنطق علىٰ الأدب خُدْعة، وزيادة الأدب علىٰ المنطق هُجْنة .

فقد تبين لك أن العبرة بالطبع وأنه الأصل المرجوع إليه فى ذلك؛ علىٰ أن الطبع بمفرده لاينهض بالمقصود من ذلك نُهوضَه مع اشتماله علىٰ الموادّ المساعدة له علىٰ ذلك من الأنواع السابقة فيما تقدّم فى أول هذه المقالة : من العلم باللغة والنحو والتصريف والمعانى والبيان والبديع وحفظ كتاب الله تعالىٰ ، والإكثار من حفظ الأحاديث النبوية والأمثال والشعر والخطب ورسائل المتقدّمين وأيام العرب وما يجرى مجرىٰ ذلك مما يكون مساعدا للطبع ومُسَهِّلا طريق التأليف والنظم ، بل يتفاوت فى العلو والهُبوط بحسب التفاوت فى ضعف المساعد من ذلك وقوّته؛ إذ معرفته هذه الأمور قائمةٌ من الإنشاء مَقامَ المادّة ،والطبعُ قائم منه مقام الآلة،فلا يتم الفعل وإن قامت الصورة فى نفس الصانع مالم تُوجَد المادّةُ والآلةُ جميعا ، ولو كان حصول المادّة

كافيا فى التوصـــل إلىٰ حسن التأليف الذى هو نظم الألفاظ المتناسبة وتطبيقها علىٰ المعانى المساوية لكانت صناعة الكلام المؤلَّف من الرسائل والخطب والأشعار سهلةً، والمُشاهَد بخلاف ذلك : لقُصور الأفاضل عن بلوغ هذه الدرجة .

وأما خلوّ الفكر عن المشوّش فإنه يرجع إلىٰ أمرين .

الأمر الأوّل

(صـــفاء الزمان)

فقد قال أبو تمـام الطائىّ فى وصيته لأبى عُبَـادة البحترىّ مرشِـدا له للوقت المناسب لذلك : تخيَّرِ الأوقاتَ وأنت قليـلُ الهُموم ، صِفْرٌ من الغُمُوم ، وٱعلم أن العادة فى الأوقات إذا قَصَد الإنسان تأليفَ شىء أو حفظَه أن يختار وقت السَّحَر، فإن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقِسْطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَلُ الغِذاء، وصَفَا الدِّماغ من أكثر الأبخرة والأدْخِنة ،وسكنت الغَمَاغِم، ورقَّت النسائم، وتغنَّت الحمائم .

وخالف ٱبن أبى الأصبع فى ٱختيار وقت السحر،وجنح إلىٰ ٱختيار وسط الليل، أخذا من قول أبى تمـام فى قصيدته البائية :

خُذْها ٱبْنَةَ الفِكْرِ المُهَذَّبِ فى الدُّجىٰ ٭ واللَّيْـــلُ أسْوَدُ رُقْعـــةِ الجِلْبابِ

مفسرا للدُّجىٰ بوســط الليل ، محتجا لذلك بأنه حينئذ تكون النفْس قد أخذت حظها من الراحة ،ونالت قِسطها من النوم، وخفَّ عنها ثِقَل الغِذاء،فيكون الذهن حينئذ صحيحا ، والصدر منشرحا ، والبدن نشيطا، والقلب ساكنا . بخلاف وقت السـحر فإنه وإن كان فيه يرِقُّ النسيم وينهضم الغذاء ، إلا أنه يكون قد ٱنتبه فيه أكثر الحيوانات : الناطقُ وغيره ، ويرتفع معظم الأصـوات ، ويجرى الكثيرُ من الحركات، وينقشِع بعضُ الظَّلْماء بطلائع أوائل الضوء ؛ وربمـا ٱنهضم عن بعض

الناس الغذاء فتحرّكت الشهوة لإخلاف ما آنهضَم منـه وخرج من فضلاته ، فكان ذلك داعيا إلىٰ شُغْل الخاطر ، وباعثا علىٰ آنصراف الهَمّ إلىٰ تدبير الحَدَث الحاضر ، فيتقسم الفكرُ ، ويتذبذب القلْبُ ، ويتفرّق جميع الهمّ . بخلاف وسط الليـل فإنه خال من جميع ذلك .

الأمر الثـانى
(صــفاء المكـان)

وذلك بأن يكون المكانُ الذى هو فيه خاليا من الأصوات ، عاريا عن المَخُوفات والمَهُولات والطوارق ، وأن يكون مع ذلك مكانا رائقا مُعْجِبا رقيقَ الحَوَاشى فَسِيحَ الأرجاء ، بسيط الرِّحاب ، غير غَمٍّ ولا كَدِر ، فإن آنضم إلىٰ ذلك مافيه بَسْط للخاطر : من ماء وخُضرة وأشجار وأزهار وطيب رائحة ، كان أبسط للفكر وأنجح للخاطر .

وقد ذهب بعضهم إلىٰ أنه ينبغى خُلوُّ المكان من النقوش الغريبة والمَرَائى المعجبة ، فإنها وإن كانت ممـا يُنَشِّط الخاطر فإن فيها شُغْلا للناظر فيتبعه القلب فيتشتَّتُ .

المقصـــد الثـانى
(من الطرف الثالث فى بيان طُرُق البلاغة ووجوه تحسين الكلام ، وكيفية إنشائه ، وتأليفه ، وتهذيبه ، وتأديته ، وبيان مايُستحسَن من الكلام المصنوع ، وما يُعاب به)

أما إنشاؤه وتأليفه فقد قال آبن أبى الأصبع فى "تحرير التحبير" : يجب علىٰ كل من كان له ميْل إلىٰ عمَل الشعر وإنشاء النثر أن يتعهد أوّلا نفســه ويمتحنها بالنظر فى المعانى ، وتدقيق الفكر فى آستنباط المخترعات ، فإذا وجد لها فِطْرة سليمة وجِبِلَّة

• موزونة وذكاء وقّادا وخاطرا سَمْحا وفكرا ثاقبا وفهـما سريعا وبصـيرة مُبصِرة وألمعيَّـة مهذَّبة وقوّةً حافظة وقدرةً حاكية وهمة عاليـة ولَهْجة فصيحة وفِطْنة صحيحة ، أخذ حينئذ فى العمل؛ وإن كان بعض ذلك غيرَ لازم لرب الإنشاء ، ولا يُضْطَرُّ إليه أكثرُ الشعراء، ولكن إذا كملت هذه الصفات فى الكاتب والشاعر، كان موصوفا فى هذه الصناعة بكمال الأوصاف النفيسة .

قال أبو هلال العسكرى فى "الصناعتين" : إذا أردتَ أن تصنع كلاما فأخطر معانيه ببـالك ، ونَقِّ له كرائم اللفظ ، فآجعلها علىٰ ذُكْر منك ليقرُب عليك تناوُلُها، ولا يتعبَكَ تطلُّبها ، واعمَلْه مادمت فى شباب نشاطك ، فإذا غشيك الفُتُور ، وتخوَّنك المَلَال ، فأمسك : فإن الكثير مع المَلَال قليل ، والنفيس مع الضَّجَر خسيس ، والخَوَاطر كاليَنابِيع يُسقىٰ منها شىء بعد شىء فتجد حاجتك من الرِّىّ ، وتنال أربك من المنفعة ، فإذا أكثرت عليها نَضَب ماؤها ، فقلَّ عنك غناؤها . وينبغى أن تخرج مع الكلام مُعارِضـه ، فإذا مررت بلفظ حَسَن أخذت برقَبته ، أو معنًى بديع تعلقتَ بذَيْله . وتحرَّزْ أن يسبقك ، فإنه إن سبقك تعبت فى تطلُّبـه ، ولعلك لا تلحقه علىٰ طول الطلب ، ومواصلة الدَّأَب ، وهذا الشاعر يقول :

إذا ضَيَّعْتَ أوّلَ كلِّ شىء * أبتْ أعجـازُه إلّا الْتِواء

وقد قالوا ينبغى لصانع الكلام أن لا يتقدّم الكلام تقدّما ولا يتتبع ذُنَابَاه تتبُّعا ، ولا يحمله علىٰ لسانه حَمْلا ، فإنه إن تقدّم الكلامَ لم يتبعه خفيفُه وهزيله وأعجَفُه والشاردُ منه ، وإن تتبعه فاتته سوابقه ولواحِقُه ، وتباعدت عنه جِياده وغُرَره؛ وإن حمله علىٰ لسانه ثقُلتْ عليه أوساقه وأعباؤه ، ودخلت مَساويه فى مَحَاسنه ، ولكنه يجرى معه فلا تَندّ عنـه نادّة تُعْجبه سِمَنا إلا كَبَحها ، ولا تتخلف عنه مُثْقَلة هزيلةٌ إلا أرْهقها ، وطورا يفرّقه ليختار أحسنه ، وطورا يجمعه ليقرب عليه خطوة الفكر،

ويتناوله من تحت لسانه ، ولا يسلّط الملل على قلبه ، ولا الإكثار على فكره ، فيأخذ عَفْوَه ويستغزر دَرّه ، ولا يكره آبيا ولا يدفع آتيا . وإيّاك والتعقيد والتوعّر ، فإنّ التوعّر هو الذى يستهلك معانيَك ويَشِين ألفاظك ، ومن أراغ معنًى كريما ، فليلتمس له لفظا كريما ، فإن حقَّ المعنى الشريف اللفظُ الشريفُ ، ومن حقهما أن يصونهما عما يُدَنِّسهما ، ويفسدهما ويُهجِّنهما ، فتصيرَ بهما إلى حدّ تكون فيه أسوأ حالًا منك قبل أن تلتمِسَ البلاغة ، وترتهِنَ نفسك فى مُلَابستها ؛ وليكن لفظك شريفا ، عذبا ، فَخْما ، سهلا ، ومعناه ظاهرا مكشوفا ، وقريبا معروفا ؛ فإن وجدتَ اللفظة لم تقع موقعها ، ولم تصِلْ إلى مركزها ، ولم تتصل بشَكْلها ، وكانت قلِقةً فى موضعها ، نافرةً عن مكانها ، فلا تُكْرِهْها على اغتصاب أماكنها ، والنزول فى غير أوطانها ؛ وإن بُلِيت بتكلف القول ، وتعاطى الصناعة ، ولم تسمح لك الطبيعةُ فى أوّل وهلة ، وعصَتْ عليك بعد إجالة الفكر ، فلا تعجَلْ ، ودَعْه سحابةَ يومك ، ولا تضجَرْ ، وأمهله سَوَادَ ليلتك ، وعاوِدْه عند نَشَاطك ، فإنك لا تعْدَم الإجابة والمُواتاة إن كانت هناك طبيعة ، أو جَرَيْت من الصناعة على عُرْف ؛ وينبغى أن تعرف أقدار المعانى ، فتوازنَ بينها وبين أوزانِ المستمعين وأقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاما ، ولكل حال مَقاما ، حتّى تقسم أقدار المستمعين على أقدار الحالات ، فإن المنفعة مع موافقة الحال ، وما يجب لكل مَقام من المقال .

قال فى "موادّ البيان" ويكون استعمال كلٍّ من جزل الألفاظ وسهلها ، وفصيحها وسَلِسها وبهجها فى موضعه ، وأن يسلك فى تأليف الكلام ، الطريق الذى يخرجه عن حُكْم الكلام المنثور العاطل ، الذى تستعمله العامّة فى المخاطبات ، والمكاتبات ، إلى حكم المؤلَّف الحالِى بحِلَى البلاغة والبديع ، كالاستعارات ، والتشبيهات ، والأسجاع ، والمقابلات ، وغيرها من أنواع البديع .

قال فى "الصناعتين" وإنْ عملت رسالة أو خُطْبــة فتخَطَّ ألفاظَ المتكلِّمين : كالجِسْم ، والجَوْهر، والعَرَض ، واللون ، والتأليف ، واللاهوت ، والنـاسوت ، فإن ذلك هُجْنة .

قال فى "موادّ البيان" وذلك بأن يقصد الكاتب إلىٰ ألفاظ الصِّناعة فيخرج منها إلىٰ ألفاظ غريبة عن الصناعة غير مجانِسة لها . قال وإنما يُؤتىٰ الكاتب فى هذا الباب من جهة أن يكون له شَرِكة فى صناعة غير الكِتابة ، كصـناعة الفِقْه والكلام وغيرهمـا : مثل صناعة أصحاب الإعراب ونحوها؛ فلكل طبقة من هذه الطبقات ألفاظٌ خاصة بها ، يستعملونها فيما بينهم عند المحاورة والخوض فى الصـناعة؛ ومن عادة الإنسان إذا تعاطىٰ بابا من هذه الأبواب أن يسبق خاطِرُه إلىٰ الألفاظ المتعلِّقة به ، فيُوقعها فى الكتُب التى ينشئها لغلبـة عادة ٱستعماله إياها فيهجِّنها بإدخاله فيهـا ماليس من أنواعها .

قال فى "الصناعتين" وتخيُّرُ الألفاظ وإبدال بعضها من بعض يوجب التئام الكلام ، وهو من أحسن نُعُوته وأزْيَن صـفاته ، فإن أمكن مع ذلك ٱنتظامُه من حروف سَهْلةِ المخارج ، كان أحسن له ، وأدْعىٰ للقلوب إليه ؛ وإن ٱتفق له أن يكون موقِعُه فى الإطنـاب أو الإيجاز أليق بموقعـه ، وأحق بالمقام والحال ، كان جامعا للحُسْن ، بارعا فى الفضل ؛ فإن بلغ مع ذلك أن تكون موارِدُه تُنْبيك عن مَصَادره، وأوّلُه يكشف قناعَ آخره، كان قد جمع نِهايةَ الحسن، وبلغ أعلىٰ مراتب التمام .

قال فى "موادّ البيان" وإذا سلكت طريقا فمرّ فيها ، ولا تتنازل عنها إن كانت رفيعة ،ولا ترتفع عنها إن كانت وضيعة .وخالف ٱبن أبى الاصبع ،فقال : ولا تجعل كل الكلام شريفا عاليا، ولا وضيعا نازلا، بل فَصِّله تفصيل العُقُود، فإن العِقْد إذا

كان كله نفيسا لا يظهر حسنُ فرائده، ولا يبين جمالُ واسطته ، فإن الكلام إذا كان متنوّعا فى البلاغة، أُفْتِنَت الأسماعُ فيه، ولا يلحق النفوسَ مَلَلٌ من ألفاظه ومَعَانيه؛ ولا يخرج عن غرض إلىٰ غيره حتّىٰ يكمل كل ماينتظم فيه : كما إذا كان ينشئ كتابا فى العَذْل والتوبيخ ، فيشوبُ ألفاظَه بألفاظ أخرىٰ تخرُج عن الخشونة إلىٰ اللّين ، فإن ٱختلاف رُقْعة الكلام من أشدّ عيوبه .

قال فى "الصناعتين" ولا تجعل لفظك حُوشِيًّا بدوِيًّا، ولا مبتذَلا سُوقِيًّا، ورتِّب الألفاظ ترتيبا صحيحا ، فتقدِّمُ منها ما يحسُن تقديمه ، وتؤخر منها ما يحسن تأخيره ؛ ولا تقدِّم منها ما يكون التأخير به أحسن ، ولا تُؤَخر ما كان التقديم به أليق، ولا تكرر الكلمة الواحدة فى كلام قصير : كما كتب سعيد بن حميد: "ومَثَل خادمُك بين يديه ما يملك فلم يجد شيئًا يَفِى بحقِّك، ورأىٰ أن تقريظك بما يبلغه اللسان وإن كان مقصرا عن حقك أبلغُ فى أداء مايجب لك". فكرر ذكر الحق مرتين فى مقدار يسير . علىٰ أن أبا جعفر النحاس قد ذكر فى "صناعة الكتاب" أنّ ذلك ليس بعيب عند كثير من أهل العربية ، وهو الحق فقد وقع مثل ذلك من التكرير فى القرءان الذى هو أفصح كلام ، وآنَقُ نظام ، فى قوله تعالىٰ : ﴿والسَّماَءَ رفَعَها ووَضَعَ المِيزانَ أنْ لا تَطْغَوْا فِى المِيزانِ وأَقِيمُوا الوَزْنَ بالقِسْطِ ولا تُخْسِرُوا المِيزَانَ ﴾ فكرر ذكر الميزان ثلاث مرات فى مقدار يسير من الكلام ، وأمثاله فى القرءان الكريم كثير .

قال فى "الصناعتين" فإن ٱحتاج إلىٰ إعادة المعانى أعادها بغير اللفظ الذى ٱبتدأ به : كما قال معاوية : "مَنْ لم يكن من بنى عبد المطلب جَوَادا فهو دَخيل، ومن لم يكن من بنى الزُّبير شُجاعا فهو لَزِيق، ومن لم يكن من بَنِى المُغيرة تَيَّاها فهو سَنِيد" . فقال دَخِيل ، ثم قال لَزِيق ، ثم قال سَنِيد والمعنىٰ واحد ، والكلام علىٰ ما ترىٰ

حسن . ولو قال لَزِيق ثم أعاد لسَـمُج . علىٰ أن الوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثل السائر" قد ذكر ماينافى ذلك، وتعقَّب أبا إسحاق الصابى فى قوله فى تحميدة كتاب : الحمد لله الذى لا تُدْرِكُهُ الأعينُ بألحـاظها ، ولا تَحُدّه الألسُن بألفاظها ، ولا تُخْلِقه العُصور بمرورها ، ولا تُهْرِمه الدُّهور بكُرورها ، وقوله بعد ذلك فى الصلاة علىٰ النبى صلى الله عليه وسـلم : لم يَرَ للكُفْر أثَرا إلّا طَمَسه ومَحَاه ، ولا رَسْمـا إلا أزاله وعَفَّاه ؛ فقـال لا فرقَ بين مُرور العصور ، وكُرور الدهور ؛ وكذلك لا فرق بين مَحْو الأثر وإعفاء الرسم ؛ ويحتمل أن يقال إنمـا كره صاحب "المثل السائر" ذلك لتوافق القرينتين فى جميع المعنىٰ بخلاف كلام معـاوية فإنه متوافق فى اللفظة الأخيرة فقط .

قال فى "الصناعتين" وتجنّب كلَّ ما يُكْسِب الكلام تعمية : كما كتب سـعيد ٱبن حميد، يذكر مَظْلِمة إنسان فى كتابه : لفلانٍ وله بى حُرْمةٌ مَظْلِمةٌ ، يريد لفلانٍ مظلِمـة وله بى حرمة، بمعنى أنه راعى حرمتـه . قال : وٱعلم أن الذى يلزمك فى تأليف الرسـائل والخُطَب هو أن تجعلها مُزْدوِجة فقط ، ولا يلزمك فيها السجعُ فإن جعلتها مسجوعةً كان أحسَنَ مالم يكن فى سَجْعك استكراه، وتنافُر، وتعقيـد ؛ وكثيرا مايقع ذلك فى السجع، وقلّما يسلم إذا طال من ٱستكراه وتنافر .

قال ٱبن أبى الأصبع : ولا تجعـل كلامك كلَّه مبنيًّا علىٰ السجع ، فتظهرَ عليـه الكُلْفة ، ويتبيَّنَ فيه أثرُ المشقَّة ، وتتكلَّف لأجل السجع ٱرتكاب المعنىٰ الساقط ، واللفظِ النازل ؛ وربـما ٱستدعيتَ كلمة للقَطْع رغبـةً فى السـجع فجاءت نافرة من أخواتها، قَلِقة فى مكانها . بل ٱصرف كلَّ النظر إلىٰ تجويد الألفاظ وصحة المعانى، وٱجْهَد فى تقويم المبَانى ، فإن جاء الكلام مسجوعا عَفْوا من غير قَصْد ، وتشابهت مَقَاطعُه من غير كسب كان، وإن عزَّ ذلك فاتْرُكه وإن ٱختلفت أسجاعه وتباينَتْ

فى التقفية مقاطعه ، فقد كان المتقدّمون لايحتفلون بالسَّجع جملة ، ولا يقْصِدونه ، إلا ماأتت به الفَصَاحة فى أثناء الكلام ، واتّفق من غير قصد ولا اكتساب ، وإنما كانت كلماتهم متوازيه ، وألفاظُهم متُساويه ، ومعَانيهم ناصعه ، وعبارتُهم رائعه ، وفصولهم متقابله ، وجملُ كلامهم متماثله ، وتلك طريقة الإمام على رضى الله عنه ومن اقتفى أثره من فُرْسان الكلام : كابن المقفَّع ، ويزيدَ بنِ هارون ، وإبراهيمَ بن العباس ، والحسن بن سهل ، وعمرو بن مَسْعَدة ، وأبى عثمان الجاحظ ، وغيرهم من الفصحاء البلغاء .

قال فى "مواد البيان" : وأقلُّ مايكون من الازْدِواج قرينتان .

قال فى "الصناعتين" : وينبغى أن يجتنب إعادة حروف الصِّلات والرباطات فى موضع واحد إذا كتب ، فى مثل قول القائل له منه عليه ، أو عليه منه ، أو به له منه ، وحقه له عليه . قال وسبيله أن يداويه حتّى يزيله ، بأن يفصل مابين الحرفين مثل أن يقول : أقمتُ به شهداءَ عليه ، كقول المتنبى :

وتُسْعِدُنِى فى غَمْرةٍ بعدَ غَمْرةٍ * سَبُوحٌ لهَاَ مِنْها علَيْها شَوَاهِدُ

قال ابن أبى الاصبع : وليراع الإيجاز فى موضعه ، والإطناب فى موضعه ، بحسَب مايقتضيه المقام ويتجنَّب الإسهاب والتطويلَ غير المفيد .

قال العسكرى : وينبغى أن يأتى فى تأليفه الكلامَ بآيات من الكتاب العزيز فى الأمور الجليلة ، للترصيع والتحلية ، والاستشهاد للمعانى علىٰ مايقع فى موقعه ، ويليق بالمكان الذى يُوقَع فيه ، ولكنه لايستكثر منه حتّى يكون هو الغالبَ علىٰ كلامه ، تنزيها لكلام الله تعالىٰ عن الابتذال ، فإنه إنما يستعمله علىٰ جهة التبرُّك والزينة ، لاليُجعلَ حَشْوا فى الكلام ، وإذا استُعير منه شىء أُتِى به علىٰ صورته ، ولا ينقله عن صيغته ، ليسلم من تحريفه ، ومخالفة اختيار الله تعالىٰ فيه . قال وكما لا يجوز الإكثار منه لا يجوز

أن يخلّي كلامه من شيء منه تحليةً له ، فإن خلوّ الكلام من القرءان يَطْمِس محاسِنَه ، ويَنْقُص بَهْجته ، ولذلك كانوا يسمُّون الخطبة الخالية من القرءان بتْراء .

وينبغى أن لا يستعمل فى كتابتـه ما جاء به القرءان العظيم من الحذف ومخاطَبة الخاصّ بالعامّ ، والعامّ بالخاص ، والجماعة بلفظ الواحد ، والواحد بلفظ الجماعة ، وما يجرى هـذا المَجْرىٰ ، لأن القرءان قد نزل بلغة العرب ، وخوطب به فُصحاؤهم ، بخلاف الرسائل .

قال فى "الصناعتين" لا يجوز أن يستعمل فيها مايختص بالشِّعر من صَرْف مالا ينصرف ، وحذف مالا يُحذف ، وقَصْر الممدود ، ومدّ المقصور ، والإخفاء فى موضع الإظهار ، وتصغير الآسم فى موضع تكبيره ، إلا أن يريد تصغير التعظيم كقول القائل "أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك ، وعُذَيقُها المُرَجَّب" . ومما يُستحسن من وصية أبى تمام لأبى عُبَادَةَ البُحترىّ فى الشعر مما لايستغنِى الناثرُ عن المعرفة به ، والنَّسْج علىٰ مِنْواله : لانه يجب أن يُنَاسب بين الألفاظ والمعانِى فى تأليف الكلام ، ويكونَ كخَيَّاط يقـدّر الثيابَ علىٰ قدر الأجسـام ، وأن يجعـل شهوتَه لتأليف الكلام هى الذَّرِيعـةُ إلىٰ حُسْن نظمه ، فإنَّ الشهوة نِعْمَ المعين ! ويَعتبر كلامَه بما سلَف من كلام المـاضين ، فمـا آستحسنه العلمـاء فليَقْصِده ، وما آستقبحوه فلْيجتنِبْه ، وينبغى أن يعمل السجعات مفرّقة بحسب مايجود به الخاطر ثم يرتبها فى الآخِر ويحترزَ عند جمعها من سُوء الترتيب ، ويتوخّى حُسْن النسَق عنـد التهذيب ، ليكون كلامه بعضـه آخذا بأعناق بعض ، فإنه أكمل لحسنه ، وأمثل لرصفه ، وأن يجيد المَبْدأ والمَخْلَص والمَقْطَع ، ويميز فى فكره محط الرسالة قبل العمل ، فإنه أسهل للقصد ، ويجتهد فى تجويد هذه المواضع وتحسينها ، ويوضِّح معانيه ما آستطاع .

قلت وقد سبق فى أوّل هـذه المقالة فى بيان مايحتاج إليه الكاتب من الأدوات

وذكر أنواعها بيانُ كيفية الاقتباس من آيات القرءان الكريم والأحاديث النبوية والاستشهاد بها، وكيفيّة حلّ الشعر إلى النثر، وتضمينه فى خلال الكلام المنثور وما يجرى هذا المجرى فأغنى عن إعادته هنا .

وأما بيان مايُستحْسَن من الكلام المصنوع فقد قال فى "الصناعتين" إن الكلام يحسُن بسَلَاسته وسُهُولتِه ونَصَاعته ، وتخيُّر لفظه ، وإصابةِ معناه، وجودةِ مَطَالعه، ولِين مَعَاطفه، واستواء تقَاسِيمه، وتعادُل أطرافه، وتشبُّه أعجازه بهَوَاديه، وموافقة أواخره لمَبَاديه، مع قِلَّة ضروراته بل عدمها أصلا، حتّى لايكونَ لها فى الألفاظ أثرٌ فتجدُ المنظومَ مثلَ المنثور فى سُهولة مَطْلَعه، وجَوْدة مَقْطَعه، وحُسْن رَصْفه وتأليفه وكمال صَوْغه وتركيبه؛ فإذا كان الكلام قد جمع العُذُوبة والجَزَالةَ والسُّهولة والرَّصانة مع السَّلاسة والنَّصاعة ، واشتمل على الرَّوْنق والطَّلاوة ، وسَلِم من ضَعْف التأليف، وبَعُد من سَمَاجة التركيب، صار بالقَبول حَقِيقا ، وبالتحَفُّظ خَلِيقا؛ فإذا ورد على السمع المُصِيب استوْعبه ولم يَمُجَّه، والنفس تَقْبَلُ اللطيفَ، وتَنْبُو عن الغليظ، وتَقْلَق عن الجاسِى البَشِع؛ وجميعُ جوارح البدن وحواسِّه تسكُن إلى مايوافقُه وتنفر عما يُضَادُّه ويخالفه؛ والعين تألَف الحَسَن، وتَقْذَى بالقَبِيح؛ والأَنْف يرتاحُ للطِّيب ويَعَاف المُنْتِن ؛ والفَمُ يلتذُّ بالحُلْو ، ويمُجُّ المرّ؛ والسمع يتشوّق للصوت الرائع ، وينْزوِى عن الجَهِير الهائل ؛ واليد تنْعَم باللّين ، وتتأذَّى بالخَشِن ؛ والفَهْم يأْنَس من الكلام بالمعروف ، ويسكُن إلى المألوف ، ويَصْغَى إلى الصواب، ويَهْرُب من المُحَال ، وينقبض عن الوَخِم ، ويتأخَّر عن الجافى الغليظ ، ولا يقبل الكلام المُضْطَرِب إلا الفهمُ المضطرب والرويَّةُ الفاسدة .

قال وليس الشأن فى إيراد المعانى لأن المعانى يعرفها العربىّ والأعجمىّ، والقَرَوِىُّ والبَدَوِىّ، إنما هو فى جَوْدة اللفظ وصَفَائه ، وحُسْنه وبَهَائه، ونَزاهته ونَقائه ، وكثرة

طَلَاوته ومائِه، وصحة السـبك والتركيب، والخُلُوّ من أَوَد النظم والتأليف؛ وليس يُطْلَب من المعنىٰ إلا أن يكون صـوابا، ولا يُقْنَع من اللفظ بذلك حتّى يكون على ماوُصِف من نعوته التى تقدّمت . ألا ترىٰ أن الخُطَب الرائعة، والأشعار الرائقة، لم تُعمَل لإفهام المعانِى فقط : لأن الردىء من الألفاظ يقوم مَقَام الجيـد منها فى الإفهام؛ وإنمـا يدلُّ حسن الكلام، وإحكام صـنعتِه، ورَوْنَق ألفاظه وجودةُ مَقَاطعه، وبديعُ مَبَاديه، وغريب مَبَانيه، علىٰ فضل قائله ومنشيه . وأيضا فإن الكلام إذا كان لفظا حُلْوا عَذْبا وَسَطا دخل فى جملة الجيد، وجرىٰ مع الرائع النادر. وأحسنُ الكلام ماتلاءَمَ نَسْجُه ولم يَسْخُف، وحَسُن نظمُه ولم يَهْجُن، ولم يُستعمَل فيه الغليظ من الكلام فيكون خَلَقا بغيضا، ولا السُّوقِىُّ من الألفاظ فيكون مُهَلْهَلا دُونا، ولا خيرَ فى المعانى إذا ٱستُكْرِهتْ قهرا، والألفاظ إذا أُجبِرَتْ قَسْرا؛ ولا خير فيما أُجِيـد لفظُه إلا مع وضوح المَغْزىٰ وظهور المَقْصِـد . قال وقد غلب علىٰ قوم الجهـلُ فصاروا يستجيدُون الكلام إذا لم يَقِفوا علىٰ معناه إلا بكَدّ، ويستفْصِحُونه إذا وجدوا ألفاظه كَزَّة غليظة وجاسِيَةً غريبة، ويستحْقِرون الكلام إذا رأَوْه سَلِسا عَذْبا، وسَهْلا حُلْوا؛ ولم يعلموا أن السهلَ أمنعُ جانِبا، وأعزُّ مَطْلَبا؛ وهو أحسن مَوْقِعا، وأعذَبُ مستَمَعا؛ ولهذا قيل أجودُ الكلامِ السهلُ الممتنع . وقد وصف الفضلُ ٱبنُ سهْل عمرو بنَ مَسْعَدَة فقال : هو أبلغُ الناس، ومن بَلَاغتـه أنَّ كلَّ أحد يظُنُّ أنه يكتُب مثلَ كُتُبه؛ فإذا رامها تعذَّرتْ عليه؛ وأنشـد إبراهيم بن العبَّاس لخاله العبَّاس بن الأحنف :

إن قال لم يَفْعَلْ وإن سِيلَ لَمْ * يَبْـذُلْ وإن عُوتِبَ لم يُعْتِب
صَبٌّ بعِصْـيانِى ولو قالَ لِى * لاتَشْرَبِ البـارِدَ لم أَشْرَب

ثم قال هذا والله الشعر الحسن المعنىٰ، السهلُ اللفظِ، العذبُ المستمَع، القليلُ

النظير، العزيز الشبيه، المُطْمِع الممتنع، البعيدُ مع قربه، الصَّعْبُ مع سُهولته، قال فجعلنا نقول هذا الكلام والله أحسن من شعره. وقيل لبعضهم: ألا تَسْتعمِلُ الغريب فى شعرك؟ فقال: ذلك عِيٌّ فى زمانى، وتكلُّف منِّى لوقلتُه، وقد رُزِقْت طَبْعا وآتساعًا فى الكلام فأنا أقول ما يعرفه الصغير والكبير، ولا يَحْتاج إلىٰ تفسير.

وقال أبو داود: رأس الخَطَابة الطبعُ، وعمودُها الدُّرْبة، وجناحاها رِوايةُ الكلام وحَلْيها الإعراب، وبَهَاؤُها تخيُّرُ الألفاظ، والمحبةُ مقرونةٌ بقلة الآستكراه، وما كان من الكلام لفظُه سهلا ومعناه مكشوفًا بَيِّنًا فهو من جملة الردىء المردود، لا سيما إذا آرتُكِبتْ فيه الضرورات، فأما الجَزْل المختارُ من الكلام، فهو الذى تعرفه العامَّة إذا سمعته، ولا تستَعْمِله فى مُحَاوراتها، وأجودُ الكلام ما كان سَهلا جَزْلا، لا ينْغلِق معناه، ولا يستَبْهِم مَغْزاه، ولا يكون مَكْدودا مستكْرَها، ومتوعِّرا متقعِّرا، ويكون بريئا من الغَثَاثة، عاريا من الرَّثاثة. فمن الجَزْل الجَيِّد من النثر قولُ سعيد بن حميد: وأنا مَنْ لايحاجُّك عن نفسه، ولا يُغالِطك عن جُرْمه، ولايلتمس رِضاك إلا من جهته، ولا يستدعِى بِرَّك إلا من طريقته، ولايستعطِفك إلا بالإقرار بالذنب، ولايستميلك إلا بالآعتراف بالجُرم، نبَتْ بى عنك غِرَّةُ الحَدَاثة، وردّتْنى إليكَ الحُنْكة، وباعَدَتْنى منكَ الثقةُ بالأيَّام، وقادَتْنى إليك الضرورة، فإن رأيت أن تستَقْبِل الصنيعةَ بقَبُول العُذْر، وتجدّد النعمة بآطِّراح الحِقْد، فإنَّ قديم الحُرْمة وحديثَ التوبة يمحقَان ما بينهما من الإساءة، وإن أيام القدرة وإن طالتْ قِصيرة، والمتعةَ بها وإن كَثُرتْ قليلة، فعَلْتَ إن شاء الله تعالى.

وأجزلُ منه قول الشعبىّ للحجاج، وقد أراد قتْلَه لخُروجه عليه مع ابنِ الأشعثِ أجدبَ بنا الجَنابُ، وأحْزنَ بنا المَنْزِل، فاستَحْلَسْنا الحَذَر، واكتحَلْنا السَّهَر، وأصابتنا فتنةٌ لم نكُنْ فيها بررةً أتقياءَ، ولا فَجَرة أقوياء. فعفا عنه.

ومن النظم قول المرّار :

لاتَسْألِى القَوْمَ عن مالِى وكَثْرتِهِ * قد يُقْتِرُ المرءُ يوما وهو مَحْمُود
أَمْضِى علىٰ سُنَّةٍ من والِدِى سَلَفَتْ * وفى أَرُومَتِـه ماينْبُتُ العُـودُ

فهذا وان لم يكن من كلام العامّة فإنهم يعرفون الغَرضَ منـه ويَقِفُون علىٰ أكثر معانيه لِحُسْن ترتيبه وجودة نَسْجه؛

قال فى "الصناعتين" أما إذا كان لفظ الكلام غَثًّا، ومَعْرِضـه رَثًّا، فإنه يكون مَرْدودا، ولو آحتوى علىٰ أجلّ معنًى وأنبله، وأرفَعه وأفْضلِه، كقول القائل :

أَرىٰ رِجالًا بأدْنىٰ الدِّينِ قد قَنِعُوا * ولا أَرَاهُمْ رَضُوا فى العَيْش بالدُّونِ
فاستَغْنِ بالدِّينِ عن دُنْيا المُلوكِ كما آسـ * ـتَغْنىٰ المُلوكُ بدُنْيـاهُمْ عن الدِّينِ

قال : فهو لايدخل فى جملة المختار، ومعناه كما ترىٰ جميل، فاضلٌ جليل، وأما الجَزْل الرديءُ الفَجُّ، الذى ينبغى تركُ آستعماله فقد مر فى الكلام علىٰ الغريب الحُوشى .

المقصِد الثـالث

(فى بيان مقادير الكلام ومقتضيات إطالته وقِصَره)

اعلم أن الكلام المصنوع من الخطب، والمكاتبات، والولايات وغيرها علىٰ ثلاثة ضروب .

الضرب الأوّل

(الإيجاز)

وهو جمع المعانى الكثيرة فى الألفاظ القليلة، وعليه ورد أكثرُ آيِ القرءان الكريم فمن ذلك قوله تعالىٰ فى مُفْتَتَح سورة الفاتحة : ﴿ الحمدُ للهِ رَبِّ العالَمين ﴾ . آنتظم فيه خلق السموات والأرض وسائرِ المخلوقات لم يشِذَّ عنه شيء فى أوْجَز لفظ وأقربِه

وأسهلِه ؛ ومنـه قوله تعالىٰ : ﴿ أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ ﴾ آستوعبَ جميعَ الأشياء علىٰ الآستقصاء فى كلمتين لم يخرج عنهما شىء ؛ وقولُه ﴿أُولئِك لَهُـمُ الأَمْنُ﴾ فدخل تحت الأمْن جميعُ المحبوبات لأنه نفىٰ به أن يخافوا شيئا : من الفَقْر والموتِ وزوال النِّعمة والجَوْرِ وغير ذلك ؛ وقوله : ﴿ لِيَشْهدُوا مَنَافِعَ لَهُـمْ ﴾ جمع منافع الدنيا والآخرة ؛ وقوله فى صفة خَمْر أهل الجنة : ﴿لا فِيها غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ ﴾ آنتظم بقوله : ولا هم عنها ينزَفُون عدمَ ذَهابِ العقل وذَهابِ المـالِ ونَفَادِ الشراب ، فلم يكن فيها شىء من ذلك ؛ وقوله : ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعرِضْ عَنِ الجاهِلِينَ ﴾ فجمع فيها مكارم الأخلاق بأسْرِها : لأنَّ فى العفو صِلةَ القاطعين ، وإعطاء المـانعين ؛ وفى الأمر بالمعروف تقوىٰ الله تعالىٰ ، وصلةَ الرحم ، وصونَ اللسان عن الكذب ، وغضَّ الطَّرْف عن المحرّمات ، والتبرِّى من كل قبيح ؛ إذ لا يأمر بالمعروف من هو ملابس شيئا من المنكر ؛ إلىٰ غير ذلك من الآيات التى لا تحصىٰ كثرةً .

ومن كلام النبوّة قوله صلى الله عليه وسلم : "نِيَّةُ المَرْءِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِه" وقوله عليه السلام : "حُبُّكَ الشَّىْءَ يُعْمِى ويُصِمُّ" إلىٰ غير ذلك من جَوامع الكَلِم .

الضرب الثـانى

(الإطناب)

وهو الإشباعُ فى القول ، وترديدُ الألفاظ المترادفَة علىٰ المعنىٰ الواحد . وقد وقع منه الكثيرُ فى الكتاب العزيز، مثل قوله تعالىٰ : ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوفَ تَعْلَمُونَ ﴾ وقوله جلَّ وعزَّ : ﴿ فإنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا إنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرًا ﴾ كرر اللفظ فى الموضعين تأكيدا للأمر وإعلاما أنه كذلك لامحـالة . وقوله : ﴿ فَفِرّوا إلىٰ اللهِ إنِّى لَـكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ ولا تَجْعَلُوا مَعَ اللهِ إلٰهًا آخَرَ إنِّى لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ فكرر إنى

لكم منه نذيرٌ مبين من حيث إن الكفر وإن تعـدّدت أقسامُه لا يخرجُ عن تعطيل أو شرك ففى قوله فَفِرُّوا إلىٰ اللهِ نفىُ التَّعطيل بإثبـات الإلٰه وفى قوله : ولا تَجْعَلُوا مع اللهِ إلهًـا آخَرَ نَفىُ الشّرك . وقد كرر سبحانه فى سورة الرحمن قوله : ﴿فَبِأَىِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ حيثُ عَدَّد فيها نِعَـمه ، وأذكر عبـادَه آلاءه، ونبّههـم علىٰ قَدْرها ، وقدرتِه عليها، ولُطفِه فيها ، وجَعلها فاصِلةً بين كُلّ نعمة ونعمة، تنبيهًا علىٰ موضع ماأسداهُ إليهم فيها، وكذلك كَرَّر فى سورة المرسَلات : ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ تأكيدًا لأمر القيامة المذكورة فيها . وقد وقع التكرار للتأكيد فى كلام العرب كثيرا كما فى قول الشاعر :

* أَتَاكَ أَتَاكَ اللَّاحِقُونَ أَتَاكَا(١) *

وقول الآخر :

* كَمْ نِعمة كانَتْ لَكُمْ كَمْ كَمْ وَكَمْ *

إلىٰ غير ذلك ممـا وقع فى كلامهم ممـا لا تأخذه الإحاطة .

الضرب الثـالث

(المساواة)

بأن تكون الألفـاظ بإزاء المعانى فى القلة والكثرة لا يزيد بعضها علىٰ بعض . وقد مثل له العسكرىّ فى "الصناعتين" بقوله تعالىٰ : ﴿حُورٌ مَقْصُوراتٌ فى الخِيَامِ﴾ وقوله : ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ وقولِ النبى صلى الله عليه وسلم "لا تَزالُ أُمَّتِى بَخَيْرٍ ما لم تَرَ الأمَانَةَ مَغْنَمًا والزَّكَاةَ مَغْرَمًا" وقوله "إيَّاكَ والمُشَارَّةَ، فإنها تُمِيت الغُرَّة(٢)

---

(١) فى الضوء بدله (أحبس أحبس) وهو المشهور فى البيت .

(٢) أى العمل الصالح الحسن تشبيها له بغرة الفرس . والعرة العمل السىء تشبيها له بالعذرة . انظر اللسان .

وتُحْيي العُرّة". وقول بعض الكُتّاب : سألتَ عن خَبَرِى وأنا فى عافية لاعَيْبَ فيها إلا فَقْدُك، ونِعْمةٍ لامَزِيدَ فيها إلا بك . وقول آخر : وقد علَّمَتْنِى نَبْوتُك سَلْوتُك، وأسلمنى يَأْسِى مِنْك، إلىٰ الصَّبْر عنك . وقول آخر : فتولَّى اللهُ النعمةَ عليك وفيك، وتولّى إصلاحَك والإصلاحَ بك، وأجزل من الخير حَظَّكَ والحظَّ منك، ومنّ عليك وعلينا بك . وقول الشاعر :

أَهَــابُكِ إجْلالًا وما بِكِ قُدْرةٌ * عَلَيّ ولٰكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها
وماهَجَرْتُكِ النَّفْسُ أنَّكِ عِنْـدَها * قَلِيــلٌ ولا أنْ قَلَّ مِنْكِ نَصِيبُها

إذا علمت ذلك فقــد ٱختلف البلغاء فى أىِّ الثلاثة أبلغ وأولىٰ بالكلام، فذهب قوم إلىٰ ترجيح الإيجاز، محتجِّينَ له بأنَّه صورة البلاغة وأن ما تجاوز مقدارَ الحاجة من الكلام فَضْلة داخلةٌ فى حَيِّز اللَّغو والهُذْر، وهما من أعظم أَدْواء الكلام، وفيهما دلالة علىٰ بَلَادة صاحب الصِّناعة وغَباوته . وقد قال الأمين محمد بن الرشيد : عليكم بالإيجاز فإن له إفهاما وللإطالة ٱستبْهاما . وقال جعفر بن يحيىٰ لكاتبه : إن قَدَرتم علىٰ أن تجعلوا كُتُبكم توقيعاتٍ فٱفعلوا . وقال بعضهم : البلاغة بالإيجاز أَنْجَعُ من البيان بالإطناب، وقيل لبعضهم : ماالبَلَاغة ؟ قال الإيجاز . وقيل لٱبن حازم لم لا تُطِيل القصائد فأنشد :

أبىٰ لِى أن أُطِيلَ الشِّعْرَ قَصْدِى * إلىٰ المَعْنىٰ وعِلْمِى بالصَّــوابِ
وإيجــازِى بمُخْتَصَرٍ قَــرِيبٍ * حَذَفْتُ به الفُضُولَ من الجَوَابِ

وذهبت طائفة إلىٰ أن الإطناب أرجح، وٱحتجُّوا لذلك بأن المَنْطق إنمـا هو بيان والبيان لايحصل إلا بإيضاح العبارة، وإيضاح العبارة لا يتهيأ إلا بمرادَفة الألفاظ علىٰ المعنىٰ حتّى تُحيط به إحاطةً يُؤْمَن معها من اللَّبْس والإبهام، وإن الكلامَ الوجيزَ لا يُؤْمَن وقوعُ الإشكال فيــه . ومن ثم لم يحصل علىٰ معانيه إلا خواصُّ أهل اللُّغة

العارفين بدَلالات الألفاظ . بخلاف الكلام المُشْبَع الشافى فإنه سالم من الآلتباس لتَساوِى الخاصِّ والعامِّ فى جهته . ويؤيد ذلك ماحكى أنه قيل لقَيْس بن خارجة : ماعِنْدكَ فى حَمَالاتٍ ذاتِ حُسْن؟ قال : عندى قِرىٰ كل نازل، ورِضا كلِّ ساخِط، وخُطْبةٌ من لَدُنْ تطلُعُ الشمسُ إلىٰ أن تغرُبَ، آمرُ فيها بالتواصُل، وأنهىٰ عن التقاطُع . فقيـل لأبى يعقوب الخرْمى" هلاّ آكتفىٰ بقوله آمُر فيها بالتواصـل عن قوله وأنهىٰ عن التقاطع ؟ فقال : أو ماعلمت أن الكناية والتعريضَ لا تعملُ عَمَلَ الإطناب والتكشُّف؟ ألاترىٰ أن الله تعالىٰ إذا خاطب العربَ والأعرابَ أخرج الكلام مُخْرَج الإشارة والوَحْى، وإذا خاطب بَنِى إسرائيل أو حكىٰ عنهم جعلَ الكلامَ مبسوطا، وقلمـا تَجِد قصةً لبنى إسرائيل فى القرءان إلا مطوَّلة مشروحة ومكررةً فى مواضع مُعادةً لبُعد فهمهم، وتأخُّر معرفتهم؛ بخلاف الكلام المُشْبَع الشافى فإنه سـالمٌ من الآلتباس لتساوى الخاصّ والعامّ فى فهمه .

وذهبت فرقة إلىٰ ترجيح مساواة اللفظ المعنىٰ، وآحتجوا لذلك بأن مَنْزَع الفضيلة من الوسَط دون الأطراف وأن الحُسْن إنمـا يوجد فى الشىء المعتـدِل .

قال فى "موادّ البيان": والذى يوجبه النظر الصحيح أن الإيجاز والإطناب والمساواةَ صـفاتٌ موجودة فى الكلام ولكل منها موضع لايخلُفـه فيه رديفُه، إذا وضع فيه آنتظمَ فى سِلك البلاغة ودلّ علىٰ فضل الواضِع، وإذا وُضع غيره دلَّ علىٰ نقص الواضع وجهلِه برُسُوم الصِّناعة .

فأما الكلام الموجز فإنه يصلح لمُخاطَبـة الملوك، وذوى الأخطار العاليـة، والهمم المستقيمة، والشـُّؤن السنِيَّة، ومن لا يجوز أن يُشْغَل زمانه بمـا همَّتـه مصروفةٌ إلىٰ مطالعة غيره .

واما الإطناب فإنه يصلح للمكاتبات الصادرة فى الفتوحات ونحوها مما يُقرأ فى المحافل، والعهود السلطانية، ومخاطبة من لا يصل المعنىٰ إلىٰ فهمه بأدنىٰ إشارة. وعلىٰ ذلك يحمل ما كتبه المهلَّب بن أبى صُفْرة إلىٰ الحجّاج فى فتح الأزارقة من الخوارج والظهور عليهم علىٰ ٱرتفاع خطر هذا الفتح وطول زمانه وبُعْد صيته، فإنه كتب فيه : " الحمد لله الذى كفىٰ بالإسلام قَصْدَ ما سواه، وجعل الحمدَ متصلا بنُعْماه، وقضىٰ أن لاينقطع المزيدُ وحبلُه، حتّى ينقطع الشكْرُ من خلقه. ثم إنا كنا وعدوّنا علىٰ حالتين مختلفتين، نرىٰ منهم مايسرُّنا أكثرَ مما يسرُّهم، ويرَوْن منا مايسُوءُهم أكثَرَ مما يسرُّهم فلم يزل ذلك دأبَنَا ودأْبَهم : ينصرنا اللهُ ويَخْذُلهم، ويمحِّصنا ويمحَقُهم، حتّى بلغ الكتابُ بناديهم أجلَه، فقُطِعَ دابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحمدُ للهِ ربِّ العالَمِين.

فإن الذى حمله علىٰ الآختصار فى هذا الكتاب إنما هو كونه إلىٰ السلطان الذى من شأنه ٱختصارُ المكاتبات التى تُكتَب إليه، بخلاف مالو كُتِب به عن السلطان إلىٰ غيره، فإنه يتعين فيه بَسْطُ القول وإطالتُه علىٰ ماسيأتى ذكره فى أول المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ.

وأما مساواة اللفظ للمعنىٰ فإنه يصلُح لمخاطبة الأكفاء والنُّظَراء والطَّبَقة الوُسْطىٰ من الرؤساء. فكما أن هذه المرتبةَ متوسِّطة بيْن طرفَىِ الإيجاز والإطناب كذلك يجب أن تُخَصَّ بها الطبقةُ الوُسْطىٰ من الناس. قال أما لو ٱستعمل كاتبٌ ترديد الألفاظ ومرادَفَتِها علىٰ المعنىٰ فى المكاتبة إلىٰ ملك مصروفِ الهمةِ إلىٰ أمور كثيرةٍ متىٰ ٱنصرف منها إلىٰ غيرها دخلها الخلَلُ، لرتَّب كلامه فى غير رُتَبه، ودلّ علىٰ جهله بالصناعة. وكذا لو بنىٰ علىٰ الإيجاز كتابا يكتبه فى فتحٍ جليل الخطَر، حَسَن الأثر، يُقْرأ فى المحافل والمساجد الجامعة علىٰ رءُوس الأشهاد من العامَّة ومَن يُراد منه تفخيمُ شأن السلطان

فى نفسه، لأوْقعَ كلامه فى غير موقعه، ونزّله فى غير منزلته : لأنه لا أقبح ولا أسمج من أن يُستنفَر الناسُ لسماع كتاب قد ورد من السلطان فى بعض عظائم أمور المملكة أو الدِّين، فإذا حضر النـاسُ كان الذى يمـرّ على أسماعهم من الألفاظ واردا مَوْرِدَ الإيجاز والاختصار لم يحسُن موقعه وخرج من وَضْع البلاغة لوَضْعه فى غير موضعه .

قلت وما ذكرته من الأصول والقواعد التى تبنى عليهـا صنعة الكلام هو القدر اللازم الذى لا يسعُ الكاتبَ الجهلُ بشىء منـه، ولا يُسْمَح بإخلاء كتابٍ مصنَّفٍ فى هذا الفنّ منه .

أما المتمِّمات التى يكمُل بها الكاتب : من المعرفة بعلوم البلاغة ووجوهِ تحسين الكلام من المعانى والبيان والبديع فإن فيها كتباً مفردة، تكاد تخرُج عن الحَصْر والإحصاء فاقتضى الحال من المتقدّمين للتصنيف فى هذا الفنّ أن قد قَصَروا تصانيفَهـم على علوم البلاغة وتوابعها كالوزير ضياء الدين بن الأثير فى "المثـل السائر" وأبى هلال العسكرىّ فى "الصناعتين" والشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى "حسن التوسل" كما تقدّمت الإشارة إليه فى مقـدّمة الكتاب ، فليُطْلَبْ ذلك من مظانِّه من هـذه الكُتُب وغيرها . إذ هذا الكتاب إنمـا يذكر فيه مايشق طلبه من كتب متفرّقة ، وتصانيف متعدِّدة، أو يكونُ فى المصنَّف الواحد منه النُّبذة غيرُ الكافية، ولا يجتمع منه المطلوب إلا من كشفِ الكثيرِ من المصنَّفات المتفرّقة فى الفنون المختلفة .

الفصـــــل الثالث
(من الباب الأوّل من المقالة الأُولىٰ)

في معرفة الأزمنة والأوقات من الأيام والشهور والسنين علىٰ آختلاف الأمم فيها، وتفاصيل أجزائها، والطرق الموصِّلة إليها، ومعرفة أعياد الأمم . وفيه أربعة أطراف

الطرف الأوّل
(فى الأيام ، وفيــه ست جمل)

الجمــــلة الأولىٰ
(فى مدلول اليوم ومعناه، و بيان آبتداء الليل والنهار)

وقد آختلفَ الناس فى مدلول اليوم علىٰ مذهبين .

المذهب الأوّل (وهو مذهب أهل الهيئة) ـ أنّ اليوم عبارة عن زمانٍ جامعٍ لليل والنهــار ، مدّتُه ما بين مفارقة الشمس نصفَ دائرة عظيمة ثابتــةِ الموضع بالحركة الأولىٰ إلىٰ عودها إلىٰ ذلك النصف بعينه ، وأظهر هذه الدوائر الأفق وفلكُ نصف النهار . والحُذَّاق من المنجِّمين يُؤْثِرون فلكَ نصفِ النهار علىٰ الأفُق بسهولة تحصل بذلك فى بعض أعمــالهم ؛ لأن آختلاف دَوَائره فى سائر الأوقات آختلافٌ واحد ؛ وبعضهم يُؤْثرآســتعمال الأفُق : لأن الطلوع منه والغروب فيه أظهرُ للعِيان ، وهو الموافق لمــا نحن فيه .

ثم منهم مَنْ يقــدّم الليل فيفتتح اليومَ بغروب الشمس ويختم بغروبها من اليوم القابل ،وعلىٰ ذلك عمل المسلمين وأهلِ الكِتاب ،وهو مذهب العرب : لأن شهورهم مبنية علىٰ مسير القمر، وأوائلها مقدّرة برؤية الهلال .

ومنهم من يقدّم النهار على الليل فيفْتتح اليومَ بطلوع الشمس ويختِمُ بطلوعها من اليوم القابل، وهو مذهبُ الروم والفُرْس .

ويحكىٰ أن الاسكندر سأل بعضَ الحكماء عن الليـل والنهار أيُّهما قبـل صاحبه فقال : هما فى دائرة واحدة، والدائرة لا يُعْلَم لها أوّلٌ ولا آخر، ولا أعلىٰ ولا أسفَلُ .

المذهب الثانى (وهو مذهب الفقهاء) ــ أن اليوم عبارة عن النهار دُونَ الليل حتّى لو قال لزوجته أنت طالق يومَ يقدَمُ فلان فقدِم ليلا لم يقع الطلاقُ علىٰ الصحيح . ثم القائلون بذلك نظروا إلىٰ الليل والنهار باعتبارين : طبيعىّ وشرعىّ .

أما الطبيعىّ فالليل من لَدُنْ غروبِ الشمسِ وآستتارها بحَدَبة الأرض إلىٰ طلوعها وظهورها من الأفق، والنهار من طلوع نصفِ قُرْص الشمس من المشْرق إلىٰ غيبوبة نصفها فى الأُفُق فى المغرب، وسائر الأمم يستعملونه كذلك .

وأما الشرعىّ ــ فالليل من غروب الشمس إلىٰ طلوع الفجر الثانى، وهو المراد بالخيط الأبيض من قوله تعالىٰ : ﴿حتّى يَتَبَـيَّنَ لَكُم الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسودِ مِنَ الفَجْرِ﴾ والنهار من الفجر الثانى إلىٰ غروب الشمس ، وبذلك تتعلق الأحكامُ الشرعية من الصوم والصلاة وغيرهما .

وآعلم أن الشمس فى الليـل تكون غائبةً تحت الأرض، فإذا قَرُبتْ منا فى حال غيبتها أحسَسْنا بضيائها المحيط[(١)] بظل الأرض الذى هو الليـل ، وهذا الضياء طليعةٌ أمامَها يطلعُ، فى السَّحَر بياضٌ مستطيل مستدِقٌّ الأعلىٰ، وهو الفجر الكاذب إذ لا حكم له فى الشريعة ، ويُشَبَّه بذَنَب السِّرحان لآنتصابه وآستطالته ودِقَّته ، ويبقىٰ مدّة ثم يزداد هـذا الضوء إلىٰ أن يأخذ طُولا وعَرْضًا وينبسط فى عَرْض الأُفُق، وهو الفجر الثانى ويسمّى الصادق ، وعليـه تترتب جميعُ الأحكام الشرعية المتعلقةِ

(١) لعله المحجوب بظل الارض كما يفيده المقام .

بالفَجْر، وبعده يحمرّ الأفق لاقتراب الشمس وسُطُوع ضيائها على المدوّرات الغربية من الأرض، ويتبعه الطلوع؛ وعند غُرُوبها ينعكس الحكمُ فى الترتيب المتقدّم فيبقى الأُفُق محمرّا من جهة المغرب بعدَ الغروب، ثم تزول الحُمْرة ويبقى البَياضُ الذى هو نظير الفجر الصادق، وبالحمرة حكم صلاة العشاء عند الشافعية، وبالبياض حكمُها عند الحنفيـة؛ ثم يزداد البياض ضعفا شيئا فشيئا إلى أن يغيب، ثم يتبعه البياض المستطيل المنتصب نظير الفجر الكاذِب مدّة من الليل ثم يذهب؛ وهذا لا حكم له فى الشرعيات . والهند لا يَعُدُّون الفجرَ ولا الشَّفَق من الليـل ولا من النهار، ويجعلونهما قِسْما مستقلا وهذا فى غاية البُعْد لأن الله تعالى قسم الزمان إلى ليل ونهار ولم يذكر معهما سواهما .

الجمـــلة الثانية

(فى آختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان والآستواء باختلاف الأمكنة)

واعلم أن البلاد والنواحى على قسمين :

القســـم الأوّل

(ما يستوى فيه الليل والنهار أبدًا، لا يختلفان بزيادة ولا نُقْصانٍ)

وذلك فى البلاد التى لا عَرْضَ لهـا . وهى مامرّ عليـه خط الآستواء؛ والعلة فى التَّساوى هى أن أصحاب الهيئة لما توهموا أن بين قُطْبَىْ فلك البُروج دائرةً عظمى تَقْسِم سطحَ السماء نصفين على السَّواء وسَمَّوْها دائرة معدّل النهار، توهموا أيضا فى موازاتها دائرة أُخرى تقسم سطحَ الارض نصفيْنِ وسَمَّوْها دائرة الآستواء، وخط الآستواء؛ وكل بلد يمرّ عليه هذا الخط لاعَرْض له : وذلك لآنقسام الكرة فيه وطلوع

الشمسِ أبدا علىٰ رءُوس ساكنيه ، وميلها فى ناحيتى الشمال والجنوب بقدْر واحد، ودوائر الأوقات تقطع جميع الدوائر الموازية لدائرة معدّل النهار بنصــفين نصفين ، فيكون قوس النهار : وهو الزمان الذى من طلوع الشمس إلىٰ غروبها مساويا لقوس الليل : وهو الزمان الذى من غروب الشمس إلىٰ طلوعها فيكون الليل والنهار متساويين أبدا فى هذه المواضع فى جميع السنة .

القســـم الثـانى

(ما يختلف فيه الليل والنهار فى السنة بالاستواء والزيادة والنُّقْصانِ، وهى البلاد ذواتُ العُروض)

والعلّةُ فى الزيادة والنُّقصان أن المواضع التى تميــل عن خَطِّ الاستواء إلىٰ الشمال تميــل فى كل موضع منها دائرةُ معدّل النهــار إلىٰ الجَنُوب وتنحطُّ الشمسُ ويرتفعُ القطب الشمالىُّ من الأفُق ويصير للبلد عَرْض بحسب ذلك الارتفاع ، وبقَدْر بُعْـده عن الخَطِّ . وإذا مالت الدائرة قطعت الآفاق كلَّ دائرة من الدوائر الموازية لهــا بقطعتين مختلفتين، فيكون ما فوق الأرض من قسمَيْها أعظمَ من الذى تحتها : لأن القطب لمــا ارتفع ارتفعت الدوائر الشمالية فظهر من كل واحدة أكثرُ من نصــفها وانحط مَدارُ الشمس عن سَمْت الرأس إلىٰ جهة الجنوب فبَعُد مَشْرِقُ الصــيف عن مَشْرِق الشــتاء فطال النهار وقَصُرا لليل، وكلمــا زاد ارتفاعُ القطب فى الاقاليم زاد الاختلاف الذى هو بين هــذه القِطَع إلىٰ أن تكون نهــايةُ الأطوال حيث يكون ارتفاع القطب اثنتَىْ عشرةَ درجةً ونصفًا وربعًــا وهو أوّل المعمور، اثنتَىْ عشرةَ ساعةً ونصفا وربعا، وحيث يكون ارتفاعهُ تسعا وعشرين درجةً وهو آخر الإقليم الثـانى ، ثلاثَ عشْرةَ ساعةً ونصفا وربعا، وحيث يكون ارتفاعه ثلاثا

وثلاثين درجةً ونصفًا وهو آخر الإقليم الثالث أربعَ عشرةَ ساعةً وربعا ؛ وحيث يكون آرتفاعه تِسعا وثلاثينَ درجةً وهو آخر الإقليم الرابع أربعَ عشرةَ ساعة ونصفا وربعا؛ وحيث يكون آرتفاعه ثلاثا وأربعين درجةً ونصفا وهو آخر الإقليم الخامس خَمْس عَشْرَةَ ساعة ورُبعا، وحيث يكون آرتفاعهُ سبعا وأربعين درجةً وهو آخر الأقليم السادس خمس عَشْرَةَ ساعة ونصفا وربعا ، وحيث يكون آرتفاعه خمسين درجة وهو آخر الإقليم السابع ست عشرة ساعة وربعا .

ولا يزال آختلاف مَطَالع البروج يزداد بالإمعان فى الشمال ويتسعُ شَرْقَا المنقلَبَيْنِ ويتقاربان مع مَغْرِبيهما إلىٰ أن يلتَقِيا فى العَرْض المُساوى لتمام المَيْل الأعظم : وهو حيث يكون آرتفاع القُطْب سِتًّا وستين درجةً. وفى هذا الموضع يكون قطبُ فلك البروج فى دَوْره يمرّ علىٰ سمت الرؤوس ، ويكون أوّل السَّرطان فقط ظاهرا فوق الأرض أبدا، ومَدَار أوّل الجَدْى فقط غائبا أبدا . فيكون مقدارُ النهار الأطولِ أربعا وعشرين ساعة لا ليل فيه . ويعرض فى هذه المواضع عند موازاة قُطْب فلك البروج سَمْتَ الرؤوس أن دائرة فلك البروج تنطبق حينئذ علىٰ دائرة الأفق ، فيكون أوّل الحَمَل فى المشرق، وأوّل الميزان فى المَغْرِب ، وأوّل السَّرطان فى الأفق الشَّمالىّ، وأوّل الجَدْى فى الأفق الجنوبىّ . فإذا صار قطبُ فلك البروج والأفق نصفين وآرتفع النصف الشرقىّ من فلك البروج وآنخفض النصف الغربىّ فيطلُع حينئذ ستةُ بروج دفعةً واحدةً ، وهى من أوّل الجَدْى إلىٰ آخر الجوزاء ؛ وكذلك تغرب الستة الباقية دفعة واحدة . وحيث يكون آرتفاع القطب سبعا وستين درجةً وربعا فهنالك يكون مَدَار مابين النصف من الجوزاء إلىٰ النصف من السَّرطان ظاهرا فوقَ الأرض أبدا، وما بينَ النصف من القَوْس إلىٰ النصف من الجَدْى غائبا أبدا، فيكون مقدار شهر من شهور الصيف نهارا كلَّه لا ليل فيه وشهر من الشتاء ليلا كله لا نهار فيه

والعشرة الأشهرِ الباقيةُ من السنة كلَّ يوم وليلة أربعاً وعشرين ساعةً. وحيث يكون آرتفاع القطب تسعا وستين درجة ونصفا وربعا فهناك يكون مَدَار بُرْجَىِ الجوزاء والسَّرَطان ظاهرا فوق الأرض ، ومدار برجَىِ القوس والجَدْى غائبا تحت الأرض أبدا . ولذلك يكون مقدارُ شهرين من الصيف نهاراً كلّه ، وشهرين من الشتاء ليلا كُلّه . وحيث يكون آرتفاعُ القطب ثلاثا وسبعين درجة يكون ما بين النصف من الثور إلى النصف من الأسـد ظاهرا أبدا والأجزاء(١) النظيرةُ لهـا غائبةً أبدا ، فيكون مقدارُ ثلاثة أشهر من الصيف نهاراً كُلّه ، وثلاثةِ أشهر من الشتاء ليلاً كُلّه . وحيث يكون آرتفاع القطب ثمـانا وسبعين درجة ونصفا فهناك يكون مَدَار الثور والجَوْزاء والسَّرَطان ظاهرا أبدا والبروج النظيرةُ لها غائبة أبدا ، فيكون أربعةُ أشهر من الصيف نهارا كلّه وأربعةُ أشهر من الشتاء ليلاً كُلّه . وحيث يكون آرتفاع القطب أربعا وثمـانين درجةً فهناك يكون مَدَار ما بين النصف من الحَمَل إلى النصف من السُّنْبلة ظاهرا أبدا والبُروج النظيرةُ لهـا غائبةً أبدا فيكون خمسةُ أشهر من الصيف نهاراً كلّه وخمسةُ أشهر من الشتاء ليلا كُلّه .

ومما يعرض فى هذه المواضع التى تقدّم ذكرها أنه إذا كان قطب فلك البروج فى دائرة نصف النهار مما يلى الجَنوبَ كان أوّلُ الحمل فى المَشْرق وأوّلُ الميزان فى المغرب ، وتكون البروج الشماليـةُ ظاهرةً أبدا فوق الأرض والجَنُوبيّـة غائبة تحتها ، وهناك يطلع ماله طلوع من آخر الفلك فيما بين الجَـدْى والسَّرَطان منكوسًا ، فيطلُع الثورُ قبل الحَمَل ، والحملُ قبل الحوت ، والحوتُ قبل الدلو . وكذلك تغرب نظائرها منكوسةً، وحيث يكون آرتفاع القطب تسعين درجة فيصير على سَمْت الرأس فهناك تكون دائرة معـدّل النهار منطبقةً على الأفق أبدا ، ويكون دور الفلك

(١) المراد بها البروج كما يدل عليه بقية العبارة .

رَحَوِيًّا موازيا للأُفُق ويكون نصف السماء الشمالى عن معدّل النهار ظاهرا أبدا فوق الأرض والنصف الجَنُوبِىُّ غائبا تحتها، فلذلك إذا كانت الشمس فى البروج الشمالية كانت طالعة تدور حول الأُفُق ويكون أكثرُ ٱرتفاعها عنه بمقدار مَيْلها عن معدّل النهار، وإذا كانت فى البروج الجنوبية كانت غائبة أبدا فتكون السنة هناك يوما واحدا ستة أشهر ليلا وستة أشهر نهارا، ولا يكون لها طلوع ولا غروب. فظهر من هذا أن حركة الفلك بالنسبة للآفاق إما دُولابِيَّة، وهى فى خط الاستواء؛ وإما حَمَائلية، وهى فى الآفاق المائلة عنه، وإما رَحَوِيَّة: وهى فى المواضع التى ينطبق فيها قطبُ العالَم على سَمْت الرأس فسبحان مَنْ أتقن ما صنع!

الجملة الثالثة

(فى معرفة زيادة الليل والنهار ونقصانهما بتنقُّل الشمس فى البروج)

اِعلم أن للشمس حركتين: سريعةً وبطيئةً.

أما السريعة فحركة فلك الكُلِّ بها فى اليوم والليلة من المَشرِق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق، وتسمّى الحركةَ اليوميَّةَ.

وأما الحركة البطيئة فقطعها فلكَ البروج فى سنة شمسيَّة من الجَنُوب إلى الشَّمال ومن الشَّمال إلى الجَنُوب، ولتَعْلَمْ أن جهة المشرق وجهة المغرب لاتتغيرانِ فى أنفسهما بل جهة المشرِق واحدةٌ وكذلك جهة المغرب، وإن ٱختلفت مطالعهما. قال تعالى ﴿رَبُّ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ﴾ أى جهة الشُّروق وجهة الغُروب فى الجملة، إلا أن الشمس لها غايةٌ ترتفع إليها فى الشَّمال ولتلك الغاية مَشْرِق ومَغْرِب وهو مَشْرِق الصيف ومغربُه، ومطلعها حينئذ بالقُرب من مَطْلَع السِّماك الرامح، ولها غاية تنحطُّ إليها فى الجَنُوب، ولتلك

الغاية أيضا مَشْرِق ومَغْرِب : وهو مشرِق الشتاء ومغربه ، ومطلَعها حينئذ بالقُرْب من مطْلَع بطن العقرب ، وهذان المَشْرِقان والمَغْرِبان هما المراد بقوله تعالىٰ : ﴿ رَبُّ المَشْرِقَيْنِ ورَبُّ المَغْرِبَيْنِ ﴾ وبين هاتين الغـايتين مائة وثمـانون مَشْرِقا ويقابلها مائة وثمانون مَغْرِباً ، ففى كل يوم تطْلُع فى مَطْلَع من المشرق غيرِ الذى تطلُع فيه بالأمس ، وتغرُب فى مغرب غير الذى تغرب فيه بالأمس . وذلك قوله تعالىٰ : ﴿ ربُّ المَشَارِق والمَغَارب ﴾ ونقطةُ الوسط بين هاتين الغايتين : وهى التى يعتدل فيها الليـلُ والنهارُ يُسـمّٰى مَطْلَع الشمس فيها مَشْرِق الآستواء ، ومَغْرِب الأسـتواء ، ومطلعها حينئذ بالقرب من مَطْلَع السماك الأعْزَلِ .

وقد قَسَّم علماء الهيئـة مابين غاية الآرتفاع وغاية الهُبُوط آثنَىْ عشر قِسْما ، قالوا : والمعنىٰ فى ذلك أن الشمس فى المبدإ الأوّل لمـا سارتْ مَسِيرَها الذى جعله الله خاصًّا بها قطعتْ دوْر الفلك التاسع فى ثلثمائة وستين يوما ، وسميت جملةُ هـذه الأيام سنة شمسية ورَسَمت بحركتها هذه فى هذا الفلك دائرةً عُظْمىٰ علىٰ ماتوهَّمه أصحاب الهيئة ، وقسمت هذه الدائرة إلىٰ ثلثمائة وستين جزءا وسَمَّوا كلَّ جزء درجةً ، ثم قسمت هذه الدَّرَج إلىٰ اثنَىْ عشر قسما علىٰ عدد شهور السنة ، وسَمَّوْا كل قسم منها برجاً ، وجعلوا آبتداء الأقسام من نقطة الآعتدال الربيعىّ : لاعتدال الليل والنهار عند مرور الشمس بهذه النقطة ، ووجدوا فى كل قسم من هذه الأقسام نجوما تتشكّل منها صورةٌ من الصُّوَر فسَمَّوْا كلَّ قسم بآسم الصورة التى وجدوها عليه ، وكان القسم الأوّل الذى ابتدؤا به نجوما إذا جُمِـع متفرِّقها تشكلتْ صورةَ حَمَل ، فسمَّوْها بالحمل ، وكذلك البواقى .

قال صاحب "مَنَاهج الفكر" : وذلك فى أوّل ما رَصَدُوا ، وقد آنتقلت الصُّوَر عن أمكنتها علىٰ ما زعموا فصار مكانَ الحمل الثورُ ، وهى تنتقل علىٰ رأى بطليموس فى ثلاثة آلاف سنة وعلىٰ رأى المتأخرين فى ألفَىْ سنة .

إذا علمت ذلك فآعلم أن الدَّوْرة الفلكية فى العُرُوض الشَّماليـة تنقسم إلىٰ ثلثمائة وستين درجة ، كما تقدّمت الإشارة إليه ؛ والسـنةُ ثلثمائة وستون يوما منقسمة علىٰ الآثنى عشرَ برجا المتقدّمِ ذكرها ، لكل برج منها ثلاثُون يوما؛ وتُوزَّع عليها الخمسة أيام والربع يوم ، والليـل والنهار يتعاقبان بالزيادة والنُّقْصان بحسب سير الشمس فى تلك البُروج فما نقص من أحدهما زيد فى الآخَر . وذلك أنها إذا حلَّتْ فى رأس الحَمَل وهى آخذةٌ فى الآرتفاع إلىٰ جهة الشِّمال ، وذلك فى السابع عَشرَ من برمهات من شُهور القبط ، ويوافقه الحادى والعشرون من آذار من شهور السُّرْيان ، وهو مارس من شهور الروم ، والرابع والعشرون من حردادماه من شهور الفرس ، آعتـدل الليلُ والنهار ، فكان كل واحد منهما مائةً وثمانين درجة ؛ وهو أحد الآعتدالين فى السنة ، ويسمّى الآعتـدالَ الربيعىَّ : لوقوعه أوّل زمن الربيع فيزيد النهارُ فيـه فى كل يوم نصفَ درجة ، وينقص الليلُ كذلك ، فتكون زيادةُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجة ، ونقصُ الليـل كذلك ، ويصـير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وتسعين درجةً ، والليل علىٰ مائة وخمس وستين درجةً .

ثم تنقُل إلىٰ الثور فيزيد النهار فيـه كلَّ يوم ثلث درجة ، وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره علىٰ مائتين وخمس درجات ، والليل علىٰ مائة وخمس وخمسين درجةً .

ثم تنتقل إلىٰ الجوزاء فيزيد النهارُ فيها كلَّ يوم سُدْسَ درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيها لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ، ونقص الليـل كذلك ، ويصير النهار آخِرَها علىٰ مائتين وعشر درجات والليل علىٰ مائة وخمسين درجة ، وذلك غاية آرتفاعها فى جهة الشمال . وهذا أطول يوم فى السنة وأقصر ليلة فى السنة .

ويسمّى سيرُ الشمس فى هذه البروج الثلاثة شَمَاليًّا صاعدا : لصعودها فى جهة الشمال .

ثم تنْقُل الشمس إلىٰ السَّرطان وتَكُرّ راجعةً إلىٰ جهـة الجَنُوب، و يسمّى ذلك المُنقلَبَ الصيفىَّ، وذلك فى العشرين من بؤنة من شُهور القبط، و يبقىٰ من حزيران من شهور السُّرْيان، ويونيه من شهور الروم خمسـةُ أيام، وحينئذ يأخُذ الليلُ فى الزيادة والنهارُ فى النقصان، فينقُص النهارُ فيه فى كل يوم سُدُسَ درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقصُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصـير النهارُ بآخره علىٰ مائتين وخمس دجات، والليل علىٰ مائة وخمس وخمسين درجة .

ثم تنقل إلىٰ الأسد فينقُص النهارُ فيـه كل يوم ثُلُثَ درجة، فيكون نقص النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشْرَ درجات، وزيادة الليل كذلك، ويصـير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وتسعين درجةً، والليل علىٰ مائة وخمس وستين درجةً .

ثم تنقل إلىٰ السُّنْبلة فينقص النهار فيها كلَّ يوم نصـفَ درجة، ويزيد الليـل كذلك، فيكون نقصُ النهار فيها لمدّة ثلاثين يوما خمْسَ عَشْرَةَ درجةً، وزيادة الليل كذلك، ويصـير النهار بآخرها على مائة وثمـانين درجة والليـل كذلك، فيستوى الليلُ والنهار . ويسـمّى الاعتدال الخريفىَّ : لوقوعه فى أول الخريف . ويسمى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة شماليا هابطا، لهُبُوطها فى الجهة الشَّمالية .

ثم تنقل إلىٰ الميزان فى الثـامن عشر من توت من شهور القبط، وهى آخذة فى الهُبُوط، والنهار فى النقص والليل فى الزيادة، فينقُص النهار فيه كلَّ يوم نصفَ درجة، ويزيد الليل كذلك، فيكون نقصُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجةً، وزيادة الليل كذلك؛ ويصـير النهار بآخره علىٰ مائة وخمس وستين درجة والليل علىٰ مائة وخمس وتسعين درجةً .

ثم تنقل إلى العَقْرب ، فينقص النهارُ فى كل يوم ثُلُثَ درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقصُ النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات ، وزيادةُ الليل كذلك ؛ ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجة ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى القوس ، فينقص النهار فيه كلَّ يوم سُدُس درجة ، ويزيد الليل كذلك ، فيكون نقص النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ، وزيادة الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمسين درجة ، والليل على مائتين وعشر درجات ، وهو أقصر يوم فى السنة وأطول ليلة فى السنة ؛ وذلك غايةُ هبوطها فى الجهة الجنوبية . ويسمّى سيرُ الشمس فى هذه البروج جَنوبيًّا هابطا ، لهُبُوطها فى الجهة الجنوبية .

ثم تنقل إلى الجَدْى فى السابع عشر من كيهك وتكُرُّ راجعة ، فتأخذ فى الآرتفاع ويأخُذ النهار فى الزيادة والليل فى النقصان ، فيزيد النهار فيه كلَّ يوم سُدُس درجة ، وينقص الليل كذلك ؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ درجات ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وخمسين درجةً ، والليل على مائتين وخمس درجات .

ثم تنقل إلى الدلو ، فيزيد النهار فيه كلَّ يوم ثلثَ درجة ، وينقص الليل كذلك ؛ فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما عشرَ درجات ونقصُ الليل كذلك ، ويصير النهار بآخره على مائة وخمس وستين درجة والليل على مائة وخمس وتسعين درجة .

ثم تنقل إلى الحُوت فيزيد النهار فيه كلَّ يوم نصفَ درجة وينقص الليل كذلك ، فتكون زيادة النهار فيه لمدّة ثلاثين يوما خمسَ عشرةَ درجةً ونقص الليل كذلك ،

و يصير النهار بآخره على مائة وثمانين درجة والليل كذلك، فيستوى الليل والنهار وهو رأس الحمل وقد تقـدّم . ويسـمّى سير الشمس فى هذه البروج الثلاثة جنوبيـا صاعدا : لصعودها فى الجهة الجنوبيّة ؛ وهذا شأنها إلى أن يرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خير الوارثين .

وهـذا العمل إنمـا هو فى مصر وأعمالهـا ؛ فإذا ٱختلفت العُروض كان الامرُ فى الزيادة والنُّقصان بخلاف ذلك والله أعلم .

تنبيه ــ إذا أردت أن تعرف الشمس فى أىّ برج من البُروج وكم قطعَتْ منه فى أىّ وقت شئت فأقرب الطرق فى ذلك أن تعرف الشهر الذى أنت فيه من شهور القبط وتعرف أمسه(١)

الجملة الرابعـــة

(فى بيان ما يعرَف به ٱبتداء الليل والنهار)

وقد تقدّم أن النهار الطبيعىّ أوّله طلوعُ الشمس وآخرُه غروبُها، والنهار الشرعىّ أوّله طلوع الفجر الثـانى وآخره غروب الشمس ؛ فيخالفـه فى الأبتداء ويوافقـه فى الأنتهاء، وطلوع الشمس وغروبها ظاهر يعرفه الخاصّ والعامّ . أما الفجر فإن أمره خفىّ لا يعرفه كلُّ أحد ؛ وقد تقدّم ٱنقسامه إلى كاذب : وهو الأوّل، وصادق : وهو الثانى، وعليه التعويل فى الشرعيات، فيحتاج إلى مُوضِّح يوضِّحـه ويظهره للعِيَان. وقد جعل المنجِّمون وعلماءُ الميقات له نجوما تدلُّ عليه بالطُّلوع والغروب والتوسط، وهى منـازل القمر، وعدّتها ثمـانٌ وعشرون منزلة : وهى الشَّرَطان، والبُطَـيْن، والثُّريَّا، والدَّبَران، والهَقْعـة، والهَنْعـة، والذِّراع، والنَّثْرة، والطَّرْف، والجَبْهـة،

(١) بياض فى الأصل .

والخَرَتَان، والصَّرفة، والعوّاء، والسِّماك، والغفْر، والزُّبانان، والإكليل، والقلْب، والشَّولة، والنَّعائم، والبَلْدة، وسَعْدُ الذابحُ، وسَعْدُ بُلَعَ، وسعدُ السُّعودِ، وسَعدُ الأخبيةِ، والفَرْغُ المقدّم، والفَرْغ المؤخَّر، وبطن الحُوت،

والمعنىٰ فى ذلك أن الشمس إذا قَرُبت من كوكب من الكواكب الثابتة أو المتحركة سترته وأخفته عن العيون، فصار يظهر(١) نهارا ويختفى ليلا ويكون خفاؤه غيبةً له، ولا يزال كذلك خافيا إلىٰ أن تبعُدَ عنه الشمسُ بُعْدا يمكن أن يظهر معه للأبصار وهو عند أوّل طلوع الفجر فإنضوء الشمس يكون ضعيفا حينئذ فلايغلبُ نورَ الكوكب فيُرىٰ الكوكب فى الأفق الشرقىِّ ظاهرا، وحصةُ كل منزلة من هذه المنازل من السنة ثلاثةَ عشرَ يوما وربعَ سبع يوم ونصفَ ثُمُن سبع يوم علىٰ التقريب كما سيأتى(٢) علىٰ المنازل الثمانية والعشرين خص كل منزلة ماذكر من العدد والكسور ولما كان الأمر كذلك جعل لكل منزلة ثلاثة عشر يوما: وهى ثلاث عشرة درجة من درج الفلك وجمع مافضل من الكسور على كل ثلاثة عشر يوما بعد انقضاء أيام المنازل الثمانية والعشرين فكان يوما وربعا فجعل يوما فى المنزلة التى توافق آخر السنة وهى الجبهة فكان حصتها أربعة عشر يوما، وبقى ربع يوم ونُسِئَ أربعَ سنين حتّى صار يوما فزيد علىٰ الجبهة أيضا، فكانت كواكب المنازل المذكورة تطلُع مع الفجر منها أربعة عشر يوما ثلاث سنين وفى السنة الرابعة تطلع بالفجر خمسة عشر يوما.

فأما الشَّرَطان: وهما المنزلةُ الأولىٰ، فأوّل طلوعهما بالفجر فى الثالث والعشرين من برمودة من شهور القبط، وهو الثامن عشر من نَيْسان من شهور السُّرْيان.

وأما البُطَين: وهو المنزلة الثانية فأوّل طلوعه بالفجر فى السادس من بشنس من شهور القبط، وهو أوّل يوم من أيّارمن شهور السُّرْيان.

(١) لعله يختفى نهارا و يظهر ليلا. ومع ذلك بقية العبارة غير واضحة.
(٢) كذا فى الأصل ولعله فان أيام السنة اذا قسمت علىٰ الخ.

وأما الثُّريَّا : وهى المنزلة الثالثة فأوّل طلوعها بالفجر فى التاسع عشر من بشنس من شهور القبط، وهو الرابع عشر من أيار من شهور السُّريان .

وأما الدَّبَران : وهو المنزلة الرابعـة فطلوعها بالفجر فى الثانى من بؤنه من شهور القبط، وهو السادس والعشرون من أيار من شهور السريان .

وأما الهَقْعة : وهى المنزلة الخامسـة، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس عشر من بؤنه من شهور القبط، وهو التاسع من حزيران من شهور السريان .

وأما الهَنْعة : وهى المنزلة السادسـة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وهو الثانى والعشرون من حزيران من شهور السريان .

وأما الذِّراع : وهو المنزلة السابعـة ، فأوّل طلوعه بالفجر فى الحـادى عشر من أبيب من شهور القبط، وهو الخامس من تَمُّوز من شهور السريان .

وأما النَّثْرة : وهى المنزلة الثامنـة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تموز من شهور السُّريان .

وأما الطَّرْف : وهو المنزلة التاسعة، فأوّل طلوعه بالفجر فى السابع من مسرى من شهور القبط : وهو اليوم الآخر من تموز من شهور السُّريان .

وأما الجبهة : وهى المنزلة العاشرة ، فأوّل طلوعها بالفجر فى العشرين من مسرى من شهور القبط، وهو الثالث عشر من آب من شهور السريان .

وأما الخَرَتان : وهو المنزلة الحاديةَ عشرةَ ، فأوّل طلوعه بالفجر فى الرابع من أيام النسىء القبطىّ، وفى السنة الكبيسة فى الخامس منه، وهو السابع والعشرون من آب من شهور السريان .

وأما الصَّرْفة : وهى المنزلة الثانيةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثانى عشر من توت من شهور القبط، وهو التاسع من أيلول من شهور السُّرْيان .

وأما العَوّاء : وهى المنزلة الثالثةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس والعشرين من توت من شهور القبط، وفى الثانى والعشرين من أيلول من شهور السُّرْيان .

وأما السِّماك : وهى المنزلة الرابعةَ عشرةَ ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن من بابه من شهور القبط، وهو الخامس من تشرين الأوّل من شهور السريان .

وأما الغَفْر : وهى المنزلة الخامسةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الحادى والعشرين من بابه من شهور القبط، وهو الثامن عشر من تشرين الأوّل من شهور السُّريان .

وأما الزُّبانانِ : وهما المنزلة السادسةَ عشرةَ، فأوّل طلوعهما بالفجر فى الرابع من هاتور من شهور القبط، وهو آخر يوم من تشرين الاول من شهور السُّريان .

وأما الإكليل : وهو المنزلة السابعةَ عشرةَ ، فأوّل طلوعه بالفجر فى السابع عشرَ من هاتور من شهور القبط، وهو الثالث عشر من تشرين الثانى من شهور السريان .

وأما القَلْب : وهو المنزلةُ الثامنةَ عشرة، فأوّل طلوعه بالفجر فى آخر يوم من هاتور من شهور القبط، وهو السادس والعشرون من تشرين الثانى من شهور السُّريان .

وأما الشَّولة : وهى المنزلة التاسعةَ عشرةَ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثالث عشر من كيهك من شهور القبط، وهو التاسع من كانون الأوّل من شهور السريان .

وأما النَّعائم : وهى المنزلة العشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى السادس والعشرين من كيهك من شهور القبط، وهو الثانى والعشرون من كانون الأوّل من شهور السريان .

وأما البَلْدة : وهى المنزلة الحادية والعشرون، فأوّل طلوعها بالفجر فى التاسع من طوبه من شهور القبط، وهو الرابع من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سعدُ الذابحُ : وهو المنزلة الثانية والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثانى

والعشرين من طوبه من شهور القبط ، وهو السابع عشر من كانون الثانى من شهور السريان .

وأما سَعْدُ بُلَعَ : وهو المنزلة الثالثة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الخامس من أمشير من شهور القبط ، وهو الثلاثون من كانون الآخر من شهور السُّريان .

وأما سَعْدُ السُّعود : وهو المنزلة الرابعة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الثامن عشر من أمشير من شهور القبط ، وهو الثانى عشر من شباط من شهور السُّرْيان .

وأما سَعْدُ الأخبِيةِ : وهو المنزلة الخامســة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر أوّل يوم من برمهات من شهور القبط ، وهو الخـامس والعشرون من شـباط من شُهُور السريان .

وأما الفَرْغ المُقدَّم : وهو المنزلة السادسةُ والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى الرابع عشر من برمهات من شهور القبط ، وهو السابع من آذار من شهور السريان .

وأما الفَرْغ المؤخَّر : وهو المنزلة السابعة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى السابع والعشرين من برمهات من شهور القبط ، وهو الثانى والعشرون من آذار من شهور السريان .

وأما بَطْن الحوت : وهو المنزلة الثامنة والعشرون ، فأوّل طلوعها بالفجر فى العاشر من برموده من شهور القبط ، وهو الخامس من نيسان من شهور السريان .

وقد نظم الشيخ كمال الدين حفيدُ الشيخ أبى عبد الله محمد القرطبى أبياتا ، يعلم منها مَطَالع هذه المنازل بالفجر بحروف رمزها للشهور والأعداد والكواكب ، وربما غَلِط بعض الناس فنسبها إلى الشيخ عبد العزيز الديرينى رحمه الله ، وهى هذه :

تبيص تهكع بحس بكأغ هـدز * هـيزاء هلق كيجش ككون برز

ططب طكبذ أهب أيحس بأخ * بيـدم بكزم بيت بكجش رمز(١)

ولَيْس فيها من الحَشْوات قط سوىٰ * أواخرِ النظم فافهـم شرحها لتعز

وبيانُ ذلك أنّ الحرف الأوّل من كل كلمة ٱسم للشهر الذى تطلُع فيه تلك المنزلةُ والحرفَ الآخرَ منها ٱسمُ المنزلةِ وما بين الآخِر والأوّل عددُ ما مضىٰ من الشهر بحساب الجمَّل، مثال ذلك التاء من تبيص كناية عن توت ، والصاد منها كناية عن الصّرفة ، والياء والباء اللذان بينهما عددهما بالجمَّل ٱثنا عشر، إذ الياء بعشرة والباء باثنين فكأنه قال فى الثـانى عشر من توت تطلُع منزلة الصّرفة بالفجر ، وكذلك البواقى ، إلا أنه لا عبرة بأواخر البيتين، وهى برز فى البيت الأوّل، ورمز فى البيت الثانى .

ونظم الإمام محب الدين جار الله الطبرىّ أبيـاتا كذلك علىٰ شهور السريان ، وهى هذه :

تهس تحيـغ تلز تجىء * توكق كطش كبكن نزول

كدب كويذ كلب شبيس * شـهكح أزيم أبكم ألول

نهـب نحيش أآب * أوكد حطت حبكه ضجول

والحال فى هذه الكلمات من أوائل الأبيات وأواخرها وأوساطها كالحال فى الأبيات المتقدّمة ، فالتاء من تهس إشارة لتشرين الأوّل والسين إشارة للسماك ، والهاء بينهما بخمسة ففى الخامس من تشرين الأوّل يطلُع السماك، وعلىٰ هذا الترتيب فى البواقى .

وٱعلم أن هذه المنازل لا تزال أربعَ عشرةَ منزلة منها ظاهرةً فوق الأرض فى نصف الفلك وأربع عشرة منزلة منها خافيةً تحت الأرض فى نصف الفلك ، وهى مراقبة بعضها لبعض لٱستواء مقادير أبعادها، فإذا طلعت واحدة فى الأفق الشرقىّ غَرَبت واحدة فى الأفق الغربىّ، وكانت أخرىٰ متوسطة فى وسط الفلك فهى كذلك أبدا .

(١) بعده بيت ناقص غير موجود بالاصل وبه تكمل الشهور والمنازل .

والقاعدة فى معرفة ذلك أنك تبتدئ بأية منزلة شئتَ، وتعدّ منها ثمانية من الطالع فالثامنة هى المتوسطة والخامسة عشرة هى الغاربة؛ فإذا كان الطالعُ الشَّرَطين فالمتوسط النَّثْرة والغارب الغَفْر؛ وكذلك فى جميع المنازل؛ وفى مراقبة الطالع منها للغارب يقول بعضُ الشعراء مقيِّدا لهـا علىٰ الترتيب بادئا بطلوع النَّطْح : وهو الشَّرطان وغروب الغفر حينئذ :

كَمْ أمالُوا من ناطِحٍ باغْتفارٍ * وأحالُوا علىٰ البُطَيْن الزُّبانىٰ
والــثُّرَيَّا تكَلَّلت فرأينـا الــ * ـقلْبَ منها يُشَــعِّرُ الدَّبرَانَا
هَقَعُوا شَـوْلَةً وهنعُوا نعامًا * بَعْــدَ ماذَرَّعُوا البِلَادَ زمانا
نَثَرُوا ذَبْحُهُــم بطَرْف بُلَيْع * جَبهةَ السَّعْد فى خَرَات خبانا
فانصرَفْنا وفى المُقَــدَّم عَوّا * آخرا والسِّماكَ مَــدّ رِشانا

وقال آخر :

النَّطْح يَغْفِر والبُطَيْن مُزابِن * ثم الــثُّرَيَّا تبتغى إكْليـــلا
والقَلْب للدَّبَران خِلُّ عاذِر * من أجْل هَقْعةِ شَولةٍ ماقيلا
تَهْوى الهُنَيعةُ للنَّعائم مثلَ ما * يَنْوِى الذِّراع لَبَلْدةٍ ترجيلا
والنَّثْر يَذبح عند طَرْف بُلُوعه * وبجبهة سَــعْدٌ غدا منقولا
ولزُبْرة وسـطَ الخِبَاء إقامةٌ * فاصرِفْ مقدّمَ ذكرها تعجيلا
يهوِى المُؤَخَّرَ إن سِماكُ مَرَّةً * مدّ الرِّشاءَ بِجيــده تنْكيلا

وقد نظم صاحبنا الشيخ إبراهيم الدهشورىّ الشهير بالسهروردىّ أُرجوزةً، ذكر فيها الطالع، ثم الغــارب فى بيت وبعـده المتوسط ثم الوتد وهو الذى يقابله تحت الارض فى بيت ثان ــ قال :

إن طلع الشرطان (١)

بُطَيْنُها نُورَ الزُّبانيْنِ خَلَعْ * فناعِسُ الطَّرْف رمى سعدَ بُلَع
ثُرْيَا مع الإكليلِ بالوَقُودِ * تُنَوِّرُ الجبهةَ فى السُّعُود
والدَّبَرَانُ القَلْب منه يَخْفِقُ * فالخَرَتانُ للخِباء يَطْرُق
وهَقْعةٌ شَوْلتُها مُنْهَزِمهْ * وصَرْفةٌ بفَرْغِها مُقدَّمه
وهَنْعةٌ منها النَّعائِمُ نَفَرتَ * بعَوّة بالفَرْغ قد تأخَّرتْ
رمى الذراعُ بَلْدةً أصابَها * سِماكُ بطنِ الحوتِ ما أصابها
فهذه جملتها مكمَّله * للشمس فى ثلاثَ عشْرَ منْزِله

الجملة الخامسة

(فى ساعات الليل والنهار)

قال أصحاب الهيئة: لما كان الفلك متحرّكا حركاتٍ متعدّدةً يتلُو بعضُها بعضا، جُعِل مقدار كل حركة منها يوما، ولما كانت الشمس فى حركة من هذه الحركات تارةً تكونُ ظاهرة لاهل الرُّبْع المعمور وتارة مستترةً عنهم بحدَبة الأرض، ٱنقسمَ لذلك مقدارُ تلك الحركة إلى الليل والنهار، فالنهار عبارةٌ عن الوقت الذى تظهر فيه الشمْس على ساكنى ذلك الموضِع من المَعْمور، والليل عبارة عن الوقت الذى تخفى عنهم فيه، فإنه يوجد وقتُ الصبح فى موضعٍ وقتَ طلوع الشمس فى موضعٍ آخر. وفى موضع آخَرَ وقت الظهر، وفى موضع آخر وقت المغرب، وفى موضع آخر وقت نصف الليل.

ولما كانت منطقة البروج مقسومةً إلى ٱثنَىْ عشر برجا، وكل برج إلى ثلاثين درجة، وكانت الشمس تقطع هذه المنطقةَ بحركة فلك الكل لها فى زمان اليوم

(١) بياض بالاصل.

الجامع لليل والنهار، قُسِّم كل واحد منهما إلىٰ آثنى عشر جزءا، وجعل قسطُ كل جزء منها خمسَ عشرةَ درجةً، وسمِّى ساعة. ثم لما كان الليل والنهار يزيد أحدهما علىٰ الآخر ويتساويان فى الآعتدالين علىٰ مامرّ، اضطُرَّ إلىٰ أن تكون الساعات نوعين: مستوية، وتسمَّى المعتدلةَ، وزمانيَّـة وتسمَّى المعوجَّة . فالمستوية تختلف أعدادها فى الليل والنهار، وتتفق مقاديرُها بحسب طول النهار وقصره . فإنه إن طال كانت ساعاته أكثر، وان قَصُر كانت ساعاته أقلَّ، مقدارُ كل ساعة منه خمسَ عشرة درجة لاتزيد ولا تنقص، والمعوجة تتفق أعدادُهـا وتختلف مقاديرُها، فإنّ زمانَ النهـار طال أو قصر ينقسم أبدا إلىٰ آثنتىْ عشرةَ ساعة، مقدار كل واحدة منها نصفُ سُدُس الليل والنهار، وهى فى النهار الطويل أطول منها فى القصير . والذى كانت العرب تعرفه من ذلك الزمانيَّةُ دون المستوية، فكانوا يَقْسِمون كلا من الليـل والنهار إلىٰ آثنتىْ عشرةَ ساعةً، ووضعوا لكل ساعة من ساعات الليل والنهار أسمـاءً تخُصُّها .

فأما ساعاتُ الليل فسَمَّوُا الأُولىٰ منها الشاهِدَ، والثانيةَ الغَسَق، والثالثة العَتَمة، والرابعة الفَحْمة، والخامسة المَوْهِن، والسادسة القِطْع، والسابعة الجَوْشَن، والثامنة الهُتْكة، والتاسعة التَّباشير[1]، والحـاديةَ عشرةَ الفجرُ الأوّل، والثانيـةَ عشرةَ الفجر المعـــترض .

وأما النهار فسمَّوُا الساعة الأولىٰ منه الذُّرور، والثانية البُزُوغ، والثالثة الضُّحىٰ، والرابعة الغزَالة، والخامســة الهاجِرَة، والسادسةَ الزَّوال، والسابعة الدُّلُوك، والثامنة العَصْر، والتاسعة الأَصِيل، والعاشرة الصَّبوب، والحاديةَ عشرةَ الحدود[2]، والثانيةَ عشرةَ الغُرُوب .

---

(١) العاشرة غير موجودة فى الاصل . وعد فى نهاية الأرب بعد التباشير الفجر الأوّل ثم الفجر الثانى ثم المعترض وبه تعلم ماهنا (٢) لعل صوابه الحَدُور .

وتروى عنهم على وجه آخر، فيقال فيها : البُكُور، ثم الشُّروق، ثم الإشْراق، ثم الرَّأْد، ثم الضُّحىٰ، ثم المُتُوع، ثم الهاجِرَة، ثم الأَصِيل، ثم العَصْر، ثم الطَّفَل (بتحرك الفاء)، ثم العَشِىّ، ثم الغُروب. ذكرهما ٱبن النحاس فى "صناعة الكتّاب".

قال فى "مناهج الفكر": ويقال إن أوّل من قسم النهار إلى ٱثنتى عشرة ساعة آدمُ عليه السلام، وضَمَّن ذلك وصيةً لٱبنه شيثٍ عليه السلام، وعرَّفه ماوُظِّف عليه كلَّ ساعة من عمل وعبادة والله أعلم.

الجملة السادسة

(فى أيام الأسبوع، وفيها أربعة مَدارك)

المُـدْرَك الأوّل

(فى ٱبتداء خَلْقها وأصل وجودها)

وقد نَطَق القرءان الكريم بذكر ستة أيام منها على الإجمال والتفصيل.

أما الإجمال فقال تعالى: ﴿وهُو الَّذِى خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾.

وأما التفصيل فقوله تعالى: ﴿قل أئنَّكم لتَكْفُرونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فى يَوْمَيْنِ وتَجْعَلُون لَهُ أَنْدادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وبَارَكَ فيها وقَدَّرَ فيهَا أَقْوَاتَهَا فى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً للسَّائِلِينَ ثُمَّ ٱسْتَوىٰ إلى السَّماءِ وهِىَ دُخَانٌ فَقالَ لَهَا ولِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ﴾ والمراد بالأربعة الأولى بما فيها من اليومَيْن المتقدّمين، ومثله فى كلام العرب كثير، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم "إذا نَامَ أَحَدُكُم جاءَ الشَّيْطانُ فَعَقَدَ تَحْتَ رأسه ثَلاثَ عُقَد، فإذا ٱسْتَيْقَظَ فذكر اللهَ تعالى ٱنحلَّتْ عُقْدةٌ، فإذا تَوَضَّأ ٱنحَلَّتْ عُقْدتانِ، فإذا صَلَّى ٱنحلَّتْ الثالثةُ" فالمراد بقوله عقدتان عُقدةٌ والعُقدة الأولى. وقد ظهر بذلك أن

المراد من الآية ستة أيام فقط ، وهو ما ورد به صريحُ الآيات فى غير هذه الآية أن خلقَ السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام، وقد ورد ذلك مبينا فيما رواه ٱبنُ جَرِير من رواية ٱبن عباس رضى الله عنهما "أنَّ اليهودَ أتتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، تسأله عن خَلْق السمٰوات والأرض، فقال خلَق اللهُ الأرضَ يومَ الأحدِ ويومَ الاثْنَيْنِ، وخلقَ الجبالَ يوم الثَّلاثاء وما فيهنّ من منافعَ، وخَلَق يومَ الأربعاء المَدائنَ والشَّجرَ والعُمْران والخرابَ ، فهذه أربعةُ أيَّام، وخلق يومَ الخميس السماء، وخلَقَ يومَ الجمعة النجومَ والشمسَ والقمرَ والملائكةَ إلىٰ ثلاث ساعات بقيَتْ منه؛ وفى الثانية ألقىٰ الآفةَ علىٰ كل شيء مما ينتفع به الناسُ، وفى الثالثة خلق آدم وأسكنه الجنَّةَ وأمر إبليسَ بالسُّجود له ، وأخرجه منها فى آخر ساعة" قالت اليهود، ثم ماذا؟ قال "ثم ٱسْتوىٰ علىٰ العرش" قالوا: أصبت لو أتممت، قالوا : ثم ٱستراح فغضبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم غَضَبا شديدا فنزل ﴿ولقَدْ خَلَقْنا السَّمٰواتِ والأرضَ وما بَيْنَهما فى سِتَّةِ أيَّامٍ وما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ﴾ قال الشيخ عماد الدين بن كثير فى تفسيره: وفيه غرابة ، ولا ذكر فى هذا الحديث ليوم السبت فى أوّل الخلق ولا فى آخره، نعم ثبت فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة رضى الله عنه، أنه قال "أخذَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، بِيَدى فقال خَلَقَ اللهُ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْت ، وخلق فيها الجبالَ يَوْمَ الأحدِ ، وخَلَقَ الشَّجَر يَوْمَ الاثْنينِ ، وخلق المكروه يوم الثّلاثاء ، وخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الأَرْبعاء، وبَثَّ فيها الدَّوابَّ يَومَ الخَميس، وخَلَق آدمَ بعْدَ العَصْر يوم الجُمُعة آخِرَ الخَلْق فى آخِر ساعةٍ من ساعات الجُمُعة، فيما بيْنَ العَصْر إلىٰ اللَّيْل" قال ٱبن كثير وهو من غرائب الصحيح، وعلله البخارىُّ فى تاريخه فقال رواه بعضهم عن أبى هريرة عن كعبِ الأحبارِ، وهو أصح. فقد ورد التصريح فى هذا الحديث بذكر الأيَّام السبعة ووُقوع الخلق فيها . قال أبو جعفر النحاس زعم محمد بن إسحاق أن هذا

الحديث أولىٰ من الحديث الذى قبلَه ، وٱستدلّ بأن الفَرَاغ كان يوم الجُمُعة ، وخالفه غيرُه من العلماء الحُذّاق النُّظّار . وقالوا دليلُه دليلٌ علىٰ خَطَئِه : لأن الخلق فى سِتَّة ايام يومُ الجمعةِ منها كما صح عن النبيّ صلى الله عليه وسلم برواية الجماعة ، فلو لم يدْخل فى الأيام لكان الخَلْقُ فى سبعة ، وهو خلاف ما جاء به التنزيل . علىٰ أن أكثر أهل العلم علىٰ حديث ٱبن عباس ، فتبين أن الآبتداء يومَ الأحد إذ كان الآخِر يومَ الجمعة ، وذلك ستة أيام كما فى التنزيل . قال أبو جعفر : علىٰ أن الحديثين ليسا بمتناقضين ، لأنا إن عملنا علىٰ الآبتداء بالأحد فالخلق فى ستة أيام وليس فى التنزيل أنه لايخلق بعدها شيئا وإن عملنا علىٰ الآبتداء بالسبت فليس فى التنزيل أنه لم يخلق قبلها شيئا .

إذا علمت ذلك فقد حكىٰ أبو جعفر النحاسُ أن مقدار كلّ يوم من أيام خلق السموات والأرض ألفُ سنة من أيام الدُّنيا ، وأنه كان بين ٱبتدائه عز وجل فى خلق ذلك وخَلْق القلَمَ الذى أمره بكتابة كلِّ ما هو كائن إلىٰ قيام الساعة يومٌ : وهو ألف عامٍ ، فصار من ٱبتداء الخلق إلىٰ ٱنتهائه سبعةُ آلاف عام ، وعليه يدل قول ٱبن عباس : إن مدّة إقامة الخَلْق إلىٰ قيام الساعة سبعةُ أيّام كما كان الخلق فى سبعة أيام .

قال أبو جعفر وهذا بابٌ مَدَارُه علىٰ النقل دُونَ الآراء .

المُــــدْرَك الثانى

(فى أسمائها . وقد ٱختُلِف فى ذلك علىٰ ثلاث روايات)

الرواية الأولىٰ ـ مانطَقتْ به العربُ المستعرِبة من ولد إسماعيل عليه السلام وجرىٰ عليه الآستعمال إلىٰ الآن : وهوالأحدُ والاثنان والثّلاثاءُ والأربِعاءُ والخَميس والجُمعة والسَّبْت .

والأصل فى ذلك مارُوِى عن ٱبن عباس رضى الله عنهما أنه قال : "إن اللهَ عز وجلّ خَلقَ يومًا واحدا فسمَّاه الأحَدَ، ثم خلق ثانيًا فسمَّاه الاثنين، ثم خلق ثالثا فسمَّاه الثَّـلاثاءَ، ثم خلق رابعا فسمَّاه الأربعـاءَ، ثم خلق خامسًا فسمَّاه الخميسَ" ولاذكر فى هذه الرواية للجمعة والسبت . وقد ذكرهما اللهُ تعالىٰ فى كتابه العزيز . قال تعالىٰ ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا إذا نُودِىَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ ﴾ وقال جل وعز ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِم شُرَّعًا ﴾ . وسيأتيان فى غير هـذه الرواية عند ذكر الاختلاف فيما ٱبتُدِئ فيه الخَلْق منها .

فالأحدُ بمعنىٰ واحد ويقال بمعنىٰ أوّل ورجحه النحاس ، وهو المطابِق لتسـمية الثانى بالاثنين . والثالث بالثّلاثاء . وقيل أصـله وَحَد بفتح الواو والحاء كما أن أَنَاة أصـلها وَنَاة ، ويجمع فى القِـلَّة علىٰ آحادٍ وأحَدَاتٍ ، وفى الكثرة علىٰ أُحُود وأوحاد (1) ويحكىٰ فى جمعه أُحُد أيضا قال النحاس : كأنه جمع الجمع .

والاثنان بمعنى الثانى . قال النحاس ،وسبيله أن لايثنّى ،وأن يقال فيه : مضت أيامُ الاثنـين إلا أن تقول ذوات قال : وقد حكى البصريُّون الأَثْن والجميع الثُّنِىّ . وقال ٱبن قتيبة فى أدب الكاتب : إن شئت أن تجمعه فكأنه مبنى للواحد قلت أَثَانِينُ . وحكى النحاس مثله عن كتاب الفرّاء فى الأيام وقال : إنمـا يجوز علىٰ حيلة بعيدة ، وهى أن يقال اليوم الاثنانُ فتضُمُّ النونَ فتصير مثل عِمْران فتثنيه وتجمعه علىٰ هـذا . وحكى عن الفراء أيضا فى جمع الكثرة أَثانٍ فتقول مضت أثانٍ مثل أسمـاء وأَسَامٍ قال : وقرأت علىٰ أبى إسحاق فى كتاب سيبويه فيما حكاه اليوُم الثِّنىٰ فتقول علىٰ هذا فى الجمع الأَثْنَاء .

---

(1) لعله إحاد بدليل عبارة النحاس

والثَّلاثاء بمعنى الثالث ، ويجمع علىٰ ثَلاثاوات وحكىٰ الفراء أَثالِثَ . قال النحاس ويجوز أثاليثُ ، وكذا ثَلاثِثُ مثل جمع ثلاثة لأن ألفيَ التأنيث كالهاء . وتقول فيه مضت الثَّلاثاءُ علىٰ تأنيث اللفظ ومضىٰ علىٰ تذكير اليوم ، وكذا فى الجمع تقول مضت ثلاثُ ثَلاثاوات ، وثلاثةُ ثلاثاوات .

والأَرْبِعاء بمعنىٰ الرابع ، ويجمع علىٰ أَرْبِعاوات وكذا أرابِيعُ والياء فيه عوضُ ما حُذِف ، فإن لم تعوّض قلت أَرابع . وأجاز الفراء أربِعَاءات مثل ثلاثاءات ومنعه البصريون للفرق بين ألف التأنيث وغيرها .

والخميس بمعنىٰ الخامس ، ويجمع فى القِلةَّ علىٰ أَخْمِسة . وفى الكثرة علىٰ خُمُس ونُخْمسان كَرُغُف ورُغْفان . ويقال أَخْمِساء كأنصباء ، وحكىٰ عن الفراء فى الكثرة أخامِسُ .

والجمعة (بضم الميم وإسكانها) ومعناها الجمع . وٱختلف فى سبب تسميته بذلك فقال النحاس : لٱجتماع الخلق فيه ، وهذا ظاهر فى أن الٱسم كان بها قديما وقيل لٱجتماع الناس للصلاة فيه . ثم ٱختلف فقيل سميتْ بذلك فى الجاهلية وٱحتُجَّ له بما حكاه أبو هلال العسكرىّ فى كتابه الأوائل أن أوّل من سمّى الجمعة جمعةً كعبُ ٱبنُ لؤىّ جدُّ النبى صلى الله عليه وسلم ، وذلك أنَّه جمع قُرَيشا وخطَبهم فسميت جمعة وكانوا لايعرفون قبلَ ذلك إلا العَروبة . وقيل إنما سميت بذلك فى الإسلام وذلك أن الأنصار قالوا : إن لليهود يوما يجتمعون فيه بعدَ كل ستة أيام ، وللنصارىٰ كذلك فهَلُمُّوا نجعَلْ لنا يوما نجتمع فيه نذكُر الله تعالىٰ ونُصَلِّ ، فقالوا يوم السبتِ لليهود ويوم الأحد للنصارىٰ فٱجعلوا يوم العروبة لنا فٱجتمعوا إلىٰ سعدِ بنِ زُرارة الأنصارىّ فصلّىٰ بهم يومئذ ركعتينِ وذكَّرهم فسمَّوْه يوم الجمعة لٱجتماعهم فيه فأنزل الله تعالىٰ سورةَ الجمعة . علىٰ أن السُّهيْلِيَّ قد قال فى الروض الأُنُف : إن يوم الجمعة كان يسمّى بهذا الٱسم قبل أن يصلِّيَ الأنصارُ الجمعةَ .

أما أوّل جمعة جمّعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما حكاه صاحبُ الأوائل فإنه لمـا قدِم المدينة مهُاجِرا نزل علىٰ بنى عَمْرو بن عوف وأقام عندهم أيّاما ثم خرج يوم الجمعة عائدا إلىٰ المدينة فأدركَتْه الصـلاة فى بنى سالِم بنِ عوف فى بطن وادٍ لهم فخطب وصلّى بهم الجمعةَ . وتجمع علىٰ جُمَع وجُمْعات بالفتح والتسكين (١) .

والسبت ومعناه القطع بمعنىٰ أنه قُطِع فيـه الخَلْق علىٰ رأى مَنْ يرىٰ أن السبت آخِرُ أيام الجمعة، وأنه لاخلْقَ فيه علىٰ ماسيأتى ذكره . وقولُ النحاس إنه مشتقٌّ من الراحة أيضا لاعبرة به لمُضاهاة قول اليهود فيه علىٰ ماسيأتى إنْ شاء الله تعـالىٰ . ويجمع فى القلّة علىٰ أسبُت وسَبَتات بالتحريك، وفى الكثرة علىٰ سُبُوت بضم السين مثل قَرْح وقُرُوح .

الرواية الثـانية ـ مايُروىٰ عن العرب العاربة من بنى قَحْطانَ وجُرْهم الأُولىٰ : وهو أنهم كانوا يُسـمُّون الأحد أوّلَ لأنه أوّلُ أعداد الأيام ويسمُّون الاثنين أَهْوَنَ أخذا من الهَوْن والهُوَينىٰ، وأَوْهَد أيضا أخذا من الوَهْدة : وهى المكان المنخفِض من الأرض لانخفاضه عن اليوم الأوّل فى العدد . ويسمُّون الثّلاثاء جُبَارا (بضم الجيم) لأنه جُبِر به العددُ . ويسمُّون الأربعاء دُبَارا (بضم الدال المهملة) لأنه دَبَر ماجُبِر به العـدد بمعنىٰ أنه جاء دُبُره . ويسـمون الخميس مُؤْنِسا لأنه يُؤْنَس به لبركته . قال النحاس : ولم يزل ذلك أيضا فى الإسلام، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يتبرّك به ولا يُسافر إلا فيه وقال : "اللهُمَّ بارِكْ لِأُمَّتِى فى بُكُورها يَوْمَ خميسها" . ويسمُّون الجمعـة العَرُوبة (بفتح العين مع الألف واللام) وفى لغة شاذّة عَرُوبة بغير ألف ولام مع عدم الصرف، ومعناه اليوم البيِّن أخذا من قولهم أعرب إذا أبانَ، والمراد أنه بيِّنُ العظَمة والشَّرَف، إذ لم يزل معظَّما عند أهل كل ملة وجاء الإسلام فزاده

(١) وجُمُعات أيضا بضمتين . قال فى المصباح كغرفات فى وجوهها .

تعظيما ؛ وقد ثبت فى صحيح مسلم من رواية أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال "خَيْرُ يومٍ طَلَعَتْ عليه الشمسُ يومُ الجمعة، فيه خُلِق آدمُ، وفيه دَخَل الجنَّةَ، وفيه أُخْرِجَ منها" . ويسمُّونه أيضا حَرْبَةَ بمعنىٰ أنه مرتفع عالٍ كالحَرْبة التى هى كالرُّمْح ، كما يقال مِحْراب لآرتفاعه وعلوِّ مكانته ؛ ويسمُّون السبت شَيارًا (بفتح الشين المعجمة وكسرها مع الياء المثناة تحتُ) أخذا من شُرْت الشىء إذا آستخرجْته وأظهرْته من مكانه إمّا بمعنىٰ أنه آستخرج من الأيام التى وقع فيها الخَلْق علىٰ مذهب من يرىٰ أنه آخر أيام الأسبوع وأن آبتداء الخلق الأحدُ وآنتهاءه الجمعةُ، وإما بمعنى أنه ظهر أوّل أيام الجمعة علىٰ مذهب مَنْ يرىٰ أنه أوّل الجمعة وكان ابتداء الخلق فيه ، وإلىٰ هذه الأسماء يشير النابغة بقوله :

أؤمّل أنْ أَعِيشَ وأنَّ يومِى * لِأوّلَ أو لِأَهْوَنَ أو جُبارِ
أو التالى دُبارِ فإن أفُتْه * فمُؤْنِسٍ أو عَرُوبَةَ أو شِيارِ

الرواية الثالثة ـ ماحكاه النحاس عن الضَّحّاك : إن الله تعالىٰ خلق السمٰوات والأرض فى ستة أيّام، ليس منها يوم إلا له آسمٌ أبْجَد هَوَّز حُطِّى كلمن سعَفَص قرشتْ . وقد حكى السهيلى رحمه الله أن الأسماء المتداوَلة بين الناس الآن مرويَّة عن أهل الكتاب، وأن العرب المستعرِبة لما جاورَتْهم أخذتها عنهم ، وأن الناس قبل ذلك لم يكونوا يعرِفون إلا الأسماءَ التى وضعتها العرب العاربةُ : وهى أبجد هَوَّز حُطِّى كلمن سعفص قرشتْ التى خلق الله تعالىٰ فيها سائر المخلوقات : عُلْوِيَّها وسُفْلِيَّها . وهذا يخالف ما تقدّم فى الرواية الثانية عن العرب العاربة . وعلىٰ أنها أسماءٌ للأيام التى وقع فيها الخلق يحتمل أن يكون أبجد آسما للأحد علىٰ مذهب من يرىٰ أن آبتداء الخلق يوم الأحد ويكون السبت لا ذكر له فى هذه الرواية(١) .

---

(١) أسقط الناسخ الآحتمال الثانى وقد ذكره فى الضوء بقوله (ويحتمل أن أبجد اسم للسبت على رأى من يرىٰ أنه ابتدئ فيه الخلق وتكون الجمعة لا ذكر لها) .

المُـــــدْرَك الثـالث

(فى بيان أوّل أيام الأُسبوع، وما كان فيه ٱبتداء الخلق منها .
وقد ٱختلف الناس فى ذلك علىٰ ثلاثة مذاهبَ)

المذهب الأوّل ــ أن أوّل أيام ٱلأسبوع وٱبتداءِ الخلق الأحدُ . وٱحتج لذلك بما تقدّم من حديث ٱبن عباس "أن اليهودَ أتت النبى صلى الله عليه وسلم فسألتْه عن خلق السمٰواتِ والأرض فقـال خلَق اللهُ عز وجلّ الأرضَ يومَ الأحدِ" الحديث وبحديثه الآخر "خلق اللهُ يومًا واحدا فسمّاه الأحَدَ" وإذا كان ابتداء الخلق الأحدَ لزم أن يكون أوّل الأسبوع الأحد .

المذهب الثـانى ــ أن أوّل أيام الأسبوع وٱبتداء الخلق السبتُ . وٱحتج له بحديث أبى هريرة المتقدّم "أخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بيدِى فقال خَلَق اللهُ التُّرْبةَ يومَ السبْت" الحـديثَ ، وإذا كان ٱبتداءُ الخلْق السبتَ لزم أن يكون أوّلُ الأسبوع السبتَ .

المذهب الثـالث ــ أن أوّلَ أيام الأســبوع الأحدُ ، لحديث "خَلَقَ اللهُ يومًا وَاحِدًا فَسَمَّاهُ الأحَدَ ثُمَّ خَلَقَ ثَانِيًا فَسَمَّاهُ الاثْنَـيْنِ" الحـديث . وٱبتداءُ الخلقِ يومَ السبت لحديث أبِى هريرةَ المتقدّمِ . قال النحاس : وهذا أحسنها .

المُـــــدْرَك الرابع

(فى التفاؤلِ بأيام الأســبوع والتطيُّرِ بها وما يُعْزىٰ لكلٍّ منهَا
من خير أو شرٍّ، علىٰ ماهو متداوَل بين الناس)

وٱعلم أنه لاأصل لذلك من الشريعة، ولم يرد فيه نصٌّ من كتاب ولا سنة . وقد وردت القرعةُ عن جعفر الصادق رضى اللهُ عنه فى توزيع الأعمـال علىٰ الأيام: أنه قال : السبت يوم مكْرٍ وخَديعةٍ؛ ويوم الأحد يوم غَرْسٍ وعِمارةٍ؛ ويومُ الاثنين

يوم سفر وتجارة؛ ويوم الثلاثاء يوم إراقة دمٍ وحربٍ ومُكافحَة؛ ويوم الأربعاء يوم أخذٍ وعطاءٍ؛ ويقال يوم نحسٍ مستمرّ؛ ويوم الخميس يومُ دخول على الأمراء وطلَب الحاجات؛ ويوم الجمعة يوم خَلْوة ونكاح . ووجهوا هذه الدعوى بأن قريشا مكَرَتْ فى دار الندوة يوم السبت، وأن الله ابتدأ الخلق يومَ الأحد، وأن شعيبا سافر للتجارةِ يومَ الاثنين، وأن حوّاءَ حاضتْ يوم الثلاثاء، وفيه قتَل قابيلُ هابيلَ أخاهُ، وأن فرعونَ غَرِق هو وقومُه يومَ الأربعاءِ، وفيه أهلك اللهُ عادًا وثمودًا[1]، وأن إبراهيمَ دخل على النُّمرودِ يومَ الخميس، وأن الأنبياءَ عليهم السلامُ كانت تَنْكِحُ وتخطُب يومَ الجمعةِ .

وقد نظم بعض الشعراء هذهِ الاختيارات فى أبياتٍ وإن كان قد خالف الواضعَ فى مواضعَ فقال :

لَنِعْمَ اليومُ يومُ السَّبْتِ حقًّا * لصيدٍ إن أرَدْتَ بِلا امتراءِ
وَفِى الأحَد البِناءُ فإنَّ فيهِ * تَبَدّىٰ اللهُ فِى خَلْقِ السماءِ
وَفِى الإثْنَيْنِ إن سَافرْتَ فيهِ * سَتَرجِعُ بالنجاحِ وبالغناءِ
وَإن تُرِدِ الحِجامَةَ فِى الثَّلاثا * ففى ساعَاتِهِ هَرْقُ الدِّماءِ
وَإنْ شَرِبَ امرُؤٌ منكم دَوَاءً * فَنِعْمَ اليومُ يومُ الأربعَاءِ
وَفِى يوم الخَميس قضَاءُ حَاجٍ * فإنَّ اللهَ يأذَنُ بالقَضاءِ
وَيومَ الجُمْعَةِ التَّزوِيجُ حقًّا * وَلَذّاتُ الرِّجَالِ مَعَ النِّسَاءِ

وسيأتى الكلامُ على ما يتعلق من ذلك بأيامِ الشهرْ فى الكلام على الشُّهورِ فى الفصْلِ السابِع من الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) ثمود يصرف ولا يصرف .

الطرف الثانى

(فى الشّهور، وهى على قسمين : طبيعىّ وٱصطلاحىّ)

القسم الأوّل

(الطّبيعىّ والمراد به القمرىّ)

وهو مدّة مَسِير القمر من حين يفارق الشمسَ إلى حين يفارقها مرة أخرى :

وهى على ضربين :

الضربُ الأوّلُ

(شُهُورُ العَرَب)

والشهرُ العربىُّ عبارة عَمّا بين رؤيةِ الهلال إلى رؤيته ثانيا، وعددُ أيامه تسعةٌ وعِشْرونَ يوما ونصفُ يومٍ على التقريب ، ولما كان هـذا الكسرُ فى العددِ عَسِرًا عدّوا جملةَ الشهرين تسعةً وخمسينَ يوما ، أحدُهما ثلاثونَ وهو التام، والآخر تسعةٌ وعشرونَ وهوَ الناقص . وقد ثبتَ فى صحيح مسلم من حديث أُمِّ سَلَمَةَ رضى اللهُ عنها «أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حَلَفَ لا يدخُل على بعضِ نسائهِ شَهْرًا فلما مضى تِسعةٌ وعشرونَ غَدا عليهِـمْ أو رَاحَ فقيـلَ يا رسولَ الله حلفتَ لا تدخلُ عليهنّ شهرًا فقالَ الشهرُ يكونُ تسعة وعشرينَ» . وذلك بحسب مَسِير النيِّرينِ : الشمْسِ والقمرِ بالمسيرِ الأوسط . أما بالمسير المقوّم فإنه يتفق إذا ٱستكمل الشهرُ برؤيةِ الهلال عِيانا أن يتوالى شهران وثلاثة تامّةً ونتوالى كذلك ناقصةً وعلى ذلك عَمَلُ العربِ واليهود .

ولهمْ فى ٱستعمالهِ طريقتَان .

الطَّرِيقةُ الأولىٰ

(طَرِيقَــةُ العَــرَب)

ومُدّةُ الشهرِ عنـدهُم من رُؤيةِ الهـلالِ إلىٰ رُؤيةِ الهـلالِ، وهى أسهلُ الطُّرُقِ وأقرَبُهَا، وعليها جاء الشَّرْعُ، وبها نطقَ التنزيلُ قال تعالىٰ ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ . وفيها جملتان :

الجمــــلةُ الأولىٰ

(فى أحوالِ الأهِلَّةِ التى عليها مدارُ الشهورِ فى ٱبتدائها وٱنتهائها)

واعلم أن مسيرَ القمرِ مقدَّرٌ بمعرفةِ الشهورِ والسنين قال تعالىٰ ﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْـلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ والشمسُ تُعْطِيـه فى كل ليلةٍ ما يَسْتَضِيءُ بِه نصفُ سُبُعِ قُرْصِهِ حتّٰى يَكْمُلَ ثم تسلبه من الليلة الخامسة عشْرَةَ كلَّ ليلةٍ نصفَ سُبعِ قرصه حتّٰى لا يبقىٰ فيه نورٌ فيستتر . ويروىٰ عن جعفر الصادق رضى اللهُ عنه أنهُ سُئِلَ عن القمرِ فقال : يُمحَق كل ليلةٍ ويُولَدُ جديدا، ويبعدُ مثل هذا عن جعفر الصادق .

إذا علمت ذٰلك فالقمر حركتان : سريعة وبطيئة كما تقدّم فى الشمس .

أما الحركةُ السريعــةُ فحركةُ فلَكِ الكلِّ بِه من المشرق إلىٰ المغرب، ومن المغرِبِ إلىٰ المشرق فى اليومِ والليلةِ .

وٱعلم أن الهلال إذا طلَع مع غُروبِ الشمسِ كان مَغيبُـه علىٰ مضىِّ ستة أسباعِ ساعةٍ من الليلِ، ولا يزال مغيبه يتأخر عن مغيبه فى كل ليلة ماضية هذا المقدارَ حتّٰى يكون مغيبه فى الليلة السابعة نصفَ الليلِ، وفى الليلة الرابعةَ عشرةَ طلوعَ الشمس،

ثم يكون طلوعه فى الليلة الخامسة عشرة على مضىّ ستة أسباع ساعة منها، ولا يزال طلوعه يتأخر عن طلوعه فى كل ليلة ماضية بعد الإبدار هذا المقدار حتّى يكون طلوعه ليلة إحدى وعشرين نصفَ الليل، وطلوعه ليلة ثمان وعشرين مع الغَدَاة .

وإذا أردت أن تعلم على مضىّ كم من الساعات يغيب أو يطلُع من الليـل، فإن أردت المغيب وكان قد مضى من الشهر خمسُ ليال تقديرا فآضربها فى ستة تكون ثلاثين فأسقطها سبعة سبعة يبقى آثنان فيكون مغيبه على مضىّ أربع ساعات وثلاثة(١) أسباع ساعة ، وكذلك العمل فى أىّ ليـلة شئت ؛ وإن أردت الطلوع وكان قد مضى من الإبدار ستُّ ليال مثلا فآضرب ستة فى ستة يكون ستة وثلاثين فأسقطها سبعةً سـبعةً يبقى واحد، فيكون طلوعه على خمس ساعات وسبع ، وكذلك العمل فى أىّ ليلة شئت .

وقد قسمت العرب ليالىَ الشهر بعـد آستهلاله كلَّ ثلاثة أيام قسما وسمتها بآسم فالثلاث الأُوَل منهـا هِلال ، والثلاث الثانية قَمَـر ، والثلاث الثالثة بُهْر، والثلاث الرابعةُ زُهْر (والزَّهَر البياض)، والثلاثُ الخامسة بِيضٌ : لأن الليالى تَبْيَضُّ بطلوع القمر فيها من أوّلهـا إلى آخرها، والثلاث السادسةُ دُرْع : لأن أوائلها تكون سُودا وسائرها بِيضٌ ، والثلاث السابعة ظُلَم، والثلاث الثامنة حَنادِس ، والثلاث التاسعة دَآدِئُ (الواحدة منها دَأْدَأَة على وزن فَعْلَلَة)، والثلاث العاشرة ليلتان منها مِحَاق وليلة سِرَار لإمحاق الشمس القمرَ فيها .

ومنهم من يقول ثلاثُ غُرَر : (وغُرَّة كلِّ شئ أوّله) ، وثلاث شُهُب ، وثلاث زُهْر، وثلاث تُسَـع(٢) : لأن آخر يوم منها اليوم التاسع، وثلاث بُهْر، بُهِر فيها ظلامُ الليل، وثلاثُ بِيض، وثلاث دُرْع ، وثلاث دُهْم وحُم وحَنادِس، وثلاث دَآدِئُ .

ويروى عنهم أنهم يسمُّون ليـلة ثمـانٍ وعشرين الدَّعْجاء، وليـلة تِسْع وعشرين

(١) لعل الصواب وسبعان كما هو واضح (٢) لعل هذه الثلاثة قبل التى قبلها بدليل التعليل .

الدَّهْماء، وليلة ثلاثين اللَّيْلاء، وهم يقولون فى أسجاعهم : القمر ٱبن ليله، رَضاعُ سُخَيله، حَلَّ أهلُها بِرُمَيْله؛ وٱبن ليلتين حديثُ أَمَتَين، كَذِبٌ ومَيْن؛ وٱبن ثلاث، قليل اللَّبَاث؛ وٱبن أربع، عَتَمة أمّ رُبَع، لاجائع ولامُرْضَع؛ وٱبن خمس، حديثٌ وأُنْس، وعَشَاء خَلِفات قُعْس؛ وابن سِتّ، سِرْ وبِتّ؛ وٱبن سبع، دُلْجَة ضَبْع، وحديثٌ وجَمْع؛ وابن ثمان، قمرٌ إضْحِيَان؛ وٱبن تسع، مَحْذُوُّ النِّسْع، ويقال الشِّسْع؛ وٱبن عَشْر، مُخَنِق الفَجْر، وثُلُثُ الشَّهر .

هذا هو المحفوظ عن العرب فى كثير من الكتب .

قال صاحب مناهج الفكر : وعثرت فى بعض المجاميع علىٰ زيادة إلىٰ آخر الشهر، وكأنها والله أعلم مصنوعه، وهى علىٰ ألسنة العرب موضوعه، وهى : وٱبن إحدىٰ عشره، يُرىٰ عِشاءً ويرىٰ بُكْره، وٱبن ٱثنتى عشرة، مُرْهق البشر بالبَدْو والحَضَر[(١)]، وٱبن ثلاث عشرة، قمر باهِرْ، يُعْشِى الناظر، وٱبن أربع عشرة مُقْبِل الشباب؛ مضيءُ دُجُنَّات السَّحاب؛ وٱبن خمس عشرة تَمَّ التمام، ونَفِدَت الأيَّام، وٱبن ستّ عشرةَ نَقَص الخلْق، فى الغَرْب والشَّرق، وٱبن سبع عشرة، أمْكَنتِ المُقْتفرَ القفرة، وٱبن ثَمانَ عَشرةَ قليلُ البقاء، سريع الفَناء؛ وٱبن تِسعَ عَشرةَ بَطِىء الطُّلوع، سَريعُ الخُشُوع؛ وابن عشرين يَطْلُع سُحْره، ويَغيبُ بُكْره؛ وٱبن إحدىٰ وعشرين كالقَبَس، يَطْلُع فى الغَلَس؛ وٱبن ٱثنتين وعشرين يُطيل السُّرىٰ، رَيْثَما يُرىٰ؛ وٱبن ثلاثٍ وعشرين يُرىٰ فى ظُلْمة الليال، لا قمرٌ ولا هِلَال؛ وٱبن خمس وعشرين دنا الأجَلْ، وٱنقطع الأَمَل؛ وٱبن ست وعشرين دَنَا مادَنَا، فما يُرىٰ إلّا سَنا، وٱبن سبع وعشرين يَسْبِقُ الشمسَ، ولا يُرىٰ له حسّ، وٱبن ثمانٍ وعشرين ضَئيل صَغير لايراه إلا البَصير .

(١) فى بعض الروايات . للشمس . . . والحضره

واما حركته البطيئة ، فحركته من جهة الشّمال إلىٰ جهــة الجَنُوب ، ومن جهة الجَنُوب إلىٰ جهــة الشمال وتنقله فى المنازل الثمــانية وعشرين فى ثمــانية وعشرين يوما بلياليها كالشمس فى البروج قال تعالىٰ ﴿ والقَمَرَ قَدَّرْناه مَنازِلَ حَتّىٰ عاد كالعُرْجُون القَدِيمِ ﴾ فما تقطعه الشمس من الشمال إلىٰ الجَنُوب و بالعكس فى جميع السنة يقطعه القمر فى ثمــانية وعشرين يوما . والمنازل للقمر كالبُرُوج للشَّمس ؛ وذلك أنه لمــا آتصل إلىٰ العرب ماحققه القُدماء برَصْدِهم من الكواكب الثابتة ، وكان لاغِنًى لهم عن مَعْرفة كواكِبَ تُرشِدُهم إلىٰ العِلْم بفصول السنة وأزمنتها ، رصــدوا كواكبَ وآمتحنوها ، ولم يستعملوا صُوَر البروج علىٰ حقيقتها : لأنهم قَسَّموا فلك الكواكب علىٰ مقدار الأيام التى يقطعه القمر فيها ، وهى ثمــانيةٌ وعشرون يوما ، وطلبوا فى كل قسم منها علامَةً تكون أبعادُ ما بينها و بين العــلامة الأُخْرىٰ مقدارَ مسير القمر فى يوم وليلة ، وسَمَّوْها منزلة إلىٰ أن تحقق لهم ثمــانية وعشرون علىٰ ما تقدم ذكره فى الكلام علىٰ طلوعها بالفجر : لأن القــمر إذا سار سـيْرَه الوسطَ آنْتَهىٰ فى اليوم التاسع والعشرين إلىٰ المِحَاق الذى بدأ منه ، فحَذَفت المتكرّرَ ، فبقىَ ثمــانية وعشرين و يزاد بالشَّرطين : لأن كواكبه من جملة كواكب الحَمَل ، الذي هو أوّل البُرُوج .

ثم هٰذه المنازل علىٰ قسمين : شَمَالىّ وجَنُوبىّ كما فى البروج ، وكل قسم منها أربع عشرة منزلة . فالشمالىُّ منها ما كان طُلُوعه من ناحية الشام ، وتسمّى الشامِيَّة : وهو ما كان منها من نقطة الآعتدال ، التى هى رأس الحمل والميزان صاعدا إلىٰ جهة الشمال ، وهى : الشَّرطان ، والبُطَيْن ، والثُّرَيَّا ، والدَّبرانُ ، والهَقْعة ، والهَنْعة ، والذِّراع ، والنَّـثْرة ، والطَّرْف ، والجَبْهة ، والخَرَتان ، والصَّرْفة ، والعوّاء ، والسِّماك . و بطلوعها يطول الليــل و يقصر النهار . والجنوبىّ منها ما كان طُلُوعه من ناحية اليمن وتسمّى اليمــانِيَة : وهو ما كان منها من نقطة الآعتدال المذكور هابطا إلىٰ جهة الجنوب .

وهى : الغَفْر، والزُّبانان، والإكْليل، والقَلْب، والشَّوْلة، والنَّعائم، والبَلْدة، وسَعدُ الذابحُ، وسَعْدُ بُلَعَ، وسَعْدُ السُّعود، وسعدُ الاخبيةِ، والفَرْغُ المقدّم، والفَرْغُ المؤخّر، وبطن الحوت؛ وبطلوعها يقصُر الليل ويطولُ النهار .

ثم المنزلة عند المحققين قِطْعة من الفلك مقدارها رُبْع سُبْع الدور، وهو جزء من ثمانية وعشرين جزءا من الفلك عبارة عن (١) لا عن الكواكب، وإنما الكواكب حدود تَفْرُق بين كل منزلة وأُخْرىٰ، فعُدل بالتسمية إليها وغلبتْ عليها .

ونزول القمر فى هذه المنازل علىٰ ثلاثة أحوال إما فى المَنْزِلة نفْسِها وإما فيما بينها وبين التى تليها وإما محاذياً لهـا خارجًا عن السمت شمَـالا أو جَنُوبا . وقد تقـدّم الكلام علىٰ عُدُول القمر عن بعض المنازل ونزوله فى غيرها .

ولتَعْلَمْ أن المنازل مقسومةٌ علىٰ البروج الاثنَىْ عَشَر موزعةٌ عليها : فالشَّرَطان والبُطَين وثلثُ الثريا للحَمَل ، وثلثا الثُّريَّا والدَّبَرانُ وثلثـا الهَقْعة للثّور، وثلثُ الهَقْعة والهَنْعـةُ والذِّراع للجَوْزاء ، والنَّثرةُ والطَّرْف وثلُث الجَبْهة للسَّرَطان ، وثلثـا الجبهة والخَرَتان وثلثـا الصَّرفة للأَسـد ، وثلث الصَّرفة والعوَّاءُ والسِّماكُ للسُّنْبُلة ؛ والغَـفْر والزُّبانان وثُلُث الإكليل للميزان، وثلثا الإكليل والقلبُ وثلثا الشولة للعقرب؛ وثلث الشولةِ والنعائم والبلدة للقَوْس، وسعدُ الذابح وسعدُ بُلَعَ وثلث سعد السعود للجَدْى(٢)، وثلث الفرغ المقدّم والفرغ المؤخر وبطن الحوت للحوت .

إذا علمت ذلك فإذا أردت أن تعرف القمرَ فى أىّ منزلة هو أوكَمْ مضىٰ له فيها من الأيام ، فخذ ما مضىٰ من سنة القبط شهورا كانت أو أياما أو شهورا وأياما

(١) بياض بالاصل .

(٢) يظهر أن فيه سقطا هو [وثلثا سعد السعود وسعد الأخبية وثلثا الفرغ المقدم للدلو] .

وآبسُطْها أياما ، وأضف إلىٰ ما حصـل من ذلك يومين ، ثم آطرح المجموع ثلاثةَ عشَرَ ثلاثةَ عشَرَ، وهو عدد لُبْث القمر فى كل منزلة من الأيام ، وآجعـل أوّل كل منزلة من العدد الخرتان، فما بقى من الأيام دون الثلاثة عشر فهو عدد مامضىٰ من المنزلة التى آنتهى العدد إليها .

مثال ذلك أن يمضىَ من سَـنَة القبط شهر توت وأربعـة أيام من بابه فتبسطها أياما تكون أربعة وثلاثين يوما فتضيف إليها يومين تصير ستة وثلاثين يوما فاطرح منها ثلاثة عشر مرتين بستة وعشرين للخرتان منها ثلاثة عشر وللصَّرْفة ثلاثة عشر تبقىٰ عشرة، وهى مامضىٰ من المنزلة الثالثة وهى العوّاء .

وإن أردت أن تعرف فى أىّ برج هو فاحسُبْ كم مضٰى من الشهر العربىّ يوما وزد عليه مثله ثم زد علىٰ الجملة خمسةً وأعط لكل برج خمسة وآبدأ من البرج الذى فيه الشمس فأعط لكل برج خمسة فأينما نَفِد حسابُك فالقمر فى ذلك البرج، والآعتماد فى ذلك علىٰ كم مضٰى من الشهر العربىّ بالحساب دون الرؤية والله أعلم .

الجمـــلة الثـانية

(فى أسمـائها : وفيها روايتـان)

الرواية الأولىٰ ـ مانطقت به العرب المستعرِبة،وجرىٰ عليه الآستعمال إلىٰ الآنَ وقد نطق القرءان الكريم بِصِدْقها قال تعالىٰ : ﴿ إنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللهِ آثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فى كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرْضَ﴾ والمراد شهور العرب الذين نزل القرءان بلغتهم ، ومدارها الأهلَّة سواء جاء الشهر ثلاثين أو تسـعةً وعشرين . الشهر الأول منها المحرّم، سمّى بذلك لأنهم كانوا يحرّمون فيه القتالَ، ويجمع علىٰ مُحرَّمات ومَحَارِم ومَحَاريم . الشهر الثانى صَفَر، سمى بذلك لأنهم كانوا يُغيرون فيه علىٰ بلاد يقال لهـا

الصَّفَرِيَّة ، ويجمع على صَفَرَات وأصْفار وصُفُور وصِفَار. الشهر الثالث ربيع الأوّل سمى بذلك لأنهم كانوا يُحَصِّلون فيه ما أصابوه فى صَفَرَ . والرَّبيع فى اللغة الخِصْب ، وقيل لآرتباعهم فيه . قال النحاس والأول أولى بالصواب ، ويقال فى التثنية رَبِيعان الأوّلان وفى الجمع رَبِيعات الأوّلاتُ . ومن شرط فيه إضافة شهر قال فى التثنية شهرا ربيع الأوّلان وفى الجمع شَهَرات ربيع الأوّلات والأوائل ، وإن شئت قلت فى القليل أشهر وفى الكثير شهور ، وحكى عن قطرب الأَرْبِعة الأوائل ، وعن غيره رُبُعٌ الأوائلُ . الشهر الرابع ربيع الآخر ــ والكلام فى تسميته وتثنيته وجمعه كالكلام فى رَبيع الأوّل . الشهر الخامس جمادى الأولى ، سمى بذلك لجمود الماء فيه : لأن الوقت الذى سمِّى فيه بذلك كان الماء فيه جامدًا لشدّة البَرْد ، ويقال فى التثنية جُمَادَيَان الأُولَيان وفى الجمع جُمادَيات الأُولَيَات . الشهر السادس جمادى الآخرة ــ والكلام فيه تسميةً وتثنيةً وجمعًا كالكلام فى جُمَادى الأولى . الشهر السابع رجب ، سمى بذلك لتعظيمهم له أخذا من الترجيب : وهو التعظيم ، ويجمع على رَجَبات وأرْجاب ، وفى الكثرة على رِجَاب ورُجُوب . الشهر الثامن شَعْبان ، سمى بذلك لتشعُّبهم فيه لكثرة الغارات عقِبَ رَجَب ، وقيل لتشعب العود فى الوقت الذى سمِّى فيه . وقيل لأنه شَعَب بين شهرى رجبَ ورمضانَ ويجمع على شَعْبانات وشعابة (1) على حذف الزوائد ، وحكى الكوفيون شَعَابِين ، قال النحاس وذلك خطأ على قول سيبويه كما لا يجوز عنده فى جمع عُثْمان عثَامِين . الشهر التاسع رمضان ــ سمى بذلك أخْذًا من الرمضاء لأنه وافق وقتُ تسميته زمَنَ الحرّ ، ويجمع على رَمَضانات وحكى الكوفيون رَمَاضِين ، والقول فيه كالقول فى شَعَابِين ، ومَنْ شرط فيه لفظ شهر قال فى التثنية شَهْرا رَمضانَ وفى الجمع شَهْرات رمضانَ وأشْهُر رمضان وشُهور رمضان . الشهر العاشر شوّال سمى بذلك أخذا من شالَتِ الإبل بأذنابها إذا حملت : لكونه أوّل شهور الحج وقيل من

(1) لعله وشعاب . بدون الهاء .

شال يَشُول إذا ٱرتفع : ولذلك كانت الجاهليـة تكْرَه التزويج فيه لمـا فيه من معنىٰ الإشالة والرفع إلىٰ أن جاء الإسلامُ بهَدْم ذلك . قالت عائشةُ رضى الله عنها فيما ثبت فى صحيح مسـلم "تزوَّجَنِى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فى شوّالٍ وبَنىٰ بِى فى شوّالٍ فأىُّ نِسائهِ كان أحظَى عنده مِنِّى" ويجمع علىٰ شوَّالات وشَواوِيل وشَواوِل . الشهر الحادى عشر ذو القِعدة، ويقال بالفتح والكسر، سمِّى بذلك لأنهم كانوا يَقْعُدُون فيه عن القتال لكونه من الأشهر الحرم، ويجمع علىٰ ذَوات القَعدة، وحكى الكوفيون أُولاتُ القَعْدة، وربما قالوا فى الجمع ذات القعدة أيضا . الشهر الثانى عشر ذو الحِجة سمى بذلك لأن الحجَّ فيه، والكلام فى جمعه كالكلام فى ذى القَعْدة . ثم من الأشهر المذكورة أربعة أشهر حُرُم كما قال تعالىٰ : ﴿ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ﴾ وقد أجمعت العلمـاء علىٰ أن الأربعة المذكورة هى رَجَب وذُو القَعدة وذو الحِجّة والمحرَّم . وقد ٱختلف فى الابتداء بعـددها فذهب أهـل المدينة إلىٰ أنه يُبْتدأ بذى القَعدة فيقال ذو القَعدة وذو الحِجَّة والمحرمُ ورجَب ، ويحتجُّون علىٰ ذلك بأنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم عدّها فى خُطْبة حجَّة الوَداع كذلك فقال "السَّنَةُ ٱثنا عَشرَ شَهْرا ، منها أربعةٌ حُرُم ، ثلاثةٌ مُتَوالِياتٌ وواحِدٌ فَرْدٌ : ذُوالقَعْدة وذُو الحِجَّة والمحرَّم ورَجَب" وٱختاره أبوجعفر النحاس . وذهب أهل الكوفة إلىٰ أنه يبتدأُ بالمحرَّم فيقال المحرّم ورجب وذُو القَعْدة وذو الحِجَّة : ليأتوا بها من سنة واحدة وإليه ميلُ الكُتَّاب . قال النحاس : ولا حُجَّةَ لهم فيه لأنه إذا عُلِم أن المقصود ذكرها فى كل سنة فكيف يتوهم أنها من سنتين . وكانت العربُ فى الجاهلية مع ماهم عليه من الضَّـلال والكُفْر يعظِّمون هذه الأشهرَ ويحرّمون القتالَ فيها حتّى لولقِىَ الرجلُ فيها قاتلَ أبيه لم يهِجْه، إلىٰ أن حَدَث فيهم النسىءُ فكانوا يُنْسِئُون المحرّم فيؤخرونه إلىٰ صَـفَر فيحرّمونه مكانه ويُنْسِئُون رجبًـا فيؤخِّرونه إلىٰ شَعْبان فيحرّمونه مكانَه ليستبيحوا القتال فى الأشهر الحرم .

وآعلم أنه يجوز أن يُضاف لفظُ شهر إلى جميع الأشهر فيقال شَهْر المحرمِ، وشهرُ صَفَر، وشهر ربيع الأوّل وكذا فى البواقى . على أنَّ منها ثلاثةَ أشهر لم تكد العرب تنطِقُ بها إلا مضافةً إليها، وهى شهرا ربيع وشهر رمضان؛ ويؤيد ذلك فى رمضان ما ورد به القرءان من إضافته قال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرْءانُ ﴾ وقد روى عثمان بن الأسود عن مجاهد أنه قال "لاتقُلْ رمضانُ ولكنِ قل كما قال الله عز وجل شَهرُ رمضان فإنك لا تدرى ما رمضان" وعن عطاء نحوه وأنه قال لعلَّ رمضانَ آسمٌ من أسماء الله تعالى، لكن قد ثبت فى الصحيحين من رواية أبى هريرة رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال "إذا جاء رمضانُ أُغْلِقَتِ النِّيرانُ وصُفِّدَتِ الشَّياطِينُ" الحديث . وهذا صريح فى جواز تعريته عن الإضافة .

وقد آختلف الناس فى ذلك على ثلاثة مذاهبَ أصحها أنه يجوز تعريته عن لفظ شهر مطلقا ، سواء قامت قرينة أم لا فيقال جاء رمضان وصُمتُ رمَضانَ، وما أشبه ذلك وهو مارجَّحه النووىّ فى شرح مسلم . والثانى المنعُ مطلقا، والثالث إن حَفَّت قرينة تدلُّ على الشهر كما فى قوله صُمتُ رمضان فقد جازت التعرية ، وإن لم تَحُفَّ قرينة لم تجُزْ؛ وزاد بعضهم فيما يضاف إليه لفظ شهر رَجبٌ أيضا . وقال كل شهر فى أوّله حرف راء فلا يقال إلا بالإضافة . ويقال فى المحرَّم أيضا شهر الله المحرَّم ويقال فى الربيعين ربيع الأوَّل وربيع الآخِر وفى الجُمادَيْينِ جُمادى الأولى وجُمادى الآخِرة . قال آبن مكىّ : ولا يقال جمادى الأوّل بالتذكير وجوّزه فى كلامه على "تثقيف اللسان"

قال النحاس وإنما قالوا ربيع الآخِر وجمادَى الآخِرة ولم يقولوا ربيع الثانى وجمادى الثانية كما قالوا السنة الأولى والسنة الثانية : لأنه إنما يقال الثانى والثانية لما له ثالث وثالثة ، ولما لم يكن لهذين ثالثٌ ولا ثالثةٌ قيل فيهما الآخِر والآخِرةُ

كما قيل الدنيا والآخرة، على أن أكثر استعمال أهل الغرب على ربيعٍ الثانى وجمادى الثانية . ويقال فى رجب الفَرْدُ : لانفراده عن بقية الأشهر الحُرُم، ويقال فيه أيضا رجبُ مُضَرَ الذى بين جُمَادى وشَعْبان، ويقال فى شَعْبان المكرَّم لتكرمته وعلوّ قدره، وفى رمضان المُعظَّم والمعظم قدرُه : لعظمته وشرفه، وفى شوّال المُبارَك : للفرق بينه وبين شعبان خشيةَ الالتباس فى الكتابة، ويقـال فى كلٍّ من ذى القَعدة وذى الحِجَّة الحَرَام . قال النحاس وقد جاء فى ذى الحجة أيضا الأَصَمُّ، وروى فيه حديثا بسنده من رواية مُرَّة الهَمْدانى عن رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم قال: "قامَ فينا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خطيباً على ناقةٍ حمراءَ مُخَضْرَمةٍ(١)، فقال : أتَدْرُونَ أىُّ يومٍ يومُكم هذا ؟ قلنا : يومُ النحْر قال : صدَقْتُم يومُ الحجِّ الأكبرِ، أتَدْرُونَ أىُّ شَهْرٍ شهرُكُم هذا؟ قلنا : ذو الحِجَّة قال: صدَقْتُم شَهْرُ الله الأَصَمُّ .

الرواية الثانية ـ ما رُوِى عن العرب العاربة، وهو أنهم كانوا يقولون فى المحرّم المُؤْتَمِر : أخْذا من أَمِرَ القومُ إذا كثُروا بمعنى أنهم يحرّمون فيه القتالَ فيكثُرون . وقيل أخْذا من الائتمار بمعنى أنه يؤتَمـر فيه بترك الحرب، ويجمع على مؤتَمِرات ومآمِرَ ومآمِيرَ . ويقولون فى صفر ناجِر إما من النَّجْر والنِّجار (بفتح النون وكسرها) الأصلِ، بمعنى أنه أصل للحرب : لأنه يبتدأ فيه بعد المحرّم، وإما من النَّجْر وهو السَّوْق الشديد . لشدّة سَوْقهم الخيلَ إلى الحرب فيه، وإما من النجر، وهو شدّة الحرّ لشدّة حرارة الحرب فيه، ويجمع على نواجر . ويقولون فى شهر ربيع الأوّل خَوّان (بالخاء المعجمة) : لأن الحرب تشتدّ فيه فتخونهم فتَنْقُصهم : ويجمع على خَوّانات وخَوَاوِين وخَوَاوِن . ويقولون فى ربيع الآخِرِ وَبْصـان، أخذا من الوَبِيص وهو البَرِيق : لبَرِيق الحديد فيـه : ويجمع على وَبْصانات، وحكى قطربٌ فيـه بُصّان فيجمع على أَبْصِنةٍ

(١) أى قطع طرف أذنها . قاموس .

وفى الكثرة بِصْنَان . ويقولون لجمادى الأولى حَنِين: لأنهم يحنُّون فيه إلى أوطانهم: لكونه كان يقع فى زمن الربيع، ويجمع على أحِنَّة وحُنُن كرغيف ورُغُف . ويقولون لجمادى الآخرة رُنَّى ورُبَّة : لأنه يجتمع به جماعة من الشهور التى ليست بحُرُم : وهى مابعد صفر. قال أبو عبيد رُبَّان كل شئ جماعته، ويجمع على رُبَّيات وربَايَا مثل حَبَالى . ومن قال رُبَّة جمعه على مآريب (١) . ويقولون فى رجب الأصمُّ : لما تقدّم من أنه لايُسمع صوتُ السلاح ولا الاستغاثات فيه، ويجمع على أَصَامّ. قال النحاس ولا تقل صمّ لأنه ليس بنعت كما أنك لو سمَّيت رجلا أحمر جمعته على أَحامِر ولم تجمعه على حُمْر. ويقولون فى شعبان عادِلٌ، بمعنى أنهم يعدلون فيه عن الإقامة لتشعبهم فى القبائل ويجمع على عَوادِل . ويقولون فى رمضان ناتِقٌ : لكثرة المال عندهم فيه لإغارتهم على الأموال فى الذى قبله ، ويجمع على نَواتِق . ويقولون فى شوّالٍ وَعِلٌ أخذا من قولهم : وَعَلَ إلى كذا إذا لجأ إليه لأنهم يهربُون فيه من الغارات لأن بعده الأشهرَ الحُرُم فيلجَئُون فيه إلى أمكنة يتحصَّنون فيها، ويجمع على أوعال كَكَتِف وأكتاف، وفى الكثرة وُعُول . ويقولون فى ذى القَعْدة وَرْنَة والواو فيه منقلبة عن همزة أخذا من أَرِن إذا تحرّك : لأنه الوقت الذى يتحرّكون فيه إلى الحج ، أو من الأُرُون ، وهو الدنوّ : لقُرْبه من الحج ويجمع على وَرَنات ووِرَان كجِدَان . ويقولون فى ذى الحجة بُرَكُ، غيرَ مصروف : لأنه معدول عن بارك ، أو على التكثير كما يقال رجل حُكَم وهو مأخوذ من البَرَكة: لأن الحج فيه، أو من بَرَك الجمل لأنه الوقت الذى تَبْرُك فيه الإبل للوسم، ويجمع على بِرْكان مثل نُغَرٍ ونِغْران .

وفى هذه الأسماء خلاف عند أهل اللغة والمشهور ماتقدّم ذكره .

(١) كذا فى الضوء أيضا ولعله مصحف عن رِبَاب أو رُبَب تأمل

وقد نظم بعضهم ذلك فى أبيات على الترتيب فقال .

بمؤتمرٍ وناجرٍ ابتَـــدأْنَا * وبالخَوَّانِ يتْبَعه البُصَانُ
ورُبَّى ثم أيِّدة تليـــه * تَعُود أصمُّ صُمّ به السِّنَان
[وعادِلة وناطِــلة جميعا * وواغِلَةٌ فهم غُرَر حِسان](١)
ووَرْنةٌ بعدها بُرَكٌ فتمّت * شُهورُ الحول يعْرِبها البَيانُ

ثم للنـاس فى إخراج أوّل الشهر العربىّ طُرُق، أسهلها أن تعرِفَ أوّلَ يوم من المحرَّم ، ثم تعدّ كم مضى من السنة من الشهور بالشهر الذى تريد أن تعرِف أوّله وتَقْسِمها نصفين ، فإن كان النصــف صحيحا أضفتَ على الجملة مثل نصفه، وإن كان مكسورا كمّلته وأضفته على الجملة ، ثم تبتدئ من أوّل يوم من الســنة وتعدّ منه أياما على توالى أسماء الأيام بعدد ماحصل معك من الأصل والمضاف فحيث آنتهى عدَدُك فذلك اليومُ هو أوّلُ الشهر .

مثال ذلك فى الصحيح النصــف : إن أردت أن تعرِف أوّلَ يوم من شــعبانَ وكان أوّلُ المحرَّم يوم الأحد مثــلا فتعدّ من أوّل المحرم إلى شــعبان وتدخل شعبان فى العدد فيكون ثمــانية أشهر فتقسمها نصفيْنِ يكون نصفُها أربعةً فتضيف الأربعةَ إلى الثمانية تكون آثنى عَشَر، ثم تبتدئ من يوم الأحد الذى هو أوّلُ المحرّم فتعدّ الأحد والآثنين والثّلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت ، ثم الأحد والآثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس فيكون آنتهــاء الآثنى عشر فى يوم الخميس فيكون أوّل شــعبانَ يوم الخميس .

ومثاله فى المكسور النصف إذا أردت أن تعرف أوّل رمضان أيضا وكان أوّل

(١) سقط هذا البيت من نسخة الأصل وقد وجدناه فى "نهاية الأرب" للنويرى فأثبتناه كما ترى وبه تمت عدّة الشهور .

المحرم الأحد كما تقــدّم فتعدّ مامضى من شهور السنة وتعدّ منها رمضان يكون تسعة أشهر فتقسِمُها نصــفين يكون نصفُها أربعةَ ونصفا فتكملها بنصف تصــير خمســة فتُضيفها إلىٰ الأصل المحفوظ وهو تسعة يكون المجموع أربعةَ عشرَ، ثم تبتدئ عدد الأيام من أوّل المحرم، وهو الأحد كما تقدّم فيكون ٱنتهاء الرابعَ عشرَ فى يوم السبت فيكون أوّلُ رمضان يومَ السبت .

ومن الطُّرُق المعتبرة فى ذلك أن تنظُر فى الثــالث من أيام النسيء من شهور القبط كم يوما مضىٰ من الشهر العربىّ فمــا كان جعلته أصــلا لتلك الســنة، فإذا أردتَ أن تعرِف أوّلَ شهر من الشهور العربية أو كم مضىٰ من الشهر الذى أنت فيه، فخذ الأصل المحفوظ معك لتلك السنة، وٱنظر كم مضىٰ من السنة القبطية شهرا فخذ لكل شهرين يوما، فإن انكسرت الأشهر وجاءت فردا فاجبُرْها بيوم زيادة حتّى تصــير زَوْجا، وزد علىٰ ذلك يومين أصلا أبدا، ثم ٱنظر كم يومامضى من الشهر القبطىّ الذى أنت فيه فأضفه علىٰ ما ٱجتمع معك، وأســقط ذلك ثلاثين ثلاثين فما بقى فهو عدد ما مضىٰ من الشهر العربىّ، ومنه يعرف أوّله .

ومثال ذلك نظرت فى الثالث من أيام النسيء فوجدت المــاضى من الشهر العربىّ ثلاثة أيام فكانت أصــلا لتلك الســنة ثم نظرت فى الشهور القبطية فوجدت الشهر الذى أنت فيه أمشير مثلا فتعدّ من أوّل شهور السنة القبطية : (وهو توت) إلىٰ أمشير يكون ســتة أشهر فتأخذ لكل شهرين يوما تكون ثلاثة أيام فتضيفها علىٰ الأصــل الذى معك من أيام النسيء : وهو ثلاثة تصــير ستة فزد عليها ٱثنين يصــير المجموع ثمــانية، ثم تنظر فى الشهر القبطى الذى أنت فيه : (وهو أمشير) تجده قد مضىٰ منه يومان فتضــيفهما علىٰ المجموع يكون عشرة، وهو المــاضى من الشهر العربىّ الذى أنت فيه ومنه يُعرَف أوّلُه .

الضرب الثـانى

(شهور اليهود)

والشهر عندهم من الاْجتماع إلىٰ الاْجتماع ، وهو اْقتران الشمسِ والقمرِ فى آخِر الشهر ولذلك تُوافق شهورُهم فى التقدير شهورَ العرب ، ولا تخـالف أوائلَها إلا بيوم واحد فى بعض الأحيان لأسباب فى مِلَّتهم ولكنها لا تُطابق شهرا لشهر ، فإنَّ شهور العرب غيرُ مكبوسة ، وشهور اليهود مكبوسة ؛ وهذه الطريقة لاتعرف إلا بتقويم الكواكب ومعرفة سير الشمس والقمر . ولذلك لايَعرِف شهورَ اليهود منهم إلا الآحادُ ، وشهورهم وهى اْثنا عشر شهرا بعضها ثلاثون ، و بعضها تسـعة وعشرون علىٰ مايقتضيه مسـير الشمس والقمر ؛ وفى السنة الكبيسة تكون شهورُهم ثلاثةَ عشرَ شهرا كما سـيأتى ؛ وشهورهم توافق شهور السُّرْيان فى بعض أسمائها دون بعض ، الأوّل تشرى ، الشهر الثانى مرحشوان ، الشهر الثالث كسلا ، الشهر الرابع طابات ، الشهر الخامس شباط ، الشهر السادس آذار ، الشهر السابع نيسان ، الشهر الثامن أيَّار ، الشهر التاسع سيوان ، الشهر العاشر تموز ، الشهر الحادى عشر آب ، الشهر الثانى عشر أيلول ؛ وفى السنة التى يكبسون فيها بعد كل سنة أو بعد كل سنتين علىٰ ما سيأتى بيانه يكبسون شهرا كاملا بعد آذار وهو الشهر السادس من شهورهم و يسمونه آذار الثانى ، وسيأتى ذلك مفصلا فى الكلام علىٰ السنين إن شاء الله تعالىٰ . وقد تقدّم أنها توافق شهور العرب إلا فى القليل إلا أنها يدخلها الكَبْس لأمور فى مِلَّتهم ، وسيأتى الكلامُ علىٰ كَبْسهم عند ذكر السنين إن شاء الله تعالىٰ .

القسم الثانى

(من الشهور الاصطلاحىّ والمراد به الشمسىّ)

وهى مدّة قطع الشمس مَدَار بُرْج من بروج الفلك الاثنَىْ عشَر، وذلك ثلاثون يوما وثلاثة عشر يوما تقريبًا(١)، وعليه عملُ القبط، والفرس، والسريان، والروم .

وهى على صنفين :

الصنف الأوّل

(ما يكون كلُّ شهر من شُهور السنة ثلاثين يومًا، وما فضل عن ذلك جعل نسيئا بين الشهور : وهو الشهور القبط، والفرس)

فأما شهور القبط (وتنسَب لدقلطيانوس الملك) فكل شهر منها ثلاثون يوما وأيام النسيء فى آخر الثانى عشر منها، وهى خمسة أيام .

الشهر الأوّل منها توت، ودُخُوله فى العشرين من آب من شهور السُّرْيان، وآخره السادسُ والعشرون من أيلول منها؛ فيه يُدرِك الرُّطَب، ويكثر السَّفَرْجل والعِنَب الشَّتْوىّ، وتبتدئ المُحَمضات . وأوّل يوم منه يوم النَّيْروز وهو رأس سنة القِبْط؛ وفى سابعه يبتدئ لَقْط الزيتون؛ وفى سابع عشره عيدُ الصليب، فيه تفتَحُ أكنُرُ الترع بمصر؛ وفى ثامن عشره أوّل فصل الخريف؛ وفى تاسع عشره يبتدئ هَيَجان السوداء فى البدن؛ وفى العشرين منه يُفْصَد البَلَسان؛ وفى الحادى والعشرين منه يبتدئ بَيضُ النَّعام؛ وفى الرابع والعشرين منه أوّل دى ماه من شهور الفرس؛ وفى الثامن والعشرين منه يذهَبُ الحر؛ وفى التاسع والعشرين منه أوّل رَعْى الكَرَاكِىّ؛ وفى الثلاثين منه وهو آخره يُزْرَع الهِلْيَوْن .

---

(١) لعله وثلاثة أعشار يوم .

الشهر الثانى بابه، ودخولُه فى السابع والعشرين من أيلول ، من شهور السُّرْيان، وآخره السادس والعشرون من تشرين الأوّل منها، فيه يُبْذَر كلُّ مالا تُشَق له الأرضُ كالبِرْسيم وغيره ؛ وفى آخره تُشَقُّ الأرض بالصعيد ؛ وفيـه يُحصَد الأرز ، ويطيب الرُّمَّان ، وتضَع الضأنُ والمَعْز والبقر الحِيسِيَّة ؛ ويُستخْرَج دُهن الآس واللينوفر ، ويُدْرِك التمُر والزبيبُ وبعض المُحَمضات؛ وفى ثالثه رأسُ سنة السريان؛ وفى رابعه أوّل تشرين الأوّل من شُهُورهم ؛ وفى خامســه عُرْس النيل ؛ وفى سادسه يطيب شُرْب الدواء؛ وفى سابعه نِهايةُ زيادة النيل؛ وفى ثامنه يكره خُروج الدم؛ وفى حادى عشره يبتـدئ النيـل فى النقص ؛ وفى ثالث عشره بداية الوخم ؛ وفى رابع عشره يكثر الناموس ؛ وفى خامس عشره يبتدئ زرع القُرْط ؛ وفى سادس عشره تبتدئ كثرة السُّعال ؛ وفى تاسع عشره يبتدئ زرع السَّـلْجَم ، وفى الثانى والعشرين منه يبتدئ صَلَاح المَوَاشى ، وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ كثرةُ الغُيوم ، وفى الرابع والعشرين منه تبتدئ أهـل مصر الزَّرْع ، وفى السابع والعشرين منـه يبتدئ سِمَنُ الحيتان، وفى الثـامن والعشرين منه أوّل المدّ ، وفى التاسع والعشرين منه أوّل الليالى البُلْق .

الشهر الثـالث هتور؛ ودخوله فى السابع والعشرين من تشرين الأوّل ؛ وآخره الخامسُ والعشرون من تشرين الثانى . فيه يُزْرَع القمح ويطْلُع البنَفْسَج والمَنْثور ، وأ كثر البُقُول ، ويجمع ما بَقِى من الباذِنجـان وما يجرى مجراه ، ويُحْمَـل العنبُ من قُوص ، وفى ثانيه يبتدئ حصاد الأرز ، وفى خامســه أوّلُ تشرين الثانى من شهور السريان، وفيه يبتدئ برد المياه، وفى سادسه أوّل المَطَر الوسمِىّ، وفى سابعه يبتدئ أهل الشام الزَّرْع، وفى ثامنه يبتدئ هُبوبُ الرياح الجَنُوبِيَّـة ، وفى تاسعه يبتدئ زرعُ الخَشْخاش، وفى حادى عشره يبتدئ آختفاء الهوامّ، وفى ثالث عشره يبتـدئ

غَلَيان البحر، وفى رابع عشره تَعْمَى الحَيَّات، وفى سادس عشره يُجمَع الزعْفران، وفى ثامن عشره تكثُر الوحوشُ ، وفى الثامن والعشرين منه يُغْلَق البحر الملح وتمتنع السُّفُن من السفر فيه لشدّة الرياح ، وفى الثالث والعشرين منه تبتدئ سُخونةُ بطن الأرض، وفى الرابع والعشرين منه أوّل اسفيدار ماه من شهور الفُرْس .

الشهر الرابع كيهك، ودخوله فى السادس والعشرين من تشرين الثانى من شهور السُّرْيان، وآخره الخامس والعشرون من كانون الأوّل منها. فيه تدرك الباقِلّاء، وتُزْرع الحُلْبة وأكثرُ الحبوبِ، ويُدرِك النَّرجس والبنَفْسَج، وتتلاحق المحمضات، وفى أوّله ٱبتداء أربعينيَّات مصر، وفى ثالثه يبتدئ موتُ الذُّباب، وفى خامسه أوّل كانون الأوّل من شهور السُّرْيان ، وفى سابعه آخرُ الليالى البُلْق وأوّل الليالى السُّود ، وفى حادى عشره يبتدئ الشجرُ فى رَمْى أوراقه، وفى ثانى عشره تظهر البَرَاغيثُ ، وفى سابع عشره أوّل فصل الشتاء: وهو أوّلُ أرَبعينِيَّات الشام، وفى ثامن عشره يتنَفَّس النهار، وفى الحادى والعشرين منه يكثُر الطير الغريبُ بمصر، وفى الثالث والعشرين منه أوّل مردوماه (١) من شهور الفُرْس ، وهو نَوْروزهم وأوّل سنتهم ، وفى الخامس والعشرين منه يهيج البَلْغَم ، وفى السادس والعشرين منه تَلْقَح الإبل ، وفى السابع والعشرين منه يكثُر شُرْب الماء فى الليل، وفى الثلاثين منه يبتدئ تقليم الكُرُوم .

الشهر الخامس طوبه، ودخوله فى السادس والعشرين من كانون الأوّل من شهور السريان، وآخره الرابع والعشرون من كانون الثانى منها، فى زرع القمح فيه تغرير، وفيه تُشَق الأرض للقَصَب والقُلْقاس ، ويتكامل النَّرجس، وفى أوّله تبيتُ الرياح الشديدةُ، وفى ثانيه يُدْرِك القُرْطُ، وفى سادسه أوّل كانون الثانى من شُهور السُّرْيان،

(١) سيأتى قريبا أن نيروز الفرس وأوّل سنتهم أفرودين ماه ونظنه الصواب لأنه الذى ورد فى مروج الذهب وغيره ومع ذلك لم يذكر هذا الشهر فى أسماء الشهور الآتية .

وفى عاشره آخر أربَعينِيَّات مصر، وفى حادى عشره أوّل نصب الكروم، وفى ثانى عشره يشتدّ البرد، وفى ثالث عشره يبتدئ زرع المَقَات، وفى سابع عشره يبتدئ غَرْس الأشجار، وفى ثامن عشره تبتــدئ كثرة النَّدىٰ ؛ وهو آخر الليـالى السود، وفى تاسع عشره يبتدئ وقُوعُ الثلج بالشام وغيره، وفى الرابع والعشرين منه يبتدئ صَفْوُ ماء النيل، وفى التاسع والعشرين منه يبتدئ آختلاف الرياح .

الشهر السادس أمشير، ودخوله فى الخامس والعشرين من كانون الثانى من شهور السريان وآخره الثالث والعشرون من شباط منها . فيه تُغْرَس الأشجار، وتقَلَّم الكروم، ويُدْرك النبق واللوز الأخضر، ويكثر البَنَفْسَج والمنثور، وفى رابعه يبتــدئ إفراخ النخل، وفى سادسه أوّل شباط من شهور السُّريان، وفى حادى عشره يبتدئ إنتاج الطيور وزرع بُقُول الصَّيف، وفى ثانى عشره يبتدئ تحرّك دوابّ البحر، وفى الثانى والعشرين منــه ثانى جمرة فاترة، ويبتدئ مرض الأطفال، ويبتدئ خروجُ ورق الشجر، وفى الثالث والعشرين منه يبتدئ خروج الدوابّ للمَرْعىٰ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل حردادماه من شهور الفُرْس، وفى الخامس والعشرين منه يبتدئ هيَجَان الرِّياح، وفى السابع والعشرين منه تبتدئ ثالث جمرة حامية، وفى الثامن والعشرين منه أوّل المفرطات، وفى التاسع والعشرين منه آخِر نهى ابقراط .

الشهر السابع برمهات، ودخوله فى الرابع والعشرين من شباط من شُهور السُّرْيان، وآخره الخامس والعشرون من آذار. فيه تُزْهِرُ الأشجار، ويعقِدُ أكثَرُ الثِّمَـار، ويُزْرَع أوائل السِّمْسِم، ويُقْلَع الكَتَّان، ويُدْرِك الفُول والعَدَس، وفى ثانيه يحمــد خروج الدم، وهو أوّل الأعجاز، وفى ثالث عشره تُفَتِّح الحياتُ أعينها، وفى خامس عشره تطِيبُ الألبانُ، وفى سادس عشره يبتــدئ خروج دود القَزِّ، وفى ثامن عشره يَهِيج الدم، وفى تاسع عشره ظُهُور الهوامّ، وفى العشرين منه يُزْرع السِّمْسم، وفى

الرابع والعشرين منـه أوّل تيرماه من شهور الفُرْس ، وفى السادس والعشرين منه يبتدئ شُرْبُ المُسْهل ، وفى السابع والعشرين منه خروج الذُّباب الأزرق .

الشهر الثامن برموده ، ودخوله فى السادس والعشرين من آذار من شهور السريان ، وآخره الرابع والعشرون من نيسان منها ، فيه تُقْطَف أوائل عَسَل النحل ، وفيه تكثر الباقِلَاء ، ويُنْفَض جَوْز الكَتَّان ، ويكثر الورد الأحمر ، والبطنُ الأوّل من الجُمَّيْز ، ويقْلَع بعض الشعير ، ويُدْرِك الخيار شنبر . وفى أوّله يُؤكَل النَارِيك ، وفى رابعه يُعْصَر دُهْن البَلَسان ، وفى خامسه تبتدئ كثرة الزهور ، وفى سادسه أوّل نيسان من شهور السُّرْيان ، وفى ثانى عشره يُخاف على بعض الزرع ، وفى ثامن عشره آخر قلع الكَتَّان ، وفى العشرين منه يُنْهىٰ عن أكل البُقُول ، وفى الثانى والعشرين منه ظهور الكَمْأة ، وفى الثالث والعشرين منه الِختَام الكبير للزرع ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل تردماه من شهور الفرس ، وفى الخامس والعشرين منه نهاية مَدّ الفُرات ، وفى الثامن والعشرين منه يَبِيض النَّعام .

الشهر التاسع بشنس ، ودخوله فى الخامس والعشرين من نيسان من شهور السريان ، وآخره التاسع والعشرون من أَيَّار منها . فيه يكثر التُّفَّاح القاسمى ، ويبتدئ التُّفَّاح المِسْكىّ ، والبِطِّيخ العَبْدلِىّ والخَوْفى ، والمِشْمِش ، والخَوْخ الزُّهْرِى ، والورد الأبيض . وفى نصفه يُبْذَر الأَرز ، ويُحْصَدُ القمح ، وفى سادسه أوّل أَيَّار من شهور السُّرْيَان ، وفى رابع عشره يجمع الخَشْخاش ، وفى ثامن عشره يجمع العُصْفُر ، وفى الحادى والعشرين منه تبتدئ بُرودةُ الأرض ، وفى الرابع والعشرين منـه أوّل شهر برماه من شهور الفُرْس .

الشهر العاشر بؤنه ، ودخوله فى الخامس والعشرين من أَيَّار من شهور السُّريان ، وآخره الثالث والعشرون من حزيران منها ، فيه يكثر الحِصْرِم ويطيب بعض العنب

والتين البونىّ وهو الديفور، والخوخ الزّهْرى والمُشْعِر، والكمثْرى البوهىّ، والقراصيا، والتُّوت، ويطلُع البلَح، ويُقطَف جمهور العســل؛ وفى ثالثه يبتــدئ توحُّم النيل، وفى سادسه يكمل الدِّرْياق، وفى سابعه أوّل حزيران من شهور السُّريان، وفى تاسعه يبتــدئ مَهَبُّ الريح الشَّمالية، وفى عاشره يبتدئ تنفُّس النيــل، وفى خامس عشره تتحرك شهوةُ الجماع، وفى ثانى عشره عِيد ميكائيلَ، فى ليلته يُوزن من الطين زِنةُ ستة عشر درهمــا عند غروب الشمس ويُرفعُ فى مكان ويُوزنُ عند طلوع الشمس فمــا زاد كان بكل خروبة زادت على السّتة عشرَ ذراعٌ، وفى ثالث عشره يبتدئ نقصُ الفُراتِ، وفى رابع عَشرِه تهُبّ الرياحُ السَّمائم، وفى تاسع عشره تذهبُ البراغيثُ، وفى العشرين منــه تَهِيجُ الصفراءُ، وفى الثانى والعشرين منــه يَعْقِدُ الجوز، ويَقْوى اندفاعُ النيل، وفى الرابع والعشرين منه يَثُور وجعُ العين وهو أوّل مهرماه من شهور الفرس، وفى السابع والعشرين منــه يُؤخَذ قاعُ النيل، وفى الثامن والعشرين منه يُنادَى عليه، وفى التاسع والعشرين منه يُدْرِكُ البِطّيخُ .

الشهر الحادى عشر أبيب، ودخوله فى الرابع والعشرين من حزيران من شهور السريان، وآخره الثالث والعشرون من تمُّوز منها، فيــه يكثُر العنبُ والتينُ ويَقِلُّ البِطّيخ العَبْدَلىُّ ويَطيبُ البلحُ وتُقطَفُ بقايا العسلِ وتَقْوى زيادةُ النيل، وفى رابعه أوّل نَهْى أبقراط، وفيــه يموتُ الجرادُ، وفى سابعه أوّل تمُّوز من شهور السريان، وفى عاشره يَبتــدئُ وقع الطاعون، وفى ثانى عشره تبتــدئ قوّة السمائم، وفى ثالث عشره تُدرِكُ الفاكهةُ، وفى سابع عشره تَغُورُ العيونُ، وفى ثامن عشره يُجمَعُ السُّمّاقُ، وفى الثانى والعشرين منه يُدرِكُ الفُسْتُقُ، وفى الرابع والعشرين منه أوّل أبانماه من شهور الفرس، وفى السادس والعشرين منه طلوعُ الشِّعرى اليمَانية، وفى التاسع والعشرين منه يُدرِكُ نخلُ الحجاز .

الشهر الثانى عشر مسرىٰ؛ ودخوله فى الرابع والعشرين من تموز من شهور السريان ، وآخره السابع والعشرون من آب منها . فيه يُعمَلُ الخَلُّ، ويُدرِكُ البُسر والمَوْزُ وتتغيَّر طُعومُ الفاكهة لغلبة المـاء علىٰ الأرض ، ويُدرِكُ اللَّيمونُ التُّفَّاحىُّ ، ويبتدئ إدراكُ الرُّمَّان ، وفى رابعه نُقصانُ الدِّجلة ، وفى خامسه أوّل العصير ، وفى ثامنه أوّل آب من شهور السُّرْيان ، وفى ثانى عشره فِصَال المَوَاشى ، وفى رابع عشره تَقِلُّ الألبانُ ، وفى خامس عشره تَسخُنُ المياهُ ، وفى سابع عشره تختلفُ الرياح ، وفى ثامن عشره يُحذَرُ لَسْعُ الهوامِّ ، وفى الثانى والعشرين منه آخرُ العصير ، وفى الرابع والعشرين منه يَهيجُ النَّعام ، وفى الخامس والعشرين منه تَكثُر الغُيومُ ، وفى الثامن والعشرين منه آخر السَّمائِم ، وفى التاسع والعشرين منه أوّل آذرماه من شهور الفرس .

أيام النسيء ـ ودخولها فى الثامن والعشرين من آب من شهور السريان ويختلف آخرها باختلاف السنة الكبيسة وغيرها .

وقد وضعَ الناسُ طُرُقًا لإخراج أوّل الشهر القبطىّ بالحساب أقربُها أن تعرفَ يوم النَّيْروز ثم تَعُدَّ مامضىٰ من الشهور القبطية بالشهر الذى تريد أن تَعرِفَ أوّله فما كان فأضْعِفْه فما تحصَّل فأسقط منه واحدا أبدا ، ثم أسقط الباقىَ سبعةً سبعةً فما فضل فعُدَّ من يوم النَّيْروز إلىٰ آخر الباقى بعد الإسقاط علىٰ توالى الأيام فأينما انتهى العَدَدُ فذلك اليوم هو أوّل الشهر المطلوب .

مثال ذلك : كان يوم النيروز الأحدَ ، وأردنا أن نعرفَ أوّل أمشير ، عَدَدْنا كم مضىٰ من أوّل الشهور القبطيـة وعَدَدْنا منها أمشير ، وجدنا ذلك ستة ، أضعفناها صارت اثنى عشر ، أسقطنا منها واحدا بقى أحد عشر ، أسقطنا منها سبعةً بقى أربعةٌ ، عددنا من يوم النـيروز وهو الأحدُ أربعةً فكان آخرها يومَ الأربعاء فعلمنا أن أوّل أمشير الاربعاءُ .

وأما شهور الفُرس، فهى آثنا عشر شهراً كلُّ شهر منها ثلاثون يوما وأيامُ النسىء خمسة أيام فى آخر الشهر الثامن منها وهو أبان ماه . الشهر الأوّل منها افرودين ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من كيهك من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من طوبه منها، وأوّل يوم منه نَيروزُ الفرس ورأسُ سنتهم . الشهر الثانى ارديهشتماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من طوبه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أمشير منها . الشهر الثالث حردادماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من أمشير من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برمهات منهـا . الشهر الرابع تيرماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من برمهات من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من برموده منهـا . الشهر الخامس تردماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من برموده من شهور القبط، وآخره الثـالث والعشرون من بشنس منها . الشهر السادس شهر برماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بشنس من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بؤنه منها . الشهر السابع مهرماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بؤنه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من أبيب منها . الثامن أبان ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من أبيب من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من مسرىٰ منها . أيام النسىء، وتسمى بالفارسية الاندركاه، ودخولهـا فى الرابع والعشرين من مسرىٰ، وآخرها الثامن والعشرون منها . الشهر التاسع ادرماه، ودخوله فى التاسع والعشرين من مسرىٰ من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من توت . الشهر العـاشر دى ماه . ودخوله فى الرابع والعشرين من توت من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من بابه منهـا . الشهر الحادى عشر بهمن ماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من بابه من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من هاتور منها (١) . الشهر

(١) وقع فى الاصل شىء من السقط والتحريف وقدصححناها من نهاية الارب ومن الضوء و بمعونة ترتيب الشهور القبطية فتنبه .

الثانى عشر [اسفندارماه، ودخوله فى الرابع والعشرين من هاتور من شهور القبط، وآخره الثالث والعشرون من كيهك منها] .

ولكل يوم من أيام الشهر عندهم آسم خاص يزعمون أنه آسم ملك من الملائكة موكل به .

وقد علم مما تقدم من شهور القبط مايقع فى هذه الشهور من والفواكه وغيرها .

الصـــــنف الثـانى

(من الشهور الآصطلاحية مايختلف عدده بالزيادة والنقصان، فيكون بعض الشهور فيه ثلاثين ، وبعضها أقلّ ، وبعضها أكثر، وهو شهور السريان والروم)

فأما شهور السريان وتنسب للإسكندر فآثنا عشر شهرا، منها أربعة كل شهر منها ثلاثون يوما، وشهر واحد ناقص عن الثلاثين ، وسبعة زائدة عليها . الشهر الاول منها تشرين الأول، وهو أحد وثلاثون يوما؛ ودخوله فى الرابع من بابه من شهور القبط، وآخره الرابع من هاتور منها؛ ويوافقه اكتوبر من شهور الروم، وهو الشهر العاشر منها . الشهر الثانى تشرين الثانى، وهو ثلاثون يوما؛ ودخوله فى الخامس من هاتور من شهور القبط، وآخره الرابع من كيهك منها، ويوافقه نوفمبر من شهور الروم، وهو الشهر الحادى عشر منها . الشهر الثالث كانون الأوّل وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله فى الخامس من كيهك من شهور القبط ، وآخره الخامس من طوبه منها، ويوافقه دجنبر من شهور الروم، وهو الشهر الثانى عشر منها . الشهر الرابع كانون الثانى ، وهو أحد وثلاثون يوما، ودخوله فى السادس من طوبه من شهور القبط،

وآخره السادس من أمشـير منها ، ويوافقه ينير من شهور الروم ، وهو الشهر الأوّل منها . الشهر الخامس أشباط ، ويقال شباط ، وهو ثمانية وعشرون يوما ، ودخوله فى السابع من أمشير، وآخره الرابع من برمهات منها، ويوافقه فبرير من شهور الروم، وهو الثانى من شهورهم . الشهر السادس آذار، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الخامس من برمهات من شهور القبط، وآخره الخامس من برمودة منها، ويوافقه مارس من شهور الروم ، وهو الثالث من شهورهم . الشهر السابع نيسان، وهو ثلاثون يوما، ودخوله فى السادس من برمودة من شهور القبط، وآخره الخامس من بشنس منها، ويوافقه ابريل من شهور الروم، وهو الرابع من شهورهم . الشهر الثامن أيّار ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى السادس من بشنس من شهور القبط ، وآخره السادس من بؤنه منها ، ويوافقه مايه من شهور الروم ، وهو الخامس من شهورهم . الشهر التاسع حزيران، وهو ثلاثون يوما؛ ودخوله فى السابع من بؤنه من شهور القبط ، وآخره السادس من أبيب منها، ويوافقه يونيه من شهور الروم، وهو السادس من شهورهم . الشهر العاشر تمّوز ، وهو أحد وثلاثون يوما ؛ ودخوله فى السابع من أبيب من شهور القبط، وآخره السابع من مسرى منها، ويوافقه يوليه من شهور الروم ، وهو السابع من شهورهم . الشهر الحادى عشر آب ، وهو أحد وثلاثون يوما ، ودخوله فى الثامن من مسرى من شهور القبط، وآخره الثالث من توت منها ، ويوافقه اغشت من شهور الروم، وهو الثامن من شهورهم . الشهر الثانى عشر أيلول، وهو ثلاثون يوما، ودخوله فى الرابع من توت من شهور القبط، وآخره الثالث من بابه منها ، ويوافقه ستنبر من شهور الروم ، وهو التاسع من شهورهم، وبذهابه يذهب الحرجملة، وفى ذلك يقول أبو نواس :

مَضىٰ أيْلولُ وٱرتَفَع الحَرُورُ * وأخْبتْ نارَها الشِّعرىٰ العَبُورُ

وقد نظمها صاحبنا الشيخ ابراهيم الدهشورى فى أبيات آبتدأ فيها بأيْلُولَ فقال :

وٱبْدَأْ بأَيْلُولٍ مِنَ ٱلسُّرْيَانِى * تَشرِينُ الأَوَّلُ يَتْبَعَنْه الثانِى

كانونُ كانونٌ شَباطٌ يَطْلُعُ * آذَارُ نَيْسانُ أيَارُ يَتْبَعُ

ثُمَّ حَزِيرانُ وتَمُّوز وأبْ * تَبارَكَ الرحمنُ يَهْدِى مَنْ أحَبّ

وقد نظم الشيخ أبو عبد الله الكيزانى رحمه الله أبياتا ذكر فيها الأشهر التى منها ثلاثون يوما والناقصة عن الثلاثين ولم يتعرض للزائدة على الثلاثين وليست بالطائل، وهى هذه :

شُهُورُ الرُّومِ ألْوانُ * زِيادَاتٌ ونُقْصَانُ

فَتَشْرِينُهُمُ الثانِى * وأيْلُولٌ ونَيْسانُ

ثَلاثُونَ ثَلاثُونَ * سَواءٌ وحَزِيرانُ

شَبَاطٌ خُصَّ بالنقص * وقَدْرُ النَّقْصِ يَوْمان

ونظم صاحب "مناهج الفكر" تداخلها مع شهور القبط فى أرجوزة فجاءت فى غاية الحسن والوضوح إلا أن فيها طولا، وهى هذه :

متىٰ تَشَأْ معْرِفَةَ التَّداخُلِ * مِنْ أوَّل الشُّهور فى المَنازل

فعُدَّ من تُوتٍ بلا تَطْوِيل * أربعةً فهْى آبتِدا أيْلُولِ

وبابَةٌ كذاك مَعْ تَشْرِينِ * ألأوَلِ السابِقِ فى السنين

والخامسُ المعدُودُ من هَتُور * أوّلُ تشرينِهِم الأخِيرِ

أوَّلُ كانونٍ بغَيْرِ دَلْسه * إذا نقَصْتَ من كيَهْكٍ خمسه

وطُوبةٌ إن مَرَّ منه سِتَّه * أتاكَ كانونُ الأخِيرُ بَغْتَه

ومن شَباطٍ أوّلٌ يوافِق * سابِعَ أمْشِيرٍ حسابٌ صادِقُ

أوّل آذار إذا جعلْتَه * لبرَمْهات خامسا وجَدْتَه

أوَّل نِيسانٍ لدى التَّجْرِيد * السادسُ المعدودُ من برمود
ومثـــله أيَارُ معْ بَشَنْسِ * واحـــدةٌ مقـــرونةٌ بخمس
أمَّا حَزِيرانُ فيَحْسُبُونَهْ * أوّلُه السـابعُ من بؤُنه
كذلك السـابعُ من أبِيبِ * أوّلُ تَمُّـــوزٍ بلا تكْذِيب
أوَّلُ آبٍ عند مَنْ يُحَصِّـل * ثامنُ مسرىٰ ذاك مالا يُجْهَلُ

وبالغ بعض المتأخرين فنظم معنىٰ هذه الأرجوزة فى بيت واحد، الحرف الأول من الكلمة منه للشهر السريانىّ والحرف الأخير للشهر القبطىّ وما بينهما لعدد الأيام التى إذا مضت من ذلك الشهر القبطىّ دخل ذلك الشهر السريانى وهو :

أدّت تدب تهه كهك كوط أزا * أهب نوب أوب حزب تزا أحم

فالألف من أدّت إشارة لأيلول من شهور السُّرْيان، وهو آخر شهورهم، والتاء إشارة لتوت من شهور القبط، وهو أوّل شهورهم، والدال من أدت بأربعة، ففى الرابع من توت يدخل أيلول، والتاء من تدب إشارة لتشرين الأول، والباء إشارة لبابه، والدال بينهما بأربعة، ففى الرابع من بابه يدخل تشرين الأوّل، والتاء من تهه إشارة لتشرين الثانى، والهاء الأخيرة إشارة لهتور، والهاء المتوسطة بينهما بخمسة ففى الخامس من هاتور يدخل تشرين الثـانى، والكاف الأولىٰ من كهك إشارة لكانون الأوّل والكاف الأخيرة إشارة لكيهك والهـاء بينهما بخمسة، ففى الخامس من كيهك يدخل كانون الأوّل، والكاف من كوط إشارة لكانون الثانى، والطاء إشارة لطوبه، والواو بينهما بستة، ففى السادس من طوبه يدخل كانون الثانى، والألف الأولىٰ من أزا إشارة لأشباط، والألف الأخيرة إشارة لأمشير، والزاى بينهما بسبعة، ففى السابع من أمشير يدخل أشباط، والألف من أهب إشارة لآذار، والباء إشارة لبرمهات، والهـاء بينهما بخمسة، ففى الخامس من برمهات يدخل آذار، والنون من

نوب إشارة لنيسان ، والباء إشارة لبرموده ، والواو بينهما بستة ، ففى السادس من برموده يدخل نيسان، والألف من أوب إشارة لأيَّار، والباء إشارة لبشنس، والواو بينهما بستة، ففى السادس من بشنس يدخل أيَّار، والحاء من حزب إشارة لحزيران، والباء إشارة لبؤنه، والزاى بينهما بسبعة، ففى السابع من بؤنه يدخل حزيران، والتاء من تزأ إشارة لتموز ، والألف إشارة لأبيب ، والزاى بينهما بسبعة ، ففى السابع من أبيب يدخل تَمُّوز، والألف من احم إشارة لآب ، والميم إشارة لمسرىٰ، والحاء بينهما بثمانية، ففى الثامن من مسرى يدخل آب .

وأما شهور الروم : (وتنسَبُ لأغشطش ملك الروم) وهو قيصر الأوّل، فاثنا عشَرَ شهرا؛ بعضها ثلاثون يوما، وبعضها زائد علىٰ الثلاثين ،وبعضها ناقص عنها كما فى شهور السريان؛ وهى مطابقة لشهور السريان فى العَدَد؛ مخالفةٌ لها فى الأسماء والترتيب . الشهر الأوّل ينير، ويُوافقه كانون الثانى من شهور السريان، وهو الرابع من شهورهم، وفى أوّل يوم منه يكون القلنداس، ويُوقد أهل الشام فى ليلته نيرانا عظيمة، لاسيما مدينة أنطاكِيَةَ، وكذلك سائر بلاد الشام وأرض الروم، وسائر بلاد النصارىٰ . الشهر الثانى فبرير، ويوافقه شباط من شهور السريان؛ وهو الخامس من شهورهم . الشهر الثالث مارس، ويوافقه آذار من شهور السريان، وهو السادس من شهورهم . الشهر الرابع ابريل؛ ويوافقه نيسان من شهور السريان، وهو السابع من شهورهم . الشهر الخامس مايه، ويوافقه أيَّار من شهور السريان، وهو الثامن من شهورهم . الشهر السادس يونيه ؛ ويوافقه حزيران من شهور السريان ، وهو التاسع من شهورهم . الشهر السابع يوليه، ويوافقه تَمُّوز من شهور السريان ، وهو العاشر من شهورهم . الشهر الثامن أغشت ، ويوافقه آب من شهور السريان، وهو الحادى عشر من شهورهم . الشهر التاسع شتنبر، ويوافقه أيلول من شهور

السريان ، وهو الثانى عشر من شهورهم . الشهر العاشر أكتوبر؛ ويوافقه تشرين الأوّل من شهور السريان ، وهو الأوّل من شهورهم . الشهر الحادي عشر نونبر، ويوافقه تشرين الثانى من شهور السريان، وهو الثانى من شهورهم . الشهر الثانى عشر دجنبر ، ويوافقه كانون الأوّل من شهور السريان، وهو الثالث من شهورهم ، وقد نظمها الشيخ ابراهيم الدهشورى فقال :

ينير فُبْرير مارسٌ للروم * أبريل مايهْ خامس المعلوم
يُنْيهْ ويُلْيه ثُمَّ آغشت شتنبر * أكتوبر نونمبر دجنبر

الطرف الثالث

(فى السنين : وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأُولىٰ

(فى مدلول السنة والعام)

يقال : السنة، والعام ، والحول؛ وقد نطق القرءان بالأسماء الثلاثة قال تعالىٰ : ﴿ فلبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنةٍ إلَّا خَمْسِينَ عامًا ﴾ فأتىٰ بذكر السنة والعام فى آية واحدة ، وقال جلّ وعزّ: ﴿وَالْوالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ ﴾ وقد تختص السنةُ بالجَدْب والعامُ بالخِصْب، وبذلك ورد القرءانُ الكريم فى بعض الآيات قال تعالىٰ : ﴿ ثم يَأْتِى مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ فعبر بالعام عن الخِصْب وقال جل ذكره : ﴿ ولقَدْ أخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ ونَقْصٍ من الثَّمَرَاتِ ﴾ فعبر بالسنين عن الجَدْب . علىٰ أنه قد وقع التعبير بالسِّنين عن الخِصْب أيضا فى قوله تعالىٰ : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوه فِى سُنْبُلِهِ ﴾ . أما الحول فإنه يقع علىٰ الخِصْب والجَدْب جميعا .

الجملـــة الثانية

(فى حقيقة السنة، وهى علىٰ قسمين : طبيعيةّ وٱصطلاحية كما تقدّم فى الشهور)

القســـم الأوّل

(الســـنة الطبيعية : وهى القَمرِيّة)

وأوّلهُا ٱستهلال القمر فى غُرّة المحرّم ، وآخرها سَلْخ ذى الحِجّة من تلك السنة ، وهى ٱثنا عشَر شهرا هلاليًّا قال تعالىٰ : ﴿ إنَّ عِدّة الشُّهورِ عِنْدَ اللهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمٰواتِ وَالْأَرْضَ﴾. وعدد أيّامها ثلثمائة يوم وأربعة وخمسون يوما وخمسُ وسدسُ يوم تقريبا؛ ويجتمع من هذا الخُمس والسدُس يومٌ فى كل ثلاث سنين فتصيرُ السنة ثلثمائة وخمسةً وخمسين يومًا، ويبقىٰ من ذلك بعد اليوم الذى ٱجتمع شىء، فيجتمع منه ومن خمس اليوم وسدسه فى السنة السادسة يوم واحد، وكذلك إلىٰ أن يبقىٰ الكسر أصلا بأحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة ، وتسمّى تلك السنين كبائس العَرَب .

قال السهيلى: كانوا يُؤَخِّرون فى كل عام أحدَ عشَرَ يوما حتّى يَدُورَ الدورُ إلىٰ ثلاث وثلاثين سنة فيعود إلىٰ وقته ، فلما كانت سنةُ حَجّة الوَدَاع : وهى سنة تسع من الهجرة، عاد الحجُّ إلىٰ وقته ٱتفاقًا فى ذى الحِجّة كما وُضِع أوّلا فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه الحجَّ، ثم قال فى خطبته التى خطبها يومئذ : "إنَّ الزمانَ قد ٱستَدارَ كهيْئَتِهِ يوم خلقَ اللهُ السّمٰواتِ والأرضَ، " بمعنىٰ أن الحج قد عاد فى ذى الحِجّة .
وفى بعض التعاليق أن سِنِى العرب كانت موافقةً لِسنِى الفُرْس فى الدخول والٱنْسلاخ فحَدَث فى أحوالهم ٱنتقالاتٌ فسَد عليهم بها الكَبْس فى أوّل السنة السادسة من ملك أغيطش، وذلك بعد ملك ذى القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوما فسَنُّوا كبس

الربع من ذلك اليوم فى كل سنة فصارت سنينُهم بعد ذلك الوقت محفوظةَ المواقيت .
وقيل لم تزل العرب فى جاهليتها علىٰ رسم إبراهيم و إسمــاعيل عليهما الســلام لاتَنْسَأ سِنِيها إلىٰ أن جاورتهم اليهود فى يثرب، فأرادت العرب أن يكون حجُّهم فى أخصب وقتٍ من الســنة، وأسهلِ زمان للتردُّد بالتجارة فعلموا الكبس من اليهود والله أعلم أىُّ ذلك كان .

القســـم الثـــانى

(الاصطلاحيـــة : وهى الشمســـيَّة)

وشهورها آثنا عشَرَ شهرًا كما فى السنة الطبيعية إلا أن كل طائفة راعتْ عدَم دَوَران سِنِيها جعلت فى أشهرها زيادةً فى الأيام إما جملة واحدة و إما متفرّقة وسمَّتْها نسيئًا، بحسب ما آصطلحوا عليه كما ستقف عليه فى مصطلَح كل قوم إن شاء الله تعالىٰ.
وعدد أيَّامها عند جميع الطوائف : من القبط، والفرس، والسريان، والروم، وغيرهم ثلثُمائةِ يوم وخمســةٌ وستون يوما وربعُ يوم ، فتكون زيادتها علىٰ العربية عشرةَ أيام وثمانيةَ أعشار يوم وخمسةَ أسداس يوم . وقد قال بعض حُذَّاق المفسرين فى قوله تعالىٰ﴿ولَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وآزْدَادُوا تِسْعًا﴾: إنه إن حمل علىٰ السنين القمرية فهو علىٰ ظاهره من العدد، و إن حمل علىٰ السنين الشمسية فالتسع الزائدة هى تفاوت زيادة الشمسية علىٰ القمرية لأنَّ فى كل ثلثمائة سنة تسعَ سنينَ لاتُخِلُّ بالحساب أصلا
قال صاحب "مناهج الفكر" ولذلك كانوا فى صَدْر الإسلام يُسْقِطون عند رأس كل ثلاث وثلاثين ســنة عربيَّة سنةً ويسمُّونها سنة الآزدِلاف : لأن كل ثلاث وثلاثين سنة عربية آثنتان وثلاثون سنة شمسية تقريبا . قال و إنما حملهم علىٰ ذلك الفرار من آسم النسيء الذى أخبر الله تعالىٰ أنه زيادة فى الكفر .

ثم المعتبرون السنة الشمسية آختلفت مصطلَحاتهم فيها بحسب آختلاف مقاصدهم .

المصطلَح الأوّل ــ مصطلَح القبط ، وقد آصطلحوا علىٰ أن جعلوا شهرهم ثلاثين يوما كما تقدّم فإذا آنقضت الآثنا عشرَ شهرا أضافوا إليها خمسة أيام يسمُّونها أيام النسيء ، يفعلون ذلك ثلاث سنين متوالية ، فإذا كانت السنة الرابعة أضافوا إلىٰ خمسة النسيء المذكورة ما آجتمع من الربع يوم الزائد علىٰ الخمسة أيام فى السنة الشمسية فتصير ستة أيام ، ويجعلونها كبيسة فى تلك السنة ، وبعض ظُرَفائهم يسمِّى الخمسة المزيدة السنةَ الصغيرة .

قال أصحاب الزيجات وأوّلُ آبتدائهم ذلك فى زمن أغشطش . وكانوا من قبلُ يتركون الربع إلىٰ أن تجتمع أيام سنة كاملة وذلك فى ألف سنة وأربعمائة وإحدىٰ وستين سنة ويسقطونها من سنيهم ، وعلىٰ هذا المصطلَح آستقرّ عملهم بالديار المصرية فى الإقطاعات ، والزرع ، والخَراج ، وما شاكل ذلك .

المصطلح الثانى ــ مصطلَح الفُرْس ، وشهورهم كشهور القبط فى عدد الأيام علىٰ ماتقدّم ، فإذا كان آخر شهر أبان ماه ، وهو الشهر السابع (١) من شهورهم أضافوا إليه الخمسة الأيام الباقية وجعلوه خمسة وثلاثين يوما ، وتسمِّى الفرس هذه الأيام الخمسة الاندركاه ، ولكل يوم منها عندهم آسم خاص كما فى أيَّام الشهر ، ولما لم يَجُزْ فى معتقَدهم كبسُ السنة بيوم واحد بعد ثلاث سنين كما فعل القبط كانوا يؤخِّرونه إلىٰ أن يتم منه فى مائة وعشرين سنة شهرٌ كامل فيُلْقونه ، وتسمِّى السنةُ التى يلقىٰ فيها بهرك (٢) ، قال المسعودىّ فى "مروج الذهب" وإنما أخَّروا ذلك إلىٰ مائة وعشرين سنة لأن أيَّامهم كانت سُعودا ونُحُوسا فكَرِهوا أن يكبِسُوا فى كل أربع سنين يوما فتنتقل بذلك أيام السُّعود إلىٰ أيام النُّحوس ، ولا يكون النَّيْروز أوّل يوم من الشهر .

(١) الصواب الثامن كما يعلم مما تقدم . (٢) فى مروج الذهب ــ الهارك ، وفى الضوء ــ بهرك .

وعلىٰ هـذا المصطلح كان يُجْبىٰ الخَرَاج للخلفاء وتُمشى الأحوال الديوانية فى بداية الأمر وعليه العمل فى العراق و بلاد فارس إلىٰ الآن .

المصطلح الثالث ـ مصطلح السريان ، وشهورهم علىٰ ما تقدّم : من كونها تارةً ثلاثين يوما وتارة زائدة عليها ، وتارة ناقصة عنها ، وإنمـا فعلوا ذلك حتّى لا يلحقهم النسيءُ فى شهورهم إذ الأيام الخمسة المذكورة الزائدة علىٰ شهور القبط والفُرْس مُوزَّعة علىٰ رءُوس الزوائد من شهورهم ، وذلك أن من شهورهم سـبعةَ أشهر يزيد كل شهر منهـا يوما علىٰ الثلاثين : وهى تشرين الأوّل ، وكانون الأوّل ، وكانون الثانى ، وآذار ، وأيّار ، وتموز ، وآب ، فتكون الزيادة سبعة أيام يكمل منها شباط : وهو ثمانية وعشرون يوما بيومين يبقىٰ خمسة أيام ، وهى نظير النَّسِيء فى سنة القبط والفُرْس ، ويبقىٰ بعد ذلك الربع يوم الزائد علىٰ الخمسة أيام فى السـنة الشمسية ، فإذا آنقضت ثلاث سـنين متواليات جمعوا الأرباع الثلاثة الملغاة إلىٰ الربع الرابع فيجتمع منهـا يوم فيجعلونه نظيرَ اليوم الذى كبسه القبطُ ويُضيفونه إلىٰ شباط ، فيصير تسـعةً وعشرين يوما .

المصطلَح الرابع ـ مصطلح اليهود ، وشهورهم وإن كانت قَمَـريَّة كالعربية كما تقدّم فقد آضْطُرّوا إلىٰ أن تكون سنتُهم شمسـيَّة : لأنهم أمروا فى التوراة أن يكون عيد الفطر فى زمان الفَرِيك فلم يتأتَّ لهم ذلك حتّى جعلوا سنيهم قسمين : الأوّل بشيطا ومعناه بسيطة وهى القمرية ، والثانى معبارت ، ومعناه كبيسة وهم يكبسون شهرا كاملا ، ومعبارت آسم موضوع عندهم علىٰ الكامل ، فإنه لما كان فى بطنها زيادة عليها كانت هذه السـنة مثلها باضافة الشهر المكبوس إليها ، وكل واحدة من السنين ثلاثة أنواع أحدها جسارين ومعناه ناقصـة ، وهى التى يكون الشهر الثانى والثالث منها (وهمـا مرحشوان وكسلا) ناقصين ، وكل واحد منهما تسعة وعشرون يوما ؛

والنوع الثانى شلاميم ومعناه تامّة ، وهى التى يكون فيها كل شهر من الشهرين المذكورين تامّا ، والنوع الثالث كسدران ومعناه معتدلة ، وهى التى تكون أشهرُها ناقصٌ يتلوه تامٌّ ، وهذا يلزم من جهة أنهم لا يجيزون أن يكون رأس سنتهم يوم أحد ولا يوم أربعاء ولا يوم خميس .

وأما معبارت فإنها تكون فى كل تسعَ عشرةَ سنة سبع مرات ، ويسمُّون الجملة مخزورا ومعناه الدور ، وهذه السبعة لا تكون على التوالى ، وإنما تكون تارة سنتان بشيطان يتلوهما معبارت ، وتارة سنة بشيطا يتلوها معبارت ، كل ذلك حتّى لاتخرم عليهم قاعدة الثلاثة أيام التى لا يختارونها أن تكون أوّل سنتهم ، فإذا انقضى آذار من هذه السنة كبسوا شهرا وسموه آذار الثانى ، فإذا انقضت التسع عشرة سنة أعادوا دورا ثانيا وعَمِلوا فيه كذلك وعلى هذا أبدا .

أما مصطَلَح المنَجِّمين فالسنة عندهم من حُلُول الشمس فى أوّل نقطة من رأس الحَمَل إلى حلولها فى آخِرِ نقطة من الحوت ، ومنهم من يجعلها من حلول الشمس فى أوّل نقطة من رأس المِيزان إلى حلولها فى آخر نقطة من السُّنْبلة ، والأوّل هو المعروف . وتساهل بعضهم فقال : هى من كونِ الشمس فى نقطة مّا من فَلَك البروج إلى عودها إلى تلك النقطة ، ويقال إن سنة الجُنْد والمرتَزِقة بالديار المصرية كانت أوّلا على هذا المصطَلَح ، وبه يعملون فى الإقطاعات ونحوها .

الجمـــلة الثـالثة

(فى فصول السنة الأربعة : وفيه ثلاثة مَهَايِـعَ)

المَهْيَعُ الأوّل

(فى الحكمة فى تغيير الفصول الأربعة فى السنة)

وٱعلم أن الفُصول تختلِف بحسَب ٱختلاف طبائع السـنة لتبايُنِ مصالح أوقاتها حكمةً من الله تعالىٰ . قال بطليموس : تحتاج الأبدان إلىٰ تغيير الفصول ، فالشـتاء للتجميد ، والصيف للتَّحْليل ، والخريف للتَّدْريج ، والربيع للتَّعْديل . وعلىٰ ذلك يقال : إن أصل وَضْع الحمّـام أربعةَ بيوت بعضها دون بعض علىٰ التدريج ترتيبُها علىٰ الفصول الأربعة .

المَهْيَع الثـانى

(فى كيفيَّة ٱنقسام السنة الشمسية إلىٰ الفُصول)

وٱعلم أن دائرة منطقة البُروج لما قاطعت دائرة معدّل النهار علىٰ نقطتين متقابلتين مال عنهما (١) فى جهتى الشمال والجنوب بقـدر واحد فالنقطة التى تجوزُ عليها الشمس من ناحيـة الجَنُوب إلىٰ الشمال عن معدّل النهـار تسمّى نقطة الٱعتدال الربيعىّ ، وهى أوّل الحَمَل ، والنقطة التى تجوز عليها من الشمال إلىٰ الجنوب تسمّى نقطة الٱعتدال الخَرِيفىّ : وهى أوّل المِيزان . ويتوهم فى الفلك دائرة ثالثة معترضـة من الشمال إلىٰ الجنوب تمرّ علىٰ أقطاب تقـابل الدائرة المخطوطة علىٰ الفلكين تقطَعُ كلَّ واحد من فلك معدّل النهار وفلك البروج بنصفين ، فوجب أن يكون قطعها لفلَك البروج علىٰ

(١) لعله مال نصفها فى جهة الشمال والآخر فى جهه الجنوب كما يستفاد من المقريزى .

النقطتين اللتين هما فى غاية المَيْل والبُعْد عن معدّل النهار فى جهتى الشمال والجنوب : فتسمّى النقطة الشمالية نُقطة المُنْقَلَب الصيفىّ : وهى أوّل السَّرطان؛ وتسمّى النقطة الجنوبية نقطة المُنْقَلَب الشَّتْوىّ، وهى أوّل الجَدْى . وٱختلافُ طبائع الفصول عن حركة الشمس وتنقُّلها فى هــذه النُّقَط ، فإنها إذا تحرّكت من الحمل ، وهو أوّل البروج الشمالية أخَذَ الهواءُ فى السُّخُونة لقربها من سَمْت الرءُوس وتواتر الإسخان إلىٰ أن تصل إلىٰ أوّل السرطان ، وحينئذ يشتدّ الحرّ فى السَّرطان والأسدِ إلىٰ أن تصل إلىٰ الميزان ، فحينئذ يطيبُ الهواءُ ويعتــدلُ ؛ ثم يأخذُ الهواء فى البُرودة ويتواتَرُ إلىٰ أوّل الجَدْى ، وحينئذ يشتدّ البرد فى الجَدْى والدَّلْو لبُعْد الشمس عن سَمْت الرءُوس إلىٰ أن تصل إلىٰ الحَمَل فتعود الشمس إلىٰ أوّل حركتها .

المهيع الثالث

(فى ذكر الفصول، وأزمنتها، وطبائعها، وما حصة كلّ فصل منها
من البروج والمنازل ؛ وهى أربعة فصول)

الأوّل ـ فَصْل الربيع ـ وٱبتداؤه عند حُلُول الشمس برأس الحَمَل . وقد تقدّم ومدّته أحدٌ وتسعون يوما وربعُ يوم ونصف ثمن يوم . وأوّله حُلول الشمس رأسَ الحَمَل، وآخرُه عند قطعها بُرجَ الجوزاء ؛ وله من الكواكب القمر، والزُّهَرة؛ ومن المنازل الشَّرطان ، والبُطَين ، والثُّرَيّا ، والدَّبَران، والهَقْعة ، والهَنْعة ، والذِّراع بمــا فى ذلك من التداخل كما مر ؛ ومن الساعات الأُولىٰ والثانيةُ والثالثةُ ؛ ومن الرِّياح الجَنُوب؛ وطبعه حارٌّ رَطْب ؛ وله من الســنّ الطُّفُوليّة والحَدَاثة ؛ ومن الأخلاط الدمُ؛ ومن القُوىٰ الهــاضمة . وفيه تتحرّك الطبائع ،وتظهَر الموادّ المتولدة فى الشِّتاء، فيطلُع النباتُ، وتُزْهِر الأشجارُ وتُورِق، ويهيج الحيوان للســفاد، وتذوب الثُّلُوج،

وتَنْبُع العُيون ، وتَسِيل الأوْدِيةُ ، وأخَذَت الأرضُ زُخْرُفَها وٱزَّيَنَتْ فتصير كأنها عَرُوس تبدَّت لخُطَّابها ، فى مُصَبَّغَات ثيابها ؛ ويقال : إذا نزلت الشمسُ رأسَ الحمل.تصرَّم الشتاءُ ، وتنفَّس الربيعُ ، وٱختالتِ الأرضُ فى وَشْيِها البديع ، وتبرَّجتْ للنُّظَّاره ، فى مَعْرِض الحُسْن والنَّضاره .

ومن كلام الوزير المغربىّ : لو كان زمنُ الربيع شخصًا لكان مُقبَّلا ، ولو أن الأيام حيوان لكان لها حليا ومُجلّلا : لأن الشمس تخلُص فيه من ظُلُمات حُوتِ السماء ، خَلاصَ يونُسَ من ظُلُمات حُوتِ الماء ، فإذا وردت الحَمَلَ وافت أحبَّ الأوطان إليها ، وأعزَّ أماكنها عليها .

وكان عَبْدوس الخزاعىّ يقول : من لم يَبْتهِج بالربيع ولم يستَمْتِع بأنواره ، ولا ٱستروَحَ بنسيم أزهاره ، فهو فاسدُ المِزَاج ، محتاجٌ إلىٰ العِلاج .

ويروىٰ عن بقراط الحكيم مثله ، وفيه بدل قوله "فهو فاسدُ المِزاج" فهو عديمُ حِسٍّ ، أو سقيم نفْس . ولِجَلَالة محلِّ هذا الفصل فى القلوب ، ولنزوله من النفوس مَنْزِلةَ الكاعِب الخَلُوب ، كانت الملوك إذا عَدِمتْه ٱستعملَتْ ما يُضاهِى زَهْره من البُسُط المصوَّرة المنقَّشه ، والنَّمارق المُفَوّفة المرقَّشه . وقد كان لأنوشروانَ بِساط يسميه بِساطَ الشِّتاء مرصَّعٌ بأزرقِ الياقوتِ والجواهر وأصفره وأبيضه وأحمره ، وقد جعل أخضَره مكانَ أغصان الأشجار ، وألوانه بموضع الزَّهْر والنوّار . ولما أُخِذ هذا البساطُ فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى واقعة القادِسيَّة ، حُمِل إليه فيما افاء الله علىٰ المسلمين ؛ فلما رآه قال : "إن أُمَّةً أدّتْ هٰذا إلىٰ أميرها لأمينةٌ" ثم مزَّقه فوقع منه لعلىّ عليه السلام قطعةٌ فى قسمه مقدارُها شبر فى شبر فباعها بخمسةَ عشرَ ألف دينار .

وقد أطنب الناس فى وصف هذا الفصل ومدحه ، وأتوا بما يقصُر عن شرحه ،

وتغالى الشعراء فيه غاية التغالي، وفضّلوا أيامه ولياليه على الأيام والليالي، وما أحلى قول البحتري! :

أتاكَ الربيعُ الطّلقُ يختالُ ضاحكًا * من الحُسْن حتّى كاد أن يتكلّما
وقد نبّه النّوروزُ في غسَقِ الدُّجى * أوائلَ وَرْدٍ كُنّ بالأمْسِ نُوَّمَا
يُفتّحها بَرْدُ النّدى فكأنّما * يَبُثُّ حديثًا بينهنّ مُكتّمَا
ومِنْ شجَرٍ ردَّ الرّبيعُ رداءَهُ * كما نَشَرتْ ثوبًا عليه مُنَمْنَمَا
أحلَّ فأبدى للعُيونِ بَشاشةً * وكانَ قذًى للعَيْنِ إذْ كانَ مُحرِمَا
ورَقَّ نَسيمُ الجَوِّ حتّى كأنّما * يَجيءُ بأنْفاسِ الأحِبّةِ نُعَّمَا

وأحلى منه قول أحمد بن محمد العلوي :

أوَ ما ترى الأيّامَ كيفَ تبرّجتْ * وربيعُها والٍ عليها قَيِّمُ ؟
لَبِسَتْ بِهِ الأرضُ الجمالَ فحُسْنُها * متأزِّرٌ ببُرُودِهِ متعمِّمُ
أُنظُرْ إلى وَشْيِ الرّياضِ كأنّهُ * وَشْيٌ تُنشّرهُ الأكُفُّ يُنَمْنَمُ
والنّورُ يَهوِي كالعُقُود تبدّدتْ * والوَرْدُ يَخْجلُ والأقاحِي تَبْسِمُ
والطَّلُّ يَنْظِمُ فوقَهُنّ لآلئًا * قَدْ زانَ مِنْهُنّ الفُرادَى التّوْءَمُ
ويَكادُ يُذْرِي الدّمْعَ نَرجِسُها إذا * أضْحَى ويَقْطُرُ مِنْ شَقائِقِها الدّمُ

ومنها :

أرضٌ تُباهِيها السماءُ إذا دجَا * لَيْلٌ ولاحتْ في دُجاها الأنْجُمُ
فلِخُضْرةِ الجَوِّ اخْضِرارُ رِياضِها * ولِزَهْرِه زَهْرٌ ونَوْرٌ يَنْجُمُ
وكما يَشُقُّ سَنَا المَجَرّةِ جَرّه * وادٍ يَشُقُّ الأرْضَ طامٍ مُفْعَمُ
لم يَبْقَ إلا الدّهْرُ إذ باهَتْ به * وحَيًا يَجودُ بِهِ مَلِكٌ مُرْزِهِمُ

وقول الآخر :

طَــرَقَ الحَيَـاءُ ببِرِّهِ المَشْكُورِ * أهْـلًا به مِنْ زَائِرٍ ومَزُورِ !
وحَبَا الرِّياضَ غِلالةً مِنْ وَشْــيِهِ * بغَرائِبِ التَّفْوِيفِ والتَّحْبِــيرِ
وأعَارَهـا حَلْيـا تأنَّى الغيثُ فى * تَرْصِــيعِه بجَواهِرِ المَنْثُــور
بمُــوَرَّد كمُوَرَّدِ اليـاقُوتِ قا * رَنَ أبيْضًا كمَصاعِدِ الكافُور
ومُعَصْــفَرٍ شَرِقٍ وأصْـفَرَ فاقِعٍ * فى أخْضَرٍ كالسُّــنْدُسِ المَنْشُور
فكأنَّ أزرَقَهُ بَقَايَا إثْمِــدٍ * فى أعْــيُنٍ مَكْحُولةٍ بفُتُــورِ
كَمُلَتْ صِفاتُ الزَّهْرِ فيه فنابَ عَمَّــا * غاب مِنْ أنْواعِهِ بحُضُــورِ

وقول الآخر :

اشْربْ هَنِيئًا قَدْ أَتاكَ زَمانُ * متعَطِّــرٌ مَتَهَلِّلٌ نَشْوانُ
فالأرضُ وَشْىٌ والنَّسِيمُ مُعَنْبَرٌ * والمـاءُ راحٌ والطُّيورُ قِيـانُ

الثـانى ـ فصل الصيف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم وٱبتـداؤه إذا حلّت الشمسُ رأسَ السَّرطانِ، وٱنتهاؤه إذا أتتْ علىٰ آخِرِ درجة من السُّنْبلة؛ فيكون له من البُروج السرطانُ، والأسـدُ، والسنبلة . وهذه البروج تدلُّ علىٰ السُّكون، وله من الكواكب المِرِّيخ والشمسُ؛ ومن المنازل النَّثْرةُ، والطَّرْفُ، والجبهةُ ، والزُّبرة ، والصَّرْفة ، والعوَّاءُ ، والسِّماكُ يتداخل فيـه؛ وله من الساعات الرابعة والخامسة والسادسة ، ومن الرياح الصَّبَا ، وطبعُه حارّ يابس؛ وله من السنّ الشَّبابُ ؛ ومن الأخلاط المِرَّةُ الصـفراءُ ؛ ومن القُوَى القوّة النفسية والحيوانية . وللعرب فى هـذا الفَصْـل وغَرَاتٌ : وهى الحُرورُ؛ منها وغْرَةُ الشِّعرىٰ، ووَغْرة الجوزاءِ ، ووَغْرة سُهَيل ، أوّلها أقواها حرًّا؛ يقال إن الرجل فى هذه الوغرة يَعْطَشُ بين الحوضِ والبئر، وإذا طلع سُهيلٌ ذهبت الوَغَراتُ؛ وتُسمَّى الرياحُ التى فى هذه

الوَغَراتِ البَوارحَ؛ سميت بذلك لأنها تأتى من يسار الكعبة كما بَرَح الظَّبْىُ إذا أتاك من يسارك ؛ وقد أُولِعَ الناسُ بيْن لَفَحات الحرّ وسَمُومه ، وأَتوا فيه ببدائعَ تقلَعُ من قلب الصَّبِّ غَمامَ غُمومه. وفى ذلك قول بعضهم : أوقدت الظهيرةُ نارَها، وأذْكَتْ أُوَارَهـا ، فأذابت دِمَاغَ الضَّبّ ، وألهبت قلبَ الصَّبّ؛ هاجرةٌ كأنهـا من قلوب العُشّاق، إذا اشتعلت فيها نارُ الفِراق؛ حَرٌّ تَهرُبُ له الحِرْباءُ من الشمس ، وتستجير بمتراكم الرَّمْس؛ لا يطيب معـه عيش، ولا يَنْفَع معه ثَلْج ولا خَيْش؛ فهو كالقلب المهجور، أو كالتَّنُّور المَسْجور . ووصف بعضُهم : وهو ذو الرمّة حَرَّ هَاجرةٍ فقال :

وهَاجرةٍ حَـــرُّها واقِـــدٌ * نَصبْتُ لحـاجِبها حاجِبى
تَلُوذُ من الشَّمْسِ أطْلاؤُها * لِيَـاذَ الغَرِيمِ من الطَّـالب
وتَسـجُد للشمسِ حِرباؤها * كما يَسْـجُد القَسُّ للرَّاهِب

وقال سوّار بن المُضَرِّس :

وهاجِرةٍ تُشْـتَوَى بالسَّمُوم * جَنَـادِبُها فى رُءُوسِ الأَكَمْ
إذا المَوْتُ أخْطَأَ حِرْباءَهَا * رمىٰ نَفْسَه بالعَمىٰ والصَّمَمْ

وقال أبو العَلاء المَعرّى :

وهَجِـــيرةٍ كالهَجْرِ مَوْجُ سَرَابِها * كالبَحْرِ لَيْس لِمـائها من طُحْلُبِ
واخىٰ بِه الحِرْباءُ عُودَىْ مِنبَرٍ * للظُّهْـــر إلا أنه لم يَخْطُبِ

وقال آخر :

ورُبَّ يَوْمٍ حَـرُّه مُنْضِجُ * كـأنَّهُ أحْشَـاءُ ظَمْآنِ
كأنَّمـا الأَرضُ علىٰ رَضْفةٍ * والجَـوُّ مَحْشوٌّ بِنــيرانِ

وبالغ الأمير ناصرُ الدين بن الفقيسى فقال من أبيات :

فى زَمانٍ يَشْـوى الوُجُوهَ بحَـرٍّ * ويُذِيبُ الجُسُـومَ لوكُنَّ صَخْـرا

لا تَطِيرُ النُّسورُ فِيهِ إذا مَا * وَقَفَتْ شَمْسُه وقارَبَ ظُهْرا
يَشْتَكِى الضَّبُّ ما اشتكىٰ الصَّبُّ فِيهِ * ولِحِرْبائهِ إلىٰ الظِّلِّ حَرَّا
ويَودُّ الغُصْنُ الرَّطِيبُ بِه لَوْ * أنَّهُ مِنْ لِحَائِهِ يتَعَرَّى

وقال أيضا يصف ليلة شديدة الحرّ

يا لَيْلَةً بِتُّ بِهَا ساهِرًا * مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ وفَرْطِ الأُوَارْ
كأنَّنِى فى جُنْحِها مُحْرِم * لو أنَّ لِلْعَوْرَةِ مِنِّى اسْتِتَارْ
وكَيْفَ لا أُحْرِمُ فى لَيْلَةٍ * سماؤُها بالشُّهْبِ تَرْمِى الجِمَارْ

علىٰ أن أبا علِىّ بن رَشيق قد فَضَّله علىٰ فصل الشتاء فقال :

فَصْلُ الشِّتاءِ مُبِينٌ لا خَفاءَ بِهِ * والصَّيْفُ أفضَلُ مِنْهُ حِينَ يَغْشاكَا
فِيهِ الَّذِى وَعَدَ اللهُ العِبادَ بِهِ * فِى جَنَّةِ الخُلْدِ إن جاءُوه نُسّاكَا
أنْهارُ خَمْرٍ وأطْيارٌ وفاكِهَةٌ * ماشِئْتَ مِنْ ذَا ومِنْ هَذا ومِنْ ذاكَا
فَقُلْ لِمَنْ قال لَوْلا ذاكَ لَمْ يَكُ ذَا * إذًا تُفَضِّلُ علىٰ أُخْراكَ دُنْياكَا
سَمِّ الشِّتاءَ بعَبَّاسٍ تُصِبْ غَرَضًا * من الصَّوابِ وسَمِّ الصَّيْفَ ضَحّاكَا

الثالث ـ فصل الخريف : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصف ثمن يوم . وأوّله عند حُلول الشمس رأسَ الميزان، وذلك فى الثامن عشر من توت وإذا بَقِىَ من أيلول ثمانية أيام؛ وآخره إذا أتت الشمسُ علىٰ آخر درجة من القَوْس؛ فيكون له من البروج الميزانُ والعقربُ والقوسُ؛ وهذه البروج تدلُّ علىٰ الحركة، وله من الكواكب زُحَلُ، ومن الساعات السابعة والثامنة . والطالع فيه مع الفجر من المنازل الغَفْر والزُّبَانان والإكليل والقَلْب والشَّوْلة والنَّعائم والبَلْدة يتداخل فيه . وهو بارد يابس، له من السِّن الكُهُولة؛ تهيج فيه المِرَّة السَّوْداء وتقوىٰ فيه القوّة الماسكةُ، وتهبُّ فيه الرياح الشَّمالِيَّة، وفيه يبرُد الهواء، ويتغيَّر الزمانُ، وتنصرم

الثِّمارُ، ويتغير وجهُ الأرض، وتُهْزَل البهائم، وتموت الهوامّ، وتَنْجَحِرُ الحشرات، ويطلب الطير المواضع الدَّفِئة، وتصير الأرض كأنها كَهْلةٌ مُدْبِرة. ويقال: فصل الخريف ربيعُ النفس كما أن الربيعَ ربيعُ العين: فإنه ميقاتُ الأقوات، ومَوْسِم الثِّمار وأوانُ شَبَاب الأشجار، وللنُّفوس في آثاره مَرْبَع، وللجُسُوم بمواقع خيراته مستمْتَع.

وقد وصفه الصابى فقال "الخريف أصحُّ فصول السنة زمانا، وأسهلها أوانا، وهو أحد الاعتدالين المتوسِّطين بين الانقلابين، حين أبدَتِ الأرض عن ثمرتها، وصَرَّحت عن زُبْدتها، وأطلقت السماءُ حَوَافِلَ أنوائها، وآذنتْ بانسكاب مائها، وصارتِ المَوَارد، كمُتون المَبَارد، صفاءً من كَدَرها، وتهذبا من عَكَرِها، واطِّرادا مع نَفَحات الهواء، وحركات الرِّياح الشَّجْواء، واكتست الماشيةُ وَبَرها القشيب، والطائرُ ريشَه العَجيب".

ومن كلام ابن شبل: كلُّ ما يظهرُ في الربيع نُوَّارُه، ففي الخريف تُجتَنَى ثِمارُه.

وقال أبو بكر الصنوبرى:

ما قَضَى فى الرَّبيع حَقَّ المَسَرَّا * تِ مُضيِّعٌ لحقِّها فى الخَرِيف
نحنُ مِنْه على تَلَقِّى شِتاءٍ * يُوجِبُ القَصْفَ أو وداعِ مَصِيف
فى قَمِيصٍ من الزَّمانِ رَقِيقٍ * ورِداءٍ من الهَوَاءِ خَفِيف
يَرْعُد الماءُ فيه خَوْفاً إذا ما * لَمَسَتْه يَدُ النَّسيم الضَّعيف

وقال ابن الرومى يصفه:

لَوْلا فواكهُ أيْلُولٍ إذا اجتمعَتْ * من كُلِّ فَنٍّ ورَقَّ الجوُّ والماءُ
إذًا لَمَا حفَلَتْ نفسى إذا اشتملَتْ * علىَّ هائلةُ الحالَيْنِ غَبْراءُ
ياحَبَّذا ليلُ أيْلُولٍ إذا بردَتْ * فيه مَضاجِعُنا والرِّيحُ شَجْواءُ!
وجَمَّش القُرُّ فيه الجِلْدَ والتأمَتْ * من الضَّجيعَيْنِ أجسامٌ وأحْشاءُ

وأسْـفَرَ القَمرُ السارِى بصَفْحَتِهِ * يُرىٰ لهـا فى صَـفَاءِ المـاء لَألاءُ
بل حَبَّــذَا نَفْحةٌ من رِيحِهِ سَحَرًا * يأتيـك فيها من الرَّيْحان أنْباءُ
قُلْ فيه ما شِئْتَ من فضل تَعَهَّدُهُ * فى كُـلِّ يومٍ يَدٌ لله بَيْضَـاءُ

وقال عبد الله بن المعتز يصفه ويفضله علىٰ الصيف من أبيات :

طابَ شُرْبُ الصَّبُوحِ فى أيْلُولِ * بَرَدَ الظلُّ فى الضُّحىٰ والأَصِيلِ
وخبَتْ لَفْحةُ الهـوا جِرِعَنّــا * وآستَرَحْنَا من النَّهـار الطَّوِيلِ
وخرجْنَا من السَّمُومِ إلىٰ بَرْ * دِ نَسِيم وطِيبِ ظِلٍّ ظَلِيـلِ
فكأنَّا نَزْدادُ قـربا من الجنّـ * ـةِ فى كُلِّ شَارِقٍ وأَصِيـلِ
ووُجُوهُ البِقَـاعِ تَنْتظِـر الغيْـ * ـثَ آنتِظَارَ المُحِبِّ رَدَّ الرَّسُولِ

وقريب منه قول الآخر :

اِشْرَبْ علىٰ طِيبِ الزَّمانِ فقدْ حَدَا * بالصَّـيْفِ للنُّدْمانِ أطْيَبُ حادِ
وأشَمَّنـا باللَّيْــلِ بَرْدَ نَسِـيمِهِ * فآرتاحَتِ الأرْواحُ فى الأجْسَادِ
وافَاكَ بالأَنْداءِ قُـدَّامَ الحَيَـا * فالأرضُ للأمطـار فى آسـتِعْدادِ
كَمْ فى ضَمَـائِرِ تُرْبِها من رَوْضةٍ * بمَسِـيلِ ماءٍ أو قَـرَارَةِ وَادِ
تَبْـدُو إذا جاء السَّحابُ بقَطْـرِهِ * فكأنَّمـا كُنَّا علىٰ مِيعـادِ

ومما يقرُب منه قول جَحْظَةَ البرمكىّ :

لا تَصـغَ لِلَّوْمِ إن اللَّوْمَ تَضْلِيلُ * وآشرَبْ ففى الشُّرب للأَحْزان تَحْلِيلُ
فقدْ مَضىٰ القَيْظُ وآجْتُثَّت رَوَاحِلهُ * وطـابت الرِّيحُ لمـا آلَ أيْلُولُ
وليس فى الأرض بيتٌ يشتَكِى مَرَهًا * إلا وناظِــرُه بالطَّـلِّ مَكْحُولُ

وبالغ بعضهم فسوّىٰ بينه وبين فصل الربيع فقال فى ضِمْن تهنئةٍ لبعض إخوانه :

هُنِّيتَ إقْبــالَ الخَـرِيـ * ـفِ وفُزْتَ بالوَجْه الوَضِـ

تَمَّ آعتِــدَالًا فى الــكَمَا * ل بجاء فى خَلْقٍ سَــوِىّ

فَحَــكَىٰ الرَّبِيعَ بحُسْــنِهِ * ونَسِــيمِ رَيَّاهُ الذَّكِــىّ

وينُــوبُ وَرْدَ الزَّعفــرا * نِ له عَنِ الوَرْدِ الجَــنِىّ

وأبلغ منه قول الآخر، يفضله علىٰ فصل الربيع الذى هو سيدُ الفصول ورئيسُها :

مَحَاسِنُ للخَرِيفِ لَهُنَّ فَخْرٌ * علىٰ زَمَنِ الرَّبِيعِ وأَىُّ فَخْرِ

بِهِ صار الزَّمَانُ أَمَامَ بَرْدٍ * يُرَاقِبُ نَزْحَه وعَقِيبَ حَرِّ

ومع ذلك فالأطباء تذمّه لآستيلاء المِرّة السَّوْداء فيــه، ويقولون إنَّ هواءه ردىءٌ متىٰ تشبَّث بالجِسم لا يمكن تَلَافِيه، وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

خُذْ فِى التَّدَثُّرِ فى الخَرِيفِ فإنَّهُ * مُسْتَوْبِلٌ ونَسِيمُه خَطَّافُ

يَجْرِى مَعَ الأَيَّامِ جَرْىَ نِفَاقِهَا * لِصَدِيقِها ومن الصَّدِيقِ يُخَافُ

الرابع ــ فصــل الشتاء : وهو أحد وتسعون يوما وربع يوم ونصفُ ثُمن يوم، ودخولُه عند حُلول الشمس رأسَ الجَــدْى ؛ وذلك فى الثامن عشر من كيهك وإذا بَقِى من كانون الأوّل ثمانيةُ أيامٍ ؛ وآخره إذا أتت الشمسُ علىٰ آخر درجةٍ من الحُوت فيكون له من البروج الجَــدْىُ والدَّلْو والحُوت ؛ وهــذه البروج تدلُّ علىٰ السكون ؛ والطالعُ فيه مع الفجر ســعْدُ الذابحُ ، وسعدُ بُلَعَ ، وسعدُ السُّعود، وســعْدُ الأَخْبِيَة ، والفَرْغُ المقدَّم والفَرْغ المؤخَّر، والرِّشاء . فيه تَهُبُّ رياح الدَّبُور؛ وهو بارد رَطْبٌ . فيه يَهِيج البَلْغَم ، وتضعُف قُوىٰ الأبدان . له من السِّن الشيْخُوخة ومن القُوىٰ البدنيَّة القُوّة الدافعة ؛ وفيه يشتدّ البَرْد ، ويَخْشُن الهواء ، ويتساقط ورقُ الشَّجَر، وتَنْجَحِرُ الحيَّات ، وتكثر الأنواء، ويُظْلِم الجوُّ وتصير الأرضُ كأنها عجوزٌ هَرِمة، قد دنا منها الموتُ . وله من الكواكب المُشــتَرِى وعُطاردٌ . ومن الساعات العاشرةُ والحــادية عشرةَ . ويقال إذا حلَّت الشمسُ الجَدْىَ مدّ الشِّتاء رُواقَه ، وحلّ نِطاقَه ؛ ودبّت

عقاربُ البَرْدِ لاسِـبَه ، ونفع مُدَّخَرُ الكسبِ كاسِـبَه . وللبلغاء فى وصف حال من أظله ، مُلَحٌ تدفَع عن المقرور متىٰ ٱستعدّ بها طَلَّه ووبْلَه .

فمن ذلك قول بعضهم يَصف شِدّة البرد: "برد يغَيِّر الألوان، ويَنَشِّف الأبدان، ويُجَمِّد الريقَ فى الأشْداق، والدَّمع فى الآماق؛ بردٌ حال بين الكلب وهَريره، والأسدِ وزَئيره، والطيرِ وصَفيره، والماءِ وخَريره".

ومن كلام الفاضل: "فى(١) ليلة جَمَد خمرُها، وخَمَد جَمرُها؛ إلىٰ يومٍ تَوَدّ البَصَلة لو ٱزدادت قُمُصا إلىٰ قُمُصها، والشمسُ لو جَرَّت النارَ إلىٰ قُرْصها؛ أخذه بعضهم فقال:

وَيَوْمُنا أرياحُــهُ قَــرَّةٌ * تَخْمِش الأبْدانَ من قَرْصِها
يَوْمٌ تَوَدُّ الشمسُ من بَرْدِه * لو جَرَّتِ النــارَ إلىٰ قُرْصِها

ولٱبن حكينا البغداديّ:

اِلْبَس إذا قَــدِم الشِّتاءُ بُرودَا * وٱفْرُشْ علىٰ رَغْم الحَصِـيرِ لُبُودَا
الرِّيقُ فى اللَّهواتِ أصْبَحَ جامِـدًا * والدَّمْعُ فى الآماقِ صـار بُرُودا
وإذا رَمَيْتَ بفَضْل كأسكَ فى الهَوَا * عادَتْ إليْـكَ من العَقيقِ عُقُودا
وترىٰ علىٰ بَرْدِ المِيـاهِ طُيورَهـا * تختــارُ حَرَّ النـارِ والسَّــفُّودا
ياصاحِبَ العُودَيْنِ لا تُهْمِلْهُــما * حَرِّقْ لنـا عُــودًا وحَرِّكْ عُودا

ولبعضهم:

شِتاءٌ تَقْلِصُ الأشداقُ منه * وبَرْدٌ يجعَلُ الشُّــبَّانَ شِيبَا
وأرضٌ تَزْلَقُ الأقدامُ فيها * فمـا تَمْشِى بهـا إلَّا دَبِيبَا

ومن كلام الزمخشرى:

أقبلْتَ يابَرْدُ بِــبَرْدٍ أجْــرَدِ * تَفْعَل بالأوْجُهِ فِعْــلَ المِبْرَدِ

(١) لعله من بدليل الى .

أَظَلُّ فى البَيْتِ كمِثْلِ المُقْعَدِ * مُنْقَبِضًا تحتَ الكِسَاءِ الأَسْوَدِ
لَوْ قِيلَ لِى أنْتَ أميرُ البَلَدِ * فهاتِ للبَيْعَةِ كَفًّا يُعْقَدِ

ومن كلام أبى عبد الله بن أبى الخِصَال ، يصف ليلةً باردةً من رسالة : والكلبُ قد صافَحَ خيشومُهُ ذَنَبَه ، وأنكر البيتَ وطُنُبَه ، والتوى الْتِوَاءَ الحُبَاب ، وٱستدار استِدَارةَ الحُبَاب ، وجَلَّده الجَليد ، وضَرَبه الضَّرِيب ، وصَعَّد أنفاسَه الصَّعيد ، فحِماه مُبَاح ، ولا هَرِيرٌ ولا نُبَاح .

ومن شعر الحماسة فى وصف ليلة شديدة البَرْد :

فى ليلةٍ من جُمادىٰ ذاتِ أنْدِيَةٍ * لايُبْصِرُ الكَلْبُ من أنْدائِها الطُّنُبا
لايَنْبَحُ الكَلْبُ فيها غيرَ واحِدةٍ * حتّى يَلُفَّ علىٰ خَيْشُومه الذَّنَبا

ولأبى القاسم التنوخىّ :

ولَيْلَةٍ تَرَكَ البَرْدُ البِلَادَ بها * كالقَلْبِ أُسْعِرَ نارًا فهو مَثْلُوج
فإنْ بَسَطْتَ يَدًا لم تَنْبَسِطْ خَصَرًا * وإنْ تَقُل فبِقَوْلٍ فيه تَثْبِيجُ
فَنَحْنُ منه ولم نُخْرَسْ ذَوُو خَرَسٍ * ونَحْنُ فيه ولم نُفْلَجْ مفَالِيجُ

وقال بعضهم يصف يوما باردا كثير الضَّباب :

يَوْمٌ من الزَّمْهَرِيرِ مَقْرُورُ * عَلَيْهِ جَيْبُ السَّحابِ مَزْرُورُ
وشَمْسُهُ حُرَّةٌ مُخَدَّرةٌ * لَيس لَهَا مِنْ ضَبابِهِ نُورُ
كأنَّما الجَوُّ حَشْوُهُ إبَرٌ * والأرْضُ مِنْ تَحْتِهِ قَوارِيرُ

وحكى أنَّ أعرابيًّا ٱشتدّ به البردُ فأضاءتْ نارٌ فدَنَا منها ليَصْطَلِىَ ، وهو يقول : اللهم لاتَحْرِمْنِيها فى الدُّنيا ولا فى الآخرة! . أخذه بعضُهم فقال وهو فى غاية المبالغة :

أيارَبِّ إن البَرْدَ أصبحَ كالِحًا * وأنتَ بِحَالِى عالِمٌ لا تُعَلَّمُ
فإن كُنْتَ يَوْمًا مُدْخِلِى فى جَهَنَّمٍ * ففِى مِثْلِ هَذَا اليَوْمِ طابَتْ جَهَنَّمُ

وقد ٱعتنىٰ الناس بمدحه فقال بعضهم : لو لم يكن من فضله إلا أنه تَغِيبُ فيه الهَوَامُّ وتَنْجحر الحَشَرات، ويموت الذُّباب، ويَهْلِكُ البَعُوض، ويَبْرُد الماء، ويَسْخُن الجوف، ويَطِيبُ العِنَاق، ويظهر الفرش، ويكثر الدخن، وتلذ جمرة البيت .

وتابعه بعض الشعراء فقال :

تركَتْ مقدِّمةُ الخَرِيف حميـده * وبدا الشِّـتاءُ جَـدِيدُه لايُنْكَرُ
مَطَرٌ يرُوقُ الصَّحْوُ منـه وبَعْدَهُ * صَحْوٌ يَكادُ من الغَضَارةِ يمطر
غَيْثـانِ : والأنْواءُ غَيْثٌ ظاهِرٌ * لَكَ وجْهُه والصَّحْو غَيْث مُضْمَر

وقال أبو الفتح كُشَاجم :

أذِنَ الشِّـتاءُ بلَهْوِهِ المستَقْبَلِ * فـدَنَتْ أوائلُه بغيثٍ مُسْـبَل
مُتَكاثِفِ الأنواءِ مُنْغَـدِقِ الحَيَا * هَطِلِ النَّدىٰ هَزِجِ الرُّعود بجُلْجُلِ
جاءتْ بعَزْلِ الجَدْبِ فِيهِ فبَشَّرتْ * بالخِصْبِ أنواءُ السِّماكِ الأعْزلِ

وقد وَلِـع الناسُ بذكْرِ الٱعتدادِ لهـا قديمـا وحديثا .

قيل لأعرابىّ ماأعدَدْتَ للبرد ؟ فقال طُولُ الرِّعْده، وتَقَرْفُص القِعْده، وذوبُ(١) المِعْده . أخذه ٱبن سُكَّرة، فقال :

قِيـــلَ ماأعْدَدْتَ للبَرْ * دِ وقد جاء بِشِـــدّه
قُلْتُ دُرَّاعَـةُ عُرْيٍ * تَحْتَهـا جُبَّـةُ رِعْدَه

واعلم أن ما تقدّم من أزمان الفصول الأربعة هو المصطَلَح المعروف، والطريق المشهور . وقد ذكر الأبّىّ فى كتاب الدرّ أن العرب قسَّمت السنةَ أربعة أجزاء فجعلوا الجزء الأوّل الصَّـفَرِيَّة، وسَمَّوْا مطرَه الوَسْمِىّ، وأوّلُه عنـدهم سُـقُوط عَرْقُوة الدَّلْو السُّفْلىٰ، وآخِرُه سقُوط الهَقْعة، وجعلوا الجزء الثانى الشتاء، وأوّله سقوط الهَنْعة،

(١) لعل الصواب وذَرَب بالراء بدل الواو .

وآخره سقوطُ الصَّرْفة . وجعلوا الجزء الثالث الصيف، وأوّله سقُوط العوّاء، وآخره سقُوط الشَّوْلة . وجعلوا الجزء الرابع القَيْظ، وسموا مطَره الخَرِيف، وأوّله سقُوط النَّعائم، وآخره سقوط عَرْقُوَة الدَّلْو العُلْيا .

وذكر ابن قتيبة فى "أدب الكاتب" طريقا آخر فقال .

"الربيع يذهب الناس إلىٰ أنه الفصل الذى يتبعُ الشتاءَ، ويأتى فيه الوردُ والكَمْأَة، والنَّوْر؛ ولا يعرِفون الربيع غيرَه . والعرب تختلف فى ذلك : فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تُدْرِك فيه الثمارُ، وهو الخريف، وبعده فصلُ الشتاء، ثم فصل الصيف : وهو الوقت الذى تسمِّيه العامّةُ الربيعَ؛ ثم فصلُ القَيْظ : وهو الذى تسميه العامة الصيفَ، ومنهم من يسمِّى الفصلَ الذى تُدْرِك فيه الثمارُ : وهو الخريف الربيعَ الأوّل، ويسمِّى الفصل الذى يلى الشتاء وتأتى فيه الكَمْأَة والنَّوْر الربيعَ الثانى؛ وكلهم مجمعون علىٰ أن الخريف هو الربيع" .

وفى بعض التعاليق أن من العرب من جعل السنة ستة أزْمنة . الأوّل الوَسْمىّ وحِصَّتُه من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازلَ وثُلثا منزلةٍ : وهى العَوّاء، والسِّماك والغَفْر، والزُّبَانانِ، وثلثاَ الإكليل . الثانى الشتاءُ، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلثاَ منزلة : وهى ثلُثُ الإكليل، والقلبُ، والشَّوْلة، والنَّعائمُ، والبَلْدة، وثلُثُ الذَّابِح . الثالث الربيع، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلثَا منزلةٍ، وهى ثلثَا الذابح، وبُلَعُ، والسُّعُود، والأخبِيَةُ، والفَرْغ المقدّم . الرابع الصيف، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربع منازل وثلثا منزلة، وهى الفَرْغ المؤخَّر، وبطْن الحوت، والشَّرطان، والبُطَين، وثلثا الثريّا . الخامس الحَمِيم، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلثاَ منزلة : وهى ثلث الثريا، والدَّبرانُ، والهَقْعة، والهَنْعة، والذِّراع وثلُثُ النثرة . السادس

الخريف، وحصته من السنة شهران، ومن المنازل أربعُ منازلَ وثُلُثَا منزلة : وهى، ثلثا النَّثْرة، والطَّرْف، والجَبْهة، والخَرَتان، والصَّرْفة .

والأوائل من علماء الطِّب يقسِمُون السنة إلىٰ الفصول الأربعة إلا أنهم يجعلون الشتاء والصـيف أطولَ زمانا وأزيد مُدَّة من الربيع والخريف ، فيجعلون الشِّـتاء أربعةَ أشهر، والصيفَ أربعة أشهر، والربيع شهرين، والخريف شهرين، إذ كانا متوسطَين بين الحرّ والبرد وليس فى مُدّتهما طُول ولا فى زمانهما ٱتِّساع .

وٱعلم أن ما تقدّم من تفضـيل بعض الفُصول علىٰ بعض إنما هو أقاويل الشُّعَراء وأفانينُ الأدباء، تفنُّنا فى البلاغة، وإلا فالواضع حكيم جعل هذه الفصولَ مشتملةً علىٰ الحرّ تارة وعلىٰ البرد أخرىٰ لمَصَالح العباد، ورتَّبها ترتيبا خاصًّا علىٰ التدريج، يفهَم ذلك أهلُ العقول وأرباب الحِكْمة، جلَّتْ صنعتهُ أن تكون عَرِيَّة عن الحكمة أو موضوعة فى غير موضعها ﴿ماتَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ من تَفَاوُتٍ فارجِعِ البَصَرهَلْ تَرىٰ مِنْ فُطُورٍ ثم ٱرْجِعِ البَصَرَ كَرَّتينِ يَنْقَلِبْ إلَيْكَ البَصَرُ خاسِئًا وهو حَسِيرٌ﴾ :

الطـــرف الرابع

(فى أعياد الأمم ومواسمها : وفيه خمس جمل)

الجملة الأُولىٰ

(فى أعيـاد المسلميـن)

واعلم أن الذى وردت به الشريعة وجاءت به السنَّة عيدانِ : عيدُ الفِطْر، وعيدُ الأضحىٰ . والسبب فى ٱتخاذهمـا ماروَاه أبو داود فى سُنَنه عن أنس بن مالك رضى الله عنه " أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قَدِم المدينةَ ولِأهْلِها يَوْمانِ يَلْعَبُونَ فيهما، فقال : ماهٰذانِ اليَوْمان؟ فقالوا كُنَّا نَلْعَبُ فيهما فى الجاهلِيَّةِ ، فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم إنّ الله عزّ وجلّ قد بدّلكم خيرا منهما يومَ الأضحى، ويومَ الفطر" فأوّل مابُدِئ به من العيدين عيد الفطر، وذلك فى سنة آثنتين من الهجرة. وروى ٱبن باطيش فى كتاب الأوائل أن أوّل عيد ضحّى فيه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سنةَ ٱثنتين من الهجرة وخرج إلى المصلّى للصلاة، وحينئذ فيكون العيدان قد شُرِعا فى سنةٍ واحدة؛ نعم قد ٱبتدعت الشيعة عيدا ثالثا وسمّوه عيد الغدير. وسبب ٱتخاذهم له مؤاخاة النبيّ صلى الله عليه وسلم لعليّ كرم الله وجهه يوم غدير خُمّ: وهو غدير على ثلاثة أميال من الجُحْفة يَسْرَةَ الطريق تصُبّ فيه عينٌ وحوله شجرٌ كثير، وهى الغَيْضة التى تسمّى خُمّا. وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من حَجّة الوَداع نزل بالغدير وآخى بين الصحابة ولم يؤاخ بين عليّ وبين أحدٍ منهم فرأى النبيّ صلى الله عليه وسلم منه ٱنكسارا فضمّه إليه وقال "أمَا تَرْضَى أن تكونَ منّى بمنزلة هارُونَ من مُوسى إلا أنّه لا نبيَّ بَعْدى والتفت إلى أصحابه وقال مَنْ كُنْت مَوْلاه فعليّ مَوْلاه، اللهم وَالِ مَنْ وَالاه، وعادِ مَنْ عاداه" وكان ذلك فى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة سنةَ عشرٍ من الهجرة. والشيعة يُحيُون ليلةَ هذا العيد بالصلاة ويصلُّون فى صبيحتها ركعتين قبل الزوال وشِعارُهم فيه لُبْس الجديد، وعِتْقُ العبيد، وذَبْح الأغنام، وإلحاق الأجانب بالأهل فى الإكرام. والشعراء والمترسلون يهنّئون الكبراء منهم بهذا العيد.

الجملة الثانية
(فى أعياد الفرس)

وكان دينهم المجوسية، وأعيادهم كثيرة جدّا حتّى إن عليّ بن حمزة الأصبهانىّ عَمِل فيها كتابا ذكر فيه أسباب ٱتخاذهم لها، وسبب سُلُوكهم فيها؛ وقد ٱقتصرنا منها على المشهور الذى وَلِع الشعراءُ بذكره، وٱعتنى الأمراء بأمره؛ وهى سبعة أعياد.

العيد الأوّل النَّيْروز ــ وهو تعريب نُوروز ، ويقال إن أوّل من ٱتخذه جم‌شاد أحد ملوك الطبقة الثانية من الفُرْس ومعنىٰ شاد الشُّعاع والضياء . وإن سبب ٱتخاذهم لهذا اليوم عيدا أن الدِّين كان قد فسد قبله ، فلما ملك جدّده وأظهره، فسمِّى اليوم الذى ملك فيه نوروز أى اليوم الجديد. وفى بعض التعاليق أن جم‌شاد ملَك الأقاليمَ السبعةَ والجنّ والإنس ، فٱتخذ له عَجَلة ركِبَها ؛ وكان أوّل يوم ركبها فيه أوّل يوم من شهر افرودين ماه، وكان مدّة ملكه لايُريهم وجهه، فلما ركبها أبرز لهم وجهه ، وكان له حظ من الجَمَال وافرٌ، فجعلوا يوم رؤيتهم له عيدا، وسمّوه نوروزا . ومن الفرس من يزعُم أنه اليومُ الذى خلق الله فيه النُّور، وأنه كان معظّما قبل جم شاد . وبعضهم يزعم أنه أوّل الزمان الذى ٱبتدأ الفَلَكُ فيه بالدَّوَران . ومدّته عندهم ستة أيام أوّلها اليوم الأوّل من شهر افرودين ماه الذى هو أوّل شهور سنتهم . ويسمُّون اليومَ السادس النُّوروزَ الكبير، لأن الأكاسرة كانوا يقضُون فى الأيام الخمسة حوائجَ الناس علىٰ طَبَقاتهم، ثم ينتقلون إلىٰ مجالس أُنْسِهم مع ظُرَفاء خواصِّهم .

وحكىٰ ٱبن المقفَّع أنه كان من عادتهم فيه أن يأتىَ الملِكَ رجل من الليل قد أُرْصِد لما يفعله ، مليح الوجه ، فيقفُ علىٰ الباب حتّٰى يُصْبِح ، فإذا أصبح دخل علىٰ الملِك من غير ٱستئذان، ويقف حيثُ يراه، فيقول له : من أنتَ ؟ ومن أين أقبلتَ ؟ وأيْن تُرِيد؟ وما ٱسمُك ؟ ولأىّ شىءٍ ورَدْت؟ ومامعك؟ فيقول : أنا المنصورُ! وٱسمى المُبارَك! ومن قِبَل الله أقبلتُ! والملِكَ السعيدَ أردتُ! وبالهَنَاء والسلامة ورَدْت ! ومعى السَّنةُ الجديدة ! ثم يجلس؛ ويدخُلُ بعده رجل معه طَبَق من فِضّة وعليه حِنْطة،وشعير،وجُلْبانٌ، وحِمّص، وسِمْسِم، وأَرُزّ : من كل واحد سبعُ سُنْبُلات ، وسبعُ حَبّات ، وقطعةُ سُكَّر ، ودينارٌ ودِرْهم جديدان؛ فيضع الطبق بين

يدى المَلِك ، ثم تُدْخَل عليه الهَدَايَا ، ويكون أوّل من يدخل عليه بها وزيره ، ثم صاحب الخَرَاج ، ثم صاحبُ المَعُونة ، ثم الناس على طبقاتهم ؛ ثم يقدّم للملك رغيف كبيرٌ من تلك الحبوب مصنوعٌ موضوع فى سَلَّة ، فيأكل منه ويُطْعِم من حضر ؛ ثم يقول : هذا يومٌ جديدٌ ، من شهر جديدٍ ، من عامٍ جديد ، يحتاج أن يُجَدِّد فيه ما أَخْلَقَ من الزَّمان ؛ وأحق الناس بالفضل والإحسان الرأس : لفَضْله على سائر الأعضاء . ثم يخلَعُ على وُجُوه دولته ، ويصِلُهم ، ويفرّق عليهم ماوصل إليه من الهَدَايا .

وأما عوامُّ الفرس فكانت عادتُهم فيه رفعَ النار فى ليلته ، ورشَّ الماء فى صَبِيحتِه ؛ ويزعمون أن إيقاد النِّيران فيه لتحليل العفُونات التى أبقاها الشِّتاءُ فى الهواء . ويقال إنما فعلوا ذلك تنويها بذكره ، وإشهارا لأمره . وقالوا فى رَشِّ الماء : إنما هو بمنزلة الشُّهْرة لتطهير الأبدان مما آنضاف إليها من دُخَان النار المُوقَدة فى ليلته .

وقال آخرون : إن سبب رش الماء فيه أن فَيْروز بن يزدجرد لما آستتم سُورَ جَىّ ، وهى أَصْبَهان القديمة لم تُمْطَر سبعَ سنين فى مُلْكه ؛ ثم مُطِرت فى هذا اليوم ففرح الناسُ بالمطر وصَبُّوا من مائه على أبدانهم من شِدّة فَرَحِهم به ، فصار ذلك سُنَّة عندهم فى ذلك اليوم من كل عام ، وما أحلى قولَ بعضهم يخاطب مَنْ يهواه ، ويذكر ما يُعتَمَد فى النيروز من شب النِّيران وصَبِّ الأمواه :

كَيْفَ آبتِهاجُكَ بالنَّيْروزِ ياسَكَنِى * وكلُّ مافيه يَحْكِينى وأَحْكِيه
فتارَةً كَلَهِيب النَّارِ فى كَبِدِى * وتارَةً كتَوَالِى عَبْرَتِى فيه
أَسْلَمْتَنِى فيه ياسُؤْلِى إلى وَصَبٍ * فكَيْفَ تُهْدَى إلى مَنْ أنتَ تُهْدِيه

وأوّل من رسم هدايا النَّيْروز والمَهْرجان فى الإسلام الحجاجُ بنُ يوسفَ الثَّقفِىّ ، ثم رفع ذلك عمرُ بنُ عبد العزيز رضى الله عنه ، وآستمر المنعُ فيه إلى أن فتح باب

الهديَّة فيه أحمدُ بن يوسف الكاتبُ فإنه أهدىٰ فيه للأمون سَفَطَ ذهبٍ فيه قِطْعة عُودٍ هندىّ فى طُوله وعَرْضه، وكتب معه : هـذا يومٌ جَرَتْ فيه العاده، بإتحاف العَبِيد الساده، وقد قلت :

عَلىٰ العَبْدِ حَقٌّ وهْو لاشَكَّ فاعِلُهْ * وإن عَظُم المَوْلىٰ وجَلَّتْ فَواضِلُهْ
أَلَمْ تَرَنا نُهْـــدِى إلىٰ الله مالَهُ * وإنْ كان عَنْهُ ذاغِنًى فهو قابِلُهْ
فلَوْ كان يُهْـدىٰ للجَلِيلِ بقَدْرِه * لَقَصَّر عَنْهُ البَحْرُ يَوْمًا وساحِلُهْ
ولٰكِنَّنا نُهْـدِى إلىٰ مَنْ نُجِلُّهُ * وإنْ لم يَكُنْ فى وُسْعِنا مايُشاكِلُهُ

وكتب سعيد بن حميد إلىٰ صديقٍ له يوم نَيْروز: هذا يومٌ سَهَّلتْ فيه السنَّةُ للعبيد الإهـداءَ للملوك ، فتعَلَّقَتْ كلُّ طائفةٍ من البِرّ بحسَب القُدْرة والهِمَّة، ولم أَجِد فيما أملِكُ مايَفِى بحقِّـك، ووجدتُ تقريظَـك أبلغَ فى أداء مايجب لك، ومن لم يُؤْتَ فى هَدِيَّته، إلا من جِهَة قُدرته، فلا طعنَ عليه .

هذا مايتعلق بنَيْروز الفُرْس من ذكر الهَـدَايا فيه ، وإيقادِ النار، ورشِّ المـاء، واوّلِ من سنَّه . وأما تعلُّقه بالخراج فسيأتى الكلام علىٰ ذلك إن شاء الله تعالىٰ عند الكلام علىٰ جِبَاية الخَراج فى فنِّ الدِّيْونة .

العيد الثانى من أعياد الفُرس المَهْرجانُ ــ وهو فى السادس والعشرين من تشرين الأوّل من شهور السُّرْيان، وفى السادس عشر من مَهْرماه من شهور الفُرْس، وفى التاسع من أبيب من شُهور القبط ؛ و بينـه وبين النيروز مائةٌ وسبعةٌ وستون يوما، وهذا الأوانُ فى وسط زمان الخريف، وفى ذلك يقول الشاعر :

أُحِبُّ المَهْرَجانَ: لأنَّ فيه * سُرورًا للمُلوكِ ذَوِى السَّناءِ
وباباً للمَصِـــيرِ إلىٰ أَوانٍ * تُفَتَّحُ فيـه أبوابُ السَّماء

ومدّته ستة أيام، ويُسمّى اليوم السادس منه المَهْرجان الاكبر، كما يُسمّى اليوم السادس من أيام النَّيْروز عندهم النيروز الأكبر،

قال المسعودى : وسبب تسميتهم لهذا اليوم بهذا الاسم أنهم كانوا يُسمُّون شُهُورهم بأسماء ملوكهم، وكان لهم ملك يسمّى مَهْر، يسير فيهم بالعُنْف والعَسْف، فمات فى النصف من هذا الشهر، وهو مَهْرماه، فسمّى ذلك اليوم مهرجان، وتفسيره نفس مهر ذهبت، والفُرْس تقدّم فى لغتها ماتؤخره العرب فى كلامها وهذه اللغة الفهلوية وهى الفارسية الأولىٰ . وزعم آخرون أن مهر بالفارسية حِفَاظ وجان الروح، وفى ذلك يقول عبيدُ الله بن عبدِ الله بن طاهر :

إذا ما تحقّقَ بالمَهْرَجا * نِ مَنْ لَيْس يَعْرِفُ مَعْناهُ غاظا
وَمَعْناهُ أن غَلبَ الفُرْسُ فِيهْ * فَسَمَّوْه للرُّوح فِيهِ حِفَاظا

ويقال إنما ظهر فى عهد افريدون الملك، ومعنىٰ هذا الاسم إدْراكُ الثأر، وذلك أن افريدون أخذ بثار جدّه جم شاد من الضَّحّاك، فانه كان أفسد دينَ المَجُوسيَّة وخرج علىٰ جم شاد فأخذ منه المُلْك وقتله، فلما غَلَبه افريدون قتله بجبل دُنْباوَنْدَ، وأعاد المجوسية إلىٰ ما كانت، فاتَّخذ الفُرْسُ يوم قَتْله عيدا، وسمَّوْه مَهْرجان، والمهر الوفاء، وجان سلطان، وكان معناه سلطان الوفاء،

وزعم بعضُ الفُرْس أن الضحّاك هو النُّمْرود وافريدون هو إبراهيم عليه السلام، بلغتهم .

ويقال إن المَهْرجان هو اليوم الذى عُقِد فيه التاج علىٰ رأس اردشير بن بابك، أوّل ملوك الفُرْس الساسانيّة . وكان مذهب الفرس فى المهرجان أن يَدَّهِن ملكُهم بدُهن البان تبرُّكا، وكذلك العوام، وأن يَلْبَس القصبَ والوَشْى، ويُتوّج بتاج عليه صورة الشمس وعجلتها الدائرة عليها، ويكون أوّل مَنْ يدخل إليه المُوبَذان بطبق فيه

أُتْرُجَّة، وقطعة سُكَّر، ونَبِقٌ، وسفَرْجل، وعُنَّاب، وتُفَّاح، وعنقودُ عِنَب أبيض، وسبع طاقاتِ آسٍ، قد زَمْزم عليها؛ ثم تدخُل الناس علىٰ طبقاتهم بمثل ذلك، وربما كانوا يذهَبون إلىٰ تفضيله علىٰ النَّيْروز، وفيه يقول عبيدُ الله بن عبد الله بن طاهر:

أخَا الفُرْسِ إن الفُرْس تَعْلَمُ إنَّهُ * لَأَطْيَبُ مِنْ نَيْرُوزِها مَهْرَجَانُها
لِإدبار أيَّامٍ يغُمُّ هـــواؤُها * وإقبَــالِ أيَّامٍ يَسُرّ زَمَانُهَــا

قال المسعودى: وأهل المُرُوءات بالعراق وغيرها من مُدُن العجم يجعلون هــذا اليوم أوّلَ يوم من الشتاء فيُغَيِّرون فيه الفُرُش والآلاتِ، وكثيرا من المَلَابس.

العيد الثالث السَّدَق ـ ويسمّٰى أبان روز، ويعمل فى ليلة الحادى عَشَر من شهر بهمن ماه من شهور الفُرْس، وسُنَّتهم فيه إيقاد النِّيران بسائر الأدهان والوَلُوع بها حتّٰى إنهم يُلْقُون فيها سائر الحُبُوب؛ ويقال إن سبب ٱتخاذهم لهذا العيد أن الأب الأوّل، وهو عندهم كيومرت لما كمل له من ولده مائةُ ولد زوّج الذكور بالإناث، وصنع لهم عُرْسا أكثر فيه وَقُود النيران، ووافق ذلك الليلةَ المذكورة فاستسنَّتْ ذلك الفرسُ بعده. وقد وَلِعت الشعراءُ بوصف هذه الليلة فقال أبو القاسم المطرِّز يصف سَدَقا عمِله السلطان ملكشاه بدِجْلة، أشعل فيه النِّيران والشموعَ فى السَّمَارِيَّات(١) من أبيات:

وكُلُّ نارٍ علىٰ العُشَّــاقِ مُضْرَمَـــةٌ * من نارِ قَلْبِى أوْ مِنْ لَيْــلَةِ السَّـــدَقِ
نارٌ تَجَلَّتْ بهـــا الظَّلْمــاءُ وٱشتبهتْ * بسُـــدْفة الليـــل فيهـــا غُرَّة الفَلَقِ
وزارتِ الشمْسُ فيها البَدْرَ وٱصطَلَحا * علىٰ الكَواكبِ بَعْـــدَ الغَيْظ والحَنَقِ
مَدّتْ علىٰ الأرض بُسْطًا من جَوَاهِرِها * ما بَيْنَ مُجْتمِــع وارٍ ومُفْـــتَرِق
مِثْـــلَ المَصَابِيحِ إلَّا أنَّهَـــا نَزَلَتْ * مِنَ السَّماءِ بـــلا رَجْمٍ ولا حَرَق
أعْجِبْ بنَــارٍ ورِضْــوانٌ يسَـــعِّرُها * ومالكٌ قائِمٌ منهـــا عـــلىٰ فَـــرَق
فى مجْلِسٍ ضَحِكتْ رَوْضُ الجِنَـان لَهُ * لمـــا جَلَا ثَغْـــرُه عن واضِحٍ يَقَق

(١) كذا فى نهاية الارب أيضا والاظهر السُّمَيْرِيَّات وهو اسم لنوع من السفن.

وقال ابن حجاج من أبيات، يمدح بها عضد الدولة :

لَيْلَتُنا حُسْنُها عَجِيبُ * بالقَصْف والتيه قد تحقَّق
لِنَارِها في السَّما لِسانٌ * عن نُور ضَوْءِ الصَّباح يَنْطِق
والجَوُّ منها قد صار جَمْرا * والنجْمُ منها قد كاد يُحْرِق
ودِجْلَةُ أُضْرِمتْ حَرِيقًا * بألْفِ نارٍ وألفِ زَوْرق
فماؤُها كلُّه حَمِيمٌ * قد فار مما غَلَى وبَقْبَق

وقال عبد العزيز بن نُباتَة من أبيات يمدح بها عضد الدولة أيضا :

لَعَمْرِى لقدْ أذْكى الهُمَامُ بأرْضِهِ * مُشَهَّرةً يَنْتَابُها الفخرُ صالِيَا
تَغِيبُ النُّجُوم الزُّهْرُ عِنْدَ طُلُوعِها * وتَحْسُدُ أيَّامُ الشُّهورِ اللَّيالِيَا
قِلادَةُ مَجْدٍ أغْفلَ الدَّهْرُ نَظْمَها * عليه(1) وقد السِّنِينَ الخَوالِيَا
هِىَ اللَّيْلَةُ الغَرَّاءُ فى كُلِّ شَتْوَةٍ * تُغَادِرُ جِيدَ الدَّهْرِ أبْلَجَ حالِيَا

العيد الرابع الشركان ــ وهو فى الثالث عشر من تيرماه من شهور الفُرْس، زعموا أن أرس رمى سهمه لما وقعت المُصالحةُ بين منوجهر وقراسياب التركى من المملكة على رَمْية سهم، فامتدّ السهمُ من جبال طَبَرِسْتان إلى أعالى طخارِستان .

العيد الخامس أيام الفرودجان ــ وهى خمسة أيام؛ أوّلها السادس والعشرون من أبان ماه من شهور الفُرْس ، ومعناه تربيَة الرُّوح : لأنهم كانوا يعملون فيها أطعمةً وأشربةً لأرواح موتاهم، ويزعمون أنها تغتذى بها .

العيد السادس رُكُوب الكَوْسَج ــ ويعمل فى أوّل يوم من ادرماه من شهور الفُرْس، وسُنَّتهم فيه أن يركب فى كل بلد من بلادهم رجل كَوْسَج، قد أُعِدّ لما يُصْنع

(1) كذا فى الاصل . ولعله وقد بذ الخ

به بأكل الأطعمة الحارّة كالجَوْز، والثُّوم، واللَّحْم السمين ونحوها، وبشُرْب الشراب الصِّرف أيّاما قبل حلول الشهر، فإذا حلَّ الشهر لبس غِلالةً سابُورِيَّة، وركب بقرة وأخذ على يده غُرابا، ويتْبَعه الناس يصُبُّون عليه الماء، ويَضْرِبونه بالثَّلْج، ويروِّحون عليه بالمَرَاوح، وهو يصيح بالفارسية كرم كرم أى الحرّ الحرّ، يفعل ذلك سبعةَ أيام، ومعه أوباش الناس ينهَبُون ما يجِدُون من الأمتعة فى الحوانيت؛ وللسلطان عليهم مال، فإذا وُجِدوا بعد عصر اليوم السابع ضُرِبوا وحُبِسوا .

قال المسعودى : ولا يُعْرَف ذلك إلا بالعراق، وأرض العجم؛ وأهلُ الشام والجزيرة ومصرَ واليمن لا يعرفون ذلك . ويقال إن هذا الفِعْل كان يتداوله أهلُ كل بيت منهم كَوْسَجٌ، وحكى الزمخشرى فى كتابه "ربيع الأبرار" أن سبب ذلك أن كَوْسجا كان يَشْرَب فى هذه الأيام الدَّواء، ويَطْلِى بدنه فيها فغَلَب عليها، وفى ذلك يقول الشاعر :

قَدْ رَكِبَ الكَوْسَجُ ياصَاحِ * فٱنْزِلْ على الزَّهْرة والرَّاحِ
وٱنْعَمْ بآدِرْماه عَيْشًا وخُذْ * من لَذَّة العَيْشِ بأفْيَاحِ

والسَّنَة عندهم منقسمة على أقسام، فى أوّل كل قسم منها خمسةُ أيَّام تسمّى الكنبهارات، زعم زرادشت أن فى كل يوم خلق الله تعالى نوعا من الخليقة فهم يتخذونها أعيادا لذلك .

العيد السابع عيد بهمنجة ـ ويتخذونه فى يوم بهمن من شهر بهمن ماه، وسُنَّتهم فيه أنهم يأكلون فيه البَهْمَن الأبيض باللَّبن الحامض على أنه ينفع الحفظ؛ ورؤساء خُراسانَ يعملون فيه الدَّعَوات على طعامٍ يطبُخُون فيه كلَّ حبٍّ مأكولٍ ولحم حيوانٍ يؤكل، ويحضر ما يوجد فى ذلك الوقت من بقل أو نبات .

فهذه أعياد الفُرْس المشهورة الدائرة بين عامّتهم وخاصّتهم .

الجملة الثالثة

(فى أعياد القبط)

وٱعلم أن أعياد القبط كثيرة، وقد أتينا علىٰ ذكر تفصيلها سردا فى خلال شهور القبط مع ذكر غيرها ، وأوردنا كلَّ عيد منها فى يومه من شهور القِبْط، وربما ذكرنا بعضها أيضا فى شهور السُّريان والروم، علىٰ أن منها مالا يتعلق بوقتٍ مقيدٍ كالفِصْح الأكبر عندهم، فإنه متعلق بفِطْرهم من صومهم الأكبر، وهو غير مؤقت بوقتٍ معينٍ، بل يتغير بالتقديم والتأخير قليلا علىٰ ما سيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالىٰ، ونحن نقتصر فى هذا الفصل علىٰ المشهور من أعيادهم دون غيره ، ونبين أوقاتها ، ونشرح أسبابها . وهى أربعة عشر عيدا . وهى علىٰ ضربين : كبار وصغار .

الضرب الأوّل

(الكبار : وهى سبعة)

العيد الأوّل البِشارة، ويَعْنون به بِشارة غِبْريال، (وهو جبريل علىٰ زعمهم) لمريم عليها السلام بميلاد عيسىٰ صلواتُ الله عليه، يعْمَلُونه فى التاسع والعشرين من بَرمهات من شهور القبط .

الثانى الزَّيْتونة، وهو عيد الشَّعانين، وتفسيرُه بالعربيَّة التَّسْبيح، يعملونه فى سابع أحد من صومهم . وسنَّتُهم فيه أن يَخْرُجوا بسَعَف النخل من الكنيسة، وهو يوم ركوب المسيح لليَعْفُور، (وهو الحمار) فى القُدْس ودُخوله صِهْيَوْن وهو راكب والناس يسبِّحُون بين يديه، يأمر بالمعروف ويَنْهىٰ عن المنكر .

الثالث الفِصْح، وهو العيد الكبير عندهم، يعْمَلونه يوم الفِطر من صومهم الأكبر، يزعُمُون أن المسيح قام فيه بعْدَ الصَّلَبُوت بثلاثة أيام، وخَلَّص آدم من

الجحيم، وأقام فى الأرض أربعين يوما آخرها يوم الخميس، ثم صَعِد إلىٰ السماء . قاتَلَهُمُ اللهُ أنّىٰ يُؤْفكُون .

الرابع خميس الأربعين، ويسميه الشامِيُّون السُّلّاق : وهو الثانى والأربعون من الفِطْر، يقولون إن المَسِيح عليه السلام تسَلَّق فيه من تلاميذه إلىٰ السماء بعد القيام، ووعدهم بارسال الفارقليط، وهو رُوح القُدُس عندهم .

الخامس عيد الخميس، وهو عيد العُنْصُرة يعملونه بعد خمسين يوما من القيام؛ وهو فى السادس والعشرين من بشنس، ويقولون إن رُوح القُدُس حلَّتْ فى التلاميذ وتفرّقت عليهم ألسنة الناس فتكلموا بجميع الألسنة، وذهب كلُّ واحد منهم إلىٰ بلاد لسانِهِ الذى تكلَّم به يدعوهم إلىٰ دين المسيح .

السادس الميلاد، وهو اليوم الذى يقولون إن المسيح ولد فيه ببيتِ لَحْمٍ (قرية من أعمال فِلَسْطين) ويعملونه فى التاسع والعشرين من كيهك من شهور القِبْط، وهم يقولون إنه وُلِدَ يوم الاثنين، فيجعلون عشيَّةَ الأحد ليلةَ المِيلاد، فيُوقِدون فيها المصابيحَ بالكنائس ويزيِّنُونها .

السابع الغِطَاس، يعملونه فى الحادى عشَرَ من طوبه، من شهور القبط . يقولون إن يحيىٰ بن زكريَّا عليه السلام وينعتُونه بالمعمدان غَسَل عيسىٰ عليه السلام بِبُحَيرة الأُرْدُنّ، وأن عيسىٰ لما خرج من الماء اتصل به روح القدس علىٰ هيئة حمامة، والنصارىٰ يغْمِسون أولادهم فيه فى الماء علىٰ أنه يقع فى شدّة البرد، إلا أنّ عقبه يحمىٰ الوقت، يقول المصريون : غَطَّستم صيَّفتم، ونَوْرَزْتم شَتَّيتم .

الضرب الثـانى

(من أعياد القبط الأعياد الصِّغار . وهى سبعة أيام)

الأوّل الخِتَان، ويعملونه فى سادس بئُونة من شُهور القبط . ويقولون : إن المسيح خُتِن فى هذا اليوم وهو الثامن من الميلاد .

الثانى الأربعون، يعملونه فى الثامن من شهر أمشير من شُهور القبط، ويقولون : إن سَمْعان الكاهن دخل بعيسىٰ عليه السلام مع أمه بعد أربعين يوما من ميلاده الهَيْكَل وبارك عليه ؛ تلك عقول أضلّها باريها، وإلا فأين مَقَامُ الكاهن من مَقَام عيسىٰ عليه السلام . وهو رُوح الله وكلمتُه .

الثالث خَمِيس العهد، يعملونه قبل الفِصْح بثلاثة أيام، وشأنهم أن يأخذوا إناء ويملئُوه ماء ويزمزموا عليه، ثم يغسل البطريرك به أرجل جميع النصارىٰ الحاضرين، ويزعمون أنّ المسيح عليه السلام فعل هذا بتلاميذه فى هذا اليوم يعلِّمُهم التواضعَ، وأخذ عليهم العهد أن لا يتفرقوا وأن يتواضع بعضُهم لبعض، والعامّة من النصارىٰ يُسمُّون هذا الخميس خميس العَدَس ؛ وهم يطبخون فيه العَدَس علىٰ ألوانٍ .

الرابع سَبْت النُّور، وهو قبل الفِصْح بيوم . يقولون : إن النُّور يظهر علىٰ مقبُرَة المسيح فى هذا اليوم فتشتعِل منه مصابيحُ كنيسةِ القُمامة بالقُدْس . قال صاحب "مناهج الفكر" وغيره : وما ذاك إلا من تخييلاتهم النيرنجية التى يفعلها القِسِّيسون منهم ليستميلُوا بها عقولَ عوامِّهم الضعيفةَ . وذلك أنهم يعلِّقون القناديل فى بيت المَذْبَح ويتحيَّلُون فى إيصال النار إليها بأن يمدّوا علىٰ جميعها شريطا من حديد فى غاية الدقة مدهونا بدُهْن البَلَسان ودهن الزئبق، فإذا صلَّوْا وجاء وقتُ الزوال فتحُوا المَذْبَح فتدخل الناس إليه، وقد آشتعلت فيه الشموعُ ويتوصّلُ بعضُ القوم إلىٰ أن يُعْلِق

النــار بطَرَف الشريط الحديد فتسرى عليــه فتتقد القناديل واحدا بعد واحد ، إذ من طبيعة دُهْن البَلَسان عُلُوق النار فيه بسُرْعة مع أدنىٰ ملامسة ، فيظنّ مَنْ حضر من ذوى العُقول الناقصةِ أنّ النار نزلتْ من السماء فأوقدتِ القناديلَ ، فالحمد لله علىٰ الإسلام .

الخــامس حدّ الحُدُود ، وهو بعــد الفِصْح بثمانية أيام ؛ يعملونه أوّل أحدٍ بعــد الفِطْر : لأن الآحاد قبله مشغولةٌ بالصوم ؛ وفيه يجدّدون الآلات وأَثَاث البُيوت ، ومنه يأخذون فى الاستعداد للمعاملات والأمور الدُّنْيويّةِ .

السادس التجلِّى ، و يعملونه فى الثالث عشر من مسرىٰ من شهور القبط ، وآخره السابع والعشرون منها . يقولون : إن المسـيح عليه السـلام تجلّٰى لتلاميذه بعد أن رُفع فى هذا اليوم ، وتمنَّوْا عليه أن يُحْضرَ لهم إيليا وموسىٰ عليهما السلام ، فأحضرهما لهم بمصلّٰى بيت المَقْدِس ثم صَعِدَ وصَعِدا .

السابع عيد الصَّليب ، وهو فى السابع عشر من توت من شهور القبط ، والنصارىٰ يقولون : إن قُسْطَنطين بن هيلانى انتقل عن اعتقاد اليونان إلىٰ اعتقاد النصرانيــة و بنىٰ كنيسة قُسْطَنْطِينية العظمىٰ وسائر كنائس الشام ، و يزعمون أن سبب ذلك أنه كان مجاورا للبُرْجان (١) فضــاق بهم ذَرْعا من كثرة غاراتهم علىٰ بلاده ، فهمَّ أن يصانعهم ويَفْرِض لهم عليه إتاوة فى كلِّ عام ليكُفُّوا عنه ، فرأىٰ ليلةً فى المنام أن ملائكةً نزلتْ من السماء ، ومعها أعلامٌ عليها صُلْبانٌ فحاربت البُرْجان فانهزمُوا ؛ فلمــا أصبح عمل أعلاما وصوّر فيها صُلْبانا ثم قاتل بهــا البُرْجان فهزمهم ، فسأل من كان فى بلده من التُّجَّار هل يعرِفون فيما طافوه من البلاد دينا هــذا زِيُّه ؟ فقــالوا له دينُ النصرانيّة وإنه فى بلد القُدْس والخليــل من أرض الشــام . فأمر أهل مملكته بالرُّجُوع عن دينهم إليه ، وأن يقُصُّوا شعورهم و يحلِقُوا لِحَاهم . وإنمــا فعل ذلك لأنهم يزعمون

(١) البُرْجان جنس من الروم (قاموس) .

أن رُسُل عيسىٰ عليه السلام كانوا قد وردُوا علىٰ اليُونان قبلُ يأمرونهم بالتعبُّد بدين النصرانيـة فأعرضوا عنهم ومَثَّلوا بهم هـذه المُثْلة نَكَالا لهم ففعلوا ذلك تأسِّياً بهم . ولمـا تنصَّر قسطنطين خرجت أمّه هيـلانى إلىٰ الشام فبنت به الكنائس، وسارتْ إلىٰ بيت المَقْـدِس وطلبت الخشـبةَ التى زعمتِ النصارىٰ أن المسيح صُلِب عليها فُحِملتْ إليها فغشَّتْها بالذهب، وآتخذت ذلك اليوم عيدا .

وسيأتى الكلام علىٰ ذلك مفَصَّلا فى ترجمة قُسْطنطين فى خاتمة الكتاب عند ذكر الملوك الذين آسـتَوْلَوْا علىٰ الديار المصرية ، وفيما ذكرنا هنا مَقْنع والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

وقد صار من أعيـادهم المشهورة بالديار المصرية النَّيْروز، وهو أوّل يوم من سنَتِهم، وإن لفظة النيروز فارسـية معرّبة، وكأن القبط والله أعلم آتخذوا ذلك علىٰ طريقة الفُرْس وآسـتعاروا آسمه منهـم فسمَّوُا اليوم الأوّل من سَنتِهم أيضا نَيْروزا وجعلوه عيدا .

قال فى "مناهج الفكر" وهم يظهرون فيه من الفَرَح والسرور، وإيقاد النيران، وصَبِّ الأمواه أضعافَ مايفعله الفُرْس، ويشاركهم فيه العوامُّ من المسلمين .

قال المسعودىّ : وأهل الشام يعملون مثلَ ذلك فى أوّل سنتهم أيضا، وهو أوّل يوم من ينير من شهور الروم ويوافقه كانون الثانى : وهو الشهر الرابع من شهور السُّرْيان، وذلك فى السادس من طوبة من شهور القبط، ويسمُّونه القلنـداس، إلا أن أهل مِصْر يزيدون فيه التَّصَافُع بالأنطاع، وربمـا حملهم تركُ الآحتشام علىٰ ان يتجرءُوا علىٰ الرجل المُطَاع، ولولا أنَّ وُلاة الأمر يَرْدَعُونهم ويمنعونهم من ذلك، لمنعُوا الطريقَ من السالك، وهم مع ذلك مَنْ ظَفِروا به لايتركونه إلا بمـا يُرْضيهم . والذى آستقرّ عليه الحال بالديار المصرية إلىٰ آخر سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة أنهم

يقتصرون علىٰ رَشِّ الأمواه والتَّصافُع، وترك الآحتشـام دون إيقاد النيران، إلا من يفعل ذلك من النصارىٰ فى بيته أو خاصَّته .

ولهم أعياد ومواسمُ سِوىٰ ما تقـدّم ، ذكرها صاحب التذكرة ونحن نذكرها علىٰ ترتيب شهور القبط، وهى :

عيد سيغورس، وعيد متّى الإنجيلى ، وهمـا فى الثانى من توت . عيد سَمْعان الحبيس؛ وهو فى الرابع من توت . عيـد ماما؛ وهو فى الخـامس من توت . عيد شـعيا ؛ وهو فى السادس من توت . عيد ساويرس؛ وهو فى السابع من توت . عيد موسىٰ النبيّ عليه السـلام؛ وهو فى الثـامن من توت . عيد تُوما التلميذ ؛ وهو فى التاسع من توت . وخروج نُوحٍ عليه السلام من السفينة، ومَوْلِد مَرْيَمَ عليها السلام ، وهما فى العاشر من توت . عيد باسيليوس ، وهو فى الحادى عشَرَ من توت . عيد ميخائيل ، وصوم جدليا؛ وهما فى الثالث عشَرَ من توت . عيد سمعان الحبيس ، وعيد تادرس الشهيد؛ وهمـا فى الرابع عشر من توت . عيد اسفانوس؛ وهو فى السادس عشر من توت . وصوم كبور ؛ وهو فى العشرين من توت . ونياحة أبى جرج ؛ وهى فى الثانى والعشرين من توت . عيد أولاد الفرس؛ وهو فى الثالث والعشرين من توت . عيد أليصابات؛ وهو فى السادس والعشرين من توت . عيد اسطاتوا، وآنتقال يوحنا؛ وهما فى السـابع والعشرين من توت . عيد اجرويفون ؛ وهو فى أوّل بابه . عيد سوسنان ؛ وهو فى الثانى من بابه . عيد يعقوب بن حلفا ؛ وهو فى الخـامس من بابه . عيد أبو بولا ؛ وهو فى السابع من بابه . عيد تُوما؛ وهو فى الثامن من بابه . عيد أبى مسرجة؛ وهو فى العاشر من بابه . عيد يعقوب؛ وهو فى الحادى عشر من بابه . وشهادة متّى؛ وهى فى الثانى عشر من بابه . عيد القُرَات؛ وهو فى الثالث عشر من بابه .

وشهادة يُوحَنَّـا ؛ وهى فى العشرين من بابه . وتذكار السـيدة ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بابه . عيد لُوقا ، وهو فى الثـانى والعشرين من بابه . عيـدِ أبى جرج ؛ وهو فى الثالث والعشرين من بابه . ودخول السيدة الهيكل ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بابه . عيد يَعقوبَ و يُوسـفَ ؛ وهو فى السادس والعشرين من بابه . عيد أبى مقار ؛ وهو فى السابع والعشرين من بابه . عيد مُرْقُص ؛ وهو فى آخر يوم من بابه . عيد بُطْرُس البطرك ؛ وهو فى أوّل يوم من هاتور . عيد زَكَرِيَّا ؛ وهو فى الرابع من هاتور. وآجتماع التلاميذ ؛ وهو فى السادس من هاتور . وتكريز أبى جرج ؛ وهو فى السابع من هاتور . وعيد الأربع حيوانات ؛ وهو فى الثامن من هاتور . وتَذْكار الثلثمائة وثمـانية عشر ؛ وهو فى التـاسع من هاتور . ونِيَاحة إسحاق ؛ وهو فى العاشر من هاتور . عيد ميكائيل ؛ وهو فى الثانى عشر من هاتور . وشهادة أبى مينا ؛ وهو فى الخامس عشر من هاتور . عيد فيلبس الرسول ؛ وهو فى التاسع عشر من هاتور . عيد أساسـياس ؛ وهو فى العشرين من هاتور . عيد شَمْعون ؛ وهو فى الحادى والعشرين من هاتور . تَذْكار الشهداء ، وهو فى الثانى والعشرين من هاتور . عيد مركوريوس ؛ وهو فى الرابع والعشرين من هاتور . عيدَ أبى مقورة ؛ وهو فى الخـامس والعشرين من هاتور . عيد ادفيانيوس ؛ وهو فى السادس والعشرين من هاتور . عيد يعقوب المُقَطَّع ؛ وهو فى السابع والعشرين من هـاتور . عيد ياهور ؛ وهو فى الثـانى من كيهك . عيـد اندراس ؛ وهو فى الرابع من كيهك . عيد سيورس ؛ وهو فى الخامس من كيهك . عيد بزباره ، وهو فى السابع من كيهك . عيد أيامين ؛ وهو فى الثامن من كيهك . عيد مارى نُقُولا ؛ وهو فى العـاشر من كيهك . عيـد سَمْعان ؛ وهو فى الرابع عشر من كيهك ونِيَاحة يوحنا ؛ وهى فى السادس عشر من كيهك ؛ وصوم الميلاد ؛ وهو فى الثـالث

والعشرين من كيهك . وقتل الاطفال ؛ وهو فى الثـالث من طوبه . عيد يُوحَنَّا الإنجيـلى ؛ وهو فى الرابع من طوبه . وعيد توما ؛ وهو فى السابع من طوبه . عيد الخِتَان؛ وهو فى الثامن من طوبه . عيد إبراهيم؛ وهو فى التاسع من طوبه . وصوم الغطاس؛ وأوّله العاشر من طوبه . وصوم العذارىٰ؛ وهو فى الثالث عشر من طوبه . عيد ملسوس ؛ وهو فى الرابع عشر من طوبه . عيـد غاريوس ؛ وهو فى الخامس عشر من طوبه . عيد قيلانوس؛ وهو فى السادس عشر من طوبه . عيد يوحنس ؛ وهو فى التاسع عشر من طوبه . ونزول الإنجيل، وتذكار السيدة؛ وهما فى العشرين من طوبه . وصوم نينوى؛ وهو فى الحادى والعشرين من طوبه . ومقتل يحيىٰ؛ وهو فى الرابع والعشرين من طوبه . عيد أبى بشارة؛ وهو فى الخامس والعشرين من طوبه . عيـد الشهداء؛ وهو فى السادس والعشرين من طوبه . عيد طيارس الرسول ؛ وهو فى السابع والعشرين من طوبه ؛ وآخر نيـاحة نقولا ؛ وهو فى اليوم الآخر من طوبه . عيد العذارىٰ ، وعيد يهوذا ؛ وهما فى الأوّل من أمشير . عيد مقار؛ وهو فى الثانى من أمشير . ونياحة تيادرس؛ وهو فى السادس من أمشير . ونياحة برصوما ، وهو فى التاسع من أمشـير . عيد بيطن ، وشهادة يعقوب؛ وهما فى العاشر من أمشير . عيد أبى مسرجة؛ وهو فى الرابع عشر من أمشير . عيد قلانوس ؛ وهو فى السادس عشر من أمشير . عيد يعقوب الرسول ؛ وهو فى السابع عشر من أمشير . عيد بطرس الشهيد؛ وهو فى التاسع عشر من أمشير . ونزول السيدة من الجبل؛ وهو فى الحادى والعشرين من أمشير . وشهادة سدرس؛ وهو فى السادس والعشرين من أمشير . ووجود رأس يوحنا؛ وهو فى اليوم الآخر من أمشير . عيد الجلبانة؛ وهو فى الثالث من شهر برمهات . عيد أرمانوس؛ وهو فى السابع من برمهات . عيد المعمودة ؛ وهو فى التـاسع من برمهات . وظهور

الصليب ؛ وهو فى العاشر من برمهات . عيد أبى مينا ؛ وهو فى الحادى عشر من برمهات . عيد ميلاخى ؛ وهو فى الثانى عشر من برمهات . عيد إلياس الشهيد؛ وهو فى السابع عشر من برمهات . ونياحة بولص ؛ وهى فى الثانى والعشرين من برمهات . عيد العازر؛ وهو فى الثالث والعشرين من برمهات . عيد الشعانين؛ وهو فى الرابع والعشرين من برمهات . عيد المرسونة؛ وهو فى الخامس والعشرين من برمهات . وغسل الأرجل؛ وهو فى الثامن والعشرين من برمهات . وجمعة الصلبوت ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برمهات . عيد مرقص الإنجيلى ؛ وهو فى اليوم الآخر من برمهات . عيد توما البطرك ؛ وهو فى الثانى من برموده . عيد حزقيال النجيب؛ وهو فى الخامس من برموده . عيد مرقص؛ وهو فى السابع من برموده . والأخذ بالحديد؛ وهو فى الثامن من برموده . عيد يوحنا الأسقُفّ؛ وهو فى الحادى عشر من برموده . عيد جرجس؛ وهو فى الثالث عشر من برموده . عيد أبى مَتّى؛ وهو فى السادس عشر من برموده . عيد يعقوب، عيد سنوطه ، وهما فى التاسع عشر من برموده . وذكران الشهداء ؛ وهو فى الحادى والعشرين من برموده . عيد ساويرس ؛ وهو فى السادس والعشرين من برموده . عيد أبى نيطس ؛ وهو فى السابع والعشرين من برموده . عيد أصحاب الكهف ؛ وهو فى التاسع والعشرين من برموده . عيد مرقص الإنجيلى ، وهو فى اليوم الآخر من برموده . عيد تيادرس؛ وهو فى الثانى من بشنس . عيد شمعون؛ وهو فى الثالث من بشنس . عيد الحندس ؛ وهو فى الرابع من بشنس . ونياحة يعقوب ؛ وهو فى السابع من بشنس . عيد دفرى سوه ؛ وهو فى السادس من بشنس . عيد أساسياس ؛ وهو فى السابع من بشنس . وصعود المسيح عندهم فى الثامن من بشنس . عيد دير القصير؛ وهو فى الحادى والعشرين من بشنس . ونزول السيد

إلىٰ مصر؛ وهو فى الرابع والعشرين من بشنس . عيد سوس ؛ وهو فى الخامس والعشرين من بشنس . عيد توما التلميـذ ؛ وهو فى السادس والعشرين من بشنس . عيـد سمعون العجاس ؛ وهو فى السابع والعشرين من بشنس . عيـد طيمارس ؛ وهو فى التاسع والعشرين من بشنس . عيد الورد بالشا ؛ وهو فى اليوم الآخر من بشنس . عيد أبى مقار ؛ وهو فى الثانى من بـؤونه . ووجود عظام لوقا ؛ وهو فى الثالث من بـؤونه . عيد توما ، وعيد مامور ؛ وهمـا فى الرابع من بـؤونه . عيـد يوحنا ، ونزول صحف إبراهيم (عليه السلام) ؛ وهما فى التاسع من بـؤونه . عيد أبى مينا ؛ وهو فى الخامس عشر من بـؤونه . عيد أبى مقار ، وهو فى السادس عشر من بـؤونه . عيد السيدة ؛ وهو فى الحادى والعشرين من بـؤونه . عيد اتريب وهو فى الثالث والعشرين من بـؤونه . عيد أبى مينا ، وهو فى (١) والعشرين من بـؤونه ؛ وتذكار تيادرس ؛ وهو فى أوّل أبيب . ونياحة بولص ؛ وهو فى الثانى من أبيب والثالث منه أيضا . وعيد المعينة ؛ وعيد القيصرية ؛ وهما فى الخامس من أبيب . وعيد أبى سنوبة ؛ وهو فى السابع من أبيب . وعيد اسنباط ؛ وهو فى الثامن من أبيب . وشهادة هرون ، وعيد سمعان ؛ وهما فى التاسع من أبيب . وعيـد تادرس نطيره ؛ وهو فى العاشر من أبيب . وعيد أبى هور ؛ وهو فى الثانى عشر من أبيب . وعيد أبى مقار ؛ وهو فى الرابع عشر من أبيب . وعيد اقدام السريانى ؛ وهو فى الخـامس عشر من أبيب . وعيـد يوحنا وزكريا ؛ وهو فى السادس عشر من أبيب . وعيد يعقوب التلميذ ، وهو فى السابع عشر من أبيب . وعيد بولاق ، وهو فى التاسع عشر من أبيب . وعيد تادرس الشهيد ، وهو فى العشرين من أبيب . وعيد السـيدة ، وعيد ميخائيل ؛ وهما فى الحادى

(١) بياض بالاصل

والعشرين من أبيب . وعيد سمعان البطرك، وعيد شنوده، وهما فى الثالث والعشرين من أبيب . وعيد سمنود، وهو فى الرابع والعشرين من أبيب . وعيد مرقوريوص، وهو فى الخامس والعشرين من أبيب . وعيد حزقيل النبىّ عليه السلام، وهو فى السابع والعشرين من أبيب . ورفعة إدريس عليه السلام، وعيد مريم، وهما فى الثامن والعشرين من أبيب . وحرم السيد، وهو فى اليوم الآخر من أبيب . وعيد الخندق، وهو فى اليوم الأوّل من مسرى . وعيد أبى مينا، وهو فى اليوم الثانى من مسرى . وعيد سمعان المعمودىّ، وهو فى الثالث من مسرى . ودخول نوح السفينة، وهو فى الثامن من مسرى . وعيد طور سينا، وعيد السيدة، وهما فى التاسع من مسرى . وعيد اللباس، وهو فى العاشر من مسرى . وشهادة أنطونيوس، وعيد العدوية، وهو فى الخامس عشر من مسرى . وعيد يعقوب الشهيد، وهو فى السابع عشر من مسرى . وعيد أبى مقار، وهو فى الثامن عشر من مسرى . وعيد اليَسَع، وهو فى التاسع عشر من مسرى . وعيد أصحاب الكهف، وهو فى العشرين من مسرى . وصوم الأربعين، وهو فى الحادى والعشرين من مسرى . وعيد الجوزة بِدِمَشْقَ، وهو فى الثالث والعشرين من مسرى . وعيد صوفيل، وهو فى السادس والعشرين من مسرى . وعيد إبراهيم وإسحاق، وهو فى الثامن والعشرين من مسرى . وعيد موسى الشهيد، وشهادة يوحنا، وهو فى اليوم الآخر من مسرى .

الجـــــلة الرابعة

(فى أعياد اليهود ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مانطقت به التوراة بزعمهم، وهى خمسة أعياد)

العيد الأوّل ـ رأس السنة ، يعملونه عند رأس سنتهم ويسمُّونه عيد رأس هيشا أى عيـد رأس الشهر ، وهو أوّل يوم من تشرى يتنزل عندهم منزلة عيد الأضحى عندنا، ويقولون : إن الله تعالىٰ أمر إبراهيم عليه السـلام بِذَبْح إسمـاعيل آبنهِ فيه وفَدَاه بِذِبْحٍ عظيم .

العيــد الثانى ـ عيد صوماريا : ويسمونه الكبور ، وهو عندهم الصوم العظيم الذى يقولون : إن الله تعالىٰ فرض عليهم صومه ، ومن لم يصمه قُتِل عندهم . ومدّة هـذا الصوم خمس وعشرون ساعة يُبْدأ فيها قبـل غروب الشمس فى اليوم التاسع من شهر تشرى ، وتختم بمضىّ ساعة بعد غروبها فى اليوم العاشر، وربمـا سَمَّوْه العاشور . ويُشْـترط فيه لجواز الإفطار عندهم رؤية ثلاثة كواكب عنـد الإفطار وهى عنـدهم تمـام الأربعين الثالثة التى صامها موسىٰ عليه السلام . ولا يجوز أن يقع هذا الصوم عندهم فى يوم الاحد، ولا فى يوم الثلاثاء، ولا فى يوم الجمعة، ويزعمون أن الله يغفر لهم فيه جميع ذنوبهم ماخلا الزنا بالمحصَنَة ، وظلمَ الرجل أخاه، وجحده ربوبية الله تعالىٰ .

العيد الثـالث ـ عيدالمِظَلّة : وهو سـبعة أيام أوّلهـا الخامس عشر من تشرى وكلها أعياد عندهم ، واليوم الآخر منها يسمّى عرايا أى شجر الخلاف ، وهو أيضا حج لهم ، يجلسون فى هذه الأيام تحت ظلالٍ من جريد النخل وأغصان الزَّيْتون

والخِلاف، وسائر الشجر الذى لاينتشر ورقُه علىٰ الأرض؛ ويزعمون أن ذلك تَذْكار منهم لإظلال الله إياهم فى التيهِ بالغمام .

العيد الرابع ـ عيدالفَطِير : ويسمُّونه الفِصْح ، ويكون فى الخامس عشر من نَيْسَانَ؛ وهو سبعة أيام أيضا ، يأكلون فيها الفطير، ويُنَظِّفون بيوتهم فيها من خبز الخمير لأن هذه الأيامَ عندهم هى الأيامُ التى خَلَّص الله فيها بنى إسرائيل من يَدِ فرعون وأغرقه، فخرجوا إلىٰ التيهِ، فجعلوا يأكلون اللحم والخبز الفَطِير وهم بذلك فرحون ، وفى أحد هذه الأيام غرق فرعون .

العيد الخامس ـ عيدالأسابيع : ويسمَّى عيد العُنْصرة وعيد الخطاب، ويكون بعد عيد الفطير بسبعة أسابيع ؛ وآتخاذهم لهذا العيد فى السادس من سيوان من شهور اليهود ، وهو الثالث والعشرون من بشنس من شهور القِبْط . يقولون : إنه اليوم الذى خاطب الله فيه بنى إسرائيل من طُور سِينا، وفى جملة هذا الخطاب العشر كلمات : وهى وصَايَا تضمنت أمرا ونهيا، وضمنت التوفيق لمن حَصَّلها حفظا ورعيا، وهو حج من حجوجهم ؛ وحجوجهم ثلاثة : الأسابيع ، والفطير، والمِظَلة ؛ وهم يعظمونه، ويأكلون فيه القطائف، ويتفننون فى عملها، ويجعلونها بدلا عن المنّ الذى أنزل الله عليهم فى هذا اليوم، ويسمَّى هذا العيد أيضا عشرتا، ومعناه الآجتماع .

الضرب الثانى

(ماأحدثه اليهود زيادة علىٰ مازعموا أن التوراة نطقت به، وهو عيدان)

العيد الأوّل ـ الفوز : وهوعندهم عيد سرور ولَهْو وخَلاَعَةٍ يُهْدِى فيه بعضُهم إلىٰ بعض؛ وهم يقولون : إن سبب آتخاذهم له أن بختنصر لما أجلىٰ مَنْ كان ببيت المَقْدس من اليهود إلىٰ عراق العجم، أسكنهم بجَىّ، وهى إحدىٰ مدينتى أصفَهَان

ثم ذهبت أيام الكلدانيين وملكت الفرس الأولىٰ والأخيرة فلما ملك أردشير بن بابك وتسميه اليهود بالعبرانية أجشادوس، وكان له وزير يسمونه بلغتهم هيمون، ولليهود يومئذ حَبْرٌ يسمّى بلغتهم مردوخاى، فبلغ أردشير أن له ٱبنةَ عَمٍّ من أحسن أهل زمانها وأكملهم عقلا، فطلب تزويجها منه فأجابه لذلك، فَحَظِيت عنده حُظْوة صار بها مردوخاى قريبا منه، فأراد هيمون إصغاره وٱحتقاره حسدا له، وعزم علىٰ إهلاك طائفة اليهود التى فى جميع مملكة أردشير، فرتب مع نوّاب الملك فى جميع الأعمال أن يقتلَ كلٌّ أحد منهم من يعلمه من اليهود، وعين له يوما: وهو النصف من آذار، وإنما خَصَّ هذا اليوم دون سائر الأيام: لأن اليهود يزعمون أنّ موسىٰ ولد فيه وتُوُفِّى فيه، وأراد بذلك المبالغةَ فى نِكَايتهم ليتضاعف الحزن عليهم بهلاكهم وبموت موسىٰ فٱتضح لمردوخاى ذلك من بعض بِطَانة هيمون، فأرسل إلىٰ ٱبنة عمه يُعْلِمها بما عزم عليه هيمون فى أمر اليهود، وسألها إعلام الملك بذلك، وحضّها علىٰ إعمال الحيلة فى خلاص نفسها وخلاص قومها فأعلمت الملك بالحال وذكرت له إنما حمله علىٰ ذلك الحسد علىٰ قُرْبنا منك ونصيحتنا لك، فأمر بقتل هيمون وقتلِ أهله، وأن يكتب لليهود بالأمان والبِرِّ والإحسان فى ذلك اليوم، فٱتخذوه عيدا. واليهود يصومون قبله ثلاثة أيام؛ وفى هذا العيد يصوّرون من الورق صورة هيمون ويملئُون بطنها نخالة ومِلْحًا ويلقونها فى النار حتّٰى تحترق، يخدعون بذلك صِبْيانهم.

العيد الثانى، عيد الحنكة، وهو ثمانية أيام، يُوقِدون فى الليلة الأولىٰ من لياليه علىٰ كل باب من أبوابهم سراجا، وفى الليلة الثانية سراجين، وهكذا إلىٰ أن يكون فى الليلة الثامنة ثمانيةُ سُرُج. وهم يذكرون أن سبب ٱتخاذهم لهذا العيد أن بعض الجبابرة تغلَّب علىٰ بيت المقدس وفَتَكَ باليهود وٱفتَضَّ أبكارهم، فوثب عليه

أولا كُهَّانُهم وكانوا ثمانية فقتله أصغرهم، وطلب اليهود زيتا لوَقُود الهيكل فلم يجدوا إلا يسيرا وزَّعوه على عدد مايُوقِدونه من السُّرُج على أبوابهم فى كل ليلة إلى تمام ثمان ليال فاتخذوا هذه الأيام عيدا وسَمَّوْه الحنكة، ومعناه التنظيف لأنهم نَظَّفوا فيه الهيكَلَ من أقذار شِيعة الجبار، وبعضهم يسميه الربانى.

الجملة الخامسة

(فى أعياد الصابئين)

ومَدَار أعيادهم على الكواكب، وأعيادهم عند نزول الكواكب الخمسة المتحيِّرة: وهى زُحَلُ، والمشتَرِى، والمِرِّيخُ، والزُّهَرَةُ، وعُطَارِدٌ فى بيوت شَرَفها، وذلك أن من البروج مايقوم لهذه الكواكب مَقَام قصر العز للملك، يشتهر فيه ويعلو ويشْرُف، وفيها درجات معلومة يُنْسَب الشرف إليها، ومنها مايَخْمُلُ فيه ويفسُد حاله، ويكون ذلك أيضا فى درجات معلومة، تقابَلُ درجاتُ الشرف به من البرج المقابِل. ويسمَّى ذلك هُبُوطا، فزُحَلُ شرفه فى إحدى وعشرين درجة من الميزان، ويهبِط فى مثلها من الحَمَل، والمشترِى يشْرُفَ فى خمس عشرة درجةً من السَّرَطان، ويهبط فى مثلها من الجَدْيِ، والمِرِّيخ يشرف فى ثمانَ عشرةَ درجة من الجَدْى، ويهبط فى مثلها من السَّرَطان، والزُّهَرة تشرُف فى تسع وعشرين درجة من الحُوت، وتهبط فى مثلها من السُّنْبلة، وعُطَاردٌ شرفُه فى خمسَ عشرةَ درجة من السنبلة، ويهبط فى مثلها من الحوت، وكذلك الشمس تشرُف فى تسعَ عشرةَ درجة من الحَمَلِ، وتهبط فى مثلها من الميزان، والقمر يشرُف فى ثلاث درجات من السنبلة، ويهبط فى مثلها من الحوت. وهم يعظمون اليوم الذى تنزل الشمس فيه الحَمَلَ، ويلْبَسون فيه أفخر ثيابهم. وهو عندهم من أعظم الأعياد. وكانت ملوكهم تَبْنِي الهياكل وتجعل لها أعيادا بحسَب الكواكب التى بُنِيت على اسمها فيه.

البـاب الثـانى

من المقـــــالة الأولىٰ

(فيما يحتاج إليه الكاتب من الأمور العملية : وهو الخط وتوابعه ولواحقه ؛
وفيه فصـــلان)

الفصـــــل الأوّل

(فى ذكر آلات الخط، ومباديه، وصوره، وأشكاله، وما ينخرط فى سلك ذلك ؛
وفيه ثلاثة أطراف)

الطـــــرف الأوّل

(فى الدّواة وآلاتها ؛ وفيه مقصدان)

المقصـــــد الأوّل

(فى نفس الدّواة ، وفيه أربع جمل)

الجمـــــلة الأُولىٰ

(فى فضـــلها)

قد أخرج ابن أبى حاتم من رواية أبى هريرة رضى الله عنـه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال "خَلَقَ اللهُ النُّونَ : وهى الدَّواة" وأخرج ابن جرير عن ابن عبـاس رضى الله عنهما، قال : "لَمَّا خلق اللهُ النُّونَ : وهى الدَّواة وخلَقَ القلَمَ، فقال : اكْتُبْ، فقال : وما أَكْتُبُ؟ قال : اكتُبْ ماهو كائن إلىٰ يوم القيامة" . وهذا

الخبر والأثر دالّان علىٰ أن المراد بالنون فى الآية هو الدّواة، وإن فسره بعضهم بغير ذلك . إذ الدواة هى المناسبة فى الذّكر لذكر القلم وتسطير الكتابة فى قوله تعالىٰ : ﴿نٓ والقَلَمِ وما يَسْطُرُونَ﴾ . وبالجملة فإن الدواة هى أُمُّ آلات الكتابة، وسِمْطُها الجامعُ لهـا . ولا يخفىٰ ما يجب من الاهتمام بأمرها ، والاحتفال بشأنها، فقد قال عبد الله بن المبارك : مَنْ خَرَج من بيته بغير مِحْبَرة وأداةٍ، فقد عَزَم علىٰ الصَّدَقة". قال المدائنى : يعنى بالأداة مثلَ السِّكِّين، والمِقْلَمة، وأشباههما . قال محمد بن شعيب ابن سابور : مَثَل الكاتب بغير دَوَاة، كمَثَل مَنْ يسير إلىٰ الهيجاء بغير سِلاح .

الجمـــلة الثانية

(فى أصـــلها فى اللغــــة)

قال أبو القاسم بن عبد العزيز : تقول العرب : دَوَاة ودَوَيات فى أدنىٰ العدد، وفى الكثير دُوًى ودِوًى (بضم الدال وكسرها) ويقال أيضا دُوَاء، ودِوَاء (بضم الدال وكسرها) ودَوَايَا مثل حَوَايَا، وأدْوَيت دَوَاة أى اتخذت دواة، ورجل دَوّاء (بفتح الدال وتشديد الواو) إذا كان يبيعها، كقولك عَطّار وبَزّاز .

الجمـــلة الثـالثة

(فيما ينبغى أن تتخذ منه، وما تحلّىٰ به)

أمّا ما تتخذ منه فينبغى أن تُتَّخذ من أجود العِيدَان وأرفعها ثمنا كالآبِنُوس، والسَّاسَم ، والصَّنْدَل ، وهـذا اعتماد منه علىٰ ما كان يعتاده أهـلُ زمانه ، ويتعاناه أهلُ عصره .

قلت : وقد غلب علىٰ الكُتّاب فى زماننا من أهل الإنشـاء وكُتَّاب الأموال اتخاذُ الدُّوِىّ من النُّحاس الأصـفر، والفُولاذ ، وتغالَوْا فى أثمـانها وبالغُوا فى تحسينها .

والنُّحاس أكثر ٱستعمالا ، والفُولاذ أقلُّ لعِزَّته ونَفَاسته ، وٱختصاصه بأعلىٰ درجات الرياسة، كالوزارة وماضاهاها .

وأمّا دُوِىُّ الخشب فقد رُفِضت وتركت إلا الآبِنُوس والصَّــنْدل الأحمر، فإنه يتعاناه فى زماننا قضاةُ الحكم ومُوَقِّعوهم و بعض شهود الدواوين .

وأمّا التحلية، فقال الحسن بن وهب : سبيل الدَّواة أن يكون عليها من الحِلْيــة أخفُّ مايكون و يمكن أن تُحَلّٰى به الدُّوِىُّ، فى وَثَاقة ولُطْف : ليأمن من أن تتكسر أو تنقَصِم فى مجلســه ، قال : وحق الحليــة أن تكون سَاذَجَةً بغير حُفَرٍ ولا ثَنْيَات فيها : ليأمن من مسارعة القَذىٰ والدَّنَس إليها ، ولا يكون عليها نقشٌ ولا صُورة . وحقُّ هــذه الحِلْيَة مع ماذكره ابن وهب أن تكون من النحاس ونحوه دون الفِضَّة والذهب . علىٰ أن بعض الكُتَّاب فى زماننا قد ٱعتاد التحلية بالفضة ، ولا يخفىٰ أنَّ حكم ذلك حكم الضبة فى الإناء فتحرم مع الكِبَر والزينة ، وتكره مع الصغر والزينة والكِبَر والحاجة ، وتباح مع الصغر والحاجة من كَسْرٍ ونحوه، كما قرّره أصحابنا الشافعية رحمهم الله ، نعم يحرم التكفيت بالذهب والفضة ، وكذلك التمويه إذا كان يحصل منه بالعرض علىٰ النار شىء، والله أعلم .

الجمـــــلة الرابعة

(فى قـــدرها وصـــفتها)

قال الحسن بن وهب : سبيل الدَّواة أن تكون متوسطة فى قَدْرها : لا بالقصيرة فتقصُر أقلامها وتقبُح ، ولا بالكثيفة فيثقل مَحْمَلُها وتُعجف . فلا بدّ لصاحبها أن يحملها و يضَعَهَا بين يدى مَلِكه أو أميره فى أوقات مخصوصة ، ولا يحسن أن يتولّى ذلك غيره . قال الفضل : و يكون طُولهـا بمقدار عَظْمِ الذراع أو فُوَيْقَ ذلك قليلا

لتكون مناسبة لمقدار القلم . قلت : وقد آختلفتْ مقاصد أهل الزمان فى هيئة الدواة : من التدوير والتربيع . فأما كُتَّاب الإنشاء فإنهم يتخذونها مستطيلة مدوّرة الرأسين، لطيفة القَدّ، طلبا للخِفّة، ولأنهم إنما يتعانون فى كتابتهم الدَّرْجَ، وهو غير لائق بالدواة فى الجملة . على أن الصغير من الدَّرْج لا يأبىٰ جعله فى الدواة المدوّرة . وأما كُتَّاب الأموال، فإنهم يتخذونها مستطيلة مربعة الزوايا، ليجعلوا فى باطن غطائها ما آستخفوه مما يحتاجون إليه من ورَق الحِسَاب الديوانىّ المناسب لهذه الدواة فى القطع . وعلىٰ هذا الأنموذج يتخذ قضاة الحكم ومُوَقِّعوهم دُوِيَّهم، إلا أنها فى الغالب تكون من الخشب كما تقدّم .

وآعلم أنه ينبغى للكاتب أن يجتهد فى تحسين الدواة وتجويدها وصونها . ولله المدائنى حيث يقول :

جوّد دَوَاتَكَ، وآجتهد فى صَوْنِها * إن الدُّوِىَّ خزائنُ الآدابِ

وأهدىٰ أبو الطَّيِّب عبد الرحمن بن أحمد بن زيد بن الفرج الكاتب إلىٰ صديق له دواة آبِنُوس مُحَلَّاة وكتب معها .

لم أَرَ سَوْداءَ قبلَها ملَكَتْ * نَوَاظِرَ الخَلْقِ والقُلوبَ مَعَا
لا الطُّولُ أزرىٰ بِهَا ولا قِصَرٌ * لَكِنْ أتتْ للوُصولِ مجتَمَعا
فَوْقَكِ جُنْح من الظَّلام بها * وبارقٌ بِآئْتِلاقها لَمَعَا !
خُذْهَا لِدُرٍّ، بها تُنَظِّمُه * يَرُوقُ فى الحُسْن كُلَّ مَنْ سَمِعا

أما المِحْبرة المفرَدة عن الدواة فقد آختلف الناس فيها : فمنهم من رجَّحها ومالوا إلىٰ آتخاذها لخِفَّة حَمْلها ، وقالوا : بها يكتب القرءان والحديث والعلم . وكرهها بعضهم وآستقبحها من حيث إنها آلة النسخ الذى هو من أشدّ الحِرَف وأتعبها ، وأقلها مَكْسَبا .

ويروىٰ أن شعبة رأىٰ فى يد رجل مِحْبرة، فقال : ٱرم بها فإنها مشـُومة لايبـقىٰ معها اهل ولا ولد، ولا أمّ ولا أب .

الطـــــرف الثـــانى

(فى الآلات التى تشتمل عليها الدواة، وهى سبع عشرة آلة، أوّل كل آلة منها ميم)

الآلة الأولىٰ ـ المِزْبَرُ (بكسر الميم)، وهو القلم أخذا له من قولهم زَبَرت الكتاب إذا اتقنتَ كتابته، ومنه سميت الكُتُب زُبُراً كما فى قوله تعـالىٰ : ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ وفى حديث أبى بكر أنه دعا فى مرضه بدواة ومِزْبَرٍ أى قلم .

وفيه جملتان .

الجمـــلة الأولىٰ

(فى فضـــله)

عن الوليد بن عُبَادة بن الصـامت رضى الله عنه قال : دعانى أبى حين حضره الموتُ فقال : إنى سمعتُ رسول الله صـلى الله عليه وسلم يقول : "أوّلُ ماخَلَق الله القَلَمُ، فقال : ٱكتُبْ، قال : يارَبِّ وما أكْتُب ؟ قال : ٱكتبِ القدَرَ وما هو كائنٌ إلىٰ الأبَد" رواه أحمد وأبو داود والتِّرمِذىّ، وقال : حسن غريب، وٱبن أبى حاتم واللفظ له . وعن ٱبن عباس رضى الله عنهـما يرفعه "إن أوّل ماخَلَق اللهُ القلَمُ والحُوتُ، فقال له ٱكتُبْ، فقال : يارَبِّ وما أكْتُب ؟ قال : ٱكتُبْ كلَّ شىء كائن إلىٰ يوم القيامة" ثم قرأ "نٓ والقلَم" رواه الطبرانىّ ووقفه ٱبن جرير علىٰ ٱبن عبّـاس . وفى رواية قال ٱبن عباس : "أوّل ماخلق اللهُ القـلَمُ، قال : ٱكتب، قلل : وما أكتب ؟ قال : ٱكتب القَدَر، فجرىٰ بمـا يكون من ذلك

اليوم إلىٰ يوم قيـامِ الساعة ، ثم خلق النون ورفع بُخار المـاء، فتفتَّقتْ منه السماءُ وبُسِطت الأرضُ علىٰ ظهر النُّون ، فاضـطرب النُّون ، فمـادَتِ الأرضُ، فأُثبِتتْ بالجبال ، فإنها لتَفْخَر علىٰ الأرض : لأنها أُثبِتَتْ عليها" رواه ابن جرير وآبن أبى حاتم .

وروىٰ محمد بن عمر المدائنى بسنده إلىٰ مجاهد "إن أوّلَ ماخلق الله اليراعُ ، ثم خلَقَ من اليرَاعِ القَـلَمَ ، فقال له : آكتُب ، قال : ما أكتُب ؟ قال : ما هو كائن ، قال : فزبرَ القلمُ بمـا هو كائن إلىٰ يوم القيامة" . وأخرج بسـنده إلىٰ آبن عباس ، قال : "أوّلُ ماخلَق اللهُ اليراعُ : وهو القَصَب المُثقَّبُ ، فقال : آكتُبْ قضائى فى خَلْقِى إلىٰ يوم القيامة" . ويروىٰ أنه لما خلقه الله تعالىٰ نظر إليه فانشَقَّ بنصـفين ، ثم قال : آجْرِ قال : يارب بمـا أجرى ؟ قال : بمـا هو كائن إلىٰ يوم القيامة ، فجرىٰ علىٰ اللوح المحفوظ بذلك ، وكان منه ﴿تبَّتْ يَدا أَبِى لَهَبٍ﴾ . ويروىٰ أنَّ خلقَه قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألفَ سنة .

وآعلم أن القلم أشرفُ آلات الكتابة وأعلاها رتبة ، إذ هو المبـاشر للكتابة دون غيره ، وغيرُه من آلات الكتابة كالأعوان ، وقد قال الله تعالىٰ : ﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم به ، وذلك فى غاية الشرف . ولله أبو الفتح البُسْتِيُّ حيث يقول :

إذا أَقْسَمَ الأبطالُ يومًا بِسَيْفِهِمْ * وعَدُّوهُ مما يُكْسِبُ المجدَ والكَرَمْ
كفىٰ قَلَمَ الكُتَّابِ عِزًّا ورِفْعَـةً * مَدىٰ الدَّهرِ أن الله أقسمَ بِالْقَلم

وقال تعـالىٰ : ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ فأضاف التعليم بالقلم إلىٰ نفسـه . قال آبن الهيثم : من جلالة القلم ، أن الله عز وجل لم يكتب كتابا إلا به ، لذلك أقسم به . قال المدائنى : وقد روى أن النبى صـلى الله عليه وسلم قال "مَنْ قَلَمَ قَلَمًا يكتب به علما أعطاه الله شجرةً فى الجنة ، خَيْرٌ من الدُّنْيا وما فيها" . وقد قيل الأقلام مَطَايا الفطَن ، ورُسل الكَرَم . وقال عبد الحميد : القلم شجرةٌ ثمرها الألفاظ ،

والفِكْر بحر لُؤْلؤه الحِكْمَة، وفيـه رِىُّ العُقُول الكامنة . وقال جبل بن يزيد : القلم لسان البصر يناجيه بمـا سُتِر عن الأسماع . وقال ٱبن المقفَّع : القلم بريد العلم يحث علىٰ السحر(١)، و يبحث عن خفىّ النظر . وقال أحمد بن يوسـف : ماعبَرات الغوانى فى خُدودهن بأحسَنَ من عبَرات الأقلام . وقيل : القلم الطلسم الأكبر . وقيل : البيان ٱثنان : بيان لسان، و بيان بَنَان، ومن فضل بيان البنَان أن ما تثبته الأقلام باقٍ علىٰ الأبد، وما يَنْبِسُه اللسان تدرُسه الأيام . و يقال : عقول الرجال تحت أسِنَّة أقلامها ، بنوء الأقلام يَصُوب غيثُ الحكمة . وقال جعـفر بن يحيىٰ : لم أر باكيًا احسن تبسُّما من القلم .

قال ٱبن المعتز : القلم مجهِّز لجيوش الكلام ، تخدُمه الإراده ، ولا يَمَـلُّ من الٱستزاده، كأنه يُقَبِّل بساط سُلْطان، أو يفَتِّح نَوْرَ بُسْتان .

ومن إنشاء الوزير ضـياء الدين بن الأثير الجزرىّ ، من جواب كتبه للعماد الأصْـفَهانى : وكيف لا يكون ذلك ، وقلَمُها هو اليراع الذى نفَثَت الفصـاحة فى رُوعِه ، وكَمَنَت الشـجاعة بين ضُـلُوعه ! فإذا قال أراك كيف تُنَسَّق الفرائد فى الأجيـاد .

ومن كلام ابى حفص بن برد الأندلسىّ : ما أعجبَ شأنَ القلم ! يشرب ظُلْمَةً، ويلْفِظ نُورا، قد يكون قلم الكاتب، أمضىٰ من شَباةِ المُحارِب، القلم سهم ينْفُذ المَقاتِل، وشَفْرَةٌ تَطيح بها المفاصل . ومن كلام العميد : عمرَ بن عثمان الكاتب : قلم يُطْلِقُ الآجالَ والأرزاق، و ينْفُث السّم والدرياق، قلم تَدِقُّ عن الإدارك حركاتُه، وتحلّى بالنفائس فتكاته ، يُسْرِع ولا ٱنحدارَ السـيل إلىٰ قراره، وٱنقداحَ الضوء من شراره، معطوفة الغايات علىٰ المبـادى، مصروفة الأعجاز إلىٰ الهوادى، وإذا صال

(١) كذا بالاصل ولعلها الخبر .

أراك كيف آختلاف الرماح بين الآساد . وله خصائصُ أخرىٰ يبدعها إبداعا، فإذا لم يأت بها غيره تَطَبُّعًا أتىٰ بها هو طبعا، فَطَوْرًا يُرىٰ إماما يُلْقِى درسا ، وطَوْرا يرىٰ ماشطة تجلو عِرْسًا ؛ وطورا يُرىٰ وَرْقَاءَ تصـدَحُ فى الأوراق ، وطورا يرىٰ جوادا مُخَلَّقا بخلوق السِّباق؛ وطورا أُفعُوانا مطرقا، والعجب أنه لا يزهو إلا عند الإطراق! ولطالمـا نَفَثَ سِحْرا، وجلب عِطْرا، وأدار فى القِرْطاسِ خمرا؛ وتصرَّف فى صنوف الغَنَاء فكان فى الفتح عُمَر، وفى الهَدْيِ عمّارا ؛ وفى الكيد عمْرا، فلا تَحْظَىٰ به دولة إلا فخرت علىٰ الدول، وآستغنت عن الخيل والخَوَل .

وقال الإسكندر : لولا القلم ما قامت الدنيـا ، ولا آسـتقامت المملكة . وكلُّ شيءٍ تحت العقل واللسان لأنهما الحاكمان علىٰ كل شيء،والقلم يريكهما صورتين، ويوجدُكهُما شكلين .

وقال بعض حكماء اليونان : أمور الدنيا تحت شيئين : السيف والقلم، والسيف تحت القلم . وقال آخر : فاقتْ صـنعة القلم عند سائر الأمم، جمع الحكم فى صحون الكتب . وقال العتـابى : ببكاء القـلم تبسم الكتب . وقال البُحْتُرِىّ : الأقلام مَطَايا الفِطَن . وقال أبو دُلَف العِجْلىّ : القلم صائغ الكلام، يفرغ ما يجمعه الفكر، ويصوغ ما يسبكه اللب . وقال سهل بن هارون : القلم أنف الضـمير، إذا رُعِف أعلن أسراره، وأبان آثاره . وقال ثمامة : ماأثَّرته الأقلام،لم تطمع فىدَرْسه الأيام. وقال هشام بن الحكم : أحسن الصنيع صنيع القلم والخطِّ الذى هو جَنَىٰ العقول . وقال على بن منصور : بنور القلم تُضِيء الحكمة . وقال الجاحظ : من عرف النعمة فى بيـان اللسان، كان بفضل النعمة فى بيان القلم أعْرَف . وقال غيره : بالقلم تُزَفُّ بنـاتُ العقول إلىٰ خُدُور الكُتُب . وقال المأمون : لله درّ القلم كيف يحوك وَشْىَ المملكة . وقال بعض الأعراب : القـلم ينهَضُ بمـا يَظْلَع بحمله اللّسان، ويبلغ مالا

يبلغه البيان . وقال بعضهم : القلم يجعـل للكتب ألْسُنا ناطقة ، وأعيُنا ملَاحظَة ، وربما ضمنها من ودائع القلوب مالا تبوح به الإخوان عند المشاهدة . وقال أوميرس الحكيم : الخط شىء أظهره العقل بواسـطة سِن القلم ، فلمـا قابل النفس عِشـقَتْه بالعنصر . وقال مرطس الحكيم : الخط بالقلم يُنَمِّى الحكمة . وقال جالينوس : القلم الطلسم الأكبر . وقال بقراط : القلم علىٰ إيقاع الوتر ، والمَهْنة المنطقيـة مقدّمة علىٰ (١) المَهْنة الطبيعية . وقال بليناس : القلم طبيب المَنْطق . وقال أرسطاطاليس : القلم العلَّة الفـاعلة ، والمِداد العلة الهَيُولانِيَّـة ، والخط العلة الصُّورية ، والبلاغة العلَّة التمامية . وقد أكثر الشعراء القول فى شرف القلم وفضله .

فمن ذلك قول أبى تمَّام الطائىّ :

إن يَخْدُمِ القلمُ السَّيفَ الذى خَضَعَتْ * له الرِّقَابُ وذلّتْ خَوْفَــه الأُمَمُ
فَالمَوْتُ والمَــوتُ لا شىءٌ يغـالبه * مازال يَتْبَــعُ ما يجرى به القَــلَمُ
كَذا قضىٰ الله للأقلام مــذ بُرِيَتْ * أن السيوفَ لهـا مُذْ أُرْهِفَتْ خَدَمُ

وقوله :

لك القــلمُ الأعلىٰ الذى بِشَــبَاتِهِ * تُصَاب من الأمرِ الكُلَىٰ والمفاصِلُ
لُعَـابُ الأفاعِى القـاتلاتِ لُعَـابُهُ * وأَرْىُ الجنىٰ آشتارته أيدٍ عَوَاسِلُ
له رِيقَـــة طَلٌّ، ولكنّ وقْعَها * بآثاره فى الشَّرْق والغـــرب وَابِلُ
فَصِيح إذا آستنطقته وهو راكب * وأعجمُ إن خَاطَبْتَـه وهو رَاجِلُ
إذا ما آمتطىٰ الخمسَ اللِّطافَ وأُفْرِغَتْ * عليه شِـعَابُ الفِكْرِ وهى حَوَافِلُ
أطاعته أطرافُ القَنَـا ، وتقوّضت * لنَجْواه تقويضَ الخِيَـامِ الجَحَافِلُ
إذا آستغزر الذهنُ الجلىّ وأقبلت * أعاليــه فى القِرْطاس وهى أسَافِلُ

(١) لعله مقدم على أو نحو ذلك .

وقد رَفَدَتْهُ الخِنْصِرانِ وسدّدت * ثلاثَ نواحيه الثلاثُ الأنامِلُ
رأيتَ جليلًا شأْنُه وهو مُرْهَف * ضنًا، وسَمِينًا خطبُه وهو ناحِلُ

وقول أبي هلال العسكريّ :

أُنظرْ إلىٰ قلمٍ يُنَكِّسُ رأسَه * لِيَضُمَّ بين مُوَصَّل ومُفَصَّل
تَنْظُرْ إلىٰ مِخْلَابِ لَيْثٍ ضَيْغَمٍ * وغِرَارِ مسنون المَضَارب مِفْصَل
يَبْدُو لناظره بلَوْنٍ أصْفَرٍ * ومَدَامعٍ سُودٍ وجِسْمٍ مُنْحَل
فالدَّرْجُ أبيضُ مثلُ خدٍّ واضح * يَثْنِيهِ أسودَ مثلَ طَرْفٍ أكحل
قَسَم العَطَايا والمَنَايا في الورىٰ * فإذا نظرتَ إليه فٱحذَرْ وأْمُلِ
طَعْمانِ شَوْبُ حلاوةٍ بمرارةٍ * كالدّهر يَخْلِط شَهْدَهُ بالحَنْظَل
فإذا تَصَرَّفَ في يديك عِنَانُه، * ألحقتَ فيه مؤمّلا بمؤمّل
ومُذَلَّلا بمعَزَّز، ولربَّما * ألحقتَ فيه معزَّزا بمذَلَّل

وقوله :

لكَ القَلَمُ الجارى ببُؤْسٍ وأَنْعُمٍ * فمنها بوادٍ تُرْتَجىٰ وعوائدُ
إذا مَلأَ القرطاسَ سُودُ سُطوره * فتلك أُسُودٌ تُتَّقىٰ وأَسَاودُ
وتلك جِنَانٌ تُجْتَنىٰ ثمراتُها * ويلقاك من أنفاسهنّ بَوَارِدُ
وهنّ بُرُودٌ مالهُنّ مَنَاسِجٌ * وهنّ عقودٌ مالهن معَاقِدُ
وهنّ حيَاة للوَلِيّ رَضِيَّةٌ * وهنّ حُتوفٌ للعدوّ رَوَاصِدُ

الجمـــــلة الثـانية

(فى آشـــتقاقه)

وقد اختُلِف فى ذلك ؛ فقيل : سمى قَلَمًـا لآستقامته ، كما سميت القِدَاحُ أقلاما فى قوله تعـالىٰ : ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ قال بعض المفسرين : تشاحُّوا فى كفالتها فضربوا عليها بالقداح ، والقداح مما يضرب بها المَثَل فى الآستقامة ؛ وقيل : هو مأخوذ من القُلَّامِ : وهو شجر رِخْوٌ فلما ضارعه القلم فى الضـعف سمى قلمـا ؛ وقيل : سمى قلما لِقَلْم رأسه ، فقد قيل إنه لا يسـمَّى قلمـا حتَّى يُبْرَىٰ ، أما قبل ذلك ، فهو قَصَبة . كما لايسمَّى الرمح رُمْحا إلا إذا كان عليه سِنَانٌ و إلا فهو قَنَاة . ومنه قُلَامة الظفر ؛ و إلىٰ ذلك يشير أبو الطَّيِّب الأزدىّ بقوله :

قَـــلَمٌ قَـــلَّمَ أظفـارَ العِـــدا * وهو كالإصبع مقصوصُ الظُّفُرْ
أَشْـــبَهَ الحَيَّـــةَ حتَّى إنه * كُلَّمـا عَمَّـــرَ فى الأيدى قَصُرْ

وقيل لأعرابىّ : ما القلم ؟ ففكَّر ساعة وقلب يده ؛ ثم قال : لا أدرى ، فقيل له : توهَّمْه . قال : هو عود قُلِّمَ من جوانبه كتقليم الظُّفُر ، فسمى قلما .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى صــــفته)

قال إبراهيم بن العباس لغـلام بين يديه يعلمه الخطَّ : ليكن قلمك صُـلْبًا ، بين الدّقة والغِلَظ ، ولا تَبْرِه عند عُقْدة فإن فيه تعقيدَ الأمور ، ولا تكتبْ بقلم ملتوى ، ولا ذى شَقٍّ غير مستوى ؛ و إن أعوزك البحرىّ والفارسىّ ، واضطررت إلىٰ الأقلام النبطية فاختر منها ما يميل إلىٰ السُّمْرة .

وقال إبراهيم بن محمد الشيبانى : ينبغى للكاتب أن يتخيَّر من أنابيب القصب أقلَّه عُقَدا ، وأكثفه لحما ، وأصلبه قِشْرا ، وأعدله آستواء . وقال العتابى : سألنى الأَصْمَعِىُّ يوما بدار الرشيد: أىّ الأنابيب للكتابة أصلَحُ وعليها أصبر؟ فقلت: ماَنَشِف بالهجير ماؤه، وستره من تلويحه غِشَاؤه، من التِّبْرِيَّةِ القشور، الدُّرِّيَّةِ الظهور، الْفِضِّيَّةِ الكُسُور . وكتب علىّ بن الأزهر إلى صديق له يستدعى منه أقلاما :

أما بعدُ فإنا على طول الممارسة لهذه الكتابة، التى غلبت على الآسم، ولزمت لزوم الوَسْم ؛ فحلَّت محل الأنساب ، وجَرَتْ مجرى الألقاب ، وجدنا الأقلام الصخريّة اجرى فى الكَوَاغد ، وأمرّ فى الجلود ؛ كما أن البحريّة منها أسْلَسُ فى القراطيس ، وألين فى المعاطف ، وأشدّ لتصرُّف الخط فيها ؛ ونحن فى بلد قليل القصب رديئه ، وقد أحببت أن تتقدّم فى آختيار أقلام صخرية ، وتتنوّق[1] فى آقتنائها قبلَك، وتطلبها من مظانِّها ومنابتها : من شطوط الأنهار ، وأرجاء الكروم؛ وأن تتيمن[2] باختيارك منها الشديدة الصُّلبة ، النقيَّة الجلود ، القليلة الشحوم ، الكثيرةَ اللحوم ، الضيِّقة الأجواف، الرزينة المَحْمَل : فإنها أبقى على الكتابة، وأبعد من الحَفَاء . وأن تقصد بانتقائك الرقاق القُضْبان ، المقوّمات المتون ، المُلْس المعاقد ، الصافية القشور ، الطويلة الأنابيب ، البعيدة ما بين الكعوب ، الكريمة الجواهر ، المعتدلة القَوَام ، المستحكمة يُبْسًا ، وهى قائمة على أصولها لم تُعجَل عن إبَّان ينْعِهَا، ولم تؤخر إلى الأوقات المخوفة عليها من خَصَرِ الشتاء، وعَفَن الأنداء . فإذا آستجمعت عندك، أمرت بقطعها ذراعا [ذراعا][3] قَطْعا رفيقا، ثم عَبَّأت منها حُزَمًا فيما يصُونها من الأوعية[4]، وتكتب معه بعدّتها وأصنافها من غير تأخير ولا توان .

(١) فى العقد الفريد تتأنق وهو بمعناه . قال ذو الرمة .

كان عليها سَحق لَفق تنوّقت ✻ به حضرميات الأكفِّ الحوائك

(٢) فى العقد الفريد تتيمم . (٣) الزيادة عن العقد الفريد . (٤) فى العقد . ووجهها مع من يؤدى الامانة فى حراستها وحفظها وايصالها وكتبت الخ .

وأهدى ٱبن الحرون إلىٰ رجل من إخوانه الكُتَّاب أقلاما، وكتب إليه :

إنه لما كانت الكتابة (أبقاك الله) أعظمَ الأمور، وقِوام الخلافة، وعمود المملكة، أتحفتك من آلتها بما يخف مَحْمَله، وتثقل قيمتُه، ويعظم نفعه، ويَجِلُّ خَطَره؛ وهى أقلام من القصب النابت فى الصخر، الذى نَشِف بحرّ الهجير فى قشره ماؤه، وستره من تلويحه غشاؤه؛ وهى كاللآلئ المكنونة فى الصَّدف، والأنوار المحجوبة فى السَّدَف، تِبْرِيَّةُ القشور، دُرِّيَّةُ الظهور، فِضِّيَّةُ الكسور؛ قد كستها الطبيعة جوهرا كالْوَشْيِ المُحَبَّر، ورونقا كالديباج المنيَّر.

ومن كتاب لأبى الخطاب الصابئ، يصف فيه أقلاما أهداها فى جملة اصناف :

وأضفتُ إليها أقلاما سليمةً من المعايب، مُبَرَّأة من المثالب، جمَّة المحاسن، بعيدةً عن المطاعن؛ لم يربها طُول ولا قصر، ولا ينقصها ضَعْف خَوَر؛ ولا يَشِينها لين ولا رخاوة، ولم يَعِبْها كَزَازة ولا قساوة؛ وهى آخذة بالفضائل من جميع جهاتها، مستوفِيَةٌ للمَمَادح بسائرصفاتها، صُلْبةُ المَعَاجم، لَدْنة المقاطع، موفية (١) القدود والألوان، محمودة المَخْبَرِ والعِيَان؛ وقد ٱستوىٰ فى المَلَاسة خارجها وداخلها، وتناسب فى السَّلاسة عاليها وسافلُها؛ نبتت بين الشمس والظل، وٱختلف عليها الحرّ والقُرّ؛ فالفَحَها وَقَدَانُ الهَوَاجر، ولفَعها سَمَائم شهر ناجر؛ ووقَذَها الشَّفَّان بصَرِده، وقذفها الغمام ببَرَده، وصابَتْها الأنواء بصَيِّبها، وٱستهلَّتْ عليها السحائب بشآبِيبها؛ فاستمرَّت مرائرها علىٰ إحكام، وٱستحصد سَحْلُها (٢) بالإبرام؛ جاءت شَتَّى الشِّيات، متغايرة الهيئات، متباينة المحالّ والبُلْدان؛ تختلفُ بتباعد ديارها، وتأتلف بكرم نِجَارها.

فمن أنابيبِ قَنًا ناسبَتْ رماحَ الخط فى أجناسها، وشاكلَتِ الذهب فى ألوانها،

(١) لعله وافية القدود. أى تامة كاملة.

(٢) لعله حبلها وحرر.

وضاهت الحرير في لَمَعانها، مضابطة الحفاء، نَمِرَةَ القُوىٰ ؛ لا يسيطها القط ، ولا يُشَعَّبُ بها الخط .

ومن مِصْرِيَّة بيض كأنها قَباطِيُّ مِصْر نقاء، وغِرقِئُ البيض صفاء، غَذاها الصعيد من ثراه بِلُبِّه، وسقاها النيل من نَمِيره وعَذْبه، فجاءت ملتئمة الأجزاء، سليمة من الألتواء، تستقيم شقُوقُها في أطوالها، ولا تنكّب عن يمينها ولا شمالها، مقترن بها صفراءُ كأنها معها عِقْيانٌ قُرِنَ بلُجين، أو ورقٌ خُطَّ بعين، تختال في صُفْر ملاحفها، وتميس في مُذْهَب مَطارِفها، بلونِ غِياب الشمس، وصِبْغ ثياب الوَرْس .

ومن منقوشة تَرُوق العين، وتُونِقُ النفس، ويُهْدِى حسنُها الأرْيَحِيَّةَ إلىٰ القلوب، ويَحُلُّ الطَّرْف لها حَبْوة الحليم اللبيب، كأنها آختلاف الزَّهر اللامع، وأصناف الثمر اليانع .

ومن بحرِيَّة مَوْشِيَّة اللِّيط، رائقةِ التخطيط، كأنّ داخلها قطرةُ دم، او حاشية رداء مُعْلَم، وكأنّ خارجها أرقم، أومتن وَادٍ مُفْعَم، نشرت ألوانا تُزْرِى بوَرْدِ الخدود، وأبدتْ قامات تفضَح تأوّد القُدُود .

ومن كلام آبن الزيات : خير الأقلام ما آستحكم نُضْجه وخف بزره، قد تساعدتْ عليه السعود في فَلَك البروج حولا كاملا، تؤلفه بمختلف أركانها وطباعها، ومتباين أنوائها وأنحائها، حتّى إذا بلغ أشدّه وآستوىٰ، وشقّتْ بوازله، ورَقّتْ شمائله، وآبتسم من غشائه، وتأدّىٰ من لحائه، وتعرّىٰ عنه ثوب المَصِيف، بانقضاء الخريف، وكشف عن لَوْن البَيْض المكنون، والصَّدَف المخزون، قُطِعَ ولم يُعَجَّلْ عن تمام مصلحته، ولم يؤخَّر إلىٰ الأوقات المخوفة عاهاتُها عليه من خَصَر الشتاء، وعَفَن الأنداء، فجاء مستوِىَ الأنابيب معتدلَها، مُثَقَّفَ الكعوب مقوَّمها .

وقد حرر الوزير أبو علىّ بنُ مقلةَ رحمه الله مَنَـاط الحاجة من هذه الأوصاف، وٱقتصر علىٰ الضرورىّ منها فى ألفاظ قلائل فقال :

خير الأقلام ما ٱستحكم نُضْجه فى جرمه، ونَشِف ماؤه فى قشره، وقُطِـع بعد إلقاء بزره، وبعد أن ٱصفرّ لِحَاؤه ورَقّ شحمه، وصلب شحمُه، وثُقل حجمه .

الجمـــــلة الرابعة

(فى مساحة الأقلام فى طولهـا وغِلَظها)

قال ٱبن مقلة : خير الأقلام ما كان طولُه من ستةَ عشر إصبعا إلىٰ ٱثنى عشر، وٱمتلاؤه ما بين غِلَظ السَّبَّابة إلىٰ الخِنْصر . وهـذا وصف جامع لسائر أنواع الأقلام علىٰ ٱختلافها .

وقال فى موضع آخر : أحسنُ قُدود القلم أن لا يُتجاوَز به الشِّـبْر بأكثر من جِلْفَتِه ويشهد له قول الشاعر :

فَتًى لو حوىٰ الدّنيـا لأصبح عَارِيًا * من المـال، معتاضا ثيابا من الشُّكْرِ
له تَرْجُمَانٌ أخرسُ اللفظ صامتٌ، * علىٰ قَابِ شِبْرٍ بل يزيد علىٰ الشِّبْرِ

وقال الشيخ عماد الدين الشيرازى : أحمَدُ الأقلام ما توسطت حالاته فى الطول والقِصَر، والغِلَظ والدقة ، فإن الدقيق الضئيل تجتمع عليـه الأنامل فيبقى مائلا إلىٰ مابين الثلث، والغليظَ المفرطَ لاتحمله الأنامل .

وقال فى الحِلْيَة : إذا كانت الصحيفة لينة ينبغى أن يكون القلم لَيِّن الأُنْبوب، وفى لحمه فضل، وفى قِشْره صلابة، وإن كانت صُلْبَةً، كان يابس الأُنْبوب صُلْبَه، ناقص الشحم : لأن حاجته إلىٰ كثرة المداد فى الصحيفة الرِّخْوَة أكثر من حاجته إليه فى الصحيفة الصُّلْبَة . فرطوبته ولحمـه يحفظان عليه غزارة الٱستمداد ؛ ويكفى

فى الصحيفة الصُّلْبَة ما وصل إليها فى القلم الصُّلْبِ الخالى من المداد ، والله جل ذكره أعلم .

الجملة الخامسة
(فى بَرْى القلم ؛ وفيه خمسة أنظار)

النظر الأوّل
(فى اشتقاقه وأصل معناه)

يقال بَرَيْت القلم أَبْريه بَرْيًا وبِرَاية غير مهموز، وهو قلم مَبْرِىٌّ، وأنا بَارٍ للقلم بغير همز أيضا . قال الشاعر :

يا بَارِىَ القَوْسِ بَرْيًا ليس يُحْكِمُهُ * لا تُفْسِدِ القوس، أَعْطِ القَوْسَ بَارِيَهَا

ويقال أيضا بَرَوْتُ القلم والعُودَ بروًا بالواو، والياءُ أفصح . ويقال لما سقط منه حالة البَرْى بُرَايَةٌ (بضم الموحدة فى أوّله) علىٰ وزن نُزَالَةٍ وحُثَالَةٍ، والفُعالة اسم لكل فضلة تفضل من الشىء، وتقول فى الأمر : ابر قلمك .

النظر الثانى
(فى الحث علىٰ معرفة البِرَاية)

قال الحسن بن وهب : يحتاج الكاتب إلىٰ خِلال ؛ منها جودة بَرْى القلم ، وإطالة جِلْفَتِهِ ، وتحريف قَطّته ، وحسن التأتى لامتطاء الأنامل ، وإرسال المَدّة بعد إشباع الحروف ، والتحرز عند فراغها من الكشوف ، وترك الشكل علىٰ الخطإ والإعجام علىٰ التصحيف .

ومن كلام المَقرّ العلائى ابن فضل الله ، طيب الله مَهْجَعه ! : **من لم يحسن الاستمداد ، وبرىَ القلم ، والقطّ وإمساك الطُّومار ، وقسمةَ حركة اليد حال الكتابة ، فليس هو من الكتابة فى شىء .**

ويحكى أنّ الضَّحاك كان إذا أراد أن يبرىَ قلمـا، توارىٰ بحيث لا يراه احد، ويقول: الخط كلُّه القلم. وكان الأنصارىّ إذا أرادأن يبرى فعل ذلك، فإذا أراد أن يقوم من الديوان قطع رءوس الأقلام حتّٰى لا يراها أحد.

وقال إسحاق بن حَمّاد: لاحذْقَ لغير مميز لصنوف البِرَاية. ورأىٰ إبراهيم بن المحبس رجلا يأخذ علىٰ جاريةٍ قَلَمَ الثلث، فقال: أعلمتها البِرَاية؟ قال: لا، قال: كيف تحسن أن تكتب بمـا لاتحسن بِرَايته؟ تعليم البراية أكبر من تعليم الخط.

قال المقر العلائى ٱبن فضل الله: ورأيت بخط أبى علىّ بن مقلة رحمه الله، نَعَمْ نَعَمْ مِلَاكُ الخطِّ حسن البِراية، ومَنْ أحسنها سهُل عليه الخط، ولا يقتصر علىٰ علم فنّ منها دون فنّ، فإنه يتعين علىٰ من تعاطىٰ هـذه الصناعة أن يحفظ كل فنّ منها علىٰ مذهبه: من زيادة فى التحريف، ومن النقصان منه، ومن ٱختلاف طبقاته. ومن وعىٰ قلبهُ كثرةَ أجناس قَطِّ الأقلام، كان مقتـدرا علىٰ الخط، ولا يتعلَّم ذلك إلا عاقل، والقلم للكاتب كالسيف للشُّجاع.

وقال الضحَّاك بن عَجْلان: القلم من أجناس الأقلام كاللحن من أجناس الألحان فى الصناعة، والبراية الواحدة من أجناس البراية كذلك.

ومن كلام المقر العلائى ٱبن فضل الله: جَوْدَةُ البراية نصفُ الخط.

ومنهم من ذهب إلىٰ أن العبرة بحسن الصنعة دون برى القلم، حتّٰى حكى الغزالىٰ رحمه الله فى نصيحة الملوك أن الصاحب بن عَبَّـاد كان وزيرا لبعض الملوك، وكان معه ستة وزراء غيره فكانوا يحسُدونه، ولم يزالوا حتّٰى ذكروا للملك أنه لا يُحْسِن بِراية القـلم، وعمـدوا إلىٰ أقلامه فكسروا رءوسها، ثم إن الملك أمره بكتبِ كتاب فى المجلس، فوجد أقلامه كلَّها مكسرة الرءوس فأخذ قلمـا منها، وكتب به إلىٰ أن ٱنتهىٰ إلىٰ آخر الكتَّاب بخط فائق رائق، فقـال له الملك: إن هؤلاء يزعمون أنك لاتحسن بَرْى القلم، فقال: إن أبى علمنى كاتبا ولم يعلمنى نجَّارًا.

النظـــر الثـالث
(فى معرفة محلِّ البِرَاية من القلم)

قال إبراهيم بن محمد الشَّيْبَانِىّ : يجب أن يكون البرى من جهة نبات القصـبة، يعنى من أعلاها إذا كانت قائمة علىٰ أصـلها ، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس . وإلىٰ هذا المعنىٰ أشار أبو تَمَّـامٍ الطائىّ بقوله فى أبياته المتقدّمة :

وأقبلت * أعاليه فى القِرْطاس وهى أسافِلُ

وقال أبو القاسم : إذا أخذ القلم ليبْرِيَه فلا يخلو من ٱستقامة فى البنية أو ٱعوجاج فى الخلقة ، فإن كان مسـتويا فالبرية من رأسـه ، وهو حيث ٱستدق ، وإن كان مُعْوَجًّا ودعت الضرورة إليه، فالبرية من أسفله لأن أسفله أقل ٱلتواءً من أعلاه .

النظـــر الرابع
(فى كيفية إمساك السِّكِّين حال البرى)

قال ٱبن البربرىّ : إذا بدأت بالبِراية فأمسـك السكين باليد اليمنىٰ ؛ والأنبوبة باليسرىٰ، وضع إبهامك اليمنىٰ علىٰ قفا السكين، ثم ٱعتمد علىٰ الأنبوبة ٱعتمادا رفيقا .

النظر الخـامس
(فى صـنعة الـبراية)

قال العَتَّـابىّ: سألنى الأصْمَعِىّ يوما بدار الرشـيد : أىُّ نوع من البرى أصْوَبُ وأكْتَبُ؟ فقلت : البَرْية المسـتوية القَطَّة التى عن يمين سنها برية تأمن معها المجةَ عند المدّة والمطة، الهواءُ فى شـقها فتيق، والريح فى جوفها خريق، والمـداد فى خرطومها رقيق .

واعلم أنه ربما حَسُن الخط باعتبار براية القلم، وإن لم يكن على قواعد الخط وهندسته، فقد قيل: إن الأحول المحرر كان عجيب البراية للقلم، فكان خطه رائقا بَهِجًا من غير إحكام ولا إتقان. قال الأنصارى المحرر: كنت أكتب فى ديوان الأحول، فقرُبت منه وأخذت من خطه، وسرقت من دواته قلما من أقلامه، فجاد خطى به، فلاحت منه نَظْرة إلى دواتى، فرأى القلم فعرفه، فأخذه وأبعدنى. وكان إذا أراد أن يقوم من مجلسه أو ينصرف قطع رءوس أقلامه كلَّها.

واعلم أن البَرْىَ يشتمل على معان.

المعنى الأوّل — فى صفته، ومقداره فى الطول، والتقعير.

قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله: ويجب أن يكون فى القلم الصُّلْبِ أكثر تقعيرا، وفى الرِّخْوِ أقلّ، وفى المعتدل بينهما. وصفته أن تبتدئ بنزولك بالسكين على الاستواء، ثم تُميلَ القطعَ إلى مايلى رأس القلم، ويكون طول الفتحة مقدار عُقْدة الإبهام، أو كمناقير الحمام، وإلى ذلك أشار الشيخ علاء الدين السرَّمرى رحمه الله فى أرجوزته بقوله:

وطُولُها كعُقْدة الإبهامِ لا * أعلى ولا أدنى يكون أرْذَلا

قال الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله: كل قلم تقصُر جِلْفَتُه، فإن الخط يجىء به أوْقَص، والوَقَص قِصَرُ العنق، ولذلك سمى متفاعلن فى عروض الكامل إذا حذفت منه التاء أوقص، وكأنه يريد بالقِصَر مادون عقدة الإبهام.

وقد قال إبراهيم بن العباس الصولى الكاتب: أطِلْ خُرْطوم قلمك. فقيل له: اله خرطوم قال: نعم. وأنشد.

كأنّ أُنوفَ الطير فى عَرَصَاتِها * خراطِيمُ أقلامٍ تَخُطُّ وتُعْجِمُ

وقال عبد الحميد بن يحيىٰ كاتبُ مَرْوان لرغبان، وكان يكتب بِقلم قصير البَرْيَة : أتريد أن يَجُود خطُّك ؟ قال : نعم . قال : فأطل جلْفَةَ قلمك وأسْمنها ، وحرِّف القطة وأيمنها ؛ قال رغبان : ففعلت ذلك فجاد خَطّى . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : إذا طالت البَرْية ، فإنه يجيءُ الخط بها أخف وأضعف وأجلىٰ ؛ وإذا قصرت ، جاء الخط بها أصفىٰ وأثقل وأقوىٰ .

المعنى الثانى — النحت .

قال الوزير أبو علىّ بن مقلة : وهو نوعان ، نحت حواشيه ، ونحت بطنه . أما نحت حواشيه ، فيجب أن يكون متساويا من جهتى السن معا ، ولا يحمل علىٰ إحدى الجهتين فيضعف سنه ، بل يجب أن يكون الشق متوسطا بِجِلْفَةِ القلم دَقَّ أو غَلُظَ . قال : ويجب أن يكون جانباه مسيَّفين ، والتسييف أن يكون أعلاه ذاهبا نحو رأس القلم أكثر من أسفله ، فيحسن جرىُ المداد من القلم . قال : وأما نحت بطنه فيختلف بحسب آختلاف الأقلام فى صلابة الشحم ورخاوته ؛ فأما الصُّلْبُ الشحمة فينبغى أن يُنْحت وجهه فقط ، ثم يجعل مسطحا وعرضه كقدر عرض الخط الذى يُؤْثِرُ الكاتبُ أن يكتبه . وأما الرخو الشحمة فيجب أن تستأصل شحمته حتّى تنتهى إلىٰ الموضع الصُّلْب من جرم القلم ، لانك إن كتبت بشحمته ، تشظّى القلم ولم يَصْفُ جريانه .

ومن كلام آبن البربرى : لاتقصع البِرَاية ، ولا تخالف بين حدّى القلم ؛ فإن ذلك حِيَاكَة ، وإذا كان كذلك يكون القلم أحول .

ثم الجِلْفَةُ علىٰ أنحاء : منها أن يرهف جانبى البَرْية ، ويُسْمن وسطها شيئا يسيرا ؛ وهذا يصلح للبسوط والمعلّق والمحقّق .

ومنها ماتستأصل شحمته كلها ، وهذا يصلح للمرسل والممزوج والمفتح .

ومنها مايرهف من جانبه الأيسر ويبقى فيه بقية فى الأيمن؛ وهذا يصلح للطوامير وما شابهها .

ومنها مايرهف من جانبي وسطه ، ويكون مكان القطة منه أعرض ممـا تحتها؛ وهذا يصلح فى جميع قلم الثلث وفروعه .

المعنى الثـالث ــ الشق : وفيه مهيعان .

المهيع الأوّل

(فى فائدته)

قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : لو كان القـلم غير مشقوق ما آستمرّت به الأنامل، ولا آتصل الخط للكاتب، ولكَثُر الآستمداد، وعُدِم المشق، ولمال المداد إلىٰ أحد جنبي القلم علىٰ قدر فتل الكاتب له .

المهيع الثـانى

(فى صفة الشق، وفيه مُدْركَان)

المُـــدْرك الأوّل

(فى قدره فى الطول)

قال آبن مقلة : ويختلف ذلك بحسب آختلاف القلم فى صلابته ورخاوته . فأما المعتدل فيجب أن يكون شَقُّه إلىٰ مقدار نصف الفتحة أو ثلثيها . والمعنىٰ فيه أنه إذا زاد علىٰ ذلك آنفتحت سنا القلم حال الكتابة وفسد الخط حينئذ. وإذا كان كذلك أمن من ذلك .

وأما الصُّلْبُ ، فينبغى أن يكون شـقه إلىٰ آخر الفتحة ؛ وربمـا زاد علىٰ ذلك

بمقدار إفراطه فى الصلابة . وقد نظم ذلك الشيخ علاء الدين السُّرَّمَرِّىّ رحمه الله فى أرجوزته فقال :

وٱعلم بأن الشَّقَّ أيضا يَخْتَلِفْ * بحسب الأقلام، فافهم ما أَصِفْ
فإن يكن معتدلا شُقَّ إلىٰ * مقدار ثُلْثِ الحِلْفَةِ ٱنقل وٱقبلا
والرِّخْوُ للنصف أو الثلثين زد * والصُّلْبُ بالفتحة أَلْحِقْ تَسْتَفِدْ
وربَّما زادوا علىٰ ذاك إذا * أَفْرَطَ فى الصلابة، ٱعرِف ذا وذا

المُدْرَك الثانى

(فى محله من الحِلْفَةِ فى العرض)

وقد تقدّم من كلام ابن مقلة رحمه الله فى المعنىٰ الثالث أنه يجب أن يكون الشق متوسطا لحِلْفَةِ القلم، وعليه جرىٰ الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب رحمه الله فقال : وليكن غِلَظ السنين جميعا سواءً . قال : ويجوز أن يكون الأيمن أغلظَ من الأيسر دون العكس علىٰ كل حال، وهذا إنما يأتى إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلىٰ جهة اليسار ، أما إذا كانت آخذة من جهة اليسار إلىٰ جهة اليمين كالقبطية فإنه يكون بالعكس من ذلك لأنه يقوىٰ الاعتماد علىٰ اليسار دون اليمين .

المعنى الرابع ـ القَطّ، وفيه مهيعان :

المهيع الأوّل

(ٱشتقاقه ومعناه)

يقال قطَطْت القلم أقُطُّه قَطًّا فأنا قاطٌّ وهو مَقْطُوط وقَطِيط : إذا قطعت سِنَّهُ وأصل القَطّ القطع، والقَطُّ والقدّ متقاربان، إلا أنّ القط أكثر ما يستعمل فيما يقع السيف فى عَرْضه ، والقدّ ما يقع فى طُوله . وكان يقال : إذا علا الرجل الشيءَ

بسيفه قدّه ، وإذا عرضــه قَطَّه . وذلك أن مخرج الطاء والدال متقاربان، فأبدل أحدهما من الآخر كما يقال مط حاجبيه، ومدّ حاجبيه .

المهيع الثـانى
(فى صفته)

وٱعلم أن أجناس القَطّ تختلف بحسب مقاصد الكُتَّاب ، وهو المقصود الأعظم من البِرَاية، وعليــه مَدَار الكتابة . قال الضَّحَّاك بن عجلان : من وعىٰ قلبــه كثرة أجناس قطّ الأقلام ، كان مقتدرا علىٰ الخط . وقال المقرّ العلائىّ ابن فضل الله تغمده الله برحمتــه : كان بعض الكُتَّاب إذا أخذ الأنْبوبة ليَبْرِيها تفرّس فيها قبــل ذلك، فإذا أراد أن يقُطّ توقف ثم تحرّى، فتوقف ثم يقُطُّ علىٰ تثبُّت .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والقط علىٰ نوعين :

النوع الأوّل ـ المحرّف، وطريق بريه أن يحرف السكين فى حال القط، وهو ضربان،قائم ومصوّب : أما القائم فهو ماجعل فيه ٱرتفاع الشحمة كارتفاع القشرة وأما المصوّب، فهو ما كان القِشْر فيه أعلىٰ من الشحم .

النوع الثانى ـ المستوى،وهو ماتساوى سناه، وأجودهما المحرّف، وقد صرح بذلك الوزير أبو على بن مُقْلة ، فقال : وأحمدها ما كان ذا سنّ مرتفع من الجهــة اليمنىٰ ٱرتفاعا قليــلا إذا كان القلم مصوّبا، وهذا معنىٰ التحريف، وذلك إذا كانت الكتابة آخذة من جهة اليمين إلىٰ جهة اليسار كما تقدّم عند ذكر سِنّي القلم ، بخلاف ما إذا كان آخذا من جهة اليسار إلىٰ جهة اليمين . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : وأجودها المحرفة المعتدلة التحريف، وأفسدها المستوية، لأن المستوى أقلُّ تصرفا من المحرّف . قال : وقد كان بعض مَنْ لا يعتدّ به يقط القلم علىٰ ضــد

مايعتمده الأستاذون، فيصير الشحم من القلم هو المشرف على ظاهره ، فكان خطه لا يجيء إلا رديئا ، و إذا كانت القَطَّة على الضد من ذلك ، كان الكاتب متصرِّفا فى الخط، متمكنا من القرطاس . قال الوزير ابن مقلة : وأَضْجِع السكين قليلا إذا عزمْت على القَطّ ولا تنْصِبها نصبا ، يريد بذلك أن تكون القطة أقرب إلى التحريف، وأن تكون مصوّبة . قال الشيخ شمس الدين بن أبى رقيبة : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله عن الكتابة بالأقلام، والتحريف والتدوير، فقال : الرقاع والتواقيع أميلُ إلى التدوير بينَ بينَ ، قَطّةٌ مُرَبَّعة ، والنسخ والمحقَّق والمشعر أميل إلى التحريف، والمحقق أكثر تحريفا منهما . وقد فسر ابن الوحيد قول ابن البوّاب : لكن جملة ما أقول بأنه ما بين تحريف إلى تدوير، إن المعنى أن لكل قلم قَطّ صفة ، فقطَّة الريحانى أشدّها تحريفا ، ثم يَقِلُّ التحريف فى كل نوع من أنواع قط الأقلام حتّى تكون الرقاع أقلها تحريفا .

النظر السادس

(فى معرفة صفات القلم فيما يتعلق بالبِرَاية، وما لكل من سِنَّىِ القلم من الحروف)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : من لم يَدْرِ وجه القلم، وصدْره، وعَرْضه، فليس من الكتابة فى شيء. وقد فسر ذلك الوزير أبو على بن مقْلة فقال: اعلم أن للقلم وَجْها وصَدْرا وعَرْضا، فأما وجهه فحيث تضع السكين وأنت تريد قَطّه، وهو مايلى لحمة القلم وأما صدره فهو مايلى قشرته ، وأما عرضه، فهو نزولك فيه على تحريفه. قال : وحرف القلم هو السنّ العليا وهى اليمنى .

الجمـــــلة السادسة

(فى مساحة رأس القلم ومقـدارها من حيث موضع القطة، وتفرّعها عن قلم الطومار، ونسبتها من مساحته على آختـلاف مقاديرها فى الدقة والغِلَظ والتوسُّط، وما ينبغى أن يكون فى دواة الكاتب من الأقلام) :

أما مساحة رأس القلم، فاعلم أن رءوس الأقلام تختلف باختـلاف الأقلام التى جرى الآصطلاح عليها بين الكُتَّاب، وأعظمها وأجلُّها وأكثرها مساحةً فى العَرْض هو قلم الطُّومار : وهو قلم كانت الخلفاء تُعَـلِّمُ به فى المكاتبات وغيرها . وصفته أن يؤخذ من لب الجريد الأخضر، ويؤخذ منه من أعلى الفتحة مايسع رءوس الأنامل ليتمكن الكاتب من إمساكه، فإنه إذا كان على غير هذه الصورة، ثقل على الأنامل ولاتحتمله؛ ويتخذ أيضا من القصب الفارسىّ؛ ولا بدّ من ثلاثة شقوق لتسهل الكتابة به ويجرِىَ المداد فيه . ولهم قَـلَمٌ دونه يسمّى مختصر الطومار، وبه يكتب النوّاب والوزراء ومن ضاهاهم الآعتمادَ على المراسيم ونحوهـا . وقدّروا مساحة عرضه من حيث البراية بأربع وعشرين شعرةً من شـعر البِرْذَونِ مُعْتَرِضَات، وهو أصل لمـا دونه من الأقلام، فقلم الثلثين من هذه النسبة مقدّر بست عشرة شعرة، وقلم النصف مقدّر باثنتى عشرة شعرة، وقلم الثلث مقدّر بثمـان شعرات، ومختصر الطومار مابين الكامل منه والثلثين . وكل من هـذه الأقلام فيه ثقيل وهو ما كان إلى الشِّبَع أميـل، وخفيف، وهو ما كان إلى الدقة أقرب . إذا تقرّر ذلك فطول الأَلِف فى كل قلم معتبر بأن تضرب نسبة عرضه فى مثله ويجعل طولها نظيرذلك، ففى قلم الطومار يضرب مقـدار عرضه وهو أربع وعشرون شعرة فى مثلها خمسمائة وستا وسبعين شعرة وهو طولهـا ؛ وفى قلم الثلث تضرب نسبة عرضه من الطُّومار

وهو ثمان شعرات فى مثلها بأربع وستين ، فيكون طولها أربعا وستين شعرة وكذلك الجميع فاعلمه .

وأما عدد أقلام الدواة فقد قال الوزير أبو علىّ بن مقلة : ينبغى أن تكون أقلامه علىٰ عدد مايؤثره من الخطوط ، وكأنه يريد أن يكون فى دواته قلم مبرىّ للقلم الذى هو بصدد أن يحتاج إلىٰ كتابته ليجده مهيأ ، فلا يتأخر لأجل برايته .

الآلة الثانية — المِقْلَمة : وهى المكان الذى يوضع فيه الأقلام ، سواء كان من نفس الدواة أو أجنبيا عنها ، وقد لا تعدّ من الآلات لكونها من جملة أجزاء الدواة غالبا .

الآلة الثالثة — المُدْيَةُ ، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأوّل

(فى معناها وآشتقاقها)

قال الجاحظ : تقال بضم الميم وفتحها وكسرها وتجمع علىٰ مُدًى : وهى السكين ، وقد ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "كانتِ امْرأتانِ معهُما آبناهُمَا فجاء الذئبُ فذهَبَ بابن إحداهما ، فقالتْ لصاحبَتِها : إنما ذَهَب بابنِكِ ، وقالت الأخرىٰ إنما ذهب بابنِكِ . فتحاكَمَا إلىٰ داودَ فقضىٰ به للكُبْرىٰ ، فخرجَتَا إلىٰ سليمانَ بنِ داودَ فأخبرَتَاه ، فقال : ائتونِى بالسِّكِّين أشقُّه بينهما ، فقالت الصغرىٰ : لاتَفْعَلْ رحمك الله هو آبنُها ، فقضىٰ به للصُغْرىٰ" قال أبو هريرة : إنْ سَمِعتُ بالسكين إلا يومئذ ما كنا نقول إلا المُدْية .

ثم الأصل فى السكين التذكير ، قال أبو ذؤيب :

يُرىٰ ناصِحًا لِى ما بَدَا ، فإذا خَلَا (١) ❊ فذلكَ سِكِّينٌ علىٰ الحَلْقِ حاذِقُ

(١) فى اللسان والصحاح يرى ناصحا فيما بدا .

قال الكسائى : ومن أنث أراد المدية وأنشد :

فَعَيَّثَ(١) فى السَّنام غَداةَ قُرٍّ * بسِكِّينٍ موثَّقةِ النِّصابِ

ويقال سِكِّينة بالهـاء، وهو قليل . وفى حديث المَبْعَثِ "أنه لما شَقَّ المَلَكُ بطنَه صلى الله عليه وسلم قال : ائتِنى بالسِّكِّينة" وتجمع علىٰ سَكَاكِين، سميت مُدْية أخذا من مَدَىٰ الأجل وهو آخره : لأنها تأتى بالأجل فى القتل علىٰ آخره ، وسميت سِكِّينا لأنها تسَكِّن حركة الحيوان بالموت. ونِصابُ السكين أصلُها، ونصاب كل شىءٍ أصله قال الشاعر :

وإنَّ نِصَابِى إن سَأَلتِ ، وأُسْرَتِى * من الناس حىٌّ يَقْتَنُون المُزَنَّمَا(٢)

، أى وإن أصلى . ويقال أَنْصَبْت السكين إذا جعلتَ لها نِصابا، كما يقال أَقْبَضْتها إذا جعلتَ لها مَقْبِضًا، وأقربْتُها إذا جعلت لها قِرابًا، وأغلفتها إذا جعلت لها غِلَافا؛ والحديدةُ الذاهبــة فى النصاب سيلَانٌ . ويقال أَحْددتُ(٣) السكين فأنا أُحِدّه إحداد وحَدّ السكينُ نفسُــه صـار حادًّا، وأحَدّ فهو مُحِدّ ، وسكين حادّ، فإذا أمرتَ مِنْ أحدّه قلتَ أَحْدِدْه، ومن حدّه قلتَ حُده .

الوجه الثـانى
(فى صفتها)

قال بعض الكُتّاب : هى مِسَنُّ الأقلام ، تستحَدّ بها إذا كَلَّتْ ، وتطلق بها إذا وقفَتْ ، وتلُمُّها إذا تشعّثت . فتجب المبالغة فى سَقْيها وإحدادها ليتمكن من البرى، فيصفو جوهر القلم،ولا تشظّى قَطّتُه . وينبغى أن لايستعملها فى غير البِرَاية لئلا تَكِلّ وتفسُد . قال الصُّولى : وأَحْدِدْ سكينَك ولا تسـتعملها لغير ذلك . قال الوزيرأبوعلى بن مقلة رحمه الله : وٱستحِدّ السكين حدّا، ولتكن ماضية جدّا؛ فإنها

(١) أى أثر فى السنام بالسكين انظر اللسان (٢) المزنَّم من الابل الكريم تقطع أذنه و يترك لها زنمة

(٣) أى وحددتها أيضا كما يستفاد من نهاية عبارته .

إذا كانت كالَّة جاء الخط رديئا مضطربا . وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : فساد البِراية من بَلادة السكين . قال محمد بن عمر المدائنى : ينبغى أن تكون لطيفة القدّ، معتدلة الحدّ . فقد كره المبالغةَ فى سقيها، لتمكن البارى من بريها . ولاعيب فى حملهـا فى الْكُمّ والخُفّ، فقد روى المدائنى عن الأعمش عن إبراهيم أنه قال : اتخاذ الرجل السكينَ فى خُفّه من المُروءة . قالوا : وأحسنها ما عَرُض صدرُه، وأُرْهِف حدُّه، ولم يَفْضُلْ عن القَبْضة نِصَابُه، وآستوى مِن غير آعوجاج . قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ورأيت والدى وجماعةً من الكُتّاب يستحسنون العُقَابِيَّة: وهى التى صدرها أعرض من أسفلها . ووصف بعضهم سكينا، فقال : وسكّين عتيقة الحَديد، وثيقة الشَّعيرة، مُحْكَمَة النِّصاب، جامعةُ الأسباب، أحدُّ من البَيْن، وأحسنُ من آجتماع مُحِبَّيْن، وأمضى من الحُسَام، فى بَرْى الأقلام . ولله القائلُ فى وصفها :

أنا إن شئتَ عُدّةٌ لعدوّ * حين يُخْشى على النُّفُوس الحِمَامُ
انا فى السِّلم خادمٌ لدَوَاة * وبحدّى تُقَوَّمُ الأقلَامُ

الآلة الرابعة ـ المِقطُّ (بكسر الميم) كما ضبطه الجوهرىّ فى الصِّحاح إلا أنه قال فيه : مِقطَّة بالتأنيث .

قال الصّولى : ينبغى أن يكون المِقطُّ صُلْبًا فتمضى القَطَّة مستوية لامَشْظِيَّة . قال الوزير أبو على بن مقلة رحمه الله : إذا قططتَ فلا تَقُطّ إلا على مِقَطّ أملسَ صُلْبٍ غير مُثَلَّم ولا خَشِنٍ لئلا يَتَشَظَّى القلم : وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : ويتعين أن يكون من عود صُلْبٍ كالآبَنُوس والعاج، ويكون مسطَّحَ الوجه الذى يُقَطُّ عليه، ولا يكون مستديرا : لأنه إذا كان مستديرا تشظّى القلم، وربما تهللت القَطَّةُ فتأتى الإدارات والتشعيرات غيرَ جَيِّدة . قلت وينبغى أن لايكون مع ذلك

مانعا كالحديد والنُّحاس ونحوه فإن ذلك يفسد السكين، ولا تجىء القَطَّةُ صالحة .

الآلة الخامسة ـ المِحْبرة، وهى المقصود من الدواة، وتشتمل على ثلاثة أصناف .

الصنف الأوّل ـ الجُونة، وهى الظَّرف الذى فيه اللِّيقة والحِبْر .

قال بعض فضــلاء الكُتَّاب : وينبغى أن تكون شكلا مدوّر الرأس يجتمع على زاويتين قائمتــين ، يوقدهمـا خط ، ولا يكون مربعا على حال لأنه إذا كان مربعا يتكاثف المداد فى زواياه فيفسد المداد ، فإذا كان مستديرا كان أبقى للمداد ، وأسعد فى الاستمداد .

الصنف الثـانى ـ الليقة ، وتسميها العرب الكُرْسُفَ تسميةً لهـا باسم القُطْن الذى تتخذ منه فى بعض الأحوال كما سيأتى، والنظر فيها من وجهين :

الوجه الأوّل
(فى اشـــتقاقها)

يقال أَلَقْتُ الدواة ولِقْتُها ، أخذا من قولهم : فلان لا تُلِيقُ كفُّه درهمـا أى لا تحْبِسُه ولا تُمْسكه ، وأنشد الكسائىّ :

كَفَّـاكَ كَفٌّ ما تُلِيق دِرْهَمَـا * جُودا، وكَفٌّ تُعْطِ بالسيف الدَّمَا

يصفه بالجُود، أى كَفَّاكَ ما تُمسِكُ درهما ، ويقال : مالاقَتِ المراة عند زوجها أي ما عَلِقَتْ . قال المبرد : دخل الأصْمَعِيّ على الرشيد بعد غَيْبةٍ غابها ، فقال له : كيف حالُك ياأصمعىّ؟ فقال : ما ألاقتْنى نحوكَ أرضٌ ياأمير المؤمنــين : نأمسك الرشيدُ عنه ، فلما تفرّق أهلُ المَجْلِس ، قال له : مامعنى ألاقتنى؟ قال : ماحبستْنى ، فقال : لا تكلِّمْنى فى مجلس العامّة بمـا لا أعلم . قال الجاحظ : ولا تســتحق اسم اللِّيقة حتّى تُلَاقَ فى الدواة بالنِّقْس : وهو المِداد .

الوجه الثانى

(فيما تتخذ منه وتتعاهد به)

قال بعض الكُتَّاب : تكون من الحرير والصُّوف والقطن، ويقال فيه الكُرْسُفُ، والبِرْسُ، والطُّوطُ، والعُطْبُ، والأولىٰ أن تكون من الحرير الخَشِن : لأن آنتفاشها فى المِحْبرة وعدم تَلَبُّدِها أعونُ علىٰ الكتابة . قال بعض الكُتَّاب : ويتعين علىٰ الكاتب أن يتفقد اللِّيقة ويطيِّبها بأجود ما يكون، فإنها تُرْوِح علىٰ طول الزَّمن، ولله القائل :

مُتَظَرِّفٌ شَهِدَتْ عليه دواتُهُ * أن الفتىٰ لا كان غيرَ ظَرِيفِ

إن التفقُّدَ للدَّواة فضــيلةٌ * موصوفةٌ للكاتب الموصوفِ

وكان بعض الكُتَّاب يطيِّب دواته بأطيبِ ما عنده من طِيبِ نفسه، فسئل عن ذلك، فقال : لأنى أكتبُ به آسمَ الله تعالىٰ وآسمَ رسوله صلى الله عليه وسلم وآسم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه وربما سبق القلم بغير إرادتنا فنلحَسُه بألسنتنا ونمحوه بأكمامنا .

قال الشيخ علاء الدين السَّمَرّىّ : ويتعين علىٰ الكاتب تجديد اللِّيقة فى كل شهر، وأنه حين فراغه من الكتابة يُطبِّق المِحْبرة لأجل ما يقع فيها من التراب ونحوه، فيفسد الخط . ونظم ذلك فى أرجوزته فقال :

وَجَدِّدِ اللِّيقَــةَ كُلَّ شَهْرِ * فَشَيْخُنَا كان بهــذا يُغْرِى

لأجل ما يَقَعُ فيهــا مِنْ قَذىٰ * فينْتَشِى من ذاك فى الخَطِّ أذىٰ

وينبغى له مع ذلك أن يصونها عن الأشياء القَذِرة كالبُصَاق ونحوه، فقد حكىٰ محمــد بن عمر المدائنى أن بعض العلمــاء رأىٰ صبيًّا يبصُق فى دواته فزجره، وقال لمعلِّمه : آمنع الصِّبيان عن مثل هذا، فإنما يكتبون به كلام الله . قال محمد بن عمر

المدائنى : كأنه تحرّج أن يُكتبَ القرءان بمـداد غير نظيف . قال المدائنى : وكان بلغنى عن آبن عباس أنه أجاز أن يبصُـق الرجل فى دواته، فسألت أحمد بن عمرو البزاز عن ذلك فأنكره، وقال : هذا حديث كذب، وضعه عاصم بن سليمان الكودن، وكان كَذّابا ذكرته لأبى داود الطيالسى فقـال : هو كذّاب يجب أن تعرفوا كذبه، صفوا له مسئلة حتّى يحدّثكم بحديثٍ، فقال : فجئت أنا وعمر بن موسىٰ الحـارثىّ فى جماعة، فقال له عمر : ما تقول فى الرجل يبْزُق فى الدواة و يستمدّ منها ؟ وكان قد ذهب بصره، فقال : حدّثنا عبد الله بن نافع عن آبن عمر أنه كان يبزق فى الدواة و يستمدّ منها، ثم قال : وحدّثنا هشام بن حسان عن عكرمة عن آبن عباس مثـل ذلك، قال : فهمز بعض أصحابنـا وقال : كان آبن عباس لايبصر، قال : ففهم، فقال : نعم . كان آبن عباس لا يرىٰ بذلك بأسا . .

الصنف الثالث ــ المداد والحبر وماضاهاهما . والنظر فيه من أربعة أوجه

الوجه الأوّل

(فى تسميتهما وآشتقاقهما)

اما المِدَاد فسمّىَ بذلك لأنه يَمُدّ القلم أى يُعينه، وكل شىء مددت به شيئا فهو مداد، قال الأخطل :

رَأتْ(١) بارقاتٍ بالأ كُفّ كأنّها * مصابيحُ سُرجٍ أُوقِدَتْ بمِدَادِ

سمّى الزيت مدادا لأن السِّراج يُمَـدُّ به، فكل شىء أمددت به الليقة مما يكتب به فهو مِدَاد، وقال آبن قتيبة فى قوله تعالىٰ : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَـاتِ رَبِّى﴾ : هو من المداد لامن الإمداد . ويقال : أمدّ القلم فى الخير مثل ﴿وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ﴾ ومدّه فى الشر، مثل ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ . و يقال فيه أيضا نِقْسٌ

(١) فى اللسان رأوا بواو الجماعة .

ونَقْس ، بكسر النون وفتحها مع إسكان القاف ومع السين المهملة فيهما ، والكسر أفصح ، ويجمع على أنْقَاس .

وأما الحِبْر ، فأصله اللون ، يقال فلان ناصع الحِبْر يراد به اللون الخالص الصافى من كل شىء ، قال ابن أحمر يذكر امرأة :

تَتِيهُ بفاحِمٍ جَعْـدٍ * وأبيضَ ناصعِ الحِبْرِ

يريد سواد شعرها ، وبياض لونها ، وفى الخبر "يَخْرُج من النار رجُلٌ قد ذَهَب حِبْرُه وسِبْرُه" بكسر الحاء المهملة والسين فيهما . قال ابن الأعرابى : حِبْره حسنه ، وسِبْره هيئته ، وقال المبرد : قال التوزى : سألت الفراء عن المداد لم سمى حبرا؟ فقال يقال لِلْمُعَلِّم حَبْر وحِبْر يعنى بفتح الحاء وكسرها ، فأرادوا مداد حبر أى مداد عالم ، فحذفوا مِدَاد وجعلوا امكانه حِبْرا . قال : فذكرت ذلك للأَصْمَعِى ، فقال : ليس هذا بشىء إنما هو لتأثيره . يقال : على أسنانه حِبْر إذا كَثُرتْ صُفْرتها حتّى صارت تضرب إلى السواد ، والحبر الأثر يبقى فى الجلد ، وأنشد :

لقد أَشْمَتَتْ بى آلَ فَيْدٍ وغَادَرَتْ * بجِلْدِىَ حِبْرًا بِنْتُ مَصَّانَ بَادِيَا

أراد بالحبر الأثرَ ، يعنى أثرَ الكتابة فى القرطاس ، قال المبرد : وأنا أَحْسَب أنه سمى بذلك لأن الكتاب يُحَبَّر به أى يُحَسَّن ، أخذا من قولهم حَبَّرْتُ الشئ تحبيرا إذا حَسَّنْتَهُ .

الوجه الثانى

(فى شرف المداد والحبر ، واختيار السواد لذلك)

فى الخبر " يُؤتى بمدادِ طالبِ العِلْمِ ودَمِ الشهيد يومَ القيامةِ ، فيُوضَعُ أحدهما فى كِفَّةِ الميزان والآخر فى الكِفَّةِ الأخرى فلا يرجَحُ أحدُهما على الآخرِ " قال بعض الحكماء : صُورة المداد فى الأبصار سوداء ، وفى البصائر بيضاءُ . وقد قيل : كواكبُ

الحِكَم فى ظُلَمِ المِدَاد . ونظر جعفر بن محمد إلىٰ فتى علىٰ ثيابه أثر المِدَاد ، وهو يستُره منه ، فقال له : ياهذا ! إن المِدَاد من المُرُوءة . وأنشد أبو زيد :

إذا ماالمِسْكُ طَيَّبَ ريحَ قَوْمٍ * كَفَتْنِى ذاك رائحـةُ المِـدَادِ
وما شىءٌ بأحْسَنَ من ثِيَابٍ * علىٰ حَافَاتِهَا حُمَمُ السَّـوَادِ

وقال بعض الأدباء : عَطِّروا دفاتر الآداب بسَوَاد الحِبر . وكان فى حِجْرْ إبراهيم ابن العباس قِرْطاس يَمْشُق فيه كلاما فأسقط ، فمسحه بكُمِّه ، فقيل له لو مسحته بغيره ؟ فقال المـال فرع والقلم أصل ، والأصل أحق بالصون من الفرع . وأنشد فى ذلك :

إنَّمَـا الزَّعْفَرَانُ عِطْرُ العَذَارىٰ * ومِدَادُ الدُّوِىِّ عِطْرُ الرِّجَالِ

وأنشد غيره :

مَنْ كان يُعْجبه أن مَسَّ عَارِضَهُ * مِسْكٌ يُطَيِّبُ منه الريحَ والنَّسَمَا
فإنَّ مِسْكِى مِدَادٌ فوق أَنْمُلَتِى * إذا الأصَابِعُ يوما مَسَّتِ القَلَمَا

علىٰ أن بعضهم قد أنكر ذلك ، وقال : المداد فى ثوب الكاتب سَخَافه ، ودَنَاءة منه وقلة نَظَافه . قال أبو العالية : تعلمت القرءان والكتابة ، وما شَـعَرَ بى أهلى ، وما رؤى فى ثوبى مِدَادٌ قط . وأنشدوا :

دَخِيـلٌ فى الكتابة يَدَّعِيهَا * كدَعْوىٰ آل حَرْبٍ فى زِيَادِ
يُشَـبِّهُ ثوبُهُ للمَحْوِ فيــه * إذا أبصرتَه ثَوْبَ الحِـدَادِ
فَدَعْ عنك الكِتَابَةَ لَسْتَ منها * ولو لَطَّخْتَ وَجْهَكَ بالمِدَادِ

وقال فارس بن حاتم : ببريق الحبر تَهْتَـدِى العقولُ لخبَايَا الحِكَم : لأنه أبقىٰ علىٰ الدهر ، وأنمىٰ للذِّكْر ، وأزيدُ للأجْر .

وٱعلم أن المداد ركن من أركان الكتابة، وعليه مَدَار الربع منها وأنشدوا فى ذلك :

رُبْعُ الكتابة فى سَوَادِ مِدَادِهَا * والرُّبْعُ حُسْنُ صِنَاعة الكُتَّابِ
والرُّبْعُ من قَلَمٍ تُسَوِّى بَرْيَهُ * وعلى الكَوَاغِدِ رَابِعُ الأَسْبَابِ

قال بعض العلماء رحمهم الله : وإنما ٱختير فيه السواد دون غيره لمضادّته لون الصحيفة . قال : وليس شىءٌ من الألوان يضادّ صاحبه كمضادّة السواد للبياض . قال الشاعر :

فالوجْهُ مثلُ الصبح مُبْيَضٌّ * والفَرْعُ مثلُ الليل مُسْوَدٌّ
ضِدَّان لما ٱستجمعا حَسُنَا * والضِّدُّ يُظْهِرُ حُسْنَهُ الضِّدُّ

ويقال فى المداد : أسودُ قاتِمٌ ، وهو أوّل درجة السواد ، وحالكٌ وحَانِكٌ ، وحُلْكُوكٌ ، وحُلْبُوبٌ ، وداجٍ ، ودَجُوجِىٌّ ، ودَيْجُورٌ ، وأَدْهَمُ ، ومُدْهَامٌّ .

قال المدائنى : حدّثنى بذلك محمد بن نصر عن أحمد بن الضحاك عن أبى عبيدة .

كتب جعفر بن حدار بن محمد إلى دَعْلَج بن محمد يستهديه مِدَادا :

يا أخِى للوِدَاد لا لِلْمِدَادِ * وصَدِيقِى من بين هذا العِبَادِ
والذى فيه أَلْفُ مَجْدٍ طَرِيفٍ * قد أُمِدَّتْ بِأَلْفِ مَجْدٍ تِلَادِ
أنا أشكُو إليك حالَ دَوَاتِى * أَصْبَحَتْ تَقْتَضِى قَمِيصَ حِدَادِ

ولله منصور بن إسماعيل حيث يقول :

وسَوْدَاء مُقْلَتُهَا مِثْلُهَا * وأجفانُها من لُجَيْنٍ صَقِيلْ
إذا أَذْرَفَتْ عَبْرَةً خِلْتَهَا * كَغَالِيَةٍ فوقَ خَدٍّ أَسِيلْ

الوجه الثالث

(فى صنعتهما، وفيه نظران)

النظر الأوّل — فى مادّتهما .

وآعلم أن الموادَّ لذلك منها ما يُستعمل بأصله ولا يُحتاج فيه إلىٰ كبيرِ علاج وتدبير كالعَفْص، والزاج، والصمْغ، وما أشبهها . ومنهــا مايحتاج إلىٰ علاج وتدبير، وهو الدُّخَان . قال أبو القاسم خلوف بن شعبة الكاتب : ويُتَوخّى فى الدخان أن يكون من شىء له دهنية، ولا يكون من دخان شىءٍ يابس فى الأصل لأن دخان كل شىء مثله وراجع إليه .

قال أحمد بن يوسف الكاتب : كان يأتينا رجل فى أيام خُمَارويه ببغداد لم أر أنعمَ منه، ولا أشدّ سوادا منه . فسألته من أىّ شىء آستخرجته ؟ فكتم ذلك عنى، ثم تلطفت به بعد ذلك، فقال لى : من دهن بزر الفُجْل والكَتّان، أضع دُهْنَ ذلك فى مَسَارجَ وأَوقِدها، ثم أجعل عليها طاسا حتّى إذا نَفِد الدهن، رفعتُ الطاس، وجمعت ما فيها بمــاء الآس والصمغ العربىّ . وإنمــا جمعه بمــاء الآس ليكون سواده مائلا إلىٰ الخُضْرة، والصمغ يجمعه ويمنعه من التطاير .

قال صاحب الحلية : وإن شئت أخذت من دخان مَقَالى الحِمَّص وشبهه، وتُلقى عليه ماء، وتأخذ مايعلو فوقه وتجمعــه بمــاء الآس ، والعســل والكافور والصمغ العربى والملح، وتمدّه وتقطعه شوابير ، والدخَان الأول أجود والله أعلم .

النظر الثانى — فى صنعتهما، وفيه مسلكان

المسلك الأوّل
(فى صنعة المداد، وبه كانت كتابة الأوّلين من أهل الصنعة وغيرهم)

قال الوزير أبو علىّ بن مُقْلة رحمه الله : وأجود المداد ما اتُّخِذ من سُخَام النِّفْط ، وذلك أن يؤخذ منه ثلاثة أرطال، فيجاد نخله وتصفيته، ثم يلقىٰ فى طِنْجير، ويُصَبُّ عليه من المـاء ثلاثة أمثاله ، ومن العسل رطل واحد ، ومن الملح خمسة عشر درهما ، ومن الصَّمْغ المسحوق خمسةَ عشر درهما ، ومن العَفْص عشرة دراهم، ولا يزال يساط علىٰ نار لينة حتّى يثخن جِرْمُه ويصير فى هيئة الطين ، ثم يترك فى إناء ويرفع إلىٰ وقت الحاجة . وما ذكره فيه إشارة إلىٰ أنه لاينحصر فى سُخَام النِّفْط ، بل يكون من دُخَان غيره أيضا كما تقدّم . نَعَمْ ذكر صاحب الحلية أنه يحتاج مع ذلك إلىٰ الكافور لتطيب رائحته، والصَّبِرِ ليمنع من وقوع الذباب عليه . وقيل : إن الكافور يقوم مقام الملح فى غير الطيب .

المسلك الثانى
(فى صنعة الحبر، وهو صنفان)

الصنف الأوّل ـ ما ينـاسب الكاغَدِ أى الورق : وهو حبر الدُّخَان ، ونحن نذكر منه صفات إن شاء الله تعالىٰ .

"صفة" يؤخذ من العَفْص الشامىّ قدر رطْلٍ يُدَقُّ جريشا ويُنْقَع فى ستة أرطال ماءٍ مع قليل من الآس : (وهو المرسين) أسبوعا، ثم يغلىٰ علىٰ النار حتّى يصير علىٰ النصف أو الثلثين، ثم يصفّى من مئزر ويترك ثلاثة أيام، ثم يصفّى ثانيا، ثم يضاف لكل رطل من هذا المـاء أوقية من الصَّمْغ العربىّ ، ومن الزاج القُبْرسىّ كذلك، ثم يضاف إليه من الدخان المتقدّم ذكره مايكفيه من الحَلاكة . ولابدّ له مع ذلك من الصَّبِرِ والعسل ليمتنع بالصَّبِرِ وقوعُ الذباب فيه، ويُحفَظ بالعسل علىٰ طول الزمن؛ ويجعل

من الدخان لكل رِطْل من الحبر (١) بعد أن تُسحَق الدخَان بكُلْوة كفك بالسكر النبات والزعفران الشعر والزِّنجار إلىٰ أن تُجيد سَحْقه ، ولا تَصْحنه فى صلاية ولا هاوُن يفسُد عليك .

الصـــنف الثانى ـ ما يناسب الرَّق ، ويســمَّى الحِبرَ الرأس ، ولا دُخَان فيه ، ولذلك يجىء بَصَّاصا بَرَّاقا ، وبه إضرار للبصر فى النظر إليه من جهة بَريقه ، ويفسِدُ الكاغَدَ علىٰ طول ، ونحن نذكر منه .

"صفة حبر" وهى ، يؤخذ من العفص الشامى رِطْل واحد فيُجْرَش ، ويلقىٰ عليه من المــاء العذب ثلاثة أرطال ، ويجعل فى طِنْجِيرٍ ، ويوضع علىٰ النار ويوقَد تحته بنار لَيِّنة حتّٰى ينْضَجَ ، وعلامة نُضْجِهِ أن تكتب به فتكون الكتابة حمراء بَصَّاصَةً ، ثم يلقىٰ عليه من الصَّمْغ العربى ثلاث أواقٍ ، ومن الزاج أوقية ثم يصفَّى ويودَع فى إناء جديد ، ويستعمل عند الحاجة .

"صفة حبر سَفَرى" يعمل علىٰ البارد من غير نار ، يؤخذ العفص فيُجْرش جرشا جيِّدا ويسحق لكل أوقيةِ عَفْصٍ درهم واحد من الزاج ، ودرهم من الصمغ العربِى ، ويلقى عليه ويرفع إلىٰ وقت الحاجة . فإذا آحتاج إليــه صُبَّ عليــه من المــاء قدر الكفاية وآستعمله .

الوجه الرابع
(فى لِيَق الأفتتاحات)

وهى ما يكتب به فواتح الكلام : مِن الأبواب ، والفصول والأبتـداءات ونحوها ، ولا مدخل لشىء من ذلك فى فنى الإنشاء والدِّيوْنة ، إلا الذهب فإنه يكتب به فى الطُّغْراوات فى كتب القانَات ، وفى الأسماء الجليلة منها ، كما سيأتى فى موضعه من

(١) بياض بالاصل . وفى الضوء ثلث أوقية بعد الخ .

المكاتبات من فنّ الإنشاء إن شاء الله تعالىٰ، وباقى ذلك إنما يحتاج إليه كُتّاب النَّسْخ إلا أنه لا بأْس بالعلم به فإنه كمال الكاتب .

ونحن نذكر منه ما الغالب آستعماله وهو أصناف :

الصنف الأوّل ـ الذهب ، وطريق الكتابة به أن يُحَلّ ورقُ الذّهب ؛ وصفة حله أن يؤخذ ورق الذهب الذى يستعمل فى الطِّلاء ونحوه ، فيجعل مع شراب الليمون الصافى النَّقِىّ ، ويقتل فيه فى إناء صِينىّ أو نحوه حتّى يضمحلّ جِرْمُه فيه ، ثم يصب عليه الماء الصافى النقىّ ويغسل من جوانب الإناء حتّى يمتزج الماء والشراب ، ويترك ساعةً حتّى يَرْسُبَ الذهب ، ثم يصفّى الماء عنه ويؤخذ مارَسَبَ فى الإناء ، فيجعل فى مفتلة زجاج ضيقة الأسفل ، ويجعل معه قليل من اللّيقة ، والنزرُ اليسير من الزعفران بحيث لا يُخْرِجه عن لون الذهب ، وقليلٌ من ماء الصمْغ المحلول ، ويكتب به . فإذا جَفَّ صقل بِمِصْقلة من جَزْعٍ حتّى يأخذ حدّه ، ثم يُزَمّك بالحبر من جوانب الحرف .

الصنف الثانى ـ اللّازوَرْدُ ، وأنواعه كثيرة ، وأجودها المعدِنىُّ ، وباقى ذلك مصنوع لايناسب الكتابة ، وإنما يستعمل فى الدِّهانات ونحوها ، وطريق الكتابة به أن يذاب بالماء ، ويلقىٰ عليه قليل من ماء الصمْغ العربىّ ، ويجعل فى دواةٍ كدواة الذهب المتقدّم ذكرها ، وكلما رَسَبَ حُرّك بالقلم ، ولا يكثر به الصمغ كى لايَسْوَدّ ويفسُد .

الصنف الثالث ـ الزُّنْجُفْرُ ، وأجوده المغربىّ ، وطريق الكتابة به أن يسحق بالماء حتّى ينعَم ؛ وإن سحق بماء الرمّان الحامض فهو أحسن ، ثم يضاف عليه ماء الصمغ ، ثم يُلاق بليقة كما يُلاق الحبر ، ويجعل فى دواة ويكتب به .

الصنف الرابع ـ المَغْرة العِراقية ، وهى مما يُكتب به فى نفائس الكتب ،

وربمـا كتب بها عن الملوك فى بعض الأحيان . وطريقه فى الكتابة كما فى الزُّنْجُفْرِ، والله أعلم .

الآلة السادسة ـ المِلْوَاقُ ، بكسر الميم ، وهو ما تلاق به الدّواة أى تحرّك به الليقة . قال بعض الكُتَّاب : وأحسن ما يكون من الآبِنُوسِ لئلا يغيره لونُ المداد . قال : ويكون مستديرا مخروطا، عريض الرأس ثخينه .

الآلة السابعة ـ المِرْمَلة ، وآسمها القديم المِتْرَبَةُ، جَعْلًا لها آلة للتراب، إذ كان هو الذى يُتَرَب به الكتبُ .

وتشتمل علىٰ شيئين :

الأول ـ الظرف الذى يُجعل فيه الرملُ، وهو المسمّىٰ بذلك . ويكون من جنس الدّواة إن كانت الدواة نُحاسًا ، أو من النحاس ونحوه إن كانت خشبا علىٰ حسب ما يختاره رَبُّ الدواة. ومحلها من الدواة ما يلى الكاتب ممـا بين المِحْبرة وباطن الدواة مما يقابل المِنْشاة الآتى ذكرها، ويكون فى فمها شُبَّاك يمنع من وصول الرمل الخشن إلى باطنها . وربمـا آتُّخِـذت مِرْملة أخرىٰ أكبر من ذلك تكون فى باطن الدواة لآحتمال أن تَضيق تلك عن الكفاية لِصغَرها. وأرباب الرياسة من الوزراء والأمراء ونحوهم يتخذون مِرْمَلَة كبيرة تقارب حبةَ النَّارَجِيل(١)، لهـا عنق فى أعلاها ، تكون فى الغـالب من جنس الدواة من نُحَاسٍ ونحوه، وربمـا آتُّخِذت من خشب لقُضاة الحكم ونحوهم .

وممـا ألغز فيها القاضى شهاب الدين ابن بنت الأعز :

ظَرِيفةُ الشَّكْل والتِّمثال، قد صُنِعتْ * تَحْكِى العَرُوسَ ولكن لَيْسَ تَغْتَلِمُ
كأنَّها من ذَوِى الألباب خاشِعةٌ * تَبْكِى الدِّماءَ علىٰ ماسَطَّرَ القَلَمُ

(١) أى الجوز الهندى .

وتسمّى المِتْرَبَةَ أيضا، وفى ذلك يقول الوجيه المناوى :

يا مَادِحًا أمرًا ولم يَأْتِهِ * ولم ينَـلْ منـه ولَا جَرَّبَهْ
لَاتَغْبِطِ الكاتبَ فى حاله، * فإنه المِسْكينُ ذُو المِـتْرَبَهْ

الثـانى ـ الرمل، وقدآختار الكُتَّابُ لذلك الرملَ الأحمرَ دون غيره، لأنه يكسو الخط الأسود من البهجة مالايكسوه غيره من أصناف الرمل، وخيرُه ما كان دقيقا .

وهو علىٰ أنواع :

النوع الأول ـ ما يؤتىٰ بهمن الجبل الأحمر الملاصِق للجبل المُقَطَّمِ من الجهة الشرقية، وهو أكثر الأنواع وأعمُّها وجودا بالديار المصرية .

النوع الثانى ـ يؤتىٰ به من الْوَاحَاتِ، وهو رمل متحجِّر شـديدُ الحمرة، يتَّخذ منه الكُتَّابُ حجارة لِطَافًا تُحَتُّ بالسكين ونحوها علىٰ الكتابة، وأكثر ما يستعملها كُتَّابُ الصعيد والفيُّوم وما والاهما .

النوع الثالث ـ يؤتىٰ به منجزيرةٍ ببحر القلزم من نَوَاحى الطُّور، وهو رمل دقيق أصفرُ اللون، قريب من الزعفران، وله بَهْجة علىٰ الخط إلا أنه عزيز الوجود .

النوع الرابع ـ رمل بينالحُمْرة والصُّفْرة، به شُذُور بَصَّاصَة يخالهُـا الناظر شُذُور الذهب، وهو عزيز الوجود جدّا، وبه يُرَمِّل الملوك ومن شابههم .

الآلة الثامنة ـ المِنْشاة، وتشتمل علىٰ شيئين أيضا .

الأوّل ـ الظرف، وحاله كحال المِرْمَلَةِ فى الهيئة والمحـلِّ من الدواة من جهة الغطاء إلا أنه لاشُـبَّاكَ فى فَمِه ليتوصَّـل إلىٰ اللصاق، وربمـا آتخذ بعض ظرفاء الكُتَّاب مِنْشَاةً أخرىٰ، غير التى فى صدر الدّواة من رَصَاصٍ علىٰ هيئة حُقٍّ لطيف، ويجعلها

فى باطن الدواة كالمِرْملة المتوسطة ، فإن اللصاق قد يتغيّر بمكثه فى النُّحاس ، بخلاف الرَّصاص .

الثانى ـ اللِّصاق ، وهو علىٰ نوعين : أحدهما النَّشا المتخذ من البُرّ ، وطريقه ان يطبخ علىٰ النار كما يطبَخ للقُماش ، إلا أنه يكون أشدّ منه ، ثم يجعل فى المِنْشاة ، وهو الذى يستعمله كُتَّابُ الإنشاء ولا يعوّلون علىٰ غيره لسرعة الالصاق به ، وموافقة لونه للورق فى نَصاعة البياض ، والثانى المتخذ من الكَثِيراءِ ، وهو أن تُبلَّ الكَثِيراءُ بالماء حتّىٰ تصير فى قِوَام اللِّصاق ، ثم تجعل فى المِنْشاة . وكثيرا ما يستعمله كُتَّابُ الدِّيْوَنَةِ ، وهوسريع التغير إلىٰ الخُضْرة ولا يسرع اللصاق به . و ينبغى أن يستعمل فى اللِّصاق فى الجملة المَـاوَرْدُ والكافور لتطيب رائحتُه .

الالة التاسعة ـ المِنْفَذُ ، وهى آلة تشبه المِخْرَز . تتخذ لخرم الورق ، و ينبغى أن يكون محل الحاجة منها متساويا فى الدِّقَّة والغلَظ ، أعلاه وأسفله سواء ، لئلا تختلف أثقاب الورق فى الضـيق والسَّـعَةِ ، خلا أن يكون ذُبَابه دقيقا ليكون أسرع وأبلغ فى المقصود ، وحكمه فى النِّصاب فى الطول والغِلَظ حُكْمُ المُدْية ، وقد سبق . وأكثر مَنْ يحتاج إلىٰ هـذه الآلة من الكُتَّاب كُتَّابُ الدواوين ، وربمـا آحتاج إليها كاتب الإنشاء فى بعض أحواله .

الآلة العاشرة ـ المِلْزَمَةُ ، قال الجوهرىّ : الملزم بالكسر خشبتان تشدّ أوساطهما بحديدة تكون مع الصَّياقلة والأَبَّارين ، ولم يزد علىٰ ذلك . وهى آلة تتخذ من النُّحَاسِ ونحوه ، ذات دَفَّتين يلتقيان علىٰ رأس الدَّرْج حال الكتابة ليمنع الدرج من الرجوع علىٰ الكاتب ، ويُحْبَس بِمَحْبَس علىٰ الدَّفَّتين .

الالة الحادية عَشْرَةَ ـ المِفْرَشَة ، وهى آلة تتخذ من خِرَقِ كَتَّان : بِطانةً وظِهارة ، أو من صوف ونحوه ، تُفْرَش تحت الأقلام وما فى معناها مما يكون فى بطْن الدواة .

الآلة الثانية عشرة ـ المِسَحة، وتسمّى الدفتر أيضا، وهى آلة تتّخذ من خِرَقٍ متراكبة ذات وجهين ملوّنين من صوف أو حرير أو غير ذلك من نفيس القُمَاش، يُمْسح القلم بباطنها عند الفَرَاغ من الكتابة لئلا يجفّ عليه الحبر فيفسد؛ والغالب فى هذه الآلة أن تكون مدوّرة مخزومة من وسطها . وربما كانت مستطيلة، ويكون مقدارها على قدر سَعَةِ الدواة . وفيها يقول القاضى الفاضل رحمه الله :

مِمْسَحَةٌ نَهَارُها * يُجِنُّ ليلَ الظُّلَمِ
كأنها مُذْ خُلِقَتْ * مِنْدِيلُ كُمِّ القَلَمِ

وقال نور الدّين علىّ بن سعيد المغربىّ فيها :

ومِمْسَحةٍ لَاحَتْ كأُفُقٍ تبَدَّدَتْ * به قِطَعُ الظَّلْمَاءِ، والصُّبحُ طَالِعُ
ولمّا أطالَ الليلُ فيها ورُودَه، * حَكَتْهُ، ومُدَّتْ للصَّبَاحِ المَطَالِعُ

وقال المولى ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر :

ومِمْسَحَةٍ تَنَاهى الحُسْنُ فيها * فأضْحَتْ فى المَلَاحَةِ لَا تُبَارَى
ولَا نُكْرٌ على القَلَمِ المُوَافِى * إذا فى وَصْلِهَا خلعَ العِذَارَا

الآلة الثالثة عشرة ـ المِسْقاة، وهى آلة لطيفة تتخذ لصب الماء فى المِحْبَرَة وتسمّى المَاوَرْدِيَّة أيضا : لأن الغالب أن يجعل فى المِحْبرة عِوَضَ الماء ماوَرْدٌ لتطيبَ رائحتها، وأيضا فإن المياه المستخرجة كماء الوَرْدِ والخِلَافِ والرَّيْحَانِ ونحو ذلك لا تُحِلُّ الحبر ولا تفسده، بخلاف الماء . وتكون هذه الآلة فى الغالب من الحلزون الذى يخرج من البحر المِلْحِ، وربما كانت من نُحَاس ونحوه، والمعنى فيها أن لا تخرج المِحبرة من مكانها، ولا يصب من إناء واسع الفم كالكوز ونحوه، فربما زاد الصب على قدر الحاجة .

الآلة الرابعة عشرة ـ المِسْطرة، وهى آلة من خشب مستقيمة الجنبين يسطر عليها مايُحتاج إلىٰ تسطيره من الكتابة ومتعلّقاتها؛ وأكثر مَنْ يحتاج إليها المُذَهِّبُ .

الآلة الخامسة عشرة ـ المِصْقلة ،وهى التى يُصْقَلُ بها الذهب بعد الكتابة، وهى من آلات الدّواة لامحالة .

الآلة السادسة عشرة ـ المُهْرَقُ (بضم الميم وفتح الراء) وهو القِرْطاس الذى يكتب فيه ، ويجمع علىٰ مَهَارِقَ . قلت : وعدّ صاحبنا الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ منها المِدادَ، وهو ظاهر، والمِخْيَط، وفى عدّه بُعْدٌ .

الآلة السابعة عشرة ـ المِسَنُّ، هو آلة تتخذ لإحداد السكين؛ وهو نوعان: أكْهَبُ اللون ، ويسمّى الرومىّ، وأخضرُ، وهو علىٰ نوعين : حجازىّ، وقوصىّ؛ والرومىّ أجودها ، والحجازىّ أجوده الأخضرُ .

الطرف الثالث ـ فيما يكتب فيه ، وهو أحد أركان الكتابة الأربعة كما سبقت الإشارة إليه فى بعض الأبيات المتقدّمة ؛ وفيه ثلاث جمل .

الجملة الأولى

(فيما نطق به القرءان الكريم من ذلك)

وقد نطق القرءان بثلاثة أجناس من ذلك :

الأول اللّوح . قال تعالىٰ : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ قرأ العامّة بفتح اللام علىٰ أن المراد اللوح واحد الألواح؛ سمى بذلك لأن المعانىَ تلوحُ بالكتابة فيه؛ ثم اختلفوا : فقرأ نافع برفع محفوظ علىٰ أنه نعت للقرءان بتقدير بل هو قرءان مجيد محفوظ فى لوحٍ، وصفه بالحفظ لحفظه عن التغيير والتبديل والتحريف . قال تعالىٰ : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ،وقرأ الباقون بالجرّ علىٰ نعت اللوح .

قال أبو عبيد : وهو الوجه ، لأن الآثار الواردة فى اللوح المحفوظ تصدّق ذلك ، وهو أم القرءان ، منه نُسِخَ القرءان الكريم والكتب المُنَزَّلة ، ومنه تنسَخُ الملائكة أعمالَ الخلق . قال ابن عباس : وهو لَوْحٌ من دُرّة بيضاء ، طوله مابين السماء والأرض ، وعرضه مابين المشرق والمغرب ، وحافتاه الدُّر والياقوت ، ودفتاه ياقوتة حمراء ، وأصله فى حِجْرِ مَلَكٍ . وقال أنس : اللوح المحفوظ فى جبهة إسرافيلَ عليه السلام ، وقال مقاتل : اللوح المحفوظ عن يمين العَرْش .

قال ابن عباس : وفى صدر اللوح مكتوب "لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، دينه الإسلام ، ومحمد عبدُه ورسولُه . فمن آمن بالله وصدّق بوعده واتبع رُسُلَه أدخله الجنة" . وسمى محفوظا لأن الله تعالىٰ حَفِظه عن الشياطين ، وقيل : حَفِظه بما ضمنه :

وقيل : اللوح صدر المؤمن .

وقرأ يحيىٰ بن يَعْمَرَ فى لُوحٍ بضم اللام ، وهو الهواء . يقال لما بين السماء والارض اللُّوحُ ، والمعنىٰ أنه شىء يلوح للملائكة فيقرءُونه . وهو ذو نور وعلوّ وشرف . وقد ورد فى القرءان بلفظ الجمع ، قال تعالىٰ : ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد ألواح التوراة . قال الكلبىّ : كانت من زَبَرْجَدَةٍ خضراء . وقال سعيد بن جُبَير : من ياقوتة . وقال مجاهد : من زُمُرُّدٍ أخضر . وقال أبو العالية والربيع بن أنس . من بَرَدٍ : وقال الحسن : خَشَبٍ : وقد روى أن النبىّ صلى الله عليه وسلم . قال : "الألواحُ الّتِي أُنْزِلتْ علىٰ موسىٰ من سِدْرِ الجَنَّة ، وكان طُولُ كلِّ لوح منها اثنَىْ عشر ذراعا" . وقال وهب بن منبه : من صخرة صَمَّاء ألانها الله له فقطعها بيده ، ثم قطعها بأصابعه .

وآختلف فى عددها، فقيل : سبعة، رواه سعيد بن جُبَير عن آبن عباس؛ وقيل لوحان، رواه أبو صالح عن آبن عباس أيضا ، وجُمعت علىٰ عادة العرب فى إيقاع الجمع علىٰ التثنية كما فى قوله تعالىٰ : ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾ يريد داود وسليمان عليهما السلام وآختاره الفرّاء . وقيل عشرة . قاله آبن منبه ، وقيل تسعة . قاله مقاتل . وقال أنس : نزلت التوراة وهى سبعونَ وِقْر بعير .

الثانى ــ الرق (بفتح الراء) قال تعالىٰ : ﴿وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾ قال المبرد : هو ما يرقّق من الجلود ليُكْتب فيه . قال المعافى بن أبى السيار : ومن ثَمَّ آستُبعِد حمله علىٰ اللوح المحفوظ ، والمنشور المبسوط ؛ وآختلف فى الكتاب المسطور فيه : فقيل اللوح المحفوظ(١)، وقيل القرءان، وقيل ما كتبه الله تعالىٰ لموسىٰ وهو يسمع صرير الأقلام .

الثالث ــ القرطاس والصحيفة، وهما بمعنى واحد وهو الكاغَدُ .

أما القرطاس، فقال تعالىٰ : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال آبن أبى السيار : القِرْطاس كاغَدٌ يتخذ من بَرْدِيّ مِصْر، وكل كاغَد قِرْطاس، قال : والجمهور علىٰ كسرها، وضمها أبو زيد وعكرمةُ وطلحةُ ويحيىٰ بن يَعْمَرَ، والذى حكاه الجوهرىّ عن أبى زيد يخالف ذلك ، فإنه قال فيه قَرْطَسٌ بفتح القاف من غير ألف بعد الراء ؛ والمراد بالكتاب فى الآية الكريمة المكتوبُ لا نفس الصحيفة . قاله المعافىٰ .

وأما الصحيفة ، فإنها لم ترد إلا بلفظ الجمع . قال تعالىٰ : ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾ وقال جل وعز : ﴿إِنَّ هَـذَا لَفِى الصُّحُفِ

(١) يظهر أنه وقع هنا تخليط من الناسخ والحاصل على مايؤخذ من كتب التفسير أنه آختلف فى الرق فقيل الجلد وقيل اللوح المحفوظ . وآختلف أيضا فى الكتاب المسطور فيه فقيل القرءان وقيل ماكتبه الخ . فتنبه .

الْأُولَىٰ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ وتجمع أيضا على صحائف ، وسمى المصحف مُصْحَفا لجمعه الصحف . قال الجوهرى : وسمى التصحيف تصحيفا للخطإ فى الصحيفة .

الجملة الثانية

(فيما كانت الأمم السالفة تكتب فيه فى الزمن القديم)

وقد كانت الأمم فى ذلك متفاوتة ، فكان أهل الصِّينِ يكتُبون فى ورق يصنعونه من الحشيش والكلإ ، وعنهم أخذ الناسُ صنعةَ الورق ، وأهل الهند يكتبون فى خِرَق الحرير الأبيض ، والفُرْسُ يكتُبُون فى الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، وكذلك كانوا يكتبون فى اللِّخاف (بالخاء المعجمة) : وهى حجارة بيض رِقَاق ، وفى النُّحاس والحديد ونحوهما ، وفى عُسُب النخل (بالسين المهملة) : وهى الجريد الذى لا خُوصَ عليه ، واحدها عَسِيب ، وفى عظم أكتاف الإبل والغَنَم . وعلىٰ هـذا الأسلوب كانت العربُ لقربهم منهـم . وآستمرّ ذلك إلىٰ أن بُعث النبيّ صلى الله عليه وسـلم ونزل القرءان والعربُ علىٰ ذلك ، فكانوا يكتُبون القرءان حين ينزل ويقرؤه عليهـم النبى صلى الله عليه وسـلم فى اللِّخَاف والعُسُب . فعن زيد بن ثابت رضى الله عنه أنه قال عند جمعه القرءان " فجعَلْتُ أتتبَّع القُرْءانَ من العُسُب واللِّخاف " . وفى حديث الزهرىّ " قُبِض رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرءانُ فى العُسُب " وربمـا كتب النبي صلى الله عليـه وسـلم بعض مكاتباته فى الأَدَم كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

وأجمع رأىُ الصحابة رضى الله عنهـم علىٰ كتابة القرءان فى الرَّقّ لطُول بقائه ، أو لأنه الموجود عنـدهم حينئذ . وبقِىَ الناس علىٰ ذلك إلىٰ أن وَلِيَ الرشيدُ الخلافةَ وقد كَثُر الورق وفشا عمله بين الناس أمر أن لا يكتب النـاس إلا فى الكاغَد :

لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والإعادة فتقبل التزوير، بخلاف الورق، فإنه متىٰ مُحِى منه فسد، وإن كُشِط ظهر كَشْطُه . وآنتشرت الكتابة فى الورق إلىٰ سائر الأقطار، وتعاطاها من قَرُب وبعد، وآستمرّ الناس علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

الجمـــــلة الثـــالثة

(فى بيان أسمـاء الورق الواردة فى اللغة، ومعرفة أجناسه)

الوَرَق (بفتح الراء) آسم جنس يقع علىٰ القليل والكثير، واحده ورقة ، وجمعـه أوراق، وجمع الوَرَقة وَرَقات . وبه سمى الرجل الذى يكتب ورّاقا . وقد نطق القرءان الكريم بتسميته قِرْطاسا وصَحيفة كما مر بيانه . ويسمّى أيضا الكاغَد بغين ودال مهملة، ويقال للصحيفة أيضا طِرْس، ويجمع علىٰ طُروس، ومُهْرَقٌ (بضم الميم وإسكان الهـاء وفتح الراء المهملة بعدها قاف) ، ويجمع علىٰ مَهَارق . وهو فارسىّ معرّب، قاله الجوهرىّ . وأحسن الورق ما كان ناصع البياض غرفا صَقِيلا، متناسب الأطراف، صبورا علىٰ مُرُور الزمان . وأعلىٰ أجنـاس الورق فيما رأيناه البَغدادىّ : وهو ورق ثخين مع ليونة ورِقّة حاشية وتناسب أجزاء، وقطعه وافر جدّا، ولا يكتب فيه فى الغالب إلا المصاحف الشريفة . وربمـا آستعمله كُتّاب الإنشاء فى مكاتَبَات القانات ونحوها كما سيأتى بيانه فى المكاتبات السلطانية . ودونه فى الرتبة الشامىّ؛ وهو علىٰ نوعين : نوع يعرف بالحَموىّ، وهو دون القطع البغدادىّ . ودونه (١) فى القـدر وهو المعروف بالشامىّ ، وقطعه دون القطع الحموىّ، ودونهـما فى الرتبة الورق المصرىّ؛ وهو أيضـا علىٰ قطعين : القطع المنصورىّ، وقطع العادة والمنصورىّ أكبر قطعا . وقلّما يُصْقل وجهاه جميعا . أما العادة فإن فيـه مايصقل وجهاه ويسمّى فى عرف الورّاقين المصلوح . وغيره عندهم علىٰ رتبتين : عال

(١) أى ونوع دونه الخ فتنبه .

ووسط . وفيه صِنْفٌ يعرف بالفوّى صغير القطع ، خشن غليظ خفيف الغرف ، لا يُنْتفع به فى الكتابة يُتَّخذ لِلْحَلْوىٰ والعِطْر ونحو ذلك . وإنما نبهت علىٰ ذلك وإن كان واضحا لأمرين : أحدهما أن لا نُخْلى كتابنا من بيان الورق الذى هو أحد أركان الكتابة ؛ الثانى أنه قد ينتقل الكُتّاب إلىٰ إقليم لا يعرف فيه تفاصيل أمر الورق المصرى كما لا يَعْرِف المِصريُّون ورق غير مصر معرفَتَهُمْ بورق مصر ، فيقع الاطلاع علىٰ ذلك لمن أراده . ودون ذلك ورق أهل الغرب والفرنجة فهو ردىء جدّا ؛ سريع البِلَى ، قليل المكث ؛ ولذلك يكتبون المصاحف غالبا فى الرَّقّ علىٰ العادة الأولىٰ طلبا لطول البقاء .

وسيأتى الكلام علىٰ مقادير قطع الورق عند أهل التوقيع وأهل الدَّيْوَنَةِ عند ذكر ورق كل فنّ ، وما يناسبه من القطع إن شاء الله تعالىٰ .

تم الجزء الثانى ، ويتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الثالث ؛ وأوّله
(الفصل الثانى من الباب الثانى من المقالة الأولىٰ ،
فى الكلام علىٰ نفس الخط)

صبح الأعشى

الجزء الثالث

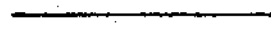

دار الكتب الخديوية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الثالث

طبـــع
بالمطبعة الامـــيرية بالقاهرة
سـنة ١٣٣٢ هـ
١٩١٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة الأُولىٰ

(فى الكلام علىٰ نَفْس الخط ؛ وفيه سبعة أطراف)

الطَّرَف الأوّل

(فى فضيلة الخط)

قال تعالىٰ : ﴿اِقْرَأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلِمِ عَلَّمَ الإِنْسَانَ ما لَمْ يَعْلَمْ﴾ فأضاف تعليم الخط إلىٰ نفسه ، وآمتنَّ به علىٰ عباده ؛ وناهيك بذلك شرفا !

وقال جل وعز : ﴿ن وَالْقَلَمِ وما يَسْطُرُونَ﴾ فأقسم بما يَسْطُرونه .

وعن آبن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالىٰ : ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أنه الخط كما تقدّم الكلام عليه .

و يروىٰ أنَّ سليمان عليه السلام سأل عِفْرِيتا عن الكلام فقال : ريحٌ لا يبقىٰ ! قال فما قَيْدُه ؟ قال : الكتابة .

وقال عبيد الله بن العباس : الخط لِسانُ اليد .

وقال جعفر بن يحيىٰ : الخط سِمْط الحكمة ، وبه تُفَصَّل شُذُورها ، وينتظم منثورها .

وقال النَّظَّـام : الخط أصل الروح له جسدانية فى سائر الأعمال .(١) إلىٰ مايَجْرِى هذا المَجْرىٰ .

وقال إبراهيم بن محمد الشيبانى : الخط لسان اليَد ، وبَهْجة الضمير ، وسَفِير العُقُول ، ووَصِىُّ الفِكْر ، وسِلاح المَعرِفة ، وأُنْس الإخوان عنـد الفُرْقة ، ومحادَثَتُهم علىٰ بُعْـد المسافة ، ومستودَع السِّر ، ودِيوان الأمور .

وقال مسلم بن الوليد : من عجائب الله تعالىٰ فى خلقه ، وإنعامه عليهم من فضله ، تعليمُه إيَّاهم الكِتَابَ المُفِيدَ للباقين ، حِكَمَ الماضين ، والمخاطِبَ للعيون بسرائر القلوب ، علىٰ لغات متفرّقة ، فى معانٍ معقولة ، بحروف مؤلَّفة من ألف ، وباء ، وجيم ، ودال ، متباينـاتِ الصُّوَر مختلفاتِ الجهات ، لَقَاحُها التفكير ، ونِتـاجُها التأليف ؛ تَخْرَس مُنْفَردة ، وتَنْطِق مُزْدوِجة ، بلا أصواتٍ مسموعة ، ولا أَلْسُن مزوّرة ، ولا حركاتٍ ظاهرة ؛ ما خلا قَلَمًـا جَوَّف باريه بطنَه لِيعْلَق المِـدادُ به ، وأرهف جانبيـه ليردّ ما ٱنتشر منه إليه ؛ وشقّ رأسه ليحتبس الٱستمداد عليه ؛ وأربع من شَفَتيه ، ليجمعا حَواشىَ تصويره إليه ؛ فهنالك ٱشتدّ القلم برشْفه ، وقذف المـادّة إلىٰ صدره ، ثم مَجَّها من شـقِّه بمقدار ما ٱحتملت شَفَتاه بتخطيط أجزاء النقط التى أراد بهـا الخطوط ، فالأبصار لها سامِيَة ، فإذا حكَتْها الألْسُن فالآذان لها واعية . وأوْلىٰ أسمائها بها حينئذ الكلامُ الذى سَدّاه العقلُ وألْحَمـه اللسان ، وقطَعَتْه الأسـنان ، ولفَظَتْه الشَّـفَتان ، وصَدّاه الجوّ ، وجُرِّعته الأسماع علىٰ أنحاءٍ شتّىٰ ، وسُمِّيت لها(٢) الأشياء لتعريف متناكِرِها ، وتمييز متشابِهِها ، وتبيين معلومها من مجهولها . فمن ذلك فَضَل الكِتَابُ الصِّناعات .

(١) عبارة الضوء . " قال بعض العلماء : الخط كالروح فى الجسد " .

(٢) لعله وسمت أى تطلعت ونظرت . أو وسميت بها الخ .

وبالجملة فليس يذكُر ذاكر شيئا ممـا يجرِى به الخـاطر، أو يميلُ إليـه العقل، أو يُلْقيه الفهم، أو يقَع عليه الوهم، أو تُدْرِكه الحواسُّ، إلا والكتّابُ والكلام موكَّلان به، مدبِّرانِ له، معبِّران عنه .

فلما أن تضمَّنت الحروفُ الدلالة، وقامت الألفاظُ بالعبارة، نطقت الأفواه بكل لغة، وتصرَّف المَنْطِق بكل جهة، فلم تكتف منه أُمَّة بأمة، ولم تستَغْنِ عنه مِلَّة دُونَ مِلَّة، فَعُرِّب ذلك بلغة العرب التى هى القاهرةُ لجميع اللُّغات، المنظِّمة لجميع المعانى فى وجيز الصِّفات .

ولو لم يكن من شَرَف الخط إلا أن الله تعالىٰ أنزله علىٰ آدم أو هُودٍ عليهما السلام كما تقدّم ذكره، وأنزل الصُّحُف علىٰ الأنبياء مسطورةً، وأنزل الألواح علىٰ موسىٰ عليه السلام مكتوبةً، لكان فيه كفاية .

وأيضا فإنَّ فيه من حِفْظ الحُقوق، ومنع تمرُّد ذَوِى العقوق، بما يُسطَّر عليهم من الشهادات، التى تقع فى السجلات، والمكاتَباتِ بين الناس لحوائجهم من المسافات البعيدة التى لاينضبْط مثلُ ذلك لحامل رسالة، ولا ينـاله الحاضرُ بمشافَهَة وإن كثر حفظه وزادت بلاغته . ولذلك قيل : الخطُّ أفضلُ من اللفظ : لأن اللفظ يُفَهِّم الحاضر فقط، والخط يفَهِّم الحاضر والغائب . ولله القائل فى ذلك يصف القلم .

وأَخْرَسَ يَنْطِق بالمُحْكَمات * وجُثْمانُه صـامِتٌ أجْوَفُ
بمكَّةَ يَنْطِقُ فى خُفْيـةٍ * وبالشـام مَنْطِقُه يُعْرَف

الطرف الثـانى

(فى بيـان حقيقـــة الخط)

قال الشيخ شمس الدين بن الاكفانى فى كتابه "إرشاد القاصد" فى حصر العلوم :

وهو علم تتعرّف منـه صورُ الحروف المفردة ، وأوضاعَها ، وكيفيـةُ تركيبها خطًّا ، أو ما يكتَب منها فى السُّطُور، وكيف سبيله أن يُكْتَب ،وما لا يُكْتَب ؛ وإبدالُ ما يُبْدل منها فى الهِجاء وبمـا ذا يُبْدل . قال : وبه ظهَرتْ خاصَّـة النوع الإنسانىّ من القُوَّة إلىٰ الفعل ،وآمتاز به عن سائر الحيوان ،وضَبْطُ الأموال ،وترتيبُ الأحوال ، وحفظُ العلوم فى الأدوار، وآستمرارُها علىٰ الأطوار، وآنتقالُ الأخبـار من زمان إلىٰ زمان، وحمل السِّرِّ من مكان إلىٰ مكان .

وبهذه الفضائل حافظت الغريزة الإنسانية علىٰ قَبُوله بطلب تعلُّمه محافظةً لم يحتج بها إلىٰ تَذْكار بعد الغَيْبة . ولهذه العلة آستَغْنىٰ عن كتاب يُصنَّف فيه .

ثم قال : وجميع العلوم إنما تعرف بالدلالة عليها : بالإشارة، أو اللفْظ ،أو الخط ؛ والإشـارة تتوقَّف علىٰ المشاهدة؛ واللفظ يتوقَّف علىٰ حضور المخاطَب وسمـاعه ؛ أما الخط فإنه لايتوقَّف علىٰ شيء فهو أعمُّها نفعا وأشرفُها .

وآعلم أنه قد تقدّم فى الكلام علىٰ اللغة فى "النوع الأوّل مما يحتاج إليه الكاتب" أنه ينبغى للكاتب أن يتعلَّم لغـةَ من يَحتاج إلىٰ مخاطبته أو مكاتبته من اللغـات غير العربيـة ،فكذلك ينبغى أن يتعلم من الخطوط غيرِ العربيـة ما يَحْتاج إليه من ذلك فقد قال محمد بن عمر المدائنىّ فى كتاب "القلم والدواة" : إنه يجب عليه أن يتعلم الهندية وغيرها من الخطوط العجميَّة . ويؤيد ذلك ماتقدّم فى الكلام علىٰ اللغـة أن النبىّ صلى الله عليه وسلم "أمر زيْدَ بنَ ثابت رضى الله عنه أن يتعلَّم كتابَ يَهُودَ من السُّرْيانية أو العبرانية فتعلَّمَها" وكان يقرأ علىٰ النبى صلى الله عليه وسلم كُتُبَهم ويجيبهُم عنه .

الطرف الثالث

(فى وضع الخط، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى بيان المقصود من وضعه، والمُوازنة بينه وبين اللفظ)

أما بيان المقصود من وضعه اعلم(١) أن وضع اللفظ لأداء المعنى الحاصل فى الذهن المشعور به للسمع؛ إذ لا وقوفَ على ما فى الذهن؛ ووضع الخط لأداء اللفظ المقصود فهمه للناظر فيه . فإذا أردت إيقافك أحدا على ما فى ذهنك من المعانى تكلمتَ بألفاظ وُضِعتْ لها، وإذا أردت تأدية ألفاظٍ لذلك الإيقاف إلى أحد بغير شِفَاهٍ، نقشْتَ النُّقوش الموضوعة لتلك الألفاظ، فيطالع تلك النقوش، ويفهم منها تلك الألفاظ، ومن الألفاظ تلك المعانى؛ ولا علاقةَ معقولةٌ بين المعانى والألفاظ على الأمر العام، ولا بين الألفاظ والنقوش الموضوعة؛ ومن ثَمَّ جاء آختلافُ اللُّغات والخُطُوط كالعربيَّة والرُّوميَّة وغيرِهما .

وأما المُوازنةُ بينه وبين اللفظ، فالأصلُ فى ذلك أن الخطَّ واللفظَ يتقاسمانِ فضيلةَ البيان ويشتركان فيها : من حيث إن الخط دالٌّ على الألفاظ والألفاظَ دالَّةٌ على الأوهام؛ ولآشتراك الخط واللفظ فى هذه الفضيلة وقع التناسبُ بينهما فى كثير من أحوالها؛ وذلك أنهما يعبِّران عن المعانى إلا أن اللفظ معنًى متحرِّك والخطَّ معنًى ساكنٌ، وهو وإن كان ساكنا فإنه يفعلُ فعلَ المتحرّك بإيصاله كلَّ ما تضمنه إلى الأفهام وهو مستقرّ فى حيزه ومكانه فائم(٢) كما أن اللفظ فيه العَذْب الرشيقُ السائغ فى الأسماع كذلك الخط فيه الرائق المستحسَنُ الأشكالِ والصُّور . وكما أن اللفظ

(١) أى فنقول آعلم الخ . (٢) لعل وجه الكلام هكذا [مستقر فى حيزه ، قائم فى مكانه ، وكما الخ] .

فيه الجَزْل الفصيح الذى يستعمله مَصَاقِع الخُطَباء، ومَفَالِق الشُّعَراء، والمبتذَلُ السخيف الذى يستعمله العوامّ فى المكاتبة والمخاطبة، كذلك الخَطُّ فيه المحرَّر المحقَّق الذى تكتب به الكُتُب السلطانية والأمور المهمة، وفيه المُطْلَق المرسَل الذى يتكاتَب به الناس و يستعملونه فيما بينهم . وكما أن اللفظ يقَع فيه لحنُ الإعراب الذى يهجِّنه كذلك الخط يقع فيه لَحْن الهِجَاء . وكما أن اللفظ إذا كان مقبولا حُلْوا رفع المعنىٰ الخسيسَ وقرَّبه من النُّفُوس ، و إن كان غَثًّا مستكْرَها وضع المعنىٰ الرفيعَ و بعَّده من القلوب، كذلك الخط إذا كان جَيِّدا حسَنًا، بعث الإنسان علىٰ قراءة ما أُودِع فيه و إن كان قليل الفائدة، وان كان ركيكا قبيحا، صَرَفه عن تأمُّل ماتضمَّنه و إن كان جليلَ الفائدة .

ولما ٱشترك اللفظ والخط فى الفوائد العامَّة التى جُعِلت فيهما وقع الٱشتراك أيضا بين آلتيهما إذ آلة اللفظ اللسانُ ، وآلة الخط القلَمُ ؛ وكل منهما يفعل فعل الآخر فى الإبانة عن المعانى إلا أن اللفظ لما كان دليلا طبيعيًّا جُعِلت آلتُه آلة طبيعيةً، والخط لما كان دليلا صِناعيًّا جعلت آلته آلةً صناعيَّة؛ ولما تقاسمت الآلتان الدلالةَ نابت إحداهما مناب الأخرىٰ فأوقعوا ٱسمَ اللسان علىٰ القلم فقالوا : الأقلام ألْسِنَةُ الأفْهام، وشَرَّكُوا بينهما فى الٱسم فقالوا : القلمُ أحدُ اللِّسانين .

الجملة الثانية

(فى أصل وضعه ؛ وفيه مَسْلَكان)

المسلك الأوّل

(فى وضع مطلق الحروف)

قيل إن أوّل مَنْ وضع الخُطوط والكُتُبَ كلَّها آدمُ عليه السلام : كتبها فى طين وطبخه؛ وذلك قبل موته بثلثمائة سنة؛ فلما أظلَّ الأرضَ الغرقُ أصاب كلَّ قوم

كتابهم . وقيل أَخْنُوخ (وهو إدريس عليه السلام) . وقيل إنها أنزلت على آدم عليه السلام فى إحدى وعشرين صحيفة . وقضية هذه المقالة أنها توقيفية علمها الله تعالى بالوحى ، والمقالتان الأولتان محتملتان لأن تكون توقيفية وأن تكون ٱصطلاحية وضعها آدم وإدريس عليهما السلام . على أنه يحتمل أن يكون بعض ذلك توقيفيا علمه الله تعالى بالوحى ، وبعضه ٱصطلاحيا وضعه البشر : واحدٌ أو جماعةٌ ، فيصير الخلاف فيه كالخلاف فى اللغة هل هى توقيفية أو ٱصطلاحية على ماهو مقرّر فى علم الأصول . والله سبحانه وتعالى أعلم .

المسلك الثانى

(فى وضع حروف العربيـــة)

قال الشيخ أبو العباس البُونىّ رحمه الله فى كتابه "لطائف الإشارات، فى أسرار الحروف المعلومات":

يروى عن أبى ذرّ الغِفَارىّ رضى الله عنه أنه قال : "سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يارسولَ اللهِ كلُّ نَبِيٍّ مُرْسَل بم يُرْسلُ؟ ـ قال بكتاب منَزّل ـ قلت يارسولَ الله أىُّ كتابٍ أُنْزِل على آدمَ ؟ ـ قال : ا ب ت ث ج إلى آخره ـ قلت يارسول الله كم حَرْف ؟ ـ قال : تسعٌ وعشرونَ ـ قلت يارسول الله عدَدْتَ ثمانيةً وعشرين ، فغَضِب رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حتّى ٱحمرَّت عيناه ، ثم قال ياأبا ذرّ: والّذِى بَعَثنِي بالحقّ نبياً ! ماأنزلَ اللهُ تعالى على آدم إلا تِسْعةً وعشرين حرفاً ـ قلت يارسول الله فيها ألف ولام ـ فقال عليه السلام : لام ألف حرفٌ واحد ، أنزله على آدم فى صحيفةٍ واحدةٍ ، ومعه سبعونَ ألفَ مَلَك ، من خالف لام ألف فقد كفر بما أُنْزِل على آدم ! ومَنْ لم يعـدّ لام ألف فهو برىء منّى وأنا برىء منه ! ومَنْ لا يُؤْمِنُ بالحروف وهى تسعةٌ وعشرون حرفاً لايخرج من النار أبدا مكنه .

وهذا الخبر ظاهر فى أن المراد منه حروف العربيـة فقط، إذ قد أجاب صلى الله عليه وسلم أبا ذرّ رضى الله عنه بحروف ا ب ت ث وأثبت منها لام ألف، وليس ذلك فى غير حروف العربية ؛ وقضية ذلك أن حروف العربية أنزلت علىٰ آدم عليه السلام وهو الموافق لما فى أوّل الفصل قبله، لكن فى كتاب "التنبيـه علىٰ نقط المصاحف وشكلها" للشيـخ أبى عمرو الدانىّ رحمه الله أنها أنزلت علىٰ هُودٍ عليـه السلام، ولا تباين بينهما : لجواز أن تنزل علىٰ آدمَ مرّة وعلىٰ هُودٍ أخرىٰ، فربما نزلت الآية علىٰ نبىّ ثم نزَلَتْ علىٰ نبىّ آخر كما قيل فى قوله تعالىٰ : ﴿حمٓعسٓقٓ كَذٰلِكَ يُوحِى إِلَيْكَ وإِلىٰ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ إنه ما بعث اللهُ تعـالىٰ نبيًّا إلا وأنزل عليه ﴿حمٓعسٓقٓ﴾ وقد أنزلت ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ علىٰ سليمان عليه السلام، ثم أنزلت علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ وربما أنزلت الآية الواحدة علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم مرّتين كما فى الفاتحة فإنها نزلت مرةً بمكة ومرةً بالمدينة علىٰ أحد الأقوال .

وعلىٰ الجملة فقضيته أنها توقيفيّة وهو الموافق لأحد الأقوال فى مطلق الحروف .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن أول مَنْ وضع الحروف العربيةَ ثلاثةُ رجال من بَوْلانَ، (و بَوْلانُ قبيلةٌ من طيئ) نزلوا مدينة الأنبار، وهم مُرَامِر(١) بنُ مُرَّة، وأسلمُ بن سِدْرة، وعامرُ بنُ جَدَرَةَ، اجتمعوا فوضَعوا حروفا مقطَّعة وموصولة، ثم قاسُوها علىٰ هِجَاء السُّريانية ؛ فأما مُرامِر(١) فوضع الصُّوَر، وأما أَسْلَمُ ففَصَل ووصل، وأمّا عامر فوضع الإعجام ؛ ثم نُقِل هذا العِلم إلىٰ مكة وتعلَّمه مَنْ تعلمه وكثُر فى الناس وتداولُوه .

ونقل الجوهرىّ عن شَرْقىّ بن القَطَامىّ أن أوّل من وضعه رجال من طيئ منهم مُرَامِر(١) بن مُرَّة وأنشد عليه :

(١) فى الأصل مرار . والذى فى جميع معاجم اللغة مرامر، وكذا فى البيت أيضا .

تَعَلَّمْتُ باجَادٍ وآلَ مُرَامِرٍ * وَسَوَّدْتُ أثوابِي ولَسْتُ بِكَاتِبِ

قال الجوهرىّ : وانما قال آل مُرَامِرٍ لأنه كان قد سمّى كل واحد من أولاده بكلمة من أبى جاد وهم ثمانية . وذكر غيره نحوه فقال : أوّل مَنِ ٱخترعه وألّف حروفه ستة أشخاص من طَسْمٍ كانوا نُزُولا عند عَدْنانَ بن أُدَدَ، وكانت أسماؤهم : أبجد، و هوّز، و حطى، و كلمن، و سعفص، و قرشت، فوضعُوا الكتابة والخطَّ علىٰ أسمائهم، فلما وجدوا فى الألفاظ حروفا ليست فى أسمائهم ألحقوها بها، وسمَّوْها الرَّوادِف، وهى الثاء المثلثة، والخاء، والذال، والظاء، والغين، والضاد المعجمات علىٰ حسب مايلحق من حروف الجُمَّل، ثم ٱنتقل عنهم إلىٰ الأنبار، وٱتصل بأهل الحِيرَة، وفَشَا فى العرب ولم ينتشر كلَّ الٱنتشار إلىٰ أن كان المَبْعثُ .

وقيل إن نفيسًا ونَصْرا وتيما ودومة بنى إسماعيل وضعوا كتابا واحدا وجعلوه سطرا واحدا موصول الحروف كلّها غير متفرّق، ثم فرّقه نَبْت وهَمَيْسَعُ وقَيْذار، وفرّقوا الحروف وجعلوا الأشباه والنظائر . وعن هشام بن محمد عن أبيه قال : أخبرنى قومٌ من علماء مصر أن أوّل من كتب الكتّاب العربِىَّ رجُل من بنى النَّضْر بن كنانة، فكتبته العرب حينئذ .

وقضيةُ هذه المقالات أنها ٱصطلاحية .

وفى السيرة لٱبن هشام : أن أوّل من كتب الخطَّ العربىَّ حِمْيَرُ بنُ سبإٍ عُلِّمه فى المَنَام قال : وكانوا قبل ذلك يكتبون بالمُسْنَد سمِّى بذلك لأنهم كانوا يُسْنِدونه إلىٰ هود عليه السلام . وهو مخالف لما تقدّم من كلام أبى عمرو الدانى : أن العربىّ أنزل علىٰ هود عليه السلام .

قال السهيليّ رحمه الله فى" التعريف والإعلام" : والأصح ماروينـاه من طريق أبى عُمَر بن عبد البر رحمه الله يرفعه إلىٰ النبيّ صلى الله عليه وسـلم قال : "أوّلُ مَنْ كَتَب بالعَرَبيَّة إسماعِيلُ عليه السلام" قال آبن عبد البر : وهذا أصح من رواية "أوّلُ مَنْ تَكَلَّم بالعرَبِيَّة إسماعيلُ" وهذا محتمل للتوقيف أيضا : بأن يكون إسماعيل عُلِّمها بالوحى ، وللاّصطلاح : بأن يكون وضعه من نفسه .

ثم أول ما ظهرت الكتابة العربية بمكة من قِبَلِ حَرْب بن أُمية . قال المدائنى : حدثنى حسانُ بن عبد الملك الأنصاريّ قال : حدثنى سليمان بن سعيد المرّىّ قال : سمعت الفرّاء يقول حدّثنى العمريّ أنه قيل لآبن عباس من أيْنَ تعلَّمتم الهِجاء والكتابة والشَّكْل؟ قال عُلِّمناه من حَرْب بن أُمَيَّة؛ قيل : ومن أين عُلِّمه حرب بن أُمَيَّـة ؟ قال : من طارئٍ طرأ علينا من اليمن؛ قيل : ومن أين عُلِّمه ذلك الطارئ؟ قال : كانت(١) بالوحى لهود عليه السلام .

وذكر أبو عمرو الدانى فى كتاب " التنبيه علىٰ النقط والشـكل " نحوه . وقيـل أوّل ماظهرت باليمن من قِبَل أبى سُفْيان بن أمية : عمّ أبى سفيان بن حرب، وأَتَتْه من قِبَل رجل من أهل الحِيرة؛ قال أهل الحِيرة : أخذناها من أهل الأنبار .

وقال أبو بكر بن أبى داود عن علىّ بن حرب عن هشام بن محمد بن السائب قال : تعـلم بشر بن عبد الملك الكتابةَ من أهل الأنبـار ، وخرج إلىٰ مكة ، وتزوج الصَّهباء بنتَ حرب . وقيل إنه لمـا تعلم أبو سفيان بنُ حرب الخطَّ من أبيه تعلمه عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه وجماعة من قريش ، وتعلمه معاويةُ بنُ أبى سفيان من عمه سُفْيانَ .

---

(١) فى الضوء [من كاتب الوحى] .

أما الأوس والخزرج فقد روىٰ الواقدىّ بسنده إلىٰ سعد بن سعيد قال : كانت الكِتَابةُ العربية قليلًا فى الأَوْس والخَزْرَج ، وكان يهودىٌّ من يهودِ ماسكةَ قد عُلِّمها فكان يعلِّمها الصِّبيان فجاء الإسلام وفيهم بِضْعةَ عشرَ يكتُبون، منهم سعيد بن زُرارة، والمنذر بنُ عمرو، وأُبَىُّ بن كعب ، و زيدُ بن ثابت، يكتُب الكتابين جميعا العربية والعِبْرانية، ورافعُ بن مالك، وأُسَيْد بن حُضَيْر، ومَعْنُ بن عدىّ، وأبو عَبْس بن كثير، وأَوْسُ بن خَوَلِىٍّ، و بشير بن سعد .

قال صاحب " الأبحاث الجميلة فى شرح العقيلة " : والخط العربىّ هو المعروف الآن بالكُوفىّ ومنه آستُنْبِطت الأقلامُ التى هى الآن. وقد ذكر آبن الحسين فى كتابه فى قلم الثُّلُث أن الخطَّ الكوفىّ فيه عدّة أقلام مَرْجِعُها إلىٰ أصلين وهما التقوير والبسط .

فالمقوَّر هو المعبَّر عنه الآن باللَّيِّن: وهو الذى تكون عراقاته وما فى معناها منخسفة منحطة إلىٰ أسفل كالثلث والرقاع ونحوهما .

والمبسوط : هو المعبَّر عنه الآن باليابس وهو ما لا آنخِسافَ وآنحطاط فيه كالمحقَّق وعلىٰ ترتيب هذين الأصلين الأقلامُ الموجودةُ الآن . ثم قد ذكر صاحب " إعانة المنشئ" أن أوّل ما نُقِل الخط العربىّ من الكوفىِّ إلىٰ آبتداء هذه الأقلام المستعملة الآن فى أواخر خلافة بنى أُمَيَّة وأوائل خلافة بنى العباس .

قلت : علىٰ أن الكثير من كُتَّاب زماننا يزعمون أن الوزير أبا علىّ بنَ مقلة (رحمه الله تعالىٰ) هو أوّلُ من آبتدع ذلك، وهو غلط فإنا نجد من الكُتُب بخط الأوّلين فيما قبل المائتين ما ليس علىٰ صورة الكوفىّ بل يتغير عنه إلىٰ نحو هذه الأوضاع المستقرّة وإن كان هو إلىٰ الكوفىّ أميل لقُرْبه من نقله عنه .

قال أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكتّاب": ويقال إن جَوْدة الخط ٱنتهت إلىٰ رجلين من أهل الشأم يقال لهما الضَّحّاك وإسحاق بن حَمّاد، وكانا يخطانِ الجليلَ؛ وكأنه يريد الطُّومار أو قريبًا منه .

قال صاحب "إعانة المنشئ" وكان الضحاك فى خلافة السَّفّاح : أولِ خلفاء بنى العباس، وإسحاق بن حَمّاد فى خلافة المنصور والمهدىّ .

قال النحاس : ثم أخذ إبراهيم (يعنى الشجرىّ) عن إسحاق بن حماد الجليلَ وٱخترع منه قلما أخفَّ منه سماه قلم الثلثين، وكان أخطَّ أهلِ دهره به، ثم ٱخترع من قلم الثلثين قلما سماه قلم الثلث .

قال صاحب "الأبحاث الجميلة": وأخذ يوسف أخو إبراهيم الشجرىّ القلمَ الجليلَ عن إسحاق أيضا، وٱخترع منه قلما أدق منه وكتبه كتابة حسنةً فأُعْجِب به ذوالرياستَيْنِ الفضلُ بنُ سهل وزيرُ المأمون ، وأمر أن تحرّر الكتبُ السلطانية به، ولا تكتب بغيره وسماه القلم الرِّياسىّ . قال بعض المتأخرين : وأظنه قَلَم التوقيعات .

قال النَّحّاس : ثم أخذ عن إبراهيم الشجرىّ الأحولُ الثلثين والثلثَ ، وٱخترع منهما قلما سماه قلم النصف، وقلما أخفَّ من الثلث سماه خفيف الثُّلُث، وقلما متصلَ الحروف ليس فى حروفه شىء ينفصل عن غيره سماه المَسَلْسَل، وقلما سماه غُبار الحِلْية، وقلما سماه خط المُؤَامَرَات، وقلما سماه خطَّ القِصَص، وقلما مقصوعا سماه الحَوَائجىّ . قال : وكان خطه يوصف بالبهجة والحُسْن من غير إحكام ولا إتقان، وكان عجيبَ البَرْى للقلم، وكان وجه النعجة مقدّما فى الجليل . قال : وكان محمد بن معدان يعنى المعروف بأبى ذرجان مقدّما فى خط النِّصف، وكان قلمه مستوىَ السِّنَّيْن، وكان يشُقُّ الطاء ، والظاءَ ، والصاد، والضاد بعرض النصف، ويعطف

مثل يا، ويصل كلَّ ياءٍ من يساره إلىٰ يمينه بعَرْض النصف لا يرىٰ فيه آضطراب. وكان أحمد بن محمد بن حفص المعروف بزاقف أجلَّ الكُتَّاب خَطًّا فى الثلث، وكان آبنُ الزَّيَّات فى أيام آبن طولون وزيرِ المعتصم يعجبه خطُّه ولا يكتب بين يديه غيرُه، وآنتهت رياسةُ الخط بمصر إلىٰ طَبْطب المحرِّر جودةً و إحكاما .

قال النحاس : وكان أهل مدينة السلام يحسُدونَ أهل مصر علىٰ طَبْطب وآبن عبد كان يعنى كاتب الإنشاء لآبن طولون، ويقولون بمصر كاتبٌ ومحرّرٌ ليس لأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلُهما .

قلت : ثم آنتهت جودة الخط وتحريرُه علىٰ رأس الثلثمائة إلىٰ الوزير أبى علىّ محمد آبن مقلة وأخيه أبى عبد الله .

قال صاحب "إعانة المنشئ" : وولّدا طريقة آخترعاها وكتب فى زمانهما جماعة فلم يقاربوهما . وتفرّد أبو عبد الله بالنَّسْخ، والوزير أبو علىّ بالدَّرْج، وكان الكمال فى ذلك للوزير، وهو الذى هَنْدَس الحروفَ وأجاد تحريرها ، وعنه آنتشر الخطُّ فى مَشَارق الأرض ومغَاربها، ولله قول القائل :

سَبَقَ الدَّمْعُ فى المَسِيرِ المَطَايَا * إذ روىٰ من أحِب عنه بقُلَّه
وأجادَ السُّطورَ فى صَفْحةِ الخدّ ولَمْ لا يُجيد وهْو آبنُ مُقْله

وقول الآخر:

تَسَلْسَلَ دَمْعِى فَوْقَ خَدِّى أَسْطُرا * ولا عَجَبٌ مِنْ ذاكَ وهو آبنُ مُقْلةِ

ثم أخذ عن آبن مقلة محمد بن السمسمانى، ومحمد بن أسد، وعنهما أخذ الأستاذ أبو الحسن علىّ بن هلال المعروف بابن البوّاب، وهو الذى أكمل قواعد الخط وتممها وآخترع غالبَ[1] الأقلام التى أسسها آبن مقلة، ولما مات رثاه بعضهم بقوله :

(١) فى الضوء . وآخترع عدة أقلام .

وَٱستَشْعَرَ الكُتَّابُ فَقْدكَ سالِفًا * فَجَرتْ بِصِـــحَّةِ ذلك الأيّامُ

فلِذاكَ سَوّدتِ الدُّوِىُّ وُجُوهَها * أســفًا عليــكَ وشُقَّتِ الأَقْلامُ

وممن أخذ عنــه محمدُ بنُ عبد الملك ، وعن محمدِ بنِ عبد الملك أخذتِ الشــيخةُ المحدِّثة الكاتبة زينبُ الملقّبةُ بشُهْدة ٱبنةُ الابرى ؛ وعنها أخذ أمينُ الدين ياقوتُ ، وعنــه أخذ الولىُّ العجمىّ ؛ وعليه كتب العفيفُ ؛ وعن العفيف أخذ ولدُه الشيخُ عماد الدين ، ويقال إنه كان كٱبن البوّاب فى زمانه . وعن الشــيخ عماد الدين بن العفيف أخذ الشيخ شمسُ الدين بنُ أبى رُقَيبة محتسبُ الفُسْطاط ، وهو ممن عاصَرْناه ؛ وأخَذ عنه شيخُنا الشيخ شمسُ الدين محمدُ بن علىّ الزِّفْتــاوىّ المكَتِّب بالفُسْطاط ، وصنف مختصرا فى قلم الثلث مع قواعدَ ضمَّها إليه فى صــنعة الكِتابة ، أحســن فيه الصنيعَ ؛ وبه تخرّج صاحبُنا الشــيخ زين الدِّين شَــعْبان بن محمد بن داود الآثارىّ محتسبُ مِصْر ، ونظم فى صنعة الخط ألفيــة وسمّاها (بالعِناية الربّانيــة فى الطريقة الشّعبانيه) لم يُسبَقْ إلى مثلها ؛ ثم توجه بعد ذلك إلى مكة ، ثم إلى اليمن والهنــد ؛ ثم عاد إلى مكة فأقام بها ونبغ .

قلت : وقد علم مما تقدّم ذكره أن ألقاب الأقلام : من الثلثين والنصف والثلث وخفيف الثُّلُث والمُسَلْسَل والغُبَار قديمةٌ ، وإن وقع فى أذهان كثير من الناس أنهــا من مخترعات ٱبن مقلة وٱبن البوّاب فمن بعدهما .

الطرف الرابع

(فى عَدَد الحروف، وجهة ٱبتدائها، وكيفية ترتيبها؛ وفيه أربع جمل)(١)

الجملة الأولى

(فى مطلق الحروف فى جميع اللغات)

وٱعلم أن الحروف تختلف بٱختلاف اللُّغـات بحسب تَعـدُّد مخارجها، فحروف السُّرْيانيين، والرُّوم، والفُرْس، والصَّقْلَب، والتُّرك من أربعة وعشرين حرفا إلىٰ ستة وعشرين حرفا؛ وحروف العِبْرانيين، واليُونانيين، والقِبْط الأُوَل، والهُنود وغيرهم من ٱثنين وثلاثين إلىٰ سـتة وثلاثين؛ فيوجد فى غير العربيـة من الحروف ما لا يوجد فى العربية كما يوجد فى العربية ما لا يوجد فى غيرها من اللُّغات، ويكثر فى الٱستعمال فيهـا ما لا يكثر فى غيرها . فالحـاء المهملة، والظاء المعجمة ممـا أُفْرِدت بها العربُ فى لغاتها، وٱختصت بها دون غيرها من أرباب اللُّغات؛ والعين المهملة قليلة فى كلام بعض الأمم ومفقودة فى كلام كثير منهـم ؛ وكذلك الصاد والضاد والذال المعجمة ليست فى الفارسية، والثاء المثلثـة ليست فى الروميَّة ولا فى الفارسية، والفاء ليست فى التركية .

قال الشـيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله : ولذلك يقولون فى فقيه پقيــه بالباء الموحدة المشربة الفَيَوِيَّة.

الجملة الثـانية

(فى حروف العربيـــة)

وٱعلم أنا لمـا كنا بحمد الله أُمَّةً وسـطًا خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجتْ للناس، وكان خيرُ الأمور أوسَاطَها، وكانت حروف اللُّغات ما بين أربعةٍ وعشرين حرفا إلىٰ سـتة وثلاثين كما

---

(١) المعدود خمس .

تقدّم، كانت حروف الكلام العربىّ التى بها رُقِم القرءان الكريمُ ثمانيةً وعشرين حرفًا فى اللفظ، متوسطةً بين حروف اللُّغات، وهى ا ب ت ث إلىٰ آخره، وتسمى حروفَ الهِجاء وحروف التَّهجِّى، ويسميها سيبويه والخليلُ حروفَ العربية أى حروف اللغة العربية، وهى التى يتركَّب منها الكلامُ العربىّ، وتسمى أيضا حروف المُعْجَم، إما لأنها مقطَّعة لا تُفْهَم إلا بإضافة بعضها إلىٰ بعض، وإما لأن منها ماينقط النقطَ المعروفَ، أو تنقط كلُّها أى تُشْكَل إذ النقط قد يكون بمعنىٰ الشَّكْل. وقال بعض أهل اللغة: النقط[1] بالسواد كمثل التاء عليها نقطتان، يقال منه أعجمتُ الحروف، ومعناه حرف الخط المُعْجم. وبعضهم[2] يجعل المُعْجم مصدرا بمعنىٰ الإعجام من أعجمتُ الشىء إذا بيَّنته فكأنها مبيِّنة للكلام، وتكون الهمزةُ فى أعجمت للإزالة أى أزلت عُجمتَه إما بنقطِه أوشكله.

قال الشيخ عبد الخالق بن أبى القاسم المصرىّ: وإذا اعتبرت سائر اللغات بالتحقيق لن يزيد ذلك علىٰ ثمانيــة وعشرين حرفًا (يريد غير اللام ألف) فى الحروف العربية والقائل بذلك يجعل اللام ألف مركبا من حرفين فلا يعدّه حرفا مستقلًّا.

قال علماء الحرف: وجعلت ثمانية وعشرين حرفا علىٰ عدد منازل القمر الثمانية والعشرين.

قالوا: ولما كانت المنازلُ القمريةُ يظهَر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلةً ويغيبُ تحت الأرض أربعَ عشرةَ كانت هـذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعةَ عشرَ بعدَد المنازل الظاهرة: وهى الألف، والباء، والحاء المهملة،

---

(١) أى العجم النقط الخ كما فى اللسان.

(٢) هو المبرد كما نقله عنه فى اللسان.

والخاء المعجمة، والعين المهملة، والغين المعجمة، والفاء، والقاف، والكاف، واللام، والميم، والهاء، والواو، والياء المثناة تحتُ . تقول الألف والباء والحاء فتظهر اللام فى لفظك وكذلك فى البواقى . وما يندغم منها أربعةَ عشرَ حرفا أيضا بعدد المنازل الغائبة : وهى التاء المثناة من فوق، والثاء المثلثة، والدال المهملة، والذال المعجمةُ، والراء، والزاى، والسين المهملة، والشين المعجمة، والصاد المهملة، والضاد المعجمة، والطاء المهملة، والظاء المعجمة، والنون . تقول التاء، والثاء، والدال فتخفى فى لفظك، وكذلك فى البواقى .

وقد تقدّم فى خبر أبى ذرّ رضى الله عنه أنها نزلت على آدم عليه السلام تسعةً وعشرين حرفا عدّ منها اللام ألف وهو الموجود فى التصوير فلا يعوّل إلا عليه إن صح الحديث .

ثم للحروف العربية فروعٌ توجَدُ فى اللفظ دون الكتابة مستحسَنةٌ ومستقْبَحة، تبلغ بها الحروف العربية سبعة وأربعين حرفا، ولا يوجد ذلك فى لغة أمة من الأمم، أضربنا عن ذكرها لعدم تعلّقها بالخط الذى نحن بصدده، وبالله المستعان .

الجملة الثالثة

(فى بيان جهة ٱبتداآت الحروف)

وٱعلم أن أصحاب الأقلام ٱختلفوا باعتبار مقاصدهم فى البُداءة بالحروف .

فمنهم من يبدأ من اليمين إلى اليَسار كالعرب والعِبْرانيين والهُنُود وأهل الطبيعة والسُّرْيانيين، آخذا فيه على سير الفلك من المشرق إلى المغرب، والمشرق عندهم يمين الفلك ويقال له مأخذ كَوْرىّ، وقيل لأن فيه الٱستمداد من الكبد إلى القلب .

ومنهم من يبـدأ من اليسار إلىٰ اليمين كالروميـة واليونانيَّـة والقِبْطية ، وفنٌّ من الفارسـية آخذا فيه علىٰ سير الكواكب السبعة السـيارة من المغرب إلىٰ المشرق . ويقال له مأخذ دَوْرى؛ وقيل لأنه ناشئ عن حركة القلب إلىٰ الكبد .

الجملة الرابعـة

(فى كيفية ترتيب الحروف)

وآعلم أن ترتيب الحروف علىٰ ضربين : مفردٍ ومزدَوِجٍ ؛ وبين أهـل الشرق وأهل الغرب فى كل من النوعين خلاف فى الترتيب .

أما المفرد فأهل الشرق يرتبونه علىٰ هذا الترتيب :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ
ع غ ف ق ك ل م ن ه و لا ى

وأما أهل الغرب فإنهم يرتبونه علىٰ هذا الترتيب :

ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض
ع غ ف ق س ش ه و لا ى

وأما المزدَوِجُ فأهل الشرق يرتبونه علىٰ هذا الترتيب :

أبجد ، هوّز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ضظغ .

وأهل الغرب يرتبونه علىٰ هذا الترتيب :

أبجد ، هوّز ، حطى ، كلمن ، سعفص ، قرشت ، ثخذ ، ظغش[1] .

---

(١) كذا فى الأصل والضوء ولعل الصواب ظغفض .

علىٰ أنه قد ٱختلف فى كلمات أبجد هل لها معنًى أم لا، وهل يكره تعلُّمها أم لا، وأكثر الناس فى الشرق والغرب علىٰ تعلُّمها .

وقد جاء أنها كانت تُعَلَّم فى زمن عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه؛ ويشهد لذلك قول الأعرابىّ فى أبياته :

أَتَيْتُ مهاجِرِينَ فعَلَّمُونِى * ثلاثَةَ أَسْطُرٍ مُتَتابِعاتِ
وخَطُّوا لِى أبا جادٍ وقالوا * تَعلَّمْ سَعْفَصًا وقُرَيِّشاتِ

وقيل : إن أبجد، وهوز، وحطى، وكلمن، كانت أسماء ملوك مَدْيَن، وإن كلمن كان فى زمن شُعَيْب عليه السلام، وقد تقدّم أن الأربعة المذكورة كانت أسماء واضِعِى الخط العربىّ علىٰ قولٍ والله أعلم .

الجملة الخامسة

(فى كيفية صور الحروف العربية وتداخل أشكالها)

قد تقدّم أن الحروف العربيةَ علىٰ تسع عشرة صورة : وهى صورة الألف، وصورة الباء والتاء والثاء، وصورة الجيم والحاء والخاء، وصورة الدال والذال، وصورة الراء والزاى، وصورة السين والشين، وصورة الصاد والضاد، وصورة الطاء والظاء، وصورة العين والغين، وصورة الفاء والقاف(١)، وصورة الكاف، وصورة اللام، وصورة الميم، وصورة النون، وصورة الهاء، وصورة الواو، وصورة اللام ألف، وصورة الياء، وفرقوا بينها بالنقط كما سيأتى، وقصدوا بذلك تقليل الصُّوَر للآختصار لأن ذلك أخف من أن يجعل لكل حرف صورة فتكثُر الصُّوَر . ثم ترجع الصور التِسْعَ عشرةَ صورةً(٢) بعد ذلك إلىٰ خمس صور : وهى الألف والجيم والراء والنون والميم؛ ففى

(١) لعله وصورة القاف ليتم العدد ولآختلاف الصورتين فى الرسم .

(٢) لعله زائد من الناسخ والصواب إسقاطه .

صورة الألف إحدىٰ عشرة صورة ألف قائمة : وهى ا وسَبْعُ ألفات[(١)] مسطوحة : وهى ب ت ث ، ك ل ى ، فكل هذه علىٰ صورة الألف غير أن فيها ماتَكرَّر فيه صورةُ الألف : وهى الكاف واللام، وألِفانِ مبطوحتان : وهى ط ظ ؛ وألف معطوفة : وهى لا ؛ وفى الجيم سبع صور جيم مُرَقَّلة : وهى ج ح خ ، وجيمان محذوفتان وهما د ذ ، وجيمان شاخصتان وهما ع غ ؛ وفى الراء ثلاث صور وهى ر ز و ؛ وفى النون ست صور وهى ن س ش ص ض ق ؛ وفى الميم صورتان وهما م ه .

الطرف الخامس

(فى تحسين الخَطِّ، وفيـــه جملتان)

الجملة الأُولىٰ

(فى الحث علىٰ تحسين الخط)

لاخفاءَ أن حُسْن الخط من أحسن الأوصاف التى يتصفُ بها الكاتبُ، وأنه يرفع قَدْرَه عنـد الناس، ويكون وسيلةً إلىٰ نُجح مقاصده، وبلوغ مآربه؛ مع ماينضم إلىٰ ذلك من الفوائد التى لا تكاد تُحْصىٰ كثرةً .

وقد قال أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه : "الخط الحَسَنُ يزيد الحَقَّ وضُوحا".

وقال بعض العلماء : الخط كالروح فى الجسد ، فإذا كان الإنسانُ جسيما وسيما حسن الهيئة، كان فى العيون أعظم، وفى النفوس أفخم؛ وإذا كان علىٰ ضدّ ذلك سَئِمَتْه النفُوسُ، ومَجَّتْـه القلوب؛ فكذلك الخط إذا كان حسنَ الوصف، مليحَ الرَّصْف،

---

(١) لم يذكر إلا ستة ولعل الساقط الفاء فانها لم تذكر فى الصور الاتية .

مفتَّح العُيون، أملس المُتُون، كثير الائتلاف، قليل الاختلاف، هشَّتْ إليه النفوس، واشتهتْه الأرواح؛ حتّى إن الإنسان ليقرؤه وإن كان فيه كلامٌ دَنِىء، ومعنًى ردىء، مستزيدا منه ولو كَثُر، من غير سآمة تلحَقُه؛ وإذا كان الخط قبيحًا مجَّتـه الأفهام، ولفظَتْه العيون والأفكار، وسَئِم قارئه، وإن كان فيه من الحِكْمة عَجائبُها، ومن الألفاظ غَرائبُها.

ويقال: إن الخط مُوازٍ للقراءة، فأجود الخط أبينُه، كما أن أجود القراءة أبينُها؛ ولا يخفىٰ أن الخط الحَسَن هو البَيِّن الرائقُ البَهِج. ثم قد تقدّم فى الكلام علىٰ أصل وضع الخط أن الخَطَّ واللفظ يتقاسمانِ فضيلةَ البيان، ويشتركان فيها.

قال فى "موادّ البيان": ولما كان الخط قسيما للَّفْظ فى البيان الذى آمتَن الله تُعالىٰ بتعليمه علىٰ الإنسان، وجب علىٰ الكاتب أن يُعْنىٰ بأمر الخط، ويُراعِىَ من تَجْويده وتصحيحه، ما يراعيه من تهذيب اللفظ وتنقيحه: ليـدُلَّ علىٰ سُرْعةٍ وسهولةٍ كما يدُلُّ اللفظ البليغ البَيِّن: لأن الخط وإن كان علىٰ الإطلاق فى المنزلة التى لاتُسـاوىٰ من الشرف فإنمـا تحصل فضائلُه للجيد منه، كما أن المَنطِق وإن كان من الشرف فى هذا الحدّ فإنمـا تحصل فضائله التامَّةُ لمَنْطِق البليغ اللَّسِن، دون مَنْطِق العَيِىّ الألكن؛ وكذلك سائر الصـنائع الفاضلة علىٰ الإطلاق إنمـا يحصل فضلها للمـاهر فيها دون المبتدئ.

قال: فينبغى للكاتب أن لا يقدّم علىٰ تهذيب خطه وتحريره شيئا من آدابه فإن جَوْدة الخط أوّلُ الأدوات التى ينتظم بحصولهـا له آسم الكتابة، ويُحْكم عليـه إذا حازها بأنه من أهلها. وقد دخل بحُسْن الخط فى الصـناعة مَنْ إذا فُحص عن مقدار معرفته وجب أن تُنزَّه الكتابةُ عن نسبته إليها.

ويجب مع ذلك أن يراعى تأسيس الخط على الوضع الذى اصطلح عليه المجيدون من الكُتّاب . فقد قسم أهلُ الصناعة الخط إلى قسمين : محقّق ومُطْلَق .

فأما المحقَّق فما صَحَّتْ أشكاله وحروفُه على اعتبارها مفردة .

قال فى "موادّ البيان" : وهذا القسم هو الذى يُستعمل فى الأمور الجسيمة : ككُتُب العهود ، والإسجالات ، والتمليكات التى تبقى على الأعقاب ، والمكاتبات الصادرةِ عن الملوك إلى الملوك ، الدالة على قدر المكتوب عنه والمكتوب إليه .

وأما المُطْلَق فهو الذى تداخلت حروفه واتصل بعضُها ببعض .

قال فى "موادّ البيان" : وهو خط مولَّد من المحقَّق ، يستعمل فى تنفيذ ما لا يمكن تأخيره من المكاتبات المهمَّة والأمور العامّة . قال : ويجب أن يَلْزم الطريقة فى كل واحد من الخطين ، ولا يخالِط حروف أحدهما بحروف الآخر .

الجملة الثانية

(فى الطريق إلى تحسين الخط ، ويتوصَّل إلى ذلك بأمور)

الأوّل(١) — معرفة تشكيل الحروف

قال فى "موادّ البيان" : وهو الأصل فى أدَبِ الخط : لأن الخط إنما يسمَّى جيدا إذا حسُنَتْ أشكال حروفه ، وإنما يسمَّى رديئا إذا قَبُحَتْ أشكال حروفه . وحُسْن صور حروف الخط فى العين شبيهٌ بحُسْن مخارج اللفظ العَذْب فى السَّمع .

قال : والوجه فى تصحيح الحروف أن يبدأ أوّلا بتقويمها مفردةً مبسوطةً لتصح صورة كل حرف منها على حيالها ، ثم يؤخذ فى تقويمها مجموعة مركبة ، وأن يُبْدأ

---

(١) لم يذكر غيره ولعله اكتفى بما تقدم فى الأدوات من حسن البراية والحبر والليقة وغير ذلك فليتنبه .

من المركَّب بالثنائىّ والثلاثىّ، ثم بالرباعىّ، ثم بالخماسىّ؛ فإن هذه هى أمثلة الأسماء والحروف الأصلية، وأن يعتمد فى التمثيل علىٰ توقيف المَهَرة فى الخطوط، العارفين بأوضاعها و رسومها وآستعمال آلاتها، فإن لكل خط من الخطوط قَلَما من الأقلام يصلُح لذلك الخط؛ وهـذه الأقلام المختلفة نظير آلات الصنائع المختلفة التى يصنع الصانع بكل آلة منها جزءا من صِناعته لا يصنع به غيره؛ ولا يعوّل علىٰ كتابة خط من الخطوط بنقل مثاله بنفسه فإن ذلك لا يكفيه، إذ لو كان ذلك كافيا لآستُغنى فى جميع الصنائع عمن يُوَقِّف عليها. علىٰ أن كثيرا من أصحاب الخطوط قد كتبوا طبعا دون التوقيف من أحد علىٰ طريقة من طرق المحرّرين، إلا أن الأفضل أن يبنىٰ الخطُّ علىٰ أصل يكون له أساسا، فإذا فُصِّلت أحواله آنكشف فسادُ كثيرٍ من حروفه.

الطرف السادس

(فى قواعِدَ تتعلق بالكتابة ، لا يَستغنِى الكاتب المُجِيد عن معرفتها؛ وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى هندسة الحروف، ومعرفة آعتبار صحتها ونحن نذكرها علىٰ ترتيب الحروف)

الألف

قال الوزير أبو علىّ بن مقْلَةَ : وهى شَكْل مركّب من خطٍّ منتصب، يجب أن يكون مستقيما غير مائل إلىٰ آستلقاء ولا آنكباب . قال : وليست مناسِبةً لحرف فى طُول ولا قصَر .

قال الشيخ شرف الدين محمد بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام : وهى قاعدة الحروف المفردة، وباقى الحروف متفرّعة عنها ومنسوبة إليها .

ثم الذى ذكره صاحب " رسائل إخوان الصفا " فى رسالة الموسيقىٰ، عند ذكر حروف المعجم ٱستطرادا أن مساحتها فى الطول تكون ثمانَ نُقَط من نُقَط القلم الذى تكتب به ليكون العرض ثُمُن الطُّول .

والذى ذكره الشيخ شرف الدين محمد بن الشيخ عز الدين بن عبد السلام : أنها مقدّرة بست نقط .

والذى ذكره الشيخ زين الدين شعبان الآثارى فى ألفيته أنهـا مقدّرة بسبع نقط، فما زاد علىٰ ذلك كان زائدا عن مقدارها وما نقص كان ناقصا عنه .

قال ٱبن عبد السـلام : وتكون النقطة مربعة . قال : ويكون ٱبتداؤها بنقطة وآخرها بشَظِيَّة .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارها أن تخط إلىٰ جانبها ثلاث أَلِفات أو أربع أَلِفات فتجد فضاء ما بينها متساويا .

قال ٱبن عبد السلام : وتكون تلك الألفاتُ المخطوطةُ إلىٰ جانبها مناسِباتٍ لهـا فى الطول متساوياتِ الرءُوس والأذناب .

البـاء

قال ٱبن مقلة : هى شكلٌ مركّب من خطين : منتصبٍ ومنسطح . قال : ونسبته إلىٰ الألف بالمساواة .

قال ٱبن عبد السـلام : ويكون المنتصب طولُه بمقدار ثُلثِ ألِف خطِّه . قال ويُبْدأ أوّلُه بنقطة، وكذلك آخره إن كان مُرْسَلا ، فإن كان معطوفا فليكُنْ بسِنّ القلم

اليسرىٰ، والمستدير فيه مثل المنتصب، ولكن يكون المنتصبُ أرجَحَ من المستدير بنَزْرٍ يسيرٍ، وتكون السِّنَّة المبتدأُ بها مترجِّحةً فى الطُّول علىٰ آخرها المعطوفِ .

قال آبن مقلة : وآعتبارُ صحّتها أن تزيد فى أحَدِ سِنَّيْها ألِفا فتصير لاما . وزاد ابن عبدالسلام فى إيضاحه فقال : أن تزيد المنتصب تكملة ألف بحيث يكون طول جملته كطول المنسطح لا أطولَ ولا أقْصَر. ثم قال : وهذا الحرف وما يَجْرِى مَجْراه من يَمْنة إلىٰ يَسْرة، وكلُّ ما كان كذلك فينبغى أن يمال القلم فيه نحو اليَسْرة قليلا .

ولا يخفىٰ أن التاء والثاء فى معنىٰ الباء فى ذلك جميعه .

الجيم

قال آبن مقلة : هى شكل مركَّب من خَطَّيْن : مُنْكَبٍّ ونصف دائرة، وقُطْرها مساوٍ للألف . وأبدل آبن عبد السلام المُنْكَبَّ بالمُنْسطِح . ثم قال : والمنسطح كثلثَىْ ألِفٍ من خطه، وربما يكون أنقصَ بنُقْطة . قال : ومساحة نصف الدائرة كألِفٍ ونصفِ ألِفٍ من قلم الكتابة، ورأسُها يكونُ من يَسْرةٍ إلىٰ يَمْنةٍ علىٰ آستقامةٍ تقريبا، وكلُّ ما كان كذلك ينبغى أن يمال برأس القلم فيه إلىٰ اليَمْنة قليلا، يُبْدأ أوّله بشَظِيَّة بالسِّنّ اليمنىٰ من القلم، وآخر تعْريجها بالسِّنّ اليُسرىٰ منه .

قال آبن مقلة : وآعتبارُ صحتها أن تخُطَّ عن يمينها وشِمالها خطَّيْن فلا تنقص عنهما شيئا يسيرا ولا تخرج .

وقال آبن عبد السلام : وآعتبار صحة رأسها أن تكتُبه من يَسْرة إلىٰ يَمْنة علىٰ آستقامةٍ تقريبا. قال : وحسْنُها أن تَخْفِضها من الجهة ايمنىٰ قليلا؛ وميزانُها أن تُسطِّر سطرا وتأخذ عليه من يَسْرة إلىٰ يَمْنةٍ مقدارَ ثُلثَىْ ألِفٍ من قلم الكتابة، بحيث لا يرتفع

أوّلهـا عن آخرِها إلا يسيرا، ولا آخرُها عن أوّلها بل تكون منسبكة فيه . وٱعتبار نِصف الدائرة أن تقابله بنصف آخر فيصير دائرة . ثم قال : وليَقْصِد أن يجعل رأسَ الجِيم ســواءً آخذا ٱبتداء الدائرة فى جسد ثلث الرأس، منسبكا فيه ، بحيث يكون الثلث ضِلَعا واحدا .

ولايخفىٰ أن الحـاء والخـاء فى معنىٰ الجيم فى جميع ماتقدّم .

الدال

قال ٱبن مقلة : هى شَكْل مركّب من خطين : منكَبٍّ ومنسطح، مجموعهما مساوٍ للألف . وجعل ٱبن عبدالسلام منها شكلا آخَرَ مركّبا من ثلاثة خطوط : منكَبٍّ، ومُنْسطح، ومستدير . وكأنه يريد الدال المجموعة . ثم قال : فالمنكب طوله بمقدار نصف ألِف خطّه لاغيْرُ، وكذلك المنسطح . وٱبتداء أوّلها بنقطة، وآخرها إن كان مرسلا بقَطّة، وان كان معطوفا بسِنّ القلم اليُسْرىٰ .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن تصل طَرَفيها بخطٍّ فتجده مثَلَّثا متساوى الأضلاع .

ولا يخفىٰ أن الذال فى معنىٰ ماتقدّم .

الراء

قال ٱبن مقلة : وهى شكْلٌ مركّب من خطٍّ مقوّس هو ربع الدائرة التى قُطْرها الألف وفى رأسه سِنّة مقدّرة فى الفكر .

قال ٱبن عبد السلام : وتبدأ أوّلهـا بنقطة، وآخرها إن كان مُرْسَلا فبسنّ القلم اليمنىٰ، وإن كان معطوفا فبسنّه اليسرىٰ .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن تَصِلها بمثلها فتصير نصفَ دائرة .

ولا يخفىٰ أن الزاى فى معناها .

السين

قال ٱبن مقلة : وهو شكلٌ مركَّب من خمسة خُطُوط : منتصبٍ ، ومقوَّس ، ومنتصبٍ ،ومُقَوّسٍ ،ثم مُقَوَّس .

قال ٱبن عبد السلام : ومساحة رأس السين من أول سِنّ منها إلىٰ ثالث سِنّ كثُلُثَيْ ألِف خطِّه . قال : ومساحةُ قَوْسها إن كان معطوفا مساحةُ ألف من خطه ، وإن كان مُرْسَلا مساحةُ ألفين من خطه . وطول كل سِنَّة مثلُ سُدُس ألف خطه ، يُبْدأ أوّلها بنقطة ، أما آخرها فإن كان مرسلا فبسنّ القلم اليمنىٰ ، وإن كان معطوفا فبسِنِّه اليسرىٰ . قال : وإذا ٱبتدأت بالسِّنَّة وطلعت إلىٰ الثانية فخُذ إلىٰ الثالثة من أعلاها ليصير بياض من أسفلها ، فإنك متىٰ أخذت رأس سِنَّة من أسفلها صار أسفلها مصطحبا ، ويكون البياض الذى بين السنات علىٰ السوية فى البياض .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها يعنى صحة رأسها أن تُمِرّ بأعلاها وأسفلها خطين فلا تخرج عنهما شيئا ولا تنقص .

ولا يخفىٰ أن حكم الشين أيضا كذلك .

الصاد

قال ٱبن مقلة : هى شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوَّس ، ومنسَطِح ، ومقوَّس .

قال ٱبن عبد السلام : وٱبتداؤه بشَظِيَّة، أما ٱنتهاؤه فإن كان مرسلا فبسنّ القلم اليمنىٰ، وإن كان معطوفا فبسنه اليُسْرىٰ . قال : ومساحة رأس الصاد فى الطول كثُلثَىْ ألِف خطه ، ومساحةُ قوسِها إن كان معطوفًا مساحةُ ألِف الكتابةِ ؛ وإن كان مرسلا فمساحة ألفين من قلم خطه .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن تجعلها مُرَبَّعة فتصير متساويةَ الزَّوايا فى المِقْدار.

وقال ٱبن عبد السلام : ٱعتِبار صحتها أن يكون أعلاها كراء معلَّقة ، والمنسطح كباء، والمقوّس كنون، ويكون رأس النون مُشْرِفا علىٰ آخرها .

ولا يخفىٰ أن **الضاد** كذلك .

الطاء

قال ٱبن عبد السلام : هو شكلٌ مركَّب من ثلاثة خطوط : منتصبٍ، ومقوّسٍ، ومنسطِح ، يبدأ أوّلُه بنقطة وآخره بنقطة. قال : ومساحة ضَوْء الطاء فى الطول كثُلثى ألِف خطِّه .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارها كٱعتبار (1) .

وقال ٱبن عبد السلام : ٱعتبار صحتها أن يكون المنتصب كألف من خطه فى الٱنتصاب والطول، والمقوّس كراء معلقة ، والمنسِطح كباء مرسلةٍ .

ولا يخفىٰ أن حكم **الظاء** فى ذلك كالطاء .

---

(1) بياض فى الأصل بقدر كلمة .

العين

قال ٱبن مقلة : وهى شكلٌ مركَّب من خطين : مقوّسٍ ومنسطحٍ أحدهما نصف الدائرة .

وقال ٱبن عبدالسلام : هى شكل مركب من ثلاثة خطوط : مقوّس،(١) ومنكب، يبدأ أوّلها بشظِيَّة ، وآخر تعريجها بسنّ القلم اليسرىٰ ، والتعريجة نصف دائرة ؛ ومساحة القوس كألِفٍ وثلث من قلم الكتابة ، ومساحة الرأس فى الطول كثلثَىْ ألِف خطه ، ويصوّر من رأسها رأس صاد .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها كٱعتبار الجيم .

وقال ٱبن عبدالسلام : ٱعتبارها أن تخط عن يمينها خطا من أعلاها إلىٰ منتهىٰ تعريجها فلا يقصر ظهر القوس عن يسارها يسيرا بنقطة تكون سدس ألف خطها لاغير .

ولا يخفىٰ أن الغين فى الحكم كذلك .

الفاء

قال ٱبن مقلة : هى شكلٌ مركَّب من أربعة خطوط : منكَبٍّ ، ومستَلْقٍ ، ومنتصب ، ومنسطح .

قال ٱبن عبد السلام : تبدأ أوّله بنقطة وتأخذه علىٰ سطر إلىٰ جهة اليسار ، ثم تأخذ المستلق إلىٰ أن تنتهِيَ إلىٰ قُبالة المنسطح بحيث يصير كالدال المقلوبة ، ثم

(١) لعله مقوّسين . وفى الأصل تضبيب إشارة إلىٰ التوقف .

تأخذ من حيث ٱنتهيت إلىٰ أن تَلْصَق بالمنسطح فيبقىٰ مثلَّثا متساوىَ الأضلاع، مساحةُ ضوئه نقطةٌ بمقدارِ سدسِ ألفِ خطِّه، ثم إن كان معطوفا ختمته بسِنِّ القلم، وإن كان مرسلا فبقطته .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحته أن تصل بالخط الثانى منها خطا فيصير مثلَّثا قائم الزاوية .

القـاف

قال ٱبن مقلة : هو شكل مركَّب من ثلاثة خطوط : منكَبٍّ، ومستلقٍ، ومقوّس .

قال ٱبن عبد السلام : هو مركب من أربعة خطوط ، رأسها كرأس الفاء سواء بجميع ماتقدّم، وإرسالُها كالنون علىٰ ماسيأتى ذكره؛ فإن كان آخرها معطوفا فبسنِّ القلم اليسرىٰ، وإن كان مرسلا فبسنِّه اليمنىٰ . قال : ومساحة ضوء القوس من أوَّله إلىٰ آخره إن كان معطوفا كألِف قلم الكتابةِ، وإن كان مرسلا فكألفين .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها كٱعتبار النون، وسيأتى ذكره .

الكاف

قال ابن مقلة : شكلٌ مركَّب من أربعة خطوط : منكبٍّ، ومنسطِحٍ، ومنتصبٍ، ومنسطِحٍ .

وقال ٱبن عبد السلام : وهو مركَّب من أربعة خطوط، مستَلْقٍ، ومنسطحٍ، طوله مقدارُ ألِفٍ وثلُث ألف من قلم الكتابة، ومنكبٍّ طوله مقدار ثلث ألف

من خطه ، ومنسطحٍ ، طوله مقدار ألفين من خطه ، يفصل منتهىٰ المنسطح ما بين المنسطحين .

قال : ولك أن تزيد الأسفل عن رأس الكاف بمقدار ثُلث ألف الكتابة بسبب مايتصل به ، فيصير فضاءُ مابين ما ٱتصل بآخرها إلىٰ رأس الكاف مثلَ الفضاء الذى بين المنسطِحين .

قال : ولا يجوز أن تُكتب مختَلسةً إذا لم يتصل آخرُها بحرف ، بل إذا كانت آخر كلمة تكتب منتصبةً قائمةً لا غيرُ ، وتكتب إذا كانت منتصبة كاللام علىٰ ماسيأتى بيانه .

قال : وتبدأ أوّلها بشظِيَّة فإذا ٱنتهيتَ إلىٰ ٱتصال رأسها بالمنسطح تشير بتدويرها دون تحديدها .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن ينفصل منها ياءان . قال ٱبن عبد السلام : يعنى مستقيمةً ومقلوبةً .

اللام

قال ٱبن مقلة : هى شكل مركَّبٌ من خطين : منتصبٍ ، ومنسَطِح .

قال ٱبن عبد السلام : فالمنسطح ألف والمنتصب ياء ؛ فإن كان معطوفا فبسِنِّ القلم اليسرىٰ ، وإن كان مرسلا فبقَطِّه .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن تُخْرِج من أوّلها إلىٰ آخرها خطا يُمَاسُّ الطرفين فيصير مثلَّثا قائمَ الزاوية .

قال : وتكتب علىٰ الأنواع الثلاثة التى تكتب عليها الباء .

المـــــيم

قال ٱبن مقلة : هى شكل مركّب من أربعــة خطوط : مُنْكَبٍّ، ومســتَلْقٍ، ومنسطِح، ومُقوَّس .

وقال ٱبن عبدالسلام : مركّب من أربعة خطوط : منكبٌّ، ومقوَّس، ومستلق بتقويس، ومقوّس كالراء يكون ربع دائرة؛ فإن كان آخرها منتصــبا فهو فى الوضع والطُّول مثل ألِفٍ من خطه غير مائل إلىٰ ٱستلقاء ولا ٱنكباب،تبدأ أوّل الميم بشَظِيَّة وآخرها بشَظِيَّة .

قال : ومساحةُ ضوئها مثل سدُس ألِف خطِّها؛ وهو مستطيلٌ مستدير كالبيضة منتصب إلىٰ جهة اليمين .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارها كٱعتبار الهاء، وسيأتى .

النون

قال ٱبن مقــلة : هو شكل مركّب من خطٍّ مقوّس، هو نصف الدائرة؛ وفيه سِنة مقدّرة فى الفكر .

قال ٱبن عبد الســلام : يبدَأُ أوّلُه بنقطة، وآخره إن كان معطوفا فبسِنِّ القــلم اليسرىٰ ومساحة ضوئه ألف من قلم خطه، وإن كان مُرْسَــلا فبسنّ القلم اليمنىٰ، ومساحة ضَوْئه ألفان من قلِم خَطِّه .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبار صحتها أن يُوصَل بها مثلها فتكون دائرةً .

الهاء

قال ابن مقلة : هى شكل مركّب من ثلاثة خطوط ، منكبّ ، ومنتصب ، ومقوّس .

وقال ابن عبد السلام : من ثلاثة خطوط ، منكبّ ، ومنسطح بترطيب ، ومستلق ؛ تبدأ أوّلها بنقطة وآخرها إرسالة بسنّ القلم اليمنى ؛ طول المنكبّ كطول نصف ألف من خطه ، وطول المنسطح كثلث ألف من خطه ، وطول المستلق كنصف ألف قلم خطه .

قال ابن مقلة : واعتبار صحتها أن تجعلها مربّعة فتتساوى الزاويتان العُلْياوان كتَساوِى الزاويتين السُّفْلاوَيْنِ .

وقال ابن عبد السلام : اعتبار صحتها أن تجعل ردّتها فى ثلثيها ، فاذا كمل وضعها فاجعلها مربعة فتتساوى الزاويتان العاليتان والزاويتان السافلتان .

الواو

قال ابن مقلة : هى شكل مركّب من ثلاثة خطوط : مستلق ، ومنكبّ ، ومقوّس .

وقال ابن عبد السلام : هى مركّبة من أربعة خطوط ، رأسها كرأس الفاء ، وتقويسها كالراء ، وهو ربع دائرة ؛ تبدأ أوّلها بنقطة ، وآخرها إن كان معطوفا فبسنّ القلم اليسرى ، وإن كان مرسلا فبسنّه اليمنى .

اللام ألف

قال ٱبن عبد السلام : هى شكل مركّب من ثلاثة خطوط : منكَبٍّ ،ومنسطِح مستقيم ،ومستلق ؛طول المنكَبِّ كطول ألِفٍ من قلم الكتابة،وطول المنسطح كثلثى ألف الكتابة ،وطول المستلق كطول ألف الكتابة ؛تبدأ أوّلَ المنكبِّ بنقطة ، وكذلك المستلق .

قال : وٱعتبار صحتها أن يكون ثلثها من أسفلها والثلثان من أعلاها ، وأن تخط من رأس اللام إلىٰ رأس الألف خطا مســتقيما ، وأن تخط من أعلاها إلى أسفلها خطا فلا يقصر عنها ولا يخرج .

قال : ومنها نوع آخر مركب من ثلاثة خطوط : منكبٍّ ، ومســتديرٍ يقارب ألفا ، ومستلق يقابل طرفه طرف المُنْكَبِّ .

اليـاء

قال ٱبن مقلة : شكْل مركَّب من ثلاثة خطوط ، مستلقٍ ، ومنْكَبٍّ ، ومقوّس .

قال ٱبن عبْد السلام : وهى كالنون ؛ وتبدأ أوّلها بشَـظِيَّة رأسها كدال مقلوبة ، طول المستلق منها كنصف ألِفٍ من خطه ، وكذلك المنكَبّ علىٰ ماتقدّم فى الدال .

قال : والمقوّس إن كان معطوفا فمساحته كألِفٍ من خطِّه وآخره بسِنِّ القلم اليسرىٰ وإن كان مرسَلا فمساحته كألفين من خطه وآخره بسنّ القلم اليمنىٰ .

قال : ومنها نوع كرأس الكاف المستلق والمنسطحُ سواءٌ .

قال ٱبن مقلة : وٱعتبارها كٱعتبار الواو .

الجملة الثانيـــة

(فى معرفة مايقع به ٱبتداء الحروف وٱنتهاؤها : من نُقْطة أو شظيَّة أو غير ذلك)

أما الابتداء فعلى ثلاثة أضرب .

الضرب الأوّل

(ما يبتـــدأ بنقطة ،وهو تسع صور[1])

صورة البـاء وأختيها ، وصورة الدال وأختها ، وصورة السـين وأختها ، وصورة اللام ، وصورة النونـ ، وصورة العين وأختها . وقد جمعها السُّرَّمَرِّىُّ فى أُرْجوزته فى أوائل كلمات بيتٍ واحد ، وهو قوله :

إذا بَدَتْ دَعْدٌ رَقَا سَنَاها * لعاشِقٍ ناحَ علىٰ هوَاها

علىٰ أن الشيخ شرف الدين بن عبد السلام قد وَهِم فعدّ منها الفاء ، وليس كذلك بل هى مما يبتدأ بجلفة[2] علىٰ ماسيأتى ذكره .

الضرب الثـانى

(ما يبتدأ بشـــظيَّة ،وهو صُوَر خمسة أحرف)

الحـاء ، والطـاء ، واليـاء ، والصـاد ، والكاف

وقد جمعها السرمرىُّ فى قوله : "خطى يصك" .

وجعل ٱبن عبد السلام الخمسة

الغينـ ، والطـاء ، والحـاء ، والكاف ، والصـاد

---

(١) لم يصل العدد إلىٰ التسع ولعله سبع وسقطت صورة الراء وأختها كما يظهر بالتأمل فى بقية الأضرب .

(٢) لعله بحلقة .

وجمعها فى قوله : "غط خصّك" وألحق بها أشباهها .

الضرب الثـالث

(مايبتدأ بجلفة[1] . وهو صور أربعة احرف)

القـاف ، والمـيم ، والواو ، والفـاء

وقد جمعها السرمرىّ فى قوله : "قُمْ وفِّ" .

وأما الاختِتام فعلى ثلاثة أضرب أيضا :

الضرب الأوّل

(ما يختم بقطّة القلم . وهو صور ستة أحرف)

الطـاء ، والفـاء ، والبـاء ، واللام ، والدال ، والكاف

وجمعها ابن عبدالسلام فى قوله : "دَبَّ طِفْلك" ولا يخفى أن أخواتها فى معناها .

الضرب الثـانى

(مايختم بشظيّة؛ وهو صورة واحدة)

وهى الألف

الضرب الثـالث

(مايرسل فى ختمه إرسالا ،وهو صورة أحدَ عشرَ حرفا ،وهى)

السين ، والراء ، والحـاء ، والمـيم ، والنون ، واليـاء ،
والعين ، والقـاف ، والصاد ، والواو ، والهـاء .

---

(١) لعله بحلقة .

يجمعها قولك "سرح منيع وقصه" .

الطــــرف السابع

(فى مقدّمات تتعلق بأوضاع الخط وقوانين الكتابة، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولىٰ

(فى كيفية إمساك القَلَم عند الكتابة ، ووضعه علىٰ الوَرَق)

قال الوزير أبو علىّ بن مقلة رحمه الله : يجب أن تكون أطراف الأصابع الثلاث : الوُسْطىٰ والسبَّابة والإبهام علىٰ القلم ، و إلىٰ ذلك يشير أبو تَمَّــام الطائىّ بقوله :

وسدّت * ثلاثَ نَوَاحِيهِ الثَّلاثُ الأنامِلُ *

أما قول القائل فى وصف القلم أيضا :

وَذِى عَفَافٍ راكِعٍ ساجِد * أخُو صَلاحٍ دَمْعُه جارِى
مُلَازِمُ الخَمْسِ لِأوقاتِهَـا * مُجْتَهِــدًا فى طاعة البارِى

يريد بالخمس الأصابعَ الخمسَ ، فإنه علىٰ سبيل المجاز ، من باب مجاز المجاورة .

قال الشيخ عمــاد الدين بن العفيف : وتكون الأصابع مبسوطةً غير مقبوضة ، لأن بســط الأصابع يتمكن الكاتب معه من إدارة القلم ؛ ولا يتكئ علىٰ القلم الاتكاء الشديد المُضْعف له ؛ ولا يمسكه الإمساك الضعيف فيضعف اقتدارُه فى الخط ، لكن يجعل اعتماده فى ذلك معتدلا .

وقال حنون : إذا أراد الكاتب أن يكتُب فإنه يأخذ القلم فيتكِئ علىٰ الخِنْصِر ، و يعتمد بسائر أصابعه علىٰ القلم ، ويعتمد بالوُسْطىٰ علىٰ البِنْصِر ، ويرفع الســبَّابة علىٰ القلم ، ويُعْمِل الإبهام فى دَوَرانه وتحريكه .

قال ابن مقلة : ويكون إمساك القلم فُوَيْق الفتحة بمقدار عَرْض شعيرتين أوثلاثٍ ؛ وتكون أطراف الأصابع متساويةً حولَ القلم لاتفضُل إحداهن على الأخرى .

قال صاحب "الحلية" : وتكون الأصابع على القلم منبسطة غير منقبضة ليتمكّنَ من إدارة القلم، ولا يدار حالة الاستمداد .

قال ابن العفيف : وعلى حسب تمكُّن الكاتبِ من إدارة قلمه وسرعة يَدِه فى الدَّوَران يكون صفاء جوهر حروفه .

الجملة الثانيـــة

(فى كيفية الاستمداد، ووضع القلم على الدَّرْج)

أما الاستمداد فهو أصل عظيم من أصول الكتابة . وقد قال المقرّ العلائىّ بن فضل الله : من لم يُحسِن الاستمدادَ وبَرْىَ القلم فليس من الكتابة فى شىء .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : واذا مدّ الكاتب فليكن القلم بين أصابعه على صورة إمساكه له حين الكتابه، ولا يديره للاستمداد : لأن أحسن المذاهب فيه أن يكون من يد الكاتب على صورة وضعه فى الكتاب، ويحرّك رأس القلم من باطن يَده إلى خارجها فإنه يمكن معه مقام القلم على نصبته من الأصابع، ومتى عدل عن هذا لَحِقتْه المَشَقَّة فى نقل نَصْبة الأصابع فى كل مَدّة .

قال : وهـذا من أكبر ما يحتاج إليه الكاتب ، لأن هـذا هو الذى عليه مَدَار جَوْدة الخط .

ثم قال : وقَلَّما يُدْرِك علم هذا الفصل إلا العالِمُ الحاذق بهَنْدَسة الخط، مع مايكون معه من الأَنَاة وحسن التأدية .

ومن كلام المقرّ العلائىّ بن فضل الله : ينبغى للكاتب أن لا يُكْثر الاستمداد بل يمدّ مَدًّا معتدلا ، ولا يحرّك اللِّيقة من مكانها ، ولا يعثر بالقلم فإن ذلك عيب عند الكُتَّاب ، ولا يردّ القلم إلىٰ اللِّيقة حتّى يستوعبَ مافيه من المَداد ، ولا يُدْخل منه الدواةَ كثيرا ، بل إلىٰ حدّ شقِّه ، ولا يجاوز ذلك إلىٰ آخر الفتحة : ليأمن تسويد أنامله ، وليس ذلك من خصال الكُتَّاب .

وأما وضع القلم علىٰ الدَّرْج فقال أبوعلىّ بن مُقلةَ : ويجب أن يكون أوّلَ ما يُوضَع علىٰ الدَّرْج موضعَ القطة منكبًّا .

الجملة الثـالثـة

(فى وضع القلم علىٰ الأُذُن حالَ الكتابة عند التفكر)

قال محمد بن عمر المدائنى : يُستحبُّ للكاتب فى كتابته إذا فكَّر فى حاجة أن يَضَعَ القلم علىٰ أُذُنه ، وساق بسنده إلىٰ أنس بن مالك رضى الله عنه أنّ معاوية بنَ أبى سُفيان كان يكتب للنبىّ صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا رأىٰ من النبىّ صلى الله عليه وسلم إعراضا وضَعَ القَلَمَ فى فيه ، فنظر إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم وقال : "يا مُعاويةُ إذا كُنْتَ كاتِبًا فَضَعِ القَلَم علىٰ أُذُنِك فإنّهُ أذْكَرُ لَكَ ولِلمُمْلِي" .

وساق بسنده أيضا إلىٰ زيد بن ثابت رضى الله عنه أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نَظَر إليه وهو يَكْتُب فى حَوائجه فقال له : "ضَعِ القَلَمَ علىٰ أُذُنِكَ فإنّهُ أذكَرُ لكَ" .

وأخرج أيضا من رواية أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم لكاتبه "ضَعِ القَلَمَ علىٰ أُذُنِك يَكُنْ أذكَرَ لَكَ" .

وفى رواية عن أنس : "كان معاويةُ كاتبًا للنبىّ فرآه يومًا قد وَضَعَ القَلَمَ علىٰ الأرضِ فقال : يامعاوية إذا كَتَبْتَ كاتبًا فضَعِ القَلَمَ علىٰ أُذُنِك" .

وأخرج أيضا "أن كَعْبا كان يتحدّث عند عائشةَ، فذكر إسرافيلَ فقال : له جَناح بالمَشْرِق وجَناح بالمغرب وجَناحٌ مُسَرْبَل به والقَلَمُ علىٰ أُذُنِه فإذا نزلَ الوَحْىُ جرىٰ القلمُ ودرَسَتِ الملائكةُ . فقالت عائشةُ : هكذا سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم".

الطرف الثـامن (١)

(فى ذكر قوانينَ يعتمدها الكاتبُ فى الخط، وفيه ستُّ جمل)

الجملة الأولىٰ

(فى كيفية حركة اليد بالقلم فى الكتابة، وما يجب أن يُراعىٰ فى كلِّ حرف)

قال السَّمَرْقَنْدِىّ وابنُ عبد السلام وغيرهما : كلُّ خط منتصب ينبغى أن يكون الاعتماد فيه من القلم علىٰ سِنَّيْه معًا، وكل خط من يَمْنةٍ إلىٰ يَسْرةٍ ينبغى أن يمال القلم فيه نحو اليَسْرة قليلا، وكل خط من يَسْرةٍ إلىٰ يَمْنة ينبغى أن يُمَال رأسُ القلم فيه إلىٰ اليَمْنة قليلا، وكل شظِيَّة ينبغى أن تكون بالسِّنّ اليمنىٰ من القلم، وكل نُقْطة ينبغى أن تكون بسِنَّىِ القلم، وكل تقعير كما فى النون وتعريقة الصاد يجب أن تكون بالسنِّ الأيمن وكل إرسالة يجب أن تكون بسنّ القلم اليمنىٰ، وكل تعريج كما فى عراقة الجيم والعين يجب أن يكون بسنِّ القلم اليُسْرىٰ، وكل ما أُخِذ فيه من يَمْنة إلىٰ يَسْرة كاللام ونحوها ينبغى أن يُمـال فيه رأسُ القلم إلىٰ اليَسْرة قليلا، وكل ما أُخِذ فيه من يَسْرةٍ إلىٰ اليمنة كرأس الجيم ينبغى أن يُمال رأسُ القلم فيه إلىٰ اليَمْنة قليلا، وكلُّ خط منتصبٍ فيجب أن يكون انتهاؤه إرسالة، وطول كل سنة من السين ونحوها مثل سُدُس ألِفِ خطها، وقيل مثل سبعه؛ وكلُّ شظية فى أولٍ أو آخرٍ مثلُ سُبع ألِفِ خطِّها .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : وللسِّنِّ الأيمن من القلم الألفُ واللام ورَفعة الطاء والنون والباءُ والكافُ إذا كانت قائمة مبتدأة، وأواخر التعريقات والمدّات

(١) تقدم أن الأطراف سبعة فهذا زائد عليها .

وطبقة الصاد والضاد، ومدّة السين والشين؛ وللأيسر الجيمُ وأختاها والرّدّات وتدوير رءوس الفاءات والقافات والهاءات والواوات والكافات المشقوقة .

قال : وكل ردّة من اليسار إلىٰ اليمين تكون بصدْر القلم .

قال : ويجب أن تكون المَطّات الطويلة بسِنّ القلم اليمنىٰ مُشَظَّاةً ممالة، فتكون المَطّة من رأس شَظِيَّتها، وأن تُكتب المَدّات القصيرةُ بحرف القلَم؛ وإذا ٱبتدأ بالمَدّة وجب أن يُدار القلمُ علىٰ سِنّه مثل مَطّة الطاء؛ وإذا وُصلت المطّةُ بحرفٍ مثلِها كُتبت بوجه القلم مثل مَطّة الفاء المفردة . ثم قال : وهذا من أعظم أسرار الكتابة .

الجملة الثانية

(فى تناسُبِ الحروف ومقاديرها فى كل قلم)

قال صاحب "رسائل إخوان الصفا": فى رسالة المُوسيقىٰ منه : ينبغى لمن يَرْغَب أن يكون خطُّه جيِّدا وما يكتُبه صحيحَ التناسُب، أن يَجْعلَ لذلك أصلاً يَبْنِى عليه حروفَه : ليكون ذلك قانوناً له يرجع إليه فى حروفه، لا يتجاوزه ولا يُقَصِّر دُونَه .

قال : ومثال ذلك فى الخطِّ العربىِّ أن تخط ألِفا بأىِّ قلم شئْتَ، وتجعل غِلَظَه الذى هو عَرْضه مناسبًا لطُوله وهو الثمن : ليكون الطُّولُ مثلَ العَرْض ثمانَ مرّاتٍ . ثم تجعلُ البركار علىٰ وَسَط الألف وتُدِير دائرةً تحيط بالألف لا يخرُج دَوْرُها عن طرفَيْه، فإن هـذا الطريق والمَسْلَك يُوَصِّلان إلىٰ معرفة مقادير الحروف علىٰ النسبة، ولا تحتاج فى مقايِيسك ما تقصده إلىٰ شىء يخرج عن الألف وعن الدائرة التى تحيط به .

فالباء وأخواتها : كل واحدة منها يجب أن يكون تسطيحُها إذا أضيفَتْ إليه سنُّها مساويا لطول الألف، فإن زاد سَمُج وإن قَصُر قَبُح ؛ ومقدار ٱرتفاع سنِّها وجميع

السنن التى فى السين والشين ونحوها لا يتجاوز مقدار ثمن الألف . والجيمُ وأخواتُها مقدارُ مدَّتها فى الابتداء لايقصُر عن نصف طُول الألف .

وكذلك يجرى الأمر فى العين، والغين، والسين، والشين، والصـاد، والضاد، والراء والزاى : كل واحدة منها مثل ربع محيط الدائرة؛ والدال، والذال كل واحدة منهما يجب أن يكون مقدارها إذا أُزيل الانثناء الذى فيهـا وأعيدت إلىٰ التسطيح لايتجاوز طول الألف ولا يقصر دونه .

والسين،والشين :كلُّ واحدة منهما يجب أن تكون سِنَنُها إلىٰفوقُ مثلَ مقدار ثمن الألف،وفى العرض بمقدار نصفها،وفى التعريق مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف.

والصاد،والضاد : مقدار عَرْض كلٍّ منهما فى مَدَاها مثلُ مقدار نصف الألف وفتحة البياض فيها مقدارُ ثمن الألف أو سدسها، وتعريقها إلىٰ أسفل مثل نصف الدائرة المحيطة بالألف .

والطاء،والظاء: كلُّ واحدة منهما فى ناحية يجب أن يكون مقدارُه مثـلَ مقدار جميع طول الألف وعرضُه مثلَ نصف الألف .

والعين، والغين كلُّ واحد منهما ،مقدارُ تقويسه فى العَرض مثـلُ نصفِ الألف أو مثلُ الألف إذا أعيدت إلىٰ التسطيح وأزيل تثَنِّيه، وتقويسُه من أسـفل مثلُ نصفِ محيط الدائرة .

والفاء : يجب أن يكون تسطيحُه إلىٰ قُدَّام بعـد الطالع منه من فوق مثلَ طول الألف .

وحَلْقته وحلقة الواو والميم كلُّها إلىٰ فوقُ مثلُ سدس الألف،و إلىٰ أسفل فى الميم. والواوُ : مثلُ الراء . والقاف تقويسُها من فوقُ ينبغى أن يكون مثلَ سُدُس طول الالف،وتعريقها مثل مقدار نصف الدائرة .

والكاف : ينبغى أن يكون الأعلىٰ منها طولَ الألف ، وفتحةُ البياض التى داخِلَه مثلَ سدس طول الألف ؛ وتسطيحه من أسفل مثلُ أعلاه وكسرته إلىٰ فوق مثلُ نصف طول الألف .

واللام : يجب أن يكون مقدارُ طُول قائمتها مثلَ الألِف ، ومدّتها إلىٰ قدّام مثل مقدار نصف الألف .

والنون : يجب أن يكون مقدارُه مثلَ نصف محيط الدائرة .

واليـاء : ينبغى أن يكون مَبْدؤه دالا مقلوبةً لا تجاوز مقدار طُول الألف ، وتعريقها إلىٰ أسفلَ مثلُ نصف محيط الدائرة .

ثم قال : وهذه المقادير وكميةُ نسبة بعضها إلىٰ بعض هو ما توجبه قوانينُ الهندسة والنسبة الفاضلة ، إلا أن مايتعارفه الناس و يستعمله الكُتّاب علىٰ غير ذلك .

وقد أشار الشيخ عمادالدين بن العفيف إلىٰ ضوابط فى ذلك علىٰ ماتقتضيه أوضاع الكُتّاب يجب الوقوف عندها فقال : وآعلم أنّ مقادير الحروف متناسبةٌ فى كل خط من الخطوط .

وآعلم أن صاحبنا الشـيـخ زين الدين شـعبان الآثارىّ فى ألفيته قد جعل طول الألف سبعَ نقط من كل قلم ، ومقتضاه أن يكون العرض سُبُعَ الطُّول .

ثم قال : إن ما زاد عن ذلك فهو زائد فى الطول ، وما كان ناقصـا عن ذلك فهو ناقص ، وعلىٰ ذلك تختلف المقـادير المقدّرة بالألف من الحروف بنقص قدر الثمن من الطول .

فالألف واللام قَدْرٌ سواء فى كل خط ، وكذلك الباء وأختاها ، والجيم وأختاها ، والعين والغين قدرٌ سواء ، والنون ، والصاد ، والضاد ، والسين ، والشين ، والقاف ، والياء المُعرّقة قدر سواء ، والراء ، والزاى ، والميم ، والواو قدرٌ سواء .

قال : وكل عراقة بدأتَ بها فى كل خط مّا فعلىٰ مثلها يكون ٱنتهاؤها .

ثم قال : فتفَهَّمْ هذا القدرَ فإنه كثيرا مايختلط علىٰ الكُتَّاب الحُذَّاق .

وقد ذكر الشيخ شرف الدين بن عبد السلام من ذلك أضربا :

أحدهـا ــ ما هو متناسب الطُّول، وهو خمس صور : صورةُ الألف، وصورةُ اللام، وصورةُ القاف، وصورةُ التاء، وصورة الكاف ويجمعها قولك "القتك" وفرَّع عليها أربع صور يجمعها قولك "بث مى" .

الثـانى ــ ما يجوز مدُّه من أوّل السطر إلىٰ آخره وقصره ما شـاء، ما لم يَقْصُر عن طول الألف، وهى البـاء، والكاف، واللام؛ ويجمعها قولك "بكل" ويتفرّع عليها أخواتها .

الثالث ــ ما هو متناسِبٌ فى المِقْدار، وهو ثلاث صور : يجمعها قولك "ديل" .

والمنكبُّ من الدالَ والمستلقى منها والمنسطح والمستلقى منها والمنكَبُّ من الياء بمقدار نصف ألِف خطِّه .

الرابع ــ ما هو متناسب المساحة فى حال العطف والإرسال : وهى القـاف، والسيـن، والبـاء، واليـاء، والضاد، ويجمعها قولك "قبس يض" وكل أخت تُلْحَق بأختهـا .

الخـامس ــ ماهو متناسب فى الإرسـال وهو الميم، والواو، والزاى، ويجمعها قولك "موز" .

السادس ــ ماهو متناسبٌ فى الضَّوْء والإرسال، وهو ست صور : هى الفاء، والقاف، والهـاء، والميم، والواو، واللام ألف؛ ويجمعها قولك "فقه مولا" .

السابع ــ ماهو متناسبُ ضـوء الباطن ، وهو ثلاث صور : الصاد ، والطاء ، والعين وأخواتُها .

الثامن ــ ماهو متناسب الرءُوس ، وهو ثلاث : الصاد ، والعين ، والطـاء ؛ ويجمعها قولك "صعط" ويُلْحَق بها أخواتُها .

التاسع ــ ماهو متناسبُ فى التعريج ، وهو العين ، والجيم ، ويجمعهما قولك "عج" .

الجملة الثالثـــة

(فيما يجب ٱعتماده لكل ناحية من نواحى القلم)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ بِرَاية القـلم أن للقلم سِـنًّا أيمنَ وسنًّا أيْسَر ، وعَرْضا ، ووَجْها ، وصَدْرا ؛ وأنه يتعيَّن علىٰ الكاتب معرفةُ كلِّ واحد منها : ليُعطِىَ كل واحدٍ منها حقَّه فى الموضع الذى يقتضيه الحال . وقد ذكر السُّرَّمَرِّىُّ فى أرجوزته جُمَلا كلية إذا عرفها الكاتب سَهُل عليه مايرومُه من ذلك فقال :

"إن كل خط منتصبِ الشَّكْل كالألف ونحوه يجب فى كتابته الاعتماد علىٰ سنَّى القلم جميعا ، وكلَّ خطٍّ آخذٍ من اليمين إلىٰ اليسار يجب إمالةُ القلم فيه إلىٰ اليسار شيئا يسيرا ، وكلَّ خطٍّ آخذٍ من اليسار إلىٰ اليمين يجب إمالةُ القلم فيه إلىٰ اليمين شيئا يسيرا ، وكل نقطة يعتمد فيها بسنيه جميعا ، وكل شـظيّة فإنها تُخْتلَس بسنه اليمنىٰ ٱختلاسا ، وكل إرسـالةٍ تعقيب كما فى الجيم والعين يُعتمدُ فيها علىٰ السن الأيسر ، وكلّ تَقْعير كما فى النون يكتب بالسنِّ اليمنىٰ" .

وأفصح عن ذلك الشيخ عماد الدين بن العفيف فقال :

إن لِلسِّن الأيمنِ الألفَ واللامَ ، ورفعة الطاء ، والنونَ ، والباء ، والكاف إذا كانت قائمة مبتدأة ، وأواخرَ التعريقات والمدّات ، وطَبْقة خطة الصـاد والضاد المستفلةَ ،

وبدء السين والشين . وللسن الأيسر الجيمَ وأختيها ، والرّدات ، وتدوير رءُوس الفاءات والهـاءات والواوات والكافات المشقوقة[1] . ثم قال : وكل ردّة من اليسار إلىٰ اليمين تكون بصدر القلم .

الجملة الرابعـــــة

(فى الترويس)

والذى يدخله الترويس فى الجملة الألف ، والباء ، والجيم ، والدال ، والراء ، والطاء ، والكاف ، واللام المجموعة ، ويختلف الحالُ فى ترويسها وعدمِه بٱختلاف الأقلام .

فمنها ما يروّس حتماً ، ومنها ما يمتنع فيـه الترويس ، ومنها ما الكاتبُ فيـه بالخيار بين الترويس وعدمه ، وربمـا رُوّس بعض الحروف فى بعض الأقلام ولم يُرَوّس فى بعضها . ثم قد ذكر أهل الصـناعة أن ترويس الألف كسُبعِه . وذهب ياقوتٌ إلىٰ الزيادة علىٰ ذلك ؛ وترويس البـاء وأختيها بقـدر نُقْطتين ؛ وترويس الجيم بقدر نصف نصبها ؛ وترويس الصاد والطاء كالسين ؛ وترويس الفـاء والقاف كالبـاء . وسيأتى الكلام علىٰ ترويس كل حرف منها فى قلمه إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الخامســـة

(فيما يُطمس من الحروف ويفتح)

وهى المعبر عنها بالعُقَد ، وهى صورة الصاد ، والطاء ، والعين ، والفاء ، والقاف ، والميم والهاء ، والواو ، واللام ألف المخففة ، ويختلف الحال فيها :

---

(١) لعله المشكولة كما يستفاد من التعريف عن أشكال الحروف الآتى .

فمنهـا ما لا يُطْمَس بحال، وهى الصـاد وأختها، والطاء وأختها، والعين المفردة والمبتدأة وأختها .

ومنها مايطمس فى بعض الأقلام دون بعض وهى: العين المتوسطة، والعين الأخيرة؛ وكذلك الغين، والفاء، والقاف، والميم، والهـاء، والواو، واللام ألف . وسيأتى الكلام علىٰ ما يُطْمَسُ ويفتَحُ من ذلك فى كل قلم عند ذكره .

ثم الطَّمْس فيما يُطْمَس منها علىٰ سبيل الجواز لاعلىٰ سبيل اللزوم .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف : والرجوع فى ذلك إلىٰ قانون مضبوط، وهو أنه كُلَّما غَلُظتِ الأقلام كان الطمس فيها علىٰ خلاف الأصل، وكُلَّما رقَّتْ كان الفتح فيها علىٰ خلاف الأصل، وذلك أنَّنا عدَلْنا عن الفتح إلىٰ الطَّمْس لأجل التلطيف .

الجملة السادسـة

(فى ذكر الأقلام المستعْمَلة فى ديوان الإنشاء فى زماننا)

وسـيأتى فى المقالة الثالثـة فى الكلام علىٰ ما يناسب كل مقدار من مقادير قطع الورق من الأقلام: أن المقرّ الشهابىّ بنَ فضل الله ذكر فى ذلك خمسة أقلام، وهى: مختصَر الطُّومار، والثُّلُث، وخَفِيف الثُّلُث، والتوقيع، والرِّقاع . مختصر الطُّومار لقطع البغدادىّ الكامل، والثُّلُث لقَطْع الثلثَيْنِ، وخفيفُ الثلث لقطع النصف، والتوقيع لقطع الثلث، والرقاع لقطع العادة .

ويلتحق بالخمسة التى ذكرها ثلاثةُ أقلام أُخَر، وهى : الطُّومار الكامل، والمحقَّق، والغُبَـار .

فالطُّومار : يكْتُبَ به السـلطان علاماتِه علىٰ المكاتَبـات والوِلَايات ومَنَاشـير الاقطاع .

والمحقَّق : ٱستُحْدِثت كتابتُــه فى طُغْراوات كُتُب القـانات علىٰ ما سيأتى بيانه فى موضعه .

والغُبَار : يُكْتَب به بطائقُ الحمام والملطِّفات وما فى معناها .

وحينئذ فيكون المستعملُ بديوان الإنشـاء فى الجملة ثمـانيةَ أقلام : الطُّومار، ومختصَر الطُّومار، والثُّلث، وخَفِيف الثلث، والتَّوقيع، والرِّقاع، والمحقَّق، والغُبار.

وقد ٱختلف الكُتَّاب فى تسمية قلم الثُّلُث وما فى معناه من الأقلام المنسوبة إلىٰ الكُسُور كالثلثين والنصف علىٰ مَذْهبين :

المذهب الأوّل ـ مانقله صاحب "منهاج الإصابة" عن الوزير أبى علىّ بن مقلة أن الأصل فى ذلك أن للخط الكُوفىّ أصلين من أربعَ عشرة طريقة، هُمَا لَهـا كالحاشيتين : وهمـا قلم الطومار : وهو قلم مبسوط كله ليس فيه شىءٌ مستدير .

قال : وكثيرا ماكُتِب به مصاحفُ المدينة القديمةُ، وقلم غُبَار الحِلْية : وهو قلم مستدير كلُّه ليس فيه شىءٌ مستقيمٌ، فالأقلام كلُّها تأخذ من المستقيمة والمستديرة نسبا مختلِفة ، فإن كان فيــه من الخطوط المستقيمة الثلثُ سمى قَلَم الثلث، وإن كان فيه من الخطوط المستقيمة الثُلُثانِ سمى قلم الثلثين، وعلىٰ ذلك ٱقتصر صاحب "منهاج الإصـابة" .

المذهب الثانى ـ ماذهب إليه بعض الكُتَّاب أن هذه الأقلام منسوبة من نسبة قلم الطُّومار فى المساحة، وذلك أن قلم الطُّومار الذى هو أجلُّ الأقلام مِساحةُ عَرْضِه أربعٌ وعشرون شَعْرة من شعر البِرْذون كما سيأتى ، وقلمُ الثلث منه بمقدار ثُلُثه : وهو ثمـان شعرات ، وقلمُ النصف بمقدار نصفه، وهو ٱثنتا عَشْرةَ شـعرةً، وقلم الثلثين بمقدار ثلثيه : وهو ثمانَ عشرةَ شعرة . وإلىٰ ذلك كان يذهب بعض مشايخ الكُتَّاب الذين أدركناهم ، وعليه ٱقتصر المولىٰ زين الدين شعبان الآثارىّ فى ألفيته .

وهذه صور حروف الأقلام السبعة التى تستعمل فى ديوان الإنشاء ولوازمه وهى: الطُّومار، ومختَصَره، والثلُث، وخفيفُ الثلُث، والرِّقاع، والمحقَّق، والغُبار فى حالتى الإفراد والتركيب .

القـــــلم الأوّل

(قـــلم الطُّومار بإضـافة قلم إلىٰ الطُّومار)

والمراد بالطُّومار الكاملُ من مقادير قَطْع الورق أصل عمله، وهو المعبَّر عنه فى زماننا بالفَرْخة، فأضيف هذا القلم إليه لمناسبة الكتابة به فيه. وقد تقدّم أنه قلمٌ جليلٌ قدّرَ الكُتَّاب مِساحةَ عَرْضِه بأربع وعشرين شعرةً من شَعْر البِرْذَوْن، وبه كانت الخلفاءُ تكتُب علاماتِهِم فى الزمن المتقدّم فى أيام بَنِى أُمَيَّة فَمَنْ بعدهم .

فقد حكىٰ أحمد بن إبراهيم الدَّوْرَقِىُّ فى مناقب عُمَرَ بنِ عبـد العزيز : أن عُمَرَ بن عبد العزيز أُتِىَ بطُومار ليكْتُبَ فيه فامتنَع وقال : فيه ضَـياعُ الوَرَق وهو من بيتِ مالِ المسلمين، وبالضرورة فلا يُكْتَب فى الطُّومار إلا بقَلَم الطُّومار، وهذا دليل علىٰ أنه كان موجودا فيما قَبْله ، وأظُنُّه من الامور التى رتَّبها معاويةُ بنُ أبى سُفْيان ، إذ هو اوّلُ من قرّر أُمورَ الخلافة ، ورتَّب أحوالَ المُلْك، وبه ٱستقرّتْ كتابةُ ملُوك الديار المصرية من لَدُن السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوُون" وهَلُمَّ جَرًّا إلىٰ زماننا .

قال صاحبُ "مِنْهاج الإصابة": ويكونُ من لُبِّ الجريد الاخضَر، ويُؤخَذ منه من أعلىٰ الفتحة مايَسَعُ رءُوس الأنامل. قال: ويمكن أن يكونَ من القَصَب الفارسىِّ .

قلت : والذى ٱستقرّ عليه الحالُ فى كتابة العُهود بالديار المصْريَّة بقَصَب البُوص الأبيض الغليظ الأنابيب، ينتقىٰ قَصَبه من جَزائر الصعيد بالوجه القبْلىّ، وفى كل سنة

يُجَهَّز بَرِيدىٌّ بطلب هذه الأقلام من وُلَاة الوجه القِبْلى ، و يُؤْتىٰ بها فتحفظ عند كاتب السِّر و يُبْرىٰ منها مايحتاج اليه (١) يوضع فى دواته بقَدْر الحاجة .

قال فى "منهاج الإصابة" : ولابدّ فيه (١) بقدر مايحتاج إليه فى مَجِّ القلم الحِبْرَ فى القرطاس .

وآعلم أن للكُتَّاب فيه طريقتين :

إحداهما – طريقةُ الثلُث فتجرى الحال فيه علىٰ الميل إلىٰ (١)

الثانيـة – طريقـة المُحقَّق فتجرى الحال فيه علىٰ الميل إلىٰ (١) بطريقتين ، وكيفيـة تشـكل (١) والفاء والقـاف فيه أوسـطها لحـدده (١) مدوّرة البيـا (١) الأحرف كمثـله (١) الرابع أن يكون فيـه صاد مدوّرة (١) وكاف مشكولة .

وذكر المولىٰ زين الدين شعبان الآثارىّ فى ألفيته : (١) فيه الترويس فى الألف ، والباء ، والجيم ، والدال (١) واللام والنون فى الإفراد والتركيب عند الآبتـداء وأنه (١) الطمس فى شىء من عقـده كالصاد ، والطـاء ، والفاء ، والقاف ، والميم ، والهاء ، والواو ، واللام ألف المحققة بحال ، والمعنىٰ فيه أن الطمس لا يليق بالخط الجليل .

---

(١) وقع طمس بالحبر فى هذه الصحيفة فى مواضع .

وهذه صورة كتابة آسم السلطان فى المكاتبات والولايات وغيرها منسوبا للسلطان

السلطان الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون

صورة مايكتب فى جليل المكاتبات

صورة ما يكتب فى متوسطات المكاتبات

صورة مايكتب فى صغار المكاتبات

وهذه صورة كتابة العلامة على المناشير للإقطاع لمن علامته

الله أملي بيـاء راجعة

القـــــلم الثانى

(قــلم مختصــر الطــومار)

بإضافة قلم إلىٰ مختصر ، وربمــا قيل فيه مختصر الطُّومار بحذف المضاف ، وهو الذى يكتب به فى قَطْع البغدادىّ الكامل .

وقد ذكر المولىٰ زين الدّين شعبان الآثارىّ فى أَلْفِيَّتِه : أن مقدار مساحته مابين كامل الطُّومار وبين قلم الثلثين ، وحينئذ فيكون مقــداره مابين عرض ست عشرة شعرةً من شعر البِرْذَوْنِ وبين أربع وعشرين شعرةً ، والحـامل له علىٰ ذلك أن أعلىٰ ما وضــعوه من الأقلام المنسوبة لكسرٍ من الكسور قلمُ الثلثين ، وهو عرض ستَّ عشرةَ شعرة ، فلو كان مرادهم بمختصر الطومار هــذا المقدار ، لعبروا عنه بقلم الثلثين دون مختصر الطومار ، فتعين أن يكون فوق ذلك ودون الطومار الكامل ، فيكون مابين عرض ثمــانَ عشرةَ شعرة وعرض أربع وعشرين شعرة .

ثم هذا القلم يجوز أن يُكْتَب به علىٰ طريقة الثلث فى الميل فى حروفه إلىٰ التقوير وعلىٰ ذلك يكتُب كُتَّاب ديوان الإنشاء فى عهود الملوك عن الخلفاء ، والمكاتبــة إلىٰ القانات العظام من ملوك بلاد الشرق . ويجوز أن يكتب به علىٰ طريقة المحقّق فى الميــل فى حروفه إلىٰ البسط كما فى الطريقة الثانية من قلم الطُّومار ، وسيأتى ذكر تشكيل الثلث فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

ولا يخفىٰ أن هذا القلم بالنسبة إلىٰ الترويس وعدم الطمس علىٰ ماتقدّم فى الطومار للحوقه به فى الجلالة وسَعة مساحة العرض .

وهـــذه صـــ

ـــــــــورة كتابتـــــــــه

القـــلم الثالث

قـلم الثلث

بإضافة قلم إلىٰ الثلث، ويقال فيـه الثلث بحذف المضاف وهو الذى يُكْتَب به فى قَطْع الثلثين .

وقد تقـدم آختلاف الكُتَّاب فى نسبته هل هو باعتبار التقوير والبسط أو باعتبار أنه ثلثُ مساحة الطومار، من حيث إن عَرْض الطومار أربع وعشرون شعرةً من شعر البِرْذَوْنِ، وعرض الثلث ثمانُ شعرات وهى الثلث من ذلك؛ وقَطَّة هذا القلم محرّفة : لأنه يحتاج فيه إلىٰ تشعيرات لاتتأتى إلا بحرف القلم، وهو إلىٰ التقوير أميل منه إلىٰ البَسْط، بخلاف المحقَّق علىٰ ماسيأتى ذكره، والترويس فيه لازم .

وقد ذكر المولىٰ زين الدين شعبان الآثارىّ فى أَلْفِيَّتِهِ : أنه يروّس فيه من الحروف الألف المفردة، والجيم وأختاها، والطاء، والكاف المجموعة، واللام المفردة، والسنة المبتدأة؛ وعُقَدُه من الصاد وأختها، والطاء وأختها، والعين وأختها؛ والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة كلُّها مفتحة لايجوز فيها الطمس بحال .

وهو علىٰ نوعين :

النـــوع الأوّل

(الثلث الثقيل)

وربمـا قيل فيه ثقيل الثلث ، وهو المقدّرة مساحته بثمانِ شـعرات علىٰ ما تقدّم ذكره، وهذه صُوَره مفردة ومركبة .

الألف علىٰ ضربين مفردة ومركبة، فالمفردة علىٰ ثلاثة أنواع .

الأوّل ــ الألف المطلق

ا

وطريقه : أن تبتدئ فيه بصدر القلم من قفا الألف، ثم تصعد إلىٰ هامتها فإذا بلغتها نزلت بعرض القلم إلىٰ وجهه، ثم تنزل بوجه القلم معتمدا فى نزولك علىٰ السنّ اليمنىٰ حتّى إذا بلغت شاكلة الألف أدرت القلم برفق حتّى تختمه بحرفه .

الثانى ــ المشعر

ل

وطريقه : كالذى قبله إلا أنه إذا جئت آخر الألف عطفت ذنبها ويكون موصولا بغيره، فإن لم يوصل بغيره فالغالب أن يكون مطلقا .

الثالث ــ المحرّف

ا

وطريقه : أن يبدأ فيه من هامة الألف بوجه القلم فتضعه علىٰ تحريفه وتنزل به مستويا، حتى إذا بلغت شاكلته أدرت حرف القلم علىٰ ما مضىٰ من الشرط فى المطلق والمُشَعَّر .

الضرب الثـانى

(المركَّب مع غيره من الحروف)

ولا يكون إلا طرفا أخيرا، إذ لا يوصل بما بعده، لأن الألف مطيَّة يُرْكَبُ عليها ولا تَرْكَبُ، وطريقه أنك تصعد به بعد تمـام الحرف الذى قبله بصدر القلم عكسا لنزولك بالألف المحرّف ، فإذا بلغتَ هامة الألف وقفت بالقـلم حتّى يكون بمنزلة رأس الألف المحرّف.

وكذلك يفعل فى اللام الطالع ،وهذه صورته .

الطـالع

ـا

الصـــــــــورة الثانيـــــــــة

(صورة البـاء)

وهى علىٰ ضربين

الضرب الأوّل

المفـــردة

وهى ثلاثة أنواع : مجموسة،وموقوفة، ومبسوطة . ولك فى آبتـدائها فى الثلاث الصور وجهان : إن شئت بدأت من قفاها بتشـعيرة علىٰ ما مضىٰ من صفة الألف المطلق، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن،و إن شئت بصدر القلم . ثم لـكل صورة منها طريقة تخصها .

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ من رأسها بوجه القلم حتّى إذا بلغت فتلة البـاء وهى الإدارة الخفية التى تجمع بين الخط القائم والمبسوط، فتلت القلم ومططت الباء بصدره، حتّى إذا صرت إلىٰ آخرها ختمت بحرف القلم الأيمن ، ونَثَرَتَ يدَكَ برفق حتّى ترفع ذنب الباء، حتّى يجىء رأسها فى نهاية الدقة .

المجموعة

وأما الموقوفة : فطريقها كطريق المجموعة فى جميع ماتقدّم ، إلا أنك إذا بلغت المكانَ الذى ترفع فيه من ذنب المجموعة ، وقفتَ فيه بعرض القلم فتأتى مطة محرّفة كتحريف القلم .

الموقـــوفة

وأما المبسوطة(١) :

المبســـوطة

وأما المركبة(٢) : فعلى نوعين : متوسطة، ومتطرّفة .

فأما المتوسطة : فلها حالان .

أحدهما ـ أن يكون قبلها وبعدها مثلها، فتكون الوسطىٰ مرتفعة علىٰ أخواتها . وإذا رفعتها أكثر من أخواتها، رجعت فى خط يلاصقها . وهذا فى كل حرف صغير كالنون، والباء، والتاء .

الثـانى ـ أن لايكون قبلها وبعدها مثلها ، فهى كإحدىٰ السنات .

(١) لم يتكلم عليها . (٢) هذا هو الضرب الثانى من ضربى الباء وهى المركبة .

وأما المتطرّفة : فلها حالان أيضا .

أحدهما ـ أن تكون مبتدأة : وهى التى تكون فى أوّل الكلمة، فطريقها أن تبدأ فيها بعرض القلم تحدّرا من يمينك إلىٰ يسارك، وهى تصحب الجيم وأختيها .

الثانى ـ أن تكون فى آخر الكلمة، وتكون محذوفة الرأس للتركيب كرأس السين المبسوطة، وتكون صورة مدّتها كصورة المفردة سواءً فى جميع أحوالهـا : فى الجمع والبسط والوقف؛ وهذه صورها .

الصورة الثـالثة

(صـــورة الجيم وما شاكلها)

وهى علىٰ أربعة أضرب : مرسَلة، ومسْبَلة، ومجموعة، وملوَّزة؛
وٱبتداء جميع الصور علىٰ وجهين، من رأسها ومن جبهتها .

فأما المبتدأة من رأسها فيخيَّر الكاتب فيها بين أمرين : إن شاء جعلها جرّا، وإن شاء جعلها مشـعَّرة، فإنها يُبْدأ فيها بصدر القلم، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن، والمشـعَّرة يخْطَفها بحرف القلم أو بصـدره علىٰ ما مضىٰ ؛ فإذا بلغتَ جبهتها أدرت بخررت بوجه القلم، وأنت فى الحرة بالخيار : إن شئت جئت بها علىٰ خط مستقيم، وإن شئتَ رطَّبتها شيئا يسـيرا ؛ فإذا بلغت قفاها، كنت أيضا مخيرا : إن شئت رجعت فى الخط الذى جئت فيه، وإن شئت رجعت فى خط تحته يلاصقه بصدر القلم؛ فإذا وصلت تحت هامة الجيم أدرت القلم علىٰ تحريفه فنزلت بعرضه حتّٰى إذا بلغت آخر عجز الجيم ختمتها بحرف القلم . ولا يخرج صدر الجيم عن الخط الموازى

لجبهتها، كما لايجوز أن يخرج طَرَف ذَنَبها عن الخط الموازى لقَفَاها، حتّٰى لو نصب عليها خطوطا لناسبت أعاليها أسافلها، وهذه صورتها .

مفردة مرســـلة

وأما المسبلة : فإنها كالمرسلة فى الصورة والصفة، والفرق بينهما أنك فى المرسلة إذا بلغت الصدر ونزلت فيه، أسبلت ذنبها، وهذه صورتها .

مفردة مســـبلة

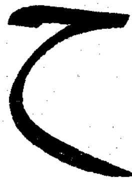

وأما المجموعة : فإنها كالمرسلة أيضا فى جميع أوصافها و يزيد عليها أنك إذا وفيت بهـا علىٰ مامضىٰ من صِـفة المرسلة رددت ذنبها علىٰ عجزها فصارت هنالك دائرة، وهذه صورتها .

مفردة مجمـــوعة

وأما الملوّزة: فإنها لا تكون إلا قبل الألف، وطريقها أن تبدأ بعرض القلم من تحت الألف فيما تقدّر، فإذا بلغت جبهة الجيم، جررت بوجه القلم جرّة مبطنة حتّى يصير البياض الأوسط لَوْزَةً محققة، فترفع الألف مع جبهة الجيم وتبقى تحت ذنب الألف بقية رأس الجيم، وهذه صورتها .

مبتدأة مركبة ملوّزة

وزاد المتأخرون صورة أخرى تسمى الرتقاء، وصورتها أنك تبتدئ برأس واو من واوات الثلث مفردة، وتكون مرتفعة الرأس بقدر نقطة من نقط الخط، ثم تكمل عليها ببقية العمل المتقدّم ذكره على الثلاث حالات المتقدّمة فى الباب، وهى المرسلة والمسبلة، والمجموعة، وهذه صورها .

رتقاء مرسلة رتقاء مسبلة رتقاء مجموعة

وزاد المتأخرون صُوَرا أخرى في التركيب: وهى ثلاث: أولى، ووُسْطى، وأخيرة .

أما الأولى : فٱبتداء العمل فيها كٱبتداء العمل فى الثلاث حالات الأول، ثم تكمل بالحرف الذى تريد، وهذه صورتها .

مركبة مبتدأة محققة

حم

وتارة تكون ملَوَّزة وهى التى تصحب الألف وما شابهها كالدال، واللام، واللام ألف، وقد صوّروها مع الألف فتقاس على ماعداها .

وهذه صورتها مع اللام	وهذه صورتها مع اللام ألف	وهذه صورتها مع الدال
مركبة مبتدأة ملوّزة مع شبه الألف	مركبة مبتدأة ملوّزة مع شبه الألف	مركبة مبتدأة ملوّزة مع شبه الألف
حل	حلا	حد

واما المتوسطة : فالعمل فيها كالعمل فى المبتدأة المحقّقة المركبة كما تقــدّم ولكن بغير ترويس، وهذه صورتها .

مركبة متوسطة محققة

ـحـ

وأما الأخيرة : فالعمل فيها كالعمل فى الثلاث حالات الأُوَل : المرسلة ، والمسبلة ، والمجموعة ، ولكن بغير ترويس ، وهذهِ صورها .

مركبة مختتمة مرسلة   مركبة مختتمة مسبلة   مركبة مختتمة مجموعة

الصورة الرابعـــة

(صـــورة الدّال وأختهـا)

وهى علىٰ ضربين : مفردة ، ومركبة

الضرب الأوّل

المفـــردة

ولها صورة واحدة ، وهى شكل مُثَلَّثٍ علىٰ زاوية واحدة ، ويجمع طرفها جمعا يسيرا ، وهذه صورتها :

مفـــردة

الضرب الثاني

المركبة

ولها أربعة أشكال : مجموعة، ومبسوطة، ومخطوفة، ومقطوفة .

أما المجموعة : فإنك ترفعها بعد فراغك من الحرف الذى قبلها، ولك فى ذلك مذهبان :

أحدهما ـ مذهب الوزير أبى علىّ بن مقلة[1] .

والثانى ـ مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب، وطريقه أن ترفعها مائلا إلى اليسار ميلا خفيفا .

ثم على كلا المذهبين ترجع بخط يلاصق الخط الذى صعدت به وبظهر القطة فى الانتهاء، وتأتى بالعراقة على شكل عراقة الدال المفردة فى الجمع، وهذه صورتها :

مجموعة مركبة

وأما المبسوطة : فحكمها فى جميع صفاتها حكم المجموعة، إلا أنك إذا نزلت فى المبسوطة إلى العراقة وفتلتها، أرسلت العراقة بعرض القلم، وهذه صورتها :

مركبة مبسوطة

(١) لم يبين طريقه ولعله سقط من قلم الناسخ فحرر .

وأما المخطوفة : فهى كالمجموعة أيضا، إلا انك تخْطَفها بحرف القلم وتختمها بأدَقّ ماتقدر عليه من النحافة، وهذه صورتها :

مركبـــة مخطوفة

لد

وأما المقطوفة : فهى كالمخطوفة، إلا أنك بعد الفتلة تُبْقِى لها ذَنَباً صغيرا بحرف القلم وهذه صورتها :

مركبـــة مقطوفة

لد

الصورة الخـامسة

(صـــورة الراء وأختهـا)

وهى علىٰ ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأوّل

المفـــردة

ولهـا ثلاثة أشكال : مجموعة، ومبسوطة، ومقورة، وآبتـداؤها فى جميع الصور علىٰ وجهين .

أحدهما ــ أن تبدأ من قفاها صاعدا إلىٰ هامتها ثم تنزل إلىٰ وجهها .

والثانى ــ أن تبدأ بها حدّا من رأسها، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب .

ثم لكل واحدة منها بعد ذلك عمل يخصها . فأما المجموعة فطريقها أن تبدأ فيها بوجه القلم وتنزل على خط الاستواء بقدر ربعها ، ثم تدير القلم وتبدأ فى العراقة بصدر القلم ، ويكون تنزيلك إيّاها أكثر صبا من الباء المفردة قليلا ، فإذا عرقت مثل ما نزلت به أوّلا على خط الاستواء نثرت يدك بالقلم إلى فوق وأنت تريد ذات اليمين بإشارة لطيفة ، ويكون ختمها بسنّ القلم اليمنى ، وهذه صورتها :

مفـــردة مجموعة

واما المبسوطة : فطريقها أن تنزل بها على ما ذكرناه ، وترسل ما عرقت منها على ما تقدّم فى الدّال المجموعة وتنقص منها النثرة الأخيرة ، وتحدّد طرفها ؛ وهذه صورتها :

مفـــردة مبسوطة

وأما المقوّرة : فطريقها أن تنزل بأقلّ مما ذكرناه شيئا يسيرا ، وهذه صورتها :

مفـــردة مقوّرة

الضرب الثـانى

المركبـــة

ولهـا أربعة أشكال : مخطوفة، ومقطوفة، وبتراء، ومدغمة .

فأما المخطوفة : فهى كالمقوّرة فى الصورة، غير أن عراقتها بحرف القلم؛ وهـذه صورتها :

مركبـــة مخطوفة

وأما المقطوفة : فإنك تُبْقِى لها ذَنَباً صغيرا، وهذه صورتها :

مركبة مقـــوّرة

وأما البتراء : فإنك تقطفها من الثلثين فتحذف ثلثها وتأتى بها مستدقة الطرف ، وهذه صورتها :

مركبـــة مقطوفة

وأما المدغمة : فإنها تصلح بعد كل حرف وتقبح بعد المدّ، وسميت مدغمة مجازا وإلا فالحرف الذى قبلها هو الذى يدغم فيها، لكنهم لما حذفوا منها شيئا لقبوها بذلك، ولا بُدَّ أن تحذف من الحرف الذى قبلها شيئا من آخره وتحذف منها شيئا من أوّلها .

وتُبْقى من كل واحد منهما مايدل عليه ؛ وهذه صورتها :

مركبـــة مدغمة

الصورة السادســــة

(صورة السين)

وحكمها فى حالتى الإفراد والتركيب سواءٌ، غير أنها فى حالة الإفراد تزيد العراقة ، وعراقتها كعراقة النون فى الجمع والبسط والتقوير؛ وسيأتى الكلام علىٰ ذلك فى حرف النون إن شاء الله تعالىٰ .

ثم هى علىٰ نوعين : محقَّقة، ومعلقة .

فأما المحققة : فلها شكلان، مُظْهَرة، ومدغَمة .

فطريق المظهرة أن تبـدأ بوجه القلم ثم تدير القـلم منها إلىٰ أختها إدارة لطيفـة فى نهاية الآعتدال، وتحدّد رأس الثانية بسن القلم اليمنىٰ ، ويكون الذى بين الأولىٰ والثانية أقلَّ ممـا بين الثانية والثالثة ، وهو مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب . وإذا كان قبلها شيء يكون سواء، ويجوز أن تكون مصدّرة مقلوبة؛ وهذه صفتها :

محققة مظهـــرة

وأما المعلقة : فصفتها أنك تحذف السين حذفا وتقيم جرّةً مقامها، وتبدأها بوجه القلم عاملا إلىٰ آخرها .

هذا إذا كانت مبتدأة، فإن كانت متوسطة، فالأولىٰ أن تكون محققة، ولا بدّ من جرّ فوقَ المعلقة نقطت أو لم تنقط، وهذه صورتها :

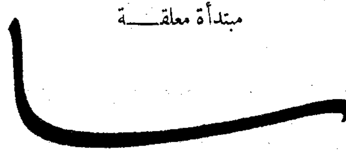

وتحسن قبل الكاف المشكولة وقبل الألف، ولا تكون قبل الصاد والعين والكاف المعرّاة، وقيل إنها لم ترفى خط ٱبن البوّاب إلا مفردة .

الصـــورة السابعـــة

(صـــورة الصاد)

والكلام في عراقتها كالكلام في عراقة السين : من الجمع، والبسط، والتقوير، وسيأتى الكلام علىٰ ذلك فى حرف النون .

نعم لاتكون عراقتها إلا حديدة الطرَف فى جميع صورها، ولا يجوز فيها الوقف بحال. أما نفس الصاد فلها شكل واحد، وهى تقارب التلويزة. وللناس فيها مذهبان : الاول إظهار مبدإ الصاد تحت رأس العراقة، والآخر إخفاؤه؛ وفى كلا المذهبين لا بدّ من ظهور رأسها شيئا يسيرا . فإن كانت متوسطة، فيكون رأسها بحرف القلم

محدّد الطَّرَف . وإن كانت مفردة أو متطرّفة فإنها تكون عريضة الرأس بوجه القلم . و إذا ركبت على خط قبلها ، لا يكون خطا على خط ولا يظهر أكثر من خط واحد ، وهذه صورتها :

مجمـــوعة

ص

الصـــــورة الثـامنـــــة

(صورة الطاء وأختها)

وهى ثلاثة أنواع : موقوفة ، ومرسلة ، ومحققة

فأما الموقوفة : فطريقها أن تبدأ بها على صورة الألف المطلق . فإذا وفيت به ، رجعت طالعا من تلقاء ذَنَبِ الألف حتّى تقارب شاكلته ، فترجع إلى يمينك ، فتركب عليه شكلا على صورة اللوزة ، وتخرج ذَنَبَ اللوزة من تحت الألف وتقف عليه بعرض القلم فتظهر القطة ، وهذه صفتها .

مفردة موقـــوفة

ط

وأما المرسلة : فهى على نحو ما تقدّم فى الموقوفة غير أن الجرّة السفلى هاهنا مبطنة ، وفى الموقوفة على خط مستقيم ، وهذه صفتها .

مفردة مبسوطة

ط

وقد آختلف الكُتَّاب فى رأس الطاء، فكان بعضهم يذهب أن يكون علىٰ طَرَف اللَّوْزة من غير ركوب عليها،وهو أحد المذاهب فيها .

قال الشيخ أبو القاسم : سألت بعض مشايخى عن"طى" كيف يكون وضع الياء فيها ؟ بحضرة جماعة من الكُتَّاب،فقال : تُكتَب طـاء جيدة بعدها ياء حســنة، فقلت : الحمــد لله الذى أبقىٰ علىٰ جديد الأرض مَنْ يُحْسِنُ صفة الخط بمثل هــذا الضبط . فلمــا أردت الآنصراف أشار إلىّ أن آجلسْ فجلست حتّى آنصرف القوم، فقــال : قد كنتُ سألتُ عنها شـيخنا أبا الحسن بن هلال فقال لى : إذا فرغت من الطاء فاحذف رأس اليـاء وألصـق قفا الياء بذَنَبِ الطاء، ثم تممها علىٰ مذهبك فى اليــاء أنّى شئتَ، ولا تخرج صدر الياء من تحت رأس الطاء . وعلامة صحتها أنك إذا حذفت لوزة الطاء بقيت فى نهاية الصحة إن كان بعــدها ياء . وإن كان بعدها واو بقيت أيضا فى نهاية الكمال .

قال الشيخ أبو القاسم : فينبغى أن يكون رأسها فى آخر اللوزة، ولا يكون مركبا علىٰ ظهرها لانه إذا تركب بطل هذا القياس .

وأما المحققة : فإنك تبدأ فيها علىٰ صورة اللام المبتدأة المعلقة، ويأتى الكلام علىٰ ذلك فى حرف اللام إن شاء الله تعالىٰ .

وأ كثر ما تستعمل هــذه الطاء إذا كانت مشعَّرة بألف قبلها وألف بعــدها فتستحسن،وهذه صفتها .

متوسطة بين قائمين

وٱعلم أنه لا بدّ للطاء من مدّة قبلها تركب عليها، ويكون طرفها ينتهى إلىٰ تحت رأس الطاء من غير زيادة ولا نُقصان، ويجوز فى طَرَف هـذه المدّة الجمعُ وعدمه، وكلا المذهبين حسن .

الصورة التاســعة

(صورة العين وأختها، ولها حالان)

الحال الأوّل : أن لاتكون متصلة بما قبلها،وهى علىٰ نوعين : ملَوَّزة، ومركَّبة.

أما الملوزة : فإنك تبدأ فيها من رأس العين بحرف القلم فى غاية الدّقة، حتّى إذا وصلت إلىٰ هـامتها، مَكَّنت إدارة قلمك فصرت عاملا بوجهه إلىٰ قَمَحْدُوةِ العين فتصير علىٰ صورة اللوزة؛ وتكون هذه العين قبل الهـاء المدغمة؛ وهذه صفتها .

ملـــوزة

عه

وتكون أيضا قبل هاء الردف؛ وهذه صورتها .

ملوزة مع هاء الردف

عه

وأما المركبة : فهى مركبة من راءين محققة ومعلقة ، وٱبتـداؤها علىٰ ما تقـدّم فى الملوزة؛غير أنك إذا صرت إلىٰ هامتها وأدرت القَمَحْدُوَة، نزلت علىٰ خطٍّ مستقيم أو قريب من الآسـتقامة . والذى وجد بخط الأسـتاذ أبى الحسن بن البوّاب علىٰ

الأستقامة ، وهــذه العين لا يكون بعدها إلا حرف طالع كالألف واللام وما جرى مجراهما ، وهذه صفتها .

مركبـــة ونعلية

عا

وكثيرٌ من الكُتّاب يخلِطونها مع ما قبلها كالجماعة والبضاعة ، فإنهم يردّون من الألف إلى العين جرّة مبطنة يجعلونها عاليــة العين ، وهى مستحسنة ، ولا بدّ لها من ألف قبلها وحرفٍ طالع بعدها ، وهذه صفتها .

مردوفة ومشكولة

باعه

الحال الثــانى : أن يكون قبلها شىء متصل بهــا ، وتســمى المربعة ، وهى على نوعين : منوّرة ، ومطموسة .

فأما المنوّرة : وتسمّى المحققة ، فإنك إذا خرجت من الحرف الذى قبلها أتبعت خطا محدودبا مبطنا إلى يسارك بصدر القلم ، ثم حررت عالية العين بوجه القلم ثم على الجرّة الأولى جرة تنــاقضها مثلها فى القــدر والمساحة بقطع الخط الأوّل ، ثم إن كانت معرقة عرقت . وإن كانت غير ذلك اتبعتها مابعدها .

وعلامة صحتها أن تلتمس البياض الذى فى وسطها فإن تناسبت زواياه فهو فى غاية الصحة وقد تم تركيبها، وإلا فتحرر حتى يصح ما رسم؛ وهذه صفتها .

مربعة مفتوحة

لعد

وأما المطموسة ، وتسمّى المعلقة ولا تكون إلا فى قلم التوقيعات والرقاع، فصفتها أن تكون وقصاء غير مفتوحة ، ولا يجوز فيها من العراقات غير المجموعة ، وهذه صورتها .

معلقة مطموسة

لعد

ثم إن كانت معرّقة مفردة أو مركبة، فالعراقة على ثلاثة أنواع : مسبلة، ومرسلة، ومجموعة، كعراقات الجيم .

فأما المسبلة : فإنك إذا نزلت من ظهرها أسبلت العراقة فتكون أكثر من نصف الدائرة، ولا يخرج الصدر عن الرأس ولا الظهر عن القَمَحْدُوة، بل يكون كل واحد منهما مساويا لما فوقه، غير زائد عليه ولا ناقص عنه. وكان الوزير أبو علىّ بن مقلة رحمه الله يقول: "المرء على ترك شىء مما يعمله أقدرُ منه على تكلف شىء لم يعتده" ويأمر الطلبة بإخراج ذَنَبِ العين من تحت صدرها؛ وهذه صورتها .

مفردة مسبلة

ع

وأما المرسلة : فإنك تأتى بالعراقة نصف دائرة محققة ، وتتأمل فيها من المسامتة ما وصف فى المسبلة والمســبلة تكون حديدة الطرف ، والمرسلة يجوز فيهـا التحديد والوقف ، والتحديد مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب ؛ وهذه صورة التحديد ، وهذه صورة الوقف .

مفردة مرســـلة

ع

وأما المجموعة : فإنها كالمرسلة أيضا فى جميع أوصافها ، وتزيد عليها أنك إذا وَفَّيت بها علىٰ ما مضىٰ من صــفة المرسلة ، رددت ذَنَبها علىٰ عجزها فصارت هنالك دائرةٌ ؛ وهذه صفتها .

مفـــردة مجموعة

ع

الصـــــورة العاشرة

(صـــورة الفـاء)

وهى على ضربين : مفردة، ومركبة

فأما المفردة : فعلى ثلاثة أقسام : مجموعة، ومبسوطة، وموقوفة. وقد تقدّم الكلام على هذه العراقات فى حرف الباء، فأغنى عن إعادته هنا؛ وهذه صفة العراقات الثلاث.

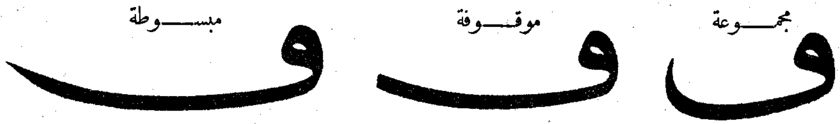

وأما المركبـة : فإنها تكون مقلوبة، وذلك أن بياضها يكون الحادّ منه فى ملتقى الخطين اللذين يتقاطعان فى ذَهَابها ومجيئها، ويكون عرضه عند هامتها؛ وهذه صفة المتوسطة.

الصـــــورة الحادية عشرة

(صـــورة القاف)

وهى على ضربين أيضا : مفردة، ومركبة

فأما المفردة : فحكم رأسها حكم الفاء، وحكم عراقتها حكم النون، وستأتى، غير أنها تكون مفردة مبسوطة وهى مستحسنة بخلاف النون؛ وهذه صفتها.

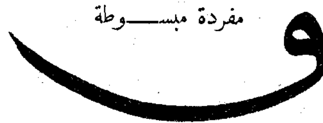

وأما المركبة : فإنها كالفاء فى جميع ما تقدّم، فلا حاجة إلى تمثيلها.

الصـــورة الثانيـــة عشرة

(صورة الكاف)

وهى علىٰ ثلاثة أنواع : مبسوطة ، ومشكولة ، ومعرّاة ؛
ولكل واحدة منها موضع يخصها

فأما المبسوطة : فتكون مفردة ومركبة ، وإفرادها قليل ؛ والمركبة منها موضـعها الآبتداءات والوسط ، ولا تكون طرفا أخيرا بحال ؛ وطريقها أن تبدأ فيها بصدر القلم من رأسها حتّى ترد جبهتها فتخط عاليتها بوجه القلم وتفتل علىٰ هذا المنهاج إلىٰ المَطَّة السُّفْلىٰ ، وتمطها بصدر القلم وتقط ذنبها ؛ وتتوخّى فى عاليتها أن تكون علىٰ خط مستقيم لتجعلها قالبا للمطة السفلىٰ ؛ وآعتبار صحتها باعتبار البياض الذى فى وسطها إذا آستقام آستقامت ؛ وهذه صورتها فى الإفراد ، والتركيب ، والآبتداء .

مفردة مبسوطة — مبتدأة مبسوطة — متوسطة مبسوطة

وأما المشكولة : فلا تكون إلا مركبة ، وموضعها الآبتداءات والوسط ، ولا تنفرد البتة ؛ وتكون علىٰ هيئة شق لوزة فإن وصلت بألف أو لام تبينت ولا يخرج الحرف الذى يكون بعدها من تحت رأسها أصلا لأن الكاف المبسوطة والمشكولة لا يجوز

أن يأتى بعدهما مدّة، وإنما سميت مشكولة للجرّة التى عليها، وهذه صورتها فى الابتداء وفى الوسط .

مبتـــدأة مشكولة — متوســـطة مشكولة

كا كـــــ

وأما المعرّاة : فلا تكون إلا طَرَفا أخيرا وهى فى الصورة والشبه كاللام المطلقة، والفرق بين اللام والكاف المعرّاة أن القائم من الكاف ثلثا المبسوط، والمبسوط من اللام كالقائم فيها؛ وهذه الكاف لا تجمع أبدا، فإن مواضعها أواخر السطور، وهذه صفتها .

مفردة معـــراة

ل

الصورة الثالثـــة عشرة

(صـــورة اللام)

وهى علىٰ ضربين : مفردةٍ، ومركبةٍ

الضرب الأوّل

المفـــردة

وهى علىٰ نوعين : مجموعة، ومطلقة

فأما المجموعة : فطريقها ان تبدأ من قفاها علىٰ نحو ما وصف فى الألف المطلق لأن الالف واللام يجريان علىٰ نظام واحد فى كل خط لأنهما صاحبان، كالباء والتاء، وكالحاء والخاء، وكالعين والغين . فإذا وصلت إلىٰ شاكلته عرقت اللام عراقة أكثر حُدُورا من الباء، وجمعت ذنبها كما تقدّم فى حرف الراء، وهذه صفتها .

مجموعـــة ، مطلقـــة

ل ل

الضرب الثـانى

المــــركبة

وهى علىٰ قسمين : محققة، ومبتدأة معلقة .

فأما المبتــدأة المحقَّــقة : فهى كالمرسلة غير أنها محذوفة المَطَّة لأجل التركيب ؛ وهذه صفتها .

مبتدأة محققة

لــ

وأما المبتدأة المعلقة : فتنزل فيها بعرض القلم مائلا من يمينك إلىٰ يسارك ، وهى تختص بثلاثة أحرف من سائر الحروف وهى الجيم ، والحاء، والخاء؛ و يكون مبتدؤها يوازى قفا الجيم من غير زيادة ولا إشارة إلىٰ العراقة؛ وهذه صفتها :

مبتــــدأة معلقة

لحا

الصورة الرابعـــــة عشرة

(صـــورة الميم)

وهى علىٰ خمسة أضرب : محققة، ومعلقة، ومسبلة، ومبسوطة، ومفتولة .

الضرب الأوّل

المحققـة

وهى علىٰ نوعين : مبتدأة ، وغير مبتدأة

فأما المحققة المبتدأة : فإنهـا كثيرا ما تصحب اللام، وصفتها إذا أردت(١) وضعها أنك إذا صرت إلىٰ آخر الحرف الذى تريد منه الميم المحققة، تميل فيه يسيرا ثم ترجع بخط آخر بجواره طالعا فيه، ثم تعرّق كتعريق الميم المعلقة، وهذه صفتها .

مبتـــدأة محققة

ملـــ

وكان الشـيخ عمـاد الدين بن العفيف إذا ٱنتهىٰ من الحرف الذى قبل هـذه الميم، يقف فيه ثم يبدأ من يمينه براء مدغمة، وهذه صفتها .

محققـــة مختتمة

فم

وأما المحقّقة غير المبتدأة(٢): ... ...

(١) فى العبارة شىء يظهر للتأمل . (٢) سقط الكلام عليها من النسخة .

الضرب الثـانى

المعلَّقــة

وهى علىٰ نوعين، مبتدأة، وغير مبتدأة

فأما المعلقة المبتدأة : فإنها لاتحسن إلا مشَـعَّرة مع ما قبلها ، ولا تكون إلا قبل الألف؛ وهذه صفتها .

معلقة مبتـــدأة

وأما المعلقة غير المبتداة: فإنها تختص بالبسملة علىٰ مذهب الحُذَّاقِ.

وطريقها : أنك إذا مططت إلىٰ آخر المطة، رجعت بالميم فى الخط الذى جئت فيه، حتّىٰ إذا بلغت هامتهـا فارقت ذلك الخط لئلا تجىء منافرة ؛ فإذا وصلت إلىٰ جبهة الميم، عَرَّقتها علىٰ ما رسم فى الراء المجموعة والمقوّرة والمبسوطة والمخطوفة .

وكان الأستاذ أبو الحسن بن البوّاب لا يفردها؛ وهذه صفتها .

معلقـــة مختتمة

وأما المعلَّقة المبتدأة : فإنك تبدأ فيها كآبتداء المحققة ، فإذا بلغت فتلتها ألصقت مَدَّتها بقفاها، والأوْلىٰ أن تكون مطموسة، فاذا بلغت جبهتها عَرَّقت كتعريق الراء المُدْغَمة، لا يستعمل فيها غير ذلك، وهذه صفتها .

معلقة مبتـــدأة

الضرب الثـالث

المُسْـــبَلة

ولا بأس بتركيبهـا وآنفرادها، غير أنك إذا وصلت إلىٰ جبهتها أسـبلت عراقة كهيئة الألف مَلْأىٰ من فوقُ، وتكون حديدة الطرف، وهذه صفتها .

مفردة مسبلة

مركبـــة

الضرب الرابـــع

المبسوطة

وهى كالمحققة، وهى مفردة، وهذه صفتها .

مبســـوطة

الضرب الخامس

المفتــولة

وأكثر مواضعها بعد الهاء المدغمة علىٰ مذهب الحُذَّاق. وبعض الكتّاب يجيزها مع غير الهاء، والأوّل أجود .

وطريقها أنك إذا جئت بها بعد الهـاء المدغمـة تقوّس بصـدر القـلم ثم تنزل بقدر ما قوست، ثم تدير الميم عن يمينك وتردُّ إلىٰ يسارك شكلا مدورا، وتعرِّقها علىٰ ماتقدّم فى المعلقة والمحققة؛ وهذه صفتها .

مفتـــولة

الصورة الخامســـة عشرة

(صــورة النون)

وهى علىٰ ضربين : مفردة، ومركبة

الضرب الأوّل

المفــردة

وهى علىٰ اربعة أنواع : مجموعة، ومقوّرة، ومبسوطة، ومدغمة

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ بوجه القلم علىٰ خطٍّ مستقيم . فإذا نزلت منها بمقدار ماينزل من البـاء وبلغت الفتلة، أدرت القلم برفق من الفتلة بصـدر القلم،

ثم تصـير العراقة جمعا بصـدر القلم ، حتىّ إذا بلغت ذنبها ختمت بحرف القـلم ، وهذه صفتها .

مفردة مجموعة

وأما المقوّرة : فإنها تكون كنصف دائرة ، ويكون ذَنَبها موازيا لرأسها من غير زيادة عليه ، ويجوز أن يكون ناقصا عنه شيئا يسيرا ، وذلك قليل ، وهذه صفتها .

مفردة مقوّرة

وأما المبسوطة : فأكثر ماتكون متطرّفة ولا تكون مفردة بحال . وطريقها أنك إذا نزلت علىٰ ماوصف فى المجموعة وبلغت بها الفتلة وأدرت صدر القلم إلىٰ العراقة ، جعلتها قِطْعَةَ قَوْسٍ من دائرة عُظْمىٰ ، حتّى يكون فيها تبطين يسـير ، وتختمها بحرف القلم ، ولا يجوز فى شىء من مبسوطات العراقة أن يكون مرفوعا ، ولا يجوز أن يكون إلا حديد الطَّرَف ، وهذه صفتها :

مفردة مبسوطة

وأما المدغمة : فإنها لاتنفرد البَتَّةَ ، ولاتحسُن إلا مع ثلاثة أحرف ، مع الميم وهى كثيرة المؤاخاة لها ، ومع الكاف ومع العين .

وكان بعض الكُتَّاب يأبىٰ إدغام النون ويكرهه ، إلا الأستاذ أبا الحسن بن البوّاب .

ولا يتقدّم هـذه النونَ من سائر الحروف إلا ثلاثةُ أحرف : الميم المعلقة من سائر الميمات ، والعين الملوّزة : وهى الصاديَّة من أشكال العين خاصّة ، والكاف المشكولة من أشكال الكاف خاصّة .

وطريقها أنك إذا بلغت قفا الميم أو صدر العين أو قاعدة الكاف ، صببتَ النون صبًّا فى عَرْض اللام المبتـدأة المعلقة ، فاذا صببتَ ثلثيها ، ختمت العراقة علىٰ مارسم فى الراء المدغمة وعراقة الميم المدغمة ، وهذه صورها :

مدغمة مع الميم — مدغمة مع الكاف — مدغمة مع العين

مـں كں عں

الصورة السادسـة عشرةَ

(صـورة الهـاء)

وهى علىٰ ضربين : مفردةٍ ، ومركبةٍ

الضرب الأوّل

المفـردة

وهى علىٰ نوعين : معرّاة ، ومركبة

فأما المعرّاة : فطريقها أن تبدأ من رأسها بوجه القلم ثم تنزل إلىٰ عجزها مميلا إلىٰ ذات اليمين شيئا يسيرا ، ثم تفتل إلىٰ قاعدتها بصدر القـلم إلىٰ صدرها ، ثم تصعد بمثل ما كنت آنحدرت به من وجهها إلىٰ قفاها ، وهذه صفتها .

معـراة

ه

وأما المركبة : فهى فى الصورة قريبة من المُعَرّاة إلىٰ صدرها؛ فاذا بلغتَ صدرها وأنت طالع إلىٰ وجهها، رفعته بعرض القلم وأخرجت وجه الهاء إلىٰ قفاها؛ والكاتب مخير بين التقليل والتكثير فى ذلك. و يكون الطرف الخـارج إلىٰ قفاها محـدّدا؛ وهذه صفتها :

و إنمـا سميت مُرَكَّبة و إن كانت مفردة مجازا لتركيب طرفها وإلا فالمراد بالمركَّب كيفما وقع فى المصطلح المختلِطُ بغيره .

الضرب الثـانى

المركبـــة

وهى علىٰ قسمين

القســـم الأوّل

المشــقوقة

وهى علىٰ ستة أنواع : ملوّزة، ووجه الهر، ومشقوقة طولا، ومشقوقة عرضا، ومختَلَسة، ومدغَمَة .

فأما الملوّزة : فتكون مبتدأة، ومتوسـطة؛ ولا تتأخر بحـال . فإن كانت مبتدأة فطريقها أن تبدأ بصدر القلم مقدارَ نصف الهاء المفردة، ثم تدير القلم من يسارك إلىٰ يمينك حتّٰى إذا وصلت إلىٰ المكان الذى ٱبتـدأت منه أدرت إلىٰ يمينك أيضا حتّٰى يصير مركز نصف دائرة محققة لطيفة بصدر القلم، وتقف عليها وقفة خفيفة، ثم تنزل بوجه القلم من غير إدارة حتّٰى تصير إلىٰ المكان الذى ٱبتدأتَ منه أوّلا، فيصير رأس الهاء حادّا فى الغاية .

ومذهب الأستاذ أبي الحسن أن يكون النصف الأعلى أصغر من النصف الأسفل بجزء يسير ؛ وهذه صفتها .

مقـــورة

وإن كانت متوسطة : فهى غير مستحسنة إلا قبل الألف ، وطريقها على ما تقدّم ولها حكم : وهو أنك تجىء بالخط الذى قبلها حتّى يشقها متصلا بالألف ، حتّى لو طرحتَ الهاء لاتصل الألف بمـا قبله مستغنيا عن الهاء كأنما ركبت من فوقه تركيبا ، ويكون هذا العمل فى كل حرف يقع معها ؛ وهذه صفتها .

مقورة مســـتديرة

وأما وجه الهر : فتكون أيضا مبتدأة ، ومتوسطة ؛ ولا يجوز تأخيرها . وطريقها فى الابتداء والتوسط أنك تبدأ من رأسها بوجه القلم معتدل النزول شيئا قليلا ، ثم تردّها عن يمينك إلى يسارك صاعدة معتدلة ، ثم يصير جميعها دائرة على مركزين ، فإذا بلغت المكان الذى ابتدأت منه تكففتها طولا حذارا من أن يقع فيها حَوَلٌ ، وهو أن يكون أحد شقيها أوسعَ من الآخر . وكثيرا ما يكون شقها بحرف القلم إذا كانت متوسطة .

فإن كانت مبتدأة فشقها بوجه القلم .

وهذه صورتها فى الابتداء — وهذه صورتها فى التوسط

وجه الهـــر — وجه الهر متوسطة

هــــ — ـهـــا

وأما المشقوقة طولا : فإنها لاتكون إلا متوسطة ، ولا يجوز تقديمها ولا تأخيرها ، ولا تصــحب من حروف المعجم غير اللام وحدها ، وطريقها كطريق وجه الهر ، ويفترقان فى القاعدة فتكون قاعدتها مســتديرة ، وتكون اللام نازلة عليها من فوقها ، وعلامة صحتها أنك إذا حذفت الهاء صارت اللام متصلة بما بعـدها كأنما زيدت الهاء عليها ، وهذه صفتها .

مشـــــقوقة طولا

لهـ

وأما المشقوقة عرضا : فلا تكون إلا صحبة اللام أيضا ، وطريقها أنك إذا نزلت باللام معتدلة ، أدرت الهاء فأَصَقتها بوجه اللام وشققت الهاء عرضا ، ولا بدّ من مدّة لطيفة تكون بعدها ، وهذه صفتها .

مشـــــقوقة عرضا

لهـــ

وأما المختَلَسة: فإنها لا تكون إلا مبتدأة، ويكون بعدها من الحروف حروف المدّ واللين : وهى الألف، والواو، والياء؛ وهى مطموسة؛ وهذه صفتها .

مختلســـة

ى

وأما المدغمة: فلا تكون إلا متوسطة؛ وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها أدرت منه إدارة لطيفة ، ونزلت بها نزلة إلىٰ ذات اليمين، ثم صَعِدت فى خط يلاصق الخط الذى هبطت فيــه من غير وخز يكون بينهما؛ وتكون مطموسة أيضا ولا يكون أسفلها أوسع من أعلاها بل يكون أعلاها أوسع شيئا يسيرا؛ويتوخّى فيها الترطيب : وهو شــدّة الاستدارات، فمتىٰ كان العمل فيهـا يابسا كان رديئا؛ وهذه صورتها :

مدغمـــة

فها

القســـــــم الثـانى

ما يقع فى آخر الكلمة وهى علىٰ نوعين

هاء الرِّدْف، والمُخْفَاة

فأما هاء الردف : فطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها طَلّعْت فيـه بصدر القلم، ثم نزلتَ فى الخط الذى صعِدتَ فيه .

هذا مذهب الأستاذ أبى الحسن بن البوّاب .

ومذهب الوزير أبى علىّ بن مقلة أن تنزل فى خط يلاصق الخط الذى صَعِدت فيه ، وكلاهما مستحسن؛ فاذا بلغت ثلثى ماصعدت به جئت بصدر القلم إلىٰ وجه الهاء ولا تخرج رأسها إلىٰ قفاها البتة؛ وهذه صفتها :

مردوفـــة

ه ـاه

وأما المُخْفاة: فأكثر ماتصحب الحروفُ القِصار ، وهى يمين أليق؛ وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها أدرت منه إلىٰ الهـاء إدارة لطيفة مهلّلة، ثم تأتى بنصف راء مدغمة حديدة الطَّرَف مخطوفة؛ وهذه صفتها :

مخطـــوفة

ـه

الصورة السابعـــة عشرة

(صـــورة الواو)

ونظيرها فى التركيب الفاء، وفى الإفراد القاف، لكن القاف أكبر مساحة من الواو، وتكون علىٰ خمسة أنواع : مجموعة، ومبسوطة، ومقوّرة، وبتراء، ومخطوفة؛ ويكون ذلك فى الإفراد والتركيب .

وكان بعض الكُتَّاب يجعلها معلقة كالراء المدغمة لأنها قدرها . وقد تقدّم أن الراء والزاى، والميم، والواو قدر سواء فى كل خط .

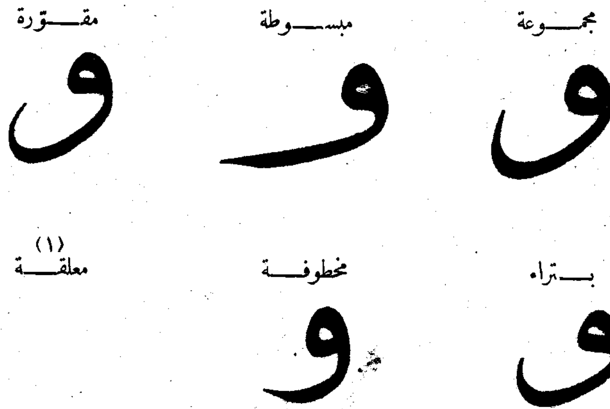

الصـــورة الثـامنة عشرة

(صورة اللام ألف)

ولها ثلاث صور : محققة، ومخففة، ووراقية

فأما المحققة : فلا تكون إلا مفـردة ولا يجوز تركيبها بحال ؛ وطريقها أن تبـدأ بوجه القلم ثم تنزل به علىٰ تلك الصورة، ثم تفتل إلىٰ قاعدتها بوجه القلم، ثم ترفع القلم

(١) لم يضع لهـا رسمـا فى الأصل .

وقد بَطَّنْتَ قلمك فصيرت بطنه ممـا يلى يمينك وظهره عن يسـارك، ويكون قدر الألف واللام قدرا سواء فى الطول والآلتواء والغلَظ والنَّحافة، ويكون ما بينهما كواحد منهما، وتكون القاعدة على هيئة رأس الفاء المبسوطة لكنها مقلوبة، وهذه صورتها :

محققة مفـــردة

وأما المخففة : فيجوز فيها التركيب والإفراد وكلاهما مستحْسَن جيد . وصورتها فى التركيب كصورتها فى الإفراد، وطريقها أن تأتى بلام معلَّقة على ماتقدّم فى اللام المعلقة فى حرف اللام، ثم ترمى عليها ألفا مُعْوَجَّةً إلى ذات اليمين ويكون ذنب الألف موزونا على الخط الذى لا مست به الحرف الذى قبل اللام إن كانت مركبة ؛ وهذه صفتها :

محففة مركبـــة

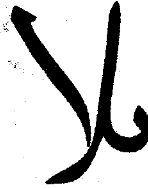

وإن لم تكن مركبة فتشعرهما معا، وهذه صورتها فى الإفراد :

وأما الوراقيـــة : فإنها كالمحققة ، فإذا كتبت اللام ركبت عليها الألف وأخرجتها عنها، ثم صيرت لها منها قاعدة مثلثة حادّة الزوايا، والأولى أن تكون مفردة .

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : ولا يكون هذا الشكل إلا فى قلم النسخ وما شاكله وفى قلم المحقق وماشابهه ؛ وهذه صفتها :

ورّاقية

لا

الصورة التاسعة عشرة

(صورة الياء)

وهى على ضربين : مفردة ، ومركبة

الضرب الأوّل

المفردة

وهى على ثلاثة أنواع : مجموعة ، ومقوّرة ، ومبسوطة

فأما المجموعة : فطريقها أن تبدأ بصدر القلم فتعمل رأسها دالا مقلوبة وصدرها أيضا دالا مستوية ، فإذا تركبت الدالان جررت العراقة ، وعلامة صحتها أن تكون الدالان صحيحتين كما تقدّم . وإذا ركبت خطا من ذنبها إلى صدرها ، صار صادا جيدة ؛ وهذه صفتها :

مفردة مجموعة

ى

وأما المقوّرة : فبـدؤها كبدء المجموعة، غير أنك إذا وصلت إلىٰ صدرها عرقت نصف دائرة، ويكون ذنبها يحاذى صدرها، وتكون حديدة الطرف، ولا يجوز فيها الوقف ولا الجمع، ويكون رأسها موزونا علىٰ صدرها، لا يجاوزها، سواء آنفردت أو تركبت، وهذه صورتها :

مقـــوّرة

وأما المبســوطة : فعلىٰ ما تقدّم فى المقوّرة، وتفارقها من الصدر فتكون العراقة قطعة قوس مهلّلة، وتكون حديدة الطرف ولايجوز فيها الوقف، وهذه صورتها :

مبســـوطة

الضرب الثـانى

المركبــة

وهى علىٰ ثلاثة أنواع : مبتدأة، ومتوسطة، ومتأخرة

فأما المبتدأة والمتوسطة : فحكمهما حكم الباء، والتاء، والنون، وماشابهها .

وأما المتأخرة : فعلىٰ ثلاث صور، محققة، وراجعة، ومعلقة .

فأما المحققة: فعلىٰ ماتقدّم أوّلا، غير أنك تحذف رأسها للتركيب؛ وهذه صورتها :

محققـــة

وأماالراجعة: فتختصّ ببعض الكلم دون بعض : كالفاء، واللام، وهى مع الفاء أكثر ٱستعمالا .

وطريقها أنك إذا فرغت من الحرف الذى قبلها بطنته شيئا يسيرا وجئت برأس كرأس الياء، ويكون فيها شىء من تبطين ، ثم تجرّ القلم إلىٰ ذات اليمين جرّة معتدلة فى التكييف، فاذا بلغت ثلاثة أرباعها أدرت القلم برفق، ولا تظهر الإدارة، ثم تمرّ وأنت مديرٌ لقلمك حتّى تختمها بحرف القلم فى نهاية الدقة والتحديد؛ وهذه صورتها :

راجعـــة

واما المعلقة : فتكون علىٰ صورة اللام المجموعة واللام المرسلة؛ وهذه صفتها :

معلقـــة

النــــــوع الثـانى

قلم الثلث الخفيف

ويقال فيه خفيف الثلث ،وهو الذى يكتب به فى قَطْع النصف ،وصُوَرُه كصُوَر الثلث الثقيل المتقـدّمة الذكر لاتختلف ، إلا أنه أدق منه قليلا وألطف مقادير منه بنزر يسير .

قال الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ : والفرق بينه و بين الثلث الثقيل أن الثقيــل تكون منتصباته ومبسوطاته قدر سَبْع نُقَط علىٰ ما فى قلمه ،علىٰ ماتقدّم ، والثلث الخفيف يكون مقدار ذلك منــه خمس نقط . فإن نقص عن ذلك قليلا ، سمى القلم اللؤلؤىّ .

القــــــلم الرابع

قــلم التوقيع

بإضافة قلم إلىٰ التوقيع ،سمى بذلك لأن الخلفاء والوزراء كانت توقع به علىٰ ظهور القِصَص ،ويقال فيه قلم التوقيعات علىٰ الجمع أيضا ،وقد يقال فيه التوقيع والتوقيعات بحذف المضاف إليه . ثم هو علىٰ نوعين .

النــــــوع الأوّل

قلم التوقيع المطلق

وهو الذى يكتب به فى قَطْع الثلث ،وقد تقدّم أن أوّل من آخترعه يوسفُ أخو إبراهيم الشجرىّ ،وأن ذا الرياستين : الفضلَ بن هارون أُعْجِب به ،وأمر أن تحرّر الكتابة السلطانية به دون غيره وسماه القلم الرياسىّ ، ولعله إنمـا سمى الرياسىّ لمـا تقدم من آختصاص الكتب السلطانيــة به أخذا من الرياسـة ؛ وقواعد حروفه وأوضـاعُه فى الأصل قواعد قلم الثلث إلا أنه يخالفه فى أمور .

أحدها — أن قَطَّته إلىٰ التدوير أميل، بخلاف الثلث فإن قَطَّته إلىٰ التحريف أميل. وذلك أن التوقيع آمتلاء حروفه علىٰ السواء بخلاف الثلث، فإن فيه تشعيرات تحتاج إلىٰ التحريف.

الثاني — أن حروفه إلىٰ التقوير أميل من الثلث، وإن كان فى الثلث ميل إلىٰ التقوير فإنه لا يبلغ فى ذلك مبلغ التوقيع.

قال لى الشيخ عبد الرحمن المُكَتِّبُ(١) الشهير بابن الصائغ: ويكون فى سطره تقوير مّا علىٰ نسبة تقوير حروفه.

قال الشيخ زين الدين شعبان فى ألفيته: وتكون منتصباته مروّسة كما فى الثلث.

قال لى الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ المُكَتِّبُ: ويجوز ترك الترويس فى بعض حروفه.

قال الشيخ زين الدين شعبان الآثارى: ويخيَّر فيه بين الطمس والفتح فى العين المتوسطة، والفاء، والقاف، والميم، والواو، وعقدة اللام ألف المحققة. وخص الشيخ زين الدين عبد الرحمن بن الصائغ طمس العين بالآخرة.

قال الشيخ زين الدين شعبان الآثارى: ويختص من الحروف الزائدة علىٰ الثلث، بالراء المقورة، والراء البتراء، والراء المخطوفة، والواو المقورة، والواو البتراء، والواو المخطوفة، والعين البتراء؛ وسيأتى ذكرها عند تشكيل الحروف فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ.

---

(١) قال فى الصحاح للجوهرى: والمُكْتِب الذى يعلم الكتابة، قال الحسن: كان الحجاج مُكْتِبا بالطائف يعنى معلما. وفى المصباح كتبت الغلام تكتيبا علمته الكتابة. [ففيه لغتان].

حرف الألف

مطـــلق   مشـــعر   محـــرّف   مركب

ا ا ا ا

البـاء

مجمـــوعة   موقـــوفة   مبســـوطة

ب ب ب

مدغمة مجموعة   مدغمة مبسوطة   مركبة مبتدأة . مركبة متوسطة

ب ب بلـ

مركبـــة موقوفة   مركبـــة مبسوطة

فب عب

الجيم

مرسلة — مسبلة — مجموعة

رتقاء مفردة مرسلة — رتقاء مقورة مسبلة — رتقاء مفردة مجموعة

مركبة مبتدأة ملوزة — رتقاء مبتدأة — مركبة متوسطة

مركبة مختتمة مرسلة — مركبة مسبلة — مجموعة

الدال

مفردة مجموعة — مختلســـة — مركبة مجموعة

د — د — عد

مركبة مختلسة — مركبة مخطوفة — مركبة مشعرة

عد — حد — هد

الراء

مقـــورة — مخطـــوفة — مفردة مبسوطة

ر — ر — ر

مفردة مدغمة — مركبة مبسوطة — مركبة مدغمة

ر — حر — عر

مفردة مجموعة — مركبة مجموعة

ر — صهر

السين

مخسوفة مجموعة مبسوطة

مبتدأة مركبة متوسطة مخسوفة

مطرفة مبسوطة مطرفة مجموعة مفردة معلقة

مركبة مطرفة معلقة مركبة متوسطة معلقة

الصـاد

مخســوقة مجمــوعة مبســوطة

ص ص ص

مبتــدأة متوســطة مطرفة مخسوفة

صا ـصـ ـص

مطرّفة مجمــوعة مطرفة مبســوطة

ـص ـص

الطـاء

مفــردة مرسلة مفــردة موقوفة مركبــة ملفوفة

ط ط طا

مبتدأة مبسوطة — طسم

متوسطة لقائمين — لطا

متوسطة لمبسوطين — سطـ

مطرفة موقوفة — وط

مطرفة مرسلة — وط

العين

مرسلة — ع

مسبلة — ع

مجموعة — ع

نعلية بينها منتصب — عا

نعلية بينها ماهو فى حكم المنتصب — عد

صادية بينها مبسوط — عسـ

صادية بينها ماهو فى حكم المبسوط — عم

مولفة مع الإفراد | مولفة مع التركيب | بـــتراء

———

الفاء

مجمـــوعة | موقـــوفة | مبســـوطة

مبتـــدأة | متوســـطة | متطرفة مجموعة

مطرفة موقوفة | مطرفة مبسوطة

———

القــاف

مفردة مجوعة — مخســـوفة — مبســـوطة

ق ق ق

مطرفة مجموعة — مطرفة مخسوفة — مطرفة مبسوطة

حق حق حق

الكاف

مجموعة مفردة — موقـــوفة — مبســـوطة

ل ل ل

مشكولة مبتدأة — متوســـطة — مبسوطة مبتدأة

كا مكلف كبا

متوســـطة　　مشكولة مبتدأة　　وســـطى

ملكه　كهف　هكد

مشكولة مركبة　مطرفة مجموعة　بزورقها　　منزول عليها　　مبســـوطة

اسك　عل　حل

اللام

مفـــردة　　يخرج منها نون على رأى ابن البوّاب　　يخرج منها قاف على طريقة ياقوت

ل　ل　ل

أو ياء على طريقة ابن العفيف　　مركبة مبتدأة　　وســـطى　　مطـــرفة

لى　لم　بلم　هل

الميم

مفردة مخطوفة مسبلة مبتدأة مشعرة

وسطى مقلوبة وسطى محققة مسبلة ملفوفة مسبلة ملوزة

النون

مفردة مجموعة مدغمة مختلسة وسطى

مركبة مطرفة مجموعة مدغمة مختلسة

الهـاء

مفردة مربعة | مفردة مثلثة | مركبة مبتدأة ملوزة

ه ه هد

وجه الهر | مدغمـــة | طالعـــة

هـ هما لها

مخطوفة | محدودبة | محققة | مردوفة

ه ه ه ه

الــــواو

مجموعة مشدودة   مبسوطة مشدودة   مجموعة مفتوحة   مبسوطة مفتوحة

و و و و

مقـــورة   مخلوفة منوّرة   بـــتراء

و و و

اللام الف

محققة مفردة   مرشوقة مفردة   مركبة محققة

لا لا حلا علا

اليـاء

مفردة مجموعة | مركبـــة | راجعـــة

ى ى ے

مبتدأة ثم وسطى | مركبة مجموعة | مركبة مبسوطة

ىں ى ى

مركبة راجعة | مركبة مخسوفة | مركبة مبسوطة

ے ى ى

القلم الخامس

من الأقلام المستعملة بديوان الإنشاء

قلم الرِّقَاع

بإضافة قلم إلى الرقاع ،والمعنى أنه يُكْتَبُ به فى الرِّقَاع جمع رُقْعَةٍ، والمراد الورقة الصغيرة التى تكتب فيها المكاتبات اللطيفة والقِصَص وما فى معناها ،وهو الذى يكتب به فى قَطْع العادة من المنصورى والقطع الصغير، وصُوَره فى الأصل كصُوَر حروف الثلث والرِّقَاع(١) فى الإفراد والتركيب إلا أنه يخالفه فى أمور :

أحدها ــ أن قلمه أميل إلى التدوير من قلم التوقيع الذى هو أميل إلى التدوير من قلم الثلث .

قال لى الشيخ عبد الرحمن بن الصائغ المُكَتِّبُ : وتكون جِلْفَةُ قلمه فى البِرَاية أقصر من الثلث والتوقيع .

الثانى ــ أن حروفه تكون أدقَّ وألطف من حروف التوقيع .

الثالث ــ أن الترويس لايقع فى منتصباته من الألف المفردة وأخواتها إلا فى القليل، بخلاف الثلث والتوقيع فإن الترويس فيهما لازم .

الرابع ــ أنه يغلب فيه الطمس فى العين المتوسطة والأخيرة، وكذلك الفاء، والقاف، والميم، والواو، وعقدة اللام ألف المحققة. أما الصاد والطاءُ والعين المفردة والمبتدأة فإنها لاتكون الا مفتوحة .

الخامس ــ أنه يوجد فيه من الحروف ما لا يوجد فى غيره كالألف الممالة إلى جهة اليمين على ماسيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى .

---

(١) لعل الصواب . والتوقيع .

وهــذه صورة حروفه إفرادا وتركيبا

الألف

طالــع	محــرّف	مشــمر	مطــلق
١	١	ل	ا

البــاء

مفردة موقوفة	مدغمة مبسوطة	مدغمة مفردة	مجمــوعة

مطرفة مبسوطة	مطرفة موقوفة	مبتدأة . وسطى . مطرفة

الجـــيم

مفردة مرسلة	مفردة مسبلة	مفردة مجموعة
ح	ح	ح
رتقاء مرسلة	رتقاء مجموعة	رتقاء مسبلة
ح	ح	ح
مبتـــدأة	وســـطى	وسطى مفتوحة
حسد	ـحـ	لحـ
مطرفة مرسلة	مطرفة مسبلة	مطرفة مجموعة
ح	ح	ح

الدال

مشـــعرة	مخطـــوفة	مختلســـة	مفردة مجموعة
هد	د	د	د

مخطـــوفة	مختلســـة	مركبة مجموعة
مد	عد	مد

الـــراء

بـــتراء	مخطـــوفة	مقـــورة	مجمـــوعة
ر	ر	ر	ر

مقطـــوفة	مدغمـــة	محققـــة
ر	ر	ر

السين

مجموعة معلقة مخسوفة

مبسوطة مبتدأة متوسطة

مطرفة مجموعة مبسوطة مخسوفة معلقة

الصـــاد

مجمـــوعة	مبســـوطة	مخســـوفة
ص	ص	ص

أولى مركبة	وسطى مركبة	مطرفة مجموعة
صل	صم	ص

مطرفة مبسوطة	مطرّفة مخسوفة
ص	ص

الطـــاء

مرســـلة	موقـــوفة	مبتـــدأة
ط	ط	طا
متوســـطة	مطرفة مرسلة	مطرفة موقوفة
حط	حط	عط

العين

مرســـلة	مســـبلة	مجمـــوعة
ع	ع	ع
مبتدأة نعلية	مبتدأة صادية	متوســـطة
عا	عـ	بعد
مطرفة مرسلة	مطرفة مسبلة	مطرفة مجموعة
مع	مع	مع

الفـــــاء

مجمـــوعة	موقـــوفة	مبســـوطة
ف	ف	ف
أولى مركبة	وســـطى	مطرفة مجموعة
فـ	مفد	مف
مطرفة موقوفة	مطرفة مبسوطة	
مف	مف	

القـــاف

مفردة مجموعة — مخســوفة — مبســوطة — مبتــدأة

متوســطة — مطرفة مجموعة — مطرفة مخسوفة — مبســوطة

الــكاف

مجمــوعة — موقــوفة — مبســوطة — أولى مشكولة

وسطى مشكولة — مركبة مجموعة

مركبة موقوفة — مركبة مقورة — أولىٰ مبسوطة

وسطىٰ مبسوطة — مشكولة موصولة — مشكولة مفصولة

اللام

مفردة مجموعة — موقـــوفة — مبســـوطة — مبتـــدأة

متوســـطة — مجموعة مركبة — مبســـوطة — موقـــوفة

الميم

مفردة معلقة	مخطـــوفة	مســـــبلة	مبتدأة مركبة
وسطى مركبة	مطارفة معلقة	مركبة مسبلة	مختتمة محققة

النون

مجمـــوعة	مدغمة مجموعة	مدغمة مبسوطة
مبســـوطة	مخســـوفة	أولى . وسطى
مجموعة مركبة	مبسوطة مركبة	مخسوفة مركبة

الهــــــاء

مربعـــة	مدوّرة	وجه الهر	مدغمـــة
ه	ه	هم	وهدا

مشقوقة عرضا	ملـــوّزة	مشقوقة طولا	محدودبة
حها	هلع	لها	مه

محققـــة	مختطفـــة	مختلســـة
وه	وه	وه

الــــواو

مجموعة مفردة	مبسوطة مفردة	مجموعة مركبة	مبسوطة مركبة
و	و	فو	عو

اللام ألف

محققة مفردة	مفـــردة	محققة مركبة	مرفـــلة
لا	لا	حلا	ولا

اليـاء

مجموعة مفردة	مخســـوفة	راجعــــة	مبتدأه ، وسطى
ى	ى	ے	ـبـ

مجموعة مركبة	مخسوفة مركبة	راجعة مركبة مختتمة
وى	وى	وے

القـــلم الســادس (١)

قــلم الغُبَــارِ

سمى بذلك لدقته، كأن النظر يضعُف عن رؤيته لدقتــه كما يضعُف عن رؤية الشيء عند ثَوَرَانِ الغُبَار وتغطيته له، وهو الذى يكتب به فى القطع الصغير من ورق الطير وغيره .

وبه تكتب بطائق الحمام التى تحمل علىٰ أجنحتها فى ورق الطير. وبعضهم يسميه قلم الجَنَاح لذلك، وهو قلم ضئيل مولَّد من الرقاع والنسخ، مفَتَّح العُقَدِ من غير ترويس فيه، وينبغى أن تكون قَطَّته مائلة إلىٰ التدوير لتفرّعه عن الرقاع والنسخ .

وهذه صورة حروفه إفرادا وتركيبا :

ا ب ر س د د ر ر س س ص ص ط ع ف ف و ك ل ل

ں ہ و و لا لا لا ى ى

بسم الله الرحمن الرحيم

كتب الامام على رضى الله عنه الى بعض عماله

لا توخر عمل اليوم لغد فتدارك عليك الاعمال

وان للناس سوء عن سلطانهم ونفرة اعوذ

بالله ان تدركنى واياكم ضغاين محمولة فى صدر طويل

---

(١) هو فى الحقيقة سابع لتكلمه علىٰ خفيف الثلث فيما سبق فى الكلام علىٰ قلم الثلث حيث قسمه الىٰ نوعين : ثقيل وخفيف . فلم يترك من الأقلام شيئا كما قد يتوهم .

وهذه الصورة المصطلح عليها الآن : (وقد أجازوا فيها الفتح والطمس جميعا)

بسم الله الرحمن الرحيم وبه ثقتي
قال الإمام أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه
المعروف قروض والأيام دول ومن توانى
عن نفسه ضاع ومن قاهر الحق قهر والسلام

الجمـــلة السابعـــــــة

(فى كتابة البسملة)

وبيان صورتها فى كل قلم من الأقلام المستعملة فى ديوان الإنشاء، وفيها مَهْيَعان

المَهْيع الأوّل

(فى ذكر قواعدَ جامعةٍ للبسملة فى جميع الأقلام، وتشتمل على ثمانِ قواعدَ)

الأولى ــ قد آتفق الكُتَّابُ على تطويل باء البسملة أكثرَ مما يطوّل به غيرها من الباءات التى فى أوّل الكلمة . وسيأتى فى الكلام على البسملة فى المقالة الثالثة أنها طوّلت بدلا من الألف المحذوفة بينها وبين السين لكثرة تكْرارها . وقد ذكر بعضُ المصنِّفين فى الخط أنها تكون بمقدار ثُلُثَىْ ألِف ذلك الخطّ .

وقد سبق القول على مقدار ألِف كلّ قلم فيما تقدّم، وهذا أصل يترتب عليه غيره .

الثانيــة ــ فى البسملة خمسُ أخوات متساويات فى الطول والآنتصاب، وهى : ألفُ الجـلالة، والألف واللام من الرحمن ، والألف واللام من الرحيم، فكلّها على مقدار واحد، وقد سبق .

الثالثة ـ فيها أربع أخوات متساويات فى الإرسال: وهى إرسالةُ الميم من بسم وإرسالة الراء من الرحمن، وإرسالة الراء من الرحيم، وإرسالة الميم من الرحيم .

الرابعة ـ فيها أربع أَخَوَات متساويات فى الضَّوْء : وهى الميم من بسم، والهاء من الجَلَالة، والميم من الرحمن، والميم من الرحيم .

الخامسة ـ فيها أختان متناسبتان فى المقدار : وهما الحاء من الرحمن ، والحـاء من الرحيم .

السادسة ـ أن لامات الجلالة تكون موازيةً من أعلاها للبـاء فى أول البسملة إلا أن اللام الثانية من لامات الجلالة تكون أخفضَ من اللام الأولىٰ بيسير .

قال ٱبن عبد السـلام فى الميزان : بحيث لايُدْرَك ذلك إلا بتأمل . والذى ذكره الشيخ زينُ الدين الآثارىّ أنها تكون ناقصة عنها بقدر نُقْطة (يعنى من نُقَط قلم كتابتها) وتكون الهـاء أخفض من اللام الثانيةِ مثل ذلك .

السابعة ـ أن يكون بين الباء والسين قدرُ رُبُعِ ألِفٍ من ألفـات ذلك الخط، وتكون أسنان السين منها محدّدةَ الأطراف، ويكون الأخذ من كل سِنٍّ من أسنان السـين من أعلاها آخذا فيها إلىٰ أسفل مع التساوى من الأعلىٰ وكذا من الأسفل، بحيث إنه إذا خُطَّ خطٌّ من أسـفل البـاء إلىٰ آخر السيـن لاصق بهما ووقع علىٰ الٱستقامة، ثم يأخذ فى مدّ السين من أعلىٰ السنة الأخيرة منها، وتكون أصابعه مقدّمة وكُلْوة يده مؤخَّرةً .

الثامنة ـ أن يكون البسط بين اللام الأولىٰ والثانية منخسفا لامستويا، وكذلك ما بين اللام الثانية والهـاء .

المهيع الثانى

(فى بيان صورة البسملة فى كل قلم من الأقلام التى تستعمل فى ديوان الإنشاء)

قد تقدّم أن الأقلام التى تستعمل فى ديوان الإنشاء مما يكتب به كُتّابُه ستةُ أقلام وهى : مختَصَرُ الطومار، وقلم الثلث الثقيل والخفيف ، وقلم التوقيعات، وقلم الرِّقاع، وقلم الغُبَار، إلا أن المحقَّق لا بسملةَ له فى ديوان الإنشاء : لأنه إنما يستعمل فى كتابة طغراة كتاب على ما تقدّم ذكره، ولا بَسملة للطغراة .

اللهم إلا أن يكتب مختصر الطُّومار على طريقة المحقَّق فتكتب البسملة فيه على طريقة المحقق، بخلاف قلم الغُبار فإنه يكتَبُ به فى المَلَطِّفات فيُحتاج إلى البسملة وإن لم يحتج إليها فى البطائق .

ولتعلم أن صورة البسملة فى هذه الأقلام تختلف ما بين صورة واحدة لكل قلم فأكثر . وقد ذكر صاحب العناية الربانية صُوَرا من ذلك : وأنا أوردها على الترتيب إن شاء الله تعالى .

فأما بسملة قلم مختصر الطومار، فقد تقدّم أن طريقته طريقة الطُّومار، وأن الطُّومار تارةً يُكْتَب على طريقة المحقَّق وهو الأكثر، وتارةً يُكْتَب على طريقة الثلث، وعليه عمل كُتّاب الإنشاء، وربما عملوا على طريقة المحقَّق ؛ وحينئذ فإن كان المكتوب على طريقة المحقَّق فبسملته على طريقة المحقق مع امتلاء قلمه على حَدِّ قلم مختصر الطومار على ما تقدّم بيانه .

وهـــذه صورة بســـملته

على طريقـــــة الثلث

وأما قلم الثلث الثقيل وقلم الثلث الخفيف فطريقهما واحدة لا خُلْفَ بينهما إلا فى رِقَّة القَلَم وغِلَظه علىٰ ماتقدّم بيانه فى الكلام علىٰ أصل الأقلام.

وللبسملة فيهما ثلاثُ صُوَر .

الصورة الأولىٰ ـ أن تكون الراء فى الرحمن وفى الرحيم محسوفةً؛ وهذه صورتها :

الصورة الثانية – أن تكون الراء فيها مجموعة والنون في الرحمن مجموعة ، وهذه صورتها :

الصورة الثالثـــة : أن تكون الراء فيهما مُدْغَمَة والنون فى الرحمن مُدْغَمَة ؛ وهذه صورتهـا :

بسم الله الرحمن الرحيم

وأما بسملة قَلم التوقيع فلها ثلاثُ صُوَر :

الصورة الأولىٰ ــ مختصرة من قلم الثُّلُث فتكون كهى ، إلا أنها أدقُّ قلما منها ؛ وهذه صورتهـا :

بسم الله الرحمن الرحيم

الصورة الثانية — أن تكون الحاء فيها فى الرحمن مقلوبة وفى الرحيم مُلَوَّزة ؛ وهذه صورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم

الصورة الثالثة — أن تكون الحاء فيها فى الرحمن والرحيم مقلوبة ؛ وهذه صورتها :

بسم الله الرحمن الرحيم

وأما بسملة قلم الرقاع ، فإن السين تكون فيها بالتدريج ، كل سنٍّ دون التى قبلها بيسـير ، والكاتب فيها مخير بين وصل أسنانها وفصلها فصلًا يسيرا . وقد آصطلحوا علىٰ أن تكتب الألفُ التى قبل الجلالة فيها متصلةً بميم بسم ، وتكون مثـل الألف والصاعد فى قَلَم الرِّقاع ، ثم يجعل لها ذَيْلٌ وتُوصَل بالجلالة ؛ ولهـا ثلاث صور .

الصورة الأولى ــ أن تكون الراء فيها مدغَمَة ، والحاء فى الرحمن والرحيم مقلوبة ؛ وهذه صورتها :

الصورة الثانية ــ أن تكون الراء فيها مدغَمة والحاء رتقاءَ ؛ وهذه صورتها :

الصورة الثالثة ــ أن توصل الألف بالجلالة من أعلاها ؛ وهذه صورتها :

وأما بسملة الغبار(١)

(١) لعله فلها صورة واحدة وهى هذه .

الجمـــلة الثـامنة

(في وجوه تجويد الكتابة وتحسينها، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(حسن التشـكيل)

قال الوزير أبو علىّ بن مُقْلة : وتحتـاج الحروف فى تصحيح أشكالهـا إلىٰ خمسة أشياء :

الأوّل ـ التوفيـة، وهى أن يُوَفَّىٰ كلُّ حرف من الحروف حَظَّه من الخُطُوط التى يركب منها : من مقوّس ومُنْحنٍ ومُنْسَطِح .

الثـانى ـ الإتمام، وهو أن يعطىٰ كلُّ حرف قِسمتَه من الأقدار التى يجب أن يكون عليها : من طُول أو قِصَر أو دِقَّة أو غِلَظ .

الثـالث ـ الإكمال ، وهو أن يؤتىٰ كلُّ خط حظَّه من الهيئات التى ينبغى أن يكون عليها : من ٱنتصاب، وتسطيح، وٱنكباب، واستلقاء، وتقويس .

الرابع ـ الإشباع، وهو أن يؤتىٰ كلُّ خط حظه من صَدْر القلم حتّى يتساوىٰ به فلا يكون بعض أجزائه أدقَّ من بعض ولا أغلظَ إلا فيما يجب أن يكون كذلك من أجزاء بعض الحروف من الدقة عن باقية مثل الألف والراء ونحوهما .

الخامس ـ الإرسال، وهو أن يُرْسِلَ يدَه بالقلم فى كل شكل يجرى بسُرْعة من غير ٱحتباس يُضَرِّسه ولا تَوَقُّف يرعشه .

الضرب الثـانى

(حسن الوضـــع)

قال الوزير : ويحتاج إلىٰ تصحيح أربعة أشياء .

الأوّل ـ الترصيف؛ وهو وصل كلّ حرف متصل إلىٰ حرف .

الثـانى ـ التأليف؛ وهو جمع كل حرف غير متصل إلىٰ غيره علىٰ أفضل ماينبغى ويحسن .

الثالث ـ التسطير؛ وهو إضافة الكلمة إلىٰ الكلمة حتّى تصير سـطرا منتظم الوضع كالمِسْطَرة .

الرابع ـ التنصيل؛ وهو مواقع المَدّات المستحسنة من الحروف المتصلة .

وٱعلم أن المَدّ فى الخط قديم، فقد حكىٰ أبو جعفر النحاس فى "صناعة الكتّاب": أن أهـلَ الأنبار كانوا يكتُبون المَشْق . وكأنه يريد أنهم كانوا علىٰ ذلك فى القديم، فقد تقدّم أن أوّل ما تعلّم أهلُ الحجاز الخَطّ من أهل الأنبار . علىٰ أن صاحب "موادّ البيان" قد حكىٰ أن جماعة من المحرّرين كانوا يكرهون المَشْق لإفساده خطّ المبتدئ ودلالته علىٰ تَهاوُن المنتهِى .

قال : ولذلك كرهوا كتابة البسملة بغير سـين مبيَّنة ثم صارت كراهة ذلك سُـنَّة وعُرْفا . والذى عليه حُذّاق المحررين ٱستعمال المدّ .

قال فى "موادّ البيان" وهذه المدّات تستعمل لأمرين: أحدهما أنها تحسِّن الخط وتفخِّمه فى مكان كما يُحَسِّن مَدُّ الصوت اللفظَ ويفخِّمه فى مكان . الثانى أنها ربمـا أوقعت ليتم السَّطْر إذا فضـل منه مالا يتَّسع لحرف آخر : لأن السطر ربمـا ضاق عن كلمتين وفَضَل عن كلمة فتمدّ التى وقعت فى آخر السطر لتقع الأخرىٰ فى أوّل السطر الذى يليه .

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : مواضع المدّ أواخر السطور ، وتُكْره إذا كانت سينا مدغمة .

قال فى "موادّ البيان" : فيجب على الكاتب أن يعرف أحكامها لئلّا يوقِعَها فى غير المواضع اللائقة بها فيشتبه الحرف بغيره ويفسُد المعنى ، مثل أن يوقع المدّ فى متعلم بين الميم والتاء فتشتبه بمستعلم ، أو يوقع المدّ فى متسلم بين الميم والتاء فتشتبه بمستسلم . ثم قال : وبالجملة فالكلمة الأصلية اسما كانت أو حرفا أو فعلا لا تخرج عن أربعة أصناف :

الصنف الأوّل

(الثنائية)

وهى إما أسماء مضاعفة أو أفعال أو حروف .

فالأسماء : نحو ندّ ، وضر ، وسِرّ ، وشَرّ ، وظِلّ ، وطَلّ ، وما أشبه ذلك .

والأفعال : نحو قُلْ ، وكُلْ ، وقُمْ ، وعُدْ ، ونَمْ ، وسِرْ ، ونحو ذلك .

والحروف : نحو هل ، وبل ، وقط ، وقد ، ومذ ، وعن ، ولو ، ولم ، ومِنْ ، وما ، وما يجرى مجرى ذلك .

فأما الأسماء والأفعال الثنائية فقد ذكر فى "موادّ البيان" : أنه لا يحسن المدّ فى شىء منها إلا فى سِرّ ، وشَرّ ، من الأسماء وسِرْ من الأفعال لأن السين أو الشين وإن كان كل منهما حرفا على حياله فى صورة ثلاثة أحرف .

قال : وقد يحسن فى نحو ظل ، وطَلّ ، فى بعض المواضع .

وأما الحروف الثنائية فقد ذكر فى "موادّ البيان" : أنه لا يَحسُن المدُّ فيها .

وحكىٰ صاحب "منهاج الإصابة" : أن بعض الكتّاب كان يمدّ فى أواخر السطور مثلَ ما، وهل، وعن . ثم حكى عن أبى القاسم بن خلوف : أن ذلك لايجوز فى عن فى أوّل السطر ولا فى آخره .

الصنف الثـانى

(الثلاثية)

قال فى "موادّ البيان": والمدّ فيها علىٰ الأكثر قبيح لأنها لاتنقسم بقسمين متساويين .

قال : ومنها ما يُسمَح فى مدّه للضرورة كما إذا وقع فى آخر سطر يحتاج إلىٰ التتميم فيُمَدُّ كبيع وقطع ونحوهمـا . وعلىٰ نحو من ذلك جرىٰ صاحب "مِنْهاج الإصابة" ثم قال : ويجوز أن تمدّ إذا كان ثالثها ألفا أو لاما .

وقال الشيخ عماد الدين بن العفيف : كان والدى يمدّ فى الكلمة الثلاثيَّة إذا كان أوّلَها الجيمُ وأختاها، والطاء، والسين، والعين .

قال فى "موادّ البيان" : وينبغى إذا مُدَّ أن يُقـدَّم الحرفان الأوّلان وتُوضَع المدّة بينهما وبين الثالث . أما عسىٰ، ومتىٰ، وفتىً، ونحوها فانها لاتحتمل المدّ بحال .

الصنف الثـالث

(الرباعية نحو محمد وجعفر)

قال أبو القاسم بن خلوف : والمدّ فيه جائز بل المدّ فيه أحسن من القصر .

قال فى "موادّ البيان": ولايجوز أن يقدّم منها ثلاثة أحرف ويوقع المدّة بينها وبين الحرف الرابع ولا بالعكس بل يوقع المدّ بين الحرفين الأوّلين والحرفين الآخِرين فقط .

قال : علىٰ أن منها مالا يحسُن المدّ فيه نحو تغلب، وخبير، ونمير .

الصنف الرابع
(الخُماسية)

نحو : مشتمِل ، ومستقِلّ ، ومسيطِر ، ومهيمِن .

وقد آختلف علماء الخط فيه على مذهبين : فذهب صاحب "موادّ البيان" إلى أن المدّ فيها لايحسُن ، فإنها لاتنقسم بقسمين متساويين كما فى الثُّلاثيّة ، وذهب أبو القاسم بن خلوف إلى أن المدّ فيها لازم ، لا يجوز تركه . ثم إذا مَدّ فالذى ذكره فى "موادّ البيان" أن الأحسن أن يُقدّم حرفين ويُوقِعَ المدَّ بينهما وبين الثلاثة الأحرف الأُخر .

أما ما كان زائدا على خمسة فقد ذكر صاحب "العناية الربّانية" أنه يُرجَع فيه إلى الأصول . ويعتبر من السُّداسيّ (١) فإنه مدّ فيما بعد السين من مسلمون وبعد التاء من معتبر .

قال فى "موادّ البيان" : ويصح المدُّ فيما جاء من الأسماء والأفعال والحروف موصولا بضمير كناية مثل ، كتبته ، وعلمته ، وفيه ، ومنه ، وعليه ، وإليه ، إذا وقعت المَدّةُ بين تمام الكلمة والضمير .

قال : ومَشْق السين يُحَسِّن الخطَّ فى بعض المواضع ، ويقبُح إذا وقعت طَرَفا نحو مَشْق السين من العباس والحوّاس ، وأقبحُ من ذلك مشقُها إذا كانت موصولة بحرف واحد يتقدّمها نحو يأنس ، وعانس ، وجالس ، وناعس . وإذا توالتْ سينان أو سين وشين ، فالأحسن أن يفصل بينهما فى الخط المحرّر بمَدّة لطيفة نحو مَسسْت وغَشَشْت ورَشَشْت .

---

(١) لعل الصواب من الثلاثى بالتاءين المثلثتين .

قال أبو القاسم بن خلوف : ومن الحروف مالا يحسُـن المدُّ بعده إذا كان مبتدأ وهو الباء وأختاها ،والياء ،والفاء ، والقاف ، واللام ؛ وأما الكاف المشكولة فإنه لايجوز مدُّ مابعدها فى ابتداءٍ ولا توسُّطٍ .

وقد ذكر الشيخ زين الدين شعبان الآثارىّ فى ألفيته حروفا يجوز مدُّها فى مواضع :

أحدها ـ الباء وأختاها ،فتمدّ إذا كان بعـدها دال مثل بَدْر ،أو راء مثـل بَرّ ، أو ميم مثـل تم ، أو هاء مثل بهز ؛ وأنه ربمـا مُدّت إذا كان بعدها لام مثل بل ، أو لام ألف مثل بلا .

الثانى ـ الجيم وأختاها ،فتمدّ إذا كان بعدها دال مثل حداد ،أو راء مثل حرير ، أو ميم مثل حم ،أو هاء مثل جهر .

الثالث ـ السين وأختها ، وتمدّ إذا كان بعـدها راء مثل سرّ ،أو ميم مثل سم ، أو هاء مثل سهم .

الرابع ،والخامس ـ الصاد وأختها ،والطاء وأختها ،فلا يجوز مدُّ[1] واحدٍ منها بحال .

السادس ـ العين وأختها ،فتمدّ إذا كان بعدها دال مثل عد ،أو راء مثل عر ، أو ميم مثل عم ،أو هاء مثل عهن .

السابع ،والثامن ، والتاسع ، والعاشر ، والحادى عشر ـ الفاء ، والقاف ، واللام ، والميم ، والهاء ؛ فحكمها حُكم العين وأختها فى جواز المدّ فيما تقدّم .

قال الشيـخ عماد الدين بن العفيف : ولا يجوز الجمع بين مدّتين فى كلمة واحدة و "على" تمدّ إذا كانت الياء معرّقةً ، فإن كانت راجعـة لم يجز المدُّ أصـلا : لأنه يجتمع فى كلمة ثُلاثيَّةٍ مدّتان .

قال فى "موادّ البيان" : ويقبُح أن تُمـدّ حرفين تُوالِى بينهما فى سطر واحد ، وأن تُوقِـعَ حرفين ممدودين فى سطرين : أعلىٰ وأسفل علىٰ تقابلٍ وتحاذٍ .

---

(١) الكلام فيما يجوز مده نا ثبات هذا القسم سهو عن المَقْسم .

قال السَّمَرْقَنْدِىّ : وإن كان فى آخر الكلمة ياء لم يجز المدّ قبل الياء . قال : ولذلك لا يجوز المدّ بعد السين فى ٱسم موسىٰ، ولا قبل السين فى ٱسم عيسىٰ (١) .

قال الآثارىّ : وأجاز بعضُهم مدَّ العين منه بخلاف السين .

قال ٱبن العفيف : ولا تُدْغَم الواو والنون بعد مدّ أصلا فى خفيفٍ ولا ثقيلٍ . قال : ولا يحسُن إدغامُ السين بعد الكاف المشكولة، ويجوز بعد اللام والميم .

قال فى "مواد البيان" : ويقبُح أن تكتب ياءان معطوفتان متقاربتان فى سطر واحد .

قال الشيخ عماد الدين بن الشيرازىّ : وإذا توالت العراقات وكان فيها الياء وجب أن تكون راجعة إلىٰ ذات اليمين .

قال ٱبن أبى رقيبة : سألت الشيخ عماد الدين بن العفيف : هل يكون ذلك فى كل قلم ؟ قال نعم ! إذا تمكّن الكاتبُ من وضعها إلا فى المحقَّق فإنه غير جائز .

قال السَّمَرْقَنْدِىّ : وإن أتتْ ياءان متقاربتان مثل قول القائل "لى صلى" رُدَّ ياء الأخرىٰ من الكلمتين دون الأُولىٰ، وإن شئت عَرَّقتهما جميعا، وهو ٱختيار الوزير ٱبن مقلة . قال : وتردّ الياءُ بعد الألف واللام مثل إلىٰ فى خفيف الأقلام دون ثقيلها علىٰ الأحسن .

قال الآثارىّ : وإذا توالت حروفٌ متشابهةٌ كتبت القصير منه مقدَّما علىٰ الطويل .

الصنف الخامس (٢)

(مراعاة فواصل الكلام)

قال فى "مواد البيان" : وذلك بأن تميز الفصول المشتمل كلُّ فصلٍ منها علىٰ نوع من الكلام عمَّا تقدّمه : لتُعْرف مَبادئُ الكلام ومَقاطعُه ؛ فإن الكلام ينقسم فُصُولا طِوالا

---

(١) كذا فى الضوء أيضا والمراد سواء ٱتصل المد بالياء أو كان قبله فى كلمته .

(٢) لم يترجم فى الضوء بخامس ، ولا بسادس ، وٱقتصر فى الترجمة علىٰ مابعدهما وهو المناسب .

وقِصارا ، فالطِّوال كتقسيم منثور المترسل إلىٰ رسائله ، ومنظوم الشاعر إلىٰ قصائده . ومثل هــذا لا يحتاج إلىٰ تفصيل : لأنه لا يشكل الحال فيه فى الرسالة أو القصيدة بغيرها ٱتصالا وٱنفصالا .

والفصول القصار كانقسام الرسالة إلىٰ الفصول ، والقصيدة إلىٰ الأبيات . ومثل هــذا قد يشكل ، فينبغى أن يُميَّز تمييزا يؤمَنُ معهُ من الٱختلاط ، فإن ترتيب الخط يفيد مايفيده ترتيبُ اللفظ . وذلك أن اللفظ إذا كان مرتَّبا تخلَّص بعضُ المعانى من بعض ، و إذا كان مُخَلَّطا أشكلت معانيه ، وتعذر علىٰ سامعه إدراك محصوله .

وكذلك الخط إذا كان متميز الفُصُول ، وصل معنىٰ كلِّ فصل منه إلىٰ النفْس علىٰ صورته ، و إذا كان متصلا دعا إلىٰ إعمال الفِكْر فى تخليص أغراضه .

وقد ٱختلفت طُرُق الكُتَّاب فى فصول الكلام الذى لم يُمَـيَّزْ بذكر باب أوفصل ونحوه . فالنُّسَّاخ يجعلون لذلك دائرة تفصِــل بين الكلامين ، وكُتَّابُ الرسائل يجعلون للفواصل بياضًا يكون بين الكلامين من سجع أو فصل كلام ، إلا أن بياض فَصْــل الكلامين يكون فى قدر رأس إبهام ، وفصل السجعتين يكون فى قدر رأسِ خِنْصر .

قال فى "موادّ البيان" : و ينبغى أن لا تكون الجملة فى آخر السطر والفاصلة فى أوّل السطر الذى يليه ، فإنه مُلْبِس لٱتصال الكلام ، بل لا يجعل فى أوّل السطر بياضا أصلا لأنه يقبح بذلك لخروجه عن نسبة السطور ، ولا أن يُفْسِح بين السطر والذى يليه إفْسَاحًا زائدا عما بين كل سطرين ، ولكن يُراعِى ذلك من أوّل شروعه فى كتابة السطر فيقدّر الخط بالجمع والمشق حتّى يخلُص من هذا العيب .

الصنف السادس

(حسن التدبير فى قطع الكلام ووصله فى أواخر السطور وأوائلها)

لأن السطور فى المنْظَر كالفصول ، فاذا قطع السطر علىٰ شىء يتعلّق بما بعده كان قبيحا ، كما إذا كتب بعض حروف الكلمة فى آخر السطر وبعضها فى أوّل السطر الذى يليه .

ثم للفصل المستقبَح فى آخِر السطر وأول الذى يليه صنفان :

الصنف الأوّل

(فصلُ بعض حروف الكلمة الواحدة عن بعض ، وتفريقها فى السطر والذى يليه)

مثل أن تقع معه لفظة "كتاب" فى آخر السطر ، فيكتب الكافَ والتاءَ والألف فى آخر السطر والباءَ فى أوّل السطر الذى يليه ، أو يقع فى آخر السطر لفظُ "مسرور" فيكتب الميمَ والسينَ والراءَ فيه والواوَ والراءَ الثانيةَ فى أوّل السطر الذى يليه ونحو ذلك .

قال فى "موادّ البيان" : وهو قبيح جدًّا لأنه لا يجوز فصل الأسم عن بعضه .

قال : وأكثر ما يوجد ذلك فى مصاحف العامّة وخطوط الورّاقين ، والحامل لهم علىٰ ذلك فى الغالب هو ضيق آخر السطر عن الكلمة بكمالها ، ومن هنا ٱحتاج الكاتب إلىٰ النظر فى ذلك بالجمع والمشق من حين شُروعه فى كتابة أوّل السطر علىٰ ماتقدّم .

قال صاحب "منهاج الإصابة" : وإنما وقع مثل ذلك فى المصاحف التى كتبت فى زمن أمير المؤمنين : عثمان بن عفان رضى الله عنه لأنها كتبت بقلم جليل مبسوطٍ ، فربما وقع فى بعض الأماكن اللفظة فيقطعها فى آخر السطر ويجعل باقِيهاَ فى السطر الثانى .

وعلىٰ ذلك حمل ما رُوِى أن عثمان رضى الله عنـه . قال : "إنَّ فى المُصْحَف لَحْناً ستُقِيمُه العربُ بألْسِنَتِها" إذ لا جائز أن يكون ذلك لَحْنا فى اللفظ فقد أجمع الصحابةُ رضوانُ الله عليهم علىٰ أن مابين دَفَّتَى المصحَف قُرْءانٌ، ومحالٌ أن يجتمعوا علىٰ لحن. علىٰ أن هذه الروايةَ غيرُ مشهورة عن عثمان رضى الله عنه كما أشار إلىٰ ذلك الشاطبىّ بقوله فى الرائية :

ومَنْ رَوىٰ ستُقِيمُ العُرْبُ ألسُنَها * لَحْنًـا بِهِ قولَ عثمانٍ فمـا شُهِرا

الصنف الثـانى

(فصـــل الكلمة التامة وصلتها)

مثل انـ يكتب "وصلَ كتابُك وأيَّدك الله" مُفَصَّلات، فيكتب "وصل" فى آخر السطر و"كتابك" فى أوّل الذى يليـه، أو يكتب "أيَّدك" فى آخر سطر وآسم "الله" تعالىٰ فى أوّل الذى يليه، وما جرىٰ مجرىٰ ذلك .

قال فى "موادّ البيان" : والأحسن تجنُّبه إذا أمكن، فإن لم يمكن فيتجنَّبُ القبيحُ منه، وهو الفصل بين المضاف والمضاف إليه : كعبد الله وغلام زيد وما أشبه ذلك : لأنَّ المضـاف والمضاف إليـه بمنزلة الآسم الواحد، والفصـلُ بين الآسم وما يتلوه فى النسب : كقولك زيدُ بنُ محمد، فلا يجوز أن يُفْصَل بين الآسم والمنسوب إليـه كما لا يجوز أن يفصَل بين المضاف والمضاف إليه . قال : فإن كان المراد بلفظة آبن تثبيت البنوّة كقولك لزيد آبنٌ جاز قطع الآبن عما تقدّمه . وكأنه إنما آمتنع ذلك لأن لزيد لا يستقل بنفسه فلا يدخله لبس بخلاف غلام زيد ونحوه . ثم قال : ومما يقبُح فصلُه الفصْلُ بين كل آسمين جُعلا آسمـا واحدا نحو حضرموت، وتأبط شرًّا، وذى يَزَن، وأحدَ عشر .

قلت : وباب الخط وأقلامه وحسن تدبيره متسع لا يسع آستيفاؤه .

الفصل الثالث

من الباب الثانى من المقالة الأولى

(فى لواحق الخط ،وفيه مقصدان)

المقصد الأوّل

(فى النقط ، وفيه أربع جمل)

الجملة الأولى

(فى مسيس الحاجة إليه)

قال محمد بن عمر المدائنىّ : ينبغى للكاتب أن يُعْجِم كتابَهُ ، ويبيِّن إعرابه ، فإنه متىٰ أعراه عن الضبط ، وأخلاه عن الشكل والنقط ، كثر فيه التصحيف ، وغلب عليه التحريف . وأخرج بسنده إلىٰ آبن عباس رضى الله عنه أنه قال "لكُلِّ شىءٍ نُورٌ ، ونُورُ الكتاب العَجْمُ" . وعن الأوزاعىّ نحوه .

وقال أبو مالك الحَضْرمِىُّ : أىُّ قلم لم تُعجَم فُصُوله ، آستعْجَمَ مَحْصُولُه . ومن كلام بعضهم "الخُطُوط المُعْجَمة ، كالبُرُود المُعْلَمة" .

ثم قد تقدّم فى الكلام علىٰ عدد الحروف أن حروف المعجم تسعةٌ وعشرون حرفا ، وقد وُضعتْ أشكالُها علىٰ تسعةَ عشرَ شكلا . فمنها مايشترَك فى الصُّورة الواحدة منه الحرفان : كالدال والذال ، والراء والزاى ، والسين والشين . ومنها ما يشترك فى الصورة الواحدة منه الثلاثةُ : كالباء والتاء والثاء ، والجيم والحاء والخاء . ومنها ماينفرد بصورة واحدة كالألف . ومنها ما لايلتبس حالةَ الإفراد ، فإذا رُكِّب ووُصِل بغيره آلتبس : كالنون والقاف ، فإن النون فى حالة الإفراد منفردةٌ بصورة ،

فإذا رُكِّبت مع غيرها فى أوّل كلمة أو وَسَطها، ٱشتبهت بالبـاء وما فى معناها؛ والقاف إذا كانت منفردة لا تلتبس، فإذا وصلت بغـيرها أوّلا أو وسـطا ٱلتبست بالفـاء، فاحتيج إلىٰ مميز يُمَيِّز بعض الحُروف من بعض : من نقط أو إهمـال ليزول اللَّبْس، ويذهبَ الاشتراكُ .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : ولذلك ينبغى أن القاف والنون إذا كتبا فى حالة الإفراد علىٰ صُورتهما الخاصَّة بهما لا يُنْقطان، لأنه لاشبه بيَنْهُما ولا يُشْبِهان غيرهما، فيكونان إذ ذاك كالكاف واللام . قال : ومنع بعضُ مشايخنا الاشـتراكَ فى صورة الحروف . وقال : الصورةُ والنقطُ مجموعُهما دالٌّ علىٰ كل الحرف ؛

إذا تقرَّر ذلك فالنقط مطلوب عند خوف اللَّبْس، لأنه إنمـا وُضِع لذلك؛ أما مع أمن اللَّبْس فالأَوْلىٰ تركُه لئلا يُظْلِم الخَطُّ من غير فائدة .

فقد حكى أنه عُرِض علىٰ عبدالله بن طاهر خطُّ بعضِ الكُتَّاب فقال ما أحسَنَه! لولا أنه أكثَرَ شُونيزَه .

وقد حكىٰ محمد بن عمر المـدائنى أن جعفرا المتوكل كتب إلىٰ بعض عُمَّـاله أن أحْصِ مَنْ قِبَلَك من المدنيِّين وعَرِّفنا بمبلغ عددهم، فوقع علىٰ الحاء نقطة فجمع العاملُ مَنْ كان فى عمله منهم وخَصَاهم فماتُوا غير رجلين أو واحد .

وقد حكىٰ المدائنى عن بعض الأدباء أنه قال : كثرةُ النَّقْط فى الكِتَاب سُوء ظنٍّ بالمكتوب إليه .

أما كُتَّاب الأموال فإنهم لا يَرَوْن النقط بحال؛ بل تعاطيه عندهم عيبٌ فى الكتابة .

الجملة الثانية
(فى ذكر أوّل من وضع النقط)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ وضع الحروف العربية أن أوّل مَنْ وضع الحُروفَ العربية ثلاثةُ رجال من قبيلة بَوْلان علىٰ أحد الأقوال . وهم : مُرارُ بنُ مُرَّة (١)، وأسلَمُ آبنُ سِدْرة ، وعامر بنُ جَدَرَة ، وأن مرارا (١) وضع الصُّوَر ، وأسلَمَ فصلَ ووصل ، وعامرا وضع الإعجام . وقضية هذا أن الإعجام موضوع مع وضع الحروف .

وقد روى أن أوّل من نَقَط المصاحفَ ووضع العربيةَ أبو الأسود الدُّؤلىّ من تلقين أمير المؤمنين : "علىّ كرم الله وجهه". فإن أريد بالنقط فى ذلك الإعجام ، فيحتمل أن يكون ذلك آبتداء لوضع الإعجام ، والظاهر ما تقدّم ؛ إذ يبعُد أن الحروف قبل ذلك مع تشابه صورها كانت عَرِيَّةً عن النقط إلىٰ حينِ نَقْط المصحف .

وقد روى أنَّ الصحابة رضوانُ الله عليهم جَرَّدوا المصحفَ من كل شيءٍ حتّى من النقط والشكل . علىٰ أنه يحتمل أن يكون المرادُ بالنقط الذى وضعه أبو الأسودِ الشكلَ علىٰ ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الثالثة
(فى بيان صورة النقط ، وكيفية وضعه)

قال الوزير أبو علىّ بن مقلة رحمه الله : وللنَّقْط صورتان : إحداهما شكلٌ مربَّع والأُخرىٰ شكل مستدير .

قال : وإذا كانت نقطتان علىٰ حرف ، فإن شئت جعلت واحدة فوقَ أُخْرىٰ ، وإن شئت جعلتَهما فى سطرٍ معًا ، وإذا كان بجوار ذلك الحرف حرفٌ يُنْقَط لم يجز أن يكون النَّقْط إذا آتسعت إلا واحدةً فوق أُخرىٰ ، والعلة فى ذلك أن النُّقَط إذا كُنَّ

---

(١) تقدّم التنبيه عليه .

فى سطر خرجْنَ عن حروفهن فوقع اللَّبْس فى الأشكال، فإذا جعل بعضُها علىٰ بعض كان علىٰ كل حرف قِسْطه من النُّقَط فزال الإشكال .

قلت : وإذا كان علىٰ الحـرف ثلاث نُقَط ، فإن كانت ثاء جعلت واحدة فوق آثنتين، وإن كانت شينا فبعضُ الكُتَّاب ينقطه كذلك ، وبعضهم ينقطه ثلاث نقط سطرا، وذلك لسعة حرف الشين بخلاف الثاء المثلثة .

أما السين إذا نقطت من أسفلها فإنهم ينقُطُونها ثلاثةً سطرا واحدًا .

الجملة الرابعـــة

(فيما يختصُّ بكل حرف من النقط وما لا نَقْطَ له)

قد تقـدّم أنَّ حروفَ الْمُعْجَم ثمانية وعشرون حرفًا سوىٰ اللام ألف، وان ذلك علىٰ عَدَد منازل القَمَر الثمانيةِ والعشرين، وأن المنازل أبدًا منهـا أربعةَ عشرَ فوق الأرض، وأربعــةَ عشرَ تحتَ الأرض، ثم إنه لا بُدَّ أن يَبْقىٰ مما فوقَ الأرض منزلةٌ مختفيةٌ تحتَ الشَّـفَق، فكانت الحروف المنقوطةُ خمســةَ عَشَر حرفا بعدَد المنـازل المختفِيَة : وهى الأربعةَ عَشَر التى تحت الأرض، والواحدةُ التى تحت الشُّعاع، إشارةً إلىٰ أنها تحتاج إلىٰ الإظهار لآختفائها : وهى الباء، والتاء ، والثاء، والجيم، والخاء، والذال، والزاى، والشين، والضاد، والظاء، والغين، والفاء، والقاف، والنون، والياء، آخر الحروف .

وكانت الحروف العاطلةُ ثلاثةَ عَشَر بعــدد المنازل الظاهرة : وهى الألفُ، والحاء، والدال، والراء، والسين، والصاد، والطاء، والعين، والـكاف، واللام، والميم، والهاء، والواو .

فأمّا الألف فإنها لا تُنْقَط لانفرادها بصورةٍ واحدة، إذ ليس فى الحروف مايُشْبِهها فى حالتى الإفراد والتركيب .

وأما الباء فإنها تُنْقَط من أسفلُ لتخالِف التاءَ المثناة من فوقُ، والثاءَ المثلثةَ فى حالتى الإفراد والتركيب، والياء المثناة من تحتُ، والنون فى حالة التركيب ٱبتداءً أو وسَطا ونُقِطت من أسفلُ لِئلّا تلتبس بالنون حالة التركيب .

وأما التاء فإنها تُنْقَط بٱثنتين من فوقُ لتخالف ما قبلها وما بعدها من الصورتين فى حالة الإفراد وتخالفهما مع الياء والنون حالة التركيب ٱبتداءً أو وسَطا .

وأما الثاء فإنها تُنْقَط بثلاثٍ من فوقُ لتخالفَ ماقبلها من الصورتين فى الإفراد وتخالفَهُما مع النون والياء أيضا فى التركيب ٱبتداء أو وَسَطا .

وأما الجيم فإنها تنقط بواحدة من تحت لتخالفَ الصورتين بعدها .

وأما الحاء فإنها لا تُنْقَط، ويكون الإهمال لها علامةً، وحُذّاق الكُتّاب يجعلون لها علامة غير النقط : وهى حاء صغيرةٌ مكان النُّقْطة من الجيم .

وأما الخاء فإنها تُنْقَط بواحدةٍ من أعلاها لتخالِفَ ماقبلها : من الجيم والحاء .

وأما الدال فإنها لا تُنقَطُ ولا تعلَّم، ويكون تركُ العلامة لها علامةً .

وأما الذال فتُنقَط بواحدة من فوقُ فَرْقا بينها وبين أختها .

وأما الراء فإنها لاتنقَط ولا تعَلَّم، ويكون الإهمال لها علامةً .

وأما الزاى فإنها تنقَط بواحدةٍ من فوقُ فَرْقا بينها وبين الراء .

وأما السين فإنها لا تُنْقَط، وتكون علامتُها الإهمالَ كغيرها، وبعض الكُتّاب ينقطها بثلاث نقطٍ من أسفلها .

وأما الشين فإنها تُنقَط بثلاث من فوقُ فَرْقا بينها و بين أختها، فإن كانت مدغمة فلا بدّ من جَرَّة فوقها؛ ثم إن كانت محقَّقة فاللائق التأسيس بنقطتين وجعل نقط ثالث من أعلاهما، وان كانت مدغَمة فالأولىٰ جعلُ الثلاث نقط سطرا واحدا .

وأما الصاد فإنها لا تنقط؛ نعم حُذَّاق الكُتَّاب يجعلون لها علامة كالحاء، وهى صاد صغيرة تحتها .

وأما الضاد فإنها تنقَطُ بواحدة من أعلاها فَرْقا بينها و بين أختها .

وأما الطاء فإنها لا تُنْقَط لكن لها علامةٌ كالصاد والحاء، وهى طاء صغيرة تحتها .

وأما الظاء فإنها تنقَط بواحدة من فوقها فَرْقا بينها و بين أختها .

وأما العين فإنها لاتُنْقط، ولها علامة كالحاء، والصاد، والطاء، وهى عين صغيرة فى بطنها .

وأما الغين فإنها تنقَطُ بواحدة فَرْقا بينها وبين أختها .

وأما الفـاء فمذهب أهل الشرق أنها تنقط بواحدة من أعلاها، ومذهب أهل الغرب أنها تنقط بواحدة من أسفلها .

وأما القاف فلا خلافَ بين أهل الخط أنها تنقَطُ من أعلاها إلا أنَّ مَنْ نقَطَ الفاء بواحدة من أعلاها نقط القاف بآثنتين من أعلاها ليحصل الفرق بينهما، ومَنْ نقط الفاء من أسفلها نقط القاف بواحدة من أعلاها .

وقد تقدّم من كلام الشيخ أثير الدين أبى حيان رحمه الله عن بعض مشايخه : أنَّ القاف إذا كتبت علىٰ صورتها الخاصة بها ينبغى أن لا تُنْقط إذ لا شبه بينهما (١) وذلك فى حالتى الإفراد والتطرّف أخيرا .

(١) أى بين القاف والفاء .

وأما الكاف فإنها لا تنقط، إلا أنها إذا كانت مشكولة عُلِّمت بشكلة، وإن كانت معراة رسم عليها كاف صغيرة مبسوطة لأنها ربما ٱلتَبَسَتْ باللام .

وأما اللام فإنها لا تُنْقَط ولا تعَلَّم، وتركُ العلامة لها علامةٌ .

وأما الميم فإنها لاتنقط ولا تعلَم أيضا لٱنفرادها بصورة .

وأما النون فإنها تنقط بواحدة من أعلاها، وكان ينبغى ٱختصاصُ النقط بحالة التركيب ٱبتداءً أو وَسَطا لٱلتباسها حينئذ بالباء، والتاء، والثاء أوائل الحروف، والياء آخر الحروف؛ بخلاف حالة الإفراد والتطرُّف فى التركيب أخيرا فإنها تختص بصورة فلا تلتبس كما أشار إليه الشيخ أثير الدين أبوحيان رحمه الله، إلا أنها غلبت فيها حالة التركيب فروعيت .

وأما الهاءُ فإنها لاتنقط بجميع أشكالها، وإن كثرت: لأنه ليس فى أشكالها مايلتبس بغيره من الحروف .

وأما الواو فإنها لا تنقَط وإن كانت فى حالة التركيب تقاربُ الفاء، وفى حالة الإفراد تقارب القاف : لأن الفاء لاتشابهها كلَّ المشابهة، ولأن القاف أكبرُ مساحةً منها .

وأما اللام ألف فإنها لاتنقط لٱنفرادها بصورة لايشابهها غيرها .

وأما الياء فإنها تنقط بنقطتين من أسفلها، وإن كانت فى حالة الإفراد والتطرُّف فى التركيب لها صورة تخصُّها : لأنها فى حالة التركيب فى الٱبتداء والتوسط تشابهُ الباء، والتاء، والثاء، والنون، فيحتاج إلىٰ بيانها بالنقط لتغليب حالة التركيب علىٰ حالة الإفراد كما فى النون، وربما نقطها بعض الكُتَّاب فى حالة الإفراد بنقطتين فى بطنها والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

المقصـــــد الثـانى
(فى الشكل، وفيـــه خمس جمـــل)

الجملة الأولىٰ
(فى آشـــتقاقه ومعنـاه)

قال بعض أهل اللغة : هو مأخوذ من شَكْلِ الدابة ، لأن الحروف تُضبَط بقيد فلا يلتبِس إعرابها كما تُضْبط الدابَّة بالشِّكال فيمنعها من الهُروب . قال أبو تمام :

تَرىٰ الأَمْرَ مَعْجُوماً إذا كان مُعْجَماً * لَدَيْه ومَشْكُولا إذا كانَ مَشْكُولَا

الجملة الثانيـــة
(فى أوّل من وضع الشَّـــكْل)

وقد آختلفت الرواية فى ذلك علىٰ ثلاث مقالات، فذهب بعضُهم إلىٰ أن المبتدئ بذلك أبو الأسود الدؤلىُّ : وذلك أنه أراد أن يعمل كتابا فى العربيَّـة يقوِّم النـاسُ به مافسد من كلامهم : إذ كان ذلك قد فَشَا فى الناس .

فقال : أرىٰ أن أبتدئ بإعراب القرءان أوّلا ، فأحضر من يُمْسك المصحفَ، وأحضر صِبْغا يخالف لون المِدَاد . وقال للذى يمسك المصحف عليه : إذا فتحتُ فاىَ فاجعل نقطةً فوق الحرف، وإذا كسرتُ فاىَ فآجعل نقطة تحتَ الحرف، وإذا ضممتُ فاىَ فاجعل نقطةً أمام الحرف، فإن أتبعت شيئا من هذه الحركات غُنَّـة (يعنى تنوينا) فاجعل نقطتين . ففعل ذلك حتّٰى أتىٰ علىٰ آخر المصحف .

وذهب آخرون : إلىٰ أن المبتـدئ بذلك نصر بن عاصم الليثىّ ، وأنه الذى خَمَّسها وعَشَّرَها .

وذهب آخرون : إلىٰ أن المبتدئ بذلك يحيىٰ بن يَعْمَر .

قال الشيخ أبو عمرو الدانىّ رحمه الله : وهؤلاء الثلاثة من جِلَّة تابعى البصريين .

وأكثر العلماء علىٰ أن أبا الأسود جعل الحركات والتنوين لاغير . وأن الخليل ٱبن أحمد هو الذى جعل الهمزة والتشديد عن(١) الروم والإشمام .

الجملة الثالثة

(فى الترغيب فى الشكل والترهيب عنه)

وقد ٱختلفت مقاصد الكُتَّاب فى ذلك ، فذهب بعضهم إلىٰ الرغبة فيه ، والحث عليه : لما فيه من البيان والضَّبْط والتقييد .

قال هشام بن عبد الملك : أَشْكُلوا قرائن الآداب ، لئلا تَنِدَّ عن الصواب .

وقال علىّ بن منصور : حَلُّوا غرائِب الكَلِم بالتقييد ، وحَصِّنوها عن شُبَه التصحيف والتحريف .

ويقال : إعجام الكُتُب يمنع من ٱستعجامها ، وشَكْلُها يصونُها عن إشكالها ، ولله القائل :

وكأنَّ أحْرُفَ خطِّه شَجَرٌ * والشَّكْلُ فى أغْصانِهِ ثَمَرُ

وذهب بعضهم إلىٰ كراهته ، والرغبة عنه .

قال سعيد بن حميد الكاتب : لَأَنْ يُشْكِل الحرفُ علىٰ القارئ أحبُّ إلىّ من أن يُعَابَ الكاتبُ بالشكل . ونظر محمد بن عَبَّاد إلىٰ أبى عُبَيْد وهو يقيِّد البسملةَ فقال : لو عرَفْتَه ما شكلتَه . وقد جَرَّد الصحابةُ رضوان الله عليهم المصحفَ حين جمعوا القرءان من النقط والشكل وهو أجدر بهما ، فلو كان مطلوبا لما جرّدوه منه .

(١) كذا فى الأصل .

قال الشيخ أبو عمرو الدانىّ : وقد وردَتِ الكراهةُ بنقط المصاحف عن عبد الله آبن عمر، وقال بذلك جماعة من التابعين .

وآعلم أن كُتَّاب الدَّيْونة لا يعرِّجون علىٰ النقط والشـكل بحال، وكُتَّاب الإنشـاء منهم مَـنْ منع ذلك محاشاة للمكتوب إليه عن نسبته للجهل بأنه لايقرأ إلا ما نُقِط أو شُكِل ، ومنهم مَنْ ندب إليه : للضبط والتقييد كما تقدّم .

والحق التفريق فى ذلك بين مايقَع فيـه اللَّبْس ويتطرّق إليه التحريف لغلاقته أو غرابته وبين ماتسُهل قراءتُه لوضوحه وسهولته .

وقد رخَّص فى نَقْط المصاحف بالإعراب جماعة : منهم ربيعة بن عبد الرحمن، وآبن وهب . وصرح أصحابنـا الشافعيةُ رضى الله عنهم بأنه يُنْدب نقطُ المصحف وشكْلُه ؛ أما تجريد الصحابة رضوان الله عليهم له من ذلك فذلك حين آبتداءِ جمعه حتّى لايُدْخلوا بين دفتى المصحف شيئا سوىٰ القرءان، ولذلك كرهه مَنْ كرهه .

وأما أهـل التوقيع فى زماننـا فإنهم يَرْغَبون عنه خشية الإظلام بالنَّقْط والشَّكْل إلا ما فيه إلباس علىٰ ماهر؛ وأهل الدَّيْونة لايرون بشىء من ذلك أصلا ويَعُـدّون ذلك من عيوب الكتابة وإن دعت الحاجة إليه؛والله سبحانه وتعالى أعلم .

الجملة الرابعـــــة

(فيما ينشأ عنـه الشكل ويترتَّبُ عليـه)

وآعلم أن الشكل جارٍ مع الإعراب كيفما جرىٰ، فينقسم إلىٰ السُّكون (وهو الجزم)، وإلىٰ الفتح (وهو النصب)، وإلىٰ الضم (وهو الرفع)، وإلىٰ الجرّ (وهو الخفض) .

أما السـكون فلأنه الأصـل . وأما الحركات الثلاث فقـد قيـل إنها مشاكلة للحركات الطبيعيـة : فالرفع مشاكل لحركة الفَلَك لآرتفاعها، والجرّ مشاكل لحركة

الأرض والماء لانخفاضها، والنصب مشاكل لحركة النار والهواء لتوسطها؛ ومن ثَمَّ لم يكن فى اللغة العربيــة أكثرُ من ثلاثة أحرف بعدها ساكن إلا ما كان معدولا . فسبحان من أتقن ما صنع ! .

ثم الذى عليه أكثر النُّحَاة أن الحركات الثلاثَ مأخوذة من حروف المدّ واللين وهى الألف، والواو، والياء، ٱعتمادا علىٰ أن الحروف قبل الحركات والثانىَ مأخوذ من الأول . فالفتحة مأخوذة من الألف إذ الفتحة علامة النصب فى قولك : رأيت زيدا، ولَقِيتُ عمرا، وضربت بكرا؛ والألف علامة النصب فى الأسماء المعتلّة(١) المضافة كقولك : رأيت أباك، وأكرمت أخاك؛ ويكون إطلاقا للرَّوِىِّ المنصوب كقولك : المذهبا، وأنت تريد المذهب، فلما أشبعت الفتحة نشأت عنها الألف؛ والكسرة مأخوذة من الياء لأنها أختها ومن مخرجها، والكسرة علامة الخفض فى قولك مررت بزيد، وأخذت عن زيد حديثا، والياء علامة الخفض أيضا فى الأسماء المعتلّة(١) المضافة كقولك : مررت بأبيك وأخيك وذى مال؛ والضمة من الواو لأنها من مخرجها : من الشَّفَتَيْنِ، وهى علامة الرفع فى قولك : جاءنى زيد، وقام عمرو، وخرج بكر، والواو علامة الرفع فى الأسماء المعتلّة(١) المضافة كقولك : جاءنى أخوك وأبوك وذو مال .

وذهب بعض النُّحَاةِ إلىٰ أن هذه الحروفَ مأخوذة من الحركات الثلاث، الألف من الفتحة، والواو من الضمة، والياء من الكسرة ٱعتمادا علىٰ أن الحركات قبل الحروف، بدليـل أن هذه الحروف تحدُث عند هذه الحركات إذا أُشْبعت، وأن العرب قد ٱستغنت فى بعض كلامها بهـذه الحركات عن هـذه الحروف ٱكتفاء بالأصل عن الفرع : لدلالة الأصل علىٰ فرعه .

(١) أى الأسماء الخمسة أو الستة علىٰ الخلاف .

وذهب آخرون إلىٰ أن الحـروف ليست مأخوذةً من الحركات ، ولا الحركات مأخوذة من الحروف ، آعتمادا علىٰ أن أحدهما لم يسبق الآخر ، وصححه بعض النُّحَاةِ .

الجمـــلة الخامســـة

(فى صور الشكل ومَحَالّ وضعه علىٰ طريقة المتقدّمين والمتأخرين)

وآعلم أن المتقدّمين ... [1] ... فى غالب الصور إلىٰ النقط بلون يخالف لون الكتابة .

وقال الشيخ أبو عمرو الدانىّ رحمه الله : وأرىٰ أن أستعمل النقط لونين ، الحمرة والصُّـفْرَة ، فتكون الحمرة للحركات ، والتنوين ، والتشـديد ، والتخفيف ، والسكون ، والوصل ، والمدّ ، وتكون الصفرة للهمزة خاصة .

قال : وعلىٰ ذلك مَصَاحف أهل المدينة . ثم قال : وإن آسـتعملت الخضرة للآبتـداء بألفات الوصـل علىٰ ما أحدثه أهلُ بلدنا ، فلا أرىٰ بذلك بأسا . قال : ولا أستجيز النَّقْطَ بالسواد لمـا فيه من التغيير لصورة الرسم . وقد وردت الكراهة لذلك عن عبد الله بن مسعود وعن غيره من علماء الأمة .

وأما المتأخرون فقد أحدثوا لذلك صُوَرًا مختلفة الأشكال لمناسبة تخص كل شكل منها ، ومن أجل آختلاف صُوَرِها وتبايُنِ أشكالها رَخَّصوا فى رسمها بالسواد .

ويتعلق بالمقصود من ذلك سبع صور .

الأُولى

(علامة السكون)

والمتقدّمون يجعلون علامة ذلك جرّةً بالحُمْـرَةِ فوق الحرف ، سواء كان الحرف المسكّن همزة كما فى قولك : لم يَشَأْ ، أو غيرها من الحروف كالذال من قولك : آذْهبْ .

---

(١) لعل المراد يميلون فى شكل غالب إلخ . وفى الضوء كانوا يجعلون الشكل نقطا إلخ .

أما المتأخرون، فإنهم رسموا لها دائرة تشبه الميم إشارة إلىٰ الجزم إذ الميم آخر حرف من الجزم، وحذفوا عراقة الميم ٱستخفافا، وسَمَّوْا تلك الدائرة جزمة، أخذا من الجزم الذى هو لقب السكون، ويحتمل أن يكونوا أَتَوْا بتلك الدائرة علىٰ صورة الصِّفر فى حساب الهنود ونحوهم إشارة إلىٰ خلوّ تلك المرتبة من الأعداد لأن الصفر هو الخالى، ومنه قولهم : "صِفْر اليَدَيْن" بمعنىٰ أنه فقير ليس فى يديه شىء من المال.

وحُذَّاق الكُتَّاب يجعلونها جيما لطيفة بغير عراقة إشارة إلىٰ الجزم .

الثانيـــــة

(علامة الفتح)

أما المتقدّمون فإنهم يجعلون علامة الفتح نُقْطَةً بالحمرة فوق الحرف . فإن أُتْبعت حركة الفتح تنوينا، جعلت نقطتين، إحداهما للحركة، والأخرىٰ للتنوين .

والمتأخرون يجعلون علامتها ألفا مضطجعة . لما تقدّم من أن الألف علامة الفتح فى الأسماء المعتلة ورسموها بأعلىٰ الحرف موافقة للتقدّمين فى ذلك، وسَمَّوْا تلك الألف المضطجعة نَصْبة أخذا من النصب، ويجعلون حالة التنوين خطّين مضطجعتين من فوقه كما جعل المتقدّمون لذلك نقطتين، وعبروا عن الخطتين بنصبتين .

قال الشيخ عماد الدّين بن العفيف رحمه الله : ويكون بينهما بقدرِ واحدة منهما.

الثـالثــــــة

(علامة الضم)

أما المتقـدّمون فإنهم يجعلون علامة الضمة نقطة بالحُمْرة وسطَ الحرف أوأمامه، فإن لحق حركةَ الضم تنوينٌ، رسموا لذلك نقطتين : إحداهما للحركة، والأخرىٰ للتنوين علىٰ ما تقدّم فى الفتح .

وأما المتأخرون فإنهم يجعلون علامة الضمة واوا صغيرة : لما تقدّم أن الواو من علامة الرفع فى الأسماء المعتلة، وسَمَّوْها رفعة لذلك، ورسموها بأعلىٰ الحرف ولم يجعلوها فى وسطه كيلا تَشِينَ الحرف، بخلاف المتقدّمين لمخالفة اللون ولطافة النقطة . فإن لحق حركةَ الضم تنوينٌ رسموا لذلك واوا صغيرة بخَطَّة بعدها : الواوُ إشارة للضم، والخَطَّة إشارة للتنوين ، وعبروا عنهما برفعتَين . و بعضهم يجعل عوض الخطة واوا أخرىٰ مردودة الآخر علىٰ رأس الأولىٰ .

الرابعـــة

(علامة الكسر)

والمتقدّمون يجعلون علامة الجرّة نقطة بالحُمْرَة تحت الحرف . فإن لحق حركةَ الكسر تنوين رسموا لذلك نقطتين .

والمتأخرون جعلوا علامة الكسر شَظِيَّةً من أسفل الحرف إشارة إلىٰ الياء التى هى علامة الجرّ فى الأسماء المعتلة علىٰ ما مر، وسَمَّوْا تلك الشَّظِيَّةَ خَفْضَةً، أخذًا من الخفض الذى هو لقب الكسر، ولم يخالفوا بينها و بين علامة النصب لاختلاف محلهما . فإن لحق حركةَ الكسر تنوينٌ رسموا له خطتين من أسفله : إحداهما للحركة، والأخرىٰ للتنوين .

الخامســـة

(علامة التشديد)

والمتقدّمون اختلفوا : فمذهب أهل المدينة أنهم يرسُمون علامة التشديد علىٰ هذه الصورة ((١)) ولا يجعلون معها علامات الإعراب بل يجعلون علامة الشدّ مع الفتح فوق الحرف، ومع الكسر تحت الحرف، ومع الضم أمام الحرف .

---

(١) بياض فى الأصل والضوء .

قال الشيخ أبو عمرو الدانيّ رحمه الله : وعليه عامة أهل بلدنا . قال : ومنهم من يجعل مع ذلك نقطةً علامة للإعراب، وهو عندى حَسَن .

وعامَّة أهل الشرق على أنهم يرسُمُون علامة التشـديد صورة شين من غير عراقة على هذه الصورة (ّ) كأنهم يريدون أوّل شديد، ويجعلون تلك العلامة فوق الحرف أبدا ويُعْرِبونه بالحركات . فإن كان مفتوحا جعلوا مع الشـدّة نقطة فوق الحـرف علامة الفتح، وإن كان مضموما جعلوا مع الشدّة نقطة أمام الحرف علامة الضم، وإن كان مكسورا، جعلوا مع الشدّة نقطةً تحت الحرف علامة الكسر . وعلى هذا المذهب ٱستقرّ رأىُ المتأخرين أيضا، غير أنهم يجعلون بدل النقط الدالة على الإعراب علامات الإعراب التى ٱصطلحوا عليها من النصـبة، والرفعة، والخفضة . فيجعلون النصـبة والرفعة بأعلى الشدّة، ويجعلون الخفضة بأسفل الحرف الذى عليه الشدّة . وبعضهم يجعلها أسفل الشـدّة من فوق الحـرف . ولا فرق فى ذلك بين أن يكون المشدّد من كلمة واحدة أو من كلمتين كالإدغام من كلمتين .

السـادسـة

(علامة الهمزة)

والمتقدّمون يجعلونها نقطة صـفراء ليخالفوا بها نقط الإعراب كما تقدّم فى كلامِ الشيخ أبى عمرو الدانىّ رحمه الله : ويرسُمُونها فوق الحرف أبدا، إلا أنهم يأتون معها بنقط الإعراب الدالة على السكون والحركات الثلاث بالحُمْرَةِ على ماتقـدّم . وسواء فى ذلك كانت صورة الهمزة واوا أو ياء أو ألفا، إذ حق الهمزة أن تلزم مكانا واحدا من السطر : لأنها حرف من حروف المعجم . والمتأخرون يجعلونها عينا بلا عراقة، وذلك لقرب مخرج الهمزة من العين، ولأنها تمتحن بها كما سيأتى .

ثم إن كانت الهمزة مصوّرة بصورة حرف من الحروف : فإن كانت الهمزة ساكنة، جعلت الهمزة من أعلىٰ الحرف مع جزمة بأعلاها . و إن كانت مفتوحة، جعلت بأعلىٰ الحرف أيضا مع نصبة بأعلاها . و إن كانت مضمومة، جعلت بأعلىٰ الحرف مع رفعة بأعلاها . و إن كانت مكسورة، جعلت بأسفل الحرف مع خفضة بأسفلها . وربما جعلت بأعلىٰ الحرف والخفضة بأسفله .

وقد آختلف القـدماء من النحويين فى أىّ الطَّرَفين من اللام ألف هى الهمزة . فحكى عن الخليل بن أحمد رحمـه الله أنه قال : الطَّرَف الأوّل هو الهمزة، والطَّرَف الثانى هو اللام .

قال الشيخ أبو عمرو الدانىّ رحمه الله : و إلىٰ هذا ذهب عامةّ أهل النقط، وآستدلوا علىٰ صحة ذلك بأن رسم هـذه الكلمة كانت أوّلا لاما مبسوطة فى طرفها ألف علىٰ هـذه الصورة "لـــا" كنحو رسم ماأشبه ذلك مماهو علىٰ حرفين من سائر حروف المعجم مثل "يا، وها" وما أشبههما إلا أنه آستثقل رسم ذلك كذلك فى اللام ألف خاصةً لآعتدال طرفيه لمشابهة كتابة الأعاجم فحسن رسمه بالتضفير فضم أحد الطرفين إلىٰ الآخر فأيهما ضم إلىٰ صاحبه كانت الهمزة أُولىٰ ضرورةً . وتعتبر حقيقة ذلك بأن يُؤخَذ شىء من خيط ونحوه فيُضَفَّر و يخرج كل واحد من الطرفين إلىٰ جهة، ثم يقام الطرفان فيتبين من الوجهين أن الأوّل هو الثانى فى الأصل، وأن الثـانِىَ هو الأوّل لامحالة فى التضفير .

وأيضا فقـد آتفق أهل صناعة الخط من الكُتَّاب القدماء وغيرهم علىٰ أنه يُرسَم الطَّرَف الأيسر قبل الطَّرَف الأيمن، ولايخالف ذلك إلا من جهل صناعة الرسم إذ هو بمنزلة من آبتدأ برسم الألف قبل الميم فى "ما" وشبهه مما هو علىٰ حرفين، فثبت بذلك

أن الطرف الأوّل هو الهمزة، وأن الطرف الثانى هو اللام : إذ الأوّل فى أصل القاعدة هو الثانى، والثانى هو الأوّل على مامرّ، وإنما آختلف طرفاها من أجل التضفير.

وخالف الأخفش: فزعم أن الطرف الأول هو اللام، والطرف الثانى هو الهمزة، وآستشهد لذلك بأن ما تُلفظ به أوّلا هو المرسوم أوّلا وماتُلفِّظ به آخرا هو المرسوم آخرا، ونحن إذا قرأنا لأنت ولأنه ونحوهما لفظنا باللام أوّلا ثم بالهمزة بعدها. ونازعه فى ذلك الشيخ أبو عمرو الدانىّ . والحق أن ذلك يختلف باختلاف اللام ألف على مارتبه متأخرو الكُتّاب الآن . ففى المضفورة على ماتقدّم، وفى المصوّرة بهذه الصورة "لا" بالعكس .

وإن كانت الهمزة غير مصوّرة بحرف من الحروف كالهمزة فى جزء وخَبْءٍ، جعلت العلامة فى محل الهمزة من الكلمة مع علامة الإعراب: من سكون، وفتح، وضم، وكسر . فإن عرض للهمزة مع حركة من الحركات الثلاث تنوينٌ، جعل مع الهمزة علامة التنوين: من نصبتين أو رفعتَين أو خفضتين على مامرّ فى غير الهمزة.

قال الشيخ أبو عمرو الدانىّ رحمه الله : وتمتحن الهمزة فى موضعها من الكلام بالعين ، فحيث وقعت العين وقعت الهمزة مكانها، وسواء كانت متحركة أو ساكنة لحقها التنوين أو لم يلحقها، فتقول فى آمنوا عامنوا، وفى وءاتى المال وعاتى المال، وفى مستهزئين مستهزعين، وفى خاسئين خاسعين، وفى مبرّءون مبرعون، وفى متكئون متكعون، وفى ماء ماع، وفى سوء سوع، وفى أولياء أولياع، وفى تَنُوء تنوع، وفى لَتَنُوء لتنوع، وفى أن تبوّءا أن تبوّعا، وفى تَبُوء تبوع، وفى مِنْ شاطِئِ من شاطع، وكذلك ما أشبهه حيث وقع فالقياس فيه مطّرد.

السابعـــــة

(علامة الصلة فى ألفـات الوصل)

أما المتقدّمون فإنهم رسموا لهـا جرّة بالحمرة فى سائر أحوالها ، وجعلوا محلها تابعا للحركة التى قبل ألف الوصل . فإن وليها فتحة كما فى قوله تعالىٰ : ”تَتَّقُونَ الَّذِى“ جعلت الصلة جرّة حمراء علىٰ رأس الألف علىٰ هذه الصورة (آ) وإن وليها كسرة كما فى قوله تعالىٰ : ”رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ“ جعلت الصلة جرّة حمراء تحت الألف علىٰ هذه الصورة (ا) وإن وليها ضمـة كما فى قوله تعالىٰ : ” نَسْتَعِينُ ٱهْدِنَا “ جعلت الصـلة جرّة حمراء فى وسطها علىٰ هذه الصورة(+) . فإن لحق شيئا من الحركات التنوينُ جعلت الصلة أبدا تحت الألف ، لأن التنوين مكسور للساكنين ما لم يأت بعـد الساكن الواقع بعد ألف الوصل ضمّةٌ لازمة نحو قوله تعالىٰ : ” فَتِيلًا ٱنْظُرْ “ و ” عُيُونٍ ٱدْخُلُوهَا “ . قال بعضهم بضم التنوين فتجعل الجرّة علىٰ ذلك فى وسط الألف .

وأما المتأخرون [فإنهم رسموا لذلك صادًا[1] لطيفـة إشارة إلى الوصل] وجعلوها بأعلىٰ الحرف دائمـا ولم يُراعُوا فى ذلك الحركاتِ ، آكتفاءً باللفظ .

تنبيـــــــه

قد تقدم فى ... ...[2] الأول من الهجاء أن اللفظ قد يتعين فى الهجاء إلىٰ الزيادة والنقصان ، ولاشَكَّ أن الشكل يتغير بتغير ذلك ، ونحن نذكر من ذلك مايختص بالهجاء العرفىّ دون الرسمىّ بآعتبار الزيادة والنقص .

---

(١) ما بين الدائرتين بيض له فى الأصل وأخذناه عن ”ضوء الصبح“ .

(٢) بيـاض فى الأصل .

أما الزيادة، فمثل أُولئك،وأُولُو، وأُولات ونحوها .

قال الشيخ أبو عمرو الدانىّ : وسبيلك أن تجعل علامة الهمزة نقطة بالصُّفْرَةِ فى وسط ألف أولئك وأولو وأولات، وتجعلَ نقطةً بالحُمْرَةِ أمامها فى السطر لتدل علىٰ الضمة . قال : و إن شئت جعلتها فى الواو الزائدة : لأنها صورتها ، وهو قول عامّة أهل النقط . هذه طريقة المتقدّمين .

أما المتأخرون : فإنهم يجعلون علامة الهمزة علىٰ الواو وهو مخالف لما تقدّم من ٱعتبار الهمزة بالعين فإنها لو ٱمتحنت بالعين،لكان لفظها عولئك وكذلك البواقى .

وأما النقص فمثل النبـئينَ إذا كتبت بياء واحدة، وهـؤلاء، و ياءادم إذا كتبتا بحذف الألف بعد الهاء فى هؤلاء والألف الثانية فى ياءادم فترسم علامة الهمزة من النقطة الصفراء وحركتها علىٰ رأْى المتقدّمين، وصورة العين علىٰ رأى المتأخرين قبل الياء الثانية فى النبيين . وتجعل ذلك علىٰ الألف الثانية فى يا آدم لأنها صورتها وعلىٰ الواو فى هؤلاء لأنها صورتها .

و وراء ماتقدّم من الشكل أمور تتعلق بالإدغام،والإظهار،والإخفاء،والإقلاب، والمدّ وغيرها : من متعلقات القراءة ليس هذا موضع ذكرها والله أعلم .

(فائدة)

قال الشيخ عماد الدين بن العفيف رحمه الله : ولابدّ من تناسب الشكل والنقط وتناسب البياضات فى ذلك للحروف .

الفصل الرابع

من الباب الثانى من المقالة الأُولىٰ

(فى الهجاء، وفيه مقصدان)

المقصد الأوّل

(فى مصطلحه الخاصّ، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(المصـــطلح الرسمىّ)

وهو ما آصــطلح عليه الصحابة رضوان الله عليهم فى كتابة المصحف عنـد جمع القرءان الكريم، علىٰ ما كتبه زيد بن ثابت رضى الله عنه، ويسمّىٰ الاصطلاح السَّلَفى أيضا، ونحن نورد منه ما جرّ إليه الكلام أو وافق المصطلح العرفىّ .

الضرب الثانى

(المصـــطلح العَرُوضِىّ)

وهو ما آصطلح عليه أهل العَرُوضِ فى تقطيع الشعر، وآعتمادهم فى ذلك علىٰ مايقع فى السمع دون المعنىٰ، إذ المعتدّ به فى صنعة العَرُوض إنما هو اللفظ: لأنهم يريدون به عدد الحروف التى يقوم بها الوزن متحرّكا وساكنا فيكتبون التنوين نونا، ولا يُراعون حذفها فى الوقف، ويكتبون الحرف المدغم بحرفين، ويحذِفُون اللام وغيره ممـا يدغم فى الحرف الذى بعده: كالرحمٰن والذاهب والضارب، ويعتمدون فى الحروف علىٰ أجزاء التفعيل، فقد تنقطع الكلمة بحسب مايقع من تبيين الأجزاء كما فى قول الشاعر :

سَتُبْدِى لَكَ الأَيَّامُ مَا كُنْتَ جَاهِلًا * وَيَأْتِيكَ بِالأَخْبَارِ مَنْ لَمْ تُزَوِّدِ .

فيكتبونه على هذه الصورة :

سَتُبْدِى ، لَكَا لأَيْيَا ، مُمَا كُنْ ، تَجَاهِلَنْ * وَيَأْتِى ، كَبِالأَخْبَا ، رِمَلَّمْ ، تُزَوِّدِى .

المقصد الثانى

(فى المصطلح العام)

وهو ما آصطلح عليه الكُتّاب فى غير هذين الآصطلاحين ، وهو المقصود من الباب، وفيه جملتان :

الجملة الأُولى

(فى الإفراد، والحذف، والإثبات، والإبدال، وفيه مُدْرَكان)

المُدْرَك الأَوّل

(فى بيان الأصل المعتمد فى ذلك، وما يكتب على الأصل)

وآعلم أن الأصل فى الكتابة مطابقة المنطوق المفهومَ، وقد يزيدون فى وزن الكلمة [ما ليس فى وزنها(١) ليفصلوا بالزيادة بينه وبين المشبِه له ، وينقصون من الكلمة] عمّا هو فى وزنها آستخفافا وآستغناء بما أبقى عما آنتقص إذا كان فيه دليل على مايحذفون : كما أن العرب تسرف فى الكلمة بالزيادة والنقصان، ويحذفون ما لا يتم الكلام فى الحقيقة إلا به آستخفافا وإيجازا إذا عَرَف المخاطَب مايقصدون .

قال آبن قتيبة : ورُبّما تركوا الآشتباه على حاله ، ولم يفصلوا بين المتشابهين وآكتفَوْا بما يدل عليه من متقدّم أو متأخر: كقولك للرجل الواحد : يغزوا ، وللآثنين

---

(١) سقطت هذه الجملة من الأصل ووجدناها " فى أدب الكاتب " و " فى ضوء الصبح " فأثبتناها لانها مرادة له وليستقيم الكلام .

لن يَغْزُوَا وللجميع لن يَغْزُوا بالواو والألف فى الجميع من غير تفريق بين الواحد والاثنين والجمع، و بَقُوه علىٰ أصله .

إذا علمت ذلك، فالمكتوب علىٰ المصطَلَح المعروف هو علىٰ قسمين .

القســم الأوّل

(ماله صورة تخصُّه من الحروف، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما هو علىٰ أصــله المعتبر فيــه فى ذوات الحروف وعددها بتقدير الابتداء بها والوقوف عليها، سواء بقِيَ لفظه علىٰ حاله أم انقلب النطق به إلىٰ حرفٍ آخر)

فيكتب لفظ "اِمَّحَىٰ" بغير نون بعــد الألف، وإن كان أصــله انمحىٰ علىٰ وزن انفــعل من المحو : لأن الإدغام من كلمــة واحدة؛ بخلاف ما إذا كان الإدغام من كلمتين، فيكتب لفظ "مِنْ مالٍ" بنون فى مِنْ منفصلةً من ميم مَالٍ و إن كانت النون الساكنة تدغم فى الميم .

و يكتب لفظ خَنْقٍ مصدر خَنَق[1] ولفظ أَنْتَ وما أشبهها بنون، و إن كانت النون مُخْفاة فى القاف من خَنْقٍ وفى التاء من أنت . وكذلك حالة التركيب نحو مِن كَافِرٍ .

و يكتب عَنْبَرٌ وما أشبهها بنون أيضا و إن كانت النون الساكنة تنقلب عند الباء ميما؛ وكذلك فى حالة التركيب نحو مِنْ بَعْــد . و يكتب مثل اضربوا القوم و يغزو الرجل بواو، وكذلك كلُّ مافيه حرف مدّ حذف لساكن يليه لأنه لولا التقاء الساكنين لثبتت هــذه الواو لفظا . و يكتب أنا بألف بعد النون و إن كانت فى وصل الكلام لا إشباع فى الفتحة لأن الوقف عليه بألف . ومن أجل ذلك كتبت ﴿لَكِنَّا هُوَ اللهُ﴾

(١) فى المصباح أن فعل خنق من باب قتل ومصدره ككتف و يسكن للتخفيف .

بألف بعد النون فى لٰكنّا إذ أصله لكِنْ أنا . ويكتب المنوّن المنصوب مثل زيدا وعمرا من قولك : رأيت زيدا وضربت عمرا بالألف لأنه يوقف عليه بالألف بخلاف المنوّن المرفوع والمجرور نحو جاء زيد ومررت بزيدٍ، إذ الوقف عليه بحذف نون التنوين وإسكان الآخر علىٰ الصحيح . وتكتب إذًا المنوّنة بالألف علىٰ رأى المازنِىّ رحمه الله ومَنْ تابعه : لأن الوقف عليها بالألف لضَعْفها، والمبرد والأكثرون علىٰ أنها تكتب بالنون . قال الأستاذ ٱبن عُصْفُورٍ : وهو الصحيح : لأن كل نون يوقف عليها بالألف كتبت بالألف وما يوقف عليها نفسِها كما توصل كتبت بالنون وهذه يوقف عليها عنده بالنون، وأيضا فإنها إذا كتبت بالنون كانت فرقا بينها وبين إذَا الطرفية لئلا يقع الإلباس . وفصّل الفرّا فقال : إن أَلغيت كتبت بالألف، وإن أُعْمِلت كتبت بالنون لقوّتها . ويحكىٰ عن أبى العَبَّاس محمد بن يزيد أنه كان يقول : أشتَهِى أن أَكْوِىَ يَدَ من يكتب إذَنْ بالألف لأنها مثل أَنْ ولَنْ، ولا يدخل التنوين فى الحروف .

ويكتب نحو لَنَسْفَعًا بالألف لأن الوقف عليها بالألف، وكذلك يكتب اِضْرِبًا زيدا ولا تَضْرِبًا عمرا بالألف علىٰ رأى من ٱدّعىٰ أنه الأكثر، ووجَّهَهُ بأن النون الخفيفة تنقلب ألِفًا إذا كان ماقبلها مفتوحا فى الوقف .

وذهب بعضهم إلىٰ أنها تكتب بالنون تشبيها لنونه (١) بنون الجمع نحو اضْرِبُنْ للجمع المذكر وبه جزم الشيخ أثير الدين أبو حَيَّانَ . ووجَّهَهُ بأنه لو كتب بالألف لٱلتبس بأمر الٱثنين ونهيهما فى الخط، وإن كنت إذا وقفتَ عليه وقفتَ بالألف فلم تُراعَ حالة الوقف فى ذلك لأن الوقف منع من ٱعتباره ما عرض فيه من كثرة الإلباس :

---

(١) أى تشبيها لنون التوكيد التى فى الفعل المسند الى المفرد بنون التوكيد التى فى الفعل المسند الى الجمع .

لأنهم لو أرادوا (علىٰ الوقف بالألف) كتابتَه بالألف، كَثُرَ اللَّبْسُ بالوقف والخط، فتجنبوا ما كثر به الإلباس. ويكتب كل ٱسم فى آخره ياء نحو قاضى وغازى وداعى وحادى وسارى ومُشْتَرِى ومُهْتَدِى ومُسْتَدْعِى ومُفْتَرِى فى حالتى الرفع والجر بغير ياء، كما فى قولك جاء قاضٍ ومررت بقاضٍ، وكذا فى الباقيات، وفى حالة النصب بالياء مع زيادة ألفٍ بعدها كما فى قولك: رأيتُ قاضـيًا وغازيا وداعيا وما أشبهه.

وإن كان جَمْعًا: فإن كان غير منصرف كُتِبَ فى حالتى الرفع والخفض بغـير ياء علىٰ ما تقدّم.

فيُكْتَبُ فى الرفع هؤلاء جوارٍ وغواشٍ وسَوَارٍ ودَواعٍ، وفى الخفض مررت بجَوَارٍ وسَوَارٍ وغواشٍ ودواعٍ بغير ياء فى الحالتين.

ويكتب فى النصب بالياء إلا أنه لاتزاد الألف بعدها، فتكتب رأيت جوارىَ وسوارىَ ودواعِىَ.

فإذا دخلت الألف واللام فى جميع هذه الأسماء، أثبتت فيها الياء سواء المنصرف وغير المنصرف، فيكتب هذا الداعى والغازى والقاضى والمستدعى وهؤلاء الجوارى والسوارى والدواعى بالياء فى الجميع.

قال ٱبن قتيبة: وقد يجوز حذفها، وليس بمستعمل إلا فى كتابة المصحف.

ويكتب نحو رَهْ أمرا بالرؤية، ولم يَرَهْ نفيا للرؤية، وقِهْ أمرا بالوقاية، ولم يقِهْ نفيا لذلك وما أشبهه بالهاء وإن كانت الهاء تسـقط منه حالة الدَّرْج، لأن الوقف عليها بالهاء. وكذلك قولهم: مَهْ(١) أنت، ومَجِيءَ مَهْ جئتَ: لأن الوقف علىٰ ماالاستفهامية بعد حذف ألفه بالهاء فيكتب بالهـاء، بخلاف ما إذا وقعت ما المحذوف ألفها بعد

(١) كذا فى الضوء أيضا ولعله [مِمَّــه أتيت].

الجار نحو حَتَّامَ وإلَامَ وعَلَامَ فإنه لاتلحقها الهاء لشدّة الاتصال فلا تكتب بالهاء . وتكتب تاء التأنيث فى نحو رحمة ونعمة ونقمة وقسمة وخدمة وطلحة وقمحة بالهاء لأن الوقف عليها بالهاء على الصحيح، وبعضهم يقف عليها بالتاء، وهى لغة قليلة فتكتب بالتاء موافقةً للوقف . وقد وقع فى رسم المُصْحَفِ الكريم مواضعُ من ذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَفَبِنِعْمَتِ اللهِ يَكْفُرُونَ﴾ كتبوا أَفَبِنِعْمَتْ بالتاء، والأكثر ماتقدّم.

قال ابن قتيبة : وأجمع الكُتَّابُ على كتابة السَّلامُ عليكَ ورحمت الله وبركاته فى أوّل الكتاب وآخره بالتاء. قال : فإن أضفت تاء التأنيث إلى مضمر، صارت تاء فتكتب شَجَرتك وناقتك ورحمتك وما أشبهه بالتاء .

أما أخت وبنت ، وجمعُ المؤنث السالمُ مثل قائمات وصائمات وتائبات، وتاءُ التأنيث الساكنةُ فى آخر الفعل نحو قامتْ وقعدتْ، وما أشبه ذلك، فإنه يكتب جميع ذلك بالتاء لأن الوقف عليها بالتاء .

قال ابن قتيبة : وهَيْهَاتَ يوقف عليها بالهاء والتاء، والإجماع على كتابتها بالتاء.

ثم اللفظ الذى يكتب على نوعين :

النوع الأوّل

(أن يكون اسما لحرف من حروف الهجاء، وهو على وجهين)

الوجه الأوّل

(أن يكون اسما قاصرا على الحرف لم يُسَمَّ به غيره، وله حالان)

أحدهما ـ أن يقصد اسم ذلك الحرف لا مُسمّاه فيكتب الملفوظ به نحو جيم إذا سئل كتابته فيكتب بجيم وياء وميم .

الثـانى ـ أن يقصد مسماه لا آسمه فيجب الآقتصار فى الكتابة على أول حرف فى الكلمة، ويكتب بصورة ذلك الحرف مثل قٓ نٓ صٓ، ولذلك كتبت الحروف المفتتح بهـا السور على نحو ما كتبوا حروف المعجم . وذلك لأنهم أرادوا أن يضعوا أشكالا لهـذه الحروف تتميز بها، فهى أسماءٌ مدلولاتها أشكال خَطِّية، ولو لم يضَعُوا لها هذه الأشكالَ الخطية، لم يكن للخط دلالة على المنطوق. ولو آقتصروا على كتبها على حسب النطق ولم يضـعوا لهـا أشكالا مفردة تتميز بها لم يمكن ذلك : لأن الكتابة بحسب النطق متوقفـةٌ على معرفة كل حرف حرف وشكلُ كل حرف حرف غير موضوع، فآستحال كتبها على حسب النطق . ألا ترى أنك إذا قيل لك : آكتب جيم، عين، فاء، راء، فإنما تكتب هـذه الصورة "جعفر" والملفوظ بلسان الآمر بالكتابة جيم والمكتوب ج . ولو كان تصوير اللفظ بصور هجائه، لكان المكتوب "جيم" كالملفوظ على قياس غيره من الألفاظ .

ويشهد لذلك ماحكِيَ أن الخليل رحمه الله قال يوما لطلبته : كيف تنطِقون بالجيم من جعفر ؟ فقالوا جيم فقال: إنمـا نطقتم بالآسم ولم تلفِظُوا بالمسئول عنه، ثم قال : الجواب جَه لأنه المسمّٰى من الكلمة (يريد جيما مفتوحة، وإنمـا أتى فيها بالهاء ليمكن الوقف عليها) .

الوجه الثـانى

(أن لايكون الآسم قاصرا على الحرف بأن يسمّٰى به غيره أيضا كما إذا سُمِّيَ رجل بقاف أو بياسين، فللكُتّاب فيه مذهبان) :

أحدهما ـ أن تكتب صورة الحرف هكذا قٓ ويسٓ .

والثانى ـ أن يكتب الملفوظ به هكذا "قاف" و"ياسين" وهو آختيار أبى عمرو بن الحاجب رحمه الله .

النـــــوع الثـانى

(أن لا يكون آسما لحرف من حروف المعجم، وهو علىٰ وجهين أيضا)

الوجه الأوّل

(أن يكون له معنًى واحدٌ فقط)

فيكتب هكذا (زيد) إذا طلب كتابة زاى، ياء(١)، دال.

الوجه الثـانى

(أن يكون له أكثر من معنى واحد)

فيكتب بحسب القرينة كما إذا قيل لك: آكتب شعرا فإن دلت القرينة علىٰ أن المراد هذا اللفظ كتب هكذا (شعرا) وإلا فيكتب ماينطبق عليه الشعر إذ هو معنىٰ الشعر.

الضرب الثـانى

(ما تغير عن أصله، وهو علىٰ ثلاثة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(ما تغير بالزيادة. والزيادة تقع فى الكتابة بثلاثة أحرف)

الحرف الأوّل

(الألف، وتزاد فى مواضــع)

(منها) تزاد بعد الميم فى مائة فتكتب علىٰ هذه الصورة (مائة) فرقا بينها وبين مِنْهُ، وإنمـا كانت الزيادة من حروف العـلة دون غيرها لأنها تكثر زيادتها، وكان حرف العـلة ألفا لأنها تشبه الهمزة، ولأن الفتحة من جنس الألف. ولم تكن الزيادة ياء، لأنه يستثقل فى الخط أن يُجْمَعَ بين حرفين مثاين فى موضـع مأمون فيه اللبس.

(١) عبارة الضوء فان كان له معنى (أى واحد) كتب على هذه الصورة "زيد" وهى أوضح.

ألا ترىٰ إلىٰ كتابتهم خطيئة علىٰ وزن فعيلة بياء واحدة ولو كتبت علىٰ صيغة لفظها، لوجب أن تكتب بياءين، ياء لبناء فعيلة، وياء هي صورة الهمزة . ولم تكن الزيادة واوا لاستثقال الجمع بين الياء والواو، وجُعِلَ الفرق في مائة ولم يجعل في منه لأن مائة اسم ومنه حرف والاسم أحمل للزيادة من الحرف، ولأن المائة محذوفة اللام بدليل قولهم: أمْأَيت الدراهم، فجعل الفرق في مائة بدلا من المحذوف مع كثرة الاستعمال، ثم اختلف في المثنّى منه فقيل لا يزاد في مائتين لأن موجب الزيادة اللبس ولا لَبْس في التثنية، والراجح الزيادة كما في الإفراد : لأن التثنية لا تغير الواحد عما كان عليه .

أما في حالة الجمع، فقد اتفقوا علىٰ منع الزيادة فكتبوا "مئين ومئات" بغير ألف بعد الميم : لأن جمع التكسير يتغير فيه الواحد وجمع السلامة ربما تغير فيه أيضا فغلبت .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله : وقد رأيت بخط بعض النحاة "مأة" علىٰ هذه الصورة بألف عليها نبرة الهمزة دون ياء . قال : وكثيرا ما أَكْتُبُ أنا "مئة" بغير ألف كما تكتب "فئة" لأن كَتْبَ مائة بالألف خارج عن القياس . فالذي أختاره أن تكتب بالألف دون الياء علىٰ وجه تحقيق الهمزة، أو بالياء دون الألف علىٰ وجه تسهيلها .

(ومنها) تزاد بعد واو الجمع المتطرّفة في آخر الكلمة إذا اتصلت بفعل ماض أو فعل أمر مثل ضَرَبُوا واضْرِبوا وما أشبههما فتكتب بألف بعد الواو . وسمّى ابن قتيبة هذه الألفَ ألفَ الفصل لأنها تفصل بين الفعل (١) كي لا تلتبس الواو في آخر الفعل بواو العطف . فإنك لو كتبت أَوْرَدُوا وصـدَرُوا مثلا بغير ألف ثم اتصلت بكلام

(١) لعل الأظهر لأنها تفصل بين الفعل وما بعده من الكلام .

بعدها، ظن القارئ أنها واو العطف. ولَمَّا فعلوا ذلك فى الأفعال التى تنقطع واوُها عن الحرف كالفعلين المتقدّمين، فعلوا ذلك فى الأفعال التى تتصل واوُها بالحرف قبلها نحو كانوا و بانوا ليكون حكم هذه الواو فى جميع المواضع واحدا . أما إذا لم تقع طَرَفا فى آخر الكلام نحو ضربوهم وكَالُوهُمْ ووَزَنُوهُمْ، لم تلحق به الألف . فلو آتصلت واو الجمع المذكورة بفعل مضارع نحو لن يضربوا ولن يذهبوا . فمذهب بعض البَصْرِيِّينَ أنه لا تلحقها الألف. ومذهب الأخفش لُحُوقُها كالماضى والأمر.

ولو آتصلت باسم نحو ضاربوهم وضاربو زيد . فمذهب البَصْرِيِّينَ أنها لا تُلْحَق بل يجعل الاسم تلو الواو . ومذهب الكوفيين أنها تلحق فيكتبون ضارِبُوا زيد وقاتِلُوا عمرو وهُمُوا بألف بعد الواو فى الجميع، والراجح الأوّل .

(ومنها) زادها الفرّاء فى يدعو و يغزو فى المفرد حالة الرفع خاصَّةً تشبيها بواو الجمع.

وأطلق آبن قتيبة النقل عن بعض كُتَّاب زمانه بأنها لا تُلْحَق فى مثل ذلك : لأن العلة التى أُدخِلتْ هذه الألف لأجلها فى الجمع لا تلزم هنا : لأنك إذا كتبتَ الفعل الذى تتصل واوه به من هذا الباب مثل أنا أرجو وأنا أدعو لم تشبه واوُه واوَ العطف أيضا إلا بأن تزيل الكلمة عن معناها لأن الواو من نفس الفعل لا تفارقه إلا فى حال جزمه، والواو فى صَدَرُوا، ووردُوا واوُ جمع مكتنف بنفسه يمكن أن يجعل للواحد وتتوهم الواو عاطفةً لشىء عليه . قال : وقد ذهبوا مذهبا . غير أن متقدّمى الكُتَّاب لم يزالوا على إلحاق ألف الفَصل بهذه الواوات كلها ليكون الحكم فى كل موضع واحدا .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان : وفَصَّل الكسائىّ فى حالة النصب فقال : إن لم يتصل(١) به ضمير نحو لن يدعوك، كتب بغير ألف فرقا بين الحالين .

---

(١) لعل الصواب [ان لم يتصل به ضمير نحو لن يدعو كتب بألف . وان آتصل به ضمير نحو الخ] .

(ومنها) تزاد شــذوذا بعــد الواو المبدَلة من الألف فى الرِّبٰو فتكتب بألف بعد الواو علىٰ هذه الصورة (الربوا) تنبيها علىٰ أن الأصــل أن يكتب بالألف . ووجه الشذوذ أنه من ذوات الواو فكان قياسه أن يكتب بالألف .

وقد زيدت فى مواضع من المصحف ، كما فى قوله تعالى : "إِنِ ٱمْرُؤٌا هَلَكَ" تنبيها علىٰ أنه كان ينبغى أن تكون صورة الهمزة ألفا علىٰ كل حال ولا يعتدّ بالضم والكسرة إذ اللغة الأصلية فيها إنما هى فتح الراء دائما ، والقياس كتابته بصورة الحركة التى قبل الهمزة ، وكذلك كتبوا "لَاأَوْضَعُوا" بزيادة ألف بعد اللام ألف ، وذلك مختص برسم المصحف الكريم دون غيره ، فلا يقاس عليه والله أعلم .

الحرف الثـانى

(الواو ، وتزاد فى مواضع أيضـا)

(منهـا) تزاد فى عمرو بعد الراء إذا كان عَلَمًا فى حالتى الرفع والجر فرقا بينه و بين عُمَرَ . وكانت الزيادة واوا ولم تكن ياء لئـلا يلتبس بالمضاف إلىٰ ياء المتكلم ، ولا ألفا لئـلا يلتبس المرفوع بالمنصوب . وجعلت الزيادة فى عمرو دون عُمَرَ ، لأن عَمْرا أخفُّ من عُمَر من حيث بناؤه علىٰ فَعْل ومن حيث آنصرافُه . أما فى حالة النصب فلا تزاد فيه الواو ويكتب عمرو بألف وعُمَرُ لا يكتب بألف لأنه لا ينصرف ، وكذلك المحلّٰى باللام كالعَمْرِ والمضاف كعَمْرِه والواقع قافية شعر كقول الشاعر :

إِنَّمَـا أَنْتَ فِى سُـلَيْمٍ كَوَاوٍ * أُلْحِقَتْ فِى الهِجَاء ظُلْمًا بِعَمْرِ

وكذلك عَمْرٌ واحد عُمُور الأسنان : وهو اللحم الذى بينها ، وما هو بمعنىٰ المصـدر مثل قولهم : لَعَمْرُ الله لا تزاد فيه الواو إذ لا لَبْس . ولم يفرقوا فى الكتابة بين عُمَر العَلَم وعُمَرَ جمع عُمْرَةٍ لأنهما ليسا من جنس واحد فلا يلتبسان .

(ومنها) تزاد فى أولئك بين الألف واللام فرقا بينها وبين إليك إذ حذفوا ألف أولئك الذى بعد اللام لكثرة الآستعمال فالتبست بإليك، وكانت الواو أوْلىٰ بالزيادة من الياء : لمناسبة ضمة الهمزة، ومن الألف : لآجتماع صورتى الألف وهم يحذفون الواحدة إذا آجتمعت صورتاها، وجعلت الزيادة فى أولئك دُونَ إليك : لأن الآسم أحمل للزيادة من الحرف ولأن أولئك قد حذف منه الألف فكان أوْلىٰ بالزيادة لتكون كالعوض من المحذوف .

قال آبن الحاجب : وحملوا أولىٰ عليه مع عدم اللبس كما حملوا مائتين علىٰ مائة .

(ومنها) تزاد فى أُولِى وفى أُولُو بين الألف واللام، أما فى أُولِى فللفرق بينها وبين إلىٰ، وأما فى أولو فبالحمل علىٰ أُولِى بالياء، صرح به الشيخ أبو عمرو بن الحاجب، وقاله الشيخ أثير الدين أبو حيان بحثا وآدّعىٰ أنه لم يَظْفَرْ فى تعليله بنصّ . قال : وحمل التأنيثُ فى أُولَات علىٰ التذكير فى أُولىٰ .

(ومنها) تزاد فى أُوَخىّ تصغير أَخِى بين الألف والخاء، والتغيير يأنس بالتغيير . وجعلت الزيادة واوا لمناسبة ضمة الهمزة كما فى أولئك ونحوه . وأكثر أهل الخط لا يزيدونها لأن التصغير فرع عن التكبير وليس ببناء أصلىّ .

الحرف الثالث

(الياء المثناة تحت)

وتزاد فى مواضعَ من رسم المصحف الكريم فيكتبون قوله تعالىٰ : ﴿بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ بياءين بين الألف والدال من قوله : "بِأَيْيدٍ". وقوله تعالىٰ : ﴿من نَبَإِى الْمُرْسَلِينَ﴾ بياء بعد الألف من نبإ، وقوله تعالىٰ : ﴿من مَلَإِيه﴾ و ﴿من مَلَإِيهِمْ﴾ بياء قبل الهاء فيهما. وهذا مما يجب الآنقياد إليه فى المصحف آقتداءً بالصحابة رضوان الله عليهم .

أما فى غير المصحف فيكتب بأيد بياء واحدة لأن الهمزة فيه أوّلُ كلمة فتصوَّر ألفـا كغيرها من الهَمَزات الواقعة أوّلا علىٰ ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعـالىٰ . و يكتب من نبإ ومن ملئه ومن ملَئِهِـم بغير ياء لأن الهمزة فى نبإ وملإ أخيرة بعد فتحة فتصوّر أَلِفًا كما فى نحو كلإ وخطإ، وكذلك إذا أضيف إليه الضمير .

وذهب بعضهم إلىٰ أنها تكتب فى هذا ياءً علىٰ ما يناسب حركتها سواء أضيفت نحو من كلئه أو لم تضف نحو من الكَلَئِ .

قال بعضهم : والأقيسُ أن يكتب ياء مع الضمير المتصل نحو من خطئــه لأنها صارت معه كالمتوسـطة و يكتب ألفا إذا تطرّفت نحو من خطإ آعتبارا بمـا يؤول إليه فى التخفيف والله أعلم .

النـــوع الثـانى

(مايغيَّر بالنقص)

والنقص يقع فى الكتابة علىٰ وجهين .

الوجه الأوّل

(ما لا يختص بحرف من الحروف، وهو المدغَمُ)

فيكتب كلُّ مشدّد من كلمة واحدة حرفا واحدا نحو شدّ ومدّ وآدّكر ومقرّ وآقشعرّ فيكتب بدال واحدة فى شـدّ ومدّ وآدّكر و راءٍ واحدة فى مقرّ وآقشـعرّ وإن كان فى اللفظ حرفان، فإن الحرف المدغم فيما بعده هو متلفظ به ساكنا مدغما، فكان قياسه أن تكتب له صورة بحسب النطق، لكنه لما أدغم ضَعُفَ بالإدغام، إذ صار النطق به و بالمدغم فيــه نطقا واحدا فآقتصر فى الكتابة علىٰ حرف واحد ولم يجعـل للأوّل صورة آختصارا . وسواء كان المدغم إدغام مثل نحو رَدُّ أومقارب نحو آطَّجع أصله

ٱضطجع . وأجروا نحو قَنَتُّ مُجرىٰ ما هو من كلمة واحدة و إن كان من كلمتين لشدّة ٱتصال الفعل بالفاعل مع كون الحرفين مثلين .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : وكذلك نحو مِمَّ وعَمَّ و إلَّامَ(١) .

الوجه الثانى
(ما يختص بحرف من الحروف)

و ينحصر ذلك فى خمسة أحرف :

الحرف الأوّل
(الألف ، وتحذف فى مواضعَ)

(منها) تحذف مع لام التعريف إذا دخلت عليها لام الجرّ، فيكتب لِلْقوم و لِلْغلام وللناس بلامين متواليتين من غير ألف ؛ بخلاف ما إذا دخلت عليها باء الجرّ فإنها لا تُحذَف، فيكتب بالقوم و بالغلام و بالناس بألف بين الباء واللام . و إن كان فى أوّل الكلمة ألف ولام من نفس الكلمة ليستا اللتين للتعريف نحو الألف واللام فى ٱلتقاء وٱلتفات وٱلتباس . ثم دخلت لام الجرّ أو باؤه ثبتت الألف ، فيكتب بالتقائنا ولِٱلتفاتنا و لِٱلتباس الأمر علىّ و بٱلتباسه ، فإن أدخلتَ ألف التعريف ولامه علىٰ الألف واللام اللتين من نفس الكلمة للتعريف ولم تَصِلِ الكلمةَ بلام الجرّ و بائه لم تحذف شيئا ، فيكتب الٱلتقاء والٱلتفات والٱلتباس بلامين(٢) ولامين ، وكذلك إذا وصلتهما بلام الجرّ أو بائه ، فيكتب بالٱلتقاء و بالٱلتفات و بالٱلتباس وللٱلتقاء وللٱلتفات وللٱلتباس .

(ومنها) تُحذَف بعد اللام الثانية من لفظ الله تعالىٰ، و بعد الميم من الرحمن إذا دخلت عليها الألف واللام، فيكتب الله بلامين بعدهما هاء علىٰ هذه الصورة "الله"

(١) ليس من الباب فالصواب حذفه كما وقع فى الضوء . (٢) لعله بألفين ولامين .

وإن كانت المدّة بعد اللام الثانية توجب أَلِفًا بعدها، ويكتب الرحمن بنون بعد الميم علىٰ هـذه الصورة "الرحمن" وإن كانت المدّة علىٰ الميم توجب ألفا بعدها : لأنه لا ٱلتباسَ فى هذين الآسمين، ولكثرة الآستعمال . فلو تجرّدا عن الألف واللام كتبا بالألف كما قالوا : لَاهِ أبوك يريدون لله أبوك، فحذفوا حرف الجرّ والألف واللام وكتبوه بالألف . وكقولك : رَحمانُ الدنيا والآخرة فيكتبونه بالألف .

(ومنها) تحذف بعد اللام من السلام فى عبد السلام وفى السلام عليكم، فيكتبان علىٰ هذه الصورة : "عبد السَّلٰم" و"السَّلٰم عليكم" .

(ومنها) تحذف بعد اللام من ملائكة، فتكتب علىٰ هذه الصورة : "ملٰئكة". قال أحمد بن يحيى : لأنه لا يشبهه لفظ مثله، ولكثرة الآستعمال .

(ومنها) تحذف بعد الميم من سموات، فتكتب علىٰ هذه الصورة : "سمٰوات".

قال الشـيخ أثير الدين أبو حيـان : وعلة الحذف فيه علة الحذف فى الملائكة من كثرة الآستعمال وعدم الشـبه . وأما الألف الثانية منه وهى التى بعد الواو، فإنها لا تحذف : لأنها دليل الجمع، ولأنها لو حذفت لآجتمع فى الكلمة حذفان، وقد كُتِبَتْ فى المصحف بحذف الألفين جميعا فيجب الآنقياد إليه فى المصحف خاصّةً .

(ومنها) تحذف بعـد اللام فى أُولئك، وبعد الذال من ذلك فيكتبان علىٰ هذه الصورة : "أولئك" و"ذلك". فلو تجرد أولاء وذا عن حرف الخطاب وهو الكافُ، كتِبا بالألف فيكتبان علىٰ هذه الصورة : "أولاء" و"ذا" .

(ومنها) تحذَف بعـد ها التنبيه إذا ٱتصلت بذا(١) التى للإشارة وكانت خالية من كاف الخطاب فى آخر الكلمة، فتحذف من هذا وهذه وهؤلاء، فيكتب الجميع بغير ألف، فان ٱتصلت بٱسم الإشـارة الكاف نحو ذاك ٱمتنع الحذف، فيكتب بألف

(١) أى وأولاء كما يؤخذ من التمثيل .

بعد الهاء علىٰ هذه الصورة "ها ذاك" ولا يضر ٱختلاف حرف الخطاب بالنسبة للإفراد والجمع والتذكير والتأنيث . وأما تا وتِى فى الإشارة بتـا(١) للمذكر وبتى للمؤنث، فإن الألف لاتحذف معهما إذا ٱتصلت بهما ها التنبيه، فيكتب هاتا وهاتى وهاتان.

وذكر أحمد بن يحيىٰ : أنها حذفت من هـأنتم وهـأنا وهـأنت أيضا، فتكتب بألف واحدة بعد الهاء فى جميع ذلك . قال : وهو القياس؛ وكان الأصل أن تكتب بألفين علىٰ هذه الصورة : ها أنتم وها أنا وها أنت؛ ثم تلى الهمزة . ودليل أن ألف ها قد حذفت من ها التنبيه فى غير ٱتصالها بذا وما والاها من رسم المصحف فى ثلاثة مواضع من القرءان الكريم فى النور ﴿ أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ وفى الزخرف ﴿ يٰأَيُّهَ السَّاحِرُ ﴾ وفى الرحمن ﴿ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴾.

قال ٱبن قتيبة : ويكتب أيها الرجل وأيها الأمير بالألف وإن كان قد كتب فى القرءان الكريم بالألف وغير الألف لٱختلافهم فى الوقف عليها .

(ومنها) تحذف من ثمانية عشر وثمانى نساء، بخلاف ما إذا حذفت الياء منها نحو ثمـان عشرة وعندى من النساء ثمـانٍ فإنه لا تحذف الألف، بل تكتب علىٰ هذه الصورة : "ثمان عشرة وعندى من النساء ثمان" لأنه قد حذف منه الياء فلو حذف الألف، لتوالىٰ الحذف فيكثر : فمثل قول الشاعر :

وَلَقَدْ شَرِبْتُ ثَمٰنِيًا وثَمٰنِيًا ❊ وثَمَانَ عَشَرَةَ وَٱثْنَتَيْنِ وَأَرْبَعَا

يكتب الأوّلان بغير ألف والثالثة بالألف . وفى ثمانين وجهان : أحدهما إثبات الألف بعد الميم فيها : لأنه قد حذف منه الياء إذ الياء فى ثمانين ليست ياء ثمانية لأنها حرف الإعراب المنقلبُ عن الواو فى حالة الرفع، فلو حذفت الألف أيضـا لتوالىٰ فيه الحذف . والوجه الثانى الحذف : لأن الياء منه كأنها لم تحذف بدليل أنه قد عاقبتها

(١) كذا فى الضوء أيضا ولعله سهو أو سبق قلم فان تا وتى للؤنث كما هو واضح .

ياء أخرىٰ فهما لايجتمعان، فكأن الياء موجودة إجراء للعاقِب مجرىٰ المُعاقَب . و إذا قلت ثمانون بالواو، فحكمُهُ حكم ثمانين بالياء فى جواز الوجهين .

(ومنها) تحذَف بعد اللام من ثلاث فيكتب علىٰ هذه الصورة : "ثَلٰث" سواء كانت مفردة، نحو عندى ثَلٰث من البَطِّ، أو مضافة نحو ثَلٰث نساء، أو مركبة نحو ثلث عشرة ٱمرأة، أو معطوفة نحو ثلٰث وثلاثون جارية، وحكم ثلثـة بالتاء كذلك فى جميع الصور .

وكذلك تحذف أيضا من ثلاثين وثلاثون بالياء والواو، فيكتبان علىٰهذه الصورة : "ثلثين" و "ثلثون" .

فأما ثُلاثَ المعدولُ كما فى قوله تعالىٰ : "مَثْنىٰ وثُلَاثَ" . فقال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمـه الله : لم أقف فيـه علىٰ نَقْل . قال : والذى أختاره أن يكتب بالألف لوجهين : أحدهما أنه لم يكثر كثرة ثلٰث، وثلثة، وثلثين، وثلثون. والثانى أنها لو حذفت لٱلتبست بثلٰثٍ الذى ليس بمعدول .

قال ٱبن قاسم رحمه الله : وقد ذكر فى " المقنع " أنه محذوف فى الرسم .

(ومنها) تحذف من ــ يا ــ التى للنداء إذا ٱتصلت بهمزة نحو ياأحمد، ياإبراهيم، ياأبا بكر، ياأبانا، فتكتب علىٰ هــذه الصورة : يٰأحمد، يٰإبرهيم، يٰأبابكر، يٰأبانا . ثم الأظهر أن المحذوف هو ألف يا لا صورة الهمزة .

وقال أحمد بن يحيىٰ : المحــذوف صورة الهمزة لا الألف من يا نعم إذا كانت الهمزة المتصلة بيا كهمزة آدم ٱمتنع الحـذف، وكتبت بألفين علىٰ هذه الصورة : ياآدم : لأنهم قد حذفوا ألفا من آدم لتوالى أَلِفَيْنِ، وحرف النداء مع المنادىٰ كالكلمة الواحدة بدليــل أنه لايجوز الفصل بينهما فلو حذفت الألف من يا لٱجتمع فيما هو كالكلمة الواحدة حذف أَلِفَيْنِ .

أما إذا لم يلِ يا همزةٌ البتةَ نحو يازيد، ويا جعفر، فالذى يستعمله الكُتّابُ فيه إثبات الألف فى يا . وفى كلام أحمد بن يحيىٰ تجويز كتابته بغير ألف أيضا، توجيها بأنهم جعلوا يا مع ما بعدها شيئا واحدا، إذ أقاموا يا مُقَامَ الألف واللام بدليل أنهم لاينادون ما فيه ألف ولام، فلا يقولون يا الرجل .

(ومنها) تحذف من الحارث إذا كان عَلَماً ودخلت عليه الألف واللام، فيكتب علىٰ هـذه الصورة : الحٰرث . أما إذا عَرِىَ عن الألف واللام، فإنه يثبت فيه الألف لئلا يلتبسَ بحرب بالباء المُوَحَّدَةِ إذ قد سمى به، وإنما آمتنع اللبس مع الألف واللام لأنهما إنما يدخلان من الأعلام علىٰ ما كان صفةً إذا أريد به معنىٰ التفاؤل وحَرْبٌ ليس بصفة فلم يدخلا عليه وإن كانا قد دخلا علىٰ بعض المصادر كالعَلَاء. وكذلك إذا كان حارث آسم فاعل من الحرث فإنه يكتب بالألف أيضا كما إذا عرى عن الألف واللام .

(ومنها) تحذف مما كثر آستعماله من الأعلام الزائدة علىٰ ثلاثة أحرف إذا لم يحذف منها شىء، سواء كان ذلك العلم من اللغة العربية نحو مالك، وصالح، وخالد، أو من اللغة العجمية نحو إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وهارون، وسليمان، فتكتب علىٰ هذه الصورة : ملٰك، وصٰلح، وخٰلد، وإبرٰهيم، وإسمٰعيل، وهٰرون، وسليمٰن . بخلاف ما إذا لم يكثر آستعماله كحاتم، وجابر، وحامد، وسالم، وطالوت، وجالوت، وهاروت وماروت، وهامان، وقارون، فإنها لاتحذف ألفها .

وقد حذفت فى بعض المصاحف من هاروت، وماروت، وهامان، وقارون، فكتبت علىٰ هذه الصورة : هروت، ومروت، وهمن، وقرون .

قال الشيخ أثير الدّين أبو حيان رحمه الله : وذكر بعض شيوخنا أن إثباتها فى نحو صالح، وخالد، ومالك جيدٌ .

وقال أحمد بن يحيىٰ : يجوز فيه الوجهان، وهو قضية كلام ٱبن قتيبة .

أما إذا كان العَـلَمُ الذى كَثُر ٱستعماله علىٰ ثلاثة أحرفٍ فما دونها نحو هَالة وأَوْس[1] ولام ، فإنه لا تحـذف ألفه، وكذلك إذا حذف منه شىء غير الألف نحو إسرائيل وداود، لأنهم قد حذفوا من إسرائيل صورة الهمزة، ومن داود الواو فٱمتنع حذف الألف لئلا يتوالىٰ الحذف .

ويلتحق بذلك فى الإثبات مالو خيف بالحذف ٱلتباسه : كعامر، وعَبَّاس ، فلا تحـذف منه الألف أيضا، لأنه لو كتب بغير ألف، لٱلتبس عامر بعُمَر، وعباس بعبْس .

(ومنها) تحذف ٱستحسانا مما كثر ٱستعماله ، مما فى آخره الألف والنون نحو شعبان، وعثمان وما أشبههما، فيكتبان علىٰ هذه الصورة "شعبٰن" و "عثمٰن".

قال الشيخ أثير الدّين أبو حيان رحمه الله : إلا أنهم لم يحذفوا ألفَ عِمْرَان والإثبات فى نحو شعبان حسنٌ أيضا .

قال ٱبن قتيبة : فأما شَيْطَان، ودِهْقَان، فإثبات الألف فيهما حسن . وكان القياس إذا دخلت عليهما الألف واللام أن يكتبا بغـير ألف، إلا أن الكُتَّاب مُجْمِعُون علىٰ تَرْك القياس فى ذلك .

(ومنها) تحذف من كل جمع علىٰ وزن مفـاعل أو وزن مفاعيل، إذا لم يحصـل بالحذف ٱلتباس الجمع فيه بالواحد لموافقته له فى الصورة، بحيث لا يقع اللَّبْس مثل خواتم ودوانق فى وزن مفاعل ومحاريب وتمـاثيل وشـياطين فى وزن مفاعيل

(١) كذا فى الأصل والضوء أيضا .

تحذف الألف فيكتب علىٰ هذه الصورة : خَوٰتم ، ودَوٰنق ، ومحٰريب ، وتمٰثيل ، وشَيٰطين ، ودهٰقين . إذ المفرد منها خَاتَمٌ ، ودَانِقٌ ، ومِحْرَابٌ ، وتِمْثَالٌ ، وشيطان ، ودِهْقَان ، وهى لاتشابه صور الجمع فيها . بخلاف ما إذا كان يلتبس فيه الجمع بالواحد ، مثل مساكين فى وزن مفاعيل جمع مِسْكين فإنه يكتب بالألف لئلا يلتبس بالواحد . فلو كان الحذف يؤدّى إلىٰ موافقته للواحد فى الصورة لكنه فى غير موضع المفرد نحو ثلاثة دراهم ، ودراهم جياد ، ودراهم معدودة ، حذفتْ منه الألفُ وكتب علىٰ هذه الصورة : ثلٰثة درٰهم ، ودرٰهم جياد ، ودرٰهم معدودة ، لأنه لايلتبس حينئذ . بخلاف عندى دراهم ونحوه فإنه لو حذفت الألف منه ، لٱلتبس بدرهم المفرد .

ثم الحذف فى مفاعل ومفاعيل عَلىٰ ما تقدّم إنما هو علىٰ سبيل الجواز ، و إلا فالإثبات أَجْوَدُ .

وشَرط بعض المغاربة فى جواز الحذف شرطا : وهو أن لاتكون الألف فاصلا بين حرفين متماثلين ، فلا تحذَف الألف من نحو سكاكين ، ودكاكين ، ودنانير ، لئلا يجتمع مثلان فى الخط وهو مكروه فى الخط ككراهته فى اللفظ .

وقد كُتِبَ فى المصحف مساكين ، ومساكنهم بغير ألف علىٰ هذه الصورة مَسٰكِينُ ، ومَسٰكِنُهُمْ ، وإن كان اللبس موجودا .

قال الشيخ أثير الدّين أبو حيان رحمه الله : وإنما كتبتا كذلك لأنهما قد قرئا بالإفراد فكتبتا علىٰ مايصلح فيهما من القراءة . كما كتبوا ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ﴾ بغير ألف علىٰ هذه الصورة ﴿وَمَا يُخٰدِعُونَ﴾ لأنه يصلح لقراءة يَخْدَعُونَ من الثلاثىّ .

(ومنها) تحذف الألف الأولىٰ مما كان فيه ألفان ، مما جمع بالألف والتاء المزيدتين نحو صالحات ، وعابدات ، وقانتات ، وذاكرات ، فتكتب علىٰ هذه الصورة "صٰلحٰت ، وعٰبدٰت ، وقٰنتٰت ، وذٰكرٰت" .

وكذلك تحذف من صفات جمع المذكر السالم نحو الصالحين، والقانتين، فيكتب علىٰ هذه الصورة : ”الصّٰلحين“ و”القٰنتين“ وإن لم يكن فيه ألف أخرىٰ حملا علىٰ المؤنث .

وقال بعض المغاربة : إن كان مع ألف الجمع ألف أخرىٰ كالسماوات، والصالحات، فيختار حذف ألف الجمع وإبقاء الأخرىٰ . وثبت فى المصحف بحذف الألفين جميعا علىٰ هذه الصورة : ”سموت، وصلحت“ وكذلك سياحات، وغيَابات . وإن كان ليس فيه ألف أخرىٰ فالمختار إثبات الألف كالمسلمات، وثبت أيضا فى المصحف محذوف الألف علىٰ هذه الصورة : مسلمت .

قال : وتحذف أيضا فى جمع المذكر السالم من الصفات المستعملة كثيرا : كالشاكرين، والصادقين، والخاسرين، والكافرين، والظالمين، وما أشبهها فى كثرة الاستعمال فتكتب علىٰ هذه الصورة ”الشكرين، والصدقين، والخسرين، والكفرين، والظلمين“ .

نعم إن خِيفَ اللبس فيما جمع بالألف والتاء مثل طالحات، امتنع الحذف لأنه لو حذفت الألف منه، لالتبس بطَلَحَاتٍ جمع طَلْحَةٍ . وكذلك لو خيف اللبس فيما جمع بالواو والنون، نحو حاذرين، وفارهين، وفارحين . فلو حذفت الألف منه، لالتبس بحَذِرين، وفَرِهين، وفَرِحين، وهما مختلفان فى الدلالة، لأن فاعلا من هذا النوع مذهوب به مَذْهَب الزمان، وفَعِل يدل علىٰ المبالغة لا علىٰ الزمان، .

وكذلك لو كان مضَعَّفا مثل شَابَّات ، والعادّين ، فلا يجوز فيه حذف الألف لأنه بالإدغام نقص فى الخط إذ جعلوا الصورة للمُدْغَم والمُدْغَم فيه شكلا واحدا . ولذلك كتبوا فى المُصْحَف الضَّالِّين والعادّين بالألف . وقد أجرِى مُجْرىٰ المُضَعَّف فى الإثبات مابعد ألفه همزةٌ نحو الخائنين . وقد حذفت ألفه فى بعض

المصاحف، فكتب على هذه الصورة "الخٰثٰين". ويتعين الإثبات أيضا فيما هو معتلّ اللام مثل دانيات حملا على دانين، كما حذف من الصالحين حملا على الصالحات، ومثل الرامين لأنه قد حذف منه لام الفعل . وحمل ماجمع بالألف والتاء عليه كما حمل الصالحين على الصالحات فى حذف الألف، وإن كانت العلة فيهما مفقودة .

قال ٱبن قتيبة : وكذلك ما كان من ذوات الياء والواو لايجوز فيه حذف الألف نحوهم القاضُون، والرامُون، والساعُون : لأنهم حذفوا الياء لٱلتقاء الساكنين لمّا ٱستثقلوا ضمةً فى الياء بعد كسرة فسكنوا ثم حذفوا الياء، فكرهوا أن يحذفوا الألف أيضا لئلا يخلُّوا بالكلمة .

(ومنها) تحذف إحدى الألفين مما ٱجتمع فيه ألفان مثل أادم، وأازر، وأامن، وأامين، وأاتين، وأانفا، ووراأك، وقراأة، وبراأة، وشناان، وشبهه، فتكتب على هذه الصورة "آدم، وآزر، وآمن، وآمين، وآتين، وآنفا، ووراءك، وقراءة، وبراءة، وشنآن" فلو ٱنفتح الأول منهما كما فى قرأا لفعل الٱثنين من القراءة، كتب بألفين على هذه الصورة : (قرأا)، لئلا يلتبس بفعل الواحد، إذ المفرد تقول فيه قرأ فتكتبه بألف واحدة. وذهب قوم إلى أنه فى التثنية يكتب أيضا بألف واحدة مسندا إلى ألف الٱثنين، وبه قال أحمد بن يحيى. والذى عليه المتأخرون وهو الأجود عند ٱبن قتيبة ما تقدّم .

(ومنها) تحذف إحدى الألفات مما ٱجتمع فيه ثلاث ألفات، مثل براأات جمع براءة، ومساأات جمع مساءة، فتكتب بألفين فقط على هذه الصورة : "براآت" و"مساآت" لأنها فى الجمع ثلاث أَلِفَاتٍ . فلو حذفوا ٱثنتين، أَخَلُّوا بالكلمة .

(ومنها) تحذف من أوّل الكلمة فى الٱستفهام فى ٱسم، أوفعل، نحو ءآللهُ أَذِنَ لَكُمْ ؟ ءآلسِّحْرُ إِنَّ اللهَ سَيُبْطِلُهُ؟ ءآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأنثيين؟ أاصطفى البَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ؟

أالرجل فى الدار؟ أاسمك زيد أم عمرو؟ فتكتب بألف واحدة على هذه الصورة: آللهُ؟ آلسِّحْرُ؟ آلذَّكَرَيْنِ؟ آلرجل؟ آسمك؟ آلآن؟ .

ثم مذهب أحمد بن يحيى، وعليه جرى ابن مالكٍ رحمه الله: أنه لافرق بين المكسورة، والمضمومة. والذى ذهب إليه المغاربة أنها تكتب بألفين، إحداهما ألف الوصل، والأخرى همزة الاستفهام.

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله: وجاز فى نحو ألرجل الأمران، ورسمت فى المصحف بألف واحدة نحو آلذكرين، آلآن.

(ومنها) تحذف من ما الاستفهامية إذا دخل عليها حرف من حروف الجرّ، نحو عَمَّ تسأل؟ وفِيمَ تُفَكِّر؟ ومِمَّ فَرِقْتَ؟ ولِمَ تكلّمتَ؟ وبِمَ عَلِمْتَ؟ وحَتَّامَ تَغْضَبُ؟ وعَلَامَ تَدْأَبُ؟ فتكتب كلها بغير ألف فى آخرها فرقا بينها وبين ما الموصولة، ويصير حرف الجرّ كأنه عوض من الألف المحذوفة. وكان الحذف من الاستفهامية دون الموصولة لأن آخرها منتهى الاسم، والأطراف محلُّ التغيير. بخلاف الموصولة: لأنها متوسطة من حيث إنها تحتاج إلى صلة.

وحكى الكوفيون ثبوتها فى الاستفهامية أيضا، والله أعلم.

تذنيب

تحذف الهمزة المصوّرة بصورة الألف فى أربعة مواضع:

الأول — تحذف بعد الباء من بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ، فتكتب بغير ألف على هذه الصورة: "بسم". والقياس إثباتها كما تكتب يأيها بالألف لكنها حذفت لكثرة الاستعمال، أما فى غير بسم الله الرحمن الرحيم، فظاهر كلام ابن مالك أنها لاتحذف، فتثبت فى باسم ربك، وفى باسم الله، مفردا.

وقال بعضهم : إن كان مضافا إلىٰ لفظ الله تعالىٰ وليس متعلَّقُ الباء ملفوظا به، حذفت وإلا فلا، فتثبت فى بٱسم ربك لأنه غير مضاف إلىٰ لفظ الله تعالىٰ، وفى نحو قولك تبركت بٱسم الله : لأن متعلقه ملفوظ به .

وقال الفرّاء فى قوله تعالىٰ : ﴿ بِسْمِ اللهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾ إن شئتَ أثبتَّ وإن شئت حذفتَ، فمَنْ أثبت قال : ليست مبتدأ بها، وليس معها الرحمن الرحيم؛ ومَنْ حذف، قال : كان معها الرحمن الرحيم فى الأصل، فحذفت فى الٱستعمال . فإن أضفتَ الٱسم إلىٰ الرحمن أو القاهر ونحوه، فقال الكسائىّ : تحذف، وقال الفرّاء : لايجوز أن تحذف إلا مع الله لأنها كررت معه، فإذا عَدَوْتَ ذلك أثبت الألف .

الثانى ـ تحذف بين الفاء والواو، وبين همزة هى فاء الفعل من وزن الكلمة، مثل قولك فَأْت وأْت : لأنهم لو أثبتوا لها صورة الألف، لكان ذلك جمعا بين ألفين : إحداهما صورة همزة الوصل، والأخرىٰ صورة الهمزة التى هى فاء الفعل، مع أن الواو والفاء شديدتا الٱتصال بما بعدهما لا يوقف عليهما دونه، وهم لم يجمعوا بين ألفين فى سائر هجائهم إلا علىٰ خلاف فى المتطرّفة كما مر، لأن الأطراف محلّ التغييرات والزيادة، فلذلك حذفوها فى نحو فأذن، وأْتُمن فلان، وعليه كتبوا ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ ﴾ فلو كانت الهمزة بين غير الفاء والواو وبين الهمزة التى هى فاء الفعل ثبتت، نحو ٱئتو و﴿ الَّذِى ٱؤْتُمِنَ ﴾ . ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَنْ لِّى ﴾ وكذلك لو كانت ٱبتداء والهمزة فاء الفعل، نحو ٱئْذن لى، ٱؤتمن فلان، ثبتت أيضا؛ أو ليست فاء، نحو ثم ٱضرب، وٱضرب، فاضرب . وكذلك فى ﴿ وأْتُوا البيوت ﴾ .

الثالث ـ تحذف فى ٱبن وٱبنة مما وقع فيه ٱبن مفردا صفةً بين عَلَمَين، غير مفصول، فيكتب نحو جاء فلان بن فلان، أو فلانة بنة فلان بغير ألف فى ٱبن وٱبنة . ولا فرق فى ذلك بين أن يكون العَلَمَان ٱسمين، نحو هذا أحمد بن عُمَرَ، أو كُنْيتين،

نحو هــذا أبو بكر بن أبى عبد الله، أو لقبين، نحو هذا نَبْت بن بطة، أو آسما وكنيةً، نحو هــذا زيد بن أبى قُحَافَةَ، أو لقبا وآسما، نحو هــذا أنفُ الناقة بن زيد، أو كنية ولقبا، نحو هذا أبو الحٰرث بن نَبْت، أو لقبا وكنية، نحو هذا بدر الدين بن أبى بكر.

فهذه سبع صور: تسقط فيها الألف من آبن ولا تسقط فيما عداها، فلو قلتَ هذا زيد آبنك، وآبن أخيك، وآبن عمك، ونحو ذلك مما ليس له صيغة بين علمين(١)، أثبتَّ فيــه الألفَ. وكذلك إذا كان خبرا كقولك: أظنّ زيدًا آبنَ عمرو، وكأنّ بكرا آبنُ خالد، وإن زيدا آبنُ عمرو، فتثبت الألف فى الجميع. ومنه فى القرءان الكريم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ آبْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارىٰ الْمَسِيحُ آبْنُ اللهِ﴾ كتبتا فى المصحف بالألف. فلو ثنيت الآبن، ألحقتَ فيــه الألف صــفة كان أو خبرا، فتكتب قال عبدالله: وزيدٌ آبنا محمد كذا وكذا، وأظنّ عبد الله وزيدا آبنى محمد فَعَلَا كذا بالألف. وكذلك إذا ذكرتَ آبنًا بغير آسم، فتكتبُ: جاء آبن عبــد الله بالألف أيضا. وحكم آبنة مؤنثا فى جميع ما ذكر حكم الآبن، تقول: جاءت هندُ بْنةُ قيس، فتحذف الألف.

وشرط الأستاذ أبو الحسن بن عُصْفُورٍ أن يكون مذكرا فلا تسقط من آبنة.

ونقل أحمد بن يحيىٰ عن أصحاب الكسائىّ: أنه متىٰ كان منسوبا إلىٰ آسم أبيــه أو أمه أو كنية أبيه أو أمّه وكان نعتا، حذفوا الألف فلم يُجزه فى غير الآسم والكنية فى الأب والأم. قال: وأما الكسائىّ فقال: إذا أضفت إلىٰ آسم أبيه أو كنية أبيه، وكانت الكنية معروفا بها كما يعرف بآسمه، جاز الحذف، لأن القياس عنده الإثبات، والحذف آستعمال، فإذا عدى الآستعمال، رُجِعَ إلىٰ الأصل.

وحكىٰ آبن جنى عن متأخرى الكُتَّاب: أنهم لا يحذفون الألف مع الكنية، تقدّمت أو تأخرت. قال: وهو مردود عند العلماء علىٰ قياس مذاهبهم.

(١) فى الضوء [مما ليس بين علمين] وهى أوضح. [ولعلَّ الأصل مما ليس صفة ... ...].

والألف تحـذف من الخط فى كل موضـع يحذف منـه التنوين وهو حُذِفَ مع الكُنىٰ .

الرابع ـ تحذف من كل مُعَرّف بالألف واللام إذا دخلت عليـه لامُ الآبتداء، نحو ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولىٰ ﴾ أو لامُ الجرّ، نحو للدّار ألُف ساكن غيرك ؛ وقياسها الإثبـات كما أثبتوها فى لآبنك قائم ، ولِأبيك مال ؛ وسبب حذفها آلتباسها بلا النافية .

وذهب بعضهم : إلىٰ أنها لاتحذف مع لام الآبتـداء فرقا بينها وبين الجارّة. ولم يحذفوها من نحو مررت بالرجل والله أعلم .

الحرف الثـانى

(اللام، وتحذف فى مواضع)

(منها) تحذف من الذى للزومها، فكأنها ليست منفصلة، وكذلك تحذف من جمعه وهو الذين لأنه يشـبه مفرده فى لزوم البناء، ولفظ الواحد كأنه باق فيه ؛ ولم يحذفوه من المثنّى كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا ﴾ فكتبوه بلامين فرقًا بينه وبين الجمع. وإنمـا آختصت التثنية بالإثبات، لأنها أسبق من الجمع، واللبس إنمـا حصل بالجمع .

(ومنها) تحذف من الّتى للزومها كما تقـدّم، ومن تثنيتها وهى الّتَان، وجمعها : وهى الّاتى لأنهما لايلتبسان، بخلاف تثنية الذى وحروفه .

وقال أحمد بن يحيىٰ : كتبوا اللاتى (الّـتى) واللائى (الّـئى) وأسقطوا لاما من أولها وألفا من آخرها . قال : وهـذا للآسـتعمال لأنه يقل فى الكلام مثله ، ويدل عليه ما قبله وما بعده، ولو كتب علىٰ لفظه كان أولىٰ .

قال الشيخ أثير الدين أبوحيّان رحمه‌الله: والذى عهدناه من الكُتّاب أنه لاتحذف الألف لئلا يلتبس بالمفرد .

(ومنها) تحذف من الليل والليلة علىٰ أجود الوجهين ، فيكتبان بلام واحدة علىٰ هذه الصورة : "الّيل والّيْلة" : لأنّ فيه ٱتباع المصحف؛ وأجاز بعضهم كتابته بلامين . قال أبو حيّان : وهو القياس .

(ومنها) تحذف من ... ...[1] ونحوه، ممـا دخل عليه لام الجرّ فيكتب بلامين وإن كان فى اللفظ ثلاث لامات .

(ومنها) قال أحمد بن يحيىٰ : يكتب الّطيف بلام واحدة لأنه قد عُرِفَ فحذف، وهذا بخلاف اللّهْو، واللّعِب، واللُّعْبَة، واللاعبين، واللّغو، واللُّؤلُؤ، واللّاتِ، واللهم، واللّهَب واللوّامة، فإنها لاتحذف منها اللام .

قال ٱبن قتيبة : وكل ٱسم كان أوّلُه لامًا ثم أدخلت عليـه لام التعريف، كتبتَه بلامين، نحو اللهم، واللابن، واللحم، واللجام، وما أشبه ذلك . وإن كانوا قد ٱختلفوا فى الليل والليلة لموافقة المصحف كما تقدّم .

الحرف الثـالث

(النون، وتحذف فى مواضع)

(منهـا) تحذف مِنْ عَنْ إذا وصلت بِمَنْ أو بِمـا، فتكتب عَمَّن وعَمّا وعَمّ .

(ومنها) تحذف مِنْ مِنْ الجارّة إذا وُصِلَتْ بِمَنْ أو ما، فتكتب مِمَّن ومِمّـا .

(ومنها) تحذف مِنْ إنْ إذا وُصِلَتْ بلَمْ، فتكتب إلَّمْ .

(ومنها) تحذف من أنْ المفتوحة إذا وُصِلَتْ بلا، فتكتب أَلّا .

---

(١) بياض بالأصل ولعله من اللّعِب ونحوه الخ .

الحرف الرابع

(الواو، وتحذف فى مواضع)

(منها) تحذف لأمْنِ اللبس، مثل ما كتبوا من قوله تعالىٰ : ﴿ يَدْعُ الدَّاعِ ﴾. ﴿ وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ ﴾ بغير واو فى يدعو و يمحو، لأن ذكر الدّاع فى الأوّل ، وذكر الله تعالىٰ فى الثانى يمنع أن يكون الفاعلُ جماعةً فلا يحصل اللبس، بخلاف قولك لاتضربوا الرجل : فإنه لو حذف لٱلتبس الجمع فيه بالواحد.

(ومنها) تحذف مما توالىٰ فيه واوان فى كلمة واحدة، مثل داوود، وطاووس، ورؤوس، ويَسْتَوُون، ويَلْوُون، وأْوُوا إلىٰ الكَهْفِ، ويُسَوُّوا، وتَبَوَّؤُوا، وجَاؤُوا ، وبَاؤُوا، وأسَاؤُوا، ويُؤُودُهُ، ويَؤُوسٌ، و، فادرؤوا، ومُبَرَّؤُون، فيكتب بواو واحدة.

وكتب بعضهم طاوُوس ونحوه بواوين علىٰ الأصل، والقياس الٱقتصار علىٰ واو واحدة كراهة ٱجتماع المثلين .

وٱستثنىٰ ٱبن عُصْفُورٍ من ذلك موضعًا، وهو أن لايؤدّى إلىٰ اللبس، نحو قؤول وصؤول علىٰ وزن فَعُول فإنه يلتبس بقَوْلٍ وَصَوْلٍ، وٱختاره أحمد بن يحيىٰ .

(ومنها) تحذف مما توالىٰ فيه ثلاث واوات فى كلمتين ككلمة ، مثل ليسوءوا، وينوءون، فتكتب ليسوءوا، وينوءون، بواوين فقط، ويكتب لَوَّوْا، وٱجْتَوَوْا، وٱلْتَوَوْا، بواوين، لأنه لو حذفت إحدىٰ الواوين لٱلتبس الجمع بالمفرد.

ووقع فى المصحف كتابة يَسْتَوُونَ، ويَلْوُونَ، بواو واحدة، وذلك لأن فى يستوون ونحوه ٱجتمع واوان وضمة، فناسب الحذف، وفى لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ، ونحوه ٱنفتح ماقبل الواو فناسب الإثبات .

(ومنها) تحذف للجزم كما فى قولك لم يَغْدُ فتحذف الواو علامةً للجزم، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

الحرف الخامس

(الياء، وتحذف فى مواضع)

(منها) للجزم كما فى قولك : لم يَقْضِ، فتحذف الياء من آخره علامةً للجزم .

(ومنها) تحذف لمراعاة الفواصل، نحو قوله تعالىٰ : "وَاللَّيْـلِ إِذَا يَسْرِ" بغير ياء فى آخرها لمراعاة ماقبله من قوله "والْفَجْرِ" .

(ومنها) تحذف فيما توالىٰ فيه ياءان أو ثلاثة ، فتَكْتُبُ النَّبِيِّينَ ، وخَاسِـئِينَ ، وخَاطِـئِينَ ، و إِسْرَائِيل ، وما أشبه ذلك بياءين فقط [(١)] ، و إن كان فى اللفظ ثلاث ياءات .

(ومنها) تحذف لأمن اللبس، فتَكْتُبُ قارءين جمع قارئ بياء واحدة، فرقا بينها و بين قَارِئَيْنِ تثنية قارئ فإنها تكتب بياءين .

(ومنها) تحذف مدّة ضمير [(٢)] الغائب مثل قولك : ضربه ، فتكتبه بغير واو ، و إن كنت تلفظ به لأنك إذا وقفت حذفتها و وقفت علىٰ الهـاء ساكنة ، وكذلك مدّة ضمـير الغائبين ، مثـل قولك : ضربهُمُ فى لغة من وصل الميم ، وكذلك حذفوها إذا وليت الكاف ، نحو ضربكُمُ زيد ولكُمُ فى لغــة من وصل الميم بواو و بيـاء ، لأنه إذا وقف حذف الصلة والله أعلم .

النوع الثالث

(ما يُغــيَّر بالبـــدل)

والحروف التى يدخلها البدل ثلاثة أحرف : الألف ، والواو ، والياء ، والألف والياء أكثرهما تعاقبا .

فتنوب الياء عن الألف فى ثلاثة محالّ :

---

(١) لعل فى العبارة سقطا والأصل فيكتب بياء فقط وان كان فى اللفظ ياءين و بياءين فقط وان كان الخ .

(٢) تعلق هذا بالحرف الرابع أكثر منه بالخامس .

المحل الأوّل

(الاسم، وهو ثلاثة أحوال)

الحال الأوّل ــ أن تكون الألف فيه رابعة فصاعدا، نحو المِعْزىٰ، والمُسْتَدْعىٰ، والحُبْلىٰ، والمَرْضىٰ، والمَلْهىٰ، والمَدْعىٰ، والمُشْتَرىٰ، ومِقْلىٰ، ومَثْنىٰ، وكذلك أَعْمىٰ، وأَعْشىٰ، وأظْمىٰ، وأقْنىٰ، وأدْنىٰ، وأعْلىٰ، ومُعَافىٰ، ومُنَادىٰ، وما أشبه ذلك، فتكتب الألف فى جميع ذلك ياءً سواء كان منقلبا عن واو أو منقلبا عن ياء، لأنك إذا ثنيته ثنيته بالياء، ومن ثم كتبت ياويلتىٰ، وياحسرتىٰ، ويا أسفىٰ، بالياء إشعارا بأنها مما تمال أو تقلبها عند التثنية ياء، إلا فيما قبلها ياء نحو الدُّنْيا، والعُلْيا، والقُصْيا، وهُدْيا، ومَعْيَا، ومَحْيَا، وعام حَيًا ورُؤْيَا، وسُقْيَا، فإنك لا تكتب الألف فيها ياءً كراهة أن تجتمع ياءان فى الخط. نعم يغتفر ذلك فى نحو يحيىٰ وريّىٰ علمين: للفرق بين يحيىٰ علما وبينه فعلا وبين ريّىٰ علما وبينه وصفا، وكان البدل فى العلَم دون الوصف والفعل لأن الفعل والصفة أثقل.

قال ابن قتيبة: وأحسبهم اتبعوا فى يحيىٰ رسم المصحف.

فلو كان مهموزا، نحو مستقرأ ومستنبئا، أو قبل آخره ياء نحو خَطَايَا، وزَوَايَا، ورَكَايَا، والحَوَايَا، والحيا، وما أشبهه كتب بالألف. (١)

الحال الثانى ــ أن تكون الألف فيه ثالثةً، فإن كانت مبدلة عن ياء، نحو فتىٰ، ورحىٰ، وسوىٰ، والهُدىٰ، والمَدىٰ للغاية، والهوىٰ لهوىٰ النفس، ونَدىٰ الأرض، ونَدىٰ الجُود، وحَفىٰ الدابة، والكرىٰ النوم، والقَذىٰ، والأَذىٰ، والخَنىٰ: فُحْشُ القول، والضَّنىٰ: المرض، والرَّدىٰ: الهلاك، والطَّوىٰ: الجوع، والأَسىٰ: الحُزْن، والعَمىٰ: فى القلب والعين، والجَنىٰ: جَنى الثمرة، والصَّدىٰ: العطشُ، والشَّرىٰ: فى الجسد، والضَّوىٰ:

(١) كذا فى الضوء أيضا وليس مما نحن فيه.

الهُزَال، والثَّرىٰ : التراب النَّـدِىّ، والجَوىٰ : داء فى الجوف، والسُّرىٰ : [سَـيْرُ] الليل، والسَّلىٰ : سَلىٰ الناقة، ومِنًى : المكان المعروف، والمَدىٰ الغاية (١)، والصَّدىٰ اسم طائر يقـال إنه ذكر البوم، والنَّسىٰ : عرق فى الفَخِذ، وطُوًى : وَادٍ، والوَغىٰ : الحـربُ، والوَحىٰ : العَجَلُ، والوَرىٰ : الخَلْقُ، والذَّرىٰ : الناحيـة وأنا فى ذَرىٰ فلان، والمِعىٰ واحد الأمعاء، والحِجىٰ والنُّهىٰ العَقْلُ، والحَشىٰ واحد الأحشـاء، وما أشبه ذلك كتب بالياء .

وإن كانت منقلبة عن واو، نحو عصـا ، ومَنَا للقَدْر، ورَجَا لجانب البئر، والقَنَا فى الأنف، والرِّما والقرَا للظهر، والعَشا فى العين، والقَفَا : قَفَا الإنسان، والصَّغَا : ميلُك للرجل، ووَطَا جمع وطاة، و[لُهًا جمع] لهاة، والفَلَا جمع فلاة، كتب بالألف .

وتفترق الواو من الياء فيه بطرق أقربها التثنية تقول فى الأوّل فتيان ، ورحيان، وسِويان .

قال ابن قتيبة : فلو ورد عليك اسم قد ثُنِّى بالواو والياء عَمِلْتَ علىٰ الأكثر الأعم . وذلك نحو رَحًى، فإن من العرب من يقول رحوت الرَّحاء، ومنهم من يقول رحَيت، قال : وكَتْبها بالياء أحبُّ إلىّ لأنها اللغة العالية .

وكذلك الرِّضا من العرب من يقول فى تثنيته رضيان ، ومنهم من يقول رضوان، قال : وكتابته بالألف أحب إلىّ : لأن الواو فيه أكثر، وهو من الرضوان . وكذلك الحكم فى متىٰ، لأنها لو سُمِّى بها وثُنِّى، لقلتَ متيان، فيعلم أنه من ذوات الياء ـ وتقول فى الثانى : عَصَوَان ومنَوَان ورَجَوَان، فيعلم أنه من ذوات الواو . فاذا أشكل عليك شيء فلم تَعلَمْ أهو من ذوات الواو [أو من ذوات اليـاء] (٢)؟ نحو خَسَا بالخاء المعجمة والسين المهملة، كتبته بالألف لأنه هو الأصل .

---

(١) تقدم فهو مكرر . (٢) الزيادة عن ضوء الصبح .

ومنهم من يكتب الباب كلّه بالألف علىٰ الأصل وهو أسهل للكُتّاب. وعلىٰ تقدير كَتْبِها بالياء فلو كان منوّنا فالمختار عنـدهم أنها تكتب بالياء أيضا، وهو قياس المبرّد وقياس المـازنىّ أن يكتب بألف إذ هى ألف التنوين عنده فى جميع الأحوال .

وقاس سيبويه المنصوبَ(١) بالألف لأنه للتنوين فقط .

قال ٱبن قتيبة: وتعتبر المصادر بأن يرجع فيها إلىٰ المؤنث، فما كان فى المؤنث بالياء كَتَبْتَه باليـاء، نحو العَمىٰ، والظَّمىٰ، لأنك تقول عَمْيَاء وظَمْيَاء، وما كان المؤنث فيـه بالواو كتبته بالألف، نحو العَشَا فى العين، والعَثَا وهو كثرة شـعر الوجه، والقَنـا فى الأنف، لأنك تقول عَشْواء، وقَنْواء، وعَثْواء .

قال: وكل جمع ليس بين جمعـه و بين واحده فى الهجاء إلا الهاء من المقصور، نحو الحصىٰ، والقَطَا، والنَّوىٰ، فمـا كان جمعه بالواو كتبته بالألف، وما كان جمعه بالياء كتبته بالياء .

وكتبت لَدىٰ بالياء لانقلابها ياء فى لَدَيْكَ .

وأما كِلَا، فالصحيح من مذهب البصريين أنها تكتب بالألف، لأن ألفه عن واو. ومن زعم أنهـا عن ياء كالمعىٰ، كَتَبَها بالياء . وأجاز الكوفيون كتبها بالياء وهو خطأ علىٰ مذهبهم لأن الألف عندهم للتثنية، وألف التثنية لا يجوز أن تكتب ياء لئلا يلتبس المرفوع بغيره. وقياس كلتا عند البَصْريين أن تكتب ياء، وشذ كتابتها بالألف.

قال ٱبن قتيبـة : والذى أستَحِبُّه أن تُكْتبَ كِلَا وكِلْتَا فى حال الرفع بالألف، وفى حالتى الجرّ والنصب بالياء . فإذا قلت: أتانى كِلَا الرجلين أو كِلْتَا المرأتين، كتبته بالألف . وإذا قلت: رأيت كلى الرجلين أو كلتى المرأتين كتبتـه بالياء، لأن العرب قد فرقت بينهما فى اللفظ(٢) فقالوا: رأيت الرجلين كليهما، ومررت بالرجلين كليهما، ومررت بالمرأتين كلتيهما . وقالوا: جاءنى الرجلان كلاهما، والمرأتان كلتاهما .

(١) لعله المنصوب فقط فقال يكتب بالألف الخ . (٢) أى مع المكنى كما هى عبارة ٱبن قتيبة .

وتترىٰ إن لم تنون، فألفها للتأنيث وإن نونت فهى للإلحاق، وقياسها أن تكتب بالياء . ومن زعم أنه فَعْل، فألفه بدل التنوين كألف صبرا، فهو قياسه .

ووقع فى كلام ٱبن البادس أن تترىٰ فى الخط بياء، وهو خلاف المعروف .

تنبيـــــه

لو ٱتصل الٱسم الذى يكتب بالياء بضمير متصل، نحو رَحَاك، وقَفَاك، ومَلْهَاك، ومَرْعَاك، فقيل يكتب بالياء كحال عدم ٱتصالها، فيكتب علىٰ هذه الصورة: رحيٰك، وقفيٰك، ومَلْهيٰك، ومَرْعيٰك .

قال الشيخ أثير الدين أبوحَيّان رحمه الله : وٱختيار أصحابنا فيه بالألف إذا ٱتصل به ضمير خفض أو ضمير نصب، سواء كان ثلاثيا أم أزيد، إلا إحدىٰ خاصةً فإنها تكتب بالياء حال ٱتصالها بضمير الخفض، نحو من إحديٰهما كحالها دون الٱتصال، وٱختلفوا إذا ٱتصلت بتاء تأنيث تنقلب هاء فى الوقف ؛ فذهب البَصْريون إلىٰ كتابتها ألفا، نحو الحصاة، وٱختار الكوفيون كتابتها بالياء نحو الحصيٰة .

الحال الثالث ــ أن تكون الألف فيه ثانية، نحو ما وذا إذا كانا ٱسمين، فيكتب بالألف علىٰ صورة النطق به .

المحل الثـانى

(الفعل، وله حالان)

الحـال الأوّل ــ أن تكون الألف فيه رابعةً فصاعدًا، نحو أعطىٰ، وٱسْتَعْلىٰ، وتَدَاعىٰ، وتعادىٰ، وٱسْتَدْنىٰ، وما أشبهه فتكتبه كلّه بالياء إلا أن يكون مهموزا، نحو أخطأ، وٱنبأ، وتخاطأ، وٱستنبأ، فإنه يكتب بالألف . وكذلك إذا كان قبل آخره ياءٌ، نحو ٱستحيا، وتحايا، وأعيا، وتعايا، وٱستعيا، وما أشبهه فإنك تكتبه بالألف .

ووقع فى بعض المصاحف ﴿ نَخْشىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ ﴾ بالألف فى آخر نخشىٰ ، وفى بعض المصاحف بالياء .

الحال الثانى ـ أن تكون الألف ثالثةً ، فتردّه إلىٰ نفسك ، فإن ظهرتْ فيه الواو فآكتبه بالألف ، نحو قولك : عدا ، ودعا ، ومحا ، وغزا ، وسلا ، وعلا من العلو ، لأنك تقول : عدوت ، ودَعَوْتُ ، ومحوت ، وغزوت ، وسلوت ، وعلوت . وشذ زكىٰ ، فكتب بالياء وإن كان من ذوات الواو ، لأنه من زكىٰ يزكو ، إلا أن العرب يُميلون الأفعالَ ذوات الواو . وإن ظهرت فيه الياء فآكتبه بالياء ، نحو قولك : قضىٰ ، ومشىٰ ، وسعىٰ ، وعسىٰ ، لأنك تقول : قضيت ، ومشيت ، وسعيت ، وعسيت ، ويجوز كتابته بالألف أيضا .

تنبيه

لو آتصل بالفعل ضمير متصل ، نحو رماه ، وجزاه ، ورعاه ، فقيل يكتب علىٰ حاله بالياء ، فيكتب علىٰ هذه الصورة : رمٰيه ، وجزٰيه ، ورعٰيه ، والصحيح كتابته بالألف .

قال آبن قتيبة : وكل ما لحقته الزيادة من الفعل لم تنظر إلىٰ أصله ، وكتبته كله بالياء ، فتكتب أَغْزىٰ فلان فلانا ، وأدنىٰ فلان فلانا ، وألهىٰ فلان فلانا بالياء . وهو من غزوت ، ودنوت ، ولهوت ، لأنك تقول فيه : أغزيت ، وأدنيت ، وألهيت . وكذلك تكتب يُغْزىٰ ، ويُدْنىٰ ، ويُلْهىٰ ، علىٰ البناء لما لم يسم فاعله بالياء ، لأنك تقول فى تثنيته : يُغْزَيان ، ويُدْنَيَانِ ، ويُدْعَيَانِ .

المحل الثالث

(بعض الحروف)

وآعلم أن الحرف الذى فى آخره ألف فى اللفظ إنما يكتب أَلِفاً علىٰ صورة لفظه ، نحو ما ، ولا ، وألا ، وما أشبهها ، وآستثنَوْا من ذلك أربع صور فكتبوها بالياء .

إحداها ــ بَلَىٰ ،قال بعض النحاة لإمالتها : وقال سيبويه :لأنه إذا سمى بها،وثنيت قيل بَلَيَانِ كما يقال فى متىٰ مَتَيانِ .

الثانية ــ إلىٰ ، وكُتبت بالياء لأنها تُرَدّ إلىٰ الياء فى قولهم إليك .

الثالثة ــ علىٰ ،وكتبت بالياء لأنها تُرَدُّ إلىٰ الياء أيضا فى قولهم عليك .

قال ٱبن قتيبة : وكان القياس فيها وفى إلىٰ أن تكتبا بالألف لعدم جواز الإمالة فيهما .

الرابعة ــ حتّىٰ ، وكتبت بالياء حملا علىٰ إلىٰ لكونهما بمعنىٰ الآنتهاء والغاية ، ولأنه قد روى فيها الإمالة عن بعض العرب فروعى حكمها .

تنبيـــــــه

لو وليتْ ما الآستفهامية حتّىٰ ، أو إلىٰ ، أو علىٰ ، كُتِبْنَ بالألف علىٰ هذه الصورة : حَتَّام ، و إلام ، وعَلَامَ ، لأنها شديدة الآتصال بما الآستفهامية بدليل أن ما بعدها لا يوقف عليه إلا بذكرها معه ، فكأنّ الألف وقعت وَسَطًا فصارت كحال ما كتب بالياء إذا ٱتصل بضمير خفض أو ضمير نصب ،فإنه يكتب بالألف .

قال الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله : فإن وُصل فى حَتَّامَ و إلىٰ الهاء الحائرة ، فلك أن تجريها علىٰ الآتصال ولاتعْتَدَّ بها ، ولك أن تعتدّ بها وترجعَ الألف فى حتّىٰ ، و إلىٰ ، وعلىٰ ، إلىٰ أصلها ، فتكتب بالياء يعنى علىٰ هـذه الصورة حتّىٰ مه ، و إلىٰ مه ، وعلىٰ مه .

(فائدة)

قد يُكْتَبُ بالياء ما هو من ذوات الألف للمجاورة كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ والضُّحىٰ وَاللَّيْلِ إذا سَجىٰ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلىٰ ﴾ فإن الضُّحىٰ ونحوه قياسه عند البصريين

أن يكتب بالألف لأنه من ذوات الواو، ولكنه كتب باليـاء لمجاورة سجىٰ، وسجىٰ وإن كان من ذوات الواو أيضا، كتب بالياء لمجاورة قلىٰ الذى هو من ذوات الياء، فسجىٰ مجاور، والضحىٰ مجاور المجاور .

وأما الواو فقـد نابت عن الألف فى مواضع من رسم المصحف الكريم : وهىَ الصلاة، والزكاة، والحيـاة، والنجاة، ومِشْكَاة، ومَنَـاة، فتكتب علىٰ هذه الصورة : الصلوٰة، والزكوٰة، والحيوٰة، والنجوٰة، ومنوٰة، ومِشْكوٰة . فمنهم من كتبها كذلك فى غير المصحف أيضا آتباعا للسَّلَف فى ذلك، ومنهم من كتبها بالألف وهو القياس، ووجه بأن رسم المصحف متبع فى القرءان خاصةً . ولا يكتب شىء من نظائر ذلك إلا بالألف . كالقناة، والقطاة، آقتصارا علىٰ ما ورد به الرسم السلفىّ .

قال آبن قتيبة : وقال بعض أهل الإعراب : إنهم كتبوا هذه الكلمات بالواو علىٰ لغات الأعراب، وكانوا يَميلون فى اللفظ بها إلىٰ الواو شيئا . وقيل بل كتبت علىٰ الأصـل، إذ الأصل فيها واو، لأنك إذا جمعت قلت : صلوات، وزكوات، وحيوات، وإنما قلبت أَلِفًا، لمـا آنفتحت وآنفتح ماقبلها .

قال : ولولا آعتياد الناس لذلك فى هذه الأحرف الثلاثة : أى الصلاة، والزكاة، والحياة، لكان من أحب الأشـياء إلىّ أن تكتب كلها بالألف . وجمعوا فى الربا بين العوض والعوض منه، فكتبوه بواو وألف بعدها علىٰ هذه الصورة : الربوا .

وفى بعض المصاحف ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا﴾ بألف بغير واو، وما سواه فلا خلاف فيه .

تنبيـــــــــه

لو آتصل بشىء ممـا أبدلت ألفه واوا ضمير، نحو صلاتهم، وزكاتهم، وحياتك، ونجاته، ومِشْكَاته، ورباه، كتبت بالألف دون الياء (١)، والله أعلم .

(١) كذا فى الضوء أيضا . ولعل صوابه دون الواو .

القســـم الثانى

(ما ليس له صـــورة تخصـــه)

وهو الهمزة، إذ تقع علىٰ الألف والواو والياء، وعلىٰ غير صورة، ولها ثلاثة أحوال.

الحـال الأوّل

(أن تكون فى أوّل الكلمة)

فتكتب ألفا بأىّ حركة تحرّكت : من فتحة، مثل أحمد، وأيوب، وأحد، أو ضمة : نحو أُخذ، وأُكْرِمَ، وأُوحِىَ، وأولئك، أو كسرة : نحو إبراهيم، وإسمعيل، وإسحق، وإثْمِد، وإبِل، وإذ، وإذا، وإلىٰ، وإلّا، وإمّا، سواء فى ذلك همزة القطع مثل أَكْرَمَ، وهمزة الوصل مثل ٱتخذ، والهمزة الأصلية مثل ٱمرئٍ، والهمزة الزائدة مثل إشاح. وذلك لأن الهمزة المبتدأة لا تخفف أصلا من حيث إن التخفيف يقرّبها من الساكن، والساكن لا يقع أوّلا، فجعلت لذلك علىٰ صورة واحدة. وٱختصت الألف بذلك دون اليـاء والواو حيث شاركت الهمزةَ فى المخرج، وفارقت أختيها فى الخِفّـة، ولا فرق فى ذلك بين أن تكون الهمزة مُبْتَـدَأَةً كما فى الصور المذكورة، أو تقدّمها لفظ آخر، نحو ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ ﴾ وفَبِأَىّ، وأفأنت، وبأنه، وكأنه، وكأين، وبإيمان، ولإيلاف، ولَبإمام، وسأترك، ولأُقَطّعن، ومررت بأحمد، وجئتُ لِأُكْرِمَك، وٱكتحلتُ بالإثمد، إلا فيما شذّ من ذلك، نحو هؤلاء، وٱبْنَؤُمّ، ولئن، ولِئَلّا، ويومئذ، وحينئذ، وما أشبهها، فإنه كان القياس أن تكتب الهمزة فيها ألفا لأنها وقعت أوّلا، لكنهم خالفوا فكتبوا همزة هؤلاء، وٱبْنَؤمّ بالواو، وإن كانت فى الحقيقـة مبتدأة بدليل أن ها حرف تنبيه وهو منفصل عن ٱسم الإشارة. وكذلك ٱبنُ ٱسم أضيف إلىٰ الأم، لكنهم شـبهوها بهمزة لُؤم، فكتبوها بالواو، وراعَوْا فى ذلك كثرة لزوم

هاء الإشارة، وعدم آنفكاك آبنؤم الواقع فى القرءان، فكأنها صارت همزة متوسطة . وكتبوا همزة لئن ، ولئلا ، وحينئذ ، و يومئذ ، وما أشبهها ياء و إن كانت أوّل كلمة وكان القياس أن تكتب بالألف . أما لئن ، فلأن أصلها لَإنْ بلام ألف ونون . وأما لِئَلَّا ، فلأن أصلها لِأَنْ ، بلام ألف ونون منفصلة من لا ، بدليل أنهم إذا لم يجيئوا بعدها بلا ، كتبوها لِأَنْ ، نحو جئتَ لأن تقرأ ، لكنهم جعلوا اللام مع أنْ كالشىء الواحد . وكذلك حينئذ ، ويومئذ ، فإن الأصل أن يفصل الظرف المضاف للجملة التى بقىٰ منها إذٍ المنوّنة تنوينَ العِوَض وأن يكتَبَ بالألف ، لكن جعل الظرف مع إذٍ كالشىء الواحد ، فوصل بإذ ، وجعلت صورة الألف ياءً كما جعلوها فى يَئِسَ . وكذلك الحكم فى كل ظرف أضيف إلىٰ ماذكر ، سواء المفرد : كالأمثلة المذكورة ، والجمع نحو أزْمَانَئِذٍ . وسيأتى الكلام علىٰ ما يتعلق من ذلك فى الفصل والوصل إن شاء الله تعالىٰ .

الحال الثانى

(أن تكون متوسطة ، ولها حالتان)

الأولىٰ ــ أن تكون ساكنة ، فلا يكون ما قبلها إلا متحرّكا وتكتب بحركة ما قبلها . فإن كان ما قبلها مفتوحا ، كتبت ألِفًا نحو رأس ، وكأس ، وبأس ، ويأس ، وضأن ، وشأن ، ودأب ، وتأمُرُ ، وتأكُلُ . وإن كان ما قبلها مضموما ، كتبت واوًا ، نحو مؤْمن ، ونؤْمن ، وتُؤْوِى ، وتُؤْتِى ، ومؤتى ، ويؤفك ، وما أشبهها . وإن كان ما قبلها مكسورا ، كتبت ياء ، نحو بئر ، وذئب ، وبئس ، وأنبِئْهم ، ونبئْنا ، وجئت ، وجئنا ، وشئت ، وشئنا ، ولَمُلِئْتَ ، وما أشبهها .

الثانية ــ أن تكون الهمزة متحركة ، والنظر فيها بآعتبارين .

الاعتبار الأوّل — أن يكون ماقبلها ساكنا، وحينئذ فلا يخلو: إما أن يكون حرفا من حروف العلة (وهى الألف والواو والياء) أوحرفا صحيحا. فإن كان الساكن الذى قبلها حرفَ علة نُظِرَ: إن كان حرف العلة ألفا، فإن كانت حركة الهمزة فتحةً، فلا تثبت للهمزة صورة نحو ساءل، وأبناءنا، وأبناءكم، ونساءنا، ونساءكم، وجاءنا، وجاءكم، (وساءل، فَاعَلَ من السؤال) وما أشبهه. وإن كانت ضمة تثبت لها صورة الواو، نحو التَّسَاؤُلُ، وآباؤكم، وأبناؤكم، وأولياؤكم، وبآبَائنا(١)، وشبه ذلك؛ وإن كان حرف العلة واوا أو ياء: فإما أن تكونا زائدتين للمدّ، أوتكون الياء للتصغير أوأصليتين أوملحقتين بالأصل. فإن كانتا زائدتين للمدّ نحو خطيئة، ومقروءة، وهنيئا، مريئا، أو ياءَ تصغيرٍ نحو أُفَيْئس تصغير أَفْؤُس جمع فاسٍ، فلاصورة للهمزة. وإن كانتا أصليتين نحوسوْءَة، وهيئة، أوملحقتين بالأصل نحو جيْئل (وهو الضَّبُعُ)، وحَوْءَبَة (وهو الدلو العظيم)، والحَوْءَبُ (آسم موضع)، والسَّمَوْءَل (آسم رجل)، فإنك تحذفها وتنقل حركتها إلىٰ الساكن قبلها فتقول: سوَة، وهيَة، وجيل، وحوبة، وحَوب وسَمول. ولا صورة للهمزة حينئذ فى تحقيقها ولا فى حذفها. وإن كان الساكن الذى قبلها حرفا صحيحا، نحو المرْأَة، والكَمْأَة، ويسْأَمُ، ويُسْئِمُ، ويَلْؤُمُ ونحو ذلك، فتنقل حركة الهمزة إلىٰ الساكن قبلها وتحـذف الهمزة. والأحسن الأقيس أن لا تثبت لهـا صورة فى الخط لافى التحقيق ولا فى الحذف والنقل.

ومنهم من يجعل صورتهـا الألفَ علىٰ كل حال، فيكتبها علىٰ هذه الصورة: المرأة والكَمْأة، ويسأم، ويسإم، ويلأُم، وهو أقل آستعمالا. وقد كتب منه حرف فى القرءان بالألف، وهو قوله تعالىٰ: "يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبائِكُمْ".

---

(١) كذا فى الأصل، وليس هذا موضعها كما هو ظاهر.

ومنهم من يجعل صورتها على حسب حركتها، فيكتب المرأة، والكمأة، ويَسْأَمُ، بالألف، ويكتب يُسْئِمُ بالياء، ويكتب يَلْؤُمُ بالواو. واستثنى بعضهم من ذلك ما إذا كان بعدها حرف علة، نحو سُؤُول، ومَشْئُوم، فلم يجعل لها صورة أصلا، وإذا كان مثل رءوس يكتب بواو واحدة فلا صورة لها. وكذلك الموءودة فى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْمَوءودَةُ سُئِلَتْ﴾ على ما كتبت فى المصحف بواو واحدة لا يجعل لها صورة.

الاعتبار الثانى — أن يكون ماقبلها متحرّكا فينظر: إن كانت مفتوحة مفتوحا ماقبلها، كتبت ألفا نحو سَأَلَ، ورَأَيْتُ، ورَأَوْكَ، وبدأكم، وأَنْشَأَكم، وقرأه، ولِيَقْرَأَهُ، وشبه ذلك. إلا إن كان بعدها ألف فلا صورة لها، نحو مَآل ومَآب. وذهب بعضهم إلى أنها تصوّر ألفا فتكتب بألفين. وإن كانت مفتوحة مكسورا ما قبلها نحو خاطئة، وناشئة ولَيُبَطِّئَنَّ، ومَوْطِئًا، وخَاسِئًا، ويُنْشِئكُمْ، وشَانِئَكَ، صوّرت بمجانس ماقبلها (وهو الكسرة) فتصوّر ياء. وإن كانت مفتوحة، مضموما ما قبلها نحو الفُؤَاد، والسؤال، ويُؤَدِّه إليك، ويؤلف، ومُؤَجَّلا، ومُؤَذِّنٌ، وهُزُؤًا، وشبهه، صوّرتها بمجانس ماقبلها. وإن كانت مضمومة، مضموما ماقبلها، نحو نُؤُم، كَصُبُرٍ جمع صبور، أومضمومة، مفتوحا ما قبلها نحو لَؤُم، كتبت بالواو فى الحالتين، إلا إن كان بعدها فى الصورتين واو (١)، نحو رءوس، ونَئُوم، وإن كانت مضمومة، مكسورا ماقبلها نحو يَسْتَهْزِءُونَ، وأُنبِئكم، ولايُنَبِّئُكَ، وسَنُقْرِئُكَ، كتبت بواو على مذهب سيبويه، وياء وواو بعدها (٢) على مذهب الأخفش.

---

(١) أى فلا صورة لها. (٢) هذا خاص بنحو يستهزءون و يقرءون.

الحـال الثـالث

(أن تكون الهمزة آخرا، ولهـا حالتان أيضا)

الأولىٰ

(أن يكون ماقبلها ساكنا، والنظر فيها باعتبارين)

الاعتبـار الأوّل ـ أن يكون ما قبلها صحيحا، فتحذف الهمزة وتلقى حركتها علىٰ ما قبلها ولاصورة لها فى الخط، نحو جزء، وخبء، ودفء، والمرء، وملء. سواء فى ذلك حالة الرفع والنصب والجرّ. وقيل: إن كان ما قبـل الساكن مفتوحا، فلا صورة لهـا. وإن كان مضموما، فصورتها الواو، وإن كان مكسورا، فصورتها الياء مطلقا. وقيل: إن كان مضموما أومكسورا فعلىٰ حسب حركة الهمزة، فيكتب الجزء، والدفء، بالواو فى الرفع وبالألف فى النصب وبالياء فى الجرّ. وإن كان شيء من ذلك منصوبا منوّنا فيكتب بألف واحدة، هى البدل من التنوين. وقيل: يكتب بألفين، إحداهما صورة الهمزة، والأخرىٰ صورة البدل من التنوين.

الاعتبار الثانى ـ أن يكون ماقبلها معتلا، فينظر: إن كان حرف العلة زائدا للمدّ، فلا صورة لها نحو نبيء، ووضوء، وسمـاء، والسُّوء والمسيء، وقرّاء، (١) وشاء، ويشاء، والمـاء، وجاء، إلا إن كان منوّنا منصوبا فيَكْتُبُهُ البَصْريون بألفين، والكوفيون وبعض البَصْريين بواحدة، وهذا إذا كان حرف العلة ألفا نحو سماء: الألف الواحدة حرف العلة، والأخرىٰ البدل من التنوين. فإن اتصل ماقبله ألف بضمير مخاطب أو غائب، فتصوّر الهمزة واوا رفعا، نحو هذا سمـاؤك، وياءً جرّا نحو نظرت إلىٰ سمائك، وألفا واحدة هى ألف المدّ نَصْبـاً، نحو رأيت سماءك. أما إذا كان حرف

(١) هذه الألفاظ الأربعة ليس فيها مدزائد ولعله مصحف وأصله [و بناء ونساء والمساء وخباء الخ]. فليحرر.

العلة ياء أو واوا نحو رأيت وضوءا، فيكتب بألف واحدة. وإن كان حرف العلة غير زائد للمدّ، فلا صورة للهمزة فى الخط .

الحالة الثانية
(أن يكون ما قبل الهمزة متحركا)

فتكتب صورة الهمزة على حسب الحركة قبلها. فإن كانت الحركة فتحة، رسمت ألفا، نحو بَدَأَ، وأَنْشَأَ "ومِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ" والمَلَأ، ويُسْتَهزَأُ، على البناء للمفعول، ويُنْشَأُ كذلك، ورأيت آمْرَأً وما أشبهه. وإن كانت كسرة رسمت ياء، نحو قُرِئَ، وآستُهْزِئَ، ولكل آمْرِئٍ، ومن شَاطِئ، ويَسْتَهْزِئُ، على البناء للفاعل، وبرئ ومررت بامرئ. وإن كانت ضمة، رسمت واوا، نحو آمْرُؤ، واللؤلؤ، وما أشبه ذلك، إلا فى مثل النبأ إذا كان منصوبا منونا فقيل : يكتب بألفين نحو سمعت نبأا، وقيل : بواحدة وهو الأَوْلى . وإن آتصل بها ضمير، فعلى حسب الحركة قبلها كحالها إذا لم يتصل بها ضمير. وقيل : إن كان ماقبلها مفتوحا، فبألف نحو لن يقرأ، إلا أن تكون هى مضمومة فبواو، إن قلنا بالتسهيل بين الهمزة والواو، وبالياء إن قلنا بإبدالها ياء، وقيل إن آنضم ما قبلها أو آنكسر، فكما قبل الآتصال بالضمير، فتجعل صورتها على حسب الحركة قبلها. وإن آنفتح ماقبلها وآنفتحت، فبالألف نحو لن يقرأ، وكذلك إذا آنفتح ماقبلها وسكنت نحو لم يقرأ، ولم يُنَبَّأْ، وآقرأ، وإن نشأ وما أشبهه. وإن آنفتح ما قبلها وآنضمت، فبالواو نحو يقرؤ . وقيل بالواو والألف كما كتبوا فى المصحف ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا﴾ و ﴿نَبَؤُا الْخَصْمِ﴾ و ﴿يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّؤُا﴾ بواو وألف فى الجميع. أو آنكسرت، فبالياء نحو من المقرئ، وقيل بها وبألف كما كتبوا فى المصحف ﴿مِن نَّبَأى الْمُرْسَلِينَ﴾ بألف وياء .

تنبيـــــــه

قد تقدّم فى الحذف أن همزة الوصل تحذف فى بعض مواضعَ وتثبت فيما عداها. فحيث ثبتت، كتبت بحسب حالها إذا ٱبتدئ بها. فإن كانت يبتدأ بها مضمومة، كتب ما يليها واوا إن كانت همزة أو واوا مبدلة منهـا، نحو اؤْتُمِنَ فلان، وقلت لك اؤمر فلانا بكذا؛ وإن كانت يبتـدأ بها مكسورة، كتب ما يليها ياء إن كانت همزة أو ياء مبـدلة منها، نحو ٱئذن لى يازيد، ائت القوم، ائت عليهم كذلك وإن كان النطق بها واوا بضم ما قبلها نحو ﴿وَمِنْهُم مَّنْ يَقُولُ ٱئْذَنْ لِى﴾ تكتبه ياءً علىٰ الهمزة فى الٱبتـداء بها؛ ويستثنىٰ فاء اِفعل من نحوِ يَوْجل مثـل يَوْسن فإنها تكتب واوا بعد الواو والفاء كما فى قولك فٱوجل، وٱوجل. يكتبان بإثبات ألف الوصل، والواو بعدها ولم يكتبوها علىٰ ٱبتداء الهمزة. أما بعد غير الواو والفاء، فإنها تكتب بحسب الٱبتداء بها نحو قلت لهـا ٱيجلى، أو ثم ٱيجلى، وقلت لكم ٱيجلوا، فانك تلفظ به واوا وتكتبه ياء للانفصال؛ وإن كانت قبلها كسرة كانت ياء لفظا وخطا، نحو قلت لَكِ ٱيجلى، وكذلك إذا ٱبتدئ بهمزة الوصل نحو ٱيجلى ياهند.

وٱعلم أنه إذا وقعت همزة ٱستفهام وبعدها همزة قطع صوّرت همزة القطع بعدها بمجانس حركتها. فإن كانت الحركة فتحة كتبت ألفا، نحو أأسجد وإن كانت الحركة ضمـة كتبت واوا نحو أؤُنْزِل وإنـــ كانت الحركة كسرة كتبت ياء نحو أَئِنَّـكَ لأنها إذا خُفِّفت بالبدل كان إبدال المفتوحة ألفا، وإبدال المضمومة واوا، وإبدال المكسورة ياء. وقد تحـذف المفتوحة خطا فتكتب بألف واحدة، نحو أسجـد كما فى رسم المصحف.

وٱختلف فى الساقطة من الهمزتين والحالة هذه: فقيل الثانية، وهو قول أحمد ٱبن يحيىٰ: وقيل الأولىٰ وهو قول الكسائىّ.

فلو كانت ثلاث ألفات فى اللفظ نحو قوله تعالىٰ : ﴿ أآلِهَتُنَا خَيْرٌ ﴾ فقال أحمد ابن يحيىٰ : تكتب بواحدة .

وآختلف فى الثابتة ، فذهب الفراء وثعلب وآبن كيسان إلىٰ أنها الآستفهامية لأنها حرف معنًى . وحكىٰ الفراء عن الكسائى : أنها الأصلية وحكاه آبن السيد عن غير الكسائى وحُكى عنه أنها ألف الجمع .

وقد تكتب غير المفتوحة ألفا نحو قوله أإنَّك ، لأن الألف هى الأصل ، والهمزة حرف زائد لمعنًى كالواو والفاء فلا يعتدّ به ، لكنه قليل ، والله أعلم .

الجملة الثانية

(فى حالة التركيب والفصل والوصل)

وآعلم أن الأصل فصل الكلمة من الكلمة ، لأن كل كلمة تدل علىٰ معنًى غير معنىٰ الكلمة الأخرىٰ ، فكما أن المعنيين متميزان فكذلك اللفظ المعبِّر عنهما يكون متميزا . وكذلك الخط النائب عن اللفظ يكون متميزا بفصله عن غيره . ويستثنىٰ من ذلك مواضعُ كتبت علىٰ خلاف الأصل .

(منها) أن تكون الكلمتان كشىء واحد ، وذلك فى أربعة مواضعَ .

الموضع الأول ــ أن تكون الكلمتان قد رُكِّبتا تركيبَ مزج ، مثل بعلبك : ليدل علىٰ أن التركيب الذى يعتبر(١) فيه وصل الكلمة بالأخرىٰ هو تركيب المزج ، وهو أن يتحد مدلول اللفظين . بخلاف ما إذا رُكبتا تركيبَ إسناد نحو زيد قائم ، أو تركيبَ إضافة نحو غلامُ زيدٍ ، أو تركيبَ بناءٍ لم يتحد فيه مدلول اللفظين نحو خمسة عشرَ ، وصباحَ مساءَ ، وبينَ بينَ ، وحَيْصَ بَيْصَ ، فإن هذا كله يكتب مفصولا لا تخالط فيه كلمة بأخرىٰ .

(١) لعله يغتفر .

الموضع الثانى ـ أن تكون إحدىٰ الكلمتين لا يبتدأ بها فى اللفظ، نحو الضمائر البارزة المتصلة، ونون التوكيد، وعلامة التأنيث والتثنية والجمع فى لغة أكلونى البراغيث، وغير ذلك مما لا يمكن أن يبتدأ به، فكل هذا يكتب متصلا و إن كان من كلمتين .

الموضع الثـالث ـ أن تكون إحدىٰ الكلمتين لا يوقف عليها ، وذلك ما كان نحو باء الجر، وفاء العطف ، ولام التأكيد ، وفاء الجزاء، فإن هـذه الحروف لا يوقف عليها ، فلما آمتزجت فى اللفظ آمتزجت فى الخط فتكتب متصـلة و إن كانت فى الحقيقة كلمتين .

الموضع الرابع ـ أن تكون الكلمة مع الأخرىٰ كشىء واحد فى حال مّا فاستصحب لها الآتصال غالبا : مثل بعلبك، إذا أعرب إعراب المضاف والمضاف إليه، فإن هـذا الإعراب يقتضى أن تفصل إحدىٰ الكلمتين من الأخرىٰ ، لأن الإعراب قد فصلهما . أما إذا أعرب إعراب مالا ينصرف فلا يصح فيه الفصل أصلا، لأنّ اللفظ الثانى منتهىٰ الآسم، فهو مفرد فى المعنىٰ وفى اللفظ .

وكتبوا لئلّا مهموزةً وغير مهموزة بالياء (وكان القياس أن تكتب بالألف) كما تكتب لأنْ إذا كانت اللام مكسورة بالألف فكذلك إذا زيدت عليها لا ، إلا أن الناس آتبعوا رسم المصحف ، وكذلك لَئِنْ فعلت كذا تكتبه بالياء آتباعا للمصحف، و إن كان القياس أن يكتب بالألف . وسيأتى الكلام علىٰ وصل لا بإن فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

(ومنها) توصل مِنْ الجارّة وهى المكسورة الميم بمـا بعدها بعد حذف النون منها علىٰ ما تقدّم فى موضعين :

الموضع الأوّل ـ توصـل بِمَن المفتوحة الميم مطلقا، سواء كانت موصولة نحو أخذت الدرهم مِمَّنْ أخذتَه منه ، أو موصوفة كما فى المثال المذكور فإنها فيه تحتمل

المعنيين جميعا، أو ٱستفهامية نحو مِمَّنْ أنت ؟ أوشرطية نحو مِمَّن تأخُذْ درهما آخُذْ منه، وإنما وصلت بها لأجل ٱشتباههما خطا إذ لو كتبتا مِنْ مَنْ لكانتا مشتبهتين فى الصورة فأُدغمت نون مِنْ فى ميم مَنْ ونُزِّلت منزلة المدغم فى الكلمة الواحدة، فلم يجعل له صورة بل حذف مع كتبه متصلا ، وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك فى الحذف . هذا هو المشهور الراجح .

وقال الأستاذ بن عصفور: إن كانت مَنْ ٱستفهاميةً، كتبت مفصولة علىٰ قياس ماهو من المدغمات علىٰ حرفين .

الموضع الثانى — توصل بعد حذف النون أيضا بما ، إذا كانت موصولة نحو عجبتُ مما عجبتَ منه، أو ٱستفهامية نحو مِمَّ هذا الثوب؟ أو زائدة كما فى قوله تعالىٰ: ﴿مِمَّا خَطَايَاهُمْ أُغْرِقُوا﴾ . أما إذا كانت شرطية نحو مِنْ ماتأخُذْ آخُذْ، أوموصوفة نحو أكلتُ من ما أكلتَ منه، فإن القياس يقتضى أن تكون مفصولة .

وقال الأستاذ أبو الحسن بن عصفور : إذا كانت ما غير ٱستفهامية، كتبت مِنْ معها، وقضيته أنها لاتكتب متصلة إلا فى حالة الٱستفهام فقط، وتكتب منفصلة فيما عداها .

قال الشيخ أثير الدين أبو حيّان رحمه الله : والأوّل أصح لأنّ علة الوصل فى مِمَّن مفقودة فى مما، وهى ٱلتباس اللفظين خطا .

(ومنها) توصل عن بما بعدها بعد حذف النون منها علىٰ ما تقدّم، فى موضعين .

الموضع الأوّل — توصل بمَنْ الموصولة غالبا ، نحو رَوَيْتُ عَمَّنْ رويتَ عنه ، ويجوز فصلها، فتفصل عن مِنْ مَنْ وتثبت النون فى عن ، وأما مَنْ غيرُ الموصولة، فالقياس فصلها، فتكتب فى الٱستفهام عن من تسأل؟ وفى الشرط، عن مَنْ ترض أرضَ عنه، فتفصل عَنْ مِنْ مَنْ علىٰ ما مر .

وزعم ابن قتيبة أن عَنْ مَنْ تكتب موصولة بكل حال، سواء الموصولة وغيرها كما تكتب عمّ وعما موصولة من أجل الإدغام. وزعم غيره أنه لا يؤثر الإدغام فى ذلك لأنهما كلمتان إلا فى نحو عما قليل لزيادتها.

الموضع الثانى ـ توصل بما الاستفهامية، كما فى قوله تعالىٰ ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ وتحذف الألف من ما علىٰ ماتقدّم فى الحذف.

(ومنها) توصل مَعَ بما إذا كانت زائدة، وتقطع إذا كانت موصولة، قاله ابن قتيبة.

(ومنها) توصل فى بمَنْ فى موضعين:

الموضع الأول ـ توصل بمَنْ الاستفهامية دائما نحو قولك: فيمَنْ تفكر؟ ولكن لاتحذف الياء منها كما حذفت النون من عَنْ ومن، إذ لا إدغام هنا.

الموضع الثانى ـ توصل بما إذا كانت موصولة فى الغالب نحو فكَّرْتُ فيما فكَّرت فيه، ولا تسقط الياء علىٰ مامر. ويجوز فى هذه الحالة فصلها، فتفصل "فى" عن "ما". وتكتب علىٰ هذه الصورة "فى ما". وكذلك توصل بما إذا كانت استفهامية نحو قوله تعالىٰ: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا﴾ ولا تحذف ياؤها كما تقدّم.

أما مع إذا اتصلت بما أو بمن، فإنها تكتب منفصلة. قاله ابن قتيبة.

قال بعض النحاة: أظنّ سبب ذلك قلة الاستعمال، وإلا فما الفرق بين مع وبين فى. قال: وقد يمكن أن يفرق بينهما فى الاسمية، فإن فى لا تكون إلا حرفا، ومع إن تحرّكت كانت اسما، وإن سكنت، بخلاف والأصح الاسمية، وأيضا فإنها تنفصل مما بعدها.

(ومنها) توصل الحروف النواصبُ للاسم، الروافعُ للخبر، إذا دخلت علىٰ ما الزائدةِ نحو إنما وكأنما وليتما. فتكتب إنَّ وكأنَّ ولَيْتَ متصلات بما، نحو إنما فعلت كذا، وإنما كلمتُ أخاك، وإنما أنا أخوك، وكأنما وجْهُه قمر، وليتما هذا الشيءُ لى،

ونحو ذلك . فإن كانت ما موصولة، كتبت مفصولة نحو إنَّ ما قلتَ لَحَقٌّ ، وكأنّ ما حَدَّثْت صحيحٌ، وليت ما لَكَ لى . علىٰ أنه قد جاء فى القرءان كثير من ذلك متصلا . وزعم بعضهم أنه لم يأت فى القرءان مفصولا إلا قوله تعالىٰ فى الأنعام : ﴿إِنَّ مَاتُوعَدُونَ لَآتٍ﴾. وقد كتبوا فى المصحف : ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ فى الطور وغيره متصلا ،وكذلك : ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ .مع رفع كيد ونصبه،و إن كانت ما موصولة فى الموضعين .

(ومنها) توصل قَلّ بما إذا دخلت عليها نحو قَلَّمَا أتيتك مائة مرة .

(ومنها) توصل إن الشرطية بلا إذا دخلت عليها بعد حذف النون نحو : ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِى الْأَرْضِ﴾ .

(ومنها) توصل إن الشرطية بما إذا جاءت بعدها بعد حذف النون نحو : ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ . و إنما حذفت النون فى هذه وماقبلها لإدغامها كما فى مما وعما ونحوه .

(ومنها) توصل أين بما نحو : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ﴾. لأن ما إذا دخلت علىٰ أين صارت جازمة إذ تقول : أين تكون أكون ، فترفع النون، فإذا دخلت عليها ما، قلت : أينما تَكُنْ أَكُنْ بجزمت، فصارت أين وما كأنها كلمة واحدة. فإن كانت ما موصولة، فصلت نحو أين ما ٱشتريتَ تريد أين الذى ٱشتريتَ.

ولم يصلوا متىٰ بما بل كتبوها منفصلة عنها، إذ لو وصلت للزم قلب الياء ألفا كما فى حتام فتكتب مَتَامَ فيتعذر إدراكها .

(ومنها) توصل حيث أيضا بما نحو : ﴿وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾. كما تقدّم فى أين .

(ومنها) توصل كل بمـا المصدرية، إذا دخلت عليها، نحو كُلَّمَا جئتَنى أحسنتُ إليك . فإن كانت نكرة منعوتة كتبت مفصولة نحو كُلُّ ماتفعلُ حسنٌ، وكُلُّ ما كان منك حسنٌ .

قال ابن قتيبة : وكُلُّ مَنْ مقطوعة على كل حال ومكان .

(ومنها) توصل هلْ بِلَا، وتحذف إحدى اللامين على هذه الصورة (هَلَّا فعلت) وتقطعها من بل، فتكتب (بَلْ لاتفعل) .

قال ابن قتيبة : والفرق بينهما أنَّ لا إذا دخلت على هل تغير معناها، فكأنها معها كلمة واحدة، وإذا دخلت على بل لم تغير المعنى تقول : بل تفعل، وبل لاتفعل، كما تقول : كى تفعل، وكى لاتفعل .

(ومنها) توصل بين بمـا الزائدة، نحو بينما أنا جالس، وبينما أنا أمشى .

(ومنها) توصل أىُّ بما إذا كانت ما زائدةً كما فى قوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام : ﴿أَيَّمَـا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ﴾ وكما تقول : أيَّمـا الرجلين لقيتَ فأكرم . فإن كانت ماموصولة قطعت فتكتب أىُّ ماتراه أوفقُ، أىُّ ماعندك أفضلُ، مقطوعةً .

(ومنها) يوصل يوم وحين بإذٍ من قولك يومئذ وحينئذ، وكان القياس الفصل، على ما تقدّم فى الهمزة .

(ومنها) توصل لَئِنْ ولِئَلَّا وإن كان كل منهما كلمتين . إذ الأصل لَإِنْ ولِأَنْ لا وقد تقدّم بيان كتابتهما بالياء دون الألف، لكونهم جعلوه مع مابعده كالشىء الواحد .

(ومنها) توصل أَنْ المفتوحة بلا إذا دخلت عليها بعد حذف النون على أحد الأقوال فتكتب على هذه الصورة (أَلَّا) . (والثانى)، تفصل منها وتثبت النون، فتكتب على

هذه الصورة : (أن لا يقوم) . و(الثالث)، يُفَصَّل بين أن تكون مخفَّفة عن الثقيلة، فتكتب مفصولة نحو علمت أن لا يقومُ زيدٌ، وعلمت أنْ لا ضرر عندك ، التقدير أنه لا يقوم وأنه لا ضرر عنـدك ولذلك ثبتت فى قوله تعالىٰ : ﴿وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ﴾ أو ناصبة للفعل فتقدّر كَتْبَها متصلة علىٰ اللفظ وتحذفها فى الخط، نحو يعجبنى ألَّا تقوم وهو قول الأخفش وٱبن قتيبة وٱختيار ٱبن السيد . (والرابع)، التفصـيل بين أن تدغم بِغُنَّةٍ، فتكتب منفصلة أو بغير غُنَّةٍ فينوَى الٱتصال وتحذف خطا . ويروىٰ عن الخليل، وٱستحسنه بعض الشيوخ : وقد وقع فى القرءان مواضع متصلة ومواضع منفصلة فيجب ٱتباعها ٱقتـداء بالسلف . وقد وقع فى المصحف وصل مواضعَ القياسُ فصلُها ، فيجب وصلها فى المصحف ٱتباعا لرسمه ، وتوصل فى غيره فى الغالب أو فى بعض الأحوال .

(ومنها) وصلت بئس بمـا فى موضعين :

أحدهما ــ ﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ﴾ فى البقرة .

والثانى ــ ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى﴾ فى الأعراف .

(ومنها) وصلت نعم بمـا للادغام . وحكىٰ ٱبن قتيبة فيه الفصل والوصل .

(ومنها) وصلت إن بلم مع حذف النون للإدغام فى قوله تعالىٰ : ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ﴾ فى هُودٍ، بخلاف التى فى القَصَصِ فإنها كتبت مفصولة بإثبات النون .

(ومنها) وصلت أن بلَنْ مع حذف النون للإدغام فى سـورة الكهف فى قوله : ﴿أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا﴾ .

(ومنها) وصلت أَمْ بمَنْ فى نحو قوله تعالىٰ : ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ .

قال محمد بن عيسىٰ : كل مافى القرءان من ذكر أم فهو موصول إلا أربعة مواضع

فى النساء : ﴿أَم مَّنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ . وفى التوبة : ﴿أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ﴾ . وفى الصَّافَّات : ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾ . وفى فُصِّلَتْ : ﴿أَم مَّنْ يَأْتِي آمِنًا﴾ .

(ومنها) وصلت كى بلا فى نحو كَيْلَا ولِكَيْلَا فى أربعة مواضعَ فى المصحف ، ﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَافَاتَكُمْ﴾ فى آل عمران . و ﴿لِكَيْلَا يعلم بَعْدَ عِلْمٍ شيئًا﴾ فى الحج و ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ فى الأحزاب . و ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا﴾ فى الحديد وما عداها فهو مقطوع كما فى أوّل الأحزاب .

ووجه ابن قتيبة المقطوع بأنك تقول : أتيتك كى تفعل وكى لا تفعل ، كما تقول : حتّى تفعل وحتّى لاتفعل فيختلف المعنىٰ بالنفى والإثبات فيه .

الفصل الخامس

من الباب الثانى من المقالة الأولىٰ

(فيما يُكْتَب بالظاء ، مع بيان ما يقع الاشتباهُ فيه ممـا يُكْتَب بالضاد)

وإنما خصت الظاءُ بالذكر دُونَ الضاد لقلّة وقوع الظاء وكثرة وقوع الضـاد ؛ وخُصَّ ما يكتب بالظـاء بالذكر دُونَ ما يُكتَب بالذال المعجمة ، لأن الدال والذال فى صُورة الكتابة واحد ، فلا يظهَر خَطأ الكاتب فيـه ، بخلاف الظاء والضاد : فإن شكْلَهما مختلف فيظهَر خطأ الكاتب وعُوارُه فيه ؛ فلذلك وقعتِ العِناية بالتنبيه علىٰ ما يكتب بالظاء دُونَ ما يكتَب بالذال المعجَمة .

وقد أوردْتُه علىٰ حروف المعجَم ليقربَ تناوُلُه .

حرف الألف

فيه ــ أظلَّه الشيء : إذا غَشِيَهُ ؛ أما أضَلَّه من الضَّلال إذا ضَلَّ دابتَه إذا نَدَّتْ ، فبالضـاد .

حرف البـاء

فيه ــ بَهَظه الأمرُ : إذا أتعبه. وفيه، البَظْر : وهو اللَّحمة المتدلِّية من فَرْج المرأة، التى تُقْطَع بالِختَان .

حرف التاء المثناة فوق

فيه ــ التَّقْرِيظُ : وهو المدح، والتلمُّظ : وهو تحريك الشفتين بعد الأكل لابتلاع ما حَصَل بين الأَسنان .

حرف الجيم

فيه ــ الجَوَّاظ : وهو الجـافى المتكبِّر، أو الأَكُول ، والجُحُوظ : وهو نُتُوُّ العين ونُدُورها، ومنه أبو عُثْمان الجاحظُ، وجَحْظَة البرمَكِىُّ .

حرف الحاء المهملة

فيه ــ الحِفْظ : وهو ضِدُّ النِّسيان، والحَفِيظة : وهى المَوْجِدَة، والحَظُّ : وهو الغِنىٰ والنصيب . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّهُ لَذُوا حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ . وقوله : ﴿ لِلذَّكَرِمِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ ﴾ . أما الحَضُّ بمعنىٰ الحث فإنه بالضاد . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ ولا يَحُضُّ علىٰ طَعَامِ المِسْكِينِ ﴾ . والحُظْوة : وهى الرفعة، والحَظْر : وهو المنع . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ كُلًّا نُمِدُّ هٰؤُلاءِ وهٰؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ وما كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴾ . وقوله : ﴿ كَهَشِيمِ المُحْتَظِرِ ﴾ . وفى معناه الحَظِير : وهو المحوَّط من قصب ونحوه . أَمَّا الحُضُور خلافُ الغَيْبة فإنه بالضاد، والحَنْظَل : وهو النَّباتُ المُرُّ المعروف .

حرف الشين المعجمة

فيه ــ الشَّظِيَّة : وهى القِطْعة من الشىء، والشِّظَاظ : وهى عِيدانٌ لِطَاف يُجْمَع بها العِدْلان ، والشَّظَفَ : وهو خُشُونة العيش، والشُّوَاظ : وهو لَهَب النـار . ومنه

قوله تعالىٰ : ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نارٍ ونُحَاسٌ﴾ . والشَّيْظَمُ : وهو الفَرَس الطويل الظهر، والشَّنَاظِي : وهى أطراف الجبال .

حرف الظاء المعجمة

فيه ــ الظَّنُّ : بمعنىٰ التخمين والشَّكِّ، والظِّنَّة : وهى التُّهْمة . أما الضَّنُّ بمعنىٰ البخل فإنه بالضاد، وعلىٰ المعنيين قرئ قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَا هُوَ عَلىٰ الغَيْبِ بضَنِينٍ ﴾ بالضاد والظاء : لاتِّجاه المعنيين فى النبيّ صلى الله عليه وسلم إذ ليس ببَخِيل ولامتَّهَم؛ وفيه ظَلَّ يفعل كذا : إذا فعله نهارا . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فظَلُّوا فيه يَعْرُجُونَ ﴾ . وقولُه : ﴿ فظَلْتُمْ تفَكَّهُونَ ﴾ . وقوله : ﴿وانْظُرْ إلىٰ إلٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفًا﴾ .

أما ضَلَّ من الضلال : خلاف الهدىٰ، وضَلَّ الشيءُ : إذا ضاع، فبالضاد . وفيه الظِّلُّ : خلاف الحَرِّ حيثما وقع وما يُشْتقُّ منه ، والظُّلْم وما يَتَشعَّب منه ، والظَّلام وما يتفرّع منه ، والظَّلْمُ (بفتح الظاء) وهو ماء الأسنان ، والظَّلِيمُ : وهو ذَكَر النَّعام ، والظَّبْيُ : واحدُ الظِّباء ، والظَّبْيـة الأنثىٰ منه ، والظَّبْية : حَياءُ النـاقة ، والظُّبَة : وهو حدُّ السيف ، والظَّرْف : وهو الوِعاء الحَسَن ، والظَّعْن : وهو السَّفَر . ومنـه قوله تعالىٰ : ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ ويَوْمَ إقَامَتِكُمْ﴾ . والظِّرَاب : وهى الهضاب . أما الضِّرابُ مصدر ضاربتُه فإنه بالضاد ، والظَّعِينةُ : وهى المرأة ، والظِّلْف : وهو للبقر والغنم كالحافر للخيل ، والظَّلَف : وهو نزاهة النفس ، والظُّفُر : واحدُ الأظفار ، والظَّفَر : وهو النصر . أما ضَفْر الشَّعر ونحوه فبالضاد ، والظِّئْر : وهى المُرْضِعة ، والظَّهْر : وهو العُضْو المعروف . أما الضَّـهْر : وهو صخرة فى الجبـل يخالف لونُهـا لونَه فإنه بالضاد ، والظَّهِير : وهو المُعين ، والظَّهِيرة : وهى وَسَط النهار ، والظَّمَأ : وهو العَطَش ، والظِّرار جمع ظِرٍّ : وهو الغليظ من الأرض . أما الضَّرِير : بمعنىٰ الأعمىٰ فبالضاد ،

والظَّرِبَان : وهى دُوَيْبَّةٌ منتنة الريح، والظَّلَعُ : وهو الغَمْز يقال ناقة ظالع إذا غمزت فى المشى. أما الضِّلَع واحد الأضلاع فإنه يكتَب بالضاد، ومنه قولهم فرسٌ ضَلِيع.

حرف العين المهملة

فيه ـ العَظْم : وهو معروف، والعَظَمة : وهى الكِبرياء وما تصرَّف منها، وعَظَّه الدهر وعَظَّته الحرب . أما العَضُّ بالأسنان فبالضاد، والعَظْل (١) : وهو الشدّة، ومنه تَعاظُلُ الجراد والكلاب فى السِّفاد. أما العَضْل بمعنىٰ المنع فإنه بالضاد، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿فلا تَعْضُلُوهُنَّ أن يَنْكِحْنَ أزْواجَهُنَّ﴾ . وكذلك قولهم : أعضَلَ الأمرُ إذا صَعُب . ومنه الداء العُضَال، وسوق عُكَاظ : وهو سُوق كان يقام للعرب فى الجاهلية وأصل العَكْظ الحَبْس .

حرف الغين المعجمة

فيه ـ الغَيْظ بمعنىٰ الحَنَق وما تفرَّع عنه، أما غاض الماءُ بمعنىٰ غار والغَيْضَة وهى مَنْبِتُ الشجر فى الماء فبالضاد، والغِلَظ وما تصرف منه .

حرف الفاء

فيه ـ الفَظَاظة : وهى القسوة ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ﴾. أما آنْفِضاض الجمع فبالضاد، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿لَٱنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ . وكذلك آفْتِضاض البكر والكِتَاب، والفَظِيع : وهو الشنيع، وفاظَ الرجُل إذا مات. أما فَيْض الإناء والدمع بمعنىٰ السَّيَلان، فبالضاد، ومن ثَمَّ جاز أن يكتب فاظَتْ نفسُه بالظاء علىٰ معنىٰ ماتت نفسه ويجوز أن يكتب بالضاد علىٰ معنىٰ سالَتْ نفسه .

(١) كذا فى الضوء أيضا بالظاء المشالة. وفى اللسان فى مادة (ع ض ل) ... [وأصل العضل المنع والشدة] أى بالضاد الساقطة ولم يذكره بهذا المعنىٰ فى مادة (ع ظ ل) .

حرف القـاف

فيه ـ القَيْظ وهو صميم الحرّ وما تصَرَّف منه . أما القَيْض الذى هو القشر الأعلىٰ من البيض فبالضاد ، وكذلك قَيَّضَ الله له كذا أى أتاحه له ، والقَرَظ : وهو ثمرة شجرة السَّنْط التى يدبَغُ بها الجلد. أما القَرْض بمعنىٰ القطع فبالضاد،ومنه قَرْض المال.

حرف الكاف

فيه ـ الكَظْم : وهو كَتْم الحُزْن،والكَظُّ : وهو شدّة الحرب ، وكاظِمَةُ :وهو ٱسم مكان بالبحرَيْن .

حرف اللام

فيه ـ لَظَى : ٱسمُ جهنّمَ، واللَّظُّ : وهو اللزوم . ومنـه "أَلِظُّوا بيـاذا الجَلَالِ والإكرام" أى ٱلزموا هـذا الأسم فى الدعاء والمناجاة به،واللَّحْظ : وهو النظر بمُؤْخِر العين ،واللَّمظ : وهو بياضُ الجَحْفلة السُّفْلىٰ من الفرس،ومنه قيل فرس ألْمَظُ، واللَّفْظ : وهو معروف وما تصرف من جميع ذلك .

حرف النون

فيه ـ النَّظْم وما تصرف منه، والنَّظَر بالعين وما تصرف منه،والنَّظير وهو المثل . أما النَّضَارة بمعنىٰ البَهْجة فبالضاد، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾. ومنه ٱشتقاق بنى النَّضير وفى معناه النُّضَارُ ٱسمُ الذهب،والنَّظَافة : وهى خلاف القَذَارة.

حرف الواو

فيه ـ الوَظِيف : مافوقَ الرُّسْغ من ذوات الحافِر،والوَظِيفةُ،وأصلها الطعام الراتِب ثم ٱستُعمِلت فيما هو أعَمُّ من ذلك .

حرف اليـاء

اليَقَظَة : وهى خلاف النوم .

المقالة الثانية

فى المسالك والممالك؛ (وفيها أربعة ابواب)

الباب الأوّل

فى ذكر الأرض على سبيل الإجمال

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأوّل

(فى معرفة شكل الأرض، و إحاطة البحر بها، وبيان جِهَاتها الأربع، وما ٱشتملت عليه من الأقاليم الطبيعية ، وبيان مَوْقِع الأقاليم العُرْفية من الأقاليم الطبيعية، وذكر حدودها الجامعةِ لها، ومعرفة طريق ٱستخراج جهة كل بلد؛ وفيه طَرَفان) .

الطَّرَف الأوّل

(فى شكل الأض، و إحاطة البحر بها)

أما شكل الأرض فقد تقرّر فى علم الهيئة أن الأرض كُرِيَّة الشَّكْل والماء مُحِيط بها من جميع جهاتها إلا ما ٱقتضته العِنَاية الإلٰهِيَّة من كشف أعلاها لوقوع العِمارة فيه؛ وقيل هى مُسَطَّحة الشَّكْل؛ وقيل كالتُّرْس؛ وقيل كالطَّبْل. والتحقيق الأوّل؛ وبكل حال فالماء محيط بها من جميع جهاتها كما تقدّم .

قال فى "تقويم البُلْدان": (١) وأحواله معلومة فى بعض المواضع دون بعض، فمن المعلوم الحالِ الجانبُ الغربىُّ ويسمّى بحر أُوقِيانُوسَ (بهمزة مضمومة بعدها واو ساكنة ثم قاف مكسورة ثم ياء مثناة تحتُ مفتوحةٌ ثم ألف بعدها نون ثم واو ثم سين مهملة).

(١) هذه الفقرة تناسب الكلام على البحار وقد ذكرها هناك .

ثم للأرض أربع جهات :

الأولى ــ المَشْرِق، سميت بذلك لشُرُوق الشمس منها، ويقال لها الشَّرْق أيضا .

الثانية ــ المَغْرِب، سميت بذلك لغروب الشمس فيها، ويقال لها الغَرْب أيضا .

الثالثة ــ الشَّمَال (بفتح الشين) وهى التى إذا ٱستقبلتَ المَشْرِق كانت علىٰ شِمَالك ويقال لها الشام أيضا، لأن الشام كانت فى جهة الشَّمال عن بلاد المغرب فسميت الجهة به، وأهل مصر يسمون هذه الجهةَ البَحْرِيَّة : لكونها جهة البحر الرومىّ، أو تسميةً لها بٱسم الريح التى تهب منها فقد سبق أنهم يسمُّون الرِّيح التى تَهُبُّ من الشمال البحريةَ : لأنها يسار بها فى البحر كيف كان .

الرابعة ــ الجَنُوب (بفتح الجيم) وهى التى إذا ٱستقبلت المَشْرِق كانت علىٰ جانبك الأيمن ولم يُسَمَّ بالأيمن كما سُمِّى مقابلُه بالشَّمال، لأنه لما ذكر الشَّمال لم يبق إلا الجانبُ الأيمن فٱستُغْنِيَ عن ذكره، وأهل مصر يسمون هذه الجهة القبلية : لوقوعها فى جهة قِبْلتهم ولذلك يبدَءُون بها فى التحديد، وإن كان الأصل الآبتداءَ بالمشرق : لأن منه مبدأ حركة الفَلَك .

ثم كُرَة الأرض يقسِمُها خطٌّ فى وسَطَها بنصفين : نصفٍ جنوبِيٍّ، ونصف شَمَالىّ، ويسمَّى هذا الخط خط الآستواء لآستواء الليل والنهار عنده فى جميع فصول السنة، ويقاطعه خطٌّ آخرُ يقسِمُها بنصفين : نصفٍ شرقىّ ونصف غربىّ، وتصير الأرضُ به أربعــةَ أرباع، ويسمى هذا الخط خطَّ نصف النهار لمسامتة الشمس له فى نصف النهار، وكلٌّ من هــذين الخطين مقسوم بمِائة وثمانين درجةً، كل درجة ستون دقيقةً . وسيأتى تقدير ذلك بالأميال والفراسخ والمراحل والبُرُد فى الكلام علىٰ بُعْد ما بين البُلْدان فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وٱعلم أن كُلَّ مابَعُد عن أقصى العِمارة فى المغرِب إلىٰ جهة المَشْرِق يعبَّرعنه عند علماء الهيئة والمِيقات بالطُّول ؛ وقد ٱختلف فى ٱبتداء ذلك : فالقُدَماء ٱبتدءُوه من جزائر بالبحر المحيط تُعْرَف بالخالدات ، يأتى الكلام عليها فى جملة جزائر البحر المحيط ، والمحقِّقون علىٰ ٱبتداء ذلك من ساحل البحر المحيط الغَرْبىّ الذى هو أقصىٰ العمارة الآنَ ، وبينهما عَشْرُ دَرَج ، ونهايةُ العمارة فى المشرق موضعٌ يقال له كُنْدُر ، ومنتصفُ مابين الآبتداء والنهاية الشرقية يسمّى قُبَّة أرين ، ويعبَّر عنه بقبة الأرض ؛ وهى علىٰ بعد رُبْع الدَّوْر من المبدإ الغربىّ ، ويختلف الحال فيه بٱختلاف الآبتداء من الجزائر الخالدات أومن الساحل . ومابَعُد عن خط الآستواء المقدّم ذكره يعبَّرعنه بالعَرْض ؛ فإن كان فى جهة الجنوب فالعَرْض جنوبىٌّ ، وإن كان فى جهة الشَّمال فالعَرْض شَمَالىّ . ويعتبرَ الطُّول والعرض فى الأمكنة من البُلْدان وغيرها بالدَّرَج والدقائق علىٰ ما سيأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

ثم النِّصف الجنوبىُّ من الأرض لاعِمَارة فيه إلافيما قارب خَطَّ الآستواء فى بعض بلاد الزِّنْج والحبشة ، وما والىٰ ذلك مما لايزيد عَرْضُه علىٰ ثلاث دَرَج فيما أورده السلطان عماد الدين صاحب حماه فى "تقويم البُلْدان" أوستَّ عشْرَةَ درجةً وخمسٍ وعشرين دقيقة فيما ذكره إسحاق الحارثىّ وغيره . وأكثر المعمور إنما هو فى النصف الشَّمالىِّ ؛ والعمارة فيه فيما بين خط الآستواء إلىٰ نهاية ستٍّ وستين درجةً ونصف درجة فى العَرْض ؛ وماوراء ذلك إلىٰ نهاية الشَّمال خرابٌ لاعمارةَ فيه ، وغالب العمارة واقع بينما يجاوز عَرْضُه عشْرَ درج إلىٰ حدود الخمسين درجةً ، وما وراء ذلك فى جهة الجنوب إلىٰ خط الآستواء ، وفى جهة الشَّمال إلىٰ حدّ العمارة غالبُه جبال وقِفَار ؛ وغالبُ العمارة فى الطُّول من ساحل البحر المحيط الغربىِّ إلىٰ تسعين درجة فما دُونَها .

الطَّـــرَف الثـانى

(فيما آشتملت عليه الأرضُ من الأقاليم الطبيعية)

قد قَسَّم الحكَماءُ المعمورَ إلىٰ سبعة أقاليم ممتدّة من المغرب إلىٰ المشرق فى عُرُوض قليلة تتشابهُ أحوال البقاع فى كل إقليم منها، ثم آختلفوا فى ترتيبها بحسَب العرض، فقوم جعلوا آبتداء الأوّل منها خطَّ الآستواء، وآخِرَ السابع منتهىٰ العمارة فى الشَّمال وهو ستٌّ وستون درجة علىٰ ماتقدّم .

قال فى "تقويم البُلْدان": والذى عليه المحقِّقون أن آبتداء الإقليم الأوّل حيثُ العَرض آثنتا عشرةَ درجة وثلثا درجة، وما وراء ذلك إلىٰ خط الآستواء خارج عن الإقليم الأوّل فى جهــة الجنوب، وآخر الإقليم السابع حيثُ العرضُ خمسون درجة وثلث درجة، وما وراء ذلك إلىٰ نهاية العُمْران فى الشَّمال خارجٌ عن الإقليم السابع إلىٰ الشمال فيكون من العمران مالم يدخل فى الأقاليم السبعة، وعليه وقع الترتيب فى هذا الكتاب .

الإقليم الأوّل ـ مبـدؤه حيثُ العرض آثنتا عَشْرةَ درجةً وثلثا درجة كما هو مذهب المحققين علىٰ ماتقـدّم، ووَسَطه حيث العرض ستَّ عشرةَ درجة ونصفُ وثمن درجة، وآخره حيث العرض عشرون درجة وربعُ وثمنُ درجة، فتكون سعته سبع درجات وثلثى درجة وثمن درجة .

الإقليم الثانى ـ مبدؤه حيث العرض عشرون درجة وربعُ وثمن درجةٍ، ووسَـطُه حيث العرض أربع وعشرون درجة وثلثـا درجة، وآخره حيثُ العرض سبعٌ وعشرون درجة ونصفُ درجة ؛ فتكون سَـعَتُه بالتقريب سـبع دَرَج وثلاثَ دقائق .

الإقليم الثالث — مبدؤه حيث العرضُ سبعٌ وعشرون درجة ونصفُ درجة، ووسَطُه حيث العرض ثلاثون درجة وثلثا درجة، وآخره حيث العرض ثلاث وثلاثون درجة ونصف وثمن درجة (١) بالتقريب .

الإقليم الرابع — مبدؤه حيث العرض ثلاث وثلاثون درجة ونصفُ وثمن درجة، ووسطه حيث العرضُ ست وثلاثون درجة وخمسُ وسدسُ درجةٍ، وآخره حيث العرضُ تسع وثلاثون درجة إلا عُشْرا، فتكون سعتُه خمسَ دَرَج وسبعَ عشرةَ دقيقةً بالتقريب .

الإقليم الخامس — مبدؤه حيث العرضُ تسع وثلاثون درجة، ووسطه حيث العرضُ إحدىٰ وأربعون درجةً وربعُ درجة، وآخره حيث العرضُ ثلاث وأربعون درجة وربعُ وثمنُ درجةٍ، فتكون سَعَتُه أربعَ درجات وربعَ وثمنَ وعُشْر درجةٍ بالتقريب .

الإقليم السادس — مبدؤُه حيث العرض ثلاث وأربعون درجة وربعُ وثمنُ درجة، ووسطه حيث العرض خمس وأربعون درجة وعُشْرُ درجة، وآخره حيث العرض سبع وأربعون درجة وخمسُ درجة، فتكون سَعتُه ثلاثَ درجات ونصف وثمنَ وخُمسَ درجة .

الإقليم السابع — مبدؤه حيث العرضُ سبع وأربعون درجة وخمسُ درجة، ووسطه حيث العرض ثمانٌ وأربعون درجة ونصفُ وربعُ وثمنُ درجة، وآخره حيث العرضُ خمسون درجةً وثلثُ درجة، فتكون سعته ثلاثَ درجات وثمانَ دقائق .

(١) فتكون سعته ست درجات وثمن درجة [ولعل هذه الفذلكة سقطت من قلم الناسخ وقد ذكرت فى الضوء وتقويم البُلْدان] .

وأما أطوال هذه الأقاليم فإنها تختلف فى الطُّول والقِصَر بٱعتبار القُرْب من خط الٱستواء والبعدِ عنــه ؛ فكلَّما قرُب الإقليم من خط الٱستواء كان أكثر طُولا من الذى يليــه : ضرورةَ أن أوسع الكُرَة وسَطُها وما بعده من الجانبين يقصُر شيئا فشيئا .

فطول الإقليم الأوّل ـ من ٱبتدائه من ساحل البحر المحيط الغربىّ إلى ساحل البحر المحيط الشرقىّ فيما ذكره فى "تقويم البُلْدان" مائةٌ وٱثنتان وسبعون درجةً وسَبْعٌ وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم الثانى ـ مائة وأربع وستون درجة وعشرون دقيقةً .

وطول الإقليم الثالث ـ مائة وأربع وخمسون درجة وخمسون دقيقة .

وطول الإقليم الرابع ـ مائة وأربع وأربعون درجة وسبع عشرَة دقيقة .

وطول الإقليم الخامس ـ مائة وخمس وثلاثون درجة وٱثنتان وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم السادس ـ مائة وستٌّ وعشرون درجة وسبع وعشرون دقيقة .

وطول الإقليم السابع ـ مائة وتسعَ عشرة درجة وثلاث وعشرون دقيقة .

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من المقالة الثانية

(فى البحار التى يتكرر ذكرها بذكر البُلْدان فى التعريف بها والسَّفَر إليها ، وفيه طرفان)

الطـــرف الأوّل

(فى البحر المحيط)

وهو المستدير بالقَدْر المكشوف من الأرض . وأحوالُه معلومة فى بعض المواضع دون بعض .

فمن المعلوم الحالِ منه الجانبُ الغربىُّ ، ويسمّى بحر أُوقيانُوس ، وفيه الجزائر الخالدات المتقدّم ذكرها فى الكلام علىٰ الأطوال .

ويأخذ فى الآمتداد من سواحل بلاد المغرب الأقصىٰ من زُقَاق سَبْتَةَ الذى بين الأندَلُس وبَرِّ العُدْوة إلىٰ جهة الجنوب حتّٰى يتجاوز صحراء لَمْتُونة : وهى بادية البربر بين طَرَف بلاد المغرب من الجَنُوب وبين طرف بلاد السودان من الشَّمال ، ثم يمتدّ جَنُوبا علىٰ أرضٍ خرابٍ غير مسكونة ولا مسلوكة حتّٰى يتجاوز خط الآستواء المتقدّم ذكره إلىٰ الجنوب .

قال الشريف الإدريسى : وماؤه هناك ثخين غليظ شديد الملوحة ، لا يعيش فيه حيوان ، ولا يسْلُك فيه مركب .

ثم يعطِف إلىٰ جهة الشرق وراءَ جبال القُمْر التى منها منابع نيل مصر الآتى ذكْرُها ، فيصير البحر المذكور جنوبيا عن الأرض ، ويمتدّ شرقا علىٰ أراض خراب وراء بلاد الزنج ، ثم يمتدّ شرقا وشمالا حتّٰى يتصل ببحر الصين والهند ، ثم يأخذ مشرِّقا حتّٰى يسامت نهاية الأرض الشرقية المكشوفة ، وهناك بلاد الصين ، ثم ينعطف

فى شرق الصين إلىٰ جهة الشَّمال ويصير فى جهة الشرق عن الأرض، ويمتدّ شمالا علىٰ شرقى بلاد الصين حتّى يتجاوز حدَّ الصين ، ويسامت سدّ يأجوج ومأجوج ، ثم ينعطف ويستدير علىٰ أرضٍ غير معلومة الأحوال؛ ويمتدّ مغرِّبا ويصير فى جهة الشمال عن الأرض، ويسامت بلاد الروس ويتجاوزها؛ ثم ينعطف غربا وجنوبا ويستدير علىٰ الأرض ويصير فى جهة الغرب منها، ويمتدّ علىٰ سواحل أمم مختلفة من الكُفَّار حتّى يُسامتَ بلاد رُومية من غربها ، ثم يمتدّ جنوبا ويتجاوز بلاد رومية ويسامت البلاد التى بينها وبين الأندلس ، ويتجاوزها إلىٰ سواحل الأندلس؛ ويمتدّ علىٰ غربِىّ الأَندَلُس جنوبا حتّى يجاوزه وينتهى إلىٰ زُقاق سَبْتة الذى وقعت البداءة منه .

الطَّـــرَف الثانى

(فى البحار المنبَثّة فى أقطار الأرض، ونواحى الممالك، وما بها من الجزائر المشهورة)

وهى علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(الخارج من البحر المحيط وما يتصل به)

والمشهور منه ثلاثة أبحر.

البحر الأوّل

(الخارج من البحر المحيط الغربىّ إلىٰ جهة الشرق)

وهو (بحر الروم) وأضيف إلىٰ الروم لسكنىٰ أممهم عليه من شَمَالِيِّه، ويعبر عنه بالبحر الرومىّ أيضا، وقد يعبَّر عنه بالبحر الشامىّ : لوقوع سواحل الشام عليه من شرقيه، ومَخْرَجُه من المحيط من بحر أُوقِيانُوس المتقدّم ذكره بين الأندلس وبَرِّ العُدْوة

من بلاد المغرب، ويُسمّى هناك بحرَ الزُّقاق، وربما قيل زُقاق سَبْتَةَ ـ لمجاورته لها علىٰ ما سيأتى؛ وهو هناك فى غاية الضيق.

قال الشريف الإدريسىّ : والثابت فى الكتب القديمة أن سَعَته عشرةُ أميال ولكنه آتسع بعد ذلك.

قال آبن سعيد : وهو فى زماننا ثمانيةَ عشرَ ميلا.

قال فى "الروض المعطار" ويذكر أنه كان عليه قنطرة عظيمة بين الأندلس وساحل طَنْجة من بر العُدْوة، مبنيَّةٌ بالحجارة، لايُعلم لها نظير فى معمور الأرض، يمرّ عليها الناس والدوابُّ من جانب إلىٰ جانب، وأن البحر قبل الفتح الإسلامىّ بمائة سنة طمىٰ فأغرق القنطرةَ؛ وربما ظهرتْ لأهل المراكب تحت الماء. قال : والناس يقولون إنه لابُدَّ من ظهورها قبل فَناء الدنيا.

ويبتدئ هذا البحر من أول بحر الزُّقاق المقدّم ذكرُه، ويمتدّ علىٰ (سواحل الغرب) إلىٰ حدود الديار المِصريَّة فيمرّ علىٰ مدينة (طَنْجةَ) حيث الطول ثمانُ درج، والعرض خمس وثلاثون درجةً ونصفٌ؛ ثم يَعْطِف جنوبا وشرقا إلىٰ مدينة (سَلَا).

ثم يمتدُّ شَرْقا وشَمالا إلىٰ مدينة (سَبْتَة) ويمتدّ كذلك حتّىٰ يسامت مدينة (فاس) قاعدة الغرب الأقصىٰ علىٰ بُعْد منه؛ ثم يمتدّ إلىٰ حدود مدينة (تِلِمْسَان) قاعدة الغرب الأوسط، ثم يأخذ شرقا بَمْيلة إلىٰ الشمال حتّىٰ يصير عند (الجزائر) فُرْضة بِجَايَةَ، ويمرّ حتّىٰ يسامت (بجاية).

ثم يمتدُّ حتى يجاوز مدينة (مَرْسىٰ الخرز) الذى به مَغَاص المَرْجان شرقىَّ قُسَنْطينَةَ : آخرِ مملكة بِجَايَةَ من الشرق، ثم يتجاوز مملكة بجايةَ إلىٰ أول حدود أفريقية، ويمرّ فى سمت وسط المشرق حتّىٰ يقابل مدينة (تُونُس) قاعدة أفريقية من شماليها، ويدخل منه خور إلىٰ تُونُس المذكورة.

ثم يمتدّ بعد أن يتجاوز تُونُس نحوَ تسعين ميلا شرقا نَصًّا، ثم يَعْطِف جنوبا حتّى يصير له دخلة كبيرة فى الجنوب؛ وفى فَمِ هذه الدخلة حيث يعطف البحر عن الشرق إلى الجنوب جزيرة (قَوْصَرَة) مقابلة لجزيرة صقلية .

ثم يمتدّ فى الجنوب إلى قريب من مدينة (سُوسَة)؛ ثم يشرق إلى سُوسَةَ المذكورة ثم يأخذ شرقا وجنوبا إلى مدينة (المَهْدِيَّة)؛ ثم يمرّ شرقا وجنوبا حتّى يتجاوز مدينة (صَفَاقُس)، و يمتدّ حتّى يجاوز جزيرة (جِرْبَة)؛ ثم يعطف شمالا و يصير للبر الجنوبى دخلةٌ فى البحر، و يمتـدّ شرقا وشَمَالا حتّى يبلغ مدينة (أَطْرَابُلُس) : وهى آخر مدنِ أفريقيَةَ؛ ثم يمتدّ شرقا حتّى يجاوز حدود أفريقية عند طول إحدى وأربعين درجة، ثم يمتـدّ شَمَـالا على سواحل (بَرْقَة) الآتى ذكرها فى جملة نواحى الديار المصرية إلى (طَلْميثا) ثم ينعطف إلى جهة الشمال، و يكون للبر فى البحر دخلةٌ إلى (رأس أوثان): وهو جبل داخل فى البحر، ثم يشرق من رأس أوثان إلى (رأس تُبْنَى) : وهو جبل فى البحر قبـالة رأس أوثان من جهة الشرق؛ ثم يعطف إلى الجنوب و يمتدّ جنوبا حتّى يسامت (عقبـة بَرْقة) : وهى أوّل حدود الديار المصرية ، على ما يأتى ذكره فى تحديدها .

ثم يمتدّ على سواحل مصر، و يمرّ شرقا وجنوبا إلى مدينة (الإسكندرية) من قواعد الديار المصرية .

ثم يأخذ شرقا إلى عند مَصَبِّ فِرْقة النيل الشرقية، ويأخذ مشرِّقا إلى (رشيد)(١) ثم إلى (الفَرَما) ثم إلى (العَرِيش) ثم إلى (رَفَح) : وهى منزلة فى طَرَف رمل الديار المصرية

(١) بياض فى الأصل . وفى الضوء [رشـيد عند مصب فرقة النيـل الغربية ، و يمتدّ كذلك إلى مدينة دمياط ، عند مصب فرقة النيل الشرقية ، و يأخذ شرقا إلى الطينة ثم إلى الفرما ... ... الخ] .

من جهة الشام علىٰ مرحلة من غَزَّةَ، حيث الطُّول نحو ستٍّ وخمسين درجة ونصفٍ والعرضُ آثنتان وثلاثون درجة؛ ومن هنا ينقطع تشريقه .

ثم ينعطف ويأخذ شَمَالا علىٰ (سواحل الشام) الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ المملكة الشامية فيمتدّ إلىٰ مدينة (غَزَّةَ) ، ثم إلىٰ (عَسْقَلان) ، ثم إلىٰ (يَافَا) مِيناء الرملة من أعمال الصَّفْقة الساحلية من دمشق، ثم إلىٰ (قَيْسارِيَّة). (بفتح القاف) وهى مدينة خراب تعدّ من جُنْد فلسطين، كانت من أمَّهات المُدُن، ثم إلىٰ (عَثْليث) من أعمال صَفْد، ثم إلىٰ (عَكَّا) من أعمالها، ثم إلىٰ (صُور) من أعمالها، ثم إلىٰ (بيْروت) من أعمال الصفقة الشمالية من دمشق، ثم إلىٰ (جُبَيل): وهى مدينة قديمة خراب، ثم إلىٰ (أَنَفَة) : من أعمال طرابلس، ثم إلىٰ مدينة (طرابلس)، ثم إلىٰ (أَنْطَرْطُوس) من أعمالها، ثم إلىٰ (بُلُنْيَاس)(1) من أعمالها، ثم إلىٰ (جَبَلَة) من أعمالها، ثم إلىٰ (اللَّاذِقيَّة) من أعمالها، ثم إلىٰ (السُّويْدية) ميناء أَنْطاكِيَةَ من أعمال حَلَب، ثم يأخذ البحر غربا بشمال إلىٰ (أَيَاس)، مدينة الفتوحات الجاهانية ، ثم إلىٰ (المَصِّيصة) ثم إلىٰ (أَذَنَة) ثم إلىٰ (طَرَسوس) ثم يمتدّ شَمَالا بغَرْب حتى يجاوز حدود بلاد الأرمن، ويمتدّ علىٰ سواحل بلاد الروم التى هى الآن بيد التركمان الآتى ذكرها فى مكاتبات ملوكهم إلىٰ (الكُرْك). (بضم الكاف وسكون الراء المهملة) وهى بلدة بساحل بلاد المسلمين هى الآن بيد صاحب قبرس؛ ثم يمرّ شَمَالا إلىٰ (العَلَايَا) ، ويقابلها من البر الآخر (دِمياط) من سواحل الديار المصرية تقريبا، ثم يمرّ إلىٰ (أَنْطالِيَة)، ثم إلىٰ (بَلَاط)، ثم إلىٰ (طنفزلو)، ثم إلىٰ (اياس لوق)، ثم إلىٰ (مَغْنيسيا)، ثم إلىٰ مدينة (ابزو): وهى بلدة علىٰ فم الخليج القسطنطينى من الشرق، وبها يعرف الخليج فيقال فم ابزو، ويقابلها من البر الآخر غربىُّ مدينة الإسكندرية، فيما بينها وبين بَرْقة ؛ ثم يجاوز الخليج المذكور ويمتدّ مغرّبا بمَيْلة إلىٰ الجنوب علىٰ سواحل الروم والفرنجة، فيمرّ علىٰ بلاد المرا : وهى مملكة أوّلها فم الخليج القسطنطينى

(1) قال فى معجم البلدان [بضمتين وسكون النون] . وفى القاموس [بِلِنْيَاس كسِرطِراط] فلعل فيه لغتين .

المتقدّم ذكره من جانبه الغربىّ . كانت فى الأيام النـاصرية آبن قلاوون مشتركة بين صاحب القسطنطينية وبين طائفـة الكيتلان من الفرنج ، وقد فتحها الآن آبن عثمان وآستملكها من الروم .

ثم يأخذ بين الغرب والجنوب حتى يجاوز بلاد (الملفجوط) وهم جنس من الروم لهم لسان ينفردون به . ويقابلها من البر الآخر شرقىُّ بَرْقَةَ ، ثم يمتـدّ فى الغرب إلىٰ بلاد اقليرنس ، ثم إلىٰ بلاد البـاسليسة : وهى آمرأة ملكت هـذه البلاد بعد السبعمائة فعُرِفَتْ بها .

ويقابلها من البر الآخر أوساط بَرْقة . وبآخر هذه المملكة من جهةِ الغرب (جَوْن البنادقة) وهو خليج يخرج من بحر الروم هـذا ، ويمتدّ غربا بشَمَالٍ حتّٰى يصير طَرَفُه غربىَّ رومية ، وعلىٰ طرفه مدينة (البُنْدُقية) ومن فمه إلىٰ منتهاه نحو سبعمائة ميل ، ثم يجاوز فم الخور المذكور إلىٰ مملكة بولية ، وأوّلها فم خور البنادقة من الجانب الغربىّ . ويقابلها من البحر الآخر (طَلْمِيثا) فُرْضة بَرْقة المتقدّمة الذكر ، ثم يمتدّ فى الغرب إلىٰ بلاد (قلفريه) من جملة مملكة بوليه المتقدّمة الذكر .

ويقابلها من البر الآخر بلاد أطْرابُلُس من بلاد إفريقية ، ثم يمتدّ إلىٰ ساحل (رومِيه) ، المدينة المعظمة المشهورة .

ويقابلها من البر الآخر شرقىُّ تُونُس من إفريقية . ثم ينقطع تغريبه ويأخذ جَنُوبا حتّٰى يجاوز سواحل بلاد رومية المذكورة إلىٰ بلاد التُّسْقان : وهم جنس من الفرنج وبلادهم معروفة بنبات الزَّعْفران .

ويقابلها من البر الآخر مدينة تُونُس : قاعدة أفريقية المتقدّمة الذكر ، ويمتـدّ فى الجنوب إلىٰ بلاد (بيزه) وهى بلدة علىٰ الركن الشمالىّ من جزيرة الأندَلُس إليهـا ينسب الفرنج البيازنة والحديدُ البيزانىّ .

ويقابلها من البر الآخر (مَرْسَى الخَرَز) آخر مملكة بِجَايةَ من الشرق على ما تقدّم ذكره. ثم يمتـــدّ إلى بلاد (جَنَوة) الآتى ذكرها فى الكلام على البلاد الشمالية، ثم يأخذ غربا إلى جبل البُرت: وهو الجبل الفاصل بين جزيرة الأندلس وبيـــن الأرض الكبيرة ذات الأمم المختلفة، ثم ينقطع تغريبه ويعطف مشرِّقا ويدخل الركن الشرقىّ من الأندلس فيه، ويمتدّ فى الشرق، ويستدير على الركن المذكور، ثم يعطف غربا ويمتدّ على (سواحل الأندلس) إلى مدينة (بَرْشَلُونه) ثم إلى مدينة (طَرْطُوشه).

قال فى "الروض المعطار": ويقابلها من البر الآخر مدينة بجاية.

قال فى "تقويم البلدان": وعرض البحر بينهما ثلاثة مجار، ثم يمتدّ كذلك بين الغرب والجنوب إلى مدينة بَلَنْسية، ثم يعطف غربا إلى دانيَة، ثم يمتـدّ غربا بجنوب إلى مدينة مالقَةَ ثم يمرّ إلى الجزيرة: وهى مقابلة لساحل سَبْتة وطَنْجة حيث وقع الابتداء.

وسيأتى الكلام على ضبط ما لم يُضبط من البلاد على ساحل هذا البحر بالحروف مع ذكر صفاتها عند التعرّض لذكرها فى الكتاب فى مواضعها إن شاء الله تعالى.

وطول هذا البحر من البحر المحيط إلى ساحل الشام فيما يُذكَر ألفُ فرسخ ومائة وسبعون فرسخا، وغاية عَرْضه فى بعض الأماكن سَتمائة ميل.

وأما ما يتصل بالبحر الرومىّ المتقدّم الذكر فبحر نِيطِش (بنون مكسورة وياء مثناة تحت ساكنة وطاء مهملة مكسورة وشين معجمة فى الآخر). وهو المعروف فى زماننا ببحر القِرِم: لتركب بلاد القِرِم على ساحله، ويعرف أيضا بالبحر الأرمنىّ: لتركب بعض بلاد أرمِينِيَةَ على بعض سواحله، وربما قيل فيه البحر الأسودُ: وهو متصل ببحر الروم المذكور من شماليّه، ويتركب عليه من آخره (بحر مانيطِش) بزيادة لفظ "ما" فى أوّله وباقى الضبط على ما تقدّم وهو المعروف فى زماننا ببحر الأَزَق: لتركب بلاد الأَزَق على ساحله الشرقىّ وليس وراءه بحر متصلٌ به: ولذلك يُعبر عنه بعضهم ببحيرة ما نيطش وهو

يصبُّ فى بحر نيطش، وبحر نيطش يصب فى بحر الروم؛ ولذلك تُسرع المراكبُ فى سيرها من القِرِم إلىٰ بحر الروم، وتبطئ فى سيرها من بحر الروم إلىٰ القِرِم لاستقبالها جَرَيان المـاء .

وأوّل بحر نيطش المذكور ممـا يلى بحر الروم . (الخليج القسطنطينى) المتقدّم ذكره فى تحديد بحر الروم : وهو خليج ضيق للغاية بحيث يرىٰ الإنسانـ صاحبه من البر الآخر .

قال ابن سعيد : وطول هذا الخليج نحو خمسين ميلا .

وذكر فى "تقويم البُلْدان" عن بعض المسافرين أن طوله سبعون ميلا واتصاله بالبحر الرومىّ من جانبه الشمالىّ، ويمتدّ شمالا علىٰ (سواحل بلاد الروم) من البر الشرقىّ منه إلىٰ (قلعة الجرون) وهى قلعة خراب علىٰ ساحل هذا الخليج مقابِلَ القسطنطينية ويمتدّ من الجرون شمالا بميلةٍ يسيرة إلىٰ الشرق إلىٰ مدينة كربى علىٰ خليج القسطنطينية علىٰ القرب من الجرون المذكورة ؛ ثم يمتـدّ شرقا بشَمَالٍ إلىٰ مدينة (كتروا)، وهى آخر مدن القسطنطينية التى علىٰ هذا الساحل، ثم يمتدّ إلىٰ مدينة (كِينولِى) وهى بلدة علىٰ الخليج القُسْطنطينىّ، ثم يأخذ بين الشَّمَال والغرب، ويكون للبر دخلة فى البحر إلىٰ جهة الغرب، وعلىٰ طَرَف هذه الدّخلة فرضة (سنوب) من سواحل الروم الآتى ذكرها فى مكاتبات ملوك الكفر ، ثم يأخذ فى الاتساع إلىٰ مدينة (سامسون)، وهى بلدة من سواحل بلاد الروم، ثم يأخذ مُشَرِّقاً إلىٰ مدينة (طرابزون)، وهى فُرْضَةٌ للروم بهذا الساحل، ثم يمتد شَمالًا بميلة إلىٰ مدينة (سُخُوم)، وهى مدينة علىٰ ثلاثة أيام عن طرابزون شرقا بِشَمَالٍ، وبينها وبين بلاد الكَرَج يوم واحد، ويقال إنها من بلاد الكَرَج ؛ ثم يمتدّ شرقا بشمال إلىٰ مدينة (أَبْخَاس)، وهى مدينة فى جبل علىٰ ساحل البحر علىٰ القرب من سُخُوم ؛ ثم يتضايق البحر مُغَرِّباً ويضيق من البر الآخر حتّى يتقارب البرّان ويصير

الماء بينهما مثل الخليج، وهو مصب بحر مَا نِيطش فى بحر نِيطش، وعلىٰ جانب هذا الخليج مدينة (الطامَانِ) من سواحل الروم: وهى حدّ بلاد الروم، من مملكة بركة المشتملة علىٰ القِرم، ودَشْت القَبْجَاق، والسراى، وخُوَارِزْم علىٰ ما سيأتى بيانه فى مكاتبات القانات؛ ثم يأخذ فى الاتساع شرقا وشَمالا وغربا ويصير كالبركة، ويمتدّ علىٰ سواحل الأَزَقِ الآتى ذكرها فى مكاتبات حاكمها إلىٰ مدينة الشقراقِ، وهى أوّل بلاد الأَزَقِ، ومنها ينتهى تشريقهُ؛ ثم يَعْطِفُ إلىٰ الشَّمال ويأخذ إلىٰ مدينة (الأَزَقِ)، ثم يستديرُ من الأزقِ حتّٰى يصير إلىٰ الغرب، وينتهى إلىٰ الخليج الذى بين بحر نيِطش وبحر مانيِطش المتقدّم ذكره.

وهناك مدينة الكِرْش من بلاد الأَزَقِ مقابل مدينة الطَّامَانِ المتقدّمة الذكر من البر الآخر، ثم يمرّ جَنُوبا ويمتدّ علىٰ سواحِل القِرم الآتية الذكر فى مكاتبة حاكمها، فيمرّ إلىٰ مدينة (الكَفَا) فرضةِ القِرم.

ويقابلها من البر الآخر مدينة طرابزون المتقدّمة الذكر؛ ثم يمتدّ كذلك إلىٰ مدينة صُوداقَ: وهى فُرْضة ببلاد القِرم أيضا.

ويقابلها من البر الآخر مدينة سامسون المتقدّمة الذكر، ثم يأخذ فى الانضمام جنوبا ويعطف مشرقا بحيث يكون للبر دخلة فى البحر، ويمتدّ علىٰ سواحل بلاد البلغار إلىٰ مدينة صَارِى كِرمان من بلاذ البلغار، وبينها وبين صُلْغَات مدينة القِرم خمسة أيام.

ويقابلها من البر الآخر مدينة سَنُوب المتقدّمة الذكر، ثم يأخذ فى الاتساع غربا بميلة إلىٰ الجنوب ويمتدّ كذلك إلىٰ مدينة أقْجَا كِرمَان من بلاد البلغار، ثم يأخذ جنوبا ويمتدّ علىٰ (سواحل بلاد القُسْطَنْطِينِيَّة) إلىٰ بلدة صَقْجى، وعندها يصب نهر طُنَا (بطاء مهملة مضمومة بعدها نون وألف). وهو نهر عظيم بقدر مجموع دِجْلَةَ والفُرَات، ثم

يتضايق و يأخذ شرقا حتّى ينتهى إلىٰ أوّل الخليج القُسْطَنْطِينِىّ المتقدّم ذكره،ثم يأخذ جنوبا و يتقارب البرّانِ و يمتدّ كذلك إلىٰ مقابل مدينة كربى المتقدّمة الذكر،ثم يمتدّ كذلك إلىٰ مدينة (القُسْطَنْطِينيَّةِ) قاعدة ملك الروم الآتى ذكرها فى مكاتبة مَلِكها .

و يقابلها من البر الآخر قلعة الجرون المتقدّمة الذكر،ثم يمتدّ حتّى يصبّ فى بحر الروم حيث وقع الأبتداء. وسيأتى الكلام علىٰ ضبط مالم يضبط من البلاد التى علىٰ ساحل هذا البحر المتقدّمة الذكر مع ذكر صفاتها عند الكلام علىٰ مكاتبات ملوكها وحُكّامها إن شاء الله تعالىٰ .

و ببحر نيطش المتقدّم ذكره علىٰ القرب من الخليج القُسْطَنْطِينىّ جزيرة (مَرْمرا) الآتى ذكرها عند الكلام علىٰ مكاتبة مَلِكها فى جملة ملوك الكفر إن شاء الله .

البحر الثـانى

(الخارج من المحيط الشرقىّ إلىٰ جهة الغرب)

وهو بحر يخرج عند أقصىٰ بلاد الصِّينِ الشرقية الجنوبية ممـا يلى خط الأستواء حيث لاعرض، وقيل : علىٰ عرض ثلاث عشرة درجة فى الجنوب، و يمتدّ غربا بشَمَال علىٰ (سواحل بلاد الصِّينِ) الجنوبية، ثم علىٰ المفاوز التى بين الصِّينِ والهِنْد حتّى ينتهىَ إلىٰ (جبال قَامرُون) الفاصلة بين الصِّينِ والهِنْد .

قال ابن سعيد : ومدينة الملك بها فى شرقيها، ثم يجاوز (جبال قامرون) المذكورة و يمتدّ علىٰ سواحل بلاد (الهند) من الجنوب، ويمرّ علىٰ (سُفَالة الهند) وهى سُوفَارة، و يمتدّ حتّى ينتهىَ إلىٰ آخر الهند، ثم يمتدّ علىٰ مفازة السِّنْد الفاصلة بينه و بين البحر، و يمرّ حتّى ينتهىَ إلىٰ فم بحر فارس الخارج من هـذا البحر إلىٰ جهة الشَّمال علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

ويجاوزه إلىٰ بلاد اليَمَن فيمرّ علىٰ (ساحل مَهْرَة) : أول بلاد اليمن، ويمتدّ من شَماليّها علىٰ سواحل اليَمَن من جنوبيه حتّىٰ ينتهىَ إلىٰ مدينة (عَدَن) فُرْضَةِ اليمن، ثم يمرّ من عَدَن إلىٰ الشَّمال بميلة إلىٰ الغرب نحو مجرا حتّىٰ ينتهىَ إلىٰ (باب المَنْدَب) وهو فُرْضَةٌ بين جبلين، ويخرج منه ويمتدّ غربا بميلة إلىٰ الشَّمال ٱثنى عشر ميلاً، ثم يعطف شَمالا ويمتدّعلىٰ سواحل اليَمَن الغربية إلىٰ (عَلَافِقَة) فرضة مدينة (زَبِيد)، ثم يمتدّ شَمالا أيضا إلىٰ مدينة (حَلْى) من أطراف اليَمَن من جهة الحجاز، وهى المعروفة بحَلْيِ ٱبن يعقوبَ ثم يمتدّ شَمالا علىٰ (ساحل الحجاز) إلىٰ (جُدَّة)، فرضةٌ علىٰ بحر القُلْزُم، ثم يمتدّ شمالا إلىٰ (الجُحْفَةِ) ميقاتِ الإحرام لأهل مصر، ثم يمتدّ شمالا بميلة إلىٰ الغرب حتّىٰ يتصلَ بساحل (يَنْبُعَ)، ثم يأخذ بين الغرب والشَّمال حتّىٰ يجاوز (مَدْيَنَ) الآتى ذكرها فى كُوَرِ مصر القديمة، ويمتدّ شَمالا بجنوب حتّىٰ يقارب (أَيْلَةَ) الآتى ذكرها فى كُوَر مصر القديمة أيضا، ثم يعطف إلىٰ الجنوب حتّىٰ يجاوز أَيْلَةَ المذكورة إلىٰ مكان يعرف (برأس أبى محمد) ويكون للبر دخلة فى البحر فى جهة الجنوب، ثم يعطف شَمالا حتّىٰ ينتهىَ إلىٰ فُرْضَةِ (الطُّور) : وهى مكانُ حَطٍّ وإقلاعٍ لمراكب الدّيار المصرية، وما يصل إليها من اليَمَن وغيرها، ويمرّ فى الشَّمال حتّىٰ يصل إلىٰ فُرْضَةِ (السُّوَيْس) : وهى مكانُ حَطٍّ وإقلاعٍ للديار المصرية أيضا، وعنده ينتهى بر العرب ببحر القلزم ويبتدئ بر العجم.

وهناك يقرب هـذا البحر من بحر الروم علىٰ ما تقـدّم ذكره فى الكلام علىٰ أصل هذا البحر.

ثم من السُّوَيْس يعطف إلىٰ الجنوب علىٰ ساحل مصر، ويمتـدّ موازيا لبـلاد الصعيد حتّىٰ ينتهى إلىٰ مدينة (القُلْزُم) التى ينسب إليها هذا البحر الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ كُوَرِ مصر القـديمة، ويقابلها من بَرّ الحجاز أَيْلَةُ، ثم يأخذ عن القُلْزُم جنوبا بميلة إلىٰ الشرق حتّىٰ يسامتَ فُرْضَـةَ الطُّورِ المتقدّم ذكرها، وتصير فرضة الطُّور بين أَيْلَةَ

والقُلْزُمِ غربىّ الدخلة المتقدّم ذكرها؛ثم يمتدّ كذلك حتّى ينتهى إلىٰ (القُصَيْرِ)، فُرْضَة قُوص؛ثم يتسع فى جهتى الجنوب والشرق حتّى يكون ٱتّساعه تسعين مِيلًا، وتسمّى تلك القطعة المتسعة بِرْكَة الغُرُنْدُلِ : وهى التى أغرق الله تعالىٰ فيها فرعون؛ ثم يأخذ جنوبا بميلة يسيرة إلى الغرب إلىٰ (عَيْذابَ) ، فُرْضَةُ قُوص أيضا . ويقابلها من برّ الحجاز جُدَّةُ فُرْضَةُ مكة المشرَّفة؛ثم يمتدّ فى سمت الجنوب علىٰ (سواحل بلاد السودان) حتّى يصير عند (سَوَاكِنَ) من بلاد البجاة؛ ثم يمتدّ كذلك حتّى يحيط (بجزيرة دَهْلَكَ) وهى جزيرة قريبة من ساحل هـذا البحر الغربىّ، وأهلها من الحَبَشَـةِ المسلمين . ويقابلها من البر الآخر جنوبىُّ حَلْيِ ٱبن يعقوبَ من بلاد اليَمَن، ويمتـدّ حتّى يصل إلىٰ رأس (جبل المَنْدَب) المتقدّم ذكره .

وهناك يضيق البحر حتّى يرىٰ الرجل صاحبه من البر الآخر.

ويقال : إنه بقدر رميتى سَهْم؛ وتُرىٰ جبـال عَدَنَ من جبال المَنْدَبِ فى وقت الصحو، ثم يتجاوز باب المَنْدَب ويأخذ شرقا وجنوبا ، ويتسع قليلا قليلا ويمرّ علىٰ بقية سواحل الحبشة حتّى يمرّ بمدينة (زَيْلَعَ) من بلاد الحبشة المسلمين .

ويقابلها عَدَن من برّ اليَمَن ، وهى عن عَدَن فى الغرب بميلة إلىٰ الجنوب، ثم يمرّ إلىٰ مدينة مَقْدِشُو[(١)]؛ ثم يمتدّ كذلك حتّى ينتهىَ إلىٰ (خليج بَرْبَرَا) الخارج من بحر الهند فى جانبه الجنوبىّ علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

ويتجاوز فم هذا الخليج ويمتدّ علىٰ (سواحل بلاد الزَّنْج) حتّى ينتهىَ إلىٰ آخرها؛ ثم يمتدّ علىٰ (سواحل بلاد الواق واق) علىٰ أماكنَ مجهولة حتّى ينتهى إلىٰ مبدئه من البحر المحيط الشرقىّ . علىٰ أنه فى تقويم البُلْدان لم يتعرّض لساحل هـذا البحر الجنوبىّ فيما هو شرقىّ باب المَنْدَبِ لعدم تحققه .

---

(١) فى تقويم البُلْدان [بكسر الدال] وفى معجم البلدان [بفتح الدال] فهما لغتان .

وآعلم أن هـذا البحر يسمّى فى كل مكان باسم ما يسامته من البُلْدان ، أو بآسم بعض البُلْدان التى عليـه . فيسمّى فيما يقابل بلاد الصِّين بحرَ الصِّين ، وفيما يقابل بلاد الهِنْـد إلىٰ ماجاورها إلىٰ بلاد اليمن شرقىّ باب المَنْـدَبِ بحرَ الهند ، وفيما دون باب المندب إلىٰ غايته فى الشمال والغرب بحرَ القُلْزُمِ نسبةً إلىٰ مدينة القُلْزُمِ المتقدّمة الذكر فى ساحل الديار المصرية .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وطول هذا البحر من طَرَف بلاد الصِّين الشرقىّ إلىٰ القُلْزُم ألفان وسبعمائة وثمانية وأربعون فرسخا بالتقريب ، ومقتضىٰ كلام آبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" أن طوله أربعة آلاف وتسعمائة وستة وستون فرسخا وثلثان : فإنه قد ذكر أن طول بحر الصين والهنـد إلىٰ باب المَنْدَبِ أربعة آلاف وخمسمائة فرسخ ، ثم ذكر أن طول بحر القُلْزُمِ ألف وأربعمائة مِيلٍ ، وهى أربعمائة وسـتة وستون فرسخا وثلثان وبين الكلامين بَوْنٌ .

وكلام صاحب تقويم البُلْدَان أقرب إلىٰ الصواب . فإنه آستخرجه من تضريب الدَّرَج وآستخراج أميالهـا وفراسخها . وبآخر بحر القُلْزُمِ من الذراع الآخذ إلىٰ جهة السُّوَيْس علىٰ مِيلٍ من مدينة القُلْزُمِ موضـع يعرف (بذَنَب التِّمْسَاح) يتقارب بحر القلزمِ وبحر الروم فيما بينه وبين الفَرَما حتى يكون بينهما نحو سـبعين مِيلا فيما ذكره ابن سعيد .

قال فى "الروض المِعطار" : وكان بعض الملوك قد حفره ليوصل ما بين القلزمِ وبحر الروم فلم يتأت له ذلك لآرتفاع القلزم وآنخفاض بحر الروم ، والله تعالىٰ قد جعل بينهما حاجزا كما ذكر تعالىٰ فى كتابه . قال : ولمـا لم يتأت له ذلك آحتفر خليجا آخر مما يلى بلاد تِنِّيسَ ودِمْياط وجرىٰ المـاء فيه من بحر الروم إلىٰ موضع يعرف بقيعان (؟) .

فكانت المراكب تدخل من بحر الروم إلىٰ هذه القرية ، وتدخل من بحر القُلْزُمِ إلىٰ ذَنَب التمساح فيقرب مافى كل بحر إلىٰ الآخر، ثم ٱرتدم ذلك علىٰ طول الدّهر .

وقد ذكر ٱبن سعيد أن عمرو بن العاص كان قد أراد أن يخرق بينهما من عنـد ذَنَب التمساح المتقـدّم ذكره فنهاه أمير المؤمنـين عمر بن الخطاب رضى الله عنـه . وقال : إذَنْ يَتَخَطَّفُ الرومُ الحُجَّاجَ .

وذكر صاحب "الروض المِعْطَار" أن الرشيد همّ أن يوصل مابين هذين البحرين من أصل مَصَبّ النيل من بحر بلاد الحبشة وأقاصى صعيد مصر فلم يتأت له قسمة ماء النيل ، فرام ذلك مما يلى بلاد الفَرَمَا فقال له يحيىٰ بن خالد : إن تَمَّ هذا تُتَخَطَّف الناسُ من المسجد الحرام ومكة ، وٱحتجَّ عليه بمنع عمر بن الخطاب عمرو بن العاص من ذلك ، فأمسك عنه .

ويتفرّع من البحر الهندىّ بحران عظيمان مشهوران ، وهما (بحر فارس ، والخليج البربرىّ) .

فأما بحر فارس ، فهو بحر ينبعث من بحر الهنـد المتقدّم ذكره من شماليّـه ، ويمتدّ شَمَالا بميلة إلىٰ الغرب غربىّ (مفازة السِّنْدِ) الفاصلة بينه وبين بحر الهنـد ، ثم علىٰ غربىّ بلاد السـند ، ثم علىٰ أرض (مُكْرَانَ) من نواحى الهند ، ويخرج منه من آخر مُكْرَانَ خَوْرٌ يمتدّ شرقا وجنوبا علىٰ ساحل مُكْرَانَ والسِّنْدِ حتّٰى يصير السند غربيّه ، ثم ينعطف آخره علىٰ (ساحل بلاد كِرْمَانَ) من شماليها حتّٰى يعودَ إلىٰ أصل بحر فارس ، فيمتدّ شمالا حتّٰى ينتهىَ إلىٰ مدينة (هُرْمُوز) وينتهى إلىٰ آخر كِرْمَانَ فيخرج منه خَوْر يمتـدّ علىٰ ساحل كِرْمَانَ من شمـاليّها ، ثم يرجع من آخره علىٰ ساحل بلاد فارس من جنوبيها حتى يتصلَ بأصل بحر فارس ، ويمتدّ شَمَالا ثم يعطف ويمتـدّ مغرّبا إلىٰ (حصن ٱبن عُمَارَةَ) من بلاد فارس ، وقيل من بلاد كِرْمَانَ ، وهو اليوم خراب ؛

ثم يمتدّ مغرّبا فى جبال منقطعة ومفاوزَ إلىٰ مدينة (سِيرَاف)؛ ثم يمتدّ كذلك إلىٰ (سِيفِ البحر) بكسر السين : وهو ساحل من سواحل فارس، فيه مزارع وقرى مجتمعة؛ ثم يمتدّ إلىٰ (جُنَّابَةَ) من بلاد فارس ، ثم يمتدّ إلىٰ (سِينِيزَ) من بلاد فارس ، وقيل من الأهواز ثم يمتدّ إلىٰ مدينة (مَهْرُوبَانَ) من سواحل خوزستان، وقيل من سواحل فارس، وهى فُرْضَةُ (أَرَّجَانَ) وما والاها، ثم يمتدّ مغرّبا بميلة يسيرة نحو الشَّمال إلىٰ مدينة (عَبَّادَانَ) من أواخر بلاد العِراقِ من الشرق علىٰ القرب من البَصْرَةِ عند مَصَبِّ دِجْلَةَ فى هذا البحر؛ ثم ينعطف و يمتدّ جَنُوبا إلىٰ (كَاظِمَةَ) وهى جَوْنٌ علىٰ ساحل البحرين مما يلى البصرة علىٰ مسيرة يومين منها؛ ثم يمتدّ إلىٰ (القَطِيف) من بلاد البَحْرَيْنِ ثم يمتدّ كذلك إلىٰ مدينة (عُمَانَ) فُرْضَةُ بلاد البحرين، و إليها تنتهى مراكب السند والهند والزَّنْج، ويخرج علىٰ القرب منها عن يمين المُقْلِع من ساحلها فى جهة الغرب بحرٌ ببلاد (الشِّحْرِ) من اليَمَن أيضا، و إليها ينسب العَنْبَر الشِّحْرِىُّ الطَّيِّبُ كما تقدّم ذكره فى النوع الخامس فيما يحتاج إليـه من نفيس الطيب؛ ثم يمرّ علىٰ سواحل (مَهْرَةَ) من شرقىّ بلاد اليمن حتّٰى ينتهى إلىٰ مبْدَئه من بحر الهند .

قال فى "تقويم البُلْدان": و بفم هذا البحر ثلاثة أجبُلٍ يخشاها المسافرون، يقال لأحدها كُسَيْر، والثانى عُوَيْر، والثالث ليس فيه خَيْر .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات": وطول هذا البحر أربعمائة فرسخ وأربعون فرسخا، وعُمْقُه ثمـانون باعا .

وأما الخليج البَرْبَرِىّ، فهو ينبعث من بحر الهنـد المتقدّم ذكره فى جنوبىّ جبل المَنْـدَبِ المتقدّم الذكر، ويمتـدّ فى جنوبىّ بلاد الحبشة، ويأخذ غربا حتّٰى ينتهى إلىٰ مدينة بَرْبَرَا (بباءين موحدتين مفتوحتين وراءين مهملتين الأولىٰ منهما ساكنة)

وهى قاعدة الزّغَاوَةِ من السُّودَان، حيث الطولُ ثمـان وستون درجةً والعرضُ ست درج ونصف .

قال فى "تقويم البُلْدان": وطوله من المشرق إلىٰ المغرب نحو خمسمائة مِيلٍ .

قال الشريف الإدريسىّ : وموجه كالجبال الشـواهق ولكنه لا ينكسر . قال: يركب فيه إلىٰ جزيرة قنبلو ويقال قنبلة، وهى جزيرة للزَّنْج فى هذا البحر .

قال فى "القانون": وطولها آثنتان وخمسون درجة، وعرضها فى الجنوب ثلاث درج .

قال الإدريسىّ : وأهلها مسلمون .

البحر الثـالث

(الخارج من المحيط الشمالىّ، المعروف ببحر بَرْدِيلَ)

(بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت ولام فى الآخر) .

قال آبن سعيد : ويقال له بحر برطانية أيضا، وهو بحر يخرج من شَمالىّ الأَنْدَلُس ويأخذ شرقا إلىٰ خلف جبـل الأبواب الفاصـل بين الأَنْدَلُس والأرض الكبيرة ، ويقرب طرفه الشرقىّ حتّىٰ يبقىٰ بينـه وبين بحر الروم المتقدّم ذكره أربعون مِيلًا، وهناك مدينة (بَرْدِيلَ) التى يضاف البحر إليها .

الضرب الثـانى

(من البحار المنبثة فى أقطار الأرض ما ليس له آتصال بالبحر المحيط)

وهو بحر الخَزَرِ (بفتح الخاء والزاى المعجمتين، وراء مهملة فى الآخر) .

ويسمّى بحر جُرْجَانَ لوقوع مدينة جُرْجَانَ علىٰ ساحله ، وبحرَ طَبَرِسْتَانَ لوقوع ناحية طَبَرِسْتَانَ علىٰ ساحله أيضا، وهذا البحر بحر مِلْحٌ منفرد عن البحار لا آتصال له بغيره البتة .

قال آبن حوقل : وهو مظلم القعر، ويقال إنه متصل بحر نِيطش من تحت الأرض .

قال المسعوديّ : وهو غلط لا أصل له ،ولم أدر من أين أخذه قائله أَمِنْ طريق الحِس، أم من طريق الآستدلال والقياس .

قال الشريف الإدريسيّ : وهو مدوّر الشكل إلىٰ الطُّول،وقيل مثلث الشكل كالقِلْع،وعلىٰ ساحله الجنوبيّ بلاد الجيل والدَّيْلَم،وعلىٰ جانبه الشرقيّ بلاد جُرْجَانَ والمفازةُ التى بين جُرْجَانَ وخُوَارِزْم،وعلىٰ جانبه الشَّمالىّ بلاد التُّرْك والخَزَر وجبال سِيَاهْكُوهْ،وعلىٰ جانبه الغربىّ بلاد إيلاقَ وجبال الفتيق،وآبتداؤه من جهة الغرب عند مدينة (باب الحديد) المعروف بباب الأبواب من بلاد أَرَّانَ،حيث الطول ست وستون درجة، والعرض نحو إحدىٰ وأربعين درجة علىٰ القرب من دَرْبَنْد شرْوَانَ ، ثم يمتدّ جنوبا من باب الحديد أحدا وخمسين فرسخا ، وهناك مصب نهر الكُرّ فيه،ثم يمتدّ مشرقا بانحراف إلىٰ الجنوب ستة عشر فرسخا،فيمر علىٰ أراضى مُوقان من عمل أَرْدَبِيل من أَذَرْبِيجَانَ ، ثم يمتدّ جنوبا وشرقا حتّىٰ تبلغ غايته فى الجنوب حيث العرض سبع وثلاثون درجة قبالة مدينة (آمل) قصبة طَبَرِسْتَانَ، ثم ينعطف ويمتدّ شرقا حتّىٰ يجاوز بلاد الجيل إلىٰ مدينة آبَسْكُونَ ، وهى فُرْضَةُ جُرْجَانَ، ثم يمتدّ إلىٰ نهايته فى الشرق حيث الطول ثمانون درجةً، والعرض نحو أربعين عند مدينة جُرْجَانَ،وهى فى الشرق منه قريبة من ساحله، ثم ينعطف ويمتدّ شمالا وغربا حتّىٰ يبلغ نهايته فى الشمال حيث العرضُ نحو خمسين درجة، والطولُ تسع وسبعون

درجة؛ وفى شمـاليّه وغربيّه يصبّ نهر إتِل(١) الذى عليه مدينة السراى قاعدة مملكة أزبك الآتى ذكرها فى مكاتبة قانهم إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وليس فى هذا البحر جزيرة مسكونة .

الفصـــل الثـالث

من البـاب الأوّل من المقـالة الثـانية

(فى كيفية آستخراج جهات البُلْدان والأبعاد الواقعة بينها ،وفيه طَرَفان)

الطرف الأوّل

(فى كيفية آسـتخراج جهات البُلْدان)

إذا كنتَ فى بلد وأردتَ أن تعرف جهة بلد آخر عن البلد الذى أنت فيه ،فالذى أطلقه كثير من المُصَنّفين أنك تعرف طول البلد الذى أنت فيه وعرضَه ،وطولَ البلد الآخر وعرضَه ، وتقابل بين الطولين وبين العرضين فإن كان ذلك البلد أعرضَ من بلدك مع مساواته له فى الطول ، فهو عنك فى جهة الجنوب . وإن كان أطولَ من بلدك مع مساواته له فى العرض ،فهو عنك فى جهة الشرق . وإن كان أقلّ طولا مع مساواته فى العرض ، فهو عنك فى جهة الغرب . وإن كان أطولَ وأعرضَ من بلدك ، فهوعنك بين الشرق والشّمال . وإن كان أقلّ طولا وعرضا ، فهو عنك بين المغرب والجنوب . وإن كان أقلّ طولا وأكثرَ عرضا ، فهو عنك بين الجنوب والشّمال . وإن كان أكثر طولا وأقل عرضا ، فهو عنك بين الشرق والجنوب .

والذى ذكره المحققون من علمـاء الهيئـة أن البلد إذا كان أطولَ من بلدك مع مساواته له فى العرض ، يكون عنك فى جهة الشرق بميلة إلىٰ الشّمال . وإذا كان أقلّ

(١) فى معجم البلدان بالمثناة الفوقية [بوزن إبل] .

طولا مع مساواته له فى العرض ، يكون فى جهة الغرب بميلة إلىٰ الشّمال أيضا . وإذا كان أقلّ طولا وعرضا ، يكون بين المغرب والجنوب علىٰ ماتقدّم ، إلا أن يقلّ الفصل بينهما بأن يكون أقل من درجة ، فإنه يحتمل أن يكون كذلك وأن يكون علىٰ وسط المغرب . وإذا كان أقلّ طولا وأكثر عرضا ، فإنه يكون بين المشرق والمغرب علىٰ ماتقدّم ، إلا أن يقل الفصل بينهما فيحتمل أن يكون كذلك وأن يكون علىٰ وسط المشرق .

الطرف الثانى
(فى معرفة الأبعاد الواقعة بين البُلْدان)

قد تقدّم أن الأطوالَ والعُرُوضَ فى الأمكنة والبُلْدان تعتبر بالدَّرَج والدّقائق ، وأن الدّرجة مقسومة بستين دقيقة ، ثم الذى حققه القدماء كَبَطْلَيْمُوسَ صاحبِ المَجَسْطِى وغيره تقدير الدّرجة بستة وستين مِيلاً وثلثَىْ ميل ، وبه أخذ أكثر المتأخرين ، وعليه العمل . وما وقع لأصحاب الرَّصَدِ المَأْمُونِىّ مما يخالف ذلك بنقص عشر درج مما لا تعويل عليه .

وقد نقل علاء الدّين بن الشاطر من المتأخرين فى "زيجه" عن القدماء أنهم قدّروا الدرجة بالتقريب بعشرين فرسخا ، وبستين مِيلاً ، وبمائتى ألفٍ وأربعين ألف ذراع ، وبخمسة بُرُدٍ ، وبمسير يومين .

وقدّر الشافعىّ رضى الله عنه ذلك بسير يومين بالأيام المعتدلة دون لياليهما ، وقدّر السير بالسير المعتدل ، وتقدير الدرجة كما بين الفُسْطَاطِ ودِمْيَاطَ ، فإنّ عَرْضَ دِمْيَاطَ يزيد علىٰ عرض الفُسْطَاطِ بدرجة وكسر يسير علىٰ ما سيأتى ذكره .

فاذا أردت أن تعرف كم بين البلد الذى أنت فيه وبين بلد آخر علىٰ الخط المستقيم ، فلك حالتان :

الحالة الأولى ــ أن يكون ذلك البلد علىٰ سَمْتِ بلدك الذى أنت فيه فى الطول أوالعرض، فٱنظركم درجة بينهما بالزيادة والنقص فاضربه فى ست وستين، وهو ما لكل درجة من الأميال، فما خرج من الضرب فهو بُعْـد ما بينهما من الأميال علىٰ الخط المستقيم، فٱعتبره بما شئتَ من المراحل والفراسخ والبُرُدِ علىٰ ما تقدّم بيانه .

الحالة الثانية ــ أن لايكون ذلك البلد علىٰ سَمْت بلدك الذىأنت فيه. فطريقك أن تقابل بين عَرْض بلدك وطوله، و بين عرض البلد الآخر وطوله، وتنظركم فَضْلُ ما بين الطولين و بين العرضين، وهو ما يزيده أحد الطولين أو أحدالعرضين علىٰ الآخر فتضرب كُلًّا من فَضْل الطولين وفضل العرضين فى مثله، وتجمع الحاصل من الضربين فما كان خذ جَذْرَهُ، وهو القدر الذى إذا ضربتَه فى مثله حصل عنه ذلك العدد، فما بلغ فهو مقـدار ما بين بلدك والبلد الآخر من الدّرج، فٱضربه فى ست وسـتين وثُلُثين علىٰ ما تقدّم، فما بلغ فهو أميال . فٱعتبره بما شئت من المراحل والفراسخ والبُرُدِ علىٰ ما تقدّم .

مثال ذلك ــ أن الفُسْطَاطَ طوله خمس وخمسون درجة، وعرضه ثلاثون درجة ودِمَشْقَ طولُها ستون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة ونصفُ درجة، ففضل ما بين طوليهما خمس درج، وفضل ما بين عرضيهما ثلاث دَرَج ونصف درجة، فتضرب فضل ما بين الطولين : وهو خمس درج فى مثله يبلغ خمسا وعشرين، وتضرب فضل ما بين العرضين، وهو ثلاث ونصف فى مثله يبلغ ٱثنى عشر وربعا، فتجمع ما حصل من الضَّرْبَين، وهو خمس وعشرون وٱثنا عشر وربع يكون سـبعا وثلاثين وربعا نخذ جَذْرَها يكن سـتا ونصفَ سُدُسٍ تقريبا، وهو ما بين الفُسْطَاطِ ودِمَشْقَ من الدَّرَجِ، فاضربه فى ست وسـتين وثُلُثين، وهى ما للدّرجة الواحدة من الأميـال يكن أربعمائة وخمسةَ أميـال وثلثَ سدسِ مِيلٍ، فإذا ٱعتبرت كل أربعة

وعشرين مِيلًا بمرحلة علىٰ ما تقـدّم، كانت سبع عشرة مرحلةً تقريبا، وهو القـدر الذى بين الفُسْطَاطِ ودِمَشْقَ علىٰ الخط المستقيم .

أما الطرق المسلوكة إلىٰ البُلْدان علىٰ التعاريج بسبب البحار والجبـال والأودية وغيرها، فإنها تقتضى الزيادة علىٰ ذلك .

وقد ذكر أبو الرَّيْحان البيرونىّ فى كتابه "القانون": أن زيادة التعريج علىٰ الآستواء يكون بقـدر الخُمُس تقريبا. فإذا كان بين البلدين أربعون مِيلًا علىٰ الخط المسـتقيم كانت بحسب سير السائر خمسين مِيلًا .

قلت : وفيه نظر لطول بعض التعاريج علىٰ بعض فى الزيادة بالبحار والجبال عن الخط المستقيم علىٰ ما هو مشاهد فى الأسفار .

اللهم إلا أن يريد الغالب كما تقدّم بين الفُسْطَاطِ ودِمَشْقَ، فقد مرّ أن بينهما علىٰ الخط المسـتقيم سبع عشرة مرحلة بالتقريب، فإذا أضيف إليها مثـلُ خمسها، وهو ثلاثة وخمسان، كانت عشرين مرحلة، وهو القدر المعتاد فى سيرها بالسير المعتدل .

وآعلم أن أطوال البُـلْدان وعُرُوضَها قد وقع فى الكتب المصـنفة فيها ككتاب "الأطوال" المنسوب للفُرْس . و"رسم المَعْمُورِ" المترجم للمأمون من اللغة اليونانية . و" الزيجات " وغير ذلك آختلاف كثير وتبـاين فاحش . وممن صرح بذكر ذلك أبوالريحان البيرونىّ فى كتابه "القانون" فقال عند ذكرها: ولم يتهيأ لى تصحيح جميعها، وقد صححتُ ما أمكن منها .

قال فى "تقويم البُلْدان": إلا أن معرفة ذلك بالتقريب خير من الجهل بالكلية .

البـاب الثـانى
من المقـالة الثـانيـــــة

(فى ذكر الخلافة ومَنْ وليها من الخلفاء، ومقرّاتهم فى القديم والحديث، وما انطوت عليه الخلافة من الممالك فى القديم، وما كانت عليه من الترتيب، وما هى عليه الآن، وفيه فصلان)

الفصـل الأول

فى ذكر الخلافة ومن وليها من الخلفاء : من خلفاء بنى أُمَيَّة بالشام، وخلفاء بنى العبّاس بالعراق، وخلفاء الفاطِميِّين بمصر، وخلفاء بنى أُمَيَّة بالأَنْدَلُس .

أما الخلافة، فسيأتى فى المقالة الخامسة فى الكلام على الولايات أن المراد بها خلافة النبىّ صلى الله عليه وسلم بعده فى أمته . ولذلك كان يقال لأبى بكر الصِّدّيق رضى الله عنه : خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن الراجح أنه لا يجوز أن يقال فى الخليفة خليفة الله إلى تمام القول فيما سيأتى ذكره هناك، إن شاء الله تعالى .

وأما مَنْ وليها من الخلفاء، فعلى أربع طبقات .

الطبقة الأولى

(الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)

وأوّلهم «أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه»؛ بويع بالخلافة فى اليوم الذى مات فيه النبىّ صلى الله عليه وسلم ! على ما سيأتى ذكره فى الكلام على البيعات من المقالة الخامسة إن شاء الله تعالى .

وبقى حتّى تُوُفِّىَ لتسع ليال بَقِينَ من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة من الهجرة ودفن مع النبىّ صلى الله عليه وسلم ! فى حُجْرة عائشة رضى الله عنها

وبويع بعده ﴿عمر بن الخطاب رضى الله عنه﴾ فى اليوم الذى مات فيه أبو بكر رضى الله عنه بعد أن عَهِدَ له بالخلافة ، وتُوُفِّىَ يوم السبت سلْخَ ذى الحجة الحرام سنة ثلاث وعشرين بطعنة أبى لُؤْلُؤَةَ : غلامِ المغيرة بن شعبة ، ودفن مع النبىّ صلى الله عليه وسلم وأبى بكر رضى الله عنه

وفى أيامه فتحت الأمصار ففتحت دِمَشْقُ علىٰ يد خالد بن الوليد وأبى عُبَيدة ابن الجَرَّاح ، وتبعها فى الفتح سائرُ بلاد الشام ، ففتحت بَيْسَانُ ، وطَبَرِيَّةُ ، وقَيْسَارِيَّة ، وفِلَسْطِينُ ، وعَسْقَلَانُ ، وبَعْلَبَكُّ ، وحِمْصُ ، وحَلَبُ ، وقِنَّسْرِينُ ، وأَنْطَاكِيَةُ ، وسار إلىٰ بيت المَقْدِسِ فى خلال ذلك ، ففتحه صُلْحًا .

وفُتِح من بلاد الجزيرة الفراتية الرَّقَّةُ ، وحَرَّانُ ، والمَوْصِلُ ، ونَصِيبِينُ ، وآمِدُ والرُّها .

وفُتِح من العراق القَادِسِيَّةُ ، والمَدَائِنُ ، علىٰ يد سعد بن أبى وَقَّاصٍ ، وزال مُلْكُ الفُرْسِ ، وآنهزم مَلِكُهم يَزْدَجِرْدُ إلىٰ فَرْغَانَةَ من بلاد التُّرْك .

وفتحت أيضا كُوَرُ دِجْلَةَ ، والأُبُلَّةِ ، علىٰ يد عُتْبَةَ بن غَزْوَانَ .

وفتحت كُوَرُ الأَهْوَازِ علىٰ يد أبى موسىٰ الأشعرىّ .

وفتحت نَهَاوَنْدُ ، وإصْطَخْرُ ، وأَصْبَهَانُ ، وتُسْتُر ، والسُّوسُ ، وأَذْرَبِيجَانُ ، وبعض أعمال خُرَاسَانَ .

وفتحت مِصْرُ ، والإسْكَنْدَرِيَّةُ ، وأَنْطَابُلُسُ ، وهى بَرْقَةُ ، وطَرَابُلُسُ الغرب ، علىٰ يد عمرو بن العاص .

وبويع بالخلافة بعده ﴿عثمان بن عَفَّانَ رضى الله عنه﴾ لثلاث بقين من المحرّم سنة أربع وعشرين ، وقتل بالمدينة لثمانَ عشرةَ ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين ، وقيل يوم الأضحىٰ ، وقيل غير ذلك .

وبويع بالخلافة بعده ﴿علىّ كرم الله وجهه﴾ يوم قَتْل عثمان ، وقتل لسبعَ عشرةَ ليلة خلت من رمضان سنة أربعين من الهجرة بالعراق ،ودفن بالنَّجَف علىٰ الصحيح المشهور .

وبويع بالخلافة لأبنه ﴿الحسن﴾ بالكوفة من العراق يوم قتل أبيه ،وسلم الأمر لمعاوية لخمس بقين من ربيع الأوّل سـنة إحدىٰ وأربعين ، وقيل فى ربيع الآخر ، وقيل فى جمادىٰ الأولىٰ ، ولحق بالمدينة فأقام بها إلىٰ أن تُوفِّى بها فى ربيع الأوّل سنة تسع وأربعين ،وقيل ست وخمسين .

الطبقـــــة الثـانية
(خلفاء بنى أمية)

أوّلهم ﴿مُعَاوِيَةُ بن أبِى سُفْيَانَ﴾ كان أميرا علىٰ الشام فى خلافة عمر بن الخَطَّاب رضى الله عنــه ،وٱستمرَّ بها إلىٰ أن سلم الحســنُ إليه الأمرَ ، فٱستقلَّ بالخلافة وبقِىَ حتّىٰ توفى بدِمَشْقَ مستهلَّ رجب الفرد سنة ستين من الهجرة ، وقيل فى النصف من رجب ،وهو أوّل من رتب أمور الملك فى الإسلام .

وقام بالأمر بعده ٱبنه ﴿يَزِيدُ﴾ بالعهد من أبيه ؛ وبويع له بعد وفاته فى رجب سنة ستين ،وتوفى لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة أربع وستين .

وقام بالأمر بعده ٱبنه ﴿مُعَاوِيَةُ﴾ وبويع له بالخلافة فى النصف من شهر ربيع الآخر ســنة أربع وســتين ، فأقام بالخلافة أربعين يوما ، وقيل ثلاثة أشهر ، وقيل عشرين يوما .

وقام بالأمر بعــده ﴿مَرْوَانُ بن الحَكَم﴾ ؛ وبويع له بالخلافة بالجابِيَة فى رجب ســنة أربع وستين ،ثم جُدّدت له البَيْعَةُ فى ذى القَعْدَةِ من الســنة المذكورة ،وتُوُفِّىَ بالطاعون بدِمَشْقَ فى شهر رمضان سنة خمس وستين .

وقام بالأمر بعده آبنه «عبد الملك» بالعهد من أبيه، وبويع له بالخلافة فى الثالث من شهر رمضان المذكور، وتوفِّى بِدِمَشْقَ منتصف شوّال سنة ست وثمانين .

وقام بالأمر بعده آبنه «الوليد» بالعهد من أبيه، وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه، وتوفى بِدِمَشْقَ فى منتصف جمادى الآخرة سنة ست وتسعين .

وقام بالأمر بعده أخوه «سليمان بن عبد الملك» ، وبويع له يوم موت أخيه الوليد، وكان أبوه قد عهد أن يكون هو الخليفة بعد أخيه الوليد، وتوفى بدَابِقَ لعشر خلون من صفرَ سنة تسع وتسعين .

وقام بالأمر بعده آبن عمه «عمر بن عبد العزيز» بعهده له، وبويع له بالخلافة يوم موته، وتُوُفِّى بِخُنَاصِرَةَ لخمس وقيل لستٍّ بقين من رجب سنة إحدى ومائة .

وقام بالأمر بعده «يزيد بن عبد الملك بن مَرْوان» بعهد من أخيه سليمان أن يكون له الأمر من بعد عمر بن عبد العزيز، وقيل بعهد من أبيه أن يكون له الأمر بعد أخيه سليمان، ولكنه سلم لآبن عمه عُمَر، وبويع له يوم موت عمر، وتوفى بِجَوْلاَنَ لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة .

وقام بالأمر بعده أخوه «هشام بن عبد الملك» بعهد من أخيه يَزِيدَ، بويع له بالخلافة فى يوم موته ، وتوفى بالرُّصَافَةِ لِستٍّ خلون من ربيع الأوّل سنة خمس وعشرين ومائة .

وقام بالأمر بعده «الوليد بن يَزِيدَ بن عبد الملك»، بويع له بالخلافة لثلاث خلون من ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ، وقتل لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين (1) .

---

(1) أى فكانت خلافته سنة واحدة وشهرين .

وقام بالأمر بعــده آبنه ﴿يزيد﴾ المعروف بالناقص ؛ سمى بذلك لنقصــه الجند ما كان زادهم يَزِيدُ، بويع له بالخلافة يوم قَتْلِ الوليد، وتوفى بدِمَشْق لعشر بقين من ذى الحجة من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعــده أخوه ﴿إبراهيم بن الوليد﴾ ؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أخيه فى ذى الحجة المذكور، فمكث أربعة أشهر، وقيل أربعين يوما ثم خلع نفسه .

وقام بالأمر بعــده ﴿مَرْوان بن محمد بن مروان بن الحكم الجعــدىّ﴾ بتسليم إبراهيم بن الوليد الأمرَ إليه ؛ وفى أيامه ظهرت دعوة بنى العبّاس، وقصدته جيوشهم فهرب إلىٰ مصر، فأُدْرِك وقتل بقرية يقال لها بُوصِير من الفَيُّومِ، و بزواله زالت دولة بنى أُمَيَّةَ .

الطبقـــة الثـالثة

(خلفاء بنى العَبّاس بالعِــرَاق)

وأوّل من قام بالأمر منهم بعــد خلفاء بنى أُمَيَّــةَ ﴿السَّــفَّاحُ﴾ وهو أبو العبّاس عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن العباس : عم النبىّ صلى الله عليه وسلم ؛ بويع له بالخلافة بالكوفة لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر سنة آثنتين وثلاثين ومائة، وتوفى بالأنبار لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة .

وقام بالأمر بعــده أخوه ﴿المنصور﴾ أبو جعفر عبد الله ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه السَّفَّاحِ، وتوفى بطريق مكة وهو محرم بالحج سنة ثمانٍ وخمسين ومائة، ودفن بالحَجُونِ .

وقام بالأمر بعده آبنه ﴿المَهْدِىّ﴾ أبو عبد الله محمد ؛ بويع له بالخلافة يوم مات أبوه بطريق مكة وهو يومئذ ببغداد، وتوفى بماسَبَذانَ فى المحرّم سنة تسع وستين ومائة .

وقام بالأمر بعده آبنه ﴿الهادى﴾ أبو محمد موسىٰ ؛ بويع له بعد أبيه يوم موته وهو غائب[1]، فسار إلىٰ بغداد ودخلها بعد عشرين يوما، وتوفى لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة سبعين ومائة .

---

(١) وكان مقيما بجرجان يحارب أهل طبرستان بعسكر أبيه .

وقام بالأمر بعده ﴿الرشيد﴾ أبو محمد هرون بن المَهْدىّ؛ بويع له بالخلافة ليلة مات أخوه الهادى، وتوفى ليلة السبت لثلاث خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث وتسعين ومائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنه ﴿الأمين﴾ أبو عبد الله محمد، ويقال أبو موسى، ويقال أبو العبّاس، بالعهد من أبيه هرون الرشيد؛ وبويع له صبيحة الليلة التى توفى فيها أبوه الرشيد، وقتل لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة .

ثم قام بالأمر بعده أخوه ﴿المأمون﴾ أبو العبّاس، ويقال أبو جعفر عبد الله، بالعهد له من أبيه الرشيد أن يكون له الأمر بعد أخيه الأمين؛ وبويع له بالخلافة يوم قتل أخيه الأمين ببغداد وهو غائب؛ وبويع له البيعة العامة لخمس بقين من المحرّم سنة ثمان وتسعين ومائة، وتوفى بأرض الروم لليلة بقيت من رجب، وقيل لثمان خلون منه سنة ثمانى عشرة ومائتين، ودفن بطَرَسُوسَ .

وقام بالأمر بعده أخوه ﴿المعتصم بالله﴾ أبو إسحاق محمد بن هرون الرشيد؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه المأمون وهو يومئذ بطَرَسُوس، فسار إلى بغداد، فدخلها مستهلَّ رمضان سنة ثمانى عشرة ومائتين، وتوفى بسَامَرّا لثمانى عشرة ليلة مضت من ربيع الأوّل سنة سبع وعشرين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ٱبنه ﴿الواثق بالله﴾ أبو جعفر هرون؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه، وتُوُفِّى بِسُرَّمَنْ رَأَى لِستٍّ بقين من ذى الحجة سنة ٱثنتين وثلاثين ومائتين .

وقام بالأمر بعده أخوه ﴿المتوكل على الله﴾ أبو الفضل جعفر؛ بويع له بالخلافة يوم موت أخيه الواثق، وقتل لثلاث خلون من شوّال سنة سبع وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ٱبنه ﴿المستنصر بالله﴾ أبو جعفر محمد، بويع له بالخلافة صبيحة قتل أبيــه المتوكل، وتوفى بسَامَرّا لثلاث خلون من ربيع الآخر، وقيل لخمس خلون من ربيع الأوّل سنة ثمان وأربعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ﴿المســتعين بالله﴾ أبو العباس أحمد بن المعتصم بالله المتقدّم ذكره، بويع له بالخلافة فى اليوم الثانى من موت المستنصر، وخلع نفسه لأربع خلون من ربيع الآخر ســنة ثمــان وأربعين ومائتين، وجهّز إلىٰ واسط، فقتــل بها فى آخر رمضان من السنة المذكورة .

وقام بالأمر بعــده ﴿المُعْتَزّ بالله﴾ أبو عبد الله محمد، وقيل أبو الزبير ٱبن المتوكل علىٰ الله المتقدّم ذكره، بويع له ببغداد حين خلع المستعينُ نفسَه، وبايعه المستعين فيمن بايع، وخلع لثلاث بقين من رجب سنة خمس وخمسين ومائتين، ثم قتل بعد ذلك .

وقام بالأمر بعــده ﴿المهتدى بالله﴾ أبو عبــد الله ، ويقال أبو جعفر محمد بن الواثق بالله المتقدّم ذكره، بويع له بالخلافة بعد ليلتين من خلع المعتز بالله، وقتل لأربع عشرة ليلة خلت من رجب ســنة ست وخمســين ومائتين ؛ وكان يقــال هو فى بنى العبّاس مثل عمر بن عبد العزيز فى بنى أُمَيَّةَ .

وقام بالأمر بعــده ﴿المعتمد علىٰ الله﴾ أبو العباس ، ويقال أبو جعفر أحمد بن جعفر المتوكل المتقدّم ذكره، بويع له بالخلافة يوم قتل المهتدى بالله، وتوفى لإحدىٰ عشرة ليلة بقيت من رجب سنة تسع وسبعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ﴿المعتضد بالله﴾ أبو العباس أحمد بن الموفق، طلحة بن جعفر المتوكل، بويع له بالخلافة يوم قتل المعتمد علىٰ الله، وتوفى ببغداد لسبع وقيل لثمــان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمــانين ومائتين .

وقام بالأمر بعده ٱبنه (المكتفى بالله) أبو محمد علىّ؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المعتضد وهو غائب بالرَّقَّة، وكتب إليه بذلك فأخذ البيعة علىٰ من عنده وسار إلىٰ بغداد، فدخلها لثمان خلون من جمادىٰ الأولىٰ من سنته، وتوفى ببغداد لثلاث عشرة ليلة، وقيل لثنتى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة سنة خمس وتسعين ومائتين.

وقام بالأمر بعده أخوه (المقتدر بالله) أبو الفضل جعفر بن المعتضد بالله المتقدّم ذكره، وخُلِع لعشر بَقِين من ربيع الأوّل سنة ست وتسعين ومائتين.

وبويع (المرتضى بالله) أبو محمد عبد الله بن المعتز، فأقام يوما وليلة ثم ٱضطرب عليه الأمر فٱختفىٰ، وعاد الأمر إلىٰ المقتدر فظفِر بابن المعتز فصادره، ثم أُخرج من دار السلطان ميّتاً لليلتين خلَتَا من ربيع الآخر من السنة المذكورة، ثم خَلَع المقتدرُ بالله نفسَه؛ وبويع بالخلافة أخوه القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد فأقام يومين، ثم عاد الأمر إلىٰ المقتدر بالله وبقى حتّى قُتِل لثلاث خلون من شوّال سنة عشرين وثلثمائة.

وقام بالأمر بعده أخوه (القاهر بالله) المتقدّم ذكره، لليلتين بقيتا من شوّال سنة عشرين وثلثمائة، ثم خلع وسُمِلت عيناه لِستٍّ خلون من جمادىٰ الأولىٰ سنة ٱثنتين وعشرين وثلثمائة.

وقام بالأمر بعده ٱبن أخيه (الراضى بالله) أبو العباس أحمد بن المقتدر بالله المتقدّم ذكره، وتوفى لستَّ عشرةَ ليلة خلت من ربيع الأوّل سنة تسع وعشرين وثلثمائة.

وقام بالأمر بعده أخوه (المتقى بالله) أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر بالله المتقدّم ذكره؛ بويع له بالخلافة لعشر بقين من ربيع الأوّل سنة تسع وعشرين وثلثمائة، وخُلِع وسُمِلت عيناه لعشر بقين من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة.

وقام بالأمر بعده آبن عمه «المستكفى بالله» أبوالقاسم(١) عبد الله بن المكتفى بالله المتقـدّم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم خلع المتقى بالله بمشـاركته(٢) له، ثم خلع وسملت عيناه فى جمادىٰ الآخرة سنة أربع وثلاثين وثلثمائة .

وقام بالأمر بعده آبن عمه «المطيع لله» أبو القاسم، ويقال أبو العباس الفضل آبن المقتـدر بالله المتقدّم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم خلع المستكفى، وخلع نفسه منها للعجز بالمرض فى الثالث عشر من ذى القعدة سنة ثلاث وستين وثلثمائة .

وولى الخلافة بعده آبنـه «الطائع لله» أبو بكر عبد الكريم؛ بويع له بالخلافة يوم خَلْع أبيـه المطيع لله، وقُبِضَ عليه لآثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان سـنة إحدىٰ وثمانين وثلثمائة، فخلع نفسه .

وقام بالأمر بعـده «القادر بالله» أبو العباس أحمد بن إسحاق؛ بويع له بالخلافة يوم خلع الطائع، وكان غائبا بالبطائح فأُحْضر، وجدّدت له البيعة ببغداد فى شهر رمضان من السنة المذكورة، وتوفى حادى عشر ذى الحجة سنة آثنتين وعشرين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده آبنه «القائم بأمر الله» أبو جعفر عبد الله، بالعهد من أبيه، وجدّدت له البيعة بعد موت أبيه، توفى ثالث عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده آبن آبنه «المقتدى بأمر الله» عبد الله [بن] ذخيرة الدّين محمد ابن القائم بأمر الله المتقدّم ذكره، وتوفى فجأة فى الخامس والعشرين من المحرم سـنة سبع وثمانين وأربعمائة .

وقام بالأمر بعده آبنه «المستظهر بالله» أبو العباس أحمد؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه، وتوفى سادسَ عشر ربيع الآخر سنة آثنتَىْ عشرة وخمسمائة .

(١) كذا فى العقد أيضا وفى حياة الحيوان [أبو العباس] .

(٢) ليست هذه الكلمة فى العقد ولا فى حياة الحيوان وهى قليلة الجدوىٰ كما ترىٰ .

وقام بالأمر بعده ٱبنه (المسترشد بالله) أبو منصور الفضل ؛ بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيـه المستظهر، وقتل فى قتال الباطنية سابعَ عشر ذى القعدة سـنة تسع وعشرين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعـده ٱبنه (الراشـد بالله) أبو جعفر المنصور، بالعهد من أبيـه؛ وجدّدت له البيعة يوم قتله ،وخلع فى منتصف ذى القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعـده (المقتفى لأمر الله) أبو عبد الله محمد بن المستظهر المتقدّم ذكره؛ بويع له بالخلافة يوم خلع الراشـد بالله،وتوفى ثانى ربيع الأوّل سـنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنـه (المستنجد بالله) أبو المُظَفَّرِ يوسف؛ بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه المقتفى،وتوفى تاسع ربيع الآخر سنة ست وستين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعـده ٱبنه (المستضىء بالله) أبو محمد الحسـن؛ بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيـه المستنجد من أقاربه بَيْعَةً خاصة، وفى عشره (١) بَيْعَةً عامة، وتوفى ثانى ذى القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنـه (الناصر لدين الله) أبو العباس أحمد؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه المستضىء، وتوفى أوّل شوّال سنة ٱثنتين وعشرين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنـه (الظاهر بأمر الله) أبو نصر محمد؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيـه الناصر،وتوفى رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

وقام بالأمر بعده ٱبنـه (المستنصر بالله) أبو جعفر المنصور؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيه الظاهر،وتوفى لعشر خلون من جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة.

وقام بالأمر بعده ٱبنـه (المستعصم بالله) أبو أحمد عبـد الله؛ بويع له بالخلافة يوم موت أبيـه المستنصر بالله،وقتله هُولَاكُو مَلِكُ التَّتَارِ فى العشرين من المحرّم سنة

(١) أى عاشر ربيع الآخر التالى للبيعة الخاصة الواقعة فى التاسع .

ست وخمســين وستمائة . وبقتله آنقرضت الخلافة العباسية من بغداد، وهو الثامن والثلاثون من خلفاء بنى العباس ببغداد إذا عدّت خلافة آبن المعتز، وحسبت خلافة القاهر أوّلا وثانيـا خلافةً واحدة .

الطبقة الرابعـــة

(خلفاء بنى العبّاس بالديار المصرية من بَقَايا بنى العبّاس)

وأوّل من قام بأمر الخلافة بها «المستنصر بالله» أبو القاسم أحمد بن الظاهر بالله أبى نصر محمد المتقـدّم ذكره . وذلك أنه لمـا قتل التتر المستعصم المتقـدّم ذكره، وبقيت الخلافة شاغرةً نحوا من ثلاث سنين ونصف ثم قَدِمَ جماعة من عرب الحجـاز إلى مصر فى رجب سـنة تسع وخمسين وستمائة أيامَ الظاهر بيبرس، ومعهم المستنصر المذكور، وذكروا أنه خرج من دار الخلافة ببغداد لمّـا ملكها التَّتَرُ، فعقد الملك الظاهر له مجلسا حضره جماعة من العلماء، منهـم الشيخ عز الدّين بن عبد السلام شيخ الشافعية، وقاضى القضاة تاجُ الدين ابن بنت الأعز الشافعىّ، وهو يومئذ قاضى الديار المصرية بمفرده، وشهد أولئك العرب بنسبه، ثم شهد جماعة من الشهود على شهادتهم بحكم الآستفاضة، وأثبت آبن بنت الأعز نسبَه، ثم بايعه الملك الظاهر بالخلافة وأهلُ الحلّ والعقد، وآهتم الملك الظاهر بأمره، وآستخدم له عسكرا عظيما، وتوجه الملك الظاهر إلى الشام وهو صحبته فجهَّزه من هناك بعسكره إلى بغداد طمعا أن يستولى عليها وينتزعها من التَتـار، فخرج إليه التتار قبل أن يصل بغداد فقتلوه، وقتلوا غالب عسكره فى العشر الأوّل من المحرّم سنة ستين وستمائة . فكانت خلافته دون السنة، وهو أوّل خليفة لقب بلقب خليفة قبله، وكانوا قبل ذلك يلقبون بألقاب مرتَجَلَة .

وقام بالأمر بعده (الحاكم بأمر الله) أبوالعباس أحمد بن حسين بن أبى بكر آبن الأمير أبى على القبّى آبن الأمير حسن بن الراشد بالله أبى جعفر المنصور المتقدّم ذكره فى الخلفاء ببغداد . قدِمَ مصر سنة تسع وخمسين وستمائة، وهو آبن خمسَ عشرةَ سنة فى سلطنة الظاهر بيبرس، وقيل إن الظاهر بعث من أحضره إليه من بغداد، وجلس له مجلسا عاما أثبتَ فيه نسبَه، وبايعه بالخلافة فى سنة ست وستين وستمائة ، وأشركه معه فى الدعاء فى الخطبة على المنابر، إلا أنه منعه التصرفَ والدّخول والخروج . ولم يزل كذلك إلى أن ولِيَ السلطنة الملكُ الأشرف خليل بن المنصور قلاوون، فأسكنه بالكبش بخط الجامع الطولونى، فكان يخطب أيام الجمعة فى جامع القلعة ويصلى، ولم يطلق تصرفه إلى أن تسلطن المنصور لاچين، فأباح له التصرف حيث شاء وأركبه معه فى الميادين، وتوفى فى شهور سنة إحدى وسبعمائة .

وقام بالأمر بعده آبنه (المستكفى بالله) أبو الربيع سليمان بالعهد من أبيه الحاكم، وبويع له بالخلافة يوم موت أبيه، وآستقرّ على ما كان عليه أبوه من الركوب والنزول وركوب الميادين مع السلطان إلى أن أعيد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة المرّة الثانية بعد خلع الملك المظفر بيبرس الجاشنكير فى شهور سنة تسع وسبعمائة، فحصل عند السلطان منه وحشة، فجهزه إلى قُوص ليقيم بها ، وبقى بقُوص حتّى توفى فى سنة أربعين وسبعمائة .

وولى الخلافة بعده آبنه (المستعصم بالله) أبو العباس أحمد بعهد من أبيه المستكفى بأربعين شاهدا بمدينة قوص، ودعى له على المنابر فى العشر الأخير من شوّال سنة أربعين وسبعمائة .

ثم خلعه الناصر محمد بن قلاوون، وبايع بالخلافة (الواثق بالله) أبا إسحاق إبراهيم آبن الحاكم بأمر الله المتقدّم ذكره، وأمر بأن يدعى له على المنابر، وتحمل له راية الخلافة،

فجرىٰ الأمر علىٰ ذلك. وكان قد همّ بمبايعته بعــد موت المستكفى فلم يتم له . فلما توفى الملك الناصر فى العشرين من ذى الحجة ســنة إحدىٰ وأربعين وســبعمائة، أعيد المستعصم بالله أحمد المتقــدّم ذكره إلىٰ الخلافة بعــد خلع الواثق إبراهيم، وبقى حتّى توفى رابعَ شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة .

ثم ولى الخلافة بعده أخوه ﴿المعتضد بالله﴾ أبو الفتح أبو بكر بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان سابع عشر شعبان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، وتوفى عاشر جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

وولى الخلافة بعده ٱبنــه ﴿المتوكل علىٰ الله﴾ أبو عبد الله محمد بن المعتضد بالله المتقــدّم ذكره بالعهد من أبيه المعتضد، وٱستقرّ له الأمر بعد وفاة أبيه يوم الخميس ثانى عشر جمادىٰ الأولىٰ ســنة ثلاث وستين وسبعمائة، وبقى حتّى خلعه الأمير أَيْبَكْ أتابكُ العساكر فى سلطنة الملك المنصور علىّ بن الأشرف شعبان بن حسين .

وولى الخلافة مكانه ﴿المستعصم بالله﴾ أبو يحيىٰ زكريا بن الواثق إبراهيم المتقدّم ذكره ، فأقام فى الخلافة دون ثلاثة أشهر . ثم أعيد المتوكل علىٰ الله محمد بن أبى بكر إلىٰ الخلافة ثانيا فى أواخر المحرّم أو أوائل صفر ســنة تسع وسبعين وسبعمائة، وٱستمرّ حتّى قبض عليــه الظاهر برقوق وٱعتقله بقلعة الجَبَل فى مستَهَلّ شهر رجب ســنة خمس وثمانين وسبعمائة .

وولّى الخلافة مكانه ﴿الواثق بالله﴾ أبو حفص عمر بن الواثق بالله إبراهيم المتقدّم ذكره، فبقى حتّى توفى فى العشر الأول من شوّال سنة ثمــان وثمــانين وسبعمائة، فأعاد الظاهر برقوق المستعصم بالله زكريا المتقدّم ذكره ثانيا إلىٰ الخلافة، والمتوكل علىٰ الله فى الٱعتقال والناس لا يَرَوْنَ فى كل ذلك الخليفةَ غيره .

ثم عنّ للملك الظاهر برقوق بعد ذلك فأطلق المتوكلَ علىٰ الله من الاعتقال، وأكرمه وأحسن إليه فى ثانى جمادىٰ الأولىٰ سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة، وبقى فى الخلافة حتّى توفى سابع عشرى شهر رجب الفرد سنة ثمان وثمانمائة .

وولى الخلافة بعده ٱبنه ﴿ أبو الفضل العباس ولُقِّبَ المستعينَ بالله ﴾ وبقى فى الخلافة علىٰ سَنَنِ من تقدّمه من الخلفاء العبّاسيين بالدّيار المصرية من قصور أمره علىٰ العهد إلىٰ السلطان والدّعاء له علىٰ المنابر قبل السلطان إلىٰ أن قبض علىٰ الناصر فرج بن برقوق بالشام فى الثانى عشر من ربيع الأول من سنة خمس عشرة وثمانمائة، فاستقلَّ بالأمر وٱستبدّ به، وأجمع له أمر الخلافة : من ضرب ٱسمه علىٰ السِّكَّةِ فى الدّنانير والدّراهم والدّعاء له علىٰ المنابر بمفرده، والعلامة علىٰ التقاليد والتواقيع والمكاتبات وغيرها، وفوَّض أمر تدبير دولته للأمير "شيخ" وكُتب له تفويضٌ فى ورق، عرضُه ذراعٌ ونصفٌ بذراع البز، يزيد عما كان يكتب فيه للسلاطين نصف ذراع بقلم مختصر الطومار .

وكان المتولى لأمر كتابته المقرّ الشمسىّ محمد العمرى عين أعيان كُتَّاب الدّست الشريف بالأبواب الشريفة السلطانية، ونائب كاتب السر . وسيأتى ذلك فى الكلام علىٰ التواقيع فى المقالة الخامسة إن شاء الله تعالىٰ .

وأما مقرّات الخلفاء، فهى أربع مقرّات :

المقرة الأُولىٰ

(المدينة النبوية علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والإكرام)

كانت مقرّة الخلفاء الراشدين إلىٰ حين ٱنقراضهم، وذلك أن مبدأ النبوّة كان بمكة ثم هَاجَر النبىُّ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المدينة، وأقام بها حتّى تُوُفِّى (١) فى الثالث عشر من ربيع الأوّل سنة إحدىٰ عشرةَ من الهجرة .

---

(١) المشهور أن وفاته يوم الاثنين الثانى عشر الخ ولكن فى العقد "لثلاث عشرة خلت من ربيع الأوّل" ولعل المؤلف ٱعتمده .

ثم كان بعده فى الخلافة أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علىّ، ثم الحسن إلىٰ حين سَلَّمَ الأمر لمعاوية، وإنمــا كان مُقام علىّ والحسن بالعراق زمن القتال بينهما وبين معاوية .

المقرّة الثانيــــة

(الشــأم)

وهى دار خلفاء بنى أُمَيَّة إلىٰ حين ٱنقراضهم

قد تقــدّم أن معاوية كان أميرا علىٰ الشأم قبــل الخلافة، ثم ٱستقل بالأمر حين سَــلَّم إليه الحسنُ، وبقى فى الشأم هو ومَنْ بَعْدَهُ إلىٰ حين ٱنقراض خلافتهم، فقتل مَرْوَانُ بن محمــد علىٰ ماتقدّم ذكره . وكانت دارُ إقامتهــم دِمشق، وإن نزلوا غيرها فليس لإقامة .

المقرّة الثــالثــــة

(العِــراق)

وهى دار خلفاء بنى العبّاس

وكان أوّل مبايعة السَّفَّاحِ به بالكوفة علىٰ ماتقدّم، ثم بنىٰ بعد ذلك بالأنْبَارِ مدينةً وسماها الهــاشمية ونزلها . فلما ولى أخوه أبو جعفر المنصورُ الخلافَةَ بعده بنىٰ بَغْدَادَ وسكنها وصارت منزلا لخلفاء بنى العبّاس بعده إلىٰ حين ٱنقراض الخلافة منها بقتل التتر المستعصمَ آخرَ خلفائهم بهــا .

المقرّة الرابعــــة

(الديار المصرية)

وهى دار الخلافة الآن

وقد تقدّم سبب ٱنتقال الخلافة إليها بعد ٱنقراضها من بغداد فى الكلام علىٰ من ولى الخلافة من الخلفاء، فأغنىٰ عن إعادته هنا .

وقد تقدّم أن الحاكم بأمر الله ثانىَ خلفائهم بمصر أسكنه الأشرفُ خليل بن قلاوون بالكبش بخُط الجامع الطُّولُونىّ . أما الآن فاستقرّت دار الخلافة بخُطّ المشهد النفيسىّ بين مصر والقاهرة ، ولا أخلىٰ الله هذه المملكة من آثار النبوّة .

الفصل الثانى

من الباب الثانى من المقالة الثانية

(فيما انطوت عليه الخلافة من الممالك فى القديم ، وما كانت عليه من الترتيب ، وما هى عليه الآن)

أما ما انطوت عليه من الممالك ، فاعلم أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قد فتح مكة وما حول المدينة من القرىٰ كخَيبر ونحوها .

وفتح خالد بُصْرىٰ من الشأم فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، وهى أوّل فتح فُتِح بالشأم ، ثم كانت الفتوح الكثيرة فى خلافة عمر رضى الله عنه ، ففتح بلادَ الشأم ، وكُوَر دِجْلَة والأُبُلَّةِ ، وكُوَرَ الأهْوَازِ ، وإصْطَخْر ، وأَصْبَهَان ، والسُّوس ، وأَذْرَبِيجان ، والرَّىّ ، وجُرْجَان ، وقَزْوِين ، وزَنْجان ، وبعض أعمال خُرَاسَان ، وكذلك فتحت مِصْرُ ، وبَرْقَةُ ، وطَرَابُلُس الغرب .

ثم فتح فى خلافة عثمان رضى الله عنه : كَرْمَانُ ، وسِجِسْتَان ، ونَيْسَابُورُ ، وفَارِسُ ، وطَبَرَسْتَان ، وهَرَاةُ ، وبقية أعمال خُرَاسَانَ . وفتحت أرْمِينِيَةُ ، وحَرَّانُ ، وكذلك فتحت أفْرِيقِيةُ ، والأَنْدَلُس ، وسدّ الإسلامُ مابين المشرق والمغرب ، وكانت الأموال تُجْبىٰ من هذه الأقطار النائية والأمصار الشاسعة ، فتحمل إلىٰ الخليفة ، وتوضع فى بيت المال بعد تكفية الجيوش وما يجب صرفه من بيت المال . ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أثناء خلافة بنى العباس ، ماعدا الأَنْدَلُس فإن بقايا خلفاء بنى أمية استولَوْا عليه

حتّى يقال : إن الرشيد كان يستلقى علىٰ ظهره وينظر إلى السحابة مارّة ويقول : "آذهبي إلىٰ حيث شئتِ يأتِينِي خَرَاجُكِ" ثم آضطرب أمر الخلافة بعد ذلك وتقاصر شأنها وآستبدّ أكثر أهل الأعمال بعَمَله من خلافة الراضى علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

وأما ترتيب الخلافة : فله حالتان ،

الحالة الأُولىٰ

(ما كان عليه الحال فى الزمن القديم)

اِعلم أن الخلافة لآبتداء الأمر كانت جارية علىٰ ما أُلِفَ من سيرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ! : من خُشونة العيش، والقُرْب من الناس، وآطّراح الخُيَلاء وأحوال الملوك، مع ما فتح الله تعالىٰ علىٰ خلفاء السلف من الأقاليم، وجبى إليهم من الأموال التى لم يفُزْ عظماء الملوك بجزء من أجزائها . وناهيكَ أنهم فتحوا عِدّةً من الممالك العظيمة التى كانت يضرب بها المثَلُ فى عظَم قدرها، وآرتفاع شأن ملوكها، من ممالك المشرق والمغرب . حتّى ذكر عظماء الملوك عند بعض السلف فقال: "إنما المَلِكُ الذى يأكل الشعير ويَعُسُّ علىٰ رجليه بالليل ماشيا وقد فُتِحَتْ له مشارقُ الأرض ومغاربُها" يريد عمر بن الخطاب رضى الله عنه . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ أن سلَّمَ الحسنُ رضى الله عنه الأمرَ لِمُعَاوِيَةَ ؛ وإلىٰ ذلك الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم ! "الخِلَافةُ فى أُمَّتِي ثلاثُونَ سنةً ثم مُلْكٌ بعد ذلك" فكان آخر الثلاثين خلافةَ الحسن .

فلما سلَّم الحسن رضى الله عنه لمعاوية بعدوقوع الآختلاف وتبَايُنِ الآراء، آقتضى الحال فى زمانه إقامةَ شِعَارِ الملك، وإظهارَ أُبَّهَةِ الخِلَافة، فأخذ فى ترتيب أمور الخلافة علىٰ نظام الملك لما فى ذلك من إرهاب العدوّ وإخافته . بل كان ذلك شأنَه وهو

أمير بالشأم قبل أن يلى الخلافة. حتّى حكىٰ صاحب "العِقْد" وغيْرُه أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قَدِمَ الشأم فى خلافته وهو راكب علىٰ حمار، ومعه عبد الرحمن بن عوف، ومعاويةُ أميرٌ علىٰ الشام، فخرج معاوية لملاقاته فى مَوْكب عظيم، فلقيه فى طريقه فى خِفٍّ من القوم فلم يشعُرْ به وتعدّاه طالبا له؛ ثم عُرِّفَ ذلك فيما بعد، فرجع وسلَّم علىٰ أمير المؤمنين عمر، ومشىٰ إلىٰ جانبه، فلم يلتفت إليه وطال به ذلك، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبْتَ الرجل ياأمير المؤمنين، فٱلتفت إليه حينئذ، وقال: أنت صاحب المَوْكب الآنَ مع مابلغنى من وقوف ذوى الحاجات ببابك؟ — فقال: ياأمير المؤمنين: إنا بأرضٍ يكثر فيها جواسيسُ العدو فأحتاجُ أن أُظْهِر لهم من أُبَّهَةِ المُلْك والسلطان ما يَزَعُهُمْ، فإن أمرتنى به، ٱئتمرت؛ وإن نهيتَنى عنه، ٱنتهيت — فقال: إن كان ماقلتَ حَقًّا، فإنه لَرَأْىُ أديبٍ! وإن كان غيْرَحق، فإنه لَخُدْعة أريب. لاآمُرُك ولا أَنْهاك — فقال عبد الرحمن: لَحَسَنٌ ياأمير المؤمنين! ما صدَرَ به هذا الفتىٰ عما أورَدْتَه فيه — فقال: لِحُسْنِ مَصَادِرِه وموارده جَشَّمْنَاهُ ما جشمناه.

فلما صارت الخلافة إليه، زاد فى حسن الترتيب وإظهار الأُبَّهة، وأخذ الخلفاء بعده فى مضاعفة ذلك والٱحتفال به حتّى أمست الخلافة فى أغنىٰ مايكون من ترتيب الملك، وفاقت فى ذلك الأَكاسِرَةَ والقياصرة. بل ٱضْمَحَلَّ فى جانب الخلافة سائر الممالك العظام، وٱنطوىٰ فى ضمنها ممالك المشارق والمغارب، خصوصا فى أوائل الدّولة العباسية فى زمن الرشيد ومَنْ والاه.

حتّى يحكىٰ أن صاحبَ عَمُّورِيَّةَ من ملوك الروم كانت عنده شريفةٌ مأسورةٌ فى خلافة المُعْتَصِمِ فعذّبها، فصاحت وَا مُعْتَصِماه! فقال لها: لايأتى المعتصم لخلاصك إلا علىٰ أبْلَقَ. فبلغ ذلك المعتصم، فنادىٰ فى عسكره بركوب الخيل البُلْقِ، وخرج

وفى مقدّمة عسكره أربعـةُ آلاف أبلق، وأتىٰ عَمُّورِيَّةَ فحاصرها وخلص الشريفة، وقال : ٱشهدى لى عند جدّك المصطفىٰ صلى الله عليه وسلم أنى جئت لخلاصِك، وفى مقدّمة عسكرى أربعة آلافِ أَبْلَقَ .

وقد حكىٰ ٱبن الأثير فى تاريخه : أنه لمـا وصلت رُسُل ملك الروم إلىٰ بغداد فى سنة خمس وثلثمائة فى خلافة المقتدر، رُتِّبَ من العسكر فى دار الخلافة مائة وستون ألفا ما بين راكب وراجل، ووقف بين يدى الخليفة سبعُمائة حاجب، وسبعة آلاف خادم خَصِىٍّ : أربعـة آلاف بِيض وثلاثة آلاف سُود، ووقف الغِلْمـان الحَجَرِيَّةُ الذين هم بمثابة مماليك الطِباق الآن بالباب، بتمام الزينة والمناطق المُحَلَّاةِ، وزينت دار الخلافة بأنواع الأسلحة، وغرائب الزينـة، وغُشِّيت جُدْرَانُها بالستور، وفرشت أرضها بالبُسُطِ، وكان عدّة البسط ٱثنين وعشرين ألف بساط، وعدّة الستور المعلقة ثمـانيةً وثلاثين ألف ستر، منها ٱثنا عشر ألف ستر من الديباج المُذْهَبِ؛ وكان من جملة الزينة شجرة من الذهب والفضة بأغصانها وأوراقها، وطيورُ الذهب والفضة علىٰ أغصانها، وأعضانُها تتمـايل بحركات موضوعة، والطيور تُصَفِّرُ بحركات مرتبة، وألقيت المراكب والدبادب فى دِجْلَةَ بأحسن زينـة . وكان هنـاك مائة سَبُع مع مائة سَبَّاعٍ، إلىٰ غير ذلك من الاحوال الملوكية التى يطول شرحها .

هذا مع تقهقر الخلافة وٱنحطاط رتبتها يومئذ . ولم تزل الخلافة قائمةً علىٰ ترتيبٍ واحد فى النفقة والجرايات والمطابخ وإقامة العساكر إلىٰ آخر أيام الراضى بالله .

فلما ولى المُتَّقِى لله، تقاصر أمرُ الخلافة وتناقص، وقَنِـع الخلفاء من الخلافة بالدعاء علىٰ المنابر وضَرْبِ ٱسمهم علىٰ الدنانير والدراهم، وربما خطب الواحد منهم بنفسه، ومع ذلك فكان الخليفة هو الذى يولِّى أربابَ الوظائف من القُضاة وغيرهم، وتكتب عنه العهود والتقاليد وغيرها لا يشاركه فى ذلك سُلْطان .

وأما شعار الخلافة :

فمنها ـ الخَاتَمُ : والأصل فيه ماثبت فى الصحيح "أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم ! قيل له : إن الملوك لا يَقْرءُون كتابا غير مختوم فآتّخذ خَاتَمًا من وَرِقٍ، وجعل نَقْشَهُ مُحمدٌ رسول الله" فلما تُوُفِّىَ رسول الله صلى الله عليه وسلم، لبسه أبو بكر بعده ثم لبسه عمر بعد أبى بكر، ثم لبسه عثمانُ بعد عمرَ، فوقع منه فى بئر فلم يُقْدَرْ عليه .

وآتخذ الخلفاء بعد ذلك خواتيمَ ، لكل خَاتَم نقشٌ يخصه، وبقى الأمر علىٰ ذلك إلىٰ آنقراض الخلافة من بَغْدَادَ .

(ومنها) البُرْدة : وهى بردة النبىِّ صلّى الله عليه وسلم التى كان الخليفة يلبسها فى المواكب .

قال آبن الأثير : وهى شَمْلَةٌ مُخَطَّطة ، وقيل كِسَاءٌ أسودُ مربَّع فيه صِغَرٌ، وقد آختلف فى وصولها إلىٰ الخلفاء .

فحكىٰ المَاوَرْدىُّ فى الأحكام السلطانية عن أبان بن تغلب أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم كان وَهَبها لكعب بن زُهَيْرٍ حين آمتدحه بقصيدته التى أولها : "بَانَتْ سُعَادُ" فآشتراها منه معاوية . والذى ذكره غيره أن كعبا لم يسمح ببيعها لمعاوية، وقال : لم أكن لأوثِر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا . فلما مات كعب آشتراها معاويةُ من ورثته بعشرة آلاف درهم .

وحكى المَاوَرْدِىّ أيضا عن حَمْزَةَ بن ربيعة أن هذه البردة كان النبىّ صلّى الله عليه وسلم أعطاها لأهل أَيْلَةَ أمانًا لهم ، فأخذها منهم عبد الله بن خالد بن أبى أوفىٰ وهو عامل عليهم من قِبَلِ مَرْوانَ بن محمد آخرِ خلفاء بنى أُمَيَّةَ وبعث بها إليه ، وكانت فى خِزَانته حتّى أُخِذت بعد قتله . وقيل آشتراها أبو العبَّاس السفَّاحُ : أوّلُ خلفاء بنى العبّاس بثلثمائة دينار .

(ومنها) القَضِيب : وهو عود كان النبيّ صلّى الله عليه وسلم يأخذه بيده .

قال المـاوردىّ : وهو من تركة النبيّ صلّى الله عليه وسلم التى هى صدقة .

قلت : وكان القضيب والبردةُ المتقـدّما الذكر عند خلفاء بنى العبّاس ببغدادَ إلىٰ أن ٱنتزعهما السلطان سنجر السَّلْجُوقِىّ من المسترشد بالله، ثم أعادهما الىٰ المقتفى عند ولايته فى سنة خمس وثلاثين وخمسمائة . والذى يظهر أنها بقيت عندهم إلىٰ ٱنقضاء الخلافة من بغداد سنة ست وخمسين وستمائة فإن مقدار ما بينهما مائةٌ و إحدىٰ وعشرون سنة، وهى مدّة قريبة بالنسبة إلىٰ ماتقدّم من مدّتهما .

(ومنها) ثياب الخلافة : وقد ذكر السلطان عماد الدّين صاحب حماه فى تاريخه فى الكلام علىٰ ترجمة الملك السعيد إسماعيل أحد ملوك بنى أيوبَ باليَمَنِ أنه كان به هَوَجٌ، فٱدّعىٰ أنه من بنى أمية ولبس ثياب الخلافة، ثم قال: وكان طول الكم يومئذ عشرين شِبْرًا، فيحتمل أنه أراد زمن بنى أمية، وأنه أراد زمن بنى أيوب .

(ومنها) اللون فى الأعلام والخِلَع ونحوها .

وكان شـعار بنى أُميـة من الألوان الخُضْرَة، فقد حكىٰ صاحب حماة عن الملك السعيد إسمـاعيل المتقدّم ذكره : أنه حين ٱدّعىٰ الخلافة وأنه من بنى أُمَيَّـةَ لبس الخُضْرَةَ، وهذا صريح فى أنه شِعَارُهم .

أما بنـو العباس فشـعارهم السَّوَادُ، وقد ٱختلف فى سبب ٱختيارهم السَّوادَ، فذكر القاضى المَـاوَرْدِىّ فى كتابه "الحاوى الكبير" فى الفقه : أن السبب فى ذلك أن النبيّ صـلّى الله عليه وسلم فى يوم حُنَيْنٍ و يومِ الفَتْحِ عقد لعمه العبّاس رضى الله عنه رايةً سوداء .

وحكىٰ أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : أن سبب ذلك أن مَرْوَانَ ٱبن محمد آخِرَ خلفاء بنى أُمَيَّةَ حين أراد قتل إبراهيم بن محمد العبّاسىّ : أولِ القائمين من بنى العبَّاس بطلب الخلافة قال لشيعته : لايَهُولنكم قتلى، فإذا تمكنتم من أمركم فاستخلفوا عليكم أبا العبَّاس يعنى السَّفَّاحَ ؛ فلما قتله مَرْوان، لبس شيعتُه عليه السَّوادَ، فلزمهم ذلك وصار شِعَارًا لهم .

ومن غريب ماوقع مما يتعلق بذلك ما حكاه ٱبن سعيد فى "المغرب" أن الظافر الفاطمىّ أحدَ خلفاء مصر لما قتله وزيره عباس، بعث نساءُ الخليفة شعورَهن طىَّ الكُتُب إلىٰ الصالح طلائع بن رزيك ، وهو يومئذ والٍ بمنية بنى خَصِيبٍ (١) ، فحضر إليهم وقد رفع تلك الشعور علىٰ الرماح ، وأقام الرايات السود إظهارا للحرب علىٰ الظافر، ودخل القاهرة علىٰ ذلك ، فكان ذلك من الفأل العجيب ، وهو أن مصر ٱنتقلت إلىٰ بنى العباس بعد خمس عشرة سنة، ورفعت راياتهم السُّود بها .

وأما توليـة الملوك عن الخلفاء، فكان الحال فيه مختلفا بٱعتبار السلطان بحضرة الخلافة وغيره. فإن كان الذى يوليه الخليفةُ هو السلطانَ الذى بحضرة الخلافة، كبنى بُوَيه و بنى سلجوق وغيرهم ، فقد حكىٰ ٱبن الأثير وغيره أن السلطان طغرلبك بن ميكائيل السَّلجُوقىّ لما تقلد السلطنة عن "القائم بأمر الله" فى سنة تسع وأربعين وأربعمائة، جلس له الخليفة علىٰ كرسىٍّ ٱرتفاعُه عن الأرض نحو سبعة أذْرُعٍ، وعليه البُرْدَةُ، ودخل عليه طغرلبك فى جماعةٍ ، وأعيانُ بغداد حاضرون، فقَبَّل طغرلبك الأرضَ ويَدَ الخليفة، ثم جلس علىٰ كرسىٍّ نُصِب له ،ثم قال رئيسُ الرؤساء وزيرُ الخليفة عن لسان الخليفة : "إن أمير المؤمنين قد ولَّاك جميعَ ماولَّاه الله تعالىٰ من

(١) معجم البلدان [منية أبى الخصيب] .

بلاده، وردَّ إليك أمرَ عباده، فاتق الله فيما ولّاك، وآعرف نعمته عليك" ثم خُلِع علىٰ طغرلبك سبعُ جبات سود بزيق واحد، وعمامة سوداء، وطُوِّق بطوق من ذهب، وسُوِّر بسِوَارَيْن من ذهب، وأُعْطِى سيفا بغلاف من ذهب، ولقبه الخليفة، وقرئ عهده عليه فقبل الأرض ويدَ الخليفة ثانيا وآنصرف ، وقد جُهِّز له فرس من إصْطَبْلَاتِ الخليفة بمَرْكَب من ذهب مقندس فركب وآنصرف إلىٰ داره، وبعث إلىٰ الخليفة خمسين ألفَ دينار، وخمسين مملوكا من الترك بخيولهم وسلاحهم مع ثياب وغيرها . ولعل هذا كان ترتيبهم فى لبس جميع ملوك الحضرة .

– وإن كان الذى يوليه الخليفة من ملوك النواحى البعيدة عن حضرة الخليفة كملوك مصر إذ ذاك ونحوهم، جهز له التشريف من بغداد صحبة رسول من جهة الخليفة، وهو جُبَّة أطلس أسود بطراز مُذْهَبٍ وطوق من ذهب يجعل فى عنقه، وسِوَارَانِ من ذهب يجعلان فى يديه، وسيفٌ قِرَابُه مُلَبَّسٌ بالذهب، وفرس بمركب من ذهب، وعَلَمٌ أسودُ مكتوب عليه بالبياض آسم الخليفة ينشر علىٰ رأسه ، كما كان يبعث إلىٰ السلطان صلاح الدّين يوسف بن أيوب ثم أخيه العادل. فإذا وصل ذلك إلىٰ سلطان تلك الناحية، لبس الخِلْعَةَ والعمامة، وتقلد السيف وركب الفرس وسار فى موكبه حتّى يصل إلىٰ محل ملكه . وربما جهز مع خلعة السلطان خِلَعٌ أخرىٰ لولده أو وزيره أو أحدٍ من أقاربه بحسب ما يقتضيه الحال حينئذ .

وآخر من وصلت إليه الخِلْعةُ والطوق والتقليد من ملوك بنى أيوب من بغداد الناصرُ يوسف بن العزيز بن السلطان صلاح الدين عن المستعصم فى سنة خمس وخمسين وستمائة .

وأما الوظائف المعتبرة عندهم ، فعلى ضربين :

الضرب الأوّل

(وظائف أرباب السيوف ، وهى عدّة وظائف)

(منها) الوزارة فى بعض الأوقات دون بعض .

وقد ذكر القُضَاعىّ وغيره أن أوّل من لُقِّب بالوزارة فى الإسـلام ، أبو سلمة ، حفص بن سليمان الخلال وزير أبى العبَّاس السَّفَّاح أوّل خلفاء بنى العبّاس ، ولم يكن ذلك قبـله ، ثم جرى الأمر على ذلك فى آتخاذ الخلفاء الوزراءَ إلى آنقراض الخلافة ببغداد بقتل التتار المستعصمَ فى سنة ست وخمسين وستمـائة ، ووزيره يومئذ مؤيد الدين بن العلقمىّ ، وقتله هولاكو ملك التتار بعد قتل المستعصم لممالأته على المستعصم مع التتار ، وهو آخر وزراء الخلافة ببغداد .

(ومنها) الحِجَابة : وكان موضوعها عندهم حفظَ باب الخليفة والآستئذانَ للداخلين عليه ، لا التَّصَدّى للحكم فى المَظَالم كما هو الآن .

وقد ذكر القضاعىّ فى "تاريخ الخـلائف" ما يقتضى أن الخلفـاء لم تزل تتخذ الحُجَّابَ من لَدُنِ الصِّدِّيق رضى الله عنه فَمَنْ بعده ، خلا الحسنَ بن علىّ فإنه لم يكن له حاجب .

(ومنها) وِلَاية المَظَالم : وموضوعها قَوْدُ المتظالمين إلى التناصف بالرَّهْبـة ، وزَجْر المتنازعين عن التجاحُد بالهيبة . كما قاله المَـاوَرْدِىُّ فى "الأحكام السلطانية" وهى شبيهة بالجوبية الآن فى هذا المعنى ، وكانت عندهم من أعلى الوظائف وأرفعها رتبة لايتولّاها إلا ذوُو الأقدار الجليلة ، والأخطار الحفيلة .

(ومنها) النِّقَابةُ على ذوى الأنساب : كالطالبيين والعباسيين ومَـنْ فى معناهم ، كما فى نِقَابة الأشراف الآن بالديار المصرية وأعمالهـا ، وكانت لديهـم من وظائف

أرباب السيوف، ولذلك ٱستُصْحِبَ هذا المعنىٰ فى نقيب الأشراف الآن، فيكتب فى ألقابه الأميرىُّ، وإن كان من أرباب الأقلام علىٰ ما سيأتى ذلك فى كتابة توقيعه إن شاء الله تعالىٰ .

الضرب الثـانى

(وظائف أرباب الأقلام، وهى نوعان، دينية وديوانية)

فأما الديوانية ـ فأجلُّها الوِزَارَةُ إذا كان الوزير صاحب قَلَم . وقد مر القول فى ٱبتداء وزارة الخلفاء وٱنتهائها فى الكلام علىٰ وزارة أرباب السيوف فى الضرب الأوّل .

وأما الدينية ـ (فمنها) القَضَاء، وكانت ولاية القضاء عن الخليفة تارةً تكون عامّةً لبغداد وأعمالها ، وتارة قاصرةً علىٰ بغداد أو أحد جانبيها .

(ومنها) الحِسْبَةُ وأمرها معروف .

(ومنها) ولاية الأوقاف والنظر عليها .

(ومنها) الولاية علىٰ المساجد والنظر فى أمر الصلاة .

ومن الوظائف الخارجة عن حضرة الخلافة لأرباب السيوف الإمارةُ علىٰ الجهاد، والإمارةُ علىٰ الحج، وغيرهما .

ومن الوظائف الخارجة عن الحضرة لأرباب الأقلام ولايةُ قضاء النواحى ، والحسبةُ بها إلىٰ غير ذلك من ولايات زعماء الذمة وغيرهم .

الحـالة الثانيـــة

ما صار إليه الأمر بعد ٱنتقال الخلافة إلىٰ الديار المصرية عند ٱستيلاء التتار علىٰ بغـداد لمـا بايع الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فى سـنة تسع وخمسـين وستمائة

"المستنصر بن الظاهر" أوّل الخلفاء بمصر على ماتقدّم ذكره وكتب له عهد عنه بالسلطنة من إنشاء القاضى محى الدّين بن عبد الظاهر، وعمل له السلطان الدّهاليز وآلات الخلافة ورتب له الجمدارية، وآستخدم له عسكرا عظيما وجهزه إلى بغداد للآستيلاء عليها فقتله التتار على ماتقدّم .

ثم لما بايع الظاهر أيضا الإمامَ "الحاكم بأمر الله" ثانىَ خلفائهم أيضا فى سنة تسع وخمسين وستمائة على ماتقدم ذكره، بقى مدة، ثم أشركه معه فى الدّعاء فى الخطبة على المنابر فى سنة ست وستين وستمائة، إلا أنه منعه من التصرف والدخول والخروج. ولم يزل كذلك إلى أن ولى السلطنةَ الملكُ الأشرفُ "خليل بن المنصور قلاوون" فأطلق سبيله، وأسكنه فى الكبش على القرب من الجامع الطُّولُونِىّ، وكان يخطب أيام الجمع بجامع القلعة إلى أن ولى السلطنة الملكُ المنصورُ حُسَام الدّين لاچين، فأباح له التصرف والركوب إلى حيث شاء؛ وبقى الأمر على ذلك إلى أن ولى الخلافةَ "المستعصم بالله" أبو العباس أحمد بن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان المرّة الثانية بعد موت الملك الناصر محمد بن قلاوون، ففوّض إليه السلطان نظر المشهد النفيسىّ، وآستقرّ بأيدى الخلفاء إلى الآن .

والذى آستقرّ عليه حال الخلفاء بالديار المصرية أن الخليفة يفوّض الأمور العامة إلى السلطان، ويُكْتَبُ له عنه عهدٌ بالسلطنة ويدعى له قبل السلطان على المنابر إلا فى مصلّى السلطان خاصة فى جامع مصلاه بقلعة الجبل المحروسة، ويستبدّ السلطان بما عدا ذلك : من الولاية والعزل و إقطاع الإقطاعات حتّى للخليفة نفسه، ويستأثر بالكتابة فى جميع ذلك .

قلت : ولم يزل الأمر على ذلك إلى أن قُبِض على السلطان الملك الناصر فرج آبن الظاهر برقوق بالشأم فى أوائل سنة خمس عشرة وثمانمائة على ما تقدّم ذكره،

فاستقل الإمام "المستعينُ بالله" خليفة العصر بأمر الخلافة : من الكتابة على العهود ومناشـير الإقطاعات، والتقاليد، والتواقيع، والمكاتبات وغيرها، وأُفرد بالدعاء على المنابر، وضرب آسمه على الدنانير والدراهم والطرر على ما تقـدّم ذكره فى الكلام على ترتيب الخلفاء، وهيئته فى لبسه عند ركوبه بالمدينة فى المواكب أو غيرها .

فعمامته مدوّرة لطيفة عليهـا رَفْرَفٌ من خَلْفه تقـدير نصف ذراع فى ثلث ذراع مرسل من أعلى عمامته إلى أسفلها ، وفوق ثيابه كاملية ضـيقة الكُمِّ مُفَرَّجَةُ الذيل من خلف وتحتها قباء ضيق الكُمِّ .

أما تمليده السلطان السلطنة، فالذى رأيته فى بعض التواريخ فى عهد الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس : أحمد بن أبى الربيع سليمان، إلى السلطان الملك المنصور أبى بكر بن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد مبايعة الحاكم المذكور عند موت أبيه فى سنة آثنتين وأربعين وسبعمائة : أنه طلع القضاةُ والأمراء إلى القلعة وآجتمعوا بدار العدل، وجلس الخليفة على الدرجة الثالثة من التخت، وعليه خِلْعَةٌ خضراء، وعلى رأسه طرحة سوداء مرقومة بالبياض، وخرج السلطان من القصر إلى الإيوان من باب السرّ على العادة، فقام له الخليفة والقضاة والأمراء، وجاء السلطان فجلس على الدرجة الأولى من التخت دون الخليفة، ثم قام الخليفة فقرأ : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ إلى آخر الآية، وأوصى السلطانَ بالرفق بالرعية، وإقامة الحق، وإظهار شعائر الإسلام ونُصْرة الدِّين ، ثم قال : "فوضت إليك جميع أمر المسلمين، وقلدتك ما تقلدته من أمور الدين" . ثم قرأ : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَـايِعُونَكَ إِنَّمَـا يُبَايِعُونَ اللهَ﴾ إلى آخر الآية ، ثم أُتِيَ الخليفـةُ بخِلْعَةٍ سوداءَ وعمـامة سـوداء مرقومة الطرف بالبياض ، فألبسها السلطانَ وقلَّده سـيفَه، ثم أُتِي بالعهد المكتوب عن الخليفة للسلطان فقرأه القاضى علاءُ الدين بن فضل الله كاتب السر إلى آخره . فلما فرغ من قراءته، تناوله الخليفة

فكتب عليه ماصورته ـ فوّضت إليه ذلك ـ وكتب ـ أحمد بن عم محمد صلىّ الله عليه وسلم ـ وكتب القضاة الأربعة شهادتهم بالتولية، ثم أُتِى بالسماط علىٰ العادة .

وأخبرنى مَنْ حضر تقليد السلطان الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق عن الإمام المتوكل علىٰ الله أبى الفتح : محمد المشار إليه فيما تقدّم : أنه حضر الخليفة وشيخ الإسلام سراجُ الدين البلقينىّ ، والقضاة الأربعة وأهل العلم ، وأمراء الدولة إلىٰ مَقْعَد بالإصْطَبْلَات السلطانية يعرف بالحرّاقة ، وجلس الخليفة فى صدر المكان علىٰ مَقْعَد مفروش له ، ثم أتىٰ السلطان وهو يومئذ حَدَثٌ ، فجلس بين يديه ، وسأله شيخ الإسلام عن بلوغه الحُلُمَ فأجاب بالبلوغ ، فخطب الخليفة خطبةً ، ثم خاطب السلطان بتفويض الأمر إليه علىٰ نحو ما تقدّم ذكره ، ثم أُتِىَ الخليفةُ بخِلْعَةٍ سوداء وعمامة سوداء مرقومة فوقها طرحة سوداء مرقومة ، ثم جلس الخليفة فى مكانه الذى كان جالسا فيه ، ونُصِبَ للسلطان كرسىٌّ إلىٰ جانب مقعد الخليفة فجلس عليه ، وجلس الأمراء والقضاة حوله علىٰ قدر منازلهم ، وقد آستقرت جائزة تقليد السلطنة للخليفة ألف دينار مع قماش سكندرىّ .

أما حضوره بمجلس السلطان فى عامة الأيام ، عند حضوره إلىٰ السلطان لسلام أومُهِمٍّ أو غير ذلك ، فقد أخبرنى بعض جماعة الخليفة أن الإمام المتوكلَ المتقدّمَ ذكرُه كان إذا حضر إلىٰ مجلس السلطان الظاهر ، قام له ، وربما مشىٰ إليه خطوات وجلس علىٰ طَرَف المَقْعَد وأجلس الخليفة إلىٰ جانبه .

البـاب الثـالث

من المقـالة الثانيــــة

(فى ذكر مملكة الدّيار المصرية ومضافاتها، وفيه ثلاثة فصول)

الفصـــــل الأوّل

(فى مملكة الدّيار المصرية ومضافاتها، وفيه طرفان)

الطرف الأوّل

(فى الدّيار المصرية، وفيه آثنا عشر مقصدا)

المقصد الأوّل

(فى فضـلها ومحاســنها)

أما فضـلها فقد ورد فى الكتاب والسنة ما يشهد لهـا بالفضيلة، ويقضى لهـا بالفخر قال تعـالىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَـا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَـا﴾ يريد بالقوم بنى إسرائيـل، و بالأرض أرض مصر؛ ووصفها بالبركة إما بمعنىٰ الفضل كما فى قوله تعالىٰ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلىٰ الْمَسْجِدِ الْأَقْصىٰ الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾. وإما من الخِصْبِ وسَعَة الرزق بدليـل قوله تعالىٰ مخبرا عن قوم فرعون: ﴿فَأَخْرَجْنَـاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾. وقال جل وعز: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلىٰ مُوسىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ فأمر بالعبادة فى بيوتها إشارة إلىٰ شرف أرضها ورفعة قدرها.

وقد ذكر الله تعالىٰ آسمها فى غير موضع من كتابه العزيز فى ضمن قِصَص الأنبياء عليهم السلام . فقال تعالىٰ إخبارا عن يوسف عليه السلام : ﴿وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ﴾ وفى موضع آخر . ﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ وقال حكاية عن فرعون لعنه الله : ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى﴾ وفى معناه قوله تعالىٰ خطابا لبنى إسرائيل : ﴿اهْبِطُوا مِصْرَ فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ﴾ علىٰ قراءة الحسن والأعمش مصر غير مصروف.

قال القضاعىّ : وكذلك قراءة من قرأ ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ مصروفا بناء علىٰ أن مصر مذكر سمى به مذكرا فلم يمنع الصرف فيه، والتصريح بذكرها دون غيرها من الأقاليم دليل الشرف والفضل .

وقد ورد أن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ بِلَادًا يُذْكَرُ فيها القِيراطُ فآستوْصُوا بأهلها خيرًا فإن لأهلها نَسَبًا وصِهرًا" أراد بالنسب هاجَرَ أم إسماعيل عليه السلام ، وكان بعض ملوك مصر قد وهبها لزوجته سَارَّةَ . وأراد بالصِّهر مارِيَةَ أمَّ إبراهيم : ولَدِ النبىّ صلى الله عليه وسلم، كان المُقَوْقِسُ قد أهداها للنبىّ صلى الله عليه وسلم فى جملة هديته .

ويروىٰ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال : "إذا فتحَ اللهُ عليكم مِصْرَ فآتخِذوا بها جُنْدا كثيفا، فذاك خير جند الأرض، قيل : ولم ذاك يارسول الله ؟ قال : لأنهم فى رِبَاطٍ إلىٰ يوم القيامة" .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال : "مِصْرُ أطيبُ الأرَضينَ ترابا وعَجَمُها أكرم العَجَم نِصابا" .

ويقال فى التوراة : "مِصْرُ خزائنُ الله، فَمَنْ أرادها بسوء قَصَمه الله".

وقال عمرو بن العاص رضى الله عنه ولايةُ مِصْرَ جامعةً تعدل الخلافة .

ومن كلام كعب الأحبار "مصرُ بلد معافًى من الفتن ، فمن أرادها بسوء كبه الله علىٰ وَجْهه " .

ووصفها الكِنْدِىّ فقال : جَبَلُها مُقَدس ، ونيلها مبارَك ، وبها الطُّور الذى كلَّم الله تعالىٰ عليه موسىٰ عليه السلام .

قال كعب الأحبار : كلم الله تعـالىٰ موسىٰ من الطور إلىٰ طُوًى وفى التوراة وادٍ مقدّس أفيح ، يريد وادى موسىٰ عليه السلام .

ودخلها جماعة من الأنبياء عليهم السـلام ، منهم إبراهيم ، ويعقوب ، ويوسف ، وإخوته عليهم السلام .

ونقل فى "الروض المعطار" عن الجاحظ أن عيسىٰ بْن مريم عليه السلام ولد بها بكُورةِ أَهْناسَ الآتى ذكرها فى كُوَرِ مصر المقدّسـة ، وأن نخلة مريم كانت بأهناس قائمـة إلىٰ زمانه . وذكر أيضا أن موسىٰ عليه السـلام وُلِدَ بها بمدينـة أُسْكَرَ شرقىّ النيـل ، وهى الآن قرية من الأعمـال الإطفيحية الآتى ذكرها فى أعمـال الدّيار المصرية .

وبها سجن يوسفَ عليه السـلام بمدينة بُوصير الخراب من الأعمـال الجيزية علىٰ القرب من البَدْرَشِين .

قال القُضَاعىّ : أجمع أهـل المعرفة من أهل مِصْرَ علىٰ صحة هـذا المكان ، وأن الوَحْىَ كان ينزل عليه به ، وسطحه معروف بإجابة الدّعاء .

سأل كافور الإخشيدىّ الإمامَ أبا بكر بن الحدّاد الفقيـه الشافعىّ عن موضع يستجاب فيه الدّعاء ، فأشار عليه بالدّعاء علىٰ سطح هذا السجن .

قال القضاعىّ : وعلىٰ القرب منه مسجد موسىٰ عليه السلام ، وهو مسجد مبارك .

وبسفح المُقَطَّم بالقرافة الصغرىٰ قبرُ (يَهُوذَا ورُوبِيل) من إخوة يوسف عليه السلام.

وقد روى أنه دخلها من الصحابة رضوان الله عليهم ما يزيد علىٰ مائة رجل، ودُفِن بقرافتها جماعة منهم فيما ذكره ٱبن عبد الحكم عن ٱبن لَهِيعَةَ خمسةُ نفروهم: عمرو بن العاص، وعبد الله بن حُذَافَةَ، وأبو بَصْرة الغفاري، وعُقْبَةُ بن عامر الجُهَنيّ، وعبد الله بن الحرث الزبيدي، وهو آخرهم موتًا.

قال القُضَاعيّ: وذكر غير ٱبن لَهِيعَةَ أن مَسْلَمَةَ بن مُخَـلَّدٍ الأنصاري أيضا مات بها، وهو أميرها.

**

أما محاسنها، فلا شك أن مصر مع ما ٱشتملت عليه من الفضائل، وحُفَّتْ به من المآثر أعظمُ الأقاليم خَطَرًا، وأجلُّها قَـدْرًا، وأفخمها مملكة، وأطيبُها تُرْبَةً، وأخفُّها ماء، وأخْصَبُها زَرْعًا، وأحسنُها ثِمَارًا، وأعْدَلُها هواءً، وألطفها ساكنًا.

ولذلك ترىٰ الناس يرحلون إليها، وُفُودا، ويَفِدُون عليها من كل ناحية، وقلَّ أن يخرج منها مَنْ دخلها، أو يرحلَ عنها من وَلَجَها، مع ما ٱشتملت عليـه من حسن المَنْظَرِ، وبهجة الرَّوْنَقِ لا سيمـا فى زمن الربيع، وما يبدُو بها من الزروع التى تملأ العينَ وَسَامَةً وحُسْنًا، وتروقُ صورةً ومعنًى.

قال المسعودي: وصف الحكماءُ مصْرَ فقالوا: ثلاثة أشهر لؤلؤةٌ بيضاء، وثلاثة أشهر مِسْكَةٌ سوداء، وثلاثة أشهر زُمُرُّدَةٌ خضراء، وثلاثة أشهر سَبِيكَةٌ حمْراء.

فاللؤلؤة البيضاء، زمانَ النيل، والمِسْكَةُ السوداء زمانَ نُضُوب المـاء عن أرضها والزُّمُرُّدَةُ الخضراء زمانَ طلوع زرعها، والسَّبِيكَةُ الحمراء زمانَ هَيْج الزرع وٱكْتِهاله.

وقد قيل: لو ضُرِب بينها وبين غيرها من البلاد سورٌ، لغَنِي أهلها بها عما سواها ولمـا ٱحتاجوا إلىٰ غيرها من البلاد. وناهيـك ما أخبر الله تعالىٰ به عن فرعون مع

عتوّه وتجبّره وآدّعائه الربوبيةَ بآفتخاره بملكها بقوله : ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِى مِنْ تَحْتِى أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ .

قال آبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وهى إقليم العجائب، ومعْـدِن الغرائب؛ كان أهلها أهلَ مُلْك عظيم، وعز قديم؛ وإقليمها أحسنَ الأقاليم مَنْظَرًا، وأوسعها خيرا؛ وفيها من الكنوز العظيمة مالا يدخله الإحصـاء . حتّى يقـال إنه ما فيها موضع إلا وفيه كنز .

قلت : أما ما ذكره أحمد بن يعقوبَ الكاتب فى كتابه فى "المَسَالِكِ والممـالك" من ذمّه مصر بقوله : هى بين بحر رَطْبٍ عَفِنٍ كثير البُخَارات الرديئة، يولد الأدْوَاءَ ويُفْسِد الغِذَاءَ، وبين جَبَل وبَرٍّ يابس صلْدٍ، لشدّة يبسه لا تنبت فيه خَضْراء، ولا تنفجر فيه عين ماء، فكلامُ مُتَعَصِّبٍ خرق الإجمـاع، وأتى من سخيف القول بمـا تنْفر عنه القلوب وتُمُجّه الأسمـاع؛ وكفى به نقيصة أَنْ ذَمَّ النيلَ الذى شهد العقلُ والنقل بتفضيله، وغَضّ من المُقَطَّم الذى وردت الآثار بتشريفه .

المقصـــــد الثـانى

(فى ذكر خواصها وعجائبها، وما بها من الآثار القديمة)

أما خواصُّها، فمن أعظمها خَطَرًا مَعْـدِنُ الزُّمُرُّدِ الذى لا نظيرله فى سائرأقطار الأرض، وهو فى مَغَارةٍ فى جبلٍ على ثمـانية أيام من مدينة قُوص، يوجَدُ عروقا خُضْرًا فى تطابيق حَجَرٍ أبيضَ، وأفضـله الذُّبابيُّ، وهو أقل من القليل، بل لا يكاد يوجد .

ولم يزل هـذا المعدن يستخرج منه الزُّمُرُّدُ إلى أثناء الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" فأهمل أمره وترك .

قال فى "مسالك الأبصار" : وجميع ملوك الأرض وأهلُ الآفاق تستمدّ منه، وقد مرّ القول عليه فى جملة الأحجار الملوكية فى أواخر المقالة الأولىٰ .

وأعظم خطرا منه وأرفع شأنا البَلَسَانُ الذى تسميه العامّة البَلْسَم، وهو نبات يزرع ببُقْعة مخصوصة بأرض المَطَرِيَّةِ من ضواحى القاهرة علىٰ القرب من عَيْن شَمْسٍ ، ويسقىٰ من بئر مخصوصة هناك، يقال إن المسيح عليه السلام ٱغتسل بها حين قَدِمت به أُمُّه إلىٰ مصر، والنصارىٰ تزعم أنه حفرها بعَقِبِهِ وهو طِفْلٌ، حين وضعته أُمُّه هنـاك .

ومن خاصتها أن البَلَسان لا يعيش إلا بمائها ولا يوجد فى بقعة من بقاع الأرض غير هذه البقعة .

قال ٱبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وطول هذه الأرض مِيلٌ فى مِيلٍ ، وشأنه أنه يُفْصد فى شهر كيهك من شهور القِبْط، ويجمع ما يسيل من دُهْنِه ويصفى ويطبخ ويحمل إلىٰ خِزَانة السلطان ، ثم ينقل منه قَدْر معلوم إلىٰ قلاع الشام والبيمارستان ليستعمل فى بعض الأدوية ؛ وملوك النصارىٰ من الحَبَشة والروم والفرنج يستهدُونه من صاحب مصر ويهادونه بسببه، لما يعتقدونه فيه من أثر المسيح عليه السلام فى البئر، وله عليهم بذلك اليَدُ الطُّولىٰ والمِنَّةُ العظمىٰ، لا يساويه عندهم ذهب ولا جوهر .

قال فى "مسالك الأبصار" : والنصارىٰ كافَّةً تعتقد فيه ماتعتقد، وترىٰ أنه لا يتم تنصُّر نَصْرَانِىّ حتّى يوضع شىء من هذا الدهن فى ماء المعمودية عند تغطيسه فيها .

وبها معدن النَّطْرُون، وهو منها فى مكانين .

أحدهما — بِرْكة النَّطْرون التى بالجبل الغربىّ غربىّ عمل البحيرة الآتى ذكره

فى جملة أعمالهـا المســتقرّة ، وهى من أعظم المعادن وأكثرها مُتَحَصِّلًا على حَقَارة النطرون وقلة ثمنه .

قال فى "التعريف" : لا يعرف فى الدنيا بركة صغيرة يُستَغَلُّ منها نظيرها، فإنها نحو مائة فَدَّانٍ تغل نحو مائة ألف دينار .

والثـانى ـ مكان بالخَطَّارة من الشرقية ، ولا يبلغ فى الجَوْدَةِ مبلغ البركة الأولى ، ولا يبلغ فى المُتَحَصِّلِ قريبا من ذلك .

وبها أيضا مَعْدن الشبِّ على القرب من أُسْــوان، وهو من المعادن الكثيرة المتحَصِّل أيضا إلى غير ذلك من الخواصّ .

وبها معدن النِّفْطِ على ساحل بحر القُلْزُمِ ، يسيل دهنه من أعلى جَبَلٍ قليلا قليلا وينزل إلى أسفله فيتحصل فى دِبارٍ قد وضعها له الأوّلون، وتأتى العرب فتحمله إلى خزائن السلاح السلطانية .

وأما عجائبها، فكثيرة .

(منها) جبل الطير شرقىّ النيل مقابل مُنْيَةِ بنى خَصِيبٍ فيه صَدْع يأتى إليه جنس البواقير من الطير، وهو المعروف بالبَجّ فى يوم من الســنة فيضعون مناقيرهم فى ذلك الصدع واحدا بعد واحد حتى يتعلق منها واحد فى ذلك الصدع فيتركونه ويذهبون .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : قال أبو بكر الموصلىّ : سمعت من أعيان تلك البلاد أنه إذا كانــ العام مخصبا ، يُقْبَض على طائرين، وإن كان متوسطا، يقبض على طائر واحد، وإن كان جَدْبًا، لم يقبض على شىء .

(ومنها) مكان بالجبل الشرقىّ عن النيل، على القرب من أَنْصِنا به تلال رمل إذا صُـعِد إلى أعلاها وكسح الرمل إلى أسافلها سمعت له أصوات كالرعد، يســمع من البر الغربىّ من النيل .

وقد أخبرني بعض أهل تلك البلاد أنه إذا كان الذى صَعِد على ذلك المكان جُنُباً أو كانوا جماعة فيهم جنب، لم يسمع شيء من تلك الأصوات لو كسح الرمل .

(ومنها) مكان بالجبل المذكور على القرب من إخْمِيمَ به تِلَالُ رمل إذا كسحها الإنسان من أعلى إلى أسفل، عادت إلى ما كانت عليه وآرتفع الرمل من أسفلها إلى أعلاها .

قال في "الروض المعطار" : وعلى النيل جبل يراه أهل تلك الناحية مَنْ آنتضى سيفَهُ وأولجه فيه وقبض على مَقْبِضه بيديه جميعا، آضطرب السيفُ في يديه وآرتعد فلا يقدِر على إمساكه ولو كان أشدّ الناس؛ وإذا حُدّ بحجارة هذا الجبل سِكِّينٌ أو سيف لا يؤثر فيه حديد أبدا، وجذبَ الإبر والمَسَالّ أشدّ جذبا من المِغْناطيس، ولا يبطل فعلها بالثوم كما يبطل المغناطيس، أما الحجر نفسه فإنه لا يجذب .

قال القُضَاعِيّ : وبجبل زماخير الساحرة يقال إن فيه خِلْقَةً من الجبل ظاهرةً مشرفةً على النيل لا يصل إليها أحد يلوح فيها خط مخلوق "باسمك اللهم" . وعلى القرب من الطُّور عين ماء في أَجَمَةِ رملٍ ينبعُ الماء من وسطها فوراتٍ لطيفةً وينبسط ماؤها حولها نحو الذراع، ثم يغوص في الرمل فلا يظهر له أثر، ولا يعرف أحد إلى أين يذهب، وهي على ذلك مدى الدهور والأيام لا ينقطع نبعها، ولا يجتمع ماؤها في مكان يدركه البصر؛ وعجائبها أكثر من أن تذكر .

المقصد الثالث

(في ذكر نيلها ومبدئه وآنتهائه، وزيادته ونَقْصه، وما تنتهي إليه زيادته، وما تصل إليه في النقص قاعدتُه)

أما آبتداؤه وآنتهاؤه، فاعلم أن آبتداءه من أوّل الخراب الذى هو جنوبيّ خط الآستواء المقدّم ذكره، ولذلك عَسُرَ الوقوف على حقيقة خبره .

وقد ذكر الحكماء أنه ينحدر من جبل القمر، إما (بفتح القاف والميم كما هو المشهور، وإما بضم القاف وسكون الميم) كما نقله فى "تقويم البُلْدان" عن ضبط ياقوت فى "المشترك" وٱبن سعيد فى "معجمه".

قال فى "رسم المعمور" وطَرَفه الغَرْبىّ عند طول . . . .(١) ونصف وعرض إحدىٰ عشرة ونصف فى الجنوب، وطرفه الشرقىّ حيث الطول إحدىٰ وستون درجةً ونصف والعرض بحاله . قال فى الرسم : ولونه أحمر . وذكر الطوسىّ أنهم شاهدوه علىٰ بُعْدٍ، ولونه أبيض لما غلب عليه من الثلج . وٱعترضه فى "تقويم البُلْدان" بأن عرض إحدىٰ عشرة فى غاية الحرارة لا سِيَّما فى الجنوب لحضيض الشمس .

قال بطليموس : والنيل ينحدر من الجبل المذكور من عشرة مَسِيلات، بين كل مسيلين منها درجة فى الطول المقدّم بيانه، والغربىّ منها، وهو الأوّل عند طلوع ثمان وأربعين درجة، والثانى عند طلوع تسع وأربعين، وعلىٰ ذلك حتّى يكون العاشر منها عند طلوع سبع وخمسين، كل مَسِيل منها نهر، ثم تجتمع العشرة وتصب فى بطيحتين كلُّ خمسةٍ منها تصب فى بَطِيحة، ثم يخرج من كل واحدة من البطيحتين أربعة أنهار، ثم تتفرّع إلىٰ ستة أنهار، وتسير الستة فى جهة الشمال حتّى تصب فى بحيرة مدوّرة عند خط الآستواء تعرف ببحيرة كورى، فيفترق النيل منها ثلاث فِرَق . ففرقة تأخذ شرقا وتذهب إلىٰ مَقْدَشو من بلاد الحبشة المسلمين علىٰ ساحل البحر الهندىّ مقابل بلاد اليمن . وفرقة تأخذ غربا وتذهب إلىٰ التُّكْرُورِ وغانةَ من مملكة مالى من بلاد السُّودان، وتمرّ حتّى تصب فى البحر المحيط الغربىّ عند جزيرة أوليل وتسمّى نيل السودان .

---

(١) بياض فى الأصل .

وفرقة تأخذ شَمَالًا ـ وهى نيل مصر ـ فيمرّ فى الشَّمال علىٰ بلاد زَغَاوَةَ، وهى أوّل مايلقىٰ من بلاد السودان .

ثم يمرّ علىٰ بلاد النُّوبة حتّى ينتهى إلىٰ مدينتها دُنْقُلَةَ الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ ممالك السُّودان .

ثم يمرّ شَمالا بميلة إلىٰ الغرب إلىٰ طول إحدىٰ وخمسين، وعرض سبع عشرة علىٰ حاله .

ثم يمرّ مغرّبا بميلة قليلة إلىٰ الشَّمال إلىٰ طول آثنتين وثلاثين، وعرض تسع عشرة .

ثم يرجع مُشَرِّقًا إلىٰ طول إحدىٰ وخمسين .

ثم يمرّ فى الشمال إلىٰ الجَنَادِلِ : وهو الجبل الذى ينحدر عليه النيل بين منتهىٰ مراكب النُّوبة فى آنحدارها ومراكب مصر فى صُعُودها، حيث الطول ست وخمسون درجة، والعرضُ آثنتان وعشرون درجة .

ثم يمرّ شَمَالا إلىٰ مدينة أُسْوان الآتى ذكرها فى أعمال الدّيار المصرية علىٰ القرب من الجنادل المقدّمة الذكر .

ويمرّ شَمَالا بميلة إلىٰ الغرب إلىٰ طول ثلاث وخمسين، وعرض أربع وعشرين .

ثم يُشَرِّقُ إلىٰ طول خمس وخمسين .

ثم يأخذ فى الشمال حتّى ينتهىَ إلىٰ مدينة الفُسْطَاط الآتى ذكرها فى قواعد مصر المستقرّة .

ويمتدّ فى جهة الشَّمال أيضا حتّى يصير بالقرب من قرية تسمّى شَطَّنَوْف (١) من قرىٰ مصر، من عمل مَنُوف فيفترق بفرقتين : فرقة شرقية وفرقة غربية . فأما الفرقة الشرقية، فتمرّ فى الشَّمال حتّى تأتى علىٰ قرية تسمّى المنصورة من عمل المُرْتاحية،

(١) كذا ضبطه ياقوت بالعبارة . وقال فى القاموس " شَطَنُوف كَحَلَزُون " .

فتتشعب شُـعْبتين وتمرّ الغربية منهما، وهى العظمىٰ إلىٰ دمياط من شرقيّها، وتصب فى بحر الروم حيث الطول ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة، والعرض إحدىٰ وثلاثون وخمس وعشرون دقيقة، وتمرّ الشرقية منهما علىٰ أُشْمُوم طَنَاح، من غربيها حتّى تجاوز بلاد المَنْزِلَة، وتصب فى بحيرة شرقىّ دِمْياط حتّى بحيرة تِنِّيس حيث الطول أربع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة .

وأما الفِرقة الغربية، فتمرّ من شَطَّنُوف المقدّم ذكرها حتّى تأتى بالقرب من قرية تسمى بأبى نُشَّابَة من عمل البحيرة، فتتشعب شعبتين، الغربية منهما، وهى العظمىٰ تأخذ شمالا بين عمل البحيرة من شرقيها وبين جزيرة بنى نصر من غربيها، والشرقية تأخذ شمالا أيضا بين جزيرة بنى نصر من شرقيها، وبين عمل الغربية من غربيها . ويسمّى هـذا البحر بحر أَبيار، ويمر حتّى يلتقىَ مع الفرقة الغربية عند قرية تسمّى الفَرَسْـتَق من الغربية بالقرب من مدينة أَبْيـار المنسوب إليها البحر المقدّم ذكره، ويصـير شعبة واحدة ويمر حتّى يصب فى البحر الرومىّ غربىّ قرية تسمّى رشيد حيث الطول ثلاث وخمسون، والعرض إحدىٰ وثلاثون .

ومن هذه الفرقة يتفرّع خليج صغير يدخل إلىٰ بُحَيرة نَسْتَرُوه[1] الآتى ذكرها فى جملة البحيرات، ويتفرّع من كل فرقة من هـذه الفرق وما يليها من أعلىٰ النيل خُلْجانٌ يأتى ذكر المشهور منها فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وأما زيادته ونقصـه، فقد ٱختلف فى مَدَد زيادته : فنقل المسعودىّ عن العرب أنه يستمدّ من الأنهـار والعيون . ولذلك تنِيض الأنهـار والعيون عنـد زيادته . وإذا غاض زادت، ويؤيده ما روىٰ القضاعىّ بسـنده إلىٰ عبد الله بن عمرو بن العـاص أنه قال : "إنّ نيل مصر سـيدُ الأنهار، سخر الله له كلّ نهر بين

(١) كذا ضبطها المؤلف فيما يأتى وألحق بها الهـاء، وكذلك ياقوت إلا أنه حذف منها الهـاء : نَسْتَرُو .

المشرق والمغرب أن يُمِدّه، فأمدّته الأنهار بمائها، وفجّر الله له الأرض عيونا فآنتهى جريُه إلى ما أراد الله، فأوحى الله إلى كل منها أن يرجع إلى عُنْصُره".

ويقال عن أهل الهند زيادته ونقصه بالسيول، ويعرف ذلك بتوالى الأنواء وكثرة الأمطار، ورُكُود السحاب.

وقالت القِبْطُ : زيادته من عيون فى شاطئه رآها مَنْ سافر ولَحِق بأعاليه؛ ويؤيده ماروَاه القضاعىّ بسنده إلى يزيد بن أبى حبيب "أن معاوية بنَ أبى سفيان رضى الله عنه قال لكعب الأحبار : أسألك بالله! هل تجد لهذا النيل فى كتاب الله عز وجل خبرا؟ قال : إى والله ! إن الله عز وجل يُوحِى إليه فى كل عام مرتين، يوحى إليه عند خروجه، فيقول : إن الله يأمرك أن تجرىَ، فيجرى ما كتب الله له، ثم يُوحى إليه بعد ذلك، فيقول : يانيلُ إن الله يأمرك أن تنزلَ، فينزل". ولا شك أن جميع الأقوال المتقدّمة فرع لهذا القول، وهو أصل لجميعها.

وبكل حال فإنه يبدأ بالزيادة فى الخامس من بؤُونه من شهور القِبْط. وفى ليلة الثانى عشر منه يوزن الطِّينُ، ويعتبر به زيادة النيل بما أجرى الله تعالى العادة به، بأن يوزن من الطين الجافّ الذى يعلوه ماء النيل زنة ستة عشر درهما على التحرير، ويرفع فى ورقة أونحوها ويوضع فى صُنْدُوقٍ أو غير ذلك، ثم يوزن عند طلوع الشمس، فمهما زاد آعتبرت زيادته كل حبة خروب بزيادة ذراع على الستة عشر درهما.

وفى السادس والعشرين منه يُؤخذ قاع البحر وتقاس عليه قاعدة المقياس التى تبنى عليها الزيادة.

وفى السابع والعشرين ينادى عليه بالزيادة، ويحسب كل ذراع ثمانية وعشرين أصبعا إلى أن يكمل آثنى عشر ذراعا، فيحسب كل ذراع أربعا وعشرين أصبعا، فإذا وفّى ستة عشر ذراعا، وهو المعبر عنه بماء السلطان، كسر خليج القاهرة،

وهو يوم مشهود ، ومَوْسِمٌ معدود ، ليس له نظير فى الدّنيا ، وفيه تكتب البشارات بوفاء النيل إلىٰ سائر أقطار المملكة ، وتسير بها البُرُدُ ، ويكون وفاؤه فى الغالب فى مسرىٰ من شهور القِبْطِ ، وفيها جُلُّ زيادته .

وفى النيروز ، وهو أوّل يوم من توت يكثر قطع الخُلْجَانِ والتُّرَع عليه ، وربمـا آضطرب لذلك ثم عاد .

وفى عيـد الصليب ، وهو السـابع عشر من توت المذكور يقطع عليه غالب بقية التُّرع .

وقد حكىٰ القُضَاعِىّ عن آبن عفير وغيره عن القِبْطِ المتقـدّمين أنه إذا كان المـاء فى آثنى عشر يوما من مسرىٰ آثنى عشر ذراعا ، فهى سَنَةُ ماء ، وإلا فالمـاء ناقص ، وإذا تَمَّ المـاء سـتة عشر ذراعا قبـل النوروز فالمـاء يتم ، ثم غالب وفائه يكون فى النصف الأوّل من مسرىٰ ، وربمـا وفّى فى النصف الثانى منهـا ، وقد يتأخر عن ذلك .

وفى الثامن من بابه يكون نهاية زيادته .

ورأيت فى "تاريخ النيل" أنه تأخر وفاؤه فى سنة ثمـان وسبعمائة إلىٰ تاسع عشر بابه فوفّى ستة عشر ذراعا ، وزاد أصبعين بعد ذلك فى يومين : كل يوم أصبع بعد أن آستسقىٰ الناس أربع مرات ، وهذا ممـا لم نسمع بمثله فى دهر من الدّهور .

وقد جَرَتْ عادتُه أنه من حين آبتداءِ النداءِ بزيادته فى السابع والعشرين من بـؤونه إلىٰ آخر أبيب تكون زيادته خفيفـة ما بين أصبعين فمـا حولها إلىٰ نحو العشرة ، وربمـا زاد علىٰ ذلك . فإذا دخلتْ مسرىٰ ، آشـتدّت زيادته وقويت ، فيزيد العشرة فما فوقها ، وربمـا زاد دون ذلك . وأعظم ما تكون زيادته علىٰ القرب من الوفاء حتّى ربمـا بلغ سبعين أصبعا .

ومن العجيب أنه يزيد فى يوم الوفاء سبعين أُصْبُعًا مثلا، ثم يزيد فى صبيحة يوم الوفاء أصبعين فما حولها، ويتم علىٰ ذلك . وله فى آخر بابه زيادة قليلة يعبر عنها بصَبَةِ بابه لما يَنْصَبُّ إلىٰ النيل من ماء الأملاق .

وقد ذكر عبد الرحمن بن عبد الله بن الحَكَم وغيره أنه لما فتح المسلمون مصر أتىٰ أهلُها إلىٰ عمرو بن العاص حين دخل شهر بئونه، فقالوا : أيُّها الأمير إن لِنيلنا هذا سُنَّةً لايجرى إلا بها، وهو أنه إذا كان اثنا عشر من هذا الشهر عمدنا إلىٰ جاريةٍ بِكْرٍ من أبويها فأرضيناهما فيها، وزيناها بأفضل الزينة، وألقيناها فيه . فقال : هذا مما لا يكون فى الإسلام، فأقاموا أبيب ومسرىٰ وهو لايزيد قليلا ولا كثيرا . فلما رأىٰ عمرو ذلك كتب إلىٰ أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنه يعرّفه ذلك ، فكتب إليه أن أصبت ، وكتب رُقْعَةً إلىٰ النيل فيها "من عَبْدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلىٰ نيل مصر .

أما بعدُ، فإن كنتَ تجرى من قِبَلِكَ، فلا تَجْرِ ؛ و إن كان الله الواحدُ القهَّارُ الذى يُجْرِيكَ، فنسأل الله أن يُجْرِيَكَ" .

وبعث بها إليه ، فألقاها فى النيل ، وقد تهيأ أهل مصر للخروج منها ، فأصبحوا يوم الصليب، وقد بلغ فى ذلك اليوم ستة عشر ذراعا .

ويروىٰ أنه وقع مثل ذلك فى زمن موسىٰ عليه السلام ، وهو أنّ موسىٰ عليه السلام دعا علىٰ آل فِرْعَوْنَ، فحبس الله عنهم النيل حتّى أرادوا الجَلَاء، فَرَغِبوا إلىٰ موسىٰ فدعا لهم بإجراء النيل رجاء أن يؤمنوا، فأصبحوا وقد أجراه الله فى تلك الليلة ستة عشر ذراعا .

ورأيت فى "تاريخ النيل" المتقدّم ذكره : أنه فى زمن المستنصر أحَدِ خلفاء الفاطميين

بمصر مكث النيـل سنتين لم يطْلُع ،وطلع فى السنة الثالثة وأقام إلىٰ الخامسة لم ينزل، ثم نزل فى وقتـه ونَضَب المـاء عن الأرض، فلم يوجد من يزرعها لقـلة النـاس؛ ثم طلع فى السنة السادسة وأقام حتّٰى فرغت السابعة، ولم يبق إلا صُبَابة من الناس، ولم يبق فى الأقاليم مايمشى علىٰ أربع غير حمار يركبه الخليفة المستنصر،وأنه وفّٰى ست عشرة ذراعا[(1)] فى ليلة واحدة بعـد أن كان يخاض من بَرّ إلىٰ بَرّ؛ وأقل ما آنتهىٰ إليه قاع النيل فى النقص ذراع واحد وعشرة أصابع، ووقع ذلك من سنة الهجرة وإلىٰ آخر الثمانمـائة مرتين فقط : المرّة الأولىٰ ـ فى سنة خمس وستين ومائة من الهجرة. وبلغ النيل فيها أربع عشرة ذراعا وأربعة عشر أصبعا . والمرّة الثانية ـ فى سنة خمس وثمـانين وأربعمائة . وبلغ فيها سبع عشرة ذراعا وخمسة أصابع .

وقد وقع مثـل ذلك فى زمانـنـا ، فى سنة ست وثمـانمـائة . وأغيىٰ ما آنتهىٰ إليـه القاعُ فى الزيادة ممـا رأيتُه مسطورا إلىٰ آخر سـنة خمس وعشرين وسبعمائة تسعة أذرع . وسمعت بعض الناس يقول إنه فى سـنة خمس وستين وسبعمائة كان القاع آثنتى عشرة ذراعا .

وأقل ما بلغ النقص فى نهاية الزيادة آثنا عشر ذراعا وأصـبعان . وذلك فى سنة أربع وعشرين وأربعمائة،وأغيىٰ ما كان ينتهى إليه فى الزمن المتقدّم ثمانية عشر ذراعا حتّٰى تعجب النـاس من نيل بلغ تسع عشرة ذراعا فى زمن عمر بن عبد العزيز، ثم آنتهىٰ فى المـائة السابعة إلىٰ أن صار يجاوز العشرين فى بعض الأحيان .

ومن العجيب أنه فى سـنة تسع وسـبعين وثلثمائة كان القـاع علىٰ تسع أذرع، ولم يُوفِ بل بلغ خمس عشرة ذراعا وخمس أصابع ؛ وفى سنين كثيرة كان القاع فيها

(١) الذراع والاصبع يذكران و يؤنثان وقد جريا فى كلامه تارة بالتذكير وتارة بالتأنيث وكل صحيح .

دون الذراعين ، وجاوز الوفاء إلى ثمانى عشرة ذراعا فما دونها . ولا عبرة بقول المسعودى فى "مروج الذهب" إن أقلّ مايكون القاعُ ثلاثة أذرع ، وإنه فى مثل تلك السنة يكون متقاصرا . فقد تقدم ما يخالف ذلك ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَايَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَاكَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ .

قلت : وقد جرت عادة صاحب المقياس، أنه يعتبر قياسه زمن الزيادة فى كل يوم وقت العصر، ثم ينادى عليه من الغَدِ بتلك الزيادة أصابعَ من غير تصريح بذَرْع إلا أنه يكتب فى كل يوم رقاعا لأعيان الدّولة من أرباب السيوف والأقلام ، كأرباب الوظائف من الأمراء،وقضاة القضاة من المذاهب الأربعة،وكاتب السرّ، وناظر الخاصّ، وناظر الجيش، والمحتسب، ومَنْ فى معناهم؛ فيذكر زيادته فى ذلك اليوم من الشهر العربىّ وموافقه من القِبْطِىّ من الأصابع وما صار إليه من الأذرع ويذكر بعد ذلك ما كانت زيادته فى العام الماضى فى ذلك اليوم من الأصابع وما صار إليه من الأذرع والبعادة بينهما بزيادة أو نقص، ولا يُطْلِع على ذلك عوامّ الناس ورَعَاعَهم؛ فإذا وفَّى ستة عشر ذراعا صرح فى المناداة فى كل يوم بما زاد من الأصابع، وما صار إليه من الأذرع، ويصير ذلك مشاعا عند كل أحد .

وأما مقاييسه ، فقد ذكر إبراهيم بن وصيف شاه فى كتاب "العجائب" أن أوّل من وضع مقياسا للنيل (خصليم) السابع من ملوك مصر بعد الطوفان: صنع بركة لطيفة وركب عليها صورتى عُقَابٍ من نُحَاسٍ : ذكر وأنثى، يجتمع عندها كهنتهم وعلماؤهم فى يوم مخصوص من السنة، ويتكلمون بكلام فيصَفِّر أحد العقابين . فإن صفر الذكر آستبشروا بزيادة النيل . وإن صفَّرت الأنثى آستشعروا عدم زيادته فهيَّئُوا ما يحتاجون إليه من الطعام لتلك السنة .

قال المسعودى : وقد سمعتُ جماعة من أهل الخبرة يقولون : إن يوسفَ عليه السلام حين بنىٰ الأهرام اتخذ مقياسا لمعرفة زيادة النيل ونقصانه .

قال القضاعىّ : وذلك بمدينة مَنْف ، وقيل : إن النيل كان يقاس بأرض يقال لهـا علوة إلىٰ أن بنى مقياس مَنف ، وان القِبْط كانت تقيس عليه إلىٰ أن بطل .

قلت : وموضع المقياس بمَنف إلىٰ الآن معروف علىٰ القرب من الأهراء اليوسفية من جهة البلدة المعروفة بالبَدْرَشين ، وقيل كانوا يقيسونه بالرصاصة .

قال المسعودىّ : ووَضَعت دَلُوكة العجوز ملكة مصر بعد فرعون مقياسا بأَنْصِنَا صغير الأذرع ، ووضعت مقياسا آخر بإِخْمِيمَ ، ووضعت الرُّومُ مقياسا بقَصْرِ الشَّمع .

قال القضاعىّ : وكان المقياس قبل الفتح بقَيْسارية الأكسية بالفُسْطَاطِ إلىٰ أن ابتنىٰ المسلمون أبنيتهم بين الحصن والبحر ؛ ثم جاء الإسلام وفتحت مصر والمقياس بمَنْف .

كان النيل يقاس بمنف ويدخل القيّاس إلىٰ الفسطاط فينادى به ، ثم بنىٰ عمرو بن العاص مقياسا باسوان ، ثم بنىٰ مقياسا بدَنْدَرَة ، ثم بنىٰ فى أيام معاوية مقياسا بأَنْصنَا .

فلما ولى عبد العزيز بن مَرْوانَ مصر ، بنىٰ مقياسا صغير الاذرع بحُلْوَانَ من ضواحى الفُسْطَاطِ ، ثم لما ولى أسامَةُ بن زيد التَّنُوخىّ بنىٰ مقياسا فى جزيرة الصِّنَاعة المعروفة الآن بالرَّوضَة بأمر سليمان بن عبد الملك : أحد خلفاء بنى أُمَيَّة سنة سبع وتسعين من الهجرة ، وهو أكبرها ذَرْعا ؛ ثم بنىٰ المأمون[١] مقياسا أسفل الأرض بالجزيرة المذكورة فى سنة سبع وأربعين ومائتين فى ولاية يزيد بن عبد الملك[٢] علىٰ مصر ، وهو المعمول عليه إلىٰ زماننا هذا .

(١) صوابه المتوكل كما هى عبارة المقريزى و ياقوت .

(٢) صوابه يزيد بن عبد الله التركى كما فى المقريزى .

وكانت النصارىٰ تتولّٰى قياسه فعزلهم المتوكل عنه ورَتَّب فيه أبا الرّداد عبدَ الله بن عبد السلام بن أبي الرّداد المؤدّب، وكان رجلا صالحا، فٱستقرّ قياسه في بَنِيهِ إلىٰ الآن؛ ثم أصلحه أحمد بن طولون في سنة تسع وخمسين ومائتين .

ثم كل ذراع يعتبر بثمانية وعشرين أصبعا إلىٰ تمام ٱثنتي عشرة ذراعا، ثم يكون كل ذراع أربعةً وعشرين أصبعا ، فلما أرادوا وضعه علىٰ ستة عشر ذراعا ، وزعوا الذراعين الزائدين، وهما ثمانية وأربعون أصبعا علىٰ ٱثني عشر ذراعا لكل ذراع منها أربعة أصابع ،فصار كل ذراع ثمانية وعشرين أصبعا،وبقي الزائد علىٰ ذلك كل ذراع أربعة وعشرون أصبعا .

قال القضاعيّ : وكان سبب ذلك فيما ذكره الحسين(١) بن محمد بن عبد المنعم في رسالة له أن المسلمين لما فتحوا مصر عرض علىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يلقاه أهلها من الغلاء عند وقوف النيل في حدّ لمقياس لهم فضلا عن تقاصره ، ويدعوهم ذلك إلىٰ الاحتكار، والاحتكار يدعوهم إلىٰ زيادة الأسعار ، فكتب عمر إلىٰ عمرو ٱبن العاص يسأله عن حقيقة ذلك، فأجابه : إني وجدت ما تروىٰ به مصر حتّٰى لا يَقْحَط أهلها أربع عشرة ذراعا،والحدّ الذي يروىٰ منه سائرها حتّٰى يفْضُل عن حاجتهم ويبقىٰ عندهم قوت سنة أخرىٰ ست عشرة ذراعا، والنهايتان المخوفتان في الزيادة والنقصان : في الظمإ والٱستبحار، ٱثنتا عشرة ذراعا في النقصان وثماني عشرة ذراعا في الزيادة . فٱستشار عمر رضي الله عنه عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه في ذلك ، فأشار بأن يكتب إليه أن يبني مقياسا ، وأن يَفُضّ ذراعين علىٰ ٱثنتي عشرة ذراعا، ويبقي مابعدهما علىٰ الأصل .

---

(١) في الخطط للقريزي "الحسن" .

قال القضاعىّ : وفى هذا نظر فى وقتنا لزيادة فساد الأنهار، وٱنتقاض الأحوال، وشاهد ذلك أن المقاييس القديمة الصعيدية من أوّلهـا إلىٰ آخرها أربعـة وعشرون أصبعا كل ذراع بغير زيادة علىٰ ذلك .

قال المسعودىّ : فإذا تم النيل خمس عشرة ذراعا، ودخل فى ست عشرة، كان فيه صلاح لبعض الناس ولا يُسْتَسْقىٰ فيه، وكان فيـه نقص من خراج السلطان . وإذا ٱنتهت الزيادة إلىٰ سـتة عشر ذراعا، ففيـه تمـام خراج السـلطان وأخصبَ الناسُ، وفيه ظمأ ربع البلد، وهو ضارّ للبهائم لعدم المرعىٰ .

قال : وأتم الزيادات العامة النـافعة للبلد كله سبع عشرة ذراعا ، وذلك كَفَافُها ورَيُّ جميع أرضها . وإذا زاد علىٰ السبع عشرة ذراعا وبلغ ثمـانى عشرة، ٱستبحر من مصر الربع، وفى ذلك ضرر لبعض الضِّياع . قال : وذلك أكثر الزيادات .

قلت : هـذا ما كان عليه الحال فى زمانه وما قبله وكان الحال جاريا علىٰ ماذكره فى غالب السنين إلىٰ ما بعد السبعمائة .

أما فى زماننا، فقد عَلَتِ الأرض ممـا يرسب عليها من الطين المحمول مع المـاء فى كل سـنة وضَعُفت الجسور، وصار النيـل بحكمة الله تعـالىٰ إلىٰ ثلاثة أقسام : متقاصرة وهى ست عشرة ذراعا فمـا حولهـا، ومتوسطة وهى سبع عشرة ذراعا إلىٰ ثمـان عشرة ذراعا فمـا حولهـا، وعالية وهى مافوق الثمـان عشرة، وربمـا زادت علىٰ العشرين .

المقصـــد الرابع فى ذكر خُلْجَانها،

(وخلجانها القديمة ستة خُلُجٍ)

الخليج الأوّل

(المَنْهى)

وهو الخليج الذى حفره "يوسف الصدّيق عليه السلام" ومَخْرَجه بالقرب من دَرْوَة سَرَبَام، من عمل الأُشْمُونينِ الآتى ذكرها، وهى المعروفة بِدَرْوَةِ الشَّرِيف، ويأخذ شَمالا إلىٰ مدينة البهنسىٰ، ثم إلىٰ قرية اللّاهُون من عمل البهنسىٰ، ويمرّ فى الجبل حتّى يجاوزه إلىٰ إقليم الفَيُّوم، ويمرّ بمدينته وينبثُّ فى نواحيه.

وهذا النهر من غرائب أنهار الدنيا تجِفُّ فُوَّهته فى أيام نقص النيـل، وباقيه يجرى فى موضع ويجف فى آخر إلىٰ إقليم الفَيُّوم، فيجرى شتاءً وصيفًا من أعين تتفجر منه ولا يحتاج إلىٰ حفرٍ قطُّ.

ويقال: إن "يوسفَ عليه السلام" حفره بالوَحْىِ ومياهه منقسمة علىٰ ٱستحقاق مقدّرٍ، كما فى دِمَشْقَ من البلاد الشامية.

قال فى "الروض المعطار": وكانت مَقَاسِمُه بحجر اللّاهُون علىٰ القرب من القرية المنسوبة إليه المتقدّمة الذكر. قال: وهو من عجائب الدّنيا، وهو شاذَرْوان بين قبتين من أحكم صنعة، مُدَرّج علىٰ ستين درجة، فيها فوارات فى أعلاها وفى وسطها وفى أسـفلها، يسقى الأعلىٰ الأرضَ العُلْيَا، والأوسطُ الأرضَ الوُسْطىٰ، والأسفل الأرضَ السُّفْلىٰ بوزن وقدر معلوم.

قال: ويقال إن يوسف عليه السلام عمله بالوحى، وإن مَلِكَ مِصْرَ يومئذ لما عاينه قال هذا من مَلَكُوت السماء.

ويقال إنه عمل من الفضّــة والنحاس والرخام . قلت : قد ذهبت معالم هذا اللاهون وبقى بعض بنائه ونُقِلت المقاسم إلىٰ مكان آخر بالفيوم تسقى الآن الأراضى علىٰ حكمها .

ومن غرائب أمره أن به التمـاسيحَ التى لا تحصىٰ كثرةً ، ولم يشتهر فى زمن من الأزمان أنها آذتْ أحدا قطُّ .

الخليج الثـانى

(خليج القاهرة الذى يكسر سدّه يومَ وفاء النيل)

حفره عمرو بن العاص وهو أمير مصر، فى خلافة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه .

قال القضاعىّ : أمر بحفره عام الرَّمادة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه وساقه إلىٰ بحر القُلْزُم، فلم يتم عليــه الحول حتّى جرَتْ فيــه السفن وحمل فيها الزاد والأطعمة إلىٰ مكَّةَ والمدينةِ، ونفع الله بذلك أهلَ الحجاز .

وذكر الكِنْدىّ فى كتاب "الجند العربى" أن حفره كان سنة ثلاث وعشرين من الهجرة، وفرغ منه فى ســتة أشهر ، وجرت فيــه السفن ووصلت إلىٰ الحجـاز فى الشهر السابع .

قال الكِنْدِىّ : ولم يزل يحمل فيه الطعام حتّى حَمَلَ فيه عمر بن عبد العزيز ، ثم أضاعتــه الوُلاة فترك وغلب عليــه الرمل ، وصار منتهاه إلىٰ ذنَب التِّمساح من ناحية الطُّور والقُلْزُم .

وذكر ابن قديد : أن أبا جعفر المنصور أمر بسدّه حين خرج عليه محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب ليقطع عنه الطعام .

ولم يكن عليه قنطرة إلى أن بنى عليه عبد العزيز بن مَرْوانَ قنطرة فى سنة تسع ...(١)

وقد ذكر المسعودىّ فى "مروج الذهب"(٢) أنه آنقطع جريان هذا الخليج عن الإسكندرية إلى سنة آثنتين وثلاثين وثلثمائة لردم جميعها وصار شرب أهلها من الآبار .

قال آبن عبد الظاهر : وليس لها أثر فى هذا الزمان . قال : وإنما بنى السلطان الملك الصالح أيوب آبن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب هاتين القنطرتين الموجودتين الآن على بستان الخشاب وباب الخرق ، يعنى قنطرة السدّ وقنطرة باب الخرق فى سنة نيف وأربعين وستمائة .

وذكر فى موضع آخر من خِطَطه أن القنطرة التى عليه خارجَ باب القنطرة بناها القائد جوهر سنة ستين وثلثمائة ، وقنطرة اللؤلؤة ـ وهى التى كانت بالقرب من مَيْدان القمح ، وبعضها باق إلى الآن ـ من بناء الفاطميين أيضا ، واللؤلؤة التى تنسب هذه القنطرة إليها مَنْظَرة على بَرّ الخليج القبلىّ ، بناها الظاهر لإعزاز دين الله الفاطمىّ ، كانت مستنزها لخلفاء الفاطميين ينزلون فيها فى أيام النيل ويقيمون بها إلى آخر النيل .

قلت : أما باقى القناطر التى على هذا الخليج : كقنطرة عمر شاه ، وقنطرة سنقر ، وقنطرة أمير حسين ، فكلها مستحدَثَة فى الدولة التركية ، وغالبها فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون .

قال آبن أبى المنصور فى "تاريخه" : وأوّل من رتب حفره على الناس المأمونُ آبن البطائحىّ ، وكذلك البساتين فى دولة الأفضل ، وجعل عليه واليا بمفرده .

---

(١) لعله تسع وستين فان آبتداء ولايته لمصر فى خمس وستين .

(٢) هذه الفقرة غير مناسبة هنا وقد ذكرها قريبا بلفظها فى الكلام على خليج الاسكندرية فتنبه .

الخليج الثـالث

(خليج السَّـــرْدُوس)

ويقال السَّرْدُوسيّ بزيادة ياء فى آخره، وهو الذى حفره هامانُ لفرعون .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ويقـال : إنه لمـا حفره سأله أهل البلاد أن يجريه إليهم علىٰ أن يجعـلوا له علىٰ ذلك مالا ، فتحصل له من ذلك مائة ألف دينار فحملها إلىٰ فرعون، فقال : ويحك ! إنه ينبغى للسـيد أن يعطف علىٰ عبيده ولا ينظر إلىٰ مافى أيديهم، وأمر بردّ المـال إلىٰ أربابه .

قال : وكان هـذا الخليج أحد نزهات الدنيا يُسار فيه يوما بين بساتينَ مشتبكة وأشجار مُلْتَفَّةٍ وفواكه دانية . قلت : أما الآن فقـد ذهب ذلك ، وبطل الخليج وعوّض عنه بحر أبى المنجا الآتى ذكره .

الخليج الرابع

(خليج الإسكندرية)

وهو خليج مخرجه من الفرقة الغربية من النيل عنـد قرية تسمّى العَطْفَ تُقَابِلُ فُوَّة، مدينةِ المزاحمتين، ويميل غربا حتّى يتصل بجُدْران الإسكندرية، وتدخل منه قناةٌ تحت الأرض إلىٰ داخلها ، ويتشعب منها شُعَبٌ كثيرة تدخل دُورَها، وتخرج من دار إلىٰ أخرىٰ، ويخالط آبارها فيحلو ماؤها وتملأ منها صهاريجها حينئذ فتمكث من السنة إلىٰ السنة .

وكانت فُوَّهَةُ هذا الخليج فيما تقدّم جنوبىّ فُوَّهته الآن عندقرية تسمّى الظاهرية من عمل البُحيْرَةِ ، وكان يمرّ علىٰ دَمَنْهور مدينـة البحيرة ، ثم نقل إلىٰ مكانه الآن، ويقال إن أرضه فى القديم كانت مفروشة بالبلاط .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو من أحسن المتنزهات لأنه مخضرّ الجانبين بالبساتين، وفيه يقول ظافر الحدّاد الشاعر السكندرىّ :

وعَشِيَّةٍ أهدَتْ لِعَيْنِكَ مَنْظَرًا * جَاءَ السُّرُورُ بِهِ لقَلْبِكَ وَافِدَا
رَوْضٌ كَمُخْضَرِّ العِذَارِ وجَدْوَلٌ * نَقَشَتْ عَلَيْهِ يَدُ الشَّمَالِ مَبَارِدَا
والنَّخْلُ كالغِيدِ الحِسَانِ تَزَيَّنَتْ * ولَبِسْنَ مِنْ أَثْمَارِهِنَّ قَلَائِدَا

وقد ذكر المسعودىّ فى "مروج الذهب" : أنه انقطع جَرَيان هذا الخليج عن الإسكندرية إلىٰ سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة لردم جميعها، وصار شرب أهلها من الآبار .

الخليج الخامس

(خليج منجا)

ويقال إن الذى حفره بَرْصا : أحد ملوك مصر بعد الطوفان .

الخليج السادس

(خليج دِمْياط)

ولم أقف علىٰ تفاصيل أحواله .

أما بحر أبى المنجا، فإنه وإن عظم شأنه مستحدَث حفره الأفضل بن أمير الجيوش وزير المستعلى بالله الفاطمىّ .

قال ابن أبى المنصور فى "تاريخه" : وكان سبب حفره أن البلاد الشرقية كانت جارية فى ديوان الخلافة، وكان معظمها لا يروىٰ فى أكثر السنين ولا يصل الماء إليها إلا من خليج السَّرْدوس المتقدّم ذكره أو من غيره من الأماكن البعيدة .

وكان يشارف العمل يهودىٌّ آسمه أبو المنجا فرغب أهل البلاد إليه فى فتح ترعة يصل الماء منها إليهم فى آبتدائه فرفع الأمر إلىٰ الأفضل، فركب فى النيل فى آبتدائه فى مركب ورمىٰ بحُزَمٍ من البُوصِ فى النيل وجعل يتبعها بمركبه إلىٰ أن رماها النيل إلىٰ فَمِ ذلك البحر فحفر من هناك ، وآبتدأ حفره يوم الثلاثاء السادس من شعبان سنة ست وخمسمائة، وأقام الحفر فيه سنتين وغُرِمَ فيه مال كثير . وكان فى كل سنة تظهر فائدته ، ويتضاعف آرتفاع البلاد التى تحته ، وغلب عليه إضافته إلىٰ أبى المنجا لتكلمه فيه . فلما عرض علىٰ الأفضل ما صرف عليه آستعظمه وقال غَرِمنا عليه هذا المال العظيم والآسم لأبى المنجا ، فسماه البحر الأفضلىّ فلم يتم له ذلك ولم يعرف إلا بأبى المنجا ، ثم سطى بأبى المنجا المذكور بعد ذلك ونُفِى إلىٰ الإسكندرية . ولما ولى المأمون بن البطائحى الوزارة تحدّث معه الأمراء فى أن يتخذ لفتحه يوما كفتح خليج القاهرة، فآبتنىٰ عند سدّه منظرة متسعة ينزل فيها عند فتحه .

قلت : وكانت فيه معدّية يعدّى فيها بين قليوب و بيسوس، وكان يحصل للناس بها مشقة عظيمة لكثرة المارّين، فعمر عليها الظاهر بيبرس رحمه الله قنطرةً عظيمة بحجر صَلْد، من غرائب البناء، تمرّ عليها الناس والدّواب، فحصل للناس بها الآرتفاق العظيم، وهى باقية علىٰ جِدَّتِها إلىٰ زماننا .

وكان سدّه يقطع فى عيد الصليب فى سابع عشر توت ، ثم آستقرّ الحال علىٰ أن يقطع يوم النَّوْروز فى أول يوم من توت حرصا علىٰ رىّ البلاد .

وأما بقية خُلُجِ الدّيار المصرية المستحدثة وتُرَعها بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ، فأكثر من أن تحصر، ولكل منها زمن معروف يقطع فيه .

المقصـــــد الخامس

(فى ذكر بُحَيرات الديار المصرية ، وهى أربع بحيرات)

الأولىٰ منها ـ بُحَيْرَةُ الفَيُّوم ، ويُعَبَّر عنهـا بالبِرْكة ، وهى بُحيرةٌ حُلْوَةٌ بالقرب من الفيوم بين الشمال والغرب عنه ، علىٰ نحونصف يوم ، يصب فيها فضلات مائه المنصب إليه من خليجه المَنْهىٰ المتقدّم ذكره ، وليس لها مَصْرِفٌ تنصرف إليه لإحاطة الجبل بها ، ولذلك غلبت علىٰ كثير من قرىٰ الفَيُّوم وعلا ماؤها علىٰ أرضها .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وطولهـا شرقا بغرب نحو يوم ، وبها أسمـاك كثيرة تحصل من صيدها جملةٌ كثيرةٌ من المـال ؛ وبها من آجام القَصَب والطَّرْفاء والبَرْدىّ ما يتحصل منه المـال الكثير .

الثـانية ـ بحيرة بُوقِيرَ (بضم الباء المُوَحَّدَة وسكون الواو وكسر القاف وسكون الياء المثناة تحتُ وراء مهملة فى الآخر) وهى بُحَيْرَةُ ماء مِلْحٍ يخرج من البحر الرومىّ بين الإسكندرية ورشيد ، ولهـا خليج صغير مشتق من خليج الإسكندرية المتقدّم ذكره ، يأتيها ماء النيل منه عند زيادته ؛ وبها من صيد السمك ما يتحصل منه المـال الكثير ، وفيهـا من أنواع الطير كلُّ غريب ، وبجوانبها المَلَّاحَاتُ الكثيرة التى يحمل منها المِلْحُ إلىٰ بلاد الفرنج وغيرها .

قلت : وقد وقع للسلطان عمـاد الدّين صاحب حماة رحمه الله وَهَمٌ بجعل هذه البحيرة هى بحيرة نَسْتَرُوه الآتى ذكرها ، علىٰ أن هـذه البحيرة قد آنقطع مَدَدها من البحر الملح فى زماننـا بواسطة غَلَبَةِ الرمل علىٰ أَشْتُونها الموصـل إليها المـاء من بحر الروم فجفَّت وصارت سبخة طويلة عريضة ، ومات ما كان يصاد منها من السمك البُورِىّ ، وما يتحصل منها من المِلْحِ المنعقد بسواحلها ، وعاد علىٰ الإسكندرية

بواسطة ذلك ضرر كبير لأنه كان الغالب على أهلها أكل السمك ويحصل لهم بالملح رفق كبير .

الثـالثة ـ بُحَيْرَة نَسْتَرُوه (بفتح النون وسكون السـين المهملة وفتح التاء المثناة فوقُ وضم الراء المهـملة وسكون الواو وهاء فى الآخر) وهى بحـيرة ماء مِلْح أيضـا بالقرب من البَرَلُّس فى آخر بلاد الأعمـال الغربية الآتى ذكرها، متسـعة الأرجاء إذا توسطها المركب لا تُرىٰ جوانبها لعظمها، لبعد مركزها عن البر ، وبالقرب منها قرية تسمّى نَسْـتَرُوْه ، وهى التى تضاف إليها، وداخلها قرية أخرىٰ تسمّى سِنْجار لا زرع فيهـما ولا نفع ، وليس بهما غير صـيد السمك ، وهى الغاية القُصْوىٰ فيما يتحصل من المـال .

قال صاحب حماة : يبلغ متحصل صيد سمكها فى كل سنة فوق عشرين ألف دينار مصرية، وليس يساويها بحيرة من البحيرات فى ذلك .

قلت : وأخبرنى بعض مباشريهـا أنها فى زماننا قد تميز متحصلها عن ذلك نحو مثله للآجتهاد فى الصيد، وكثرة الضبط وآرتفاع السعر .

الرابعـــة ـ بحيرة تِنِّيس قال السمعانىّ (بكسر التاء المثناة فوق والنون المشدّدة المكسورة ثم ياء مثناة تحت وسين مهملة فى الآخر) وهى بُحَيْرَةٌ متصلة بالبحر الرومىّ أيضا بآخر عمل الدّقهلية والمُرْتاحية الآتى ذكره، وفيها مصبُّ بحر أُشْمُومَ المنفرق من الفرقة الشرقية من النيل، ولذلك يعذب ماؤها فى أيام زيادة النيل،وبوسطها تِنِّيس الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ الكُوَرِ القديمة .

قال صاحب "الروض المعطار" : طمىٰ عليها البحر قبل الفتح الإسلامىّ بمـائة سنة فغرّقها وصارت بحيرة ، ويتصل بهذه البحيرة من جهة الغرب "بحيرة دمياط" وهما فى الحقيقة كالبحيرة الواحدة .

المقصد السادس
(فى ذكر جبالها)

اعلم أن وادىَ مِصْرَ يكتنفه جبلان شرقا وغربا ، يبتدئان من الجنادل المتقدّمة الذكر فوق أُسْوان آخِذَيْن فى جهة الشَّمال علىٰ تقارب بينهما بحيث يُرىٰ كل منهما من الآخر والنيل مارّ بين جَنْبَيهما .

فأما الشرقىّ منهما فيمرّ بين النيل وبحر القُلْزُم المتقدّم الذكر حتّى يجاوز الفُسْطَاطَ فينعطف ويأخذ شرقا حتّى يأتىَ علىٰ آخر بحر القُلْزُم من الشَّمال، يرتفع فى موضع وينخفض فى آخر، وفى أوائل هذا الجبل من جهة الجنوب علىٰ القرب من مدينة قُوص (مَعْدِن الزُّمُرُّدِ) المتقدّم ذكره فى خواص الدّيار المصرية، فى مغارة طويلة فى قطعة جبل عالية ، تسمّى قرشنده ليس هناك أعلىٰ منها ، وعلىٰ القرب من ذلك (مقطع الرُّخامِ) الملوّن من الأبيض والسُّمّاقىّ وسائر الألوان المستحسنة التى لا تساوىٰ حُسْناً .

ويسمّى الجبل المطلُّ منه علىٰ النيل مقابل المراغات من عمل إخميم . (جبل الساحرة) وأظنه جبل زماخير الساحرة المتقدّمة الذكر فى عجائب الدّيار المصرية .

ويسمّى الجبل المطل منه علىٰ النيل مقابل مدينة مَنْفَلُوط (جبل أبى فيدة) بفاء وياء مثناة تحت .

ويسمّى الجبل المطل منه علىٰ النيل مقابل منية بنى خصيب من الأُشْمُونين . (جبل الطيلمون) ، ويعرف الآن بجبل الطَّير، وقد تقدّم ذكره فى جملة عجائب الديار المصرية .

ويسمّى ماسامت الفُسْطَاط والقرافة منه (المُقَطَّم) وربما أُطْلِقَ المُقَطَّم علىٰ جميع المُقَطَّم (١)، وقد اختلف فى سبب تسميته بذلك ، فقيل سمى باسم مُقَطَّم الكاهن كان مقيما فيه لعمل الكِيمياَ .

(١) لعله علىٰ جميع الجبل .

وقال أبو عبد الله اليمنى : سمى بالمُقَطَّمِ بن مصر بن بيصر، وكان عبدا صالحا آنفرد فيه لعبادة الله تعالىٰ .

وذكر الكِنْدِىّ فى كتاب "فضائل مصر" مايوافق ذلك : وهو أن عمرو بن العاص رضى الله عنــه سار فى سفح المُقَطَّم ومعه المُقَوْقِسُ ، فقال له عمرو : مابالُ جبلكم هذا أقرعَ ليس عليــه نبات كجبال الشام ؟ فلو شققنا فى أسفله نهرا من النيل وغرسناه نخلا ــ فقال المقوقس : وجدنا فى الكتب أنه كان أكثر البلاد أشجارا ونبتـا وفاكهة، وكان ينزله المُقَطَّمُ بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، فلمـا كانت الليلة التى كلم الله تعالىٰ فيها موسىٰ عليــه السلام ، أوحىٰ الله تعالىٰ إلىٰ الجبـال : إنى مكلِّمٌ نبيا من أنبيائى علىٰ جبل منكِ فسمَتِ الجبال كلُّها وتشامخت إلا جبلَ بيت المقدس فإنه هبط وتصاغر، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليهِ : لِمَ فعلت ذلك؟ وهو به أخبر، فقال : إعظاما و إجلالا لك يارب! فأمر الله تعالىٰ الجبال أن يحبُّوه كل جبل ممـا عليه من النبت ، فجاد له المُقَطَّمُ بكل ما عليه من النبت حتّى بقِىَ كما ترىٰ، فأوحىٰ الله تعالىٰ إليه إنى معوّضك علىٰ فعلك بشجر الجنة أوغَرْس الجنة .

وأنكر القضاعىّ وغيره أن يكون لمصر ولد آسمه المقطم، وجعلوه مأخوذا من القطم وهو القطع، لكونه منقطع الشجر والنبات .

قال آبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وفيه كنوز عظيمة ، وهيا كلُ كثيرة ، وعجائبُ غريبــة . وللملوك مصر فيه من الجواهر والذهب والفضة والأوانى ، والآلات النفيسة، والتماثيل العجيبة، وتراب الصنعة ما يخرج عن حدّ الإحصاء .

قال فى "الروض المعطار" و إذا دُبِّرَتْ تُربَتُه حصــل منها ذهب صالح .

و يلى المُقَطَّمَ من جهة الشَّمال (اليَحَاميمُ)، وهى الجبال المتفرقة المطلة علىٰ القاهرة من جانبها الشرقى وجَبَّانَتَها .

قال القضاعىّ : وقيل لها اليَحَامِيمُ لاختلاف ألوانها، واليَحْمُوم فى كلام العرب الأسْوَدُ المظلِمُ، ولعله يريد الجبل الأحمر وما والاه .

وفى شرقىّ المُقَطَّم على بحرالقُلْزُم (طُورُسِينَا) الذى كلَّم الله تعالىٰ موسىٰ عليه السلام عليه، وهو جبل مرتفع للغاية، داخل فى البحر .

قال الأزهرى : وسمى الطُّورَ بطُورَ بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ومن خاصّته أنه كيفما كُسِرَ، ظهر فيه صورة شجر العليق، وقد بُنِيَ هناك دَيْرٌ بأعلىٰ الجبل، وغرس بواديه بَسَاتِينُ وأشجارٌ .

وأما الغربىّ منهما ، فإنه يبتدئ من الجنادل أيضا ويمرّ فى الشَّمال فيما بين بلاد الصعيد والصحراء ، ثم فيما بين بلاد الصعيد والْوَاحَاتِ ، ثم فيما بين بلاد الصعيد والفَيُّوم حتّى ينتهىَ إلىٰ مقابل الفُسْطَاط . وهناك موقع الهَرَمَيْنِ العظيمين المقدّم ذكرهما علىٰ القرب من بُوصِير، ثم ينعطف ويأخذ غربا بشَمَالٍ فيما بين بلاد ريف الوجه البحرىّ والبَرّيَّة حتّى يجاوز بِرْكة النَّطْرُون، ويمضى إلىٰ قريب من الإسكندرية .

ويسمّى فيما سامت الواحات (جبل جالوت) نسبة إلىٰ جالوت البربرى .

ويتصل به من جنوبىّ الْوَاحَاتِ (جبل اللّازَوَرْد) قيل إن به معدن لازورد، وانه امتنع استخراجه لانقطاع العمارة هناك .

المقصد السابع

(فى ذكر زروعها، ورياحينها، وفواكهها، وأصناف المطعوم بها)

أما زروعها فيزرع فيها من أنواع الحبوب المُقْتاتة وغيرها كالبُرّ والشعير والذُّرَة والأُرْز، والبَاقِلّى، والحِمَّص، والعَدَس، والبِسِلا، والجُلْبان، واللُّوبِيَا، والسِمْسِم، والقُرْطُم، والخَشْخَاش، والخِرْوَع، والسَّلْجَم، وبِزر الكَتَّان، والبَرْسِيم، وغير ذلك .

وبها قصب السُّكَّرِ فى غاية الكثرة، والبِطِّيخُ ، والقِثَّـاءُ علىٰ ٱختـلاف أنواعها، والمُلُوخِيا، والقُلْقَاسُ ، واللِّفتُ ، والبَاذنْجَان، والدُّبَّاء، والهِلْيَوْنُ، والقُنَّبِيطُ، وأنواع البقول المختلفة، كالثُّومِ، والبصَلِ، والكُرَّاثِ، والفُجْلِ وغيرها؛ وعامة زرع حبوبها علىٰ النيل عنـد نزوله عن أرضها من أثناء بَابَه من شهور القِبْطِ إلىٰ أثناء طُوبَه منها بحسب ما يقتضـيه حال الزرع . وربما زرع فيها علىٰ السواقى والدّواليب؛ وأكثر ما يكون ذلك فى بلاد الصَّـعِيدِ خصوصا فى سنين الجَدْب؛ ويُزْرَع فى الفيوم فى غير زمن النيل علىٰ نهره المنهىٰ المتقـدّم ذكره فى جملة الأنهار . ولا زرع فيها علىٰ المطر إلا القليل النادر بأطراف البحيرة ممـا لا عبرة به علىٰ قلة المطر بها بل فقده بصعيدها .

وأما رَيَاحِينُهَا ، ففيها الآسُ ، والوَرْدُ ، والبَنَفْسَجُ ، والنَّرْجِسُ ، واليَـاسَمِينُ ، والنِّسْرِينُ، والبَانُ، واللَّيْنُوفَرُ، وأزهار المحمضات، والرَّيْحَانُ الفَارِسىّ علىٰ ٱختلاف أنواعه، والمنثورفيها بقلة، وإنمـا كثر بالإسكندرية، إلىٰ غير ذلك من بقايا الأنواع التى يشق ٱستيعابها .

وأما فواكهها، ففيها الرُّطَبُ، والعِنَبُ، والتِّينُ، والرُّمَّانُ، والخَوْخُ، والمِشْمِشُ، والقَرَاصِيَا، والبَرْقُوقُ ، والتُّفَّاحُ ، والكُمَّثْرىٰ، والسَّـفَرْجَلُ بِقِلَّةٍ ، واللَّوْزُ الأخضر، والنَّبِقُ، والتُّوتُ، والفِرْصَادُ، والمَوْزُ . ولا يوجد فيها الجوْزُ، والفُسْتُقُ، والبُنْدُقُ، والإِجَّاصُ إلا مجلوباً بعـد جفافه . وإنْ زرع بأرضها شىء من ذلك، لم يُفْلِح؛ والزيتون فيها بِقِلَّةٍ ، ولا يستخرج منه زيت البتة وإنمـا يؤكل مِلْحًا .

وفيهـا من المحمضات الأُتْرُجُّ، والحُمَّـاضُ، والكباد، والنَّارَنْجُ، واللَّيْمُونُ، علىٰ ٱختلاف أنواعها .

وأما أصناف المطعوم ففيها ما يستطاب من الأَلْبَانِ، والأجْبَانِ، والعَسَلِ، الذى لا يُساوىٰ حُسْنا، ولا يشبهه غيره من سائر الأعسال، والسُّكَّرِ الكثير من المُكَرَّرِ والتبع، والوسط، والنبات. ومنها يجلب إلىٰ أكثر البلاد. قال فى "مسالك الأبصار": وقد نُسِى به ما كان يذكر من سُكَّر الأهواز.

وبها من أنواع الحلوىٰ والأشربة المتخذ ذلك من السُّكَّر والأشربة(؟) الفائقة مالا يوجد فى غيرها من الأقاليم.

وبها من لحم الضأن، والبقر، والمعز، ما لا يعادله غيره فى قُطْرٍ من الأقطار لطافةً ولَذَّةً.

قلت: ومن محاسنها أن فاكهتها لايدوم نوع منها فى جميع السنة فَيُمَلّ، بل يأتى كل نوع منها فى وقت دون وقت، فتتشوف النفوس إلىٰ طلبه، ويكون لقدومه بهجة. ولا يعترض ذلك بدوام أُكُل الجنة، فإن الجنة أُكلها لا يملُّ بخلاف مآكل الدنيا. ولأهل الرفاهيَة بذلك فرحةٌ، وتتغالىٰ فيه فى ٱبتدائه مع أنه يجتمع فى الحين الواحد من الفواكه والرياحين مالا يحتاج معه فى زمنه إلىٰ غيره.

قال المهذب بن مماتى فى "قوانين الدواوين": بعثتُ غلاما لى لِيُحْضِر من فَكَّاهِى القاهرة ما وجد بها من أنواع الفاكهة والرياحين، فأحضر لى منها الوَرْدَ، والنَّرْجِسَ، والبَنَفْسَج، والياسَمِينَ، والمَنْثُورَ، والمَرْسِينَ، والرَّيْحَانَ، والطَّلْحَ، والبَلَحَ، والجُمَّارَ، والخِيَارَ، والبِطِّيخَ الأخضرَ، والبَاقِلّىٰ، والتُّفَّاحَ، والفَقُّوسَ، والأُتْرُنْجَ، والنَّارَنْجَ، والأشْبَاهَ، واللَّيْمونَ، والتَّمْرَهِنْدِى الأخضر، والعِنَبَ، والحِصْرِمَ.

وقال بعض الجوّالين فى الآفاق: طفت أكثَرَ المعمورِ من الأرض فلم أر مثل ما بمصر من ماء طوبه، ولَبَنِ أمشير، وخَرُّوبِ برمهات، ووَرْدِ برموده، ونَبِق بشنس، وتِينِ بؤُونة، وعَسَلِ أبيب، وعِنَبِ مسرىٰ، ورُطَبِ توت، ورُمَّانِ بابه، ومَوْزِ هتور، وسَمَك كيهك.

المقصـــــد الثامن
(فى ذكر مواشيها، ووحوشها، وطيورها)

أما مَوَاشِيها، ففيها الإبل المستجادة، والبقر العظيمات القدود، والأغنام المستطابة اللحوم، والخيول المُسَوَّمَةُ، والبغال النفيسة، والحُمُرُ الفارهة ممـا ليس له نظير فى إقليم من الأقاليم، ولا مصرٍ من الأمصار.

وأما وُحُوشُها، ففى براريِّها الغِزْلَانُ، والنَّعامُ، والأَرَانِبُ، والثَّعالب، والضِّبَاعُ، والذِّئَابُ، وغير ذلك، ويجاب إلىٰ سلطانها الفِيَلَةُ، والزَّرَافَاتُ، وغيرها من الوحوش من البلاد القاصية، والسِّـبَاعُ من بلاد الشام من مملكته لتكون فى إصطبلاته زينةً لمملكته.

وأما طيورهـا ففيها من الطيور الدَّواجن فى البيوت الدَّجَاجُ، والإوزُّ، والحَمَامُ؛ ومن الطيور البَرِّيَّةِ الصَّقْرُ، والعُقَابُ، والنَّسْرُ، والكُرْكِىّ، واللَّغْلَغُ، والإوزُّ التُّركىّ، والمرزم، والبَجَعُ، والبَلَشُون، والحُبْرُجُ، والحَجَلُ، والكَرَوانُ، والسُّمانىٰ، والبُلْبُلُ، وسائر أنواع العصافير، والأنواع المختلفة من طيور المـاء. ويجلب إلىٰ سلطانهـا سائر أنواع الجوارح الصائدة علىٰ ٱختلاف أجنـاسها من أقاصى البُـلْدان، ويقع التغالى فى أثمـانها للغاية القصوىٰ علىٰ ما يأتى ذكره فى الكلام علىٰ أوصافها إن شاء الله تعالىٰ.

المقصـــــد التـــاسع
(فى ذكـر حدودها)

قد ٱضطربت عبارات المُصَنِّفِينَ فى المسالك والممـالك فى تحديدها، والذى عليه الجمهور أن حدّها الشَّمالىّ، وهو المعبر عنه عنـد المصريين بالبحرىّ يبتدئ ممـا بين الزعقة ورَفَح عنـد حدّها من الشام والبحر شمـاله، ويمتـدّ غربا علىٰ ساحل البحر

المذكور حيث الشجرتان عند الشجرة التى يعلق فيها العوامُّ الخِرَق وتقول هذه مفاتيح الرمل، عند الكُثُب المجنبة عن البحر الرومىّ، إلىٰ رَفَح ثم إلىٰ العريش آخذا علىٰ الجِفَار، إلىٰ الفَرَما، إلىٰ الطينة، إلىٰ دِمْياط، إلىٰ ساحل رشيد، إلىٰ الإسكندرية، وهى آخر العمارة بهذا الحدّ. ثم يأخذ علىٰ اللينونة، علىٰ العميدين، إلىٰ بَرْقَة، إلىٰ العَقَبَة الفاصلة بين الديار المصرية وإفْرِيقِيَّةَ علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ سواحل البحر الرومىّ .

وحدّها الغربىّ يبتدئ من ساحل البحر الرومىّ حيث العَقَبة، ويمتدّ جنوبا، وأرض إفْرِيقِيَّةَ غربيه، علىٰ ظاهر الفَيُّومِ والْوَاحَاتِ حتّىٰ يقع علىٰ صحراء الحبشة علىٰ ثمان مراحل من أُسْوان .

وحدّها الجَنُوبىّ وهو المعبر عنه عند المصريين بالقِبْلىّ، يبتدئ من آخر هذا الحدّ بصحراء الحبشة ويمتدّ شرقا، وبلاد الروم من بلاد البَرِّيَّة جنوبيّه حتّىٰ يأتى إلىٰ أسوان، ثم يمتدّ من أسوان شرقا حتّىٰ ينتهى إلىٰ بحر القُلْزُمِ مقابل أسوان علىٰ خمس عشرة مرحلة منها .

وحدّها الشرقى يبتدئ من آخر هذا الحدّ ويمتدّ شمالا وبحرُ القُلْزُم شرقيُّه إلىٰ عَيْذَابَ إلىٰ القُصَير إلىٰ القُلْزُم إلىٰ السُّوَيْس، ثم يأخذ شرقا عن بركة الغُرُنْدُل التى أغرق الله تعالىٰ فيها فرعون من بحر القُلْزُمِ إلىٰ تِيهِ بنى إسرائيل؛ ثم يعطف شمالا ويمرّ علىٰ أطراف الشام حتّىٰ ينحطّ علىٰ ما بين الزعقة ورَفَحٍ ساحل البحر الرومىّ حيث وقعت البداءة .

وعلىٰ هذا التحديد جرىٰ السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تقويم البُلْدان" والمقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" إلا أنه فى "تقويم البُلْدان" جعل ابتداء الحدّ الشمالىّ نفس رَفَحٍ، ونهاية الحدّ الغربىّ حدود بلاد النُّوبة؛ وفى "التعريف"

جعل ٱبتداءَ الحدّ الشمالى ما بين الزعقة ورَفَح، ونهاية الحدّ الغربى صحراءَ بلاد الحبشة علىٰ ما تقدّم فى التحديد، والأمر فى ذلك قريب .

وخالف فى ذلك القُضَاعىّ فجعل ٱبتداء الحدّ الشَّمالىّ من العَريش ، وليس فيه بُعْـدٌ عن رَفَح بل فى الآثار ما يدل عليه . كما سـيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ، وجعل الحدّ الجَنُوبىّ يقطع بحر القُلْزُمِ و ينتهى إلىٰ ساحل الحجاز بالحَوْراء: أحدِ منازل طريق الحجـاز من مصر، والحدّ الشرقىّ يمتدّ علىٰ ساحل البحر الشرقىّ إلىٰ مَدْيَنَ، إلىٰ أيْلَةَ، إلىٰ تِيهِ بنى إسرائيـل، إلىٰ العَرِيش . فأدخل بحر القُلْزُمِ من حدّ الحَوْراء إلىٰ نهايته فى الشَّمال، وما علىٰ ساحله من برّ الحجاز مما يسامت العَرِيشَ كأيْلَةَ ومَدْيَنَ ونحوها فى أرض مصر .

قلت : وفيـه نظر ، والظاهر ما تقـدّم لأن البر الشرقىّ من القُلْزُمِ معدود من ساحل الحجاز من جمـلة جزيرة العرب، وهى ناحية علىٰ ٱنفرادها؛ وكأن الذى حمل القُضَاعىّ علىٰ ذلك مسامتة هذا الساحل لحدّها بساحل البحر الرومىّ علىٰ ما تقدّم .

وٱعلم أن جميع المحـدّدين لهـا و إن ٱختلفت عباراتهـم فى ٱبتـداء الحدّ الشَّمالى الفاصل بينها و بين الشام، هـل هو من العريش أو من رَفَح أو بين الزعقة ورَفَح ؟ متفقون علىٰ أن ٱبتداء الحدّ حيث الشجرتان ، وكأنهـما شجرتان قديمتان حدّد فى الأصل بهما .

قال فى "التعريف" : وما إخال الآن بقاءَ الشجرتين، وإنما هو موضع الشجرة التى تعلّق فيها العوامُّ الخِرَقَ ، و يقولون هذه مفاتيح الرمل عند الكُثُب المجنبة عن البحر الرومىّ قريبا من الزَّعْقَةِ .

قال : فأما الأشجار التى بالمكان المعروف الآن بالسردية (١)، و يعرف قديمـا بالعُشّ فهى و إن عظمت محدثة من زمن مَنْ حدّد الأقاليم، وليست فى موضع ماذكروه.

(١) فى الضوء، والتعريف "بالخرّوبة" .

ثم لها طُول وعَرْضٌ ، فطولها ما بين جهتى الشّمال والجنوب، وعَرْضها ما بين جهتى المشرق والمغرب . وقد قيل إن طولها مسيرة شهر وعرضها مسيرة شهر .

وذكر القضاعىّ أن ما بين العريش إلى بَرْقة أربعون ليلة .

المقصد العاشر

(فى ٱبتداء عمارتها، وتسميتها مصر، وتفرّع الأقاليم التى حولها عنها)

أما ٱبتداء عمارتها، فقد ذكر المؤرّخون أنها عُمِرت مرتين :

المرّة الأولى ــ قبل الطُّوفان،وأوّل من عَمَرها قبل الطوفان نقراووس بن مصريم ٱبن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام(١)، نزلها فى سبعين رجلا من بنى غرباب جبابرة، فعمرَها . وهو الذى هَنْدس نِيلَها وحفره حتّى أجراه ، ووجه إلى البرية جماعةً هندسُوه وأصلحُوه، وبنى المُدُنَ وأثارَ المعادنَ،وعمل الطلسمات .

المرة الثانية ــ بعد الطُّوفَانِ ، وأوّل من عَمَرها بعد الطوفان مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، قدم إليها هو وأبوه بيصر فى ثلاثين رجلا من قومه حين قسَم نوح الأرضَ بين بنيه ، فنزلوا بسفح المُقَطَّم ، ونَقَرُوا فيه منازل كبيرة نزلوا بها ثم ٱبتنَوْا مدينة مَنْف وسكنوها على ما يأتى ذكره فى الكلام على قواعد مصر القديمة إن شاء الله تعالى .

قال ٱبن لَهِيعَةَ : وكان نوح عليه السلام قد دعا لمصر أن يُسْكِنَه الله تعالى الأرضَ الطيّبة المباركة التى هى أَمْنُ البلاد وغَوْثُ العباد ، ونهرها أفضل الأنهار، ويجعلَ له فيها أفضلَ البركات، ويُسَخِّرَ له الأرضَ ولولده ويُذَلّلَهَا لهم،ويقويهم عليها . فسأله عنها فوصفها له، وأخبره بها .

---

(١) لم تتفق الكتب على هذه الأسماء بل كل كتاب يخالف الآخر فلذلك لم نعول عليها وٱقتصرنا على ما فى نسختنا الخطية .

وأما تسميتها مصر ، فقيل : إن نقراووس بن مصريم أول ملوكها قبل الطوفان حين عمرها سماها باسم أبيــه مصريم تبركا ، وأن مصر بن بيصر إنمـا سمى باسمه . وأكثر المؤرّخين على أنها سميت بمصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام . وعلى الوجهين تكون عَلَمًا منقولا عن آسم رَجُل .

وقال الجاحظ فى رسالة له فى مدح مصر : إنمـا سميت مِصْرَ لمصير الناس إليها

قلت : ويجوز أن تكون سميت مِصْرَ لكونها حدّا فاصلا بين بلاد المشرق والمغرب إذ المصر فى أصل لغة العرب آسم للحدّ بين الأرْضَيْن كما قاله القُضَاعىّ . ومنــه قول أهل هجر : آشـتريت الدار بمُصُورِها ، أى بحدودها .

قال القضاعىّ : وكيف ما (١)... أما أن أريد بالمصر البلد العظيم فإنه ينصرف ويجمع على أمصار .

وأما تَفَرُّعُ الأقاليم التى حولها عنها . فعن آبن لَهِيعة أنه لما آستقرّ مصر بن بيصر بهذه البلاد هو وأبوه بيصر وإخوته : فارق ، وماح ، وياح وكثر أولادهم ، قال له إخوته : قد علمت أنك أكبرُنا وأفضلُنا ، وأن هذه الأرضَ أسكنك إياها جدُّك نوحٌ ، ونحن نضيّق عليـك أرضَك ، ونحن نطلب إليـك بالبركة التى جعلك فيها جدّك نوح أن تبارك لنـا فى أرض نلحق بها ونسكنها ، وتكون لنـا ولأولادنا ، فقال : نعم عليكم بأقرب البلاد إلىّ ، لاتباعدوا منى ، فإن لى فى بلادى هذه مسيرة شهر من أربعة وجوه أحوزها لنفسى ، وتكون لى ولولدى وأولادهم ، فحاز مصر لنفسه مابين الشجرتين اللتين بالعريش إلى أُسوان طولا ، ومن بَرْقَةَ إلى أَيْلَةَ عَرْضا ؛ وحاز فارق لنفســه ما بين بَرْقَةَ إلى إفْرِيقِيَّــة ، فكان ولده الأفارقة ، وبذلك سميت إفْرِيقِيــةُ ، وذلك مســيرة شهر ؛ وحاز ماح ما بين الشجرتين من منتهى حدّ مصر إلى الجزيرة ، مسيرة

(١) كذا فى الأصل بدون بياض وهو غير مستقيم ولعله وكيفما كان فإنها لاتنصرف . أما إن الخ .

شهر، وهو أبو نَبَطِ الشام . وحاز ياح ماوراء الجزيرة كلها من البحر إلىٰ الشرق مسيرة شهر، فهو أبو نَبَطِ العراق .

وقد قال القضاعىّ بعد ذكر حدود مصر الأربعة : وما كان بعد هذا من الجانب الغربىّ فهو من فتوح أهل مصر وثغورهم من بَرْقَةَ إلىٰ الأَنْدَلُس .

قلت : وذلك أن المسلمين بعد فتح مصر توجهت طائفة منهم إلىٰ إفْرِيقِيَّةَ ففتحتها، ثم توجهت طائفة من إفْرِيقِيَّةَ إلىٰ الأَنْدَلُس ففتحته علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مكاتبات ملوك الغرب إن شاء الله تعالىٰ .

المقصد الحادى عشر

(فى ذكر قواعدها القديمة ، والمبانى العظيمة الباقية علىٰ ممرّ الأزمان، والقواعد المستقرّة، وما فيها من الأبنية الحسنة)

وقواعدها القديمة علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(ما قبل الطوفان)

والمعروف لها إذ ذاك قاعدتان :

القاعدة الأولىٰ ـ مدينة أمسوس، وهى أوّل مدينة بنيت بالدّيار المصرية قبل الطوفان، بناها نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام : أوّل ملوك مصر قبل الطوفان، وموضعها خارج الإسكندرية تحت البحر الرومىّ كما ذكره بعض المؤرّخين، وشق لها نهرا يَتَّصل بها من النيل .

القاعدة الثانية ـ مدينة برسان، وهى مدينة بناها نقراووس المتقدّم ذكره لأبنه مصرايم وأسكنه فيها، ولم أقف علىٰ مكانها .

الضرب الثـانى
(قواعدها فيما بعد الطوفان)

والمشهور منها ثلاث قواعد :

القاعدة الأولىٰ ــ مدينة مَنْف . قال فى "تقويم البُلْدان" : (بكسر الميم وسكون النون وفاء فى الآخر) والجـارى علىٰ الألسنة منف (بفتح الميم) وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : طولها ثلاث وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وهى أوّل مدينة بنيت بمصر بعـد الطوفان، بناها مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام حين نزل مصر .

قال فى "الروض المعطار" : وأصلها بالسريانية مافه ومعناها بالعربية ثلاثون وذلك أن مصر حين نزلها كان فى ثلاثين رجلا من أهل بيته، فسماها بعددهم .

قال ٱبن الأنبارى فى كتابه "الزاهر" : وهى علىٰ ٱثنى عشر ميلًا من الفُسْطَاطِ .

قلت : ومَنْفُ هذه فى جنوبىّ الفُسْطَاطِ علىٰ القرب من البلدة المعروفة بالبَدْرَشِين من عمل الجيزة، وهى المعروفة بمصر القديمة، وقد خَرِبت وصارت كيمانا، وبها آثار بنيان من الحجر الكَذَّان، يوجد تحت الردم علىٰ القرب من أحجار الأهرام فى العظمة والمقدار وبوسطها آثار بِرْبَاةٍ عظيمة، بها صنمـان عظيمان من حجر صوّان أبيض، طول كل صنم منهما نحو عشرين ذراعا، وهمـا مطروحان علىٰ الأرض، وقد غطّى الطين أسفلَهما .

وكان علىٰ القرب منهما بيت عظيم من حجر أخضر، قطعة واحدة : جوانبه الأربعة وأرضـه وسقفه، ولم يزل علىٰ ذلك إلىٰ الدولة النـاصرية حسن بن الناصر محمد بن

قلاوون، وأراد الأمير شيخو أتابك العساكر نقله إلى القاهرة صحيحا فعولج فآنكسر فأمر بأن تنحت منه أعتاب فنحتت وجعل منها أعتاب خانقاه وجامعه بصليبة الجامع الطولونى ؛ وشرقىّ هذه المدينة معالم سور مبنىّ بالحجر الكذّان النحيت فصوصا صغارا بالطين والجير الذى قد علمت ، لونه لون الحجر . ويقال : إنه سور الأهراء التى بناها يوسف عليه السلام لآدّخار الحنطة فى سنبلها .

ويذكر بعض أهل تلك البلاد أنه يوجد بعض السُّنْبُلِ الذى أخبر به يوسف عليه السلام تحت تلك الأرض إلى الآن ، وأنه فى المقدار فوق مقدار الحنطة المتعارفة بقليل .

وفى شمالىّ هذه المدينة بلدةٌ صغيرة تعرف بالعزيزية ، يقال إنها كانت منزلة العزيز وزير الملك ، وهناك مكان على القرب منها يعرف بزَلِيخَا ، وفى غربيّها إلى الشّمال فى سفح جبل مصر الغربىّ سِجْن يوسف عليه السلام ، وإلى جانبه مسجد موسى عليه السلام ، وعلى القرب من السُّور المقدّم ذكره مسجد يعقوب عليه السلام . ويقال إن النيل كان تحت هذا السُّور ، وهناك مكان يعرف بالمقياس إلى الآن .

القاعدة الثانية — مدينة الإسكندرية نسبة إلى الإسكندر بن فيلبس المقدونىّ ملك اليونان المقدّم ذكره .

وقد ذكر القضاعىّ : أنه كان بها عدّة عجائبَ ، من أعجبها المَنَارة ، وهى مَنَارة مبنية بالحجر والرّصاص آرتفاعها فى الهواء ثلثمائة ذراع كل ذراع ثلاثة أشبار ، وقيل أربعمائة ذراع ، وقيل مائة وثمانون ذراعا ، وقيل بالحجر (١) لغلبة الجير فيه . وعلى رأسها مرآة من أخلاط يرى فيها من حضر إليها على بُعْد ، وتهتدى بها المراكب السائرة إلى الإسكندرية إذ برّها منخفض لا جبال فيها ، تحرق بشعاعها ما أرادوا إحراقه

(١) لعله وقيل بالجير أى هى مبنية بالحجر والرصاص وقيل بالجير الخ تأمل .

من المراكب الواصلة ، ٱحتال عليها النصارىٰ فى أوائل الإســلام فى خلافة الوليد ٱبن عبـد الملك الأُمَوِىّ فكسروها، وتداعىٰ هدم المنـارة شيئا فشيئا إلىٰ أوساط المـائة الثامنة فاستؤصلت و بقِىَ أثرها .

(ومنها) المَلْعَبُ الذى كانوا يجتمعون فيه فى يوم من السنة ثم يرمون بكُرَةٍ فلاتقع فى حِجْرِ أحد إلا مَلَك مصر ؛ و إن حضر فيه ألف ألف من النـاس كان كل منهم ناظرا فى وجه صاحبـه ؛ وإن قرئ كتاب، سمعوه جميعا ؛ أو أُتِى بنوع من اللعب رَأَوْهُ عن آخرهم لا يتظالمون فيه بأكثر من مراتب العِلْيَةِ والسَّفِلَةِ .

وكان من غريب هذا المَلْعَبِ أنــ عمرو بن العاص رضى الله عنه حضر فيه فى الجاهلية فى يوم لَعِبِ الكُرَةِ فوقعت الكُرَةُ فى حِجْرِه ، وهم لا يعرفونه ، فتعجب القوم منـــه وقالوا ما رأينـا هذه الكُرَة كذبت قَطُّ إلا هذه المرّة ، فٱتفق أَنْ ملَكها فىالإسلام . و (عمود السَّوارى) الذى بظاهر الإسكندرية الآن أحد عُمُــدِ هذا الملعب ،وهو عمود عظيم يرمى الرجل القوىّ السهمَ عن قَوْسٍ قوىّ فلا يبلغ رأسه .

(ومنها) عمودا الإعيـاء ، وهما عمودان ملقيان وراء كل منهـما جبل حَصْباؤُه كصُــبَرِ الجمـار بمِنًى يُقْبِل العيىّ بسبع حصيات حتّٰى يستلقىَ علىٰ أحدهمـا، ثم يرمى وراءه بالسبع و يقوم ولا يلتفت ، و يمضى لطَِلبته فلا يُحِس بشىء من تعبه .

(ومنها) القبــة الخضراء، وهى قبة ملبسة نحاسا كأنه ذهب إبريز لا يُبْليـه القِدَم ولا تُخْلقه الدهور .

(ومنها) المِسَلَّتان، وهمـا جبلان(١) قائمـان علىٰ سَرَطانات نحاس فى أركانهما كل ركن علىٰ سرطان ، فلو أراد مريد أن يدخل تحتها شيئا إلىٰ الجانب الآخر لفعل .

قال ٱبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وهاتان المِســلّتان إحداهمـا فى الركن الشرقىّ من البلد ، والثانيــة ببعض البلد ، وهمـا عمودان مُرَبَّعان من حجر أحمر ،

(١) لعله ــ هيكلان ــ أو بنـاءان .

وعَرْض قواعدهما من الجهات الأربع أربعون شبرا، طول كل واحدة منهما خمس قامات، وأعلاها مُسْتَدِقٌّ (١)، وعرض قاعدتهما من الجهات الأربع أربعون شبرا.

ويقال إن عليهما مكتوب بالسريانية: "أنا يَعْمَر بن شدّاد، بنيت هذه المدينة وأردت أن أجعل فيها من الآثار المعجزة، والعجائب الباهرة، فأرسلت البتون بن مرة العاديّ ومقدام بن يَعْمَر بن أبي رِغَال الثموديّ إلىٰ جبل بَرِيم الأحمر، فاقتطعوا منه حجرين وحملاهما علىٰ أعناقهما، فانكسرت ضلع البتون، فوددْت أن أهل مملكتي كانوا فداء له، فأقامهما القطن بن حازم (٢) المؤتفكي في يوم السعادة".

وقد قيل فيها: إنها إِرَمُ ذات العِمَادِ، ولم تزل عامرة إلىٰ الفتح الإسلاميّ، فلما فتحها عمرو بن العاص كتب إلىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

"أما بعد. فإني فتحت مدينة لا أَصِفُ ما فيها، غير أني أصبت فيها أربعة آلاف بِنْيَة، وأربعة آلاف حَمَّامٍ، وأربعين ألف يهوديّ عليهم الجزية، وأربعمائة مَلْهًى للملوك". ويقال إنه وجد فيها أربعة آلاف بَقَّالٍ يبيعون البَقْل، وكان فيها من الروم يومئذ مائة ألف من أهل القوّة لحقوا بأرض الروم في المراكب، وكان مَنْ بقي ستمائة ألف سوىٰ النساء والصبيان.

قلت: وقد ذهب جلُّ ذلك وزال أكثره، ولم يبق من عجائبها ظاهرا إلا عمود السَّواري، وهو عمود عظيم من حجر صوّان خارج المدينة لا يكاد يكون له نظير في الدنيا، ويقال إنه كان قبلها مدينة في مكانها تسمّى رقوره بناها مصر بن بيصر بن حام بن نوح المتقدّم ذكره حين بنىٰ مدينة مَنْف، وعلىٰ مِنْوالها نسج الإسكندر مدينته.

القاعدة الثالثة ــ قَصْرُ الشَّمعِ الذي هو داخل مدينة الفُسْطَاطِ الآن، وهو المعبر عنه في كتب الفتوح بالحصن، بناه كسرجوس الفارسيّ أحد نوّاب مَلك الفُرْس

(١) يظهر أنه مكرر مع المذكور في السطر قبله. (٢) في ياقوت قَطْن بن جَاوُد.

عند آستيلائهم علىٰ مصر بعد غلبة بُخْتَنَصَّر الآتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوكها .

قال القضاعىّ : ولم يكمله وإنما كمله الروم بعد ذلك (١) التى فتحت مصر وهى مقرّة الملوك بها . وقد قيل : إن المُقَوقِس كان يقيم بالإسكندرية أربعة أشهر من السنة، وبمدينة منف أربعة أشهر، وبقصر الشمع أربعة أشهر .

وآعلم أنه قد كان بالديار المصرية مستقَرّات أخرىٰ عظام كانت قواعد لبعض ملوكها فى بعض الأزمان، ومدن دون ذلك يأتى الكلام علىٰ جميعها بعد ذكر الكور القديمة والأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالىٰ .

وأما المبانى العظيمةُ الباقية علىٰ ممرّ الأزمان ، فاعلم أن ملوك مصر الأقدمين كان لهم من العناية بالبناء ما ليس لغيرهم ، وكانوا يتفاخرون بذلك لإخباره علىٰ طول الزمن بعَظَمة مُلْكهم وآقتدارهم علىٰ مالم يبلغه غيرهم، ومن أعظم أبنيتهم (الأهرام) . وهى قُبورٌ آتخذوها فى غاية الوَثَاقة حفظا لأجسامهم ، وكان لهم بها العناية التامّة ، وآبتنَوْا منها عدّة بالجَبَل الغربىّ من النيل، بعضها مقابل الفُسْطَاطِ، وبعضها ببُوصِير السِّدْر وسَقَّارَةَ ودَهْشُورَ من الأعمال الجيزية ، وبعضها بمَيْدُومَ من البهنساوية ؛ وأعظمها خَطَرا وأجلّها قدرا الهَرَمَانِ المقابلان للفُسْطَاطِ ، يقال إن طول عمود كل هرم منهما ثلثمائة وسبعة عشر ذراعا، تحيط بها أربعة سطوح متساوية الأضلاع، طول كل ضلع منها أربعمائة وستون ذراعا .

قال أبو الصلت : ليس علىٰ وجه الأرض بناءٌ باليد حجر علىٰ حجر بهذا المقدار .

ويقال : إن لهما أبوابا فى أزَج فى الأرض طول كل دَرَج مائة وخمسون ذراعا ؛ وباب الهَرَم الشرقىّ من الجهة البحرية، وباب الهرم الغربىّ من الناحية الغربية،

(١) بياض بالأصل .

والصابئة تحجُّ هذين الهَرَمَيْنِ ويقولون : إن أحدهما قبر إدريس عليه السلام، والآخر قبر ٱبنه صابئ الذى إليه ينتسبون .

وقد ٱختلف فى بانيها فأكثر المؤرخين على أن بانيها سوريد بن سهلوق أحد ملوك مصر قبل الطوفان، الآتى ذكره فى الكلام على ملوكها فيما بعدُ إن شاء الله تعالى، جعلها قبورا لأجسادهم وكنوزا لأموالهم، حين أخبره مُنَجِّمُوهُ وكَهَنَتُه بما دلهم عليه الرَّصْد النجومىّ من حدوث حادثة تعم الأرض؛ ورجحه محمد بن عبد الله ٱبن عبد الحكم وقال : لو بُنِيت الأهرام بعد الطوفان، لكان علمها عند الناس .

وذكر ٱبن عُفَير عن أشياخه أن بانيها جَيَّاد بن مياد بن شمر بن شدّاد بن عاد ٱبن عوص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام .

قال : ولم تزل مشايخ مصر يقولون : إن الذى بناها شدّاد بن عاد . وذهب المسعودى وغيره إلى أنه بناها يوسف عليه السلام .

وقال ٱبن شبرمة بنتها العمالقة حين ملكوا مصر . وبالجملة فهما من أعظم الآثار وأقدمها وأجلِّ المبانى وأدومها؛ ولله القائل .

أُنْظُرْ إلى الهَرَمَيْنِ وٱسْمَعْ مِنْهُمَا * ما يَرْوِيَانِ عَنِ الزَّمانِ الغَابِرِ
لَوْ يَنْطِقَانِ، لَخَبَّرَانَا بِالَّذِى * صَنَعَ الزمانُ بأَوَّلٍ وبآخِرِ

وكيفما كان فمآلها إلى الخراب، شأن الدنيا ومبانيها .

وقد كان المأمون : أحد خلفاء بنى العبَّاس حين دخل إلى مصر فى سنة ست عشرة ومائتين قصد هدمهما فلم يقدر، فأعمل الحيلة فى فتح طاقة فى أحدهما يتوصل منها إلى مزلقان، يصعد فى أعلاه إلى قاعة بأعلى الهرم، بها ناووس من حجر، وينزل فى أسفله إلى بئر تحت الأرض لم يعلم ما فيها . ويقال : إنه وَجَدَ فى أعلاه مالا فاعتبره

فإذا هو قــدر المـال الذى صرفه من غير زيادة ولا نقص ؛ وقد أخذ الآن فى قطع حجارتهما الظاهرة لاتخاذ البلاط منها . فإن طال الزمان يوشك أن يخربا كغيرهما من المبـانى .

ولله المتنبي حيث يقول :

أَيْنَ الذى الهَرمانِ من بُنْيَانِه؟ * ما قَوْمُهُ؟ مَا يَوْمُهُ؟ مَاالْمَصْرَعُ ؟
تَتَخَلَّفُ الآثَارُ عن أصحابها * دَهْرًا، ويُدْرِكُها الفَنَـاء فَتَتْبَعُ !

قال إبراهيم بن وصـيف شاه فى كتاب "العجائب" : وقد قيل إن هوجيب أحد ملوك مصر قبـل الطوفان أيضا بنىٰ الهَرَمَ الكبير الذى بدَهْشُور ؛ والثانى بناه قِفْطريم، بن قِفط، بن قبطيم، بن مصر، بن بيصر، بن حام، بن نوح عليه السلام بعد الطُّوفان .

قال القُضاعىّ : أما الهَرَمُ الذى بدير أبى هِرْميس : وهو الهرم المدرّج يعنى الذى شمـالىَّ أهرام دهشور، فإنه قبر قرياس، وهو فارس أهـل مصر، كان يعدّ فيهم بألف فارس، فلما مات جزع عليه ملكه وبنىٰ له هذا الهرم فدفنه فيه .

قال : وقبر الملك نفسه الهَرَمُ الكبير من الأهرام التى غربىّ دير أبى هِرْميس، وعلىٰ بابه لوح من الحجر الكذّان طوله ذراع فى ذراع مكتوب بالخط البرباوىّ .

ومن عظيم بنيانهم أيضا ولطيف حِكَمهم (البَرَابى) وهى بيوت عبادة كانت لهم، زَبَرُوا فيها حِكَمهم، ورقموا تواريخ ملوكهم، وصوّروا فيها صُوَر الأمم التى حولهم. فمتى قصدتهم أمة من الأمم، أوقعوا بصُوَرهم المصوّرة من النَّكال ما أرادوا، فيصيب تلك الأمة علىٰ البُعْـد ما أوقعوه بتلك الصور، إلىٰ غير ذلك من الحِكَم التى أودعوها والطِّلَّسْمات التى وضعوها بجُدْرانها .

ويقـال : إن أوّل من بنىٰ البرابى بمصر دَلُوكة العجوز، التى ملكت مصر بعد فرعون لعنه الله !

قال فى "مسالك الأبصـار" : وقد أخبرنى الحكيم شمس الدين محمد بن سـعد الدمَشْقِىّ أنه رآها وتأمّلها، فوجدها مشـتملة علىٰ جميع أشكال الفَلَك ، وأن الذى ظهر له أنه لم يعملها حكيم واحد بل تولّى عليها قوم بعد قوم حتّى تكاملت فى دَوْرٍ، وهو ثلاثون ألف سنة : لأن مثل هذه الأعمـال لا تُعْمل إلا بالأرصاد ولا يكمل رصد المجموع فى أقل من هذه المدّة .

قلت : ويجوز أن يكون الرَّصْدُ حصـل علىٰ الوجه المذكور ، وزُبِرَ ورُقِمَ فى الكُتُب فلمـا بنىٰ الثـانى هـذه البرابىَ، نقل منها ما زُبِرَ فى الكتب من ذلك الزمن المتقدّم .

وآعلم أن أكثر البرابى بالوجه القبلىّ من الديار المصرية، وبالوجه البحرىّ القليلُ منهـا ، وقد آسـتولىٰ الخراب علىٰ جميعها، وذهبت معالمها ولم يبـق إلا آثارها ، والذى وقفتُ عليه فى التواريخ، ووقفتُ علىٰ آثار غالبه ورسومه سبعُ بَرَابٍ .

(منها) بِرْبا سَمَنُّودَ، كانت بظاهر سَمَنُّود من الأعمال الغربية بالوجه البحرىّ .

قال الكندىّ : رأيتهـا وقد خَزَّنَ فيها بعضُ عُمَّالهـا قَرَظا فرأيت الجمل إذا دنا من بابها بحمله وأراد أن يدخلها ، سـقط كل دبيب فى القرظ فلا يدخل منها شىء إلىٰ البربا .

قال القضاعى : ثم خربت عند الخمسين وثلثمائة .

(ومنها) بربا تُمَىّ بالمُرْتَاحية من الوجه البحرى علىٰ القُرْب من مدينة تُمَىّ الخراب وعامة أهل تلك الناحيـة يقولون بربا عاد، وهى باقية بجُدْرانها، وسقوفُها من أعظم

الحجارة العظيمة، إلىٰ الآن باقية، وبأعلىٰ بابها قطعة مبنية بالطوب الآجُرّ والجِصّ، وداخلها أحواض عظيمة من الصوّان غريبة الشان .

(ومنها) بربا إخميم، وهى بربا بظاهر مدينـة إخميم من الوجه القبلىّ؛ كانت من أعظم البَرَابى وأحسنها صنعةً وأكبرها حكمةً،ولم تزل عامرة إلىأوساط المائة الثامنة، فأَخَذَ فى هـدمها والعمارة بأحجـارها خطيب إخميم، ولم يَبْق إلا آثارها، وبعض جُدْرانها قائمة إلىٰ الآن .

(ومنها) بربا دَنْدَرَة من الأعمال القُوصية .

قال القضاعىّ : وهى بربا عجيبة فيها مائة وثمـانون كُوّة تدخل الشمس فى كل يوم فى كوّة منها، ثم تكُرّ راجعة إلىٰ الموضع الذى بدأت منه، وهى الآن خراب لم يبق إلا آثارها .

(ومنها) بربا الأَقْصُر:وكانت بربا عظيمة فهُدِمت أيضا،ولم‌يبق منها إلا آثارها.

ومن بقايا الآثار بهاصنم عظيم من حجر صوّان أملس،قائم علىٰ باب‌ضريح الشيخ أبى الحجـاج الأَقْصُرىّ علىٰ حاله إلىٰ الآن، ومر عليه زمنُ الشيخ وهو علىٰ ذلك، ولعله إنمـا أراد ببقائه التنبيهَ علىٰ ضـعف عقول عَبَدَة الأصـنام لكونهم يعبدون حجرا مثل هذا .

(ومنها) بربا أَرْمَنْت، وهى بربا صـغيرة قد ذهبت معالمها، ولم يبق بها إلا عُمُد صوّان قائمة من غير شىء محمول عليها .

(ومنهـا) بربا إسْـنا، وهى متوسـطة القدر بين الكبر والصـغر، وقد بقى منها قطعة جيدة جُعِلت شونة للغلال، وأهل إسـنا يذكرون أن الفأر لا يدخلها، وإن دخلها مات .

ومن الآثار العجيبة بمصر أيضا مِسَلَّتان بعين شمس على القرب من المَطَرِيَّة من ضواحى القاهرة من حجر صوّان أحمر محدّدتا الرأسين. ذكر القضاعىّ: أن الشمس تطلعُ على الجنوبية منهما فى أقصر يوم فى السنة، وعلى الشَّمالية فى أطول يوم فى السنة؛ وتتردّد فيما بينهما فى بقية السنة. وذكر أنه كان عليهما صَوْمعتان من نُحَاس، إذا كان زمن زيادة النيل تقاطر الماء من أعلاهما إلى أسفلهما، فينبتُ حولها العَوْسَجُ، وما فى معناه من الحشيش.

ومن العجائب حائطُ العجوز، وهو حائط من لَبِنٍ، بنتها دَلُوكة ملكة مصر بعد فرعون، من العَرِيش إلى أُسْوان، دائرة على أراضى مصر من شرقيّها وغربيّها فى لِحْف جبليها؛ وجعلت بين كل ثلاثة أميال مَحْرَسا، وشقَّت خليجا من النيل إلى جانبها، وآثارها باقية إلى الآن بالجانب الشرقىّ والجانب الغربىّ.

المقصد الثانى عشر
(فى ذكر قواعدها المستقرّة)

وهى ثلاث قواعد، قد تقاربت واختلطت حتّى صارت كالقاعدة الواحدة.

القاعدة الأولى
(مدينة الفُسْطَاط)

بفاء مضمومة وسين مهملة ساكنة وطاء مهملة مفتوحة بعدها ألف ثم طاء ثانية فى الآخر. ويقال فيه فُسْتَاط بإبدال الطاء الأولى تاء وفُسَّاط. قال الجوهرىّ: وكسر الفاء لغة فيهن؛ وهى المدينة المعروفة بين العامة بمصر واسمها القديم باب أَلْيُونَ(١).

قال أبو السعادات بن الأثير فى نهايته: بفتح الهمزة وسكون اللام وضم الياء المثناة تحت وسكون الواو ونون فى الآخر.

(١) وفى ياقوت بابِلْيُون الباء الثانية مكسورة واللام ساكنة وقد ذكره أيضا فى أليون

قال القضاعىّ : وهو ٱسمها بلغة الرُّومِ والسُّودَانِ ، ولذلك يعرف القصر الذى بالشرق بباب أَلْيُونَ ، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال فى "كتاب الأطوال" : وطولها ثلاث وخمسون درجة ، وعَرْضها ثلاثون درجة وعشر دقائق .

وقال فى "القانون" : طولها أربع وخمسون درجة وأربعون دقيقة ، وعَرْضها تسع وعشرون درجة وخمس وخمسون دقيقة .

وقال ٱبن سعيد : طولها ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها تسع وعشرون درجة وخمس وخمسون دقيقة .

وقال فى "رسم المعمور" : طولها أربع وخمسون درجة وأربعون دقيقة .

والذى عليه عمل أهل زماننا فى وضع الآلات وغيرها طول خمس وخمسين درجة ، وعرض ثلاثين .

وٱختلف فى سبب تسميتها بالفُسْطَاط ، فقال ٱبن قُتَيْبَةَ : إن كل مدينة تسمّى فُسْطَاطًا ، ولذلك سميت مصر الفُسْطَاطَ .

وقال الزَّمَخْشَرِىّ : الفُسْطَاطَ ٱسم لضَرْب من الأبنية ، فى القدر دون السُّرادِق والذى عليه الجمهور أنه يسمّى بذلك لمكان فُسْطَاط عمرو بن العاص رضى الله عنه يعنى خيمته ، وذلك أن عمرا لما فتح الحصن المعروف بقصر الشَّمَع فى سنة إحدى وعشرين من الهجرة وٱستولى عليه ضرب فُسْطَاطَه على القرب منه فلما قصد التوجه إلى الإسكندرية لفتحها ، أمر بنزع فُسْطَاطِه للرحيل ، فإذا بحَمَام قد أفرخ فيه فقال : لقد تحرّم مِنَّا بحَرَم ، وأمر بإقرار الفُسْطَاط مكانه ، وأوصى على الحَمَام ، وسار إلى الإسكندرية ففتحها ، ثم عاد إلى فُسْطَاطِه ونزل به ونزل الناس حوله ، وٱبتنى داره الصغرى التى هى على القرب من الجامع العتيق مكانَ فُسْطَاطِه ، وأخذ الناس فى الٱختطاط حوله فتنافست القبائل فى المواضع والٱختطاط ، فولّى عمرو

علىٰ الخطط معاوية بن حُدَيْج التُّجِيبِيّ، وشريك بن سُمَىّ الغُطَيفىّ، وعمرو بن قَحْزَم الخَوْلَانِىّ، وحَيْويل بن ناشرة المَعَافرى، ففصلوا بين القبائل وأنزلوا الناس منازلهم، فآختطوا الخطط وبنَوْا الدور والمساجد، وعُرِفت كل خطة بالقبيلة أو الجماعة التى آختطتها، أو بصاحبها الذى آختطها .

فأما الخِطَط والآدُر التى عرفت بالقبائل والجماعات .

(فمنها) خِطَّةُ أهل الراية، وهم جماعة من قُرَيْش، والأنصار، وخُزَاعَة، وأسْلَم، وغِفَار، ومُزَيْنَة، وأشْجَع، وجُهَيْنَة، وثَقِيف، ودَوْس، وعَبْس بن بَغِيض، وجُرَش من بنى كِنَانَة، ولَيْث بن بكر، لم يكن لكل منهم من العدد ما ينفرد به بدعوة من الديوان فجعل لهم عمرو بن العاص رايةً لم ينسبها إلىٰ أحد، وقال يكون وقوفكم تحتها، فكانت لهم كالنسب الجامع، وكان ديوانهم عليها فعُرِفوا بأهل الراية، وآنفردوا بخِطَّة وحدهم، وخِطَّتهم من أعظم الخِطَط وأوسعها .

(ومنها) خِطَّة مَهْرَة، وهم بنو مَهْرَة بن حَيْدانَ بن عمرو بن إلحاف بن قُضَاعَة آبن مالك بن حِمْيَر، من قبائل اليَمَن .

(ومنها) خِطَّة تُجِيب، وهم بنو عَدِىّ وسعد ابنى الأَشْرس بن شَبِيب بن السَّكَن بن الأشرس بن كِنْدَة، وتُجِيبُ آسم أمهما عرفت القبيلة بها .

(ومنها) خِطَطُ لَخْم، وهى ثلاث : الأولىٰ بنو لخم بن عَدِىّ بن مُرَّة بن أُدَد[1]، ومَنْ خالطهم من جُذَام . والثانية، بنو عبد ربه بن عمرو بن الحرث بن وائل بن راشدة آبن لَخْم . والثالثة، بنو راشدة بن أَذَبّ بن جَزِيلة بن لَخْم .

(ومنها) خِطَطُ اللَّفِيف، وهم جماعة من القبائل تسارعوا إلىٰ مراكب الرُّوم حين بلغ عمرا قدومُهم الإسكندرية عند فتحها، فقال لهم عمرو[2]، وقد آستكثرهم : إنكم

(١) كذا فى آبن دقماق أيضا ووقع فى المقريزى " بنورية " وهو تصحيف .
(٢) فى خطط المقريزىّ وآبن دقماق " فقال لهم عمرو بن جمالة " .

لكما قال الله : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴾ فسُمُّوا اللَّفِيفَ من يومئذ .

(ومنها) خِطَط أهل الظاهر ، وهم جماعة من القبائل قفلوا من الإسكندرية بعد قفول عمرو بن العاص ، فوجدوا الناس قد أخذوا منازلهم ، فتحاكموا إلى معاوية بن حُدَيْج الذى جعله عمرو على الخِطَط ، فقال لهم : إنى أرى لكم أن تظهروا على هذه القبائل فتتخذوا لكم منازل ، فسميت منازلهم الظاهر .

(ومنها) خِطَط غَافِق ، وهم بنو غافق بن الحٰرث بن عَكّ بن عُدْثَانَ بن عبد الله ابن الأَزْدِ .

(ومنها) خِطَط الصَّدِف : بفتح الصاد وكسر الدال المهملتين . وهم بنو مالك بن سَهْلِ بن عمرو بن قيس بن حِمْيَر من قبائل اليَمَن ، وقيل بنو مالك بن مُرَقَّع بن كِنْدة ، سمى الصَّدِف لأنه صَدَف بوجهه عن قومه حين أتاهم سَيْلُ العَرِم .

(ومنها) خِطَط خَوْلَانَ ، وهم بنو خَوْلان بن عمرو بن مالك بن زيد بن عَرِيب .

(ومنها) خِطَطُ الفارسيين ، وهم بقايا جند باذانَ ، عامل كسرى ملك الفُرْس على اليَمَن .

(ومنها) خِطَط مَذْحِج ، وهم بنو مالك بن مُرَّة بن أُدَدَ بن زيد بن كَهْلَان بن عبدالله .

(ومنها) خِطَّة يَحْصُبَ ، وهم بنو يَحْصب بن مالك بن أسلم بن زيد بن غَوْث ابن حِمْيَرَ .

(ومنها) خِطَّة رُعَيْنٍ ، وهم بنو رُعَين بن زيد بن سهل بن يَعْفُرَ بن مُرَّة بن أُدَدَ .

(ومنها) خِطَّة بنى الكُلَاع ، وهو الكُلَاعُ بن شُرَحْبِيلَ بن سَعْد بن حِمْيَرَ .

(ومنها) خِطَّة المَعَافِر ، وهم بنو المَعَافِر بن يَعْفُرَ بن مُرَّة بن أُدَدَ .

(ومنها) خِطَط سَبَإٍ ، وهم بنو مالك بن زيد بن وليعة بن معبد بن سَبَا .

(ومنها) خِطَّة بنى وائل ، وهو وائل بن زيد مناة بن أَفْصَى بن إياس بن حَرَام بن جُذَام بن عَدِىّ .

(ومنها) خِطَّة القَبَض، وهم بنو القبض بن مَرْثَدٍ.

(ومنها) خِطَط الحَمْراوات، وهى ثلاث؛ سميت بذلك لنزول الروم بها، وهم حُمْر الألوان:

الأولى — الحمراء الدُّنْيا، وبها خطة بَلِيٍّ، وهم بنو بَلِيِّ بن عمرو بن إلْحَاف بن قُضَاعَة إلا من كان منهم فى أهل الراية؛ وخِطَّة ثَراد من الأزد، وخطة فَهْمٍ، وهم بنو فَهْمِ بن عمرو بن قيس بن عَيْلاَن، وخطة بنى بحر بن سَوَادة من الأَزْدِ.

الثانية — الحمراء الوُسْطَى، وبها خطة بنى نبه، وهم قوم من الروم حضروا الفتح؛ وخِطَّة هُذَيْل، وهم بنو هذيل بن مُدْرِكَةَ بن إلْيَاسَ بن مُضَر؛ وخِطَّة بنى سَلاَمَانَ من الأَزْدِ.

الثالثة — الحمراء القُصْوى، وهى خطة بنى الأزرق من الرُّوم، وحضر الفتح منهم أربعمائة رجل؛ وخِطَّة بنى يَشْكُرَ بن جَزِيلَةَ من لَخْم، وإليهم ينسب جبل يَشْكُرَ الذى بُنِي عليه جامع أحمد بن طولون الآتى ذكره مع جوامع الفُسْطَاطِ إن شاء الله تعالى.

(ومنها) خِطَط حَضْرَمَوتَ، وهم بنو حَضْرَمَوتَ بن عمرو بن قَيْس بن معاوية بن حِمْيَر؛ إلى غير ذلك من الخطط التى دَرَسَتْ قبل الاهتمام بالتأليف فى الخِطَط.

واعلم أنه كان فى خلال هذه الخِطَط دُور جماعة كثيرة من الصحابة رضوان الله عليهم ممن حضر الفتح.

(منها) دار عمرو بن العاص، ودار الزُّبَيْر بن العوّام، ودار قَيْس بن سَعْد بن عُبَادة الأنصارىّ، ودار مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد الأنصارىّ، ودار عبد الرحمن بن عُدَيْسٍ البَلَوِىّ، ودار وَهْب بن عُمَير بن وَهْب بن خَلَف الجُمَحِىّ، ودار نافع بن عبد القيس بن لَقِيط الفِهْرىّ، ودار سَعْد بن أبى وَقَّاصٍ، ودار عُقْبَةَ بن عامر الجُهَنِىّ، ودار القاسم

وعمرو ٱبنَيْ قيس بن عمرو ، ودار عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح العامريّ ، ودار مسعود بن الأسود بن عبد شمس بن حَرَام البَلَوِيّ ، ودار المستَوْرِد بن شدّاد الفِهْرِيّ ، ودار حُيَيّ بن حَرَامٍ اللَّيثيّ ، (وفى صحبته خلاف) ، ودار الحرث بن مالك اللَّيثيّ المعروف بٱبن البَرْصاء ، ودار بِشْر بن أَرْطاةَ العامريّ ، ودار أبي ثعلبة الخُشَنِيّ ، ودار إياس بن البُكَير الليثيّ ، ودار مَعْمَر بن عبد الله بن نَضْلة القُرَشيّ العَدَوِيّ ، ودار أبي الدَّرْدَاء الأنصاريّ ، ودار يعقوب القِبْطِيّ رسول المُقَوْقِس إلىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم مع مارِيَةَ : أمّ ولده إبراهيم وأختها شِيرين ، ودار مُهَاجِرٍ مولىٰ أم سَلَمَةَ زوج النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، ودار عُلْبَةَ بن زيد الأنصاريّ ، ودار محمد ٱبن مَسْلَمَةَ الأنصاريّ ، ودار أبي الأسود مَسْروح بن سدر الحصني ، ودار عبد الله ٱبن عُمَر بن الخَطَّاب ، ودار خارجةَ بن حُذَافة بن غانم العَدَوِيّ ، ودار عُقْبَةَ بن الحرث ، ودار عبد الله بن حُذَافة السهميّ ، ودار محمية بن جَزْء الزَّبِيدِيّ ، ودار المُطَّلب بن أبي وَدَاعة السَّهمِيّ ، ودار هُبَيْب بن مَعْقِلٍ الغِفارِيّ ، وبه يعرف وادي هُبَيْبٍ بالقرب من الإسكندرية ، ودار عبد الله بن السائب المخزوميّ ، ودار جَبْر القِبْطيّ رسول المُقَوْقِس إلىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ، ودار يزيد بن زياد الأَسْلميّ ، ودار عبد الله بن ريّان الأسلميّ ، (وفى صحبته خلاف) ، ودار أبي عميرة رشيد بن مالك المُزَنِيّ ، ودار سِبَاع بن عُرْفُطَةَ الغِفَارِيّ ، ودار نضلة بن الحرث الغِفَارِيّ ، ودار الحرث بن أسد الخزاعيّ (وفى صحبته خلاف) ، ودار عبد الله بن هشام بن زُهْرَة من ولد تيم بن مُرَّة ، ودار خارجة بن حُذَافَة بن غانم العدويّ (١) ، وهو أوّل من ٱبتنىٰ غُرْفة بالفُسْطَاط ، فكوتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى أمرها فكتب إلىٰ عمرو بن العاص : أن ٱدخُل غرفة خارجة وٱنْصِب فيها سريرا ، وأقم عليه رجلا ليس بالطويل ولا بالقصير ، فإن ٱطّلع من كُوَاها فاهدِمْها . ففعل عمرو فلم

(١) تقدم قريبا فهو مكرر .

يبلغ الكُوىٰ فأقرّها ،ودار محمد بن حاطب الجُمَحى ،ودار رِفَاعة الدَّوْسِىّ ،ودار فَضَالة ٱبن عبيد الأنصارىّ ،ودار المطلب بن أبى وَدَاعة السهمىّ(١) . إلىٰ غير ذلك من الدور التى أغفلت ذكَرها أصحاب الخِطَط .

قلت : وكان أمراء مصر القائمون مقام ملوكها الآن ينزلون بالفُسْطَاط ،ولم يكن لهم فى ٱبتداء الأمر مَقَرَّة معيَّنة ، ولا دارٌ للإمارة مخصوصة . فنزل عمرو بن العاص أوّلُ أمرائها بداره علىٰ القرب من الجامع ، ولم يزل كلُّ أمير بعده ينزل بالدار التى يكون بها سكنه إلىٰ آخر الدولة الأُمَوِيَّةِ ، وكان عبد العزيز بن مَرْوانَ ، وهو أمير مصر فى خلافة أخيه عبد الملك بن مَرْوَانَ قد بنىٰ دارا عظيمة بالفُسْطَاط سنة سبع وستين من الهجرة وسماها دار الذهب ، وجعل لها قُبَّة مُذْهَبة إذا طلعت عليها الشمس لايستطيع الناظر التأملَ فيها خوفا علىٰ بصره ، وكانت تعرف بالمدينة لسَعَتِها وعِظَمِها ، وكان عبد العزيز ينزلها ، ثم نزلها بنوه بعده . فلما هرب مَرْوان بن محمد آخِرُ خلفاء بنى أُمَيَّةَ إلىٰ مصر ، نزل هذه الدار فلما رهقَه القوم ، أمر بإحراقها ، فلامه فى ذلك بعض بنى عبد العزيز بن مَرْوَانَ فقال : إن أَبْقَ ، أَبْنِها لَبِنَةً من ذهب ولَبِنَةً من فِضَّة ، وإلا فما تصاب به فى نفسك أعظم ، ولا يتمتع بها عدوّك من بعدك .

فلما غلب بنو العبّاس علىٰ بنى أُمَيَّةَ وهرب مَرْوانُ بن محمد آخرُ خلفاء بنى أُمَيَّةَ إلىٰ الديار المصرية ، وتبعه علىّ بن صالح بن علىّ الهاشمىّ إلىٰ أن أدركه بمصر وقتله وٱستقر أميرا علىٰ مصر فى خلافة السَّفَّاح أوّلِ خلفاء بنى العبّاس ، ٱبتنىٰ دارا للإمارة ونزلها ، وصارت منزلةً للأمراء بعده إلىٰ أن وَلِى أحمد بن طولون الديار المصرية فنزل بها فى أول أمره ، ثم ٱختطَّ بعد ذلك قَصْره المعروف بالمَيْدَان فيما بين قلعة الجبل الآن والمَشْهد النَّفيسىّ وما يلى ذلك فى سنة ست وخمسين ومائتين ،

(١) سبق ذكرها فإعادتها سهو .

وكان له عدّة أبواب : بعضها عند المشهد النفيسى، وبعضها عند جامعه الآتى ذكره، وآختطّ الناس حوله، وآقتطع كل أحد قطيعة آبتنىٰ بها، فكان يقال: قطيعة هارون بن خُمَارويه ، وقطيعة السُّودَان، وقطيعة الفَرّاشين، فعرف ذلك المكان بالقطائع، وتزايدت العمارة حتّى آتّصلت بالفُسْطَاط، وصار الكل بلدا واحدا، ونزل أحمد بن طولون بقصره المذكور، وكذلك بَنُوه بعده، وأهملت دار الإمارة التى آبتناها علىّ بن صالح بالفُسْطَاط. وآستقرّ الأمر علىٰ ذلك بعده أيام آبنه خُمَارَوَيْهِ وولديه جيش وهارون، وزادت العمارة بالقطائع فى أيامهما، وكثرت الناس فيها حتّى قتل هارون بن خُمارَوَيْهِ بعد قتل أبيه وأخيه، وسار محمد بن سليمان الكاتب بالعساكر من العراق من قِبَلِ المُسْتَكْفِي بالله، ووصل إلىٰ مصر فى سنة آثنتين وتسعين ومائتين، وقد ولّى الطُّولُونِيَّةُ عليهم رَبِيعَةَ بن أحمد بن طولون، فتسلم البلَد منه وخرّب القطائع وهَدَم القصر وقلع أساسه، وخرب موضعه حتّى لم يبقَ له أثر.

وكان بَدْرٌ الخفيفى غلام أحمد بن طولون قد بنىٰ دارا عظيمة بالفُسْطَاطِ عند المُصَلّى القديمة، وقيل آشتراها له أحمد بن طُولُونَ، ثم سَخِط عليه أحمد فنكبه، وسكنها بعده طاهر بن خُمَارَوَيْهِ، ثم سكنها بعده الحمامى غلام أحمد بن طولون. فلما هدم محمد بن سليمان الكاتبُ قصر بنى طولون بالقطائع، سكن هذه الدارَ، ثم سكنها عيسىٰ النَّوْشَرِىّ أميرُ مصر بعده، وآستقرّت منزلةً للأمراء إلىٰ أن وَلِىَ الإخشيدُ مصر فزاد فيها وعَظَّمها، وعمل لها مَيْدَانًا وجعل له بابا من حديد، وذلك فى سنة إحدىٰ وثلاثين وثلثمائة، ولم تزل منزلةً للأمراء إلىٰ أن غلبت الخلفاءُ الفاطميون الإخشيديةَ علىٰ مصر وبنىٰ القائد جوهرٌ القاهرةَ والقصرَ، فنقل باب هذه الدار إلىٰ القاهرة، وصار القصر منزلة لهم علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ خطَط القاهرة إن شاء الله تعالىٰ.

وصار الفُسْطَاطُ فى كل وقت تتزايدعمارته حتّٰى صار فىغاية العمارة ونهاية الحسن. به الآدُرُ الأَنِيقة، والمساجد القائمة، والحمامات الباهية، والقَيَاسِرُ الزاهية، والمستنزهات الرائقة، ورحل الناس إليه من سائر الأقطار، وقصدوه من جميع الجهات، وغصَّ بسُكَّانِهِ، وضاق فَضَاؤه الرحيب عن قُطَّانِه. حتّٰى حكىٰ صاحب "إيقاظ المُتَغَفِّل" عن بعض سُكَّان الفُسْطَاط أنه دخل حمَّاما من بناء الرُّوم فى أيام خُمَارَوَيْهِ بن طولون فى سنة سبع عشرة وثلثمائة فلم يجد فيها صانعا يخدُمه، وكان فيها سبعون صانعا قلَّ منهم من معه ثلاثة نَفَرٍ يغسلهم، وأنه دخل بعدها حمّاما ثم حمّاما فلم يجد من يخدمه إلا فى الحمّام الرابعة، وكان الذى خدمه معه ثان.

وحكىٰ فى موضع آخر عمن يثق به عن أبيه أنه شاهد من مسجد الوكرة (١) بالفُسْطَاط إلىٰ جامع ٱبن طولون قصبة سوق متصلة، فعدّ ما بها من مقاعد الحِمَّص المصلوق فكانت ثلثمائة وتسعين مقعدا غير الحوانيت وما بها.

وحكىٰ أيضا عمن أخبره أنه عدّ الأَسْطَال النُّحَاس المؤبدة فى البَكَر لٱستقاء الماء فى الطاقات المُطِلَّة علىٰ النيل، فكانت ستة عشر ألف سطل. قال: وبلغ أجرة مقعد يكرىٰ عند البيمارستان الطولونىّ بالفُسْطَاطِ فى كل يوم ٱثنى عشر درهما.

وذكر ٱبن حَوْقَلٍ أنه كان بالفُسْطَاطِ فى زمانه دار تعرف بدار ٱبن عبد العزيز بالموقف يُصَبّ لمن فيها من السكان فى كل يوم أربعمائة راوية ماء، وفيها خمسة مساجد، وحَمَّامَان، وفُرْنان.

قلت: ولم يزل الفُسْطَاط زاهىَ البنيان، باهى السُّكَّان، إلىٰ أن كانت دَوْلَةُ الفاطميين بالديار المصرية، وعمرت القاهرة علىٰ ماسيأتى ذكره، فتقهقر حالُه وتناقص، وأخذ الناس فى الٱنتقال عنه إلىٰ القاهرة وما حولها، فخلا من أكثر سُكَّانه، وتتابع الخراب

(١) الذى فى الخطط للمقريزى حين روىٰ هذه الحكاية عن "إيقاظ المتغفل" أيضا، "مسجد عبد الله" فلعله يسمى بذلك أيضا.

فى بنيانه، إلىٰ أن غلب الفرنج علىٰ أطراف الديار المصرية فى أيام العاضد: آخر خلفاء الفاطميين، ووزيرهُ يومئذ شاور السعدىّ فخاف علىٰ الفُسْطَاطِ أن يملكه الفرنج ويتحصنوا به، فأضرم فى مساكنه النار فأحرقها فتزايد الخراب فيه وكثر الخلوّ.

ولم يزل الأمر علىٰ ذلك فى تقهقر أمره إلىٰ أن كانت دولة الظاهر بِيبَرْس: أحد ملوك التُّرك بالديار المصرية، فصرف النـاسُ همتهم إلىٰ هـدم ماخلا من أخطاطه والبناء بِنقْضه بساحل النيل بالفُسْطَاط والقاهرة، وتزايد الهدم فيه وٱستمرّ إلىٰ الآن، حتّٰى لم يبق من عمارته إلا مابساحل النيل، وما جاوره إلىٰ مايلى الجامع العتيق وما دانىٰ ذلك، ودثرت أكثر الخِطَط القديمة وعفا رسمها، وٱضْمحلَّ ما بقى منها وتغيرت معالمه.

وإذا نظرت إلىٰ خطط الكندىّ والقضاعىّ والشريف النَّسَّابة، عرفت ما كان الفُسْطَاط عليه من العمارة وما صار إليه الآن، وإنما أجرينا ذكر بعض الخطط المتقدّمة، حفظا لأسمائها وتنبيها علىٰ ما كانت عليه . إلا أن فى ساحله المُطِلّ علىٰ النيل الآن وما جاور ذلك المبانى الحسنة، والدور العظيمة، والقصور العاليـة، التى تبهج الناظر، وتسرّ الخاطر .

وكان أكثر بنيانه بالآجُرّ المحكوك والجبس والجير من أوثق بناء وأمكنه، وآثاره الباقيـة تشهد له بذلك، وقد صار ما خرب منه ودَثَر كيمانا كالجبال العظيمة، وهجر غالبها وترك، وسكن فى بعضها رَعَاعُ الناس ممن لايعبَأُ به فى جوانب منها لا تعدّ فى العامر .

ومن كيمانه المشهورة التى ذكرها القضاعىّ كوم الجارح، وكوم دينار، وكوم السمكة وكوم الزينة، وكوم الترمس، وزاد صاحب "إيقاظ المتغفل" كوم بنى وائل، وكوم ٱبن غراب، وكوم الشقاف، وكوم المشانيق .

ويقابل الفُسْطاط من الجهة البحرية جزيرةُ الصِّناعة المعروفة الآن بالرَّوْضَة ، كانت صناعة العمائر أولا بها فنسبت إليها .

قال الكندىّ : وكان بناؤها فى سنة أربع وخمسين ثم غلب عليها آسم الروضة لحسنها ونَضَارتها و إطافة المـاء بها ، ومابها من البساتين والقُصُور ، وهى جزيرة قديمة كانت موجودة فى زمن الروم . وكان بها حصن عليه سور وأبراج ؛ وبين الفُسْطَاط وبينها جسر ممتدّ من المراكب على وجه النيل كما فى جسر بغداد على الدجلة ولم يزل قائمـا إلى أن قدم المأمون مصر فأحدث عليه جسرا من خشب تمرّ عليه المـارّة وترجع ، وبعد خروج المأمون من مصر هبّت ريح عاصفة فى الليل فقطعت الجسر القديم ، وصدمت بسفنه الجسر المحدَث فذهبا جميعا ، ثم أعيد الجسر المحدَث وبطل القديم .

وقد ذكر القضاعىّ : أنه كان موجودا إلى زمنه ، وكان فى الدولة الفاطمية ، ثم جدّد الحصن المذكور أحمد بن طولون أمير مصر فى خلافة المعتمد فى سنة ثلاث ومائتين ؛ ثم آستهدم بعد ذلك بتأثير النيل فى أبراجه ومرور الزمان عليه ؛ ثم بنى الصالح نجم الدين أيوب قلعةً مكانه فى سنة ثمـان وثلاثين وستمائة ، وبقيت حتّى هدمها المعز أيبك التركمانى أوّل ملوك الترك ، وعمر من نِقْضها مدرسته المُعِزِّية برحبة الحرّوب ، وآتخذ الناس مكانها أملاكا ، وهى على ذلك إلى زماننا ، ولم يبق بها إلا بعض أبراج آتخذها الناس أملاكا وعمروا عليها بيوتا . فلمـا ملك الظاهر بيبرس ، همّ بإعادتها فلم يتفق له ذلك وبقيت على حالها .

قلت : وكانت أُرْفة[1] النيـل التى بين جزيرة الصناعة وبين الفُسْطَاط هى أقوى الفرقتين والتى بين الجزيرة والجيزة هى الضعيفة ، ثم آنعكس الأمر إلى أن صار مابين الجزيرة والفسطاط يجف ولا يعلوه المـاء إلا فى زيادة النيـل ، ويبدو بين آخر

(١) فى الأصل أزفة وهو تصحيف والأرفة بالراء المهملة الحد والمُسنَّاةُ والمراد بها هنا الفرقة .

الفُسْطاط وهـذه الجزيرة علىٰ فُوَّهة خليج القاهرة حيث السدّ الذى يفتح عنـد وفاء النيل مكانٌ كالجزيرة، يعرف بمُنْشَأة المَهْرانى كان كوما يحرق فيه الآجُرّ يعرف بالكوم الأحمر، عدّه القضاعىّ فى جملة كِيان الفُسْطَاط .

قال صـاحب "إيقاظ المتغفل" : وأول من آبتدأ فيـه العمارة بلبان المهرانىّ فى الدولة الظاهرية بيبرس فنسبت المنشأة إليه .

ويلى الفُسْطَاطَ من غربيّه بِركةٌ تعرف ببركة الحَبَش، وهى أرض مزدرعة .

قال القضاعىّ : كانت تعرف ببركة المَعَافِرِ وحِمْيَر، وكان فى شرقيّها جَنَّات تعرف بالحبش فنسبت إليها .

وذكر آبن يونس فى تاريخه أن تلك الجنـات تعرف بقَتَادَة بن قيس بن حبشى الصدفىّ، وهو ممن شهد فتح مصر .

قلت : وهى الآن موقوفة علىٰ الأشراف من ولد علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليه وسلم، وقفها عليهم الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاضد من الخلفاء الفاطميين، ويليه من قبليّه حيث القرافة المكانُ المعروف بالخندق، كان قد آحتفره عبد الرحمن بن عُيَيْنَةَ خندقا فى سنة خمس وستين من الهجرة عند مسير مَرْوان بن الحكم إلىٰ مصر، فعرف بذلك .

وأما جوامعــه فســتة :

الأوّل

(الجامع العتيق المعروف بجامع عمرو)

وذلك أن عمرا لمـا بنىٰ داره الصغرىٰ مكان فُسْطَاطِه علىٰ ما تقدّم ذكره، آختط الجامع المذكور فى خِطَّة أهل الراية المتقدّمة الذكر .

قال القضاعىّ : وكان جنانا فيما ذكر الليث بن سعد . قال : وكان الذى حاز موضعه قَيْسَبَة بن كُلْثوم التُّجِيبىّ أحد بنى سُوم، فنزله فى حصار الحصن المعروف بقصر الشَّمَع، فلما رجع عمرو من الإسكندرية، سأل قَيْسَبَة فيه ليجعله مسجدا فسلمه إليه، وقال : تصدّقتُ به علىٰ المسلمين، وٱختط له خِطَّة مع قومه فى بنى سوم فى تُجِيب؛ فبُنِى فى سنة إحدىٰ وعشرين، وكان طوله خمسين ذراعا فى عرض ثلاثين ذراعا؛ ويقال : إنه وَقَفَ علىٰ قبلته ثمانون رجلا من الصحابة رضوان الله عليهم : منهم الزُّبَيْر بن العَوّام، والمِقْداد بن الأَسْوَد، وعُبَادَةُ بن الصَّامِت، وأبو الدَّرْدَاء، وأبو ذَرّ الغِفَارِىّ، وأبو بَصْرَة الغِفَارىّ وغيرهم؛ ولم يكن له يومئذ محراب مُجَوَّف بل عمد قائمة بصدر الجذار، وكان له بابان يقابلان دار عمرو ٱبن العاص، وبابان فى بَحْرِيّه، وبابان فى غَرْبِيّه، وطوله من قِبْلِيّه إلىٰ بحريّه مثل طول دار عمرو، وبينه وبين دار عمرو سبعة أذرع . ولما فرغ من بنائه، ٱتخذ عمرو بن العاص له مِنْبَرًا يخطب عليه، فكتب إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعزم عليه فى كسره، ويقول : أما يكْفيك أن تقوم قائما والمسلمون جلوس تحت عقبيك ؟ فكسره . ويقال إنه أعاده إليه بعد وفاة أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه .

وقيل إن زكريا بن مرقيا (1) ملك النُّوبة أهدىٰ لعبد الله بن أبى سَرْح العامرىّ فى إمارته علىٰ مصر منبرا فجعله فى الجامع؛ ثم زاد فيه مسلَمة بن مُخَلَّد الأنصارىّ فى سنة ثلاث وخمسين من الهجرة، وهو يومئذ أمير مصر من قِبَل معاوية بن أبى سُفْيان زيادةً من بَحْرِيِّه، وزَخْرَفه، وهو أوّل من صلّى علىٰ الموتىٰ داخل الجامع، وتوالت فيه الزيادات والتجديدات إلىٰ زماننا . وأوّل من رتب فيه قراءة المصحف

(١) فى ٱبن دقاق المخطوط "ٱبن مرقى".

عبدُ العزيز بن مَرْوَانَ فى إمارته فى سنة ست وسبعين ،ورفع عبد الله بن عبد المَلك سقفه فى سنة تسع وثمـانين بعد أن كان مطأطأ ؛ ثم جعل فيـه المحرابَ المجوّف قُرَّة آبن شَرِيك العبسىّ آتّباعا لعمر بن عبد العزيز فى محراب مسجد رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى المدينة ، وأحدث فيه المقصورة تبعا لمعاوية حيث فعل ذلك بالشأم .

وفى ســنة آثنتين وثلاثين ومائة أمر موسى بن نصر اللخمىّ وهو أمير مصر باتخاذ المنابر فى جميع جوامع قُرىٰ مصر . وأوّل من نصب اللوحَ الأخضَر فيــه عبدُ الله آبن طاهر ، وهو أمير مصر فى ســنة آثنتى عشرة ومائتين ؛ ثم آحترق الرّواق الذى فيه اللوح الأخضر فى ولاية خُمَارَوَيْهِ بن أحمد بن طولون ، فعمره خُمَارَوَيْهِ فى سنة خمس وسبعين ومائتين . ثم جدّد اللوحَ "الظاهرُ بيبرس" فى سنة ست وستين وستمائة ثم جدّد اللوحَ الأخضر بُرْهَانُ الدين المَحَلّى التاجر فى سلطنة "الظاهر برقوق" فى أواخرها

وقد وصــف صاحب "إيقاظ المتغفل" الجامع علىٰ ما كان فى زمانه فى حدود ثلاث عشرة وسبعمائة فقال : إن ذَرْعه ثمانية وعشرون ألفا بذراع العمل ، مقدّمه ثمـانية آلاف ذراع وتسعمائة ذراع وخمسون ذراعا ، ومؤخّره ثمـانية آلاف ذراع وتسعمائة وخمسون ذراعا ، وصحنه خمسة آلاف ذراع ، جانبه الشرقىّ ألفا ذراع وخمسمائة ذراع وخمسون ذراعا ، وجانبه الغربىّ كذلك ؛ وأبوابه ثلاثة عشر بابا لكل باب منها آسم يخصه ، فى جانبه القبلى باب واحد ؛ وبه أربعة وعشرون رواقا ، سبعة فى مقدّمه ، وسبعة فى مؤخّره ، وخمسة فى شرقيّه ، وخمســة فى غربيّه ؛ وفيه ثلثمائة عمود وثمـانية وسـتون عمودا ، بعضها منفرد وبعضها مضاف مع غيره ؛ وبصدره ثلاثة محاريب : المحراب الكبير المجاور للمنبر ، والمحراب الأوسط ، ومحراب الخمس ؛ وفيه خمس صوامع : إحداها فى ركنه القبلىّ ممـا يلى الغربى ، وهى الغرفة ؛ والثانية فى ركنه القبلى ممـا يلى الشرقىّ ، وهى المنـارة الكبرىٰ ؛ والثالثة فى ركنه البحرىّ

ممــا يلى الشرقىّ ، وتعرف بالحديدة ؛ والرابعة فيما بين هــذه المنارة والمنــارة الآتى ذكرها ، وتعرف بالسعيدة؛ والخامسة فى الركن البحرىّ مما يلى الغربىّ مقابل باب السطح ، وتعرف بالمستجدّة .

وهو علىٰ هذه الصفة إلىٰ الآن لكنه قد ٱستهدم رواق اللوح الأخضر والرواقات التى داخله ، فأمر الســلطان الملكُ الظاهرُ ببنيانها ، فعلقت جُدُرُه علىٰ الخشب ، فٱخترمته المنية قبل الشروع فى البناء ، وأخذ القاضى برهان الدين المَحَلّى تاجر الخاص فى عمــارة ذلك ، فهدم رواق اللوح الأخضر وما داخله ، وجدّد اللوح الذى كان قد نصبه الظاهر بيبرس ، وعمر الرواقات المستهدمة أنْفَس عمارة وأحسنها .

قلت : وممــا يجب التنبيه عليه أنه قد تقدّم أنه وقف علىٰ إقامة محراب هــذا الجامع ثمــانون رجلا من الصحابة ، وحينئــذ فيلحق بمحاريب البصرة والكوفة علىٰ الوجه الصائر إليــه بعض أصحابنا الشافعيــة فى أنه لا يجتهد فى التيامن والتياسر فى محاريبهما كما نبه عليه الشيخُ تَقِىّ الدين السبكى فى شرح منهاج النووىّ فى الفقه ، لكن قد ذكر القضاعىّ فى خِطَطه عن الليث بن سعد وٱبن لَهِيعَةَ أنهما كانا يتيامنان فى صــلاتهما فيه ، وأن محرابه كان مشرّقا جدّا ، وأن قُرَّةَ بن شريك حين هــدمه وبناه ، تيامن به قليلا .

وقد حكىٰ الشيخ تقىّ الدين السبكى فى شرح المنهاج أيضا عن بعض علماء الميقات : أنه أخبره أن فيــه الآن ٱنحرافا قليــلا . قال : ولعله من تغيير البناء ، وقد سألت بعض علماء هذا الشأن عن ذلك ، فأخبرنى عن الشيخ تقىّ الدين أبى الطاهر رأس علماء الميقات فى زماننا أنه كان يقول : من الدلالة علىٰ صحة عملنا فى ٱستخراج القبلة موافقته لمحراب الجامع العتيق .

الثـانى
(الجـامع الطُّولونى)

بناه أحمدبن طولون فى سنة تسع وخمسين ومائتين علىٰ الجبل المعروف بجبل يَشْكُر. قال القضاعىّ : و ينسب إلىٰ يَشْكُر بن جزيلة من لخم، كان خِطَّة لهم .

قال آبن عبد الظاهر : وهو جبل مبارك معروف بإجابة الدعاء فيه .

قال : و يقال : إن الله تعالىٰ كلم موسىٰ عليه السـلام عليه . و يقال : إنّ آبن طولون أنفق علىٰ هـذا الجامع مائة ألف دينار وعشرين ألفا من كَنْزٍ وجده . و يقال : إنه لمـا فرغ من بنـائه أمر بتسـمع ما يقوله الناس فيـه من العيوب، فسمع رجل يقول : محرابه صغير، وآخر يقول : ليس فيه عمود، وآخر يقول : ليس فيه ميضأة ، فقال : أما المحراب ، فإنى رأيت النبىّ صلى الله عليه وسلم، وقد خطه لى، فأصبحت فرأيت النَّمْلَ قد أطافت بالمكان الذى خطه لى . وأما العُمُدُ، فإنى بنيته من مال حلال ، وهو الكنز الذى وجدته فما كنت لأشو به بغيره ، والعمد لا تكون إلا من مسجد أو كنيسة فنزهته عن ذلك . وأما الميضأة، فأردت تطهيره من النجاسات، وها أنا أبنيها خلفه، ثم أمر ببنائها علىٰ القرب .

و يحكىٰ أنه كان لا يعبث بشىء قط، وأنه أخذ يوما دَرْج ورق أبيض وأخرجه ومدّه كالحَلَزُونِ، ثم آستيقظ لنفسـه وظن أنه فُطِنَ له ، فأمر بعمارة المنارة علىٰ تلك الهيئة، وعلىٰ نظير العشارى الذى علىٰ رأسها عُمِل العشارى الذى علىٰ رأس قبة الإمام الشافعىّ رضى الله عنه . ولمـا فرغ من بناء الجامع رأىٰ فى منامه كأنّ نارا نزلت من السماء فأحرقت الجـامع دون ما حوله فعبر رؤياه (١) علىٰ عابر فقال له : بُشْرَاكَ قبوله ، فإن الأمم الخالية كانوا إذا قرّبوا قربانا فتُقُبِّلَ ، نزلت نار من السماء فأكلته ، كما فى قصة هَابِيلَ وقَابِيلَ، ورأىٰ مرةً أخرىٰ كأنّ الحق سبحانه وتعالىٰ تجلّى علىٰ ماحول الجامع

(١) لعله فقَصَّ كما فى المقريزى .

فعبَّرَه له عابر بأنه يخرب ماحول الجامع ويبقىٰ هو، بدليل قوله تعالىٰ : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ وكان الأمر كذلك، فهدمت منازل بنى طولون فى نكبتهم ولم يبق منها إلا الجامع .

الثالث

(جامع راشدة)

بناه الحاكم بأمر الله الفاطمىّ جنوبىّ الفُسْطَاط، علىٰ القرب من الرصد، وأدخله فى وقفه مع الجامع الأزهر وجامع المَقْسِ .

قال فى "إيقاظ المتغفل" : ليس هو بجامع راشدة حقيقة، وإنما جامع راشدةَ كان بالقرب منه، وهو جامع قديم بنته قبيلة يقال لها راشدة عند الفتح الإسلامى، فلما بنىٰ الحاكم هذا سمي باسمه . قال : وقد أدركت بعضه ومحرابه، وكان فيه شجر كثير من شجر المُقْل .

الرابع

(جامع الرصد)

بناه الأمير عز الدين أَيْبَك الأفرم أمير جاندار الصالحىّ النجمىّ فى شهور سنة ثلاث وستين وستمائة، عَمر منظرته المعروفة به هناك، وعَمر رباطا بجانبه قرّر فيه عددا تنعقد به الجمعة مقيمين فيه ليلا ونهارا .

الخامس .

(جامع الشُّعيبية بظاهر مصر أيضا)

بناه الأمير عز الدين الأفرم المذكور فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وسكنه الشيخ شمس الدين بن اللبان الفقيه الشافعىّ الصوفىّ فعرف به الآن .

الســادس
(الجـامع الجــديد)

بنـاه السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بالقرب من مَوْرَدة الخلفاء، وبدأ بعمارته فى التاسع من المحرّم فى سنة إحدىٰ عشرة وسبعمائة، وآنتهت عمارته فى ثامن صفر سنة آثنتى عشرة وسبعمائة، وخطب به قاضى القضاة بدُر الدين بن جماعة الشافعىّ، وصلّى فيه الجمعة فى التاسع من الشهر المذكور، ورتب فيه صوفية يحضُرُونه بعد العصر كما فى الخوانق، وهو من أحسن الجوامع وأنزهها بقعة خصوصا فى أيام زيادة النيل .

وأما مساجد الخمْس، فكانت علىٰ العدد الذى لا يحصىٰ لكثرتها، وخِطَط القضاعىّ شاهدة بذلك :

وقد رأيت فى بعض التواريخ أن الفَنَاء وقع فى أيام كافور الاخشـيدىّ حتى لم يجدوا من يقبـل الزكاة ، فأتوا بها إلىٰ كافور فلم يقبلها ، وقال : آبنوا بها المساجد وآتخـذوا لهـا الأوقاف، فكان ذلك سبب زيادة الكثرة فيهـا، ولكنها الآن قد خربت بخراب الفُسْطَاط ودَثَرت ولم يبق إلا آثار القليل منها .

وأما المدارس، فكان المتقدّمون يجلسون للعلم بالجامع العتيق؛ وأوّل من أحدث المدارس بالفُسْطَاطِ بنو أيوب، فعَمَر السلطان صلاح الدين رحمه الله مدرستين .

إحداهمـا ــ مدرسة المـالكية ، المعروفة بالقَمْحية فى المحرّم سنة ست وستين وخمسمائة، وسميت بالقمحية لأنّ معلومها يصرف للمدرّسين والطلبة قمحا .

قال العماد الكاتب : وكانت قبل ذلك سوقا يباع فيه الغزل .

والثانية ــ المدرسة المعروفة بابن زين التجار، وكانت سجنا يُسْجَن فيه فبناها السلطان صلاح الدين مدرسة ووقفها علىٰ الشافعية، ووقف عليها الصاغة المجاورة لها

ثم عَمَر الملك المظفر تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بالمكان المعروف بمنازل العز بالقرب من باب القنطرة قبلىّ الفُسْطَاط مدرسةً ووقف عليها أوقافا من جملتها جزيرة الصِّناعة المعروفة بالرَّوْضَة .

ثم بنىٰ السلطان الملك المعزّ أيبك التُرُكمَانى أوّل ملوك الترك مدرسته المعزية برحبة الحرُّوب فى شهور سنة أربع وخمسين وستمائة .

وعَمَر الصاحب شرف الدين بن الفائزىّ مدرسته الفائزية قبل وزارته فى شهور سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وعمر الصاحب بهاء الدين بن حنا المدرسة الصاحبية بزقاق القناديل بعد ذلك .

وأما الخوانق والرُّبُطُ فلم تعهد بالفُسْطَاط ، غير أن الصاحب بهاء الدين بن حنا عَمر رباط الآثار الشريفة النبوية بظاهر قبلىّ الفسطاط وآشترىٰ الآثار الشريفة وهى مِيلٌ من نُحَاس ، ومِلْقَطٌ من حديد ، وقطعة من العَنَزَة ، وقطعة من القَصْعة بجملة مال وأثبتها بالآستفاضة وجعلها بهذا الرباط للزيارة .

وأما البيمارستان فأوّل من أنشأه بالفُسْطَاطِ أحمد بن طولون فى سنة تسع وخمسين ومائتين وأنفق عليه ستين ألف دينار .

قال القضاعىّ : ولم يكن قبله بيمارستان بمصر، وشرط أن لا يعالج فيه جُنْدِىٌّ ولا مملوك .

القاعدة الثـانية

(القـاهرة)

(بألف ولام لازمين فى أولهـا وقاف مفتوحة بعدها ألف ثم هاء مكسورة وراء مهملة مفتوحة ثم هاء فى الآخر) ويقال فيها القاهرة المُعِزِّيَّة نسبة إلىٰ المُعِزّ الفاطمىّ الذى بنيت له ، وربمـا قيل المعزية القاهرة، سميت بذلك تفاؤلا ، وهى المدينة العظمىٰ التى ليس لهـا نظير فى الآفاق ، ولا يسمع بمثلها فى مصر من الأمصار .

بناها القائد جوهر المعزىّ لمولاه المعزّ لدين الله أبى تميم مَعَدّ، بن المنصور أبى الطاهر إسماعيل، بن القائم أبى القاسم محمد، بن المهدىّ بالله أبى محمد عبيدالله الفاطمىّ فى سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، عند وصوله إلىٰ الديار المصرية من المغرب، واستيلائه عليها، وموقعها شمالىّ الفُسْطاط المتقدّم ذكره علىٰ القرب منه .

قال فى "الروض المعطار" : وبينهما ثلاثة أميال . وكأنه يريد ما كان عليه الحال فى ٱبتداء عمارة القاهرة وهو ما بين سور الفُسْطَاطِ وسور القاهرة .

أما الآن فقد ٱنتشرت الأبنيـة وٱتصلت العمارة حتّى كادت المدينتان تتصـلان أو ٱتصلتا .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الله الظاهر فى خِطَط القاهرة : والذى ٱستقرّ عليه الحال أن حدّ القاهرة من السبع سقايات إلىٰ مشهد السيدة رُقَيّة عرضا، وكان قبل ذلك من المجنونة .

قال ٱبن سعيد : وكان مكانها قبل العمارة بستانا لبنى طولون علىٰ القرب من منازلهم المعروفة بالقطائع . وكيفما كان، فطولهـا وعرضها فى معنىٰ طول الفُسْطَاطِ وعرضه أو أكثر عرضا بقليل، وكان ٱبتداء عمارتها أَنّ أمر إِفْرِيقِيَّة وغيرها من بلاد المغرب كان قد أفضىٰ إلىٰ المُعِزّ المذكور، وقوىَ طمعه فى مصر بعد موت كافور الإخشيدى

وهى يومئذ والشأم والحجاز بيد أحمد بن على بن الاخشيد أستاذ كافور وهو صبىّ لم يبلغ الحلم، والمتكلم فى المملكة أهل دولته، والحسين بن عبدالله، فى الشأم كالنائب أو الشريك له يدعىٰ له بعده علىٰ المنابر .

وكانت مصر قد ضَعُف عسكرها لما دَهِمَها من الغلاء والوباء، فجهز المُعِزّ قائده جوهرًا المتقدّم ذكره، فبرز جوهر إلىٰ مدينة رَقَّادة من بلاد إفْرِيقِيَّةَ فى أكثر من مائة ألف وما يزيد علىٰ ألف صندوق من المال، وخرج المُعِزّ لتشييعه، فقال للمشايخ الذين معه : "والله لو خرج جوهر هذا وحده، لفتح مصر، وليدخُلَنها بالأردية من غير حرب، ولينزلن فى خرابات ٱبن طُولون، ويبنى مدينة تسمّى القاهرة تَقْهَر الدنيا" وكان للمعز غلام ببَرْقة اسمه أفلح، فكتب إليه المُعِزّ أن يترجل لجوهر إذا عبَرَ عليه ويقبل يديه، فبذل مائة ألف دينار علىٰ أن يُعْفَىٰ من ذلك، فأبىٰ المُعِزّ إلا ذلك، فترجَّل من مكانه وقبّل يديه؛ وسار جوهر حتّى دخل مصر وتسلمها لسبع عشرة ليلة بقيت من شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة، ونزل فى مُنَاخه من سفره موضع القاهرة الآن ليلا، وٱختط القصرَ وأخذ فى بنائه وعمارة القاهرة، وٱختط الناس حوله .

فأما القصر، فإنه ٱختطه فى الليلة التى أناخ فيها قبل أن يُصْبِحَ، فلما أصبح رأىٰ فيه ٱزورارات غيرمعتدلة فلم يعجبه، ثم قال: قد حفر فى ليلة مباركة وساعة سعيدة فتركه علىٰ حاله وتمادىٰ فى بنيانه حتّى أكمله .

ومكانه الآن المدرسة الصالحية بين القصرين إلىٰ رحبة الأيدمرىّ طولا؛ ومن السبع خُوَخ إلىٰ رحبة باب العيد عَرْضا؛ والحدّ الجامع لذلك أن تجعل باب المدرسة الصالحية علىٰ يسارك وتمضىَ إلىٰ السبع خُوَخ، ثم إلىٰ مشهد الحسين، ثم إلىٰ رحبة الأيدمرىّ، ثم إلىٰ الركن المخلّق، ثم إلىٰ بين القصرين حتّى تأتى إلىٰ باب المدرسة

الصالحية من حيث ٱبتدأتَ ،فما كان علىٰ يسارك فى جميع دَوْرتك فهو موضع القصر.

وكان له تسعة أبواب بعضها أصلىٌّ و بعضها مستحدَث .

أحدها ــ باب الذهب، و يقال إنه كان مكانَ المدرسة الظاهرية الآن .

الثـانى ــ باب البحر، و يقال إن مكانه باب قصر يشبك . قال ٱبن عبد الظاهر: وهو من بناء الحاكم .

الثالث ــ باب الزُّهومة، ومكانه قاعة شيخ الحنابلة بالمدرسة الصالحية،وكانت الصاغة مَطْبخا للقصر وكانوا يدخلون بالطعام إلىٰ القصر من ذلك الباب فسمِّى باب الزهومة لذلك، والزُّهومة الذَّفَر .

الرابع ــ باب التربة ، و يقـال إن مكانه بين باب الزُّهومة المتقـدّم الذكر ومشهد الحسين .

الخامس ــ باب الدَّيْلَم، وهو باب مشهد الحسين .

السادس ــ باب قَصْر الشوك ، ومكانه بالموضـع المعروف بقصر الشـوك علىٰ القرب من رحبة الأيدمرىّ .

السـابع ــ باب العِيد ، وهو باب البيمارستان العتيق ، سمى بذلك لأن الخليفة كان يخرج منه لصلاة العيد، و إليه تنسب رحبة باب العِيد .

الثـامن ــ باب الزمُرُّد، وهو إلىٰ جانب بابِ العيد المتقدّم ذكره .

التـاسع ــ باب الريح ، وقد ذكر ٱبن الطُّوَيْر أنه كان فى ركن القصر الذى يقابل سور دار سعيد السعداء التى هى الخانقاه الآن .

ثم ٱستجدّ المأمون بن البطائحى و زير الآمر تحت القوس الذى بين باب الذهب و باب البحر ثلاث مناظر،وسمى إحداها الزاهرة،والثانية الفاخرة،والثالثة الناضرة.

وكان "الآمر" يجلس فيها لعرض العساكر فى عيد الغَدِير، والوزير واقفٌ فى قوس باب الذهب، وكان مكان السيوفيين الآن سلسلةٌ ممتدّة إلى ما يقابلها تعلق فى كل يوم من وقت الظهر حتّى لا يجوز تحت القصر راكب، ولذلك يعرف هذا المكان بدرب السلسلة .

ومما هو داخل فى حدود القصر مشهد الحُسَيْنِ .

وسبب بنائه أن رأس الإمام الحسين عليه السلام كانت بعَسْقَلَان، فخشِىَ الصالح طلائعُ بن رزيك عليها من الفرنج فبنى جامعه خارج باب زُوِيلَةَ، وقصد نقل الرأس إليه فغلبه الفائز على ذلك، وأمر بابتناء هذا المشهد، ونقل الرأس إليه فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

ومن غريب ما اتفق من بركة هذه (١) الرأس الشريفة ما حكاه القاضى محيي الدين ابن عبد الظاهر : أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حين استولى على هذا القصر بعد موت العاضد: آخر خلفاء الفاطميين بمصر قبض على خادم من خُدَّام القصر وحلق رأسه وشدّ عليها طاسا داخله خنافس فلم يتأثر بها، فسأله السلطان صلاح الدين عن ذلك وما السر فيه، فأخبر أنه حين أحضرت الرأس الشريفة إلى المشهد حملها على رأسه، فخلّى عنه السلطان وأحسن إليه .

وكان بجوار القصر قصر صغير يعرف بالقصر النافعىّ من جهة السبع خُوَخ فيه عجائز الفاطميين .

قلت : ولم يزل هذا القصر منزلة الخلفاء الفاطميين من لدن المُعِزّ أوّل خلفائهم بمصر وإلى آخر أيام العاضد آخر خلفائهم، وكانت الوزراء ينزلون بدار الوزارة التى ابتناها أمير الجيوش بدر الجمالىّ داخل باب النصر مكان الخانقاه الركنية بيبرس

(١) أنث الرأس مجاراة للغة العامة واللغة العربية تذكيره .

الآن . فلما وَلِىَ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الوزارة عن العاضد بعد عمه أسد الدين شيركوه ، نزل بدار الوزارة المذكورة ، وبقى بها حتّى مات العاضد فتحوّل إلى القصر وسكنه ، ثم سكنه بعده أخوه العادل أبو بكر . فلما ملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر آنتقل منه إلى قلعة الجبل على ما سيأتى ذكره فى الكلام على القلعة إن شاء الله تعالى . وصارت دار الوزارة المتقدّمة الذكر منزلا للرسل الواردين من الممالك إلى أن عَمَر مكانها السلطانُ الملك المظفر بيبرس الجاشنكير الخانقاه المعروفة به ، وخلا القصر من حينئذ من ساكنيه ، وأهمل أمره فخرب .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : قال لى بوّاب لباب الزُّهومة آسمه مرهف فى سنة ثلاثين وستمائة : كان لى على هذا الباب المدّة الطويلة ما رأيته دخل فيه حَطَب ولا رمى منه تراب . قال : وهذا أحد أسباب خرابه لوقود أخشابه وتكويم ترابه ، ثم أخذ الناس بعد ذلك فى تملكه وآستحكاره ، وعمرت فيه المدارس والأدُر . فبنى السلطان الملك الصالح "نجم الدين أيوب" فيه مدرسته الصالحية ، ثم بنى "الظاهر بيبرس" فيه مدرسته الظاهرية ، وبنى فيه بشتاك أحد أمراء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فيه قصره المعروف به ، وجعلت دار الضرب فى وسطه ، ولم يبق من آثاره إلا البيمارستان العتيق ، فإنه كان قاعة بناها العزيز بالله بن المُعِزّ الفاطمىّ على ما سيأتى ذكره .

وكذلك القبة التى على رأس السالك من هذا البيمارستان إلى رحبة باب العيد ، وبعض جُدُرٍ لا يعتدّ بها قد دخلت فى جملة الأملاك .

وأما (أبواب القاهرة وأسوارها) ، فإن القائد جوهرا حين آختطها جعل لها أربعة أبواب : بابين متقاربين ، وبابين متباعدين . فالمتقاربان (بابا زُويلة) نسبة إلى زَوِيْلَةَ

قبيلة من قبائل البربر الواصلين مع جوهر من المغرب، ولذلك يقع فى عبارة الموثِّقين وغيرهم بابا زُوَيلة؛ وأحد هذين البابين القَوْسُ الموجود الآن المجاور للمسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام؛ والثانى كان موضع الحوانيت التى يباع فيها الجبن علىٰ يَسْرَةِ القوس المتقدّم ذكره يدخل منه إلىٰ المحمودية . وكان سبب إبطاله وسدّه أن المُعِزَّ الذى بنيت له القاهرة لما دخلها عند وصوله من المغرب، دخل من القوس الموجود الآن هناك فآزدحم الناس فيه وتجنبوا الدخول من الباب الآخر، وآشتهر بين الناس أن مَنْ دخل منه لم تقض له حاجة ، فرُفِضَ وسُدَّ ، وجعل زقاق جنوبيّه يتوصل منه إلىٰ المحمودية، وزقاق شماليّه يتوصل منه إلىٰ الأنماطيين وما يليها .

والبابان المتباعدان هما القوس الذى داخل باب الفتوح خارج حارة بهاء الدين، وقوس آخر كان علىٰ حياله داخل باب النصر بالقرب من وكالة قيسون الآن، فهدم ثم آبتنىٰ أمير الجيوش بدر الجمالىّ المتقدّم ذكره فى سنة ثمانين وأربعمائة سورا من لَبِنٍ دائرا علىٰ القاهرة، وبعضه باق إلىٰ زماننا بخط سوق الغنم داخل الباب المحروق؛ ثم آبتنىٰ الأفضل بن أمير الجيوش باب زُوَيْلَةَ ، وباب النصر، وباب الفتوح الموجودين الآن فيما ذكره القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى خِطَطه ، إلا أنه ذكر فى مواضع أخر منها أن باب زويلة بناه العزيز بالله وأكمله بدر الجمالىّ ، وهو من أعظم الأبواب وأشمخها، وليس له باشورة علىٰ الأبواب، وفيه يقول علىّ بن محمد النيلى :

يا صَاحِ لو أبْصَرْتَ بَابَ زُوَيْلَةٍ ، * لعَلِمْتَ قَدْرَ مَحَلِّه بُنْيَانَا
بابٌ تَأَزَّرَ بالمَجَرَّةِ وآرْتَدىٰ الشِّعرىٰ ولَاثَ بِرَأْسِهِ كِيوَانَا
لو أَنَّ فِرْعَوْنًا رآه لم يُرِدْ * صرحا ولا أَوْصىٰ به هَامَانَا

قال ابن عبد الظاهر : (وباب سعادة) ربمـا ينسب إلىٰ سعادة بن حيان غلام المُعِزّ، وكان قد ورد من عنده فى جيش إلىٰ جوهر وولى الرملة بعد ذلك .

قال : (وباب القنطرة) منسوبٌ إلىٰ القنطرة التى أمامه، وهى من بناء القائد جوهر بناها عند خوفه من القَرَامطة ليجوز عليها إلىٰ المَقْس . والقوس الذى بالشارع الأعظم خارج باب زويلة علىٰ رأس المنجبية عند الطيوريين الآن كان بابا بناه الحاكم بأمر الله خارج القاهرة، وكان يعرف بالباب الجديد .

(وباب الخوخة) الذى علىٰ القرب من قنطرة الموسكى أظنه من بناء الفاطميين أيضا، ولمـا ملك السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" الديار المصرية آنتدب لعمارة أسوار القاهرة ومصر فى سـنة تسع وستين وخمسمائة الطواشىَ بهاء الدين قراقوش الأسدىّ الرومىّ علىٰ كثرة من أسرىٰ الفرنج عندهم يومئذ (١)، فبنىٰ (١) سورا دائرا عليها وعلىٰ قلعة الجبل والفُسْطَاط، ولم يزل البناء به حتّى توفى السلطان صلاح الدين رحمه الله وهو الموجود الآن، وجعل فيها عدّة أبواب :

منها باب البحر، وباب الشـعرية، وباب البرقية، والباب المحروق؛ وآبتنىٰ برجين عظيمين أحدهما بالمَقْس علىٰ القرب من جامع باب البحر، وهو الذى هدمه الصاحب شمس الدين المَقْسىّ وزير الأشرف شعبان بن حسين علىٰ رأس السبعين والسبعمائة، وأدخله فى حقوق الجامع المذكور حين جدّد بناءه، والثانى بباب القنطرة جنوبىّ الفُسْطَاطِ .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : وقياس هذا السور من أوّله إلىٰ آخره تسـعة وعشرون ألف ذراع وثلثمائة وذراعان بالهـاشمىّ؛ مـن ذلك من باب البحر إلىٰ البرج بالكوم الأحمر يعنى رأس منشأة المهرانى المتقـدّم ذكرها فى الكلام

(١) لم يذكر هذه الجملة فى خطط المقريزى .

على خِطَط الفُسْطَاط عند فُوَّهة خليج القاهرة عشرة آلاف ذراع ؛ ومن الكوم الأحمر المذكور إلى قلعة الجبل من جهة مسجد سعد الدولة سبعة آلاف ذراع ومائتا ذراع ؛ ومن مسجد سعد الدولة المذكور إلى باب البحر ثمانية آلاف ذراع وثلثمائة وآثنان وتسعون ذراعا ، ودائر القلعة ثلاثة آلاف ذراع ومائة وعشرة أذرع .

وآقتصر السلطان عماد الدين صاحب حماة فى تاريخه على ذَرْع السُّور من غير تفصيل ولم يتعرّض للذراعين الزائدين .

قلت : وهذا السور قد دَثَر أكثره ، وتغيرت معالم غالبه : للصوق عمائر الأملاك به حتّى إنه لا يتميز فى غالب الأماكن من الأملاك ، وسقط ما بين باب البحر إلى الكوم الأحمر حتّى لم يبق له أثر . على أن ما هو داخل سور القاهرة الأوّل من الأماكن أرضه سبخة وماؤه زُعَاق .

قال آبن عبد الظاهر : ولذلك عَتَب المُعِزّ عند وصوله إلى الديار المصرية ودخوله القاهرة على جوهر لكونه لم يعمُرْها مكان المَقْس على القرب من باب البحر أو جنوبىّ الفُسْطَاط على القرب من الرصد لتكون قريبة من النيل ، عَذْبة مياه الآبار .

وآعلم أن خطط القاهرة قد آتسعت وزادت العمارة حولها ، وصار ما هو خارجَ سورها أضعاف ما هو داخله . ثم منها ما هو منسوب إلى دولة الفاطميين ، ومنها ما هو منسوب إلى من تقدّمهم من الملوك ، إما لدروس آسمه الأوّل وغلبة آسمه الثانى عليه ، وإما لآستحداثه بعد أن لم يكن ؛ ومنها ما هو مجهول لآنقطاع شهرته بطول الأيام ومرور الليالى . وإنما يقع التعرّض هنا للأماكن الظاهرة الشُّهْرَة ، الدائرة على الألسنة دون غيرها ، وأنا أذكرها على ترتيب الأماكن لا على ترتيب القِدَم والحدوث .

أما خططها المشهورة داخل السور .

(فمنها) "حارة بهاء الدين" داخل باب الفتوح ، وتعرف بالطواشى بهـاء الدين قراقوش بانِى ســور القاهرة المتقدّم ذكره، وكانت فى دولة الفاطميين تعرف ببين الحـارتين ، ثم آختطها قوم فى الدولة الفاطمية يعرفون بالرَّيحانية والعزيزية فعرفت بهم . فلما سكنها بهاء الدين قراقوش المذكور، آشتهرت به ونُسِى ماقبل ذلك .

(ومنها) "حارة بَرْجَوَانَ" وتعرف ببَرْجَوَان الخادم، كان خادم القُصُور فى أيام العزيز بالله آبن المُعِزّ ثانى خلفاء الفاطميين بمصر، ووصّاه علىٰ آبنه الحاكم فعظُم شأنه ،ثم قتله الحاكم بعد ذلك . ويقال إنه خلف فى تركته ألف سراويل بألف تكة حرير .

وبهذه الحارة كانت دار المظفر بن أمير الجيوش بدر الجمالىّ .

(ومنها) "خط الكافورى" كان بستانا لكافور الاخشيدىّ ، وبنيت القاهرة وهو بستان ، وبقى إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسين وستمائة ، فاختطه طائفة البحرية والعزيزية إصطبلات، وأزيلت أشجاره وبقيت نسبته إلىٰ كافور علىٰ ما كانت عليه .

(ومنها) "خُط الخرنشف"(١) كان ميدانا للخلفاء الفاطميين، وكان لهم سِرْداب تحت الأرض إليه من باب القصر يمرّون فيه إلىٰ الميدان المذكور راكبين، ثم جعل مصرفا للمـاء لما بنيت المدرسة الصالحية، ثم بنىٰ به الغُزّ بعد الستمائة إصطبلات بالخرنشف وسكنوها فسمى بذلك .

(ومنها) "درب شمس الدولة" علىٰ القرب من باب الزُّهومة ، وكان فى الدولة الفاطمية يعرف بحارة الأمراء، وبها كانت دار الوزير عبـاس وزير الظافر، وبها المدرســة المسرورية بناها مسرور الخادم ، وكانـــ أحد خُدّام القصر فى الدولة الفاطمية وبقى إلىٰ الدولة الأيوبية ،وآختص بالسلطان صلاح الدين وتقدّم عنده،

(١) فى المقريزى "الخرشتف" وفسره بأنه المتجمد من وقود الحمامات بعد إحراقها وهى تسمية عرفية .

ثم سكنها شمس الدولة توران شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف، وعمر بها دربا فعرف به ونسب إليه .

(ومنها) "حارة زُوَيْلة" وتنسب إلىٰ زُوَيلة قبيلة من البربر الواصلين صحبة القائد جوهر علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ باب زويلة، وهى حارة عظيمة متشعبة .

(ومنها) "الجودرية" وتعرف بطائفة يقال لهم الجودريّة من الدولة الفاطمية نسبة إلىٰ جودر خادم عبيد الله المهدىّ أبى الخلفاء الفاطميين، آختطوها وسكنوها حين بنىٰ جوهرٌ القاهرة، ثم سكنها اليهود بعد ذلك إلىٰ أن بلغ الحاكم الفاطمىّ أنهم يَهْزءُون بالمسلمين ويقَعُون فى حق الإسلام، فسدّ عليهم أبوابهم وأحرقهم ليلا، وسكنوا بعد ذلك حارة زُوَيلة المتقدّمة الذكر .

(ومنها) "الوَزِيرية" وتعرف بالوزير أبى الفرج يعقوب بن كلس وزير المعز بالله الفاطمىّ، وكان يهودىّ الأصل يخدُم فى الدولة الاخشيدية، ثم هرب إلىٰ المُعِزّ الفاطمىّ بالمغرب لمال لزمه، فلقى عسكر المعز مع جوهر فرجع معه، وعظُمت مكانته عند المُعِزّ حتّى آستوزره، وكانت داره مكان مدرسة الصاحب صفىّ الدين ابن شكر : وزير العادل أبى بكر بن أيوب المعروفة بالصاحبية بسويقة الصاحب، وكانت قبل ذلك تعرف بدار الديباج .

(ومنها) "المحموديّة" قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : ولعلها منسوبة إلىٰ الطائفة المعروفة بالمحمودية القادمة فى أيام العزيز بالله الفاطمىّ إلىٰ مصر .

(ومنها) "حارة الروم" داخل بابَىْ زُوَيلة، آختطها الرُّوم الواصلون صحبةَ جوهر القائد حين بنائه القاهرة فعُرِفت بهم ونسبت إليهم إلىٰ الآن .

(ومنها) "الباطلية" قال آبن عبد الظاهر : تعرف بقوم أتوا المُعِزّ بانى القاهرة وقد قسم العطاء فى الناس فلم يعطهم شيئا، فقالوا : نحن علىٰ باطل؟ فسميت الباطلية .

(ومنها) ‟حارة الدَّيْلم„ وتعرف بالديلم الواصلين صحبـة افتكين المعزّى غلام المعز آبن بو يه الديلمىّ، وكان قد تغلب علىٰ الشام أيام المُعِزّ الفاطمىّ وقاتل القائد جوهرا وآستنصر بالقرامطة ، وخرج إليهم العزيز بالله فأسره فى الرملة وقَدِم به إلىٰ القاهرة فأجزل له العطاء، وأنزله هو وأصحابه بهـذه الخِطَّة . وبها كانت دار الصالح طلائع آبن رزيك بانى الجامع الصالحىّ خارج باب زويلة، وكان يسكنها قبـل الوزارة ؛ وخوخته بها معروفة إلىٰ الآن بخوخة الصالح .

(ومنها) ‟حارة كُتَامة„ علىٰ القرب من الجامع الأزهر بجِوَار الباطلية، تعرف بقبيلة كُتَامة من البربر الواصلين صحبة جوهر من الغرب .

(ومنها) ‟إصطبل الطارمة„ بظاهر مشهد الحسين، كان إصطبلا للقصر، وبهذا الخط كانت دار الفِطرة التى يعمل فيها فطرة العيد، بناها المأمون بن البطائحى وزير الآمر، وكانت الفطرة قبل ذلك تعمل بأبواب القَصْر، وسيأتى الكلام علىٰ الفطرة مستوفًى فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

(ومنها) ‟حارة الصالحية„ قبلىّ مشهد الحسين : كانت طائفة من غلمان الصالح طلائع بن رزيك قد سكنوها فعرفت بهم ونسبت إليه .

(ومنها) ‟البَرْقية„ قال آبن عبدالظاهر : آختطها قوم من أهل بَرْقة قَدِمُوا صحبة جوهر فعرفت بهم . ورأيت بخَطِّ بعض الفضلاء بحاشـية خِطَط ابن عبد الظاهر أن الصالح طلائع بن رزيك لمـا قتل عباسا وزير الظافر وتقلد الوزارة عن الآمر، أقام جماعة من الأمراء يقال لهم البرقية عَوْنا له وأسكنهم هذه الخِطَّة فنسبت إليهم .

(ومنها) ‟قَصْر الشوك„ علىٰ القرب من رَحَبة الأيدُمْرِى، قال آبن عبدالظاهر : كان قبل عمارة القاهرة منزلة لبنى عُذْرة تعرف بقصر الشوك .

(ومنها) ... ... (١) وكانت خزانة السلاح فى الدولة الفاطمية ، ثم جعلت سِجْنا فى الأيام المستنصرية ، ثم آحتُكِرت بعد ذلك وجعلت آدُرًا .

(ومنها) "رَحَبة باب العيد" تنسب إلىٰ باب العيد : أحد أبواب القصر المسمّىٰ بباب العيد المقدّم ذكره .

(ومنها) "دَرْب مُلُوخِيَّة" ينسب لمُلُوخيَّة صاحب رِكَاب الحاكم ، وبه مدرسة القاضى الفاضل وزير السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وبه كانت دارُه .

(ومنها) "العُطُوف" وأصل آسمها العُطُوفية : نسبة إلىٰ عطوف خادم الحاكم .

(ومنها) "الجَوّانية" قال آبن عبد الظاهر : وهى صفة لمحذوف ، وأصلها حارة الرُّوم الجَوّانية ، وذلك أن الرُّوم الواصلين صحبة جوهر آختطوا حارة الروم المتقدّمة الذكر وهذه الحارة ، وكان الناس يقولون : حارة الروم البَرَّانية وحارة الروم الجَوّانية فثقل ذلك عليهم ، فأطلقوا علىٰ هـذه الجَوّانيةَ وقَصَروا آسم حارة الروم علىٰ تلك . قال : والورّاقون إلىٰ هذا الوقت يقولون حارة الروم السفلىٰ وحارة الروم العُلْيا المعروفة بالجَوّانية ، ثم قال : ويقال إنها منسوبة إلىٰ الأشراف الجَوّانيين الذين منهم الشريف الجوّانى النَّسّابة .

وأما خططها المشهورة خارج السور :

(فمنها) "الحُسَينيَّة" كانت فى الأيام الفاطمية ثمانَ حارات خارج باب الفتوح أولها الحارة المعروفة بحارة بهاء الدين المتقدّم ذكرها ، وهى حارة حامد ، والمُنْشأة الكبرىٰ ، والحارة الكبيرة ، والمُنْشأة الصغيرة ، وحارة عَبِيد الشراء ، والحارة الوسطىٰ ، وسوق الكبير بمصر ، والوَزِيرية ، وكان يسكنها الطائفة المعروفة بالوزيرية والريحانية من الأرمن والعُجْمان وعبيد الشراء .

(١) بياض بالأصل .

قال ٱبن عبـد الظاهر : وكان بهـا من الأرمن قريب من سبعة آلافِ نفس، ثم سكنها جماعة من الأشراف الحُسَينيين قَدِموا فى أيام الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب من الحجاز إلىٰ مصر، فنزلوا بهذه الأمكنة وٱستوطنوها فسميت بهم، ثم سكنها الأجناد بعد ذلك وبنَوْا بها الأبنية العظيمة والآدُرَ الضخمة .

قال ٱبن عبد الظاهر : هى أعظم حارات الأجناد .

قلت : وذلك بحسب ما كان الحال عليه فى زمانه ، ولكنها قد خربت فى زماننا هذا ، وٱنتقل الأجناد إلىٰ الأماكن القريبة من القلعة بصليبة الجامع الطولونىّ ونحوها .

وبنىٰ بهاء الدين قراقوش خانا للسبيل تنزلة المارّة وأبناء السبيل فعرف خطه به .

(ومنها) "الخندق" خارج الحسينية بالخندق ؛ كان عنده خندق ٱحتفره العزيز بالله الفاطمىّ وكان المُعِزّ قد أسكن المغاربة هناك فى سـنة ثلاث وسـتين وثلثمائة حين تبسطوا فى القرافة والقاهرة وأخرجوا الناس من منازلهم، وأمر مناديا ينادى لهم كل ليلة : من بات منهم فى المدينة ٱستحق العقوبة .

(ومنها) "أرض الطَّبَّالة" منسوبة لأمرأة مغنية ٱسمها نَشَب ، وقيل طَرَب ، كانت مغنية للمستنصر الفاطمىّ وٱسمه مَعَدّ .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : ولـما ورد الخبر عليـه بأنه خُطِب له ببغداد فى نَوْبة البساسيرى قريب السنة غنته نَشَب هذه :

يا بَنِي العَبَّاسِ صُدّوا ❊ قَدْ وَلِيَ الأَمْرَ مَعَـدُّ
مُلْكُكُمْ كَانَ مُعَـارًا ❊ والعَوارِى تُسْـتَرَدُّ

فوهبها هـذه الأرض فى سنة ٱثنتين وثلاثين وأربعمائة فحُكِرت وبنيت آدرا فعرفت بها . قال : وكانت من مُلَح القاهرة وبهجتها، وفيها يقول ٱبن سعيد المغربىّ مجانسا بين القُرْط الذى ترعاه الدوابُّ والقُرْط الذى يكون فى الأذن .

سقىٰ الله أرضا كُلَّما زُرْتُ رَوْضَها، * كَسَاها وحَلَّاها بزينتـه القُرْطُ
تَجَلَّتْ عَرُوسًا والمِيَاهُ عُقُودُها * وفى كُلِّ قُطْر من جوانبها قُرْطُ

(ومنها) "خط باب القنطرة" قال ٱبن عبدالظاهر : ذكرلى عَلَم الدين بن مماتى أنه فى كتب الأملاك القديمة يسمى بالمُرْتاحية .

(ومنها) "المَقْس" قال القضاعىّ فى "خططه" : كانت ضيعة تعرف بأُمِّ دُنَيْنٍ، وكان العاشر الذى يأخذ المَكْس يقعد بها لٱستخراج المال ، فقيل المكس بالكاف ثم أبدلت الكاف فى الألسنة قافا .

قال ٱبن عبد الظاهر : ومن الناس من يقول فيه المَقْسِم لأن قسمة الغنائم فى الفتوح كانت فيه . قال : ولم أر ذلك مسطورا ، وكانت الدكة من نواحيه بستانا إذا ركب الخليفة من الخليج يوم الكسر أتىٰ إليه فى البر الغربىّ من الخليج فى مركبه ويدخله بمفرده فيسقِى منه فرسه، ثم يخرج إلىٰ قصره علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدولة الفاطمية . إن شاء الله تعالىٰ .

قال ٱبن عبد الظاهر : والدكة الآن آدُرٌ وحارات شهرتها تغنِى عن وصفها فسبحان من لا يتغير .

قلت : وقد خَرِب أكثر تلك الآدُر والحارات حتّٰى لم يبقَ منها إلا الرسوم ، وبعضها باق يسكنه آحاد الناس .

(ومنها) "مَيْدان القمح" كان قديما بستانا سلطانيا يسمّٰى بالمَقِسِىّ يدخل الماء إليه من الخليج المعروف بالخليج الذكر الذى بناه كافور الاخشيدىّ ،ثم أمر الظاهر الفاطمىّ بنقل أنشابه وحفره وجعله بركة قدّام اللؤلؤة ، وأبقىٰ الخليج المذكور مسلطا علىٰ البركة ليستنقع الماء فيها . فلما ضعف أمر الخلافة الفاطمية ، وهُجِرت رُسومها القديمة فى التفرج فى اللؤلؤة وغيرها ، بنت السُّودان المعروفون بالطائفة

الفَرَحيــة الساكنون بالمَقْس عند ضِـيقهِ عليهم قُبـالةَ اللؤلؤة حارة سميت حارة اللُّصوص بسبب تعدّيهم فيهـا مع غيرهم ، ثم تنقلت بها الحال حتّى صار علىٰ ما هو عليه الآن .

(ومنها) "برآبن التبان" غربىّ خليج القاهرة، وينسب إلىٰ آبن التبان رئيس حَرّاقة الخلافة الفاطمية، وكان الآمر الفاطمىّ قد أمر بالعمارة قُبَالة الحرق غربىّ الخليج، فأوّل من عمر به آبن التَّبَّان المذكور، أنشأ به مسجدا وبستانا ودارا فعرفت الخِطّة به إلىٰ الآن .

(ومنها) "خط اللوق" وهو خط قديم متسع ينتهى إلىٰ الميدان المعدّ لركوب السلطان عند وفاء النيل ، قد عُمِر بالأبنية وسكنه رَعَاع الناس وأوباشُهم والمكان المعروف الآن بباب اللُّوقِ جزء منه .

(ومنها) "بِرْكة الفِيل" وهى بركة عظيمة متَّسِعة جنوبىّ سور القاهرة عليها الأبنية العظيمة المستديرة بها .

قال آبن عبد الظاهر : وتنسب إلىٰ رجل من آصحاب آبن طولون يعرف بالفيل

وما أحسن قولَ آبن سعيد المغربىّ :

أُنْظُرْ إلىٰ بِرْكَةِ الفِيلِ التى آكْتَنَفَتْ * بهـا المَنَـاظِرُ كالأَهْدَابِ لِلْبَصَرِ
كأنَّمَـا هِىَ والأَبْصَـارُ تَرْمُقُهَـا * كَوَاكِبٌ قَدْ أدارُوها عَلىٰ القَمَرِ

(ومنها) "خط الجامع الطولونى" من الصليبة وماوالاها، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خِطَط الفُسْطاط أن هذه الأرض كانت منازل لأحمدَ بن طولون وعَسْكره، والجبل الذى فى جانبها البحرىّ يعرف بجبل يَشْكُرَ ، وعليه بناء الجامع الطولونىّ المذكور ، وآستحدث الملكُ الصالح نجم الدين أيوب رحمه الله عليــه قصورا جاءت فى نهاية الحســن والإتقان، وهى المعروفة بالكَبْش، ولم يزل يسكنها أكابر الأمراء إلىٰ أن

خَرَّبها العوامّ فى وقعة الجلبان قبل السبعين والسبعمائة وهى علىٰ ذلك إلىٰ الآن ، وقد شرع الناس الآن فى ٱستحكار أماكنها للعمارة فيها فى حدود سنة ثمانمائة .

(ومنها) "خط حارة المَصامِدة" وتنسب لطائفة المَصامِدة من البربر الذين قَدِموا مع المُعِزّ من المغرب، وكان المقدّم عليهم عبدَ الله المصمودىّ، وكان المأمون بن البطائحىّ وزير الآمر قد قدّمه ونوه بذكره، وسلم إليه أبوابه للمبيت عليها ، وأضاف إليه جماعة من أصحابه .

(ومنها) "الهِلَالية" قال ٱبن عبدالظاهر : أظنها الحارة التى بناها المأمونُ بن البطائحىّ خارج الباب الجديد الذى بناه الحاكم بالشارع علىٰ يَسْرة الخارج منه للمَصامدة لما قدّمهم ونوه بذكرهم ،وحذر أن يبنىٰ بينها و بين بركة الفيل حتّٰى صارت هذه الحارة مُشْرِفة علىٰ شاطئ بركة الفيل إلىٰ بعض أيام الحافظ .

(ومنها) "المُنْتَجبية" قال ٱبن عبدالظاهر : بلغنى أنها منسوبة لشخص فى الدولة الفاطمية يعرف بمُنْتَجب الدولة .

(ومنها) "اليانِسيَّة" قال ٱبن عبدالظاهر : أظنها منسوبة ليانس وزير الحافظ ، وكان يلقب بأمير الجيوش سيف الإسلام ،ويعرف بيانس الفاصد لأنه فَصَد حَسَن ٱبن الحافظ، وتركه محلول الفِصَادة حتّٰى مات .

قال : وكان فى الدولة مَن ٱسمه يانس العزيزىّ، واليانِسيَّة جماعة كانوا فى زمن العزيز بالله،ومنهم يانس الصقلىّ، ونسبة هذه الحارة محتملة لأن تكون لكل منهم،وقد ذكر ٱبن عبدالظاهر عدّة حارات كانت للجند خارجَ باب زويلة غير مالعله ذكره سردا، منها ما هو مشهور معروف ، وهو حارة حلب والحبانية . ومنها ما ليس كذلك وهو الشوبك، والمأمونية، والحارة الكبيرة، والمنصورة الصغيرة، وحارة أبى بكر .

وأما جوامعها فأقدمها (الجامع الأزهر) بنـاه القائد جوهر بعـد دخول مولاه المُعِزّ إلىٰ القاهرة و إقامته بها، وفرغ من بنائه وجُمِّعت فيه الجمعة فى شهر رمضان لسبع خلون من سنة إحدىٰ وستين وثلثمائة، ثم جدّد العزيز بن المعزّ فيه أشياءَ وعَمَر به أماكنَ، وهو أوّل جامع عُمِر بالقاهرة .

قال صاحب "نهاية الأرب" : وجدّده العزيز بن المُعِزّ، ولما عَمَر الحاكم جامعه نقل الخُطْبة إليه وبقىَ الجامع الأزهر شاغرا، ثم أُعيـدَت إليه الخطبة وصلى فيه الجمعـة فى ثامن شهر ربيع الآخر سـنة خمس وستين وستمـائة فى سلطنة الظاهر بيبرس، وتزايد أمره حتّى صار أرفع الجوامع بالقاهرة قَدْرا .

قال ٱبن عبدالظاهر : وسمعتُ جماعة يقولون إن به طلسما لا يسكُنه عُصْفُور.

الجـامع الثـانى
(الجـامع الحـاكـمىّ)

بناه الحاكم الفاطمىّ علىٰ القرب من باب الفتوح وباب النصر، وفُرِغ من بنائه فى سـنة ست وتسعين وثلثمائة، وكان حين بنائه خارج القاهرة إذ كان بناؤه قبل بناء باب الفتوح وباب النصر الموجودين الآن، وكان هو خارجَ القوسين اللذين هما باب الفتوح وباب النصر الأوّلان .

ثم قال : وفى سيرة العزيز أنه ٱختط أساسـه فى العاشر من رمضان سنة تسع وسبعين وثلثمائة، وفى سيرة الحاكم أنه ٱبتدأه بعض الوزراء وأتمه الحـاكمُ، وعلىٰ البَدَنة المجاورة لباب الفتوح أنها بنيت فى زمن المستنصر فى أيام أمير الجيوش سـنة ثمـانين وأربعمائة، ثم ٱستولىٰ عليها مَنْ ملكها والزيادة التى إلىٰ جانبـه بناها الظاهر ٱبن الحاكم ولم يكملها، ثم ثبت فى الدولة الصالحية نجم الدين أيوب أنها من الجامع

وأن بها محرابا، فانتزِعت ممن هى معه وأُضِيفت للجامع، وبُنِىَ بها ما هو موجود الآن فى الأيام المعزية أيبك التُرْكُمَانِىّ ولم تسقف .

الجامع الثالث
(الجامع الأقمر)

بناه الآمر الفاطمىّ بوَساطة وزيره المأمون بن البطائحى؛ وكمل بناؤه فى سنة تسع عشرة وخمسمائة؛ ويذكر أن اسم الآمر والمأمون عليه .

قلت : ولم يكن به خُطْبة إلىٰ أن جدّد الأمير يَلْبُغا السالمىّ : أحد أمراء الظاهر برقوق عمارتَهُ فى سنة إحدىٰ وثمانمائة ورتّب فيه خُطْبة .

الجامع الرابع
(الجامع بالمَقْس بباب البحر، وهو المعروف بالجامع الأنور)

بناه الحاكم الفاطمىّ أيضا فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة .

الجامع الخامس
(الجامع الظافرىّ، وهو المعروف الآن بجامع الفَكَّاهين[1])

بناه الظافر الفاطمىّ داخل بابَىْ زُويلة فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، وكان زَرِيبة للكِبَاش، وسبب بنائه جامعا أن خادما كان فى مشترف علىٰ الزريبة فرأىٰ ذَبَّاحًا وقد أخذ رأسين من الغنم فذبح أحدهما ورمىٰ سِكِّينته وذهب لقضاء حاجة له، فأتىٰ رأس الغنم الآخر فأخذ السكين بفمه ورماها فى البالوعة، وجاء الذَّبَّاحُ فلم يجد السكِّين، فاستصرخ الخادمُ وخلصه منه، فرفعت القصة إلىٰ أهل القصر فأمروا بعمارته .

(١) فى خطط المقريزى "الفاكهيين".

الجـــامع الســـادس
(الجامع الصالحىّ)

بنـاه الصالح طلائع بن رزيك وزير الفائز والعاضد من الفاطميين خارج باب زُوَيلة، بقصد نقل رأس الحسين عليه السلام من عَسْقلانَ إليه، عند خوف هجوم الفرنج عليها، فلما فرغ منه لم يمكّنه الفائز من ذلك، وآبتنىٰ له المشهد المعروف بمشهد الحُسَيْن بجوار القصر، ونقله إليه فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة ؛ وبنىٰ به صِهْريجا وجعل له ساقية تنقل الماء إليه من الخليج أيام النيل علىٰ القرب من باب الخرق. ولم يكن به خُطبـة ، وأوّل ما أقيمت الجمعة فيـه فى الأيام المُعِزِّيَّة أيبك التُّرْكُمَانِىّ فى سنة آثنتين وخمسين وسمـائة ، وخطب به أصـيل الدين أبو بكر الإسعِرْدىّ ؛ ثم كَثُرت عمـارة الجوامع بالقاهرة فى الدولة التركيـة خصوصا فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون وما بعدها ، فعمر بها من الجوامع ما لا يكاد يحصىٰ كثرة : كجامع المـاردينى وجامع قُوصون خارج باب زُوَيْلة وغيرهمـا من الجوامع ، وأقيمت الجمعة فى كثير من المدارس والمساجد الصِّـغار المتفرّقة فى الأخطاط لكثرة الناس وضيق الجوامع عنهم .

وأما مدارسها ، فكانت فى الدولة الفاطمية وما قبلها قليـلةَ الوجود بل تكاد أن تكونَ معدومة ، غير أنه كان بجوار القصر دارٌ تعرف "بدار العلم" خلف خان مسرور ، كان داعى الشيعة يجلس فيها ، ويجتمع إليه من التلامذة مَنْ يتكلم فى العلوم المتعلقة بمذهبهم ، وجعل الحاكم لهـا جزءا من أوقافه التى وقفها علىٰ الجامع الأزهر وجامع المَقْس وجامع راشدةَ ؛ ثم أبطل الأفضل بن أمير الجيوش هذه الدار لآجتماع الناس فيها والخوض فى المذاهب خوفا من الآجتماع علىٰ المذهب النِّزارىّ ؛ ثم أعادها الآمر

بواسطة خُدّام القصر بشرط أن يكون مُتَوَلّيها رجلا دينًا والداعى هو الناظر فيها ، ويقام فيها متصدّرون برسم قراءة القرءان .

وقد ذكر المسبحىّ فى تاريخه : أن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز بالله فى حمله رزق جماعة من العلماء ، وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق، وبنىٰ لهم دارا بجانب الجامع الأزهر، فإذا كان يوم الجمعة حَلقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا فى الفقه، وأبو يعقوب قاضى الخندق رئيسُ الحَلْقَةِ والملقِى عليهم إلىٰ وقت العصر، وكانوا سبعة وثلاثين نفرا . ثم جاءت الدولة الأيوبية فكانت الناتحةَ لباب الخير، والغارسةَ لشجرة الفضل، فآبتنىٰ الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر (دار الحديث الكاملية) بين القصرين فى سنة آثنتين وعشرين وستمائة، وقرر بها مذاهب الأئمة الأربعة وخطبةً، وبقى إلىٰ جانبها خراب حتّى بُنِى آدُرا فى الأيام المُعِزّيَّة أيبك التُّرْكُمَانِىّ فى سنى خمسين وستمائة ، ووُقِف علىٰ المدرسة المذكورة ، وبنىٰ من بنىٰ من أكابر دولتهم مدارس لم تبلغ شَأْو هذه، وشتّان بين الملوك وغيرهم .

ثم جاءت الدولة التركية فأربت علىٰ ذلك وزادت عليه ، فآبتنىٰ الظاهر بيبرس (المدرسة الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الصالحية، ثم آبتنىٰ المنصور قلاوون (المدرسة المنصورية) من داخل بيمارستانه الآتى ذكره وجعل قبالتها تُرْبةً سنية .

ثم آبتنىٰ الناصر محمد بن قلاوون (المدرسة الناصرية) بجوار البيمارستان المذكور.

ثم آبتنىٰ الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون (مدرسته العظمىٰ) تحت القلعة، وهى التى لم يُسْبَق إلىٰ مثلها، ولا سمع فى مصرٍ من الأمصار بنظيرها، يقال إن إيوانها يزيد فى القدر علىٰ إيوان كسرىٰ بأذرع .

ثم آبتنىٰ آبنُ أخيه الأشرف شعبان بن حسين (المدرسة الأشرفية) بالصُّوّة تحت

القلعة ومات ولم يكملها، ثم هدمها الناصر فرج بن الظاهر برقوق لتسلطها على القلعة في سنة أربع عشرة وثمانمائة، ونقل أحجارها إلى عمارة القاعات التي أنشأها بالحوش بقلعة الجبل، ولم تعهد مدرسة قُصِدت بالهدم قبلها .

ثم ابتنى الظاهر برقوق (مدرسته الظاهرية) بين القصرين بجوار المدرسة الكاملية فجاءت في نهاية الحسن والعَظَمة، وجعل فيها خطبة، وقرر فيها صوفية على عادة الخوانق ودروسا للأئمة، فتعانى[1] فيها ضخامة البناء، ونظم الشعراء فيها، فكان مما أتى به بعضهم من أبيات :

وبَعْضُ خُدَّامِهِ طَوْعاً لِخِدْمَتِهِ * يَدْعُو الصُّخُورَ فَتَأْتِيهِ عَلَى عَجَلِ

وتواردوا كلهم على هذا المعنى، فاقترح عليَّ بعضُ الأكابر نظم شيء من هذا المعنى فنظمت أبياتا جاء منها :

وبالخَلِيلِيِّ قد رَاجَتْ عِمَارَتُهَا * في سُرْعَةٍ بُنِيَتْ مِنْ غَيْرِ مَا مَهَلِ
كَمْ أظهرَتْ عَجَباً أَسْوَاطُ حِكْمَتِهِ * وَكَمْ غَدَتْ مَثَلاً نَاهِيكَ مِنْ مَثَلِ
وكم صخورٍ تَخَالُ الجِنَّ تَنْقُلُهَا * فإنَّهَا بالوَحَا تَأْتِي وبالْعَجَلِ

وفي خلال ذلك ابتنى أكابرُ الأمراء وغيرهم من المدارس ماملأ الأخطاط وشحنها.

وأما الخوانق والرُّبُط، فما لم يعهد بالديار المصرية قبل الدولة الأيوبية، وكان المبتكر لها السلطانَ صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله، فابتنى (الخانقاه الصلاحية) المعروفة بسعيد السعداء، وسعيد السعداء لقب لخادم للمستنصر الفاطمي اسمه قنبر كانت الدار له، ثم صارت آخر الأيام سكن الصالح طلائع بن رزيك، ولما ولي الوزارة فتح من دار الوزارة إليها سِرْدابا تحت الأرض، وسكنها شاور

(١) لعله وتغالى في ضخامة البناء .

السعدىّ وزير العاضد ثم ولده الكامل . فلما ملك السلطان صلاح الدين جعلها خانقاه ، ووقف عليها قَيْسارِيَّة الشُّرْب داخل القاهرة ، وبستان الحَبَّانية بزقاق البركة .

وأما مساجد الصلوات الخمس، فأكثر من أن تحصٰى وأعز من أن تستقصٰى ؛ بكل خط منها مسجد أو مساجد لكل منها إمام راتب ومصلُّون .

وأما البيمارستان، فقال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : بلغنى أن البيمارستان كان أوَّلا بالقَشَّاشين يعنى المكان المعروف الآن بالخرّاطين علىٰ القرب من الجامع الأزهر، وهناك كانت دارُ الضرب بناها المأمون بن البطائحى وزير الآمر قبالةَ البيمارستان المذكور، وقرر دُورَ الضرب بالإسكندرية وقُوص وصُور وعَسْقلان، ثم لما ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب الديار المصرية وآستولىٰ علىٰ القصر ، كان فى القصر قاعةٌ بناها العزيز بن المُعِز فى سنة أربع وثمانين وثلثمائة ، فجعلها السلطان صلاح الدين بيمارستانا : وهو البيمارستان العتيق الذى داخل القصر، وهو باقٍ علىٰ هيئته إلىٰ الآن ، ويقال إن فيها طلسما لا يدخلها نمل ، وإن ذلك هو السبب الموجب لجعلها بيمارستانا .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : ولقد سألت المباشرين بالبيمارستان المذكور عن ذلك فى سنة سبع وخمسين و ... ... [1] مائة فقالوا صحيح .

ثم آبتنىٰ السلطان الملك "المنصور قلاوون" رحمه الله دارَ سِتِّ الملك أخت الحاكم، المعروفة بالدار القُطْبية بيمارستانا فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة بمباشرة الأمير عَلَم الدين

(١) لعله وستمائة.

الشجاعىّ ، وجعل من داخله المدرسة المنصورية والتربة المتقدّم ذكرهما فبقّى معالم بعض الدار على ما هو عليــه ، وغيّر بعضها . وهو من المعروف العظيم الذى ليس له نظير فى الدنيا . ونظره رتبة سنيةٌ يتولاه الوزراء ومَنْ فى معناهم .

قال فى " مسالك الأبصار " : وهو الجليــل المقدار ، الجليــل الآثار ، الجميل الإيثار ، لعظيم بنائه ، وكثرة أوقافه ، وسَــعَة إنفاقه ، وتنوّع الأطبـاء والكحّالين والجرائحية فيه .

قلت : ولم تزل القاهرة فى كل وقت تتزايد عمارتُها ، وتتجدّد معالمها ، خصوصا بعد خراب الفُسْطَاط وانتقال أهــله إليها على ما تقدّم ذكره حتّى صارت على ما هى عليه فى زماننا : من القصور العَلِيَّة ، والدور الضخمة ، والمنازل الرحيبة ، والأسواق الممتدّة ، والمناظر النزهة ، والجوامع البَهِجَة ، والمدارس الرائقــة ، والخوانق الفاخرة ، ممــا لم يُسْمع بمثــله فى قُطْرٍ من الأقطار ، ولا عُهِد نظيره فى مصر من الأمصار . وغالب مبانيها بالآجُرّ ، وجوامعها ومدارسها و بيوت رؤسائها مبنيةٌ بالحجر المنحوت ، مفروشة الأرض بالرخام ، مؤزّرة الحيطان به ، وغالب أعاليها من أخشاب النخل والقصب المحكم الصنعة ، وكلها أو أكثرها مُبَيَّضَةُ الجُدُر بالكلْس الناصع البياض ، ولأهلهــا القوّة العظيمة فى تَعْلِيَة بعض المساكن على بعض حتّى إن الدار تكون من طبقتين إلى أربع طبقات بعضها على بعض ، فى كل طبقــة مساكنُ كاملةٌ بمنافعها ومرافقها ، وأسطحة مقطعة بأعلاها بهندسة محكمة ، وصناعة عجيبة .

قال فى " مسالك الأبصار " : لا يرى مثــل صُــنّاعِ مِصْرَ فى هــذا البــاب ، و بظاهرها البساتين الحِسَانُ ، والمناظر النَّزِهَةُ ، والآدُرُ المُطِلَّةُ على النيل ، والخُلْجَانُ الممتدّة منــه ومن مدّه ؛ وبها المستنزهات المستطابة ، خصوصا زمنَ الربيع لغُدْرانها الممتدّة من مقطعات النيل وما حولها من الزروع المختلفة وأزهارها المـائسة التى تسرّ الناظر وتبهج الخاطر .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وأجمع المسافرون برّا وبحرا أنه لم يكن أحسن منها مَنْظَرًا ، ولا أكثر ناسا ، وإليها يُجلَب مافى سائر أقاليم الأرض من كل شيء غريب وزِيّ عجيب ، وملكها مَلِكٌ عظيم ، كثير الجيوش ، حسن الزِّيّ لا يماثله فى زِيّه ملك من ملوك الأرض ، وأهلها فى رَفَاهِيَة عَيْشٍ وطيب مأْكَلٍ ومَشْرَب ، ونساؤها فى غاية الجمال والظَّرْف .

قال فى "مسالك الأبصار" : أخبرنى غير واحد ممن رأى المُدُنَ الكِبَارَ أنه لم ير مدينة آجتمع فيها من الخَلْق ما آجتمع فى القاهرة .

قال : وسألت الصدر مَجْدَ الدين إسماعيلَ عن بَغْدَادَ وتُورِيزَ هل يجمعان خلقا مثل مصر ؟ فقال : فى مصر خلق قدر مَنْ فى جميع البلاد .

قال فى "التعريف" : (والقاهرة اليوم أُمُّ الممالك ، وحاضرة البلاد ، وهى فى وقتنا دارُ الخلافة ، وكرسىّ الملك ، ومَنْبَع الحكماء ، ومَحَطّ الرحال ، ويتبعها كل شرق وغرب خلا الهند فإنه نائى المكان ، بعيد المدى ، يقع لنا من أخباره مانُكْبِره ، ونسمع من حديثه ما لا نألفه .

قال : وكان يحق لنا أن نجعل كل النُطُقِ بالقاهرة دائرة ، وإنما نفردها بما آشتملت عليه حدود الديار المصرية ، ثم ندير بأُمّ كل مملكة نِطَاقها ، ثم إليها مرجع الكل وإلى بحرها مصب تلك الخُلُج) .

قال فى "مسالك الأبصار" : إلا أن أرضها سَبِخة ، ولذلك يَعْجَلُ الفساد إلى مبانيها .

وذكر القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر نحو ذلك وأن المُعِزّ لام القائدَ جوهرا على بنائها فى هذا الموضع ، وتَرْكِ جانب النيل عند المَقْسِ أو جنوبىّ الفُسْطَاط حيث الرصد الآن .

القـاعدة الثالثــــة

(القلعـــة)

بفتح القاف، ويعبر عنها بقلعة الجبل، وهى مَقَرَّةُ السلطان الآن ودار مملكته .

بناها الطواشى بهاء الدين قراقوش المتقدّم ذكره للملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه‌الله، وموقعها بين ظاهر القاهرة والجبل المُقَطَّم والفُسْطَاط، وما يليه من القرافة المتصلة بعمارة القاهرة والقرافة (١)، وطولها وعرضها على ما تقدّم فى الفُسْطَاط أيضا، وهى على نَشَزٍ مرتفع من تقاطيع الجبل المقطم، ترتفع فى موضع وتنخفض فى آخر .

وكان موضعها قبل أن تبنى، مساجدَ من بناء الفاطميين : منها مسجد ردينى الذى هو بين آدرُ الحريم السلطانية .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : قال لى والدى رحمه الله : عرض علىّ الملك الكامل إمامته، فآمتنعت لكونه بين آدرِ الحريم . ولم يسكنها السلطان صلاح الدين رحمه الله، ويقال : إن آبنه الملك العزيز سكنها مدّة فى حياة أبيه، ثم آنتقل منها إلى دار الوزارة .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : قال لى والدى رحمه الله : كنا نطْلُع إليها قبل أن تُسْكن فى ليالى الجُمَع نبيت متفرّجين كما نبيت فى جواسق الجبل والقرافة .

وأوّل من سكنها الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب آنتقل إليها من قصر الفاطميين سنة أربع وستمائة، وآستقرّت بعده سكنا للسلاطين إلى الآن .

ومن غريب ما يحكى أن السلطان صلاحَ الدين رحمه الله طلع إليها ومعه أخوه العادل أبو بكر، فقال السلطان لأخيه العادل : هذه القلعة بُنِيت لأولادك، فثقُل ذلك على العادل وعرف السلطان صلاح الدين ذلك منه ـ فقال : لم تفهم عنى

(١) لعله زائد أو سهو .

إنما أردت أنى أنا نَجيب فلا يكون لى أولاد نُجَباء، وأنت غير نجيب فتكون أولادُك نجباءَ فسُرِّى عنه، وكان الأمر كما قال السلطان صلاح الدين، وبقيت خالية حتى ملك العادل مصر والشام، فٱستناب ولَدَه الملك الكامل محمدا فى الديار المصرية فسكنها .

وذكر فى "مسالك الأبصار" أن أوّل مَنْ سكنها العادل أبو بكر، ولما سكنها الكامل المذكور، ٱحتفل بأمرها وٱهتمّ بعمارتها وعَمَر بها أبراجا، منها البرج الأحمر وغيره .

وفى أواخر سنة ٱثنتين وثمانين وستمائة عَمَر بها السلطان الملك المنصور قلاوون بُرْجًا عظيما علىٰ جانب باب السر الكبير، وبنىٰ عليه مشترفاتٍ حسنةَ البنيان، بهجة الرخام، رائقة الزَّخْرفة . وسكنها فى صفر سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

ثم عَمَر بها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثلاثة أماكن، كملت بها معانيها، وٱستحق بها القلعةَ علىٰ بانيها .

أحدها — القصر الأبلق الذى يجلس به السلطان فى عامة أيامه، ويدخل عليه فيه أمراؤه وخواصُّه، وقد ٱستجدّ به السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" رحمه الله فى جانبه مقعدا بإزاءِ الإصطبلات السلطانية جاء فى نهاية من الحسن والبهجة .

والثانى — الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان فى أيام المواكب للخدمة العامة وإقامة العدل فى الرعية .

والثالث — جامع الخُطْبة الذى يصلى فيه السلطان الجمعة، وستأتى صفة هذه الأماكن كلها .

وهذه القلعة ذاتُ سور وأبراج، فسيحة الأفنية، كثيرة العمائر، ولها ثلاثة أبواب يدخل منها إليها .

أحدها ــ من جهة القرافة والجبل المُقَطَّم ، وهو أقل أبوابهـا سالكا وأعزُّها آستطراقا .

والثانى ــ باب السر، ويختص الدخول والخروج منه بأكابر الأمراء وخواصّ الدولة : كالوزير وكاتب السر ونحوهما ، يتوصل إليه من الصوة : وهى بقية النَّشَز الذى بنيت عليه القلعة من جهة القاهرة، بتعريج يمشى فيه مع جانب جدارها البحرى حتّى ينتهى إليه بحيث يكون مدخله منه مقابل الإيوان الكبير الذى يجلس فيه السلطان أيام المواكب، وهذا الباب لا يزال مُغْلَقًا حتّى ينتهىَ إليه من يستحق الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يغلق .

والثالث ــ وهو بابها الأعظم الذى يدخل منه باقى الأمراء وسائرُ الناس، يتوصل إليــه من أعلىٰ الصوّة المتقدّم ذكرها، يرقىٰ إليه فى درج متناسبة حتّى يكون مدخله فى أول الجانب الشرقىّ من القلعة ،ويتوصل منه إلىٰ ساحة مستطيلة ينتهى منها إلىٰ دُرْكاه جليلة يجلس بها الأمراء حتّى يؤذَن لهم بالدخول ، وفى قبـلىّ هــذه الدركاه (دار النيابة) ، وهى التى يجلس بها النائب الكافل للحكم إذا كان ثَمَّ نائب، و(قاعة الصاحب) ، وهى التى يجلس بها الوزير وكُتَّاب الدولة، و(ديوان الإنشاء) ، وهو الذى يجلس فيــه كاتب السر وكُتَّاب ديوانه، وكذلك (ديوان الجيش) ، وسـائر الدواوين السلطانية .

وبصــدر هذه الدُّرْكاه باب يقال له باب القُلَّة يدخل منــه إلىٰ دهاليز فسيحة ، علىٰ يَسْرَةِ الداخل منها بابٌ يتوصل منــه إلىٰ جامع الخطبة المتقدّم ذكره، وهو من أعظم الجوامع ، وأحسنها وأبهجها نظرا، وأكثرها زَخْرَفة، متسع الأرجاء، مرتفع البناء، مفروش الأرض بالرخام الفائق، مُبَطَّنُ السُّقُوف بالذهب، فى وسطه قبة يليها مقصورة يصلِّى فيها السلطان الجمعة، مستورة هى والرواقات المشتملة عليها بشبابيك

من حديد محكمة الصنعة، يَحُفُّ بصحنه رواقات من جميع جهاته، ويتوصل من ظاهر هذا الجامع إلى باب الستارة، ودور الحريم السلطانية .

وبصدر الدهاليز المتقدمة الذكر مَصْطَبَةٌ يجلس عليها مقدَّم المماليك، وعندها مَدْخَل باب السر المتقدم ذكره، وفى مجنبة ذلك مَمَرٌّ يدخل منه إلى ساحة يواجه الداخل إليها باب الإيوان الكبير المتقدّم ذكره، وهو إيوان عظيم عديم النظير، مرتفع الأبنية، واسع الأفنية، عظيم العُمُد، عليه شَبَابيكُ من حديد عظيمةُ الشأن محكمةُ الصنعة، وبصدره سرير الملك، وهو مِنْبَرٌ من رُخَامٍ مرتفعٌ، يجلس عليه السلطان فى أيام المواكب العظام لقدوم رسل الملوك ونحو ذلك .

ويُتَيامن عن هذا الإيوان إلى ساحة لطيفة بها باب القصر الأبلق المتقدم ذكره، وبنواحيها مصاطبُ يجلس عليها خواصّ الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة، ويُدْخَل من باب القصر إلى دهاليز عظيمة الشأن، نبيهة القدر، يتوصَّل منها إلى القصر المذكور، وهو قصر عظيم البناء، شاهق فى الهواء، به إيوانان فى جهتى الشَّمال والجنوب، أعظمهما الشَّمالىّ، يُطَلُّ منهما على الإصطبلات السلطانية، ويمتدّ النظر منهما إلى سوق الخيل والقاهرة والفُسْطَاط وحواضرها، إلى مجرى النيل، وما يلى ذلك من بلاد الجيزة والجبل وما والى ذلك، وبصدره مِنْبر من رخام كالذى فى الإيوان الكبير يجلس عليه السلطان أحيانا فى وقت الخدمة على ما يأتى ذكره .

والإيوان الثانى وهو القبلىّ خاص بخروج السلطان وخواصّه منه، من باب السر إلى الإيوان الكبير خارج القصر للجلوس فيه أيام المواكب العامّة، ويدخل من القصر المتقدّم ذكره إلى ثلاثة قصور جَوّانية : واحد منها مسامت لأرض القصر الكبير، واثنان مرفوعان، يُصْعَد إليهما بدَرَج، فى جميعها شبابيكُ من حديد تُشْرِفُ على ما يُشرِف عليه القصر الكبير، ويدخل من القصور الجَوّانية إلى دور الحريم وأبواب الستور

السلطانية؛ وهذه القصور جميعها ظاهرها بالحجر الأسود والأصفر، وداخلها مؤزَّر بالرخام والفَصّ المُذْهَب المشجَّر بالصَّدَف وأنواع الملونات، والسقوفُ المبطَّنة بالذهب واللَّازَوَرْد تُخرق لضوء فى جُدْرانها[(١)] بطاقات من الزجاج القُبْرسىّ الملون كقِطَع الجوهر المؤلفة فى العقود، وجميع أرضها مفروشة بالرخام المنقول من أقطار الأرض مما لا يوجد مثله.

قال فى "مسالك الأبصار": فأما الآدُرُ السلطانية فعلىٰ ماصح عندى خبره أنها ذوات بساتين وأشجار ومُناخات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور الدَّواجن.

وخارج هذه القصور طِبَاق واسعة للماليك السلطانية، ودُورٌ عظامٌ لخوّاص الأمراء من مقدّمى الألوف، ومَنْ عَظُمَ قدره من أمراء الطَّبْلَخَاناه والعشرات، ومن خرج عن حكم الخاصكية إلىٰ حكم البرانيين.

وبها بيوت ومساكنُ لكثير من الناس، وسوق للمآكل؛ ويباع بها النَّفِيس من السلاح والقماش مع الدَّلالين يطوفون به.

وبهذه القلعة مع ارتفاع أرضها وكونها مبنية علىٰ جبل بئرُ ماء مَعِين منقوبة فى الحجر، احتفرها بهاء الدين قراقوش المتقدّم ذكره حين بناء القلعة، وهى من أعجب الآبار، بأسفلها سَوَاقٍ تدور فيها الأبقار، وتنقل الماء فى وسطها، وبوسطها سواق تدور فيها الأبقار أيضا وتنقل الماء إلىٰ أعلاها؛ ولها طريق إلىٰ الماء ينزل البقر فيه إلىٰ معينها فى مجاز، وجميع ذلك نَحْتٌ فى الحجر ليس فيه بناء.

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر: وسمعت من يحكى من المشايخ أنها لما نقرت، جاء ماؤها عَذْبا فأراد قراقوش أو نوابُه الزيادة فى مائها فوسع نقرا فى الجبل، فخرجت منه عين مالحة غيرت عذوبتها. ويقال: إن أرضها تسامِتُ أرض

(١) فى المقريزى هكذا [وقد موّهت باللازورد والنور يخرق فى جدرانها الخ].

بركة الفيل ؛ وهــذه البئر ينتفع بهـا أهل القلعة فيما عدا الشرب من سائر أنواع الاستعمالات . أما شُرْبهم فمن الماء العذب المنقول إليها من النيل بالرَّوايا على ظهور الجمـال والبغال مع ما ينساق إلى قصور السـلطان ودور أكابر الأمراء المجـاورين للسلطان من ماء النيل فى المجارى ، بالسواقى النَّقَّالات والدواليب التى تديرها الأبقار وتنقل المـاء من مقرّ إلى آخر حتَّى ينتهى إلى القلعة ، ويدخل إلى القصور والآدُر فى ارتفاع نحو خمسمائة ذراع .

وقد استجدّ السلطان الملك الظاهر برقوق بهذه القلعة صِهْريجا عظيما يُمْلأ فى كل سنة زمَنَ النيـل من المـاء المنقول إلى القلعة من السواقى النَّقَّالات ، ورتب عليه سبيلا بالدِّرْكاه التى بها دار النيابة يسقى فيه المـاء وحصل به للناس رفق عظيم .

وتحت مشترف هـذه القلعة ممـا يلى القصور السلطانية مَيْدَانٌ عظيم يحول بين الإصطبلات السلطانية وسوق الخيل ، ممرّج بالنجيل الأخضر ، فسيح المدى ، يسافر النظر فى أرجائه ؛ به أنواع من الوحوش المستحسنة المَنْظَر ، وتُربَط به الخوَاصُّ من الخيول السلطانية للتفسح ؛ وفيه يصلى السـلطان العيدين على ماسيأتى ذكره ؛ وفيه تعرض الخيول السلطانية فى أوقات الإطلاقات ووصول التقادم والمشترى ، وربمـا أطعم فيه الجوارح السلطانية ؛ وإذا أراد السلطان النزول إليه خرج من باب إيوان القصر وركب من درج تليه إلى إصطبل الخيول الخاص ، ثم نزل إليه راكبا وخواصُّ الأمراء فى خدمته مشاةٌ ، ثم يعود إلى القصر كذلك .

قال القاضى محيي الديـن بن عبد الظاهر فى "خططه" : وكان هذا المَيْدَان وما حوله يعرف قديمـا بالميـدان ، وبه قصر أحمد بن طولون وداره التى يسكنها ، والأماكن المعروفة بالقطائع حوله على ما تقدّم ذكره فى خطط الفُسْطَاط ، ولم يزل كذلك حتَّى بنى الملك الكامل بن العادل بن أيوب هـذا المَيْدَانَ تحت القلعة حين

سكنها ، وأجرىٰ السـواقى النَّقالات من النيل إليـه ، وعَمَر إلىٰ جانبه ثلاثَ بِرَك تملأ لسقيه ، ثم تعطل فى أيامه مدّةً ، ثم ٱهتم به الملك العـادل ولده ، ثم ٱهتم به الصالح نجم الدين أيوب ٱهتماما عظيما، وجدّد له ساقية أخرىٰ ، وغرس فى جوانبه أشجارا فصار فى نهاية الحسن . فلما تُوفِّىَ الصـالح تلاشىٰ حاله إلىٰ أن هُدِم فى سنة خمسين وستمائة، أو سنة إحدىٰ وخمسين فى الأيام المُعِزِّيَّة أيبك التركمانىّ، وهُدمت السواقى والقنـاطر وعَفَت آثارها ، وبقى كذلك حتّىٰ عَمَره السـلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون رحمه الله ، فأحسن عمـارته ورَصَّفه أبدع ترصـيف ، وهو علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

أما المَيْدانَ السلطانىّ الذى بخُطِّ اللوق، وهو الذى يركب إليه السلطان عند وفاء النيل للَعِب الكُرَةِ ، فبناه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وجعل به المناظر الحسنة ونصب الطَّوارق علىٰ بابه كما تُنْصب علىٰ باب القـلاع وغيرها ، ولم تزل الطوارق منصوبة عليه إلىٰ مابعد السبعمائة ،وسيأتى الكلام علىٰ كيفية الركوب إليه فى المواكب فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

والقلعة التى بالرَّوْضَةِ تقدّم الكلام عليها [فى الكلام] علىٰ خِطَط الفُسْطاط .

ومـما يتصل بهـذه القواعد الثلاث ويلتحق بها القرافةُ التى هى مَدْفَن أمواتها، وهى تربة عظيمة ممتدّة فى سفح المُقَطَّم ، موقعها بين المقطم والفُسْطاطِ وبعض القاهرة، تمتدّ من قلعة الجبل المتقدم ذكرها آخذةً فى جهة الجَنُوب إلىٰ بِركة الحبش وماحولها . وكان سبب جعلها مَقْبُرة مارواه ٱبن عبد الحَكَم عن الليث بن سعد : أن المقوقس سأل عمرو بن العاص أن يبيعه سفحَ المقطم بسبعين ألفَ دينار، فتعجب عمرو من ذلك ، وكتب إلىٰ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك،

فكتب إليه عمر : أنْ سَلْه لِمَ أعطاك به ماأعطاك وهى لا تُزْرع ولا يُسْتنبط بها ماء ولا ينتَفَع بها ؛ فسأله ، فقال : إنا لنجد صِفَتها فى الكتب أن فيها غراس الجنة ، فكتب إلىٰ عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى ذلك ، فكتب إليه عمر : "إنِّى لا أَرىٰ غَرْس الجنة إلا المؤمنين فٱقْبُرْ بها مَنْ مات قِبلَك من المسلمِين ولا تَبِعْها بشيء" فقال المقوقس لعمرو: ماعلىٰ ذا عاهدتنا ، فقطع لهم قِطْعة تُدفَن فيها النصارىٰ ، وهى التى علىٰ القرب من بركة الحبش ؛ وكان أوّلُ من قُبِر بسفح المقطم من المسلمين رجلا من المَعَافِر ٱسمه عامر ، فقيل عَمَرت .

ويروىٰ أن عيسىٰ عليه السلام مرّ علىٰ سفح المقطم فى سياحته ومعه أُمُّه ، فقال : "ياأمّاه ! هذه مَقْبُرة أمّة محمد صلى الله عليه وسلم". وفيها ضرائح الأنبياء عليهم السلام كإخوة يوسف وغيرهم . وبها قبر آسيةَ ٱمرأة فرعون ، ومشاهدُ جماعة من أهل البيت والصحابة والتابعين والعلماء والزُّهّاد والأولياء .

وقد بنىٰ الناس بها الأبنية الرائقة ، والمناظر البَهِجَة ، والقصورَ البديعة ، يَسْرَحُ الناظر فى أرجائها ، ويبتهج الخاطر برؤيتها ؛ وبها الجوامع والمساجد والزوايا والرُّبُط والخوانق ، وهى فى الحقيقة مدينة عظيمة إلا أنها قليلة الساكن .

الفصل الثانى

من المقالة الثانيـة

(فى ذكر كُوَرِ الديار المصرية ؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(فى ذكر كُوَرهَا القديمة)

وقد جعلها القُضَاعىّ فى "خططه" ثلاثة أحياز ، وتشتمل علىٰ خمس وخمسين كُورة ، إلا أنه ذكرها سَرْدا غير مبيَّنة ولا مُرَتَّبة ، وقد أوردتُها هنا مبيَّنة مرتَّبة ،

ونبهتُ على ما هو مستمرّ منها على حكمه، وما تغيّر حكمه بإضافته إلى غيره من الأعمال المستمرّة مع بقاء أسمائه، ومادرس ٱسمه ونُسِى، أو تغير ولم تعلم له حقيقة.

الحيز الأوّل

(أعلى الأرض، وهو الصعيد)

والمراد ماهو من كُوَرِهَا جنوبىّ الفُسْطَاط إلى نهايته فى الجنوب، وسمى صعيدا لأن أرضه كُلّما وَلَجَتْ فى الجنوب، أخذت فى الصُّعود والٱرتفاع.

وقد ذكر القُضَاعِىُّ فيه عشرين كورة :

الأولى ـ (كُورَةُ الفيوم) وهى كُورة باقية مستمرّة الحكم إلى الآن، وسيأتى ذكرها فى الكلام على الأعمال المستقرّة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى.

الثانية ـ (كُورَةُ مَنْفٍ) ومَنْفُ هى مدينة مصر القديمة المتقدّمة الذكر، التى بناها مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام. وقد تقدّم أنها على ٱثْنَىْ عشر مِيلًا من الفُسْطَاط فى جَنُوبِيِّه على القرب من البلدة المعروفة الآن بالبَدْرَشِين.

الثالثة ـ (كُورَة وَسِيمَ) ووَسِيمُ بفتح الواو وكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وميم فى الآخر، بلدة من عمل الجيزة معروفة؛ والثابت فى الدواوين أَوْسِيمُ بزيادة ألف فى أوّلها وسكون الواو.

الرابعة ـ (كُورَةُ الشرقية) وكأن المراد بها عمل إطفيح الآن إذ هو شرقىّ النيل وليس بالوجه القبلىّ عمل مستقلّ شرقىّ النيل سواه.

الخامسة ـ (كُورَةُ دَلَاصَ وبُوصِير) أما دَلَاصُ فبدال مهملة مفتوحة ولام ألف ثم صاد مهملة قال فى "الروض المعطار" : كانت مدينة عظيمة بها عجائب الأبنية، وبها كان مجتمَع سَحَرة مصر. وأما بوصير فالمراد هنا بُوصِير قُورِيدُس التى قتل بها

مَرْوَانُ الحِمَار : آخر خلفاء بنى أُمَيَّةَ ، ودَلَاص وبُوصِير هذه كلاهما الآن من عمل البهنسىٰ ، وسيأتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

قال فى "الروض المعطار": قال الجاحظ : بها ولد عيسىٰ بن مريم عليه السلام. وذكر أن نخلة مريم كانت قائمة بها إلىٰ زمانه .

قلت : والمعروف أن مولد عيسىٰ عليه السلام كان بالقُدْسِ من أرض الشام علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ الأيمان فى أواخر الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

السادسة ــ (كُورَةُ أَهْنَاسَ) وأَهْنَاسُ بفتح الهمزة وسكون الهاء وفتح النون وألف وسين مهملة فى الآخر ، وتعرف بأَهْناس المدينة ، كانت مدينة فى القديم ، وهى الآن من جملة عمل البَهْنَسىٰ الآتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

السابعة ــ (كُورَةُ القَيْسِ) والقَيْسُ بفتح القاف وسكون الياء المثناة تحتُ وسين مهملة فى الآخر ، كانت مدينةً فى القديم ، وهى الآن قرية معدودة من عمل البَهْنَسىٰ أيضا .

الثامنة ــ (كُورَةُ البَهْنَسىٰ) وهى ذات عمل مستقرّ، وسيأتى ذكرها فى الكلام علىٰ الأعمال المستقرّة فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

التاسعة ــ (كُورَةُ طَحَا وحَيرِ شَنُودَةَ) . أما طحا فبفتح الطاء والحاء المهملتين وألف فى الآخر، كانت فى القديم مدينةً ذات عمل، ولذلك تعرف بطَحَا المدينة، وهى الآن من عمل الأُشْمُونَيْنِ الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ الأعمال المستقرّة، وإليها ينسب أبو جعفر الطَّحَاوىّ إمام الحنفية ومحدّثهم .

وأما حير شَنُودة، فمن الأسماء التى دَرَست ولم تعلم حقيقتها .

العاشرة ــ (كُورَةُ بُوَيْطَ) قال ابن خِلِّكَانَ : بُوَيْطُ بضم الباء الموحدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وطاء مهملة فى الآخر . وقال فى "تقويم البُلْدَان"[1]

(١) نص ياقوت علىٰ الضبطين وقال أكثر ما يقال بغير همز .

بهـمزة مفتوحة فى أوّله وباء ساكنة ، وهو اسم واقع على بلدتين بالديار المصرية : إحداهما بعمل البهنسى فى لِحْف الجبل على طريق المارّة ، وإليها ينسب أبو يعقوب البُوَيْطى : أحد رواة الجديد عن الإمام الشافعىّ رضى الله عنه . والثانيـة من عمل سُيُوط وتعرف ببُوَيْط البتينة ، وإليها ينسب شرق بويط والظاهر أنها المرادة هنا .

الحادية عشرةَ – (كُورَةُ الأُشْمُونَيْنِ وأَنْصِنَا وشُطْب) . أما مدينة الأُشْمُونَيْنِ ، فذات عمل مستقرّ ، وسيأتى ذكرها فى الكلام على الأعمال المستقرّة فيما بعد إن شاء الله تعالى .

وأما أَنْصِنَا ، فقال فى "تقويم البُلْدان" : هى بفتح الهمزة وسكون النون وكسر الصاد المهملة وفتح النون وألف فى الآخر ، وهى مدينـة قديمة خرابٌ فى البر الشرقىّ من النيل قُبَالة الأُشْمُونَيْنِ .

وقد ذكر ابن هشام فى السيرة : أن مارِيَةَ القِبْطية التى أهداها المُقَوْقِس للنبىّ صلّى الله عليه وسلم من كُورَتِها من قرية يقال لها حَفْن ، وأنصنا الآن من جملة عمل الأُشْمونين .

وأما شُطْبٌ ، فبضم الشين المعجمة وسكون الطاء المهملة وباء موحدة فى الآخر ، وهى مدينـة قديمة بنيت فى زمن شدّاد بن عديم أحد ملوك مصر بعد الطوفان قد خربت وعُمِر عليها قرية صغيرة سميت باسمها ، وهى الآن من جملة عمل سُيُوط الآتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

الثانيةَ عشرةَ – (كُورَةُ سُيُوط) وهى مستقرّ الحكم ، وسيأتى ذكرها فى الأعمال المستقرّة .

الرابعةَ عشرةَ – (كُورَةُ قَهْقُوهَ) وهى من الأسماء التى درست ونُسِيت ، ولم أعلم بالصعيد بلدةً تسمّى الآن بهذا الاسم .

الخامسةَ عشرةَ — (كورة إخميم والدَّيْر وأبْشَاية) : أما كورة إخميم، فمن الكُوَر المستمرّة الحكم، وسيأتى الكلام عليها فى الكُوَر المستقرّة .

وأما الدير، فيجوز أن يكون المراد به الدَّيْر والبَلَّاص ، وهى بلدة فى شرقىّ النيل شَمالىّ قِنَا، هى الآن من عمل قُوص الآتية الذكر .

وأما أبْشاية، فمن الأسماء التى جهلت .

السادسةَ عشرةَ — (كورة هُوْ ودَنْدَرَة وقِنَا) : أما هُوْ، فبضم الهاء وسكون الواو، وهى مدينة صغيرة علىٰ ساحل البر الغربىّ الجنوبىّ من النيل ، ويضاف إليها فى الدواوين الكوم الأحمر، فيقال هُوْ والكومُ الأحمر .

وأما دَنْدَرَة، فبفتح الدال المهملة وسكون النون وفتح الدال الثانية والراء المهملة وهاء فى الآخر، وهى مدينة قديمة خرابٌ علىٰ الساحل الغربىّ الجنوبىّ من النيل فى شرقىّ هُوْ، وبها كانت البِرْباة العظيمة المتقدّم ذكرها فى عجائب الديار المصرية .

وأما قِنَا، فبكسر القاف وفتح النون وألف فى الآخر، وهى مدينة شرقىّ النيل وبها ضريح السيد الجليل عبد الرحيم القِنَائى ، المعروف بالبَرَكة وإجابة الدعاء عنده . وهذه البلاد الثلاث الآن من جملة عمل قوص الآتى ذكره فى الكلام علىٰ الأعمال المستقرّة .

السابعةَ عشرةَ — (كُورَة قِفْط والأُقْصُر). أما قفط، فبكسر القاف وسكون الفاء وطاء مهملة فى الآخر، كانت مدينة قديمة بالبر الشرقىّ من النيل جنوبىَّ قِنَا المتقدّمة الذكر، بناها قِفْطُ بن قبطيم بن مصر[1] بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام أحد ملوك مصر بعد الطوفان، فخربت و بقيت آثارها وعمرت علىٰ القرب منها مدينة صغيرة سميت بٱسمها .

(١) فى ياقوت قفط بن مصر ... ثم قال وأصله فى كلامهم قفطيم ومصريم ولكن الذى فى المقريزى نحو ما فى الاصل .

وأما الأُقْصُر، فبضم الهمزة وسكون القاف وضم الصاد المهملة وراء مهملة في الآخر، وتسمَّى الأُقْصُرَيْنِ أيضا على التثنية، وهي مدينة خراب بالبر الشرقيّ من النيـل ، قد عُمِر على القرب منها قرية سميت بآسمها ، وبها ضريح السـيد الجليل أبو الحَجّاج الأُقْصُرِيّ، وكانت بها بِرْباة عظيمة فخربت، وآعلم أن بين قِفْط والأُقْصُر مدينة قوص، وقد ذكر القضاعيّ كورتها في جملة الكُوَرِ، فكيف يستقيم أن تذكر قِفْطُ والأُقْصُر كورة واحدة ؟ .

الثامنةَ عشرةَ ــ (كورة قُوص) وهي مستمِرّة الحكم ، وسـيأتي الكلام عليها في جملة الأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالى .

التاسعةَ عشرةَ ــ (كورة أَسْنَا وأَرْمَنْتَ) . أمّا أَسْـنَا (١) ، فبفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح النون وألف في الآخر،وهي مدينة حسنة بالبر الغربيّ من النِّيل، ويقـال : إنه لم يسلم من تخريب بُخْتَ نَصَّرَ من مدن الديار المصرية سواها ، وذلك أن أهلها هربوا منه إلى الجبل بالقرب منها فتبعهم وقتلهم هناك وترك البـلد على حالهـا .

وأمّا أَرْمَنْتُ، فبفتح الهمزة وسكون الراء المهـملة وفتح الميم وسكون النون وتاء مثناة فوقُ في الآخر، وهي مدينة صغيرة بالبرّ الغربيّ الشّماليّ من النيل بينهـا وبين أَسْنَا مرحلة ، وكلاهما الآن من عمل قُوص، وقد جرى على الألسـنة الجمع بينهما في اللفظ فيقال : أَسْنَا وأَرْمَنْت، وكأن ذلك لكثرة آجتماعهما في إقطاعٍ واحد .

العشرون ــ (كورة أُسْوان) : وسيأتي ذكرها في الكلام على الأعمال المستقرّة مع الأعمال القُوصية إن شاء الله تعالى .

---

(١) ضبطه ياقوت بكسر الهمزة .

الحيز الثـانى
(أســفل الأرض)

وقد ذكر القضاعىّ : أنها ثلاث وثلاثون كورة فى أربع نواحٍ .

النـاحية الأُولىٰ
(كُوَر الحَوْف الشرقىّ، وبها ثمانُ كُوَر)

الأولىٰ ـ (كورة عَيْنِ شَمْسٍ) وعين شمس مدينة قديمة خرابٌ علىٰ القرب من المَطَرِيَّةِ من ضواحى القاهرة الآتى ذكرها فى الأعمال المستقرّة .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : رأيت علىٰ حاشية بعض كتب التواريخ أن مَلِكَها كان عظيمَ الشأن، وعاش إلىٰ زمن يوسف عليه السلام وتزوّج آبنته .

الثانية ـ (كورة أَتْريب) وأتريب مدينة خرابٌ علىٰ القرب من بِنْها العَسَل من أعمال الشرقيــة الآتى ذكرها فى الأعمال المستقرّة، بناها أتريب بن قبطيم بن مصر آبن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام .

الثـالثة ـ (كورة بَنَا وتُمَىّ) أما بَنَا ، فلا يعرف بالحوف الآن بلدة آسمها بَنَا ، وإنمـا بَنَا بعمل الغربية، وسيأتى ذكرها مع بُوصير هناك .

وأمّا تُمَىّ، فبضم التاء المثناة فوقُ وفتح الميم وياء مثناة تحتُ فى آخرها، وهى مدينة خرابٌ بعـمل المُرْتَاحِيَّــةِ ، بها آثارٌ عِظَامٌ ، رأيت فيها أبوابا من حجر صوّان قطعة واحدة، آرتفاعها نحو عشرة أذرع قائمة علىٰ قاعدة من صوّان أيضا .

الرابعة ـ (كُورَةُ بَسْطَة) وبَسْطَةُ بفتح الباء الموحدة وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وهاء فى الآخر، وهي مدينة خرابٌ تعرف الآن بتَلّ بَسْطَة من عمل الشرقية .

الخامسة ـ (كورة طَرَابِيَة) وهى من الأسماء التى دَرَست ولم تعرف .

السادسة ـ (كورة قُرْبَيْط) وهى من المجهول أيضا .

السابعـة ـ (كورة صَان وإِبْلِيل) وهى من المجهول .

الثـامنة ـ (كورة الفَرَمَا والعَرِيش) . أمّا الفَرَما، فقال فى "تقويم البُلْدان": هى بفـاء وراء مهـملة وميم مفتوحات ثم ألف، وهى بلدة خرابٌ علىٰ شاطئ بحر الروم، علىٰ بُعْدِ يومٍ من قَطْيَةَ . قال ٱبن حَوْقَل : وبها قَبْرُ جالينوس الحكيم .

وأمّا العَرِيشُ ، فبفتح العين المهملة وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحتُ وشين معجمة فى الآخر، قال فى "الروض المعطار" : كانت مدينة ذات جامعين مفترقى البناء، وثمـار وفواكه .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى الآن مَنْزِلة علىٰ شَطِّ بحر الرُّوم ، وبها آثار قديمة من الرُّخام وغيره .

قال فى "الروض المعطار" : وكان بينها وبين قَدَس طريق مسلوكة فى البر .

النـاحية الثـانية

(بطن الريف)

وأصل الرِّيف فى لغة العرب موضع الزَّرْع والشجر، إلا أنه غلب بالديار المصرية علىٰ أسفل الأرض منها، وفيها سَبْعُ كُوَر .

الأولىٰ ـ (كُورَةُ بنَا وبُوصِير). أمّا بنَا، فبفتح الباء الموحدة والنون وألف فى الآخر، وبُوصِيرُ تقدّم ضبطها فى الكلام علىٰ بوصير المعروفة بمصر يوسف بالجيزيّة عند ذكر قواعد مصر القديمة ، وبنا وبُوصِـيرُ هذه كلاهمـا من عمل الغربيـة الآتى ذكره فى الأعمال المستقرّة .

الثانية — (كُورَة سَمَنُّودَ)، وسَمَنُّودُ بفتح السين المهملة والميم وضم النون المشدّدة والواو ودال مهملة فى الآخر، وهى مدينة صغيرة من الأعمال الغربية، كان لها عمل مستقرّ فى أوّل الأمر ثم أضيفت إلىٰ عمل الغربية .

الثالثة — (كُورَة نَوَسَا)، ونَوَسَا بفتح النون والواو والسين المهملة فى الآخر[(١)]، وهى الآن قرية من قُرىٰ المُرْتاحية .

الرابعة — (كورة الأَوْسِيَّة)، وهى من الأسماء التى دَرَست وجُهِلت .

الخامسة — (كورة البُجُوم)، بالباء الموحدة والجيم، وهى من الأسماء المندرسة أيضا، ولا يُعرف مكان بالديار المصرية ٱسمه البُجُوم إلا أرض بأسفل عمل البحيرة علىٰ القرب من الإسكندرية، صارت مستنقعا للمياه المتصرفة عن البحيرة .

السادسة — (كُورَةُ دَقَهْلَةَ)، ودَقَهْلَةُ بفتح الدال المهملة والقاف وسكون الهاء وفتح اللام وهاء فى الآخر، وهى مدينة قديمة بالجزيرة بين فِرْقَةِ النيل المارّة إلىٰ دمياط والفرقة التى تصب ببحيرة تِنِّيس، وإليها ينسب عمل الدقهلية، وهى الآن قرية من عمل أشْموم الآتى ذكرها فى الأعمال المستقرة، وإن كان العمل فى الأصل منسوبا إليها .

السابعة — (كورة تِنِّيسَ ودِمْيَاطَ)، أمّا تنيس، فقال فى اللُّبَاب: هى بكسر المثناة فوقُ والنون المشدّدة وسكون الياء المثناة تحتُ وسين مهملة فى الآخر، والجارى علىٰ الألسنة فتح التاء، كانت مدينة عظيمة فطمىٰ عليها الماء قبل الفتح الإسلامى بمائة سنة، فأغرق ما حولها وصارت بُحَيْرَةً، وسيأتى الكلام عليها فى الكلام علىٰ بُحَيرتها، وهى الآن قرية صغيرة بوسط البُحَيرة والماء محيط بها .

قال فى "الروض المعطار": وكانت تُرْبتها من أطيب التُّرَب، وبها تُحاك الثياب النفيسة التى ليس لها نظير فى الدنيا، وقد قيل: إن الجنتين اللتين أخبر الله تعالىٰ

(١) لعله وألف فى الآخر كما هو ظاهر

عنهما فى سورة الكهف بقوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ ﴾ الآية، كانتا بِتِنِّيس .

وأمّا دِمْياطُ، فسيأتى ذكرها فى الكلام على الأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالىٰ .

النـاحية الثالثـــــــة

(الجزيرة بين فِرْقَى النيل الشرقية والغربية، وفيها خمس كور)

الأولىٰ — (كُورَةُ دَمْسِيس ومَنُوف). أمّا دَمْسِيسُ، فبفتح الدال المهملة وسكون الميم وكسر الســين المهملة وسكون الياء المثناة تحتُ وسـين مهملة فى الآخر، وهى الآن بلدة من عمل الغربية .

وأمّا مَنُوف فمن الأسماء التى نُسِيت وجهلت .

الثانية — (كورةُ طُوَّة مَنُوفَ)، وهى من الأسمـاء التى جهلت ولا يعلم بالديار المصرية الآن بلدة ٱسمها طُوَّة غير بلدين بالوجه القبلىّ إحداهما بالأُشْمُونِين، والثانية بالبهنساوية .

الثالثة — (كورة سَخا وتَيْدَة والفَرَّاجُونِ) . أمّا سَخا، فبفتح السين المهملة والخاء المعجمة وألف فى آخرها، وهى بلدة حسنة كانت ذات عمل، ثم ٱستقرّت من عمل الغربية الآن .

وأمّا تَيْدَةُ، فبفتح التاء المثناة فوقُ وسكون الياء المثناة تحتُ وفتح الدال المهملة وهاء فى آخرها، وهى الآن قرية من قرىٰ الغربية .

وأمّا الفَرَّاجُونُ، فبالألف واللام فى أوّلها، ثم فاء مفتوحة وراء مهملة مشدّدة بعدها ألف وجيم مضـمومة وواو ساكنة ونون فى الآخر، وهى بلدة مضافة إلىٰ تَيْدَةَ، فيقال : تَيْدَةُ والفَرَّاجُون .

الرابعـة ـ (كورة بقيرة وديصا)، وهما من الأسماء التى نُسِيت وجهلت .

الخامسة ـ (كُورة البَشَرُود)، وهى من الأسماء التى جهلت .

النـاحية الرابعـــة

(الحَوْف الغربىّ، وفيها إحدىٰ عشرة كورة)

الأُولىٰ ـ (كورة صَا)، وصَا بصاد مهملة مفتوحة وألف فى الآخر، وهى مدينة خرابٌ شرقىّ الفرقة الغربية من النيل، بناها صا بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام ٱبن نوح عليه السلام، أحد ملوك مصر بعد الطوفان، وبها الآن آثار عظيمة، وقد عمرت بالقرب منها قرية وسميت بٱسمها، وكأن عملها كان من البرّ الغربىّ .

الثـانية ـ (كُورَة شَبَاس) وشَبَاسُ بفتح الشين المعجمة والباء الموحدة وألف ثم سين مهـملة ٱسم لثلاث بلاد من عمل الغربية الآن، وهى شَبَاسُ المِلْح، وشَبَاسُ أنبارة، وشَبَاسُ سنقر، وتعرف بشَبَاس الشهداء، وكأنّ المراد الثالثة فإنها أعظمها .

الثالثة ـ (كُورةُ البَذَقُون)، وهى من الأسماء التى درست وجهلت .

الرابعة ـ (كورة الخَيْس والشِّرَاك) . أما الخيس فلا تعرف بالبحيرة الآن بلدة تسمّى الخيس، وإنمـا الخَيْسُ بفتح الخـاء المعجمة وسكون الياء وسين مهملة فى الآخر، بلدة من عمل الشرقية .

وأما الشِّرَاكُ، فبكسر الشين المعجمة المشدّدة وفتح الراء المهملة وألف ثم كاف، وهى بلدة من عمل البحيرة .

الخامسة ـ (كورة خِرْبِتَا)، بكسر الخاء المعجمة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة وفتح التاء المثناة فوق، وهى قرية معروفة من عمل البحيرة، ومنها سار من سار من المصريين لقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه .

السادسة ـ (كورة قَرْطَسَا ومَصِيل) . أما قَرْطَسَا فبفتح القاف وسكون الراء المهـملة وفتح الطاء والسين المهـملتين وألف فى الآخر؛ وهى قرية من عمل البحيرة الآن .

وأما مَصِيل، فمن الأسماء التى جهلت .

السابعة ـ (كورة المليدس) وهى من الأسماء التى جهلت .

الثامنة ـ (كورة إخنا ورَشِيدَ والبُحَيْرَة) . أما إخنا، فمن الأسماء التى جهلت ولا يعرف بالبُحَيْرَةِ بلد ٱسمها إخنا ، وإنمـا أخنويه من عمل الغربية ، والعامة تقول إخنا .

وأما رَشِيدُ ، بفتح الراء المهملة وكسر الشـين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ودال مهملة فى الآخر، فبلدة عند مَصَبِّ الفرقة الغربية التى يقع الٱعتناء بحفظها . وفى ذلك نظر لٱعتباره الغربيةَ ورشيد من سواحل البحيرة، وبينهما بُعْدٌ يبعد معه أن يجتمعا فى كورة واحدة .

وأما البُحَيْرَةُ، فالظاهر أنه يريد بحيرة بُوقير المتقدّم ذكرها فى الكلام علىٰ القواعد القديمة، ويأتى بقية الكلام عليها فى الأعمال المستقرّة إن شاء الله تعالىٰ .

العاشرة[1] ـ (كورة مَرْيُوطَ) . ومَرْيُوطُ بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الياء المثناة تحت وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر، وهى ناحية غربىّ الإسكندرية داخلة الآن فى عملها، بها الأشجار والبساتين، وفواكهها تحمل للإسكندرية .

الحـاديةَ عشرةَ ـ (كورة لُوبِيَـةُ ومَرَاقِيَةَ) . أما لوبيـة ، فبلام وواو وباء موحدة ثم ياء مثناة تحت وهاء فى الآخر . قال فى "الروض المعطار" : وهى كورة

(١) سقطت التاسعة من قلم الناسخ وهى "كورة البتنون" وقد ذكرها ٱبن دقاق فى كتابه "الٱنتصار" .

من كُوَر مصر الغربيـة ، متصـلة بالإسكندرية . قال : وقد قيل إن الإسْكَنْدَرَ كان منها .

وأما مَرَاقِيَةُ ، فبميم وراء مهملة وألف وقاف وياء مثناة تحت وهاء فى الآخر .

وقد ذكر القضاعىّ فى تحديد الديار المصرية مايقتضى أنهما بجوار بَرْقَةَ ، فقال : إن الذى يقع عليـه ٱسم مصر من العريش إلىٰ لُوبِيَةَ ومَرَاقِيَةَ ، ثم قال : وفى آخر أرض مراقية تلقىٰ أرض أنطابُلُس ، وهى بَرْقة ، والظاهر أن لوبية غربىَّ مريوط ، ومراقية غربىّ لوبية وهى آخر أرض الديار المصرية من جهة الغرب .

الحيز الثـالث

(كُوَر القِبْلة ، وفيها خمس كور)

الأولىٰ – (كورة الطُّور وفاران) . أما الطُّور فضبطه معروف . قال فى المشترك : والطور فى اللغة العبرانية ٱسم لكل جَبَـل ، ثم صار عَلَمًـا لجبال بعينها ، منها جبل طُورِزَيْتَا بلفظ الزيت ، وهو ٱسم لجبل برأس عين من بلاد الجزيرة وجبل بالقُدْسِ وجبل مُطِلّ علىٰ طَبَرِيَّة ، وطُور هٰرون بالقُدْس ، وطُورسينا ، وهو المراد هنا ، وهو جبل داخلٌ فى بحر القُلْزُم علىٰ رأسه دَيْرٌ عظيم ، وفى واديه بساتينُ وأشجار ، وهو علىٰ مَرْحلة من فُرْضَةِ الطور المتقـدّمة الذكر فى تحديد بحر القُلْزُم ، وكأنها سميت بٱسمه لقربها منه . قال ٱبن الأنبارىّ فى "كتابه الزاهر" : وسمى الطُّور بطُور بن إسماعيل ٱبن إبراهيم عليهما السلام .

وأما فارانُ ، فبفاء مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة بعدها ألف ثانية ثم نون ، قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة صغيرة من بر الحجاز علىٰ جون علىٰ البحر . قال : ولجبال فارانَ ذكرٌ فى التوراة .

الثانية – (كورة رَايَة والقُلْزم). أما راية فمن الأسمـاء التى جهلت، وقد ذكرها ابن سعيد مقرونة بالقلزم فقال : ورايَةُ والقُلْزم من كور مصر .

وأما القُلْزُمُ، فقال فى المشترك : هو بضم القاف وسكون اللام وضم الزاى المعجمة ثم ميم فى الآخر، وهى مدينة قديمة علىٰ ساحل بحر القُلْزُمِ وإليها ينسب البحر المذكور.

قال فى "القانون" : وطولهـا ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها ثمـانٌ وعشرون درجة وعشرون دقيقة، وعلىٰ القرب منها غَرَقَ فِرْعَوْنُ .

الثالثة – (كورة أَيْلَةَ وحَيِّزِها، ومَدْيَنَ وحَيِّزِها، والعَوْنيد وحَيِّزِها، والحَوْرَاءِ وحَيِّزِها) .

أما أَيْلَةُ فقال فى "تقويم البُلْدان" : هى بفتح الهمزة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وهاء فى الآخر. قال : وهى كانت مدينة صغيرة خرابا علىٰ ساحل بحر القُلْزُمِ.

قال فى "القانون" : طولهـا ست وخمسون درجة وأربعون دقيقة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها زرع يسير، وهى مدينة اليهود الذين جعل منهم القِرَدَةُ والخنازير، وعليها طريق حُجَّاج مصر . قال : وهى فى زماننا برج وبه وَالٍ من مصر وليس بها مزدرع، وكان بها قلعة فى البحر فبطلت ونُقِل الوالى إلىٰ البرج .

وأما مَدْيَنُ فضـبطها معروف؛ وهى فى الأصل آسم لقبيلة شُعَيْبٍ عليه السلام وكانوا مقيمين بها فسميت البلد بهم، وهى مدينة خَرَابٌ علىٰ بحر القُلْزُمِ محاذِيَةٌ لتَبُوكَ من بلاد الشأم علىٰ نحو ست مراحل منها، وعدّها فى "الروض المعطار" من بلاد الشأم، وبها البئر التى آستقىٰ منها موسىٰ عليه السلام لبنات شُعَيْبٍ وسقىٰ غنمهنّ .

قال آبن سعيد : وسعة البحر عندها نحو مجرى .

وأما العَوْنيد؟ فبعين مهملة وواو وياء مثناة تحت ونون ودال . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة قريبة من نصف الطريق بين جُدَّةَ والقُلْزُمِ . قال : وعلىٰ

القرب منها مرسى صبنا، ينحدر المـاء بها عن أثر قدم من أوسط الأقدام بينة الكعب والأَخْمَص والأصابع لم يُعْفِها الزمان، ولا تمحى بمرور المـاء عليها .

وأما الحَوْرَاءُ ، فبحاء مهملة مفتوحة بعـدها واو ساكنة وراء مهـملة مفتوحة ثم ألف فى الآخر . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينـة علىٰ ساحل وادى القُرىٰ بها مسجد جامع ، وبها ثمـانية آبار عَذْبَةٍ ، وبها ثِمَـار ونخل وأهلها عرب من جُهَيْنَةَ وبَلِيٍّ . قلت : والمعروف فى زماننا أن الحَوْرَاءَ منزلة بطريق حُجَّاج مصر، ولعلها علىٰ القرب منها .

الرابعة ــ كورة بَدَا يعقوب وشُعَيْبٍ، ولم أعلم حقيقة مكانهما .

قلت : ذكر القضاعىّ أَيْلَةَ ومَدْيَنَ وما والاهما ممـا علىٰ ساحل بحر القُلْزُمِ من بر الحجاز فى أعمـال مصر جريا علىٰ ما قدّمه من إدخال ذلك فى تحديد الديار المصرية ، علىٰ أنه قد أهمل من جملة الديار المصرية حَيِّزَيْنِ آخرين .

الحـــيز الأوّل
(بلاد ألواح)

إذ هى داخلة فى حدود الديار المصرية علىٰ ما حدّده هو وغيره .

قال فى "اللُّبَاب" : وهى بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الواو وفى آخره حاء مهملة، وقال فى "المشترك" : واح بغير ألف ولام ويجمع علىٰ واحات،وهى ناحية غربىّ بلاد الصعيد منقطعة عنه خلف الجبل الغربىّ من جبلى مصر المتقدّم ذكرهما.

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى بين مصر والإسكندرية والصـعيد والنُّوبة والحبشة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والبَرَارى محيطة بها من جميع جهاتها ، وهى بينها كالجزيرة، بين رمال ومَفاوِزَ .

قال البكرىّ : وهو إقليم مستقلّ غير مفتقر إلىٰ سواه . قال فى "الروض المعطار" : وهى آخر بلاد الإسلام، و بينها و بين بلاد النُّو بة ستُّ مراحل . قال : وفى هذه الأرض شَبِّية وزاجِيَّة وعيون حامضة الطعوم ولكل نوع منها منفعة وخاصة، وبها العيون الجارية، والبساتين، والثمار، والتمر الكثير؛ وبها مدن كثيرة مسوَّرة وغير مسوّرة .

قال فى "المشترك" : وهى ثلاث كور : واح الأولىٰ ، وواح الوسطىٰ ، وواح القُصْوىٰ .

قلت : والأولىٰ منها ـ مقابل الأعمال البهنساوية، وهى أعمرها وأكثرها ثمرة، ومنها يجلب التمر والزبيب الكثير، وتعرف بواح البهنسىٰ و بالواح الخاصّ .

والثانية ـ مقابل شمالىّ الأعمال الأُسْيوطية، وتعرف بالواح الداخلة ، وهى تلو الواح الأولىٰ فى العمارة ؛ بها مُدُن مشهورة ، منها السلمون والهنداو والقَلَمُون والقصير وغيرها .

والثالثة ـ مقابل جنوبىّ الْوَاح الثانية، وتعرف بالْوَاح الخارجة ؛ وبين ريف الصعيد و بين جميعها عرض جبل مصر الغربىّ، ومسيرته ثلاث مراحل فما دونها بحسب ٱختلاف الأماكن والطرق .

قال فى "التعريف" : وهى جارية فى اقطاع أمراء مصر، وهم يولُّون عليها من قِبَلِهم . قال : ومَغَلُّها كأنه مصالحة لعدم التمكن من ٱستغلاله أُسْوَةَ بقية ديار مصر، لوقوعه منقطعا فى البلاد النائية والقِفَار النازحة .

قال فى "مسالك الأبصار" : ولا تعدّ فى الولايات ولا الأعمال ، ولا يحكم عليها من قِبَل السلطان .

الحيز الثانى

(بَرْقَةُ)

بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح القاف وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من الإقليم الثالث . قال فى "كتاب الأطوال" : وطولها آثنتان وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعَرْضها آثنتان وثلاثون درجة . وهى أرض مُتَّسِعَةُ الأرجاء ، مديدة الفضاء ، وهى من أزكى الأراضى دوابَّ، وأمراها مرعًى .

قال فى "مسالك الأبصار" : أخبرنى بعض مَنْ رءاها أنها شبيهة بأطراف الشأم وجبال نابُلُس فى مَنَابت أشجارها وكيفية أرضها وما هى عليه،وأنها لو عمرت بالسكان وتأهلت بالزُّرّاع، كانت إقليما كبيرا يقارب نصف الشأم،قال : وبها الماشية والسائمة الكثيرة : من الإبل والغنم والخيل،وخيلُها من أقوى الخيل وأصلَبها حوافر،وصُوَرُها بين العِرَابِ والبراذين ، وقد جمعت بين حسن العِرَابِ وكمال تخاطيطها، وصلابة البراذين وثباتها على الوُعُور،وهى إلى محاسن العِرَابِ أقرب،ولكنها لاتبلغ شأْوَ خيل البحريْنِ والحجاز، وفحولها أنجبُ من إناثها . قال : وكذلك بها المدن المبنيه ، والقصور العليه، والآثار الدالة على ماكانت عليه من الجلالة .

قال آبن سعيد : وهى سلطنة طويلة،وإن لم يكن لها آستقلال لآستيلاء العرب عليها،وهى إلى إفْرِيقِيَّةَ أقرب منها إلى مصر . قال : وكان سريرها فى القديم بمدينة (طَبَرْقَةَ) . وذكر صاحب "الروض المعطار" : أنقاعدتها كانتمدينة (أنطابُلُس)، وقد تقدّم من كلام القضاعىّ فىتحديد الديار المصرية فى آخر الحدّ الشمالىّ مايوافقه .

قال فى "مسالك الأبصار" : ومن مدنها طُلْمَيْثَا . قلت : والتحقيق أن بَرْقَةَ قسمان: قسم محسوب من الديار المصرية، وهو مادون العَقَبة الكبرى إلى الشرق .

وقسم محسوب من إفْرِيقِيَّةَ ، وهو مافوق العقبة المذكورة إلىٰ الغَرْب ، وهـذه المُدُن الثلاث ممـا يلي جهة المغرب ، والقسمان كلاهما اليوم بيد العرب أصحابِ المـاشية ، قال فى "مسالك الأبصار" : وربما زرع بعضهم فى بعض أرضها فأنجب ، ولكنهم أهـل بادية لا عناية لهم بعمارة ولا زرع . قال : وأمرها إلىٰ صاحب مصر يُقْطِعها بالمناشير تارة لبعض الأمراء وتارة للعرب يأخذون عدادها ، وكأنه يريد القسم الذى هو من مصر .

الضرب الثـانى

(من كور الديار المصرية نواحيها وأعمالها المستقرّة ، ولها وجهان)

الوجـــــه الأوّل

(القبـــلىّ)

وهو المعبر عنه بالصعيد ، وقد تقـدّم بيانه فى الكلام علىٰ الكُوَر القديمة ، وبه تسعة أعمـال :

العمل الأوّل — الجيزيّة . وهو أقربها إلىٰ الفُسْطَاط والقاهرة ، ومقرّ ولايته مدينة الجِيزَةِ (بكسر الجيم وإسكان الياء المثناة تحت وفتح الزاى المعجمة وبعـدها هاء) وموقعها فى الإقليم موقع الفُسْطَاط ، وطولها وعرضهما واحد ، وإليها ينسب الربيع الجِيزِىّ راوى الأمّ عن الشافعىّ رضى الله عنه .

قال فى "الروض المعطار" : ويقال إن بها قبر كَعْبِ الأحْبَار ، وهى مدينة لطيفة علىٰ ضَفَّة النيل الغربية مقابل جزيرة المِقْياس المتقدّمة الذكر والنيل بينهما ، وبعض هذا العمل يأخذ فى جهة الشّمال إلىٰ الوجه البحرىّ الآتى ذكره .

قال فى "الروض المعطار" : والجِيزَةُ اختطها عمرو بن العاص رضى الله عنه .

العمل الثانى ـ الإطْفِيحِيَّةُ . وهو شرقىّ النيل فى جنوب الفُسْطَاط، مُصاقِبٌ بركة الحبش وبساتين الوزير. ومقرّ ولايته مدينة "إطْفِيح" (بكسر الهمزة وإسكان الطاء المهملة وبالفاء والياء والحاء المهملة) وربما قلبت الطاء تاءً مثناةً فوقُ، وهى مدينة لطيفة فى البر الشرقىّ، وموقعها فى الإقليم الثالث، ولم يتحرر لى طولها وعَرْضها، وعملها ما بين المقطم والنيل آخذا عنها جنوبا وشَمَالا، وليس لعملها كبير ذكر .

العمل الثالث ـ البَهْنَسَاوِيَّة . وهو مما يلى عمل الجِيزَة من الجهة الجنوبية ، ومقرّ ولايته مدينة البَهْنسىٰ . قال فى "المشترك" : (بفتح الباء وسكون الهاء وفتح النون وسين مهملة مفتوحة وألف مقصورة) وهى مدينة لطيفة قديمة بالصعيد الأدنىٰ بالبر الغربىّ من النيل تحت الجبل بطوق المزدَرَع، مركبة علىٰ ضَفَّة بحر الفيُّوم . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : طولها إحدىٰ وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها ثمان وعشرون درجة .

العمل الرابع ـ الفَيُّومِيَّةُ . وهو مُصَاقِبٌ لعمل البَهْنسىٰ من غربيه ، وبينهما منقَطَع رمل . وهو من أعظم الأعمال وأحسنها عمارة ، كثيرُ البساتين ، غزيرُ الفواكه ، دارُّ الأرزاق . يقال إنه كان مصل(1) مياه الديار المصرية فاستخرجه يوسف عليه السلام وجعله ثلثمائة وستين قرية لِتَمير كُلُّ قرية منها بلدَ مصرَ يوما من أيام السنة .

قلت : وأما الآن فقد نقصت عدّة قراه بسبب ما عراها من ركوب ماء البركة التى هى مصل(1) مياهه، المتقدّم ذكرها فى جملة بحيرات الديار المصرية وركوب مائها علىٰ أكثر القرىٰ المجاورة لها، ولولا ماهو شامل له من بركة الصدّيق عليه السلام،

(1) كذا فى الأصل بدون نقط ولعله مصحف عن مَمَصَل أى مكان المصل والرشح وفى خطط المقريزى وقد كان مغيض ماء النيل . وفى تقويم البلدان كان فى وهدة وقد سيق إليه نهر من رشح ماء النيل . وفى المسعودى وكان مضفاة .

لكانت قد غَطَّتْ جميع بلاده . إذ المياه تنصبُّ إليها شتاءً وصـيفا علىٰ ممرّ الدهور وتعاقب الأيام، وليس لها مَصْرِف تتصرف منه ضرورةَ إحاطة الجبال بها من الجهات التى هى بصَـدَدِ أن تُصْرف منها ، ولقد ٱجتهد بعض حُكَّام الزمان علىٰ أن يتحيـل فى عمل مَصْرِف يُقْطَع فى الجبـل لتتصرف منه مياهها فلم يجـد إلىٰ ذلك سبيلا . ولو كان ذلك فى حيز الإمكان، لفعله يوسف عليه السلام .

قال ٱبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ويقال إنه علىٰ جميع الفَيُّوم سورٌ دائر، ومقرّ ولايته (مدينة الفَيُّوم) وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال فى "القانون" : وطُولهـا أربع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعَرْضها ثمـان وعشرون درجة وعشرون دقيقة .

وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ثلاث وخمسون درجة، وعرضها تسعٌ وعشرون درجة ،وهى مدينة حســنة علىٰ ضَفَّة البحر المُنْهَىٰ حسنة الأبنية ، زاهية المعالم . وبها الجوامع والرُّبُط والمدارس ، وهى راكبة علىٰ الخليج المنهىٰ من جانبيه، وهو مخترق وسطها . قال فى "العزيزىّ" : وبين الفَيُّومِ والفُسْطَاطِ ثمـانية وأربعون مِيلًا .

العمل الخـامس ــ عمل الأُشْمُونِينِ والطَّحَاوِيَّة . وهو مصاقب لعمل البهنسىٰ من جنوبيه، وهو عمل واسع كثير الزرع ، واسع الفضاء، متقارب القُرىٰ . ومقرّ الولاية به (مدينة الأُشْمُونِينِ) بضم الألف وسكون الشين المعجمة وضم الميم وسكون الواو وفى الآخر نون . وموقعها فى الإقليم الثالث مـن الأقاليم السبعة علىٰ ما ذكره فى "تقويم البُلْدان" والإقليم الثانى علىٰ ما يقتضيه كلام المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" حيث جعل آخر الإقليم الثانى دَهْروط من البهنساوية .

قال فى "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها ست وعشرون درجة؛ وهى مدينة لطيفة بالبر الغربىّ من النيل، كانت فى الأصل مدينة قديمة بناها أُشْمون بن قبطيم بن مصر بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام، ثم خربت ودَثَرت، وبنيت هذه المدينة على القرب منها . وكان هذا العملُ فيما تقدّم عملين : أحدهما عمل الأُشْمُونَيْنِ هذا، والثانى عمل طَحَا المدينة (بفتح الطاء والحاء المهملتين وألف فى الآخر) وقد تقدّم ذكرها فى الأعمال القديمة، ثم أضيفا وجعلا عملًا واحدا .

العمل السادس — المَنْفَلُوطِيَّة . وهو مُصَاقِبٌ لعمل الأُشْمُونَيْنِ من جنوبيه، وهو من أخصّ خاصّ السلطان الجارى فى ديوان وزارته، ومنه يحمل أكثر الغلال إلى الأهراء السلطانية بالفُسْطَاطِ . ومقرّ ولايته (مدينة مَنْفَلُوطَ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : (بفتح الميم وسكون النون وفتح الفاء وضم اللام ثم واو وطاء مهملة فى الآخر). وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة فيما ذكره فى "تقويم البُلْدان": ومن أواخر الإقليم الثانى على ما يقتضيه كلام "مسالك الأبصار" .

قال فى "كتاب الأطوال" : وطولها اثنتان وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها سبع وعشرون درجة وأربعون دقيقة؛ وهى مدينة لطيفة بالبرّ الغربىّ من النيل بالقُرب من شَطّه .

العمل السابع — الأُسْيوطِيَّة . وهو مصاقب لعمل مَنْفَلُوطَ من جَنُوبيّه، وهو عمل جليل، ومقرّ الولاية به (مدينة أُسْيُوطَ)(1) بضم الألف وسكون السين وضم المثناة تحت وفى آخرها طاء مهملة . هكذا ضبطه السمعانىّ فى "كتاب الأنساب" :

(1) ضبطها فى القاموس كذلك وضبطها ياقوت بالفتح .

وذكرها فى "الروض المعطار" فى حرف الهـمزة ، ووقعت فى شعر ٱبن الساعاتى بغير ألف فى قوله :

لِلّٰهِ يَوْمٌ فى سُـيُوطَ ولَيْـلَةٌ * عُمْـرُ الزَّمَانِ بِمِثْلِهَا لا يَغْلَطُ
بِتْنَا بِها، والبَـدْرُ فى غُلَوَائِه * وله بِجُنْحِ الليـل فَرْعٌ أَشْمَطُ
والطَّيْرُ تَقْرَأُ، والغَدِيرُ صَحِيفَةٌ، * والرِّيحُ تَكْتُبُ، والغَمَامُ يُنَقِّطُ

وإثبـات الألف فيها هو الجارى علىٰ ألسـنة العامّة بالديار المصرية، والثـابت فى الدواوين حذفها . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : وطولها إحدىٰ وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضها ٱثنتان وعشرون درجة وعشر دقائق . وهى مدينة حسنة فى البر الغربىّ من النيل علىٰ مرحلة من مَنْفَلُوطَ، وبها مساجدُ ومدارسُ وأسواقٌ وقياسِرُ وحَمَّامات .

العمل الثـامن — (الإخْمِيمِيَّة) . وهو مُصَاقِبٌ لعمل أُسْيُوطَ من جنوبيّه، وهو عمل ليس بالكبير، وبلاده أكثرها بالبر الغربىّ عن النيل، وحاضرته (مدينة إِخْمِيمَ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : (بكسر الألف وسكون الخاء المعجمة والمثناة تحت بين الميمين، والأولىٰ منهما مكسورة) وموقعها فى أواخر الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : وطولها إحدىٰ وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها ست وعشرون درجة . وهى مدينة لطيفة بالبر الشرقىّ عن النيـل علىٰ مَرْحلتين من أُسْيُوطَ ، وبها كانت البرابى العظامُ المتقدّمة الذكر ، ويقـال إن ذَا النُّونِ المصرىّ العابدَ الزاهد منها، وولايتها مضافة إلىٰ قُوصَ .

العمل التاسع — القُوصِـيَّة . وهو مُصَاقِبٌ لعمل أُسْيُوطَ من جَنُوبه، وهو عمل متسع الفضاء بعيدُ ما بين القرىٰ، ينتهى آخره إلىٰ أُسْوَان : آخر الديار المصرية

فى البر الشرقىّ والغربىّ، وهى بلاد التَّمر، ومنها يجلب إلىٰ سائر البلاد المصرية ، ومقرّ ولايته (مدينة قُوص) . قال فى "المشترك" ـ بضم القاف وسكون الواو، وفى الآخر صاد مهملة ـ وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال آبن سعيد : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها ست وعشرون درجة؛ وهى مدينة جليلة فى البر الشرقىّ عن النيل، ذاتُ ديار فائقة، ورباع أنيقة، ومدارسَ ورُبُطٍ وحَمَّامات، يسكنها العلماء والتُّجَّار وذوو الأموال، وبها البساتين والحدائقُ المستحسَنَة إلا أنها شديدة الحرّ، كثيرة العقارب، حتّى إنه يُقَيَّض لها مَنْ يدور فى الليل فى شوارعها بالمَسَارج لقتلها، ويقاربها فى الكثرة أيضا سَامُّ أَبْرَص .

قال المقر الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" : أخبرنى عز الدين حسن بن أبى المجد الصَّفَدِىّ أنه عدّ فى يوم صائف علىٰ حائط الجامع بها سبعين سَامَّ أَبْرَص علىٰ صفٍّ واحد . ومما يدخل فى عملها مما له ولاية مستقلة مدينة أُسْوَانَ . قال السمعانىّ : ـ بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الواو وبعدها ألف ونون ـ وخالف آبن خِلّكَانَ فى "تاريخه" فضبطه بضم الهمزة ، وغلَّطَ السمعانىَّ فى فتحها . وهى مدينة فى أوائل الحدّ الجنوبىّ من الديار المصرية؛ وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" : طولها آثنتان وخمسون درجة ، وعرضها آثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة .

قال فى "القانون" : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها آثنتان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة . وهى فى البر الشرقىّ من النيل، ذاتُ نخيل وحدائقَ، وهى من قُوص علىٰ نحو خمس مراحل .

قال فى "التعريف": وواليها وإن كان من قِبَل السلطان فإنه نائب لوالى قُوص.

قلت : أما الآن ، فقد صار لها وَالٍ مستقلٌّ بنفسه لا حكم لوالى قُوص عليه ، وسيأتى الكلام عليهـا فى مراكز البريد، ويأتى الكلام علىٰ ولايتها فى جملة الولايات بالديار المصرية إن شاء الله تعالىٰ .

الوجـــه الثـانى
(البحـــرىّ)

وهو كل ما سَـفَل عن القاهرة إلىٰ البحر الرومىّ حيث مَصَبُّ النيل . وإنمـا سمى بَحْرِياًّ لأن منتهاه البحرُ الرومىّ، ولا يلزم من ذلك تسـمية الجانب الشرقىّ من الديار المصرية بَحْرِياًّ لأن نهايته إلىٰ بحر القُلْزُم ، لأن انتهاءه إليــه ليس حقيقيا لانقطاع بحر القُلْزُم عن بلاد الديار المصرية بالجبـال والبرارى المُقْفِرَة، بخلاف بحر الروم فإنه متصل بالبلاد مجاور لهـا فناسب النسبة إليه .

قلت : وقد وقع للمقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" فى بلاده وأعماله من الوَهْم مالا يليق بمصرىّ علىٰ ما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

وهذا الوجه هو أرْطَبُ الوجهين وأقلُّهما حرا،وأكثرهما فاكهة،وأحسنهما مُدُنًا .
ويشتمل علىٰ ثلاث شُعَب تحوى سبعة أعمال .

الشعبة الأُولىٰ
(شرقىّ الفرقة الشرقية من النيل)

وفيها أربعة أعمـال .

العمل الأوّل ــ الضواحى : جمع ضاحية، وهى فى أصل اللغة البارزة للشمس، وكأنهـا سميت بذلك لبروز قُرَاهَا للشمس ، بخلاف المدينة لغَلَبــة الكِنّ بها ؛ وهو ما يجاور القاهرة من جهــة الشَّمال من القرىٰ، وولايتها مضافة إلىٰ ولاية القاهرة وداخلة فى حكمها، وليست منفردة بمقرّ ولاية غيرها .

العمل الثانى — القَلْيوبِيَّة . وهو مُصَاقِبٌ للضواحى من شماليها مما يلى جهة النيل ، وهو عمل جليل ، حسن القُرىٰ ، كثير البساتين ، غزير الفواكه . ومقرّ الولاية به (مدينة قَلْيُوبَ) — بفتح القاف و إسكان اللام وضم المثناة تحت وسكون الواو وباء موحدة فى آخرها . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة ، ولم يتحرر لى طُولها وعَرْضها ، غير أنها من القاهرة فى جهة الشَّمال علىٰ نحو فرسخ ونصف من القاهرة .

قلت : ومن بلادها بَلْدتنا (قَلْقَشَنْدَةُ) وهى بلدة حسنة المَنْظَر ، غزيرة الفواكه ، و إليها ينسب الليثُ بنُ سعد الإمام الكبير ، وقد ذكر ٱبن يونس فى "تاريخه" : أنه وُلِد بها . قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس ، وليس لما يقولونه ثَبَات عندنا .

قال ٱبن خِلِّكَان : — بفتح القاف وسكون اللام وفتح القاف الثانية والشين المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة و بعدها هاء ساكنة — ، وهكذا هى مكتوبة فى دواوين الديار المصرية ، وأبدل ياقوتٌ فى "مُعْجَم البُلْدان" اللامَ راءً ، وهو الجارى علىٰ ألسنة العامّة ، وعليه جرىٰ القُضَاعىّ فيما رأيته مكتوبا فى "خِطَطه" : قال ٱبن خِلِّكَانَ : وهى علىٰ ثلاثة فراسخ من القاهرة ۞ وهى بلدة حسنة المَنْظَر ، كثيرة البساتين ، غزيرة الفواكه و إليها ينسب الليث بن سعد الإمام الكبير . قال ٱبن يونس فى "تاريخه" : ولد بها ، ثم قال : وأهل بيته يذكرون أن أصله من فارس وليس لما يقولونه ثبات عندنا ۞(١) وذكر .

وقال القضاعىّ فى "خططه" : فى الكلام علىٰ دار الليث بالفُسْطاط : وكان له دار بقَرْقَشَنْدَة بالرِّيف ، بناها فهدمها ٱبن رفاعة أميرُ مصر عنادا له ، وكان ٱبنَ عمه ،

(١) ما بين النجمتين تقدم بلفظه قريبا فهو مكرر .

فبناها الليثُ ثانيا فهدمها ، فلمـا كانت الثالثة ، أتاه آتٍ فى منامه فقال له ياليثُ : ﴿ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ فأصبح وقد أُفلِجَ ٱبنُ رِفَاعة فأوصى إليه ومات بعد ثلاث . وبقى اللَّيثُ حتّى توفى فى منتصف شعبان سنة خمس وسبعين ومائة ، وصلّى عليه موسى بن عيسى الهاشمىّ أميرُ مصر للرشيد .

وترجم له ٱبن خلكان بالأصبَهَانىّ ، ثم قال فى آخر ترجمته : ويقال إنه من قَلْقَشَنْدَةَ .

قلت : وما قاله ٱبن يونس أثبت ، ويجب الرجوع إليه لأمرين : أحدهما أنه مصرىّ وأهـل البلد أخبر بحال أهل بلدهم من غيرهم ، الثـانى أنه قريب من زمن الليث فهو به أدرى ، إذ يجوز أن يكون أصله من أصبهان ، ثم نزل آباؤه قَلْقَشَنْدَةَ المذكورة وولد بها وسكنها ، فنسب إليها كما وقع فى كثير من النِّسَبِ ، وإعادة داره بها بعد هدمها ثلاث مرات على ما تقـدّم ذكره فى كلام القضاعىّ دليـل ٱعتنائه بشأنها وميله إليها ، وحينئذ فلا منافاة بين النسبتين .

وذكر فى "الروض المعطـار" أنه كان له ضَيْعة على القرب من رشيد من بلاد الديار المصرية ، يدخل عليه منها فى كل سنة خمسون ألف دينار لم تجب عليه فيها زكاة .

العمل الثـالث ــ الشرقية . وهو مصاقب للضواحى من شَمَاليها ممـا يلى جهة المُقَطَّم ، والقليوبية من جهة الشمال أيضا ، وهو من أعظم الأعمـال وأوسـعها . إلا أن البساتين فيه قليلة بل تكاد أن تكون معدومة : لاتصاله بالسِّباخ وبَدَاوة غالب أهله ، وآخر العمران فيها من جهة الشَّمال الصَّالِحيَّة ، وماوراء ذلك منقطَع رمال على ما تقـدّم ذكره فى المنقطع عنها من جهة الشرق ، ومَقَرُّ ولايته مدينة بِلْبِيس (1) .

قال فى "تقويم البُلْدان" : ــ بكسر البـاء الموحدة وسكون اللام وفتح البـاء الموحدة

(1) قال فى القاموس "بلبيس كغرنيق وقد يفتح أوله بلد بمصر" وضبطه ياقوت بكسر الباءين وسكون اللام .

وسكون المثناة تحت ثم سين مهملة . كذا ذكره ، والجارى على الألسنة ضم الباء فى أولها ، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن يكون طولها أربعا وخمسين درجة وثلاثين دقيقة ، وعَرْضها ثلاثين درجةً وعشر دقائق . وهى مدينة متوسطة بها المساجد والمدارس والأسواق ، وهى مَحَطُّ رحال الدرب الشامىّ . وفى الركن الشمالىّ الجنوبىّ من هذا العمل (بِنْها) . قال النووىّ فى شرح مسلم : بكسر الباء والمعروف فتحها ، وهى البلدة التى أهدى المُقَوْقِسُ إلى النبىّ صلّى الله عليه وسلم من عَسَلِهَا ؛ وفى آخره من جهة الشرق (قَطْيَا) بفتح القاف وسكون الطاء المهملة وفتح الياء المثناة تحت وألف فى الآخر . كذا وقع فى "التعريف" و"مسالك الأبصار" : وفى "تقويم البُلْدان" : إبدال الألف فى آخره بهاء ، وهى قرية بالرمل المعروف بالجفَار على طريق الشأم على القُرب من ساحل البحر الرومىّ .

قال فى "التعريف" : وقد جعلت لأخذ المُوجَبات ، وحفظ الطُّرُقات ، وأمرها مهمّ ، ومنها يطالع بكل صادر ووارد .

العمل الرابع - (الدَّقَهْلِيَّةُ والمُرْتاحية) . وهو مُصَاقِبٌ لعمل الشرقية من جهة الشَّمال ، وأواخره تنتهى إلى السِّباخ وإلى بحيرة تِنِّيس المتصلة بالطينة من طريق الشأم ، ومقرّ الولاية به (مدينة أُشْمُومَ) بضم الهمزة وإسكان الشين المعجمة وبعدها ميم ثم واو وميم ثانية - كما ضبطه فى "تقويم البُلْدان" ونقله عن خط ياقوت فى "المشترك" والذى فى "اللُّبَابِ" إبدال الميم فى آخرها بنون ، وعزاه فى "تقويم البلدان" للعامّة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولها أربع وخمسون درجة ، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وأربع وخمسون دقيقة . وهى مدينة صغيرة على ضَفَّةِ الفرقة

التى تذهب إلىٰ بُحَيرة تِنِّيس من فرقة النيل الشرقيـة من الجهة (١) ؛ و بآخر هذا العمل (مدينة دِمْياط) بكسر الدال المهملة وسكون الميم و ياء مثناة من تحت وألف وطاء — قال فى "الأطوال" : طولهـا ثلاث وخمسون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة .

وقال آبن سعيد : طولها أربع وخمسون درجة ،وعَرْضها إحدىٰ وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . وهى واقعة فى الإقليم الثالث ؛وهى مدينة حَسَنة عند مَصبِّ الفرقة الشرقية من النيل فى بحر الروم ،ذات أسواق وحَمَّامات،وكان عليها أسوار من عمارة المتوكل: أحد خلفاء بنى العبّاس، فلما تسلطت عليها الفرنج وملكتها مرّة بعد مرّة، خَرَّبت المسلمون أسوارَها فى سنة ثمـان وأربعين وستمائة خوفا من آستيلائهم عليها، وهى علىٰ ذلك إلىٰ الآن، ولهـا ولاية خاصَّة بها .

الشُّـــعبة الثـانية

(غربىّ فرقة النيل الغربية ؛ وفيها عملان)

العمل الأوّل — عمل البُحَيرة . وهو ممـا يلى عمل الجيزة المقدّم ذكره من الجهة البحرية ،وهوعمل واسع ،كثيرالقرىٰ، فسيح الأَرَضين. ومقرّ ولايته (مدينة دَمَنْهُور) — بفتح الدال المهملة والمـيم وسكون النون وضم الهـاء وسكون الواو و فى آخرها راء مهملة —وتعرف بدَمَنْهُور الوَحْش . وهى مدينة متوسطة ذات مساجدَ ومدارسَ وأسواق وحمامات . وموقعها فى الإقليم الثالث ؛ ولم يتحرّر لى طُولها وعَرضها، غير أنها علىٰ نحو مرحلة من الإسكندرية بين الشرق والجنوب فليعتبر طولهـا وعرضها منها بالتقريب .

قلت : ويدخل فى هذا العمل حَوْف رمسيس والكُفُور الشاسعة .

(١) لعله من الجهة الشرقية .

العـمل الثانى ـ عمل المزاحمتين . وهو ماجاور خليج الإسْكَنْدَرِيَّةِ من جهة الشمال إلىٰ البحر الرومىّ ، وبعضه بالبر الشرقىّ من النيل ، وحاضرته (مدينة فُوَّة) .
قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الفاء وتشديد الواو ، وهى مدينة متوسطة بالبر الشرقىّ من فرقة النيل الغربية يقابلها جزيرة لهـا تعرف بجزيرة الذهب ذاتُ بساتين وأشجار ومَنْظَرٍ رائق ، وليس بها ولاية . وإنمـا يكون بها شَادٌّ للخاص ، يتحدّث فى كثير من أمور الولاية ، وهى فى الحقيقة كإحدى قُرَى مع قُوص .

ويلى هذين العملين غربا بشَمال (مدينةُ الإسْكَنْدَرِيَّة) ـ بكسر الهمزة وسكون السين المهملة وفتح الكاف وسكون النون وفتح الدال وكسر الراء المهملتين وتشديد الياء المثناة تحت المفتوحة وهاء فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الثالث .

قال فى كتاب "الأطوال" : طولهـا إحدىٰ وخمسون درجة وأربع وخمسون دقيقة ، وعرضها ثلاثون درجة وثمـانٌ وخمسون دقيقة ، وقد تقدّم القول علىٰ أصل عِمارتها فى الكلام علىٰ قواعد الديار المصرية قبل الإسلام .

وهى الآن بالنسبة إلىٰ ماتشهد به التواريخ من بنائها القديم جزءٌ من كلٍّ ، وهى مع ذلك مدينة رائقة المَنْظَرِ ، حسنة الترصيف ، مبنية بالحجر والكِلْسِ ، مُبَيَّضَةُ البيوت ظاهرا وباطنا كأنها حَمَامةٌ بيضاء ، ذات شوارع مُشْرِعة ، كلُّ خط قائم بذاته كأنها رُقْعة الشِّطْرَنْجِ ، يستدير بها سُورانِ منيعان ، يدور عليهما من خارجهما خَنْدَقٌ فى جوانب البلد المتصلة بالبر ، ويتصل البحر بظاهرها من الجانب الغربىّ ممـا يلى الشَّمال إلىٰ المشرق حيث دارُ النيـابة ؛ وبهما أبراج حصينة عليها الســتائر المسترة والمجانيق المنصوبة .

قال ابن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : ويقـال إن مَنارها كان فى وسط البلد وإن المدينة كانت سبع مَحَجَّات ، وإنمـا أكَلَهَا البحرُ ، ولم يبق إلا مَحَجَّة واحدة ،

وهى المدينة الباقية الآن وصار مكانُ المنار منها على مســيرة ميل . قال : ويقال إن مساجدها أُحصيتْ فى وقت من الأوقات فكانت عشرين ألف مســجد ؛ وبها الجوامع والمساجد، والمدارس ، والخَوَانق ، والرُّبُط ، والزوايا ، والحَمَّامات ، والدِّيار الجليلة ، والأسواق الممتدّة . وفيها يُنْسَج القماش الفائق الذى ليس له نظير فى الدنيا ، وإليها تهوِى ركائب التجار فى البر والبحر ، وتَمير من قُمَاشِهَا جميع أقطار الأرض ، وهى فُرْضَــةُ بلاد المغرب ، والأَنْدَلُس ، وجزائر الفرنج ، وبلاد الروم ، والشأم . وشُرْب أهلها من ماء النيل : من صهاريج تملأ من الخليج الواصل إلىٰ داخل دُورها ، وٱستعمال المـاء لعامّة الأمر من آبارها ، وبِجَنَبَات تلك الآبار والصهاريج بالُوعاتٌ تصرف منها مياه الأمطار ونحوها ؛ وبها البساتين الأنيقة ، والمستنْزَهات الفائقة ، ولهم بها القصور والجَواسِق الدقيقة البناء ، المحكمة الجُدُرِ والأبواب ؛ وبها من الفواكه والثِّمار ما يفوق فواكه غيرها من الديار المصرية حُسنا مع رِخَص الثمن ؛ وليس بها مزارعُ ولا لهـا عملٌ واسع ، وإن كان متحصِّلها يعدل أعمالا : من واصل البحر وغيره ؛ وهى أجلُّ ثغور الديار المصرية ، لا يزال أهلها علىٰ يقظة من أمور البحر والآحتراز من العدوّ الطارق ؛ وبها عسكر مستخدم لحفظها .

قال فى "مسالك الأبصار" : وليس بالديار المصرية مدينة حاكمها موسوم بنيابة السلطنة سواها .

قلت : وهــذا فيما تقدّم حين كانت النيابة بها صـغيرة فى معنىٰ ولاية . أما مِن حين طرقها العدوّ المخذول من الفرنج فى ســنة سبع وستين وسبعمائة وٱجتاحَ أهلها وقتل وسبىٰ ، فإنها ٱستقرّت من حينئذ نيابةً كبرىٰ تضاهى نيابة طرابُلُس وحَمَـاة وما فى معناهما ، وهى علىٰ ذلك إلىٰ الآن ؛ وسيأتى الكلام علىٰ نيابتها فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ .

الشُّـــعْبة الثـالثة

(مابين فِرقَى النيل الشرقية والغربية، وهو جزيرتان)

الجزيرة الأولىٰ ـ جانبها الشرقىّ يمتدّ فى طول فرقة النيل الشرقيــة إلىٰ مَصَبّه فى البحر المِلْح حيث دِمْياط بالقرب منها، وجانبها الغربىّ يمتدّ فى طول فرقة النيل الغربيــة إلىٰ تُجاه أبى نُشَّابة من عمل الجيزة فينشأ بحرُ أبيـار المتقـدّمُ ذكره ويمتدّ فى طولهـا إلىٰ قرية الفَرسْـتَق خارجَ الجزيرة من الغرب فيتصلُ بفرقة النيل التى تفترع منها علىٰ ماتقدّم، ويمتدّ فى طولها إلىٰ مصبه فى البحر الملح حيث رشيد .

وتشتمل هذه الجزيرة علىٰ عملين :

العمل الأوّل ـ المُنُوفيــة . وأوّله من الجنوب من القرية المعروفة بشَطَّنُوف علىٰ أوّل الفرقة الغربية من النيل، ومقرّ ولايته (مدينة مُنُوف)[1] ـ بضم الميم والنون وسكون الواو وفاء فى الآخر)، وهى مدينة إسلامية بنيت بدلا من مدينة قديمة كانت هناك قد خربت الآن وبقيت آثارها كيانا، وولايتها من أنفس الولايات، وقد اضيف إليها عمل أبيار، وهو جزيرة بنى نصر الآتى ذكرها فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ، وهى مدينة حسنة ذات أسواق، ومساجد، ومسجد جليل للخطبة، وحَمَّام، وخانات .

قلت : وربما غلط فيها بعض الناس فظنّ أنها مَنْف المتقدّمة الذكر فى الكلام علىٰ قواعد مصر القديمة، وبينهما بُعْد كثير إذ مَنْفُ المتقدّمة الذكر جنوبىّ الفُسْطَاط علىٰ اثنى عشر ميلا منه كما تقدّم ذكره، وهذه شمالىّ الفُسْطَاط والقاهرة فى أسفل الأرض .

العمل الثـانى ـ الغَرْبيّة . وهو مُصَاقِبٌ للمنوفية من جهة الشمال، ويمتدّ إلىٰ البحر المِلْح بين مصبّى النيل إلا ماهو من عمل المزاحمتين علىٰ فرقة النيل الغربية من

---

(١) ضبطها ياقوت والقاموس بالفتح وتبعناهما فى كثير من المواضع .

الشرق، وهو عمل جليل القدر، عظيم الخَطَر، به البلاد الحسنة ، والقرى الزاهية، والبساتين المتراكبة وغير ذلك، وفى آخره مما يلى بحر الروم موقع ثَغْر البَرَلُّس .

ويندرج فيه ثلاثة أعمـال أخر كانت قديمة ، وهى القُوَيْسِنِيَّة ، والسَّمَنُّودية ، والدِّنجاوية، ومقرّ ولايته (مدينة المَحَلَّة) . قال فى "المشترك" : ـ بفتح الميم والحاء المهملة وتشديد اللام ثم هاء فى الآخر ـ وتعرف بالمَحَلَّة الكُبْرىٰ، وقد غلب عليها اسم المحلة حتّى صار لا يفهم عند الإطلاق إلا هى .

قلت : ووقع فى "التعريف" : التعبـير عنها بمَحَلَّة المرحوم وهو وَهَمٌ ، وإنما هى قرية من قراها .

قال فى "المشترك" : ويقال لها محلة الدَّقَلا (بفتح الدّال المهملة والقاف) وهى مدينة عظيمة الشأن ، جليلة المقدار، رائقة المَنْظَر، حسنة البناء، كثيرة الساكن ، ذات جوامع ،ومدارس، وأسواق، وحَمَّامات، وهى تعادل قُوص من الوجه القبلىّ فى جلالة قدرهـا، وريـاسـة أهلها، ويفرق بينهما بمـا يفرق به بين الوجه القبلى والوجه البحرى من الرطوبة واليبوسة .

الجزيرة الثانية ـ مابين بحر أَبْيَارَ المتقدّم ذكره وبين الفرقة الغربية من النيل، وتعرف بجزيرة بنى نَصْر، وهى عمل واحد، وحاضرته (مدينة أَبْيَارَ) ـ بفتح الهمزة كما قاله فى "الروض المعطار" وإسكان الباء الموحدة وفتح المثناة تحت وبعدها ألف ثم راء مهملة ـ وهى مدينة لطيفة حسـنة المَنْظَرِ يُعمل فيها القُماش الفائق من المحرّرات وغيرها، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة، ولم يتحرّر لى طولها ولا عرضها، وهى مضافة إلىٰ ولاية مُنُوف، وليس بها الآن ولاية مستقلة .

الفصـــل الثالث

(فيمن ملك الديار المصرية ، جاهليةً وإسلاما)

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" : وكانت أهل مصر أهلَ مُلْك عظيم فى الدهور الخالية والأزمان السالفة ، ما بين قبطىّ ويونانىّ وعمليقىّ ، وأكثرهم القِبْط . قال : وأكثر من تملك مصر الغُرَبَاء .

وهم على ثلاث مراتب :

المرتبـــة الأولى

(من ملكها قبل الطُّوفان ، وقلَّ من تعرّض له من المؤرّخين)

قد تقدّم فى الكلام على آبتداء عمارة مصر أن أوّل من عَمَرها قبل الطوفان نقراووس بن مصريم بن براجيل بن رزائيل بن غرباب بن آدم عليه السلام ، ومعنى نقراووس بالسريانية مَلِكُ قومه ، وهو الذى عَمَر مدينة أمسوس أوّل قواعد مصر المتقدّم ذكرها ؛ ثم ملكها بعده آبنه نقراووس الثانى مائة وسبع سنين ؛ ثم ملكها بعده أخوه مصرام بن نقراووس الأوّل ؛ ثم ملكها بعده عنقام الكاهن ولم تطل مدّة ملكه ؛ ويقال إن إدريس عليه السلام رُفِع فى زمانه ؛ ثم ملكها بعده آبنه غرناق ؛ ثم ملك بعده رجل من بنى نقراووس آسمه لوجيم ؛ ثم ملك بعده رجل آسمه خصليم ، وهو أوّل من عمل المِقْياس للنيل على ما تقدّم ذكره ؛ ثم ملك بعده آبنه هرصال ، ومعناه بالسريانية خادم الزُّهَرَةِ ، وهى مدينة شرق النيل ، وعمل سَرَبًا تحت النيل إليها ، وهو أوّل من عمل ذلك وأقام فى الملك مائة وأربعا وثلاثين سنة ، ويقال إن نوحا عليه السلام ولد فى زمانه ؛ ثم ملك بعده آبنه بُدْرسَان ؛ ثم ملك بعده أخوه شمرود ، وكان طوله فيما يقال عشرين ذراعا ؛ ثم ملك بعده فرسيدون بن بُدْرسان المتقدّم ذكره مائة وستين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه شرناق مائة وثلاث سنين ؛

ثم ملك بعده ٱبنه سهلوق مائة وتسع سنين؛ ثم ملك بعده ٱبنه سُوريدين،وهو الذى بنىٰ الأهرام العظام بمصر علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ عجائب مصر وخواصّها؛ ثم ملك بعــده ٱبنه هرجيب نَيّفًا وسبعين ســنة ، وهو الذى بنىٰ الهرم الأوّل من أهرام دهشور؛ ثم ملك بعده ٱبنه مناوش ثلاثا وسبعين ســنة؛ ثم ملك بعده ٱبنه أقروس أربعا وستين ســنة؛ وفى أيامه حصل القحط العظيم، وسلطت الوحوش والتماسيح علىٰ الناس ، وأعْقَمَتِ الأرحام حتّى يقــال إن الملك تزوّج ثلثمائة ٱمرأة يبغى الولد فلم يُولد له ، وذلك مقدّمة الطوفان ؛ ثم ملك بعده رجل من أهل بيت الملك ٱسمه أرمالينوس؛ ثم ملك بعده ٱبن عمه فرعان، وهو أوّل من لقب بلقب الفراعنة،وكان قد كتب إلىٰ ملك بابل يشير عليه بقتل نوح عليه السلام،وفى زمنه كان الطوفان وهلك فيمن هلك .

المرتبــــة الثــانية

(من ملكها بعد الطوفان إلىٰ حين الفتح الإسلامىّ)

وللمؤرّخين فى ذلك خُلْف كثير، وقد جمعت بين كلام التواريخ التى وقفتُ عليها فى ذلك، وهم علىٰ طبقات .

الطبقة الأولىٰ

(ملوكها من القبْط)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ٱبتداء عمارتها أن أوّل من عمرها بعد الطوفان بيصر بن حام بن نوح عليه السلام ، وكان بيصر قد كَبِر سنه وضعُف، فأقام يسيرا ثم مات، فدفن فى موضع دير ابى هرميس غربىّ الأهرام . قال القضاعىّ،ويقال إنها أوّل مقْبُرة دفن فيهــا بأرض مصر؛ وملك بعــده ٱبنه مصر فعمر وطالت مدّة ملكه،

وعَمَرت البلاد فى أيامه وكَثُر خيرها، ثم مات؛ وملك بعده ٱبنه (قِبْطِيم)، وإليه يُنْسب القِبْطُ، ويقال إنه أدرك بَلْبَلَة الألسُن التى كانت بعد نوح عليه السلام، وهى ريح خرجت عليهم ففرّقت بينهـم وصار كل منهم يتكلم بلغة غير لغة الآخر، وخرج منها باللغة القِبْطِيَّة؛ ثم ملك بعده ٱبنه (قِفْط)، وهو الذى بنى مدينة قِفْط بالصعيد الأعلى وسمـاها بٱسمه، وآثارها باقية إلى الآن؛ ثم ملك بعده أخوه (أُشْمُن)، وهو الذى بنى مدينة الأُشْمُونَيْن المتقـدّم ذكرها بالوجه القبلىّ، وطالت مدّته حتّى نُقِل أنه بقى ثمانمائة سنة، وقيل ثمـانمائة وثلاثين؛ ثم ملك بعده أخوه (أَتْرِيب)، وهو الذى بنى مدينة أَتْرِيبَ المتقـدّمة الذكر بالوجه البحرىّ من الديار المصرية؛ ثم ملك بعـده أخوه (صا)، وهو الذى بنى مدينة صَا المتقدّم ذكرها بالوجه البحرىّ أيضا؛ ثم ملك بعده (قفطريم) بن قِفْط، ويقال إنه الذى وضع أساس الأهرام الدهشورية غير الهرم الأوّل الذى بناه هرجيب المتقدّم ذكره قبل الطُّوفان، وهو الذى بنى مدينة دَنْدَرى بالصعيد الأعلى، وآثارها باقية إلى الآن؛ ثم ملك بعده ٱبنه (بودشير)، وهو الذى أصلح جَنَبتى النيل بهندسته؛ ثم ملك بعده ٱبنه (عديم)؛ ثم ملك بعده ٱبنه (شدات)، وهو الذى تمم الأهرام الدهشورية التى وضع أساسها قفطريم المتقدّم ذكره . ويقال : إن مدينة شُطْب التى بالقرب من مدينة أُسْيُوطَ بنيت فى أيامه، وآثارها باقية إلى الآن، وهو أوّل من ولع بالصيد وٱتخذ الجوارح والكلاب السلُوقيه، وعمل البيطرة من ملوك مصر، ومات عن أربعمائة وأربعين سنة؛ ثم ملك بعده ٱبنه (منقاوش)، ويقال إنه أوّل من عُمِل له الحَمَّام بمصر؛ ثم ملك بعده ٱبنه (مناوش) وطالت مدّته فى الملك حتّى بقى فيما يقال ثمانمائة سنة، وقيل ثمـانمائة وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده (منقاوش) بن أُشْمن نيفا وأربعين سنة، وقيل ستين سنة، وهو أوّل من عمل له المَيْدَانُ بمصر، وأوّل من بنى البيمارستـان لعلاج المرضى، وفى أيامه بنيت مدينة سنتريه

بالْوَاحَاتِ ،ثم ملك بعده ٱبنه (مرقوره) نيّفا وثلاثين سنة ، وفى كتب القِبْط أنه أوّل من ذلل السباع وركبها ؛ ثم ملك بعده (بلاطس) خمسا وعشرين سنة ؛ ثم ملكت بعده بنت من بنات أَتْرِيبَ خمسا وثلاثين ســنة ، وهى أوّل من ملك مصر من النساء ؛ ثم ملك بعدها أخوها (قليمون) تسعين سنة ، وفى أيامه بنيت مدينةُ دِمْيَاطَ علىٰ ٱسم غلام له كانت أمه ساحرة له ، وفى أيامه بنيت أيضا مدينة تِنِّيسَ ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (فرسون) مائتين وستين سنة ؛ ثم ملك بعده ثلاثة ملوك أو أربعةٌ لم يعين ٱسمهم ؛ ثم ملك بعدهم (مرقونس) الكاهن ثلاثا وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (ايساد) خمسا وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (صا) وأكثر القبط تزعم أنه أخوه ، نيفا وثلاثين سنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (تدراس) ، وهو الذى حفر خليج سخا المتقدّم ذكره فى خُلْجَانِ مصر القــديمة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (ماليق) ، ويقال إنه خالف دينَ آبائه فى عبادة الأصــنام ، ودان بدين التوحيد . ولـما أحس بالموت ، صنَعَ له ناوُوسا وكنز معه كنوزا عظيمة ، وكتب عليها أنه لا يستخرجها إلا أمة النبيّ الذى يبعث فى آخر الزمان ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (حربا) ، وفى بعض التواريخ حرايا خمسا وسبعين سنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (كلكن) ، وفى بعض التواريخ كلكى نحوا من مائة سنة ، وهو أوّل من أظهر عِلْمَ الكيمياء بمصر ، وكان قبل ذلك مكتوما ، وفى زمنه كان النُّمْرُوذُ بأرض بابل من العراق ؛ ثم ملك بعده أخوه (ماليا) ؛ ثم ملك بعده (حربيا) بن ماليق ؛ ثم ملك بعده (طوطيس) بن ماليا ، وفى بعض التواريخ طوليس سبعين سنة ، وفى بعض التواريخ أنه ملك بعد أبيه ماليا ، والقبط تزعم أن الفراعنة سبعة هو أوّلهم ، وهو الذى أهدىٰ هَاجَرَ لإبراهيم عليه السلام ؛ ثم ملكت بعده أخته (حوريا) ، وهى التى بنىٰ لهـا جيرون المؤتفكىّ صاحبُ الشام مدينــة الإسْكَنْدرِيَّةِ حين خطبها علىٰ أحد الأقوال فى عمارتها ليجعلها مهرا لها ، ثم ٱحتالت عليه فسمّته هو وجميع عسكره

فى خلع فماتوا ؛ ثم ملكت بعدها بنت عمها (زلفى) ويقال دلفه بنت مأموم ؛ ثم ملك بعدها (أيمين) الأَتْرِيبِىُّ ، وهو آخر ملوك القِبْطِ من هذه الطبقة . والذى ذكره القضاعىّ وغيره أنه ملكها بعد وفاة بيصر ٱبنهُ مصر ، ثم قِفْط بن مصر ، ثم أخوه أُشْمن ، ثم أخوه أَتْرِيبُ ، ثم أخوه صا ، ثم ٱبنه تدراس ، ثم ٱبنه ماليق ، ثم ٱبنه حريا ، ثم ٱبنه كلكن ، ثم أخوه ماليا ، ثم حربيا ، ثم طوطيس بن ماليا ، ثم ٱبنته حوريا ، وهى أوّل من ملكها من النساء ، ثم ٱبنة عمها زلفى ، ومنها ٱنتزعتها العمالقة الآتى ذكرهم .

الطبقة الثانية

(ملوكها من العماليق ملوك الشام)

أوّل من ملكها منهم (الوليد) بن دومع العِمْليق ، وقال السهيلىّ : الوليد بن عمرو ابن أراشة . اقتلعها من أيمين : آخرِ ملوك القِبْط المتقدّم ذكره ، وهو الفرعون الثانى عند القِبْطِ ، وقيل هو أوّل من سمى بفرعون ، وقام فى الملك مائة وعشرين سنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (الرَّيَّان) مائة وعشرين سنة ، والقِبْطُ تسميه نهراوس ، وهو الفرعون الثالث عند القِبْط ، ونزل مدينة عَيْنِ شَمْسٍ ، وكانت الملوك قبله تنزل مدينة مَنْفٍ ، وفى أيامه وصل يوسف عليه السلام إلىٰ مصر ، وكان من أمره ما قصه الله تعالىٰ فى كتابه . ويقال : إنه آمن بيوسفَ عليه السلام ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (دارم) ويقال دريوس ، وهو الفرعون الرابع عند القِبْطِ ، وفى أيامه توفِّىَ يوسفُ عليه السلام ، وفى أيامه ظهر بمصر معْدِن فضة علىٰ ثلاثة أيام فى النيل ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (معدان) ويقال معاديوس ، وهو الفرعون الخامس عند القِبْطِ ، إحدىٰ وثلاثين سنة ؛ ثم ملك بعده ٱبنه (أقسامس) وهو الفرعون السادس عند القِبْط ، وبعضهم يزعم أن منارة الإِسْكَنْدرِيَّةِ بنيت فى زمنه ، وأهل الأثر يسمونه كاسم ، وربما قالوا كامس ؛

ثم ملك بعده آبنه (لاطس) ؛ ثم ملك بعده رجل آسمه (ظلما) كان من عُمَّاله فخرج عليه فقتله وملك مكانه، وهو الفرعون السابع عند القِبْط، وهو فرعون موسىٰ .

قال المسـعودىّ : وهو الوليد بن مصعب الموجود فى كتب الأثر، والوليـد بن مصعب هو فرعون موسىٰ وهو الوليد بن مصعب بن عمرو بن معاوية بن أراشـة، يجتمع مع الوليد بن دومع فى أراشة، وهو آخر مَنْ ملك مصر من العمالقة، و بعضهم يقول ظلما بن قومس من ولد أُشمون أحد ملوك القِبْط المتقدّم ذكرهم ؛ وعلىٰ هذا فيكون فرعون موسىٰ من القِبط، وهو أحد الأقوال فيه ، وهو الذى يعوّل عليه القِبْط، و يوردونه فى كتبهم، وآخَرُون يجعلونه من لَخْم من الشأم، والظاهر الأوّل، وهو أوّل من عَرَّف العرفاء علىٰ الناس، وفى زمنه حفر خليج سَرْدوس المتقدّم ذكره فى خُلْجان النيل، و يقال : إنه عاش دهرا طويلا لم يمرض ولم يشكُ وجعا إلىٰ أن أهلكه الله تعالىٰ بالغَرَق . (١)

الطبقة الثـالثة

(ملوكها من القِبْط بعد العمالقة)

أوّل من ملكها منهم بعد فرعون دَلُوكة، وطالت مدّتها فى الملك حتّى عرفت بالعَجُوز، وإليها ينسب حائط العجوز المبنىّ بالطوب اللَّبِنِ المستدير علىٰ بلاد مصر فى لِحْف الجبلين : الشرقىّ والغربىّ ؛ وأثره باق بالوجه القبلىّ إلىٰ الآن، ويقال إنها التى بنت البرابِىَ بمصر ؛ ثم ملك بعدها رجل من أبنـاء أكابر القِبطِ آسمه (دركون) بن بطلوس، ويقال دركوس بن ملوطس ؛ ثم ملك بعده رجل آسمه (تودس) ثم ملك بعده آبنه (لقاش) نحوا من خمسين سنة ؛ ثم ملك بعده (مرينا) بن لقاش نحوا من عشرين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه (بلطوس) ويقال بلوطس بن ميا كيل أربعين سنة ؛ ثم ملك

(١) تنبيه وقع اختلاف فيا بأيدينا من الكتب فى أسماء الملوك وترتيبهم فى هذا والذى بعده فعوّلنا على الاصل

بعده (مالوس) ويقال فالوس بن توطيس عشر سنين ؛ ثم ملك بعده ميا كيل .
قال المسعودىّ : وهو فرعون الأعرج الذى غزا بنى إسرائيل وخرّب بيت المقدس ، ثم ملك بعده (نوله) وهو الذى غزا رُحبعُم بن سليمان عليه السلام بالشام ، وقيل إن الذى غزا رحبعم كان آسمه شيشاق . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وهو الأصح . قال : ثم لم يشتهر بعد شيشاق المذكور غير فرعون الأعرج ، وهو الذى غزاه بُخْتَنَصَّر وصلبه ، والذى ذكره المسعودىّ أنه ملك بعد ميا كيل المتقدّم ذكره (مرنيوس) ؛ ثم ملك بعده آبنه (بغاش) ثمانين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه (قومس) عشرين سنة ؛ ثم ملك بعده آبنه كاييل .

قال المسعودىّ : وهو الذى غزاه بختنصر وصلبه وخرب مصر ، وبقيت مصر أربعين سنة خرابا .

الطبقة الرابعة

(ملوكها من الفُرْس)

أوّل من ملكها فى جملة مملكة الفرس (بهراسف) بواسطة أن بُخْتَنَصَّر كان نائبا له ومن حين آستولى عليها بُخْتَنَصَّر ، توالت عليها الولاة من جهته ، وهو ببابل سبعا وخمسين سنة وشهرا كما ذكر صاحب حماة إلى أن مات ، فولى بعده آبنه (أولات) سنةً واحدةً ؛ ثم أوليها بعده خوه (بلطشاش) بن بُخْتَنَصَّر ، ثم آستقرت مصر والشام بأيدى نوّاب الفُرْسِ عن ملوكهم .

فلما مات بهراسف ، ملك بعده كيبستاسف ؛ ثم ملك بعده آبنه أرْدَشِير بَهْمَن آبن آسفيديار بن كيبستاسف ، وآنبسطت يده حتّى ملك الأقاليم السبعة ؛ ثم ملك بعده آبنه (دارا) ، وفى زمنه ملك الإسْكَنْدَرُ بن فيلبس على اليونان فقصده ، فلما قرب

منه قتله جماعة من قومه، ولحقوا بالإسْكَنْدَرِ، وهو آخر مَنْ ملك مصر من الفُرْسِ، ولم أقف علىٰ تفصيل نوّاب الفُرْسِ بمصر إلا أنه كان منهم كسرجوس الفارسىّ، وهو الذى بنىٰ قصر الشَّمَع بالفُسْطَاطِ علىٰ ماتقدّم ذكره، وبعده (طحارست) الطويل، وفى أيامه كان بقراط الحكيم.

الطبقة الخـامسة

(ملوكـها من اليونـان)

أوّل من ملكها منهم (الإسْكَنْدَرُ بن فيلبس) حين غلب دارا مَلِكَ الفُرْسِ علىٰ مُلْكِه وآستولىٰ علىٰ ما كان بيده، وكان مقرّ ملكه مَقْدُونِيَةَ من بلاد الروم القديمة، وآنحاز له ملك العراق، والشـام، ومصر، وبلاد العرب. فلمـا مات تفرّقت ممـالكه بين الملوك، فَمَلَكَ مصرَ ونواحىَ الغرب البَطَالِسَةُ من ملوك اليونان، كان كلٌّ منهم يلقب بَطْلَيْمُوسُ.

فأوّل من ملكها منهم (بَطْلَيْمُوسُ المنطيق) عشرين سنة، ويقال: إنه أوّل من لعب بالبُزَاة وضَرَّاها، ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ مُحِبُّ أخيه) أربعين سنة، وقيل ثمـانا وثلاثين سنة، وهو الذى نقل التَّوْرَاةَ من العبْرَانِيَّة إلىٰ اليونانية؛ وفى أيامه ظهرت عبادة التمـاثيل والأصنام؛ ثم ملك بعــده (بَطْلَيْمُوسُ الصَّائغ) خمسا، وقيـل ستا وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ مُحِبُّ أبيه) سبع عشرة سنة؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ صاحب علم الفلك) أربعا وعشرين سنة، وهو الذى ألَّف كتاب المجسطى؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ مُحِبُّ أمه) سبعا وعشرين سنة؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ الصائغ الثانى) ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ المُخْلِصُ) ست عشرة سنة، وقيل سبع عشرة؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ الإسْكَنْدَرانِىّ) تسع سنيـن، وقيل آثنتى عشرة سـنة؛

ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ اسكندروس) ثلاث سنين؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ مُحِبُّ أخيه) الثانى ثمان سنين؛ ثم ملك بعده (بَطْلَيْمُوسُ دوتيسوس)؛ ثم ملكت بعده آبنته قلوبطرا آثنتين وعشرين سنة ، و بزوالها آنقرض ملك اليونان عن مصر وزال .

الطبقة السادسة

(ملوكها من الروم)

أوّل من ملكها منهم (أغشطش) . يقال بشينين معجمتين ومهملتين ولَقَبُهُ قَيْصَرُ ، وهو أوّل من تلقب به ، ثم صار عَلَمًا على ملوك الروم .

قصد قلوبطرا المتقدّم ذكرها ، فلما أَحَسَّتْ بقربه منها ، عمدت إلى مجلسها فجعلت فيه الرياحين والمشموم ، وأعملت الفكر فى تحصيل حية إذا نهشت الإنسان مات لحينه ولم يتغير حاله ، فقربت يدها منها حتّى ألقت سمها فى يدها ، وآنسابت الحية فى الرياحين ، وجاء أغشطش فوضع يده فى الرياحين فنهشته الحية ، فبقى يوما ومات بعد أن ملك الروم ثلاثا وأربعين سنة . وفى أيامه ولد المسيح عليه السلام ؛ ثم ملك بعده الرومَ ومصر طيباريوس ، ويقال طبريوس ، ويقال طبريس آثنتين وعشرين سنة . قال المسعودىّ : وفى زمنه رفع المسيح عليه السلام . قال : ولما مات أغشطش ، آختلف الروم وتحزبوا وتنازعوا فى الملك مائتين وثمانيا وتسعين سنة ، لانظام لهم ، ولا ملك يجمعهم ؛ ثم ملكهم عانيوس . قال صاحب حماة : وكان رفع المسيح فى زمنه ، وهو مخالفٌ لما تقدّم من كلام المسعودىّ ؛ ثم ملك بعده قلديوس (١) أربع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده نارون ثلاث عشرة سنة ، وهو الذى قتل بطرس و بولص الحواريَّيْن برومية وصلبهما ؛ ثم ملك بعده

(١) فى المسعودىّ فلوريوس . و بالجملة فبين ما بأيدينا من الكتب آختلاف فى هذه الأسماء فعوّلنا على المخطوط والله أعلم .

ساسانوس عشر سنين ؛ ثم ملك بعـده طيطوس سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده دومطيتوش ، ويقال اديطانش خمس عشرة سنة ، وكان على عبادة الأصـنام فتتبع اليهود والنصارىٰ وقتلهم ؛ ثم ملك بعده ادريانوس ســتا وثلاثين سنة فأصابته علة الجذام فسار إلىٰ مصر يطلبُ طِبًّا لذلك فلم يظفر به ومات بعِلَّتهِ ؛ ثم ملك بعــده ايطيثوس ، ويقال ابطاوليس ثلاثا وعشرين ســنة ، وهو الذى بنىٰ بيت المَقْدِس بعد تخريبه الثانيةَ وسماه إيليا ، ومعناه بيت الرب ، وهو أوّل من سماه بذلك ؛ ثم ملك بعده مرقوس ، ويقال قومودوس سبع عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده قومودوس ثلاث عشرة سنة ، وكان دين النصارىٰ قد ظهر فى أيامه ؛ وفى زمنه كان جالينوس الحكيم ؛ ثم ملك بعــده قوطنجوس ستة أشهر ؛ ثم ملك بعده سيوارس ثمـانى عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده ايطيثيوس الثانى أربع سنين ؛ ثم ملك بعده اسكندروس ثلاث عشرة سنة ؛ ثم ملك بعده بكسمينوس ثلاث سنين ؛ ثم ملك بعــده خورديانوس ست سنين ؛ ثم ملك بعده دقيانوس ، وقيل دقيوس سنة واحدة ، فقتل النصارىٰ وأعاد عبادة الأصنام ، ومنه هرب الفِتْيَةُ أصحابُ الكَهْفِ ، وكان من أمرهم ماقص الله تعالىٰ فى كتابه العزيز ؛ ثم ملك بعده غاليوس ثلاث ســنين ؛ ثم ملك بعده علينوس وولديانوس آشتركا فى الملك ، وقيل إن ولديانوس آنفرد بالملك بعد ذلك ، وأقام فيه خمس عشرة ســنة ؛ ثم ملك بعده قلوديوس سنة واحدة ؛ ثم ملك بعده ارديأس ، ويقال اردليانوس ست سنين ؛ ثم ملك بعــده قروقوس سبع سنين ؛ ثم ملك بعده ياروس وشركته سنتين ؛ ثم ملك بعده دقلطيانوس إحدىٰ وعشرين سنة ، وهو آخر عَبَدَة الأصـــنام من ملوك الروم ، و بمهلكه تؤرّخ النصارىٰ إلىٰ اليوم ، وعصىٰ عليه أهل مصر ، فسار إليهم من روميــة ، وقتل منهم خلقا عظيما ، وهم الذين يعبر عنهم النصارىٰ الآن بالشهداء .

ثم ملك بعده قسطنطين المظفر إحدى وثلاثين سنة فسار من رُومِيَةَ إلى قُسْطَنْطِينِيَّةَ وبنى سورها واستقرّت دار ملكهم، وأظهر دين النصرانية وحمل الناس عليه؛ ثم ملك بعده ابنُـه قُسْطَنْطِينُ فشيَّد دينَ النصرانية وبنى الكنائس الكثيرة؛ ثم ملك بعده إليانوس، ويقال إليانس سنة واحدة، وهو ابن أخى قُسْطَنْطِينَ المتقدّم ذكره، فرفض دين النصرانيـة ورجع إلى عبادة الأصنام، وبموته خرج المُلْك عن بنى قُسْطَنْطِينَ؛ ثم ملك بعـده بِطْرِيق من بَطَارقة الروم اسمه بوثيانوس، ويقـال سيوتيانوس سـنة واحدة فأعاد دين النصرانية، ومنع عبادة الأصنام؛ ثم ملك بعده قالنطيانوس أربع عشرة سـنة؛ ثم ملك بعـده خرطيانوس ثلاث سنين؛ ثم ملك بعده باردوسيوس الكبير تسعا وأربعين سـنة؛ ثم ملك بعده ادقاديوس بقُسْطَنْطِينِيَّةَ وشريكه أويوزيوس برُومِيَةَ ثلاث عشرة سنة؛ ثم ملك بعدهما مرقيانوس سبع سنين، وهو الذى بنى دير مارون بِحِمْصَ؛ ثم ملك بعده واليطيس سـنة واحدة؛ ثم ملك بعده لاون الكبير سبع عشرة سنة؛ ثم ملك بعده زيتون ثمـان عشرة سنة؛ ثم ملك بعـده اسطيسوس سبعا وعشرين سنة، وهو الذى عَمَر أسوار مدينة حَمَاة؛ ثم ملك بعـده بوسيطينوس تسع سـنين؛ ثم ملك بعده بوسيطينوس الثانى ثمـانيا وثلاثين سنة؛ ثم ملك بعده طبريوس ثلاث سنين؛ ثم ملك بعده طبريوس الثانى أربع سنين؛ ثم ملك بعده ماريقوس ثمان سنين؛ ثم ملك بعده ماريقوس الثانى، ويقال مرقوس اثنتى عشرة سـنة؛ ثم ملك بعـده قوقاس ثمـان سنين؛ ثم ملك بعده هرقل واسمه بالرومية أوقليس، وهو الذى كتب إليه النبىّ صلّى الله عليه وسلم، يدعوه إلى الإسلام، وكانت الهجرة النبوية فى السنة الثانية عشرة من ملكه.

قال المسـعودىّ: وفى تواريخ أصحاب السير أن رسول الله صـلّى الله عليه وسـلم، هاجر وملك الروم قيصر بن قوق(١)؛ (ثم ملك الرومَ بعده) قَيْصَرُ بن قَيْصَر،

(١) وإليه تنسب الدنانير القوقية (قاموس مادة ق و ق).

وذلك فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه ، وهو الذى حار به أمراء الإسلام بالشام وآقتلعوا الشام منه .

والذى ذكره فى "التعريف" فى مكاتبة الاذفونش صاحب طُلَيْطَلَةَ من ملوك الفرنج بالأَنْدَلُس أن هِرَقْلَ الذى هاجر النبىَّ صلّى الله عليه وسلم فى زمنه وكتب إليه لم يكن الملكَ نفسَه ، وإنما كان متسلم الشام لقيصر، وقَيْصَر بالقُسْطَنْطِينِيَّة لم يَرِمْ ، وأن النبىَّ صلّى الله عليه وسلم إنما كتب لهِرَقْلَ لأنه كان مجاورا لجزيرة العرب من الشام . وعظيمُ بُصْرىٰ كان عاملا له ، ويظهر أن قَيْصَرَ الأخيرَ الذى ذكره هو الذى كان المُقَوْقِسُ عاملا له علىٰ مصر . ويقال : إن المُقَوْقِسَ تَقَبَّلَ مصر من هِرَقْلَ بتسعة عشر ألف ألف دينار .

وآعلم أنه كان الحال يقتضى أن نذكر نوّاب من تقدّم من ملوك الروم واليونان والفُرْس علىٰ مصر ، ولكن أصحاب التواريخ لم تعتَنِ بأمر ذلك ، فتعذر العلم به . وإذا ذكر الأصل ، آستُغْنِىَ به عن الفرع .

وذكر القضاعىّ : أنه بعد عمارة مصر من خراب بُخْتَنَصَّر ظهرت الروم وفارس علىٰ سائر الملوك التى وسط الأرض فقاتلت الرومُ أهلَ مصر ثلاث سنين إلىٰ أن صالحوهم علىٰ شىء فى كل عام ، علىٰ أن يكونوا فى ذمتهم ويمنعوهم من ملوك فارس ، ثم ظهرت فارس علىٰ الروم وغلبوهم علىٰ الشأم وألَحُّوا علىٰ مصر بالقتال ، ثم آستقرّ الحال علىٰ خراج مصر أن يكون بين فارس والروم فى كل عام ، وأقاموا علىٰ ذلك تسع سنين ، ثم غلبت الرومُ فارسَ وأخرجوهم من الشأم وصار ما صولحت عليه أهل مصر كله خالصا للروم ، وجاء الإسلام والأمر علىٰ ذلك .

المرتبـــة الثـالثة

(من وليها فى الإسلام : من بداية الأمر إلىٰ زماننا، وهم علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(فيمن وليها نيابةً، وهو الصدر الأوّل، وهم علىٰ ثلاث طبقات)

الطبقـــة الأُولىٰ

(عُمَّال الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم)

قد تقدّم أنها لم تزل بيد الروم والمُقَوْقِسُ عامل عليها إلىٰ خلافة عمر رضى الله عنه، ولم تزل كذلك إلىٰ أن فتحها عمرو بنُ العاص وعبدُ الله[1] بن الزُّبَيْر فى سنة عشرين من الهجرة، وقيل سنة تسع عشرة فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه؛ ووليها (عمرو بن العاص) من قِبَل عمر، وهو أوّل من وَلِيَها فى الإسلام، وبقى عليها إلىٰ سنة خمس وعشرين، وبنىٰ الجامعَ العتيقَ بالفُسْطَاط؛ ثم وليها عن عثمان آبنِ عفان رضى الله عنه (أبو يحيىٰ العامرىّ) فمكث فيها إحدىٰ عشرةَ سنة، وتوفى سنة ست وثلاثين؛ ثم وليها عن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه (قَيْسُ بن سعد) الخزرجىّ فى أوّل سنة سبع وثلاثين؛ ثم وليها عنه (مالك بن الحٰرث النخعىّ) المعروف بالأشتر فى وسط سنة سبع وثلاثين، وكتب له عنه عهدا يأتى ذكره فى الكلام علىٰ العهود إن شاء الله تعالىٰ، فسُمّ ومات قبل دخوله إلىٰ مصر؛ ثم وليها عنه (محمد بن أبى بكر الصدّيق) رضى الله عنه فى آخر سنة سبع وثلاثين فمكث دون السنة؛ ثم وليها عن معاويةَ بن أبى سُفْيَانَ رضى الله عنه (عمرُو بن العاص ثانيا) سنة ثمان وثلاثين خمس سنين، وتوفى بها سنة ثلاث وأربعين؛ ثم وليها عنه (عقبةُ بن عامر الجُهَنىّ) فى سنة أربع وأربعين فمكث فيها ثلاث سنين وكَسْرًا؛ ثم وليها عنه (مَسْلَمَةُ بن مُخَلَّدٍ) الخزرجىّ سنة سبع وأربعين فمكث فيها خمسَ عشرةَ سنة .

---

(١) لعل الصواب والزبير بن العوّام كما فى تاريخ أبى الفداء.

الطبقـــة الثـانية

(عُمَّـال خلفاء بنى أُمَيَّـــة بالشام)

لما أفضت الخلافة بعد معاوية إلىٰ آبنه يَزِيدَ، وليها عنه (سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدىّ) فى سنة آثنتين وستين، فمكث فيها سنتين وكسرًا؛ ثم وليها عنه (عبد الرحمن الفِهْرىّ) فى سنة أربع وستين، وأقره علىٰ الولاية بعد يزيد آبنُهُ معاويةُ، ثم مَرْوَانُ آبنُ الحَكَم، فمكث فيها آثنتين وعشرين سنة؛ ثم وليها عن عبد الملك بن مَرْوَانَ (عبدُ الله بن عبد الملك بن مروان) فى أوّل سنة ست وثمانين، فمكث فيها خمس سنين؛ ثم وليها عنه (قُرَّةُ بن شَرِيك) فى سنة تسعين، وأقره عليها الوليدُ بن عبد المَلِك بعده، فمكث فيها سبع سنين؛ ثم وليها عن سليمان بن عبد الملك (عبدُ الملك بنُ رِفاعة) فى سنة سبع وتسعين، فمكث فيها ثلاث سنين وكسرا؛ ثم وليها عن عمر بن عبد العزيز (أيوبُ بن شُرَحْبِيلَ الأَصْبَحِىّ) آخرَ سنة تسع وتسعين، فمكث فيها سنتين وستة أشهر؛ ثم كانت خلافة يَزِيدَ بن عبد المَلِك، فوليها عنه (صفوان الكَلْبىّ)(١) سنة إحدىٰ ومائة، فمكث فيها سنتين وستة أشهر أيضا؛ ثم وليها عن هشام بن عبد الملك (محمد بن عبد الملك) أخو هشام فى سنة خمس ومائة، فمكث فيها أشهرا؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن يوسف الثقفىّ) فى ذى الحجة سنة خمس ومائة، فمكث فيها أربع سنين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (عبد المَلِك)(٢) فى سنة تسع ومائة وعزل فيها؛ ثم وليها عنه (الوليد) أخو عبد المَلِك(٢) فى سنة تسع المذكورة، فمكث فيها عشر سنين وكسرا، وتُوفِّىَ سنة تسع عشرة ومائة؛ ثم وليها عنه (عبد الرحمن الفِهْرىّ) ثانيا فى آخر سنة تسع عشرة ومائة، فأقام بها سبعة أشهر؛ ثم وليها عنه (حنظلة) بن صفوان

(١) الذى فى المقريزىّ بشر بن صفوان الكلبىّ .

(٢) أى آبن رفاعة ثانيا كما فى المقريزىّ .

ثانيا(١) فى سـنة عشرين ومائة، فمكث فيها ثلاث سـنين وكسرا وعزل؛ ثم وليها عن مَرْوَانَ بن محمد الجعدىّ؛ فوليها عنه (عتابة التجيبى(٢)) سـنة سبع وعشرين ومائة، فمكث فيها خمس سنين أو دونها؛ ثم وليها عنه (حفص بن الوليد) سنة ثمان وعشرين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (الفزارىّ) سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة، فمكث فيها سنة واحدة؛ ثم وليها عنه (عبد الملك بن مَرْوَانَ) مولىٰ لَخْمٍ سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة، وهو آخر مَنْ وليها عن بنى أمية .

الطبقة الثالثـــة

(عُمّـال خلفاء بنى العَبَّاس بالعراق)

أوّل من وليها فى الدولة العباسية عن أبى العَبَّاس السفَّاح : أوّلِ خلفائهم، (صالحُ آبنُ علىّ) بن عبدالله بن عباس سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فمكث فيها أشهرا قلائل؛ ثم وليها عنه (عبد الملك) مولىٰ بنى أسد آخَرَ سنة ثلاث وثلاثين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين؛ ثم وليها عنه (صالح بن علىّ) ثانيا فى ذى الحجة سنة ست وثلاثين ومائة. ثم وليها عن أبى جعفر المنصور (عبدُ الملك) سـنة تسع وثلاثين ومائة، فمكث فيها ثلاث سنين؛ ثم وليها عنه (النَّقِيب التميمىّ) سنة إحدىٰ وأربعين ومائة، فمكث فيها سنتين؛ ثم وليها عنه (حُمَيد الطائىّ) سنة ثلاث وأربعين ومائة، فمكث فيها سنة واحدة؛ ثم وليها عنه (يزيد المهلَّبىُّ) سنة أربع وأربعين ومائة، فمكث فيها تسعَ سنين؛ ثم وليها عنه (عبدُالله بن عبدالرحمن بن معاوية) سنة آثنتين وخمسين ومائة، فمكث فيها سنتين وستة أشهر؛ ثم وليها عنه (محمد بن عبدالرحمن بن معاوية) سنة أربع وخمسين

(١) لم يذكر أن حنظلة كان أميرا علىٰ مصر فيما سبق [ولكن فى المقريزىّ أن بشر بن صفوان آستخلف أخاه حنظلة علىٰ مصر حينما ولاه يزيد علىٰ أفريقية فى سنة آثنتين ومائة فتكون ولايته هذه المرة ثانية].

(٢) صوابه : ثم وليها عنه [أى عن مروان] حسان بن عتاهية التجيبى كما ذكره المقريزىّ والمقام فيه أوضح.

ومائة ، فمكث فيها سنة واحدة ؛ ثم وليها عنه (موسى بن علىّ اللخمىّ) فى سنة خمس وخمسين ومائة، فمكث فيها سنتين وستة أشهر .

ثم وليها عن المهدىّ (عيسى اللخمىّ)(١) سنة إحدى وستين ومائة، فمكث فيها سنة واحدة؛ثم وليها عنه (أصبح)(٢) مولى المنصور فى سنة آثنتين وستين ومائة؛ثم وليها عنه (زيد بنُ منصور) الحميرىّ فى وسط سنة آثنتين وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (يحيى أبو صالح) فى ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (سالم بن سوادة التميمىّ) سنة أربع وستين ومائة؛ ثم وليها عنه (إبراهيم العباسىّ) فى سنة خمس وستين ومائة؛ ثم وليها عنه (مُعين الدين ختهم) فى سنة ست وستين ومائة .

ثم وليها عن الهادى (أسامةُ بن عمرو العامرىّ) فى سنة ثمان وستين ومائة؛ ثم وليها عنه (الفضل بن صالح العباسىّ) فى سنة تسع وستين ومائة ؛ ثم وليها عنه (علىّ بن سليمان العباسىّ) آخرَ السنة المذكورة .

ثم وليها عن الرشيد (موسى العباسىّ) فى سنة آثنتين وسبعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (محمد بن زهير) الأزدىّ سنة ثلاث وسبعين ومائة؛ثم وليها عنه داودُ بن يزيد المهلبىّ سنة أربع وسبعين ومائة؛ثم وليها عنه (موسى بن عيسى العباسىّ) سنة خمس وسبعين ومائة ومات بها؛ثم وليها عنه (عبدالله بن المسيب الضبىّ) فى أوّل سنة سبع وسبعين ومائة؛ ثم وليها عنه (هَرْثَمة بن أعين) سنة ثمان وسبعين ومائة؛ ثم وليها عنه (عبدالمَلِك العباسىّ) فى سلخ ذى الحجة من السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهدىّ العباسىّ) فى سنة تسع وسبعين ومائة؛ ثم وليها عنه (موسى بن عيسى) التَّنُوخىّ فى آخر سنة ثمانين ومائة؛ ثم وليها عنه (عبيد الله بن المهدىّ) ثانيا سنة إحدى وثمانين ومائة؛ ثم وليها عنه (إسماعيل بن صالح) فى آخر السنة المذكورة؛ثم وليها عنه (سُمَيَّة(٣) بن عيسى آبن إسماعيل) سنة آثنتين وثمانين ومائة؛ ثم وليها عنه (الليثُ البِيوَرْدِىّ) فى آخر السنة

(١) فى المقريزىّ الجمحىّ . (٢) فى المقريزىّ واضح . (٣) فى المقريزى "اسماعيل"

المذكورة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن إسماعيل) فى آخر سنة تسع وثمانين ومائة؛ ثم وليها عنه (عبد الله بن محمد العباسىّ) المعروف بٱبن زَيْنَبَ فى سنة تسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (مالك بن دَلْهَم الكلبىّ) سنة ٱثنتين وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه أو عن الأمين (الحسينُ بنُ الجماج) سنة ثلاث وتسعين ومائة .

ثم وليها عن الأمين (حاتم بن هَرْثمة بن أعْيَن) سنة خمس وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (عباد أبو نصر) مولىٰ كِنْدَةَ سنة ست وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه أو عن المأمون (المطَّلِبُ بنُ عبد الله الخزاعىّ) سنة ثمان وتسعين ومائة .

ثم وليها عن المأمون (العباسُ بنُ موسى) سنة ثمان وتسعين ومائة ؛ ثم وليها عنه (المطلب بن عبدالله) ثانيا فى سنة تسع وتسعين ومائة؛ ثم وليها عنه (السرىّ بن الحكَمَ) فى سنة مائتين؛ ثم وليها عنه (سليمان بن غالب) فى سنة إحدىٰ ومائتين؛ ثم وليها عنه (أبو نصر محمد بن السرىّ) فى سنة خمس ومائتين؛ ثم وليها عنه (عبيد الله) فى سنة ست ومائتين؛ ثم وليها عنه (عبدالله بن طاهر) مولىٰ خُزَاعة فى سنة عشر ومائتين (وهو أوّل من جَلَب البِطِّيخ الخُراسانِىَّ المعروفَ بالعَبْدَلىِّ من خُرَاسان إلىٰ مصر فنُسِب إليه)؛ ثم وليها عنه (عيسىٰ الجَلُّودىّ) فى سنة ثلاثَ عشرَةَ ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عمرو بن الوليد التميمىّ) فى سنة أربعَ عشرةَ ومائتين؛ ثم وليها عنه (عيسىٰ الجَلُّودىّ) ثانيا فى آخر السنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (عبدويه بن جبَلَةَ) فى سنة خمسَ عشرةَ ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عيسىٰ بن منصور) مولىٰ بنى نصر فى سنة ستَّ عشرةَ ومائتين .

(وفى هذه السنة دخل المأمون مصرَ وفتح الهَرَم) .

ثم وليها عن المعتصم بالله (١) المسعودىّ فى أوّل سنة تسعَ عشرةَ ومائتين ؛

(١) بياض فى الأصل ، والذى فى المسعودىّ أن خلافة المعتصم كانت فى سنة تسع عشرة ومائتين ، وفى المقريزىّ أنه ولى على مصر فى هذا التاريخ (كيدر) ومات كيدر فى ربيع الآخر من السنة المذكورة ، فولى ٱبنه (المظفر) بٱستخلاف أبيه .

ثم وليها عنه (المظَفَّر بن كيدر) فى وسط السنة المذكورة أشهرا قلائل ؛ ثم وليها عنه (أبو العباس الحمق) فى آخر السـنة المذكورة ؛ ثم وليها عنه (مبارَكُ بن كيدر) فى سنة أربع وعشرين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (علىّ بن يحيىٰ) فى سنة ست وعشرين ومائتين .

ثم وليهـا عن الواثق بالله (عيسىٰ بن منصور الجَلُّودى) ثالث مرة فى سـنة تسع وعشرين ومائتين[(١)] ؛ ثم وليها عنه (علىٌّ بن يحيىٰ) ثانيا فى سنة أربع وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (إسحاق الجبلى) فى سنة خمس وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (خُزَاعة) فى سنة ست وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (عقبة الضَّبىّ) فى سنة ثمـان وثلاثين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (يزيد بن عبد الله) فى سنة آثنتين وأربعين ومائتين ، وأقرّه عليها بعده المنتصر بالله ، ثم المستعين بالله .

ثم وليها عن المستعين بالله (مُزاحِم بن خاقان) فى سـنة ثلاث وخمسين ومائتين ؛ ثم وليها عنه (أحمد بن مُزَاحِم) فى سنة أربع وخمسين ومائتين وأقره عليها المهتدِى بالله .

الضرب الثـانى
(من وليها مُلْكا ، وهم علىٰ أربع طبقات)

الطبقـــة الأُولىٰ
(من وليها عن بنى العَبَّاس قَبْل دولة الفاطميين)

وأوّلهم (أحمدُ بن طولون) وليها عن المعتمد فى سنة ست وستين ومائتين وعَمَر بها جامعَه المتقدّم ذكرُه فى خِطَط الفُسْطاط ، وفى أيامه عَظُمت نيابةُ مصرَ وشَمَختْ إلىٰ المُلْك (وهو أوّل من جلَب المماليك الترك إلىٰ الديار المصرية وآستخدمهم فى عسكرها) .

---

(١) مقتضاه أن المذكور ولى عن الواثق فى هذا التاريخ مع أن خلافة الواثق كانت سنة سبع وعشرين ومائتين ووفاته كانت فى سنة آثنتين وثلاثين ومائتين ، فالمذكور كان عن المتوكل فلعل الصواب ثم وليها عن المتوكل فتأمل .

وأقره المعتضد بالله بعد المعتمد، وبقى بها حتى مات فوليها عن المعتضد (خُمارَوَيْه بن أحمد بن طولون) فى أوّل سنة آثنتين وثمانين ومائتين، وقتله جنْدُه فى السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (جَيْش بن خُمَارويه) فى سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقتله جندُه فى السنة المذكورة؛ ثم وليها عنه (هرون بن خمارويه) فى آخر سنة ثلاث وثمانين ومائتين، وقتل فى سنة آثنتين وتسعين .

ثم وليها عن المكتفى بالله (شَيْبانُ بن أحمد بن طولون) فى سنة آثنتين وتسعين ومائتين فبقِيَ آثنَىْ عشر يوما وعُزِل؛ ثم وليها عنه (محمد بن سليمان الواثقىّ) فى آخر سنة آثنتين وتسعين ومائتين؛ ثم وليها عنه أو عن المقتدر بالله (عيسى النوشرى) فى سنة خمس وتسعين ومائتين .

ثم وليها عن المقتدر بالله (أبو منصور تِكين) فى سنة سبع وتسعين ومائتين وعُزِل؛ ثم وليها عنه (أبو الحسن) فى سنة ثلاث وثلثمائة وعزل؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تكين) ثانيا سنة سبع وثلثمائة وعزل؛ ثم وليها عنه (هلالٌ) سنة تسع وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أحمدُ بن كِيغَلْغ) فى سنة إحدى عشرة وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أبو منصور تكين) ثالث مرة فى السنة المذكورة.

ثم وليها عن القاهر بالله (محمدُ بنُ طُغج) فى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (أحمد بن كِيغَلْغ) ثانيا فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة . وأقره عليها المكتفِى ثم المستكفى بالله بعده .

ثم وليها عن المُطيع لله (أبو القاسم الاخشيد) فى سنة خمس وثلاثين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (علىّ بن الأخشيد) سنة تسع وثلاثين وثلثمائة؛ ثم وليها عنه (كافور الأخشيدى) الخادم فى سنة خمس وخمسين وثلثمائة، وكان يحب العلماء والفقهاء، ويكرمهم، ويتعاهدهم بالنَّفَقات، ويكثر الصدَقات حتى آستغنى الناس فى أيامه، ولم يَجِد أربابُ

الأموال من يقبـل منهم الزكاةَ فرفعوا أمر ذلك إليه فأمرهم أن يبْتَنُوا بها المساجدَ ويتخذوا لهـا الأوقافَ ففعلوا ؛ ثم وليها عنه (أحمدُ بن علىّ الأخشيد) فى سنة سبع وخمسين وثلثمائة ، وهو آخر من وليها من العُمَّال عن خلفاء بنى العباس بالعراق .

الطبقة الثـانيـــة

(من وليها من الخلفاء الفاطميين المعروفين بالعُبَيديِّين)

أوّل من وليها منهم (المُعِزُّ لدين الله أبو تميم مَعَدُّ بن تميم بنِ إسمـاعيل بن محمد بن عبيدالله المهدىّ) وإليه ينسبون ، جهز إليها قائدَه : جَوْهَرا من بلاد المغرب إلىٰ الديار المصرية ففتحها فى شـعبان سنة ثمـان وخمسين وثلثمائة علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ قواعد الديار المصرية وآنقطعت الخُطْبة العباسية منها ؛ ورحل المعزُّ من المغرب إلىٰ مصر فوصل إليها ودخل قصرَه بالقاهرة فى سابع رمضان سنة آثنتين وستين وثلثمائة وصارت مصر والمغرب مملكةً واحدة وبلاد المغرب نيـابة من مصر ، وتُوفِّىِّ ثالثَ ربيع الآخر سنة خمس وستين وثلثمائة .

ثم ولى بعده آبنُه (العزيزُ بالله أبو المنصور) يوم وفاة أبيه ، وإليه ينسب الجامع العزيزىّ بمدينة بِلْبِيس ، وتُوفِّى بالحَمَّام فى بِلْبِيس ثامنَ رمضان المعظَّم قدرُه سنة ست وثمـانين وثلثمائة .

ثم ولى بعده آبنه (الحاكمُ بأمر الله أبو علىّ المنصور) ليلةَ وفاة أبيه ، وبنىٰ الجامع الحاكمىَّ فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وهو يومئذ خارجَ سورِ القاهرة ، وفارق مصر وخرج إلىٰ الجبـل المقطم فوُجدتْ ثيابُه مُزَرَّرة الأطواق وفيها آثار السكاكين ولا جُثَّة فيها ، وذلك فى سلخ شوّال سنة إحدىٰ عشرة وأربعمائة ولم يُشَكَّ فى قتله .
والدُّرْزِيَّة من المبتدعة يعتقدون أنه حىّ وأنه سيرجع ويعود علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ أيمـانِهم وتحليفهم إن شاء الله تعالىٰ .

ثم ولى بعده ٱبنه (الظاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن علىّ) وبقى حتّى توفى فى شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة .

ثم ولى بعده ٱبنه (المستنصر بالله أبو تميم معَدٌّ) بعد وفاة أبيه . وفى أيامه جُدّد سُور القاهرة الكبير فى سنة ثمانين وأربعمائة . وتوفى فى ذى الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة. وفى أيامه كان الغلاء الذى لم يعهد مثله ، مكث سبع سنين حتّى خَرِبتْ مصرُ، ولم يبق بها إلا صُبَابة من الناس على ماتقدّم فى سياقة الكلام على زيادة النيل .

ثم ولى بعده ٱبنه (المستعلى بالله) أبو القاسم أحمدُ يوم وفاة أبيه. وتوفّى لسبعَ عشرةَ ليلةً خلت من صفر سنة خمس وتسعين وأربعمائة .

ثم ولى بعده (الآمر بأحكام الله أبو علىّ المنصور) فى يوم وفاة المستعلى، وقتل بجزيرة مصر فى الثالث من ذى القَعدة سنةَ خمس وعشرين وخمسمائة .

ثم ولى بعده ٱبنُ عمه (الحافظُ لدين الله أبو الميمونِ عبدُالحميد بنُ الآمر أبى القاسم محمدٍ) يوم وفاة الآمر . وتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ثم ولى بعده (الظافر بأمر الله إسماعيل) رابعَ جمادىٰ الآخرة سنةَ أربعين وخمسمائة.

ثم ولى بعده ٱبنه (الفائز بنصر الله أبو القاسم عيسىٰ) صبيحةَ وفاة أبيه . وتوفى فى سابع عشر شهر رجب الفرد سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

ثم ولى بعده (ٱبنه العاضدُ لدين الله أبو محمد عبدُ الله بن يوسف) يوم وفاة الفائز. وتوفّى يومَ عاشوراء سنة أربع وستين وخمسمائة بعد أن قطع السلطانُ صلاح الدين خُطْبته بالديار المصرية وخطب للخلفاء العبّاسيين ببغداد قبل موته، وهو آخر من ولى منهم .

الطبقـــــة الثـالثة
(ملوك بنى أيُّوبَ)

وهم و إن كانوا يدينون بطاعة خلفاء بنى العبَّاس فهم ملوكٌ مستقلُّون، وفى دولتهم زاد آرتفاع قدرِ مصرَ ومُلْكِها .

أوّل من ملك مصر منهم الملك الناصرُ (صلاحُ الدين يوسُفُ بنُ أيوبَ) كان الملك العـادلُ نورُ الدين محمودُ بن زنكى صاحبُ الشام رحمه الله قد جهَّزه صحبـةَ عمه : أسدِ الدين شيركوه إلىٰ الديار المصرية حين آستغاث به أهـلُ مصر فى زمن العاضد الفاطمىّ المتقدم ذكره لغلبة الفرنج عليهم ثلاثَ مَرَّات آنتهىٰ الحـالُ فى آخرها إلىٰ أنّ السلطان صـلاح الدين وثب علىٰ شاور وزير العاضد المذكور فقتـله وتقلد عمُّه أسدُالدين شيركوه الوزارة مكانَهُ عن العاضد، وكُتبَ له بذلك عهدٌ من إنشاء القاضى الفاضل، فأقام فيها مدَّة قريبة ومات، ففوّض العاضد الوزارة مكانَهُ للسلطان صلاح الدين، وكتب له عهدٌ من إنشاء القاضى الفاضل أيضا، وبقى فى الوزارة حتّى ضعُف العاضد وطال ضعفُه فقطع السلطان صلاح الدين الخطبةَ للعاضد، وخطب للخليفة العباسىّ ببغداد بأمر الملك العادل صاحب الشام . ثم مات العاضد عن قريب فاستقلَّ السـلطان صلاح الدين بالسلطنة بمصر وقَوِى جأشُـه ، وثبتت فى الدولة قدمه . وتوفى بِدِمَشْقَ فى سـنة تسع وثمـانين وخمسمائة ؛ وكانَت مدّة ملكه بالديار المصرية أربعا وعشرين سنة وملكه الشام تسعَ عشرةَ سنة ؛ ثم ملك بعده مصر آبنُه (الملكُ العزيز) وملك معها دمشقَ وسلَّمها إلى عمه العادل أبى بكر فى سنة آثنتين وتسعين وخمسمائة، وتفرّقت بقية الممالك الشامية بيد بنى عمه من بنى أيوب .

ملكَ مصرَ والشامَ جميعا فى ربيع الأوّل سنة ست وتسـعين وخمسمائة ؛ وتوفى بدمشق سنة خمس عشرة وستمائة .

ثم ملك بعده ٱبنُه (الملكُ الكامل) عقيبَ وفاة أبيه المذكور، وهو أوّل من سكن قَلْعَةَ الجبل بعـد قصر الفاطميين بالقاهرة علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ القلعة، وٱستمرّ فى ذلك عشرين سـنة، وفتح حَرَّان وديارَ بكرٍ، وكان الفرنج قد ٱسـتعادوا بعض ما فتحه السـلطان صلاحُ الدين من ساحل الشام، وكتب الهُدْنَةَ بينه وبين الفرنج فى سنة ست وعشرين وستمـائة علىٰ أن يكون بأيدى الفِرنج القلاعُ والنواحى التى ملكوها بعد فتح السلطان صلاح الدين، وهى جبلة، وبيروت، وصِيدا، وقلعة الشقيف، وقلعة تِبنين، وقلعة هونين، وإسكندرونة، وقلعة صَفَد، وقلعة الطور واللجون، وقلعة كَوْكب، ومجدل يافا (١) ولُدّ، والرملة، وعسـقلان، وبيت جِبْريل، والقُدْس وأعمـال ذلك ومضافاته. وبنىٰ مدرسـته الكامليةَ بين القصرين المعروفة بدار الحديث، وتوفى بدمشق سنة خمس وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده ٱبنه (الملك العادل أبو بكر) وقبض عليه فى العشر الأوسط من ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده أخوه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن الكامل فى أوائل سـنة ثمـان وثلاثين وستمائة.

ثم ملك بعده ٱبنُه الملكُ المعظم (تُوران شاه) وهو الذى كسر الفرنج علىٰ المنصورة فى المحرّم سنة ثمان وأربعين وستمائة، وقتل فى الثامن والعشرين من المحرّم المذكور.

ثم ملك بعده أُمُّ خليل (شجرةُ الدُّرّ) فى صـفر سنة ثمـان وأربعين وستمـائة، فأقامت ثمـانية أشهر، ولم يملك مصر فى الإسلام ٱمرأةٌ غيرها.

ثم ملك بعـدها الملكُ الأشرف (موسىٰ بن الناصر يوسف بن المسعود بن الكامل ٱبن العادل أبى بكر بن أيوب) فى شوّال سنة ثمـان وأربعين وستمائة وخلع نفسه وهو آخر الملوك الأيوبية بالديار المصرية.

(١) سيأتى له فى الجزء الرابع هكذا "مجداليا با"

الطبقة الرابعـــــة
(ملوك التُّرْك خَلَّد الله تعالىٰ دولتهم)

أوّل من ملكها منهم (الملكُ المُعِزُّ أيبك التركمانى) بعد خلع الأشرف موسىٰ : آخر ملوك الأيوبية فى شوّال سنة ثمـان وأربعين وستمائة ؛ وجُمِـع له بين مصر والشام، وآستمر الجمع بينهـما إلىٰ الآن، وبنىٰ المدرسة المُعِزِّية برحبـة الخرّوب بالفُسْطاط، وتزوّج بأم خايل المقدّم ذكرها، وقتل بحمّام القلعة فى سنة أربع وخمسين وستمائة .

ثم ملك بعده آبنُه (الملك المنصورعلىّ) عقيبَ وفاة والده المذكور. وقُتِلتْ أمّ خليل المذكورة، ورميت من سُور القلعة، وقُبض علىٰ المظَفَّر(١) سنة سبع وخمسين وستمائة .

ثم ملك بعده الملك (المظفر قُطُز) وكان المَصَافُّ بينه وبين التتار علىٰ عَيْن جالوتَ بعد أن آستوْلَوْا علىٰ جميع الشام فى رمضان سـنة ثمـان وخمسين وستمائة، وكسرهم أشدّ كسرة وآستقلع الشام منهم، وبقى حتّى قتل فى مُنصَرَفه بطريق الشام وهو عائد منه بالقرب من قصير الصالحية علىٰ أثر ذلك فى السنة المذكورة .

ثم ملك بعده الملك (الظاهر بيبرس) البُنْدقدارىّ فى ذى القعدة سنة ثمـان وخمسين وستمائة ، وأخذ فى جهاد الفرنج وآسـتعادة ما آرتجعوه من فتوح السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وغير ذلك ففتح البِيرةَ فى سنة تسع وخمسين وستمائة والكَرَك فى سنة إحدىٰ وستين، وحِمْص فى آخر سنة آثنتين وستين وستمائة، وقَيْسارِيّةَ وأَرْسُوف فى سنة ثلاث وستين، وصَـفَد فى سنة أربع وستين، ويافا والشَّقِيف، وأنْطاكِيَةَ فىسنة ست وستين، وحِصْن الأكراد وعَكّا وصافِيتَا فىسنة تسع وستين، وكَسر التّتارَ علىٰ البِيرة بعد أن عدّى الفُرات خوضا بعساكره فىسنة إحدىٰ وسبعين؛ وفتح قلاعا من بلاد سِيس فى سنة ثلاث وسبعين، ودخل بلاد الروم، وجاس علىٰ

(١) لعل مراده الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر شريك المعز فى السلطنة . وآنظر المقام فى خطط المقريزى (ج ٢ ص ٢٣٧) .

كرسي بني سَلْجُوق بقَيْسارِيَّة الروم، ورجع إلى دمشق فى آخر سنة خمس وسبعين. وتُوُفِّيَ بدمشق فى المحرّم سنة ست وسبعين وستمائة ، وبنى مدرسته الظاهرية بين القَصْرين .

وملك بعده ٱبنُه (الملك السعيد بَرَكَةُ) فى صفر سنة ست وسبعين وستمائة ، وخُلِع وسُيِّر إلى الكرك .

وملك بعده أخوه (الملك العادل سلامش) فى ربيع الأوّل سنة ثمان وسبعين وستمائة، وبقى أربعة أشهر ثم خلع .

وملك بعده (الملك المنصور قلاوون الصالحىّ) الشهير بالألفىّ فى رجب سنة ثمان وسبعين وستمائة، وسمى الألفىّ لأن آقْسُنْقر الكاملىّ كان قد ٱشتراه بألف دينار، وفتح حصن المَرْقَب بالشأم فى تاسع عشر ربيع الأوّل سنة أربع وثمانين وستمائة، وفتح طَرَابُلُسَ فى ربيع الأوّل سنة ثمان وثمانين وستمائة ، وهو الذى بنى البيمارستان المنصورىَّ والمدرسةَ المنصوريةَ والقبةَ اللتين داخل البيمارستان بين القَصْرَيْن. وتُوُفِّيَ بظاهر القاهرة المحروسة، وهو قاصد الغزو فى ذى القَعدة سنة تسع وثمانين وستمائة ودفن بتربته بالقبة المنصورية داخل البيمارستان المتقدّم ذكره .

وملك بعده ٱبنُه (الملك الأشرفُ خايلٌ) صبيحةَ وفاة أبيه وأخذ فى الغزو ففتح عَكَّا وصُور، وصَيْدا، وبَيْروت، وعَثْلِيث، والساحل جميعه، وٱقتلعه من الفرنج فى رجب سنة تسعين وستمائة. وقتل فى متصيَّده بالبحيرة فى العشر الأوسط من المحرّم سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وهو الذى عَمَر المدرسة الأشرفية بالقرب من المشهد النفيسىّ .

ثم ملك بعده (الملك المعظم بيدرا) وخلع من يومه .

وملك بعده (الملك الناصر محمدُ بن قلاوون) فى صفر سنة ثلاث وتسعين وستمائة، وهى سلطنته الأولى. وخُلع بعد ذلك وبعث به إلى الكرك فحُبِس بها .

وملك بعده (الملك العادل كتبغا) عقب خلعه، ووقع فى أيامه غلاء شديد وفناء عظيم؛ ثم خلع فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة، وتولى بعد ذلك نيابة صَرْخَد ثم حَمَاة، وبقى حتّى توفى بعد ذلك؛ وهو الذى ٱبتدأ عمارة المدرسة المعروفة بالناصرية بين القصرين وأكمل بناءها الناصرُ محمد بن قلاوون فنسبت إليه .

وملك بعده (الملك المنصور حسام الدين لاچين) فى الخامس والعشرين من صفر المذكور (١) فجدّد الجامع الطُّولونىّ وعمل الروك الحُسَامىّ فى رجب الفرد سنة سبع وتسعين وستمائة، وقتل فى الحادى عشر من شوّال (٢) من السنة المذكورة، وبقى الأمر شُورىٰ مدّة يسيرة، ثم حضر الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك وأعيد إلىٰ السلطنة فى حادى عشر شوّال من السنة المذكورة .

وملك بعده (الملك المظفر بِيبَرْسُ الجاشنكير) فى الثالث والعشرين من شوّال المذكور وخلع فى التاسع والعشرين من شهر رمضان سنة تسع وسبعمائة، وهو الذى عمر الخانقاه الرُّكْنِيَّة بيبرس داخل باب النصر مكان دار الوزارة بالدولة الفاطمية، وجدّد الجامع الحاكمى .

وملك بعده (الملك الناصر محمدُ بن قلاوون) فى مستهل شوّال من السنة المذكورة، وهى سلطنته الثالثة . وفيها طالت مدّته وقوى ملكه، وعمل الروك الناصرىّ فى سنة ست عشرة وسبعمائة، وبنىٰ مدرسته الناصرية بين القصرين، وبقى حتّى توفى فى العشرين من ذى الحجة سنة إحدىٰ وأربعين وسبعمائة، ودفن بتربة والده .

ثم ملك بعده ٱبنه الملك المنصورُ أبو بكر عقب وفاة والده، وخلع تاسع عشر صفر سنة ٱثنتين وأربعين وسبعمائة .

---

(١) أى سنة ست وتسعين وستمائة .

(٢) فى المقريزى "من ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وستمائة" وان تولية ٱبن قلاوون المرة الثانية فى السادس من جمادىٰ الأولىٰ من السنة المذكورة وبقى إلىٰ الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ثمان وسبعمائة ثم ولى المظفر فى التاريخ المذكور . [وبملاحظة ذلك يستقيم الكلام ويعلم ما فى الأصل] .

ثم ملك بعده أخوه (الملكُ الأشرفُ كجك) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ أخيه المنصور المذكور، وخلع فى التاسع والعشرين من شهر رجب من السنة المذكورة .

ثم ملك بعده أخوه (الملكُ الناصرُ أحمدُ) بن الناصر محمد بن قلاوون بعد أن أُحْضِر من الكرك، وآستمرّ فى السلطنة حتّى خلع نفسَه فى أوائل المحرّم سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الصالحُ إسماعيلُ) بن الناصر محمد بن قلاوون فى العشرين من المحرّم المذكور، وبقى حتّى توفى فى رابع ربيع الآخر سنة ست وأربعين وسبعمائة .

وملك بعده(١) أخوه (الملكُ المُظَفَّرُ حاجّى) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ أخيه الكامل شعبان ، وبقى حتّى خلع فى ثانى عشر رمضان سنة ثمان وأربعين وسبعمائة وقتل من يومه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حَسَنُ) بن الناصر محمد بن قلاوون فى رابع عشر شهر رمضان المذكور، وخلع فى التاسع والعشرين من جمادىٰ الآخرة سنة آثنتين وخمسين وسبعمائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الصالحُ صالحُ) بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ أخيه الناصر حسن، وبقى حتّى خلع فى ثانى شوّال سنة خمس وخمسين وسبعمائة .

ثم ملك بعده أخوه (الملك الناصر حسن) المتقدّم ذكره مرة ثانية يوم خلع أخيه الصالح صالح ، وبقى حتّى خلع وقُتِل فى عاشر جمادىٰ الأولىٰ سنة آثنتين وستين وسبعمائة؛ وبنىٰ مدرستَه المعظمةَ تحت القلعة التى ليس لها نظير فى الدنيا، وفى أيامه ضربت الفلوس الجُدُد علىٰ ماسيأتى ذكره، وهو آخر من ملك من أولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون لصُلْبه .

(١) سقط من قلم الناسخ الكامل شعبان فانه تولّى بعد أخيه الصالح إسماعيل ومكث سنة واحدة وثمانية وخمسين يوما ثم خلع كما تشير اليه بقية العبارة .

وملك بعده ٱبن أخيه (الملكُ المنصورُ محمدُ) بن المظفر حاجّى بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ عمه النـاصر حسن،و بقى حتّٰى خلع فى خامس عشر شـعبان سنة أربع وستين وسبعمائة .

وملك بعده ٱبن عمه (الملك الأشرف شعبان) بن حسين بن الناصر محمد بن قلاوون يوم خَلْعِ المنصور المتقدّم ذكره وهو طفل،وبقى حتّٰى كمل سلطانه و بنىٰ مدرسته بأعلىٰ الصوة تحت القلعة ولم يتمها، وحج فخرج عليه مماليكه فى عَقَبة أَيْلَةَ ففرّ منهم وعاد إلىٰ القاهرة فقُبِض عليه وقتل فى ثالث ذى القعدة الحرام سنة ثمـان وسبعين وسبعمائة، وفى أيامه فتحت مدينة سِيس وٱقتُلعت من الأرمن علىٰ ما سـيأتى ذكره فى الكلام علىٰ أعمال حَلَب .

وملك بعده ٱبنه (الملك المنصور علىٌّ) يوم خلع أبيه وهو طفل ، فبقى حتّٰى توفى فى الثالث والعشرين من صفر سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة .

وملك بعده أخوه (الملك الصالح حاجّى) بن شعبان بن حسين يوم وفاة أخيه ،وبقى حتّٰى خُلِـعَ فى العشر الأوسط من رمضان سنة أربع وثمـانين وسبعمائة .

وملك بعده (الملك الظاهر برقوق) فعظُم أمره،وٱرتفع صِيتُه ،وشاع ذكره فى الممالك وهابَتْه الملوك وهادَتْه، وساس المُلْكَ أحسن سياسة، وبقى حتّٰى خلع وبُعِثَ به إلىٰ السجن بالكرك فى شهر رجب أو جمادىٰ الآخرة سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة .

وملك بعده (الملك المنصور حاجّى) بن شعبان ، وهو الملقب أوّلا بالصالح حاجّى وهى سـلطنته الثانية ، وبقى حتّٰى عاد الملك الظاهر برقوق المتقدّم ذكره فى سـنة [ٱثنتين] (١) وتسـعين وسبعمائة، فزاد فى التيه وضخامة الملك ، وبلغ شأْوا لم يبلغه غيره من غالب متقدّمى الملوك ، وبقى حتّٰى توفى فى منتصف شوّال المبارك سـنة إحدىٰ وثمـانمـائة .

---

(١) الزيادة عن المقريزى .

وملك بعده ٱبنه (الناصر فرج) وسِنُّهُ إحدىٰ عشرة سنة بعَهْدٍ من أبيه ،وقام بتدبير أمره أمراءُ دولته ،فبقى حتّىٰ تغير عليه بعضُ مماليكه و بعضُ أمرائه ،وحضر المماليك بالقلعة ، فنزل منها مختفيا علىٰ حين غفلة فى السادس والعشرين من ربيع الأوّل سنة ثمان وثمانمائة ، ولم يعلم لٱبتداء أمره أين توجه .

ثم ملك بعده أخوه (الملك المنصور عبد العزيز) فى التاريخ المذكور .

ثم ظهر أن السلطان الملك الناصر فرجا كان مختفيا فى بعض أماكن القاهرة ،فركب فى ليلة السادس من شهر جمادىٰ الآخرة سنة ثمان وثمانمائة ،ومعه جماعة من الأمراء ومماليكه ، وخرج الأمراء للقيام بنُصْرة أخيه عبد العزيز فطلع عليهم السلطان فرجٌ ، ومَنْ معه فولَّوْا هاربين ، وطلع السلطان الملك الناصر القلعةَ فى صبيحة النهار المذكور وٱستقرّ علىٰ عادته ، وبقى فى السلطنة حتّىٰ توجه إلىٰ الشأم لقتال الأمير شيخ والأمير نوروز نائبي دِمَشْقَ وحَلَبَ ،ومعه الإمام (المستعينُ بالله أبو الفضل العباسُ) بنُ المتوكل محمد خليفة العصر ، ودخل دِمَشْقَ وحُصِرَ بقلعتها حتّىٰ قبض عليه فى ثانى عشر ربيع الأوّل سنة خمس عشرة وثمانمائة ، وٱستبدّ الإمام المستعينُ بالله بالأمر من غير سلطان ، ورجع إليه ما كان يتعاطاه السلطان من العَلَامة علىٰ المكاتبات والتقاليد والتواقيع والمناشير وغيرها ، وأفرد ٱسمه فى السكة علىٰ الدنانير والدراهم ، وأفرد بالدعاء فى الخطبة علىٰ المنابر ، ثم عاد إلىٰ الديار المصرية فى أوائل ربيع الآخر من السنة المذكورة ، وسكن الآدُرَ السلطانيــةَ بالقلعة ، وقام بتدبير دولته الأميرُ شيخ المقدّم ذكره وسكن الإصطبلات السلطانية بالقلعة وفوّض إليه الإمام المستعين بالله ماوراء سرير الخلافة ، وكتب له تفويض بذلك فى قِطْع كبير ، عرضُه ذراع ونصف بزيادة نصف ذراع عما يُكْتب به للسلاطين . إلا أنه لم يصرح له فيه بسلطنة ولا إمارة ، بل كتب له بدل الأميرى الآمرى بإسقاط الياء علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ عهود الملوك إن شاء الله تعالىٰ .

الفصل الرابع

من الباب الثالث من المقالة الثانية

(فى ذكر ترتيب أحوال الديار المصرية، وفيه ثلاثة أطراف)

الطرف الأوّل

(فى ذكر معاملاتها ، وفيه ثلاثة أركان)

الركن الأوّل

(الأثمـان، وهى على ثلاثة أنواع)

النوع الأوّل

(الدنانير المسكوكة ممـا يضرب بالديار المصرية، أو يأتى إليها من المسكوك فى غيرها من الممـالك ، وهى ضربان)

الضرب الأوّل

(مايتعامل به وزنا كالذهب المصرىّ ومافى معناه)

والعبرة فى وزنها بالمثاقيل ، وضابطها أن كلَّ سبعة مثاقيلَ زنتُها عشرة دراهمَ من الدراهم الآتى ذكرها، والمثقال معتبر بأربعة وعشرين قيراطا، وقدّر بِثْنَتين وسبعين حبةَ شعير من الشعير الوَسَط بٱتفاق العلماء، خلافا لٱبن حزم فإنه قدّره بأربع وثمانين حبةً، على أن المثقال لم يتغير وزنه فى جاهلية ولا إسلام .

قلت : وقد كان الأمير صــلاح الدين بن عرام فى الدولة الأشرفيــة شعبان بن حسين بعد السبعين والسبعمائة ضرب بالإسْكَنْدرِيَّةِ، وهو نائب السلطنة بها يومئذ، دنانيرَ زِنَةُ كل دينار منها مثقالٌ، على أحد الوجهين منه "محمد رسول الله" وعلى الوجه الآخر "ضرب بالإسْكَنْدَرِيَّةِ فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين عز نَصْرُه"، ثم أمسك

عن ذلك فلم تكثر هـذه الدنانير ولم تشتهر؛ ثم ضرب الأمير يلبغا السالمىّ أستادار العالية فى الدولة الناصرية فرج بن برقوق دنانيرَ زنة كل واحد منها مثقال، فى وسط سكته دائرةٌ فيها مكتوب "فرج" وربما كان منها مازنته مثقال ونصف أو مثقالان، وربما كان نصف مثقال أو ربع مثقال . إلا أن الغالب فيها نقص أوزانها، وكأنهم جعلوا نقصها فى نظير كُلْفة ضَرْبها .

الضرب الثـانى
(ما يتعامـــل به مُعَـادَّة)

وهى دنانير يؤتىٰ بها من بلاد الإفرنجة والروم ، معلومةُ الأوزان، كلُّ دينار منها معتبر بتسـعةَ عشرَ قيراطا ونصفِ قيراط من المصرىّ، وآعتباره بِصَنج الفِضّة المصرية كل دينار زنة درهم وحبتى خَرُّوبٍ يَرْجَحُ قليلا،وهذه الدنانير مُشَخَّصة علىٰ أحد وجهيها صورةُ الملك الذى تُضْرَب فى زمنه ، وعلىٰ الوجه الآخر صورتا بطرُس وبولس الحوارِيَّين اللذين بعث بهما المسيح عليـه السلام إلىٰ رُومِيَةَ ، ويعبر عنها بالإفرنْتِيَّة جمع إفِرنْتِىٍّ ، وأصـله إفِرنسىّ بسين مهملة بدل التاء المثناة فوق نسبة إلىٰ إفرنسة : مدينة من مُدُنهم ، وربمـا قيل فيها إفرنجة ، وإليها تنسب طائفة الفِرنْج ، وهى مقرّة الفرنسيس مَلِكهم، ويعبر عنه[1] أيضا بالدوكات . وهذا الآسم فى الحقيقة لايطلق عليه إلا إذا كان ضرب البُنْدُقِيَّة من الفرنجة، وذلك أن الملك آسمه عندهم دوك، وكأن الألف والتاء فى الآخر قائمـان مقام ياء النسب .

قلت : ثم ضرب النـاصر فرج بن بَرْقوق دنانيرَ علىٰ زنة الدنانير الإفرنتيـة المتقدّمة الذكر ، فى أحد الوجهين "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وفى الآخر آسم السلطان، وفى وسطه سَفَطٌ مستطيل بين خطين ،وعرفت بالناصرية وكثر وُجْدانُها،

---

(١) أى عن الدينـار من تلك الدنانير .

وصار بها أكثر المعاملات . إلا أنهم يَنْقُصـونها فى الأثمـان عن الدنانير الإفرنتيـة عشرةَ دراهم .

ثم ضَرَب علىٰ نظيرها " الإمام المستعينُ بالله أبو الفضـل(١) العباس " حين آستبدّ بالأمر بعد الناصر فرج، ولم يتغير فيها غير السِّكةِ، باعتبار آنتقالها من آسم السلطان إلىٰ آسم أمير المؤمنين .

ثم صَرْفُ الذهب بالديار المِصْرية لا يثبت علىٰ حالة بل يعلو تارة ويَهْبِط أخرىٰ بحسب ماتقتضـيه الحال، وغالب ما كان عليه صرف الدينـار المصرىّ فيما أدركناه فى التسعين والسبعمائة وماحولها عشرون درهما، والإفرنتىّ سبعةَ عشرَ درهما وماقارب ذلك أما الآن فقد زاد وخرج عن الحدّ خصوصا فى سنة ثلاث عشرة وثمانمـائة، وإن كان فى الدولة الظاهرية بيبرس قد بلغ المصرىُّ ثمـانية وعشرين درهما ونصفا فيما رأيته فى بعض التواريخ .

أما الدينار الجَيْشىّ، فمسمًّى لاحقيقة، وإنمـا يستعمله أهل ديوان الجَيْش فى عبرة الإقطاعات بأن يجعلوا لكل إقطاع عبرةَ دنانير معينة من قليل أوكثير، وربما أخليت بعض الإقطاعات من العِـبْرة . علىٰ أنه لا طائل تحتها ولا فائدة فى تعيينها، فربمـا كان متحَصِّـل مائة دينار فى إقطاع أكثرَ من متحصِّـل مائتى دينار فأكثر فى إقطاع آخر . علىٰ أن صاحب " قوانين الدواوين " قد ذكر الدينـار الجيشىّ فى الإقطاعات علىٰ طبقات مختلفة فى عبرة الإقطاعات، فالأجناد من التُّرك والأكراد والتركمان دينارهم دينارٌ كامل، والكنانية والعَسَاقلة ومن يجرى مجراهم دينارُهم نصف دينار، والعُرْبان فى الغالب دينارهم ثُمُنُ دينار، وفى عُرْف الناس ثلاثة عشر درهما وثلث، وكأنه علىٰ ما كان عليه الحال من قيمة الذهب عند ترتيب الجيش فى الزمن

(١) كذا فى "حياة الحيوان" أيضا وفى "مروج الذهب" أبوالعباس كماسبق للمؤلف فى الخلفاء العباسيين.

القديم ، فإن صرفَ الذهب فى الزمن الأول كان قريبا من هذا المعنىٰ ، ولذلك جعلت الدية عند مَنْ قدّرها بالنَّقْد من الفقهاء ألفَ دينار وآثنى عشر ألف درهم ، فيكون عن كل دينار آثنا عشر درهما ، وهو صرفه يومئذ .

النوع الثانى
(الدراهـــم النُّقْـــرة)

وأصل موضوعها أن يكون ثُلُثاها من فضة وثلثها من نحاس ، وتُطْبع بدور الضرب بالسِّكة السلطانية علىٰ نحو ما تقدّم فى الدنانير ، ويكون منها دراهمُ صحاحٌ وقُراضات مكسرة علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ دار الضرب فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

والعبرة فى وزنها بالدرهم ، وهو معتبر بأربعة وعشرين قيراطا ، وقُدّر بستَّ عشرةَ حبةً من حب الخرّوب ، فتكون كل خَرُّوبَتَيْنِ ثُمُنَ درهم ، وهى أربع حبات من حب البُرّ المعتدل ، والدرهم من الدينار نصفه وخمسه ، وإن شئت قلت سبعة أعشاره فيكون كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم .

أما الدراهم السَّوْداء ، فأسماءٌ علىٰ غير مسمَّيات كالدنانير الجَيْشية ، وكل درهم منها معتبر فى العرف بثلث درهم نُقْرة ، وبالإسكندرية دراهم سوداء يأتى الكلام عليها فى معاملة الإسْكَنْدَرِيَّة إن شاء الله تعالىٰ .

النوع الثالث
(الفُلُوس ، وهى صنفان : مطبوع بالسكة ، وغير مطبوع)

فأما المطبوع فكان فى الزمن الأوّل إلىٰ أواخر الدولة الناصرية حسن بن محمد آبن قلاوون فلوس لِطَاف ، يعتبر كل ثمانية وأربعين فَلْسًا منها بدرهم من النُّقْرة علىٰ آختلاف السكة فيها ، ثم أُحْدِث فى سنة تسع وخمسين وسبعمائة فى سلطنة حسن أيضا

فلوس شهرت بالجُدُد جمع جَدِيد، زِنَةُ كل فَلْسٍ منها مثقالٌ، وكل فلس منها قيراطٌ من الدرهم، مطبوعةٌ بالسكة السلطانية على ما سيأتى ذكره فى الكلام على دار الضرب إن شاء الله تعالى، فجاءت فى نهاية الحُسْن، وبطل ما عداها من الفُلُوس، وهى أكثر ما يتَعامل به أهلُ زماننا . إلا أنها فسد قانونها فى تنقيصها فى الوزن عن المثقال حتّى صار فيها ما هو دون الدرهم، وصار تكوينها غير مستدير، وكانت توزن بالقَبّان كلُّ مائة وثمانية عشر رطلا بالمصرىّ بمبلغ خَمْسِمائة درهم، ثم أَخَذت فى التناقص لصغر الفلوس ونقص أوزانها حتّى صار كل مائة وأحد عشر رطلا بمبلغ خمسمائة . قلت : ثم آستقرّ الحال فيها(١) على أنه لو جعل كل أوقية فما دونها بدرهم، لكان حسنا باعتبار غلوّ النُّحاس وقلة الواصل منه إلى الديار المصرية، وحَمْل التجار الفلوسَ المضروبةَ من الديار المصرية إلى الحجاز واليمن وغيرهما من الأقاليم متجرا، ويوشك إن دام هذا أن تَنْفَد الفلوسُ من الديار المصرية، ولا يوجد ما يتعامل به الناس .

وأما غير المطبوعة فنُحَاسٌ مكسر من الأحمر والأصفر، ويعبر عنها بالعتق، وكانت فى الزمن الأوّل كل زِنَة رطل منها بالمصرىّ بدرهمين من النُّقْرة، فلما عُمِلت الفلوس الجُدُد المتقدّمة الذكر، آستقرّ كل رِطل منها بدرهم ونصف، وهى على ذلك إلى الآن .

قلت : ثم نَفِدت هذه الفلوس من الديار المصرية لغلوّ النحاس، وصار مهما وجد من النحاس المكسور خلط بالفلوس الجُدُد وراج معها على مثل وزنها .

---

(١) لعل الأوضح ثم آستقر الحال فيها على ذلك على أنه الخ تأمل .

الركن الثانى

(فى المُثْمَنات ، وهى على ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(المـــوزونات)

ورطلها الذى يعتبر بوزنه فى حاضرتها من القاهرة والفُسْطاط وما قاربهما الرطلُ المصرىّ، وهو مائة وأربعة وأربعون درهما، وأُوقيته آثنا عشر درهما، وعنه يتفرّع القِنْطَارُ المصرىّ ، وهو مائة رطل ؛ وتعتـبر أوزان الطيب بها بالمنّ ، وهو مائتان وستون درهما، وأواقيه ست وعشرون أوقيّة، فتكون أوقيته عشرةَ دراهم .

النـــوع الثانى

(المَكِيلات من الحبوب ونحوها)

وآعلم أن بمصر أقداحا مختلفةَ المقادير أيضا كالأرطال بحسبه (١) ، ولكل ناحية منها قَدَحٌ مخصوص بحسب إرْدَبّها ، والمستعمل منها بالحاضرة القَدَحُ المصرىّ ، وهو قَدَحٌ صغير تقديره بالوزن من الحَبِّ المعتدل مائتان وآثنان وثلاثون درهما، وقدّره الشيخ تقىّ الدين بن رزين فى الكلام على صاع الفِطْرَة باثنين وثلاثين ألفَ حبة وسبعمائة وآثنتين وستين حبة ، وكل ستةَ عشرَ قدحا تسمّى وَيْبة ، وكل ستة وتسعين قدحا تسمّى إردبًّا ، وبنواحيها بالوجهين القبلىّ والبحرىّ أرادبُّ متفاوتة يبلغ مقدار الإردبِّ فى بعضها إحدىٰ عشرةَ ويبة بالمِصرىِّ فأ كثر .

---

(١) لعله بحسب اردبّها . أو هى زائدة من قلم الناسخ .

النـــــوع الثـالث

(المَقِيسات ، وهى الأراضى والأقمشة)

فأما الأراضى فصنفان :

الصـــــنف الأوّل

(أرض الزراعة)

وقد ٱصطلح أهلُها علىٰ قياسها بقَصَـبة تعرف بالحاكمية ، كأنها حُرِّرت فى زمن الحاكم بأمر الله الفاطمىّ فنسبتْ إليـه ، وطولهـا ستة أذرع بالهـاشمىّ كما ذكره أبو القاسم الزجاجىّ فى ”شرح مقدّمة أدب الكاتب“ وخمسة أذرع بالنجارى كما ذكره ٱبن ممـاتى فى ”قوانين الدواوين“ وثمـانية أذرع بذراع اليد كما ذكره غيرهمـا ؛ وذراع اليد ست قَبَضات بقبضة إنسان معتدل ، كلُّ قبضة أربعة أصابع بالخِنصر والبِنْصِر والوُسطىٰ والسَّـبَّابة ، كل إصبع ست شعيرات معترضات ظهراً لبطن علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ الأميال . وقد تقدّر القصبة بباعين من رجل معتدل ؛ وربما وقع القياس فى بعض بلاد الوجه البحرىّ منها بقصبة تعرف بالسَّنْدَفَاويّة أطول من الحاكمية بقليل ، نسبة إلىٰ بلد تسمّى سَنْدَفَا بالقرب من مدينة المَحَلة ، ثم كل أربعمائة قصبة فى التكسير يعبر عنها بفَدَّان ، وهو أربعة وعشرون قيراطا كل قيراط ستَّ عشرةَ قصبة فى التكسير .

الصـــــنف الثـانى

(أرض البُنْيان من الدُّور وغيرها)

وقد ٱصطلحوا علىٰ قياسها بذراع يعرف بذراع العمل طوله ثلاثةُ أشبار بشبر رجل معتدل ، ولعله الذراع الذى كان يقاس به أرض السَّواد بالعراق ، فقد ذكر الزجاجىّ

أنه ذراع وثلث بذراع اليد، وكان ٱبتداء وضع الذراع لقياس الأرَضِين أن زياد ٱبن أبيه حين ولّاه معاويةُ العراقَ وأراد قياس السَّواد، جمع ثلاثة رجال: رَجُلا من طوال القوم ورجلا من قصارهم ورجلا متوسطا بين ذلك، وأخذ طُول ذراع كل منهم، فجمع ذلك وأخذ ثلثه، فجعله ذراعا لقياس الأرضين، وهو المعروف بالذراع الزِّيَادىّ لوقوع تقديره بأمر زِيَاد، ولم يزل ذلك حتّى صارت الخلافة لبنى العباس فٱتخذوا ذراعا مخالفا لذلك كأنه أطول منه، فسمِّى بالهاشمىّ لوقوعه فى خلافة بنى العباس، ضرورةَ كونهم من بنى هاشم .

وأما الأقمشة، فإنها تقاس بالقاهرة بذراع طوله ذراع بذراع اليد وأربع أصابع مطبوقة، ويزيد عليه ذراع القماش بالفُسْطَاطِ بعضَ الشىء، وربما زاد فى بعض نواحى الديار المصرية أيضا نحو ذلك . ولغير القماش من الأصناف أيضا كالحصر وغيرها ذراع يخصه .

الركن الثالث

(فى الأسعار)

وقد ذكر المَقَرُّ الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" جملة من الأسعار فى زمانه فقال: وأوسط أسعارها فى غالب الأوقات أن يكون الإردبُّ القمح بخمسة عشر درهما، والشعير بسعره(1)، وبقية الحبوب على هذا الأنموذج؛ والأرز يبلغ فوق ذلك؛ واللحم أقل سعره الرِّطْلُ بنصف درهم، وفى الغالب أكثر من ذلك؛ والدَّجَاج يختلف سعره بحسب حاله، فجيِّده الطائر منه بدرهمين إلى ثلاثة، والدُّونُ منه بدرهم واحد؛ والسُّكَّر الرطل بدرهم ونصف، وربما زاد، والمكَرَّر منه بدرهمين ونصف.

---

(1) لعله بعشرة .

قلت : وهذه الأسعار التى ذكرها قد أدركنا غالبها، وبقيت إلىٰ ما بعد الثمانين والسبعمائة فغلت الأسعار وتزايدت فى كل صنف من ذلك وغيره، وصار المثل إلىٰ ثلاثة أمثاله وأربعة أمثاله ، فلا حول ولا قوّة إلا بالله ذى المنن الجسيمة القادر علىٰ إعادة ذلك علىٰ ما كان عليه أو دونه ﴿ وَهُوَ الَّذِى يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِن بَعْدِ مَا قَنَطُوا ﴾ .

الطرف الثانى

(فى ذكر جسورها الحابسة لمياه النيـل علىٰ أرض بلادهـا إلىٰ حين آستحقاق الزِّراعة، وأصناف أرضها، وما يختص بكل صنف من أرضها من الأسمـاء الدائرة بين كُتَّابها، ومزارعها، وبيان أصناف مزدرعاتها وأحوال زَرْعها)

فأما جسورها، فعلىٰ صنفين :

الصنف الأوّل

(الجســور الســلطانية)

وهى الجسور العامّة الجـامعة للبلاد الكثيرة التى تُعْمَر فى كل سـنة من الديوان السلطانى بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ، ولهـا جراريف ومحاريثُ وأبقار مرتَّبة علىٰ غالب البُلْدان بكل عمل من أعمالهـا . وقد جرت العادة أن يجهَّز لكل عمل فى كل سنة أمير بسبب عمـارة جسوره ، ويعبر عنـه بكاشف الجسور بالعمل الفلانىّ، ويعرّف بذلك فى تعريف مكاتبته عن الأبواب الشريفة، وربمـا أضيف كَشْفُ جسور عَمَلٍ من الأعمال إلىٰ مُتَوَلِّى حربه، ويقال فى تعريفه : وَالِى فلانة وكاشف الجسور بها، إذا كانت المكاتبة بسبب شىء يتعلق بالجسور ؛ ولهذه الجسور كاتبٌ منفرد بها مقرّر فى ديوانه ما علىٰ كل بلد من الجراريف والأبقار ، وتكتب التذاكير

السلطانية لكاشف كل عمل فى الورق الشامىّ المربَّع ، ويشملها العلامة الشريفة السلطانية بالآسم الشريف ، وللجسور خَوَلَةٌ ومهندسون لكل عمل يقومون فى خدمة الكاشف فى عمارة الجسور إلىٰ أن تنتهىَ عمارتُها .

الصنف الثانى

(الجسور البلدية)

وهى الخاصة ببلد دون بلد ، ويتولّى عمارتها المُقْطَعون بالبلاد : من الأمراء والأجناد وغيرهم ، من أموال البلاد الجارية فى إقطاعهم ؛ ولها ضرائب مقرّرة فى كل سنة .

قال آبن مماتى فى "قوانين الدواوين" : والفرق بين السلطانية والبلدية أن السلطانية جارية مجرىٰ سُور المدينة الذى يجب علىٰ السلطان الآهتمامُ بعمارته والنظرُ فى مصلحته وكفايةُ العامة أمر الفكرة فيه ، والبلدية جارية مجرىٰ الآدُرِ والمَساكن التى داخلَ السور ، كلُّ صاحب دار منها ينظر فى مصلحتها ويلتزم تدبير أمره فيها . قال : وقد جرتْ عادة الديوان أن المُقْطَع المنفصل إذا أنفق شيئا من إقطاعه فى إقامة جسر لعمارة السنة التى آنتقل الخبر عنه لها ، آستعيد له نظير مُنْفَقه من المُقْطَع الثانى ؛ وكذلك كل ما أنفقه من مال سنته فى عمارة سنة غيره كان له آستعادة نظيره .

قلت : وقد أهمل الآهتمام بأمر الجسور فى زماننا ، وتُرِك عمارة أكثر الجسور البلدية ، وآقتصر فى عمارة الجسور السلطانية علىٰ الشىء اليسير الذى لا يحصل به كبير نفع ، ولولا ما منّ الله تعالىٰ به علىٰ العباد من كثير الزيادة فى النيل من حيث إنه صار يجاوز تسعة عشر ذراعا فما فوقها إلىٰ ما جاوز العشرين ، لفات رىّ أكثر

البلاد وتعطلت زراعتهـا ﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ ونِعْمَةً ﴾ وإلا فقد كان النيل فى الغالب يقف على سبع عشرة ذراعا فما حولهـا، بل قد تقدّم من كلام المسعودى أنه إذا جاء النيل ثمـانى عشرة ذراعا، آستبحر من أراضيها الثلثُ .

وأما أنواع أرضها وما يختص بكل نوع من الأسمـاء، فإنها تختلف بآختـلاف الزراعة وعدمها، وبسبب ذلك تتفاوت الرَّغْبة فيها وتختلف قيمتها بآختلاف قيمة ما يُزْرَع فيها، وقد عدّ منها آبن ممـاتى ثلاثة عشر نوعا :

النوع الأوّل ــ البـاق : قال آبن مماتى : وهو أثر القُرْطِ والقَطَانِى والمقاثئ . قال : وهو خير الأرَضين وأغلاها قيمة وأوفاها سعرا وقطيعة، لأنهـا تصلح لزراعة القمح والكَتّانِ .

قلت : والمعروف فى زماننا أن الباق أثر القُرْطِ والفُول خاصة . أما المقاثئ فإن أثرها يسمّى البَرْش، وسيأتى ذكره فيما بعد .

النوع الثانى ــ رىّ الشَّراقى : قال آبن ممـاتى : وهو يتبع الباقَ فى الجَوْدَةِ، ويُلْحَقُ به فى القطيعة : لأن الأرض قد ظَمِئت فى السنة الماضية وآشتدّت حاجتها إلى المـاء . فلمـا رَوِيت حصل لهـا من الرىّ بمقدار ما حصل لهـا من الظمإ، وكانت أيضا مستريحة فزرعها يُنْجِبُ .

النوع الثالث ــ البروبيـة، وأهل زماننا يقولون البرايب : قال آبن ممـاتى : وهو أثر القمح والشعير، قال : وهو دون الباق لأن الأرض تضعُف بزراعة هذين الصِّـنْفين . فمتى زرع أحدهمـا على الآخر لم تنجب كنجابة الباقِ وسعرُها دون سعره، ويجب أن تزرع قُرْطًا وقَطَانِىَ ومقاثئَ لتسـتريح الأرض وتصـير باقا فى السـنة الآتية .

النوع الرابع ـ البُقْماهة ، بضم الباء الموحدة وسكون القاف ـ وهو أثر الكَتَّان . قال ٱبن مماتى : ومتىٰ زُرِع فيه القمح لم يُنْجِبْ ، وجاء رقيق الحب أسود اللون .

النوع الخامس ـ الشتونية ، وأهل زماننا يقولون الشتانى : وهو أثر ما رَوِى وبار فى السنة الماضية . قال ٱبن مماتى : وقطيعته دون قطيعة الشراقىّ .

النوع السادس ـ شق شمس ، قال ٱبن مماتى : وهو عبارة عما رَوى وبار فحُرِث وعُطِّل ، وهو يجرى مجرىٰ الباق ورىّ الشراقى ، ويجىء ناجب الزرع .

النوع السابع ـ البرش النقاء ؛ قال : وهو عبارة عن كل أرض خلَتْ من أثر ما زرع فيها للسنة الماضية ، لا شاغل لها عن قبول ما نوعُه من أصناف المزدرعات .

النوع الثامن ـ الوسخ المزدرع ؛ قال : وهو عبارة عن كل أرض لم يستحكم وسخها ، ولم يَقْدِرِ المزارعون علىٰ ٱستكمال إزالته منها فحرثوها وزرعوها وطلع زرعها مختلطا بوَسَخها .

النوع التاسع ـ الوسخ الغالب : وهو عبارة عن كل أرض حصل فيها من النبات الذى شغَلها عن قبول الزراعة ما غلب المزارعين عليها ، ومنعهم بكثرته عن الزراعة فيها ، وهى تباع مراعِىَ للبهائم .

النوع العاشر ـ الخرس : وهو عبارة عن فساد الأرض بما ٱستحكم فيها من موانع قبول الزرع ، وهو أشدّ من الوسخ الغالب فى التنقية والإصلاح ، وهى مرعىٰ الدوابّ .

النوع الحادى عشر ـ الشراقى : وهو عبارة عما لم يصل إليه الماء لقُصُور النيل وعلوّ الأرض ، أو سدّ طريق الماء عنه .

النوع الثانى عشر ــ المستبْحِر : وهو عبارة عن أرض واطئة إذا حصل المـاء فيها لا يجد مصرفا له عنها فيمضى زمن المزارعة قبـل زواله بالنُّضُوب . قال آبن ممـاتى : وربمـا آنتفع به من آزدرع الأرض بالآســتقاء منه بالسواقى لمـا زرعه فى العُلُوّ .

النوع الثـالث عشر ــ السـباخ : وهو أرض غلب عليها المِلْح فَمَلَحَت حتّى لم يُنْتَفع بها فى زراعة الحبوب ، وهى أردْىٰ الأرضين . قال آبن ممـاتى : وربمـا زرع فيما لم يســتحكم منها الهِلْيَوْنُ والباذِنْجَانُ ، وربمـا قطع منها ما يسبخ به الكَتَّانُ ، ويزرع فيها القصب الفارسىّ فَيَنْجُبُ .

الطرف الثـالث

(فى وجوه أموالها الدِّيوانية ، وهى علىٰ ضربين : شرعىّ وغير شرعىّ)

الضرب الأوّل الشرعىّ ،

(وهو علىٰ سبعة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(المال الخَرَاجىّ : وهو ما يؤخذ عن أجرة الأرضين ؛ وله حالان)

الحال الأوّل ــ ما كان عليــه الأمر فى الزمن المتقدّم ، وقد أورد آبن ممـاتى فى "قوانين الدواوين" ما يقتضى أنه كان علىٰ كلِّ صِنْفٍ من أصناف المزدرعات قطيعة مقرّرة فى الديوان السلطانىّ لا يختلف أمرها : فذكر أن قطيعة القمح كانت إلىٰ آخر سنة سبع وستين وخمسمائة عن كل فَدَّانٍ ثلاثةُ أرادبَّ ، ثم إنه تقرّر عند المساحة فى ســنة آثنتين وسبعين وخمسمائة إردبان ونصف إردب . ثم قال : ومن

ذلك ما يباع بعين، ومنه ما يُزْرَع مُشاطرة. قال: وقطيعة الشَّعير كذلك، وقطيعة الفُول عن كل فدّان من ثلاثة أرادبَّ إلىٰ إردبين ونصف، وقطيعة الجُلْبَان والحِمَّص والعَدَس عن كل فدّان إردبان ونصف، وقطيعة الكَتَّان تختلف باختلاف البلاد. ثم قال: وهى علىٰ آخر ما تقرّر فى الديوان عن كل فدّان ثلاثةُ دنانير إلىٰ مادونها، وقطيعة القُرْط بالديوان عن كل فدّان دينار واحد، وفيما بين الناس مختلف، وقطيعة الثُّومِ والبَصَل عن كل فدّان ديناران، وقطيعة التُّرْمُس عن كل فدّان دينار واحد وربع، وقطيعة الكَمُّونِ والكراويا والسَّلْجَم الصيفىّ عن كل فدّان دينارٌ واحد. قال: وكان قبل ذلك دينارين، وقطيعة البِطِّيخ الأخضر والأصفرِ، واللُّوبياءِ عن كل فدّان ثلاثة دنانير، وقطيعة السِّمْسِم عن كل فدّان دينار واحد، وقطيعة القُطْنِ كذلك، وقطيعة قَصَبِ السُّكَّر عن كل فدّان إن كان رأسا خمسةُ دنانير، وإن كان خِلْفَةً ديناران وخمسة قراريطَ، وقطيعة القُلْقَاس عن كل فدّان ثلاثة دنانير، وقطيعة النِّيلة عن كل فدّان ثلاثة دنانير، وقطيعة الفُجْلِ عن كل فدّان دينار واحد، وقطيعة اللِّفْتِ كذلك، وقطيعة الخَسّ عن كل فدّان ديناران، وقطيعة الكُرُنْب كذلك. قال: والقطيعة المستقرّة عن خراج الشَّجَر والكَرْمِ تختلف باختلاف سنينه. ثم قال: وهو يدرك فى السنة الرابعة ويترتب علىٰ كل فدّان ثلاثة دنانير، وقطيعة القَصَبِ الفارسىّ عن كل فدّان ثلاثة دنانير.

الحال الثانى — ما الأمر عليه فى زماننا، والحال فيه مختلف باختلاف البلاد. فالوجه القبلىّ الذى هو الصعيد أكثر خراجه غلالٌ من قمح وشعير وحِمِّص وفول وعَدَسٍ وبسلة وجُلُبَّانٍ، ويعبَّر فى عرف الدواوين عما عدا القمح والشعير والحِمَّص بالحبوب، ثم الغالب أن يؤخذ عن خراج كل فدّان من الأصناف المذكورة ما بين إردبين إلىٰ ثلاثة بكيل تلك الناحية، وربما زاد أو نقص عن ذلك، وفى الغالب

يؤخذ مع كل إردب درهم أو درهمـان أو ثلاثة، ونحو ذلك بحسب قطائع البـلاد وضرائبها فى الزيادة والنقص فى الأرادب والدراهم ؛ وربمـا كان الخراج فى بعض هـذه البلاد دراهم؛ وما بار من أرض كل بلد يباع ما نبت فيه من المرعىٰ مناجزة، وربمـا أخذ فيه العِدَادُ(١) علىٰ حسب عرف البلاد .

والوجه البحرىّ غالب خراج بلاده دراهمُ، وليس فيه ماخراج بلاده غلةٌ إلا القليل علىٰ العكس من الوجه القبلىّ .

ثم الذى كان عليه الحال إلىٰ نحو التسعين والسـبعمائة فى غالب البـلاد أن يؤجر أثر الباقِ كلُّ فدّان بأربعين درهما فـا حولهـا، والبَرَايب كلُّ فدّان بثـلاثين درهما فـا حولهـا، ثم غلا السعرُ بعـد ذلك حتّىٰ جاوز الباقُ المـائةَ والبرايبُ الثمـانين، وبلغ البَرْشُ نحو المائتين، وذلك عند غلوّ الغلال وآرتفاع سعرها .

قلت : ثم تزايد الحال فى ذلك بعـد الثمانمـائة إلىٰ ما بعـد العشر والثمانمائة حتّىٰ صار يؤخَذُ فى الباق عن كل فدّان نحو الأربعمائة درهم، وربمـا زادت الأرض الطيبة حتّىٰ بلغت ستمائة درهم،(٢) وفى البرايب ونحوه دون ذلك بالنسبة؛ثم إنه إذا كان المقرّر فى خراج بلد من بلاد الديار المصرية غلالا وأعوز صـنفٌ من الأصناف أن يؤخذ البدل عنها من صنف آخر من الغَلّة .

وقد ذكر فى "قوانين الدواوين" أن قاعدة البدل أن يؤخذ عن القمح بدل كل إردب، من الشعير إردبان، ومن الفول إردب واحد ونصف، ومن الحِمِّص إردب، ومن الجُلُبَّان إردبٌّ ونصف، والشعير يؤخذ عن كل إردب منه نصف إردب من

(١) مراده بالعداد المواشى الراعية : من الابل والبقر والغنم .

(٢) فى التركيب ركاكة والمعنىٰ مفهوم .

القمح أو ثلثا إردب من الفول أو نصف إردب من الحِمَّص أو ثلثا إردب من الجُلْبَان (١) ؛ وفى الفول يؤخذ عن كل إردب منه ثلث إردب من القمح أو نصف إردب من الشعير أو ثلث إردب من الحِمَّص أو إردب من الجُلْبَان ؛ وفى الحِمَّص يؤخذ عن كل إردب منه إردب من القمح أو إردبان من الشعير أو إردب ونصف من الفول أو إردب ونصف من الجُلْبَان ؛ وفى الجُلْبَان يؤخذ عن كل إردب منه ثلث إردب من القمح أو إردب ونصف من الشعير أو إردب من الفول أو ثلث إردب من الحِمَّص . ثم قال : والسِّمْسِمُ والسَّلْجَمُ والكَتَّانُ ما رأيت لها بدلا ، والاحتياط فى جميع ذلك الرجوع إلىٰ سعره الحاضر، فإنه أسلم طريقةً وأحسن عاقبةً .

واعلم أن بلاد الديار المصرية بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ بجملتها جارية فى الدواوين السلطانية وإقطاعات الأمراء وغيرهم من سائر الجند إلا النزرَ اليسيرَ مما يجرى فى وقف مَنْ سلف من ملوك الديار المصرية ونحوهم علىٰ الجوامع والمدارس والخوانق ونحوها مما لا يُعتدّ به لقلته .

والجارى فى الدواوين علىٰ ضربين .

الضرب الأوّل

(ما هو داخل فى الدواوين السلطانية، وهو الآن علىٰ أربعة أصناف)

الصنف الأوّل

(ما هو جار فى ديوان الوزارة ؛ وأعظمُه خَطَرا وأرفعُه قدرا جهتان)

إحداهما — عمل الجيزية المتقدّمُ ذكره فى أعمال الديار المصرية، ولها مباشرون بمفردها من ديوان الوزارة ما بين ناظر ومُسْتَوْفٍ وشهود وصَيْرَفِىّ وغيرهم ، وغالبُ

(١) صوابه أو إردب ونصف .

خراجه مبلغ دراهم تحمل إلىٰ بيت المال فتثبت فيه وتصرف منه فى جملة مصارف بيت المـال ، وربمـا حمل من بعضها الغَلَّة اليسيرة من القمح وغيره للأمراء السلطانية بالفُسْطَاطِ ، ومن أرضها تفرد الإطلاقات ؛ ويبـذر فيها البرسيم لربيع الخيول بالإصطبلات السلطانية والأمراء والمماليك السلطانية .

الثـانية ـ عمل مَنْفَلُوطَ ، وله مباشرون كما تقدّم فى الجيزيَّة بل هى أرفع قدرا وأكثر متحصِّلا ، وغالب خراجه غلال : من قمح وفُول وشعير ، وغلالهـا تحمل إلىٰ الأمراء السلطانية بالفُسْطاط ، ويصرف منها فى جملة مصارف الأمراء علىٰ الطواحين السـلطانية والمُنَاخات وغير ذلك ، وربمـا حمل منها المبلغ اليسـير إلىٰ بيت المـال فيثبت فيه ويصرف منه علىٰ ما تقدّم فى الأعمـال الجيزية ، وما عدا هاتين الجهتين من البلاد الجارية فى ديوان الوزارة مفرّقة فى الأعمـال بالوجهين القبلىّ والبحرىّ ، وهى فى الوجه القبـلىّ أكثر ، ولكنها قد تناقصت فى هـذا الزمن حتّىٰ لم يَبْقَ فيها إلا بعضُ بلاد بالوجه القبلىّ .

الصنف الثـانى

(ما هو جار فى ديوان الخاص)

وهو الديوان الذى أحدثه السلطان "الملك الناصر محمد بن قلاوون" حين أبطل الوزارة علىٰ ما سـيأتى ذكره ؛ وأعظم بلاده وأرفعها قدرا مدينة الإسْكَنْدَرِيَّةِ فإنها فى الغالب مضافة إليـه ؛ وبها مباشرون من ناظر ومستوف وشادّين وغيرهم . وربما أُخِّرت عنه فى جهات أخرىٰ جارية فيه ، ويليها تَرُوجَةُ وفُوَّة ونَسْتَرُوه ، ومالُ جميعها يحمل إلىٰ خزانة الخاص الآتى ذكرها تحت نظر ناظر الخاصّ الآتى ذكره .

الصنف الثالث

(ما هو جار فى الديوان المُفْرَد)

وهو ديوان أحدثه "الظاهر برقوق" فى سلطنته ،وأفرد له بلادا ،وأقام له مباشرين وجعل الحديث فيه لأستاذ داره الكبير ، ورتَّب عليه نفقة مماليكه من جامكيات وعليق وكُسْوَةٍ وغير ذلك .

قلت : وليس هو المخترعَ لهذا الاسم بل رأيت فى ولايات الدولة الفاطمية بالديار المصرية ما يدل علىٰ أنه كان للخليفة ديوان يسمى الديوان المفرد .

الصنف الرابع

(ما هو جار فى ديوان الأملاك)

وهو ديوان أحدثه "الظاهر برقوق" المتقدّم ذكره ،وأفرد له بلادا سماها أملاكا، وأقام لها أستاذ دار ومباشرين بمفردها ، وهذا الديوان خاص بالسلطان ليس عليه مرتب نفقة ولا كُلْفة .

الضرب الثانى

(ما هو جار فى الإقطاعات)

وهو جُلّ البلاد بالوجهين القبلىّ والبحرىّ ؛ والبلاد النفيسة الكثيرة المُتَحَصَّل فى الغالب تقطع للأمراء علىٰ قدر درجاتهم ، فمنهم من يجتمع له نحو العشر بلاد إلىٰ البلد الواحدة، وما دون ذلك من البُلْدان يقطعُ للماليك السلطانية ، يشترك الاثنان فما فوقهما فى البلدة الواحدة فى الغالب ، وربما انفرد الواحد منهم بالبلد الواحد .

وما دون ذلك يكون لأجناد الحَلْقة تجتمع الجماعة منهم فى البلد الواحد بحسب مقـداره وحال مُقْطَعِيه ، وفى معنىٰ أجناد الحَلْقـة المُقْطَعون من العُرْبان بالبحيرة والشرقية من أرباب الأدراك وملتزمى خيل البريد وغيرهم .

ثم ٱعلم أن لبلاد الديار المصرية حالين .

الحال الأوّل ــ أن تحَجَّز إجارةُ طين البلد بقدر معين لا يزيد ولا ينقص، وطلبُ الخراج علىٰ حكمها .

الحال الثـانى ــ أن تكون البلاد ممـا جرت العادة بمساحة أرضها لسَـعَةِ طينها وٱختلاف الرىّ فيه بالكثرة والقِلة فى السنين، وقد جرت العادة فى ذلك أنّ كاتب خراج الناحية يطلب خَوَلَة القانون بذلك البلد وتوريخ الأحواض علىٰ المزارعين بفدن مقدّرة، وتُكتَب بها أوراق تسمّى أوراق المسجل، وتحمل نسختها إلىٰ ديوان صاحب الإقطاع فتخلد فيه، فإذا طلع الزرع خرج من باب صاحب الإقطـاع مباشرون ، فيمسـحون أرض تلك البلد فى كل قبالة بأسمـاء المزارعين ، ويكتب أصل ذلك فى أوراق تسمّى الفُنْداق، ثم تجمع القبائل بأوراق تسمّى تاريخ القبائل، ثم تجمع أسماء المزارعين بأوراق تسمّى تاريخ الأسمـاء، ويقابل بين ما ٱشتملت عليه أوراق المسجل وما ٱشتملت عليه مساحته ، وفى الغالب يزيد عن أوراق المسجل، ويُجْمَعُ ذلك وتنظم به أوراق تسمّى المكلفة، ويكتب عليها الشهود وحاكم العمل، وتحمل لديوان المُقْطَع نسخا .

النـــــوع الثـانى

(ما يَتحصَّل ممـا يُستخرَج من المعادن)

وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ خواص الديار المصرية أن الموجود الآن بهـا ثلاثة معادن .

الأوّل ــ معدن الزُّمُرُّدِ علىٰ القرب من مدينة قُوص،ولم يزل مستمرّ الآستخراج إلىٰأواخر الدولة الناصرية"محمدبن قلاوون"، ثم أُهمِلَ لقلّة ما يَتحصَّل منه مع كثرة الكُلَف وبقى مهملا إلىٰ الآن . وقد ذكر فى "مسالك الأبصـار" : أنه كان له مباشرون وأُمَناءُ من جهة السلطان يتولَّوْن آستخراجه وتحصيله ، ولهم جوامكُ علىٰ ذلك . ومهما تحصل منه حُمِل إلىٰ الخزائن السلطانية فيباع مايباع ، ويبقّى مايصلح للخزائن الملوكية .

الثانى ــ معدن الشَّبِّ (بالباء الموحدة فى آخره) . قال فى "قوانين الدواوين": ويُحتاج إليه فى أشـياء كَثيرة ، أهمُّها صَبْغ الأحمر ، وللرُّوم فيه من الرغبة بمقـدار مايجدون من الفائدة، وهو عندهم ممـا لابُدَّ منه ولا مندوحة عنه؛ ومعادنه بأماكنَ من بلاد الصعيد والواحات علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ خواصّ الديار المِصْرية .

قال : وعادة الديوان أن يُنْفِقَ فى تحصيل كل قِنْطَارٍ منه باللَّيْثى ثلاثين درهما، وربما كان دون ذلك. وتَهْبِط به العرب إلىٰ ساحل قُوصَ،وساحل إخميم،وساحل أَسْيوط ، وإلىٰ البَهْنَسىٰ إن كان الإتيان به من الواحات، ثم يحمل من هذه السواحل إلىٰ الإسْكَنْدَرِيَّةِ ، ولا يعتدّ للباشرين فيه إلا بما يصح فيها عند الآعتبار . قال آبن ممـاتى : وأكثر مايباع منه فى المَتْجَر بالإسكندرية خمسة آلاف قِنْطَارٍ بالجَرْوِىّ، وبيع منه فى بعض السنين ثلاثةَ عشرَ ألف قنطار،وسعره من خمسة دنانير إلىٰ خمسة

دنانير وربع وسدس كلُّ قنطار . قال : أما القاهرة، فأكثر ما يباع فيها منه فى كل سنة ثمانون قنطارا كل قنطار بسبعة دنانير ونصف؛ ثم قال : وليس لأحد أن يبيعه، ولا يشتريه سوىٰ الديوان السلطانى، ومتىٰ وجد مع أحد شيء من صنفه ٱستهلِك .
قلت : وقد تغير غالب حكم ذلك .

الثالث — معدن النَّطْرُونِ، وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ خواص الديار المصرية أن النَّطْرون يوجد فى معدنين : أحدهمـا بعمل البحيرة مقابلَ بلدة تسمَّى الطرّانة علىٰ مسيرة يوم منها، وتقدّم فى كلام صاحب "التعريف" أنه لا يعلم فى الدنيا بقعة صغيرة يستغلُّ منها أكثر مما يستغلُّ منها، فإنها نحو مائة فدّان تُغِل نحو مائة ألف دينار فى كل سنة . والمعدن الثانى بالفاقوسِية علىٰ القرب من الخطارة، ويعرف بالخطارىّ، وهو غير لاحق فى الجَوْدةِ بالأوّل :

قال فى "نهاية الأرب" : وأوّل من ٱحتجر النَّطْرون أحمدُ بن محمد بن مدبر نائب مصر قبل أحمد بن طولون، وكان قبل ذلك مباحا . قال فى "قوانين الدواوين" : وهو فى طور محدود لا يتصرف فيه غير المستخدمين من جهة الديوان، والنفقة علىٰ كل قنطار منه درهمان، وثمن كل قنطار منه بمصر والإسكندرية لضيق الحاجة إليه سبعون درهمـا . قال : والعادة المستقرّة أنه متىٰ أُنْفق من الديوان فى العربان عن أجرة حمولة عشرة آلاف قِنْطار، ألزموا بحمل خمسة عشر ألف قنطار، حسابا عن كل قنطار قنطارٌ ونصفٌ؛ ثم قال : وأكثره مصروف فى نفقة الغُزاة .

قلت : أما فى زماننا فقد تضاعفت قيمة النَّطْرون وغلا سعره لٱحتجار السلطان له، وأفرط حتّى خرج عن الحدّ، حتّى إنه ربما بلغ القِنْطار منه مبلغَ ثلثمائة درهم أو نحوها . وقد كان علىٰ النَّطرون مرتَّبُون من كُتَّاب دَست وكُتَّاب دَرْج وأطباءَ وكَحَّالين وغيرهم وجماعةٌ من أرباب الصدقات يستأْدون ذلك، وينفقون علىٰ حمولته إلىٰ ساحل النيل

بالبلدة المعروفة بالطَّرّانة المتقدّمة الذكر، ويبيعونه على مَنْ يرغب فيه ليتوجه به فى المراكب إلى الوجه القبلىّ، ولم يكن لأحد أن يبيع شيئا بالوجه البحرىّ جملةً، ثم بطل ذلك فى أواخر الدولة الظاهرية برقوق، وصار النطرون بجملته خالصا للسلطان جاريا فى الديوان المفرد تحت نظر أستاذ دار، يحمل إلى الإسكندرية والقاهرة فيُخْزَن فى شُوَن ثم يباع منها، وعليه مباشرون يحضُرون الواصل والمبيع، ويعملون الحسبانات بذلك، وتَمَيَّز بذلك متحصِّله للغاية القصوى.

النـــوع الثـالث
(الزكـاة)

قد تقرّر فى كتب الفقه أن مَنْ وجبت عليـه زكاة كان مخيرا بين ان يدفعها إلى الإمام أو نائبه، وبين أن يفرّقها بنفسه . والذى عليه العمل فى زماننا بالديار المصرية أن أرباب الزكوات المؤدّين لها يفرّقونها بأنفسهم، ولم يبق بها ما يُؤخَذ على صورة الزكاة إلا شيئين :

أحدهما ما يؤخذ من التجار وغيرهم على ما يدخلون به إلى البلد من ذهب أو فضة، فإنهم يأخذون على كل مائتى درهم خمسـةَ دراهم، ثم إذا آشترى بها شيئا وخرج به وعاد بنظير المبلغ الأوّل لا يؤخذ منه شىء عليه حتّى يجاوز سنة . إلا أنهم آنتقصوا سـنة ذلك فجعلوها عشرة أشهر، وخَصُّوه بمـا إذا لم يزد فى المدّة المذكورة على أربع مرار . فإن زاد عليهـا آسـتأنفوا له المدّة، ثم إنه إذا كان بالبلد مَتْجَر لأحد من تجار الكارم من بَهَار ونحوه وحال عليـه الحول بالبلد، أخذوا عليه الزكاة أيضا . ومجرى ذلك جميعِه مجرى سائر متحصِّل الإسكندرية فى المباشرة وغيرها .

الثانى ما يؤخذ من العِدَاد من مواشِى أهل بَرْقة من الغنم والإبل عند وصولهم إلىٰ عمل البحيرة بسبب المرعىٰ، وفى الغالب يُقْطَع لبعض الأمراء، ويخرج قُصَّادُهم لأخذه .

النـــــوع الرابع
(الجَـــوالى)

وهى مايؤخذ من أهل الذِّمَّة عن الجزية المقرَّرة علىٰ رقابهم فى كل ســنة ، وهى علىٰ قسمين : ما فى حاضرة الديار المصرية من الفُسْطَاطِ والقاهرة ، وما هو خارج عن ذلك . فأما ما بحاضرة الديار المصرية ، فإن لهذه الجهة بها ناظرا يولّٰى من جهة الســلطان بتوقيع شريف ، و يتبعه مباشرون من شادّ وعامل وشُهُود ، وتحت يده حاشِرٌ لليهود وحاشر للنصارىٰ يعرف أربابَ الأسمـاء الواردةِ فى الديوان ومن ينضم إليهم ممن يبلغ فى كل عام من الصِّبيان، و يعبَّر عنهم بالنَّشْو، ومن يَقْدَم إلىٰ الحاضرة من البلاد الخارجة عنها،و يعبر عنهم بالطارئ ،ومن يهتدى أو يموت ممن آسمه وارد الديوان . و يُمْلِى علىٰ كُتَّاب الديوان ما يتجدّد من ذلك .

قال فى "قوانين الدواوين" : إن الجزية كانت فى زمانه علىٰ ثلاث طبقات : عُلْيَا، وهى أربعة دنانير وسدسٌ عن كل رأس فى كل سنة، ووُسْطىٰ وهى ديناران وقيراطان، وسُفْلىٰ وهى دينار واحد وثلث وربع دينار وحبتان من دينـار ، وإنه أضيف إلىٰ جزية كل شخص درهمان وربع عن رسم الشادّ والمباشرين . ثم قال : وقد كانت العادة جارية بآستخراجها فى أوّل المحرّم من كل سنة،ثم صارت تُسْتخرَج فى أيام من ذى الحجة . قلت : أما الآن ، فقد نقصت حتّٰى صـار أعلاها خمســةً وعشرين درهمـا ، وأدناها عشرة دراهم ، ولكنها صارت تُستأدىٰ معجَّلة فى شهر رمضان، ثم ما يَتحصَّل منها يحمل منه قدر معين فى كل سنة لبيت المال، و باقى ذلك عليه مرتبون من القُضاة وأهل العلم والديانة يوزَّع عليهم علىٰ قدر المتحصِّل .

وأما ماهو خارج عن حاضرة الديار المصرية من سائر بُلْدانها فإن جزية أهل الذمة فى كل بلد تكون لمُقْطَع تلك البلد من أمير أو غيره تجرى مجرىٰ مال ذلك الإقطاع ، وإن كانت تلك البلد جارية فى بعض الدواوين السلطانية ، كان مايَتحصَّل من الجزية من أهل الذمة بها جاريا فى ذلك الديوان .

النــــوع الخـامس

(ما يؤخذ من تُجّار الكفّار الواصلين فى البحر إلىٰ الديار المصرية)

وٱعلم أن المقرّر فى الشرع أخذ العشر من بضائعهم التى يَقْدَمون بهـا من دار الحرب إلىٰ بلاد الإسـلام إذا شُرِط ذلك عليهـم . والمُفْتَىٰ به فى مذهب الشافعىّ رضى الله عنه أن للإمام أن يزيد فى المأخوذ عن العشر وأن ينقُص عنه إلىٰ نصف العشر للحاجة إلىٰ الآزدياد من جلب البضاعة إلىٰ بلاد المسلمين ، وأن يرفع ذلك عنهم رأسا إذا رأىٰ فيه المصلحةَ . وكيفما كان الأخذ فلا يزيد فيه علىٰ مَرّة من كل قادم بالتجارة فى كل سنة ، حتّىٰ لو رجع إلىٰ بلاد الكفر ثم عاد بالتجارة فى سنته لا يؤخذ منه شىء إلا أن يقع التراضى علىٰ ذلك ، ثم الذى ترد إليه تُجّار الكفار من بلاد الديار المصرية ثَغْرُ الإسكندرية ، وثغر دِمْياطَ المحروستين ، تأتى إليهمـا مراكب الفرنج والرُّوم بالبضائع فتبيع فيهما أو تمتار منهما ما تحتاج إليه من البضائع ، وقد تقرّر الحال علىٰ أن يُؤخَذ منهم الخمس وهو ضِعف العُشْر عن كل مايصل لهم فى كل مرة ، وربما زاد مايُؤْخَذ منهم علىٰ الخمس أيضا .

قال آبن مماتى فى "قوانين الدواوين" : وربمـا بلغ قيمة مايُستخْرَج عما قيمته مائة دينار مايناهز خمسة وثلاثين دينارا ، وربما آنحط عن العشرين دينارا . قال : ويطلق علىٰ كليهما خُمس ، قال : ومن الروم مَنْ يُستَأْدىٰ منـه العشر ، إلا أنه لمـا

كان الخمس أكثر، كانت النسبة إليه أشهر . ولذلك ضرائب مستقرّة فى الدواوين وأوضاع معروفة .

النـــــوع السـادس
(المواريث الحشرية)

وهى مال من يموت وليس له وارث خاص : بقرابة أو نكاح أو وَلَاء، أو الباقى بعـد الفرض من مال مَنْ يموتُ وله وارثٌ ذو فرض لا يستغرق جميع المـال ولا عاصِبَ له .

وهذه الجهة أيضا على قسمين : مافى حاضرة الديار المصرية، وماهو خارج عنها .

فأمّا ما بحاضرة الديار المصرية ، فإن لهذه الجهـة ناظرا يولّى من قِبَـل السلطان بتوقيع شريف ومعه مباشرون من شادّ وكاتب ومُشَارِف وشُهُود، وهى مضافة إلى ماتحت نظر الوزارة من سائر المباشرات، ومُتَحَصِّلُها يحمل إلى بيت المـال، وربمـا كان عليها مرتَّبون من أرباب جوامك وغيرهم . وقد جرت عادة هـذا الديوان أنّ كاتبـه فى كل يوم يكتب تعريفـا بمَنْ يموت بمصر والقاهرة من حَشْرىّ أو أهـلىّ وتفصيله من رجال ونساء وصغار ويهود ونصارى، وتكتب منه نسخ لديوان الوزارة، ولنظر الدواوين ومستوفِى الدولة، ويُسَدّ من وقت العصر . فمن أطلق بعد العصر، أضيف إلى النهار القابل .

وأمّا ماهو خارج عن حاضرة الديار المصرية ، فلها مباشرون يُحَصِّـلونها ويحملون مايتحصّل منها إلى الديوان السلطانىّ .

النـــوع السابع
(ما يتحصّل من دار الضرب بالقاهرة)

والذى يضرب فيها ثلاثة أصناف .

الصنف الأوّل
(الذهب)

وأصله مما يُجْلَب إلىٰ الديار المصرية من التِّبْر من بلاد التَّكْرُور وغيرها مع مايجتمع إليه من الذهب . قال فى "قوانين الدواوين" : وطريق العمل فيها أن يُسْبَك ما يجتمع من أصـناف الذهب المختلفة حتّٰى يصـير ماء واحدا ، ثم يقلب قُضْبانا ويقطع من أطرافها قطع بمباشرة النائب فى الحكم ، ويحرر بالوزن ويسـبك سبيكة واحدة ، ثم يؤخذ من بعضها أربعة مثاقيـل ويضاف إليها من الذهب الحائف المسبوك بدار الضرب أربعة مثاقيل ، ويعمل كل منها أربع ورقات وتجمع الثمان ورقات فى قدح فخار بعد تحريروزنها ، ويوقد عليها فى الأتُّون ليلة ، ثم تخرج الورقات وتمسح ويعبر القدح علىٰ الأصل (؟) فإن تساوىٰ الوزن وأجازه النائب فى الحكم ، ضُرِب دنانير . وإن نقص أعيد إلىٰ أن يتساوىٰ ويصح التعليق فيضرب حينئذ دنانير .

قال ابن الطوير فى الكلام علىٰ ترتيب الدولة الفاطمية بالديار المصرية فى سـياقة الكلام علىٰ وظيفـة قضاء القضاة : وسبب خلوص الذهب بالديار المصرية ماحكى أن أحمد بن طولون صاحب مصر كان له إلمام بمدينة عين شمس الخراب علىٰ القرب من المَطَرِيَّة من ضواحى القاهرة ، حيث ينبُت البَلَسانُ ، وأن يد فرسه ساخت بها يوما فى أرض صَلْدة ، فأمر بحفر ذلك المكان فوجد فيه خمســةَ نَواوِيس فكشفها فوجد فى الأوسط منها ميتا مُصَبَّرا فى عسل ، وعلىٰ صدره لوحٌ لطيف من ذهب فيه كتابة لاتعرف ، والنواويس الأربعـة مملوءة بسبائك الذهب ، فنقل ذلك الذهب

ولم يجد من يقرأ ما فى اللوح ، فدُلّ علىٰ راهب شيخ بدير العَرَبة بالصعيد له معرفة بخط الأوّلين ، فأمر بإحضاره فأُخْبِر بضعفه عن الحركة ، فوجّه باللوح إليه ، فلما وقف عليه قال : إن هذا يقول : أنا أكبر الملوك ، وذَهَبِي أخلصُ الذهب . فلما بلغ ذلك أحمد بن طولون ، قال : قبح الله من يكون هذا الكافر أكبَرَ منه أو ذهبه أخلَصَ من ذهبه ، فشدّد فى العيار فى دُور الضرب ، وكان يحضُر ما يعلَّق من الذهب ويختم بنفسه فبقى الأمر علىٰ ما قرّره فى ذلك من التشديد فى العيار . وكانت دار الضرب فى الدولة الفاطمية لا يتولاها إلا قاضى القضاة تعظيما لشأنها ، وتُكتَب فى عهده فى جملة ما يضاف إلىٰ وظيفة القضاء ، ويقيم لمباشرة ذلك مَنْ يختاره من نوّاب الحُكْم ، وبقى الأمر علىٰ ذلك زمنا بعد الدولة الفاطمية أيضا . أما فى زماننا ، فنظرها موكول لناظر الخاصّ الذى آستحدثه "الملك الناصر محمد بن قلاوون" عند تعطيله الوزارة علىٰ ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

والسِّكَّة السلطانية بالديار المصرية فيما هو مشاهد من الدنانير أن يكتب علىٰ أحد الوجهين ـ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، أَرْسَلَهُ بِالْهُدىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ(١) ـ وعلىٰ الوجه الآخر آسم السلطان الذى ضرب فى زمنه وتاريخ سنة ضربه .

الصـــنف الثانى
(الفِضّة النُّقْرة)

وقد ذكر آبن مماتى فى "قوانين الدواوين" فى عيارها أنه يؤخذ ثلثمائة درهم فضة فتضاف إلىٰ سبعمائة درهم من النحاس الأحمر ، ويسبك ذلك حتّى يصير ماء واحدا فيقلب قُضْبانا ويقطع من أطرافها خمسة عشر درهما ، ثم تسبك ، فإن خلص

(١) ليس نظم آية كما قد يتوهم .

منها أربعة دراهم فضة ونصف حسابا عن كل عشرة دراهم ثلاثة دراهم ، وإلا أعيدت إلى أن تصح . وكأن هذا ما كان الأمر عليه فى زمانه ؛ والذى ذكره المقرّ الشهابىّ ابن فضل الله فى "مسالك الأبصار" : أن عيارها الثلثان من فضّة والثلث من نُحاس ، وهذا هو الذى عليه قاعدة العيار الصحيح كما كان فى أيام الظاهر بيبرس وما والاها ، وربما زاد عيار النحاس فى زماننا على الثلث شيئا يسيرا بحيث يظهره النَّقْد ، ولكنه يروج فى جملة الفضة ، وربما حصل التوقف فيه إذا كان بمفرده .

قلت : أما بعد الثمانمائة فقد قَلَّتِ الفضة ، وبطل ضربُ الدراهم بالديار المصرية إلا فى القليل النادر لاستهلاكها فى السروج والآنية ونحوها ، وانقطاع واصلها إلى الديار المصرية من بلاد الفرنج وغيرها . ومن ثمّ عزّ وجود الدراهم فى المعاملة بل لم تكد توجد . ثم حدث بالشأم ضربُ دراهم رديئةٍ فيها الثلث فما دونه فضة والباقى نحاس أحمر ، وطريقة ضربها أن تقطع القضبان قطعا صغارا كما تقدّم فى الدنانير ، ثم تُرْصَع إلا أن الدنانير لا تكون إلا صحاحا مستديرة ، والفضة ربما كان فيها القراضات الصغار المتفاوتة المقادير فيما دون الدرهم إلى ربع درهم وما حوله ؛ وصورةُ السكة على الفضة كما فى الذهب من غير فرق .

الصنف الثالث

(الفلوس المتخذة من النحاس الاحمر)

وقد تقدّم أنه كان فى الزمن الأوّل فلوس صغار كل ثمانية وأربعين فَلْسًا منها معتبرة بدرهم من النُّقْرة إلى سنة تسع وخمسين وسبعمائة فى سلطنة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الثانية ، فأُحْدثت فلوسٌ عبر عنها بالجُدُد زِنَةَ كل فَلْسٍ منها مثقال ، وهو قيراط من أربعة وعشرين قيراطا من الدرهم ، ثم تناقص مقدارها حتّى كادتْ

تفسد وهى علىٰ ذلك . وطريق عملها : أن يُسبك النُّحاسُ الأحمر حتّىٰ يصير كالماء، ثم يخرج فيضرب قضبانا، ثم يُقَطَّع قطعا صغارا، ثم تُرْصَع وتسك بالسكة السلطانية وسكتها أن يكتب علىٰ أحد الوجهين آسم السلطان ولقبه ونسبه ، وعلىٰ الآخر آسم بلد ضربِه وتاريخ السنة التى ضرب فيها .

الضرب الثـانى

(من الأموال الديوانية بالديار المصرية غير الشرعى، وهو المكوس، وهى علىٰ نوعين)

النـــوع الأوّل

(مايختص بالديوان السلطانىّ وهو صنفان)

الصـــنف الأوّل

(مايؤخذ علىٰ الواصل المجلوب، وأكثره مُتَحَصِّلاً جهتان)

الجهـــة الأولىٰ

(مايؤخذ علىٰ واصل التجار الكارمية من البضائع فى بحر القُلْزُمِ من جهة الحجاز واليَمَن وما والاهما، وذلك بأربعة سواحل بالبحر المذكور) .

الساحل الأول ـ عَيْـذَابُ . وقد كان أكثرَ السواحل واصلا لرغبـة رؤساء المراكب فى التعدية من جُدَّةَ إليـه ، وإن كانت باحتهُ متسعةً لغزارة المـاء وأَمْنِ اللَّحَاقِ بالشعب الذى ينبت فى قعر هذا البحر، ومن هذا الساحل يتوصل إلىٰ قُوصَ بالبضائع ومن قُوصَ إلىٰ فُنْدُقِ الكارم بالفُسْطَاطِ فى بحر النيل .

الساحل الثانى ـ القُصَيْرُ . وهو فى جهة الشمال عن عَيْذابَ ، وكان يصل إليه بعضُ المراكب لقربه من قُوصَ وبُعْدِ عَيْذابَ منها ، وتحمل البضائع منه إلىٰ قُوصَ ، ثم من قُوصَ إلىٰ فُنْدقِ الكارم بالفُسْطَاط علىٰ ماتقدّم ، وإن لم يبلغ فى كثرة الواصل حدّ عَيْذابَ .

الساحل الثالث ـ الطُّورُ . وهو ساحل فى جانب الرأس الداخل فى بحر القُلْزُمِ بين عَقَبة أَيْلَةَ وبين بر الديار المصرية ، وقد كان هذا الساحل كثير الواصل فى الزمن المتقدّم : لرغبة بعض رؤساء المراكب فى السير إليه ، لقرب المراكب فيه من بَرّ الحجاز حتّى لايغيب البر عن المسافر فيه وكثرة المراسى فى برّه ، متىٰ تغير البحر علىٰ صاحب المركب وجد مَرْساة يدخل إليها ، ثم تُرِكَ قَصْدُ هذا الساحل والسفرُ منه بعد ٱنقراض بنى بدير العباسية التجار ، ورغب المسافرون عن السفر فيه لما فيه من الشعب الذى يُخْشىٰ علىٰ المراكب بسببه ، ولذلك لا يُسافَر فيه إلا نهارا ، وبقى علىٰ ذلك إلىٰ حدود سنة ثمانين وسبعمائة ، فعَمَر فيه الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله ، وهو يومئذ حاجب الحُجّاب بالديار المصرية مَرْكبا وسَفَّرها ، ثم أتبعها بمركب آخر فجَسَر الناس علىٰ السفر فيه وعَمَروا المراكب فيه ، ووصلت إليه مراكبُ اليَمَن بالبضائع ، ورُفِضت عَيْذابُ والقُصَيْرُ ، وحصل بواسطة ذلك حمل الغلال إلىٰ الحجاز ، وغَزُرت فوائد التجار فى حمل الحنطة إليه .

الساحل الرابع ـ السُّوَيْسُ علىٰ القرب من مدينة القُلْزُمِ الخراب بساحل الديار المصرية . وهو أقرب السواحل إلىٰ القاهرة والفُسْطَاطِ إلا أن الدخول إليه نادر ، والعمدة علىٰ ساحل الطُّور كما تقدّم .

قلت : وهذه السواحل علىٰ حدّ واحد فى أخذ المرتب السلطانىّ ، وقد ذكر فى "قوانين الدواوين" : أن واصل عَيْذابَ كان ٱستقرّ فيه الزكاة . أما الذى عليه

الحال فى زماننا، فإنه يؤخذ من بضائع التجار العُشْر مع لواحِقَ أخرىٰ تكاد أن تكون نحو المرتب السلطانىّ أيضا .

واعلم أنه قد تَصِـلُ البضائع للتجار المسلمين إلىٰ ساحل الإسكندرية ودمياط المتقدّم ذكرهما، فيؤخذ منها المرتَّب السلطانىّ علىٰ ماتوجبه الضرائب .

الجهـــة الثـانية

(مايؤخذ علىٰ واصل التجار بقَطْيا فى طريق الشأم إلىٰ الديار المصرية)

وعليها يردُ سائرُ التجار الواصلين فى البر من الشأم والعراق وما والاهما، وهى أكثر الجهات متحصِّلا وأشدّها علىٰ التجار تضييقا وعندهم ضرائب مقرّرة لكل نوع يؤخذ عن نظيرها .

الصـــنف الثـانى

(مايؤخذ بحاضرة الديار المصرية : بالفُسْطَاط والقاهرة)

وهو جهات كثيرة، يقال إنها تبلغ آثنتين وسبعين جهة؛ منها مايكثُر متحصِّله ومنها مايقلُّ، ثم بعضها بحسب ما يتحصَّل من قليل وكثير، وبعضها له ضَمَان(١) بمقدار معين لكل جهة، يطلب بذلك المقدار إن زادت الجهة فله وإن نقصت فعليه .

قلت : وقد عمت البلوىٰ بهـذه المُكُوس، وخرجت فى التزيُّد عن الحدّ، ودخلت الشبهة فى أموال الكثير من الناس بسببها . وقد كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله فى سلطنته قد رفع هذه المكوس ومَحَا آثارها، وعوّضه الله عنها بما حازه من الغنائم وفتحه من البلاد والأقاليم، وربما وقع الإلهام من الله تعالىٰ لبعض ملوك المملكة برفع المظلمة الحاصلة منها. ومن أعظم ذلك خطَرا

---

(١) لعله ضامن .

وأرفعِه أجْرًا ما فعله السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حسين" بن الملك الناصر محمد بن قلاوون تغمده الله تعالىٰ برحمته من بُطْلان مكوس المَلَاهى والقراريط علىٰ الأملاك المبيعة .

النـــوع الثـانى

(ما لا ٱختصاص له بالديوان السلطانىّ)

وهى المُكُوس المتفرّقة ببلاد الديار المصرية فتكون تابعة للإقطاع إن كانت تلك البلد جارية فى ديوان من الدواوين السلطانية فمتحصِّلها لذلك الديوان، أو جارية فى إقطاع بعض الأمراء ونحوهم فمتحصِّلها لصاحب الإقطاع ، ويعبر عنها فى الدواوين بالهلالىّ كما يعبر عما يؤخذ من أجرة الأرضين بالخراجىّ .

المقصـــد الثـالث(١)

(فى ترتيب المملكة، ولهـا ثلاث حالات)

الحـالة الأولىٰ ـ ما كانت عليه فى زمن عُمَّال الخلفاء من حين الفتح إلىٰ آخر الدولة الأخشيدية ـ ولم يتحرر لى ترتيبها ، والظاهر أنه لم يزل نوابها وأمراؤها حينئذ علىٰ هيئة العرب إلىٰ أن وليهـا أحمد بن طولون وبَنُوه وأحدثوا فيها ترتيب الملك . علىٰ أنه كان أكثر عسكره من السودان، حتّى يقال إنه كان فى عسكره آثنا عشر ألف أسود، وتبعتهم الدولة الأخشيدية علىٰ ذلك إلىٰ آخر دولتهم .

---

(١) لم يسبق له التعبير بالمقصد الأول والثانى ولم يجمل كعادته فلعل هذا من بعض النساخ . وقد وقع فى هذا الجزء شىء من هذا القبيل فٱقتضىٰ التنبيه .

الحالة الثـانية ـ من أحوال الديار المصرية ما كانت عليه فى زمن الخلفاء الفاطميين؛ وينحصر المقصود من ترتيب مملكتهم فى ثلاث[1] جمل

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العِظَام)

وهى علىٰ أصناف متعدّدة :

منها (التاج) . وكان يُنْعَت عندهم بالتاج الشريف، ويعرف بشدّة الوَقَار . وهو تاج يركب به الخليفة فى المواكب العِظَام، وفيه جوهرة عظيمة تُعْرف باليتيمة زنتها سبعة دراهم ولا يقوّم عليها لنفَاستها ؛ وحولها جواهر أخرىٰ دونها؛ يلبس الخليفة هذا التاج فى المواكب العظام مكان العمامة .

ومنها (قضيب الملك) . وهو عُود طول شبر ونصف، ملَبَّس بالذهب المرصَّع بالدُّرّ والجوهر، يكون بيد الخليفة فى المواكب العظام .

ومنها (السيف الخاص) الذى يحمل مع الخليفة فى المواكب . يقال إنه كان من صاعقةٍ وقعت وحصل الظَّفَر بها فعمل منها هذا السيف، وحليته من ذهب مرصعة بالجواهر، وهو فى خريطة مرقومة بالذهب لا يظهر إلا رأسه ، وله أمير من أعظم الأمراء يحمله عند ركوب الخليفة فى الموكب .

ومنها (الدواة) . وهى دواة متخذة من الذهب وحليتها مصنوعة من المَرْجَانِ علىٰ صلابته ومناعته، تلف فى منديل شرب[2] أبيض ، ويحملها شخص من الأستاذين فى الموكب أمام الخليفة تكون بينه وبين السرج، ثم جعل حَمْلُها لعَدْلٍ من العدول المعتبرين .

(١) وصلت فى العدّالى سبع جمل . (٢) كذا فى الأصل وسيأتى ولعله نوع مخصوص من الحرير.

ومنها (الرمح) . وهو رمح لطيف فى غلاف منظوم باللؤلؤ، وله سِنَان مختصر بحلية الذهب، وله شخص مختص بحمله .

ومنها (الدَّرَقَةُ) . وهى دَرَقَةٌ كبيرة بكوابج من ذهب، يقولون إنها دَرَقَةُ حمزة عمّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم، وعليها غِشَاء من حرير، ويحملها فى الموكب أمير من أكابر الأمراء، له عندهم جلالة .

ومنها (الحافر) . وهى قطعة ياقوت أحمر فى شَكْل الهِلَال، زنتها أحد عشر مثقالا، ليس لها نظير فى الدنيا، تخاط خياطة حسنة علىٰ خرقة من حرير، وبدائرها قضب زمرد ذبابىّ عظيم الشأن، تجعل فى وجه فرس الخليفة عند ركوبه فى المواكب .

ومنها (المِظَلَّة) التى تحمل علىٰ رأس الخليفة عند ركوبه . وهى قُبَّةٌ علىٰ هيئة خيمة علىٰ رأس عمود كالمِظَلَّة التى يركب بها السلطان الآن ، وكانت آثنى عشر شوزكا عرض سُفْل كل شوزك شبر ، وطوله ثلاثة أذرع وثلث، وآخره من أعلاه دقيق للغاية بحيث يجتمع الآثنا عشر شوزكا فى رأس عمود بدائرة ، وعمودُها قنطارية من الزَّانِ ملَبَّسة بأنابيب الذهب، وفى آخر أنبوبة ثلثى رأس العمود ملكة (١) بارزة مقدار عرض إبهام تشدّ آخر الشوازك فى حَلْقَةٍ من ذهب، وتنزل فى رأس الرمح . ولها عندهم مكانة جليلة لعلوّها رأس الخليفة، وحاملها من أكبر الأمراء .

قال آبن الطوير : وكان من شرطها عندهم أن تكون علىٰ لون الثياب التى يلبسها الخليفة فى ذلك الموكب، لا تخالف ذلك .

ومنها (الأعلام) . وأعلاها اللواءان المعروفان بلواءَىِ الحمد، وهما رمحان طويلان ملَبَّسان بأنابيبَ من ذهب إلىٰ حدّ أسنَّتهما، وبأعلاهما رايتان من الحرير الأبيض المرقوم بالذهب، ملفوفتان علىٰ الرمحين غير منشورتين، يُخْرَجان لخروج المِظَلة إلىٰ أميرين معدّين لحملهما ، ودونهما رمحان برءوسهما أَهِلَّةٌ من ذهب صامت، فى كل واحد

(١) لعله فلكة بالفاء .

منهما سبع من ديباج أحمر وأصفر، وفى فمه طارة مستديرة يدخل فيها الرمح فيفتحان فيظهر شكلهما، يحملهما فارسان من صبيان الخاصّ، ووراءهما رايات لِطَاف ملوّنة من الحرير المرقوم ومكتوب عليهـا ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ طولُ كلّ راية منهـا ذراعان فى عرض ذراع ونصـف، فى كل واحدة ثلاثة طرازات علىٰ رماح من القَنَا، عدّتها أبدا إحدىٰ وعشرون راية، يحملها أحد وعشرون فارسا من صبيان الخليفة، وحاملها أبدا راكب بغلة .

ومنها (المِذَبَّتَانِ) وهمـا مِذَبَّتَانِ عظيمتان كالنخلتين ملويتان محمولتان عنـد رأس فرس الخليفة فى الركوب .

ومنها (السلاح) الذى يحمله الركابية حول الخليفة .وهو صَمَاصِمُ مصقولة، ودبابيسُ مَلَبَّسـة بالكَيْمُخْتِ الأحمر والأسـود ، ورءُوسـها مدوّرة، ولُتُوت حديد كذلك ورءُوسها مسـتطيلة ، وهى عمد حديد طول ذراعين، مربعات الأشكال بمقابض مدوّرة بعدّة معلومة من كل صـنف ، وستُّمائة حربة بأسنَّة مصقولة، تحتها جُلَب الفضة، وثلثمائة دَرَقَةٍ بكوابج فضة، يحمل ذلك فى الموكب ثلثمائة عبد أسود كل عبد حربتان ودَرَقَةٌ واحدة، وستون رمحا طول كل واحد منها سبع أذرع، برأسها طلعة وعقبها من حديد، يحملها قوم يقال لهم السريرية يفتلونها بأيديهم اليمنىٰ فَتْلًا متدارك الدوران، ومائة درقة لطيفة، ومائة سيف بيد مائة رجل، كل رجل دَرَقَةٌ وسيف يسيرون رَجَّالة فى الموكب، وعشرة سيوف فى خرائط ديباج أحمر وأصفر بشراريب يقال لها سيوف الدم، تكون فى أعقاب الموكب برسم ضرب الأعناق إذا أراد الخليفة قتـلَ أحد . وذلك كله خارج عمـا يخرج من خزانة التجمل برسم الوزير وأكابر الأمراء وأرباب الرتب وأزِمَّةِ العساكر لتجملهم فى الموكب، وهى نحو أربعمائة راية مرقومة الأطراف ، وبأعلاها رَمَامِينُ الفضة المذهبة ، وعدّة من العماريات : وهى

شبه الكنجاوات ملبَّسة بالحرير الأحمر والأصفر والقرمزىّ وغير ذلك ، وعليها كوابج الفضة المذهبة ، لكل أمير من أصحاب القضب منها عمارية ، و يختص لواءان علىٰ رمحين منقوشين بالذهب غير منشورين يكونان أمامه فى الموكب إلىٰ غير ذلك من الآلات التى يطول ذكرها ، و يعسر آستيعابها .

ومنها (النَّقَّارات) . وكانت علىٰ عشرين بغلا علىٰ كل بغل ثلاث مثل نقارات الكوسات بغير كوسات ، تسير فى الموكب آثنتين آثنتين ولها حِسٌّ حسن .

ومنها (الخيام والفساطيط) وكان من أعظم خيمهم خَيْمَةٌ تعرف بالقاتول ، طول عمودها سبعون ذراعا ، بأعلاه سفرة فضة تسع راوية ماء ، وسعتها مايزيد علىٰ فدانين فى التدوير . وسميت بالقاتول لأن فرّاشًا سقط من أعلاها فمات .

قلت : ولعمرى إن هذه لأثرة عظيمة تدل علىٰ عظيم مملكة وقوّة قدرة ، وأنّىٰ يتأتى مثل هذه الخيمة لملك من الملوك وإن جلَّ قدره وعظم شأنه .

الجملة الثانية

(فى حواصل الخليفة ، وهى علىٰ خمسة أنواع)

النوع الأوّل

(الخزائن ، وهى ثمان خزائن)

الأولىٰ ـ (خِزانة الكتب) . وكانت من أجل الخزائن وأعظمها شأنا عندهم ، وكان فيها من المصاحف الشريفة المكتوبةِ بالخطوط المنسوبة الفائقة عدّةٌ كثيرة ، ومن الكتب النفيسة ما يزيد علىٰ مائة ألف مجلد ، مشتملة علىٰ أنواع العلوم مما يُدْهِشُ الناظر ويحيره ، وربما آجتمع من المصَنَّفِ الواحد فيها عشرُ نسخ

فمـا دونها(١)، وكان فيها من الدُّرُوج المكتتبة بالخطوط المنسوبة بخط آبن مقلة وآبن البوّاب، ومن جرىٰ مجراهما(١) .

الثانية ـ (خِزَانة الكُسْوة) وهى فى الحقيقة خزانتان . إحداهمـا ـ الخزانة الظاهرة، وهى المعبر عنها فى زماننا بالخزانة الكبرىٰ علىٰ ما كانت عليه أوّلا، والمعبر عنها بخزانة الخاصّ علىٰ ما آستقرّ عليه الحال آخِرا ، وكان فيها من الحواصـل من الديباج الملون علىٰ آختلاف ضروبها، والشرب الخاص الدبيقى والسقلاطون، وغير ذلك من أنواع القماش الفاخرة مايدل علىٰ عِظَم المملكة ، وإليها يحمل ما يُعْمَل بدار الطِّراز بتِنِّيس ودِمْيَاط والإسْكَنْدَرِيَّةِ من مسـتعملات الخاص ، وفيها يفصَّل مايؤمر به من لباس الخليفة، وما يحتـاج إليه من الخِلَع والتشاريف وغير ذلك . الثانية ـ معـدّة للباس الخليفة خاصة ، وهى المعبر عنها فى زماننا بالطشت خاناه، وإليها ينقل القماش المفصَّل بالخزانة الأولىٰ من قمـاش الخليفة وغيره .

الثالثة ـ (خزانة الشراب). وهى المعبر عنها فى زماننا بالشراب خاناه، وكان فيها من أنواع الأشربة والمَعَاجين النفيسة والمربَّيات الفاخرة وأصناف الأدوية والعِطْريَّات الفائقة التى لا توجد إلا فيها، وفيها من الآلات النفيسة والآنية الصِّينِيّ من الزبادى والصُّحُون والبَرَانِيّ والأزيار ما لا يقدر عليه غير الملوك .

الرابعة ـ خزانة الطُّعْمِ . وهى المعبر عنها فى زماننا بالحوائج خاناه، وكانت تحتوى علىٰ عدّة أصـناف من جميع أصـناف القَلَوِيَّات من الفسـتق وغيره والسُّكَّر والقَنْدِ والأعسال علىٰ أصنافها والزيت والشَّمَع وغير ذلك، ومنها يخرج راتب المطابخ خاصًّا وعامًّا، وينفق لأرباب الخدم وأصحاب التوقيعات فى كل شهر، ولا يحتاج إلىٰ غيرها إلا فى اللحم والخضر .

(١) لعل الأنسب فما فوقها (٢) لعل تمـامه [مايدل علىٰ عظم المملكة] كما سيأتى فى نظيره .

الخامسة - (خِزَانة السُّروج) . وهى المعبَّر عنها فى زماننا بالرِّكاب خاناه، وكانت قاعة كبيرة بالقصر، بها السروج وأُلْجُمُ من الذهب والفِضَّة ، وسائر آلات الخيل مما يختص بالخليفة ؛ ثم منها ما هو قريب من الخاص ، ومنها ما هو وسط برسم مَنْ هو من أرباب الرُّتَب العالية، ومنها ما هو دُونٌ برسم من هو برسم العوارى أيام المواكب لأرباب الخدم .

السادسة - (خزانة الفَرْش) . وهى المعبر عنها فى زماننا بالفِرَاش خاناه؛ وكان موضعها بالقصر بالقرب من دار الملك؛ وكان الخليفة يحضُر إليها من غير جلوس ويطوف فيها، ويسأل عن أحوالها، ويأمر بإدامة عمل الاحتياجات وحملها إليها .

السابعة - (خزانة السلاح) . وهى المعبر عنها فى زماننا بالسلاح خاناه؛ فيها من أنواع السلاح المختلفة مالا نظير له : من الزَّرَدِيَّاتِ المُغَشَّاة بالديباج المحكمة الصَّنْعة المحلَّاة بالفضة، والجواشن المُذْهبة، والخُوَذ المحلَّاة بالذهب والفضة، والسيوف العربيات والقلجورِيَّة ، والرِّماح القنا والقنطاريات المدهونة والمذهبة ، والأَسِنَّة العظيمة والقِسِيّ المخبورة المنسوبة إلى أفاضل الصُّنَّاع ، وقسىّ الرجل والركاب ، وقِسِىّ اللولب التى تبلغ زِنَةُ نصله خمسة أرطال بالمصرى ، والنَّبْل الذى يرمى به عن القسىّ العربية فى المجارى المصنوعة لذلك .

قال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : كان يصرف فيها فى كل سنة سبعون ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار .

الثامنة - (خزانة التجمُّل). وهى خزانة فيها أنواع من السلاح يُخْرَج منها للوزير والأمراء فى المواكب الألويةُ والقُضُب الفضة والعماريات وغيرها . قال ابن الطوير : هى من حقوق خزائن السلاح .

وأمّا (خزائن المـال) فكان فيها من الأموال والجواهر النفيسة، والذخائر العظيمة، والأقمشة الفاخرة مالا تحصره الأقلام .

وناهيك أن المستنصر لما وقع الغلاء العظيم بمصر، أخرج من خِزانتـه فى سـنة آثنتين وستين وأربعمائة ذخائرَ تَسَعُها للإعانة علىٰ قيام أمر المملكة والجند، فكان مما أخرجه ثمانون ألف قطعة بِلَّوْرٍ كبار، وسبعون ألف قطعة من الدِّيباج، وعشرون ألف سيف مُحَلًّى . ولما آستولىٰ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوبَ علىٰ القصر بعد وفاة العاضد: آخر خلفائهم، وجد فيه من الأعلاق الثمينة والتُّحف ما يخرج عن حدّ الإحصاء، من جملته الحافر الياقوت المقدّم ذكره . ويقال إنه وجد فيه قضيب زُمُرُّدٍ يزيد علىٰ قامة الرجل علىٰ ما تقـدّم ذكره فى الكلام علىٰ الأحجـار الملوكيـة فى أثناء المقالة الأولىٰ، ووجد فيه أيضـا الهَرَم العَنْبَرَ الذى عمله الأمين زِنَتُه ألف رطل بالمصرىّ .

النـــوع الثـانى

(حواصل المواشى المعبر عنها عند كُتَّاب زماننا بالكُرَاع؛ وهى حاصلان)

الأوّل ـ الإصطبلات . وهى حواصل الخيول والبِغَال وما فى معناها، قال آبن الطوير: وكان لهم إصـطبلان (١) . قال: وكان للخليفة برسم الخـاصّ (١) فى كل إصطبل مايقْرُب من الألف رأس، النصف من ذلك برسم الخاصّ، والنصف برسم العوارىٰ فى المواكب لأرباب الرُّتَب والمستخدمين، وكان لكل ثلاثة أرؤُس منهـا سائس واحد، لكل واحد منها شدّاد برسم تسييرها، وبكل من الإصطبلين رائض كأميراخور . ومن غريب ما يحكىٰ أن أحدا من خلفاء الفاطميين لم يركب حِصَانًا أدهمَ قطُّ، ولا يَرَوْنَ إضافته إلىٰ دوابّهم بالإصطبلات .

---

(١) لعلهما زائدتان من قلم الناسخ .

الثانى ـ المُنَاخات . وهى حواصل الجمال ، وكان لهم من الجمال الكثيرة بالمُنَاخات وعُدَدها الفائقة ما يقصر عنه الحدّ .

النوع الثالث
(حواصل الغلال وشُوَنُ الأَتْبان)

أمّا الغلال ، فكانت لهم الأهراءُ فى عدّة أماكنَ : بالقاهرة و بالفُسْطَاط ، والمَقْسِم ، ومنها تصرف الإطلاقات لأرباب الرواتب والخدم والصدقات وأرباب الجوامع والمساجد والجرايات والطواحين السلطانية ، وجرايات رجال الأسطول وغير ذلك ، وربما طال زمن الغلال فيها حتّى تقطع بالمساحى .

وأمّا شون الأتبان ، فكان بطريق الفُسْطَاط شونتان عظيمتان مملوءتان بالتبن معبأتان تعبئة المراكب كالجبلين الشاهقين ، وينفق منها للإصطبلات والمواشى الديوانية وعَوَامل بساتين الملك ، وكانت ضريبة كل شليف عندهم ثلثمائة وستين رطلا .

النوع الرابع
(حواصل البِضَاعة)

قال ابن الطوير : وكان فيها ما لا يحصره إلا القلم من الأخشاب والحديد والطواحين النجدية والغشيمة ، وآلات الأساطيل من القِنَّب والكَتَّان ، والمنجنيقات والصُّنَّاع الكثيرة من الفرنج وغيرهم من أهل كل صنعة ، وكانت الصناعة أوّلا بالجزيرة المعروفة الآن بالرَّوْضَةِ ، ولذلك كانت تعرف بينهم بجزيرة الصِّناعة قاله القضاعىّ .

النوع الخـامس

(مافى معنىٰ الحواصل : لوقوع الصرف والتفرقة منه،
وهو الطواحين والمَطْبَخ ودار الفطرة)

فأمّا الطواحين، فإنها كانت معلقة، مداراتها أسفلُ وطواحينها فوقُ كما فى السواقى حتّى لا يقارب الدقيقَ زِبْلُ الدوابِّ الدائرة لآختصاصـه بالخليفة . وأمّا المَطْبَخ، فقد تقـدّم فى الكلام علىٰ خطط القاهرة، وكان يدخل بالطعام منـه إلىٰ القصر من باب الزُّهومة مكانَ قاعة الحنـابلة من المدرسة الصالحيـة الآن علىٰ ما تقـدّم فى خِطَط القاهرة . قال آبن الطوير : ولم يكن لهم أسمطة عامّة فى سوىٰ العيدين وشهر رمضان .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى ذكر جيوش الدولة الفاطمية، وبيان مراتب أرباب السيوف)

وهم علىٰ ثلاثة أصناف :

الصــــنف الأوّل الأُمراء،

(وهم علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة الأمراء المطوَّقين . وهم الذين يخلع عليهم بأطواق الذهب فى أعناقهم، وكأنهم بمثابة الأمراء مقدّمى الأُلُوف فى زماننا .

المرتبة الثانية — مرتبة أرباب القُضُب، وهم الذين يركبون فى المواكب بالقُضُب الفِضَّة التى يخرجها لهم الخليفة من خِزانة التجمُّل تكون بأيديهم، وهم بمثابة الطبلخاناه فى زمانـنا .

المرتبة الثالثة — أدوان الأمراء ممن لم يؤهَّل لحمل القُضُب . وهم بمثابة أمراء العشرات والخمسات فى زماننا .

الصـــنف الثـانى

(خواص الخليفة ، وهم علىٰ ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(الأســتاذون)

وهم المعروفون الآن بالخدّام و بالطواشــيَّة، وكان لهم فى دولتهم المكانة الجليلة، ومنهم كان أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة،وأجلهم المُحَنَّكُونَ،وهم الذين يُدوِّرون عمائمهم علىٰ أحناكهم كما تفعل العرب والمغاربة الآن،وهم أقربهم إليه وأخصهم به، وكانت عدّتهم تزيد علىٰ ألف . قال ٱبن الطوير : وكان من طريقتهم أنه متىٰ ترشح أســتاذ منهم للحنك وحنك، حَمَلَ إليه كل أســتاذ من المحنكين بَدْلَةً كاملة من ثيابه وسيفا وفرسا فيصبح لاحقا بهم ، وفى يده مثل ما فى أيديهم .

النـــوع الثـانى

(صِبْيان الخاص)

وهم جماعة من أخصاء الخليفة نحو خمسمائة نفر منهم أمراء وغيرهم،ومقامهم مقام المعروفين بالخاصكية فى زماننا .

النـــوع الثـالث

(صِبْيان الحُجَر)

وهم جماعة من الشَّبَاب يناهزون خمسة آلاف نفر مقيمون فى حُجَر منفردة لكل حُجْرة منها ٱسم يخصها ، يضاهون مماليك الطباق السلطانية الآن المعبر عنهم بالكتانية إلا أن عدّتهم كاملة وعللهم مزاحة،ومتىٰ طُلِبوا لِمُهِمٍّ لم يجدوا عائقا،وللصِّبيان منهم حجرة منفردة يتسلمها بعض الأســتاذين ؛ وكانت حُجْرتهم بمعزل عن القصر داخل باب النصر مكان الخانقاه الركنية بيبرس الآن .

الصـــــنف الثـالث

(طوائف الأجناد)

وكانوا عدّة كثيرة، تنسب كلُّ طائفة منهم إلىٰ مَنْ بقى من بقايا خليفة من الخلفاء الماضين منهم ، كالحافظية والآمرية من بقايا الحافظ والآمر ، أو إلىٰ مَنْ بقى من بقايا وزير من الوزراء المـاضين كالجُيُوشـية والأفضلية من بقايا أمير الجيوش بدر الجمـالىّ وولده الأفضل ، أو إلىٰ مَنْ هى منتسبةٌ إليه فى الوقت الحاضر كالوزيرية أو غير ذلك من القبائل والأجنـاس كالأتراك والأكراد والغز والدَّيْلم والمَصَامدة ، أو من المستصنعين كالروم والفرنج والصَّـقالبة ، أو من السُّودان من عبيد الشراء ، أو العُتَقَاء وغيرهم من الطوائف ،ولكل طائفة منهم قُوّاد ومقدّمون يحكمون عليهم .

الجمـــــــلة الرابعة

(فى ذكر أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ، وهم علىٰ قسمين)

القسم الأوّل

(ما بحضرة الخليفة ، وهم أربعة أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(أرباب الوظائف من أرباب السيوف ، وهم نوعان)

النـــــوع الأوّل

(وظائف عامّة الجند ، وهى تسع وظائف)

الوظيفة الأولىٰ ــ (الوزارة) وهى أرفع وظائفهـم وأعلاها رتبـةً . وآعلم أن الوزارة فى الدولة الفاطمية كانت تارة تكون فى أرباب السُّـيوف ، وتارة فى أرباب الأقلام ، و فى كلا الجانبين تارة تعلو فتكون وزارةَ تَفْويِض تضاهى السـلطنة الآن

أو قريبا منها، ويعبر عنها حينئذ بالوزارة؛ وتارة تنحطّ فتكون دون ذلك، ويعبر عنها حينئذ بالوَساطة .

قال فى "نهاية الأرب" : وأوّل مَنْ خُوطِب منهم بالوزارة يعقوبُ بن كلس وزير العزيز، وأوّل وزارتهم من عظماء أرباب السيوف بدر الجمالىّ وزير المستنصر، وآخرهم صلاح الدين يوسف بن أيوب، ومنها آستقل بالسلطنة على ما تقدّم .

الوظيفة الثانية ـ (وظيفة صاحب الباب) وهى ثانى رتبة الوزارة . قال آبن الطوير : وكان يقال لها الوزارة الصغرى، وصاحبها فى المعنى يقرب من النائب الكافل فى زماننا، وهو الذى ينظر فى المظالم إذا لم يكن وزيرٌ صاحبُ سيف، فإن كان ثَمَّ وزيرٌ صاحب سيف، كان هو الذى يجلس للظالم بنفسه، وصاحبُ الباب من جملة مَنْ يقف فى خِدْمته .

الوظيفة الثالثة ـ (الاسفهلارية) . قال آبن الطوير : وصاحبها زِمَام كلّ زِمَام، وإليه أمر الأجناد والتحدّث فيهم، وفى خدمته وخدمة صاحب الباب تقف الحُجَّاب على آختلاف طبقاتهم .

الوظيفة الرابعة ـ (حمل المِظَلَّة) فى المواسم العِظام : كركوب رأس العام ونحوه. وهى من الوظائف العِظام، وصاحبها يسمّى حاملَ المظلة، وهو أمير جليل، وله عندهم التقدّم والرفعة : لحمل مايعلو رأس الخليفة .

الوظيفة الخامسة ـ (حمل سيف الخليفة) فى المواكب التى تحمل فيها المظلة، ويعبر عن صاحبها بحامل السيف .

الوظيفة السادسة ـ (حمل رُمْح الخليفة) فى المواكب التى تحمل فيها المظلة . وهو رمح صغير يحمل مع الخليفة فى المواكب، وصاحبها يعبر عنه بحامل الرمح .

الوظيفة السابعة ـ (حمل السِّلاح) حول الخليفة فى المواكب . وأصحاب هذه الوظيفة يعبر عنهم لزيهم بالركابية وبِصبْيان الركاب الخاص أيضا، وهم الذين يعبر عنهم فى زماننا بالسِّلاحدارية والطَّبَرْدارية، وكانت عدّتهم تزيد علىٰ ألفَىْ رجل، ولهم اثنا عَشَر مقدَّما، وهم أصحاب ركاب الخليفــة، ولهم نُقَبَاءُ موكَّلون بمعرفتهـم، والأكابر من هؤلاء الرّكابِيَّة تندب فى الأشـغال السلطانية، وإذا دخلوا عملا كان لهم فيه الصِّيتُ المرتفع .

الوظيفة الثامنة ـ (وِلَاية القاهرة). وكان لصاحبها عندهم الرتبة الجليلة والحُرْمة الوافرة، وله مكان فى الموكب يسير فيه .

الوظيفة التاسـعة ـ (ولاية مصر) . وهى دون ولاية القاهرة فى الرتبة كما هى الآن، إلا أن مصر كانت إذ ذاك عامرةً آهلةً، فكان مقـدارها أرفع ممـا هى عليه فى زمانـنـا .

النـــــوع الثـانى

(وظائف خواصّ الخليفة من الأستاذين، وهى عدّة وظائف، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يختص بالأستاذين المحنِّكين، وهى تسع وظائف)

الأولىٰ ـ (شـدّ التاج) . وموضوعها أن صاحبَها يتولّى شدّ تاج الخليفة الذى يلْبَسه فى المواكب العظيمة بمثابة اللَّفَّاف فى زماننا، وله مِيزَةٌ علىٰ غيره بلمسه التاجَ الذى يعلو رأس الخليفة، وكان لشدّه عندهم ترتيب خاص لا يعرفه كل أحد، يأتى به فى هيئة مستطيلة، ويكون شدّه بمنديل من لون لِبْس الخليفة، ويعبر عن هذه الشدّة بشدّة الوَقَارِ كما تقدّم .

الثانية ـ وظيفة (صاحب المجلس). وهو الذى يتولّى أمر المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوسَ العامَّ فى المواكب، ويخرج إلى الوزير والأمراء بعد جلوس الخليفة على سرير الملك يُعْلمهم بذلك، وينعت (بأمين الملك)، وهو بمثابة أمير خازندار فى زماننا.

الثالثة ـ وظيفة (صاحب) الرسالة. وهو الذى يخرج برسالة الخليفة إلى الوزير وغيره.

الرابعة ـ وظيفة (زِمَام القُصُور). وهو بمثابة زِمَام الدُّور فى زماننا.

الخامسة ـ وظيفة (صاحب بيت المال). وهو بمثابة الخازندار فى زماننا.

السادسة ـ وظيفة (صاحب الدفتر) المعروف بدفتر المجلس. وهو المتحدّث على الدواوين الجامعة لأمور الخلافة.

السابعة ـ وظيفة (حامل الدواة). وهى دواة الخليفة المتقدّم ذكرها، وصاحب هذه الوظيفة يحمل الدواة المذكورة قدامه على السَّرْج ويسير بها فى المواكب.

الثامنة ـ وظيفة (زمّ الأقارب). وصاحبها يحكم على طائفة الأشراف الذين هم أقارب الخليفة وكلمته نافذة فيهم.

التاسعة ـ (زمّ الرجال). وهو الذى يتولّى أمر طعام الخليفة كأستادار الصحبة.

الضرب الثانى

(ما يكون من غير المحنَّكين، ومن مشهوره وظيفتان)

الأولى ـ نِقَابة الطالبيِّين. وهى بمثابة نِقَابة الأشراف الآن، ولا يكون إلا من شيوخ هذه الطائفة وأجلّهم قَدْرًا؛ وله النظر فى أمورهم، ومنع من يدخل فيهم من

الأدعياء، وإذا ٱرتاب بأحد أخذه بإثبات نَسَبه . وعليه أن يعود مَرْضاهم، ويمشى فى جنائزهم، ويسعىٰ فى حوائجهم، ويأخذ علىٰ يد المتعدّى منهم، ويمنعه من الاعتداء، ولا يَقْطَع أمرا من الأمور المتعلقة بهم إلا بموافقة مشايخهم ونحو ذلك .

الوظيفة الثانية — (زم الرجال) . وصاحبها يتحدّث علىٰ طوائف الرجال والأجناد كزم صِبْيان الحُجَر، وزم الطائفة الآمرية والطائفة الحافظية، وزم السُّودان وغير ذلك؛ وهو بمثابة مقدّم المماليك فى زماننا .

الصـــــنف الثـــانى

(من أرباب الوظائف بحضرة الخليفة أربابُ الأقلام، وهم علىٰ ثلاثة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(أرباب الوظائف الدينية، والمشهور منهم ستة)

الأوّل — (قاضى القُضَاة) . وهو عندهم من أجلّ أرباب الوظائف وأعلاهم شأْنا وأرفعِهم قدرا . قال ٱبن الطوير : ولا يتقدّم عليه أحد أو يحتمى عليه، وله النظر فى الأحكام الشرعية ودُور الضَّرْبِ وضبطِ عيارها، وربما جُمِعَ قضاءُ الديار المصرية وأجنادُ الشأم وبلاد المغرب لقاض واحد وكتب له به عهدٌ واحد كما سيأتى فى الكلام علىٰ الولايات إن شاء الله تعالىٰ .

ثم إن كان الوزير صاحبَ سيفٍ، كان تقليدُه من قِبَلِه نيابة عنه، وإن لم يكن، كان تقليده من الخليفة،

ويقدّم له من إصطبلات الخليفة بغلةٌ شهباء يركبها دائما، وهو مختص بهذا اللون من البغال دون أرباب الدولة، ويخرج له من خِزَانة السروج مركب ثقيل وسرج برادفتين من الفضة ، وفى المواسم الأطواقُ، وتُخلَع عليه الخلع المُذْهَبَةُ؛ وكان من

مصطلحهم أنه لا يعدّل شاهدا إلا بأمر الخليفة، ولا يحضُر إملاكا ولا جنازةً إلا بإذن، وإذا كان ثَمَّ وزيرٌ لا يخاطب بقاضي القضاة لأن ذلك من نعوت الوزير؛ ويجلس يوم الآثنين والخميس بالقصر أوّل النهار للسلام على الخليفة، ويوم السبت والثلاثاء يجلس بزيادة الجامع العتيق بمصر، وله طَرْحة ومسند للجلوس وكُرسيّ توضع عليه دواتُه . وإذا جلس بالمجلس، جلس الشهود حواليْه يَمْنَةً ويَسْرَةً على مراتبهم في تقدّم تعديلهم . قال آبن الطوير : حتّى يجلس الشابُّ المتقدّمُ التعديلِ أعلى من الشيخ المتأخرِ التعديلِ، وبين يديه أربعة موقعون: آثنان مقابل آثنين، وببابه خمسة حُجّاب : آثنان بين يديه وآثنان على باب المقصورة وواحد ينفذ الخصوم . ولا يقوم لأحد وهو في مجلس الحكم البتةَ .

الثاني – (داعي الدُّعاة) . وكان عندهم يلي قاضيَ القضاة في الرتبة ويتزيّا بزيه في اللباس وغيره . وموضوعه عندهم أنه يقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم، ويأخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبهم .

الثالث – (المحتسب) . وكان عندهم من وجوه العُدُول وأعيانهم، وكان من شأنه أنه إذا خلع عليه قرئ سجلُّه بمصر والقاهرة على المنبر؛ ويده مُطْلَقَةٌ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على قاعدة الحِسْبة؛ ولا يُحَال بينه وبين مصلحة أرادها؛ ويتقدّم إلى الوُلاة بالشدّ منه، ويقيم النُّوّاب عنه بالقاهرة ومصر وجميع الأعمال كنوّاب الحُكْم؛ ويجلس بجامعي القاهرة ومصر يوما بيوم، وباقي أمره على ما الحال عليه الآن .

قلت : ورأيت في بعض سجلّاتهم إضافة الحسبة بمصر والقاهرة إلى صاحبي الشُّرْطة بهما أحيانا .

الرابع – (وكالة بيت المال) . وكانت هذه الوكالة لا تُسنَد إلا لذوي الهيبة من شيوخ العدول، ويفوّض إليه عن الخليفة بيعُ ما يرى بيعه من كل صنف يملك

ويجوز التصرف فيه شرعا، وعتقُ المماليك، وتزويجُ الإماء، وتضمين مايقتضى الضمان، وٱبتياعُ ما يرىٰ ٱبتياعه، وإنشاء ما يرىٰ إنشاءه من البناء والمراكب وغير ذلك ممـا يحتاج إليه فى التصرف عن الخليفة .

الخامس ـ (النائب). والمراد نائب صاحب الباب المتقدّم ذكره المعبَّر عنه فى زماننا بالمهمندار . قال ٱبن الطوير : ويعـبَّر عن هذه النيابة بالنيابة الشريفـة . قال : وهى رتبة جليلة، يتولاها أعيان العـدول وأرباب الأقلام ؛ وصاحبها ينوب عن صاحب البـاب فى تَلَقِّ الرُّسُل الواردين علىٰ الخليفة علىٰ مسافة وقفة نُوّاب الباب فى خدمته ، ويُنْزِل كلًّا منهـم فى المكان اللائق به، ويرتِّب لهم ما يحتاجون إليه ، ولا يمكِّن أحدا من الٱجتماع بهم، ويتولَّى ٱفتقادهم ، ويُذَكِّر صاحب الباب بهم ، ويسعىٰ فى نَجَـاز أمرهم ، وهو الذى يسـلِّم بهم علىٰ الخليفـة أو الوزير ويتقدّمهم ويستأذن عليهم، ويدخل الرسول وصاحبُ الباب قابضٌ علىٰ يده اليمنىٰ، والنائبُ قابض علىٰ يده اليسرىٰ فيحفظ ما يقولون وما يقال لهم، ويجتهـد فى ٱنفصالهم علىٰ أحسن الوجوه، وإذا غاب أقام عنه نائبا إلىٰ أن يعود. ومن شريطته أنه لا يتناول من أحد من الرسل تقدمةً ولا طُرْفة إلا بإذن .

قال ٱبن الطوير : وهو المسمّى الآن بالمهمندار، وسيأتى فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة المستقرّ أن المِهْمِنْدَارَ الآن من أصحاب السيوف ، وكأنَّ ذلك لموافقة الدولة فى اللسان والهيئة .

السادس ـ (القُرّاء) . وكان لهم قرّاء يقرءون بحضرة الخليفة فى مجالسه وركوبه فى المواكب وغير ذلك، وكان يقال لهم "قرّاء الحضرة" يزيدون فى العدّة علىٰ عشرة نَفَرٍ، وكانوا يأتون فى قراءتهم فى المجـالس ومواكب الركوب بآيات مناسـبة للحال بأدنىٰ ملابسة، قد أَلِفُوا ذلك وصار سهلَ الٱستحضار عليهم، وكان ذلك يقع منهم موقعَ

الاستحسان عند الخليفة والحاضرين، حتى إنه يحكى أن بعض الخلفاء غضب على أمير فأمر باعتقاله، فقرأ قارئ الحضرة: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ فاستحسن ذلك وأطلقه إلا أنهم كانوا ربما أتوا بآيات إذا روعي قصدُهم فيها، أخرجت القرءان عن معناه: كما يحكى أنه لما استوزر المستنصرُ بدر الجماليّ قرأ قارئهم: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ ولما استوزر الحافظ رضوان قرأ قارئهم: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ إلى غير ذلك من الوقائع.

النـــوع الثانى
(من أرباب الأقلام أصحاب الوظائف الديوانية، وهى على ثلاثة(١) أضرب)

الضرب الأوّل
(الوزارة إذا كان الوزير صاحبَ قلم)

اعلم أن أكثر وزرائهم فى ابتداء دولتهم إلى أثناء خلافة المستنصر كانوا من أرباب الأقلام: تارةً وزارة تامة وتارة وَسَاطة، وهى رتبة دون الوِزَارة؛ وممن اشتهر من وزرائهم أربابِ الأقلام فيما ذكره ابن الطوير يعقوبُ بن كلس وزير العزيز، والحسنُ بن عبد الله اليـازُورىّ وزير المستنصر، وأبو سعيد التُّسترىّ، والجرجانى، وابن أبى كدينة، وأبو الطاهر أحمد بن بابْشاذ صاحب المقدّمة فى النحو، ووزير الوزراء علىّ بن فلاح، والمَغْربىّ وزير المستنصر، وهو آخر من وُزِّر لهم من أصحاب الأقلام، وعليه قدّم أمير الجيوش بدرٌ الجمالىّ فوُزِّر للمستنصر على ما تقدّم ذكره؛ وربما تخلل تلك المدّة الأولى فى الوَسَاطة أربابُ السيوف، كبَرْجَوان الخادم، وقائد القوّاد الحسين بن جوهر، وثِقَةُ ثقات السيف والقلم علىٌّ بن صالح

(١) المعدود أربعة كما يعلم مما سيأتى.

كلهم فى أيام الحاكم . وربما وَلِىَ الوساطةَ بعضُ النصارىٰ، كعيسىٰ بن نسطورس فى أيام العزيز، ومنصور بن عَبْدُون الملقب بالكافى، وزرعة بن نسطورس الملقب بالشافى كلاهمـا فى أيام الحاكم . وربمـا كان الأمر شُـورىٰ فى أهل المروادنى (١)؛ وكان من زِىّ وزرائهم أصحابِ الأقلام أنهـم يَلْبَسون المناديل الطبقيات بالأحناك تحت حلوقهم كالعُدُول، وينفردون بلُبْس الدراريع مشقوقةً من النحر إلىٰ أسفل الصدر بأزرار وعُرًى؛ وهـذه علامة الوزارة؛ ومنهم من تكون أزراره من ذهب مشبك، ومنهم من تكون أزراره من لؤلؤ؛ وعادته أن تحمل له الدواة المحلاة بالذهب من خزانة الخليفـة ويقف بين يديه الحُجّـاب، وأمره نافذ فى أرباب السيوف من الأجناد، وفى أرباب الأقلام .

الضرب الثـانى

(ديوان الإنشاء، وكان يتعلق به عندهم ثلاث وظائف)

الأولىٰ ــ صَحَـابة ديوان الإنشاء والمكاتَبات، وكان لا يتولّاه إلا أجلُّ كُتَّاب البلاغة، ويخاطب بالأجلّ؛ وكان يقال له عندهم كاتب الدَّسْت الشريف، وإليه تسلَّم المكاتبات الواردة مختومةً فيَعْرِضها علىٰ الخليفة من يده، وهو الذى يأمر بتنزيلها والإجابة عنها؛ ويستشيره الخليفة فى أكثر أموره؛ ولا يُحْجب عنـه متىٰ قصـد المثولَ بين يديه، وربمـا بات عنـده الليالىَ، ولا سبيل إلىٰ أن يدخل إلىٰ ديوانه ولا يجتمع بكُتَّابه أحدٌ إلا خواصّ الخليفة . وله حاجب من الأمراء الشُّـيوخ، وله مرتبة عظيمة للجلوس عليها بالمَخَادّ والمسند، ودواته من أخصّ الدُّوِىّ وأحسنها إلا أنه ليس لهـا كرسىّ توضع عليـه كدواة قاضى القُضاة، ويحملها له أسـتاذ من الأستاذين المختصين بالخليفة إذا أتىٰ إلىٰ حضرته .

---

(١) كذا فى الأصل مضببا عليه إشارة للتوقف ولعله المروءات .

الثانية – (التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم) وهى رُتْبة جليلة تلى رتبةَ صاحب ديوان الإنشاء والمكاتَبات، يكون صاحبها جليسا للخليفة فى أكثر أيام الأُسْبوع فى خلوته، يذاكره ما يحتاج إليه من كتاب الله تعالىٰ أو أخبار الأنبياء والخلفاء الماضين، ويقرأ عليه مُلَحَ السِّيَرِ، ويكرر عليه ذكر مكارم الأخلاق، ويقوّى يده فى تجويد الخط وغير ذلك. وصحبَته للجلوس دواة مُحَلَّاة، فإذا فرغ من المجالسة ألقىٰ فى الدواة كاغَدَة فيها عشرة دنانير، وقِرْطاسٌ فيه ثلاثة مثاقيل ندّ مثلَّث خاصّ ليتبخر به عند دخوله على الخليفة ثانى دَفْعة. وإذا جلس الوزير صاحب السيف للمظالم، كان إلىٰ جانبه يوقِّع بما يأمر به فى المظالم. وله موضعٌ من حقوق ديوان المكاتَبات لا يدخل إليه أحد إلا بإذن، وفرّاش لتقديم القصص؛ ويرفع إليه هناك قصص المظالم فيوقِّع عليها بما يقتضيه الحال كما يفعل كاتب السر الآن.

الثالثة – (التوقيع بالقلم الجليل). وكان يسمّى عندهم الخدمةَ الصغيرة لجلالتها، ولصاحبها الطَّرّاحة والمسند فى مجلسه بغير حاجب. وموضوعها الكتابة بتنفيذ ما يوقِّع به صاحب القلم الدقيق، وبسطه. وصاحب القلم الدقيق فى المعنىٰ ككاتب السر أو كاتب الدَّسْت فى زماننا، وصاحب القلم الجليل ككاتب الدَّرْج. فإذا رفعت قِصَص المظالم، حملت إلىٰ صاحب القلم الدقيق فيوقِّع عليها بما يقتضيه الحال بأمر الخليفة أو أمر الوزير أو من نفسه، ثم تحمل إلىٰ الموقِّع بالقلم الجليل لبسط ما أشار إليه صاحب القلم الدقيق، ثم تحمل فى خريطة إلىٰ الخليفة فيوقِّع عليها، ثم تُخْرَج فى خريطتها إلىٰ الحاجب فيقف علىٰ باب القصر، ويسلِّم كلَّ توقيع لصاحبه.

أمّا توقيع الخليفة بيده علىٰ القِصَص، فإنه إن كان ثَمَّ وزيرٌ صاحبُ سيف وَقَّع الخليفة علىٰ القصة بخطه: "وزيرنا السيد الأجل (ونعته بالمعروف به) أمتعنا الله تعالىٰ ببقائه يتقدّم بكذا وكذا إن شاء الله تعالىٰ" ويحمل إلىٰ الوزير فإن كان يحسن الكتابة،

كتب تحت خط الخليفة : "أمتثل أمر مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليـه" وإن كان لايحسن الكتابة، كتب أمتثل نقط؛ وإن لم يكن وزيرٌ صاحبُ سيف : فإن أراد الخليفة نجاز الأمر لوقته، وقَّع فى الجانب الأيمن من القصة "يوقَّع بذلك" فتخرج إلىٰ صاحب ديوان المجلس فيوقِّع عليها بالقلم الجليل ويخلى موضع العلامة، ثم تعاد إلىٰ الخليفة فيكتب فى موضع العلامة (يُعْتَمد) وتُثبَّت فى الدواوين بعد ذلك. وإن كان يوقع فى مساحة أو تسويغ أو تحبيس، كتب لرافعها بذلك "وقد أمضينا ذلك" وإن أراد علم حقيقة القصـة ، وقَّع علىٰ جانب القصـة "ليخرج الحـال فى ذلك" وتحمل إلىٰ الكاتب فيكتب الحـال وتعاد إلىٰ الخليفة فيفعل فيها ما أراد من توقيع ومنع، والله أعلم .

الضرب الثـالث

(ديوان الجيش والرواتب، وهو علىٰ ثلاثة أقسام)

الاول ـ (ديوان الجيش) . ولا يكون صاحبه إلا مُسْلِمـا، وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة؛ وبين يديه حاجبٌ، وإليه عرض الأجناد وخيولهم، وذكر حِلَاهم وشِيَات خيولهم .وكان من شرط هذا الديوان عندهم أن لايثبت لأحد من الأجناد إلا الفرس الجيد من ذكور الخيل وإناثها دون البغال والبراذين، وليس له تغيير أحد من الأجناد ولا شيء من اقطاعهم إلا بمرسوم . وبين يدى صاحب هذا الديوان نُقَباء الأمراء ، يعَرِّفونه أحوال الأجناد من الحيـاة والموت والغَيْبة والحضور وغير ذلك، علىٰ ماالحال عليه الآن . وكان قد فسح للأجناد فى المقايضة بالإقطاعات لما لهم فى ذلك من المصالح كما هو اليوم، بتوقيعات من صاحب ديوان المجلس من غير علامة؛ ولم يكن لأمير من أمرائهم بلد كاملة، وإن علا قدرُه إلا فى النادر . ومن هذا الديوان كان يعمل أوراق أرباب الجرايات، وله خازنان برسم رفع الشواهد .

الثانى – (ديوان الرواتب) . وكان يشتمل علىٰ آسم كل مرتزق فى الدولة وجار وجراية ؛ وفيه كاتب أصيل بطرّاحة ونحو عشرة مُعِينين ، والتعريفات واردة عليه من كل عملٍ بآستمرار مَنْ هو مستمرّ ومباشرة مَن آستجدّ وموت مَنْ مات ، وفيه عدّة عروض يأتى ذكرها فى الكلام علىٰ إجراء الأرزاق والعطاء .

الثالث – (ديوان الإقطاع). وكان مختصا عندهم بما هو مُقْطَع للأجناد، وليس للمباشرين فيه تنزيل حلْية جُنْدِىّ ولا شِيَة دابته، وكان يقال لإقطاعات العُرْبان فى أطراف البلاد وغيرها الآعتداد، وهى دون عبرة الأجناد .

الضرب الرابع
(نظر الدواوين)

وصاحب هذه الوظيفة هو رأس الكل ، وله الولاية والعزل ، وإليه عرض الأرزاق فى أوقات معروفة علىٰ الخليفة والوزير، وله الجلوس بالمرتبة والمسند، وبين يديه حاجب من أمراء الدولة ؛ وتُخْرج له الدواة من خزانة الخليفة بغير كرسىّ ، وإليه طلب الأموال وآستخراجُها والمحاسبةُ عليها، ولا يعترض فيما يقصده من أحد من الدولة . قال آبن الطوير : ولم يُرقَ هذه الوظيفة نصرانىّ إلا الأخرم .

الثانية[(١)] – ديوان التحقيق . وموضوعه المقابلة علىٰ الدواوين ، وكان لايتولاه إلا كاتب خبير، وله الخِلَعُ ومَرْتبة يجلس عليها وحاجب بين يديه، ويُفْتَقَر إليه فى كثير من الأوقات، ويُلْحَق برأس الدواوين المتقدّم ذكره .

الثالثة – ديوان المَجْلِس . قال آبن الطوير : وهو أصل الدواوين قديما ، وفيه معالم الدولة بأجمعها ،وفيه عِدّة كُتَّاب ،وعنده مُعِين أو معينان ،وصاحب هذا الديوان

---

(١) لم يتقدم له تقسيم ولم يذكر أولىٰ لتكون هذه ثانيتها والذى يفهم من المقام أنها وظائف وأن وظيفة نظر الدواوين أولىٰ ونظر ديوان التحقيق ثانية وهكذا تأمل .

هو المتحدّث فى الإقطاعات ،ويُخْلَع عليه و ينشأ له سجلٌّ بذلك لاحق بديوان النظر، وله دواة تُخْرَج له من خِزانة الخليفة وحاجب يقف بين يديه، وكان يتولاه عندهم أحدُ كُتَّاب الدولة ممن يكون مترشحا لأن يكون رأس الدواوين ، ويسمى آستيمارُه دفتر المجلس ، وهو متضمن للعطاء والظاهرِ من الرسوم التى تقرّر فى غُرَّةِ السنة والضحايا ،وما ينفق فى دار الفِطْرَةِ فى عيد الفطر،وفى فتح الخليج والأسمطة المستعملة فى رمضان وغيره،وسائر المآكل والمشارب والتشريفات،وما يطلَقُ من الأهراء من الغَلَّات، وما لأولاد الخليفــة وأقاربه وأرباب الرواتب علىٰ آختلاف الطبقات من المُرتَّب ،وما يَرِد من الملوك من الهدايا والتحف ،وما يُبْعَثُ به إليهم من الملاطفات، ومقاديرُ صِلات الرسل الواردين بالمكاتبات، وما يخرج من الأكفان لمن يموت من الحريم ،وضبط مايُنْفَق فى الدولة من المهمَّات ليُعْلَمَ مابين السنة والأخرىٰ من التفاوت وغير ذلك من الأمور المهمة . وهــذا الديوان فى زماننا قد تفرّق إلىٰ عدّة دواوين كالوزارة ونظر الخاص والجيش وغيرها .

الرابعة ــ (ديوان خزائن الكُسْوة) .وكان لها عندهم رتبة عظيمة فى المباشرات، وقد تقدّم ذكر حواصلها فى جملة الخزائن فيما سبق .

الخامسة ــ (الطِّراز) . وكان يتولاه الأعيان من المستخدمين من أرباب الأقلام، وله آختصاص بالخليفة دون كافة المستخدمين، ومُقامه بدِمْيَـاطَ وتِنِّيسَ وغيرهمــا من مواضع الآستعمالات، ومن عنده تحمل المستعملات إلىٰ خِزَانة الكسوة المقدّمة الذكر .

السادسة ــ (الخدمة فى ديوان الأحباس) . قال آبن الطوير: وهى أوكد الدواوين مباشرة ولايخدُم فيها إلا أعيان كُتَّاب المسلمين من الشهود المعدّلين ،وفيها عدّة مُدراء[1]

(١) تقدم له مثل هذا الجمع فى الجزء الأوّل ونبهنا عليه .

بسبب أرباب الرواتب ، وكان فيه كاتبان ومُعينان لنظم الآستيمارات ، ويُورِد فى آستيمارِه كل ما فى الرقاع والرواتب، وما يُجْبىٰ له من جهات كل من الوجهين القبلىّ والبحرىّ .

السابعة - (الخدمة بديوان الرواتب). وفيه مرتَّبات الوزير فمن دُونَه إلىٰ الضوّى . قال آبن الطوير : بلغ فى بعض السنين مايزيد علىٰ مائة ألف دينار ونحوا من مائتى ألف، ومن القمح والشعير عشرة آلاف إردب ، وكان آستيمار الرواتب يعرض فى كل سنة علىٰ الخليفة فيزيد من يزيد، وينقص مَنْ ينقص، وإنه عُرِض سنةً علىٰ المستنصر بالله فلم يعترض أحدا من المرتَّبين بنقص، ووقَّع علىٰ ظاهر الآستيمار بخطه "الفقر مُرُّ المَذَاق، والحَاجَةُ تُذِلُّ الأعْنَاق، وحِرَاسَةُ النِّعَم بإدْرَارِ الأرزاق، فلْيُجْرَوْا علىٰ رسومهم فى الإطلاق، مَاعِنْـدَكُمْ يَنْفَدُ، وَمَا عِنْـدَ اللهِ بَاقٍ" وأمر ولىّ الدولة آبن خيران كاتب الإنشاء بإمضاء ذلك .

الثامنة - (الخدمة فى ديوان الصعيد) من الصعيد الأعلىٰ والصعيد الأدنىٰ. وكان فيه عدّة كُتَّاب فروع، والآستيفاء مقسومٌ بينهم، وعليهم عمل التذاكر بطلب ماتأخر من الحساب . وصاحب هذا الديوان يترجمها بخطه، ويحملها إلىٰ صاحب الديوان الكبير فيوقِّع عليها بالآسترفاع، ويندُب لها من الحُجّاب أو غيرهم من يراه، وله مياومة يأخذها من المستخدمين مدّة بقائه عندهم ويُحْضِرُها نُسَخًا للدّواوين الأصول .

التاسعة - (الخدمة فى ديوان أسفل الأرض). وهو الوجه البحرىّ خلا الثُّغُورَ، وحكمه فيما تقدّم من الكُتَّاب وما يلزم كلا منهم حكم ديوان الصعيد المتقدّم الذكر من غير فرق .

العاشرة - (الخدمة فى ديوان الثُّغُور). وهى الإسكندرية ودِمْياط ونَسْتَرُوه والبَرَلُّس والفَرَما، وحكمه حكم ماتقدّم من ديوان الصعيد وأسفل الأرض .

الحادية عشرة ـ (الخدمة فى الجوالى والمواريث الحشرية). قال ابن الطوير: كان لا يتولاه إلا عدل، وفيه جماعة من الكُتَّاب على ما تقدّم فى غيره من الدواوين أيضا .

الثانية عشرة ـ (الخدمة فى ديوانى الخراجىّ والهلالىّ) وتجرى فيه الرباع والمكوس وعليه حوالات أكثر المرتزقين .

الثالثة عشرة ـ (الخدمة فى ديوان الكُرَاع). وفيه معاملة الإصطبلات، وما فيها من الدوابّ الخاص وغيرها والبغال والجمال ودوابّ المَرَمَّة المُرصَدة للعمائر ورباع الديوان، وعُدَد ذلك وآلاته، وعلوفات ذلك مع ما ينضم إليه من علوفة الفِيَلَة والزَّرَاريف[(١)] والوحوش وراتب مَنْ يخدمها. وكان فى هذا الديوان كاتبا أصل ومستوفى ومُعِينان .

الرابعة عشرة ـ (الخدمة فى ديوان الجِهَاد). ويقال له ديوان العمائر، وكان محله بالصِّناعة بمصر، وفيه إنشاء المراكب للأسطول وحمل الغلال السلطانية والأحطاب وغيرها، ومنه يُنْفَق على رؤساء المراكب ورجالها، وإذا لم يف ارتفاقه بما يحتاج إليه استُدْعِى له من بيت المال بما يكفيه .

الصنف الثالث من أرباب الوظائف

(أصحاب الوظائف الصناعية)

وأعظمها وظائف الأطباء، وكان للخليفة طبيب يُعْرَف بطبيب الخاصّ يجلس على باب دار الخليفة كلَّ يوم، ويجلس على الدكك التى بالقاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر دونَهُ أربعةُ أطباء أو ثلاثة فيخرج الأستاذون فيستدعون منهم من يجدونه للدخول على المرضى بالقصر لجهات الأقارب والخواص فيكتُب لهم رقاعا على خزانة الشراب فيأخذون ما فيها، وتبقى الرقاع عند مباشريها شاهدا لهم . ولكل منهم الجارى والراتب على قدره .

(١) لم نعثر على هذا الجمع فى كتب اللغة ولعله جارى العامة فى تعبيراتهم .

الصنف الرابع
(الشعراء)

وكانوا جماعة كثيرة من أهل ديوان الإنشاء وغيره، وكان منهم أهل سُنَّة لا يَغْلُون في المديح، وشيعةٌ يَغْلُون فيه. فمِنْ أَحْسَنِ مدحٍ فيهم لِسُنِّيٍّ قول عمارة التميمي رحمه الله:

أَفَاعِيلُهُمْ في الجُودِ أَفْعَالُ سُنَّةٍ * وإن خَالَفُونِي في ٱعْتِقَادِ التَّشَيُّعِ

ومن الذي وقعت فيه المغالاة قول بعضهم :

هَـذَا أميرُ المؤمنين بمجلس * أبْصَرْتُ فيه الوَحْيَ والتَّنْزِيلَا
وإذا تَمَثَّلَ رَاكِبًا في مَوْكِبٍ، * عَايَنْتَ تَحْتَ رِكَابِهِ جِبْرِيلَا

قلت : وهذه المغالاة من المغالاة الفاحشة التي لا يجوز الإقدام عليها لسنيّ ولا متشيع، وإنما هي من ٱقتحام الشعراء البوائق .

القسم الثاني
(من أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ما هو خارج عن حضرة الخلافة، وهو صنفان)

الصنف الأوّل
(النُّوّاب والوُلاة)

وٱعلم أن مملكتهم كانت قد (١) في ثلاث ممالك فيها نوابهم ووُلَاتهم .

المملكة الأولىٰ الديار المصرية، وهي التي كانت قد ٱستقرّت قاعدةَ ملكهم، ومحطَّ رحالهم، وكان بها أربع ولايات .

الأولىٰ — ولاية قُوص . وكانت هي أعظم ولايات الديار المصرية، وواليها يحكم علىٰ جميع بلاد الصعيد، وربما وُلِّيَ بالأُشْمُونِينِ ونحوها من يكون دونه .

---

(١) بياض بالأصل ولعله "انحصرت" كما يفهم من سياق كلامه .

الثانية ـــ ولاية الشَّرْقية . وكانت دون ولاية قُوص فى الرتبة، وكان متوليها يحكم علىٰ عمل بُلْبَيْس وعمل قَلْيُوب وعمل أُشْمُوم .

الثالثة ـــ ولاية الغربية . وكانت دون ولاية الشرقية فى المرتبة ، وكان متوليها يحكم علىٰ عمل المَحَلَّة، وعمل مَنُوف، وعمل أبيار .

الرابعة ـــ ولاية الإسْكَنْدَرِيَّة . وهى دون الغربية فى الرتبة، وكان متوليها يحكم علىٰ أعمال البحيرة بأجمعها .

قال آبن الطوير : وهؤلاء الأربعة كان يُخْلَع عليهم من خزانة الكُسْوَة بالبدنة، وهو النوع الذى يلبسه الخليفة فى يوم فتح الخليج .

قلت : لعـل هـذه الولايات الأربع ولايات الوُلاة التى تدخل تحت حكمها الولايات الصِّغار، أو تكون هى التى آستقرّ عليه الحال فى آخر دولتهم ، وإلا فقد رأيت فى تذكرة أبى الفضل الصورىّ : أحدِ كُتَّاب الإنشاء فى أيام القاضى الفاضل سجلاتٍ كثيرةً لولاة الوجهين القبلىّ والبحرىّ (١) .

الجمـــلة الخـامسة

(من ترتيب مملكتهم، فى هيئة الخليفة فى مواكبه وقصوره، وهى علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل

(جلوسه فى المواكب ، وله ثلاثة جلوسات)

الجلوس الأوّل

(جلوسه فى المجلس العامّ أيام المواكب)

وآعلم أن جلوس الخليفـة أوّلا كان بالإيوان الكبير الذى كان بالقصر علىٰ سرير المُلْك الذى كان بصدره إلىٰ آخر أيام المستعلى . فلما ولى آبنه الآمر الخلافةَ بعده،

(١) لم يذكر بقية الممالك الثلاث آقتصارا علىٰ المقصود وسيأتى ذكر البقية فى الجزء الرابع .

نقل الجُلوسَ من الإيوان الكبير إلىٰ القاعة المعروفة بقاعة الذهب بالقصر أيضا ، وصار يجلس من مجالسها علىٰ سرير المُلْك به ، وجعل الإيوان الكبير خِزَانَةً للسلاح ، ولم يتعرّض لإزالة سرير المُلْك منه حتّىٰ جاءت الدولة الأيوبية ، وهو باق ، وكان جلوس الخليفة فى هذه الحالة لا يتعدّىٰ يومى الآثنين والخميس ، وليس ذلك علىٰ الدوام بل علىٰ التقرير بحسب ما تقتضيه الحال . فإذا أراد الجلوس فإن كان فى الشتاء عُلِّق المجلس الذى يجلس فيه بستور الديباج ، وفرش بالبُسُط الحرير ، وإن كان فى الصيف ، علق بالستور الدبيقية وفرش بطبرىّ طَبَرِسْتَانَ المُذْهَبِ الفائق ، وهيئت المرتبة المعدّة لجلوسه علىٰ سرير الملك بصدر المجلس ، وغُشِّى السرير بالقُرْقُوبِىّ ، ثم يستدعىٰ الوزير من داره بصاحب الرسالة علىٰ حصان رهوان فى أسرع حركة علىٰ خلاف الحركة المعتادة ، فيركب الوزير فى هيئته وجماعته وبين يديه الأمراء ، فإذا وصل إلىٰ باب القصر ترجّل الأمراء ، وهو راكب إلىٰ أوّل باب من الدَّهاليز الطِّوال عند دِهْليز يعرف بِدِهْليز العمود ، ويمشى وبين يديه أكابر الأمراء إلىٰ مَقْطَع الوزارة بقاعة الذهب ، فإذا تهيأ جلوس الخليفة ، آستدعى الوزير من مَقْطَع الوزارة إلىٰ باب المجلس الذى فيه الخليفة وهو مُغْلَق ، وعلىٰ بابه سِتْرٌ مُعَلَّق ، فيقف زِمَام القصر عن يمين باب المجلس وزِمَام بيت المال عن يساره ، والوزير واقف أمام باب المجلس وحواليه الأمراء المطوّقون وأرباب الخِدَمِ الجليلة ، وفى خلال القوم قُرَّاءُ الحضرة ؛ ويضع صاحبُ المجلس الدواة مكانها من المرتبة أمام الخليفة ، ثم يخرج كم من أكمامه يعرف بفرد الكم ويشير إلىٰ زِمَام القصر وزِمَام بيت المال الواقفَيْنِ بباب المجلس ، فيرفع كل منهما جانب الستر فيظهر الخليفة جالسا علىٰ سرير الملك مستقبل القوم بوجهه ، ويستفتح القرّاء بالقرءان ، ويدخل الوزير المجلس ويسلم بعد دخوله ، ثم يُقَبِّلُ يدى الخليفة ورجليه ، ويتأخر مقدار ثلاثة أذرع ويقف ساعة زمانية ،

ثم تُخْرَج له مِخَدّة عن الجانب الأيمن من الخليفـة ويؤمر بالجلوس إليهـا ، ويقف الأمراء فى أماكنهم المقرّرة لهم فصاحب البـاب وآسفهسلار من جانبى الباب يمينا ويسارا ،ويليهم من خارجه ملاصقا للعتبة زِمَام الآمرية والحافظية وباقى الأمراء علىٰ مراتبهم إلىٰ آخر الرواق، وهو إفريزٌ عالٍ عن أرض القاعة، ثم أرباب القصب والعماريات يَمْنَةً ويَسْرَةً كذلك، ثم الأماثل والأعيان من الأجناد المترشحين للتقدمة، ويقف مستندا بالقدر الذى يقابل باب المجلس نوّابُ الباب والحجـابُ، فإذا آنتظم الأمر علىٰ ذلك، فأوّل ماثل للخـدمة بالسلام قاضى القُضاة والشهودُ المعروفون بالآستخدام فيجيز صاحبُ البـاب القاضىَ دون من معـه فيسلم علىٰ الخليفة بأدب الخلافة، بأن يرفع يده اليمنىٰ ويشير بالمسبحة،ويقول بصوت مسموع : "السلام علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته" يتخصص بهـذا الكلام دون غيره من أهـل السلام، ثم يسلم بالأشراف الأقارب زمامُهُمْ، وبالأشراف الطالبيين نقيبهم ،فتمضى عليهم كذلك ساعتان زمانيتان أو ثلاثٌ،ثم يسلم عليه من خُلِعَ عليه بقُوص أو الشرقية أو الغربيـة أو الإسكندرية، ويشرّفون بتقبيل العتبة ، وإذا دعت حاجة الوزير إلىٰ مخاطبة الخليفة فى أمر ، قام من مكانه وقَرّب منه مُنْحَنِياً علىٰ سيفه ، ويخاطبه مرة أو مرتين أو ثلاثا، ثم يؤمر الحاضرون بالآنصراف فينصرفون، ويكون آخرهم خروجا الوزير بعد تقبيل يد الخليفة ورجله . فإذا خرج إلىٰ الدهليز الذى ترجل فيه، ركب منه إلىٰ داره ، وفى خدمته من حضر فى خدمته إلىٰ القصر، ويدخل الخليفةُ إلىٰ سَكَنه مع خواصّ الأستاذين، ثم يُغْلَق باب المجلس ويرخىٰ الستر إلىٰ أن يحتاج إلىٰ حضور موكب آخر فيكون الأمر كذلك .

الجلوس الثانى

(جلوسه للقاضى والشهود فى ليالى الوقود الأربع من كل سنة)

وهى : ليلة أوّل رجب، وليلة نصفه، وليلة أوّل شعبان، وليلة نصفه .

إذا مضى النصف من جمادى الآخرة حمل إلى القاضى من حواصل الخليفة ستون شمعة، زنةُ كل شمعة منها سُدْس قِنْطَار بالمصرىّ ليركب بها فى أوّل ليلة من شهر رجب؛ فإذا كان أوّلُ ليلة منه جلس الخليفة فى مَنْظَرة عالية كانت عند باب الزُّمُرُّدِ من أبواب القصر المتقدّم ذكره، وبين يديه شَمع يوقد فى العلوّ يَتَبيَّن شخصُه على ٱرتفاعه . ويركب القاضى من داره بعد صلاة المغرب وبين يديه الشَمَعُ المحمول إليه من خِزَانة الخليفة موقودا، من كل جانب ثلاثون شمعة، وبين الصَّفَّين مؤذنو الجوامع، يعلنون بذكر الله تعالى، ويدعون للخليفة والوزير بترتيب مقرّر محفوظ، ويحجُبه ثلاثة من نوّاب الباب، وعشرة من حُجّاب الخليفة، خارجا عن حُجّاب الحكم المستقرّين وهم خمسة فى زىّ الأمراء؛ وفى ركابه القُرّاء يقرءُون القرءان، والشهودُ وراءه على ترتيب جلوسهم بمجلس الحكم الأقدمُ فالأقدمُ؛ وحول كل منهم ثلاث شَمَعات أو شمعتان أو شمعة واحدة إلى بين القصرين فى جمع عظيم حتى يأتىَ باب الزُّمُرُّد من أبواب القصر، فيجلسون فى رَحَبة تحت المَنْظَرة التى فيها الخليفة، ويحضر بين يديه بسَمْتٍ ووقار وتشوّف لٱنتظار ظهور الخليفة، فيفتح الخليفة إحدى طاقات المنظرة فيظهر منها رأسه ووجهه، وعلى رأسه عِدّة من خواصّ الأستاذين من المحنّكين وغيرهم، فيفتح بعض الأستاذين طاقةً أخرى فيُخْرِجُ منها رأسه ويدَه اليمنى، ويشير بكمه قائلا : "أمير المؤمنين يردّ عليكم السلام" فيسلم بقاضى القضاة أوّلا بنعوته، وبصاحب الباب بعده كذلك، وبالجماعة الباقية جملة من غير تعيين أحد؛ ويستفتح قرّاء الحضرة بالقراءة وهم قيام فى الصَّدْر، ظهورهم

إلىٰ حائط المَنْظَرَة ووجوههم للحاضرين. ثم يتقدّم خطيب الجامع الأنور (وهو الذى بباب البحر) فيخطُب كما يخطب فوق المِنْبَرِ، وينبه علىٰ فضيلة ذلك الشهر، وأن ذلك الركوبَ علامتُـه ثم يختم كلامه بالدعاء للخليفة؛ ثم يتقـدّم خطيب الجامع الأزهر فيخطب كذلك؛ ثم يتقدّم خطيب جامع الحاكم فيخطب كذلك، والقرّاء فى خلال تلك الخطب يقرءون، فإذا آنتهت خَطَابة الخطباء، أخرج الأسـتاذ الأوّل يده من تلك الطاقة فيردّ علىٰ الجماعة السلام؛ ثم تغلق الطاقتان وينفضّ الناس، ثم يركب القاضى والشهود إلىٰ دار الوزير فيجلس لهم ليسلموا عليـه، ويخطب الخطباء الثلاثة عنده بأخفَّ من مقام الخليفة ويدعون له، ثم ينصرفون ويذهب القاضى والشهود صحبتُه إلىٰ مصر، ووالى القاهرة فى خدمته، ويمرّ بجـامع آبن طولون فيصلِّى فيـه ويخرج منه فيجد والىَ مصر فى تَلَقِّيه فيمضى فى خِدْمته، ويمرّ علىٰ المَشَاهد فيتبرك بها، ويمضى إلىٰ الجـامع العتيق ويدخل من باب الزيادة التى يحكم فيها فيصلى فى الجامع ركعتين، ويُوقَد له التنور الفضـة الذى بالجامع، وهو تَنُّور عظيم حَسَن التكوين فيه نحو ألف وخمسمائة برّاقة، وبسفله نحو مائة قنديل؛ ثم يخرج من الجامع فإن كان ساكنا بمصر آستقرّ بها، وإن كان ساكنا بالقاهرة آنتظره والى القاهرة فى مكانه حتّى يعودَ من مصر فيذهب فى خدمته إلىٰ داره .

وكذلك يركب فى ليلة الخامس عشر من رجب إلا أنه بعد صلاته فى جامع مصر يتوجه إلىٰ القـرافة فيصـلِّى فى جامعها؛ ثم يركب فى أوّل شـعبان كذلك؛ ثم فى نصفه كذلك .

الجـــــلوس الثـالث

(جلوسه فى مولد النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى الثانى عشر من شهر ربيع الأوّل)

وكان عادتهم فيه أن يعمل فى دار الفِطْرة عشرون قنطارا من السُّكَّر الفائق حلْوىٰ من طرائف الأصناف، وتُعبَّى فى ثلثمائة صينية نُحَاس . فإذا كان ليلةُ ذلك المولد،

تفرّق فى أرباب الرسوم : كقاضى القضاة، وداعى الدعاة، وقرّاء الحضرة، والخطباء، والمتصدّرين بالجوامع بالقاهرة ومصر، وقَوَمَةِ المشاهد وغيرهم ممن له آسم ثابت بالديوان، ويجلس الخليفة فى مَنْظرة قريبة من الأرض مقابلَ الدار القُطْبِيَّة المتقدّمة الذكر (وهى البيمارستان المنصورىّ الآن) ثم يركب القاضى بعد العصر ومعه الشهود إلىٰ الجامع الأزهر ومعهم أرباب تفرقة الصوانى المتقدّمة الذكر، فيجلسون فى الجامع مقدارَ قراءة الختمة الكريمة، وتُسدّ الطريق تحت القصر من جهة السُّيُوفيين وسُوَيقة أمير الجيوش، ويكنس ما بين ذلك ويُرَشّ بالماء رَشًّا، ويرشّ تحت المَنْظَرة بالرمل الأصفر، ويقف صاحب الباب ووالى القاهرة علىٰ رأس الطُّرُق لمنع المارّة، ثم يستدعىٰ القاضى ومَنْ معه فيحضرون ويترجَّلُون علىٰ القرب من المنظرة ويجتمعون تحتها وهم متشوّفون لآنتظار ظهور الخليفة، فيفتح إحدىٰ طاقات المنظرة فيظهر منها وجهُه، ثم يُخْرِجُ إحدىٰ الأستاذين المحنَّكين يده ويشير بكمه بأن الخليفة يردّ عليكم السلام، ويقرأ القرّاء ويخطب الخطباء كما تقدّم فى ليالى الوُقُود فإذا آنتهت خَطَابة الخطباء، أخرج الأستاذ يده مشيرا بردّ السلام كما تقدّم، ثم تغلق الطاقتان وينصرف الناس إلىٰ بيوتهم؛ وكذلك شأنهم فى مولد علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه الخاص فى أوقات معلومة عندهم من السنة .

الضرب الثانى
(ركوبه فى المواكب، وهو علىٰ نوعين)

النوع الأوّل
(ركوبه فى المواكب العظام، وهى ستة مواكب)

الموكب الاوّل
(ركوب أوّل العام)

وكان من شأنهم فيه أنه إذا كان العشر الآخر من ذى الحجة من السنة ، وقع

الآهتمام باخراج مايُحتاج إليه فى المواكب من حواصل الخليفة : فيُخْرَج من خزائن السلاح ما يحمله الرِّكَابيــة وغيرهم حولَ الخليفة كالصَّمَاصم، والدَّبَابيس، واللُّتوت، وعمد الحديد، والسيوف، والدَّرَق، والرماح، والألوية، والأعلام . ومن خزانة التجمل برسم الوزير والأمراء وأرباب الخِـدَمِ الألويةُ والقُضُبُ، والعماريات، وغير ذلك مما تقدّم ذكره . ومن الإصطبلات مائةُ فرس مسوَّمة برسم ركوب الخليفة وما بجنبه . ويُخْرَج من خزانة السروج مائةُ سرج بالذهب والفضة مرصَّع بعضها بالجواهر بمراكب من ذهب، وفى أعناق الخيــل أطواق الذهب وقلائد العَنْــبَرِ، وفى أرجل أكثرها خلاخل الذهب والفضة مسطحة، قيمة كل فرس وما عليها من العدّة ألف دينار، يُدْفَع للوزير منها عشرة بعدّتهـا برسم ركوبه وركوب أخصَّائه، وتسلَّم إلىٰ المُنَاخات أغشية العماريات لتحمل علىٰ الجمال، إلىٰ غير ذلك من الآلات المستعملة فى المواكب ممـا تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ الخزائن، ويُبْعَث إلىٰ أرباب الخِدَم من الإصطبلات بخيول عادية ليركبوها فى الموكب . فإذا كان يوم التـاسع والعشرين من ذى الحجة، آسـتدعىٰ الخليفة الوزيرمن داره علىٰ الرسم المعتـاد فى الإسراع، فإذا عاد صاحبُ الرسالة من آستدعاء الوزير، خرج الخليفة من مكانه راكبا فى القصر، فينزل فى السدِلّى، بدهليز باب الملك الذى فيه الشباك، وعليه ستر من ظاهره، فيقف من جانبه الأيمن زِمَامُ القصر، ومن جانبــه الأيسر صاحبُ بيت المـال؛ ويركب الوزير من داره وبين يديه الأمراءُ، فإذا وصــل إلىٰ باب القصر تَرجَّلَ الأمراء وهو راكب، ويدخل من باب العيد، ولا يزال راكبا إلىٰ أوّل باب من الدهاليز الطِّوال، فينزل ويمشى فيها وحواليه حاشيتُــه ومَــنْ يُرَبِّه من أولاده وأقاربه . فإذا وصل إلىٰ الشُّبَّاك، وجد تحته كرســيا كبيرا من حديد فيجلس عليــه ورجلاه تطأ الأرض، فإذا جلس، رفع كلٌّ من زمامِ القصر وصاحب بيت المـال

الستر من جانبه فيرى الخليفة جالسا على مرتبة عظيمة ، فيقف ويسلم ويخدم بيده في الأرض ثلاث مرات ، ثم يؤمر بالجلوس على كرسيه فيجلس . ويستفتح القرّاء بقراءة آيات لائقة بذلك المكان مقدارَ نصف ساعة ؛ ثم يسلم الأمراء ، ويُشْرَع في عرض خيول الخاص المقدّم ذكرها واحدةً واحدةً إلى آخرها . فإذا تكمل عرضها ، قرأ القرّاء مايناسب ختم ذلك المجلس . فإذا فرغوا أُرْخِي الستر وقام الوزير فدخل عليه فقبل يديه ورجليه ، ثم ينصرف عنه فيركب من مكان نزوله ويخرج الأمراء معه إلى خارج فيَمْضُون معه إلى داره رُكْبانا ومُشاة على حسب مراتبهم . فإذا صلّى الخليفة الظهر ، جلس لعرض خزانة الكسوة الخاص وتعيين ما يُلْبَس في ذلك الموكب ولباسِه فيه ، فيعين مِنْديلًا لشدّ التاج ، وبَدْلَةً من هذا النوع ، والجوهرةَ الثمينةَ ومامعها من الجواهر المتقدّمة الذكر لشدّ التاج وتشدّ مِظَلّة تشبه تلك البدلة ، وتلف في مِنْديل دَبِيقِيّ فلا يكشفها إلا حاملُها عند ركوب الخليفة ، ثم يشدّ لواءى الحمد المتقدّمى الذكر . فإذا كان أوّلُ يوم من العام ، بكّر أربابُ الرُّتَبِ من ذوى السيوف والأقلام فلا يُصْبِح الصبح إلا وهم بين القصرين منتظرين ركوب الخليفة (وهو يومئذ فضاء واسع خال من البناء) ويبكر الأمراء إلى دار الوزير ليركبوا معه ، فيخرج من داره ويركب إلى القصر من غير استدعاء وأمامه ماشرّفه به الخليفة من الألوية والأعلام ، والأمراء بين يديه ركبانا ومشاة ، وأولاده وإخوته قدّامه ، وكل منهم مرخى الذؤابة بلا حنك ، وهو في هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والمنديل والحَنَك متقلدا بالسيف الذهب . فإذا وصل إلى باب القصر ، ترجّل الأمراء ودخل هو راكبا إلى محل نزوله بِدِهْليز القصر المعروف بدهليز العمود فيترجّل هناك ويمشى في بقية الدهاليز حتّى يصِلَ إلى مَقْطَع الوزارة بقاعة الذهب هو وأولاده وإخوته وخواصُّ حاشيته ، ويجلس الأمراء بالقاعة على دِكَك معدّة لهم ،

ويُدْخَل فرسُ الخليفة إلىٰ باب المجلس الذى هو فيه ، وعلىٰ باب المجلس كرسيٌّ يركب من عليه . فإذا آستوت الدابة إلىٰ ذلك الكرسىّ ، أُخرجت المظلة إلىٰ حاملها فيكشفها ممـا هى ملفوفة فيه ويتسلمها بإعانة أربعة معدّين لخدمتها فيركُزُها فى آلة من حديد تشبه القرن المصطحب مشـدودة فى ركاب حاملها الأيمن بقوّة ، ويمسـك العمود بحـاجز فوق يده ، ثم يخرج السـيف فيتسلمه حامله . فإذا تسـلمه أرخى ذُؤَابَتَـهُ فلا تزال مرخاة ما دام حاملا له ، ثم تُخْرَج الدواة فيتسلمها حاملهـا ويجعلها قدّامه بينه وبين السرج ، ثم يخرج الوزير عن المَقْطَع وينضم إليـه الأمراء ويقفون إلىٰ جانب فرس الخليفة ، ويرفع صاحب المجلس السترَ فيخرج مَنْ كان عنـد الخليفة للخدمة من الأستاذين ، ويخرج الخليفة فى أثرهم فى ثيابه المختصة بذلك اليوم وعلىٰ رأسه التاج الشريف والدرّة اليتيمة علىٰ جبهته ، وهو مُحَنَّكٌ مرخىّ الذؤابة ممـا يلى جانبه الأيسر متقلد بالسيف العربىّ وقضيبُ المُلْك بيده ، ويسلم علىٰ الوزير قوم مرتَّبون لذلك ، ثم علىٰ القاضى وعلىٰ الأمراء بعدهما ، ثم يخرج الأمراء وبعدهم الوزير فيركب ويقف قُبَالة باب القصر ، ويخرج الخليفة راكبا وفرسـه ماشيةٌ علىٰ بُسُط خَشْـيَةَ أن تَزْلَق علىٰ الرخام والأسـتاذون حوله . فإذا قارب الباب وظهر وجهُـهُ ، ضرب رجلٌ ببُوقٍ لطيف مُعْوَجّ الرأس متَّخَذٍ من الذهب يقال له الغريبة مخالف لصوت الأبواق ، فتضرب البوقات فى الموكب ، وتُنْشَر المظلة ، ويخرج الخليفة مـن باب القصر فيقف وقفةً يسـيرة بمقـدار ركوب الأسـتاذين المحنكين وغيرهم من أرباب الرتب الذين كانوا فى الخدمة بالقاعة ، ثم يسـير الخليفة فى الموكب وصاحبُ المظلة علىٰ يساره ، وهو يحْرِص أن لا يزول ظلها عن الخليفة ، ثم يكتنف الخليفةَ مقدّمو صِبْيان الركاب ، آثنـان منهم فى شكيمتى لجام فرسـه ، وآثنان فى عنق الفرس من الجانبين ، وآثنان فى ركابه من الجانبين أيضا ، والأيمن منهـما هو صاحب المِقْرَعة

الذى يناولها للخليفة ويتناولها منه، وهو الذى يؤدّى عن الخليفة مدّة ركوبه الأوامرَ والنواهىَ، واللواءان المعروفان بلواءى الحمد عن جانبيه، والمِذَبَّتَانِ عند رأس فرس الخليفة، والركابية يمينه وشماله نحو ألف رجل مقلدو السيوف مشدودو الأوساط بالمناديل والسلاح، وهم من جانبى الخليفة كالجناحين المادّين، بينهما فرجة لوجه الفرس ليس فيها أحد، وبالقرب من رأسها الصقلبيان الحاملان للمِذَبتين، وهما مرفوعتان كالنخلتين. (ويترتب الموكب): أجناد الأمراء وأولادهم وأخلاط العسكر أمام الموكب وأدوان الأمراء يلونهم، وبعدهم أرباب القُضُبِ الفضة من الأمراء، ثم أرباب الأطواق منهم، ثم الأستاذون المحنكون، ثم أهل الوزير المتقدّم ذكرهم، ثم الحاملان للواءى الحمد من الجانبين، ثم حامل الدواة وحامل السيف بعده، وهما من الجانب الأيسر، وكل واحد ممن تقدّم ذكره بين عشرة إلىٰ عشرين من أصحابه، ثم الخليفة بين الركابية، وهو سائر علىٰ تُؤَدَةٍ ورِفْقٍ، وفى أوائل العسكر ومتقدّميه والِى القاهرة ذاهبا وعائدا لفسح الطرقات وتسيير مَنْ يقف، وفى وسط العسكر آسفهسلار يَحُث الأجناد علىٰ الحركة ويزجُر المتزاحمين والمعترضين فى العسكر ذاهبا وعائدا، وفى زمرة الخليفة صاحب الباب لترتيب العسكر وحراسة طرقات الخليفة ذاهبا وعائدا، يلقى صاحبُ الباب آسفهسلارَ، واسفهسلارُ يلقىٰ والى القاهرة، وفى يد كل منهم دبُّوس، وخلف الخليفة جماعةٌ من الركابية لحفظ أعقابه، ثم عشرة يحملون عشرةَ سيوفٍ فى خرائط ديباج أحمرَ وأصفرَ يقال لها سيوف الدم برسم ضرب الأعناق، وبعدهم الحاملون للسلاح الصغير المتقدّم الذكر، ووراءه الوزير فى هيئة عظيمة، وفى ركابه نحو خمسمائة رجل ممن يختاره لنفسه من أصحابه، وقوم يقال لهم صبيان الزَّرَدِ من أقوياء الأجناد من جانبيه بفُرْجة لطيفة أمامه دون فرجة الخليفة مجتهدا أن لا يغيب الخليفة عن نظره، وخلفه الطُّبول والصُّنوج والصفافير فى عدّة

كثيرة تَدْوِى من أصواتها الدنيا، ووراءَ ذلك حاملُ الرمح المقدّم ذكره والدرَقَة المنسوبة إلىٰ حمزة، ثم رجال الأساطيـل مشاةً ومعهم القِسِىّ العربية، وتسمّىٰ قسىّ الرِّجْلِ والركاب، ما يزيد علىٰ خمسمائة رجل؛ ثم طوائف الرجال من المصامدة، ثم الريحانية والجُيُوشية، ثم الفرنجية، ثم الوزيرية: زُمْرةً بعد زُمْرةٍ فى عِدّة وافرة تزيد علىٰ أربعة آلاف؛ ثم أصحاب الرايات والسبعين، ثم طوائف العساكر: من الآمرية والحافظية والحجرية الكبار والحجرية الصِّغار والأفضلية والجيوشـية، ثم الأتراك المصطنعون، ثم الديلم، ثم الأكراد، ثم الغُزُّ المصطنعة وغيرهم ما يزيد علىٰ ثلاثة آلاف فارس .

قال آبن الطوير : وهذا كله بعضٌ مِنْ كلٍّ . وإذا ترتب الموكب علىٰ ذلك، سار من باب القصر الذى خرج منـه بين القصرين ، يسـير بموكبه حتّىٰ يخرج من باب النصر ويصـلَ إلىٰ حوض كان هناك يعرف بعز الملك علىٰ القرب من باب النصر، ثم ينعطف علىٰ يساره طالبا بابَ الفتوح، وربما عطف عند خروجه من باب النصر علىٰ يساره ، وسار بجانب السُّور حتّىٰ يأتى بابَ الفتوح فيدخل منـه . وكيفما كان فإنه يدخل منه ، ويسـير الموكب حتّىٰ ينتهىَ بين القصرين فيقف العسكرُ هناك علىٰ ما كان عليه عند الركوب ويترجّل الأمراء . فإذا آنتهىٰ الخليفةُ إلىٰ الجامع الأقمر، وقف هناك فى جماعته وينفرج الموكب للوزير فيتحرّك مسرعا ليصير أمام الخليفة . فإذا مرّ بالخليفة، سَكَع له سَكْعة ظاهرة، فيشير الخليفة بالسلام عليه إشارة خفيفة، وهذه أعظم كرامة تصـدُر من الخليفة، ولا تكون إلا للوزير صاحبِ السـيف . فإذا جاوز الوزيرُ الخليفةَ، سـبقه إلىٰ باب القصر ودخل راكبا علىٰ عادته والأمراءُ أمامه مشاةٌ إلىٰ الموضع الذى ركب منه بدهليز العمود المقدّم ذكره ، فيترجل هناك ويقف هو والأمراءُ لآنتظار الخليفة . فإذا آنتهىٰ الخليفةُ إلىٰ باب القصر، ترجل الأستاذون المحنَّكون ودخل الخليفة القصر وهو راكب والأسـتاذون مُحْدِقون به .

فإذا آنتهى إلى الوزير، مشى الوزير أمام وجه فرسه إلى الكرسى الذى ركب من عليه فيخدمُه الوزيرُ والأمراء، وينصرفون ويدخل الخليفة إلى دُوره . فإذا خرج الوزير إلى مكانِ تَرَجُّلِه ركب، والأمراء بين يديه، وأقاربُه حواليه إلى خارج باب القصر، فيركب منهم مَنْ يستحق الركوب، ويمشى من يستحق المشى، ويسيرون فى خدمته إلى داره، فيدخل راكبا وينزل على كرسى فيخدمُه الجماعة وينصرفون، وقد رأى الناس من حسن الموكب ما أبهجهم وراق خواطِرَهم، ويتفرّق النّاسُ إلى أماكنهم فيجدون الخليفة قد أرسل إليهم الغرّة : وهى دنانير رُبَاعية ودراهم خِفَاف مدوّرة، ويكون الخليفة قد أمر بضربها فى العشر الأخير من ذى الحجة برسم التفرقة فى هذا اليوم، لكل واحد من الوزير والأمراء وأرباب المراتب من حملة السيوف والأقلام قدرٌ مخصوص من ذلك، فيقبلونها على سبيل التبرك من الخليفة، ويكتب إلى البلاد والأعمال مخلَّقات بالبشائر بركوب أول العام كما يكتب بوفاء النيل وركوب المَيْدان الآن .

الموكب الثانى

(ركوب أوّل شهر رمضان)

وهو قائم عند الشيعة مَقام رؤية الهلال ، والأمر فى العَرْض واللباس والآلات والركوب والموكب وترتيبه والطرق المسلوكة على ماتقدّم فى أول العام من غير فرق، ويكتب فيه المخلَّقات بالبشائر كما يكتب فى أول العام .

الموكب الثالث

(ركوبه فى أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان)

وهى الجمعة الثانية [والثالثة[1]] والرابعة ، وذلك أنه إذا ركب إلى الجامع الأنور بباب البحر، بكَّر صاحب بيت المال إلى الجامع بالفَرْش المختص بالخليفة محمولا

(١) الزيادة ليست بالأصل ، ولكن سياق كلامه يدل عليها .

علىٰ أيدى أكابر الفرّاشـين ملفوفا فى العَراضى الدبيقية ، فيُفْرَشُ فى المحراب ثلاث طرّاحات إمّا شاميات ، وإمّا دَبيقى أبيض، منقوشة بالحمرة ، وتُفْرَش واحدة فوق واحدة، ويعلَّق ستران يَمْنَةً ويَسْرَةً ، فى الستر الأيمن مكتوب برقم حرير أحمر سُورةُ الفاتحة وسُورةُ الجمعة ، وفى الستر الأيسر سورةُ الفاتحة وسورةُ المنافقين كتابةً واضحة مضبوطة، ويصـعد قاضى القضاة المنبَر، وفى يده مِدْخنة لطيفة خَيْزُرَان يُحْضرها إليه صاحبُ بيت المـال وفيها نَدٌّ مثلَّث لايشم مثله إلاهناك، فيبخر ذِرْوة المِنْبر التى عليها القَنَا كالقبـة لجلوس الخليفة للخطابة ثلاث دَفَعات، ويركب الخليفـة فى هيئة ما تقدّم فى أوّل العام وأوّل رمضان : من المِظَلَّة والآلات ، ولباسُـه فيه الثياب البياض غير المُذْهَبِة توقيرا للصلاة،والمِنْديل والطيلسان المقوّر . وحولَ ركابه خارج الركابية قرّاء الحضرة من الجانبين يرفعون أصواتهم بالقراءة نَوْبةً بعد نَوْبةٍ من حين ركوبه من القصر إلىٰ حين دخوله قاعة الخَطَابة ، فيدخل من باب الخطابة فيجلس فيهـا ، وإن آحتاج إلىٰ تجديد وضوء فعل، وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب وآسفهسلار وصِبيان الخاصّ، وغيرهم ممن يجرى مجراهم من أوّلها إلىٰ آخرها، وكذلك من داخلها من باب خروجه إلىٰ المنبر . فإذا أُذِّنَ للجمعة دخل إليه قاضى القضاة، فقال : "السلام علىٰ أمير المؤمنين الشريف القـاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته، الصلاةَ يرحمك الله" فيخرج ماشيا وحواليه الأستاذون المحنَّكون والوزير وراءه، ومن يليهم من الأمراء من صِبْيان الخاص ، وبأيديهم الأسلحة حتّى ينتهى إلىٰ المِنْبَر فيصعد حتّى يصلَ إلىٰ الذِّروة تحت القبة المُبخَّرة،والوزير علىٰ باب المنبر ووجهه إليه . فإذا آستوىٰ جالسا أشار إلىٰ الوزير بالصـعود فيصعد إلىٰ أن يصلَ إليه، فيُقَبِّلُ يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزرّ عليه تلك القبة وتصـير كالهودج، ثم ينزل مسـتقبلا للخليفة ويقف ضابطا للمنْبر . فإن لم يكن وزير صُاحب

سيف ، كان الذى يَزُرُّ عليـه قاضى القضاة ، و يقف صاحب الباب ضابطا للمنبر، فيخطب خطبة قصيرة من سَـفَط يأتى إليه من ديوان الإنشاء، و يقرأ فيها آيةً من القرآن الكريم ، ثم يصلى فيها علىٰ أبيه وجدّه يعنى النبىّ صلى الله عليه وسـلم، وعلىّ آبن أبى طالب كرم الله وجهه، و يَعِظُ الناسَ وَعْظًا بليغا قليـلَ اللفظ، و يذكر مَنْ سـلف من آبائه حتّٰى يصـل إلىٰ نفسـه فيقول : "اللهم وأنا عبدك وآبن عبديك لا أمْلِك لنفسى ضَرًّا ولا نفعا " و يتوسل بدعوات فخمة تليق به، و يدعو للوزير إن كان ثَمَّ وزيرٌ وللجيوش بالنصر والتآلف، وللعساكر بالظَّفَر، وعلىٰ الكافرين والمخالفين بالهلاك والقَهْر، ثم يختم بقوله ﴿ٱذْكُرُوا اللهَ يَذْكُرْكُمْ﴾ فيطلع إليه من زرّ عليه فيفُكُّ ذلك التزرير عنـه، و ينزل القَهْقَرىٰ، فيـدخل(١) المحراب ويقف علىٰ تلك الطراحات إماما والوزير وقاضى القضاةِ صَفًّا ،ومن ورائهما الأستاذون المحنكون والأمراء المطوّقون وأرباب الرتب من أصحاب السـيوف والأقلام، والمؤذِّنون وقوفٌ وظهورهم لحائط المقصورةِ ، والجامع مشحون بالعالَم للصـلاة وراءه فيقرأ فى الركعـة الأولىٰ ما هو مكتوب فى السـتر الأيمن، وفى الثانية ما فى الستر الأيسر . فإذا سَمَّعَ الخليفةُ، سَمَّعَ القـاضى المؤذنين ، فيسمِّع المؤذنون النـاسَ . فإذا فرغ خرج(٢) الناس وركبوا أوّلا فأوّلا وعاد إلىٰ القصر والوزيرُ وراءه حتّٰى يأتى إلىٰ القصر،والطبول والبُوقات تضرب ذَهَابا و إيابا .

فإذا كانت الجمعة الثالثة من الشهر، ركب إلىٰ الجامع الأزهر كذلك وفعل كما فعل فى الجمعة الأولىٰ، لا يختلف فى ذلك غيرُ الجامع .

فإذا كانت الجمعة الرابعة منه ،ركب إلىٰ الجامع العتيق بمصر و يزيِّن له أهل القاهرة من باب القصر إلىٰ الجامع الطُّولونى، و يزيِّن له أهل مِصْرَ من الجامع الطولونّى إلىٰ

(١) لعله فينزل (أى الخليفة) فيدخل الخ . (٢) لعله خرج وخرج الناس الخ .

الجامع العتيق ، وقد نَدَب الواليان بالبلدين مَنْ يحفظ الناس والزينة . ويركب من باب القصر ويسـير فى الشارع الأعظم بمصر، يمشى فى شارع واحد بين العمارة إلىٰ الجامع العتيق بمصر فيفعل كما فعل فى الجامعين الأوّلين من غير مخالفــة . فإذا قضى الصلاة، عاد إلىٰ القاهرة من طريقه تلك إلىٰ أن يصل إلىٰ قصره، وفى خلال ذلك كلّه لا يمرّ بمسجد إلا أعطىٰ أهله دينارا علىٰ كَثْرة المساجد فى طريقه .

الموكب الرابع

(ركوبه لصلاة عيدى الفطر والأضحىٰ)

أما عيـد الفطر فيقع الآهتمام بركوبه فى العشر الأخير من رمضان ، وتعبّى أهبة المواكب علىٰ ما تقدّم فى أوّل العام وغيره، وكان خارج باب النصر مصلًّى علىٰ رَبْوَةٍ وجميعها مبنىٌّ بالحجر ، ولهـا سور دائر عليها وقلعة علىٰ بابها ، وفى صدرها قبّةٌ كبيرة فى صدرها مِحْراب، والمنبر إلىٰ جانب القبة وسط المصلّى مكشوفا تحت السماء، آرتفاعه ثلاثون درجة وعَرْضه ثلاثة أذرع ، وفى أعلاه مصطبةٌ . فإذا كمل رمضان ، وهو عندهم ثلاثون يوما من غير نقص . فإذا كان اليوم الأوّل من شوّال ، سار صاحب بيت المـال إلىٰ المصـلّى خارج باب النصر، وفرش الطرّاحات بمحراب المصـلّى، كما تقدّم فى الجوامع فى أيام الجمع، ويعلق سترين يَمْنَةً ويَسْرَةً، فى الأيمن الفاتحةُ وَسَبِّح آسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلىٰ، وفى الأيسر الفاتحةُ، وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الغَاشِيَةِ، ويركز فى جانبى المصلّى لواءين مشدودين علىٰ رمحين ملبسيـــن بأنابيب الفِضة ، وهمـا منشوران مرخيان ، ويوضع علىٰ ذِرْوة المنبر طرّاحة من شاميات أو دبيق ، ويفرش بَاقِيــه بستر من بياض، علىٰ مقداره فى تقاطيع درجه مضـبوطة لا تتغـير بالمشى وغيره ، ويجعل فى أعلاه لواءان مرقومان بالذهب يَمْنَةً ويَسْرَةً، ثم سار الوزير من داره إلىٰ

قصر الخليفة علىٰ عادته المتقدّمة الذكر، ويركب الخليفة بهيئةِ المواكب العظيمة علىٰ ما تقــدّم فى أوّل العام : من المِظَلّة والتاج وغير ذلك من الآلات ، ويكون لباســه فى هــذا اليوم الثيابَ البيض الموشّحة المجومة ، وهى أجلُّ لباســه ومظالته كذلك ، ويخرج من باب العيد علىٰ عادته فى ركوب المواكب إلا أن العساكر فى هــذا اليوم من الأمراء والأجناد والركبان والمشاة تكون أكثر من غيره، وينتظم القوم له صَفَّيْنِ من باب القصر إلىٰ المصلّى ، ويركب الخليفــة إلىٰ المصلّى فيدخل من شرقيّها إلىٰ مكان يستريح فيه دقيقةً، ثم يخرج محفوظا بحاشيته كما فى صلاة الجمع المتقدّمة الذكر فيصير إلىٰ المحراب، والوزير والقاضى وراءه كما تقدّم، فيصلى صلاة العيد بالتكبيرات المسنونة، ويقرأ فى الركعة الأولىٰ مافى الستر الذى علىٰ يمينه، وفى الثانية مافى الستر الذى علىٰ يساره . فإذا فرغ وسلم، صعد المنبر لخَطابة العيد . فإذا آنتهىٰ إلىٰ ذِرْوة المنبر، جلس علىٰ تلك الطرّاحة بحيث يراه الناس ، ويقف أســفل المنبر الوزيرُ، وقاضى القضاة ، وصاحب البــاب وآسفهسلار ، وصاحب الســيف ، وصاحب الرسالة، وزِمَامُ القصر، وصاحب دفتر المجلس، وصاحب المِظَلّة، وزِمَامُ الأشراف الأقارب ، وصاحب بيت المــال ، وحامل الرمح ، ونقيب الأشراف الطالبيــين . (١) ووجه الوزير إليه فيقبلهــما بحيث يراه النــاس، ثم يقوم فيقف علىٰ يَمْنَة الخليفة . فإذا وقف أشار إلىٰ قاضى القضاة بالصعود فيصــعد إلىٰ سابع درجة، ثم يتطلع إليه منتظرا مايقول، فيشير إليه فيُخْرِجُ من كُمِّهِ دَرْجا قد أُحْضِر إليه فى أمسه من ديوان الإنشاء بعد عرضــه علىٰ الخليفة والوزير، فيعلن بقراءة مضــمونه [ويقول] بعد البسملة : شُرِّف بصعود المنبر الشريف فى يوم كذا ، وهو عيد الفطر من سنة

(١) فيه سقط وفى المقريزى بعد هذا [فيشير إليه فيصعد و يقرب وقوفه منه و يكون وجهه موازيا رجليه فيقبلهما الخ].

كذا من عند أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين بعد صعود السيد الأجل (يذكر نعوت الوزير المقررة والدعاء له) ثم ذكر من يُشَرِّفُه الخليفة بصعود المنبر من أولاد الوزير، ثم ذكر القاضى ولكنه يكون هو القارئَ للتَّثبت فلا يسعه ذكر نعوته فيقول : المملوك فلان بن فلان ونحو ذلك ، ثم الواقفين علىٰ باب المنبر ممن تقدّم ذكره بنعوتهم واحدا واحدا، وكلما ذكر واحدا آستدعاه وطلع المنبر، كل منهم يعرف مقامه فى المنبر يَمْنَةً ويَسْرَةً . فإذا لم يبق أحد ممن أُطلع إلىٰ المنبر، أشار الوزير إليهم فأخذ كل مَنْ هو فى جانب بيده نصيبا من اللواء الذى بجانبه فيستتر الخليفة ويستترون، وينادىٰ فى الناس بالإنصات، فيخطب الخليفةُ خطبةً بليغةً مناسبة لذلك المقام ، يقرؤها من السَّفَطِ الذى يُحْضَر إليه مسطَّرا من ديوان الإنشاء كما فى جُمَع رمضان المتقدّمة الذكر . فإذا فرغ من الخطبة ، ألقىٰ كلُّ مَنْ فى يده شيءٌ من اللواء خارج المنبر، فينكشفون وينزلون القهقرىٰ أوّلا بأوّل الأقرب فالأقرب . فإذا خلا المنبر للخليفة ، هبط ودخل المكانَ الذى خرج منه ، فيلبث قليلا ثم يركب فى هيئته التى أتىٰ فيها إلىٰ المصلّى، ويعود فى طريقه التى أتىٰ منها . فإذا قرب من القصر، تقدّمه الوزير على العادة، ثم يدخل من باب العيد الذى خرج منه، فيجلس فى الشُّبَّاك الذى فى الإيوان الكبير، وقد مدّ منه إلىٰ فسقية فى وسط الإيوان مقدار عشرين قصبة سِمَاطٌ فيه من الخُشْكَان والبسندود، وغير ذلك مما يعمل فى العيد مثلُ الجبل الشاهق ، كل قطعة ما بين ربع قنطار إلىٰ رطل واحد ، فيأكل مَنْ يأكل وينقلُ مَنْ ينقلُ لا حَجْرَ عليه ولا مانع دونه ، ثم يقوم من الإيوان فيركب إلىٰ قاعة الذهب فيجد سرير الملك قد نُصِب ، ووضع له مائدة من فضة ، ومدّ السماط تحت السرير فيترجل عن السرير، ويجلس علىٰ المائدة، ويستدعى الوزيرَ فيجلس معه، ويجلس الأمراء علىٰ السّماط ولا يزال كذلك حتّى

يستهدم السماط قريبَ صلاة الظهر؛ ثم يقوم وينصرف الوزير إلىٰ داره والأمراء فى خدمته فيمدّ لهم سماطا يأكلون منه وينصرفون .

وأما عيد الأضحىٰ، فإنه إذا دخل ذو الحجة وقع الاهتمام بركوبه. فإذا كان يوم العيد، ركب الخليفة علىٰ ما تقدّم فى عيد الفِطْر من الزِّىّ والترتيب والركوب إلىٰ المصلّىٰ، ويكون لباس الخليفة فيه الأحمرَ الموشحَ، ومِظَلَّته كذلك، ويخرج إلىٰ المصلّىٰ خارج باب النصر ويخطب، ثم يعود إلىٰ القصر كما فى عيد الفطر من غير زيادة ولا نقص؛ ثم بعد دخوله إلىٰ القصر يخرج من باب الفَرَج، وهو باب القصر الذى كان مسامتا لدار سعيد السُّعَداء التى هى الخانقاه الآن، فيجد الوزيرَ راكبا علىٰ الباب المذكور، فيترجل الوزيرُ ويمشى فى خدمتـه إلىٰ المَنْحَر، وهو خارج الباب المذكور. وكان إذ ذاك فضاء واسعا لا بِناءَ فيه، وهناك مصطبة مفروشة فيطلُع عليها الخليفةُ والوزيرُ وقاضى القضاة والأستاذون المحنَّكون وأكابر الدولة، ويكون قد سبق إلىٰ المنحر أحدٌ وثلاثون فصيلا وناقةً للأضحية، وبيده حربة، وقاضى القضاة ممسك بأصل سِنَانها، وتُقَدَّم إليه الأضحية رأسا رأسا فيجعل القاضى السنانَ فى نحر النحيرة ويطعن به الخليفة فى لَبَّتِها، فتخرّ بين يديه حتّىٰ يأتى علىٰ الجميع، ثم يُسَيِّرُ رسومَ الأضحية إلىٰ أرباب الرسوم المقرّرة، وفى اليوم الثانى يساق إلىٰ المنحر سبعةٌ وعشرون رأسا، ويركب الخليفة فيفعل بها كذلك، وفى اليوم الثالث يساق إليه ثلاثٌ وعشرون رأسا فيفعل بها كذلك. فإذا انقضىٰ ذلك فى اليوم الثالث وعاد الخليفة إلىٰ القصر، خلع علىٰ الوزير ثيابه الحمرَ التى كانت عليه يوم العيد، ومنديلا بغير اليتيمة والعقد المنظوم بالجوهر، ويركب الوزيرُ بالخِلْعة من القصر، ويشق القاهرةَ بالشارع سالكا إلىٰ الخليج فيسير عليه حتّىٰ يدخل من باب القنطرة إلىٰ دار الوزارة، وبذلك انفصال العيد. ثم أوّل نحيرة تنحر تقدّد وتُسَيَّرُ إلىٰ داعى اليَمَنِ فيفرّقها علىٰ المعتَقدِين من وزن نصف درهم

إلىٰ وزن ربع درهم، وباقى ذلك يفرّق علىٰ أرباب الرسوم فى أطباق للبَرَكة، وأكثره يُفرِّقُهُ قاضى القضاة وداعى الدُّعاة علىٰ الطلبة بدار العدل والمتصدّرين بجوامع القاهرة، وفى اليوم الأوّل يمدّ السماط بقاعة الذهب علىٰ ماتقدّم فى عيد الفطر من غير فرق .

الموكب الخامس

(ركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل)

قد تقدّم عند ذكر النيل فى الكلام علىٰ الديار المصرية ٱبتداءُ زيادة النيل ووفاؤه وٱنتهاؤه ، وذكرُ المناداة عليه علىٰ ما الأمر مستقرّ عليه . إلا أنه فى زمن هؤلاء الخلفاء لم يكن ينادىٰ عليه قبل الوفاء، وإنما يؤخذ قاعُه وتكتب به رُقْعَةٌ للخليفة والوزير، ثم ينزل بديوان الرسائل فى مسير معدّ له فى الديوان ، ويستمرّ الحال علىٰ ذلك فى كل يوم ترفع رُقْعة إلىٰ ديوان الإنشاء بالزيادة لايطَّلِع عليها غير الخليفة والوزير، وأمره مكتوم إلىٰ أن يبقىٰ من ذراع الوفاء (وهو السادس عشر) أصبعٌ أو أصبعان، فيؤمر بأن يبيت فى جامع المِقياس تلك الليلة قُرَّاءُ الحضرة والمتصدّرون بالجوامع بالقاهرة ومصر ومن يجرى مجراهم لختم القرءان الكريم فى تلك الليلة هناك، ويمدّ لهم السماط بالأطعمة الفاخرة، وتوقد عليهم الشموع إلىٰ الصبح . فإذا أصبح الصبح وأذِن الله تعالىٰ بوفاء النيل فى تلك الليلة ، طلعت رُقْعة ٱبن أبى الرّداد إلىٰ الخليفة ، فتُحضَرُ إليه بالقصر، فيركب الخليفةُ فى هيئة عظيمة من الثياب الفاخرة والموكب العظيم، إلا أنه يلبس التاج الذى فيه اليتيمة، ولا يُخَلِّى المظلة علىٰ رأسه فى ذلك اليوم؛ ويركب الوزيرُ وراءه فى الجمع العظيم علىٰ ترتيب الموكب؛ ويخرج من القصر شاقا القاهرةَ إلىٰ باب زويلة فيخرج منه، ويسلك الشارع إلىٰ أن يجاوز البستان المعروف بعباس عند رأس الصَّلِيبة بالقرب من الخانقاه الشيخونية

الآن، فيعطف سالكا علىٰ الجامع الطولونىّ والجسرِ الأعظم حتّٰى يأتىَ مصر، ويدخل من الصناعة ــ وهى يومئذ فى غاية العمارة، وبها دِهْلِيزٌ ممتدّ بمصاطبَ مفروشةٍ بالحصر العبدانىّ مؤزَّر بها ــ ويخرج من بابها شاقًّا مصرَ حتّٰى يأتىَ المنظرة المعروفةَ برواق الملك علىٰ القرب من باب القنطرة، فيدخلها من الباب المواجه له والوزيرُ معه ماشيا إلىٰ المكان المعدّ له، ويكون العشارىّ الخاصّ المعبَّر عنه الآن بالحرّاقة واقفا هناك بشاطئ النيل، وقد حُمِل إليه من القصر بيتٌ مثمن من العاج والآبِنُوسِ كل جانب منه ثلاثة أذرع، وطوله قامةُ رجل تامّ، فيركب فى العشارىّ المذكور وعليه قبة من خشب محكم الصنعة، وهو وقُبَّته ملبَّس صفائح الفضة المُذْهَبَة، ثم يخرج الخليفة من دار الملك المذكورة ومعه من الأستاذين المحنَّكين من يختاره من ثلاثة إلىٰ أربعة، ثم يطلُع خوّاص الخليفة إلىٰ العشارىّ والوزيرُ ومعه من خواصّه آثنان أو ثلاثة لاغير، فيجلس الوزير فى رُواقٍ بظاهر البيت المذكور، بفوانيس من خشب مخروط مدهونة مُذْهَبَةٍ، بستور مسدَلة عليه، ويسير العشارى من باب المنظرة إلىٰ باب المِقْياس العالى علىٰ الدَّرَج، فيطلع من العشارى، ويدخل إلىٰ الفسقية التى فيها المقياس، والوزير والأستاذون المحنكون بين يديه، فيصلِّى هو والوزير كلٌّ منهما ركعتين بمفرده، ثم يؤْتىٰ بالزَّعفران والمسك فيَديفه فى إناء بيده بآلة معه، ويتناوله صاحب بيت المال فيناوله لآبن أبى الردّاد، فيُلْقِى نفسه فى الفسقية بثيابه فيتعلق فى العمود برجليه ويده اليسرىٰ ويُخَلِّقه بيده اليمنىٰ، وقرّاء الحضرة من الجانب الآخر يقرءُون القرءان، ثم يخرج علىٰ فوره راكبا فى العشارىّ المذكور، ثم يعود إلىٰ دار الملك، ويركب منها عائدا إلىٰ القاهرة، وتارة ينحدر فى العشارى إلىٰ المَقْس، ويتبعه الموكب فيسير من هناك إلىٰ القاهرة. ويكون فى البحر ذلك اليوم نحوُ ألف مركب مشحونة بالناس للتفرّج وإظهار الفرح . فإذا كان اليوم الثانى من التخليق أتىٰ آبن أبى الردّاد

إلى الإيوان الكبير الذى فيـه الشُّبَّاك بالقصر فيجد خِلْعة مُذْهَبَـةً بطَيْلَسان مقوّر، ويُدْفَعُ إليه خمسـة أكياس فى كل كيس خمسمائة درهم مهيأة له، فيلبس الخِلْعـة، ويخرج من باب العيد المتقدّم ذكره فى أبواب القصر، وقد هيئ له خمس بغال على ظهورها الأحمال المزَيَّنَةُ بالحلىّ، على ظهر كل منهـا راكب وبيده أحد الأكياس الخمسة المتقدّمة الذكر ظاهرٌ فى يده، وأقاربه وبنوعمه يحجبونه وأصدقاؤه حوله، وأمامه حِمْلان من النَّقَّارات السلطانية، والأبواقُ تضرب أمامه، والطبل وراءه مثل الأمراء، فيشق بين القصرين، وكلمـا مر على باب من أبواب القصر يدخل منـه الخليفة أو يخرج، نزل فقَبَّلَه، ويخرج من باب زويلة فى الشارع الأعظم حتّى يأتى مِصْرَ فيشقُّ وسَطَها ويمرّ بالجامع العتيق، ويجاوزه إلى شاطئ النيل فيعدّى إلى المقياس بخِلْعته ومامعه من الأكياس، فيأخذ من الأكياس قدرا مقرّرا له، ويفرّق باقى ذلك على أرباب الرسوم الجارية من قديم الزمان من بنى عمه وغيرهم.

الموكب السادس

(ركوبه لفتح الخليج)

وهو فى اليوم الثالث أو الرابع من يوم التخليق المتقدّم ذكره، وليس كما فى زماننا من فتحه فى يوم التخليق؛ وكان يقع الاهتمام عنـدهم بركوب هـذا اليوم من حين يأخذ النيل فى الزيادة، وتعـمل فى بيت المـال موائدُ من التمـاثيل المختلفـة: من الغِزْلان، والسباع، والفِيَـلة، والزَّرَارِيف عدّة وافرة، منها ما هو ملبَّس بالعنبر، وما هو مُلَبَّسٌ بالصندل، مفسرة الأعين والأعضاء بالذهب، وكذلك يُعْمَلُ أشكالُ التُّفَّاح والأُتْرُجّ وغير ذلك، وتخرج الخَيْمَةُ العظيمة المعروفة بالقاتول المتقدّمة الذكر فتنصب للخليفـة فى بَرّ الخليج الغربىّ على حافته عنـد مَنْظَرة يقال لهـا السكَّرة على

القرب من فم الخليج، ويُلَفُّ عمودُ الخيمة بديباج أحمرَ أو أبيض أو أصفر من أعلاه إلىٰ أسفله، وينصب فيها سرير الملك مستندا إليه ويغشّى بقُرْقوبى، وعرانيسه ذهبٌ ظاهرة، ويوضع عليه مَرْتبة عظيمة من الفرش للخليفة؛ ويضرب لأرباب الرُّتَب من الأمراء بَحْرِىّ هذه الخيمة خِيَمٌ كثيرة علىٰ قدر مراتبهم فى المقدار والقرب من خيمة الخليفة؛ ثم يركب الخليفة علىٰ عادته فى المواكب العظيمة بالمِظَلَّة وتوابعها من السيف والرمح والألوية والدواة وسائر الآلات، ويزاد فيه أربعون بُوقا: عشرة من الذهب وثلاثون من الفضة، يكون المنفِّرون بها ركبانا، والمنفِّرون بالأبواق النُّحَاس مشاةً، ومن الطبول العظام عشرة طبول. فإذا كان يومُ الركوب، حضر الوزير من دار الوزارة راكبا فى هيئة عظيمة، ويركب حينئذ إلىٰ باب القصر الذى يخرج منه الخليفة، ويخرج الخليفة من باب القصر راكبا والأستاذون المحنَّكون مشاةٌ حوله، وعليه ثوب يسمّى البدنة حريرٌ مرقومٌ بذهب، لا يلبسه غير ذلك اليوم، والمظلة بنسبته؛ فيركب الأستاذون المحنَّكون ويسير الموكب علىٰ الترتيب المتقدّم فى ركوب أوّل العام سائرا فى الطريق التى ذهب فيها للتخليق حتّى يأتىَ الجامع الطولونىّ؛ ويكون قاضى القضاة وأعيانُ الشهود جلوسا ببابه من هذه الجهة، فيقف لهم الخليفة وقفةً لطيفةً، ويسلم علىٰ القاضى، فيتقدّم القاضى ويُقَبِّلُ رجله التى من جانبه، ويأتى الشهود أمام وجه فرس الخليفة، ويقفون بمقدار أربعة أذرع عن الخليفة فيسلم عليهم، ثم يركبون ويسير الموكب حتّى يأتى ساحل الخليج، فيسير حتّى يقارب الخليفةُ الخيمةَ، فيتقدّمه الوزير علىٰ العادة، فيترجل علىٰ باب الخيمة، ويجلس علىٰ المرتبة الموضوعة له فوقه(١)، ويحيط به الأستاذون المحنكون والأمراء المطوّقون بعدهم؛ ويوضع للوزير كرسيُّه الجارى به العادة علىٰ ما تقدّم فى جلوسه فى القصر، فيجلس

(١) أى فوق السرير المتقدم وصفه قريبا.

ورجلاه يحُكّان الأرض، ويقف أرباب الرُّتَبِ صـفين من سرير المُلْك إلىٰ باب الخيمة، وقرّاء الحضرة يقرءُون القرءان سـاعة زمانيـة . فإذا فرغوا من القراءة، ٱستأذن صاحبُ الباب علىٰ حضور الشعراء للخدمة، فيؤذن لهم فيتقدّمون واحدا بعد واحد علىٰ مقدار منازلهم المقرّرة لهم ، ويُنْشِدُ كلٌّ منهم ما وقع له نظمه ممـا يناسب الحـال . فإذا فرغ أتىٰ غيره وأنشـد ما نظمه إلىٰ أن يفرغ إنشادهم ، والحاضرون ينتقدون علىٰ كل شاعرٍ ما يقوله ، ويُحَسِّنُون منه ما حَسُنَ ويُوهُّون منه ما وهىٰ . فإذا ٱنقضىٰ هذا المجلس، قام الخليفة عن السرير فركب إلىٰ المنظرة المعروفة بالسكَّرة بقرب الخيمة والوزير بين يديه ، وقد فُرِشت بالفُرُش المعدّة لهـا ، فيجلس الخليفة بمكان معـدّ له منها ، ويجلس الوزيرُ بمكان منها بمفرده ، ويجلس القاضى والشهودُ فى الخيمة البيضاء الدبيقية ، فيُطِلُّ منها أستاذ من الأستاذين المحنكين فيشير بفتح السدّ فيفتح بالمَعَاول ، وتضرب الطبول والأبواق من البرّيـن ، وفى أثناء ذلك يصـل السِّماط من القصر صحبةَ صاحب المائدة القائم مقام أستاذ دار الصحبة الآن ، وعدّتها مائة شدّة فى الطيافير الواسعة فى القواوير الحرير ، وفوقها الطرّاحات النفيسة ، وريح المسك والأفاويه تفوح منها ، فتوضع فى خيمة وسـيعة معـدّة لذلك ، ويحمل منهـا للوزير وأولاده ما جرت به عادتهم ، ثم لقاضى القضاة والشهود ، ثم إلىٰ الأمراء علىٰ قدر مراتبهم : علىٰ أنواع الموائد من التمـاثيل المقدمة الذكر خلا القاضى والشهود ، فإنه لا يكون فى موائدهم تمـاثيل . فإذا ٱعتدل المـاء فى الخليج دخلت فيه العشاريات اللطاف ووراءها العشـاريات الكبار ، وهى سـبعة : الذهبىّ المختص بالخليفـة ، وهو الذى يركب فيه يوم التخليق ، والفِضِّىُّ ، والأحمر ، والأصـفر ، والأخضر ، واللّازَوَرْدِىُّ ، والصـقلىّ ، وهو عشارى أنشأه نجّارٌ من صقلية علىٰ الإنشاء المعتاد فنسب إليه ، وعليها الستور الدبيق الملوّنة ، وفى أعناقها الأهلة وقلائد العنبر والخرز

الأزرق، وتسير حتى ترسُوَ على بر المنظرة التى فيها الخليفة . فإذا صلى الخليفةُ العصر، ركب لابسا غير الثياب التى كانت عليه فى أوّل النهار، ومِظلَّته مناسبة لثيابه التى لبسها، وباقى الموكب على حاله، ويسير فى البر الغربىّ من الخليج شَاقًّا للبساتين حتى يصلَ إلى باب القنطرة فيعطف على يمينه ويسير إلى القصر، والوزير تابعه على الرسم المعتاد، فيدخل الخليفة قصره، ويمرّ الوزير إلى داره على عادته فى مثل ذلك اليوم .

وذكر القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر : أنه إذا ركب من المنظرة المعروفة بالسكرة، سار فى بر الخليج الغربىّ على ما تقدّم ذكره حتى يأتىَ بستان الدكة، وقد عُلِّقت دهاليزه بالزينة فيدخله وحده ويسقى منه فرسه، ثم يخرج حتى يقف على الرعنة المعروفة بخليج الدار، ويدخل من باب القنطرة ويسير إلى قصره .

النوع الثانى

(من مواكبهم المواكب المختصرة فى أثناء السنة)

وهى أربعة أيام أو خمسة فيما بين أوّل العام ورمضان ولا يتعدّى ذلك يومى السبت والثلاثاء . فإذا عزم على الركوب فى يوم من هذه الأيام، قدّم تفرقة السلاح على الركابية على ما تقدّم ذكره فى أوّل العام، وأكثرُ ما يكون ركوبه إلى مصر، فيركب والوزير وراءه على أخصرَ من النظام المتقدّم له فى المواكب العظام وأقلّ جمعا، ولبسه فى هذه الأيام الثياب المُذْهَبَةُ من البياض والملوّن ومنديلٌ من نسبة ذلك مشدودة بشدة عسر (١) شدات غيره، وذوائبه مرخاة تقرب من جانبه الأيسر، وهو مقلد بالسيف العربىّ المجوهر بغير حنك ولا مظلة، ويخرج شاقا القاهرة فى الشارع الأعظم حتى يجاوز الجامع الطولونىّ على المشاهد إلى الجامع العتيق . فإذا وصل إلى بابه، وجد الخطيب قد وقف على مصطبة بجانبه فيها محراب، مفروشةٍ

---

(١) كذا فى الأصل ولعله غير شدات .

بحصير وعليها سجادة معلقة ، وفى يده المصحف الكريم المنسوب خطه إلىٰ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه فيناوله المصحف من يده فيقبله و يتبرك به و يأمر له بعطاء يفرّق علىٰ أهل الجامع .

الضرب الثـالث
(من هيئة الخليفة هيئته فى قُصُوره)

قال آبن الطوير : كان له ثياب يلبَسُها فى الدور أكامها علىٰ النصف من أكام ثيـابه التى يلبسها فى المواكب ، وكان من شأنه أنه لاينصرف من مكان إلىٰ مكان فى القصر فى ليل أو نهار إلا وهو راكب ، ولا يقتصر فى القصر علىٰ ركوب الخيـل بل يركب البغال والحمير الإناث لمـا تدعوه الضرورة إليـه من الجواز فى السراديب القصيرة والطلوع علىٰ الزلاقات إلىٰ أعلىٰ المناظر والمساكن ، وله فى الليل نسوة برسم شدّ مايحتاج إلىٰ ركوبه من البغال والحمير ، وفى كل محلة من محلات القصر فَسْـقِيَّةٌ مملوءة بالمـاء خِيفَةً من حدوث حريق فى الليل ، ويبيت خارج القصر فى كل ليلة خمسون فارسا للحِراسة . فإذا أُذِّن بالعشاء الآخرة داخلَ قاعة الذهب وصلّىٰ الإمامُ الراتبُ فيها بالمقيمين من الأستاذين وغيرهم ، وقف علىٰ باب القصر أميرٌ يقال له سِنَان الدولة ـ مقام أمير جاندار الآن ـ فإذا علم بفراغ الصلاة تضرب البوقيةُ من الطبول والبوقات وتوابعها علىٰ طريق مستحسنة ساعةً زمانية ، ثم يخرج أسـتاذ برسم هذه الخدمة فيقول : "أمير المؤمنين يردّ علىٰ سـنان الدولة السلام" فيغرِز سنان الدولة حربةً علىٰ الباب ثم يرفعها بيـده ، فإذا رفعها أغلق الباب ، ودار حول القصر سبعَ دَوْرات . فإذا آنتهىٰ ذلك جعـل علىٰ الباب البوّابين والفرّاشـين وأوىٰ المؤذّنون إلىٰ خزائنَ لهم هناك ، وتُرْمىٰ السلسلة عند المضيق :آخر بين القصرين عند السيوفيين

فينقطع المارّ من ذلك المكان إلىٰ أن تضرب البوقية سَحَرا قربَ الفجر فتُرفَع السلسلة ويجوز الناس من هناك .

الجمـــــــلة السادسة

(فى آهتمامهم بالأساطيل وحفظ الثغور وآعتنائهم بأمر الجهاد، وسيرهم فى رعاياهم، وآستمالة قلوب مخالفيهم)

أمّا آهتمامهم بالأسـاطيل وحفظ الثغور وآعتناؤهم بأمر الجهاد، فكان ذلك من أهمّ أمورهم، وأَجَلّ ما وقع الآعتناءُ به عندهم . وكانت أساطيلهم مرتبـة بجميع بلادهم الساحلية كالإسْكَنْدَرِيَّة ودِمْياطَ من الديار المصرية، وعَسْقَلان وعَكَّا وصُور وغيرها من سواحل الشام، حين كانت بأيديهم، قبل أن يغلبهم عليها الفرنج؛ وكانت جريدة قوّادهم تزيد علىٰ خمسـة آلاف مقاتل مدوّنة ، وجوامكهم فى كل شهر من عشرين دينـارا إلىٰ خمسـة عشر دينارا إلىٰ عشرة إلىٰ ثمـانية إلىٰ دينارين ، وعلىٰ الأسطول أمير كبيرٌ من أعيان الأمراء وأقواهم جاشا؛ وكان أسطولهم يومئذ يزيد علىٰ خمسة وسبعين شينيا وعشر مسطحات وعشر حمالات ، وعمارة المراكب متواصلة بالصناعة لا تنقطع . فإذا أراد الخليفـة تجهيزها للغزو ، جلس للنفقة بنفسـه حتىّ يكملهـا ، ثم يخرج مع الوزير إلىٰ ساحل النيـل بالمَقْسِم ، فيجلس فى مَنْظَرةٍ كانت بجامع باب البحر والوزير معه للوادعة(١)، ويأتى القُوّادُ بالمراكب إلىٰ تحت المنظرة ، وهى مزينة بالأسلحة والمَنْجَنيقات واللعب منصوبة فى بعضها ، فتسَـيَّر بالمجاديف ذَهَاباً وعَوْدًا كما يُفْعَلُ حالة القتال ، ثم يحضر إلىٰ بين يدى الخليفة المُقَـدَّمُ والرِّيِّسُ فيوصيهما ويدعو لهم بالسلامة، وتنحدر المراكب إلىٰ دِمْيَاطَ وتخرج إلىٰ البحر المِلْح، فيكون لهـا فى بلاد العـدوّ الصِّيتُ والسُّمْعة . فإذا غنموا مَرْكَبًا آصطفىٰ الخليفـة

---

(١) أى التوديع . وقد جرىٰ فيه وفى كثير غيره علىٰ آصطلاحات العامة .

لنفسه السبْيَ الذى فيه من رجال أو نساء أو أطفال، وكذلك السلاح، وما عدا ذلك يكون للغانمين لا يُساهَمُون فيـه . وكان لهم أيضا أسطول بعَيْذَابَ يتلقّى به الكارم فيما بين عَيْـذَابَ وسواكن، وما حولهـا خوفا علىٰ مراكب الكارم من قوم كانوا بجزائر بحر القلزم هناك يعترضون المراكب، فيحميهم الأسطول منهم، وكان عدّة هذا الأسطول خمسة مراكب، ثم صارت إلىٰ ثلاث، وكان والِى قُوص هو المتولِّى لأمر هذا الأسطول، وربما تولاه أمير من الباب، ويحمل إليه من خزائن السلاح مايكفيه .

وأمّا سَيْرُهم فى رعيتهم وٱستمـالة قلوب مخالفيهم، فكان لهم الإقبال علىٰ من يَفِدُ عليهم من أهل الأقاليم جلَّ أو دَقَّ، ويقابلون كل أحد بمـا يليق به من الإكرام، ويعوّضون أرباب الهدايا بأضعافها . وكانوا يتألَّفُون أهل السُّنَّة والجماعة ويمكنونهم من إظهار شـعائرهم علىٰ ٱختلاف مذاهبهم، ولا يمنعون من إقامة صـلاة التراويح فى الجوامع والمساجد علىٰ مخالفـة معتَقَدهم فى ذلك (١) بذكر الصحابة رضوان الله عليهم، ومذاهب مالك والشـافعىّ وأحمد ظاهرة الشّعار فى مملكتهم، بخلاف مذهب أبى حنيفة، ويُراعُون مذهب مالك، ومَنْ سألهم الحكم به أجابوه، وكان من شأن الخليفة أنه لا يكتب فى علامته إلا "الحمد لله رب العالمين" ولا يخاطب أحدا فى مكاتبته إلا بالكاف حتّى الوزير صاحب السيف، وإنمـا المكاتبات عن الوزير هى التى تتفاوت مراتبها، ولا يخاطب عنهـم أحدٌ إلا بنعت مقرّر له ودعاء معروف به، ويراعون من يموت فى خدمتهم فى عقبـه، وإن كان له مرتب نقلوه إلىٰ ذرّيته من رجال أو نساء .

---

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

الجمـــــلة الســـابعة

(فى إجراء الأرزاق والعطاء لأرباب الخدم بدولتهم،
وما يتصل بذلك من الطعمة)

أمّا إجراء الأرزاق والعطاء، فقد تقدّم أن ديوان الجيوش كان عندهم على ثلاثة أقسام : قسم يختص بالعرض وتحلية الأجناد وشِيَات دوابّهم، وقسم يختص بضبط إقطاعات الأجناد ، وقسم يختص بمعرفة ما لكل مرتزق فى الدولة من راتب وجار وجراية، ولكل من الثلاثة كُتَّابٌ يختصون بخدمته . والقسم الثالث هو المقصــود هنا؛ وكان راتبهم فيه بالدنانير الجَيْشية، وكان يشتمل على ثمانية أقسام .

الأوّل ـ فيه راتب الوزير وأولاده وحاشيته .

فراتب الوزير فى كل شهر خمسة آلاف دينار، ومَنْ يليه من ولد أوأخ من ثلثمائة دينـار إلى مائتى دينار، ولم يقرّر لولد وزير خمسُمائة دينار سوى الكامل بن شاور، ثم حواشيه من خمسمائة دينار، إلى أربعمائة دينار، إلى ثلثمائة دينار خارجا عن الإقطاعات

الثانى ـ فيه حواشى الخليفة .

فأوّلهم الأستاذُون المحنكون على رُتَبِهِمْ . فزِمَامُ القصر، وصاحبُ بيت المـال ، وحامل الرسالة،وصاحب الدفتر،وشادُّ التاج ، و زِمَامُ الأشراف الأقارب، وصاحب المجلس ، لكل واحد منهم فى الشهر مائة دينار ، ثُمَّ مَنْ دونهم من تسعين دينارا إلى عشرة دنانير على تفـاوُت الرُّتَب . و فى هــذا طبيبا الخاص، ولكل واحد منهـما فى الشهر خمسون دينارا، ولمن دونهما من الأطباء المقيمين بالقصر لكل واحد عشرة دنانير .

الثالث ـ فيه أرباب الرُّتَب بحضرة الخليفة .

فأوّل مسطور فيه كاتبُ الدَّسْت ــ وهو المعبَّر عنه الآن بكاتب السرّ ــ وله فى الشهر مائة وخمسون دينارا، ولكل واحد من كُتَّابه ثلاثون دينارا ــ ثم الموقِّع بالقلم الدقيق، وله مائة دينار ــ ثم صاحب الباب، وله مائة وعشرون دينارا ــ ثم حامل السيف وحامل الرمح، ولكل منهما سبعون دينارا؛ وبقيَّة الأزِمَّة على العساكر والسودان من خمسين دينارا، إلى أربعين دينارا، إلى ثلاثين .

الرابع ــ فيه قاضى القضاة، وله فى الشهر مائة دينار ــ وداعى الدُّعاة وله مثله؛ وقُرَّاء الحضرة، ولكل منهم عشرون دينارا، إلى خمسة عشر دينارا، إلى عشرة .

الخامس ــ فيه أرباب الدواوين ومن يجرى مَجْراهم .

فأوّلهم مُتَوَلِّى ديوان النظر، وله فى الشهر سبعون دينارا ــ ثم متولى ديوان التحقيق، وله خمسون دينارا ــ ثم متولى ديوان المجلس، وله أربعون دينارا ــ ثم متولى ديوان الجيوش، وله أربعون دينارا؛ ثم صاحب دفتر المجلس، وله خمسة وثلاثون دينارا؛ ثم الموَقِّع بالقلم الجليل القائم مقام كاتب الدَّرْج الآن، وله ثلاثون دينارا . ولكل مُعِين عشرة دنانير، إلى سبعة، إلى خمسة .

السادس ــ فيه المستخدمون بالقاهرة ومصر فى خدمة واليهما، ولكل واحد منهما خمسون دينارا ــ وللحُمَاة بالأهراء والمُنَاخات والحوالى والبساتين والأملاك وغيرها لكل منهم مايقوم به من عشرين دينارا، إلى خمسة عشر، إلى عشرة، إلى خمسة .

السابع ــ فيه عدة الفرّاشين برسم خِدْمَةِ الخليفة والقصور وتنظيفها خارجا وداخلا ونصب الستائر المحتاج إليها والمناظر الخارجة عن القصر، ولكل منهم فى الشهر ثلاثون دينارا فما حولها ــ ثم مَنْ يليهم من الرشَّاشين داخل القصر وخارجه وهم نحو ثلثمائة رجل، ولكل منهم من عشرة دنانير إلى خمسة .

الثامن — فيه الركابية ومقدّموهم، ولكل من مقدّميهم فى الشهر خمسون دينارا وللركابية من خمسة عشر دينارا إلىٰ عشرة إلىٰ خمسة .

وأمّا الطعمة فعلى ضربين .

الضرب الأوّل

(الأسمطة التى تمدّ فى شهر رمضان والعيدين)

أمّا شهر رمضان فإن الخليفة كان يرتِّب بقاعة الذهب بالقصر سِمَاطا فى كل ليلة من آستقبال الرابع منه، وإلىٰ آخر السادس والعشرين منه، ويستدْعِى الأمراء لحضوره فى كل ليلة بالنَّوْبة، يحضُر منهم فى كل ليلة قومٌ كىْ لا يحرِمَهم الإفطارَ فى بيوتهم طول الشهر، ولا يكلَّف قاضى القضاة الحضورَ سوىٰ ليالى الجُمَع توقيرا له، ولا يحضُر الخليفةُ هذا السِّماط، ويحضر الوزيرُ فيجلس علىٰ رأس السماط . فإن غاب قام ولده أو أخوه مَقَامه . فإن لم يحضر أحدٌ منهم، كان صاحبُ الباب عِوَضَه . وكان هذا السِّماط من أعظم الأسمطة وأحسنها، يُمَدّ من صدر القاعة إلىٰ مقدار ثلثيها بأصناف المأكولات والأطعمة الفاخرة؛ ويخرجون من هنالك بعد العشاء الآخرة بساعة أو ساعتين، ويفرّق فضلُ السماط كلَّ ليلة، ويتهاداه أرباب الرسوم حتّى يصل إلىٰ أكثر الناس . وإذا حضر الوزير بعث الخليفة إليه من طعامه الذى يأكل منه تشريفا له، وربما خصه بشىء من سَحُوره .

وأمّا سِمَاط العيدين فإنه يمدّ فى عيد الفطر وعيد الأضحىٰ تحت سرير الملك بقاعة الذهب المذكورة أمام المجلس الذى يجلس فيه الخليفة الجلوسَ العامَّ أيام المواكب، وتنصب علىٰ الكرسىّ مائدةٌ من فضة تعرف بالمدوّرة، وعليها من الأوانى الذهبيات والصينىّ الحاوية للأطعمة الفاخرة ما لا يليق إلا بالملوك؛ وينصب السِّماط العامّ تحت السرير من خشب مدهون فى طول القاعة فى عرض عشرة أذرع، وتفرش

فوقه الأزهارُ المشمومة ، ويُرَصُّ الخبز علىٰ جوانبه كل شابورة ثلاثة أرطال من نَقِيِّ الدقيق؛ ويعمر داخل السماط علىٰ طوله بأحد وعشرين طبقا عظاما ، فى كل طبق أحد وعشرون خروفا من الشِّوِيِّ، وفى كل واحد منهـا ثلثمائة وخمسون طيرا من الدَّجاج والفراريج وأفراخ الحمام ، ويعبّى مستطيلا فى العلو حتّٰى يكون كقامة الرجل الطويل، ويسوّر بتشاريح الحلواء اليابسة علىٰ آختلاف ألوانها ، ويسـدّ خلل تلك الأطباق علىٰ السماط نحوٌ من خمسمائة صحن من الصحون الخَزَفيـة (١) المترعة بالألوان الفائقة،وفى كل منها سبع دجاجات من الحلواء المـائعة والأطعمة الفاخرة؛ ويعمل بدار الفطرة الآتى ذكرها قصران من حلوىٰ زنة كل منهما سـبعة عشر قنطارا فى أحسن شكل، عليها صُوَر الحيوان المختلفة، ويحملان إلىٰ القاعة فيوضعان فى طرفى السماط. ويأتى الخليفة راكبا فيترجَّلُ علىٰ السرير الذى قد نصبت عليه المائدة الفضة ويجلس علىٰ المـائدة وعلىٰ رأسه أربعـةٌ من كبار الأسـتاذين المحنكين، ثم يستدعى الوزيرَ وحده فيطلُع ويجلس علىٰ يمينه بالقرب من باب السرير، ويشير إلىٰ الأمراء المطوّقين فمن دونهم من الأمراء، فيجلسون علىٰ السِّماط علىٰ قدر مراتبهـم فيأكلون وقرّاءُ الحضرة فى خلال ذلك يقرءون القرءان ، ويبقى السماط ممدودا إلىٰ قريب من صلاة الظهر حتّٰى يستهلك جميعُ ما عليه أكلا وحملا، وتفرقةً علىٰ أرباب الرسوم .

الضرب الثـانى

(فيما كان يعمل بدار الفطرة فى عيد الفطر)

وكان لهم بها الآهتمام العظيم . وقد ذكر آبن عبد الظاهر أصنافها فقال : كانت ألف حملة دقيق ، وأربعمائة قنطار سُكَّرٍ، وستة قناطير فُسْـتُق ، وأربعمائة وثلاثين

---

(١) عبارة المقريزى " من الصحون الخزفية " التى فى كل منها سبع دجاجات وهى مترعة الخ .

إردب زبيب، وخمسة عشر قنطار عسـل نحل، وثلاثة قناطير خل وإردبين سمسم وإردبين أنيسون وخمسين رطلا ماء ورد، وخمس نوافج مسك، وكافور قديم عشرة مثاقيـل، وزعفران مطحون مائة وخمسون درهمـا، وزيت برسم الوقود ثلاثون قنطارا . فى أصـناف أخرىٰ يطول ذكرها . قال ابن الطوير : ويندب لهـا مائة صانع من الحلاويين، ومائة فرّاش برسم تفرقة الطوافير علىٰ أصحـاب الرسوم خارجا عمن هو مرتّب فيها؛ ويحضرها الخليفة والوزير معه فيجلس الخليفة علىٰ سريره فيها، ويجلس الوزير علىٰ كرسىّ له، فى النصف الأخير من رمضان، وقد صار مالهـا من المستعملات كالجبال الرواسى، فتفرق الحلوىٰ من رُبْع قنطار إلىٰ عشرة أرطال إلىٰ رطل واحد، والخشكنان من مائة حبة إلىٰ خمس وسبعين حبة، إلىٰ ثلاث وثلاثين، إلىٰ خمس وعشرين، إلىٰ عشرين؛ ويفرّق علىٰ السودان علىٰ يد مقدّمهم بالأفراد من تسعة أفراد إلىٰ سبعة، إلىٰ خمسة، إلىٰ ثلاثة كل طائفة علىٰ مقدارها (١) بسماط يوم الفطر ما يمدّ فى الإيوان الكبير قبل مدّ سمـاط الطعام بقاعة الذهب .

وقد وقع فى كلام ابن الطوير خُلْفٌ فى وقته، فذكر فى موضع من كتابه أن ذلك يكون قبل ركوب الخليفة لصـلاة العيد، وذكر فى موضع آخر أن ذلك يكون بعد حضوره من الصلاة .

الطـــــرف الثـامن (٢)

(فى جلوس الوزير للمظالم إذا كان صاحب سيف، وترتيب جلوسه)

يجلس الوزير فى صَدْر المكان، وقاضى القضاة مقابِلَه، وعن جانبيه شاهدان من المعتبرين، وكاتب الوزير بالقلم الدقيق، ويليه صاحب ديوان المـال، وبين يديه

---

(١) بياض بالأصل . ولعله وقد كان سماط يوم الفطر يمد الخ .
(٢) لم يتقدم فى هذا الفصل تقسم بالأطراف .

صاحب الباب وآسفهسلار، وبين أيديهما النوّاب والحُجّاب على طبقاتهم . وذلك يومان فى الأسبوع .

وقد رثاهم عمارة اليمنىّ بعد آنقراضهم وآستيلاء السلطان صلاح الدين بن أيوب على المملكة بقصيدة وصف فيها مملكتهم، وعدّ مواكبهم، وحكى مكارمهم، وجلّى محاسنهم، وهى :

رَمَيْتَ يادَهْرُ كَفَّ المَجْدِ بالشَّلَلِ * وجِيدَهُ بعد حُسْنِ الحَلْىِ بالعَطَلِ
سَعَيْتَ فى مَنْهَجِ الرَّأْىِ العَثُورِ فإن * قَدَرْتَ من عَثَرَاتِ الدَّهْرِ فاسْتَقِلِ
جَدَعْتَ مَارِنَكَ الأَقْنَى فَأَنْفُكَ لا * يَنْفَكُّ ما بين أَمْرِ الشَّيْنِ(١) والخَجَلِ
هَدَمْتَ قَاعِدَةَ المَعْرُوفِ عَن عَجَلِ * شَقِيتَ، مَهْلًا أَمَا تَمْشِى عَلَى مَهَلِ
لَهْفِى ولَهْفَ بنى الآمَالِ قَاطِبَةً * علَى فَجِيعَتِهَا فى أكرمِ الدُّوَلِ
قَدِمْتُ مصرَ فأَوْلَتْنِى خَلَائِفُهَا * من المَكَارِمِ ما أَرْبَى عَلَى أَمَلِى
قَوْمٌ عرفتُ لهم كَسْبَ الأُلُوفِ، ومِنْ * كَمَالِهَا أنها جَاءَتْ ولم أَسَلِ
وكُنتُ من وُزَرَاءِ الدَّسْتِ حَيْثُ سَمَا * رَأْسُ الحِصَانِ بِهَادِيهِ عَلَى الكَفَلِ
ونِلْتُ من عُظَمَاءِ الجَيْشِ تَكْرِمَةً * وخُلَّةً حُرِسَتْ من عَارِضِ الخَلَلِ
ياعاذلى فى هوى أَبْنَاءِ فَاطِمَةٍ * لَكَ المَلَامَةُ إن قَصَّرْتَ فى عَذَلِى
بالله! زُرْ سَاحَةَ القَصْرَيْنِ وآبْكِ مَعِى * عَلَيْهِمَا لا عَلَى صِفِّينَ والجَمَلِ!
وقُلْ لأَهْلِيهِمَا : واللهِ مَا آلْتَحَمَتْ * فيكم جُرُوحِى ولا قَرْحِى بمُنْدَمِلِ!
ماذَا تَرَى كَانَتِ الإفْرِنْجُ فَاعِلَةً * فى نَسْلِ آلِ أَمِيرِ المُؤْمنينَ عَلِى
[هَلْ كَانَ فى الأَمْرِ شَىْءٌ غَيْرُ قِسْمَةِ ما * مَلَكْتُمُو بَيْنَ حُكْمِ السَّبْىِ والنَّفَلِ؟](٢)

(١) فى الخطط للقريزىّ "قرع السن". (٢) الزيادة عن المقريزىّ .

وقد حصلتم عليها، واسم جدكم * محمد وأبوكم خير منتعل

مررت بالقصر والأركان خالية * من الوفود، وكانت قبلة القبل

فملت عنها بوجه خوف منتقد * من الأعادى، ووجه الود لم يمل

أسبلت من أسفى دمعى غداة خلت * رحابكم وغدت مهجورة السبل

أبكى على مأثرات من مكارمكم * حال الزمان عليها وهى لم تحل

(دار الضيافة) كانت أنس وافدكم * واليوم أوحش من رسم ومن طلل

و(فطرة الصوم) إذ أضحت مكارمكم، * تشكو من الدهر حيفا غير محتمل

و(كسوة الناس) فى الفصلين قد درست * ورث منها جديد عندهم وبلى

وموسم كان فى (يوم الخليج) لكم * يأتى تجملكم فيه على الجمل

و(أول العام) و(العيدين) كم لكم * فيهن من وبل جود ليس بالوشل

والأرض تهتز فى (يوم الغدير) كما * يهتز ما بين قصريكم من الأسل

والخيل تعرض فى وشى وفى شية * مثل العرائس فى حلى وفى حلل

وما حملتم قرى الأضياف من سعة الـ * أطباق إلا على الأكتاف والعجل

وما خصصتم ببر أهل ملتكم * حتى عممتم به الأقصى من الملل

كانت رواتبكم للوافدين وللضـ * ـيف المقيم وللطارى من الرسل

ثم (الطراز) بتنيس الذى عظمت * منه الصلات لأهل الأرض والدول

وللجوامع من أخماسكم[1] نعم * لمن تصدر فى علم وفى عمل

وربما عادت الدنيا فمعقلها * منكم وأضحت بكم محلولة العقل

(١) فى المقريزى "من احسانكم" وهى أوضح.

والله ! لافازَ يومَ الحَشْرِ مُبْغِضُكُمْ * ولا نجَا من عذاب النَّارِ غيرُ ولِي

ولا سُقِي المـاءَ من حَرٍّ ومن ظَمَإٍ * من كَفِّ خير البَرَايَا خاتَمِ الرُّسُـلِ

[ولَا رأى جَنَّـةَ الله التي خُلِقَتْ * مَنْ خانَ عَهْدَ الإمَامِ العَاضِدِ بنِ عَلِي] (١)

أَئمَّـتِي وهُدَاتِي والذخِـيرةُ لِي * إذا ٱرْتَهَنْتُ بمـا قَدَّمتُ من عَمَلِ

والله لم نُوفِهِمْ في المَـدْحِ حَقَّهُمُ! * لأنَّ فَضْلَهُمُ كالوَابِلِ الهَطِـلِ

ولو تَضَاعَفَتِ الأقوالُ وٱستَبَقَتْ * ما كُنْتُ فيهم بحمـد الله بالخَجِـلِ

بابُ النَّجَاةِ، هُـمُ دُنْيـا وآخِرَةً * وحُبُّهُمْ فَهْوَ أصْلُ الدِّينِ والعَمَلِ

نُورُ الدُّجىٰ ومصَابِيحُ الهُـدىٰ وهُمُ * مِن نُورِ خالِصِ نُورِ الله لم يَغِلِ

والله لا زُلْتُ عن حُبِّي لهم أبدًا * ما أَخَّرَ اللهُ لِي في مُدَّةِ الأَجَـلِ!

قلت : وعمارة هذا لم يكن علىٰ مُعْتَقَدِ الشِّيعَةِ بل فقيها شافعيًّا، قَدِمَ مِصْرَ برسالة عن القاسم بن هاشم بن أبي فليتة أمير مكة إلىٰ الفائز أحد خلفائهم في سنة خمسين وخمسمائة في وزارة الصالح طلائع بن رزيك ، فأحسـنوا له وبالغوا في برّه ، فأقام عنـدهم وتألف بهم، وأتىٰ فيهم من المدح بما بَهَرَ العقول ، ولم يزل مواليـا لهم حتّى زالت دولتهم وٱستولىٰ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فرثاهم بهـذه القصيدة، فكانت آخر أسباب حتفه، فصلب فيمن صُلِبَ بين القصرين من أتباع الدولة الفاطمية .

﴿ تم الجـــزء الثـالث ﴾

ويليه الجزء الرابع ، وأوله " الحـالة الثالثـة من أحوال المملكة ، ماعليه ترتيب المملكة من ٱبتداء الدولة الأيوبية وإلىٰ زماننا "

(١) الزيادة عن المقريزيّ في الخطط .

(م ٥ م/٦٦٤١/١٩١٣/٣٠٠٠)

فهـــــرست

الجزء الثالث

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

الفصل الثانى — من الباب الثانى من المقالة الأولى فى الكلام على نفس الخط، وفيه سبعة [ثمانية] أطراف ٥

الطرف الأول — فى فضيلة الخط ٥

الطرف الثانى — فى بيان حقيقة الخط ٧

الطرف الثالث — فى وضع الخط، وفيه جملتان ٩

الجملة الأولى — فى بيان المقصود من وضعه، والموازنة بينه و بين اللفظ ٩

الجملة الثانية — فى أصل وضعه، وفيه مسلكان ١٠

المسلك الأول — فى وضع مطلق الحروف ١٠

المسلك الثانى — فى وضع حروف العربية ١١

الطرف الرابع — فى عدد الحروف وجهة ابتدائها وكيفية ترتيبها، وفيه أربع [خمس] جمل ١٩

الجملة الأولى — فى مطلق الحروف فى جميع اللغات ١٩

الجملة الثانية — فى حروف العربية ١٩

الجملة الثالثة — فى بيان جهة ابتداآت الحروف... ... ... ٢١

الجملة الرابعة — فى كيفية ترتيب الحروف ٢٢

الجملة الخامسة — فى كيفية صور الحروف العربية، وتداخل أشكالها ... ٢٣

الطرف الخامس — فى تحسين الخط، وفيه جملتان ٢٤

الجملة الأولى — فى الحث على تحسين الخط ٢٤

الجملة الثانية — فى الطريق إلى تحسين الخط... ... ... ٢٦

الطرف السادس — فى قواعد تتعلق بالكتابة لا يستغنى الكاتب المُجيد عن معرفتها، وفيه جملتان ٢٧

صفحة

الجمـــلة الأولى — فى هندسة الحروف، ومعرفة آعتبار صحتها ٢٧
الجمـــلة الثانية — فى معرفة ما يقع به ابتداء الحروف وآنتهاؤها من نقطة أوشظية أوغير ذلك . أما الابتداء فعلى ثلاثة أضرب ٣٩
الضرب الأوّل — ما يبتدأ بنقطة ٣٩
الضرب الثانى — ما يبتدأ بشظية ٣٩
الضرب الثالث — ما يبتدأ بحلقة ٤٠
الضرب الأوّل — [من ضروب الاختتام] مايختم بقطة القلم... ... ... ٤٠
الضرب الثانى — مايختم بشظية ٤٠
الضرب الثالث — مايرسل فى ختمه إرسالا... ... ... ٤٠
الطـــرف السابع — فى مقدّمات تتعلق بأوضاع الخط وقوانين الكتابة ؛ وفيه ثلاث جمل ٤١
الجمـــلة الأولى — فى كيفية إمساك القلم عند الكتابة، ووضعه على الورق ٤١
الجمـــلة الثانية — فى كيفيـــة الأستمداد ووضع القلم على الدرج ٤٢
الجمـــلة الثالثة — فى وضع القلم على الأذن حال الكتابة عند التفكر ... ٤٣
الطـــرف الثامن — فى ذكر قوانين يعتمدها الكاتب فى الخط ؛ وفيه ست جمل ٤٤
الجمـــلة الأولى — فى كيفية حركة اليد بالقلم فى الكتابة ٤٤
الجمـــلة الثانية — فى تناسب الحروف ومقاديرها فى كل قلم... ... ... ٤٥
الجمـــلة الثالثة — فيما يجب آعتماده لكل ناحية من نواحى القلم ٤٩
الجمـــلة الرابعة — فى الترويس ٥٠
الجمـــلة الخامسة — فيما يطمس من الحروف ويفتح... ... ... ٥٠
الجمـــلة السادسة — فى ذكر الأقلام المســـتعملة فى ديوان الإنشاء فى زمان المؤلف ٥١

صفحة

القلم الأول — قلم الطومار ٥٣

القلم الثانى — قلم مختصر الطومار ٥٩

القلم الثالث — قلم الثلث، وهو على نوعين ٦٢

النوع الأول — الثلث الثقيل، وصوره مفردة ومركبة ٦٢

الألف على ضربين : مفردة ومركبة

الضرب الأول — المفردة ٦٢

الضرب الثانى — المركب مع غيره من الحروف ٦٤

الصورة الثانية — صورة الباء، وهى على ضربين ٦٤

الضرب الأول — المفردة... ... ... ٦٤

وأما المركبة فعلى نوعين : متوسطة ومتطرفة ٦٥

الصورة الثالثة — صورة الجيم وما شاكلها... ... ... ٦٦

الصورة الرابعة — صورة الدال وأختها، وهى على ضربين ٧٠

الضرب الأول — المفردة... ... ... ٧٠

الضرب الثانى — المركبة ٧١

الصورة الخامسة — صورة الراء وأختها، وهى على ضربين ٧٢

الضرب الأول — المفردة... ... ... ٧٢

الضرب الثانى — المركبة ٧٤

الصورة السادسة — صورة السين ٧٥

الصورة السابعة — صورة الصاد ٧٦

الصورة الثامنة — صورة الطاء وأختها... ... ... ٧٧

الصورة التاسعة — صورة العين وأختها... ... ... ٧٩

صفحة

الصورة العاشرة — صورة الفاء... ... ... ٨٣

الصورة الحادية عشرة — صورة القاف ٨٣

الصورة الثانية عشرة — صورة الكاف ٨٤

الصورة الثالثة عشرة — صورة اللام؛ وهى علىٰ ضربين ٨٦

الضرب الأول — المفردة... ... ... ٨٦

الضرب الثانى — المركبة ٨٧

الصورة الرابعة عشرة — صورة الميم؛ وهى علىٰ خمسة أضرب ٨٨

الضرب الأول — المحققة... ... ... ٨٨

الضرب الثانى — المعلقة ٨٩

الضرب الثالث — المسبلة... ... ... ٩٠

الضرب الرابع — المبسوطة ٩٠

الضرب الخامس — المفتولة ٩١

الصورة الخامسة عشرة — صورة النون ٩١

الصورة السادسة عشرة — صورة الهاء؛ وهى علىٰ ضربين ٩٣

الضرب الأول — المفردة... ... ... ٩٣

الضرب الثانى — المركبة... ... ... ٩٤

الصورة السابعة عشرة — صورة الواو ٩٩

الصورة الثامنة عشرة — صورة اللام ألف ٩٩

الصورة التاسعة عشرة — صورة الياء؛ وهى علىٰ ضربين ١٠١

الضرب الاول — المفردة... ... ... ١٠١

الضرب الثانى — المركبة ١٠٢

صفحة

النــوع الثانى — قلم الثلث الخفيف ١٠٤

القــلم الرابع — قلم التوقيع ١٠٤

القــلم الخامس — قلم الرقاع ١١٩

القــلم السادس — قلم الغبار ١٣٢

الجملة السابعــة — فى كتابة البسملة، وفيها مهيعان ١٣٣

المهيــع الأول — فى ذكر قواعد جامعة للبسملة فى جميع الأقلام ... ١٣٣

المهيــع الثانى — فى بيان صورة البســملة فى كل قلم من الأقلام التى تستعمل فى ديوان الانشاء ١٣٥

الجملة الثامنــة — فى وجوه تجويد الكتابة وتحسينها، وهى على ضربين... ١٤٣

الضـرب الأول — حسن التشكيل... ... ... ١٤٣

الضـرب الثانى — حسن الوضع ١٤٤

الكلمة الأصـلية — آسما كانت أو حرفا أوفعلا، لاتخرج عن أربعة أصناف ١٤٥

الصـنف الأول — الثنائيــة ١٤٥

الصــنف الثانى — الثلاثية ١٤٦

الصــنف الثالث — الرباعية ١٤٦

الصــنف الرابع — الخماسية ١٤٧

مراعاة فواصل الكلام ١٤٩

حسن التدبير — فى قطع الكلام ووصله فى أواخر السطور وأوائلها ... ١٥١

الفصل المستقبح — فى آخر السطر وأول الذى يليه صنفان ١٥١

الصـنف الأول — فصل بعض حروف الكلمة الواحدة عن بعض وتفريقها فى السطر والذى يليه ١٥١

الصــنف الثانى — فصل الكلمة التامة وصلتها ١٥٢

صفحة

الفصل الثـالث — من الباب الثانى من المقالة الأولى فى لواحق الخط؛ وفيه مقصدان ١٥٣

المقصـــد الأوّل — فى النقط؛ وفيه أربع جمل ١٥٣

الجمـــلة الأولى — فى مسيس الحاجة إليه ١٥٣

الجمـــلة الثـانية — فى ذكر أوّل من وضع النقط... ... ... ١٥٥

الجمـــلة الثالثـة — فى بيان صورة النقط وكيفية وضعه ١٥٥

الجمـــلة الرابعة — فيما يختص بكل حرف من النقط وما لا نقط له ... ١٥٦

المقصـــد الثانى — فى الشكل؛ وفيه خمس جمل... ... ... ١٦٠

الجمـــلة الأولى — فى اشتقاقه ومعناه ١٦٠

الجمـــلة الثـانية — فى أوّل من وضع الشكل ١٦٠

الجمـــلة الثالثـة — فى الترغيب فى الشكل والترهيب عنه ١٦١

الجمـــلة الرابعة — فيما ينشأ عنه الشكل ويترتب عليـه ١٦٢

الجمـــلة الخامسة — فى صور الشكل ومحالّ وضعه علىٰ طريقة المتقدّمين والمتأخرين... ... ... ١٦٤

الأولىٰ — علامة السكون... ... ... ١٦٤

الثـانية — علامة الفتح ١٦٥

الثـالثة — علامة الضم ١٦٥

الرابعـة — علامة الكسر ١٦٦

الخامسة — علامة التشديد... ... ... ١٦٦

السادسة — علامة الهمزة ١٦٧

السابعـة — علامة الصلة فى ألفات الوصل ١٧٠

صفحة

الفصل الرابع — من الباب الثانى من المقالة الأولى فى الهجاء ؛
وفيه مقصدان ١٧٢

المقصد الأول — فى مصطلحه الخاص ؛ وهو على ضربين ١٧٢

الضرب الأول — المصطلح الرسمىّ ١٧٢

الضرب الثانى — المصطلح العروضىّ... ... ... ١٧٢

المقصد الثانى — فى المصطلح العام ؛ وفيه جملتان ١٧٣

الجملة الأولى — فى الإفراد والحذف والإثبات والإبدال ١٧٣

المكتوب على المصطلح المعروف على قسمين ١٧٤

القسم الأول — ماله صورة تخصه من الحروف ؛ وهو على ضربين ... ١٧٤

الضرب الأول — ماهو على أصله المعتبر فيه فى ذوات الحروف وعددها الخ ١٧٤

اللفظ الذى يكتب ، على نوعين... ... ... ١٧٧

النوع الأول — أن يكون آسما لحرف من حروف الهجاء ١٧٧

النوع الثانى — أن لا يكون آسما لحرف من حروف المعجم ١٧٩

الضرب الثانى — ما تغير عن أصله ؛ وهو على ثلاثة أنواع ١٧٩

النوع الأول — ما تغير بالزيادة ١٧٩

النوع الثانى — ما يغير بالنقص... ... ... ١٨٤

النوع الثالث — ما يغير بالبدل ٢٠٠

القسم الثانى — ما ليس له صورة تخصه ، وهو الهمزة ؛ ولها ثلاثة أحوال ٢٠٨

الحال الأول — أن تكون فى أوّل الكلمة... ... ... ٢٠٨

الحال الثانى — أن تكون متوسطة ؛ ولها حالتان ٢٠٩

الحال الثالث — أن تكون الهمزة آخرا ؛ ولها حالتان ٢١٢

الجملة الثانية — فى حالة التركيب والفصل والوصل ٢١٥

سفحة

الفصل الخامس — من الباب الثانى من المقالة الأولى فيما يكتب بالظاء
مع بيان مايقع الأشتباه فيه مما يكتب بالضاد ٢٢٢

المقالة الثانيــــة

فى المسالك والممالك؛ وفيها أربعة أبواب... ... ... ٢٢٧

الباب الأول — فى ذكر الأرض على سبيل الإجمال؛ وفيه ثلاثة فصول ٢٢٧

الفصل الأول — فى معرفة شكل الأرض وإحاطة البحر بها الخ؛
وفيه طرفان ٢٢٧

الطرف الأول — فى شكل الأرض وإحاطة البحر بها ٢٢٧

الطرف الثانى — فيما آشتملت عليه الأرض من الأقاليم الطبيعية... ... ٢٣٠

الفصل الثانى — فى البحار التى يتكرر ذكرها بذكر البُلْدان؛ وفيه طرفان ٢٣٣

الطرف الأول — فى البحر المحيط... ... ... ٢٣٣

الطرف الثانى — فى البحار المنبثة فى أقطار الأرض؛ وهى على ضربين ٢٣٤

الضرب الأول — الخارج من البحر المحيط وما يتصل به ٢٣٤

الضرب الثانى — من البحار المنبثة فى أقطار الأرض ما ليس له آتصال
بالبحر المحيط ٢٤٨

الفصل الثالث — فى كيفية آستخراج جهات البُلْدان والأبعاد الواقعة
بينها؛ وفيه طرفان ٢٥٠

الطرف الأول — فى كيفية آستخراج جهات البلدان ٢٥٠

الطرف الثانى — فى معرفة الأبعاد الواقعة بين البلدان ٢٥١

صفحة

الباب الثانى — فى ذكر الخلافة ومَنْ وليها من الخلفاء، ومقرّاتهم فى القديم والحديث الخ؛ وفيه فصلان ٢٥٤

الفصل الأوّل — فى ذكر الخلافة ومَنْ وليها من الخلفاء، وهم على أربع طبقات ٢٥٤

الطبقة الأولى — الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ٢٥٤

الطبقة الثانية — خلفاء بنى أمية ٢٥٦

الطبقة الثالثة — خلفاء بنى العباس بالعراق ٢٥٨

الطبقة الرابعة — خلفاء بنى العباس بالديار المصرية ٢٦٤

وأما مقرّات الخلفاء، فهى أربع مقرّات :

المقرّة الأولى — المدينة النبوية... ... ... ٢٦٧

المقرّة الثانية — الشام ٢٦٨

المقرّة الثالثة — العراق ٢٦٨

المقرّة الرابعة — الديار المصرية... ... ... ٢٦٨

الفصل الثانى — فيما ٱنطوت عليه الخلافة من الممالك فى القديم، وما كانت عليه من الترتيب، وما هى عليه الآن؛ ولها حالتان ... ٢٦٩

الحالة الأولى — ما كان عليه الحال فى الزمن القديم ٢٧٠

شعار الخلافة ٢٧٣

الوظائف المعتبرة عندهم على ضربين ٢٧٧

الضرب الأوّل — وظائف أرباب السيوف ٢٧٧

الضرب الثانى — وظائف أرباب الأقلام ٢٧٨

الحالة الثانية — ما صار إليه الأمر بعد ٱنتقال الخلافة إلى الديار المصرية ٢٧٨

صفحة

الباب الثـالث — فى ذكر مملكة الديار المصرية؛ وفيه ثلاثة فصول ... ٢٨٢

الفصـــل الأوّل — فى مملكة الديار المصرية ومضافاتها؛ وفيه طرفان ... ٢٨٢

الطـــرف الأوّل — فى الديار المصرية ؛ وفيه آثنا عشر مقصدا ٢٨٢

المقصـــد الأوّل — فى فضلها ومحاسنها ٢٨٢

المقصـــد الثانى — فى ذكر خواصها وعجائبها ، وما بها من الآثار القديمة ٢٨٦

المقصـــد الثالث — فى ذكر نيلها ومبدئه وآنتهائه وزيادته ونقصه الخ... ٢٨٩

المقصـــد الرابع — فى ذكر خلجانها؛ وهى ستة ٣٠١

الخليج الاوّل — المنهى... ... ... ٣٠١

الخليج الثانى — خليج القاهرة ٣٠٢

الخليج الثالث — خليج السردوس ٣٠٤

الخليج الرابع — الإسكندرية ٣٠٤

الخليج الخامس — خليج منجا ٣٠٥

الخليج السادس — خليج دمياط ٣٠٥

المقصـــد الخامس — فى ذكر بحيرات الديار المصرية ؛ وهى أربع بحيرات ٣٠٧

المقصـــد السادس — فى ذكر جبالهـا... ... ... ٣٠٩

المقصـــد السابع — فى ذكر زروعهـا ورياحينهـا وفواكهها وأصـناف المطعوم بها ٣١١

المقصـــد الثامن — فى ذكر مواشيها ووحوشها وطيورها ٣١٤

المقصـــد التاسع — فى ذكر حدودها ٣١٤

المقصـــد العاشر — فى آبتداء عمـارتها، وتسميتها مصر. وتفرّع الأقاليم التى حولهـا عنها ٣١٧

صفحة

المقصد الحادى عشر — فى ذكر قواعدها القديمة والمبانى العظيمة الباقية الخ ٣١٩
وقواعدها القديمة على ضربين :

الضرب الأوّل — ما قبل الطوفان ٣١٩

الضرب الثانى — قواعدها فيما بعد الطوفان ٣٢٠

المقصد الثانى عشر — فى ذكر قواعدها المستقرّة ؛ وهى ثلاث... ... ... ٣٢٩

القاعدة الاولى — مدينة الفسطاط ٣٢٩

(جوامعها) ٣٤٠

القاعدة الثانيــة — القاهرة ٣٤٨

(جوامعها) ٣٦٤

القاعدة الثالثــة — القلعة ٣٧٢

الفصـــل الثانى — فى ذكر كور الديار المصرية ؛ وهى على ضربين ... ٣٧٩

الضرب الأوّل — فى ذكر كُوَرها القديمة ؛ وهى ثلاثة أحياز ٣٧٩

الحـــيز الاول — أعلى الأرض ؛ وهو الصعيد ٣٨٠

الحـــيز الثانى — أسفل الأرض ؛ وهو أربع نواح ٣٨٥

الناحية الأولى — كور الحوف الشرقى ؛ وبها ثمــان كور.. ... ... ٣٨٥

الناحية الثانية — بطن الريف ؛ وفيها سبع كور ٣٨٦

الناحية الثالثة — الجزيرة بين فرقى النيل الشرقيــة والغربيــة ؛
وفيها خمس كور ٣٨٨

الناحية الرابعة — الحوف الغربى ؛ وفيها إحدى عشرة كورة ٣٨٩

الحـــيز الثالث — كور القبلة ؛ وفيها خمس كور ٣٩١

الحـــيز الاول — [مما لم يذكره القضاعى] بلاد الواح ٣٩٣

صفحة

الحـــيزالثانى ــ برقة ٣٩٥

الضـــرب الثانى ــ من كور الديار المصرية نواحيها وأعمالهـا المستقرّة ولهـا وجهان ٣٩٦

الوجـــه الأوّل ــ القبلى ٣٩٦

الوجـــه الثانى ــ البحرىّ ؛ ويشتمل على ثلاث شعب ٤٠٢

الشعبة الأولى ــ شرقىّ الفرقة الشرقية من النيل ؛ وفيها أربعة أعمال ٤٠٢

الشعبة الثانية ــ غربىّ فرقة النيل الغربية ؛ وفيها عملان ٤٠٦

الشعبة الثالثة ــ مابين فرقتى النيل الشرقية والغربية ؛ وهو جزيرتان... ٤٠٩

الفصل الثالث ــ فيمن ملك الديار المصرية جاهلية وإسلاما ؛ وهم على ثلاث مراتب ٤١١

المرتبة الأولى ــ مَنْ ملكها قبل الطوفان... ... ... ٤١١

المرتبة الثانية ــ مَنْ ملكها بعد الطوفان إلى حين الفتح الإسلامى ؛ وهم على طبقات ٤١٢

الطبقة الأولى ــ ملوكها من القبط ٤١٢

الطبقة الثانية ــ ملوكها من العماليق ملوك الشام ٤١٥

الطبقة الثالثة ــ ملوكها من القبط بعد العمالقة ٤١٦

الطبقة الرابعة ــ ملوكها من الفرس ٤١٧

الطبقة الخامسة ــ ملوكها من اليونان ٤١٨

الطبقة السادسة ــ ملوكها من الروم ٤١٩

المرتبة الثالثة ــ مَنْ وليها فى الإسلام من بداية الأمر إلى زمن المؤلف ؛ وهم على ضربين ٤٢٣

صفحة

الضـــرب الأول — فيمن وليها نيابة،وهو الصدر الأول؛ وهم علىٰ ثلاث طبقات ٤٢٣

الطبقـــة الأولىٰ — عمال الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ٤٢٣

الطبقـــة الثانية — عمال خلفاء بنى أمية بالشام ٤٢٤

الطبقـــة الثالثة — عمال خلفاء بنى العباس بالعراق ٤٢٥

الضـــرب الثانى — مَنْ وليها مُلْكا ؛ وهم علىٰ أربع طبقات ٤٢٨

الطبقـــةالأولىٰ — من وليها عن بنى العباس قبل دولة الفاطميين... ... ٤٢٨

الطبقـــة الثانية — من وليها من الخلفاء الفاطميين ٤٣٠

الطبقـــة الثالثة — ملوك بنى أيوب ٤٣٢

الطبقـــة الرابعة — ملوك الترك ٤٣٤

الفصـــل الرابع — فى ذكر ترتيب أحوال الديار المصرية ؛ وفيــه ثلاثة أطراف ٤٤٠

الطـــرف الأول — فى ذكر معاملاتها؛ وفيــه ثلاثة أركان ٤٤٠

الركن الأول — الأثمـان ؛ وهى علىٰ ثلاثة أنواع ٤٤٠

النـوع الأول — الدنانير المسكوكة؛ وهى ضربان... ... ... ٤٤٠

الضرب الأول — ما يتعامل به وزنا ٤٤٠

الضرب الثانى — ما يتعامل به معادّة ٤٤١

النـوع الثانى — الدراهم النُّقْرة ٤٤٣

النـوع الثالث — الفلوس ٤٤٣

الركن الثانى — فى المثمنات؛ وهى علىٰ ثلاثة أنواع ٤٤٥

النوع الأول — الموزونات ٤٤٥

صفحة

النوع الثانى — المكيلات ٤٤٥

النوع الثالث — المقيسات؛ وهى الأراضى والأقمشة ٤٤٦

أما الأراضى فصنفان :

الصـــنف الأول — أرض الزراعة ٤٤٦

الصـــنف الثانى — أرض البنيان ٤٤٦

الركن الثالث — فى الأسعار ٤٤٧

الطـرف الثـانى — فى ذكر جسورها وأصناف أرضها؛ وما يختص بكل صنف الخ... ... ... ٤٤٨

أما جسورها فعلى صنفين :

الصـــنف الأول — الجسور السلطانية ٤٤٨

الصـــنف الثانى — الجسور البلديه ٤٤٩

الطـــرف الثالث — فى وجوه أموالها الديوانية؛ وهى علىٰ ضربين... ... ٤٥٢

الضـــرب الأول — الشرعى؛ وهو علىٰ سبعة أنواع ٤٥٢

النـــوع الأول — المال الخراجى ٤٥٢

والجارى فى الدواوين منه علىٰ ضربين :

الضـــرب الأول — ماهو داخل فى الدواوين السلطانية؛ وهو الآن (زمن المؤلف) علىٰ أربعة أصناف... ... ... ٤٥٥

الصـــنف الأول — ماهو جار فى ديوان الوزارة ٤٥٥

الصـــنف الثانى — ماهو جار فى ديوان الخاص... ... ... ٤٥٦

الصـــنف الثالث — ماهو جار فى الديوان المفرد... ... ... ٤٥٧

الصـــنف الرابع — ماهو جار فى ديوان الأملاك... ... ... ٤٥٧

صفحة

الضـــرب الثانى — ماهو جار فى الإقطاعات... ... ... ٤٥٧

النـــوع الثانى — مايتحصل ممـا يستخرج من المعادن ٤٥٩

النـــوع الثالث — الزكاة ٤٦١

النـــوع الرابع — الجوالى ٤٦٢

النـــوع الخامس — ما يؤخذ من تجار الكفار الواصلين فى البحر إلىٰ الديار المصرية ٤٦٣

النـــوع السادس — المواريث الحشرية ٤٦٤

النـــوع السابع — ما يتحصل من دار الضرب بالقاهرة ؛ والذى يضرب فيها ثلاثة أصناف ٤٦٥

الصـــنف الأول — الذهب ٤٦٥

الصـــنف الثانى — الفضـــة النقرة... ... ... ٤٦٦

الصـــنف الثالث — الفلوس المتخذة من النحاس الأحمر ٤٦٧

الضـــرب الثانى — من الأموال الديوانيـة بالديار المصرية غير الشرعى ، وهو المكوس ؛ وهى علىٰ نوعين ٤٦٨

النـــوع الأول — ما يختص بالديوان السلطانى ؛ وهو صـنفان ٤٦٨

الصـــنف الأول — ما يؤخذ على الواصـل المجلوب وأكثره متحصـلا جهتان ٤٦٨

الجهة الأولىٰ — مايؤخذ على واصل التجار الكارمية من البضائع فى بحر القلزم من جهة الحجاز واليمن وما والاهما ٤٦٨

الجهة الثانية — مايؤخذ علىٰ واصل التجار بقطيا فى طريق الشام ... ٤٧٠

الصـــنف الثانى — ما يؤخذ بحاضرة الديار المصرية بالفسطاط والقاهرة ٤٧٠

صفحة

النـــوع الثانى — ما لا آختصاص له بالديوان السلطانى ٤٧١

فى ترتيب المملكة، ولهـا ثلاث حالات ٤٧١

الحالة الأولىٰ — ما كانت عليه من حين الفتح إلىٰ آخر الدولة الأخشيدية ٤٧١

الحالة الثانيــة — ما كانت عليــه فى زمن الخلفاء الفاطميين ، وتنحصر

فى ثلاث جمل ٤٧٢

الجملة الأولىٰ — فى الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العظام... ... ٤٧٢

الجملة الثانية — فى حواصل الخليفة ، وهى علىٰ خمسة أنواع ٤٧٥

النوع الأوّل — الخزائن — ٤٧٥

النوع الثانى — حواصل المواشى ٤٧٨

النوع الثالث — حواصل الغلال وشون الأتبان ٤٧٩

النوع الرابع — حواصل البضاعة ٤٧٩

النوع الخامس — ما فى معنىٰ الحواصل ٤٨٠

الجملة الثالثــة — فى ذكر جيوش الدولة الفاطمية وبيان مراتب أرباب

السيوف، وهم علىٰ ثلاثة أصناف... ... ... ٤٨٠

الصنف الأوّل — الأمراء ٤٨٠

الصنف الثانى — خواص الخليفة، وهم علىٰ ثلاثة أنواع ٤٨١

النوع الأوّل — الأستاذون ٤٨١

النوع الثانى — صبيان الخاص ٤٨١

النوع الثالث — صبيان الحجر ٤٨١

الصنف الثالث — طوائف الأجنـاد ٤٨٢

الجملة الرابعة — فى ذكر أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ، وهم علىٰ قسمين ٤٨٢

صفحة
القســـم الأول — مابحضرة الخليفة، وهم أربعة أصناف ٤٨٢
الصـنف الأول — أرباب الوظائف من أرباب السيوف ؛ وهم نوعان ٤٨٢
النوع الأول — وظائف عامة الجند ٤٨٢
النوع الثانى — وظائف خواص الخليفة من الأستاذين؛ وهى
علىٰ ضربين ٤٨٤
الضرب الأول — مايختص بالأستاذين المحنكين ٤٨٤
الضرب الثانى — ما يكون من غير المحنكين... ... ... ٤٨٥
الصــــنف الثانى — من أرباب الوظائف بحضرة الخليفة أرباب الأقلام؛
وهم علىٰ ثلاثة أنواع ٤٨٦
النوع الأول — أرباب الوظائف الدينية ٤٨٦
النوع الثالث — من أرباب الأقلام أصحاب الوظائف الدينية؛ وهى
علىٰ ثلاثة [أربعة] أضرب ٤٨٩
الضرب الأول — الوزارة اذا كان الوزير صاحب قلم... ... ... ٤٨٩
الضرب الثانى — ديوان الإنشاء ٤٩٠
الضرب الثالث — ديوان الجيش ٤٩٢
الضرب الرابع — نظر الدواوين ٤٩٣
الصـنف الثالث — من أرباب الوظائف أصحاب الوظائف الصناعية ٤٩٦
الصــــنف الرابع — الشـــعراء ٤٩٧
القســـم الثانى — من أرباب الوظائف بالدولة الفاطمية ما هو خارج
عن حضرة الخلافة. وهو صنفان... ... ... ٤٩٧
الصـــنف الأول — النواب والولاة ٤٩٧

صفحة

الجملة الخامســـة — من ترتيب مملكتهم فى هيئة الخليفة فى مواكبه وقصوره؛
وهى على ثلاثة أضرب ٤٩٨

الضـــرب الأوّل — جلوسه فى المواكب؛ وله ثلاثة جلوسات ٤٩٨

الجلوس الأوّل — جلوسه فى المجلس العام أيام المواكب ٤٩٨

الجلوس الثانى — جلوســه للقاضى والشهود فى ليـالى الوقود الأربع
من كل سنة ٥٠١

الجلوس الثالث — جلوسه فى مولد النبي صلى الله عليه وسلم ٥٠٢

الضـــرب الثانى — ركوبه فى المواكب؛ وهو على نوعين... ... ... ٥٠٣

النوع الأوّل — ركوبه فى المواكب العظام، وهى ستة مواكب .:. ٥٠٣

الموكب الأوّل — ركوب أوّل العام... ... ... ٥٠٣

الموكب الثـانى — ركوب أوّل شهر رمضان ٥٠٩

الموكب الثـالث — ركوبه فى أيام الجمع الثلاث من شهر رمضان ٥٠٩

الموكب الرابـــع — ركوبه لصلاة عيدى الفطر والأضحى ٥١٢

الموكب الخـامس — ركوبه لتخليق المقياس عند وفاء النيل ٥١٦

الموكب السادس — ركوبه لفتح الخليج ٥١٨

النوع الثـانى — من مواكبهم المواكب المختصرة فى أثناء السنة ... ٥٢١

الضـــرب الثالث — من هيئة الخليفة هيئته فى قصوره ٥٢٢

الجملة السادســـة — فى اهتمامهم بالأساطيل، وحفظ الثغور، واعتنائهم بأمر
الجهاد، وسيرهم فى رعاياهم، واستمالة قلوب مخالفيهم ٥٢٣

الجملة السابعـــة — فى إجراء الأرزاق والعطاء لأرباب الخدم بدولتهـم
وما يتصل بذلك من الطعمة ٥٢٥

صفحة

وأما الطعمة — فعلى ضربين ٥٢٧

الضرب الأول — الأسمطة التى تمدّ فى شهر رمضان والعيدين ٥٢٧

الضرب الثانى — فيما كان يعمل بدار الفطرة فى عيد الفطر ٥٢٨

فى جلوس الوزير للمظالم الخ ٥٢٩

(تم فهرست الجزء الثالث من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الرابع

وأوّله "الحالة الثالثة من أحوال المملكة

ما عليه ترتيب المملكة: من ٱبتداء الدولة الأيوبية وإلى زماننا"

صبح الأعشى

الجزء الرابع

دار الكتب الخديوية

كتاب
صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجزء الرابع

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٢ هـ
١٩١٤ م

بسم الله الرحمن الرحيم

صلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

الحالة الثالثة

من أحوال المملكة ، ما عليه ترتيب المملكة

(من ٱبتداء الدولة الأيوبية وإلىٰ زماننا)

وٱعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت علىٰ الدولة الفاطمية وخَلَفتها فى الديار المصرية ، خالفتها فى كثير من ترتيب المملكة ، وغيَّرتْ غالب مَعَالمها ، وجرت علىٰ ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكى بالموصل ، ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام وما معه ؛ وكان من شأنهم أنهم يلبسون الكلوتات الصُّفْر علىٰ رءُوسهم مكشوفةً بغير عمائم ، وذوائبُ شعورهم مُرْخاةٌ تحتها سواء فى ذلك المماليك والأمراء وغيرهم . حتّٰى يحكىٰ عن الملك المعظم عيسىٰ بن العادل أبى بكر صاحب دِمَشْقَ فى ٱطِّراح التكلف : أنه كان يلبس الكلوتة الصفراء بلا شاش ، ويخترق الأسواقَ من غير أن يُطَرَّقَ بين يديه كغيره من الملوك ، وكان سيف الدين غازى بن عماد الدين زنكى حين ملك المَوْصل بعد أبيه أحدث حمل السَّنْجَق علىٰ رأسه ، فتبعه الملوك علىٰ ذلك ؛ وألزم الأجناد أن يشدّوا السيوف فى أوساطهم ، ويجعلوا الدَّبابيس تحت رُكَبِهم عند الركوب كما حكاه السلطان عماد الدين صاحب حَمَاة فى تاريخه .

فلمـا ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمـه الله الديار المصرية، جرىٰ علىٰ هـذا المنهج أو ماقاربَهُ، وجاءت الدولة التركيـة ، وقد تنقحت المملكة وتَرَتَّبَتْ ، فأخذت فى الزيادة فى تحسين الترتيب وتنضـيد الملك وقيام أُبَّهَتِهِ، ونقلت عن كل مملكة أحْسَنَ ما فيهـا، فسلكت سبيلَه ونَسَجَتْ علىٰ منواله حتّىٰ تهذَّبَتْ وترتبت أحسنَ ترتيب، وفاقت سائرَ الممالك، وفَخَر مَلِكُها علىٰ سائر المُلوك .

ولم يزل السلطان والجُنْد يلبسون الكلوتة الصفراءَ بغير عمامة إلىٰ أن وَلِيَ السلطانُ "الملك الأشرف خليل" بن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون السلطنةَ، فأحدث الشاشَ عليها فجاءت فى نهاية من الحسن، وصاروا يلبسونها فوق الذَّوائب الشـعر المُرْخاةِ علىٰ ما كان عليه الأمر أوّلا إلىٰ أن حَجَّ السلطانُ الملك النـاصر محمد آبن قلاوون فى سلطنته الثالثة، فحلق رأسـه وحلق الناسُ رءُوسَهم، وآسـتداموا حلق رءُوسهم وتركت ذوائب الشعر إلىٰ الآن .

ويتعلق القول من ذلك بعشرة مقاصد .

المقصـــــد الأوّل

(فى ذكر رسوم الملك وآلاته؛ وهو أنواع كثيرة، بعضها عامّ فى الملوك أو أكثرهم، وبعضها خاصٌّ بهذه المملكة)

منها ـ (سرير الملك) ويقال له تخت الملك . وهو من الأمور العـامة للملوك، وقد تقدّم أن أوّل من آتخذ مرتبة للجلوس عليها فى الإسـلام معاويةُ رضى الله عنه حين بَدَّنَ، ثم تنافس الخلفاء والملوك بعده فى الإسلام فى ذلك حتّىٰ آتخذوا الأَسِرَّةَ، وكانت أسِرَّةُ خلفاء بنى العبّـاس ببغداد يبلغ علوّها نحوَ سـبعة أذرع . وهو فى هذه المملكة مِنْبر من رُخَام بصَـدْر إيوان السلطان الذى يجلس فيه، وهو علىٰ هيئة منابر

الجوامع إلا أنه مستند إلىٰ الحائط ، وهذا المِنْبَرُ يجلس عليه السلطان فى يوم مُهِمٍّ كقدوم رُسُل عليه ونحو ذلك، وفى سائر الأيام يجلس علىٰ كرسىّ من خشب مغشًّى بالحرير، إذا أرخىٰ رجليه كادتا أن تَلْحقا الأرض، وفى داخل قصوره يجلس علىٰ كرسِىّ صغير من حديد يحمل معه إلىٰ حيث يجلس .

ومنها – (المقصورة) للصلاة فى الجامع . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة أن أوّل مَنِ ٱتخذها فى الإسلام معاويةُ ، وقد صارت سُنَّةً لملوك الإسلام بعد ذلك تميزا للسلطان عن غيره من الرعية ، وهى فى هذه المملكة مقْصُورَةٌ بجامع قلعة الجبل علىٰ القرب من المِنْبَرِ متَّخذةٌ من شِبَاك حديد محكمةِ الصنعة، يصلِّى فيها السلطان ومَنْ معه من أخصاء خاصكيته يوم الجمعة .

ومنها – (نَقْشُ ٱسم السلطان) علىٰ ما يُنْسَجُ ويُرْقَمُ من الكُسْوة والطُّرُزِ المتخذة من الحرير أو الذهب بلون مخالف للون القماش أو الطرز لتصير الثياب والطُّرُز السلطانية مميَّزة عن غيرها، تنويها بقدر لابسها : من السلطان أو مَنْ يُشَرِّفُهُ بلبسها عند ولاية وظيفة أو إنعام أو غير ذلك . ولذلك دارٌ مفردة بعمله بالإِسْكَنْدَرِيَّةِ تعرفُ بدار الطِّراز، وعلىٰ ذلك كانت خلفاء الدولتين : بنى أُمَيَّةَ وبنى العبَّاس حين كانت الخلافة قائمة .

ومنها – (الغاشِيَة) . وهى غاشية سرج من أديم مخروزةٌ بالذهب، يَخَالها الناظر جميعَها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يديه عند الركوب فى المواكب الحَفلة كالميادين والأعياد ونحوها، يحملها الرِّكَاب دارِيَّة، رافعا لها علىٰ يديه يلفتها يمينا وشمالا، وهى من خواص هذه المملكة .

ومنها – (المِظَلَّة) . ويعبر عنها بالجِتْرِ (بجيم مكسورة، قد تبدل شينا معجمة، وتاء مثناة فوق)، وهى قُبَّةٌ من حرير أصفر مزركَش بالذهب، علىٰ أعلاها طائرٌ من فِضَّةٍ

مَطْلِيَّةٍ بالذهب، تحمل على رأسه فى العيدين . وهى من بقايا الدولة الفاطمية، وقد تقدّم الكلام عليها مبسوطا فى الكلام على ترتيب مملكتهم .

ومنها — (الرَّقَبة) . وهى رقبة من أطلس أصفر مزركشةٌ بالذهب بحيث لا يرى الأطلسُ لتراكم الذهب عليها، تجعل على رقبة الفرس فى العيدين والميادين من تحت أذنى الفرس إلى نهاية عُرْفِهِ، وهى من خواصّ هذه المملكة .

ومنها — (الجفتة) . وهما آثنان من أوشاقية إصطبله قريبان فى السنّ، عليهما قبَاءان أصـفران من حرير بطراز من زَرْكش، وعلى رأسيهما قُبَّعَتَان من زركش، وتحتهما فرسان أشهبان برقبتين وعُدّة، نظير ما السلطان راكب به كأنهما معدّان لأن يركبهما، يركبان أمامه فى أوقات مخصوصة كالركوب للعب الكُرة فى الميدان الكبير ونحو ذلك، وهما من خواصّ هذه المملكة .

ومنها — (الأعلام) . وهى عدّة رايات، منها راية عظيمة من حرير أصفر مطرّزة بالذهب، عليها ألقاب السلطان وآسمه، وتسمّى العِصَابة؛ وراية عظيمة فى رأسها خُصْلة من الشعر تسمّى الجاليش؛ ورايات صُفْر صغار تسمّى السَّناجق .

قال السلطان عماد الدين صاحب حَماةَ فى تاريخه : وأوّل من حُمِلَ السنجق على راســه من الملوك فى ركوبه غازى بن زنكى، وهو أخو السلطان نور الدين محمود آبن زنكى صاحب الشأم .

ومنها — (الطبلخاناه) . وهى طبول متعدّدة معها أبواق وزمر[1] تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، تدُقُّ فى كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب، وتكون صحبة الطلب فى الأسفار والحروب، وهى من الآلات العامّة لجميع الملوك . ويقال إن الإسْكَنْدَر

(١) لعله وزَمَّارات .

كان معـه أربعون حِمْلا طبلخاناه ، وقد كتب أرسطو فى "كتاب السياسة" الذى كتبه للإسْكَنْدَرِ أن السرّ فى ذلك إرهابُ العدوّ فى الحرب . والذى ذهب إليه بعض المحققين أن السرّ فى ذلك أن فى أصواتها تهييجا للنفس عنـد الحرب وتقويةَ الجأش كما تنفعل الإبل بالحُدَاء ونحو ذلك .

ومنها ــ (الكوسات) . وهى صُنُوجات من نُحاس شـبه التُّرس الصغير ، يُدَقُّ بأحدها علىٰ الآخر بإيقاع مخصوص ، ومع ذلك طبولٌ وشَـبَّابة ، يدق بها مرتين فى القلعة فى كل ليـلة ، ويُدَارُ بها فى جوانبها مرةً بعد العشاء الآخرة ، ومرةً قبـل التسبيح علىٰ المواذن[1] ، وتسمّى الدَّوْرة بذلك فى القلعة ، وكذلك إذا كان السلطان فى السفر تدور حول خيامه .

ومنها ــ (الخيام والفَسَاطيط) فى الأسفار . ولهذا السلطان من ذلك المَدَد الكبير ، تتخذ له الخيام العظيمةُ الشأْنِ المختلفةُ المقاديرِ والصنعة من القطن الشامىّ الملوّن بالأبيض والأحمر والأزرق وغيرها ، وكذلك من الجوخ المختلف الألوان ممـا يُدْهِشُ بحسنه العقولَ : لينوب مَنَاب قصورهم فى الإقامة ، وسيأتى ذكر أمور أخرىٰ من آلات الملك سوىٰ ماتقدّم منفردة فى أماكنها إن شاء الله تعالىٰ .

المقصـــد الثـانى

(فى حواصل السلطان ، وهى علىٰ أربعة أنواع[2])

النـــوع الأوّل

(الحواصـــل المعبَّر عنها بالبيوت)

وذلك أنهم يضيفون كل واحد منها إلىٰ لفظ خاناه كالطشت خاناه ، والشراب خاناه

---

(١) صوابه المآذن وكثيرا مايجارى لغة العامة .

(٢) يظهر أن هـذا التنويع من الناسخ فإنه فى الضوء لم يذكر التنويع وإنما قسم الحواصل الى البيوت الثمانية فقط ثم أتبعها بالمقصد الثالث .

ونحوهما، وخاناه لفظ فارسىّ معناه البيت، والمعنىٰ بيت كذا إلا أنهم يؤخرون المضاف عن المضاف إليه علىٰ عادة العجم فى ذلك، وهى ثمـانية بيوت .

الأوّل ــ (الشَّرَابخاناه) . ومعناها بيت الشراب، وتشتمل علىٰ أنواع الأشْرِبة المُرْصَدَةِ لخاصّ السلطان، والمشروبِ الخاص من السكر والأَقْسِما وغير ذلك، وفيها يكون السكر المخصوص بالمشروب، وبها الأوانى النفيسـةُ من الصِّينىّ الفـاخر من اللَّازَوَرْدِىّ وغيره مما تساوِى السُّكُرُّجة الواحدة اللطيفة منه ألفَ درهم فمـا حوله . ووظيفة الشادّ بها تكون لأمير من أكابر أمراء المِئين الخاصكية المؤتمنين، ولهـا مِهْتار يعرف بمهتار الشرابخاناه متسلمٌ لحواصلها، له مكانة علية، وتحت يده غِلْمَانٌ عنده برسم الخِدْمة، يُطْلَق علىٰ كل منهم شَراب دار، وسيأتى فى الكلام علىٰ الألقاب فى المقالة الثالثة معنىٰ الإضافة إلىٰ الدار فى ذلك ونحوه .

الثـانى ــ (الطِّشْتَخَانَاهْ) . ومعناه بيت الطشت، سميت بذلك لأنّ فيها يكون الطِّشْت الذى تغسل فيـه الأيدى والطِّشْت الذى يُغسَل فيـه القماش، وقد غلبَ عليهم ٱستعمال لفظ الطشت بشين معجمة مع كسر الطاء، وصوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء، وأصله طَسٌّ بسين مشدّدة فأبدلت من إحدىٰ السينين تاء للاّستثقال . فإذا جُمِـع أو صُغِّرَ، ردّت السين إلىٰ أصلها، فيقال فى الجمع طِسَاس وطُسُوس، وفى التصغير طُسَيس . قال الجوهرىّ : ويقال فيه أيضا طَسَّة، ويجمع علىٰ طَسَّات، والناس الآن يقولون طاسة ويجمعونه علىٰ طاسات، ويجعلون الطَّسْتَ ٱسمـا لنوع خاص، والطاسةَ ٱسمـا لنوع خاص .

وفى الطِّشْتَخاناه يكون ما يلبسه السلطان من الكلوتة والأقبية وسائر الثياب والسيف والخُفّ والسُّرموزة وغير ذلك .

وفيها يكون مايجلس عليه السلطان من المَقَاعد والمَخَادّ والسَّجَّادات التى يصلِّى عليها وما شاكل ذلك، ولها أيضا مِهْتارٌ من كبار المهتارية، يعرف بمهتار الطِّشْتَخاناه، وتحت يديه عدّة غِلْمَانٍ بعضهم يعرفون بالطشتدارية ، وبعضهم يعرف بالرختوانية . وله التحدّث فى تفرقة اللحم علىٰ المماليك السلطانية من الحوائج‌خاناه وإقامة قُبَّاض اللحم ، ويطلق علىٰ كلٍّ من غلمان الطشتخاناه وقباض اللحم بَابَا ، وهى لفظة رومية بمعنىٰ الأب، أطلقوها علىٰ مهتار الطِّشْتَخاناه تعظيما له، ثم غلبت علىٰ من عداه ، ولغلمانها دُرْبَةٌ بترتيب الأحمال التى تحمل علىٰ ظهور البغال للزينة فى المواكب العظيمة ونحوها، يأتُون فيها من بديع الصَّنْعة والتعاليق الغريبة بكل عجيب، وهم يتباهَوْن بذلك، ويسامِى بعضهم بعضا فيه .

الثالث — (الفِرَاش‌خاناه) . ومعناها بيت الفِرَاش، وتشتمل علىٰ أنواع الفَرْش من البُسُط والخيام، ولها مِهْتار يعرف بمهتار الفراش‌خاناه ، وتحت يده جماعة من الغِلْمان مستكثَرة مرصَدُون للخدمة فيها فى السفر والحَضَر يعبر عنهم بالفرّاشين ، وهم من أمْهَرِ الغلمان وأنْهَضِهمْ، ولهم دُرْبَةٌ عظيمة فى نَصْب الخيام حتّٰى إن الواحد منهم ربما أقام الخَيْمة العظيمة ونصبها وحده بغير معاون له فى ذلك ، ولهم معرفة تامّة بشدّ الأحمال التى تحمل فى المواكب علىٰ ظهور البغال، يبلغ الحمل منها نحوَ خمسة عشرة ذراعا .

الرابع — (السِّلاح‌خاناه) . ومعناها بيت السلاح، وربما قيل الزَّرَدْخاناه ومعناها بيت الزَّرَد لما فيها من الدروع الزَّرَد، وتشتمل علىٰ أنواع السلاح: من السيوف، والقِسِىّ العربية ، والنُّشَّاب ، والرماح ، والدروع المتخذة من الزرد المانع ، والقرقلات المتخذة من صفائح الحديد المُغَشَّاة بالديباج الأحمر والأصفر ، وغير ذلك

من الأطبـار وسائرأنواع السـلاح ، ويقلُّ بها قسيّ الرِّجْل والرِّكَاب لعدم معاناتها بالديار المصرية ، وإنما تكثر بالثغور كالإسْكَنْدَرِيَّةِ وغيرها، وفى كل سنة يحمل إليها مايعمل بخزائن السلاح من الأسلحة ، يجعل علىٰ رءُوس الحَمَّـالين ويُزَفُّ إلىٰ القلعة ويكون يوما مشهودا ، وفى هـذه السلاح‌خاناه من الصُّنَّاع المقيمين بها لإصلاح العُدَد وتجديد المستعملات جمـاعة كثيرة ، ويسمّٰى صـانع ذلك الزردكاش، وهى لفظة عجمية وكأن معناها صانع الزرد ، ولهـا غِلْمان أخرىٰ وفرّاشون بسبب خدمة القُمَاش وآفتقاده .

الخامس ـ (الرِّكَاب‌خاناه) . ومعناها بيت الركاب، وتشـتمل علىٰ عُدَد الخيل من السروج ، واللجم ، والكَنَابيش ، وعى المراكيب ، والعبي الإصطبليات ، والأجلال، والمَخَالى وغير ذلك من الأصناف التى يطول ذكرها ؛ وفيها من السُّروج المَغَشَّاة بالذهب والفضة المطلية والساذجَة والكَنَابيش المتخَذة من الذهب المزركش المَزَهَّرة بالريش،وغير المزهرة،والعبي المُتَّخذة من الحرير وصوف السهك(١)، وغير ذلك من نفائس العُدَد والمراكيب ما يحير العقول ويُدْهِش البصر، ممـا لا يقدر علىٰ مثله إلا عظماء الملوك . ولهـا مهتار متسلم لحواصلها يعبر عنه بمهتار الركاب‌خاناه، وتحت يده رجال لمعاضَدته علىٰ ذلك .

السـادس ـ (الحوائج‌خاناه) . ومعنـاها بيت الحوائج ، وليست علىٰ هيئـة البيوت المتقدمة مشتملةً علىٰ حاصل معيَّن ، وإنمـا لهـا جهة تحت يد الوزير منها يصرف اللَّحم الراتب للطبخ السلطانىّ والدور السلطانية ورواتب الأمراء والممـاليك السـلطانية وسائر الجنـد والمتعمّمين ، وغيرهم من أرباب الرواتب الذين تملأ

---

(١) لم نعثر علىٰ حيوان بهذا الأسم ولعله مصحف عن السمند .

أسمـاؤهم الدفاتر، وكذلك تَوَابِلُ الطعام للطبخ السلطانىّ والدور السلطانية ، ومن له تَوابِلُ مرتَّبة من الأمراء وغيرهم ، والزيت للوقود ، والحبوب ، وغير ذلك من الأصناف المتعدّدة ؛ ولها مباشرون منفردون بها يضْبِطون أسماء أرباب المستحَقّات ومقاديرَ ٱستحقاقهم ، وهى من أوسع جهات الصرف حتّىٰ إن ثمن اللحم وحده يبلغ ثلاثين ألف درهم فى كل يوم خارجا عما عداه من الأصناف، وربما زاد علىٰ ذلك .

السابع ــ (المَطْبَخ). وهو الذى يُطْبَخ فيه طعام السلطان الراتب فى الغَدَاء والعَشَاء والطارئ فى الليـل والنهـار والأسمطة التى تمدّ بالإيوان الكبير بدار العـدل فى أيام المواكب ، ويحمل إليـه اللَّحم والتوابل وسائر الأصناف من الحوائج خاناه المتقـدّمة الذكر بقدر معلوم مرتب؛ يُستهلَك فيـه فى كل يوم قناطير مقنطرة من اللحم والدَّجاج والإوَزّ والأطعمة الفاخرة ؛ وله أمير من الأمراء يحكم عليـه يسمّىٰ أستادار الصحبة وتحت يده آخر يعبر عنه بالمُشْرِف ؛ وله طَبَّاخ كبير معتبر يعبر عنه باسباسلار .

الثـامن ــ (الطبلخاناه) . ومعناه بيت الطبل، ويشتمل علىٰ الطبول والأبواق وتوابعها من الآلات ؛ ويحكم علىٰ ذلك أمير من أمراء العشرات يعرف بأمير عَلَم ، يقف عليها عنـد ضربها فى كل ليلة، ويتولّىٰ أمرها فى السَّفَر؛ ولهـا مهتار متسـلم لحواصلها يعرف بمهتار الطبلخاناه؛ وله رجال تحت يده ما بين دبنـدار : وهو الذى يضرب علىٰ الطبل، ومُنَفِّر وهو الذى يضرب بالبوق، وكُوسِىٌّ ، وهو الذى يضرب بالصنوج النحاس بعضها علىٰ بعض وغير أولئك من الصُّنَّاع .

المَقْصِـــــد الثـالث

(فى ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب الذين بهم ٱنتظام المملكة وقيام المُلْك ؛ وهم علىٰ أربعة أضرب)

الضـــــرب الأوّل

(أرباب السيوف ؛ والنظر فيهم من وجهين)

الوجـــــه الأوّل

(مراتبهم علىٰ سبيل الإجمال ؛ وهى علىٰ نوعين)

النـــــوع الأوّل

(الأمراء ؛ وهم علىٰ أربع طبقات)

الطبقة الأولىٰ — أمراء المِئِين مقدّمو الألوف ، وعدّة كل منهم مائة فارس .

قال فى "مسالك الأبصـار" : وربمـا زاد الواحد منهم العشرة والعشرين ؛ وله التَّقْدِمَةُ علىٰ ألف فارس ممن دونه من الأمراء ، وهذه الطبقة هى أعلىٰ مراتب الأمراء علىٰ تقارب درجاتهم ، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنوّاب . ثم الذى كان ٱســتقرّ عليـه قاعدة المملكة فى الروك النـاصرى محمد بن قلاوون ، وما بعده إلىٰ آخر الدولة الأشرفية شعبان بن حسين ، أن يكون بالديار المصرية أربعة وعشرون مقدّما ، ولـمـا ٱستجدّ فى الدولة الظاهرية الديوانُ المُفْرَد لخاص الســلطان وأفرد له عدّة كثيرة من المـاليك الســلطانية والمستخدمين ، نقصت عِدّة المقدّمين عما كانت عليه ، وصارت دائرةً بين الثمـانية عشر والعشرين مقدّما بمـا فى ذلك من نائب الإسْكَنْدَرِيَّةِ ونائبى الوجهين : القبلىّ والبحرىّ .

الطبقة الثانية ـ أمراء الطبلخاناه ، وعدّة كل منهم فى الغالب أربعون فارسا .

قال فى "مسالك الأبصار" : وقد يزيد بعضهم علىٰ ذلك إلىٰ سبعين فارسا، بل ذكر فى "التعريف" فى أواخر المكاتبات أنه يكون للواحد منهم ثمانون فارسا . قال فى "مسالك الأبصار" : ولاتكون الطبلخاناه لأقل من أربعين ، وهذه الطبقة لاضابط لعدّة أمرائها بل تتفاوت بالزيادة والنقص لأنه مهما فرقت إمرة الطبلخاناه فجعلت إمرتى عشرين أو أربع عشرات، أوضم بعض العشرات ونحوها إلىٰ بعض وجعلت (١) طبلخاناه، ومن أمراء الطبلخاناه تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكُشّاف بالأعمال، وأكابر الولاة .

الطبقة الثالثة ـ أمراء العشرات،وعدّة كل منهم عشرة فوارس.قال فى"مسالك الأبصار" : وربما كان فيهم من له عشرون فارسا ولا يعدّ إلا فى أمراء العشرات، وهذه الطبقة أيضا لاضابط لعدد أمرائها بل تزيد وتنقص كما تقدّم فى الكلام علىٰ أمراء الطبلخاناه، ومن هٰذه الطبقة يكون صغار الوُلَاة ونحوهم من أرباب الوظائف .

الطبقة الرابعة ـ أمراء الخَمْسات . وهم أقل من القليل خصوصا بالديار المصرية، وأكثر مايقع ذلك فى أولاد الأمراء المندرجين بالوفاة رعايةً لسَلَفِهم،وهم فى الحقيقة كأكابر الأجناد .

النوع الثانى

(الأجناد، وهم علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ ـ المماليك السلطانية . وهم أعظم الأجناد شأنا، وأرفعُهم قدرا، وأشدّهم إلىٰ السلطان قُرْبا، وأوفرُهم إقطاعا ، ومنهم تؤمَّر الأمراء رتبة بعد رتبة ،

---

(١) لعل الواو زائدة .

وهم فى العِدَّة بحسب ما يُؤْثِره السلطان من الكثرة والقلَّة ، وقد كان لهم فى زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم فى أيام السلطان الملك الظاهر برقوق العَدَد الجَمُّ والمَدَدُ الوافر لطول مُدَّة ملكهما وآعتنائهما بجلب المماليك ومشتراها .

الطبقة الثانية — أجناد الحَلْقة . وهم عدد جَمٌّ وخلق كثير، وربما دخل فيهم من ليس بصفة الجند من المتعمِّمين وغيرهم ، بواسطة النزول عن الإقطاعات ، وقد جرت عادة ديوان الجيش عدم الجمع على الجند كى لا يُحاط بعدّته ويطلع إليه . قال فى "مسالك الأبصار" : ولكل أربعين نفسا منهم مقدّم منهم، ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر كانت مواقفهم معه، وترتيبهم فى موقفهم إليه . ومن الأجناد طائفة ثالثة يقال لهم البحرية يبيتون بالقلعة وحولَ دهاليز السلطان فى السفر كالحَرَس، وأوّل من رتبهم وسماهم بهذا الآسم السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب .

الوجـــــه الثانى

(فى ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف المتقدّم ذكرهم، وهم على نوعين)

النـــوع الأوّل

(من هو بحضرة السلطان ، وهى خمسة وعشرون وظيفة)

الأولى — النِّيابة . ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل، وكافل الممالك الإسلامية . قال فى "التعريف" : وهو يحكُم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويُعَلِّمُ فى التقاليد والتواقيع والمناشير، وغير ذلك مما هو من هذا النوع على كل ما يُعَلِّمُ عليه السلطان، وسائر النوّاب لا يُعَلِّمُ الرجل منهم إلا على ما يتعلّق بخاصة نيابته . قال : وهذه رتبة

لا يخفىٰ ما فيها من التميز . قال فى "مسالك الأبصار" : وجميع نواب الممالك تكاتبه فيما تُكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يُراجَع السلطان، ويستخدم الجُنْدَ من غير مشاورة السلطان، ويعيِّن أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر، وقل أن لا يجاب فيمن يُعيِّنه؛ وهو سلطانٌ مختصر بل هو السلطان الثانى. وعادته أن يركب بالعسكر فى أيام المواكب وينزل الجميعُ فى خدمته . فإذا مثل فى حضرة السلطان،وقف فى ركن الإيوان . فإذا ٱنقضت الخدمة،خرج إلىٰ دار النيابة بالقلعة والأمراءُ معه ويجلس جلوسا عاما للناس،ويحضُره أرباب الوظائف،ويقف قدّامه الحُجّاب، وتقرأ عليه القِصَصُ، ثم يَمُدُّ السماطَ للأمراء كما يمدّ لهم السلطان فيأكاون وينصرفون . وإذا كانت النيابة قائمة علىٰ هذه الصورة، لم يكن السلطان يتصدّىٰ لقراءة القِصَص،وسماع الشّكاوىٰ بنفسه، ويأمر فى ذلك بما يرىٰ من كتابة مثال ونحوه،ولكنه لايستبدّ بمايكتب من الأبواب السلطانية بنفسه بل يكتب بإشارته وينبه علىٰ ذلك، وتشمله العلامة الشريفة بعد ذلك .

أمّا ديوان الجيش فإنه لا يكون له خدمةٌ إلا عنده ولا ٱجتماعٌ إلا به، ولا ٱجتماع لهم بالسلطان فى أمر من الأمور، وما كان من الأمور المُعْضِلة التى لابدّ من إحاطة علم السلطان بها فإنه يُعْلمه بها تارة بنفسه وتارة بمن يرسله إليه . هذا آخر كلامه فى "المسالك" غير أن هذا النائب تارة يُنَصَّب وتارة يُعَطَّلُ جِيدُ المملكة منه؛ وعلىٰ هذا كان الحال فى الأيام الناصرية ٱبن قلاوون تارة وتارة وكذا الحال فى زماننا . وإذا كان منتصبا، ٱختُصَّ بإخراج بعض الإقطاعات دون بعض،ويكون صاحب ديوان الجيش هو الملازم له وناظر الجيش ملازم السلطان .

قال فى "التعريف" : أمّا نائب الغَيْبة : وهو الذى يترك[1] إذا غاب السلطان

(١) كذا فى الضوء أيضا ومراده يترك وشأنه فى الحكم .

والنائب الكافل، وليس إلا لإخماد الثوائر وخلاص الحقوق، فحكمه فى رسم الكتابة إليه رسم مثله من الأمراء .

الثانية — الأَتَابكيَّة . ويعبر عن صاحبها بأَتَابك العساكر . قال السلطان عماد الدين فى "تاريخه" : وأصله أطابك ومعناه الولد الأمير، وأوّل من لقب بذلك نظام الدولة وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السَّلْجوقىّ حين فوّض إليه ملكشاه تدبيرَ المملكة سنة خمس وستين وأربعمائة، ولقبه بألقاب منها هذا؛ وقيل أطابك معناه أمير أب، والمراد أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدّمين بعد النائب الكافل، وليس له وظيفة ترجع إلىٰ حكم وأمر ونهى، وغايته رِفْعَةُ المَحَلِّ وعلو المقام .

الثالثة — وظيفة رأس نَوْبة . وموضوعها الحكم علىٰ المماليك السلطانية والأخذُ علىٰ أيديهم ، وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء : واحدٌ مقدّم ألف وثلاثةٌ طبلخاناه .

الرابعة — إمرة مجلس . وموضوعها (١) وهو يتحدّث علىٰ الأطباء والكَحَّالين، ومَنْ شاكلهم، ولا يكون إلا واحدا .

الخامسة — إمرة سلاح . وأصل موضوعها حمل السلاح للسلطان فى المجامع الجامعة، وصاحبها هو المقدّم علىٰ السِّلاحدارية من المماليك السلطانية والمتحدّث فى السلاحخاناه السلطانية ، وما يُستعمل لها ويقدّم إليها ، ولا يكون إلا واحدا من الأمراء المقدّمين .

السادسة — إمرة أخورية . وموضوعها التحدّث علىٰ إصطبل السلطان وخيوله، وعادتها مقدّم ألف يكون متحدّثا فيها حديثا عاما، وهو الذى يكون ساكنا

---

(١) بياض بالأصل ولعله وموضوعها تولِّى أمور مجالس السلطان .

بإصطبل السلطان، ودونه ثلاثة من أمراء الطبلخاناه . أما أمراء العشرات والجند، فغير محصورين .

السابعة — الدَّوَادارِيَّة . قال فى "مسالك الأبصار" : وموضوعها تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامّة الأمور، وتقديم القِصَص إليه، والمشاورة علىٰ من يحضر إلىٰ الباب الشريف وتقديمُ البريد، هو وأمير جاندار وكاتب السر، ويأخذ الخط علىٰ عامّة المناشير والتواقيع والكُتُب . وإذا خرج عن السلطان بكتابة شيء بمرسوم، حمل رسالته وعينت فيما يكتب ، وسيأتى بيان ذلك فيما يكتب بالرسائل فى الكلام علىٰ قوانين ديوان الإنشاء إن شاء الله تعالىٰ .

وفى هـذه الوظيفة عدّةٌ من الأمراء والجُنْد ، وقد كانت فى أيام الناصر محمد بن قلاوون وما تلاها ليس فيها أميرٌ مقدّم ألف ، ثم آل الأمر إلىٰ أن صار الأعلىٰ منهم مقدّمَ ألف، ونائبه طبلخاناه . وأوّل من آستقرّ فى وظيفة الدَّوادارية من الأمراء الألوف طغيتمر النجميّ فى الدولة الناصرية حسن، ثم صار غالب من يليها ألوف، وربمـا كان طبلخاناه أحيانا .

الثامنة — الحُجُوبيـة . قال فى "مسالك الأبصار" : وموضوعها أن صاحبها يُنصفُ بين الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب إن كان ، وإليه تقديم مَنْ يعرض ومَنْ يرد، وعَرْضُ الجند وما ناسب ذلك، والذى جرت به العادة خمسة حُجَّابٍ ، آثنان من مقدّمى الألوف : وهما حاجب الحُجَّاب(١) هو المشار إليه من الباب الشريف ، والقائم مقام النائب فى كثير من الأمور . وآعلم أن هذا الآسم أوّل ما حدث فى الدولة الأُمَوِيَّةِ فى خلافة عبد الملك بن مَرْوَانَ، وكان موضوعها إذ ذاك حَجْبَ السلطان عن العامّة، ويُغْلِق بابه دونهم أو يفتحه لهم علىٰ قدره فى مواقيته،

(١) فى الكلام سقط ظاهر ولعل الأصل "حاجب الحجاب ونائبه وحاجب الحجاب هو الخ" تأمل .

ثم تبِعَهُم بنو العبَّاس على ذلك . وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة : أنه كان للمقتدر سبعمائة حاجب . هذا وكانت الخلافة قد أخذت فى الضعف، وهو خلاف موضوعها الآن، وفيها بممالك المغرب معانٍ أخرى يأتى ذكرها عند الكلام على ممالكها إن شاء الله تعالى .

التاسعة ـــ إمرة جاندار . وموضوعها أن صاحبها يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان . قال فى "مسالك الأبصار" : ويقدّم البريدَ مع الدَّوادار وكاتب السر . قال : وصاحبها كالمتسلم للباب، وله به البرددارية وطوائف الركابية والخازندارية . وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة، وهو المتسلم للزَّرَدْخاناه التى هى أرفع قدرا فى الاعتقالات، ولا تطول مدّة المعتقَل بها، بل إمّا يعجل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه ؛ وصاحب هذه الوظيفة هو الذى يطوف بالزَّفَّة حول السلطان فى سفره، وقد جرت العادة أن يكون فيها أميران : مقدّم ألف، وطبلخاناه، والمشار إليه هو المقدّم .

العاشرة ـــ الاستادارِيَّة . قال فى "مسالك الأبصار" : وموضوعها التحدّث فى أمر بيوت السلطان كلها من المَطابخ والشَّرابخاناه والحاشية والغِلْمان، وهو الذى يمشى بطلب السلطان، ويحكم فى غِلمانه وباب داره، وإليه أمر الجاشِنْكيرية، وإن كان كبيرُهم نظيرَه فى الإمرة من ذوى الئين ، وله حديثٌ مطلق وتصرف تامٌّ فى استدعاء ما يحتاجه كلُّ مَنْ فى بيت السلطان من النفقات والكساوى(١) وما يجرِى مجرى ذلك للماليك وغيرهم . وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة : واحد مقدّم ألف وثلاثة طبلخاناه، وربما نقصُوا عن ذلك .

---

(١) جمع الكسوة كُسًا وكِسَاءٌ . فما فى الاصل جارٍ على اصطلاح العامة .

الحادية عشرة ـ الجاشنكيرية . وموضوعها التحدّث فى أمر السِّماط مع الاستادار على ما تقدّمت الإشارة إليه ، ويقف على السِّماط مع أستادار الصحبة ، وأكبرهم يكون من الأمراء المقدّمين .

الثانية عشرة ـ الخازندارية . وموضوعها التحدّث فى خزائن الأموال السلطانية من نَقْد وقُمَاش وغير ذلك ، وكانت عادتها طبلخاناه ، ثم استقرّت تقدمة ألف ، ويطالبه فى حساب ذلك ناظرُ الخاصّ الآتى ذكره .

الثالثة عشرة ـ شَدّ الشراب‌خاناه . وموضوعها التحدّث فى أمر الشراب‌خاناه السلطانية وما عمل إليها من السُّكَّر والمشروب والفواكه وغير ذلك ؛ وتارة يكون مقدّما، وتارة يكون طبلخاناه .

الرابعة عشرة ـ أستادارية الصحبة . وموضوعها التحدّث على المَطْبَخ السلطانىّ والإشراف على الطعام والمشى أمامه والوقوف على السِّماط ؛ والعادة أن يكون صاحبها أمير عشرة .

الخامسة عشرة ـ تقدمة المماليك . وموضوعها التحدّث على المماليك السلطانية والحكم فيهم، ولا يكون صاحبها إلا من الخدّام ؛ والعادة أن تكون إمرة طبلخاناه، وله نائب أمير عشرة .

السادسة عشرة ـ زِمَامية الدور السلطانية . وصاحبها من أكبر الخدّام ، وهو المعبر عنه بالزِّمَام، وعادته أن يكون أمير طبلخاناه .

السابعة عشرة ـ نِقَابة الجيوش . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى موضوعة لتحلية الجند فى عَرْضهم ، ومعه يمشى النُّقَباء . وإذا طلب السلطان أو النائب

أو الحاجب أميرا أو غيره، أحضره . قال : وهو كأحد الحُجَّاب الصغار، وله التطلب بالحراسة فى الموكب والسفر .

الثامنةَ عشرةَ ــ المهمندارية . وموضوعها تَلَقِّ الرسل الواردين وأمراء العُرْبان وغيرهم ممن يردُ من أهل المملكة وغيرها .

التاسعة عشرة ــ شَــدّ الدواوين . وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقا للوزير متحدّثا فى ٱستخلاص الأموال، وما فى معنىٰ ذلك؛ وعادتها إمرة عشرة .

العشرون ــ إمرة طَبَر . وموضوعها أن يكون صاحبها حاملا الطَّبَر فى المواكب، ويحكم علىٰ مَنْ دونه من الطَّبَردارية؛ وعادتها إمرة عشرة أيضا .

الحـادية والعشرون ــ إمرة عَلَم . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا علىٰ الطبلخاناه السلطانية وأهلها، متصرفا فى أمرها؛ وعادتها إمرة عشرة .

الثـانية والعشرون ــ إمرة شكار . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا فى الجوارح السلطانية من الطُّيور وغيرها والصُّيود السلطانية وأحواش الطيور وغيرها؛ وهى إمرة عشرة .

الثالثة والعشرون ــ حِرَاسَــة الطير . وموضوعها أن يكون صاحبها متحدّثا علىٰ حراسة الطيور من الكراكِيّ التى هى بصدد أن يصيدها السلطان فى الأماكن التى تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها؛ وهى إمرة عشرة .

الرابعة والعشرون ــ شدّ العمائر . وموضوعها أن يكون صاحبها متكلما فى العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثَه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار؛ وهى إمرة عشرة .

الخامسة والعشرون ــ الولاية . والوُلَاة بالحاضرة علىٰ صنفين .

الصنف الأوّل

(وُلَاة الشُّرْطة، المعروفون فى الديار المصرية بوُلاة الحرب؛ وهم ثلاثة، بالقاهرة، والفُسْطَاط المعروف بمصر، والقَرَافة)

فأما والِى القاهرة، فيحكم فى القاهرة وضواحيها، وهو أكبر الثلاثة وأعلاهم رتبةً؛ وعادته إمرة طبلخاناه.

وأما والِى الفسطاط، فيحكم فى خاصَّة مصر على نظير ما يحكم والِى القاهرة فى بلده؛ وعادته إمرة عشرة.

وأما والِى القرافة، فيحكم فى القرافة التى هى تُرْبة هاتين المدينتين بمراجعة والِى مصر؛ وعادته إمرة عشرة. وقد أضيفت الآن القرافة إلى مصر، وصارت ولاية واحدة وجعلت إمرة طبلخاناه ولكنها لاتبلغ شأوَ القاهرة.

الصنف الثانى

(وُلَاة القَلْعة، وهم آثنان)

أحدهما — والِى القلعة، وهو أمير طبلخاناه، وله التحدّث على باب القلعة الكبير الذى منه طلوع عامّة العسكر ونزولهم فى الفتح والغلق ونحو ذلك.

الثانى — والِى باب القلة، وهو أمير عشرة، وله التحدّث على الباب المذكور وأهله كما لوالى القلعة التحدّث على الباب الكبير المتقدّم ذكره.

النــــوع الثــانى

(ماهو خارج عن الحضرة السلطانية ، وهم علىٰ ثلاث طبقات)

الطبقة الأولىٰ

(نُوّاب الســـلطنة)

والذى بمصر الآن ثلاثُ نيابات ، جميعها مستحدثة عن قُرْب .

الأولىٰ — نيابةُ الإسكندرية . وهى نيابة جليـلة تُضاهى نيابةَ طَرَابُلُس وحماةَ وصَـفَدَ من المملكة الشامية الآتى ذكرها ، وبها كرسىّ سلطنةٍ ونمجاه سلطانية توضع علىٰ الكرسىّ ، ونائبها من الأمراء المقدّمين يركَبُ فى المواكب بالشبَّابة السلطانية ، ومعه أجناد الحَلْقَةِ المرتَّبون بها ، ويخرج فى موكبه إلىٰ ظاهر الإسْكَنْدَرِيَّةِ خارجَ باب البحر ، ويجتمع إليه الأمراء المسيَّرون بها هناك ، ثم يعود وهم معه إلىٰ دار النيابة ، ويُمدّ السماط السلطانىّ ، ويأكل عليه الأمراء والأجناد ، ويحضره القضاة ، وتقرأ القِصَص علىٰ عادة النيابات ثم ينصرفون .

وكان ٱبتــداء ترتيب هذه النيابة فى سنة سبع وستين وسبعمائة فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طَرقَ العـدوُّ المخذول من الفرنج الإسكندريةَ وفتكوا بأهلها وقتلوا منهم الخلقَ العظيم ونهبوا الأموال الجمَّة ، وكانت قبل ذلك ولاية تُعدّ فى جملة الولايات ، وكان لواليها الرتبة الجليلة والمكانة العلية من أكابر أمراء الطبلخاناه .

الثانية — نِيَابة الوجه القبلىّ . وهى ممـا ٱستُحْدِث فى الدولة الظاهرية برقوق ، وهو فى رتبة نيابة الوجه البحرىّ بل أعظم خَطَرا منـه ، ومقرُّ نيابته مدينة أُسْيوط المتقدّم ذكرها ، وحكمه على جميع بلاد الوجه القبلىّ بأسرها ، وهى فى الترتيب علىٰ

ماتقدّم من نيابة الوجه البحرىّ ، وكانت قبل ذلك كاشفا يطلق عليه والى الوُلاة كما كان فى الوجه البحرىّ .

الثالثة — نيابة الوجه البحرىّ . وهى مما آستحدث فى الدولة الظاهرية أيضا ، ونائبها من الأمراء المقدّمين ، وهو فى رتبة مقدّم العسكر بغزّة الآتى ذكرها ، ومقرّ نائبها دمنهور مدينة البحيرة المتقدّم ذكرها ، وليست على قاعدة النيابات بل هى فى الحقيقة وِلَاية حرب كبيرة ، وقد كان القائم بها قبل ذلك كاشفا يطلق عليه والى الولاة ولم يكن له مَقَرّة خاصة .

الطبقة الثانية
(الكُشَّافُ)

قد تقدّم أنه قبل النيابة بالوجهين القبلىّ والبحرىّ كان بهما كاشفان ، ولما استقرّت النيابة بهما جعل للوجه البحرىّ كاشف من أمراء الطبلخاناه على العادة المتقدّمة ، يتحدّث فى بلاده ماعدا عَمَل البحيرة لقربه من نائب الوجه البحرىّ ، وجعل كاشف آخر من رتبته لعمل الفَيُّوم وعطِّل من الوالى ، وأضيف إليه عمل البهنسى أيضا ، وسائر الوجه القبلىّ أمره راجع إلى نائبه المتقدّم ذكره .

الطبقة الثـالثـــة

(الوُلَاة بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ)

وقد تقدّم ذكر أعمـالهما . ومراتب الوُلاة بهما لا تخرج عن مرتبتين .

المرتبـــة الأولى

(أمراء الطبلخاناه، وهى سبع (١) ولايات بالوجهين : القبلىّ والبحرىّ)

فأما الوجه القبلىّ ففيه أربع وُلَاة من هذه الرتبة .

الأوّل ــ والى البهنسىٰ ، وهى أقرب ولاة الطبلخاناه بهذا الوجه الآن إلىٰ القاهرة .

الثانى ــ والى الأُشْمُونينِ .

الثالث ــ والى قُوص وإخميم ، وهو أعظم ولاة الوجه القبـلىّ حتّٰى إنه يركب فى المواكب بالشَّبّابة السلطانية أسوة النوّاب بالممالك .

الرابع ــ والى أُسْوان ، وهو محدَث فى الدولة الظاهرية برقوق ، وكانت قبـل ذلك مضافة إلىٰ والى قُوص ، وكانت ولاية الفَيُّوم طبلخاناه آستقرت كشفا علىٰ ما تقدّم .

أما أُسْيوط ، فلم يكن بها ولاية لكونها كانت مستقرّ والى الولاة بالوجه القبلىّ ، ثم صارت مســتقرّ النائب به ، وسيأتى بيان ما كان ولايةَ طبلخاناه ، ثم نقل إلىٰ العَشَرات .

وأما الوجه البحرىّ ففيه أربعة ولاة من هذه الرتبة .

---

(١) لعله ثمـان ولايات كما يظهر من عد الولاة بالوجهين .

الأوّل ــ والى الشرقية وهو والى بُلْبَيْس .

الثانى ــ والى مَنُوف .

الثالث ــ والى الغربيــة ، وهو والى المحلة ، ورتبته فى الوجه البحرىّ فى رِفعة القدر تضاهى رتبة والى قُوص فى الوجه القبلىّ .

الرابع ــ والى البحيرة ، وهو والى دَمَنْهُور .

وقد تقــدّم أن الإسكندرية قبل أن تســتقرّ نيابةً كانــ بها والٍ من أمراء الطبلخاناه .

المرتبة الثانيـــــة

(من الوُلَاة أمراء العشرات، وهى سبعة وُلَاة بالوجهين)

فأما الوجه القبلىّ ففيه ثلاثة ولاة .

الأوّل ــ والى الجيزة ، وقد كان قبل ذلك طبلخاناه، ثم نقل إلىٰ العشرات .

الثانى ــ والى إطفيح ، ولم يزل عشرة .

الثالث ــ والى منفلوط، وهو وإن كان الآن أميرعشرين فقد تقدّم أن مَنْ دون الأربعين معــدود فى العشرات . علىٰ أنها كانت قبل ذلك ولايةَ طبلخاناه وحُطَّت عن ذلك .

وقد كانــ بعَيْذابَ فى الايام الناصرية والٍ أميرُ عشرة يولّى من قِبَل السـلطان ويراجع والى قُوص فى الأمور المهمة .

وأما الوجه البحرىّ، ففيه أربعة وُلَاة من هذه الرتبة .

الأول ــ والى قَلْيُوبَ، ولم تزل ولايتها إمرة عشرة .

الثانى ــ والى أُشْمُومَ، ولم تزل عشرة أيضا .

الثالث ــ والى دِمْيَاطَ .

الرابع ــ والى قَطْيا، وكان قبل ذلك طبلخاناه .

الضرب الثانى

(من أعيان المملكة وأرباب المناصب حَمَلَةُ الأقلام، وهم على نوعين)

النــوع الأوّل

(أرباب الوظائف الدِّيوانية، وهى كثيرة للغاية لايسع آستيفاؤها والمعتبر منها مما يجب الآقتصارُ عليه تسعُ وظائف)(١)

الأولى ــ الوِزَارة . وهى أجلُّ الوظائف وأرفعها رتبةً فى الحقيقة لو لم تخرج عن موضوعها ويُعْدَل بها عن قاعدتها . قال فى "مسالك الأبصار" : وربها ثانى السلطان لو أُنْصِفَ وعُرِفَ حقُّه، لكنها لما حدَثت عليها النيابة تأخرت وقَعَدَ بها مكانُها حتّى صار المتحدّث فيها كناظر المال لا يتعدّى الحديث فيه، ولا يتسع له فى التصرف مجال، ولا تمتدّ يده فى الولاية والعزل لِتَطَلُّعِ السلطان إلى الإحاطة بجزئيَّات الأحوال . قال : وقد صار يليها أُناسٌ من أرباب السيوف والأقلام بأرزاق على قدر الإنفاق، وقطيعتها أشهر من أن تذكر .

قال : وكان هذا السلطان (يعنى الناصرَ محمد بن قلاوون رحمه الله) قد أبطلها، وصار ما كان يتحدّث فيه الوزير منقسما إلى ثلاثة : ناظرِ المال، ومعه شادّ الدواوين

---

(١) أوصلها فى العد الى ست وعشرين ومراده أن المهم منها تسع وان كان قد ذكر أكثر .

لتحصيل المال وصرف النفقات، وناظر الخاص لتدبير الأمور العامّة وتعيين المباشرين، وكاتب السر للتوقيع فى دار العدل مما كان يوقِّع فيه الوزير مشاورةً وٱستقلالا . قلت : ولما عادت الوزارة بعد ذلك، صارت إلىٰ ما كانت عليه من الٱقتصار علىٰ التحدّث فى المال ، و بقيت كتابة السر علىٰ ماصارت إليه من التوقيع علىٰ القصص بدار العدل وغيرها . ثم إن كان الوزير صاحب قلم، فهو المستقلُّ بمباشرة الوظيفة نظرا وتنفيذا ومحاسبةً علىٰ الأموال، و إن كان صاحبَ سيفٍ، كان مقتصرا علىٰ النظر والتنفيذ، وكان أمر الحساب فى الأموال راجعا إلىٰ ناظر الدولة معه .

ثم لوظيفة الوزارة أتباع كثيرة أجلها نظر الدولة وٱستيفاء الصُّحْبة وٱستيفاء الدولة .

فأما نظر الدولة : وهو المعبر عنه فى مصطلح الدواوين المعمورة بالصُّحْبة الشريفة فموضوعها أن صاحبها يتحدّث مع الوزير فى كل ما يتحدّث فيه ويشاركُه فى الكتابة فى كل ما يكتُب فيه ، ويوقع فى كل ما يوقِّع فيه الوزير تبعا له . وإن كان الوزير صاحب سيف، كان ناظر الدولة هو المتحدّثَ فى أمر الحسبانات ، وما يتعلق بها والوزير مقتصر علىٰ النظر والتنفيذ .

وأما ٱستيفاء الصحبة — فهى وظيفة جليلة رفيعة القدر . قال فى "مسالك الأبصار" : وصاحبها يتحدّث فى جميع المملكة مصرا وشاما ، ويكتب مراسيمَ يُعَلِّمُ عليها السلطان، تارة تكون بما يُعْمَل فى البلاد، وتارة بإطلاقات، وتارة بٱستخدامات كبار فى صغار الأعمال، وما يجرى مجراه .

قال : وهـذا الديوان هو أرفع دواوين الأموال ، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وكلٌّ من دواوين الأموال فهو فرعُ هـذا الديوان وإليه يرجع حسابه وتتناهىٰ أسبابه .

وأما آستيفاء الدولة ــ فهى وظيفة رئيسية ، وعلىٰ متوليها مدار أمور الدولة فى الضبط والتحرير ومعرفة أصول الأموال ووجوه مصارفها ، ويكون فيها مستوفيان فأكثر .

الوظيفة الثانية ــ كتابةُ السر . قال فى "مسالك الأبصار" : وموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذُ خَطِّ السلطان عليها وتسفيرها ، وتصريف المراسيم ورودا وصَدَرا ، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الوزارة أنه صار يوقِّع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة مع مراجعة السلطان فيما يحتاج إلىٰ المراجعة فيه ، فى أمور أخرىٰ من التحدّث فى أمر البريد وتصريف البريدية والقُصّاد ، ومشاركة الدّوادار فى أكثر الأمور السلطانية مما تقدّم ذكره مفصلا . وبديوانه كُتّاب الدَّسْت : وهم الذين يجلسون معه فى دار العدل ويقرءون القصص علىٰ السلطان ويوقِّعون عليها بأمر السلطان ، وكُتّاب الدَّرْج : وهم الذين يكتبون الولايات والمكاتبات ونحوها مما يكتب عن الأبواب الشريفة ، وربما شاركهم كُتّاب الدست فى ذلك .

الوظيفة الثالثة ــ نظر الخاصّ . وهى وظيفة محدَثة ، أحدثها السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" رحمه الله حين أبطل الوزارة علىٰ ما تقدّم ذكره ، وأصل موضوعها التحدّث فيما هو خاصٌّ بمال السلطان . قال فى "مسالك الأبصار" : وقد صار كالوزير لقربه من السلطان وتصرُّفه ، وصار إليه تدبير جملة الأمور وتعيين المباشرين يعنى فى زمن تعطيل الوزارة . قال : وصاحب هذه الوظيفة لا يقدر علىٰ الآستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان . ولناظر الخاصّ أتباع من كُتّاب ديوان الخاصّ كمستوفى الخاص ، وناظر خزانة الخاص ونحو ذلك مما لا يسع آستيعابُه .

الوظيفة الرابعة ــ نَظَر الجيش . وموضوعُها التحدّث فى أمر الإقطاعات بمصر والشأم والكتابةُ بالكشف عنها ومشاورةُ السلطان عليها وأخذُ خَطّه ، وهى وظيفة

جليلة رفيعة المقدار، وديوانها أوّل ديوان وُضع فى الإسلام بعد النبيّ صلى الله عليه وسلم فى خلافة عمرَ. قال الزُّهْرِىّ: قال سعيد بن المسيب: وذلك فى سنة عشرين من الهجرة، وسيأتى الكلام علىٰ مايتعلق بها فى الكلام علىٰ كتابة المناشير فى المقالة السادسة إن شاء الله تعالىٰ. ولناظر الجيش أتباع بديوانه يُوَلَّوْن عن السلطان، كصاحب ديوان الجيش وكُتَّابِه وشهوده، وكذلك صاحب ديوان المماليك، وكاتب المماليك وشهود المماليك. فإن المماليك السلطانية فرع من الجيش ونظرهم راجع إلىٰ ناظر الجيش.

الوظيفة الخامسة — نظر الدواوين المعمورة والصحبة الشريفة. وهو المعبر عنه بناظر الدولة، وموضوعها التحدّث فى كل ما يتحدّث فيه الوزير، وكلُّ ما كَتَبَ فيه الوزير كَتَب فيه هو، يكتب فيه بمثل مارسم به.

الوظيفة السادسة — نظر الخِزانة. قال فى "مسالك الأبصار": وكانت أوّلا كبيرة الوضع لأنها مستودَع أموال المملكة، فلما ٱستُحدِثت وظيفة الخاص، صَغُر أمر الخِزانة، وسميت بالخزانة الكبرىٰ، وهو ٱسم فوق مسماه. قال: ولم يكن بها الآن إلا خِلَعٌ تخلع منها أو مايحضر إليها ويصرف أوّلا فأوّلا، وفى الغالب يكون ناظرها من القُضاة أو من يلتحق بهم، ولناظر الخزانة أتباع يُوَلَّوْن عن السلطان كصاحب ديوان الخزانة.

الوظيفة السابعة — نظر البيوت والحاشية. وهو نظر جليل، وكلُّ ما يتحدّث فيه الأستادار له فيه مشاركة فى التحدّث فيه، وقد تقدّم تفصيل حال وظيفة الأستادارية.

الوظيفة الثامنة — نظر بيت المال. وموضوعها حمْلُ حمول المملكة إلىٰ بيت المال والتصرف فيه تارة قبضا وصرفا وتارة بالتسويغ محضرا وصرفا. قال فى "مسالك الأبصار": ولا يليها إلا ذو العدالة البارزة من أهل العلم والديانة.

الوظيفة التاسعة ــ نظر الإصطبلات السلطانية. وموضوعها مباشرة إصطبلات السلطان والتحدّث فى أنواع الخيول والبغال والدواب والجمــال السلطانية، وعليقها وعُدّتها، وما لهــا من الأستعمالات والإطلاقات، وكل ما يبتاع لهــا أو يباع منها، وأرزاق المستخدمين بها ونحو ذلك.

الوظيفة العاشرة ــ نظر دار الضيافة والأسواق. وموضوعها التحدّث فى أمر ما يَتحصَّــل من سوق الخيــل والرقيق ونحوهمــا، وصرف ذلك فى كلفة من يرد إلىٰ الأبواب السلطانية من رُسُــل الملوك ونحوهم، وصرف مرتبات مقررة لأناس فى كل شهر؛ والتحدّثُ فيهــا ولايةً وعزلا وتنفيــذا راجعٌ إلىٰ الدَّوادار؛ وللوزير المشاركة معه فى المتحصِّل فى شىء مخصوص.

الوظيفة الحادية عشرةَ ــ نظر خزائن الســلاح. وموضوعها التحدّث علىٰ كل ما يستعمل من السلاح الســلطانىّ، وعادته أن يجمع ما يَتحصَّل من عمل كل ســنة ويجهَّز فى يوم معين، ويحمل علىٰ رءُوس الحمَّالين إلىٰ خزائن السلاح بالقلعة المحروسة، ويخلع عليه وعلىٰ رُفْقَتِه من المباشرين.

الوظيفة الثانية عشرة ــ نظر الأملاك الســلطانية. وموضوعها التحدّثُ علىٰ الأملاك الخاصَّة بالسلطان من ضِيَاع ورِبَاع وغير ذلك.

الوظيفة الثالثةَ عشرةَ ــ نظر البَهار والكارمىّ (١). وموضوعها التحدّث علىٰ واصل التجار الكارِميَّة من اليمن من أصناف البَهَار وأنواع المتجر، وهى وظيفة جليلة تارة تضاف إلىٰ الوزارة وتجعل تبعا لهــا، وتارة تضاف إلىٰ الخاص وتجعل تبعا لهــا، وتارة تنفرد عنهما بحسب ما يراه السلطان.

---

(١) ر.ح فى الضوء الكانمى بالنون وقال انه نسبة الى الكانم فرقة من السودان كان منهم طائفة مقيمة بمصر يتجرون فى البهار من الفلفل والقرنفل ونحوهما مما يجلب من الهند واليمن فعرف ذلك بهم الى آخر ما قال فراجعه.

الوظيفة الرابعة عشرة — نظر الأهراء بمصر بالصناعة . وهى شُونة الغلال السلطانية التى يتكلم عليها الوزير، وموضوعها التحدّث فيما يصل إليها من النواحى من الغلال وغيرها، وما يُصرف منها علىٰ الإصطبلات الشريفة والمُناخات السلطانية وغير ذلك .

الوظيفة الخامسةَ عشرةَ — نظر المواريث الحَشْريَّة . وموضوعها التحدّث علىٰ ديوان المواريث الحشرية ممن يموت ولا وارث له، أو وله وارث لايستغرق ميراثه، مع التحدّث فى إطلاق جميع الموتىٰ من المسلمين وغيرهم .

الوظيفة السادسةَ عشرةَ — نظر الطواحين السلطانية بمصر بالصناعة أيضا . وهو مغلق عظيم فيه عشرة حجارة يخرج منها فى كل يوم نحو خمسين تليسا .

الوظيفة السابعة عشرة — نظر الحاصلات . وهو المعبَّر عنه بنظر الجهات؛ وموضوعه التحدّث فى أموال جهات الوزارة من متحصِّل ومصروف أو حمل لبيت المال وغيره .

الوظيفة الثامنة عشرة — نظر المرتَجَعات . وموضوعها التحدّث علىٰ مايُرتَجَع ممن يموت من الأمراء ونحو ذلك، وقد رُفِضت هذه الوظيفة وتعطَّلت ولايتها فى الغالب وصار أمر المرتَجَع موقوفا علىٰ مستوفِى المرتجع، وهو الذى يحكم فى القضايا الديوانية ويفصلها علىٰ مصطَلَح الديوان، وهو المعبر عنه بديوان السلطان .

الوظيفة التاسعة عشرة — نظر الجيزة . وموضوعها التحدّث علىٰ ما يَتحصَّل من عمل الجيزيَّة التى هى خاص السلطان، وهى فرع من فروع الدواوين .

الوظيفة العشرون — نظر الوجه القبلىّ . وموضوعها التحدّث علىٰ بلاد الصعيد بأسرها مما يَتحصَّل فيها من ميراث وغيره .

الوظيفة الحادية والعشرون — نظر الوجه البحرىّ . وموضوعها كموضوع نظر الوجه القبلىّ المتقدّم ذكره .

الوظيفة الثانية والعشرون — صَحَابة ديوان الجيش . وموضوعها التحدّث فى كل ما يتحدّث فيه ناظر الجيش من أمر الإقطاعات .

الوظيفة الثالثة والعشرون — صَحَابة ديوان البيمارستان . وموضوعها التحدّث فى كل مايتحدّث فيه ناظر البيمارستان .

الوظيفة الرابعة والعشرون — صَحَابة ديوان الأحباس . وصاحبها يكتب فى كل مايكتب فيه ناظر الأحباس إلا أنها بطَلتْ .

الوظيفة الخامسة والعشرون — ٱستيفاء الصحبة .

ٱستيفاء الدولة (١)

النـــوع الثانى

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم صنفان)

الصـــنف الأوّل

(من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف ، وهو منحصر فى خمس وظائف)

الوظيفة الأولىٰ — قضاء القضاة . وموضوعها التحدّثُ فى الأحكام الشرعيـة وتنفيذ قضاياها ، والقيامُ بالأوامر الشرعية ، والفصل بين الخصوم ، ونصب النوّاب

(١) تقدم الكلام عليهما فى الكلام علىٰ توابع الوظيفة الأولىٰ من هذا النوع وهى الوزارة فرأىٰ أنه لا داعى الىٰ الإعادة فلا سقط كما قد يتوهم .

للتحدّث فيما عَسُر عليه مباشرته بنفســه ؛ وهى أرفع الوظائف الدينية واعلاها قدرا وأجلُّها رتبة .

وٱعلم أن الأمر فى الزمن الأوّل كان قاصرا علىٰ قاضٍ واحد بالديار المصرية من أىّ مذهب كان، بل كان فى الدولة الفاطمية قاضٍ واحدٌ بالديار المصرية، وأجنادِ الشام، وبلادالمغرب، مضافٌ إليه التحدّث فى أمر الصلاة ودُور الضرب وغير ذلك علىٰ ماستقف عليه فى تقاليد بعض قضاتهم فى الكلام علىٰ تقاليد القضاة إن شاء الله تعالىٰ، ثم ٱستقرّ الحال فى الأيّام الظاهرية بيبرس فى سنة ثلاث وستين وستمائة علىٰ أربعة قضاة من مذاهب الأئمة الأربعة : الشافعىّ ومالك وأبى حنيفة وأحمدبن حَنْبَل رضى الله عنهم، وكان السبب فى ذلك فيما ذكره صاحب "نهاية الأرب" أن قضاء القضاة بالديار المصرية كان يومئذٍ بيد القــاضى تاج الدين عبد الوهاب ٱبن بنت الأعز بمفرده ؛ وكان الأمير جمال الدين ايدغدى أحد أمراء السلطان الملك الظاهر المتقدّم ذكره يعانده فى أموره، ويغُضُّ منه عند السلطان، لتثبُّته فى الأمور وتوقفه فى الأحكام . فبينما السلطان ذاتَ يوم جالس بدار العدل إذ رُفِعت إليه قصة بسبب مكانٍ باعه القاضى بدر الدين الســنجارىّ ، ثم ٱدّعى ذرّيته بعــد وفاته أنه موقوف، فأخذ الأمير ايدغدى يَغُضُّ من القُضاة بحضرة السلطان،فسكت السلطان لذلك ، ثم قال للقاضى تاج الدين : ما الحكم فى ذلك ؟ قال : إذا ثبتت الوقفيــة يستعادُ الثمن من تركة البائع ، قال : فإن عجزت التركة عن ذلك، قال : يوقف علىٰ حاله ، فٱمتعض لهــا السلطان وسكت ، ثم جرىٰ فى المجلس ذكرُ أمور أخرىٰ توقف القــاضى فى تمشيتها ، وكان آخرُ الأمر أن الأمير ايدغدى حَسَّنَ للســلطان نصبَ أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ففعل ، وأقرّ القاضى تاجَ الدين ٱبن بنت الأعز فى قضاء الشافعية، وولّىَ الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن عبد الله بن صالح

السبكىّ قضاءَ المـالكية ، والقاضى بدر الدين بن سلمـان قضاءَ الحنفية ، والقاضى شمسُ الدين محمد ابن الشيخ عماد الدين إبراهيم القدسىّ قضاءَ الحنابلة ، وجعل لهم الأربعــة أن يولُّوا النوّاب بأعمـال الديار المصرية ، وأفرد القاضىَ تاج الدين بالنظر فى مال الأيتام والأوقاف ، وكُتِبَ له بذلك تقليـدٌ من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر أوّله "الحمد لله مجرِّد سيف الحق علىٰ مَنْ اعتدىٰ". ثم كل من الأربعة له التحدّث فيما يقتضيه مذهبه بالقاهرة والفُسْـطَاطِ ، ونصب النوّاب ، وإجلاس الشهود ، ويسـتقلُّ الشافعىّ منهم بتولية النوّاب بنواحى الوجهين القبلىّ والبحرىّ لا يشاركه فيه غيره .

الوظيفة الثانية ـ قضاء العسكر . وهى وظيفة جليلة قديمة كانت فى زمن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان قاضى عسكره بهاء الدين بن (١) وموضوعها أن صاحبها يحضُر بدار العدل مع القُضاة المتقدّم ذكرهم ، ويسافر مع السلطان إذا سافر ؛ وهم ثلاثة نفر : شافعىّ ، وحنفىّ ، ومالكىّ ، وليس للحنابلة منهم حظ ، وجلوسهم فى دار العدل دون القُضاة الأربعة المتقدّمى الذكر علىٰ ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثالثة ـ إفتـاء دار العـدل . وموضوعها علىٰ نحو ما تقـدّم فى قضاء العسكر ، وبها أربعة نفر ، من كل مذهب واحد ، وجلوسهم دون قُضاة العسكر علىٰ ما يأتى ذكره .

الوظيفة الرابعة ـ وَكَالة بيت المال . وهى وظيفة عظيمة الشأن رفيعة القدر ، وموضوعها التحدُّث فيما يتعلق بمبيعات بيت المـال ومشـتَرَياته من أراضٍ وآدُر وغير ذلك ، والمعاقدة علىٰ ذلك وما يجرى هذا المجرىٰ . قال فى "مسالك الأبصار":

(١) بياض بالأصل .

ولا يليها إلا أهل العلم والديانة ، ومجلسه بدار العدل : تارة يكون دون المحتَسِب ، وتارة فوقه بحسب رفعة قدر كل منهما فى نفسه .

الوظيفة الخامسة ـ الحِسْبة . وهى وظيفة جليلة رفيعة الشأن ، وموضوعها التحدّث فى الأمر والنهى ، والتحدّث علىٰ المعايش والصنائع ، والأخذُ علىٰ يد الخارج عن طريق الصلاح فى معيشته وصناعته . وبالحضرة السلطانية محتسبان : أحدهما بالقاهرة ، وهو أعظمهما قدرا وأرفعهما شأنا ؛ وله التصرف بالحكم والتولية بالوجه البحرى بكماله خلا الإسْكَنْدَرِيّة ، فإن لها محتسبا يخُصها ، والثانى بالفُسْطَاط ومرتبته منحطة عن الأوّل ؛ وله التحدّث والتولية بالوجه القبلىّ بكماله ، والذى يجلس منهما بدار العدل فى أيام المواكب محتسب القاهرة فقط دون محتسب مصر ؛ ومحلُّ جلوسه دون وكيل بيت المال ، وربما جلس أعلىٰ منه إذا كان أرفع منه بعلم أو نحوه .

الصنف الثانى

(من أرباب الوظائف الدينية من لامَجلِسَ له بالحضرة السلطانية)

وهذه الوظائف لاحصْرَ لعددها علىٰ التفصيل ، ولا سبيلَ إلىٰ ٱستيفاء ذكرها علىٰ تفاوُت المراتب فوجب الٱقتصار علىٰ ذكر المُهِمِّ منها .

ثم هذه الوظائف منها ماهو مختصٌّ بشخص واحد ، ومنها ماهو عامٌّ فى أشخاص .

فأما التى هى مختصة بشخص واحد .

فمنها (نِقَابة الأشراف) وهى وظيفة شريفة ، ومرتبة نفيسة ؛ موضوعها التحدّث علىٰ ولد علىّ بن أبى طالب كرم الله تعالىٰ وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وهم المراد بالأشراف ، فى الفحص عن أنسابهم والتحدّث فى أقاربهم

والأخذ علىٰ يد المتعدّى منهم ونحو ذلك ، وكان يعبَّر عنها فى زمن الخلفاء المتقدّمين بنقابة الطالبيِّين .

ومنها (مشيخة الشيوخ) والمراد بها مشيخة الخانقاه التى أنشأها الملك الناصر محمد آبن قلاوون بسرياقوس من ضواحى القاهرة .

أمّا مشيخة الخانقاه الصلاحية بالقاهرة المعروفة بسعيد السعداء، فإنها وإن قَدُم زمنها وعَظُم قدرها دونَ تلك فى المشيخة .

ومنها (نَظَر الأحبـاس المبرورة) وهى وظيفة عاليــة المقــدار ؛ وموضوعها أنّ صاحبها يتحدّث فى رِزق الجوامع والمساجد والرُّبُط والزوايا والمدارس من الأرضين المفردة لذلك من نواحى الديار المصرية خاصةً ، وما هو من ذلك علىٰ سبيل البِرّ والصدقة لأناس معيَّنين ، وأصل هذه الوظيفة أن اللَّيْثَ بن سعد رحمه الله آشترىٰ أراضىَ من بيت المـال فى نواحٍ من البُلْدان وحَبَّسها علىٰ وجوه البِرّ ، وهى المسماة بديوان الأحبـاس بوجوه العين ، ثم أضـيف إلىٰ ذلك الرِّبَاعُ والدور المعروفة بالفُسْطَاطِ وغيره ، ثم أضيف إليها رِزَق الخطابات ، ثم كثرت الرِّزَق من الأرضين فى الدولة الظاهرية بيبرس بواسطة الصاحب بهاء الدين بن حنا وأخذت فى الزيادة إلىٰ زماننا؛ وهى تارة يتحدّث فيها السلطان بنفسه، وتارة النائب، وفى غالب الوقت يتحدّث فيها الدَّوادار الكبير علىٰ ما آستقرّ عليه الحال آخرا .

ومنها (نظر البيمارستان) والمراد البيمارستان المنصورىّ الذى أنشأه المنصور قلاوون بين القصرين ، وكان دارًا لِستِّ الملك أخت الحاكم الفاطمىّ فغـيَّر معالمه وزاد فيــه ، وليس له نظير فى الدنيـا فى بِرِّه ومعروفه ؛ وهى من أجلِّ الوظـائف وأعلاها؛ وعادةُ النظر فيه من أصحاب السيوف لأكبر الأمراء بالديار المصرية .

وأمّا التى هى عامّة فى أشخاص .

فمنها (الخَطَابة) وهى فى الحقيقة أجلُّ الوظائف وأعلاها رتبة، إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يفعلها بنفسه، ثم فعلها الخلفاء الراشـدون فَمَنْ بعدهم، وهى علىٰ كثرة الجوامع بالديار المصرية بحيث إنهـا لاتحصىٰ كَثْرَةً — لا يتعلق منها بولاية السلطان إلا القليل النادر: كجامع القلعة إلا إذا كان مفردا عن القضاء ونحو ذلك مما لا ناظر له خاصٌّ .

ومنهـا (التداريس) وهى علىٰ ٱختـلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسـير والنحو واللغـة وغير ذلك لا يولِّى السلطان فيها إلا فيما يَعْظُمُ خَطَره ويرتفع شأنه مما لا ناظر له خاصٌّ كالمدرسة الصلاحية بجوار تربة الإمام الشافعىّ رضى الله عنه، والزاوية الصلاحية بالجامع العتيق بالفُسْطَاطِ، وهى المعروفة بالخشابية، والمدرسة المنصورية بالبيمارسـتان المنصورىّ المتقدّم ذكره بين القصريـن، ودرس الجامع الطولونى ونحو ذلك .

المقصـــد الرابع

(فى زِىّ أعيان المملكة من أرباب المناصب السلطانية بالديار المصرية فى لبسهم وركوبهم، وهم أربع طوائف)

الطائفـــة الأولىٰ

(أرباب السُّيوف، وزِيُّهُمْ راجع إلىٰ أمرين)

الأمر الأوّل (لُبْسهم). ويختلف الحال فيه بٱعتبار مواضع اللُّبس من البدن .

فأما مابه تَغْطِيَةُ رءُوسهم، فقد تقدّم أنهم كانوا فى الدولة الأيوبية يلبسون كَلُّوتات صُفْر بغير عمـائم، وكانت لهم ذوائبُ شـعر يرسلونها خلفهم . فلمـا كانت الدولة

الأشرفية "خليل بن قلاوون" رحمه الله، غير لونها من الصُّفْرَةِ إلىٰ الحُمْرَة وأمر بالعمائم من فوقها، وبقيت كذلك حتّىٰ حَجَّ الملكُ الناصر "محمد بن قلاوون" رحمه الله فى أواخر دولتــه فحلق رأســه فحلق الجميع رءوسهم، وٱستمرّوا علىٰ الحلق إلىٰ الآن، وكانت عمــامتهم صغيرة فزيد فى قدرها فى الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" فحُسُنَت هيئتها وجادت، وهى علىٰ ذلك إلىٰ زماننا.

وأما ثياب أبدانهم فيلْبَسون الأقبية التَّتَرِيَّةَ والتكلاوات فوقها ثم القَبَاء الإسلامىّ فوق ذلك، يشدّ عليه السيف من جهة اليسار والصولق والكزلك من جهة اليمين.

قال السـلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه": وأوّل من أمر بذلك غازى بن زنكى أخو العادل نور الدين الشهيد حين ملك المَوْصِـلَ بعـد أبيه، ثم الأمراء والمقدَّمون وأعيان الجند تلبس فوقه أقبيةً قصيرةَ الأكمام أقصرَ من القَبَاء التحتانىّ بلا تفاوت كبير فى قِصَر الكُمِّ وطولِه، مع سَعَة الكم القصير وضيق الأكمام الطويلة.

ثم إن كان زمنُ الصيف كان جميع القماش من الفوقانىّ وغيره أبيضَ من النصافى ونحوه، وتشــدّ فوق القبَاء الإســلامىّ المِنْطَقَةُ، وهى الحيــاصة، ومعظم مناطقهم من الفضة المطلية بالذهب، وربمــا جُعِلت من الذهب، وقد تُرصَّع باليشم. قال فى "مسالك الأبصار": ولا تُرصَّع بالجواهر إلا فى خلع السـلطان لأكابر أمراء المِئِيــن.

وإن كان زمنُ الشتاء كانت فوْقانياتهم ملوّنة من الصوف النفيس والحرير الفائق، تحتها فِرَاءُ السِّنجاب الغض. ويلبس أكابر الأمراء السَّــمُّورَ، والوشق، والقاقم والفنك، ويجعل فى المِنْطَقَةِ منديلا لطيفا مُسْــدَلا علىٰ الصولق، ومعظمهم يلبس

المطرّز علىٰ الكُمَّيْنِ من الزركش أو الحرير الأسود المرقوم. قال فى "المسالك" : ولا يَلْبَسُ المُطَرّزَ إلا مَنْ له إقطاع فى الحَلْقَةِ، أما مَنْ هو بعدُ بالجامكية، فلا يتعاطىٰ ذلك.

وأما ما يجعل فى أرجلهم، فإن كان فى الصيف لَبِسوا الخفاف البيض العَلَوية، وإن كان فى الشتاء لبسوا الخِفَاف الصفر من الأديم الطائفىّ، ويشدّون المهاميز المسَقَّطة بالفضة فى القدم علىٰ الخف. قال فى "مسالك الأبصار" : ولا يُكَفِّت مِهْمازَه بالذهب إلا مَنْ له إقطاع فى الحَلْقة علىٰ ما تقدّم فى لبس المطرّز.

الأمر الثانى (ركوبهم). أما ما يركبون، فالخيل المُسَوَّمَةُ النفيسة الأثمان خصوصا الأمراء ومن يُلْحق بشأوِهم، ولا يركبون البغال بحال بل تركبها غلمانهم خلفهم بالقُماش النفيس والهيئة الحسنة والقوالب المحلّاة بالفضة، وربما غُشّى جميعها بالفضة بل ربما غُشِّى جميعها بالذهب للسلطان وأعيان الأمراء، ومعها العِبْى السابلة الملوّنة من الصوف الفائق، وربما جعلت من الحرير لأعيانهم، وقد تتخذ بدلها الكنابيش بالحواشى المَخَايش، وربما كانت زركشا للسلطان والأمراء، وتحلّىٰ لُجُمُهُم وتُسَقَّط بالفضة بحسب ٱختيار صاحبها، ويجعل الدَّبُّوس فى حَلْقة متصلة بالسرج تحت ركبته اليمنىٰ. قال صاحب حماة : وأوّل من أمرهم بذلك غازى بن زنكى حين أمرهم بشدّ السيوف فى أوساطهم علىٰ ما تقدّم ذكره. قال فى "مسالك الأبصار" : وعلىٰ الجملة فزِيُّهم ظريف وعُدَدُهم فائقة نفيسة.

الطائفـــة الثـانية

(أرباب الوظائف الدينية من القُضاة وسائر العلماء، وزِيُّهم راجع أيضا إلىٰ أمرين)

الأمر الأوّل (ملبوسهم). ويختلف ذلك بٱختلاف مراتبهم، فالقضاة والعلماء

منهم يلْبَسون العمائم من الشاشات الكبار للغاية ، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذُؤابة تلحق قَرَبُوسَ سرجه إذا ركب ، ومنهم من يجعل عِوَض الذُّؤابة الطيلسانَ الفائق ، ويَلْبَسُ فوق ثيابه دلقا متسعَ الأكمام طويلَها مفتوحا فوق كتفيه بغير تفريج ، سابلا علىٰ قدميه . ويتميز قُضاة القضاة الشافعيّ والحنفيّ بلُبْس طرحة تستُر عمامته وتنسدل علىٰ ظهره ، وكان قبل ذلك مختصا بالشافعيّ ؛ ومَنْ دون هذه منهم تكون عمامته ألطف ، ويلبس بدل الدلق فَرَجيَّة مفرجة من قدّامه من أعلاها إلىٰ أسفلها مزرّرة بالأزرار ، وليس فيهم من يلْبَس الحرير ، ولا ما غلب فيه الحرير ؛ وإن كان شتاء كان الفَوْقانى من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطىّ ، ولا يلبسون الملوّن إلا فى بيوتهم ، وربما لبسه بعضهم من الصوف فى الطرقات ، ويلبسون الخِفَاف من الأديم الطائفىّ بغير مَهامِيز .

الأمر الثانى (مركوبهم) . أما أعيان هذه الطائفة من القُضاة ونحوهم فيركبون البِغَال النفيسة المساوية فى الأثمان لمُسَوَّمَاتِ الخيول ، بلُجُم ثِقَال وسروج مدهونة غير محلَّاة بشىء من الفضة ، ويجعلون حول السرج قرقشينا من جوخ . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو شبيه بثوب السرج مختصر منه ، ويجعلون بدل العبى الكنابيش من الصوف المرقوم محاذية لكفل البغلة ، ويمتاز قضاة القضاة بأن يجعل بدل ذلك الزنارىّ من الجوخ ، وهو شبيه بالعباءة مستدير من وراء الكَفَل ولا يعلوه بردنب ولا قوش ، وربما رَكبوا بالكنابيش . وأما من دون هؤلاء من هذه الطائفة فربما ركبوا الخيول بالكنابيش والعبى .

الطائفـــــة الثـالثة

(مشايخ الصوفية)

وهم مُضاهُون لطائفة العلماء فى لبس الدلق إلا أنه يكون غير سابل، ولا طويل الكُمِّ، ويُرْخون ذؤابة لطيفة على الأذن اليسرى لا تكاد تلحق الكتف ، ويركبون البغال بالكابيش على نحو ما تقدّم .

الطائفة الرابعـــة

(أرباب الوظائف الديوانية)

أما أعيانهم كالوزراء ومَنْ ضاهاهم ، فيلبسون الفراجى المضاهية لفراجى العلمـاء المتقدّمة الذكر، وربمـا لَبسوا الجِبَاب المفرجة من ورائها . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن أكابرهم كانوا يجعلون فى أكمامهم بادهنجات مفتوحة ، وقد صار ذلك الآن قاصرا على ما يلبسونه من التشاريف . ومَنْ دون هؤلاء يلبسون الفرجيات المفرجة من ورائها على ما تقدّم .

وأما ركوبهم فيضاهى ركوب الجند أو يقاربه . قال فى " مسالك الأبصار" : وتجمُّل هذه الطائفة بمصر أكمل مما هم بالشام فى زِيِّهم وملبوسهم ، إلا مايحكى عن قبْط مصر فى بيوتهم من اتساع الأحوال والنفقات، حتّى إن الواحد منهم يكون فى ديوانه بأدنى اللباس ويأكل أدنى المآكل ، ويركب الحمار، حتّى إذا صار فى بيته انتقل من حال إلى حال وخرج من عدم إلى وجود . قال : ولقد تبالغ النـاس فيما تحكى من ذلك عنهم .

المقصـــــد الخـامس
(فى هيئة السلطان فى ترتيب الملك ، وله ثلاث[١] هيئات)

الهيئـــــة الأولىٰ
(هيئته فى جلوسه بدار العدل لخَلَاص المَظَالم)

عادةُ هذا السلطان إذا كان بالقلعة فى غير شهر رمضان أن يجلس بُكْرَةَ يوم الآثنين بإيوانه الكبير المسمّٰى بدار العدل المتقدّم ذكره مع ذكر القلعة فى الكلام علىٰ حاضرة الديار المصرية ؛ ويكون جلوسه علىٰ الكرسىّ الذى هو موضوع تحت سرير المُلْك . قال فى "مسالك الأبصار" : ويجلس علىٰ يمينه قُضاة القُضاة من المذاهب الأربعة ، ثم وكيل بيت المـال ، ثم الناظر فى الحسبة . ويجلس علىٰ يساره كاتب السِّر ، وقدّامه ناظر الجيش وجماعةُ الموقِّعين تكملة حَلْقَةٍ دائرة . قال : وإن كان الوزير من أرباب الأقلام ، كان بينه وبين كاتب السر ، وإن كان من أرباب السـيوف ، كان واقفا علىٰ بُعْـدٍ مع بقيـة أرباب الوظائف . وكذلك إن كان ثَمَّ نائب وقف مع أرباب الوظائف . ويقف من وراء السلطان مماليكُ صِغار عن يمينه ويساره من السلاحدارية والجمدارية والخاصكية ؛ ويجلس علىٰ بُعْـد بقدر خمسةَ عشرَ ذراعا من يَمْنته ويَسْرته ذوو السنّ من أكابر أمراء المِئِين ، وهم أمراء المَشُورَةِ ؛ ويليهم مِن أسـفلَ منهـم أكابرُ الأمراء ، وأربابُ الوظائف وقوفٌ ، وباقى الأمراء وقوف من وراء المَشُورَةِ ؛ ويقف خلْفَ هذه الحَلْقَةِ المحيطة بالسلطان الحُجّابُ والدَّوادارية لإحضار قِصَص أرباب الضرورات وإحضار المساكين ، وتقرأ عليه القصص فما آحتاج فيه إلىٰ مراجعة القضاة راجعهم فيه ، وما كان متعلقا بالعسكر تحدّث فيه مع الحاجب وناظر الجيش ، ويأمر فى البقية بمـا يراه .

(١) الصواب سبع كما عبر به فى الضوء وهى فى العدد أيضا سبع كما ستراه .

قلت : وقد آستقرّ الحال على أن يكون عن يمينه قاضيان من القضاة الأربعة : وهما الشافعىّ والمالكىّ، وعن يساره قاضيان وهما الحنفىّ ثم الحنبلىّ؛ ويلى القاضى المالكىّ من الجانب الأيمن قُضاةُ العسكر الثلاثةُ المتقدّم ذكرهم الشافعىّ ثم الحنفىّ ثم المالكى؛ ويليهم مُفْتُو دار العدل على هذا الترتيب ؛ ويليهم وكيلُ بيت المال ثم الناظر فى الحِسْبة بالقاهرة، وربما جلس المحتسب فوق وكيل بيت المال إذا علا قَدْرُه عليه بعِلْم أو رياسة . كل هؤلاء صفٌّ واحدٌ عن يمين السلطان مستدبرين جِدارَ صدر الإيوان مستقبلين بابه، والقاضيان الحنفىّ والحنبلىّ كذلك من الجانب الأيسر، والوزير إن كان من أرباب الأقلام إلى جانب الكرسىّ من الجانب الأيسر بانحراف، وكاتب السرّ يليه، وتستدير الحَلْقَةُ حتّى يصير الجالس بها مستدبرا باب الإيوان على ماتقدّمت الإشارة إليه فى كلام "مسالك الأبصار" .

الهيئة الثانيـــة
(هيئتـــه فى بقيّـــة الأيام)

عادته فيما عدا الآثنين والخميس من الأيام أن يخرج من قُصُوره الجَوّانيـة المتقدّم ذكرها إلى قصره الكبير المُشْرِف على إصطبلاته، ثم تارة يجلس على تخت الملك الذى بصَدْره، وتارة يجلس على الأرض، ويقف الأمراء حوله على ما تقدّم فى الجلوس فى الإيوان، خلا أمراء المَشُـورَةِ والغرباء منه فليس لهم عادة بحضور هـذا المجلس إلّا مَنْ دعت الحاجة إلى حضوره، ثم يقوم فى الثالثة من النهار فيدخل إلى قصوره الجوّانية لمصالح ملكه ، ويعبر عليه خاصته من أرباب الوظائف كالوزير، وكاتب السر، وناظر الخاص، وناظر الجيش فى الأشغال المتعلقة به على ماتدعو الحاجة إليه .

الهيئة الثالثـــة

(هيئته فى صلاة الجمعة والعيدين)

أما صـلاة الجمعة فإن عادته أن يخرج إلىٰ الجامع المجاور لقصره المتقـدّم ذكره من القصر، ومعه خاصة امرائه، فيدخل من أقرب أبواب الجامع للقصر، ويصلّى فى مقصورة فى الجامع عن يمين المِحْراب خاصـة، ويصلّى عنده فيها أكابر خاصته، ويجىء بقية الأمراء: خاصّتُهم وعامّتهم فيصلون خارج المقصورة عن يمينها ويسارها علىٰ مراتبهم، فإذا فرغ من الصلاة دخل إلىٰ دُور حريمه وذهب الأمراء كلٌّ أحد إلىٰ مكانه.

وأما صلاة العيدين، فعادته أن يركب من باب قصره وينزل من مَنْفَذة من الإصطبل إلىٰ الميدان الملاصـق له، وقد ضُرب له فيـه دِهْليز علىٰ أكمل ما يكون من الهيئة، ويَحْضُر خطيب جامع القلعة إلىٰ الميدان فيصلى به العيد ويخطب؛ فإذا فرغ من سمـاع الخطبة ركب وخرج من باب الميـدان والأمراء والممـاليك يمشون حوله، وعلىٰ رأسه العصائب السلطانية، والغاشية محمولة أمامه، والجتر وهو المظلة محمول علىٰ رأســه مع أحد أكابر الأمراء المقدّمين وهو راكب فرسا إلىٰ جانبـه، والأوشاقيّان الجفتة المتقدّم ذكرهمـا راكبان أمامه (١)، وخلفه الجنائب، وعلىٰ رأســه العصائب السُّلْطانية، وأرباب الوظائف من السلاحدارية كلُّهم خلفه، والطَّبَرْدارية أمامه مشاة بأيديهم الأطبـار، ويطلُع من باب الإصطبل ويطلُع إلىٰ الإيوان الكبير المقدّم ذكره، ويمدّ السماط ويَخْلَع علىٰ حامل الجتر، وأمير سلاح، والأسـتادار، والجاشنكير، وجماعة من أرباب الوظائف ممن لهم خدمة فى مُهِمّ العيـد كنوّاب أستادار، وصغار الجاشنكيرية، وناظر البيوت ونحوهم.

(١) لم يذكر هذه الجملة فى الضوء وعدم ذكرها أولىٰ لانها سبقت.

الهيئة الرابعــــة

(هيئته لِلَعب الكُرَة بالميدان الأكبر)

عادته أن يركب لذلك بعد وفاء النيل ثلاثة مواكب متوالية فى كل سبت ينزل من قصره أول النهار من باب الإصطبل، وهو راكب علىٰ الهيئة المذكورة فى العيد ماعدا الجتر فإنه لايحمل علىٰ رأسه، وتحمل الغاشية أمامه فى أول الطريق وآخره، ويصير إلىٰ الميدان فينزل فى قصوره، وينزل الأمراء منازلهم علىٰ قدر طَبَقاتهم، ثم يركب للعب الكُرَة بعد صلاة الظهر والأمراء معه، ثم ينزل فيستريح، ويستمرّ الأمراء فى لعب الكرة إلىٰ أذان العصر، فيصلى العصرَ ويركب علىٰ الهيئة التى كان عليها فى أول النهار ويطلُع إلىٰ قصره .

الهيئة الخامســــة

(هيئته فى الركوب لكسر الخليج عند وفاء النيل)

واعلم أن السلطان قد يركب لكسر الخليج، ولم تجر العادة بركوبه فيه بمظلة ولا رقبةِ فرس، ولا غاشية، ولا ما فى معنىٰ ذلك مما تقدّم ذكره فى ركوب الميدان والعيدين، بل يقتصر علىٰ السناجق، والطَّبَرْدارية، والجاويشية ونحو ذلك، ويركب من القلعة عند طلوع صاحب المِقْياس بالوفاء فى أىّ وقت كان، ويتوجه إلىٰ المِقْياس فيدخله من بابه ويَمُدّ هناك سِمَاطا يأكل منه مَنْ معه من الأمراء والمماليك، ثم يُذَاب زعفران فى إناء ويتناوله صاحب المقياس ويَسْبَحُ فى فَسْقِيَّة المقياس حتّى يأتىَ العمود والإناءُ الزعفران بيده فيخَلِّق العمود، ثم يعود ويخَلِّق جوانب الفسقية وتكون حرّاقة السلطان قد زُيِّنت بأنواع الزينة، وكذلك حراريق الأمراء، وقد فتح شُبَّاك المقياس المطلُّ علىٰ النيل من جهة الفُسْطَاط وعُلِّق عليه ستر، فيؤتىٰ بحرّاقة

السلطان إلىٰ ذلك الشباك فينزل منه ويَسْبَحُ وحراريق الأمراء حوله وقد شحن البحر بمراكب المتفرجين ، يسيرون خلف الحراريق حتّىٰ يدخل إلىٰ فم الخليج ، وحراقة السلطان العظمىٰ المعروفة بالذّهبيّة وحراريقُ الأمراء يلعب بها فى وسط آمتدادها ، ويرمى بمدافع النِّفْطِ علىٰ مقدامها ، ويسير السلطان فى حراقته الصغيرة حتّىٰ يأتىَ السدّ فيُقْطَعَ بحضوره ، ويركب وينصرف إلىٰ القلعة .

الهيئة السادسة

(هيئتـــه فى أســـفاره)

ولم تجر العادة فيها باظهار ماتقدّم من الزينة فى موكب العيد والميدان ، بل يركب فى عِدّة كبيرة من الأمراء : الأكابر والأصاغر ، والخواصّ ، والغرباء ، وخواصّ مماليكه . ولا يركب فى السَّيْر برقبة ولا عصائب ، ولا تتبعه جنائب ، ويقصد فى الغالب تأخير النزول إلىٰ الليل . فإذا دخل الليـل حُمِلت أمامه فوانيسُ كثيرةٌ ومَشَاعلُ ، فإذا قارب مُخَيَّمه ، تُلُقِّىَ بالشـموع المركبـة فى الشـمعدانات المكفّتة ، وصاحت الجاويشية بين يديه ، وترجل الناس كافة إلا حَمَلَة السلاح والأوشاقيةُ وراءه ، ومشت الطبردارية حوله حتّىٰ يدخل الدهليز الأول من مُخَيَّمه فينزل ويدخل إلىٰ الشـقة ، وهى خيمة مستديرة متسـعة ، ثم منها إلىٰ شقة مختصرة ، ثم إلىٰ لاجوق . وبدائر كل خيمة من جميع جوانبها من داخلها سور خركاه من خشب ، وفى صدر اللّاجُوق قصرٌ صغير من خشب ينصب للمبيت فيه ، وينصب بإزاء الشقة حَمّـامٌ بقدور من رَصَاص وحوض علىٰ هيئـة الحمـامات بالمدن إلا أنه مختصر . فإذا نام طافت به المماليك دائرةً وطاف بالجميع الحَرَس ، وتدور الزَّفّة حول الدهليز فى كل ليلة مرتين : عند نومه وعند آستيقاظه من النوم ، ويطوف مع الزَّفّة أميرٌ من أكابر الأمراء وحوله

الفوانيس والمشاعل، ويبيت علىٰ باب الدهليز أرباب الوظائف من النقباء وغيرهم. فإذا دخل إلىٰ المدينة، ركب علىٰ هيئة ركوبه لصلاة العيد بالمِظَلة وغيرها، هذا ما يتعلق بخاصته.

أما موكبه الذى يسير فيه جمهور مماليكه، فشعاره أن يكون معهم مقدّم المماليك والأستادار، وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن، ويكون بصحبته فى السفر من كل ما تدعو الحاجة إليه من الأطباء والكَحَّالين والجرائحية وأنواع الأدوية والأشربة والعقاقير ومايجرى مجرىٰ ذلك، يُصْرَف ذلك لمن يعرض له مرض بالطريق.

الهيئة السابعة

(النوم)

وقد جرت العادة أنه يبيت عنده خواصّ مماليكه من الأمراء وأرباب الوظائف من الجمدارية وغيرهم، يَسْهَرون بالنَّوْبَةِ بقسمة بينهم علىٰ بناكيم الرمل، كلما ٱنقضت نَوْبَةُ قوم أيقظوا أصحاب النوبة الذين يلونهم، ويتعاطىٰ كل منهم ما يشاغله عن النوم فقوم يقرءُون فى المصاحف، وقوم يلعبون بالشِّطْرَنْج والأكل[1] وغير ذلك.

---

(١) أى وقوم يتشاغلون بالاكل الخ.

المقصـــــد السادس

(فى عادته فى إجراء الأرزاق؛ وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الجارى المستمرّ؛ وهو علىٰ نوعين)

النـــــوع الأوّل

(الإقطاعات)

والإقطاعات فى هـذه المملكة تجرى علىٰ الأمراء والجُنْد ، وعامّة إقطاعاتهم بلاد وأراضٍ يَسْتَغِلُّها مُقْطَعُها و يتصرف فيها كيف شاء، وربمـا كان فيها نقد يتناوله من جهات وهو القليل، و تختلف بآختلاف حال أربابها .

فأما الأمراء بالديار المصرية فقـد ذكر فى "مسـالك الأبصار" أنّ أكابر الأمراء يبلغ إقطاعُ الواحد منهم مائتى ألف دينار جيشية ، وربمـا زاد علىٰ ذلك . و يتناقص بآعتبار آنحطاط الرتبة إلىٰ ثمـانين ألفَ دينار وما حولهـا ، ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء الطبلخاناه ثلاثين ألفَ دينار فأكثر، وينقص إلىٰ ثلاثة وعشرين ألف دينار، ويبلغ إقطاع الواحد من أمراء العشرات تسعة آلاف دينار إلىٰ مادون ذلك، ويبلغ إقطاع الواحد من مقدّمى الحَلْقة إلىٰ ألف وخمسمائة دينـار ، وكذلك أعيان جند الحَلْقة إلىٰ مائتين وخمسين دينارا .

وأما إقطاعات الشـام فلا تُقارب هـذا المقدارَ بل تكون بقدر الثلثين فى جميع ماتقدّم، خلا أكابر الأمراء المقدّمين بالديار المصرية، فليس بالشام من يبلغ شأوهم إلا نائب الشام فإنه يقاربهم فى ذلك . قال فى "مسالك الأبصار" : وليس للنوّاب فى المـالك مَدْخَل فى تأمير أميرٍ عِوَضَ أمير بل إذا مات أميرٌ صـغير أو كبير طولع به

السلطان فأمَّرَ مكانه مَنْ أراد ممن فى خدمته، ويخرجه إلىٰ مكان الخدمة، وأما مَنْ كان فى مكان الخدمة أو ينقل إليه من بلد آخر فعلىٰ ما يراه فى ذلك .

أما جُنْـد الحَلْقة، فمن مات منهم آستخدم النائب عِوَضَـه، وكتب بذلك رُقْعة فى ديوان جيش تلك المملكة، ويُجَهَّزُ مع بريدىّ إلىٰ الأبواب السلطانية فيُقَابَلُ عليها من ديوان الجيش بالحضرة، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها (يكتب) ويكتب بها مربعة من ديوان الجيش، ويكتب عليها منشور .

ولجميع الأمراء بحضرة السلطان الرواتبُ الجاريةُ فى كل يوم: من اللحم، والتَّوابل، والخبز، والعليق، والزيت؛ ولأعيانهم الكسوة والشَّمَعُ؛ وكذلك المماليك السلطانية وذوُو الوظائف من الجنـد مع تفاوُت مقادير ذلك بحسَب مراتبهم وخُصوصيَّتهم عند السلطان وقربهم إليه . قال فى "مسالك الأبصار" : وإذا نشأ لأحد الأمراء ولد، أطلق له دنانيرُ وخبزٌ ولحم وعليق إلىٰ أن يتأهل للإقطاع فى جملة الحَلْقة، ثم منهم من ينقل إلىٰ العشرة أو الطبلخاناه علىٰ حسب الحظوظ والأرزاق .

النوع الثـانى

(رزق أرباب الأقــلام)

وهو مبلغٌ يصرف إليهـم مُشاهَرة . قال فى "مسالك الأبصـار" : وأكبرهم كالوزير له فى الشهر مائتان وخمسون دينارا جيشية، ومن الرواتب والغَلَّة ما إذا بسط وثمن كان نظير ذلك، ثم دونَ ذلك ودونَ دونِه، ولأعيانهم الرواتب الجارية: من اللحم، والخبز، والعليق، والشَّمَع، والسُّكَّر، والكسوة ونحو ذلك، إلىٰ غير ذلك مما هو جار علىٰ العلماء وأهل الصلاح من الرواتب والأراضى المؤبدة، وما يجرى مجراها مما يتوارثه الخلف عن السلف مما لا يوجد بمملكة من الممالك، ولا مصر من الأمصار .

الضـــرب الثـانى

(الإنعام وما يجرى مجراه : مما يقع فى وقتٍ دون وقت، وهو علىٰ خمسة أنواع)

النوع الأوّل

(الخِلَع والتَّشـاريف)

قال فى "المسالك": ولصاحب مصر فى ذلك اليدُ الطُّولىٰ حتّى بَقِي بابه سُوقًا يَنْفُقُ فيه كل مجلوب، ويحضُر الناس إليه من كل قُطْرٍ حتّى كاد ذلك يَنْهَك المملكة ويودى بمُتَحَصَّلَاتها عن آخرها . قال : وغالب هذا مما قرّره هذا السلطان ، ولقدْ أتعب مَنْ يجيء بعده من كثرة الإحسان،

وهى علىٰ ثلاثة أصناف .

الصنف الأوّل

(تشاريف أرباب السيوف)

وهى علىٰ طبقات، أعلاها ماهو مختص بالأمراء المقدّمين من النوّاب وغيرهم فوقانى أطلس أحمر بطرز زركش، مُفَرًّى بسنجاب، بدائره سجف من ظاهره مع غشاء قندس، وتحته قَبَـاءٌ أطلس أصفر، وكلوتة زركش بكلاليب ذهب، وشاش رفيع موصول به طرفان من حرير أبيض، مرقومان بألقاب السلطان مع نقوش باهرة من الحرير الملوّن، ومِنْطَقَة ذهب مركّبة علىٰ حاشية حرير تشدّ فى وسطه، ويختلف حال المِنْطَقَة بحسب المراتب . فأعلاها أن يعمل من عمدها [بواكير](١) وسَطًا ومحبسين، مرصَّعة بالبَلَخْشِ والزُّمُرُّدِ واللُّؤْلُؤِ، ثم مَا كَانَ ببيكارية واحدة مرصعة، ثم مَا كَانَ ببيكارية واحدة من غير ترصيع ، فإن كان التشريف لتقليد ولاية مُفَخَّمةٍ ، زيد سيفًا محلًّى بذهب وفرسا مُسْرَجا ملجما بكنبوش زركش، وربما زيد أكابر النوّاب كنائب الشام

(١) الزيادة عن ضوء الصبح .

تركيبة زَرَكش على الفوقانى ، وشاش حرير سكندرىّ مموّج بالذهب ، ويعرف ذلك بالمتمر . وعلى ذلك كان شاش صاحب حماة ، ويكون عوض كنبوشه زنارىّ أطلس أحمر ؛ ودون ذلك من التشاريف أقبية طرد وحش من عمل الإسكندرية ومصر والشام ، مجوّخ : جاخاتٌ مكتوبة بألقاب السلطان ، وجاخاتٌ صُوَرُ وحوش أو طيور صِغَار ، وجاخات ملوّنة مموّجة بقصب مذهب ، يفصل بين جاخاته نقوشٌ ، يركب على القَبَاء طراز زركش ، وعليه السنجاب والقندس كما تقدّم ، وتحته قباء من الطرح السكندرىّ المفرج ، وكلوتة زركش بكلاليبَ وشاش كما تقدّم ، وحياصة ذهب تارة تكون ببيكارية وتارة لاتكون ، وهذه لأصاغر أمراء المِئِين ومَنْ يُلْحق بهم ، وكذلك أصحاب الوظائف المختصة بذلك كالجوكندار والولاة ومن يجرى مجراهم (١) .

ثم للتشاريف أماكن .

منها إذا ولى أمير أو صاحب مَنْصِب وظيفة فإنه يلبس تشريفا يناسب ولايته التى وَلِيها على حسب ما تقتضيه الرتبة علوّا وهبوطا .

ومنها عيد الفطر ، يخلع فيه على جميع أرباب الوظائف : من الأمراء وأرباب الأقلام كالأستادار والدّوادار وأمير سلاح والوزير وكاتب السر وناظر الخاص وناظر الجيش ونحوهم ، كلٌّ منهم بما يناسبه .

قال فى "مسالك الأبصار" : ومن عادة السلطان أن يُعِدَّ لكل عيد خِلْعة على أنها الملبوسه من نسبة خِلَع أكابر المئين فلم يلبسها ، ولكن يختص بها بعضَ أكابر المئين يخلعها عليه .

ومنها الميادين ، يخلع فيها على أكابر الأمراء كل ميدان يختص بأمير أو أكثر يلبس فيه خلعة من المفرّج المُذْهَب .

(١) لم يذكر فى الأصل الصنف الثانى والثالث وهما تشاريف الوزراء والكتّاب وتشاريف القضاة والعلماء ، وقد تكلم عليهما فى الضوء ، فأنظره .

ومنها دَوَران المحمل فى شوّال ، يخلع فيه علىٰ أرباب الوظائف بالمحمل كالقاضى والنـاظر والمحتسب والشاهد والمقدّمين والأدلة وناظر الكسوة ومباشريها ومَنْ فى معناهم .

النـــــوع الثـانى

(الخيـــول)

قد جرت عادة صاحب مصر أن ينعم علىٰ أمرائه بالخيول مرتين فى كل سنة : المرة الأولىٰ عند خروجه إلىٰ مرابط خيوله علىٰ القُرْط فى أواخر ربيعها ، فينعم علىٰ الأخِصَّاء من أمرائه بما يختاره من الخيول علىٰ قدر مراتبهم ، وتكون خيول المقدّمين منهم مُسْرَجة ملجَمة بكابيش من زركش ، وخيولُ أمراء الطبلخانات عُرْياً من غير قُمَاش . المرة الثانية عند لَعِبِه الكُرَةَ بالميدان ، وتكون خيول المقدّمين والطبلخانات مُسْرَجَةً مُلْجَمَةً بفضة يسيرة بلا كنابيش ، وكذلك يرسل إلىٰ نواب الممـالك الشاميـة كل أحد بحسـبه ، وليس لأمراء العشرات فى ذلك حظ إلا ما يتفـقدهم به علىٰ سبيل الإنعام .

قال المقرّ الشهابىّ بن فضل الله : ولخـاصة المقرّبين مـن الأمراء المقدّمين والطبلخانات زيادات كثيرة فى ذلك بحيث يصل بعضهم إلىٰ مائة فرس فى كل سنة ؛ وله أوقاتٌ أخرىٰ يفرّق فيها الخيلَ علىٰ مماليكه وربمـا أعطىٰ بعض مقدّمى الحَلْقة ؛ وكلُّ مَنْ مات له فرس من مماليكه دفع إليه عوضه ، وربمـا أنعم بالخيول علىٰ ذوى السِّنّ من أكابر الأمراء عند الخروج إلىٰ الصيد ونحوه .

ولخيول الأمراء فى كل سـنة إطلاقات أراض بالأعمـال الجيزية لزرع القُرْط لخيولهم من غير خَرَاج ، وللماليك السلطانية البَرْسيم المزدرَع علىٰ قدر مراتبهم ، وما يدفع

إليهم من القرط يكون بدلا من عليق الشعير المرتَّب لهم فى غير زمن الربيع عوضا عن كل عليقة نصف فدّان من القرط القائم على أصله فى مدّة ثلاثة أشهر .

النوع الثـالث
(الكُسْوة والحوائص)

قد جرت عادة السلطان أنه ينعم على ممـاليكه وخواصّ أهل المناصب من حَمَلة الأقلام فى كل سنة بكسوة فى الشتاء وكسوة فى الصيف على قدر مراتبهم، ومن عاداته أنه إذا ركب للَعِب الكرة بالميدان فَرَّق حوائصَ من ذهب على بعض الأمراء المقدّمين، يفرّق فى كل موكب ميدان على أميرين بالنَّوْبة حتّى يأتى على آخرهم فى ثلاث سنين أو أربع بحسب ما تقع نَوْبته فى ذلك . قال فى "المسالك" : أما أمراء الشأم فلا حظَّ لهم من الإنعام فى أكثرَ من قَبَاء واحد يلبس فى وقت الشتاء إلا من تعرّض لقصد السلطان فإنه ينعم عليه بما يقتضيه حاله .

النـــوع الرابع
(الإنعـام والأوقاف(١))

وأكثر الأوقات لا ضابط لعطائه إنمـا يكون بحسب مزية المنعَم عليه عند السلطان وقربه منه . قال فى "مسالك الأبصار" : ولخاصة الأمراء المقدّمين أنواع من الإنعامات كالعَقَار والأبنية الضَّخْمة التى ربمـا أُنْفق على بعضها فوق مائة ألف دينار، وكساوى القماش المنوّع، وفى أسفارهم فى وقت خروجهم إلى الصـيد وغيره العلوفات والأموال .

---

(١) فى الضوء "والإدرار" .

النوع الخامس

(المأكول والمشروب)

أعظم أسمطة هــذا السلطان تكون بالإيوان الكبير أيامَ المواكب . إذا خرجت القضاة وسائر أرباب الأقلام من الخدَمة ، مُدّ السماطُ بالإيوان الكبير من أوّله إلى آخره بأنواع الأطعمة المنوّعة الفاخرة ، ويَجْلِسُ السلطانُ على رأس الخِوَان والأمراءُ يَمْنَةً ويَسْرَةً على قدر مراتبهــم فى القرب من السلطان ، فيأكلون أكلا خفيفا ثم يقومون ، ويجلس مَنْ دونهم طائفة بعد طائفة ، ثم يُرفَع الخِوَانُ . وأما فى بقيــة الأيام فيمدّ الخِوَانُ فى طَرَفى النهار لعامّة الأمراء خلا البرّانيين فإنه لا يحضُره منهم إلا القليل النادر .

ففى أوّل النهار يمدّ سماطٌ أوّلُ لا يأكل منه السلطان شيئا ، ثم سِمــاط ثانٍ بعده قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل ، ثم سماط ثالث بعــده يسمى الطارئ ، ومنه مأكول السلطان .

وفى أُخْرَيَاتِ النهار يمدّ سماطان الأوّل والثانى المسمى بالخاص ، ثم إن ٱستُدْعى بطارئ حضر ، وإلا فبحسب ما يؤمر به ، وفى كل هــذه الأسمطة يسقى بعــدها المشروب من الأقسما السكّرية عقب الأكل . وأما فى الليل فيبيت بالقرب من مبيته أطباقٌ من أنواع المآكل المختلفة والمشروب الفائق ليتشاغل أصحــاب النُّوَب بالمأكول والمشروب عن النوم . قال فى "مسالك الأبصار" : ولكل ذى إمرة بمصر من خواص السلطان عليه السكر والحلوى فى شهر رمضان ، والضَّحية على مقادير رُتَبهم .

المقصـــــد السابع
(فى آختصاص صاحب هذه المملكة بأماكنَ داخلة فى نطاق مملكته، يمتاز بها علىٰ ملوك الأرض من المسلمين وغيرهم)

منها **الكعبة المعظمة** داخلة فى نطاق هذه المملكة، وآختصاصه بكسوتها ودَوَران المحمل فى كل سنة .

أما كسوة الكعبة، فإنها كانت فى الزمن الأوّل مختصّةً بالخلفاء، وكانت خلفاء بنى العبّاس يجهزونها من بغدادَ فى كل سنة، ثم صارت إلىٰ ملوك الديار المصرية يجهزونها فى كل سنة، وآستقرّت علىٰ ذلك إلىٰ الآن . ولا عِبْرة بما وقع من آستبداد بعض ملوك اليمن فى بعض الأعصار بذلك فى بعض السنين، وهذه الكسوة تُنْسَج بالقاهرة المحروسة بمشهد الحُسَين من الحرير الأسود مطرّزةً بكتابة بيضاء فى نفس النسج، فيها : ﴿ إنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ الآية . ثم فى آخر الدولة الظاهرية برقوق آستقرّت الكتابة صفراء مشعَّرة بالذهب . ولهذه الكسوة ناظر مستقلٌّ بها، ولها وقف أرض بيسوس من ضواحى القاهرة يُصْرف منها علىٰ آستعمالها .

وأما دَوَران المَحْمِل، فقد جرت العادة أنه يدور فى السنة مرتين : المرّة الأولىٰ فى شهر رجب بعد النصف منه، يحمل وينادىٰ لأصحاب الحوانيت التى فى طريق دَوَرانه بتزيين حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام، ويكون دَوَرانه فى يوم الآثنين أو الخميس لا يتعدّاهما، ويحمل المَحْمِلُ علىٰ جمل وهو فى هيئة لطيفة من خركاه وعليه غِشاءٌ من حرير أطلس أصفر، وبأعلاه قُبَّة من فضة مطلية ويبيت فى ليلة دَوَرانه داخلَ باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم، ويحمل بعد الصبح علىٰ الجمل المذكور

ويسـير إلىٰ تحت القلعة، فيركب أمامَه الوزيرُ والقضاةُ الأربعة والمحتسبُ والشهودُ وناظر الكسوة وغيرهم، ويركب جماعة من المماليك السلطانية الرَّماحة ملبسين المصفَّات الحديد المُغَشَّاة بالحرير الملوّن، وخيولهم ملبســة البركستوانات والوجوه الفولاذ كما فى القتال، وبأيديهم الرماح، عليها الشطفات السلطانية فيلعبون تحت القلعة كما فى حالة الحرب، ومنهم جماعة صغار بيد كل منهم رمحان يديرهما فى يده وهو واقف علىٰ ظهر الفرس، وربما كان وقوفه فى نَعْل من خشب علىٰ ذُبَاب سيفين من كل جهة، وهو يفعل كذلك ويهيئُوا من أزيار النفط وغيرها جملة مستكثرة، ويطاق تحت القلعة فى خلال ذلك، ثم يذهب إلىٰ الفُسْطَاط فيمرّ فى وسطه، ثم يعود إلىٰ تحت القلعة ويفعل كما فى الأوّل إلا أنه أقل من ذلك؛ ثم يحمل مِنْ[1] جامع الحاكم ويوضع فى مكان هناك إلىٰ شوّال؛ وفى خلال ذلك كله الطبلخانات والكوسات السلطانية تضرب خلفه، ويخلَع فيه علىٰ جماعة مستكثرة؛ وكذلك يفعل فى نصف شوّال إلا أنه يرجع من تحت القلعة إلىٰ باب النصر ويخرج إلىٰ الرَّيْدانيَّة للسفر ولا يتوجه إلىٰ الفُسْطَاط .

المقصـــد الثامن

(فى آنتهاء الأخبار إليه، وهو علىٰ ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم)

وقد جرت العادة أنه إذا وصل رسولٌ من مَلِك من الملوك إلىٰ أطراف مملكته كَاتَبَ نائبُ تلك الجهة السلطانَ عرّفه بوُفُوده، وآستأذنه فى إشخاصه إليه، فتبرُز المراسيمُ السلطانية بحضوره فيحضُر. فإذا وقع الشُّعور بحضوره فإن كان مرسله

(١) لعله إلىٰ جامع الخ .

ذا مَكانة عظيمة من الملوك : كأحد القانات من ملوك الشرق، خرج بعض أكابر الأمراء كالنائب وحاجب الحُجّاب ونحوهما للقائه، وأُنْزل بقصور السلطان بالميدان الذى يلعب فيه بالكُرَة ، وهو أعلىٰ منازل الرسل . وإن كان دون ذلك تلقاه المهمندار وآستأذن عليه الدّوادار وأنزله دارَ الضيافة أو ببعض الأماكن علىٰ قدر رتبته ، ثم يرتقب يومَ موكبٍ فيجلس السلطان بإيوانه ، وتحضر أعيان المملكة الذين شأنهم الحضور من أرباب السيوف والأقلام، ويحضُر ذلك الرسول وصحبته الكتاب الوارد معه ، فيُقَبِّلُ الأرض ويتناول الدوادار الكتابَ منه فيمسحه بوجه الرسول ، ثم يدفعه إلىٰ السلطان فيفُضُّه ويدفعه إلىٰ كاتب السر فيقرؤه علىٰ السلطان ويأمر فيه أمرَه .

النوع الثانى

(الأخبار التى تَرِدُ عليه من جهة نوّابه)

عادة هذا السلطان أن يطالعه نُوّابُه فى مملكته بكل ما يتجدّد عندهم من مهمّات الأمور أو ما قاربها، وتؤخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم من ديوان الإنشاء بما يراه فى ذلك ، أو يبتدئهم هو بما يقتضيه رأيه، وينفّذ علىٰ البُرُد أو أجنحة الحَمَام الرسائلىّ علىٰ ما يأتى ذكره فى المقالة الثالثة من الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

وقد جرت العادة أنه إذا ورد بَرِيدٌ من بلد من بلاد المملكة أو عاد المجهَّز من الأبواب الشريفة بجواب، أحضره أمير جاندار والدوادار وكاتب السر بين يدى السلطان فيُقَبِّلُ الأرض ، ثم يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدىّ، ثم يناوله للسلطان فيفُضُّه ويجلس كاتب السرّ فيقرؤه عليه ويأمر فيه بأمره .

وأما بطائق الحمـام ، فإنه إذا وقع طائر من الحمام الرسائلىّ ببطَاقة أخذها البرّاج وأتىٰ بها الدَّوادار، فيقطع الدوادار البِطاقة عن الحمـام بيده، ثم يحملها إلىٰ السلطان ويحضر كاتب السرّ فيقرؤها كما تقدّم .

النـــــوع الثـالث

(أخبار حاضرته)

جرت العادة أن والىَ الشُّرْطَةِ يستعلم متجدّدات ولاياته من قتل أو حريق كبير أو نحو ذلك فى كل يوم من نوّابه ، ثم تكتب مطالعة جامعـةٌ بذلك وتحمل إلىٰ السلطان صبيحةَ كل يوم فيقف عليها. قال فى "مسالك الأبصار": وأما مايقع للناس فى أحوال أنفسهم فلا .

المقصــــد التاسع

(فى هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم)

وآعلم أن كل أمير من أمراء المِئِين أو الطبلخانات سلطان مختصَر فى غالب أحواله ، ولكل منهم بيوت خَدَمة كبيوت خَدَمة السلطان من الطِّشْت خاناه، والفِرَاش خاناه، والرِّكاب خاناه ، والزَّرَدْخاناه، والمطبخ، والطبلخاناه، خلا الحوائج خاناه فإنها مختصة بالسلطان ، ولكل واحد من هـذه البيوت مِهْتار متسلم حاصلَه ،وتحت يده رجال وغِلْمـان لكل منهم وظيفة تخصه، وكذلك لكل منهم الحواصل من إصطبلات الخيول ومُنَاخات الجمـال وشُوَن الغلال؛ وله من أجناده أستادار، ورأس نَوْبة، ودَوَادار، وأمير مجلس ،وجمدارية، وأميراخور، وأستادار صحبة، ومشرف. وتوصف البيوت فى دواوين الأمراء بالكريمة ،فيقال البيوت الكريمة كما يقال فى بيوت السلطان البيوت الشريفة، وكذلك كل فرد منها فيقال : الطِّشْت خاناه الكريمة والفراش خاناه

الكريمة ، وكذا فى الباقى ؛ و يوصف الإصطبل بالسعيد فيقال : الإصطبل السعيد ، وكذلك المُنَاخ ؛ وتوصَف الشُّوَن بالمعمورة فيقال : للشُّونة المعمورة . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن رسم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث ركب وخلفه جنيب مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ ، وربما ركب الأمير من أكابرهم بجنيبين سواء فى ذلك الحاضرة والبَرّ . قال : ويكون لكل منهم طلب مشتمل علىٰ أكثر مماليكه ، وقدّامهم خِزَانة محمولة للطبلخاناه علىٰ جمل واحد ، يجرّه راكب علىٰ جمل آخر ، والألف علىٰ جملين وربما زاد بعضهم علىٰ ذلك . وأمامَ الخزانة عِدّة جنائب تُجَرّ علىٰ أيدى مماليكَ رُكّابِ خيل وهُجْن ، وركّابة من العرب علىٰ هجن ، وأمامهم الهِجْن بأكوارها مجنوبة ، للطبلخاناه قطار واحد وهو أربعة ، ومركوب الهَجّان والألف قطاران وربما زاد بعضهم . قال : وعدد الجنائب فى كثرتها وقلتها إلىٰ رأى الأمير وسَعَة نفسه ، والجنائب المذكورة منها ماهو مُسْرَجٌ مُلْجَمٌ ، ومنها ماهو بعباءة لاغير . انتهىٰ كلامه .

ومن عادتهم أيضا أن الأمير إذا ركب يكون أكابر أجناده من أرباب الوظائف : كرأس نَوْبة والدّوادار ، وأمير مجلس ، ومشاة الخدمة أمامَه ؛ وكلُّ من كان منهم أكبر كان إليه أقرب ؛ وتكون الجمدارية من مماليكه الصِّغار خلفَه وأميراخوره خلف الجميع ، ومعه الجنائب والأوشاقية علىٰ قاعدة السلطان فى ذلك .

ومن عادة أكابر(١) مجالس بيوتهم أنه ينصب للأمير بشتميخ خلف ظهره من الجوخ الأحمر المزهر بالجوخ الملوّن ، برنك ذلك الأمير وطراز فيه ألقابه ، ويجلس علىٰ مقعد مُسْنِدا ظهره إلىٰ البشتميخ ، وربما جلس أكابرهم علىٰ مدوّرة من جلد ورجلاه علىٰ الأرض ، وتكون الناس فى مجلسه فى القرب إليه علىٰ حسب مراتبهم .

ومن عادة كل أمير من كبير أو صغير أن يكون له رنك يخصه مابين هناب أو دواة أو بقجة أو فرنسيسية ونحو ذلك ، بشطفة واحدة أو شطفتين ، بألوان مختلفة ، كل

(١) لعله "ومن عادة الاكابر فى مجالس الخ"

أمير بحسب ما يختاره و يؤثره من ذلك ، ويجعل ذلك دهانا على أبواب بيوتهم والأماكن المنسوبة إليهم كمطابخ السُّكَّر، وشون الغلال، والأملاك والمراكب وغير ذلك ،وعلى قُمَاش خيولهم من جوخ ملوّن مقصوص ،ثم على قماش جمالهم من خيوط صوف ملوّنة تنقش على العبي والبلاسات ونحوها ، وربما جعلت على السيوف والأقواس والبركصطوانات للخيل وغيرها .

ومن عوائد أمراء العسكر بالحضرة السلطانية أنهم يركبون في يومي الآثنين والخميس في الموكب منضمين على نائب السلطنة الكافل إن كان ، و إلا فعلى حاجب الحُجَّاب ، ويسيرون تحت القلعة مَرَّاتٍ ،ثم يقفون بسوق الخيل وتُعْرَض عليهم خيول المناداة ، وربما نُودِى على كثير من آلات الخيل والخِيَم والحركاوات والأسلحة . قال في "مسالك الأبصار" : وقد ينادى على كثير من العَقَارات ، ثم يطلُعُون إلى الخِدْمة السلطانية على ماتقدّم .

ومن قاعدة هذه المملكة أن أجناد الأمراء كافة تُعْرَض بديوان الجيوش السلطانية وتثبت أسماؤهم مفصّلة فيه ، وكانوا فيما تقدّم يحلون بالديوان . أما الآن ، فقد ترك ما هنالك وآكتُفِى بأوراق تكتب من دواوين الأمراء بأسماء أجناده وتخلَّد بديوان الجيوش ، ثم كلما مات واحد منهم أو فُصِل من الخدمة ، عُرِض بديوان الجيش واحد مكانه يعبر فيه عرض من ديوان ذلك الأمير .

ومن عادتهم أن من مات من الأمراء والجند قبل آستكمال سنة خدمته حوسب في مستحِق إقطاعه على مقدار مدّته ، وكتب له بذلك محاسبة من ديوان الجيوش ، ويكون ما يَتحصَّل من المغل شركة بين المستقِرّ وبين الميت أو المنفصل على حسب آستحقاق القراريط ، كل شهر من السنة بتيراطين .

ومن عادة الأمراء أنه إذا مر السلطان فى متصيّداته بإقطاع أمير كبير، قدّم له من الإوَزّ والدَّجاج وقصب السكر والشعير ما تسمو اليه همة مثله فيقبله منه، ثم ينعم عليه بخِلْعة كاملة يلبسها، وربما أمر لبعضهم بشىء من المال فيقبضه .

المقصد العاشر

(فى وُلاة الأمور من أرباب السيوف بأعمال الديار المصرية،
وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى

(النُّوّاب، والمستقِرّ بها ثلاث نيابات)

الأُولى - نيابة الإسْكَنْدَرِيَّة : وهى نيابة جايلة، نائبها من الأمراء المقدّمين يُضاهِى فى الرتبة نيابةَ طَرَابُلُس ومافى معناها أو يقاربها ، وبها حاجبٌ أميرُ عشرة ، وحاجب جندىّ ، ووال للمدينة ، وأجناد حَلْقَةٍ عدّتهم مائتا نفر، يعبر عنهم بأجناد المائتين ، وبها قاضى قضاة مالكىّ ، وقاض حنفىّ مستحدَث ، وربما كان بها قاض شافعىّ ، والمالكىّ أكبر الكل بها ، وهو المتحدّث فى أموال الأيتام والأوقاف . على أنه ربما وَلِىَ قضاءَ قضاتِها فى الزمن الماضى شافعىٌّ ، وبها مُوقِّع يعبر عنه فى البلد بكاتب السر ، وناظر متحدّث فى الأموال الديوانية ، ومعه مستوف ، وتحت يده كُتَّابٌ وشهود ؛ وبها محتسب ؛ وليس بها قُضاة عسكر ولا مُفْتُو دار عدل ؛ ووكيل بيت المال بها نائب عن نائب بيت المال بالقاهرة ، وتُرَكَّز بها أمراء المقدّمين والطبلخانات فى غير الزمن الذى يمتنع سير المراكب الحربية فى البحر بشدّة الريح منها ، ووال للتركيز يسمّى الحاجب . وقد مرّ القول على معاملتها ، وذكر أحوالها فى الكلام على قواعد الديار المصرية المستقرّة فأغنى عن إعادته هنا .

وهذه النيابة مع جلالة قَدْرها ورِفْعَةِ محلّها ليس لها عَمَل يحكم فيه نائبها ولا قاضيها ومتسبها، بل حكمهم قاصر علىٰ المدينة وظواهرها لا يتعدّىٰ ذلك، بخلاف غيرها من سائر نيابات المملكة؛ وبها كرسىّ سلطنة بدار النيـابة؛ وعادة الخِدْمة السلطانية بها فى أيام المواكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة وفى خدمته مماليكه وأجناد المـائتين المتقدّم ذكرهم، ويخرج من دار النيابة عند طلوع الشمس، ويسـير فى موكبه والشَّبَّابة السـلطانية بين يديه حتّى يخرج من باب البحر، ويخرج الأمراء المَرَكَّزون علىٰ حِدتِهم أيضـا، ويجتمـعون فى الموكب ويسـيرون خارج باب البحر ساعة ثم يعودون، ويتوجه النائب إلىٰ دار النيابة فى مماليكه وأجناد المـائتين، وقد فارقه الأمراء المركَّزون وتوجه كلٌّ منهم إلىٰ منزله . فإذا صـار إلىٰ دار النيابة : فإن كان فى ذلك الموكب سِمَاطٌ، وضع الكرسىُّ فى صدر الإيوان مغشّى بالأطلس الأصفر ووضع عليه سيف نمجاة سلطانية ومُدّ السماط تحته وأكل ممـاليك النائب وأجناد المـائتين وجلس النـائب بجنبة من الإيوان والشباكُ مُطِلٌّ علىٰ مينا البلد، ويجلس القاضى المـالكىّ عن يمينه، والقاضى الحنفىّ عن يساره، والناظر تحته، والموقِّع بين يديه، ورءُوس البـلد علىٰ قدر منـازلهم، وترفع القصص فيقرؤها الموقِّع علىٰ النائب فيفصلها بحضرة القضاة ثم ينصرف الموكب .

قلت : وهذه النيابة مستحدَثة، وكان ٱبتداء ترتيبها فى سنة سبع وستين وسبعمائة فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين حين طرقها الفرنج وفتكوا بأهلها وقتلوا ونهبوا وأسروا، وكانت قبل ذلك ولايةً تعـدّ فى جملة الولايات الطبلخاناه، وكان لواليهـا الرتبةُ الجليلة والمكانةُ العلية .

الثانية ــ نيابة الوجه البحرىّ . وهى مما ٱستُحْدِث فى الدولة الظاهرية برقوق، ونائبها من الأمراء المقدّمين، وهو فى رتبة مقدّم العسكر بغَزَّة الآتى ذكره فى الممـالك

الشامية، ومقرّ نيابتها مدينة دَمَنْهُورَ بالبحيرة، وحكمه علىٰ جميع بلاد الوجه البحرىّ المتقدّم ذكرها فى الكلام علىٰ أعمال الديار المصرية المستقرّة خلا الإسْكَنْدرِيَّة، وليست علىٰ قاعدة النيابات فى ركوب المواكب وما فى معناها؛ بل نائبها فى الحقيقة كَاشِفٌ كبير، وليس فيها من رسوم النيابة سِوىٰ لبس التشريف وكتابة التقليد والمكاتبة بما يكاتب به مثل نائبها من النوّاب، وقد كان القائم بها فى الزمن الأوّل قبل ٱستقرارها نيابةً يعبر عنه بوالى الوُلَاةِ .

الثالثة — نيابة الوجه القبلىّ . وهى مما ٱستُحدِث فى الدولة الظاهرية برقوق أيضا، وكان مقرّ نائبها مدينةَ أُسْيوط، وحكمه علىٰ جميع بلاد الوجه القبلىّ، وهى فى الترتيب والرتبة علىٰ ما تقدّم من نيابة الوجه البحرىّ، غير أنها أعظم خَطَرا فى النفوس وكان القائم بها قبل ذلك يسمّى والى الولاة كما تقدّم فى الوجه البحرىّ .

الطبقة الثانية

(الكُشَّافُ)

قد تقدّم أنه قبل ٱستحداث النيابة بالوجهين القبلىّ والبحرىّ كان بهما كاشفان يعبَّر عن كل منهما بوالى الولاة، ولما ٱستقرّا نيابتين جعل للوجه البحرىّ كاشفٌ من أمراء الطبلخاناه علىٰ العادة المتقدّمة، وهو فى الحقيقة تحت أمر نائب الوجه البحرىّ، ومقرّته مُنْية غَمْر من الشرقية، وجعل كاشف آخر للبهنساوية والفيّوم، وعُطّل الفَيُّومُ من الوالى، وباقى الوجه القبلىّ أمره راجعٌ إلىٰ نائبه؛ وللجيزية كاشفٌ يتحدّث فى جسورها وسائر متعلّقاتها، ولا يتعدّىٰ أمره إلىٰ غيرها من النواحى .

الطبقة الثالثـــــة

(الوُلاة بالوجهين القبليّ والبحريّ)

وقد تقدّم ذكر أعمالها؛ ومراتب الولاة بهما لاتخرج عن مرتبتين :

المرتبة الأولىٰ ــ الولاة من أمراء الطبلخاناه. وهى سبع[1] ولايات بالوجهين القبليّ والبحريّ علىٰ ماآستقرّ عليه الحال .

فأما الوجه القبليّ ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة : وهى ولاية البهنسىٰ، وولاية الأُشْمُونينِ، وولاية قُوص، وهى أعظمها حتّى إن واليها كان يركب بالشبّابة أسوة النوّاب بالممالك، وولاية أسوان : وهى مستحدثة فى الدولة الظاهرية برقوق، وكانت قبل ذلك مضافة إلىٰ والى قُوص يجعل فيها نائبا من تحت يده، وكانت ولاية الفَيُّومِ طبلخاناه، ثم آستقرّت كشفا علىٰ ماتقدّم .

أما أُسْيوط، فلم يكن بها والٍ لكونها مقرّ نائب الوجه القبليّ ومقرّ والى الولاة من قبله، وسيأتى ما كان ولاية طبلخاناه من الوجه القبليّ ثم نقل .

وأما الوجه البحريّ ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة، وهى ولاية الشرقية، ومقرّ واليها بُلْبَيْس؛ وولاية المنوفيـة ومقرّ واليهـا مدينة مَنُوف؛ وولاية الغربية، ومقرّ واليها المحلة الكبرىٰ، وهى تضاهى ولاية قُوص من الوجه القبليّ إلا أن واليها لم يركب بالشبابة قط؛ وولاية البحيرة، ومقرّ واليها مدينة دَمَنْهورَ، وربما عطلت ولايتها لكونها مقرّة النائب، وقد تقدّم أن ولاية النائب قبل أن تستقرّ نيابة كانت ولاية طبلخاناه.

المرتبة الثانية ــ من الولاة أمراء العشرات . وهى سبع ولايات بالوجهين :

فأما القبليّ ففيه من هذه الرتبة ثلاث ولايات : ولاية الجيزة، وكانت قبل ذلك طبلخاناه؛ وولاية إطفيح ولم تزل عشرة؛ وولاية منفلوط وولايتها عشرون، وكانت

(١) قد عد ثمان ولايات .

قبل ذلك ولاية طبلخاناه، وقد كان بعَيْذَاب فى الأيام الناصرية ٱبن قلاوون وما بعدها وال أمير عشرة يولّى من قِبَل السلطان ويراجع والِىَ قُوص فى الأمور المهمة .

وأما الوجه البحرىّ ، ففيه أربع ولايات من هذه الرتبة، ولاية مَنُوف، وولاية أُشْمُومَ، وولاية دِمْيَاطَ، وولاية قَطْيا، وكانت قبل ذلك طبلخاناه .

الطبقة الرابعـــــة

(أمراء العُرْبان بنواحى الديار المصرية)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ مايحتاج إليه الكاتب فى المقالة الأُولىٰ ذكر أصول أنساب العرب، وٱنقسامُهم إلىٰ قَحْطَانِيَّةٍ وهم العارِبَة، وإلىٰ عَدْنَانِيَّةٍ وهم المستعْرِبة، وبيانُ رجوع كلّ بطن من بطون العرب الموجودين الآن بالديار المصرية وغيرها إلىٰ قبيلتهم التى إليها ينتسبون، وبيانُ من بوجهى الديار المصرية القبلىّ والبحرىّ من القبائل، وأفخاذ كل قبيلة المتشعِّبَةُ منها . والمقصودُ هنا بيانُ أمراء العُرْبان بالوجهين المذكورين فى القديم والحديث .

فأما الوجه القبلىّ، فقد ذكر الحَمْدانىّ أن الإمرة كانت بالوجه القبلىّ فى ثلاثة أعمال :

العمل الأوّل — عمل قُوص، وكانت الإمرة به فى بيتين من بَلِىّ من قُضَاعَةَ بن حِمْيَرَ بن سَبَإٍ من القَحْطَانيّة .

الأوّل — بنو شادٍ المعروفون ببنى شادى . وكانت منازلهم بالقصر الخَرَاب المعروف بقصر بنى شادى بالأعمال القُوصِيَّة ، وتقدّم هناك أنه قيل إنهم من بنى أُمَيَّةَ بن عبد شمس من قُرَيْش .

الثانى — العَجالة . وهم بنو العُجَيْل بن الذئب منهم أيضا، وكانوا معهم هناك .

العمل الثانى ــ عمل الأُشْمُونَيْنِ. وكانت الإمرة به فى بنى ثَعْلب من السَّلاَطنة، وهم أولاد أبى جُحَيش من الحَيادرة من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق، من عَقِب الحُسَيْنِ السِّبْطِ آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه، وكانت منازلهم بدَرْوَتِ سَرَبَام، وغلب عليها الشريف حِصْنُ الدين بن ثعلب فعرفت بدَرْوَتِ الشَّرِيف من يومئذ، وآستولىٰ عليها وعلىٰ بلاد الصعيد. وقد تقدم أنه كان فى آخر الدولة الأيوبية. فلما ولِىَ المُعِزّ أيْبَكُ التُّرْكُمانى: أوّل ملوك الترك بالديار المصرية السلطنةَ، أَنِفَ من سلطنته وسمَتْ نفسُــه إلىٰ السلطنة فجهَّز إليه المعز جيوشا، فجرت بينهم حروبٌ لم يظفَروا به فيهــا، وبقى علىٰ ذلك إلىٰ أن كانت دولة الظاهر بيــبرس، فنصب له حبائل الحِيَل وصاده بها وشنقه بالإسْكَنْدَرِيَّة.

العمل الثالث ــ البهنسىٰ، وكانت الإمرة فيه فى بيتين.

الأول ــ أولاد زُعازِع. (بضم الزاى)[1] من بنى جديدى من بنى بلار من لواثة[2] من البربر أو من قيس عَيْلاَنَ علىٰ الخلاف السابق عند ذكر نسبهم فى المقالة الأولىٰ. قال الحمدانىّ: وهم أشهر مَنْ فى الصعيد.

الثانى ــ أولاد قُرَيْشٍ. قال الحمدانىّ: وهم أمراء بنى زيد، ومساكنهــم نُوَيْرة دَلَاص.

قال: وكان قُرَيْشٌ هذا عبدا صالحا كثير الصدقة، ومن أولاده ســعد الملك المشهور بنوه هناك.

وذكر المقرّ الشهابىّ بن فضــل الله فى "التعريف": أن الإمرة بالوجه القبلىّ فى زمانه (وهو سلطنة الناصر محمد بن قلاوون وما وليها) كانت لناصر الدين عمر بن فضــل، ولم يذكر مقرّته ولا من أىّ العرب هو، وذكر أيضــا أن الإمرة فيما فوق

(١) تقدم لنا فى الجزء الأول (ص ٣٦٥) ضبطها بالفتح والصواب ماهنا.
(٢) ضبطها المؤلف فما تقدم بالثاء المثلثة ولكن المجد ذكرها فى باب التاء المثناة.

أسْوان كانت فى عرب يقال لهم الحِدَارية فى سميرة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَد جَمٍّ وشوكة مُنْكِيَة ، يغزو الحبشــة وأُمَمَ السودان و يأتى بالنهاب والسبايا، وله أثر محمودٌ وفَضْلٌ مأثور،وفد علىٰ السلطان فأكرم مثواه،وعقد له لواء وشُرِّف بالتَّشريف، وقُلِّدَ، وكُتِبَ إلىٰ ولاة الوجه القبلىّ عن آخرهم وسائر العربان بمساعدته ومعاضدته والركوب للغَزْوِ معه متىٰ أراد، وكتب له منشور بما يفتحه من البلاد، وتقليدٌ بإمرة عربان القبلة مما يلى قُوص إلىٰ حيث تصلُ غايتُه، وتُرْكَزُ رايتُه .

قلت : أما فى زماننــا فمذ وجَّهَتْ عربُ هَوّارة وجوهَها من عمــل البحيرة إلىٰ الوجه القبلىّ ونزلت به ٱنتشرت فىأرجائه ٱنتشار الجراد، وبسطت يَدَها منالأعمال البهنساوية إلىٰ منتهاه حيث أســوان وما والاها ، وأذعنت لهم سائر العُرْبان بالوجه القبلىّ قاطبةً ، وٱنحازوا إليهم وصاروا طَوْعَ قيادهم .

والإمرة الآن فيهم فى بيتين .

الأول ــ بنو عمر : محمد و إخوته .ومنازلهم بجَرْجا ومُنْشأة إخميم؛ وأمرهم نافذ إلىٰ أُسْوانَ من القبلة و إلىٰ آخر بلاد الأُشْمُونينِ من بحرى .

الثانى ــ أولاد غَرِيب . و بيدهم بلاد البهنسىٰ،ومنازلهم دَهْروط وما حولها.

وأما الوجه البحرىّ، فقد ذكر الحمدانىّ أن الإمرة فيهم فى خمسة أعمال .

العمل الأوّل ــ الشرقيَّة . قال : والإمرة فيها فى قبيلتين .

الأولىٰ ــ ثعلبَةُ، وذكر أن الإمرة كانت فيهم فى شُقَير بن جرجى من المَصَالحة من بنى زُرَيْقٍ ، وفى عمر بن نفيلة من العُلَيْميين .

الثانية ــ جُذَام : وقد ذكَر أن الإمرة كانت فيهم فى خمسة بيوت .

الأوّل ــ بيت أبى رُشْد بن حبشى، بن نَجْم، بن إبراهيم من العُقَيْلِيِّينَ : بنى عُقَيْل

ابن قُرّة، بن مَوْهوب، بن عُبَيْـد، بن مالك، بن سُوَيد، من بنى زيد بن حَرَام، ابن جُذَام، أُمِّر بالبوق والعَلَم .

الثـانى ــ طَرِيف بن مَكْنُون(١)، من بنى الوليد، بن سُوَيد المقدّم ذكره، وإلىٰ طَرِيف هـذا يُنْسَب بنو طريف من بلاد الشرقيـة . قال الحمدانىّ : وكان من أكرم العرب، كان فى مَضْيَفته أيامَ الغلاء آثنـا عشر ألفا تأكل عنده، وكان يَهْشِم الثريد فى المراكب . قال : ومن بنيه فَضْل بن سَمْح بن كَمُّونة، وإبراهيم بن عالى؛ أُمِّر كل منهما بالبُوق والعَلَم .

الثالث ــ بيت أولاد منازل من ولد الوليدالمذكور،كان منهم مَعْبَد بن مُبارَك، أُمِّر بالبوق والعَلَم .

الرابع ــ بيت نمىّ بن خَثْعم من بنى مالك، بن هَلْبا بن مالك بن سويد، أُقْطِعَ خثعم ابن نمىّ المذكور وأُمِّرَ، وآقتنىٰ عددا من المماليك الأتراك والروم وغيرهم، وبلغ من الملك الصالح أيوبَ منزلةً، ثم حصَل عند الملك المعز أيبك التُّرْكمانى علىٰ الدرجة الرفيعة، وقدّمه علىٰ عرب الديار المصرية، ولم يزل علىٰ ذلك حتّٰى قتله غِلْمانُه، فجعل المعزُّ آبنيه: سلمى ودغش عوضه، فكانا له نِعْمَ الخَلَفُ، ثم قدم دغش دِمَشْقَ فأمَّره الملك النـاصر صاحب دمشق يومئذ من بنى أيوب ببُوق وعَلَم، وأمَّرَ الملكُ أيبكُ أخاه سلمى كذلك .

الخامس ــ بيت مُفَرِّج بن سالم بن راضى من هَلْبَا بَعْجَة، ابن زيد، بن سُوَيد، ابن بَعْجة، من بنى زيد بن حَرام بن جُذَام، أمره المعزّ أيبك التركمانى بالبوق والعَلَم . وذلك أنه حين أراد المعزّ تأمير سـلمى بن خثعم المقدّم ذكره آمتنـع أن يؤمَّر حتّٰى يُؤَمَّر مُفرّج بن غانم(٢) فأُمِّر .

---

(١) تقدم فى الجزء الأول (ص ٣٣٢) آبن بكتوت . (٢) لعله سالم .

العمل الثانى — المَنُوفية . والإمرة فيها لأولاد نَصِير الدين من لواتة ، ولكن إمرتهم فى معنى مَشْيخة العرب .

العمل الثالث — الغربية . والإمرة فيه فى أولاد يُوسُف من الخَزَاعلة من سِنْبِس من طيِّئ من كَهْلان من القَحْطانية ، ومقرّتهم مدينة سَخَا من الغربية .

العمل الرابع — البُحَيرة . وقد ذكر فى "التعريف" : أن الإمرة فى الدولة الناصرية ٱبن قلاوون كانت لخالد بن أبى سليمان وفائد بن مقدم . قال فى "مسالك الأبصار" : وكانا أميرين سيدين جليلين ذَوَىْ كرم وإفضال وشَجاعة وثَبات رأى وإقدام .

العمل الخامس — بَرْقة . قال فى "التعريف" : ولم يبق من أمراء العرب ببَرْقة يعنى فى زمانه إلا جعفرُ بن عمر ، وكان لايزال بين طاعة وعصيان ، ومخاشنة ولِيَان ، والجيوش فى كل وقت تمدّ إليه ، وقَلَّ أن تَظْفَرَ منه بطائل أو رجعت منه بمَغْنَم ، وإن أصابته نوبةٌ من الدهر (١) . قال : وآخر أمره أن رَكِب طريق الواح حتّى خرج من الفَيُّوم وطرق باب السلطان لائذا بالعفو ، ووصل ولم يسبِق به خبرٌ ، ولم يعلم السلطانُ به حتّى ٱستأذن المستأذِن له عليه وهو فى جملة الوُقُوف بالباب ، فأُكْرِمَ أَتَمَّ الكرامة وشُرِّفَ بأجلِّ التشاريف ، وأقام مدّة فى قِرى الإحسان وإحسان القِرى وأهله لايعلمون ماجرى ، ولا يعلمون أين يَمَّم ولا أىّ جهة نَحَا ، حتّى أتتهم وافداتُ البشائر وجاءت منه . فقال له السلطان : لِمَ لا أعلمتَ أهلك بقصدك إلينا؟ قال : خِفت أن يقولوا : يفتِك بك السلطان فأتثبَّط ، فٱستحسن قَوْلَه ، وأفاض عليه طَوْلَه ، ثم أعيد إلى أهله ، فٱنْقَلَبَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لم يمسسه سوءٌ ولا رثى له صاحبٌ ولا شَمِت به عدُوٌّ .

(١) لم يذكر هذه الجملة فى الضوء .

قلت : والإمرة اليوم فى بَرْقة فى عمر بن عريف ؛ وهو رجل دَيِّنٌ وكان أبوه [عريف ذا دين متين رأيته](١) فى الإسْكَنْدَرِية بعد الثمانين والسبعمائة ، وآجتمعتُ به فوجدت آثار الخير ظاهرةً عليه .

الفصـــل الثـانى

من المقـالة الثـانية

(فى المملكة الشامية ، وما يتصل بها : من بلاد الأرمن والروم وبلاد الجزيرة بين الفُرَاتِ والدَّجْلَةِ مما هو مضاف إلىٰ هذه المملكة ؛ وفيه أربعة أطراف)

الطرف الأوّل

(فى فضل الشام وخواصّه وعجائبه ؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى فضل الشام)

أعظم شاهد لذلك ما أخرجه الترمذىّ من حديث زَيْد بن ثَابِتٍ رضى الله عنه أنه قال : "كُنَّا يومًا عِنْدَ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم نُؤَلِّف القُرْءانَ من الرِّقَاعِ . فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم : طُوبىٰ لأَهْلِ الشامِ . فقلتُ : لِمَ ذاكَ يارسولَ اللهِ ؟ قال : لأن الملائكةَ بَاسِطَةٌ أجْنِحَتَها عليه". هذا وقد بُعِثَ به الكثير من الأنبياء عليهم السلام ، وفيه ضَرَائِحُهُم الشريفة ، والمسجدُ الأقصىٰ الذى هو أحد المساجد الثلاثة التى تُشَدّ إليها الرِّحال ، وهو أوّل القبلتين ، وبه ينْزِل المسيح عليه السلام بمنارة جامع دِمَشْقَ ؛ وبه يقتل الدجّال بمدينة لُدٍّ . وفى الحديث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : "إن اللهَ بَارَكَ فيما بَيْنَ العَرِيش إلىٰ الفُرَاتِ وخَصَّ فِلَسْطِينَ بالتقْدِيسِ" .

(١) ترك له فى الأصل بياضا وأخذناه عن الضوء للؤلف .

المقصـــــد الثـانى
(فى خواصّه وعجائبه)

أما خواصّـه فإنّ به الأماكنَ التى تعظّمها الأممُ علىٰ ٱختلاف عقائدهم كالصَّخْرة التى هى قِبْلَةُ اليهود، والقُمَامة التى يَحُجُّها النصارىٰ من سائر أقطار الأرض، وطُورِنابُلُس الذى تَحُجُّه السامرةُ ؛ و بمدينة صُور كنيسةٌ تعتقد طائفةٌ من النصارىٰ أنه لايصح تمليك ملوكهم إلا منها، علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ أعمال صَفَد إن شاء الله تعالىٰ، وغيرذلك ممـا تنقاد به الأمم إلىٰ صاحب هذه المملكة وتُذْعِنُ لمُسالمته .

وأما عجائبه فكثيرة .

منها ـ (حَمَّةُ طَبَرِيَّةَ) المشهورةُ : وهى عين تَنْبُـعُ ماءً شديد الحرارة يكاد يَسْلُقُ البَيْضَةَ، يقصِدها المتردّدون للاستشفاء بالاغتسال فيها . قال ٱبن الأثير فى "عجائب المخلوقات" : وليس فيها حَمَّام يوقد فيه النار إلا الحَمَّام الصغير .

ومنها ـ (قُبَّةُ العَقَارب) بمدينة حِمْصَ . وهى قُبَّة بالقرب من مسجدها الجامع، إذا اخذ شىء من تُراب حِمْصَ وجبل بالماء وأُلصق بداخل تلك القُبَّةِ وتُرِك حتّٰى يجفّ ويسقُط بنفسه من غير أن يلقيها أحد ثم أُخِذت (١) و وضع منها شىءٌ فى بيت لم يدخله عَقْرَبٌ، أو فى قُمَاش لم يقربه، و إن ذُرّ علىٰ عقرب منه شىء أخذها مثلُ السُّكْرِ فربما زاد عليها فقتلها، بل قيل إن ذلك لا يختصُّ بالقبة بل عامّة أرض البلد كذلك حتّٰى لايدخلها عقرب إلا مات، بل لا يقْرَب ثيابا ولا أمتعة عليها غُبَارُها، و إلىٰ ذلك أشار القاضى الفاضلُ فى البُشرىٰ بفتوحها بقوله : "ودَبَّتْ إليها عقاربُ المَجَانيق فخالفت عادةَ حِمْصَ فى العَقَارب، ورُمِيَتْ الحجارة بالحجـارة فوقَعتِ العداوة المعروفة بيـن الأقارب" .

(١) الصواب التذكير نظرا للتذكير السابق .

ومنها ـ (عَيْنٌ فَوَّارَةٌ) داخلَ البحر المِلْح على القُرْب من ساحل مدينة طَرَابُلُسَ على قدر رَمْية حجر عن البَرّ، تَنْبُع ماءً عذبا يطفُو على وجه المــاء قدرَ ذراع أو أكثر يتبين عند سكون الريح .

ومنها ـ (وادى الفَوّار) وهو وادٍ بالقرب من حِصْنِ الأكراد من عمل طَرَابُلُسَ غربا عنه بشَمَال على الطريق السالكة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى صِفَة بئر قائمة فى الأرض، وفى سُفْل الأرض سِرْدَابٌ ممتدّ إلى الشَّمال يَفُور فى كل أســبوع يوما واحدا لاغير، فتســقى به أرضٌ ومُزْدرعاتٌ ، وينزل عليه التُّرْكُمان ويَرِدُونَه؛ ويُسْــمَع له قبل فَوَرَانِه دَوِىٌّ كالرعد، وهو فى بقية الأيام يابسٌ لا ماء فيه . قال : وذَكَر لى مَنْ دخل السِّرداب أن فى نهايته نهـرا كبيرا آخذا من الغرب إلى الشرق تحت الأرض، له جَرَيان قَوِىٌّ، وبه موج وريح عاصف، لايُعْرَف إلى أين يجرى ولا من أىّ جهة يأتى .

ومنها ـ (حَمَّامُ القُدْمُوسِ) من قِلَاع الدعوة من عمل طرابلُس يخرج منها(١) أنواع كثيرةٌ من الحيات تظهر من أنابيب مائها وتدخل فى ثياب داخلها ، ولم يشتهر أنهــا أضَرَّتْ أحدا قَطُّ على مَمَرّ الدُّهور وتطاوُل الأزمنة، حكاه فى "مسالك الأبصار".

ومنها ـ (صَدْعٌ) فى سور الخَوَابِى من قلاع الدعوة من عمل طرابلس أيضا . إذا لُدِغ أحد بحَيَّةٍ فأتى إلى ذلك الموضع فشاهده بعينه أو أرسل رسوله فشاهده، سلم من تلك اللَّدْغة، ولم يضره السُّمّ . إلى غير ذلك من العجائب الظاهرة والمندرسـة بمرور الزمان عليها .

قال ابن الأثير: وبقُرى حَلَبَ قريةٌ تسمّى بُرَاق، يقال إن بها مَعْبَدا يقصده أصحاب الأمراض ويَبِيتون به . فإما أن يرى المريضُ فى منامه مَنْ يقول له استعمل كذا وكذا

(١) أنث باعتبار القلعة .

فيبرأ، أو يمسح عليه بيده فيبرأ . قال في تاريخه : وبقرية مبرون من قرى صَفَد مَغَارة يظهر فيها الماء في يوم من السنة تجتمع إليه اليهود في ذلك اليوم، ويجلُبُون منه الماء إلى البلاد البعيدة؛ وبوادى دلسه من عملها عينٌ تعرف بعين الجن تفور لحظة كالنهر ثم تغور حتّى لا يبقى فيها ماء، ثم تفور كذلك ليلا ونهارا؛ وبقرية بكوزا من قرى صَفَد عِنَبٌ داخل العِنَبة عنبةٌ أخرى؛ وبقرية عد شيب من قراها بَلُّوطٌ يؤخذ الواحد منه من الشجرة فيوجد حضنها حجر؛ وبقرية عياض تراب الجير إذا عمل منه كوزٌ وسُقِى فيه الكسير من آدمىّ أو غيره، جُبِرَ عظمه؛ وبالناصرة من أعمالها كنيسة بها عمود إذا ٱجتمع عنده جماعة وعملوا سماعا عَرِق العمود حتّى يظهر عَرَقُه .

الطَّـــرَف الثانى

(فى حدودِه، وٱبتداءِ عمارته، وتسميته شامًا؛ وفيه مقصدان)

المقصـــد الأوّل

(فى حدوده)

وقد ٱختلف فى تحديده، فذكر فى "التعريف" أن حدّه من القبلة إلى البرّ المقفر: تِيـهِ بنى إِسْرَائيلَ وبَرِّ الحجاز والسَّمَاوةِ إلى مَرْمَى الفرات بالعراق . قال : وهذه المُحَادَاتُ كلُّها من جزيرة العرب .

وحدّه من الشرق طَرَف السَّمَاوة والفُرَات .

وحدّه من الشَّمال البحر الرومىّ .

وحدّه من الغرب حدّ مصر المتقدّم ذكره، وذكر فى " تقويم البُلْدان " : أن حدّه من الجنوب من أوّل رَفَح التى فى أوّل الجِفَار بين مِصْرَ والشام إلى حدود تِيـهِ بنى إسرائيل إلى ما بين الشَّوْبَك وأَيْلَةَ من البلقاء؛ وحدّه من الشرق من البَلْقاء

إلى مشاريق صَرْخَدَ، آخذا على أطراف الغُوطة، إلى سَلَمْيَة، إلى مشاريق حلب، إلى بَالِس؛ وحدّه من الشمال من بالس مع الفرات إلى قلعة نجم، إلى البِيرَةِ، إلى سُمَيْسَاط إلى حصْنِ منصور، إلى بَهَسْنَى، إلى مَرْعَش، إلى بلاد سيس، إلى طَرَسُوسَ، إلى بحر الروم؛ وحدّه من الغرب من طَرَسُوسَ المذكورة آخذا على ساحل البحر الرومىّ إلى رَفَح المتقدّمة الذكر حيث وقع الابتداء .

قلت : والخُلْف بينهما فى شيئين .

أحدهما — أنه فى " التعريف " جعل حدّه الشّمالىّ إلى البحر الرومىّ، وحدّه الغربىَّ جدَّ مصر المتقدّم ذكره ، وفى " تقويم البلدان " جعل حدّه الشمالىّ البلاد التى بين الفُرَات والبحر الرومىّ، وحدّه الغربىّ البحرَ الرومىّ من طَرَسُوسَ إلى رَفَح فيدخل حدّ مصر الذى حدّ به الجانبَ الغربىَّ فى "التعريف" فى هذا الحدّ، وكأن المُوقِع لهما فى ذلك أن البحر الرومىّ عن الشام غربا بشمال، فَجَنَحَ كل منهما إلى جهة .

الثـانى — أنه فى "تقويم البُلْدان" أدخل بلاد الأَرْمَنِ المتصلةَ بآخر بلاد حَلَب من الشمال فى حدود الشام، وفى " التعريف " أخرجها وهو التحقيق . وقد صرّح بذلك فى " التعريف" فيما بعـدُ فقال بعد أن أفرد الفتوحات الجاهانيَّة التى هى أوّل بلاد الأَرْمَنِ من جهة حَلَب بالذكر : وأتيتُ بها هٰهنا إذ لم يكن لها تَعَلُّقٌ بمملكة تذكر فيها، وليست من الشامات فى شىء وإنمـا هى من بلاد الأرمن المسماة قديماً ببلاد العواصم والثُّغُور، وسيأتى الكلامُ على بلاد الأَرْمَنِ بمفردها فى جمـلة أعمـال حلب فى الكلام على قواعد المملكة الشامية إن شاء الله تعالى .

على أن ما ذكره من التحديد فى " التعريف " و" تقويم البُلْدان " لا يخلو عن تساهل . فقد قال فى "التعريف" : بعد ذكر الحدودِ التى أوردها : وهذه الحدود هى الجامعـةُ على ما يُحْتاج إليه ، وإذا فُصِّلت تحتـاج إلى زيادة إيضـاح . وقال

فى ”تقويم البُلْدان“ : بعد ذكر الحدود التى أوردها أيضا : وبعض هذه الحدود قد تقع شرقيّةً عن بعض الشام وهى بعينها جنوبيّةً عن بعض آخر، مثل البَلْقاءِ فإنها جنوبيةٌ عن حَلَب وما علىٰ سمتها، وشرقيّةٌ عن مثل غَزَّة وما علىٰ سمتها فلْيُعْلَم العذرُ فى ذلك.

قال ٱبن حوقل : وطول الشام من مَلَطْيَةَ إلىٰ رَفَح خمس وعشرون مرحلة . فمن مَلَطْيَةَ إلىٰ مَنْبِج أربع مراحلَ ، ومن مَنْبِج إلىٰ حَلَب مرحلتان، ومن حَلَب إلىٰ حِمْصَ خمسُ مراحلَ، ومن حِمْص إلىٰ دِمَشْقَ خمسُ مراحلَ، ومن دِمَشْقَ إلىٰ طَبَرِيَّة أربعُ مراحلَ، ومن طَبَرِيَّة إلىٰ الرملة ثلاثُ مراحلَ، ومن الرملة إلىٰ رَفَح مرحلتان .

قال التيفاشىّ فى ”سرور النفس“ : وطوله أكثر من شهر . قال ٱبن حَوْقَل : وأعرضُ ما فيه طَرَفاه . فأحد طرفيه من الفرات من جسر منبج علىٰ منبج علىٰ قُورُس فى حدّ قِنِّسْرِينَ، ثم علىٰ العواصم فى حدّ إنطاكِيَةَ، ثم يقع علىٰ جبل اللُّكَام، ثم علىٰ المَصِّيصة، ثم علىٰ أذَنَة، ثم علىٰ طَرَسُوسَ، وذلك نحو عشر مراحل وهذا هو السَّمْتُ المستقيم . والطرف الآخر يأخذ فى البحر من حدّ يَافَا من جُنْد فِلَسْطِينَ حتّٰى ينتهى إلىٰ الرملة إلىٰ بيت المَقْدِس، ثم إلىٰ أرِيحا، ثم إلىٰ زُغَرَ، ثم إلىٰ جبل الشَّراة إلىٰ أن يأتىَ إلىٰ مَعَانَ، وتقدير ذلك ستُّ مراحل . ثم قال : أما ما بين هذين الطرفين من الشام فلا يكاد بين الأُرْدُنِّ ودِمَشْقَ وحِمْصَ يزيد علىٰ أكثر من ثلاثة أيام ، لأن من دِمَشْقَ إلىٰ طَرَابُلُس علىٰ بحر الروم غربًا يوما وإلىٰ أقصىٰ الغُوطة شرقا حتّٰى يتصلَ بالبادية يوما ، ومن حِمْصَ إلىٰ أَنْطَرْطُوسَ علىٰ بحر الروم غربا يومين ، ومن حِمص إلىٰ سَلَمْيَة علىٰ البادية شرقا يوما ، ومن طَبَرِيَّةَ من جُنْد الأُرْدُنِّ إلىٰ صُورَ علىٰ البحر الرومىّ غربا يوما، ومنها إلىٰ أريحا علىٰ حدود بنى فَزَارَةَ شرقا يوما .

المقصـــــد الثـانى
(فى ٱبتداء عمارته وتسميته شاما وماَيلْتَحِق بذلك)

أما ٱبتداء عمارته، فقد روىٰ الحافظ ابن عساكر فى تاريخ الشام عن هشام بن محمد عن أبيه : أن نوحا عليه السلام لما قسم الأرض بين بنيه لحق قوم من بنى كَنْعَانَ ٱبن حام[(١)] بن نوح عليه السلام بالشام فسميت الشامَ، حين تَشَاءمُوا إليها، يعنى من أرض بابل كما جاء فى الرواية الأخرىٰ. قال : فكانت الشأم يقال لها لذلك أرض كنعان، وجاء بنو إسَرائيلَ فأجلَوْهم عنها، وبقيت الشام لبنى إسرائيلَ إلىٰ أن غلب عليه الروم وٱنتزعوه منهم فأجلَوْهم إلىٰ العراق إلا قليـلا منهم، ثم جاء العربُ فغلبوا علىٰ الشـام (يعنى فى الفتح الإسلامى) ثم الشأم مهموز مقصور. قال النَّوِوىُّ فى "تهذيب الأسماء واللغات" وغيره : ويجوز فيه فتح الشين والمدّ. قال : وهى ضعيفة وإن كانت مشهورة قال الجوهرىّ : ويجوز فيه التذكير والتأنيث . قال النووىّ : والمشهور التذكير . وقد ٱختلف فى سبب تسميته شاما فقيل لتشاؤم بنى كنعان إليـه كما تقدّم فى كلام ٱبن عساكر، وقيل سمى بسام بن نوح لأنه نزل به، وٱسمه بالسريانية شام بشين معجمة، والعربُ تنقلها إلىٰ السين المهملة . وقيل لأن أرضه مختلفة الألوان بالحمرة والسَّواد والبياض فسمِّى شامًا لذلك كما يسمّٰى الخال فى بدن الإنسان شامة. وقيـل سميت شاما لأنها عن شَمَال الكعبة، والشام لغة فى الشمال . قال أبو بكر بن محمد : ويجوز فيه وجهان . أحدهـما أن يكون من اليد الشؤمىٰ وهى اليسرىٰ . والثـانى أن يكون فَعْلا من الشُّؤم .

---

(١) كذا فى معجم البلدان أيضا وفى القاموس فى مادة (ك ن ع) كنعان بن سام .

الطَّـــرَف الثالث

(فى أنهاره وبحيراته وجباله المشهورة وزروعه وفواكهه ورَياحينه ومواشيه، ووحُوشه وطيوره؛ وفيه ستة مقاصد)

المقصـــد الأوّل

(فى ذكر الأنهار العظَام بالشام وماهو مضاف إليه ممـا يتكرر ذكره بذكر البُلْدان، وهى أربعة أنهار)(١)

الأوّل - نَهْر الفُرَات وهو أعظمها، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ النيل أنه شقيقه فى الخروج من الجَنَّـة . وقد ثبت فى صحيح مسلم أن النبىّ (صلى الله عليه وسلم) ! قال : "لا تَقُومُ الساعةُ حتّى يَحْسِرَ الفُرَاتُ عن جَبَل من ذَهَبٍ فيَقْتَتِل الناسُ عليه فيُقْتَل من كل مائة تِسعةٌ وتِسعُون ، ويقولُ كُلُّ رجل منهم لَعَلِّى أنا الذى أنْجُو بِهِ" وأوّل ٱبتدائه من شمالىّ مدينة (أَرْزَن الرُّوم) وشرقيِّها، وهى آخر بلاد الروم من جهة الشرق حيث الطولُ أربعٌ وستون درجة والعرض ٱثنتان وأربعون درجة ونصفٌ، ثم يأخذ إلىٰ قُرْبِ (مَلَطْيَة) ثم يأخذ إلىٰ (سُمَيْساطَ) ثم يأخذ مشرقا ويتجاوز (قلعة الروم) من شماليِّها وشرقيها، ثم يسير إلىٰ (الْبِيرَة) من جنوبيها، ثم يمرّ مشرقا حتّى يجاوز بَالِسَ، ثم قَلْعَة جَعْبَر ويتجاوزها إلىٰ الرَّقَّة ، ثم يسير مُشَرِّقا ويتجاوز الرَّحْبة من شَماليّها ويسير إلىٰ عُنَّة ، ثم يمتدّ إلىٰ هِيتَ ، ويمتدّ حتّى يجاوز مَخْرَج (نهر كُوثىٰ) الآتى ذكره، فينقسم قسمين ويمرّ أحدهما : وهو الجنوبىُّ إلىٰ (الكوفة) ويتجاوزها، ويصبُّ فى بطائح العراق، ويمرّ الآخَرُ : وهو أعظمها بإزاء (قصر ٱبن هُبَيْرَة) ويعرف هذا القسم بنهر سُورَا (بضم السين المهملة وآخره ألف يمدّ ويقصر) وهى قرية علىٰ النهر تُنسب إليها،

(١) الصواب ستة أنهار كما يتضح مما سيأتى .

ويتجاوز قصر ٱبن هُبَيْرَةَ ويسير جنوبا إلىٰ (مدينة بابل) القديمة، ويتفرع منه بعد أن يجاوز بابل عدّةُ أنهر، ويمرّ عموده إلىٰ (مدينة النيل) ويجاوزها حتّى يصب فى دِجْلَةَ ويسمّى من بعد مجاوزة النيل (نهر الصَّراةِ) . وعلىٰ الفرات أنهار تصبُّ فيه وأنهار تخرج منه ليس بنا حاجة إلىٰ تفصيلها .

الثانى — نهر حَمَاةَ . ويسمّى العاصِىَ لأن غالب الأنهر تسقى الأرض بغير دواليبَ ولا نواعيرَ بل تَرْكَبُ البلادَ بأنفسها، ونهر حماة لايسقى إلا بنواعير تنزِع الماء منه ، ويسمّى أيضا النهر المقلوبَ : لجريه من الجنوب إلىٰ الشمال ، وغالب الأنهر إنما تجرى من الشمال إلىٰ الجنوب، وٱسمه القديم نهر الأُرُنْط(١)، وأوّله نهر صغير من ضيعة قريبة من بَعْلَبَكَّ فى الشَّمال عنها علىٰ نحو مَرْحلة، تسمّى الرأس، ويمتدّ من الرأس شَمالا حتّى يصلَ إلىٰ مكان يسمّى قائم الهرمل بين قرية جُوسِيَة والرأس، ويمرّ فى واد هناك ويَنْبُعُ من هناك أكثرُ ماء النهر من موضع يسمّى مَغَارة الراهب، ويمتدّ شَمالا حتّى يتجاوزَ (جُوسِيَة) ويمتدّ حتّى يصب فى (بحيرة قَدَس) غربىَّ حِمْصَ، ويخرُج من البحيرة ويتجاوز حمصَ إلىٰ الرَّسْتَن، ويمتدّ إلىٰ حماة، ثم إلىٰ شَيْزَر، ثم إلىٰ بحيرة أفامِيَةَ، ثم يخرج من بحيرة أفامِيَةَ، ويمرّ علىٰ دَرْكُوش، ويمتدّ إلىٰ جسر الحديد، وذلك جميعه شرقىَّ جبل اللُّكَام . فإذا وصل إلىٰ جسر الحديد ٱنقطع الجبل المذكور هناك، ويستدير النهر المذكور ويرجع ويسير جنوبا بغرب ويمرّ علىٰ سُور أَنْطَاكِيَةَ، ويسير كذلك مغرّبا بجنوب حتّى يصب فى بحر الروم عند السُّوَيْدِيَّة

ويصب فى العاصى عدّة أنهر :

منها — نهرٌ مَنْبَعُه من تحت أَفَامِيَةَ يسير مغرّبا حتّى يصل إلىٰ بحيرة أَفَامِيَةَ ويختلط بالعاصى .

(١) أورده ياقوت فى معجم البلدان بالدال المهملة .

ومنها — نهر فى شَمَال أفامِيَةَ علىٰ نحو مِيلَيْنِ يُعْرَف بالنهر الكبير يسـير مَدًى قريبا ويصب فى بحيرة أفامِيَةَ، ويخرج منها مع العاصى .

ومنها — النهر الأسود، يجرى من الشمال ويمرّ تحت دَرْبَسَاكَ ويمتدّ حتّٰى يصبّ فى بُحَيْرَة أَنْطَاكِيَةَ ويخرج منها ويصب فى العاصى .

ومنها — نهر يَغْرَا — بفتح الياء المثناة تحت وسكون الغين المعجمة وفتح الراء المهملة ثم ألف مقصورة — بلدة هناك يمرّ عليها ويصب فى النهر الأسود المذكور .

ومنها — عِفْرِينُ — بكسر العين المهملة وسكون الفاء وكسر الراء المهملة ثم ياء مثناة تحت ونون فى الآخر — وهو نهر يأتى من بلاد الروم ويمرّ علىٰ الرَّاوَنْدَان إلىٰ الجُومَة ويمرّ فى الجُومة إلىٰ العَمْق ويختلط بالنهر الأسود .

الثالث — نهر الأُرْدُنّ . والأُرْدُنُّ بضم الهمزة وسكون الراء المهملة وضم الدال المهملة أيضا وتشديد النون . كذا ضبطه السمعانىّ فى "اللُّبَابِ" قال : وهى بلدة من بلاد الغَوْر من الشام نسب إليها النهر ويسمى الشريعةَ أيضا، وأصله من أنهار تصب من جبل الثلج إلىٰ بحيرة بانِيَاس، ثم يخرج من البحيرة المذكورة ويصب فى بحيرة طَبَرِيَّةَ، ويمتدّ جنوبا، وهناك يصب فى نهر اليَرْمُوكِ بين بحيرة طبريَّةَ المذكورة وبين القُصَيْر، ويمتدّ فى وسط الغَوْر جنوبا حتّٰى يجاوز بَيْسَانَ، ويمتدّ فى الجنوب كذلك إلىٰ أرِيحَا، ولا يزال يمتدّ فى الجنوب حتّٰى يصب فى بحيرة زُغَر وهى البحيرة المُنْتِنَةُ المعروفة ببحيرة لُوط .

الرابع — نهر العَوْجَاء — بفتح العين المهملة وسكون الواو وفتح الجيم وبعدها ألف — ويسمّٰى نهر أبى فُطْرُس (بضم الفاء وبالطاء والراء والسين المهملات) وهو نهر شمالىّ مدينة الرملة من فِلَسْطِينَ باثنى عشر مِيلًا، ومَنْبَعُه من تحت جبل الخليل

عليه السلام مقابِلَ قلعةٍ خراب هناك تسمّى مجد اليابا[(١)]، ويجرى هذا النهر من الشرق إلىٰ الغرب ، ويصب فى بحر الروم جنوبىّ غابة أَرْسُوفَ، ومن مَنْبَعه إلىٰ مصبه دون مسافة يوم. قال فى "العزيزى": وماالتقىٰ عليه جيشان إلا غَلَبَ الغربىّ وآنهزم الشرقىّ ،وسيأتى الكلام علىٰ أنهار دِمَشْق فى الكلام علىٰ حاضرتها إن شاء الله تعالىٰ إذ لا يتعدّاها إلىٰ غيرها من البلاد .

الخامس — نهر جَيْحَانَ . بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحتُ وفتح الحاء المهملة وبعد الألف نون — وتُسمّيه العامّة جَهَانَ — بجيم وهاء مفتوحتين وألف ثم نون، وربما زادوا ألفا بعد الجيم فقالوا جَاهَانَ ، وإليه تنسب الفتوحات الجاهانية الآتى ذكرها . قال : فى "رسم المعمور" : وأوّله عند طول ستين درجةً وعَرْض أربعين درجةً، وهو نهرٌ يقارب الفُرَاتَ فى الكِبَر، ويمرّ بسِيس، ويسير من الشّمال إلىٰ الجنوب بين جبال فى حدود الروم حتّى يبلغ المَصِّيصة من شَماليّها حيث الطول تسع وخمسون وكسر والعرضُ ست وثلاثون درجةً، وعرض خمس عشرة[(٢)]،وجَرَيَانه عندها من المشرق إلىٰ المغرب،ويتجاوز المَصِّيصة ويصبّ بالقرب منها فى بحر الروم .

السادس — نهر سَيْحَانَ . بفتح السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الحاء المهملة وبعدها ألف ثم نون . قال فى "رسم المعمور" : وأوّله عند طول ثمان وخمسين، وعرض أربع وأربعين، ويمرّ ببلاد الروم إلىٰ الجنوب عند مجرىٰ جَيْحَانَ المتقدّم ذكره، ويسير حتّى يمرّ ببلاد الأَرْمَنِ،ويمرّ علىٰ سُور أَذَنَةَ من شرقيها حيث الطولُ تسع وخمسون بغير كسر،والعرضُ ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقةً،

---

(١) أوردها فى المعجم هكذا "مَجْدَلِيَابَةَ" .

(٢) فى تقويم أبى الفداء "وخمس عشرة دقيقة" .

ويتجاوز أَذَنَةَ ويلتقى مع جيحان المتقدّم ذكره ويصيران نهرا واحدا، ويصبّان فى بحر الروم بين آيَاسَ وطَرَسوس علىٰ ما تقدّم ذكره .

المقصد الثانى

(فى ذكر بحيراته، وهى ثمانُ بحيرات)

الأولىٰ — بحيرة طَبَرِيَّةَ . قال الزجاجىّ : سميت طَبَرِيَّةَ بطبارى ملك من ملوك الروم، وهى فى أوّل الغَوْرِ، يدخل إليها نهرُ الشريعة المنصبُّ من بحيرة بَانِيَاسَ الآتى ذكرها، ودَوْرها نحو مسيرة يومين، ووسطها حيث الطول ثمان وخمسون درجةً، والعرض آثنتان وثلاثون، وهى قرعاء. ليس بها قَصَب نابت. وطَبَرِيَّةُ مدينةٌ خرابٌ علىٰ شاطئ البحيرة المذكورة من جانبها الغربىّ الجنوبىّ ، قال العثمانىّ فى "تاريخ صفد" : ويقال إن قبر سليمان بن داود عليهما السلام بهذه البحيرة .

الثانية — بحيرة زُغَر وتعرف ببحيرة سَدُوم وبحيرة لوط . وهى بحيرة منتنة ليس بها سمك ولا يأوِى إليها طير ، وفيها مَصب نهر الأُرْدُنِّ المسمّٰى بالشريعة عند نهايته، ويَغِيض الماء فيها ولا يخرج منها شىء من الأنهار، وهى فى آخر الغَوْرِ من جهة الجنوب ، ودَوْرها فوق مسيرة يومين ، ووسطها حيث الطول تسع وخمسون درجة والعرض إحدىٰ وثلاثون .

الثالثة — بحيرة بانِيَاس . وهى بحيرة بالقرب من بانِيَاس من مقابلة دِمَشْقَ يصبُّ فيها عدّة أنهار من جبلٍ هناك، ويخرج منها نهر الشريعة ويصبُّ فى بحيرة طَبَرِيَّةَ المتقدّم ذكرها، وبها غابة قَصَب .

الرابعة — بُحيرة البِقَاع . وهى مستنقع ماء فى جهة الغرب عن بَعْلَبَكَّ علىٰ مسيرة يوم منها، بها هيش وغاباتُ قَصَب .

الخامسة ـــ بحيرة دِمَشْـقَ . وهى بحـيرة فى شرقىّ غُوطَةِ دِمَشْقَ بمَيْلة يسـيرة إلى الشمال يصب إليها فضلة نهر بَرَدَى وغيره، وتتسع فى أيام الشتاء وتضيق فى أيام الصيف، وبها غابات قَصَب، وفيها أماكن تَحْمِى من العدوّ .

السادسة ـــ بحيرة قَدَس . بفتح القاف والدال وفى آخرها سين مهملة .

وهى بحيرة فى أرضٍ مستوية، عن حِمْصَ فى جهة الغرب على بعض يوم منهـا، وطولها من الشمال إلى الجنوب نحو ثلث مرحلة وفى طرفها الشمالى سدّ ممتدّ فى طولها مبنىّ بالحجر من بنـاء الأوائل ينسب بنـاؤه إلى الإسْكَنْدَرِ طوله شرقا وغربا ألف ومائتان وسبعة وثمـانون ذراعا، وعرضه ثمـانية عشر ذراعا ونصف ذراع، وعلى وسط السدّ بُرْجَانِ من حجر أسود .

السابعة ـــ بحيرة أفامِيَةَ . وهى عدّة بطائح فى الغرب بمَيْلة إلى الشمال عن أفامِيَةَ بين غابات من القَصَب، يصب فيها النهر العاصى من جهة الجَنُوبْ . وبها بحيرتان جنوبية وشمالية يصاد فيهما السمك، فالجنوبية منهما بُحَيْرَةُ أفَامِيَةَ المذكورة، وسَعَتها بالتقريب نحو نصف فرسخ، وقَعْرها قريب قامة، وأرضها مَوْحَلة لا يقدر الإنسان على الوقوف فيها، وبوسطها جُمَم قصَب وبَرْدِىّ وحولها القصب والصَّفْصاف، وبها من أنواع الطير مالا يحصٰى كثرةً، وينبت بهـا فى زمن الربيع اللَّيْنُوفَرُ الأصفر حتّى يستر المـاء عن آخره بورَقه وزَهْرِه . والبحيرة الشمالية من عمل حصن بَرْزُوَيَةَ بقدر بحيرة أفامية أربَعَ مرات، ووسطها مكشوف، وينبت اللَّيْنُوفَرُ بجانبيها الجنوبىّ والشَّمالىّ وبينها وبين بحيرة أفَامِيَةَ المذكورة زُقَاق تسـير فيه المراكب من إحداهمـا إلى الأخرى . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويعتبر طول هذه البطائح وعَرْضها بأفامية .

الثـامنة ـــ بحيرة أَنْطَاكِيَةَ . وهى بحيرة بين أَنْطَاكِيَةَ وبَغْرَاسَ وحارِم فى أرض تعرف بالعَمْقِ (بفتح العين المهملة وسكون الميم) من معاملة حَلَب شمالىّ أَنْطَاكِيَةَ على

مَسِيرة يومين من حَلَب فى جهة الغرب عنها . وفيها مَصَبُّ نهر عِفْرِينَ والنهر الأسود ونهر يَغْرَا المتقدّم ذكرها ، ودَوْرُها نحو مسيرة يوم ، وآجَامُ القصب محيطةٌ بها وفيها من الطير والسمك نحو ماتقدّم ذكره فى بحيرة أفَامِيَةَ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وطولها طول أَنْطَاكِيَةَ تقريبا ، وعَرْضها أكثر من عرضها بدقائق .

المقصــــد الثــالث

(فى ذكر جباله المشهورة التى يتعلق بها كثير من المقاصد ، وهى عدّة أَجْبُل)

منها — (جبل الثَّلْج) بالثاء المثلثة والجيم ، وما يتصل به . قال فى "تقويم البلدان" : والطرف الجنوبىّ لهذا الجبل بالقرب من صَفَدَ . قال فى " رسم المعمور " حيث الطولُ تسع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرضُ آثنتان وثلاثون درجة . قال : فى "تقويم البُلْدان" : ثم يمتدّ إلىٰ الشَّمال ويتجاوز دِمَشْقَ . فإذا صار فى شَمَالِيّها ، سمّى جبل (سَنِير) ويسمّى جانبه المطلُّ علىٰ دِمَشْق جبل (قاسِيُون) ويتجاوز دِمَشْقَ ويمرّ غربىّ بَعْلَبَكَّ ، ويسمّى الجبل المقابل لبَعْلَبَكَّ جبل (لُبْنَانَ)[1] بلام مكسورة وباء موحدة ساكنة ونون مفتوحة بعدها ألف ونون ثانية — وإذا تجاوز بَعْلَبَكَّ وصار شرقىّ طَرَابُلُس سمى جبل (عَكَّارٍ) بعَيْنٍ مهملة مفتوحة وكاف مشدّدة وراء مهملة فى الآخر — إضافة إلىٰ حصْنٍ بأعلاه يسمّى عَكَّارًا ، ثم يمرّ شَمالا ويتجاوز طَرَابُلُسَ إلىٰ حِصْنِ الأكراد من عمل طَرَابُلُسَ ، ويسامت حِمْصَ من غربيِّها علىٰ مسيرة يوم ويمتدّ حتّى يجاوز سَمْتَ حماة ، ثم سَمْتَ شيْزَر ، ثم سمت أفَامِيَةَ ، ويسمّى قبالة هذه البلاد جبل (اللُّكَامِ) بضم اللام . قال فى "رسم المعمور" : وجبل اللُّكَامِ يمتدّ إلىٰ أن يصير بينه وبين جبل شَحْشَبُو ، آتساعه نصف يوم حتّى يتجاوز صَهْيُون والشُّغْرَ وبَكَاسَ والقُصَيْر ، وينتهى إلىٰ أنطاكِيَةَ فينقطع هناك ويصير قُبَالَةَ جبال الأرْمَن .

---

(١) ضبطه ياقوت والمجد بضم اللام .

قال فى "تقويم البُلْدان" : ويقابل جبلَ اللُّكام المذكور عند مسامتته لأَفَامِيَةَ المتقدّمةِ الذكر جبلٌ آخر من شرقيّه ، يسمّى جبل (شَحْشَبُو) بشين معجمة مفتوحة وحاء مهملة ساكنة وشين ثانية مفتوحة بعدها باء موحدة مضمومة ثم واو - إضافة إلىٰ قرية هناك تسمّى بذلك ، ويمرّ من الجنوب إلىٰ الشّمال علىٰ غربىّ المَعَرَّةِ وسَرْمِينَ وحَلَب ، ثم يأخذ غربا و يتصل بجبال الروم .

ومنها - (جبل عامِلَةَ) وهو جبل ممتدّ فى شرقىّ ساحل بحر الروم وجنوبيّه ، حتّى يقرب من مدينة صُور ، وعليه شَقِيفُ أَرْنونَ ، نزله بنو عاملة بن سبإٍ من عرب اليمن عند تفرّقهم بسَيْلِ العَرِمِ فعُرِف بهم .

ومنها - (جبل عَوْف) وهو جبل بالقرب من عَجْلُونَ ، كان ينزله قوم من بنى عوف من جَرْم قُضَاعَةَ فعُرِف بهم ، وكانوا عُصاةً لا يدخلون تحت طاعة حتّى بنىٰ عليهم أُسَامَةُ أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب قلعة عَجْلُونَ فدخلوا تحت الطاعة علىٰ ما سيأتى ذكره .

ومنها - (جبل الصَّلْت) إضافة إلىٰ مدينة الصَّلْت الآتى ذكرها فى أعمال دِمَشْقَ ، وهو جبل فى شرقىّ جبل عَوْف وشماليّه ، كان أهله عصاةً حتّى بنىٰ عليهم المُعَظَّمُ عيسىٰ ابن العادل حصنَ الصَّلْت فدخلوا فى الطاعة .

المقصد الرابع
(فى ذكر زروعه وفواكهه ورَيَاحينه)

أما زروعه فغالبها علىٰ المطر . قال فى "مسالك الأبصار" : ومنها ما هو علىٰ سَقْى الأنهار وهو قليل ، وفيه من الحبوب من كل ما يوجد فى مصر من البُرّ والشعير والذُّرَةِ والأَرُزّ والبَاقِلَّا والبِسِلَّة والجُلْبَان ، واللُّوبِيَاء والحُلْبة ، والسِّمْسِم والقُرْطُم ، ولا يوجد فيه

الكَتَّانُ والبَرْسِيمُ ،وبه من أنواع البِطِّيخ والقِثَّاءِ مايُستطاب ويستحْسَن ، وكذلك غيرها من المزدرعات كالقُلْقَاسِ والمُلُوخيَّا والبَاذنجَـانِ واللِّفْتِ والجَزَرِ والهِلْيَوْنِ والقُنَّبِيط والرِّجْلَةِ والبَقْلة اليمانيَة ، وغير ذلك من أنواع الخضراوات المأكولة ؛ وقصبُ السُّكَّر فى أغواره إلا أنه لم يبلغ فى الكثرة حدّ مصر .

وأما فواكهه ، ففيه من كل ما يوجد فى مصر كالتِّينِ والعِنَبِ والرُّمَّانِ والقَرَاصِـيَا والبَرْقُوقِ والمِشْمِشِ والخَوْخِ ـ وهو المسمّى بالدُّرَاقِن ـ والتُّوتِ والفرصَاد ؛ ويكثر بها (١) التُّفَّاحُ والكُمَّثْرىٰ والسَّفَرْجَلُ مع كونها أكثر أنواعا وأبْهَجَ مَنْظَرًا ، ويزيد عليه فواكه أُخَر لا توجد بمصر ، وربمـا وجد بعضها فى مصر علىٰ الندور الذى لا يعتدّ به كالجَوْزِ والبُنْدُقِ والإجَّاصِ والعُنَّابِ والزُّعْرُورِ ، والزَّيْتُونُ فيه الغاية فى الكثرة ، ومنه يعتصر الزيتُ وينقل إلىٰ أكثر البُلْدان وغير ذلك ، وبأغوارها أنواع المُحَمَّضـات كالأُتْرُجِّ واللَّيمون والكَبَّاد والنَّارَنْج ولكنه لا يبلغ فى ذلك حدّ مصر ، وكذلك المَوْزُ ولا يوجد البَلَحُ والرُّطَبُ فيه أصلا . قال فى "مسالك الأبصار": وفيه فواكه تأتى فى الخريف وتبقىٰ إلىٰ الربيع كالسَّفَرْجَلِ والتُّفَّاحِ والعِنَبِ .

وأما رَيَاحِينُه ، ففيه كلُّ مافى مِصْرَ من الآسِ والوَرْدِ والنَّرْجِسِ والبَنَفْسَجِ والياسمين والنِّسْرِينِ ، ويزيد علىٰ مصر فى ذلك خصوصا الوَرْد حتّى إنه يستقطر منه ماء الورد وينقل منه إلىٰ سائر البُلْدان . قال فى " مسالك الأبصار " : وقد نُسِيَ به ما كان يذكر من ماء ورد جُورَ ونَصِيبِينَ .

---

(١) أى بالشام وأنث بآعتبار البقعة أو البلاد وقوله ويزيد عليه أى علىٰ مصر .

المقصد الخامس

(فى ذكر مواشيه ووحوشه وطيوره)

أما مواشيه ففيه جميع ما تقدّم من مواشى مِصْرَ من الإبل والبَقَر والغَنَم والخَيْل والبِغَال والحَمِير، إلا أن أبقاره لاتبلغ فى العِظَم مبلَغَ أبقار مصر، وأغنامه لاتبلغ فى طيبة اللحم مبلَغَ أغنامها، وحميرُه لم تبلغ فى الفَرَاهة مبلغ حميرها .

وأما وحوشــه ، ففيه الغِزْلَانُ والأرانب والأُسُودُ وكثير من أنواع الوُحُوش المختلفة ممـا لايوجد مثله فى مِصْرَ .

وأما طيوره، ففيه الإوَزُّ والدَّجَاج والحَمَام وأنواع طيور المـاء المختلفة الأنواع . قال فى "مسالك الأبصار" : ولا تكون الفراريج فيها إلا بحَضَانة ولاتنجَعُ فيها المَعَامل التى تُعْمَلُ لإخراج الفراريج فى مصر . قال : ويذكر أن رجلا من أهل مصر عمل فيها مَعْمَلا فى حاضرة العقيبة فصعد له العمل فيه فى الصيف دون الخريف .

المقصد السادس

(فى ذكر النفيس من مطعوماتها)

فيها العَسَلُ بقدر متوســط ، ويعمل فيهـا السُّكَّر الوسط والمكرر ، والشراب موجود فيها دون مصر، وأكثر حَلْوَاهَا من العَسَل والمَنِّ .

الطَّـــــرَف الرابع

(فى ذكر جهاته وكُوَره القديمة وقواعده المستقرّة وأعمالها، وفيه مقصدان)

المقصَد الأوّل

(فى ذكر جهاته وكُوَره القديمة)

قد قَسَّم المتقدّمون الشأم إلىٰ خمسة أجناد ــ جمع جُنْد بضم الجيم وإسكان النون ودال مهملة فى الآخر كما ضبطه الجوهرى ــ وغيره .

الأوّل – (جُنْدُ فِلَسْطِينَ) وفِلَسْطِينُ بكسر الفاء وفتح اللام وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر. قال الزجاجىّ: سميت بفِلَسْطين بن كُلْثوم من ولد فلان بن نوح، بلدة كانت قديما نسبت الكورة إليها. قال ابن حوقل: وهو أوّل الأجناد الخمسة من جهة الغرب من رَفَح إلىٰ حدّ اللَّجُّون، وعَرْضه من يافا إلىٰ أَرِيحَا نحو يومين. قال ابن الأثير: هى كُورَةٌ كبيرة تشتمل علىٰ بلاد المَقْدِس وغَزَّةَ وعَسْقَلَان. قال ابن حوقل: وهى أرخىٰ بلاد الشام.

الثانى – (جُنْدُ الأُرْدُنِّ) والأُرْدُنُّ بلدة قديمة من بلاد الغَوْرِ نسبت الكُورةُ إليها، وقد مرّ ضبطها فى الكلام علىٰ نهر الأُرْدُنِّ عند ذكر الأنهار، وقد نسبت الكُورةُ إليها كما نسب إليها النهر المتقدّم ذكره. قال ابن حوقل: وديار قوم لُوطٍ والبحيرةُ المُنْتِنَةُ وزُغَرُ إلىٰ بَيْسَانَ وإلىٰ طَبَرِيَّة تسمّى الغَوْرَ: لأنه بين جبلين، وسائر بلاد الشام مرتفعةٌ عليه. قال: وبعضها من الأُرْدُنِّ وبعضها من فِلَسْطِينَ.

الثالث – (جُنْد دِمَشْقَ) وسيأتى الكلام عليها فى قواعد الشام المستقرّة.

الرابع – (جند حِمْصَ) وسيأتى الكلام عليها فى الصفقة الشرقية من صَفَقات دِمَشْقَ.

الخامس – (جُنْد قِنَّسْرِينَ). قال فى "اللُّبَاب": بكسر القاف وفتح النون المشدّدة وسكون السين وكسر الراء المهملتين ثم ياء مثناة من تحتُ ساكنة ونون فى الآخر. قال الزجاجىّ: وقد روى أنها سميت برجل من قَيْسٍ(١) يقال له ميسرة، نزلها فمرّ به رجل فقال له: ما أشبه هذا الموضعَ بِقِنِّ سيرين! فبنى منه اسم للمكان فقيل: قِنَّسرِينُ. وقيل: دعا أبو عُبَيْدَةَ مَيْسَرَةَ بن مسروق القيسىّ(٢) فوجهه فى ألف فارس

(١) فى معجم البلدان لياقوت: برجل من عبس.
(٢) « « « : العبسىّ.

فى أثر العدو فمرّ على قِنَّسْرِينَ فجعل ينظر إليها فقال : ماهذه؟ فسُمِّيت له بالرومية. فقال : واللهِ كأنها قِنَّسْرِينُ . قال : وهذا يدل على أن قِنَّسْرِينَ آسم مكان آخر عَرَفَه ميسرةُ فشَبَّه به هذا فسميت به .

قال آبن الأنبارىّ : وفى إعرابها قولان .

أحدهما ــ أنها تجرى مجرى قولك الزيدون فتجعلها فى الرفع بالواو فتقول هذه قِنَّسْرُونَ وفى الخفض والنصب بالياء فتقول مررت بقِنَّسْرِينَ ودخلت قِنَّسْرِينَ .

القول الثانى ــ أن تجعلها بالياء على كل حال وتجعلَ الإعراب فى النون ولا تصرفها.

وهى قاعدة من قواعد الشأم القديمة على القرب من حَلَب ؛ كان الجُنْد ينزلها فى آبتداء الإسلام ، ثم ضَعُفت بحلب وخَرِبت وصارت قرية على ما سيأتى ذكره فى الكلام على حلب إن شاء الله تعالى .

قال آبن الأثير : وكل جُنْدٍ منها عَرْضُه من ناحية الفُرَاتِ إلى ناحية فِلَسْطِينَ ، وطوله من الشرق إلى البحر ، وحكاه فى "التعريف" على وجه آخر فقال : للناس فى الشأم أقوالٌ ، فمنهم من لا يجعله إلا شاما واحدا [ومنهم من يجعله شامات ، فيجعلون بلاد فِلَسْطِينَ والأرض المقدّسة إلى الأُرْدُنِّ شامًا[(١)]] ويقولون الشام الأعلى ؛ ويجعلون دِمَشْقَ وبلادها من الأُرْدُنِّ إلى الجبال المعروفة بالطِّوال شاما ، ويقع على قرية النَّبْك وما هو على خطها ، ويجعلون سُورِيًا : وهى حِمْص وبلادها إلى رَحْبة مالك بن طَوْق شاما ، ويجعلون حماة وشَيْزَر من مضافاتها . وثَمَّ من يجعل منها حماة دون شَيْزَر ، ويجعلون قِنَّسْرِينَ وبلادَها وحَلَبَ مما يدخل فى هذا إلى جبال الروم وبلاد العواصم والثُّغُور : وهى بلاد سِيس شامًا . ثم قال : أما عَكَّا وطَرَابُلُس وكل

(١) الزيادة عن ضوء الصبح للؤلف ليستقيم الكلام .

ما هو علىٰ ساحل البحر فكلُّ ما قابَلَ منه شيئا من الشامات حُسِب منه . قال : ونبهنا علىٰ ذلك كله ليعرف . ثم قال : أما ماهو فى زماننا وعليه قانون ديواننا فإنه إذا قال سلطاننا بلاد الشام ونائب الشام لا يريد به إلا دِمَشْقَ ونائبها . وسيأتى الكلام علىٰ حدود ولايته فى الكلام علىٰ نيابة دِمَشْقَ إن شاء الله تعالىٰ .

المقصـــــــد الثـانى

(فى ذكر قواعده المستقرّة وأعمالها، وهى ستُّ قواعدَ، كلُّ قاعدة منها تعدّ مملكة بل كانت كلُّ قاعدة منها مملكةً مستقلة بسلطان فى زمن بنى أيوب)

القاعدة الأولىٰ

(دِمَشْقُ ؛ وفيها جملتان)

الجمـــــلة الأولى

(فى حاضرتها)

وهى بكسر الدال المهملة وفتح الميم وسكون الشين المعجمة وقاف فى الآخر. وتسمى أيضا جِلَّقَ ــ بجيم مكسورة ولام مشدّدة مفتوحة وقاف فى الآخر . وبذلك ذكرها حَسَّانُ بن ثَابِتٍ رضى الله عنه فى مدحه لبنى غَسَّانَ : ملوكِ العرب بالشأم بقوله :

لِلّٰهِ دَرُّ عِصَابَةٍ نَادَمْتُهُــــمْ * يَوْمًا بِجِلَّقَ فى الزَّمَانِ الأَوَّلِ

وحكىٰ فى "الروض المعطار" تسميتها جَيْرُونَ ــ بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت وضم الراء المهملة وسكون الواو ونون فى الآخر ــ وسماها فى موضع آخر العَذْرَاء ــ بفتح العين المهملة وسكون الذال المعجمة وفتح الراء المهملة وألف بعـدها ــ وموقعها فى أواخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون": وطولها ستون درجة وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقد اختلف فى بانيها : فقيل بناها

نُوحٌ عليه السلام، وذلك أنه لما نزل من السفينة أشرف فرأىٰ تلَّ حراف[(١)] بين نهرى حراف وديصاف[(١)]، فأتاه فبنىٰ حراف، ثم سار فبنىٰ دِمَشْقَ، ثم رجع إلىٰ بابِلَ فبناها. وقيل بناها جَيْرُونُ بن سعد بن عاد، وبه سميت جَيْرُون. ويقال إن جَيْرُون وبَرِيدا كانا أخَوَيْنِ وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وبهما يعرف باب جيرون وباب البريد من أبوابها. وقيل بناها العازر: غلام إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والسلام، وكان حَبَشِيًّا وهبه له نُمْرُوذ بن كَنْعان حين خرج إبراهيم من النار، وكان اسمه دِمَشْقَ فسماها باسمه.

وفى "كتاب فضائل الفُرْس" لأبى عُبَيْد أن بيوراسب ملك الفُرْس بناها. وقيل إن الذى بناها ذو القَرْنين عند فراغه من السدّ ووَكَّل بعمارتها غلاما له اسمه دمشقش وسكنها دمشقش ومات فيها فسميت به. وهى مدينة عظيمة البناء ذات سور شاهقٍ ولها سبعة أبواب: باب كَيْسانَ، وبابُ شرقىّ، وباب تُوما، وباب الصغير، وباب الجابية، وباب الفَراديس، والباب المسدود.

وروىٰ الحافظ بن عساكر عن أبى القاسم تَمَّام بن محمد: أن بانيها جعل كل باب من هذه لِكَوْكَبٍ من الكواكب السبعة، وصوّر عليه صُورتَه، فجعل باب كَيْسَانَ لزُحَلَ، وباب شَرْقىّ للشمس، وباب تُوما للزُّهَرَة، وباب الصغير للمُشْتَرى، وباب الجابية للمرِّيخ، وباب الفراديس لعُطَارِدَ، والباب المسدود للقمر. وعلىٰ كل حال فهى مدينة حسنة الترتيب، جليلة الأبنية، ذات حواجز بنيت من جهاتها الأربع، وغُوطتها أحد مستَنْزَهات الدنيا العجيبة المفضلة علىٰ سائر مستنزهات الأرض، وكذلك الرَّبْوَةُ وهى كَهْفٌ فى فم واديها الغربىّ، عنده تنقسم مياهها، يقال إن به مَهْدَ عيسىٰ عليه السلام. وبها الجوامع والمدارس، والخَوَانق والرُّبُط، والزوايا والأسواق المرتبة

(١) كذا فى الضوء أيضا ولم نعثر علىٰ هذين الاسمين.

والديار الجليلة المُذْهبة السُّقُف المفروشة بالرخام المنوّع، ذاتُ البِرَك والماء الجارى. وربما جرىٰ الماء فى الدار الواحدة فى أماكِنَ منها والماء مُحَكَّم عليها من جميع نواحيها باتقان محكم؛ وهى فى وَطَاءة مستوية من الأرض بارزةٌ عن الوادى المنحطّ عن منتهىٰ ذيل الجبل، مكشوفةُ الجوانب لمرّ الهواء إلا من الشَّمال فإنه محجوب بجبل قاسِيُونَ، وبذلك تُعاب وتنسب إلىٰ الوَخَامة. قال فى "مسالك الأبصار": ولولا جبلها الغربىُّ المَلَبَّس بالثلوج صيفا وشتاء، لكان أمرها فى ذلك أشدَّ، وحال سُكّانها أشقّ؛ ولكنه دِرْياق ذلك السم، ودواء ذلك الداء. وهى مستديرة به من جميع نواحيه. قال فى "مسالك الأبصار": وغالب بنائها بالحجر ودُورها أصغر مقاديرَ من دُورِ مصر لكنها أكثر زَخْرَفةً منها وإن كان الرخام بها أقل، وإنما هو أحسن أنواعا. قال: وعناية أهلها بالمَبَانى كثيرةٌ، ولهم فى بساتينهم منها ماتفوق به وتحسن بأوضاعه؛ وإن كانت حَلَبُ أجلَّ بناءً لعنايتهم بالحجر، فدِمَشْقُ أَزْيَنُ وأكثر رونقًا لتحكم الماء علىٰ مدينتها وتسليطه علىٰ جميع نواحيها، ويستعمل فى عماراتها خَشَبُ الحُور — بالحاء والراء المهملتين — بدلا من خشب النخل إلا أنه لا يُغشّى بالبياض ويكتفى بحسن ظاهره. وأشرفُ دُورِها ماقَرُب، وأجلُّ حاضرتها ماهو فى جانبيها: الغربىّ والشَّمالىّ.

فأما جانبها الغربىُّ ففيه قلعتها؛ وهى قلعة حسنة مرجلة علىٰ الأرض، تحيط بها وبالمدينة جميعها أسوارٌ عالية، يحيط بها خَنْدَقٌ يطوف الماء منه بالقلعة. وإذا دعت الحاجة إليه أطلق علىٰ جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمها؛ وتحت القلعة ساحةٌ فسيحةٌ بها سُوق الخيل، علىٰ جانب وادٍ ينتهى فيه مما يلى القلعة إلىٰ شرفين محيطين به فى جهتى القبلة والشَّمال، فى ذيل كل منهما مَيْدَان مُمَرَّج بالنجيل الأخضر، والوادى يشق بينهما. وفى الميدان القبلىّ منهما القصرُ الأبلَقُ — وهو قصرٌ عظيم مبنىّ من أسفله

إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بتأليف غريب، وإحكام عجيب؛ بناه الظاهر بيبرس البُنْدُقْدارىّ فى سلطنته، وعلى مثاله بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر، وأمامَ هـذا القصر دركاه يُدخَلُ منهـا إلى دِهْليز القصر، وهو دِهْليز فسيحٌ يشتمل على قاعات ملوكية مفروشة بالرُّخام الملون البديع الحُسْنِ، مؤزَّر بالرخام المفصـل بالصَّـدَف والفَصِّ المُذْهَبِ إلى سُجُف السـقوف، وبالدار الكبرى به إيوانان متقابلان تُطل شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر، وغربيهما على شاطئ وادٍ أخضر يجرى فيه نهر، وله رَفارِفُ عالية تناغى السُّحُبَ، تُشْرِف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغُوطة .

والوادى كامل المنافع بالبيوت الملوكية والإصطبلات السلطانية والحَمَّام وغير ذلك من سائر ما يُحتاج إليه، وبالدكاره التى أمام القصر المتقـدِّم ذكرها جَسْرٌ معقود على جانب الوادى يُتَوصَّل منه إلى إيوان برانىّ يُطَلُّ منه على الميـدان القبلىّ، آستجدّه أقوش الأفرم فى نيابتــه فى الأيام النـاصرية آبن قلاوون، وتُجاهَ باب القصر بابٌ يُتوصَّل من رحبته إلى الميدان الشمالىّ؛ وعلى الشرفين المتقـدِّم ذكرهما أبنيةٌ جليلةٌ من بيوت ومناظرَ ومساجدَ ومدارسَ ورُبُطٍ وخَوَانِقَ وزَوايَا وحمَّـامات ممتدّة على جانبين ممتدّين طول الوادى .

ولهذه القلعة نائبٌ بمفردها غير نائب دمَشْقَ يحفظها للسلطان ولا يُمَكِّنُ أحدا من طلوعها من النائب أو غيره . وإذا دخل السلطان دِمَشْقَ نزل بها . وبها تَخْتُ مُلْك كغيرها من ديار الملك .

وأما جانبها الشَّمالىّ ويسمّى العُقَيبة، فهو مدينة مستقلة بذاتها ذاتُ أبنيةٍ جليلة وعمائر ضَخْمة، يسكنها كثير من الأمراء والجند، وبازاء المدينة فى سفح جبل قاسِيُونَ (مدينة الصالحية): وهى مدينة ممتدّة فى سَفْح الجبل بازاء المدينة فى طول مدًى يُشْرِف

علىٰ دِمَشْقَ وغُوطَتِها ،ذاتُ بيوت[(١)] ومدارسَ وربط وأسواق و بيوت جليلة ،و بأعاليها مع ذيل الجبل مقابرِدمَشْقَ العامَّةُ ، ولكل من دِمَشْقَ والصالحية البساتينُ الأَنِيقة يتَسَلْسُلِ جداولها وتَغَنِّى دوحاتها ، و بتمايل أغصانها وتغرُّد أطيارها ، وفى بساتين النُّزهة بها العمائرُ الضَّخْمة ، والجَوَاسِقُ العليّـة ، والبرك العميقة ، والبحيرات الممتدّة ، تتقابل بهـا الأواوين والمجالس ، وتَحُفُّ بها الغِرَاس والنصـوب المطرّزة بالسَّرْو المُلْتَفّ ، والحُور المشوق القَـدّ والرياحين المتأرّجة الطيب ، والفواكه الجَنِيّـة ، والثمرات الشَّهِيَّة ، والأشياء البديعة ، التى تُغْنِى شهرتها عن الوصف ، ويقوم الإيجاز فيها مقام الإطناب .

ومَسْقَىٰ دِمَشْقَ وبساتينها من نهر يسمَّى بَرَدَىٰ ــ بفتح الباء الموحدة والراء والدال المهملتين وبآخره ألف . أصل مخرجه من عينين : البعيدةُ منهما دون قرية تسمَّى الزَّبَدَانِىّ ، ودونها عَيْنٌ بقرية تسمَّى الفِيجة ، بذيل جبـل يخرج المـاء من صـدع فى نهاية سفله قد عقد علىٰ مخرج المـاء منه عَقْدٌ رومىُّ البناء ، ثم تَرْفِده منابعُ فى مجرىٰ النهر ، ثم يقسم النهر علىٰ سبعة أنهر : أربعة غربية : وهى نهر دَارَيَّا ، ونهر المِزَّة ، ونهر القنوات ، ونهر بَانَاس . وآثنان شرقية وهما نهر يَزِيدَ ، ونهر ثَوْرَا ، ونهر بَرَدَىٰ ممتدّ بينهما .

فأما نهر بَانَاسَ ونهر القَنَوات ، فهما نهرا المدينة حاكمان عليها ومُسَلَّطَانِ علىٰ ديارها ، يدخل نهرُ باناس القلعةَ ، ثم ينقسم قسمين : قسم للجامع وقسم للقلعة ، ثم ينقسم كلُّ قسم منهـما علىٰ أقسام كثيرة و يتفرّق فى المدينة بأصابع مقدّرة معلومة ، وكذلك ينقسم نهر القنوات فى المدينة ، ولا مدخل له فى القلعة ولا الجامع ، ويجرى فى قُنِيٍّ مدفونة فى الأرض إلىٰ أن يصـل إلىٰ مسـتحقاتها بالدور والأماكن علىٰ حسب

(١) لعله ذات مساجد .

التقسيم ، ثم تنصبُّ فضلات الماء والبِرَك ومجارى الميضآت إلىٰ قُنِيٍّ معقودة تحت الأرض ، ثم تجتمع و تتنهَّر و تخرج إلىٰ ظاهر المدينة لسقى البساتين .

وأما نهر يَزِيدَ ، فإنه يجرى فى ذيل الصالحية المتقدّم ذكرها و يشقُّ فى بعض عمارتها .

وأما بقيــة الأنهار ، فإنها تتصرف إلىٰ البساتين والغيطان لسقيها ، وعليها القصورُ والبنيان خصوصا ثَوْرَا فإنه نيل دِمَشْقَ ، عليه جلُّ مبانيها و به أكثر تنزهات أهلها ، مَنْ يخاله يراه زُمُرُّدَةً خضراء ، لألتفاف الأشجار عليه من الجانبين .

و بها (جامع بنى أُمَيَّةَ) وهو جامع عظيم ، بناه الوليدبن عبد الملك بن مَرْوانَ فى سنة ثمان وثمانين من الهجرة ، وأنفق فيه أموالا جَمَّةً حتّٰى يقال إنه أنفق فيه أربعمائة صُنْدوق فى كل صُنْدوق ثمانية وعشرون ألف دينار ، و إنه آجتمع فى ترخيمه آثنا عشر ألف مُرَخِّم . قال فى "الروض المعطار" : وذَرْعه فى الطول من المشرق إلىٰ المغرب مائتا خُطْوة وهى ثلثمائة ذراع ؛ وعرضه من القبلة إلىٰ الشمال مائة خطوة وخمس وثلاثون خُطْوة وهى مائتا ذراع ، وقد زُخْرِفَ بأنواع الزَّخْرَفَةِ من الفُصُوص المُذْهَبَةِ والمَرْمَرِ المصقول ، وتحت نَسْرِهِ عمودان مجزَّعان بالحمرة لم يُرَ مثلهما ، يقال إن الوليد آشتراهما بألف وخمسمائة دينار ، وفى المحراب عمودان صغيران يقال إنهما كانا فى عرش بِلْقِيسَ ، وعند مَنَارته الشرقية حجرٌ يقال إنه قطعةٌ من الحجر الذى ضربه موسىٰ عليه السلام فانفجرت منه آثنتا عشْرَةَ عينا .

وقد ورد أن المسيح عليه السلام ينزل علىٰ المنارة الشرقية منه ، ويقال إن القُبَّة التى فيها المحراب لم تزل مَعْبَدا لأبتداء عمارتها وإلىٰ آخر وقت . بناها الصابئة متعبَّدا لهم ، ثم صارت إلىٰ اليونانيين فكانوا يُعظِّمون فيها دينهم ، ثم آنتقل إلىٰ اليهود فقُتِل يحيىٰ بن زكريا عليه السلام ، ونصب رأسه علىٰ باب جَيْرُونَ من أبوابه فأصابته بركتُه ، ثم صار إلىٰ النصارىٰ فجعلتها كنيسة ، ثم آفتتح المسلمون دِمَشْقَ فاتخذوه

جامعها، وعلق رأسُ الحُسَيْنِ عليه السلام عند قتله فى المكان الذى علق عليه رأس يحيىٰ بن زكريا إلىٰ أن جدّده الوليد، ويقال إن رأس يحيىٰ عليه السلام، مدفون به، وبه مُصحف عثمانَ الذى وَجَّهَ به إلىٰ الشام .

قال فى "الروض المعطار" : ويقال إن أوّل من وضع جداره الأوّل هُودٌ عليه السلام . وقد ورد فى أثرٍ أنه يُعْبَد الله تعالىٰ فيه بعد خراب الدنيا أربعين سنة .

الجملة الثانية

(فى نواحيها وأعمالها وما يدخل تحت حكم الولايات)

وقد ذكر فى "التعريف" أن ولايتها من لَدُن العريش: حدّ مصر إلىٰ آخر سَلَمْيَة مما هو شرق بشمال وإلىٰ الرَّحْبة مما هو شرق بجنوب . قال : وقد أضيف إليها فى زمن سلطاننا بلاد جَعْبَرٍ، وكان من حتمها أن تكون مع حَلَب . وحينئذ فتكون ولايتُها مشتملةً علىٰ الشام الأعلىٰ المتقدّم ذكره وما يليه وما يلى ما يليه، وبعض الشام الأدنىٰ ، وليس يخرج عنه من ذلك إلا حماة وما خرج مع صَفَدَ وطَرَابُلُسَ والكَرَك . قال : ويكون فى نيابة نائبها نيابةُ غَزَّة ونيابةُ حِمْصَ وبعض شيء مما يقتضى الحقُّ أن يكون مع حلب .

وتشتمل علىٰ بَرٍّ وأربع صَفَقات.

فأما البَرُّ فالمراد به ضواحيها . قال فى "التعريف" : وحدّها من القبلة قرية الحيَارَة المجاورة للكُسْوَة وماهو علىٰ سمتها طولا، ومن الشرق الجبال الطِّوال إلىٰ النَّبْك وما علىٰ سمتها من القرىٰ آخذا علىٰ عَسَّانَ(١) وما حولها من القُرىٰ إلىٰ الزَّبَدانى، ومن الغرب ما هو من الزَّبَدانى إلىٰ قرىٰ القران المسامتة للحَيَارَة المقدّم ذكرها . قال : ويدخل فى ذلك مرج دِمشق وغُوطتها .

(١) فى الأصل والضوء باللام [والتصحيح عن ياقوت] .

وأما صَفَقاتها، فأربع صَفَقات .

الصفقة الأولىٰ

(الساحليـــة والجبليـــة)

وهى الصَّفْقَةُ الغربية عن دمشق . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى عبارة عن بلاد غَزَّةَ وما جاورها سَهْلا ووعرا .

قال فى "التعريف": وهذه الصفقة هى الشام الأعلىٰ، ينتقص منه ماهو من نهر الأُرْدُنّ إلىٰ حدّ قاقُونَ . ثم هذه الصفقة لها جهتان .

الجهـــــة الأولى

(الساحلية، وهى التى بساحل بحر الروم المتقدّم ذكره، وتشتمل علىٰ أربعة أعمال)

الأوّل ـ (عمل غَزَّة)ـ بفتح الغين المعجمة وتشديد الزاى المعجمة أيضا وفى آخرها هاء ـ وهى مدينة من جُنْد فِلَسْطِينَ، فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : طولها ست وخمسون درجة وعشر دقائق ، وعَرْضها آثنتان وثلاثون درجة . وقال آبن سعيد : طولها سبع وخمسون درجة، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة، وهى علىٰ طَرَف الرمل بين مصر والشأم، آخذةٌ بين البر والبحر بجانبيها ؛ مبنيةٌ علىٰ نَشَزٍ عالٍ علىٰ نحو ميل من البحر الرومىّ، متوسطة فى العِظَم، ذات جوامعَ، ومدارسَ، وزوايا، و بيمارستان، وأسواق؛ صحيحةُ الهواء، وشرب أهلها من الآبار؛ وبها أمكنة يجتمع بها المطر إلا أنه يُسْتثقَل فى الشرب فيعدل منه إلىٰ الآبار لخفَّة مائها ؛ و بساحلها البساتين الكثيرة . وأجلُّ فا كهتها العِنَبُ والتِّينُ؛ وبها بعض النخيل ، وبَرُّها ممتدّ إلىٰ تِيه بنى إسرائيل من قبليها ، وهو موضع زَرْعٍ

وماشية إلا أن أهل برها عُشْرَان(١) بعضهم أعداء بعض . ولولا خوف سطوة السلطنة لمـا أُغْمِدَ سيفُ الفتنة بينهم ولاَجتاحوا المدينة ومَنْ فيها .

قلت : والحال فيها مختلف : فأكثر الأحيان هي تقدمة عسكر مضافة إلى دِمَشْقَ، يأتمر مقدّم العسكر فيها بأمر نائب السلطنة القائم بدِمَشْقَ، ولا يُمْضِى أمرا دون مراجعته وإن كانت ولايته من الأبواب السلطانية، وتارة تكون نيابةً مستقلّة وتضاف إليها الصفقة الساحلية بكمالها فيكون لها حكم النيابات .

الثانى — (عمل الرَّمْلَة) . بفتح الراء المهملة وسكون الميم وفتح اللام وفى آخرها هاء — وهى مدينة من جند الأُرْدُنّ، موقعها فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : طولها ست وخمسون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وعشر دقائق . وقال فى "القانون" : طولها ست وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة. وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ست وخمسون درجة وست وعشرون دقيقة، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وثلاث وعشرون دقيقة .

وهى مدينة إسلامية بناها سليمان بنُ عبد الملك فى خلافة أبيه عبد الملك . قال فى "الروض المعطار": وسميت الرَّمْلَة لغلبة الرمل عليها. وقال فى "مسالك الأبصار": سميت بآمرأة آسمها رَمْلَةُ، وجدها سليمانُ بن عبد الملك هناك فى بيتِ شَعَر حين نزل مكانها يرتاد بناءها، فأكرمته وأحسنت نُزُلَه، فسألها عن آسمها فقالت رَمْلَةُ، فبنى البلد وسماها بآسمها . قال فى "العزيزى" : وهى قَصَبَة فِلَسْطِينَ، وهى فى سهل من الأرض، وبينها وبين القُدْسِ مسيرة يوم . قال فى "الروض المعطار" : وبينها وبين نَابُلُسَ يوم، وبينها وبين قَيْسَارِيَّةَ مرحلة، وكان عبدُ المَلك قد أجرى إليها قناة

(١) كذا فى الأصل مضبوطا .

ضعيفة للشرب منهـا ، وأكثر شربهم الآن من الآبار ومن صهاريجَ يجتمع فيها ماء المطر، وهى مَقَرَّةُ الكاشف بتلك الناحية .

ومِينَاها مدينة يَافَا ــ بفتح المثناة من تحت وألف وفاء ثم ألف فى الآخر ــ وهى مدينة صغيرة بالساحل، وهى فى الغرب عن الرملة و بينهما ستة أميال .

الثالث ــ (عمل لُدّ) ــ بضم اللام وتشديد الدال المهملة ــ وهى بلدة من جُنْدِ فِلَسْطِينَ واقعةٌ فى الإقليم الثالث شرقا بشمال عن الرملة ، و بينهما ثلاثة فراسخ ، ولم يتحرّر لى طولها وعَرْضها ، غير أنها نحو الرَّمْلَةِ فى ذلك : لقربها منها أوأطولُ وأعرضُ بقليل . وهى مدينة قديمةٌ كانت هى قصبةَ فِلَسْطِينَ فى الزمن الأوّل إلىٰ أن بنيت الرَّمْلَةُ فتحوّل النـاس إليها وتركوا لُدّا ، وقد ثبت فى الصحيح أن المسيح عليه السلام يقتل الدَّجَّال ببابها .

الرابع ــ (عمل قَاقُونَ) ــ بفتح القاف و بعدها ألف ثم قاف ثانية مضمومة ــ وهى مدينة لطيفة غيرُ مُسَوَّرةٍ ، بها جامعٌ وحَمَّام وقلعة لطيفة ، وشربها من ماء الآبار ، ولم يتحرّر لى طولها وعرضها ، إلا أن بينها و بين لُدّ مسيرة يوم فلتعتبر بها بالتقريب .

الجهة الثـانية

(الجَبَلِيَّة ، وبها ثلاثة أعمـال)

الأوّل ــ (عمل القُدُس) . والقُدُس بضم القاف والدال لفظ غاب علىٰ مدينة بيت المَقْدِس ــ بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة ــ وهو المسجد الأقصىٰ ، وأصل التقديس التطهير ، والمراد المُطَهَّر من الأدناس . وهى مدينة من جُنْدِ فِلَسْطِينَ واقعةٌ فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال": طولها ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان": والقياس أن طولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضَها ثلاثون درجة .

وهى مبنية على جبل مستدير، وعرةُ المسلك؛ وبناؤها بالحجر والكِلْس؛ وغالب حجرها أسود؛ وشُرْبُ أهلها من ماء المطر المجتمع بصهاريج المسجد الأقصى وعينٍ تجرى إليها عن بُعْد، وكذلك عين سُلْوان وليس ماؤها بالكثير، وكان بها آثار قلعة قديمة خَرِبتْ فجدّدها الناصر "محمد بن قلاوون" فى سنة ستَّ عشرةَ وسبعمائة، وليس بها حَصَانَةٌ، وكانت المدينة كلُّها قد غلب عليها الخراب من حين آستيلاء الفرنج عليها، ثم تراجع أمرها للعمارة، وصارت فى نهاية الحُسْن؛ بها المدارس والرُّبُطُ والحمَّامات والأسواق وغيرها. والمسجد الأقصى هو أحد المساجد الثلاثة التى تشدّ إليها الرحال، وهو القبلة الأولى.

قال فى "الروض المعطار": وأوّل من بنى بيتَ المقدس وأرِىَ موضعَه يعقوبُ عليه السلام، وقيل داودُ. والذى ذكره فى "تقويم البُلْدان" أن الذى بناه سليمان آبن داود عليهما السلام وبقى حتّى خَرَّبه بُخْتَنَصَّر، فبناه بعض ملوك الفُرْس وبقى حتّى خَرَّبه طيطوس ملك الروم، ثم بقى ورُمِّمَ، وبقى حتّى تنصر قُسْطَنْطِينُ ملك الروم وأُمُّهُ هيلانة وبنَتْ أُمُّه قُمَامة على القبر الذى يزعمُ النصارى أن المسيح عليه السلام دُفِن فيه، وخَرَّبت البناء الذى كان على الصخرة وجعلتها مطرحا لقُمَامات البلد عِنادا لليهود؛ وبقى الأمر على ذلك حتّى فتح أميرُالمؤمنين: عمرُ بنُ الخَطَّاب رضى الله عنه القُدُسَ فدُلَّ على الصخرة فنظَّف مكانها وبنى عليها مسجدا، وبقى حتّى ولِىَ الوليد آبن عبدالملك الخلافةَ فبناه على ماهو عليه الآن. على أن المسجد الأقصى على الحقيقة جميع ماهو داخل السور، وعلى القرب من المسجد الصخرةُ التى ربط النبىّ صلى الله عليه وسلم بها البُراق ليلة الإسراء، وهى حجر مرتفع مثل الدكة آرتفاعها من الأرض نحو قامة، وتحتها بيت طوله بَسْطة فى مثلها، ينزل إليها بسُلَّم وعليها قبة عالية، بناها الوليد بن عبد الملك حين بنى المسجد الأقصى.

قال المهلّبي في كتابه "العزيزي" : ولمـا بناها الوليد بنىٰ هناك عِدّة قِباب وسمّى كل واحدة منها بٱسم : وهي قُبَّة المعراج، وقبة الميزان، وقُبَّة السِّلْسلة، وقبة المَحْشَر.

قال في "مسالك الأبصار" : وإلىٰ الصخرة المتقدّمة الذكر قِبْلَةُ اليهود الآن، وإليها حَجُّهم. وبه القُمَامة التي تحجها النصارىٰ من أقطار الأرض، وبيتُ لَحْم الذي هو من أجلّ أماكن الزيارة عندهم، وكان به كنيسة للروم يقال إن بها قبر حَنَّةَ أمّ مريم بنت عمران عليها الســلام ثم صارت في الإسلام دَارَ علم . فلما ملك الفرنْجُ القُدُس في ســنة ٱثنتين وتسعين وأربعمائة أعادوها كنيسة، فلمـا فتح السلطان صلاحُ الدين القُدُسَ بنىٰ بها مدرسة . وكان ٱسمها في الزمن الأوّل إيليا . والأرض المقدّســة مشتملة علىٰ بيت المَقْدِس وما حوله، إلىٰ نهر الأُرْدُنّ المسمّى بالشريعة، إلىٰ مدينــة الرَّمْلَةِ طولا، ومن البحر الشاميّ إلىٰ مدائن لُوطٍ عليه السلام، وغالبها جبال وأودية إلا ماهو في جَنَبَاتها .

الثـاني – (عمل بلد الخليل عليه السلام) . وٱسمها بيت حَبْرُونَ بإضافة بيتٍ واحد البيوت إلىٰ حَبْرُونَ (بحاء مفتوحة وباء موحدة ساكنة وراء مهملة مضمومة بعـدها واو ساكنة ونون) كذا ضبطه في "تقويم البلدان" : وفي كلام صاحب "الروض المعطار" : ما يدل علىٰ إبدال الحاء بجيم والباء الموحدة بمثناة تحتُ، فإنه ذكرها في حرف الجيم في سياقة الكلام علىٰ تسمية دِمَشْقَ جَيْرُونَ . وهي بلدة من جُنْدِ فِلَسْطِينَ في الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة، طولها في بعض الأزياج ست وخمسون درجة وثلاثون دقيقة[1]، وبها قبر إبراهيمَ وإسحاقَ ويعقوبَ عليهم الســلام ونسائهم، وهي إحدىٰ القرىٰ التي أقطعها النبيّ صلّى الله عليه وسلم لتميم الداريّ كما سيأتي ذكره في الكلام علىٰ المناشير إن شاء الله تعالىٰ .

(١) لم يذكر عرضها كما هي عادته .

الثالث ـ (عمل نَابُلُس) ـ بفتح النون وألف وضم الباء الموحدة واللام وسين مهملة في آخرها ـ مدينة من جُنْدِ الأُرْدُنِّ من الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" : طُولها سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثلاثون درجة . وقال في "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ست وخمسون درجة وأربع وعشرون دقيقة ، وعرضها علىٰ ما تقدّم . قال في "مسالك الأبصار" : وهى مدينة يُحْتاج إليها ولا تحتاج إلىٰ غيرها . قال ابن حوقل : وليس بِفِلَسْطِينَ بلدةٌ فيها ماءٌ جارٍ سواها ، وباقى ذلك شرب أهله من المطر وزرعهم عليه ، وبها البئر التى حفرها يعقوبُ عليه السلام؛ وهى مدينة السامرة ، وكانت السامرةُ فى الزمن المتقدّم لا توجد إلا بها؛ وبها الجبل الذى يحج إليه السامرة ، وسيأتى الكلام علىٰ الموجِبِ لتعظيمه عِندهم عند الكلام علىٰ تحليفهم فى باب الأيمان إن شاء الله تعالىٰ .

الصفقة الثانية

(القبلية)

سميت بذلك لأنها قِبْلِىّ دِمَشْقَ . قال فى "مسالك الأبصار" : وتشتمل علىٰ بلاد حَوْرَانَ والغَوْرِ وما مع ذلك . قال فى "التعريف" : وحدّها من القبلة جبال الغَوْرِ القبلية المجاورة لَمرْج بنى عامر ، ومن الشرق البرِّيَّةُ ، ومن الشَّمال حدود ولاية بَرّ دِمَشْقَ القِبْلِىّ ؛ ومن الغرب الأغوار إلىٰ بلاد الشَّقِيف . قال : والأغوار كلُّها داخلة فى هذه الصفقة خلا ما يختص بالكَرَك .

وتشتمل هذه الصفقة علىٰ عشرة أعمال .

الأوّل ـ (عمل بَيْسَان) ـ بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح السين المهملة وألف ونون ـ مدينة من جُنْدِ الأُرْدُنِّ من الإقليم الثالث . قال

فى "الأطوال" : طولهـا ثمـان وخمسون درجة، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولهـا سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضَها آثنتـان وثلاثون درجة وسبعٌ وعشرون دقيقة . وهى مدينـة صـغيرة بلا سُور، ذاتُ بساتينَ وأشجار وأنهار وأعين، كثيرةُ الخِصْبِ واسعة الرزق، ولهـا عين تشقُّ المدينة، وهى على الجانب الغربىّ من الغَوْرِ .

قال فى "التعريف" : وهى مدينة الغَورِ وبها مقرّ الولاية . قال فى "مسالك الأبصار" : ولهـا قُلَيْعَةٌ من بناء الفِرنْج . قال فى "الروض المعطار" : ويقال إن طَالُوتَ قتل جَالُوتَ هنالك .

الثانى ـ (عمل بانِيَاس) ـ بباء موحدة وألف ونون وياء مثناة تحت وألف ثم سين مهملة ـ مدينة من جُنْدِ دِمَشْقَ واقعةٌ فى الإقليم الثالث . قال فى "تقويم البُلْدان": طولهـا ثمـان وخمسون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة . قال : وهى على مرحلة ونصف من دِمَشْقَ من جهة الغرب بَمْيلة إلى الجنوب . قال فى "العزيزىّ": وهى فى لِحْف جبل الثلج ، وهو مطلٌّ عليها والثلج على رأســه كالعمامة لا يُعْدَمُ منه شتاءً ولا صـيفًا . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة الجَوْلان، وبها قلعة الصُّبَيْبَةِ (بضم الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الباء الموحدة وهاء فى الآخر) . قال فى "التعريف" : وهى من أَجَلِّ القلاع وأمنعها .

الثالث ـ (عمل الشَّعْرَا) ـ بفتح الشين المعجمة وسكون العين المهملة وفتح الراء المهملة وبعـدها ألف ـ وهى عن بَانِيـاسَ المتقدّمة الذكر شرق بجنوب ، وطوله مابين بَانِيَاسَ إلى جبل الثلج . قال فى "التعريف" : والولاية بها تكون تارة بقرية حان (بالحـاء المهملة) وتارة بقرية القُنَيْطِرَةِ تصـغير قنطرة ، ولم يتحرر لى طولها ، وعرضهما فلتعتبرا بمـا قاربهما من الأعمال .

الرابع ـ (عمل نَوىٰ) ـ بفتح النون والواو وألف في الآخر ـ وهي بلدة صغيرة، عن دِمَشْقَ في جهة الغرب إلىٰ الجنوب علىٰ نحو مرحلة ، وهي مدينةٌ قديمةٌ من أعمال دِمَشْقَ، بها قبر أيوبَ النبيِّ عليه السلام ، وإليها ينسب الشيخ مُحيي الدين النوويّ الشافعيّ رحمه الله، ولم يتحرّر لي طولها وعرضها فلتعتبر بما قاربها أيضا، وهي عن يمين الشَّعْرَا المتقدّم ذكرها شرق بجنوب أيضا .

الخامس ـ (عمل أَذْرَعَاتَ)(١) ـ بفتح الهمزة وسكون الذال المعجمة وفتح الراء والعين المهملتين وألف ثم تاء مثناة من فوق في الآخر ـ قال في "الروض المعطار": ويجوز فيها الصرف وعدمه . قال : والتاء في الحالين مكسورة . وقال الخليل بن أحمد : مَنْ كَسَرَ الألفَ لم يصرفْ؛ وهذا صريح في حكاية كسر الألف في أوّلها . ويقال لها يَذْرَعَاتُ بياء مثناة تحتُ بدل الألف ـ وهي مدينة من أعمال دِمَشْقَ من الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" : طولها ستون درجة ، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة ـ وهي مدينة البَثَنِيَّة ، وبينها وبين الصَّنَمين ثمانيةَ عشرَ ميلا . قال في "التعريف" : وبها ولاية الحاكم علىٰ مجموع الصَّفقة، وقد كان قديما بغيرها .

السادس ـ (عمل عَجْلُونَ) ـ بفتح العين وسكون الجيم وضم اللام وسكون الواو ونون في آخره ـ قلعة من جُنْد الأُرْدُنِّ في الإقليم الثالث، طولها ثمان وخمسون درجة وعشر دقائق ، وعرضها ثلاثون درجة وعشر دقائق . مبنيةٌ علىٰ جبل يعرف بجبل عَوْف المتقدّم ذكره في جبال الشام المشهورة تُشْرِف علىٰ الغَوْرِ . وهي محدثة البناء بناها عزُّ الدين أُسَامة بن منقذ : أحد أكابر أمراء السلطان صلاح الدين يوسفَ ابن أيوبَ في سنة ثمانين وخمسمائة . قال في "مسالك الأبصار": وكان مكانها [دير به]

(١) كذا في التقويم أيضا وفي المعجم [وكسر الراء] وفي القاموس [بكسر الراء وتفتح] .

راهب ٱسمه عَجْلُونُ فسميت به . قال فى "التعريف": وهو حِصْن جليل علىٰ صِغَرِه، وله حَصَانَةٌ ومَنَعَةٌ منيعة . ومدينة هذه القلعة البَاعُونة (بفتح الباء الموحدة وألف بعدها ثم عين مضمومة وواو ساكنة ونون مفتوحة وفى آخرها هاء) وهى علىٰ شوط فرس من عَجْلُونَ . قال فى "المسالك" : وكان مكانها دَيْرٌ أيضا به راهب ٱسمه بَاعُونَة فسميت المدينة به، وهما شرقىّ بَيْسَانَ المتقدّم ذكرها

السابع — (عمل البَلْقَاء). قال فى "الروض المعطار" : سميت بالبَلْقَاء بن سورية من بنى عَمَّانَ[1] بن لوط، وهو الذى بناها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى إحدىٰ كُوَرِ الشَّرَاة، وهى عن أَرِيحا فى جهة الشرق علىٰ مرحلة، ومدينة هذا العمل حُسْبَانُ (بضم الحاء وإسكان السين المهملتين وفتح الباء وبعدها ألف ونون) وهى بلدة صغيرة ولها واد وأشجارٌ وأرحيةٌ وبساتين وزروع .

قال فى "مسالك الأبصار" : ومن هذا العمل (الصَّلْتُ) — وهى بألف ولام لازمين فى أوّله وفتح الصاد المهملة المشدّدة وسكون اللام وبعدها تاء مثناة — بلدة لطيفة من جُنْدِ الأُرْدُنِّ فى جبل الغَوْرِ الشرقىّ فى جنوب عَجْلُونَ علىٰ مرحلة منها، وبها قلعة بناها المعظم عيسىٰ بْنُ العادل أبى بكر بن أيوب، وتحت القلعة عَيْنٌ واسعة يجرى ماؤها حتّى يدخل البلد، وهى بلدة عامرة آهلة ذات بساتين وفواكه . قلت : وكلامه فى "التعريف" قد يخالف كلامه فى "مسالك الأبصار" فى جعل الصَّلْت من عمل حُسْبَانَ، فإنه قال: وأوّلها من جهة القبلة البلقاء ومدينتها حُسْبَانُ، ثم الصَّلْتُ، ثم عَجْلُونُ، وعَجْلُونُ عمل مستقلٌّ كما تقدّم، ومقتضاه أن يكون الصَّلْتُ أيضا عملا مستقلا . وكذا رأيته فى "التذكرة الآمدية" نقلا عن شهاب الدين ٱبن الفارقىّ أحدِ كُتَّاب الإنشاء بِدمشْقَ فى الدولة الناصرية ابن قلاوون، وأخبرنى بعضُ

(١) فى الأصل "عبيد" والتصحيح والضبط عن ياقوت فى معجم البلدان .

كُتَّاب الإنشاء أن المستَقَرّ الصَّلْت فقط والبَلْقَاء مضافة إليها، وعليه يدل كلام القاضي تقيّ الدين بن ناظر الجيش في "التثقيف" فإنه قال : وممن كُتِبَ إليه من الوُلاة بالممالك الشامية في قديم الزمان ـ ولعله في الأيام الشهيدية ـ والِي الصَّلْت والبَلْقَاء فيما نقل عن خط المرحوم نصر الدين بن النشائي كاتب الدست الشريف .

الثامن ـ (عمل صَرْخَد) ـ بفتح الصاد وإسكان الراء المهملتين وفتح الخاء المعجمة ودال مهملة في آخره ـ بلدة صغيرة ذات بساتينَ وكُرومٍ وليس بها ماء سوى مايجتمع من ماء المطر في الصهاريج والبِرَك . قال ابن سعيد : وليس وراءَ عملِها من جهة الجنوب وإلى الشرق إلا البَرِّيَّةُ، ومنها تسلك طريق تُعْرَف بالرصيف إلى العراق يصل المسافرون منها إلى بغداد في نحو عشرة أيام . قال في "التعريف" : وبها قلعة وكان بها ملك من المماليك المعظمية . قال في "مسالك الأبصار" : وهي محدَثة البناء بُدِئَتْ قبل نور الدين الشهيد بقليل، ولما وصلت عساكر هُولَاكُو ملِكُ التتار إلى الشأم هدموا شُرُفاتِها وبعض جُدْرانها فجدّدها الظاهر بيبرس، وهي على ذلك إلى الآن .

التاسع ـ (عمل بُصْرى) ـ بضم الباء الموحدة وسكون الصاد المهملة وألف في الآخر ـ هكذا هو مقيد بالشكل في كتب اللغة والحديث والمسالك والممالك وجارٍ على الألسنة، ووقع في "تقويم البُلْدان" ضبطه بفتح أوّله (١) فلا أدري أهو سَبْقُ قلم أو غلط من النسخة أو أخذه من كلام غيره، وهي مدينة بحَوْرَان من أعمال دِمَشْقَ واقعةٌ في الإقليم الثالث . قال في "كتاب الأطوال" و"القانون" : طولها تسع وخمسون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة .

(١) الذي في "تقويم البلدان" طبع باريس سنة ١٨٤٠ م ضبطه بضم الباء الموحدة كما هو المشهور، فلعل نسخة التقويم كانت كذلك فأصلحها المصحح ولم ينبه .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة حَوْرَانَ السفلىٰ، بل حَوْرَانُ كلهــا، بل الصفقة جميعها ؛ وكلامه فى "التعريف" يوافقه ، وهى مدينة أزَلِيَّة مبنية بالحجارة السود، ولها قلعة ذات بناء مَتِين شبيهٍ ببناء قلعة دِمَشْق . قال فى "التعريف" : وكانت دار مُلك لبنى أيوب،وقد ثبت فى الصحيح من حديث الخَنْدق أنه (صلى الله عليه وسلم) . قال "ثم ضربتُ الضربةَ الثالثةَ فلاحَتْ لى مِنْها قُصُور بُصْرىٰ كأنها أنْيابُ الكِلَابِ" وهى التى وجد النبى صلى الله عليه وسلم بها بَحِيرا الراهب وآمن به حين قدم تاجرا لخديجة بنت خُوَيْلِد قبل البِعْثة ، وقبر بَحِيرَا هناك مشهور يزار، وقد تقدّم الكلام عليها فأغنىٰ عن إعادته هنا .

العــاشر ــ (عمل زُرَع) ــ بضم الزاى المعجمة وفتح الراء المهملة وعين مهملة فى الآخر ــ وهى بلدة من بلاد حَوْرَانَ لهــا عمــلٌ مســتقلٌّ، ولم يتحرّر لى طولهــا وعرضها . قال فى "التعريف" : وقد يتصل عمل بُصْرىٰ بأذرِعَاتٍ لوقوع زُرَع متشــاملة .

الصفقة الثــالثة

(الشمالية)

سميت بذلك لأنها عن شَمَال دِمَشْقَ . قال فى "مسالك الأبصــار" : وهى ســاحليَّة وجبليَّــة . قال فى "التعريف" : وحدّها من القبــلة حدّ ولاية دِمَشْقَ الشمالىّ وبعضُ الغربىّ ، وحدّها من الشرق قرية جُوسِــيَةَ التى بين القرية المعروفة بالقَصَب من عمل حمص وبين القرية المعروفة بالفِيجة من عمــل بَعْلَبَكَّ ، وحدّها من الشمال مرج الأسَل المستقل عن قائم الهرمل حيث يمدّ العاصى بطَرَابُلُسَ، وكل ما تشامل عن جبل لُبْنَانَ إلىٰ البحر، وحدّها من المغرب ما هو علىٰ سمت البحر منحدرا عن صور إلىٰ حدّ ولاية بَرِّدِمَشْقَ القبلىّ والغربىّ .

وتشتمل هذه الصفقة علىٰ خمسة أعمال .

الأول - (عمل بَعْلَبَكّ) - بفتح الباء الموحدة وسكون العين المهملة وفتح اللام والبـاء الموحدة الثانية وفى آخرها كاف - هكذا ضـبطه فى " تقويم البُـلْدان " والجارى علىٰ ألسنة الناس فتح العين و إسكان اللام . قال فى " الروض المعطار " : وكان لأهلها صَنَمٌ يدعىٰ بَعْلاً ، فالبعل آسم للصنم ، وبَكّ آسم الموضع فسميت بعلبك لذلك . قال : و إليهم بُعِث النبىّ إلْيَاسُ عليه السلام ، وكأنه يشير بذلك إلىٰ ماقصه الله تعالىٰ فى سورة الصافَّات بقوله : ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ﴾ وكان فتحها فى سنة أربعَ عشرةَ من الهجرة ، وهى مدينة من أعمال دِمَشْقَ واقعةٌ فى الإقليم الرابع طولهـا ستون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهى مدينة شمالىّ دِمَشْقَ ، جليلة البناء ، نبيهة الشان ، قديمة البنيان ، يقال إنها من بناء سليمان عليه السلام . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مختصَرَة من دِمَشْقَ فى كمال محاسنها وحسن بنائها وترتيبها ؛ بها المساجد والمدارس والرُّبُط والخوانق والزوايا والبيمارستان والأسواق الحسنة ، والمـاء جار فى ديارها وأسواقها ، وفيها يُعمل الدهان الفائق من الماعون وغيره ويحمل منها إلىٰ غالب البُلْدان مع كونها واسعةَ الرزق رخيصة السِّعْر ، وكانت دار مُلْك قديم ، ومن عُشِّها درج "نجم الدين أيوبُ" والد الملوك الأيوبية رحمه الله ، وبها قلعةٌ حصينةٌ جليلة المقدار من أجلِّ البنيان وأعظمه ، وهى مرجلة علىٰ وجه الأرض كقلعة دِمَشْقَ . قال فى " التعريف " : بل إنمـا بنيت قلعة دمَشْقَ علىٰ مثالهـا ، وهَيْهَاتَ لا تعدّ من أمثالهـا ! وأين قلعـة دِمَشْقَ منها وحجارتُها تلك الجبال الثوابت ، وعمدها تلك الصخور النوابت .

قَدْ يَبْعُدُ الشَّىْءُ مِنْ شَىْءٍ يشابِهُهُ * إنَّ السَّمَاءَ نَظِيرُ المَـاءِ فى الزَّرَق

وبهذه القلعة من عمـارة مَنْ نزل بهـا من الملوك الأيوبية آثارٌ ملوكية جليلة، ويستدير بالمدينة والقلعة جميعا سُورٌ عظيم البناء مبنيٌّ بالحجارة العظيمة المقدار الشديدة الصَّلابة، ويَحُف بذلك غُوطة عظيمة أنِيقَةٌ ذات بساتين مشتبكةِ الأشجار بها الثمار الفائقة، والفواكه المختلفة . وبظاهرها عين ماء متسعة الدائر ماؤها فى غاية الصفاء بين مروج وبساتين، يمتدّ منها نهر يتكسَّر على الحصباء فى خلال تلك المروج إلى أن يدخل المدينة، وينقسِمَ فى بيوتها وجهاتها . وعلى البعد منها عَيْنٌ أخرى تُعرَف بعين اللحوج (؟) فى طَرَف بساتينها ، منها فرع إلى الجانب الشمالىّ من المدينة ، ويصب فى قناة هناك ويدخل منه إلى القلعة ،وبخارجها جبل لُبْنَانَ المعروف بعُشِّ الأولياء .

الثـانى ــ (عَمَلُ البِقَاعِ البَعْلَبَكِّىّ) ــ بوصف البِقَاع ــ بكسر البـاء الموحدة وفتح القاف وبعدها ألف ثم عين مهملة ــ بالبعلبكىّ، نسبة إلى بعلبك لقربه منها. قال فى "التعريف" : وليس له مقر ولاية .

الثـالث ــ (عمل البِقاعِ العزيزىّ) ــ بوصف البقاع بالعزيزىّ نسبة إلى العزيز عكس الذليل، وكأنه نسـبة إلى الملك العزيزآبن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله . قال فى "التعريف" : ومَقَرُّ الولاية به كَرَكُ نوح عليه السلام . قال : وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بَعْلَبَـكَّ ، وهمـا مجموعتان لوالٍ جليل مفرد بذاته .

الرابع ــ (عمل بَيْرُوتَ) ــ بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وضم الراء المهملة وواو وتاء مثناة من فوق فى آخرها ــ وهى مدينة من الإقليم الثالث بساحل دِمَشْقَ . قال فى "كتاب الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وعَرْضها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . وهى مدينة جليـلة على ضَفَّةِ البحر الرومىّ، عليها سُوران من حجـارة، وفيه كان ينزل الأوزاعىّ الفقيه

المشهور، وبها جبل فيه مَعْدِن حديد، ولها غيضة من أشجار الصَّنَوْبر سعتها ٱثنا عشر مِيلاً فى التكسير، تتصل إلىٰ تحت لُبْنَانَ المقدّم ذكره . قال فى "تقويم البُلْدان" : وشرب أهلها من قناة تجرى إليها . وقال فى "مسالك الأبصار" : شرب أهلها من الآبار . قال ٱبن سعيد : وهى فُرْضة دِمَشْق ولها مينا جليلة ، وفى شمالها علىٰ الساحل مدينة جُبَيْلٍ تصغير جبل . قال فى "الروض المعطار" : بينهما ثمانية عشر ميلا . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين بَعْلَبَكَّ علىٰ عَقَبة المُغيثة ستة وثلاثون ميلا .

الخامس – (عمل صَيْدَا) – بفتح الصاد المهملة وسكون المثناة تحت وفتح الدال المهملة وألف مقصورة فى الآخر – وهى مدينة بساحل البحر الرومى، واقعة فى الإقليم الثالث، ذاتُ حِصْنٍ حصين. قال ٱبن القَطَامى سميت بصَيْدُون بن صدقا بن كَنْعان ٱبن حام بن نوح عليه السلام، وهو أوّل من عَمَرها وسكنها . وقال فى "الروض المعطار" : سميت بٱمرأة . وشُرْب أهلها من ماء يجرى إليهم من قناة . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين دِمَشْق ستة وثلاثون مِيلًا . قال فى "مسالك الأبصار" : وكُورَتُها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار . قال فى "الروض المعطار" : وبها سَمَك صغار له أَيْدٍ وأرجل صغار إذا جُفِّفَ وسُحِق وشرب بالماء، أنعظ إنعاظا شديدا . قال فى "المسالك" : وهى ولاية جليلة واسعة العمل ممتدّة القُرىٰ، تشتمل علىٰ نيف وستمائة ضيعة .

الصفقة الرابعـــة

(الشرقية؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ماهو داخل فى حدود الشام، وهو غربىّ الفُرات)

قال فى "التعريف" : وحدّها من القبلة قرية القَصَب المجاورة لقرية جُوسِيَة المقدّم ذكرها، آخذا علىٰ النَّبْك إلىٰ القَرْيتين ؛ وحدّها من الشرق السَّماوة إلىٰ الفُرات وينتهى إلىٰ مدينة سَلَمْيَة إلىٰ الرَّسْتَنِ ؛ وحدّها من الغرب نهر الأُرُنْط وهو العاصى، وتشتمل علىٰ خمسة أعمال أيضا .

الأوّل — (عمل حِمْص) — بكسر الحاء المهملة وسكون الميم وصاد مهملة فى الآخر. قال فى "الروض المعطار" : ولا يجوز فيها الصرف كما يجوز فى هِنْدٍ لأن هـذا آسم أعجمىّ . قال : وسميت برجل من العماليق آسمه حِمْص هو أوّل من بناها . قال الزجاجىّ : هو حمص بن المَهْر بن حاف(١) بن مكنف، وقيل برجل من عاملةَ هو أوّل مَنْ نزلها، وآسمها القديم سُورِيَا (بسين مهملة مضمومة وواو ساكنة وراء مهملة مكسورة وياء مثناة تحت مفتوحة وألف فى الآخر) . وبه كانت تسميها الروم، وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولها إحدىٰ وستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة ، وهى مدينة جليلة، وقاعدة من قواعد الشام العظام . قال فى "التعريف": وكانت دارَ مُلْك للبيت الأسَدِىّ يعنى أسدَ الدين شيركوه عمّ السلطان صلاح الدين يوسف آبن أيوبَ . قال : ولم يزل لِمَلِكِها فى الدولة الأيوبية سطوةٌ تُخَاف وبأس يخشىٰ، وهى فى وَطَاءة من الأرض ممتدّة علىٰ القرب من النهر العاصى، ومنه شرب أهلها، ولها منه

(١) كذا فى الضوء أيضا وفى "معجم البلدان" آبن جان .

ماء مرفوعٌ يجرى إلىٰ دار النيابة بها و بعض مواضع بها. قال فى "مسالك الأبصار": و بها القلعة المصفحة وليست بالمنيعة ، و يحيط بها و بالبلد سُورٌ حصين هو أمنع من القلعة . قال فى " العزيزى " : وهى من أصحّ بلاد الشام هواءً، و بوسطها بُحَيرةٌ صافية الماء، ينقل السمك إليها من الفرات حتّى يتولد فيها ، والطير مبثوث فى نواحيها . قال ٱبن حَوْقَل : وليس بها عقارب ولا حَيَّات . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خواصّ الشام وعجائبها أن بها قبّةً بالقرب من جامعها إذا ألصق بها طين من طينها وترك حتّى يسقط بنفسه ووضع فى بيت أو ثياب لم يقربها عقربٌ . وإن ذُرّ منه علىٰ العقرب شىء أخذه مثل السُّكْر وربما قتله ، ولها من برّ بعلبكّ أنواع الفواكه وغيرها ، وقُمَاشها يقارب قماش الإسْكَنْدَرِيَّة فى الجَوْدَةِ والحُسْن ، وإن لم يبلغ شأوه فى ذلك . قال فى "الروض المعطار" : ويقال إن بقراط الحكيم منها . وإن أهلها أوّل من ٱبتدع الحساب ، وبها قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه ، ومقامه مشهور بها يزار .

الثانى — (عمل مِصْيَاف) بكسر الميم وسكون الصاد — وهى بلدة جليلة ، ولها قلعة حصينة فى لِحْف جبل اللُّكَامِ الشرقىّ عن حماةَ وطَرَابُلُس ، فى جهة الشَّمال عن بَارِينَ علىٰ مسافة فرسخ ، وفى جهة الغرب عن حماةَ علىٰ مسيرة يوم ، وبها أنهر صغار من أعينُ ، وبها البساتين والأشجار . وهى قاعدة قلاع الدعوة الآتى ذكرها فى أعمال طرابُلُس ودارُ ملكها ، وكانت أوّلا مضافةً إلىٰ طَرَابُلُسَ ثم أُفْرِدت عنها وأضيفت إلىٰ دِمَشْقَ .

الثالث — (عَمَلُ قَارَا) — بقاف مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة وألف ثانية . هكذا هو مكتوب فى " التعريف " وغيره وهو الجارى علىٰ الألسنة . ورأيتها مكتوبة فى "تقويم البُلْدان" بهاء فى الآخر بدل الألف الأخيرة . وهى قرية كبيرة قبلىّ حِمْصَ ، بينها وبين دِمَشْقَ علىٰ نحو منتَصَف الطريق ، تنزلها قوافل السفارة ، وبينها وبين حِمْصَ مرحلةٌ ونصف ، وبينها وبين دِمَشْقَ مرحلتان ، وغالب أهلها نصارىٰ .

الرابع ـ (عمل سَلَمِيَّة)(١) ـ بفتح السين المهملة واللام وكسر الميم وياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر ـ وهى بلدة من عمل حمص من الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : طولها إحدى وستون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن يكون العرض أربعا وثلاثين ونصفا . قال أحمد الكاتب : بناها عبد الله بن صالح بن علىّ بن عبد الله ٱبن عبّاس بن عبد المطّلب وأسكن بها ولده . وهى بلدة علىٰ طرف البادية نَزِهَةٌ خِصْبة كثيرة المياه والشجر، ومياهها من قُنِىّ . قال فى "الروض المعطار" : وبينها وبين حِمْص مرحلةٌ .

الخامس ـ (عمل تَدْمُر) ـ بفتح التاء المثناة فوق وسكون الدال المهملة وضم الميم وراء مهملة فى الآخر ـ كذا ضبطه السمعانىّ فى "الأنساب" : والجارى علىٰ ألسنة الناس ضم أوّلها . قال فى "التعريف" : وهى بين القَرْيَتَيْنِ والرَّحْبة، وهى معدودة من جزيرة العرب واقعةٌ فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : طُولها ٱثنتان وستون درجة ، وعَرْضها أربع وثلاثون درجة . قال صاحب حماة : وهى من أعمال حِمْص من شرقيها، وغالب أرضها سِبَاخ؛ وبها نخيل وزيتون؛ وبها آثار عظيمة أزَلِيَّة من الأعمدة والصخور، ولها سورٌ وقلعة .

قال فى "الروض المعطار" : وهى فى الأصل مدينة قديمة بنتها الجنّ لسليمان عليه السلام، ولها حصون لاتُرام . قال : وسميت تَدْمُر بتدْمُرَ بنت حَسَّان ٱبن أُذَينة، وفيها قبرها . وإنما سكنها سليمان عليه السلام بعدها . قال فى "العزيزىّ" : وبينها وبين دِمَشْق تسعة وخمسون ميلا، وبينها وبين الرَّحْبة مائة مِيلٍ ومِيلان . قال صاحب حماة : وهى عن حِمْص علىٰ ثلاث مراحل .

(١) فى القاموس وياقوت "وسكون الميم" أى وتخفيف الياء

الضرب الثانى

(من هذه الصفقة ماهو من بلاد الجزيرة، بين الفُرات والدجلة على القرب من الفرات)

وهو مدينة الرَّحبَةِ . قال فى "اللُّبابِ" : بفتح الراء والحاء(١) المهملتين والباء الموحدة وهاء فى الآخر ــ وهى مدينة على الفُرَاتِ بين الرَّقةِ وعَانَةَ، واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولها أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعَرْضها ستٌّ وثلاثون درجة، وتعرف برَحْبة مالك بن طَوْق ، وهو قائدٌ من قوّاد هارون الرشيد، قيل إنه أوّل من عَمَرها فنسبت إليه . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وقد خَرِبت الرَّحْبة المذكورة وصارت قرية، وبها آثار المدينة من المآذن الشواهق وغيرها، وآستحدث شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شادى صاحب حِمْصَ من جنوبيها الرحبةَ الجديدَة على نحو فَرْسخ من الفُرَاتِ ، وهى بلدة صغيرة ولها قلعة على تلٍّ تراب، وشرب أهلها من قناة من نهر سعيدٍ، الخارج من الفرات . قال : وهى اليوم محطُّ القوافل من الفُرَاتِ والشام، وهى أحد الثغور الإسلامية فى زماننا .

قال فى "التعريف" : وبها قلعة نيابةٍ، وفيها بحرية وخَيَّالة وكَشَّافة وطوائفُ من المستخدمين ، ولم تزل إمرتها طبلخاناه، بمرسومٍ شريف من الأبواب الشريفة من الأيام الناصرية آبن قلاوون إلى الآن .

تنبيه ــ قال فى "التعريف" : ومما أُضيف إلى دِمَشْقَ فى زمن سلطاننا يعنى النـاصرَ بن قلاوون بلادُ جَعْبَرَ . قال : وحقها أن تكون مع حَلَبَ ، وهى مستمرّة على ذلك إلى زماننا ، وسيأتى الكلام عليها فى الأعمال الحلبية إن شاء الله تعالى .

---

(١) كذا فى التقويم أيضا وضبطها فى المعجم بإسكان الحاء وهو مقتضى اطلاق القاموس .

وقد ذكر القاضى تقىّ الدين بن ناظر الجيش فى كتابه "التثقيف" : أنه كان قد ٱستقرّ بَتَدْمُرَ وسَـلَمِيّة والسُّخْنَة والقَرْيتَيْنِ نوّابٌ، وٱستقرّ الحال علىٰ أن مكاتبة كل منهم إن كان مقدّما نظيرُ النائب بالرَّحْبَةِ، يعنى "صدرت" و"العالى" وإن كان طبلخاناه فالاسم "والسامى" بالياء .

القاعدة الثـانيـــة

(من قواعد البلاد الشامية حَلَبُ، وفيها جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى حاضرتهــا)

قال فى "اللُّبَـابِ" : هى بفتح الحاء المهـملة واللام وباء موحدة فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : وطولهـا ٱثنتان وستون درجة وعشرُ دقائق، وعَرْضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

وٱختلف فى سبب تسميتها حَلَبَ علىٰ قولين حكاهما صاحب "الروض المعطار": أحدهما أنه كان مكان قلعتها رَبْوة، وكان إبراهيم الخليل عليه السلام يَأْوِى إليها ويَحْلُب غَنَمَه ويتصدّق بلبنها فسميت حَلَبَ بذلك . الثـانى أنها سميت برجل من العماليق ٱسمه حَلَب . قال الزجاجىّ : حَلَبُ بن المَهْر من ولد جان(١) بن مكنّف .

قال فى "مسالك الأبصار": وهى مدينة عظيمة من قواعد الشام القديمة؛ وهى فى وطاءة حمراء ممتدّة، مبنيةٌ بالحجر الأصفر الذى ليس له نظير فى الآفاق؛ وبها المساكن الفائقة، والمنازل الأنيقة، والأسواق الواسعة، والقَيَاسر الحَسَنة، والحمامات البهجة . ذات جوامعَ ومساجدَ ومدارسَ وخوانقَ وزوَايَا وغير ذلك من سـائر وجوه البر،

(١) فى الأصل "خان" وفى الضوء "حاف" والتصحيح من ياقوت .

وبها بيمارستان حَسَنٌ لعلاج المرضى . قال فى "مسالك الأبصار" : ولها نهران : أحدهما يعرف بنهر قُوَيْق ، وهو نهرها القديم . والثانى يعرف بنهر الساجُور، وهو نهر مستحدَث ، ساقه إليها السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" فى سلطنته وحكمه عليها .

وقد ذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة : أن الملك الظاهر غازى بن العادل "أبى بكر بن أيوب" ساق إليها نهرا فى سنة خمس وستمائة ، ولعله نهر قُوَيق المذكور. قال فى "مسالك الأبصار" : ويجرى إلى داخلها فرع ماء يتشعَّب فى دُورها ومساكنها ولكنه لا يَبُلُّ صَدَاها ولا يَشْفى غُلَّتها ، وبها الصهاريج المملوءة من ماء المطر ، ومنها شُرْبُ أهلها ، ويدخل إليها الثلج من بلادها ، وليس لأهلها إليه كثير ٱلتفات لبرد هوائهم وقربِ ٱعتدال صيفهم وشتائهم ، وبها الفواكه الكثيرة وأكثرها مجلوب إليها من نواحيها لقِلَّة البساتين بها ، وبظاهرها المُرُوج الفِيحُ والبَرّ الممتدّ حاضرة وبادية ، وبها عسكر كثيف وأمم من طوائف العرب والأكراد والتُّرْكُمان .

قال فى "اللبـاب" : وكان الجُنْدُ فى ٱبتداء الإسـلام ينزلون قِنَّسْرِينَ ، وهى المدينة التى تُنْسَب الكورة إليها على ماتقدّم ذكره ولم يكن لحَلَب معها ذكر .

قال ٱبن سعيد : ثم ضَعُفَت بقوّة حلب عليها ، وهى الآن قرية صغيرة .

قال فى "مسالك الأبصار" : وكانت حَلَبُ قد عظُمت فى أيام بنى حَمْدَان ، وتاهت بهم شرفًا على كيوان . جاءت الدولة الأتابكية فزادت فَخَارا ، وٱتخذت لهـا من بروج السماء منْطَقَةً وأُسوارا ، ولم تزل على هذا يُشَارُ إليها بالتعظيم ، ويأبى أهلها فى الفضل عليها لدِمَشْقَ التسليم ، حتى نزل هُولاكُو بحوافرخيله فهُدِمت أسوارها وخربت حواضرها ، ولم تزل خالية من الأسوار ، عَرِيَّةً من الأبواب ، إلى أن كانت فتنة مِنْطاش فى سلطنة الظاهر بَرْقوق والنائب بها من قِبَله الأمير كمشبغا ، فجدّد أسوارها ، ورتب أبوابها ، وهى

سبعة أبواب : باب قِنَّسْرِينَ من القبلة ، وباب المقام من القِبْلة أيضا ، وباب النَّيْرَب من الشرق ، وباب الأربعين من الشرق أيضا ، وباب النصر من بحريّهـا ، وباب الجِنَان من غربيها ، وباب أَنْطَاكِيَةَ من غربيها أيضا ؛ وهى الآن فى غاية ما يكون من العمارة وحُسْن الرونق والبهجة ؛ ولعلها قد فاقت أيام بنى حَمْـدان ؛ ولم يزل نائبها من أكابر الأمراء المقدّمين من الدولة الناصرية فما قبلها إلى الآن ، وقد زادت رتبتُه عما كان عليه فى الأيام الناصرية ؛ وهى ثانية دِمَشْقَ فى الرتبة ؛ ومعاملاتُها على ماتقدّم فى دِمَشْقَ من الدراهم والدنانير والفُلُوس وصنجة الذهب والفضة . غير أن الفلوس الجُدُد لم تَرُجْ بها بعدُ ، ورِطْلُها سبعمائة وعشرون درهما بالصَّنْجة الشامية[(١)] ، كلُّ أوقية ستون درهمـا ، ومعاملاتها معتـبرة بالمَكُّوك ، ولا تعرف فيها الغِرارة ، ولا فى شىء من أعمالهـا ، وتختلف بلادها فى المَكُّوك آختلافا متباينا فى الزيادة والنقص . قال فى "مسالك الأبصار" : والمعدَّل فيها أن يكون كل مكُّوكين ونصف غرارة ومابين ذلك وكل ذلك تقريبا .

قلت : وأخبرنى بعض أهلها أن المكُّوك بنفس مدينة حَلَبَ معتبر بسبع وَيْبات بالكيل المصرى ، والذراع القماش ذراعٌ وسدسٌ بذراع القماش القاهرى ، ويزيد على ذراع دمشق بقيراطين ، وقياس دُورِ أرضها بذراع العَمَل المعروف بالديار المصرية .

الجملة الثـانية
(فى نواحيهـا وأعمالهـا)

قال فى "مسالك الأبصار" : هى أوسع الشام بلادا ، متصلةٌ ببلاد سِيسَ والرُّوم وديار بكر و بَرِّيَّة العِراق . قال فى "التعريف" : ويحدّها من القبلة المَعَرّة وما وقع

---

(١) وأواقيه آثنتا عشرة أوقية [كما سيأتى له فى حلب فى موضع آخر] .

علىٰ سَمْتها إلىٰ الدِّمْنة الخراب والسلسلة الروميـة ومجرىٰ القنـاة القديمة الواقع ذلك بين الحِيَارِ (يعنى بكسر الحاء المهملة والياء المثناة تحت وألف وراء مهملة) والقرية المعروفة بقُبَّةِ ملاعب ،ويحدّها من الشرق[البر] حيث يحدّبَردَىٰ آخذا علىٰ جبل الثلج ، ثم الجلّاب علىٰ أطراف بَالِس إلىٰ الفُرَاتِ دائرة بحدّها . قال : وبهذا التقسيم تكون بلاد جَعْبَر داخلة فى حدودها ، ويحدّها من الشَّمال بلاد الروم ممـا وراء بَهَسْنىٰ وبلاد الأرمن علىٰ البحر الشامىّ :

ثم أعمالها علىٰ ثلاثة أقسام .

القســــم الأوّل

(ما هو داخل فى حدود بلاد الممـالك الشامية ، ولهـا بَرٌّ وأعمال)

فأما بَرُّها فهو ضواحيها علىٰ ما تقدّم فى دِمَشْقَ ، وهو كالعمل المنفرد بنفسه .

وأما أعمالهـا ، فقد ذكر المَقَرُّ الشهابىّ بن فضـل الله فى كتابيـه "التعريف" و"مسالك الأبصار" بها ستَّةَ عشر عملا (١) علىٰ أكثرها (٢) ، وربمـا آنفرد أحد الكتابين عن الآخر بالبعض دون البعض .

الأوّل ــ (عمل قلعة المسلمين) ــ المسماة فى القديم بقلعة الروم وهى قلعةٌ من جُنْدِ قِنَّسْرِينَ فى البرّ الغربىّ الجنوبىّ من الفُرَاتِ ، فى جهة الغرب الشمالىّ عن حَلَبَ علىٰ نحو خمس مراحل منها ، وفى الغرب عن البِيرَةِ علىٰ نحو مرحلة ، والفراتُ بذيلها . وموقعها فى الإقليم الرابع . قال بعض أصحاب الأزياج : وطولهـا آثنتان وستون درجة وعشرون دقيقـة ، وعَرْضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى من القِلاع الحصينة التى لاتُرَام ولا تُدْرَك ، ولهـا رَبَض وبساتيـن ، ويمرُّ بها نهر يعرف بمَرْزُبانَ يصب فى الفُرَاتِ . قال فى "التعريف" : وكان بها خليفة الأَرْمَنِ

(١) المعدود ستة وعشرون وفى الضوء "سبعة وعشرون" . (٢) لعله آتفقا علىٰ أكثرها .

ولا يزال بها طاغوت الكُفْر، فقصدها الملك الأشرف خليـل بن المنصور قلاوون فنزل عليها، ولم يزل بها حتّى فتحها، وسمـاها قلعـةَ المسلمين . قال : وهى من جلائل القِلَاع .

الثانى — (عمل الكَخْتَا) — بفتح الكاف وسكون الخاء المعجمة وفتح التاء المثناة فوق ثم ألف فى الآخر، والألف واللام فيه غير لازمتين — وهى قلعة فى أقاصى الشأم من جهة الشّمال بشرق من حَلَبَ، علىٰ نحو خمس مراحل منها؛ وموقعها فى الإقليم الرابع. قال بعض أصحاب الأزياج : طولها إحدىٰ وستون درجة وعشر دقائق، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. وهى قلعة عالية البناء لاتُرام حصانةً، ولها بساتين ونهر، ومَلَطْيَـةُ عنها فى جهة الغرب علىٰ مسيرة يومين؛ وكَرْكَر منها فى جهة الشرق، وكانت أحدَ ثغور الإسلام فى وجوه التتار عند قيامهم. قال فى "التعريف": وهى ذات عمل متسع، وعسكر تطوّع مجتمع .

الثالث — (عمل كَرْكَر) بفتح الكاف وسكون الراء المهملة ثم كاف مفتوحة ثانية بعدها راء مهملة ثانية أيضا — وهى قلعة من أقاصى الشأم فى الشّمال عن حَلَبَ علىٰ نحو خمس مراحل أيضـا، وفى الغرب من الكَخْتَا المتقدّمة الذكر علىٰ نحو يوم منها؛ وموقِعُها فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولهـا إحدىٰ وستون درجة وعشرون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعـة حصينة شاهقـة فى الهواء يُرىٰ الفرات منها كالجدول الصغير، وهو منها فى جهة الشرق؛ وكانت من أعظم الثغور فى زمان التَّتار .

الرابع — (عمل بَهَسْنىٰ) — بفتح الباء الموحدة والهاء وسكون السين المهملة ثم نون وألف — وهى قلعة فى شمالىّ حَلَبَ علىٰ نحو أربع مراحلَ منها، وموقعها فى الإقليم

الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولها إحدىٰ وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعَرْضها ثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعة حصينة مرتفعة لا تُرام حصانةً ، بها بساتينُ ونهر صغير وأسواق ورُسْتاق متسع ، وبها مسجد جامع . ثم قال : وهى بلدة واسعة ، كثيرة الخير والخِصْب ، وهى فى الغرب والشَّمال عن عَيْنَتاب ، وبينهما نحو مسيرة يومين ، وبينها وبين سِيسَ نحو ستة أيام . قال فى "التعريف" : وهى الثغر المُتاخِم لبلاد الدُّرُوب ، والمشتعل فى جمرة الحروب ، وبها عسكر من التُّرْكُمَانِ والأكراد . ولا يزال لهم آثار فى الجهاد . قال : ولنائبها مكانة جليلة ، وإن كان لا يلتحق بنائب البِيرَةِ .

الخامس — (عمل عَيْنَتابَ) — بفتح العين وسكون الياء المثناة تحت والنون وفتح التاء المثناة فوق ثم ألف وباء موحدة — وهى مدينة من جُنْد قِنَّسرِينَ شمالىَّ حَلَبَ علىٰ نحو مرحلتين منها ، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولها آثنتان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعَرْضها ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى مدينة حسنة ، واسعة الأرجاء ، كثيرة المياه والبساتين ، ذات أسواق جليلة مقصودة للتجار والمسافرين ، وبها قلعة حصينة منقوبة فى الصخر . وهى عن حَلَبَ فى الشَّمال علىٰ نحو ثلاث مراحل منها ، وعن قلعة الرُّوم فى الجَنُوب علىٰ نحو ثلاث مراحل أيضا ، وعن بَهَسْنىٰ فى جهة الشرق والجنوب علىٰ نحو ثلاث مراحل .

السادس — (عمل الرَّاوَنْدَانِ) — بألف ولام لازمتين وراء مهملة بعدها ألف ثم واو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة ثم ألف ونون — وهى قلعة من جُنْد قِنَّسرِينَ واقعة فى الإقليم الرابع طولها آثنتان وستون درجة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . وهى قلعة حصينة علىٰ جبل مرتفع أبيض ، ذاتُ أعينٍ وبساتين وفواكه ، وواد

حسن ؛ ونهرها من تحتها نهر عِفْرِين المتقــدّم ذكره آخذا من الشّمال إلىٰ الجنوب ، وهى فى الغرب والشّمال عن حلب ، وبينهما نحو مرحلتين ، وفى الشمال عن حارِم .

السابع — (عمل الدَّرْبَسَاكِ) — بفتح الدال المهملة وسكون الراء المهملة وفتح الباء الموحدة والسين المهملة ثم ألف وكاف ، والألف واللام فيه غير لازمتين — وهى قلعة من جُنْد قِنَّسْرِينَ واقعةٌ فى الإقليم الرابع شمالىّ حلبَ علىٰ نحو ثلاث مراحل أو أربع منها . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن يكون طولها إحدىٰ وستين درجة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . وهى قلعة حصينة ذات أعين وبساتين ، وبها مسجد جامع ، ولهــا من شرقيِّها مُرُوج متسعة ، حسنة المَنْظَرِ ، كثيرة العُشْب ، يمرّ بها النهر الأسود المتقدّم ذكره .

الثامن — (عمل بَغْرَاسَ) — بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وراء مهملة وألف ثم سين مهملة — كذا ضبطه السمعانىّ فى "الأنساب" ووقع فى "التعريف" و"مســالك الأبصار" بالصاد المهــملة بدل الســين . والجارى علىٰ أَلْسِنَة الناس ضم أوّله ؛ وهى قلعةٌ من جُنْد قِنَّسْرِينَ ، واقعةٌ فى الإقليم الرابع شمالىّ حَلَبَ علىٰ نحو أربع مراحل منها . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولهــا ستون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وثلاث وخمسون دقيقة ، وهى فى الجبل المطلّ علىٰ عَمْقِ حارِم . قال ابن حوقل : وكان بها دار ضيافة لِزُبَيْــدَةَ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى ذات أعيُن وبساتين وأشجار ، وبينهــا وبين الدَّرْبَسَاكِ نحو بعض مرحلة ، وهى فى جهــة الجنوب عن الدَّرْبَسَاكِ . قال فى "العزيزىّ" : وبينها وبين أنطَاكِيَةَ اثنا عشر ميلا ، وبينها وبين إسْكَنْدَرُونَةَ كذلك ، وبينها وبين حارِم نحو مرحلتين . وبَغْرَاسُ فى الجنوب عن دَرْبَسَاكَ وبينهما بعض مرحلة ، وحارمٌ فى جهة الشرق عنها . قال فى "التعريف" : وكانت

هى الثَّغْرَ فى بحر الأَرْمَنِ حتّى آستضيفت الفتوحات الجاهانية . قال : وبها رُصَصُ وهى عضو من أعضائها وجزء من أجزائها . ورُصَصُ المذكورة براء مهملة مضمومة وصادين مهملتين الصاد الأولىٰ مفتوحة ، وهى بلدة علىٰ الساحل ، وقد مر ذكرها فى الكلام علىٰ بحر الروم علىٰ سواحل الأرمن .

التاسع — (عمل القُصَيْرِ) تصغير قصر . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى قلعة غربىّ حَلَبَ علىٰ نحو أربع مراحل منها . قال فى "التعريف" : وهى لأنْطاكِيَةَ ولم يتحرّر لى طُولها وعَرْضها .

العاشر — (عمل الشُّغْرِ وبَكَاسَ) — آسمان لقلعتين بينهما رَمْيَةُ سَهْم .

فالشُّغْرُ — بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم راء مهملة .

وبَكَاسُ — بفتح الباء الموحدة والكاف ثم ألف وسين مهملة فى الآخر. وهما من جُنْد قِنَّسْرِينَ، وموقعهما فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولهما إحدىٰ وستون درجة ، وعرضهما خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وهما مبنيان علىٰ جبلٍ مستطيل ، وتحتهما نهر يجرى ، وبهما بساتين وأشجار وفواكه كثيرة ، ولهما رُسْتاق ومسجد جامع . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهما فى الجنوب عن أَنْطاكِيَةَ وبينهما الجبال .

الحادى عشر — (عمل شَيْزَر) — بفتح الشين المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الزاى المعجمة وفى آخرها راء مهملة . وهى مدينة من جُنْد حِمْص غربىّ حَلَب علىٰ نحو ثلاث مراحل منها، واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها إحدىٰ وستون درجةً وعشر دقائق ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى مدينة ذات أشجار وبساتينَ وفواكه كثيرة وأكثرها الرّمّان ، ولها ذكر فى شعر آمرئ القيس مع حَماةَ . قال "فى العزيزى" : وبينها وبين حماة

تسعة أميال، وبينها وبين حِمْص ثلاثة وثلاثون ميلا، وبينها وبين أَنْطَاكِيَة ستة وثلاثون ميلا .

الثانى عشر ـ (عمل حَجَرِ شُغْلَانَ) بلفظ حَجَر واحد الحجارة وإضافته إلىٰ شُغْلَانَ (بضم الشين وسكون الغين المعجمتين ثم لام ألف ونون). وهى قلعة شمالىَّ حَلَبَ علىٰ نحو ثلاث مراحل منها. قال فى "مسالك الأبصار": وهى بالقُرْب من بَغْرَاسَ فى جهة الشَّمال علىٰ مسافة قريبة جدّا، ولم يتحرّر لى طُولها وعَرْضها ولكنها تعتبر ببَغْرَاسَ المتقدّمة الذكر لقربها منها ـ وهى الآن خراب .

الثالث عشر ـ (عمل قلعة أَبِى قُبَيْسٍ) ـ بهمزة مفتوحة وباء موحدة مكسورة بعدهما ياء ساكنة ثم قاف مضمومة وباء موحدة مفتوحة وياء مثناة تحتُ ساكنة ثم سين مهملة فى الآخر ـ وهى قلعة حصينة غربىّ حَلَبَ مما يلى الساحل، علىٰ نحو ثلاث مراحل قصيرة من حَلَبَ، كذا أخبرنى به بعض أهل البلاد، ولم يتحرّر لى طولها وعرضها، وسيأتى فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة أنها آستقرّت ولايةً، وربما أُضِيفت إلىٰ غيرها .

الرابع عشر ـ (عمل قلعة حَارِم) ـ بحاء مهملة مفتوحة وألف ثم راء مهملة مكسورة وميم فى الآخر. قال فى "تقويم البُلْدان": والقياس أن طولها ستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. وهى قلعة حصينة فى جهة الغَرْب من حَلَبَ علىٰ نحو مرحلتين منها، ذاتُ بساتين وأشجار، وبها نهر صغير وبينها وبين أَنْطَاكِيَة مرحلة، ورَبَضها بلد صغير. قال آبن سعيد: وقد خُصَّتْ بالرُّمّان الذى يُرىٰ باطنه من ظاهره مع عدم العَجَم وكثرة الماء .

الخامس عشر ـ (عمل كَفْرِطَابَ) ـ بفتح الكاف وسكون الفاء وراء مهملة ثم طاء مهملة بعدها ألف وباء موحدة ـ علىٰ إضافة كَفْرٍ إلىٰ طَابَ. هذا هو الجارى علىٰ

الألسنة وهو الصواب ، وأصله من الكَفْر بمعنىٰ التغطية ، والمراد مكان الزرع والحَرْث لتغطية الحَبّ بالزراعة كما فى قوله تعالىٰ: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ يريد الزُّرّاع ، ووقع فى كلام صاحب حماة بفتح الفاء وهو وَهَمٌ (١) .

وظاهر كلام صاحب "الروض المعطار" أن طَابَ فى معنىٰ الصفة لكَفْرٍ فإنه قال : وسمى بذلك لأن حوله أرض كريمة . قال : وأرضه صحيحة الهواء ومَنْ سَكَنَها لايكاد يَمْرَضُ، وقيل إنه منسوب إلىٰ رجل آسمه طاب ـ وهى بلدة صغيرة من جُنْد حِمْص غربىّ حَلَب ، علىٰ نحو ثلاث مراحل منها، واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "كتاب الأطوال" : طولها إحدىٰ وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها إحدىٰ وستون درجة وخمسَ عشرةَ دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة ـ وهى علىٰ الطريق بين المَعَرّة وشَيْزَرَ . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين المَعَرَّة وشَيْزَرَ آثنا عشر ميلا .

السادس عشر ـ (عمل فامِيَة) ـ بفتح الفاء وألف بعدها ثم ميم مكسورة وياء مثناة تحتُ وهاء فى الآخر . قال فى "المشترك" : ويقال لها أَفَامِيَة بهمزة فى أولها يعنى مفتوحة . وهى مدينة من أعمال شَيْزَرَ، غربىّ حَلَب ، علىٰ نحو أربع مراحل منها واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولها إحدىٰ وستون درجة وثلاث دقائق ، وعرضها خمس وثلاثون درجة . قال فى "العزيزى" : وكُورَةُ فَامِيَةَ لها مدينة كانت عظيمة قديمة، علىٰ نشز من الأرض، ولها بُحَيرة حلوة يشقُّها النهر المقلوب .

---

(١) وكذا فى "معجم البلدان" بضبط القلم .

السابع عشر ـ (عمل سَرْمِينَ) ـ بفتح السين وسكون الراء المهملتين وكسر الميم ثم ياء مثناة تحتُ ساكنة ونون بعدها . وهى مدينة فى الغرب من حَلَبَ علىٰ نحو مرحلتين صغيرتين منها، واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "كتاب الأطوال" : طولها إحدىٰ وستون درجة وخمسون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . وهى مدينة غير مسوّرة؛ وبها أسواق ومسجد جامع؛ وشرب أهلها من الماء المجتمع فى الصهاريج من الأمطار ، وهى كثيرة الخِصْبِ، وبها الكثير من شجر التين والزيتون، وهى فى جهة الجنوب عن حَلَبَ علىٰ مسيرة يوم منها وعملها متسع .

ومن مضافاتها مدينة الفُوعَةِ (بضم الفاء وفتح العين المهملة) . وهى مدينة علىٰ القرب من سَرْمِينَ فى الغرب منها، وتسمّى هذه الولاية الغَرْبِيَّات (بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة وفتح الياء المثناة تحت المشدّدة وألف ثم تاء مثناة فوق فى الآخر) . قال فى "التعريف" : وهى أجلُّ ولايات حَلَبَ .

الثامن عشر ـ (عمل الجَبُّولِ) ـ بفتح الجيم وضم الباء الموحدة المشدّدة ثم واو ساكنة ولام فى الآخر ـ وهى بلدة شرقىّ حَلَبَ علىٰ نحو مرحلة كبيرة منها ، وهى بالقرب من الفُرَات، ولم يتحرّر لى طولها وعرضها . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومنها ينقل المِلْحُ إلىٰ سائر أعمال حَلَبَ ،وقد أخبرنى بعض أهلها أن أصل هذا المِلْح نهرٌ يصل إليها يعرف بنهر الذّهَب فيبقىٰ ماء فيما يمرّ عليه من البُلْدان حتّى ينتهى إليها فينعقد ملحا لوقته .

التاسع عشر ـ عمل (جَبَلِ سِمْعَانَ) ـ وضبطه معروف . وهى فى جهة الشّمال من حَلَبَ علىٰ [يوم](1) منها، ولم يتحرّر لى طولها وعرضها .

(1) فى الأصل ساعة وأبدل فى الهامش بالمنقط "يوم" .

العشرون — (عمل عَزَاز) — بفتح العين المهملة والزاى المعجمة وألف ثم زاى ثانية مكسورة — كذا ضبطه فى "اللباب" والجارى على الألسنة أَعْزَازْ بهمزة مفتوحة فى أولها وسكون العين والزاى الأخيرة فى الوقف؛ وهى بلدة شمالىّ حلب بشرق على نحو مرحلة منها. قال فى "كتاب الأطوال": وطولها إحدى وستون درجة وخمس وخمسون دقيقة، وعرضها ست وثلاثون درجة. وهى فى شمالىّ حلب بمَيْلة إلى الغرب. قال ٱبن سعيد: ولأعزاز جهات فى نهاية الحسن والطِّيبة والخِصْب، وهى من أنزه الأماكن.

الحادى والعشرون — (عمل تَلّ باشِر) — بفتح التاء المثناة فوق وتشديد اللام ثم فتح الباء الموحدة وألف بعدها شين معجمة مكسورة وراء مهملة فى الآخر — وهى حصن شمالىّ حَلَبَ على مرحلتين منها بالقُرْب من عَيْنتَاب المتقدّم ذكرها. قال ٱبن سعيد: وهى ذات مياه وبساتين.

الثانى والعشرون — (عمل مَنْبَج)(1) — بفتح الميم وسكون النون وفتح الباء الموحدة وفى آخرها جيم — كذا ضبطه ٱبن الأثير فى "اللباب": وهى بلدة من جُنْد قِنَّسْرِينَ شرقىّ حَلَبَ على نحو مرحلتين منها واقعةٌ فى الإقليم الرابع. قال فى "تقويم البلدان": والقياس أن طولها ٱثنتان وستون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. قال ٱبن سعيد: بناها بعض الأكاسرة الذين غلبوا على الشأم وسَمَّاها مَنْبه فعربت مَنْبَج، وكان بها بيت نارٍ للفُرْس، وهى كثيرة القُنِىّ السارحة والبساتين، وغالب شجرها التوت، وأكثرها خراب.

---

(1) ضبطه فى القاموس كمجلس [أى بكسر اللام] وكذلك ضبطه صاحب "تقويم البلدان" عن اللباب فلعل ما هنا سبق قلم.

الثالث والعشرون — (عمل تِيزِينَ) — بكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحت وكسر الزاى المعجمة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر — وهى بليدة صغيرة من أعمال حلب فى جهة الغرب علىٰ نحو مرحلة منها .

الرابع والعشرون — (عمل البَابِ وبُزَاعَا) . وضبط الباب معروف، و بزاعا بضم البـاء الموحدة وفتح الزاى المعجمة وألف بعـدها عين مهملة وألف مقصورة فى الآخر . كذا ضبطه فى "تقويم البُلْدان" : والجارى علىٰ الألسنة إبدال الألف فى آخره بهاء . وهما بلدتان متقاربتان ، من جُنْـدِ قِنَّسْرِينَ علىٰ مرحلة من حَلَبَ فى الجهـة الشمالية الشرقية فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولهـا آثنتان وستون درجة وعشر دقائق ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة .

أما الباب : فبُلَيْدة صغيرة . قال فى "تقويم البُلْدان" : بها مشهد به قبر عَقِيل آبن أبى طالب رضى الله عنه ، وبها أسواق وحمـام ومسجد جامع ، وبها البسـاتين الكثيرة والنزه .

وأما بُزَاعَا — فضيعة من أعمال الباب .

الخامس والعشرون — (عمل دَرْكُوشَ) — بفتح الدال وسكون الراء المهملتين وضم الكاف وسكون الواو وشين معجمة فى الآخر — وهى بلدة علىٰ النهر العاصى غربىّ حَلَبَ علىٰ نحو ثلاث مراحل منهـا ، وأكثر زرع أرضها العنب . أخبرنى بعض أهل تلك البـلاد أن حَبَّةَ العِنَب بها ربمـا بلغت فى الوزن عشرةَ دراهم ، وبها قلعة عاصية آستولىٰ هُولَاكو علىٰ قلاع الشام ماعداها فإنه لم يصل إليها .

السادس والعشرون — (عمل أَنْطَاكِيَةَ) . قال فى "اللبـاب" : بفتح الهـمزة وسكون النون وفتح الطاء المهـملة . قال فى "تقويم البُلْدان" : ثم ألف وكاف

مكسورة ثم ياء مثناة تحت وهـاء فى الآخر . قال ٱبن الجواليقىّ فى "المُعَرّب" : وياؤها مشـدّدة . وخالف فى "الروض المعطار" : فذكر أنها مخففة الياء ــ وهى مدينة عظيمة غربىّ حاب بشمال يسـيرٍ علىٰ نحو مرحلتين منها . قال فى "تقويم البـلدان" : وهى قاعدة بلاد العواصم . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أن طولها ستون درجة، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى مدينة عظيمة قديمة، علىٰ ساحل بحر الروم، بناها بَطْلَيْمُوس الثانى من ملوك اليونان؛ وقيل بناها مَلِكٌ يقـال له أنطاكين فعرفت به ، ولهـا سُورٌ عظيم من صَخْر ليس له نظير فى الدنيا . قال فى "العزيزىّ" : مساحة دَوْرِه ٱثنا عشر ميلاً . قال فى "الروض المعطار" : عدد شُرُفاته أربع وعشرون ألفا، وعدد أبراجه مائة وستة وثلاثون بُرْجا . قال ٱبن حوقل : وهى أنزهُ بلاد الشام بعـد دِمَشْقَ ، ويمرّ بظاهرها العاصى والنهر الأسودُ مجوعين ، وتجرى مياههما فى دُورِها ومساكنها ومسجدها الجامع، وماؤها يستحجر فى مجاريه حتّى لا يؤثر فيه الحديد، وشربه يحدث رياح القُولَنْج، والسلاحُ بها يُسْرِع إليه الصَّدَأ ويذهب رِيحُ الطِّيب بالمكث فيها، وهى أحد كراسىِّ بَطَاركة النصارىٰ، ولهـا عندهم قدر عظيم . وقد قيل فى قوله تعـالىٰ : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَاقَوْمِ ٱتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ إنها أنطاكيةُ وان ذلك الرجل "حبيب النَّجّار" وقبره بها مشهور يزار . قلت : وحينئذ فتصـير ولايتها(١) المذكورة فى "التعريف" و"مسالك الأبصار" : ٱثنتى عشرة ولاية .

ومينَا أنطاكِيَة المذكورة (السُّوَيْدِيَّةُ) بضم السين المشدّدة وفتح الواو وسكون الياء المثناة تحت وكسر الدال المهملة وفتح اليـاء المثناة تحت المشدّدة وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وموضعُها حيث الطولُ سـتون درجة وخمس وأربعون

(١) لعله ولاياتها . علىٰ أن هذه الفذلكة تحتاج إلىٰ تأمل .

دقيقـة . وعندها مصبّ النهر العاصى، وهناك ينعطف البحر الرومىّ ويأخذ غربا بشمال علىٰ سواحل بلاد الأرمَنِ .

القسم الثانى

(من الأعمال الحَلَبيـة البلاد المتصلة بذيل البلاد المتقـدّم ذكرها فى الأعمال الحلبية من الشّمال، وهى المعروفة ببلاد الأرْمَنِ)

قال فى "التعريف" فى مكاتبة متملك سِيسَ : وهـذه البلاد منها بلادٌ تسمّى العواصمَ، ومنها بلادٌ كانت تسمّى قديما بالثُّغُورِ، سميت بذلك لمثاغرتها الروم، وإلىٰ مثل ذلك أشار فى "تقويم البُلْدان" أيضا .

فالعَوَاصِمُ (بفتح العين المهملة والواو وكسر الصاد المهملة وميم فى الآخر). قال ٱبن حوقل : وهى ٱسم للناحية وليست موضعا بعينه يسمّى العواصم . قال : وقصبتها أَنْطَاكِيَـةُ . قال : وعدّ ٱبن خرداذبه العواصم فكثّرها وجعل منها كورة مَنْبِجَ، وكورة تِيزِينَ وبالس ورُصَافة هشام، وكُورَة جُومَةَ وكذا شَيْزَر وأَفَامِية، وإقليم معَرّة النُّعمان، وإقليم صُوران، وإقليم تلِّ باشر وكَفْر طابَ، وإقليم سَلَمِيَّةَ، وإقليم جُوسِيَةَ، وإقليم لُبْنَانَ إلىٰ أن بلغ إقليم قَسْطَل بين حِمْصَ ودِمَشْقَ .

قلت : وأوّل من سماها بذلك الرشيد هارون حين بنىٰ بها مدينة طَرَسُوسَ الآتى ذكرها فى سـنة سبعين ومائة ، والذى يظهر أنها سميت بذلك لعصمتها مادُونَها من بلاد الإسلام من العدوّ، إذ كانت متاخمة لبلاد الكفر، واقعةً فى نَحْرِ العدوّ، وعساكرُ المسلمين حافظة لها .

والثُّغُور جمع ثَغْرٍ (بفتح الثاء المثلثة وسكون الغين المعجمة وفى آخره راء مهملة). قال فى "المشترك" وهو ٱسم لكل موضع يكون فى وجه العدوّ، قال : وثغور الشام كانت أَذَنَةَ وطَرَسُوسَ وما معهما فٱستولىٰ عليها الأرمن .

وذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة فى تاريخه : أن الرشيد فى سنة سبعين ومائة عزل الثغور كلّها من الجزيرة وقِنَّسْرِينَ وجعلها حَيِّزاً واحدا وسماها العواصم .

قلت : ومقتضىٰ ذلك أن تكون الثغور والعواصم آسما علىٰ مسمًّى واحد ، وعليه ينطبق كلام المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف". وقد حدّد فى "التعريف" هذه البلاد بجملتها فقال : وحدُّها من القبلة وآنحراف للجنوب بلاد بَغْرَاس وما يليها؛ وحدّها من الشرق جبال الدَّرَبَنْدات ، وحدّها من الشمال بلاد آبن قرمان ، وحدّها من الغرب سواحل الروم المفضيةُ إلىٰ العَلَايا وأنْطاليَا . وسيأتى الكلام علىٰ أصل آستيلاء الأرمن علىٰ هذه البلاد وآنتزاعها منهم وعودها إلىٰ الإسلام فى الكلام علىٰ مكاتبة متملك سِيسَ ، علىٰ ما كان عليه الأمر قبل عودتها إلىٰ الإسلام فى مكاتبات ملوك الكفر إن شاء الله تعالىٰ .

ويشتمل علىٰ عدّة نِيَابات ، بعضها ذكره فى "التعريف" وبعضها آستجدّ بعد ذلك ، وهى علىٰ ضربين أيضا .

الضرب الأوّل

(الأعمال الكِبَار، وهى صفقتان : ساحلية وجَبَلية)

فأما الجبلية ، فثلاثة أعمال .

الأوّل — (عمل مَلَطِيَّةَ) — بفتح[1] الميم واللام وكسر الطاء المهملة وبعدها ياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر . وهى مدينة شمالىّ حلب بمَيْلة إلىٰ الشرق علىٰ نحو سبع مراحل منها . قال آبن سعيد : وهى قاعدة بلاد الثُّغور، وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : وطولها إحدىٰ وستون درجة،

(١) ضبطها ياقوت والمجد بفتحتين ثم سكون وقال ياقوت : كسر الطاء وتشديد الياء من قول العامة .

وعرضها سبع وثلاثون درجة ، ووافقه فى " القانون " علىٰ الطول وجعل العَرْض ثمانيا وثلاثين درجة ، وقد عدّها ابن حوقل من جملة بلاد الشام وقال إنها من قرىٰ بلاد الروم علىٰ مرحلة . قال صاحب حماة : والأليق عدّها من بلاد الروم . ثم قال : وعدّها بعضهم من الثُّغور الجزرية . قال فى " الروض المعطار " : وكانت قديمة فخربتها الروم ، فبناها أبو جعفر المنصور يعنى ثانىَ خلفاء بنى العَبَّاس فى سنة تسع وثمانين(١) ومائة ، وجعل عليها سورا محكما – وهى بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار ، وهى مسوّرة ، فى بسيط من الأرض والجبالُ محتفة بها من بُعْدٍ ، ولها نهر صغير يمرّ بسورها ، ولها قُنِىّ تدخلها وتجرى فى دُورِها إلا أنها شديدة البرد – وهى فى شمالىّ الجبل الدائر الذى بسِيسَ فى غربيّه ، فى الجنوب عن سِيوَاس ، وبينهما نحو ثلاث مراحل ، وفى الغرب عن نَكْتَا وبينهما نحو مرحلتين . وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" : أنها فتحت فى سنة خمس عشرة وسبعمائة .

الثانى – (عمل دَرَنْدَةَ) – بفتح الدال والراء المهملتين وسكون النون وفتح الدال الثانية وهاء فى الآخر – وهى مدينة فى جهة الغرب عن مَلَطِيَّةَ علىٰ نحو مرحلة ، ذاتُ بساتين وأنهار وعيون ماء تجرى ، وبينها وبين حَلَبَ نحو عشرة ايام .

الثالث – (عمل دَبْرِكِى) – بفتح الدال المهملة وسكون الباء الموحدة وفتح الراء المهملة وكسر الكاف وياء مثناة تحت فى الآخر . وقد يقال دَوْرَكِى بإبدال الباء واوا . وهى مدينة فى جهة الشمال والغرب من حَلَبَ ، علىٰ نحو عشر مراحل منها ، بها بساتينُ وأشجار ، وبينها وبين حَلَبَ نحو اثنى عشر يوما .

---

(١) لعله مصحف عن ثلاثين فان المنصور تولى الخلافة سنة ست وثلاثين ومائة وتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، ونقل ياقوت أنه أرسل من يبنى ملطية سنة أربعين ومائة .

وأما الساحلية، فإن بها خمسة أعمال .

الأوّل — (آياس)— بفتح الهمزة الممدودة والياء المثناة تحتُ ثم ألف وسين مهملة في الآخر . وهي مدينة من بلاد الأرمن علىٰ ساحل البحر، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الزيج" : طولها تسع وخمسون درجة ، وعَرْضها ست وثلاثون درجة ، وهي فُرْضة تلك البلاد، و بينها و بين بَغْرَاس المتقدّم ذكرها مرحلتان . قال في "التعريف" : وقد جعلت نيابةً جليلة نحوحِمْص ،وجُعِل أمرها إلىٰ نائب الشام، ثم جعلت إلىٰ نائب حَلَب ،وهي المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية إضافة إلىٰ نهر جاهان المجاور لها ،وهو جيحان المتقدّم ذكره؛ وكانت ٱستعادتُها من الأرمن في الدولة الناصرية محمد بن قلاوون في سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة، ولذلك قال في "التعريف" : والعهد بفتحها قريب .

الثاني — (عمل طَرَسُوس)— بفتح الطاء والراء المهملتين جميعا وضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية — هكذا ضبطه في "اللباب" والجاري علىٰ الألسنة سكون رائها ، وهي مدينة من بلاد الأرمن علىٰ ساحل بحر الروم شَمَالا بغرب عن حَلَب ، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ثمان وخمسون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها ستٌّ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال في "الروض المعطار" : وهي مدينة مسوّرة ، بناها الرشيدُ في سنة سبعين ومائة وأكملها في سنة ٱثنتين وسبعين؛ ولها خمسة أبواب : باب الجهاد ، و باب الصَّفْصاف ، و باب الشام ، و باب البحر ، والباب المسدود . والنهر يشق في وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد . قال ٱبن حوقل : وهي في غاية الخِصْب ،و بينها و بين حدّ الروم جبال هي الحاجز بين الروم والمسلمين ، وبها دُفِن المأمون بن الرشيد ، وكانت ٱستعادتها من الأرمن في الدولة الناصرية حسن بن محمد بن قلاوون .

الثالث ـ (عمل أدنة)(١) ـ بهمزة ودال مهملة ونون مفتوحات وهاء فى الآخر . وهى مدينة من بلاد الأرمن واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى بعض الأزياج : طولها تسع وخمسون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وأربعون دقيقــة . قال أحمد آبن يعقوب الكاتب فى كتابه "المسالك والممـالك" : وهى من بناء الرشـيد . قال آبن حوقل : وهى مدينة حصينة عامرة ، و بينها و بين طَرَسُوسَ ثمانية عشر ميلا .

الرابع ـ (عمل سِرْفَنْدَكَارَ) ـ بكسر السين وسكون الراء المهملتين وفتح الفاء وسكون النون وفتح الدال المهملة والكاف ثم ألف وراء مهملة ـ هكذا ضـبطه صاحب حمـاة ، ثم قال : وقد يجعل موضع الفاء واوا فيقـال سِرْوَنْدَكَارَ والموجود فى الدسـاتير إسْفَنْدَكَارُ بهـمزة فى الأوّل وسـقوط الراء الأوّلة ؛ وهى قلعة من بلاد الأرمن واقعة فى الإقليم الرابع . قال فى "الزيج" : طولها ستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى قلعة حصينة فى واد علىٰ صخر ، وبعض جوانبها ليس له سور للاستغناء عنه بالصخر ، وهى علىٰ القرب من نهر جَيْحان من البر الجنوبىّ ، فى الشرق عن تل حَمْدون علىٰ نحو أربعة أميال .

الخامس ـ (عمل سِيسَ) ـ بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحت ثم سين مهملة ثانية ـ هذا هو المعروف فى زماننا ، ووقع فى كلام الصاحب كمال الدين آبن العديم أن آسمها سِيسَة باثبات هاء فى آخرها ، وكلامه فى "العزيزىّ" يوافقه . وهى قاعدة بلاد الأرمن ومَوْقِعها فى الإقليم الرابع . قال فى "الزيج" : طولها ستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة . وهى بلدة كبيرة ذات بساتين وأشجار ، ولها قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار علىٰ جبل مستطيل ، بناها بعض خدّام الرشيد وهو الذى سماها . قال آبن سعيد : وكانت قاعدة الثغور الشّمالية . قال فى "العزيزىّ" : و بينها

(١) الذى فى "تقويم البلدان" و"معجم البلدان" و"القاموس" أنها بالذال المعجمة .

وبين المَصِّيصة أربعة وعشرون ميلا، وكانت آستعادتها من الأرمن فى الدولة الأشرفية شعبان بن حسين. قلت: وقد كانت سِيسُ فى أعقاب الفتح نيابة مستقلة، ثم صارت تقدمةَ عسكر مضافة إلىٰ حَلَبَ كما يقع فى غَزّة فى كونها تارة تكون نيابة مستقلة، وتارة تقدمةَ عسكر مضافة إلىٰ دمشق علىٰ ما تقدّم ذكره .

الضرب الثانى

(من[1] الأعمال الصِّغار بلاد الأَرْمَن)

وهى ثلاثة عشر عملا لثلاث عشرة قلعة، لم تجر العادة بمكاتبة أحد من نوّابها عن الأبواب السلطانية، ذكر بعضها فى "التعريف" وبعضها فى "التثقيف" وبعضها فى غيرهما من الدساتير .

الأول — (عمل قلعة بَارِى كَرُوكَ) بفتح الباء الموحدة وألف بعدها راء مهملة مكسورة ثم ياء ساكنة ثم كاف مفتوحة وراء مهملة وواو ساكنة ثم كاف فى الآخر. وهى قلعة علىٰ رأس جبل بالقرب من طَرَسُوسَ فى الشَّمال، علىٰ نحو نصف مرحلة قال فى "التثقيف": آستجدّت فى سنة ستين وسبعمائة . قلت : آفتتحها بيدمر الخوارزمىّ نائب سِيسَ فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون .

الثانى — (عمل كَاوَرًّا) بفتح الكاف وبعدها ألف وواو وراء مفتوحة مشدّدة وألف فى الآخر . وهى قلعة فى الشمال عن آياس علىٰ جبل مطلّ علىٰ البحر الرومىّ علىٰ نحو ساعة . قال فى "التثقيف" : آستجدّت سنة تسع وستين وسبعمائة .

الثالث — (عمل كَوْلَاكَ) بفتح الكاف وسكون الواو ولام ألف بعدها كاف ثانية . وهى قلعة مدوّرة علىٰ رأس جبل فى الشمال عن طَرَسُوسَ علىٰ نحو مرحلة، يسكنها طائفة من التُّرْكُمان .

---

(١) لعله الأعمال الصغار من بلاد الخ .

الرابع - (عمل كِرْزَالَ) بكاف مكسورة وراء مهملة ساكنة وزاى معجمة مفتوحة وبعدها ألف ثم لام . وهى قلعة صغيرة علىٰ رأس جبل بالقرب من كَوْلَاكَ المتقدّم ذكرها علىٰ نحو مرحلة . قال فى "التثقيف" : آستجدّت فى سنة نَيِّف وسبعين وسبعمائة .

الخامس - (عمل كُومِى) بضم الكاف وسكون الواو وكسر الميم وياء مثناة تحتُ فى الآخر .

السادس - (عمل تَلِّ حَمْدُونَ) بفتح التاء المثناة فوق وتشديد اللام وفتح الحاء المهملة وإسكان الميم وضم الدال المهملة وسكون الواو ونون فى الآخر . وهى قلعة ببلاد الأرمن ، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال آبن سعيد : طولها تسع وخمسون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة . قال صاحب حماة : كانت قبل أن يخرِّبها المسلمون قلعةً حصينة حسنة البناء علىٰ تَلٍّ عال ، ولها سور مانع ورَبَض وبساتين ونهر يجرى ، وعلىٰ القرب من جَيْحان فى جهة الجنوب علىٰ نصف مرحلة ، وبينها وبين آياس نحو مرحلة ، وبينها وبين سِيس نحو مرحلتين .

السابع - (عمل الهَارُونِيَّتَيْنِ) - بفتح الهاء وألف بعدها ثم راء مهملة مضمومة ونون مكسورة بعدها ياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة ثم تاء مثناة فوق بعدها ألف(١) ونون . قال فى "التعريف" : وهما حِصْنان بناهما هارون الرشيد . وقال فى "المشترك" : الهارونِيَّة مدينة صغيرة آختطها هارون الرشيد بالثُّغور فى طَرَف جبل اللُّكَام . وقال فى "العزيزى" : الهارونية آخر حدود الثغور الشامية مما يتصل بالحدود الجزرية ، وبينها وبين الكنيسة السَّوْداء آثنا عشر مِيلًا .

(١) أى أو ياء ونون تبعا لعوامل الاعراب .

قال فى "كتاب الأطوال" : وطولها ستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة .

الثامن ـ (عمل قلعة نَجْمَةَ) بفتح النون وسكون الجيم وفتح الميم وهاء (١) فى الآخر. وهى قلعة على القرب من الفُراتِ بينها و بين جَسْر مَنْبِج خمسة وعشرون ميلا. قال فى "تقويم البُلْدان" : وهذه القلعة فى السحاب . قال : وكان يقال لذلك المكان حصن مَنْبِج فصارت تعرف بقلعة نَجْمَة . ثم قال : وهى من بناء السلطان محمود بن زنكى . قلت : وفى "التعريف" ما يقتضى أنها من جملة بناء المأمون .

التاسع ـ (عمل قلعة حيمص). وهى قلعة خراب صغيرة بالقُرْب من نهر جَيْحان.

العاشر ـ (عمل قلعة لُؤْلُؤَة) ـ وهى قلعة شمالىّ كَوْلَاكَ ٱستعادها ٱبن عثمان .

الحادى عشر ـ (عمل قلعة تامرون) شمالىّ طَرَسُوس، بيد عيسى بن ألاس البرسقى التركمانى .

الثانى عشر ـ (عمل سنياط كلا) شمالىّ طَرَسُوسَ. كانت داخل المملكة ٱستولى عليها ٱبن قرمان فى أيام المنصور بن الأشرف شعبان .

الثالث عشر ـ (عمل بلسلوص) غربىّ طَرَسُوسَ على ساحل البحر، بيد حسن ابن قوسى البرسقى التركمانى .

القسم الثالث

(من الأعمال الحلبية البلاد المجاورة للفُرَات من شرقيّه من بلاد الجزيرة الواقعة بين الفرات ودَجْلة، وهى ثلاثة أعمال)

الأوّل ـ (عمل الْبِيرَة) بكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح الراء المهملة وألف (٢) فى الآخر . وهى قلعة فى البر الشرقىّ فى الشَّمال عن الفُرَاتِ، فى الشرق

---

(١) فى المعجم بدون هاء وقال "بلفظ النجم من الكواكب" (٢) لعله وهاء فى الآخر، وهى غير إلبيرة التى ببلاد الأندلس فان تلك الهمزة فيها أصلية على وزن إخريطة وكبريتة فليتنبه .

عن قلعـة الروم المتقـدّم ذكرها على نحو مرحلة والفُرَاتُ بينهما . وقد عدّها في "تقويم البُلْدان": من جُنْد قِنَّسْرِينَ من أعمال الشام، وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في بعض الأزياج : طولها ٱثنتان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهي قلعـة ذات ٱرتفاع وحصينةٌ لاتُرام . قال في "تقويم البُلْدان" : ولها سوق وعمل . قال ٱبن سعيد : وقلعتها على صخرة . قال في "التعريف" : ولها مَنَعة وعسكر .

الثاني ــ (عمل قلعة جَعْبَرٍ) ــ بفتح الجيم وسكون العين المهمـلة وفتح الباء الموحدة وراء مهـملة في الآخر . وهي قلعة من ديار بَكْر في البر الشرقيّ الشماليّ من الفُرات أيضا ، وموقعها في الإقليم الرابع . قال في "الأطوال" : طولها ٱثنتان وستون درجة ، وعَرْضها خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال القاضي جمال الدين ٱبن واصل : وكانت هذه القلعة تعرف قديما بالدَّوْسَرِيَّة نسبة إلى دَوْسَر : عبدالنعمان ٱبن المنذر، وهوالذي بناها أوّلا لما جعله النعمان على أفواه الشأم، ثم تملّكها سابقُ الدين جعبر القشيريّ في أيام الملوك السَّلْجُوقية فعرفت به، ثم ٱنتزعها منه السلطان ملكشاه السلجوقيّ . قال صاحب حماة : وهي في زماننا خراب ليس بها ديار . قلت : وذلك في أثناء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، ثم عمرت بعد ذلك في آخر الدولة الناصرية أو بعدها بقليل ، وقد أشار إلى ذلك في "التعريف" : حين تعرّض لذكرها في آخر مضافات الشأم قبـل ذكر حَلَبَ بقوله : وهي مجدّدة البنيان، مستجدّة الآن، لأنها جُدّدت منذسنوات، بعد أن طال عليها الأمَد ، وأخْنى عليها الذي أخْنى على لُبَد . وكان قد ذكر قبل ذلك في الكلام على تقاسيم الشأم أنها مضافة إلى دِمَشْـق . ثم قال : وحقُّها أن تكون مع حَلَب، وقد صارت الآن من مضافات حَلَب .

الثالث ــ (عمل الرُّهَا) ــ بضم الراء المهملة وفتح الهاء وألف في الآخر. وهي مدينة من ديار مُضَر في البر الشرقيّ الشماليّ عن الفُرَاتِ، وموقعها في الإقليم الرابع بالقرب

من قلعة الروم . قال فى "الأطوال" : طولها آثنتان وستون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها سبع وثلاثون درجة . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة عظيمة رومية، فيها آثار عجيبة . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة ذات عيون كثيرة تجرى منها الأنهار، وبها البساتين والأشجار الكثيرة، وعليها سُور من حجارة، ولها أربعة أبواب باب حَرَّان، والباب الكبير، وباب سبع، وباب الماء . قال : وليس فى بلاد الجزيرة أحسنُ منتزهات منها ولا أكثر فواكه ؛ والفُرَاتُ منها فى ناحية الغرب علىٰ مسيرة يومين، وفى ناحية الشَّمال علىٰ مسيرة يوم . قال فى "تقويم البُلْدان" : وكان بها كنيسة عظيمة، وفيها أكثر من ثلثمائة دَيْر للنصارىٰ . قال : وهى اليوم خراب يعنى فى أثناء الدولة الناصرية، ثم عمرت بعد ذلك . قلت : وهى اليوم عامرة آهلة، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم .

القاعدة الثالثة

(من قواعد المملكة الشامية حماةُ)

وقد ذكرها فى "مسالك الأبصار" بعد دِمَشْقَ ؛ وهو أليق لقربها منها، ولكنه قد ذكرها فى "التعريف" بعد حَلَبَ فتبعته علىٰ ذلك ؛ وفيها جملتان :

الجملة الأولىٰ

(فى حاضرتها)

وهى بفتح الحاء المهملة والميم وألف ثم هاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الرابع بين حِمْص وقِنَّسْرِينَ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وطولها إحدىٰ وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة ؛ وهى مدينة قديمة أَزَلِيَّة . قال فى "تقويم البُلْدان" : ولها ذكر فى التوراة، وهى علىٰ ضَفَّة

العاصى مَكِينة البناء، ولهـا سُورٌ جليـل ، وبيوت ملوكها وشُرُفاتها مطلة على النهر العاصى ؛ وبها القصور الملوكية، والدور الأنيقة والجوامع والمساجد والمدارس والرُّبُط والزوايا والأسواقُ التى لا تَعْدَم نوعا من الأنواع ؛ وبها قلعة مبنية بالحجـارة الملوّنة ؛ وغالبُ مبانيها العلية ، وآثار الخير والبِرّ الباقية فيها من فواضل نِعَم الدولة الأيوبية ؛ وبها نواعيرُ مركّبة على العاصى، تدور بجريان المـاء، وترفع الماء إلى الدُّور السلطانية ودُور الأمراء والأكابر والبساتين ؛ وفى بساتينها الغِرَاسُ الفائق والثمـار الغريبة ؛ ولم يكن لها فى القديم نَبَاهة ذِكْر، وكان الصِّيتُ لحمص دُونَها، ثم تنبه ذكرها فى الدولة الأتابكية زنكى ؛ فلما آلت إلى ملوك بنى أيوب مَصَّرُوها بالأبنية العظيمة، والقصور الفائقة، والمساكن الفاخرة، وتأميرِ الأمراء، وتجنيدِ الأجناد فيها؛ وعَظَّموا أسواقها وزادوا فى غِرَاسها، وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كلَّ من فاق فى فَنِّه إلى أن كملت محاسنها، وصارت معدودةً من أمهات البلاد وأحاسن الممالك ؛ وهى فى غاية رَفَاهة العيش إلا أنها شديدة الحرّ محجوبةُ الهواء ، ويَعْرِضُ لهـا فى الخريف تغير تنسَب به إلى الوَخَامة، ولا يبقى بها الثلج إلى الصيف كما يبقى فى بقيـة الشام، وإنمـا يجلَب إليها ممـا يجاورها ؛ وحولها مروج فِيحٌ ممتـدّة يكثر فيها مصايد الطير والوحش؛ وليس بالممـالك الشامية بعد دِمَشْقَ لها نظير، ولا يدانيها فى لُطْف ذاتها من مجاورتها قريب ولا بعيد . قال فى "الروض المِعْطار" : وبينها وبين حِمْص أربعون ميلا، ولم تزل بأيدى بقَايَا الملوك الأيوبية من جهة صاحب مصر، يقيم ملوكهم فيها مَلِكا بعد ملك إلى أن كان بها منهم آخر الأيام الناصرية محمد بن قلاوون المتقدّم ذكره، وآستقرّ فيها بالأمير(١) طغيتمر الحموىّ : أحد مقدّمى الألوف بالديار المصرية نائبا، وآستمرّت بأيدى النوّاب يليها مقدّم ألف بعد مقدّم ألف إلى الآن .

---

(١) لعل الباء من زيادة الناسخ أى كان بها منهم فى تلك الأيام وآستقر فيها الأمير الخ .

الجمـــلة الثانية

(فى نواحيهـا وأعمالهـا)

قال فى "التعريف" : وحدُّها من القبلة مدينة الرَّسْتَن وماسامتها آخذا بين سَلَمْية وقبة ملاعب، إلىٰ حيث مَجَرُّ النهر والآثار القديمة، وحدّها من الشرق البَرُّ آخذا علىٰ سَلَمية إلىٰ ما آستفل عن قُبَّة ملاعب، وحدّها من الشمال آخر حدّ المعرّة من العرا(١)، وحدّها من الغرب مُضَافات مِصْياف وقلاع الدعوة؛ وليس بها نواب قلاع البتةَ، ولهـا ثلاثة أعمال .

الأول - (عمل بَرِّها) - وهو ظاهرها وما حولها كما تقدّم فى دمشق وحلب .

الثـانى - (عمل بَارِينَ) - بفتح الباء الموحدة وألف بعدها وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر - وهى بلدة علىٰ مرحلة من حماةَ فى الغرب عنها بمَيْلة يسيرة إلىٰ الجنوب، وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولهـا إحدىٰ وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة(٢) .

الثالث - (عمل المَعَرَّة) - بفتح الميم والعين المهملة ثم راء مهملة مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر - وهى مدينة من جُنْد حِمْص واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "كتاب الأطوال" : طولهـا إحدىٰ وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وعرضُها خمس وثلاثون درجة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولهـا إحدىٰ وستون درجة وأربعون دقيقــة ، وعرضَها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة، وتعرف بمَعَرَّة النُّعْمَانِ . قال : البلاذرىّ إضافة إلىٰ النُّعمان بن بَشِير الأنصارىّ رضى

(١) كذا فى الأصل بإهمال النقط وفى الضوء "من الغرب" .

(٢) لم يتكلم علىٰ العرض كعادته ولعله سقط من قلم الناسخ . ويستفاد من "التقويم" أن عرضها أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة .

الله عنه . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة جليلة عامرة كثيرة الفواكه والثمار والخِصْبِ، وشِربُ أهلها من الآبار . قال فى "الروض المعطار" : ولها سبعة أبواب : باب حَلَبَ ، والباب الكبير، وباب شيث، وباب الجنان ، وباب حمص، وباب كذا (١) . قال : ويُذْكَر أن قبر شيثِ بن آدم عليه السلام عند الباب المنسوب إليه فيها، وداخلها قبر يُوشَعَ بن نون عليه السلام، وعلىٰ مِيلٍ منها دَيْرُ سِمْعان الذى به قبر عمر بن عبدالعزيز . قال السمعانىّ : والنسبة إليها مَعَرْنِىٌّ . قال : وبالشام بلدة أخرىٰ تسمَّى مَعَرَّة نَسْرِين بالنون والسين المهملة ، والنسبة إليها مَعَرْنَسِىّ . قال صاحب حماة : والمشهور فى الثانية أنها مَعَرَّةُ مَصْرِين بميم وصاد مهملة .

القاعدة الرابعة

(من قواعد المملكة الشامية أَطْرَابُلُس، وفيها جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى حاضرتها)

وهى بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء المهملتين ثم ألف وباء موحدة ولام مضمومتين وسين مهملة فى الآخر . قال السمعانىّ : وقد تسقط الألف منها فرقا بينها وبين أطْرَابُلُسَ التى فى الغرب، وأنكر يَاقُوتُ فى "المشترك": سقوطَها وعاب علىٰ المتنبى حذفَهَا منها فى بعض شِعْره . قال فى "الروض المعطار": ومعنىٰ أطْرَابُلُسَ فيما قيل ثلاث مدن ، وقيل مدينة الناس . وهى مدينة من سواحل حِمْصَ واقعةٌ فى الإقليم الرابع . قال فى "كتاب الأطوال" : طولها تسع وخمسون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة ؛ وكانت فى الأصل من بناء الروم فلما فتحها المسلمون فى سنة ثمان وثمانين وستمائة فى الأيام الأشرفية "خليل بن قلاوون" رحمه

(١) هذا هو السادس وكنى عنه ولم يحله ولم يذكر السابع فليعلم .

الله، خَرَّبوها وعَمَروا مدينة علىٰ نحو ميل منها وسَمَّوْها باسمها ، وهى الموجودة الآن ؛ ولمـا بنيت هذه المدينة الجديدة كانت وخيمة البقعة ، ذميمة السكن . فلما طالت مدّةسَكَنِها وكثُر بها الناس والدوابّ وصُرِّفت المياه الآسنة التى كانت حولها وعملت بساتين، ونُصِبت بها النصوب والغُرُوس، خفَّ ثِقلُها وقل وَخَمُها .

قال فى " مسالك الأبصار " : ولمـا وَلِىَ نيابتها أستدمر الكرجىّ كان لاينفك عن كونه وخما فشكا ذلك إلىٰ سليمان بن داود المتطبب، فأشار عليه أن يستكثر فيها من الإبل وسائر الدوابّ ففعل فخفّ وَخَمُها . قال: وقد سألت عن علة ذلك الكثيرَ من الأطباء فلم يجيبوا فيه بشىء .

قلت : لا خفاء أن المعنىٰ فى الإبل ما أشار به النبىّ صلى الله عليه وسلم فى أمر العُرَنِيِّينَ حين آستَوْخَمُوا المدينة " أنهم يُقِيمون فى إبل الصَّدَقة ويشرَبُون من ألبانها وأبوالهـا ففعلوا ذلك فَصَحُّوا " فكأنّ ذلك من خاصة الإبل . ولعل التأثير فى ذلك للإبل خاصةً دون سائر الدواب . وهى الآن مدينــة متمدّنة كثيرة الزحام ؛ وبها مساجد، ومدارس ، وزوايا ، وبيمارستان، وأسواق جليـلة، وحمامات حِسَان ؛ وجميع بنـائها بالحجر والكِلْس مبيضا ظاهرا وباطنا ، وغُوطَتها محيطة بها، وتحيط بغُوطتها مزدرعاتها ؛ وهى بديعة المشترَف؛ ولها نهر يحكم علىٰ ديارها وطباقها يتخرق المـاءُ فى مواضع من أعالى بيوتها التى لا يُرقىٰ إليها إلا بالدرج العلية؛ وحولهـا جبال شاهقــة ، صحيحة الهواء ، خفيفة المـاء ، ذاتُ أشجار وكروم ومروج ومواش ، ومِيناها مِينا جليلة ، تهوِى إليهـا وُفُود البحر الرومىّ وترسُو بها مراكبهم ، وتُبَاع بها بضائعهم . وهى بلدة مَتْجر وزرع ، كثيرةُ الفائدة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ عجائب الشام أن داخل البحر بالقرب منها علىٰ نحو رَمْية حجر عن البر عيناً فوارة عَذْبة المـاء تَطفُو علىٰ وجه المـاء قدرَ ذراع أو أكثر، يتبين ذلك عند سكون الريح .

الجمـــــلة الثانية

(فى نواحيهـا وأعمالهـا)

قال فى "التعريف" : وحدّها من القبلة جبـل لُبْنَانَ ممتدّا علىٰ مايليه من مَرْج الأسد، حيث يمتدّ النهر العاصى؛ وحدّها من الشَّمال قِلَاع الدَّعْوة؛ وحدّها من الغرب البحر الرومىّ . وأعمالها علىٰ قسمين :

القســـــم الأوّل

(الأعمال الكِبَار التى يكاتَبُ نوّابها عن الأبواب السلطانية؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مضافاتها نفسها ، وهى ست نيابات)

الأوّل ـ (عمل حِصْن الأكْرَاد) ـ بإضافة حِصْن واحد الحُصُون إلىٰ الأكراد الطائفــة المشهورة ؛ وهى قلعــة من جُنْدِ حِمْص ، موقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أن طولهـا ستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها أربع وثلاثون درجة . قال فى "المشترك" : وهى قلعة حصينة مقابلَ حمص من غربيها، علىٰ الجبل المتصل بجبل لُبْنَانَ نحو مرحلة من حمص . قال فى "التعريف" : وهى حصن جليل وقلعة شَمَّـاءُ، لاتبعد منها السماء . قال : وكانت محل النيابة ومقرّ العسكر قبل فتح طَرَا بُلُس .

الثانى ـ (عمل حِصْنِ عَكَّار) ـ بإضافة حصن إلىٰ عَكَّارٍ ـ بفتح العين المهملة وتشــديد الكاف المفتوحة وبعدها ألف ثم راء مهملة ـ وهى قلعة علىٰ مرحلة من طَرَا بُلُس فى جهة الشرق بوسط جبل لُبْنَانَ فى وادٍ والجبل محيط بها ، وشرب أهلها من عين تجرى إليها من ذيل لُبْنَانَ المذكور، ولهـا رَبَض ليس بالكبير .

الثالث - (عمـل بَلَاطُنُس) - بفتح الباء الموحدة وبعـدها لام ألف ثم طاء مهملة ونون مضمومتان وسين مهملة فى الآخر - وهى قلعة بالقرب من مدينة مِصياف فى جهة الغرب منها على نصف مرحلة ، وفى جهـة الشمال من طَرَابُلُس على نحو مرحلتين .

الرابع - (عمل صَهْيُونَ)(١) - بفتح الصاد المهملة وسكون الهاء وضم الياء المثناة تحتُ وسكون الواو ثم نون فى الآخر - وهى قلعـة من جُنْد قِنَّسْرِينَ فى الإقليم الرابع . قال فى "الزيج" : طولهـا سـتون درجة وعشر دقائق ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهى من القلاع المشهورة ، ذاتُ حَصَانة ومَنَعة ، مبنيةٌ على صخر أصمّ ، فى ذيل جبل يظهر من اللاذقية وبينهـما نحو مرحلة ، وهى فى الشرق عن اللاذقية بمَيْلة إلى الجنوب ، وبها المياه الكثيرة حاصلةً من الأمطار .

الخامس - (عَمَـلُ اللَّاذِقِيَّة) - بألف ولام لازمتين وذال معجمة وقاف مكسورتين وياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة وهاء فى آخرها . وهى مدينة من سواحل الشأم واقعة فى الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : طولها سـتون درجة وأربعون دقيقة ، وعرضها خمس وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وعدّها فى "العزيزى" من أعمـال حِمْص ثم قال : وهى مدينة جليلة بل هى أجلُّ مدينة بالساحل مَنَعـةً وعِمارةً ، ولها مِينا حسـنة ، ومنها إلى أَنْطَاكِيَةَ ثمـانية وأربعون ميلا ، وقد عدّها فى "التعريف" : فى جملة ولايات طَرَابُلُس على ما كانت عليه إذ ذاك ، ثم آستقرّت بعد ذلك نيابة ، وهى الآن أعظم نيابات طَرَابُلُس .

السادس - (عمل المَرْقَب) - بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح القاف وباء موحدة فى الآخر . وهى قلعة بالقرب من ساحل البحر الرومىّ ، وموقعها فى الإقليم

(١) ضبطها ياقوت والمجد بكسر الصاد وفتح الياء المثناة من تحت .

الرابع . قال فى "الزيج" : طولهـا ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وهى قلعة حصينة حسنة البناء مشرفة علىٰ البحر وعلىٰ نحو فرسخ منها مدينة (بِلِنْيَاسَ) بكسر الباء(١) الموحدة واللام وسكون النون وياء مثناة تحت وألف وسين مهملة ــ وفى الغالب تضاف إليها فيقال المَرْقَبُ وبِلِنْيَاسُ ، وهى مدينة حسنة علىٰ الساحل ، ذاتُ مياه وأعين تجرى وفواكه كثيرة . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين أَنْطَرْطُوسَ آثنا عَشَر ميلا ؛ ولم يتعرض لذكر المَرْقَبِ فى "التعريف" : ولا فى "مسالك الأبصار" .

الضرب الثانى

(قِلَاع الدَّعوة ، بفتح الدال)

سميت بذلك لأنها كانت بيد الإسماعيلية من الشِّيعة المنتسبين إلىٰ إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادِيَّة ؛ وهؤلاء هم المعروفون فى ديوان الإنشاء بالقُصَّاد ، وبين العـامّة بالفداوية ؛ وسيأتى الكلام علىٰ معتقدهم فى الكلام علىٰ القُصَّـاد ، ثم فى الكلام علىٰ تحليف أهـل البِدَع فى باب الأيمـان إن شاء الله تعالىٰ ــ وهى سبع قلاع ، عظيمةُ الشأن ، رفيعة المقدار ، لاتُسَامىٰ مَنَعَةً ولا تُرام حصانةً ، وكانت أوّلا كلها مضافة إلىٰ طَرَا بُلُسَ ثم نقلت مِصْيافُ منها إلىٰ دِمَشْقَ علىٰ ما تقـدّم ذكره ، والبقية علىٰ ما كانت عليه من إضافتها إلىٰ طرابُلُس .

وهى ستة أعمال .

الأوّل ــ (عمل الرُصَافَةِ) ــ بألف ولام لازمتين فى أوّلها وراء مهملة مضمومة وصاد مفتوحة بعدها ألف ثم فاء وهاء ــ وهى قلعة بالقرب من مِصْياف ؛ وبالشأم

---

(١) فى المعجم بضم الباء واللام .

بلدة أخرىٰ يقال لها الرُّصَافَةُ أيضا وتعرف بِرُصَافَةِ هشام، علىٰ أقلَّ من مسافة يوم من الجانب الغربىّ من الفُرَاتِ .

الثانى ـ عمل (الخَوَابِى) ـ بفتح الخاء المعجمة والواو ثم ألف وباء موحدة مكسورة وياء فى الآخر ـ وهى قلعة فى جهة الشَّمال من طَرَابُلُس علىٰ نحو مرحلتين، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خواصّ الشأم أن بسُورها مكانا لاينظُره ملسوع أو رسوله إلا بَرَأ ذلك الملسوع ولم يضره السم .

الثالث ـ (عمل القَدَمُوسِ) ـ بفتح القاف والدال المهملة وضم الميم وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر ـ وهى قلعة بالقرب من الخَوَابِى المقدّمة الذكر، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خواصّ الشأم أن بها حَمَّامًا يظهر منه أنواع من الحَيَّات وتمشى بين الناس ولا تضر أحدا البتة .

الرابع ـ (عمل الكَهْف) ـ بفتح الكاف وسكون الهاء وفاء فى الآخر . وهى قلعة بالقرب من القَدَمُوسِ علىٰ نحو ساعة علىٰ نَشَز جبل مرتفع عال يُرىٰ علىٰ بعد .

الخامس ـ (عمل المَيْنَقَةِ) ـ بفتح الميم وسكون الياء المثناة تحت وفتح النون والقاف وهاء فى الآخر ـ وهى قلعة بالقرب من الكَهْف علىٰ نحو ساعة علىٰ جبل مرتفع أيضا .

السادس ـ (عمل العُلَّيْقَةِ) ـ بضم العين المهملة وفتح اللام المشدّدة وسكون الياء المثناة تحت وفتح القاف وهاء فى الآخر ـ وهى قلعة علىٰ الجبل المذكور علىٰ نحو ساعة من المَيْنَقَةِ .

القسم الثانى

(من أعمال طَرَابُلُسَ الأعمال الصغار، وهى ستة أعمال)

قال فى "التعريف" : سوىٰ ما نقل فى تلك القلاع مما له ولاية .

الأوّل ــ (عمل أَنْطَرْطُوسَ) . قال فى "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء وسكون الراء المهملتين وضم الطاء المهملة وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر . قال فى "كتاب الأطوال" : وموضعها حيث الطول ستون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشر دقائق . وهى بلدة بالساحل . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى ثَغْرٌ لأهل حِمص فتحها المسلمون وخَرَّبوا أسوارها، وهى الآن آهلة . قال : وكان بها مُصْحَفُ عثمان بن عَفَّان رضى الله عنه .

الثانى ــ عمل جُبَّـةِ المُنَيْظَرَةِ بإضافة جُبَّةٍ (بضم الجيم وتشديد البـاء الموحدة المفتوحة وتاء التأنيث) إلى المُنَيْظَرَةِ (بضم الميم وفتح النون وسكون الياء المثناة تحت وفتح الظاء[(١)] المعجمة والراء المهملة وهاء فى الآخر) .

الثالث ــ (عمل الظَّنِّيِينَ) ــ بألف ولام لازمتين وظاء معجمة مفتوحة مشدّدة ونون مشدّدة مكسورة وياء مثناة تحت مكسورة بعدها ياء ثانية ساكنة ثم نون ــ وهى كُورة بين مصياف وفَامِيَةَ، وليس بها مقرّ ولاية .

الرابع ــ (عمل بُشَرَّيْه) ــ بضم الباء الموحدة وفتح الشين المعجمة وفتح الراء المهملة المشدّدة وسكون الياء المثناة تحت وهاء فى الآخر ــ هكذا مكتوب فى "التعريف" : والجارى على الألسنة بشراى بابدال الهـاء ياء مثناة تحت .

الخامس ــ (عمل جَبَلَةَ) ــ بفتح الجيم والباء الموحدة واللام ثم هاء فى الآخر ــ وهى بلدة صغيرة بساحل البحر الرومىّ من الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : طولها ستون درجة ، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولهـا ستون درجة، وعرضها أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقـة . قال فى "العزيزىّ" : ولهـا أعمال واسـعة ،

(١) أوردها فى "معجم البلدان" ونص على اهمال الظاء وأنها بصيغة التصغير .

وبينها وبين اللاذِقيَّة آثنا عشر ميلا ، وبينها وبين أنْطَاكِيَةَ ثمـانية وأربعون ميلا ، وبها مقام إبراهيم بن أدهم رحمه الله .

السادس — (عمل أَنَفَة) — بفتح الهمزة المقصورة والنون والفاء وبهاء فى الآخر — وهى بلدة علىٰ البحر الرومىّ تردها المراكب بقِلَّة .

القـاعدة الخامسـة

(من قواعد المملكة الشامية صَفَدُ، وفيها جملتان)

الجمـلة الأولىٰ

(فى حاضرتهـا)

وهى بفتح الصـاد المهـملة والفـاء وتاء مثناة فوقُ فى آخرها . هكذا ضبطه فى "تقويم البُلْدان" . ثم قال : والمشهور علىٰ ألسـنة الناس أن مكان التـاء دالا مهملة ؛ وهى مدينة من جُنْد الأُرْدُنِّ، واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الزيج" . طولهـا سبع وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة، وعرضها آثنان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة متوسطة بين الكِبَر والصِّـغَر، وذكر العثمانىّ فى "تاريخ صفد" : أنه كان مكانها أوّلا قرية وأصل الصَّفَت فى لغتهم العطية، سميت بذلك لأن الفرنج أعطتْها للطائفة الدموية منهم لا يشاركهم فيها أحد . قال : وقد تكون سميت بذلك أخذا من الصَّفَد، وهو الغُل لأن صاحب الغل يمتنع من الحركة ويلزم موضعه ، وكذلك هذا البلد لأنها فى جبل عال لايتمكن ساكنه من الحركة فى كل وقت، إن ركب تعب وإن مشىٰ علىٰ قدمه آختلط لحمه بدمه لصـعود الربوة وهبوط الوهدة، فيستقرّ فى مكانها ويقنع بالنظر، ورَبَضُها منتشر العمارة علىٰ ثلاثة أجبل، وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادى لقلة

الماء بها وسوء بناء حَمّاماتها، وبساتينها تحتها فى الوادى إلىٰ جهة بحيرة طَبَرِيَّةَ، وكل مايوجد فى دِمَشْقَ يوجد فيها: إما من بلادها، وإما مجلوب إليها من دِمَشْقَ؛ ونيابتها نيابة جليلة ونائبها من أكبر الأمراء المقدّمين؛ ولها قلعة حصينة ذات بساتين تُشْرِف علىٰ بحيرة طَبَرِيَّةَ، يَحُفُّ بها جبال وأودية. قال ٱبن الواسطى: بنتها الفرنج سنة خمس وتسعين وأربعمائة. ولما فتحها الظاهر بيبرس رحمه الله عظم شأنها ورفع مقدارها. قال فى "مسالك الأبصار": وهى جديرة بالتعظيم فقلَّ أن يُوجَد لها شبيه، ولا يعلم لها نظير. ولهذه القلعة نائب مستقلٌّ من قِبَلِ السلطان يولَّى من الأبواب الشريفة بمرسوم شريف؛ وعادته أن يكون من أمراء الطبلخاناه، ولا حكم لنائب السلطنة بالبلد عليه بل هو مستقل بنفسه كما فى نائب قلعتى دِمَشْقَ وحَلَبَ.

الجملة الثانية

(فى نواحيها وأعمالها)

قال فى "التعريف": وحدّها من القبلة الغَوْرُ حيث جَسْر الصِّنَّبْرَةِ من وراء طَبَرِيَّةَ؛ وحدّها من المشرق المَلَّاحة الفاصلة بين بلاد الشقيف وبين حُولَةَ بانياس؛ وحدّها من الشمال نهر ليطا، وحدّها من الغرب البحر. وليس فى أعمالها نيابة أصلا. وقد ذكر لها فى "مسالك الأبصار": أحد عشر عملا.

الأوّل — (عمل بَرّها) — كما فى دِمَشْقَ وحَلَبَ وغيرهما من القواعد المتقدّمة.

الثانى — (عمل النَّاصِرَةِ) — بالألف واللام اللازمتين ونون مفتوحة بعدها ألف ثم صاد مهملة مكسورة وراء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر — وهى بليدة صغيرة قال فى "الروض المعطار": علىٰ ثلاثة عشر ميلا من طَبَرِيَّةَ. قال: ويقال: إن المسيح عليه السلام ولد بها، وأهل القُدُس ينكرون ذلك ويذكرون أنها ولدته

بالقُدُس ، والمعروف أن أمه حين عادت به من مصر إلى الشأم وعمره يومئذ اثنتا عشرة سنة نزلت به القرية المذكورة ، وهى اليوم منبع الطائفة النصيرية . والذى ذكره العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" : أن أهل هذه البلاد منسوبون إلى الدين .

الثالث - (عمل طَبَرِيَّةَ) - بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة وكسر الراء المهملة وفتح الياء المثناة تحت وتشديدها وهاء فى الآخر - وهى مدينة من جُنْد الأُرْدُنّ بناها طبريون[(١)] أحد ملوك اليونان البطالسة فعُرِفت به ثم عربت طبرية ، والنسبة إليها طبرانىّ للفرق بينها وبين طَبَرِسْتَانَ من نواحى بلاد الشرق حيث ينسب إليها طَبَرِىٌّ ، وموقعها فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : وطولها ثمان وخمسون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وعَرْضها اثنتان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وقال فى "رسم المعمور" : طولها سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة ، وتبعه ابن سعيد على ذلك . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وعرضها اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وهى فى الغَوْرِ فى سفح جبل على بحيرتها المتقدّمة الذكر فى بُحَيرات الشام . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن عملها قَدَسُ . قال : وكان معها قديما السَّوادُ وبَيْسانُ ثم خرجا عنها . قال العثمانىّ فى "تاريخ صفد" : ومن ولايتها البَطِيحة وكَفْر عاقب .

الرابع - (عمل تِبْنِينَ وهُونِينَ) - بعطف الثانى على الأوّل .

فأما تِبْنِينُ ، فبتاء مثناة فوقُ مكسورة وباء موحدة ساكنة ونون مكسورة وياء مثناة تحتُ ساكنة ونون فى الآخر .

---

(١) فى معجم البلدان "طبارا" .

وأما هُونِينُ ، فبهاء مضمومة وواو ساكنة ونون مكسورة بعـدها ياء مثناة تحتُ ساكنة ونون فى الآخر . قال فى "مسالك الأبصار" : وهمـا حصنان بُنِيَا بعد الخمسمائة بين صُورَ وبانِياسَ بجبل عاملةَ المتقدّم ذكره فى جبال الشام المشهورة، وجعل العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" قلعة هُونِينَ من عمل الشَّقِيف، وأهل هذا العمل شِيعةٌ رافضة .

الخامس - (عمل عَثْلِيثَ) - بفتح العين المهملة وإسكان الثاء المثلثة وكسر اللام وسكون الياء المثناة تحت وثاء مثلثة فى الآخر - وهى كورة بين قاقُونَ وعَكَّا، فيها قُرًى متسعة وليس بها مقرّ ولاية معلوم . قال العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" : وفى آخر هذا العمل بلاد قاقُونَ وهو آخر الأعمال الصفَدِيَّة .

السادس - (عمل عَكَّا) - بفتح العين المهملة وتشديد الكاف المفتوحة وألف فى الآخر - وهى مدينة من سواحل الشام . قال العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" : بَنَاها عبد الملك بن مَرْوان ، ثم غلبت عليها الفرنج، ثم آنتزعها منهـم السلطان صـلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم غلبوا عليها ثانيا، ثم آستُرْجِعت . وهى واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وعشرون دقيقة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقال فى " تقويم البُلْدان " : القياس أن طولهـا سبع وخمسون درجة، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وعشرون دقيقة، وقيل غير ذلك ؛ وقد خَرِبت بعد أن آسترجعها المسلمون من الفرنج فى سنة تسعين وستمائة فى الدولة الأشرفية "خليل بن قلاوون" ؛ وبها مسجد ينسب لصالح عليـه السـلام ، وبينها وبين طَبَرِيَّةَ أربعة وعشرون ميلا ؛ وكانت هى قاعدةَ هذا الساحل قبل صَفَدَ . فلما خربت أقيمت صَفَدُ مقامها وصارت هى ولاية .

السابع ـ (عمل صُورَ) ـ بضم الصاد المهملة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر ـ وهى مدينة قديمة بساحل دِمَشْقَ، واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : طولها ثمان وخمسون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وعرضها آثنتان وثلاثون درجة وثنتان وثلاثون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة ، وعرضها ثلاث وثلاثون درجة وخمس دقائق . وبناؤها من أعظم أبنية الدنيا ؛ وكانت من أحصن الحصون التى علىٰ ساحل البحر ؛ فلما فتحها المسلمون فى سنة تسعين وستمائة مع عكّا خَرَّبُوها خوفا أن يتحصن بها العدوّ، وهى خراب إلىٰ الآن . ويقال إنها أقدم بلد بالساحل ، وإن عامة حكماء اليونان منها. قال الشريف الإدريسىّ : وكان بها مَرْسًى ، يدخل إليه من تحت قنطرة عليها سِلْسِلة تمنع المراكب من الدخول . قال فى "التعريف" : وبصُورَ كنيسةٌ يقْصِدها ملوك من البحر عند تمليكهم فيُمَلِّكون ملوكَهم بها ، إذ لا يصح تمليكهم إلا منها . قال : وشرطهم أن يدخلوها عنوة ، ولذلك لا يزال عليها الرَّقْبَةُ، ومع ذلك يأتونها مباغتة فيقضون أرَبَهم منها ثم ينصرفون ؛ وسُكَّان هذا العمل رافضة لا يشهدون جمعةً ولا جماعة .

الثامن ـ (عمل الشَّاغُورِ) ـ بألف ولام لازمتين وشين معجمة مشدّدة مفتوحة بعدها ألف ثم غين معجمة مضمومة بعدها واو ساكنة وراء مهملة فى الآخر ـ وهى كُورَةٌ بين عَكَّا وصَفَد والناصرة؛ بها قرى متسعة، وليس بها مقرّ ولاية معروف، وعدّها العثمانىّ فى "تاريخ صَفَد" شاغورين (١) .

أحدهما ـ شاغور النعبة (٢) . وهو جبل به قُرًى عامرة . قال : وبالنعبة (٢) دير به مصطبة إذا بات عليها مَنْ به جنون شُفِى بإذن الله .

(١) فى الضوء " وجعلها " وهى أوضح .
(٢) كذا فى الأصل باهمال حروفها ـ و فى الضوء "النعبة" ولم نجدها بعد البحث .

والثانى — شاغور غرابة، وفيه عدّة قرى، وبه مقام أولاد يعقوب عليه السلام، وهو من المَزَارات المشهورة .

التاسع — (عمل الإقْليم) — بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام وسكون الياء المثناة تحت وميم فى الآخر — وهى كورة بين دِمَشْق والشُّغْر والخُرْبة، بها قرى متسعة وليس بها مقر ولاية .

العاشر — (عمل الشَّقِيف) — بفتح الشين المعجمة وكسر القاف وسكون الياء المثناة تحت ثم فاء — ويُعرف بشَقِيف أَرْنُونَ (بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو ثم نون فى الآخر) . قال فى "المشترك" : وهو اسم رجل أضيف الشقِيفُ إليه ، ويُعرف أيضا بالشَّقِيف الكبير . وهو حصن بين دِمَشْقَ والساحل، بعضه مَغَارة منحوتة فى الصخر، وبعضه له سُور . وهو فى غاية الحَصَانة وعلى القرب منه شَقِيف آخرُ يعرف بشقيف تِيرُونَ (بكسر التاء المثناة فوق وسكون الياء المثناة تحتُ وضم الراء المهملة وسكون الواو ونون فى الآخر) وهى قلعة حصينة من جُنْد الأُرْدُنّ على مَسِيرة يوم من صَفَدَ فى سَمْت الشمال . قال فى "مسالك الأبصار": وليست من بلاد صَفَد، وأهل هذا العمل رافضة .

الحادى عشر — (عمل جِينِينَ) — بجيم مكسورة وياء مثناة تحتُ ساكنةٍ ونون مكسورة ومثناة تحتُ ثانية ساكنة ونون فى الآخر — وهى بلدة قديمة متسعة، وهى مُرَكَّبة على كتف واد لطيف به نهر ماء يجرى؛ وهى فى الشمال عن قاقُونَ على نحو مرحلة، فى رأس مَرْج بنى عامر، وبها مقام دِحْيَةَ الكلبىّ: صاحبِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم !

ومن أعمالها (اللَّجُّونُ) . قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح اللام المشدّدة وضم الجيم المشدّدة . وهى قرية قديمة فى جهة الغرب عن بَيْسَانَ، على نصف مرحلة منها .

قال فى "كتاب الأطوال" : موضعها حيث الطول سبع وخمسون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرضُ اثنتان وثلاثون درجة، وبالجُّون مقام الخليل عليه السلام، وبها ينزل الملوك علىٰ مصطبة هناك معدّة لذلك . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن عملها (قَدَس)، وكان معها قديما (السَّوادُ وبَيْسانُ) وخرجا عنها، ثم قال : ومما يذكر فيها (حَيْفَا). وهى خراب علىٰ الساحل، و(قلعة كَوْكب). وهى التى يقول فيها العماد الأصفهانى : راسية راسخة، شمّاء شامخة . وقلعة (الطور) وهى مفردة علىٰ جبل الطُّور، بناها العادل أبو بكر بن أيوب ثم غلبه عليها الفرنج فهدمها .

قلت : واقتصر فى "التعريف": علىٰ ولاية بَرْصَفَد وولاية الشَّقِيف، وولاية جِينِين، وولاية عَكَّا، وولاية النَّاصِرَة، وولاية صُورَ، من غير زيادة علىٰ ذلك .

القاعدة السادسة

(من قواعد المملكة الشامية الكَرَكُ، وفيها جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى حاضرتها)

وهى بفتح الكاف والراء المهملة ثم كاف ثانية، والألف واللام فى أولها غير لازمتين . وتعرف بكَرَك الشَّوْبَكِ لمقاربتها لها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من البَلْقاء وَهْما، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال ابن سعيد : وطُولها سبع وخمسون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها سبع وخمسون درجة وخمسون دقيقة، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس دقائق . وهى مدينة محدَثَة البناء كانت دَيْرا يَتَدَيَّره رُهْبان، ثم كَثُروا فكَبَّروا بناءه وأَوىٰ إليهم من يجاورهم من النصارىٰ، فقامت

لهم به أسواق ودرّت لهم فيـه معايِشُ، وأوَتْ إليه الفِرنج فأداروا أسواره فصارت مدينة عظيمة، ثم بنَوْا به قلعة حصينة من أجلّ المعاقل وأحصنها، وبقى الفرنج مستولين عليه حتّى فتحه السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" رحمه الله على يد أخيه العادل أبى بكر .

قال فى "التعريف" : وكانوا قد عملوا فيـه مراكب ونقلوها إلى بحر القُلْزُم لقصد الحجـاز الشريف لأمور سوّلتها لهم أنفسهم ، فأوقع الله تعـالى بهـم العزائم الصلاحية، والهمم العادلية، فأُخِذُوا، وأَمَر بهم السلطانُ صلاح الدين فحملوا إلى منًى ونُحِروا بها على جَمْرة العقبة حيث تُنْحَر البُدْنُ بها، واستمرّت بأيدى المسلمين من يومئذ واتخذها ملوك الإسلام حِرْزا، ولأموالهم كَنْزا، ولم يزل الملوك يستخلفون بها أولادهم ويُعِدّونها لمخاوفهم، وهو بلد خِصْب، بِوَاديه حَمَّام وبساتين كثيرة وفواكه مفضَّلة .
قال البلاذرىّ فى "فتوح البُلْدان" : وكانت مدينة هذه الكُورة فى القديم الغُرُنْدُلَ .

الجملة الثانيـــــة
(فى نواحيهـا وأعمالهـا)

قال فى "التعريف" : وحدّها من القِبْلة عَقَبة الصَّوّان، وحدّها من الشرق بلاد البلقاء، وحدّها من الشَّمال بحيرة سَدُوم المتقدّم ذكرها ، وحدّها من الغرب تِيهُ بنى إسرائيل . ولها أربعة أعمال .

الأوّل ــ (عمل بَرّها) المختص ببلادها كما فى غيرها من القواعد المتقدّمة .

الثانى ــ (عمل الشَّوْبَكِ) ــ بألف ولام لازمتين وفتح الشين المعجمة المشدّدة وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وكاف فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من جبل الشَّراة، وموقعها فى الإقليم الثالث . قال ابن سعيد : طولها ست وخمسون

درجة، وعَرْضُها إحدىٰ وثلاثون درجة . وقال فى "تقويم البُلْدان" : القياس أن طولها ثمانٌ وخمسون درجة ، وعرضها إحدىٰ وثلاثون درجة . وهى بلدة صغيرة أكثر دخولا فى البر من الكَرَكِ، ذاتُ عيون وجداولَ تجرى ، وبساتينَ وأشجار ، وفواكه مختلفة . قال فى "العزيزى" : ولها قلعة مبنية بالحجر الأبيض علىٰ تَلٍّ مرتفع أبيض مطلٍّ علىٰ الغَوْرِ من شرقيه. قال فى "تقويم البُلْدان": ويَنْبُعُ من تحت قلعتها عينان : إحداهما عن يمينها والأخرىٰ عن يسارها كالعينين للوجه يجريان للبلد ، ومنهما شرب أهلها وبساتينها . قال : وكانت بأيدى الفرنج مع الكَرَك وفتحت بفتحها ، وأقطعها السلطان صلاح الدين مع الكَرَك لأخيه العادل فأعطاهما لابنه المعظَّم عيسىٰ، فاعتنىٰ بأمرهما وجلب إلىٰ الشَّوْبَكِ غرائبَ الأشجار حتّىٰ تركها تُضاهِى دِمَشْقَ فى بساتينها وتَدَفُّقِ أنهارها وتزيد بطيب مائها .

قلت : وذكر فى " مسالك الأبصار " : لها عملين آخرين .

الثالث — (عمل زُغَرَ) — بضم الزاى وفتح الغين المعجمتين وفى آخرها راء مهملة — وهى مدينة قديمة متصلة بالبادية سميت بِزُغَرَ بنت لوط عليه السلام . قال فى " تقويم البلدان " : وهى حيث الطول سبع وخمسون درجة وعشر دقائق ، والعرض ثلاثون درجة وكسر .

الرابع — (عمل مُعَانَ)(١) بضم الميم وفتح العين المهملة وألف ثم نون. قال ابن حوقل : وهى مدينة صغيرة كان يسكنها بنو أُمَيَّةَ ومواليهم . قال فى " مسالك الأبصار " : وقد خربت هى وعملها ولم يبق بها أحد ، وتعرف بِمُعَانِ بن لوط عليه السلام . قال فى "كتاب الأطوال" : وهى حيث الطول سبع وخمسون درجة والعرض ثلاثون درجة . قال فى " تقويم البُلْدان" : وبينها وبين الشَّوْبَك مرحلة .

---

(١) ضبطها ياقوت بالفتح ثم قال "والمحدثون يروونه بالضم" .

الطَّـــرَف الثـانى

(من الفصل الثانى، من الباب الثالث، من المقالة الثانية، فيمن مَلَك البلاد الشامية؛ وملوكُها علىٰ قسمين)

القســـــم الأوّل

(ملوكها قبل الإسلام)

ولم يزل مجموعا قبل الإسلام لملك واحد : إما بمفرده وإما مع غيره .

وملوكه فى الجاهلية علىٰ أربع طَبَقات (١) .

الطبقــــة الأولى

(ملوكها من الكَنْعَانِيِّينَ)

وهم بنو كَنْعَان بن مازيع بن حام بن نوح عليه السلام ، وقيل هم من ولد سام ابن نوح . وكان كَنْعَانُ قد نزل الشأم بجهة فِلَسْطِينَ عند تبلبل الألسنة بعد الطُّوفان، وتوارثها بَنُوه بعد ذلك، وكان كل مَنْ ملك منهم يلقب بجالُوتَ إلىٰ أن ٱنتهىٰ المُلْكُ إلىٰ رجل منهم ٱسمه كلياذ، وهو جالوتُ الذى قتله داود عليه السلام، وبقتله تفرّق بنو كَنْعانَ وبادَ مُلْكُهم وزال . وكان فى خلال ذلك بتَيْماء من أطراف الشأم ملوك من العَمالقة ، وهم بنو عِمْليق بن لاوَذ (٢) بن سام بن نوح عليه السلام، ٱنتقلوا إليه من الحجاز،وهم الذين قاتلهم موسىٰ عليه السلام؛ وكان آخِرَ من ملك منهم الشأمَ والحجازَ الأرقمُ بن الأرقم الذى قتله بنو إسرائيل حين وجَّهَهم موسىٰ عليه السلام فى آخر عمره إلىٰ الحجاز علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك المدينة إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) المعدود خمس .

(٢) فى القاموس "لاوذ بن إرم بن سام" .

الطبقة الثانيـــة

(ملوكها من بنى إسرائيـــل)

وأوّلهم (طالوتُ) الذى ذكره الله تعالىٰ فى القرءان بقوله : ﴿إِنَّ اللّٰهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ وآسمه شاول بن قيس[(١)]،ولم يكن لهم قبل ذلك مَلِك بل حُكَّام وقُضَاة يحكمون؛ وبقِىَ حتّٰى قتل فى قتال الفِلَسْطِينِيِّينَ .

وملك بعده (داودُ عليه السلام) وكانت دارُ ملكه بالقُدْس؛ وفتح فتوحات كثيرة من أرض فِلَسْطِينَ وعُمَّـانَ ومأرِب وحَلَبَ ونَصِيبِينَ وغير ذلك، فأقام فى الملك أربعين سنة .

وتولّٰى ذلك بعده آبنه (سُلَيْمانُ عليه السلام) وعمره آثنتا عشرة ســنة، وعَمَر بيت المَقْدِس وفَرَغ منه فى سبع سنين، وتُوُفِّىَ لأربعين سنة من ملكه .

وملك بعده آبنه (رُحُبْعُم) علىٰ سِبْطَيْنِ من بنى إسرائيل خاصَّةً، وخرج عنه عشرة أسباط فملَّكوا عليهم غيره، وبقى فى الملك سبعَ عشرةَ سنة .

[وملك بعده آبنه (أَبيا) وهلك لثلاث سنين][(٢)] .

وملك بعده آبنه (أَسَا) إحدىٰ وأربعين سنة وتوفى .

فملك بعده آبنه (يَهُوشافاط) خمسا وعشرين سنة وتوفى .

فملك بعده آبنه (يَهُورام) ثمـان سنين وتوفى .

فملك بعده آبنه (أَحُزْيَاهُو) ستين سنة ،وتُوُفِّىَ فبقى المُلْك شاغِرًا فحَكَمَتْ فيه آمرأة ساحرة آسمها غثليا[(٣)] فقامت فى الملك سبع سنين .

---

(١) كذا فى حاشية الجمل أيضا وفى "مروج الذهب" "ساود بن بشر" وهو تصحيف .
(٢) الزيادة عن آبن خلدون فى العبر (ج ٢ ص ١٠١) .
(٣) أفاد فى العبر أنها أم أحزياهو .

ثم ملك بعدها (يُوَاش) فأقام فى الملك أربعين سنة ومات .

فملك بعده آبنه (أَمَصْياهُو) تسعا وعشرين سنة وتوفى .

فملك بعده (عُزِّيَاهُو) آثنتين وخمسين سنة وتوفى .

فملك بعده آبنه (يؤثم)(١) ستَّ عشرةَ سنة ، ويقال إن يونس عليه السلام كان فى زمنه .

ثم ملك بعده آبنه (آحَاز) ستَّ عشرةَ سنة أيضا ، وكانت الحرب بينه وبين ملك دِمَشْق ، وفى زمنه كان شُعَيْبٌ عليه السلام ، وتوفى .

فملك بعده آبنه (هُوحِزْقِيَّا) وآنقاد له بقيةُ الأسباط فملك جميعَهُم ، وأقام فى الملك تسعا وعشرين سنة ثم توفى .

فملك بعده آبنه (مَنَشَّا) خمسا وخمسين سنة ثم توفى .

فملك بعده آبنه (أَمُون) سنتين [وقيل ثنتى عشرة](٢) سنة وتوفى .

فملك بعده آبنه (يُوشِيَا) إحدىٰ وثلاثين سنة ، وجدّد عمارة بيت المقدس ، ثم توفى .

فملك بعده آبنه (يهوياجور) ثلاثة أشهر ، وغزاه فرعون مصر فأخذه أسيرا .

وملك بعـده أخوه (يهوياقيم) إحدىٰ عشرة سنة ودخل تحت طاعة بُخْتَنَصَّرَ ، ثم آستخلف بُخْتَنَصَّر مكانه آبنَه (يُخْنُيو) بن يهوياقيم فأقام مائة يوم .

ثم آستخلف مكانه عَمَّه (صِدْقِيا) إحدىٰ عشرة سـنة ، فأقام علىٰ طاعة بخْتَنَصَّر تسع سنين ، ثم عصىٰ عليه فجهز إليه جيشا ففتح المَقْدِسَ بالسيف وحَرَّقه وهدَمَ بيت المَقْدِس الذى بناه سليمان عليـه السلام وأخذ صدقيا المذكورَ أسيرا ، وهو آخر من ملك منهم . وإلىٰ ذلك الإشارة بقوله تعالىٰ : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَـا أُولِى بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾ الآية .

---

(١) فى العبر "يؤاب" . (٢) الزيادة عن آبن خلدون فى "العبر" .

الطبقة الثالثـــــــة

(ملوكها من الفُرْسِ)

قد تقدّم فى الكلام على ملوك مصر أن بُخْتَ نَصَّر كان نائبا لبهراسف ملك الفُرْس إلى حين غلبته على الشام فآستقرّ الشأم فى مملكة الفُرْس مع مصر من لدن بهراسف المذكور إلى غلبة الإسْكَنْدَر على دَارَا ملكِ الفُرْس على ما تقدّم فى الكلام على ملوك مصر، وفى خلال ذلك عُمِر بيت المَقْدِس بعد أن بقى سبعين سنةً خرابا من تخريب بُخْتَ نَصَّر . وآختلف فيمن عَمَره، فقيل أردشير، وقيل آبنه دارا؛ واليهود تسمّى الذى عَمَره من الفُرْسِ كِيرش ويقال كُورش .

الطبقة الرابعـــــــة

(ملوكها من اليونان)

وأوّل من ملك الشَّأْمَ منهـم الإسْكَنْدَرُ بن فيلبس حين ظهر على ملوك الفُرْسِ مضافا إلى مصر، وبقى على ذلك حتّى مات، فملك بعضَ الشام مع العراق انطياخس، وملك بعضَــه مع مصر البَطَالسـةُ من ملوك اليونان من ولد بطليموس المنطيقى إلى حين آنقراضهم بقتـل أغشطش ملك الروم قُلُوبطرا آخر ملوكهم بمصر على ما تقـدّم ذكره فى الكلام على ملوك الديار المصرية .

الطبقة الخامســـــة

(ملوكها من الروم)

وأوّل من ملكها منهم أغشطش المقدّم ذكره حين غلب على قلوبطرا آخر ملوكهم، وبقى بأيدى الرُّوم إلى حين الفتح الإسلامىّ، يتداولونه مع مصر مَلِكا بعد ملك على ما تقدّم فى الكلام على ملوك الديار المصرية .

القســـم الثـانى

(من ملوك الشام ملوكه[1] فى الإسلام؛ وهم علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(عُمَّال الصحابة رضوان الله عليهم فمَنْ بعدهم من نُوَّاب الخلفاء
إلىٰ حين آستيلاء الملوك عليه)

وأوّل من وليه فى الإسلام (أبوعُبَيْدَةَ بنُ الجرّاح) رضى الله عنه، عند فتحه فى خلافة أمير المؤمنين: عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه، ثم صُرِف عنه ووليه (مُعاويةُ بن أبى سفيان) عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا، فبقىَ إلىٰ أن سلَّم الحسنُ إليه الأمرَ ونزل له عن الخلافة فى سنة إحدىٰ وأربعين من الهجرة، وتوالَتْ عليه خلفاء بنى أُمَيَّةَ، وآختاروه دارا لخلافتهم من لدن معاوية وإلىٰ آنقراض دولتهم بقتل (مَرْوَانَ بن محمد) آخر خلفائهم علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مَنْ ولى الخلافة .

ثم كانت دولة بنى العباس فوَلِيهَا فى خلافة السَّفَّاح عَمُّه (عبد الله بن علىّ بن عبد الله بن عباس) فى سنة آثنتين وثلاثين ومائة، فبقىَ أيامَ السفَّاح وبعضَ أيام المنصور بعده، ثم صرفه المنصور بولاية (أبى مسلم الخراسانى) الشامَ ومصر فى سنة سبع وثلاثين ومائة، ثم قتله المنصور بعد ذلك فى السنة المذكورة . وتوالى عليه بعد ذلك عُمَّال خلفاء بنى العباس إلىٰ أن وليها (عبد الصمد) بن علىّ، ثم عزله الرشيد وولّى مكانه (إبراهيمَ بن صالح بن علىّ) ثم توالت عليه العُمَّال إلىٰ أن غلب عليه (أحمد بن طولون) مع مصر علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

---

١) سلك فى التعبير عن الشأم سبيلى التأنيث والتذكير، والأمر واضح .

الضرب الثانى

(مَنْ وليها مُلْكا)

قد تقدّم أن القواعد العِظام بالشأم ستٌّ قواعد : وهى دِمَشْقُ، وحَلَبُ، وحَمَاةُ، وأَطْرَابُلُس، وصَفَدُ، والكَرَكُ . وكل قاعدة من القواعد الست تشتمل على مملكة .

فأما (دِمَشْقُ) فأوّل ملوكها (أحمد بن طُولُون) صاحب مصر بعد موت مُقْطَعها أماجور فى سنة أربع وستين ومائتين؛ وذلك أوّل آجتماع مصر والشأم لملِك واحد فى الإسلام؛ ثم ملكها بعده مع مصر آبنه (خُمَارَوَيْه)؛ ثم (هارون[1] بن خمارويه)، وكان طغج بن جف نائبا عنهما بها، وفى أيام هارونَ تغلبت القرامطةُ على دِمَشْقَ؛ ثم آنتزعها منهم (المكتفِى بالله) خليفةُ بَغْدادَ فى سنة إحدى وتسعين ومائتين، وأقام عليها (أحمد بن كيغلغ) أميرا، فبقى بها بقية أيام المكتفى، ثم أيام المقتدر، ثم أيام الظاهر . فلما وَلِىَ الراضى الخلافةَ، عزله عنها فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة، وولّى عليها (الأخشيد) وهو محمد بن طغج بن جف، وذلك قبل أن يلِىَ مصر فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة فآستناب على دِمَشْقَ بدرا الأخشيدىّ، فانتزعها منه (محمد بن رائق) فى سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، وآستخلف عليها (أبا الحسين أحمد بن علىّ بن مقاتل) فى سنة تسع وعشرين وثلثمائة، ثم آنتزعها منه (الأخشيد) المقدّم ذكره بعد ذلك وبقيت معه حتّى مات فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة، فوليها بعده آبنه (أنُوجُور) وهو صغير، وقام بتدبير دولته كافور الأخشيدىّ الخادم، ثم آنتزعها منه (سيف الدولة بن حَمْدَان) صاحبُ حَلَبَ الآتى ذكره، ثم آنتزعها منه (كافور الأخشيدىّ) المقدّم ذكره وولّى عليها بدرا الأخشيدىّ الذى كان بها أوّلا، فأقام بها سنة؛ ثم وليها (أبو المظفّر

---

(١) لعله سقط قبله "جيش بن خمارويه" فان ابن طغج كان نائبا عن جيش وهارون كما يؤخذ مما سيأتى له فى الكلام على حلب .

آبن طغج)؛ ثم لما مات أنوجور بن طغج، ملكها مع مصر أخوه (علىّ بن طغج) ثم (كافور) بعده، ثم (أحمد بن علىّ بن الأخشيد) بعده، وهو آخر مَنْ ملك منهم على ما تقدّم فى الكلام على ملوك مصر .

ثم كانت الدولة الفاطمية بمصر: فملكها (جوهرٌ) قائد المِعزّ الفاطمىّ وخطب بها لمولاه المُعِز وأذَّنَ بحىّ على خير العمل فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة، وقطعت الخطبة العبّاسية منها، وأقام بها جعفر بن فلاح نائبا، ثم تغلبت القرامطةُ عليها فى سنة ستين وثلثمائة، ثم آقتلعها منهم (المُعِزّ) وولّى عليها رَيَّان الخادم؛ ثم غلب عليها (افتكين) مولى معز الدولة بن بويه الدّيلمىّ، وقطع الخطبة منها للمُعِزّ الفاطمىّ، وخطب لخليفة بغداد فى سنة أربع وستين وثلثمائة؛ ثم آنتزعها (المعز الفاطمىّ) بعد ذلك وقبض عليه وأحضره معه إلى مصر؛ ثم بعد موت المعز وولاية آبنه العزيز تغلب عليها شخص آسمه (قسام) إلا أنه كان يخطب فيها للعزيز؛ ثم آنتزعها منه (العزيز) وقرر فيها (بكتكين) فى سنة آثنتين وسبعين وثلثمائة؛ ثم آنتزعها منه (بكجور) مولى قَرْعويه صاحبُ حَلَبَ بأمر العزيز الفاطمىّ صاحب مصر فى سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة؛ ثم انتزعها منه وقرر فيها (منيرا الخادم) فى سنة سبع وسبعين وثلثمائة؛ ثم آستعمل الحاكم بن العزيز الفاطمىّ عليها (أبا محمد الأسود) فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة، ثم آنتزعها منه (أنوش تكين) الدِّزْبِرىّ (١) بأمر المستنصر الفاطمىّ فى سنة تسع وعشرين وأربعمائة، ثم أمرَ (٢) بالخروج عن طاعته فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، فخرج عنها وفسد أمرها بذلك؛ ثم تغلب عليها (أتسز بن أرتق) الخوارزمىّ أحد أمراء السلطان

(١) الضبط عن أبى الفداء، ونسبه الى دِزْبِر بن رويتم الديلمى .

(٢) أى أمَرَ المستنصر أهل دمشق بالخروج عن طاعة الدزبرى .

ملكشاه السَّلْجُوقىّ فى سنة ثمان وستين وأربعمائة، وقطع الخطبةَ بها للمستنصر الفاطمىّ وخطب للمقتدى العباسىّ ، ومنع من الأذان بحىّ علىٰ خير العمل ، ولم يخطب بعد ذلك بالشام لأحد من الفاطميين، ثم غلب عليها (تُتُش بن ألب أرسلان) بن داود بن ميكائيل بن سَلْجُوق، وملكها فى سنة إحدىٰ وتسعين وأربعمائة وتوفى؛ فملكها بعده آبنه (دقاق) وأشرك معه فى الخطبة أخاه رضوان صاحب حَلَب مقدّما لرضوان فى الذكر فى الخطبة بعد حربٍ جرت بينهما ، وتوفى دقاق سنة تسع وتسعين وأربعمائة، فخطب طغتكين أتابك دولته لآبن دقاق ، وهو طفل عمره سنة واحدة ، ثم قطع الخطبة له وخطب لعمه بلتاش بن تُتُش ، ثم قطع الخطبة لبلتاش وأعاد الخطبة للطفل، وهو آخر من خطب له بِدَمَشْقَ من بنى سلجوق؛ ثم آستقر (طغتكين) المقدّم ذكره فى ملك دِمَشْقَ بنفسه ، وبقى حتّى توفى فى سنة آثنتين وعشرين وخمسمائة ؛ وملك بعده آبنه (تاج الملوك تورى) بعهد من أبيه، وتوفى سنة ست وعشرين وخمسمائة؛ وملك بعده آبنه (شمس الملوك إسماعيل) بعهد من أبيه .

ثم ملك بعده أخوه (شهاب الدين محمود بن تورى) فبقى حتّى قتل فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وملك بعده آبنه (مجير الدين أرتق) وفى أيامه تغلبت الفرنج علىٰ ناحية دِمَشْقَ .

ثم آنتزعها منهم الملك العادل (نور الدين محمود بن زنكى) المعروف بنور الدين الشهيد وملكها فى سنة تسع وأربعين وخمسمائة، وآجتمع له ملكُ سائر الشام معها، وهو الذى بنىٰ أسوار مدن الشام حين وقعت بالزلازل كدِمَشْقَ وحَمَاةَ وحِمْص وحَلَبَ وشَيْزَر وبَعْلَبَكّ وغيرها؛ وتوفى فملك بعده آبنه (الملك الصالح إسماعيل) وعمره إحدىٰ عشرة سنة، وبقى بها حتّى آنتزعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) صاحبُ مصر فى سنة سبعين وخمسمائة، وقرر فيها أخاه سيفَ الإسلام طغتكين بن أيوب؛

ثم آستخلف عليها السلطان صلاح الدين بعد ذلك آبن أخيه عزّ الدين (فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب) فى سـنة ست وسبعين وخمسمائة ؛ ثم صرفه عنها وقرّر فيها آبنه الملك الأفضـل (نورَ الدين عليا) ؛ وهو الذى وُزِّر له الوزير ضـياء الدين بن الأثير صاحب "المثل السائر" .

ثم آنتزعها منه أخوه الملك العزيز (عثمان آبن السلطان صلاح الدين) صاحب مصر بعد وفاة أبيه بمعاضدة عمه العادل أبى بكر فى سنة آثنتين وتسعين وخمسمائة، والخليفةُ يومئذ ببغداد الناصرُ لدين الله . وكان يميل إلىٰ التشيُّع، فكتب إليه الأفضل علىّ يستجيشه علىٰ أخيه العزيز عثمانَ وعمه العادل أبى بكر، من شعره :

مَوْلَاىَ ! إنَّ أبا بَكْرٍ وصَاحِبَه * عُثْمَانَ قد غَصَبَا بالسَّيْفِ حَقَّ عَلِي !
فانْظُرْ إلىٰ حَظِّ هذا الآسْم كَيْفَ لَقِي * من الأوَاخِرِ ما لَاقىٰ منَ الأُوَل !

فكتب إليه الناصر لدين الله فى جوابه :

غَصَبُوا عَلِيًّا حَقَّهُ إذْ لَمْ يَكُنْ * بَعْدَ النبىِّ له بيَـثْرِبَ نَاصِرُ
فاصْبِرْ فإنَّ غَدًا عَلَيكَ حِسَابُهُمْ * وآبْشِرْ فنَاصِرُكَ الإمَامُ النَّاصِرُ !

ولكنه لم يجاوز القولَ إلىٰ الفعل؛ ثم سلمها العزيز بعد ذلك لعمه (العادل أبى بكر) فقرّر فيها آبنه الملك المعظم عيسىٰ مضافة إلىٰ ما بيده من الكَرَك والشَّوْبَك ، وكان يخطب فيهـا لأبيه العادل، ثم لأخيه الكامل محمد صاحبِ مِصْرَ، وبقى حتّٰى توفى فى سنة أربع وعشرين وستمائة؛ وملك بعده آبنه (الملك الناصر صلاح الدين داود)، وهو صغير .

ثم آنتزعها منه الملك الناصر (محمد بن العادل أبى بكر) صاحب مصر وآستخلف فيها أخاه الملك الأشرف مظفر الدين موسىٰ بن العادل أبى بكر ، فبقى حتّٰى توفى فى سنة خمس وثلاثين وستمائة .

وملكها بعده أخوه (الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبي بكر) بعهد منه [فآنتزعها منه الملك الكامل بن العادل أبي بكر](١) في جمادى الأولىٰ سنة خمس وثلاثين وستمائة وتوفي(٢) في السنة المذكورة .

فملك بعده الملك الجواد (يونس بن مودود) بن العادل أبي بكر(٣) .

ثم آنتزعها منه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن العادل أبي بكر في سنة ست وثلاثين وستمائة، ثم أقام فيها الملكَ المغيثَ فتحَ الدين عمر نائبا عنه .

ثم آنتزعها منه (الملك الصالح إسماعيل بن العادل أبي بكر) صاحب بَعْلَبَكَّ في سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ثم آنتزعها منه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) بن الكامل محمد صاحب مصر وتسلمها له (معين الدين بن الشيخ) في سنة ثلاث وأربعين وستمائة وتوفي قبل أن يتسلمها فتسلَّمها له حسامُ الدين بن أبي عليّ في السنة المذكورة، ولم تزل بيد نوّاب الصالح أيوب حتّى مات في سنة سبع وأربعين وستمائة .

ثم ملكها بعد وفاته (الملك الناصر يوسف) بن العزيز محمد صاحب حَلَبَ في سنة ثمان وأربعين وستمائة، فبقي بها إلىٰ أن غلب عليها هُولاكُو في سنة ثمان وخمسين وستمائة ؛ وكان آخر أمر الناصر المذكور أنه لحق بهُولاكو المذكور فأقام عنده مدّة ثم قتله .

ثم كانت الدولة التركية فملكها منهم (الملك المظَفَّر قُطُز) صاحب مصر حين غلبته التَّار علىٰ عين جالوت، ثم توالىٰ عليها نُوَّاب ملوك الترك من لدن المظفر قُطُز وإلىٰ

(١) الزيادة عن أبي الفداء ليستقيم الكلام .

(٢) أي الملك الكامل .

(٣) أي نائبا عن العادل بن الكامل .

سلطنة (النـاصر فرج) بن الظاهر برقوق فى زماننا على ما تقدّم ذكره فى الكلام على ملوك الديار المصرية ؛ ولم أقف على أسمـاء نُوّابها لطول المدّة وقلة آعتناء المؤرّخين بذكر أسمائهم .

وأما حَلَبُ فقد تقدّم أن منزلَ الجند فى آبتداء الإسلام كان بقِنَّسْرِينَ ، ثم طرأت عليها حلب بعد ذلك وأضعفتها . ولعل آبتداء أمرها كان فى آبتداء الدولة الطُّولونية ، وقد كان أحمد بن طولون آستولى عليها حين آستيلائه على دِمَشْقَ وصارت فى ملكه تَبَعا للديار المصرية كدِمَشْقَ . وكان بها نوابه ثم نوّاب آبنه خُمَارَوَيْه ، ثم نوّاب جيش آبن خمـارويه ، ثم هارون بن خمارويه فى نيـابة طغج بن جفّ عن هارون وجيش المذكورين ؛ ثم كانت مع دِمَشْقَ فى نيابة أحمد بن كيغلغ ، ثم فى نيابة الأخشيد محمد آبن طغج بن جف قبـل أن يلىَ مصر ، ثم فى نيابة بدر الأخشيدى على ما تقـدّم فى الكلام على مملكة دِمَشْقَ .

ثم آنتزعها من بدر الأخشيدى (سيفُ الدولة بن حمدون) التغلبىّ الربعىّ ؛ وملكها فى سنة ثلاث وثلثمائة ، وبقى بها حتّى توفى فى سنة ست وخمسين وثلثمائة ؛ وملكها بعده آبنه (سعد الدولة أبو المعالى شريف) .

ثم آنتزعها منه (قرعويه) غلام أبيه فى سنة ثمـان وخمسين وثلثمائة ، ثم غلب عليها (بكجور) غلام قرعويه المذكور بعد ذلك وآقتلعها منه .

ثم آنتزعها منه (سعد الدولة) المقدّم ذكره ، ثم تقلد بها أبو علىّ بن مروان من الخليفة الفاطمىّ يومئذ بمصر فى سنة ثمـانين وثلثمائة ولم يدخلها ، وبقيت بيد سعد الدولة المذكور حتّى توفى بالفالج فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة .

ثم ملك بعده آبنه (أبو الفضل) مكانه .

ثم ٱنتزعها منه (أبو نصر بن لؤلؤ) وخطب بها للحاكم الفاطميّ، ثم أمره الحاكم بتسليمها إلىٰ نوابه بها فتسلموها منه وٱستقرّت بأيديهم حتّٰى ٱنتهت إلىٰ نائب من نوابه ٱسمه (عزيز الملك) فبقِيَ بها بقية أيام الحاكم وبعض أيام ٱبنه الظاهر، ثم وليها عن الظاهر رجل يقال له (ٱبن شعبان) ثم تغلب عليها (صالح بن مرداس) أمير بني كلاب في سنة أربع وعشرين وأربعمائة؛ ثم قتل فى أيام الظاهر الفاطميّ فملكها بعده (شبل الدولة نصر بن صالح) .

ثم ٱنتزعها منه (أنوش تكين الدِّزْبِرِيُّ) بأمر المستنصر العَلَوىّ فى شعبان سنة تسع وعشرين وأربعمائة، وبقى حتّٰى توفى فى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة؛ وملكها بعده (معز الدولة ثمال بن صالح بن مرداس) ثم ملك قلعتها بعد ذلك فى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة ؛ ثم تسلمها منه مكين الدولة (الحسن بن علىّ بن ملهم) فى سنة تسع وأربعين وأربعمائة بصلح وقع بينه وبين الفاطميين علىٰ ذلك .

ثم ٱنتزعها منه (محمود بن شبل الدولة) بن صالح المقدّم ذكره، وملك قلعتها فى سنة ٱثنتين وخمسين وأربعمائة .

ثم ٱنتزعها منه (معز الدولة ثمال بن صالح) فى ربيع الأوّل سنة ٱثنتين وخمسين وأربعمائة، وبقى بها حتّٰى توفى فى ذى القَعْدة سنة أربع وخمسين وأربعمائة .

وملكها بعده أخوه (عطية بن صالح) فى السنة المذكورة .

ثم ٱنتزعها منه ٱبن أخيه (محمود بن شبل الدولة) المقدّم ذكره فى رمضان سنة أربع وخمسين وأربعمائة، وبقى بها حتّٰى توفى فى ذى الحِجّة سنة ثمان وستين وأربعمائة .

وملكها بعده ٱبنه (نصر بن محمود) ثم قتله التُّرْكُمان .

وملكها بعده أخوه (سابق بن محمود) .

ثم آنتزعها منه شرف الدولة (مسلم بن قريش) صاحب المَوْصِلِ، وقتل فى صفر سنة سبع وسبعين وأربعمائة .

وملكها بعده أخوه (إبراهيم بن قريش) .

ثم آنتزعها منه (تُتُش بن ألْب أرسلان) السَّلْجُوقىّ صاحب دِمَشْقَ فى السنة المذكورة .

ثم آنتزعها منه (السلطان ملكشاه السلجوقىّ) وسلمها إلىٰ قسيم الدولة آقسنقر، ثم آستعادها (تُتُش بن أَلْب أرسلان) المقدّم ذكره بعد موت ملكشاه وآستضافها إلىٰ دِمَشْقَ، وآنبسط ملكُه حتّى ملك بعدُ ذلك أذْرَبِيجان، وبقى حتّى قتل فى صفر سنة ثمان وثمانين وأربعمائة .

وملكها بعده آبنه (رِضْوان) فى سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وبقى حتّى توفى فى سنة سبع وخمسمائة .

وملكها بعده آبنه (سلطان شاه بن رِضْوان) .

ثم آنتزعها منه (ايلغازى بن أُرْتُق) صاحب مارِدِينَ وسلمها إلىٰ ولده حسام الدين تمرتاش، ثم غلب عليها (سليمان بن أرتق) وعصىٰ بها علىٰ أبيه فآنتزعها أبوه منه وسلّمها إلىٰ آبن أخيه (سليمان بن عبدالجَبَّار بن أرتق) فى رمضان سنة ست عشرة وخمسمائة .

ثم آنتزعها منه عمه (بلك بن بهرام بن أُرْتُق)، وبقى بها حتّى قتل فى سنة سبع عشرة وخمسمائة، وملكها بعده آبن عمه (تِمرتاش بن ايلغازى) فى ربيع الأوّل من السنة المذكورة، ثم حاصرها الفرنج، وهى فى يده فخلصها منهم آقْسُنقر البُرْسُقىّ صاحب الموصل، وملَكَها مع مارِدينَ فى السنة المذكورة، وبقى حتّى قتلته الباطنية فى سنة عشرين وخمسمائة .

وملكها بعده ٱبنه (عزالدين مسعود) وٱستخلف بها أميرا من أمرائه ٱسمه قايماز، ثم ٱستخلف عليها بعده رجلا ٱسمه كيغلغ .

ثم ٱنتزعها منه (سليمان بن عبد الجبار) بن أُرْتُق المقدّم ذكره .

ثم ٱنتزعها منه (عمادالدين زنكى): صاحب المَوْصِلِ فى المحرّم سنة ٱثنتين وعشرين وخمسمائة ، وملك معها حماةَ وحِمْصَ وبَعْلَبَكَّ، وبقى حتّى قتله غلمانُه فى ربيع الأوّل سنة إحدىٰ وأربعين وخمسمائة .

ثم ملك بعده ٱبنه الملك العادل (نور الدين محمود) وبقى إلىٰ أن توفّى .

وملك بعده ٱبنه (الصالح إسماعيل) فبقى بها بعد ملك السلطان صلاح الدين يوسف ٱبن أيوب دِمَشْقَ حتّى توفّى بها فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة .

وملكها بعده بوصية منه ٱبن عمه (عز الدين مسعود) بن مَوْدُود بن زنكى بن مودود فى السنة المذكورة .

ثم ٱنتزعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة ، وقرّر فيها ٱبنه الظاهر غياثَ الدين غازى .

ثم ٱنتزعها منه وسلمها لأخيه (العادل أبى بكر بن أيوب) فى السنة المذكورة، ثم أعاد إليها ٱبنه الظاهر غازى المقدّم ذكره فى سنة ٱثنتين وثمانين وخمسمائة، فبقى بها حتّى توفّى فى جمادىٰ الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة .

وملكها بعده ٱبنه (الملك العزيز محمد) فبقى بها حتّى توفّى فى ربيع الأوّل سنة أربع وثلاثين وستمائة .

ثم ملكها بعده ٱبنه الملك (الناصر يوسف) وعمره سبع سنين ولم تزل بيده حتّى ٱستولت عليها التتار فى سنة ثمان وخمسين وستمائة .

ثم كانت الدولة التركية . فكان أوّل من ملكها من ملوك الترك (المظفَّر قُطز) حين كسر التتار علىٰ عين جالوت علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مملكة دِمَشْق ؛ ثم توالى عليها نوّاب ملوك الترك من لدن المظفر قطز وإلىٰ زماننا فى سلطنة النـاصر فرج بن الظاهر برقوق علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مملكة الديار المصرية .

وأما حماة . فقد تقدّم فى الكلام علىٰ قواعد الشام أن الذكر فى القديم إنمـا كان لِحِمْص، وإنما تنبّهت حماة فى الذكر فى الدولة الأتابكية: عمادالدين زنكى. وذلك أن حماة كانت تَبَعا لغيرها من الممـالك ، تارة تضاف إلىٰ دِمَشْـق، وتارة إلىٰ حَلَب .

فكانت مع دِمَشْق بيد (طُغْتِكين) أتابك دولة رضوان بن تُتُش السلجوقىّ فى سنة تسع وخمسمائة .

ثم ٱنتزعها منه السلطان (محمد بن ملكشاه السلجوقىّ) فى السنة المذكورة، وسلمها للأمير (فيرخان بن قراجا) .

ثم ملكها (تورى بن طُغْتِكين) وقرر بها ٱبنه سونج فبقيت بيده حتّى ٱنتزعها منه عماد الدين زنكى فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة .

ثم ٱنتزعها منه بعد ذلك (تاج الملوك إسماعيل بن تورى) بن طُغْتِكين السلجوقىّ فى سنة سبع وعشرين وخمسمائة .

ثم ملكها (العادل نور الدين محمود بن زنكى) مع دِمَشْق وحَلَب وغيرهما فى سنة إحدىٰ وأربعين وخمسمائة، ثم صـارت بعده مع غيرها من البلاد الشـامية إلىٰ ٱبنه (الصالح إسمـاعيل) فبقيت بيده حتى ٱنتزعها منه السلطان (صلاح الدين يوسف

آبن أيوب) فى سنة سبعين وخمسمائة، وقرّر فيها خاله شهاب الدين الحارمى، ثم قرّر فيها أخاه تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة، فبقيت بيده حتّى توفّى فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

فوليها بعده آبنه الملك المنصور (ناصر الدين محمد) فبقى بها حتّى آنتزعها منه أخوه (الملك المظفر محمود) فى سنة ست وعشرين وستمائة، فبقى بها حتّى توفى فى سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

ووليها بعده آبنه (الملك المنصور محمد) فبقى حتّى غلب عليها هُولاكُو ملك التتار مع دِمَشْق وحَلَب وغيرهما، فقرّر بها المظفر قطز[(١)] صاحب مصر بعد هزيمة التتار، فبقى بها حتّى توفى فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة.

فوليها بعده آبنه (المظفر شادى) عن المنصور قلاوون صاحب مصر بعهد منه، وبقى بها حتّى توفى فى سنة ثمان وتسعين وستمائة فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون فى سلطنته الثانية.

فولّى الملك الناصر مكانه (قراسنقر) أحد أمرائه نائبا عليها، وكان العادل كتبغا بعد خلعه من السلطنة قد آستقرّ نائبا بصَرْخَدَ فنقله الملك الناصر محمد بن قلاوون إليها بعد هزيمة غازان ملك التتار، وجعله نائبا بها فى سنة آثنتين وسبعمائة، ومات بعد ذلك.

فولّى الملك الناصر مكانه فى نيابتها (قبجق) أحد أمرائه ثم صرفه عنها.

وولّى مكانه (أستدمر الكرجى) ثم صرفه عنها بعد عوده من الكَرَك.

وولّى فيها الملك المؤيد (عماد الدين إسماعيل) بن الأفضل علىّ، بن المظفر عمر سلطنةً على عادة من تقدّمه فيها من الملوك الأيوبية، وكتب له بذلك عهدا عنه، فبقى بها إلى أن توفّى فى سنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة.

(١) الاولى "ثم قرره بها المظفر الخ".

فولى السلطان الملك النـاصر مكانه آبنه (الملك الأفضل محمد) وكتب له بذلك عهدا أيضا، فبقى بها حتّى أزاله قُوصُون أتابك العساكر فى سلطنة المنصور أبى بكر آبن الناصر محمد بن قلاوون فى سنة إحدىٰ وأربعين وسبعمائة .

وولّى مكانه الأمير (طقزدمر) نائبا بها، وآستقرّت نيابةً إلىٰ الآن، يتوالىٰ عليها نوّاب ملوك مصر نائبا بعد نائب إلىٰ زماننا كغيرها من الممـالك الشامية، وآنقطعت مملكة بنى أيوبَ من الشام بذلك .

وأما أطْرَابُلُس، فكان قد تغلب عليها قاضيها أبو علىّ بن عَمَّـار وملكها وطالت مدّته فيهـا .

ثم آنتزعها منه (المستنصر الفاطمىّ) خليفة مصر مع غيرها من السواحل الشامية، فبقيت بيده حتّى غلب عليهـا القُومص فملكها فى سـنة ثلاث وخمسمائة ، فبقيت فى أيدى الفرنج من حينئذ إلىٰ أن فتحها "الملك المنصور قلاوون" أحد ملوك الديار المصرية فى سنة ثمان وثمـانين وستمائة بعد أن مضىٰ عليها فى يد الفرنج مائة وخمس وثمانون سنة وأعجز فَتْحُها مَنْ مضىٰ من ملوك بنى أيوب فَمَنْ بعدهم. ومن حين فتحها جعلت نيابة، وتوالىٰ عليها نوّاب ملوك مصر من لدنه إلىٰ زماننا .

وأما صَفَد، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ قواعد الممـالك الشامية أنها كانت فى القديم قريةً وأن الفرنج الدَّمَوية بنتها وآستحدثت حِصْنها فى سنة خمس وسبعين وأربعمائة .

ثم فتحها (الظاهر بيبرس) بعد ذلك فى رابع عشر شوّال سنة أربع وستين وستمائة، وقرّر بها الأمير كيغلدى العلائىّ نائبا، وتوالىٰ عليها بعـد ذلك نوّاب ملوك مصر من لدن الظاهر بيبرس وإلىٰ زماننا فى سلطنة الملك الناصر فرج بن الظاهر برقوق .

وأما الكَرَك، فقد تقدّم أن قلعتها كانت ديرًا لرهبان، وكانت بيد الفرنج، وأن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة فتحها، وقرّر فيها أخاه (الملكَ العادلَ أبا بكر بن أيوب) فبقيت بيده إلىٰ أن مات السلطان صلاح الدين، فقرّر فيها ٱبنه (الملك المعظم عيسىٰ) فبقيت فى يده إلىٰ أن ٱستضاف إليها دِمَشْقَ، وتوفِّى فى سنة أربع وعشرين وستمائة .

وملكها بعده ٱبنه (الملك الناصر صلاح الدين داود) فى سنة ست وعشرين وستمائة، وبقى إلىٰ سنة سبع وأربعين وستمائة، فٱستخلف عليها ٱبنه (الملك المعظم عيسىٰ) بعد أن أخذ منه غالب بلاده وفرّ بنفسه .

ثم ٱنتزع (الصالح نجم الدين أيوب) الكَرَك من المعظم عيسىٰ بن الناصر داود فى السنة المذكورة، وأقام بها بدر الدين الصوابى نائبا عنه، وبقى الناصر داود بعد ذلك مُشَرَّدا فى البلاد إلىٰ أن مات فى سنة خمس وخمسين وستمائة، وكان من أهل العلم والورع، وله شعر رائق، منه :

أَلَا لَيْتَ أُمِّى أَيِّمٌ طُولَ دَهْرِهَا * ولم يَقْضِهَا رَبِّى لِمَوْلًى وَلَا بَعْلِ!
وَيَا لَيْتَهَا لَمّا قَضَاهَا لسَيِّدٍ * لَبِيب أَرِيبٍ طَيِّبِ الفَرْعِ والأَصْلِ،
قَضَاهَا مِنَ اللَّاتِى خُلِقْنَ عَوَاقِرًا * ولا بُشِّرتْ يَوْمًا بِأُنْثَىٰ وَلَا فَحْلِ
ويا لَيْتَهَا لَمَّا غَدَتْ بِىَ حَامِلًا * أُصِيبَتْ مِنَ ٱحْتَفَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمْلِ
ويالَيْتَنِى لَمَّا وُلِدْتُ وأَصْبَحَتْ * تُشَدُّ إلىَ الشَّذْقَمِيَّاتُ بالرَّحْلِ،
لَحِقْتُ بِأَسْلَافِى فَكُنْتُ ضَجِيعَهُمْ * وَلَمْ أَرَ فى الإِسْلَامِ مَا فِيهِ مِنْ ثُكْلِ

وكان الملك المغيث فتح الدين عمر بن العادل أبى بكر بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب معتقَلا بالشَّوْبَك ، فأخرجه الصوابى نائب الملك الصالح وملَّكه الكَرَك فبقى بها حتّى قبض عليه الملك الظاهر بيبرس وقتله فى سنة إحدىٰ وسبعين وستمائة ، وهو آخر مَنْ ملكها من بنى أيوبَ .

قلت : وأما غير هــذه الممالك كحِمْص وبَعْلَبَكّ فإنما كانت فى الغالب تبعا لغيرها حتّى إن حِمْص وبَعْلَبَكّ حين آستولت التتار علىٰ الشام فى آخر الدولة الأيوبية كانتا مضافتين إلىٰ دِمَشْق .

وآعلم أن غالب أطراف البلاد الشامية ومضافاتها كانت بأيدى ملوك متفرّقة من قديم الزمان وبعضها حدَث آنفراده ، ثم تنقلت بها الأحوال حتّى آستولىٰ علىٰ كثير منها أهلُ الكُفْر، وصارت بأيديهم إلىٰ أن قيَّض الله تعالىٰ لها مَنْ فتحها ؛ ثم آستعاد أهلُ الكفر منها ما آستعادوا ، ثم فُتِح ثانيا علىٰ ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

فمن ذلك القُدُس ـ كانت بيد تُتُش بن ألب أرسلان السَّلْجُوقىّ صاحب دِمَشْقَ المتقدّم ذكره . كان قد أقطعها للأمير أُرْتُق جدّ ملوك مارِدِينَ الآن . فلما تُوفِّى أرتق المذكور صار القُدُسُ لولديه ايلغازى وسُقْمان ، وبقى بيديهما إلىٰ أن آنتزعه منهما (المستنصر الفاطمىّ) فى سنة تسع وثلاثين وأربعمائة ، وبقى بيده إلىٰ أن ملكه الفرنج منه فى سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة ، بعد أن بذَلُوا السيف فى المسلمين نحوَ سبعة أيام وقتلوا فى المسجد الأقصىٰ ما يزيد علىٰ تسعين ألفَ نفس ، وبقى بيديهم حتّى فتحه السلطان (صلاح الدين يوسف بن أيوب) فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، ثم آستعاده الفرنج من الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بمهادَنة جرتْ بينهم فى سنة ست وعشرين وستمائة .

ثم آنتزعه منهم (الملك الناصر داود) صاحب الكَرَك فى سنة سبع وثلاثين وستمائة .

ثم سلمه (الصالح إسماعيل) صاحب دِمَشْقَ (والناصر داود) صاحب الكَرَك المتقدّم ذكره للفرنج بعد ذلك ليكونوا عونا لهما على الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر فى سنة إحدى وأربعين وستمائة .

ثم فتحه الصالح (نجم الدين أيوبُ) صاحب مصر وآقتلعه من أيديهم فى سنة آثنتين وأربعين وستمائة، فآستمر بأيدى المسلمين إلى الآن .

ومن ذلك بلاد السواحل الشامية كانت بأيدى أُنَاس متفرّقة .

فأما أَطْرَابُلُس وصَفَدُ، فقد تقدّم الكلام عليهما فى الكلام على ملوك الممالك الشامية. وأما غيرهما من بلاد السواحل وما والاها، فإن غالبها كان بيد الفاطميين خلفاءِ مصر إلى أن ضَعُفَت دولتهم فى أيام المستنصر أحدِ خلفائهم، فقصدت الفرنج هذه السواحلَ من كل جهة وآستولَوْا على بلادها شيئا فشيئا .

فآستولوا على عَكَّا وجُبَيْل فى سنة تسع وتسعين وأربعمائة، وعلى صَيْدَا فى سنة أربع وخمسمائة، وآستشرى فسادُهم حتّى ملكوا بَيْرُوتَ وعَسْقَلاَنَ وصُورَ وأَنْطَرْسُوسَ والمَرْقَب وأَرْسُوفَ واللّاذِقيّةَ ولُدًّا والرملةَ ويَافَا ونَابُلُسَ وغَزَّةَ وبَيْتَ لَحْم وبَيْتَ جبريلَ، وغيرَ ذلك من بلاد السواحل وما جاورها، فبقيت فى أيديهم حتّى فتحها السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" فيما بين الثلاث والثمانين والخمسمائة إلى الثمان والثمانين والخمسمائة .

ثم عقد الهُدْنة بينه وبين الفرنج فى سنة ثمان وثمانين على أن تكون يافا وأَرْسُوف وعَكَّا وقَيْسَارِيّة وأعمالها بيد الفرنج، وأن تكون لُدٌّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين .

ثم آستولَوْا على بَيْرُوتَ فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة، ثم وقعت الهدنة بعد ذلك بين الفرنج وبين العادل أبى بكر بن أيوب فى سلطنته فى سنة إحدى وستمائة على أن تستقرّ بيد الفرنج يَافَا وتترك لهم مناصفةً لُدٌّ والرملة .

ثم آستعاد الفرنج عكَّا فى سنة أربع عشرة وستمائة فى أيام العادل أبى بكر المذكور .

ثم آستولَوْا علىٰ صَيْدَا وما معها فى أيام آبنه الكامل محمد فى سنة ست وعشرين وستمائة قبل تسليمه القدس لهم .

ثم سلمهم الصالح إسماعيل صاحبُ دمَشْق صَفَد والشَّقِيف علىٰ أن يعاونوه علىٰ الصالح أيوب صاحب مصر فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة .

ثم سلمهم الصالح إسماعيل المذكور والناصر داود صاحب الكَرَك عَسْقَلاَن وطَبَرِيَّة حين سلماهم القدسَ فى سنة إحدىٰ وأربعين وستمائة .

ثم فتح "الصالح أيوب" صاحبُ مصر غَزَّة وآستولىٰ عليها فى سنة آثنتين وأربعين وستمائة .

ثم فتح (الظاهر بيبرس) فى سنة آثنتين وستين وستمائة قَيْسَارِيَّة وأَرْسُوف، وصَفَد ويافَا فى سنة أربع وستين وستمائة . وفتح صَهْيُونَ فى سنة ست وستين وستمائة ، وأطْرَابُلُس فى سنة ثمان وثمانين .

ثم فتح آبنُه (الأشرفُ خليلٌ) عَكَّا فى سنة تسعين وستمائة، وتتابعت فتوحه ففتح صَيْدَا وبَيْروتَ وعَثْلِيثَ فى السنة المذكورة . وبفتوحه تكاملت بلاد السواحل بأجمعها . ولما فُتِحتْ هُدِمت جميعُها خوفا أن يملكها الفرنج ثانيا وبقيت بأيدى المسلمين إلىٰ الآن .

ومن ذلك أنْطَاكِيَةُ ــ التى هى قاعدة العواصم . فإنها كانت بيد باغى سيان بن محمد آبن ألب أرسلان السلجوقى إلىٰ أن غلب عليها الفرنج فى سنة إحدىٰ وتسعين وأربعمائة، وقتلوا باغى سيان المذكور، وقتل فيها ما يزيد علىٰ مائة ألف نفس بعد حصار تسعة أشهر ، وملكوا معها كَفْر طَابَ ، وصَهْيُونَ ، والشُّغْر وبَكَاس ، وسَرْمِينَ

والدَّرْبَساكَ وغيرها من بلاد حَلَبَ ، و بالغوا حتّى جاوزوا الفرات إلى بلاد الجزيرة ، وملكوا الرُّهَا وسَرُوج وغيرهما من بلادها حتّى فتح السلطان صلاح الدين يوسف آبن أيوب الشُّغْر و بكاس وسَرْمِينَ وغيرها فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

ثم آستعادتها الفرنج بعد فتحه ، ثم فتح أَنْطَاكِيَةَ "الظاهرُ بيبرس" فى سنة ست وستين وستمائة ، فبقيت فى أيدى المسلمين إلى الآن .

ومن ذلك — باقى بلاد الثُّغُور والعواصم كأياسَ وأَذَنَةَ والمَصِّيصة وطَرَسوسَ وبَغْراس وبَهَسْنَى والدَّرْبَسَاك وسِيسَ وغيرها من بلاد الثغور . فإن الأرمنَ وثَبُوا عليها قبل الأربعمائة وآستولَوْا على نواحيها ومنعوا ما كانوا يؤدّونه من الإتاوة للسلمين ، واستضافوا إلى ذلك قلعةَ الروم وما قاربها ، فبقيت فى أيديهم حتّى فتح الظاهر بيبرس بَغْرَاسَ وبَهَسْنَى والدَّرْبَساك وغيرها ، وآنتزعها من الأرمن فى سنة ثمان وستين وستمائة .

وفتح الأشرف "خليل بن المنصور قلاوون" قلعةَ الرُّوم ، وآنتزعها من يد خليفتهم فى سنة إحدى وتسعين وستمائة ، وسمّاها قلعة المسلمين على ما تقدّم فى الكلام على الأعمال الحلبية .

وفتح " الناصر محمد بن قلاوون " فى سلطنته الثالثة آياسَ[1] ، وما والاها فى سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة .

وفتح "الأشرف شعبان بن حسين" بن الناصر محمد بن قلاوون سِيسَ وسائر بلاد الأرمن على يد قشتمر المنصورى نائب حَلَبَ .

ومن ذلك — قِلَاع الدعوة ، التى هى الآن من أعمال طَرَابُلُسَ : وهى مِصْياف والعُلَّيقة والمنيقة والكهف والقُدْمُوس والخوَابِى . فإنها كانت بأيدى الإسماعيلية

(١) ضبطها صاحب "القاموس" كسحاب ونص على مد الهمزة صاحب "التقويم" .

المعروفين الآن بالفِداوية، قبل دخولهم فى طاعة ملوك الديار المصرية، فبقيت بأيديهم حتى ٱنتزعها منهم الملك "الظاهر بيبرس" فى سنة ثمان وستين وستمائة، وٱنتزع منهم العُلَّيقة فى سنة تسع وستين .

ثم ٱنتُزِعت منهم باقى القلاع فى سنة إحدىٰ وسبعين ودخلوا تحت طاعة ملوك مصر من حينئذ، وصاروا شِيعةً لهم .

وهذا آخر مايحتمله الكِتَاب مما يحتاج إلىٰ معرفته .

الطَّـــرَف الثالث

(من الفصل الثانى، من الباب الثالث، من المقالة الثانية فى ذكر أحوال المملكة الشامية ؛ وفيه مقصدان)

المقصِد الأوّل

(فى ترتيب نياباتها علىٰ ماهى مستقرّة عليه)

قد تقدّم أن الممالك المعتبرةَ بالبلاد الشامية ستُّ ممالك فى ست قواعد، وكلُّ مملكة منها قد صارت نيابةَ سلطنة مضاهيةً للملكة المستقلة .

النيابة الأولىٰ

(نيـابة دِمَشْقَ(١)؛ وفيها جملتان)

الجمـــلة الأُولىٰ

(فى ذكر أحوالها فى المعاملات ونحوها)

أما الأثمان المتعامل بها فيها ، فعلىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ معاملات الديار المصرية من المعاملة بالدنانير المصرية ونحوها وَزْنًا، والدنانير الافرنتية عدًّا، والدراهم النُّقْرَة وزنا

---

(١) قد عدّ ثلاث جمل فتنبه .

لاتختلف النقود فى ذلك، إلا أنّ الصَّنْجةَ فى أوزان الذهب بالديار المصرية تخالف الصنجة الشامية فى ذلك، فتنقُص الصنجة الشاميةُ عن المصرية كل مائة مثقالٍ مثقالٌ وربع مثقال؛ وتنقص صنجة الدراهم الشامية عن الصَّنجة المصرية كل مائة درهم درهمٌ؛ والمعاملة فيها بفلوس صِغار، وكان يُتَعامل بها فى الديار المصرية فى الزمن الأوّل قبل ضرب الفلوس الجُدُد، حسابا عن كل درهم أربعة وستون فَلْسًا، وكل أربعة فلوس منها يُعبَّر عنها عندهم بحبة، ثم راجت الفلوس الجُدُد عندهم بعد سنة ثنتين وثمانمائة. إلا أن كلّ (١) بدرهم بخلاف ما تقدّم فى الديار المصرية من أن كل أربعة وعشرين فَلْسا منها بدرهم.

وأما رِطْلها الذى يعتبر به موزوناتها فستمائة درهم بدرهمهم المتقدّم تقديره، وأواقيُّه آثنتا عشرة أوقية، كلُّ أوقية خمسون درهما.

وأما كيلها الذى يعتبر به مَكيلاتها فبالغِرارة، وهى آثنا عشر كيلا، كلُّ كيل ستة أمداد، ينقص قليلا عن رُبُع الوَيْبة المصرىّ، ونسبة الإردب من الغِرارة أن كل غِرارة ومدّ ونصف ثلاثةُ أرادب بالكيل المصرىّ تحريرا على الدمَشْقىّ (٢). ثم قال: لكن كيل دِمَشْقَ ورطلها هو المعتبر وإليه المَرْجِع.

وأما قياس قُماشها فبذراع يزيد على ذراع القماش بالقاهرة بنصف سدس ذراع وهو قيراطان.

وأما قياس أرض الدُّور بها وما فى معناها، فإنه يعتبر بذراع العمل المتقدّم الذكر فى الديار المصرية.

---

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمة.

(٢) لم يقدم لنا ما يعود عليه الضمير ولعله صاحب "المسالك".

وأما سعْرها فقــال فى "مسالك الأبصار" : ســعر اللحم بها أرخص من مصر والدَّجاج والإوَزّ أغلىٰ من مصر، وكذلك السُّكَّر، ولم يتعرّض لغــير ذلك . ولا خفاء فى أن الفاكهة فيها أرخصُ من مصر بالقدر الكبير ، والقمح والشــعير والباقلاء نحو من ســعر مصر، وذلك كله عنــد آعتدال الأسعار . أما حالة الغلاء فيختلف الحال بحسبه .

الجمـــــلة الثانية

(فى ترتيب مملكتها، وهو ضربان)

الضرب الأوّل

(فى ترتيب حاضرتهـا)

أما جُيُوشها ، فعلىٰ ما تقــدّم فى الديار المصرية فى آجتماعها من الترك والجركس والروم والروس والآص ، وغير ذلك من الأجناس المضاهية للترك فى الزِّىّ ، ويزيد بها التُّرْكُمان المتميزون عن صــفة الترك وزِيِّهم ، وجندها ينقسمون إلىٰ ما تقدّم فى الديار المصرية : من الأمراء المقدّمين والطبلخانات والعشرات ، ومَنْ بين المقدّمين والطبلخانات : كأمراء السبعين والخمسين ، ومابين العشرات والطبلخانات كالعِشْرينات ونحوهم ، وكذلك مقدّمو الحَلْقة وجندُها ، ولا وجود فيها للمماليك السلطانية لأنهم لا يكونون إلا بحضرة السلطان . وقد أخبرنى من له خِبْرة بحال مملكتها أن الأمراء المقدّمين بها كانوا فى الأيام النــاصرية محمد بن قلاوون عشرةً غير النائب بها ، وربمــا نقصوا الآن عن ذلك ، وأن أمراء الطبلخانات بهــا كانوا إذ ذاك أربعــين وأنهم الآن نَيِّف وخمسون ، وأن أمراء العشرات كانوا بها ألفين ومائة وخمسين بما فيهم من البحرية .

وأما إقطاعاتها — فقال فى "مسالك الأبصار" : إن إقطاعاتها لاتقارب إقطاعات مصر، بل تكون على الثلثين منها ، إلا فى أكابر الأمراء المقربين بحضرة السلطان، فإن إقطاعاتهم خارجةٌ عن العادة فلا يُعتدّ بها . قال : ولا أعرف بالشأم ما يقارب ذلك إلا ماهو لنائب دِمَشْقَ .

وأما بيوتاتها السلطانية — فقال فى "مسالك الأبصار" : بها خِزانة تخرج منها الإنعامات والخِلع،وخزائن سلاح، وزَرَدْخاناه،وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختَصَرة،حتّى لو جهز السلطان إليها جريدةً (١) وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته. قال : وكل أمير أُمِّر فيها أو فى غيرها من الشام أو رَبّ وظيفة وُلِّى وظيفةً من عادة متوليها لُبْس خِلْعة أو خدم أحدٌ خدمة فى مهم من المهمات أو أمر من الأمور يستوجب خِلْعة أو إنعاما ولم يُخْلَع عليه من مصر كان من دِمَشْقَ خِلْعتُه وإنعامه ، ومنها تخرج أعلام الإمرة وطلائعهن وشعار الطبلخاناه . وفى خزائن السلاح بها تُعْمَل المجانيق والسلاح، ويحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد والقلاع ، ومن قلعتها تجرّد الرجال وأرباب الصنائع إلى جميع قلاع الشام، وتندب فى التجاريد والمهمات .

قلت : أما باقى البيوت كالفِرَاش‌خاناه والإصطبلات السلطانية وما شاكلها ، فلا وجود لها فيها مما ينسب إلى السلطان، بل يكون ذلك للنائب قائما مقام السلطان لأنه فى الحقيقة السلطان الحاضر، وكان بها مطابخُ السكّر السلطانية فأضيفت إلى من يتحدّث فى الأغوار من النائب أو غيره من الأمراء الأكابر .

(١) لعله منها تجريدة

الضرب الثـانى

(فى بيان أرباب الوظائف بِدِمَشْقَ علىٰ تبايُنِ مراتبهم؛ ووظائفُها المعتبرةُ علىٰ خمسة أصناف)

الصنف الأوّل

(وظائف أرباب السيوف)

وهى مضاهيــة لوظائف أرباب السُّيُوف بالحضرة السـلطانية فى كثير منهـا؛ وهى عدّة وظائف .

(منها) نيابة السلطنة بها — وهى أجلُّ نيابات المملكة الشامية وأرفعها فى الرتبة، ونائبها يضاهى النائب الكافلَ بالحضرة السلطانية فى الرتبة والألقاب والمكاتبَة، ويعبَّر عنه فى المكاتبات السلطانية وغيرها "بكافل السلطنة الشريفـة بالشـام المحروس" ويكتب له من الأبواب السـلطانية تقليدٌ شريفٌ من ديوان الإنشاء الشريف؛ وهو قائم بدمشق مَقامَ السـلطان فى أكثر الأمور المتعلقة بنيابته، ويُكتب عنـه التواقيع الكريمة، ويُكتب عنه المربَّعات بتعيين إقطاعات الجُنْد، وتجهَّز إلىٰ الأبواب الشريفة فيشملها الخطُّ الشريف السلطانىّ، ويترتب حكمُ المربعات المصرية والمناشير علىٰ حكمها كما سيأتى فى الكلام علىٰ المناشير فى موضعها إن شاء الله تعالىٰ؛ وهو يكتب علىٰ كل مايتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد؛ ومعه يكون نظر البيمارسـتان النُّورى بِدِمَشْقَ كما يكون نظر البيمارسـتان المنصورى بالقاهرة مع أتابك العساكر؛ وكذلك يكون معه نظر الجامع الأُمَوِىّ بها .

(ومنها) نيابة القلعة بها — وهى نيابة منفردة عن نيابة السلطنة، ليس لنائب السلطنة عليها حديث، وولايتها من الأبواب السـلطانية بمرسوم شريفٍ يكتب من ديوان

الإنشاء الشريف . قال فى "التثقيف" : وكان عادة نائبها فى الأيام المتقدّمة مقدمَ ألف ، ثم ٱستقرّت بعد ذلك طبلخاناه، وهى علىٰ ذلك إلىٰ الآن . ومن شأنه حفظ القلعة وصونُها، ولا يسلّم مفتاحها لأحد إلا لمن يتولاها مكانَه أولمن يأمره السلطان بتسليمه له . ولنائبها أجناد بحريّة مقيمون فى القلعة لخدمته، ولا يحضر هو ولا أحدٌ منهم دارَ النيابة بالمدينة، ولا يركبون فى الغالب . وقد أخبرنى بعض أهل المملكة أن بالقلعة طبلا مرتّبا لٱستعلام أوقات الليـل إذا أُذِّن للعشاء الآخرة ضرب عليه عند مضىّ كل أربع درج ضربة واحدة إلىٰ أن ينقضى ثلثُ الليـل الأوّل . فإذا دخل الثلث الثـانى ضُرب عليه عنـد مضىّ كل أربع درج ضربتين إلىٰ ٱنقضاء الثلث الثـانى . فإذا دخل الثلث الثالث ضرب عليه عنـد مضىّ كل أربع درج ثلاث ضربات إلىٰ أن يؤذّن للصبح . قال : وهكذا شأن سائر القلاع بالممالك الشامية .

(ومنها) الحجوبيـة ـ وكان بهـا فى الأيام الناصريّة ٱبن قلاوون فيما يقال ثلاثةُ حُجّابٍ، أحدهم حاجب الحُجّاب ، ويعبر عنه فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بأمير حاجب، وعادته أن يكون مقدّمَ ألف من الزمن القديم وهلُمَّ جَرًّا ، وهو الرتبة الثانية من النائب، ومن شأنه الجلوسُ بدار العدل ، ولا يقف كما يقف حاجبُ الحُجّـاب بين يدى السلطان بالديار المصرية ، وإذا خَرَج النائب عن دِمَشْق فى مُهِمٍّ أو غيره، كان هو نائب الغَيْبة عنه . وإذا برز مرسومُ السـلطان بالقبض علىٰ نائب السلطنة بها ، كان هو الذى يقبِض عليه ويفعـل فيه مايؤمَرُ به من سجن أو غيره، ويقوم بأمر البلد إلىٰ أن يُقام نائب آخر . والحاجبان الآخران طبلخاناتان أو طبلخاناه وعشرة ، وربما كانوا أربعة : حاجبُ الحُجّاب وثلاث طبلخانات أو طبلخاناتان وعشرون أو عشرة أوغير ذلك، ورُتَبهم فى المواكب أن يكون حاجب الحُجّاب والذى يليه فى الرتبة ميمنةً والثانى ميسرة. ثم صاروا فى الأيام الظاهرية برقوق خمسة أوستة .

ولم تجر العادة بأن يُكْتب لأحد منهم مرسومٌ شريف من الأبواب الشريفة عنـد ولايته، ولا مَدْخَلَ للنائب بها فى كتابة مايوقع لأحد منهم .

(ومنهـا) شدّ المُهِمَّات ــ وهى رتبـة جليـلة ، وموضوعها التحدّث فى أمور الاحتياجات السلطانية، وتارة لنائب السلطنة بدمشق،وتارة لحاجب الحجاب، وتارة لبعض الأمراء من المقدّمين والطبلخانات بحسب مايقتضيه رأى السلطان .

(ومنها) نِقَابة القلعة بهـا ــ وهى إمرة عشرة بمرسومٍ شريف ، يكتب له من الأبواب الشريفة .

(ومنها) نِقَابة النُّقَباء ــ وهما نقيبان : نقيبٌ للميمنة ونقيبٌ للميسرة .

(ومنها) الجِزِنْدارِيَّة ــ وموضوعها التحدّث علىٰ الخِلَع والتشاريف السـلطانية بالقلعة وعادتها أربعة طواشيَّة خِصْيَانٌ بعضهم أعلىٰ رتبةً من بعض ، أحدهم فى رتبة أمير طبلخاناه أو أمير عشرين، والثـانى دونَه، والثالث دونَه، والرابع دونَه ، وكل منهم له توقيع كريم من نائب السلطنة بِدِمَشْقَ علىٰ قدر رتبته .

(ومنها) نِقَابة الجيش ــ وفيها ثلاثةُ نَفَر، أكبرهم يعبر عنه بنقيب النقباء ، تارة يكون أمير طبلخاناه، وفى غالب الأوقات أمير عشرة، ودونَه اثنان من جند الحَلْقة . ويكتب لكل منهم توقيع كريم عن النائب علىٰ قدر رتبته .

(ومنها) شدّ الدواوين ــ وموضوعُها التحدّث فى استخراج الأموال السلطانية رفيقـا للوزير كما فى الديار المصرية ، وكانت فى الأيام المتقـدّمة إمرةَ طبلخاناه ، ثم استقرت إمرة عشرة . وهى الآن جندىّ من أجنـاد الحَلْقة ، ويُكْتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ الأوقاف ــ وموضوعُها التحدّث علىٰ أوقاف المسـلمين بِدِمَشْقَ ، وعادتها إمرة عشرة، وربما كانت طبلخاناه،ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ الخاصّ — وعادته طبلخاناه أو عشرة أيضا .

(ومنها) شَدّ الزكاة — وموضوعها التحدّث على مَتْجَر الكارم ونحوه ، وكانت فى الزمن المتقدّم إمرةَ عشرة، وهى الآن جندىّ ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ العُشْر — وموضوعها التحدّث فى واصل الفرنج ، وكانت إمرة عشرة، وهى الآن جندىّ، ويكتب لمتوليها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) شدّ دار الطُّعْم — وهى بمثابة الوَكالة بالديار المصرية،وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ،وعادتها إمرة عشرة أو مقدّم حَلْقة أو جندىّ،ويكتب بها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) وِلَاية المدينة — وموضوعها التحدّث فى أمر الشُّرْطة كما فى سائر الولايات، وعادتها إمرة عشرة، وربما وليها جندىّ، ويكتب بها توقيع كريم عن النائب .

(ومنها) المِهْمِنداريَّة — وموضوعها تلقى الرُّسُل الواردين ، فى أمور أخرى كما فى الديار المصرية . وقد أخبرنى بعض أهل المملكة أنه كان بها فى الأيام الناصرية آبن قلاوون فى نيابة الأمير تنكز مهمندارٌ واحدٌ مقدّمُ ألف ، ثم آستقرّت فى الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" نفرين ، وهى على ذلك إلى زماننا ، وهما الآن أمير عشرة، وجندىّ، ويكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر رتبته .

(ومنها) أميراخورية البريد — وموضوعها التحدّث على خيول البريد بِدِمَشْقَ ونواحيها . وأخبرنى بعض أهل هذه المملكة أنه لم يزل بها أمير عشرة من الأيام الناصرية آبن قلاوون وإلى الآن .

(ومنها) تَقْدِمة البريد — وموضوعها التحدّث على جماعة البريدية بِدِمَشْقَ . وأخبرنى بعض أهل المملكة أنها كانت فى الأيام الناصرية آبن قلاوون منحصرةً

فى واحد من جملة البريدية، ثم آستقرّ فيها الآن آثنان إما إمرة عشرة و إمرة خمسة، أو إمرة خمسة وجندى، أو نحو ذلك، و يكتب لكل منهما توقيع كريم عن النائب على قدر مرتبته .

(ومنها) شُدُود صغار متعدّدة، يولّى بها أجناد بتواقيعَ لهم عن النائب : كشدّ دار البِطّيخ والفاكهة ، وشـدّ المَسابك من الحديد والنُّحاس والزُّجاج وغير ذلك ، وشدّ المواريث الحَشْرية ونحو ذلك . وكان لمطابخ السُّكَّرِ شدٌّ مفرد يولّى بتوقيع كريم عن النائب، ثم آستقرّ ذلك مضافا لمن يتحدّث على الأغوار من النائب أو غيره .

قلت : أما سائر أرباب الوظائف من الأمراء المستقرّ مثلهم بالحضرة السلطانية : كرأس نوبة، وأمير مجلس ، وأمير سـلاح ، وأميراخور ، وأمير جاندار ، وأستادار المباشرة، وأسـتادار الصحبة ، وشادّ الشرابخاناه، والجاشنكير ، ومقدّم المماليـك ونحوهم، فلا وجود لهم هناك . وإنمـا يكون للنائب مثلهم من أجناده كغيره من سائر الأمراء .

الصـــــنف الثـانى

(الوظائف الدِّيوانية؛ وهى عشر وظائف)

(منها) الوِزَارة ـ وهى تارة تعلو رتبةُ صاحبها بأن يكون جليلَ القدر، كما إذا كان قد تقدّمت له ولايةُ وزارة بالديار المصرية أو نحو ذلك فيصرَّح له بالوزارة ، وتارة تقصُر رتبته عن ذلك فيطلق عليـه ناظر المملكة الشامية ، ولا يُسْمح له من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية باسم الوزارة ، و إن كان الجارى على ألسنة العامة إطلاقَ لفظ الوزير عليه . وكيفما كان فإنمـا يوليه السلطان من الأبواب الشريفة . إن كان وزيرا كتب له تقليـد، و إن كان ناظرَ المملكة كتب له مرسوم . قلت : وقَلَّ أن

يليها أرباب السيوف، فإن وقع ذلك آحتاج معه إلىٰ ناظر مملكة كما يكون ناظرُ الدولة مع الوزير ربِّ السيف بالديار المصرية .

(ومنها) كتابة السِّرّ — ويعبر عن متوليها فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بصاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروس، ولا يقال فيه : صاحب دواوين الإنشاء كما فى الديار المصرية . علىٰ أنها تضاهى كتابة السر بالديار المصرية فى الرياسة ورفْعة القدر . وموضوعها علىٰ نحو ماتقدّم فى الديار المصرية . وكيفما كان فإنما يولّى من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، ويحترز السلطان فيها علىٰ أن يكون كاتب السر من خاصته الموثوق بهم ليطالعه بخفيات أمور المملكة وما يحدث بها مما لعل النائب قد يُخْفيه عن السلطان . وبديوانه كُتَّاب الدَّسْت وكُتَّاب الدَّرْج كما بالديار المصرية، ويقال إنه كان عِدَّةُ كُتَّاب الدست فى الأيام الناصرية آبن قلاوون نفرين وكُتَّاب الدَّرْج جماعة يسيرة، ثم زاد الأمر كما فى الديار المصرية . وولاياتُ كُتَّاب الدَّست وكُتَّاب الدَّرج بتواقيع كريمة عن النائب دون الأبواب الشريفة .

وأخبرنى بعض أهل دِمَشْقَ العارفين بأحوال المملكة أن كاتب السرّ فى الزمن المتقدّم لم يكن يحضُر دار العدل مع النائب، وإنما كان يحضر كُتَّابُ الدست فقط فيوقِّعون بما يحتاج إليه فى المجلس وينصرفون إلىٰ كاتب السرّ فيخبرونه بما آتفق، وكاتب السرّ يجتمع بالنائب فى أوقات مخصوصة فيما يتعلق بالأمور السلطانية فقط، وكان كاتب السرّ ربما داجىٰ عليه الموقِّعون فيما يقع بدار العدل فيلحقه بعض الخَلَل . فلما وَلِىَ كتابة السرّ القاضى ... ... (١) سعىٰ السعى العظيمَ حتّىٰ أُذِن له فى الحضور بدار العدل والتوقيع فيه، وآستمرّ ذلك إلىٰ الآن .

(١) بياض فى الأصل .

(ومنها) نظر الجيش ــ وموضوعه التحدثُ فى الإقطاعات : إما فى كتابة مربَّعات تُكْتَب بما يعينه النائب من الإقطاعات المتوفِّرة عن أربابها بالموت ونحوها وتكميلها بخطوط ديوانه، ويجهزها النائب إلى الأبواب الشريفة ليشـملها الخطُّ الشريفُ السلطانىّ، وتحمل إلى ديوان الجيوش بالديار المصرية فتجعل شاهدا مخلَّدا فيـه، وتكتبُ منه مربَّعة، بمقتضاها يخرج المنشور على نظيرها كما تقدّمت الإشارة إليه. وإما فى إثبـات المناشـير الشريفة التى تصدر إليه من الأبواب السلطانية بديوانه حفظا لحسبانات المقطَعين. وليس بالشام كتابة مناشـير أصـلا، بل ذلك مختص بالأبواب السلطانية، فإن كان فيه كتابة الدست وَقَّع بدار العدل فى جملة الموقعين وإلا فلا. وإذا كان موقعا جلس مجْلِسَ ناظر الجيش وإن كان متأخرا فى القُدْمَةِ عن غيره من الموقِّعين؛ وولاية هذا النـاظر من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف. وبديوانه عدّة مباشِرين من صاحب ديوان وكُتَّاب وشهود، ولِّايتهم عن النائب بتواقيع كريمة. وناظر الجيش هو الذى يحكم فى المحاكمات الديوانية كما يحكم فيها مستوفِى المرتَجَع بالديار المصرية.

(ومنها) نظر المهمَّات الشريفة ــ وهى وظيفة جليـلة يكون متوليها من أرباب الأقلام رفيقا لشادّ المهمات المتقدّم ذكره من أرباب السيوف: من النائب أو حاجب الحُجّاب أو غيرهما. وهى تارة تضاف إلى الوزارة، وتارة تفْرَد عنهـا بحسب مايراه السلطان. وولايتها من الأبواب السلطانيـة بتوقيع شريف. وبهذا الديوان عدّة مباشرين من كُتَّاب وشهود، فوليهم النائب بتواقيع كريمة.

(ومنها) نظر الخـاص ــ وموضوعه هناك التحدّثُ فيما يتعلق بالمسـتأجَرات السلطانية وغيرها من الأغوار وما يجرى مجراها، وربمـا أضيف نظرُها للوزير.

(ومنها) نظر الخِزَانة، ويعبر عنها بالخِزانة العالية . ومتوليها يكون رفيقا للخازندارية من الطواشيَّة المتقدّم ذكرهم . فيكون متحدّثا فى أمر التشاريف والخِلَع وما معها؛ وهى وظيفةٌ جليلةٌ يوليها النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيمارستان النُّورِىّ — وقد صار النظر عليه مَعْدُوقاً بالنائب، يُفَوِّض التحدّثَ فيه إلىٰ من يختاره من أرباب الأقلام .

(ومنها) نظر الجامع الأُمَوِىّ — وفى الغالب يكون مع قاضى القضاة الشافعىّ .

(ومنها) نظر خزائن السِّلاح — وموضوعها كما فى الديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيوت — وموضوعها علىٰ ما تقـدّم فى الديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . وأخبرنى بعض الدِّمَشْقِيِّين أن هذه الوظيفة آسم علىٰ غير مسمّى لا حقيقة لهـا ولا مباشرة، لعدم البيوت السلطانية هناك .

(ومنها) نظر بيت المـال — وحكمها كما فى الديار المصرية .

(ومنها) نظر ديوان الأسْرىٰ — وهو التحدّث فى الأوقاف التى تُفدىٰ بها الأسرىٰ .

(ومنها) نظر الأسواق — وموضوعها كما تقـدّم فى الديار المصرية من التحدّث علىٰ سوق الرقيق والخيل ونحوها، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر مراكز البَرِيد — ومتوليهـا يكون رفيقا لأميراخور البريد المتقـدّم ذكره، وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الحوطات — وهو علىٰ نحو من آستيفاء المرتَجَع بالديار المصرية فى تحصيل الأموال السلطانية .

أما الحكم فى المحاكمات الديوانية، فيختص بناظر الجيش كما تقدّم ذكره .

(ومنها) نظر المَسَابك - ومتوليه يكون رفيقا لشادّ المسابك المتقـدّم ذكره في أرباب السيوف، وولايته عن النائب بتوقيع كريم . قلت : ويضم إلىٰ كل نظر من هذه الأنظار مباشِرُون : من شهود وغيرهم، يكتب لذوى الصوب منهم تواقيع كريمة عن النائب بوظائفهم ، في أنظار أخرىٰ لا يسع آستيفاؤها : كنظر المواريث الحَشْرية وغيرها . ومما أهمل من الأنظار بها نظر مطابخ السُّكَّر كما أهمل شدّها لإضافتها إلىٰ المتحدّث في الأغوار علىٰ ماتقدّم ذكره في الكلام علىٰ وظائف أرباب السيوف .

الصـــــــنف الثـالث

(من الوظائف بدِمَشْقَ الوظائف الدينية، وهى عدّة وظائف أيضا)

(منها) قضاء القضاة - وبها أربع قُضاة من المذاهب الأربعة علىٰ الترتيب المتقدّم في الديار المصرية . فأعلاهم الشافعيّ وهو المتحدّث علىٰ الموازع الحكمية والأوقاف وأكثر الوظائف، ويختص بتولية النوّاب في النواحى والأعمال بجميع أعمال دِمَشْقَ حتّىٰ في غَزَّة، ويليه في الرتبة الحنفيّ، ثم المالكيّ، ثم الحنبليّ. وكان آستقرار القضاة الأربعة بها بعد حدوث ذلك بالديار المصرية، لكن لم تستقرّ الأربعة دَفْعة واحدة كما وقع في الديار المصرية في الدولة الظاهرية بيبرس، بل علىٰ التدريج . وأقدمهم فيها الشافعيّ، وولاية الأربعة من الأبواب الشريفة بتواقيع شريفة .

(ومنها) قضاء العسكر- وموضوعه كما تقدّم في الديار المصرية ، وبها قاضيًا عسكر شافعيّ ، وحنفيّ، وليس بها مالكيّ، ولا حنبليّ، وولايتهما من الأبواب الشريفة السلطانية بتواقيع شريفة .

(ومنها) إفتاء دار العدل - وهى علىٰ ماتقدّم في الديار المصرية أيضا، وبها مفتيان شافعيّ وحنفيّ، كما في قضاء العسكر، وولايتهما عن النائب بتواقيع كريمة .

(ومنها) وَكالة بيت المـال ــ وموضوعها ماتقــدّم فى الديار المصرية ، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف ووكالته مثبوتة (١) على الحكام مُنَفَّذَة . ولكن لاجلوس له بدار العدل كما يجلس وكيل بيت المـال بالديار المصرية، إلا أن يكون كاتبَ دست فيجلس بواسطتها فى جملة الموقِّعين لا بالوكالة .

(ومنها) نِقَابة الأشراف ــ والأمر فيها كما فى الديار المصرية، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . وقد تقدّم فى الكلام عليها فى الديار المصرية أنه كان من حقها أن تُورَد فى جملة وظائف أرباب السيوف إذ يكتب فى توقيع متوليها "الأميرى" وإن كان متعمما، وإنمـا التغليب العرفىّ آقتضى ذكرها فى جملة وظائف أرباب الأقلام .

(ومنها) مَشْيَخة الشيوخ ــ وموضوعها كما فى الديار المصرية : من التحدّث على جميع الخوانق والفقراء بِدمَشْقَ وأعمالهـا ؛ والعادة أن يكون متوليها شيخَ الخـانقاه الشُّمَيْصاتية بِدمَشْقَ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) الحِسْبة ــ وهى كما تقدّم فى الديار المصرية من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم . ولا مجلسَ لمتوليها بدار العدل كما يجلس محتسب القاهرة بدار العدل فى الديار المصرية ، وإليه ولاية نوّاب الحِسْـبة بجميع أعمـال دِمَشْقَ .

(ومنها) الخَطَابات المعدوقة بنظر النائب ــ فيولى فيها بتواقيع كريمة حتّى إنه ربما كتب عنه التواقيع بخطابة الجـامع الأموىّ، وإن كان الغالب أنها لاتولّى إلا من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف، وقد صارت مضافة لقاضى القضاة الشافعىّ .

(ومنها) التداريس ــ وتختلف بآختلاف حال من يتولاها فى الرِّفْعـة وغيرها ، وولاياتها عن النائب بتواقيع كريمة غالبا والله أعلم .

(١) الأولى ثابتة، وقد جارى فى التعبير العرف العامىّ .

الصـــنف الرابع

(من الوظائف بِدِمَشْق وظائف أرباب الصِّناعات)

(فمنها) رياسة الطِّبّ، ورياسة الكَحَّالين ، ورياسة الجرائحية - وكلُّها على نحو ما تقــدّم فى الديار المصرية، وولاية كل منها بتوقيع كريم عن النائب . أما مهتارية البيوت وما فى معناها ، فهناك تختص بالنائب لقيامه مقـام السـلطان وآختصاص البيوت به .

الصـــنف الخامس

(وظائف زعمـاء أهل الذمة بهـا)

وفيهـا بطرك النصارى اليَعَاقِبــة ، وبَطْرَكُ النصارى المَلْكانية ، ورئيس اليهود القرّايين والربّانيــين، ورئيس السامرة، ولكنه مقيم بمدينة نَابُلُسَ التى هى مدينتهم المعظمة عندهم، وإلى طُورها حَجُّهم،وله نائب مقيم بِدِمَشْق . قلت : وربما كتب عن السلطان من الأبواب الشريفة بتواقيع ومراسيم بالحَلِّ(١) على ما تصدُر ولايته عن النائب، وربمـا كتب به عنه آبتداء .

الجملة الثـالثة

(فى ترتيب النيابة بهـا)

وتوافق ترتيب السلطنة فى الديار المصرية فى بعض الأمور، وتخالفها فى بعض . وكان عادة النائب بها فى المواكب أن يركب فى العسكر من الأمراء ومقــدّمى الحَلْقة وأجنادها فى كل يوم آثنين وخميس،ويخرجون إلى سُوق الخيل تحت القلعة فيسَيِّرون

---

(١) المراد بتثبيت ما يصدر عن النائب كما تفيده البقية .

خيولهم ، وتُعرض عليهم خيول المناداة وغيرها من آلات السلاح ونحوها ، وينادىٰ بينهم علىٰ العَقَار من الدور والضِّـياع وغيرِها ، ولا يتعدّون سوقَ الخيل إلىٰ غيره .

أما الآن فإنهم قد رفضوا التسيير بسوق الخيل ، وصار النائب يخرج بالعسكر إما إلىٰ ميدان ابن أتابك ، وإما إلىٰ قبة يلبغا : قبليّ دِمَشْقَ ، وإما إلىٰ المِزَّة غربيَّ دِمَشْقَ ، وإما إلىٰ القابُون شمـاليّ دِمَشْـقَ علىٰ حسب ما يختاره ، فيسـيِّرون هناك بدلا من تسييرهم بسوق الخيل ، ولا يسيِّرون بسوق الخيل إلا فى يوم مُهِمٍّ من حضور رُسُل من بعض الملوك الغرباء ونحو ذلك . فإذا فرغوا من التسيير عند ارتفاع النهار، عاد النائب فى مَوْكبه حتّٰى يأتى باب الحـديد من أبواب القلعـة ، ويقف الأمراء علىٰ ترتيب منازلهم ، وينادىٰ بينهم علىٰ العقار والدُّور وغيرها ، وكذلك الخيول والسلاح .

ثم يسير النائب إلىٰ دار النيابة ، فإن كان فى الموكب سِمَاط تقدم الأمراء فى خدمته ، ويترجل ممـاليكه من سوق الخيل ، ثم الأمراء علىٰ القرب من دار النيابة علىٰ ترتيب منازلهم حتّٰى يكون ترجل المقـدّمين علىٰ باب دار النيابة ، ويبقىٰ النائب راكبا وحده حتّٰى ينتهى إلىٰ قاعة عظيمة معدّة للجلوس فى المواكب بمثـابة الإيوان الذى يجلس فيه السلطان بقلعة الجبـل بالديار المصرية ، ويُصَـدّر بها كرسيٌّ من خشب مغشًّى بغشاء من الحرير الأطلس الأصفر، وعليه سيف نمجاه ، مسند إلىٰ صدره ، فيجلس النـائب بصدر القاعة علىٰ مَقْعَد مختصّ به ، لا يشاركه أحد فى الجلوس عليه ، وخلفه بشتميخ منصوب وراء ظهره كعادة الأمراء ، ويكون الكرسيّ المذكور علىٰ شماله علىٰ نحو ثلاثة أذرع منـه ؛ ويجلس قاضى القضاة الشافعىّ عن يمين النائب علىٰ نحو ثلاثة أذرع منه ، مسنِدا ظهره إلىٰ جدار صدر القاعة ؛ ويجلس قاضى القضاة الحنفىّ عن يمينه ، وقاضى القضاة المالكىّ عن يمين الحنفىّ ، وقاضى القضاة الحنبلىّ عن يمين المـالكىّ ؛ وقاضى العسكر الشافعىّ عن يمين قاضى القضاة الحنبلىّ ، وقاضى العسكر

الحنفىّ عن يمين قاضى العسكر الشافعىّ، صَفًّا مساويا للنائب فى صدر القاعة؛ ويجلس كاتب السر من جهة يسار النائب ملاصقا لمقْعَده الذى هو جالس عليه، جاعلا يمينه إلىٰ جدار صـدر القاعة وظهره إلىٰ جهة الكرسىّ بانحراف قليـل لمواجهة النائب؛ وكُتَّاب الدست بالميسرة تحته بالتدريج علىٰ حسب القُدْمَةِ صفًّا ممتدّا من كاتب السر إلىٰ جهة باب القاعة؛ ويجلس الوزير مقابل كاتب السر من الجانب الآخر علىٰ سمت يمين قاضى القضاة الحنبلىّ؛ ويجلس ناظر الجيش تحته، وكُتَّابُ الدست بالميمنة تحت ناظر الجيش علىٰ الترتيب بالقُدْمَةِ أيضا، آخذا من الوزير إلىٰ جهـة باب القـاعة، فيصير كاتب السر والوزيرُ ومَنْ يسامتهما صـفين متقابلين؛ ويجلس أتابكُ العساكر من الأمراء فى رأس الميمنة خلف الوزير علىٰ بُعْد، وبقيـة الأمراء المقدّمين تحتـه علىٰ الترتيب بحسب القُدْمَةِ، وأمراء الطبلخاناه بالميمنة تحتهم كذلك حتّى يصـيروا صـفًّا آخر كصف الوزير ومَنْ معـه؛ ويجلس المقدّمون من أمراء الميسرة خلف كاتب السر ومَنْ معـه وتحتهم الطبلخاناه علىٰ الترتيب المتقدّم صـفًّا آخر مقابلا لصف الميمنة، بحيث يكون أوّله خارجا عن يسـار الكرسىّ. ويكون بين النائب ورأس الميمنة نحو خمسة أذرع، وبينه وبين رأس الميسرة نحو عشرة أذرع، وتقف طائفةٌ من أمراء العشرات والخمسات ومقدّمى الحلقة بالميمنة صَـفًّا مستقيما خلف الأتابك والأمراء الجلوس فى صـفّه علىٰ ترتيب منـازلهم، ويقف ممـاليك النائب عن يسار الكرسىّ صفا آخذا من خلف أوّل مقدّمى الميسرة بانحراف فيه إلىٰ خلف، وطائفةٌ من مقدّمى الحَلْقة خلف الأمراء الجالسين فى الفرجة الواقعة بينهم وبين ممـاليك النائب؛ ويجلس حاجب الحُجّاب أمام النائب فى آخر صفى الموقعـين الممتدّين من كاتب السر والوزير بميلة إلىٰ صف الميمنة؛ ويقف بقيـة الحجاب خلفه، ونُقَباء الجيش خلفهم. وترفع القِصَص فيتناولها نقباء الجيش ويوصلونها إلىٰ

حاجب الحُجّاب فيتناولها ويقوم فيوصّلها إلى كاتب السر فيفرّقها على الموقّعين ، ويبتدئ هو بالقراءة فيقرأ ما بيده من القصص ويوقّع عليها بما يرسُمُ به النائب ، ثم يقرأ الذى يليه ،ثم الذى يليه إلى آخر صفه . فإذا فرغ ذلك الصف منَ القراءة ، قرأ مَنْ هو أوّل الصف الذى فى جانب الوزير ، ثم الذى يليه ، ثم الذى يليه إلى آخر الصف . فإذا آنتهت القراءة ،قام القضاة ومَنْ فى صفهم وكاتبُ السر والوزيرُ وناظرُ الجيش وسائرُ أرباب الأقلام فينصرفون . فإذا آنقضى المجلسُ وآنصرف القضاةُ ومَنْ معهم ، مُدّ السِّماط ،ويجلس النائب على رأس السماط والأمراء ومقدّمو الحلقة على ترتيب منازلهم فيأكلون ، ثم يرفع السماط ويتحوّل النائب إلى طَرَف الإيوان فيجلس فيه ، ويجلس قدّامه كاتبُ السر وناظرُ الجيش وتأتى المحاكمات فيفصلها ، ويقرأ عليه كاتب السر ما يُرْفَع فى ذلك المجلس من القصص ، ويتكلم مع ناظر الجيش فيما يتعلق بأمر الجيش والإقطاعات ، ثم يقوم من مجلسه ذلك وينصرف كاتبُ السر وناظر الجيش .

قال فى "مسالك الأبصار" : وتزيد عساكر الشام على غيرها ركوب يوم السبت .

قلت : وهو ركوبٌ مجرّدٌ ليس فيه دار عدل ولا سِماط . على أنه ربما أهمل حضور دار العدل ومدُّ السماط فى يومى الآثنين والخميس أيضا كما فى الديار المصرية .

المقصد الثانى

(فى ترتيب ماهو خارج عن حاضرة دِمَشْقَ ، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(ماهو خارج عن حاضرتها من النِّيابات والولايات)

قد تقدّم أن لدِمَشْقَ أربعَ صفَقَات : غربية (وهى الساحلية) . وقبلية . وشمالية . وشرقية . ففى الصفقة الأولى وهى الغربية نيابتان وخمس ولايات .

فأما النيابتان :

فالأولىٰ ـ (نيابة غَزَّةَ) أو تقدمة العسكر بها علىٰ ما يأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

ومعاملاتها بالدنانير و بالدراهم النُّقْرة، وصَنْجتها فى الذهب والفضة كصَنْجة الديار المصرية . وكان بها فلوس كل ثمانين منها بدرهم، ويعبَّر عن كل أربعة منها بحَبَّة، ثم راجت بها الفلوس الجُدُد فى أوائل الدولة الناصرية "فرج بن برقوق" ولكن كل ستة وثلاثين فَلْسا منها بدرهم ، ورِطْلها سبعمائة وعشرون درهما بالدرهم المصرى، وأواقيُّه آثنتا عشرة أوقية، كل أوقية ستون درهما . ومِكيلاتها معتبرة بالغِرارة . وكل غِرارة من غرائرها ثلاثة أرادبّ بالمصرى؛ وقياسُ قُماشها بالذراع المصرى؛ وأرضُها معتبرة بالفدّان الإسلامىّ والفدّان الرومىّ علىٰ ما تقدّم فى دِمَشْقَ ؛ وجيوشها مجتمعة من الترك ومَنْ فى معنـاهم ومن العرب والتُّرْكمان؛ وبها من الوظائف النيابة؛ ثم تارة يصرح لنائبها بنيابة السلطنة . وبكل حال فنائبهـا أو مقدّم العسكر بها لا يكون إلا مقدّم ألف ؛ وبها أمراء الطبلخاناه والعشرات والخمسات ومَنْ فى معناهم؛ وفيها من وظائف أرباب السيوف الحجوبيـة، وحاجبها أمير طبلخاناه ، وولاية المدينـة وولَاية البر، وشدّ الدواوين، والمِهمندارية، ونِقابة النقباء وغير ذلك .

وبها من الوظائف الديوانية كاتب دَرْج، وناظر جيش، وناظر مال، وولايتهم من الأبواب السلطانية؛

ومن الوظائف الدينية قاض شـافعىّ ، وولايته من قِبَـلِ قاضى دِمَشْقَ إذا كانت غزة تَقْـدمة عسكر وإلا فهى من الأبواب الســلطانية ، وقاض حنفىّ قد آستُحْدث، وولايته من الأبواب السلطانية؛ وبها المحتسب، ووكيل بيت المـال ومَنْ فى معناهم، وكلهم نواب لأرباب هذه الوظائف بدِمَشْقَ كما فى القاضى الشافعىّ، وليس بها قضاء عسكر ولا إفتاء دار عدل .

الثـانية ـ (نيابة القُدُس) ـ وقد تقدّم أنها كانت فى الزمن المتقدّم ولايةً صغيرة وأن النيابة ٱستُحدِثت فيها فى ســنة سبع وسبعين وسبعمائة، ونيابتها إمرة طبلخاناه، وقد جرت العادة أن يضاف إليها نظر القدس ومقام الخليل عليه السـلام؛ ومعاملتها بالذهب والفضة والفلوس علىٰ ماتقــدّم فى معاملة دِمَشْقَ؛ ورطلها (١) وكيلها معتبر بالغرارة، وغِرارتها (١) وقياس قماشها بذراع (١) ؛وبها من الوظائف غير النيابة ولايةُ قلعة القُدُس، وواليها جندىّ،وكذلك ولاية المدينة، وكانت توليتها أوّلا من جهة نائب السلطنة بدِمَشْقَ، ثم أخبرنى بعض أهل المملكة الشامية أن ولاية والى القلعة وولاية البلد صارتا إلىٰ نائب القُدُس من حين ٱستقرّ نيابة، وكذلك ولاية بلد الخليل عليه السلام. وبها قاض شافعىّ ومحتسب نائبان عن قاضى دِمَشْقَ ومحتسبها، وكذلك جميع الوظائف بها نيابات عن أرباب الوظائف بدِمَشْقَ .

وأما الولايات :

فالأولىٰ ـ (ولاية الرَّمْلة) ـ وكانت فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون من الولايات الصِّغار بها جندىّ ، ثم ٱستقرّ بهـا فى دولة الظاهر برقوق كاشفٌ أمير طبلخاناه ، ثم حدثت مكاتبته عن الأبواب السلطانية بعد ذلك .

الثانية ـ (ولاية لُدٍّ) ـ وقد كانت فى الأيام الناصرية ٱبن قلاوون ولايةً صغيرة بها جُنْدِىّ، ثم أضيفت إلىٰ الرملة حين ٱستقرّ بها الكاشف المقدّم ذكره .

الثالثة ـ (ولاية قَاقُونَ) ـ وكان بها فى الأيام الناصرية جُنْدىّ،ثم أضيفت إلىٰ كاشف الرملة عند ٱستقراره .

الرابعة ـ (ولاية بلد الخليل عليه السلام) ـ وكان فى الأيام الناصرية بها جندىّ، ثم أضيفت إلىٰ القُدُس حين ٱستقرّ النائب به .

(١) بياض بالأصل فى هذه المواضع ولعلها مثل الذى تقدّم فى غزة لتقارب الأمكنة .

الخامسة ـ (ولاية نابُلُس) ـ وهى باقية علىٰ حالها فى الٱنفراد بالولاية ، وواليها تارة يكون أمير طبلخاناه، وتارة أمير عشرين، وتارة أمير عشرة .

وأما الصفقة الثانية وهى القبلية، فبها نيابتان وثمـانُ(١) ولايات .

فأما النيابتان :

فالأولىٰ منهـما (نيابة قلعة صَرْخَدَ) ـ قال فى "التعريف" : قد يجعل فيها من يَحَطُّ عن رتبة السلطنة أو تكون نيابة معظمة، وذكر نحوه فى "مسالك الأبصار" وكأنه يشـير إلىٰ ما كانت عليه فى زمانه، فإنه من جملة مَنْ كان نائبا بها العادل كتبغا بعد خلعه من السـلطنة، ثم ٱنتقل منها إلىٰ نيابة حماة . وٱعلم أن بِصَرْخَدَ المذكورة قلعةً لهـا وَالٍ خاصٌّ . قال فى "التثقيف" : وهى من القلاع التى يسـتقل نائب الشأم بالتولية فيها .

الثـانية ـ (نيابة عَجْلُونَ) ـ وقد أشـار فى "التثقيف" إلىٰ أنهـا نيابة حيث قال : وعَجْلُونُ إن كانت نيابة فإن نائب الشأم يستقل بالتولية فيها ، ولم تجر له عادة بمكاتبة من الأبواب الشريفة .

وأما الولايات :

فالأولىٰ ـ (ولاية بَيْسَانَ) ـ وواليها جُنْدِىٌّ .

الثـانية ـ (ولاية بَانِيَاسَ) ـ وواليها جُنْدِىٌّ تارة، وتارة إمرة عشرة .

الثـالثة ـ (ولاية قلعة الصُّبَيْبَة) ـ وكانت ولاية صغيرة وبها جندىٌّ ثم أضيفت إلىٰ بَانِيَاسَ .

الرابعة ـ (ولاية الشَّعْرا) ـ وكانت فى الأيام الناصرية مضافة إلىٰ بانِيَاسَ ،وهى الآن ولاية مفردة، وواليها جُنْدِىٌّ.

(١) أى ان جعلت الصلت ولاية منفردة وإلا فسبعة .

الخامسة — (ولاية أَذْرِعَاتَ) — قال فى "التعريف" : وبها مقر ولاية الحاكم علىٰ جميع الصفقة؛ ثم الحاكم علىٰ جميع الصفقة تارة يكون طبلخاناه وتكون ولايته عن نائب الشأم، وتارة يكون مقدّم ألف فتكون ولايته من الأبواب السلطانية . أخبرنى بعض كُتَّاب دَسْت دِمَشْق أنه إن كان مقدّم ألف، سُمِّىَ كاشف الكُشَّاف وإن كان طبلخاناه سُمِّىَ والى الولاة وهو الغالب .

السادسة — (ولاية حُسْبانَ والصَّلْتِ) — من البلقاء. أخبرنى القاضى ناصر الدين ٱبن أبى الطيب كاتبُ السر بدِمَشْقَ أنهما إن جمعا لوال واحد كان أمير طبلخاناه أو أمير عشرة، وإن أفرد كل منهما لوالٍ كان جُنْديا .

السابعة — (ولاية بُصْرىٰ) — وواليها جُنْدىّ أيضا .

الصفقة الثالثة الشمالية . وفيها نيابة واحدة وثلاث ولايات .

فأما النيابة (فنيابة بَعْلَبَكَّ) — وقد كانت فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون إمرة عشرة ، ثم صارت الآن إمرة طبلخاناه ، وبكل حال فنائب الشأم هو الذى يستقل بولايتها ، وربما وليت من الأبواب السلطانية . قال فى "التعريف" : ولها ولاية خاصة يعنى غير ولاية المدينة؛ وقد كانت فى الدولة الأيوبية مفردة فى الغالب بملك بمفردها .

وأما الولايات :

فالأولىٰ — منها (ولاية البِقَاع البَعْلَبَكّى)(1) — قال فى "التعريف": وهاتان الولايتان الآن منفصلتان عن بَعْلَبَكَّ، وهما مجموعتان لوال واحد جليل مفرد بذاته؛ وهما علىٰ ماذكره من جمعهما لوال واحد إلىٰ الآن، إلا أنه تارة يليهما مقدّم حَلْقة وتارة جندىّ.

(1) أى ولاية "البقاع البعلبكى" و"البقاع العزيزى" فكان المناسب أن يذكر البقاع العزيزى أيضا كما سبق له ذكرهما فى الأعمال وعقبهما بعبارة التعريف هذه فتنبه .

الثـانية ـ (ولاية بَيْرُوتَ) ـ وولايتها الآن إمرة طبلخاناه .

الثـالثة ـ (ولاية صَيْدَا) ـ قال فى "مسالك الأبصار" : وهى ولاية جليلة ؛ وهى علىٰ ماذكره إلىٰ زماننا، تارة يليها أمير طبلخاناه، وتارة أمير عشرة .

الصفقة الرابعة الشرقية . وبها ثلاث نيابات وأربع ولايات .

فأما النيابات :

فالأولىٰ ـ (نيابة حِمْص) ـ وهى نيابة جليلة، وقد كانت فى الأيام الناصرية فما بعدها تقدمةَ ألف . قال فى "التثقيف" : ثم ٱستقرّت طبلخاناه بعد ذلك . قال : ونائب قلعتها من المماليك السلطانية . وقد تقدّم أن الذِّكْر فى الزمن القديم كان لها دون حَماةَ، وقد كانت فى الدولة الأيوبية مملكة منفردة تارة، وتضاف إلىٰ غيرها أخرىٰ .

الثـانية ـ (نيابة مِصْياف) ـ وقد تقدّم أنها كانت أوّلا من مضافات أَطْرَابُلُسَ فى جمـلة قِلَاع الدعوة، ثم أضيفت بعد ذلك إلىٰ دِمَشْقَ، وٱستمرّت علىٰ ذلك إلىٰ الآن . ونيابتهـا تارة تكون إمرة طبلخاناه، وتارة تكون إمرة عشرة، وبكل حال فتوليتها من الأبواب السلطانيـة . ونائبها لايكتتب له إلا فى المهمّات دون خلاص الحقوق أيضا .

الثالثة ـ (ولاية صَيْدا)(١) ـ والغـالب فى نيابتها أن تكون تقدمة ألف، وأشار فى "التثقيف" إلىٰ أنهـا قد تكون طبلخاناه . قال فى "التعريف" : وبقلعتها بحرية وخَيَّالة وكَشَّافة وطوائف من المستخدمين .

(١) تقدمت فى "الصفقة الثالثة الشمالية" . على أنه لم يتكلم على الولايات الأربع التى ذكرها فى ترجمة هذه الصفقة، وقد ذكر فى التعريف الجملة التى نقلها عنه فى الكلام على الرحبة التى عدّها من الصفقة الرابعة وجعل ولاياتها أربعا ولاية حمص، وولاية سلمية، وولاية قارا، وولاية تدمر . وبالجملة فهذا الموضع يحتاج إلى تحرير .

الضرب الثـانى

(من الخارج عن حاضرة دمشق العُرْبانُ، والإمرة بها فى بطون من العرب)

البطن الأولىٰ

(آل ربيعةَ من طَيِّئٍ من كَهْلانَ من القَحْطانية)

وهم بنو ربيعة بن حازم، بن علىّ، بن مفرج، بن دَغْفَلَ، بن جراح، وقد تقدّم نسبه مستوفًى مع ذكر الآختلاف فيه فى الكلام علىٰ ما يحتاج إليه الكاتبُ فى المقالة الأولىٰ. قال فى "العبر": وكانت الرياسة عليهم فى زمن الفاطميين: خلفاءِ مصر لبنى جراح، وكان كبيرهم مفرج بن دَغْفَلَ بن جراح، وكان من إقطاعه الرملةُ. ومن ولده حَسَّان وعلىّ ومحمود وحرار، وولى حَسَّان بعده فعظم أمره وعلا صِيتُه، وهو الذى مدحه الرِّيَاشِىّ الشاعر فى شعره. قال الحمدانىّ: وكان مبدأ ربيعة أنه نشأ فى أيام الأتابك زنكى صاحب المَوْصِل، وكان أميرَ عرب الشام أيام طُغْتكين السَّلْجوقىّ صاحب دِمَشْقَ ووفد علىٰ السلطان نور الدين محمود بن زنكى صاحب الشأم فأكرمه وشادَ بذكره. قال: وكان له أربعة أولاد، وهم فَضْل، ومرا، وثابت، ودَغْفَلٌ. ووقع فى كلام المسبحىّ أنه كان له ولد آسمه بدر. قال الحمدانىّ: وفى آل ربيعة جماعة كثيرة أعيانٌ لهم مكانة وأُبَّهَةٌ، أوّل من رأيتُ منهم ماتع بن حديثة وغنام بن الطاهر، علىٰ أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب. قال: ثم حضر بعد ذلك منهم إلىٰ الأبواب السلطانية فى دولة المعز أيبك وإلىٰ أيام المنصور قلاوون زامل آبن علىّ بن حديثة، وأخوه أبو بكر بن علىّ، وأحمد بن حجى وأولاده وإخوته، وعيسىٰ آبن مُهَنَّا وأولاده وأخوه؛ وكلهم رؤساءُ أكابر وسادات العرب ووجوهُها، ولهم عند السلاطين حُرْمة كبيرة وصِيتٌ عظيم، إلىٰ رونق فى بيوتهم ومنازلهم.

مَنْ تلْقَ منهم تقُلْ: لاقَيْتُ سَيِّدَهُم * مثلُ النُّجوم التى يَسْرِى بها السَّارِى

ثم قال : إلا أنهم مع بُعْدِ صِيتِهم قليلٌ عددُهم . قال فى "مسالك الأبصار" : لكنهم كما قيل :

تُعَيِّرُنَا أَنَّا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا * فقلتُ لها : إنّ الكرام قَلِيلُ

وماضَرَّنَا أَنَّا قَلِيلٌ وجَارُنَا * عَزِيزٌ وجَارُ الأَكْثَرِينَ ذَلِيلُ

ولم يزل لهم عند الملوك المَكانةُ العلية والدرجة الرفيعة، يُحِلُّونَهُمْ فوق كِيوَان، ويُنَوِّعون لهم أجناس الإحسان . قال الحمدانىّ : وَفَدَ فرج بن حيَّة على المعز أيبك فأنزله بدار الضيافة وأقام أياما، فكان مقدارُ ما وصل إليه من عَيْنٍ وقماش وإقامة ـ له ولمن معه ـ ستةً وثلاثين ألف دينار. قال : وآجتمع أيام "الظاهر بيبرس" جماعةٌ من آل ربيعةَ وغيرهم فحصل لهم من الضيافة خاصةً فى المدّة اليسيرة أكثرُ من هذا المقدار، وما يَعْلَمُ ما صُرِف على يدىّ من بيوت الأموال والخزائن والغِلَال للعرب خاصَّةً إلا الله تعالى .

وآعلم أن آل ربيعة قد آنقسموا إلى ثلاثة أفخاذ، هم المشهورون منهم ومَنْ عداهم أتباعٌ لهم وداخلون فى عَدَدهم، ولكل من الثلاثة أمير مختص به .

الفخذ الأوّل ـ (آلُ فَضْل) ـ وهو فضل بن ربيعة المقدّم ذكره ؛ وهم رأس الكل وأعلاهم درجةً وأرفعهم مكانةً . قال فى "مسالك الأبصار" : وديارُهم من حِمْصَ إلى قلعة جَعْبَرٍ، إلى الرَّحْبة، آخذين على شِقِّ الفرات وأطراف العراق حتّى ينتهىَ حدّهم قِبْلَةً بشرق إلى الوَشْم، آخذين يسارا إلى البَصْرَةِ ؛ ولهم مياه كثيرة ومناهلُ موروودة :

ولَهَا مَنْهَلٌ على كلِّ ماءٍ * وعلى كُلِّ دِمْنَةٍ آثارُ

وقد ذكر فى " مسالك الأبصار " : نقلا عن محمود بن عرام، من بنى ثابت بن ربيعة: أن آل فَضْل تشعَّبوا شُعَبا كثيرة، منهم آل عيسى، وآل فرج، وآل سميط، وآل مسلم، وآل علىّ . قال : وأما مَنْ ينضاف إليهم ويدخل فيهم، فرعب، والحريث، وبنو كلب، وبعض بنى كِلَاب، وآل بَشَّار، وخالد حمص، وطائفة من سِنْبِس وسعيدة، وطائفة من بربر وخالد الحجاز، وبنو عقيل من كدر، وبنو رميم، وبنو حىّ، وقران، والسراجون . ويأتيهم من البرية من عربه غالب، وآل أجود، والبطنين، وساعدة، ومن بنى خالد آل جناح، والصبيات من مياس، والحبور، والدغم، والقرسة، وآل منيحة، وآل بيوت، والعامرة، والعلجات من خالد، وآل يزيد من عابد، والدوامر، إلىٰ غير هؤلاء ممن يخالفهم فى بعض الأحيان . قال المقرّ الشهابىّ بن فضل الله : علىٰ أنى لا أعلم فى وقتنا من لا يُؤْثِر صحبتَهم ويُظْهِر محبَّتَهم . وسيأتى ذكر قبائلِ أكثرِ هذه العُرْبان التى تنضاف إليهم فى مواضعها إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى "مسالك الأبصار": وأسعدُ بيت فى وقتنا آل عيسىٰ، وقد صاروا بيوتا: بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ، وبيت فَضْل بن عيسىٰ، وبيت حارث بن عيسىٰ، وأولاد محمد ابن عيسىٰ، وأولاد حديثة بن عيسىٰ، وآل هبة بن عيسىٰ. قال : وهؤلاء آل عيسىٰ فى وقتنا هم ملوك البر فيما بَعُدَ واقترب، وساداتُ الناس ولا تصلُح إلا عليهم العرب.

وأما الإِمرة عليهم فقد جرت العادة أن يكون لهم أمير كبير منهم يولّى من الأبواب السلطانية، ويُكتَب له تقليدٌ شريف بذلك، ويلبس تشريفا أطلسَ أُسْوة النوّاب إن كان حاضرا، أو يُجَهَّزُ إليه إن كان غائبا، ويكون لكل طائفة منهم كبيرٌ قائم مقام أمير عليهم، وتصدر إليه المكاتَبات من الأبواب الشريفة إلا أنه لا يكتب له تقليدٌ ولا مرسوم. قال فى "مسالك الأبصار" : ولم يصرَّح لأحد منهم بإمرة علىٰ العرب

بتقليد من السلطان إلا من أيام العادل أبى بكر : أخى السلطان صلاح الدين يوسف ٱبن أيوب ، أمَّر منهم حديثة يعنى ٱبن عُقْبة[(١)] بن فضــل بن ربيعة ، والذى ذكره قاضى القضــاة ولىّ الدين بن خلدون فى تاريخه أن الإمرة عليهم فى أيام العادل أبى بكر بن أيوب كانت لعيسىٰ بن محمد بن ربيعة ، ثم كان بعده ماتعُ بن حَدِيثة ٱبن عقبة[(١)] بن فضل ، وتوفى سنة ثلاثين وستمائة ، ووُلِّى عليهم بعده ٱبنُه مهنا ، وحضر مع المظفر قطز قتــال هُولاكُو ملك التتار وٱنتزع سَلَمِيَّةَ من المنصور بن المظفر صاحبِ حماة وأقطعها له ؛ ثم ولَّى الظاهرُ بيبرسُ عنــد مسيره إلىٰ دِمَشْقَ لتشييع الخليفة المستعصم إلىٰ بغــداد عيسىٰ بن مهنا بن ماتع ووفَّر له الإقطاعات علىٰ حفظ السابلة وبقى حتّىٰ توفِّى سنة أربع وثمانين وستمائة ؛ فولَّى المنصورُ قلاوونُ مكانه ٱبنَه مهنا بن عيسىٰ ، ثم سافر الأشرف " خليل بن قلاوون " إلىٰ الشــام فوفد عليه مهنا ٱبن عيسىٰ فى جماعة من قومه فقبض عليهم ، وبعث بهم إلىٰ قلعة الجبل بمصر فٱعتُقِلوا بهــا وبقوا فى السجن حتّىٰ أفرج عنهم العادل كتبغا عنــد جلوسه علىٰ التخت سنة أربع وتسعين وستمائة ورجع إلىٰ إمارته ؛ ثم كان له فى أيام الناصر بن قلاوون نُصْرَةٌ وٱستقامة تارة وتارة ، وميلٌ إلىٰ التتر بالعراق ، ولم يحضر شيئا من وقائع غازان ؛ ووفد أخوه فَضْــلُ بن عيسىٰ علىٰ السلطان الملك الناصر ســنة ٱثنتى عشرة وسبعمائة فولاه مكانه وبقى مهنا مشرَّدا ، ثم لحق سنة ست عشرة بخدابندا ملك التتار بالعراق فأكرمه وأقطعه بالعراق وهلك خدابندا فى تلك الســنة فرجع مهنا إلىٰ الشأم ، وبعث ٱبنيه محمدا وموسىٰ وأخاه محمد بن عيسىٰ إلىٰ الملك الناصر ، فأكرمهم وأحسن إليهم ، وردّ مهنا إلىٰ إمارته وإقطاعه ؛ ثم رجع إلىٰ موالاة التتر فطرد السلطانُ الملكُ الناصر آلَ فَضْلٍ بأجمعهم من الشأم وجعل مكانهم آلَ علىّ ، وولَّى منهم علىٰ أحياء العرب محمدَ

(١) فى الأصل هنا غضبة ، والذى فى الجزء الأوّل (ص ٣٢٥) عقبة ، فليتنبه .

ٱبن أبى بكر بن علىّ ، وصرف إقطاع مهنا وأولاده إليه و إلىٰ أولاده ، وأقام الحاسب علىٰ ذلك مدّة . ثم وفد مهنا علىٰ السلطان الملك الناصر صحبةَ الأفضل بن المؤيد صاحب حماة فرضى عنه السلطان وأعاد إمرته إليه ورجع إلىٰ أهله ، فتوفى سنة أربع وثلاثين وسبعمائة ؛ وَوَلِىَ مكانه أخوه(١) سليمان فبقى حتّٰى توفّى سنة أربع وأربعين وسبعمائة عقب موت الملك الناصر؛ ووَلِىَ مكانه أخوه سَيْفُ بن فضل فبقى حتّٰى عزله السلطان الملك الكامل "شعبان بن قلاوون" سنة ست وأربعين ، وولّٰى مكانه أحمد بن مهنا بن عيسىٰ فبقى حتّٰى توفّى فى سنة سبع وأربعين وسبعمائة فى سلطنة الناصر "حسن بن محمد بن قلاوون" المرة الأولىٰ؛ ووَلِىَ مكانه أخوه فَيَّاض فبقى حتّٰى مات سنة ستين وسبعمائة ، وولى مكانه أخوه جبار من جهة الناصر حسن فى سلطنته الثانية ، ثم حصلت منه نفرة فى سنة خمس وستين وسبعمائة وأقام علىٰ ذلك سنتين إلىٰ أن تكلم بسببه مع السلطان نائبُ حماةَ يومئذ فأعيد إلىٰ إمارته ؛ ثم حصل منه نُفْرة ثانية سنة سبعين فى الدولة الأشرفية "شعبان بن حسين" فولّٰى مكانه ٱبن عمه زامل ٱبن موسىٰ بن عيسىٰ فكانت بينهم حروبٌ ، قتل فى بعضها قشتمر المنصورىّ نائب حلب فصرفه الأشرف وولّٰى مكانه ٱبن عمه مُعَيقلَ بن فضل بن عيسىٰ ، ثم بعث معيقلٌ فى سنة إحدىٰ وسبعين يستأمن لجبار المتقدّم ذكره من السلطان الملك الأشرف فأمّنه ، ووفَد جبار علىٰ السلطان فى سنة خمس وسبعين فرضِىَ عنه وأعاده إلىٰ إمرته فبقى حتّٰى توفّى سنة سبع وسبعين ، فولّٰى مكانه أخوه قنارة ، وبقى حتّٰى مات سنة إحدىٰ وثمانين ، فولّٰى مكانه معيقلُ بن فضل بن عيسىٰ وزامل بن موسىٰ ٱبن عيسىٰ المتقدّم ذكرهما شريكين فى الإمارة ؛ ثم عُزِلا فى سنتهما وولّٰى مكانهما

(١) ذكر فى العبر بين هذا والذى قبله مظفر الدين موسى ووفاته فى ٤٢ وذكر أن سليمان توفى فى ٤٣ وبعده شرف الدين عيسى بن فضل ووفاته فى ٤٤ .

محمد بن جبـار بن مُهَنَّا وهو نُعَير ، ثم وقعت منه نُفْرة فى الدولة الظاهرية برقوق ، فولى مكانه بعض آل زامل ، ثم أعيد نعير المذكور إلى إمرته وهو باق على ذلك إلى الآن (١) ، وهو محمد بن جبار بن مهنا بن عيسى بن مهنا بن ماتع بن حديثة بن عقبة آبن فضل بن ربيعة .

وقد ذكر المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" : أمراء آل فضل فى زمانه ، فذكر أن أميرَ آل عيسى وسائرَ آل فَضْلٍ أحمدُ بن مهنا ، وأميرَ بيت فضل آبن عيسى سيفُ بن فضل ، وأمير بيت حارث بن عيسى قناة بن حارث . ثم قال : أما أولاد محمد بن عيسى ، وأولاد حديثة بن عيسى ، وآل هبة بن عيسى فأتباعٌ .

وذكر القاضى تقىّ الدين بن ناظر الجيش فى "التثقيف" : أنهم صاروا بيتين : وهما بيت مهنا بن عيسى وفضـل بن عيسى . وذكر من أكابرهم عَسَّاف بن مهنا وأخاه عنقا ، وزامل بن موسى بن مهنا ، ومحمد بن جبار وهو نُعَير قبل الإمرة ، وعوّاد آبن سليمان بن مهنا ، وعلىّ بن سليمان بن مهنا ؛ وأما بنو فضـل بن عيسى فذكر منهم فضل بن عيسى ، ومُعَيْقَل بن فضل ، وقال : كان قبلهما سيف وأبو بكر . ثم قال : وممن لم يكاتَبْ أولاد فَيَّاض وبقية أولاد جبار ورقيبة بن عمر بن موسى ونحوهم .

الفخذ الثانى — (من آل ربيعة آلُ مرا) — نسبة إلى مرا بن ربيعة ، وهو أخو فضل المتقدّم ذكره . قال فى "التعريف" : ومنازلهم حَوْرَانُ . وقال فى "مسالك الأبصار" : ديارهم من بلاد الجَيْدُور والجَوْلان إلى الزرقاء والضليل إلى بُصْرى ، ومُشرِّقًا إلى الحَرّة المعروفة بحَرَّة كشت قريبـا من مكَّةَ المعظمة إلى شَعْباء إلى نيران مَزْيَد إلى الهَضْب المعروف بهضب الراقى ، وربمـا طاب لهم البر وآمتدّ بهم المَرْعى أوانَ خِصْبِ الشتاء فتوسعوا فى الأرض وأطالوا عدد الأيام والليالى حتّى تعودَ مكةُ

(١) فى العبر عصية .

المعظمة وراءَ ظهورهم، ويكاد سهيلٌ يصير شآمَهُم، ويصيرون مستقبلين بوجوههم الشام . وقد تشعب آل مرا أيضا شُعَبا كثيرة، وهم آل أحمد بن حجى وفيهم الإمرة، وآل مسخر، وآل نميّ، وآل بقرة، وآل شمّاء .

وممن ينضاف إليهم ويدخل فى إمرة أمرائهم حارثةُ، والخاص، ولامٌ، وسعيدة، ومُدْلجٌ، وقرير، وبنو صخر، وزبيد حَوْرَانَ: وهم زبيد صَرْخَدَ، وبنو غَنِيّ، وبنو عز قال: ويأتيهم من عرب البرية آل ظفير، والمَفَارجة، وآل سلطان، وآل غزيّ، وآل برجس، والحرسان، وآل المغيرة، وآل أبى فضيل، والزرّاق، وبنو حسين الشرفاء، ومطين، وخثعم، وعدوان، وعنزة . قال: وآل مرا أبطال مَنَاجيد، ورجال صناديد، وأقيال قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أو حَدِيدًا، لايعدّ منهم عَنْتَرةُ العَبْسِيّ، ولا عَرَابَةُ الأَوْسِيّ، إلا أن الحظ يحظ بنى عمهم [بأكثر] مما يحظهم، ولم تزل بينهم نُوَب الحَرب، ولهم فى أكثرها الغَلَب . قال الشيخ شهاب الدين أبو الثناء محمود الحلبيّ رحمه الله : كنت فى نوبة حِمْص فى واقعة التتار جالسا على سَطْح باب الإصطبل السلطانيّ بدمشقَ إذ أقبل آل مرا زُهاءَ أربعة آلاف فارس شاكين فى السلاح على الخيل المسوّمة، والجياد المطهمة، وعليهم الكزغندات الحمر الأطلس المعدنيّ، والديباج الروميّ، وعلى رءوسهم البَيْضُ، مقلَّدين بالسيوف، وبأيديهم الرماح كأنهم صُقُور على صُقُور، وأمامهم العبيد تميل على الركائب، ويرقصون بتراقص المهارى، وبأيديهم الجنائب، التى إليها عيون الملوك صُوْرا، ووراءهم الظعائن والحمول، ومعهم مغنِّية لهم تعرف بالحضرمية طائرة السُّمعة، سافرة من الهودج وهى تغنى :

وكُنَّا حَسِبْنَا كلَّ بيضاءَ شَحْمَةً * لَيَالِيَ لاقينا جُذَامًا وحِمْيرَا
ولَمَّا لَقِينَا عُصْبَةً تَغْلِبِيَّةً * يقودون جُرْدًا للمَنِيَّةِ ضُمَّرَا
فلما قَرَعْنا النَّبعَ بالنَّبعِ بَعْضَهُ * ببعض أَبَتْ عِيدَانُه أن تَكَسَّرَا
سَقَيْناهُمُ كَأْسًا سَقَوْنَا بمِثْلِهِ * ولَكِنَّهُم كانُوا على الموت أَصْبَرَا

وكان الأمر كذلك، فإن الكسرة أوّلا كانت على المسلمين ثم كانت لهم الكَرَّة على التتار، فسبحان منطق الألسنة ومُصَرِّف الأقدار .

الفخذ الثالث — من آل ربيعة (آلُ علىّ) — وهم فِرْقة من آل فضـل المقدّم ذكرهم ينتسبون إلى علىّ بن حديثة بن عقبة بن فضل بن ربيعة . قال فى "مسالك الأبصار" : وديارهم مرج دِمَشْق وغُوطتُها، بين إخوتهم آل فضل وبنى عمهم آل مرا، ومنتهاهم إلى الحوف والجَبَابنة، إلى السكة، إلى البرادع . قال فى "التعريف" : وإنمـا نزلوا غُوطةَ دِمَشْقَ حيث صارت الإمرة إلى عيسى بن مُهَنَّا وبقى جار الفرات فى تلابيب التتار . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم أهل بيت عظيم الشأن مشهور السادات، إلى أموال جمة ونعم ضخمة ومكانة فى الدول علية . وأما الإمرة عليهم فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أنه كان أميرهم فى زمانه رَمْلَةَ بن جماز بن محمد بن أبى بكر بن علىّ بن حديثة بن عقبة بن فضـل بن ربيعة . ثم قال : وقد كان جدّه أميرا ثم أبوه . قلد الملكُ الأشرفُ "خليل بن قلاوون" جدّه محمد بن أبى بكر إمرة آل فضل، حين أمسك مهنا بن عيسى . ثم تقلدها من الملك الناصر أخيه أيضا حين طرد مهنا وسائر إخوته وأهله . قال : ولمـا أُمِّر رملةُ كان حَدَثَ السنّ فحسده أعمـامه بنو محمد بن أبى بكر، وقَدِموا على السـلطان بتقادِمهم وترامَوْا على الأمراء، وخواصِّ السلطان، وذوى الوظائف فلم يُحضِرهم السلطان إلى عنده ولا أدْنى أحدا منهم، فرجعوا بعد معاينة الحَيْن، بخُفَّىْ حُنَيْن؛ ثم لم يزالوا يتربصون به الدوائر وينصِبُون له الحبائل والله تعالى يقيه سيئات ما مكروا حتّى صار سيدَ قومه، وفَرْقَدَ دهره، والمُسَوَّدَ فى عشيرته، المبَيِّض لوجوه الأيام بسيرته . وله إخوة ميَامِينُ كبرا، هم أمراء آل فضل وآل مرا . وقد ذكر القاضى تقىّ الدين بن ناظر الجيش فى "التثقيف" : أن الأمير عليهم فى زمانه فى الدولة الظاهرية برقوق كان عيسى بن زيد بن جماز .

البطن الثانيـــة

جَرْم (بفتح الجيم وسكون الراء المهملة) . قال الحمدانىّ : وآسمه ثعلبة وجرمٌ آسم أمه ، وقد تقدّم ذكر نسبه فى الكلام علىٰ ما يحتاج إليه الكاتب فى المقالة الأولىٰ . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم ببلاد غَزَّةَ والدَّارُوم ممـا يلى الساحل إلىٰ الجبل وبلد الخليل عليـه السلام . قال الحمـدانىّ : وجَرْمٌ المذكورة شَمَجان ، وقمران ، وجَيَّان . قال : والمشهور منهم الآن جذيمةُ ، ويقال إن لهم نسبا فى قريش ، وزعم بعضهم أنهـا ترجع إلىٰ مخزوم . وقال آخرون : بل من جَذِيمة بن مالك بن حنبل ابن عامر بن لُؤَىّ بن غالب بن فِهْر . ثم قال : وجذيمة هذه هم آل عَوْسَجَةَ ، وآل أحمد ، وآل محمود ، وكلهم فى إمارة شاور بن سنان ثم فى بنيه ، وكان لسنان المذكور أخوان فيهما سُودَدٌ : وهما غانم وخضر . ومن جذيمة جابع (؟) الرايديين وبنو أَسْلَمَ ، ويقال إن أَسْلَمَ من جُذَام لا من جذيمة ولكنها آختلطت بها ؛ ومن جذيمة أيضا شبل ، ورضيعة جَرْم ونيفور ، والقذرة ، والأحامدة ، والرفئة وكور جرم ، وموقع . وكان كبيرهم مالك الموقعىّ ؛ وكان مقدّما عنـد السلطان صـلاح الدين بن أيوب وأخيه العادل ؛ ومنهم بنو غَوْر ، ويقـال إنهم من جرم بن جرمز من سنبس ؛ ومن هؤلاء العاجلة ، والصمان ، والعبادلة ، وبنو تمام ، وبنو جميل ؛ ومن بنى جميل بنو مقدام ؛ ومن بنى غور آل نادر ؛ ومن بنى غوث بنو بها ، وبنو خَوْلة ، وبنو هِرْماس ، وبنو عيسىٰ ، وبنو سُهَيل . وأرضهم الدَّارُوم ، وكانوا سفراء بين الملوك ، وجاورهم قوم من زبيد يعرفون ببنى فهيد ثم آختلطوا بهـم . قال الحمدانىّ : فهـذه جرم الشام وحلفاؤهم ، ومن جاورهم ولاذَ بِهم .

وأما الإمرة عليهم . فقـد ذكر فى "التعريف" : أن الإمرة علىٰ عرب غَزَّة فى زمانه كانت لفضل بن حجى ، وعرب غزة هم جَرْمٌ المذكورون ، والمعروف أن

جَرْمًا يكون لهم مقـدّم لا أمـير . وعليه جرىٰ القـاضى تقىّ الدين بن ناظر الجيش فى "التثقيف" وذكر أن مقدّمهم فى زمانه فى الدولة الظاهرية برقوق كان علىّ آبن فضل .

البطن الثالثـــــة

ثَعْلَبَة من طيّ أيضا . قال فى "مسالك الأبصار" : وديارهم ممـا يلى مصر إلىٰ الخَرُّوبة . وقد تقدّم فى سياقة الكلام علىٰ جَرْم أن ثعلبة هذه من بقايا ثَعْلبَة المنتقلين إلىٰ مصر، وتقدّم فى الكلام علىٰ عرب الديار المصرية أن ثعلبة الذى يُنْسَبون إليه ثَعْلبةُ آبن سَلَامان ، وأن سَـلَامان بطن من بطون طيّ ، وأن ثعلبة المذكورين بطنان : وهما دَرْمَا وزُرَيْقٌ آبنا عوف بن ثعلبة وقيل آبنا ثعلبة لصُلْبه ، وأن آسم دَرْمَا عَمْرو ، ودَرْمَا آسم أمه فغلب عليه ، وأن مِن دَرْمَا الجَوَاهرة والحَنَابلة والصُّبَيْحيين . قال الحمدانىّ : وثعلبة الشام من دَرْمَا آل غياث الجواهرة ومن الحنابلة ومن بنى وَهْم من الصُّبَيْحِيين ، ومن أحْلافهم فرقةٌ من النعيميين ومن العار والجمـان ؛ وتقـدّم فى الكلام علىٰ ثعلبة مصر أيضا أن بكل من ثعلبة مصر والشام قوما من خِنْدِف وقيس ومُراد ويمن .

قلت : ولم يكن فى "التعريف" ولا "التثقيف" لثعلبة المذكورين ذِكْر لعدم مَنْ يكاتَب منهم إذ لم يكونوا فى معنىٰ من تقدّم .

البطن الرابعـــــة

بنو مَهدِىّ (بفتح الميم وسكون الهاء والدال المهملة) قد تقـدّم فى الكلام علىٰ عرب الديار المصرية أنهم أخو لخم وهو جُذَام بن عدىّ بن عمرو بن سبإٍ من العرب العاربة ، إما من عمرو بن سبإٍ من القَحْطانية كما يقتضيه كلام "مسالك الأبصار"

وإما من عُذْرَةَ من قُضَاعَة من حِمْيَر بن سبإ من القحطانية أيضا كما صرح به في "التعريف" . قال في "التعريف" : ومنازلهم البَلْقاء . وقال في "مسالك الأبصار" : منازلهم البَلْقاء إلى ناس[1] إلى الصوان، إلى عَلَم أعفر. قال الحمداني : ومن بني مَهْدِيّ المَشَابطة الذين منهم أولاد عسكر، والعناترة، والنترات، واليَعَاقِبة، والمطارنة، والعفير، والرُّويم، والقَطَارِبة، وأولاد الطائية وبنو دوس، وآل يسار، والمحابرة، والسماعة، والعَجَارمة من بني طريف، وبنو خالد والسلمان والقرانسية والدرالات والحمالات والمساهرة والمعاورة، وبنوعطا، وبنو ميّاد وآل شبل، وآل رويم، وهم غير الرويم المتقدّم ذكرهم، والمحارقة وبنو عِيَاض؛ ومنهم طائفة حول الكَرَك يأتي ذكرهم في الكلام على عرب الكَرَك . قال الحمداني : ويجاورهم بالبلقاء طائفة من حارثة ولهم نسب بقُرى بني عُقْبة .

وأما الإمرة عليهم فقد ذكر في "التعريف" أن إمرتهم مقسومة في أربعة منهم، لكل واحد منهم الربع، ولم يسم أمراء زمانه منهم . وذكر في "التثقيف" مثل ذلك، وسمّى أمراءهم في زمانه . فقال : وهم بدرو بنُ ذئب بن محفوظ العَنْبسي، وسعيدُ بن بحرى بن حسن العنبسي، وزامل بن عبيد بن محفوظ العنبسي، ومحمد بن عباس بن قاسم بن راشد العسرى .

البطن الخامسة

زُبَيْد (بضم الزاى) . قال في "مسالك الأبصار" : وهم فرقٌ شتّى . وذكر مَنْ بالشام وغيره ولم يتعرض لنسبهم في أيّ أحياء العرب . وذكر الجوهريُّ أن زُبَيْدًا اسم قبيلة، ولم يزد على ذلك . قلت : والموجود في كتب التاريخ عدّ زُبَيْدٍ من

---

(١) كذا في الاصل بالإهمال .

بطون سـعد العَشِيرة من مَذْحِجِ بن كَهْلان بن سبإٍ من العرب العاربة، وهم عرب اليمن علىٰ ما تقدّم ذكره . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن بالشام منهم فِرْقَةً بصَرْخَدَ، وفرقةً بغُوطة دِمَشْقَ . وذكر فى "التعريف" : منهم زُبَيْد المَرْج وزُبَيْـد حَوْرَانَ وزُبَيْـدَ الأحلاف . وذكر مثـله فى " التثقيف " : ومقتضىٰ الجمع بين كلامه فى "المسالك" و"التعريف" : أن تكون زُبَيْدُ خمسَ فِرَق : زُبيد المرج ، وزُبيد الغوطة ، وزُبيـد صَرْخَد، وزُبيـد حَوْرانَ ، وزُبيد الأحلاف وليس كذلك ، بل زُبيـد الغوطة وزُبيد المرج واحدة ، فإن المراد غوطةُ دِمَشْق ومَرْجُها ، وهما متصلان والنازلون فيهـما كالفرقة الواحدة ، وزُبيـد صَرْخَدَ هى زُبَيْدُ حَوْرَانَ كما صرح به فى موضع آخر من "مسالك الأبصـار" : إذ صَرْخَدُ من جملة بلاد حَوْرَانَ . أما زُبَيد الأحلاف فديارهم بالقرب من الرَّحْبة بجوار آل فَضْل . قال الحمدانىّ : والذين بصَرْخَدَ منهم آل مَيَّاس، وآل صيفى، وآل برة ، وآل محسن، وآل جحش، وآل رجاء . والذيـن بالمَرْج والغوطة آل رجاء، وآل بدال، والدوس، والحريث ، وهم فى عداد آل ربيعة المتقـدّم ذكرهم وذكر معهم المشارقة جيرانهـم . ثم قال : وإمرة زُبَيْد هؤلاء فى نَوْفَل، وليس للمشارقة إمرة، ولكن لهم شيوخ منهم؛ وأمر الفريقين إلىٰ نوّاب الشأم ليس لأحد من أمراء العرب عليهم إمرة ؛ وديارهم متصـلة من المرج والغوطة إلىٰ أُمِّ أَوْعال إلىٰ الدريشدان ؛ وعليهم الدَّرك وحفظ الأطراف .

وأما العرب المستعربة، (وهم بنو إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام ! علىٰ ما تقدّم بيانه فى الكلام علىٰ عرب الديار المصرية) ، فالمشهور بأعمـال دِمَشْقَ منهـم قبيلة واحدة، وهم بنو خالد عَرَبُ حِمْصَ . قال الحمدانىّ : وهم يَدَّعُون النسب إلىٰ خالد

آبن الوليد رضى الله عنه، وقد أجمع أهل العلم بالنسب علىٰ آنقراض عَقِبه . قال فى "مسالك الأبصار" : ولعلهم من ذوى قَرَابته من مخزوم، وكفاهم ذلك نَخَارا أن يكونوا من قريش . وقد تقدّم ذكر نسب مخزوم فى قريش فى الكلام علىٰ بنى خالد فى جملة عرب الديار المصرية فأغنىٰ عن إعادته هنا .

قلت : ومن جملة من عدّه فى "التعريف" من عرب الشام غَزِيَّة، ولم يتحرّر لى هل هى من العرب العاربة أو العرب المستعربة فلذلك ذكرتها بمفردها . وقد ذكر الحمدانىّ أنهم متفرّقون فى الشأم والحجاز وبغداد، وفيما بين العِراق والحِجاز، ولم يذكر واحد منهما منازلَهم من الشأم، بل ذكر الحمدانىّ منازلهم بالبَرِّية والعراق خاصةً . وقال : هم بطون وأفخاذ، ولهم مشايخُ منهم مَنْ وَفَدَ علىٰ السلاطين فى زماننا، وأشار فى "التعريف" إلىٰ أن الغالب عليهم عدمُ الطاعة ، ومنهم أحْلاف لآل فضل قد تقدّم ذكرهم وهم غالبٌ وآل أجود والبطنين، وسأذكرها ببطونها ومنازلها ومياهها من البَرِّية فى جملة عرب الحجاز .

النِّيَابة الثانية

(من نيابات السلطنة بالممالك الشامية، نيابةُ حلب، وفيها جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى ذكر أحوالها فى المعاملات ونحوها)

أما الأثمان المتعامَلُ بها من الدنانير والدراهم والصَّنْجة، فعلىٰ ماتقدّم فى دِمَشْقَ من غير فرق ، ولم تَرُجِ الفلوس الجُدُد فيها إلىٰ الآن وإنما يُتعامل فيها بالفلوس القديمة، ورِطْلها سبعمائة وعشرون درهما، وأواقيه آثنتا عشرة أوقيّة، كل أوقية ستون درهما ، وفى أعمالها ربما زاد الرطل علىٰ ذلك، وتعتبر مَكِيلاتها بالمَكُّوك

فى حاضرتها وسائر أعمالها ؛ والمكُّوك المعتبر فى حاضرتها سبع ويبات بالكيل المصرىّ ، وأما فى نواحيهـا و بلادها ، فيختلف آختـلافا متباينـا فى الزيادة والنقص . قال فى "مسالك الأبصار" : والمعتـدل منها أن يكون كل مكُّوكَين ونصـفٍ غرارةً(١) ، وما بين ذلك كل ذلك تقريبا ؛ ويقاس القماش بها بذراعٍ يزيد علىٰ ذراع القماش المصرىّ سُـدُسَ ذراع ، وهو أربعة قراريط ؛ وتعتبر أرض دورها بذراع العمل كما فى الديار المصرية وأرض زراعتها بالفدّان الإسلامىّ والفدّان الرومىّ كما فى دِمَشْقَ ؛ وخراج أرض الزراعة بها كما فى دِمَشْقَ ؛ وأسعارها علىٰ نحو سعر دِمَشْقَ إلا فى الفواكه فإنها فى دِمَشْقَ أرخصُ لكثرتها بها .

الجمـــــلة الثـانية

(فى ترتيب مملكتها ؛ وهى علىٰ ضربين)

الضرب الاول

(ترتيب حاضرتهـا)

أما جيوشها فعلىٰ ما تقـدّم فى دِمَشْقَ من آشتمـال عسكرها علىٰ التُّرْك والجركس والروم والروس وغير ذلك من الأجناس المشابهة للترك ، وآنقسامها إلىٰ الأمراء المقدّمين والطبلخانات والعشرات ومَنْ فى معناهم من العشرينات والخمسات ، وكذلك أجناد الحَلْقة ومقدّموها ؛ و إقطاعاتها علىٰ نحو ما تقدّم فى دِمَشْقَ فى المقدار ؛ وربما زاد إقطاع الحَلْقة بها علىٰ إقطاع الحلقـة بالديار المصرية بخلاف إقطاعات الأمراء بها فإنها لا تساوى إقطاعات الأمراء بالديار المصرية .

وأما وظائفها فعلى أربعة أصناف .

(١) تقدم ذلك فى (ص ١١٨) من هذا الجزء فأنظره .

الصـــــنف الأوّل

(وظائف أرباب السيوف ؛ وهى عدّة وظائف)

(منها) نيابة السلطنة ـ وهى نيابة جليلة فى الرتبــة الثانية من نيــابة دِمَشْقَ ، ويعبَّر عنها فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بنائب السلطنة الشريفة ، ولا يقال فيه كافل السلطنة كما يقال لنائب دمَشْقَ ، ويُكْتَب عن نائبها التواقيع الكريمة بأكثر وظائف حَلَبَ وأعمالهــا ، وكذلك يُكْتَب عنه المرَبَّعات الجيشية بالديار المصرية ، والمناشير الإقطاعية علىٰ حكمها كما تقدّم فى دمشق ، وكذلك يكتب علىٰ كل مايتعلق بنيابته من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد ، ويزيد علىٰ نائب دِمَشْقَ بسَرْحتيْن يسرحهما للصيد ، الأولىٰ منهما يسْرَحها فى بلاد حَلَبَ من جانب الفُرَات الغربىّ يتصيد فيها الغِزلان ، يقيم فيها نحو عشرة أيام ؛ والثانية وهى العظمىٰ يَعْبُرُ فيها الفُرَاتَ إلىٰ بر الجزيرة شرقىّ الفرات ، ويتنقَّل فى نواحيها ممــا هو داخل فى مملكة الديار المصرية وما حولها ، يتصيد فيها الغِزْلان وغيرها من سائر الوحوش ، ويقيم فيها نحو شهر .

(ومنهــا) نيابة القلعة بحلَبَ ـ وهى نيابة منفردة عن نيابة السلطنة بها ، وليس لنائب السلطنة علىٰ القلعــة ولا علىٰ نائبها حكم كما تقدّم فى قلعة دِمَشْقَ ، وعادة نائبها أن يكون أمير طبلخاناه ، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف ، وفيها من الأجناد البحرية المُعَدّين لحراستها نحوُ أربعين نفسا ، مقيمون بها لايظعَنُون عنها بسفر ولا غيره ، يجلس منهم فى كل نوبة عِدّة فى الباب الثانى منها من حين فتح الباب فى أوّل النهار وإلىٰ حين قفله فى آخر النهار ؛ وبهــا الحَرَس فى الليل ، وضرب الطَّبْلة علىٰ مضىّ كل أربع دَرَج كما تقدّم فى قلعة دمشق .

(ومنها) الحُجُوبية — والعادة أن يكون بها أربعة حُجّاب. أحدهم مقدّم ألف: وهو حاجب الحُجّاب، ويعبر عنه فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة فى المكاتبات وغيرها بأمير حاجب بحلب كحاجب الحُجّـاب بدمَشْق، وهو ثانى نائب السلطنة فى الرتبـة ولا يدخل أحد دارَ النيـابة راكبا غير النائب وغيره، وهو نائب الغَيْبة إذا خرج نائب السلطنة فى مهمٍّ أو متصيَّد أو غير ذلك؛ وإليـه تَرِدُ المراسيم السلطانية بقبض نائب السلطنة إذا أراد السلطان القبضَ عليه، ويكون هو المتصدّىَ لحال البلد إلىٰ أن يُقام لها نائبٌ؛ والثلاثة الباقون إما ثلاث طبلخانات، أو طبلخانتان وعشرة، أو ما فى معنىٰ ذلك، وولاية حاجب الحُجّاب والحاجب الثـانى من الأبواب الشريفة السلطانية بغير تقليد ولا مرسوم، ومَنْ عداهما ولايته عن نائب حلب، وفيها آثنان واحد بالمَيْمنة وواحد بالمَيْسرة، فالذى فى الميمنة فى الغالب يكون أمير عشرة وربمـا كان أمير خمسة، والذى بالميسرة جندىّ من أجناد الحَلْقة، وولايتهما عن النـائب كل منهما بتوقيع كريم .

(ومنها) شدّ الأوقاف — وهى بهـا رتبةٌ جليلة أعلىٰ من شدّ الأوقاف بدِمَشْق، وعادتها تقدمة ألف أو طبلخاناه، تُوَلَّى من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف. كذا أخبرنى بعض أهلها؛ ومتوليها يتحدّث علىٰ سائر أوقاف المملكة الحلبية .

(ومنها) المِهْمنْدَارِيَّة — وموضوعها على ماتقدّم فى الديار المصرية ودِمَشْق، وبها آثنـان: فأحدهما تارة يكون أمير طبلخاناه وتارة يكون أمير عشرة، والآخر جندىّ حَلْقة، وولاية كل منهما بكل حال عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) شَدّ الدَّوَاوين — وموضوعها كما تقـدّم فى الديار المصرية ودِمَشْـق، وعادته إمرة عشرة، وربمـا وليها جُنْدىّ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) شـدّ مراكز البريد ـ وموضوعها كما تقـدّم فى دِمَشْقَ، وعادتها إمرة عشرة، وربمـا كان مقدّمَ حَلْقة أو جنديا، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) ولاية المدينـة ـ وموضوعها التحدّث فى الشُّرْطَةِ كما تقـدّم فى الديار المصرية ودِمَشْقَ ، وعادتها إمرة عشرة، وربمـا وليها مقـدّم حَلْقة ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) شـدّ الأقواد ـ وموضوعها التحدّث علىٰ الأموال التى تُسَاق قَوَدًا من المملكة فى كل سنة ، وعادتها إمرة عشرة ، وربمـا وليها مقدّم حَلْقة ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

قلت : وسائر وظائف الأمراء أربابِ السيوف المستقرّ مثلُهم بالحضرة السلطانية كرأس نَوْبة وأمير مجلس ومَنْ فى معناهمـا ممن يجرى هذا المَجْرىٰ المختص بالنائب يكون له مثلُها من أجناده لقيامه مقام السلطان هناك كما تقدّم فى دِمشق .

وأما الوظائف الديوانية بها لأرباب الأقلام .

(فمنها) الوِزَارة ـ ويعبَّر عنها فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفـة بنظر المملكة ليس إلا ، ولا يصرّح له بٱسم الوزارة بحال ، وإن كان الجارى علىٰ ألسـنة العامة تلقيبَ متوليها بالوزير، ولم تجر العادة بأن يتولاها إلا أرباب الأقلام، وولايتها من الأبواب الشريفة السلطانية بتوقيع شريف، ولديوان هذا النظر عدّة مباشرين أتباعٌ لناظرها كصاحب الديوان والمستوفِى والكُتّاب والشهود وسائر فروع الوزارة، والنائب يولِّى كلًّا من هؤلاء المباشرين بتواقيع كريمة .

(ومنها) كتابة السرّ ـ ويعبَّر عن متوليها فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة بصاحب ديوان المكاتبات بحلب ، ولا يُسْـمَح له بصاحب ديوان الإنشاء بحلب

كما فى دِمَشْقَ؛ وولايتــه من الأبواب الشريفــة بتوقيع شريف ؛ وبديوانه كُتَّاب الدَّست وكُتَّاب الدَّرْج كما فى دِمَشْقَ والديار المصرية .

(ومنها) نظر الجيش ـ والحكم فيه كما تقدّم فى دِمَشْقَ من كتابة المرَبَّعات بما يُعيِّنــه النائب من الإقطاعات وتجهيزها للأبواب الشريفة لتُشْمَل بالخط الشريف وتخلَّد شاهــدا بديوان الجيوش بالديار المصرية ، وكذلك إثبات مايصــدر إليه من المناشير من الأبواب الشريفة؛ وولايته من الأبواب الشريفة .

(ومنها) نظر المال ـ وهو بمعنىٰ الوزارة كما فى دِمَشْقَ إلا أنه لايطلق علىٰ متوليه وزير البتة ، وولايته من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف . ولديوانه كُتَّاب أتباعٌ له : كصاحب الديوان والكُتَّاب والشهود وغيرهم؛ وولاية كل منهم عن النائب بتواقيع لهم كما فى دِمَشْقَ .

(ومنها) نظر الأوقاف ـ وحكمها التحدّث علىٰ الأوقاف بمدينة حَلَبَ وأعمالها كما فى دمَشْق؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الجامع الكبير ـ ومتوليها يكون رفيقا للنائب فى التحدّث فيه؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر البيمارستان ـ وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مدينة حَلَبَ أن بها بيمارستانين أحدهما يعرف بالعتيق والآخر بالجديد، ولكل منهما ناظر يخُصُّه؛ وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) نظر الأقواد ـ ومتوليها يكون رفيقا لشادّ الأقواد المتقدّم ذكره فى أرباب السيوف؛ وولايته عن النائب بتوقيع كريم .

الصنف الثانى

(الوظائف الدينيـــة)

(فمنها) القضاء ـ وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة كما فى دِمَشق ، إلا أن ٱستقرار الأربعـة بها كان بعـد ٱستقرارها بِدِمَشْقَ ، وولاية كل منهم من الأبواب الشريفـة بتوقيع شريف . ويختص الشافعىّ منهم بعموم توليـة النوّاب بالمدينة وجميع أعمالها ، ويقتصر مَنْ عداه علىٰ التولية فى المدينـة خاصة كما تقدّم فى دِمَشق والديار المصرية .

(ومنها) قضاء العسكر ـ وبها قاضيا عسكر: شافعىّ وحنفىّ كما فى دِمَشْقَ ؛ وولايتهما من الأبواب الشريفة ، ويُكْتب لكل منهما توقيع شريف .

(ومنها) إفتاء دار العدل ـ وبها ٱثنان أيضا : شافعىّ وحنفىّ كما فى دِمَشْقَ ؛ وولاية كل منهما عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) وَكالة بيت المـال ـ وولايتها من الأبواب الشريفة بتوقيع شريف ، ووكالته عن السلطان بمصر مثبوتة(١) فتنفُذ بالمملكة كما تقدّم فى دمشق .

(ومنها) نِقابة الأشراف ـ والأمر فيها علىٰ ماتقدّم فى دِمَشْق والديار المصرية ، وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) مَشْيخة الشُّيوخ ـ والحكم فيها كما فى دِمَشْقَ ؛ وعادتها أن يكون متوليها هو شيخ الخانقاه المعروفة بالقديم ؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ، وربمـا كانت من الباب الشريـف .

(ومنها) الحِسْبة ـ وهى علىٰ ما تقدّم فى دِمَشْقَ والديار المصرية ؛ وولايتها عن النائب بتوقيع كريم ؛ ومتوليها يولّى نوّاب الحِسْبة بسائر الأعمال الحلبية .

(١) لعله "مثبتة" .

(ومنها) الخَطَابة بالجامع الكبير — وولايتها عن النائب بتوقيع كريم .

(ومنها) التداريس والتَّصادِير المعدوقة بنظر النائب — وولايتها عنه بتواقيع كريمة علىٰ قدر مراتب أصحابها .

الصنف الثـالث

(وظائف أرباب الصـــناعات)

(فمنها) رِيَاسـة الطب ، ورياسة الكَحَّالين ، ورياسـة الجرائحية كما فى دِمَشْقَ والديار المصرية ؛ وولاية كل منهـم بتوقيع كريم عن النائب . أما مِهْتاريَّة البيوت ومَنْ فى معناهم فمفقودون هنـاك لفقد البيوت السـلطانية ، وإنمـا مِهْتاريَّة البيوت بها للنائب خاصةً لقيامه مقام السلطان بها كما فى دِمَشْقَ .

وأما ترتيب النيابة بها فعلىٰ نحو ما تقـدّم فى دِمَشْقَ ؛ وعادة النائب بها أن يركب فى المواكب فى يومى الآثنين والخميس من دار النيابة ، ويخرج من بابٍ يقال له باب القَوْس ، فى وسط البلد علىٰ القرب من القلعة ، ويمرّ منه إلىٰ سوق الخيل ، ويخرج من سور البلد من باب النَّيْرَب ، ويتوجه إلىٰ مكان يعرف بالمَيْدان ويعرف بالقُبَّة أيضا علىٰ القرب من المدينة بطريق القرية المعروفة بِجِبْرِيل ، فى جهة الجنوب عن المدينة ، ثم يعود من حيثُ ذهب ، وقد وقف الأمراء فى آنتظاره بسُوق الخيل ، وآخر خيولهم إلىٰ القلعة ورءوس خيولهم إلىٰ الجهة التى يعود منها أمراء الخمسات ، ثم أمراء العشرات ومَن فى معناهم علىٰ ترتيب منـازلهم ، ثم أمراء الطبلخانات ، ثم الأمراء المقدّمون . فإذا حاذىٰ النائب فى عوده أمراءَ الخمسات والعشرات فى طريقه ، سلم وهو سائر فيسلِّمون عليه ، وهم وقوف فى أمكنتهم لا يتحرّكون ولا يبْرَحون عنها . فإذا حاذىٰ أمراءَ الطبلخانات ، سلم عليهم فيتقدّمون بخيولهم إليه نحو قصبتى قياس فيسلمون

عليه ثم يعودون إلىٰ أمكنتهم فيقفون فيها . فإذا حاذى الأمراء المقدّمين سلم عليهم فيفعلون كما فعل أمراء الطبلخانات من التقدّم اليه والسلام عليه ثم يعودون إلىٰ أمكنتهم، ويمرّ النائب حتّى ينتهى إلىٰ آخر سوق الخيل فيعطف رأس فرسه ويقف مستقبلا للجهة التى عاد منها فى الجنوب والعسكر، واقفون علىٰ حالهم، وينادىٰ بينهم علىٰ العقارات من الأملاك والضياع وكذلك الخيول والسلاح قدر خمس درج، ثم يمرّ إلىٰ دار النيابة : فإن كان ذلك الموكب فيه سِمَاط، سار فى خدمته إلىٰ دار النيابة من كان معه فى رُكُوب المَوْكِب من الأمراء الأكابر والأصاغر من الحُجَّاب وغيرهم؛ ويمرّ بباب القلعة وقد نزل نائب القلعة إلىٰ بابها فوقف فيه مماليكُ فى خدمته من الأجناد البحرية المقيمين بالقلعة، فاذا مرّ بهم النائب، سلَّم علىٰ نائب القلعة فيسلم عليه، ويطلُع نائب القلعة إلىٰ قلعته، ويمرّ النائب فى طريقه إلىٰ دار النيابة، ويكون مماليك النائب قد ترجلوا عن خيولهم، ويترجل أمراءُ الخمسات والعشرات بعدهم، ثم يترجل الطبلخانات علىٰ القرب من دار النيابة، ثم الأمراء المقدّمون علىٰ باب دار النيابة، كلٌّ منهم علىٰ قدر منزلته؛ ويستمرّ النائب راكبا حتّى يأتىَ المَقْعَد المذكور(١)، وهو مَقْعد مربَّع مرتفع عن الأرض عليه قبة مرتفعة ودرابزينُ من خَشَب دائر، وفيه دكة من خشب صغيرةٌ فى جانبه مرتفعةٌ عن المقعد قدر ذراع، تَسَعُ جالسا فقط معدّةٌ لجلوس النائب؛ فينزل النائب علىٰ باب من أبواب المقعد الثلاثة مخصوصٍ به، ويجلس حاجب الحُجَّاب علىٰ مصطبةٍ لطيفة أعلىٰ السُّلَّم خارجَ الدرابزين معدّةٍ لجلوسه عن يمين النائب، ويكون القضاة الأربعة وقاضيا العسكر ومفتيا دار العدل وكاتبُ السر وكُتَّاب الدَّسْت وناظر الجيش قد حضروا قبل حضور النائب وحاجبِ الحُجّاب وطلعوا من سُلَّم مخصوص بهم وأخذوا مجالسهم وجلسوا فى انتظار النائب، فإذا حضر قاموا

(١) أى فى غير هذه النيابة .

وجلسوا بجلوسه ، ويكون جلوسهم بترتيب خاصّ يوافق دِمَشْقَ فى بعض الأمور ويخالف فى بعضها : فيجلس عن يسار النائب قاضى القضاة الشافعىّ ، ويليه قاضى القضاة الحنفىّ ، ويليه قاضى القضاة المالكىّ ، ويليه قاضى القضاة الحنبلىّ ، ويليه قاضى العسكر الشافعىّ ، ويليه قاضى العسكر الحنفىّ ، ويليه مفتِى دار العدل الشافعىّ ، ويليه مفتِى دار العدل الحنفىّ ، ويليه الوزير، صفًّا مستقيما ؛ ويجلس كاتب السر أمام النائب على القرب منه ، ويليه عن يمينه ناظر الجيش ، ويليه كُتَّاب الدَّسْت على ترتيب منازلهم حتّى يساوُوا فى المقابلة الصفَّ الذى فيه قُضاة القضاة ومَنْ معهم ، ويجلس باقى الموقِّعين بين الصفين مقابلَ حاجب الحُجَّاب حتّى يصلوهما فيصيرون كالحَلْقَةِ المستديرة ، ويقف الحُجّاب الصغار أسفل السُّلَّم الذى يَصْعَدُ منه ، وحاجب الحجاب ونُقَباء الجيش خلفهم ، والولاةُ خلف نقباء الجيش . فإن كان الأمراء قد حضروا لأجل السِّماط ، جلس المقدّمون والطبلخاناه على مصاطبَ معدّة لهم على القرب من المقعد الذى يجلس فيه النائب ومَنْ معه من أرباب الأقلام المتقدّم ذكرهم ، وتُرْفَع القِصَصُ فيتناولها نقباءُ الجيش ويناولونها الحُجّابَ فيناولونها لحاجِبِ الحجاب فيُناولها لكاتب السر فيفرِّقها على الموقِّعين ويُبقِى بعضها معه ، فيقرأ ما معه ثم يقرأ مَنْ بعده على الترتيب إلى آخر الموقعين . فإذا انقضت قراءة القصص قام من المجلس القضاة ومَنْ فى معناهم وكُتَّاب الدست فانصرفوا . فإذا انقضى المجلس ، فإن كان فى الموكب سماط قام النائب والأمراء من أماكن جلوسهم فدخلوا إلى قاعة عظيمة قد وضع بصدرها كرسىُّ سلطنةٍ مغشًّى بالحرير الأطلس الأصفر وعليه نمجاه مسندة إلى صدره كما تقدّم فى دِمَشْقَ ، وقد مدّ السماط السلطانىّ فيجلس النائب على رأس السماط والأمراء على ترتيب منازلهم فى الإمرة والقُدْمَةِ ويأكلون ويرفع السماط ، ثم يقوم الأمراء فينصرفون ، ويقوم النائب ومعه كاتب السر وناظر الجيش

فيدخل إلىٰ قاعة صغيرة فيها شُبَّاك مطلٌّ علىٰ دوار بإصطبل النائب، فيجلس فى ذلك الشباك، ويجلس كاتب السر وناظر الجيش فينصرفان[1] .

قلت : ويخالف دمشق فى أمور :

أحدها ــ أن كرسىّ السلطنة ليس بدار العدل حيث يجلس النائب والمتعمِّمون كما فى دِمَشْقَ بل فى مكان آخر .

الثانى ــ أن الأمراء لا يجلسون مع النائب بدار العدل كما فى دِمَشْقَ بل فى مكان منفرد .

الثالث ــ أن النائب يجلس علىٰ دكة مرتفعة عن جلسائه بخلاف دمَشْقَ، فإنه يجلس مساويا لهم، وكأن المعنىٰ فيه عدم جلوس الأمراء فى مجلس النائب بحلب بخلاف دِمَشْقَ .

الرابع ــ أن الوزير بحلب يجلس فى آخر صف القضاة ومَنْ فى معناهم تحت مفتيَيْ دار العدل، وبدِمَشْقَ يجلس فى رأس صف يقابل كاتب السر، وكأنّ المعنىٰ فيه أن كاتب السر بحَلَبَ يجلس أمام النائب فلو جلس الوزير فوقه لخالف قاعدة جلوس كاتب السر، أو جلس تحته لكان نقصا فى رتبته . ولا شك أنه يجلس فوقه القضاة ومن فى معناهم لرفعة رتبة الشرع .

الخامس ــ أن السماط بحَلَبَ لا يمدّ بدار العدل كما فى دِمَشْقَ بل فى مكان آخر مخصوص .

السادس ــ أن النائب بحَلَبَ له موضع مخصوص يجلس فيه للمحاكمات ومدّ السماط، وفى دمشق يجلس علىٰ طرف الإيوان بدار العدل بعد رفع السماط منه .

(١) لعله ثم ينصرفان .

الجمـــــلة الثانية

(فى ترتيب ما هو خارج عن حاضرة حلب؛ وهو ثلاثة أنواع[(١)])

النـــــوع الأوّل

(ولاة الأمور من أرباب السيوف؛ وهو ثلاثة أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(النـــوّاب؛ وهم علىٰ ضربيـــن)

الضرب الأوّل

(ما هو داخل فى حدود البلاد الشامية، وهى إحدىٰ عشرة نيابة)

الأولىٰ ــ (نيابة قلعة المسلمين المسمَّاة فى القديم بقلعة الروم) ــ وعادة نائبها أن يكون مقدّم ألف يولّى من الأبواب السلطانية بمرسومٍ شريف .

الثانيــة ــ (نيابة الكَخْتا) ــ ونيابتها تارة تكون طبلخاناه وتارة عشرة؛ وتوليتها من نائب حلب .

الثالثــة ــ (نيــابة كَرْكَر) ــ ونيابتها تارة طبلخاناه وتارة عشرة ؛ وتوليتها من نائب حلب .

الرابعــة ــ (نيابة بَهَسْنَىٰ) ــ وقد ذكر فى "التثقيف" ما يقتضى أن نيابتها طبلخاناه، لكن أخبرنى بعض كُتَّاب السر بحَلَبَ أنها ربما كانت تقدمة ألف. وقد ذكر فى "التعريف" ما يقتضى ذلك فقال : ولنائبها مكانة جليلةٌ، وإن كان لا يلتحق بنائب الْبِيرَةِ؛ وبكل حال فتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسومٍ شريف .

الخامسة ــ (نيابة عَيْنتَابَ) ــ وقد أوردها فى "التثقيف" فى جملة أمراء العشرات وذكر أنه رأىٰ بخط آبن النشائى مايقتضى أنها كانت طبلخاناه . وقد أخبرنى

---

(١) لم يذكر الا نوعين فتنبه .

بعض كُتَّاب سر حلب أنها آستقرّت تقدمة ألف فى أواخر الدولة الظاهرية برقوق، وآستقرّت توليتها من الأبواب السلطانية .

السادسة ـ (نيابة الرَّاوَنْدانِ) ـ وقد أوردها فى " التثقيف " فى جملة نيابات العشرات . وقد أخبرنى بعض كُتَّاب السر بحَلَب أنها آستقرّ بها آخرا جندىّ؛ وتوليتها من نائب حلب .

السابعة ـ (نيابة الدَّرْبَسَاك) ـ وقد أوردها فى "التثقيف" فى جملة العشرات . وأخبرنى بعض كُتَّاب سر حَلَبَ أنها ربما أضيفت لنائب بَغْراس الآتى ذكرها وأنها الآن بيد آبن صاحب البازِ التُّركمانى؛ وتوليتها من نائب حلب .

الثامنة ـ (نيابة بَغْرَاس) ـ وقد أوردها فى " التثقيف " فى جملة العشرات؛ وولايتها من نائب حلب . وهى بيد أولاد داود الشيبانى التركمانى من تقادُمِ السنين؛ وولايتها من نائب حَلَبَ .

التاسعة ـ (نيابة القُصَيْر) ـ وقد أوردها فى " التثقيف " فى جملة العشرات . وأخبرنى بعض كُتَّاب سر حلب أن بها الآن جندياً .

العاشرة ـ (نيابة الشُّغْر وبكَاس) ـ وقد أوردها فى " التثقيف " فى جملة العشرات، وقد أخبرت أنها آستقرّ بها آخرا جندىّ، وتوليتها من نائب حلب .

الحادية عشرة ـ (نيابة شَيْزَر) ـ كانت فى الزمن المتقدّم إمرةَ عشرة يستقل نائب حَلَبَ بتوليتها فلما تسلطت عليها العُرْبان بعد وقعة مِنْطاش والناصرى آستقرّت تقدمةً بولاية من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الضرب الثـانى

(النيابات الخارجة عن حدود البلاد الشامية، وهى قسمان)

القســـم الأوّل

(بلاد الثغور والعواصم وما والاها، والمعتبر فيها ثمـان نيابات)

الأولى ـ (نيابة مَلَطِيَّة) ـ ونيابتها طبلخاناه، وتوليتها من الأبواب السلطانية.

الثانيـة ـ (نيابة دِبْرِكى) ـ وقد ذكر فى "التثقيف" أنها تارة تكون طبلخاناه وتارة تكون عشرة، وبكل حال فولايتها من نائب حلب.

الثالثـة ـ (دَرَنْدة) ـ ونيابتها فى الغالب إمرة عشرة، وربمـا كانت طبلخاناه، وولايتها فى الحالتين من نائب حلب.

الرابعـة ـ (نيابة الأَبُلُسْتَيْن) ـ ونيابتها تقدمةُ ألف من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف.

الخامسة ـ (نيابة آياس) ـ وهى المعبر عنها بالفتوحات الجاهانية ـ ونيابتها تقدمةُ ألف، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف.

السادسة ـ (نيابة طَرَسُوس) ـ ونيابتها تقدمة ألف، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف.

السابعة ـ (نيابة أَذَنَة) ـ ونيابتها تقدمة ألف؛ وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف.

الثامنة ـ (نيابة سِرْفَنْدَكار) ـ ونيابتها إمرة عشرة، ووقع فى "التثقيف" نقلا عن ابن النشائى ما يقتضى أنهـا كانت أوّلا طبلخاناه، وبكل حال فولايتها من نائب حَلَب.

التاسعة ـ (نيابة سِيسَ)(١) ـ وقد تقدّم أن فتحها قريب فى الدولة الأشرفية "شعبان آبن حسين" ولم تزل نيابتها منذ فتحت تقدمةَ ألف ، وكانت قد جعلت نيابةً مستقلةً عند الفتح ثم جعلت بعد ذلك تقدمة عسكر كغَزَّةَ إلا أن مقدّم العسكر بها لايُكَاتَب فى خلاص الحقوق بخلاف مقدّم العسكر بغَزَّةَ .

قلت : وبعد ذلك نيابات صغار يولّى بها نائب حَلَبَ أجنادا ، ولا مكاتبةَ لها من الأبواب السلطانية : وهى نيابة قلعة بَارِى كَرُوكَ ، ونيابة كَاوَرَّا ، ونيابة كَوْلَاكَ ، ونيابة كِرْزال ، ونيابة كُومِى ، ونيابة تَلّ حَمْدُونَ ، ونيابة الهارونِيَّتين ، ونيابة قلعة نَجْمة ، ونيابة حيمص ، ونيابة قلعة لُؤْلؤةَ .

القســـم الثـانى

(ماهو فى حدود بلاد الجزيرة شرقىّ الفُرَات ، والمعتبر فيها ثلاث نيابات)

الأولى ـ (نيابة البِيرَة) ـ ونيابتها تقدمة ألف ، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الثانية ـ (نيابة قلعة جَعْبَر) ـ ونيابتها طبلخاناه ، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

الثالثة ـ (نيابة الرُّهَا) ـ قال فى "التثقيف" : وقد جرت العادة أن تكون نيابتها طبلخاناه ، ثم آستقرّ بها فى الدولة المنصورية فى سنة ثمان وسبعين وسبعمائة مقدّم ألف .

---

(١) زادها على المعتبر فتنبه .

الصـــــنف الثـانى

(من أرباب السيوف بخارج حَلَب الوُلَاة، وولاية جميعها من نائب حلب بتواقيع كريمة ، والمشهور منها آثنتا عشرة ولاية)

الأولىٰ ـ (ولاية بَرِّ حَلَبَ كما فى دِمَشْقَ) ـ إلا أن والى بر حلب هو والى الوُلَاة.

الثـانية ـ (ولاية كَفْرِ طَابَ) ـ وواليها جندىٌّ .

الثـالثة ـ (ولاية سَرْمِينَ) ـ وواليها فى الغالب جُنْدىٌّ، وربما كان أمير عشرة.

الرابعـة ـ (ولاية الجَبُّول) ـ وواليها جندىٌّ .

الخامسة ـ (ولاية جَبَل سِمْعان) ـ وواليها جندىٌّ، وهومقيم بمدينة حلب، يحضر المواكب مع والى المدينة ووالى البرِّ : لقربه منها .

السادسة ـ (ولاية عَزَاز) ـ وواليها جندىٌّ، وربمـا كان أمير عشرة .

السابعة ـ (ولاية تَلِّ باشِر) ـ وكان لها والٍ بمفردها جندىٌّ، ثم أضيفت آخرا لَعَيْنتَـابَ .

الثامنـة ـ (ولاية مَنْبِج) ـ وواليها جندىٌّ .

التاسعة ـ (ولاية تِيزِين) ـ وهى تارة تفرد بوال يكون جُنْدِيا ، وتارة تضاف إلىٰ حارِم، ويقال والى حارم وتِيزِينَ .

العاشرة ـ (ولاية البابِ وبُزَاعَا) ـ وواليها جندىٌّ .

الحادية عشرةَ ـ (ولاية دَرْكُوش) ـ وواليها جندىٌّ .

الثانيـةَ عشرةَ ـ (ولاية أَنْطاكِيَةَ) ـ وواليها تارة يكون جنديا وتارة أميرَعشرة، وأخبرنى بعض كُتَّاب السر بحَلَبَ أنها ربمـا أضيفت إلىٰ نائب القُصَيْر .

قلت : ووراء ذلك ولايات أُخَرُ ببلاد الأرمن ونحوها لم يتحرر لى حالُها، والظاهر أن ولاية جميعها أجناد .

النـــوع الثـانى
(ممـا هو خارج عن حاضرة حلب العُرْبان)

واعلم أنه قد تقدّم فى الكلام علىٰ آل فَضْل من عُرْبان دِمَشْقَ أن منازلهم ممتدّة بأراضى الشام إلىٰ الرَّحْبـة وجَعْبَر فى جانب الفُرَات ، وتقدّم فى الكلام علىٰ قواعد الشام المستقرة نقلا عن المقرّ الشهابىّ ابن فضل الله فى "التعريف" أن جَعْبر كانت فى زمانه من مضافات دِمَشْقَ ، وأن الواجب أن تكون من مضافات حَلَبَ ، فإنها أضيفت بعـده إلىٰ حَلَبَ ، وحينئذ فيكون فى بلاد حلب بعضُ عرب آل فضـل المتقدّم ذكرهم هناك .

والمختصُّ بأعمال حلب من العرب المشهورين قبيلتان .

القبيلة الأولىٰ ــ (بَنُو كِلَاب) . قال فى "مسالك الأبصار": وهم عربُ أطراف حَلَبَ والرومِ، ولهم غَزَوات عظيمة معلومة وغاراتٌ لاتعدّ ، ولا تزال تُبـاع بناتُ الروم وأبناؤهم من سباياهم ؛ ويتكلمون بالتركيـة ويركبون الأَكَادِيش، وهم عرب غَزْو، ورجالُ حروب، وأبطال جيوش، وهم من أشدّ العرب باسا، وأكثرهم ناسا. قال : ولإفراط نِكَايتهم فى الرُّوم صُنِّفت السيرة المعروفة "بدلهمة والبَطَّال"(١) منسوبة اليهم بمـا فيها من مُلَح الحديث ولُمَح الأباطيل ؛ ولكنهم لا يدينون لأمير منهم يجمع كلمتهم، ولو انقادوا لأمير واحد لم يبق لأحد من العرب بهم طاقةٌ .

(١) هى السـيرة المشهورة الآن " بذات الهمة " وقد طبعت أخيرا بالمطبعة " الحسـينية " وانتشرت فى أيدى العامة وهى فى بابها لابأس بها .

قال الحمدانىّ : وكان بنو كلاب قد ظهروا علىٰ آل ربيعـة ، وذلك أن الملك الكامل كان طلب من مانِـع بن حَدِيثـة وغَنَّام بن الطاهر جِمالاً يحمل عليها غِلالاً إلىٰ خِلَاطَ يقوتُها بها ، فآحتج بغَيْبة جِمَاله فى البرية ، وكان بعض بنى كلاب حاضرا فتكفَّل له بحاجتـه من الجمال ووفىٰ له بذلك ، فحقَد بهـا الملك الكامل علىٰ مانع بن حديثة وغنام بنِ الطاهر وآستوحَشا منه ثم أتياه عنـد أخذه آمِدَ ، فوبَّخهما فخرجا خائفين منه إلىٰ أن فتح دِمَشْقَ فأتياه بأنواع التَّقادم وتقرَّبَا إليـه بالخدمة . قال : وكانت بنو كلاب تخدُم الملك الأشرف موسىٰ وتصحبه لمتاخمة بلاد الروم .

قال فى "مسالك الأبصار" : وكان سلطاننا يعنى الناصرَ محمدَ بنقلاوون لايزال ملتفتا إلىٰ تألُّف بنى كلاب هؤلاء ، وكان أحمد بن نصـير المعروف بالتَّترىّ قد عاث فى البلاد والأطراف وآشـتدّ فى قطع الطريق ، فأمَّنه وخلع عليه وأقطعه فآنقادت بنو كلاب للطاعة ، وكان الملك النـاصر قد أمّر عليهم سليمان بن مُهَنَّا وجعل عليـه حفظ جَعْبَرَ وما جاورها .

القبيلة الثانيـة ـ (آل بَشَّار) ـ قال فى "مسالك الأبصار": وديارهم الجزيرة والْأَحَصُّ(١) ببلاد حلب . قال : والأحلافُ منهم حالهم فى عدم الآنقياد لأمير واحد حالُ بنى كِلَاب . ولو آجتمعوا لمـا أَمِن بأسهم نَقِيمٌ علىٰ تفرق كلمتهم ، وبسبب جماعتهم لا يزال آل فضـل منهم علىٰ وَجَل ، وطالمـا باتُوا وقلوبهم منهـم ملأىٰ من الحَذَر ، وعيونهم وَسْنىٰ من السهر ، وبينهم دماء ، وهم وبنو ربيعة وبنو عِجْل جِيران ، وديارهم من سِنْجار وما يُدانِيها إلىٰ البـارَةِ أو قريب الجزيرة العُمَرية إلىٰ أطراف بغداد .

(١) هو بهذا الضبط موضع . أُنظر معجم البلدان (ج ١ ص ١٤٩ ـ ١٥٣) .

النيابة الثالثة
(نيابة أطْرَابُلُس ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى
(فى ذكر أحوالها ومعاملاتها)

أما معاملاتها فبالدنانير والدراهم النُّقْرة على ما مرّ فى الديار المصرية ودِمَشْقَ وحَلَب؛ وصَنْجتها كصَنْجة دِمَشْقَ فى الذهب والفضة؛ وبها الفلوس العُتْق (١) فلسا بدرهم؛ ورِطْلها بستمائة درهم كما فى دِمَشْقَ ، وأواقيه آثنتا عشرة أوقية كل أوقية خمسون درهما . وتعتبر مَكِيلاتها بالمَكُّوك كما فى حَلَب؛ ويقاس القُماش بها بذراعٍ كلُّ عشرة أذرع منه إحدى عشرة ذراعا بالمصرىّ ؛ وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما فى الديار المصرية وغيرها من البلاد الشامية؛ وتعتبر أرض زراعتها بالفدّان الإسلامىّ والفَدّان الرومىّ كما فى دمشق وغيرها من البلاد الشامية ؛ وخراجها على ماتقدّم فى دِمَشْقَ وغيرها من بلاد الشام .

وأما جيوشها فمن الترك ومَنْ فى معناهم على ماتقدّم فى غيرها من الممالك الشامية ، وبها أمير واحد مقدّمُ ألف غير النائب ، وباقى أمرائها طبلخاناه وعشرات وخمسات ومَنْ فى معناهم من العشرينات وغيرها؛ وبها من وظائف أرباب السيوف نيابة السلطنة : وهى نيابة جليلة ، نائبها من أكبر مقدّمى الألوف ، وهو فى الرتبة الثانية من حَلَب كما فى حماة؛ وليس بها قلعة يكون لها نائب بل نائب السلطنة هو المتسلم لجميعها والمتصرف فيما لديها من أمر العسكر وغيره .

ومنها الحجوبية ، وبها ثلاثة حُجّاب أكبرهم طبلخاناه وهو حاجب الحُجّاب ، والحاجبان الآخران كل منهما أمير عشرة .

---

(١) بياض فى الأصل .

ومنهـا المِهْمِنْدارية، وشدّ الدواوين، وشدّ الخاص، وشدّ مراكز البريد، وشدّ المينا، ونقابة النقباء، وأميراخوريّة، وشدّ الأوقاف، وتقدِمة البريدية، وأميراخورية البريد، ووِلَاية المدينة، وتقدمة التُّرْكمان وغير ذلك، وكلها يوليها النائب بها .

وبهـا من أرباب الوظائف الديوانيـة ناظر المملكة ، وناظر الجيش، وصاحب ديوان المكاتَبَات ؛ ووِلاية الثلاثة من الأبواب السلطانية بتواقيعَ شريفة، وكُتَّاب دَسْت، وكُتَّاب دَرْج، ولايتهم من نائبها .

وبها من الوظائف الدينية قضاء القُضاة من المذاهب الأربعة، وقاضيًا عسكرٍ شافعيّ وحنفيّ، ومفتيًا دارعدل كذلك، ومحتسبٌ، ووكيل بيت المـال . إلىٰ غير أولئك من أرباب الوظائف .

وأما ترتيب النيابة بها فإنـ النـائب يركب فى يومى الاثنين والخميس من دار النيابة، ويخرج فى مَوْكِبه من الأمراء والأجناد حتّى يأتىَ ساحل البحر، ثم يعود إلىٰ دار النيابة ومعه جميع الأمراء والأجناد، خلا الأمير المقدّم فإنه لايحضُر معه إلىٰ دار النيابة . وإذا حضر النـائب إلىٰ دار النيابة جلس فى دار العدل بصدر الإيوان وليس بها كرسىُّ سلطنةٍ، ويجلس قاضيان: شافعىّ وحنفىّ عن يمينه، ومالكىّ وحنبلىّ عن يساره ، ووكيلُ بيت المـال تحت القاضى المـالكىّ، ويجلس كاتب السر أمامه علىٰ القرب من يساره وكُتَّاب الدَّسْت خلْفَه، وحاجب الحُجَّاب جالس أمام النائب علىٰ القُرْب منـه، ويأخذ الحُجَّاب الصِّغار القِصَص ويناولونهـا إلىٰ حاجب الحُجَّاب فيدفعها لكاتب السر، ويفصل المحاكمات، ثم ينفض المجلس ويمدّ السِّماطُ فيأكلون وينصرفون كما فى غيرها .

الجمــــلة الثــانية

(فيما هو خارج عن حاضرتها، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(النوّاب ، وهم علىٰ قسمين)

القســـم الأوّل

النيابات بمضافات نفس أَطْرَابُلُسَ، وبها خمس نيـابات كلُّهم يكاتَبُون عن الأبواب السلطانية فى المهمات ونحوها، دون خَلَاص الحقوق . فإنه يختص بنائب السلطنة بها .

الأولىٰ ـ (نيابة حِصْن الأكراد) ـ ونيابته إمرة عشرة .

الثـانية ـ (نيابة حِصْن عكَّار) ـ ونيابته إمرة عشرة .

الثـالثة ـ (نيابة بَلَاطُنُس) ـ ونيابتها إمرة عشرة .

الرابعــة ـ (نيابة صَهْيُون) ـ ونيابتها إمرة عشرة .

الخامسة ـ (نيابة اللَّاذِقِيَّة) ـ ونيابتها إمرة عشرة .

القســـم الثـانى

(نيابات قِلَاع الدعوة، وهى ستُّ نيابات خارجا عن مِصْياف حيث أضيفت إلىٰ دمَشْقَ)

الأولىٰ ـ (نيابة الرُّصَافَة) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

الثـانية ـ (نيابة الخَوَابِى) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

الثـالثة ـ (نيابة القُدْمُوس) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

الرابعــة ـ (نيابة الكَهْف) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

الخامسة ـ (نيـابة المَنِيقة) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

السادسة ـ (نيـابة القَلْعة) ـ وأصل نيابتها إمرة عشرة .

قلت : وقد أخبرنى بعض كُتَّاب المملكة أن هذه النيابات كلَّها آستقر فيها أجناد، وبالجملة فإنمـا يولِّى فيها نائب طَرَابُلُس بكل حال .

الضرب الثـانى

(الوُلاة)

وبها ولاياتٌ ست ، ووُلاة جميعها أجناد، عن نائب طَرَابُلُس .

الأولى ـ ولاية أَنْطَرْطُوس .

الثـانية ـ ولاية جُبَّة المُنَيْطَرَة .

الثـالثة ـ ولاية الظَّنِّيين .

الرابعــة ـ ولاية بُشَرِّيه .

الخامسة ـ ولاية جَبَلَة .

السادسة ـ ولاية أَنَفَة .

النيـابة الرابعـــة

(نيابة حَماة، وفيهـا جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى ذكر أحوالهـا ومعاملاتها)

أما معاملاتها فعلى ما تقدّم فى غيرها من المـالك الشامية مِن المعاملة بالدنانير والدراهم،وصَنْجتها كصَنْجة دمَشْق وحَلَب وطَرَابُلُس،تنقص عن الصَّنْجة المصرية

كل مائة مثقال مثقالٌ وربع ، وكل مائة درهم درهم وربع ،ورِطْلُها سبعمائة وعشرون درهمـا بصَنْجتها، ومَكِيلاتها معتبرة بالمَكُّوك كما فى حَلَب وبلادها ، ومكُّوكها مقدّر كل مكوكين وربع مكوك غِرارة بالدِّمَشْقِىّ ؛ وقياس قماشها بذراع (١) وقياس أرضها بذراع العمل المعروف .

الجمـــــلة الثانية

(فى ترتيب نيابتها، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما بحاضرتها)

اما جيوشها فمن التُّرْك ومَنْ فى معناهم،وبها عدّة من أمراء الطبلخاناه والعشرات والخمسات ومقدّمى الحَلْقة وأجنادها، وليس بها مقدّمُ ألف . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ قواعد الشأم المستـــقرّة أنها كانت بيد بقَـايَا الملوك الأيوبيــة إلىٰ آخر الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" فى سلطنته الأخيرة . قال فى "مسالك الأبصار" : إن صاحبها كان يستـقل فيها بإعطاء الإمرة والإقطاعات وتوليـة القضاة والوزراء وكُتَّاب السر وسائر الوظائف بها،وتُكْتب المناشيرُ والتواقيعُ من جهته ولكنه لا يُمْضِى أمرا كبيرا فى مثـل إعطاء إمرة أو وظيفة كبيرة حتّى يشـاور صاحب مصر، وهو لا يجيبه إلا بأن الرأى ما تراه ومن هــذا ومثله ، وربمـا كتب له مرسومٌ شريفٌ بالتصرف فى مملكته . قال فى "مسالك الأبصـار" : ومع ذلك فصاحب مصر متصرف فى ولاية صاحبها وعزله،من شاء ولّاه ومن شاء عزله، ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن خُلِـع الأفضلُ محمد بن المؤيد المتقدّم ذكره من سلطنتها(٢)، بعد موت

(١) بياض فى الأصل .

(٢) أى وأسندت نيابتها فى ذلك الحين إلىٰ مملوك أبيه "سيف الدين طقزتمر" كذا فى تاريخ أبى الفداء .

السلطان الملك النـاصر وملك ٱبنه أبي بكر؛ ونائبها من أكابر الأمراء المقـدّمين، ولكنه فى الرتبة دون نائب طَرَابُلُس وإن كان مساويا له فى المكاتبة من الأبواب السلطانية، ويظهر ذلك فى كتابة المطلقات الكبار حيث يذكر نائب طَرَابُلُس قبله .

وبها من وظائف أرباب السيوف الحجوبيةُ، وبها حاجبان : الكبير منهما طبلخاناه والثانى عشرة، والمِهْمِندارية ، وبها ٱثنان وهما جنديّان ؛ وشدّ مراكز البريد، وبه جندىّ، وأميراخورية البريد ، ومتوليها جندىّ؛ وولايةُ المدينة، وواليها جندىّ؛ ونِقابةُ العساكر، وبها ٱثنان وهما جنديان أحدهما أكبر من الآخر . وجميع أرباب الوظائف يوليهم النائب بها بتواقيع كريمة، وليس بها قلعةٌ لهـا نائب .

وبهـا من الوظائف الدينيـة من أرباب الأقلام أربعـةُ قضـاة من المذاهب الأربعة، ولايتُهم من الأبواب السلطانية بتواقيعَ شريفة، وقاضى عسكر حنفىّ ، وليس بها قضاة عسكر من المذاهب الثـلاثة الأُخَر ولا مفتُو دار عدل؛ وبها وكيل بيت المـال ، وولايتـه من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف ووَكالة شرعيـة ؛ ومحتسب بولايةٍ عن النائب بتوقيع كريم .

وبها من الوظائف الديوانية من أرباب الأقلام كاتبُ سر، ويعبَّر عنه فى ديوان الإنشاء بصاحب ديوان المكاتبات بحماةَ المحروسة ، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وله أتبـاع من كُتَّاب الدست وكُتَّاب الدَّرْج وولايتهم عن النائب بتواقيع كريمة؛ وبها ناظر المملكة القائم مقام الوزير، وولايته من الأبواب السلطانية بتوقيع شريف، وله أتباع من كُتَّاب وشهود، وولايتُهم عن النائب بتواقيع كريمة . إلىٰ غير ذلك من وظائفَ صغارٍ يوليها النائب بتواقيع كريمة .

وترتيب المَوْكِب بها أن النائب بها يركب من دار النيابة فى يومى الخميس والاثنين وصحبته العسكر من الأمراء وأجناد الحَلْقة، ويخرج إلىٰ خارج المدينة من قبليها

ويسير فى المَوْكب إلىٰ ضيعة تسمّى بقَرين علىٰ القرب من حماة ، ثم يعود فى مَوْكبِه حتّىٰ يقف بسُوق الخيل بمكان خارجَ المدينـة يعرف بالمَوْقِف ، وينادىٰ بينهم علىٰ الخيول ، وربمـا نودِىَ علىٰ بعض العقارات ، ثم تصيح الجاويشية ، وينصرف عن ذلك المكان ويدخل المدينة ، ويأتى دارَ النيابة ويدخل أوّلُ العسكر من داخل باب يعرف بباب العُشْرة (١) ، ثم يترجل الناس علىٰ الترتيب علىٰ قدر منازلهم حتّىٰ لا يبقىٰ راكب سوىٰ النائب بمفرده ، ولايزال راكبا حتّىٰ يترجل بشُبَّاك بدار النيابة معدّ للحكم فيجلس فيه ويجلس عنـده داخل الشُّبَّاك القضاةُ الأربعةُ : الشافعىّ والحنفىّ عن يمينه ، والمـالكىّ عن يساره والحنبلىّ يليه ، ويجلس الأمراء علىٰ قدر منازلهم ، وكاتبُ السر وناظر الجيش أمام النائب خارج الشُّـبَّاك ، ويقف هناك الحاجبان والمهمندار ونقيب النقباء ، وتُرفَع القصص فيقرؤها كاتب السر عليه ويرسُم فيها بما يراه ، ثم يقوم من مجلسه ذلك وينصرف القضاة ويدخل إلىٰ قُبَّة معـدّة لجلوسه ومعه كاتب السر وناظر الجيش والأمراءُ فيفصل بقية أموره ممـا يتعلق بالجيش وغيره ، ثم يمد السِّماطُ بعد ذلك فيأكلون وينصرفون .

الضرب الثـانى

(ماهو خارج عن حاضرتها)

وليس بخارجها نيابات ، بل يقتصر فيه علىٰ ثلاث ولايات ، ولاتُها أجناد يوليهم النائب بها .

الأولىٰ ــ ولاية بَرِّها كما فى دِمَشْق وحَلَب .

الثـانية ــ ولاية بارِينَ .

الثـالثة ــ ولاية المَعَرَّة . وليس بها عرب ولا تُرْكُمان تنسب إليها .

---

(١) فى الضوء "بباب العزة" .

النيابة الخـامسة

(نيابة صَفَد ، وفيها جملتان)

الجمـــــــلة الأولىٰ

(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتها فكما فى دِمَشْق وغيرها من البلاد الشاميــة ؛ وصنجتها كصنجتها ورطلها ... ...[1] وأواقيه آثنتا عشرة أوقية كل أوقية ... ...[1] وتعتبر مكيلاتها ... ...[1] وتقـاس أرض دورها بذراع العمل كما فى غيرها ، وتعتــبر أرض زراعتها بالفــدّان الإسلامىّ والفدّان الرومىّ كما فى غيرها من البلاد الشامية .

وأما جيوشها ووظائفها الديوانية ووظائفها الدينية ، فكما فى طَرَابُلُس . وأما ترتيب النيابة بها ... ...[1]

الجمـــــلة الثـانية

(فيما هو خارج عن حاضرتها)

وليس بأعمالها نيابة بل كلها ولايات ، يليها أجناد من قبل نائب صَفَد ؛ وهى إحدىٰ عشرة ولاية .

الأولىٰ ــ ولاية بَرِّها كما فى غيرها من الممالك المتقدّمة .

الثـانية ــ ولاية الناصِرة .

الثـالثة ــ ولاية طَبَرِيَّة .

الرابعــة ــ ولاية تِبْنِين وهُونِين .

الخامسة ــ ولاية عَثْلِيث .

---

(١) بياض فى الأصل فى المواضع الأربعة .

السادسة ـ ولاية عَكَّا .

السابعة ـ ولاية صُور .

الثامنة ـ ولاية الشاغُور .

التاسعة ـ ولاية الإقليم .

العاشرة ـ ولاية الشَّقِيف .

الحاديةَ عشرةَ ـ ولاية جِينِينَ .

النيابة السادسة

(نيابة الكَرَك ، وفيها جملتان)

الجملة الأولى

(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتها فكما فى غيرها : من المعاملة بالدنانير والدراهم ، وصنجتها (١) ورطلها (١) وأواقيه آثنتا عشرة أوقية كل أوقية (١) ويقاس قماشها بذراع (١) وتقاس أرض دورها بذراع العمل كما فى غيرها ، وتعتبر أرض زراعتها بالفدّان الإسلامىّ والفدّان الرومىّ كما فى غيرها من بلاد الشام ، وكذلك خراج أرضها .

وأما جيوشها فعلى ما تقدّم فى غيرها من الممالك من آجتماعها من الترك ومَنْ فى معناهم ؛ وبها من الأمراء الطبلخانات والعشرات والخمسات ومَنْ فى معناهم ، وليس بها مقدّم ألف غير النائب كما تقدّم والحجوبية والمهمندارية وتقدمة البريد ، وولاية القلعة ؛ وبها من الوظائف الديوانية ناظر المال وناظر الجيش وكاتب دَرْج ؛ وولاية هؤلاء الثلاثة من الأبواب السلطانية .

---

(١) بياض فى الأصل .

وأما ترتيب المَوْكب بها .(١)

الجمـــــلة الثـانية

(فيما هو خارج عن حاضرتها، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(الولايات، وفيها أربع ولايات)

الأولى ـ ولاية بَرّها كما فى غيرها .

الثـانية ـ ولاية الشَّوْبَك .

الثـالثة ـ ولاية زُغَر .

الرابعة ـ ولاية مُعَانَ .

الضرب الثـانى

(العـــرب)

وعرب الكَرَك فيما ذكره فى "مسالك الأبصار" : بنو عُقْبة، وعُقْبة من جُذَام . قال فى "مسالك الأبصار" : وكان آخر أمرائهم شطى بن عتبة (؟) وكان سلطاننا

(١) بياض بالأصل بقدر ستة أسطر .

الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أقبل عليه إقبالا أحلّه فوق السِّما كَيْن وألحقه بأمراء آل فضل وأمراء آل مرا ، وأقطعه الإقطاعات الجليلة ، وألبسه التشريف الكبير، وأجزل له الحِبَاء، وعَمَر له ولأهله البيت والخباء. وكذلك ممن ينسب إلى عرب الكَرَك بنو زُهَير عربُ الشَّوْبك، وآل عجبون، والعطويون، والصونيون وغيرهم .

الفصل الثالث

من الباب الثالث من المقالة الثانية

(فى المملكة الحجازية ، وفيه سبعة أطراف)

الطَّرَف الأوّل

(فى فضل الحجاز وخواصّه وعجائبه)

أما فضله ففى "صحيح مسلم" من حديث جابر بن عبدالله الأنصارىّ رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم! قال : " غِلَظُ القلوبِ والجَفَاءُ فى المَشْرِق، والإيمانُ فى أهْلِ الحِجاز " .

قلت : وفى ذلك دليل صريح لفضل الحجاز نفسه، وذلك أن هواء كل بلد يؤثِّر فى أهله بحسب ما يقتضيه الهواء ، ولذلك تجد لأهل كل بلد صفاتٍ وأحوالا تخصهم ، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم عن أهل الحجاز بالرقّة كما أخبر عن أهل المشرق بالغِلْظة والجَفَاء ؛ وناهيك بفضل الحجاز وشرفه أن به مَهْبَطَ الوحى ومَنْبَع الرسالة ، وبه مكةَ والمدينةَ اللتين هما أشرف بلاد الله تعالى وأجلُّ بقاع الأرض ، ولكل منهما فضل يخصه يأتى الكلام عليه عند ذكره فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

وأما خواصه فيختص من جهة الشرع بأمرين :

أحدهمـــا ـ أنه لا يستوطنه مشرك من ذمىّ ولا معاهَد، وإن دخله لم يمكَّن من الإقامة فى موضع منه أكثَرَ من ثلاثة أيام ثم يُصْرَف إلىٰ غيره ، فإن أقام بموضع أكثر من ثلاثة أيام ، عُزِّر إن لم يكن له عُذْر . قال أصحابنا الشافعية : ولو عقـد الإمام عقدًا لكافر علىٰ الإقامة بالحجاز علىٰ مسمًّى بطل العقد ووجب المسمّٰى .

الثانى ـ أنه لاتُدْفَن فيه موتاهم وإن دفن أحد منهم فيه نقل إلىٰ غيره .

وأما عجائبه فمنها مَقَام إبراهيم عليه السـلام، وهو الحَجَر الذى كان يقوم عليه لبناء البيت فأثَّرتْ فيه قدماه وصار أثرهما فيه ظاهرا كما أخبر الله تعالىٰ عن ذلك بقوله : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إبْرَاهِيمَ ﴾ وهو باق علىٰ ذلك أمام البيت من جهـة الباب إلىٰ الآن .

(ومنها) ماذكره فى "الروض المعطار" من أنّ أثر قدم إسمـاعيل عليه السـلام بمسجدٍ بمنىٰ فى حَجَر فيه أثر عَقِبه حين رَفَس إبليسَ برجله عند آعتراضه له فى ذَهَابه مع أبيه للذَّبْح .

(ومنها) حَصٰى الجِمَار، وهو أنه فى كل سنة يَرْمِى الحُجَّاج عند الجَمَرات الثلاث فى أيام مِنىٰ ماتحصَّل منه التلالُ العظيمة علىٰ طول المَدىٰ، ومع ذلك لم يكن موجودا بمنىٰ منها إلا الشىء القليل علىٰ تطاوُل السنين، يقال إن مهما تُقُبِّل منها رفع والباقى منها مالم يتقبل .

الطـــرف الثـانى

(فى ذكر حدوده، وآبتداء عِمارته، وتسميته حجازا)

أما حدوده فآعلم أن الحجاز عبارة عن مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها علىٰ خلاف فى بعض ذلك، يأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ ، وهو بجملته قطعةٌ من جزيرة العرب، وهى مابين بحر القُلْزُم وبحر الهند وبحر فارس والفُرَات وبعض بادية الشام .

قال المدائنى: جزيرة العرب خمسة أقسام : تِهَامَةُ، ونَجْدٌ، والحِجَازُ، والعَرُوضُ، واليَمَنُ . وزاد آبن حوقل فى أقسامها باديةَ العراق وباديةَ الجزيرة فيما بين دِجْلَةَ والفُرَاتِ وباديةَ الشام، وفيها خلاف يطول ذكره .

قال النووىّ فى "تهذيب الأسماء واللُّغات" : وسميت جزيرة العرب جزيرةً لآنجزار الماء عنها حيث لم يمدّ عليها وإن كان مُطِيفا بها . والحجاز عندهم عبارة عن جبل السَّراة ـ بالسين والراء المهملتين ـ علىٰ ما أورده فى "الروض المعطار"، وضُبِط فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام علىٰ البَلْقاء من الشام بالشين المعجمة، وهو جبل يُقْبِل من اليمن حتّٰى يتصل ببادية الشام، وهو أعظم جبال العرب. وحدّه من الجنوب تِهَامَةُ: وهى ما بينه وبين بحر الهند فى غربىّ بلاد اليمن، وحدّه من الشرق بلاد اليَمَنِ وهى بينه وبين فارس، وحدّه من الشَّمال نَجْدٌ، وهو ما بينه وبين العراق، وحدّه من الغرب بحر القُلْزُم وما فى جنوبيه من بادية الشام .

الطرف الثـالث

(فى آبتداء عمـارته وتسميته حجازا)

أما آبتـداء عمارته فإنه لمـا آنبثَّ أولاد سام بن نوح عليـه السلام وهم العَرَب فى أقطار هذه الجزيرة حين قَسَم نوح الأرض بين بنيه ، نزل الحجازَ منهم من العرب البادية طَسْمٌ وجَدِيسُ [ومنزلهم] اليَمَامة ومنزلة جرهم علىٰ القرب من مكة فكان ذلك أوّل عمارة الحجاز بعد الطُّوفان، ثم بادت هذه العرب وهلكوا عن آخرهم، ودَرَست أخبارهم وآنقطعت آثارهم . وعمر الحجـازَ بعدهم جُرْهُمُ الثانيـة، وهم بنو جُرْهُم بن قَحْطان بن عَابَر بن شالَخ بن أَرْفَخْشَذَ بن سام بن نوح عليه السلام . ولمـا أسكن إبراهيم الخليل عليه السلام ولده إسماعيل بمكة كما أخبر تعالىٰ عنه بقوله : ﴿رَبَّنَا إِنِّى

أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ كانت جرهُـمُ الثانيــة نازلين بالقرب من مكة فاتصلوا بإسمـاعيل عليه السلام، وتزوّج منهم وكثُر ولده وتناسلوا فعَمَروا الحجاز إلىٰ الآن .

وأما تسميته حجازا، فقال الأصمعيّ : سمى بذلك لأنه حجز بين نَجْدٍ وتِهَـامَةَ ولآمتداده بينهـما علىٰ ما تقـدّم . وقال آبن الكلبيّ : سمِّى بذلك لمـا آحتجز به من الجبـال . قلت : ووَهِم فى "الروض المعطار" فقـال : سمى حِجَـازا لأنه حجز بين الغَوْرِ والشام، وقيــل لأنه حجز بين نَجْدٍ والسَّراة ، وما أعلم ما الذى أوقعه فى ذلك .

الطَّرَف الرابع

(فى ذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة)

أما مياهه وعيونه، فقال المتكلمون فى المسالك والممـالك: ليس بالحجاز بل بجزيرة العرب جملةً نهرٌ يجرى فيه مَرْكَب ، و إنمـا فيه العيون الكثيرة المتفجرةُ من الجبال المعتضِدةُ بالسيول والأمطار ، الممتدّة من وَادٍ إلىٰ وادٍ، وعليها قُرَاهم وحدائقهم و بساتينهم مما لايحصىٰ ذلك كثرةً، كما فى الطائف و بطن مَرٍّ، و بطن نَخْل، وعُسْفان وبَدْرٍ وغير ذلك .

وأما جباله المشهورة، فآعلم أن جميع أرض الحجاز جبال وأوديةٌ ليس فيها بسـيط من الأرض، وجباله أكثر من أن تدخل تحتَ العـدّ أو يأخذها الحصر، وقد ذكر الأزرقىّ فى "تاريخ مكة" أن لمكة(١) آثنى عشر ألف جبل لكل جبل منها آسم يخصه ولكن قد شهرت جبال مكة والمدينة واليَنْبُع .

---

(١) لعله للحجاز .

فمن جبال مكة المشهورة (جبل أبى قُبَيس) وهو الجبل الذى فى جنوبىّ مكة ممتدّا علىٰ شرقيها . قال الأزرقىّ : وهو أوّل جبل وُضِع بالأرض ولذلك كان أقرب الجبال إلىٰ البيت .

(ومنها) جبل قَيْنُقَاع(1) ـ بقاف مفتوحة وياء مثناة تحتُ ساكنة ونون مضمومة وقاف ثانية مفتوحة بعدها ألف وعين مهملة ـ وهو الجبل الذى غربىّ مكة، سمى بذلك لمكان سلاح تُبَّعٍ منه ، والقعقعة صوت السلاح ، كما سمى جِيَاد جيادا لمكان خيله منها .

(ومنها) جبل حِرَاءٍ ـ بحاء مهملة مكسورة وراء مهملة مفتوحة بعدها ألف ـ وهو جبل يُشْرِف علىٰ مكة من شرقيها يرىٰ البيت من أعلاه ، وفيه الغار الذى كان يتعبَّد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وفيه جاءه جبريل عليه السلام فى أوّل النبوّة .

(ومنها) جبل ثَوْرٍ ـ بفتح الثاء المثلثة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر ـ وهو جبل مشرف علىٰ مكة من جنوبيها ، وفيه الغار الذى ٱختفىٰ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المشركين ومعه أبو بكر الصدّيقُ رضى الله عنه .

(ومنها) جبل تَبِيرٍ(2) ـ بفتح التاء المثناة فوق وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت وراء مهملة فى الآخر ـ وهو جبل مشرف يرىٰ من منىٰ والمزدلفة .

الطَّـــــرَف الخامس

(فى زُرُوعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وطيوره)

أما زروعه ففيه من الحبوب المزدرعة البُرّ والشعيرُ والذُّرَةُ والسُّلْت ، وجميعها تُزْرَع علىٰ المطر ، وربما زُرِع بعضها علىٰ ماء العيون ، والشعير والذرة أكثر الحبوب

---

(1) صوابه قُعَيْقِعَان . أُنظر معجم البلدان ومعجم ياقوت . (2) صوابه ثبير بالثاء المثلثة .

وجودا، ويُزْرَع فيه على العيون البِطِّيخُ : الأخضر والأصفر، والقِثَّاء، والبَاذِنْجَان، والدُّبَّاءُ، والملوخيا، والهِنْدِبَا، والفُجْل، والكُرَّاث، والبَصَل، والثُّومُ .

وأما فواكهه ففيـه الرُّطَبُ، والعِنَبُ، والمَوْزُ، والتُّفَّاحُ، والسَّفَرْجَلُ، واللَّيْمُونُ وغير ذلك .

وأما رياحينه ففيه التامرِحنَّاء، ويسمَّى عندهم الفَاغِيَة : بالفاء وغين معجمة وياء مثناة تحتُ وهاء فى الآخر .

وأما مواشيه ففيه الإِبِلُ، والضَّأْنُ، والمَعَزُ بكثرة، والبقر بقِلَّة . وبه من الخيل ما يفوق الوصف حسْنُه، ويُعجز البرقَ إدراكُه .

وأما وحوشه ففيـه الغِزْلَانُ، وحُمُر الوحش، والذِّئاب، والضِّباع، والثعالب، والأرانب وغيرها .

وأما طيوره ففيه الحمام، والدجاج، والحِدَأَةُ، والرَّخَم .

الطرف السادس

(فى قواعده وأعمـاله ، وفيه ثلاث قواعِد)

القـاعدة الأولىٰ

(مكة المشرفة ، وفيها جملتان)

الجمـلة الأولىٰ

(فى حاضرتها)

وقد ذكر العلماء رحمهم الله لها ستة عشر اسما . " مَكَّة " بفتح الميم وتشديد الكاف المفتوحة وهاء فى الآخر. كما نطق به القرءان الكريم فى قوله تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ ﴾ ؛ سميت بذلك لقلة مائها أخذا من

قولهم ٱمْتَكَّ الفصيلُ ضَرْع أمّه إذا ٱمتصه ، وقيل لأنها تَمُكُّ الذنوب بمعنى أنها تَذْهَب بها، ويقال لها أيضا (بَكَّة) بإبدال الميم باء موحدة . وبه نطق القرءان أيضا في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ ﴾ قال الليث : سميت بذلك لأنها تَبُكُّ أعناق الجبابرة أى تدقُّها والبكُّ الدّق؛ وقيل بالميم الحرم كلُّه وبَكَّةُ المسجد خاصة ، حكاه الماوردىّ عن الزهرىّ وزيد بن أسْلَم؛ وقيل بالباء ٱسم لموضع الطواف، سمى بذلك لٱزدحام الناس فيه والبَكُّ الٱزدحام . ومن أسمائها أيضا (أُمّ القُرىٰ) و (البَلَد الأمين) و (أمّ رُحْم) بضم الراء وإسكان الحاء المهملتين لأن الناس يتراحمون فيها ويتوادَعُون؛ و (صَلَاحِ) مبنىّ على الكسر كقَطَامِ ونحوه؛ و (البَاسَّة) لأنها تَبُسُّ الظالم أى تحطمه؛ و (النَاسَّة) بالنون لأنها تَنُسُّ الملحد فيها أى تطرده؛ و (النَّسَّاسة) لذلك أيضا؛ و (الحاطِمَة) لأنها تحطِم الظالم كما تقدّم؛ و (الرأس) و (كُوثَىٰ) بضم الكاف وفتح المثلثة؛ و (القُدُس) و (القادس) و (المقَدَّسة) . قال النووىّ : وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمّى، ولذلك كثرت أسماء الله تعالى وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم !

وقد تقدّم انها من جملة الحِجاز . وحكى ٱبن حوقل عن بعض العلماء أنها من تِهَامَة ورجحه في "تقويم البُلْدان" . وموقعها في الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال في "كتاب الأطوال" : طولها سبع وستون درجة وثلاثَ عشرةَ دقيقة، وعرضها إحدى وعشرون درجة وأربعون دقيقة . وقال في "القانون" : طولها سبع وستون درجة فقط، وعرضها إحدى وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وقال في "رسم المعمور" : طولها سبع وستون درجة ، وعرضها إحدى وعشرون . وقال كوشيا وطولها سبع وستون درجة وعشر دقائق ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وأربعون دقيقة . وقال ٱبن سعيد : طولها سبع وستون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة، وعرضها إحدى وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وهى مدينة في بطن وادٍ والجبال

محتَفَّة بهـا ، فأبو قُبَيْس مشرف عليها من شرقِيّها وأَجْيَادٌ بفتح الهمزة مشرفٌ عليهـا من غربيها . قال الجوهرىّ : سمى بذلك لموضع خيل تُبَّع منه . قال فى "الروض المعطار" : وسَعَتها من الشمال إلىٰ الجنوب نحو ميلين ، ومن أسـفل أَجْيَادٍ إلىٰ ظهر جبل قُعَيْقِعَانَ مثـل ذلك . قال الكلبىّ : ولم يكن بها منازل مبنية فى بدء الأمر ؛ وكانت جُرْهُم والعَمَالقة حين وِلَايتهم علىٰ الحرم ينتجِعُون جبالها وأوديتها ينزلون بهـا ؛ ثم جاءت قريش بعدهم فمشوا علىٰ ذلك إلىٰ أن صارت الرياسة فى قريش لقُصَىّ بن كلاب فبنىٰ بها دار النَّدْوَةِ ، يحكم فيها بين قريش ؛ ثم صارت لمشاورَتهم وعقد الألوية فى حروبهم ؛ ثم تتابع الناس فى البناء : فبنَوْا دُورا وسكنوها ، وتزايد البنـاء فيها حتّى صارت إلىٰ ماصارت . وبنـاؤها بالحجر وعليها سُورٌ قديم قد هُـدِم أكثره وبقى أثرُه والمسـجد فى وسْطَهَا . وقد ذكر الأزرقىّ فى "تاريخ مكة" أن الكعبة كانت قبل أن تُدْحىٰ الأرض رابيـةً حمراء مشرفة علىٰ وجه المـاء ، ولمـا أهبط الله آدم عليـه السلام وجاء إلىٰ مكة ، آستوحش فأنزل الله تعالىٰ إليه قُبَّـةً من الجنة من دُرّة بيضاء لهـا بابان فوُضِعت مكان البيت فكان يتأَنَّس بها ، وجعل حولها ملائكة يحفَظُونها من أن يقع بصر الشياطين عليها . قال فى " الروض المعطار" : وكان الحجر الأسود كرسيًّا يجلس عليه . قال : وطوله ذراع . والذى ذكره المَـاوَرْدِىُّ وغيره أنّ الملائكة لمـا قالوا : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾ لاذُوا بالعرش خوفا من غضب الله تعالىٰ فطافوا حوله سـبعا فرَضِىَ عنهم وقال : آبنُوا فى الأرض بيتا يعُوذ به من سَخِطْت عليه من بنى آدم فبنَوْا هذا البيت ، وهو أوّل بنائه ؛ ثم بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبر الله تعالىٰ بقوله : ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ قال فى " الروض المعطار" : ولم يجعل لهـا سَقْفا . قال : ثم آنهدمت الكعبة فبنتها العَمَالقة ، ثم آنهدمت فبنتها جُرْهُم ، ثم آنهدمت فبناها قُصَىّ بن كلاب وسَقَفها بخشب

الدَّوْمِ وجريد النخل، وجعل ٱرتفاعها خمسا وعشرين ذراعا، ثم ٱستَهْدمت وكانت فوق القامة فأرادت قُرَيْشٌ تعليتها فهدمَتْها وبنتها، والنبيّ صلى الله عليه وسلم عمره خمس وعشرون سنة، وشهد بناءها معهم، وكان بابُها بالأرض فقال أبو حذيفة ٱبن المغيرة : ياقوم ٱرفعُوا بابَ الكعبة حتى لايدخل إلا مسلم (١) ففعلوا ذلك وسَقَفُوها بخشب سفينة ألقاها البحر إلىٰ جُدَّةَ .

قال فى "الروض المعطار" : وكان طولها ثمانى عشرة ذراعا ، ثم ٱحترق البيت حين حُوصِر ٱبن الزُّبَيْرِ بمكة وتأثَّرت حجارته بالنار، فهدمه ٱبن الزبير وأدخل فيه ستة أذرع من الحِجْرِ، وقيل سبعة، وجعل له بابين ملصقين بالأرض: شرقيا وغربيا يُدْخَلُ من أحدهما ويُخْرَجُ من الآخر، وجعل علىٰ بابها صفائحَ الذهب، وجعل مفاتيحه من ذهب . قال فى "الروض المعطار" : وبلغ بها فى العلو سبعا وعشرين ذراعا . فلما قتل ٱبن الزبير كتب عبد الملك بن مَرْوَانَ إلىٰ الحَجَّاج يأمره بإعادته علىٰ ما كان عليه فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم من بناء قريش فهدم جانب الحِجْر وأعاده إلىٰ ذلك ، وسدّ الباب الغربىّ ورفع الشرقىّ عن الأرض إلىٰ حدّه الذى هو عليه الآن، وكان عبد الملك بن مروان بعد ذلك يقول : "وَدِدت أنى كنْتُ حَمَّلت ٱبن الزبير من بناء الكعبة ماتحَمَّل" .

ثم جدّد المتوكل رُخَام الكعبة فأزَّرها بفضة وألبس سائر حيطانها وسقْفِها الذهب، وهو علىٰ ذلك إلىٰ الآن . وهو مبنىّ بالحجر الأسود مستطيل البناء علىٰ التربيع، فى ٱرتفاع خمسة وعشرين ذراعا .

وله أربعة أركان .

الأوّل ــ ركن الحَجر الأسودِ . وهو مابين الشرق والجنوب، ومنه يبتدأ الطواف .

(١) عبارة ياقوت "ورفعوا بابها مخافة السيل وأن لايدخل فيها إلا من أحبوا" .

الثـانى ـ الشامىّ . وهو مابين الشرق والشمال، سمى بذلك لمسامتته بعض بلاد الشام، وداخله باب المَطْلَع إلىٰ سطح الكعبة .

الثالث ـ الغربىّ . وهو ما بين الشَّمال والغرب ، سمى بذلك لمسامتته بلاد المغرب، ولو سمى بالمصرىّ لكان جديرا به لمسامتته بلاد مصر .

الرابع ـ اليمانِىُ . وهو ما بين الغرب والجنوب، سمى بذلك لمسامتته بلاد اليمن ولذلك خففت الياء فى آخره نسبة إلىٰ اليمن . وقال آبن قتيبة : سمى بذلك لأنه بناه رجل من اليمن يقال له آبن أبى سالم، وقد يُطْلَق عليه وعلىٰ ركن الحجر الأسـود اليمـانِيَان، وعلىٰ الشامىّ والغربىّ الشاميَّان تغليبا .

ثم بين ركن الحجر الأسود وبين الركن الشامىّ أربعة وعشرون ذراعا ، وبالقرب من الركن الأسود فى هـذا الجِدَار باب الكعبة علىٰ أربعة أذرع وشىء من الأرض يُرقىٰ إليـه بدَرَج من خشب توضع عنـد فتح الباب ؛ والمُلْـتَزَمُ بين الركن الأسود والباب الشرقىّ؛ وبالقرب من الركن الشامىّ منه مصلىّٰ آدم عليه السلام .

وهذا الجدار مقسوم ثلاث جهات .

الأولىٰ ـ من الركن الأسـود إلىٰ باب الكعبة . وهى فى جهة القبلة لأهـل البَصْرَةِ، والأهواز ، وفارس، وأصبهَانَ ، وكِرْمَانَ ، وسِجِسْتانَ، وشِمالِ بلاد الصِّينِ وما علىٰ سمت ذلك .

الثانية ـ من الباب إلىٰ مصلىّٰ آدم عليه السلام.وهى جهة القبلة لأهل الكوفة، وبغداد، وحُلْوَانَ، والقادسِـيَّة، وهَمَذَان ، والرَّىّ، ونَيْسَابُور، ومَرْو، وخُوَارَزْم، وبُخَارا، ونَسَا، وفرْغَانة، والشاش، وخُرَاسَان، وما علىٰ سمت ذلك .

الثالثة ـ من مصلىّٰ آدم عليه السـلام إلىٰ الركن الشامىّ . وهى جهة القبـلة لأهل الرُّهَا، والمَوْصِلِ، ومَلَطِيَّةَ، وشِمْشاط، والحِيرَةِ، وسِنْجَار، وديارِبكْرٍ،وأَرْمِينِيَة إلىٰ باب الأبواب، وما علىٰ سمت ذلك .

وبين الركن الشامىّ والركن الغربىّ أحدٌ وعشرون ذراعا ، وبأعلى هـذا الجدار المِيزَابُ فى الوسط منه وخارجه الحِجْرُ (بكسر الحاء المهملة وسكون الجيم) مستديرا به على سمت الركنين، يفصل بينه وبين البيت فُرْجتان .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات أيضا .

الأولى ــ من الركن الشامىّ إلى دون المِيزاب . وهى جهة القبلة لدِمَشْقَ، وحَمَاةَ، وسَلَمِيَّةَ، وحَلَبَ، ومَنْبِج، ومَيَّافَارِقِينَ، وماسامت ذلك .

الثانية ــ وسط الجدار من الميزاب وما إلى جانبه . وهى جهة القبلة للمدينة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) وجانب الشام الغربىّ، وغَزَّة، والرَّمْلَة، وبَيْت المَقْدِس، وفِلَسْطِين، وعَكَّا، وصَيْدَا .

الثالثة ــ ما يلى هذه الجهة إلى الركن الغربىّ . وهى جهة القبلة لِمِصْرَ بأسرها من أُسْوَان إلى دِمْيَاطَ، والإسْكَنْدَرِيَّة، وبَرْقَة، وكذلك طَرَابُلُس الغرب، وصِقِلِّيَة، وسواحل الغرب، والأَنْدَلُس وما على سمت ذلك . وبين الركن الغربىّ والركن اليمانى فى هذا الجدار الباب المسدود تُجاه الباب المفتوح .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات أيضا.

الأولى ــ من الركن الغربىّ إلى ثلث الجدار . وهى جهة القبلة لأهل الشَّمال من بلاد البُجَاوة ، والنُّوبَة ، وأوسط الغرب من جَنُوب الواحات إلى بلاد الجريد إلى البحر المحيط وما على سمت : ذلك من عَيْذَاب ، وسواكن ، وجنوب أُسْوان ، وجُدَّة، ونحو ذلك .

الثانية ــ من ثلث الجدار إلى دون الباب المسدود . وهى جهة القبلة لأهل الجنوب من بلاد البُجَاوة ودَهْلَك وسَواكن والنُّوبة والتَّكْرور، وما وراء ذلك وعلى سمته .

الثـالثة ــ من دون الباب المسدود إلىٰ الركن اليمانى . وهى جهة القبلة لأهل الحَبَشَــةِ ، والزِّنْج ، والزَّيْلَع ، وأكثر بلاد السودان وما والاها من البلاد أو كان علىٰ سمتها .

و بين الركن اليمانى وركن الحجر الأسود عشرون ذراعا ، أنقص من مقابله بذراع ، و بالقرب من ركن الحجر الأسود من هــذا الجدار مصلّٰى النبىّ صلى الله عليه وسلم ! قبل الهِجْرة .

وهذا الجدار مقسوم بثلاث جهات .

الأولىٰ ــ الركن اليمانى إلىٰ سبعة أذرع من الجدار . وهى جهة القبلة لتَدْمُرَ ، وحَضْرَمَوْتَ ، وعَدَنَ ، وصَنْعَاءَ ، وعُمَــانَ ، وصَعْدَة ، والشِّحْرِ ، وسَــبَإ ، وزَبِيدَ وما والاها أو كان علىٰ سمتها .

الثـانية ــ من حدّ الجهة المتقدّمة إلىٰ دونِ مصلّٰى النبىّ صلى الله عليه وسـلم ! قبل الهجرة . وهى جهة القبلة لجنوب بلاد الصِّينِ ، والسِّنْد ، والتَّهَائم ، والبحرين ، وما سامت ذلك .

الثالثة ــ من مصلّٰى النبىّ صلى الله عليه وسلم ! قبل الهجرة إلىٰ ركن الحجر الأسود . وهى جهة القبلة لأهل واسِطَ ، و بلاد الصِّينِ ، والهِنْد ، والْمرجَانِ ، وكَابُل ، والقُنْدُهَار ، والمَعْبَر ، وما والاها من البلاد أو كان علىٰ سمتها .

و يقابل الجدار الشرقىّ من البيت مما يلى ركن الحجر الأسود زَمْزَمُ وسِقَايَةُ العبَّاس ، ويقابله ممــا يلى الركن الشامىّ مَقَــامُ إبراهيم عليه السلام . وقد تقدّم الكلام عليه فى عجائب الحجاز فيما مرّ ، ويسمّى ما بين الكعبة و زَمْزَمَ والمقام الحَطِيمَ (بالحاء والطاء المهملتين) . قال فى "الروض المعطار" : سمى بذلك لأنه كان من لم يجد من الأعراب

ثوبا من ثياب أهل مكة يطوف فيه رمىٰ ثيابه هناك وطاف عريانا. وخارج المسجد الصَّفَا والمَرْوة اللذان يقع السعى بينهما.

الجمـــلة الثـانية

(فى نواحيها وأعمالها، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الحَرَم ومَشَاعِر الحج الخارجةُ عن مكة)

أما الحرم فهو ما يُطِيف بمكة مما يَحْرُم صيده وقَطْع شجره وحشيشه ونحو ذلك، وقد تقدّم أن الله تعالىٰ جعل ملائكة يَحْرُسون القُبَّة التى أنزلها الله تعالىٰ إلىٰ آدم من الجنة ووُضِعت له مكانَ الكعبة وجعلت الملائكة حَرَسا لها كى لا يقع عليها بصر الشياطين، فكانت مواقف الملائكة هى حُدُود الحرم. قال ابن حوقل: وليس بمكة والحرم شجر يُثْمِر إلا شجر البادية، أمّا خارج الحرم ففيه عيون وثِمَار.

واعلم أن مقادير جهات الحرم تتفاوت فى القُرْب والبُعْد عن مكة، وعلىٰ حدوده أعلام منصوبة فى كل جهـة تُدُلّ عليه. قال فى "الروض المعطار": قال الزبير: وأوّل من وضع علامات الحرم ونَصَبَ العُمُدَ عليه عَدْنَانُ بن أُدٍّ، خوفا من أن تندرس معالِمُ الحرم أو تتغير. قال: وحدُّه من التنعيم علىٰ طريق سَرِفٍ إلىٰ مَرّ الظَّهْرَانِ خمسة أميال، وذكر فى موضع آخر أنها ستة أميال؛ وحدّه من طريق جُدَّة عشرة أميال؛ ومن طريق اليَمَن ستة أميال، ودَوْرُه سبعمائة وثلاثة وثلاثون ميلا.

ثم بحدود هـذا الحرم أماكنُ مشهورة، يَخْرُج إليها من مكة مَنْ أراد أن يُهِلَّ بعمرة فيُحْرِم منها.

أحدها ـ (التَّنْعِيمُ) ـ بألف ولام لازمتين وفتح التاء المثناة فوق وسكون النون وكسر العين المهملة وسكون الياء المثناة تحت وميم فى الآخر ـ وهو موضع علىٰ حدّ الحرم علىٰ طريق السالك من بَطْن مَرٍّ وإلىٰ مكة. قال فى "الروض المعطار": وسمِّى التنعيم لأن الجبل الذى عن يمينه آسمه نُعَيم والذى عن يساره آسمه ناعِمٌ والوادى الذى هو فيه آسمه نَعْمان؛ ومنه آعتمرت عائشةُ رضى الله عنها مع عبد الرحمن بن أبى بكر، وهناك مسجدٌ يعرف بمسجد عائشة إلىٰ الآن .

الثـانى ـ (الحُدَيْبِيَّةُ) ـ بضم الحاء وفتح الدال المهملتين وسكون الياء المثناة تحت وكسر الباء الموحدة وفتح الياء المشدّدة وفى آخرها تاء ـ ونقل فى "الروض المعطار" عن الأصمعىّ تخفيفَ الياء الثانيــة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو موضع بعضه فى الحِلِّ وبعضه فى الحَرَم ، وفيه صَــدَّ المشركون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن البيت؛ وهى أبعد أطراف الحرم عن البيت؛ وهى علىٰ مســيرة يوم؛ وهى فى مثل زاوية للحرم . وذكر فى "الروض المعطار" أن الحديبيــة آسم لبئر فى ذلك المكان، ومذهبُ الشافعىّ أن العمرة منه أفضل من التنعيم .

الثالث ـ (الجِعِرَّانَة) ـ بكسر الجيم والعين المهملة وفتح الراء المهملة المشــدّدة بعــدها ألف ونون مفتوحة وهاء فى الآخر ـ ونقل فى " الروض المعطار" عن الأصمعىّ سكون العين وتخفيف الراء . قال : وهو مكان بين مكة والطائف ولكنه إلىٰ مكة أقربُ ، ومنه أحرم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة فى وجهته تلك[1]، ومذهب الشافعىّ أن العمرة منه أفضل من الحُدَيْبِيَة .

وأما مَشَاعِر الحج الخارجةُ عن مكة فثلاثة .

---

(١) أى مرجعه من غزاة حنين وقسم فيها غنائم هوازن . أُنظر "معجم البلدان" .

أحدها – مِنًى بكسر الميم وفتح النون وألف مقصورة – سميت بذلك لما يُمنىٰ فيها من الدماء أى يراق . قال فى "المشترك" : و بينها و بين مكة ثلاثة أميال – وهى تشبه القَرْية مبنيةٌ علىٰ ضفتى الوادى . و بهامسجد الخَيْف – بفتح الخاء المعجمة وسكون الياء المثناة تحت وفى آخره فاء – وهو مسجد عظيم متَّسِع الأرجاء بغير سقف .

الثانى – (المُزْدَلِفَةُ) – بضم الميم وسكون الزاى المعجمة وفتح الدال المهملة وكسر اللام وفتح الفاء وآخرها هاء – وهى موضع علىٰ يَسْرة الذاهب من منًى إلىٰ عرفة . قال النووىّ : سميت بذلك من التزلف والآزدلاف وهو التقرّب ، لأن الحجاج إذا أفاضوا من عَرَفَاتٍ آزدَلَفُوا إليها أى تقربوا ومضَوْا إليها ، وتسمى جَمْعًا أيضا بفتح الجيم وسكون الميم وعين مهملة – لأنه يجمع بها بين المغرب والعشاء ، وبها مسجد متسع . قال فى "الروض المعطار" : طوله ثلاثة وستون ذراعا ، وعرضه خمسون ذراعا ، وآرتفاع جداره عشرة أذرع .

الثالث – (عَرَفَةُ) – بفتح العين والراء المهملتين والفاء وهاء فى الآخر – و يقال فيه أيضا عَرَفَاتٌ علىٰ الجمع ، وبه جاء القرءان فى قوله تعالىٰ : ﴿فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ﴾ وهو موقف الحج ، وسمى عرفات لتعارف آدم عليه السلام وحَوَّاءَ به . قال كعب الأحبار : أُهبط آدم عليه السلام بالهند ، وحواءُ بِعرَفَةَ ، و إبليسُ بجُدَّةَ ، والحيَّة بأَصْبَهَانَ ، وأمر الله تعالىٰ آدم بحج البيت فحج ، فكان حيث وضع قدمه تتفجر الأنهار وتبنىٰ المساجد . فلما وصل إلىٰ عرفة ، وجد بها حواءَ فتعارفا بها .

الضرب الثانى
(قُراها ومَخَاليفها)

وآعلم أن أكثر جبال مكة وأوديتها مسكونة معمورة إلا أنه ليس بها قرية مُقَرّاة إلا حيث المياه والعيون الجارية والحدائق المحدَّقة ، والمشهور من ذلك عشرة أماكن .

الأول ـ (جُدَّةُ) ـ بضم الجيم وتشديد الدال المهملة ثم هاء ـ وهى فُرْضَةُ مكة علىٰ ساحل بحر القُلْزُمِ ، وموقعها فى أول الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة ، وهى فى الغَرْب عن مكة بميـلة إلىٰ الشمال . قال فى "الأطوال" : طولها ست وستون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدىٰ وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . ووافقه علىٰ ذلك فى "القانون". وقال فى "رسم المعمور": طولها خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة، وعرضها علىٰ ماتقدّم . وهى مِينا عظيمة محلُّ حَطٍّ وإقلاع، إليها تنتهى المراكب من مصر واليمن وغيرهما، وعنها تصـدر من مكة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من مكة علىٰ مرحلتين . وقال الإدريسى : بينهما أربعون مِيلاً، وهى ميقات من قطع البحر من جهة عيْذَابَ إليها .

الثـانى ـ (بَطْنُ نَخْلٍ) ـ وضبطه معروف ، ويقال فيه أيضا وادى نَخْلَةَ علىٰ التوحيد ونخلة بإسقاط لفظ وادى . قال الجوهرىّ : وبه كانت العُزّىٰ التى هى أحد طواغيت قُرَيْشٍ، وبعث النبىّ صلى الله عليه وسلم إليها خالد بن الوليد فهدمها، وهى الآن بيد هُذَيْلٍ ، وهى قُرًى مجتمعة ذات عيون وحدائق ومزدَرَع . أخبرنى بعض أهل الحجاز أن بها نحو أربعة عشر نهرا علىٰ كل نهر قرية، وغالب فواكه مكة وقَطَانِيِّها وبُقُولها منها، ومنها يصب الماء إلىٰ بطن مَرّ الآتى ذكره .

الثـالث ـ (الطَّائِفُ) ـ بألف ولام لازمتين فطاء مهملة مشدّدة مفتوحة بعدها ألف وياء مثناة تحت مكسورة ثم فاء ـ وهو بلد شرقىّ بطن نخل المتقدّم ذكرها ، وبطن نخل بينه وبين مكة . قيل سميت الطائف لأنهـا فى طُوفان نوح آنقطعت من الشام وحملها المـاء وطافت بالأرض حتّى أرسَتْ فى هـذا الموضع . وقال فى "الروض المعطار" : آسمها القديم وَجٌّ يعنى بواو مفتوحة وجيم مشدّدة ـ سميت برجل من العمالقة ، ثم سكنها ثقِيف فبنوا عليها حائطا مُطِيفا بها فسميت الطائف .

قال : وهى إحدىٰ القريتين المذكورتين فى قوله تعالىٰ : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من الحجاز تقريبا ، وموقعها فى أوائل الإقليم الثانى . وقال ابن سعيد : طولها ثمان وستون درجة وإحدىٰ وثلاثون دقيقة ، وعرضها إحدىٰ وعشرون درجة وأربعون دقيقة ، وهو بلد خَصِيب كثير الفواكه المختلفة مما يشابه فواكه الشام وغيرها ، وهى طَيِّبة الهواء إلا أنها شديدة البرد حتّىٰ إنه ربما جَمَد الماء بها لشدّة بردها .

الرابع — (بَطْنُ مَرٍّ) — بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة ونون بعدها ثم ميم مفتوحة وراء مهملة مشدّدة — وهو واد من أودية الحجاز فى الشَّمال عن مكة علىٰ مرحلة منها علىٰ طريق حُجَّاج مصر والشام . قال فى "الأطوال" : طولها سبع وستون درجة وعرضها إحدىٰ وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بُقْعة بها عدّة عيون ومياه تجرى ونخيل كثير ، والنخل والمزدَرَع متصل من وادى نخلة إليها . وذكر غيره أن بها نحوَ أربعة وعشرين نهرا علىٰ كل نهر قرية ، ومنها تُحْمَل الفواكه والبُقُولات إلىٰ مكة كما تحمل من نخلةَ والطائف ، وهى بيد بنى حَسَن أمراء مكة .

الخامس — (الْهَدَهْ) — بألف ولام ثم هاء ودال مهملة مفتوحتين وهاء ساكنة فى الآخر — وهو واد علىٰ القرب من بطن مَرّ ، علىٰ مرحلة ونصف من مكة ، به أربعة عشر نهرا علىٰ كل نهر قرية ، وهى بيد بنى جابر .

السادس — (عُسْفَانُ) — بضم العين وسكون السين المهملتين وفتح الفاء ثم ألف ونون — وهو وادٍ معروف علىٰ طريق حُجّاج مصر ، علىٰ ثلاث مراحل من مكة ، كان بها حدائق ومياه تنصب إليها من الهَدَه المذكورة ، وهى الآن خراب ليس بها عمارة .

السابع ـ (الْبَرْزَةُ) ـ بألف ولام ثم باء موحدة مفتوحة وراء مهـملة ساكنة وزاى معجمة مفتوحة وهاء فى الآخر ـ وهى واد بالقرب من عُسْفَانَ علىٰ مرحلتين من مكة؛ به أربعة عشر نهرا علىٰ كل نهر قرية؛ وهى الآن بيد بنى سَلُولَ و بنى مُعَبِّدٍ بضم الميم وفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة المفتوحة .

الثامن ـ (خُلَيْصٌ) ـ بضم الخاء المعجمة وفتح اللام وإسكان اليـاء المثناة تحت والصاد المهـملة ـ وهو واد علىٰ طريق حُجَّـاج مصر علىٰ أربع مراحل من مكة؛ به نحو تسعة أنهر علىٰ كل نهر قرية .

التاسع ـ (وادى كُلَيَّة) ـ بضم الكاف وفتح اللام وتشديد اليـاء المثناة تحت المفتوحة وهاء فى الآخر ـ وهو واد بالقرب من خُلَيْصٍ به نحو سبعة أنهر علىٰ كل نهر قرية، وكان بيد سُلَيم، وقد خرب من مدّة قريبة بعد الثمانين والسبعمائة .

العاشر ـ (مَرُّ الظَّهْرَان) ـ بفتح الميم وتشديد الراء المهملة ثم ألف ولام وظاء معجمة مفتوحة وهاء ساكنة وراء مهملة مفتوحة بعدها ألف ونون ـ وهو موضع بينه و بين مكة نحو ستةَ عشرَ ميلا ، وهو الذى نزل به رسول الله صـلى الله عليه وسـلم ! عند صُلْحه مع قريش، كان به ضِيَاع كثيرة وهو الآن خراب . قال فى " الروض المعطار " : وبه حصن كبير؛ كان يسكنه شُكْر بن الحسن بن علىّ بن جعفر الحسنى يعنى أميرَ مكة الآتى ذكره فى جملة أمرائها .

الطرف السابع
(فى ذكر ملوك مكة ، وهم على ضربين)

الضرب الأول
(ملوكها قبل الإسلام)

اعلم أن مكة بعد الطوفان كان مُلْكها فى عاد، وكان بها منهم معاويةُ بن بكر بن عَوْص بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام، وكان مع معاوية بنِ بكر (وهو عادٌ الآخرة فيما يقال) يَعْرُب ثم غلبهم العمالقة عليها. فلما غلب آبن قَحْطان بن عابَر بن شالَخ آبن أرفَخْشَذَ بن سام بن نوح عادا على اليمن وفرّق مُلْك اليمن فى إخوته، آستولى على الحجاز وأخرج العمالقة منه وولّى أخاه جُرْهُمَ بن قحطان على الحجاز، فبقِىَ به حتّى مات. فملك بعده آبنه عبدُ ياليل . ثم ملك من بعده آبنه جُرْهُم، ثم ملك بعده آبنه عبد المَدَان، ثم ملك بعده آبنه بُقَيْلَةُ، ثم ملك بعده آبنه عبدُ المسيح، ثم ملك بعده آبنه مُضَاضٌ، ثم ملك بعده آبنه الحرث، ثم ملك بعده آبنه عمرو، ثم ملك بعده أخوه بِشْر بن الحرث، ثم ملك بعده مُضَاضُ بن عمرو بن مُضَاضٍ .

قال آبن سعيد : وجُرْهُم هذه هم الذين بُعِث إليهم إسماعيل عليه السلام وتزوّج فيهم، وكانت قبلهم جُرْهُم أخرى مع عَادٍ . قال فى "الروض المعطار" : وفى ذلك يقول عمرو بن الحرث بن مُضَاضٍ، وهو التاسع من ملوك جُرْهُمَ المتقدّمِ ذكرهم :

وصَاهَرَنَا مَنْ أَكْرَمُ النَّاسِ وَالِدًا * فَأَبْنَاؤُهُ مِنَّا ونَحْنُ الأَصَاهِرُ!

قال صاحب حماةَ فى "تاريخه" : وقد آختلف المؤرّخون فى أمر المُلْك على الحجاز بين جُرْهُمَ وبين إسماعيل، فبعضهم يقول: كان المُلْك فى جرهم، ومفاتيح الكعبة وسِدَانتها فى يد ولد إسماعيل، وبعضهم يقول : إن قَيْدار بن إسماعيل توجته أخواله من جُرْهُمَ وعقدوا له المُلْك عليهم بالحجاز .

وأما سِدَانَةُ البيت ومفاتيحه فكانت مع بنى إسماعيل بلا خلاف حتّى ٱنتهىٰ ذلك إلىٰ نَابِتٍ من ولد إسمـاعيل، فصارت السِّـدَانَةُ بعده لجُرْهُمَ؛ ويدل علىٰ ذلك قول عمرو بن الحرث :

وُكُنَّا وُلَاةَ البَيْتِ مِنْ بَعْـدِ نَابِتٍ * نَطُوفُ بِذَاكَ البَيْتِ وَالأَمْرُ ظَاهِرُ!

وذكر فى "الروض المعطار" : أنه كان مع جُرْهُمَ بمكة قَطُورا (١) ، وجُرْهُم وقَطُورا أخوان، وكان منزل جرهم أعلىٰ مكة بقُعَيْقِعَانَ فمـا حاز، ومنزل قَطُورا أسفلَ مكة بأجياد فما حاز،وٱنتهت رياسة قَطُورَا فى زمن مُضَاض بن عبد المسيح المتقدّم ذكره إلىٰ السَّمَيْدَع، وكان مُضَاض يُعَشِّر مَنْ دخل مكة من أعلاها ، والسَّـمَيْدَعُ يعشر من دخلها من أسـفلها، ثم بغىٰ بعضهم علىٰ بعض وتنـافسوا الملكَ وٱقتتلوا فقُتِـل السميدع ، وٱسـتقلَّ مضاضٌ بالأمر، وبقيت جُرْهُمُ ولاةَ البيت نحو ثلثمائة سـنة فأكلوا مال الكعبة الذى يهدىٰ إليها وٱستحلُّوا حرمها،وبلغ من أمرهم أن الرجل إذا لم يجد مكانا يزنى فيه (٢) الكعبة فزنىٰ فيها ، ولم يتناهَوْا حتّى يقال إن إسافَ ٱبن سهيل زنىٰ بنائلة بنت عمرو بن ذؤيب فى جوف الكعبة فمسخا حجرين،ونضب ماءُ زمزم لكثرة البَغْيِ ودَرَست معالمها ؛ ثم جاء عمرو بن لُحَيٍّ فغيَّر ديـن إبراهيم عليه السـلام وبدَّله وبعث العربَ علىٰ عبادة التمـاثيل ، وعُمِّر ثلثمائة سـنة وخمسا وأربعين سنة، وبلغ من الولد وولد الولد ألفين .

ثم صارت سِدَانة البيت ومفاتيحُه إلىٰ خُزَاعةَ بن الأزْد من بنى كَهْلَانَ بن سَبَإٍ من العرب العاربة ؛ وكانت منازلهم من حين تفرّق عربُ اليمن بسبب سَيْل العَرِمِ ببطن مَرٍّ علىٰ القرب من مكة ؛وصارت لهم الرياسة بسِدَانة البيت،وبقيت السِّدانة بيدهم

(١) فى "السبائك" و"العبر" بدون ألف .

(٢) بياض بالأصل ، ولعل أصله "دخل" كما هو ظاهر .

إلى أن انتهت إلى أبى غَبْشَان : سليمان بن عمرو الخُزَاعىّ فى زمن بَهْرام جور بن يَزْدجِرْد من ملوك الفُرْس، ورئيسُ قريش يومئذ قُصَىٌّ بن كِلَابٍ، فاجتمع قُصَىٌّ مع أبى غَبْشَان على شرابٍ بالطائف، فلما سكر أبو غَبْشَان اشترى قُصَىٌّ سِدَانَةَ البيت منه بزِقِّ خمر وتسلم مفاتيحه وأشهد عليه بذلك، وأرسل ابنَه عبدَ الدار بها إلى البيت فرفع صوته وقال : يامعشَرَ قريش! هذه المفاتيح : مفاتيح بيت أبيكم إسماعيل، قد ردّها الله عليكم من غير عارٍ ولا ظُلْم (١) . فلما صَحَا أبو غَبْشَان ندم حيثُ لاينفعه النَّدَمُ. ويقال "أخسَرُ من صَفْقة أبى غَبْشَان" وأكثر الشعراءُ القولَ فى ذلك حتّى قال بعضهم :

بَاعَتْ خُزَاعَةُ بَيْتَ اللهِ إذْسَكِرَتْ * بزِقِّ خَمْرٍ، فَبِئْسَتْ صَفْقَةُ البَادِى
بَاعَتْ سِدَانَتَهَا بالنَّزْرِ وانْصَرَفَتْ * عَنِ المَقَامِ وظِلِّ البَيْتِ وَالنَّادِى

ولما وقع ذلك عَدَتْ خزاعة على قصىّ فظهر عليهم وأجلاهم عن مكة، وكان بمكة عرب يجيزون الحجيجَ إلى الموقف، وكان لهم بذلك رياسة فأجلاهم قُصَىٌّ عن مَكّةَ أيضا وانفرد بالرياسة . قال العسكرىّ فى "الأوائل" : وكان أوّل من نال المُلْك من ولد النَّضْرِ بن كِنَانَةَ .

ولما تم لقُصَىٍّ ذلك بنى دارَ النَّدْوة بمكة، فكانت قريش تقضى فيها أمورَها فلا تُنْكح ولا تتشاور فى أمر حرب ولا غيره إلا فيها؛ ولم تزل الرياسة فيه وفى بنيه بعد ذلك . فوُلِد له من الولد عَبْدُ مَنَافٍ وعبدُ الدَّارِ وعبدُ العُزّى .

ثم انتقلت الرياسة العظمى بعد ذلك لبنى عبد مَنَافٍ، وكان له من الولد هاشمٌ وعبدُ شَمْسٍ والمُطَّلِبُ ونَوْفَلٌ، وكان هاشم أرفعَهم قدرا وأعظمهم شأنا، وإليه انتهت سيادةُ قومه، وكانت إليه الرِّفَادة وسِقَاية الحجيج بمكة، وكانت قريش تُجَّارا، وكانت تجارتهم لا تعدُو مكة وما حولها فخرج هاشم إلى الشأم حتّى نزل بقَيْصَرَ

(١) لعله غارة أو غدر .

ملِك الروم فسأله كتابةَ أمانٍ لتُجّار قريش، فكتب له كتابا لكل مَنْ مَرَّ عليه، فخرج هاشم فكلّما مَرَّ بحيّ من العرب أخذ من أشرافهم أمانا لقومه حتّى قَدِم مكة، فأتاهم بأعظم شيء أُتُوا به قَطُّ بركةً، فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج معهم حتّى أوردهم الشام، وخرج أخوه المطلب إلىٰ اليَمَن فأخذ لهم أمانا من مَلِكه، وخرج أخوهما عبد شمس إلىٰ مَلِك الحبشة فأخذ لهم أمانا كذلك، وخرج أخوهم نَوْفَلُ إلىٰ كِسْرىٰ ملِك الفرس فأخذ لهم منه أمانا . وكانت قريش يرحلون فى الشتاء للشام وفى الصيف لليمن، واتسعت معايشهم بسبب ذلك، وكثرت أموالهم حتّى امتن الله عليهم بذلك بقوله : ﴿ لِئيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴾ والإيلاف الأمان .

ثم وُلِد لهاشم عبد المطلب وبقيت الرياسة فيه، وكانت بئر زمزم قد انطمَّت ونَضَب ماؤها فحفرها عبد المطلب، حتّى أكمل الله تعالىٰ بنبوّة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ! .

وأما سِدَانة البيت ومفاتيحه، فبقيت بيد بنى عبد الدار بن قُصَىّ المتقدّم ذكره من حين تسلّمَها عبدُ الدار عند أخذها من أبى غَبْشَان الخزاعىّ حتى صارت لبنى شَيْبَةَ من بنى عبد الدار، وانتهت فى زمن النبىّ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ عثمانَ بن طلحةَ بنِ عبد الدار . فلما دخل النبىّ صلى الله عليه وسلم مكة يوم الفتح، أغلق عثمانُ بابَ الكعبة وصَعِد السطح وأبىٰ أن يدفع المفتاح إليه، وقال : لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه، فلوىٰ علىّ بن أبى طالب يَدَه وأخذه منه وفتح ودخل رسول الله صلّى الله عليه وسلم الكعبةَ فصلّى ركعتين، فلما خرج سأله العبّاس أن يعطيَه المفتاحَ ويجمع له السِّقاية والسِّدانة فنزل قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلىٰ أَهْلِهَا ﴾ فأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلم عليا أن يردّ المِفتاح إلىٰ

عثمان ويعتذرَ إليه، فقال عثمان : أكْرَهْتَ وآذيت ثم جئت تَرْفُق ؟ فقال له علىّ : لقد أنزل الله تعالىٰ فى شأنك قرءانا وقرأ عليه الآية ، فقال عثمان : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فهبَطَ جبريل عليه السلام علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فأخبره أن السِّدانة فى أولاد عثمان أبدًا، فهى باقية فيهم إلىٰ الآن .

الضرب الثانى
(ملوكها فى الإسلام ، وهم علىٰ طبقات)

الطبقة الثالثة(١)
(عمال النبىّ صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين)

هاجر منها النبىّ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المدينة قبل وفاته،وحَجَّ حجة الوداع فى السنة العاشرة من الهجرة، وتوفِّى سنة إحدىٰ عشرة من الهجرة وعلىٰ مكة عثمانُ بن أُسَيد، وتوالت عليها عُمَّال الخلفاء بعده إلىٰ آخر أيام الحسن بن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه .

الطبقة الرابعة
(عمال بنى أُمَيَّةَ من لدن معاوية رضى الله عنه إلىٰ آنقراضهم)

ثم ولّى عليها معاويةُ بن أبى سُفْيَانَ فى خلافته فى سنة آثنتين وأربعين من الهجرة (خالدَ بن العاص بن هشام) ثم أضيفت إلىٰ عُمَّال المدينة إلىٰ أيام الوليد بن عبد الملك فكان من وليها منهم (الوليدُ بن عتبة) ثم (عمرو بن سعيد الأشْدَق) ثم (الوليد بن عتبة)

(١) هكذا فى الأصل بهذا العنوان وصوابه الأولىٰ والذى يظهر أن هـذا من الناسخ فان المقام لا يحتمل السقط . ومن جهة أخرىٰ لم يترك فى الأصل بياض حتى كان يخيل أن المؤلف ترك الكلام عليه للعود إليه فحق ماهنا "الطبقة الأولىٰ" وما بعدها "الطبقة الثانية" وهكذا حتى تتسلسل الطبقات .

ثانيا؛ ثم (مُصْعَب بن الزبير) من جهة أخيه عبد الله بن الزبير لما بويع له بالخلافة؛ ثم (جابرُ بنُ الأسود) ثم (طلحة بن عبد الله بن عوف) ثم (طارق بن عمرو بن عثمان) ثم (الحَجّـاج بن يوسف الثقفىّ) ثم (أَبانُ بن عثمان) ثم (هشام بن إسماعيل المخزومىّ) ثم (عُمَر(١) بن عبد العزيز) .

ثم أفردها الوليد بن عبد الملك عن المدينة وولّى عليها (خالدَ بن عبد الله القَسْرى) بعد عمر(١) بن عبد العزيز؛ ثم وليها (عبد العزيز بن خالد بن أُسَـيْدٍ) أيام سليمان ابن عبد الملك؛ ثم عزله يزيدُ سنة ثلاث ومائة وأضافها مع المدينة إلىٰ (عبد الرحمن ابن الضحّاك) ، ثم عزله عن مكة والمدينة لثلاث سـنين من ولايته وولّى مكانَه (عبـدَ الواحد النضرىّ)، ثم عزله هشام بن عبد الملك فى خلافتـه وولّى مكانه علىٰ مكة والمدينة (إبراهيم بن هشام بن إسماعيل) ثم عزله هشام سنة أربع عشرة ومائة وولّى مكانه علىٰ مكة والطائف دون المدينـة (محمدَ بن هشام المخزومىّ)؛ ثم ولّى الوليدُ بنُ يزيد فى خلافته خالَهُ (يوسفَ بن محمد الثقفىّ) علىٰ مكة مع سائر أعمـال الحجاز؛ ثم ولّى مروانُ علىٰ مكة وبَرِّ الحجاز (عبدَ العزيز بن عمر، بن عبد العزيز) ثم عزله فى سـنة تسع وعشرين ومائة وولّى مكانه علىٰ مكة والحجاز (عبدَ الواحد) ثم توالت عليها عُمّال بنى أمية إلىٰ أن انقرضت دولتهم .

الطبقة الخامسة
(عُمّـال بنى العبّـاس)

وأولهم أبو العباس السَّفّاح، فولّى عليها وعلىٰ المدينة وسائر الحجاز عمَّه (داود) ثم توفى سـنة ثلاث وثلاثين ومائة؛ فولّى مكانه فى جميع ذلك (زيادَ بن عبد الله بن عبد الدار الحـارثىّ) .

---

(١) فى الأصل عمرو .

ثم ولّى السَّفّاحُ علىٰ ذلك سنة ثلاث وأربعين ومائة (السَّرِىَّ بن عبد الله آبن الحارث بن العبّاس) .

ثم عزله أبوجعفر المنصور سنة ست وأربعين ومائة وولّى مكانه عمه (عبدالصمد آبن علىّ) ثم عزله عنها سنة تسع وأربعين ومائة وولّى مكانه (محمد بن إبراهيم الإمام) ثم عزله وولّى مكانه (إبراهيم آبن أخيه) ثم ولّى علىٰ مكة وسائر الحجاز واليمامة (جعفرَ بن سليمان) ؛ ثم توالت عليها العمال إلىٰ أن ولّى الرشيدُ فى خلافته علىٰ مكة واليمن (حمادا اليزيدىّ(١)) سنة أربع وثمانين ومائة .

ثم وليها فى زمان الأمين (داودُ بن عيسىٰ) .

ثم وليها (محمد بن عيسىٰ) ثم عزله المتوكل سنة ثلاث وثلاثين ومائتين وولى مكانه آبنه (المنتصِر) بن المتوكل .

ثم وليها (علىّ بن عيسىٰ بن جعفر بن المنصور) ثم عزله المتوكل سنة سبع وثلاثين ومائتين وولّى مكانه (عبد الله بن محمد بن داود بن عيسىٰ بن موسىٰ) ثم عزله المتوكل سنة ثنتين وأربعين ومائتين وولّى مكانه (عبدَ الصمد بن موسىٰ بن محمد بن إبراهيم الإمام) ثم توالت عليها العمال من قِبَل خلفاء بنى العبّاس إلىٰ أن غلب عليها السُّلَيْمانِيُّونَ الآتى ذكرهم آنفا .

الطبقة السادسة

(السليمانيون من بنى الحَسَن)

نسبة إلىٰ سليمان بن داود بن الحسن المثنّى بن الحسن السِّبْط .

وكان سليمان هذا فى أيام المأمون بالمدينة وحدثَتِ الرياسة فيها لبنيه بعد أيام، وكان كبيرهم آخِرَ المائة الثالثة محمد بن سليمان الربذىّ .

---

(١) فى الكامل لآبن الأثير "البربرى" .

قال البيهقىّ : خلع طاعة العَبّاسيين وخطب لنفسه بالإمامة فى سنة إحدىٰ وثلثمائة فى خلافة المقتدر، ثم ٱعترضه أبوطاهر القرمطىّ فى سنة ثنتى عشرة وثلثمائة، فٱنقطع حجيج العِراق بسبب ذلك .

ثم أنفذ المقتــدر الحجيج من العراق فى ســنة سبع عشرة وثلثمائة فوافاهم القرمطىّ بمكة فنهبهم، وخطب لعبيد الله المهــدىّ صاحب إفريقية وقلع الحجرَ الأسودَ وبابَ الكعبة وحملهما إلىٰ الأَحْسَاءِ، وتعطل الحج من العراق إلىٰ أن ولى الخــلافةَ القاهرُ فى سنة عشرين وثلثمائة فحجّ بالناس أميرُه فى تلك السنة .

ثم ٱنقطع الحج من العراق بعدها إلىٰ أن صُولِحت القرامطة علىٰ مال يؤدّيه الحجيج إليهم، فحجوا فى سنة سبع وعشرين وثلثمائة؛ وخُطِب بمكة للراضى بن المقتدر، وفى سنة تسع وعشرين لأخيه المُتَّقِى من بعده .

ثم ٱنقطع الحج من العراق بسبب القرامطة إلىٰ سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة، فخرج ركب العراق بمهــادنَة القرامطة فى خلافة المســتكفى؛ ثم خُطِب بمكة لمعز الدولة ٱبن بُوَيه مع المقتدر فى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة؛ ثم تعطل الحج بسبب القرامطة؛ ثم برز أمر المنصور الفاطمىّ صاحب إفْرِيقِيَّةَ لأحمد بن أبى سعيد أمير القرامطة بعد موت أبى طاهر بإعادة الحجر الأسود إلىٰ مكانِه فأعاده فى سنة تسع وثلاثين وثلثمائة .

وفى ســنة ثنتين وأربعين وثلثمائة حاول أمير الرَّكْب المصرىّ الخطبــةَ لٱبن الأخشيد صاحبِ مصر فلم يتأتَّ له ذلك وخُطِب لٱبن بُوَيه، وٱتصلت وفود الحج من يومئذ .

وفى سنة ثلاث وخمسين خطب للقرمطىّ بمكة مع المُطِيع .

وفى سنة ستوخمسين وثلثمائة خطب بمكة لبختيار بن مُعِزّ الدولة بعد موت أبيه .

ثم فى سنة ستين وثلثمائة جهز المُعِزُّ الفاطمىّ عسكرا من إفْرِيقِيَّةَ لإقامة الخطبة له بمكة وعاضدهم بنو الحُسَين أهـلُ المدينة فمنعهم بنو الحسن أهل مكة من ذلك وآستولَوْا علىٰ مكة .

فلما ملك مصرَ المُعِزُّ كان الحسن بن جعفر بن الحسن بن سليمان بالمدينة فبادر فملك مكة ودعا للمعِزّ وكتب له المُعِزُّ بالولاية؛ ثم مات الحسن فولِّى مكانه أخوه عيسىٰ .

ثم وُلِّى بعده أبو الفتوح الحسن بن جعفر بن أبى هـاشم؛ ثم الحسن بن محمد بن سليمان بن داود سنة أربع وثمانين وثلثمائة؛ ثم جاءت عساكر عضد الدولة بن بويه ففرّ الحسن وترك مكة . ولمـا مات المعز ووَلِى آبنه العزيز، بعث إلىٰ مكة أميرا عَلَوياً فخطب له بالحرمين وآستمرّت الخطبة بمكة للعلويين إلىٰ سنة سبع وستين وثلثمائة .

وفى سنة ثمان وستين خُطِب لعضد الدولة بن بُوَيه؛ ثم عادت الخطبة بمكة إلىٰ الخلفاء الفاطميين بمصر؛ ثم كتب الحاكم سنة ثنتين وأربعين وأربعمائة إلىٰ عُمَّـاله بالبراءة من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما فأنكر ذلك أبو الفتوح أمير مكة وحمله ذلك علىٰ أن آستبدّ بالأمر فى مكة وخطب لنفسه وتلقب بالراشد بالله، وقطع الحاكم المِيرة عن الحرمين فرجع أبو الفتوح إلىٰ طاعته فأعاده إلىٰ إمارته بمكة .

وفى سنة ثنتى عشرة وأربعمائة خطب بمكة للظاهر بن الحاكم؛ ثم خطب بمكة سـنة سـبع وعشرين وأربعمائة للمستنصر بن الظاهر؛ ثم توفى أبو الفتوح أمير مكة المتقدّم ذكره سنة ثلاثين وأربعمائة لِستٍّ وأربعين سنة من إمارته .

وولى بعده إمارة مكة آبنه شُكْر وملك معها المدينة وآستضافها لمكة، وجمع بين الحرمين كله(١) ثلاثا وعشرين سـنة ومات سـنة ثلاث وخمسين وأربعمائة . قال آبن حزم : وكانت وفاته عن غير ولد وآنقرضت بموته دولة بنى سليمان بمكة .

(١) لعله كليهما .

الطبقـــــة السابعة

(الهَوَاشِـــم)

نســبة إلىٰ أبى هاشم : محمد بن الحسن بن محمد بن موسىٰ بن عبد الله أبى الكرام آبن موسىٰ الجَوْنِ بن عبد الله بن حسن بن الحسن السِّبْط .

كان رئيسُ الهواشم لما مات شكر آخرُ أمراء السليمانيين (محمدَ بن جعفر) بن أبى هاشم المذكور فآستولىٰ علىٰ إمارة مكة فى ســنة أربع وخمسين وأربعمائة بعــد موت شكر، وخطب للستنصر الفاطمىّ صاحبِ مِصْرَ، ثم خطب لبنى العبّاس فى ســنة ثمــان وخمسين وأربعمائة فقُطِعت مِيرة مصر عن مكة فعَذَله أهلُه علىٰ ذلك فأعاد الخطبة للستنصر الفاطمىّ ، ثم آستمــاله القائم العباسىّ وبذل له الأموالَ فخطب له ســنة ثنتين وستين بالموسم فقط ، وكتب للستنصر بمصر يعتذر إليه ، ثم بعث إليه السلطان ألْب أرسلان السَّلْجُوقىّ بأموال كثيرة فى سنة ثلاث وستين فخطب له بنفسه .

ثم جمع محمدُ بن جعفر المتقدّم ذكره وزحف إلىٰ المدينة فأخرج منها بنى الحسين وملكها وجمع بين الحرمين .

ثم مات القائم وآنقطع ما كان يصل إلىٰ أمير مكة منه فقطع الخطبةَ للعباسيين .

ثم أرســل المقتدى بالله العباسىّ بمــال فأعاد الخطبة للعباسيين فاستمرت الخطبة لهم إلىٰ أن مات السلطان ملكشاه السلجوقىّ ســنة ست(١) وثمانين وأربعمائة فآنقطعت الخطبة بمكة للعباسيين وبطل الحــاجُّ من العراق ، ومات المقتدى وبويع آبنه المستظهر، ومات المستنصر العُبَيْدىّ بمصر وبويع آبنه المستعلى فخطب له بمكة .

(١) لعله خمس كما يؤخذ من تاريخ أبى الفدا .

ثم مات محمد بن جعفر أمير مكة المتقدّم ذكره سنة سبع وثمانين وأربعمائة لثلاث وثلاثين سنة من إمارته ، وولى بعده آبنه (قاسم) فكثر آضطرابه ، ثم توفى سنة ثمان عشرة وخمسمائة لثلاثين سنة من إمارته .

وولى بعده آبنه أبو فُلَيتة فآفتتح بالخطبة العباسية وحَسُن الثناء عليه ، ثم مات سنة سبع وعشرين وخمسمائة لعشر سنين من إمارته وولى بعده آبنه قاسم والخطبة مستمرّة للعباسيين .

ثم صنع المقتفى بابا للكعبة وأرسله إليها فى سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة وحمل الباب العتيق إليه فآتخذه تابوتا يدفن فيه ، وآتصلت الخطبة لبنى العبّاس إلى سنة خمس وخمسين ، وبويع المستنجد فخُطِب له كما كان يُخْطَب لأبيه المقتفى .

ثم قتل قاسم بن أبى فليتة سنة ست وخمسين وخمسمائة ، وولى بعده آبنه (عيسى) فى أيام العاضد : آخر خلفاء الفاطميين بمصر ، وتوفى المستنجد وبعث المستضىء بالركب العراقىّ وآنقضت دولة الفاطميين بمصر ، ووليها السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فخُطِب له بالحرمين الشريفين .

والذى ذكره السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" أن عيسى عَمَّ قاسم سيَّر الحاجَّ فى سنة ست وخمسين وخمسمائة وقام مكان آبن أخيه قاسم المذكور ، ثم عاد قاسم فملك مكة ، ثم هرب وعاد عمه عيسى فملكها وهرب قاسم إلى جبل أبى قُبَيْسٍ فوقع عن فرسه فأمسكه عيسى وقتله .

ثم مات المستضىء وبويع آبنه الناصر وخُطِب له بالحرمين ، وحجت أمه وعادت فأنهت إليه من أحوال عيسى بن قاسم أمير مكة ما عزله به ، وولّى مكانه أخاه (مكثر بن قاسم) وكان جليل القدر ، وهو الذى بنى القلعة على جبل أبى قُبَيْسٍ ، ومات سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، و بموته آنقرضت دولة الهواشم بمكة .

وذكر السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" أن أمير حاج العراق فى سنة إحدىٰ وسبعين وخمسمائة توجه من عنـد الخليفة بعزله ، فجرىٰ بينهما حرب آنتهىٰ الأمر فيها إلىٰ آنهزام مُكْثِر المذكور ، وأقيم أخوه داود مكانه . وما زالت الإمرة فيه تارة ، وفى أخيه مكثر تارة حتّى مات داود فى سـنة تسع وثمـانين وخمسمائة . وقال : إنه داود بن عيسىٰ بن محمد بن أبى هاشم .

الطبقـــــة الثـامنة

(بنـــو قَتَادَةَ)

نسـبة إلىٰ قتادة بن إدريس بن مُطَاعن بن عبـد الكريم بن موسىٰ بن عيسىٰ بن عبد الله أبى الكرام بن موسىٰ الجَوْن بن عبـد الله بن حسن بن الحسن السِّـبْطِ بن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكان السبب فى ولايتـه مكة أنها لمـا كانت مع الهواشم كان بنو حسن مقيمين بنهر العلقمية من وادى يَنْبُعَ ، فجمع قتـادة قومه بنى مُطَـاعن وأسالفَ بنى أحمد وبنى إبراهيم وتأمر عليهم وملك يَنْبُعَ ، ثم ملك الصفراء ، وسار إلىٰ مكة فآنتزعها من الهواشم المتقدّم ذكرهم وملكها ، وخطب للناصر لدين الله العباسىّ : خليفة بَغْدَادَ ، وتعاظم أمره حتّى ملك مع مكة واليَنْبُعِ أطرافَ اليمن وبعضَ أعمال المدينـة وبلادَ نجد ، ولم يَفِدْ علىٰ أحد من الخلفاء ولا من الملوك ، وتوفى سنة سبع عشرة وستمائة ؛ وولّى مكانه آبنه الحسن فآمتعض لذلك أخوه راجح بن قتادة ؛ ثم قدم الملك المسعود أقسز بن الكامل صاحب اليمن سـنة عشرين وستمائة من اليمن إلىٰ مكة وملك مكة وقتل جماعة من الأشراف ونصب رايتـه وأزال راية أمير الركب الذى من جهـة الخليفة ، فكتب الخليفة من بغداد إلىٰ أبيه الكامل يعاتبه فى ذلك ، فكتب الكامل

إلىٰ ٱبنـه أقسز برئتُ يا أقسز من ظهر العادل إن لم أقطع يمينَك ! فقد نبذتَ وراء ظهرِك دنيـاك ودينك ! ولا حول ولا قوة إلا بالله العلىّ العظيم ! ؛ وذهب حسن ٱبن قتادة إلىٰ بغداد صريخا فمات بها سنة ثنتين وعشرين وستمائة، ومات أقسز بمكة سنة ست وعشرين ودفن بالمَعْلىٰ، وبقى علىٰ مكة قائده فخر الدين بن الشيخ؛ وقصد راجح بن قتـادة مكة مع عساكر عمر بن رسول فملكها من يد فخر الدين بن الشـيخ سنة تسع وعشرين وستمائة .

ثم جاءت عساكر مصر سنة ثنتين وثلاثين مع الأمير جبريل فملكوا مكةَ وهرب راجح إلىٰ اليمن؛ ثم عاد ومعـه عمر بن رسول صاحب اليمن بنفســه فهربت عساكر مصر، وملك راجح مكة وخطب لعمر بن رسول بعد الخليفة المستنصر .

ثم غلب علىٰ مكة سنة سبع وأربعين وستمائة أبو سعد الحســنُ بن علىّ بن قتادة ولَحِق راجحٌ باليمن؛ وسار جَمَّاز بن حسن بن قتادة سنة إحدىٰ وخمسين وستمائة إلىٰ النـاصر بن العزيز بن الظاهر بن أيوب بدِمَشْقَ مستجيشا علىٰ أبى سـعد أن يقطع ذكر صاحب اليمن، فجهز له عسكرا وسـار إلىٰ مكة فقتل أبا سـعد فى الحرم وملك مكة ، ثم وصـل راجح من اليمن إلىٰ مكة وهو شيخ كبير السن وأخرج منها جمازَ بن حسن فلحق باليَنْبُع .

ثم دار أمر مكة بين أبى نمى محمد بن أبى سعد علىّ بن قتادة وبين غالب بن راجح ٱبن قتادة ، ثم ٱستبدّ أبو نمى بإمرة مكة ونفىٰ قبيلة أبيه أبى سعد إلىٰ اليَنْبُع؛

ولما هلك أبو نمى قام بأمر مكة من بعده ٱبناه رميثة وحميضة ونازعهما أخواهما عُطَيفة وأبو الغيث فٱعتقلاهما، ووافق ذلك وصول بيبرس الجاشنكير كافل المملكة المصرية فى الأيام الناصرية فأطلق عُطَيفـة وأبا الغيث وولاهما ، وأمسـك رميثة وحميضة وبعث بهما إلىٰ مصر ؛ ثم ردّ السـلطان رميثة وحميضة إلىٰ إمارتهما بمكة

مع عسكره وبعثا إليــه بعطيفة وأبى الغيث، وبقىَ التنازع بينهم، وهم يتعاقبون فى إمرة مكة مرة بعد أخرىٰ وهلك أبو الغيث فى بعض حروبهم ببطن مَرّ .

ثم تنازع حميضة ورميثة وسار رميثــة إلىٰ الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر سنة خمس عشرة وسبعمائة فأمدّه بعساكر وَجّه بها إلىٰ مكة وٱصطلحوا .

ثم خالفهم عطيفة سنة ثمان عشرة وسبعمائة ووصل إلىٰ السلطان فأمدّه بالعساكر فملك مكة وقبض علىٰ رميثة فسجن ثم أطلق سنة عشرين وأقام بمصر، وبقِىَ حميضة مشرَّدا إلىٰ أن ٱســتأمن السلطانَ فأمنه ، ثم وثب بحميضة مماليكُ كانوا معه وقتلوه ، وأطلق رميثة من السجن وٱستقر شريكا لأخيه عطيفة فى إمارتها .

ثم مات عُطَيفة وأقام أخوه رميثة بعده مستقلا بإمارة مكة إلىٰ أن كَبِر وهَرِم . وإلىٰ ذلك أشار فى "التعريف" بقوله : وأوّل[(١)] إمرة فى رميثة وهو آخر من بقى من بيته، وعليه كان النص من أبيه دون البقية مع تداولهم لها، وكان ٱبناه بقية وعجلان قد ٱقتسما معه إمارة مكة برضاه، ثم أراد الرجوع فلم يوافقاه عليه وٱستمرا معه فى الولاية .

ولمـا مات رميثة تنازع ولداه : بقية وعجلان، وخرج بقية وبقِىَ عجلان بمكة، ثم غلبه عليها بقيَّــة ؛ ثم ٱجتمعا بمصر ســنة ست وخمسين وســبعمائة فولّى السلطان عجلان، وفرّ بقية إلىٰ الحجاز فأقام هنالك منازعا لعجلان من غير ولاية . وعجلان هو المستبدّ بهــا مع سلوك ســيرة العدل والإنصاف والتجافى عن أموال الرعية والتعرّض للمجاورين إلىٰ أن توفى سنة سبع وسبعين وسبعمائة .

ووُلِّى بعده ٱبنه أحمد، وكان قد فوّض إليه الأمر فى حياته وقاسمه فى أمره، فقام أحمد بأمر مكة جاريا علىٰ سَنَن أبيه فى العدل وحسن السيرة، ومات فى رمضان سنة ثمـان وثمانين وسبعمائة فى الدولة الظاهرية برقوق .

(١) عبارة التعريف "وهى الآن فى رميثة وهو الخ ."

فولِّى مكانه ٱبنُه محمد، وكان صغيرا فى كَفَالة عمه كبيش بن عجلان فبقى حتّٰى وثب عليه فداوىّ عند ملاقاة المحمل فقتله ؛ ودخل أمير الركب إلىٰ مكة فولّٰى عنان ٱبن مُغامس بن رميثة مكانه .

ثم لحق علىّ بن عجلان بالأبواب السلطانية بمصر فولاه الظاهر برقوق سنة تسع وثمانين وسبعمائة شريكا لعِنَان، وسار مع أمير الركب إلىٰ مكة فهرب عِنانٌ ودخل علىّ بن عجلان مكة فٱستقل بإمارتها ؛ ثم وفد علىّ بن عجلان علىٰ السلطان بمصر سنة أربع وتسعين فأفرده بالإمارة وأنزل عِنَان بن مغامس عنده وأحسن إليه، ثم ٱعتقله بعد ذلك وبقِىَ علىّ بن عجلان فى إمارة مكة حتّٰى قتل ببطن مَرٍّ فى سنة سبع وتسعين وسبعمائة .

فولّٰى السلطان ٱبن أخيه حسنَ بن أحمد مكانه وٱستبدّ بإمرة مكة وهو بها إلىٰ هذا العهد . وهو حسن، بن أحمد، بن عجلان، بن رميثة، بن أبى نمىّ محمد، بن أبى سعد علىّ، بن أبى عزيز قتادة، بن إدريس، بن مطاعن، بن عبد الكريم، بن موسىٰ، ٱبن عيسىٰ، بن سليمان، بن عبد الله، بن أبى الكرام، بن موسىٰ الجَوْن، بن عبد الله، ٱبن حسن، بن الحسن السِّبْط، بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

الطــــرف السابع

(فى ترتيب مكة المشرفة، وفيه جملتان)

الجمــــلة الأولىٰ

(فيما هو بحاضرتها)

أما معاملاتها فعلىٰ ما تقدّم فى الديار المصرية والبلاد الشامية من المعاملة بالدنانير والدراهم النُّقْرَة ؛ وصَنْجتها فى ذلك كصَنْجة الديار المصرية ، ويعبَّر عن الدرهم النُّقْرة فيها بالكاملىّ، نسبةً إلىٰ الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب صاحب مصر،

وعندهم درهم آخر من فضة خالصة، مربعُ الشكل، زنته نحو نصف، ثم نقص حتّى صار نحو سدس، يعبرون عنه بالمسعودى" نسبة إلىٰ الملك المسعود صاحب اليَمَن، وهو فى المعاملة بثلثى درهم كاملى"،

ولم يكن بها فى الزمن المتقدّم فلوس يُتعامل بها ثم راجت الفلوس الجُدُد بها فى أيام الموسم فيما قبل الدولة الظاهرية برقوق، ثم راجت فى سائر الأوقات آخرا، إلا أن كل درهم بها ثمانية وأربعون فَلْسًا علىٰ الضِّعف من الديار المصرية، حيث كلُّ درهم فيها أربعة وعشرون فلسا؛ ويعبر عن كل خمسة قراريط من الدرهم الكاملى" فيها بجائز، وعن الربع والسدس منه بجائزين، وتعتبر أوزانها بالمن: وهو مائتان وستون درهما، وأواقيه عشرة، كل أوقية عشرة دراهم؛ وكيلها بالغِرارة، وكل غِرارة من غرائرها (١) وقياس قماشها بالذراع المصرى"؛ وأسعارها فى الغالب مرتفعة عن سعر مصر والشام.

وأما إمرتها فإنها إمرة أعرابيــة يمشى أميرها فى إمرته علىٰ قاعدة أمراء العرب دون عادة الملوك فى المواكب وغيرها، وأتباعه عَرَب، وأكثرهم من بنى الحسن أشراف مكة، ويعبَّر عن أكابرهم بالقُوَّاد، وهم بمثابة الأمراء للملوك، وربما آستخدم المماليك الترك ومَنْ فى معناهم.

وأكثر متحصِّله مما يؤخذ من التجار الواردين إلىٰ مكة من الهند واليمن وغيرهما.

وأما تجهيز ركب الحجيج إليها ففى كل سنة يجهز إليها المَحْمِلُ من الديار المصرية بكُسْوة البيت مع أمير الركب ويكسىٰ البيتُ بالكُسْوَةِ المجهزة مع المَحْمِلِ، ويأخذ سَدَنةُ البيت الكسوةَ التى كانت علىٰ البيت، فيُهادُون بها الملوك وأشرافَ الناس، وداخل البيت كسوة أخرىٰ من حرير منقوش لا تحتاج إلىٰ التغيير إلا فى السنين المتطاولة لعدم وصول الشمس ولمس الأيدى إليها.

---

(١) بياض فى الأصل.

ومن عادة أمير مكة أنه إذا وصل المَحْمِلُ إلىٰ ظاهر مكة خرج لملاقاته، فإذا وافاه ترجل عن فرسه وأتىٰ الجمل الحامل للمَحْمِلِ فقلب خُفَّ يده اليمنىٰ وقَبَّله خدمةً لصاحب مصر . وقد روىٰ ٱبن النجار فى تاريخ المدينة النبوية من طريق الحافظ أبى نعيم إلىٰ حسين بن مُصْعَب أنه أدرك كسوة الكعبة يؤتىٰ بها المدينة قبل أن تصل إلىٰ مكة فتنشر علىٰ الرَّضْراض فى مؤخَّر المسجد، ثم يُخْرَجُ بها إلىٰ مكة . وذلك فى سنة إحدىٰ وثلاثين أو ٱثنتين وثلاثين ومائة .

وٱعلم أن كسوة الكعبة لها حالان :

الحال الأولىٰ — ما كان الأمر عليه فى الجاهلية . قد روىٰ الأزرقىّ فى "أخبار مكة" : بسنده إلىٰ أبى هريرة رضى الله عنه أن النبىّ صلى الله عليه وسلم ! "نهىٰ عن سَبِّ أَسْعَدَ الحِمْيَرِىّ وهو تُبَّعٌ" وكان أوّل من كَسَا الكعبة . وذكر ٱبن إسحاق عن غير واحد من أهل العلم أن أوّل من كسا الكعبة كُسْوَةً كاملة تُبَّعٌ وهو أسعدُ أُرِىَ فى منامه أن يكسوها فكساها الأنطاع ، ثم أرى أن ٱكْسُها فكساها الوصائل ثيابٌ حِبَرَة من عَصْبِ اليمن؛ وعن ٱبن جريج نحوه .

وعن ٱبن أبى مليكة أنه قال : بلغنى أن الكعبة كانت تكسىٰ فى الجاهلية كُسًى شتّى . كانت البُدْن تُجَلَّل الحِبَرَ والبرود والأكسية وغير ذلك من عَصْب اليمن، وكان يُهْدىٰ للكعبة هدايَا من كُسًى شتّى سوىٰ جِلَال البُدْنِ: حِبَرٍ وخَزٍّ وأنماط فتكسىٰ منه الكعبة، ويجعل مابقى فى خزانة الكعبة . فإذا بَلِىَ منها شىء أخلف عليها مكانَهُ ثوب آخر، ولا يُنْزَع مما عليها شىء .

وعن عبد الجبار بن الورد قال : سمعت ٱبن أبى مليكة يقول : كانت قريش فى الجاهلية تَرَافَدُ فى كسوة الكعبة، فيضربون ذلك علىٰ القبائل بقدر ٱحتمالها، من عهد قُصَىٍّ بن كلاب حتّى نشأ أبو ربيعةَ بْنُ المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم، وكان

يختلف إلىٰ اليمن يتّجر فيها فأثرىٰ فى المال ، فقال لقريش : أنا أكسُو الكعبةَ وحدى سنةً وجميع قُريش سنة ، فكان يفعل ذلك حتّىٰ مات : يأتى بالحِبرَ الجَنَدِية من الجَنَد فيكسو الكعبة ، فسمته قريش العِدْلَ لأنه عدل فعله بفعل قريش .

وروىٰ الواقدىّ عن النَّوَارِ بنت مالك أم زيد بن ثابت رضى الله عنه أنها قالت : رأيت قبل أن ألِدَ زيدَ بن ثابت علىٰ الكعبة مَطَارِفَ خَزٍّ أخضر وأصفر ، وكِرَارَ وأكسيةَ الأعراب وشِقَاق شعر .

وعن ابن جريج أن الكعبة فيما مضىٰ إنما كانت تكسىٰ يوم عاشوراء إذا ذهب آخِرُ الحاج ، حتّىٰ كان بنو هاشم فكانوا يعلّقون القميص يومَ التروية من الديباج لأن يرىٰ الناس ذلك عليها بهاء وجمالا ، فإذا كان يوم عاشوراء علّقوا عليها الإزار .

وعن عطاء بن يسار عن عُمَر بن الحكم قال : نذرت أُمّى بَدَنَةً تنحرها عند البيت وجللتها شُقَّتين من شعر ووبر فنحرت البدنة وسيَّرتْ للكعبة بالشُّقَّتين ، والنبىّ صلى الله عليه وسلم يومئـذ بمكة لم يهاجر ، فنظرتُ إلىٰ البيت يومئـذ وعليه كُسًى شتّىٰ من وصائل وأنطاع وكِرَارٍ وخَزٍّ ونَمَارِقَ عراقية ، كل هذا قد رأيته عليه .

قلت : حاصـل الأمر أن الذى كُسِيَتْه الكعبة الأنطاعُ وحِبَرَاتُ اليمن والبرودُ والكِرارُ والأنماط والنمارق ومَطَارِفُ الخَزِّ الأخضر والأصفر والأكسية وشِقَاق الشعر والوبر وغير ذلك .

الحال الثانية ــ ما كان الأمر عليه فى صدر الإسلام وهلم جرا إلىٰ زماننا .

أما فى صدر الإسلام فقد روىٰ الواقدىّ عن إبراهيم بن أبى حبيبة عن أبيه أن البيت كان فى الجاهلية يُكسىٰ الأنطاع فكساه النبىّ صلى الله عليه وسلم الثيابَ اليمانِيَة ، ثم كساه عمرُ وعثمان رضى الله عنهما القَبَاطِىّ . وعن ابن أبى نجيح أن عمر

آبن الخطاب رضى الله عنه كسا الكعبة القَبَاطىّ من بيت المال، كان يكتب فيها إلىٰ مصر، ثم عثمانُ من بعده . فلما كان معاوية بن أبى سُفْيَانَ كساها كسوتين : كسوة عُمَرَ القَبَاطىّ وكسوةَ دِيبَاج ، وكانت تكسىٰ الدِّيباج يوم عاشوراء ، وتكسىٰ القباطىّ فى آخر شهر رمضان .

وروىٰ الأزرقىّ عن نافع قال : كان آبن عمر يكسو بُدْنَه إذا أراد أن يحرم القَبَاطِىّ والحِبَرَ ، وفى رواية الأنماط ، فإذا كان يومُ عرفة ألبسها إياها وإذا كان يومُ النحر نزعها عنها ثم أرسل بها إلىٰ شيبةَ بن عثمان الحَجَبِىّ فناطها علىٰ الكعبة .

وروىٰ الواقدىّ عن إسحاق بن عبد الله أن الناس كانوا ينذُرون كُسْوة الكعبة ويُهْدون إليها البُدْنَ عليها الحِبَرَاتُ ، فيبعَثُ بالحِبَرَات إلىٰ البيت كسوة . فلما كان يزيد بن معاوية كساها الديباج الخُسْرُوانىَّ ، فلما كان آبن الزبير آتبعه علىٰ ذلك ، فكان يبعث إلىٰ أخيه مُصْعبِ بن الزبير يبعث بالكسوة كل سنة وكانت تكسىٰ يوم عاشوراء .

قال الأزرقىّ : وقد قيل إن ابن الزبير أوّل مَنْ كساه الديباج . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : وهو الصحيح .

وذكر الواقدىّ عن أشياخه أن عبد الملك بن مَرْوان كان يبعث فى كل سنة بالدِّيباج من الشام فيُمَرّ به علىٰ المدينة فيُنْشَر يوما فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم علىٰ الأساطين هاهنا وهاهنا ، ثم يطوىٰ ويبعث به إلىٰ مكة . وقد قيل إن عبد الملك أوّل من كسا الكعبة الديباجَ . قال الماوردىّ : وكساه بنو أمية فى بعض أيامهم الحُلَل التى كانت علىٰ أهل نجران فى جزيتهم ، والديباج من فوقها .

قال الأزرقىّ : ولما حج المهدىّ فى سنة ستين ومائتين(١)، رُفع إليه أن ثياب الكعبة قد أثقلتها ويخاف علىٰ جُدْرانها من ثِقَل الكسوة ، فجرّدها حتّى لم يبق عليها شىء من

(١) صوابه ومائة .

الكسوة، ثم أفرغ عليها ثلاث كُسًى : قباطىّ وخز وديبـاج . ولما غلب حسينُ آبن حسن الطالبىّ على مكة فى سنة مائتين، وجد ثيابها قد ثقُلت عليها أيضا فجرّدها فى أوّل يوم من المحرّم وكساها كسوتين من قَزٍّ رقيق إحداهما صفراء والأخرى بيضاء مكتوب بينهما .

"بسم الله الرحمن الرحيم، وصلّى الله على محمد وعلى أهل بيته الطيبين الأخيار."
"أمر أبو السَّرايا الأصغر بن الأصغر راعيةُ آل محمد صلوات الله عليه وسلامه بعمل"
"هذه الكسوة لبيت الله الحرام" .

وذكر الأزرقىّ عن جدّه أن الكعبة كانت تكسىٰ فى كل سـنة كسوة ديباج يعنى أحمر وكسوة قبَـاطىّ . فأما الديباج فتكساه يوم التروية، فيعلّق القميص ويدلّى ولا يخاط، وإذا صدر الناس من منىٰ خيط القميصُ وترك الإزار حتّى يذهب الحاج لئلا يخرّقوه . فإذا كان يوم عاشوراء علق عليها الإزارُ يوصل بالقميص؛ وكأن المراد بالإزار ما تدركه الأيدى فى الطواف وبالقميص ما فوق ذلك إلى أعلى الكعبـة، فلا تزال هـذه الكسوة الديباجُ عليها حتّى يومِ سبع وعشرين من شهر رمضان فتكسىٰ القباطىّ القطن .

فلمـا كانت خلافة المأمون رفع إليه أن الديباج يبْلىٰ ويتخرّق قبل أن يبلغ الفطر، فسأل المأمونُ صاحبَ بريد مكة فى أىِّ الكسوة الكعبةُ أحسنُ ؟ فقـال له : فى البياض، فأمر بكسوة من ديباجَ أبيض، عملت سنة ست ومائتين وبُعِث بها إلى الكعبة، فصارت الكعبة تكسىٰ ثلاث كسى : تكسىٰ الديباجَ الأحمر يوم التَّرْوِيَةِ، وتكسىٰ القباطىّ يوم هلال رجب، وتكسىٰ الديباج الأبيض يوم سبع وعشرين من شهر رمضان للفطر .

ثم رفع إلى المأمون أيضا أن إزار الديباج الأبيض يتخرّق ويَبْلىٰ فى أيام الحج من مسّ الحاج قبل أن يُخَاط عليها إزار الديباج الأحمر فى عاشوراء، فزادها إزارَ ديباجٍ أبيضَ تُكْسَاه يوم التَّرْوِيَةِ، فيستر به ما تخرّق من الإزار الذى كسيته .

ثم رفع إلىٰ المتوكل فى سنة أربعين ومائتين أن إزار الديباج الأحمر يَبْلىٰ قبل هلال رجب من مسّ الناس ومسحهم بالكعبة، فزادها إزارين مع الإزار الأوّل، فأذال قميصَها الديباجَ الأحمرَ وأسبله حتّى بلغ الأرض، ثم جعل الإزار فوقه، فى كل شهرين إزار، ثم نظر الحَجَبَةُ فإذا الإزار الثانى لايُحتاج إليه، فوضع فى تابوت الكعبة وكتبوا إلىٰ المتوكل أنْ إزارا واحدا مع ماأذيل من قميصها، فصار يبعث بإزار واحد فتكسىٰ بعد ثلاثة أشهر، فيكون الذيل ثلاثة أشهر .

ثم فى سنة ثلاث وأربعين ومائتين أمر المتوكل بإذالة القميص القَبَاطىّ حتّى بلغ الشاذَرْوان الذى تحت الكسوة . قال الماوردىّ : ثم كسا المتوكل أساطينه الديباجَ .

وقد حكىٰ المؤيد صاحب حماة فى "تاريخه" أن الفاطميين خلفاء مصر فى إمارة أبى الحسن جعفر من السليمانيين علىٰ مكة فى سنة إحدىٰ وثمانين وثلثمائة كَسَوُا الكعبة البياض .

قلت : ثم رفع (١) الأمر فى خلفاء بنى العبّاس ببغداد إلىٰ شعارهم من السواد، فألبسوا الكعبة الدِّيباج الأسود، ثم جرىٰ ملوك مصر عند آستيلائهم علىٰ الحجاز علىٰ إلباسها السواد .

والذى جرىٰ عليه الحال فى زماننا إلىٰ آخر الدولة الظاهرية برقوق وأوائل الدولة الناصرية ولده أن الكعبة تُكْسىٰ الديباجَ الأسودَ كسوة مسبلة من أعلىٰ

(١) لعله ثم رجع الأمر .

الكعبة إلىٰ أسـفلها مرقوما بأعاليها طراز رقم بالبياض من أصـل النسج مكتوب فيه ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّـاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا﴾ الآيات، وعلىٰ البـاب بُرْقُعُ من نسبة ذلك مرقوم فيه بالبياض ... ... (١) ثم فى سنة ... ... (١) وثمانمائة فى الدولة الناصرية فرج بن برقوق غير الطِّراز من لون البياض إلىٰ لون الصُّـفْرة، فصار الرقم فى السواد بحرير أصفر مُقَصَّب بالذهب، ولا يخفىٰ أنه أنفسُ من الأول والثـانى (٢) أبهج منه لشـدّة مضادّة مابين البياض والسواد، ثم جعـل بعض جوانب الكسوة ديبـاجا أسودَ علىٰ العادة، وبعضها كمخا أسود بجامات مرقوم فيها بالبياض "لا إله إلا الله محمد رسول الله". ثم جعـل بعـد ذلك برقعَ البيت من حرير أسود منشورا عليه المخايش الفضة الملبسة بالذهب فزاد نفاسة وعلا قيمة . ثم فى سنة أربع عشرة وثمـانمائة جعل واجهة الباب من الكسوة كمخا أزرق بجامات مكتوب فيها ... ... (٣) والله العـالم ما كان وما يكون .

قلت : وحاصل ماتقدّم أن الذى آشتملت عليه أصناف الكسوة فى الإسلام الثياب اليمانِيَة، والقباطىّ المصرية، والحِبَرُ والأنماط والحُلَلُ النَّجْرَانية، والديباج الأبيض، والديباج الأحمر، والديباج الأخضر، والديباج الأصفر، والديباج الأسود، والديباج الأزرق .

وأما تجريد الكعبة من ثيابها، فقد ذكر الأزرقىّ أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان ينزِع كسوة البيت فى كل سـنة فيقسمها علىٰ الحاج . وعن آبن أبى مليكة أنه قال : كانت علىٰ الكعبة كُسًى كثيرةٌ من كسوة أهل الجـاهلية : من الأنطاع والأكسـية والكِرار والأنمـاط ، فكانت رُكَاماً بعضُها فوق بعض .

(١) فى الأصل بياض بهذا المقدار .
(٢) لعله وان كان أبهج منه لشدّة الخ تأمل .
(٣) فى الأصل بياض بهذا المقدار .

فلما كسيت فى الإسلام من بيت المـال، كان يخفف عنها الشىء بعد الشىء إلىٰ أن كانت أيامُ معاوية فكتب إليه شيبةُ بن عثمان الحجبىّ يرغب إليه فى تخفيفها من كسىٰ الجاهليــة حتّىٰ لايكون عليها شىء مما مسته أيديهم لنجاستهم، فكتب إليه معاوية أَنْ جَرِّدْهَا، وبعث إليه بكسوة من ديباج وقباطىّ وحِبَرَة، فجرّدها شيبةُ حتّىٰ لم يبق عليها شىءٌ، وكساها الكسوة التى بعث بها معاوية، وقسم الثياب التى كانت عليها بين أهل مكة؛ وكان ٱبن عباس حاضرا فى المسجد وهم يجرّدونها فلم ينكر ذلك ولا كرهه .

وروى أن عائشة رضى الله عنها أنكرت علىٰ شيبة ذلك ، وقالت له بِعْها وٱجعل ثمنها فى سبيل الله، وكذلك ٱبن عبّاس .

وروىٰ الواقدىّ عن أم سَلَمَةَ رضى الله عنها أنها قالت : إذا نزعت عن الكعبة ثيابُها فلا يضرها من لبسها من الناس من حائض أو جنب. وقد تقدّم أن المهدىّ جردها حين حج فى سنة ستين ومائتين(١)، وحُسَيْنٌ الطالبىّ جرّدها فى سنة مائتين.

قلت : والذى ٱستقر عليه الحال فى زماننا أنها لاتُلْبَس فى كل سنة غير كسوة واحدة علىٰ ماتقدّم بيانه، وذلك أن الكسوة تعمل بمصر علىٰ النَّمِط المتقدّم، ثم تُحْمَلُ صحبة الرَّكْبِ إلىٰ مكة فيُقْطَع ذيل الكسوة القديمة علىٰ قدر قامة من جدار الكعبة ويظهر من الجدار ما كان تحته، ويبقىٰ أعلاها معلقا حتّىٰ يكون يوم (٢) ... ... فتخلع الكسوة العتيقة وتعلَّق الجديدة مكانَها ، ويُكسىٰ المَقَـام من نسـبة كسوة الكعبة، ويأخذ بنو شيبة الحَجَبَةُ الكسوةَ العتيقة فيُهْـدونها للحُجَّاج ولأهل الآفاق . وقد زاد رِفْدهم فيهـا من حيـن حصلت المغالاة فى كسوة الكعبة وبرقعها علىٰ ماتقـدّم . "اللّهمّ زِدْ هذا البيتَ تشريفا وتعظيما، وتكريمـا ومهابة" .

(١) صوابه ومائة . أنظر تاريخ خلافة المهدى .

(٢) بيـاض فى الأصل .

وآعلم أن جدَار الكعبة كان عزيز الرؤية حين كانت الكسوة تتراكم عليها ولا يجرّد عنها شىءٌ، حتّى إن الأزرقىّ حكىٰ عن جدّه أنه تبجح برؤية جِدَارهـا حين جُرِّدت فى سـنة ثلاث وستين ومائتين ، وأنه رأىٰ جدار الباب المسدود الذى كان عمله آبن الزُّبَيْر فى ظهرها وسدّه الحَجَّاجُ ، وشَبَّه لون جدارها بالعنبر الأشهب .

الجمـــلة الثـانية
(فيما هو خارج عن حاضرتها)

أكثَرُ مَنْ هو ببادتها وأوديتها القريبة منها بنو الحسن الأشراف . وقد ذكر فى "التعريف" من عرب الحجـاز لامٌ، وخالد، والمنتفق،والعايد، وزاد فى "مسالك الأبصار": ذكر زُبَيد، وبنوعمرو، والمَضَارجة، والمساعيد، والزراق، وآل عيسىٰ، وآل دعم، وآل جناح، والحبور. ثم قال : وديارهم يتلو بعضها بعضا . قال الحمدانى: وشرقىّ مكة حليجة، وبنو هزر ومنازلهم بِيشةُ .

ومنهم من خثعم بنو مُنَبه، وبنو فصـيلة، ومعاوية، وآل مهدىّ، وبنو نصر، وبنوحاتم، والموركة، وآل زياد، وآل الصعافير، والشماو بلوس . ثم قال: ومنازلهم غير متباعدة .

أما العُرْبان بالدرب المصرىّ إلىٰ مكة ، فمن بِرْكة الحُجّاج إلىٰ عَقَبة أَيْلَة للعائد من عرب الشرقيـة ، ومن العَقَبة إلىٰ الدأماء دون عُيُونـ القَصَب لبنى عُقْبَةَ ، ومن الدأماء إلىٰ أكدىٰ لِبَلِيٍّ ، ومن أكدىٰ إلىٰ آخر الوعرات لجُهَيْنَةَ ، ومن آخر الوعرات إلىٰ نهـاية بدر وإلىٰ نهاية الصـفراء، وَنَقْبِ علىّ لبنى حسَنٍ أصحاب اليَنْبُع(١)، ويليهم من أقاربهم من بنى حسن أصحـاب بدر إلىٰ رملة عالج فى طَرَف قاع البزوة ، ومن

(١) لعلها البَزْواء .

الصفراء إلى الجحفة و رابغ لزُبَيْد، ومن الجحفة على قُدَيد وما حولها إلى الثَّنِيَّة المعروفة بعقبة السَّوِيق لِسُلَيْم، ومن الثَّنِيَّة على خُلَيص إلى الثَّنِيَّة المشرفة على عُسْفان إلى الفَجِّ المسمّى بالمحاطب لبنى جابر، وهم فى طاعة صاحب مكة، ومن المحاطب إلى مكة المعظمةِ لصاحب مكة و بنى الحسن .

القاعدة الثانية

(المدينة الشريفة النبوية، على ساكنها أشرف الخلق محمدٍ أفضلُ الصلاة والسلام والتحية والإكرام، وفيها ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(فى حاضرتها)

المدينة ضبطُها معروف، وهو آسم غلب عليها، و به نطق القرءان الكريم فى قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ﴾ . وقوله : ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ﴾ . وآسمها القديم يَثْرِبُ و به نطق القرءان فى قوله تعالى : ﴿ يَـٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ ﴾ .

قال الزجاجىّ : وهو يثربُ، بن قانيةَ، بن مهلائيل، بن إرَمَ، بن عَبِيل، بن عَوْص، آبن إرم، بن سام، بن نوح ؛ هو الذى بناها ، وورد ذكره فى الحديث أيضا . قال الشيخ عماد الدين بن كثير فى "تفسيره" وحديث النهى عن تسميتها بذلك ضعيف ؛ وسمَّاها الله تعالى الدار بقوله : ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِم﴾. وسماها النبىّ صلى الله عليه وسلم طَيْبَةَ (بفتح الطاء المهملة وسكون الياء وفتح الباء الموحدة بعدها هاء) وطَابَةَ بإبدال الياء بعد الطاء بألف . قال النووىّ : وهما من الطِيب وهو الرائحة الحسنة، وقيل من الطيبِ خلاف الردىء، وقيل من الطيب بمعنى

الطاهِرِ ، وقيل من طِيبِ العَيْش . وزاد السهيلىّ فى أسمـائها الجَابِرَة بالجيم والبـاء الموحدة ، والمُحَبَّة ، والمَحْبُوبة ، والقاصِمَة ، والمَجْبورة ، والعَـذْراء ، والمَرْحُومة ؛ وكانت تدعى فى الجاهلية غُلُبَة لأن اليهود غَلَبوا عليها العماليق ، والأوسَ والخزرجَ غلبوا عليها اليهود . قال صاحب حماة : وهى من الحجاز ، وقيـل من نَجْدٍ ، وموقعها قريب من وسط الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال فى كتاب "الأطوال" : وطولها خمس وسـتون درجة وثلث ، وعرضها إحدى وعشرون درجة . وقال فى "القانون" : طولها سبع وستون درجة ونصف ، وعرضها إحدى وعشرون درجة وثلث . وقال ابن سـعيد : طولهـا خمس وستون درجة وثلث ، وعرضها خمس وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة . وقال فى "رسم المعمور" : طولهـا خمس وستون درجة وعشرون دقيقة ، وعرضها خمس وعشرون درجة .

وقد ذكر صاحب "الهَنَـاء الدائم ، بمولد أبى القاسم" أن أول من بنـاها تُبَّعٌ الأوّل ، وذكر أنه مرّ بمكانها وهى يومئذ منزلة بها أعين ماء ، فأخبره أربعمائة عالم من علماء أهل الكتاب لهم عالم يرجعون إليه أن هـذا موضع مُهَاجَرِ نبىٍّ يخرج فى آخر الزمان من مكة آسمه محمد ! وهو إمامُ الحق ؛ فآمن بالنبىّ صلّى الله عليه وسـلم ! وبنى المدينة ، وأنزلهم بها وأعطى كلا منهم مالًا يكفيه وكتب كتابا فيه :

"أما بعـــد يامحمدُ فإنّى آمنتُ بك وبِرَبّك ، وبكل ماجاء من ربك من شرائع الإسلام والإيمـان ، وإنى قلتُ ذلك فإن أدركتُك فبها ونِعْمَتْ ، وإن لم أُدْرِكْك فآشفعْ لى يوم القيامة ، ولا تَنْسَنِى فإنى من أمتك الأوّلين ، وتابعتُك قبل مجيئك ، وقبل أن يرسلكَ اللهُ ، وأنا على ملة أبيك إبراهيم ! "

وختم الكتاب ونقش عليه : ﴿ لِلّٰهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ ، وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللّٰهِ ﴾ .

وكتب عنوانه .

"إلىٰ محمد بن عبدالله خَاتَمِ المرسلين ، ورسول رب العالمين ، صلّى الله"
"عليه وسلم ! من تُبَّع الأوّل حِمْيَر ، أمانةُ الله فى يد من وقع إليه أن يدفعه"
"إلىٰ صاحبه"

ودفع الكتاب إلىٰ رئيس العلماء المذكورين ، وتداوله بَنُوه بعده إلىٰ أن هاجر النبىّ صلى الله عليه وسلم ! إلىٰ المدينة فتلقاه به بعض أولاد ذلك العالم بين مكّةَ والمدينة ، وتاريخ الكتاب يومئذ ألف سنة بغير زيادة ولانقص . وقيل فى بنائها غير ذلك ، وهى مدينة متوسطة فى مستو من الأرض ، والغالب علىٰ أرضها السباخ ، وفى شماليِّها جبل أُحُدٍ ، وفى جنوبها جبل عَيْر ؛ وكان عليها سور قديم وبخارجها خَنْدَقٌ محفور ؛ وهو الذى حفره النبىّ صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب .

وفى سنة ست وثلاثين ومائتين بنىٰ عليها إسحاق بن محمد الجَعْدىّ سورا منيعا ، وجدّده عضدُ الدولة بن بُوَيه الديلمىّ فى سنة آثنتين وسبعين وثلثمائة ، وهو باق عليها إلىٰ الآن ؛ ولها أربعة أبواب : بابٌ فى الشرق يُخْرَج منه إلىٰ البَقيع ؛ وباب فى الغَرْب يُخْرَج منه إلىٰ العَقِيق وقُبَاءٍ ، وبين يدىْ هذا الباب جداولُ ماء جارية ؛ وبوسطها مسجدُ النبىّ صلى الله عليه وسلم ! وهو مسجد متسع إلا أنه لم يبلغ فى القَدْر مبلغَ مسجد مكة .

قال آبن قتيبة فى "كتاب المعارف" : وكان علىٰ عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ! مبنيا باللَّبِن وسقفُه الجريد وعَمَدُهُ النخل ، ولم يزد فيه أبو بكر شيئا ، وزاد فيه عُمَر ،

ثم غَيَّره عثمان وزاد فيه عثمان زيادة كبيرة، وبنىٰ جدارَه بالحجارة المنقوشة وبالقَصَّة، وجعل عَمَدَهُ من حجارة منقوشة؛ ووسعه المهدى سنة ستين ومائة؛ وزاد فيه المأمون زيادة كبيرة فى سنة ٱثنتين ومائتين؛ ولم تزل الملوك تتداوله بالعِمَارة إلىٰ زماننا .

وبه الحُجْرة الشريفة التى بها قَبْر رسول الله صلى الله عليه وسلم! وأبو بكر وعمر رضى الله عنهما. بحجرته الشريفة دائرٌ عليه مقصورةٌ مرتفعة إلىٰ نحو السقف، عليه ستر من حرير أسود؛ وخارجَ المقصورة بين القبر والمنبر الروضةُ التى أخبر صلى الله عليه وسلم! أنها روضةٌ من رِيَاض الجنة .

وقد ذكر أهل الأثر : أن المِنْبر كان فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم! ثلاثَ درجات بالمَقْعَد، وٱرتفاعه ذراعان وثلاث أصابع، وعرضُه ذراع راجح، وٱرتفاع صدره وهو الذى يستند إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم! ذراع، وٱرتفاع رُمّانتيه اللتين كان يمسكهما صلى الله عليه وسلم! بيديه الكريمتين إذا جلس شبرٌ وأصبعان، وفيه خمســة أعواد من جوانبه الثلاثة؛ وبقىَ علىٰ ذلك إلىٰ أيام معاوية فكتب إلىٰ مَرْوَانَ : عامِله علىٰ المدينة أن ٱرفَعْه عن الأرض فزاد من أسفله ست درجات ورفعه عليها فصار له تسعُ درجات بالمجلِس . قيل : وصار طوله أربعة أذرع وشبرا .

ولمــا حج المهدىّ بن المنصور العباسىّ سنة إحدىٰ وستين ومائة، أراد أن يعيده إلىٰ ما كان عليه فأشار عليه الإمام مالك بتركه خشــيةَ التهافُتِ فتركه؛ ويقال : إن المنبر الذى صنعه معاويةُ ورَفَع منبر النبىّ صلى الله عليه وسلم عليه، تهافت علىٰ طول الزمان، وجدّده بعض خلفاء بنى العباس وٱتخــذ من بقايا أعواد منبر النبىّ صلى الله عليه وسلم أمشاطا للتبرك، ثم ٱحترق هذا المنبر لما ٱحترق المسجد فى مستَهَلّ رمضان ســنة أربع وخمسين وستمائة أيام المستعصم بالله، وشُغل المستعصم عن عمارته بقتال

التتار، فعمل المُظَفَّرُ صاحب اليمن المِنْبَر، وبعث به إلى المدينة سنة ست وخمسين وستمائة، فنصب فى موضع مِنْبَر النبيّ صلى الله عليه وسلم! فبقى إلى سنة ست وستين وستمائة، فأرسل الملك الظاهر بيبرس صاحبُ مصر المنبرَ الموجود الآن فأُزِيل ذاك ووضع هذا وطوله أربعة أذرع، ومن رأسه إلى عتبته سبعةُ أذرع تزيد قليلا، ودرجاته سبع بالمقعد والأمر على ذلك إلى الآن .

الجملة الثانية

(فى نواحيها وأعمالها، وهى على ضربين)

الضرب الأوّل

(حِمَاهَا ومرافقُها)

وآعلم أن للمدينة الشريفة حِمًى، حماه النبيّ صلى الله عليه وسلم وحرّمه كما حرّم إبراهيم عليه السلام مكةَ . قال فى "الروض المعطار" : حِمَاها آثنا عشر ميلا ؛ وخارجَ بابها الشرقىّ البَقِيعُ المتقدّم ذكره، وهو مَدْفَن أكثر أمواتها، وهو بالباء الموحدة فى أوّله، ويسمى بَقِيعَ الغَرْقَدِ - بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح القاف ودال مهملة فى الآخر . قال "الأصمعى": سمى بذلك لأنه قُطِع مابه من شجر الغَرْقَدِ يوم مات عثمان رضى الله عنه . وبه قبر إبراهيم بن النبيّ صلى الله عليه وسلم! من مارية القِبْطية، وقَبْر الحسن بن علىّ بن أبى طالب؛ وإلى جانبه قبر العبّاس : عمّ رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ وقبر عثمان بن عَفَّان رضى الله عنه فى قبة دونهما، وقبر مالك بن أنس إمام المذهب المعروف؛ وحول المدينة حدائق النخل الأنيقةُ؛ وثمرها من أطيب الثمر وأحسنه، وغالب قوت أهلها منه .

الضرب الثـانى

(فى مخاليفها وقُراها ، والمشهور منها ثمـانية أماكِنَ)

الأوّل - (قُبَاءُ) - بضم القاف وفتح الباء الموحدة وألف فى الآخر - ويروى بالمدّ والقصر والمدّ أشهر . قال فى "الروض المعطار" : ومن العرب من يذكّره فيصرفه، ومنهم من يؤنثه فلا يصرفه . قال : وسميت قُبَـاءَ ببئر كانت بدار توبة بن الحسن ابن السائب بن أبى لبابة يقال لها قُبَاء، وهى قرية غربىّ المدينة على ميلَيْن منها، وبها مسجد التَّقْوىٰ الذى أخبر الله تعالىٰ عنه بقوله : ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾. وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم كان يأتى قُبَاء كل يوم سبت راكبا وماشيا، ومُصَلَّاه بها مشهور .

الثـانى - (خيبر) - بفتح الخاء المعجمة وسكون اليـاء المثناة تحت وفتح الباء الموحدة وراء مهملة فى الآخر - قال الزجاجىّ : سميت بخَيْبَر بن قانية وهو أوّل من نزلها، وهى بلدة بالقرب من المدينة الشريفة . قال ابن سعيد : طولها أربع وستون درجة وست وخمسون دقيقة ، وعرضها سـبع وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وهى بلدة عامرة آهلة ذاتُ نخيل وحدائقَ ومياهٍ تجرى . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة بنى عنزة من اليهود ، والخَيْبَرُ فى لغـة اليهود الحِصْن ، وهى فى جهة الشَّمال والشرق عن المدينة علىٰ نحو ست مراحل وقيل أربع مراحل . قال الإدريسىّ : وهى ذات نخيـل وزرع ، وكانت فى صـدر الإسلام دارا لبنى قُرَيْظَةَ والنَّضِـيرِ ، وبها كان السَّمَوْءَل بن عادِيَا الشاعر المشهور .

الثالث - (فَدَك) - بفتح الفاء والدال المهملة وكاف فى الآخر - قال الزجاجىّ : سميت بفَدَك بن حام ، وقيل : سميت بفَيْد بن حام ، وهو أوّل من نزلها . قال

فى "الروض المعطار" : وبينها وبين المدينة يومان، وحِصْنها يقال له الشمروخ على القرب من خيبر، وكان أهلها قد صالحوا النبىّ صلى الله عليه وسلم! على النصف من ثمارها فى سنة أربع من الهجرة، ولم يُوجِف عليها المسلمون بخيل ولا رِكاب فكانت له صلى الله عليه وسلم خالصةً؛ وكان معاوية بن أبى سفيان قد وهبها لمَرْوان بن الحكم، ثم آرتجعها منه لَموْجِدة وجدها عليه . فلما ولى عمرُ بن عبد العزيز الخلافة، ردّها إلى ما كانت عليه فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت تُغِلّ فى أيام إمرته عشرةَ آلاف دينار، يتجافى عنها .

الرابع ـ (الصَّفْراء) ـ مؤنث أصفر ـ وهو واد على ستّ مراحل من المدينة كثيرُ المزارع والمياه والحدائق . أخبرنى بعض أهل الحجاز أن به أربعة وعشرين نهرا على كل نهر قرية، وعيونُه تصب فضلها إلى يَنْبُعَ؛ وهو بيد بنى حَسن الشرفاء .

الخامس ـ (وَدَّانُ) ـ بفتح الواو وتشديد الدال المفتوحة وألف ثم نون ـ وهو واد به قرًى خراب لا تحصى كثرة .

السادس ـ (الفُرْعُ) ـ بضم الفاء وسكون الراء المهملة وبالعين المهملة ـ وهو واد فى جنوبىّ المدينة على أربعة أيام منها يشتمل على عدّة قُرًى آهلة، أخبرنى بعض أهل الحجاز أن به أربعة عشر نهرا على كل نهر قرية، وماؤها يصب فى رابغ حيث يُحْرِم حُجَّاج مصر، وعليها طريق المُشَاة من مكة إلى المدينة . قال فى "الروض المعطار" : ويقال إنها أوّل قرية مارَتْ إسماعيل عليه السلام التمر بمكة، وهى الآن بيد بنى حَرْب .

السابع ـ (الجارُ) ـ قال فى "اللباب" : بفتح الجيم وألف وراء مهملة ـ وهى فُرْضة المدينة الشريفة على ثلاث مراحل منها . قال آبن حوقل : وبينها وبين ساحل الجُحْفَةِ نحو ثلاث مراحل، منه عن أَيْلَةَ على نحو عشرين مرحلة .

الثامن — (وَادِى القُرىٰ) — بضم القاف وفتح الراء المهملة وألف فى الآخر جمع قرية . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة كثيرة النخيل والبساتين والعيون، وبها ناس من وَلَد جَعْفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهم الغالبون عليها، وتُعْرف بالوَادِيَيْنِ؛ والذى أخبرنى به بعض أهـل الحجاز أنه كان بهـا عيون كثيرة عليها عدّة قُرًى نخربت لاختلاف العرب ، وهى الآن خراب لا عامر بهـا ولو عمرت أغنت أهلَ الحجاز عن الميرة من غيرها .

قلت : وبالغ الإدريسىّ فى "نزهة المشتاق" فعدّ من مخاليفها تَيْماءَ ودُومَةَ الجندل، ومَدْيَنَ، والتحقيق خلاف ذلك .

فأمّا تَيْمـاء ـ بفتح التاء المثناة من فوق وسكون الياء المثناة من تحت وميم ثم ألف فى الآخر ـ فقد عدها فى "تقويم البُلْدان" : من بادية الشأم تقريبا . قال فى "العزيزى" : وهى حاضرة طيئ وبها الحصن المعروف بالأبلق المنسوبُ إلىٰ السَّمَوْءل بن عَادِيَا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى الآن أعمر من تَبُوكَ، وبها نخيل قائمة .

وأما دُومة الجندل فقال فى "تقويم البُلْدان" : هو موضع فاصل بين الشأم والعراق علىٰ سبع مراحل من دِمَشْقَ، وبينه وبين المدينة الشريفة ثلاث عشرة مرحلة .

وأما مَدْيَنُ فقد تقـدّم ذكرها فى الكلام علىٰ كُوَرِ مصر القديمة ، ووقع الكلام عليها هناك وإن كان الحق أنها من ساحل الحجاز .

الجمـــلة الثـالثة

(فى ذكر ملوك المدينة وأمرائها، وهم علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(مَنْ قبل الإسلام؛ وهم ثلاث طَبَقات)

الطبقـــــة الأولىٰ

(التَّبَابِعـــة)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ بنائها نقلا عن صاحب "الهَنَاء الدائم" : أن تُبَّعا الأوّل هو الذى بناها وأسكنها جماعةً من علماء أهل الكتاب، وكتب كتابا(١) وأودعه عندهم ليوصِّله مَنْ أدركه من أبنائهم إليه، وبقِيَ الكتاب عندهم يتوارثونه حتّٰى هاجر النبىّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ المدينة فتلقـاه من صار إليه الكتابُ منهم وأوصل الكتابَ إليه . وحينئذ فيكون أوّل من ملكها التبابعة .

الطبقة الثـانية

(العمالقة من ملوك الشام)

قال السهيلىّ : وأوّل من نزلها منهم يَثْرِب، بن عَبِيل، بن مهلائيل، بن عَوْص، آبن عِملاق، بن لاوَذ، بن إرَمَ، بن سام، بن نوح عليه السلام فسميت به . قال فى " الروض المعطار " : وكانت هذه الأمة من العماليق يقـال لهـا جاسِم، وكانوا قد آستولَوْا علىٰ مكة وسائر الحجاز، وكانت قاعدة ملكهم تَيْمَـاء، وكان آخِرُ ملوكهم الأرقَمَ بن أبى الأرقم .

---

(١) أى الىٰ النبى صلى الله عليه وسلم كما تقدّم قريبا .

الطبقة الثـالثة

(ملوكها من بنى إسرائيل ومَنْ ٱنضم إليهم من الأوْسِ والخَزْرَجِ)

قال فى "الروض المعطار": لمـا ظهر موسىٰ عليه السلام علىٰ فِرْعون، بعث بَعْثًا من بنى إسرائيل إلىٰ الحجاز وأمرهم أن لايستَبْقُوا منها(١) أحدا بلغ الحُلُم، فقتلوهم حتّىٰ ٱنتهَوْا إلىٰ ملكهم الأرقم بتَيْماءَ فقتلوه وأبقَوْا له ٱبنا(٢) صغيرا ليرىٰ موسىٰ عليـه السلام فيه رأيه . فلما رجعوا به إلىٰ الشأم وجدوا موسىٰ عليه السلام قد تُوُفِّى ، فقال لهم الناس : عصَيْتم وخالفتم أمر نبيكم، وحالُوا بينهم و بين الشام، فقال بعضهم لبعض : خَيْرٌ من بلدكم البلَدُ الذى خرجتم منه، فعادوا إلىٰ الحجاز فنزلوه، فكان ذلك أول سُكْنَىٰ اليهود الحجاز ، فنزل جمهورهم بمكان يقـال له يَثْرِبُ بمجتمع السيول وٱتخذوا الآطام والمنازل، ونزل معهم جماعةٌ من أحياء العرب من بَلِىّ وجُهَيْنة .

وكانت يثرب أمَّ قرىٰ المدينة وهى ما بين طرف قُبَاءَ إلىٰ الجُرْف؛ ثم لمـا كان من سـيل العَرِم باليمن ما كان ، تفرّق أهل مأرِبَ ، فأتىٰ الأوسُ والخزرجُ يثرب لليهود فحـاربوهم ، وكان آخر الأمر أن عقدوا بينهم و بينهم جِوَارا وٱشـتركوا وتحالفوا ، فلم يزالوا علىٰ ذلك زمانا طويلا، فصارت للأوس والخزرج ثروةٌ ومال وعز جانبهم فخافهم اليهود، فقطعوا الحِلف، وخافهم الأوس والخزرج فبعثوا إلىٰ مَنْ لهم بالشام فأعانوهم حتّىٰ أذلوا اليهودَ وغلبوهم عليهـا، وبقيت بأيديهم حتّىٰ جاء الإسلام وهاجر النبىّ صلّى الله عليه وسلم إليها وهم رؤساؤها وحُكّامها .

---

(١) أى من العماليق والأوضح منهم .

(٢) فى المعجم "ٱبنا شابا جميلا" وهو الأنسب .

الضرب الثانى

(من فى زمن الإسلام، وهم أربع طبقات)

الطبقة الأولىٰ

(من كان بها فى صدر الإسلام)

كان بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ أن توفّى فى سنة إحدىٰ عشرة من الهجرة. ثم أبو بكر الصدّيق رضى الله عنه إلىٰ أن توفّى سنة آثنتى عشرة من الهجرة. ثم عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلىٰ أن قتل فى سنة ثلاث وعشرين. ثم عثمان بن عَفَّانَ رضى الله عنه إلىٰ أن قتل فى سنة خمس وثلاثين . ثم علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه إلىٰ أن قتل سنة أربعين . ثم الحسن بن علىّ بن أبى طالب إلىٰ أن سلَّم الأمر لمعاوية سنة إحدىٰ وأربعين من الهجرة النبوية .

الطبقة الثانية

(عُمَّال الخلفاء من بنى أُمَيَّةَ)

ولّى عليها معاوية سنة آثنتين وأربعين من الهجرة (مروانَ بن الحكم) . ثم عزله سنة تسع وأربعين وولّى مكانه (سعيدَ بن العاص) . ثم عزله سنة أربع وخمسين ورَدَّ إليها (مروان بن الحكم). ثم عزله سنة تسع وخمسين وولّى مكانه (الوليدَ بن عُتْبَةَ آبن أبى سفيان) .

ثم عزله يزيد بن معاوية عن المدينة والحجاز وولّى مكانه (عمرَو بن سعيد الأشدق) ثم عزله سنة إحدىٰ وستين وأعاد (الوليدَ بن عتبة) .

ثم آستعمل آبن الزبير عند غَلَبته على المدينة أخاه (مُصْعَبًا) سنة خمس وستين؛ ثم نقله إلى البصرة وولّى مكانه (جابرَ بن الأسود) بن عوف الزهرى؛ ثم ولّى مكانه (طلحةَ بن عبد الله) بن عوف .

ثم غَلَب عبـد الملك بنُ مروان على الخلافة فبعث على المدينة (طارقَ بن عَمْرو) فغلب عليها طلحةَ بن عبد الله وآنتزعها منه . ثم آنفرد عبد الملك بالخلافة وولّى على المدينة والحجاز واليَمَن واليمامة (الحَجَّاجَ بن يوسف) وعزل طارقا عن المدينة وجعله من جُنْده . ثم ولّى عليها سنة سبع وسبعين (أَبَانَ بن عثمانَ) . ثم عزله فى سنة آثنتين وثمانين وولّى مكانه (هشامَ بن إسماعيل المخزومىّ) .

ثم كانت خلافة الوليد بن عبد الملك فعزل هشام بن إسماعيل وولّى مكانه (عثمان آبن حَيَّانَ) .

ثم تولّى عليها (أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حَزْم) أيام سليمان بن عبد الملك .

ثم آستعمل عليها عمرُ بن عبد العزيز فى خلافته (عبدَ العزيز بنَ أرطاة) . ثم عزله يزيدُ بن عبـد الملك سـنة ثلاث ومائة وولّى مكانه (عبدَ الرحمن بنَ الضحّاك) وأضاف إليه مكة؛ ثم عزله لثلاث سنين من ولايته وولّى مكانه على مكة والمدينة (عبدَ الواحد النَّضْرىّ) .

ثم عزله هشامُ بن عبد الملك وولّى عليها وعلى مكة (إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومىّ) . ثم عزله هشام سنة أربعَ عشرةَ ومائة وولّى مكانه بالمدينة خاصةً (خالدَ آبن عبد الملك بن الحرث بن الحكم) . ثم عزله سنة ثمـان عشرة ومائة وولّى مكانه (محمد بن هشام بن إسماعيل) .

ثم ولّى الوليدُ بن يزيدَ فى خلافتـه خالَه (يوسفَ بن محمد بن يوسف الثقفىّ) على المدينة وسائر الحجاز فى سنة أربع وعشرين ومائة . ثم عزله يزيدُ فى خلافته فى سنة

ست وعشرين ومائة وولّى مكانه (عبـد العزيز بن عمرو بن عثمان). ثم ولّى مروانُ(١) على المدينة وسائر الحجاز. ثم عزله فى سنة سبع وعشرين ومائة وولّى مكانه (عبدَ العزيز آبن عمر بن عبد العزيز). ثم عزله فى سـنة تسع وعشرين ومائة وولّى مكانه على المدينة وسائر الحجاز (عبدَ الواحد).

الطبقة الثـالثة

(عُمَّالها فى زمن خلفاء بنى العبّاس)

لمـا وَلِىَ السفّاح الخلافةَ ولّى على المدينة والحجاز واليمن واليمَـامة عمَّه (داودَ). ثم توفِّى داود سنة ثلاث وثلاثين ومائة فولّى مكانَه فى جميع ذلك (زيادَ بن عبد الله آبن عبد المَدَان الحارثىّ). ثم ولّى سنة ثلاث وأربعين ومائة على المدينة (محمدَ بنَ خالد آبن عبد الله القَسْرِىّ). ثم آتهمه فى أمر فعزله وولّى مكانه (رِيَاح بن عثمان المرّىّ) فقتله أصحاب محمد المهدىّ، فولى مكانه (عبيدَ الله بن الربيع الحارثىّ).

ثم عزله المنصور سنة ست وأربعين ومائة وولّى مكانه على المدينة (جعفرَ بن سليمان). ثم عزله فى سنة خمسين ومائة وولّى مكانه (الحسنَ بن زيد بن الحسن). ثم عزله المنصور فى سنة خمس وخمسين ومائة وولّى مكانه عمَّه (عبدالصمد بن علىّ).

ثم عزله المهدى فى خلافته سنة تسع وخمسين ومائة وولّى مكانه (محمدَ بن عبدالله الكثيرىّ). ثم عزله وولّى مكانه (عبد الله بن محمد(٢) بن عبد الرحمن بن صفوان). ثم عزله وولّى مكانه (زفر بن عاصم). ثم تولّى على المدينة والحجـاز (جعفرُ آبن سليمان). ثم كان بها (محمد بن عيسى) بعد مدّة،

(١) لم يذكر من ولاه ولعل الصواب ثم ولاه مروان [أى أقره] على المدينة الخ وآنظر الكلام على مكة فيما سبق. (٢) فى الكامل "محمد بن عبيد الله الخ".

وعزله المتوكل وولّى مكانه (المستنصر بن المتوكل) . وتوالى عليها عُمّال بنى العباس إلىٰ عشر الستين والمـائة .

الطبقة الرابعــة

(أُمراء الأشراف من بنى حُسَين الذين منهم الأمراء المستقرّون فى إمارتها إلىٰ الآن)

كانت الرياسة بالمدينة آخرا لبنى الحسن بن علىّ .

وكان منهم أبو جعفر عبد الله، بن الحسين الأصغر، بن علىّ زين العابدين، آبن الحسين السِّبْط ، بن علىّ، بن أبى طالب رضى الله عنه .

وكان من جملة ولده جعفرٌ حجة الله ، ومن ولده الحسن، ومن ولد الحسن يحيىٰ الفقيــه النَّسَّابة، كانت له وَجَاهة عظيمة وفخر ظاهر ، وتوفى سنة ست وسـبعين ومائتين؛ ومن ولده أبو القاسم طاهر بن يحيىٰ، ساد أهلَ عصره وبنىٰ دارا بالعقيق ونزلها، وتوفِّى سنة ثلاث عشرة وثلثمائة .

وكان من ولده الحسن بن طاهر رحل إلىٰ الأخشيد بمصر، وهو يومئذ مَلِكُها، فأقام عنده وأقطعه الأخشيد ما يُغِلُّ فى كل سنة مائة ألف دينار وآستقرّ بمصر؛ وكان له من الولد طاهر بن الحسن، وتوفى سنة تسع وعشرين وثلثمائة، وخلف آبنه محمدا الملقب بمسلم، وكان صديقا لكافور الأخشيدى صاحب مصر، ولم يكن فى زمنه بمصر أوجهُ منه . ولما آختل أمر الأخشيدية دعا مسلم هذا للمعز صاحب إفريقية يومئذ . ولمـا قدم المعز إلىٰ الديار المصرية بعد فتح جوهر القائد لهـا ، تلقاه مسـلم بالجمال بأطراف بَرْقَةَ من جهة الديار المصرية، فأكرمه وأركبه معدلا له وآختص به؛ ثم توفى سنة ست وستين وثلثمائة فصلى عليه المعز، وكانت له جنازة عظيمة .

وكان من ولد مسلم هـذا طاهر أبو الحسين فلحق طاهرٌ بالمدينة الشريفة فقدّمه بنو الحسين على أنفسهم وآستقلّ بإمارتها سنين، وكان يلقب بالمَلِيح ، وتوفى سنة إحدى وثمانين وثلثمائة ؛ وولى بعده آبنه (الحسين بن طاهر) وكنيته أبو محمد . قال العُتْبيّ : وكان موجودا فى سنة سبع وتسعين وثلثمائة وغلبه على إمارتها بنوعم أبيه أبى أحمد القاسم بن عبيدالله بن طاهر بن يحيى بن الحسن بن جعفر حجة الله وآستقلوا بها .

وكان لأبى أحمد القاسم من الولد داودُ ويكنى أبا هاشم . وقال العتبى : الذى وَلِى بعد طاهر بن مسلم صهرُه وآبن عمه داود بن القاسم بن عبيد الله بن طاهر، وكناه أبا علىّ .

وقال آبن سعيد : ملك أبو الفتوح الحسنُ بن جعفر من بنى سليمان إمرة مكة والمدينة سنة تسعين وثلثمائة بأمر الحاكم العبيدى وأزال إمرة بنى الحسين منها ، وحاول الحاكمُ نقل الجسد الشريف النبوىّ إلى مصر ليلا فهاجت بهم ريحٌ عظيمة أظلم منها الجوّ، وكادت تقتلع المبانىَ من أصلها ، فردّهم أبو الفتوح عن ذلك وعاد إلى مكة ورجع أمراء المدينة إليها .

وكان لداود بن القاسم من الولد مُهَنًّا وهانئ والحسن . قال العتبىّ : ولى هانئ ومهنا وكان الحسن زاهدا .

وذكر الشريف الحرّانىّ النسابة هنا أميرا آخر منهم وهو أبو عمارة مدّةَ كان بالمدينة سنة ثمان وأربعمائة . قال : وخلَّف الحسن بن داود آبنه هاشما وولى المدينة سنة ثمان وعشرين وأربعمائة من قِبَل المستنصر .

قال : وخلف مهنا بن داود عبيد الله والحسين وعمارة فولى بعده آبنه عبيد الله وكان بالمدينة سنة ثمان وأربعمائة وقتله موالى الهاشميين بالبصرة، ثم ولى الحسين وبعده آبنه مهنا بن الحسين .

قال الشريف الحرّانى : وكان لمهنا بن الحسين من الولد الحسين وعبد الله وقاسم فولى الحسين المدينة وقتل عبد الله فى وقعة نخلة . وذكر صاحب حماة من أمرائها منصور بن عمارة الحسينى وأنه مات فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة وقام ولده مقامه ولم يسمه ؛ ثم قال وهم من ولد مهنا . [وذكر منهم أيضا القاسم بن مهنا[1]] حضر مع صلاح الدين بن أيوب فتح أَنْطَاكِيَةَ سنة أربع وثمانين وخمسمائة .

وذكر آبن سعيد عن بعض مؤرّخى الحجاز أنه عدّ من جملة ملوكها قاسم بن مهنا وأنه ولاه المستضىء فأقام خمسا وعشرين سنة ومات سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة وولى آبنه سالم بن قاسم .

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" : وكان[2] مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى فتوحاته يتبرك به ويتيمن بصحبته ويرجع إلى قوله . وبقى[3] إلى أن حضر إلى مصر للشكوى من قتادة فمات فى الطريق قبل وصوله إلى المدينة . وولى بعده آبنه شيحة وقتل سنة سبع وأربعين وستمائة ، وولى آبنه عيسى مكانه . ثم قبض عليه أخوه جَمَّاز سنة تسع وأربعين وستمائة وملك مكانه ، وهو الذى ذكر المقر الشهابى بن فضل الله فى "التعريف" : أن الإمرة فى بيته إلى زمانه . قال آبن سعيد : وفى سنة إحدى وخمسين وستمائة ، كان بالمدينة أبو الحسين بن شيحة بن سالم . وقال : غيره كان بالمدينة سنة ثلاث وخمسين وستمائة .

وولى أخوه جَمَّاز فطال عمره وعمى ومات سنة أربع أوخمس بعد السبعمائة .

وولى بعده آبنه منصور بن جَمَّاز ، ثم وفد أخوه مقبل بن جماز على الظاهر بيبرس بمصر ، فأشرك بينهما فى الإمرة والإقطاع ، ثم غاب منصور عن المدينة وآستخلف آبنه

(١) أى المكنى بأبى فليتة ، والزيادة عن آبن خلدون ليستقيم الكلام . (٢) أى قاسم المكنى أبا فايتة .
(٣) أى سالم بن قاسم .

كبيشة فهجم عليه مقبل وملكها من يده ولحق كُبَيْشَةُ بأحياء العرب فآستجاشهم وهجم المدينة علىٰ عمه مقبل فقتله سنة تسع وسبعمائة، ورجع منصور إلىٰ إمارته، وبقى ماجدُ آبن مقبل يستجيشُ العرب علىٰ عمه منصور بالمدينة ويخالفه إلىٰ المدينة كلما خرج منها، ثم زحف ماجدٌ سنة سبع عشرة وسبعمائة، وملكها من يد عمه منصور، فآستصرخ منصور بالملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر، فأنجده بالعساكر وحاصروا ماجدا بالمدينة ففرّ عنها وملكها منصور، ثم سخط عليه السلطان الملك الناصر فعزله، وولّى أخاه ودِىَّ بن جَمَّاز أياما، ثم أعاد منصورا إلىٰ ولايته، ثم هلك منصور سنة خمس وعشرين وسبعمائة، فولّى آبنه كبيشة مكانه فقتله عسكر آبن عمه وَدِىّ وعاد ودىّ إلىٰ الإمرة، ثم توفى ودىّ، فولّى طُفَيل بن منصور بن جماز وآنفرد بإمرتها، وهو الذى ذكر المقر الشهابىّ فى "التعريف" : أنه كان أميرها فى زمانه، وبقى إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة فوقع النهب فى الركب، فقبض عليه الأمير طاز أمير الركب، وولّى مكانه سيفا من عقب جَمَّاز، ثم وَلِىَ بعده فضل من عقب جماز أيضا، ثم ولى بعد فضل مانع من عقب جماز، ثم ولى جماز بن منصور، ثم قتل بيد الفداوية أيام الملك الناصر حسن بن الناصر محمد بن قلاوون، وآتفق أمراء الركب علىٰ تولية آبنه هِبة إلىٰ حين يرد عليهم من السلطان مايعتمدونه، ثم ورد أمر السلطان بتولية هِبَةَ من عقب ودىّ فعزل ودِى (١) وولى مكانه، ثم ولى بعده عطية بن منصور بن جماز، فأقام سنين، ثم عزل وولى هبة بن جماز، ثم عزل وأعيد عطية، ثم توفى عطية وهبة وولى جماز بن هبة بن جماز، ثم عزل وولى نُعَيْر بن منصور بن جماز، ثم قتل، فوثب جماز بن هبة علىٰ إمارة المدينة وآستولىٰ عليها، فعزله السلطان، وولّى ثابت بن نُعَير، وهو بها إلىٰ الآن فى سنة تسع وتسعين وسبعمائة . وهو ثابت،

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

ٱبن جماز، بن هبة، بن جماز، بن منصور، بن جماز، بن شيحة، بن سالم، بن قاسم، ٱبن جمـاز، بن قاسم، بن مهنا، بن الحسين، بن مهنا، بن داود، بن القاسم، ٱبن عبيد الله، بن طاهر، بن يحيىٰ، بن الحسن، بن جعفر حجة الله، بن عبد الله، ٱبن الحسين الأصغر، بن علىّ زين العابدين، بن الحسين السِّبْط، بن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وإمرتها الآن متداولة بين بنى عطيــة وبين بنى جَمّـاز، وهم جميعا علىٰ مذهب الإمامية الرافضة يقولون بإمامة الآثنى عشر إماما وغير ذلك من معتقدات الإمامية، وأمراء مكة الزيدية أخف فى هذا الباب شأنا منهم .

الجمـــلة الثـالثة

(فى ترتيب المـــدينة النبوية)

أما معاملاتها فعلىٰ ماتقدّم فى الديار المصرية من المعاملة بالدنانير والدراهم، والأمر فى الفلوس علىٰ ماتقدّم فى مكة؛ ويعتبر وزنها فى المبيعات بالمَنّ وهومائتان وستون درهما علىٰ ماتقدّم فى مكة؛ ويعتبر كيلها بالمدّ، وقياس قماشها بالذراع الشامىّ؛ وأسعارها نحوأسعار مكة، بل ربما كانت مكة أرخىٰ سعرا منها لقربها من ساحل البحر بجُدَّة .

وأما إمارتها فإمارة أعرابية كما فى مكة من غير فرق .

وأما وفود الحجيج عليها، فقد جرت العادة أن كل من قصد السبق فى العَوْد إلىٰ الديار المصرية من الجند وغيرهم يزور النبىّ صلى الله عليه وسلم ! عند ذَهاب الركب إلىٰ مكة ثم يعود بعد الحج إلىٰ مصر من غير تعريج علىٰ المدينة ، وباقى الحجيج وأميرُ الركب لايأتونها للزيارة إلا بعد ٱنقضاء الحج .

وٱعلم أن كسوة الحُجْرة الشريفة ليست مما يجدّد فى كل سنة كمافى كسوة الكعبة، بل كلَّما بَلِيتْ كسوة جدّدت أخرىٰ،ويقع ذلك فى كل نحو سبع سنين أوماقاربها، وذلك أنها مَصُونة عن الشمس، بخلاف كسوة الكعبة فإنها بارزة للشمس فيسرع بَلَاؤها .

وقد حكىٰ ٱبن النجار فى "تاريخ المدينة" أن أوّل من كسا الحُجْرة الشريفة الثيابَ الحسينُ بنُ أبىالهيجاء صهر الصالح طلائع بنرزيك وزير العاضد، والعاضدُ آخر الخلفاء الفاطميين، عمل لها ستارة من الدبيقىّ الأبيض عليها الطرز والجامات المرقومة بالإبريسم الأصفر والأحمر، مكتوب عليها سورة يٓس بأسرها، والخليفة العباسىّ يومئذ المستضىء بأمر الله .

ولما جهزها إلىٰ المدينة، ٱمتنع قاسم بن مهنا أمير المدينة يومئذ من تعليقها حتّى يأذن فيه المستضىءُ فنفَّذ الحسينُ بنُ أبى الهيجاء قاصدا إلىٰ بغداد فى ٱستئذانه فى ذلك فأذن فيه،فعلقت الستارة علىٰ الحُجْرة الشريفة نحو سنتين.ثم بعث المستضىء ستارةً من الإبريسَم البَنَفْسَجىّ عليها الطرز والجامات البيضُ المرقومة ، وعلىٰ دَوْر جاماتها مرقومٌ "أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ" وعلىٰ طرازها ٱسم الإمام المستضىء بالله ، فقلعت الأولىٰ ونفذت إلىٰ مشهد أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه بالكُوفة، وعلقت ستارة المستضىء مكانَهَا . ثم عَمِل الناصرُ لدين الله فى خلافته ستارةً أخرىٰ من الإبريسم الأسود فعُلِّقت فوق تلك.ثم عملت أمّ الخليفة الناصر بعد حجها ستارةً علىٰ شكل ستارةِ ٱبنها المتقدّمة الذكر فعلقت فوق الستارتين السابق ذكرهما .

قال ٱبن النجار : ولم يزل الخلفاء فى كل سنة يُرْسِلون ثوبا من الحرير الأسود عليه عَلَم ذهب يكسىٰ به المِنْبر . قال : ولما كثرت الكسوة عندهم أخذوها فجعلوها ستورا

علىٰ أبواب الحَرَم ، ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ حين آنقراض الخلافة من بغداد، فتولى ملوكُ الديار المصرية ذلك كما تولَّوْا كسوةَ الكعبة علىٰ ما تقدّم ذكره .

قلت : والســتارة الآن من حرير أسود عليها طرز مرقوم بحرير أبيض، وآخِرُ مَنْ عملها فى العشر الأوّل من الثمانمائة السلطانُ الملك الظاهر برقوق .

وقد ذكر آبن النجار فى "تاريخ المدينة" أيضا أن الناصر لدين الله العباسىّ كان يُرْسِل فى كل سنة أربعة آلاف دينار للصدقة وألفا وخمسمائة ذراع قطن لتكفين من يموت من الفقراء، خارجا عما يجهزه للعمارة، وما يُعِدّه من القناديل والشيرج والشَّمَع والندّ والغالية المركَّبة والعود : لأجل تبخير المسجد .

وذكر عن يوسف بن مسلم أن زيت قناديل مسجد النبىّ صلى الله عليه وسلم ! كان يُحمل من الشام حتّٰى آنقطع فى ولاية جعفر بن ســليمان الأخيرة علىٰ المدينة فجعله علىٰ سوق المدينة . ثم لمــا ولى داود بن عيسىٰ فى سنة ثمــان وسبعين ومائة، أخرجه من بيت المــال، ثم ذكر أنه كان فى زمانه فى خلافة الناصر لدين الله يصــل الزيت مــن مصر من أوقافٍ بها سبعة وعشرين قنطارا ، كل قنطار مائة وثلاثون رِطْلا بالمصرىّ ، ومائة وستون شمعة ما بين كبيرة وصغيرة ، وعُلْبَةٌ فيها مائة مثقال ندّ .

الباب الرابع

من المقالة الثانية

(فى الممالك والبُلْدان المحيطة بمملكة الديار المصرية؛ وفيه أربعة فصول)

الفصل الأوّل

(فى الممالك والبُلْدان الشرقية عنها ، وما ينخرط فى سلكها من شمال أو جنوب ؛ وفيه أربعة مقاصد)

المقصد الأوّل

(فى الممالك الصائرة إلىٰ بيت جنكزخان ؛ وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى التعريف باسم جنكزخان ومصير الملك إليه ،وما كان له من الأولاد ، وتقسيمه الملك فيهم)

أما آسمه فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : عن الشيخ شمس الدين الأصفهانىّ أن آسمه فى الأصل تمرجين ، وأنه لما عظم شأنه سمى جنكزخان . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن بعضهم : أن الصواب فى النطق به جنكصخان بالصاد بدل الزاى .

وأما نسبه فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أيضا أنه جنكزخان ، بن بيسوكى ، بن بهادر ، بن تومان ، بن برتيل خان ، بن تومنيه ، بن بادسنقر ، بن تيدوانديوم ، بن بغا ، آبن بودنجه ، بن ألانقوا ، وألانقوا هذه آمرأة من قبيلة من التتر تسمّى قبات من أعظم قبائلهم شهرة ، كانت متزوجة بزوج أولدها ولدين آسم أحدهما بكتوت ، والآخر

بلكتوت ؛ ومن عقبهما الطائفة المعروفة فى قبائل التتر بالدلوكة إلىٰ الآن ؛ ثم مات زوج ألانقوا أبو هـذين الآثنين وبقيت ألانقوا أيّمًا فحملت فأُنْكِر عليها الحمل ، وحُمِلَتْ إلىٰ ولىّ أمرهم حينئذ فسألها ممن حملت؟ فقالت : إنى كنت جالسة وفرجى مكشوف ، فنزل نور ودخل فى فرجى ثلاث مرات فحملت منه هـذا الحمل ، وأنا حامل بثلاثة ذكور ، كل مرة من دخول ذلك النور بذَكَر ، فأمْهِلونى حتّى أضع . فإن وضعت ثلاثة ذكور فآعلموا صـدقى ، وإلا فدونكم وما تَرَوْنَ ؛ فأمْهَلُوها حتّى ولدت فأتت بثلاثة ذكور ، فسَمَّتْ أحدَهم يوقنقوتاغى (١) ، والثـانى بوسنساغى ، والثالث بودنجر ، وهو جدّ جنكزخان . وأولاد هذه الثلاثة يعرفون بين التتر بالنورانيين نسبة إلىٰ النور الذى زعمت أنه دخل فرجها فحملت منه . قال فى "مسالك الأبصار" : "وهذه أكذوبة قبيحة ، وأحدوثة غير صحيحة ؛ وإن صحت عن المرأة فلعلها كانت قدسمعت بقصة مريم البتول عليها السلام ، فآحتالت لسلامة نفسها بالتشبه بشأنها" .

وأما مصير الملك إليه فقد آختلف فيه علىٰ مذهبين .

أحدهما ــ ماحكاه فى "مسالك الأبصار" عن الصاحب علاء الدين بن عطاء ملك الجوينى : أنه كان يملك الترك ملِك من عظماء الملوك يدعىٰ أزبك خان ، فتردّد إليـه جنكزخان فى حال صغره وخَدَمَه ، فتوسم فيه النجابة فقرّبه وأدناه وزاده فى الآرتقاء علىٰ أقاربه ، فحسدوه فوشَوْا به إلىٰ الملك حتّى غيروه عليـه فأضمر له المكايد ؛ وكان بالقرب من أزبك خان ملكهم صغيران يخدُمانه فآطلعا علىٰ ما أضمره الملك لجنكزخان وعَرَّفاه ما أضمره الملك له وحَذَّراه ؛ وكان جنكزخان قد لَفَّ لفيفا عظيما فجمع لفيفه من قبائل التتر وقصد ذلك الملك فى جيوشه ، وكان من أعظم القبائل المجيبة لدعوته قبيلتان : إحداهما تدعىٰ إديرات والأخرىٰ فيقورات مع قبيلته قبات المقدّم ذكرها ،

(١) وجد فى العبر (ج ٥ ص ٥٢٥) فرق فى الأسماء ولم نعلم الصواب لعجمتها فليتنبه .

فجرّد العساكر لأزبكخان وجرت الحرب بينهما فقتل أزبكخان وملك جنكزخان وقرب كلًّا من الصغيرين وجعل كلًّا منهما ترخانا، وكتب لهما بفراغهما من جميع المُؤَن والكُلَف إلىٰ سبعة أبطن من أولادهما .

والثانى – ماحكاه السلطان عماد الدين صاحب حماة فى "تاريخه" : عن محمد بن أحمد بن علىٰ المنشئ : كاتب إنشاء السلطان جلال الدين محمد بن خوارزم شاه : أن مملكة الصِّينِ كانت منقسمةً من قديم الزمان إلىٰ ستة أجزاء كل جزء منها مسيرةُ شهر، يتولّىٰ أمر كل جزء منها خان نيابةً عن خانهم الأعظم بطمغاج (١) قاعدة الصين . إلىٰ أن كان خانُهم الأكبرُ فى زمان السلطان خوارزم شاه يسمّى الطرخان، وكان من جملة الخانات الستة الذين ينوبون عنه شخصٌ يسمّى دوشى خان ، وكان متزوّجا بعمة جنكزخان فمات دوشى خان زوج عمة جنكزخان ، فحضر جنكزخان إلىٰ عمته معزِّياً ، وكان يجاور دوشى خان خانٌ من الخانات الستة يسمّى أحدهما كشلوخان والآخر قلان ؛ فأرسلت زوجة دوشى خان إليهما بنعى زوجها إليهما وتلاطفانهما فى آستقرار جنكزخان آبن أخيها مكانه فى الخانية علىٰ أن يكونا معاضدين له ، فأجاباها إلىٰ ذلك . فآستقر جنكزخان فى الخانية مكان دوشى خان زوج عمته ، فبلغ ذلك الخانَ الأعظم الطرخان فأنكر ذلك علىٰ كشلوخان وقلان المذكورين ، فاتصل ذلك بهما فآجتمعا هما وجنكزخان وخلعوا طاعة الطرخان ، ثم مات أحد الخانين وخلف آبنا آسمه كشلوخان فغلب جنكزخان علىٰ ملكه ، ثم مات الخان الآخر وآستقل جنكزخان بالملك ، ثم غلب علىٰ خوارزم شاه ، ثم علىٰ آبنه جلال الدين وآستقل بما وراء النهر .

(١) فى تاريخ أبى الفدا "بطوغاغ وهى واسطة الصين" .

وأما أولاد جنكزخان فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : عن الصاحب علاء الدين الجُوَيْنى المقدّم ذكره أنه كان له عدّة أولاد ذكور وإناث من الخواتين والسرارى، وكان أعظم نسائه أو بولى، من تيكى، ومن رسم المغل تعظيم الولد بنسب والدته، وكان له من هذه أربعة أولاد معدّين للأولاد(١) الخطيرة، هم لتخت ملكه بمنزلة أربع قوائم؛ وهم توشى وجفطاى، وهو أصغرهم، وأوكداى، وأوتكين نويان، وأنه جعل موضعه نقطةَ دائرة ملكه وبنيه حوله كمحيط الدائرة، فجعل ٱبنه أوكداى ولىّ عهده ورَتَّبَهُ لما يتعلق بالعقل والرأى والتدبير والولاية والعزل وٱختيار الرجال والأعمال وعرض الجيوش وتجهيزها، وكان موضعه فى حياة أبيه حدود ايمك وقراباق . فلما جلس بعد أبيه علىٰ تخت الملك، ٱنتقل إلىٰ الموضع الأصلى بين الخطا وبلاد الايغور، وأعطىٰ ذلك الموضع لولده كيوك . وجعل لٱبنه أوتكين حدود بلاد الخطا؛ وعين لٱبنه الكبير توشى حدود قيالق (؟) إلىٰ أقصىٰ سفسفين (؟) وبلغار، ورتبه علىٰ الصيد والقنص؛ وجعل لٱبنه جفطاى حدود بلاد الأيغور إلىٰ سَمَرْقَنْد وبُخَارَا، ورتبه لتنفيذ النائبات والأمور والمقابلات وما أشبه ذلك . قال ٱبن عطاء ملك : وكانت أولاده وأحفاده تزيد علىٰ عشرة آلاف .

وذُكِر عن الشيخ شمس الدين الأصفهانى أن جنكزخان أولد أربعة أولاد، وهم جوجى : وهو أكبرهم، وكداى، وطولى، وأوكداى، فقتل جوجى فى حياة أبيه وخلف أولادا . قال ٱبن الحكيم الطيارى : وهم باتو ويقال : باطو، وأورده، وبركه، وتولى، وجمتى . قال الشيخ شمس الدين المذكور : والمشهور باتو وبركه، وأوصىٰ بأن يكون تختُه لولده الصغير أوكداى وأن تكون مملكة ما وراء النهر وما معه لولده الآخر كداى ؛ وجعل لٱبنه جوجى دشت القبجاق وما معه وأضاف إليه إيران وتبريز وهَمَذان

(١) لعله معدّون للأحوال .

ومراغة، ولم يحصل لطولى شيء . فلما مات جنكزخان آستقل أوكداى بتخت أبيه، وآستقل جوجى بدشت القبجاق وما معه ، وآستقل باتو بن جوجى فيما جعله جدّه جنكزخان لأبيه جوجى من إيران وتبريز وما مع ذلك ، ولم يتمكن كداى من مملكة ماوراء النهر، ثم مات أوكداى مالك التخت وملك بعده ولده كيوك، وكان جبارا قوىّ النفس فحكم علىٰ بنى أبيه فقهرهم وآنتزع ما بيد باتو بن جوجى من إيران وسائر مامعها، وأقام بها أميرا آسمه الجكراى . ثم جرىٰ بينهم آختلاف كان آخر الأمر فيه أن أُمْسك الجكراى وقتل وحمل إلىٰ باتو بن جوجى وطبخه وأكله، فبلغ ذلك كيوك صاحب التخت فشق عليه وجمع ستمائة ألف فارس، وجمع باتو للقائه وسار كل منهما لمحاربة الآخر حتّى كان بينهما عشرة أيام مات كيوك فكتب خواتينه إلىٰ باتو يعلمونه بموته ويسألونه فى أن يكون عوضه علىٰ تخت جنكزخان، فلم يرض ذلك وميز له منكوتان بن تولى بن جوجى بن جنكزخان، وجهز معه إخوته قبلاى خان وهولاكو : ولدا تولى، ووجّه معهم باتو أخاه بركة بن جوجى فى مائة ألف فارس للجلسة علىٰ التخت ثم يعود ، فتوجه بركة بمنكوتان فأجلسه علىٰ التخت ، ثم عاد فمرّ فى طريقه ببخارا ، فآجتمع فيها بالشيخ شمس الدين الباخرزىّ من أصحاب شيخ الطريقة نجم الدين كيزى وحادثه فحسُن موقع كلامه منه فأسلم علىٰ يده ، وهو أوّل من أسلم من بيت جنكزخان؛ وأشار الباخرزى علىٰ بركة بموالاة المستعصم خليفة بنى العباس ببغداد يومئذ، فكاتبه وهاداه وتردّدت الرسل والمكاتبات بينهما. ثم إن منكوتان بعد آستقلاله بتخت جدّه جنكزخان ملّك أولاد جغطاى مملكة ماوراء النهر تنفيذا لما كان جنكزخان أوصىٰ به لأبيهم جغطاى كما تقدّم ومات دونه، وعلت كلمة منكوتان صاحب التخت ووصلت إليه كتب أهل قَزْوين و بلاد الجبال يشكون من سوء مجاورة الملاحدة : وهم الإسماعيلية فجهز إليهم منكوتان أخاه مكوقان(١) لقتال

(١) لعله هولاكو كما يؤخذ من بقية الكلام .

الملاحدة وأخذ قلاعهم ، وأن يضم إلىٰ ذلك بلاد الخليفة المستعصم فبلغ ذلك بركة ٱبن جوجى فشق عليــه لصداقته مع الخليفة ، وكلم أخاه باتو فى ذلك فكتب باتو إلىٰ هُولاكُو يمنعــه من التعرّض لممـالك الخليفة ، فوافاه الكتاب قبــل أن يعبُر نهر جيحون ، فأقام هناك سنتين حتّى مات باتو وتسلطن أخوه بركة بعده فكتب هولاكو إلىٰ أخيــه منكوتان يستأذنه فى إنفاذ ما كان عزم عليــه من أخذ ممـالك الخليفة وحَسَّنَ له ذلك فلم يأذن له فيه فأصرّ هولاكو علىٰ عزمه فأوقع بالمَلَاحدة وقتل جماعة ٱتهمهم بممالأة بركة ، وٱشتدّ فى البلاد وقصــد دشت القبجاق بلاد بركة فدهمه بركة بعساكره فكانت الدائرة علىٰ هولاكو فكر راجعا ودخل بلاد الخليفــة وقبض عليــه وقتله وملك بلاده . وكان أمر الله قدرا مقدورا !

الجمــــلة الثانية

(فى عقيدة جنكزخان وأتباعه فى الديانة إلىٰ أن أسلم مَن أسلم منهم وما جرت عليه عادتهم فى الآداب وحالهم فى طاعة ملوكهم)

أما عقيدتهم فقد قال الصاحب علاء الدين بن عطاء ملك الجُوَيْنى : إن الظاهر من عموم مذاهبهــم الإدانة بوحدانية الله تعالىٰ ، وأنه خلق السموات والأرض ، وأنه يُحْيِي ويُمِيت ، ويغنى ويفقر ، ويعطِى ويمنع ، وأنه علىٰ كل شىء قدير ، وأن منهم من دان باليهودية ، ومنهم من دان بالنصرانية ، ومنهم من ٱطَّرح الجميع ، ومنهم من تقرّب بالأصنام . قال : ومن عادة بنى جنكزخان أن كل من ٱنتحل منهم مذهبا لم ينكره الآخَرُ عليه ؛ ثم الذى كان عليه جنكزخان فى التديُّن وجرىٰ عليه أعقابه بعده الجرىُ علىٰ منهاج ياسة التى قررها ، وهى قوانين خمنها من عقله وقرّرها من ذهنه ، رتب فيها أحكاما وحدّد فيها حدودا ربما وافق القليل منها الشريعة المحمدية ، وأكثرها مخالف

لذلك سماها الياسة الكبرى، وقد آكتبها وأمر أن تجعل فى خزانته تُتَوارث عنه فى أعقابه وأن يتعلمها صغارُ أهل بيته .

منها أن من زنى قتل ، ومن أعان أحد خصمين على الآخر قتل ، ومن بال فى الماء قتل، ومن أُعْطِى بضاعة نخسر ثم أعطى ثانيا نخسر ثم أعطى ثالثا نخسر قتل، ومن وقع حملُه أوقوسه فمرّ عليه غيره ولم ينزل لمساعدته قُتِل، ومن وجد أسيرا أوهاربا أوعبدا ولم يردّه قُتِل، ومن أطعم أسير قوم أو سقاه أوكساه بغير إذنهم قتل، إلى غير ذلك من الأمور التى رتبها مماهم دائنون به إلى الآن، وربما دان به من تحلّى بحلية الإسلام من ملوكهم . ومن معتقدهم فى ذبح الحيوان أن تُلَفَّ قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده إلى قلبه فيمرسه بيده حتّى يموت أو يخرج قلبه . ومن ذبح ذِبحة المسلمين ذبح .

وأما عاداتهم فى الأدب فكان من طريق جنكزخان أن يعظم رؤساء كلّ ملة ويتخذ تعظيمهم وسيلة إلى الله تعالى؛ ومن حال التتر فى الجملة إسقاط المؤن والكُلَف عن العَلَويين وعن الفقهاء والفقراء والزهاد والمؤذنين والأطباء وأرباب العلوم على آختلافهم ومن جرى هذا المجرى .

ومن آدابهم المستعملة أن لا يأكل أحد من يد أحد طعاما حتّى يأكل المُطْعِمُ منه ولو كان المُطْعِمُ أميرا والآكل أسيرا، ولا يختص أحد بالأكل وحده بل يطعم كل من وقع بصره عليه، ولا يمتاز أمير بالشِّبَع من الزاد دون أصحابه بل يقسمونه بالسَّوية، ولا يخطو أحدٌ مَوْقِدَ نار ولا طبقا (١) رآه، ومن آجتاز بقوم يأكلون فله أن يجلس إليهم ويأكل معهم من غير إذن، وأن لا يُدْخِل أحدٌ يده فى الماء بل يأخذ منه ملء فيه

(١) فى الخطط للقريزى (ص ٢٢٠ ج ٢) ما نصه "ولا يتخطى أحد نارا ولا مائدة ولا الطبق الذى يؤكل عليه" .

ويغسل يديه ووجهه، ولايبول أحدٌ علىٰ الرَّمَادِ[(١)] . ويقـال إنهم كانوا لايرون غسل ثيابهم البتة، ولا يميزون بين طاهر ونجس .

ومن طرائقهم أنهم لايتعصبون لمذهب ، وأن لايتعرّضوا لمـالِ ميت أصـلا ، ولو ترك مِلْءَ الأرض، ولا يدخلونه خِزَانة السلطان .

ومن عاداتهم أنهم لايُفَخِّمون الألفاظ، ولا يعظِّمون فى الألقاب حتّٰى يقال فى مراسيم السلطان "القان بكذا" من غير مزيد ألقاب .

وأما حالهم فى طاعة ملكهم فإنهم من أعظم الأمم طاعة لسلاطينهم، لالمـال ولا لجاه بل ذلك دأب لهم حتّٰى إنه إذا كان أمير فى غاية من القوّة والعظمة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق والمغرب متى أذنب ذنبا يوجب عقوبة وبعث السلطان إليه من أخس أصحابه مَنْ يأخذه بمـا يجب عليه ألقىٰ نفسه بين يدى الرسول ذليلا ليأخذه بموجب ذنبه، ولو كان فيه القتل .

ومن طريق أمرائهم أنه لا يتردّد أمير إلىٰ باب أمير آخر، ولا يتغير عن موضعه المعين له . فإن فعل ذلك عوقب أو قتل، وإذا عرضوا آلات الحرب علىٰ أمرائهم وَفَّوْا فى العرض حتّٰى بالخيط والإبرة، ورعاياهم قائمون بمـا يُلْزَمون به من جهة السلطان طَيِّبَةً به نفوسهم، وإن غاب أحد من الرجال قام النساء بمـا عليهم .

---

(١) عبارة الخطط "وألزمهم أن لايدخل أحدمنهم يده فى المـاء ولكنه يتناول المـاء بشىء يغترفه به".

المهيع الثانى (١)

(فى ذكر ممالك بنى جنكزخان على التفصيل، وهى مملكتان)

المملكة الأولى

(مملكة أيران)

بفتح الهمزة (٢) وسكون الياء المثناة تحت والراء المهملة وألف ثم نون . وهى مملكة الفرس، وتعرف بأيران بن أشور بن سام بن نوح عليه السلام، وهو أوّل من ملكها وأضيفت إليه وعرفت به . قال فى "التعريف" : وهى مملكة الأكاسرة . ثم قال : وهى من الفرات إلى نهر جيحون حيث بَلْخ، ومن البحر الفارسىّ وما صاقبه من البحر الهندىّ إلى البحر المسمّى بالقُلْزُم بحر طَبَرِسْتَان، وهى المملكة الصائرة إلى بيت هُولاكُو . قال : وقد دخل فيها مملكة الهَيَاطلة، وهى مملكة مازَنْدَران وما يليها إلى آخر كِيلان، وطَبَرِسْتَانُ واقعة بين مازَنْدَران وكِيلان، ومازَنْدَرَان الآخذة شرقا، وكِيلان الآخذة غربا .

وقال فى "مسالك الأبصار" : هذه المملكة طولا من نهر جَيْحُون المحيط بآخر خُرَاسَانَ إلى الفُرَاتِ القاطع بينها وبين الشام، وعرضها من كَرْمَانَ المتصل بالبحر الفارسىّ المنقسم من البحر الهندىّ، إلى نهاية ما كان بيد بقايا الملوك السَّلْجُوقية بالروم على نهاية حدود العَلَايا وأنطاليا من البحر الرومىّ . قال : ويَفْصِلُ فى الجانب الشَّمالىّ بين هذه المملكة وبين بلاد القَبْجَاقِ النهرُ المجاور لباب الحديد المسمّى باللغة التركية دقرقبو، وبحر طَبَرِسْتَانَ المسمّى بحر الخَزَر . ثم قال : وأخبرنى الفاضل نظام الدين أبوالفضل يحيى بن الحكيم الطيارىّ أن هذه المملكة تكاد تكون مُرَبَّعة، فيكون

(١) لعله المقصد الثانى فإن التقسيم كان بالمقاصد .
(٢) ضبطه ياقوت بالكسر .

طولهـا بالسير المعتاد أربعة أشهر ، وعرضها أربعة أشهر . وهى من أجلّ ممـالك الأرض ، وأوسطها فى الطول والعرض ، متوسطة فى الطول والعرض . و إذا أُنْصِفت كانت هى قلب الدنيـا علىٰ الحقيقة ، ذاتُ أقاليم كثيرة ومدن كبيرة ، مشتملة علىٰ رساتيقَ وأعمال وخِطَط وجهات ، وهى ممتدّة من بلاد الشأم وماعلىٰ سمتها إلىٰ بلاد السِّنْدِ والهِنْدِ وما والاهما .

ولهـا جانبان : جنوبىّ وشمـالىّ .

الجانب الأوّل

(الجنوبىّ)

ويشـــتمل علىٰ ســـتة أقاليم :

الإقليم الأوّل

(الجـــزيرة الفراتيـــة)

وهى أقرب أقطار هذه المملكة لمملكة الديار المصرية والشامية لمجاورتها بلاد الشام . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويحيط بهـا الفُرَات من حدود بلاد الروم ، وهو طَرَف الحدّ الغربىّ الجنوبىّ للجزيرة . فيمتدّ الحدّ الجنوبىّ الغربىّ مع الفرات إلىٰ مَلَطْيَةَ ، إلىٰ شِمشَاط ، إلىٰ قلعة الروم ، إلىٰ الْبِيرَةِ ، إلىٰ قُبَالة مَنْبِج ، إلىٰ السِّنّ ، إلىٰ الرَّقَّة ، إلىٰ قَرْقِيسْيَا ، إلىٰ الرَّحْبة ، إلىٰ هِيتَ ، إلىٰ الأنبار . ثم يخرج الفرات عن تحديد الجزيرة و يعطف الحدّ من الأنبار إلىٰ تَكْرِيت ، وهى علىٰ نهر دِجْلَةَ ، إلىٰ بَالِس ، إلىٰ الحَدِيثَةِ علىٰ دجلة إلىٰ المَوْصِلِ . ثم يعطف من الموصل إلىٰ جزيرة ٱبن عُمَر ، إلىٰ آمِد . ثم يصير الحدّ غربيا ممتدّا بعد أن يتجاوز آمدَ علىٰ حدود إرْمِينِيَةَ ، إلىٰ حدود بلاد الروم ، إلىٰ الفُرَاتِ عند مَلَطْيَةَ من حيث وقع الآبتداء . قال : فعلىٰ هـذا يكون بعض إرْمِينِيَة و بعض الروم غربىّ الجزيرة ، و بعض الشام و بعض البادية جنوبِيّهَا ، والعراق شرقِيَّها ، و بعض

إرْمِينِيَةَ شماليها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وتشتمل الجزيرة علىٰ ديار ربيعة وديار مُضَر (يعنى بالضاد المعجمة) وبعض ديار بكر ، وهم القبائل الذين كانوا ينزلونها فى القديم علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ أحوال العرب فى المقالة الأولىٰ .

قال فى "مسالك الأبصار" : وقد كانت هذه الجزيرة مجموعها مملكة جليلة باقية بذاتها فى الدولة الأتابكية يعنى دولة الأتابك زنكى صاحب المَوْصِلِ والد نُور الدين الشهيد صاحب دِمَشْقَ ، وقاعدتها (المَوْصِلُ) . قال فى "اللباب" : بفتح الميم وسكون الواو وكسر الصاد المهملة ولام فى الآخر ـ وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيث الطول سبعٌ وثلاثون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى علىٰ دِجْلَةَ من الجانب الغربىّ ، ويقابلها من الجانب الشرقىّ مدينة نَيْنَوىٰ التى بُعث يونس عليه السلام إلىٰ أهلها . وهى الآنَ خراب . وفى جنوبىّ الموصل مَصَبُّ الزَّابِ الأصغر فى دِجْلَةَ ، وهى فى مستوٍ من الأرض ، ولها سوران قد خرب بعضهما ، وسورها أكبر من سور دِمَشْقَ . قال المؤيد صاحب حماة : والعامر منها فى زماننا نحو ثلثيها ، ولها قلعة قد صارت فى جملة الخراب . قال قاضى القضاة ولىّ الدين بن خلدون : وهى قاعدة ملك قديم يُعْرف قديما بمملكة الجَرَامقة ، وكانت قد صارت إلىٰ عماد الدين زنكى : والد نور الدين الشهيد ، ثم ٱتفق بها الحال إلىٰ أن دخلت فى مملكة التتر من بنى هُولاكُو . قال ٱبن خرداذبه فى كتابه فى المسالك والممالك : ومن أقام بها سنة ثم ... ... (١) عقله وجده قد نقص ، وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وذكرها فى "التثقيف" وذكر أنه كان بها الأمير أردبغا قبل أن يحصل عليها من بيرم خواجا ثم أبو القان أويس .

(١) بياض فى الأصل . وٱنظر معجم البلدان فانه يؤخذ منه أن من أقام بها سنة تبين فى بدنه فضل قوّة .

ثم بها عدّة مُدُن وقلاع مشهورة .

(منها) مَارِدِين . قال فى "اللباب": بفتح الميم وسكون الألف وكسر الراء والدال المهملتين ثم ياء مثناة من تحتها ونون — وهى قلعة بديار ربيعة من هذه الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : حيث الطول أربع وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى علىٰ جبل عال، من الأرض إلىٰ ذِرْوَتِه نحو فرسخين. قال ٱبن حوقل: وهى قلعة منيعة لايستطاع فتحها عنوة، وبجبلها جواهِر الزجاج، وبه حَيَّات تفوق غيرها بسرعة القتل .

وٱعلم أن ماردين هذه بيد ملوكها من بنى أُرْتُق، لها بيدهم الأَمَدُ الطويل، لم تَزُل أيديهم عنها مذ ملكوها . قال القاضى ولىّ الدين بن خلدون فى "تاريخه" : وأوّل من ملكها منهم ياقوتى بن أُرْتُق بعد السبع والأربعمائة؛ تملكها من يد مَغَنّ كان ملكشاه ٱبن ألب أرسلان السلجوقى أقطعها له ، ثم ملكها بعد ياقوتى المذكور أخوه علىّ، ثم عمه سُقْمان، ثم أخوه إيلغازى، ثم ٱبنه حُسَام الدين تمرتاش، ثم ٱبنه قطب الدين ألبي ، ثم ٱبنه نظام الدين إيلغازى، ثم ٱبنه حسام الدين بولق أرسلان ، ثم أخوه ناصر الدين أُرْتُق أرسلان بن إيلغازى ، ثم ٱبنه نجم الدين غازى ، ثم أخوه قرا أرسلان، ثم ٱبنه شمس الدين داود، ثم أخوه نجم الدين غازى، وتلقب بالمنصور . وهو أوّل من تلقب بألقاب السلطنة منهم ، ثم ٱبنه شمس الدين صالح وتلقب بالصالح ، ثم ٱبنه أحمد وتلقب بالمنصور، ثم ٱبنه محمود وتلقب بالصالح، ثم ٱبنه فخر الدين داود، وتلقب بالمظفر، ثم ٱبنه نور الدين عيسىٰ، وتلقب بالظاهر، وهو القائم بملكها إلىٰ الآن، وهو الظاهر عيسىٰ، بن المظفَّر داود، بن الصالح [محمود، بن المنصور أحمد، بن الصالح](١) صالح، بن المنصور غازى، بن المظفر قرا أرسلان، بن المنصور أرتق أرسلان [ابن بولق أرسلان](١) بن إيلغازى، بن ألبي، بن تمرتاش، بن إيلغازى، بن أرتق .

(١) الزيادة عن تاريخ ٱبن خلدون (ص ٢٢٠ ج ٥) .

ولما ملك هولاكو بغداد وأعمالها كان القائم بملك ماردين يومئذ المُظَفَّر قرا أرسلان فأعطاه الطاعة وخطب له فى جميع أعماله ، وتبعه علىٰ ذلك مَنْ بعده من ملوكها إلىٰ حين موت القان أبى سعيد من بقايا الملوك الهولاكوية ، فقطع الخطبة لصاحب بغداد وما معها وخطب لنفسه ، والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن ، وملوكها مُوَادّون لملوك الديار المصرية والمكاتبات بينهم متواصلة .

(ومنها) حِصْنُ كَيْفا . قال فى "تقويم البُلْدان" : بحاء وصاد مهملتين ثم نون ثم كاف وياء مثناة من تحت وفاء وألف — وهى مدينة من الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" : حيث الطولُ أربع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعَرْض سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى من ديار بكر . قال فى "المشترك" : وهى علىٰ دجلة بين جزيرة ابن عمر وبين مَيَّا فَارِقِينَ . قال فى "اللباب" : والنسبة إليها حَصْكَفِيٌّ — بفتح الحاء وسكون الصاد وفتح الكاف وفاء ثم ياء النسب . قال فى "التعريف" : وملكها من بقايا الملوك الأيوبية وممن يَنْظُر إليه ملوك مصر بعين الإجلال ، لمكان ولائهم القديم لهم ، واستمرار الوداد الآن . قال فى "التثقيف" : وأخبرنى المقرّ السيفىّ منجك كافل الممالك الشريفة أن الملك الناصر محمد بن قلاوون كان يعظم سَلَفَه فإنه كان أستاذ قلاوون والده . قال فى "التعريف" : وكان آخر وقت منهم الملك الصالح قصد الأبواب السلطانية . فلما أتىٰ دِمَشْقَ عقبته الأخبارُ بأن أخاه قد ساوَرَ سريرَه ، وقصد بسلطته سلطانه . فكر راجعا ولم يُعَقِّبْ ، فما لبثت الأخبار أن جاءت بأنه حين صعد قلعته ، وكَرّ نحوَ سريره رَجْعَتَه ، وثب عليه أخوه المتوثب فقتله وسفك دَمَه ، ثم أظهر عليه ندمه . وكتب إلىٰ السلطان فأجيب بأجوبة دالة علىٰ عدم القبول لأعذاره والسرائر مُكَدَّرَه ، والخواطر بعضها من بعض منفَّره . وذكر فى "التثقيف" أن الذى اتَّضح له

آخرا فى رمضان ســنة ست وسبعين وسبعمائة أن صاحبها الملكُ الصالح سيف الدين أبو بكر، ٱبن الملك العادل شهاب الدين غازى، ٱبن الملك العادل مجد الدين محمد، ٱبن الملك الكامل سيف الدين أبى بكر، ٱبن الملك الموحد تقىّ الدين عبد الله، ٱبن الملك المعظم سيف الدين توران شاه، ٱبن الملك الصالح نجم الدين أيوب، ٱبن الملك الكامل ناصر الدين محمد، بن العادل أبى بكر بن أيوب . ثم قال : وما يبعد أن الصالح المذكور هو ٱبن عم العادل مجد الدين محمد، وأن العادل غازى لاحقيقة له . ثم قال : وهو غلط لأن المستقرّ إلى آخر ســنة ثنتين وستين وســبعمائة وما بعدها بمدّة هو العــادل مجد الدين، وكتبتُ إليه فى هذه المدّة بهذا الأسم واللقب، ولم يبلغنا أنه ٱستقرّ بعده سوى ولده، ثم نقل أنه الصالح ونقل الناقل أنه ٱبن العادل وهو صحيح لكنه قال : إن ٱسمه شهاب الدين غازى بن العادل مجد الدين وفيه بُعْدٌ: كون الولد يلقب بلقب والده الملوكى . ٱنتهى كلامه .

قلت : والذى أخبرنى به بعض قُصَّاد صاحبها فى ســنة تسع وتسعين وســبعمائة أن الملك القائمَ بها يومئذ ٱسمه سليمان بن داود، وذكر لى لقبه الملوكىّ فنسيته، وذكر أنه يقول الشعر، وأحضر معه بيتا مفردا من نظمه وهو :

وجَارِيَةٍ تُعِــيرُ البَدْرَ نُوراً * وَلَوْلَا نُورُهَا عَادَ الظَّلَامُ !

فنظمت له أبياتا و بعثت بها إليه صحبة قاصده أوّلها :

سُــلَيْمَانُ الزَّمَانِ بِحِصْنِ كَيْفا * لَهُ فى المُلْكِ آثَارٌ كِــرَامُ
زَكَا أَصْلاً فَطَابَ الفَرْعُ مِنْهُ * وطَابَ الغُصْنُ إذ طَابَ الكِمَامُ
بَنُو أَيُّوبَ أَبْقَوْا منــه ذُخْرًا * ونِعْمَ الذُّخْرُ والقَيْــلُ الهُمَامُ

وأثبت البيت الذى قاله فى آخر هذه .

(ومنها) حَرّانُ . قال فى "المشترك" : بفتح الحاء وتشديد الراء المهملتين وفى آخرها نون بعد الألف ـ وهى مدينة من ديار مُضَرَ من الجزيرة المذكورة من الإقليم الرابع . قال فى " تقويم البُلْدان " : والقياس أنها حيث الطول ثلاث وستون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وكانت حَرّانُ مدينةً عظيمة أما اليوم فخراب . قال ابن حوقل : وهى مدينة الصابئين، وبها سَدَنتهُم السبعة عشر، وبها تَلٌّ عليه مصلًّى للصابئين يعظّمونه وينسبونه إلى إبراهيم عليه السلام، وهى قليلة الماء والشجر . قال فى "العزيزى" : والجبل منها فى سَمْت الجنوب والشرق على فرسخين، وتربتها حمراء، وشرب أهلها من قناة تجرى من العيون خارجَ المدينة ومن الآبار، وحاكمها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية على ما سيأتى فى المكاتبات إن شاء الله تعالى .

(ومنها) شِمْشَاط . قال فى " اللباب" : بكسر الشين المعجمة وسكون الميم وفتح الشين الثانية ثم ألف فطاء مهملة ـ وهى بلدة من ديار مُضَر، وقيل من ديار بكر من بلاد الجزيرة من الإقليم الرابع . قال فى " رسم المعمور" حيث الطول اثنتان وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى بلدة الثُّغور الجزيرية بين آمد وبين خَرْتَ بِرْتَ . وقال ابن حوقل : هى بنحر(١) الجزيرة، وبها حاكمٌ يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) حِيزَانُ . قال فى " اللباب " : بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الزاى المعجمة وألف ونون ـ وهى مدينة من ديار بكر من الجزيرة من الإقليم الرابع . قال فى " تقويم البُلْدان " : والقياس أن طولها خمس وستون درجة، وعرضها سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "اللباب": وهى كثيرة

---

(١) فى التقويم . هى ثغر .

الأشجار خصوصا شجر البُنْدُقِ . قال : وهى بين جبال، ولها مياه سارحة، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . وذكر فى "التثقيف" أنه كان ٱسمه فى زمانه عز الدين، ثم ٱستقر بعده ٱبنه أسد الدين .

(ومنها) رَأْسُ عَيْن . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الراء المهملة ثم سين وعين مفتوحة مهملتان ومثناة تحت ونون فى الآخر — وتسمّى عين وَرْدة أيضا، وهى مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة فى مستوٍ من الأرض . قال ٱبن حوقل : يخرج منها فوق ثلثمائة عين كلُّها صافية، ويصير من هذه الأعين نهرُ الخابُور، ووَهِم السمعانىّ فجعلها منبع دجلة . قال فى "العزيزىّ" : وهى أوّل مُدُن ديار ربيعة من جهة ديار مُضَر، وذكر السمعانىّ أنها من ديار بكر، وأنكره ٱبن الأثير وقال : ليست من ديار بكر [بل هى] من الجزيرة . قال فى "اللباب" : وهى علىٰ يومين من حَرّان والنسبة إليها رَسْعَنِىٌّ، وإليها ينسب الرَّسْعَنِىُّ المُفَسِّر .

(ومنها) مَيَّافَارِقِينَ . قال فى "اللباب" : بفتح الميم وتشديد المثناة من تحتها وسكون الألفين بينهما فاء مفتوحة وبعدهما راء مهملة ثم قاف وياء آخر الحروف ونون . وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "رسم المعمور" : حيث الطول خمس وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ٱبن سعيد : وهى قاعدة ديار بكر . وقال ٱبن حوقل : هى بين الجزيرة وبين إرْمِينِيَةَ . قال فى "اللباب" : وعليها سورُ حَجَرٍ دائرٌ، وهى دون حماةَ فى القدر، وهى فى ذيل جبل، فى شماليّها وهى فى ذيله . قال فى "اللباب" : والمياه والبساتين محدِقة بها، ولها نهر صغير علىٰ شوط فرس منها، من عين تسمّى عين حَنْبُوصَ بين الغرب والشمال، تخترق دُورَها

وتسق بساتينها ، وبينها وبين المَوْصِـلِ علىٰ حِصْن كَيْفا نحو ستة أيام وعلىٰ مارِدِينَ نحو ثمـانية أيام، والنسبة إليها فَارِقِيٌّ . قال فى "اللباب" : أسقطوا بعضها لكثرة حروفها، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قَرْقِيسْيَا . قال فى "تقويم البُلْدان" : المشهور بفتح القاف الأولىٰ وكسر الثانية وبينهما راء مهملة ساكنة ثم ياء آخر الحروف ساكنة ثم سين مهملة ثم ياء ثانية وألف ـ وهى مدينـة من ديار مُضَرَ من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطول أربع وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة . قال فى "اللبـاب" : وهى علىٰ الفُرَات والخابور، علىٰ القرب من الرَّقَّة . قال فى "العزيزى" : وهى شرقىّ الفرات والخابورُ الخارجُ من رأس عين فيصب فى الفرات علىٰ القرب منهـا . قال : وهى مدينة الزَّبَّاء صاحبة جَذِيمَةَ الأبرش، يعنى التى قتلته. قال فى "اللباب" : وبها مات جَرِيرُ بن عبد الله البَجَلِىّ الصحابىّ رضى الله عنه . قال : والنسـبة إليها قَرْقِيسْيَانِىّ وقد تحذف النون وتجعل الياء عوضها .

(ومنها) مَاكِسِينُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح الميم وسكون الألف وكسر الكاف والسـين المهملة وسكون المثناة من تحت ونون فى الآخر ـ وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "اللباب" : وهى علىٰ الخابور . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين قَرْقِيسْيَا سبعةُ فراسخ ، وبينها وبين سِنْجار آثنان وعشرون فرسخا .

(ومنها) نَصِيبِينُ . قال فى "اللبـاب" : بفتـح النون وكسر الصاد المهملة وسكون المثناة من تحتها ثم باء موحدة وياء ثانية ونون ـ وهى مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة من الإقليم الرابع . قال آبن سعيد : وهى قاعدة ديار ربيعة . قال :

وهى مخصوصة بالوَرْد الأبيض لايوجَد فيها وردةٌ حمراء ، وفى شمـاليها جبل عظيم يقال إنه الجُودِىّ الذى آستقرّت عليه سفينةُ نوح عليه السلام، منه ينزل نَهْرُها حتّى يمرّ على سُورها وعليه بساتينها، ونهرها يسمّى الهِرْماس، وبها عقاربُ قتّالة .

(ومنها) جزيرة آبن عُمَر ـ وضبطها معروف ـ وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطولُ ست وستون درجة وعشر دقائق ، والعرضُ سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقـة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة صـغيرة على دجلة من غربيها ذاتُ بساتين كثيرة . وقال فى "المشترك" : هى فى شمالىّ الموصل ودجلة محيطة بها مثل الهلال ، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) سِنْجَارُ . قال فى "اللبـاب" : بكسر السين المهـملة وسكون النون وفتح الجيم وألف وراء مهملة ـ وهى مدينة من ديار ربيعة من الجزيرة، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيث الطول ست وستون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال آبن سـعيد : وهى فى جَنُوبىّ نَصِيبِينَ ـ وهى من أحسن المُدُن وجَبَلُهـا من أخصب الجبـال . قال آبن حوقل : وهى فى وسط بَرِّيَّة ديار ربيعـةَ بالقرب من الجبـل والجبلُ فى عاليها، وليس بالجزيرة بلد فيـه نخيل سواها . وهى فى جهة الغرب عن المَوْصِـلِ على ثلاث مراحل عنها ؛ وهى على قدر المَعَرَّة من البلاد الشامية ؛ ولهـا قلعة وبساتين كثيرة؛ وشربها من القُنِىّ؛ وبها حاكم يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) تَلُّ أَعْفَرَ ـ وضبط التل معروف، وأَعْفَرُ بفتح الهمزة وسكون العين المهملة وفتح الفاء وراء مهـملة فى الآخر ـ وهى من الجزيرة من الإقليم الرابع من

الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وستون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "المشترك": وتَلُّ أَعْفَرَ قلعةٌ بين سِنْجَار وبين المَوْصِلِ . وذكر فى "تقويم البُلْدان" عن بعض أهلها أنها غربىّ المَوْصِلِ فيما بينها وبين سِنْجار، وربما تكون إلىٰ سِنْجَارَ أقربَ . وذكر فى "العزيزىّ" أن بينها وبين سِنْجَارَ خمسةَ فراسخ ، ولها أشجار كثيرة ، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) الحَدِيثَةُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الحاء وكسر الدال المهملتين ثم مثناة من تحت وثاء مثلثة وهاء فى الآخر وهى مدينة من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وستون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى فى وَسَط الفُرَاتِ والماء محيطٌ بها ، وتعرف بحديثة النُّورة . وهى غير حديثة المَوْصِلِ : بليدة صغيرة إلا أن لها ذكرا فى القديم . قال فى "المشترك" : وهى علىٰ فراسخَ من الأنبار ، وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) عَانَة . قال فى "اللباب" : بفتح العين المهملة وألف ونون وهاء فى الآخر ـ وهى بلدة من بلاد الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعَرْض أربع وثلاثون درجة . وهى بلدة صغيرة علىٰ جزيرة فى وَسَط الفرات . قال فى "اللباب" : وهى تقارب الحَدِيثَة . وقال آبن حوقل : يطوف بها خليج من الفرات . قال آبن سعيد : وخَمْرها مذكور فى الأشعار، وآستشهد بقول بعض الشعراء :

* وَمِنْ عَانَةٍ أَمْ مِنْ مَرَاشِفِكِ الْخَمْرُ؟ *

وكثيرا ما تُقْرن فى الذكر مع الحديثـة لقربها فيقـال عانةُ والحَدِيثة ، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) آمِدُ . قال فى "اللبـاب" : بمدّ الألف وكسر المـيم وفى آخرها دال مهملة . وهى مدينة من ديار بكر، من الجزيرة، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال فى "الأطوال" حيث الطولُ سبع وسـتون درجة وعشرون دقيقة ، والعرضُ سبع وثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة أزَلِيَّة علىٰ الدجلة . قال ابن حوقل : وعليها سُورٌ فى غاية الحَصَانة . قال فى "العزيزىّ" : وسُورها من الحجـارة السُّود التى لا يَعْمل فيها الحديد، ولا تضرُّبها النار، وهو مشتمل عليها وعلىٰ عيون ماء، ولها بساتين ومزارع كثيرة . قال ابن حوقل : وهى كثيرة الخِصْبِ.

(ومنها) سِعِرْتُ . قال فى "تقويم البُلْدان" نقلا عن صالح : بكسر السين والعين وسكون الراء المهـملات وفى آخرهـا مثناة من فوقُ ، وقيـل إسْعِرْد بكسر الهمزة وسكون السين وكسر العين وسكون الراء المهملات ودال مهملة فى الآخر ــ وهى مدينة من ديار ربيعة، من الجزيرة، من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مبنية علىٰ جبل تحيط بها الوَطَاة، علىٰ القرب من شَطِّ دجلة من جهة الشَّمال والشرق ، وهى فى المقـدار أكبر من المَعَرّة ، وبها الأشجار الكثيرة من التين والرمّان والكروم، جميع ذلك عِذْىٌ لا يُسقىٰ ، وشرب أهلها من بئار قريبةٍ من وجه الأرض ؛ وهى عن مَيَّافَارِقِينَ علىٰ مسـيرة يوم ونصف فى جهة الجنوب ، وعن آمِدَ علىٰ مسيرة أربعة أيام فى جهة الشَّمال منها، وعن المَوْصِل علىٰ خمسة أيام فى جهة الشرق والشمال عنها .

(ومنها) تِكْرِيتُ . قال فى "اللبـاب" : بكسر[1] المثناة من فوق وسكون الكاف وكسر الراء المهـملة ثم ياء مثناة من تحت فى آخرها تاء مثناة من فوقُ ــ وهى مدينة

(١) ضبطها المجد بالفتح وكذا ياقوت وقال : وكسرها العـامة .

من الجزيرة من الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطول تسع وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وآثنتا عشرة دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى آخر مُدُن الجزيرة مما يلى العراق علىٰ غربىّ دِجْلَةَ فى برّ المَوْصِلِ . قال فى "اللباب" : وسميت تِكْرِيتُ بِتَكْرِيتَ بنت وائل أخت بكر بن وائل .

أما قلعتها فبناها سابور بن أردشير بن بَابَك ، وهى الآن خراب . قال آبن سعيد : وفى جنوبيها وشرقيها النهر الإسحاقىّ ، حفره إسحاق بن إبراهيم صاحب شُرْطَةِ المتوكل ، وهو أوّل حدود سَوَاد العراق ، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) بَرْقَعِيدُ ـ بفتح الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح القاف وكسر العين المهملة وسكون المثناة من تحتها ودال مهملة فى الآخر . قال فى "العزيزىّ" : وهى [مدينة] لها سور وأسواق كثيرة .

(ومنها) العِمَادِيَّة ـ بكسر العين المهملة وفتح الميم وبعدها ألف ثم دال مهملة مكسورة وياء مثناة تحت مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعة عامرة علىٰ ثلاث مراحل من المَوْصِلِ فى الشرق والشمال ، وهى علىٰ جبل من الصخر ، وتحتها مياه جارية وبساتينُ ، وهى فى جهة الشَّمال عن إرْبِل ، بناها عماد الدين زنكى صاحب المَوْصِلِ فنسبت إليه ؛ وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قلعة كُشَاف . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الكاف وبالشين المعجمة ثم ألف وفاء فى الآخر ـ وهى قلعة عامرة بين الزَّابِ والشَّطِّ ، قريبة من مصبه فى الشط [وهى فى الشرق] والجنوب عن الموصل . قلت : وقد ذكرها فى "تقويم البلدان" أوّلا

فى جملة بلاد الجزيرة ووصفها بهذا الوصف ولم يضبطها ، ثم ذكرها فى بلاد الجبل المعروفة بعِراق العجم بهذا الوصـف أيضا وضَبَطها علىٰ ما تقدّم ، والظاهر أنها من بلاد الجزيرة ، وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) قلعة فَنَك . قال فى "تقويم البُلْدان" : نقلا عن أبى المجد فى "كتاب التمييز" : بفتح الفاء والنون ــ وهى قلعة حصينة فُوَيق جزيرة ٱبن عمر .

(ومنها) الشُّوشُ . قال فى "المشــترك" : بضم الشــين المعجمة وسكون الواو ثم شين ثانية . قال : وهى قلعة مشهورة من أعمـال المَوْصِلِ فى الجبال شرقىّ دجلة ، وإليها ينسب حب الرمّان الشُّوشِىّ .

(ومنها) عَقْرُ الحُمَيْدية . قال فى "المشــترك" : بفتح العين المهملة وسكون القاف ثم راء مهملة ــ وهى قلعــة حصينة مشهورة ، والحُمَيديّة قبيــلة من الأكراد بتلك البلاد .

(ومنها) الهَتَّاخُ . قال فى "مُزِيل الٱرتياب" : بفتح الهـاء وتشديد التاء المثناة من فوقهـا وفتحها وبعــد الألف خاء معجمة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعة حصينة .

(ومنها) حَانِى . قال فى "اللباب" : علىٰ وزن داعى ، يعنى بفتح الحاء المهملة وبعــدها ألف ثم نون مكسورة وياء مثناة تحت فى الآخر . قال : هذا ما تُعْرَف به الآن ، ولكن الســمعانىّ قد قال فيها حَنَا ، بفتح الحاء المهملة والنون ؛ وهى مدينة من ديار بكر من الجزيرة [من الإقليم الرابع] من الأقاليم السبعة ، وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية معدود فى الأكراد .

وٱعلم أن هــذه الجزيرة مجاورة لمملكة الديار المصرية من حيث ٱتصالهُـا بالبلاد الشاميــة من الجهة الشرقية ، وقد تقــدّم أن بعض بلادها داخلة فى أعمــال حَلَب

من ممالك الديار المصرية كالرُّهَا وقلعة جَعْبَر وما والاهما، والمسافة ما بين حلب والرُّهَا معلومة ، ومن الرُّهَا إلى حَرّان يوم واحد، ومن حَرّان إلى رأس عين ثلاثة أيام ، ومن رأس عين إلى نَصِيبين ثلاث مراحل، ومن نَصِيبِين إلى المَوْصِلِ أربع مراحل . وقد تقدّم أن المَوْصِلَ هى قاعدة الجزيرة فى القديم، ومن الموصل إلى تِكْرِيتَ سبعة أيام، وقد تقدّم أن تكريت هى آخر مُدُن الجزيرة مما يلى العراق ، ومن الموصل أيضا إلى آمِدَ أربعة أيام، ومن آمِدَ إلى شِمْشَاط ثلاثة أيام .

الإقليم الثانى
(العِرَاقُ)

قال فى "اللباب" : بكسر العين وفتح الراء المهملتين ثم ألف وقاف . قال الجوهرىّ : وهو يذكَّر ويؤنَّث . قال أبو المجد إسماعيل الموصلىّ فى كتابه المسمّى "بالتمييز والفصل" : وإنما سمى عراقا لأنه سَفَل عن نَجْدٍ ودَنَا من البحر، أخْذا من عِراق القِرْبة، وهو الخَرْزُ الذى فى أسفلها، ويعرف بعراق العرب لأن العرب كانت تنزله لقربه من بلادهم . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويحيط به من جهة الغرب الجزيرة والبادية، ومن الجنوب البادية وبحر فارس وحدود خُوزِستان، ومن الشرق حدود بلاد الجبال إلى حُلْوان، ومن الشّمال من حلوان إلى الجزيرة من حيث وقع الابتداء .

قال : والعراق على ضَفَّتى دجلة مثل مابلاد مصر على ضَفَّتى النيل، ويجرى دجلة من الشمال بميلة إلى الغرب، إلى الجنوب بميلة إلى الشرق، وامتداد العراق طولا وشمالا وجنوبا من الحَدِيثَةِ على دجلة إلى عَبَّادَانَ على مصبّ دجلة فى بحر فارس، وامتداده غربا وشرقا من القادِسِيَّة إلى حُلْوان . فالحَديثة فى وسط الحدّ الشمالىّ

بميـلة إلىٰ الغَرْب، والقادسِـيَّة فى وسط الحدّ الغربىّ بمَيْلة إلىٰ الجنوب، وعَبَّادَانُ فى وسط الحدّ الجنوبىّ بميـلة إلىٰ الشرق، وحُلْوانُ فى وسط الحدّ الشرقىّ بميلة إلىٰ الشَّمال، ووسـط العراق الذى من القادسية إلىٰ حلوان هو أعرض ما فى العراق. وأمّا رأس العراق الذى عنـد عَبَّادَانَ، فيَدِق عن ذلك. ثم قال: والذى يسـتدير علىٰ العراق - يعنى والعراق علىٰ شمـاله - إذا آبتدأ من تَكْرِيت من بلاد الجزيرة المتقدّمة، يمر منها إلىٰ حدود شَهْرزُورَ، وهى بين الشرق والشمال عن العراق، ثم إلىٰ السِّـيْرَوَان، وهى فى الشرق، إلىٰ حدود جُبًّا، وهى فى الشرق والجنوب، ثم إلىٰ البحر يعنى بحر فارس، وهو فى الجنوب عن العراق. وفى هـذا الحدّ من تكريت إلىٰ البحر تقويسٌ، ثم من البحر إلىٰ البَصْرَةِ، وهى فى الجنوب عن العراق، ثم من البصرة إلىٰ البـادية علىٰ سَوَاد البصرة، ثم إلىٰ بَطَائح البصرة، ثم إلىٰ واسط، ثم إلىٰ سَوَاد الكُوفة وبطائحها، ثم علىٰ ظهر الفرات إلىٰ الأنبار، ثم من الأنبار إلىٰ تَكْرِيتَ حيث وقع الآبتداء.

ثم للمدن(١) قواعد ومدن.

القـاعدة الأولىٰ

(بابِـــل)

بفتح الباء الموحدة ثم ألف وباء موحدة ثانيـة مكسورة ولام فى الآخر - وهى مدينة واقعـة فى الإقليم الثالث. قال فى "الأطوال" حيث الطول سبعون درجة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة. قال آبن حوقل: وهى أقدم أبنية العِراق، وإليها ينسب إقليم بابل لقِدَمها، وكانت ملوك الكَنْعَانِيِّينَ

(١) لعل الصواب "ثم للعراق قواعد ومدن".

وغيرهم يقيمون بها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها آثار أبنية أحْسَبها أن تكون فى قديم الأيام مصرا عظيما، ويقال إنها من بناء الضحّاك : أحد ملوك الفرس الذى ملك الأقاليم السبعة . قال : وفيها أُلْقِى إبراهيم الخليل عليه السلام فى النار، وقد أخبر الله تعالىٰ فى كتابه العزيز أن بها هَارُوتَ ومَارُوتَ الملَكَيْن اللذين يعلمان الناسَ السِّحر، ويقال إنهما بها فى بِئْرٍ وإن البئر ظاهرة بها إلىٰ الآن . قال صاحب حماة : وهى اليوم مدينة خراب، وقد صار فى موضعها قرية صغيرة .

القاعدة الثانية

(المَدَائن)

جمع مدينة وضبطُها معروف . قال فى "تقويم البُلْدان" : وآسمها بالفارسية طَيْسَفُونُ ــ بفتح الطاء المهملة وسكون المثناة التحتية وفتح السين المهملة وضم الفاء وبعدها واو ونون ــ ثم قال : وكل ذلك سماعا وقد تبدل الفاء باء . وهى واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبعون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وعشر دقائق . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى علىٰ دجلة من شرقيها تحت بغداد علىٰ مرحلة منها . قال فى "العزيزى" : والمدائن فى جنوبىّ بغداد، وكان بالمدينة الكبرىٰ منها إيوانُ كِسْرىٰ فى شرقىّ دجلة آرتفاعه ثمانون ذراعا . ونقل فى "تقويم البُلْدان" عن بعض الثقات فى سَعَته من ركنه إلىٰ ركنه خمسة وتسعون ذراعا . وكانت هى قاعدة ملوك الفرس، فلما وُلِد النبىّ صلى الله عليه وسلم، آنشق هذا الإيوان ثم خرب هو وسائر المدائن فى الإسلام .

القـاعدة الثـالثة
(بَغْـدَاذ)

قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة وفتح الدال المهملة وفى آخرها ذال معجمة . وموقعها فى آخر الإقليم الثـالث . قال فى " القانون" : حيث الطول سبعون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى " تقويم البُلْدان" : وسميت بغداذ بهـذا الاسم لأن كسرىٰ أُهْدِى إليـه خَصِى من المشرق فأقطعه بغداذ ، وكان له صنم يعبده بالمشرق يقال له البَغْ فقال ذلك الخصى بغ داذ يعنى أعطانى الصنمُ ، وكان عبد الله بن المبـارك يكره أن يقال لهـا بغداذ بالذال المعجمة فى آخرها ، فإن بغ شيطان وداذ عطية فمعناه عطية الشيطان وهو شرك . قال : وإنما يقال بغداد بالدالين المهملتين . وقد قال بعضهم : إن بغ بالفارسية البُستان وداذ بإهمال الأولىٰ وإعجام الثانية اسم رجل ومعناه بستان داذ، ويقال فيها أيضا بَغْدان بإبدال الدال الأخيرة نونا، ومَغْدان بابدال الباء الأولىٰ ميا . وكان المنصور يسميها مدينة السلام لأن دجلة كان يقال لها وادى السَّلام . وبغداذ علىٰ جانبى دجلة من الشرق والغرب، والجانب الغربىّ منها يسمّى الكَرْخَ، وبه كان سكنىٰ أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العبـاس، والجانب الشرقىّ منها بناه المهدىّ بن المنصور المقدّم ذكره وسكنه بعسكره فسمى عَسْكر المهدى ، ثم بنىٰ فيه الرشيدُ بن المهدى قصرا سماه الرُّصَافَةَ فأطلق علىٰ الجانب كله الرُّصَافَةَ ، ويسمّى جانب الطاق أيضا نسـبة إلىٰ رأس الطاق ، وهو موضـع السوق الأعظم منهـا . وبهـذا الجانب مَحَلَّةٌ تسمّى (الحَرِيَم) يعنى حريم دار الخلافة . قال فى "المشترك" : بفتح الحـاء وكسر الراء المهملتين ثم مثناة من تحتها ساكنة وفى آخره ميم . قال : وهى قريب من ثلث الجانب الشرقىّ، وعليه سور ابتداؤه من دجلة وانتهاؤه إليها أيضا

كهيئـة الهلال أو كنصف دائرةٍ، وله أبواب أوّلهـا باب الغَرَبة، وهو علىٰ دجلة، ثم يليه باب سوق التمر، وهو باب شاهق ولكنه أُغْلِق فى خلافة الناصر لدين الله، ثم ٱستمرّ غَلْقه، ثم باب البَدْرِيَّة، ثم باب النُّوبى. وفيـه العَتَبة التى كانت تقبلها الملوك والرُّسل، ثم باب العامّة، ويقال له أيضا باب عَمُّورِيَّة. ثم يمتد السور نحو ميل لا باب فيه إلا باب بسـتان تحت المنظرة التى تنحر تحتها الضحايا، ثم باب المراتب بينه وبين دجلة نحو رميتَىْ سهم.

وبهذا الحريم محالٌّ وأسواق ودُور كثيرة للرعيَّة وهو كأكبر مدينة تكون. قال: وبين دُور الرعيَّة التى داخلَ هذا السُّور وبين دجلة سورٌ آخر، وداخل السور الثانى دُورُ الخلافة لا يدخلها شىء من دور العامّة. قال فى "مسالك الأبصار": وبين الجـانبين جَسْران منصوبان علىٰ دجلة شرقا بغرب علىٰ سُفُن وزوارقَ أوقفت فى المـاء ومدّت بينها السلاسل الحديد المكعبة بالمكعبات الثقال، وفوقها الخشب الممدود، وعليها التراب يمُرّ عليها أهل كل جانب إلىٰ الآخر بالحمر والجمـال والحمول؛ وعلىٰ ضَـفَّتَىْ دجلة قُصُور الخلافة والمدارسُ والأبنيةُ العليـة بالشبابيك والطاقات المطلة علىٰ دجلة، وبناؤها بالآجُرّ.

ومن بيوتها ما هو مفروش بالآجُرّ أيضا ملصق بالقِير وهو الزِّفْتُ، ولهم الصـنائع العجيبـة فى التزويق بالآجُرّ، وبهـا وجوه الخير من الجوامع والمساجد والمدارس والخَوَانق والرُّبُط والبيمارسـتانات والصدقاتِ الجارية ووجوه المَعُونة، وناهيك أنها كانت دار الخلافة ومقرَّ ملوك الأرض. ومنها قلائد الأعناق، وترابها لمىٰ القُبَـل وإثمدُ الأحداق.

قال فى "مسالك الأبصار": قال الحكيم نظام الدين بن الطيارى: وأوقافها جارية فى مجاريها، لم تعترضها أيدى العُدْوان فى دولة هُولاكُو ولا فيما بعدها، بل

كل وقف مستمرٌ بيد متوليه، ومَن له الولاية عليه، وإنما نقصت الأوقاف من سوء وُلاة أمورها لا من سواها . وبها البساتين المونَقَه، والحدائق المحدّقه؛ وبها ثَمَر النخل المفضلة على ما سواها من الرطب والتَّمر، وبها أنواع الرّياحين والخَضْراوات والغِلال؛ وسعرها متوسط فى الغالب لا يكاد يَرْخُص . قال المقرّ الشهابىّ بن فضل الله : سألت الصدر مجدَ الدين بن الدورىّ عن السبب فى قلة الغِلال ببلاد العراق مع ٱمتداد سَوَادها، فقال : قلة الزرع مع ما ٱستهلكه القتـل زمن هولاكو وحيزه (١) للعراق وما جاوره من البلاد .

قلت : وبغداد وإن كانت أمَّ الممالك ودار الخلافة، فقد أغفل ملوك التتر الآلتفات إليها ، وصرفوا عنايتهم إلى تِبْريز والسُّلْطانية وصيروهما قاعدتين لهذه المملكة على ما سيأتى ذكره فى الكلام على إقليم أذْرَبيجَانَ فيما بعد إن شاء الله تعالى

القـاعدة الرابعـــة

(سُرَّمَنْ رأى)

من السرور والرؤية، ثم خففها الناس فقالوا سَامَرًّا . قال فى "اللباب" : بفتح السين المهـملة وسكون الألف وفتح الميم وفى آخرها راء مهـملة مشدّدة — وهى مدينة واقعة فى الإقليم الرابع . قال فى " القانون " حيث الطول ثمان وستون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة . قال فى "العزيزىّ" : وهى على شاطئ الدجلة من الشرق . قال ٱبن سعيد : بناها المُعْتَصِمُ، وأضاف إليها الواثقُ المدينةَ الهارونِيَّة، والمتوكلُ المدينة الجعفريَّةَ فعظم قدرها . قال فى "اللباب": ثم خربت عن قريب من عمارتها . قال فى "العزيزىّ" : ولم يبق فيها عامر سوى مقدار يسير كالقَرْية .

---

(١) بمعنى حوزه وامتلاكه ، لغة نقلها الفيومى فى مصباحه .

وأما المُدُن التى بالعراق :

(فمنها) هِيتُ . قال فى "المشترك" : بكسر الهاء وسكون المثناة تحتُ وتاء مثناة من فوق فى الآخر – وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وستون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "العزيزى" : وهى من حدود العِراق . قال ٱبن سعيد : وإليها ينتهى حدّ الجزيرة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى علىٰ شمالىّ الفرات ، ووَهِم فى "العزيزىّ" فجعلها غربىّ الفرات . قال فى "المشترك" : وهى من أعمال بغداذ . قال فى "اللباب" : وهى فوق الأنبار. قال صاحب "التهذيب" : وسُمِّيت هيت لكونها فى هُوَة من الأرض . قال فى "اللبـاب" : وبها قبر عبد الله بن المبارك رحمه الله ؛ وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) حِيرَةُ . قال فى "اللباب" : بكسر الحاء المهملة وسكون المثناة من تحت وراء مهملة وهاء فى الآخر – وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول ثمان وستون درجة وخمس وعشرون دقيقة، والعرض ٱثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . [والحِيرة مدينة جاهلية كثيرة الأنهار، وهى عن الكُوفة علىٰ نحو فرسخ . وقال فى "العزيزى" : مدينة قديمة علىٰ ثلاثة أميال من الكوفة ؛ وكانت منازلَ آل النُّعمان بن المنذر، وبها تنصر المنذر بن ٱمرئ القيس وبنىٰ بها الكنائس العظيمة . والحِيرة علىٰ موضع يقال له النَّجَفُ ، زعم الأوائل أن بحر فارس كان يتصلُ به ؛ وبينهما اليوم مسافة بعيدة . قال فى "اللباب" : والحيرة مدينة قديمة عند الكوفة، وبها الخَوَرْنق . قال فى "الترتيب" : إن تُبَّعا لما سار من اليمن إلىٰ خُرَاسان وٱنتهىٰ إلىٰ موضعها ليلا فتحير ونزل وأمر ببنائها فسميت الحيرة .

(ومنها) الأنبـار . قال فى "المشــترك" : بفتح الهــمزة وسكون النون ثم باء موحدة مفتوحة وراء مهملة بعد الألف – وهى من آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . طولها تسع وسـتون درجة وثلاثون دقيقة ، وعرضها ثمـان وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة . قال فى "المشــترك" : والأنبار عن بغداد [(١)] علىٰ عشر فراسخ منها . قال فى "المشــترك" : وهى من نواحى بغداذ علىٰ شاطئ الفُرات . قال آبن حوقل : وهى أوّل بلاد العـراق ، وبها كان مُقَام السَّفَّاح : أوّل خلفاء بنى العباس حتّى مات ، ويقال إن أوّل ما نقلت الكتابة العربية إلىٰ مكة من الأنبار علىٰ ما تقدّم فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ الخط .

(ومنها) الكُوفَةُ . قال فى "اللباب" : بضم الكاف وسكون الواو ثم فاء وهاء – وهى مدينة إســلامية بُنِيت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، واقعةٌ فى الإقليم الثالث من الأقاليم الســبعة . قال فى "رسم المعمور" حيث الطول ثمان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، وهى علىٰ ذِرَاع[(٢)] من الفرات خارج منه جهة الجنوب والمغرب . قال فى "الترتيب" : وسميت كُوفة لآستدارتها ، أخذا من قول العرب رأيت كُوفانا إذا رأوا رملة مستديرة ، وقيــل لآجتماع الناس ، أخذا من قولهم تَكَوّف الرملُ إذا ركب بعضــه بعضا . وهى واقعــة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى " رسم المعمور " حيث الطول ثمان وستون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى " العزيزى " : وهى قدرُ نصــف بَغْدَاذ ، وعلىٰ القرب منها مشهد أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه حيث دُفِن ، يقصده الناس من أقطار الأرض .

(١) وقع فى الأصل سقط من الناسخ فى آثناء الكلام علىٰ الحيرة والأنبـار . وقد آستوفيناه من كتاب تقويم البلدان ، وأثبتناه بين دائرتين مربعتين هكذا [ ] .

(٢) فى معجم البلدان " شعبة " وهى المراد بالذراع .

(ومنها) البَصْرَةُ . قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون الصاد وفتح الراء المهملتين ـ وهى مدينة إسلامية بنيت فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أيضا ، واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول أربع وستون[(١)] درجة ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة ، وسميت بالبَصْرَةِ أخذا من البَصْرَة ، وهى الحجارة السود ، وفى جنوبيّها وغربيّها البَرِّيَّةُ ، وليس فى بَرِّيّتها ماء ، يزرع علىٰ المطر . قال فى "المشترك" : وبالبصرة مَحَلَّةٌ يقال لها المِرْبَدُ ـ بكسر الميم وسكون الراء المهملة وفتح البـاء الموحدة ثم دال مهملة ـ وهى محلة عظيمة من جهة البرِّيَّة كانت العرب تجتمع فيها من الأقطار ويتناشدون الأشعار ويبيعون ويشترون .

(ومنها) وَاسِطُ . قال السمعانىّ فى "الأنساب" : بفتح الواو وسكون الألف وكسر السين المهملة وطاء فى الآخر ـ وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : سميت واسط لتوسطها بين مُدُن العراق إذ منها إلىٰ البَصْرَةِ خمسون فرسخا ، ومنها إلىٰ الكُوفة خمسون فرسخا ، ومنها إلىٰ الأهواز خمسون فرسخا ، ومنها إلىٰ بغداذ خمسون فرسخا . وهى نصفان علىٰ جانبى دجلة بينهما جَسْرٌ من السُّفُن كما تقدّم فى بغداذ . قال فى "المشترك" : وهى من بناء الحَجَّاج آختطها بين الكوفة والبصرة فى سنة أربع وسبعين من الهجرة ، وفرغ منها فى سنة ست وسبعين .

(ومنها) حُلْوانَ . قال فى "المشترك" : بضم الحاء المهملة وسكون اللام . قال فى "اللبـاب" ثم ألف وواو ونون ـ وهى مدينـة من أوّل الإقليم الرابع . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وسبعون درجة ، والعرض أربع وثلاثون

(١) فى تقويم البلدان ومعجم البلدان : أربع وسبعون .

درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى آخر مُدُن العراق، ومنها يُصْعَد إلىٰ الجبال، وقيل هى من الجبـال، وليس بالعراق مدينة بالقرب من الجبـل غيرها . قال ٱبن حوقل : وبها شجر النخل والتين الموصوف، وأكثر ثمارها التين، والثلج يسقط علىٰ جبلها دائمـا، وهو منها علىٰ مرحلة، وبينها وبين بغداذ خمس مراحل .

(ومنها) الحِلَّة . قال فى "المشترك" : بكسر الحاء المهملة وتشديد اللام ـ وهى واقعة فى الإقليم الثـالث . قال فى "تقويم البُلْدان" حيث الطول ثمـان وسـتون درجة ، والعرض ٱثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ياقوت الحموىّ : وتعرف بحِلَّة بنى مَزْيَد . وأوّل من ٱختط بها المنازل وعَمَرَها سيفُ الدولة صدقةُ بن دُبَيْس بن علىّ بن مَزْيَد الأسدىّ فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وكان موضعها قبل ذلك يسمّى بالجامعين .

(ومنها) النَّهْرُوَانُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح النون وسكون الهـاء وضم الراء المهملة وفتح الواو وبعد الألف نون . وهى مدينة فى آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة علىٰ ضَفَّتَىْ نهر . قال فى "الأطوال" حيث الطول سـبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ٱبن حوقل : النَّهْرَوان ٱسم للمدينة والنهرِ الذى يشقها ،وهى مدينة صـغيرة علىٰ أربعـة فراسخ من بغداذ. قال فى "اللبـاب" : ولهـا عدّة [نوَاحٍ] خرب أكثرها . وقال السمعانىّ فى "الأنساب" : هى علىٰ أربعة فراسخ من دجلة، والنَّهْرُوان هـذه هى التى ٱنحاز إليها الخوارج عند فراقهم لعلىّ بعـد وقعة صِفِّينَ علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ النِّحَلِ والمِلَلِ فى المقالة الأولىٰ .

(ومنها) الأُبُلة . قال فى "تقويم البُلْدان": بضم الهمزة والبـاء الموحدة وتشديد اللام وهاء فى الآخر ـ وهى مدينة فى فُوَّهَتِها نهر طوله اربعة فراسخ بينها وبين البصرة

علىٰ جانبيه قصور و بساتين ومُدُن علىٰ خط واحد كأنها بُستان واحد ، وهو أحد متنزَّهات الدنيا .

(ومنها) القادِسيَّة — بفتح القاف ثم ألف ودال مهملة مكسورة و ياء مثناة من تحت ثم هاء . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانٍ وستون درجة وخمس وعشرون دقيقة ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وهى مدينة صغيرة ذات نخيل ومياه ، وهى علىٰ حَافَةِ البادية وحَافَةِ سَوَاد العراق ، البادية من جهة الغرب والسواد من جهة الشرق . قال فى "المشترك" : و بينها و بين الكُوفة خمسة عشر فرسخا فى طريق الحاج . قال فى "تقويم البُلْدان" : وسميت القادسية لنزول أهل قادس بها ، وقادِسُ قرية بمَرْو الرُّوذ ، وعليها كانت الوقعة المعروفة بوقعة القادِسيَّة .

(ومنها) عَبَّادَانُ — بفتح العين المهملة وتشديد الباء الموحدة ثم دال مهملة بين ألفين وفى آخرها نون — وهى بلدة من آخر العراق من الإقليم الثالث . قال فى "الزيج" : حيث الطولُ خمس وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة . قال ابن سعيد : وعَبَّادَانُ علىٰ بحر فارس ، وهو محيط بها لا يبقىٰ منها فى البر إلا القليل ، وعندها مَصَبُّ دِجْلَةَ فى جنوبىّ عَبَّادَانَ وشرقيها ، وهى عن البصرة علىٰ مرحلة ونصف ، وفى جنوبيها وشرقيها علاماتٌ للمراكب ببحر فارس لا تتجاوزها المراكب ، وهى خُشُبٌ منصوبة حيث يكون البَحْر عند الجَزْر فى بعض البحر . قال فى "العزيزى" : فى طريق العراق من الغرب القادسيةُ وهِيتُ ، ومن الشرق حُلْوَانُ ، ومن الشَّمال سُرَّمَنْ رَأىٰ ، ومن الجنوب الأُبُلَّةُ .

الإقليم الثـالث
(خُوزُسْتَانُ والأهْوَاز)

بضم الخاء وسكون الواو وضم الزاى المعجمة وسكون الســين المهملة وفتح التاء المثناة فوقُ وألف ثم نون . قال فى "المشترك" : ويقال لها أيضا الخُوزُ بضم الخاء المعجمة ثم واو وزاى معجمة . قال : وخُوزُسْــتانُ إقليم واسع بين البصرة وفارس يشــتمل على مُدُن كثيرة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والذى يُحِيط به من الغرب رُسْــتاقُ واسطَ ودُور الراســبِىّ ، ومن جهة الجَنُوب من عَبَّادان على البحر إلى مَهْرُوبانَ ، إلى الدَّوْرَق ، إلى حدود فارس ؛ ومن الجهة الشرقية التى إلى جهة الجنوب حدودُ فارس ؛ ومن الجهة الشرقيــة التى إلى جهة الشَّمال حدود أصــفَهان و بلاد الجبل ؛ ومن جهة الشَّمال حدودُ الصَّيْمَر ، والكرجة ، وجبال اللُّور ، و بلاد الجَبَل إلى أصفَهان . قال : وخُوزُســتان فى مستوٍ من الأرض ليس بها جبال ، وهى كثيرة المياه الجارية ، وتجتمع مياهه وتعْرُض وتتصل ببحر فارس عند حصن مَهْدِىٍّ .

وقاعدتها على ماذكره صاحب حماةَ فى "تاريخه" (تُسْتَرُ) . قال فى "اللباب" : بضم المثناة من فوق وسكون السين المهملة وفتح التاء الثانية وفى آخرها راء مهملة ، والعامة تسميها شُسْتر بإبدال التاء الأولى شينا — وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطولُ خمس وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعَرْض إحدى وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، وجعلها فى "تقويم البُلْدان" من الأهواز ، ولها نهر معروف بها ، بنى فيه سابور: أحد ملوك الفرس بناء عظيما حتّى آرتفع المــاء إلى المدينة ، على مرتفع من الأرض ؛ ويقال إنه ليس على وجه الأرض مدينة أقدمُ منها . قال فى "اللباب" : وبها قبر البَرَاءِ بن مالك الصحابىّ رضى الله عنه .

وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" : بخوزستان عدّة مُدُن .

(منها) السُّوسُ . قال فى "المشترك" : بضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية . قال أبو الرَّيحان : وهى بالفارسية معجمة . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ ثلاث وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى بلدة قديمة، قال : وبها قبر دانِيَالَ النبىّ عليه السلام. قال فى "تقويم البُلْدان" : ولها بساتين وفيها تُرُنْجُ كالأصابع .

(ومنها) الطِّيبُ . قال فى "المشترك" : بكسر الطاء المهملة وسكون المثناة من تحتها وفى آخرها باء موحدة، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى بلدة بين واسِطَ وبين الأَهْواز . ثم قال : وفيها عجائبُ ولم يذكر ما هى ؛ وإلى الطِّيبِ هذه ينسبُ الطِّيبِىُّ صاحبُ الحواشى على "كَشَّاف الزمخشرىّ" .

(ومنها) جُبّى (١) . قال فى "المشترك" : بضم الجيم وتشديد الباء الموحدة وياء آخر الحروف فى الآخر — وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم العُرْفية . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى كثيرة النخل . قال : وإليها ينسب أبو علىّ الجُبَّائى (٢) المعتزلىّ .

(ومنها) مَهْرُوبَانُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون الهاء وضم الراء المهملة وسكون الواو ثم باء موحدة وألف ونون . وعدّها آبن حوقل وآبن

(١) فى معجم البلدان "بالضم ثم التشديد والقصر" .
(٢) أى على غير قياس والقياس جُبّوىّ .

سعيد من فارس؛ وهى مدينة من فَارِسَ صـغيرة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . قال فى " القانون " حيث الطول ست وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة . وهى فرضة أَرْجَانَ وما والاها . قال فى " العزيزى " : وهى على البحر .

(ومنهـا) أَرْجانُ . قال فى " اللباب " : بفتح الألف وسكون الراء المهملة وفتح الجيم وفى آخرها نون بعد الألف . وقال ابن الجواليقى فى المُعَرَّبِ من العجمية للعربيـة : إنها بتشديد الراء . وقال ابن حوقل : هى من آخر فارس من جهة خُوزُستان . وقال فى "العزيزى" : هى أوّل مُدُن فارس ـ وهى مدينة كبيرة كثيرة الخير، وبها النخل والزيتون بكثرة، بَرِّيَّةٌ بحرية، سُهْلِيَّة جَبَلِيَّة، على مرحلة من البحر. قال فى " العزيزى " : وهى مدينة جليلة لهـا كورة وأعمال نفيسة؛ وإليها ينسب القاضى الأَرَّجَانِىّ الأديب الشاعر .

وأما الأهواز . فقال فى " اللباب " : هى بفتح الألف وسكون الهاء وفى آخرها زاى معجمة . وهى كورة من كُوَر خُوزُستان المقـدّم ذكرها كما ذكره فى " تقويم البُلْدان" وإن كان قد ذكر فى أوّل الكلام على إقليم فارس أن خُوزُستان هى الأهواز إلا أنها غلب ذكرها فصارت كالإقليم المنفرد بذاته .

ولها عدّة مُدُن تعرف بها .

(منها) سُوق الأهواز ـ وهى مدينتها، فقد قال فى "المشترك" : وسوق الأهواز هى مدينة الأهواز، وذكر مثله فى "العزيزى" . قال فى " المشترك " : وقد خَرِب أكثرها . قال فى " العزيزى " : ومنها إلى أصفَهَان ثمـانون فرسخا .

(ومنها) قُرْقُوبُ . قال فى "اللباب" : بضم القافين و بينهما راء مهملة ثم واو وفى الآخر باء - وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث ، قال فى "القانون" حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعَرْض ثلاث وثلاثون درجة . وهى مدينة مشهورة . قال فى "اللباب" قريبة من الطِّيبِ قال فى "العزيزىّ" و بينهما سبعة فراسخ ومنها إلىٰ مدينة السُّوس عشرة فراسخ .

(ومنها) جُنْدَىْ سَابُورَ . قال فى "اللباب" : بضم الجيم وسكون النون وفتح الدال المهملة بعدها مثناة من تحتها وفتح السين المهملة وألف و باء موحدة وواو وراء مهملة . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس دقائق ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة خِصْبَةٌ كثيرة الخير . قال ٱبن حوقل : وبها نخيل وزروع كثيرة ومياه . قال فى "العزيزىّ" : منها إلىٰ تُسْتَر ثمانية فراسخ، ومنها إلى السُّوس ستة فراسخ .

(ومنها) عَسْكَرُ مُكْرَمٍ . قال فى "اللباب" : بفتح العين وسكون السين المهملتين وفتح الكاف وفى آخرها راء مهملة . قال فى "تقويم البلدان" : عن الثقات أن مكرم بضم الميم وسكون الكاف وفتح الراء المهملة ثم ميم - وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ست وسبعون درجة وثمان دقائق ، والعرض إحدىٰ وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة مُحْدَثة، وكانت قرية ينزلها مكرم بن الفُزر أحد بنى جَعْونَةَ بعسكر كان قد أنفذه به الحجاج لمحاربة خُرْداذ بن بارس، فأقام بها مدّة وٱبتنىٰ بها البنايات فسميت عَسْكَرَ مُكْرَمٍ . قال : وليس بالأهواز مدينة محدَثة سواها ، وبها عقارب صغار مشهورة بالقتل .

(ومنهـا) رَامَهُرْمُز . قال فى " اللباب " : بفتح الراء المهملة والميم وضم الهـاء وسكون الراء المهملة وضم الميم الثانية و فى آخرها زاى معجمة ـ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول ست وسبعون درجة والعرض ثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى " اللباب " : وهى كُورة من كُوَر الأهواز . قال ويقال إن سَلْمان الفارسىّ رضى الله عنه منهـا . قال المهلَّبىّ : وبينها وبين سُوق الأهواز تسعة عشر فرسخا .

(ومنهـا) الدَّوْرَقُ . قال فى "المشترك" : بفتح الدال المهملة وسكون الواو وفتح الراء المهملة وفى آخرها قاف ـ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى " القانون " حيث الطولُ خمس وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة . قال فى "العزيزىّ" : ومنها إلى أَرَّجَانَ ثمـانيةَ عشرَ فرسخا .

(ومنهـا) حِصْنُ مَهْدِىٍّ . وضبطه معروف ، وموقعه فى الإقليم الثـالث . قال فى " الأطوال " حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقـة، والعرض ثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وهو حِصْن تجتمع فيه مياه خُوزُستان ثم تصير نهرا و تصب فى بحر فارس، و بينه وبين البصرة خمسةَ عشرَ فرسخا .

(ومنها) جُرْخَانُ . قال فى "اللباب" : بضم الجيم وسكون الراء المهملة وخاء معجمة ثم ألف ونون . قال : وهى بلدة بقرب السُّوس .

(ومنها) جِبَال اللُّور . قال فى "اللبـاب" : بضم اللام وسكون الواو وفى آخرها راء مهملة . قال : وبها جبال يقال لهـا لُورُستان من بلاد خُوزُستان . وقال ابن حوقل : غالبُ بلاد اللُّور جبال وكانت قديمـا من خُوزُسـتان . قال فى " تقويم البُلْدان" : وهى بلاد خِصْبَةٌ والغالب عليها الجبال ، وهى متصلة بخوزستان ولكن

أُفْردت عنها . قال فى "الأطوال" : وهى بين تُسْتَر وأصْبَهَان ، وآمتدادها طولا نحو ستة أيام ، وفيها خَلْق عظيم من الأكراد . قال : وهى حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض آثنتان وثلاثون درجة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم طائفة كثيرة العدد ومنهم فِرَق مفرَّقة فى البلاد ، وفيهم مُلْك وإمارة ، ولهم خِفَّة فى الحركات يقف الرجل منهم إلى جانب البناء المرتفع ويُلْصِق بطنه باحدى زواياه القائمة ثم يصعد فيه إلى أن يرتقى صَهْوته العُلْيا .

ومما يحكى أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب حضره رجل منهم وصَعِد فى جدار كذلك ، فأنعم عليه الإنعامَ الجزيلَ وأمره أن يُحْضِر كل من قدر عليه من أصحابه فأحضر منهم جماعة ، وهو يُحْسِن إليهم إلى أن لم يبقَ منهم أحدٌ فقتلهم عن آخرهم خشيةً مما لهم من قوّة التسوّر ؛ ومن هؤلاء طوائف بمصر والشأم يُعْرَفون بالنَّوَرة ، يجالس أحدهم الرجل فيَسْرِق ماله وهو لا يدرى ، ويمشون على الحبال المرتفعة ولنسائهم فى ركوب الخيل الفُرُوسيةُ العظيمة .

الإقليم الرابع
(فارس)

بفاء مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة مكسورة وسين مهملة فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويحيط ببلاد فارس من جهة الغرب حدودُ خُوزُسْتَانَ ، وتمام الحدّ الغربى إلى جهة الشَّمال حدودُ أصْفَهَان والجبال ؛ ويحيط بها من جهة الجنوب بحر فارس ، ومن جهة الشرق حدود كَرْمَانَ ، ومن جهة الشَّمال المَفَازة التى بين فارس ونُحَرَاسان ، وتمام الحدّ الشَّمالىّ حدود أصْفَهَان وبلاد الجبال ؛ قال فى "العزيزى" : وعلى نهاية فارس الشرقية ناحية يَزْد ، وعلى نهايتها من الجنوب سِيرَافُ والبحر ، وحدُّها

من الشمال الرّىّ . قال آبن حوقل : وقاعدتُها فيما ذكره صاحب حماة فى تاريخه : (شيراز) . قال فى "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء المهملة وفى آخرها زاى معجمــة بعــد الألف ــ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعَرْض ثمان وعشرون درجة وست وثلاثون دقيقة . قال آبن حوقل : وهى مدينةٌ إسلامية مُحْدَثة، بناها محمد بن القاسم بن أبى عقيل(١) الثَّقفى، وهو آبن عم الحجاج بن يوسف . قال : وسميت بشِيراز تشبيها بجوف الأسد لأن عامَّة المِيرة بتلك النواحى تُحْمَل إلىٰ شِيراز ولا يحمل منهــا شىء إلىٰ غيرها . قال المهلَّبى : وهى مدينة واســعة سرية كثيرة المياه، وشربهم من عيون تخترق البلد وتجرى فى دُورهم، وليس تكاد تخلو دار بها من بُستان حسن ومياه تجرى، وأسواقها عامرة جليلة؛ وإليها ينسب الشيخ أبو إسحاق الشــيرازى صاحب "التنبيه" رحمه الله؛ وبهــا قبر سيبويه النحوى، وبينها وبين أصبهان آثنان وسبعون فرسخا؛ وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنهــا) جُورُ . قال فى "اللباب" : بضم الجيم ثم واو وراء مهملة ــ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال آبن سعيد حيث الطول ثمــان وسبعون درجة، والعَرْض إحدىٰ وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من قواعد فارس . قال آبن حوقل : وعليها سور من طين وخنــدقٌ؛ ولهــا أربعة أبواب وفيها المياه جارية ــ وهى مدينة نَزِهَةٌ كثيرة البساتين جدّا ويرتفع منها ماء ورد يعمُّ البلاد، وهى فى ذلك كدمَشْق . قال "العزيزى" : ومنهــا إلىٰ شيرازَ أربعة وعشرون فرسخا، وقال فى موضع آخر عشرون فرسخا .

(١) كذا فى التقويم أيضا وفى معجم البلدان آبن عقيل .

(ومنها) كَازَرُونُ . قال فى "اللباب" : بفتح الكاف وسكون الألف وفتح الزاى المعجمة وضم الراء المهملة وواو ساكنة وفى آخرها نون — وهى مدينة من كُورة سابورَ واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وسبعون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى أعظم مدينة فى كُورة سابورَ . وقال المهلّبىّ : هى مدينة لطيفة صالحة العمارة . قال ابن حوقل : وهى صحيحة التُّربة والهواء وماؤها من الآبار. قال فى "اللباب" : وخرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) فَيْرُوزَاباذ . قال فى "المشترك" : بفتح الفاء وكسرها وسكون المثناة من تحت وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وزاى معجمة ثم ألف وباء موحدة وألف ثانية وذال(١) — وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وعشر دقائق . قال فى "المشترك" : وكانت تسمّى فى القديم جُور ثم غُيِّرَ اسمها ، وهى بلدة مشهورة على القرب من شيرازَ ، وهى أصل بلد الشيخ أبى إسحاق الشيرازىّ المقدّم ذكره فى شيراز .

(ومنها) سِيرَافُ . قال فى "اللباب" : بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحت وفتح الراء المهملة وفاء فى الآخر — وهى بلدة على البحر واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وسبعون درجة ، والعرض ست وعشرون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى أعظم فُرْضَةٍ لفارس ، وليس لها زرع ولا ضرع بل هى مدينة حَطٍّ وإقلاع للمراكب ؛ وهى مدينة آهلة ، ولهم عناية بالبُنْيان حتّى إن الرجل من التجار ينفق فى عمارة داره ثلاثين ألف

(١) أى معجمة كما فى التقويم والمعجم .

دينار، وليس حولها بساتينُ ولا أشجـار، وبناؤهم بالساج والخشب، يحمل اليهم من بلاد الزِّنْج، وهى شديدة الحرّ .

(ومنهـا) البَيْضَاء ـ بفتح الموحدة وسكون اليـاء المثناة من تحت وفتح الضاد المعجمة وألف فى الآخر . وهى مدينـة من عمل إصْطَخْرَ واقعـةٌ فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطول ثمـان وسبعون درجة وأربعون دقيقـة، والعرض ثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى من أكبر مُدُن كورة إصْطَخْرَ . قال : وسميت البيضاء لأن لهـا قلعة بيضاء ترىٰ من بُعْد، وٱسمها بالفارسية نشانك، ويقال إن الحسين الحَلَّاج منها، وإليها ينسب القاضى ناصر الدين البيضاوىّ صاحب "المنهـاج" فى أصول الفقه، و"الطوالع" فى علم الكلام وغير ذلك . قال المهلبىّ : وبينها وبين شِيرَازَ ثمـانية فراسخ .

(ومنهـا) إصْطَخْرُ . قال فى "اللباب" : بكسر الألف وسكون الصـاد وفتح الطاء المهـملتين وفى آخرها راء مهملة قبلها خاء معجمة ـ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . قال ٱبن سـعيد حيث الطول تسع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وٱثنتان وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من أقدم مُدُن فارس، وبها كان سرير المُلْك فى القديم؛ وبها آثار عظيمة من الأبنِيَة حتّى يقال إنها من عمل الجنّ كما يقال عن تَدْمُرَ وبَعْلَبَكَّ من بلاد الشام . قال فى "العزيزىّ" : وبينها وبين شيرازَ ٱثنـا عشر فرسخا . قال (١) [وينسب اليها] أبو سعيد الإصطخرىّ أحد أصحابنا الشافعية .

(ومنهـا) بَسَا . قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة والسين المهملة ثم ألف ـ وهى مدينة من كورة دَارَا بجِرْد واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال

(١) الزائد مأخوذ بالمعنىٰ من "معجم البلدان" .

فى " الأطوال " حيث الطول ثمان وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرض تسع وعشرون درجة . قال ابن حوقل : وهى تقارب شيراز فى الكبر وأكثر خشب أبنيتها السَّرْوُ، ويجتمع فيها الثَّلْجُ (؟) والرُّطَبُ والجوز والأُتْرُجُّ، وإليها ينسب البَسَاسيرىّ الذى خطب لخلفاء مصر فى بغداد .

(ومنها) يَزْد . قال السمعانىّ فى "الأنساب" : بفتح المثناة التحتية وسكون الزاى المعجمة وفى آخرها دال مهملة — وهى مدينة من كورة إصْطَخْرَ. قال فى " الأطوال " حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . خرج منها جماعة من العلماء وإليها ينسب القُمَاش اليَزْدِىّ .

ومنها — (دَارَا بجِرْد) . قال فى "اللباب" : بفتح الدال المهملة وسكون الألفين بينهما راء ثم باء موحدة وجيم مكسورة وراء مهملة ساكنة وفى آخرها دال مهملة — وهى مدينة من فارس واقعة فى الإقليم الثالث . قال فى " القانون " حيث الطول ثمان وسبعون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : ومعنى دارابجرد عَمَل دارا ، وهى مدينة لها سور وخَنْدَقٌ تتولد المياه فيه، وفيه حشيش يلتف على السابح فيه حتّى لا يكاد يسلم من الغَرَق، وفى وسط المدينة جبلٌ كالقُبَّة ليس له اتصال بشىء من الجبال، وبنواحيها جبال من المِلْح الأبيض والأسود والأصفر والأحمر والأخضر، ينحت منه ويحمل منها إلى البلاد. قال فى "المشترك" : وعملها من أجَلِّ كُوَر فارس . قال فى " العزيزىّ " : وبأعمالها معدن مُومِيَا ومعدن زئبق .

الإقلـــيم الخـامس
(كَرْمانَ)

كما قاله فى "مسالك الأبصـار" : قال فى "المشترك" : بفتح الكاف، ومنهم من يكسرها . قال : وهو صُقْع كبير بين فارس وسِجِسْتَانَ ومُكْرانَ من بلاد الهند . ويحيط به من جهة الغرب حدود فارس، ومن جهة الجنوب بحر فارس، ومن جهة الشرق أرض مُكْران من وراء البَلُوص إلىٰ البحر، ومن الشمال المَفَازة التى هى فيما بين فارس وكَرْمانَ و بين خُرَاسان . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وأرض كَرْمَانَ داخلة فى البحر، وللبحر ساعدان قد ٱعتنقا أرض كرمان ، فالبحر علىٰ ساحل كَرْمَانَ قطعة قوس من دائرة . وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة فى "تاريخه" السِّيرَجان . قال فى "اللبـاب" : بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها والراء المهـملة وفتح الجيم و بعـد الألف نون ـ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . قال فى "رسم المعمور" حيث الطول ثلاث وثمانون درجة، والعَرْض ٱثنتان وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى أكبر مدينة بكَرْمَانَ، وأبنيتها أقباءٌ لقلة الخشب بها وداخلها قُنِيّ الماء . قال فى "اللباب" : وهى ممـا يلى فارس .

وتشتمل كرمان علىٰ عدّة مُدُن .

(منهـا) جِيْرُفْتُ (١) . قال فى "اللباب" : بكسر الجيم وسكون المثناة تحتُ وضم الراء المهملة وسكون الفاء وفى آخرها تاء مثناة من فوق ـ وموقعها فى الإقليم الثالث . قال فى "الأطوال" : حيث الطول ثلاث وثمانون درجة، والعرض ٱثنتان وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة مجمع للتجار الواصلين من خُرَاسَانَ وسِجِسْتَانَ،

(١) ضبطها ياقوت بفتح الراء .

وهى حَصِينة للغاية . قال المهلبىّ: وهى من أعظم مدينة بكَرْمان كثيرةُ النخل والأُتْرُجّ وبينها وبين السِّيرجان مرحلتان .

(ومنها) زَرَنْدُ . قال فى "المشترك": بفتح الزاى المعجمة والراء المهملة وسكون النون وفى آخرها دال مهملة — وموقعها فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وثمانون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة مشهورة . قال "المهلّبىّ" : وبينها وبين مدينة السِّيرجان تسعة وعشرون فرسخا .

(ومنها) بَمّ . قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وتشديد الميم — وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "العزيزىّ" : وهى من كبار مُدُن كَرْمَانَ ، وهى مصر من الأمصار . قال ابن حوقل : وهى أكبر من جيرُفْتَ ، وبها ثلاثة جوامع .

(ومنها) هُرْمُزُ . قال فى "المشترك" : بضم الهاء وسكون الراء المهملة وضم الميم وفى آخرها زاى معجمة — وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول خمس وثمانون درجة، والعرض اثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البلدان" : وهى فُرضة كَرْمَانَ . قال فى "المشترك" : تدخل إليها المراكب من بحر الهند فى خليج . قال صاحب حماة : وهى مدينة كثيرة النخل شديدة الحرّ . ثم قال : أخبرنى من رآها فى زماننا يعنى فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون أن هُرْمُزَ العتيقة خربت من غارات التتر وأن أهلها انتقلوا عنها إلى جزيرة فى البحر تسمّى زَرُونَ — بفتح الزاى المعجمة وضم الراء المهملة ثم واو وفى الآخر نون — وهى جزيرة قريبة من البر غربىّ هُرْمُزَ العتيقة ،

ولم يبق بهرمز العتيقة إلا قليـل من أطراف الناس ؛ ومنها إلىٰ أول حدود فارس نحو سبع مراحل .

قلت : وفى سنة ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة كُتِب إلىٰ صاحبها عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية فى الدولة الناصرية أبى السعادات فرج بن السلطان الشهيد الظاهر برقوق، وسـيأتى الكلام علىٰ صورة المكاتبة إليه فى المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

الإقلـــــيم السادس
(سجِسْتان والرُّخَّج)

أما سِجِسْتَانُ فقال فى " المشـترك " : بكسر السين المهملة وكسر الجيم وسكون السين الثانية ثم مثناة من فوقها وألف ونون . قال : وسِجِسْتَانُ إقليم عظيم بين خُرَاسَانَ وبين مُكْرَانَ والسند وبين كَرْمَانَ . قال ابن حوقل : ويحيط بسِجِسْتَانَ من جهة الغرب خُرَاسَان، ومن جهة الجنوب المفازة التى بين سجستان وفارس وكَرْمَانَ، ومن جهة الشرق مَفَازة بين سجستان وبين مُكْران، وهى المفازة الواصـلة بين مُكْران والهند (١)، وتمام الحدّ الشرقىّ فى شىء من عمل المُلْتان من الهند، ومن جهـة الشَّمال أرض الهند، وفيما يلى خراسـان والغُور والهند تقويس . وقال فى " العزيزىّ " : سجسـتان شرقىّ كَرْمَانَ إلىٰ الشمال . قال ابن حوقل : وأراضى سِجِسـتان بها الرمال والنخيل، وهى أرض سَهْلة لا يُرىٰ فيها جبل، وتشتدّ بها الريح وتدوم، وبها أرحية تطحن بالريح ، والرياحُ تنقل رمالهم من مكان إلىٰ مكان ، وإذا أرادوا نقل الرمل عن مكانٍ، عملوا هنـاك حائطا من خشب أو غيره وجعلوا فى أسـفله طوقا وأبوابا

(١) فى "تقويم البلدان" والسند وهو الصواب بدليل ماسيأتى .

فتدخل فيهـا الريح من تلك الأبواب وتطيِّر الرمل وترميه بعيدا؛ وسجستان خِصْبَةٌ كثيرة الطعام والتمر والأعناب وأهلها ظاهرو اليسار . وقال فى "اللباب" : والنسبة إلىٰ سجستان سِجْزِىٌّ بكسر السين المهملة وسكون الجيم ثم زاى معجمة علىٰ غير قياس . قال : وينسب إليها سِجِسْتَانىّ أيضا يعنى علىٰ الأصل .

وقاعدتها (زَرَنْجُ) . قال فى "اللباب": بفتح الزاى المعجمة والراء المهملة وسكون النون وجيم فى الآخر ـ وهى مدينة كبيرة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول سبع وثمـانون درجة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقـة . قال آبن حوقل : وقد يطلق علىٰ زَرَنْجَ نفسِها سِجِسْتَانُ . قال فى " المشـترك " : بل أُنْسِى آسم زرنج وأطلق آسم الإقليم وهو سجسـتان علىٰ المدينة . وجعل فى"اللباب" : زَرَنْج ناحية بسجستان . قال آبن حوقل : ولهـا سُورٌ وخَنْدَقٌ يَنْبُعُ فيه المـاء، وأبنيتها عقود لأن الخشب فيها يسَوِّس ولا يثْبُت . وفيها مياه تجرى فى البيوت والأزِقَّة وأرضها سـبخة . قال فى " اللباب " : وخرج منها جماعة من العلماء منهم محمد بن كَرَّام الزَّرَنْجِىّ صاحب المذهب المشهور .

ولهـا مُدُن .

(منها) حِصْن الطاق ـ وضبطه معروف . قال آبن سعيد : وهو حصن واقع فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة . قال فى " القـانون " حيث الطول ثمـان وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة، علىٰ جبل عنـد آلتواء النهر فى غاية المَنَعَةِ لايرام بِحِصـار . قال وبه يعتصم ملوك هـذه البلاد ويجعلون فيه خزائنهم . أما الطاقُ المضاف إليها فمدينة صغيرة لهـا رُسْـتاق، وبها أعناب كثيرة يتسع بها أهل سِجِستان .

(ومنها) سَرْوَانُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : قال بعض الثِّقَاتِ ـ بفتح السين وسكون الراء المهملتين وفتح الواو ثم ألف ونون ـ وهى مدينة من آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وعشرون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة صغيرة بها فواكه كثيرة ونخيل وأعناب .

(ومنها) بُسْتُ . قال فى "اللباب" : بضم الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفى آخرها تاء مثناة من فوقها ـ وهى مدينة علىٰ شط نهر الهِنْدَمَنْد . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وتسعون درجة وثمان وثلاثون دقيقة ، والعرضُ ٱثنتان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة كبيرة خِصْبَةٌ كثيرة النخل والأعناب . وقال فى "اللباب" : هى مدينة حَسَنة كثيرة المياه والخُضْرة . وقال فى "العزيزىّ" : مدينة جليلة بها عدّة منابر ورِبَاطات كثيرة عظيمة . وذكر فى "اللباب" : أنها من بلاد كابُل بين هراةَ وغَزْنة . قال ٱبن حوقل : وبينها وبين غَزْنة نحو أربعَ عشرةَ مرحلة .

وأما (الرُّخَّج) فقال فى "اللباب" : بضم الراء المهملة وفتح الخاء المعجمة المشدّدة وفى آخرها جيم . قال ٱبن حوقل : وهو إقليم عظيم متصل بسِجِسْتان فيه عدّة مُدُن وهى علىٰ غاية الخِصْبِ والسَّعَة . قال : ومن مدنها بنجوان (؟) ولم يزد علىٰ ذلك .

الجانب الثانى
(من مملكة إيران الشَّمالىّ)

ويشتمل علىٰ عدّة أقاليم من الأقاليم العرفية .

الإقلـــيم الأوّل

(إرْمِينِيَــةُ)

قال ياقوت : بكسر الهــمزة وسكون الراء المهملة وكسر الميم وسكون اليـاء آخر الحروف وكسر النون ثم ياء ثانية مخففة وقد تشدّد ـ وضـبطها فى " اللبـاب " : بفتح الهمزة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وقد جمع أرباب المسالك والممالك إرمينية وأرّان وأَذْرَ بِيجَـانَ لعُسْر إفراد إحداها عن الأخرىٰ . قال : ويحيط بهـا علىٰ سبيل الإجمال من الغرب حدودُ بلاد الروم وشيء من حدود الجزيرة، ومن جهة الجَنُوب بعض حدود الجزيرة وحدود العِراق، ومن جهة الشرق بلاد الجِيل والدَّيلم، إلىٰ بحر الخَزَر، ومن جهة الشمال بلاد القَبْتَق، ثم أفرد أذْرَ بِيجان بحدود تخصها فقال : يحدّها من جهة الشرق بلاد الجيل وتمام الحدّ الشرقىّ بلاد الدَّيْلَم، ويحدّها من جهة الجنوب العراقُ عند ظهر حُلْوان وشيء من حدود الجزيرة . وذكر فى " مســالك الأبصار " نحوه إلا أنه ذكر أن حدّها الغربىّ إلىٰ بلاد الأرمن . قال ٱبن حوقل : والغــالب علىٰ إرمينية الجبال .

وقاعدتها (الدَّبِيل) فيما ذكره ٱبن حوقل والمهلَّبى . قال فى " المشترك " : وهى بفتح الدال المهــملة وكسر الباء الموحدة ثم مثناة من تحتها ساكنة وفى آخرها لام ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " القانون " حيث الطول ٱثنتان وسبعون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينــة كبيرة والنصارىٰ فيها كثيرة، وبهــا جامع للسلمين إلىٰ جانب كنيســة النصارىٰ . قال فى "العزيزى" : وهى من أجَلّ البلاد وأنفَسِها وهى مستقَرّ سلطانها .

وبها عدّة مدن .

(منها) أَرْزَنْجَانُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الزاى المعجمة وسكون النون وفتح الجيم ثم ألف ونون، ويقال بالكاف أيضا عوضا عن الجيم ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة. قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وستون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة. قال ابن سعيد : وهى بين سِيواسَ وبين أَرْزَنِ الروم؛ وبينها وبين كل واحدة منهما أربعون فرسخا ، وما بينها وبين أَرْزَن كلُّه مروج ومرعًى، وبها حاكم يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) أَرْزَنُ . قال فى "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الزاى المعجمة ثم نون فى الآخر . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وهى من أطراف إرمينية ــ وموقعها فى الإقليم الخـامس (١) من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وهى غير أَرْزَنِ الروم، وهى عن خِلَاطَ على ثلاثة أيام . قال : ووَهِم فى "اللباب" فجعلها من ديار بكر من الجزيرة ، والصحيح ما تقدّم . وصـاحبها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ما سيأتى ذكره فى الكلام على المكاتَبات فى المقالة الثانية فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

(ومنها) بِدْلِيسُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الباء الموحدة ثم دال مهملة ساكنة ولام وياء مثناة من تحت ساكنة وسين مهملة . قال : وعن بعضهم أنها بفتح الباء الموحدة ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وستون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثمـان وثلاثون درجة

(١) الذى فى "تقويم البلدان" أنها من آخر الرابع .

وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعض أهل تلك البلاد أنها بين ميَّا فَارِقِينَ وبين خِلَاطَ . قال : وهى مدينـة مسوّرة ، وقد خرب نصف سورها، والمياه تخترق المدينة من عيون فى ظاهرها، ولهـا بساتين فى وادٍ وهى بين جبال تَحُفُّ بها . قال وهى دون حمـاة فى القدر . وقال ٱبن حوقل : بلد صغير عامر خِصْبٌ كثير الخير ، وهى شـديدة البرد كثيرة الثُّلوج ، وصاحبها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانيـة بالديار المصرية علىٰ ما سـيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

(ومنها) أَخْلَاطُ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون الخاء المعجمة وفتح اللام ثم ألف وطاء مهـملة ، ويقال فيها خَلَاطُ (١) بفتح الخـاء من غير همـز ــ وموقعها فى الإقليم الخـامس . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وسـتون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض تسع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : عن بعض أهلها إنها فى مستو من الأرض ،ولها بساتين كثيرة ، وبها عِدّة أنهـار علىٰ شِبْه أنهار دِمَشْقَ ، وليس يدخل المدينة منها إلا الشىء اليسير،ولها سور خراب ، وهى قدرُ دِمَشْقَ ، والجبال عنها علىٰ أكثرَ من مسيرة يوم ، وبردها شديد . قال ٱبن سعيد : وهى أجل مدينة بإرمينية ، وذكرها جليل الشهرة . وقال ٱبن حوقل : وهى بلدة صغيرة عامرة كثيرة الخير . قال فى "العزيزى" : وبينها وبين بَدْلِيس سبعة فراسخ .

(ومنها) خِرْت بِرْت ــ بكسر الخـاء المعجمة وسكون الراء وتاء مثناة فوق ثم باء موحدة مكسـورة بعدها راء مهملة ساكنة وتاء مثنـاة فوق فى الآخر ، وتعرف

(١) ضبطها ياقوت بالكسر .

بحِصْن زِيَاد . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة بإرمينية على القرب من خِلَاط، وحاكمها يكاتَب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الإقلـــيم الثـانى
(أَذربيجان)

قال ابن الجواليقىّ فى "المعرّب من العُجْمة إلى العربية" بقصر الألف وإسكان الذال المعجمة . قال ابن حوقل : الغالب عليهـا الجبال أيضا . قال فى "مسالك الأبصـار" : وهى أجلُّ الأقاليم الثـلاثة ، وهى كانت قَرارَ ملوك بنى جنكزخان .

وبها ثلاث قواعد .

القـاعدة الأولى
(أَرْدُبِيـــل)

قال فى "اللباب" : بفتح الهمزة وسكون الراء وضم(١) الدال المهملتين وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة من تحت ولام فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وخمسون دقيقة، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال فى "اللباب" : لعله بناها أردبيل بن أردمينى بن لمطى بن يونان فنسبت إليه . قال فى "العزيزىّ" : وهى فى الجهـة الشمالية من أذْرَبيجان . قال : وهى مدينة كثيرة الخِصْب، وعلى فرسخين منها جبل عظيم الارتفاع لايفارقه الثلج . قال المهلَّبىّ : وأهلها غليظو الطبع شَرِسُو الأخلاق . قال : وبينها وبين تبريز خمسـة وعشرون فرسخا . قال فى "مسالك الأبصار" : وأعمالها تكون ثلاثين فرسخا . قال : وبها كانت دار الإمارة فى صدر الإسلام .

(١) كذا فى التقويم أيضا وضبطه ياقوت بفتح الدال وهو المشهور .

القاعدة الثانيـــة
(تِـــبْرِيزُ)

قال فى "اللباب": بكسر المثناة من فوقُ وسكون الباء الموحدة وكسر الراء المهملة ثم مثناة من تحتُ وفى آخرها زاى معجمة ، والجارى على ألسنة العامّة توريز بالواو بدل الموحدة — وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال ابن سـعيد : وهى قاعدة أذربيجان فى عصرنا . قال فى "اللباب" : وهى أشهر بلدة بأَذْربيجانَ ؛ وبهـا كان كرسىّ بيت هُولَاكو من التتر، ثم انتقـل بعـد ذلك إلى السُّـلْطانية الآتى ذكرها . ومبـانيها بالقاشانىّ والجِصّ والكِلْس ، وبها مدارس حسنة ولهـا غُوطة رائقة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة أَعْرقت فى السعادة أنسابُها، وثبتت فى النِّعْمة قواعدها . قال : وهى مدينة غير كبيرة المقدار، والماء منساق إليها ؛ وبها أنواع الفواكه لكن ليست بغاية الكثرة، وأهلها من أكبر النـاس حِشْمه، وأكثرهم تظاهرا بنِعْمه؛ ولهم الأموال المَدِيدة ، والنعم الوافرة، والنفوس الأبِيَّة ؛ ولهم التجمل فى زِيّهم : من المأكول والمشروب، والملبوس والمركوب؛ وما منهم إلا من يأنَفُ أن يذكُر الدرهمَ فى معاملته، بل لا معاملة بينهم إلا بالدينار . وسيأتى ذكر مقدار دينارهم فى الكلام على معاملة هذه المملكة فيما بعد إن شاء الله تعـالى — وهى اليوم أمّ إيران جميعا لتوجُّه المقاصـد من كل جهة إليها، وبها مَحَطُّ رحال التُّجّار والسُّفّار،وبها دور أكثر الأمراء الكبراء المصاحبين لسلطانها لقربها من أرّجان محلّ مَشْتاهم . قال : ويشتدّ البرد بتوريز كثيرا ، وتتوالى الثلوج بها حتّى إن سَرَوَات أهلها يجـدّون فى آدِرِهم ، ليس فيها فرجة ولا يدخلها ضوء إلا ما يَرَوْنه من طاقات حيطانها من وراء الزجاج المركب عليها .

القاعدة الثالثـــــة
(السُّــلْطانِيَّة)

نسبة إلىٰ السلطان ، وآسمها قُنْغُرْلان . قال في "تقويم البُلْدان" : بضم القاف وسكون النون وضم الغين المعجمة وسكون الراء المهملة ولام ألف ونون ــ وموقعها في الإقليم الخـامس من الأقاليم السـبعة . قال في "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيث الطولُ ست وسـبعون درجة ، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال : وهي عن توريز في سمت المشرق بمَيْـلة يسيرة إلىٰ الجنوب علىٰ مسيرة ثمـانية أيام منها ــ وهي مدينة مُحْدَثة ، بناها خربندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، علىٰ القرب من جبال كِيلان ، علىٰ مسيرة يوم منها ، وجعلها كرسيّ مملكته ، وهي في مستو من الأرض ، ومياهها قُنِيّ ، قليلة البساتين والفواكه ، وإنمـا تجلب إليها الفواكه من البلاد المُصاقِبة لها . قال في "مسالك الأبصار" : وهي مدينة قد رُفـع بناؤها ، وآتسع فِنَاؤها ، وأُتْقِنت قسـمتها في الخطط والأسواق ، وجَلَبَ إليهـا بانيها الناسَ من أقطار مملكته ، وآستجلبهم إليها بمـا بسط لسُكَّانها من العدل والإحسان . قال : وهي الآن عامرة آهلة كأنما مر عليها مئون سنين لكثرة من آستوطنها وتأهّل بها وأولد من الولد فيها ، وقد مضتْ عليها مدّة بنوها مَبَالغ الرجال(١) ، وفيهم من جاز إلىٰ الآكتهال .

وبها عدّةُ مدُن غير هذه القواعد .

(منها) سَلَمَاسُ . قال في "اللباب" : بفتح السين المهملة واللام والميم وفي آخرها سين مهملة ــ وموقعها في الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال المهلّبيّ : وهي علىٰ آخر حدود أذربيجـان من الغرب ، وهي مصرٌ من الأمصار جليل والمتاجر بها وإليها متصلة .

(١) لعله "حتى بلغ بنوها" أو نحو ذلك .

(ومنها) خُوَىّ . قال فى "اللباب" : بضم الخاء وفتح الواو وتشديد المثناة من تحت — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى آخر مُدُن أذْرَبيجان، و بينها و بين سَلَمَاس أحد وعشرون ميلا .

(ومنها) أُرْمِيَة . قال فى "اللباب" : بضم الألف وسكون الراء المهملة والميم فى آخرها هاء بعد ياء مثناة من تحتها . قال آبن الجواليقىّ فى "المعرّب" : ويجوز فى قياس العربية تخفيف الياء منها وتشديدها — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال المهلّبىّ : وهى آخر حدود أذربيجان، وهى مدينة جليلة . قال : ويقال إن زَرَادشت نبىّ المجوس منها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعض أهلها أنها مدينة وُسْطىٰ عامرة، وهى فى أول الجبال وآخر الوطاة (١)، فى الغرب عن سَلَمَاس علىٰ ستة عشر فرسخا منها، و بينها و بين الموصل قاعدةِ الجزيرة أربعون فرسخا، والموصل فى سمت الغَرْب عنها؛ ولأُرْمِيَة قلعة علىٰ جبل تسمّى قلعة تلا فى غاية الحَصَانة، كان هولاكو قد جعل أمواله فيها لحصانتها والنسبة إلىٰ أُرْمِيَة أُرْمَوِىّ .

(ومنها) مَرَاغَة . قال فى "المشترك" : بفتح الميم والراء المهملة وألف وغين معجمة وهاء — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشر دقائق، والعرض سبع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال المهلّبىّ : وهى مدينة مُحْدَثة كانت قرية، فنزل بها مَرْوَان بن محمد وكان

(١) الذى فى "تقويم البلدان" وهى فى آخر الجبال وأوّل الوطاة التى خلف جبال العجم .

هناك سِرْجِينٌ فمرّغ الناسُ فيه دوابهم فبناها مدينة فسميت مراغة. قال ابن حوقل : وهى من قواعد أذربيجان، وهى حصينة، نزهة (١) كثيرة البساتين والرساتيق .

(ومنها) ميَانِجُ . قال فى "المشترك": بفتح الميم والمثناة من تحتها وسكون الألف وكسر النون وفى آخرها جيم - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطولُ ثلاث وسبعون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال فى " المشترك " : وهى مدينة كبيرة على مسيرة يومين من مَرَاغةَ . وسماها فى " اللباب " : ميَانه بفتح الميم والمثناة من تحتها وألف ونون وهاء . وقال : خرج منها جماعةٌ من العلماء .

(ومنها) مَرَنْدُ. قال فى "اللباب": بفتح الميم والراء المهملة وسكون النون وفى آخرها دال مهملة - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال فى "اللباب" : وهى قريةٌ من تِبرِيزَ فى جهة الشرق عنها بميلة يسيرة إلى الشّمال . وقال المهلبىّ : هى عن تَدْمر على أربعة عشر فرسخا . قال فى " تقويم البُلْدان " : وذكر مَنْ رءاها أنها بلدة صغيرة ذاتُ أنهار وأشجار .

الإقليم الثالث

(أرّان)

قال فى " المشترك " : بفتح الهمزة وتشديد الراء المهملة ثم ألف ونون .

ولها قاعدتان .

---

(١) فى " تقويم البلدان " عن ابن حوقل " خصبة " .

القاعدة الأولى

(بَرْدَعَةُ)

قال فى "اللباب" : بفتح البـاء الموحدة وسكون الراء وفتح الدال المهملتين ثم عين مهملة وهاء فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قاعدة مَمْلَكة أرّان . وقال فى "اللباب": هى من أقاصِى أذْرَبيجان . قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة كثيرة الخِصْب نَزِهة . قال : وعلى أقل من فرسخ منها موضع [يسمَّى الأندراب يكون](١) مسيرة يوم فى يوم بساتينُ مشتبكة كلها فواكه . قال المؤيد صاحب حماة : هذا ما كانت عليه فى زمان ابن حوقل، أما فى زماننا فأخبرنى من رءاها أنها خَرِبت ولم يبق منها معمور إلا دون المَعَرَّةِ فى القدر، وهى فى مستوٍ من الأرض، ذاتُ بساتين ومياه، وهى على القرب من نهر الكُرِّ .

القـاعدة الثانيـة

(تَفْلِيسُ)

قال فى "اللبـاب" : بفتح المثناة فوق وسكون الفاء وكسر اللام وسكون المثناة التحتية وفى آخرها سين مهملة ـ وموقعها فى آخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : وهى قَصَبة كرجستان . وقال فى "اللباب" : هى آخر بلدة من أذْرَبيجـان . قال ابن حوقل : وهى مدينـة مسوّرة عليها سُورَانِ، ولهـا ثلاثة أبواب، وبها حَمّـامات مثـل حَمّامات طَبَرِيَّةَ ماؤها ينبعُ سخنا بغير نار، وهى كثيرة

---

(١) الزيادة عن "تقويم البلدان" .

الخِصْبِ . قال آبن سعيد : وكان المسلمون قد فتحوها وسكنوها مدّة طويلة، وخرج منها جماعة من العلماء، ثم آسترجعها الكُرْج وهم نصارىٰ، وهى بأيدى الكُرْج إلىٰ الآن؛ وملك الكُرْج صاحبها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ.

وبها عِدَّة مدن .

(منها) نَشَوىٰ . قال السمعانىّ فى "الأنساب" : بفتح النون والشين المعجمة وفى آخرها واو ثم ياء آخر الحروف (١) . وسماها آبن سعيد نَقْجَوان ــ بفتح النون وسكون القاف وفتح الجيم والواو وبعد الألف نون ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ إحدىٰ وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال آبن سعيد : وهى من المدن المذكورة فى شرقىّ أرّان . "قال السمعانىّ" : وهى بلدة متصلة بإرمينية وأذْرَبيجان . قال آبن سعيد : وهى فى شمالىّ نهر الكُرِّ . قال فى "الأنساب" : وبينها وبين تِبْريز ستة فراسخ . قال آبن سعيد : وقد خَرَّبها التتر وقتلوا جميع أهلها .

(ومنها) مُوقَان . قال فى "اللباب" : بضم الميم وسكون الواو وفتح القاف وسكون الألف وفى آخرها نون، والعامّة تُبْدِل القاف غينا معجمة فيقولون مُوغان . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال السمعانىّ : وهى بدَرْبَنْد فيما أظن، وقال المهلَّبىّ : هى من عمل أَرْدُبيل . وقال المهلبىّ : مُوقَانُ فى نهاية بلاد كِيلَانَ فى جهة الغرب . قال آبن حوقل : وبينها وبين باب الأبواب يومان . قال فى "تقويم البُلْدان" : لم يبق لمدينة مُوقَان فى هذا الزمان شهرة بل المشهور أراضى مُوقَان، وهى أراضٍ كثيرةُ المياه والأقصاب والمَرَاعى

(١) أى فى الرسم وإلا فهى مقصورة .

فى ساحل بحر طَبَرِسْتَانَ على القرب من البحر، وهى فى سَمْت الشَّمال والغرب، عن تِبْرِيز على نحو عشر مراحل منها، وبها يشتى أرْدو التتر فى غالب السنين .

(ومنها) شَمْكُورُ . قال فى "اللباب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الميم وضم الكاف وسكون الواو وفى آخرها راء مهملة ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطولُ ثلاث وسبعون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهو حصن من أعمال أرّان . قال فى " تقويم البُلْدان " : وشَمْكُور بقُرْب بَرْدَعة، وبها منارة فى غاية الآرتفاع والشُّهوق .

(ومنها) البَيْلَقَان . قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون المثناة من تحت وفتح اللام والقاف ثم ألف ونون . قال فى " القانون " حيث الطول أربع وستون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . وهى عند شَرْوان . قال : ولعلها بناها بَيْلَقَان بن أرمينى بن لمطى بن يونان فنسبت إليه . قال فى "اللباب" : وهى مدينة من دَرْبَنْدِ خَزْران . قال فى " المشترك " : وهى من مشاهير البُلْدان . قال آبن حوقل : وهى كثيرة الخَيْر .

(ومنها) كَنْجَة . قال فى " تقويم البُلْدان" : بفتح الكاف وسكون النون وفتح الجيم ثم هاء ساكنة ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطولُ أربع وسبعون درجة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وعشر دقائق . قال فى" المشترك " : وهى من مشاهير بلاد أرّان . قال المؤيد صاحب حماة : وأخبرنى مَنْ أقام هناك أنها على مرحلتين من بَرْدَعَةَ، وبردعة عنها فى جهة الغرب بمَيْلة يسيرة إلى الشمال، وهى قصبة تلك الناحية، وهى فى مستو من الأرض وفيها بساتين كثيرة، وبها التين الكثير. وقد شهر أن من أكل من ذلك التين حُمّ .

(ومنهـا) شَرْوان . قال فى "اللبـاب" : بفتح الشـين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح الواو ثم ألف ونون فى الآخر ـ وهى واقعـة فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة . قال ٱبن سـعيد حيث الطول ثمان وستون درجة وست وخمسون دقيقـة، والعرض إحدىٰ وأربعون درجة وثلاث وأربعون دقيقة . قال فى "اللبـاب" : بناها أَنُو شَرْوان فأسـقطوا أنو للتخفيف وبقى شَرْوان . قال ٱبن سعيد : وهى من أرّان ، وكانت قاعدةً لبلادها، ثم صارت مملكتها مضافة إلىٰ أذْرَبيجان . قال : وبِشَرْوانَ الدَّرْبَنْد المشهور. قال السلطان عمـاد الدين صاحب حماة : وهو المعروف فى زماننا بدَرْبَنْد باب الحديد . قال ٱبن الأثير: وقد خرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) باب الأبواب . قال فى "تقويم البُلْدان" : بإضافة الباب المفرد الذى يُدْخَل منه إلىٰ جمعه . قال فى "القانون": ويعرف باب الأبواب بدَرْبَنْد خَزْران . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويعرف هذا المكان فى زماننا بباب الحديد بإضافة الذى يغلق إلىٰ الذى يتطرّق. قال ٱبن حوقل : وهى علىٰ بحر طَبَرِسْتَانَ، وتكون فى القدر أصغر من أرْدُبيل . قال : ولهم الزرع الكثير وثمـار قليلة تحمل إليهم من النواحى . قال : وهى فُرْضَـة الخَزَر والسَّرير وسائر بلاد الكفر، وهى أيضـا فُرْضَـة جُرْجان والدَّيْلَم وطَبَرِسْتَانَ، ويجلب إليهـا الرقيق من سائر الأجناس . قال فى "تقويم البلدان": وهذه الصفات التى ذكرها ٱبن حوقل علىٰ ما كانت فى زمانه ؛ أمّا اليوم فعن بعض المسافرين أن باب الحديد بُلَيدة هى بالقُرىٰ أشـبه ، علىٰ بحر الخَزَر وهى كالحدّ بين التتر الشماليين المعروفين ببيت بَرَكة وبين التتر الجنوبيين المعروفين ببيت هُولاكُو، وبهـا حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

الإقلـــيم الرابع
(بلاد الجَبَـــل)

بفتح الجيم والباء الموحدة ولام فى الآخر، وصاحب "مسالك الأبصار" يسميها بلاد الجبال علىٰ الجمع، والعامة تسميها عِراق العجم . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويحيط بها من جهة الغرب أذْرَبيجان، ومن جهة الجنوب شيء من بلاد العراق وخُوزُسْتان، ومن جهة الشرق مفازة خُرَاسان وفارس، ومن جهة الشَّمال بلاد الدَّيْلَم وقَزْوين والرِّىّ عنـد منَ يخرجهما عن بلاد الجبل و يضمهما إلىٰ الدَّيْلَم من حيث إن جبال الديلم تَحُفُّ بهما .

وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة فى "تاريخه" (أصْبَهَان) . قال فى "اللباب": بكسر الألف وفتحها وسكون الصاد المهملة وفتح الباء الموحدة والهاء وألف ثم نون فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وقد تبدل البـاء فاء . قال السمعانىّ : وسمعتُ من بعضهم أنها تسمَّى بالعجمية سباهان . قال وسبا العسكر، وهان الجمع . وذلك أن عسـاكر الأكاسرة كانوا إذا وقع لهم بيكار يجتمعون بها فعربت فقيـل أصفَهَان ـ وموقعها فى الإقليم الثالث . قال فى "القانون" حيث الطولُ سبع وسبعون درجة وخمسون دقيقة . والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقـة . قال آبن حوقل : وهى فى نهاية الجبال من جهة الجنوب . قال : وهى مدينتان و إحداهمـا تعرف باليهودِيَّة، وهى من أخصب البلاد وأوسعها خِطَّة، وبها معدن الكُحْل الذى لايسامىٰ، مصاقبا لفارس، وإلىٰ أصْبَهَان ينسب الليث بن سعد الإمامُ الكبير .

قلت : وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أعمال الديار المصرية من أوّل هذه المقالة عند ذكر الأعمـال القليوبية أنه ينسب إلىٰ بلدتنا قَلْقَشَنْدَة أيضا وأنه كان له دار بهـا،

فيحتمل أنه كان أولا بأصبهان، ثم لما رحل عنها إلىٰ مصر نزل قَلْقَشَنْدَة فنسب إليها علىٰ عادة من ينتقل من بلد إلىٰ آخر.

ولها عدّة مدن.

(منها) إِرْبِل. قال فى "المشترك": بكسر الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الباء الموحدة ولام فى الآخر. قال فى "تقويم البلدان": وهى قاعدة بلاد شَهْرَزُور، وموقعها فى الإقليم الرابع. قال ابن سعيد حيث الطولُ سبعون درجةً وعشرون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة. قال: وهى مدينة مُحْدَثة. قال فى "المشترك": بين الزَّابَيْن، فيما بين المشرق والجنوب عن المَوْصِل، علىٰ مسيرة يومين خفيفين. قال فى "تقويم البُلْدان": وعن بعض أهلها أنها مدينة كبيرة قد خَرِب غالبُها، ولها قلعة علىٰ تلٍّ عالٍ داخل السور مع جانب المدينة فى مستوٍ من الأرض، والجبال منها علىٰ أكثر من مسيرة يوم، ولها قُنِىٌّ تدخل منها آثنتان إلىٰ المدينة للجامع ودار السلطان؛ وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية.

(ومنها) شَهْرُزُور. قال فى "اللباب": بفتح الشين المعجمة وسكون الهاء وضم الراء (١) المهملة والزاى المعجمة وسكون الواو وفى الآخر راء مهملة — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال فى "رسم المعمور" حيث الطول سبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة. قال فى "اللباب": وهى بلدة بين المَوْصِل وبين هَمَذَان بناها زُورُ بن الضَّحَّاك فقيل شهر زور، يعنى مدينة شهر (٢). قال ابن حوقل: وهى مدينة صغيرة. قال فى "العزيزى": وهى خِصْبة كثيرة المتاجر فى عُزْلَةٍ إلا أن فى أهلها غِلْظَةً وجفاء. قال: وبينها وبين المَرَاغة ست مراحل.

(١) ضبطها ياقوت بفتح الراء وهو المشهور. (٢) فى تقويم البلدان "مدينة زور" وهو الصواب.

(ومنها) الدَّيْنَوَرُ . قال فى "اللباب" : بفتح الدال المهملة وسكون المثناة من تحت وفتح النون والواو ثم راء مهملة فى الآخر — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطولُ ست وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى غربىّ هَمَذان بميلة إلىٰ الشَّمال ، وهى مدينة كثيرة المياهِ والمنازهِ كثيرةُ الثمار خِصْبة . قال فى "العزيزىّ" : وبينها وبين المَوْصِل أربعون فرسخا ، وبينها وبين مراغة كذلك .

(ومنها) مَاسَبَذَانُ — بفتح الميم وبعد الألف سين مهملة وباء موحدة وذال معجمة بفتح الجميع وبعد الألف نون . وهى مدينة من سِيرَوَانَ — بكسر السين المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الراء المهملة وواو وألف ونون . كورة من كُوَرِ عراق العجم . قال أحمد بن يعقوب الكاتب : وهى مدينة قديمة بين جبال وشِعَاب . قال : وهى فى ذلك تشبه مكة شرفها الله تعالىٰ وعَظَّمَها ، وفيها عيون ماء تجرى فى وسطها . قال ٱبن خِلّكَانَ : وكان المهدىّ العباسىّ يسكنها وبها مات ودفن .

(ومنها) قصر شِـيرِين — بإضافة قصر إلىٰ شِيرِين — بكسر الشين المعجمة ثم ياء آخر الحروف وراء مهملة ثم ياء ثانية بعدها ونون فى الآخر — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وسبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهو قصر شِيرِينَ حَظِيَّة كسرىٰ أَبْرَوِيز . وقال الإدريسىّ : شِيرِين ٱمرأة كسرىٰ . قال : وبهذا الموضع آثارٌ لملوك الفُرْسِ عجيبة ، ومنه إلىٰ شَهْرُزور عشرون فرسخا ، ومنه إلىٰ حُلْوان من بلاد العراق خمسة فراسخ .

(ومنها) الصَّيْمَرَةُ . قال فى "المشترك" : بفتح الصاد المهملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الميم والراء المهملة وهاء فى الآخر — وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "القانون" :

حيث الطول إحدى وسبعون درجة وخمسون دقيقة، والعرض أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة صغيرة نَزِهة ذات زروع وأشجار، والمياه تجرى فى دُورها ومحالِّها . قال أحمد بن يعقوب : وهى فى مَرْجٍ أفْيَحَ، فيه عيون وأنهار .

(ومنها) قِرْمِيسِينُ . قال فى "اللباب" : بكسر القاف وسكون الراء المهملة وكسر الميم وسكون المثناة من تحتها وكسر السين المهملة ومثناة تحتية ثانية ونون فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : ووجدناها فى كثير من الكتب بإبدال الياء الأولى ألفا . قال فى "اللباب": وهى مدينة بجبال العراق ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "اللباب" : ويقال لها كِرْمانشاه . قال فى "العزيزى" : وهى من أجلِّ مُدُن الجبل وأعظمها خطرا، وهى عامرة غاصَّة بالناس . قال : وينبت بها الزعفران .

(ومنها) سُهْرَوَرْدُ . قال فى "اللباب" : بضم السين المهملة وسكون الهاء وفتح الواو وسكون الراء الثانية وفى آخرها دال مهملة . قال فى "تقويم البُلْدان" : كذا ضبطها ولم يذكر الراء الأولى ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة صغيرة، والغالب عليها الأكراد .

(ومنها) زَنْجَانُ . قال فى "اللباب" : بفتح الزاى المعجمة وسكون النون وفتح الجيم وألف ونون ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثلاث وسبعون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى أقصى مُدُن الجبال

فى الشمال . قال فى " اللبـاب " : وهى على حدّ أذْرَبيجان من بلاد الجبل ، ينسب إليها جماعةٌ من أهل العلم .

(ومنها) نُهَاوَنْدُ . قال فى " اللباب " : بضم النون (١) وفتح الهـاء وسكون الألف وفتح الواو وسكون النون وبعدها دال مهـملة ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطولُ ثلاث وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرضُ أربع وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة على جبل ، ولهـا أنهار وبساتينُ ، وهى كثيرة الفواكه ، وفواكهها تحمل إلى العراق لجودتها . قال فى " اللباب " : ويقال إنها من بناء نوح عليه الســلام ، وإنه كان ٱسمها نوح أو ند ، فأبدلوا الحاء هاء .

(ومنها) هَمَذَانُ . قال فى " الأنساب " : بفتح الهاء والميم والذال المعجمة وبعد الألف نون ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول أربع وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى وسط بلاد الجبال ، ومنها إلى حُلْوَانَ : أوّلِ بلاد العراق سبعةٌ وستون فرسخا . قال : وهى مدينة كبيرة ، ولهـا أربعة أبواب ، ولهـا مياه وبساتين وزروع كثيرة . قال فى " الأنساب " : وهى على طريق الحاجّ والقوافل .

(ومنها) أَبْهَرُ . قال فى " المشترك " : بفتح الهـمزة وسكون الباء الموحدة وفتح الهاء ثم راء مهملة ــ وموقِعُها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول أربع وسـبعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى " المشترك " : وهى مدينة بين قَزْوين وزَنْجان . قال ٱبن خرداذبه : ومنها إلى زَنْجان خمسة عشر فرسخا .

(١) قال ياقوت : "بفتح النون الأولى وتكسر" .

(ومنها) سَاوَة . قال فى "اللباب" : بفتح السين المهملة وبعـدها ألف ثم واو وهاء ــ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وسبعون درجة، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال "المهلّبى" : وهى مدينة جليلة علىٰ جادّة حُجَّاج خُرَاسَانَ، وبها الأسواق الحسنة، وبها المنازل الحسنة .

(ومنها) قَزْوِينُ . قال فى "اللباب" : بفتح القاف وسكون الزاى المعجمة وكسر الواو وسكون المثناة من تحت وفى آخرهـا نون ــ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "القـانون" و"رسم المعـمور" حيث الطول خمس وسـبعون درجة، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة لهـا حِصْن وماؤها من السماء والآبار، ولهـا قَنَاة صغيرة للشرب فقط . وهى مدينة حصينة، وبها أشجار وكروم كلُّها عِذْىٌ لاتسقىٰ، وليس بها ماء جار سوىٰ مايشرب ويجرى إلىٰ المسجد . قال ٱبن حوقل : وماء قناتها وَبِىء .

(ومنها) آبة . قال فى "المشترك" : بفتح الهمزة وسكون الألف ثم باء موحدة وهاء ــ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال : والعامّة تسميها آوة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وسـبعون درجة وعشر دقائق، والعرض أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال المهلّبى : وهى مدينة فى الشرق بٱنحراف إلىٰ الشَّمال عن هَمَذَان، وبينهما سبعة وعشرون فرسخا . قال فى "المشترك" : وبينها وبين ساوةَ خمسة أميـال .

(ومنها) قُمٌّ . قال فى "اللباب" : بضم القاف وتشديد الميم ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "رسم المعـمور" حيث الطول أربع وسبعون درجة وخمس عشرة دقيقـة، والعرض خمس وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "اللباب" : وكان بناؤها فى سنة ثلاث وثمانين للهجرة، بناها عبد الله بن سعد

والأحوص وإسحاق ونعيم وعبد الرحمن بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعرىّ من أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث عند آنهزامهم من الحجّاج، وكان مكانها سبع قرى فأهلكوا أهلها وبنوها مدينة، كل قرية محلة من محلات المدينة. قال آبن حوقل: وهى مدينة غير مسوّرة حصينة البناء، وماؤها من الآبار، وبها البساتين على السوانى، وبها شجر الفستق والبندق، وأهلها شيعة. قال المهلّبىّ: وهى فى مرج تقدير سَعَتِه عشرة فراسخ فى مثلها ثم تفضى إلى جبالها، وبها من الفستق ماليس بغيرها.

(ومنها) الطَّالَقَان. قال فى "المشترك": بفتح الطاء المهملة واللام والقاف ثم ألف ونون. وقال فى "اللباب": بتسكين اللام - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال فى "المشترك": وهو مدينة وكُورة بين توريز(١) وأبهر. قال آبن حوقل: وهى أقرب إلى الدَّيْلَم من قَزْوين. وقد أوردها فى "كتاب الأطوال" المنسوب للفرس مع بلاد الدَّيْلَم. قال أحمد الكاتب: وهى بين جبلين عظيمين، وهى تمس(٢) الطالقان بلاد خُرَاسان.

(ومنها) قَاشَانُ. قال فى "اللباب": بفتح القاف وسكون الألف وبالشين المعجمة وبعد الألف نون. قال: ويقال بالسين المهملة أيضا - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وسبعون درجة، والعرض أربع وثلاثون درجة. قال المهلبىّ: وهى مدينة لطيفة. قال آبن حوقل: هى أصغر من قُمّ وغالب بنائها بالطين، وهى خِصْبَةٌ، وقد خرج منها جماعة من العلماء. قال فى "اللباب": وأهلها شِيعَةٌ.

---

(١) فى تقويم البلدان، بين قزوين وأبهر.

(٢) كذا فى الأصل بالاهمال، ولعله وهى غير الطالقان ببلاد الخ.

(ومنها) الرَّىّ . قال فى ”اللباب“ : بفتح الراء وتشديد اليــاء آخر الحروف . قال فى ” القانون “ حيث الطول ثمــانٍ وسبعون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقــة . قال آبن حوقل : وهى مدينة كبيرة، قدرُ عمارتها فرسخ ونصف فى مثــله، وفيها نهران يجريان، وبهــا قُنِىّ تجرى غير ذلك . وعدّها فى ” اللباب “ من الدَّيْلَم، ويخرج منها قُطْنٌ كثير للعراق ، وبها قبر محمد بن الحسن صاحب الإمام أبى حنيفة،والكسائىّ أحد القرّاء السبعة،والنسبة إليها رازِىّ علىٰ غير قياس، وإليها ينسب الإمام فخر الدين الرازىّ الإمام المشهور .

(ومنها) الكَرَجُ . قال فى ” المشترك “ : بفتح الكاف والراء المهملة وفى آخرها جيم ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى ”القانون“ حيث الطول ست وســبعون درجة وأربعون دقيقــة، والعرض أربع وثلاثون درجة . قال آبن حوقل : وهى مدينة متفرّقة البناء ليس لهــا آجتماع المُدُن ، وتعرف بكَرَجِ أبى دُلَف . قال فى ”المشترك“: لأن أوّل من مَصَّرَهَا أبودُلَف القاسمُ بن عيسىٰ العِجْلىّ وقصــده الشعراء . قال آبن حوقل : ولها زروع ومواشٍ ، ولكن ليس لها بساتين ولا متنزَّهات، والفواكه تجلب إليها .

(ومنها) خُوَارُ . قال فى ”المشترك“: بضم الخاء المعجمة وتخفيف الواو وسكون الألف وراء مهــملة فى الآخر ــ وموقعها فى الإقليم الخــامس من الأقاليم السبعة . قال فى ” القانون “ حيث الطول ثمــانٍ وسبعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال فى ” المشترك “ : وهى مدينة من نواحى الرَّىّ تخترقها القوافل . قال فى ”القانون“ : وقَلَّما يذكر إلا منسوبا إلىٰ الرىّ فيقال خُوارُ الرَّىّ .

(ومنها) جبال الأكراد . قال فى "مسالك الأبصار" : والمراد بهذه الجبال الجبالُ الحاجزة بين ديار العرب وديار العجم، دون أماكن مَنْ توغل من الأكراد فى بلاد العجم . قال : وٱبتداؤها جبال هَمَذان وشَهْرُزُور، وٱنتهاؤها صَيَاصِى الكَفَرة من بلاد التكفور، وهى مملكة سِيس وما هو مضاف إليها مما بأيدى بيت لاون، ثم ذكر منها عشرين مكانا فى كل مكان منها طائفةٌ من الأكراد .

الأوّل — (دياوشت) . من جبال هَمَذان وشَهْرُزُور، وهو مُقَامُ طائفة من الأكراد ولهم أمير يخصهم .

الثانى — (درانتك) . وهو مُقَام طائفة ثانية من الكورانية أيضا، ولهم أمير يخصُّهم . قال فى "مسالك الأبصار" : والطائفتان جميعا لا تزيد عدّتهم علىٰ خمسة آلاف رجل .

الثالث — دانترك ونهاوند إلىٰ قرب شَهْرُزُور . وهى مُقَام طائفة منهم تعرف بالكلالية، يعرفون بجماعة سيف، عدّتهم ألف رجل مقاتلة، ولهم أمير يخصهم، وهو يحكم علىٰ مَنْ جاورهم من الأكراد .

الرابع — مكان بجوار ديار الكلالية المقدّم ذكرهم بجبال هَمَذَان . وهو مُقَام طائفة من الأكراد يقال لهم زنكلية، وعدّتهم نحو ألفين ذوو شجاعة وحيلة، ولهم أمير يخصهم، يحكم علىٰ بلاد كيكور وما جاورها من البقاع والكُوَرِ .

الخامس — نواحى شَهْرزور . قال فى "مسالك الأبصار" : كان يسكنها طوائف(١) من الأكراد طائفتان إحداهما يقال لها اللوسة والأخرىٰ يقال لها الباسرية، رجالُ حَرْب، وأقيالُ طعنٍ وضرب؛ نزحوا عنها بعد واقعة بغداد، ووفدوا إلىٰ مصر والشام، وسكن فى أماكنهم قومٌ يقال لهم الحوسة ليسوا من صميم الأكراد .

(١) لعل هذا اللفظ زائد من الناسخ .

السادس ـ مكان بين شهرزور وبين أُشْنُه من أذْرَبيجـان؛ به طائفة من الأكراد يقال لهم السولية، يبلغ عددهم نحو ألفى رجل؛ وهم ذوو شجـاعة وَحِمِيَّـةٍ، وهم طائفتان لكل طائفة منهم أمير يخصّهم .

السابع ـ بلاد بسقاد ـ وهى مُقَام طائفة من الأكراد يقال لهم القرياوية وبيدهم من بلاد أزبك أماكنُ أخر، قال : وعددهم يزيد علىٰ أربعـة آلاف، ولهم أمير يخصّهم .

الثـامن ـ بلاد الكركار ـ وهى مُقَام طائفة منهم يقال لها الحسنانية، وهم علىٰ ثلاثة أبطن : أحدها طائفة عيسىٰ بن شهاب الدين، ولهم خفر قلعة برى والحامى، وثانيها طائفة تعرف بالتلية، وثالثهـا طائفة تعرف بالجاكية . وجميعهم نحو الألف رجل، ولكل طائفة منهم أمير يخصّهم .

التـاسع ـ دَرْبَنْد قراير ـ وهو مُقَام الطائفة القرياوية ، ولهم خفارة الدَّرْبَنْد المذكور، وصاحبه يكاتَبُ عن الأبواب السلطانيـة بالديار المصرية . وقد ذكر فى "التثقيف" أن صاحبه كان سيف الدين بن سير الحسنانى .

العاشر ـ بلاد الكرحين ودقوق الناقة ـ وبه طائفة منهم عدّتهم تزيد علىٰ سبعمائة ولهم أمير يخصهم .

الحادى عشر ـ بين الجبلين، من أعمال إربل . قال فى "مسالك الأبصار": وبها قوم كانوا يُدارُون التتر وملوكَ الديار المصرية . ففى الشتاء يعاملون التتر بالمجاملة، وفى الصيف يعينون سرايا الشام فى المجاملة . قال : وعددهم كعدد الكلالية، ولهم أمير يخصّهم . وذكر أنه كان لهم فى الدولة المنصورية قلاوون أميرٌ يسمّىٰ الخضر ابن سليمان ، كاتب شجاع ، وأنه وفد إلىٰ الديار المصرية فاخترمته المنية قبل عوده، وكان معه أربعة أولاد فعادوا بعد موته فى الدولة الزينية كتبغا .

الثـانى عشر ـ مازنجان ، و بيروه ، وسحمة ، والبلاد البرانية ـ وهى مُقَام طائفة منهم يقال لها المـازنجانية لا تزيد عدّتهم على خمسمائة ، وهم طائفة ينتسـبون إلى المحمدية ، والمـازنجانيـة هم طائفة المبارِزكَكْ الموجود آسمه ورسم المكاتبة إليه فى دساتير المكاتبات القديمة . وقد أضيف إليهم الحُمَيدية ، وهم طائفة من الأكراد لا تنقُص عدّتهم عن ألف مقاتل ، لأن أميرهم مبارز الدين كك ، كان من أمراء الخلافة فى الدولة العباسية ، ومن ديوان الخلافة لُقِّبَ بمبـارز الدين ، وكك آسمه . قال : وكان يَدَّعى الصلاحَ وتنـذر له النذور ، فإذا حملت إليه قبلها وأضـاف إليها مثلَها من عنده وتصدّق بهما معا . وذكر نحوه فى "التعريف" . ثم كان له فى الدولة الهُولاكُويَّة المكانةُ العلية ، وآستنابوه فى إربل وأعمالهـا ، وأقطعوه عقرشوش بكمالها وأضافوا إليه هراة وتل حفتون وقدّموه على خمسمائة فارس ، وتولّى الإمرة وقوانين(؟) نحو عشرين سنة ، و بقى حتّى جاوز التسعين وهمته همة الشُّبَّان ، ثم مات وخَلَفه ولده عز الدين ، فكان من أبيه نِعْمَ الخلفُ ، وجرى على نَهْج أبيه فى ترتيب المملكة وعلت رتبتُه عند ملوك التتر وملوك الديار المصرية ، ثم خلفه أخوه نجم الدين خضر فجرى على سمت أبيه وأخيه . ثم قال : وكانت تردُ على الأبواب السلطانيـة بمصر ونوّاب الشام كتب تتهلّل بمـاء الفَصَاحة كالسُّحُب ، وتسرح من أجنابهـا الأبكار العُرُب . ثم خلفه ولده فجرى على سَنَنِه و بقيت الإمارة فى بنيه . والأمير القائم منهم هو المعبر عنه فى الدساتير بصاحب عقرشوش ، وله مكاتبـة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الثالث عشر ـ بلاد شعلاباد إلى خُفْتيان ، وما بين ذلك من الدشت والدَّرْبند الكبير ـ وهو مُقَام طائفة منهم تعرف بالشهرية معروفون باللصوصـية ، وهم قوم لا يبلغ عددهم ألفا وجبالهم عاصـية ، ودَرْبندهم بين جبلين شاهقين يسقيهما الزاب

الكبير . قال فى ” مسالك الأبصار “ : وعليه ثلاث قناطر : آثنتان منها بالحجر والطين ، والوسطىٰ مضفورة من الخشب كالحصير ، علوها عن وجه الماء مائة ذراع فى الهواء ، وطولها بين الجبلين خمسون ذراعا فى عرض ذراعين ، تمرّ عليها الدوابُّ بأحمالها ، والخيل برجالها . وهى ترتفع وتنخفض ؛ يخاطر المجتاز عليها بنَفْسه ؛ وهم يأخذون الخِفَارة عندها ؛ وهم أهل غَدْر وخديعة لا يستطيع المسافر مدافعتهم ؛ ولهم أمير يخصّهم ؛ ولصاحبها مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الرابع عشر ــ ماذكرد والرستاق ، ومرت ، وجبل جنجرين المشرق علىٰ أُشْنُه من ذات اليمين ــ وهو مُقَام طائفة منهم يقال لهم الزرزارية ، ويقال إنهم ممن تكرَّد من العجم ، ولهم عدد جَمٌّ ، يكاد يبلغ خمسة آلاف مابين أمراءَ وأغنياء وفقراء وأكَّارين وغيرهم ، وجبلهم فى غاية العلو والشُّهُوق فى الهواء ، شديد البرد ، بأعلاه ثلاثة أحجار طول كل حجر منها عشرةُ أشبار فى عرض دون الثلاثة ، متخذة من الحجر الأخضر الماتع ، وعلىٰ كل منها كتابة قد آضمحلت لطول السنين ، يقال إنها نُصبت لمعنىٰ الإنذار والإخبار عمن أهلكه الثلج والبَرْدُ هناك فى الصيف ؛ وهم يأخذون الخِفَارة تحته . قال فى ” مسالك الأبصار “ : وكان لهم أمير جامع لكلمتهم آسمه نجم الدين باشاك ، ثم تولاهم من بعده آبنُه جيدة ، ثم آبنه عبد الله . قال : وكان لهم أمراءُ آخرون منهم الحُسَام شير الصغير ، وآبنه باشاك وغيرهم . قال : وينضم إلىٰ الزرزارية شرذمة قليلة تسمّىٰ باسم قريتها بالكان نحو ثلثمائة رجل منفردين بمكان مشرف علىٰ عقبة الخان يأخذون عليها الخِفَارة ؛ ولصاحب ما ذكرد مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية . ثم قال فى ” التثقيف “ : وهو حنش بن إسماعيل .

الخامس عشر ــ جولمرك ــ وهو مُقَام طائفة تسمّىٰ الجولمركية ، وهم قوم نسبوا إلىٰ مكانهم ذلك فعرفوا به ، ويقال : إنهم طائفة من العرب من بنى اميَّةَ آعتصموا

بهذه الجبال عند غَلَبة بنى العَبَّاس عليهم، وأقاموا بها بين الأكراد فآنخرطوا فى سِلْكِهم . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم الآن فى عَدَد كثير، يزيدون على ثلاثة آلاف، كان ملكهم فى أوائل دولة التتر أسد بن مكلان، ثم خلفه آبنه عماد الدين، ثم آبنه أسد الدين . و ببلاده معدن الزِّرْنيخين : الأحمر والأصفر، ومنها ينقل إلى سائر الأقطار . قال : وكان قد ظهر عنده معدن لازَوَرْد فأخفاه لئلا يسمع به ملوك التتر فيطلبونه، ومَعْقِله من أمنع المعاقل، على جبل مقطوع بذاته، والزابُ الكبير مُحْدِق به، لا مَحَطَّ للجيش عليه، ولا وصول للسهام إليه، وسطحه متسع للزراعة، وفى كل ضِلَع من أضلاعه كَهْفٌ مرتفع يأوِى إليه مَنْ أراد الآمتناع، وأعلاه مغمور بالثَّلْج، والصعودُ إليه فى بعض الطريق يستدعى العبورَ على أوتاد مضروبة . ومَن لا يستطيع التسلقَ جُرّ بالحبال، وكذلك بغال الطواحين . وملكهم معتَمَد عند الأكراد، وهو يأخذ الخِفَارة من جميع الطرقات من تبريز إلى خُوَىّ ونَقْجوان، وهذا هو المعبر عنه فى "التعريف" وغيره من الدساتير فى المكاتبات بصاحب جولمرك؛ وهو يكاتَبُ من الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

السادس عشر ـ بلاد مركوان . على القرب من الجولمركية، كثيرة الثلوج والأمطار، بلاد زرع وضرع ـ وهى متاخمة لأُرْمِيَة من بلاد أذْرَبيجان، وبها طائفة من الأكراد تبلغ عدّتهم ثلاثة آلاف، وهم أحلاف للجولمركية .

السابع عشر ـ بلاد كواردات ـ وهى بلاد مجاورة لبلاد الجولمركية من جهة بلاد الروم، وهى بلاد خِصْبة، وبها طائفة من الأكراد ينتسبون إليها لا إلى قبيلة، وعدّتهم نحو ثلاثة آلاف، ولهم أمير يخصهم .

الثامن عشر ـ بلاد الدِّينار ـ وهى بلاد تلى بلاد الجولمركية، وبها طائفة من الأكراد يقال لهم الدينارية نسبة إلى بلدتهم، وعددهم نحو خمسمائة، ولهم سوق و بلد،

وكان لهم أميران ، أحدهما الأمير إبراهيم بن الأمير محمد ، كان له وجه عند الخلفاء ، والثانى الشهاب بن بدر الدين ، توفى أبوه وخلَّفه كبيرا نخلفه فى إمرته ، وكان بينهم وبين المـازنجانية حروب .

التاسع عشر — بلاد العِمَادية وقلعة هارون . وهى بالقرب من بلاد الجولمركية ، وبهـا طائفة منهم يقال لهم الهَكَّارية يزيد عددهم علىٰ أربعـة آلاف مقاتل ، ولهم إمارة تخصهم . قال فى " مسالك الأبصار " : وهم يأخذون الخِفَارة فى أماكنَ كثيرة من بخارا إلىٰ بلد الجزيرة . وصـاحب هارون يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

العشرون — القمرانية وكهف داود — وبهـا طائفة منهم يقـال لهم التنبكية . قال فى " مسالك الأبصار " : وقليلٌ ما هم لكنهم حُمَاةٌ رُمَاةٌ وطعامهم مبذول علىٰ خَصَاصة .

وآعلم أنه بعد أن ذكر فى " مسالك الأبصار " ما تقدّم ذكره عَقَّبَ ذلك بذكر جمـاعة من الأكراد تفرّقوا فى الأقطار بعـد آجتماع ، منهم التحتية ، وهم قوم كانوا يضاهون الحُمَيْدية كان لهم أعيان وأمراء وأكابر ، فهلك أمراؤهم ونسيت كبراؤهم ، ولم يبق منهم إلا شرذمة قليلة تفرّقت بين القبائل والشعوب . ثم قال : وشُـعَبهم كثيرة : منهم السندية وهم أكثر شُعَبهم عددا ، وأوفَرُهم مَدَدا ، كانوا يبلغون ثلاثين ألف مقاتل . ومنهم المحمدية ، وكان لهم أمير لا يزيد جمعه علىٰ ستمائة رجل . ومنهم الراسنية ، كانوا أوفىٰ عدد وعُدَد ، وجَمْع ومَدَد ، ثم تشتت شملهم ، وتفرّق جمعهم ، وعادت عدّتهم فى بلد الموصل لا تزيد علىٰ ألف رجل ، وكان لهم أمير يقال له علاء الدين كورك بن إبراهيم فى بلد العَقْر ، ولا ينقص عن خمسمائة ، ومنهم الدنيكية ، وهم متفرّقون فى البلاد لا يزيد عددهم علىٰ ألف رجل .

قلت : وقد ذكر فى " التثقيف " عدّة أماكن من بلاد وقلاع يكاتَبُ أصحابها من الأكراد سوىٰ من تقدّم ذكره، وهى خمسة وعشرون موضعا .

إحداها ــ برجو . الثانية ــ البلهيثة . الثالثة ــ كرم ليس . الرابعة ــ اندشت . الخامسة ــ حردقيل . السادسة ــ سكراك . السابعة ــ قبليس . الثامنة ــ جرموك . التاسعة ــ شنكوس . العاشرة ــ بهرمان . الحادية عشرة ــ حصن أرَّان وهو حصن الملك . الثانية عشرة ــ ...... (١) الثالثة عشرة ــ سُونج . الرابعة عشرة ــ اكريسا . الخامسة عشرة ــ يزاركرد . السادسة عشرة ــ الزَّاب . السابعة عشرة ــ الزيتية . الثامنة عشرة ــ الدَّرْبَنْدات العرابلية . التاسعة عشرة ــ قلعة الجبلين . العشرون ــ سيدكان . الحادية والعشرون ــ صاحب رمادان . الثانية والعشرون ــ الشَّعْبانية . الثالثة والعشرون ــ نمرية . الرابعة والعشرون ــ المحمدية . الخامسة والعشرون ــ كزليك .

الإقليم الخامس

(بلاد الدَّيْلَم)

بفتح الدال المهملة وسكون الياء المثناة تحت وفتح اللام وميم فى الآخر . وهم جِيلٌ من الأعاجم سكَنُوا هذه البلادَ فعُرِفت بهم، وبعض الناس يزعم أنهم من العرب من بنى ضَبَّةَ ، ومنهم كان بنو بُوَيْهِ القائمون علىٰ خُلَفَاءِ بنى العَبَّاسِ ببغداد . قال ابن حوقل : وهى جبال متسعة إلىٰ الغاية، وبها غِيَاض ومياه مشتَبِكة فى الوجه الذى يقابل طَبَرِسْتَانَ والبحر ، وبين ذيل الجبل وبين البحر مسيرة يوم، وربما نقص عن ذلك، وربما زاد حتّى بلغ يومين .

(١) بياض بالأصل .

وقاعدتها (رُوذَبَار) . قال فى "المشترك" : بضم الراء المهملة وسكون الواو وفتح الذال المعجمة والبـاء الموحدة ثم ألف و راء مهملة فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى " الأطوال " حيث الطول خمس وسـبعون درجة وسبع وثلاثون دقيقة ، والعرض ستٌّ وثلاثون درجة و إحدىٰ وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : و به مُقَام ملوكهم .

ومن بلادها (كَلَار) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكاف ولام وألف وفى الآخر راء ـ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى " القـانون " حيث الطولُ سبع وسبعون درجة ،والعرضُ ست وثلاثون درجة . قال المهلَّبىّ : وهى مدينة الديلم ،وهى فى جهة الشرق والجنوب عن لَاهِجَان من بلاد كِيلَان .

الإقليم الســادس

(الجيـــلُ)

قال فى " المشـترك " : بكسر الجيم وسكون المثناة من تحت ثم لام ـ وهو اسم لصُـقْعٍ واسع مجاورٍ لبلاد الدَّيْلَم ، ليس فيه قرى كثيرة ، وليس فيه مدينة عظيمة . وقال فى " اللباب" : الجِيلُ اسم لبلاد متفرّقة وراء طَبَرِسْتَانَ . قال : ويقال لهـا أيضا كِيلَان وكِيل ، فلما عُرِّبت قيل جِيلَان وجِيل ، ومنها كُوشِيار الحكيم الجيلىّ فيما ذكره ياقوت ، وإليها ينسب الشيخ عبد القادر الكِيلَانِى ، و بالجملة فهما صُقْعَان متلاصقان يعسر تمييز أحدهما عن الآخر . قال فى "مسالك الأبصار" عن الشريف محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الواحد الجيلىّ : إن بلاد كِيلَان فى وطاة من الأرض ، وإنه يحيط بها أربعة حدود ؛ من الشرق إقليم مَازَنْدَرَان ، ومن الغرب مُوقَانُ ، ومن الجنوب عِراق العجم ، يفصل بينهما جبل يعرف باشـناده ، ومن الشَّمال بحر

القُلْزُمِ يعنى بحرَ طَبَرِسْتَانَ . قال : وطول مجموع كِيلان مما بأيدى ملوكها، وهو شرق بغرب نحو عشرة أيام ، وعرضها وهو جنوب بشمال نحو ثلاثة أيام تزيد وتنقص، وهى شديدة الأمطار، كثيرة الأنهار، كثيرة الفواكه خلا النخلَ والمَوْز وقصب السُّكَّر والمشمش، ويجلب إليها المحمضات من مازَنْدَران. قال : ومُدُن كِيلان غير مسوّرة، ولملوكهم قصور علية، وجميع مبانيها بالآجُرّ مفروشة به أيضا كما فى بغداد، مسقَّفة بالخشب، وبعضها معقودة أقباءً وعليها قَشٌّ مضفور، وفى غالب ديارها آبار قريبة المستقىٰ نحو ذراعين أو ثلاثة أو أقل ، والأنهار حاكمة علىٰ مُدُنها ؛ وبها حَمَّامَاتٌ يجرى إليها الماء من الأنهار؛ وبها المساجد والمدارس وتسمّى بها الخوانق، وغالب أقواتهم الأَرُزُّ يعمل منه الخبز والرُّقَاق مع تيسر القمح والشعير عندهم، والبقر والغنم عندهم بكثرة؛ وأسعارُهم متوسطة إلىٰ الرِّخَص؛ وبها الحرير الكثير. ولها حصون فى نواحى مازَنْدَرانَ وجزائرُ فى بحر طَبَرِسْتان، بها الرمان والبلوط والفواكه؛ وفيها تَحَصُّنُهم عند مغالبة العدو لهم؛ ولباسهم الأقبية الإسلامية الضَّيِّقَةُ الأكمام وتخافيف صغار علىٰ رءوسهم، ويشدّون المَنَاطق والبُنُود؛ وخيلهم براذِين، وفى سروجهم المحلّى بالفضة وغيرُه؛ ولملوكهم زِىّ جميل علىٰ ضيق بلادهم وقلة متحصِّلها، ويركب الملك بالرَّقَبة السلطانية والجُحَّاب والسِّلاحدارية والجمدارية والجنائب المجرورة، ويُتَّخَذ بظواهر قصور ملوكهم ميادينُ خُضْرٌ، فى أوساطها قصورٌ صغار من الخشب فيها جلوسهم للخِدَم والمظالم . ولايزال بين ملوكهم الخُلْف، فإذا قصدهم عدوّ خارجىٌّ عنهم تألفوا واجتمعوا عليه، حتّى إن هُولاكُو جهز إليهم جيشا عِدّته سبعون ألفا صحبة نائبه قَطْلوشاه فلم ينل منهم قصدا ، وكان آخرَ الأمر أن قُتِل قطلوشاه وهلك جُلُّ مَنْ معه . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بها ثمانَ قواعد بكل قاعدة منها مَلِكٌ، بعضهم أكبر من بعض ، وموقع جميعها فى الإقليم الرابع .

فأما الكبار فأربع[(١)] قواعد .

القـــاعدة الأولىٰ

(يُومِن)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الباء الموحدة التى بين الفاء والباء الموحدة وسكون الواو وكسر الميم ثم نون فى الآخر . قال : وهى قريبة من البحر، وبها فيما يحاذيها مَعْدِن حديد، وبهـا من معمولات القماش . قال فى "مسالك الأبصار" : وصاحبها شافعىّ المذهب دون غيره من ملوك الجيل، مذهب نشأ عليه ملوكها . قال : وعسكره يزيد علىٰ ألف فارس، وبلاده قليلة ولكن غالب دخله من التُّجَّار، والحرير بها كثير. قال : وصاحبها يَدَّعِى النسـبةَ إلىٰ بيت الشرف، وله ٱعتناء بأهل العـلم والفضل؛ ولباس الملك والجند بها نوع من لباس التَّتَر؛ ولباس غِلْمـانها قريب من زىّ التجار، ولهم عَذَبات كالصوفية قدّامهم؛ وعامة أهلها كغيرهم ممن جاورهم .

القـــاعدة الثـــانية

(تُولِمُ)

قال فى " تقويم البُـلْدان " : بضم المثناة الفوقية وواو ولام وميم، وصـاحب " مسالك الأبصار " يثبت فيها ياء مثناة تحتيـة بين اللام والميم – وهى قريبة من البحر أيضا . قال فى "مسالك الأبصار": وأمر صاحبها قريب من صاحب يُومِنَ ولكن لاحرير فى بلاده؛ وهو حَنْبَلِىّ المذهب، وعدّة عسـكره نحو ألف فارس وهم أفرس إخوانهم، ولهم علىٰ ملوك الجيل ٱستظهار لما ظهر من نِكايتهم فى عسكر التتر. قال : وزِيُّها كزِىّ يُومِن .

---

(١) لم يذكر إلا ثلاثا . ولعل الرابعة دولاب .

القاعدة الثالثة

(كُسْكَر)

قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح الكافين وسكون السين المهملة بينهما وراء مهملة فى الآخر. وقد ذكر أنها دُولَابُ ـ بضم الدال المهملة وسكون الواو ولام ألف وباء موحدة فى الآخر. قال: وعن السمعانىّ فتح الدال وأنه أفصح وأنها من حدود الدَّيْلَم. وذكر فى "اللباب" أنها قرية من أعمال الرَّىّ. قال فى "مسالك الأبصار": وصاحبها له صَوْلَةٌ فى ملوك تولِمَ، وجيشه أكثر عددا من غيره من ملوك الجيل، وبلاده أوسع، وأرضه أخْصَبُ وأكثر حَبًّا وفاكهةً وأغناما وأبقارا مما حولها، وهى كثيرة السمك والطير. ومنها الشيخ العارف السيد عبد القادر الكيلانى قدّس الله رُوحَه.

وأما الصِّغار فأربع أيضا.

القاعدة الأولى

(لَاهِجَانُ)

قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح اللام وبعدها ألف وهاء وجيم مفتوحتان ثم ألف بعدها نون، ثم قال: وهى من الدَّيْلَم أو كِيلان. قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وسبعون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة قال فى "تقويم البُلْدان": ومنها يجلب الحرير المشهور إلى البلاد. قال فى "مسالك الأبصار": وهى فى حال الحرير كما فى يومن بخلاف غيرهما من سائر بلاد الجيل.

القاعدة الثانية ـ (سخام).

القاعدة الثالثة ـ (مَرَسْت).

القاعدة الرابعة ـ (تنفس).

ولهـا عدة مُدُن غير القواعد .

(منها) كُوتُم . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الكاف[(١)] وواو ساكنة ثم تاء مثناة فوقية مضمومة ثم ميم فى الآخر- وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " القـانون " حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : قال من رآها إنهـا مدينة لها بساتين، وهى ناقلة عن البحر مسيرة يوم . قال المهلبىّ : وهى مدينة كبيرة للجيل .

(ومنهـا) سالُوسُ . قال فى " تقويم البُلْدان" : المشهور بالسين المهملة وألف ولام مضمومة وواو ساكنة ثم سين ثانية-وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وسبعون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى على البحر ولها مَنَعَةٌ وهى صعبة المسلك . قال المهلبىّ : وهى آخر حدّ طَبَرِسْتَانَ من جهة الغرب .

الإقليم السـابع

(طَبَرَسْتَانُ)

بفتح الطاء المهملة والبـاء الموحدة والراء المهملة[(٢)] وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة فوق وألف ثم نون . قال فى " تقويم البُـلْدان" : وهى فى جهة الشرق عن بلاد الديلم وكيلان . قال : وإنمـا سميت طَبَرَسْتَانَ لأن طَبَرَ بالفارسية الفَأْسُ، وهى من كثرة اشتباك أشجارها لا يسلك فيها الجَيْشُ إلا بعد أن تقطع الأشجـارُ بالطَّبَرِ من بين أيديهم، وآستان بالفارسـية الناحية، فسميت طَبَرَسْتَان أى ناحية

(١) ضبطها ياقوت بفتح الكاف والتاء .

(٢) ضبطه ياقوت بكسر الراء، وقد تابعناه فى ضبط ما تقدم .

الطَّابَرِ . قال فى " العزيزى " : وهى فى غاية المَنَعَة والحصانة بالجبال المنيعة المحيطة بها من كل جانب،وفى وسط الجبال الأراضى السهلةُ،وفيها من كثرة المياه والغياض ما لا يساويها فيه بلد آخر، وهى عن قَزْوِينَ فى الشرق بانحراف إلى الشَّمال . قال ٱبن حوقل : وهى بلاد كثيرة المياه والأشجار والغالبُ عليها الغِيَاض، وأبنيتها بالخشب والقَصَب، وهى بلاد كثيرة الأمطار . ويرتفع منها حريرٌ يعُمُّ الآفاق، وغالب خُبْزهم الأَرُزُّ . قال : وليس بجميع طَبَرَستان نهرٌ تجرى فيه السفن ، إلا أن البحر قريب منهم على أقلَّ من يوم . قال ٱبن خلِّكَانَ : والنسبة إليها طَبَرِىٌّ .

وقاعدتها (آمُلُ). قال فى "المشترك" : بهمزة مفتوحة بعدها ألف ثم ميم مضمومة ولام فى الآخر ــ وهى مدينة من طَبَرَسْتَانَ واقعةٌ فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول سبع وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال فى " القانون " : وهى قَصَبة طَبَرَسْتَانَ، وهى أكبر من قَزْوِينَ، مشتبكةٌ بالعمارة لايعلم على قدرها أعمر منها فى تلك النواحى . قال أحمد الكاتب : وهى على بحر الدَّيْلَمَ . وقال فى "المشترك" : هى أكبر مدينة بطَبَرَسْتَانَ . ومنها أبو جعفر محمد بن جرير الطَّبَرِىّ الإمام الكبير المشهور . ولها عدّة مدن .

(منها) رُويَانُ . قال فى " المشترك " : بضم الراء المهملة وسكون الواو ثم ياء مثناة من تحت وألف ونون ــ وهى مدينة من طَبَرَسْتَانَ واقعة فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " رسم المعمور " حيث الطول ست وسبعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس عشرة دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة كبيرة فى جبال طَبَرَسْتَانَ، ولها كورة عظيمة وعمل . قال فى " اللباب " : وخرج منها جماعة كثيرة من العلماء .

(ومنها) مَامَطِيرُ . قال فى "اللباب" : بفتح الميمين وكسر الطاء المهملة وسكون المثناة من تحت وراء مهملة فى الآخر . قال فى "اللبـاب"(١) : وهى بلدة من عمل آمُلَ، خرج منها جماعةٌ من العلماء .

(ومنها) دِهِسْتَانُ . قال فى "اللباب" : بكسر الدال المهملة والهـاء وسكون السين المهملة وفتح المثناة من فوق ثم ألف ونون . قال ابن حوقل : وهى مدينة من طَبَرَسْـتَانَ، وقيل هى من خُرَاسَانَ ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وثمـانون درجة وعشر دقائق، والعرض ثمـان وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة مشهورة عنـد مَازَنْدَرَانَ، بناها عبد الله بن طاهر، ومعناها بالفارسية موضع القُرىٰ، وهى آخر حدّ طَبَرِسْتَانَ بين جُرْجَانَ وخُوَارَزْمَ .

الإقليم الثـامن

(مَازَنْدَرَانُ)

بفتح الميم وبعـدها ألف وفتح الزاى المعجمة وسـكون النون وفتح الدال والراء المهملتين وألف ثم نون، وهو إقليم علىٰ القرب من طَبَرَسْتَانَ وقاعدتها (جُرْجَانُ) . قال فى "اللباب" : بضم الجيم وسكون الراء المهملة وجيم ثانية وألف وفى آخرها نون . قال فى "المشـترك" : والعجم تسميها كُرْكَانَ بضم الكاف وسكون الراء المهملة . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال "المهلَّبى" : وهى

---

(١) المقام للاضمار .

مدينة جليلة بين خُرَاسَانَ و بين طَبَرِسْتَانَ . فَخُوَارَزْمُ منها فى جهة الشرق وطَبَرِسْتَانُ منها فى جهة الغرب . قال : وهى بلدة كثيرة الأمطار، متصلة الشتاء، وفى وسطها نهر يجرى ، وهى قريبة من بحر الخزَر، والجبالُ مُحْتَفَّةٌ بها فهى سُهْلِيّة جَبَلِية، يجتمع فيها فواكه الغَوْر والنَّجْد . قال : وبها من خشب الخَلَنْج ماليس فى بلد آخر مثله .

ولهـا مُدُن أخرىٰ .

(منها) سَارِيَةُ . قال فى " اللباب " : بفتح السـين المهملة وألف وراء مهملة ومثناة من تحتها وهاء . قال فى " اللباب " : وهى مدينة من مَازَنْدَرَانَ . وقال ابن سعيد : من طَبَرَسْتَانَ ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . وفى شرقيها خُوَار الرَّىّ و بينهما نحو ثمـانين مِيلًا .

(ومنها) أَسْتَرَابَاذ . قال فى "المشـترك" : بفتح الهمزة . وقال فى "اللباب" : بفتح الهمزة(١) وسكون السـين المهملة وكسر(٢) المثناة من فوق وفتح الراء المهملة و بالباء الموحدة بين ألفين وفى آخرها ذال معجمة . قال فى " اللبـاب " : وقد يُلْحِقون فيها ألفا أخرىٰ بين التاء والراء . قال فى " المشـترك " : أستر آسم رجل واباذ آسم عمارة ، فكأنه قال عمارة أسـتر . وهى مدينة من مَازَنْدَرَانَ . وقيل من خُرَاسَانَ . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السـبعة . قال فى " القانون " حيث الطول تسع وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس دقائق . قال فى " العزيزى" : وهى علىٰ حدّ طَبَرَسْتَانَ، و بينها و بين آمُلَ : قصبةِ طَبَرَسْتَانَ تسعة وثلاثون فرسخا .

---

(١) الذى فى تقويم البلدان عن اللباب بكسر الألف .

(٢) ضبطها ياقوت بالفتح .

(ومنها) آبُسْكُونُ(١) . قال فى "اللباب" : بفتح الألف الممدودة وضم الباء الموحدة وسكون السين المهملة وضم الكاف وفى آخرها نون ـ وهى بلدة على ساحل بحر الخَزَرِ واقعةٌ فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وسبعون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وعشر دقائق . قال فى "القانون" : وهى فُرْضة جُرْجَانَ . قال ابن حوقل : وإليها ينسب بحر آبُسْكُون ، ومنها يركب إلى الخَزَر وإلى باب الأبواب والجيل والدَّيْلَم وغير ذلك .

الإقليم التاسع
(قُومَسُ)

قال فى "اللباب" : بضم القاف وسكون الواو وفتح الميم(٢) وفى آخرها سين مهملة . قال : ويقال لها بالفارسية كُومَس بإبدال القاف كافا . قال : وهى من بَسْطَامَ إلى سِمْنَان ، وهما من قُومَسَ بين خُراسانَ وبين الجبال ، أوّلها من ناحية الغرب سِمْنان . قال أحمد الكاتب : وقُومَسُ بلدٌ واسع جليل القدر . وقال فى "المشترك" : قُومَسُ موضع كبير فيه بلاد كثيرة وقُرًى ـ وقاعدتها (سِمْنَانُ) . قال فى "المشترك" : بكسر السين المهملة وسكون الميم ونونين بينهما ألف . قال فى "القانون" حيث الطول تسع وسبعون درجة وخمس عشرةَ دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة . قال فى "المشترك" : وهو بلد مشهور بين الرَّىّ والدَّامَغَانِ .

وبها مُدُن أيضا .

(منها) الدَّامَغَانُ . قال فى "اللباب" : بفتح الدال المهملة وألف وفتح الميم والغين المعجمة وألف ثانية ثم نون ـ وموقعها فى الإقليم الرابع . قال فى "القانون"

(١) ضبطها ياقوت بفتح الباء . (٢) ضبطها ياقوت بكسر الميم .

حيث الطولُ تسع وسبعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة .

(ومنها) بَسْطَامُ . قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون السين وفتح الطاء المهملتين وفى الآخر ميم ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "اللباب" : وهى بلدة مشهورة . قال ابن حوقل : ولها البساتين الكثيرة ، وهى كثيرة الفواكه، وإليها ينسب أبو يَزِيدَ البَسْطَامىّ الزاهد .

الإقليم العاشر
(خُرَاسَانُ)

قال فى "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وفتح الراء المهملة وألف ثم سين مهملة وألف ونون ــ وهى بلاد كثيرة . قال : وأهل العراق يقولون إنها من الرَّىِّ إلىٰ مَطْلَعِ الشمس، وبعضهم يقول من حُلْوَانَ إلىٰ مَطْلَعِ الشمس، ومعنىٰ خرآسمٌ للشمس، واسان موضعُ الشىء ومكانُه، وقيل معنىٰ خُرَاسَان كُلْ بالرَّفَاهِيَةِ . قال فى "تقويم البُلْدان": ويحيط بها من جهة الغرب المَفَازة التى بينها وبين بلاد الجِيل وجُرْجَانَ، ومن جهة الجنوب مفازة فاصلة بينها وبين فَارِسَ وقُومَسَ، ومن الشرق نواحى سِجِسْتَانَ وبلاد الهند، ومن جهة الشَّمال بلاد ماوراء النهر وشىءٌ من تُرْكُسْتَانَ . قال : وخُرَاسَانُ تشتمل علىٰ عدّة كُوَر كل كُورَةٍ منها نحو إقليم .

ومن كورها المشهورة (جُوَيْنُ) بضم الجيم وفتح الواو وسكون المثناة من تحت ونون فى الآخر . (وقُوهَسْتان) بضم القاف وسكون الواو وفتح الهاء (١) وسكون السين المهملة وفتح المثناة فوق وألف ثم نون . و(بَغْشُورُ) بفتح الباء الموحدة والغين المعجمة

(١) ضبطها ياقوت بكسر الهاء .

الساكنة ثم شين معجمة وواو وراء مهملة فى الآخر. و(مَرْوُ) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وواو فى الآخر. و(طُوسُ) بضم الطاء المهملة وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر. و(بَيْهَقُ) بفتح الباء الموحدة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح الهاء وقاف فى الآخر. و (بَاخَرْزُ) بفتح الباء الموحدة ثم ألف وخاء معجمة وراء مهملة ساكنة وزاى معجمة؛ وإليها ينسب الباخَرْزِىّ الذى أسلم علىٰ يديه بَرَكَةُ .

وقاعدتها فيما ذكره المؤيد صاحب حماة فى تاريخه (نَيْسَابُورُ) . قال فى "اللباب": بفتح النون وسكون المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وسكون الألف وضم الباء الموحدة وبعدها واو وراء مهملة . قال فى "اللباب" : وسميت نَيْسَابُورَ لأن سابور الملك لما رءاها ، قال : يصلح أن يكون هاهنا مدينـةٌ، وكانت قَصَبا فأمر بقطع القَصَب وأن تبنىٰ مدينة ، فقيـل نيسابور والنَّىْ هو القَصَبُ . قال ٱبن سعيد : والعجم تسميها نَشَاور . قال فى "تقويم البُلْدان" : وٱسمها الآن نَشَاوَرُ، يعنى بفتح النون والشين المعجمة وألفْ وفتح الواو وراء مهملة فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وعشرون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة مشهورة فى أرض سَهْلة ، وهى مفترشـة البناء مقدار فرسخ فى فرسخ، وبها قُنِىّ ماء، وهى صحيحة الهواء . قال فى "اللبـاب" : وهى أحسن مُدُن خُرَاسان وأجمعها للخير. قال أحمد بن يعقوبَ الكاتب : وبينهـا وبين كلٍّ من مَرْوَ ومن هَرَاةَ ومن جُرْجَانَ ومن الدَّامَغَانِ عشر مراحل .

وبها مدن عديدة .

(منها) الطَّابَرَانُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح الطاء المهملة والباء الموحدة والراء المهملة وبعـد الألف نون . قال فى "القانون" : وهى قصبة طُوسَ من كُوَرِ

خُرَاسَانَ ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة وعشرون دقيقة. قال فى "العزيزى" : وهى من أَجَلّ مدن خُرَاسَانَ .

(ومنها) نَوْقَانُ (١) . قال فى "اللبـاب" : بفتح النون وسكون الواو وفتح القاف وبعد الألف نون ـ وهى مدينة من أعمـال طُوسَ من خُرَاسَانَ، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول آثنتان وثمـانون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة . قال المهلّبى : وهى من أَجَلّ مدن خُرَاسَانَ وأعمرهـا ، و بظاهرها قبر الإمام علىّ بن موسىٰ بن جعـفر الصادق، وقبر هارون الرشيد الخليفة العباسىّ؛ و بها معدن الفَيْرُوزَج والدَّهْنَج .

(ومنها) إِسْفَرَايِنُ (٢) . قال فى "اللبـاب" : بكسر الألف وسكون السين المهملة وفتح الفاء والراء المهملة وكسر المثناة التحتية ونون فى الآخر ـ وهى بلدة بنواحى نَيْسَابُور من خُرَاسَانَ ـ موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول إحدىٰ وسـبعون درجة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وتسمىٰ المِهْرَجَانَ أيضا بكسر الميم وسكون الهـاء وفتح الراء المهملة والجيم وألف ونون فى الآخر. يقال إن كسرىٰ سماها بذلك تشبيها بالمِهْرَجَانِ أحد أعياد الفُرْس : لأن المِهْرَجَانَ أطيب أوقات الفصول، شبهها بذلك لخُضْرتهـا ونَضَارتها، و إليها ينسب الأستاذ أبو إسحاق الإسْفَرَايِنىّ الإمام الكبير المشهور .

(ومنها) خُسْرَوْجِرْدُ . قال فى "اللبـاب" : بضم الخاء المعجمة وسكون السين وفتح الراء المهملتين وسكون الواو وكسر الجيم ثم راء ودال مهملتان ـ وموقعها

(١) ضبطها ياقوت بالضم .
(٢) ضبطها ياقوت بالفتح ، ثم قال و ياء مكسورة و ياء أخرى ساكنة .

فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول إحدىٰ وثمانون درجة وخمس دقائق، والعرض ست وثلاثون درجة . قال فى "المشترك": وهى قَصَبة ناحية بَيْهَق من خُرَاسَانَ . وقال فى "اللباب" : كانت قصبتَها ثم صارت القصبة سبزوار .

(ومنهـا) نَسَا . قال فى " المشـترك " : بفتح النون والسين المهملة وألف مقصورة ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال ٱبن سـعيد حيث الطولُ ٱثنتان وثمانون درجة، والعرض تسع وثلاثون درجة . قال فى "المشترك" : وهى مدينـة من خُرَاسَانَ بين أَبِيوَرْدَ وسَرَخْسَ . قال ٱبن حوقل : وهى مدينـة خِصْبة، ومنها الإمام أحمد النسائىّ صاحب السُّنَنِ .

(ومنهـا) أَزَاذَوَار . قال فى "تقويم البُلْدان" : بالهمزة والزاى المعجمة ثم ألف وذال معجمة وواو مفتوحتين وألف وراء مهملة فى الآخر . وهى قَصَـبة جُوَيْنَ من خُرَاسَانَ . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول ثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة، ومنها إمام الحرمين الإمام الشافعىّ المشهور .

(ومنها) قَايِنُ . قال فى " اللبـاب " : بفتح القاف وبعد الألف ياء مثناة تحتية مكسورة ثم نون . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " القانون " حيث الطول أربع وثمانون درجة وخمس وثلاثون دقيقة [والعرض ثلاث وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة](١) . قال ٱبن حوقل : وهى قَصَبَة قُوهَسْتَانَ، من خُرَاسَانَ علىٰ مفازة . قال : وهى مثل سَرَخْسَ فى الكِبَر،وماؤها من القُنِىّ،وبساتينها قليلة، وقراها متفرّقة . قال فى "اللباب" : وإليها ينسب جماعة من العلماء .

(١) الزيادة عن تقويم البلدان نقلا عن القانون .

(ومنها) سَرَخْس . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح السين والراء المهملتين ثم خاء معجمة ساكنة وسين مهملة ساكنة ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول خمس وثمانون درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينة بين نَيْسَابُورَ وبين مَرْوَ فى أرض سهلة ، وليس لها ماء جار إلا نهر يجرى فى بعض السنة ، وهو فضلة مياه هَرَاةَ ؛ والغالب على نواحيها المراعى ؛ ومعظم مال أهلها الجِمَال ، وماؤهم من الآبار ، وأرحيتهم على الدوابّ . قال المهلبىّ : والرمال مُحْتَفَّةٌ بها .

(ومنها) بُوشَنْجُ . قال فى "اللباب" : بضم الباء الموحدة وسكون الواو وفتح الشين المعجمة وسكون النون وجيم فى الآخر . قال فى "اللباب" : ويقال لها أيضا فُوشَنْج بالفاء بدل الباء . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويقال لها أيضا بُوشَنْكُ بالكاف بدل الجيم . قال ابن حوقل : وهى مدينة على نحو النصف من هَرَاة فى مستوٍ من الأرض ، ولها مياه وأشجار كثيرة ، وماؤها من نهر بِهَرَاةَ ، وهو يجرى من هراة إلى بُوشَنْجَ إلى سَرَخْسَ .

(ومنها) هَرَاةُ . قال فى "اللباب" : بفتح الهاء والراء المهملة ثم ألف وهاء فى الآخر . قال فى "التعريف" : ولا يسمع عجمىّ يقول إلا هرى ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ابن حوقل : وهى من خُرَاسَانَ ، ولها أعمال ، وداخلها مياه جارية ، والجبل منها على نحو فرسخين ، ومنه تعمل حجارة الأرحية وغيرها ، وليس به محتطَب ولا مَرْعًى ، وعلى رأسه بيت نار كان للفُرْس ، وخارج هَرَاةَ المياهُ والبساتين . قال فى "المشترك" : وكانت مدينة عظيمة خرّبها التَّتَرُ . قال فى "اللباب" : وكان فتحُها فى خلافة أمير المؤمنين

عثمان رضى الله عنه. قال : والنسبة إليها هَرَوِىٌّ . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن الناس من يعُدّ هَرَاة مفردة بذاتها عن خُرَاسَانَ؛ وصاحبها يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

(ومنها) مَرْوُ الرُّوذِ . قال فى "المشترك" : بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفى آخرها واو . وقال فى "اللباب" بفتح الواو وألف ولام وضم الراء الثانية وسكون الواو وذال معجمة ، والرُّوذُ بالعجمية النهر ، ومعناه مَرْوُ النهر . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وثمانون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال آبن حوقل : وهى أكبر من بُوشَنْجَ ، ولها نهر كبير وعليه البساتين ، وهى طيِّبة التربة والهواء ، والجبل عنها فى جهة الغرب علىٰ ثلاثة فراسخ . قال فى "اللباب" : وهى من أشهر مُدُن خُرَاسَانَ ، والنسبة إليها مَرْوَرُوذِىٌّ ومَرُّوذِىٌّ أيضا .

(ومنها) مَرْوُ الشَّاهِجَان . قال فى "المشترك" : بفتح الميم وسكون الراء المهملة وواو فى الآخر ، وهو مضاف إلىٰ الشَّاهجان بفتح الشين وألف بعدها هاء ثم جيم وألف ونون ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال فى "المشترك" : ومَرْوُ الشَّاهِجَان معناه رُوح الملك . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وثمانون درجة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . قال آبن حوقل : وهى مدينة قديمة يقال إنها من بناء طهمورث: أحد ملوك الفُرْس . قال فى "مسالك الأبصار" : ويقال إنها من بناء ذى القَرْنين . قال : وهى فى أرض مستويةٍ بعيدة عن الجبال لايُرىٰ منها الجبل ، وأرضها كثيرة الرمل وفيها سُبُوخة ، ويجرى علىٰ بابها نهرٌ يدخل منه المـاء إلىٰ حياض المدينة ، ومنه شرب أهلها ؛ ولها ثلاثة أنهار أُخَر ؛ وبها الفواكه الحسنة تقدّد وتحمل إلىٰ البلاد ؛ وبها الزبيب الذى لانظير له ؛ ولها من

النظافة وحسن الترتيب وتقسيم الأبنية والغُرُوس على الأنهار، وتمييز كل سُوقٍ عن غيره ماليس لغيرها من البلاد . قال فى "المشترك" : والنسبة إليها مَرْوَزِىٌّ . قال فى "تقويم البلدان" : وبها كان مُقَام المأمون لما كان بخُرَاسَانَ، وبها قُتِل يَزْدَجِرْدُ آخرُ ملوك الفُرْسِ، ومنها ظهرت دولة بنى العباس، وبها صُبِغ أوّل سواد لبسته المسوِّدة، ومنها يرتفع الحرير الكثير والقطنُ. قال فى "المشترك" : وبينها وبين كلٍّ من نَيْسَابُورَ وهَرَاةَ وبَلْخَ وبُخَارا مسيرة ٱثنى عشر يوما .

(ومنها) الطَّالَقَانُ . قال فى "المشترك" : بفتح الطاء المهملة واللام والقاف ثم ألف ونون . وقال فى "اللباب" : بتسكين اللام — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وثمانون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة نحو مَرْوِ الرُّوذ فى الكِبَر، ولها مياه جارية وبساتين قليلة، وهى فى جبل، ولها رُسْتاق فى الجبل، وهى غير الطَّالَقَانِ المقدّم ذكرها فى عراق العجم .

(ومنها) بَلْخُ . قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة وسكون اللام وفى آخرها خاء معجمة — وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" و"القانون" حيث الطول إحدىٰ وتسعون درجة، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدىٰ وأربعون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة فى مستوٍ من الأرض، بينها وبين أقرب جبل إليها أربعة فراسخ ؛ والمدينة نصف فرسخ فى مثله ؛ ولها نهر يسمّى الدهاش (١) يجرى فى ربضها، وهو نهر يدير عَشْر أرحية ؛ والبساتين تحتف بها من جميع جهاتها ؛ وبها الأُتْرُجُّ وقَصَبُ السُّكَّرِ، وتقع فى نواحيها الثلوج . قال فى "اللباب" :

(١) وقع فى التقويم بإهمال السين، ولم نعثر عليه فى المعجم ولا فى القاموس .

فتحها الأَحْنَفُ بن قَيْس التميمىّ فى خلافة عثمان رضى الله عنـه ؛ وخَرَج منها مالا يحصىٰ من الأئمة والعلمـاء والصلحاء .

(ومنها) شَهْرَسْتَانُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح الشين المعجمة وسكون الهـاء وفتح الراء وسكون السـين المهملتين وفتح التاء المثناة من فوقُ وبعد الألف نون ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة قال فى "الأطوال" و"القـانون" حيث الطول إحدىٰ وتسعونـ درجة ، والعرض ست وثلاثون درجة وإحدىٰ وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : شَهْر بلغة الفرس المدينة ، واستان الناحية ، فمعنىٰ آسمها مدينة الناحية. قال : وهى مدينة مشهورة بين نَيْسَابُورَ وخُوَارَزْمَ فى آخر حدود خُرَاسَانَ وأوّل حدود رمال خُوَارَزْمَ .

الإقليم الحـادى عشر
(زَابُلُسْتَانُ)

بفتح الزاى المعجمة ثم ألف بعـدها باء موحدة ولام مضمومتان وسـين مهملة ساكنة وتاء مثناة فوقُ مفتوحة ثم ألف ونون ـ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول آثنتان وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وخمسَ عشرةَ دقيقة . قال آبن حوقل : وهى مدينة لهـا بلاد وأعمال ، وهى عن بَلْخ علىٰ عشر مراحل ، وعندها نهر كبير يجرى ؛ وليس لها بساتين بل هى مدينة علىٰ جبل ، والفواكه تأتيها مجلوبة . قال فى "اللباب" : وبها قلعة حصينة .

ولها مدن غيرها .

(منهـا) غَزْنَةُ . قال فى "اللباب" : بفتح الغين وسكون الزاى المعجمتين وفتح

النون ــ وموقعها فى آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" و"القانون" حيث الطول أربع وتسعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ٱبن حوقل : هى من عمل البامِيان، وقد تقدّم أن البَامِيان من زَابُلُسْتَانَ . وقال فى "اللبـاب" : هى من أوّل بلاد الهند . وقال فى "مزيل الآرتيـاب" : هى فى طرف خُرَاسَانَ وأوّل بلاد الهنـد، وهى كالحدّ بينهما . قال ٱبن حوقل : وهى فُرْضة الهند وموطن التجار، ولها دَرْبَنْد مشهور .

(ومنها) بَنْجَهِيرُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح البـاء الموحدة وسكون النون وفتح الجيم وكسر الهاء وسكون المثناة تحتُ وراء مهملة فى الآخر ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول أربع وتسعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض خمس وثلاثون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة من أعمال البامِيَان علىٰ جبل، والغالب علىٰ أهلها العَيْثُ والفَسَاد . قال فى "اللباب" : وبها جبل الفضة، والدراهم بها كثيرة، لايشترون ولو بَاقَةَ بَقْلٍ بأقلَّ من درهم، وقد جعلوا السُّوق كهيئة الغِرْبَالِ لكثرة الحُفَر . قال : وإنما يتبعون عروقا يجدونها تُفْضِى إلىٰ الفِضَّة، فإذا وجدوا عِرْقًا حفروا أبدا إلىٰ أن يصيروا إلىٰ الفضة، والرجل منهم يُنْفِق الأموال الكثيرة فى الحَفْر، وربمـا خرج له من الفضـة مايستغنِى به هو وعَقِبُه، وربمـا خاب عمله لقلة المـال وغير ذلك، وربمـا وقف رجل علىٰ العِرْق ووقف آخر عليه فى موضع آخر فيأخذان جميعا فى الحَفْر، والعادة عندهم أن من سبق فاعترض علىٰ صاحبه فقد ٱستحق .

الإقليم الثـانى عشر
(الغُـــورُ)

قال فى "اللباب" : بضم الغين المعجمة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر. قال : وهى بلاد فى الجبال بخُرَاسَانَ قريبةٌ من هَرَاةَ، وهى مملكة كبيرة، وغالبها جبال عامرة ذات عيون وبساتينَ وأنهـار، وهى بلاد حصينة منيعة، وتحيط بها خُرَاسَانُ من ثلاث جهات ولذلك حُسِبت من خراسان، والحدّ الرابع لها قِبْلىّ سِجِسْتَانَ .

وقاعدتها فيما قاله فى "تقويم البُـلْدان" (بِيرُوزْكُوه) . قال فى "المشــترك": بكسر البـاء الموحدة وسكون المثناة التحتية وضم الراء المهملة وواو ثم زاى معجمة وضم الكاف وواو وهـاء ــ وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "المشترك" : معنىٰ بِيرُوزْكُوه الجبـل الأزرق ؛ وهى قلعة حصينة دار مملكة جبال الغُورِ . قال : وبها كان مستقرّا بنو ساتحان (١) ملوك الغُورِ .

قلت : وبلاد الغُور وغَزْنَةُ وما والاها وإن عدّها فى "مسالك الأبصار" من مملكة التورانيين، فإنها ليست من أصـل مملكة تُورانَ، وإنمـا تغلب ملوكها عليها من مملكة إيران، فلذلك أثبتُّها فى مملكة إيران؛ وماغاب عليه بنو هُولاكُو من مملكة الروم، وهو قُونِيَـة وما معها ليس من مملكة إيران بل هو مملكة مســتقلة بذاتها كما سيأتى ، ولذلك لم أثبتها فى مملكة إيران والله أعلم .

---

(١) كذا فى الأصل علىٰ هذه الصورة ، والذى فى التقويم "بها كان مستقر آل سام الخ" وفى معجم البلدان "بناها بنو سام ملوك الغورية" .

الجملة الثـالثة

(فى الأنهـار المشهورة)

واعلم أن بهذه المملكة عدّةَ أنهار، والمشهور منها ثلاثةَ عشرَ نهرا :

الأول ـ الفُرات وما يصب فيها (١) ويخرج منها (١) . فأما نهر الفرات فأوّله من شَمَالىّ مدينـة أَرْزَنِ الروم وشرقيها ، وأَرْزَنُ هذه آخر حدّ بلاد الروم من جهة الشرق ، ثم يأخذ إلىٰ قرب مَلَطْيَةَ ثم إلىٰ شِمْشَاط ، ثم يأخذ مشرِّقا ويتجاوز قلعـة الرُّوم ويمرّ مع جانبها من شماليها وشرقيها ، ثم يسير إلىٰ الْبِيرَة ، ويمرّ من جنوبيها ، ثم يمرّ مشرِّقا حتّىٰ يتجاوز بالِسَ وقلعة جَعْبَرَ ويتجاوزها إلىٰ الرَّقَّة ، ثم يمرّ مشرِّقا ويتجاوز الرَّحْبَةَ من شماليها ويسير إلىٰ عانةَ ثم إلىٰ هِيتَ ، ثم يسير إلىٰ الكُوفَةِ . فإذا جاوز نهر كُوثىٰ بستة فراسخ انقسم نصفين ، ومرّ الجنوبىّ منهما إلىٰ الكوفة ويجاوزها ويصبّ فى البطائح . ويمرّ القسم الآخر وهو أعظمهما ويعرف بنهر سُورا ، ويمرّ بإزاء قصر ابن هُبَيْرَة ، ويتجاوزه إلىٰ مدينة بابل القديمة ، ويتفرّع منه عدّة أنهر ويمرّ عمودُه إلىٰ النيل ويسـمّى من بعد النيل نهر الصَّرَاة ، ثم يتجاوز النيل ويصب فى دِجْلَةَ .

وأما الأنهار التى تصب فيه ، فمنها نهر شِمْشَاط ، ونهر البَلِيخ ، ونهر الخابُور ، ونهر الهِرْماس ، وغيرُها .

وأما الأنهار التى تخرج من الفرات ، فمنها نهر عيسىٰ ، ونهر صَرصر ، ونهر المَلِك ، ونهر كُوثىٰ وغيرُ ذلك .

الثانى ـ دِجْلَةُ ومايصب إليها ويخرج منها . فأما دِجْلة فقال فى "المشترك" : بكسر الدال المهملة وسكون الجيم . قال : وهى نهر عظيم مشهور مَخْرَجه من بلاد

(١) كذا فى التقويم أيضا بالتأنيث والأولى التذكير .

الرُّوم؛ ثم يمرّ علىٰ آمِدَ، وحِصْنِ كَيْفا، وجزيرة ٱبن عُمَر، والمَوْصِل، وتِكْرِيتَ، وبَغْدَادَ، ووَاسِطَ، والبَصْرَة؛ ثم يصبّ فى بحر فَارِسَ . وذكر فى "العزيزى" : أن رأس دِجْلَةَ شمـالىّ مَيَّافَارِقِينَ من تحت حِصْنٍ يعرف بحِصْنِ ذى القَرْنين . ويجرى من الشمال والغرب إلىٰ جهة الجنوب والشرق؛ ثم يشرِّق ويرجع إلىٰ جهة الشَّمال؛ ثم يغرِّب بميـلة إلىٰ الجنوب إلىٰ مدينـة آمِدَ؛ ثم يأخذ جنوبا إلىٰ جزيرة ٱبن عُمَر؛ ثم يأخذ شرقا وجنوبا إلىٰ مدينـة بَلَد؛ ثم يشرق إلىٰ المَوْصِـل، ثم يسير مشرقا إلىٰ تِكْرِيتَ؛ ثم يأخذ مشرقا نصبا إلىٰ سُرَّ مَنْ رَأىٰ؛ ثم يأخذ جنوبا علىٰ عُكْبَرىٰ؛ ثم يأخذ مشرقا إلىٰ البَرَدَانِ، ثم يأخذ جنوبا بميلة إلىٰ الشرق إلىٰ بَغْدَادَ؛ ثم يسـير جنوبا إلىٰ كَلْوَاذَا، ويأخذ إلىٰ المدائن ويتجاوز إلىٰ دير العَاقُولِ؛ ثم يسير مشرقا إلىٰ النُّعْمَانِيَّـة؛ ثم يسـير جنوبا ومشرقا إلىٰ فَمِ الصِّلْح؛ ثم يسير مغرّبا إلىٰ وَاسِطَ؛ ثم يشرِّق إلىٰ بطائح وَاسِطَ؛ ثم يخرج من البطائح ويسـير بين الشرق والجنوب حتّىٰ يتجاوز البَصْرَةَ، ويمرّ علىٰ فُوَّهة الأُبُلَّةِ، ثم يسير إلىٰ عَبَّادَانَ ويصبُّ فى بحر فَارِسَ .

وأما الأنهـار التى تصب فى دِجْلَةَ : فمنها نهر أَرْزَنَ، ونهرُ الثَّرْثار، ونهرُ الفُرَاتِ الأعلىٰ وهو الأكبر، ونهر الزَّابِ الأصغر، وغيرها .

وأما الأنهار التى تخرج من دِجلةَ فعدّة أنهار؛ من أشهرها نهر الأُبُلَّةِ، ونهر مَعْقِل المقدّم ذكرهما فى الكلام علىٰ متنزهات هذه المملكة .

الثالث ــ دِجْلة الأهواز . وهو نهر ينبعث من الأهواز، ويمرّ فى جهة الغرب إلىٰ عَسْكَرِ مُكْرَمٍ؛ وهو قرب دِجْلة بغداد فى المقدار؛ وعليه مَزَارِعُ عظيمة من قصب السُّكَّر وغيره .

الرابع – نهر شِيرِينَ[1] . وهو نهر يخرج من جبل دينار من ناحية بازرع ويخترق بلاد فارس ويقع فى بحر فارس عند جَنَّابةَ ، من بلاد فارس .

الخامس – نهر المَسْرُقان . وهو نهر عظيم فى بلاد خُوزُستان، يجرى من ناحية تُسْتَرَ، ويمرّ علىٰ عَسْكَرِ مُكْرَمٍ، ويسقِى بجميع مائه النخل والزرع وقَصَب السكر، ولا يضيع شىء من مائه .

السادس – نهر تُسْتَرَ . وهو نهر يخرج من وراء عسكر مُكْرَم، ويمرّ علىٰ الأهواز، ثم ينتهى إلىٰ نهر السِّدرة إلىٰ حصن مهدىّ، ويصب فى بحر فارس .

السابع – نهر طَابَ . ومَخْرَجه من جبال أصفَهان من قرب المَرْج، وينضم إليه نهر آخر ويسير حتّىٰ يمرّ علىٰ باب أَرَّجانَ، ويقع فى بحر فارس عند شينير .

الثامن – نهر سَكَّان . وهو نهر يخرج من رُسْتاق الرونجان[2] من قرية تدعىٰ ساركَرى[2]، ويسقى شيئا كثيرا من كُوَرِ فارس، ثم يصب فى بحر فارس، وعليه من العمارة ما ليس علىٰ غيره .

التاسع – نهر زَنْدَوَرْذَ، بفتح الزاى المعجمة وسكون النون وفتح الدال المهملة والواو ثم راء مهملة ساكنة وذال معجمة فى الآخر. وهو نهر كبير علىٰ باب أَصْفَهان .

العاشر – نهر الهِنْدَمَنْد . قال ابن حوقل : وهو أعظم أنهار سِجِسْتَانَ، ويخرج من ظهر الغُورِ، ويمرّ علىٰ حدود الرُّخَّجِ، ثم يعطِف ويمرّ علىٰ بُسْت، حتّىٰ يصير علىٰ مرحلة من سِجِسْتَانَ، ثم يصب فى بحيرة زَرَه، وإذا تجاوز بُسْتَ يتشعب منه أنهار كثيرة، وعلىٰ باب مدينة بُسْتَ علىٰ هذا النهر جَسْرٌ من السفن كما فى دِجْلَةَ .

(١) فى التقويم "نازرنج" ولم نعثر فى المعجم علىٰ كلا اللفظين .

(٢) فى التقويم "الرويحان ... ... ساذفرى" .

الحادى عشر — نهر الرَّسّ . وهو نهر يخرج من جبال قاليقلا، ويمرّ إلىٰ وَرْثَانَ، ثم يلتقى مع نهر الكُرّ الآتى ذكره بالقرب من بحر الخَزَرِ فيصيران نهرا واحدا ويصبّان فى بحر الخَزَرِ المذكور . قال فى "تقويم البُلْدان" : وخلف نهر الرَّسّ فيما يقال ثلثمائة وستون مدينة خراب، يقال إنها المراد فى القرءان بقوله تعالىٰ ﴿ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ ﴾ .

الثانى عشر — نهر الكُرّ . وهو نهر فاصــل بين أرّانَ وأَذْرَبِيجَانَ كالحدّ بينهما، وأوّله عند جبل بابِ الأبواب، ويخترق بلاد أَرّانَ ويصب فى بحر الخَزَرِ . وذكر ٱبن حوقل أن نهر الكُرّ يمرّ علىٰ ثلاثة فراسخ من بَرْدَعَةَ . وبفَارِسَ أيضا نهر يقال له نهر الكُرّ إلا أنه دون هذا فى القدر والشهرة .

الثالث عشر — نهر جُرْجَانَ . ومخرجه من جبل جرجان، ويسير غربا بجنوب إلىٰ آبُسْكُونَ ثم يفترق من آبُسْكُونَ نهرين ويصب فى بحر الدَّيْلَمِ .

الجملة الرابعـــة

(فى الطرق الموصلة إلىٰ قواعد هذه المملكة، وذكر شيء من المسافات بين بلادها)

وٱعلم أن آخر المملكة المضافة إلىٰ الديار المصرية من جهة الشرق مملكة حَلَب، فتعين الابتداء منها . ونحن نورد ذلك علىٰ مايقتضيه كلام عبيد الله بن عبد الله ٱبن خرداذبة فى كتابه "المسالك والممالك" مقتصرا علىٰ ذكر مشاهير البلاد .

(الطريق من حَلَبَ إلىٰ المَوْصِلِ) — من حَلَبَ إلىٰ مَنْبِجَ، ومن مَنْبِجَ إلىٰ الرَّسْتَنِ، ومن الرستن إلىٰ الرَّقَّةِ إلىٰ رأس عين سبعة عشر فرسخا، ومن رأس عين إلىٰ كَفَرْتُوثا سبعة فراسخ، ومن كَفَرْتُوثَا إلىٰ داراَ خمسة فراسخ، ومن دارا إلىٰ نَصِيبِينَ أربعة فراسخ، ثم إلىٰ بَلَد ثلاثون فرسخا، ثم إلىٰ الموصل سبعة فراسخ .

(الطريق من المَوْصِلِ إلى بَغْدَادَ) ــ من الموصل إلى الحَدِيثة أحد وعشرون فرسخا، ثم إلى السِّنّ خمسة فراسخ، ثم إلى سُرَّ مَنْ رَأى ثلاثة فراسخ، ثم إلى القادِسيَّة تسعة فراسخ، ثم إلى عُكْبَرى ثمانية فراسخ، ثم إلى البَرَدَانِ أربعة فراسخ، ثم إلى بَغْدَاد [خمسة فراسخ](١) . وأخبرني بعض أهل تلك البلاد أن الطريق من حَلَبَ إلى البِيرة يومان، ومن البِيرَةِ إلى الرُّهَا يومان ، ومن الرُّهَا إلى مارِدِينَ أربعة أيام، ثم من مَارِدِينَ إلى جزيرة ابن عُمَرَ ثلاثة أيام، ثم من جزيرة ابن عُمَرَ إلى المَوْصِلِ يومان، ومن الموصل إلى تِكْرِيتَ يومان، ومن تِكْرِيتَ إلى خُوَىّ يومان، ومن خُوَىّ إلى بَغْدَادَ يومان .

(الطريق إلى نَيْسَابُورَ : قاعِدَة خُرَاسَانَ) ــ من بغداد إلى النَّهْرُوَانِ أربعة فراسخ ، ثم إلى الدَّسْكَرَةِ اثنا عشر فرسخا ، ثم إلى جَلُولاء سبعة فراسخ، ثم إلى خَانِقِينَ سبعة فراسخ ، ثم إلى قصر شِيرِينَ ستة فراسخ ، ثم إلى حُلْوَانَ خمسة فراسخ ، ثم إلى مَرْج القلعة عشرة فراسخ ، ثم إلى قصر يَزِيدَ أربعة فراسخ ، ثم إلى قصر عَمْرو ثلاثة عشر فرسخا ، ثم إلى قصر اللُّصُوص سبعة عشر فرسخا، ثم إلى قرية العَسَل ثلاثة فراسخ، ثم إلى هَمَذَانَ خمسة فراسخ ، ثم إلى الأَسَاوِرة اثنان وعشرون فرسخا، ثم إلى سَاوَةَ خمسة عشر فرسخا، ثم إلى الرَّىّ أربعة وعشرون فرسخا ، ثم إلى قصر المِلْح أحد وثلاثون فرسخا، ثم إلى رأس الكَلْب سبعة فراسخ ، ثم إلى سِمْنَانَ ثمانية فراسخ ، ثم إلى بُومَنَ سبعة عشر فرسخا، ثم إلى أَسَدَابَاذَ أربعون فرسخا، ثم إلى خُسْرَوْجِرْد اثنا عشر فرسخا، ثم إلى نَيْسَابُورَ خمسة عشر فرسخا .

(الطريق من نَيْسَابُورَ إلى بَلْخ ثم إلى نهر جَيْحُونَ) ــ من نَيْسَابُورَ إلى طُوس ثلاثة عشر فرسخا، ثم إلى مَرْو الرُّوذ أحد عشر فرسخا، ثم إلى سَرَخْسَ، ثم إلى قَصْر النجار ثلاثة فراسخ ، ثم إلى مَرْو الشَّاهِجَان سبعة وعشرون فرسخا ، ثم إلى القَرْيتين خمسة

(١) الزيادة عن تقويم البلدان .

وعشرون فرسخا، ثم إلىٰ أَسَدَابَاذَ علىٰ النهر سبعة فراسخ، ثم إلىٰ قَصْر الأَحْنف علىٰ النهر عشرة فراسخ، ثم إلىٰ مَرْو الرُّوذ خمسة فراسخ، ثم إلىٰ الطَّالَقَانِ ثلاثة وعشرون فرسخا، ثم إلىٰ ارعين تسـعة فراسخ، ثم إلىٰ العاديات عشرة فراسخ، ثم إلىٰ السِّدرة من عمل بَلْخ أربعة وعشرون فرسخا، ثم إلىٰ الغُورِ تسعة فراسخ، ثم إلىٰ بَلْخَ ثلاثة فراسخ، ثم إلىٰ شطِّ جَيْحُونَ آثنا عشر فرسخا . فذات اليمين كورة خُتَّل ونهر الضِّرْغام، وذات اليَسَار خُوَارَزْمُ، وسيأتى ذكرهما فى الكلام علىٰ مملكة تُوران فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

(الطريق إلىٰ شِيرَازَ قاعدة فارس) ـ قد تقـدّم الطريق من حَلَبَ من مضافات الديار المصرية إلىٰ بغداد، ومن بغداد إلىٰ واسطَ خمسة وعشرون سِكَّة، ومن واسط إلىٰ الأهواز عشرون سكة، ثم إلىٰ النُّوبَنْدَجان تسع عشرة سكة، ثم إلىٰ شِيرَازَ آثنتا عشرة سكة .

(الطريق من شِيراز إلىٰ السِّيرجَان: قاعدةِ كَرْمَانَ) ـ من شِيراز إلىٰ إصْطَخْرَ خمسُ سِكَك، ثم من إصْطَخْرَ إلىٰ البحيرة ثلاثة عشر فرسخـا، ثم إلىٰ شَاهَكَ الكبرىٰ سـبعة عشر فرسخا، ثم إلىٰ قرية المِلْح تسعة فراسخ، ثم إلىٰ مَرْزُبانه ثمـانية فراسخ، ثم إلىٰ اروان ثلاثة فراسخ، ثم إلىٰ المرمان وهو آخر عمل فارس إلىٰ السِّيرجَان سـتة عشر فرسخا .

(الطريق إلىٰ أَصْبَهَانَ) ـ من يُومَن المقدّم ذكرها إلىٰ الرِّباط ثلاثة عشر فرسخا، ثم إلىٰ أَصْبَهَانَ أربعة عشر فرسخا .

(الطريق إلىٰ البصرة) ـ قد تقدّم الطريق من حَلَبَ إلىٰ بَغْدَادَ، ثم إلىٰ واسط، ثم إلىٰ الفاروث، ثم إلىٰ دير العمال، ثم إلىٰ الحوانيت، ثم يسـير فى البطائح، ثم إلىٰ نهر أبى الأسد، ثم فى دِجْلة العورا، ثم فى نهر مَعْقِل، ثم يمضى إلىٰ البصرة .

(الطريق إلى تَبْرِيز)(١) ـ قد تقدم الطريق من حَلَب إلى مَارِدِينَ، ثم من ماردين إلى حِصْن كَيْفَا يومان، ومن الحصن إلى سِعِرْتَ يومان، ومن سِعِرْتَ إلى وان يومان، ومن وان إلى وَسْطَانَ ثلاثة أيام، ومن وَسْطَانَ إلى سَلَمَاسَ يومان، ومن سَلَمَاس إلى تَبْرِيز أربعة أيام؛ فيكون بين حَلَبَ وتَبْرِيزَ ثلاثةٌ وعشرون يوما .

(الطريق إلى السُّلْطَانِيَّة) ـ من تَبْرِيزَ إليها سبعة أيام؛ فيكون من حَلَبَ إلى السُّلْطَانِيَّة ثلاثون يوما .

الجملة الخامسة

(فى بعض مسافات بين بلاد هذه المملكة)

(بعض مسافات بلاد الجزيرة) ـ من الأَنْبَارِ إلى تِكْرِيتَ مرحلتان، ومن تِكْرِيتَ إلى المَوْصِلِ ستة أيام، ومن المَوْصِلِ إلى آمِدَ أربعة أيام، ومن آمدَ إلى سُمَيْسَاط ثلاثة أيام؛ ومن المَوْصِل إلى نَصِيبِينَ أربع مراحل، ومن نَصِيبِينَ إلى رأس عين ثلاثُ مراحل، ومن رأس عين إلى الرَّقَّةِ أربعة أيام، ومن رأس عين إلى حَرَّانَ ثلاثة أيام، ومن حَرَّانَ إلى الرُّهَا يوم واحد .

(بعض مسافات خُوزُسْتَانَ) ـ من عَسْكَرِ مُكْرَمٍ إلى الأَهْوَاز مرحلة، ومن الأهواز إلى الدَّوْرَق أربع مراحل، [وكذلك من عسكر مكرم إلى الدَّوْرَقِ](٢) ومن عَسْكَرِ مُكْرَمٍ إلى سُوقِ الأربعاء مرحلة، ومن سوق الأربعاء إلى حصن مهدىّ مرحلة، ومن السُّوس إلى بَصِنَّى مرحلة خفيفة، ومن السُّوس إلى مَتُّوث مرحلة .

(بعض مسافات فارس) ـ قال ابن حوقل : من شِيرَاز إلى سِيرَافَ نحو ستين فرسخا، ومن شِيرَازَ إلى إصْطَخْرَ نحو اثنَىْ عشر فرسخا، ومن شِيرَازَ إلى كَازَرُونَ

---

(١) فى القاموس "تبريز وقد تكسر ... ..." .
(٢) الزيادة عن "تقويم البلدان" ليتم البيان .

نحو عشرين فرسخا ، ومن كَازَرُونَ إلىٰ جَنَّابَةَ أربعــة وأربعون فرسخا ، ومن شِيرَازَ إلىٰ أَصْبَهَانَ آثنــان وســبعون فرسخا ، ومن شِيرَازَ مُغَرِّبا إلىٰ أوّل حدود خُوزُسْتَانَ ستون فرسخا ، ومن شِيرَازَ إلىٰ بَسَا ســبعة وعشرون فرسخا ، ومن شِيرَازَ إلىٰ البَيْضَاء ثمــانية فراسخ ، ومن شيراز إلىٰ دارابجِرْدَ خمسون فرسخا ، ومن مَهْرُوبان إلىٰ حصن آبن عمارة نحو مائة وستين فرسخا .

(بعض مسافات كَرْمان) ـ من السِّيرجَان إلىٰ المفازة مرحلتان ، ومن السِّــيرجَان إلىٰ جِيرُفْتَ مرحلتان ، ومن السِّيرجَان إلىٰ مدينة الزَّرَنْدِ تسعة وعشرون فرسخا .

(بعض مسافات إرْمِينِيَةَ وأَرَّانَ وأذْرَبِيجَان) ـ قال آبن حوقل : من بَرْدَعَةَ إلىٰ شَمْكُورَ أربعة عشر فرسخا ، ومن بَرْدَعَةَ إلىٰ تَفْلِيسَ ثلاثة وأربعون فرسخــا ، ومن أرْدُبِيل إلىٰ المَرَاغَةِ أربعون فرسخــا ، ومن المَرَاغَة إلىٰ أُرْمِيــةَ أربعُ مراحل ، ومن أُرْمِيــةَ إلىٰ سَلَمَاسَ مرحلتان ، ومن سَلَمَاسَ إلىٰ خُوَىّ سبعة فراسخ ، ومن خُوَىّ إلىٰ بَرْكِرِى ثلاثون فرسخــا ، ومن بَرْكِرِى إلىٰ أرْجِيشَ يومان ، ومن أرجِيشَ إلىٰ خِلَاطَ ثلاثة أيام ، ومن خلَاط إلىٰ بِدْلِيسَ ثلاثة أيام ، ومن بِدْلِيسَ إلىٰ ميَّا فارِقِينَ أربعة أيام .

[ذكر الطريق من المراغة إلىٰ أردبيل ؛ من مَرَاغة إلىٰ أُرمية ثلاثون فرسخا](١) ، ومن أرْمِيةَ إلىٰ سَلَمَاسَ أربعــة عشر فرسخا ، ومن خُوَىّ إلىٰ نَشْوىٰ [ثلاثة أيام ، ومن نشوىٰ](١) إلىٰ دَبِيلَ أربعُ مراحل ؛ ومن المَرَاغَةِ إلىٰ الدِّينَوَرِ ستون فرسخا ، ومن خُونَجَ إلىٰ مراغة [ثلاثة عشر فرسخا](١) ، ومن بَرْدَعَةَ إلىٰ وَرْثان ســبعة فراسخ ، ومن وَرْثان إلىٰ بَيْلَقَانَ سبعة فراسخ ، ومن شَرْوَانَ إلىٰ باب الأبواب نحو سبعة أيام ، ومن بَرْدَعَةَ إلىٰ تَفْلِيسَ نحو آثنين وستين فرسخا .

(١) الزائد من تقويم البُلْدان عن آبن حوقل ليستقيم الكلام .

(بعض مسافات عِرَاق العجم) ـ من هَمَذَانَ إلىٰ الدِّينَوَرِ ما ينيف علىٰ عشرين فرسخا ، ومن هَمَذَانَ إلىٰ سَاوَةَ ثلاثون فرسخا ، ومن سَـاوَةَ إلىٰ الرَّيِّ ثلاثون فرسخا أيضا ، ومن هَمَذَان إلىٰ زَنْجَانَ علىٰ شَهْرُزُورَ ثلاثون فرسخا ؛ ومن هَمَذَانَ إلىٰ أَصْبَهَانَ ثمـانون فرسخا ؛ ومن هَمَذَانَ إلىٰ أوّل خُرَاسَانَ نحو سبعين فرسخا ، ومن سَاوةَ إلىٰ قُمٍّ نحو آثنى عشر فرسخا ، ومن قُمٍّ إلىٰ قَاشَانَ نحو آثنى عشر فرسخا أيضا ، ومن الرَّيِّ إلىٰ قَزْوِينَ ثلاثون فرسخا ، ومن الدِّينَوَرِ إلىٰ شَهْرُزُورَ أربع مراحل ، ومن أَصْبَهَانَ إلىٰ قَاشَانَ ثلاث مراحل .

(بعض مسافات طَبَرِسْتَانَ ومَازَنْدَرَانَ وقُومَسَ) ـ قال آبن حوقل : بين آمُلَ وسَارِيَةَ مرحلتان ، ومن سارِيةَ إلىٰ إِسْتِرَاباذ نحو أربع مراحل ، ومن إِسْتِرَابَاذَ إلىٰ جُرْجَانَ نحو مرحلتين ؛ ومن آمُلَ إلىٰ مَا مَطِـيرَ مرحلة ، ومن مَا مَطِيرَ إلىٰ سَـارِيَةَ مرحلة ، ومن جُرْجَانَ إلىٰ بَسْطَامَ مرحلتان .

(بعض مسافات خُرَاسَانَ) ـ قال فى "تقويم البُلْدان" : من أوّل أعمـال نَيْسَابُورَ إلىٰ وادى جَيْحُونَ ثلاث وعشرون مرحلة ، ومن سَرَخْسَ إلىٰ نَسَا سبعة وعشرون فرسخا ، ومن هَرَاةَ إلىٰ نَيْسَابُورَ أحد عشر يوما ، ومن هَرَاةَ إلىٰ مَرْوَ كذلك ، ومن هَرَاةَ إلىٰ سِجِسْتَانَ كذلك ، ومن مَرْو الرُّوذ إلىٰ مَرْو الشَّاهِجَانِ أربعة أيام ، ومن بَلْخ إلىٰ فَرْغَانَةَ ثلاثون مرحلة مشرقا ، ومن بَلْخ إلىٰ الرَّيِّ ثلاثون مرحلة مغرِّبا ، ومن بلخ إلىٰ سِجِسْتَانَ ثلاثون مرحلة جنوبا ، ومن بَلْخ إلىٰ كَرْمَانَ ثلاثون مرحلة ، ومن بَلْخ إلىٰ خُوَارَزْم ثلاثون مَرْحلة .

الجمـــــلة السادسة

(فيما بهذه المملكة من النفائس العليَّة القدر، والعجائب الغريبة الذكر، والمنتزهات المرتفعة الصيت)

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : بها عدّةَ نفائسَ وعجائبَ .

أما النفائس فإن بهـا مَغَاص اللؤلؤ ببحر فارسَ بجزيرة كِيش وعُمَـانَ ، وهما من أحسن المغاصات وأشرفها وأعلاها قدرا فى حسن اللؤلؤ على ماتقدّم ذكره فى الكلام على الأحجار النفيسة فيما يحتاج الكاتب إلى معرفته فى المقالة الأولى .

وبالدَّامَغَان فى جبلها معدن ذهب . قال الشيخ شمس الدين الأصفَهانى : وهو قليل المتحصِّل لكثرة ما يحتـاج إليه من الكُلَف حتّى يُستخْرَج وببذخشان (١) شرقىّ عراق العجم البـازهر الحيوانىّ الذى لا يبـاريه شىء فى دفع السُّمُوم يوجد فى الأيابيل التى هناك ، وقد مرّ ذكره فى الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى معرفته فى المقالة الأولى .

وبها الإثمد الأصْفَهانىّ الذى لايُساوى رتبة، وقد مرّ ذكره فى الكلام على مايحتاج الكاتب إلى معرفته فى المقالة الأولى، ولكنه قد عَزَّ الآن حتّى لايكاد يوجد . قال المقر الشهابىّ بن فضل الله : سألت الشيخ شمس الدين الأصْفَهانىّ عن سبب قلّته، فقال : لانقطاع عِرْقه فما بقى يوجد منه إلا مالا يرى . قال فى "مسالك الأبصار" : وبهذه المملكة مستعملات القماش الفاخر من النخ ، والمخمل ، والكمخا ، والعتابى ، والنصافى ، والصوف الأبيض الماردينىّ ؛ وتعمل بها البسط الفاخرة فى عدّة مواضع مثل شِيرَازَ وأَقْصَرا وتورِيز إلى غيرذلك من الاشياء النفيسة التى لايضاهيها غيرها فيها .

(١) هذه الكلمة غير واضحة فى الأصل .

وأما العجائب، فقد ذكر الشيخ شمس الدين الأصْفَهانى أن بمدينة قِشْمِيرَ على ثلاثة أيام عن أَصْفَهانَ عينَ ماء سارحة يسمّى ماؤها بماء الجراد، إذا حمل ماؤها فى إناء وعلق فى تلك الأرض على عال، أتاها طير يقال له سار فأكل ما فيها من الجراد حتّى لايدع منه شيئا بشرط أن لايوضع على الأرض حتّى يؤتى به إلى مكان الجراد فيعلّق . وحكى محمد بن حيدر الشيرازى فى مصّنف له : أن بين الدَّامَغان وأَسْتَرَاباذ من خُرَاسَانَ عينا ظاهرة إذا ألقيت فيها نجاسة فار ماؤها وأزبدت شيئا (١) تبعته دودة طول أنملة الإنسان حتّى لو حمل الماء تسعة وكان معهم عاشر لم يحمل الماء، تبع كلَّ واحد ممن حمل الماء دودة، ولم يتبع الآخر منها شيء، فلو قتل واحدٌ منهم تلك الدودة آستحال الماء مرا لوقته، وكذلك ماء كلِّ مَنْ هو وراءه، ولا يستحيل ماء من هو إلى جانبه مُراًّ . قال آبن حوقل : وبكُورة سَابُورَ من بلاد فَارِسَ جَبَلٌ فيه صورة كل مَلِكٍ وكلِّ مَرْزُبَان معروف للعجم وكل مذكور من سَدَنَةِ النِّيران . وفى كورة أَرْجان فى قرية يقال لها طبريان [بئرٌ] (٢) يذكر أهلُها أنهم آمتحنوا قعرها بالمثقلات فلم يلحقوا لها قعرا، ويفور منها ماء يقدر مايُدِير رَحًى تسق أرض تلك القرية . قال : وفى كورة رُسْتاق [بئر] (٢) تعرف بالهنديجان بين جبلين يخرج منها دخان لا يستطيع أحد أن يقربها، وإذا طار عليها طائر سقط فيها وآحترق . وبناحية داذين نهرُ ماءِ عَذْبٍ يعرف بنهر أَخْشِين، يشرب منه الناس وتسقى به الأرض، وإذا غسلت به الثياب خرجت خُضْرًا .

(١) لعله ولو حمل واحد من مائها شيئا الخ .

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان ليستقيم الكلام .

وأما المنتزهات فبها نهر الأُبُلَّةِ وشِعْب بَوَّانَ ـ وهمـا نصف منتزهات الدنيا الأربعة : وهى نهر الأُبُلَّةِ وشِعْب بَوَّانَ المذكوران وصُغْد سَمَرْقَنْدَ وغُوطة دِمَشْقَ . وقد تقدّم أن نهر الأُبُلَّةِ نهرٌ شقّه زيادٌ مقابَلَةَ نهر مَعْقِل، وبينهما البساتين والقصور العالية والمبانى البديعة، يتسلسل مجراه، وتتهلل بُكَرُه وعشاياه، ويُظِله الشجر وتغنّى به زمر الطير . وفيه يقول القاضى التنوخىّ من أبيات :

وإذا نَظَرْتَ إلىٰ الأُبُلَّةِ خِلْتَهَـا * من جَنَّةِ الفِرْدَوْسِ حِينَ تُخَيَّلُ !
كَمْ مَـنْزِلٍ فى نَهْرِها آلىٰ السُّرو * رُ بأنَّهُ فى غَيْرِها لا يَـنْزِلُ !
وكأنَّمَـا تِلْكَ القُصُورُ عَرَائِسٌ * والرَّوْضُ حَلْيٌ وهى فيه تَرْفُلُ !

وشِعْب بَوَّانَ ـ وهو عدّة قُرًى مجتمعة ومياه متصلة، والأشجار قد غطَّتْ تلك القرىٰ فلا يراها الإنسان حتّى يدخلها ، وهو بظاهر هَمَذَان يشرف عليها من جبل، وهو فى سفح الجبل والأنهار تنحطّ عليه من أعلىٰ الجبل، وهو من أبدع بقاع الأرض مَنْظَرًا . قال المبرد : أشرفت علىٰ شِعب بَوَّانَ فنظرت فإذا بماء ينحدر كأنه سلاسلُ فضة، وتربةٍ كالكافور، وثَرِيَّةٍ كالثوب الموشّى، وأشجار متهادلة، وأطيار متجاوبة . وفيه يقول أبو الطَّيِّب المتنبى حين مرَّ به :

مَغَانِى الشِّـعْبِ طِيبًا فى المَغَانِى * بمنزلة الرَّبيعِ من الزَّمانِ !
ولٰكِنَّ الفـتىٰ العَرَبِيَّ فيهـا * غَرِيبُ الوَجْهِ واليَدِ واللِّسَانِ !

الجملـــــة السابعة
(فى ذكر من ملك مملكة إيران جاهلية وإسلاما)

وهم علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل
(ملوكها قبل الإســـلام)

وآعلم أن هذه المملكة لم تزل بيد ملوك الفُرْس لآبتداء الأمر وإلىٰ حين آنقراض دولتهم بالإســـلام علىٰ ماسيأتى ذكره . قال المؤيد صاحب حماة : وهم أعظم ملوك الأرض من قديم الزمان ، ودولتهم وترتيبهم لا يمـاثلهم فى ذلك أحد .

وهم علىٰ أربع طبقات :

الطبقـــة الأولىٰ
(القيشداذية)

سُمُّوا بذلك لأنه كان يقال لكل من ملك منهم فيشداذ ومعناه سيرة العدل .

وأوّل من ملك منهم (أوشهنج) وهو أوّل من عُقِد علىٰ رأسه التـاج وجلس علىٰ السرير ورَتَّب الملك ونَظَّم الأعمال ووضع الخَرَاج . وكان ملكه بعد الطُّوفان بمـائة (١) سنة، وهو الذى بنىٰ مدينتى بَابِلَ والسُّوسِ، وكان محمودَ السيرة، حسن السياسة .

ثم ملك بعـده (طهمورث) وهو من عقب أوشهنج المقدّم ذكره ، وبينهما عدّة آباء، وسلك سِيرة جدّه، وهو أوّل من كتب بالفارسية .

ثم ملك بعده أخوه (جَمْشِيذ) ومعناه شُعَاع القمر، وسار سَـيْرة من تَقَدَّمه وزاد عليها، وملك الأقاليم السبعة، ورتب طبقاتِ الحُجَّابِ والكُتَّابِ ونحوهم، وهو الذى أحدث النَّيْرُوزَ وجعله عيدا، ثم حاد عن سيرة العدل فقتله الفُرْس .

---

(١) فى تاريخ أبى الفدا (بمـائتى) بالتثنية .

وملك بعده (بيوراسب) ويعرف بالدَّهَّاك(١)، ومعناه عشر آفات، والعامة تسميه الضحاك، ومَلَك جميع الأرض فسار بالجَوْر والعَسْف، وبسط يده بالقتل، وأحدث المُكُوس والعُشور، وآتخذ المغَنِّين والمَلَاهى. وسيأتى خبر هلاكه مع كابى الخارج عليه فى الكلام علىٰ النِّحَل والملل، ويقال إنه هو ومن قبله كانوا قبل الطُّوفان.

ثم ملك بعده (إفريدون) ويقال إنه التاسع من ولد "جَمْشِيذ" المقدّم ذكره، وفى أوّل ملكه كان إبراهيم الخليل عليه السلام، وهو ذو القرنَيْنِ المذكورُ فى القرءان علىٰ أحد الأقوال، وملك جميع الأرض أيضا وقسمها بين بَنِيه ومات.

فملك بعده آبنه (إيراج) بعهد من أبيه، ثم ملك بعده أخوه (شرم) و(طوج) ثم غلبهما علىٰ المُلْك (مَنُوجِهْر بن إيراج) وفى أيامه ظهر موسىٰ عليه السلام. ويقال إن فرعون موسىٰ كان عاملا له علىٰ مصر داخلا تحت أمره.

ثم تغلب علىٰ المملكة (فراسياب بن طوج) فأفسد وخرَّب، ثم غلبه عليها (زو بن طهماسب) من أولاد مَنُوجِهْر، فأحسن السيرة وعَمَر البلاد، وشقَّ نهر الزَّابِ وبنىٰ مدينة علىٰ جانبه.

ثم ملك بعده (كرشاسف) من أولاد طوج بن إفريدون، وهو آخر ملوك هذه الطبقة.

الطبقـــة الثـانية

(الكِيَانيـــة)

سُمُّوا بذلك لأن فى أوّل آسم كل واحد منهم لفظة كى، ومعناه الرُّوحانى وقيل الجَبَّار.

وأوّل من ملك منهم بعد كرشاسف المقدّم ذكره (كيقباذ) بن زو، فسار سَيْرة أبيه فى العدل ومات، فملك بعده (كيكاؤوس) بن كينيه بن كيقباذ ومات، فملك

(١) كذا فى المختصر أيضا وفى العبر "الازدهاك بصاد بين السين والزاى وحاء قريبة من الهاء وكاف قريبة من القاف" وفى المسعودى "الده آك".

بعده ٱبنه (كيخسرو بن سياووس بن كيكاؤوس) بولاية من جدّه، ثم أعرض عن الملك .

وملك بعده (كيهراسف بن أخى كيكاؤوس) وٱتخذ سريرا من ذهب مرصعا بالجوهر، كان يجلس عليه، وبنىٰ مدينة بَلْخ بأرض خُرَاسَانَ وسكنها لقتال الترك، وفى زمنه كان بُخْتَنَصَّر فجعله نائبا له ثم مات .

وملك بعده (كيبشتاسف) وبنىٰ مدينة نَسَا، وفى أيامه ظهر زَرَادُشْت صاحب "كتاب المجوس" الآتى ذكره فى الكلام علىٰ النِّحل والملل، وتبعه كيبشتاسف علىٰ دينه ثم فُقِد .

وملك بعده (أردشير بهمن) ومعنىٰ بهمن الحسن النية ٱبن إسفنديار بن كيبشتاسف، وٱسمه بالعبرانية كورش، وملك الأقاليم السبعة، وهو الذى أمر بعمارة البيت المقدّس بعد أن خربه بُخْتَنَصَّر .

ثم ملك بعده ٱبنه (دارا بن أردشير) وفى زمنه ملك (الإسْكَنْدَرُ بن فيلبس) وغلب دَارَا علىٰ مُلْكِ فَارِسَ، وٱستناب به عشرين رجلا، وهم المُسَمَّوْنَ بملوك الطوائف، فأقاموا علىٰ ذلك خمسمائة وٱثنتى عشرة سنة، ثم بطل حكم ذلك .

الطبقة الثالثة

(الإشغانية[1]، يقال لكل منهم اشغا)

وأوّل من ملك منهم بعد ملوك الطوائف (اشغا بن اشغان)[2] . ثم ملك بعده ٱبنه (سابور بن اشغان) عشر سنين . ثم ملك بعده (بسين بن اشغا) ستين سنة . ثم ملك بعده (جور بن اشغان) عشر سنين . ثم ملك بعده (بيرن الاشغانى) إحدىٰ وعشرين

---

(١) فى العبر "الاشكانية وكافها أقرب إلىٰ الغين" فتنبه .

(٢) هنا مخالفة لما فى كتابى مختصر أبى الفداء والعبر فراجعهما .

سنة ومات . فملك بعده (جوذرز الاشـغانى) تسع عشرة سنة ومات . فملك بعده (نرسى الاشـغانى) أربعين سنة ومات . فملك بعده (هرمز الاشغانى) تسع عشرة سنة ومات . فملك بعده (اردوان الاشغانى) آثنتى عشرة سـنة ومات . فملك بعده (خسرو الاشغانى) أربعين سنة ومات. فملك بعده (بلاش الاشغانى) أربعاوعشرين سنة ومات . فملك بعده (اردوان الأصغر) وهو آخر ملوكهم من هذه الطبقة .

الطبقـــــة الرابعة

(الأكاسرة)

وأوّل من ملك منهم (أردشير بن بابك) من عقب ساسان بن "أردشير بهمن" قتل "اردوان" وآستولىٰ علىٰ ملكه ، فأقام أربع عشرة سنة وعشرة أشهر وكتب عهدا بالمُلْك فى عقبه ومات . فملك بعده آبنه (سابور) إحدىٰ وثلاثين سنة وستة أشهر، وفى أيامه ظهر "مانى الزنديق" وآدّعىٰ النبوّة، وآعتنىٰ بنقل كتب الفلسفة من اللغة اليونانية إلىٰ اللغة الفارسـية، ويقال إن العُودَ الذى يُتغنّى به حَدَث فى أيامه ومات . فملك بعده آبنه (هُرْمُز) سنة واحدة وستة أشهر ومات . فملك بعده آبنه (بَهْرام) ثلاث سنين وثلاثة أشهر ومات، فملك بعده آبنه (بهرام بن بهرام) سبع عشرة سنة ومات . فملك بعده آبنه (بهرام بن بهرام بن بهرام) أربع سنين ثم مات . فملك بعده أخوه (نرسى بن بهرام) تسع سنين ثم مات. وملك بعده آبنه (هُرْمُز) تسع سنين أيضا ومات. فملك بعـده آبنه (سابور) وهو الذى عمل الجَسْر الثانى لدِجْلة ليكون أحدُ الجَسْرين للذاهبين، والآخر للآتيين . وفى زمنه كان قُسْطَنْطِينُ ملك الروم (١) ومات . فملك بعده أخوه (أردشير) (٢) بوصية منه، ثم مات. فملك بعده آبنه (سابور

---

(١) قال فى العبر "ضبطه الدارقطنى بالراء المهملة" .

(٢) صوابه آبن أخيه .

ٱبن سابور) ثم ملك بعده أخوه (بهرام بن سابور) ثم ملك بعده ٱبنه (يزدِجرْد) المعروف بالأثيم ؛ ثم ملك بعده (كِسْرىٰ) من ولد " أردشير " [ثم ملك بعده (بهرام جور بن يزدجرد الأثيم) وكانت مدة ملكه[(١)]] ثلاثا وعشرين سنة ومات . فملك بعده ٱبنه (يزدجرد) ثمانيا وعشرين سنة ومات . فملك بعده ٱبنه (هُرْمُز) ثم مات . فملك بعده أخوه (فيروز) سبعا وعشرين سنة ، وظهر فى أيامه غلاء شديد . ثم ملك بعده ٱبنه (بلاش) أربع سنين ومات . فملك بعده أخوه (قُبَاذ) ثلاثا وأربعين سنة " وفى أيامه ظهر مردك الزِّنْديق وادّعىٰ النبوّة " ثم خلع . وملك بعده أخوه (جاماسف) [ثم تغلب عليه قباذ واستمر فى الملك[(٢)]] ثم مات . وملك بعده (أنوشِرْوان) ثمانيا وأربعين سنة ، وقتَل مردك الزِّنديق وأتباعه وجماعةً من المانَوِيَّة ، وغلب علىٰ اليمن وٱنتزعها من الحبشة . وفى زمانه وُلِد عبدالله أبو النبيّ صلىٰ الله عليه وسلم ! ثم وُلِد النبيّ صلى الله عليه وسلم ! فى آخر أيامه ؛ ثم مات . وملك بعده ٱبنه (هرمز) نحو ثلاثَ عشرةَ سنة ونصف . ثم ملك (أبرويز بن هرمز) ؛ ثم غلبه علىٰ الملك (بَهْرام چوبين) من غير أهل بيت الملك ؛ ثم عاد أبرويز إلىٰ الملك وملك ثمانيا وثلاثين سنة ، وتزوّج شِيرِينَ المغنيةَ وبنىٰ لها القصر المعروف بقصر شِيرِينَ . ثم ملك بعده ٱبنه (شيرويه) تغلُّبا علىٰ أبيه ثمانية أشهر . ثم ملك بعده ٱبنه (أردشير) سنة وستة أشهر . ثم ملك بعده (شهريران) من غير بيت الملك ثم قتل . وملك بعده (بُورانُ) بنت أبرويز سنة وأربعة أشهر . ثم ملك بعدها (خشنشده) من بنى عم أبرويز أقلّ من شهر . ثم ملك بعده (أزرميدخت) بنت أبرويز أخت بُوران . ثم قتلت ؛ وملك بعدها (كسرىٰ بن مهر خشنش) ؛ ثم قتلوه بعد أيام ؛ ثم ملك بعده

(١) الزيادة من تاريخ أبي الفداء ليتم الكلام ويستقيم .
(٢) « « « بالمعنى لتتميم الكلام .

فرخ زادخسرو [من أولاد أنو شِروان وملك ستة أشهر وقتلوه؛ ثم ملك] (يزدجرد) (١) وهو آخرهم .

الضرب الثانى

(ملوكها بعد الإسلام، وهم علىٰ ثلاث طبقات)

الطبقـــة الأولىٰ

(عُمَّال الخلفاء)

قد تقدّم أن فتحها كان فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فتوالت عليها عُمَّال الخلفاء فى بقية خلافة عمر، ثم فى خلافة أمير المؤمنين عثمان ٱبن عفان رضى الله عنه، ومُقَامهما يومئذ بالمدينة النبوية؛ ثم لما بويع أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه بالخلافة بعد قتل عثمان، جعل إقامته بالعِراق؛ ثم كان بعده ٱبنه الحسن السِّبْط رضى الله عنه، فأقام بالعراق إلىٰ أن سَلَّم الأمر إلىٰ (مُعَاوِيَةَ بن أبى سُفْيَانَ) وصارت الخلافة إلىٰ بنى أُمَيَّـةَ، وجعلوا دار إقامتهم بالشأم وتوالت علىٰ هذه المملكة نوابهم فى خلافة معاوية؛ ثم (ٱبنه يزيد)؛ ثم (ٱبنه معاوية بن يزيد)؛ ثم (مَرْوانَ بن الحكم)؛ ثم (عبد المَلِك بن مَرْوَانَ)؛ ثم (الوليد ٱبن عبد المَلِك)؛ ثم (سليمان بن عبد المَلِك)؛ ثم (عُمَرَ بن عبد العزيز)؛ ثم (يزيدَ ٱبن عبد المَلِك)؛ ثم (هشام بن عبد المَلِك)؛ ثم (الوليد بن يزيد بن عبد المَلِك)؛ ثم (يزيد بن الوليد بن عبد الملك)؛ ثم (إبراهيم بن الوليد)؛ ثم (مَرْوَانَ بن محمد ٱبن مروان بن الحكم) وهو آخرهم .

---

(١) أى ٱبن شهريار . وبقية نسبه فى تاريخ أبى الفداء والزيادة منه ليتم الكلام .

الطبقة الثانية
(خلفاء بنى العبّاس)

وقد تقدّم فى أوّل هذه [المقالة] أن دار مُقَامهم كانت بالعراق، وأن أوّل من وَلِىَ منهم الخلافة (أبو العبّاس السّفّاح)، فبنى المدينة الهاشمية ونزلها، ثم آنتقل منها إلى الأنبار فكانت دار مُقَامه إلى أن مات؛ ثم كان بعده أخوه (أبو جعفر المنصور) فبنى بغداد وسكنها؛ ثم سكنها بعده آبنه (المهدىّ) بن المنصور؛ [ثم آبنه (الهادى)] (١)؛ ثم أخوه (هارون الرشيد) بن المهدىّ؛ ثم آبنه (الأمين)؛ ثم أخوه (المأمون)؛ ثم أخوه (المعتصم) بن الرشيد؛ ثم (الواثق) بن المعتصم؛ ثم أخوه (المتوكل)؛ ثم آبنه (المنتصر)؛ ثم (المستعين بن المعتصم)؛ ثم (المعتز بن المتوكل)؛ ثم (المهتدى) آبن الواثق؛ ثم (المعتمد بن المتوكل)؛ ثم (المعتضد بن الموفق طلحة) بن المتوكل؛ ثم آبنه (المكتفى) بن المعتضد؛ ثم أخوه (المقتدر)؛ ثم (المرتضى) بن المعتز؛ ثم أخوه (القاهر)؛ ثم (المقتدر) المقدّم ذكره؛ ثم أخوه (القاهر) المقدّم ذكره؛ ثم آبن أخيه (الراضى)؛ ثم أخوه (المتقى)؛ ثم آبن عمه (المستكفى)؛ ثم آبن عمه (المطيع)؛ ثم آبنه (الطائع)؛ ثم (القادر)؛ ثم آبنه (القائم)؛ ثم آبن آبنه (المقتدى)؛ ثم آبنه (المستظهر) ثم آبنه (المسترشد)؛ ثم آبنه (الراشد)؛ ثم (المقتفى) بن المستظهر؛ ثم آبنه (المستنجد)؛ ثم آبنه (المستضىء)؛ ثم آبنه (الناصر)؛ ثم آبنه (الظاهر)؛ ثم آبنه (المستنصر)؛ ثم آبنه (المستعصم) وقتله هُولَاكُو ملكُ التتار الآتى ذكره، فى العشرين من المحرّم سنة ست وخمسين وستمائة، وهو آخرهم ببغداد.

وآعلم أن أمر الخلافة كان قد وهى وضَعُف، وتناهت فى الضعف أيامَ الراضى، وتغلب عُمَّال الأطراف عليها، فاستولى محمد بنُ رائق من الفرات على البصرة،

(١) سقط من قلم الناسخ فأثبتناه ليتم الكلام و ينتظم.

والبريدىُّ على خُوزُسْتَانَ، وعمـادُ الدولة بن بُوَيه على فَارِسَ، ومحمد بن الياس على كِرْمَانَ، وركْنُ الدولة بن بُوَيه على الرَّىّ وأصْفَهَانَ، وبنو حَمْدَانَ على المَوْصِلِ وديارِ بَكْرٍ وديارِ مُضَرَ وديارِ رَبِيعَةَ، وغير أقطار هذه المملكة مع ملوك أخر. ولم يبق للخليفة غيرُ بَغْدَادَ وأعمالهـا؛ وآستولى آبن رائق على جميع الأمور وخطب باسمه على المنابر، وأقام سنة وعشرة أشهر، ثم صار الأمر بعده إلى (يحكم) مملوك وزير (ماكان) بن كاكى الديلمىّ وآستمرّ أيام الراضى فقتـل؛ وآستقرّ (البريدىّ) بعـده فى أيام المتقى وأيام المستكفى، وضُرِبت ألقابه على الدنانير والدراهم، وخُطب بآسمه على المنابر، وآستمرّ ذلك لذويه من بعده؛ ثم ملك بعده (بختيار)؛ ثم آبن عمه[1] (عضد الدولة) بن ركن الدولة حسن بن بويه؛ ثم آبنه (صمصام الدولة) بن عضد الدولة، ثم أخوه (شرف الدولة شيرزبك) بن عضد الدولة؛ ثم أخوه (بهاء الدولة أبو نصر) بن عضد الدولة؛ ثم آبنه (سلطان الدولة أبو شجاع)؛ ثم آبنه (بهـاء الدولة)[2]؛ ثم أخوه (مشرف الدولة آبن بهاء الدولة)؛ ثم أخوه (جلال الدولة) أبو الطاهر بن بهاء الدولة؛ ثم آبن أخيه (أبو كاليجار) بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة؛ ثم آبنه الملك الرحيم (خسرو فيروز) آبن كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة بن عضد الدولة بن ركن الدولة آبن بُوَيْه.

وبنو بويه هؤلاء ينسبون إلى يَزْدَجِرد ملك الفرس.

ثم كانت دولة السَّلْجوقية. وهى من أعظم الدول الإسلامية، ونسبتهم إلى سلجوق بن دقاق أحد مقـدّمى الأتراك، وبهم زالت دولة بنى بويه عن بغـداد وأعمـال الخلافة.

وأوّل من ملك منهم (طُغْرلبك) بن ميكائيل بن سَلْجوق فى سنة آثنتين وثلاثين وأربعمائة؛ ثم ملك بعده آبن أخيه (ألْب أرسلان) بن داود بن ميكائيل؛ ثم آبنه

(١) فى الأصل "ثم آبنه" وهو خلاف الواقع.
(٢) أجمعت التواريخ على إسقاط هذا من البين، وهو ما تقتضيه عبارة المؤلف.

(ملكشاه) بن ألب أرسلان ؛ ثم ٱبنه (محمود بن ملكشاه) ؛ ثم أخوه (بَرْكِيَارُق) ٱبن ملكشاه ؛ ثم أخوه (محمد بن ملكشاه) ؛ ثم ٱبنه (محمود بن محمد) ؛ ثم ٱبنه (داود بن محمود) ؛ ثم عمه (طغرلبك) بن محمد ؛ ثم أخوه (مسعود) بن محمد ؛ ثم ٱبن أخيه (ملكشاه) بن محمود ؛ ثم أخوه (محمد بن محمود) . ثم قام منهم ثلاثة : وهم (ملكشاه بن محمود) أخو محمد المذكور ، و (سليمان شاه) بن محمد بن ملكشاه ، وهو عم محمد المذكور ، و (أرسلان شاه) بن طغرلبك بن محمد بن ملكشاه . ثم قبض علىٰ سليمان شاه ، ومات ملكشاه ، وٱنفرد أرسلان شاه بن طغرلبك بالسلطنة . ثم ملك بعده ٱبنه (طغرلبك) بن أرسلان شاه وبقي حتّى قتله علاء الدين تُكُش صاحب خوارزم وبعض خُرَاسَان والرَّيِّ وغيرها ، في خلافة الناصر لدين الله في سنة تسعين وخمسمائة ، واشتغل (خوارزم شاه) عن فصل العراق فبقي بيد الخلفاء من لدن الناصر لدين الله ، ومَنْ بعده إلىٰ أن ٱنقرضوا بفَعْلة هُولَاكُو ملك التتر الآتي ذكره .

الطبقة الثالثة

(ملوكها من بَنِي جنكزخان)

واول من ملكها منهم (هُولَاكُو) بن طولى بن جنكزخان المقدّم ذكره ، قصدها بأمر أخيه منكوقان بن طولى صاحب التخت في سنة خمسين وستمائة ، وقتل المُسْتَعْصِمَ آخر الخلفاء ببغداد ، وٱستولىٰ علىٰ جميع المملكة . قال في "مسالك الأبصار" : قال شيخنا العلامة شمس الدين الأصفهانيّ : إلا أن هُولَاكُو لم يملك ملكا مستقلا بل كان نائبا عن أخيه منكوقان ، ولم يضرب بٱسمه سكة درهم ولا دينار ، وإنما كانت تضرب باسم أخيه منكوقان . قال : وكان يكون لصاحب التخت أميرٌ لا يزال مقيما في مملكة إيران مع هُولَاكُو ، ومات في تاسع عشر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين

وسبعمائة، وملك بعـده (ٱبنه أبغا) . قال الشيخ شمس الدين الأصفهانىّ : ولما ملك أضاف ٱسمه فى السكة إلىٰ ٱسم صاحب التّخت ، وكان قد وجه أخاه منكوتمر إلىٰ الشام وٱلتقىٰ مع الجيوش الإسلامية علىٰ حِمْص، وٱنكسر عليها؛ ومات سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة ؛ وملك بعده أخوه (بوكدار بن هولاكو) وأسلم وحسن إسلامه وتلقب أحمد سلطان ، وحمل العسكرَ علىٰ الإسـلام فقتلوه؛ وملك بعـده ٱبن أخيه (أرغون) بن أبغا بن هُولَاكُو فى جمـادىٰ الأولىٰ سـنة ثلاث وثمـانين وستمائة ، وتوفى فى ربيع الأوّل سـنة تسعين وستمـائة؛ وملك بعـده أخوه (كيختو) فخرج عن الياسـة وأفحش فى الفسق بنساء المغل وأبنـائهم ، فوثب عليـه بنو عمه فقتلوه فى ربيع الآخر سـنة أربع وتسعين وستمـائة؛ وملك بعده (بيدو بن طرغاى) ٱبن هُولَاكُو ، وبقى حتّىٰ قتـل فى ذى الحجة من السـنة المذكورة ؛ وملك بعـده (محمود غازان) بن أرغون بن أبغـا بن هولاكو ، ودخل إلىٰ الشـام ، وكان بينه وبين الملك الناصر محمد بن قلاوون وَقَعات بحِمْص وغيرها آخرها علىٰ شَقْحَب، كُسِر فيها كسرة فاحشة، هلك فيها معظم عسكره فى سنة ٱثنتين وسبعمائة ، وبقى حتّىٰ توفى فى ثالث عشر شوّال سـنة ثلاث وسبعمائة ؛ وملك بعده أخوه (خدابندا) والعامة تقول خربنـدا بن أرغون بن أبغـا بن هُولَاكُو فى الثالث والعشرين من ذى الحجة سنة ثلاث وسبعمائة؛ ثم ملك بعده (أبو سعيد بن خدابندا) وهو آخر من ملك من بنى هُولَاكُو، وكان بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مكاتَبَات ومراسلات وتودّد بعد وَحْشـة ، وبموته تفرّقت المملكة بأيدى أقوام، وصارت شبيهة بملوك الطوائف من الفُرْس .

قال فى "مسالك الأبصار" بعد ذكر أبى سعيد : ثم هُمْ بعده فى دهماءَ مظلمه ، وعمياء مُقْتِمه؛ لا يُفْضِى ليلهم إلىٰ صَبَاح ، ولا فرقتهم إلىٰ ٱجتماع ، ولا فسادُهم إلىٰ

صَلَاح ؛ فى كل ناحية هاتف ، يدعىٰ بآسمه ، وخائف ، أخذ جانبا إلىٰ قَسْمِه ؛ وكل طائفة تتغلب وتقيم قائمـا تقول هو من أبناء القان ، وتنسبه إلىٰ فلان ؛ ثم يضمحلّ أمره عن قريب ، ولا تلحق دعوته حتّى يدعىٰ فلا يجيب ، وما ذلك من الدهر بعجيب . وذكر نحوه فى "التعريف" وزاد عليه فقال : "وكان العهد بهذه المملكة لرجل واحد وسلطان فرد مطاع ، وعلىٰ هذا مضت الأيام إلىٰ حين وفاة أبى سعيد ، فصاح فى جَنَبَاتِها كُلُّ ناعق وقطع رداءها كل جاذب ، وتفرّد كل متغلب منها بجانب ؛ فهى الآن نُهْبىٰ بأيديهم .

فأما عِرَاق العرب وهو بَغْدَادُ وبلادها وما يليها من ديار بَكْر ، وربيعة ومُضَر ، فبيد الشيخ حسن الكبير ، وهو الحسن بن الحسين بن أقبغا من طائفة النُّورانيين ، كان جدّه نوكرا لهُولَاكُو بن طولى بن جنكزخان ، والنوكر هو الرفيق .

وأما بقيَّة ديار بكر ، فبيد إبراهيم شاه بن بارنباى بن سوناى .

وأما مملكة أَذْرَبيجـان وهى قطب مملكة إيران ، ومقرّ كرسىّ ملوكها من بنى جنكزخان ؛ فهى الآن بيد أولاد جوبان ، وبها القان القائم بها (سليمان شاه) . قال : ولا أعرف صحة نسبه ولا سياقته بالدعوىٰ .

وأما خراسان ، فبيد القان طغيتمريار . وهو صحيح النسب ، غير أنى لم أعرف آسم آبائه .

وأما بلاد الروم ، فقد أضـيفت إلىٰ إيران منهـا قطعةٌ صالحه ، وبلاد نازحه ؛ ثم قال : وهى الآن بيد أرتنا ، وقد نبه علىٰ ذلك ليعرف .

قلت : ثم تغيرت الأحوال عن ذلك .

الجمـــلة الثامنة

(فى معاملاتهــا وأســـعارها)

أما معاملاتها فالمعتبر فيها معاملة ثلاث قواعدَ .

الأولى ـ (بَغْدَاد) . قد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن ببغداد دينارين . أحدهما يسمّى العوال، عنه اثنــا عشر درهما، الدرهم بقيراط وحبتين . وذلك أن الدينار عشرون قيراطا، كل قيراط ثلاث حبات، كل حبة أربعة فلوس من الدرهم النقرة، عن كل فَلْسٍ فَلْسان أحمران . والثــانى الدينار المرسل، عنه عشرة دراهم، وبه أكثر مبــايعاتهم ومعاملات تُجَّارهم . وقد اختلف أصحابنــا الشافعية فى رِطْل بَغْــدَادَ، فذهب الرافعىّ إلى أنه مائة وثلاثون درهما وهو الموجود فيها الآن، وعليه اقتصر فى "مسالك الأبصار". وذهب الشيخ محيي الدين النووىّ إلى أنه مائة وسبعة وعشرون درهما وأربعة أسباع درهم؛ والمنُّ بها رطلان بالتورانىّ . ومكاييلها أكبرها الكُرُّ، وهو ثلاثون كارة، كل كارة قفيزان، فيكون الكُرُّ [ستين] قفيزا، والقفيز مكُّوكان كل مَكُّوك خمس عشراق[1] . وتختلف الكارَةُ فى الغلال، فالقمح كارته مائتان وأربعون رطلا، وكارة الأَرُزِّ ثلثمائة رطل ، وكارة كلٍّ من الشــعير والحِمَّص والعَدَس والهُرْطُمَان مائة رطل ، وكارة الحَبَّة السَّوْداء، وهى الشُّونيز مائة رطل .

الثانية ـ (تَوْرِيز) قاعدة أَذْرَبِيجَان وسائرِ المملكة غير بغداد وخُرَاسان. فمعاملاتها بدينار يسمّى عندهم بالرائج، عنه ستة دراهم .

الثالثة ـ (نَيْسَابُور) قاعدة خُرَاسَانَ . فدينارها أربعة دراهم، وفى بعضها الدينار الرائج المقــدّم ذكره . قال فى "مسالك الأبصار" : ولا يبــاع بتَوْرِيزَ وبلادها

---

(١) كذا فى الأصل ، وقد تكلم على المَكُّوك صاحب القاموس وصاحب اللسان بأوضح ممــا هنا .

فى الغالب قمح ولا شعير ونحوهما إلا بالميزان، وليس لهم إلا المَنّ، وهو بتَوْريز رِطْلان بالبغدادىّ، فتكون زنته مائتين وستين درهما، و بالسلطانية المنّ ستمائة درهم .

وأما أسعارها فنقل فى "مسالك الأبصار" عن يحيىٰ بن الحكيم الطيارىّ فى السعر ببغداد : أن كُرّ القمح بتسعة وثلاثين دينارا ونصف دينار، والشعير بخمسة عشر دينارا، كلاهما من العوال . ثم قال: ولعل هذا هو السعر المتوسط، لا يكاد يميل فيه القانون عن معدّله . وذكر أن الأسعار بتبريز والسلطانية إذا لم ينزل عليها السلطان، فأسعارها رَخيّة لا إلىٰ غاية، وكل بلد نزل عليه السلطان غلت أسعاره، ولعل هذا قد تغير كل فى زماننا كما تغير غيره من الأحوال .

الجملة التاسعة

(فى ترتيب هذه المملكة علىٰ ما كانت عليه فى زمن بَنِى هُولَاكُو، آخر أيام أبى سعيد : من الأمراء والوزراء وأرباب الوظائف)

أما الأمراء . فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أنهم عندهم علىٰ أربع طبقات أعلاها النوين ، وهو أمير عشرة آلاف، ويعبر عنه بأمير تومان، إذ التُّومان عندهم عبارة عن عشرة آلاف ، ثم أمير ألف ، ثم أمير مائة ، ثم أمير عشرة . قال فى "التعريف": (وحكام دولة هذا السلطان أمراء الألوس، وهم أربعة، أكبرهم بكلارى بك : وهو أمير الأمراء، كما كان قطلوشاه عند غازان، وجوبان عند خدابندا، ثم عند أبى سعيد). قال : وهؤلاء الأمراء الأربعة لا يُفْصَل جليل أمر إلا بهم، فمن غاب منهم كتب فى اليرالغ : وهى المراسيم كما يكتب لو كان حاضرا، ونائبه يقوم عنه، وهم لا يُمْضُون أمرا إلا بالوزير، والوزير يمضى الأمور دونهم ويأمر نوابهم فتكتب أسماءهم، والوزير هو حقيقة السلطان، وهو المنفرد بالحديث فى المال ،

والولاية، والعزل، حتّى فى جلائل الأموركما كان بكلارى بك يتحدّث فى أمر العسكر بمفرده. فأما الاشتراك فى أمور الناس فبهم أجمعين، وليس للأمراء فى غالب ذلك من العلم إلا ما علم نوابهم .

قال فى "مسالك الأبصار" نقلا عن نظام الدين بن الحكيم الطيارىّ : وأمر الجيوش والعساكر إلىٰ كبير أمراء الألوس المسمّى بكلارى بك، كما كان قطلوشاه مع السلطانين محمود غازان وأخيه محمد خدابندا، وجوبان مع خدابندا، ثم بعده مع ولده السلطان أبى سعيد بهادرخان، والشيخ حسن بن حسين بن أقبغا مع خانه السلطان محمد بن طشتمر بن اشتمر بن غبرجى، وإليه يقطع أمر كل ذى سيف. قال : وأمر متحصّلات البلاد ودخلها وخرجها إلىٰ الوزير، وإليه يرجع أمر كل ذى قلم ومنصب شرعىّ ، وله التصرف المطلق فى الولاية والعزل والعطاء والمنع ، لا يُشاوِر السلطان إلا فيما جَلَّ من المهمات وما قَلَّ من الأمور، وهو السلطان حقيقةً وصاحب البلاد معنى، وإليه ترجع الأموركلها، وإليه عقدها وحلُّها . أما السلاطين بها فلا آلتفاتَ لهم لأمر ولا نهى ولا نظر فى متحصِّل ولا دخل ولا خرج . قال : وعدّة جيشهم المنزّلة فى دواوينهم لا تبلغ عشرين تومانا. أما إذا أرادوا فإنهم يركبون بثلاثين تومانا وما يزيد عليها، وعامةُ العسكر لا تزال أسماؤهم فى دواوينهم علىٰ الإفراد، وكلُّ طائفة منهم عليهم فى الديوان فارس معين، إذا رسم لهم بالركوب ركب العدّةُ المطلوبة. قال: وقد ذكر أنه كان فى هذه المملكة عدّة ملوك كصاحب هراة، وحلول الجبل هم كالعبيد لقانها الأكبر منقادون إليه وداخلون تحت طاعته .

وأما القضاة فعادة هذه المملكة أن يكون بها فى صحبة السلطان قاضى قضاة الممالك، وهو الذى يولّى القضاة فى جميع المملكة علىٰ تنـائى أقطارها إلا العِراق، فإن لبغداد قاضى قضاة مستقلّ بها يولّى فيها وفى بلادها من جميع عراق العرب .

واما الكُتَّاب وأصحاب الدّواوين : من ديوان الإنشاء ودواوين الأموال ، فعلىٰ أَتَمِّ نظام وأعدلِ قاعدة .

الجملة العاشرة

(فيما لأرباب المناصب والجُنْد من الرزق على السلطان)

قد نقل فى "مسالك الأبصار" عن نظام الدين الطيارىّ : أن المقرَّر للأمراء فى القديم من زمن هُولَاكُو لكل نوين (أميرٍ) تومانٌ : وهو عشرة آلاف دينار رايج ، عنها ستون ألف درهم ، ثم تزايد الحال بهم حتّىٰ لا يقنع النوين فيهم إلا بخمسين ألف(١) تومان ، وهى خمسمائة ألف دينار رايج ، عنها ثلاثة آلاف ألف درهم ، ومن خمسين تومانا إلىٰ أربعين تومانا . وكان قد استقر لجوبان ، وهو يومئذ بكلارى بك ثم لمن بعده ثلثمائة تومان ، وهى ثلاثة آلاف ألف دينار رايج ، عنها ثمانية عشر ألف ألف درهم مع ما يحصل لكل من أمراء الألوس الأربعة من الخدم الكثيرة فى البلاد جميعها عند تقريرات الضمان بها علىٰ ضُمَّانها . قال : وأما أمير ألف ومَنْ دونه ، فلا يتجاوز أحد منهم تقريره القديم فى الديوان : وهو لأمير الألف ألف دينار رايج ، عنها ستة آلاف درهم . وأما أمير المائة وأمير العشرة وكل واحد من العسكرية إلىٰ الجند فمائة دينار رايج ، عنها ستمائة درهم لاتفاوت بينهم ، وإنما تبقى مزية أمير المائة أو العشرة أنه يأخذ لنفسه شيئا مما هو للعسكرية ، ولكل طائفة أرض لنزولهم ، توارثها الخَلَفُ عن السَّلَف منذ ملك هُولَاكُو البلاد ، فيها منازلهم ، ولهم بها مزدرع لأقواتهم ، لكنهم لايعيشون بالحرث والزرع .

وأما الخواتين فإنه يبلغ مالخاتون الواحدة فى السنة مائتى تومان ، وهو ألف(٢) ألف

(١) لعل لفظ ألف من زيادة الناسخ كما يستفاد من الفذلكة بعد فتأمل .

(٢) كذا فى الأصل ، ولعل الصواب ألفا ألف بالتثنية ليستقيم الحساب .

دينـار رابح، عنها آثنا عشر ألف ألف درهم، وما دون ذلك إلىٰ عشرين تومانا ، وهو مائتا ألف دينار، عنها ألف ألف ومائتا ألف درهم .

وأما الوزير فله مائةوخمسون تومانا، وهو ألف ألف وخمسمائة ألف دينار رابح، عنها تسعة آلاف ألف درهم، ولا يقنع بعشرة أضعاف هذا فى تقادير البلاد .

وأما الخواجكية من أرباب الأقلام، فمنهم من يبلغ فى السنة ثلاثين تومانا، وهى ثلثمائة ألف دينار، عنها ألف آلف وثمانمائة ألف درهم . ثم قال : والذى للأمراء والعسكرية لايكتب به مرسوم، لأن كل طائفة وَرِثت مالها من ذلك عن آبائها ، وهم علىٰ الجهات التى قررها لهم هُولَاكُو لم تتغير بزيادة ولا نقص، إلا أكابر الأمراء الذين حصلت لهم الزيادات فإنه فى ذلك الوقت كتب لهم بها بأمر القان أصدرها الوزراء عنه، ومن الخواتين من أخذ بمـاله أو ببعضـه بلادا فهى له . قال : وفى هـذه المملكة ما لا يحصىٰ من الإدرارات والرسومات حتّٰى إن بعض الرواتب يبلغ ألف دينـار .

وأما الإدرارات من المبلغ أو القرىٰ ، فإنها تبقىٰ لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف شاء من بَيْعٍ وهِبَةٍ ووَقْفٍ لمن أراد .

الجمـــــلة الحادية عشرة

(فى ترتيب أمور السلطان بهذه المملكة علىٰ ما كان الأمر عليه)

حكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أن أهل هذه المملكة من التتر كانوا قد داخلوا العجم وزوّجوهم وتزوّجوا منهم، وخلطوهم بالنفوس فى الأمور، فتفخمت قواعدهم، وجرت علىٰ عوائد الخلفاء والملوك فى غالب الأمور قوانينُهم .

ثم للسلطان بهذه المملكة مَشْتًى ومَصِيف :

فأما مَشْتاه فبأوجان بظاهر تبريز، وهو مكان متسع ذو مُرُوج ومياه على ماتقدّم ذكره، وبه قُصُور لأكابر الأمراء والخَوَاتين . أما عامة الأمراء والخواتين، فإنهم يتخذون زُرُوبا من القصب كالحظائر يتزرّبون بها، وينْصِبون معها الخركاوات والخيام، فتصير مدينة متسعة الجوانب، فسيحة الأرجاء، حتّى إذا خرجوا لمَصِيفهم راحلين عنها، أحرقوا تلك الحظائر لكثرة ما يتولد فيما بقي منها من الأفاعى والحيات، ولا يبالون بما يُغْرِم عليها من كثير الأموال .

وأما مَصِيفه فمكانٌ يعرف بقَرَاباغ ، ومعناه البستان الأسود ، وفيه قُرًى ممتدّة ، وهو صحيح الهواء، طيب الماء ، كثير المَرْعى . وإذا نزل به الأردوا ، وهو وطاق السلطان وأخذت الأمراء والخواتين منازلهم، نُصِب هناك مساجدُ جامعة، وأسواق منوّعة ، يوجد بها من كل ما فى أمهات المدن الكبار حتّى يكون بها أسواق لاينكر أحد على أحد، بل كل أحد وما آستحسن، إلا أن الأسعار تغلو حتّى يصير الشيء بقيمة مثليه أو أكثر لكلفة الحمل ومشقّة السفر . وذكر أنه كان من عادة سلطانهم أنه لايعمل موكبا، ولايجلس لخدمة ولا لقراءة قصص حكمية وإبلاغ مظالم إليه، بل له من أبناء الأمراء خاصةٌ له يقال لهم الإينافية، يكونون حوله لايكاد منهم من يفارقه .

فأما الأمراء فإنهم يركبون فى غالب الأيام على نحو عشرين غَلْوَةَ سهم منها إلى باب الكرباس، وتنصب لهم هناك كراسىّ صندلية، يجلس كل أمير منهم على كرسىّ منها بحسب مراتبهم : الأعلى ثم الأدنى ، ويدخل الوزير فى بكرة كل يوم على القان، ويبقى الأمراء على باب الكرباس، فإما أن يخرج لهم القان، وإما أن يأذن لهم فى الدّخول، أو لا هذا ولا هذا . فإذا حضر طعام القان بعث إلى كل أمير منهم شيئا للأكل بمفرده يأكله هو ومن آنضم معه، فيأكلون ثم يتفرّقون ويذهبون إلى حالهم، ومن تأخر منهم عن الحضور لم يطلب بحضور إلا أن تدعوَ الحاجة .

أما الظُّلَامات فإن كانت متعلّقة بالعسكرية، فإلىٰ أمير الألوس. وإن كانت متعلقة بالبلاد والأموال أو الرعايا، فإلىٰ الوزير. بل أكثر الظُّلَامات لا يفصلها إلا الوزير لملازمته باب القان، بخلاف أمير الألوس لقلة ملازمته. ثم قال: وليس فى هذه البلاد قاعدة محفوظة، بل كل مَنِ ٱنضوىٰ إلىٰ خاتون من الخواتين أو أمير من الأمراء أو كبير من الخواجكية، قام بأمره إما فى قضاء حاجة يطلبها، أو إزالة ظُلَامة يشكوها، حتّىٰ إن من الخواتين والأمراء من يقتل ويُوسِّط بيده بغير أمر القان ولا أمير الألوس.

الجمـــــلة الثـانية عشرة

(فيما يتعلق بترتيب ديوان الإنشاء بهذه المملكة)

أما البرالغ: وهى المراسيم، فالمتعلق بالأموال تسمّىٰ الطن طمغا ويكون صدورها عن رأى الوزير، وكذلك المتعلق بالبريد. والمتعلق بالعسكرية صادر عن أمير الألوس، وليس لأحد علىٰ الجميع خَطٌّ إلا الوزير، وإنما العادة أن يأمر الوزير بكتابة ما يرىٰ، ثم تُؤخذ خطوط المتحدّثين فيما يُكتَب، ثم تحرّر مسودّة وتعرض علىٰ الوزير فيأمر بتبييضها، فإذا بُيِّضت كتب عليها ٱسم السلطان، ثم تحتـه ٱسم الأمراء الأربعة، ويخلّىٰ تحته مكان لخط الوزير، ثم يكمل البرلغ ويختمه بالتاريخ شخص مُعَدٌّ لذلك غير من يكتب، ثم يكتُب الوزير فى المكان الخالى "فلان سورى" أى هـذا كلام فلان يسمى نفسه.

ثم إن كان متعلقا بالمـال أُثبِت بالديوان المتعلق به، وإلا فلا. وأما المتعلق بالعسكر، فمنشأ الأمر فيه عن أمير الألوس يأمرهم علىٰ بقية الترتيب، ولا خَطَّ لأمير الألوس بيده. وعادة أصحاب الدواوين عندهم كما هو بمصر والشام لا يعلِّم صاحبُ علامة حتّىٰ يرىٰ خط نائبه عليه أوّلا ليَعْلَمَ أنه قد ثبت عنده.

قلت: وقد ٱختلفت الأحوال بعد ذلك وتغيرت عما كانت عليه فى جُل الأمور.

المملكة الثانيـــــــة
(ممـا بيد بَنِي جنكزخان مملكة تُورَانَ)

قال فى "المشـترك" : بضم المثناة من فوق وسكون الواو ثم راء مهملة وألف ونون . قال فى "التعريف" : وهى من نهر بَلْخ إلىٰ مطلع الشمس علىٰ سمت الوسط ، فمـا أخذ عنها جنوبا كان بلاد السِّـنْد ثم الهِنْـد ، وما أخذ عنها شَمَـالا كان بلاد الخفجاخ ، وهى طائفة القَبْجَاقِ ، و بلاد الصقْلَب ، والجَهَاركس ، والروس ، والماجار ، وما جاورهم من طوائف الأمم المختلفة سُكَّان الشَّمال . قال : ويدخل فى تُورَانَ ممـالكُ كثيرة ، و بلاد واسعة ، وأعمال شاسعة ، وأمم مختلفة لاتكاد تحصىٰ ، تشتمل علىٰ بلاد غَزْنَةَ ، والبَامِيَانِ ، والغُورِ ، وماوراء النهر الذى هو نهر جَيْحُونَ ، نحو بُخَارا وسَمَرْقَنْدَ والصُّـغْدِ ونُجَنْد وغير ذلك ، و بلاد تُرْكُسْتَانَ وأشْرُوسَـنَةَ وفَرْغَانَةَ ، و بلاد سَاغُونَ وأَطْرَار وصريوم ، و بلاد الخِطَا نحو بشمالق والمـالق إلىٰ قَرَاقُومَ ، وهى قرية جنكزخان التى أخرجتْه ، وعِرِّيسَتُه التى أدرجتْه . إلىٰ ماوراء ذلك من بلاد الصِّينِ وصِينِ الصِّينِ . ثم قال : وكل هذه ممالك جليله ، وأعمال حفيله . أما فى "المشترك" : فإنه قد جعـل تُورَانَ آسمـا لمجموع ما وراء النهر من مملكة الهَيَاطلة ، وهى جزء ممـا تقدّم ذكره .

وقد قسم فى "التعريف" (١) : مملكة تُورَانَ إلىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل ــ منها غزنة وبُخَارا وسَمَرْقَنْدَ وعامة ما وراء النهر وتُرْكُسْتَانَ .

قال فى "مسالك الأبصار" : وما بعده ومامعه . قال : وهى من أجَلّ الممـالك وأشهرها . ثم قال : وهى ممـالك طائرة السُّـمْعه ، طائلة البُقْعه ، أَسِرَّةُ ملوك ، وأُفُقُ عُلَمَـاء ، ودارة أكابر ، ومَعْـقِد أَلْوِيَةٍ وبُنُود ، ومجرىٰ سوابق وجُنُود ، كانت

(١) عبـارة "التعريف" وأما مملكة توران فهى منقسمة ثلاثة أقسام ...... وبهـا سلطانان مسلمان وسلطان كافر . ثم تكلم علىٰ المكاتبة إلىٰ الجميع .

بها سلطنة الخانيــة وآل سامان و بنى سُبُكْتُكِين والغُورية ؛ ومن أُفُقها بزغت شمُس آل سَلْجُوق ، وآمتدّت فى الإشراق والشُّروق ؛ وغير هذه الدول ممـا طَمّ سهولَ هذه الممالك علىٰ قربها . كانت قبل آنتقالها إلىٰ الإسلام ، فى ملوك الترك لا ترامىٰ ولا ترام ، ولا يشق لها سهام ؛ حتّى [إذا] خيم بها الإسلام وحاز ملكها هذه الأمة ، برقت بالإيمان أَسِرّتُها ، وتطرّزت بالجوامع والمساجد قراها ؛ ثم بنيت بها المدارس والخوانق والرُّبط والزوايا ، وأجريت الأوقاف عليها ، وكثر من العلماء أهلُها ، وسارت لها التصانيفُ المشهورة فى الفقه والحـديث والأصول والخلاف ، وكان فيهم الرؤساء والأعلام ، والكبراء أهل البحث والنظر . ثم قال : وهى فى أواسط المعمور وأوسع الأرض إذا قيل إنها أخصب بلاد الله تعالىٰ وأ كثرها ماء ومرعىٰ ، لم يُغَيِّر القائلُ الحقَّ فى أوصافها ؛ ذات الأنهار السارحة ، والمروج الممتدّة ؛ كأنما نشرت الحُلَلُ علىٰ آفاقها ، ونثرت الحلىٰ علىٰ حصبائها .

و يرجع المقصود منها إلىٰ سبع جمل .

الجمـــلة الأولىٰ

(فى ذكر حدودها ، وطُولها وعَرْضها ، وموقعها من الأقاليم السبعة)

اما حدودها وطولها وعرضها ، فقال فى "مسالك الأبصار" : وهى واقعة بشرق محضٍ آخذة إلىٰ الجنوب ؛ يحدّها السِّنْد من جنوبيها ، والصِّينُ من شرقيها ، وخُوَارَزْمُ و إيران من جنوبيها(١) ، وطولها من ماء السـند إلىٰ ماء ايلا المسـمّى قراخوجا ، وهى تلى بر الخِطا ، وعرضها من وَنَج وهو منبع نهر جَيْحُونَ إلىٰ حدود كُرْكَانْج قاعدة خُوَارَزْم ؛ وحدّها من الجنوب جبال البُتّم وماء السِّـنْد الفاصل بينها و بين السِّـنْد ؛ ومن الشرق أوائل بلاد الخِطا ؛ ومن الشَّمال مراعى باران وكَجنـد و بعض خراسـان

(١) لعله من غربيها .

إلى بحيرة خُوَارَزْمَ، ومن الغرب بعض خُرَاسَانَ إلى خُوَارَزْم إلى مجرى النهر آخذا على الختّل . ثم حكى عن نظام الدين بن الحكيم الطيارى أن بلاد هذه المملكة متصلة بخُرَاسَانَ متداخلة بعضها ببعض، لا يفصل بينهما بحر ولا نهر ولا جبل ولا مَفَازة، بل بينها وبين خُرَاسان أنهار جارية ومزارع متصلة .

الجملة الثانية

(فيما يدخل فى هذه المملكة من الأقاليم العرفية، وهى سبعة أقاليم)

الإقليم الأوّل منها

(ما وراء النهر)

قال فى "تقويم البُلْدان" : والذى ظهر لنا فى تحديد ما وراء النهر أنه يحيط به من جهة الغرب حدود خُوَارَزْم، ومن الجنوب نهر جَيْحُونَ من لَدُن بَذَخْشَانَ إلى أن يتصل بحدود خُوَارَزْم، فإن جَيْحُونَ فى الجملة يجرى من الشرق إلى الغرب، وإن كان يعرِض فيه عَطَفات تجرى جنوبا مرة وشَمالا أخرى . ثم قال : أما حدوده من الشرق والشمال فلم تتضح لى . قال صاحب "كتاب أشكال الأرض" : وما وراء النهر من أخصب الأقاليم منزلة، وأنزهها وأكثرها خيرا، وأهلها يرجعون إلى رغبة فى الخير، وآستجابة لمن دعاهم، مع قلة غائلة، وسلامة ناحية، وسماحة بما ملكت أيديهم، مع شدّة شوكة ومَنَعَةٍ وبَأْسٍ ونَجْدَةٍ وعِدّة وعُدَّة، وآلة وكُرَاع وبسالة وعلم وصلاح ؛ وليس من إقليم إلا ويُقْحَطُ أهله مرارا قبل أن يُقْحَطَ ما وراء النهر مرةً واحدة ، ثم إن أحَسُّوا(1) ببرد أو بجراد أو بآفة تأتى على زروعهم وغلاتهم ، ففى فضلِ ما يسلم فى عروض بلادهم ما يقوم بأَوَدِهم حتّى يستغنوا به عن شىء ينقل إليهم من غير بلدهم . قال : وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مُدُن

(1) لعله مصحف عن "أصيبوا" .

أو قرًى أو مراعٍ لسوائمهم؛ وليس من شيء لابدّ للناس منه إلا وعندهم منه مايقيم أَوَدَهم ويفضُل عنهم لغـيرهم؛ ومياههم أعذب الميـاه وأبردها وأخَفُّها، وقد عمّت جبالَها وضواحِيَها ومُدُنَها إلىٰ التمكن[1] من الجدّ فى جميع أقطارها ، والثلوج من جميع نواحيها؛ والغالب علىٰ أهل المـال والثروة بها صرف المـال فى عمل المدارس وبناء الرُّبُط وعمـارة الطرق ، والأوقاف علىٰ سُبُل الجهاد ووجوه الخير ، وعقد القناطر، إلا القليل من ذوى البطالة .

وفيهـا من الدّواب الخَيْلُ والبِغَالُ والحَمِيرُ والإبِلُ البُخْت والبَقَرُ، والغَنَمُ أكثرها فإنها كما يقال أعوزها للزرائب، وفيها من المباح مافيه كفايتهم، ولهم من نتـاج الغَنَمِ الكثيرُ والسائمة المفرطة . وذكر أنه يوجد عنـد آحاد العامة من عشرين دابةً إلىٰ خمسين دابة لاكُلْفة عليه فى اقتنائها لكثرة المـاء والمرعىٰ .

وفيها من الحبوب القَمْحُ والشَّعير والحِمَّص والأَرُزّ والدُّخْنُ وسـائر الحبوب خلا الباقلا، وبها من الفواكه المنوعة الأجناس العِنَبُ، والتِّيـنُ ، والرُّمَّانُ، والتُّفَّاحُ، والكُمَّثْرىٰ، والسَّفَرْجَلُ، والخَوْخُ، والمِشْمِشُ، والتُّوتُ، والبِطِّيخُ الأصْفَر، والبِطِّيخُ الأخضر، والخِيَارُ، والقِثَّاءُ .

وفيها من البقول اللِّفْتُ والجَزَرُ والكُرُنْبُ والبَاذِنْجَانُ والقَرْعُ وسائرأنواع البقول .

وفيها من الرياحين الوَرْدُ والبَنَفْسَجُ والآسُ واللَّيْنُوفَرُ والحَبَقُ؛ولا يوجد بها الأُتْرُجُّ والنَّارَنْجُ واللَّيْمُونُ والليم، ولا الموز ولا قصب السُّـكَّرِ، ولا القُلْقَاسُ، ولا الملوخيا، فإنها من ذلك عارية الحدائق،خالية المروج؛إلا ماأُتِى به إليها من المحمضات مجلوبا.

وفيها أصناف الملبوس : من القَزِّ، والصُّوف، وطرائف البَزِّ .

وفيها من المعادن معدنُ زئبق لا يعادله معدن فى الغَزَارة .

---

(١) لعله فكان ذلك داعية إلى التمكن الخ .

وقد آشتمل ما وراء النهر على عدّة كور .

(منها) السُّغْد . قال فى "اللباب" : بضم السين المهملة وسكون الغين المعجمة ودال مهملة فى الآخر، ويقال الصُّغْدُ بالصاد بدل السين، ويضاف إلى سَمَرْقَنْدَ، فيقال سُغْدُ سَمَرْقَنْدَ، وهو أحد منتزهات الدّنيا الأربعة التى هى غوطة دِمَشْقَ، ونهر الأُبُلَّةِ، وشعْب بَوَّانَ، وسُغْدُ سَمَرْقَنْدَ . قال آبن حوقل : وهو أنزه الأربعة لأنه ممتدّ نحو ثمانية أيام، مشتبكُ الخُضْرة والبساتين، لاينقطع ذلك فى موضع منه، وقد حُفَّت تلك البساتين بالأنهار الدائم جَرْيُهَا، ومن وراء الخضرة من الجانبين مزارعُ، ومن وراء المزارع مَرَاعى السوائم . ثم قال : وهى أزكى بلاد الله وأحسنها أشجارا .

ومنها أُسْرُوشَنَةُ . قال فى "اللباب" : بضم الألف وسكون السين وضم الراء المهملتين وسكون الواو وفتح الشين المعجمة ثم نون . قال آبن حوقل : والغالب عليها الجبال، ويحيط بها من الشرق بعض فَرْغَانَةَ، ومن الغرب حدود سَمَرْقَنْدَ، ومن الشّمال بعض فَرْغَانَةَ أيضا، ومن الجنوب بعض حدود كَشَّ والصَّغَانِيَان . قال أحمد الكاتب : ولها عدّة مُدُن، ويقال إن بها أربعمائة حصن .

(ومنها) فَرْغَانَةُ . قال فى "المشترك" : بفتح الفاء وسكون الراء المهملة وفتح الغين المعجمة وألف ونون . قال آبن حوقل : وفيها مُدُن وكُوَر، وإليها ينسب جماعة من العلماء، منهم أبو سعيد الفَرْغَانىّ شارح "تائية آبن الفارض" قال آبن حوقل : وبجبال فَرْغانة معادنُ الذهب والفِضة والفَيْرُوزَج والحديد .

وقاعدتها بُخَارَا . قال فى "اللباب" : بضم الباء الموحدة وفتح الخاء المعجمة ثم ألف وراء مهملة مفتوحة ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول سبع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعَرْض

تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينـة خارجها نَزِهٌ كثير البساتين . قال : وليس بتلك البُلْدان بلد أهلها أحسن قياما على عمارة قُرَاهم منهم، ويحيط بها وبقُرَاها ومزارعها سُورٌ واحد اثنا عشر فرسخا، ولهـا كورة عظيمة تصاقب جَيْحُونَ على مَعْبَر خُرَاسَانَ ، وبها يتصل سُغْدُ سَمَرْقَنْدَ . قال فى "مسالك الأبصار": وهى أم الأقاليم ويمّ التقاسيم، وقد كانت [مستقرًّا] للدولة السامانية ومركز أفلاكهم الدائرة، وكانت تلك الممالك كلها تبعا لها. قال صاحب "أشكال الأرض": ثم لم أرَ ولم أسمع بظاهر بلد أحسن من بخـارا، لأنك إذا عَلَوْتَ لم يقع نظرُك من جميع النواحى إلا على خُضْرة تتصل خضرتهـا بلون السماء، مكبة زرقاء على بساط أخضر، تلوح القصور فيما بين ذلك كالتِّراس التبنية، أو الجَحَف اللَّمْطِيَّة، أو الكواكب العلوية، بين أراض وضياع مقسومة بالاستواء، ممهدة كوجه المِرْءاة فى غاية الهندسة، ولهـا سبعة أبواب حديد : وهى باب المدينة، وباب يون، وباب خضرة، وباب الحديد، وباب قهندر، وباب بنى أسـد، وباب بنى سـعد . وليس فيها ماء جار لارتفاعها، ومياههم من النهر الأعظم الجارى من سَمَرْقَنْدَ، وإليها ينسب الإمام الحافظ (أبو عبد الله البخارىّ) صاحب الجامع الصحيح فى الحديث .

ولها عدّة مدن :

(منهـا) الطَّوَاوِيسُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح الطاء المهملة والواو وبعد الألف واو ثانية مكسورة ومثناة تحت ساكنة وسين مهـملة فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وثمـانون درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ سـبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى مدينـة من مضافات بُخَارا داخل الحائط الدائر على أعمـال بُخَارا، كثيرةُ البساتين والماء الجارى . قال : وقد خَربت الآن . وقال فى "اللباب":

هى قرية من قرىٰ بخارا خرج منها جماعة من العلماء، و بينها وبين بخارا سبعة فراسخ، و إليها ينسب الطاوسىّ صاحب "المصباح علىٰ الحاوى الصغير" فى فقه الشافعية، ردّا لها فى النسب إلىٰ المفرد وهو الطاوس .

(ومنها) نَخْشَبُ . قال فى "اللباب" : بفتح النون وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين ثم باء موحدة. قال فى "تقويم البُلْدان": فلما عربت قيل نَسَف ــ يعنى بفتح النون والسين المهملة وفاء فى الآخر . قال ٱبن حوقل : وهى فى مستوٍ من الأرض، والجبال منها علىٰ نحو مرحلتين مما يلى كَشّ، وبينها وبين جَيْحون مفازة، ولها نهر يجرى فى المدينة وينقطع فى بعض السنة ، والغالب عليها الخِصْبُ . قال المهلبىّ : وهى وَبِيَّة .

(ومنها) كَشُّ . قال فى "المشترك" : بفتح الكاف ثم شين معجمة مشدّدة ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض تسع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة قدرها ثُلُثُ فرسخ فى مثله ، وهى خِصْبَةٌ وفوا كهها تُدْرِكُ قبل فوا كه غيرها من بلاد ما وراء النهر، وطول عملها أربعة أيام فى نحوها . قال المهلَّبىّ : ولها رستاق جليل، ولها نهران، وإليها ينسب جماعة من العلماء .

(ومنها) سَمَرْقَنْدُ . قال فى " تقويم البُلْدان " : بفتح السين المهملة والميم وسكون الراء المهملة وفتح القاف وسكون النون ثم دال مهملة ــ وموقعها فى الإقليم الخامس . قال فى " القانون " حيث الطول ثمان وثمانون درجة وعشرون دقيقة، والعرض أربعون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى قَصَبَةُ السُّغْدِ، وهى مبنية علىٰ ضَفَّة واديه، وهى مرتفعة عن الوادى، وحول سُورِها رسمُ خندق عظيم، ولها نهر يدخل إليها علىٰ حمالات فى الخندق معمول بالرَّصاص، وهو نهر جاهلىّ يشُقُّ السوق

بموضع يعرف برأس الطاق . قال ابن حوقل : ورأيت على باب من أبوابها يسمّى باب كَشّ صفحةً من حديد وعليها كُتَيّبة يزعم أهلها أنها بالحِمْيَرِيّة، وأن الباب من بناء تُبَّع ملك اليَمَن، وأن من صَنْعَاء إلى سَمَرْقَنْدَ ألف فرسخ، وأن ذلك مكتوب من أيام تُبَّع . قال : ثم وقعتْ فتنة بها في أيام مُقَامى بها وأُحْرِق البابُ وذهبت الكتابة ، ثم أعاد عمارةَ الباب محمدُ بن لُقْمان بن نصر السامانىّ ولم يُعِد الكتابة .

قلت : والمراد تبع المسمّى بأسعد أبا كَرِبٍ ؛ وقد أشرت إلى قضية تُبَّع في بناء سَمَرْقَنْدَ في الكتاب الذى أنشأته لأن يكتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية إلى تمرلنك عند إرساله بالمفاوضة في الصلح بعد واقعة دِمَشْق والقبض على ابن عثمان صاحب برسا من بلاد الروم بقولى بعد الدعاء : "ولا زال بالنصر تَقْضِى قواضبه ، وبالظَّفَرِ وحُسْنِ الأثر تَمْضِى مَقَانِبُه وتشاع مناقبه ، وبلسان دولته القاهرة يُصاح بتُبَّع سَمَرْقَنْدَ لن تبلغ هذه الرتبة حتّى نَظَّم الجَزْعَ ثاقبُه" . على ما سيأتى ذكره في الكلام على مكاتبة القان صاحبِ ماوراء النهر، في الكلام على المكاتبات في المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

قال في "مسالك الأبصار" : وسَمَرْقَنْدُ مدينة مرتفعة يُشْرِفُ الناظر بها على شجر أخضر، وقُصُور تُزْهِر، وأنهار تَطَّرِد، وعمارة تتَّقد، لا يقع الطَّرْف بها على مكان إلا ملأه، ولا بستان إلا استحسنه . قال صاحب "أشكال الأرض" : وقد نصصت أسحار السير (١)، وتشبهت بطوائف الحيوان : من الفِيَلَة والإبل والبقر والوحوش المقبل بعضها على بعض . قال : وبها حصن ولها أربعة أبواب : باب مما يلى المَشْرِق يعرف بباب الصِّين، مرتفع عن وجه الأرض ينزل إليه (؟) بدرج كثيرة، مطل على وادى السُّغد ؛ وباب مما يلى المغرب يعرف بباب النُّوبهار على نَشْز من

(١) كذا في الأصل والمراد وصف المدينة بالتقدّم والارتقاء .

الأرض، وباب مما يلي الشمال يعرف بباب بُخَارا، وباب مما يلي الجنوب يعرف بباب كَشّ . قال: وفيها ما في المدن العِظَام من الأسواق الحسان والحمامات والخانات والمساكن، وبناؤها من طين وخشب، والبلد كله: طُرُقه وسِكَكُه وأسواقه وأَزِقَّتُه مفروشة بالحجارة .

(ومنها) بِنْكَثُ . قال في "اللباب": بكسر الباء الموحدة وسكون النون وفتح الكاف وفي آخرها ثاء مثلثة — وموقعها في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وعشرون دقيقة . ولها سُورٌ ورَبَضٌ وبساتين كثيرة .

(ومنها) نوبكت — بنون وواو وباء موحدة ثم كاف ومثناة من فوق . قال ابن حوقل: وهي قصبة[(1)] ناحية إيلاق، وعليها سُورٌ ولها عدّة أبواب، وفيها مياه وبساتين كثيرة .

(ومنها) خُجَنْدَةُ . قال في "اللباب": بضم الخاء المعجمة وفتح الجيم وسكون النون ثم دال مهملة — وهي مدينة على طرف سَيْحُونَ مضمومة إلى فَرْغَانَةَ، واقعة في الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال في "القانون" حيث الطول تسعون درجة، والعرض أربعون درجة وخمسون دقيقة . قال في "اللباب": وهي مدينة كبيرة، وهي في مستوٍ من الأرض، ولها بساتينُ كثيرة . قال أحمد الكاتب: ومنها إلى سَمَرْقَنْدَ سبع مراحل، ومنها إلى الشاش كذلك .

(ومنها) تُنْكَتُ . قال في "اللباب": بضم المثناة من فوق وسكون النون وفتح الكاف وفي آخرها تاء ثانية — وهي مدينة من مدن الساحل، وقيل هي قصبة إيلاق؛

(١) الذي في "تقويم البلدان" عن ابن حوقل أن عاصمة إيلاق تسمى تونكت، وكذا في "معجم البلدان" لياقوت، إلا أنه نص على أن آخرها ثاء مثلثة، وهي تنكت الآتية بعد فليتنبه .

وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول إحدىٰ وتسعون درجة، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال فى "اللباب" : ولها نهر ودار إمارة، وخرج منها جماعة من العلماء .

(ومنها) أَخْسِيكَثُ . قال فى "اللباب" : بفتح الألف وسكون الخاء المعجمة وكسر السين المهـملة وسكون المثناة من تحتها وفتح الكاف وفى آخرها ثاء مثلثة . وهى مدينة من بلاد فَرْغَانَةَ ، واقعة فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول إحدىٰ وتسـعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض آثنتـان وأربعون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال ابن حوقل : وهى علىٰ شَطِّ نهر الشاش فى أرض مستوية بينها وبين الجبال نحو فرسخ .

(ومنها) تِرْمِذ . قال فى "اللباب" : قيل بفتح التاء ثالثة الحروف وقيل بضمها وقيل بكسرها . قال : والمتـداول علىٰ لسان أهلها فتح التـاء وكسر الميم، والمشهور فى القديم كسر التاء والميم جميعا، وقيل بضم التاء والميم وبينهما راء ساكنة وفى آخرها ذال معجمة ــ وهى مدينة علىٰ شَطِّ جَيْحُونَ ، واقعـة فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول إحدىٰ وتسعون درجة وخمس وخمسون دقيقة، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال آبن حوقل : ومعظم مساكنها وأسواقها مفروشـة بالآجُرّ، وهى قَصَـبة تلك النواحى ، وأقرب الجبال إليها علىٰ مرحلة ، وليس لقُراها شُرْب من جَيْحُونَ بل من نهر الصَّغَانِيَان . قال : ولها مُدُن كثيرة وكُوَرٌ مضافة إليها . قال فى "اللباب" : وهى مدينة قديمة .

(ومنها) الصَّغَانِيَانُ . قال فى "اللبـاب" : بفتح الصاد المهملة والغين المعجمة وألف ونون ومثناة تحتية ونون فى الآخر، جميع ذلك بالتخفيف . قال : ويقال لها بالعجمية جَغَانِيَان ــ وهى مدينة موقعها فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة .

قال فى "الأطوال" حيث الطول تسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثلاثَ عشرةَ دقيقة . قال آبن حوقل : وهى أكبر من تَرِمذ إلا أن ترمذ أكثر أهلا . ثم قال : وهى كورة كبيرة كثيرة المـاء والشجر، والنسبة إليها صَغَانىّ وصَاغَانىّ .

الإقلـــيم الثـانى
(تُرْكُسْتَانُ)

بضم التاء المثناة من فوق وسكون الراء المهـملة وضم الكاف وسكون السين المهملة وألف بعدها نون، ومعناه ناحية الترك . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مملكة لو آنفردت لكانت مُلْكا كبيرا وسلطنة جليلة (زهرةُ الدّنيا، وطراز الأرض بلاد التُّرْك) وحقيقةً من كِنَاسها رتعت غِزْلانُها، ومن غابها أَصْحَرَتْ لُيُوثهم . وهى إقليم فسيح المَدىٰ، قديم الذكر، منشأ حُماه، ومَنْسَبُ كُماه . قال : وهو المراد بقولهم بلاد الأتراك؛ ولم تزل الملوك تلحَظُها لآتقاء بوادرها، وآلتقاء ذواخرها، فأشدّ مانكَّرت الأيام معالمهـا، وغيرت الغِيَرُ أحوالهـا . قال : ولقد صادفت حدّةَ التتار، فى أوّل التَّيَّار، فجاءت قدّامهم فى سَوْرة غضبهم ، ونفحة نارهم؛ فأمالت السـيوفُ حصائدَ أحبـالهم ، ولم يبق إلا من قَلَّ عديده . ثم قال : حكىٰ لى من جال فى رساتيقها ، وجازَ فى قُراها ، أنه لم يبق من معالمها إلا رسومٌ داثرة ، وأطلال ناتئة ، يَرىٰ علىٰ البُعْد القريةَ مُشيَّدةَ البناء، مُخْضَرَّةَ الأكناف، فيأنس لعله يجد بها أنيسا ساكنا، فإذا جاءها وجدها عالية البنيان، خاليةً من الأهل والسُّكَّان؛ إلا أهل العمل وأصحابَ السائمة . ليست بذات حرث ولا زرع ، و إنمـا خضرتها مُرُوج أطلعها باريها بها من النباتات البَرِّيَّة ، لابَذَرها بَاذِرٌ، ولا زرعها زارع . و يوجد بها خَلَف من بقايا العلماء، ويجزئ التيمم فيها بالتراب بعد المـاء .

ومن نواحيها (فَارَابُ) . قال فى "المشترك" : بفتح الفاء والراء المهملة بين ألفين وفى آخرها باء موحدة . وقال فى " مسالك الأبصـار " : الصواب إبدال الفاء باء موحدة لأنه ليس فى اللغة التركية فاء . قال ابن حوقل : وهى ناحية لها غياض، ولهم مزارع، ومقدارها فى الطول والعرض أقلّ من يوم . قال فى "تقويم البـلدان" : وتسمّى أُطْرار .

وقاعدتها (قَاشْغَر) . قال فى "اللباب" : بفتح القاف وسكون الألف ثم سكون الشين المعجمة أيضـا وفتح الغين المعجمة وفى آخرها راء مهملة . قال فى " تقويم البُلْدان" : ويقال لها كَاشْغَر بإبدال القـاف كافا ــ وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول ست وتسعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وأربعون درجة . قال المهلبىّ : وهى مدينـة عظيمة آهلة عليها سُورٌ وأهلها مسلمون . قال فى "القانون" : وتسمّى أزدوكند .

قال فى "مسالك الأبصار" : أما الآن فقاعدتها (قرشى) بقاف وراء مهملة وشين معجمة ثم ياء مثناة من تحت فى الآخر . قال فى " مسالك الأبصار " : وهى علىٰ نهر قراخوجا فى نهاية الحدّ . قال : وهى وإن لم تكن شيئا مذكورا، ولا لهـا علىٰ آختلاف حالات الزمان شهرة تُذْكَر ، لكن قد شملها فى دولة ملوكها الآن (١) من نظر السـعادة لنسبتها إلىٰ أنها سَكَن لهم، وإن كانوا ليسوا بسُكَّانِ جِدَار، ولا متديِّرين فى ديار، ولكن لآسم وُسِمَتْ به . وبها عدّة مدن أيضا :

(منهـا) كدر . قال فى " الأطوال " : وهى قَصَبة فَارَابَ . قال فى " مسالك الأبصار" : وإليها ينسب فَيْلَسُوفُ الإسلام أبو نَصْر الفَارَابِىّ .

(١) لعله شىء من نظر الخ .

(ومنها) خُتَن . قال فى "اللباب" : بضم الخاء المعجمة وفتح المثناة من فوق ونون فى الآخر ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ست وثمانون درجة، والعرض ثنتان وأربعون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى أقصى تُرْكُسْتَانَ . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة خِصْبَةٌ آهلة عامرة، بها أنهار كثيرة .

(ومنها) جَنْدٌ . قال فى "اللباب" : بفتح الجيم وسكون النون وفى آخرها دال مهملة ــ وهى بلدة واقعة فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول سبع وثمانون درجة وخمس وأربعون دقيقة، والعرض سبع وأربعون درجة . قال فى "اللباب" : وهى فى حدود التُّرْك على طَرَف سَيْحُونَ، خرج منها جماعة من الفضلاء .

(ومنها) إسْفِيجَابُ . قال فى "اللباب" : بكسر الألف وسكون السين المهملة وكسر الفاء وسكون المثناة من تحت وفتح الجيم وفى آخرها باء موحدة بعد الألف ــ ووقع فى "مسالك الأبصار" إبدال الفاء باءً موحدة ــ وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وثمانون درجة وخمسون دقيقة، والعرض ثلاث وأربعون درجة . قال فى "اللباب" : وهى بَلْدة كبيرة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من ثغور الترك .

(ومنها) طَرَازُ . قال فى "اللباب" : بفتح الطاء والراء المهملتين وألف وزاى معجمة ــ وهى مدينة على حدّ بلاد التُّرْك واقعةٌ فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول تسع وثمانون درجة وخمسون دقيقة، والعرض ثلاث وأربعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال ابن حوقل : وحولها حصون منسوبة إليها .

(ومنها) نيلى . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى أربعة مُدُن بين كل مدينة والأخرىٰ فرسخ واحد ، ولكل واحدة منها آسم يخصها : فالأولىٰ نيلى ، والثانية نيلى مالق ، والثالثة بكك ، والرابعة تلان . قال : وبينها وبين سَمَرْقَنْدَ عشرون يوما .

(ومنها) أَلْمَالِقُ - بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الميم وألف بعدها ثم لام مكسورة وقاف فى الآخر . قال فى "مسالك الأبصار" : وبينها وبين نيلى عشرون يوما . ونقل عن الشيخ محمد الخُجَندىّ الصوفىّ وغيره أن بها من الخيل والأغنام مالولا مُوتانٌ يقع فيها فى بعض السنوات ، لما بيعت ولا وجد من يشتريها لكثرتها وبركات نتاجها .

الإقلـــيم الثـالث
(طُخَارُسْتَانُ)

قال فى "اللباب" : بضم الطاء[1] المهملة وفتح الخاء المعجمة وألف وضم الراء وسكون السين المهملتين وفتح المثناة من فوق وألف ونون . قال : وهى ناحية مشتملة علىٰ بُلْدان فى أعلىٰ نهر جَيْحُونَ . وقال آبن حوقل : هو إقليم له مُدُن كثيرة من مضافات بَلْخ . وقاعدتها فيما ذكره فى "القانون" - وَلْوَالِج . قال فى "تقويم البُلْدان" بواوين بينهما لام ساكنة ثم ألف ولام وجيم - وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول آثنتان وتسعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "القانون" : وهى مقرّ مملكة الهَيَاطِلَةَ فى القديم . قال المهلبىّ : وهى فى مستوٍ من الأرض . ولها مُدُن .

---

(١) ضبطها ياقوت بالفتح .

(منها) إِسْكَلْكَنْدُ . قال فى "اللباب" : بكسر الألف وسكون السين المهملة وفتح الكافين ، بينهما لام ساكنة ثم نون كذلك ودال مهملة فى الآخر . قال : وقد تحذف الألف من أولها . وهى مدينة صغيرة موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول آثنتان وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى مدينة صغيرة كثيرة الخير .

(ومنها) رَاوَنُ . قال فى "اللباب" : بفتح الراء المهملة والواو ونون فى الآخر – وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول آثنتان وتسعون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض سبع وثلاثون درجة وخمس وثلاثون دقيقة . قال فى "اللباب" : وهى مدينة من طُخَارُسْتَانَ ولم يزد .

الإقليم الرابع

(بَذَخْشَانُ)

قال فى "اللباب" : بفتح الباء الموحدة والذال وسكون الخاء وفتح الشين المعجمات ونون فى الآخر . قال آبن حوقل : وهو آسم للمدينة والإقليم مَعًا . قال فى "اللباب" : وهى فى أعلىٰ طُخَارُسْتَانَ متاخمةٌ لبلاد التُّرْك . وقال فى "مسالك الأبصار" : هى مع مملكة ما وراء النهر وليست حقيقة منها ولا من تُرْكُسْتَانَ ، بل هو إقليم قائم بذاته ، معدود المجاورة مع أخواته ، قد حوىٰ كل بديع من خيوانه ومعدنه ونباته .

ثم حكىٰ عن محمد الخُجَندىّ الصوفىّ وغيره أن بها معدنَ البَلَخْش ، ومعدن اللَّازَوَرْدِ ، وهما فى جبل بها ، يُحْفَرُ عليهما فى معادنهما ، فيوجد اللَّازَوَرْدُ بسهولة ، ولا يوجد البَلَخْش إلا بتعب كثير وإنفاق زائد ، وقد لا يوجد بعد التعب الشديد

والإنفـاق الكثير . ولذلك عَزَّ وجودُه، وعلت قيمته، وكثر طالبـه ، وٱلتفتت الأعنـاق إلىٰ التحَلِّى به . وقد تقدّم ذكره فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ ما يحتاج الكاتب إلىٰ معرفته لِيَصِفَهُ عنـد ذكر الأحجار النفيسة . وقد تقدّم هناك أن أنفس قطعة وصلت إلىٰ بلاد الشام منه قطعةٌ زِنَتُها خمسون درهما . وقد ذكر فى "اللباب" أن بها معدنَ البِلَّوْرِ أيضا، وقد تقدّم ذكره هناك فى الكلام علىٰ الأحجار النفيسة .

الجمـلة الثـالثة

(فى الطرق الموصلة إليها، وبعض المسافات الواقعة بين بلادها)

قد تقـدّم فى الكلام علىٰ مملكة إيران الطريقُ إلىٰ آمُل الشطّ بشط جَيْحُونَ . قال آبن خرداذبه : ومن آمُلَ إلىٰ بُخَـارا تسـعة عشر فرسخا، ومن بُخَارا إلىٰ سَمَرْقَنْدَ سبعة وثلاثون فرسخا، ومن سَمَرْقَنْدَ إلىٰ الشَّاش آثنـان وأربعون فرسخا، ثم إلىٰ باب الحديد مِيلَان، ثم إلىٰ كَار فرسخان، ثم إلىٰ إسْفِيجاب عشرة فراسخ، ومن إسْفِيجَابَ إلىٰ أُطرَارَ وهى فَارَابُ ستة وعشرون فرسخا. قال فى "تقويم البُلْدان" : ومن سَمَرْقَنْدَ إلىٰ خُجَنْدَةَ سبع مراحل، ومن خُجَنْدَةَ إلىٰ الشّاش أربع مراحل .

الجمـلة الرابعة

(فى عِظَام الأنهار الواقعة فى هذا القسم من مملكة تُورَانَ، وهى نهران)

الأوّل ـ نهر جَيْحُونَ ـ بفتح الجيم وسكون الياء المثناة تحت وضم الحاء المهملة وسكون الواو ثم نون؛ ويسمّى نهر بَلْخ أيضا، إضافة إلىٰ مدينة بَلْخ من بلاد فَارِسَ المقدّم ذكرها . قال فى "تقويم البُلْدان" : وقد آختلف النقل فيه، وأقربُه مانقله آبن حَوْقَلَ أن عمود نهر جَيْحُونَ يخرج من حدود بَذَخْشَانَ، ثم تجتمع إليه أنهـار

كثيرة، ويسير غربا وشَمالا حتّى يصل إلىٰ حدود بَلْخ، ثم يسير إلىٰ تَرْمِذَ، ثم غربا وجنوبا إلىٰ زَمٍّ وآسمها أَمُّويَه، ويجرى كذلك غربا وشَمالا إلىٰ خُوَارَزْمَ. قال في "رسم المعمور" : ويخرج جنوبا ويمرّ قرب خُجَنْدَةَ ويتجاوزها ويصب في البحر الأخضر.

الثانى – نهر سَيْحُونَ. قال في "تقويم البُلْدان" : وقد آختلف النقل فيه أيضا. قال : والمختار ماذكره آبن حوقل، لأنه يحكي ذلك عن مشاهدة. فقال : إن نهر الشاش بقدر الثلثين من نهر جَيْحُونَ، وهو يجرى من حدود بلاد التُّرْك ويمرّ علىٰ أَخْسيكَث، ثم يسير مغرّبا بميلة إلىٰ الجنوب إلىٰ خُجَندة، ثم يجرى إلىٰ فَارَابَ إلىٰ يَنْغِي كَنْت ثم يقع في بحيرة خوارزم علىٰ مرحلتين من يَنْغِي كَنْتَ.

الجملة الخامسة

(في معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها فبالدينار الرائج، وهو ستة دراهم كما في مُعْظَم مملكة إيران، وفي بعضها بالدينار الخُرَاسَانِيّ وهو أربعة دراهم. قال في "مسالك الأبصار" : ودراهمهم نوعان، درهم بثمانية فلوس، ودرهم بأربعة فلوس. قال : ودراهمها فِضَّةٌ خالصة غير مغشوشة، وهي وإن قلّ وزنها عن معاملة مصر والشام فإنها تجوز مثل جوازها.

وأما أسعارها فأسعارها جميعها رخيَّة حتّى إذا غلت الأسعار فيها أعلىٰ الغلوّ، كانت مثل أرخص الأسعار بمصر والشام.

الجملة السادسة

(في مَنْ ملك هذا القسم من مملكة تُورَانَ)

قد تقدّم في الكلام علىٰ أصل مملكة تُورَانَ أنها كانت مملكة التُّرْك في القديم،

وأنه كان بها افراسياب بن(١) شبك بن رستم بن ترك بن كوبر بن يافث بن نوح عليه السلام على الخلاف السابق فيه ، وكانت تعرف بمملكة الخانية .

أما فى الإسلام فملوكها على طبقتين :

الطبقـــة الأولىٰ

(ماهو عقيب الفتح ، وهم علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ملوك ماوراء النهـــر)

وكانت بيد نواب الخلفاء بُرهَةً من الزمان فى صدر الإسلام ، ثم تغلب عليها الملوك بعد ذلك وحازوها ، وتوالتْ عليها أيديهم إلىٰ الان . وأوّل من تغلب عليها من الملوك السامانيةُ ، وهم بنو سامان بن جثمان بن طمغان بن بوشرد بن بهرام چوبين المذكور فى أخبار كسرىٰ أبرويز أحد ملوك الفُرْس .

وأوّل من ملكها منهم أولاد أسد بن سامان فى خلافة المأمون فى سنة أربع ومائتين . فتولى (أحمد بن أسد) فَرْغَانَةَ ، و(يحيىٰ بن أسد) الشَّاش وأُسْرُوشَنَةَ و(نوح ابن أسد) سَمَرْقَنْدَ ، ثم مات نوح بن أسد بسَمَرْقَنْدَ ، ثم مات أحمد بفَرْغَانَةَ واستخلف ابنه نصرا علىٰ أعماله ، وكان إسماعيل بن أحمد يَخْدُم أخاه نصرا فولاه نصرٌ بُخَارا فى السنة المذكورة . وكان إسماعيل رجلا خيرا يحب أهل العلم ويكرمهم ، فاستقرّت قدمه بِبُخَارا وملك جميع ماوراء النهر . وملك إسماعيل المذكور خُرَاسَانَ مع ماوراء النهر فى سنة سبع وثمانين ومائتين .

(١) فى "الأخبار الطوال" للدينورى "ابن توذل بن الترك بن يافث" ، وفى أبى الفداء "ابن طوج" وفى غيرهما غير ذلك . نبهنا علىٰ ذلك ليعلم أن بين المؤرخين اختلافا ، ولم يتقدم للؤلف فى توران شيء من هذا النسب ، فتنبه .

ثم ملك بعــده ماوراء النهر وخراسان (آبنه أحمد بن إسماعيل) حتّى قتل فى سنة إحدىٰ وثلثمائة؛ وولى بعده ماوراء النهر وخُرَاسَانَ آبنــه (أبو الحسن نصر بن أحمد) وتوفى سنة إحدىٰ وثلاثين وثلثمائة .

وولى بعــده ماوراء النهر وخُرَاسَانَ آبنه (نوح بن نصر) وتوفى فى سنة آثنتين وأربعين وثلثمائة .

وولى بعــده ما وراء النهر وخُرَاسَانَ آبنه (عبد الملك بن نوح) وبقى حتّى قبض عليه ايليك‌خان ملك الترك، وحبس هو وجميع أقاربه، ومات فى الحبس فى ســنة تسع وثمانين وثلثمائة ، وآنقرضت بموته دولةُ بنى سامان، وكانت دولتهم من أحسن الدُّوَل وأعدلها، وكانت ولايتهم إمارةً لاملكا .

وملك بعــدهم ماوراء النهر (ايليك‌خان) المقــدّم ذكره ، وتوالت بأيديهم حتّى ملكها منهم رجل آسمه (أحمد خان) فبقيت بيده حتّى ملكها منــه (ملكشاه السَّلْجُوقىّ) فى سنة آثنتين وثمــانين وأربعمائة، وأطاعه صاحب تُرْكُسْتَانَ فخطب له وضرب السِّكَّة بآسمه، ثم خرج عنها وعاد أحمد خان إليهــا، فبقى حتّى ثبتت زَنْدَقَتُه وضرب عنقه فى سنة ثمــان وثمــانين وأربعمائة .

وملك بعــده آبن عمه (مسعود)، ثم أقيمت الخطبة بمــا وراء النهر (لبَرْكَيَارُقْ) ، ثم خطب بركيارق فيما بيده مما وراء النهر وغيره لأخيه محمد بن ملكشاه. ثم غلب عليها الخِطَا الكُفَّار فى سنة ست وثلاثين وخمسمائة وآنتزعوها من يد سنجر بن ملكشاه. ثم صارت بيد الغُزِّ: وهم طائفة من الترك مسلمون .

ثم آستولىٰ عليها بنو أنوشتكين ملوكُ خُوَارَزم الآتى ذكرهم ، إلىٰ أن غلب عليها جنكزخان فى سنة ستَّ عشرةَ وستمائة .

وأما غَزْنةُ وما معها فكانت بيد بنى سامانَ ؛ ثم غلب عليها سُبُكْتُكِين : وهو أحد ممـاليك أبى إسحاق بن ألبتكين صاحب جيش غزنة للسامانيـة المقدّم ذكره فى سنة ست وستين وثلثمائة بعد موت أبى إسحاق المذكور؛ ثم مات وقام بالأمر بها بعده آبنه إسماعيل؛ ثم غلبه عليها أخوه محمود بن سُبُكْتكين، وآستضاف إليها بعض خُرَاسَانَ فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة، وقطع الخطبة السامانية، وبقى حتّى توفى سنة إحدىٰ وعشرين وأربعمائة .

وملك بعده آبنه (محمد بن محمود) بعهد من أبيه ، ثم قدّم أهلُ المملكة عليه أخاه (مسعود بن محمود) وملّكوه عليهم،وبقى حتّى قتل فى سنة آثنتين وثلاثين وأربعمائة .

ثم ملك بعده أخوه محمد المقـدّم ذكره وقتل من عامه ؛ وملك بعـده آبن أخيه (مودود بن مسعود) وتوفى سنة إحدىٰ وأربعين وأربعمائة .

وملك بعده عمه (عبد الرشيد بن محمود) وقتل فى سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

وملك بعده أخوه(١) (فرخزاد بن مسعود بن محمود)، وتوفى سنة إحدىٰ وخمسين وأربعمائة .

وملك بعده أخوه الملك المؤيد (إبراهيم بن مسعود)، وتوفى سنة إحدىٰ وثمانين وأربعمائة .

وملك بعده آبنه (مسعود بن إبراهيم)، وتوفى سنة ثمـان وخمسمائة .

وملك بعده (أرسلان شاه بن مسعود) .

ثم ملك بعده (بهرام شاه بن مسعود) ثم توفى .

وملك بعده آبنه (خسروشاه بن بهرام)، وتوفى سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده آبنه (ملكشاه بن خسرو شاه) بن بهرام بن مسعود بن محمد بن سُبُكْتُكين، وهو آخرهم .

ثم آنتقل الملك إلىٰ الغُورية .

---

(١) الضمير راجع إلىٰ مودود والأولى أن يقال "ابن أخيه" ليعود الضمير الىٰ عبد الرشيد .

فأوّل من ملك منهم علاء الدين (الحسين بن الحسين)، ملك عند آنقراض الدولة السُّبُكْتُكِينِيَّة، وآستضافها إلى الغُور فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وتلقَّب بالملك المعظم، وتوفى سنة ست وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده غياث الدين (محمد بن سام بن الحسين) ؛ ثم آستولى عليها الغُزُّ نحو خمس عشرة سنة؛ ثم ملكها (شهاب الدين) أخو غياث الدين المقدّم ذكره سنة تسع وسبعين وخمسمائة، وقتل سنة آثنتين وستمائة، وفى أيامه كان الإمام فخر الدين الرازى وكان يَغْشاه ويَعِظُه .

ثم ملك بعده علاء الدين (محمد بن سام بن محمد بن مسعود بن الحسين)؛ ثم غلبه عليها (يلدز) مملوك غياث الدين أخى شهاب الدين؛ ثم غلبه عليها علاء الدين المذكور؛ ثم غلب عليها يلدز أيضا؛ ثم غلب عليها علاء الدين (محمد بن تكش) بن خوارزم شاه فى سنة آثنتى عشرة وستمائة، وبقى حتّى غلبه عليها جنكزخان الآتى ذكره فى سنة سبع عشرة وستمائة .

الطبقة الثانية

(ملوكها من بنى جنكزخان)

قال فى "مسالك الأبصار" : كان جنكزخان قد أوصى بمملكة ماوراء النهر لولده جداى، ويقال له جغطاى فلم يتمكن من ذلك .

ثم ملك بعده آبنه قراهولاوو، ثم ولده مبارك شاه؛ ثم غلب عليه قيدو بن قاشى آبن يكبوك بن أوكداى بن جنكزخان ؛ ثم غلب عليه براق بن بسنطو بن منكوقان ابن جغطاى بن جنكزخان .

ثم ملك بعده آبنه دوا بن براق، ثم أخوه كنجك، ثم أخوه اسبنغا، ثم أخوه كبوك، ثم أخوه الجكداى، ثم أخوه دراتمر، ثم أخوه ترما شيرين .

ثم ملك بعده رجل ليس من أولاد دوا آسمه توزون بن أويا كان . قال : وتخال فى خلال ذلك مَنْ وثب علىٰ الملك ، ولم ينتظم له حال ولا صلت له أعلام دولة ، وبقى الملك بعد ترماشيرين غير منتظم حتّٰى قام جنفصو بن دراتمر بن حلو بن براق بن بسنطو آبن منكوقان بن جفطاى بن جنكزخان . إلىٰ هنا آنقضىٰ كلامه فى "مسالك الأبصار".

وأوّل من أسلم من ملوك هذه المملكة "ترماشيرين" المقدّم ذكره سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، فأسلم وحَسُن إسلامه وأخلص فى إسلامه وأيَّد الإسلام ، وقام به حق القيام ، وأمر به أمراءه وعساكره ، فمنهم من كان سبق إسلامه ومنهم من أجاب دَاعِيَهُ فأسلم ، وفَشَا فيهم الإسلامُ ، وعَلَا لواؤه حتّٰى لم تمض عشرة أعوام ، حتّٰى آشتمل فيها بملاءته الخاص والعام ، وأعان علىٰ ذلك من فى تلك البلاد من الأئمة العلماء والمشايخ الصلحاء . وصارت التجار من مصر والشام متردّدة إلىٰ تلك الممالك ، وهو يكرمهم أتم الإكرام ، علىٰ أن رعايا هذه المملكة من قدماء الإسلام ، السابقين إليه كانوا مع كفر ملوكهم فى جانب الإعزاز والإكرام ، لا يتطرّق إليهم منهم أذية فى دين ولا حال ولا مآل .

الجمـــلة السابعة

(فى ترتيب هذه المملكة وحال عساكرها)

أما ترتيبها فقد أشار فى "مسالك الأبصار" إلىٰ أنها علىٰ نحو ماتقدّم فى مملكة إيران لآتفاق ملوك بنى جنكزخان فى الترتيب علىٰ طريقة واحدة .

وأمّا عساكرهم فذكر أن عساكرهم من أهل النَّجْدَةِ والبأس ، لا يجحد ذلك من طوائف الترك جاحد ، ولا يُخَالف فيه مخالف ، حتّٰى حكى فى "مسالك الأبصار" عن مجد الدين إسماعيل السلامىّ أنه كان إذا قيل فى بيت هُولَاكُو : العساكر ،

تحرّكت من خُوارَزْم والقَبْجَاقِ، لايحمل لذلك أحدٌ منهم هَمًّا . وإذا قيل : إن العساكر تحرّكت مما وراء النهر، تأثروا لذلك غاية التأثر، لأن هؤلاء أقوى ناصرا وإن كان أولئك أكثر عددا ، لأنه يقال : إن واحدا من هؤلاء بمائة من أولئك، ولذلك كانت خُرَاسَانُ عندهم ثَغْرًا لايُهْمَلُ سِدَاده، ولا يزال فيه من يَسْتحق ميراث التخت أو من يقوم مقامه، لما وَقَرَ فى صدورهم لهؤلاء من مهابة لا يُقْلَقَل طودُها، لأنهم طالما بَلَوْهم فى الحرب وٱبْتَلوهُم فيها .

القســـم الثانى
(من مملكة تُوران خُوارَزْمُ والقَبْجَاقُ)

قال فى "مسالك الأبصار" : حدّثنى الشيخ نجم الدين بن الشَّحام الموصلىّ : أن هذه المملكة متسعةُ الجوانب طولا وعرضا، كبيرةُ الصحراء، قليلةُ المُدُن، وبها عَالَم كثيرٌ لايدخل تحت حدّ، إلا أنهم ليس لهم كثير نفع لقلة السلاح ورداءة الخيل، وأرضهم سهلة قليلة الحجر، لا تُطِيق خَيْلٌ رُبِّيت فيها الأوعارَ، فلذلك يقل غَنَاؤها فى الحروب . قال فى "التعريف" : وكانت هذه المملكة فى قديم الزمان زمانِ الخلفاء وما قبله تعرف بصاحب السرير . قال فى "الروض المعطار" : وذلك أنه كان بها سرير من ذهب يجلس عليه ملوكها نقله إليها ملوك الفُرْس . قال فى "التعريف" : وكان صاحبها فى الأيام الناصرية (يعنى ٱبن قلاوون) السلطان أزبك خان . قال : وقد خطب إليه السلطان فزوّجه بنتا تقرب إليه، ثم قال : وما زال بين ملوك هذه المملكة، وبين ملوكنا قديمُ ٱتحاد، وصِـدْق وداد، من أوّل الدولة الظاهرية بيبرس وإلى آخر وقت .

ويحصل الغرض من ذلك فى ثمـان جُمَل :

الجمـــلة الاولىٰ

(فى ذكر حدود هذه المملكة ومسافتها)

قد ذكر فى "مسالك الأبصـار" نقلا عن الشيخ علاء الدين بن النُّعمان الخُوَارَزْمِىّ أن طول هـذه المملكة من بحر آصطنبول إلىٰ نهر أريس سـتة أشهر، وعرضَها من بُلْغَارَ إلىٰ باب الحديد أربعة أشهر تقريبا . ثم ذكر عنه فى موضع آخر : أن مجموع هـذه المملكة من ورعات(١) خُوَارَزْمَ من الشرق إلىٰ بَاشْقَرْدَ، وعرضا من خُوَارَزْم إلىٰ أقصىٰ بلاد سير، وهى منتهىٰ العمارة فى الشَّمال . وذكر فى موضع آخر عن آبن النعمان أن مبدأ عرض هذه المملكة من ديرقو، وهى مدينة من بناء الإسْكَنْدر، كان عليها باب من حديد قديما، إلىٰ بلاد بوعره (؟)، وطولها من ماء أريس، وهو أعظم من نيل مصر بكثير من ناحية بلاد الخِطَا، إلىٰ آصطنبول يعنى القُسْطَنْطِينِيَّة . قال : ويتجاوز هذا الطول قليلا إلىٰ بلاد تسمّىٰ كَنْخ مشتركة بين الرُّوسِ والفرنْج . وذكر فى موضع آخر أن خُوَارَزْمَ إقليم منقطع عن خُرَاسَانَ وعن ما وراء النهر، والمَفَاوِزُ محيطةٌ به من كل جانب ، وحدّه متصل بغَزْنَةَ مما يلى الشمال والغرب وجنوبيه وشرقيه، وهو علىٰ جانبى جَيْحُونَ . قال آبن حوقل : وبلاد خوارزم من أبرد البلاد ، ومنهـا يبتدئ الجُمُودُ فى نهر جَيْحُونَ . قال فى "العزيزى" : وبلاد خُوَارَزْمَ فى جهة الجنوب والشرق عن بحيرة خُوَارَزْمَ، وبينهما نحو ست مراحل . قال فى "مسالك الأبصار" : وأوّل حدّ خُوَارَزْم بلدة تسمّىٰ الظاهرية مما يلى آمُلَ، وتمتدّ العمارة فى جانبى جَيْحُونَ معا .

وحكى عن حسن الرومىّ التاجر السَّفَّار أن طولها من مدينة باكُو المعروفة بالباب الحديد إلىٰ حدود بلاد الخِطَا ، فيكون بسير القوافل خمسةَ أشهر، وعرضها من نهر

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها درعان الآتية قريبا .

جَيْحُونَ إلى نهر طُونا . وقال فى "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة واقعة فى الشمال آخذة إلى الشرق، تحدّها أطراف الصِّين من شرقيها ، وبلاد الصَّقْلاب وما يليها من شَماليها، وخُرَاسَانُ وما سامتها من جنوبيِّها، والخليج القاطع من بحر الروم من غربيِّها .

الجملة الثانية
(فيما آشتملت عليه من الأقاليم العُرْفية)

اعلم أن هذه المملكة قد آشتملت على عدّة أقاليم :

الإقليم الأوّل
(خُوَارَزْمُ)

بضم الخاء المعجمة وفتح الواو وألف بعدها راء مهملة ثم زاى معجمة ساكنة وميم فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو إقليم منقطع عن خُرَاسَانَ وعن ماوراء النهر، والمَفَاوِزُ محيطة به من كل جانب . قال : ويحيط به من الغرب بعض بلاد التُّرك، ومن جهة الجنوب خُرَاسَانُ، ومن الشرق بلادُ ماوراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضا . قال : وإقليم خُوَارَزْمَ فى آخر جَيْحُونَ، وليس بعده على النهر عمارة إلى أن يقع جَيْحُونُ فى بحيرة خُوَارَزْمَ، وهو على جانبى جَيْحُونَ . قال ابن حوقل : (وبلاد خُوَارَزْمَ من أبرد البلاد، ويبتدئ الجمود فى نهر جَيْحُونَ من جهة خُوَارَزْمَ (١)) . وقال المهلبىّ : بلاد خُوَارَزم فى جهة الجنوب والشرق عن بحيرة خُوَارَزْمَ إلى آمُل نحو آثنتَىْ عشرة مرحلة، ومن خُوَارَزْمَ إلى بحيرة خُوَارَزْمَ نحو ست مراحل . قال فى "مسالك الأبصار" : وبخُوَارَزْمَ جَبَلٌ يقال له جبل الخير به عين تعرف به، يقصدها ذَوُو الأمراض المزمنة، ويقيمون عندها سبعة أيام، فى كل يوم

(١) تقدّمت هذه الجملة بتمامها فى الصفحة التى قبل هذه، فإعادتها غير مفيدة .

يغتسلون بها بُكْرة وعشية، ويشربون منها عقب كل آغتسال حتّى يتضلّعوا، فيحصل البُرْء . قال : وخُوارَزْم على جَيْحُونَ بين شُعْبَتَيْنِ منه مثل السراويل . قال : ويلى خُوَارَزْمَ أرض مدوّرة تسمّى قسلاع، طولها خمسة أشهر، وعرضها كذلك كلها صحراء، يسكنها أمم كثيرة من البرجان، ويفصل بينها وبين نهر جَيْحُونَ جَبَلٌ آسمه أويلغان شمالىّ خُرَاسَانَ . ولها قاعدتان .

القاعدة الأولى

(القديمة مدينة كَاثَ)

بكاف وألف وثاء مثلثة . قال آبن حوقل : وهو آسمها بالخُوَارَزْمِيَّة، وهى مدينة واقعة فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول خمس وثمانون درجة، والعرض إحدى وأربعون درجة وست عشرة دقيقة . قال فى "القانون" : وهى فى شرقىّ جَيْحُونَ . قال المهلبىّ : وبينها وبين القرية الحَدِيثة من بلاد الترك خمسون فرسخا . قال : وهى من أجَلِّ مُدُن خُوَارَزْمَ . قال آبن حوقل : وقد خربها التَّتَر وبنى الناس لهم مدينة وراءها . قال : وكانت هذه المدينة فى الجانب الشمالىّ عن جيحون . قال فى "مسالك الأبصار" : وبها مائة بيت من اليهود، ومائة بيت من النصارى، لايسمح لهم بأكثر من ذلك .

القاعدة الثانية

(كُرْكَانْج)

قال فى "المشترك" : بضم الكاف وسكون الراء المهملة ثم كاف ثانية وألف ونون ساكنة وفى آخرها جيم . قال : ويلتقى فيها ساكنان (يعنى الألف والنون) ولذلك يكتبونها كُرْكَنْج بغير ألف، وتعرف بكُرْكَنْج الكُبْرى، والعرب تسميها

الجرجانية ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" و"القانون" حيث الطول أربع وثمانون درجة ودقيقة واحدة، والعرض آثنتان وأربعون درجة وسبع وخمسون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى على ضَفَّة جَيْحُونَ . قال فى "القانون" من غربيه . وبها عدّة مدن أيضا :

(منها) كُرْكَنْج الصغرى . وتعرف بالجرجانية أيضا ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة أيضا . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وثمانون درجة وخمس دقائق ، والعرض آثنتان وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى "المشترك" : وهى مدينة قريبة من كُرْكَنْجَ الكبرى، بينهما عشرة أميال، وهى فى غربىّ جَيْحُونَ .

(ومنها) زَمَخْشَرُ . قال فى "اللباب" : بفتح الزاى المعجمة والميم وسكون الخاء وفتح الشين المعجمتين وراء مهملة فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول أربع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض إحدى وأربعون درجة وخمس وأربعون دقيقة . وإليها ينسب الإمام أبو القاسم محمود الزَّمَخْشَرِىّ صاحب "الكَشّاف" فى التفسير وغيره من المصنفات الفائقة النافعة .

(ومنها) هَزَارَاسْبُ . قال فى "اللباب" : بفتح الهاء والزاى المعجمة وسكون الألف وفتح الراء وسكون السين المهملتين وباء موحدة فى الآخر ـ وهى قلعة بخُوَارَزْمَ موقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وثمانون درجة وعشرون دقيقة، والعرض إحدى وأربعون درجة وعشرون دقيقة . قال السمعانىّ : ويقال لها بالفارسية هَزَارَسْفُ . قال : وهى قلعة حصينة . قال المهلبىّ غربىّ جَيْحُونَ، وبينها وبين مدينة كَاثَ ستة فراسخ .

(ومنها) دَرْعَان (١) : بدال وراء وعين مهملات وألف ثم نون ــ وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول ست وثمانون درجة وأربع وعشرون دقيقة ، والعرض أربعون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى " تقويم البُلْدان " : وهى آخر حدود خُوارَزْمَ إلىٰ جهة مَرْو . قال المهلبىّ : وبينها وبين هَزَارَاسْبَ أربعة وعشرون فرسخا .

(ومنها) فَرَبْرُ . قال فى " اللباب " : بفتح الفاء والراء المهملة وسكون الباء الموحدة . وقال فى " مزيل الارتياب " : بفتح الفاء وكسرها ، كل منهما مسموع ــ وهى مدينة علىٰ طرف جَيْحُونَ مما يلى بُخَارا ــ موقعها فى آخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " حيث الطول سبع وثمانون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثمان وثلاثون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال فى " القانون " : وهى المَعْبَر من بلاد ما وراء النهر إلىٰ خُراسَانَ . وجعلها ابن حَوْقَل من أعمال بُخَارا . فتكون مما وراء النهر ، وهى خِصْبَةٌ ولها قرىً عامرة .

الإقليم الثانى
(الدَّشْتُ)

بفتح الدال المهملة وسكون الشين المعجمة وتاء مثناة فوق فى الآخر ــ وهى صحارىٰ فى جهة الشَّمال ، وتضاف إلىٰ القَبْجَاقِ بفتح القاف وسكون الباء الموحدة وفتح الجيم وألف بعدها ثم قاف ــ وهم جنس من التُّرْك يسكنون هذه الصحارىٰ ، أهل حَلٍّ وتَرْحَالٍ علىٰ عادة البَدْوِ .

---

(١) ضبطها ياقوت بالغين المعجمة .

وقاعدة المملكة بها (صَرَاى) . قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح الصاد والراء المهملتين وألف وياء مثناة تحتية . ووقع فى "مسالك الأبصار" بالسين المهملة بدل الصاد — وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة عظيمة فى مستوٍ من الأرض علىٰ شَطِّ نهر [الأَثِل] (١) من الجانب الشمالىّ [الشرقىّ] (١) غربىّ بحر الخَزَر وشماليه علىٰ مسيرة نحو يومين، وبحر الخَزِر شرقيها بجنوبيها، ونهر الأَثِل عندها يجرى من الشَّمال والغرب إلىٰ الشرق والجنوب حتّىٰ يصب فى بحر الخَزِر . وهى فُرْضَة عظيمة للتجار ورقيق التُّرْك . وذكر فى "مسالك الأبصار" عن عبد الرحمن الخُوَارَزْمِىّ الترجمان : أنها بناء بَرَكةَ بن طوجى بن جنكزخان، وأنها فى أرض سبخة بغير سُورٍ، ودار المَلِك بها قصرٌ عظيم علىٰ عليائه هِلَالٌ من ذهب زِنَتُه قنطاران بالمصرىّ، ويحيط بالقصر سُورٌ وأبراج فيها الأمراء، وبهذا القصر يكون مَشْتاهم ؛ والسراى مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات ووجوه بِرٍّ، مقصودة بالإجلاب، وفى وسطها بِرْكَةٌ ماؤها من نهر الحل ماؤها (٢) للاستعمال . أما شربهم فمن النهر يسقىٰ لهم فى جِرَار فَخَّار، وتُصَفُّ علىٰ العَجَلَات وتجرّ إلىٰ المدينة وتباع بها . قال : وبُعْدها عن خُوَارَزْمَ نحو شهر ونصف . قال فى " تقويم البلدان" : وقد بنىٰ بها السلطان أزبك مدرسةً للعلم . قال فى " مسالك الأبصار " : وهم فى جَهْد من قَشَفِ العيش لأنهم ليسوا أهل حاضرة، وشدّةُ البرد تُهْلِكُ مواشيَهُم . قال : وهم لشدّة ما بهم من سوء الحال إذا وجد أحدهم لحما صلقه ولم يُنْضِجْه وشرب مَرَقَه، وترك اللحم ليأكله مرة أخرىٰ، ثم يجمع العِظَام ويعاود صَلْقَهَا مرة أخرىٰ ويشرب مرقها، وقِسْ علىٰ هذا بقية عَيْشهم . ونقل عن جمال الدين عبد الله الحصنى التاجر: أنَّ لبس كثير منهم الجلودُ : مُذَكَّاة كانت أو مَيْتَة، مدبوغة أو غير مدبوغة، من حيوان

(١) الزيادة عن تقويم البلدان . (٢) لعل هذا اللفظ زائد من الناسخ .

طاهر أو غيره، ولا يعرفون فى المآكل ما يُعَاف مما لا يُعَاف، ولا التحريم من التحليل، وأنهم يبيعون أولادهم فى بعض السنين لضيق العيش . قال : ومع ذلك فليس لهم تمسُّك بدين ولا رزانة فى عقل، ثم عقب ذلك بأن قال : ومع ذلك فهم من خيار التُّرك أجناسا لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغَدْر، مع تمام قاماتهم وحسن صُوَرِهم وظَرَافة شمائلهم . ثم قال : ومنهم معظم جيش الديار المصرية من ملوكها وأمرائها وجُنْدها، إذ لما رغب الملك الصالح (نجم الدين أيوب) فى مشترى المماليك منهم، ثم صار من مماليكه من آنتهى إلى الملك والسلطنة، فمالت[1] الجنسية إلى الجنسية، ووقعت الرغبة فى الآستكثار منهم حتّى أصبحت مصرُبهم آهلةَ المَعَالم، مَحْمِيَّةَ الجوانب، منهم أقمارُ مواكبها، وصدور مجالسها، وزعماء جيوشها، وعظماء أرضها . وحمد الإسلام مواقفَهم فى حماية الدِّين، حتّى إنهم جاهدوا فى الله أهليهم . قال : وكفى بالنصرة الأولى يوم عَيْنِ جَالُوتَ فى كَسْر الملك المظفر قطز صاحبِ مصرَ إذ ذاك فى سنة ثمان وخمسين وستمائة عساكرَ هُولَاكُو مَلِك التَّتَرِ بعد أن عجز عنهم عساكرُ الأقطار، وآستأصلوا شأفة السلطان (جلال الدين محمد بن خُوَارَزْم شاهْ) وقتلوا عساكره، مع أن الجيشَ المصريّ بالنسبة إلى العساكر الجلالية كالنقطة من الدائرة، والنُّغْبَةِ من البحر، والله يؤيد بنصره مَن يشاء .

أمّا فى زماننا هذا فإنه منذ قام السلطان الملك الظاهر برقوق من جنس الجركس، رغب فى المماليك من جنسه وأكثر من المماليك الجراكسة حتّى صار منهم أكثر الأمراء والجند، وقلَّت المماليك الترك من الديار المصرية حتّى لم يبقَ منهم إلا القليل من بقاياهم وأولادهم .

---

(١) لعل هذا هو الجواب والفاء زائدة من الناسخ .

الإقليـــم الثـالث

(بلاد الخَزَر)

بفتح الخاء والزاى المعجمتين وراء مهملة فى الآخر .

وقاعدته مدينة (بَلَنْجَر) . قال فى "اللبـاب" : بفتح الباء الموحدة واللام ونون ساكنة وجيم مفتوحة ثم راء مهملة ــ وهى مدينةٌ بدَرْبَنْد خزران، واقعة فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول خمس وسبعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض خمسون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "كتاب الأطوال" : وهى إتِل . قال فى "اللباب" : وهى داخل الباب والأبواب، قيل إنها نسبت إلىٰ بَلَنْجَر بن يافث .

الإقليـــم الرابـــع

(القِـــرِمْ)

قال فى " تقويم البُلْدان " : بكسر القاف والراء المهـملة وميم فى الآخر . قال : وهو ٱسم لإقليم يشتمل علىٰ نحو أربعين بلدا .

وقاعدتها (صُلْغَاتُ) . قال فى " تقويم البُلْدان " : بضم الصاد المهملة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف وتاء مثناة فوقية فى الآخر ــ وقد أطلق الناس ٱسم القِرِم عليها حتّى إذا قالوا القِرِم لايريدون إلا صُلْغَاتَ ــ وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول سبع وخمسون درجة وعشر دقائق والعرض خمسون درجة . قال : وهى عن البحر علىٰ نصف يوم؛ وهى عن الأَزَق فى الغرب والشمال .

وبِصَرَاىَ بلادٌ مضافة إليها .

(منها) الأَكَكُ . قال فى "تقويم البُـلْدان" : بضم الهمزة وفتح الكاف الأولىٰ ثم كاف ثانية ــ وهى بليدة من بلاد الصَّراى ، موقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : القياس حيث الطول ثمـان وسبعون درجة ، والعرض تسع وأربعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، وهى علىٰ جانب نهر إتِل من الجانب الغربى بين صَراىَ وبُلَار ، علىٰ قرب منتصف الطريق بينهما ؛ وهى عن كل واحدة منهما علىٰ نحو خمسَ عشرةَ مرحلة . وإلىٰ الأَكَكِ هذه ينتهى أردو القان صاحب هذه المملكة ؛ ولها مُدُن أخركما تقدّم . وهى عن الكَفَا شَمَالٌ بغرب ، وعن صُودَاقَ شَمال بشرق ، وبين كل منهما مسيرة يوم ؛ وبها حاكم يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية بالدِّيار المصرية .

(ومنهـا) صُودَاقُ . قال فى "تقويم البلدان" : بضم الصاد المهملة وواو ، وفتح الدال المهملة وألف وقاف فى الآخر ، والعامة يقولون : سُرْداق ، فيبدلون الصَّادَ سيناً مهملة والواوَ راءً مهملة ــ وموقعها فى آخر الإقليم السابع من الأقاليم السبعة أو فى الشمال عنه . قال ٱبن سعيد حيث الطول ست وخمسون درجة ، والعرض إحدىٰ وخمسون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى فى ذيل جبل علىٰ شَطِّ بحر القِرِم ، وأرضها محجر وهى مسوّرة ، وهى فُرْضة للتجار ؛ ويقابلها من البرِّ الآخر مدينـة سَامسُونَ ، من سواحل بلاد الروم الآتى ذكرها . قال : وأهلها مسلمون . وقال ٱبن سعيد : أهلها أخلاط من الأمم والأديان ، والأمر فيها راجع إلىٰ النصرانية . وإليها يُنسب الجلد السُّرْداقىّ المعروف .

(ومنها) كَفَا . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الكاف والفاء وألف مقصورة . وهى فُرْضة القِرِم ــ وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال : والقياس أنها حيث الطول سبع وخمسون درجة ، والعرض خمسون درجة ، وهى فى وطاة

من الأرض؛ وهى علىٰ ساحل بحر القِرِم، ويقابلها من البر الآخر مدينة طَرَابْزُون من سواحل بلاد الروم، وهى شرقىّ صُودَاق، وعليها سُورٌ من لَبِنٍ، ومن شمـاليها وشرقيها صحراء القَبْجَاقِ؛ وهى عن صُوداق فى سمت الشرق، والكَفَا وصُودَاقُ وصُلْغَاتُ كالأثافى.

الإقلـيم الخـامس
(بلاد الأَزَق)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة والزاى المعجمة وقاف فى الآخر.

وقاعدته مدينة الأَزَق بالضبط المعروف – موقعها فى الإقليم السـابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيث الطولُ خمس وستون درجة، والعرض ثمان وأربعون درجة . قال : وإليها ينسب بحر الأَزَق المعروف فى الكتب القديمة ببحر مانيطش، وهى فُرْضة علىٰ بحر الأَزَق فى مستوٍ من الأرض عند مَصَبِّ نهر "تان" فى بحر الأَزَق، وبنـاؤها بالخشب، وبينها وبين القِرِم نحو خمسَ عشرةَ مرحلة، وهى فى الشرق والجنوب عن القِرِم . ولها مدن أخر.

(منهـا) الكَرْش . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الكاف وسكون الراء المهملة وشين معجمة فى الآخر – وهى بلدة صغيرة علىٰ ساحل بحر الأَزَق، واقعة فى الإقليم السابع من الأقاليم السـبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : القياس حيث الطول سـتون درجة، والعرض سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة . وهى بلدة صـغيرة بين الكَفَا والأَزَق علىٰ فَمِ بحر الأَزَق، ويقابلها من البر الآخر الطامانُ من سواحل أرْمينِيَة وبلاد الروم، وأهلها قَبْجَاقٌ كُفَّار.

الإقلـــيم السـادس
(بلاد الجَرْكَس)

بفتح الجيم وسكون الراء وفتح الكاف وسين مهملة فى الآخر. قال المؤيد صاحب حماة فى "تاريخه" : وهو على بحر نيطش من شرقِيِّه، وهم فى شَظَف من العيش . قال : وقد غلب عليهم دينُ النصرانية ، وقد صار فى زماننا منهم أكثرُ عسكر الديار المصرية من لدن مَلَك الظاهر برقوق فإنه أكثر الإجلابَ منهم .

الإقلـــيم السـابع
(بلاد البُلْغَار)

بضم البـاء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف ثم راء مهملة فى الآخر . وهم جنس معروف أيضا . قال صاحب حمـاة فى "تاريخه" : وهم منسوبون إلى بُلْدان يسكنونها .

وقاعدتها مدينة (بُلَار) بضم الباء الموحدة وفتح اللام وألف وراء مهملة فى الآخر. قال فى "تقويم البُلْدان" : ويقال لهـا بالعربىّ بُلْغَار ـ وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السـبعة ، أو فى الشَّمال عنــه . قال فى "الأطوال" وطولها ثمـانون درجة ، والعرض خمسون درجة وثلاثون دقيقة ؛ وهى بلدة فى نهـاية العمارة قريبـة من شَطِّ نهر إتِل من البر الشمالىّ الشرقىّ ، وهى وصَرَاى فى برٍّ واحد ، و بينهما فوق عشرين مرحلة ، وهى فى وطاة والجبال عنها أقل من يوم ؛ وأهلها مسلمون حَنَفِيَّة ، وليس بهـا شيء من الفواكه ولا أشجار الفواكه لشدّة بردها ، والفُجْلُ الأسود فى غاية الكبر . قال السلطان عماد الدين صاحب حماة : وقد حكىٰ لى بعض أهلها أن فى أوّل الصيف لا يغيب الشَّفَق عنهـا و يكون ليلها فى غاية القِصَر . ثم قال .

وهذا الذى حكاه صحيح موافقٌ لما يظهر بالأعمال الفلكية، لأن من عرض ثمانية وأربعين ونصف يبتدئ عدم غَيْبُوبة الشَّفَقِ فى أوّل فصل الصيف، وعرضها أكثر من ذلك، فصح ماتقدّم علىٰ كل تقدير. قال فى "مسالك الأبصار": وحكىٰ لى الحسَن الإربلى أن أقصر ليلها أربعُ ساعات ونصف، وهو غاية نقصان الليل. قال حسن الرومىّ: وسألت مسعودا المؤقت بها عن هذا فقال: جربناه بالآلات الرَّصَدية فوجدناه كذلك تحريرا. قال فى "مسالك الأبصار": وقد ذكر المسعودىّ فى "مروج الذهب" أنه كان فى السّرْب والبُلْغَارِ من قديمٍ دارُ إسلام ومستقرّ إيمان. فأمّا الآن فقد تبدّلت بإيمانها كُفْراً، وتداولها طائفة من عُبَّاد الصليب، ووصلت منهم رُسُلٌ إلىٰ حضرة مصر سنةَ إحدىٰ وثلاثين وسبعمائة من صاحب السّرْبِ والبُلْغَارِ، يعرض نفسه علىٰ مَوَدَّته، ويسأله سيفا يتقلده وسنجقا يقهر أعداءه به، فأكرم رسُلَه، وأحسن نُزُله، وجهز له معه خِلْعة كاملة: طرد وحش بقصب بسنجاب مقندس علىٰ مقرح سكندرىّ وكلوتة زركش بطرفين، ومنطقة ذهب، وكلاليب ذهب وسيف محلًّى، وسنجق سلطانىّ أصفر مُذْهَب. قال: وهم يدارون سلطان القبجاق لعظيم سلطانه عليهم، وأخذه بخناقهم لقربهم منه. وذكر فى "التعريف" قريبا منه، ولصاحب السّرْبِ مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، يأتى ذكرها فى المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ.

وبين السّرْبِ والبُلْغَارِ وبلاد الترك بلادٌ:

(منها) أَقْجَا كَرْمَانَ ـ بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح الجيم وألف وفتح الكاف والراء المهملة والميم وألف والنون فى الآخر ـ وهى بليدة علىٰ بحر نيطش المعروف ببحر القِرِم، واقعة فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة. قال فى "تقويم البُلْدان": والقياس أنها حيث الطولُ خمس وأربعون درجة، والعرض خمسون درجة، وهى

فى مستوٍ من الأرض، وأهلها أخلاط من مسلمين وكُفَّار، وعلىٰ القرب منها يصب نهر طُرْلُو .

(ومنهـا) صَارِى كَرْمَانَ . قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الصاد المهملة وألف وكسر الراء المهملة وياء مثناة تحتية ـ وكَرْمَانُ علىٰ ما تقدّم، منخرطة فى أَقْجَا كَرْمان، وهى بليدة أصغر من أقجا كرمان ـ وموقعها فى الإقليم السابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُـلْدان" حيث الطول خمس وخمسون درجة، والعرض خمسون درجة قياسا، ويقابلها من البر الآخر مدينة سَـنُوبَ من سواحل بلاد الروم، وهى شرقىّ أَقْجَا كَرْمَانَ المقدّم ذكرها، وبينهما نحو خمسة عشر يوما، وبينها وبين صُلْغَاتَ نحو خمسة أيام .

الإقلـــيم الثامن
(بلاد الأُولَاقِ)

بضم الهمزة وسكون الواو ولام ألف بعـدها قاف، ويقال لهم البُرْغَالُ بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الغين المعجمة وألف ثم لام، وهم جنس معروف.

وقاعدتها مدينة (طِرْنَوْ). قال فى "تقويم البُلْدان": بالطاء المكسورة والراء الساكنة المهملتين والنون المفتوحة وواو فى الآخر ـ وموقعها فى الإقليم الســابع من الأقاليم الســبعة . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أنها حيث الطولُ سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة . قال : وهى غربىّ صَقْجِى علىٰ ثلاثة أيام منها، وأهلها كُفَّار من الجنس المذكور. ولهم بلاد أخرىٰ :

(منها) صَقْجِى . قال فى "تقويم البلدان" : قال بعض الفقهاء (١) : بفتح الصاد المهملة وسكون القاف وكسر الجيم المشربة بالشين المعجمة وفى الآخر ياء مثناة تحتية ـ

---

(١) الذى فى تقويم البلدان "عن بعض أهلها" .

وهى من أُولَاقَ و بلاد القُسْطَنْطِينِيَّة . قال فى "الأطوال" حيث الطول ثمان وأربعون درجة وسبع وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة، وهى متوسطة بين الصِّغَرِ والكِبَرِ فى مستوٍ من الأرض، عندمصب نهر طُنَا فى بحر نيطش المعروف ببحر القِرِم فى الجانب الجنوبىّ الغربىّ منه . وهى عن أَقْجَا كَرْمَانَ على مسيرة خمسة أيام، و بينها و بين القُسْطَنْطِينِيَّة فى البحر عشرون يوما، وغالب أهلها مسلمون .

الإقلـــيم التـاسع
(بلاد الآص)

بفتح الهمزة الممدودة وصاد مهملة ـ وهم جنس معروف .

وقاعدته (قِرْقِرْ) . قال فى "تقويم البلدان": بكسر القاف وسكون الراء المهملة وسكون القاف الثانية (؟) وكسر الراء المهملة فى الآخر. ومعنى آسمها بالتركية أربعون رجلا، وموقعها فى آخر الإقليم السابع . قال فى "تقويم البلدان" : القياس أنها حيث الطول خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، والعرض خمسون درجة . قال : وهى قلعة عاصية على جبل لايقدر أحد على الطلوع إليه، ووسط ذلك الجبل وطاة تسع أهل البلاد، وهى بعيدة عن البحر فى شمالىّ صارِى كَرْمَانَ على نحو يوم، وعندها جَبَل عظيم شاهق فى الهواء يقال له (جَاطِوْطَاغ) بفتح الجيم وألف وطاء مكسورة وواو ساكنة وطاء مهملة وألف وغين معجمة، يظهر للراكب من بحر القِرِم .

الإقلـــيم العـاشر
(بلاد الرُّوسِ)

بضم الراء المهملة وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر . وهم جنس معروف . قال فى "تقويم البُلْدان" : فى شمـالىّ مدينة بُلَار المذكورة . قال صاحب حماة

فى "تاريخه" : ولهم جزائرُ أيضا فى بحر نيطش وبُلَارُ فى شماليّه . قال : وقد غلب عليهم دين النصرانية . قال فى "مسالك الأبصار" : وإذا سافر المسافر علىٰ غربىّ جولمـان وصـل إلىٰ بلاد الرُّوسِ، ثم إلىٰ بلاد الفِرِنج وسُكَّان البحر الغربىّ . قال فى "تقويم البلدان" : وفى شمـالىّ الروس الذين يبايعون مغايبة . ونقل عن بعض من سافر إلىٰ تلك البلاد أنهم يتصلون بساحل البحر الشمالىّ ، فإذا وصلوا إلىٰ تخومهم ، أقاموا حتّى يعلموا بهم ، ثم يتقدّمون إلىٰ المكان المعروف بالبيع والشراء ، ويَحُطُّ كلُّ تاجر بضاعته مُعَلَّمَةً ويرجعون إلىٰ منازلهم ، فيحضُر أولئك القومُ ويضعون قُبالةَ تلك البضاعة السَّمُّورَ والثعلبَ والوُشَّقَ وما شاكل ذلك ، ويَدَعُونَه ويَمْضُون ، ثم يحضُر التُّجَّار فمن أعجبه ذلك أخذه ، وإلا تركه حتّى يتفاصلوا علىٰ الرضا .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصـار" عن الشيخ علاء الدين بن النعمان : أن البلاد التى يجلب منهـا السَّـمُّورُ والسِّنْجَابُ هى بُلَارُ المقدّمة الذكر . قال ابن النعمان : وتُجَّار بلادنا لا يتعدّون بلاد البُلْغَارِ ، وتُجّار البُلْغَارِ يسافرون إلىٰ بلاى جقطاى ، وتجار جولمـان يسافرون إلىٰ بلاد بوغزه ، وهى فى أقصىٰ الشَّمال ليس بعدها عمارة سوىٰ بُرْجٍ عظيم من بنـاء الإسْكَنْدَرِ علىٰ هيئة المنارة العالية ، ليس وراءه مذهب لأحد إلا الظلمات ، فسـئل عن الظلمات فقال : صَحَارٍ وجبالٌ لا يفارقها الثَّلْجُ والبَرَدُ ، ولا تطلُع عليها الشمس ، ولا ينبت فيها نبات ، ولا يعيش فيها حيوان ، متصلة ببحرٍ أسود لا يزال يمطُر ، الغيمُ منعقدٌ عليه .

واعلم أن صاحب "تقويم البلدان" : قد ذكر عدّة أماكنَ من هذه المملكة سوىٰ ما تقدّم ولم ينسبها إلىٰ إقليم .

(منها) كُومَّاجر ـ بضم الكاف وسكون الواو والميم المشـدّدة وألف وجيم وراء مهملة ـ وهى مدينة قريبة من الوسط ما بين باب الحديد والأَزَقِ ، شرقىَّ الأَزَقِ وغربىَّ باب الحديد .

(ومنهـا) مدينة لَكْز ـ بفتح اللام وسكون الكاف وفى آخرها زاى معجمة ـ وهى مدينة يسكنها جنس من الترك يقال لهم اللكزى ، وهم فى الجبل الفاصل بين تتر مملكة بَرَكَةَ، وتتر مملكة هُولَاكُو .

(ومنها) بلاد القَيْتَق ـ بفتح القاف وسكون المثناة تحت وفتح المثناة من فوق وفى آخرها قاف ثانية، وهم جنس من الترك يسكُنون الجبل المتصل باللَّكْز من شماليه. قال فى "تقويم البُلْدان" وهم قُطَّاع طريق، وجبالهم متحكم على باب الحديد.

قلت : وهذه المملكة أوسعُ من أن يحاط ببلادها، وفيما ذكرناه مَقْنَع لمن تأمله .

الجملة الثالثة

(فى ذكر الأنهار العِظام والبُحَيرات الواقعة فى هذه المملكة)

أما الأنهار فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بهذه المملكة سَيْحُونَ وجَيْحُونَ المقدّم ذكرهما فى مملكة ماوراء النهر، وذلك أنهما يمتدّان من هذه المملكة إلى تلك، فيصدُق وجودهما فى المملكتين جميعا . وقد تقدّم ذكرهما هناك فأغنى عن إعادته هنا.

ثم المشهور مما يختص بهذه المملكة خمسة أنهار .

أحدها ـ نهر أَثِل (١) ـ بفتح الهمزة وكسر المثلثة ولام فى الآخر ـ فعرف بأَثِل ، وهى مدينة بَلَنْجَر المقدّم ذكرها، ويقال فيه نهر الأثل بالألف واللام أيضا، وهو من أعظم الأنهار بتلك البلاد وأشهرها . ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخُوَارَزْمِيّ الترجمان أنه يكون قدر النيل ثلاث مرات أو أكثر . قال : وأصله من بلاد الصَّقْلَبِ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو يأتى من أقصى الشَّمال والشرق من حيث لا عمارة، ويمرّ بالقرب من مدينة بُلَارَ، وهى

---

(١) كذا فى "التقويم" ونص ياقوت على أنه بالمثناة الفوقية وأنه بوزن إبِل .

بُلْغَارُ، ويستدير عليها من شماليها وغربيها، ويجرى منها إلىٰ بُلَيْدَةٍ علىٰ شَطِّه يقال [لها أوكك ثم يتجاوزها إلىٰ قرية يقال] (١) لها بلجمن، ويجرى جنوبا ثم يعطِف، ويجرى إلىٰ الشرق والجنوب، ويمرّ علىٰ مدينة صَرَاى من جنوبيها وغربيها، فإذا تجاوز مدينة صَرَاى آفترق، ويصير علىٰ ماقيل ألفَ نهر ونهر، ويصب الجميعُ فى بحر الخَزَرِ. قال فى "مسالك الأبصار": وتجرى فيه السفن الكبار، ويسافر فيه المسافرون إلىٰ الرُّوسِ والصَّقْلَبِ.

الثانى — نهر طُنَا. قال فى "تقويم البلدان": بضم الطاء المهملة وفتح النون وألف. قال فى "تقويم البلدان": وهو نهر عظيم يكون أكبر من دِجْلَةَ والفُرَاتِ إذا آجتمعا بكثير. قال: ويجرى من أقصىٰ الشَّمال إلىٰ جهة الجنوب، ويمرّ فى شرقىّ جبل يسمّى (قشغا طاغ). ومعناه الجبل الصَّعْبُ، وهو جبل فيه أجناس مختلفة من أمم الكُفْر مثل الأولاق والماجار والسّرْب وغيرهم، فيمرّ فى شرقيه، وكلما جرىٰ جنوبا قرب من بحر نِيطِش المعروف الآن ببحر القِرِم، ولا يزال يتقارب منه ويقرب ما بين الجبل والبحر المذكور حتّى يصبّ فيه فى شَمَالىِّ مدينة صَقْجِى فى شمالىّ القُسْطَنْطِينِيَّةِ بميلة إلىٰ الغرب.

الثالث — نهر أزو. قال فى "تقويم البلدان": بالزاى المعجمة [المفخمة] (٢) بعد الألف وواو فى الآخر. قال: وهو نهر عظيم يأتى من الشمال شرقىّ نهر طُنَا المقدّم ذكره، ويمرّ مغرّبا، ثم يعطف ويمرّ مشرقا حتّى يصبّ فى خَوْر من بحر القِرِم بين صارِى كَرْمَانَ وأَقْجَا كَرْمَانَ المقدّم ذكرهما.

الرابع — نهر تَان. قال فى "تقويم البلدان": بتاء مثناة من فوق وألف [ممالة] (٢) ونون فى الآخر. قال: وهو نهر عظيم شرقىّ أزو المقدّم ذكره وغربىّ نهر

(١) الزيادة عن "التقويم". (٢) الزيادة عن تقويم البلدان.

الأَثِل يجرى من الشَّمال إلىٰ الجنوب، ويصب فى بحيرة ما نيطش المعروفة فى زماننا بحر الأَزَقِ عند مدينة الأَزَقِ من غربيها .

الخامس – نهر طُرْلُو . قال فى "تقويم البُلْدان" بضم الطاء وسكون الراء المهملتين ولام وواو . قال : وهو نحو عاصى حَمَاةَ ، ويصب علىٰ القرب من أَقْجَا كَرْمَانَ فى بحر نيطش المعروف ببحر القِرِم .

وأما البحيرات فالمشهورة بها بحيرة خُوَارَزْمَ : وهى بحيرة كبيرة ماؤها مِلْح . قال ابن حوقل : دَوْرها مائة فرسخ، وفيها يصب نهر جَيْحُونَ فى جانبها الجنوبىّ، وفيها يصب نهر الشَّاش أيضا، وبينها وبين البحر عشرون مرحلة، وبينها وبين خُوَارَزْمَ ستُّ مراحل .

الجملة الرابعة

(فى الطرق الموصلة إلىٰ هذه المملكة)

ولها طريقان : طريق فى البر، وطريق فى البحر .

فأما طريق البر فقد تقدّم فى الكلام علىٰ مملكة إيران الطريق إلىٰ شَطِّ جَيْحُونَ . وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" أن بين آمُل الشطِّ وبين خُوَارَزْمَ نحو آثنتى عشرة مرحلة . وذكر فى "مسالك الأبصار" أن بين خُوَارَزْمَ ومدينة صَرَاى نحو شهر ونصف، وأن بين خُوَارَزْمَ ومدينة صَرَاى مدينة وجق ومدينةَ قطلود .

وأما طريق البحر فهو أن يركب المسافر إليها فى بحر الرُّوم من مدينة الإسْكَنْدَرِيَّة أو مدينة دِمْيَاطَ من شَمالىّ الديار المصرية، ويسير إلىٰ خَلِيج القُسْطَنْطِينِيَّة المتصل ببحر الرُّوم من جهة الشَّمال، ويركب فيه ويجاوزه إلىٰ بحر نيطش المعروف ببحر القِرِم، ثم إلىٰ بحر ما نيطش المعروف ببحر الأَزَقِ وينتهى إلىٰ آخره .

الجمـــلة الخامسة

(فى الموجود بها)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن فيها من الحبوب القَمْحَ، والشَّعِيرَ، والدُّخْنَ، ويسمَّى عندهم الأرزن، والمـاش، والجاوَرْس؛ وهو شبيه بحب البرسيم، على قلة فى القَمْح والشَّعِير. أما الفُولُ فلا يكاد يوجد عندهم، وأكثر حبوبهم الدُّخْنُ ومنه أكلهـم؛ وبهـا من الفواكه جميعُ أنواع الفواكه إلا النَّخْلَ، والزَّيْتُونَ، وقَصَبَ السُّكَّرِ، والمَوْزَ، والأُتْرُجَّ، واللَّيمُونَ، والنَّارَنْجَ. وذكر عن بلاد القَبْجَاقِ أنها كانت قبل آستيلاء التَّتَارِ عليها معمورة الجوانب، وأنها فى بقايا تلك العمارة والغِرَاس، وأن فيها من الفواكه العِنَبَ، والرُّمَّانَ، والسَّفَرْجَلَ، والتُّفَّاحَ، والكُمَّثْرَى، والمِشْمِشَ، والخَوْخَ، والجَوْزَ، وفاكهة تسمَّى بلغة القَبْجَاقِ بانيك شبيهة بالتِّينِ، وأن الفواكه كثيرة الوجود فى جبالهم مع كثرة مابَادَ منها. قال: وأما البِطِّيخُ فينجب عندهم نجابة خاصة الأصفر، وهو فى غاية صِدْقِ الحَلَاوة يُقَدّدونه ويجفِّفُونه فيبقى عندهم من السنة إلى السـنة، وربمـا آستخرجوا ماءه وصنعوا منه الحَلْوَى؛ وعندهم من الخضراوات اللِّفتُ، والجَزَرُ، والكُرُنْبُ، وغير ذلك. ثم قال: وكذلك مدن الجَرْكَسِ والرُّوسِ والآصِ؛ وبها العَسَلُ الكثير الأبْيَضُ اللَّوْنِ اللذيذُ الطَّعْمِ الخالى من الحِدَّةِ.

الجمـــلة السادســـة

(فى المعاملات والأســـعار بها)

أما المعاملات فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن عبدالرحمن الخُوَارَزْمِيّ التَّرْجُمَانِ أن دينارهم رائج كما فى غالب مملكة إيران، وهو الذى عنه ستة دراهم، وأن الحبوب تباع كلها عندهم بالرِّطْل، وذكر أن رِطْل خُوَارَزْمَ زِنَتُه ثلثمائة وثلاثون درهما.

وأما الأسعار فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الصدر زين الدين عمر بن مسافر أن الأسعار فى جميع هذه المملكة رَخِيَّة إلىٰ الغاية إلا كُرْكَنْجَ أمّ إقليم خُوَارَزْمَ فإنها متماسكة فى أسعار الغلات قَلَّ أن تَرْخُصَ، بل إما أن تكون غلِيَّةً أو متوسطة لايعرف [بها] الرُّخْصُ أبدا. ثم ذكر عن شجاع الدين عبد الرحمن الخُوارَزْمىّ التَّرْجُمَان: أن الأسعار فى خُوَارَزْمَ والسَّرَاى لا يكاد يتباين ما بينهما. قال: والسعر المتوسط عندهم القَمْح بدينارين ونصف، وكذلك الماش والشعير بدينارين، وكذلك الدخن والجَاوَرْس، وربما زاد، والغالب أن يكون سعره مماثلَ سعر القمح؛ واللحم الضأن علىٰ السعر المتوسط كل ثلاثة أرطال بدرهم. وذكر آبن مسافر أن اللحوم بها رخيصة، وأكثر ما يذبح بها الخيل.

وأما سُكَّان البر فإن اللحم لا يباع لديهم ولا يُشترىٰ لكثرته، وغالب أكلهم لحومُ الطير واللبنُ والسمنُ، وإن تَلِفَ لأحد منهم دابةٌ من فَرَسٍ أو بقرة أو شاة أو غير ذلك، ذبحها وأكل هو وأهلُه منها، وأهدىٰ لجيرانه. فإذا تلف عند مَنْ أهدىٰ إليه شيءٌ من ذلك، ذبحه أيضا وأهدىٰ لجيرانه، فلهذا لاتكاد بيوتهم تخلو من اللحم.

الجملة السابعة

(فى ذكر ملوك هذه المملكة)

قد تقدّم أنها قسم من مملكة تُورَانَ، ومملكة تُورانَ كانت فى القديم بيد افراسياب ملك التُّرْك، وتداولها ملوك الترك بعده إلىٰ الفتوح الإسلامية، وأسلم مَنْ أسلم من ملوكهم.

أما خُوَارَزْمُ فتوالت عليها الأيدى حتّى صارت إلىٰ (محمود بن سُبُكْتكين) المقدّم ذكره فى ملوك غَزْنَة من القسم الأوّل من هذه المملكة؛ ثم صارت (لمسعود) آبنه،

واستناب فيها خُوَارَزْمَ شاه هارونَ بن الطّيطاش، ثم قتله غلمانُه عند خروجه إلىٰ الصيد، وآستولىٰ عليها رجل يقال له (عبد الجَبَّار)، ثم وثب غلمانُ هارونَ بعبد الجَبَّار فقتلوه، ووَلَّوا مكانه (إسماعيل بن الطيطاش) أخا هارون، ثم غلبه عليها (شاه ملك) ابن عليّ، ثم غلبه عليها (طغرلبك) بن ميكائيل بن سلجوق، وبقيت بيد السلجوقية المقدّم ذكرهم في مملكة إيران، إلىٰ أن صارت منهم إلىٰ (بَرْكِيَارُق) بن ملكشاه بن أرسلان آبن داود بن ميكائيل بن سلجوق، فآستناب فيها علاء الدين محمد أنوشتكين في أيام بركيارق بن ملكشاه بن ميكائيل بن سلجوق السلجوقي، ولُقّب خوارَزْم شاه في سنة تسعين وأربعمائة .

ثم ولي بعده آبنه (أطسز) بن محمد، ثم غلبه علىٰ ذلك (سنجر) بن ملكشاه أخو علاء الدين محمد، وأقام بها من يحفظها في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، [ثم غلبه عليها أطسز بن محمد المقدّم ذكره](1)، وبقي بها حتّى توفي سنة إحدىٰ وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده آبنه (أرسلان بن أطسز) وتوفي سنة ثمان وستين وخمسمائة .

وملك بعده آبنه (سلطان شاه محمود) صغيرا، وقامت أمه بتدبير دولته، ثم غلب علىٰ المُلْك أخوه (علاء الدين تكش) ثم غلبه أخوه (سلطان شاه) وطرده، ثم مات سلطان شاه وآنفرد (تكش بالملك) ثم مات في سنة ست وتسعين وخمسمائة .

وولي بعده آبنه (محمد بن تكش) وكان لقبــه قُطْبَ الدين فتلقب علاءَ الدين، وبقي حتّى غلبه جنكزخان وهزمه في سنة تسع عشرة وستمائة، ثم مات بعد ذلك . ولمـا ملك جنكزخان أوصىٰ بدَشْت القَبْجَاق، وما معــه لآبنه طوجي، ويقال له دوجي أيضا، فمات طوجي في حياة أبيه جنكزخان . فلما مات جنكزخان آستقرّ في مملكة ماوراء النهر، وما معه باتو بن طوجي بن جنكزخان، ثم مات باتو .

---

(١) الزيادة عن تاريخ أبي الفدا ليوافق الواقع .

وملك بعده أخوه (بَركةُ بن طوجى) وهو الذى تنسب هذه المملكة إليه، فيقال فيها بيت بَرَكة، بمعنىٰ هذه مملكة بيت بركة، كما يقال فى مملكة إيران هى مملكة بيت هُولَاكُو . قال صاحب "الذّيل علىٰ الكامل" وكانت المكاتبة بينه وبين الظاهر بيبرس لاتنقطع، وبقى حتّٰى توفى سنة خمس وستين وستمائة عن غير ولد .

وملك بعده ٱبن أخيه (منكوتمر بن طغان) بن باطو بن دوجى خان، ٱبن جنكزخان، وتوفى سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة .

وملك بعده أخوه (تدان منكوتمر) بن طغان بن باطو بن دوجى خان، ابن جنكزخان وقيل سنة ٱثنتين وثمانين وستمائة(١)، وكان صاحب مصر قد جهز إلىٰ منكوتمر هَدِيَّةً فلم تصل إليه حتّٰى مات، وٱستقرّ (تدان منكو) فقدّمت إليه فابتهج بها، وعادت الرُّسُل بجوابه بذلك، وبقى إلىٰ سنة ست وثمانين وستمائة فأظهر الوَلَه وتخلّٰى عن المملكة وٱنتمىٰ إلىٰ المشايخ والفقراء .

وملك بعده (تلابغا) باشارته [ٱبن منكوتمر بن طغان بن باطو(٢)] بن دوجى خان ٱبن جنكزخان، وبقى حتّٰى قتل فى سنة تسعين وستمائة .

وملك بعده (طقطغا) بن منكوتمر بن طغان بن باطوخان ٱبن جنكزخان .

والذى ذكره قاضى القضاة ولىّ الدين بن خَلْدُونَ فى "تاريخه" أنه ملك بعد باطوخان أخوه طرطو، ثم أخوه بَرَكة، ثم منكوتمر بن طغان خان ٱبن باطوخان ابن دوشى خان، ثم ٱبنه تدان منكو، ثم أخوه تلابغا، ثم أخوه جفطاى، ثم ٱبن أخيه أزبك، وهو الذى كان فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية. قال فى "التعريف": وخطب إليه السلطان فزوّجه بنتا تقرب إليه، ثم ٱبنه جانى بك، ثم ٱبنه بردى بك، ثم ٱبنه طقتمش، ثم نائبه ماماى، ثم عبد الله بن أزبك،

(١) فى تاريخ أبى الفدا "سنة ثمانين" . (٢) الزيادة عن تاريخ أبى الفدا .

ثم قطلقتمر، ثم ماماى ثانيا، ثم حاجى جركس، ثم أيبك خان، ثم ٱبنه قانى بك خان، ثم أرص خان، ثم طقتمش خان ٱبن بردى بك خان. قال: ومنه ٱنتزعها تمرلنك وقتله.

قلت: المعروف أن تمرلنك لم يملك هذه المملكة أصلا ولا قتل طقتمش، وماذكره وَهَمٌ فيه.

وأوّل من أسلم من ملوك هـذه المملكة من بنى جنكزخان بَرَكة بن طوجى ٱبن جنكزخان، وكان إسلامه قبل تملُّكه حين أرسله أخوه باطوخان لإجلاس منكوخان علىٰ كرسىّ جدّه جنكزخان، فأجلسه، وعاد فمرّ فى طريقه علىٰ الباخَرْزىّ شيخ الطريقة، فأسلم علىٰ يديه وحَسُنَ إسلامُه، ولم يملك بعد أخيه باطوخان إلا وهو مسلم، وتلاه من تلاه من ملوكهم بهذه المملكة فى الإسلام حتّٰى كان أزبك خان منهم، فأخلص فى الإسلام غاية الإخلاص، وتظاهر بالدّيانة والتمسك بالشريعة، وحافظ علىٰ الصلاة وداوم علىٰ الصيام.

وقد حكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن زين الدين عمر بن مسافر أن ملوك هـذه الطائفة مع ظهور الإسلام فيهم وإقرارهم بالشهادتين مخالفون لأحكامها فى كثير من الأمور، واقفون مع ياسة جنكزخان التى قرّرها لهم وقوفَ غيرهم من أتباعه، مع مؤاخذة بعضِهم بعضًا أشدّ المؤاخذة فى الكَذِب والزِّنَا ونَبْذ المواثيق والعهود. وقد جرت عادة ملوكهم أنهم إذا غَضِبوا علىٰ أحد من أتباعهم، أخذوا مَالَهُ وباعوا أولاده، وأن فى سلطان هذه المملكة طوائف الجَرْكَس والرُّوس والآص، وهم أهل مُدُن عامرة آهلة، وجبال مشجرة مثمرة، ينبت عندهم الزرع، ويَدِرّ لهم الضَّرْع، وتجرى الأنهار، وتُجنىٰ الثمار، وهم وإن كان لهم ملوك فهم كالرعايا(١)، فإن داروه بالطاعة والتُّحَف كَفّ عنهم، وإلا شنّ عليهم الغارات، وضايقهم، وحاصرهم،

(١) لعله فهم لملك مصر أو نحو ذلك كالرعايا لينتظم الكلام.

وقتل رجالهم ، وسبى نساءهم ، وذراريّهم ، وجلب رقيقهم إلى أقطار الأرض .
ثم قال : والقسطنطينيّة مجاورة لأطراف ملك القبجاق ، وملك الروم معه فى كلَب دائم ، واقتراحات متعدّدة فى كل وقت ، وملك الروم على توقد جمرته ، وكثرة حماته وأنصاره ، يخاف غارته وشرّه ، ويتقرّب إليه ، ويداريه ، ويدافع معه الأيام من وقت إلى وقت منذ تدبّر ملوكُ بنى جنكزخان هذه المملكة . وما تخلو بينهم مدّة عن تجديد عهود ومسالمة إلى مدّة تؤجل بينهم ، وأشياء تحمل من جهة ملك الروم إلى ملكهم .

الجملة الثامنة

(فى مقدار عسكر هذه المملكة ، وترتيبها ، ومقادير الأرزاق الجارية عليهم ، وزيّهم فى اللبس)

اما مقدار عسكرها ، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ علاء الدين ابن النُّعمان أن عساكرها كثيرة تفوت الحصر ، لا يُعْلم لها مقدار إلا أنه خرج مرة عليه وعلى القان الكبير اسنبغا سلطانِ ما وراء النهر خارجٌ ، فجرّد إليه من كل عشرة واحدا فبلغ عدّة المجرّدين مائتين وخمسين ألفا ممن دخل تحت الإحصاء سوى من انضم إليهم ، وألزم كلَّ فارس منهم بغلامين وثلاثين رأسا من الغنم وخمسة أرؤس من الخيل وقِدْرين نحاس وعجلة .

وأما ترتيب مملكتهم فحكى عن الشيخ نجم الدين بن الشحام الموصلىّ أن ترتيب هذه المملكة فى أمر جيوشها وسلطانها كما فى ترتيب مملكة العراق والعجم فى عِدّة الأمراء والأحكام والخَدَم ، ولكن ليس لأمير الألوس والوزير بها تصرفُ أمير الألوس والوزير بتلك المملكة ، ولا لسلطان هذه المملكة نظيرُ ما لذلك السلطان من الدخل والمجابى وعدد المُدُن والقُرىٰ ، ولا مشىٰ أهلُ هذه المملكة على قواعد الخلفاء مثل أولئك ، ولخواتين هؤلاء مشاركةٌ فى الحكم معهم وإصدار الأمور عنهم مثل

أولئك وأكثر ، إلا ما كانت عليه بغداد بنت جوبان آمرأة أبى سعيد بهادر بن خدابندا، فإنه لم يُرَ من يحكم حكمها . قال المقر الشهابىّ بن فضل الله : وقد وقفتُ علىٰ كثير من الكتب الصادرة عن ملوك هذه البلاد من عهد بَرَكَةَ وما بعده، وفيها "وآتفقت آراء الخواتين والأمراء علىٰ كذا" أو مايجرى هذا المَجْرىٰ .

وحكى عن الصدر زين الدين عمر بن مسافر عن أزبك خان سلطان هذه المملكة فى الأيام الناصرية محمد بن قلاوون أنه لا آلتفات له من أمور مملكته إلا إلىٰ جُمْلِيّات الأمور دون تفصيل الأحوال ، يَقْنَعُ بما حُمِلَ إليه ، ولا يبحث عن وجوه القبض والصرف ؛ وأن لكل آمرأة من خواتينه جانبا من الحمل ، وأنه يركب كل يوم إلىٰ آمرأة منهنّ ، يقيم ذلك اليوم عندها ، يأكل من بيتها ويشرب، وتلبسه بدلة قماش كاملة ، ويخلع التى كانت عليه من اللبس علىٰ من يتفق ممن حوله . ثم قال : وقماشه ليس بفائق الجنس ولا غالى الثمن، مع قربه من الرعايا القاصدين له ، إلا أن يده ليست مبسوطة بالعطاء، ولو أراد هذا لما وفىٰ به دخلُ بلاده، فإن غالب رعاياه أصحابُ عَمَلٍ فى الصحراء، أقواتُهم من مواشيهم . ونقل عن نظام الدين بن الحكيم الطيارىّ أن لسلطان هذه المملكة علىٰ جميعهم خراجًا يستأديه منهم، وأنهم ربما طُولبوا بالخراج فى سنة مُمْحِلة لوقوع المُوتان بدوابهم ، أو سقوط الثلج ونحوه، فباعوا أولادَهم لأداء ماعليهم من الخراج .

وأما مقادير أرزاق جُنْدهم، فقد حكى عن شجاع الدين عبد الرحمن أن كل من كان بيد آبائه شيء من الإقطاع فهو بيد أبنائه . ثم قال : والأمراء لهم بلاد، منهم من تُغِلُّ بلاده فى السنة مائتى ألف دينار رائج وما دون ذلك إلىٰ مائة ألف دينار رائج .

أما الجند فليس لأحد منهم إلا نقود تؤخذ، كلهم فيها علىٰ السواء ، لكل واحد منهم فى السنة مائتا دينار رائج .

وأما زِيّهُم فى اللبس ، فحكى عن شجاع الدين الترجمان أيضا أنه كان زيهم زِيّ عسكر مصر والشام فى الدولة الإسلامية ومايناسب ذلك، ثم غلب على زيهم زِيّ التتر إلا أنهم بعمائم صغار مُدَوَّرة .

القســـم الثـالث
(من مملكة تُورَانَ مملكةُ القان الكبير)

قال فى "التعريف" : وهو أكبر الثلاثة، (يعنى ملوك الأقسام الثلاثة المتقدّمة الذكر). وهو صاحب الصِّينِ والخِطا ووارث تخت جنكزخان . قال : وقد تواترت الأخبار بأنه أسلم ودان بدين الإسلام ، ورَقَم كلمة التوحيد على ذوائب الأعلام . قال : وإن صَحَّ وهو المؤمل، فقد ملأت الأمةُ المحمديةُ الخافقين، وعَمَرَتِ المشرقَ والمغربَ، وآمتدّت بين ضَفَّتَى البحر المحيط . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو القائم مقام جنكزخان والجالسُ على تخته . قال : وهو كالخليفة على بنى عَمِّه من بقية ملوك تُوران : من مملكة إيران ، وصاحب القَبْجَاق ، وصاحب ما وراء النهر . فإذا تجدّد فى مملكة أحد منهم مُهِمٌّ كبير، مثل لِقَاءِ عسكر، أو قتل أمير كبير بذنب، أو ما يناسب ذلك، أرسل إليه وأعلمه به ، وإن كان لا آفتقار إلى آستئذانه ، ولكنها عادة مَرْعِيَّةٌ بينهم .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن نظام الدين بن الحكيم الطيارىّ أنه لم يزل يكتبُ إلى كلّ من القانات الثلاثة، يأمرهم بالآتحاد والألفة، وإذا كتب إليهم بدأ باسمه قبلهم، وإذا كتبوا إليه بدؤا بآسمه قبلهم . قال : وكلهم مُذْعِنون له بالتقدّم عليهم . قال فى "مسالك الأبصار" : وأهل هذه المملكة هم أهل الأعمال اللطيفة، والصنائع البديعة، التى سلمت إليهم فيها الأمم . وقد تكتّب(١) الكتب من أحوالهم بما أغنى عن ذكره . قال : ومن عادة المجيدين فى الصنائع أنهم إذا عملوا عملا

(١) لعله "وقد تكفلت الكتب الخ" .

بديعا، حملوه إلىٰ باب الملك، وعُلِّق عليه ليراه الناس، ويبقىٰ سَنَةً، فإن سلم من عائب أسدىٰ إلىٰ صاحبه الإحسانَ، وإن عيبَ عليه وتوجّه العيبُ، وضع قدر الصانع ولم يوجه العيب [علىٰ] من عابه.

وقد حكىٰ المسعودىّ فى "مروج الذهب" أن صانعا منهم صوّر عُصْفورا علىٰ سُنْبُلة فى نقش ثوب كمخا وعلقه، فآستحسنه كل من رءاه، حتّٰى مرّ به رجل فعابه باستقامة السنبلة، لأن العُصْفُورَ من شأنه أنه إذا وضع(1) علىٰ السنبلة أمالها.

وحكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن بدر الدين حسن الإسعردىّ أن بعض صُنّاعهم عَمِل ثيابا من الورَق وباعها علىٰ أنها من الكمخاوات الخطائية، لايشُكُّ فيها شاكٌّ، ثم أظهرهم علىٰ ذلك فعجبوا منه.

وحكى عن الشريف حسن السَّمَرْقَنْدِىّ أنه كان بهذه البلاد، فشكا ضِرْسَهُ، فأراه لرجل من الخِطَا، فوضع يده عليه، فأخرج منه قطعة متأكلة، ووضع مكانها قطعة من ضِرْسِ أجنبىّ، ودهنه بدُهْن وأمره أن لايشرب ماء يومه، فآلتصق حتّٰى صار كأنه من أصل الخلقة، إلا أن لون الأول يبين من اللون الثانى. وذكر المقر الشهابىّ أنه أراه له بحضرة الشيخ شمس الدين الأصفَهَانىّ وجماعة من أهل العلم. قال بدر الدين حسن الإسعردىّ: ولقد رأيت منهم من هذه الأعمال ما يَحار فيه العقلُ.

ويحصل الغرض منه فى خمس جمل:

الجمـــلة الأولىٰ

(فيما آشتملت عليه هذه المملكة من الأقاليم)

وآعلم أن هذه المملكة هى أوسع ممالك بنى جنكزخان وأفسحها جوانبَ، وأكثرها أقاليم، وأوفرها مُدُنا، غير أنها بعيدة المسافة، منقطعة الأخبار، فَجُهِلَت لذلك أسماءُ

(1) كذا بالأصل، ولعل الصواب "وقع".

أقاليمها، وتعذرت الإحاطة بأقطارها، ونحن نورد منها ماشاع ذكره فى سائر الآفاق وٱنتشر، ونَقْنَعُ من التفصيل بالجملة، ونكتفى من البحر بالنُّغبة .

والقول الجملىُّ فى ذلك أنه يشتمل علىٰ إقليمين عظيمين :

الإقليم الأوّل
(الصِّينُ)

بكسر الصاد المهملة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويحيط به من جهة الغرب المَفَاوِزُ التى بينه وبين الهِنْدِ، ويحيط به من جهة الجنوب البحر (يعنى بحرَ الهِنْد) ، ويحيط به من جهة الشرق البحر المحيط، ويحيط به من جهة الشَّمَال أرض يَأْجُوج ومَأْجُوج وغيرها من الأراضى المنقطعة الأخبار عنا . ثم قال : وقد ذكر أصحاب المسالك والممالك فى كتبهم بلادا كثيرة، ومواضع وأنهارا وغيرها فى إقليم الصِّينِ، ولم يقع لنا ضبط أسمائها، ولا تحقيق أحوالها، فصارت كالمجهولة لنا لعدم مَنْ يَصِل من تلك النواحى من المسافرين إلينا لنستعلم منه أخبارها فأضربنا عن ذكرها .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشريف تاج الدين حسن بن الجلال السَّمَرْقَنْدِىّ، وهو من السُّفَّار، وممن جال الآفاق، ودخل الصِّينَ وجَالَ بلادَه، وجابَ آفاقه، وجاسَ خِلاَلَه، وجال فى أقطاره : أن بالصِّينِ ألفَ مدينة، وأنه دارَ الكثيرَ منها . قال : وبلاد الصِّينِ كلها عمارة متصلة من بلد إلىٰ بلد، ومن قرية إلىٰ قرية .

وقاعدة هذه المملكة (خَانْ بَالِق) . قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح الخاء المعجمة ثم ألف ونون ساكنة وباء موحدة مفتوحة ثم ألف ولام مكسورة وقاف فى الآخر. قال : وهى مدينة من أقاصى الشرق عند بلاد الخطا، واقعة فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال ٱبن سعيد حيث الطول مائة وأربعَ عشرةَ درجة، والعَرض

خمس وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . وهى قاعدة مشهورة على ألْسِنَة التُّجّار وأهلها من جنس الخطا ، وعندهم معادِنُ الفضـــة . قال ٱبن سعيد : ويُذْكر عن عِظم هذه المدينة مايستبعده العقلُ . قال فى "مسالك الأبصار" نقلا عن الشريف حسن بن الجلال السَّمَرْقَنْدىّ : إن مدينة خَانْ بَالِق المذكورة مدينتـان ، قديمة وجديدة ، والجديدة منهــما ٱسمها ديدو ، بناها (ديدو) آخر ملوكها فسميت بٱسمه ، والقان الكبير ينزل بوســطها فى قصر عظيم يســمّى كوك طاق ؛ ومعناه بلغة المغل القصر الأخضر ، لأن طاق معناه عنــدهم القصر ، وكوك معناه الأخضر ؛ ومنازل الأمراء حوله خارجَ القصر ؛ قال : وهى مدينة طَيِّبة ، واســعة الأقوات ، رخِيَّةُ الأسعار ، ويجمُد بها المـاء فى زمن الشتاء فيصير كالثلج ، فيُرفعُ إلى أيام الصيف حتّى يُبَرَّد به المـاء كما يُبَرَّد بالثلج . ويشق مدينةَ ديدو المذكورة نهرٌ .

وبها أنواع الفواكه إلا العنبَ فإنه قليل بها ؛ وليس بها نَارَنْجٌ ولا لَيْمونٌ ولا زَيْتُونٌ ، ثم يُعمل بها السكر. وبها من الزَّرْع والجِمَال والخَيْل والبَقَر والغَنَم مالا يدخل تحت الإحصاء.

وبالصِّين مُدُن مشهورة سواها .

(منهـا) قَرَاقُومُ . قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح القاف والراء المهملة ثم ألف وقاف مضمومة وواو ســاكنة وميم . قال : وهى مدينــة فى أقاصى بلاد التُّرْك الشرقية ، ومعنى قراقوم باللغة التركية الرمل الأسود ، لأن قرا فى لغتهم بمعنى الأسود ، وقم بمعنى الرمل ، ويقع فى كثير من الكتب قَرَاقرم بإبدال الواو راء وهو خطأ ، وإنما كتبت الواو بها بعد القاف دليلا على الضمة على عادتهم فى ذلك ــ وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم الســبعة . قال ٱبن ســعيد حيث الطول مائة وست وخمسون درجة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال : وهى كانت قاعدةَ التتر ، وفى جهاتها بلاد المغل : وهم خالصة التتر. ومنها خاناتهم . قال الشريف

حسن بن الجلال السَّمَرْقَنْدِىّ : وفيها غالب عساكر القان الكبير. وبها يُعْمل القماش الفاخر، والصنائع الفائقة، وغالب مايحتاج إليه القَان يُستدعىٰ منها لأنها دار آستعمال، وأهلها أهل صنائعَ فائقة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى قرية جنكزخان التى أخرجته، وعِرِّيسَتُه التى أدرجَتْه .

(ومنها) الخَنْساء . قال فى "تقويم البُلْدان" : بالخاء المعجمة والنون والسين المهملة وألف . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" حيث الطول مائة وخمس وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرض ثمان وعشرون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وعن بعض المسافرين من بلادنا أن الخنساء فى هذا الزمان أعظم فُرَض الصِّينِ ، وإليها ينتهى وصول التُّجَّار المسافرين من بلادنا . قال الشريف السَّمَرْقَنْدِىّ : وطول الخنساء يوم كامل، وعرضها نصف يوم، وفى وسطها سوق واحد ممتدٌّ من أولها إلىٰ آخرها، وأسواقها مبلَّطة بالبَلَاط، وبناؤها خمس طبقات بعضُها فوق بعض ، وكلها مبنية بالأخشاب والمسامير، وشرب أهلها من الآبار، وأهلها فى قَشَفٍ عظيم، وغالب أكلهم لحم الجاموس والإوَزِّ والدّجاج. وفيها الأرُزُّ، والمَوْزُ، وقصب السُّكَّر، واللَّيْمُونُ، وقليل الرُّمَّان ، وأسعارها متوسطة، وتجلب إليها الغنم والقمح علىٰ قلة، ولا يوجَدُ فيها من الخيل إلا ماقلَّ عند أعيانها. وأما الجمال فلا توجد فيها البتة، فإن دخلها جَمَلٌ تعجبوا منه. ونقل فى "مسالك الأبصار" أن بينها وبين جالق بالق أربعين يوما. وحكىٰ عن الصدر صدر الدين عبد الوهاب بن الحدّاد البغدادىّ أنه وصل إلىٰ الخنساء ووصف عظمة بنائها ومَنَعَةَ رِفْعَةِ مدينتها مع تَشَحُّط الأقوات بها ووفور المكاسب فيها ورُخْص الدّقيق(١) الجيد فيها وفى جميع تلك البلاد . قال : وأهلها يتفاخرون بكثرة الجوارى السرارى، حتّى إنه ليوجد لأحد التجار وآحاد الناس أربعون سرية فما زاد علىٰ ذلك .

(١) لعله الرقيق بالراء فتأمل .

(ومنها) الزَّيْتُونُ . قال في "تقويم البلدان" عن بعض المسافرين الثقات : هي بلفظ الزيتون الذي يُعْتَصَر منه الزيت ، وهي فُرْضَةٌ من فُرَضِ الصِّين ـ موقعها في الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال آبن سعيد حيث الطول مائة وأربعَ عشرةَ درجة ، والعرض سبعَ عشرةَ درجة . قال : وهي مدينة مشهورة على ألسنة التجار المسافرين إلى تلك البـلاد ، وهي على خَوْر من البحر ، والمراكب تدخل إليها من بحر الصِّين في الخَوْر المذكور ، وقدره نحو خمسة عشر مِيلًا ، ولها نهر عند رأس الخور المذكور.

وذكر في "مسالك الأبصـار" عن الشريف السَّمَرْقَنْدِيّ أن مدينـةَ الزَّيْتُونِ على البحر المحيط وهي آخر العمارة . قال : وبينها وبين جالق بالق شهر واحد .

(ومنها) السِّيلى . قال في "تقويم البلدان" : بالسين المهملة والياء المثناة التحتية ولام وياء ثانية . ثم قال : هكذا وجدناه في الكتب . قال : ويقال لها سِيلَا يعني باللام ألف ، ورأيت في بعض الكتب سِيلان بزيادة نون بعد اللام ألف . قال : وهي مدينة في أقصى الصِّين الشرقيّ ، خارجة عن الإقليم الأوّل إلى الجنوب . قال في "القانون" حيث الطول مائة وسبعون درجة ، والعرض خمس درج ، وهي في أعالي الصِّين من الشرق كجزائر الخالدات في بحر الغرب ، لكن هذه معـمورة في خِصْبٍ بخلاف تلك .

(ومنها) جمكوت . قال في "تقويم البلدان" : بالجيم والميم والكاف ثم واو وتاء مثناة فوقية في الآخر . قال : كذا وجدناها مكتوبة ، وآسمها عند الفُرْس جما كرد . قال : وهي مدينـة في أقصى العمارة الشرقية ، خارجة عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلى الجنوب . قال في "الأطوال" : وهي على خط الآستواء لا عرض لها . قال في "تقويم البُلْدان" : وهي على النهاية الشرقية مثل ما يحكى عن الجزائر الخالدات في النهاية الغربية . قال : وليس شرقيّ جمكوت عمارة أصلا .

(ومنها) مدن أخرى مذكورة فى الكتب مجهولة الضبط .

إحداها مدينة (ينجو) – وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول مائة وخمس وعشرون، والعرض آثنتان وعشرون . وقد ذكر فى "القانون" أنها مستقرّ مَلِكهم الأكبر الملقب بطمغاج .

(ومنها) مدينة خانقو . بخاء معجمة وألف ونون وقاف ثم واو – وهى مدينة على النهر واقعة فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" حيث الطول مائة وستون درجة، والعرض أربعَ عشرةَ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى من أبواب الصِّين . قال آبن سعيد : وموقعها على شرقىّ نهر خمدان . قال آبن خرداذبه : وهى المرفأ الأكبر، وفيها الفواكه الكثيرة، والبقول، والحنطة، والشعير، والأُرُزّ، والعِنَبُ، والسكَّر .

(ومنها) مدينة خانجو – بإبدال القاف من المدينة السابقة جيما – وهى مدينة على النهر، واقعة فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطول مائة وآثنتان وستون درجة، والعرض أربع عشرة درجة . قال فى "القانون" : وهى من أبواب الصِّين .

(ومنها) مدينة سوسة – بسينين مهملتين بينهما واو ساكنة وفى الآخر هاء . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة مشهورة كثيرة التُّجَّار متصلة العمارة، وبها يُصْنع الفَخَّار الصِّينىّ الذى لا يفوقه ولا يعدله شىء من أعمال الصِّين . قال : وهى على شرقىّ نهر خمدان .

الإقليم الثانى

(بلاد الخِطَا)

بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف فى الآخر، وهم جنس من التُّرْك بلادهم فى متاخمة بلاد الصِّين .

وقد ذكر في "مسالك الأبصار" مدينة (قمجوهى) بقاف وميم وجيم وواو ثم هاء وياء آخر الحروف . وقال : إنهـا أوّل بلاد الخطَا، وان منها إلىٰ جالق بالق أربعين يوما، بل ذكر أن مدينة جالق بالق التي هي قاعدة هذه المملكة من بلاد الخطَا .

الجمـــلة الثـانية

(في معاملة هذه المملكة وأسعارها)

أما معاملتها فقال في "مسالك الأبصار" : حدّثني الفاضل نظام الدين آبن الحكيم أن معاملتهم بقشور من لحـاء شجر التُّوت مطبوعةٍ بآسم القان، فإذا عَتَق ذلك حمله صـاحبه إلىٰ نُوّاب هـذا القان وأخذ عِوَضـه مع خسارة لطيفة، كما يؤخذ في دار الضرب مما يُحمل إليها من الذهب والفضة ليُضرب بها . وذكر عن الشريف حسن السَّمَرْقَنْدِيّ أن فيها كبارا وفيها صغارا، فمنها مايقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد، ومنها مايقوم مقام درهمين، ومنها مايقوم مقام خمسة دراهم وأكثر إلىٰ ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة . وقد تقدّم في الكلام علىٰ جالق بالق (١) والخَنْسَاءِ ذكرُ ما بهما من الحيوان والحبوب والبقول وغير ذلك .

الجمـــلة الثـالثة

(في الطريق الموصل إلىٰ هذه المملكة)

قد حكىٰ في "مسالك الأبصار" عن الشريف تاج الدين السَّمَرْقَنْدِيّ : أن من سَمَرْقَنْدَ من بلاد ما وراء النهر إلىٰ سيلي عشرين يوما، ومن سيلي المذكورة إلىٰ المالق عشرين يوما ، ومن المالق إلىٰ قرا خوجا إلىٰ قمجوهى إلىٰ خان بالق أربعين يوما . ثم قال : ومن خان بالق إلىٰ الخَنْسَاءِ طريقان : طريق في البر، وطريق في البحر،

(١) كذا في الأصل ، وسبق له مثله مرارا عن "المسالك" ولكن الذى ضبطه فيما تقدّم عن "التقويم" خان بالق بالخاء المعجمة والنون .

وفى كل من الطريقين من خان بالق إلىٰ الخنساء أربعون يوما . وذكر فى الكلام علىٰ مملكة بيت بركة عن حسن الإربلى أن المسافر إذا سافر من جولمان علىٰ شرقيِّها وصل إلىٰ مدينة قراقوم .

الجملـــة الرابعـــة
(فى ذكر ملوكها)

قد ذكر المسعودىّ فى "مروج الذهب" عدّة ملوك من ملوك الصِّين قبل الإسلام وبعده، أسماؤهم أعجمية لاحاجة بذكرها، والمقصود معرفة حالها فى أيام بنى جنكزخان القائمين بها إلىٰ الآن .

قد تقدّم فى الفصل الأوّل من هذا الباب الكلام علىٰ مبتدإ أمر جنكزخان وكيفية مصير الملك إليه فأغنىٰ عن إعادته هنا .

ثم لما ملك جنكزخان أوصىٰ بتخته المستولى فيه علىٰ هذا القسم من المملكة لولده الصغير أوكداى، ومات جنكزخان فٱستقرّ ولده أوكداى، [ثم ٱستقرّ] فى هذه المملكة مكانه ٱبنه كيوك ثم مات .

فملك بعده (منكوقان) بن طولى بن جنكزخان، ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة .

فملك بعده (أرى بكا)[1]، ثم قبلى خان، ثم دمرياق، ثم قرماى، ثم ترقاى كيزى، ثم قيان قان، ثم سند مرقان[2] بن طولى بن جنكزخان، وهو الذى كان فى الأيام الناصرية محمد ٱبن قلاوون صاحب الديار المصرية، ثم ٱنقطع خبرهم فلم يُعلَم مَنْ ملك منهم . وملوك هذه المملكة من بنى جنكزخان كُفَّارٌ يدينون بتعظيم الشمس، واقفون فى الأحكام مع ياسة جدّهم جنكزخان المقدّم ذكرها فى الفصل الأوّل . قال فى "مسالك الأبصار":

---

(١) وجدنا فى "العبر" ج ٥ ص ٥٣٠ ٱختلافا فى الأسماء فاتبعنا الأصل وأجملنا فى التنبيه .
(٢) فى العبر "سند مرقان بن طرمالا بن جنكمر بن قبلاى بن طولى" .

ذكر لى الفاضل نظام الدين بن الحكيم الطيارىّ الكاتب البوسعيدىّ أنهم على ماهم عليه من الجاهلية على السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكتهم ومن يرد إليها . قال الشريف السَّمَرْقَنْدِىّ : ومن عجائب ما رأيتُ فى مملكة هـذا القانِ أنه مع كُفْره فى رعاياه من المسلمين أمَمٌ كثيرة وهم عنده مكرمون محترمون ، ومتى قتل أحدٌ من الكفار مسلما ، قُتِلَ القاتلُ الكافر هو وأهلُ بيته ونُهِبتْ أموالهُم ، وإن قَتَل مسلمٌ كافرا لايُقْتل به ، بل يُطْلب بدِيَتِه ، ودِيَةُ الكافر عندهم حمار لايطلب بغيره .

الجمـــلة الخامسة

(فى عسكره)

قال بدر الدين حسن الإسْعِرْدِىّ التاجر : وهـذا القان ذو عسكر مديد . قال : والذى أعلم من حاله أن له آثنى عشر ألف بازدار يركبون الخيل ، وعساكره من المغل عشرون تومانا ، وهى مائتا ألف فارس ، أما من الخِطَا فما لا يحصى .

الجمـــلة السادســـة

(فى ترتيب هذه المملكة)

قال الشريف تاج الدين السَّمَرْقَنْدِىّ : وترتيب هذه المملكة أن لهـذا القان أميرين كبيرين هما الوزراء ، يسمّى كل من يكون فى هذه الرتبة جنكصان ، ودونهما أميران آخران يسمّى كل منهما بنجار ، ودونهما أميران آخران يسمّى كل منهـما زوجين ، ودونهـما أميران آخران يسمّى كل منهـما بوجين . قال : وله كاتب هو رأس كُتَّابه يسمّى لنجون ، وهو بمنزلة كاتب السر فى بلادنا ؛ والقان يجلس فى كل يوم فى صدر دار فسيحة تسمّى شن ، بمثابة دار العدل عندنا ، ويقف الأمراء المذكورون حوله عن اليمين وعن الشمال على مقادير رُتَبهم ، ورأس الكُتَّاب المسمّى لنجون ، فإذا

شكا أحدٌ شكوىٰ أو سأل حاجة ، أعطىٰ قصته رأس الكُتَّاب المذكور فيقف عليها ، ثم يوصلها إلىٰ أحد الأميرين اللذين يليانه وهما أصغر الكل فيقف عليها هو ومن معه ، ثم يوصلانها إلىٰ من يليهما فى الرتبة ، وهكذا إلىٰ أن تصير إلىٰ القان ، فيأمر فيها بما يراه . وذكر عن الشريف أبى الحسن الكربلاى وكان ممن ٱجتمع بالقان فى هذه البلاد أن لهذا القان أربعة وزراء يُصْدرون الأمر فى مملكته كلها ، ولا يُراجَع القان إلا فى القليل النادر . قال : وإذا أراد القانُ أن يركب ركب فى مِحَفَّة ولا يظهر للناس إلا فى يوم واحد ، وهو مثل يوم مولده فى كل سنة ، فإنه يركب فرسا ويخرج إلىٰ الصحراء ويعمل بها من الأطعمة والسِّماطات ما يغمرُ الناس ، ويكون مثل يوم العيد عندهم .

تم الجزء الرابع . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الخامس .

وأوّله المقصد الثانى

فى ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وآله وصحبه والتابعين وسلامه .

وحسبنا الله ونعم الوكيل

فهـــــرست

الجـــزء الرابع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

الحالة الثالثة — من أحوال المملكة ما عليه ترتيب المملكة من ٱبتداء الدولة الأيوبية و إلى زماننا ٥

ويتعلق القول من ذلك بعشرة مقاصد... ... ... ٦

المقصد الأوّل — فى ذكر رسوم الملك وآلاته، وهو أنواع كثيرة الخ ... ٦

المقصد الثانى — فى حواصل السلطان... ... ... ٩

المقصد الثالث — فى ذكر أعيان المملكة وأرباب المناصب، الذين بهم ٱنتظام المملكة وقيام الملك، وهم على أربعة أضرب ١٤

الضرب الاوّل — أرباب السيوف، والنظر فيهم من وجهين ١٤

الوجه الأوّل — مراتبهم على سبيل الاجمال، وهى على نوعين ١٤

النوع الأوّل — الأمراء، وهم على أربع طبقات ١٤

النوع الثانى — الأجناد، وهم على طبقتين ١٥

الوجه الثانى — فى ذكر أرباب الوظائف من أرباب السيوف المتقدّم ذكرهم، وهم على نوعين... ... ... ١٦

النوع الأوّل — من هو بحضرة السلطان ١٦

النوع الثانى — ما هو خارج عن الحضرة السلطانية، وهم على ثلاث طبقات ٢٤

الطبقة الأولى — نوّاب السلطنة ٢٤

الطبقة الثانية — الكشاف... ... ... ٢٥

الطبقة الثالثة — الولاة بالوجهين : القبلى، والبحرى... ... ... ٢٦

الضرب الثانى — من أعيان المملكة وأرباب المناصب حملة الأقلام، وهم على نوعين ٢٨

صفحة

النوع الأوّل ــ أرباب الوظائف الديوانية ٢٨

النوع الثانى ــ أرباب الوظائف الدينية؛ وهم صنفان ٣٤

الصنف الاول ــ من له مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف ٣٤

الصنف الثانى ــ من لا مجلس له بالحضرة السلطانية ٣٧

المقصـــد الرابع ــ فى زىّ أعيان المملكة؛ وهم أربع طوائف... ... ... ٣٩

الطائفة الأولىٰ ــ أرباب السيوف... ... ... ٣٩

الطائفة الثانيـــة ــ أرباب الوظائف الدينية: من القضاة وسائر العلماء... ٤١

الطائفـة الثـالثة ــ مشايخ الصوفية ٤٣

الطائفة الرابعـة ــ أرباب الوظائف الديوانية ٤٣

المقصد الخامس ــ فى هيئة السـلطان فى ترتيب الملك؛ وله ثلاث (سبع) هيئات ٤٤

الهيئـــة الأولىٰ ــ هيئته فى جلوسه بدار العدل، لخلاص المظالم... ... ٤٤

الهيئة الثانيـــة ــ هيئته فى بقية الأيام... ... ... ٤٥

الهيئـة الثالثـة ــ هيئته فى صلاة الجمعة والعيدين ٤٦

الهيئة الرابعـــة ــ هيئته للعب الكرة، بالميدان الأكبر ٤٧

الهيئة الخامســة ــ هيئته فى الركوب لكسر الخليج، عند وفاء النيل ... ٤٧

الهيئة السادسـة ــ هيئته فى أسفاره... ... ... ٤٨

الهيئة السابعـــة ــ فى النوم ٤٩

المقصد السادس ــ فى عادته فى إجراء الأرزاق؛ وهو علىٰ ضربين... ... ٥٠

الضرب الأوّل ــ الجارى المستمر، وهو علىٰ نوعين... ... ... ٥٠

النوع الأوّل ــ الإقطاعات ٥٠

صفحة

النوع الثانى — رزق أرباب الأقلام ٥١

الضرب الثانى — الإنعام وما يجرى مجراه، مما يقع فى وقت دون وقت، وهو علىٰ خمسة أنواع ٥٢

النوع الأوّل — الخِلَع والتشاريف ٥٢

النوع الثانى — الخيول ٥٤

النوع الثالث — الكسوة والحوائص... ... ... ٥٥

النوع الرابع — الإنعام والأوقاف ٥٥

النوع الخامس — المأكول والمشروب ٥٦

المقصد السابع — فى آختصاص صاحب هذه المملكة بأماكن داخلة فى نطاق مملكته يمتاز بها علىٰ ملوك الأرض من المسلمين، وغيرهم ٥٧

المقصد الثامن — فى انتهاء الأخبار اليه؛ وهو علىٰ ثلاثة أنواع ٥٨

النوع الأوّل — أخبار الملوك الواردة عليه مكاتبات منهم ٥٨

النوع الثانى — الأخبار التى ترد عليه من جهة نوابه... ... ... ٥٩

النوع الثالث — أخبار حاضرته ٦٠

المقصد التاسع — فى هيئة الأمراء بالديار المصرية وترتيب إمرتهم ٦٠

المقصد العاشر — فى ولاة الأمور من أرباب السيوف بأعمال الديار المصرية؛ وهم علىٰ أربع طبقات ٦٣

الطبقة الأولى — النوّاب ٦٣

الطبقة الثانية — الكشاف ٦٥

الطبقة الثالثة — الولاة بالوجهين: القبلى والبحرى ٦٦

الطبقة الرابعة — أمراء العربان بنواحى الديار المصرية ٦٧

صفحة

الفصل الثانى — من المقالة الثانية فى المملكة الشامية، وما يتصل بها من بلاد الأرمن والروم و بلاد الجزيرة بين الفرات والدجلة ممـا هو مضاف الى هذه المملكة؛ وفيه أربعة أطراف... ... ... ٧٢

الطرف الأوّل — فى فضل الشام وخواصه وعجائبه ، وفيه مقصدان ٧٢

المقصد الأوّل — فى فضل الشام... ... ... ٧٢

المقصد الثانى — فى خواصه وعجائبه ٧٣

الطرف الثانى — فى حدوده، وابتداء عمارته، وتسميته شاما ؛ وفيه مقصدان ٧٥

المقصـــد الأوّل — فى حدوده... ... ... ٧٥

المقصـــد الثانى — فى ابتداء عمارته ، وتسميته شاما ، وما يلتحق بذلك ٧٨

الطرف الثـالث — فى أنهاره ، وبحـــيراته ، وجباله المشهورة ، وزروعه ، وفواكهه ، ورياحينه ، ومواشيه ، ووحوشه ، وطيوره ؛ وفيه ستة مقاصد... ... ... ٧٩

المقصـــد الأوّل — فى ذكر الأنهار العظام بالشام... ... ... ٧٩

المقصـــد الثانى — فى ذكر بحيراته ٨٣

المقصـــد الثالث — فى ذكر جباله المشهورة ٨٥

المقصـــد الرابع — فى ذكر زروعه وفواكهه ورياحينه ٨٦

المقصـــد الخامس — فى ذكر مواشيه ووحوشه وطيوره ٨٨

المقصـــد السادس — فى ذكر النفيس من مطعوماته ٨٨

الطرف الرابـــع — فى ذكر جهاته وكوره القديمة وقواعده المستقرّة وأعمالها ؛ وفيه مقصدان ٨٨

صفحة

المقصد الأول — فى ذكر جهاته وكوره القديمة ٨٨
المقصد الثانى — فى ذكر قواعده المستقرة وأعمالها ؛ وهى ست قواعد ٩١
القاعدة الأولى — دمشق ؛ وفيها جملتان ٩١
الجملة الأولى — فى حاضرتها ٩١
الجملة الثانية — فى نواحيها وأعمالها وتشتمل على بروأربع صفقات ٩٧
الصفقة الاولى — الساحلية والجبلية؛ولها جهتان... ... ... ٩٨
الجهة الأولى — الساحلية؛ وهى التى بساحل بحر الروم ٩٨
الجهة الثانية — الجبلية ١٠٠
الصفقة الثانية — القبلية ١٠٣
الصفقة الثالثة — الشمالية ١٠٨
الصفقة الرابعة — الشرقية؛ وهى على ضربين... ... ... ١١٢
الضرب الأول — ما هو داخل فى حدود الشام ١١٢
الضرب الثانى — ماهو من بلاد الجزيرة ١١٥
القاعدة الثانية — حلب ؛ وفيها جملتان ١١٦
الجملة الأولى — فى حاضرتها... ... ... ١١٦
الجملة الثانية — فى نواحيها وأعمالها؛ وهى على ثلاثة أقسام... ... ... ١١٨
القسم الأول — ماهو داخل فى حدود بلاد الممالك الشامية ١١٩
القسم الثانى — البلاد المتصلة بذيل البلاد المتقدّم ذكرها من الشمال؛
وهى المعروفة ببلاد الأرمن ؛ وهو على ضربين ١٣٠
الضرب الأول — الأعمال الكبار؛ وهى ساحلية وجبلية ... ١٣١
الضرب الثانى — الأعمال الصغار ١٣٥

صفحة

القسم الثالث ــ البلاد المجاورة للفرات من شرقيه ١٣٧
القاعدة الثالثـــة ــ من قواعد المملكة الشاميـــة حماة؛ وفيها جملتان ... ١٣٩
الجملة الأولى ــ فى حاضرتها... ... ... ١٣٩
الجملة الثانية ــ فى نواحيها وأعمالهـا... ... ... ١٤١
القاعدة الرابعـــة ــ من قواعد المملكة الشامية أطرابلس؛ وفيها جملتان... ١٤٢
الجملة الأولى ــ فى حاضرتها... ... ... ١٤٢
الجملة الثانية ــ فى نواحيها وأعمالها؛ وهى على قسمين... ... ... ١٤٤
القسم الاول ــ الأعمال الكبار؛ وهى على ضربين... ... ... ١٤٤
الضرب الأول ــ مضافاتها نفسها ١٤٤
الضرب الثانى ــ قلاع الدعوة ١٤٦
القسم الثانى ــ الأعمال الصغار ١٤٧
القاعدة الخامسة ــ من قواعد المملكة الشامية صفد؛ وفيها جملتان ... ١٤٩
الجملة الأولى ــ فى حاضرتها... ... ... ١٤٩
الجملة الثانية ــ فى نواحيها وأعمالها ١٥٠
القاعدة السادسة ــ من قواعد المملكة الشامية الكرك؛ وفيها جملتان ... ١٥٥
الجملة الأولى ــ فى حاضرتها ١٥٥
الجملة الثانية ــ فى نواحيها وأعمالهـا ١٥٦
الطرف الثـانى ــ من الفصل الثانى من الباب الثالث من المقالة الثانية فيمن
ملك البلاد الشامية؛ وملوكها على قسمين ١٥٨
القسم الأول ــ ملوكها قبل الإسلام؛ وهم على أربع (خمس) طبقات ... ١٥٨
الطبقة الأولى ــ ملوكها من الكنعانيين... ... ... ١٥٨

صفحة

الطبقة الثانية — ملوكها من بنى إسرائيل ١٥٩

الطبقة الثالثة — ملوكها من الفرس ١٦١

الطبقة الرابعة — ملوكها من اليونان ١٦١

الطبقة الخامسة — ملوكها من الروم ١٦١

القسم الثانى — من ملوك الشام ملوكه فى الإسلام، وهم علىٰ ضربين... ... ١٦٢

الضرب الأول — عمال الصحابة فمن بعدهم من نواب الخلفاء الى حين استيلاء الملوك عليها ١٦٢

الضرب الثانى — من وليها ملكا ١٦٣

الطرف الثالث — من الفصل الثانى من الباب الثالث من المقالة الثانية فى ذكر أحوال المملكة الشامية، وفيه مقصدان... ... ... ١٨٠

المقصد الأول — فى ترتيب نياباتها ١٨٠

النيابة الأولىٰ — نيابة دمشق؛ وفيها جملتان (ثلاث جمل) ١٨٠

الجملة الأولىٰ — فى ذكر أحوالها ١٨٠

الجملة الثانية — فى ترتيب مملكتها؛ وهو ضربان ١٨٣

الضرب الأول — فى ترتيب حاضرتها ١٨٣

الضرب الثانى — فى بيان أرباب الوظائف بدمشق علىٰ تباين مراتبهم؛ والوظائف علىٰ خمسة أصناف ١٨٤

الصنف الأول — وظائف أرباب السيوف ١٨٤

الصنف الثانى — الوظائف الديوانية... ... ... ١٨٨

الصنف الثالث — الوظائف الدينية ١٩٢

الصنف الرابع — وظائف أرباب الصناعات ١٩٤

صفحة

الصنف الخامس — وظائف زعماء أهل الذمة بها... ... ... ١٩٤

الجملة الثالثة — فى ترتيب النيابة بها ١٩٤

المقصـــد الثـانى — فى ترتيب ما هو خارج عن حاضرة دمشـق ؛ وهو على ضربين ١٩٧

الضرب الأول — ماهو خارج عن حاضرتها من النيابات والولايات ... ١٩٧

الضرب الثـانى — من الخـارج عن حاضرة دمشق العربان، والإمرة بها فى بطون من العرب ٢٠٣

البطن الأولى — آل ربيعة من طيء من كهلان من القحطانية ... ٢٠٣

البطن الثانيـة — جرم ٢١١

البطن الثالثـة — ثعلبة... ... ... ٢١٢

البطن الرابعـة — بنو مهدى ٢١٢

البطن الخامسة — زُبَيْـــد ٢١٣

النيابة الثـانية — من نيابات السلطنة بالممـالك الشامية نيابة حلب ؛ وفيها جملتان ٢١٥

الجملة الأولى — فى ذكر أحوالها فى المعاملات ونحوها... ... ... ٢١٥

الجملة الثانية — فى ترتيب مملكتها، وهى على ضربين... ... ... ٢١٦

الضرب الأول — فى ترتيب حاضرتهـا ؛ ووظائفها على أربعـــة (ثلاثة) أصناف ٢١٦

الصنف الأول — وظائف أرباب السـيوف ٢١٧

الصنف الثـانى — الوظائف الدينيـة ٢٢١

الصنف الثالث — وظائف أرباب الصناعات ٢٢٢

صفحة

الجملة الثانية — (الثالثة) فى ترتيب ما هو خارج عن حاضرة حلب ؛ وهو ثلاثة أنواع (نوعان) ٢٢٦

النوع الأول — ولاة الأمور من أرباب السيوف ؛ وهم ثلاثة أصناف ٢٢٦

الصنف الأول — النواب ؛ وهم على ضربين ٢٢٦

الضرب الأول — ما هو داخل فى حدود البلاد الشامية ... ٢٢٦

الضرب الثانى — النيابات الخارجة عن حدود البلاد الشامية ؛ وهى على قسمين... ... ... ٢٢٨

القسم الاول — بلاد الثغور والعواصم وما والاها ٢٢٨

القسم الثانى — ماهو فى حدود بلاد الجزيرة شرقى الفرات ٢٢٩

الصنف الثانى — من أرباب السيوف بخارج حلب الولاة ... ٢٣٠

النوع الثانى — مما هو خارج عن حاضرة حلب العربان... ... ٢٣١

النيابة الثالثة — نيابة أطرابلس، وفيها جملتان... ... ... ٢٣٣

الجملة الأولى — فى ذكر أحوالها ومعاملاتها ٢٣٣

الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها ؛ وهو على ضربين ٢٣٥

الضرب الأول — النواب ؛ وهم على قسمين ٢٣٥

القسم الأول — النيابات بمضافات نفس أطرابلس ٢٣٥

القسم الثانى — نيابات قلاع الدعوة... ... ... ٢٣٥

الضرب الثانى — الولاة ٢٣٦

النيابة الرابعة — نيابة حماه ؛ وفيها جملتان ٢٣٦

الجملة الأولى — فى ذكر أحوالها ومعاملاتها... ... ... ٢٣٦

الجملة الثانية — فى ترتيب نيابتها ؛ وهى على ضربين ٢٣٧

صفحة
الضرب الأول — ما بحاضرتها ٢٣٧
الضرب الثانى — ما هو خارج عن حاضرتها ٢٣٩
النيابة الخامسة — نيابة صفد، وفيها جملتان ٢٤٠
الجملة الأولى — فيما هو بحاضرتها ٢٤٠
الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها ٢٤٠
النيابة السادسة — نيابة الكرك، وفيها جملتان ٢٤١
الجملة الأولى — فيما هو بحاضرتها... ... ... ٢٤١
الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها، وهو على ضربين... ... ... ٢٤٢
الضرب الأول — الولايات ٢٤٢
الضرب الثانى — العرب ٢٤٢
الفصـــل الثالث — من الباب الثالث من المقالة الثانية فى المملكة الحجازية؛
وفيه سبعة أطراف ٢٤٣
الطـرف الأول — فى فضل الحجاز وخواصه وعجائبه ٢٤٣
الطرف الثـانى — فى ذكر حدوده، وآبتداء عمارته، وتسميته حجازا ... ٢٤٤
الطرف الثالث — فى آبتداء عمارته وتسميته حجازا ٢٤٥
الطرف الرابـع — فى ذكر مياهه وعيونه وجباله المشهورة... ... ... ٢٤٦
الطرف الخامس — فى زروعه وفواكهه ورياحينه ومواشيه ووحوشه وطيوره ٢٤٧
الطرف السادس — فى قواعده وأعماله؛ وفيه ثلاث قواعد... ... ... ٢٤٨
القاعدة الأولى — مكة المشرفة، وفيها جملتان ٢٤٨
الجملة الأولى — فى حاضرتهـا ٢٤٨
الجملة الثانية — فى نواحيها وأعمالها، وهى على ضربين... ... ... ٢٥٥

صفحة

الضرب الأوّل — الحرم ومشاعر الحج الخارجة عن مكة ٢٥٥

الضرب الثانى — قراها ومخاليفها ٢٥٧

الطرف السابع — فى ذكر ملوك مكة؛ وهم على ضربين ٢٦١

الضرب الأوّل — ملوكها قبل الإسلام ٢٦١

الضرب الثانى — ملوكها فى الإسلام؛ وهم على طبقات ٢٦٥

الطبقة الثالثة — (هكذا) عمال النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين ٢٦٥

الطبقة الرابعة — عمال بنى أمية ٢٦٥

الطبقة الخامسة — عمال بنى العباس ٢٦٦

الطبقة السادسة — السليمانيون من بنى الحسن ٢٦٧

الطبقة السابعة — الهواشم ٢٧٠

الطبقة الثامنة — بنو قتادة ٢٧٥

الطرف السابع — (الثامن) فى ترتيب مكة المشرفة؛ وفيه جملتان ٢٧٥

الجملة الاولى — فيما هو بحاضرتها ٢٧٥

الجملة الثانية — فيما هو خارج عن حاضرتها ٢٨٤

القاعدة الثانية — المدينة الشريفة النبوية؛ وفيها ثلاث جمل (أربع)... ٢٨٥

الجملة الأولى — فى حاضرتها ٢٨٥

الجملة الثانية — فى نواحيها وأعمالها؛ وهى على ضربين ٢٨٩

الضرب الأوّل — حماها ومرافقها ٢٨٩

الضرب الثانى — فى مخاليفها وقراها ٢٩٠

الجملة الثالثة — فى ذكر ملوك المدينة وأمرائها؛ وهم على ضربين ... ٢٩٣

صفحة

الضرب الأول ـــ من قبل الإسلام، وهم ثلاث طبقات ٢٩٣

الطبقة الأولى ـــ التبابعة ٢٩٣

الطبقة الثانية ـــ العمالقة من ملوك الشام ٢٩٣

الطبقة الثالثة ـــ ملوكها من بنى اسرائيل، ومن انضم اليهم من الأوس والخزرج... ... ... ٢٩٤

الضرب الثانى ـــ من فى زمن الإسلام؛ وهم أربع طبقات... ... ٢٩٥

الطبقة الأولى ـــ من كان بها فى صدر الإسلام ٢٩٥

الطبقة الثانية ـــ عمـال الخلفاء من بنى أمية ٢٩٥

الطبقة الثالثة ـــ عمالها فى زمن خلفاء بنى العباس ٢٩٧

الطبقة الرابعة ـــ أمراء الأشراف من بنى حسين ٢٩٨

الجملة الثالثة ـــ (الرابعة) فى ترتيب المدينة المنوّرة ٣٠٢

الباب الرابع ـــ من المقالة الثانية فى المـالك والبلدان المحيطة بمملكة الديار المصرية؛ وفيه أربعة فصول ٣٠٥

الفصل الأوّل ـــ فى الممالك والبلدان الشرقية عنها، وما ينخرط فى سلكها من شمـال أو جنوب؛ وفيه أربعة مقاصد ٣٠٥

المقصد الأوّل ـــ فى المـالك الصائرة إلى بيت جنكزخان؛ وفيه جملتان ٣٠٥

الجملة الأولى ـــ فى التعريف باسم جنكزخان ومصير الملك اليه ٣٠٥

الجملة الثانية ـــ فى عقيدة جنكزخان وأتباعه فى الديانة إلى أن أسلم من أسلم منهم ٣١٠

المهيع الثـانى ـــ (لعله المقصد الثانى) فى ذكر ممـالك بنى جنكزخان على التفصيل؛ وهى مملكتان ٣١٣

صفحة

المملكة الأولى — مملكة ايران ولها، جانبان : جنوبى وشمالى ٣١٣

الجانب الأول — الجنوبى، ويشتمل على ستة أقاليم ٣١٤

الإقليم الأول — الجزيرة الفراتية... ... ... ٣١٤

الإقليم الثانى — العراق، وله قواعد ومدن ٣٢٧

القاعدة الأولى — بابل ٣٢٨

القاعدة الثانية — المدائن ٣٢٩

القاعدة الثالثة — بغداد ٣٣٠

القاعدة الرابعة — سرّ من رأى ٣٣٢

الإقليم الثالث — خوزستان والأهواز ٣٣٨

الإقليم الرابع — فارس... ... ... ٣٤٣

الإقليم الخامس — كرمان... ... ... ٣٤٨

الإقليم السادس — سجستان والرخج ٣٥٠

الجانب الثانى — من مملكة ايران — الشمالى، ويشتمل على عدّة أقاليم ٣٥٢

الإقليم الأول — أرمينية ٣٥٣

الإقليم الثانى — أذربيجان، وبها ثلاث قواعد ٣٥٦

القاعدة الأولى — أردبيل ٣٥٦

القاعدة الثانية — تبريز... ... ... ٣٥٧

القاعدة الثالثة — السلطانية ، وآسمها قنغرلان ٣٥٨

الإقليم الثالث — أرّان، ولها قاعدتان... ... ... ٣٦٠

القاعدة الأولى — بردعة... ... ... ٣٦١

صفحة

القاعدة الثانيـــة ــ تفليس ٣٦١

الإقليم الرابع ــ بلاد الجبل ٣٦٥

الإقليم الخامس ــ بلاد الديلم ٣٧٩

الإقليم السادس ــ الجيل ؛ وفيه قواعد ٣٨٠

القاعدة الأولىٰ ــ يومن ٣٨٢

القاعدة الثانيـــة ــ تؤلم ٣٨٢

القاعدة الثالثـــة ــ كسكر ٣٨٣

الإقلـــيم السابع ــ طبرستان ٣٨٤

الإقلـــيم الثامن ــ مازندران ٣٨٦

الإقليم التاســـع ــ قومس... ... ... ٣٨٨

الإقليم العاشـــر ــ خراسان ٣٨٩

الإقليم الحادى عشر ــ زابلستان ٣٩٦

الإقليم الثانى عشر ــ الغور ٣٩٨

الجملة الثالثـــة ــ فى الأنهار المشهورة ٣٩٩

الجملة الرابعـــة ــ فى الطرق الموصلة إلىٰ قواعد هذه المملكة... ... ٤٠٢

الجملة الخامسة ــ فى بعض مسافات بين بلاد هذه المملكة ٤٠٥

الجملة السادسة ــ فيما بهـــذه المملكة من النفائس العلية القدر،
والعجائب الغريبـــة الذكر، والمتنزهات المرتفعة
الصيت ٤٠٨

الجملة السابعـــة ــ فى ذكر من ملك مملكة إيران جاهلية و إسلاما ؛
وهم علىٰ ضربين ٤١١

صفحة
الضرب الأول — ملوكها قبل الإسلام، وهم على أربع طبقات ٤١١
الطبقة الأولى — القيشداذية ٤١١
الطبقة الثانية — الكيانية ٤١٢
الطبقة الثالثة — الاشغانية ٤١٣
الطبقة الرابعة — الأكاسرة ٤١٤
الضرب الثانى — ملوكها بعد الإسلام،وهم على ثلاث طبقات ٤١٦
الطبقة الأولى — عمال الخلفاء... ... ... ٤١٦
الطبقة الثانية — خلفاء بنى العباس... ... ... ٤١٧
الطبقة الثالثة — ملوكها من بنى جنكزخان ٤١٩
الجملة الثامنة — فى معاملاتها وأسعارها ٤٢٢
الجملة التاسعة — فى ترتيب هذه المملكة،على ما كانت عليه، فى زمن بنى هولاكو ٤٢٣
الجملة العاشرة — فيما لأرباب المناصب والجند، من الرزق على السلطان... ... ... ٤٢٥
الجملة الحادية عشرة — فى ترتيب أمور السلطان، بهذه المملكة... ... ٤٢٦
الجملة الثانية عشرة — فيما يتعلق بترتيب ديوان الإنشاء بهذه المملكة ٤٢٨
المملكة الثانية — مما بيد بنى جنكزخان، مملكة توران، وفيها سبع جمل ٤٢٩
الجملة الأولى — فى ذكر حدودها وطولها، وعرضها وموقعها من الأقاليم السبعة ٤٣٠
الجملة الثانية — فيما يدخل فى هذه المملكة من الأقاليم العرفية ؛ وهى سبعة... ... ... ٤٣١

صفحة

الإقليم الأوّل ــ ماوراء النهر ٤٣١

الإقليم الثانى ــ تركستان ٤٣٩

الإقليم الثالث ــ طخارستان ٤٤٢

الإقليم الرابع ــ بذخشان ٤٤٣

الجملة الثالثة ــ فى الطرق الموصلة اليها ، و بعض المسافات

الواقعة بين بلادها ٤٤٤

الجملة الرابعة ــ فى عظام الأنهار الواقعة فى هذا القسم من مملكة

توران ٤٤٤

الجملة الخامسة ــ فى معاملاتها وأسعارها ٤٤٥

الجملة السادسة ــ فى مَنْ ملك هذا القسم من مملكة توران، وملوكها

فى الإسلام على طبقتين ٤٤٥

الطبقة الأولىٰ ــ ما هو عقيب الفتح ٤٤٦

الطبقة الثانية ــ ملوكها من بنى جنكزخان... ... ... ٤٤٩

الجملة السابعة ــ فى ترتيب هذه المملكة، وحال عساكرها ٤٥٠

القســم الثانى ــ من مملكة توران خوارزم والقبجاق، وفيه ثمان جمل... ٤٥١

الجملة الأولىٰ ــ فى ذكر حدود هذه المملكة ومسافتها ٤٥٢

الجملة الثانية ــ فيما آشتملت عليه من الأقاليم ٤٥٣

الجملة الثالثة ــ فى ذكر الأنهار العظام والبحيرات الواقعة فى هذه المملكة ٤٦٧

الجملة الرابعة ــ فى الطرق الموصلة الى هذه المملكة ٤٦٩

الجملة الخامسة ــ فى الموجود بها ٤٧٠

الجملة السادسة ــ فى المعاملات والأسعار بها... ... ... ٤٧٠

صفحة

الجملة السابعة — فى ذكر ملوك هذه المملكة... ... ... ٤٧١

الجملة الثامنة — فى مقدار عسكر هذه المملكة ٤٧٥

القسم الثالث — من مملكة توران مملكة القان الكبير، وفيها خمس (ست) جمل ٤٧٧

الجملة الأولى — فيما اشتملت عليه هذه المملكة من الأقاليم ٤٧٨

الإقليم الأوّل — الصين... ... ... ٤٧٩

الإقليم الثانى — بلاد الخطا ٤٨٣

الجملة الثانية — فى معاملة هذه المملكة وأسعارها ٤٨٤

الجملة الثالثة — فى الطريق الموصل إلى هذه المملكة ٤٨٤

الجملة الرابعة — فى ذكر ملوكها ٤٨٥

الجملة الخامسة — فى عسكره ٤٨٦

الجملة السادسة — فى ترتيب هذه المملكة... ... ... ٤٨٦

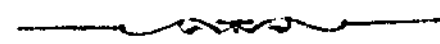

(تم فهرست الجزء الرابع من كتاب صبح الأعشى)

ويليه الجزء الخامس

وأوّله المقصد الثانى

فى ممالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية

صبح الأعشى

الجـــزء الخامس

دار الكتب الخديوية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الخامس

طبـع
بالمطبعة الأمـيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصد الثاني

(في ممالك جزيرة العرب الخارجةِ عن مضافات الديار المصرية)

قد تقدم في الكلام على مملكة الديار المصرية ومُضَافاتها ذكْرُ جزيرة العرب، وأنه يحدّها: من جهة الغرب بحر القُلْزُم، ومن جهة الجَنُوب بحر الهند، ومن جهة الشرق بحر فارس، ومن جهة الشَّمال الفُراتُ. وأنها تحتوى الحجاز ونجدا وتهامة واليمن واليمامة والبحرين، وقطعةً من بادية الشام، وقطعةً من بادية العراق.

وتقدّم هناك الكلامُ على ما هو مضاف إلى مملكة الديار المصرية منها. منها مكة، والمدينة، على الحالِّ بها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، واليَنْبُع، وما هو من بادية الشام كتَدْمُر ونحوها.

والمقصود هنا الكلام على باقى أقطارها، التى لم تدخل فى مضافات الديار المصرية.

ويتوجه القصد منها إلى ثلاثة أقطار :

القُطْـــــــــر الأوّل

(اليَمَـــن)

قال فى "اللباب": بفتح المثناة التحتية والميم وفى آخرها نون . قال : وينسب إليــه يَمَنِىٌّ ويمــانِىٌّ . وهو قطعة من جزيرة العرب : يَحُدّها من الغرب بحر القُلْزُم، ومن الجنوب بحر الهنــد ، ومن الشَّمال بحر فارس، ومن الشرق حدود مكةَ حيث الموضعُ المعروفُ بطَلْحة المَلِك، وما علىٰ سَمْت ذلك إلىٰ بحر فارس .

وقد وردت السنَّة بتفضيله بقوله صلّى الله عليه وسلم: "الإيمــانُ يمــانٍ" .

وٱختُلِف فى سبب تسميته باليمن فقيل : سمى بيَمَنِ بن قحطان . وقيل: إن قحطان نَفْسَه كان يسمَّى بيَمَن . وقيل : سمى بيَمَنِ بن قَيْدار . وقيل : سمى بذلك لأنه عن يمين الكعبة . قال "ٱبن الكلبى" : سميت بذلك لتيامُنِهم إليها . قال "ٱبن عباس" ٱستبَ الناس وهم العرب فتيامَنُوا إلىٰ اليمن فسميت بذلك (١) . وقيل: تيامنَتْ بنو يَقْطُن إليهــا فسمِّيت بذلك . وقيل: لمــا كَثُر الناس بمكة وتفرّقوا عنها، التأمت بَنُو يَمَن إلىٰ ايمن وهو أيْمَنُ الأرض .

وهو إقليم متسع له ذِكْرٌ فى القديم، وبه كان قومُ سبإٍ المنصوصُ خبرُهم فى سورة "سبإ" وبِلْقِيسُ المذكورُ عرشُها فى سورة "النمل" .

وقد ذكر "البكرى" أن عَرْضه ستَّ عشرةَ مرحلة، وطولَهُ عشرون مرحلة .

قال فى "مسالك الأبصار" : وله ذكر قديم . قال : وهو كثير الأمطار، ولكن لاتَنْشأ منه السُّحُب، ويمطُر المطرُ فى الغالب من وقت الزوال إلىٰ أُخْرَيَات النهار .

(١) عبارة "ياقوت" عن ٱبن عباس تفرقت العرب فمن تيامن منهم سميت اليمن .

قال الحكيم "صلاح الدين محمد بن البرهان": وأكثر مطره فى أُخْرَيات الربيع إلى وَسَط الصيف . وهو إلى الحرّ أميلُ ، وبه الأنهارُ الجاريةُ ، والمُرُوج الفِيحُ ، والأشجار المتكاثفة فى بعض أماكنه ، وله ٱرتفاعٌ صالح من الأموال ، وغالب أمواله مُوجَبات التُّجَّار الواصلين من الهند ومصر والحبشة ، مع مالها من دَخْل البلاد .

وذكر عن الحكيم صلاح الدين المذكور ، أن لأهل اليمن سِياداتٍ بينهم محفوظه ، وسعاداتٍ عندهم ملحوظه ، ولأكابرها حَظٌّ من رَفَاهِيَة العيش والتنعم والتفنن فى المآكل : يُطْبَخ فى بيت الرجل منهم عِدّةُ ألوان ، ويُعْمَلُ فيها السُّكَّرُ والقلوب ، وتُطيَّب أوانيها بالعِطر والبَخُور ، ويكون لأحدهم الحاشيةُ والغاشيةُ ، وفى بيته العَدَد الصالحُ من الإماء ، وعلى بابه جملةٌ من الخَدَم والعبيد والخِصْيان من الهند والحُبُوش ، ولهم الدّيارات الجليلةُ ، والمبانى الأَنِيقة ، إلا الرُّخام ودِهانَ الذهب واللازوَرْد ، فإنه من خواصِّ السلطان ، لايشاركه فيه غيره من الرَّعايا . وإنما تُفرَش دُورُ أعيانهم بالخافِقىّ ونحوه ، على أن ٱبن البرهان قد غَضَّ من اليمن فى أثناء كلامه فقال : وٱسم اليمنِ أكبرُ منه ، لا تُعَدّ فى بلاد الخِصْب بلادُه .

وذكر فى "مسالك الأبصار" أنه ليس باليمن أسواق مرضية دائمة ، إنما يُقَام لها سوق يوم الجمعة : تُجْلَبُ فيه الأجلابُ ، ويُخْرِج أربابُ الصنائع والبضائع بضائعهم وصنائعَهم : فيبيع من يبيع ، ويشترى من يشترى ، من أَعْوزه شىء فى وسط الجمعة لايكاد يجده إلا المآكل .

ثم اليمن على قسمين :

القســـم الأوّل

(التّهـائم)

وهى المنخفض من بلاده . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى باردة الهواء طيّبة المَسْكَن . وفيه أربعُ جُمَلٍ :

الجمـــلة الأولىٰ

(فى ذكر ما آشتمل عليه من القواعد والمُدُن)

قال فى "مسالك الأبصار" : وهو يشتمل علىٰ عِدّة بلاد، وقلاع، وحصون حصينة، ولكن يفصِل البَرُّ ما بين بعضها عن بعض . وبه قاعدتان :

القـاعدة الأولىٰ

(تعـــز)

وهى مَصِيفُ صاحب اليمن . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر(١) المثناة من فوقُ والعينِ المهملةِ وزاى معجمة فى الآخر . وموقعُها فى الإقليم الأوّلِ من الأقاليم السبعة . قال : والقياس حيثُ الطولُ خمس وستون درجةً وثلاثون دقيقةً، والعَرْض ثلاثَ عشرةَ درجة وأربعون دقيقـة . قال : وهى فى زماننا هـذا مَقَرُّ ملوك اليمن (يعنى من أولاد رسول الآتى ذكْرُهم فى الكلام علىٰ ملوكه) .

ثم قال : وهى حِصْن فى الجبال، مُطِلٌّ علىٰ التهائم وأراضى زَبِيدَ، وفوقها منتزه يقـال له مهلة، قد ساق له صاحبُ اليمن الميـاهَ من الجبال التى فوقها، وبنىٰ فيها أبنيةً عظيمة فى غاية الحسن فى وسط بستانٍ هناك .

(١) ضبطها ياقوت فى معجم البلدان بفتح التاء وكسر العين وقال المجد كتَقِلّ .

قال فى "الروض المِعْطار" : ولم تزل حصنا للملوك . قال : وهو بلد كثير الماء، بارد الهواء، كثير الفاكهة . قال : ولسلطانهم بستانٌ يعرف بالينَعات، فيه قُبَّة ملوكية، ومَقْعَد سلطانىّ، فُرُشهما وأُزُرها من الرُّخام الملوّن؛ وبهما عَمَد قليلة المِثْل، يجرى فيهما الماء من نفثات تملأ العينَ حُسْنا، والأذن طَرَبا، بصفاء نميرها، وطِيب نَحريرها؛ وترمى شبابيكُهما على أشجار قد نُقلت إليه من كل مكان : تجمع بين فواكه الشام والهند؛ لا يقف ناظر على بستان أحسنَ منه جمعا، ولا أجمع منه حُسْنا، ولا أتمّ صورة ولا معنى .

القاعدة الثانيـــة

(زَبِيـد)

وهى مَشْتَى صاحب اليمن من بنى رسول . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الزاى المعجمة وكسر الباء الموحدة وسكون المثناة من تحتُ ودال مهملة . وهى مدينة من تِهَائم اليمن . قال فى "العبر" : بناها محمد بن إبراهيم، بن عبيد الله، بن زياد، ابن أبيه فى خلافة المأمون . وموقعُها فى أوائل الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ أربعٌ وستون درجةً وعشرون دقيقة، والعرضُ أربعَ عشْرةَ درجة وعَشْرُ دقائقَ . قال فى "العبر" : وهى مدينة مسوّرة، وبها كان مُقامُ بنى زيادٍ ملوكِ اليمن، وهم الذين بنوْها، ثم غلب عليها بنو الصُّلَيْحى، ثم صارت قاعدةَ بنى رسول . وهى قَصَبة التهائِم؛ وهى مبنيَّة فى مستوٍ من الأرض، عن البحر على أقلَّ من يوم؛ وماؤها من الآبار؛ وبها نخيل كثيرة، وعليها سور، وفيها ثمانية أبواب .

قال البيرونى : وهى فُرْضة اليمن ، وبها مجتمع التُّجّار من الحجاز ومصر والحبشة ، ومنها تخرج بضائعُ الهند والصين . قال المهلّبى : ولها ساحل يعرف بغلافقة ، و بينهما خمسةَ عشرَ ميلا .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى شديدة الحرّ لا يبْرُد ماؤها ولا هواؤها ، وهى أوسعُ رُقْعة وأكثر بناء ، ولها نهر جارٍ بظاهرها ، ومساكن السلطان فيها فى نهاية العَظَمة من فَرْش الرخام والسُّقُوف .

و باليمن عدّة مُدُن سوى القواعد المتقدّمة الذكر .

منها (عَدَنُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح العين والدال المهملتين ونون فى الآخر . وهى من تهائم اليمن . قال : وهى خارجة إلى الجَنُوب عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ سبع وستون درجةً ، والعرضُ تسعَ عشْرَة درجةً . قال فى "الروض المِعْطار" : وأوّل من نزلها عَدَنُ آبن سبإٍ فعُرفت به . قال فى "تقويم البُلْدان" : و يقال لها عَدَنُ أَبْيَنَ - بفتح الهمزة وسكون الباء الموحدة وفتح المثناة التحتية ثم نون - وقال فى "المشترك" : عن سيبويه بكسر الهمزة ، وهو رجل من حِمْير أُضيفت إليه عَدَن . قال فى "العبر" : وهو أَبْيَنُ ابن زُهَيْر ، بن الغَوْث ، بن أَيْمَن ، بن الهَمَيْسَع ، بن حِمْير .

وذكر "الأزهرى" أن سبب تسميتها بذلك أن الحبشة [عبرت](١) فى سُفُنهم إليها ، وخرجوا منها فقالوا (عدونه) يريدون خرجنا ، فسميت عَدَن لذلك . وقيل مأخوذة من قولهم عَدَن بالمكان إذا أقام به . وهى على ساحل البحر ذاتُ حَطٍّ و إقلاع . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى أعظم المَرَاسى باليَمَن ، وتكاد تكون ثالثةَ تعِزَّ

(١) الزيادة عن "معجم البلدان" لياقوت .

وزَبِيدَ فى الذِّكر، وبها قلعة حَصينة مبنية، وهى خِزَانة مال ملوك اليمن، إلا أنه ليس بها زَرْع ولا ضَرع، وهى فُرْضة اليمن، ومَحَطُّ رحال التُّجَّار، لم تزل بلدَ تجارة من زمن التَّبابعة وإلى زماننا، عليها تَرِد المراكبُ الواصلة من الحجاز والسِّنْد والهند والصِّين والحبشة، ويمتار أهلُ كل إقليم منها ما يحتاج إليه إقليمُهم من البضائع.

قال "صلاح الدين بن الحكيم": ولا يخلو أُسْبوع من عدّة سُفُن وتُجَّارٍ واردين عليها، وبضائعَ شتَّى ومتاجِرَ منوعة، والمقيم بها فى مَكاسِبَ وافرة، وتجائرَ مُرْبِحة، ولحَطِّ المراكب عليها وإقلاعها مواسمُ مشهورة، فإذا أراد ناخُوذةُ(1) السفرِ بمَرْكَب إلى جهة من الجهات، أقام فيها عَلَما بِرَنْك خاصّ به، فيعلمُ التجّار بسفره، ويتسامعُ الناسُ فيبقى كذلك أيّاما، ويقع الاهتمام بالرحيل، وتُسارع التجار فى نقل أمتعتِهم، وحولهم العبيد بالقماش السرىّ والأسلحة النافعة، وتُنْصَب على شاطئ البحر الأسواقُ، ويخرج أهل عدَنَ للتفرّج هناك.

قال فى "العبر": ويُحيط بها من جهة شماليها على بُعْدٍ جبلٌ دائر إلى البحر يَنْثَقِب فيه من طَرَفيه ثَقْبان كالبابين، بينهما على ظَهْر الجبل مَسيرةُ أربعة أيام، وليس لأهلها دُخول ولا خُروج إلا على هذين الثَّقْبين أو من البحر. وكان مُلْكُها لبَنِى مَعْن ابن زائدةَ، ثم لبَنِى زِياد: أصحابِ زَبِيدَ، ثم انتزعها منهم أحمدُ بنُ المكرَّم الصُّلَيْحِىّ، وصفا المُلْك فيها لبنى الزُّرَيْع منهم، وبقيت بأيديهم حتّى ملكها منهم (تُورانُ شاه) ابن ايوب: أوّلُ ملوك اليمن من الأيُّوبيَّة، ومن الأيُّوبيَّة انتقلت لبنى رَسُول ملوك اليمن الآن.

وذكر فى "مسالك الأبصار" عن الحكيم "صلاح الدين بن البرهان" أنه أقام بها مدّة، وقال إن المقيم بها يحتاج إلى كُلْفة فى النَّفَقات: لارتفاع الأسعار بها فى المآكل

(1) فى مادة (ن خ ذ) من القاموس "النواخذة ملاك سفن البحر أو وكلاؤهم معرّبة الواحدة ناخذاة" فانظره.

والمَشَارب ، ويحتـاج المقيمُ بها إلىٰ ما يتبرَّدُ به فى اليوم مرَّاتٍ فى زمن قوّة الحَرّ . قال : ولكنهم لايُبالُون بكثرة الكُلَف ، ولا بسُوء المُقام لكثرة الأموال النامية .

ومنها (ظَفَار) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الظاء المعجمة والفاء وألف وراء مهملة . قال : وهى من تَهائم اليمن ، من أوائل الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى " القـانون " : حيثُ الطولُ سبع وســتون درجةً ، والعَرْضُ ثلاثَ عشْرةَ درجة وثلاثون دقيقة .

قال السُّهَيلىّ : وهى مدينــة عظيمة ، بناها مالك بن أبْرهَةَ ذى المَنار . وذكر فى "العبر" أنها كانت دارَ مُلْك التَّبَابعة ، وخرَّبها أحمد الناخُوذةُ ســنةَ تسعَ عشرةَ وستمـائة لأنهـا لم يكن لهـا مَرْسًى ، وبنىٰ علىٰ الساحل مدينــةَ ظفار بالضم (١) ، وسَمَّـاها الأحمدِيَّةَ .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينــةٌ علىٰ ساحل خَوْر قد خرج من البحر الجَنُوبىّ وطعن فى البر فى جهــة الشَّمال نحو مائة مِيل ، ومدينة ظَفارِ علىٰ طَرَفه ، ولا تخرج المراكب من ظَفَار فى هذا الخَوْر إلا بريح البَرّ ، ويُقْلَع منها فى الخَوْر المذكور إلىٰ الهند . قال : وهى قاعدة بلاد الشِّحْر ، ويُوجَد فى أرضها كثير من نَبَات الهند كالرَّانج والتَّنْبُل ، وشمالىّ ظَفارِ رمالُ الأحقاف التى كان بها قوم عاد ، وهى المذكورة فى القرءان ، وبينها وبين صنعاء أربعةٌ وعشرون فرسخا . قال : وعن بعضهم أن لها بساتينَ علىٰ السَّوانِى .

قال فى "مسـالك الأبصار" : وهى فى زماننا لأولاد الواثق آبن عم صاحب اليمن . قال : وهم وإن أُطْلِق عليهم آسمُ المَلِك نُوّابٌ له . وذكر أن البضائع منهـا تُنْقَـل

(١) عبارة "العبر" (ج ٤ ص ٢٢٦) مدينة ضفا بضم الضاد المعجمة اهـ .

فى زوارِق حتّى تخرج من خَوْرها، ثم توسَق فى السفن . قال فى "العبر" : وكانت منزلةَ الملوك فى صدر الدولتين .

ومنها (حَلْيٌ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الحاء المهملة وسكون اللام ثم ياء مثناة من تحتُ . وهى بَلْدة من اليمن، واقعة فى الإقليم الأول . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ ستٌّ وستون درجة، والعرضُ ثلاثَ عشرةَ درجةً وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من أطراف اليمن من جهة الحجاز وتعرف بحَلْى ابن يعقوب .

ومنها (المَهْجَم) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون الهاء وجيم وميم . وهى مدينة من تِهَائم اليمن، واقعة فى الإقليم الأول . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ أربعٌ وستون درجة، والعرضُ ستَّ عشرةَ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من أجلِّ مدن اليمن، وهى عن زَبِيدَ ثلاثة أيام [وهى] فى الشرق والشمال عن زَبِيدَ، وعن صنعاءَ على ستِّ مراحل . قال الإدريسى : ومن عَدَنَ على ست مراحلَ .

ومنها (حصن الدّمْلوة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر(1) الدال المهملة وسكون الميم ثم لام وواو وهاء فى الآخر . وهو حصن من حصون اليمن، واقعٌ فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة . قال ابو العقول : حيث الطولُ أربع وستون درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ أربعَ عشرةَ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان": وهو حصن فى شَمَال عَدَنَ فى جبال اليمن . قال ابن سعيد : وهو على الجبل الممتد من الجنوب إلى الشمال، وهو خِزَانة صاحب اليمن، ويُضْرب بامتناعه وحَصَانته المَثَل .

(1) ضبطها ياقوت فى معجمه فقال — بضم أوّله وسكون ثانيه وضم اللام وفتح الواو .

ومنها (الشَّرْجة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وجيم وهاء . وهى مِينا علىٰ ساحل البحر، واقعة فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطول خمس وستون درجة ، والعرضُ سبعَ عَشْرةَ درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى صغيرة وبيوتها أخصاص .

ومنها (جُبْلةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الجيم وسكون الباء الموحدة ولام مفتوحة وهاء . وهى مدينة بين عَدَنَ وصنعاءَ ، واقعة فى الإقليم الأوّل . قال : وقياس قول أبى العقول أنها حيثُ الطولُ خمس وستون درجة ، والعرضُ ثلاثَ عشرةَ درجة وعشر دقائقَ . قال : وهى علىٰ نهرين ولذلك يقال لها مدينة النَّهْرَيْن . قال بعض الثقات : وبينها وبين تَعِزَّ دونَ يوم ، وهى عن تَعِزَّ فى الشرق بمَيْلة يسيرةٍ إلىٰ الشَّمال .

ومنها (الجَنَد) . قال فى "اللباب" : بالجيم والنون المفتوحتين ودال مهملة فى الآخر . وهى مدينة شمالِيَّ تَعِزَّ ، علىٰ نحو نصف مرحلة منها ، واقعةٌ فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ خمس وستونَ درجة ، والعَرْض أربعَ عشرةَ درجة وثلاثون دقيقة . وهى عن صنعاء علىٰ ثمانية وأربعين فرسخا ، وعن ظَفارِ علىٰ أربعة وعشرين فرسخا .

وقال الشريف الإدريسىّ : هى بين ذَمارٍ وبين زَبِيدَ . وهو بلد جليل به مسجد جامعٌ يُنْسَب لمُعاذ بن جَبَل الصحابىّ رضى الله عنه ، وعلىٰ القرب من الجَنَد وادى سَحُولٍ ، ومنه يسير فى صحارىٰ إلىٰ جبل عَرْضُه أحد وعشرون فرسخا ، ثم يسير فى صحراءَ ورمال إلىٰ مدينة زَبِيد . والجَنَد بلد وَخْم فى غاية الوَخامة ، وأهله شيعة .

ومنها (سِرَّيْن). قال في "اللباب": بكسر السين المهملة وفتح الراء المهملة المشدّدة وسكون المثناة من تحت ونون في الآخر. وهي بلدة على تسعة عشر فرسخا من حَلْي، في جهة الشمال منها، واقعةً في آخر الإقليم الأوّل. قال في "الأطوال": حيثُ الطولُ ستٌّ وستون درجة وأربعون دقيقة، والعَرْضُ عشرون درجة. وقال المهلبيّ: هي مدينــة على ساحل البحر على اربعة أيام من مكة. قال الإدريسيّ: وهي على القرب من قرية يَلَمْلَمَ: ميقاتِ أهل اليمن للإحرام.

ومنها (مِرْباطُ). قال في "تقويم البُلْدان": بكسر الميم وسكون الراء المهملة ثم باء موحدة وألف بعــدها طاءٌ مهملة. وهي بُلَيْدة على ساحل خَوْر ظَفَارِ المقــدّمِ ذكره. قال: وهي خارجة عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلى الجنوب أو منه. قال "في الأطوال": حيث الطولُ آثنتان وســبعون درجةً، والعرضُ آثنتا عَشْرةَ درجة. قال آبن سعيد: وهي في الشرق والجَنُوب عن ظَفارِ. قال الإدريسي: وقبر هودٍ عليه الســلام منها على خمســة أيّام. قال في "نزهة المشتاق": وبجبال مِرْباطَ ينْبُتُ شجرُ اللُّبان، ومنها يجهّز إلى البلاد.

ومنهــا (بلاد مَهْرةَ). قال في "تقويم البُلْدان": بفتح الميم ثم هاء ساكنة وراء مهملة مفتوحة وهاء في الآخر. والمراد بمَهْرةَ بنُو مَهْرةَ بنِ حَيْدانَ: قبيلة من قبائل اليمن؛ وقد بسطت القول على ذلك في كتابي المسمّى "بنهاية الأرب في معرفة قبائل العرب". وموقعها في الإقليم الأوّل. قال "في الأطوال": وآخرها حيث الطولُ خمسٌ وسبعون درجة، والعرضُ ستّ عشرةَ درجة. قال في "تقويم البُلْدان": وليس بها نَخِيــل ولا زرع وإنمــا أموالُ أهلها الإبلُ. قال: وألسنتهم مستعْجِمة لا يكاد يُوقَف عليها؛ ويُنْسَب إليها البُخْتُ المَهْرية، ويحمل منها اللُّبان إلى الآفاق.

ومنها (الشِّحْر) بكسر الشين المعجمة وسكون الحاء المهملة وراء مهملة فى الآخر. قال ياقوت الحموى : وهى بُلَيْدة صغيرة، ولم يزد على ذلك . والذى يظهر أن لها إقليما ينسب إليها، وإليها يُنْسَب العَنبرُ الشِّحْرِىُّ على ماتقدّم القولُ عليه فى الكلام على ما يحتاج الكاتب إلى وصفه فى المقالة الأولى .

الجمـــــلة الثانيـــــة

(فى ذكر حيوانه، وحبوبه، وفواكهه، ورياحينه ومعاملاته، وأسعاره)

وأنا أذكر جملة من ذلك على ماذكره فى "مسالك الأبصار" عن أبى جعفر أحمد ابن محمد المقـدسىّ المعروف بابن غانم كاتب الإنشاء بهـا، وأبى محمد عبد الباقى بن عبد المجيد اليمنى الكاتب

أما حيوانه — فبه من الحيوان الخيلُ العربيــة الفائقةُ، والبِغال الجيِّدة للركوب والحمل، والحُمُر، والإبلُ، والبقر، والغنم؛ ومن الطير الدَّجاج، والإوَزُّ، والحمام؛ وفيها من الوحوش الزرافة والأَسَد، والغِزْلانُ، والقِرَدة، وغيرُ ذلك .

وأما حُبوبه — فبه من الحُبوب الحِنْطة والشعير والذُّرَة والأَرُزّ والسِّمْسِم؛ وغالب قُوتهم الذُّرة واقلُّه الحنطةُ والشعير .

وأما فواكهه فبه العنبُ، والرُّمّان، والسَّفَرْجَل، والتُّفّاح، والخَوْخ، والتُّوت، والمَوْز، واللَّيمون، والأُتْرُجّ، فى أنواع أخرى من الفاكهة قليلة المقدار؛ وبه البِطِّيخ الأخضرُ والأصفر .

قال ابن البرهان : وغالب ما يوجَدُ بمصر من الفواكه يُوجَدُ باليمن ، إلا أنه بالَغَ فى وصف السَّفَرْجَل به .

وأما أسعاره فَرِخيَّة فى الغالب . وذكر ابن البرهان أن الحنطة فيه تغْلُو، واللحومَ فيه رخيصة .

الجملة الثالثة

(فى الطريق الموصِّلة إلى اليمن)

وله طريقان : طريقٌ فى البَرّ، وطريق فى البحر .

أما طريقه فى البر، فالطريق من مِصْرَ إلى مكة معروفةٌ . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومن مكةَ إلى عَدَن نحوُ شهر . قال : ولها طريقان : أحدهما على ساحل البحر، وهو الأبعدُ . والثانى على نَجْرانَ، وجُرَش، وصَعْدَة، وصَنْعاء، وهو الأقرب .

وأما فى البحر، فمن مِصْرَ إلى السُّوَيس ثلاثةُ أيام فى البَرّ ثم يُركَب فى البحر إلى زَبيدَ وعَدَن . وربما عدل المسافرون عن السُّوَيس إلى الطُّور فتطول الطريقُ فى البر، وتقصُر فى البحر، وربما وقع السفر إلى قُوصَ فى النيل أو فى البر، ثم من قُوصَ إلى عَيْذابَ أو إلى القُصَيْر، فيُركَب فى البحر إلى زَبيدَ أو عَدَنَ .

الجملة الرابعة

(فى ذكر ملوكه : جاهليّةً وإسلاما)

أما ملوكه فى الجاهلية فعلى عشر طبقات :

الطبقـــــة الأولىٰ

(العــاديّة)

وهم بنو عادِ بن عَوْص ، بن إرَمَ ، بنِ سامِ ، بن نوحٍ عليه السلام .

وكانت منــازلهم بالأحقاف من اليمن ، وعُمان من البحرين إلىٰ حَضْرموت والشِّــحْر .

وأوّل من ملكها منهم (عاد) المقدّم ذكره . ويقــال : إنه أوّلُ مَنْ ملك من العرب وطال عُمُــره وكثُر ولَدُه ، حتّى يقــال إنه ولد أربعــةَ آلاف ولدٍ ذكرٍ لصُــلْبه ، وتزوّج ألف آمرأة ، وعاش ألف ســنة ومائتَىْ ســنة . وقال البيهق : عاش ثلثمائة سنة .

ثم ملك بعده آبنه (شَدِيد) بن عاد .

ثم ملك بعده آبنه الثانى (شَدَّاد) بن عاد وسار فى الممالك ، وآستولىٰ علىٰ كثير من بلاد الشام والعراق والهند ويقال إنه ملك مصر أيضا .

ثم ملك بعده آبنه (إرَم) بن عاد .

والذى ذكره المسعودىّ أنه ملك بعد عاد بن عوص ابنُه عاد بن عاد وأن جَيْرُون ابنَ سَعْد بن عاد كان من ملوكهم ، وأنه الذى آختَطّ مدينة دِمَشْق ومَصَّرها ، وإليه يُنْسب باب جيْرُونَ بها كما تقدّم فى الكلام عليها فى مضافات الديار المصرية .

وذكر آبن سعيد : أن شَدَّاد بن بَدَّاد ، بن هَدَّاد ، بن شَــدَّاد ، بن عاد غلب قفط بن قبط علىٰ أسافل الديار المصرية ، ثم هلك هناك ، ويقال ان ملكَهم علىٰ عهد

هود عليه السلام كان اسمه الخلجان بن عاد، بن رقيم، بن عاد الأكبر، ولقمان بن عاد ابن عاديا بن صداقا بن لقمان، وكفر الخلجان، وأهلك الله من كفر منهم بالريح العقيم.

وانتقل ملك لقمان إلى ولده (لُقَيْم) واتصل ملك لقمان ورهطه ألف سنة أو أكثر إلى أن غلبهم عليه يَعْرُبُ بن قحطان الآتي ذكره.

الطبقة الثانية
(القَحْطانيَّة)

وأول من ملك منهم (قَحْطانُ) بن عابرَ بن أرفخشذ، بن سام، بن نوح عليه السلام. قال المؤيد صاحب حماة: وهو أول من ملك اليمن ولبس التاج.

ثم ملك بعده ابنه (يَعْرُبُ) بن قحطانَ، وغلب عادا على اليمن، وعَظُمَ مُلْكه. وهو أول من حَيَّاه قومه بتحية المُلْك، وولَّى أخاه حَضْرَمَوْتَ بن قحطانَ على بلاد حَضْرموتَ فعرفت به، وولَّى أخاه عُمَان بنَ قحطان على بلاد عُمَان من البحرين فعُرِفت به.

ثم ملك بعده ابنه (يَشْجُب) بن يَعْرُب.

ثم ملك بعده ابنه (عَبْدُ شمس) وأكثر الغَزْو والسبْيَ، فسمي سَبَأ، وبنى قصر سبإٍ ومدينةَ مأْرِبَ باليمن. ويقال: إنه غزا مصر، وبنى بها مدينةَ عيْنِ شمس، التي أثَرُها بالقرب من المطرية الآنَ.

ثم ملك بعده ابنه (حِمْيَرُ) خمسين سنة، وهو أول مَنْ تتوَّج بالذهب.

ثم ملك بعده ابنه (وائل). وقيل: بل ملك بعده أخوه (كَهْلان).

ثم ملك بعد وائل ٱبنه (السَّكْسَكُ) .

ثم ملك بعده ٱبنه (يَعْفُر) بن السَّكْسَك .

ثم غلب على المُلْك (عامر) بن باران، بن عوف، بن حِمْير، ويعرف بذى رِيَاش .

ثم ملك بعده ٱبنه (المُعَافِر) وٱسمه النعمان بن يَعْفُر المقدّم ذكره .

ثم ملك بعده ابنه (أسمح)(١) بن النعمان، فاضطرب أمرُ حِمْير، وصار ملكهم فى طوائف إلى أن ظهرتْ ملوك التَّبَابِعة .

ويقال : إنه ملك منهم (أَبْيَنُ) بن زُهَير، بن الغَوْث، بن أَيْمَن، بن الهَمَيْسَع، وإليه تنسب عَدَنُ أَبْيَنَ على ماتقدّم ذكره .

وملك منهم أيضا (عبد شمس) بنِ وائل، بن الغوث، بن حَيْدان، بن قَطَن، ٱبن عُرَيْب، بن زُهَير، بن أَيْمَن، بن الهَمَيْسَع، بن حمير .

وملك منهم أيضا (حَسَّانُ) بن عمرو، بن قيس، بن معاوية، بن جُشَم، ٱبن عبد شمس .

ثم ملك بعده أخوه (لُقْمان) . ثم أخوه (ذو شدد) : وهو ذو مَرَاثد . ثم ٱبنه (الصَّعْب) ويقال : إنه ذو القرنَيْنِ . ويقال : إن بَنِى كَهْلانَ بن سبإ داوَلُوا بنى حِمْير فى الملك .

وملك منهم (جَبَّار) بن غالب، بن زيد، بن كَهْلانَ، وانه ملك من شُعُوب قحطان أيضا (نَجْرانُ) بن زيد، بن يَعْرُب، بن قحطان، وبه عرفت نَجْرانُ المقدّم ذكرها .

---

(١) فى "العبر" أسحم بتقديم الحاء على الميم .

الطبقـــة الثالثـــة

(التبابعـــة)

إمَّا بمعنىٰ أن النــاس يَتْبَعُونهم كما قاله السهيلىّ والزمخشرىّ ، وإما بمعنىٰ أنه يَتْبَع بعضهم بعضا كما قاله ٱبن سيده . قال فى "العبر" : وكانت منازلُهم ظَفَارِ .

وأوّل من ملك منهم (الحارث) بن ذى شــدد ، بن المِلْطاط ، بن عمرو ، بن ذى يقدم ، بن الصوار ، بن عبد شمس ، بن وائل ، بن الغوث ، بن حيدان ، بن قَطَن ، ٱبن عُرَيْب بن زُهَير ، بن الغوث بن أيْمُن بن الهَمَيْسع ، بن حمير ، بن سبإ . وسمى الرائش لأنه لمــا ملك الناس راشهم بالعطاء . قال السهيلىّ وكان مؤمنا .

ثم ملك بعده ٱبنه (أبرهة ذو المَنَار) مائة وثمــانين سنة قاله المسعودىّ . وقال ٱبن هشام هو أبْرهةُ بن الصَّعْب ، بن ذى مرائد ، بن المِلْطاط المقدّم ذكره ، وسمّى ذا المنار لأنه رفع منارا يُهتدىٰ به

ثم ملك بعده ابنه (إفْرِيقش) بن أبرهة مائة وستين سنة .

وقال هشام ٱبن الكلبى هو إفريقش ، بن قَيْس ، بن صَيْفِىّ أخى الحارث الرائش وسار إلىٰ بلاد المغرب وفتح أفريقية فعرفت به .

ثم ملك بعده أخوه (عَمْرو العبد) بن أبرهة المعروف بذى الأذعار خمسا وعشرين ســنة . قال المسعودىّ : وسُمِّى ذا الأذعار لكثرة ذُعْرِ الناس منه . قال وكان علىٰ عهد سليمان عليه السلام أو قبله بقليل .

وقال الطــبرىّ : عَمْرو بنُ أبرهة ذى المَنَار ، بنِ الحارث الرائش ، بن قيس ، ابن صَيْفِىّ ، بن سبإ الأصغر .

ثم ملك بعـده (الهَدْهاد) بن شُرَحْبِيـل ، بن عمرٍو ذى الأذعار ستَّ سنين أو عشر سنين ، وهو ذو الصَّرْح .

ثم ملك بعده ٱبنته (بِلْقِيسُ) بنت الهَدْهاد بن شُرَحْبِيل سبع سنين وهى صاحبة القصة مع سليمان عليه السلام .

وقال الطبرىّ : بِلْقِيسُ هى يَلْقَمة بنت لَيْشَرح بن الحارث بن قيس .

ثم ملك بعدها (سليمان) عليه السلام . ثم أقاموا فى مُلْكه ومُلْك بنيه أربعا وعشرين سنة .

ثم ملك (ناشِر) بن عمرو ذى الأَذْعار . ويقال له ناشر ينعم ، وربما قيل ناشر أنعم ، سُمِّى بذلك لإنعامه عليهم . وقال السهيلىّ : ناشِرُ بن عمرو . ثم قال : ويقـال له ناشِر النِّعم . وقال المسـعودىّ ناشر بن عَمْرو ذى الأذعار . وقيل ناشر بن عمرو ، ٱبن يعـفر ، بن شُرَحْبِيلَ ، بن عمرٍو ذى الأذعار ، وسـار إلى وادى الرمل بأقصى الغَرْب ، فلم يجد وراءه مَذْهَبا ، فنصب صَنَمـا من نُحَاس ، وزَبَر عليـه بالمُسْنَد "هذا الصنم لناشِر أنعم ، ليس وراءه مَذْهَب ، فلا يتكلَّف أحد ذلك فيَعْطَب" .

ثم ملك بعده ٱبنه (شَمِر) مائة وستين سنة[1] . ويقال له شَمِر مَرْعَش ، سمِّى بذلك لٱرتعاش كان به . وقال السهيلىّ : شَمِر بن مالك ، ومالك هو الأُمْلُوك . ويقـال إنه وَطِئ أرض العراق وفارِس وخُرَاسان وٱفتتح مدائنَهـا ، وخَرَّب مدينـة الصُّغْد وراءَ نهر جَيْحُون ، فقالت العجم : شَمِر كَنْد أى شمر خَرَّب ، وبَنَى هناك مدينـة فسميت بذلك ، ثم عُرِّبَتْ سَمَرْقَنْد . ويقال : إنه الذى بنى الحِيرةَ بالعراق . وملك بلاد الروم وٱستعمل عليها مَاهَانَ قَيْصَر .

---

(١) كذا فى "العبر" أيضا وفى "السبائك" ثلاثا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده (تُبَّعُ الأَقْرن) ثلاثا وخمسين سنة ، وقيل ثلاثا وستين سنة وآسمه زيد ، قال المسعودىّ : وهو آبن شَمِر مَرْعَش ، وقال الطبرىّ : آبن عمرو ذى الأذعار . قال السهيلىّ : وسمى الأقرن لشامة كانت فى قَرْنه .

ثم ملك بعده آبنه (كُلَيْكَرِب) .

ثم ملك بعده (تبان) أسعد أبو كَرِب ، بن قيس ، بن زيد الأقْرَن ، بن عمرو ذى الأذعار ، وهو تُبَّع الآخِر . ويقال له الرائد ، وكان على عهد يستاسف أحد ملوك الفُرْس الكَيانية وحافده أردشير ، وملك اليمن والحجاز والعراق والشام ، وغزا بلاد الترك والتبّت والصين ، ويقال : إنه ترك ببلاد التبت قوما من حمير ، هم بها إلى الآن ، وغزا القسطنطينية ومَرَّ فى طريقه بالعراق فتحير قومه فبنى هناك مدينة سماها الحيرة ، وقد مرّ الكلام عليها مع العراق فى الكلام على مملكة إيران ، ويقال إنه أوّل من كسا الكعبة المُلاء وجعل لبابها مفتاحا وأوصى وُلَاتها من جرهم بتطهيرها ودام ملكه ثلثمائة وعشرين سنة .

ثم ملك من بعده (رَبِيعةُ) بن نصر ، بن الحارث ، بن نمارة ، بن لَخْم . ويقال ربيعة ، ابن نصر ، بن أبى حارثة ، بن عمرو ، بن عامر . وبعضهم يعكس فيقول نصر بن ربيعة ، ثم رأى رؤيا هالته فسار بأهله إلى العراق وأقام بالحيرة ، ومن عقبه كان النُّعْمان آبن المنذر ملك الحِيرة وهو النعمان بن المنذر بن عمرو بن عدىّ بن ربيعة بن نصر .

ثم ملك بعده (حَسَّان ذو معاهر) بن تبان أسعد أبى كَرِب .

ثم ملك بعده أخوه (عمرو) بن تبان أسعد أبى كرب ويسمى الموثبان ثلاثًا وستين سنة ، ومات عن أولاد صغار وأكبرهم قد آستهوته الجن ، فوثب على مُلْكِ التبابعة (عبد كلال) بن مثوب ، فملك أربعا وتسعين سنة وهو تُبَّع الأصغر ، وله مغاز وآثار بعيدة .

ثم ملك بعده اخوه لأمه (مَرْثَد) بن عبد كُلَال سبعا وثلاثين سنة .

[ثم ملك من بعده ابنه وَلِيعة بن مرثد](١) .

ثم ملك بعده (أبرهةُ بن الصَّباح) بن لَهِيعة ، بن شيبة ، بن مرثد ، بن نيف ابن مَنْدِى كرب ، بن عبد الله ، بن عمرو ، بن ذى أصبح الحارث ، بن مالك ، وقيل إنما ملك تِهَامَةَ فقط .

ثم ملك بعده (حَسَّان بن عمرو) بن تُبَّع ، بن كُلَيْكَرِب سبعا وخمسين سنة .

ثم ملك بعده (لُخَيْعة) بن يَنُوف ذو شَنَاتر سبعا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده (ذو نُوَاس زُرْعَةُ) تُبَّع بن تبان أسعد أبى كرب ثمانين سنة ، ويسمّى يُوسفَ ، وكان يَدين باليهودية وحَمَل الناسَ عليه .

ثم ملك بعده (ذو جَدَن) واسْمُه عَلَس بن زيد ، بن الحارث ، بن زيد الجُمْهور . وقيل : عَلَس بن الحارث ، بن زيد ، بن الغوث ، بن سعد ، بن عَوْف ، بن عَدِىّ ، ابن مالك ، بن زيد الجُمْهور ، وهو آخِرُ ملوك اليمن من العَرب . وقيل غيرُ ذلك من تقديم وتأخير وتبديل اسم باسم .

وبالجملة فأخبار التَّبَابعة غيرُ مضبوطة ، وأمورهم غير محقَّقة . قال المسعودىّ : ولا يسمّى أحدُ منهم تُبَّعًا حتى يملك اليمنَ والشِّحْر وحَضْرَموتَ ، على أن الطبرىّ قد ذكر أن المَلِك من ملوك اليمن لا يتجاوز مِخْلافَه ، وإن تجاوزه فبمسافة يسيرة .

---

(١) الزيادة من العبر .

الطبقة الرابعة
(الحَبَشة)

وأوّل من ملك منهم (أرياط) بعثه صاحب الحبشة مقدّما على جيوشه حين تهوّد ذو نُوَاس وأحرق الإنجيلَ ، ففتح اليَمَن وآستقرّ فى ملكه .

ثم ملك بعده (أبرهةُ الأشرمُ) وهو صاحب الفِيل الذى جاء به لتخريب الكعبة .

ثم ملك بعده آبنه (يَكْسُومُ) .

ثم ملك بعده أخوه (مَسْروقٌ) وهو آخر ملوك اليمن من الحبشة .

الطبقة الخامسة
(الفُرْس)

وأوّلُ من ملك منهم (وَهْرَز) وذلك أن سَيْفَ بن ذى يَزَن ، بن عابرَ ، بن أَسْلُمُ ، آبن زيد ، بن غَوْث ، بن سَعْد ، بن عَوْف ، بن عَدِىّ ، بن مالك ، بن زيد الجمهور الحِمْيرىّ ، آستجاش كِسْرَى أنُو شِرْوان : ملكَ الفُرْس على مسروق بن أبرهة آخر ملوك الحبشة باليمن فأسْعفه بجيش ، ففتح به اليمن وآستنابه فيه ، فقتله بعض من آستخلصه من الحَبَشة ، فولّى كسرى (وَهْرَز) مكانَه وهلك ، فأقام كسرى مكانَهُ آبنه (المَرْزُبانَ) ثم هلك ، فأقام مكانه (خذخُسْرَو) بن السيحان بن المَرْزُبان ، ثم عزله وولى على اليمن (باذَانَ) فلم يزل به إلى أن كانت البِعْثة فأسلم وفشا الإسلام باليمن ، وتتابعت الوفود منه على رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

الطبقة السادســـة

(عُمَّـال النبيّ صلّى الله عليه وسلم والخُلفاءِ بعده)

لمـا أسلم (باذَانُ) نائبُ كسرىٰ، ولّاه النبيّ صلّى الله عليه وسلم علىٰ جميع مَخَاليف اليمن، وكان منزله بصنعاءَ : دارِ مملكة التبابعة، وبقى حتّى مات بعد حَجَّة الوَدَاع، فولّى النبيّ صلى الله عليه وسلم ٱبنه (شَهْر) بن باذانَ علىٰ صنعاء، وولّى علىٰ كل جهة واحدا من الصحابة رضوانُ الله عليهـم إلىٰ أن خرج (الأسودُ العَنْسِىُّ) فقتـل شَهْرَ ٱبن باذانَ، وأخرج سائرَ عُمّال النبيّ صلّى الله عليه وسلم من اليمن . فلما قُتِل العَنْسِىُّ رجع عُمّال النبيّ صلّى الله عليـه وسلم إلىٰ أعمالهم، وٱستولىٰ (قيسُ بن عبدِ يَغُوثَ) المرادىُّ علىٰ صنعاءَ، وتُوفّى رسول الله صلّى الله عليه وسلم والأمرُ علىٰ ذلك .

ثم وَلّى أبو بكر الصدّيقُ رضى الله عنه (فَيْروزَ الدَّيْلَمِىَّ) .

ثم وَلّى بعده (المهاجِرَ) بن أبى أُمَيَّة ، و(عكرمةَ) بنَ أبى جهل، علىٰ قتال أهل الرِّدَّة، ثم ٱستقرّ اليمن فى ولاية (يَعْلَى بن مُنَبِّه) .

ثم ولّى علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه فى خلافته (عُبَيدَ الله) بن عباس، ثم أخاه (عبدَ الله) .

ثم ولّى معاويةُ علىٰ صـنعاءَ (فَيْروزَ) الديلمىَّ، ومات سـنة ثلاث وخمسين من الهجرة .

ثم جعل عبدالملك بنُ مروان اليمنَ فى ولاية الحَجّاج بن يوسف، حين بعثه لقتال ابن الزبير سنة ثنتين وسبعين .

ثم كان به (يوسف) بنُ عمرو سنة ثمـان ومائة .

ثم لما جاءت دولة بنى العبّاس ، ولّى السفّاحُ : أوّلُ خلفائهم على اليمن عَمّه (داود) وتوفى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، فولّى مكانه (عمر) بن زيد ، بن عبد الله ، ٱبن عبد المَدَان ، وتُوُفِّىَ سنة أربع وثلاثين ومائة ، فولّى السفاح مكانه (علىّ بن الربيع) ٱبن عبيد الله .

ثم فى سنة ثلاث وخمسين ومائة كان عليها (يزيد) بن منصور ، ثم عزله المهدىّ فى خلافته ، وولّى مكانه (رجاءَ بن رَوْح) .

ثم ولّى بعده (علىّ بن سليمان) ثم عزله سنة ٱثنتين وستين ومائة ، وولى مكانه (عبد الله بن سليمان) . ثم عزله سنة ثلاث وستين ومائة ، وولى مكانه (منصور بن يزيد) . ثم عزله فى سنة ست وستين ومائة ، وولى مكانه (عبد الله بن سليمان الربعى) . ثم ولى سليمان بن يزيد(١) ثانيا .

ثم ولّى الرشيد سنة أربع وثمانين ومائة حَمّادا اليزيدى .

الطبقة السابعة

(ملوكُها من بنى زِياد)

لم تزل نوّابُ الخلفاء متواليةً على اليمن إلى أيام المأمون ، فاضطرب أمرُ اليمن ، فوجّه المأمون إليه (محمدَ بنَ إبراهيم) بنِ عبيد الله ، بن زِيادِ ، بنِ أبيه ، ففتح اليمن وملكه ، وبنى مدينةَ زَبِيدَ فى سنة أربع ومائتين ، وولّى مولاه جعفراً على الجبال ، فعُرِفت بمخلاف جعفر إلى الآنَ .

ثم ملك اليمن بعده ٱبنه (إبراهيم) بن محمد [ثم ٱبنهُ(٢) زياد بن إبراهيم] .

(١) كذا فى الأصول ولم يسبق ذكر سليمان بن يزيد فى ولاتها فلعله من زيادة الناسخ وأن ثانيا راجع إلى عبد الله بن سليمان الخ كما يؤخذ من الكامل .

(٢) الزيادة عن "العبر وأبى الفداء" ليستقيم الكلام .

ثم ملك بعده أخوه (أبو الجَيْش) إسحاقُ بن إبراهيم وطالت مدّته، وتوفى سـنة إحدىٰ وتسعين وثلثمائة، وخلّف طفلا فتولت أخته هندٌ بنتُ أبي الجيش كَفَالته، وتولّى معها عبدٌ لأبي الجيش ٱسمه رشيد فبقي حتّى مات، فتولّى مكانه حسين بن سلامة (وسلامة ٱسم أمه) وصار وزيرًا لهند وأخيها حتى ماتا .

ثم مَلّكوا عليهم طفلا ٱسمُه (إبراهيم) وقيل (عبد الله) بن زياد، وقام بأمره عَمّتُـه وعبد من عبيد حُسَين بن سلامة ٱسمه (مَرْجانُ) ثم قبض (قيسٌ) عبد مَرْجانَ علىٰ الطفل وعمتِه فى سنة سبع وأربعمائة وٱستبدّ بالملك، ثم قُتِل قيس بزَبِيدَ .

وملك بعده (نَجاحٌ) عبدُ مرجانَ أيضا وعظُم شأنه، وركب بالمِظَـلّة وضُرِبت السكةُ باسمه، وبقي حتّى توفى سنة ٱثنتين وخمسين وأربعمائة .

وملك بعده ٱبنه (سَعِيد الأحول) بن نجاح .

ثم غلب علىٰ المُلْك الملِكُ المكرَّم (أحمد بن علىّ الصُّلَيْحى) فى سنة إحدىٰ وثمانين وأربعمائة . وقيل سنة ثمـانين، وأقام بزبيد .

ثم ملكها (جيَّاش بن نَجَاح) فى بقايا سـنة إحدىٰ وثمـانين، ومات سنة ثمـان وتسعين وأربعمائة .

[ثم ملك بعده ٱبنه فاتك](١) ثم ملك بعده (منصور بنُ فاتِك) بن جَيَّاش بن نجاح .

ثم ملك بعده ٱبنه (فاتِك) بن منصور بن فاتك .

ثم ملك بعده ٱبنُ عمه (فاتِك بن محمد) بن فاتك، بن جَيَّاش، بن نَجَاحٍ فى سنة إحدىٰ وثلاثين وخَمْسِمائة، وقتل فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة. وهو آخر ملوك بَنِي نَجَـاحٍ .

(١) الزيادة من خطط المقريزى .

الطبقة الثامنة

(ملوكها من بنى مَهْدىّ)

لما قُتِل فاتك، ملك بعده (على بن مهدىّ) وٱستقرّ فى دار المُلْك بزَبِيد فى رابع عشر شهر رجب سنة أربع وخمسين وخَمْسِمائة ، ومات بعد شهرين وأحد وعشرين يوما ؛ وكان مذهبُه التكفيرَ بالمعاصى وقتلَ من خالف مذهبه .

ثم ملك بعده ٱبنه (مَهْدِى بن على) بن مهدىّ .

ثم ملك بعده ٱبنه (عبد النبى) بن مهدى .

ثم ملك بعده عمه(١) (عبد الله) بن مهدى .

ثم عاد (عبد النبى) ثانيا، وهو آخرهم .

الطبقة التاسعة

(ملوكها من بنى أيوبَ ملوكِ مصرَ)

وأول من ملكها منهم (شمس الدولة تُورانْ شاه بن أيوب) سيَّره إليها أخوه السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" صاحب الديار المصرية فى سنة تسع وستين وخمسمائة، ففتح زَبِيدَ وأسَرَ صاحبها (عبد النبى). ثم ملك عَدَن وأسر صاحبها (ياسر) وٱستولىٰ علىٰ اليمن لأخيه صلاح الدين، ثم ٱستناب تُوران شاه علىٰ زبيد حِطَّان بن كامل بن منقذ الكنانى ، ورجع إلىٰ الشام فى سنة إحدىٰ وسبعين وخمسمائة ، فأضاف إليه أخوه السلطان صلاح الدين الإسكندريةَ، وبقيت نوابه باليمن يحمِلون إليه الأموالَ من زَبِيدَ إلىٰ أن تُوفِّى بالإسكندرية فى سنة ست وسبعين

(١) صوابه "أخوه" كما فى تاريخى أبى الفداء والقرمانى .

وخمسمائة ، فاضطرب أمرُ اليمن ، فوجّه السلطانُ صلاح الدين إليه أميرا ، فعزل عنه حطّانَ بن كامل وتولّىٰ مكانه ، ثم توفى الأمير فعاد حِطّانُ إلىٰ ولايته .

ثم بعث السـلطان صلاح الدين أخاه (سيف الإسلام طغتكين) بن أيوب إلىٰ اليمن فقبض علىٰ حطّان وآستقر فى مملكة اليمن ، و بقى به حتّى مات بزبيد فى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة .

ثم ملك بعده آبنه (الملك العزيز إسماعيل) فأساء السيرة فقتله أمراؤه .

وملك بعده أخوه (الناصرُ) صغيرا ، فقام بتدبير مملكته سـنقر مملوكُ أبيه أربع سنيـــن ثم مات ، فتزوّج أمَّ الناصر غازى بن جبريل : أحد أمراء دولتـه وقام بتدبيرها ، ثم مات الناصر و بقى (غازى) فى المملكة فقتـله جماعة من العرب ، فغلبتْ أم الناصر علىٰ زَبِيدَ .

وكان (سليمانـــ بن شاهنشاه) بن المظفر تقىّ الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب قد خرج فقيرا ، فاتفق أن وافى اليمنَ فتزوّج أمَّ الناصر وملك اليمن فأســاء السـيرة ، فبعث إليه عمُّه الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ، آبنَه (الملك المسعود) أطسز المعروف باقسيس ، فى جيش فملك اليمنَ من سليمان ، ثم كَرِه المُقامَ فيه فسار قاصدا الشام فتوفى بمكة ، وهو آخر ملوكها من بنى أيوب .

الطبقـــة العـاشرة

(دولة بنى رَسُول . وهم القائمون بها الان)

وأوّلُ من ملكها منهم علِيُّ بن رسول . وذلك أنه لما تُوُفِّيَ الملكُ المسعودُ أقْسيس ابن الملك الكامل محمد ، كان معه أميراخور لابيه اسمه رسول ، فلمـا خرج الملك

المسعود يريد الشام ، آستخلف على اليمن (علىّ بن رسول) المذكور ، فاستقر نائبا باليمن لبنى أيوب حتى مات سنة ثلاثين وستمائة ، ووقع فى "التعريف" : أن المستقر فى اليمن أوّلا هو رسولُ والدُ علىّ المذكور ، ولم أره فى تاريخ .

ثم آستقر بعد علىّ بن رسول المذكور فى النيابة ولدُه الملك المنصور (عُمَر آبن علىّ) . ثم تغلب على اليمن وخرج عن طاعة بنى أيُّوبَ ملوك مصر ، واستقلّ بمُلْك اليمن ، وتلقب بالملك المنصور ؛ ثم قُتِل فى سنة ثمان وأربعين وستمائة .

وملك بعده آبنه الملك المظفَّر شمس الدين (يوسف بن عمر) بن على بن رسول ، وصَفَا له ملك اليمن وطالت مدّتُه ، وأرسل إلى الملك المنصور قلاوون صاحب الديار المصرية حينئذ هديةً نفيسةً ، وسأل أن يكتُب له أمانا ، فقُبِلتْ هديته وكُتِب له بالأمان ، وقُرِّرتْ عليه إتاوةٌ لملوك مصر ، وأعيدت رُسُله فى سنة ثمانين وستمائة . ومات بقلعة تعِزّ سنة أربع وتسعين وستمائة .

وملك بعده آبنه الأشرفُ ممهِّد الدين (عمر بن المظفَّر يوسف) وبقِىَ حتّى مات سنة ست وتسعين وستمائة .

ثم ملك بعده أخوه الملك المؤيد (هزبر الدين داود) وآستمرّ على مواصلة ملوك مصر بالهدايا والتُّحَف والضريبةِ المقررة عليه . وتَمَذْهب بمذهب الشافعى رضى الله عنه وآشتغل بالعلم وآعتنى بجمع الكتب ، حتّى آشتملت خزائنُه على مائة ألف مجلَّد ، وبَرَّ العلماءَ ، وكانت تُحَفُه تصل إلى الشيخ تقىّ الدين بن دقيق العيد رحمه الله فى كل وقت ؛ وتوفى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة .

وملك بعده آبنه الملك المجاهد (سيف الدين على) وكان فى الايام الناصرية

"محمد بن قلاوون" صاحبِ الديار المصرية ، فأساء السيرة ، فقُبِض عليه وخُلِع وحُبِس فى سنة ثنتين وعشرين وسبعمائة .

وملك بعده عمه الملك المنصور (أيوب بن المظفَّر يوسف) ثم قتله شِيعة المجاهد، وأعادوا الملِكَ المجاهدَ . وكان الظاهر أسد الدين عبد الله بن المنصور أيوب بحصن الدُّمْلُوة المقدّم ذكره فعصىٰ عليــه ، وملك عَدَنَ وغيرها . وبعث الملك المجاهد للملك الناصر "محمدبن قلاوون" يستصرخه علىٰ الظاهر عبد الله . فجهز إليه العساكر فوصلت إليه ســنة خمس وعشرين وســبعمائة، فأوقعوا الصلح بينهما علىٰ أن تكون الدُّمْلوة للظاهر المذكور، وتَمَهَّــد اليمنُ للمجاهد، وآستنزل الظاهرَ عن الدُّمْلُوة، ثم قبض عليه وقتـــله .

ثم حج المجــاهد سنة إحدىٰ وخمســين وسبعمائة فى أيام الملك "الناصر حسن" آبن محمد بن قلاوون صاحب مصر .

وكان الأمير طاز أحدُ أكابر أمراء الديار المصرية قد حج، وأُشِيعَ أن المجاهد يريد كسوة الكعبة فى تلك الســنة، فوقعت الفتنــة بين العسكر المصرىّ والمجاهد، فانهزم المجــاهد ونُهِبت عساكره وسائر أهل اليمن ، وأُسِر المجاهد صاحب اليمن وحُمِل إلىٰ مصر فاعتُقِل بها، ثم أُطْلِق سنة ثنتين وخمسين وسبعمائة فى دولة الصالح، ووُجِّه معه بالأمير قشتمر المنصورى ليوصله إلىٰ بلاده، فلما بلغ به اليَنْبُعَ ، آرتاب منه فى الهرب، فرجع به إلىٰ مصر (١) ، فحُبِس فى الكَرَك من بلاد الشام، ثم أُطْلِق وأُعِيدَ إلىٰ مُلْكه ، وأقام علىٰ مداراة صاحب مصر إلىٰ أن توفى سنة ست وستين وسبعمائة .

---

(١) عبارة "العبر" فرده وحبسه بالكرك .

وملك بعده آبنه الملك الأفضل (عباس) بن المجاهد علىّ، فاستقام له مُلْك اليمن وبقى حتى مات سنة ثمان وسبعين وسبعمائة .

وملك بعده آبنه الملك المنصور (محمد) ومات .

وملك أخوه الملك الأشرف (إسماعيل) بن الأفضل عباس، فاستقام أمره بها، ثم مات .

وولى بعده آبنه (١) وهو بن الأشرف إسماعيل، بن الأفضل عباس، آبن المجاهد على، بن المؤيد داود، بن المظفر يوسف، بن المنصور عمر، بن على، آبن رسول؛ وهو باق باليمن إلى آخر سنة آثنتى عشرة وثمانمائة .

وله مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، يأتى ذكرها فى المكاتبات إن شاء الله تعالى .

الجملة السادسة

(فى ترتيب هذه المملكة على ماهى عليه فى زمن بنى رسول: ملوكِها الآن : فى مقدار عساكرها، وزِىِّ جُنْدها، وبيان أرباب وظائفها، وحال سلطانها)

أما مقدار عساكرها . فقد قال فى "مسالك الأبصار" : أخبرنى أقضى القُضاة، أبو الربيع : سليمان بن محمد، بن الصدر سليمان (وكان قد توجه إلى اليمن، وخدم فى ديوان الجيوش به) أن جميع جُنْد اليمن لا يبلغ ألفَىْ فارس . قال : وينضاف إليهم من العرب المدافعين فى طاعته مثلُهم، وأرانى جَرِيدةً للجيش تشهد بما قال .

---

(١) بياض فى الاصل .

وذكر أن غالب جُنْده من الغُرَباء . ونَقَل عن الحكيم "صلاح الدين بن البرهان" أن الإمرة عنـدهم قد تُطْلَق علىٰ من ليس بأمير؛ وأما الإمرة الحقيقيـة التى ترفع بها الأعلام والكُـوسات ، فإنها لمَنْ قَلَّ ؛ وربمـا أنه لا يتعدّى عدّةُ الأمراء بها عشرةَ نفر .

وأما زِىُّ السلطان والجُنْد بها ، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن لِبَاس السلطان وعامّةِ الجند باليمن أقْبِيةٌ إسلامية ، ضَيِّقة الأكمام ، مزنّدة علىٰ الأيدى ، وفى أوساطهم مَناطِقُ مشـدودةٌ ، وعلىٰ رءوسهم تخـافِيفُ لانس ، وفى أرجلهـم الدلاكسات ، وهى أخفاف من القماش الحرير الأطلس والعتّابىّ وغير ذلك .

قال المقر الشهابىّ بن فضـل الله : وقد حضر علىّ بن عمر بن يوسف الشهابىّ : أحدُ أمراء الملك المجاهد باليمن إلىٰ الديار المصرية ، فى وحْشَـة حصلت بينه وبين سلطانه ، وهو بهـذا الزِّىّ خلا الدلاكس فإنه قلعـه ولبس الخُفّ المعتـاد بالديار المصرية؛ وكان يحضُر المَوْكب السلطانىّ بالديار المصرية ، وهو علىٰ هذا الزِّىّ .

وأما شـعار السلطنة ، فقد ذكر عن الحكيم بن البرهان أيضا أن شِـعَار سلطان اليمن وَرْدةٌ حمراء فى أرض بيضاء . قال المقر الشهابىّ بن فضـل الله : ورأيت انا السَّنْجق اليمنىّ ، وقد رُفِع فى عَرَفات سـنة ثمـان وثلاثين وسبعمائة ، وهو أبيضُ فيه وردات حُمْر كثيرة .

وأما أرباب الوظائف ، فنقل عن ابن البرهان أن باليمن اربابَ وظائفَ : من النائب ، والوزير ، والحاجب ، وكاتب السر ، وكاتب الجيش وديوانِ المـال . وبها وظائف الشادّ والولاية ، وأنه يتشبه بالديار المصرية فى أكثر أحواله . قال : أما كُتّاب الإنشاء ثَمّ ، فإنه لا يجمعهـم رئيس يرأس عليهم يقرأ ما يرد علىٰ السـلطان

ويُجاوب عنه ويتلقّى المراسيم وينَفِّذها ، وإنما السلطان إذا دعتْ حاجته إلىٰ كتابة كُتُب ، بعث إلىٰ كل منهم مايكتبه . فإذا كتب السلطان مارَسَم له به ، بعثه علىٰ يد أحد الخِصْيان فقدّمه إليه ، فيُعَلِّم فيه وينَفِّذه .

قال المقر الشهابىّ بن فضل الله : وعادةُ ما يُكْتَب عنه فى ديوان الإنشاء كعادة الديار المصرية فى المصطَلَح . قال : ورأيت علامة الملك المؤيَّد داودَ علىٰ توقيع مثالها "الشاكر لله علىٰ نعمائه" فى سطر ، وتحته "داود" فى سطر آخر .

وأما ترتيب أحوال السلطان ، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن صاحب اليمن قليلُ التصدّى لإقامة رسوم المَوَاكب والخدمة والاجتماع بولاة الأمور ببابه ، فإذا احتاج أحد من أمرائه وجنده إلىٰ مراجعته فى أمر ، كتب إليه قصة يستأمره فيها ، فيكتب عليها بخطه مايراه ؛ وكذلك إذا رُفِعت إليه قِصَص المظالم هو الذى يكتب عليها بخطه بما فيه إنصاف المظلوم .

ونقل عن ابن البرهان : أن ملوك اليمن أوقاتُهم مقصورةٌ علىٰ لَذَّاتهم ، والخلوة مع حَظَاياهم وخاصَّتِهم من النُّدَماء والمُطْرِبين ، فلا يكاد السلطان يُرىٰ ، بل ولا يسمع أحد من أهل اليمن خبرا له علىٰ حقيقته ، وأهلُ خاصَّته المقرَّبون الخِصْيانُ ؛ وله أرباب وظائفَ للوقوف بأموره ؛ وهو ينحو فى أموره مَنْحىٰ صاحب مصر : يتسَمَّع أخباره ، ويحاول اقتفاء آثاره فى أحواله ، وأوضاع دولته ؛ غيرأنه لايصل إلىٰ هذه الغايه ، ولا تَخْفِق عليه تلك الرايه ؛ لقصور مَدَد بلاده ، وقلَّة عَدَد أجناده ؛ وللتُّجَّار عندهم موضع جليل ، لأن غالب متحَصِّلات اليمن منهم وبسببهم ، وغالب دَخْله من التُّجَّار والجَلَّابة بَرًّا وبحرا . ولذلك كانت مملكة بنى رسول هذه أكثرَ مالا من مملكة الشُّرَفاء بصنعاء وما والاها المجاورة مملكة بنى رسول البحر .

وصاحب اليمن لاينزل فى أسفاره إلا فى قُصور مبنيّةٍ له فى منازلَ معروفة من بلاده ، فحيثُ أراد النزول بمنزلة وجد بها قصرا مبنيًّـا ينزل به . قال : وإنمـا تجتمع لهم الأموال لقـلة الكُلَف فى الخَرْج والمصـاريف والتكاليف ؛ ولأن الهنـد يُمِدُّهم بمراكبه ، ويواصلهم ببضائعه .

قال فى "مسالك الأبصـار" : ولا تزال ملوكُ اليمن تسـتجلِب من مصر والشام طوائفَ من أرباب الصناعات والبضائع ببضائعهم على اختلافها . قال اقضى القضاة أبو الربيع سـليمان بن الصـدر سليمان : وصاحبُ هـذه المملكة أبدا يَرْغَب فى الغُرباء ، ويُحْسِن تَلَقِّيهم غاية الإحسان ، ويستخدمهم بمـا يناسب كُلًّا منهـم ، ويتَفَقَّدُهم فى كل وقت بمـا يأخُذُ به قلوبَهُم ويوطِّنُهم عنده .

وذكر فى "مسالك الأبصار" عن ملوك هـذه المملكة : أنهم لم يزالوا مقصودين من آفاق الأرض ، قَلَّ أن يبقى مُجِيـدٌ فى صنعة من الصنائع إلا ويصـنع لأحدهم شيئا على آسمه ، ويُجِيد فيـه بحسب الطاقة ، ثم يجهِّزه إليـه ويقصـده به فيقدّمه إليه ، فيُقْبِل عليـه ويَقْبَل منه ، ويُحْسِن نُزُله ، ويُسْنِي جائزته ؛ ثم إن أقام فى بابه ، أقام مُكْرَما محترَما ، أو عاد محَبْوًا محبورا ؛ يجْزِلون من نِعَمهم العَطايا ، ويُثْقِلون بكرمهم المَطَايا ؛ ماقصدهم قاصد إلا وحصـل له من البِرّ والإيناس وتنويع الكرامة مايُسْلِيهم عن الأوطان ؛ ولكنهم لايسْـمحون بعَوْدِ غريب ، ولا يَصْفَحون فى زَلَلٍ عن بعيـد ولا قريب ؛ فإن أراد الآرتحالَ عن دارهم ، مَكَّنُوه من العَوْد كما جاءهم ؛ وخرج عنهم على أسـوإ حال ، مسلوبًا ما آسـتفاد عندهم من نعمة ، عقابًا له على مفارقته لأبوابهـم لابُخْلا بمـا جادُوا به . أما من قدّم إليهم القولَ بأنه أتاهم راحلًا

لامُقيما، وزائرا لامُستديما، فإنهم لايُكلِّفونه المُقامَ لديهم، ولا دواما فى النزول عليهم؛ بل يُجْزِلون إفادته، ويُجْمِلون إعادته .

ثم بعد أن ذكر مابين صاحب اليمن هذا وبين إمام الزَّيْدية باليمن من المشاجرة والمهادنة تارةً والمفاسخة أخرىٰ ، قال : وصاحبُ اليمن لاعدوَّ له ، لأنه محجوب ببحرٍ زاخر وبرٍّ منقطِع من كل جهة ، وللمسالمة بينه وبينهم ، فهو لهذا قريرُ العين ، خالى البال، لايُهِمُّه إلا صيد، ولا يَهِيجه إلا بَلْبال . قال : وهم مع ذلك علىٰ شدّة ضبطٍ لبلادهم ومَنْ فيها ، وآحترازهم علىٰ طُرُقها برًّا وبحرا من كل جهة ، لا يخفىٰ عليهم داخل يدخل إليها، ولا خارج يخْرُج منها؛ ومع ذلك فهو يُدارى صاحبَ مصر ويُهاديه، لمكان إمكان تسلُّطه عليه من البر والبحر الحجازى"؛ ولذلك آكتتب الملك "المؤيد داود" وصيةً أوصىٰ فيها الملك الناصرَ "محمد بن قلاوون" صاحب الديار المصرية علىٰ آبنه الملك المجاهد علىّ . فلما مات المؤيد نَجَم على آبنه المجاهد ناجِم ، فبعث بوصيةِ أبيه إلىٰ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، فجهز معه عسكرا إلىٰ اليمن فمنعه من عدوّه الناجم عليه، ومكّن له فى اليمن وبسط يَدَه فيه .

القسم الثانى
(من اليمن النُّجُود)

وهى ما آرتفع من الأرض؛ وبها مستَقَرّ أئمة الزيدية الآن .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى شديدة الحرّ، وقد آنطوىٰ فيها جُزْء من اليمن، وإن كان ما بيد أولاد رسول هو الجزء الوافرُ الأعظمُ .

وفيه أربع جمل :

الجمـــــلة الأولىٰ

(فيما آشتملت عليه من النواحى، والمُدُن، والبلاد)

قال فى "مسالك الأبصار" حدّثنى الحكيم صلاح الدين بن البرهان : أن اليمن منقسم إلىٰ قسمين : سواحِلَ ، وجبالٍ ؛ وأن السواحل كلّها لبنى رسول ، والجبالَ كلّها أو غالبها للأشراف . قال : وهى أقلُّ دَخْلا من السواحل : لَمَدَد البحر لتلك وآتصالِ سبيلها عنه ، وآنقطاع المَدَد عن هذه البلاد لآنقطاع سبيلها من كل جهة .

قال : وحدّثنى أبو جعفر بنُ غانم : أن بلاد الشُّرَفاء هؤلاء متصلةٌ ببلاد السَّراة ، إلىٰ الطائف ، إلىٰ مكة المعظَّمة .

قال : وهى جبال شامخة ، ذاتُ عيون دافِقَة ومياهٍ جارية ، علىٰ قُرًى متصلة ، الواحدةُ إلىٰ جانب الأخرىٰ ؛ وليس لواحدة تعلق بالأخرىٰ بل لكل واحدة أهلٌ يرجع أمرُهم إلىٰ كبيرهم ، لا يضمُّهم مُلْك مَلِك ، ولا يجمعهم حُكْم سلطان ؛ ولا تخلو قرية منها من أشجار وعُرُوش ذوات فواكِهَ أكثرُها العنبُ واللوز ؛ ولها زروع أكثرها الشعير ، ولأهلها ماشية أعوزَتْها الزرائبُ ، وضاقت بها الحظائر .

قال : وأهلها أهلُ سلامة وخير وتمسُّك بالشريعة ووقوفٍ معها ، يعَضُّون علىٰ دينهم بالنَّواجِذ ، ويَقْرُون كلَّ مَنْ يمرّ بهم ، ويُضَيِّفُونه مدّةَ مقامه حتّٰى يفارقهم . وإذا ذَبَحوا لضيفهم شاةً ، قدّموا له جميعَ لحمها ورأسَها وأكارعَها وكبدَها وقلْبَها وكَرِشَها ، فيأكل ويحمِلُ معه ما يحمِل . ولا يسافر أحد منهم من قرية إلىٰ أخرىٰ إلا برفيق يسترفِقُه منها فيخْفُره ، لوقوع العداوة بينهم .

ثم هى تشتمل علىٰ عدّة حصون وبلاد مُخْصِبة .

وقاعدتها مدينة (صَنْعاَ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الصاد المهملة وسكون النون وعين مهملة وألف ممدودة . وهى مدينة من نُجُود اليمن، واقعةٌ فى أوائل الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الاطوال" حيث الطولُ سبعٌ وستون درجة، والعرض أربعَ عشرةَ درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "الروض المعطار" : وآسمها الأوّل « أُوَال »(١) يعنى بضم الهمزة وفتح الواو من الأوّلية بلغتهم . فلما وافَتْها الحبشة ونظروا إلىٰ بنائها ، قالوا : هذه صنعة، ومعناه بلغتهم حصينة فسمِّيت صنعاءَ من يومئذ . قال : والنسبة إليها صَنْعانِىٌّ علىٰ غير قياس . ويقال : إنها أوّل مدينة بُنيتْ باليمن .

ثم اختلف : فقيل بناها سامُ بن نوح عليه السلام ؛ وذلك أنه طلب مكانا معتدلَ الحرارة والبُرودة فلم يجد ذلك إلا فى مكان صنعاءَ فبنىٰ هذه المدينةَ هناك . وقيل بنَتْها عادٌ .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من اعظم مُدُن اليمن ؛ وبها اسواق ومتاجِرُ كثيرة؛ ولها شَبَه بِدمَشْق : لكثرة مياهها وأشجارها ؛ وهواؤها معتدل؛ ونتقارب فيها ساعات الشتاء والصيف؛ وفى أطول يوم فى السنة يكون الشاخصُ عند الآستواء لاظِلَّ له .

وقال فى موضع آخر : تُشْبِه بَعْلَبَكَّ فى الشام، لتَمامها الحَسَن وحُسْنِها التَّام؛ وكثرة الفواكه، تقع بها الأمطار والبَرَد . وهى كرسىُّ ملوك اليمن فى القديم ، ويقال إنها كانت دار ملك التَّبابعة . قال فى "الروض المعطار" : وهى علىٰ نهر صغير يأتى

(١) كذا فى "العبر" أيضا والذى فى معجم البلدان والقاموس فى مادة أزل أن آسم صنعاء "أزال" كسحاب أى بالزاى المعجمة فتأمل .

إليها من جبل في شماليها، ويمرّ مُنْحَدِرا إلى مدينة ذَمَار، ويصب في البحر الهندي"، وعِمارتُها متصلة، وليس في بلاد اليمن أقدَمُ منها عمارةً، ولا أوسعُ منها قُطْرا .

قال في " تقويم البُلْدان " : وكانت في القديم كرسيّ مملكة اليمن . قال : وبها تلّ عظيم يعــرف بغُمْدانَ، كان قصرا ينزِلُه ملوكُها . قال في " الروض المِعْطار " : وهو أحد البيوت السبعة التي بُنِيت على آسم الكواكب السبعة ، بناه الضَّحَّاك على آسم الزُّهَرة ، وكانت الأمم تحُجُّه فهــدمه عثمانُ رضي الله عنــه فصار تلّا عظيما . قال في " تقويم البُلْدان " : وهي شرقِيّ عدَنَ بشَمال في الجبال .

ولهــا عِدّة بلاد وحصون مضافةٍ إليها، جاريةٍ في أعمالها .

منهــا (كَحْلانُ) ــ بفتح الكاف وسكون الحــاء المهــملة ثم لام ألف ونون في الآخر . وهي قلعة من عمل صنعاءَ على القرب منها . قال آبن سعيد : كان بها في أوّل المــائة الرابعة بنو يَعْفُرَ من بقايا التبابعــة . قال : ولم يكن لهــا نَبَاهة في المُلْك إلى أن سكنها بنو الصُّلَيْحي"، وغلب عليهــا الزيديّة ، ثم السُّلَيْمانيُّون بعد بني الصُّلَيْحي" .

ومنها (نَجْرانُ) . قال في " اللبــاب " : بفتح النون وسكون الجيم وراء مهملة وألف ونون في الآخر . قال الأزهري : وسميت بنَجْــرانَ بن زيد ، بن سبإ ، ابن يشْجُب ، بن يَعْرُب ، بن قحطان . وهي بلدة من بلاد قبيــلة هَمْدانَ ، واقعةٌ في الإقليم الأوّل . قال في " الأطوال " حيث الطول سبع وستون درجة ، والعرض تسعَ عشرةَ درجة .

قال في " تقويم البُــلْدان " : وهي بُلَيْــدة فيها نخيل ، بين عدَنَ وحَضْرموتَ، في جبال بين قرًى ومدائنَ وعمــائرَ ومياهٍ ، تشتمل على أحياءٍ من اليمن، وبها يُتَّخذ

الأَدَم؛ وهى شرقىّ صنعاء بشَمَال؛ وبها أشجار، وبينها وبين صنعاء عشرُ مراحلَ، ومنهـا إلىٰ مكة عشرون يومًا فى طريق معتـدلٍ . وجعلها صاحب الكِمَام صُقْعا مفردا عن اليمن .

ومنها (صـعدةُ) . قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح الصـاد وسكون العين المهملتين ودال مهملة وهاء فى الآخر . قال فى "الروض المِعْطار" : والنسبة إليها صاعِدِىٌّ علىٰ غير قياس . قال فى "القانون" : وتسمى (غَيْلَ) أيضا . وهى بلدة علىٰ ستين فرسخا من صنعاء؛ وموقعها فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السـبعة . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ سبع وسـتون درجة وعشرون دقيقةً، والعرضُ ستَّ عشرةَ درجة . قال فى "العزيزىّ" : وهى مدينة عامرة آهلة خِصْبة، وبها مدابغ الأَدَمِ وجلودِ البقر، التى تُتَّخذ منها النِّعَال .

ومنها (خَيْوانُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الخـاء المعجمة وسـكون المثناة من تحت وفتح الواو، ثم ألف بعدها نون . وهى صُقْع معروف باليمن، واقعٌ فى الإقليم الأوّل . قال فى "الأطوال" : حيث الطولُ سـبع وستون درجةً وإحدىٰ وعشرون دقيقة، والعرض خمسَ عشرةَ درجة وعشرون دقيقـة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلاد تشتمل علىٰ قُرًى ومَزارعَ ومياه، معمورةٌ بأهلها، وبها أصـناف من قبائل اليمن . قال المهلبىّ : وهى طَرَف منازل بنى الضَّحّاك من بنى يَعْفُر من بقَايَا التبابعـة؛ وماؤها من السماء . قال الإدريسىّ : وبينهـا وبين صَعْدَةَ ستةَ عشرَ فرسخا . وقال المهلبىّ : بينهما أربعة وعشرون ميلا .

ومنها (جُرَشُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الجيم وفتح الراء المهملة وشين [معجمة](١) فى الآخر . وهى بلدة باليمن، موقعها فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة .

(١) الزيادة عن التقويم .

قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ سبع وستون درجةً وخمسون دقيقة ، والعرضُ سبعَ عشْرةَ درجة . وهى بلدة بها نَخِيل ، مشتملةٌ علىٰ أحياء من اليمن ، ويُتَّخَذ بها الأَدَمُ الكثير . قال فى "العزيزى" : وهى بلدة صالحة ، وحولها من شجر القَرَظ مالا يُحْصىٰ ، وبها مَدَابِغُ كثيرة . قال الإدريسىّ : وهى ومدينة نَجْرانَ متقاربتانِ فى المقدار والعمارة ، ولهما مزارعُ وضياعٌ وبينهما ستُّ مراحل .

ومنها (مَأْرِبُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وهمزة ساكنة وراء مهملة مكسورة وفى آخرها باء موحدة . وذكر أنه رآها مكتوبةً فى الصحاح كذلك ؛ ثم قال : والمشهور فتح الهمزة ومدّها . وهى مدينة علىٰ ثلاثِ مراحلَ من صنعاءَ ، واقعةٌ فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ ثمانٌ وستون درجة ، والعرضُ أربعَ عشْرةَ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى فى آخر جِبَال حَضْرَمَوْتَ ، ويقال لها مدينة سَبَإٍ ، تسميةً لها باسم بانيها ، وبها كان السَّدّ . قال : وكانت قاعدةَ التبابعة وهى اليومَ خرابٌ .

ومنها (حَضْرَموتَ) . قال فى "اللباب" : بفتح الحاء المهملة وسكون الضاد المعجمة وفتح الراء المهملة ، وبعدها ميم مفتوحة وواو ساكنة وتاء مثناة من فوقها فى الآخر . وهى ناحية من نَوَاحى اليمن ، وأعمالُها أعمال عريضةٌ ، ذاتُ شجر ونخل ومزارع .

قال الأزهرىّ : وسميت حَضْرَمَوْتَ بحاضر ، بن سنان (١) ، بن إبراهيم ، وكان أوّل مَنْ نزلها .

(١) كذا فى تاريخ أبى الفدا أيضا . وفى معجم ياقوت "سميت بحاضرميت وهو أوّل من نزلها" .

قال صاحب "العبر" : وكانت بلادُ حضرموْتَ لعادٍ مع البحريْنِ وعُمَانَ ، ثم غلبهم عليها بنو يَعْرُبَ بنِ قحطانَ ، حين ولّى أولادَه البلادَ أعطىٰ هذه آبنه حضرموتَ فعُرِفتْ به . والنسبة إليها حَضْرَمِىّ ، وقصبتها مدينة "شِبَامَ" . قال فى "اللباب" : بكسر الشين المعجمة وفتح الباء الموحدة وألف وميم ، ووهم آبن الأثير فى "اللباب" (١) : فجعل شِبامَ قبيلةً لا بلدا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى خارجة عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلىٰ الجَنُوب . قال فى "الأطوال" : وهى حيثُ الطولُ إحدىٰ وسبعون درجةً ، والعرضُ آثنتَا عشْرةَ درجة وثلاثون دقيقة ، وهى قلعة فوق جبل منيع فيه قُرًى ومزارعُ كثيرةٌ . قال فى "العزيزى" : وفيه سُكّان كثيرة . قال : وفيه مَعْدن العَقِيق والجَزْع . وبينها وبين صنعاء أحدٌ وعشرون فرسخا ، وقيل إحدىٰ عشرةَ مرحلةً ، وبينها وبين ذَمارِ مرحلةٌ واحدة .

الجملة الثانية

(فى الطرق الموصلة إلىٰ هذه المملكة)

قد تقدّم أن الطريق من مصر إلىٰ مكة معروفة . قال آبن خرداذبه : ثم من مكة إلىٰ بئر ابن المرتفع ، ثم إلىٰ قَرْن المَنَازل : قرية عظيمة ، وهى ميقاتُ أهل اليمن للحَجّ منه يحْرِمون ، ثم إلىٰ الفُتُق : وهى قرية كبيرة ، ثم إلىٰ صَقْر ، ثم إلىٰ تُرَبَة : وهى قرية كبيرة ، ثم إلىٰ كُدَىّ ، وفيها نخيل وعيون ، ثم إلىٰ رَنْيَةَ ، وفيها نخيل وعيون أيضا ، ثم إلىٰ تَبالةَ ، وهى مدينة كبيرة فيها عيون جارية ، ثم إلىٰ جَسَداء وفيها بئر ولا أهلَ فيها ، ثم إلىٰ كشة ، وهى قرية عظيمة فيها عيون وحَرَس ، ثم إلىٰ

---

(١) عبارة "معجم البلدان" وغلط آبن الاثير فى تغليطه للسمعانى حيث قال شبام قبيلة وليست بمكان [فلعل لفظ فى اللباب من زيادة الناسخ] .

بِيشة يَقْطان ، وفيها ماءٌ ظاهر وكَرْم ، والحَرَس منها على ثلاثة أميال ؛ ثم إلى المَهْجَرة ، وهي قرية عظيمة فيها عيون وفيما بين سروم راح والمَهْجرة طَلْحة المَلِك : وهي شجرة عظيمة . وهناك حدٌّ ما بين عَمَل مكة المشرّفة وعَمَل اليمن ؛ ثم منها إلى عَرِقة ، وماؤها قليل ولا أهْل فيها ؛ ثم إلى صَعْدَة ، وقد تقدّم ذكرها ؛ ثم إلى الأعْمَشِيَّة ، وفيها عين صغيرة ولا أهْل فيها ؛ ثم إلى خَيْوان ، وقد تقدّم ذكْرُها ؛ ثم إلى أثافت ، وهي مدينة فيها زرع وكَرْم وعيون ؛ ثم إلى مدينة صَنْعاء ، وهي قاعدة هذه المملكة على ماتقدّم .

الجملة الثالثة

(فيمَنْ ملك هذه المملكة إلى زماننا)

قد تقدّم في الكلام على صنعاء أنها كانت قاعدةَ مُلْك التبابعة ، وقد مَرَّ القولُ عليهم في الكلام على ملوك اليمن في مملكة بني رَسُول ، في القسم الأوّل من اليمن .

أما حَضْرَمَوْتُ ، فقد قال عليّ بن عبد العزيز الجُرْجاني (١) : إنه كان لهم في الجاهلية ملوكٌ يُقارِبون مُلوكَ التّبابعة في عُلُوّ الصِّيت ونَبَاهة الذِّكر . ثم قال : وقد ذكر جماعةٌ من العلماء أن أوّل من ٱنبسطت يَدُه منهم ، وٱرتفع ذكره (عَمْرو بنُ الأشْنب) ٱبن رَبِيعة ، بن يرام ، بن حَضْرَمَوْت ؛ ثم خلفه ٱبنه (نَمِر الأزَجّ) فملكهم مائة سنة ، وقاتل العمالقة .

ثم ملك بعده ٱبنه (كُرَيب ، ذو كراب) بن نمر الأزج مائة وثلاثا وثلاثين سنة .

ثم ملك بعده (مَرْثَد ذومران) بن كُرَيب مائة وأربعين سنة ؛ وكان يسكن مَأرِبَ ، ثم تحوّل إلى حَضْرَمَوْتَ .

---

(١) نقل في "العبر" ج ٢ ص ٣٠ هذه العبارة بزيادة في الملوك وبعض تغيير في أسمائهم فارجع اليه .

ثم ملك بعده ٱبنه (عَلْقمة، ذوقِيقَان) بن مرثد ذى مُرَّان ثلاثين سنة .

ثم ملك بعده ٱبنه (ذوعيل) بن ذى قيقان عشرين سنة . ثم تحوّل من حضرموت إلىٰ صنعاء وٱشتدّت وَطْأته . وهو أوّل من غزا الرُّوم من ملوك اليمن ، وأدخل الحرير والدِّيباجَ اليمن .

ثم ملك بعده ٱبنه (بدعيل بن ذى عيل) أربع سنين ، وبنىٰ بها حصونا وخَلَّف آثارا .

ثم ملك بعده ٱبنه (يدنو ذوحمار) بن بدعيل بحضرموت وبحر فارس ، وكان فى أيام سابُورَ ذى الأكتاف من ملوك الفرس ، ودام ملكه ثمانين سنة ، وهو أوّل من ٱتخذ الحُجّابَ من ملوكهم .

ثم ملك بعده ٱبنه (ليَشْرح) ذو المُلْك ، بن ودب ، بن ذى حمار ، بن عاد من بلاد حضرموت مِائةَ سنة ، وهو أوّل من رتب المراتب ، وأقام الحَرَس من ملوكهم .

ثم ملك بعده (ينعم) بن ذى الملك دثار بن جذيمة .

ثم ملك بعده (سابِحى) بن نمر ، وفى أيامه تغلبت الحبشةُ علىٰ اليمن ، وقد مرّ القول علىٰ ملكهم ثم مُلْكِ الفُرْسِ بعدهم إلىٰ ظهور الإسلام فى الكلام علىٰ ملوك اليمن فى القسم الأوّل من اليمن ، فأغنىٰ عن إعادته هنا .

وأما نَجْرانُ وجُرَشُ ، فإنهما [كانا] بيَدِ جُرْهُم من القحطانية ، ثم غلبهم علىٰ ذلك بنو حِمْيرَ ، وصاروا وُلاةً للتبابعة ، فكان كُلُّ مَن ملك منهم يسمَّى أفعىٰ . ومنهم كان الأفعىٰ الذى حكم بين أولاد نِزَارِ بن مَعَدّ بنِ عَدْنان فى قصتهم المشهورة .

ثم نزل نَجْرانَ بنو مَذْحِج ، وٱستولَوْا عليها ، ثم نزل فى جِوَارهم الحارثُ بن كعب الأزدىّ فغلبهم عليها ، وٱنتهت رياسة بنى الحارث فيها إلىٰ بنى الدَّيَّان ، ثم صارت

إلىٰ بنى عبد المَدَان، إلىٰ أن كان منهم فى زمن النبيّ صلى الله عليه وسلم يزيدُ، فأسلم علىٰ يد خالد بن الوليد رضى الله عنه .

وكان منهم زيادُ بن عبد الله بن عبد المَدَان خالُ السَّفّاح، وَلّاه نجرانَ واليمامةَ، وخلّف ٱبنه محمدا ويحيىٰ، ودخلت المائة الرابعة والملك بها لبنى أبى الجُود بن عبد المَدَان، وٱتصل مجيئهم وكان آخِرُهم عبدَ القيس الذى أخذ علىٌّ بن مهدىٍّ الملك من يده .

أما فى الإسلام، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ القسم الأوّل من اليمن أيضا أنه لَمّا ظهر الإسلامُ أسلم باذانُ نائبُ الفُرْس علىٰ اليمن، وتتابع أهلُ اليمن فى الإسلام، وولّى النبىُّ صلى الله عليه وسلم علىٰ صنعاءَ شَهْرَ بنَ باذانَ المذكورِ، فلما خرج الأسود العَنْسىُّ، أخرجَ عُمّال النبيّ صلى الله عليه وسلم من اليمن علىٰ ما تقدّم، وزحف إلىٰ صنعاءَ فملكها وقتل شَهْرَ بن باذانَ وتزوّج ٱمرأته . فلما قُتِل العَنْسِىُّ ورجع عُمّالُ النبيّ صلى الله عليه وسلم إلىٰ اليمن، ٱستبدَّ بصنعاء قيسُ بن عبد يَغُوثَ المرادىُّ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأمر علىٰ ذلك .

ثم كانت خلافة أبى بكر رضى الله عنه، فولّى علىٰ اليمن (فَيْروزَ الديْلَمِىَّ) ثم ولّى بعده (المُهَاجِرَ بن أبى أُمَيَّة) . ثم توالت عُمّال الخلفاء علىٰ اليمن علىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ القسم الأوّل من اليمن . ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ أن كان أوّل المائة الرابعة بعد الهجرة أو ماقاربها، فغلب علىٰ صنعاءَ وما والاها بنو يَعْفُر من بقايا التبابعة . قال ٱبن سعيد : وكان دارُ ملكهم كَحْلانَ، وهى قلعة من عمل صنعاءَ بالقرب منها، ولم أقف علىٰ تفاصيل أحوالهم وأسماء ملوكهم .

ثم كانت دولة أئمة الزيدية القائمين بها إلىٰ الآن، وهم بنو القاسم الرَّسِّىّ،

آبن إبراهيم طباطبا، بن إسماعيل الديباج، بن عبد الله[(١)]، بن الحسن المثنّى، بن الحسن السبط، آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه .

وكان مبدأ أمرهم أن محمد بن إبراهيم طَبَاطَبا خرج بالكوفة فى خلافة المأمون، فى سنة تسع وتسعين ومائة ودعا إلىٰ نفسه ، وكان شيعته من الزَّيْدِيَّة وغيرهم يقولون : إنه مستحِقٌّ للإمامة بالتوارث من آبائه عن جدّه إبراهيم الإمام ؛ وغلب علىٰ كثير من بلاد العراق ، ثم خَمَدتْ سَوْرَتُه ، فتطلَّب المأمون أخاه القاسم الرَّسِّىّ فهرب إلىٰ الهند ، ولم يزل به حتى هلك سنة خمس وأربعين ومائتين ، فرجع آبنه الحسين بن القاسم الرسىّ بن إبراهيم طباطبا إلىٰ اليمن، فكان من عقبه هؤلاء الأئمة .

وأوّل من خرج منهم باليمن (يحىٰ بن الحسين الزاهد) بن القاسم الرسىّ ودعا لنفسه بصَعْدَةَ وتلقَّب بالهادى، وبويع بالإمامة سنة ثمان وثمانين ومائتين فى حياة أبيه الحسين، وجمع الشيعةَ وغيرهم وحارب إبراهيمَ بن يَعْفُر، ويقال أَسَد بن يعفر، القائمَ من أعقاب التبابعة بصنعاء وكحلان، وملك صنعاء ونجرانَ وضرب السكة باسمه .

قال فى "مسالك الأبصار" : وآستجاب الناسُ لندائه ، وصلَّوْا بصلاته وأَمَّنُوا علىٰ دعائه ، وقام فيهم مَقاما عظيما ، وأثّر فيهم من الصلاح أثرا مشهودا . قال : وفى ذلك يقول :

بَنِى حَسَنٍ إنِّى نَهَضْتُ بثَأْرِكُمْ * وثَأْرِ كتابِ اللهِ والحَقِّ والسُّنَنْ
وَصيَّرتُ نَفْسِى للحوادثِ عُرْضَةً * وغِبْتُ عن الإخْوانِ والأَهْلِ والوَطَنْ

ثم آرتجعهما بنو يَعْفُر منه ورجع هو إلىٰ صَعْدَة، فتوفّى بها سنة ثمان وتسعين ومائتين ، لعشر سنين من بَيْعتِه . قال آبن المحاب : وله مصنَّفات فى الحلال

(١) فى "كامل" آبن الاثير إبراهيم بدل عبد الله .

والحرام . وقال غيره، كان مجتهدًا فى الأحكام الشرعية، وله فى الفقه آراء غريبة، وتآليفُ بين الشِّيعة مشهورة . قال آبن حزم : ولم يبعُد فى الفقه عن الجماعة كلَّ البعـــد .

قال الصولىّ : ثم ولى بعده آبنه (محمد المرتضىٰ) وتمَّت له البَيْعــةُ، فاضطرب الناس عليه . قال فى "أنساب الطالبيين" : وآضْطُرَّ إلىٰ تجريد السـيف فجرّده . وفى ذلك يقول :

كَدر الوِرْد علينا بالصَّدَر * فِعْلُ مَنْ بدّلَ حَقًّا أو كَفَرْ
أيّها الأُمَّةُ عُودى للهُدىٰ * ودَعِى عَنْكِ أحاديثَ البَشَرْ
عَدِمَتْنى البِيضُ والسُّمْرُ معًا * وتَبَـــدّلْتُ رُقادًا بسَـــهَرْ
لأُجَرّنَ علىٰ أعـــدائِنا * نارَ حَرْبٍ بِضِرام وَشَرَرْ

ومات سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة لثنتين وعشرين سنةً من ولايته .

وولى بعده أخوه (الناصر) فاستقام ملكه .

ثم ولى بعده آبنه (الحُسَين) المُنْتَجَب (بالجيم) ومات سنة أربع وعشرين وثلثمائة .

وولى بعده أخوه (القاسم المختارُ) بعهد من أخيـه المذكور، وقتله أبو القاسم بن الضحاك الهَمْدانىّ سنة أربع وأربعين وثلثمائة .

وولى بعده صَــعْدةَ (جعفر الرشيد) ثم بعـــده أخوه (المختار) ثم أخوه (الحسن المنتجب) ثم أخوه (محمد المهدىّ) .

قال "آبن المحاب" : ولم تزل إمامتهم بصَعْدةَ مطردةً إلىٰ أن وقع الخلافُ بينهم وجاء السليمانِيُّون أمراء مكة حين غلبة الهواشم عليهـم فغلبوا علىٰ صـعدة فى المـائة السادســـة .

قال ٱبن سعيد : وقام بها منهم (أحمد بن حمزة) بن سليمان ، بن داود ، ٱبن عبد الله ، بن الحسن المثنّى ، بن الحسن السبط ؛ وغلب على زَبِيدَ وملكها من بنى مهدىّ ، ثم ٱنتزعها بنو مهدىٍّ منه ، وعاد إلىٰ صَعْدَة ومات .

فولِيَ بعده ٱبنه المنصور (عبد الله) بن أحمد بن حمزة ، وٱمتدّت يدُه مع الناصر لدين الله خليفة بنى العباس ببغداد ، وبعث دُعاتَهُ إلىٰ الدَّيْلم والجَبَل ، فخُطب له بهما وأقيم له بهما وُلاة . وكان بينه وبين سيف الإسلام بن أيوب ، ثم الملك مسعود ابن الملك الكامل حروب باليمن . وبقِيَ حتى توفى سنة ثلاثين وستمائة عن عمر طويل .

وولى بعده ٱبنه (أحمد) بن المنصور عبد الله بن أحمد بن حمزة ، ولقب بالمتوكل صغيرا ولم يُخْطَبْ له بالإمامة لصغر سنه .

وكان بنو الرسىّ حين غلب عليهم السليمانيون بصَعْدَةَ أوَوْا إلىٰ جبل شرقىّ صَعْدَةَ ، فلم يبرحُوا عنه ، والخبر شائع بأن الأمر يرجع إليهم ، إلىٰ أن كان المتوكل أحمد من السليمانيين ، فبايع الزيديةُ أحمدَ الموطِّئ ، بن الحسين المنتجب ، بن أحمد الناصر ، بن يحيي الهادى ، بن الحسين ، بن القاسم الرسىّ ، بن إبراهيم طباطبا ، المقدّم ذكره فى سنة خمس وأربعين وستمائة .

وكان الموطِّئُ فقيها أديبا عالما بمذهبهم ، قوّاما صوّاما ، فأهَمَّ عمرَ بنَ علىّ بن رسول صاحبَ زبيد شأنُهُ ، فحاصره بحصن ملا سنةً فلم يصل إليه ؛ وتمكن أمر الموطِّئ وملك عشرين حصنا ، وزحف إلىٰ صعْدَةَ فغلب السُّلَيمانيين عليها ، فنزل أحمدُ المتوكل : إمامُ السليمانيين إليه ، وبايعه فى سنة تسع وأربعين وستمائة ؛ وحج سنة خمسين وستمائة وبقِيَ أمرُ الزيدية بصَعْدَةَ فى عَقِبه .

وقد ذكر المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" : أنه سأل تاج الدين عبد البـاقى اليمانىّ أحدَ كُتّاب اليمن عن تفاصيل أحوال هذه الأئمة فقال : إن أئمة الزيديين كثيرون، والمشهور منهم المؤيَّد بالله، والمنصور بالله، والمهدىّ بالله، والمطَهَّر يحيى بن حمزة . قال : ويحيى بن حمزة هو الذى كان آخرا على عهد الملك المؤيَّد داود بن يوسف صاحب اليمن، وكانت الهدنُة تكون بينهما .

وذكر فى "التعريف" أن الإمامة فى زمانه كانت فى بنى المطَهَّر . ثم قال : وآسم الإمام القائم فى وقتنا حمزةُ . ثم قال : ويكون بينه وبين الملك الرسولىّ باليمن مُهادَنات ومُفـاسَخات تارةً وتارةً . قال قاضى القضاة ولىّ الدين بن خلدون فى تاريخه : وقد سمعت بمصر أن الإمام بصَـعْدةَ كان قبل الثمـانين والسبعمائة علىَّ آبنَ محمد من أعقابهم، وتوفى قبل الثمـانين، وولى آبنُه صَلَاح، وبايعه الزيديةُ . وكان بعضهم يقول فيــه : إنه ليس بإمام لعدم آجتماع شروط الإمامة، فيقول : أنا لكم على ما شئتم : إمامٌ أو سلطان .

ثم مات صَلاحٌ آخر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، وقام بعده آبنه (نَجاح) وآمتنع الزيدية من بيعته . فقال : أنا محتَسِب لله تعالى .

قلت : وقد وهم فى "التعريف" : فجعل هذه الأئمة من بقايا الحَسنِيين القائمين بآمُلِ الشَّطّ من بلاد طَبَرِسْتان، وأن القائم منهم بآمُل الشَّط بطبرستان هو الداعى المعروف بالعَلَوىّ من الزيدية، وهو الحسن، بن زيد، بن محمد، بن إسماعيل، بن الحسن السبط، بن علىّ، بن أبى طالب رضى الله عنه . خرج سنة خمس وخمسين ومائتين أو مايقاربها، فملك طَبَرِستان وجُرْجان وسائر أعمـالها ثم مات، وقام أخوه (محمد بن زيد) مقامه . وكان لشيعته من الزيدية دولةٌ هناك، ثم آنقرضت وورثها

الناصر الأُطْروش ، وهو (الحسن) بن علىّ ، بن الحسين ، بن على ، بن عمر ، بن على زين العابدين ، بن الحسين السبط ، بن علىّ ، بن أبى طالب ، وكان له دولة هناك .

ثم خرج علىٰ الأُطروش من الزيدية الداعى الأصغَرُ ، وهو (الحسن) بن القاسم ، ٱبن على ، بن عبد الرحمن ، بن القاسم ، بن محمد البطحائى ، بن القاسم ، بن الحسن ، ٱبن زيد ، بن الحسن السبط ؛ وجرىٰ بينه وبين الأُطْروش حروبٌ إلىٰ أن قتل سنة تسع عشرة وثلثمائة ؛ ويجتمع الداعى الأصغر مع الداعى الأكبر فى الحسن ٱبن زيد ؛ وليس بنو الرسىّ الذين منهم أئمةُ اليمن من هؤلاء بوجه .

الجملة الثالثة

(فى ترتيب مملكة هذا الإمام)

قال فى "التعريف" بعد أن ذكر إمام زمانه : وهذا الإمامُ وكلُّ من كان قبله علىٰ طريقة ما عَدَوْها ؛ وهى إمارة أعرابية ، لا كِبْرَ فى صدورها ، ولا شَمَمَ فى عَرَانينها ؛ وهم علىٰ مُسْكَة من التقوىٰ ، وتَرَدٍّ بشِعار الزُّهد ، يجلس فى نَدِىّ قومه كواحد منهم ، ويتحدّثُ فيهم ويحكم بينهم ، سواءٌ عنده المشروف والشَّريف ، والقوىّ والضعيف . قال : وربما ٱشترىٰ سِلْعته بيده ، ومشىٰ بها فى أسواق بَلَدِه ؛ لا يُغَلِّظ الحِجَاب ، ولا يَكِلُ الأمور إلىٰ الوزراء والحُجَّاب ؛ يأخذ من بيت المال قدرَ بُلْغته من غير توسُّع ، ولا تكثُّر [غير مشبع](١) . هكذا هو وكل من سلف قبله ، مع عدلٍ شامل ، وفضلٍ كامل .

وذكر فى "مسالك الأبصار" عن تاج الدين عبد الباقى اليمانى الكاتب نحوَ ذلك ، فقال : وأئمتهم لا يُحْجَبون ولا يحتجبون ، ولا يَرَوْن التفخيم والتعظيم ؛ الإمام

(١) الزيادة عن التعريف .

كواحد من شيعته : فى مَأْكَله ومشْرَبه ومَلْبَسه، وقيامه وقعوده، وركوبه ونزوله، وعامَّة أموره ؛ يَجْلِس ويُجالِس ، ويعود المرضىٰ ، ويصلِّى بالناس وعلىٰ الجنائز، ويُشَيِّع المَوْتىٰ، ويحضُرُ دفنَ بعضهم . قال : ولشيعته فيه حُسْن ٱعتقاد، ويستشفون بدعائه، ويُمِرّون يده علىٰ مرضاهم، ويستَسْقُون المطر به إذا أَجْدَبوا، ويبالغون فى ذلك مبالغة عظيمةً . قال "المقرّ الشهابىّ بن فضل الله" : ولا يكْبُر لإمامٍ هذه سيرته (فى التواضع لله وحسن المعاملة لخلقه، وهو من ذلك الأصل الطاهر، والعنصر الطيب) أن يُجاب دعاؤُه، ويتَقَبَّلَ منه . وينادىٰ ببلاد هـذا الإمام فى الأذان "بحىَّ علىٰ خير العـمل" بدل الحَيْعَلَتين، كما كان ينادىٰ بذلك فى تأذين أهل مصر فى دولة الخلفاء الفاطميين بها . قال فى "التعريف" : وأُمراءُ مكة تُسِرّ طاعته، ولا تُفارق جماعتَه . قال ٱبن غانم : هذا الإمام يعتَقِد فى نفسه ويعتقِدُ أشياعُهُ فيه انه إمامٌ معصوم، مفتَرَضُ الطاعه، تنعقد به عندهم الجمعةُ والجماعه؛ ويرون أنَّ ملوك الارض وسلاطينَ الأقطار يلزمهم طاعتُه ومبايعتُه، حتى خلفاء بنى العباس؛ وأن جميع من مات منهم مات عاصيا بترك مبايَعَته ومتابَعَته . قال : وهم يزعُمون ويُزْعُمُ لهم أن سيكونُ لهم دولة يُدال بها بين الأُمَم، وتملك منْتَهىٰ الهمم؛ وأن الإمام الحجةَ المنتظَر فى آخر الزمان منهم .

وذكر عن رسول هذا الإمام، الواصل إلىٰ مصر : أن الأئمة فى هذا البيت أهلُ علم يتوارثُونه : إمامٌ عن إمام، وقائمٌ عن قائم . وذكر عن بعض مَنْ مَرَّ بهم انه فارقهم فى سنة ٱثنتين وثلاثين وسبعمائة وهم لا يشُكُّون أنه قد آن أوانُ ظهورهم، وحان حينُ مُلْكِهم . ولهم رعايا تختلف إلىٰ البلاد، وتجتمع بمن هو علىٰ رأيهم . يتربَّصُون ضَعْفَ الدولة فى أقطار الأرض .

وحكى "المقرّ الشهابى بن فضل الله" عن قاضى القضاة كمال الدين محمد بن الزملكانى قاضى حلب : أنه مات رجلٌ من شيعتهم بحلب ، فوُجِد عنده صُنْدوقان ، ضِمْنهما كتبٌ من أئمة هذه البلاد إلىٰ ذلك الرجل وإلىٰ سَلَفه ، يستعرفون فيها الاخبارَ ، وأحوالَ الشِّيعة ، والسؤالَ عن أُنَاس منهم ؛ وأن فى بعضها : ولا يؤخَّر مددُ من هنا من إخوانكم المؤمنين فى هـذه البلاد الشاسعة ، وهو حق لله فيـه تزكية أموالكم ، ومَدَدُ إخوانكم من الضعفاء وٱتقوا الله و ﴿ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ .

ونَقَـل عن الشيخ شهاب الدين بن غانم : أنه حدَّثه عنـد وُصوله من اليمن أنَّ هذا الإمامَ فى مَنَعة مَنيعه ، وذِرْوة رفيعه ؛ وأنه يرْكب فى نحو ثلاثة آلاف فارس ، وأن عسكره من الرَّجالة ، خلق لاجسم . وذكر عمن أقام عندهم : أنهم أهل نَجْدة وبأْس ، وشجاعة ورأى ؛ غير أنـ عددهم قليل ، وسِلاَحهم ليس بكثير : لِضيقِ أيديهم ، وقِلّة دَخْل بلادهم . ونقل عن تاج الدين عبد الباقى اليمنى : أن قومه معه علىٰ الطَّواعيَة والآنقياد ، لا يخرج أحد منهم له عن نَصٍّ ، ولا يشاركه فيما يتميَّزُ به .

قال ٱبن غانم : وزِىّ هـذا الإمام وأتباعه زِىُّ العرب فى لبـاسهم والعمامـة والحَنَك ؛ بخلاف ما تقـدّم من زِىّ صـاحب اليمن من بنى رسول . قال الشيخ شهاب الدين بن غانم : وهـذا الإمام لا يزال صاحبُ اليمن يَرْعىٰ جانبَه ، وفى كل وقت تُعْقَد بينهما العُقود ، وتكْتَبُ الهُدَن ، وتُوثّق المواثيق ، وتُشْترَط الشروط .

قال فى "التعريف" : وقد وصل إلينا بمصر فى الأيام الناصرية (سقىٰ الله تعالىٰ عهدها) رسولٌ من هذا الإمام بكتاب اطال فيه الشكوىٰ من صاحب اليمن ، وعدّد قبـائحه ، ونَشَر علىٰ عيون النـاس فضائحه ؛ وٱستنصر بمَـدَدٍ يأتى تحت الأعلام

المنصورة لإجلائه عن دياره ، وإجرائه مُجْرىٰ الذين ظلموا فى تعجيل دَمَارِه .
وقال : إنه إذا حضَرت الجُيوشُ المؤيَّدة قام مَعَها ، وقادَ إليها الأشرافَ والعربَ أجمعَها ؛ ثم إذا آستنقذ منه ما بيده أُنْعِم عليه ببعضه ، وأُعْطِى منه ما هو إلىٰ جانب أرضه . قال : فكتبتُ إليه مؤْذِنا بالإجابه ، مؤدِّيا إليه ما يقتضى إعجابه ؛ وضمن الجواب أنه لا رغبة لنا فى السَّلَب ، وأن النُّصْرة تكون لله خالصةً وله كُلُّ البلاد لاقَدْرُ ما طلب .

وسيأتى ذكر المكاتبة إلىٰ هذا الإمام عن الأبواب السلطانية ، فى الكلام علىٰ المكاتبات ، فى المقالة الرابعة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

القُطْــــر الثـانى

(ممـا هو خارج من جزيرة العرب عن مُضَافات الديار المصرية
" بلادُ البحرين " تثنية بحر)

قال فى " تقويم البُلْدان " : بفتح الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وفتح الراء المهملة وسكون المثناة من تحت ثم نون . وهى قطعة من جزيرة العرب المذكورة .
قال فى " تقويم البُلْدان " : وهى ناحيـة من نواحى نَجْـد ، علىٰ شَطِّ بحر فارس ؛ ولهـا قُرًى كثيرة . قال : وهى (هَجَرُ) ونهايتُها الشرقيةُ الشمالية قال فى " الأطوال " ونهايتها من الشمال فى الإقليم الثـانى حيث الطولُ أربع وسبعون درجة وعشرون دقيقة ، والعرضُ خمسٌ وعشرون درجةً وخمس وأربعون دقيقة .

قال فى " المشـترك " : ويقال للبحرين هَجَرُ أيضا ـ بفتح الهـاء والجيم ثم راء مهملة وليست هَجَرُ مدينـةً بعينها . قال الأزهرىّ : وإنمـا سمِّيت هَجَرُ بالبحرَيْن ببُحَيْرة بهـا عند الاحساء وبالبحر المِلْح يعـنى بحر فارس ، والنسـبة إلىٰ البحرين

بَحْرانِىّ . قال الجوهرىّ : والنسبة إلىٰ هَجَر هاجِرِىّ على غير قياس . قال الأزهرىّ : وسميت هجر بهَجَر بنت المكنف ، وهى التى بَنَتْها .

وفيها ثلاث جمل :

الجملة الأولى

(فيما تشتمل عليه من المُدُن)

وقاعدتها (عُمَانُ) قال فى "اللباب" : بضم العين المهملة وفتح الميم ونون فى الآخر بعد الألف . قال الأزهرىّ : وسميت بعُمَانَ بنِ نعسان(١) بن إبراهيم عليه السلام، وموقعها فى الإقليم الأوّل . قال : وهى علىٰ البحر تحت البَصْرة . قال المهلبىّ : وهى مدينة جليلة، بها مَرْسىٰ السُّفُن من السِّنْد والهند والزَّنْج، وليس علىٰ بحر فارس مدينةٌ أجلُّ منها، وأعمالها نحو ثلثمائة فرسخ . قال : وهى ديار الأَزْد قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة كثيرة النخيل والفَوَاكه، ولكنها حارّة جدًّا . وكانت القَصَبة فى القديم مدينةَ صُحَارَ . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الصاد وفتح الحاء المهملتين كما فى الصحاح . قال : وهى اليوم خَرَاب .

وبها بلاد أخرىٰ غير ذلك .

منها (الأحْساء) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون الحاء وفتح السين المهملتين وألِف فى الآخر . قال فى "المشترك" : والأحساءُ جمع حِسْى، وهو رمل يَغُوص فيه الماءُ، حتّى إذا صار إلىٰ صَلَابة الأرض أمسَكَتْه فتَحْفِر عنه العرب وتستخْرِجه . وموقعها فى أوائل الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيث الطولُ ثلاثٌ وسبعون درجة وثلاثون دقيقة،

(١) فى معجم ياقوت "يفثان" وفى "العبر" سميت بعمان بن قحطان أوّل من نزلها بولاية أخيه يعرب .

والعَرْضُ اثنتان وعشرون درجة . قال فى "تقويم البُـلْدان" : ذاتُ نخيل كثير، ومياهٍ جارية، ومَنابِعُها حارَّة شديدةُ الحَرَارة، ونخيلُها بقدر غُوطةِ دِمَشْق، وهو مستدير عليها، وهى فى البرية، فى الغرب عن القَطِيف بميْلة إلى الجنوب، على مرحلتين منها . قال : وتعرف بأَحْساءِ بنى سَعْد .

ومنها (القَطِيف) . قال فى "اللباب" : بفتح القاف وكسر الطاء المهملة وسكون المثناة من تحت وفاء فى الآخر . وهى بلدة على مرحلتين من الأَحْساء من جهة الشَّرق والشَّمال، واقعــة فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيثُ الطولُ ثلاث وسبعون درجة وخمس وخمسون دقيقة، والعرض اثنتان وعشرون درجة وخمسٌ وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى على شَطِّ بحر فارس، وبها مَغَاصُ لُؤْلؤٍ، وبهـا نخيل دون نخيل الأحْساء . قال : وعن بعض أهلها أن لها سورا وخَنْدقا ولهـا أربعة أبواب ، والبحر إذا مَدَّ يصل إلى سُورِها وإذا جَزَر ينكشف بعضُ الأرض ؛ وهى أكبر من الأَحْساء . قال : ولهـا خَوْر فى البحر تدخل فيه المراكبُ الكبار المُوسَــقَة فى حالة المَدّ والجَزْر ، وبينها وبين البصرة ستة أيام، وبينها وبين عُمَان مسيرةُ شهر .

ومنهـا (كاظِمةُ) . قال فى "تقويم البُـلْدان" : بكاف وألف وظاء معجمة مكسورة وميم وهاء . قال : وهى جَوْن على ساحل البحر، بين البصرة والقَطِيف، فى سَمْت الجَنُوب عن البصرة، وبينها وبين البصرة مسيرةُ يومين ، وبينها وبين القَطيف أربعةُ أيام .

الجملة الثانية

(في ذكر ملوكها)

قد ذكر صاحب "العبر": أنها كانت في القديم لعادٍ مع حَضْرَمَوْتَ والشِّحر وما والاهما، ثم غلب عليها بعد ذلك بنو يَعْرُبَ بنِ قحطان.

الجملة الثالثة

(في الطريق الموصِّل إليها)

قد تقدّم في الكلام على مملكة إيران الطريقُ من مملكة مصر إلى البَصْرة. قال ابن خُرْداذْبه[1]: ثم من البصرة إلى عَبَّادان، ثم إلى الحدوثة، ثم إلى عَرْفجاءَ، ثم إلى الزَّابُوقة، ثم إلى المَغْز، ثم إلى عَصَا، ثم إلى المُعَرَّس، ثم إلى خُلَيْجَةَ، ثم إلى حَسَّان، ثم إلى القُرى، ثم إلى مُسَيْلِحة، ثم إلى حَمَض، ثم إلى ساحل هَجَر، ثم إلى العُقَير، ثم إلى القَطَن، ثم إلى السَّبَخة، ثم إلى عُمَان.

وذكر لها طريقا أخرى من مكة إليها على الساحل: وهي من مكة، إلى جُدّة، إلى مَنزل، ثم إلى الشُّعيبة، ثم إلى المَرْجاب، ثم إلى أغيار، ثم إلى السِّرَّيْنِ، ثم إلى مَرْسى حَلْي، ثم إلى مَرْسى ضَنْكان، ثم إلى سِجِّين، ثم إلى مِخْلاف الحَكَم، ثم إلى الجَوْدة، ثم إلى مِخْلاف عَكّ، ثم إلى غَلافِقةَ، ثم إلى مِخْلاف زَبِيد، ثم إلى المَنْدَب، ثم إلى مِخْلاف الرَّكْب، ثم إلى المنجلة، ثم إلى مِخلاف بني مَجِيد، ثم إلى مَغَاص اللُّؤْلؤ، ثم إلى عَدَنَ، ثم إلى مخلاف لَحْج، ثم إلى قرية عبد الله بن مَذْحِج، ثم إلى مِخْلاف كِنْدَةَ، ثم إلى الشِّحْر، ثم إلى ساحل هَمَاه، ثم إلى عَوْكلان، ثم إلى فرق، ثم إلى عُمَان. وهي طريق بعيدة.

(١) لم تتفق نسخ "ابن خرداذبه" في بعض الأماكن فعوّلنا في كثير منها على الأصل.

ولعَرَبها مكاتَبات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ما سيأتى ذكره فى الكلام على المكاتَبات فى المقـالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

القُطْـــر الثـالث

(ممـا هو خارج من جزيرة العرب عن مُضَافات الديار المصرية "اليَمَـامةُ")

قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح المثنَّاة من تحت والميم وألف وميم وهاء فى الآخر . وهى قِطْعـة من جزيرة العرب من الحجاز، وعليـه جرى الفقهاءُ فحَكَمُوا بتحريم مُقَـام الكُفْر بها كما بسائر أقطار الحجـاز ؛ وهى فى سَمْت الشرق عن مكة المُشَرَّفة . قال البيهقى : وهى مُلْك منقطِع بعمله ؛ ويَحُدّهـا من جهـة الشرق البَحْرَيْنِ، ومن الغرب أطرافُ اليمن والحجاز، ومن الجَنُوب نَجْرانُ من نواحى اليَمَن، ومن الشَّمال نَجْد والحجاز؛ وأرضها تسمَّى العَرُوض : لاعتراضها بين الحجَاز والبحرين؛ وطولُهـا عشرون مرحلةً . وهى فى جهة الغرب عن القَطِيف، و بينهما نحو أربع مراحلَ، و بينها و بين مكة أربعةُ أيام . وسمِّيت اليمامةَ باسم امرأة : وهى اليمـامَةُ بنتُ سَهْم بن طَسْم، كانت تَنْزِلهـا إلى أن قتلها عبدُ كُلَال وصلبها على بابها فسميت بهـا، سَمَّاها بذلك تُبَّع الآخِر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وكان اسمها فى القديم جَوّا (١) بفتح الجيم وسكون الواو . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى عن البصرة على ستَّ عشْرةَ مرحلة، وعن الكُوفة مثل ذلك . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبهـا من القُرْب عينُ ماء متَّسِعةٌ وماؤها سارحٌ، وذكر أنها [أكثرُ نخيلا من] (٢) سائر الحجاز،

(١) لعل الصواب وشدّ الواو .

(٢) بياض فى الأصل والتصحيح من التقويم .

ثم نقل عمن رآها فى زمانه أن بها آبارا وقليلَ نَخْل ، وكأنه حكى ... ... (١) عما كانت عليه فى القِدَم ، وبها واد يسمّى ـ الخَرْج ـ بخاء معجمة مفتوحة وراء مهملة ساكنة وجيم فى الآخر ، كما هو مضبوط فى الصِّحاح .

وفيها ثلاث جُمَل :

الجمـــلة الاولى

(فيما آشتملت عليـــه من البُلْدانـ)

قد ذكر فى "تقويم البُلْدان" عمن أخبره ممن رآها فى زمانه أن بها عِدّةَ قُرًى : وبهـا الحنطةُ والشعيرُ كثير . وقاعدتُها دونَ مدينة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، واقعةٌ فى أوائل الإقليم الثانى . قال فى "الأطوال" حيث الطولُ إحدى وسبعون درجةً وخمس وأربعون دقيقةً ، والعَرْضُ إحدى وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً .

ومن بلادها (حَجْر) قال فى "المشترك" : بفتح الحـاء المهملة وسكون الجيم وراء مهملة فى الآخر . وهى فى الغَرْب عن مدينة اليمـامة ، على مرحلتين منهـا ، وبعضهم يجعلها قاعدةَ اليمـامة . وموقعها فى أوائل الإقليم الثـانى . قال فى "تقويم البلدان" : والقياس أنهـا حيث الطولُ إحدى وســبعون درجةً وعَشْر دقائق ، والعرض آثنتان وعشرون درجة . قال : وبهـا قبورُ الشُّهَداء الذين قُتِلوا فى حرب مُسَيْلِمَة الكَذَّابِ .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله حكى ذلك معبرا عما الخ .

الجمـــلة الثـانيـــة

(فى ذكر ملوكها)

قال صاحب "العبر" : كانت هى والطائف بيد بنى هزّان بن يَعْفُر بن السَّكْسَك ، إلىٰ ان غلبهم عليها (طَسْم) . ثم غَلَبهم عليهـا (جَدِيس) ، ومنهم زرقاءُ اليمـامة . ثم آستولىٰ عليها (بنو حَنِيفة) وكان منهم هَوْذةُ بن علىّ ، وهو الذى كتب إليه النبىّ صلى الله عليه وسلم يَدْعُوه إلى الإسلام . ثم ملكها من بنى حنيفة (ثُمـامةُ) بن أُثَال علىٰ عهد النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وأُسِر ثم أسلم . ثم كان بها منهم (مسيْلمة الكَذّاب) زَمَنَ أبى بكر الصدّيق رضى الله عنه وقُتِل فى حرب المسلمين معه .

وكان لبنى (الأُخَيْضِر) من الطالبيين بها دولةٌ .

وأوّل من ملكها منهم (محمد بن الأُخَيْضِر) بن يوسف ، بن إبراهيم ، بن موسىٰ الجَوْن ، بن عبد الله ، بن الحسن المُثَنّى ، بن الحسن السِّبْط ، آبن أمير المؤمنين علىّ آبن أبى طالب رضى الله عنه . وكان آستيلاؤه عليها أيامَ المستعين الخليفة العبّاسىّ . ثم ملكها بعده آبنه (يوسف) ثم (آبنه الحسن) ثم آبنه (أحمد) ولم يزل مُلْكها فيهم إلىٰ أن غلب عليهم القرامطةُ علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ بلاد البحْرَيْنِ .

قال آبن سعيد : وسألت عرب البحرين فى سنة (١) ، لمَن اليمـامةُ اليوم؟ فقالوا لعرب من قيس عَيْلان وليس لبنى حنيفة بهـا ذكر .

قلت : ولم أَقِف لعربها علىٰ ذكر فى المكاتبات السلطانية بالديار المصرية .

---

(١) فى "العبر" بدل قوله فى سنة "وبعض مذحج" .

الجملة الثالثة
(فى الطريق الموصِّل إليها)

قد تقدّم أنها فى جهة الشرق عن مكة، وأنّ بينهما أربعة أيام، وطريق مكة معروف على ما تقدّم .

أما ماذكره ابن خُرْداذبه[(١)] من طريقها على البصرة ــ فمن البصرة إلى المَنْجَشانِيَة، ثم إلى الكُفَير، ثم إلى الرُّحَيْل، ثم إلى الشَّجِى، ثم إلى الحَفَر، ثم إلى ماوِيَّة، ثم إلى ذات العُشَر، ثم إلى اليَنْسوعة، ثم إلى السُّمَيْنة، ثم إلى النِّباج، ثم إلى العُمُومية، ثم إلى القَرْيَتين، ثم إلى سُوَيقة، ثم إلى صداة، ثم إلى السُّد، ثم إلى السق، ثم إلى المنبية، ثم إلى السَّفْح، ثم إلى المريقة، ثم إلى اليَمَامة، والبصرة قد تقدّم أكثر الطريق إليها فى الكلام على مملكة إيران .

القُطْــر الرابع
(مملكة الهِنْـد ومُضافاتها)

قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مملكة عظيمة الشأن، لاتُقَاس فى الأرض بمملكة سواها : لاتّساع أقطارها، وكثرة أموالها وعساكرها، وأُبَّهة سلطانها فى رُكُوبه ونُزُوله، ودَسْت مُلْكه؛ وفى صِيتها وسُمْعتها كفايةٌ . ثم قال : ولقد كنت أسمَعُ من الأخبار الطائحةِ والكُتُب المصنَّفة مايملأ العين والسمع؛ وكنت لاأقِفُ على حقيقة أخبارها لبُعْدها منا، وتَنَائِى ديارها عنَّا، ثم تتَبَّعت ذلك من الرُّواة، فوجدت أكثَرَ مما كنت أسمع، وأجلّ مما كنت أظُنُّ . وحَسْبُك ببلاد فى بحرها الدُّرّ، وفى برّها الذَّهَب، وفى جبالها الياقُوت والمَاس، وفى شعابها العُود والكافُور،

(١) اختلفت نسخ "ابن خرداذبه" فى أسماء البلدان فأثبتها طابعه في هامشه ولكنا عوّلنا فى الكثير على مافي الأصل .

وفى مُدُنها أَسِرّة الملوك ، ومن وُحُوشها الفيـلُ والكَرْكَدّن ، ومن حديدها سُيوفُ الهند ، وأسعارها رَخِيَّة ، وعساكرها لاتُعدّ ، وممالكها لاتُحَدّ ، ولأهلها الحِكْمة ووُفورُ العقل ، وهم أملَكُ الأمم لشَهَواتِهم ، وأبذَلُهم للنفوس فيما يُظَن به الزُّلْفىٰ .

قال : وقـد وصف محمد بن عبـد الرحيم الاقليشى هــذه المملكة فى كتابه "تحفة الألبـاب" فقال : المُلْك العظيم ، والعَـدْل الكثير ، والنعمة الجزيلةُ ، والسِّياسة الحَسَـنة ، والرضا الدائم ، والأَمْنُ الذى لاخَوفَ معـه فى بلاد الهِنْـد . وأهلُ الهنــد أعلَمُ النـاس بأنواع الحكمة والطِّب والهَنْدسة والصِّناعات العجيبة . ثم قال : وفى جبـالهم وجزائرهم ينْبُت شجرُ العُود والكافُور وجميع أنواع الطِّيب : كالقَرَنْفُل والسُّـنْبُل والدارِصِينِى ، والقِرْفة ، والسَّـليخة ، والقاتلة ، والكَبَابة ، والبَسْباسة ، وأنواع العقاقير . وعندهم غَزَال المِسْك وسِنَّوْر الزَّبَاد ؛ هذا مع ماهذه المملكة عليه من اتساع الأقطار ، وتباعد الأرجاء ، وتنائى الجوَانب .

فقد حكىٰ فى "مسالك الأبصـار" : عن الشيخ مبارَك بن محمود الأنْباتِى : أن عَرْض هذه المملكة مابين سُومنات وسَرَنْديبَ إلىٰ غَزْنة ، وطُولهـا من الفُرْضة المقابلة لعَدَن إلىٰ سَـدّ الإسكندر عند مَخْرَج البحر الهندىّ من البحر المحيط ، وأن مسافة ذلك ثلاثُ سنين فى مثلها بالسـير المعتاد ، كلُّها متصلة المُدُن ذوات المنـابر والأَسِرَّة ، والأعمـال ، والقُرىٰ ، والضِّياع ، والرَّساتيق ، والأسواق ؛ لا يفصل بينها خراب . بعد أن ذكر عنه أنه ثِقة ثَبْت عارِفٌ بما يحكيه إلا أنه استبعد هـذا المقْدار ، وقال : إن جميع المعمور لايَفِى بهذه المسافة ، اللهم إلا أن يُريد أن هذه مسافةٌ من يَتَنَقَّل فيها حتى يحيطَ بجميعها مكانًا مكانًا ، فيحتمل علىٰ مافيه .

وفيه إحدىٰ عشرةَ جملةً :

الجملة الأولى
(فيما اشتملت عليه هذه المملكة من الأقاليم)

وتحتوى هذه المملكة على إقليمين عظيمين :

الإقليم الأوّل
(إقليم السِّنْد وما انخرط فى سلكه من مُكْران، وطُوران، والبُدْهة، وبلاد [القُفْس] والبَلُوص)

فأما السِّند، فبكسر السين المهملة وسكون النون ودال مهملة فى الآخر. قال ابن حوقل : ويُحيط به من جهة الغَرْب حدودُ كُرْمان، وتمامُ الحدّ مفازةُ سِجِسْتان؛ ومن جهة الجنوب مَفَازةٌ هى فيما بين كَرْمانَ والبحر الهندى"، والبحر جَنُوبِىّ المفازة؛ ومن جهة الشرق بحر فارس أيضا : لأن البحر يتقوس على كَرْمان والسِّند، حتى يصير له دَخْلة شرقىّ بلاد السند؛ ومن جهة الشمال قِطْعة من الهند. قال ابن خرداذبه : وبالسند القُسْط، والقَنا، والخَيْزُران.

وقاعدته (المنصورة) — قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون النون وضم الصاد المهملة وسكون الواو وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر. وهى مدينة بالسِّند واقعة فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ خمس وتسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرضُ أربع وعشرون درجة واثنتان وأربعون دقيقة. قال فى "القانون" : واسمها القديم بَمَنْهُو وإنما سمِّيت المنصورةَ لأن الذى فتحها من المسلمين قال نُصِرْنا. وقال المهلبىّ : إنما سميت المنصورة لأن عُمَر بن حفص المعروف بهزارمَرْد بناها فى أيام أبى جعفر المنصور ثانى خلفاء بنى العباس وسماها بلقبه.

قال ابن حوقل : وهى مدينة كبيرة يُحيط بها خَليجٌ من نهر مِهْرانَ (وهو نهرٌ يأتى من المُلْتان) فهى كالجزيرة ولكنها بَلْدة حارّة وليس بها سِوىٰ النخيل ؛ وبها قصب السُّكَّر، وبها أيضا ثَمَر علىٰ قدر التُّفَّاح شـديدُ الحُموضة، يسمى اليمومة .

وبها عدّة مُدُن وبلاد أيضا .

منها (الدَّيْبُل) — قال فى "اللبـاب": بفتح الدال المهـملة وسكون المثناة من تحتها وضم البـاء الموحدة ولام فى الآخر . وهى بلدة علىٰ ساحل البحر، واقعـةٌ فى الإقليم الثانى من الأقاليم السـبعة قال ابن سعيد : حيث الطولُ اثنتان وتسعون درجة وإحدىٰ وثلاثون دقيقـة، والعرضُ أربع وعشرون درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة صغيرة علىٰ ساحل ماء السند شديدةُ الحرّ . قال ابن حوقل: وهى شرقىّ مِهْران، وهى فُرْضة تلك البلاد . وقال فى "اللباب" : إنها علىٰ البحر الهندىّ قريبة من السند . قال ابن سـعيد : وهى فى دَخْلة من البَرّ فى خليج السِّـند، وهى اكبر فُرَض السند وأشهرُها ؛ ويجلب منها المتاع الدَّيْبُلِىُّ . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها سِمْسِم كثير، ويُجْلَب إليها التَّمْر من البصرة، وبينها وبين المنصورة ست مراحل .

ومنها (البِيرُون) . قال فى "اللباب" : بكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وضم الراء المهملة وبعـدها واو ونون فى الآخر . وهى مدينة من أعمـال الدَّيْبُل بينهـا وبيـن المنصورة ، واقعـةٌ فى الإقليم الثـانى من الأقاليم السـبعة قال فى "القانون" : حيث الطولُ أربع وتسعون درجة وثلاثون دقيقة، والعرضُ أربع وعشرون درجة وخمس وأربعون دقيقة . قال ابن سـعيد : وهى من فُرَض بلاد السِّند التى عليها خليجُهم المـالح الخارج من بحر فارس . قال فى "العزيزى" :

وأهلها مسلمون ، ومنها إلى المنصورة خمسةَ عشرَ فرسخا . قال ٱبن سعيد : وإليها ينسب أبو الرَّيْحان البِيْرُونى ، يعنى صاحب "القانون" فى أطوال البلاد وعروضها .

ومنها (سَدُوسانُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح السين وضم الدال المهملتين وواو ثم سين مهملة ثانية مفتوحة وألف ونون . وهى مدينة غربىّ نهر مِهْرانَ ، واقعة فى أوائل الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيث الطولُ أربع وتسعون درجة وخمسون دقيقة ، والعرضُ ثمانٍ وعشرون درجة وعشر دقائق . قال ٱبن حوقل : وهى خِصْبة كثيرةُ الخير وحولها قُرًى ورُسْتاق ، وهى ذات أسواق جليلة .

ومنها (المُولْتان) قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الميم وسكون اللام ثم تاء مثناة فوقية وألف ونون . قال : وهى فى أكثر الكتب مكتوبة بواو . وهى مدينة من السند فيما ذكره أبو الرَّيحان البِيرُونى ، وإن كان ٱبن حَوْقَل جعلها من الهند وعليه جرى فى "مسالك الأبصار" لأن البِيرونىّ أقعدُ بذلك منه : لأن السند بلاده فهو بها أخبر ، واقعةٌ فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة . قال فى "القانون" : حيث الطولُ ست وتسعون درجة وخمسٌ وعشرون دقيقةً ، والعرضُ ثمانٍ وعشرون درجة وأربعون دقيقة . قال ٱبن حوقل : وهى أصغر من المنصورة .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن بعض المصنَّفات أن قُرى المُلْتان مائةُ ألف قرية وستة وعشرون ألفَ قرية . قال المهلَّبىّ : وأعمال المُلْتان واسعةٌ من قرب حدّ مُكْران من الجنوب إلى حدّ المنصورة ، وبينها وبين غَزْنة ثمانية وستون فرسخا .

ومنها (أَزُورُ) . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة تقارب المُلْتانَ فى الكِبَر ، وعليها سُوران وهى على نهر مِهْران . وقال فى "العزيزى" : هى مدينة كبيرة وأهلها

مسلمون فى طاعة صاحب المنصورة وبينهما ثلاثون فرسخا ، قال فى " القانون " : حيث الطول خمس وتسعون درجة وخمس وخمسون دقيقة ، والعرضُ ثمان وعشرون درجة وعشر دقائقَ .

وأما مُكْران ، فقال فى " اللبـاب " : بضم الميم وسكون الكاف وفتح الراء المهملة وألف ونون . قال آبن حوقل : وهى ناحية واسعة عريضة ، والغالب عليها المَفَاوِز والقَحْط والضِّيق . وقد آختلَفَ كلام صاحب تقويم البُلْدان فيها فذكر فى الكلام علىٰ السِّند أنها منه ، وذكر فى كلامه علىٰ مُكْرانَ فى ضمن بلاد السند أنها من كَرْمان .

وقاعدتها (التِّـيز) قال فى " اللبـاب " : بالتاء المثناة الفوقية الممالة ثم ياء آخر الحروف وزاى معجمة فى الآخر ، وموقعُها فى الإقليم الثـانى من الأقاليم السـبعة قال آبن سعيد : حيث الطولُ ستٌّ وثمانون درجة ، والعرضُ ست وعشرون درجة وخمسَ عشرةَ دقيقة . قال آبن حوقل : وهى فُرْضة مُكْرانَ وتلك النواحى ، وهى علىٰ شَطِّ نهر مِهْران فى غربِيِّـه بقرب الخليج المنفتح من مِهْران علىٰ ظهر المنصورة .

وأما طُورَانُ . فناحية علىٰ خمسَ عشرةَ مرحلةً من المنصورة . قال فى "القانون" : وقَصَبَتها (قَنْدابِيلُ) قال : وهى حيثُ الطولُ خمس وتسـعون درجةً ، والعرضُ ثمـانٌ وعشرون درجة .

وذكر آبن حوقل أن قَصَـبة طُوران (قُزْدارُ) قال فى " اللبـاب " : بضم القاف وسكون الزاى المعجمة وفتح الدال المهـملة وألف وراء مهملة . وقد نقل فى " تقويم البُـلْدان" عن إخبار من رءاها أنها قُلَيْعة . قال فى "تقويم البُلْدان" :

وهى كالقرية لصغرها، وهى فى وَطَاءَة من الأرض على تُلَيْل، وحولها بعض بساتين. وذكر فى "اللباب" أن قُزْدارَ ناحيةٌ من نواحى الهند. قال فى "تقويم البُلْدان": وبينها وبين المُلْتان نحو عشرين مرحلة.

وأما البُـدْهة، فقال ابن حوقل: وهى مفترِشةٌ ما بين حدود طُورانَ ومُكْرانَ والمُلْتان ومُدُن المنصورة؛ وهى فى غربىِّ نهر مِهْران وأهلها أهل إبل كالبادية، ولهم أخصاصٌ وآجامٌ. قال فى "تقويم البُلْدان": ومن المنصورة إلى أوّل البُدْهة خمس مراحل، ومن أراد البُدْهة من المنصورة احتاج إلى عُبُور نهر مِهْران.

الإقلـيم الثـانى

(إقليم الهنـد)

قال فى "الأنساب": بكسر الهـاء وسكون النون ودال مهملة فى الآخر. قال فى "تقويم البُلْدان": والذى يُحيط به من جهة الغرب بحرُ فارس، وتمامُه حدود السِّند؛ ومن جهة الجنوب البحرُ الهندىّ؛ ومن جهة الشرق المَفَاوِزُ الفـاصلةُ بين الهند والصين؛ ولم يذكر الحدّ الذى من جهة الشَّمال. وذكر فى "مسالك الأبصار" أن حدّه من جهـة الشَّمال بلادُ التُّرك. وذكر عن الشيخ مبارَك الأنْباتىّ: أنه ليس فى هذه المملكة خراب سوى مسافة عشرين يوما ممـا يلى غَزْنَة، لتجاذُب صاحب الهنـد وصاحب تُرْكُسْتانـ وما وراءَ النهر بأطراف المُنازَعة، أو جبال معطَّلة، أو شعواء[1] مشتبكة.

---

(١) كذا فى الأصل بالواو وصوابه بالراء كما فى المسالك والشعراء الأرض ذات الشجر أو كثيرته.

قال صاحب "مسالك الأبصار" : وسألت الشيخ مباركَ الأنباتىّ عن برّ الهند وضَواحيه فقال : إن به انهارا ممتدّة تُقارِب الف نهر كبار وصغار، منها ما يضاهى النيلَ عِظَما ، ومنها ما هو دُونه ، ومنها ما هو مثلُ بَقِيَّة الأنهار . وعلىٰ صغار الأنهار القُرىٰ والمُدُن ، وبه الأشجار الكثيفة والمُرُوج الفِيح . قال : وهى بلاد معتدلة لاتتفاوت حالاتُ فصولها ، ليست مفرطةً فى حرّ ولا بَرْد ، بل كأنَّ كلَّ أوقاتها ربيع ، وتَهُبُّ بها الأهويةُ والنسيم اللطيف ، وتتوالىٰ بها الأمطارُ مدّةَ أربعة أشهر ، وأكثرها فى أُخْرَيَات الربيع إلىٰ ما يليه من الصيف .

ثم لمملكة الهند قاعدتان :

القاعـــدة الأولىٰ
(مدينة دَلِّى)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بدال مهملة ولام مشدّدة مكسورة ثم مثناة تحتية ، ولم يتعرّض لضبط الدال والناس يَنطقون بها بالفتح و بالضم . وسماها صاحب "تقويم البُلْدان" فى تاريخه دَهْلِى بابدال اللام هاء . وهى مدينة ذات إقليم متَّسِع ، وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيث الطولُ مائةٌ وثمانٍ وعشرون درجة وخمسون دقيقة ، والعرض خمس وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة كبيرة فى مستوٍ من الأرض ، وتُرْبتها مختلطة بالحَجَر والرمل ، وعليها سور من آجُرٍّ ، وسورها أكبر من سور حَماةَ ، وهى بعيدة من البحر ، ويمرّ علىٰ فرسخ منها نهر كبير دُونَ الفُرات ، وبها بساتينُ قليلة وليس بها عنب ، وتُمْطَر فى الصيف ، وبجامعها مَنَارة لم يُعْلَم فى الدنيا مثلها ، مبنية من حجر أحمر ودَرَجها نحو ثلثمائة درجةٍ ، وهى كبيرة الأضلاع ، عظيمة الآرتفاع ، واسعة الأسفل وآرتفاعها يقارب مَنارة الإسكندرية .

وذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ برهان الدين بن الخلال البزى الكوفى": أن علوّها فى نحو ستمائة ذراع . وذكر عن الشيخ مبارك الأنباتى أن دلّى مدائنُ جمعت ولكل مدينــة منها آسم يخصها ودلّى واحدة منها . قال الشيخ أبو بكر بن الخلال : وجملة ما يطلق عليه الآن آسم دَلّى إحدى وعشرون مدينةً .

قال الشيخ مبارك : وهى مُمَيَّلة طولا وعرضا، يكون دَوْرُ عُمْرانها أربعين ميلا، وبناؤها بالحجر والآجُرّ، وسقوفها بالخَشَب ، وأرضها مفروشــة بحجرٍ أبيضَ شبيهٍ بالرُّخام، ولا يُبْنىٰ بها أكثرُ من طبقتين وربمــا آقتُصِر علىٰ طبقة واحدة، ولا يَفْرُشُ دُورَه فيهــا بالرُّخام إلا السلطانُ . قال : وفيها ألف مدرسة ، منها مدرسةٌ واحدة للشافعية وباقيها للحنفية ، وبها نحو سبعين بيمــارستانا ، وتسمّى بهــا دُورَ الشفاء، وبها وببلادها من الرُّبُط والخوانق نحوُ ألفين، وفيها الزيارات العظيمة، والأسواق الممتدّة، والحَمّــامات الكثيرة ، وشربُ أهلها من ماء المطر، تجتمع الأمطار فيها فى أحواض وسيعة كلُّ حوض قُطْره غَلْوةُ سهم أو أكثر . أما مياه الآستعمال وشرب الدواب فمن آبار قريبة المستقىٰ، أطول مافيها سبعة أذرع . وقد صارت دَلّى قاعدةً لجميع الهنــد [ومُستقرَّ السلطان] وبها قُصور ومنازلُ خاصّةٌ بسكَنه وسكَن حريمه، ومقاصيرُ جواريه وحَظَاياه وبيوتُ خدمه ومماليكه ، لايسكن معه أحد من الخانات ولا من الأمراء، ولايكونُ بها أحد منهم إلا إذا حضر للخِدْمة ثم ينصرف كلُّ واحد منهــم إلىٰ بيته . ولهــا بساتين من جهاتها الثلاث : الشرق، والجَنُوب ، والشّمال علىٰ آستقامة، كل خط آثنا عشر ميلا، أما الجهة الغربية فعاطلة من ذلك لمقاربة جبل لهــابة . ووراء ذلك مُدُن وأقاليم متعدِّدة .

القـــاعدة الثانيــــة

(مدينة الدَّواكِير)

ومدينة الدَّواكير بفتح الدال المهملة والواو وألفٍ بعـدها كاف مكسورة ثم ياء مثناة تحتية وراء مهملة فى الآخر . وهى مدينــة ذات إقليم متّسع . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ مبارَك الأنباتى : أنها مدينة قديمة جدّدها السلطان محمد بن طغلقشاه، وسمـاها " قبة الإسلام " . وذكر أنه فارقها ولم تتكامَلْ بعدُ، وأن السلطان المذكور كان قد قسمها على أن تبنىٰ مَحَلَّاتٍ لأهل كل طائفة مَحَلَّة : الجُنْد فى مَحَلَّة، والوزراء فى مَحَلَّة، والكُتَّاب فى مَحَلَّة، والقُضاة والعلمـاء فى مَحَلَّة، والمشايخ والفقراء فى مَحَلَّة ، وفى كل مَحَلَّة ما يُحتاج إليـه من المساجد، والأسواق، والحَمَّامات ، والطواحين، والأفران ، وأرباب الصنائع من كل نوع حتى الصُّوَّاغ والصَّـبَّاغين ، والدَّبَّاغين ، بحيث لا يحتاجُ أهل مَحَلَّة إلىٰ أخرىٰ فى بيع ولا شراء ، ولا أخذ ولا عطاء : لتكون كل مَحَلَّة كأنها مدينة مفْرَدة قائمة بذاتها .

واعلم أن صاحب "تقويم البُلْدان" : قد ذكر عن بعض المسافرين إلىٰ الهنـد أن بلاد الهند علىٰ ثلاثة أقسام :

القســـم الأوّل — بلاد الجُـزُرات

قال فى " تقويم البُـلْدان " : بالجيم والزاى المعجمة والراء المهملة ثم الف وتاء مثناة فوق . وبها عدّة مدن وبلاد .

منها (نَهْـلُوارة) بالنون والهـاء واللام والواو ثم ألف وراء مهملة وهاء . وقال ابن سـعيد : نَهْرُوالة، فقدّم الراء وأخّر اللام ، وكذلك نقله فى " تقويم البُلْدان "

عن بعض المسافرين . وفى "نزهة المشتاق" نَهْرُوارة براءين . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيث الطولُ ثمانٌ وتسعون درجة وعشرون دقيقة، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى غربىّ إقليم المَنيبار الآتى ذكره . قال : وهى أكبر من كَنْبايتْ ، وعمارتها مفرَّقة بين البساتين والمياه؛ وهى عن البحر على مسيرة ثلاثة أيام . قال صاحب حماة فى "تاريخه" : وهى من أعظم بلاد الهند .

ومنها (كَنْبايت) قال فى "تقويم البُلْدان" : بالكاف ونون ساكنة وباء موحدة ثم ألف وياء مثناة تحتية وتاء مثناة من فوقها، ومقتضى ما فى "مسالك الأبصار" : أن يكون آسمها أنبايت بإبدال الكاف همزة ، فإنه يُنْسَب إليها أنباتىّ . وهى مدينة على ساحل بحرالهند، موقعُها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ تسع وتسعون درجةً وعشرون دقيقة، والعرضُ آثنتان وعشرون درجة وعشرون دقيقة . وذكر فى "تقويم البُلْدان" عمن سافر إليها أنها غربىّ المَنيبار على خَوْر من البحر طولُه مسيرةُ ثلاثة أيام . قال : وهى مدينة حَسَنة ، أكبر من المَعرّة من بلاد الشام فى المِقْدار، وأبنيتها بالآجُرّ، وبها الرُّخَام الأبيض، وبها بساتينُ قليلة .

ومنها (تانَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : قال أبو العقول نقلا عن عبد الرحمن الريّان الهندى ـ بفتح المثناة الفوقية ثم ألف ونون وهاء . وهى بلدة على ساحل البحر، واقعةٌ فى الإقليم الأول من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيث الطولُ مائة وأربعَ عشرةَ درجة وعشرون دقيقةً ، والعرضُ تسعَ عشرةَ درجة وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من مَشَارق الجُزُرات . قال آبن سعيد : وهى مشهورة على ألْسُن التجّار . قال : وأهل هذا الساحل جميعُهُم

كُفّار يعبــدون الأنداد ، والمسلمون ساكنون معهم . قال الإدريسىّ : وأرضها وجبالهـا تُنْبِت القَنَا والطَّباشيرَ ويُحْمَل منها إلىٰ الآفاق . قال أبو الرَّيْحان : والنسبة إليها تانِشىّ ومنها الثياب التانِشيَّة .

ومنها (صُومَنَاتُ) قال فى "تقويم البُــلْدان" : بالصاد المهملة ويقال بالسين المهــملة ثم واو ساكنة وميم ونون مفتوحتين ثم ألف وتاء مثناة فوقيــة فى الآخر، وموقعها فى الإقليم الثـانى من الأقاليم السـبعة قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ ســبع وتسعون درجة وعشرُ دقائق ، والعرضُ آثنتان وعشرون درجة وخمسَ عشرةَ دقيقة . قال فى "القانون" : وهى علىٰ الساحل فى أرض البَوَازِيج . قال آبن سعيد : وهى مشهورة علىٰ ألسنة المسافرين ، وتعرف ببلاد اللّارِ ، وموضعها فى جهة داخلةٍ فى البحر فَيَنْطَحُها كثير من مراكب عَدَن لأنها ليستْ فى جَوْن ؛ ولهـا خَوْر ينزل من الجبل الكبير الذى فى شَمَـالِيِّها إلىٰ شرقيِّها ؛ وكان بها صَنَم تعظمه الهنودُ يُضاف إليها ، فيقال : "صَنَم صُومَنات" فكسره يمين الدولة "محمود بن سُبُكْتِكين" عند فتحها كما هو مذكور فى التواريخ .

ومنها (سَنْدَانُ) بالسين المهملة والنون والدال المهملة والألف والنون ، هكذا ذكره فى "تقويم البُلْدان" : ونقل لفظَه عن المهلبىّ فى "العزيزى" . وقال بعض المسافرين إنها (سَنْدَابُور) بالسين المهملة والنون والدال المهملة وألف وباء موحدة وواو وراء مهملة فى الآخر . وهى مدينة علىٰ ثلاثة أيام من تانةَ ، موقعُها فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ مائة وأربعُ دَرَج وعشرون دقيقة ، والعرضُ تسعَ عشرةَ درجة وعشرون دقيقــة . قال فى "تقويم البلدان" عن بعض المســافرين : وهى علىٰ جَوْن فى البحر الأخضر ، وهى آخر إقلــيم الجُزُرات . قال فى "القــانون" : وهى علىٰ الساحل . قال فى "العزيزى" :

وبينها وبين المنصورة خمسة عشر فرسخًا، وهى مَجْمَعُ الطُّرُق . قال : وهى بلاد القُسْط والقَنَا والخَيْزُران، وهى من أجلّ الفُرَض التى على البحر .

ومنها (نَاكُورُ) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح النون وألف وكاف مضمومة وواو وراء مهملة فى الآخر . وهى مدينة على أربعة أيام من دَلّى .

ومنها (جالُورُ) بفتح الجيم ثم ألف ولام مضمومة وواو وراء مهملة . وهى على تَلّ تُرَاب نحو قلعة مِصْياف بين ناكُور وبين نَهْر والة . ويقال إنه لم يَعْصِ على صاحب دَلّى من الجُزُرات غير جالُورَ .

ومنها (منورى)[1] . قال فى "القانون" : وهى بين الفُرْضة وبين المَعْبَر إلى سَرَنْديب حيث الطولُ مائةٌ وعشرون درجة، والعرضُ ثلاثَ عشرةَ درجة .

القســم الثانى — من إقليم الهند بلاد المَنيبَار

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وكسر النون[2] وسكون الياء آخرَ الحروف وفتح البـاء الموحدة ثم ألف وراء مهملة فى الآخر . وهى إقليم من أقاليم الهنـد فى الشرق عن بلاد الجُزُرات المقدَّم ذكرُها . قال : والمَنِيبار هى بلاد الفُلْفُل . ثم قال : والفُلْفُل فى شجره عناقِيـدُ كعناقيد الدُّخْن، وشجرُه ربمـا ٱلتفَّ على غيره من الأشجار كما تلتف الدَّوَالِى، وبها بلاد ... ...[3] وجميعُ بلاد المَنِيبار مخضَرَّة كثيرةُ المياه والأشجار الملتفَّة .

---

(١) وقعت فى "التقويم" بالدال المهملة بدل الواو ولم يضبطها .

(٢) ذكرها ياقوت باللام بدل النون .

(٣) بياض فى الأصل ولعله "كثيرة" .

منها (هَنَّوْرُ) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهـاء والنون المشدّدةِ والواو وراء مهملة . وهى غربىّ سَنْدابُورَ من بلاد الجُزُرات المقدَّم ذكْرُها، فتكون أوّلَ بلاد المَنيبار من الغرب . قال : ولها بساتينُ كثيرة .

ومنها (بَاسَرُورُ) بالباء الموحدة و بالسـين المفتوحة والراءين المهـملات . وهى بلدة صغيرة شرقىّ هَنَّوْر المقدَّمة الذكرِ .

ومنهـا (مَنْجَرُورُ) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون النون وفتح الجيم وضم الراء المهملة ثم واو ساكنة وراء مهملة . وهى شرقىّ بَاسَرُورَ المقـدّمة الذكر . قال : وهى من أكبر بلاد المَنيبار، ومَلِكها كافر، وورَاءَها بثلاثة أيام جبلٌ عظيم داخلٌ فى البحر، يُرىٰ للمسافرين من بُعْد، يسمّى "رأسَ هَيْلِي" بفتح الهاء وسكون الياء المثناة من تحت وكسر اللام ثم ياء مثناة تحتية فى الآخر .

ومنها (تَنْدَيُور) بالتـاء المثناة الفوقيـة المفتوحة وسكون النون ثم دال مهملة وياء آخر الحروف مضمومة وواو وراء مهملة . وهى بُلَيدة شرقى "رأسِ هَيْلِي" لها بساتينُ كثيرةٌ .

ومنهـا (الشَّالِيات) بفتح الشين المعجمة وألف ولام مكسورة وياء آخِرَ الحروف ثم ألف وتاء مثناة فوقية .

ومنها (الشِّنْكلى) بالشـين المعجمة المكسورة [وسكون النون](١) وكاف ولام وياء آخر الحروف . وهى بلدة بالقرب من الشَّالِيات .

ومنها (الكَوْلَمُ) قال فى "تقويم البُلْدان" : بالكاف المفتوحة والواو الساكنة

(١) الزيادة من تقويم البلدان .

ثم لام مفتوحة وميم فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الأول من الاقاليم السبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ مائة وعَشْرُ درجات ، والعرضُ ثمانَ عشرةَ درجة وثلاثون دقيقة . قال آبن سعيد : وهى آخر بلاد الفُلْفُل من الشرق ، ومنها يُقْلَعُ إلى عَدَنَ . قال صاحب "تقويم البُلْدان" : وحكىٰ لى بعضُ المسافرين أنها علىٰ خَوْر من البحر فى مستوٍ من الأرض وأرضها مُرْمِلة ؛ وهى كثيرة البساتين ، وبها شجر البَقَّم : وهو شجر كشجر الرمّان ، وورقُه يُشْبِه ورق العُنَّاب ؛ وفيها حارة للسلمين وبها جامعٌ .

القسم الثالث — من إقليم الهند بلادُ المَعْبَر

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون العين المهملة وفتح الباء الموحدّة ثم راء مهْمَلة . وهى شرقىّ بلاد الكَوْلَم بثلاثة أيام أو أربعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وينبغى أن تكون بميْلة إلىٰ الجنوب . قال آبن سعيد : وهو مشهور علىٰ الألْسُن ، ومنه يُجْلَب اللانِس ، وبها يُضْرب المثلُ فى قَصَّاريها . قال : وفى شمَالِيِّها جبال متصلة ببلاد بلهرا مَلِك ملوكِ الهند ، وفى غربيها يصُبُّ نهرُ الصوليان فى البحر . وذكر فى "مسالك الأبصار" عن قاضى القضاة سراج الدين الهندى : أن بلاد المَعْبَر تشتمل علىٰ عِدّة جزائرَ كبارٍ .

وبه عدّة مُدُن وبلاد .

منها (بِيرْداول) قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الباء الموحدة وتشديد الياء المثناة التحتية وسكون الراء وفتح الدال المهملتين وألف وواو ولام . قال : وهى قصبة بلاد المَعْبَر ، وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد :

حيث الطولُ مائةٌ وآثنتـانِ وأربعون درجة ، والعرض سـبعَ عشرةَ درجة وخمس وعشرون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة سُـلطان المَعْبَر ، وإليه تُجْلَب الخيول من البلاد .

ثم آعلم أن وراء ماتقدّم بلادا أخرىٰ ذكرها فى "تقويم البُلْدان" .

منهـا (ماهُورةُ) قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح الميم والألف والهاء والواو ثم راء مهملة وهاء . وموقعها فى الإقليم الثانى من الأقاليم السبعة قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ مائةُ درجة وأربعُ درج ، والعرض سـبعٌ وعشرون درجة . قال آبن سـعيد : وهى علىٰ جانبَىْ نهرِ كَنْك فى آنحدارِه من قِنَّوجَ إلىٰ بحر الهند . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلد البَراهمة ، وهم عُبَّاد الهند ينسبون إلىٰ البَرْهَمَن أوّل حكمائهم . قال آبن سعيد : وقلاعُهم بها لاتُرام .

ومنها (لَوْهَوْرُ) قال فى "اللباب" : بفتح اللام وسكون الواوين بينهـما هاء مفتوحة وفى الآخر راء مهملة . قال : ويقال لها أيضا لَهَاوُر . وموقعها فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطول مائةُ درجة والعرضُ إحدىٰ وثلاثون درجةً . قال فى "اللباب" : وهى مدينة كبيرة كثيرة الخير، خرج منها جماعة من أهل العلم .

ومنها (قِنَّوَج) قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر القاف وفتح النون المشـدّدة والواو ثم جيم . وموقعها فى الإقليم الثـانى من الأقاليم السـبعة قال آبن سـعيد : حيثُ الطولُ مائةٌ وإحدىٰ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، والعرضُ تسعٌ وعشرون درجة . وذكر فى "الأطوال" الطولَ بنقْص سـبع وعشرين درجةً ، والعرضَ بزيادة ستّ درج . قال آبن سعيد : وهى قاعدةُ لَهَاوُر ، وهى بين ذراعين من نهر

كِنْك . وقال المهلبيّ : هى فى أقاصى الهند فى جهة الشرق عن المُلْتان على مائتين واثنين وثمانين فرسخا . قال : وهى مِصْر الهند وأعظمُ المُدُن بها . ثم قال : وقد بالغ الناسُ فى تعظيمها حتّى قالوا : إن بها ثلثمائة سُوق للجوهر، ولمَلِكها ألفان وخمسمائة فِيلٍ؛ وهى كثيرة مَعَادن الذهب . قال فى "نزهة المشتاق" : هى مدينةٌ حَسَنة، كثيرةُ التجارات، ومن مُدُنها قِشْمِيرُ الخارجة، وقِشْمِير الداخلة . قال : ومَلِكها يسمّى القِنَّوج باسمها .

ومنها (جِبالُ قَامَرُون) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح القاف وألف وميم وراء مهملة ثم واو ونون . وهى حِجَاز بين الهند والصِّين، وعدّها فى "القانون" من الجَزَائر . قال : وهى خارجة عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلى الجَنُوب قال فى "القانون" و"الأطوال" : حيث الطولُ مائةٌ وخمس وعشرون درجة، والعرض عشْرُ دَرَج ، ومدينة المَلِك شرقِيَّها، وبها مَعْدِن العُود القامَرُونيّ .

قلت : وذكر فى "مسالك الأبصار" عن قاضى القُضاة سراج الدين الهندى : أن فى مملكة صاحب الهند ثلاثةً وعشرين إقليما، عدّ منها بعضَ ماتقدّم ذكره، وهى : إقليم دَهْلِي، وإقليم الدَّواكِير، وإقليم المُلْتان، وإقليم كَهْران، وإقليم سامانا، وإقليم سبوستان، وإقليم وَجَّا، وإقليم هاسى، وإقليم سرستى، وإقليم المَعْبَر، وإقليم تلنك، وإقليم بجرات، وإقليم بداون، وإقليم عوض، وإقليم القِنَّوج، وإقليم لكنوتى، وإقليم بَهَار، وإقليم كره، وإقليم ملاوه، وإقليم لَهَاوُر، وإقليم كلافُور، وإقليم جاجنكر، وإقليم تلنج، وإقليم دور سمند .

ثم قال : وهذه الأقاليم تشتمل على ألف مدينة ومائتى مدينة، كلُّها مُدُن ذواتُ نيابات : كِبارٌ وصغار، وبجميعها الأعمال والقرى العامرة الآهلةُ . وقال إنه لايعرف

عددَ قُراها ، إلا أن إقليم القِنَّوج مائةٌ وعشرون لُكًّا ، كل لُكٍّ مائة ألف قرية ، فتكون آثنَيْ عشرَ ألف ألف قرية ؛ وإقليم تلَنْك ستة وثلاثون لُكًّا ، فيكون ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف قرية ؛ وإقليم ملاوه أكبر من إقليم القِنَّوج فى الجملة .

وحكى عن الشيخ مبارك الأَنْباتى : أن على لكنوتى مائتى ألف مركب صغار خِفَاف للسير ، إذا رمى الرامى فى إحداها سهما وقع فى وسطها لسرعة جَرَيانها . ومن المراكب الكبار ما فيه الطواحين والأفران والأسواق ، وربما لم يعرف بعضُ ركابه بعضا إلا بعد مدّة لآتساعه وعِظَمه إلى غير ذلك مما العهدة فيه عليه .

وآعلم أن بحر الهند جزائرَ عظيمةً معدودةً فى أعماله ، يكون بعضُها مملكةً منفردةً .

منها (جزيرة سَرَنْدِيبَ) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح السين والراء المهملتين وسكون النون وكسر الدال المهملة وسكون الياء المثناة من تحتُ ثم باء موحدة . قال : ويقال لها جزيرة سِنْكاديب ، كأنه باللسان الهندى ، وموقعها خارجٌ عن الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلى الجنوب قال "فى الأطوال" : حيث الطولُ مائة وعشرون درجةً ، والعرضُ عشرُ دَرَج . قال آبن سعيد : ويشُقُّ هذه الجزيرةَ جبلٌ عظيم على خط الآستواء ، آسمه جبل الرُّهُون ، يزعمون أن عليه هُبوطَ آدم عليه السلام . قال آبن خرداذبه : وهو جبل ذاهبٌ فى السماء ، يراه أهل المراكب على مسيرة عشرين يوما وأقلّ وأكثرَ .

وذكرت البراهمةُ : أن على هذا الجبل أثرَ قدم آدمَ عليه السلام : قَدَمٌ واحدةٌ مغموسة فى الحجر ، وأنه خطا الخَطْوة الأخرى إلى الهند ، وهو منها على مسيرة يومين أو ثلاثة . قال : وعلى هذا الجبل شبيهٌ بالبرق أبدًا ، وعليه العُودُ وسائر العِطْر والأَفاويه ، وعليه وحواليه الياقوتُ وألوانُه كلُّها ، وفى واديه المْاسُ والسُّنْباذَج ،

وغزال المسك ، وسنور الزباد ، وفى أنهار هذه الجزيرة البلور ، وحولها فى البحر مغاصات اللؤلؤ ، ونهرها هو المعظم عند الهنود . قال ابن سعيد : ومدينتها تسمى أغنا . وهى حيث الطول مائة وأربع وعشرون درجة .

ومنها (جزيرة الرانج) . قال فى "تقويم البلدان" : والظاهر أنها بالراء المهملة والألف والنون ثم جيم فى الآخر ، وموقعها فى الجنوب عن الإقليم الأول . قال فى "الأطوال" : وطولها مائة وثلاث عشرة درجة ، ولا عرض لها ، وفيها عمارة وزرع ونارجيل وغير ذلك . قال فى "كتاب الأطوال" : وجبالها ترى من جبال ايمن ، وبها جبال تشتعل النار فيها دائما ، وترى تلك النار فى البحر من مسيرة أيام ، وبها حيات تبتلع الرجل والجاموس ، وفى البحر عند لهاور "دور" وهو مكان يدور فيه الماء ، ويخشى على المراكب عنده . قال ابن خرداذبه : وفيها حيات عظام تبتلع الرجل والجاموس والفيل ، وفيها شجر الكافور ، تظل الشجرة منه مائة إنسان وعجائب لا تحصى .

ومنها (جزيرة لامرى) قال فى "تقويم البلدان" : بلام وألف وميم وراء مهملة ثم ياء آخر الحروف ، وموقعها فى الجنوب عن الإقليم الأول قال فى "الأطوال" : حيث الطول مائة وست وعشرون درجة ، والعرض تسع درج . قال فى "تقويم البلدان" : وهى معدن البقم والخيزران .

ومنها (جزيرة كلة) قال فى "تقويم البلدان" : بالكاف واللام وهاء فى الآخر . وموقعها فى الجنوب عن الإقليم الأول قال فى "القانون" : حيث الطول مائة وثلاثون درجة ، ولا عرض لها . قال فى "تقويم البلدان" : وهى فرضة ما بين عمان والصين . قال المهلبى : وفيها مدينة عامرة يسكنها المسلمون وغيرهم

وبها مَعادن الرَّصــاص ومَنابت الخَيْزُران وشَجَرِ الكافور ؛ وبينها وبين جزائر المِهْراج عشرون مَجْرى .

ومنها (جزيرة المِهْراج) . قال فى "تقويم البُلْدان" : الظاهر أنهــا بالميم والهاء والراء المهــملة ثم ألف وجيم فى الآخر . قال فى "كتاب الأطوال" : وهى جزيرة سَرِيرَةَ ، وموقعُها فى الجنوب من خطّ الآســتواء قال فى الأطوال : حيث الطول مائة وأربعون درجة ، والعرض فى الجنوب درجةٌ واحدة . قال آبن سعيد : وهى عِدّة جزائر ، وصاحبها من أغنىٰ ملوكِ الهند وأكثرِهم ذهبا وفِيــلَةً . وجزيرتُه الكبيرةُ هى التى فيها مقرّ مُلْكه ؛ وعدّها المهلبىّ فى جزائر الصين ؛ وقال : إنها عامرةٌ آهلة ، وإنه إذا أقلع المـركَب منها طالباً للصين واجهه فى البحر جبالٌ ممتدّة ، داخلة فى البحر مسيرةَ عشرةِ أيام ، فإذا قَرُب المسافرون منهـا وجدُوا فيها أبوابا وفُرَجا فى أثناء ذلك الجبل ، يُفْضِى كلُّ باب منها إلىٰ بلد من بُلْدان الصين . وعدّ آبن سعيد سَرِيرَةَ من جزائر الزَّانِج ، وقال : إنــ طولها من الشَّمال إلىٰ الجنوب أربعُمائة ميل ، وعَرْضَها فى كلّ طَرَف من الجنوبىّ والشمالىّ نحوُ مائة وستين مِيلا ؛ وسَرِيرةُ مدينة فى وَسَطها ، ثم يدخُل منها جَوْن إلىٰ البحر وهى علىٰ نهر .

ومنها (جزيرة أنْدَرابِى) قال فى "تقويم البُــلْدان" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الدال والراء المهملتين ثم ألف وباء موحدة وفى الآخر ياء مثناة من تحتها .

ومنها (جزيرة الجَـاوَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى جزيرة كبيرة مشهورة بكثرة العَــقَاقير . قال : وطَرَف هــذه الجزيرة الغربىُّ حيثُ الطولُ مائةٌ وخمس وأربعون درجة ، والعرضُ خمسُ دَرَج . قال : وفى جنوبىّ جزيرة الجاوة مدينـة

فَنْصُور ، التى ينسب إليها الكافور الفَنْصُورىّ ؛ وهى حيث الطولُ مائة وخمس وأربعون درجة ، والعرضُ درجةٌ واحدة ونصفٌ .

ومنها (جزيرة الصَّنف) . التى يُنْسَب إليها العُودُ الصَّنْفىّ . وهى من أشهر الجزائر الموجودة فى الكُتُب ، وطولها من الغرب إلى الشرق نحو مائتىْ مِيل ، وعَرْضها أقلّ من ذلك ، ومدينتها حيث الطول اثنتان وستون درجة .

ومنها (جزيرة قِمَار) التى يُنْسَب إليها العُود القَمَارىّ وهو دونَ الصَّنْفىّ ، ومدينتها قَمَار حيث الطولُ ستٌّ وستون درجة ، والعرضُ درجتان ، وشرقيّها جزائر الصين .

ومنها (جزيرة الرامى) . قال ابن خرداذبه : وبها الكَرْكَدَّن وجواميسُ لاأذنابَ لهـا ، وبها البَقّم ، وفيها ناسٌ عُرَاة فى غِيَاض لا يُفْهَم ما يقولون ، كلامهم صَفِير ، يستَوْحِشون من الناس ، طولُ كلّ إنسان منهم أربعةُ أشبار ، للرجل منهم ذكر صغير ، وللمرأة فرج صغير ، وشعرُ رءوسهم زَغَبٌ أحمر ، يتسلّقون على الأشجار بأيديهم . وفى البحر هناك ناسٌ بِيض ، يلْحَقُون المراكب سِباحةً والمراكب فى شِدّة جَرْيها ، يبيعون العَنْبَر بالحديد يحملونه فى أفواههم ؛ وجزيرة فيها ناسٌ سود يأكُلون الناس أحياءً ، وجبلٌ طِينُه فِضَّةٌ تظهر بالنار .

الجملة الثانية

(فى حيوانها)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ مبارك الأنْبَاتى : أنّ بها الخيلَ على نوعين : عِرَاب وبَرَاذِين ، وأكثرها ما لا يحمد فعله . قال : ولذلك تُجْلَب الخيلُ إلى الهند من جميع ماجاوَرَه من بلاد التُّرك ، وتُقاد له العِرَاب من البحرين وبلاد اليَمَن والعِراق ، وإن كان فى داخل الهند خيلُ عِرَاب يُتغالى فى أثمانها ولكنها

قليلة. قال : ومتىٰ طال مُكْثُ الخيل بالهند انحلّت . وعندهم البِغَال والحمير، ولكنها مذمومةُ الرُّكوب عندهم، حتّىٰ لا يَسْتَحْسِن فقيه ولا ذو علم رُكوبَ بغلة .

أما الحمار فإن ركوبه عندهم مَذَلّة وعارٌ عظيم؛ وخاصّتهم تحمل أثقالهم علىٰ الخيل، وعامتهم تحمل علىٰ البقر من فوق الأنف(١)، وهى عندهم كثيرة، وبها الجمالُ قليلة لا تكون إلا للسلطان وأتباعه : من الخانات، والأمراء، والوُزَراء، وأكابر الدولة؛ وبها من المواشى السائمــة ما لا يُحصىٰ : من الجواميس والأبقار والأغنام والمَعَز؛ وبهـا من دَوَاجن الطير الدَّجاجُ والحمـام والإوَزّ وهو أقل أنواعه، وان الدجاج عندهم فى قَدْرِ خلق الإوزّ . وبها من الوُحوش الفِيل، والكَرْكَدَّنُ . وقد تقدّم ذكرهما فى الكلام علىٰ الوحوش فيما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه من الحيوان فى المقالة الأولىٰ، فى غير ذلك من الوحوش التى لا تُعَدّ .

الجمـــــلة الثـالثـــــة

(فى حبوبها، وفَوَاكِهها، ورَيَاحِينها، وخَضْراواتِها، وغير ذلك)

أما الحبوب فقد ذُكِر عن الشيخ مُبارك الأنباتى أن بها الأُرُزّ علىٰ أحد وعشرين نوعا؛ وبهـا من سائر الحبوب الحنطةُ، والشعيرُ، والحِمّص، والعَدَس، والمَـاش، واللُّوبِياء، والسِّمْسِم؛ أما الفُول فلا يُوجَد عندهم . قال فى "مسالك الأبصار" : ولعل عدمه من حيث إنهم قوم حكماء، والفول عندهم ممـا يُفْسِد جوهَرَ العقل، ولذلك حَرّمت الصابئة أكله .

وأما الفواكه ففيه التِّين، والعنب علىٰ قلّة، والرُّمّان الكثير : من الحُلْو، والمُزّ، والحامض إلىٰ غير ذلك من الفواكه : كالمَوْز، والخَوْخ، والتُّوت المسمّى بالفِرْصاد؛

---

(١) لعله مصحف عن الكتف .

وبها فواكه أخرى لا يُعْهَد مثلها بمصر والشام ، كالعنباء وغيرها ، والسَّفَرْجل على قلة ، والكُمَّثْرى ، والتُّفَّاح ، وهما أقل من القليل ، ولكنهما والسفرجل تُجلَب إليه . وبها من الفواكه المستحسنة الرَّانج ، وهو المسمَّى عندهم بالنارَجيل ، والعامة تسميه جَوْز الهند . وبه البِطّيخ الأخضر والأصفر ، والخِيار ، والقِثَّاء ، والعَجُّور ، وبه من المحمضات الأُتْرُجّ ، واللَّيْمون ، واللِّيم ، والنَّارَنْج . أما الحُمَّر(١) وهو التمر الهندى فكثير بباديتها .

وأما الخَضْراوات فقصبُ السكَّر ببلادها كثيرٌ للغاية ، ومنه نوعٌ أسودُ صُلْب المَعْجَم ، وهو أجوده للامتصاص لا الاعتِصار ، ولا يوجد فى غيرها ، ويُعمَل من بقيَّة أنواعه السكَّر الكثير : من النَّبات وغيره ، ولكنه لا يجمُدُ بل يكون كالسَّميذ الأبيض . وعندهم من الخَضْراوات اللِّفْت ، والجَزَر ، والقَرْع ، والباذنْجان ، والهِلْيَوْن ، والزَّنْجَبيل ، والسِّلْق ، والبَصَل ، والفُوم وهو الثُّوم ، والشَّمار ، والصَّعْتر .

وأما الرياحين ، فبها الورد ، واللَّيْنُوفر ، والبَنَفْسَج ، والبانُ ، والخِلاَف ، والعَبْهَر ، والنَّرْجِس ، والفاغِيَة وهى التَّامِر حِنَّاء .

وأما غير ذلك فعندهم العَسَل أكثر من الكثير ، والشَّيْرَج ومنه وَقُودُهم ، والزيتُ يأتيهم مجلوبا . أما الشَّمع فلا يُوجَد إلا فى دُور السلطان ، ولا يُسْمَح فيه لأحد ؛ والحَلْوى على خمسة وستين نوعا ، والفُقَّاع ، والأَشْربة ، والأطعمة على ما لا يكاد يوجد فى غير ما هنالك . وبه من أرباب الصنائع صُنَّاع السُّيوف ، والقِسِىّ ، والرِّماح ، والزَّرَد ، وسائر أنواع السلاح ، والصُّوَّاغ ، والزَّرا كِشَة ، وغيرهم من سائر أرباب الصنائع .

---

(١) ويقال له الحومر أيضا .

وللسلطان بِدَلّى دارُ طِراز، فيها أربعة آلاف قزّاز، تَعْمَل الأقمشة المنوّعة للخِلَع والكَسَاوى(١) والإطْلاقات، مع مايحمل إليه من قُمَاش الصين والعراق والإسْكندرية .

الجمـــلة الرابعـــة

(فى المعـاملات)

أما نقودهم، فقد ذكر الشيخ مبارك الأَنْبَاتىّ : أن لهم أربعَ دراهم يتعامَلُون بها .

أحدها — الهشتكانى . وهو وزن الدِّرهم النُّقْرة بمعاملة مصر، وجَوَازه جَوَازه، لايكاد يَتفاوتُ ما بينهما، والدِّرهم الهشتكانى المذكور عنه ثمـان جتيلات، كل جتيل أربعة أفْلُس، فيكون عنه آثنين وثلاثين فَلْسا .

الثـانى — الدِّرْهم السُّلْطانى . ويسمَّى وكانى، وهو رُبعُ دِرْهَم من الدراهم المِصريّة، وكل درهم من السلطانية عنــه جتيلان، ولهذا الدرهم السلطانىّ نِصْف يسمَّى جتيل واحد .

الثالث — الششتكانى . وهو نصفُ وربعُ درهم هشتكانى، ويكون تقــديره بالدراهم السلطانية ثلاثةَ دراهم .

الرابع — الدرهم الدرازد هكانى . وجوازه بنصفِ وربعِ درهم هشتكانىّ أيضا، فيكون بمقدار الششتكانى؛ ثم كل ثمـانية دراهم هشتكانِيَّة تسمَّى تنكه .

أما الذهب عنــدهم فبالمِثْقال، وكل ثلاثة مثاقيلَ تسمَّى تنكه، ويعبر عن تنكة الذهب بالتنكة الحمراء، وعن تنكة الفِضَّــة بالتنكة البيضاء؛ وكل مائة ألف تنكة

(١) جارىً العامَّة فى هذا الجمع والا فجمعها كُسًا وكِسَاء كما فى القاموس .

من الذهب أو الفضة تسمّى لُكًّا ، إلا أنه يعبر عن لك الذهب باللّكّ الأحمر ، وعن لُكّ الفِضّة باللك الأبيض .

وأما رِطْلهم فيسمّى عندهم ستر، وزنته سبعون مثقالا ، فتكون زنته بالدراهم المصرية مائةَ درهم ودرهمين وثلثَيْ درهم ، وكل أربعين سترا مَنٌّ واحد ، وجميع مبيعاتهم بالوزن أما الكيل فلا يعرف عندهم .

الجملة الخامسة

(فى الأسعار)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" أسعارَ الهند فى زمانه نَقْلا عن قاضى القضاة سراج الدين الهندى" وغيره فقال : إن الجاريةَ الخدّامة لاتتعدّى قيمتُها بمدينة دَهْلِى ثمانَ تنكات، واللواتى يصْلُحْنَ للخدمة والفِراش خمسَ عَشْرة تنكة . وفى غير دَهْلِى أرخص من ذلك حتى قال القاضى سراج الدين : إنه اشترى عبدا مراهقا نَقّاعا بأربعة دراهم . ثم قال : ومع هذا الرِّخص إن من الجَوارى الهنديّات مَنْ تبلُغ قيمتُها عشرين ألف تنكة وأكثرَ لحُسْنهن ولُطْفهن .

ونقل عن الشيخ مُبارَك الأنباتى (وكان فيما قبل الثلاثين والسبعمائة) فقال : إن أوساط الأسعار حينئذٍ أن تكون الحنطةُ كلُّ مَنٍّ بدرهم ونصفِ هشتكانى"، والشعيرُ كلُّ مَنٍّ بدرهمٍ واحد هشتكانى" ، والأرُزُّ كل مَنٍّ بدرهم ونصف وربع هشتكانى ، إلا أنواعا معروفة من الأرُزّ فإنها أغلى من ذلك ، والحِمّص كلُّ مَنَّيْنِ بدرهم هشتكانىٍّ؛ ولحمُ البقر والمَعز كلُّ أربعة أستار بدرهم سلطانى" ، والإوَزُّ كل طائر بدرهمين هشتكانية ، والدَّجاج كلُّ أربعة أطيار بدرهم هشتكانى" ، والسكر كلُّ

خمسة أســتار بدرهم هشتكانى ؛ والرأس الغنم الجيدة السمينة بتنكة (وهى ثمـانية دراهم هشتكانية) والبقرة الجيــدة بتنكتين (وهما ســتة عشر درهما هشتكانية) وربمـا كانت بأقل، والجاموسُ كذلك .

أما الحَمَام والعُصْفور وأنواع الطير فبأقلّ ثمن ،وأنواعُ الصيد من الوحش والطير كثيرة ؛ وأكثر مأْكَلِهم لحمُ البقر والمَعَز مع كثرة الضأن عنــدهم إلا انهم آعتـادُوا أكل ذلك .

وقد حكىٰ فى "مسالك الأبصار" عن الخُجَنْدىّ أنه قال : أكلت أنا وثلاثةُ نَفَر رِفَاق فى بعض بلاد دلّى لحمـا بَقَرِيًّا وخبزا وسمنـا حتى شبعنا بجيتل : وهو أربعـة افلس كما تقدّم .

الجمـــــلة السادسة

(فى الطريق الموصلة إلىٰ مملكتَي السِّنْد والهِنْد)

اِعلم أن لهذه المملكة عدّة طرق :

الطريق الأوّل ــ طريق البحر، قد تقدّم فى الكلام علىٰ الطريق الموصلة إلىٰ اليمن ذِكْرُ الطريق من سواحل مصر : من السُّوَيْس ، والطُّور، والقُصَيْر، وعَيْذَاب إلىٰ عَدَنَ من اليمن فى هذا البحر، ومن عَدَنَ إلىٰ أن يركب فى بحر الهند المتصلِ ببحر القُـلْزُم، إلىٰ سواحل السند والهنـد ، ويخرج إلىٰ أىّ البلاد أراد مِن الفُرَض الموصلة إليها .

الطريق الثانى ــ طريق بحر فارِس، قد تقدّم فى الكلام علىٰ مملكة إيران ذِكْرُ الطريقِ الموصِّلة من حلَبَ إلىٰ بغدادَ، ثم من بغدادَ إلىٰ البصرة . قال آبن خرداذبه :

ثم من البصرة إلى عَبَّادانَ آثنا عشر فَرْسخا، ثم إلى الخَشَبات[1] فَرْسخَان ، ومنها يُرْكَب في بحر فارس :

فمن أراد طريقَ البر إلى السِّند والهِند ، جاز هذا البحر إلى هُرْمُزَ : مدينة كَرْمان، ومنها يتوصل إلى السند ثم الهند ثم الصين .

ومن أراد الطريق في البحر، فقد ذكر آبن خرداذبه : أن من أُبُلَّة البصرة في نهر الأُبُلَّة إلى جزيرة خارَكَ في نخيل فارس سبعين فرسخا ، ومنها إلى جزيرة لابن ثمانين فرسخا ، ثم إلى جزيرة أبرون سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة خَيْن سبعة فراسخ ، ثم إلى جزيرة كِيشْ سبعة فراسخ، ثم إلى جزيرة أبركاوان ثمانيةَ عشرَ فرسخا، ثم إلى جزيرة أرموز سبعة فراسخ ، ثم إلى بار سبعة أيام ، وهي الحدّ بين فارس والسند ، ثم إلى الدَّيْبُل ثمانية أيام ، ثم إلى مَصَبِّ مِهْران في البحر فرسخان ، ثم من مِهْران إلى بَكِين أوّل أرض الهند أربعة أيام، ثم إلى المَنْد فرسخان ، ثم إلى كُول فرسخان، ثم إلى سَنْدانَ ثمانيةَ عشرَ فرسخا ، ثم إلى ملى خمسة أيام ، ثم إلى بُلّين يومان .

ثم يفترق الطريق في البحر :

فمن أخذ على الساحل — فمن بُلّين إلى باس يومان ، ثم إلى السِّنْجِلي وكَبْشكان يومان، ثم إلى كودا مصب نهر فريد ثلاثة فراسخَ، ثم إلى كَيْلكان يومان، ثم منها إلى سَمَنْدَر، ومن سَمَنْدر إلى أورسير اثنا عشر فرسخا ، ثم إلى أبينه أربعة أيام ، ثم إلى سرنديب يومان .

---

(١) الخشبات علامات في البحر للراكب تنتهي إليها ولا تجاوزها خوفا من الجزر لئلا تلحق الارض . أنظر التقويم (ص ٣٠٩) .

ومن أراد جهـة الصين عدل من بُلّين وجعـل سَرَنْدِيبَ عن يساره . فمن جزيرة سَرَنْديب إلىٰ جزيرة لنكبالوس عشرة أيام إلىٰ خمسـة عشر يوما ، ثم إلىٰ جزيرة كِلَه ستة أيام . وعن يسـارها جزيرة بالوس علىٰ يومـين ، ثم علىٰ خمسـة عشر يوما بلاد تُنبِت العِطْر .

الجمـــلة السابعة

(فى ذكـر مـلوك الهنـد)

(١) جماعةٌ منهم ملوك الكُفْر، أسمـاؤهم أعجمية لا حاجةَ إلىٰ ذكرهم ، فأضربنا عنهـم .

وأمّا فى الإسلام فأوّلُ من أخذ فى فَتْح ما فُتِح من الهند بنو سُبُكْتِكِين : ملوكِ غَزْنَة، المتقدّم ذكرهم فى مملكة خُوارزم والقَبْجاق وما مع ذلك .

ففتح يمينُ الدولة (محمودُ بنُ سُبُكْتِكِين) منه مدينة بَهَاطِيَةَ . وهى مدينة حَصينة عاليةُ السُّور وراءَ المُلْتان، فى سنة ستٍّ (٢) وتسعين وثلثمائة، وسار إلىٰ بيدا ملِك الهند، فهرب منه إلىٰ مدينته (٣) المعروفة بكالِيجَار ، فحاصره فيها حتّىٰ صالحه علىٰ مال ، فأخذ المـال وألبسه خِلْعته ، وآستعفىٰ من شَدّ وسطه بالمِنْطقـة فلم يُعْفِه من ذلك ، فشدّها علىٰ كُرْه .

ثم فتح (إبراهيمُ بنُ مسـعود) منهم حصوناً منـه فى سنة إحدىٰ وخمسين وأربعمائة .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله أما قبل الإسلام فملكها جماعة من الخ .

(٢) ذكر أبو الفداء فتحها فى حوادث سنة ٩٥ ومسيره إلىٰ ملكها فى سنة ٩٦ .

(٣) عبارة أبى الفدا "قلعته" .

ثم كانت دولةُ الغُوريَّة بغَزْنَةَ أيضا . ففتح شهابُ الدِّين أبو المظَفَّر (محمدُ بن سام) ابن الحُسَيْن الغُورِى منه مدينةَ لَهَاوُر فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة (١)، وأتبعها بفتح الكثير من بلادهم، وبلغ من النِّكاية فى ملوكهم مالم يبلُغْه أحدٌ من ملوك الإسلام قبله ، وتمكن من بلاد الهند ، وأقطَعَ مملوكَهُ قطبَ الدين أيبك مدينةَ دَهْلى التى هى قاعدة الهند ، وبعث أيبكُ المذكور عساكِرَه ، فملكت من الهند أماكِنَ مادخلها مسلمٌ قبله حتّى قاربت جهة الصين .

ثم فتح (شهاب الدين محمد) المذكور أيضا بعد ذلك نَهْرواله فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وتوالت ملوكُ المسلمين وفُتُوحاتُهم فى الهند إلى أن كان (محمد بن طغلقشاه) فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية، فقوِىَ سلطانه بالهند، وكثرت عساكره ، وأخذ فى الفتوح حتّى فتح معظم الهند .

قال فى "مسالك الأبصار" قال الشيخ مبارك الأنباتى : وأوّل مافتح منه مملكة تلنك، وهى واسعة البلاد، كثيرة القُرى، عدّة قراها تسعمائة ألف قرية وتسعمائة قرية . ثم فتح بلاد جَاجْنَكر، وبها سبعون مدينة جليلة كلُّها على البحر، دَخْلُها من الجَوْهر والقُماش المنوّع، والطِّيب، والأَفَاوِيه، ثم فتح بلاد لكنوتى، وهى كرسىّ تسعة ملوك . ثم فتح بلاد دوَاكِير . ويقال لها دكير، ولها أربع وثمانون قلعة جليلات المِقْدار . ونقل عن الشيخ برهان الدين أبى بكر بن الخلال البزى : أن بها ألف ألف قرية ومائتى ألف قرية . ثم فتح بلاد دَوْر سمند، وكان بها السلطان بلال الدبو وخمسة ملوك كُفَّار . ثم فتح بلاد المَعْبَر : وهو إقليم جليل له تسعون مدينة بنادر على البحر، يجىء من دَخْلها الطِّيبُ، واللَّانس، والقُماش المنوّع، ولطائفُ الآفاق .

(١) الذى فى العبر وتاريخ ابن الأثير أنه فتحها فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة وهو الصواب .

وذكر أنه حصل له من الأموال بسبب الفتوح التى فتحها مالا يكاد السامع يصدقه . فحكىٰ عن الشيخ برهان الدين أبى بكر بن الخَلّال المقدّم ذكره : أنه حاصر مَلِكا علىٰ حدّ بلاد الدواكير، فسأله أن يكُفّ عنه علىٰ أن يُرْسِل إليه من الدوابّ مايختار ليُحَمِّله له مالا ، فسأله عن قدر ماعنده من المال فأجابه فقال : إنه كان قبلى سبعةُ ملوك، جمع كلُّ واحد منهم سبعين ألف صهريج متسعةً من المال، فأجابه إلىٰ ذلك ، وختم علىٰ تلك الصهاريج باسمه وتركها بحالها ، وأقرَّ المُلْكَ باسم ذلك المَلِك، وأمر بإقامته عنده، وجعل له نائبا بتلك المملكة .

وحكى عن علىّ بن منصور العُقَيلى من عرب البحْرَيْنِ أنه تواتر عنـدهم من الأخبار أن هذا السلطانَ فتح مدينةً بها بُحَيرة ماء ، فى وسطها بيتُ بِرٍّ معظم عندهم يقصدونه بالنذر، وكلما أُتِى له بنذر رُمِى فى تلك البُحيرة ، فصرف المـاء عنها وأخذ ما كان بها من الذهب ، فكان وَسْقَ مائتَىْ فِيـل وآلافٍ من البقر ، إلىٰ غير ذلك ممـا يكادُ العقل أن يُنْكِره، ولذلك حصـل عنده من الأموال مالا يأخُذه الحصرُ ، وآتسعت أموالُ عساكره حتّى جاوزتِ الوصفَ ، حتى حكى الشـيخ تاج الدين بن أبى المجاهد السَّمَرْقندىّ : أنه غَضِب علىٰ بعض خاناته لشُرْبه الخمرَ فأمسكه وأخذ ماله ، فكان جمـلةُ ماوُجِد له من الذهب ألفَ ألفِ مثقال وسـبعةً وثلاثين ألف مثقال ، ومقدار ذلك ثلاثة وأربعون ألف قنطار وسبعون قنطارا ، وهو مع ذلك يُعطِى العطاءَ الجزيل ويَصِل بالأموال الجَمَّة .

فقد حكى آبن الحكيم الطيـارى : أن شخصا قدّم له كتبا ، فَحَثَىٰ له حَثْيـةً من جوهر كان بين يدَيْه، قيمتُها عشرون ألفَ مثقالٍ من الذهب .

وحكىٰ الشريف السَّمَرْقندىّ : أن شخصا قدّم له آثنتين وعشرين حبَّةً من البِطِّيخ الأصفر، حملها إليه من بُخارىٰ، فأمر له بثلاثةِ آلافِ مثقالٍ من الذهب .

وحكى الشيخ أبو بكر بن أبى الحسن المُلْتانىّ أنه آستفاض عنه أنه الْتَزم أنه لايَنْطِق فى إطلاقاته بأقلّ من ثلاثة آلاف مثقال، إلى غير ذلك من العطاء الذى يخرق العقول .

وحكى عن قاضى القضاة سراج الدين الهندى : أنه مع كثرة البَذْل وسَعَة العطاء فى هِبَاته وما يُنْفِقه فى جُيوشه وعساكره لايُنْفِق نصفَ دَخْل بلاده .

قلت : ثم بعد محمد شاه ولى هذه المملكةَ من أقاربه سلطان آسمه (فَيْرُوزشاه) وبقىَ فى الملك نحوَ أربعين سنة . ثم تنقلت المملكة فى بيتهم إلى أن كان من تُمُرلنك ما كان من فتح دَلّى ونَهْبها .

ثم آل الأمْرُ بعده إلى سلطان من بيت الملك ، آسمه (محمود خان) وهو القائم بها إلى الآنَ . وقد صارت الدواكيرُ منها لسلطان بمفرده ، وآسمه اليوم السلطان (غِيَاث الدين) .

الجملة الثامنة

(فى ذكر عساكر هذه المملكة ، وأرباب وظائفها على ماذكره
فى "مسالك الأبصار" عن دولة السلطان محمد بن طغلقشاه المقدم ذكره ،
نقلا عن الشيخ مبارك الأنباتىّ وغيره)

أما عساكره ، فقد ذكر أنها تشتمل على تِسْعِمائة ألف فارس : منهم مَنْ هو بحضرته ، ومنهم مَنْ هو فى سائر البلاد ، يَجْرِى عليهم كلِّهم ديوانُه ، وأن عسكره مجتَمِع من التُّرك والخِطا والفُرْس والهنود وغيرهم من الأجناس . وكلُّهم بالخيل المُسَوَّمة ، والسلاح الفائق ، والتجمُّل الظاهر ؛ وأن أعلى عسكره الخاناتُ ، ثم الملوكُ، ثم الأمراءُ، ثم الاصفهسلارية ، ثم الجُنْد .

وذكر أن فى خدمته ثمـانينَ خانا أو أكثرَ ، وأن لكل واحد منهم من الأتبـاع ماينـاسـبه : للخان عشرةُ آلافِ فارس ، وللملا ألفُ فارس، وللأمير مائةُ فارسٍ ، وللاصفهسلارية دون ذلك . وأن الاصفهسلارية لايؤهَّلُ أحد منهـم للقُرْب من السلطان، وإنما يكون منهم الوُلاة ومن يجْرِى مجْراهم ؛ وأن له عشرة آلافِ مملوكٍ أتْراك، وعشرة آلاف خادمٍ خِصِىّ ، وألف خزندار، وألف بَشْمِقْدار، وله مائتا ألف عبدٍ رِكابِيَّة، تلْبَس السلاح وتمشِى فى رِكابه، وتقاتل رَجَّالةً بين يديه، وأن جميع الجُنْـد تختَصُّ بالسلطان، ويجرى عليهم ديوانُه حتّى مَنْ فى خِدْمة الخانات والمُلُوك والأمراء ، لايجرى عليهم إقطاعٌ من جهةِ مَنْ هم فى خِدْمته كما فى مِصْرَ والشام .

وأما أربابُ الوظائف من أرباب السيوف، فله نائبٌ كبير، يسمَّى بلغتهم امريت وأربعةُ نُوّابٍ دُونَه ، يسمَّى كل واحد منهم شق ؛ وله الحُجَّاب ومن يجرِى مجْراهم من سـائر أرباب الوظائف . وأمَّا من أرباب الأقلام، فله وَزِيرٌ عظيم، وله أربعة كُتَّاب سر، يسمَّى كل واحد منهم بلغتهم دبيران ، ولكل منهم تقدير ثلثمائة كاتب .

وأما القضاة فله قاضى قضاةٍ عظيمُ الشأن، وله محتَسِب وشيخُ شيوخ، وله ألفُ طبيب ومائتا طبيب .

وأما غير هؤلاء فله ألف بازْدار، تحمل الطيورَ الجوارحَ للصـيد راكبةً الخيــلَ، وثلاثة آلافِ سَوَّاق لتحصيل الصـيد ، وخمسمائةِ نَديم ، وألفان ومائتان من المَلاهى غير مماليكه المَلاهى، وهى ألفُ مملوك برسم تعليم الغِناء خاصةً، وألفُ شاعر بالعربيَّة، والفارسيَّة، والهندية، من ذوى الذَّوْق اللطيف . يَجْرِى علىٰ جميع أولئك ديوانُه مع طهارة الذَّيْل والعِفَّة فى الظاهر والباطن .

الجملة التاسعة

(فى زىّ أهل هذه المملكة)

أمّا أربابُ السُّيوف فنُقِل عن الشيخ مُبارَك الأنباتى : أن لِبْس السلطان والخانات والملوك، وسائر أرباب السيوف تتريّات، وتَكلاواتٌ ، وأقْبِيَةٌ إسلامية، مُخَصَّرة الأوساط خُوارزْمِيَّة، وعمائمُ صغار لاتتعدّى العامةُ منها خمسةَ أذرع أوستةً، وأن لِبْسهم من البياض والجُوخ .

وحكى عن الشريف ناصر الدين محمد الحسينىّ الأَدَمى أن غالب لِبْسهم تترية مُزَرْكَشَةٌ بالذهب، ومنهم مَنْ يلبَس مطرَّز الكمين بزَرْكَش، ومنهم من يعمل الطِّراز بين كتفيه مثل المُغْل، وأقْباعُهم مربَّعة الأَنْبِساط ، مُرَصَّعة بالجواهر، وغالب ترصيعهم بالياقوت والمْاس ، ويَضْفِرُون شعورَهم ذوائبَ، كما كان يُفْعَل بمصر والشام فى أوّل الدولة التركية ، إلا أنهم يجعلون فى الذوائب شَراريبَ من حَرير، ويُشدّون فى أوساطهم المَناطِقَ من الذهب والفِضّة، ويلْبَسون الأخفافَ والمَهاميز، ولا يشُدّون السيوفَ فى أوساطهم إلا فى السَّفر خاصّة .

وأما الوُزَراء والكُتّاب ، فزِيُّهم مثل زِىّ الجُنْد ، إلا أنهم لا يَشُدُّون المَناطِقَ، وربما أرخىٰ بعضُهم العذَبةَ الصغيرةَ من قُدّامِه كما تفعل الصُّوفيَّة .

وأما القُضاة والعلماءُ، فلِبْسُهم فرجيّات شَبِيهاتٌ بالجندات ودَرارِيعُ .

وحكى عن قاضى القضاة سراج الدين الهندىّ أنه لا يَلْبَس عندهم ثيابَ الكَتّان المجلوبةَ من الرُّوس والإسكندرية إلا مَنْ ألبسه له السلطان، وإنما لباسهم من القُطْن الرفيع الذى يفوقُ البغداديّ حُسْنا، وأنه لا يَرْكَب بالسُّروج الملبَّسة والمُحَلّاة بالذهب إلا مَنْ أنعم عليه بها السلطان .

الجمـــلة العـاشرة

(فى أرزاق أهلِ دَوْلة السلطان بهذه المملكة)

أما الجُنْد، فنُقل عن الشيخ مبارك الأنباتىّ أنه يكون للخانات والملوك والأمراء والاصفهسلارِيّة بلادٌ مقرَّرة عليهم من الديوان إقطاعًا لهم .

وذكر أن إقطاع النائب الكبير المسمَّى بأمريت يكون إقليما عظيما كالعِرَاق . ولكلّ خان لُكَّانِ ، كلُّ لكّ مائةُ ألف تنكة ، كل تنكة ثمانية دراهم ؛ ولكل ملك من ستين ألفَ تنكة إلىٰ خمسين ألف تنكة ؛ ولكل أمير من أربعين ألفَ تنكة إلىٰ ثلاثين ألف تنكة ؛ وللاصفهسلارية من عشرين ألفَ تنكةٍ إلىٰ ما حولها ؛ ولكل جُنْدىّ من عشرة آلاف تنكة إلىٰ ألف تنكة ؛ ولكل مملوكٍ من المماليك السلطانيّة من خمسة آلاف تنكة إلى ألف تنكة، مع الطعام والكُسْوة وعَلِيق الخيل لجميعهم على السلطان . ولكل عبد من العَبِيد السلطانية فى كل شهر عشْرُ تنكات بَيْضاء، ومنَّان من الحِنْطة والأرُزِّ، وفى كل يوم ثلاثةُ أستار من اللحم، وفى كل سنة أربع كساوٍ .

وأما أرباب الأقلام ، فإن الوزير يكون له إقليم عظيمٌ نحو العِراق إقطاعًا له ؛ ولكل واحد من كُتَّاب السرّ الأربعة مدينةٌ من المُدُن البَنَادر العظيمةِ الدَّخْل ؛ ولأكابر كُتَّابهم قُرًى وضِياعٌ . ومنهم مَنْ يكون له خمسون قريةً . ولكلِّ من الكُتَّاب الصِّغار عشرةُ آلافِ تنكة . ولقاضى القُضاة المعبَّر عنه بصَدْرجهان عشْرُ قُرًى ، يكون متحصِّلها نحوَ ستينَ ألفَ تنكة ؛ ولشيخ الشيوخ مثلُه ؛ وللمحتَسِب قريةٌ يكون متحصِّلها نحوَ ثمانيةِ آلافِ تنكة .

وأما غير هؤُلاء من سائر أرباب الوظائف ، فذكر أنه يكون لبعض النُّدَماء قريتانِ ولبعضهم قريةٌ ؛ ولكل واحد منهم من أربعينَ ألفَ تنكة إلىٰ ثلاثين ألف تنكة

إلى عشرين ألف تنكة على مقادير مراتبهم ، مع الكساوى والخلع والافتقادات ، وليُقَس على ذلك .

الجملة الحادية عشرة
(فى ترتيب أحوال هذه المملكة)

وتختلف الحال فى ذلك باختلاف أحوال السلطان .

أما الخدمة، فخدمتان : إحداهما الخدمة اليومية، فإنه فى كل يوم يُمَدّ الخوان فى قصر السلطان : ويأكل منه عشرون ألف نفر من الخانات، والملوك، والأمراء، والاصفهسلارية ، وأعيان الجند ، ويُمَدُّ للسلطان خوانٌ خاصٌّ، ويحضره معه من الفقهاء مائتا فقيه فى الغداء والعشاء ليأكلوا معه ويبحثوا بين يديه .

وحكى عن الشيخ أبى بكر بن الخلال : أنه سأل طبّاخ هذا السلطان عن ذبيحته فى كل يوم — فقال : ألفان وخمسمائة رأس من البقر ، وألفا رأس من الغنم ، غير الخيل المسمّنة وأنواع الطير .

والثانية — الجمعية، فحكى عن الشيخ محمد الخجندى : أن لهذا السلطان يوم الثلاثاء جلوسا عاما فى ساحة عظيمة متسعة إلى غاية، يضرب له فيها خيركبير سلطانى، يجلس فى صدره على تخت عال مصفّح بالذهب ، وتقف أرباب الدولة حوله يمينا وشمالا ، وخلفه السلاح دارية وأرباب الوظائف قيامٌ بين يديه على منازلهم ، ولا يجلس إلا الخانات وصدرجهان « وهو قاضى القضاة » والدبيران «وهو كاتب السرّ الذى تكون له النوبة » ويقف الحجّاب أمامه، وينادى مناداة عامّة : إن من كان له شكوى أو حاجةٌ فليحضر، فيحضر من له شكوى أو حاجةٌ، فيقف بين يديه فلا يمنع حتى ينهى حاله، ويأمر السلطان فيه أمره .

ومن عادته أن لا يدخُل عليه أحدٌ ومعه سِلاحُ البتَّـةَ حتّى ولا سِكّين صـغيرةٌ ؛ ويكون جلوسه داخِلَ سبعة أبواب ، ينزِلُ الداخلُون عليه علىٰ الباب الأوّلِ ، وربما أُذِن لبعضهم بالركوب إلىٰ الباب السادس . وعلىٰ الباب الأوّل منها رجل معه بُوق ، فإذا جاء أحدٌ من الخانات أو الملوك أو أكابر الأُمَراء ، نفخ فى البُوق إعلامًا للسلطان أنه قد جاءه رجل كبير : ليكون دائمًا علىٰ يَقَظة من أمره . ولا يزال ينفُخ فى البُوق حتّى يقـارب الداخلُ البابَ السابعَ ، فيجْلِس كلُّ مَنْ دخل عنـد ذلك البـاب حتّى يجتمع الكلُّ ، فإذا تكاملوا أُذِن لهم فى الدخول ، فإذا دخلوا جلس مَنْ له أهليَّـةُ الجلوس ووقف البـاقُونَ ؛ وجلس القُضاة والوزيرُ وكاتب السرِّ فى مكان لا يَقَع فيه نظرُ السلطان عليهم ، ومُدَّ الخُوَانُ . ثم يُقـدِّم الحجّـابُ قِصصَ أرباب المَظَالم وغيرهـم ، ولكل قوم حاجبٌ يأخذ قِصَصَهم ، ثم يرفَعُون جميع القِصَص إلىٰ حاجب مُقدَّم علىٰ الكل ؛ فيَعْرِضها علىٰ السـلطان ويسمَعُ ما يأمر فيها . فإذا قام السـلطان جلس ذلك الحـاجبُ إلىٰ كاتب السرّ فأدّىٰ إليـه الرسائلَ فى ذلك فينفِّذُها . ثم يقوم السلطان من مَجْلِسـه ذلك ويدخل إلىٰ مجلِسٍ خاصٍّ ، ويدخل عليه العلمـاءُ فيجالِسُهم ويحادِثُهم ويأكُل معهم ؛ ثم ينصرفون ، ويدْخُل السلطان إلىٰ دُوره .

أما حاله فى الركوب ، فإنه كان فى قُصوره يركَب وعلى رأسه الجتر والسلاح داريّة وراءَه محمولا بأيديهم السلاحُ . وحوله قريبُ اثنَىْ عشَرَ ألفَ مملوكٍ ، جميعُهم ليس فيهم راكبٌ إلا حاملَ الجتر والسّـلاح داريَّة والجمْداريَّة حملةُ القماش إن كان فى غير قُصوره . وعلىٰ رأسـه أعلامٌ سـودٌ فى أوساطها تِنّين عظيم من الذهب ؛ ولا يحمِل أحدٌ أعلاما سُودا إلا له خاصّـةً . وفى ميسرته أعلامٌ حُمْر ، فيهـا تِنّينان ذهب أيضا . وطبوله الذى يُدَق بهـا فى الإقامة والسَّـفَر علىٰ مثل الإسكَنْدر .

وهو مائتا حمل نَقَّارات ، وأربعون حملا من الكُوسات الكِبَار ، وعشرون بُوقًا ، وعشرة صُنُوج .

قال الشيخ مبارَك الأنباتىّ : ويُحْمَل على رأسه الجتْر إن كان فى غير الحرب ، فإن كان فى الحرب حُمِل علىٰ رأسه سبعة جُتُورة ، منها اثنان مرصَّعان لا يُقَوَّمان لنَفَاستهما . قال : ولدَسْتِه من الفَخامة والعَظَمة والقَوانينِ الشاهِنْشاهِيَّة ما لا يكون مثلُه إلا للإسكَنْدر ذى القرنيْنِ أو لملِك شاه بن ألْب أرسلان .

ثم إن كان فى الصيد فإنه يخْرُج فى خِفٍّ من اللباس فى نحو مائة ألف فارس ، ومائتَىْ فِيل ، ويحْمَل معه أربعةُ قصور علىٰ ثمانمائة جمل ، كلُّ قصر علىٰ مائتَىْ جمَلٍ مُلبَّسةً جميعها بسُتُور الحرير المُذْهَبة ، وكل قصر طبقتان غير الخِيَم والخركاوات . فان كان يتنقَّل من مكان إلىٰ مكان للتنزُّه وما فى معناه ، فيكونُ معه نحوُ ثلاثين ألفَ فارس ، وألف جَنِيب مُسْرَجة مُلْجَمة ، ما بين ملبَّس بالذهب ومُطَوَّق وفيها المُرصَّع بالجواهر واليَواقِيت .

وإن كان فى الحرب ، فإنه يركَبُ وعلىٰ رأسه سبعةُ جُتورة ، وترتيبُه فى الحرب علىٰ ما ذكره قاضى القضاة سراج الدين الهندىّ : أن يقف السلطان فى القلْب وحَوْلَه الأئمةُ والعلماءُ ، والرُّماة قدّامَه وخَلْفه ، وتمتدّ المَيْمنةُ والميسَرةُ موصولةً بالجناحين ، وأمامه الفِيَلة الملبَّسة البركصطوانات الحديد وعليها الأبراجُ المستَّرة فيها المقاتِلةُ ، وفى تلك الأبراج منافِذُ لرمى النُّشَّاب وقَوارِيرِ النِّفْط ، وأمامَ الفِيَلة العبيدُ المُشاة فى خِفٍّ من اللِّباس بالسُّتور والسلاح ، فيسحَبُون حِبالَ الفِيَلة والخيلُ فى الميمنة والميسَرة ، تضُم أطراف ... ... (١) من حَوْل الفِيَلة ومن ورائها حتّىٰ لا يجِدَ هاربٌ له مَفَرًّا .

(١) بياض بالأصل ولعله "تضم أطراف الجيش من الخ" .

أما غيرُ السلطان من عساكره ، فقد جرتْ عادتُهم أنَّ الخاناتِ والملوكَ والأمراء لا يركبُ أحد منهم فى السَّفَر والحَضَر إلا بالأعلام ، وأكثرُ مايحمِلُ الخانُ معه سبعةُ أعلام ، وأقلُّ ما يحمل الأمير ثلاثةٌ ، وأكثر ما يجُرّ الخانُ فى الحَضَر عشرُ جنائبَ ، وأكثرُ مايجرُّ الأمير فى الحَضَر جَنِيبانِ ، وفى السفر يتعاطىٰ كلُّ أحد منهم قدْرَ طاقتِه .

وأما ٱتصال الأخبار بالسلطان ، فذكر قاضى القُضَاة سراجُ الدين الهندىّ : أن ذلك يختلِفُ بٱختلاف الأحوال : فأحوالُ الرعيَّة له ناس يخالِطُون الرعيَّةَ ، ويَطَّلِعُون علىٰ أخبارهم ، فمن ٱطَّلع منهم علىٰ شىءٍ أنهاه إلىٰ مَنْ فوقه ، ويُنْهِيه الآخَرُ إلىٰ من فوقَه حتى يتَّصِل بالسلطان . وأحوالُ البلاد النائية لاَتصال الأخبار منها من السرعة ما ليس فى غيرها من الممالك ، وذلك أن بين أُمَّهات الأقاليم وبين قصر السلطان أماكِنَ متقاربةً ، مشبَّهة بمراكز البريد بمصرَ والشأم إلا أن هذه الأماكنَ قريبةُ المَدىٰ بعضُها من بعض ، بين كل مكانَيْنِ نحوُ أربع غَلَوات سهم أو دُونَها ، فى كل مكان عشرةُ سُعاةٍ ممن له خِفَّة وقُوّة ، ويحمل الكُتُبَ بينه وبين مَنْ يليه ، ويَعْدُو بأشدِّ ما يمكنه إلىٰ أن يُوَصِّله إلىٰ الآخر ليَعْدُوَ به كذلك إلىٰ مَقْصِده ، فيصل الكتابُ من المكان البعيد فى أقربِ وقتٍ . وفى كل مكان من هذه الأمكِنَة مسجِدٌ وسُوق وبِركَةُ ماء . وبين دَلّى وقُبَّة الإسلام اللتين هما قاعدتا المملكة طبولٌ مرتَّبة فى أمكنة خاصّة ، فحيثما كان فى مدينة وفُتِح بابُ الأخرىٰ أو أُغْلِق يَدُقُّ الطبل ، فإذا سمعه مايجاوره دَقَّ ، فيُعْلَمُ خبرُ فتح المدينة وفتحُ باب الأخرىٰ وغَلْقه .

الفصـــــل الثـانى

من الباب الرابع من المقالة الثانية

(فى الممـالك والبُلْدان الغربيَّة عن مملكة الديار المصرية، وما سامَتَ ذلك ووالاه من الجهة الشَّمالية . وفيه أربعُ ممـالك)

المملكة الأولى

(مملكة تُونُس وما أُضيف إليها . وفيه اثنتان وعشرون جملة)

الجمـــــلة الأولى

(فى بيان موقعها من الأقاليم السبعة [وحدودها])

[أما موقعُها من الأقاليم السبعة] فإن أكثرها واقع فى الإقليم الثالث ، وبعضها واقعٌ فى أواخر الثانى .

وأما حدودها فعلى ما أشار إليه فى "التعريف": حَدُّها من الشرق العَقَبة الفاصلة بينها وبين الدِّيار المصرية، ومن الشَّمال البحر الرُّومى، ومن الغرب جزائرُ بنى مَزْغِنَّان الآتى ذكرها، ومن الجَنُوب آخر بلاد الجَرِيد والأرض السَّوَّاخة إلى ما يقال إن فيه المدينةَ المسماةَ بمدينة النُّحاس .

قال فى "مسالك الأبصار": وحدّها من الجنوب الصَّحراء الفاصلةُ بينها وبين بلاد جناوة المسكونة بأُمَم من السُّودان . وحدُّها من الشرق آخرُ حدود أَطْرابُلُس، وهى داخلة فى التحديد. وحدُّها من الشمال البحر الشامِىُّ : وهو الرومى . وحدّها من الغرب آخر حُدودِ بَدْليس المجاورة لجزائر بنى مَزْغِنَّان، آخرِ عُمَالة صاحب برّ العُدْوة .

وقد نقل فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام علىٰ بُونَةَ عن آبن سعيد أنّ آخر سلطنة بِجايةَ من الشرق مدينةُ بُونَةَ الآتى ذكرُها، وأنها أوّلُ سلطنة أفْرِيقِيَّةَ من الغرب . قال فى "مسالك الأبصار" : وطولُها خمس وثلاثون يوما، وعرضها عشرون يوما .

الجمـــلة الثانيـــة

(فى بيان ما آشتملت عليه هـــذه المملكةُ من الأعمـــال وما آنطوىٰ عليـــه كلُّ عمل)

وهذه المملكة تشتمل علىٰ عملين :

العمل الأوّل — أفرِيقِيَّة . قال فى "تقويم البُـلْدان"[1] : بفتح الهمزة وسكون الفاء وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة تحت وكسر القاف ومثناة تحتُ بعـدها هاء فى الآخر . وقد آختُلف فى سبب تسميتها أفرِيقِيَّـة . فقيل إن أفْرِيقس[2] أحد تَبابعـة اليمن آفتتحها وآستولىٰ عليها فسمِّيت بذلك . وقيل إنمـا سميت بفارق بن [بيصر بن حام بن نوح عليه السلام][3] .

وكانت قاعدتُها القديمةُ (سُبَيْطَلَةَ) بضم السين المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون المثناة من تحتها وفتح الطاء[4] المهملة واللام وفى آخرها هاء . وهى مدينة أزليَّة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السـبعة، حيثُ الطولُ ثلاثون درجة، والعرضُ ثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وبها آثار عظيمة تدُلُّ علىٰ عظم أمرها .

---

(١) ضبطها ياقوت بكسر الهمزة وتبعناه فيما تقدم و يظهر أن فيه لغتين .

(٢) فى المعجم والسبائك أفريقيس بياء بعد القاف وسـين مهملة فى الآخر . وفى العبر كالأصل إلا أنه بالمعجمة وقد تقدّم بها كثيرا .

(٣) بياض بالأصل والتصحيح عن معجم البلدان لياقوت .

(٤) فى معجم ياقوت وطاء مكسورة .

قال الإدريسىّ : وكانت قبل الإسلام مدينةَ افريسيس (١) ملك الروم الأَفارِقَة ، فتحها المسلمون فى صدر الإسلام وقتلوا مَلِكها المذكور .

ثم صارت قاعدتُها فى أوّل الإسلام (القَيْرَوَان) (٢) . بفتح القاف وسكون المثناة تحتُ وفتح الراء المهملة وواو وألف وفى آخرها نون . وهى مدينة فى الإقليم الثالث أيضا حيث الطول ثمان وعشرون درجة وإحدى وثلاثون دقيقة (٣) ، بنيت فى صدر الإسلام بعد فتح أفْرِيقِيَّة فى جنوبىّ جبل شماليِّها ، وهى فى صحراءَ ، وشُرْب أهلها من ماء الآبار وقال فى "العزيزى" : من ماء المطر ، وليس لها ماءٌ جارٍ ، ولها وادٍ فى قبلة المدينة به ماءٌ مالحٌ يستعمله الناس فيما يحتاجونه . قال فى "العزيزى" : وهى أجلُّ مُدُن الغرب (يعنى فى القديم) . وكان عليها سُور عظيم هدمه زيادةُ الله بن الأغلب . قال الإدريسى : وبينها وبين سُبَيْطِلَةَ سبعون ميلا .

ثم صارت قاعدتُها بعد ذلك (المَهْدِيَّة) بفتح الميم وسكون الهاء وكسر الدال المهملة نسبة إلى المَهْدىّ . وهى مدينة بناها عُبَيد الله المهدىّ جدّ الخلفاء الفاطميين بمصر فى سنة ثلاث وثلثمائة ، وموقعها فى الإقليم الثالث أيضا من الأقاليم السبعة حيث الطولُ ثلاثون درجة وأربعون دقيقة ، والعرض آثنتان وثلاثون درجة فيما ذكره آبن سعيد . وهى على طَرَف داخلٍ فى البحر كهيئة كفٍّ متصل بزَنْد ، والبحر محيطٌ بها غيرَ مَدْخَلِها ، وهو مكان ضيق كما فى سَبْتة . ولها سُور حَصين شاهقٌ فى الهواء ، مبنىّ بالحجر الأبيض بأبراجٍ عِظَام . وبها القُصور الحسنةُ المُطِلَّة على البحر .

---

(١) فى التقويم "جرجيس" وفى المعجم جرجير .

(٢) من هنا الى الكلام على الطبقة الثانية من القياصرة قبل ظهور دين النصرانية مقابل أيضا على قطعة وجدت بدار الكتب الأزهرية .

(٣) لم يذكر العرض ، وذكر فى "تقويم البلدان" عن ابن سعيد أنه إحدى وثلاثون درجة .

ثم صارت قاعدتُها بعد ذلك (تُونُس) بضم المثناة من فوقُ وسكون الواو وضم النون وفى آخرها سين مهملة ، وهى قاعدة هذه المملكة الآن ، ومُسْتَقرّ سلطانها .
وهى مدينة قديمــةُ البناء ، واقعة فى الإقليم الثالث قال ابن سـعيد : حيث الطولُ اثنتــان وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وثلاثون درجة وإحدىٰ وثلاثون دقيقة . وهى علىٰ بُحَيرة مالحة خارجةٍ من البحر الرُّومىّ ، طولُها عشرة أميال وتُونُس علىٰ آخرها .

قال البكرى : ودَوْر هذه البُحَيرة نحوُ أربعة وعشرين ميلا . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة جليلة ، لهـا مِياهٌ ضـعيفةٌ جاريةٌ يُزْرَع عليها ؛ وفيها الخصب وكثرة الغَلَّات . وهى فى وطاءةٍ من الأرض فى سَفْح جبل يُعْرف بأمّ عَمْرو ، يَسْتدِير بها خَنْدقٌ وسُور حَصين ، ولها ثلاثة أرباضٍ كبيرة من جهاتها ، وأرضُها سَبِخة ، وجميع بنائها بالحجر والآجُرّ ، وأبنيتُها مسقَّفة بالأخشاب ، ودُورُ أكابرها مفروشةٌ بالرُّخَام . وذم فى "الروض المعطار" بيوتَهـا فقال هى كما يقال : ظاهِرُها رُخَام ، وباطنُهـا سُخَام . وشُربُ أهلها من الآبار ، وبيوتها صَهارِيجُ يُجْمع فيها ماءُ المطر لغَسْل القُماش ونحوه ؛ وبها الحَمَّـامات والأسواقُ الجليلة ؛ وبها ثلاثُ مَدارِس : وهى الشماعيـة والفرضية ، ومدرسة الهواء ، وبها البساتين البعيدة والقريبة منها ، والبساتين محيطة بِبُحَيرتها المقدّم ذكرها من جنوبيها .

قال فى "مسالك الأبصـار" : ومذ خَلَا الأندلُس من أهله ، وأوَوْا إلىٰ جَناح ملوكها ، مَصَّروا إقليمها ، ونوّعوا بها الغِراس ، فكثُرت مستنْزَهاتها ، وامتدّ بَسِـيط بساتينها . قال : وبها يُعْمَل القُماش الأفْرِيقىّ : وهو ثياب رِفَاع من القُطْن والكَتَّان معا ومن الكَتَّان وحده ، وهو أمتع من النِّصافىّ البغدادىّ وأحسَنُ ، ومنه جُلُّ كَسَاوى أهل المَغْرب . وللسلطان بها قلعةٌ جليلة يَسْكُنها ، يُعبِّرون عنهـا بالقَصَبة كما هو

مصطلَح المَغَاربة فى تسمية القلعة بالقَصَبة ، وللسلطان بها بستانان : أحدهما مُلاصق أرباضَ البلد يسمَّى برأس الطابية ، والثـانى بعيدٌ من البساتين يسـمَّى بأبى فِهْر ، بينـه و بين البلد نحو ثلاثةِ أميـال ، والمـاء مُنْساق إليهما من ساقيـة بجبل يعرف بجبل زَغْوان بفتح الزاى وسكون الغين المعجمتين ونون فى الآخر ، علىٰ مَسِيرةِ يومين من تُونُس .

وأما ما ٱشتملَتْ عليه من المُدُن سوىٰ القواعدِ المتقدِّمةِ الذكر .

فمن مشارق تونس (سُوسَةُ) بضم السـين المهـملة وسكون الواو وفتح السـين الثانية ثم هاء . وهى مدينةٌ علىٰ ساحل البحر ، واقعةٌ فى الإقليم الثـالث من الأقاليم السبعة ، حيث الطولُ أربعٌ وثلاثون درجة وعشْرُ دقائقَ ، والعرض ٱثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة . وهى فى جَنُوبىّ تُونُس وشرقِيّها فى طَرَفٍ داخلٍ فى البحر . قال فى "العزيزى" : وهى مَدينة أزليَّة بها سُوقٌ وفنادق وحمَّامات . قال الإدريسىّ : وهى عامرة بالناس ، كثيرةُ المَتَاجر ، والمسافرون إليها قاصِـدُون وعنها صادِرُون ، وعليها سورٌ من حجر حَصِينٌ .

وذكر فى " مسالك الأبصـار " : أن عليها سُـورا من لَبِن ، وأنها قليـلةُ العِمارة لٱستيلاء العرب عليها .

ومنها (صَفَاقُس) بفتح الصاد المهملة ثم فاء وألف وقاف مضمومة وفى آخرها سين مهملة . وهى مدينة علىٰ ساحل البحر شَرْقِىّ المَهْدِيَّة ، واقعةٌ فى الإقليم الثالث قال ٱبن سـعيد حيثُ الطولُ خمس وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقـة ، والعَرْضُ إحدىٰ وثلاثون درجةً وخمسون دقيقةً . قال فى " تقويم البُـلْدان " : وهى مدينة صـغيرة فى مستوٍ من الأرض ، وجَنُوبيّها جبل يسمَّى جبل السَّبْع بفتح السين المهملة

والباء الموحدة وعين مهملة فى الآخر . يستدير عليها سُورٌ، وشُرْب أهلها من الآبار، ولها بساتينُ قليلة، ومن بحرها يُستخرَج الصُّوف المعروفُ عند العامّة بصُوف السَّمَك المُتَّخَذُ منه الثيابُ النَّفيسةُ . قال ابن سعيد : أنا رأيته كيف يُخْرَج، يغوص الغَوّاصون فى البحر فيُخْرِجون كمائمَ شبيهةً بالبصل بأعناق، فى أعلاها زُوَيْرة، فتُنْشَر فى الشمس فتَنْفتح تلك الكمائمُ عن وَبَر، فيُمْشَط و يؤخَذ صوفُه فيُغْزَل، و يعمل منه طعمة لقيام من الحرير، وتُنْسَج منه الثيابُ .

ومنها (قابِس) بفتح القاف وألف ثم باء موحدة وفى آخرها سينٌ مهملة . وهى مدينة فى الإقليم الثالث، حيثُ الطولُ آثنتان وثلاثون درجة وأربعون دقيقة، والعرض آثنتان وثلاثون درجة، علىٰ ثلاثة أميال من البحر . قال فى "العزيزى": وعليها سُور وخَنْدق . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى فى أفرِيقيَّة كدِمَشْق فى الشام، يَنْزِل إليها نهرانِ من الجبـل فى جَنُوبِيِّها، يخترقان فى غُوطَتِها . قال : وقد خُصَّت من بلاد أفرِيقيَّة بالمَوْز وحَبِّ العزيز والحِيَار .

ومنها (أَطْرابُلُس) بفتح الهمزة وسكون الطاء وفتح الراء المهملتين وألف وباء موحدة بعدها لام مضمومتان وسين مهملة فى الآخر . وهى مدينة شرقيَّ تونُسَ علىٰ البحر، واقعةٌ فى الإقليم الثالث قال آبن سعيد حيثُ الطولُ ثمانٌ وثلاثون درجة، والعرضُ آثنتان وثلاثون درجة وعشرون دقيقـة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى آخِرُ المُدُن التى شرقيَّ القَيْرَوَان، و إذا فارقها المسافر مشرِّقًا لا يجد مدينـةً فيها حَمّام حتّىٰ يصل الإسكندرية . وبناؤها بالصَّخْر، وهى واسعةُ الكُورة، وبها الخِصْب الكثير، وليس بها ماءٌ جارٍ، بل بهـا جِبَاب عليها سواق . قال فى "العزيزى" : وبها مَرْسًى للمراكب .

ومنها (قَصْر أحمد) وضبطه معروف ، وموقعه فى أوّل الإقليم الرابع ، حيث الطولُ إحدىٰ وأربعون درجة واثنتان وعشرون دقيقة ، والعرضُ ثلاثٌ وثلاثون درجة وسبعٌ وثلاثون دقيقة . قال ابن سعيد : وهو حدّ أفرِيقيَّة من الشرق وحدّ بَرْقَة من الغرب . وهو قرية صغيرة ، وحَوْلَه قُصور نحو اثنَىْ عشر ميلا ؛ وهى بلادُ زيتونٍ ونخيلٍ ، وأهلها يَجْلُبون الخيلَ للإسْكَندريّة ، ومنها يركب المسافرُ البَرّيّةَ إلىٰ الشرق .

ومن مَغَارب تُونُس علىٰ مسيرة يومين (باجَةُ) قال فى "المشترَك" بفتح الباء الموحدة وألف وتخفيف الجيم ثم هاء . وهى مدينة بالإقليم الثالث قال فى "الأطوال" حيث الطولُ تسع وعشرون درجة وخمسٌ وأربعون دقيقة ، والعرضُ إحدىٰ وثلاثون درجة . وهى مدينة كبيرة ، ولها بساتينُ قليلة وعيونُ ماء ، وعليها سورٌ حصين ، مبنيّةٌ فى مستوٍ من الأرض ، علىٰ نحو يوم من البحر ، ويقابلها علىٰ البحر مَرسَىٰ الخَرَز .

ومنها (نَبْزَرْت) بفتح النون وسكون الباء الموحدة وفتح الزاى المعجمة والراء المهملة وفى آخرها تاء مثناة من فوق ، وقيل هى بتقديم الموحدة علىٰ النون . وهى مرسىٰ تُونُس ، وموقعها فى الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيث الطولُ ثلاثون درجة وخمسون دقيقة ، والعرضُ ثلاث وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقةً . وهى مدينة علىٰ نهرٍ يجرى فى شَرْقيّها وعليه مستَنْزَهاتها . قال فى "تقويم البُلْدان" : ولها بُحَيْرة حُلْوة فى جَنُوبيّها ، وبُحَيْرة مالحةٌ فى شرقيّها ، تُصبُّ كلُّ واحدة منهما فى الأخرىٰ ستةَ أشهر ، فلا الحلوةُ تفسُد بالمالحة ولا المالحة تعْذُب بالحُلْوة . قال الشيخ عبد الواحد : أما زيادة الحُلْوة فبكثرة السُّيول أيامَ الشتاء ، وتقلُّ عنها السيولُ فى أيام الصيف فَتَعْلُو عليها المالحة .

ومنها (بُونة) قال فى "اللباب" بضم الباء الموحدة وسكون الواو ثم نون وهاء . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى المسمَّاة الآنَ بَلَدَ العُنَّاب؛ وهى مدينة على ساحل البحر فى أول الإقليم الرابع قال آبن سعيد حيثُ الطولُ ثمان وعشرون درجة ، والعرضُ ثلاثٌ وثلاثون درجةً وخمسون دقيقة . قال فى "العزيزى" : وهى مدينة جليلة عامرةٌ خِصْبةُ الزَّرع ، كثيرةُ الفواكه ، رَخِيَّة ؛ بظاهرها مَعادِنُ الحديد ؛ ويُزْرَع بها الكَتَّان الكثيرُ . قال : وحدث بها عن قريب مَغَاص مَرْجانٍ، ولكن ليس كمَرْجانِ مَرْسَى الخَرَز .

ومن قِبْلىّ تُونُس للجَنُوب (بلادُ الجَرِيد) .

ومنها (تُوزَرُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" عن الشيخ عبد الواحد : بضم المثناة من فوقُ وسكونِ الواو وفتح الزاى المعجمة وراء مهملة فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الثالث قال آبن سعيد حيثُ الطولُ ستٌّ وثلاثون درجة وسبعُ دقائقَ ، والعرضُ تسعٌ وعشرون درجة وثمانُ دقائقَ . وهى قاعدة بلاد الجَرِيد ، وبها بساتينُ ومُحَمَّضات ونخيلٌ وزيتونٌ ؛ ولها نهر يَسْقِى بساتينها ؛ والمطر بها قليل ؛ ويُزْرَع بها الكَتَّان والحِنَّاء . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبذلك وبِقِلَّة المطر تُشْبِه مِصْرَ . وقد عابها فى "الروض المِعْطار" بأن أهلها يبيعون ما يَتَحَصَّل فى مَرَاحِيضهم من رَجِيع الناس ، يُفَحِّلون به بُقُولهم وبساتينهم ؛ ولكنهم لا يرْغَبون فيه إلا إذا كان جافًّا ، فيحمِلُهم ذلك على عَدَم الاِستنجاء فى مَرَاحِيضهم ، ويخرج أحَدُهم من بيته حتّى يأتى القَناةَ فيستَنْجِىَ من مائها ؛ وربما آتّخذ أحدُهم المراحيضَ على قارعة الطريقِ للواردين عليها ليأخُذ ما يتحصَّلُ من ذلك فيبيعه .

ومنها (قَفْصَةُ) بفتح القاف وسكون الفاء ثم صاد مهملة وهاء فى الآخر. وموقعُها فى الإقليم الثالث قال فى "الأطوال" حيث الطولُ إحدىٰ وثلاثون درجةً، والعَرْضُ ثلاثون درجةً وخمسون دقيقةً. قال ابن سعيد: وهى قاعدةٌ مشهورةٌ من بلاد الجَرِيد بها النَّخيل والفُسْتُق. قال: ولا يكون الفُسْتُق ببلاد المَغْرب إلا فى قَفْصَةَ. وبها من الفَواكه والمشمومات أنواع كثيرة؛ ومنها يُجْلَب دُهْن البَنَفْسَج وخَلُّ العُنْصُل؛ وإليها يُنْسَب جلدُ الأَرْوىٰ المتخذُ منه النِّعال الشديدةُ اللُّيونة.

ومنها (المَسِيلة) قال فى "تقويم البُلْدان" عن الشيخ عبد الواحد: بكسر الميم والسين المهملة وسكون المثناة من تحت وفى آخرها لام ألف، والجارى علىٰ الألْسِنة فتح الميم وهاء فى الآخر. وهى مدينة من بلاد الجَرِيد، موقعُها فى الإقليم الثالث قال ابن سعيد حيثُ الطولُ ثلاث وعشرون درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ تسعٌ وعشرون درجةً وخمس وأربعون دقيقةً. قال فى "العزيزى": وهى مدينة مُحْدَثة، بناها القائمُ الفاطمىُّ سنةَ خمسَ عشرةَ وثلثمائة. قال ابن سعيد: ولها نَهَر يمرّ بغربِيِّها ويغُوص فى رِمال الصَّحارىٰ.

ومنها (بِسْكَرَةُ) قال فى "اللباب" بكسر الباء الموحدة وقيل بفتحها وسكون السين المهملة وكاف وراء مهملة بعدها هاء. وهى مدينة من بلاد الجَرِيد، فى أواخر الإقليم الثانى قال ابن سعيد حيثُ الطولُ أربع وعشرون درجةً وخمس وعشرون دقيقة، والعرضُ سبع وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً. قال ابن سعيد: وهى قاعدةُ بلاد الزَّاب، ولها بلادٌ ذاتُ نخيل وفواكه وزروع كثيرة؛ ومنها يُجْلَب التمرُ الطيِّب إلىٰ تونُس وبِجاية.

ومنها (طُرّا) قال فى " تقويم البُلْدان " عن عبد الواحد : بضم الطاء وتشديد الراء المهملتين وفى آخرها ألف ، ونُقِل عن بعضهم إبدال الألف هاءً . وهى مدينة من بلاد الجَرِيد فى الإقليم الثالث قال ابن سعيد : حيث الطولُ سبع وثلاثون درجةً وعشرون دقيقــة ، والعرضُ تسعٌ وعشرون درجة . قال فى " تقويم البُلْدان " : وبها يُعْمَل الزُّجَاج الصافِى وتفاصيل الصوف ، ومنها يُجْلَب إلى الإسكندرية .

ومنها (غَدَامِسُ) بفتح الغــين والذال المعجمتــين (١) وألف وميم مكسورة وسين مهملة . وهى مدينة فى الصحراء جَنُوبىّ بلاد الجَرِيد ، علىٰ طريق السُّودان المعروفين بالْكانِم . قال : فى " العزيزى " : وهى مدينة جليلة عامرة ، فى وَسَطها عينٌ أَزَلِيَّة عليها أَثَرُ بُنْيان رُومىٍّ عجيب ، يَفِيض المــاءُ منها ويقتسمُه أهــلُ المدينة بأقساط معلومة وعليه يَزْرَعون . وأهلها قوم من البربر مسلمون . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها الجلود المفَضَّلة ، وليس لهم رئيس سِوىٰ مشايخهم .

ومنها (قلعة سِنَان) . قال فى " مسالك الأبصار " : وهو قصر لا يُعْرف علىٰ وجه الأرض أحصَنُ منه ، علىٰ رأس جبل منقطِع عن سائر الجبال فى غاية العُلُوّ ، بحيث يقصُر سهــم العَقَّار عن الوصول إليه ، يرتقىٰ إليــه من سُــلَّم نُقِر فى الحجر طوله مائة وتسعون درجة ، وبه مَصَانِــعُ يجتمع فيها ماء المطر ، وبأســفله عينُ ماء عليها أشجار كثيرةُ الفواكه .

---

(١) أوردها ياقوت باهمال دالها ونص علىٰ فتح الغين وضمها ونحوه فى القاموس .

العمـــــل الثانى

(بلاد بِجَاية)

وبِجَايَةُ بكسر البـاء الموحدة وفتح الجيم وألف ثم ياء مثناة تحت وهاء فى الآخر مدينةٌ من مُدُن الغرب الأوسط ، واقعةٌ فى أوائل الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ٱبن سعيد : حيثُ الطولُ ٱثنتان وعشرون درجة ، والعرضُ أربع وثلاثون درجة وخمس وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : هى قاعدة الغَرْب الأوسط ، وهى مُقَابِل طُرْطُوشَـةَ من الأنْدَلُس ، وعرضُ البحر بينهما ثلاثُ مَجَارٍ . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينـةٌ قديمة مسوَّرةٌ ، أضيف إلىٰ جانبهـا رَبَض أُدِيرعليـه سُور ضامٌّ لِنطاق المدينـة فصـارا كالشيء الواحد . قال : والرَّبَض فى وَطاءَة ، والمدينة القديمة فى سَفْح جبل ، يدخل إليها خَوْر من البحر الرومىّ تدخُل منـه المراكب إليها . قال فى "تقويم البُلْدان" : ولها نَهَر فى شرقيها ، علىٰ شاطئه البساتينُ والمَنَازِهُ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبها عينان من المـاء : إحداهما كبيرة ومنها شُرْب أهلها ، ولها نَهَر جار علىٰ نحو مِيلين منها ، تَحُفُّ به البساتينُ والمناظرُ علىٰ ضَفَّتيه ممتدّة نحوَ ٱثنَىْ عشرَ ميلا ، متصـلا بعضُها ببعض لا ٱنفصالَ بينهـا إلا ما يُسْلَكُ عليـه إلىٰ البساتين ، إلىٰ أن يصُبَّ فى بحر الروم . وبضَفَّتيْـه للسلطان بُستانانِ متقابِلان شرقاً وغربا الشرقىّ منهما يسمّىٰ الربيع .

وغربىّ بجاية (جزائرُ بنى مَزْغَنَّانَ) بفتح الميم وسكون الزاى وكسر الغين المعجمتين ثم نونان بينهـما ألف الأولىٰ منهما مشدّدة ، كما فى "تقويم البُلْدان" عن الشـيخ شُـعَيب ، وبعضهم يُسْقِط النون الأخيرة . وفى "مسالك الأبصار" : مَزْغِنَّانَةُ بزيادة هاء فى الآخر . وهى فُرْضَةٌ مشهورةٌ هناك . قال فى "مسالك الأبصار" :

وهى بلدة حسنةٌ على ساحل البحر، تقابل (مَيُورْقَةَ) من بلاد الأندَلُس ، بانحراف يسير ، وبُعْدُها عن بجاية ستةُ أيام .

ومن المُدُن التى بأعمـال البِجَاية (قُسْطِينةُ) قال فى " تقويم البُلْدان " : بضم القاف وسكون السين وكسر الطاء المهملتين وسكون المثناة من تحتُ ثم نون وهاء . قال : وعن بعض المتأخرين أن بعـد السين وقبلَ الطاء نونا ، وحينئذ فتكون بضم السـين وسكون النون . وهى مدينة من الغرب الأوسط فى أواخر الإقليم الثـالث قال ابن سـعيد حيثُ الطولُ ستٌّ وعشرون درجة وأربعون دقيقـةً ، والعرضُ ثلاثٌ وثلاثون درجةً واثنتان وعشرون دقيقة . قال فى " تقويم البُلْدان " : وهى علىٰ آخر مملكة بِجَايةَ وأوّلِ مملكة أفْرِيقِيَّـةَ . قال الإدريسىّ : وهى علىٰ قطعة جبل منقطع مربَّعٍ فيه بعضُ استدارة ، لايُتوصَّل إليه إلا من جهة بابٍ فى غربيِّها ليس بكثير السَّعَة ، ويُحيط بها الوادى من جميع جهاتها . قال فى "تقويم البُـلْدان " : ولها نَهَر يصُبُّ فى خَنْـدَقِها يُسْمَع له دَوِىّ هائل ، ويُرىٰ النهر فى قعر الخَنْدقِ مثلَ ذُؤابة النجم لشدّة ارتفاع البلد عن الخَنْدق . قال الإدريسىّ : وهى مدينة عامرة ، وبها أسواق وتِجاراتٌ . قال : وتُقِيم الحنطةُ فى مَطَاميرها مائةَ سنة لا تَفْسُد .

وشرقىّ قُسْطِينةَ فى آخر مملكة بجايةَ (مَرْسىٰ الخَرَز) بفتح الخـاء المعجمة والراء المهملة وزاى معجمة فى الآخر . ومنه يستخرج المَرْجانُ من قعر البحر علىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ الأحجار النفيسة فيما يحتاج الكاتب إلىٰ وصفه من المقالة الأولىٰ .

ومنها (سَطِيفُ) بفتح السين وكسر الطاء المهملتين ثم ياء مثناة من تحت ساكنة بعدها فاء . وهى مدينة من الغرب الأوسط فى الإقليم الثالث قال فى " الأطوال " حيثُ الطولُ سبع وعشرون درجةً ، والعرضُ إحدىٰ وثلاثون درجةً . وهى مدينة

حَصينة ، بينها وبين قُسْطِينةَ أربعُ مراحل ، ولها حِصْن فى جهة الجنوب ، عن بِجاية علىٰ مرحلتين منها ؛ ولها كُورَة تشتمل علىٰ قُرًى كثيرةٍ غزيرة المياه كثيرة الشجر المُثْمِر بضروب من الفواكه ؛ وبها الجَوْز الكثير ، ومنها يُحْمل إلىٰ سائر البلاد .

ومنها (تَاهَرْتُ) — قال فى "اللباب" : بفتح التاء المثناة فوقُ وألف وهاء وسكون الراء المهملة وفى آخرها تاء ثانية . قال فى "تقويم البُلْدان" : ونقلتُ من خط ٱبن سعيد عوض الألف ياء مثناة تحتُ قال وهو الأصح لأن ٱبن سعيد مَغْربىّ فاضلٌ . وهى مدينة من الغربِ الأوسط ، وقيل من أفْرِيقِيَّةَ فى الإقليم الثالث قال فى "الأطوال" حيث الطولُ خمس وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ تسعٌ وعشرون درجة . قال ٱبن حوقل : وهى مدينة كبيرةٌ خِصْبة ، كثيرةُ الزَّرْع ، كانت قاعدةَ الغرب الأوسط وبها كان مُقَام مُلوك "بنى رُسْتُم" حتى ٱنقرضت دولتُهم بدولة الفاطميين خُلَفَاء مصر . وذكر الإدريسىُّ أنها كانت فى القديم مدينتين : القديمةُ منهما علىٰ رأس جبل ليس بالعالى . قال فى "العزيزى" : وتاهَرْتُ القديمةُ تسمَّى "تاهَرْتَ عبدالخالق" وهى مدينة جليلة كانت قديما تسمَّى "بغداد المَغْرِب" وتاهَرْتُ الجديدة علىٰ مرحلة منها ، وهى أعظم من تاهَرْتَ القديمة ؛ والمياه تخترق دُورَ أهلها . وهى ذاتُ أسواق عامرة ؛ وبأرضها مَزَارِعُ وضِيَاع جَمَّة ، ويمرّ بها نَهَر يأتيها من جهة المغرب ؛ ولها نهر آخَرُ يجرى من عيون تجتمع فيه ، منه شُرْب أهلها ؛ وبها البساتينُ الكثيرةُ المُونِقة ، والفواكه الحسنةُ ، والسَّفَرْجل الذى ليس له نظير : طَعْما وشَمًّا ؛ ولها قلعة عظيمة مُشْرِفة علىٰ سُوقها . وتاهَرْتُ كثيرة البَرْد ، كثيرة الغُيوم والثَّلْج ؛ وسُورها من الحَجَر ؛ ولها ثلاثة أبواب (١) : باب الصَّفَا ، وهو باب الأَنْدَلُس ؛ وباب النازل ؛ وباب المَطَاحن .

---

(١) فى "المعجم" أربعة أبواب باب الصفا وباب الأندلس الخ .

وأما الطريق الموصـل إليها ، فقد ذكر صاحب "الذيل" على كامل ابن الأثير فى التـاريخ عن ايدغدى التليلى وايدغدى الخُوارزمى ، حين توجها رسولَيْن إلى الغرب فى سـنة ست وسبعمائة : أن من إسكندرية إلى طُلْمَيْثا ، ومنها إلى سُرْت ، ومنها إلى سَرَاتة ، ومنها إلى طهجُورة ، ومنها إلى طَرَابُلُس ، ومنها إلى قابِس ، ومنها إلى صَفَاقُس ، ومنها إلى المَهْدِيَّة ، ومنها إلى سُوسةَ ، ومنها إلى تُونُس .

وأما طريقها فى البحر ، فمن إسكندرية إلى تُونُس .

الجمـــلة الرابعـــة

(فى ذكر زُرُوعها ، وحُبُوبها ، وفواكهها ، وبُقُولها ، ورَيَاحينها)

أما زُرُوعها ، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أنها تُزْرَع على الأمطار ، وأن بها من الحبوب القمحَ ، والشعير ، والحِمَّص ، والفُولَ ، والعَدَس ، والذُّرَة ، والدُّخْن ، والجُلْبان ، والبِسِلَّا ، واسمها عندهم البسين . أما الأُرُزّ فجلوب إليها .

وأما فواكهها ، فبها من الفواكه العنبُ والتين ، كل منهما على أنواع مختلفة والرُّمَّان : الحُلْو والمزّ والحـامض ، والسَّفَرْجَل ، والتُّفَّاح ، والكُمَّثْرَى ، والعُنَّاب ، والزُّعْرُور ، والخَوْخ ، والمِشْمِش على أنواع ، والتُّوت الأبيضُ ، والفِرْصاد ، وهو التُّوت الأسودُ ، والقَرَاصِيا ، والزَّيتونُ ، والأُتْرُجّ ، واللَّيمون ، والليم ، والنارَنْج . أما الجوز بها فقليل ، وكذلك النَّخيل ، والفُسْتُق ، والبُنْدُق مفقودٌ بها وكذلك المَوْز .

قال فى "مسالك الأبصار" : وبها فاكهة تسمَّى مصعِ فوق قدر البُنْدُقة ، لونُها بين الحُمْرة والصُّفْرة ، وطَعْمها بين الحُمُوضة والقَبْض شبيهٌ بطعم السَّـفَرجل ، يُوجَد فى الشتاء ، يقطف من شجره غَضًّا فيدفن ، ويثقَّل كما يُفْعَـل بالمَوْز فينْضَج ويؤكل

حينئذ . ويُوجَد بها قَصَب السُّكَّر علىٰ قِلَّة ولا يُعْتَصَر بها . وبها البِطِّيخ الأصفر علىٰ أنواع ، والبطيخ الأخضر مع قِلَّة ، وآسمه عندهم الدُّلاع ، وكذلك الخِيار والقِثَّاء . وبها اللُّوبيا ، واللِّفْت ، والباذِنْجان ، والقُنَّبيط ، والكُرُنْب ، والرِّجْلة ، والبَقْلة اليمانيَة ، وآسمها عندهم بلندس ، والخَسّ ، والهِنْدباء علىٰ أنواع ، وسائر البُقُول والمُلُوخيا علىٰ قِلَّة ، والهِلْيَوْن ، والصَّعْتَر .

وبها من الرَّيَاحين الآس ، والوَرْد ومعظمه أبيض ، والياسَمِين ، والنَّرْجس ، واللَّيْنُوفر الأصفر والتُّرُنْجانى ، والمنثور ، والمَرْزَنْجُوش ، والبَنَفْسَج ، والسَّوْسَن ، والزَّعْفران ، والحَبَق ، والنَّمَّام .

الجملة الخامسة

(فى مواشيها ، ووُحُوشها ، وطيورها)

أما مواشيها ، ففيها الخيل العِراب المشابهة لخيل بَرْقَة ، والبغالُ ، والحميرُ ، والإبلُ ، والبقرُ ، وغنم الضأنِ والمعَز .

وأما وحوشها ، ففيها الغِزْلان ، وبقرُ الوَحْش وحُمُره ، والنَّعام ، وغير ذلك .

وأما طيورها ، ففيها الدَّجاج ، والحَمَام كثيرا ، والإوَزُّ بقِلَّة ، وبها الكَرَاكىُّ ، وهى صَيْدُ الملوك كما بمصر ، وكذلك غيرُها من طُيور الصيد .

الجملة السادســـــة

(فيما يتعلق بمعـــاملاتهـــا : من الدنانير ، والدراهم ، والأرطال ، والمكاييل ، والأسعار)

أما الدنانير ، فإنها تُضْرَب باسم مَلِكهم ، وزِنةُ كلِّ دينار من دنانيرهم (١) ... ... ويعبِّرون عنه بالدينار الكبير ، وذهبهم دُونَ الذهب المصريّ في الجَوْدة ، فهو ينقُص عنه في السِّعر .

وأما الدراهم ، فقد ذكر في "مسالك الأبصار" عن أبي عبد الله بن القُوَيع : أن دراهمهم على نوعين : أحدهما يُعْرَف بالقديم ، والآخر بالجديد ، ووزنهـــما واحد إلا أن الجديد منهما خالِصُ الفِضَّـــة والقـــديمَ مغشوشٌ بالنُّحاس للمعاملة ، وتفاوُتُ ما بينهما أنَّ كل عشرة دراهِم عتيقة بثمانية دراهم جديدة ، وإذا أُطْلِق الدرهمُ عندهم فالمراد به القديمُ دونَ الجديد ، ثم مُصْطَلَحهم أن كل عشرة دراهم عتيقـــة بدينار ، وهذا الدِّينار عندهم مسمًّى لا حقيقةَ له ، كالدينار الجَيْشي بمصر ، والرائج بإيران .

وأما أرطالها ، فزنة كلِّ رِطْل ستَّ عشرةَ أُوقيَّةً ، كل أُوقيَّة أحد وعشرون درهما من دراهمها .

وأما كيلها ، فلهم كيلان : أحدهما يسـمَّى القفيزَ ، وهو ستَّ عشرة وَيْبَةً ، كل وَيْبـــة اثنا عشر مُدّا قَرَوِيًّا ، وهو يقارب المُدّ النبويّ ، على صاحبه أفضل الصـــلاة والسلام والتحية والإكرام . وهو أيضا ثمـــانية أمدادٍ بالكيل الحَفْصِيّ : وهو كيل قدّره ملوكها الحَفْصِيُّون : آباء ملوكها القائمين بها الآن ، بقدر مُدّ ونصف من المدّ المقدّم ذكره . والثاني يسمَّى الصَّحْفة ، وكل صَحْفة اثنا عشر مُدًّا بالحَفْصِيّ .

(١) بياض بأصلي المكتبة الخديوية والمكتبة الازهرية .

الجملة السابعة
(فى ذكر أسعارها)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن أوْسَطَ الأسعار بها فى غالب الأوقات أن يكون كلُّ قفيز من القمح بخمسين درهما ، والشعيرُ دون ذلك . قال : وغالب سعر اللحم الضأن عندهم كُلّ رِطْل أفْرِيقىّ بدرهم قديم ، وبقيَّةُ اللحوم دُونَه فى القيمة ، وفى الرَّبيع يَنحطُّ السِّعْر عن هذا القدر . وذكر أن الدَّجاجة الجَيِّدة عندهم بدِرْهمين جديدين . ثم قال : وأحوالُها مقاربة فى ذلك للديار المِصْرية لقرب المجاوَرَة . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن تُونُس وبِجايةَ فى المعاملة والسعر متقاربتان .

الجملة الثامنة
(فى صفات أهل هذه المملكة فى الجملة)

قال فى "مسالك الأبصار" : ولأهل أفْرِيقيَّة لطفُ أخلاق وشمائلَ بالنسبة إلىٰ أهل بَرِّ العُدْوة وسائرِ بلاد المغرب : بمجاورتهم مصر وقُرْبِهم من أهلها ، ومخالطتهم إيَّاهم ، ومخالطةِ مَنْ سكن عندهم من أهل إشْبِيلِيَةَ من الأنْدَلُس . وهُمْ مَنْ هُمْ ! خِفَّةَ رُوح ، وحلاوةَ بادرةٍ . قال : وهم علىٰ كل حال أهلُ انْطِباع ، وكرم طِبَاع ، وناهيك من بلاد من شِعْر مِلكها السلطان أبى العبَّاس قولُه :

مَوَاطِنُنَا فى دَهْرِهِنّ عجائبُ * وأزمانُنَا لم تَعْدُهُنَّ الغرائبُ
مَوَاطِنُ لم تَحْكِ التواريخُ مِثْلَها * ولا حدّثَتْ عنها اللَّيالِى الذواهِبُ

وقوله :

أُنْظُر إلينــا [تَجِدْنا] مابنا دَهَشٌ ، * وكيف يَطْرُق أُسْدَ الغابة الدَّهشُ ؟
لاتَعْرِفُ الحادِثَ المَرْهُوبَ أنفُسُنا ! * فاننــا بارتكاب المــوت نَنْتَعِشُ !

وقوله :

عسىٰ اللهُ يُدْنِى لِلمُحِبِّينَ أَوْبَةً * فَتُشْفىٰ قلوبٌ منهُــمُ وصُــدُورُ
وكَمْ من قَصِىِّ الدارِ أمسىٰ بحُزْنه ، * فأعْقَبه عنــد الصَّباح سُرُورُ

وإذا كان هذا رِقَّةَ طبع السلطان ، فما ظَنُّك بغيره من العلماء والأُدَباء؟ .

الجملة التاســـعة

(فى ذكر مَنْ ملكها جاهليَّةً وإسلاماً)

أما مُلوكُها فى الجاهليَّة قبل الإسلام ، فإن بلاد المَغرِب كلَّها كانت مع البَرْبر ، ثم غلبهم الرُّوم الكيتم عليها ، وٱفتتحوا قاعدتها (قَرْطَاجَنَّة) وملكوها ، ثم جرىٰ بين الرُّوم والبربر فِتَنٌ كثيرة كان آخِرُها أنْ وقَع الصُّلحُ بينهم علىٰ أن تكون المُدُن والبِلاد الساحِلِيَّة للرُّوم ، والجبالُ والصَّحارىٰ للبَرْبَر ، ثم زاحم الفَرَنْجُ الرُّومَ فى البلاد ، وجاء الإسلام والمستوْلِى علىٰ بلاد المغرب من ملوك الفَرَنْجة "جِرْجِيس" ملكهم ، وكان مُلْكُه متصــلاً من طَرَابُلُس من جهــة الشرق إلىٰ البحر المحيط من جهة الغرب ، وكرسىّ مُلْكه بمدينة (سُبَيْطَلَة) ، وبقيتْ فى يده حتى ٱنتزعها المسلمُونَ منه فى سَرِيَّة عبدِ الله بن أبى سَرْح ، فى خلافة عثمانَ بنِ عَفَّان .

وأما ملوكها فى الإسلام ، فعلىٰ أربع طَبَقات :

الطبقـــة الأُولىٰ

(الخلفـاء)

قد تقدّم أنّ أوّل من آفتتحها (عبدُ الله بن أبى سَرحْ) فى خلافة عُثمان بن عَفّان رضى الله عنه، زحف إليها فى عشرين ألفًا من الصحابة وكِبار العرب، ففرّق جموعَ النّصرانية الذين كانوا بها : من الفَرَنجة، والروم، والبربر، وهَدَم سُبَيْطَلَة : قاعدَتَها وخرّبها، وعاثت خُيُول العرب فى ديارهم إلىٰ أن صالَحُوا عبدَ الله بن أبى سَرْح بثلثمائة قنطار من الذهب، وقَفَل عنهم سنة سبع وعشرين من الهجرة، بعد فتح مصر بسبْع سنين او ثمانٍ .

ثم أغزاها معاويةُ بنُ أبى سُفْيان (مُعاويةَ بن حديج السَّكُونى) سنة أربع وثلاثين .

ثم ولّى معاويةُ (عقبةَ بنَ نافع) بنِ عبد قيس الفِهْرىّ سنة خمس وأربعين، فبنىٰ عُقبةُ القَيْروانَ .

ثم آستَعْمل معاويةُ على مصر وأفريقيّةَ (مَسْلَمَةَ بن مُخَلَّد) فعزل عقبةَ عن أفريقِيَّة، وولى عليها (مولاه أبا المُهاجِر دينارا) سنة خمس وخمسين . ولما آستقلّ يزيدُ بن معاوية بالخلافة، رجع عقبةُ بنُ نافع إلىٰ أفْرِيقِيَّة سنة ثلتين وستين .

[ثم ولّى عبدُ الملك بن مَرْوان عليها زُهَيْرَ بنَ قيس البَلَوِىَّ فى سنة سبع وستين إلىٰ أن قُتِل فى سنة تسع وستين فولّى عليها](١) (حَسّان بن النعمان) الغَسّانى، فسار ودخل القَيْرَوانَ، وآفتتح قَرْطَاجَنَّةَ عَنْوة وخَرَّبها، فخرجت عليه الكاهِنةُ مَلِكة

---

(١) الزيادة عن آبن الأثير فى مواضع منه ليستقيم الكلام .

الغرب فهزمَتْه ، ثم عاد إليها وقتلها، وآستولىٰ علىٰ بلادها [ثم رجع إلىٰ عبد الملك وآستخلف علىٰ أفريقية رجلا آسمه صالح .

ثم ولّى الوليد بن عبدالملك] [1] (موسىٰ بن نُصَير) بضم النون، فقَدِم القَيْروانَ وبها صالِحُ . ثم قفل موسىٰ إلىٰ المَشْرِق وآستخلف علىٰ أفريقيَّةَ آبنه عبد الله .

ثم عزله سليمانُ بنُ عبد الملك فى خلافته، وولّى مكانه (محمد بن يزيد) .

ثم ولّى عمرُ بن عبد العزيز فى خلافته (إسماعيلَ) بن عبيد الله بن أبى المهاجر .

ثم ولّى يزيدُ بن عبد الملك (يزيدَ بن أبى مُسْلم) مولىٰ الحجاج وكاتبه، فقَدِمها سنة إحدىٰ ومائة فقتله البربرُ، وردُّوا محمدَ بن يزيد الذى كان عليهم قبله إلىٰ ولايته، وكتبوا إلىٰ يزيدَ بن عبد الملك بذلك فأقره عليهم .

ثم ولّى يزيدُ بن عبد الملك (بشرَ بن صَفْوانَ الكَلْبىّ) فقَدِمها سنة ثلاث ومائة، ومات سنة تسع ومائة .

ثم عزله هشامُ بنُ عبد الملك [2]، وولّى مكانه (عُبَيْـدَةَ بَن عبد الرحمن السُّلَمىّ) فقَدِمها سنةَ عشر ومائة، ثم عزل هشام عُبيدةَ، وولّى مكانه (عبدَ الله بن الحَبْحاب) مولىٰ بَنى سَلُول، فقدِمها سنة أربعَ عشْرةَ ومائة، وبنى جامع تُونُس، وآتخذ بها دارَ الصِّناعة للمراكب البحريَّة .

ثم عزله هشامُ بن عبدالملك وولّى مكانه (كُلْثومَ بنَ عِياض) ثم قُتل فبعث هشام آبن عبدالملك علىٰ أفريقيَّة (حنظلةَ بن صَفْوانَ الكلبى) فقدِمها سنة أربع وعشرين

(١) الزيادة عن آبن الاثير .

(٢) كذا فى "العبر" أيضا وعبارة "الكامل" فاستعمل هشام بعده عبيدة الخ وهو المناسب .

ومائة، فخرج عليه (عبد الرحمن بنُ حبيب) سنةَ ستٍّ وعشرين ومائة، فقفل حنظلةُ إلى المشرق سنة سبع وعشرين، وآستقل عبد الرحمن بملك أفريقيَّة .

ووليَ مَرْوان بن محمد آخِرُ خلفاء بنى أمية، فكتب له بوِلَايتِها .

ثم كانتْ دولة بنى العَبَّاس فأقرّه عليها السَّفَّاح، ثم المنصورُ، ثم قُتِل سنة سبع وثلاثين لعشر سنين من إمارته وآشترك فى إمارتها (حبيبُ بن عبد الرحمن، وعمُّه عمران بنُ حبيب، وأخوه إلياسُ بنُ عبد الرحمن) ثم قتله عبد الملك بن ابى الجعد ثم غلب عليها (عبد الأعلى بن السَّمْح المَعَافرى) .

ثم ولّى أبو جعفر المنصورُ (محمدَ بن الأشعث) الخُزاعى ، فقَدِم القَيْروانَ سنة خمس وأربعين ومائة ، وبنى سُورها .

ثم ثارت عليه المُضَرِيَّة وأخرجوه منها سنة ثمان وأربعين، وولّوْا عليهم (عيسى بن موسى) الخُراسانى .

ثم وَلّى أبوجعفر المنصورُ عليها (الأغلبَ بنَ سالم) بن عقال بن خفاجةَ بن سَوَادةَ التميمى بعده ، فقدم القَيْروانَ وسَكّن الناس ، ثم قُتل سنة خمسين ومائة ، وقام بأمر أفريقيَّةَ المخارق بن غفار .

ولما بلغ المنصورَ قتلُ الأغلب، بعث مكانَهُ عمرَ بن حفص بن قَبِيصة، ابن أبى صُفْرة التميمى أخى المهلَّب، فقدمها سنة إحدى وخمسين . ثم آنتقضت عليه البربر فضَعُف أمرُه ، فولّى (يزيدَ بنَ حاتم) بن قَبيصة بن المهلب ، آبن أبى صفرة التميمى ، ودخل القَيْروانَ منتصَفَ سنة خمس وخمسين ، وهلك سنةَ سبعين ومائة فى خلافة هرون الرشيد ، وقام بأمره بعده آبنُه (داود) .

ثم ولّى الرشيدُ أخاه (رَوْحَ بن حاتم) فقدِمها منتصفَ سنة إحدىٰ وسبعين ومائة، ومات فى رمضان سـنة أربع وسبعين، فقام حبيبُ بن نصر مكانه، وسار ٱبنه (الفضلُ) إلىٰ الرشيد فولّاه مكان أبيه، فعاد إلىٰ القَيْروان فى المحرَّم سنة سبع وسبعين ومائة، ثم قتله ٱبنُ الجارُود فى منتَصَف سنة ثمان وسبعين ومائة فولّى الرشيد مكانه (هَرْثَمةَ بن أعْيَن) فسار إلىٰ القَيْروان، وقَدِمها سنة تسع وسبعين ومائة، ثم ٱستعفىٰ فأعفاه الرشيدُ لسنتين ونصفٍ من وِلَايته .

وولّى مكانه (محمَد بن مقاتل الكَعْبى) فقدِم القَيْروانَ فى رمضان سـنة إحدىٰ وثمانين، وكان سيئ السيرة .

ثم ولّى الرشيد (إبراهيمَ بن الأغلب) فقدم أفريقيَّة منتصَفَ سنة أربع وثمـانين ومائة، وٱبتنىٰ مدينـة العَبَّاسيَّة بالقُرب من القَيْروان وٱنتقل إليهـا . وفى ولايتـه ظهرتْ دعوةُ الأدَارِسـة من العَلَويَّة بالمغرب الأقصىٰ . ثم مات إبراهيم فى شـوّال سنة ست وتسـعين ومائة بعد أن عهد لٱبنه أبى العَبَّاس (عبدِ الله بن إبراهيم) بن الأغلب بالولاية، فقدِم القَيْروانَ فى صفر سنة سبع وتسـعين ومائة . ثم مات فى ذى الحجة سنة إحدىٰ ومائتين .

ووَلِى مكانَهُ أخوه (زيادةُ الله بن إبراهيم) وجاءه التقليد من قِبَل "المأمون"، وفى ولايته كان ٱبتداء فتح صِقِلِّيَّةَ علىٰ يد أسَدِ بن الفُرات، وتُوُفِّى فى رجب سنة ثلاث وعشرين ومائتين لإحدىٰ وعشرين سنةً ونصفٍ من ولايته .

ووَلِىَ مكانَهُ أخوه (أبو عِقال الأغلبُ) بن إبراهيم بن الأغلب، وتوفى فى ربيع سنة ست وعشرين ومائتين .

وولِىَ بعده ٱبنـه (أبو العبّاس محمد بن الأغلب بن إبراهيم) فدانتْ له أفريقيّةُ، وبنىٰ مدينـةً بقُرْب تاهَرْتَ وسَمّاها العباسـيّةَ، سنة سبع وثلاثين ومائتين، وبنىٰ قصر سُوسَةَ وجامِعَها سنة ست وثلاثين ومائتين، وتوفى سنة ثنتين وأربعين .

وولى مكانَه ٱبنُـه أبو إبراهيم (أحمدُ بن أبى العباس محمد بن الأغلب) فأحسن السـيرة، وكان مُولَعا بالعِمارة، فبنىٰ بأفريقيّـة نحوا من عشرة آلاف حصن، وتُوفِّىَ آخِرَ سنة تسع وأربعين لثمـانِ سنينَ من وِلَايته .

وولِىَ مكانه ٱبنُـه (زيادةُ الله الأصغرُ) بن أبى إبراهيم أحمد، وتوفى آخِرَ سـنة خمسين ومائتين .

وولى مكانه أخوه (محمد أبو الغَرَانِيق) بنُ أبى إبراهيم أحمـد، ففتح جزيرة مالِطَةَ سنة خمس وخمسين ومائتين، وبنىٰ حُصُونا ومَحَارِس علىٰ مسيرة خمسةَ عشر يوما من بَرْقةَ فى جهـة المغرب وهى الآن معروفة به . وفى أيامه كان أكثرُ فُتوح صِقِلِّيَةَ . فلمـا مات حمل أهلُ القَيْروان أخاه إبراهيمَ بن أحمد أخى أبى الغَرَانِيق علىٰ الوِلَاية عليهم لحُسْن سِيرته فٱمتنع، ثم أجاب وٱنتقل إلىٰ قَصْر الإمارة وقام بالأمر أحسَنَ قيام . وكان عادلًا حازمًا فقطع أهل البَغْى والفساد وجلس لسَماع الظُّلَامات، وبنىٰ الحُصونَ والمَحَارِسَ بسواحل البحر، حتى كانتِ النـارُ تُوقَد فى ساحل سَبْتَةَ للإنذار بالعدوّ فيتصل إيقادُها بالإسكندرية فى الليلة الواحدة، وبنىٰ سُور سُوسةَ وٱنتقل إلىٰ تُونُس فسكنها . وفى أيامه ظهرتْ دعوة العُبَيْدِيِّين بالغَرْب، ثم مات سنة تسع وثمـانين ومائتين .

ووَلِى ابنُه أبو العَبّاس (عبدُ الله بن إبراهيم) أخى محمدٍ أبى الغَرانيق، وكان عادلا،

حَسَن السيرة ، بصيرا بالحروب ، فنزل تُونُس مكانَ أبيه[(١)] ودخلوا فى أمره بجملة وجرىٰ بينه وبينه حروب ، ثم قتل فى شعبان سنة تسعين ومائتين .

وولى آبنه أبو مضر (زيادة الله) فأقبل علىٰ اللَّذَّات واللَّهْو، وأهمل أمورَ المُلْك ، وقتل أخاه وعمومته وأخواته ، وقوى حال الدعاة لعبيدالله المهدى جدّ الخلفاء الفاطميين بمصر فحمل زيادةُ الله أمواله وأثقاله ولحق بمصر، فمنعه عاملها من الدُّخُول إليها إلا بأمر المقتدر الخليفة ، فسار إلىٰ العراق فاستأذن عليه ، فأتاه كتاب المقتدر بالرجوع إلىٰ القَيْروان وإظهار الدَّعْوة ، فوصل إلىٰ مصر فأصابه بها علَّة سقط منها شَعرُه ، ورجع إلىٰ القُدْس فمات بها ، وآنقرضت دولة بنى الأغلب بالمغرب .

الطبقـــة الثانيـــة
(العُبَيْدِيُّونَ)[(٢)]

وكان مَبْدأُ أمرهم أن محمدا الحبيبَ بن جعفر المُصَـدّق ، بن محمد المكتوم ، بن إسمـاعيل الإمام ، بن جعفر الصادق ، بن محمد الباقر ، بن علىّ زين العابدين ، بن الحُسَين السِّبْط ، بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، كان مقيما بسَلَمْيَةَ من أعمال حِمْص ، وكان أهلُ شِيعتهم بالعِراق واليَمَن وغيرهما يتعاهدُونه بالزيارة إذا زاروا قبر الحسين عليه السلام ، فلمـا أدركته الوفاةُ عَهِد إلىٰ آبنــه عُبَيد الله وقال له : أنت المهدىُّ وتُهاجر بعدى هِجرةً بعيدة وتلقىٰ مِحْنة شـديدةً ، وشاع خبرُ ذلك فى الناس ،

---

(١) فى الكلام سقط أو اختصار مخل والذى يؤخذ من "العبر" أن أبا عبد الله الشيعى استولى فى عهد أبى العباس هذا علىٰ كتامة ودخلوا فى أمره كافة وحصلت بينه وبين أبى العباس حروب كانت نهايتها انهزام الشيعى وهدم قصره . ثم إن زيادة الله بن أبى العباس هذا صـانع بعض الخدم علىٰ قتـل أبيه فقتل نائمـا فى شعبان سنة تسعين ومائتين اهـ ملخصا من ج ٤ ص ٢٠٥ .

(٢) فى نسخة المكتبة الأزهرية زيادة [من الفاطميين وأتباعهم] .

وٱتصل بالمكتفِى خليفةِ بنى العَبَّاس ببغداد فطلبه ففرّ من الشام إلىٰ العراق، ثم لحق بمصر ومعه ٱبنُه أبو القاسم غلاما حَدَثا وخاصَّتُه؛ وكان أبو عبد الله الشِّيعى قد بعث إليه يخبره بما فتح اللهُ عليهم من البلاد الغربِيَّة، فعزم علىٰ اللُّحوق به، وخرج من مصر إلىٰ أفريقيَّة فى زِىِّ التُّجَّار، وسار حتّٰى وصل إلىٰ سِجِلْمَاسةَ من بلاد المغرب، فورد علىٰ عاملها كتابٌ بالقبض عليه، فقَبَض عليه وحبسه هو وٱبنَه أبا القاسم. ولما ٱستفحل أمر أبى عبدالله الشِّيعى، ٱستخلف علىٰ أفريقيَّة أخاه أبا العباس وٱرتحل إلىٰ سِجِلْمَاسةَ، فأخرج المهدىَّ وٱبنَه من الحبس وبايع للمَهْدِىِّ؛ ثم ٱرتحلوا إلىٰ أفريقيَّة ونزلوا رُقادةَ فى ربيع سنة سبع وتسعين ومائتين، وبُويِع للمهدىِّ البيعةَ العامَّةَ وٱستقام أمره وبعث العُمَّال علىٰ النواحى.

وولَّى عهدَه ٱبنَه (ابا القاسم محمدًا) ويقال نِزَار، وبنىٰ مدينة المهدِيَّة، وجعلها دار مُلْكه. ولما فرغ منها صَعِد علىٰ سُورها ورمىٰ بسهم فى جهة المَغْرب، وقال: إلىٰ هنا ينتهى صاحبُ الحِمار [فكان الأمر كذلك. وذلك أنه خرج بالمغرب خارجىّ اسمه أبو يزيد يعرف بصاحب الحمار وتبعه الناس فقصد مدينة المهدية يريد فتحها فانتهىٰ إلىٰ حيث انتهىٰ سهم المهدى ثم رجع من حيث أتىٰ فعظم أمر المهدى] (١). وٱستولى علىٰ فاس، ودخَل ملوكُها من الأَدارسة تحت طاعته فى سنة ثمان وثلثمائة؛ ومَهَّد المغرب، ودَوَّخ أقطاره، وتُوفِّى فى ربيع الأوّل سنة ثنتين وعشرين لأربع وعشرين سنة من خلافته.

وولى بعده ٱبنُه (القائمُ بأمر الله أبو القاسم) المتقدّم ذكره، وفى أيامه خرج أبو يزيد صاحبُ الحمار. وتوفِّى سنة أربع وثلاثين وثلثمائة؛ وكان قد عهد إلىٰ ٱبنه المنصور بالله إسماعيل، فقام بالأمر بعده، وكتَمَ موتَ أبيه فلم يتسَمَّ بالخليفة ولا غيَّرَ

(١) الزيادة من النسخة الأزهرية.

السِّكةَ والخطبةَ والبُنودَ، وتُوفِّى سلخَ رمضان سنة إحدىٰ وأربعين وثلثمائة لسَبْع سنينَ من خلافته .

وولِىَ الأمر بعده آبنُه (المعِزُّ لدين الله مَعَدّ) فاستقام له الأمر، وآنتهت مملكته بالغرب إلىٰ البحر المحيط ، وآفتتح مصرَ علىٰ يد قائده "جَوْهر" فى منتصَف شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثمائة ، وآختطَّ له القاهرة ، ثم قدم المُعِزُّ إلىٰ مصر، ودخل القاهرة لخمس من رمضان سنة ثنتين وستين وثلثمائة علىٰ ما سبق فى الكلام علىٰ مملكة الديار المصرية .

الطبقة الثالثـــة

(ملوكُها من بنى زِيرى)

كان المُعِزُّ مَعَدٌّ الفاطمىّ حين قَدِم مصرَ علىٰ ما تقدّم آستخلف علىٰ أفريقيَّةَ والمغرب (بُلُكِّينَ بن زِيرى) بن مَنَّاد البربرى، ويقال : الحِمْيَرىّ وأنزله القَيْروان، وسمّاه يُوسفَ، وكنّاه أبا الفُتوح، ولَقَّبه سيفَ الدّولة وبقى حتّٰى تُوُفِّىَ سنة ثلاث وسبعين وثلثمائة ومات المعزُّ بالقاهرة ، وآنتقلت الخلافةُ بعده إلىٰ آبنه العزيز نزار، فولّى علىٰ أفريقيَّةَ والمغرب بعد بُلُكِّين آبنَه (المنصورَ بن بُلُكِّين) بولاية عهد من أبيه وبقى حتى تُوُفِّىَ سنة خمس وثمانين وثلثمائة .

وقام بأمره بعده (آبنه باديسُ) بن المنصور فبقِىَ حتّٰى تُوُفِّىَ سنةَ ست وأربعمائة بمَعْسكَره فَجْأة وهو نائم بين أصحابه .

وبويع آبنه (المُعِزُّ بن باديس) وهو آبن ثمانى سنين ، وآستمرّ مُلْكه بأفريقيَّة وعظُم مُلْكُه بها ؛ وكان المُعِزُّ مُنْحرِفا عن الرَّفْض والتشيُّع ، مُنْتحِلاً للسُّنَّة ، وأعْلَن بذلك فى أوّل ولايَته ؛ ثم كان آخِرُ أمره أنْ خَلَع طاعةَ العُبَيْدِيِّينَ ، وقطَعَ الخطبةَ لهم

بأفريقيَّة سنة أربعين وأربعمائةٍ على عهد المستنْصر العُبَيدى خليفة مصر، وخطب للقائم بن القادرِ الخليفةِ العبَّاسى ببَغْداد، فاضطَرَب لذلك مُلْكُه، وثارَتْ عليه الثُّوار، وملَكُوا منه النَّواحِىَ، ومات المُعِزُّ سنةَ أربع وخمسين وأربعمائة .

وقام بأمره من بعده ٱبنُه (تميمُ بن المُعِزِّ بن باديس) وغلبه العَرَب على أفْرِيقيَّةَ، فلم يكن له إلا ما ضَمَّه السُّور، وٱستمرت الثُّوَّار فى أيامه وبقِىَ حتّى هلك سنةَ إحدى وخمسمائة .

وملك بعده ٱبنه (يحيىٰ بن تميم) فراجع طاعةَ العُبَيْدِيِّين خُلَفاءِ مصرَ، ووصلَتْه منهم المخاطَبَات والهَدَايا والتُّحَف، وأكثر فى غَزْو النصارى من الفرَنْجة وغيرهم، حتّى لقَّبُوه بالجرية من وراء البحر، ومات فَجْأَة فى قصره سنة تسع وخمسمائة .

وملك بعده ٱبنه (عَلِىّ بن يحيىٰ) وقام بالأمر على طاعة خُلَفَاء العُبَيْديين بمصر، ومات سنة خمسَ عشرةَ وخمسمائة .

وملك بعده ٱبنه (الحسنُ بن على) وهو ٱبن ٱثنتى عَشْرَة سنةً، وقام بأمره مولاه صَنْدل، ثم مولاه مُوَفَّق، وغلبه النصارى على المهديَّة وبلاد الساحل كلِّها إلى أن ٱستنقذها منهم عبدُ المؤمن شيخ الموحِّدين، ولَحِق الحسنُ بالجزائر ونزل بها إلى أن فتح الموحِّدون الجزائر سنةَ سبع وأربعين وخَمْسِمائة بعد مِلْكِهم المغربَ والأَنْدَلُس، فخرج إلى عبد المُؤْمن فأحسن إليه وبقِىَ معه حتّى ٱفتتح المهديَّةَ فأنزله بها، فأقام بها ثمانى سنين، ثم سار إلى مَرَّاكُش فمات فى طريقه، وٱنقرضتْ دولةُ بنِى بادِيسَ من أفريقية فى أيامهم عند وقوع الفِتَن(١) .

(١) فى قطعة المكتبة الازهرية بدل هذه الكلمات [وزالت بها دعوة العبيديين] .

الطبقة الرابعـــة

(المُوَحِّدون أصحابُ المهدىِّ بنِ تُومَرْت، وهم القائمون بها إلى الآنَ)

وكان أوّلَ من آفتتحها منهم (عبدُ المؤمن بنُ علىّ) أحد أصحاب آبن تُومَرْت والخليفةُ بعــده . وذلك أنه لمـا وقع بها ما تقدّم من الآضطراب وقيـام الثُّوّار وآستيلائهم على النّواحى، وكان الموحِّدون قد آستَوْلَوْا على الأنْدَلُس والغربِ الأقصى والغربِ الأوســط إلى بِجَايَةَ ، بعث عبدُ المؤمن المذكورُ العساكِرَ إلى أفريقيّــةَ مع آبنه عبد الله فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة ، فافتتح أفريقيَّةَ ، وآستكمل فتحَها ســنة ستٍّ وخمسين . وولّى عليها آبنه الســيدَ أبا موسى (عمرانَ بنَ عبد المؤمن) وأسره علىُّ بن يحيى المعروف بابن غانِيــةَ عند فتحه بِجايَةَ، وآعتقله بها فى صفر سنة إحدى وثمـانين وخمسمائة .

ولما وَلِىَ (المنصورُ يعقوبُ بنُ عبدالمؤمن) بعد أبيه عبدالمؤمن، وَلّى على أفريقيَّة فى أوّل ولايته أبا ســعيد ابنَ الشيخ أبى حفص عمر، ثم غلب ابنُ غانِيَةَ على أكثر بلاد أفريقيَّة وآستولى على تونُس ، وخطب للخليفة العبَّاسى ببغداد؛ ثم جهَّز الناصر آبنُ المنصور بنِ عبد المؤمن الشــيخَ أبا محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبى حفص من مرَّاكُش إلى أفريقيَّةَ سنة ثنتين وستمائة فانتزعها من آبن غانِيَةَ؛ ثم وصل الناصر آبن المنصور إلى أفريقيَّة بعــد ذلك ودخل تُونُس ، وأقام بهــا إلى منتَصَف سنة ثلاث وستمــائة، وعزم على الرحيل إلى مَرَّاكُش فروَّى نظره فيمن يوليــه أمرها فوقع آختيارُه على الشيخ أبى محمد عبد الواحد آبن الشيخ أبى حفص؛ ورحل الناصرُ إلى المغرب وقعــد مَقْعَد الإمارة بقَصَبة تُونُس يومَ السبت العاشر من شوّال ســنة ثلاث وستمائة وبقِى حتى تُوُفِّى مُفتَتَح سنة ثمانَ عشرة وستمائة .

وولى بعده ٱبنُه الأميرُ (أبو زيد عبدُ الرحمن) وقعد بمجلس أبيه فى الإمارة، وورد كتابُ المستنصِر بن الناصر خليفةِ بنى عبد المؤمن بعزله لثلاثة أشهر من وِلَايته .

وولّى المستنصر مكانه السيدَ أبا العُلىٰ (إدريسَ بن يوسف) بن عبد المؤمن ، ودخل إلىٰ تُونُس فى ذى القَعْدة من السنة المذكورة، فنزل بالقَصَبة ورتّب الأُمورَ، ومات بتُونُس سنة عشرين وسِتّمائة .

ثم مات المستنصر وصار الأمر (لعبد الواحد المخلوع) ابن يوسف بن عبدالمؤمن، فبعث بوِلَاية أفريقيَّةَ إلىٰ (أبى زيد) بن أبى العلىٰ .

ثم صار الأمر إلىٰ العادل فولَّى (أبا محمد عبدَ الله) بنَ أبى محمد عبد الواحد ٱبنِ الشيخ أبى حفص، ودخل تونُسَ سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، وأقام فى إمارته إلىٰ أن ثار عليه أخوه الأمير (أبو زكرِيَّا يحيىٰ) بن أبى محمد عبد الواحد ووليَ مكانَهُ، ودخل تُونُس فى رجب سنة خمس وعشرين وستمائة ، وٱفتتح قُسَنْطِينةَ وبِجَايةَ سنة ست وعشرين وٱنتزعهما من بَنِى عبد المؤمن .

ثم ملك تِلِمْسانَ من يَدِهم بعد ذلك وبايعه أهلُ الأنْدَلُس، ومات ببونة لسبع بَقِينَ من جمادىٰ الآخرةِ سنةَ سبع وأربعين وستمائة لثنتين وعشرين سنة من وِلَايته .

وبويع بعده ٱبنه ووليُّ عهده المستنصرُ بالله (أبو عبد الله محمد) ودخل تُونُس فى رجب من السنة المذكورة، فجدّد بيعته بها وهو أوّل من تلقب من الحَفْصِيِّين بألقاب الخِلَافة كما سيأتى . وٱنتهىٰ أمرُه إلىٰ أن بُويِع له بمكَّةَ المعظَّمة، وبُعِث بالبيعة إليه ، وٱستولىٰ علىٰ ما كان بيد أبيه من الغرب الأوسط ببجايةَ وقُسَنْطِينةَ، وفتح الجزائرَ، وبقِىَ حتّٰى مات يوم الأضحىٰ سنةَ خمس وسبعين وستمائة .

وبُويِـع بعده ٱبنُه (الواثق يحيىٰ) بن المستنصر ليلةَ موتِ أبيه، فأحسن السِّيْرة، وبسط فى الرعية العدلَ والعطاء، وبعث إليه أهلُ بِجَـايةَ بالبَيْعة، وخرج عليه عمُّه (أبو إسحاق) أخو المستنْصِر ودخل بِجَـايةَ، وبايعه أهلها فى ذى القَعْدة سنة سبع وسبعين وسبعمائة وٱسـتولىٰ علىٰ قُسَنْطِينةَ، وقَوِىَ أمره ببجاية وما معها، وبلغ ذلك الواثقَ بنَ المستنصر، فتيقَّن ذَهَابَ الملك منـه فانخلع عن الأمر لعمـه أبى إسحاق إبراهيمَ بنِ يحيىٰ، ومن هنالك عُرِف بالمخلوع وأَشْهد علىٰ نَفْسـه بذلك فى أوّل ربيع الأوّل سنة ثمـان وسبعين وستمائة. وبلغ ذلك السـلطانَ أبا إسحاقَ فسار إلىٰ تُونُس، ودخلها فى نصف ربيع الآخِرِ من السـنة المذكورة، وٱستولىٰ علىٰ المملكة جميعها، وٱعتَقَل الواثِقَ وبَنِيـه، ثم دَسَّ عليهم مَنْ ذَبَحهم فى الليل فى صـفر سنة تسع وسبعين وستمائة، وبقى حتّٰى خرج عليه (أحمد بنُ رَوْق)(١) بن أبى عمارة من بيوتات بجاية الطارئين عليها من المَسِيلةِ سنة إحدىٰ وثمـانين وستمائة، وكان شبيهاً بالفضل ٱبن يحيىٰ المخلوع فعُرِف بالدَّعِىّ، وٱستولىٰ علىٰ تُونُس بعد خروج السلطان أبى إسحاق منها، ولحق أبو إسحاق ببجايةَ فمنعه ٱبنه الأمير أبو فارس (عبد العزيز) من الدُّخُول إليها فانخلع له عنها وأَشْهَد عليه بذلك، ودعا الناسَ إلىٰ بيعته فى آخر ذى القَعْدة من السنة المذكورة فبايعوه وتلقَّب بالمعتَمِد، ثم كان بين الدعىّ والأمير أبى فارس واقعة قتل فيها الأمير أبو فارس فى سنة ثنتين وثمانين وستمائة. وخرج السلطان أبو إسحاق فلَحِق بتِلِمْسانَ ومعه ٱبنُه الأمير أبو زكريا، ودخل أهلُ بِجَايةَ فى طاعة الدَّعِىّ.

ثم خرج علىٰ الدَّعِىّ الأميرُ (أبو حفص عمرُ بن يحيى) بن عبد الواحد بن أبى حفص، فكانت بينهما حربٌ ٱنهزم الدَّعِىّ فى آخرها. وٱستولىٰ أبو حفص علىٰ تُونُس وسائر

(١) فى "العبر" أحمد بن مرزوق وهو تصحيف.

المملكة ، وتلقب بالمستنصِر وآختفىٰ الدَّعِيُّ ، ثم ظَفِر به أبو حفص بعد ذلك وقتله ، وبايعه أهلُ تِلِمْسان وطَرابُلُس وما بينهما .

وخرج الأميرُ (أبو زكريَّا يحيىٰ) آبن السلطان أبي إسحاق علىٰ بِجاية وقُسَنْطِينة فملكهما وآقتطعهما عن مملكة أفريقيَّـةَ ، وقسم دولةَ الموحدين بدولتين ، ولم يزل السلطان أبو حفص في مُلْكه إلىٰ أن مَرِض في ذي الحجة سنة أربع وستين وستمائة ومات آخر ذي الحجة من السنة المذكورة .

وكان الواثقُ بنُ المستنصر لما قُتِـل هو وأبوه ترك جارية حاملًا ، فسماه الشيخ محمد المَرْجانيّ «محمدا» وأطعم الفقراءَ يومَئِذ عصيدةً من عَصِيدة البُرِّ فلقب بأبي عصيدةَ ، فلما مات السلطان أبو حفص بايع النـاسُ (أبا عَصِـيدة) المتقدّم ذكره . ومات الأمير أبو زكريا صاحب بجايةَ وما معها علىٰ رأس المـائة السابعة .

وقام بعده في تلك الناحية وليّ عهده آبنه (أبو البقاء خالد) فآستمر في تلك الناحية ، وبقي السـلطان أبو عَصِيدةَ في مملكة أفريقيَّةَ حتّىٰ مات في ربيع الآخِر سـنةَ تسع وسبعمائة ولم يخلف ابنا .

وكان بالقصر (أبو بكر بن عبد الرحمن) بن أبي بكر ، بن يحيىٰ ، بن عبد الواحد ، آبن أبي حفص في كَفَالة السلطان أبي عَصِيدَةَ فلما مات أبو عصـيدة بايعـه أهل تُونُس ، ثم آرتحل السلطان أبو البقاء خالد : صاحبُ بجايةَ إلىٰ جهـة تُونُسَ طالبا مُلْكَها بعد أبي عصيدةَ ، فخرج (أبو بكر الشهيد) في أهل تُونُس للقائه فانهزموا عنه ، وقُبِض علىٰ أبي بكر الشهيد وآعتُقِـل ثم قُتِـل بعد ذلك فسمّي الشهيدَ ، وآسـتقلَّ السلطان أبو البقاء خالد بمُلْك تُونُس وبجايةَ وحاز جميـع المملكة ، وتلقَّب النـاصِرَ لدين الله وبقِيَ حتى بُويع (أبو يحيىٰ زكريَّا بن أحمد) بن محمد اللحياني ، بن عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص : فبُويـع بطَرَابلُس ، وخرج علىٰ أبي البقاء خالد فخافه فخَلَع نَفْسَه

فاعتُقِل وجاء السلطان أبو يحيىٰ علىٰ أثره فى رجب سـنة إحدىٰ عشْرةَ وسـبعمائة ، فبُويِـعَ البيعةَ العامّةَ ودخل تُونُسَ وآستولىٰ عليها ؛ ثم آضطرب عليه أمْرُه ، فخرج من تُونُس إلىٰ قابِس أوّلَ سـنة سبعَ عشرةَ وسبْعِمائة بعد أن آستَخْلف بتُونُس ، وآنتهىٰ إلىٰ قابس فأقام بها وصَرَّف [العُمَّال] فى جهاتها ؛ وقصد السلطان أبو بكر صاحبُ بجاية تُونُسَ ، وكان بينه وبين أهلها وقعـةٌ آنتهىٰ الحال فى آخرها إلىٰ أنّ السلطانَ أبا بكر رجع إلىٰ بجايةَ . وبايع أهـلُ تُونُس محمـدا المعروفَ (بأبى ضَرْبةَ) ابن السلطان أبى يحيىٰ فى سنة سبعَ عشرةَ المذكورة .

ثم قصـد السلطان أبو بكر صاحبُ بجاية تُونُسَ(١) ، وبها أبو ضَرْبةَ فغلبه عليها ، ودخلها فى ربيع الآخر سنة ثمـانَ عشرةَ وسبعمائة ، وبُويِعَ بها البيعةَ العامّةَ . ولحق السلطانُ أبو يحيىٰ اللحيانىُّ بمصر فى أيام الملك الناصر "محمد بن قلاوون" فأحسن نُزُلَه وأقام عنده إلىٰ أن مات ، ولحق آبنُه أبو ضربة بتِلِمْسانَ فأقام بهـا إلىٰ أن مات ، وآستقلَّ السلطانُ أبو بكر بأفريقيَّة وبجايةَ إلىٰ أن غلبه علىٰ تُونُس (إبراهيمُ بنُ أبى بكر) الشهيدِ المتقدّم ذكْرُه أوّلا ، ودخلها فى رجب سنة خمس وعشرين وسبعمائة .

ثم غلبه عليها السـلطان أبو بكر وآنتزعها من يده فى شوّالٍ من السـنة المذكورة ، وآستقرّ فى يده مُلْكُ أفريقيَّة وبجايةَ إلىٰ أن مات فَجْأة فى جوف الليل فى ليلة الأربعاء ثانى رجب الفَرْدِ سنةَ سبع وأربعين وسبعمائة بمدينة تُونُس .

وبُويِـع آبنه (أبو حفصٍ عُمرُ) بن أبى بكر من ليلته ، وجلس من الغَدِ وبُويِـع البيعةَ العامَّةَ . وكان أبوه قد عهد إلىٰ آبنـه الآخر أبى العَبَّاسِ أحمد ، وكان ببلاد الجَرِيد فاستجاش علىٰ أخيه وقدم عليـه تُونُسَ ، وكانت بينهما واقعـة قُتِل فيهـا أبو العباس وآستقرّ السلطانُ أبو حفص علىٰ ولَايته . وكان السلطان أبو بكر حين عَهِد

(١) فى الأصل أبو زكريا والتصحيح من " العبر ج ٦ ص ٣٢٤ ".

لأبنه أبى العباس أرسل العهدَ إلىٰ السلطان أبى الحسن المَرِينىّ : صاحب تِلِمْسان وسأله فى الكتابة عليه ، فلما قُتِل أبو العباس المذكور ثَقُل ذلك علىٰ السلطان أبى الحسن وخرج إلىٰ أفريقيَّة فى سنة ثمان وأربعين وسبْعِمائة ، و وصل إلىٰ بِجاية ثم إلىٰ قُسَنْطِينة فملكهما ، ثم سار إلىٰ تُونُس فلقيه السلطانُ أبو حفص عمرُ ، وكانتْ بينهما واقعة قُبِض فيها علىٰ أبى حفص ثم قُتِل . ودخل السلطان أبو الحسن إلىٰ تُونُس وآستولىٰ علىٰ جميع المملكة مضافةً إلىٰ مملكته ، وكمل له بذلك ملك جميع المغرب .

ثم غَلَب (أبوالعباس الفضلُ) بن السلطان أبى بكر علىٰ بجاية وقُسَنْطِينة وملكهما ، وسار السلطان أبو الحسن إلىٰ المغرب وآستخلف علىٰ تُونُس آبنَه أبا الفضل فسار الفضلُ آبن السلطان أبى بكر من بجاية إلىٰ تُونُس فخرج منها أبوالفضل بن أبى الحسن فارّا إلىٰ أبيه بالمَغْرِب ، ودخلها الفضلُ آبن السلطان أبى بكر وملكها سنة تسع وأربعين وسبعمائة وآستولىٰ علىٰ جميع المملكة ، وبقِىَ إلىٰ أن قُبِض عليه فى جمادىٰ الأُولىٰ سنة إحدىٰ وخمسين وسبعمائة .

وبُويِع بعده أخوه (أبو إسحاق إبراهيم) آبن السلطان أبى بكر ، وهو يومئذ غلام قد ناهز الحُلُم ، وقُتِل الفضلُ فى جوف الليل من الليلة القابلة خَنْقا ، وآستولىٰ علىٰ أفريقِيَّةَ وبِجايةَ وقُسَنْطِينةَ ، وبقى حتّى غلبه بنو مَرِينٍ علىٰ بجاية وقُسَنْطِينة ، وملكهما منه أبو عِنَان سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

ثم آستولىٰ السلطان (أبو العَبَّاس أحمد) بن محمد بن أبى بكر علىٰ قُسَنْطِينةَ سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة وبُويِعَ بها .

ثم غلبه عليها أبو عِنَان وقَفَل إلىٰ المغرب سنةَ سبع وخمسين وقد آستَخْلَفَ بها ، فتجهَّز إليها (أبو إسحاق إبراهيم) صاحب تُونُس وملكها من يد عامل أبى عِنَانٍ

سنةَ إحدىٰ وستين؛ ثم قَوِى أمر السلطان أبي العَبَّـاس وعاد إلىٰ قُسَنْطينة وملكها في السنة المذكورة .

ثم آستولىٰ (أبو عبد الله محمد) بن محمد آبن السلطان أبي بكر في رمضان سنة خمس وستين وسبعمائة فأساء السيرة بها، فسار إليه السلطانُ "أبو العَبَّاس" من تُونُس فقتله ودخل بجايةَ تاسعَ عشر شعبان ســنة سبع وستين وسبعمائة وملكها، وبقيَتْ بيــده وتونُس بيَــدِ السلطان أبي إسحاق إبراهيم آبن السلطان أبي بكر إلىٰ أن تُوُفِّي السلطان أبو إسحاق بَغْتَةً في الليل في سنة سبع وسبعين وسبعمائة .

وبويع بعده آبنُه (أبو البقاء خالد) وآستبدّ عليه منصورٌ مولىٰ أبيه، وآبنُ الباليقي حاجبُ أبيه فلم يكن له في الدولة تَحَكُّم .

ثم رحل السلطان أبو العَبَّاس من بِجايةَ إلىٰ تُونُسَ وقبض علىٰ السلطان أبي البقاء خالد بن إبراهيم بعد حِصارِه أيَّاما وآعتقــله وملك تُونُس وآنتظم في مُلْكه أفريقيَّةُ وبجايةُ وقُسَنْطِينةُ وأعمالها، وبقي حتّٰى مات في شعبان سنةَ ستٍّ وثمانين وسبعمائة .

وكان أبو العبَّاس هــذا له شعر رائق، طلب مرةً كاتب إنشائه يحييٰ بن أجاد، وكان يحيىٰ ثَمِــلا، فخافه علىٰ نفسه إن هو طلع إليه علىٰ تلك الحالةِ فكتَبَ إليه :

أصْبَحَ العبْدُ يحيىٰ * كَصَبَاحِ آبنِ أكْثَمْ
شَــغَلَتْه الحُمَيَّــا * وهو بالأمرِ مُهْتَمّ
فَخَشِي من رَقِيبٍ * فَرَأىٰ الدارَ أكْـتَمْ

فلمَّا قرأها وقَّع بخطه تحت خَطِّه :

قَــرَّ عَيْنًا بعَيْشٍ * صَفْوُه بك قَــدْ تَمّْ
أنْتَ أزكىٰ عَبِيدِى * ها هُنا كُنْتَ أوْثَمْ

فكان ذلك سببَ توبة يحيىٰ .

وبويع بعده ٱبنه أبو فارس (عَزُّوز) فى رابع شعبان من السنة المذكورة وٱستولى علىٰ تُونُسَ وبِجاية وقُسَنْطِينة وسائر أعمالها . وهو السلطان أبو فارس عَزُّوز ٱبن السلطان أبى العباس أحمد ، ٱبن السلطان أبى بكر بن يحيىٰ ، بن إبراهيم ، بن عبد الواحد ، ٱبن الشيخ أبى حفص .

قلت : وهو باقٍ إلىٰ زماننا فى سنة ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة ، وقد شاع ذكر شجاعته وعَدْلِهِ حتّى إنه دوّخ البلاد ومهّدها وقتل العربَ وأبادَهم ، ودخل مَنْ بَقِى منهم فى طاعته بعد أن لم يَدِينُوا لطاعة غيره ، وقطع المُكُوسَ من بلاده ، وأزال الحاناتِ من تُونُسَ ، مع تواضُعٍ وقُرْبٍ من الفقراء ، وأخذٍ بيد المظلومين ، ووُجُوهِ بِرٍّ رتَّبها وقرَّرها لم تُعْهَد لأحد ممن قبله ، إلىٰ غير ذلك من صفات الملوك المحمودة التى ٱمتاز بها عن الملوك ، ذلك فضل الله يؤتيه مَنْ يشاء .

الجملة العاشرة

(فى منتمىٰ ملوك هذه المملكة القائمين بها الآن ، من المُوَحِّدين فى النَّسب ، ودعواهم الخلافةَ ، وبيانِ أصل دولتهم ، وتسميتهم المُوَحِّدين)

أما منتماهم فى النسب ، فقد ذكر فى "التعريف" : أن المَلِك القائم بها فى زمانه يَدَّعِى النسبَ إلىٰ أمير المؤمنين : عُمَرَ بن الخَطَّاب رضى الله عنه ؛ ومن أهل النَّسَب مَنْ يُنْكِر ذلك : فمنهم من يجعله من بَنِى عدىّ بن كعب رَهْطِ عمرَ ، وليس من بنى عُمَرَ ، ومنهم من يقول بل من هَنْتاتَة وليسوا من قبائل العرب [فى شيء] . وهم الحَفْصِيُّون نسبة إلىٰ أبى حفص : أحد العشرة أصحاب ٱبن تُومَرْت . وهم بَقايا

الموحّدين إذ كان من تقرير ابن تُومَرت أن الموحدين هم أصحابه ، ولم يَبْقَ مُلْكُ الموحّدين إلا فى بنى أبى حفص هذا .

واعلم أن النسّابين قد اختلفوا فى نَسَبه علىٰ ثلاثة أقوال .

أحدها — نسبته إلىٰ أمير المؤمنين : عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه ، وهؤلاءِ يقولون : هو أبو حفص عمرُ بنُ يحييٰ ، بنِ محمد ، بن وانُّودين ، بن علىّ ، بن أحمد ، ابن وَالّال ، بن إدريس ، بن خالد ، بن اليَسَع ، بن إليـاس ، بن عمر ، بن وافتق ، ابن محمد ، بن نُجَيْه ، بن كَعْب ، بن محمد ، بنِ سالم ، بنِ عبد الله ، بن عُمَر بن الخطّاب . قال قاضى القضاة : "ولىّ الدين بن خلدون" ويظهر أن هذا النسب القُرشِىَّ وقع فى المَصَامِدَة من البربر ، والتحم بهم واشتملتْ عليه عَصَبِيَّتُهم ، شأنُ الأنساب التى تَقَع من قوم إلى قوم .

الثـانى — نسبتُه إلىٰ بنى عدِىّ بن كعب : رهطِ عمر بنِ الخطـاب رضى الله عنه الذى ينْتَسِب فيه ، وهو أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب بن نُفَيل بن عبد العُزّى ابن رِيَاح بن عبد الله بن قُرْط بن رَزَاح بن عَدِىّ بن كعب جدّ النبى صلى الله عليه وسلم وباقى نسبه إلىٰ عدنان معروف .

الثالث — نسبتُه إلى هَنْتاتَة ، وهَنْتَاتَةُ - بفتح الهـاء وإسكان النون وفتح التاء المثنّاة فوقُ وبعدها ألِفٌ ثم تاء مثناة فوقُ مفتوحة ثم هاء قبيلة من قبائل المَصَامدة من البربر ، بجبال دَرَن المتاخِمة لمَرّاكُش ، وهى قبيلة واسعة كبيرةٌ ، ويقال لها بالبربرية "يَنْتِى" وكان أبو حفص هـذا هو شيْخَهم وكبيرَهُم ، وهو الذى دعاهم إلى اتبـاع ابن تُومَرْت والحمل علىٰ طاعته .

وأما دعواهم الخلافة ، فقد قال فى "التعريف" عند ذكر سلطان زمانه منهم : لايَدَّعى إلا الخلافةَ ويتلقّب بألقاب الخُلَفاء ، ويُخاطَب بأمير المؤمنين فى بلاده .

وآعلم أن أوّل من تلقَّب منهم المستنصر بالله أبو عبد الله محمد آبن السلطان أبي زكريا يحيى بن عبدالواحد بن الشيخ أبي حفص، علىٰ أن أباه كان يمتنع من التلقب بألقاب الخلافة، ويمنَعُ من يُخاطِبُه بها مقتصرا علىٰ التلقب بالأمير خاصَّةً حتّىٰ إن بعض شعرائه رفع إليه قصيدةً مدحه بها أوّلها :

ألَا جُلْ بالأميرِ المُؤْمنينا * فأنْتَ بها أحَقُّ العالَمينا

فأنكر ذلك عليه . وإنما حمل المستنصرَ علىٰ ذلك أن الخلافة في زمنه قد تعطَّلت في سائر الأقطار . وذلك أن الخلافة الأُمَوِيَّةَ ودعاوىٰ بني عبد المؤمن قد زالت عنها في المغرب بغلبة بني مَرِينٍ عليهم وآنتزاعهم الأمر منهم، وخلافَةَ العُبَيديِّينَ قد زالت من مصر، وخلافةَ بني العبَّاس قد زالت من بغداد باستيلاء التَّتَر عليها .

وأما مبدأ دولتهم ومَصِيرُ آخرها إلىٰ بني أبي حفص بأفريقيَّةَ، فإن أصل قيامها آبن تُومَرْت : وهو محمد بن عبد الله تُومَرْت، بن وُجَلّيد، بن يامصال، بن حمزة، آبن عيسىٰ فيما ذكره محققو المؤرخين . وبعضهم يقول : محمد بن تومرت، بن نيطاوس، بن سافلا، بن مسيعُون، بن ايكَلديس، بن خالد، أصله من هَرْغة من بطون المَصَامِدة من البربر . وبعضُ المؤرّخين يجعل نسبَهُ في أهل البيت ويقول : هو محمد بن عبد الله، بن عبد الرحمن، بن هُود، بن خالد، بن تمام، بن عدنان، آبن سُفْيان، بن صفوان، بن جابر، بن عطاء، بن رباح، بن محمد، من ولد سليمان آبن عبد الله، بن حسن، بن الحسن، بن عليّ، بن أبي طالب . وسليمان هذا أخو إدْريسَ الأكبر الذي كان لبنيه الدولةُ بالغرب علىٰ ما مرّ(١) في الكلام علىٰ مكاتبة صاحب برِّ العُدْوة .

(١) لعله علىٰ ماسيأتي .

ويقال إن سليمانَ هذا لَحِق بالمغرب إثرأخيه إدْريسَ . وقيل : بل هو من قَرَابة إدريس اللاحقين به إلىٰ المغرب ويكون علىٰ هـذا المقتضى نَسَبُه قد آلتحم بنسب المَصَامِدة، وآتصل بهم وصار فى عدادهم كما تقدّم فى نَسَب أبى حَفْص .

وكان أهلُ بيته أهلَ دِينٍ وعبادة، وشبَّ محمدٌ هذا فيهم قارئا محبًّا للعلم، وآرتحل فى طلب العلم إلىٰ المشرق علىٰ رأس المـائة الخامسة، ومَرَّ بالأنْدَلُس، ودخل قُرْطُبَةَ وهى إذ ذاك دارُ عِلْم، ثم لَحِق بالإسكَنْدرِيّة وحَجّ، ودخل العـراقَ، ولقِىَ أكابِرَ العلمـاء به يومئذ وفُحُولَ النُّظَّار، ولقى أئمةَ الأشعريَّة من أهـل السُّنَّة وأخذ بقولهم فى تأويل المتشابِهِ . ويقال إنه لقِىَ أبا حامد الغزالىَّ رحمـه الله وآستشاره فيما يُرِيده من قيام الدولة بالمغرب .

ورجع إلىٰ المغرب وقد حصَّـل علىٰ جانبٍ كبير من العلم، وطَعَـن علىٰ أهله فى الوقوف مع الظاهر وحَمَلَهـم علىٰ القول بالتأويل والأخذِ بمـذهبِ الأشـعَرِيَّة فى جميع العقائد، وألَّف العقائدَ علىٰ رأيهم مثل المُرْشِدة وغيرها . وكان مع ذلك يقول بعصمة الإمام علىٰ مذهب الإمامية من الشِّـيعة . وآنتهىٰ إلىٰ بِجاية فأقام بها يدرِّس العـلم ويأمُر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر، وهنـاك لقيـه عبد المؤمن أحدُ أصحابه وآرتحل معه إلىٰ المغرب وصار إلىٰ بلاد هَرْغة من البربر، فاجتمع إليه الطلبةُ ونَشَر العلمَ، وأظهر مذْهَبَ الأشعرية .

وكان الكُهّان والمنجِّمون يتحدّثون بظهور مَلِك بالمغرب من البربر، وشاع فى الناس أنه ذلك الملك، وآختار من أصحابه عشرةً فجعلهم خاصَّته : وهم عبد المؤمن بن علىّ، وأبو حَفْص عمرُ بن على، ومحمدُ بن سـليمان، وعمرُ بن تافركين، وعبـد الله بن ملُويَات وغيرهم . ودعا المَصَامدة إلىٰ بَيْعتـه علىٰ التوحيد وقتال المجسِّمين، فبايعوه علىٰ ذلك سنة خمسَ عشْرَة وخمسمائة .

ولما تكاملت له البيعة لقّبوه بالمَهْدِىّ ، وكان قبل ذلك يلقب بالامام ، وكان عبدُالمؤمن أخصّ أصحابِهِ به ، وكان يلقّبه بالخليفة ، وأبو حَفْص بعده فى الخُصُوصيَّة ، وكان يلقّبه بالشيخ ؛ وكان يسمّى أتباعه الموحِّدين تعريضًا بمن يَجْنح عن التأويل ويقِفُ مع الظاهر فيوقعه فى التجسيم وغيره ، ولم تُحْفَظ عليه بِدْعةٌ إلا ما وافق فيه الإماميَّةَ من القول بعِصْمة الإمام . وقد مر ذكر مدّة ولايته[(١)] ثم استخلاف عبد المؤمن بعده فى الكلام على مكاتبة صاحب بَرِّ العُدْوة . وقد تقدّم ابتداء انتقال مملكة إفريقيَّة إلى بنى أبى حفص وانسحابها فيهم إلى زماننا على الترتيب .

الجملة الحادية عشرة

(فى ترتيب المملكة بها : من زىّ الجُنْد، وأرباب الوظائف : من أرباب السُّيوف والأقلام، ومقاديرِ الأرزاق الجاريةِ عليهم، وزِىّ السلطان، وترتيبِ حاله فى المُلْك)

أما الجند ، فقد نقل فى "مسالك الأبصار" عن أبى عبد الله بن القُوَيع : أن الذى قرّره لهم مَهْدِيُّهم ابنُ تُومَرْت ، ثم عبدُ المؤمن وأبناؤه بعده أنّه ليس لهم أُمراءُ ولا أتباعٌ يطلَبُ بعدّتهم كعِدّة الأمراء بمصر ، وإنما لهم أشياخٌ من أعيانهم لاعدّةَ لهم ولا جُندَ ، بل المرء منهم بنفسه فقط ؛ ولكل طائفة منهم رئيس يتولّى النظرَ فى احوالهم يسمُّونه المِزْوار .

أما الجُنْد فمن الموحِّدين والأنْدَلُسِيِّين وقبائلَ بها من المضافة إليهم ومن قبائل العرب ومَنْ هاجر إليهم من العرب القدماء ، الذين هاجروا فى مدّة بنى عبد المؤمن ، والمماليكِ التُّرك المبتاعة من الديار المصرية ، ومن الفَرَنج وغيرهم .

---

(١) لم يتقدّم شيء من ذلك وسقطت هذه الجملة من القطعة الازهرية .

وحاصل ماذكره فى "المسالك" أن الجند عندهم على سبع طبقات .

الطبقة الأُولى — الأشياخُ الكِبَار من الموحِّدين الذين هم بَقَايا أتباع المهدىّ بن تُومَرْت . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم بمثابة أُمَراء الأُلُوف بمصر، و بمثابة النُّويْنَات أمراءِ التوامين بمملكة إيران .

الطبقة الثانية — الأشياخُ الصِّغار من الموحِّدين أيضا : وهم دُونَ مَنْ تقدّم منهم فى الرتبة .

الطبقة الثالثة — الوَقَّافون . قال فى "مسالك الأبصار" : سألتُ آبن القُوَيْع عن معنى الوَقَّافين ما هو ؟ فقال : هم قومٌ لهم خاصِّيَّة بالسلطان يسكُنُون معه فى القَصَبة : وهى القلعة، بمنزلة الأمراء الخاصِكيَّة . قال : وهم طبقتان : وَقَّافون كِبَار، ووَقَّافونَ صغار، وكلهم يَقِفُون بين يديه فى أوقات جلوسه إذا جلس للناس .

الطبقة الرابعة — عامّة الجُنْد .

الطبقة الخامسة — الجُنْد من قبائل العرب .

الطبقة السادسة — الصِّبْيان : وهم جماعة من الشَّبَاب بمثابة المماليك الكُتَّانية بالديار المصرية، يكونون فى خِدْمة السلطان .

الطبقة السابعة — الجُنْدمن الإفْرنج، و يعبَّر عنهم بالعُلُوج، وهم لخاصة السلطان لايطْمئِنُّ إلا إليهم .

وأما عِدّة العسكر . ففى "مسالك الأبصار" عن آبن القُوَيع أنها لاتبلغ عَشْرَة آلاف و إنما العَدَد الجَمُّ فى العرب أهلِ البادية ولهم قوّة شَوكةٍ .

***

وأما أرباب الوظائف فعلى ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(أرباب السُّيوف، وهم ثمـانية)

الأوّل — الوُزَراء : وهم ثلاثةُ وزراءَ : وزيرالجُنْد وهو المرْدُود إليه الحديثُ فى أمر الجُنْد . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو بمثابة الحاجب بالدِّيارِ المِصْرية؛ ووزيرُ المـال : وهو المتحدّث فى أمر المال، ويعبَّر عنه بصاحب الأشغال؛ ووزيرُ الفضل وهو كاتب السِّرِّ .

الثـانى — شـيخُ الموحِّدين . قال آبن القُوَيع : وشيخ الموحدين كأنه نائب السلطان، ويسمَّى الشيخَ المعظَّمَ وهو الذى يتولّى عَرْض الموحدين وأمورَهم .

الثالث — أهـل المَشُورة : وهم ثلاثة من أشـياخ الموحدين يجلِسون بمجلسـه للرأى والمَشُورة .

الرابع — صاحب الرِّقاعات . قال آبن سعيد : وهو الذى يتولّى إبلاغَ الظُّلامات إلى السلطان وإيصالَ قِصَصِهم إليه وعَرْضَها عليه ثم يخرج بجوابها عنه . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذا بمثابة الدوادار (يعنى بالديار المصرية) .

الخامس — صاحب العلامات : وهو المتولِّى أمورَ الأعلام، وهو بمثابة أمير عَلَم بالديار المصرية . وفى معناه آخر إليه أمرُ دقِّ الطبول، يأمر بدَقِّ الطُّبول عند ركوب السلطان فى المَوَاكب .

السادس — الحافظ : وهو صاحب الشُّرْطة، وعنه يعبِّر المصريُّون بوالى المدينة .

السـابع — محرِّكو الساقة : وهم قوم يكونون بأيديهم العِصِىُّ، يرتِّبون الناسَ فى المواكب، بمنزلة النُّقَباء بالديار المصرية .

الثـامن — صاحبُ الطَّعام : وهو بمنزلة إستاددار الصُّحْبة .

الضـــــرب الثـانى

(أرباب الأقلام)

وقد ذكر منهم ثلاثة :

الأوّل — قاضى الجماعةِ : وهو مثلُ قاضى القُضاة بالديار المصريةِ .

الثانى — المُحتَسِب : وهو معروف .

الثالث — صاحب كُتُب المَظَالم . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو الموَقِّع على القِصَص وكأنه بمَثابة مُوَقِّع الدَّسْت بمصر والشام .

الجمـــــلة الثـانية عشرةَ

(فى ذكر الأرزاق المُطْلَقة من جهة السلطان)

ويختلِفُ الحال فيها باختلاف أحوال أربابها .

فأما أشـياخُ الموحِّدين الكِبارُ ، فقد نقل فى "مسالك الأبصـار" عن القاضى أبى القاسم بن بَنُّون أنَّ لهم أرضا يزرَعُونها أو يُحكِّرونها ويكون لهم عُشْرُ ماطلع منها . وهـذه الأرض بمثابة الإقطاع بمصر ، ولكل واحد منهم فى كل سـنة حَرْثُ عشرةِ أزواجٍ بقرا ، كل زوج بشُـعبتينِ ، كل شُعْبة رأسان من البقر فيكون لكل واحد عشرون شعبة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه الشعبة هى المسماة فى بلاد دمشق بالفدّان . ولهم مع ذلك راتب يفرّق عليهم فى طُول السنة ، يسمُّونه البَرَكات ، بمثابة الجَوَامك بمصر ، يفرّقُ أربعَ مَرَّات فى السنة : فى عيد الفِطْر تَفْرِقةٌ ، وفى عيد الأضحى تفرقةٌ ، وفى ربيع الأوّل تفرقةٌ ، وفى رجَبٍ تفرقةٌ ، يُصيبُ كلَّ واحد منهم من ذلك أربعون دينارا مسماةً ، تكون بثلثمائة درهم عتيقة ، والسلطان يأخُذ معهم بسَهْم كواحد منهم على السَّوَاء ، فيكون جملة مالِلكُلِّ واحد منهم فى كل سنةٍ مائةً وعشرين دينارا

مسمّاة ، عنها ألفُ ومائتا درهم مَغْربية ، عنها من نقد مصر والشام ستّمائةٍ وخمسون درهما ، وما يتحصّل من مَغَلّ عشرين فَدّانا بقدر مثلها . قال فى "مسالك الأبصار" : فيكون تقدير ما لأحد المشايخ الكبار الذين بمثابة أمراء الألوف بمصر والشام فى كل سنة ألفُ وثلثمائة وعشرةُ دراهم نُقرةً بمعاملة مصر فى كل سنة .

وأما الأشياخُ الصِّغار، فلكل واحد منهم حَرْثُ خمسة أزواج من البقر، على النّصف من الأشياخ الكبار، والبركاتُ فى كل سنة على ماتقدّم فى الكبار . قال آبن بَنُّون : ولعامّة الأشياخ الكبار والصِّغار والوقّافين والجند شيءُ آخر يُفَرِّقه السلطانُ عليهم ، يُسمّى المواساة : وهى غلة تفرّق عليهم عند تحصيل الغَلّات فى المخازن، وشيء ثالثٌ يقال له الإحسانُ ، وهو مبلغ يفرّق عليهم . قال [وكلاهما] (١) من السنة إلى السنة ليس لهـا قَدْر مضبوط ولا قَدْر مخصوص ، بل على قدر ما يراه السلطانُ وبحسب أقدار النـاس . ومقاديرُ العطايا بينهم متفاوتةٌ . قال : وكذلك القبائلُ ومزاويرُهم على هـذا النحو . قال آبن القُوَيع : والجنـد الغُرباء يتميزون فى الأعطيات على الموحِّدين . قال : وللعرب أهلِ البـادية إقطاعاتُ كثيرةٌ ، ومنهم من يخرُجُ مع السلطان إذا آستدعاهم السلطانُ للخروج معه .

الجمـلة الثالثةَ عشرةَ

(فى لِبْس سلطان مملكة تُونُس ، ولِبْس أشياخه ، وسائر جُنْده ، وعامّة أهـل بلده)

أما لِبْسُـه فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن سلطان زمانه بأفْرِيقيَّة : أن له عمامةً ليست بمُفْرِطة فى الكِبَر، بحَنَك وعَذَبة صغيرةٍ . وقال آبن سعيد : له عمامةٌ

---

(١) بياض بالاصل بقدر كلمة والتصحيح من المسالك .

كبيرةٌ من صُوفٍ وكَتَّان فيها طِرَاز من حرير . ولا يتعَمَّم أحدٌ من أهل دَوْلتــه قَدْرَها في الكِبَر . وذكر أن عَذَبة عمامته تكونُ خلف أُذُنِه اليُسْرىٰ ، وأنهــا مخصوصةٌ به وبأقارِبه ؛ وله جِبَاب تليها، ولا يلْبَس هو ولا عامّة جُنْده وأشياخه خُفًّا إلا في السَّفَر. وغالب لِبْســه ولِبْس أكابر مشايخِه من قُمَاشٍ عندهم يسمَّى السَّفْسارِىّ ، يعمل عندهم من حرير وقطن أو حرير وصوف رفيع جِدًّا ، وقُماشٍ يُعْرَف بالتِّلِمْسَانِىّ يُعْمَل بتِلِمْسانَ : إما صوفٌ خالصٌ أو حرير خالص : مُخَتَّم وغير مُخَتَّم . قال ابن بَنُّون : والسلطان يمتاز بِلُبْس الخزّ، ولَوْنُه لونُ الخُضْرة والسَّــواد . قال : وهذا اللَّوْن هو المسمَّى بالجَوْزىّ ، وبالغِيَار، وبالنِّفْطِىّ . قال ابن سعيد : وهو ما يخرج من البحر بصَفَاقُس .

(١) لعله يلبسها .

قال في "مسالك الأبصار" : وهو المسمى بو بر السمك بمصر والشام يعنى المعبر عنه بصوف السمك المقدّم ذكره عنــد ذكر صَفَاقُس من بلاد أفريقية . قال ابن سـعيد : وهى أفخر ثياب السلطان بتونس ونقل فى " مسالك الأبصار " عن ابن سـعيد : أنه يَلْبَس الثيابَ الصوف الرفيعة ، ذواتِ الألوان البديعة ، وأكثر مايلبس المختم الممتزِج من الحرير والصُّوف ، بكمين طويلين من غير كَثْرة طُول ، ضـيقين من غير أن يكونا مزنَّدين . وثيابه دون شــدّ نِطَاقٍ إلا أن يكون فى الحرب فإنه يشُدُّ المِنْطقة ، ويلْبَس الأقْبية ؛ وله طَيْلَسانُ صوفٍ فى نهاية اللَّطَافة ، كان يرتدى به ولا يضَعه علىٰ رأسه .

[وأما لِبْس الأشياخ والدواوين والوقافين والجند والقضاه والوزراء والكتّاب وعامة النّاس فعلى زىّ واحدٍ ، لاتكاد تتفاوت العمائم والجِبابُ ولا يمتاز الأشياخ والوقافون

(١) لعله يلبسها .

والجند إلا بشىء واحد لا يكاد يظهر ولا يبين وهو صِغَر العمائم وضيق القماش ، ولباس عامة أهل أفريقية من الجُوخ ومن الثياب الصوف ومن الأقبيَة ومن الثياب القطن ، فمن لبس غير هذا ممـا يجلب من طرائف الاسكندرية والعراق كان نادرا شاذا] (١) .

الجمـــــلة الرابعةَ عشرةَ

(فى شعار المُلْك بمـا يتعلق بهذا السـلطان)

نقل فى "مسالك الأبصار" : عن ٱبن القُوَيع أن له علمـا أبيض يسمَّى العَلَم المنصور، يُحَمَل معه فى المواكب ، وذكر أن الأعلام التى تحمل معه فى المواكب سبعة أعلام : الأوسطُ أبيض وإلىٰ جانبه أحمر وأصفر وأخضر . قال : ولا أتحقق كيف ترتيبها وأن ذلك غير أعلام القبائل التى تسير معه فلكل قبيلةٍ عَلَمٌ تمتاز به بمـا عليه من الكتابة ، والكتابة مثل لا إله إلا الله ، أو المُلكُ لله ، وما أشبه ذلك ، وأن له الطبولَ والبوقات والنفير .

الجمـــــلة الخامسةَ عشرةَ

(فى جلوس سلطان هذه المملكة فى كل يوم)

قال ٱبن سعيد : عادةُ هـذا السلطانِ فى مدينة مملكتِه تونُس : أنه يخرُجُ باكِرَ كلِّ يوم إلىٰ موضعٍ يُعْرف بالمَدْرسة ، ويبعث خادما صغيرا يستَدْعى وزيرَالجُنْـد من موضعه المعيَّنِ له ، فيدخل عليه رافعا صوْتَه "بسلامٌ عليكم" عن بُعْد من غير أن يُومِئَ برأسه، ولا يقُومُ له السلطان، فيجلس بين يدَىِ السلطانِ، ويسأله السلطانُ عمـا يتعلَّق بأمور الجُنْد والحُرُوب ، ثم يأمره باستِدْعاء مَنْ يُرِيده من أشياخ الجُنْد

---

(١) الزيادة من القطعة الأزهرية وهى فى "مسالك الأبصار" أيضا .

أو العَرب أو مَنْ له تعلُّق بوزير الجُنْد؛ ثم يأمر باستدعاء وزير المـال وهو المعروفُ بصاحب الأشغال فيأتى معه ويُسَلِّمان جميعا من بُعْد على السلطان ، وإن كان قد تقدّم سلام وزير الجُنْد؛ ثم يتقدّم وزير المال إلى ما بين يَدَى السلطان ويتأخر وزير الجُنْد إلى مكان لا يَسْمَع فيه حديثَهما ؛ ثم يخرج وزير المـال ويستَدْعِى من يتعلّق به ؛ ثم يحضُر صاحبُ الطعام بطعام الجُنْد ويَعْرِضه على وزيرهم لئلَّا يكونَ فيه تقصيرٌ ؛ ثم يقوم السلطانُ من المَدْرسة إلى موضعٍ مخصوصٍ ويَسْتَدْعِى وزيرَ الفَضْل : وهو كاتب السر، ويسأله عن الكُتُب الواردةِ من البلاد، وعما تحتاجُ خِزانةُ الكُتُب إليه ، وعما تَجدَّد فى الحضرة وفى البلاد مما يتعلَّق بأرباب العلم وسائر فُنونِ الفضل والقُضاة ، ويأمر باستدعاء مَنْ يَخُصُّــه من الكُتَّاب ويُمْلِى عليه وزيرُ الفضل ما أُمِرَ بكتابته ، ويعلِّمُ عليه وزيرُ الفضل بخَطِّه ؛ ثم يستَدْعِى السلطان مَنْ شاء من العلماء والفُضلاء ويَتحاضَرُون مُحاضرةً خفيفةً . وان كان وزيرُ الفضل قد رَفَع قصـيدةً لشاعرٍ وافدٍ أو مرتَّبٍ فى معنًى آستجدّ ، أمره السلطان بقراءتها عليه ، أو يأمر بحضُور الشاعر لِيُنْشِدَها قائمـا أو قاعدًا بحسَب ماتقتضيه رُتْبته ، ويتكلَّمُ السلطانُ مع وزير الفَضْل ومن حَضَر من الفضلاء فى ذلك ويكتُب على كل قصيدةٍ بمـا يراه .

الجمــــلة السادسةَ عشرةَ

(فى جلوسه للظالم)

قال الشيخ شرف الدّين عيسى الزَّوَاوِىّ : إذا جلس السلطانُ جلس حَوْلَه ثلاثةٌ من كِبَار أشـياخ الموَحِّدين للرأى والمَشُورة، ويجلس معهم وزيرُ الجُنْـد إن كان كبيرا، وإن لم يكن كبيرا وقَف بإزاء أولئك الثلاثة، ويجلس دُونَهم عشرةٌ من أكابر أشياخه ، وربما كان الثلاثةُ المختَصُّون بالرأى من جملة العَشَرة المذكورين ؛ ويقف

خمسون وَقَّافا وراءَ وزير الجُنْد . فإذا أمر السلطان بأمر بَلَّغه وزيرُ الجُنْد لآخَر واقفٍ وراءَه، وبلَّغه الآخر لآخَر، وبلغه الآخَرُ لآخر، حتّى ينتهِيَ إلىٰ مَنْ هو خارج الباب بنقل ناسٍ عن ناس ؛ ويقف دون الخمسين المذكورين جماعةٌ تسمّى بالوَقَّافين بأيديهم السيوفُ حَوْلَه، وهم دون الخمسين المذكورين في الرُّتبة . وقد ذكر ٱبن سعيد : أن يوم السبت مخصوصٌ عنده بأن يَقْعُد في قُبَّة كبيرة في القَصَبة : وهي القلعة، ويَحْضُر عنده أعيانُ دولته وأقارِبه والأشياخُ ؛ ويجلس أقاربُه عن جانبه الأيْمنِ، والأشياخ عن جانبه الأيْسَر، ويجلس بين يديه وزير الجُنْد، ووزيرُ المال، وصاحبُ الشُّرْطة، والمحتَسِب، وصاحب كُتُب المَظَالم : وهو المُوَقِّع على القَصَص . ويقرأ الكاتبُ المعيّنُ ماوُقِّع له علىٰ قِصَص المظالم، ويردّ كلَّ مايتعلق بوظيفةٍ إلىٰ ربِّ تلك الوظيفةِ ويُنَفِّذُ الباقِيَ .

الجملة السابعةَ عشْرةَ

(في خروجه لصلاة الجمعة)

قال ٱبن سعيد : من عادةِ السلطان بأفريقيَّة أنه لا يجتمعُ يومَ الجمعة بأحد، بل يخرُج عند ما يُنادِي المنادى بالصلاة، ويَشُقُّ رَحَبة قصره ما بين خواصّ من المماليك الأتراك، فعند ما يُعايِنُونَه ينادون "سلام عليكم" نداءً عاليا علىٰ صوت واحد يسمَعُه مَنْ يكون بالمسجد الجامع، ثم يتقدّمه وزيرُ الجند بين يديه في ساباط يَخْرُجُ هناك للجامع، عليه بابٌ مُذْهَب سلطانيٌّ ؛ ويسبِقُ الوزيرُ فيفتح البابَ، ويخرج منه السلطانُ وحده، ويَخْرُج له جماعة الوَقَّافين من أعيان الدّولة فلا يقوم له في الجامع غيرُهم ؛ وليس له مقصورةٌ مخصوصةٌ للصلاة . فإذا ٱنفصل عن الصلاة قعد في قُبَّة كبيرة له في صَدْر الرَّحَبة وحضر عنده أقارِبُه، ثم يدخُل قصرَه .

الجملة الثامنة عشرة
(فى رُكُوبه لصلاة العِيدَيْنِ أو للسّـــفر)

قال القاضى شرفُ الدين عيسىٰ الزَّواوِى : وعادته فى ذلك أن يركب السلطان، وعن يمينه فارسٌ وعن يساره فارس من أكابر أشـياخه من العشرة المقدَّم ذكرهم، ويمْشى إلىٰ جانبـه رَجُلانِ مقلَّدان سيفَيْنِ رَجَّالة إلىٰ جانبه : أحدهما مُمْسِك بِركابه الأيمنِ، والثانى ممسكٌ بركابه الأيْسر، ويليهما جماعةٌ رَجَّالةٌ من أكابر دولته : مثل الثلاثة أصحابِ الرأى، والعشرة الذين يَلُونهم، ومَنْ يجْرى مَجْراهم من أعيان الجند؛ وتسمَّى هـذه الجماعة ايربان، يمشُون حوله بالسُّيوف وبأيديهم عكَاكِيزُ. قال : وربمـا مَشىٰ فى هؤلاء قاضى الجماعة : وهو قاضى القُضاة. وأمامَ هؤلاء الجمـاعة المَشَّائين نفرٌ كثيرمن الموحِّدين أقاربِ السـلطان بسيوف ومَزَارِيق، ويُسمَّوْن بالمَشَّائين. وقُدّامَهم جماعةٌ يقال لهم جفاوة : وهم عبيدٌ سودٌ بأيديهم حِراب فى رءوسها راياتٌ من حرير، وهم لابسون جِبَابا بِيضًا مُقلَّدون بالسيوف. وأمامَ هؤلاء قومٌ يعبَّر عنهم بعبيد المخزن، وهم عوامُّ البلد وأهـل الأسواق، وبأيديهم الدَّرَق والسُّيوف، ومعهم العَلَم الأبيضُ المسمَّى بالعلم المَنْصور المقدّم ذكره فى شِعَار السَّلْطنة.

وعادتُهم أن يُنادىٰ فيهم ليـلةَ العِيد أو رُكوبِ السلطان لسَفَر، فيخرج أهل كل صِناعة بظاهر البَـلَد، ويكون خَلْفَ السـلطان صاحبُ العلامات، وهو أمير عَلَم راكب، ووراءه أعلامُ القبائل، ووراءَ الأعلام الطُّبول والبُوقاتُ، وخلْفَهم محرِّكُو الساقة الذين هم بمَثَابة النُّقَبـاء وبأيديهـم العِصِىّ يرتِّبون العساكِرَ، وخَلْفَ هؤلاء العسكرُ. والفارسُ الذى عن يمين السلطان إليه أمْرُ دَقِّ الطبول يقول : دُقَّ فلانُ باسم كبيرهم، ويستمرّ مَنْ حولَ السـلطان من المُشَاة يمشُون ثم يركبون؛ ويطِيف

بالسلطان جماعةٌ يقرءون حزبا من القرآن الكريم . ثم يقف السلطانُ ويدْعُو ويؤمّن وزيرُ الجند على دعائه ، ويؤمّن الناس على تأمينه ، ويُجِدّ الناسُ والسلطانُ السيْرَ . فإن كانوا فى فضاء كان مشيهم على هذا الترتيب ، وإن ضاق بهم الطريقُ مَشَوْا كيف جاء على غير ترتيب إلا أنّ الجندَ لا يتقدّمون على السلطان . فإذا قَرُبوا من المَنْزِلة وقف السلطان ودعا وأُمّن على دعائه كما تقدّم . وإن كان فى صلاة العيد ذهب فى طريق وعاد فى أخرى .

الجملة التاسعة عشَرة

(فى خروج السلطان للتنزّه)

قد تقدّم فى الكلام على مدينة تُونُس أنها على طرف بُحَيرة خارجةٍ من البحر الرومىّ تُحْدِق بها البساتينُ من كل جانب ، وفى تلك البُحيرة جزيرةٌ يقال لها سكلة لاساكِنَ بها ربمـا ركب السلطان فى السُّفُن وصار إليها فى زمن الربيع ، وتُضْرب بها أخْبِية ويُقيم بها للتنزّه أياما ثم يعود . على أنه لا ماءَ فيها ولا مَرْعَى ، ولكن لِمَا تُشْرف عليه من البَسَاتِين المستديرة بتلك البُحَيرة وما قبلها من الجَوَاسِق المُشْرفة ومَنْظَر البحر . وقد ذكر ابن سعيد : أنه ربما خرج إلى بُسْتانه ، فيخرج فى نحو مائتَىْ فارس من الشَّبَاب المعروفين بالصِّبيان الذين هم بمثابة المماليك الكتّانية بالديار المصرية ، يُوَصّلونه إلى البستان ويرجِعُون ، ويبقى وزراؤه الثلاثةُ نوّاباً له . وكل ما تجدّد عند كل واحد منهم من الأمر طالعه به وجاوبهم بما يراه . قال فى "مسالك الأبصار" : وركوبه إلى البستان فى زُقَاق من قَصَبته إلى البستان ، مَحْجوب بالحِيطان لا يراه فيه أحد .

الجمـــلة العشرون

(فى مكاتبَات السلطان)

قال فى "مســالك الأبصار" : قال ابن سعيد : قال العلّامة أبو عبــد الله بن القُوَيع : إن هذا السلطانَ لا يعَلّم علىٰ شىء يُكْتَب عنه، وإنمـا يُعلِّم عنه فى الأمور الكِبَار صاحبُ العَلامة الكبرىٰ، وهو كاتب السِّر فى الغالب ؛ والعلامة "الحمد لله" أو "الشكر لله" بعد البسملة . قال : ومن خاصِّيَّة كتب هذا السلطان أن تكتَب فى ورقٍ أصْفَر . ومن عادته وعادة سائر المغاربة أن لا يُطيلوا فى الكُتُب ولا يباعدوا بين السطور كما يُفْعَل فى مصر وما ضاهاها . أما فى الأمور الصِّغار فإنما تكون الكتابة فيها عن وزير الجند ، ويكْتُب عليها صاحبُ العلامة الصغرىٰ اسمَ وزير الجند ، وتكون هذه الكتبُ فى غير الورق الأصفر .

الجملة الحاديةُ والعشرون

(فى البَريد المقرَّر فى هـــذه المملكة)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أنه إذا كُتِب كتَابٌ إلىٰ نوَاحى هــذه المملكة ليُوصَّل إلىٰ بعض نوابهـا ، جُهِّز مع مَنْ يَقَع الاختيارُ عليه من النُّقَباء أو الوُصْفانِ : وهم عبيد السلطان ، ويركَبُ على بغل إمَّا مِلْكٌ له أو مستعارٌ ويسافر عليه إلىٰ تلك الجهة . فان أعْيَا فى مكان تركه عنـد الوالى بذلك المكانِ وأخذ منه بَغْلا عِوضَه ، إما من جهة الوالى أو يُسَخِّره له من الرعايا ، إلىٰ أن ينتهى إلىٰ جهة قَصْــده ثم يعود كذلك .

الجملة الثانية والعشرون

(في الخلع والتشاريف في هذه المملكة)

قال القاضي أبو القاسم بن بَنُّون : ليس من عادة سلطان أفريقيَّة إلباسُ مَنْ وُلِّيَ ولاية خِلْعةً كما في مصر ، وإنما هي كُسْوة : وهو قماش غير مُفَصَّل يتصرَّف فيه كيف شاءَ .

المملكة الثانية

(من ممالك بلاد المغرب مملكة تِلِمْسانَ)

وهي مملكة الغرب الأوسط . وفيها جملتان :

الجملة الأولى

(في ذكر حُدُودها ، وقاعدتها ، وما آشتملت عليه من المُدُن ، والطريقِ المُوَصِّلةِ إليها)

أما حدودها ، فحدُّها من الشرق حُدُود مملكة أفريقيَّة وما أُضِيف إليها من جهة الغرب ، وحدُّها من الشَّمال البحرُ الرومي ، وحدّها من الغرب حدودُ مملكة فاسٍ الآتي ذكرها من الشرق ، وحدّها من جهة الجنوب المَفَاوِزُ الفاصلةُ بين بلاد المغرب وبلاد السُّودان . وذكر في "العبر" : أن حدّها من جهة الغَرْب من وادي مَلَوِيَّة الفاصل بينها وبين الغرب الأقصى إلى وادي مجمِّع في جهة الشرق الفاصلِ بينها وبين أفريقيَّة .

وأما قاعدتها ، فمدينة (تِلِمْسانَ) بكسر المثناة من فوقُ واللامِ وسكون الميم وفتح السين المهملة وألف ونون . وهي مدينة من الغرب الأوسط . وقال

فى "تقويم البُلْدان": من الغرب الأقصى متاخمةٌ للغرب الأوسط شرقىّ فاس بميلة إلى الشمال . وموقعُها فى أوائل الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ أربعَ عشرةَ درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ ثلاثٌ وثلاثون درجةً واثنتا عَشْرةَ دقيقة .وهى مدينة فى سَفْح جبل، ولها ثلاثةَ عشرَ بابا، وماؤها مجلوب من عين على ستة أميال منها، وفى خارجها أنهارٌ وأشجار، ويستدير بقِبْليِّها وشرقيِّها نهرٌ يصُبُّ فى بِرْكة عظيمة من آثار الأُوَل، ويُسْمَع لوقْعه فيها خرير على مسافة، ثم يصُبُّ فى نهرٍ آخرَ بعد مايمرّ على البساتين، ثم يصبُّ فى البحر، وعليه أرحاءٌ دائرة تدخل فيه السفُن اللِّطاف حيث يصبُّ فى البحر، وبُقْعتها شريفةٌ كثيرة المَرافق .

ولها حصون كثيرة وفُرَضٌ عديدة .

منها (هُنَيْن) و(وَهْرانُ) و(مُسْتَغانم) . فهنين تقابل المَرِيَّةَ من الأندلُس ووَهْران فى شرقىِّ تِلمْسانَ بشمالٍ قليل، على مسيرة يوم من تِلِمْسان، ومستغانم تقابل دانِيَةَ من الأندلُس، وعَرْض البحر بينهما ثلاثُ مجارٍ ونصفُ مَجْرًى . قال الإدريسى فى "كتاب رُجَّار" : وبها آثار الأُوَل، ولها أسواقٌ ضخمةٌ ومساجدُ جامعة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى على مابلغ حدَّ التواتُر أنها فى غاية المَنَعة والحَصانة مع أنها فى وَطَاءة من الأرض ولكنها محصَّنة البناء . وبلغ من حَصانتها أنَّ أبا يعقوبَ المَرينىّ صاحب فاس حاصرها عشرَ سنين، وبنى عليها مدينةً سماها فاس الجديدة وأعجزه فتْحُها ولها ثلاثةُ أسوار، ومن جهة القَصَبة وهى القلعة ستةُ أسوار، وبها أنهارٌ وأشجار، وبها شجر الجَوْز على كَثْرة، ومِشْمِشها يقارب فى الحُسْن مِشْمِشَ دِمَشْقَ . قال فى "مسالك الأبصار" : زَكِيَّة الزرع والضَّرْع، ويقصِدُها تُجَّار الآفاق للتِّجارة . قال : ويطول مُكْثُ المخزونات فيها حتَّى إنه ربما مَكَث القمحُ والشعير فى مَخازنها ستَّ سنين ثم يُخْرج بعد ذلك فيُزْرَع فينبُت .

وأما مُدُنها الداخلة فى مملكتها، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن لها ثمانَ عشرةَ مدينةً : وهى تلمسان، وجده، ومَدْيونة، وتَدْرومه، وهُنَيْن، ووَهْران، وتيمز غزان، وبرسك، وشرشال، وتونت، ومستغانِم، وتَنَس، والجزائر، والقَصَبات، ومازونةُ، وتاجحمت، ومِلْيانةُ، والمَرِيَّة .

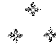

وأما الطريق الموصل إليها، فقد تقدّم فى الكلام على مملكة تُونُس الطريقُ من الديار المصرية إلى تُونُس . وقد ذكر فى " الذيل على الكامل " أن من تُونُس إلى باجَةَ، ومنها إلى تغريه وهى آخر بلاد أفريقية، ومنها إلى قُسَنْطِينةَ وهى أوّل بلاد بِجايةَ، ومنها إلى أوّل بلاد تِلِمْسان، ومنها إلى قُلَيْلِية، ومنها إلى البُقَيْعة، ومنها إلى تِلِمْسان .

الجملة الثانية

(فى حال مملكتها)

لم أقف على شيء من ترتيب مملكتها، والظاهر أنها تشبه مملكةَ تُونُس فى الحال والترتيب أو قريبٌ من ذلك . فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بِجايةَ ثانيةُ تُونُس فى الرُّتْبة والحال، والموجودات، والمُعامَلات . وقد تقدّم أن بِجايةَ من الغرب الاوسط، فتكون تِلِمْسانُ فى معناها، وإن وقعت مخالَفَةٌ فى ترتيب المملكة فإنما تكون فى القَدْر اليسير . قال فى "مسالك الأبصار" وهى مَمْلكةٌ كبيرةٌ، وسلطنةٌ جليلة، قريبُ الثلثيْنِ من مملكة برّ العُدْوة . وهى وسيعة المَدَى، كثيرة الخَيْرات، ذاتُ حاضرةٍ وباديةٍ، وبَرٍّ وبحر .

المملكـة الثـالثة

(من بلاد المغرب — الغرب الأقصىٰ ، ويقـال له بَرُّ العُدْوة ، وفيـه ثلاثة مقاصـــد)

المقصـــد الأوّل

(فى بيان مَوْقِعها من الأقاليم السبعة وذكر حدودها وما اشتملت عليه من المُدُن والجبال المشهورة . وفيه أربع جمل)

الجمـــلة الأُولىٰ

(فى بيان موقعها من الأقاليم السبعة)

فموقِعُها فى الإقليم الثالث كما فى مملكة تُونُس ، وبعضها فى الإقليم الثانِى ، وبعضها فى أوائل الإقليم الرابع علىٰ ما سيأتى ذِكْرُه .

وأما حدودها . فقد ذكر صاحب "العِبَر" : أنه من مدينة آسفِى حاضرةِ البحر المحيطِ إلىٰ وادى مَلوِيَّة ومدينة تازا من جهة الشَّرق ، يحيط به البحر المحيط من جهة الغرب ، وجبالُ دَرَن وما يليها من جَنُوبِيِّه ، وجبال تازا من شرقِيِّه ، والبحر الرومى من شَمَـالِيِّه . ثم قال : وهو ديارُ المَصَامِدة وغيرهم من البربر . وذكر فى "مسالك الأبصار" نقلا عن أبي عبـد الله محمد بن محمد السلايجى[1] : أن حدّها من الجنوب الصَّحْراءُ الكبيرة الآخذة من بلاد البَرْبر إلىٰ جَنُوب أفريقيَّة ؛ ومن الشرق جزائر بنى مَزْغَنَّانَة وما هو آخذ علىٰ حدّها إلى الصحراءِ الكبيرةِ ؛ ومن الشَّمال البحرُ الشامىُّ ؛ ومن الغرب البحر المُحيط .

---

(١) فى المسالك السلالجى ، وقد تكرر .

وحكى عنه : أن طُولَ هذه المملكة من جزائر بَنِي مزغِنَّانَةَ ، وهى جزائر بنى مَزْغِنَّان المقدّم ذكرها فى بلاد بِجَايَةَ من مملكة تُونُس إلى البحر المحيط ، وعرضها من بحر الزُّقاق بِسَبْتَة إلى نهاية بلاد البربر المتَّصِلة بالصحراء الفاصلة بين هذه المملكة و بين بلاد السُّودان ثلاثون يوما .

الجملة الثانية

(فى بيان قَوَاعدها وما آشتملتْ عليه هذه المملكةُ من الأعمال وما آنطوتْ عليه من المُدُن)

أما قواعدها فخمس(١) :

القاعدة الأولى

(فاس)

بفتح الفاء ثم ألف وسين مهملة . وهى مدينة بالغرب الأقصى ، واقعةٌ فى آخر الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ عَشْرُ دَرَج وخمسون دقيقة ، والعرض ثلاثٌ وثلاثون درجة . قال : وسمِّيت بفاس لأنهم لمّا شرعوا فى حفر أساسها ، وجدوا فَأْسا فى موضع الحفر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينتان يَشُقّ بينهما نهر . الأولى (فاسُ القديمةُ) والميـاه تجرى بأسواقها وديارها وحمّاماتها ، حتّى يقال إنه ليس بالمَشْرِق ولا بالمغْرِب مدينةٌ تُضاهيها فى ذلك ؛ إلا أن أرضها ذاتُ آرتفاع وآنخفاض ، وفيها عِدّة عيون . قال أبو عبدالله العسلى : عدّتها ثلثمائة وستون عينا . قال آبن سعيد : لم أَرَقَطُّ حمّامات فى داخلها عين تَنْبُع إلا فى فاس . قال : وهى أكثرُ مياهًا من دِمَشْق . قال آبن سعيد فى "المُغْرب"

---

(١) لم يذكر إلا أربعا .

وهى مدينتان : إحداهما بناها إدريسُ بنُ عبد الله : أحدُ خلفاء الأدارسة بالمغرب، وتُعرف بعُـدْوة الأندَلُس . والأخرىٰ بنيت بعـدها وتعرف بعُدْوة القروِيِّين . قال فى "الروض المعطار" : وكان بناء عُدْوة الأندلسيين فى سنة آثنتين وتسعين ومائة، وبناء عُدْوة القرويين فى سنة ثلاث وتسعين ومائة . وعُدْوة القَروِيين أكثَرُ عيونًا وبساتينَ وأشجـارا من عُدْوة الأندلسيين . ورجال عُدْوة الأندَلُسِيِّين أشجعُ . ورجال عُدْوة القَروِيين أجملُ . ونساء عُدْوة الأندَلُسِيين أجمل . وبعُدْوة الأندلسيين تُفَّاح حسنٌ طيِّب الطَّعْم يُعْرَف بالطرابُلُسِى" لا يُفْلِح بعُـدْوة القَروِيِّين . وبعُدْوة القرويين أُتْرُجّ حسنٌ لايُفْلِح بعدوة الأندَلُسِيِّين مع التقارُب علىٰ ضَفَّة النهر الغربية؛ وهى فى مستوٍ من الأرض، وهى فى عُلْو لايحكُم النهر عليها . والثانية (فاس الجديدة) وهى ثلاثُ مُـدُن بناءُ آباء ملوكها القائمين بهـا الآنَ حين ملكوا الغرب الأقصىٰ . ولمـا نزلوها بنَوْا معها ثلاث مُدُن علىٰ ضَفَّة النهر الغربية .

أوّلها (المدينةُ البيضاء) وتُعْرَف بالجَديدة . بناها أبو يوسفَ يعقوبُ بن عبد الحق أوّلُ من آستقل بالمُلْك بعد الموحِّدين .

الثانية (مدينة حِمْص) ويُعْرَف موضعها بالمَلَّاح . بناها ولده أبو سعيد : عثمانُ آبن أبي يوسف إلىٰ جانب المدينة البيضاء المقدَّم ذكُرها .

الثالثة (ربَض النصارىٰ) وهى المتَّخَذةُ لسُكْنىٰ النصارىٰ من الفرنج المستخْدَمين بخدمة السلطان . وهذه المتجدِّدات الثلاث علىٰ ضَفَّة النهر الغربية : فربَض النصارىٰ يقابل فاسَ القديمة علىٰ بُعْد من ضَفَّة النهر . والبيضاء وهى فاسُ الجديدة آخذةٌ من شَمَالىِّ ربَض النصارىٰ إلى ضَفَّة النهر . وأوّل عمارة فاس الجديدة آخر عمارة فاس العتيقة . وحمصُ راكبة علىٰ النهر بشَمَال على جانب فاس الجديدة آخذةٌ إلىٰ ربَض

النصارى، ينصبُّ من الجنوب إلى الشمال، ثم ينعطف على زاويةٍ آخذا من الغرب إلى الشرق حتى يصير كأنه يَنْحَدِر من الغرب، وحمص على مجراه هناك؛ ثم يمرّ آخذًا إلى الشرق على حاله فوق فاس الجديدة . ثم ينعطف عليها بزاوية إلى الجنوب ثم ينعطف إلى الشرق جائزا بها؛ وهناك فاسُ العتيقةُ على الضَّفَّة الشَّمالية، والقَصَبةُ وهى القلعة بها فى غربيها مرجَّلة على الأرض لا تتميز على المدينة برفعةٍ ولا ببناءٍ عالٍ؛ ويصير النهرُ مستدْيرا بفاس الجديدةِ من جانب الشَّمال على المَجْرى المركَّب عليه حِمْصُ، ومن الشرق حيث آنعطف النهرُ عند فاس العتيقةِ .

قال فى "مسالك الأبصار": وهذا النهر متوسِّط المِقْدار . عرضُه فى المكان المتسع نحوُ أربعين ذراعا، وفى الضَّيِّق دُونَ ذلك؛ وربما تضايقَ إلى خمسةَ عشرَ ذراعا فما دُونَها؛ وعُمْقه فى الغالب تقديرُ قامة رجل . ونقل فى "مسالك الأبصار" عن آبن سعيد: أن نهرها يلاقى وادى سُبُو، وهو من أعظم أنهار المغرب، يصبُّ فى البحر المحيط بين سَلاَ وقَصْر عبد الكريم . قال فى "تقويم البُلْدان" قال آبن سعيد: وعلى أنهارها داخلَ المدينة نحوُ سِتِّمائة رَحًا تدور بالماء دائما[(١)] . قال فى "مسالك الأبصار": وعليها ناعورةٌ ترفَع الماء إلى بُستان السلطان . وبناءُ فاس العتيقةِ بالآجُرّ والجبالُ مكتنِفة بها، وعلى كل من عتيقها وجديدها أسوارٌ دائرةٌ محصَّنة ذاتُ بروج وبَدَنات، وجميع أبنيتها بالحجر والآجُرّ والكِلْس مُوثَّقة البناء مُشَيَّدة الأركان . وتزيد فاسُ الجديدةُ على فاس العتيقة فى الحَصَانة والمَنَعة؛ والعتيقةُ بسُور واحد من الحجارة والجديدةُ بسُورَيْن من الطين المُفْرَغ بالقالب من التراب والرمل [والكِلْس المضروب وهو أشد من الحجر ولا تعمل فيه المجانيق ولا تؤثر فيه، وكذلك غالب أبْنيتها، وسقوف جميعها الخشب وربما غشيت بعض السقوف بالقصدير والأصباغ الملوّنة،

(١) يؤخذ من عبارة ياقوت أن نهرها يتفرق داخلها إلى أنهار وعليها من الأرحاء ذلك المقدار .

وأرض دور رؤسائهـا مفروشة بالزُّلَّيْج ، وهو نوع من الآجر مدهون بدهان ملوّن كالقاشانى بالأبيض والأسـود والأزرق والأصـفر والأخضر وما يركب من هـذه الألوان وغالبه الأزرق الكحلى وربمـا آتخذ منـه الوزرات بحيطان الدور. قال فى "مسالك الأبصار" : وسألت السلائحى عن مقدار عمارة فاس عتيقها وجديدها. فقال : تكون قدر ثلث مصر والقاهرة وحواضرهما . قال فى "تقويم البلدان"[(١)]: وللمدينتين ثلاثةَ عشَرَ بابًا ؛ وفى القديمة مخازنُ الغِلال ، وهى مكان يستدير عليه سُورٌ منيعٌ عليه بابٌ وغَلَق داخِلَه المطامير. وبفاس العتيقة داخِلَ سُورها جِنانٌ ورِياض ذاتُ أشجار ورياحينَ فى دُور الكُبَراء وبُيُوتِ الأعيان . ثم قال : وبكل من فاس القديمة وفاس الجديدة المعروفةِ بالبيضاء وحمْص الجوامعُ والمساجدُ والمآذنُ والحَمَّاماتُ والأسواق . أما المـدارس والخوانِقُ والرُّبُط فما خلَت صحـائفُ أهل المغرب مـن أُجُورها إلا النَّزْر اليسيرَ جدّا . وبفاس العتيقةِ مارِسْتان ؛ ودور فاس مجَالسُ متقابلةٌ على عَمَد من حجر أو آجُرٍّ ورَفارِف تُطِلّ على صحن الدار ، وفى وسَطِ صحن الدار بِرْكة يَصبُّ بها المـاءُ[(٢)] ويعبَّر عنها عندهم بالصِّهْرِيج ؛ ولهم عِنَاية بآتخاذ القِباب فى بُيُوتهم ، حتّى يوجد فى دار الكبير قُبَّتان فأكثرُ ؛ وحَمَّاماتهم صحنٌ[(٣)] واحد لاخَلاوىٰ فيها ، ولذلك يتَّخِذ غالبُ رؤسائهم الحَمَّاماتِ فى بيوتهم ، فرارا من مخالطة العامة فى الحَمَّام .

قال آبن سعيد : ومدينة فاس متوسطةٌ بين مُلْك الغرب ، بينها وبين مَرَّاكُش عشرةُ أيام وبينها وبين تلمسان عشرة أيام ، وبينها وبين سبتة عشرة أيام ، وبينها

(١) الزيادة من القطعة الأزهرية .

(٢) أى ينسكب بها وصب يكون لازما ومتعديا الا أن اللازم من باب ضرب والمتعـدّى من باب نصر كما نص عليه فى تاج العروس والمصباح

(٣) مراده أن حماماتها ليس بها حُجَر للخواص . وقد جارى العامة فى جمع الخلوة على خلاوى .

وبين سجلماسة عشرة أيام . قال فى "مسالك الأبصار" . ولذلك صَلَحت أن تكون قاعدةَ الملك . وهى تشبه الإسكندريةَ فى المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المُنْكَر والقيام بالنامُوس ، وتُشَبَّه بدِمَشْق فى البساتين .

وقد ذكر ابن مُنْقِذ : رسولُ السلطان "صلاح الدين يوسف بن أيوب" إلى بلاد المغرب : أنهم أُخْرِجوا إلى بستانٍ بفاسَ يقال له البحيرة متحَصَّله فى كل سنة خمسةٌ وأربعون ألف دينار ، وبه بِرْكَةٌ ذَرْع كل جانب منها مائتان وستةَ عشرَ ذراعا ، يكون دورها ثمانمائة ذراع وأربعةً وستين ذراعا . قال : وبها ما هو أكبر من ذلك . قال فى "تقويم البُلْدان" : وأهلُها مخصوصون بَرَفاهِيَة العَيْش . قال فى "مسالك الأبصار" : ولأهلها حُسْن الصنعة فى المَخْروطات من الخَشَب والنُّحاس . قال أبو عبد الله السلايجى : ولكنها وَخْمة ثقيلة الماء ، تعلُو وُجوهَ سُكَّانها صفرةٌ ، وتُحدِث فى أجسادهم كَسَلا وفُتورا .

القاعدة الثانيـــة

(سَــبْتَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح السين المهملة وسكون الباء الموحدة وتاء مثناة فوق وهاء فى الآخر . قال فى "الروض المعطار" : والنسبة إليها سِبْتِيٌّ بكسر السين . وهى فى دَخْلة فى البحر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة بين بحرَيْنِ : بين البحر المحيط وبحر الرُّوم . ومَدْخَلها من جهة المغرب وهو مَدْخَل ضَيِّق ، والبحر محيط بأكثرها ، ولو شاء أهلها لوصلُوا البحر حَوْلَها وجعلوها جَزيرة . ولهـا أسوار عظيمة من الصَّخْر ، وعليها أبراج كثيرة ، والماء يُجْلَب إليها فى الشَّوانى حتى للحَمَّامات

التى بهـا ، وبها صَهاريجُ من ماء المطر . ويقال إنها أوّلُ ما بنى ببرّ العُدْوة . قال فى "الروض المعطار" : وهى سبعةُ أَجْبُلٍ صِغارٍ متصلة بعضُها ببعض معمورة ؛ طولها من الغرب إلى الشرق نحو ميل . وقال فى "مسالك الأبصار" : طولها من السور الغربى المحيط بربَضها إلى آخر الجزيرة خمسةُ أميال . قال فى "الروض المعطار": ولها بابان من جهة البرّ ، ويتصل بها على ميلين من جهة الغرب جبلٌ يعرف بجبل موسى ، وهو موسى بن نُصَــير الذى فتح الأندَلُس ، ويجاوره بساتينُ وأشجارٌ وقُرًى كثيرة ، وهناك يُزْرَع قَصَب السكّر ويحمل إلى ما جاورها من البُلْدان ؛ ولها نهر عَذْب فى البحر ، وكان بها كنيسة جُعِلت جامعا ، وبها يستَخْرَج من البحر شجر المَرْجان الذى لا يَعْدِله مَرْجان . ويقابلها من الأندَلُس الجزيرةُ الخضراء وبحر الروم بينهما ضَيّق ، حتّى إنه إذا كان الصحو رئيتْ إحداهما من الأخرى ، ولذلك يسمّى بحرها بحر الزُّقاق ، وميناها شَرْقيّها ؛ وغالب طُرَف الدنيـا موجودةٌ فيها ؛ والحِنْطة مجلوبةٌ إليها إذ لا يزكو نباتُها فيها ؛ ويُصاد بها أسمـاكٌ مختلفة على نحو مائةِ نوع . ويقابل هذه المدينة من برّ الأندلُس الجزيرة الخَضْراء .(١)

وكانت هذه المدينةُ قاعدةً لهذا القُطْر قبل الإسلام ، وهى يومئذ ديار غُمارة من المَصامدة ، والحاكم عليها مَلِك الأندَلُس من القُوط ، وكان مَلِك غُمارة بها فى زمن الفتح يقال له يُلْيان ، ولما زحف إليه موسى بن نُصَير المذكور أميرُ أفريقِيّةَ فى زمن الفتح جاء معه بالهَدايا ، وأذعن لأداء الجِزْية فأقرّه عليها ، واسترْهن ابنَه وأبناءَ قومه ، وأنزل طارقَ بنَ زياد بطَنْجة بالعساكر إلى أن أجاز البحرَ لفتح الأندَلُس كما سيأتى فى الكلام على مكاتبة صاحب الأندَلُس .

---

(١) تقدمت هذه الجملة بمعناها فاثباتها سهو .

ولما هلك يُلْيانُ آستولى المسلمون من العرب على مدينة سَبْتَة بالصُّلْح من أهلها فعمَرُوها إلى أن كانت فتنةُ مَيْسَرة الخفير وما دعا إليه من مذهب الخوارج وأخذ به الكثير من البربر من غمارة وغيرهم ، فزحف برابرةُ طَنْجَة إلى سَبْتَة فأخرجوا العرب منها وخَرَّبوها ، وبقيت خاليةً إلى أن عَمَرها ماجكس من وجوه غمارة من البربر وبناها وأسلم وصَحِبَ أهلَ العلم ، فرجع الناسُ إليها ومات .

فقام بأمره من بعده آبنه (عصام) فأقام بها زمنا إلى أن مات .

فولى بعده آبنه (مجير) فأقام بها إلى أن مات .

فَوليها أخوه (الرَّضِيّ) ويقال آبنه ، وكانوا يُعْطُون الطاعة لبنى إدريسَ من العَلَويَّة ملوك فاس ؛ ولما سَمَا الناصر الأُمَوِيّ صاحبُ الأَنْدَلُس إلى مُلْك المغرب وتناولَ أكثره من يد الأدارِسَة ببلاد غُمَارَة وغيرها حين أُخْرِجوا من فاس وقاموا بدعوة الناصر فى جميع أعمالهم ، نزلوا للناصر عن سَبْتَةَ ، فبعث إليها العساكرَ فانتزعها من يد الرِّضِىّ بنِ عصام سنة تسعَ عشرةَ وثلثمائة ، وآنقرض أمر بنى عصام وصارت سَبْتَةُ للناصر ومَنْ بعدَه من بنى أُمَيَّة خُلفاءِ الأنْدَلُس . وكان علىّ والقاسم آبنا حَمُّود بن ميمون ، بن أحمد ، بن علىّ ، بن عبيد الله ، بن عمر ، بن إدريس العَلَوىّ قد لحقا بالأنْدَلُس لما أخرج المستنصرُ الأموىُّ الأدارسةَ من المغرب ، وبَقِيَا بالأَنْدَلُس إلى أن كانت أيامُ المستعين سليمانَ بن الحكم فآختَصَّ بقاسم وعلىّ آبنَىْ حَمُّود ، وعَقَد لعلىِّ بن حَمُّود على طنجة وأعمال غُمارة فنزلها ، ثم خرج عن طاعته ودعا لنفسه ، وعاد إلى الأندلس وولِىَ الخلافةَ بقُرْطُبة كما سيأتى فى مكاتبة صاحب الأندلس ، ووَلّى على عمله بطَنْجة آبنَه يحيىٰ بنَ علىّ .

ثم أجاز يحيىٰ بعد موت أبيه إلى الأندلس وآستقلّ أخوه إدريس بن علىّ بولاية طَنْجَة وسائر أعمال أبيه من مواطن غُمارَة .

ثم أجاز إلى الأندلس بعد مَهْلَكِ أخيه يحيى ، وعقد لحسنٍ ابنِ أخيه يحيى على عملهم بسَبْتَة وطَنْجة وأرسل معه نجا الخادمَ لتدبير دولته .

ثم أجاز (نجا) الخادمُ إلى الأندُلس ومعه حَسَن بن يحيى المذكور؛ ثم عقد حسنٌ لنجا الخادم على عملهم فى بلاد غُمارَة .

فلما هلك حَسَن بالأندلس ، أجاز (نجا) إلى الأندُلس وآستخلف على العمل مَنْ وَثِق به من المَوالى الصَّقالبة ، وآستمرت فى المَوالى واحدًا بعد آخَرَ إلى أن آستقلَّ بسَبْتة وطَنْجة من موالى بنى حَمُّود الحاجبُ (سَكُّوت البرغوطى) فاستقلَّ بسَبْتة وطَنْجة وأطاعته قبائل غُمارة؛ وآتَّصلت أيامُه إلى أن كانت دولة المُرابِطين، وغلب أمير المسلمين « يوسفُ بن تاشفين » على مَغْراوة بفاس ، وسار إلى بلاد غُمارة ونازل سَكُّوت الحاجب ، وكانت بينهما واقعة قُتِل فيها سكوت؛ ولحق ضياء الدولة آبن سكوت بسَبْتة فأقام بها إلى أن نازله المُعِزُّ بن يوسف بن تاشفين بها فقبض عليه ثم قتله؛ وآنقرضت دولة بنى حَمُّود من بلاد غُمارة وصارت فى مِلْك المرابطين إلى أن فتح بنو عبد المؤمن من الموحِّدين مَرَّاكُش ، فدخل أهلُ سبتة وسائر غُمارَة فى طاعتهم؛ وأقامت على ذلك إلى أن ضَعُفت دولةُ بنى عبد المؤمن : ثار فى غُمارة محمد بن محمد اللّثاميُّ المعروفُ بأبى الطواجن ، وكان له يدٌ فى السِّيمياء ، وآرتحل إلى سَبْتَة فنزل عليها وآدّعى النبوّة وأظهر أنواعا من السيمياء فاتّبعه جماعةٌ؛ ثم ظهر لهم حقيقةُ أمره فرجَعُوا عنه ، وقتله بعض البَرْبَرغيلَةَ ، إلى أن كانت أيامُ بنى مَرِينٍ وغلَبِهم على بلاد المغرب فامتنعت عليهم سَبْتةُ ، وقام بأمرها الفقيهُ أبو القاسم العزفى من مَشْيَختها فبقيت بيده ويد بَنِيه إلى أن ملكها منهم بنو مَرِينٍ سنةَ تسع وعشرين وسبعمائة فى أيام السلطان أبى الحسن ، فصارت تابعةً لفاس دارِ مُلْك بنى مرين جاريةً فى يد ملوكها، وهى باقيةٌ بأيديهم إلى زماننا بعد العَشْر والثمانمائة .

القاعدة الثالثة

(مدينة مَرَّاكُش)

بفتح الميم وتشديد الراء المهملة وفتحها وألف ساكنة ثم كاف ثم شين معجمة .
وهى مدينة واقعة فى أوّل الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيث الطولُ إحدىٰ عشرةَ درجةً ، والعرض تسع وعشرون درجةً . بناها أمير المسلمين « يوسفُ بن تاشفين » مَلِكُ المُرابِطِين فى أرض صَحْراوِيَّة ، وجلَب إليها المياهَ . قال ابن سعيد : وأوّل ما بُنِىَ بها القصرُ المعروف (بقصر الحَجَر) ثم بنىٰ الناسُ حوله ، ثم زادها يعقوبُ بن عبد المؤمن ، وكبَّرها ومَصَّرها ، وفخَّمها وضَخَّمها ، وجلب إليها المِياهَ والغِراس . قال فى "تقويم البُلْدان" : ودَوْرها سبعةُ أميال ، ولها سبعةَ عشَرَ بابا . قال فى "الروض المِعْطار" : وبنىٰ سُورَها علىٌّ بن يوسف بن تاشفين فى سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة ، وقيل سنة أربعَ عشرةَ وخمسمائة . قال : وطولها مائة وعشرون ميلًا ، وعرضها قريبٌ من ذلك ، وهى فى وطاَءة من الأرض ليس حَوْلَها جبال إلا جبل صغير منه قُطِع الحجر الذى بَنىٰ منه علىٌّ بن يوسف بن تاشفين قصْرَه ، وعامَّةُ بنائها بالطين والطوب .

قال ابن سعيد : وهى مما سكَنْتُ بها وعرفتها ظاهرًا وباطنًا ، ولا أرىٰ عبارة تَفِى بما تحتوى عليه ، ويكفى أن كلّ قصر من قُصُورها مستقِلٌّ بالديار والبساتينِ والحَمَّام والإصْطَبْلات والمياه ، وغير ذلك حتّى إن الرئيس منهم يُغْلِق بابَهُ علىٰ جميع خَوَلِهِ وأقاربه وما يحتاجُ إليه ، ولا يخرُج من بابه إلىٰ خارج داره لحاجة يحتاجها ، ولا يشترِى شيئا من السوق لمأْكَل ، ولا يُقْرِئُ أولاده فى مَكْتَب ، ويخرُج من بابه راكبا فلا تَقع عليه العين راجلا . قال : ولا أدرى كيف أَصِلُ إلىٰ

غاية من الوصف اصِفُ بها ترتيبَ هذه المدينــة المُحْدَثة ؟ فإنها من عجائب هِمَّات السلاطين ، ذاتُ أسوار ضَخْمة وأبواب عاليةٍ .

وبظاهرها مدينة آختطها المنصور "يعقوبُ بنِ عبدالمؤمن" له ولخواصِّه تعرف بتامرّاكش ، وبها قصر الخلافة الذى بناه به دورٌ عظيمة ؛ وبها بستانٌ يعرف بالبحيرة طوله آثنا عَشَر ميــلا ، به بركة عظيمة لم يُعْمَلْ مثلُها قال العقيلىّ : طولهــا ثلثمائة وثمــانون باعا ، علىٰ جانبها الواحد أربعُمائة شجرة نارَنْج ، بين كل آثنتين منها لَيْمونة أو رَيْحــانة . وهى أكثر بلاد الغرب بســاتينَ ، وشجرها أكثَرُ منها ، وبســاتينُها تســقىٰ بالبئار وبئارها قريبــة الرشاء علىٰ نحو قامتين من وجه الأرض ؛ وهى كثيرة الزَّرْع والضَّرع ؛ وبهــا دارُ الضيافة المعروفةُ بدار الكرامة . وفيهــا يقول محمــد بن محمد البربرىّ من أبيات يمدحهم ويصفها :

خيرُ قومٍ دُعوا إلىٰ خيرِ دارٍ * هى للمُلْك نَضْرةٌ وكَرامــه
عالَمُ السبْعةِ الأقاليم فيهــا ، * وهُــمُ فى فِنائهــا كالقُلامه

وبمَرّاكُش جامعٌ جليلٌ يُعْرف بالكُتُبيِّين ، طوله مائةٌ وعشرة أذرع ، وعلىٰ بابه ساعاتٌ مرتفعة فى الهــواء خمسين ذراعا ، كان يُرْمىٰ فيها عند آنقضاء كلِّ ساعة صَــنْجةٌ زِنَتُها مائة درهم ، تَتحرّك لنزولهــا أجراسٌ تُسْمَع علىٰ بُعْــد ، تسمّى عندهم بالبَحَّانة . قال فى "تقويم البُلْدان" : إلا أنّ الناس أكثَرُوا فيهــا البساتين فكَثُر وَخَمُها . قال فى "الروض المِعْطار" : وقد هَجَــاها أبو القاسم بنُ أبى عبد الله محمد آبن أيوب بن نُوحٍ الغافقىّ من أهل بَلَنْسِيَة بأبيات أبلغ فى ذمِّها ، فقال :

مَرّاكُشُ إن سألْتَ عنها ، * فإنّهــا فى البِــلاد عارُ!
هَواؤُها فى الشّــتاء ثَلْجٌ ، * وحَرُّها فى المَصيف نارُ!

وكلُّ ما ثَمَّ وهو خَــيْرٌ * من أهلهـا عَقْرَبٌ وفَارُ!
فإنْ أكُنْ قد مَكَثْتُ فيها، * فإنَّ مُكْثِي بِهَـا آضْطِرارُ!

وكانتْ هذه المدينةُ دارَ مُلْكِ المرابِطين من المُلَثَّمين الذين ملَكوا بعد بَنِي زِيرِى، ثم الموَحِّدين من بعدهم . قال آبن سعيد : وبينها وبينَ فاس عشرةُ أيام . وقال في "الروض المعطار" : نحوُ ثمانيةِ أيام . قال : وبينها وبين جبال دَرَن نحوُ عشرين ميلا .

القاعدة الرابعة

(سِجِلْمَاسَةُ)

بكسر السين المهملة وكسر الجيم وسكون اللام وفتح الميم ثم ألف وسين مهملة مفتوحة وهاء في الآخر، وهي مدينة في جنوب الغرب الأقصى في آخر الإقليم الثاني من الأقاليم السبعة . قال آبن سعيد : حيث الطول ثلاث عشرة درجة وآثنتان وعشرون دقيقة والعرض ست وعشرون درجة وأربع وعشرون دقيقة .

وهي مدينة عظيمةٌ إسلاميَّة، وبينها وبين البحر الرُّومي خمس عشرةَ مرحلةً، وليس قِبْلِيَّها ولا غَرْبِيَّها عُمْرانٌ، وبينها وبين غانَةَ من بلاد السُّودان مسيرةُ شهرين في رِمَال وجبال قليلةِ المِياه، لا يدخُلُها إلا الإبلُ المصبرة على العَطَش . آختَطَّها يزيدُ بنُ الأسود(١) من مَوالي العرب، وقيل : مِدْرارُ بن عبد الله . وكان من أهل الحديث، يقال إنه لقِيَ عِكْرِمةَ مولى آبن عباس بأفريقيَّةَ وسمع منه . وكان صاحبَ ماشية، وكان ينتَجِع موضِعَ سِجِلْماسة بالصَّحراء ليَرْعَى به ماشيتَه، فكان يجتمع إليه أهلُ تلك الصحراءِ من مِكْناسةَ والبَرْبر، وكانوا يدينون بدين الصُّفْرية من الخَوارج،

(١) كذا في الأصل وفي "العبر ج ٦ ص ١٣٠" عيسى بن يزيد الاسود .

فاجتمع عليــه جماعة منهم فلمـا بلغوا أربعين رجلا قدّموا عليهـم يزيدَ بن الأسود وخلعوا طاعة الخُلَفاء ، وآختطُّوا هــذه المدينةَ ســنة أربعين ومائةٍ من الهجرة . ولها آثنا عشَرَ بابا ، وهى كثيرةُ العمارة ، كثيرة البساتين ، رائقة البِقاع ، ذاتُ قُصور ومنــازلَ رفيعة وعماراتٍ متصــلة ، على نهر كثير المــاء يأتى من جهة المَشْرِق من الصحراء ، يزيد فى الصيف كزيادة النِّيل ، ويُزْرَع على مائه كما يُزْرَع على ماء النيل ، والزَّرْع عليه كثير الإصابةِ ، والمطرُ عندهم قليل : فإذا كانت السنةُ كثيرةَ الأمطار ، نبت لهم ما حصدوه فى العام السابقِ من غير بَذْر ، وربمـا حَصَدُوه عنــد تنــاهيه وتركوا أصوله فتنبُتُ ثانيا . ويقال : يُزْرَع بهـا عاما ويُحْصَد ثلاثةَ أعوام ، وذلك أن أرضها مشقّقة ، وهى بَلْدة شديدة الحرّ فإذا يَبِس الزرعُ تناثَرَ عند الحَصاد ودخل فى الشُّقُوق ، فإذا كان العامُ الثــانى وعلاه ماءُ النهر وخرج عنه حرثوه بلا بَذْر فينبُت مافى الشُّقوق ، ويبقى كذلك ثلاث سنين .

وقد حكى آبن سعيد : أن هذا الزرع فى السنة الأُولى يكون قمحا ، وفى باقى السنين سُلْتًا . وهو حبٌّ بين القمح والشعير . وبها الرُّطَب ، والتمر ، والعنَب الكثير ، والفواكه الجَمَّة ، وليس فيهـا ذِئاب ولا كِلاب لأنهم يسَمِّنونها ويأكُلُونها ، وقلَّما يُوجَد فيها صحيحُ العينين ، ولا يوجَدُ بها مجذومٌ ، ولها ثمانيةُ أبواب من أىّ باب منها خرجت ترى النهرَ والنخيل وغير ذلك من الشجر ، وعليها وعلى جميع بَساتينها حائطٌ يمنع غارة العرب مِساحتُه أربعون ميلا ، وثمرها يفْضُل ثمر سائرِ بلاد المغرب ، حتّى يُقال : إنه يضاهى الثَّمر العراقىّ ، وأهلها مياسيرُ ، ولهـا مَتَاجِرُ إلى بلاد السُّودان ، يخرجون إليها بالمِلْح والنُّحاس والوَدَع ، ويرجعون منها بالذهب التِّبر . قال آبن سعيد : رأيت صكا لأحدهم على آخَر مبلغه أربعون ألف دينار .

ولَمَّا قدموا عليهم عيسىٰ بنَ الأسود المقدّم ذكره ، أقام عليهم أياما ثم قتلوه سنةَ خمس وخمسين ومائة ، وآجتمعوا بعده علىٰ كبيرهم (أبى القاسم سَمْكو) ، بن واسول آبن مصلان ، بن أبى يزول ، بن تافرسين ، بن فراديس ، بن ونيف ، بن مكناس ، آبن ورصطف ، بن يحيى ، بن تمصيت ، بن ضريس ، بن رجيك ، بن مادغش ، آبن بربر . كان أبوه سَمْكُو من أهل العلم آرتحل إلىٰ المدينة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام) فأدرك التابعين ، وأخذ عن عكرمة مولىٰ آبن عباس ، ومات فجأة سنة سبع وستين ومائة لثنتىْ عشرةَ سنةً من ولايته .

وكان مع ذلك علىٰ مذهب الصُّفْرية ، وخطب فى عَمَله للمنصور والمهدىّ من خلفاء بنى العباس .

ولما مات وَلِىَ مكانَهُ آبنُه (إلياسُ بنُ أبى القاسم) [وكان يُدْعىٰ بالوزير ثم انتقضوا عليه](١) سنة أربع وسبعين ومائة [خلَعُوه](١) .

ووَلِى مكانَهُ أخُوه (اليَسَعُ بن أبى القاسم) وكنيته أبو منصور ، فبنىٰ سُورَ سِجِلْماسةَ ، وشيَّد بُنْيانها ، وآختطَّ بها المصانِع والقُصور لأربع وثلاثين سنة من وِلَايته . وعلىٰ عهده آستفحل مُلْكُهم بسِجِلْماسةَ ، وسكَنها آخرَ المائة الثانية بعد أن كان يسْكُن الصَّحْراءَ وهلك سنةَ ثمانٍ ومائتين .

ووَلِىَ بعده آبنُه (مِدْرَار) ولُقِّب المنتصِرَ وطال أمَدُ ولايته . وكان له ولدان آسم كل منهما ميمونٌ ، فوقع الحرب بينهما ثلاثَ سنين ؛ ثم كان آخِرُ أمرهما أن غَلَب أحدُهما أخاه وأخرجه من سِجِلْماسةَ ، ثم خلع أباه وآستقلّ بالأمر ، وساءت سيْرَتُه فى الرعِيَّة فخلَعُوه ، وأعادوا مِدْرارا أباه .

(١) الزيادة من "العبر" ج ٦ ص ١٣٠ ليستقيم الكلام .

ثم حدّث نفْسَــه بإعادة ٱبنه ميمونٍ المخلوع نخلَعُوه وولّوا ٱبنه (ميمونا) الآخَرَ، وكان يعرف بالأمير، ومات مدرارُ إثْرَ ذلك سنة ثلاث وخمسين ومائتين . [ومات ميمونُ سنةَ ثلاث وستين ومائتين](١) .

ووَلِيَ مكانه ٱبنُه (محمد) فبقِيَ إلىٰ أن تُوُفِّيَ سنة سبعين ومائتين .

فولِي مكانَهُ (اليَسَع) بن المنتصر . وفى أيامه وفَدَ عبيدُ الله المهدىُّ الفاطمىُّ وٱبنه أبو القاسم علىٰ سِجِلْماسةَ فى خلافة المعتَضِد العباسىّ ، وكان اليَسَعُ علىٰ طاعته فبعث المعتضِدُ إليه فقبض عليهما وٱعتقَلَهما إلىٰ أن غلب أبو عَبْدالله الشِّيعى داعِى المهدىّ بَنِي الأغلبِ أصحابَ أفريقيَّةَ، فقصد سِجِلْماسةَ نخرج إليــه اليَسَعُ فى قومه مِكْناسةَ، فهزمه أبو عبدِ اللهِ الشيعى وٱقتحم عليه البلَدَ ، وقتله ســنةَ ستٍّ وتسعين ومائتين ، وٱستخرج عُبيدَ الله وٱبنه من محْبِسِهما ، وبايع (لعُبَيْدِ الله المهدىّ) .

وولّى المهدىُّ علىٰ سِجِلْماسةَ (إبراهيمَ بن غالب المَزاتى) وٱنصرف إلىٰ أفريقيَّة ؛ ثم ٱنتقض أهل سِجِلْماسةَ علىٰ واليهم إبراهيمَ ومن معه من مكناسة سنة ثمان وتسعين ومائتين .

وبايعوا (الفَتْح بن ميمونٍ) الأميرِ ٱبنِ مِدْرار المتقدّم ذكره ، ولقبــه واسول ، وهلك قريبا من وِلَايته علىٰ رأس المــائة الثالثة .

وولى مكانه أخوه (أحمدُ بن مَيْمون) الأميرِ ، وٱســتقام أمرُه إلى أن زحف مصالة بن حيوس فى جموع كُتامةَ ومِكْناسةَ إلى المغرب ســنة تسع وثلثمائة ، فافتتح سِجِلْماسةَ وقبض على صاحبها أحمدَ بنِ ميمون .

وولّى عليها ٱبنَ عمه (المعـتزَّ بنَ محمد)(٢) بن يادن بن مِدْرار، فلم يلبَثْ أنِ ٱستبدَّ وتلقب المعتزّ، وبقِيَ حتى مات سنةَ إحدىٰ وعشرين وثلثمائة قبل موتِ المَهْدِىّ .

---

(١) التتميم من ''العبر'' ج ٦ ص ٣١ ليستقيم الكلام .
(٢) فى العبر ج ٦ ص ١٣١ ''ساور'' .

ووَلِيَ من بعده ٱبنُه أبو المنتصر (محمدُ بنُ المعتزّ) فأقام عشرا ثم هلك .

ووَلِيَ من بعده ٱبنه (المنتصر سَمْكو) شهرين، ودَبَّرْته جدَّته لِصغَره .

ثم ثار عليه ٱبنُ عمه (محمدُ بن الفَتْح) بن ميمونٍ الأميرِ وتغلَّب عليه، وشُغِل عنه بَنُو عبيد الله المهدىّ بِفتْنة ٱبن أبى العافيـة وغيرها، فدعا لنفسـه مموِّها بالدعاء لبنى العبَّاس وتلقَّبَ الشاكر لله ، وأخذ بمذاهب أهلِ السُّـنَّة ورَفَض الخارجيّةَ ؛ وكان جميعُ مَنْ تقدّم من سَلَفه علىٰ رأى الأَبَاضِيَّة والصُّفْرية من الخوارج ، وضرب السِّكَّةَ بٱسمه ولقبـه ؛ وبقِىَ كذلك حتى فَرَغ بنو عُبيد الله من الفتن ، فزحف القائد جوهرٌ أيامَ المُعِزّ لدين الله مَعَدّ إلىٰ المغرب سنةَ سبع وأربعين وثلثمائة ، فغلب علىٰ سِجِلْمَـاسةَ وملكها وفرّ محمد بن الفتح عنها ؛ ثم قَبَض عليـه جوهر بعد ذلك وحمله إلىٰ القَـيْرَوان . فلمـا ٱنتقض المغربُ علىٰ العُبَيديّين وفشَتْ فيـه دعوةُ الأُمويّين بالأندلُس، ثار بسِجلْماسةَ قائم من ولد الشاكر، وتلَقَّبَ (المنتصر بالله) ثم وثب عليه أخوه (أبو محمد) سنة ٱثنتين وخمسين فقتـله وقام بالأمر مكانَهُ، وتلقب (المعتزّ بالله) وأقام علىٰ ذلك مدّة ، وأمرُ مِكْناسةَ يومئذ قد تداعىٰ إلىٰ الآنحلال ، وأمْرُ زَناتَةَ قد ٱسـتفحل بالمَغْرب إلىٰ أن زحف خَزْرون بن فَلْفول من ملوك مَغْراوة إلىٰ سِجِلْماسة سـنة ستٍّ وستين وثلثمائة، وبَرَز إليه أبو محمد المعتزّ فهزمه خَزْرون وقتله وٱستَوْلىٰ علىٰ بلده، وبعث برأسه إلىٰ قُرْطُبَةَ مع كتابه بالفتح؛ وكان ذلك لأوّل حِجَابة المنصُورِ ٱبن أبى عامر بقُرْطبةَ؛ فعقَد لخَزْرُون علىٰ سِجِلْماسة، فأقام دعوةَ هشامٍ فى نواحيها؛ فكانتْ أوّلَ دعوة أُقيمتْ لهم فى أمصـار المغرِب الأقْصىٰ ، وٱنقرض أمر مِكْناسةَ من المغرب أجمعَ .

وٱنتقلتِ الدَّولةُ إلىٰ مَغْراوة وبَنِى يفرن وعَقَـد هشام (لخَزْرُون) علىٰ سِجِلْماسةَ وأعمالها، وجاءه عهدُ الخليفة بذلك، وضبطها وقام بأمرها إلىٰ أن هلك .

فولِي أَمْرَ سِجِلماسةَ من بعــده ٱبنُه (وانُّودين بن خَزْرون) إلىٰ أن غلب زِيرِى ٱبن مَيَّاد علىٰ المغرب، فعقد علىٰ سِجِلْماسة (لحميد بن فضل) المِكْناسى، وفرّ وانُّودين ٱبن خزرون عنها، ثم أعاده عبدُ الملك إلىٰ سجلماسةَ بعد ذلك علىٰ قَطِيعة يؤدّيها اليه؛ ثم ٱستقلَّ بها من أوّل ســنة تسعين وثلثمائة مقيما للدعوة الأُمَوِيَّة بالأَنْدلُس، ورجع المُعِزُّ بن زِيرِى بوِلاية المغرب عن المظَفَّر بن أبى عامر، وٱستثنىٰ عليه وِلايةَ سِجِلْماسة لكونها بيد وانُّودين؛ وٱستفحل مُلْك وانُّودين، وٱستضاف إلىٰ سجلمــاسةَ بعضَ أعمال المغرب ومات .

فقام بالأمر من بعده ٱبنه (مسعود بن وانُّودين) إلىٰ أن خرج (عبدُالله بن ياسين) شيخُ المرابِطين، فقتل ابنَ وانُّودين سنةَ خمسٍ وأربعين وأربعمائة؛ ثم ملك سِجِلْماسة بعد ذلك سنةَ ست وأربعين، ودخلَتْ فى ملك المرابطين لأوّل أمرهم، وٱنقرضت دولة بنى خَزْرون منها، وتداولها مَنْ بعدهم من ملوك الموحِّدين، ثم مُلُوك بنى مَرِينٍ علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك الغرب الأقصىٰ إن شاء الله تعالىٰ .

وأما ما ٱشتملت عليه هذه المملكة من المُدُن المشهورة .

فمنها مدينة (آسِفِى)(١) بفتح الهمزة ومدّها وكسر السين المهملة والفاء وياء مثناة تحت فى آخرها . وهى مدينة واقعة فى الإقليم الثالث من الأقاليم السبعة قال ٱبن سعيد : حيثُ الطولُ سبعُ درج، والعرضُ ثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من عمل دكَّالَة، وهى كُورة عظيمة من أعمال مَرَّاكُش، قال ٱبن ســعيد : وهى علىٰ جَوْن من البحر داخلٍ فى البرّ، فى مستوٍ من الأرض . وهى فُرْضة مَرَّاكُش، وبينها وبيـــن مَرَّاكُش أربعةُ أيام؛ وأرضها كثيرة الحجر، وليس بها ماءٌ إلا من

(١) ضبطها ياقوت فقال : بفتحتين وكسر الفاء .

المطر، وماؤها النّبع غير عَذْب، وبساتينها تُسقَى على الدّواليب، وكُرُومها على باب البلد. قال الشيخ عبد الواحد: وهى تُشْبِه حماةَ ودُونَها فى القَدْر، ولكن ليس لها نهر يجْرى.

ومنها (سَلاَ) بفتح السين واللام وفى آخرها ألف؛ وهى مدينة من الغرب الأقصى فى آخر الإقليم الثالث قال ٱبن سعيد: حيثُ الطول سبعُ درج وعشرُ دقائق [والعَرْض ثلاث وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة](١) وهى مدينة قديمة فى غربيّها البحر المحيط وفى جنوبيّها نَهَر عظيم يَصُبُّ فى البحر المحيط والبساتينُ والكُرُومُ. وبنَى «عبدُ المؤمن» أمامها من الشَّطِّ الجنوبىّ على النهر والبحر المحيط قصرا عظيما، وبنَى خاصّتُه حوله المنازلَ فصارت مدينة عظيمة سماها المَهْدِيَّة. وسَلاَ متوسِّطة بين بلاد المغرب الأقصى قريبةٌ من الأندلُس؛ وهى مدينة كثيرة الرَّخاء، ولها مُعامَلة كبيرة يقال لها تامَسْنَا(٢)، كثيرةُ الزَّرْع والمَرْعى، وفيها مُدُن كثيرة.

ومنها (لَمْطة) بفتح اللام وسكون الميم وفتح الطاء المهملة. وهى مدينة من الغرب الأقصى واقعةٌ فى آخر الإقليم الثانى قال بعضهم: حيث الطول سبعُ دَرَج وثلاثون دقيقة، والعرضُ سبعٌ وعشرون درجةً؛ على ثلاث مراحلَ من البحر المحيط؛ ولها نَهَر كبير ينزل من جبل فى شرقيها على مرحلتين منها، يجرى على جَنُوبِيِّها غرباً بميلة إلى الشَّمال حتّى يصبّ فى البحر المحيط.

ومنها (السُّوس) بضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانيةٍ. وهى مدينة من أقصى المغرب فى الإقليم الثانى قال ٱبن سعيد: حيثُ الطولُ ثمانُ درج والعرض

---

(١) الزيادة عن "التقويم" نقلا عن ٱبن سعيد.

(٢) فى ياقوت "تامست" بتاء مثناة من فوق فى آخرها.

ستٌّ وعشرون درجة وعشرون دقيقــة ؛ وهى على طَرَف من البر داخلٍ فى البحر أربعين ميلا ، وفى جانبها الشّمالى نهر يأتى من الشرق من جبل لَمْطَةَ .

ومنها (قَصْر عبد الكريم) وضبطه معروف . وهى مدينــة من الغرب الأقصى فى أوائل الإقليم الرابع قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمــانُ دَرَج وثلاثون دقيقة ، والعرضُ أربع وثلاثون درجة وأربعون دقيقــة . وهى مدينــة على نهر من جهتها الشّمالية ، وهو نهر كبير تَصْــعَد فيه المراكبُ من البحر المحيط ، وجانبــاه محفوفان بالبساتين والكُرُوم . وكان قاعدةُ تلك الناحية قبلها مدينةً اسمها (البَصْرة) يسكُنها الأدارسة ؛ فلمـا عُمِرت هذه المدينة صارت هى القاعدة .

ومنها (طَنْجةُ) بفتح الطاء المهملة وسكون النون وفتح الجيم ثم هاء فى الآخر . وهى مدينة من أقاصى المغرب واقعةٌ فى الإقليم الرابع قال ابن سعيد : حيثُ الطول ثمــان درج وإحدى وثلاثون دقيقة ، والعرضُ خمس وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . وهى مدينة على بحر الزُّقَاق ، واتساعُ البحر عندها ثُلُث مَجْرًى ، فإذا شَرَّق عنها اتَّسع عن ذلك . وهى مدينة أزَلِيَّة ، واستحْدَث أهلها لهم مدينةً على مِيل منها على ظهر جبل يمتنِعُوا بها ، والماء ينساق إليها فى قُنِىّ . قال فى "مسالك الأبصار" : وكانت دار مُلْك قديم . وهى التى كانت قاعدةَ تلك الجهات قبل الإسلام إلى حين فتح الأندَلُس ؛ وهى مَحطُّ السُّفُن ؛ وهى كثيرة الفَوَاكه ، لاسيما العنبُ والكُمَّثْرَى ؛ وأهلها مشهورون بقلة العقل وضَعْف الرأى ، على أن منهـا أبو الحسن الصِّنْهاجىّ الطَّنْجِىّ ، تَرْجم له فى قلائد العِقْيان وأثنى عليه ، وأنشد له أبياتا منها :

وقد تَحْمِى الدُّروعُ من العَوَالى ، * ولا تَحْمِى من الحَدَقِ الدُّرُوع !

وكذلك أبو عبد الله بن محمد بن أحمد الحَضْرمىّ القائل :

وضَنُّوا بتَوْديع ، وجادُوا بتَرْكه ؛ * ورُبَّ دواء مات منــه عَلِيلُ !

ومنها (دَرْعة) بفتح الدال وسكون الراء وفتح العين المهملات وهاء في الآخر. وهي مدينة من جنوبيّ المغرب الأقصى واقعةٌ في الإقليم الثاني. نقل في "تقويم البُلْدان" عن بعضهم أنَّ طولَها إحدى عشرةَ درجة وستّ دقائق، وعرضَها خمس وعشرون درجة وعشرُ دقائق. قال في "نزهة المشتاق": وهي قُرًى متصلة، وعِماراتٌ متقارِبة، وليست بمدينةٍ يَحُوطُ بها سُور ولا حَفِير. ولها نهر مشهور في غربيها ينزل من رَبْوة حمراءَ عند جبل دَرَن، وتنبُتُ عليه الحِنَّاء، ويغوص ما يَفْضُل منه بعد السَّقْي في صحارَى تلك البلاد.

ومنها (أَغْماتُ) قال في "اللباب": بفتح الألف وسكون الغين المعجمة وفتح الميم وألف وتاء مثناة من فوق في آخرها. وهي مدينة من الغَرْب الأقصى، واقعة في الإقليم الثالث. قال في "تقويم البُلْدان": والقياس أن طولها إحدى عشرة درجةً وثلاثون دقيقة، والعرض ثمانٍ وعشرون درجة وخمسون دقيقة. وهي مدينة قديمةٌ في الجَنُوب بمَيْلة إلى الشرق عن مَرَّاكُش، في مكان أَفْيَحَ طيِّب التُّرْبة، كثير النبات والعُشْب، والمياهُ تخترِقه يمينا وشِمالا. قال ابن سعيد: وهي التي كانتْ قاعدةَ مُلْك أمير المسلمين «يوسف بن تاشفين» قبل بناء مَرَّاكُش. قال الإدريسي: وحولها جنات مُحَدِّقة، وبساتينُ وأشجار ملتفَّة، وهواؤها صحيح، وفيها نهر ليس بالكبير، يشُقُّ المدينة يأتيها من جنوبِيِّها ويخرج من شَمالِيِّها، وربما جَمَد في الشتاء حتّى يجتازَ عليه الأطفال.

ومنها (تادِلَا) قال في "تقويم البلدان" عن الشيخ عبد الواحد: بفتح المثناة من فوقُ ثم ألف ودال مهملة مكسورة ولام ألف. ثم قال: وفي خط ابن سعيد تادِلَةُ في آخرها هاء، وهي مدينة بالمغرب الأقصى في جهة الجَنُوب في الإقليم الثالث قال ابن سعيد: حيث الطول اثنتا عَشْرَةَ درجة، والعرضُ ثلاثون درجة. قال

ابن سعيد : وهى مدينةٌ بين جبالِ صِنْهاجة ، ويقال هى قاعدة صِنهاجة ؛ وغربيّها جبل درن ممتدّ إلى البحر المحيط ، وهى بين مَرّاكُش وبين أعمال فاس ، ولها عَمَل جليل ، وأهلها بَرْبَر يعرفُون بجَرَاوة .

ومنها (أَزَمُّور) قال الشيخ شعيب : بفتح الهمزة والزاى المعجمة وتشديد الميم ثم واو وراء مهملة فى الآخر . وهى مدينة على مِيلَيْنِ من البحر أكثر سُكّانها صِنْهاجةُ.(١)

ومنها (المَزَمَّة) وهى فُرْضة ببَرّ العُـدْوة تقابل فُرْضـة المُنَكَّبِ من بَرّ الأندلس من ساحل غَرْناطة . والمَزَمَّة فى الشرق عن سَبْتَة بينهما مِائتا مِيل .

ومنها (مدينة بَادِيس) وهى فُرْضة مشهورة من فُرَض غُمَارة فى الجنوب والشرق عن سَبْتَة بينهما نحوُ مائة ميل . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قياسا حيثُ الطول عشرُ درَج وثلاثون دقيقة ، والعرض أربع وثلاثون درجة وخمسٌ وعشرون دقيقة .

ومنها (أَوْدَغَسْتُ) قال الشيخ عبدالواحد : بفتح الهمزة وسكون الواو وفتح الدال المهملة والغين المعجمة وسكون السين المهملة وفى آخرها تاء مثناة فوق(٢) . وهى مدينة فى المغرب الأقصى فى الجنوب فى الصَّحْراء فى الإقليم الثانى قال فى "الأطوال" : حيث الطولُ ثمانُ درج وثمانُ دقائق . قال فى "القانون" : والعرض ستٌّ وعشرون درجة . قال : وهى فى بَرارِىّ سُودان المغرب . قال فى "العزيزى" : وهى جنوبىّ سِجِلْمـاسة وبينهـما ستٌّ وأربعون مرحلة فى رمال ومَفاوِزَ على مياه معروفة ؛ ولها أسواقٌ جليلة ؛ والسفن تصل إليها فى البحر المحيط من كل بلد ؛ وسُكّان هذه المدينة أخلاط من البربر المسلمين ، والرِّياسة فيها لِصِنْهاجة . قال فى "العزيزى" : ولأَوْدَغَسْتَ أعمال واسعة ؛ وهى شديدة الحرارة ، وأمطارُها فى الصيف ؛ ويزرعون

(١) ضبطها ياقوت فقال : ثلاث ضمات متواليات وتشديد الميم .
(٢) فى المعجم وفتح الذال المعجمة .

عليها الحِنطة، والذُّرة، والدُّخن، واللوبيا، والكِرْسنَّة ؛ وبها النخلُ الكثيرُ وليس فيها فاكهة سِوى التين، وبها شجرُ الحجاز كلُّه : من السَّنْط والمُقْل وغيرهما .

قلت : وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عِدّةَ مُدُن غير هذه غير مشهورة يطول ذكرها .

الجملة الثالثة

(فى ذكر جبالها المشهورة . وهى عدّةُ جبال)

منها (جبلُ دَرَنٍ) بفتح الدال والراء المهملتين ونون فى الآخر . قال ابن سعيد : وهو جبل شاهقٌ مشهور لا يزال عليه الثلْج، أوّله عند البحر المحيط الغربىّ فى أقصى المغرب، وآخره من جهة الشَّرْق على ثلاثِ مَراحل من إسكندرية من الديار المِصْرية، ويسمّى طَرَفُه الشرقىُّ المذكور رأس أَوْثانٍ، فيكون امتدادُه نحوَ خمسين درجة ، وفى غربيِّه بلاد تينملك من قبائل البَرْبر، وشرقيها بلاد هَنْتاتَةَ من البربر أيضا وشرقيها بلاد مشكورة منهم، وشرقيها بلاد المصامدة .

ومنها (جبل كزولة) وهى قبيلة من البربر . قال ابن سعيد : وابتداؤه من البحر المحيط الغربىّ ، ويمتد مشرِّقا إلى حيثُ الطولُ اثنتا عشْرةَ درجة ، وموقعُه بين الإقليم الثانى والإقليم الثالث، وبه مدينة اسمها تاعجست .

ومنها (جبل غُمارَةَ) . بضم الغين المعجمة وفتح الراء بعد الألف . وهى قبيلة من البربر أيضا، وهو جبل ببَرّ العُدْوة فيه من الأُمَم ما لا يُحْصيه إلا الله تعالى، وهو رُكْن على البحر الرومىّ ، فإن بحر الزُّقاق إذا جاوز سَبْتَةَ إلى الشَّرق انعطف جَنُوبا إلى جبل غُمارةَ المذكورة، وهناك مدينة بادِيس المقدّم ذكرها .

ومنها (جبل مَدْيُونة) بفتح الميم وسكون الدال المهملة وضم المثناة من تحت وواو ثم نون مفتوحة وهاء فى الآخر : وهو جبل ببرّ العُدْوة شرقىّ مدينة فاس ، يمتدّ إلى الجنوب حتّى يتصل بجبال دَرَن ، ومَدْيونةُ قبيلة من البربر واطنُون به .

ومنها (جبال مَدْغَرة) وهى شَرْقِىّ مَدْيُونَةَ ، ومعظمُ أهلها كُومِيَةُ ـ بضم الكاف وكسر الميم وفتح المثناة تحت وهاء فى الآخر . وهى قبيلة من البربر ، منها « عبدُ المؤمن » أحدُ أصحاب المهدىّ بن تُومَرْت .

ومنها (جبل يُسْر) بضم الياء المثناة تحتُ وسكون السين المهملة . وهو جبل شرقِىّ مَدْيُونَةَ أيضا منه يَنْبَع نهرُ يُسْر المذكور .

ومنها (جبل ونشَرِيش) وهو جبل يتصل بجبل يُسْر من شرقيه ، وفيه تعمل البُسُط الفائقة ، ومنه يَنْبَع نهرُ سَلَف المشهور . قال ابن سعيد : وهو نهرٌ كبير يزيد عند نَقْص الأنهار كنيل مصر .

الجملة الرابعة

(فى ذكر أنهارها المشهورة ، وهى عِدّة أنهار)

منها (نَهرُ السُّوس الأقصى) وهو نهر يأتى من الجنوب والشرق من جبل يُعْرَف بجبل لَمْطَةَ ، ويجرى إلى الشمال ، ويمرّ على مدينة السُّوس من شَمَالِيِّها ، ويُزْرَع على جانبيه قَصَب السكّر والحِنَّاءُ وغيرُ ذلك كما يزرع فى مصر ، ويجرى حتى يصُبّ فى البحر المحيط الغربىّ .

ومنها (نَهرُ سِجِلْماسة) الآتى ذكرها (١) ، وهو نهر مَنْبَعُه من جنوبىّ سِجِلْماسة بمسافة بعيدة ، ويمرّ من شرقيها ويجرى حتّى يَصُبّ فى نهر مَلْوِيَّة الآتى ذكره .

(١) صوابه كما فى القطعة الأزهرية المتقدم ذكرها فانها تقدمت فى القواعد .

ومنها (نهر مَلْوِيَّة) قال ابن سعيد : وهو نهر كبير مشهور فى المَغْرب الأقصى، يَصُبُّ إليه نهر سِجِلْماسَة ويصيران نهرا واحدا، يجرى حتّى يصُب فى بحر الروم شرقىَّ سَبْتة .

ومنها (نهر فاس) وهو نهر متوسِّط يشُقُّ مدينة فاسٍ كما تقدّم قال فى "تقويم البُلْدان" ومَخْرَجه على نصف يوم من فاس، يجرى فى مُرُوج وأزاهِر حتّى يدخُلها .

المَقْصِد الثانى

(فى ذكر زروعها، وحبوبها، وفواكهها، وبقولها ورياحينها ومواشيها، ومعاملاتها، وصفات أهلها . وفيه خمس جمل)

الجملة الأولى

(فى ذكر زروعها، وحُبوبها، وفواكهها، وبُقُولها، ورَياحينها)

أما زَرْعها فعلى المَطَر كما تقدّم فى أفْرِيقيَّة .

وأما حبوبها، ففيها من أنواع الحبوب : القَمْح، والشعير، والفُول، والحِمَّص، والعَدَس، والدُّخْن، والسُّلْت وغير ذلك . أما الأُرْزّ فإنه عندهم قليل، بعضُه يُزْرع فى بعض الأماكن من بَرِّ العُدْوة، وأكثره مجلوبٌ إليهم من بلاد الفرنج . على انهم لا نَهْمةَ لهم فى أكله ولا عِنايةَ به . وبها السِّمْسِم على قِلَّة، ولا يُعْتَصر منه بالمَغْرب شَيْرَج لاستغنائهم عنه بالزَّيْت حتّى مزورات[1] الضعفاء وكذلك يعملون الحَلْوى بالعسل والزَّيْت، وإنما يستعمل الشَّيْرَجُ عندهم فى الأمور الطِّبِّيَّة .

وأما فواكهها، فبها أنواع الفواكه المستطابةِ اللذيذةِ المختلفة الأنواع : بين النخل، والعِنَب، والتِّين، والرُّمّان، والزيتون، والسَّفَرْجل، والتُّفّاح على أصناف،

(١) كذا فى المسالك أيضا .

وكذلك الكُمَّثرىٰ (١) ، وتسمّى عنـدهم الإنْجاصَ كما بدِمَشْقَ ، وبها المِشْمِش والتين ، والبَرْقُوق ، والقَرَاصيا ، والخَوْخ ؛ وغالب ذلك علىٰ عدّة أنواع ؛ والتُّوت علىٰ قلة ، والجَوْز ، واللَّوْز . ولا يُوجَد بهـا الفُسْتُق والبُنْدُق إلا مجلوبا . وبهـا الأُتْرُجُّ ، واللَّيمون ، والليم ، والنـارَنْج ، والزُّنْبُوع ، وهو المسمّى بمصر والشام الكبَّاد . وبهـا البِطِّيخ الأصـفر والأخضرُ واسمه عندهم الدلّاع كما فى سائر بلاد المغرب علىٰ قلة ، والموجود منه غير مستطابٍ . وبها الخِيَار ، والقِثّاء ، واللِّفت ، والباذِنْجان ، والقَرْع ، والجَزَر ، واللُّوبيَا ، والكُرُنْب ، والشَّمار ، والصَّعْتر وسائر البقول . والمَوْز موجود بها فى بعض المواضع نادرًا ، والقُلْقاس لا يُزْرَع عندهم إلا للتفرُّج علىٰ عُروقه لا لِأن يُؤْكَل ، وبها قصب السكر بجزائر بنى مَزْغِنَّانَ و بسَـلاَ كثير ، و يعصر ثم يُعْمَل منه القَنْـد ومن القند السُّكَّر علىٰ أنواع لاسيما بمرَّاكُش ، فإنه يقال إن بها أر بعين مَعْصَرة للسُّكَّر ، وإنّ حِمْلَ حمار من القصب يُساوِى درهما من دراهمهم : وهو ثُلُث درهم من الدراهم المِصْرية ؛ و يعمل منه المكرَّر الفائق ، ومع ذلك فليس لهم به اهتمام لاكتفائهم عنه بعسل النحل مع كثرته عندهم ، وميْلِهم إليـه أكثر من السكَّر ، حتّى يقال إنه لايستعمل السُّكَّر عندهم إلا الغُرباءُ أو المَرْضىٰ .

وأما رياحينها ، فبهـا الوَرْد ، والبَنَفْسَج ، واليـاسَمين ، والآسُ ، والنَّرجس ، والسَّوْسن ، والبَهار ، وغير ذلك .

الجملة الثانيـــــة

(فى مواشيها ، ووحوشها ، وطيورها)

أما مواشيها ، ففيها من الدوابِّ الخيلُ ، والبِغال ، والحَمير ، والإبِلُ ، والبَقَر ، والغنم ؛ أما الجاموس فلا يُوجَد عندهم .

---

(١) مكرر من الناسخ .

وأما الطير، فبها منه الإوَزُّ، والحَمَام، والدَّجاج ونحوها، والكُرْكِيُّ عندهم كثير على بُعْد الدار، واسمه عندهم الغُرْنُوق، وهو صيدُ الملوك هُناك كما بمصر والشام .

وأما وحوشها، ففيها من أنواع الوحش الحُمُر، والبقر، والنَّعام، والغَزَال، والمَهَا وغير ذلك .

الجملة الثالثة

(فيما تتعامل به من الدَّنانير، والدراهم، والأوزان، والمكاييل)

أما مثاقيلُ الذهب فأوزانُها لاتختلف، وأما الدراهم فذكر في "مسالك الأبصار" عن السلايجى : أن مُعاملتها درهمان : دِرْهم كبير، ودرهم صغير، فالدِّرْهم الكبير قدر ثُلثِ درهم من الدراهم النُّقْرة بمصر والشام، والدِّرهم الصغير على النِّصف من الدرهم الكبير يكون قدر سدس درهم نقرة بمصر والشام. وعند الإطلاق يُراد الدرهم الصغيرُ دُونَ الدرهم الكبير إلا بمَرَّاكُش وما جاورها، فانه يُراد بالدرهم عند الإطلاق الدرهمُ الكبير . قال : وكلُّ مِثْقال ذهب عندهم يُساوِى ستين درهما كبارا، تكون بعشرين درهما من دراهم النُّقْرة بمصر .

وأما رِطْلها فعلى ما تقدّم من رِطْل أفريقِيَّة، وهى كلُّ رِطْل ستَّ عشرة أُوقِيَّة، كل أُوقِيَّة أحدٌ وعشرون دِرْهما من دراهمها .

وأما كيلُها فأكثره الوَسْق (ويسمَّى الصَّحْفة) وهو سِتُّون صاعا بالصاع النبوِىِّ على السواء .

الجمـــلة الرابعـــة

(فى ذكر أسعارها)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن السلايحى أيضا عن سِعْر زمانه المتوسّط فى غالب الأوقات ، (وهى الدولةُ الناصرية محمد بن قلاوون وما قاربها) : أنّ سعر كل وَسْق من القمح أربعون دِرْهما من الدّراهم الصِّغار : وهو ثلاثةَ عشرَ درهما وثلثُ درهم مَن نُقْرة مصر، والشعيرُ دُونَ ذلك . وكلُّ رِطْل لحمٍ بدِرْهمٍ واحدٍ من الدراهم الصِّغار، وكلُّ طائر من الدّجاج بثلاثةِ دراهمَ من الصِّغار، وعلىٰ نحو ذلك .

الجملة الخامســـة

(فى صِـــفَات أهلها فى الجُمْـــلة)

قد تقدّم أن مُعظَم هـذه المملكة فى الإقليم الثـالث . قال ابن سعيد : والإقليم الثالث هو صاحبُ سَفْك الدماء ، والحسدِ ، والحِقْد ، والغِـلّ ، وما يتبع ذلك . ثم قال : وأنا اقول : إن الإقليم الثالثَ و إن كثُرت فيه الأحكام المِرِّيخيَّة علىٰ زعمهم ، فإن للمغرب الأقصىٰ من ذلك الحظَّ الوافِرَ، لاسيَّما فى جهـة السُّوس وجبال دَرَن ، فإن قتل الإنسان عنـدهم كذبح العُصْفور ، قال وكَمْ قَتِيل قُتِل عندهم علىٰ كلمةٍ وهم بالقتل يَنْتَخِرون . ثم قال : إن الغالب علىٰ أهل المغرب الأقصىٰ كثرة التنافُس المُفْرِط ، والمحاقَقة ، وقلة التغاضى ، والتهوّرُ ، والمفاتنةُ .

أما البُخْل فإنما هو فى أراذلهم ، بخلافِ الأغنياء ، فإن فى كثير منهم السماحةَ المفرِطةَ والمفاخرةَ بإطعام الطعام والاعتناءَ بالمفْضول والفاضل .

المقصـــد الثـالث

(في ذكر ملوكها، وما يندرج تحت ذلك : من انتقال المُلْك من الموحِّدين
إلى بني مَرِينٍ والتعريف بالسلطان أبي الحسن الذي أشار إليه
في كلامه في "التعريف". وهم على طبقات)

الطبقة الأولى

(ملوكها قبـل الإسـلام)

قد تقدّم أن بلاد المغرب كلّها كانت مع البربر، ثم غلبهم الرُّوم الكَيْتَم عليها ثم افتتحوا قَرْطاجَنَّة وملكوها، ووقع بين البربر والرُّوم فِتَنٌ كثيرة كان آخرها أن وَقَع الصلح بينهم على أن تكون البلادُ والمُدُن الساحليَّة للروم، والجبالُ والصحارى للبربر، ثم زاحم الفَرَنْجُ الرومَ في البلاد، وجاء الإسلام والمستولي عليها من ملوك الفَرَنْجة جرجيس ملكهم، وكان مُلْكه متصلاً من طَرَابُلُس إلى البحر المحيط، وكرسيُّ مُلْكه بمدينة سُبَيْطَلَة، ومن يده انتزعها المسلمون عند الفَتْح .

الطبقـــة الثـانية

(نوّاب الخلفاء من بني أُمَية و بني العَبَّاس)

كان كُرسيّ المملكة بعد الفتح بأفْرِيقيَّـة ، وكان نوّابُ الخلفاء يُقيمون بها وينزلون القَيْروانَ ، وكانوا يُوَلُّون على ما فُتِح من بلاد المغرب مَنْ تحت أيديهـم . فبقِيَ الأمر على ذلك أيَّامَ عبدالله بن أبي سَرْح ، الذي افتتحها في خلافة عُثْمانَ بن عَفَّان رضي الله عنه ، ثم أيَّامَ معاوِيةَ بنِ صالح ، ثم أيامَ عُقْبة بن نافع ، ثم أيَّامَ أبي المُهاجِر ، ثم أيَّامَ عُقبةَ بنِ نافع ثانيا ، ثم أيام زُهَيْر بن قيس ، ثم أيَّامَ حَسَّان بن النعمان ، ثم أيامَ

موسى بن نُصَيْر، ثم أيَّامَ محمد بن يَزِيدَ، ثم أيام إسماعيلَ بن عبدالله بن أبي المُهَاجِر، ثم أيامَ يزيدَ بنِ أبي مسلم، ثم أيامَ بِشْر بن صَفْوانَ الكلبيّ، ثم أيامَ عُبَيـد بن عبد الرحمن السُّلَميّ، ثم أيامَ عبد الله بنِ الحَبْحاب، ثم أيامَ كُلْثوم بن عياض، ثم أيام حَنْظَلةَ بن صَفْوانَ، ثم أيامَ عبدِ الرحمن بن حبيب، ثم أيَّامَ حَبيبِ بن عبدالرحمن، ثم أيامَ عبدالملك بن أبي الجَعْد، ثم أيامَ عبد الأعلى بن السَّمْح المَعَافرى، ثم أيامَ محمدِ بن الأشعث، ثم أيَّامَ الأغلب بن سالم، ثم أيَّامَ عمرو بن حَفْص، ثم أيام يزيدَ بنِ حاتم بن قَبِيصة، ثم أيام رَوْح بن حاتم، ثم أيامَ الفضل بن رَوْح، ثم أيام هَرْثَمة بن أَعْيَن، ثم أيَّامَ محمدِ بن مقاتل، ثم أيَّام إبراهيمَ بن الأغلب، ممَّن تقدّم ذكره فى ملوك أفرِيقِيَّةَ فى خلافة هارون الرشيد. وفى أيامه ظهرَتْ دعوة الأدارسة الآتى ذكرهم بعد هـذه الطبقة. وسيأتى بَسْطُ القول فيهم بعضَ البسط فى الكلام على مكاتبة صاحب تُونُس.

الطبقـــة الثالثـــة

الأدارســة

(بنو إدريسَ الأكبر، بن حسن المثلث، بن حسن المثنّى، بن الحسن السبط، بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم)

وكان مبدأ أمرهم أنه لما خرج حُسَين بن علىّ بن حسنٍ المثلَّث بمكة سنة سبعين ومائة أيَّامَ الهادى واجتمع عليه قرابتُه وفيهم عَمُّه إدريسُ وقُتِل الحسين، فرّ إدريسُ ولَحِق بالمغرب، وصار إلى مدينة وَلِيلِي من المغرب الأقصى، فاجتمع إليه قبائلُ البربر وبايعوه وفتح أكثرَ البلاد، وبقىَ حتّى مات سنة خمس وسبعين ومائة، وأقاموا الدعوة بعده لابنه إدْرِيسَ الأصغر.

وكان أبوه قد مات وترك أمّه حاملا به فكفلوه حتّى شبّ ، فبايعوه سنة ثمانٍ وثمانين ومائة ، وهو ابن إحدى عشرة سنةً ، وافتتح جميع بلاد المغرب وكثر عسكره ، وضاقت عليهم وليلى فاختطّ لهم مدينة فاس سنة ثنتين وتسعين ومائة على ماتقدّم وانتقل إليها ، واستقام له الأمر واستولى على أكثر بلاد البربر ، واقتطع دعوة العباسيين ، ومات سنة ثلاث عشرة ومائتين .

وقام بالأمر بعده ابنه (محمد بن إدريس) ومات سنة إحدى وعشرين ومائتين بعد أن استخلف فى مرضه ولده (عليشا بن محمد) وهو ابن تسع سنين ، ومات سنة أربع وثلاثين ومائتين لثلاث عشرة سنةً من ولايته .

وكان قد عهد لأخيه (يحيى بن محمد) فقام بالأمر بعده ومات .

فولى مكانه ابنه (يحيى بن يحيى) ثم مات فاستدعوا ابن عمه (علىّ بن عُمَر) بن إدريس الأصغر فبايعوه بفاس ، واستولى على جميع أعمال المغرب ، وقتل سنة ثنتين وتسعين ومائتين .

وقام بالأمر بعده (يحيى بن إدريس) بن عمر ، بن إدريس الأصغر ، وملك جميع المغرب وخطب له على منابره ، وبقى حتّى وافته جيوش عُبيدالله المهدىّ الفاطمىّ ، فغلبوه على مُلكه وخلع نفسه من الأمر وأنفذ ببيعته إلى المهدىّ سنة خمس وثلثمائة واستقرّ عاملا للمهدىّ على فاس وعملها خاصّةً ، وبقية المغرب بيد موسى بن ابى العافية كما سيأتى .

الطبقـــــة الرابعة

(ملوك بنى أبى العافِيَة من مِكْنَاسَة)

كانت مِكْنَاسَةُ من قبائل البربر لأول الفتح بنواحى (تَازَا)(١) من أوساط المغرب الأقصى والأوسط وكانوا يرجعُون فى رياستهم إلىٰ بنى أبى باسِل بن أبى الضحَّاك وكانت الرياسةُ فى المائة الثالثةِ لمِصَالة ـ بن حيوس، بن منازل، بن أبى الضَّحَّاك، ابن يَزُّول، بن تافرسين، بن فراديس، بن ونيف، بن مِكْنَاس، بن ورَصْطَف، بن يحيىٰ، بن تمصيت، بن ضَرِيس، بن رجيك، بن مادغش، بن بربر؛ وموسىٰ بنِ أبى العافِيَة، بن أبى باسل، بن أبى الضحاك المتقدِّم ذكره .

ولما آستَوْلىٰ عُبَيد الله المهدىّ على المغرب صار مِصَالة بن حيوس من أكبر قُوّاده وولَّاه مدينة تاهَرْت والغربَ الأوسطَ .

ولما زحف مِصَالَةُ إلىٰ المغرب الأقصىٰ سنةَ خمس وثلثمائة وآستولىٰ علىٰ فاس ثم علىٰ سِجِلْماسةَ وآستنزل يحيىٰ بنَ إدريسَ بفاس إلىٰ طاعة عبيدالله المهدىّ وأبقاه أميرا علىٰ فاس علىٰ ماتقدّم، عقد لآبن عمّه موسىٰ بن أبى العافيــة أميرِ مِكْنَاسةَ علىٰ سائر ضواحى المغرب وأمصاره مضافة إلىٰ عمله من قَبْلُ: تَسُول وتازَا ومامعهما وقَفَل مصالةُ إلىٰ القَيْروان .

فقام موسىٰ بن أبى العافية بأمر المغرب، وعاود مصالةُ غَزْوَ المغرب سنةَ تسع وثلثمائة : أغراه موسىٰ بن أبى العافية بيحيىٰ بن إدريسَ، فقبض عليه وأخذ ماله وطرده، فلَحِق ببنى عمه بالبصرة والريف؛ وولّى مصالةُ مكانه علىٰ فاس ريحانًا الكُتَامىّ وقَفَل إلىٰ القيروان فمات، وعَظُم ملك موسىٰ بن أبى العافية بالمغرب .

(١) لعله بنواحى تازا وغيرها من أوساط الخ وفى "العبر ج ٦ ص ١٣٤" بنواحى تازا وتسول والكل يرجعون الخ .

ثم ثار بفاس سنة ثلاثَ عشرةَ وثلثمائة (الحسنُ بن محمد) بن القاسم، بن إدريس الملقب بالحَجَّام، ودخل فاسَ على حينِ غفلة من أهلها وقتل ريحانًا واليها، وآجتمع الناس على بَيْعته؛ ثم خرج لقتال آبن أبي العافية وآلتقَوْا، فهلك جماعة من مِكْناسة ثم كانت الغلبة لهم. ورجع الحسنُ مهزوما إلى فاس فغدر به عامله على عُدْوة القَرَوِيِّين: حامدُ بن حمدانَ الهَمْدانيّ، فقبض عليه واعتقله وأمكن آبنَ أبي العافية من البلد، وزحف إلى عُدْوة الأندلسيين فملكها وقتل عاملها، وولّى مكانه أخاه محمدا، وآستولى آبن أبي العافية على فاس وجميع المغرب وأجلى الأدارسةَ عنه.

ثم آستخلف على المغرب الأقصى آبنه (مَدْيَن) وأنزله بعُدْوة القَرَوِيِّين، وآستعمل على عُدْوة الأندَلُسِيِّينَ طُوَال(١) بن أبي زيد، وعزل عنه محمد بن ثعلبة. ونهض إلى تِلِمْسانَ سنة تسعَ عشرةَ وثلثمائة فملكها، وغلب عليها صاحبَها الحسنَ بن أبي العَيْش آبن عيسى، بن إدريس، بن محمد، بن سليمان: من عَقِب سليمانَ بن عبد الله: أخي إدريس الأكبرِ الداخل إلى المغرب بعده؛ ورجع بعد فتحها إلى فاس وخرج عن طاعة العُبَيْدِيين، وخطب للناصر الأُمَوِيّ خليفةِ الأندلُس على منابر عَمَله، فبعث عُبَيْدُالله المهديّ قائدَه حُمَيْدا المِكْناسيّ ابن أخي مِصالة إلى فاس، ففرّ عنها مَدْيَنُ آبن موسى بن أبي العافية إلى أبيه فدخلها حُمَيد، ثم آستعمل عليها حامدَ بن حَمْدانَ ورجع إلى أفْرِيقيَّة، وقد دوَّخ المغرب.

ثم آنتقض أهل المغرب على العُبَيديين بعد مَهْلَك عبيدالله، وثار (أحمدُ بن بكر) بن عبد الرحمن بن سهل الجُذَاميّ على حامد بن حَمْدانَ عامل فاسَ، فقتله وبعث برأسه إلى موسى بن أبي العافِيَة، فبعث به إلى الناصر الأُمَويّ بالأندلُس وآستولى على المغرب، وزحف (مَيْسُور الخَصِيُّ) قائدُ أبي القاسم بن عبيد الله المهديّ سنة ثلاث

(١) كذا في القطعة الأزهرية أيضا وفي العبر ج ٦ ص ١٣٥ طول بن أبي يزيد وهو تصحيف.

وعشرين وثلثمائة إلى فاس وحاصرها فأحجم ٱبنُ أبي العافية عن لقائه ، وٱستنزل ميسورٌ أحمدَ بنَ بكرٍ عاملَها وقبض عليه وبعث به إلى المَهْدِيَّة .

ثم خرج أهل فاس عن طاعته ، وقدّموا على أنفسهم (حسنَ بنَ قاسمٍ اللَّوَاتى) ؛ ثم حاصرهم ميسورٌ فدخلوا تحت طاعتــه ، وٱشترطوا على أنفسهم الإتاوةَ ، فقَبِـل مَيْسورٌ ذلك منهم ، وأقرّ حسنَ بنَ قاسم على وِلَايتــه بفاس ، وٱرتحل إلى حرب ٱبن أبي العافِيَــة ، فكانت بينهم حروب آخِرُها أن ظهر ميســور على ٱبن أبي العافيــة ، وأجلاه عن أعمــال المغرب إلى بلاد الصَّحْراء ؛ ثم قفل مَيْسورٌ إلى القَيْروان ســنة أربع وعشرين وثلثِمائة . ورجع موسى بن أبي العافيــة من الصَّحْراء إلى أعمــاله بالمغرب ، وزحف إلى تِلِمْسان ، ففرّ عنها أبو العيش ولحق بتَكُور ، وٱســتفحل أمر ابن أبي العافيــة بالمغرب الأقصى وٱتّصــل عملُه بعمل محمد بن خزر مَلِك مَغْراوةَ وصاحب المغرِب الأوسط ، وبَثُّوا دعوةَ الأُمَويَّة فى أعمالها ، وبعث ٱبنَه مَدْيَنَ إلى منازلة فاسَ فحاصرها ، وهلك موسى فى خلال ذلك سنة سبع وعشرين وثلثمائة .

وقام ٱبنه (مدينُ) بأمره ، وعقد له الناصر الأُمَوِيُّ على أعمال أبيه بالمغرب ؛ ثم قسم أعماله بينــه وبين أخويه البورى وأبى منقذ ؛ وأجاز البوريُّ إلى الناصر بالأندلُس سنة خمس وثلاثين وثلثمائة فعقد له ثم هلك سنةَ خمس وأربعين وثلثمائة وهو محاصر لأخيه مدين بفاس ، فعقد الناصر لٱبنه (منصور) على عمله .

ثم تُوُفِّيَ مدين ، فعقد الناصر لأخيه أبى منقذ على عمله ؛ ثم غلب مَغْراوةُ على فاسَ وأعمالها ، وٱستفحل أمرهم بالمغرب ، وأزاحوا مِكْناسة عن ضواحيه وأعمالِه ؛ وأجاز إسماعيل بن البُورى ومحمدُ بن عبدالله بن مدين إلى الأندلُس ، فنزلا بها إلى أن أجازوا مع واضحٍ أيَّامَ المنصور بنِ أبي عامر عنــد ماخرج زِيرِى بنُ عطية عن طاعتهم سنة ستٍّ وثمانين وثلثِمائة .

الطبقة الخامسة

(بَنُو زِيرِى بنِ عطيَّة من مَغْراوة من البربر)

وهو زِيرِى بنُ عطية، بنِ عبدالله، بن خَزَر، بن محمد، بن خزر، بن حَفْص، ابن صولات، بن رومان، من بطون زَنَاتة من البربر. وكان أوليَّة أمره أنَّ زِيرِى هذا كان أميرَ بنى خَزَر فى وقته، وانتهت إليه رِيَاستُهم وإمارتُهم فى البَدَاوة. ولما غلب بُلُكِّينُ بنُ زيرِى الصِّنْهاجىُّ صاحِبُ أفريقيَّةَ وقومُه صِنهاجةُ على المغرب الأوْسَط سنة تسع وستين وثلثمائة وأجْلَوْا عنه مَغْراوةَ الذين كانوا به من تقادُم السنين وصار المغربُ الأوسطُ جميعُه لِصنهاجةَ، لحق مَغْراوةُ فيمن بَقِىَ من بنى خَزَر، بالغرب الأقصى؛ وأمراؤهم يومئذ محمدُ بن الخيِّر، ومقاتلُ وزيرى ابنا عطية بن عبد الله، وخَزْرون بن فَلْفُول، ووصلوا إلى سَبْتَة وأميرهُمُ المنصورُ بنُ أبى عامر حاجب(١).

وبعث العزيزُ بنُ نِزَار العُبَيْدِىُّ من مصر الحسنَ بن كَنُّون من الأدارسة لاسترجاع مُلْكه بالمغرب، فبعث المنصورُ لحربه أبا الحَكَم عمرو بنَ عبد الله بن أبى عامر الملقَّب بعسكلاجة سنة خمس وسبعين وثلثمائة، وانحاش إليه زِيرِى بنُ عطية ومن معه من بنى خَزَر فى جموع مَغْراوةَ، وزحفوا إلى الحسن بن كَنُّون حتى ألجئُوه إلى الطاعة؛ ثم انصرف أبو الحكم بنُ أبى عامر إلى الأندلُس، فعقد المنصورُ بنُ أبى عامر على المغرب الأقصى للوزير (حسنِ بنِ أحمد) بن عبد الوَدُود السُّلَمى، وأنفذه إليه سنة ست وسبعين وثلثمائة، وأوصاه بملوك مَغْراوةَ خصوصا زِيرِى؛ فسار الحسن بن أحمد حتَّى نزل بفاس وضبط أعمال المغرب. ومات مقاتلُ بنُ عطية سنة ثمان وسبعين وثلثمائة، واستقلَّ أخوه زِيرِى بن عطية برياسة مَغْراوة؛ وبقى الحسنُ بنُ أحمد إلى أن قُتِل فى بعض الحروب سنة إحدى وثمانين وثلثمائة،

(١) لعله حاجب هشام بن عبد الملك خليفة الأندلس كما سيأتى وهو كذلك فى القطعة الأزهرية على تصليح.

وبلغ الخبرُ المنصورَ بنَ أبي عامر فعقد علىٰ المغرب (لزيرِى بنِ عطية) المذكور، وكتب إليه بعهده وأمره بضبط المغرب، فاستفحل مُلكه وغلب علىٰ تِلِمْسانَ. فملكها من يد أبي البهار الصِّنهاجى، وبعث بالفتح إلىٰ المنصور بن أبي عامر فجدّد له العهدَ، واختط مدينة (وَجْدة) سنة أربع وثمانين، وأنزل بها عساكره.

ثم فسد مابين المنصور بن أبي عامر وبين زيرى بنِ عطية، فعقد المنصورُ لمولاه واضح علىٰ المغرب، وعلىٰ حرب زيرى بن عطية، وجهَّزه إليه فى عساكره، ثم أتبعه المنصورُ ابنَه المظفَّر عبد الملك فاجتمعا علىٰ زيرى بن عطية، ودارت بينهم الحرب فكانت الهزيمةُ علىٰ زيرى وجُرِح فى المعركة وفرّ إلىٰ فاس فامتنع عليه أهلها، فلحق بالصحراء جريحا، وكتب عبدُ الملك بنُ المنصور بالفتح إلىٰ أبيه فاستبشر به وكتب إلىٰ ابنه (عبد الملك) بعهده علىٰ المغرب.

وكان زيرى بنُ عطية لمَّا فرّ إلىٰ الصحراء صرف وجهه إلىٰ حرب صِنْهاجةَ بالمغرب الأوسط فقصده وفتح تاهَرْتَ وتِلِمْسان وأعمالَها، وأقام الدعوة فيها لهشام ابنِ عبد الملك خليفةِ الأندلُس وحاجبه المنصورِ من بعده، وبقىَ علىٰ ذلك حتّىٰ مات سنة إحدىٰ وتسعين وثلثمائة.

وبُويِع من بعده ابنُه (المُعزُّ بن زيرى) فجرىٰ علىٰ سَنَن أبيه من الدعاء لهشام بن عبد الملك والمنصورِ من بعده، ومات المنصور فى خِلال ذلك.

وقام بأمره من بعده ابنه المظَفَّر (عبد الملك) وبعث المعزُّ بن زيرى يرغَبُ إلىٰ المظفَّر فى عمل فاس والمغرب الأقصىٰ فأجابه إلىٰ ذلك، وكتب له عهدَه بذلك، خلَا سجِلْماسَةَ فإنها كانت بيد خزرون (١)، وبقىَ المعزُّ فى ولايته إلىٰ أن هلك سنة سبعَ عشرةَ وأربعمائة.

(١) الذى فى العبر ج ٧ ص ٣٤ أنها كانت بيد واندين بن خزرون.

وولي من بعده ابنُ عمه (حَمَامَةُ) بن المعز بن عطية وٱستفحل مُلْكه، ثم نازعه الأمير أبو الكمال (تميم بن زيرى) بن يعلى اليَفْرَني سنة أربع وعشرين وأربعمائة، وٱستقلَّ بملك المغرب وبقِيَ حتّى مات سنة إحدىٰ وثلاثين وأربعمائة .

وولي من بعده ٱبنه (دُوناس) المعروفُ بأبي العَطَّاف، وٱستولىٰ علىٰ فاس وسائر عمل أبيه، فاستقامت دولتُه، وٱحتفل بعمارة فاس وأدار السُّورَ علىٰ أرباضها، وبنىٰ بها المَصَانِعَ، والحَمَّاماتِ، والفَنادِقَ، وبقِيَ حتّى مات سنة إحدىٰ وخمسين وأربعمائة .

وولي من بعده ٱبنه (الفَتُّوح بن دُوناس) ونازعه أخوه الأصغَرُ عُجَيْسة وٱستولىٰ علىٰ عُدْوة القرَوِيِّين من فاس، وبقِيَ الفَتُّوح بعُدْوة الأندَلُسِيِّين، وٱفترق أمرهما ووقعت الحربُ بينهما، وٱبتنى الفَتُّوح بعُدْوة الأندلسيين (باب الفتوح) المعروف به إلىٰ الآن، وٱبتنىٰ عجيسة بعدوة القرويين (باب الجيسة) المعروف به إلىٰ الآن، وحُذِفت العين منه لكثرة دَوَرانه علىٰ الألسنة، وبقِيَ الأمر علىٰ ذلك حتّى ظفر الفتوح بأخيه عُجَيسةَ، وقتَلَه سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة، ودهم المغربَ علىٰ إثر ذلك ما دَهَمه من أمر المرابطين من لَمْتُونةَ، وخشِيَ الفَتُّوح عاقبةَ أمرهم، فرحل عن فاس وتركها .

وزحف صاحبُ القلعة (بُلُكِّين) بن محمد بن حَمَّاد إلىٰ المغرب سنة أربع وخمسين، فدخل فاس وٱستَرْهَن بعضَ أشرافهم علىٰ الطاعة ورجع إلىٰ عمله، ووَلِّى علىٰ المغرب بعد الفَتُّوح (معتصر) بنَ حماد، بن معتصر، بن المعز، بن زِيرِى .

وزحف (يوسفُ بن تاشفين) إلىٰ فاس فملكها صُلْحا سنةَ خمسٍ وخمسين وأربعمائة وخلَّف عليها عامله، وٱرتحل إلىٰ غُمَارة فخالفه معتصر إلىٰ فاس وملكها

وقتل العامل ومن معه من لَمْتُونَة ، وبلغ الخبرُ يوسفَ بن تاشفين فأرسل العساكر إلى فاس وحاصرها ، وخرج معتصر للقـاء عساكره ، فكانت الدائرةُ عليـه وقُتِل فى المَعْركَة سنة ستين وأربعمائة .

وبايع أهل فاس من بعده ٱبنـه (تميم بن معتصر) فكانت أيامُه أيامَ حِصَـار وفتنةٍ وشدّة وغَلَاء .

ولمـا فرغ يوسف بن تاشفين من أمر غُمَارة سنة ثنتين وستين وأربعمائة قصـد فاس فحـاصرها أيّاما ثم ٱفتتحها عَنْوة وقَتَل بهـا نحو ثلاثة آلاف من مَغْراوة وبنى يفرن ومِكْنَاسـة وقبائل زَنَاتَةَ وهلك تميم بن مُعْتصِر فى جملتهـم . وأمر يوسف بن تاشفين بهـدم الأسوار التى كانت فاصلةً بين العُدْوتين وصيّرهما مصرا واحدا وأدار عليهما سورا واحدا ، وفرّ مَنْ خَلَص من القتـل من مَغْراوة من فاس إلى تِلِمْسان (١) ، وٱنقرض ملكُهم من الغرب الأقصى ، وتصاريف الأمور بيد الله تعالى .

الطبقة السادســة

(المرابِطُون من المُلَثّمين مـن البربر)

كان المُلَثَّمُون من البربر من صِنْهاجةَ قبل الفتح الإسلامىّ متوطّنين فى القِفَار وراءَ رمال الصَّحْراء : مابين بلاد البربر وبلاد السُّودان ، فى جملة قبائل صنهاجةَ على دين المَجُوسيَّة ، قد ٱتخـذوا اللِّثامَ شِعارا يميِّز بينهم وبين غيرهم من الأمم ، والرياسة فيهم يومئـذ لِلَمْتُونة ، ولم يزالوا على ذلك إلى أن كان فتحُ الأنْدَلُس وٱستمر ملكهم أيام عبد الرحمن أول خلفاء بنى أمية بالأندلس .

---

(١) فى الاصل من تلمسان إلى فاس وهو خطأ من الناسخ والتصحيح من "العبرج ٧ ص ٣٦"

قال ٱبن أبى زَرْع : أوّل من ملك الصحراء من لمتونة (يَتْلُوثان) وكان يركب فى ألف نجيب وتوفى سنة ٱثنتين وعشرين ومائتين .

وملك بعده (يُلْتان) فقام بأمرهم وتُوُفِّى سنةَ سبع وثمانين ومائتين .

وقام بأمرهم بعده ٱبنهُ (تميمٌ) إلىٰ سنةِ ستٍّ وثلثمائة وقتله صِنهاجةُ .

ثم ٱفترق أمْرُهم بعد تميم مائةً وعشرين سنة إلىٰ أن قام فيهم (أبُو عبد الله بنُ نِيفاوُت) المعروف بتادشت اللَّمْتُونى ، وحجَّ ومات لثلاثةِ أعوام من رياسته عليهم .

وقام بأمرهم صِهْرُه (يحيىٰ بنُ إبراهيم) فحج فى سِنِى أربعين وأربعمائة ، وعاد وصُحْبته عبدُالله بن ياسين الجزولى ليعَلِّمهم الدِّينَ ، فلما مات يحيىٰ بنُ إبراهيم ٱطَّرَحُوا عبدالله ٱبن ياسين وٱستعصوا عليه وتركوا الأَخْذَ بقوله فاعتزلهم ، ثم ٱجتمع عليه رجال من لَمْتُونةَ فخرج فيهم وقاتل مَن ٱستعْصىٰ عليه منهم حتّى أنابُوا إلىٰ الحق وسَمَّاهم "المُرابِطين" وجعل أمرهم فى الحرب إلىٰ الأمير يحيىٰ بنِ عُمَر ، بن واركوت ، بن ورتَنْطق ، بن المنصور ، بن مرصالة ، بن منصور ، بن فرصالة ، بن أميت ، بن راتمال ، بن تلميت ، وهو لَمْتونةُ ، فافتتحوا دَرْعة وسِجِلْماسةَ ، وٱستعملوا عليها منهم ، وعادُوا إلىٰ الصحراء ، وهلك يحيىٰ بن عمر سنةَ سبع وأربعين وأربعمائة .

ووَلِىَ مكانَهُ أخوه (أبو بكر بن عمر) ثم ٱفتتحوا بلادَ السُّوس سنةَ ثمان وأربعين ثم مدينة أغْمات سنةَ تسع وأربعين ، ثم بلادَ المَصَامدة وجبالَ دَرَن سنةَ خمسين ، ثم ٱستُشْهِد عبدُالله بن ياسين فى بعض الغَزَوات سنةَ خمسين ، وٱستمرَّ أبو بكر بنُ عمر فى إمارة قومه ، وٱفتتح مدينة لَوَاتةَ سنة ثِنتين وخمسين ، ثم ٱرتحل إلىٰ الصحراء لجهاد السُّودان وٱستعمل علىٰ المغرب ٱبن عمه (يوسف بن تاشفين) بن إبراهيم ٱبن واركوت ، فسار يوسفُ فى عسكره من المرابطين ودَوّخ أقطار المغرب ، وٱختط مدينة مَرَّاكُش سنة أربع وخمسين .

ثم آنتزع جبال زَناتَة بالمغرب من أيديهم؛ ثم آفتتح فاس صُلْحا سنة خمس وخمسين ثم آستُعيدتْ بعد فتحها؛ ثم فتحها عَنْوةً سنة آثنتين وستين وأربعمائة، وأمر بهدْم الأسوار التى كانت فاصلةً بين عُدْوتَىِ القرويِّين والأندلُسيِّين وصيرهما مصرا واحدا؛ ثم آفتتح بعد ذلك مدينة تِلِمْسان وآستولىٰ على الغرب الأقصىٰ والغرب الأوْسط؛ ثم صار إلىٰ الأندلُس وآستولىٰ علىٰ أكثر ممالكه كما سيأتى فى ذكر مكاتبة صاحب الأندلس؛ ثم تُوفِّى يوسفُ بن تاشفين علىٰ رأس المائة الخامسة .

وقام بالأمر بعده آبنه (على بن يوسف) فاستولىٰ علىٰ ما كان بِيَدِ أبيه من العُدْوتين، وسار فيهم بأحسن السِّيرة . ولأربعَ عشرةَ سنةً من ولايته كان ظهور المَهْدِى بن تُومَرْت صاحب دولة الموحِّدين . ومات علىٌّ بن يوسف سنة سبع وثلاثين، وقد ضعُفتْ كلمةُ المرابطين بالأندلُس لظهور الموحِّدين .

وقام بالأمر بعده ولدُه (تاشفين بن على) وأخذ بطاعته وبيْعتِه أهلُ العُدْوتين؛ وقد آستفحل أمر الموَحِّدين وعَظُم شأنهم، ونزل تِلِمْسان فقصده الموحِّدون، ففرّ إلىٰ وَهْران وآتَّبعه الموحدون، ففُقِد سنة إحدىٰ وأربعين وخمسمائة، وآستولىٰ الموحدون على الغرب الأوسط .

ثم بويع بمرَّاكُش (إبراهيم بن تاشفين)، بن على، بن يوسف بن تاشفين، فألفَوْه عاجزا فخلَعُوه .

ووُلِّى مكانَه عمه (إسحاق بن على) بن يوسف بن تاشفين، وقد ملك الموحِّدون جميعَ بلاد المغرب وقصدُوه فى مَرَّاكُش، فخرج إليهم فى خاصَّته فقتلوه، وأجاز عبدُ المؤمن والموحِّدون إلىٰ الأندلُس، فملكوه سنةَ إحدىٰ وخمسين وخمسمائة، وفرّ أمراء المرابطين فى كلِّ وَجْه .

الطبقة السابعة

(ملوك الموحِّدين)

كان أوّلُ أمرهم أن المهدىَّ محمدَ بنَ تُومَرْت، كان إماما متضلّعا بالعلوم، قد حَجّ ودخل العراق وآجتمع بأئمته من العلماء والنُّظَّار، كالغزالىّ [والكِيَا الهرّاسى](١) وغيرهما، وأخذ بمذهب الأشعريَّة أهلِ السنة، ورجع إلى الغرب وأهلُه يومئذ على مذهب أهل الظاهر فى منع التأويل، فاجتمع إليه قبائلُ المَصامدة من البربر وجعل يبُثُّ فيهم عقائدَ الأشعريَّة، وينهى عن الجُمُود على الظاهر، وسمّى أتباعه الموحدين، تعريضا بتكفير القائلين بالتجسيم الذى يؤدّى إليه الوقوفُ على الظاهر .

وكان الكُهَّان يتحدّثون بظهور دولةٍ بالمغرب لأُمَّة من البربر، وصرَفُوا القولَ فى ذلك إليه، ودعا المَصامدةَ إلى بيعته على التوحيد وقتال المجسِّمين سنةَ خمس عشْرَة وخمسمائة فبايعوه على ذلك .

ولما كَمُلَتْ بيعتُه لَقَّبوه المهدى، وكان قبل ذلك يلَقَّب الإمام، وأخذُوا فى قتال المرابطين من لَمْتُونَة حتّى آستقاموا على الطاعة . وتُوُفِّى المهدىّ سنةَ ثنتين وعشرين وخمسمائة .

وقام بالأمر بعده (عبدُ المؤمن) بنُ علىّ بعهده إليه . فكان من أمره ما تقدّم من آستيلائه على العُدْوتيْن وآنقراض مُلْك المرابطين بهما، وكان ذلك من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة إلى سنة إحدى وأربعين . ثم صَرَف هَمَّه إلى بجاية وأفْريقيَّةَ فافتتحهما، وآستخلص المهديَّةَ والبلادَ الساحليةَ التى كانت النصارى قد آستولَوْا عليها من أيديهم وآستولى على سائر بلاد أفريقيَّةَ، وعاد إلى الغَرْب فى سنة ستٍّ وخمسين وخمسمائة. وتُوُفِّى بسَلَا من الغرب الأقصى فى جُمادى الآخرة سنة ثمانٍ وخمسين .

---

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عن تاريخ ابن الأثير وهو كذلك فى القطعة الازهرية .

وبويع بعده ابنُه أبو يعقوبَ (يوسفُ بنُ عبد المؤمن) فاستولىٰ علىٰ ما كان بيد أبيه من العُدْوتين وأفريقِيَّةَ ، واشتغل بإصلاح الممالك وجهاد العَدُوّ ، وأجاز إلىٰ الأندَلُس لجهادِ النصارىٰ ، وقُتِل فى بعض غَزَواته فيه بسَهْم أصابه . وقيل مَرِض فمات سنةَ ثمانين وخمسمائة .

وبُويِع ابنه (يعقوبُ بنُ يوسف) بإشْبِيلِيَةَ عقِبَ وفاته وتلَقَّب بالمنصور ، فاستولىٰ علىٰ ما كان بيد أبيه من المَمَالك إلىٰ الأندَلُس ، وكان له مع العدوّ وقائعُ ، ومرض بالأندَلُس فمات سنةَ خمس وتسعين وخمسمائة .

وبُويِع ابنه (محمّد) ولىُّ عهده وتلقَّب الناصرَ لدين الله ، ورجع إلىٰ بلاد المغرب . وفى أيامه ثار (ابن غانيــة) علىٰ أفريقِيَّةَ وتغلب عليها ، وولَّى أبا محمد ابنَ الشيخ أبى حفص عليها ، فاستقرّت بها قدمُ بَنِيه إلىٰ الآن ، وأجاز إلىٰ الأندَلُس ونزل إشبيلِيَةَ ، والتقىٰ مع العدوّ فى صفر سنة تسع وستمائة ، وابْتُلِيَ المسلمون فى ذلك اليوم ورجع إلىٰ مَرَّاكُش فمات فى شعبان من السنة المذكورة .

وبُويِع ابنُه (يوسفُ بن محمد) سنةَ إحدىٰ عشرة وستمائة ، وهو ابن ستَّ عشرةَ سنةً ، ولُقِّب المستنصرَ بالله ، وتأخَّر أبو محمد ابن الشيخ أبى حفص عن بيعته لِصِغَر سنه ، وغَلَب عليه مَشْيخةُ الموحِّدين فقاموا بأمره . وبقِيَ المستنصرُ حتّىٰ مات يوم الأضحىٰ سنة ست (١) وعشرين وستمائة .

وبُويع بعده أبو محمد (عبدُ الواحد بنُ يوسف) بن عبد المؤمن ، وهو أخو المنصور ويُعْرَف (بالمخلوع) . وكان الوالِيَ بالمُرْسِيَة من الأندَلُس أبو محمد عبدُ الله بنُ يعقوبَ ابنِ المنصور ، بن يوسف ، بن عبد المؤمن . فثار بالأندَلُس ودعا لنفسه وتلقَّب

(١) فى العبر ج ٦ ص ٢٥١ يوم الاضحى من سنة عشرين وستمائة وهو الصواب .

(العادل). واتصل الخبر بمرَّاكُش فاضطرب الموحِّدون على (المخلوع) وبعثوا ببيعتهم إلى العادل بالأندَلُس، وبادر العادلُ إلى مَرَّاكُش فدخلها وبقي حتّى قُتِل بها أيام الفِطْر سنة أربع وعشرين وستمِّائة .

وكان أخوه (إدريسُ بنُ المنصور)(١) بإشْبِيلِيَة من الأندَلُس فدعا لنفسه وبُويِع وبعث الموحِّدون ببيعتهم إليه، ثم قصد مَرَّاكُش فهلك في طريقه بوادي أُمِّ ربيع مُفْتَتَحَ سنةِ ثلاثين وستمائة، وتغلب ابن هُودٍ على سَبْتة .

وبويع بعده ابنُه (المأمونُ(٢) عبدُ الواحد بنِ إدريس) فلقِّب الرشيدَ، ودخل إلى مَرَّاكُش فبايعوه، وبَقِيَ حتّى تُوفِّي سنة أربعين وستمائة .

وبُويِع بعده أخوه (أبو الحسن عليٌّ السعيد) ولُقِّب المعتضِدَ بالله، وقام بالأمر ثم سار إلى تِلِمْسانَ فكان بها مَهْلَكُه على يدِ بَنِي عبدالواد في صفر سنة ستٍّ وأربعين وستمائة، وكان فيها استيلاء النصارى على إشبيلِيَة .

ثم اجتمع الموحِّدون على بيعة (أبي حفص) عمرَ بن أبي إسحاق بن يوسفَ، ابن عبد المؤمن، فبايعُوه ولُقِّب (المرتضى) وكان بسَلا فقدِم إلى مَرَّاكُش . وفي أيامه استولى أبو يحيى بنُ عبد الحق المَرِينيُّ جدّ السلطان أبي الحسن على مدينة فاس سنةَ سبع وأربعين وستمائة، واستبدّ العزفيُّ بِسَبْتة .

ثم انتقض على المرتضى قائد حروبه (أبو العَلَاء) الملقَّب بأبي دَبُّوس، بن أبي عبد الله محمد، بن أبي حفص، بن عبد المؤمن، ففرّ منه واجتمع عليه جموع من الموحِّدين وقصد مَرَّاكُش وبها المرتضى فغلبه عليها، والتقيا وفرّ المرتضى إلى أُزُمُّور

(١) لقبه في العبر بالمأمون .

(٢) صوابه ابنه عبدالواحد فإن المأمون لقب أبيه إدريس كما في العبر وغيره .

فقبض عليـه واليها وٱعتقله إلىٰ أن ورد أمر [أبي دبوس](١) بقتله فقتله ، وٱستقلّ أبو دَبُّوس بالأمر وتلقّب (الواثقَ بالله) والمعتمدَ علىٰ الله .

ثم جمع يعقوبُ بنُ عبد الحق وقصـد مَرَّاكُش فخرج إليه أبو دَبُّوس ، فكانت الهزيمةُ علىٰ أبي دبوس ، ففرّ هاربا فأُدْرِكَ وقُتِل ، ودخل يعقوب بن عبد الحق مَرَّاكُش وملكها سنةَ ثمـانٍ وستين وستمائة ، وفرّ مَشْيخةُ الموحدين إلىٰ معَاقلهم بعد أن كانوا بايعوا عبدَ الواحدبنَ أبي دَبُّوس ولَقَّبوه المعتصِمَ ، فأقام خمسة أيام ، وخرج في جملتهم ، وٱنقرض أمر بني عبد المؤمن ، ولم يبق للموحدين ملك إلا بأفْرِيقِيَّة لبني أبي حفص علىٰ ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقـــة الثامنـــة

(ملوكُ بني عبد الحق من بني مَرِينٍ(٢) ، القائمون بها إلىٰ الآن)

وهو عبـد الحق بن محُيو ، بن أبي بكر ، بن حمامةَ ، بن محمد ، بن وَرْزِيز ، بن فكُّوس ، بن كوماط ، بن مَرِين ، بن وَرْتاجن ، بن ماخُوخ ، بن جديج ، بن فاتن ، ٱبن بدر ، بن نجفت ، بن عبدالله ، بن ورتبيص ، بن المعز ، بن إبراهيم ، بن رجيك ، ٱبن واشين ، بن بصلاتن ، بن مشد ، بن إكيا ، بن ورسيك ، بن أديدت ، بن جانا ، وهو زناتةُ .

كانت منازلُ بني مَرِينٍ مابين فيكيك إلىٰ صا ومَلْويه ، وكانت الرياسة فيهم (لمحمد) ٱبن وَرْزِيز بن فكُّوس .

---

(١) في الاصل المرتضى وهو خطأ .

(٢) هو بوزن أمير كما ضبطه السيد مرتضى في كتابه " تاج العروس " في مادة م ر ن .

ولما هلك محمد قام بأمره من بعده ابنه (حمامة) ثم من بعده أخوه (عَسْكر) ولما هلك قام برياسته فيهم ابنُه (المخضب) فلم يزل أميرا عليهم إلى أن قُتِل فى حرب الموحِّدين فى سنة أربعين وخمسمائة .

وقام بأمرهم من بعده (أبو بكرٍ ابنُ عمه حمامةَ بن محمد) وبقى حتّى هلك .

فقام من بعده ابنه (محيُو) ولم يزل حتّى أصابته جِراحةٌ فى بعض الحروب، وهو فى عِداد المنصور بن عبد المؤمن، هلك منها بعد مَرْجِعه إلى الزّاب سنةَ إحدى وتسعين وخمسمائة .

وقام برياسته ابنه (عبد الحق بن محيو) وكان أكبرَ أولاده، وهو الذى تنسب إليه ملوك فاس الآن . فأحسن السَّيْرَ فى إمارته إلى أن كانتْ أيامُ المستنصر يوسفَ ابن الناصر: خامس خلفاء بنى عبد المؤمن فثارت الفتنةُ بينه وبين بنى مَرِينٍ، وكانت بينهم حروبٌ هلك فى بعضها عبدُ الحق بن محيو .

ونَصَّب بنو مَرِينٍ بعده ابنه أبا سعيد (عثمانَ بن عبد الحق) وشهرته بينهم ادرغال، ومعناه بلغتهم الأعور، وقَوِىَ سلطانُه وغلب على ضَوَاحى المغرب، وضرب الإتاوةَ عليهم وتابعه أكثرُ القبائل، وفَرَض على أمصار المغرب مثلِ فاس وتازا وغيرها ضَرِيبةً معلومةً فى كل سنة على أن يكُفَّ الغارةَ عنهم . ولم يزل على ذلك إلى أن قتله عِلْج من علوجه سنةَ سبع وثلاثين وستمائة .

وقام بأمر بنى مَرِينٍ من بعده أخوه (محمدُ بنُ عبد الحق) فجرى على سَنَن أخيه فى الاستيلاء على بلاد المغرب، وضَرْب الإتاوة على بلاده ومُدُنه إلى أن كانت أيامُ السعيد بن المأمون من بَنِى عبد المؤمن، فجهّز عساكرَ الموحدين لقتال بنى مَرِينٍ، فخرجوا إليهم فى جيش كَثِيفٍ فى سنة ثنتين وأربعين وستمائة، ودارت الحربُ بينهم فكانت الهزيمةُ على بنى مَرِينٍ، وقتل محمدُ بنُ عبد الحق .

وقام بأمرهم من بعــده ابنه أبو يحيىٰ (١) (زكريَّا بنُ عبد الحق) وقسم جبايته ببلاد المغرب فى عشائر بنى مرين، ودارت الحربُ بينهــم و بين الموحدين، إلىٰ أن مات السـعيدُ بن المأمونِ من بنى عبد المؤمن، وانتقل الأمرُ بعــده إلىٰ ابنه عبد الله؛ فضَعُفت دولةُ بنى عبد المؤمن . واستولىٰ (أبو يحيىٰ) بن عبد الحق علىٰ أكثر بلاد المغرب، وقصد فاسَ وبها بعضُ بنى عبد المؤمن فأناخَ عليها وتلطَّف بأهلها، ودعاهم إلىٰ الدَّعْوة الحَفْصيَّة بأفريقيَّــة، فأجابوه إلىٰ ذلك و بايعُوه خارجَ باب الفتوح . ودخل إلىٰ قصبة فاس لشهرين من موت السعيد فى أوّل سنة ستٍّ وأربعين وستمائة؛ و بايعه أهل تازا وأهلُ سَــلَا و رِبَاط الفتح، واســتولىٰ علىٰ نواحيهــا، وأقام فيها الدَّعْوة الحَفْصيَّة؛ واستبدَّ بنو مَرِينٍ بمُلك المغرب الأقصىٰ، وبنو عبد الواد بمُلْك المغرب الأوسط .

وملك سِجِلْماسةَ سنةَ ثلاثٍ وخمسين وستمائة من أيدى عامَّة الموحِّدين وبقِىَ حتّىٰ هلك بفاس فى رجبٍ سنةَ ستٍّ وخمسين وستمائة، ودُفِن بمَقْبرة باب الفُتُوح .

وتصدّى للقيام بأمره ابنه (عمر) ومال أهلُ الحَلِّ والعقد إلىٰ عمِّه أبى يوسف يعقوبَ بن عبد الحق، وكان غائبا بتازَا فقَــدِم ثم وقع الصلحُ بينهــما علىٰ أن ترك يعقوبُ الأمر لابن أخيه عمر علىٰ أن يكون له تازَا و بلادُها؛ ثم وقع الخلف بينهما والْتقيَا فهُزِم عمرُ ثم نزل لعمه يعقوب عن الأمر .

ورحل السلطانُ أبو يوسفَ (يعقوبُ بنُ عبدالحق) فدخل فاس مُمَلَّكا؛ ثم هلك عمرُ بعــد سنة، فكُفِىَ يعقوبُ شأنه واستقام سـلطانُه، وأخذ فى افتتاح أمصار المغرب . وافتتح أمره باستنقاذ مدينة سَلَا من أيدى النصارىٰ؛ ثم قصد إلىٰ مَرَّاكُش فخرج إليــه الخليفةُ المرتضىٰ من بنى عبــد المؤمن، وكانت بينهما حَرْب

(١) الأظهر أخوه وهم جميعا أولاد عبد الحق .

هُزِم فيهـا المرتضى وقُتِل ، وبايع الموحدون أخاه (إسحاق) ثم قُبِض عليه سنةَ أربع وستين وستمائة فَقُتِل فيمن معه ، وآنقرض أمر بنى عبد المؤمن من المغرب .

ووصل السلطان أبو يوسفَ إلى مَرَّاكُش أوّلَ سنة ثمان وستين وستمائة فدخلها ، وَوَرِث مُلْك الموحدين بهـا ؛ ثم رجع إلى فاس بعـد أن آستَخْلَف على مَرَّاكُش فى شـوّال من سنته ؛ وشَرَع فى بنـاء المدينة التى آستجدّها مُلاصقةً لمدينـة فاس فى ثالثِ شوّالٍ سنة أربع وسبعين وستمائة ، ونزل فيها بحاشيته وذَوِيه ؛ وغزا فى خِلال ذلك النصارى بالأندلُس أربعَ مَرَّات حتّى أَذْعَن له شانجة بن أدفونش ، وسأله فى عَقْـد السِّلْم له فعقد له على شروط آشترطها عليه ، وعاد إلى بلاد المغرب فمَرِض ومات فى آخر المحرّم سنة خمس وثمـانين وستمائة .

وبُويع بعده آبنُـه ولىّ عهده أبو يعقوب (يوسفُ بن يعقوب) فجرى على سَنَن أبيه فى العدل والغزو ، وأجاز إلى الأندلُس ، وجدّد السِّلْم مع شانجةَ مَلِك النصارى .

وغزا تِلِمْسانَ مَرَّاتٍ وبَقِىَ حتّى طعنه خَصِىّ من خَدَمه ، وهو نائم على فِرَاشه ، فمـات سابع ذى القَعْدة سنةَ ستٍّ وسبْعمائة .

وبويع بعده آبنُه أبو ثابت (عامر بن أبى يعقوبَ يوسفَ) وآختلفَتْ عليه النَّواحى ؛ ثم آستقام أمْرُه وبقِىَ حتّى آنتقض عليـه عُثْمان بن أبى العَلاء ، بنواحى طَنْجةَ من أقصى الغرب ، فخرج لقتاله ومَرِض فى طَنْجةَ ومات فى ثامن صفر سنة سبع وسبعمائة .

وبُويع بعده أخوه (أبو الرَّبيع بن أبى يعقوب يوسفَ) فأحسن السِّيْرة ، وأجزل الصِّلاتِ ، وسار بسِيْرة آبائه وبقِى حتّى مات بمدينة تازا فى سلخ جُمَادى الآخرة سنة عشر وسبعمائة ودُفِن بصَحْن جامعها .

وبويع بعــده اخوه أبو سعيد (عثمانُ بن أبي يعقوب يوسُفَ) فلما استقام أمره بالغرب الأقصىٰ سار إلىٰ تِلِمْسان سنةَ أربعَ عشرةَ وسبعمائة فانتزعها من موسىٰ بن عثمان ابن يغمراسن : سـلطان بني عبـد الواد بها ؛ وٱنتقض عليـه محمدُ بن يحيىٰ العزفي صاحب سَبْتَةَ فسار إليه في سنة ثمـان وعشرين وسـبعمائة فأذعن للطاعة ؛ وأحضر عبدَ المهيمن بن محمد الحضرمي من سَبْتَةَ وولاه ديوانَ الإنشاء والعَلاَمة .

وفي أيامه قصد بطرة وجوان ملكُ النصارىٰ بالأندلس غَرْناطَةَ . فاستغاثوا به ، فأجاز البحر إليهم ولَقِيَ عساكر النصارىٰ فهلك بطرةُ وجوان في المعركة وكانت النُّصرة للسلمين . وتُوفِّيَ في ذي الحِجَّة سنة إحدىٰ وثلاثين وسبعمائة .

وبويع بعده ٱبنه وليّ عهده أبو الحسن (علي بن عثمان) وهو الذي كان في عصر «المَقَرّ الشهابيّ بن فضل الله» . وسار إلىٰ تِلِمْسان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، فملكها من ٱبن أبي تاشفين سلطان بني عبدالواد بها بعد أن قتله بقصره . وملك تُونُس من يد أبي يحيىٰ سلطان الحَفْصِيِّين بها في جمادىٰ الآخرة سنة ثمـان وأربعين وسبعمائة ؛ وٱتصـل مُلْكه ما بين بَرْقَةَ إلىٰ السُّوس الأقصىٰ والبحر المحيط الغربي ؛ ثم ٱسترجع الحَفْصيُّون تُونُس بعد ذلك . وملك بعد ذلك سِجِلْماسةَ قاعدةَ بلاد الصحراء بالغرب الأقصىٰ ، وبقي حتّىٰ مات في الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنةَ ٱثنتين وخمسين وسبعمائة بجبل هَنْتاتةَ .

وبُويِـع بعده ٱبنُه (أبو عِنان بنُ أبي الحسن) وكان بنو عبد الوادِ قد ٱستعادوا تِلِمْسانَ في أيام أبيـه فارْتَجعها منهم في سـنة ثلاث وخمسين ؛ ونزل له الأميرُ محمد ٱبن أبي زكريا صاحب بجـايةَ عنها فانتظمتْ في مُلْكه . وملك قُسَنْطِينةَ من الحفصِيِّين بعد ذلك بالأمان . ثم ملك تُونُس من أيديهم سنةَ ثمانٍ وخمسين ، ورجع

إلى المغرب فارتجع الحفصيون تونس وسائر بلاد أفريقية وبقى حتى توفى فى ذى الحجة سنة تسع وخمسين .

وكان ابنه (أبو زيان) ولى عهده فعدل عنه إلى ابنه (السعيد بن أبى عنان) واستولى عليه الحسن بن عمر وزير أبيه فحجبه فى داره ، واستقل بالأمور دونه .

وتغلب أبو حمو سلطان بنى عبد الواد على تلمسان فانتزعها من يده فى سنة ستين وسبعمائة .

ثم خرج على السعيد بن أبى عنان عمه أبو سالم (إبراهيم بن أبى الحسن) وكان بالأندلس فجاء إليه بالأساطيل ، واجتمع إليه العساكر ، ووصل إلى فاس ؛ وخلع الحسن بن عمر سلطانه السعيد عن الأمر ، وأسلمه إلى عمه أبى سالم وخرج إليه فبايعه ، ودخل فاس فى منتصف شعبان سنة ستين وسبعمائة ، واستولى على ملك المغرب ، وقصد تلمسان فأجفل عنها أبو حمو سلطان بنى عبد الواد فدخلها بالأمان فى رجب سنة إحدى وستين وسبعمائة ، فأقر بملكها حفيدا من أحفاد بنى عبد الواد يقال له أبو زيان ، ورجع إلى فاس فى شعبان من سنته . وعاد أبو حمو إلى تلمسان فملكها من أبى زيان . وبنى إيوانا فخما بفاس بجانب قصره ، وانتقل إليه ، وفوض أمر القلعة إلى عمر بن عبدالله بن على من أبناء وزرائهم ، فعمد إلى أبى عمر (تاشفين الموسوس) ابن السلطان أبى الحسن فأجلسه على أريكة الملك ، وبايعه فى ذى القعدة سنة ثنتين وستين وسبعمائة ، وأفاض العطاء فى الجند . وأصبح السلطان أبو سالم فوجد الأمر على ذلك ففر بنفسه ، فأرسل عمر بن [عبد الله بن](1) على فى أثره من قبض عليه واحتز رأسه وأتى بها إلى فاس .

---

(١) الزيادة من العبر ج ٧ ص ٣١٣ .

ثم أنكر أهلُ الدولة علىٰ عُمَر بن عبد الله ما وقع منه من نَصْب أبي عمر المذكور لضَعْف عقله ، فأعمل فِكْرَه فيمن يصْلُح للمُلْك فوقع رأيُه علىٰ (أبي زيَّان محمد بن الأمير عبد الرحمن) بن السلطان أبي الحسن . وكان قد فَزِع إلىٰ مَلِك النصارىٰ بإشْبِيلِيَةَ من الأندَلُس، فأقام عنده خوفًا من السلطان أبي سالم ، فبعث إليه مَنْ أتىٰ به ، وخلع أبا عُمَر من المُلْك ، وبعث إليه بالآلة والبَيْعة مَنْ تلقَّاه بطَنْجَة . ورحل إلىٰ فاس في منتصَف شهر صفر سنة ثلاثٍ وستين وسبعمائة ، ودخل إلىٰ قصر الملك ، فأقام به والوزير عُمَرُ بن عبد الله مستبدٌّ عليه لا يَكِلُ إليه أمْرا ولا نَهْيا وحجره من كل وجه ، فثَقُل ذلك علىٰ السلطان أبي زيَّان ، ووامر بعضَ أصحابه في الفَتْك بالوزير عمرَ، فبلغ الخبرُ الوزيرَ فدخل علىٰ السلطان من غير إذن علىٰ ما كان آعتاده منه ، وألقاه في بئر وأظهر للناس أنه سَقَط عن ظهر فرسه وهو ثَمِل في تلك البئر .

واستدعىٰ من حينه (عبد العزيز) آبن السلطان أبي الحسن من بعض الدُّور بالقلعة ، فحضر القصرَ وجلس علىٰ سرير الملك ، ودخل عليه بنو مَرِينٍ فبايعوه وكَمُل أمره . وذلك في المحرم سنة ثمان وستين وسبعمائة، وآستبدّ عليه كما كان مستبِدًا علىٰ مَنْ قبله ، فحَجَره ومنعه من التصرُّف في شيء من أمره ، ومنع النـاسَ أن يسألوه في شيء من أمورهم، فثَقُل ذلك عليه غايةَ الثِّقَل، وأكَنَّه في نفسه إلىٰ أن آستدعاه يومًا فدخل عليه القصرَ، وكان قد أكْمَن له رجالًا بالقصر، فخرجوا عليه وضَرَبُوه بالسيوف حتىٰ مات. وآستقلَّ السلطان عبد العزيز بمُلْكه ، وقصد تِلِمْسان فملكها من يَدِ أبي حَمو سلطان بني عبد الواد بالأمان بعد إجفال أبي حَمُو عنها ، ودخلها يوم عاشوراءَ سنةَ آثنتين وسبعين وسبعمائة . وآرتحل عنها آخِر المحرّم إلىٰ الغرب ووصل

إلى فاس ، ثم عاد إلى تِلمْسان وخرج منها يُريد المغربَ ، فمرض ومات فى الثانى والعشرين من ربيع الآخر سنةَ أربع وسبعين وسبعمائة .

وبُويع بعده ٱبنُه (سعيدُ بن عبد العزيز) وهو طِفْل ، وقام بأمره وزيرُه أبو بكر بن غازى ورجعوا به إلى المغرب ودخل إلى فاس وجُدِّدت له البيعة بها ، وٱستبدّ عليه الوزيرُ أبو بكر ، وحَجَره عن التصرُّف فى شىء من أمره لِصغَره .

ورجع أبو حَمُّو سلطانُ بنى عبد الواد إلى تِلمْسان فملكها فى جُمادىٰ سنةَ أربع وسبعين وسبعمائة .

وخرج عليه (أبو العباس أحمد بن أبى سالم) وكان بالأندَلُس فأجاز البَحْرَ وسار إلى فاس فملكها . ودخلها أوّلَ المحرَّم سنةَ ستٍّ وسبعين وسبعمائة ، وٱستقل بملك المغرب ، وكان ذلك بموالاة ٱبن الأحمر صاحبِ الأندَلُس فٱتَّصلتْ بينهما بذلك الصُّحبةُ ، وتأكّدت المودّةُ ، وتخلَّى عن مَرَّاكُش لعبد الرحمن ، وكان بينهما صُلْح وٱنتقاضٌ تارةً وتارةً ، وقصد تلمسانَ فملكها من أبى حَمُّو بعد فِراره عنها ، وأقام بها أياما وهَدَم أسوارها وخرج منها فى أتباع أبى حمو .

وخالفه السلطان (موسىٰ) ٱبنُ عمه أبى عِنانٍ إلى فاس فملكها ، ونزل دار الملك بها فى ربيع الأوّل سنةَ ستٍّ وثمانين وسبْعِمائة ، وقَدِم السلطان أبو العباس إلى فاس ، فوجد موسىٰ ٱبنَ عمه قد ملكها ففرّ عنها إلى تَازَا ، ثم أرسل إلى السلطان موسىٰ بالطاعة والإذْعان ، فأرسل مَنْ أتىٰ به إليه ، فقيَّده وبعث به إلى الأندَلُس وٱستقلَّ السلطان موسىٰ بملك المغرب ، وتوفى [لثلاث سنين من خلافته](١) .

(١) الزيادة من "العبر ج ٧ ص ٣٥٢" .

وبويع بعده (المنْتصِر ٱبنُ السلطان أبى العباس) فلم يلبثْ أن خرج عليه (الواثق محمدُ بن أبى الفضـل) ٱبن السلطان (أبى الحسن) من الأندلس، فسار إلىٰ فاس ودخلها وحَلَّ بدار المُلْك بها، وبُويع فى شوّال سنة ثمـان وثمـانين وسبعمائة.

وبعث المنتصِر إلىٰ أبيه أبى العبَّاس بالأندَلُس فأجاز السلطانُ أبو العبَّاس من الأندَلُس إلىٰ سَبْتةَ، فملكها فى صفر سنة تسع وثمانين وسبعمائة، ثم ٱستنزله عنها ٱبنُ الأحمر صاحبُ الأندَلُس وٱنتظمها فى مُلْكه؛ ثم ظهرت دعوةُ السلطان أبى العَبَّاس بمرَّاكُش وٱسـتولىٰ جُندُه عليها؛ ثم سار إليهـا ٱبنُه المنتصِر وملكها، وسار السلطان أبو العباس إلىٰ فاس فملكها ودخل البلدَ الجديد بها خامِسَ رمضانَ سنةَ تسع وثمانين وسبعمائة لثلاثة أعوام وأربعة أشهر من خَلْعـه، وبعث بالواثق إلىٰ الأندَلُس ثم أمر بقَتْله فقُتِل فى طريقه بطَنْجةَ.

وكان أبو حَمُّو صاحبُ تلمسان قد مات وٱستولىٰ عليها بعـده ٱبنه (أبو تاشفين) قائمـا بدعوة أبى العبَّاس صاحبِ فاس؛ ومات أبو تاشفين وأُقيمَ ٱبنُه طِفْلا فيها؛ ثم قتله عمُّه يوسف بن أبى حَمُّو، وجهَّز السلطان أبو العباس ٱبنه (أبا فارس عثمانَ) فملكها وأقام فيها دعوةَ أبيـه؛ وتُوفِّى السلطان أبو العباس بمدينة تازَا فى المحرَّم سنة ست وتسعين وسبعمائة، وٱستدعَوُا ٱبنَـه أبا فارس فبايعُوه بتَازَا، ورجَعُوا به إلىٰ فاس، وأطلقوا أبازَيَّان بنَ أبى حَمُّو من الآعتقـال وبعثوا به إلىٰ تلِمْسـان.
وبَقِى أبو فارس فى مَمْلكة الغـرب إلىٰ الآن: وهو السـلطان أبُو فارس: عثمانُ ٱبن السـلطان أبى العبـاس أحمد، ٱبن السلطان أبى سالم إبراهيم، ٱبن السـلطان أبى الحسن على، ٱبن السلطان أبى سعيد عثمان، ٱبن السلطان أبى يوسف يعقوب، ٱبن عبد الحق.

المقصـــد الرابع

(فى بيان ترتيب هذه المملكة، وفيه تسعُ (عشر) جُمَل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى ذكر الجُنْد، وأرباب الوظائف: من أرباب السُّيوف والأقلام، ومقادير الأرزاق الجارية عليهم، وزِىّ السلطان، وترتيب حاله فى المُلْك)

أما الجُنْد، فأشياخٌ كِبَار وأشياخٌ صِغَار، وهم القائمون مَقام الأُمَراء الطَّبلخانات بمصر على ما تقدّم فى أفرِيقِيَّة، ولا يُعْرف بها أميرٌ له عِدّة كما بمصر والشام و إيرانَ، ولا يُطْلق آسم الإمْرة عندهم على أحد من الجُنْد بحال. ثم بعد الأشياخ عامَّةُ الجُنْد من الأندَلُسيِّين وغيرهم، والعُلُوج من الفَرَنج، علىٰ ما تقدّم فى مملكة أفريقيَّة من غير فَرْق فى الترتيب، والوُزَراءُ والقضاةُ وأربابُ الوظائف علىٰ نحو ما تقدّم فى أفرِيقِيَّة.

الجمـــلة الثانية

(فى زِىّ السلطان والأشياخ وأرباب الوظائف فى اللِّبس)

اما زِىّ السلطان والأشياخ وعامَّة الجُنْد، فإنهم يتعمَّمُون بعمائمَ طوالٍ، قليلةِ العَرْض من كَتَّان، ويُعْمَل فوقها إحرامات يلُفُّونها علىٰ أكتافهم، ويتقلَّدون السُّيوف تقليدا بَدَوِيًّا، ويلْبَسون الخِفاف فى أرجلهم (وتسمَّى عندهم الأنمقة) كما فى أفريقِيَّة، ويشُدّون المَهاميزَ فوقها، ويتَّخِذون المَناطِق وهى (الحَوائِص) و يعبّرن عنها بالمِضَمَّات من فضَّة أوذهب. وربما بلغت كلُّ مِضَمَّة منها ألفَ مثقال، ولكنهم لا يشُدّونها إلا فى يوم الحَرْب أو يوم التمييزِ: وهو يوم عَرْضهم علىٰ السلطان. ويختصُّ السلطانُ

بلُبْس البُرْنُس الأبيض الرفيع، لايلْبَسُه ذو سَــيْف غيْرُه . أما العلماء وأهلُ الصَّلاح فإنه لاحَرَجَ عليهم فى ذلك، ولا حرجَ فى غير المُلوَّن(١) البيض من البرانس علىٰ أحد .

وأما زِىُّ القُضاة والعلمـاء والكُتَّاب وعامَّةِ النـاس، فقريبٌ من لِبْس الجُنْد . إلا أنَّ عمائمهــم خُضْر، ولا يَلْبَس أحدٌ منهم الأئمة : وهى الأخفافُ فى الحَضَر ولا يُمنع أحدٌ منهم من لُبْسها فى السَّفر .

الجمـــــلة الثــالثة

(فى الأرزاق المُطْلَقة من قِبَل السلطان على أهل دولته)

أما رِزْق الأجناد ففى "مسالك الأبصار" عن السَّلايحى : أن للأشياخ الكِبار الإقطاعاتِ الجارية عليهم : لكلِّ واحد منهم فى كل سنةٍ عشرون ألفَ مثقالٍ من الذهب ، يأخُذُها من قبائل ، وقُرًى ، وضِياعٍ ، وقِلاع ؛ ويتحصَّل له من القمح والشعير والحُبُوب من تلك البـلاد نحوُعشرين ألفَ وَسْق . ولكل واحد مع الاقطاع الإحسان فى رأس كل سنة وهو حِصانٌ بسَرْجه ولجامه؛ وسيفٌ ورمحٌ محلَّيان، وسَبَنِيَّة : وهى بُقْجة قماش فيها ثوبُ طَرْدُ وحشٍ مُذْهَبٌ سكندرىٌّ، ويعبِّرون عن هذا الثوب بالزَّرَدْخاناه، وثوبانِ بياض من الكَتَّان عملِ أفريقيَّة، وإحرامٌ وشاشٌ طوله ثمانون ذراعا؛ وقصبتان من ملف وهو الجُوخ . وربما زِيد الأكابرُ على ذلك، وربما نَقَص مَنْ هو دونَ هذه الرتبة . وللأشياخ الصِّغار من الإقطاع والإحسان نصفُ ماللأشياخ الكبار مع الحِصان المُسْرَج الملجَم والسيف والرُّمح والكُسوة؛ ومنهم من لايلْحَق هذه الرتبة فيكون أنقص . ومَنْ عدا الأشياخ من الجُنْـد علىٰ طبقات : فالمقرَّبون إلى

(١) لعله فى الملون غير البيض من البرانس

السلطان يكون لكل واحدٍ منهم ستّون مثقالا من الذهب فى كلِّ شهر، وقليلٌ مَاهم؛ وَمَنْ دُونَ ذلك يكون له فى الشهر ثلاثونَ مثقالا ثم مادُونَهَا، إلىٰ أن يَتَنَاهىٰ إلىٰ أقلِّ الطبقات وهى ستة مثاقيلَ فى كل شهر . وليس لأحد منهم بلد ولا مُزْدَرَع .

وأما قاضى القضاة، فله فى كل يوم مثقالٌ من الذهب، وله أرضٌ يسيرة، يُزْرَع بها ماتجىء منه مؤونته وتليق دوابّه .

وأما كاتب السِّر، فله فى كل يوم مثقالان من الذهب، وله محرّان (يعنى قريتين) يتحصَّل له منهما متحصِّل جيِّد، مع رسوم كثيرة له على البلاد ومنافعَ وإرفاقات؛ ولكل واحد من كاتب السِّر وقاضى القُضاة فى كل سنةٍ بَغْـلة بسرجها ولِجَامها، وسَبَنِيَّةُ قُماش برسم كُسْوته كما للأشياخ .

الجمـــلة الرابعة

(فى جلوس السلطان فى كل يوم)

قال السلايحى : من عادة سلطانِهم أن يجْلس فى بكرة كلِّ يوم ، ويدخُلَ عليه الأشياخُ الكبار فيسلِّموا عليه ، فيمدُّ لهم السماطُ ثرائد فى جِفَانٍ حولَها طَوافيرُ : وهى الخافى ، فيها أطعمةٌ ملوَّنة منوَّعة ؛ ومع ذلك الحَلْوىٰ : بعضها مصنوعٌ بالسُّكَّر، ومعظمها مصنوع بالعَسَل والزَّيت، فيأكلون ثم يتفرّقون إلىٰ أماكنهم . وربما ركب السلطان بعد ذلك والعسكرُ معه وقد لا يركَبُ . أما أُخْرَيَاتُ النهار فإن الغالب أن يركب بعد العَصْر فى عَسْكره ويذهبَ إلىٰ نَهَر هناك، ثم يخرج إلىٰ مكان فَسِيح من الصَّحْراء ، فيقفُ به على نَشَزٍ من الأرض ، وتتطاردُ الخيلُ قُدّامَه ، وتتطاعن الفُرْسان ، وتتداعىٰ الأقرانُ، وتُمَثَّل الحرب لديه، وتُقام صفُوفُها على سبيل التمرين حتّى كأنها يومُ الحرب حقيقةً ؛ ثم يعود فى موكبه إلىٰ قصره ، وتتفرّق العساكر ؛

وتحضرُ العلماء وفضلاءُ الناس وأعيانُهم إلىٰ محُاضرته حينئذ ، فيمدّ لهم سِمَاطٌ بين يدْيه فيأ كُلُون و يُؤا كِلُهم . ثم يأخذ كاتبُ السر فى قراءة القِصص والرّقاع والكلام فى المهمّات ، و يَبِيتُ عنـده مَنْ يُسامره من الفضلاء فى بعض الليـالى ، وربمـا آقتضتِ الحالُ مَبِيتَ كاتبِ السر فيبيت عِنْدَه .

الجمـــلة الخامســـة

(فى جلوسه للمَظَالم)

قال السلايحى : قد جرتْ عادةُ مَنْ له ظُلامة أن يرتقبَ السلطانَ فى رُكُوبه فى مَوْكبه (يعنى يومَ جلوسه للمظالم) فإذا آجتاز به السلطانُ صاح من بُعْدٍ «لاإله إلا الله آنصُرْنى نَصَرَك الله!» فتُؤخَذ قصتُه وتُدْفَع لكاتب السرّ، فاذا عاد جلَس فى قُبَّة معيَّنة لجلوسه، و يجلس معه أ كابرُ أشياخه مقلَّدين السُّيوفَ، ويقفُ مَنْ دونهم علىٰ بُعْد، مُصْطَفِّين متكئين علىٰ سُيوفهم ، و يقرأ كاتبُ السرِّ قِصصَ أصحابِ المَظَالم وغيرَها فينظُر فيها بما يراه .

الجمـــلة السادســـة

(فى شِـــعَار السلطانــــ بهــذه المَمْلكةِ)

منها عَلَم أبيضُ حريرٌ مكتوبٌ فيه بالذهب نسيجا بأعلىٰ دائره آياتٌ من القرءان، يسمُّونه العَلَم المنصورَ كما فى أفريقِيَّة . وربمـا عبَّر عنه هؤلاء بسَعْد الدولة ، يحمَلُ بين يديه فى المواكب .

ومنها ــ أعلامٌ دُونَه مختلفةُ الألوان تحمَلُ معه أيضا .

ومنها ــ سيفٌ ورُمْح ودَرَقة ، يُحْمَلْنَ بين يديه فى المواكب أيضا : يحمِلُها ثلاثةٌ من خاصَّته من وُصْفانه أو من أبناء خَدَم سلَفه .

ومنها — أطبار تحمل حوله . ويعبّرون عنها بالطَّبَرْزِينات ، يحملها أكابِرُ قوّاد عُلُوجه من الفرنج ورجالٌ من الأندلسيين خَلْفَه وقُدّامَه .

ومنها — رِماح طِوال وقِصار . يحملها خمسون رجلاً مُشَاة بين يديه مشدودى الأوساط بيدِ كل واحدٍ منهم رُمحانِ : رمحٌ طويل ورمح قصير، وهو متقلّد مع ذلك بسيف .

ومنها — الجَنائب . وهى خَيلٌ تُقادُ أمامَهُ ، عليها سُروج مخروزةٌ بالذهب كالزَّرْكَش ورُكُبها ذهبٌ كل رِكَاب زِنتُه ألف دينار ، وعليها ثيابُ سروج من الحرير مرقومةٌ بالذهب ، ويعبّرون عن الجنائب بالمُقَادات ، وعن ثياب السُّروج بالبَرَاقع .

ومنها — الطبول تدقّ خلف ساقته وهى من خصائص السلطان ليس لأحد من الناس أن يضرب طبلة غيره حتّى يمنع من ذلك أصحاب الحِلَق .

ومنها — البُوقات مع الطبل على العادة .

الجملة السابعة

(فى ركوبه لصلاة العيد)

قال السلايحى : وفى ليلة العيدين يُنادِى والى البلد فى أهلها بالمَسِير ، ويخرج أهلُ كلِّ سُوقٍ ناحيةً ، ومع كل واحد منهم قَوْس أوآلةُ سلاح ، مُتَجَمِّلين بأحسن الثياب ، ويبيت الناسُ تلك الليلةَ أهلُ كل سُوق بذاتهم خارجَ البلد ، ومع أهل كل سوق عَلَم يختصُّ بهم ، عليه رَنْك أهل تلك الصناعة بما يناسبهم . فإذا رَكِب السلطان بُكْرَة آصطفّوا صُفُوفا يمشُون قُدّامه ، ويَركَبُ السلطان ويركب العسكرُ معه مَيْمنة ومَيْسَرةً والعلُوج خَلْفَه ملتفُّون به ، والأعلام منشورةٌ وراءه ، والطبولُ خَلْفها حتّى يصلّى ثم يعود ، فينصرف أربابُ الأسواق إلى بيوتهم ، ويحضُر طَعَامَ السلطان خواصُّه وأشياخُه .

الجمـــــلة الثـامنة

(فى خروج السلطان للسَّـــفر)

من عادة هـذا السلطان إذا سافر أن يخُرُجَ من قصره ويَنْزِلَ بظاهر بلَدِه، ثم يرتَحِلَ من هُناك فيُضْرب له طبلٌ كبير قبيل الصبح إشعارًا بالسفر، فيتأهّب الناسُ ويشتغلُ كلُّ أحد بالاَسـتعداد للرحيل . فإذا صلّى صلاة الصبح ركب الناسُ على قبائلهم فى منازلهم المعلومة، ووقفُوا فى طريق السلطان صَفًّا إلىٰ صفٍّ، ولكل قَبِيلٍ رجلٍ علَمٌ معروفٌ به ومكانٌ فى الترتيب لايتعدّاه ، فإذا صلّى السـلطانُ الصبح قعد أمام النـاس ، ودارت عليه عبيدُه ووُصَفانُه ونُقَباؤه ، ويجلس ناسٌ حوله يُعْرَفون بالطلبة يجرى عليهم ديوانُه، يقرءُون حزبا من القرءان ، ويذكرون شيئا من الحديث النبوى، علىٰ قائله أفضل الصلاة والسلام! . فإذا أسْفَر الصبحُ ركب وتقدّم أمامه العـلَمُ الأبيض المعروفُ بالعَـلَم المنصور ، وبيـن يديه الرَّجَّالة بالسلاح والخيـل المَجْنوبة، بثياب السُّروج المَوْشِيَّة، ويعبِّرون عن ثياب السروج بالبراقع . وإذا وَضَع السلطانُ رِجْله فى الرِّكاب ، ضُرِب علىٰ طبـلٍ كبير يقـال له تريال ثلاثَ ضَرَبات إشعارا بركوبه . ثم يسير السلطان بين صفَّيِ الخيل ويسلِّم كلُّ صف عليه بأعلىٰ صوته « سـلام عليكم » ويكتنفانه يمينا وشمـالا، وتَضْرِبُ جميع الطبول التى تحت البُنُود الكِبار الملوّنة خلفَ الوزير علىٰ بُعْد من السلطان، ولا يتقدّم امامَ العَلَم الأبيض إلا من يكونُ من خواصِّ عُلُوج السلطان، وربما أمرهم بالجَوَلان بعضهم علىٰ بعض، ثم ينقطع ضربُ الطبول إلىٰ أن يقرُب من المنزل .

وإذا ركب السلطانُ لا يسايره إلا بعضُ كِبَار الأشياخ من بنى مَرِينٍ أو بعض عظماء العرب، وإذا استدعىٰ أحدا لايأتيه إلا ماشياً، ثم ربما حدّثه وهو يَمْشِى، وربما

أكرمه فأكرمه بالرُّكُوب . فاذا قَرُب السلطانُ من المنْزِل تقدّمت الزَّمَّالة : وهم الفَرَّاشون ، و يضرِبُون شُقَّة من الكتَّان فى قلبها جلود يقوم بها عِصِىٌّ وحِبال من القَصَب فى أوتاد، وتستدير على كثير من الأخْبِيَة و بيوتِ الشَّعَر الخاصَّة به وبعياله وأولاده الصِّغار، تكون هذه الشُّقَّة كالمدينة لها أربعة أبواب فى كل جهةٍ بابٌ، وهذه الشُّقَّة هى المعبَّر عنها فى الديارِ المصرية بالحَوْش، ويَحُفُّ به عبيدُه وعُلوجُه ووُصْفانُه، ويُضْرَبُ للسلطان أمامَ ذلك قُبَّة كبيرةٌ مرتفعة من كَتَّان تسمَّى قبة الساقةِ لجلوس الناس فيها وحُضُورهم عنده بها، وهذه هى التى تسمَّى بمصر المدوَّرة .

و إذا عاد السلطان إلى حضرة ملكه ضَربت البشائرُ سبعةَ أيام، وأطعم الناس طعاما شاملا فى موضع يَسَع كافَّتَهم .

الجملة التاسعة

(فى مقدار عسكر هذه المملكة)

قال فى "مسالك الأبصار" : سألت أبا عبد الله السلايحى عن عدّة هذا العسكر فى سلطنة أبى الحسن المَرِينِى، وكان آبن جَرَّار قد قال إن عسكره مائةُ ألف وأربعون ألفا ـ فقال : الذى نعرفه قبل فتحه تِلِمْسانَ أن جَرِيدَتَه المُثْبَتة فى ديوانه لاتزيد على أربعين ألفَ فارس غيْرَ حَفَظَة المُدُن والسواحل، إلا أنه [يُمْكِنُه] إذا آستجاش لحربٍ عليه أن يَخْرُج فى جموع كثيرة لا تكاد تنحصر، وأنه يمكن أن يكون قد زاد عسكره بعد فتح تِلِمْسان مثل ذلك .

الجمـــلة العاشرة

(فى مكاتبـات السلطان)

قال فى "مسالك الأبصار" : جرت العادةُ أنه إذا انتهى الكاتب إلى آخر الكتاب وكتب تاريخَه، كتب السلطان بخطه فى آخره ماصورته "وكُتِب فى التاريخ المؤرَّخ به" . ونَقَل عن السلايجى : أن ذلك ممـا أحدثه أبو حفص «عمرُ المَرِينىّ» عم السـلطان أبى الحسن فى سلْطَنته ، وتبعه السـلطان أبو الحسن على ذلك مع وُثُوقه بكاتب سِرّه حينئذ : الفقيهِ الفاضل أبى محمد عبد المهيْمِن بن الحَضْرمى واعتماده عليه ومشاركَتِه له فى كل أمر .

المملكة الخـامسة

(من بلاد المغرب جبال البربر)

قال فى "مسالك الأبصار" : فى جَنُوب الغرب بين مملكة بَرِّ العُدْوة وبين بلادمالّى وما معها من بلاد السُّودان ثلاثةُ ملوك من البربر بيضٌ مسلمون : وهم سلطان (أهير) وسلطان (دمونسة) وسلطان (تادمكة) كل واحد منهم ملك مستقلّ بنفسه لا يحكم أحد منهـم على الآخر، وأكبرهم ملك (أهير) وزِيّهم نحو زِىّ المغاربة : يلبَسُون الدَّراريعَ إلا أنهـا أضيقُ ، وعمـائمَ بأحناك ، وركُوبهم الإبلُ ، ولا خيـل عندهم ولا للَمرينى [عليهم حكم ولا لصـاحب مالّى](١) ولا خبز عندهم ، وعيشُهم عيشُ أهل البَرّ من اللحم واللَّبَن . أما الحبوب عندهم فقليلة ، وهم فى قِلّة أقوات .

ونقل عن الشيـخ عيسى الزواوىّ أن لهم جبالا عامرةً ، كثيرةَ الفواكه . وذكر أن ما بأيدى الثلاثة تقـديرُ نصف ما لَمِلك مالّى من ملوك السُّودان أو أرجح بقليل ؛

---

(١) الزيادة من " مسالك الابصار " ليستقيم الكلام .

ولكن صاحب مالى أكثر فى تحصيل الأموال لٱستيلائه على بلاد الذهب وما يُباع بمملكته من السِّلَع ، وما يغنَمُه فى الغَزَوات من بلاد الكُفَّار لمجاورته لهم بخلاف هؤلاء فإنه ليس لهم يد تمتدّ إلى كَسْب ، بل غالبُ أرزاقهم من دوابِّهم . ثم قال : ودون هؤلاء فيما بينهم و بين مَرَّاكُش من بلاد المغرب جبالُ المَصَامدة ، وهم خَلْق لا يعدّ ، وأمم لا تُحْصىٰ ، وهم يَفْتَخِرون بالشجاعة والكرم .

ثم ذكر أنهم كانوا لا يدينون لسلطان إلا أنهم دانُوا للسلطان أبى الحسن المَرِينىّ ودخلوا تحتَ ذيل طاعته . على أنهم لا يُمَلِّكون أحدا قِيادَهم ، ولا يسلّمون إليه بلادهم . و بكل حال فهم معه بين صِحّة وٱعتلال .

المملكة السادسة

(من ممالك بلاد المَغْرب جزيرة الأَنْدَلُس)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الألف والدال المهملة وسكون النون بينهما وضمِّ اللام ثم سين مهملة . وهى مقابلَ برّ العُدْوة من بلاد المغرب ، و بينهما بحر الزُّقَاق الذى هو فَمُ بحر الروم ، وقد تقدّم ذكره فى الكلام على الأبحر فى أوّل هذه المقالة .

وقد ٱختُلِف فى سبب تسمية الأندلس بهذا الاسم : فقيل ملكَتْه أُمّة بعد الطُّوفان يقال لها الأندَلُش بالشين المعجمة فسمّى بهم ثم عرب بالسين المهملة ؛ وقيل خرج من رُومة ثلاثة طوالع فى دين الروم (١) يقال لأحدهم القَنْدَلُش بالقاف فى أوّله و بالشين المعجمة فى آخره ؛ فنزل القَنْدَلُش هذه الأرض فعُرِفت به ، ثم

---

(١) لعله فى زمن الروم .

عُرِّبت بابدال القاف همزةً والشين المعجمة سينا مهملة . ويقال : إن آسمه القديم أفارية ، ثم سمِّى باطقة ، ثم سمِّى أشْبانِيَة ، ثم سمِّى الأندلُس باسم الأُمّة المذكورة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وسمِّيت جزيرةً لإحاطة البحر بها من الشرق والغرب والجنوب ، وإن كان جانبُه الشمالىّ متصلا بالبرّ كما سيأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وفيه ست جمل :

الجمـــلة الأولىٰ
(فى ذكر سمك[(١)] أرضــه وحدوده)

قال فى "تقويم البُلْدان" : وجزيرة الأندلُس علىٰ شكل مثلّث : ركنٌ جنوبىّ غربىّ ، وهنـاك جزيرة قادِس وفَمُ بحر الزُّقَاق . وركن شرقىّ بين طَـرَّكُونة وبين بَرْشَلُونة ، وهى فى جَنُوبيه ، وبالقرب منـه بَلَنْسِيَةُ وطَرْطُوشَةُ وجزيرة مَيُورْقَة . وركن شَمَالِىٌّ بمَيْلة إلىٰ البحر المحيط ، حيثُ الطولُ عشر درجات ودقائق ، والعرضُ ثمانٍ وأربعون . وهناك بالقرب من الركن المذكور مدينة شَنْتَيَاقوه ، وهى علىٰ البحر المحيط فى شمـالىّ الأندلُس وغربِيِّها . قال : والضِّـلَع الأوّلُ من الركن الجنوبىّ الغربىّ ــ وهو الذى عند جزيرة قادِس ــ إلىٰ الركن الشَّرْقىّ الذى عند مَيُورْقَة ، وهذا الضِّلع هو ساحل الأندلس الجَنوبىّ الممتدّ علىٰ بحر الزقاق . والضلع الثانى من الركن الشرقىّ المذكور إلىٰ الركن الشمالىّ الذى عنـد شَنْتَيَاقوه ، وهـذا الضِّلع هو حدّ الأندلُس الشمالىّ ، ويمتـدّ علىٰ الجبل المعروف بجبل البِرْت الحـاجزِ بين الأندَلُس وبين أرض تُعْرَف بالأرض الكبيرة ، وعلىٰ ساحل الأندلُس الممتدّ علىٰ بحر بَرْدِيل . والضلع الثالث من الركن الشمالى المذكور إلىٰ الركن الجَنُوبىّ المقدّم الذكر ، وهذا الضلع هو ساحل الأندلُس الغربىّ الممتدّ علىٰ البحر المحيط .

---

(١) لعله شكل كما يفيده ما بعده وفى القطعة الازهرية تشكيل أرضه .

قال ابن سعيد : قال الحجارىّ : وطول الاندلس من جبل البِرْت الفاصلِ بين الأندلس والأرض الكبيرة وهو نهاية الأندلس الشرقيةُ إلىٰ أَشْبُونة : وهي فى نهاية الأندلس الغربيةِ ألفُ ميل، وعَرْضُ وَسَطه من بحر الزُّقاق إلىٰ البحر المحيط عند طُلَيْطِلةَ وجبل البِرْت ستةَ عشر يومًا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وقد قيل : إن طوله غربا وشرقا من أَشْبُونة : وهى فى غَرْب الأندلس إلىٰ أربُونَةَ : وهى فى شرق الأندلس مسيرةُ ستين يومًا، وقيل : شهر ونصف . وقيل : شهر . قال : وهو الأصح .

وآعلم أن جبل البِرْت المقدّم ذكْرُه متصلٌ من بحر الزُّقاق إلىٰ البحر المحيط وطولُه أربعون ميلا ، وفيه أبواب فتحها الأوائلُ ، حتّى صار للأندلس طريقٌ فى البرّ من الأرض الكبيرة ، وقبل فتحها لم يكن للأندلس من الأرض الكبيرة طريقٌ . وفى وسط الأندلس جبل ممتدٌّ من الشرق إلىٰ الغرب يقال له جبل الشارة ، يقسمه بنصفين : نصفٍ جنوبىّ ونصفٍ شمالىّ .

الجملة الثانية
(فيما آشتمل عليه من المُدُن)

وهو يشتمل علىٰ عدّة قواعِدَ ومُضافاتِها :

القاعدة الأولىٰ
(غَرْناطةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الغين المعجمة وسكون الراء المهملة وفتح النون وألف وطاء مهملة وهاء فى الآخر . ويقال : أَغَرْناطة بهمزة مفتوحة فى أوّلها . وهى مدينة فى جَنُوب الأندلس ، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال

ابن سـعيد : حيثُ الطولُ إحدىٰ عشرةَ درجة وأربعون دقيقة ، والعرضُ سبع وثلاثون درجة وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وَمَمْلكتها فى الجنوب والشرق عن مَمْلكة قُرْطُبة ، وبينها وبين قُرْطُبة نحو خمسة أيام . قال : وغَرْناطةُ فى نِهاية الحَصَانة وغاية النَّزاهة ، تُشْبه دِمَشْق من الشام ، وتُفَضَّل عليها بأنَّ مدينتها مُشْرِفة علىٰ غُوطَتِها وهى مكشوفة من الشمال ، وأنهارها تنصبُّ من جبل الثلج الذى هو من جنوبيها وتخترق فيها ، وعليها الأرْحِى داخلَ المدينة ، ولها أشجار وثِمار ومياه مسيرةَ يومين تقع تحت مَرْأىٰ العين لا يحجُبها شىء . قال فى "مسالك الأبصار" ولهـا ثلاثةَ عشرَ بابا : باب إلْبِيرَةَ وهو أضخمها ، وباب الكُحْل ، وباب الرَّخاء ، وباب المرضىٰ ، وباب المَصْرَع ، وباب الرملة ، وباب الدبَّاغين ، وباب الطَّوَّابين ، وباب الفَخَّارين ، وباب الخَنْدق ، وباب الدفاف ، وباب البُنُود ، وباب الأَشْدر ، وحولهـا أربعة أرباض : رَبَضُ الفَخَّارين (1) ، ورَبَضُ الأجل ، وهو كثير القُصُور والبساتين ، وربض البيـازين بناحية باب الدفاف ، وهو كثير العمارة يخرج منه نحو خمسةَ عشرَ ألفَ مقاتل ، وهو ربض مستقلٌّ بحكَّامه وقُضاته وغير ذلك . وجامعها من أبدع الجوامع وأحسـنها مَنْظَرا ، وهو مُحْكَم البناء لا يُلاصِقه بنـاء ، تَحُفُّ به دكاكينُ الشُّهود والعطَّـارين ، وقد قام سَقْفه علىٰ أعمـدة حِسان ، والمـاء يجرى داخِلَه ، ومساجدُها [ورِباطاتُها] لا تكاد تُحْصىٰ لكثرتها .

وذكر فى "مسالك الأبصـار" : أنها قليـلةُ مَهَبِّ الرياح ، لا تجرى بها الريحُ إلا نادرا لاكتناف الجبال إيَّاها . ثم قال : وأصل أنهارها نهران عظيمان (شَنيل) (2) و (حَدَرُّه) .

---

(1) لم يذكر الا ثلاثة وأسقط ربض الرملة وهو مذكور فى المسالك .

(2) كذا فى "التقويم" أيضا والذى فى "المعجم" سنجل وهو الاظهر .

أما شَنِيل، فينحدر من جبل شُكَيْر بجنوبيها ويمرّ علىٰ غربيّ غَرْناطة إلىٰ فَحْصِها، يُشُقُّ فيها أربعين ميلا بين بساتين وقُرًى وضياع كثيرةِ البيوت والغلال وأبراج الحمام وغير ذلك. قال: وينتهي فحصها إلىٰ (لَوْشَةَ) حيث أصحابُ الكهف علىٰ قول، وجبل شُكَيْر المذكور هو طَوْد شامخ لا ينْفَكُّ عنه الثلج شتاءً ولا صيفا، فهو لذلك شديد البَرْد، ويؤثّر برده بغَرْناطة في الشتاء: لقربه منها إذ ليس بينه وبينها سوىٰ عشرة أميال. وفي ذلك يقول آبن صدرة الشاعر قاتله الله:

أُحِلَّ لنا تَرْكُ الصلاةِ بأرْضِكم، * وشُرْبُ الحُمَيَّا وهو شيءٌ مُحرَّم!

فِرَارا إلىٰ نار الجَحِيم لأنَّها * أرَقُّ علينا من شُكَيْرٍ وأرحَمُ!

لَئِنْ كان رَبِّي مُدْخِلي في جَهَنَّمٍ، * ففي مِثْلِ هذا اليومِ طابَتْ جَهَنَّمُ!

وأما حَدَرُّه، فينحدر من جبل بناحية (وادياش) شرقيَّ شُكَيْر فيمرُّ بين بساتين ومَزارعَ وكُرُوم إلىٰ أن ينتهيَ إلىٰ غَرْناطةَ، فيدخلُها علىٰ باب الدفاف بشرقيِّها، يُشُقُّ المدينة نصفين، تَطْحَن به الأرحاءُ بداخلها، وعليه بداخلها خمسُ قناطِرَ: وهي قنطرة آبن رَشِيق، وقنطرة القاضي، وقنطرة حَمّام جاس، والقنطرة الجديدة، وقنطرة الفود، وعلىٰ القناطر سواقٍ ومبانٍ محكمة. والماء يجرى من هذا النهر في جميع البلد: في أسواقه وقاعاته ومساجده، يبرُزُ في أماكِنَ علىٰ وجه الأرض، وتخفىٰ جداولُه تحتها في الأكثر، وحيثُ طُلِب الماء وُجِد، وبالمدينة جبلانِ يشقّان وسَطَها، يعرف أحدهما بالحزة ومَوْزُور. والثاني بالقصبة القديمة، وبالز. وبهما دُور حِسَان، وعَلاليّ مُشْرِفة علىٰ فحصها، فيرىٰ منهما منظرا بديعا من فروع الأنهار والمزْدَرعات وغير ذلك مما يقصر عنه التخييل والتشبيه. وقد صارت قاعدةَ مُلْك الإسلام بالأندلُس بيد ملوكها من بني الأحمر الآتي ذكرهم في الكلام علىٰ ملوكها.

قال فى "مسالك الأبصار" : وبهـا من الفواكه التُّفَّـاح ، والقَراصِيا البعْلبكيَّة التى لاتكاد تُوجد فى الدنيا منْظرا وحلاوةً حتى إنها ليُعْصَر منها العسلُ . وبها الجَوْز، والقَسْطَل، والتين، والأعناب، والخَوْخ، والبَلُّوط ، وغير ذلك . وبجبـل شُكَيْر المقدّم ذكره عقاقيرُ كعقاقير الهنــد وعُشْب يستعمل فى الأدوية، يعرفها الشجّارون لا تُوجَد فى الهند ولا فى غيره .

قال فى "التعريف" : ومقرّ سلطانها منها (القصبة الحمراء) قال : ومعنىٰ القصبة عندهم القلعة، وتسمّى حمراءَ غَرْناطة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قلعة عالية شديدة الآمتناع . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى بديعةٌ متَّسعة كثيرةُ المَبَانى الضخمةِ والقصور ظريفةٌ جدّا ، يجرى بها المـاء تحت بَلَاط كما يجرى فى المدينة، فلا يخلو منه مسجدٌ ولا بيتٌ، وبأعلىٰ بُرْج منها عين ماءٍ،وجامعُها من أبدع الجوامع حُسْنا، وأحسنها بِناءً، وبه الثُّرَيَّات الفِضِّيَّة معلَّقة، وبحائط محرابه أحجارُ ياقوت مُرَصَّفة فى جمــلة ما نمِّق به من الذهب والفِضَّة، ومِنْــبره من العاج والآبنوس . قال فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام علىٰ الأندلُس : ولم يبق للمسلمين بها غيرُ غَرْناطة وما أُضِيف إليها، مثل الجَزيرة الخضراء، والمَرِيَّة . قال فى "مسالك الأبصار" : وطولها عشرة أيام، وعرضها ثلاثة أيام . وهى ممتدّة علىٰ بحر الزُّقاق وما يلى ذلك . ثم قال : وأوّلهـا من جهة المشرق المَرِيَّة، وهى أوّل مَرَاسى البــلاد الإسلامية . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وكانت القاعدةُ قبــل غَرْناطة حصنَ إِلْبِيرةَ، فخرب فى زمن الإسلام، وصارت القاعدةُ غرناطةَ .

وقد عدّ فى "مسالك الأبصار" من هــذه المملكة عدّةَ بلاد مُضـافة إلىٰ مملكة غَرْناطةَ الآن .

منها (المَرِيَّة) قال فى "المشترك" : بفتح الميم وكسر الراء المهملة وتشديد المثناة من تحت وفى آخرها هاء . وهى مدينة بين مملكتىْ مَالَقَة ومُرْسِيَة، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيث الطولُ أربعَ عشرة درجةً، والعرض خمس وثلاثون درجة وآثنتان وأربعون دقيقة . قال : وهى مدينة مسوَّرة علىٰ حافة بحر الزُّقَاق، وهى باب الشَّرْق، ومفتاح الرِّزْق، ولها بَرّ فِضِّى، وساحل تِبْرِى، وبحر زَبَرْجَدِى، وأسوارها عالية ، وقلعتها منيعة شامخة ، وهواؤها معتدِل، ويعمل بها من الحرير ما يفوق الجمال[1] .

قال فى "مسالك الأبصار" : والمَرِيَّة ثلاثُ مُدُن .

الأولىٰ — من جهة الغرب تعرف بالحَوْض الداخلى. لها سور محفوظ من العدو بالسُّمَّار والحُرَّاس، ولا عِمارة فيها ؛ ويليها إلىٰ الشرق المدينةُ القديمةُ ؛ وتليها المدينةُ الثالثة المعروفة بمصلَّى المَرِيَّة،وهى أكبر الثلاث . ولها قلعة بجوار القديمة من جهة الشِّمال، وتسمَّى القصبة فى عُرْفهم . قال : وهماقصبتان فى غاية الحسن والمَنَعة . وساحل المَرِيَّة أحسن السَّواحِل ، وحولها حُصُون وقُرًى كثيرة وجبالٌ شامخة . وجامعها الكبير بالمدينة القديمة، وهو من بديع الجوامع . وهى مدينة كثيرة الفواكه، وأكثر زرعها بالمطر وعليه يترتب الخِصْب وعدمُه ؛ وإليها تُجْلَب الحنطةُ من برّ العُدْوة؛ وبها دار صناعةٍ لعمارة المَرَاكب ؛و بينها وبين غَرْناطة مسيرةُ ثلاثة أيام . وكانت فى الزمن الأوّل قبل إضافتها إلىٰ غَرْناطةَ مملكةً مستقلَّةً . ويقال : إن وادى المَرِيَّة من أبدع الأوْدِية علىٰ أن ماءه يقِلُّ فى الصيف حتى يُقَسَّط علىٰ البساتين .

---

(١) الذى فى تقويم البلدان "ويعمل بها من الحرير مايفوق معمول غيرها" .

قال فى "مسالك الأبصار" : وعلى وادى المَرِيَّة (بَجَّانَةُ). قال : وهى الآن قرية عظيمة جِدّا ، ذاتُ زيتونٍ وأعنابٍ وفواكِهَ مختلفةٍ ، وبساتينَ ضخمةٍ كثيرة الثمرات .

ومنها (شَلُوبِين) بفتح الشين المعجمة وضم اللام[1] وسكون الواو وكسر الباء الموحدة وسكون الياء المثناة تحت ونون فى الآخر. وسماها فى "تقويم البُلْدان" : شلوبينية . ثم قال : وهو من حصون غَرْناطةَ البحرية على بحر الزُّقاق ، ومنه أبو على عمرُ بنُ محمد الشَّلُوبِينىّ إمامُ نحاة المغرِب . قال صاحب حماة : وقد غلط من قال الشَّلُوبِينى هو الأشقر بلغة الأندلس . قال فى "مسالك الأبصار" : وبها يُزْرَع قصَبُ السكر، وهى مُعَدَّة لإرسال من يغضَبُ عليه السلطانُ من أقاربه .

ومنها (المُنَكَّب). قال فى "مسالك الأبصار": وهى مدينة على القرب من شَلُوبِينَ دُونَ المَرِيَّة ، بها دارُ صناعةٍ لإنشاء السُّفُن ، وبها قصَب السكَّر، ومنها يحمَل السكر إلى البِـلاد ، وبها المَوْز، ولا يُوجَد فى بلد من البلاد الإسلاميـة [هُنَالك] إلا بها إلا مالا يعتَبَر، وبها زبيبٌ مشهورُ الاسم .

ومنها (بَلَّش) . وهى مدينـة تَلِى المُنَكَّب من جهة الغرب ، كثيرة التِّين والعنب والفواكه . قال أبو عبد الله بن السديد : ليس بالأنْدَلُس أكثرُ عنبا وتينا يابِسًا منها .

ومنها (مالِقَة)[2] قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وألف وكسر اللام وفتح القاف وهاء فى الآخر . وهى مدينـة من جنوب الأنْدَلُس موقعها فى الإقليم الرابع

(١) ضبطه ابن خلكان فى "الوفيات" بفتح اللام وهو المشهور .

(٢) ضبطها ياقوت فى معجمه بفتح اللام وهو الاشهر .

من الأقاليم السبعة . قال : وقياس ابن سعيد أنها حيثُ الطولُ عشرُ درج وثلاثون دقيقةً ، والعرضُ ثمانٌ وثلاثون درجة وأربع وخمسون دقيقة : وكانت في القديم مملكةً مستقلّةً ، ثم أُضيفت الآن إلىٰ غَرْناطةَ وملكها حتّى مملكة قُرْطبةَ ، وهي بين مملكتَيْ إشْبِيلِيَةَ وغَرْناطة ، وهي علىٰ بحر الزُّقاق ، وبها الكثير من التين واللَّوز الحَسَن المَنْظَر ، ومنها يُنْقَل يابسا إلىٰ جميع غرب الأنْدَلُس . قال في "مسالك الأبصار" : ولها رَبَضان عامران : أحدُهما من عُلْوها والآخَرُ من سُفْلها وجامعها بديع ، وبصحنه نارنج ونخلة نابتة ؛ وبها دار صناعةٍ لإنشاء المراكب ؛ وهي مختصَّة بعمل صنائع الجلد : كالأغْشِيَة ، والحُزُم ، والمدورات ؛ وبصنائع الحديد : كالسِّكِّين والمِقَصّ ونحوهما . وبها الفَخَّار المُذْهَب الذي لا يوجَدُ مثله في بلد . قال ابن السديد : وبها سوق ممتدٌّ لعمل الخُوص من الأطباق وما في معناها ؛ ولها عِدّةُ حصون في أعمالها ، وفي أعمالها يوجد الحَرير الكثير .

ومنها مدينة (مَرْبُلَّة) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم الباء الموحدة وفتح اللام (١) المشدّدة وهاء في الآخر . وهي مدينة صغيرة مما يلي مالِقَةَ من الغرب علىٰ الساحل ؛ وبها الفواكِهُ الكثيرةُ والسمكُ .

ومنها (أُشْبُونة) . وهي مما يلي مَرْبُلّة من جهة الغرب علىٰ الساحل ، وهي نظيرها في كَثْرة الفواكه .

ومنها (جبل الفَتْح) . وهو الذي نزله طارقٌ عند فتح الأنْدَلُس في أوّل الإسلام ، منيعٌ جِدًّا ، يخرج في بحر الزُّقاقَ ستة أميال ، وهو أضيقُ ما يكون عنده ، وقد كان هذا

(١) ضبطها ياقوت بفتح الباء وضم اللام .

الجبل فى مَمْلكة الفَرَنج وأقام بيدهم عدَّةَ سـنين ، ثم أعاده الله تعالىٰ إلىٰ المسلمين فى أيام السلطان أبى الحسن المَرِينِىّ" صاحب الغرب الأقصىٰ فى زمن الملك الناصر «محمد بن قَلَاوون» صاحب الديار المصرية .

ومنها (الجزيرة الخَضْراء) . وهى ممـا يلى جبل الفَتْح من الغرب علىٰ الساحل ؛ وموقعُها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيثُ الطولُ تسـعُ دَرَجٍ ، والعرضُ خمسٌ وثلاثون درجة وخمسون دقيقـة . قال : وهى مدينـةٌ أمام سَبْتَةَ من برّ العُـدْوة من بلاد الغرب . وهى مدينـة طَيِّبةٌ نَزِهة ، توسَّطتْ مُدُنَ الساحل ، وأشرفَتْ بسُورها علىٰ البحر ، ومَرْساها من أحسن المَرَاسِى للجواز ، وأرضُها أرضُ زرع وضَرْع ، وخارجَها المياهُ الجاريةُ والبساتينُ النضيرة ، ونهرها يُعرف بوادى العَسَل ، وعليه مكان نَزِه يُشْرِف عليـه وعلىٰ البحر يُعَرف بالحاجِبِيَّة ، ومن مستَنْزَهاتها مكانٌ يعرف بالنَّقَاء . قال ابن سعيد : وهى من أرشق المُدُن وأطيبها وأرفَقِها بأهلها وأجمعها لخير البَرّ والبحر . قال فى "المشترك" : والنسـبة إليها جَزِيرىٌّ ، للفرق بينها و بين إقليم الجزيرة فإنه ينسب إليـه جَزَرِىٌّ . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى آخر البلاد البحريَّة الإسلامية للأَنْدَلُس وليس بعدها [لهم بلاد] . ثم قال : وهى الآن بيد النصارىٰ أعادها الله تعالىٰ وقصمهم ؛ وقد عدّها فى "تقويم البُلْدان" : من كُوَر إشْبِيلِيَةَ مما يلى جانبَ نهرها من الجَنُوب .

ومنها (رُنْدَةُ) بضم الراء وسكون النون وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر . وهى بعيدة عن البحر . وعدَّها فى "تقويم البُلْدان" من كُوَر إشْبِيلِيَةَ . ثم قال : وبها مَعْقِل تَعَمَّم بالسحاب ، وتوشَّح بالأنهار [العِذَاب] (١) وذكر أنها من كِبار البُلْدان ؛ ثم قال :

(١) الزيادة عن التقويم .

وهى بلدة جليلة ، كثيرة الفواكه والمياه والحَرْث والماشِيَة ، وأهلها موصوفون بالجَمَال ورِقَّة البشرة واللَّطافة ، و بينها و بين الجزيرة الخضراء مَسيرةُ ثلاثة أيَّام .

ومنها (مدينة لَوْشَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى عن غَرْناطةَ علىٰ مرحلة بين البساتين والرياض .

ومنها (وادِيَاش) بفتح الواو وألف ثم دال مهملة مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية وألف ثم شين معجمة . ويقال : (وادِآش) بإبدال الياء همزةً . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى بلدة حسنة ، بَديعة ، منيعة جدّا ، كثيرة الفواكه والمَزَارع ، والمياه تَشُقُّ أمام أبوابها كما فى غَرْناطةَ ، قريبة من جبل شُكَيْر المقدّم ذكره مع غَرْناطةَ ، فلذلك هى شديدة البَرْد بسبب ماعلىٰ الجبل المذكور من الثّلْج . قال : وهى بلدة مُمْلِقة ، وأهلها موصوفون بالشِّعْر ، ويحكم بها الرؤساء من أقارب صاحب غَرْناطةَ أو مَنْ يستقِلُّ بها سلطانا أو مَنْ خُلع من سلطان لنفسه .

ومنها (بَسْطةُ) . وهى بلدة تلى وادِيَاش المقدّم ذكرها . وعدّها فى "تقويم البُلْدان" من أعمال جَيَّان . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى كثيرة الزَّرْع وٱختصَّتْ بالزعفران ، فبها منه ما يكفى أهلَ المِلَّة الإسلامية بالأندَلُس علىٰ كثرة ما يستعملونه منه .

ومنها (أنْدَرَاش) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مدينة ظريفة ، كثيرة الخِصْب ، وتختصُّ بالفَخَّار لجَوْدة تُرْبتها ، فليس فى الدنيا مثلُ فَخَّارها للطَّبْخ . إلىٰ غير ذلك من البُلْدان مثل أرحضونة وأَنْتَقِيرة و بَرْجة وغيرها . قال فى "مسالك الأبصار" : وحصون هذه المملكة كثيرةٌ جدّا ، فليس بها من بلد إلا وحوله حُصُون كثيرة محفوظة بوُلاة السلطان ورجالٍ تحت أيديهم .

القـاعدة الثـانيـــة

(أُشْـبُونَة)

قال فى "تقويم البُـلْدان" : بضم الهمزة وسكون الشين المعجمة وضم البـاء الموحدة ثم واو ونون وفى آخرها هاء . قال : وعن بعض المسافرين أنّ أوّلها لام . وهى مدينة فى غَرْب الأنْدَلُس ، وموقعها فى أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السـبعة قال ٱبن سعيد : حيث الطولُ ستُّ دَرَج وخمس وخمسون دقيقة ، والعرضُ ٱثنتان وأربعون درجة وأربعون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قاعدةُ مملكةٍ علىٰ البحر المحيط فى غربىّ إشْبِيلِيَة وشَمَالِيِّها ، وغَرْبىّ باجَةَ . وهى مدينة أزلِيَّة ولها البساتينُ والثِّمار المفَضَّلة علىٰ غيرها . قال ٱبن سعيد : وبينها وبين البحر المحيط ثلاثون ميلا . وهى علىٰ جانب نهر يُودانِس . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وبُزَاتها خِيارُ البُزَاة . قال : وكانت فى آخر وقت مضافةً إلىٰ بَطَلْيَوْس وملكها ٱبنُ الأفْطَس . وذكر فى "العبر" : أنها الآنَ قاعدةُ مملكةٍ من ممـالك النصارىٰ بالأنْدَلُس يقال لها مملكة البُرْتقال ، وأنها عُمَالة صغيرة ، وقد أُضِيفت الآنَ إلىٰ أعمال جِلِّيقِيَّة كما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك الأنْدَلُس .

ولهـا مضافات :

منها (شَنْتَرِيْن) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الشين المعجمة وسكون النون وكسر المثناة من فوق والراء المهملة وسكون المثناة من تحت وفى آخرها نون فيما هو مكتوب بخط ٱبن سعيد . وهى مدينة كانتْ فى القديم من جِلِّيقِيَّة شمالىَّ الأنْدَلُس ، ثم ٱستقرّت من أعمـال أُشْبُونَة المقـدّم ذكرها . موقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ٱبن سعيد : حيث الطولُ ثمـانُ درج وعشرُ دقائق ، والعرض

اثنتان وأربعون درجة وخمس وثلاثون دقيقة ، وهى على بحر بِرْطانِيَة : وهو بحر بَرْدِيل الخارج من البحر المحيط المقدّم ذكره فى الكلام على البُحُور، وهى على نهر يَصُبّ فى البحر وأرضها طَيِّبة .

ومنها (شَنْتَرُ) . وهى مدينة ذكرها فى "تقويم البُلْدان" مع أُشْبونَة استطرادا ونسبها إلى عَمَلها، ولم يتعرّض لضَبْطها ولا لطُولها وعَرْضها . وقال : إن بها تُفّاحا مُفْرِطا فى الكِبَر والنَّبالة .

ومنها مدينة (باجَة) بفتح الباء الموحدة وألف ثم جيم مفتوحة وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى شرقِيَّ أُشْبُونَة ، وهى من أقدم مدائن الأندَلُس، وأرضها أرضُ زَرْع وضَرْع ، وعسَلُها فى نِهاية الحُسْن ، ولها خاصِيَّة فى حُسْن دِبَاغ الأَدَم، وكانت مملكةً مستقِلَّة .

القاعدة الثالثـــة

(بَطَلْيَوْس)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة وسكون اللام وفتح المثناة التحتية وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر . وهى مدينة من غرب الأندَلُس موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ تسع درج، والعرض ثمانٌ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان": ومَمْلكتها فى الشَّمال والغرب عن مَمْلكة قُرْطُبة . وهى فى الغرب بمَيْلة إلى الجَنُوب عن مملكة طُلَيْطِلَة . وهى مدينة عظيمة فى بَسِيط من الأرض مخضِرّ على جانب نهر . قال : وهى مدينــة عظيمة إسلامية كانت بيد المتوكّل بن عُمَر الأفْطَس، وبنى بها المبانِيَ العظيمةَ وفيها يقول ابن الفلاس :

بَطَلْيَوْسُ لا أنساكِ ما آتّصل البُعْدُ ! * فللهِ غَوْرٌ من جنابِك أو نَجْـــدُ !
ولله دَوْحاتٌ تَحُفُّـــكِ بينهـا ، * تَفَجّرَ واديها كما شُقّق الـــبُرْدُ !

و بينها و بين قُرْطبَةَ ستةُ أيام .

ولهـا مضافات من أعمالهـا .

منهـا (مارِدَةُ) قال فى "تقويم البُـلْدان" : بفتح الميم ثم ألف و راء مهملة مكسورة ودال مهملة وهاء فى الآخر كما هو فى خط آبن سـعيد . وهى مدينــة على جَنُوبِىّ نهر بَطَلْيَوْس ، موقعها فى أوّل الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة . قال آبن سعيد : حيث الطولُ تسعُ درج وخمسٌ وخمسون دقيقة ، والعرض تسعَ عشرةَ درجة[1] . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة أزلِيَّة ، ولها ماءٌ مجلوبٌ تحير صنعتُه . قال آبن سعيد : قال الرازى : وهى إحدى القواعد التى بَنَتْها ملوكُ العجم للقَرَار . قال : وكان قد آتّخـذها سلاطينُ الأندلُس قبل الإسلام سريرًا لمُلْك الأندلُس ، وكانت فى دولة بنى أُمَيَّة يليها عظماءُ منهم ، ثم صار الكرسىّ بعد ذلك بطَلْيَوْس ، وقد صارت الآن للنصارى .

ويحكى أنه كان بكنيسـتها حجر يُضِىء الموضعُ مِن نُوره ، فأخذته العـرب أوّلَ دخولهـا .

ومنها (يابُرة) بياء آخر الحروف وألف و باء موحدة و راء مهملة وهاء فى الآخر . وهى مدينة ذكرها فى "تقويم البُلْدان" بعد ذكر بَطَلْيَوْس آستطرادا .

---

(١) فى تقويم البلدان أن عرضها تسع وثلاثون درجة .

القاعدة الرابعـــــــة

(إِشْبِيلِيَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الألف وسكون الشين المعجمة وكسر البـاء الموحدة وسكون المثناة من تحت ولام وياء ثانية تحتية وفى آخرها هاء. قال : ومعنى آسمها المدينة المنبسطة . وهى مدينة أزلِيَّة فى غَرْب الأندَلُس وجَنُوبِيِّه على القُرب من البحر المحيط، موقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة. قال آبن سعيد: حيث الطولُ تسعُ درج وعشرُ دقائق ، والعرض سـبع وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقة . وهى على شَرْقىّ نهرها الأعظم وجَنُوبيه ، ولهـا خمسةَ عشرَ بابا ، ومملكَتُها غربىّ مملكة قُرْطُبَةَ ، فطول مملكتها من الغرب من عند مَصَبِّ نهرها فى البحر المحيط إلى أعلى النهر من الشرق ممـا يلى مملكة قُرْطبةَ نحو خمس مراحل؛ وعرضها من الجزيرة الخضراء على ساحل الأندَلُس الجنوبىّ إلى مملكة بطَلْيَوْسَ فى الشَّمال نحو خمسة أيام، وبينها وبين قُرْطُبةَ أربعـة أيام؛ وهى الآن بيد ملوك النصارى . ولهـا عدّة كُوَر فى جنوبىّ نهرها وشماليِّه .

فأما كُورها التى فى جنوبىّ نهرها وهى الأكثرُ :

فمنها (كورة أُرْكُش) قال فى "تقويم البُلْدان": بالراء المهملة مَعْقِل فى غاية المَنَعة .

ومنهـا (كورة شَرِيشَ) قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الشين المعجمة وكسر الراء المهملة وسكون الياء المثناة التحتية وشين معجمة فى الآخر، وإليها ينسب «الشَّرِيشىّ» شارح "المَقَامات الحَرِيرية".

ومنهـا (كُورة طَرِيف) بفتح الطاء وكسر الراء المهملتين وسكون المثناة التحتية وفاء فى الآخر .

وأما التى شمالىّ النهر فكورتان : إحداهما (كورة أوتَنَة) (١) . وهى أشهرها وأوتَنَة مدينة جليلة .

قال فى "تقويم البُلْدان" : ومن الممـالك المُضَافة لإشْبِيلية مملكة شِلْب . وهى كورة ومدينة فى غَرْبىّ إشْبِيلِيَةَ وشمـالِيِّها علىٰ ساحل البحر المحيط ، بينها وبين قُرْطبة تسـعةُ أيام ؛ وبشِلْبٍ هـذه قصر يعرف "بقصر الشَّراخِيب" وهو الذى يقول فيه بعض شعرائهم :

وسَلِّم علىٰ "قَصْرِ الشَّراخِيبِ" عن فَتًى * له أبدًا شَـــوْقٌ إلىٰ ذلكَ القَصْرِ !

القاعدة الخـامســـة

(قُرْطُبَـــةُ)

قال فى "اللباب" : بضم القاف وسكون الراء وضم الطاء المهملتين وباء موحدة وهاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : هذا هو المشهور . وقال ٱبن سعيد : هى بلسان القُوط بالظاء المعجمة ونقله عن جماعة . وهى مدينة غربىّ نهر إشْبِيلِيَةَ فى غرب الأندَلُس بجنُوب ، وموقعها فى أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال ٱبن سعيد : حيث الطولُ عشْرُ درج ، والعرض ثمـان وثلاثون درجة وعشرون دقيقـة . قال فى "تقويم البُـلْدان" : ومملكةُ قُرطُبـةَ شرقىّ مملكة إشْبِيلِيَةَ . وهى فى الجنوب والشرق عن مملكة بطَلْيَوْس ، وفى الجنوب عن مملكة طُلَيْطِلةَ ؛ ودَوْرُ قرطبـة ثلاثون ألف ذراع ، وهى أعظم مُدُن الأندَلُس ، وعليهـا سُور ضَخْم من الحجر ، ولهـا سـبعة أبواب ؛ وبلغت عِدّة مساجدها ألفًا وستّمـائة مسجد ،

---

(١) أى والثانية كورة شلب .

وحَمّاماتِها تسعمائةِ حمام . وهى مدينة حصينة . وقد آستولت عليها ملوك النصرانية ، وهى بأيديهم إلى الآنَ .

ولهـا مضافاتٌ :

منها (مدينة الزَّهْراء) . وهى مدينة بناها النـاصر الأُمَوِىُّ فى غربىّ قُرْطُبَةَ ، فى سفح جبل .

ومنها (القُصَـير) . وهو حِصْـن فى شرقىّ قُرْطُبـة على النهر ، وله كُورة من أشهر كورهـا .

ومنها (حِصْن المَدُور) . وهو المَعْقِل العظيم المشهورُ ، وللروم به آعتناء عظيم .

ومنها (حِصْن مُرَادٍ) . وهو حِصْن فى غربىّ قُرطُبَة .

ومنها (كورة غافِقٍ) . وهى معاملة كبيرة .

ومنها (كورة إسْتِجَةَ) . وغير ذلك .

القـاعدة السادســةُ

(طُلَيْطِـلَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الطاء المهـملة وفتح اللام وسكون المثنّاة من تحتُ وكسر الطاء الثانيـة ثم لام وهاء فى الآخر . وموقعها فى آخر الإقليم الخامس قال آبن سعيد : حيث الطول خمسَ عشرةَ درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض ثلاث وأربعون درجة وثمـانَ عشرةَ دقيقـة . وهى مدينـة أزلية كانت قاعدةَ الأَنْدَلُس فى القـديم ، وبهـا كان كُرْسىُّ مُلْكِ « لَذَريق » : آخِر ملوك القُوط الذى آنتزعها

المسلمون منه . وهى الآن قاعدةُ مُلْك « الادفونش » أكبرِ ملوك النصرانيــة بالأندلُس المعروف بالفنش . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وهى من امنع البلاد وأحْصَنها، مبنيةٌ على جبل عال، والأشجار مُحْدِقة بها من كل جِهة، و يصير بها الجُلَّنار بقدر الرمَّانة من غيرها، ويكون بها شجرُ الرمان عِدّة أنواع ؛ ولهـا نهر يمرّ بأكثرها ينحدر من جبل الشارَةِ من عند حِصْن هناك يقال له (باجَةُ) و به يعرف نهر طُلَيْطِلَةَ . فيقال : نهرُ باجةَ؛ ومنها إلى نِهَاية الأندلُس الشرقية عند الحاجز الذى هو جبل البِرْت نحو نصف شهر، وكذلك إلى البحر المحيط بجهة شِلْب .

ولهـا مضافات :

منها (مدينة وَليد) بفتح الواو وكسر اللام وسكون المثناة من تحت ودال مهملة فى الآخر . وموقعها فى أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ إحدى عشرةَ درجة وآثنتا عشرةَ دقيقة، والعرضُ ثمانٌ وثلاثون درجة وثلاث دقائق . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى من أحسن المُدُن . وهى فى الغرب من طُلَيْطِلة فى جنوبىّ جبل الشارَةِ الذى يَقْسِم الأندلُس بنصفين . قال : ويَحُلُّها الفنش ملك الفرنج فى أكثر أوقاته .

ومنهـا (مدينة الفرج) [بفتح الفاء والراء المهملة ثم جيم][(1)] وهى مدينة شرقىّ طُلَيْطِلَةَ . وشرقيها مدينةُ سالم . قال ابن سعيد : ويقال لنهرها وادى الحجارة .

ومنهـا (مدينةُ سالم) قال ابن سـعيد : وهى بالجهة المشهورة بالثغر من شرقىّ الأندلُس . قال : وهى مدينــة جليلة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبها قبر «المنصُور بن أبى عامِر» .

(١) ضبطناها من التقويم لتتم الفائدة .

القاعدة السابعة

(جَيَّانُ)

قال فى "تقويم البلدان" : بفتح الجيم وتشديد المثناة من تحتُ وألف ونون فى الآخر . وموقعها فى أول الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ إحدى عشرةَ درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ ثمانٍ وثلاثون درجة وسبع وخمسون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومَمْلكتها بين مَمْلكتىْ غَرْناطةَ وطُلَيْطِلةَ . وهى فى نهايةٍ من المَنَعة والحَصَانة . وهى عن قُرْطُبة فى جهة الشرق وبينهما خمسة أيام، وهى من أعظم مُدُن الأندلُس وأكثَرِها خِصْبا ، وكانت بيد بنى الاحمر أصحابِ غَرناطةَ فأخذتها الفَرَنْج منهم بالسيف بعد حِصار طويل ، وبلادها كثيرةُ العيون، طيبةُ الأرض، كثيرةُ الثِّمار، وبها الحرير الكثير .

ولها مضافات :

منها (مدينة قَبْجاطة) . وهى مدينة نَزِهة كثيرةُ الخِصْب، أخذها النصارى بالسيف أيضا .

ومنها (بَيَّاسةُ) بفتح الباء الموحدة وتشديد المثناة التحتية وألف ثم سين مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر . وهى مدينة على نهر إشْبِيلِيَةَ فوقَ إشْبِيلِيَةَ ، طَيِّبَةُ الأرض، كثيرةُ الزَّرْع، وبها الزَّعفران الكثير، ومنها يحمل إلى الآفاق .

ومنها (مدينة آبِدَةَ) بمدّ الهمزة المفتوحة وكسر الباء الموحدة وفتح الدال المهملة وهاء فى الآخر . وهى مدينة إسلامية أُحْدِثَتْ فى دَوْلة بنى أُمَيَّة بالأندلُس بجِوَار بَيَّاسة إلا أنها ليست على النهر ، ولها عين تَسْقى الزَّعْفرانَ .

ومنها (جبل سمنتان)(١) . وهو جبل به حُصُون وقُرًى كثيرة .

ومنها (مَعْقِلُ شَقُورَةَ) و (حصن بَرْشانةَ) .

القـاعدة الثامنـــة

(مُرْسِـــيَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الميم وسكون الراء وكسر السين المهملتين ثم ياء مثناة من تحتها وهاء فى الآخر . وموقعها فى أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثمـانَ عشرةَ درجة ، والعرضُ تسع وثلاثون درجة وعشرُ دقائق . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة إسـلاميَّة مُحْدَثة ، بُنِيت فى أيام الأُمَويِّين الأندلُسيِّين ، قال وهى من قواعد شرق الأنْدَلُس . وهى تُشْبه إشْبِيلِيَةَ فى غرب الأندلُس بكثرة المَنازِه والبساتين ، وهى فى الذِّراع الشرقىّ الخارج من عين نهر إشْبِيلِيَةَ .

ولهـا عدّة منتزَهات .

منها [(الرَّشاقة) و (الزَّنقات) و (جبل إيل) وهو(٢)] جبل تحته البساتين ، و بَسْط تسرح فيه العيون .

ولهـا مضافات :

منها (مدينة مُولَةَ) . وهى فى غربىّ مُرْسِيَةَ .

ومنها (مدينة أَرْيُولة) وغير ذلك .

---

(١) كذا فى التقويم ص ١٧٧ ولم نعثر عليه .

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان .

القاعدة التاسعة

(بَلَنْسِيَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الباء الموحدة واللام وسكون النون وكسر السين المهملة وفتح المثناة من تحت وهاء فى الآخر . وموقعها فى أواخر الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ عشرون درجة ، والعرضُ ثمانٌ وثلاثون درجة وستُّ دقائق . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى من شرق الأندَلُس ، شرقىّ مُرْسِيَةَ وغربىّ طُرْطُوشَةَ . وهى فى أحسن مكان ؛ وقد حُفَّتْ بالأنهار والجِنَان ، فلا ترىٰ إلا مياها تتفرّع ، ولا تَسْمَع إلا أطيارا تَسْجَع . وهى علىٰ جنب بُحَيْرةٍ حسنةٍ علىٰ القرب من بحر الزُّقَاق ، يَصُبُّ فيها نهرٌ يجرى علىٰ شمالىّ بَلَنْسِيَةَ .

ولها عدّة مَنَازِه .

منها (الرُّصَافة) و (مُنْية ابن عامر) وحيث خرجت منها لاتلقىٰ إلا منازه . قال ابن سعيد : ويقال إن ضوء مدينة بلَنْسِيَةَ يزيد علىٰ ضوء بلاد الأندَلُس ، وجوُّها صَقِيل أبدا ، لا يرىٰ فيه مايكدِّره .

ولها مُضَافات : ـ وقد صارت الآنَ (١) من مُضافات بَرْشَلُونَةَ فى جملة أعمال صاحبها من ملوك النصارىٰ ـ .

منها (مدينة شَاطِبَةَ) بفتح الشين المعجمة وألف بعدها طاء مهملة مكسورة ثم باء موحدة مفتوحةٌ وهاء فى الآخر . وهى مدينة عظيمة ، ولها مَعْقِل فى غاية الأُمتناع وعِدّة مستنزَهات : منها (البَطْحاء) و (الغَدِير) و (العين الكَبِيرة) . وإليها ينسب الشاطبىّ صاحب "القصيدة" فى القراءات السبع ؛ وقد صارت الآن مضافةً إلىٰ ملك بَرْشَلُونة فى يد صاحبها .

(١) هذه الجملة ساقطة من القطعة الأزهرية .

ومنها (دانِيَةُ) بفتح الدال المهملة وألف ثم نون مكسورة ومثناة تحتية مفتوحة وهاء فى الآخر . وهى من شرق الأَندَلُس، وموقعها فى أوائل الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ تسعَ عشرةَ درجة وعشرُ دقائق، والعرضُ تسعٌ وثلاثون درجة وستُّ دقائقَ . وهى غربىّ بَلَنْسِيَةَ علىٰ البحر عظيمة القدر كثيرة الخيرات، ولها عدّةُ حصون . وقد صارت الآن من مُضَافات بَرْشَلُونَةَ مع بَلَنْسِيَةَ، علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك الأندَلُس إن شاء الله تعالىٰ .

القاعـــدة العاشرة

(سَرَقُسْطَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح السين والراء المهملتين وضم القاف وسكون السين الثانيـة وفتح الطاء المهملة وهاء فى الآخر . وهى مدينةٌ من شرق الأندَلُس، موقعها فى أواخر الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ إحدىٰ وعشرون درجةً وثلاثون دقيقـة، والعرضُ آثنتان وأربعون درجةً وثلاثون دقيقة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى قاعدة الثَّغْر الأعلىٰ . وهى مدينة أزليَّـةٌ بيضاءُ فى أرض طيِّبة، قد أحدقَتْ بها من بساتينها زُمُرُّدة خضراء، وآلتفَّ عليها أربعـة أنهـار فأضحت بها مُرَصَّعةً مُجَزَّعة .

ولهـا متنزَّهات :

منها (قَصْر السُّرور) و(مجالس الذَّهب) . وفيهما يقول آبن هُودٍ من أبيات :

قَصْرَ السُّرورِ ومَجْلِسَ الذَّهَبِ، * بِكُمَا بلَغْتُ نِهَايَةَ الطَّـرَبِ!

القاعدة الحادية عشرة

(طُرْطُوشَة)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الطاءين المهملتين وبينهما راء ساكنة مهملة[(١)] ثم واو ساكنة وشين معجمة وهاء فى الآخر. وهى مدينة فى شرق الأندلُس، موقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ اثنتانِ وعشرون درجةً وثلاثون دقيقة، والعرضُ أربعون درجة . قال : وهى من كَرَاسِىِّ مُلْك شرق الأندلُس . وهى شرقِىّ بَلَنْسِيَةَ فى الجهة الشرقيَّة من النهر الكبير الذى يمرّ على سَرَقُسْطَةَ ويَصُبُّ فى بحر الزُّقاق، على نحو عشرين ميلا من طُرْطُوشة . قال : وشرقىّ طُرْطُوشة (جزيرة مايُرْقَةَ) فى بحر الزُّقاق ؛ وإلى طُرْطُوشةَ هذه يُنْسَب «الطُّرْطُوشىّ» صاحب "سراج الملوك" .

القاعدة الثانية عشرة

(بَرْشَنُونَة)

قال فى "تقويم البُلْدان": بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الشين المعجمة وضم النون وسكون الواو ثم نون مفتوحة وهاء فى الآخر . ويقال (بَرْشَلُونَة) بابدال النون الأولى لاما قال فى " تقويم البُلْدان " : وهى خارجة عن الأندلُس فى بلاد الفَرَنج، وموقعُها فى أوائل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ أربع وعشرون درجةً وثلاثون دقيقةً ، والعرض اثنتان وأربعون

---

(١) ضبطها ياقوت بفتح الطاء الأولى وضم الثانية وقال المجد بالضم وقد تفتح .

درجةً . وهى الآن قاعدةُ مُلْك النصارىٰ بشَرْق الأندَلُس ، وقد أضيف إليها أرغُون ، وشاطِبَةُ ، وسَرَقُسْطةُ ، وبَلَنْسِيَة ، وجزيرةُ دانِيَةَ ، ومَيُورْقَةُ ، وغير ذلك . علىٰ ما يأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك الأندَلُس فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

القاعدة الثالثـــــة عشرةَ

(يَنْبُــــلُونَةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الياء المثناة من تحتُ وسكون النون وضم الباء الموحدة واللام ثم واو ساكنة ونون مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعها فى أوائل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ اثنتان وعشرون درجةً وخمسَ عشرةَ دقيقة ، والعرضُ أربعٌ وأربعون درجةً . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينة فى غرب الأندَلُس خَلْفَ جبل الشَّارَةِ . قال : وهى قاعدة النَّبَرِىّ : أحد ملوك الفَرَنج . وتعرف هـذه المملكة بمملكة نَبَّرَةَ ــ بفتح النون وتشديد البـاء الموحدة المفتوحة وفتح الراء المهملة وهاء فى الآخر . وهى مملكة فاصلة بين مملكتَىْ قَشْتالَةَ و بَرْشَلُونة ، وهى مما يلى قَشْتالةَ من جهة الشرق ، وسيأتى ذكرها فى الكلام علىٰ ملوك الأندَلُس فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــــلة الثالثـــــة

(فى ذكر أنهاره)

اعلم أن بالأندَلُس أنهارا كثيرة قد تقدّم ذكر الكثير منها ، وأعظمها نهران :

الأوّل (نهر إشْبِيلِيَــةَ) . قال ابن سعيد : وهو فى قَدْرِ دِجلةَ ، وهو أعظم نَهَر بالأندَلُس ، ويسمِّيه أهلُ الأندَلُس النهرَ الأعظمَ . قال فى "تقويم البُلْدان" ومَخْرَجه

من جبال شَقُورةَ حيثُ الطولُ خمسَ عشرةَ درجة، والعرضُ ثمانٌ وثلاثون وثلثان، وهو يجرى فى ٱبتدائه من الشرق إلىٰ الغرب، ثم يَصُبُّ إليه عدّةُ أنهر.

منها (نهر شنّيل) الذى يمرّ علىٰ غَرْناطةَ. ونهر (سُوس) الذى عليه مدينة إسْتِجَةَ، ويسير من جبال شُقُورةَ إلىٰ جهات جَيَّان، ويمرّ علىٰ مدينة بَيَّاسة، ومدينة آبِدَةَ، ثم يمرّ علىٰ قُرْطُبَة، ثم إذا تجاوز قُرْطُبَة وقَرُب من إشْبِيلِيَةَ ينعطف ويجرى من الشمال إلىٰ الجَنُوب، ويمرّ كذلك علىٰ إشْبِيلِيَةَ، وتكون إشبيليَةُ علىٰ شرقيِّه وطَرْيانةُ علىٰ غربيِّه مقابلَ إشبيليَةَ من البر الآخر، ثم ينعطف فيجرى من الشرق إلىٰ الغرب، ثم يجاوز حتّى يصُبَّ فى البحر المحيط الغربىِّ عند مكان يعرف ببرّ المائدة، حيث الطولُ ثمانُ درج وربعٌ، والعرضُ ستٌّ وثلاثون وثلثان، وتكون جزيرة قادس فى البحر الرومىّ علىٰ يسار مَصَبِّه، ويقع فى هذا النهر المدُّ والجَزْر من البحر[1] كما فى دِجْلة عند البصرة، ويبلغ المدُّ والجزرُ فيه سبعين ميلا إلىٰ فوق إشْبِيلِيَةَ عند مكان يعرف بالأرحى، ولا يملح ماؤه بسبب المدّ عند إشبيليَةَ بل يبقىٰ علىٰ عُذُوبته، وبين إشبيلية وبين مَصَبِّ النهر فى البحر خمسون ميلا، فالمدّ يتجاوز إشبيليَةَ بعشرين ميلا، والمدّ والجزر يتعاقبان فيه كلَّ يوم وليلة، وكلما زاد القمرُ نورا زاد المدُّ، والمراكب لا تزال فيه منحَدِرة مع الجَزْر صاعدةً مع المدّ، وتدخُل فيه السفن العظيمة الإفرنجيّة بوَسْقها من البحر المحيط حتّى تحطّ عند سُور إشبيلِيَةَ. قال ٱبن سعيد: وعلىٰ هذا النهر من الضِّياع والقُرىٰ مالا يبلغه وصف.

الثانى (نهر مُرْسِيَةَ). قال فى "تقويم البُلْدان": وهو قسيمُ نَهَر إشبيليَةَ، يخرجان من جبال شَقُورة فيمرّ نهر إشبيلية مغرِّبا علىٰ ماتقدّم ويصُبُّ فى البحر المحيط. ويمرّ نَهَر مُرْسِيَة مشرّقا حتّى يصُبَّ فى بحر الروم عند مُرْسِيَةَ.

(١) المراد أن مد النهر وجزره من مد البحر وجزره.

الجمـــلة الرابعـــة
(فى الموجود بالأندلُس)

والظاهر أن كل ما يُوجَد ببلاد المغرب أو غالبه يوجد به . وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" أنه يوجد به من الوحش : الإيَّل، والغَزال، وحِمار الوحش . ولا يوجد به الأسـدُ ٱلبتَّةَ . وقد تقدّم ذكر مابِبُلْدانه من الفواكه والثّمار فى الكلام على بلاده فأغنىٰ عن إعادته هنا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وبه عِدّة مَقاطِع رُخَام من الأبيض والأحمر والخَمْرىّ والمجزَّع وغير ذلك .

الجمـــلة الخامســـة
(فى ذكر ملوك الأندلُس : جاهليةً، وإسلاماً . وهم علىٰ طبقات)

الطبقة الأولىٰ
(ملوكها بعد الطُّوفان)

قال الرازى فى كتاب "الآستيعاب" فى تاريخ الأندلُس : أوّل مَنْ ملكها بعد الطُّوفان علىٰ مايذكره علماء عَجَمها قومٌ يُعْرَفون بالأندلُش بالشين المعجمة ، وبهم سمِّى الأندَلُش، ثم عرب بالسين المهملة ، وكانوا أهل تَمَجُّس فحبس الله عنهم المطر حتّى غارت عيونُها ويبست أنهارُها فهلك أكثرُهم ، وفرّ مَنْ قدر على الفرار منهم، فأقفرت الأندلُس وبقيت خاليةً مائةَ عام .

وقال «هروشيوش» مؤرِّخ الروم : أوّل مَنْ سكنها بعد الطُّوفان قوم يقال لهم الأباريون، وهم من ولد طُوبَال بن يافث بن نوح عليه السلام سكنوها بعد الطُّوفان . قال فى "الروض المعطار" ويقال : إن عدد ملوكهم الذين ملكوا الأندلُس مائةٌ وخمسون مَلِكا .

الطبقـــة الثـانيـــة

الأشـــبانيَّة

(ملكوا بعد طائفة الأنْدُلُش المتقدم ذكرهم)

قال الرازى : وأوّل من ملك منهم أَشْبان بنُ طيطش ، وهو الذى غزا الأفارقة وحصر مُلْكَهم بِطَارقة(١)، ونقل رُخَامها إلىٰ إشبيليَةَ وٱتخذها دار مُلْكه ، وبه سميت ، وكثُرتْ جموعه فعَلَا فى الأرض ، وغزا من إشبيلية إيلياءَ : وهى بيتُ المَقْدس بعد سنتين من مُلْكه : خرج إليهـا فى السُّـفُن فهدمها وقتـل من اليهود مائةَ ألف ، وٱسترقَّ مائة ألف ، وفرّق فى البلاد مائةَ ألف ، ونقل رُخَام إيلياء وآلاتها وذخائرَها إلىٰ الأندَلُس .

ويحكىٰ أن الخضر (عليه السلام) وقف علىٰ أشْبان هذا وهو يحْرُثُ أرضًا له أيام حَدَاثته ، فقال له : ياأشْبان ، إنك لَذُوشان ! وسوف يحظيك زمان ، ويُعْلِيك سلطان . فإذا أنت تغلَّبت علىٰ إيلياء ، فارْفُقْ بوَرَثَة الأنبياء ! ــ فقال له أشـبان : أساخِرٌ بى رحمك الله؟ أنّى يكون هــذا وأنا ضعيفٌ مَهِين ، فقير حَقِير؟ ــ فقال : قَدَّر ذاك مَنْ قدّر فى عصاك اليابسة ماترَاه ، فنظر أشبانُ إلىٰ عَصَاه فرآها قد أورقَتْ ، فٱرتاع لذلك ، وذهب الخَضِر عنه وقد وَقَر ذلك فى نفسه ، ووَثِق بكَوْنه ، فترك الاُمتهانَ ، وداخل الناس ، وصحب أهل الباس ، وسَمَـا به جَدُّه فارتقىٰ فى طلب السلطان حتّىٰ نال منه عظيما ، ودام ملكه عشرين سنةً ، وٱتصلت المملكةُ فى بنيه إلىٰ أن ملك منهم الأندَلُس خمسة وخمسون ملكا .

---

(١) فى " نفح الطيب ج ١ ص ٦٨ " طالقة باللام .

الطبقـــة الثالثـــة

(الشبونقات) (١)

وهى طائفـــة ثارتْ علىٰ الأندَلُس من رُومةَ فى زمن مَبْعَث المَسِيح عليه السلام، وملكوا الأندَلُس والإفرنجةَ معها ، وجعلوا دار مملكتهم مارِدةَ ، وٱتصـــل ملكُهم إلىٰ أن ملك أربعـــة وعشرون ملكا (٢) . ويقال : إن منهم كان ذُو القَرْنينِ . والذى ذكره « هروشيوش » مؤرّخ الروم أن الذى خرج عليهـــم من رُومة ثلاث طوالع من الغريقيِّين . وهم : الأنبيُّون ، والشوانيُّون ، والقندلش ، وٱقتسموا مُلْكها : فكانت جِلِّيقيَّةُ لقندلش ، ونَشْبُونةُ ومارِدةُ وطُلَيْطِلَةُ ومُرْسِـــيَةُ للشوانيين ، وكانت إشْبِيلِيَةُ وقُرْطُبةُ وجَيَّانُ ومالَقةُ للأنبيين ، حتَّى زحفَ عليهم القُوط من رُومةَ كما سيأتى .

الطبقـــة الرابعـــة

(القُـــوط)

خرجُوا علىٰ الشبونقات فغَلَبوا علىٰ الأندَلُس وٱقتطعوها من صاحب رُومةَ ، وٱنفردوا بسلطانهم ، وٱتخذوا مدينة طُلَيْطِلَةَ دارَ مَلِكهم (دخشوش) ملك القُوط ، وهو أوّل من تنَصَّر من هؤلاء بدعاء الحَوارِيِّين ودعا قومـــه إلىٰ النصرانيـــة ، وكان أعدلَ ملوكهم وأحسنَهم سيرةً .

وقال «هروشيوش» : إنه كان قد وَلِيَ عليهم ملك يقال له (اطفالش) .

ثم وَلِيَ عليهم بعده ملك ٱسمه (طشريك) وقتله الرومانيون .

---

(١) فى " نفح الطيب ج ١ ص ٧٠ " البشتولقات .

(٢) فى " نفح الطيب ج ١ ص ٧٠ " سبعة وعشرون .

ثم وَلِي مكانه ملك ٱسمه (تالبه) ثلاثَ سنين، وزوّج أخته من طودشيش(١) ملك الرومانيين، وصالحه علىٰ أن يكون له مايفتَحُه من الأندَلُس، ثم مات .

وولى مكانه ملك ٱسمه (لُذْرِيق) ثلاثَ عشرةَ سنة فزحف علىٰ الأندَلُس وقتل ملوكها، وطرد الطوائفَ الذين كانوا بها، وبقيَ الحال علىٰ ذلك نحوًا من ثمانين سنة، ثم هلك لُذْرِيق .

وولى مكانَه ٱبنُه (وَرِيقش) سبع عشرة سنة، وٱنتقض عليه البَشْكَنَسْ إحدىٰ طوائف القُوط فقهرهم وردّهم إلىٰ طاعته، ثم هلك .

وولى بعده (الريك)(٢) ثلاثا وعشرين سنة، ثم قُتِل فى حرب الفَرَنْج .

وولى عليهم (أشتريك بن طودريك) وهلك بعد خمس سنين من مُلْكه .

وولى عليهم بعده (بشليقش) أربع سنين .

ثم ملك بعده مَلِك آخر ٱسمه (طوذريق) إحدىٰ وستين سنة وقتله بعض أصحابه بإشْبِيلِيَة .

ووَلِيَ بعده ملك ٱسمه (املِريق)(٣) خمس سنين .

ثم ولى بعده ملك ٱسمه (طودش) ثلاثَ عشرةَ سنة .

ثم وَلِيَ بعده (طود شكل) سنتين .

ثم ملك بعده ملك ٱسمه (ايلة) خمس سنين، وٱنتقض عليه أهلُ قُرْطبةَ فحاربهم وردّهم إلىٰ طاعته .

---

(١) فى "العبر ج ٢ ص ٢٣٥" طودوشيش .

(٢) فى "العبر" الديك بالدال المهملة .

(٣) فى "العبر ج ٢ ص ٢٣٦" إبرليق . وفيه فى هذا الموضع خلاف لما بيدنا من الاصل فى كثير من الاسماء .

ثم ولِيَ بعده ملك آسمه (طنجاد) خمس عشرةَ سنةً .

ثم ولى بعده ملك آسمه (ليوبة) سنة واحدة .

ثم ولى بعده ملك آسمه (لَوْبيلَذَه) ثمانى عشرة سنة ، وآنتقضتْ عليه الأطرافُ فحاربهم وسكَّنهم ، ثم قُتِل .

وولى آبنه (رُذْرِيق) ستَّ عشرةَ سـنةً ، وهو الذى بنىٰ البلاط المنسوبَ إليه بقُرْطبةَ .

ولما هلك ولى بعده ملك آسمه (ليوبة) سنتين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (بَتْرِيق) سبع سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (عندمار) سنتين .

ثم ملك بعده مَلِك آسمه (شَشْبُوط) ثمـان سنين ، وعلىٰ عهده كان (هِرَقْل) ملك قسطنطينية والشام ، ولعهده كانتِ الهجرةُ .

ثم ملك بعده ملك آسمه (رُذْرِيق) ثلاثة أشهر .

ثم ملك بعده ملك آسمه (شتنلة) ثلاث سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (شَشْنادَش) خمس سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (خَذْشُونَد) سبع سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (جَنْشُونَد) ثلاثا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ملك آسمه (بانْبُه) ثمـان سنين .

ثم ولى بعده ملك آسمه (لورى) ثمـان سنين .

ثم ملك بعده رجل آسمه (أَيْقَهْ) ستَّ عشرةَ سنة .

ثم ولى بعده رجل آسمه (غَطْسه) أربعَ عشرةَ سنةً .

ثم ولى بعده رجل آسمه (لذريق) سنتين، وهو الذى غلبه المسلمون على الأندَلُس وفتحوها منه، وهو آخر مَنْ ملك منهم . قال صاحب "الروض المِعْطار" : وعدد مَنْ ملك منهم إلى آخرهم وهو (لذريق) ستةٌ وثلاثون مَلِكا .

الطبقة الخامسة

(ملوكُها على أثر الفتح الإسلامى)

وكان فتحُها فى خلافة الوَليد بن عبدالملك : أحدِ خلفاء بنى أُمَيَّة فى سنة آثنتين وتسعين، وكان من أمر فتحها أن طُلَيْطِلَة كانتْ دارَ المُلْك بالأندلُس يومئذ، وكان بها بيت مُغْلَق مُتحامىً الفتح، يلزَمُه من ثِقاتِ القُوط قومٌ قد وُكِّلوا به كَىْ لايُفْتَح، يَتَعَهَّد الأوّلُ بذلك للآخِر، كلَّما مَلَك منهم مَلِك زاد على ذلك البيت قُفْلا . فلما وَلِىَ «لذريق» الأخيرُ، عزم على فتح الباب والآطّلاع على مافى البيت ؛ فأعظم ذلك أكابِرُهم وتضرّعوا إليه فى الكَفّ ؛ فأبى وظَنَّ أنه بيتُ مال، ففضَّ الأقفالَ عنه ودخله، فأصابه فارغًا لاشىْءَ فيه إلا تابوتًا عليه قُفْل ؛ فأمر بفتحه فألفاه أيضا فارغا ليس فيه إلا شُقَّة مُدْرَجة قد صُوِّرت فيها صُوَر العَرَب على الخُيُول، وعليهم العمائم متقلّدو السيوف متنكّبو القِسِىّ، رافعو الرايات على الرِّماح ؛ وفى أعلاه كتابة بالعجمية فقرئت فإذا هى "إذا كُسرتْ هذه الأقفالُ عن هذا البيت، وفُتِح هذا التابوتُ، فظهر ما فيه من هذه الصور فإن الأمّة المصوّرةَ فيه تغلب على الأندلس وتملكها" فوجَمَ لذريق وعظُم غمُّه وغم الأعاجم، وأمر بردّ الأقفال، وإقرار الحَرَس على حالهم .

وكان من سير الأعاجم أن يبعث أكابرهم بأولادهم ذُكورا كانوا أو إناثا إلى بلاط المَلِك، ليتأدّبوا بأدبه، وينالوا من كرامته حتّى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا ٱستئلافا لآبائهـم . وكان للذريق عاملٌ على سَبْتَةَ من برّ العُدْوة يسمّى يُلْيان، وله ٱبنة فائقة الجمال، فوجّه بها إلى دار لذريق على عادتهم فى ذلك، فوقع نظر لذريق عليها فأعجبته، فاستكرهها على نفسها فاحتالتْ حتّى أعلمتْ أباها بذلك سِرّا، فشقّ ذلك عليه، وحلف ليُزيلنّ سلطانَ لذريق؛ ثم تلطّف حتّى اقتلع بنتَه من بيت لذريق؛ ثم لم يلبَثْ يُلْيانُ [أن كتب] إلى موسى بن نُصَيْر أمير أفريقيّة من جهة «الوَليد بن عبد الملك» يحرّضه على غزو الأندلُس، وحثّه على ذلك، ووصفَ له من حُسْنها وفوائدها مادعاه إلى ذلك وهوّنَ عليه أمْرَ فتحها . فتوثّق منه موسى بنُ نُصيْر بذلك، ودعا مولًى له كان على مقدّماته، يقال له «طارقُ بن زِيَاد» فعـقَد له وبعثه إليها فى سبعة آلاف، وهيّأ له يُلْيانُ المراكبَ، فعبرَ البحرَ وحلَّ بجبل هناك يُعْرَفُ الآنَ (بجبل طارق) فوجد عَجُوزا من أهل الأندلُس ـ فقالت له : إنه كان لى زَوْج عالم بالحِدْثان، وكان يحدّث عن أمير يدخُل بلدنا هـذا، ويصفه بأنه ضَخْم الهامة وأنت كذلك، وكان يقول : إنه بكَتِفه الأيسر شامَةٌ عليها شَعَر، فكشف طارقُ ثوبَه فإذا بالشامة كما ذكرتِ العجوزُ، فاستبشر بذلك .

ويحكى أنه رأى (وهو فى المركب) النبيَّ صلى الله عليه وسلم والخلفاءَ الأربعةَ يمشُونَ على المـاء حتّى مرّوا، فبشّره النبيّ صلى الله عليه وسلم بالفتح، وأمره بالرِّفْق بالمسلمين والوفاء بالعهد، فاستيقظَ مستبْشِرا، وتيقّن الفتحَ، وهجم البلدَ فملكها . وكان عسكره قد ٱنتهى إلى ٱثنَيْ عشرَ ألفا إلا ستةَ عشَر، ولذريق فى سبعمائة ألف، ﴿والله يؤيّدُ بنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ . وأقام طارقُ بالأندلُس حتّى قدم إليها مولاه مُوسى ٱبن نُصَـير المتقدّمُ ذكرُه فى رجب من السـنة المذكورة . وأقام موسى فيها سنتين

ثم انصرف إلى القيروان ، واستخلف عليها ابنه (عبدَ العزيز) فنزل قُرْطبةَ واتخذها دارَ إمارةٍ لهم ؛ وتوجّه موسى سنةَ ستٍّ وتسعين بما سَبَاه وما غَنِمه إلى الوليد ابن عبد الملك ؛ ثم دَسَّ سليمانُ بن عبد الملك على عبد العزيز المذكور مَنْ قتله بالأندلُس لاتّهامه بموالاة أخيه الوليد .

ثم وليها بعده (عبدُ العزيز) بن عبد الرحمن القَيْسيّ سنتين وثلاثة أشهر .(١)

ثم وليها (السَّمْحُ بن مالك) الخَوْلانيّ سنتين وتسعةَ أشهر .

ثم وليها (عَنْبسةُ بن سُحَيم) الكلبيّ أربعَ سنين وخمسة أشهر .

ثم وليها (يحيى بن مسلَمة) سنتين وستة أشهر .

ثم وليها (حُذَيفة بن الأحْوص) القَيْسيّ سنةً واحدة .

ثم وليها (عثمانُ بنُ أبي نِسْعةَ) الخَثْعَميّ خمسةَ أشهر .

ثم وليها (الهَيْثَم بن عُبَيد) خمسةَ أشهر .

ثم وليها (عبدُ الرحمن بن عبد الله) الغافقي سنتين وثمانية أشهر .

ثم وليها (عبد الملك) بن [قَطَن الفهري](٢) أربع سنين .

ثم وليها (عُقْبةُ بنُ الحَجّاج) خمسَ سنين وشهرين .

ثم وليها (مُفْلِح بن بشر القيسي)(٣) أحد عشر شهرا .

ثم وليها (حُسَام بن ضِرار) الكلبيّ سنتين .

---

(١) لعله وليها بعد عبد العزيز أيوب بن حبيب اللخمي كما يؤخذ من نفح الطيب والعبر .

(٢) فى الاصل قطار، والتصحيح عن العبر ج ٤ ص ١١٩ .

(٣) فى "العبر ج ٤ ص ١١٩" بلج بن بشر وفيه فى هذا المكان زيادة ونقص وتقديم وتأخير فى الولاة .

ثم وليها (ثوابة الجُذَامىّ)(١) سنة واحدة .

ثم وليها (يوسفُ بنُ عبدالرحمن) الفِهْرىّ تسعَ سنين وتسعة أشهر .

ثم كانتْ دولةُ بنى أمية بالأندلس، علىٰ مايأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة السادســـة

(بنو أُمَيَّةَ، وكانتْ دارُ ملكهم بها مدينةَ قُرْطُبــةَ)

وأوّلُ من ملكها منهــم (عبدُ الرحمن بنُ معاويةَ) بنِ هشام، بن عبــد الملك، ٱبن مروان، بن الحكم، ويُعْرَف (بعبدالرحمن الداخل) . وذلك أن بَنِى العَبَّـاس لمـا تَتَبَّعوا بنِى أميَّةَ بالقتل، هرب عبد الرحمن المذكور، ودخل الأندلُس وٱستولىٰ عليها فى سنة تسع وثلاثين ومائة من الهجرة، وقصده بنو أُمَيَّةَ من المشرق وٱلتجـأُوا إليه . وتُوفِّى فى ربيع الآخر سنة إحدىٰ(٢) وسبعين ومائة .

وملك بعده ٱبنُه (هِشَام) وتوفِّى سنة ثمـانٍ(٣) وسبعين ومائة .

وٱستُخْلِف بعده ٱبنُه (الحَكَم) وفى أيامه ٱستعاد الفَرَنْجُ مدينةَ بَرْشَلُونة فى سنة خمس وثمـانين ومائة، وتُوفِّى لأربع بَقِين من ذى الحجة سنة ستٍّ ومائتين .

وأقام فى الملك بعده ٱبنُه (عبدُ الرحمن) وتوفِّى فى ربيع الآخر سنة ثمـانٍ وثلاثين ومائتيــن .

وملك بعده ٱبنُه (محمد) وتُوفِّى فى سلخ صَفَر سنةَ ٱثنتين(٤) وسبعين ومائتين، وعمره خمسٌ وستونَ سنة .

(١) فى "العبر" و "نفح الطيب" ثعلبة بن سلامة الجذامى .
(٢) فى "الكامل ج ٦ ص ٤٠" وقيل سنة ثنتين وسبعين ... ... وهو الاصح .
(٣) فى "العبر والكامل" سنة ثمـانين ومائة .
(٤) فى "الكامل ج ٦ ص ١٥٣" ثلاث وسبعين .

وملك بعده ٱبنه (المُنْذِر) وتوفِّى لثلاثَ عشرةَ ليلة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين .

وبويع أخوه (عبدُ الله) يومَ موته، وتوفِّى فى ربيع الأوّل سنة ثلثِمائة .

وولى بعده ٱبنُ ٱبنه (عبدالرحمن) بن محمد المقتول ٱبن عبد الله المتقدّم ذكره، وخُوطِب بأمير المؤمنين، وتلقَّب بالناصر بعد أن مضىٰ من ولايته تسعٌ وعشرون سنة، عند مابلَغَه ضَعْفُ خلفاء العباسيين بالعراق وظهور الخلفاء العَلَويين بأفريقِيَّةَ، ومخاطبتهم بأمير المؤمنين، وتُوفِّى فى رمضان سنة خمسين وثلثِمائة .

ووَلِىَ الأمر بعده ٱبنُه (الحَكَم) وتلقَّب بالمستنْصِر، وتوفِّى سنة ست وستين وثلثِمائة .

وعَهِد إلىٰ ٱبنه (هشام) ولَقَّبه المؤيَّد، وبايعه الناسُ بعد موت أبيه، فأقام إلىٰ سنة تسع وتسعين وثلثِمائة .

ثم غلبه (محمد بنُ هشامٍ) بن عبد الجَبَّار بن عبد الرحمن الناصر المتقدّم ذكره، وتلقب بالمَهْدِىّ فى جمادىٰ الآخرة من السنة المذكورة .

ثم غلبه (سليمانُ بنُ الحَكَمِ) بن سليمان بنِ عبد الرحمن الناصر المتقدّم ذكره، فهرب محمدُ بن هشام المذكور وٱستولىٰ علىٰ الخلافة فى شوّال من السنة المذكورة .

ثم غلبه (محمدُ بنُ هِشام) المهدىّ المذكور فى منتَصَف شوّال من السنة المذكورة .

ثم عاد (هشامُ بنُ الحكم) المتقدّم ذكُره فى سابع ذى الحجة من السنة المذكورة .

ثم عاد (سليمانُ بنُ الحكم) المتقدّم ذكره فى منتصَف شوّال سنةَ ثلاثٍ وأربعمائة، ولُقِّب بالمستعين .

ثم غلبه (المهدىُّ محمدُ) بنُ هشام المتقدّم ذكره فى أُخرياتِ السنة المذكورة .

ثم غلبه (المستعين) على قُرْطُبَةَ ، ثم قُتِل المهدىُّ محمدُ بنُ هشام المذكور وعاد [هشام المؤيد] (١) إلى خلافته ، هذا كله والمستعين محاصر لقُرْطبَةَ ، إلى أن ٱفتتحها عَنْوةً سنة ثلاث وأربعمائة ، وقتلوا المؤيَّد هشاما .

ثم جاء (علىُّ بن حَمُّود) وأخوه (قاسم) من الأدارسة : ملوك الغرب فى عساكرَ من البربر فملكُوا قُرْطبةَ سنةَ سبع وأربعمائة وقتلوا المستعين وأزالوا ملك بنى أُميَّةَ من الأَنْدَلُس ، وٱتصل ذلك فى خَلَفِهم سَبْعَ سنين .

ثم غلب علىَّ بن حَمُّود ، المرتَضى بالله عبدُ الرحمن بن محمد بن عبد الملك ، ٱبن المرتضى عبد الرحمن بن الناصر أمير المؤمنين .

ثم ٱجتمعوا على ردّ الأمر لبنى أُميَّة ، ثم وَلِىَ بعد ذلك المستظهِرُ بالله (عبدُالرحمن) ٱبن هشام بن عبد الجَبَّار فى رمضان سنة أربعَ عشرةَ وأربعمائة .

ثم غلب عليه المستكْفِى بالله (محمدُ بن عبدالرحمن) بن عبيد الله ، بن عبدالرحمن ، الناصر أمير المؤمنين .

ثم رجع الأمر إلى (يحيى بن علىّ) بن حَمُّود سنة ست عشرة وأربعمائة .

ثم بُويِع للمعتمد بالله (هِشَام بن محمد) أخى المرتَضى من بنى أُمَيَّة سنة ثمانَ عشرةَ وأربعمائة . وتُوفِّى بها سنةَ ثمانٍ وعشرين (٢) ، وٱنقطعتْ دولةُ الأُمَويَّة من الأندَلُس ، والله وارث الأرض ومَنْ عليها .

---

(١) الزيادة عن العبرج ٤ ص ١٥١ لتوضيح المقام .

(٢) فى "العبرج ٤ ص ١٥٢" ... ... وفر الى لاردة فهلك بها ... .

الطبقة السابعـــــة

(ملوك بنى حَمُّود من الأدارسة: ملوك الغَرْب)

كان فى جملة جماعة المستعين: سليمانَ بنِ الحكم الأُمَوىّ المتقدّمِ ذكرُه القاسمُ وعلىٌّ آبنا حَمُّود، بن ميمون، بن أحمد، بن علىّ، بن عبيد الله، بن عُمَر، بن إدريس بعد آنقراض دولتهم بفاس وآنتقالهم إلىٰ غُمَارةَ وقيام رياستهم بها؛ فعقد المستعينُ للقاسم علىٰ الجزيرة الخَضْراء من الأندَلُس؛ ولعلىّ علىٰ طَنْجَةَ وعملِها من بَرّ العُدْوة. وطمِعَتْ نفسُ علىِّ بنِ حمود صاحبِ طَنْجة فى الخلافة، وزعم أن المؤيَّدَ هشاما من بنى أُمَيَّةَ عند حصارهم إيَّاه كتب له بعهد الخلافة؛ فبايعُوه بالخلافة وأجاز إلىٰ مالَقَةَ فملكها، ودخل قرطُبَةَ سنة سبع وأربعمائة، وتلقب بالناصر لدين الله وآتصلتْ دولتهُ إلىٰ أن قتله صَقَالِبتُهُ بالحَمَّام سنة ثمـانٍ وأربعِمائة .

فوَلِى مكانَهُ أخوه (القاسمُ) بن حَمُّود الذى كان بطَنْجَةَ وتلقب بالمَأْمُون .

ثم غلبـه علىٰ ذلك (يحيىٰ آبنُ أخيـه علىّ) وزحف إلىٰ قُرْطبـةَ فملكها سـنة ثِنْتَىْ عشرةَ وأربعمائة وتلقب بالمُعْتَلِى، وكانت له وقائعُ كان آخرها أن آتفقُوا علىٰ تسليم المدائن والحُصون له ؛ فعَلَا سلطانه، وآشتدّ أمره، وأخذ فى حصار آبن عَبَّاد بإشْبِيلِيَةَ فكبا به فرسُه وقُتِل، وآنقطعت دولة بنى حَمُّود بقُرْطبةَ .

ثم آستدعىٰ قومه أخاه (إدريسَ) بن علىّ بن حَمُّود من سَبْتَة وطَنْجة فبايعوه علىٰ أن يُولِّى سَبْتَةَ (حَسَن آبن أخيه يحيىٰ) فتم له الأمْر بمالَقَة وتلقَّب بالمتأيد بالله، وبايعه أهل المَرِيَّة وأعمالها ورُنْدَة والجزِيرة، ومات سنة إحدىٰ وثلاثين وأربعمائة .

وبايع البربر بعـده (حَسَنَ بن يحيىٰ) المعتلى، ولقَّبوه المستنصِرَ، وبايعته غَرْناطةُ وجملةٌ من بلاد الأندَلُس، ومات مسموماً سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة .

وكان (إدريسُ بن يحييٰ) المعتلي معتقلا ، فأُخرج وبُويع له سنةَ تسع وثلاثين وأربعمائة ؛ وأطاعتــه غَرْناطةُ وقرمونة وما بينهما ، ولُقِّب العالى ؛ ثم قتــل محمدا وحسنا ابنَيْ عمّه إدريس ، فثار السُّودان بدعوة أخيهما محمدٍ بمــالَقَة فأسلَموه .

وبويع (محمد بنُ إدريسَ) المتأيِّد بمالَقَة سنةَ ثمان وثلاثين وتلقَّب بالمهدىّ ، وأقام بمالَقَة ، وأطاعتْه غَرْناطةُ وجَيّان وأعمالها ، ومات سنة أربع وأربعين وأربعمائة .

وبويـع (إدريسُ بن يحييٰ) بن إدريس المتأيِّد ولُقِّب الموفَّق ولم يُخْطَب له ؛ وزحف إليه إدريسُ المخلوعُ الملقب بالعالى آبن يحييٰ المعتلى من قمارش فبويع له بمالَقَة إلىٰ أن هلك سنةَ سبع وأربعين .

وبويـع (محمدُ الأصغرُ) آبنُ إدريسَ المتأيد ولُقِّب المستعلِيَ ، وخُطِب له بمالَقَة والمَريَّة ورُنْدة ، وهلك سنة ستين وأربعمائة .

وكان (محمدُ بنُ القاسم) بن حَمُّود قد لحق بالجزيرة الخضراء سـنةَ أربعَ عشْرَة وأربعمائة فملكها وتلقَّب بالمعتَصِم ، وبقِيَ بها إلىٰ أن مات سنة أربعين وأربعمائة .

ثم ملكها من بعده (آبنُه القاسم) ولُقِّب الواثِقَ ، وهلك سنة خمسين ، وصارت الجزيرة الخضراء للمعتَضِد بن عبَّاد ، وآنقرضتْ دولةُ بنى حَمُّود بالأندلُس .

الطبقـــة الثامنة

(مــلوك الطَّــوائِف بالأندلُس)

لمــا آضمحلَّ أمرُ الخِلافة من بنى أميَّةَ وبنى حَمُّود بعدهم بالأندلُس ، وثب الأمراءُ علىٰ الجهات ، وتفرّق مُلْكُ الأندلُس فى طوائفَ مِنَ المَوالى ، والوُزَراء ، وكِبار العرب والبربر ، وقام كلٌّ منهـم بأمرِ ناحيـةٍ ؛ وتغلَّب بعضُهم علىٰ بعض وضَعُف

أمُرهم حتّى أعْطَوُا الإتاوةَ لملوك الفَرَنْجـة من بنى أدفونش حتّى أدركهـم اللهُ بأمير المسلمين يُوسفَ بن تاشْفِين .

فأما إشْبِيلِيَةُ وغربُ الأنْدَلُس فاستولىٰ عليهما بنو عَبَّاد .

كان أوّلَهم القاضى أبُو القاسم (محمدُ بنُ ذى الوِزارتَيْنِ) أبى الوليد، بن إسماعيل، آبن قُرَيْش، بن عَبَّاد، بن عمرو، بن عمرو، بن أسْلَم، بن عمرو، بن عَطَّاف، بن نُعَيم اللخمى؛ وآستبدّ بإشْبِلِيَةَ بعد فِرار القاسم بن حَمُّود عن قُرْطُبَةَ، آنتزعها من آبن زيرى وكان واليًـا عليها من جهة القاسم بن حَمُّود المذكور، وبَقِىَ بها إلىٰ أن مات سـنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة .

ولمـا مات قام بأمره آبنه (عَبَّاد) وتلقب المعتضِدَ، وطالتْ أيامُه، وتغلب علىٰ أكثر المـالك بغرب الأندلُس، وبقِىَ حتّى مات سنة إحدىٰ وستين وأربعمائة .

وولى مكانه آبنُه (أبوالقاسم محمد) الملقَّب بالمعتَمِد؛ فجرىٰ علىٰ سَنَن أبيه وآستولىٰ علىٰ دار الخلافة بقُرْطبةَ من يد آبن جَهْوَر، وفرّق أبناءه علىٰ قواعد المُلْك، وآستفحل مُلْكُه بغَرْب الأندلُس، وغلب علىٰ مَنْ كان هناك من ملوك الطوائف؛ وبقِىَ حتّى غلب أميرُ المسلمين «يوسفُ بنُ تاشفين» علىٰ الأندلُس فقَبَض عليـه، ونقله إلىٰ أغْمات : قريةٍ من قُرىٰ مَرَّاكُش سـنة أربعٍ وثمانين وأربعمائة، وآعتقله بها إلىٰ أن هلك سنةَ ثمانٍ وثمانين وأربعمائة .

وأما قُرطبةُ فاستَوْلىٰ عليها بَنُو جَهْوَر . وكان رئيسَ الجماعة بقرطبـةَ أيامَ فتنة بنى أُمَيَّة، أبو الحزم (جَهْوَر بن محمد) بن جهور، بن عبد الله، بن محمد، بن الغمر[1]،

(١) فى العبرج ٤ ص ١٥٩ "المعمر" وهو تصحيف .

ٱبن يحيىٰ ، بن أبي المَعَافر، بن أبي عبيدة الكلبي . وأبو عبيدة هذا هو الداخلُ إلىٰ الأندَلُس ، وكانت لهم وزارة بقُرطبـةَ بالدولة العـامريَّة . ولمـا خلع الجنـد « المقتدرَ بالله »[1] آخرَ خلفاء بني أمية بالأندَلُس، ٱستبَدَّ جَهْور بالأمر وٱستولىٰ على المملكة بقرطُبَةَ سنة ثنتين وعشرين وأربَعِمائة ، وكان علىٰ سَنَن أهل الفضل ، فأسنَدُوا أمْرَهم إليه إلىٰ أن يُوجَد خليفةٌ ، ثم ٱقتصروا عليه فدَبَّر أمْرَهم إلىٰ أن هلك في المحرّم سنة خمس وثلاثين وأربعمائة .

ووَلِي مكانَهُ ٱبنه (أبو الوليـد محمد بن جهْوَر) فخلعه أهلُ قرطبة سـنة إحدىٰ وسـتين وأربَعِمائة ، وأخرجوه [ثم فوض التدبير إلى ٱبنه عبد الملك بن أبي الوليد فأساء السيرة فأخرجوه][2] عـن قُرْطُبـةَ ، فاعتُقِـل [بشلطيلش][3] إلىٰ أن مات سنة ثنتين وستين .

ووَلّى ٱبنُ عبَّاد علىٰ قرطبَة ٱبنَه (سِرَاجَ الدَّوْلة) وقتله ٱبنُ عُكَّاشـة سنة سبع وستين ، ودعا لٱبن ذي النُّون (يحيىٰ بن إسماعيل) وقدمها ٱبنُ ذي النُّون من بلَنْسِيَة وقتل بها مسموما[4] .

وزحف المعتمدُ بنُ عَبَّاد بعد مَهْلَكه إلىٰ قرطُبَةَ ، فملكها سنةَ أربع وثمـانين وأربعمائة .

(١) في "العبر ج ٤ ص ١٥٩" المعتز وتقدم للمؤلف أن آخرهم المعتمد .

(٢) الزيادة من القطعة الأزهرية .

(٣) الزيادة من العبر ج ٤ ص ١٥٩ .

(٤) يؤخذ من "العبر ج ٤ ص ١٥٩" أن الذي قتل مسموما هو سراج الدولة .

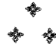

وأما بَطَلْيَوْس، فكان بها عند فِتْنة بنى أُمَيَّـة بالأندَلُس أبو محمد (عبدُ الله بن مَسْلمة) التُّجِيبى المعروف بآبن الأفْطَس، وآستبدّ بها سنةَ إحدىٰ وثلاثين وأربعمائة، ثم هلك .

فولِىَ من بعده آبنُه المظفَّر (أبو بكر) وعَظُم مُلْكه . وكان من أعظم ملوك الطوائف، ومات سنة ستين وأربعمائة .

ووَلِىَ بعده آبنُه المتوكِّل (أبو حَفْص عمرُ) بن محمد المعروف بساجةَ، ولم يزل بها إلىٰ أن قتله «يوسفُ بنُ تاشفين» سنة تسع وثمانين وأربعمائة باغراء آبن عَبَّاد به .

وأما غَرْناطةُ[1]، فملكها أيامَ الفتنـة (زارى بن زِيرِى) بن مَنَّاد ؛ ثم آرتحل إلىٰ القَيْروان وآستخلف علىٰ غَرْناطة آبنَه ؛ فبدا لأهل غَرْناطة أن بعثُوا إلىٰ آبن أخيه (حبوس بن ماكسن) بن زِيرِى من بعض الحصون، فوصل وملك غَرْناطةَ وآستبدّ بها، وتُوفِّى سنةَ تسع وعشرين وأربعمائة .

وولى مكانه آبنُه (باديس) وكانت بينه وبين بَنِى عَبَّاد حروب، وتُوفِّىَ سنةَ سبع وستين وأربعمائة .

ووَلِىَ حافدُهُ المظفَّر أبو محمد (عبدُالله بنُ بُلُكِّين بن باديس) وولّى أخاه تميماً بمالَقَة بعهد جدّه إلىٰ أن خلعهما «يوسف بن تاشفين» سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة .

(١) من هنا إلى قوله وأما طليطلة مضبب عليـه فى القطعة الأزهرية وآقتصر على ماسيأتى فى الكلام على غرناطة قبيل الطبقة التاسعة .

وأما طُلَيْطِلَةُ ، فاستولى عليها بَنُو ذى النُّون . وذلك أن الظافر إسماعيل بنَ عبد الرحمن بن ذى النون الهوّارى [تغلب](١) أيام الفتنة على حصن أُقُلُنتين سنة تسع وأربعمائة ، وكانت طُلَيْطِلَة ليَعِيشَ بن محمد بن يَعِيش وليها فى أوّل الفتنة ، فلما مات سنةَ سبع وعشرين مضى إسماعيل الظافر إلى طُلَيْطِلَة فملكها ، وآمتدّ مُلْكُه إلى جنجالة(٢) من عمل مُرْسِيَةَ ، ولم يزل بها إلى أن هلك سنة تسع وعشرين .

فولِىَ مكانه آبنُــه المأمونُ (أبو الحسن يَحيىٰ) فآستفحل مُلْكه ، وعَظُم بين ملوك الطوائف سلطانُه ، ثم غلب على بَلَنْسِيَةَ وقرطُبَةَ ، ومات مسموما سنةَ سبعٍ وستين وأربَعِمائة .

ووَلِىَ بعــده على طُلَيْطِلَةَ حافدُه (القادر يحيىٰ) بن إسماعيلَ بن المأمون يحيىٰ بن ذى النون ،

وكان الطاغيــةُ أدفونش ملك الفَرَنج بالأندَلُس قد آستفْحل أمْرُهُ عنــد وقوع الفتنـــة بيــن ملوك الأندَلُس فضــايق آبنَ ذى النون حتّى تغلّب على طُلَيْطِلَةَ وخرج له عنها (القادر يحيىٰ) سنة ثمــان وسبعين وأربعمائة ، وشرط عليه أن يُظاهِرَه على أخذ بلَنْسِيَةَ ، فقبل شرطه وتسلَّمها الأدفونش ملكُ الفَرَنج ، وبقيت معه إلى الآن أعادها الله تعالى إلى نِطَاق الإسلام .

وأما شاطِبَــةُ وما معها من شرق الأندَلُس ، فاســتولى عليها العامريون . بويع للنصور (عبد العزيز) بن الناصر عبدالرحمن بن أبى عامر بشاطبةَ سنةَ إحدىٰ عشرةَ

(١) الزيادة عن العبر ج ٤ ص ١٦١

(٢) لعلها جنجيال .

وأربعمائة، أقامه الموالى العامريُّون عند الفتنة البربرية فى زمن بَنِى أُمَيَّةَ، فاستبدّ بها، ثم ثار عليه أهلُ شاطبةَ فترك شاطبةَ ولَحِق ببَلَنْسِيَةَ فملكها، وفوّض أمره للموالى .

وكان (خَيْرانُ العامرىُّ) من مَوَالِيهم قد تغلّب قبلَ ذلك علىٰ أَرْبُونَةَ سنة أربع وأربعمائة ، ثم ملك مُرْسِيَةَ سنة سبع، ثم جَيَّانَ والمَرِيَّة سنة تسع ؛ وبايعوا جميعا للمنصور عبد العزيز . ثم ٱنتقض خَيْرانُ علىٰ المنصور وسار إلىٰ مُرْسِيَةَ وأقام بها ٱبنَ عمّه (أبا عامر محمدَ بنَ المظفَّر) بن المنصور بن أبى عامر ؛ وجمع المَوالىَ علىٰ طاعته، وسماه (المؤتمن) ثم (المعتصم) ثم أخرجه منها ؛ ثم هلك خَيْرانُ سنة تسع عشرة وأربعمائة .

وقام بأمره بعده الأمير (عميدُ الدولة أبوالقاسم زُهَير العامرىّ) وزحف إلىٰ غَرْناطةَ فبَرَز إليه باديسُ بن حيوس فقتله بظاهرها سنةَ تسع وعشرين وأربعمائة، وصار ملكه للمنصور (عبد العزيز) صاحب بَلَنْسِيَةَ .

وكان قائده صُمَادِح وٱبنه مَعْن يتولّيان حروبه مع مجاهد العامرىّ صاحب دانِيَةَ، فولّى علىٰ المَرِيَّة (مَعْنَ بن صُمَادح) سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة، وغزا المَوالِىَ العامريِّين بشاطِبةَ فغلبهم عليها .

وولّى علىٰ بَلَنْسِيَةَ ٱبنَه (عبد الملك) فقام بأمره وجاهد المأمون بن ذى النون فغلبه علىٰ بلنسية وانتزعها منه سنة سبع وخمسين .

ولما مات المأمون وولى حافده القادر علىٰ ماتقدّم ذكره ولّى علىٰ بلَنْسِيَةَ (أبا بكر) ٱبن عبد العزيز بقيَّة وزراء ٱبن أبى عامر، فحسّن له ٱبنُ هود الآنتقاضَ علىٰ القادر، ففعل وٱستبدّ بها سنةَ ثمان وستين وأربعمائة حين تغلّب المقتدرُ علىٰ دانِيَةَ ، ثم هلك لسنة ثمان وسبعين لعشر سنِين من وِلَايته .

وولِيَ ٱبنُه القاضى (عثمان) فلما سلَّم القادرُ بنُ ذى النون طُلَيْطلةَ للأدفونش وزحف إلىٰ بلَنْسيةَ، خلعوا القاضى عثمانَ خوفًا من ٱستيلاء ملك الفَرَنْج عليها .

ثم ثار علىٰ القادر سنةَ ثلاث وثمانين القاضى (جعفرُ بنُ عبد الله) بن جِحَّاف ، فقتله وٱستبدّ بها، ثم تغلب النصارىٰ عليها سنةَ تسع وثمانين وقتلوه، ثم جاءهم (يوسفُ بن تاشفين) .

وأما مَعْنُ بن صُمَادح قائد عبدالعزيز بن أبى عامر، فإنه أقام بالمَرِيَّة لما وَلَّاه المنصور سنة ثلاث وثلاثين، وتسمَّى ذا الوزارتين ، ثم خلعه .

ووَلِىَ ٱبنه (المعتصم أبا يحيى محمد بن معن بن صُمَادح) سنةَ أربع وأربعين، ولم يزل بها أميرا إلىٰ أن مات سنة ثمانين وأربعمائة .

ووَلِىَ ٱبنه (أحمد) و بقِىَ حتّى خلعه يوسفُ بن تاشفين .

وأما سَرَقُسْطَةُ والثَّغْر فاستولىٰ عليهما بقية بنى هُود ، إذ كان مُنْذِر بنُ يحيىٰ بنِ مطرِّف، بن عبد الرحمن ، بن محمد ، بن هاشم التُّجِيبيّ صاحبَ الثَّغر الأعلىٰ بالأندلُس ،وكانت دارُ إمارته سَرَقُسْطةَ . ولما وقعت فتنة البربر آخِرَ أيام بنى أُميَّةَ، ٱستقل (مُنْذِر) هذا بسَرَقُسْطةَ والثغر، وتلقب بالمنصور، ومات سنة أربعَ عشرةَ وأربعمائة .

ووَلِىَ مكانه ٱبنُه (يحيىٰ) وتلقب بالمظَفَّر .

وكان أبو أيُّوب (سليمانُ بن محمد) بن هُود بن عبدالله بن مُوسىٰ، مولىٰ أبى حُذَيفة الجُذَامىّ من أهل نسبهم مستقِلّا بمدينة (تُطِيلَة) و (لارِدَة) من أوّل الفتنة . وجدُّهم

هُودٌ هو الداخل إلى الأندلس . فتغلَّب سليمانُ المذكورُ على المظفَّر يحيى بن المُنْذِر وقتله سنةَ إحدى وثلاثين وأربعمائة، وملك سَرَقُسْطَةَ والثغر من أيديهم ، وتحوّل إليها، وتلقّب بالمستعين وآستفحل مُلْكُه، ثم ملك بَلَنْسِيَةَ ودانِيَةَ . وولّى على لارِدَةَ آبنَه (أحمدَ المقتدرَ) ومات سنة ثمان وثلاثين وأربعمائة .

فولى آبنُه (أحمدُ) الملقّب بالمقتدر سَرَقُسْطَةَ وسائر الثغر الأعلى ، وولّى آبنَه (يوسفَ) الملقب بالمظفر لارِدَةَ . ومات أحمدُ المقتدر سنةَ أربع وسبعين لتسع وثلاثين سنةً من مُلْكه .

فولى بعده آبنُه (يوسفُ المؤتمنُ) وكان له اليدُ الطُّولى فى العلوم الرياضية، وألف فيها التآليف الفائقة، مثل "المناظر" و"الآستكمال"(١) وغيرهما؛ ومات سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

ووَلِىَ بعده آبنُه (أحمدُ) الملقبُ بالمستعين، ولم يزل أميرا بسَرَقُسْطة إلى أن مات شهيدا سنةَ ثلاثٍ وخمسمائة فى زَحْف ملك الفَرَنج إليها .

ووَلِىَ بعده آبنُه (عبدُ الملك) وتلقّب عِماد الدولة، وزحف إليه الطاغيةُ أدفونش ملك الفَرَنج فملك منه سَرَقُسْطةَ وأخرجه منها ، وآستولى عليها سنةَ ثِنْتَىْ عشرةَ وخمسمائة، ومات سنة ثلاثَ عشرةَ .

ووَلِىَ آبنُه (أحمدُ) وتلقّب سيفَ الدولة والمستَنْصِر، وبالغ فى النِّكاية فى الطاغية ملكِ الفَرَنج، ومات سنة ست وثلاثين وخمسمائة .

وكان من ممالك بنى هُودٍ هؤلاء طُرْطُوشة، وقد كان مَلَكَها (مقاتِلٌ) أحدُ المَوالى العامريين سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، ومات سنة خمس وأربعين .

---

(١) الذى فى العبر ج ٤ ص ١٦٢ "الاستهلال" .

وملكها بعده (يَعْلى العامرىّ) ولم تطُل مدته .

وملكها بعده (نبيل) (١) أحدهم إلىٰ أن نزل عنها لعماد الدولة (أحمد بن المستعين) سنة ثنتين وخمسين وأربعمائة، فلم تزل فى يده ويد بَنِيه بعده إلىٰ أن غلب عليها العدوّ المخذول فيما غَلَب عليه من شرق الأندلُس .

وأما دانِيَةُ ومَيُورْقة ، فاستولىٰ عليهما (مُجاهِدُ بن على) بن يوسف مولىٰ المنصور ٱبن أبى عامر؛ وذلك أنه بعد الفتنة كان قد ملك طُرْطُوشة ثم تركها وسار إلىٰ دانِيَةَ وٱستقرّ بها، وملكَ مَيُورْقة [ومَنُورقة] وبَيَّاسة، وٱستقل بملكها سنةَ ثلاثَ عشرةَ وأربعمائة، وولّى عليها ٱبنَ أخيه (عبدالله) ثم ولّى عليها بعد ٱبن أخيه مولاه (الأغلب) سنة ثمـانٍ وعشرين وأربعمائة . وهلك مجاهدُ سنةَ ستٍّ وثلاثين وأربعمائة .

ووِلَى ٱبنُه (علىّ) وتلقَّب إقبالَ الدولة، ودام ملكه ثلاثا وثلاثين سنةً ، ثم غلبه المقتدرُ بن هُودٍ علىٰ دانية ســنةَ ثمـانٍ وستين وأربعمائة ونقله إلىٰ سَرَقُسْطَةَ ، فمـات قريبا من [وفاة المقتدر] (٢) سنة أربع وسبعين وأربعمائة؛ وبقِيَ الأغلبُ مولىٰ مجاهد علىٰ مَيُورْقة ؛ وكان كثير الغزو فى البحر فاستـأذن علىَّ بنَ مجـاهد فى الغزو ، وٱستخلف علىٰ مَيُورقة صهره سليمان بن مشكيان نائبا عنه فأقام سليمانُ خَمْسَ ســنين ثم مات فولّى علىّ بن مجاهد مكانَهُ (مبَشرا، وتسمّى ناصرالدولة) فأقام خَمْسَ سنين، وٱنقرض ملك علىّ بن مجاهـد وتغلب عليه المقتدر بن هُودٍ فاستقلّ (مبَشر) بمَيُورْقَةَ ولم يزل يُرَدِّد الغزوَ الى بلاد العدوّ حتّى جمع له طاغيةُ بَرْشَلُونة وحاصره بمَيُورقة عشرة

(١) فى "العبرج ٤ ص ١٦٣" شبايل .

(٢) الزيادة من "العبرج ٤ ص ١٦٥".

أشهر، ثم اقتلعها منه واستباحها سنة ثمان وخمسمائة ؛ وكان مبشر قد بعث بالصَّريخ إلىٰ (علىّ بن يوسف) صاحب المغرب، فلم يواف أسطوله بالمَدَد إلا بعدَ تغلُّب العدُوّ عليها وموت مبشر؛ فلما وصل العساكر والأسطول دفعوا عنها العدو وولّى علىَّ بنُ يوسف عليها من قبله (وانّود بن أبى بكر اللّمتونى) ثم عَسَف بهم فولّى عليها (يحيىٰ بن علىّ بن إسحاق) بن غانية صاحب غَرْب الأندلُس فبعث إليها أخاه (محمد بن علىّ) فأقام فى وِلايتها عشر سنين إلىٰ أن هلك أخوه يحيىٰ، وسلطانُهم علىّ بن يوسف وآستقرت مَيُورْقة فى ملك بنى غانِيَة وكانت لهم بها دَوْلة ثم ملكها الموحّدون وآنقرض أمرُ بَنِى غانِيَة و بقيتْ فى أيدى الموحِّدين حتى ملكها الفَرَنج من أيديهم آخِرَ دولتهم .

وأما غرناطة فاستولىٰ عليها (زارى بن زيرى) بن ميّاد الصنهاجى ، ثم عنّ له أنْ قدِم علىٰ المعزّ بن باديس صاحب أفريقية وهو حفيد أخيه بُلُكّين ، فقدم عليه وآستخلَف مكانَه بغَرْناطة ابناً له فأساء السيرةَ فيهم فأرسلوا إلىٰ آبن عمه حبّوس بن ماكسن بن زيرِى فحضر إليهم فبايعوه ، وعظُم فيها سلطانُه إلىٰ أن مات سنة تسع وعشرين وأربعِمائة .

وولى من بعده آبنه (باديس بن حبّوس) وتلقب بالمظفَّر، وهو الذى مصَّر غرناطةَ وآختطّ قصَبتَها وشيد قصورَها وحصَّن أسوارها ، ومات سنة سبع وسبعين وأربعِمائة ، وقد ظهر أمرُ المرابطين بالمغرب .

وولِىَ من بعده حافده (عبد الله بن بُلُكّين) بن باديس فبقىَ بها إلىٰ أن أجاز يوسف بن تاشفين إلىٰ الأندلُس ، ونزل بغَرْناطة سنةَ ثلاث وثمانين وأربعمائة فقبض علىٰ عبدالله المذكور .

الطائفة التاســـعة

(ملوك المرابطين من لمتونة : ملوك الغرب المتغلبين على الأندلس)

لما غلب أمير المسلمين (يوسف بن تاشـفين) أمير المرابطين على بلاد المغرب وآســتولى عليها، وكان الأندلس قد تقسّم بأيدى ملوك الطوائف كما تقـدم، وكان الطاغية آبن الأدفونش ملك الجلالقة قدطمع فى بلاد الأندلس، بعث أهل الأندلس إلى أمير المسلمين يستصرخون به فلبّى دعوتهم وسار إلى الأندلس .

ونزل الجزيرة الخضراء فى ســنة تسع وسبعين وأربعمائة ودفع الأدفونش ، وسار تارة ببلاد المغرب وتارة ببلاد الأندلس، وملك إشْبِيلِيَة وبَلَنْسِيَة، وآستقلّ (عبد الله بن بُلُكِّين) عن غرناطة وأخاه تميما عن مالَقَــة وغلب المعتمدَ بنَ عبَّاد على جميع عمله وآستنزل آبنَه المأمونَ عن قُرْطُبَــةَ وآبنَه الراضىَ عن رُنْدة وقَرَمونة، وآنتزع بَطَلْيَوْس من صاحبها عُمَر بنِ الأفطس ، وآنتزع عامّة حصون الأندَلُس من أيدى ملوك الطوائف ، ولم يبقَ منها إلا سَرَقُسْــطَةُ فى يد المســتعين بنِ هُود ، وآنتظمت بلاد الأندَلُس فى ملكه وآنقرض مُلْكُ الطوائف أجمعَ منهــا ، وآستولى على العُــدْوتين وخاطب المستظهِرَ الخليفةَ العباسىَّ ببغــداد فى زمنه فعقد له على المغرب والأندَلُس وكتب له بذلك عهدا وأرسله إليه، ولم يزل الأمرُ على ذلك حتّى تُوفِّى سنة خمسمائة .

وقام بالأمر بعده آبنه (علىّ بنُ يوسفَ) وفى أيامه تغلب الأدفونش على سَرَقُسْطَةَ وآستولى عليها .

وعقد علىٌّ بن يوسف لولده (تاشفين) على غرب الأندلس سنة ستٍّ وعشرين وخمسمائة وأنزله قُرْطبةَ و إشبيليَةَ، وعقد (لأبى بكر بن ابراهيم) على شرق الأندلُس وأنزله بلَنْسِيَةَ، وعقد (لآبن غانية) على الجزائر الشرقية : دانيةَ ومُيورقة ومنورْقة .

وبقي الأمر على ذلك إلى أن غلب الموحّدون على بلاد المغرب وآنتزعوها من يد تاشفين آبن علي في سنة إحدى وخمسين وملكوها .

ثم عقد عبد المؤمن أمير الموحدين لآبنه (أبي يعقوب) على إشبيليَةَ، ولآبنه (أبي سعيد) على غرناطة ثم كانت أيام يوسف بن عبد المؤمن فغزا الأندلس، ثم رجع إلى إشبيليَةَ سنة ثمانٍ وستين وولّى عمّه (يوسف) على بَلَنْسِيَةَ، وعقد لأخيه (أبي سعيد) على غَرْناطَةَ، وعقد على قرطبة لأخيه (الحسن) وعلى إشبيلية لأخيه (عليّ) . ثم عقد (لأبي زيد) آبن أخيه أبي حفص على غَرْناطة ولآبن أخيه أبي محمد عبد الله بن أبي حفص على مَالَقَة . ثم عقد لآبنه أبي إسحق على إشبيلية ولآبنه يحيى على قرطبة، ولابنه أبي يزيدَ على غَرْناطة ولابنه أبي عبد الله على مُرْسِيَةَ . وقتل في قتال النصارى في صفر سنةَ ثمان وسبعين وأربعمائة .

وولي آبنه (أبو يعقوبَ) ورغب آبنُ أدفونش في مهادنته فهادنه . وعقد على إشبيلية للسيد أبي زيد بن الخليفة، وعلى بطَلْيَوْسَ لأبي الربيع بن أبي حفص، وعلى غرب الأندلس لأبي عبد الله بن أبي حفص. ورجع إلى مرّاكش سنة أربع وتسعين وخمسمائة ومات بعدها .

ووليَ آبنه الناصر (محمد بن المنصور) ونزل إشبيليَةَ، وذلك في صفر سنة تسع وستمائة ثم رجع إلى مرّاكُش فمات بها .

ووليَ بعده آبنه (المستنصر يوسف) وكان الوالي بمُرْسِيَةَ أبا محمد عبد الله بن المنصور فدعا لنفسه، وتسمّى بالعادل، وكان اخوته أبو العلاء صاحب قرطبة وأبو الحسن صاحب غرناطة وأبو موسى صاحبَ مالَقَة فبايعوه سِرّا وخرج من

مُرْسِيَة إلىٰ إشبيلية فدخلها و بعث إليه الموحدون بالبَيْعة ، ودخل مرّاكُش فكانت بالأندلُس فِتَن آخرها أن ثار ٱبن هود علىٰ الأندلُس وٱستولىٰ [عليه] وأخرج منه الموحدين .

الطائفة العاشرة

(بنو الأحمر ملوك الأندلس إلىٰ زماننا هذا)

وقد تعرض القاضى شهابُ الدين بن فضل الله إلىٰ الذى كان فى زمانه منهم وهو (يوسف) ولم يَنْسُبْه غير أنه قال : إنه من ولد قَيْس بن سعد بن عُبَادة . ثم ذكر أنه فاضل ، له يد فى الموَشَّحات .

وٱعلم أن بنى الأحمر هؤلاء أصلهم من أَرْجُونة من حصون قُرْطبة وينْتسِبون إلىٰ سعد بن عُبَادة سيد الخَزْرج ، ولم أقف علىٰ نسبهم إليه ، و يعرفون بِبَنِي نصر ؛ وكان كبيرهم آخِرَ دولة الموحدين الشيخُ أبو دَبُّوس (محمدُ بن يوسف) بن نصر المعروف بابن الأحمر وأخوه إسماعيل ؛ وكان لهما وَجَاهة ورِياسة فى تلك الناحية .

ولما ضَعُف أمر الموحِّدين بالأندلس وٱستقلّ بالأمر محمدُ بن يوسفَ بن هُودٍ الثائر بمُرْسِيَة وقام بدعوة العبَّاسيَّة بالأندلُس وتغلب علىٰ جميع شرق الأندلُس ، ثار محمدُ بنُ يوسفَ بنِ نصر : جدُّ بنى الأحمر علىٰ محمد بنِ يوسفَ بن هود ؛ و بُويِع له سنةَ تسع وعشرين وستمائة ، علىٰ الدعاء للأمير أبي زكريَّا يحيىٰ صاحبِ أفرِيقيَّة من بقية الموحدين ، وأطاعته جَيَّانُ وشَرِيش فى السنة الثانية من مبايعتِه . ثم بايع لآبن هودٍ سنةَ إحدى وثلاثين عند وصول تقليد الخليفة من بغداد لآبن هود . ثم تغلب علىٰ إشبِيلِيَةَ سنة ثنتين وثلاثين ، واستُعِيدت منه بعد شهر ورجعت لآبن هود

[ثم تغلب] (١) على غَرْناطةَ سنة خمس وثلاثين، و بايعُوه وهو بجَيَّان، فقدِم إليها ونزلها وٱبتنى بها حِصْن الحمراء منزِلًا له، وهو المعبَّر عنه بالقصبة الحمراء : وهى القلعة؛ ثم تغلب على مالَقَةَ وأخذها من يد عبد الله بن زنون الثائر بهـا بعد مَهْلَك ٱبن هود؛ ثم أخذ المَرِيَّةَ من يد محمد بن الرميمى وزيرِ ٱبن هود الثائر بها سنةَ ثلاث وأربعين . ثم بايعه أهلُ لُورْقة سنةَ ثلاثٍ وستين [وٱنتزعها] ممن كانت بيده . وفى أيامه وأيام ٱبن هود الثائر ٱستعاد العـدوُّ المخذُولُ من المسلمين أكثَرَ بلادِ الأندلُس وحُصونِه، وهى بيدهم إلى الآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

و بقِيَ حتّى مات سنة إحدى وسبعين وستمـائة .

وقام بأمره من بعده ٱبنُه الفقيهُ (محمد) ابن الشيخ محمد بن يوسف، وٱستجاش بنى مَرِينٍ ملوكَ المغرب على أهل الكُفْر فلبَّوْه بالإجابة؛ وكانـ لهم مع طاغيـة الكُفْر وقائعُ أبلغت فيهم التأثيرَ، وبلغتْ فيهـم حدَّ النِّكاية، و بقِيَ حتّى هلك سنة إحدى وسبعمائة .

ووليَ من بعده ٱبنُه (محمد المخلوع) ابن محمد الفقيه .

ثم غلب عليـه أخُوه (أبو الجُيُوش نصر بن محمد) الفقيه، وٱعتقله سنة ثمـانٍ وسبعمائة، وٱستولى على مملكته، فأساء السِّيْرة فى الرعية، والصُّحْبةَ لمن عنـده من غُزَاة بنى مَرِينٍ .

فبايعُوا (أبا الوليد إسماعيل) ٱبن الرئيس أبى سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف ٱبن نصر، وزحف من مالَقَةَ إلى غَرْناطةَ، فهزم عساكر أبى الجُيُوش، فصالحه على الخروج إلى وادِياش ولحق بها، فجدّد له بها مُلْكا إلى أن مات سنةَ ثنتين وعشرين

(١) الزيادة عن العبر ج ٤ ص ١٧٠ .

وسبعمائة(١)، فدخل أبو الوليد إلى غَرْناطةَ وملكها ، وكان بينه وبين مَلِك قَشْتالةَ من ملوك النصارى واقعةٌ بظاهر غَرْناطةَ ظهرت فيها مُعْجِزةٌ من معجزات الدِّين لغلبة المسلمين مع قِلَّتهم المشركين مع العَـدَد الكثير، وغدر به بعض قَرَابته من بني نصر فطعنه عِنْد ماانفَضَّ مَجْلِسُه بباب داره فقتله .

وبُويع لآبنه (محمد بن أبي الوليد إسماعيل) فاستولى عليه وزيرُه محمدُ بن المحروق، وغلب عليه حتّى قتـله بمجلسه غَدْرا في سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وآستبدّ بأمر مُلْكه، وآستجاش بَنِي مَرِينٍ على طاغية الكُفْر حتّى آسترجع جبل الفَتْح من أيديهم سنة ثلاثٍ وثلاثين وسبعمائة(١)، وغدرُوا به بعد رجوعه من الجبل المذكور إلى غَرْناطةَ فقتلوه بالرِّمَاح .

وقدّموا مكانه أخاه (أبا الحجاج يوسفَ) بنَ أبي الوليد إسماعيل وهو الذى ذكر في التعريف أنه كان في زمانه . وفي أيامه تغلب النصارى على الجزيرة الخَضْراء، وأخذوها صُلْحا سـنة ثلاث وأربعين بعد حروب عظيمة ، قُتِل ولدُ السلطان أبي الحسن المَرِينِيّ في بعضها وكان هو بنفسه في بعضها . ولم يزل حتّى مات يومَ الفطر سنةَ خمس وخمسين وسبعمائة(١)، طُعِن في سجوده في صلاة العيد، وقُتِل للحِينِ قاتلُه .

ووَلِيَ مكانه آبنُه (محمدُ بن يوسف) وقام بأمره مولاهم رِضوانُ الحاجبُ [فغلبه عليـه وحجبه . وكان أخوه إسماعيل ببعض قصور الحمراء وكانت له ذِمَّة وصِهْر من محمد بن عبدالله بن إسماعيل بن محمد آبن الرئيس أبي سعيد، فسلط محمد هذا بعض الزَّعَانفة فتسوّر حصنَ الحمراء على الحاجب فقتـله ، وأخرج صهره إسماعيل ونَصَّبه

---

(١) في الاصل ستمائة وهو خطأ .

للملك[1]] وخلع أخاه السلطان محمدا ، وكان بروضة خارج الحمراء ففر إلى السلطان أبي سالم بن أبي الحسن المَرِينيّ : ملِكِ المغرب فأحسن نُزُله وأكرمه .

وآستقلّ أخوه (إسماعيلُ بنُ يوسف) بالمُلْك في ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان المعظم قَدْرُه ، سنة ستين وسبعمائة ، وأقام السلطان إسماعيل في المُلْك بالأندلُس إلى أن مات أوّل سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

وأُقِيم مكانَهُ أبو الحجاج (يوسف بن إسماعيل)[2] وبايعه النـاسُ ومات سنة أربع وتسعين وسبعمائة .

وبويع آبنه (محمد) وهو محمد بن يوسف بن محمد المخلوع بن يوسف بن إسماعيل آبن الرئيس أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن يوسف بن نصر ، وقام بأمره محمد الخصاصي القائد من جماعة أبيه ، وقد شغل اللهُ طاغيةَ الكفر بما وقع بينه وبين أخيه من الفِتَن المستأصِلة ، فامتنع صاحبُ الأندلُس عمّا كان يؤدّيه من الإتاوة للنصارى في كل سنة ، وآمتنع ذلك من آستقبال سنة ثنتين وسبعين وسبعمائة وإلى هذا الوقت . ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ المُؤمِنِينَ القِتَالَ ﴾ .

وآعلم انه لما آفتتح المسلمون الأندلُس ، أجفلت أُمَمُ النصرانية أمامهم إلى سِيفِ البحر من جانب الجَوْف ، وتجاوَزُوا الدُّروب من وراء قَشْتالَةَ ، وآجتمعوا بجِلِّيقِيَّةَ ومَلَّكوا عليهم (بلاية بن قاقلة) فأقام في الملك تِسعَ عشرةَ سنة ، وهلك سنةَ ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة .

(١) الزيادة عن العبر ج ٤ ص ١٧٤ باختصار ليستقيم الكلام . وفي القطعة الأزهرية ... ... رضوان حاجب أبيه وعمه فأقام خمس سنين ، ثم داخل أخوه اسماعيل من قتل رضوان الحاجب وخلع الخ

(٢) لعله يوسف بن محمد كما يؤخذ من اسم ولده الآتي .

وولِيَ ٱبنُه (قاقلة) سنتين ثم هلك ، فولَّوْا عليهم بعده (أدفونش بن بَطْرة) من الجلالقة أو القُوط ، وٱتصل الملك فى عقبه إلىٰ الآن ، بجمعهم أدفونش المذكورُ علىٰ حماية مابقِيَ من أرضهم بعد ماملك المسلمون عامّتها ، وٱنتهَوْا إلىٰ جِلِّيقِيَّة ، وهلك سنة ثنتين وأربعين ومائة لثمانَ عشرةَ سنةً من مُلْكه .

وولى بعده ٱبنُـه (فَرُّويلة) إحدىٰ عشرةَ سنةً قوِيَ فيها سلطانه ، وقارنه ٱشتغالُ «عبدِ الرحمن الداخل» : أوّلِ خُلفاء بنى أمية بتمهيد أمره ، فاسترجع مدينة لُكّ ، وبُرْتُقال ، وسَمُّورة ، وسلمنقة ، وشقوبية ، وقَشْتالة ، بعد أن فتحها المسلمون وصارت فى مملكتهم ، وهلك سنة ثنتينِ وخمسين .

وولِيَ ٱبنُه (أَوْربن فَرُّوَيْلة) ست سنين ، وهلك سنة ثمان وخمسين .

وولِيَ ٱبنُه (شبلون) عشْرَ سنين ، وهلك سنة ثمان وستين .

فولَّوْا من بنى أدفونش مكانَهُ رجلا ٱسمه (أدفونش) فوثب عليه (مورفاط) فقتله وملك مكانَه سبعَ سِنين .

ثم وَلِيَ منهم آخَرُ ٱسمه (أدفونش) ثنتين وخمسين سنةً ، وهلك سنةَ سبع وعشرين ومائتين .

فولِيَ ٱبنه (رُدْمير) وٱتصل الملك فى عقبه علىٰ التوالى إلىٰ أن ولى منهم (رُدْمِير) بن أردون آخر ملوكهم المستبدِّين بأمرهم . قال ٱبن حيان : فى "تاريخ الأندلُس" : وكانت ولايته بعد ترهُّب أخيه أدفونش الملكِ قبله ، وذلك سنة تسع عشرة وثلثمائة فى زمن الناصر الأُمَوِىّ الخليفةِ بالأندلُس ، وتهيأَ للناصر الظهورُ عليه إلىٰ أن كانت وقعةُ الخَنْدق سنةَ سبع وثلاثين وثلثمائة ، وحصل للمسلمين فيها الٱبتلاءُ العظيم ، وهلك ردمير سنةَ تسع وثلاثين وثلثمائة .

وولِىَ أخوه (شانجة) وكان مُعْجبا تيَّاها فوهَنَ مُلْكه ، وضَعُف سلطانه ، ووثب عليه قَوَامِسُ(١) دَوْلته – وهم وُلاةُ الأعمال من قِبَل الملك الأعظم – فلم ينتظِمْ لبنى أدفونش بعدها مُلْك مستقِلٌّ فى الجَلَالِقة إلا بعدَ حِين ، وصاروا كمُلوك الطوائف .

قال ٱبن حيان : وذلك أن فُرُدُلَنْد قَوْمَس أُلْيَةَ والقِلاع – وكان أعظمَ القَوَامس – ٱنتقض على شانجةَ المتقدّم ذِكْرُه ، ونَصَّب للملك مكانَه ٱبن عمه (أردون بن أدفونش) وٱستبدّ عليه ، فمالت النصرانيــة عن شانجة إليه ، وظاهَرَهم ملك البشكنس على شانجة ، ووفد شانجةُ على الناصر الأُمَوىّ بقُرْطبةَ صريخا ، فجهَّز معه عساكِرَ وٱستولى على سَمُّورة فملكهــا وأنزل المسلمين بهــا ؛ وٱتصلتِ الحربُ بين شانجــة وفُرُدُلَنْد القَوْمس . وفى خلال ذلك ولِىَ الحَكَم المستنصرُ الأموىّ ؛ ثم هلك شانجة بن أدفونش ببَطَلْيَوْس .

وقام بأمرهم بعده ٱبنه (ردمير) وهلك أيضا فُرُدُلَنْد قومسُ أُلْيَةَ والقِلاع ؛ وقام بأمره بعــده ٱبنه غرسية ، ومات الحَكَم المستنصر فقوِىَ سلطانُ ردمير ، وعظُمت نِكَايتُــه فى المســلمين إلى أن قَيَّضَ الله لهم المنصورَ بنَ أبى عامر حاجبَ هشام ؛ فأثْخن فى عَمَل ردمــير وغزاه مِرارًا وحاصره ؛ وٱفتتح (شَنْتَ مانكس) وخربهــا فتشاءمت الجَلَالِقَةُ بردمير ، ورجع إلى طاعة المنصور ســنة أربع وسبعين وثلثمائة ؛ وهلك على أثَرِها(٢) ، فأطاعت أمه .

وٱتفقت الجَلَالِقةُ على (بُرْمُنْــد بن أردون) فعقد له المنصور على سمورة وليون وما ٱتصل بهما من أعمــال غليســية إلى البحر الأخضر فقبــل ؛ ثم ٱنتقض فغزاه المنصورُ سنةَ ثمــان وسبعين وثلثمائةٍ ، فافتتح ليون وسمورة ، ولم يبقَ بعدها للجلالِقَة

(١) جمع قومس وهو الأمير .

(٢) أى ردمير كما يؤخذ من عبارة العبرج ٤ ص ١٨١ .

إلا حُصونٌ يسيرة بالجبل الحاجز بينهم وبين البحر الأخضر ؛ ولم يزل المنصورُ به حتّى ضرب عليه الجزيةَ وأنزل المسلمين مدينة سَمُّورة سنة تسع وثمانين وثلثمائة ؛ وولّى عليها أبا الأحوص (مَعْن بن عبدالعزيز) التُّجيبي ؛ وسار إلى (غرسية بن فُرْدُلَنْد) صاحب أُلْيَةَ فملك عليه لَشْبُونة قاعدة غليسية وخرّبها ؛ وهلك غرسية .

فولِيَ آبنُه (شانجة) فضرب عليه الجزيةَ ، وصارت الجلالقةُ بأجمعهم فى طاعة المنصور وهم كالعُمّال له . ثم آنتقض برمند بن أردون فغزاه المنصور حتّى بلغ شَنْت ياقُب ، مكانَ حَجّ النصارى ومَدْفَن يعقوب الحَوارِيّ من أقصى غليسية ؛ فأصابها خاليةً فهدمها ونقل أبوابها إلى قُرْطُبَةَ ، فجعلها فى نصف الزِّيادة التى أضافها إلى المسجد الأعظم . ثم آفتتح قاعدتهم (شَنْتَمَرِيَّةَ) سنة خمس وثمانين وثلثمائة ؛ ثم هلك برمند بن أردون ملك بنى أدفونش .

وولِيَ آبنُه (أدفونش) وهو سبط غرسية بن فُرْدُلَنْد صاحب أُلْيَة ؛ وكان صغيرا فكفله (منند بن غند شلب) قَوْمس غليسية ، إلى أن قُتِل منند غِيلةً سنة ثمانٍ وتسعين وثلثمائة فاستقلّ أدفونش بأمره ، وطلب القَوَامِيس المتعذّرين على أبيه وعلى مَنْ سلف من قومه مثل بنى أرغومس وبنى فُرْدُلَنْد المتقدّم ذكرهم بالطاعة فأطاعوا ودخلوا تحت أمره . ثم جاءت الفتنة البربريةُ على رأس المائة الرابعة فضَعُف أمرُ المسلمين ، وتغلّب النصارى على ما كان المنصور تغلّب عليه بقَشْتالةَ وجِلّيقيَّةَ ؛ ولم يزل أدفونش بن برمند مَلِكا على جِلّيقيَّةَ وأعمالها . ثم كان المُلْكُ من بعده فى عَقِبه إلى أن كان ملوكُ الطوائف ، وتغلب المُرابِطُون ملوكُ الغرب من لَمْتُونة على ملوك الطوائف بالأندلُس ، على ما سيأتى فى الكلام على مكاتبة آبن الأحمر ملك المسلمين بالأندلُس .

وفى بعض التواريخ أن مَلِكَ قَشْتالةَ الذى ضرب الجزيةَ على ملوك الطوائف فى سنى خمسين وأربعمائة هو (البيطبين) وأنه لما هلك قام بأمره بنوه فُرْدُلُنْد ، وغرسية ، وردمير . وولى أمرهم (فُرْدُلند) ثم هلك ؛ وخَلَّف شانجة وغرسية والفنش فتنازعوا ؛ ثم خلص المُلْك للفنش ، وآستولى على طُلَيطلةَ سنةَ ثمانٍ وسبعين وأربعمائة ؛ وعلى بَلَنْسِيَةَ سنةَ تسع وثمانين وأربعمائةٍ ؛ ثم آرتجعها المرابطون من يده حتّى آستعادها النصارى سنةَ ست وثلاثين وستمائة . وهلك الفنش سنة إحدى وخمسمائة .

وقام بأمر الجلالقة (بنته)(1) وتزوّجت ردمير ، ثم فارقته وتزوّجت بعده قمطا من اقماطها فأتت منه بولد كانوا يسمُّونه (السليطين) . وأوقع آبن ردمير بابن هُود سنة ثلاثٍ وخمسمائة الواقعةَ التى آستُشْهِد فيها ، وملك منه سَرَقُسْطةَ .

وفى بعض التواريخ أن أمر النصارى فى زمن المنصور أبى يعقوب آبن أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن كان دائرا بين ثلاثة من ملوكهم الفنش ، والبيبوح ، وآبن الزند ، وكبيرهم الفنش .

ولما فَشِلَتْ ريحُ بنى عبد المؤمن فى زمن المستنصر بن الناصر ، آستولى الفنش على جميع مافتحه المسلمون من مَعاقل الأندلُس ؛ ثم هلك الفنش .

وولى آبنه (هِرَّانْدة) وكان أحولَ وبذلك يُلَقَّب ، فآرتجع قُرْطبةَ وإشْبِيلِيَةَ من أيدى المسلمين .

وزحف ملك أرغون فى زمنه فاستولى على ماردَةَ ، وشاطِبَةَ ، ودانِيَةَ ، وبَلَنْسِيَةَ ، وسَرَقُسْطة ، والزَّهْراء ، والزاهرة ، وسائرِ القواعد والثُّغور الشرقِيَّة ؛ وآنحاز المسلمون

(1) فى العبر ج ٤ ص ١٨٢ "زوجته" .

إلىٰ سِيفِ البحر ، وملَّكُوا عليهم آبن الأحمر بعـد ولاية آبن هُود . وكان آسترجاع الطاغية ماردَةَ سنة ستٍّ وعشرين وستِّمائة ، ومَيُورْقة سنةَ سبع وعشرين ، وبلَنْسِيَةَ سنة ستٍّ وثلاثين ، وسَرَقُسْطَة وشاطِبَةَ قبل ذلك بزمن طويل . ثم هلك هِرَّانْدة ، ووليَ آبنه [شانجة](١) ثم هلك [سنةَ ثلاثٍ وتسعين](١) .

ووليَ آبنُه (هِرَّانْدةُ) وكان بينه وبين عساكرِ يعقوبَ بنِ عبد الحق : سلطان الغرب الواصلة إلىٰ الأندلس حروب متصلة ، الغَلَب فيها لعساكر آبن عبد الحق ؛ ثم خرج علىٰ هِرَّانْدة هـذا آبنه (شانجـة) فوفد هِرَّانْدةُ علىٰ السلطان يعقوبَ بنِ عبد الحق فقبَّـل يدَه ، وآستجاشه علىٰ ولده شانجة ، فقَبِـل وِفادَتَه ، وأمدّه بالمـال والعساكر ، ورهن عنـده علىٰ المـال التاجَ المعروفَ من ذخائر سَلَفِهم ، فهو عنـد بَنِي عبد الحق إلىٰ الآنَ .

ثم هلك هِرَّاندة سـنةَ ثلاثٍ وثلاثين(٢) وستِّمائة ، وآستقل آبنه (شانجة) بالمُلْك ، ووفد علىٰ يُوسفَ بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مَهْلَك أبيه يعقوبَ بن عبد الحق وعقد معه الهُدْنة ؛ ثم نقض وآستولىٰ علىٰ مدينة طَرِيف سـنة ثلاثٍ وتسعين وستِّمائة ؛ ثم هلك سنة ثِنتَيْ عشرةَ وسبعمائة .

فوَلِيَ آبنُه (بطرةُ) صـغيرا ، وكَفَله عمُّه جُوَان وهلكا جميعا علىٰ غَرْناطةَ عنـد زَحْفهما إليها سنةَ ثمـانَ عشرةَ وسبعمائة .

فولِيَ آبنُه (الهُنْشة بن بَطْرة) صغيرا وكَفَله زُعماءُ دولته ، ثم آستقل بأمره وهلك مُحاصِرا جبلَ الفَتْح سنةَ إحدىٰ وخمسين وسبعمائة فى الطاعون الجارف .

---

(١) الزيادة من العبرج ٤ ص ١٨٤ .

(٢) فى العبرج ٤ ص ١٨٣ "ثلاث وثمانين" .

وولِيَ (ٱبنُه بطرةُ) وفرّ ٱبنه القَمْط إلىٰ بَرْشَلُونة فاستجاش صاحبها علىٰ أخيه بطرة فأجابه، و زحف إليه بطرة فٱستولىٰ علىٰ كثير من بلاده، ثم كان الغَلَب للقمط سنةَ ثمان وستين وسبعمائة، وٱستولىٰ علىٰ بلاد قَشْتالةَ، و زحفت إليهم أممُ النصرانية، ولحق بطرةُ بأمم الفَرَنج الذين وراء قَشْتالةَ فى الجَوْف بجهات الليمانيـة و برطانية إلىٰ ساحل البحر الأخضر وجزائره فزَوَّج بنتـه من ٱبن ملكهم الأعظم المعروف بالبنس غالس، وأمدّه بأمم لاتُحصىٰ فَمَلك قَشْتالَةَ والقرنتيرة، وٱتصلتِ الحربُ بعد ذلك بين بطرة وأخيه القَمْط، إلىٰ أن غلبه القمطُ وقتله سنة ثنتيْنِ وسبعين وسبعمائة، وٱستولىٰ القمطُ علىٰ مُلْك بنى أدفونش أجمعه، وٱستقام له أمر قَشْتالةَ، ونازعه البنس غالس ملك الإفرنجة بٱبنـه الذى هو من بِنْتِ بَطْرة، وطلب له الملكَ علىٰ عادتهم فى تمليك ٱبن البنت، وٱتصلت الحرب بينهما، وشغله ذلك عن المسلمين فامتنَعُوا عن أداء الإتاوة التى كانوا يؤدّونها إلىٰ مَنْ كان قبله، وهلك القمط سنة إحدىٰ وثمانين وسبعمائة .

فولِى ٱبنه (دُن جُوان) وفرّ أخوه غريس ولحق بالبُرْتُغال، وٱستجاش علىٰ أخيه بجموع كثيرة، ثم رجع إليه وٱصطلح عليه، ثم هلك دُن جُوان سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة، وَنَصَّب قومُه فى الملك ٱبنَـه بطرةَ صبيا صغيرا لم يبلُغ الحُلُم وقام بكفالته وتدبير دولتـه اليركيش خال جدّه القمط بن الهنشـه والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن، وفتنهم مع البنس غالس ومع الفَرَنج متصـلة، وأيديهم عن المسلمين مكفوفـة ﴿ وٱللهُ مِنْ ورائِهِمْ محيطٌ ﴾ .

قلت : والممالك القائمة بجزيرة الأندلس الآن من ممالك النصرانية أربع ممالك .

المملكة الأولىٰ

(مملـــكة قشـــتالة)

التى عليها سِيَاقة الحديث إلىٰ أن صارت إلىٰ بطرة بن دُن جُوان المتقدّم ذكره .

وهى مملكة عظيمة وعمالات متسعة تشتمل علىٰ طيطلة ، واشبيليَة ، وقشتالةَ ، وغليسية والقرنبيرة وهى بسط من الغرب إلىٰ الشرق ويقال لملكها الأدفونش والعامة تسميه الفنش .

المملكة الثانيـــــــة

(مملكة البُرْتُغال)

وهى فى الجانب الغربىّ من قَشْتالةَ ، وهى عُمَالة صغيرة تشتمل علىٰ أشْبُونَة وغَرْب الأندلُس ، وهى الآن من أعمال جِلّيقِيَّةَ ، إلا أن صاحبها متميز بسِمَته ومُلْكه .

المملكة الثالثـــــة

(مملكة بَرْشَلُونَة)

وهى بجهة شَرْق الأندَلُس ، وهى مملكة كبيرة ، وعُمــالاتٌ واسعة ، تشتَمِل علىٰ بَرْشَلُونة ، وأرغون ، وشاطِبة ، وسَرَقُسْطةَ ، وبلَنْسِيَةَ ، وجزيرة دانِيَةَ ، ومَيُورْقَة ؛ وكان مَلِكُهم بعــد العشرين والسبعمائة ٱسْمُه بطرة وطال عمره ، وهلك ســنة سبع وثمانين وسبعمائة ؛ وٱنفرد أخوه الدك بملك سرَقُسْطةَ مقاسِمًا لأخيه ثم سار بعد ذلك فى أسطول فملك جزيرة صقلية من أيدى أهلها وصارت داخلة فى أعمالهم .

المملكة الرابعة

(مملكة نَبِرَّة مما يلي قشتالة من جهة الشرق، فاصلا بين عُمالات ملك قشتالة وعمالات ملك برشلونة)

وهى عُمالة صغيرة، وقاعدتها مدينة بنبلونة، وملكها ملك البشكنس. أما ماوراء الأندلُس من الفَرنج فأمم لا تحصىٰ، وسيأتى الكلام علىٰ ذكر مَلِكهم الأكبرِ ريدَفَرَنْس فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ.

الجملة السادسة

(فى ترتيب هذه المملكة)

أما مملكة المسلمين فلا يخفىٰ أنها فى معنىٰ بلاد المغرب. [وفى كثير من الأوقات يملكهم ملوك المغرب الأقصىٰ، فبالضرورة إن ترتيبهم جارعلىٰ ترتيب بلاد الغرب](1).

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن أهل الأندلُس فى الجملة لا يتعمَّمُون، بل يتعهَّدُون شُعورَهم بالتنظيف والحِنَّاء مالم يغلِب الشَّيْبُ؛ ويتطيْلَسُون فيُلْقُون الطَّيْلسانَ علىٰ الكتِف أو الكتِفيْنِ مَطْوِيًّا طيًّا ظريفا [والمتعمم فيهم قليل](1)؛ ويلبَسُون الثيابَ الرفيعةَ الملوَّنةَ من الصُّوف والكتّان ونحو ذلك، وأكثرُ لباسهم فى الشتاء الجُوخُ وفى الصيف البياضُ. قال: وأرزاقُ الجُنْد به ذهَبٌ بحسب مراتبهم، وأكثرهم من برِّ العُدْوة من بنى مَرِينٍ وبَنِى عبد الواد وغيرهم. والسلطان مسكَنُه القصور الرفيعةُ، ويقعُد السلطان للناس بدار العَدْل فى مكانٍ يُعْرَف بالسبيكة من القَصَبة الحمراء التى هى القلعة يومَ الاثنيْنِ ويومَ الخميس

---

(١) الزيادة من القطعة الأزهرية.

صباحا، ويحضُر معه المجلسَ الرؤساءُ من أقاربه ونحوهم، ويُقرأ بمجلســه عَشْرٌ من القرءان وشيءٌ من الحديث النبوىّ، ويأخذ الوزير القِصَص من الناس فتُقْرأ عليه.

وأما الحرب فإنهم فيها سِجَــال: تارةً لهم وتارةً عليهــم، والنصرُ فى الأغلب للمسلمين على قلّتِهم وكَثْرةِ عدوّهم بقوّة الله تعالىٰ. وبالبلاد البحرية أسطول الحراريق المفرّق فى البحر الشامى، يركبهــا الأنجاد مر الرُّماة والرؤساء المهرة، فيقاتلون العــدوّ علىٰ ظهر البحر، وهم الظافرون فى الغالب، ويُغيرون علىٰ بلاد النصارىٰ بالساحل وما هو بقُربه فيأسِرون أهلَها ذكورَهم وإناثهم، ويأتون بهم بلاد المسلمين، فيَبرُزون بهم ويحملونهم إلىٰ غَرْناطةَ إلىٰ السلطان فيأخذ منهم ما يشاء ويُهدِى ويَبيع.

وقد كانت لهم وَقيعة فى الإفرنج سنةَ تسعَ عشرةَ وسبعمائة علىٰ مَرج غَرْناطةَ قُتِل فيها من الإفْرنج أكثرُ من ستين ألفا ومَلِكان: هما بطرة وجوان عمه ففُدِيت جِيفةُ جوان بأموال عظيمة، وحملت جُثَّــة بطرة إلىٰ غَرْناطةَ، فعلِّقت علىٰ باب قلعتها فى تابوت، وآستمرّت معلَّقةً هناك، وحاز المسلمون غنيمةً من أموالهم قلّمــا يُذْكَر مثلها فى تاريخ، ﴿وما النَّصْرُ إلّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾.

وقد تقــدّم فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ النوع الرابع مما يَحتاجُ إليه الكاتبُ: وهو حفظ كتاب الله تعالىٰ: أن بعضَ ملوك الفَرَنْج كتبَ إلىٰ ابن الأحمر: صاحب غَرْناطةَ كتابا يُهدِّده فيــه، فكان جوابُه أن قَلَبــه وكتب علىٰ ظهره ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاقِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

وأما ملوك الفرنج به فعلىٰ ترتيب سائر ممالك الفَرَنج مما هو غيرُ معلومٍ لنا.

الفصـــل الثـالث

من المقـالة الثـانية

(فى الجهة الجنوبيـة عن مملكة الديار المصرية : من مصر والشام والحجاز، ومضافاتها مما هو واقع فى الثانى والثالث والرابع من الأقاليم السبعة)

اعلم أنه قد دخل فى جهتى الشرق والغرب المتقدمتين ذكر أماكن مما هو فى جهة الجنوب عن مملكة الديار المصرية ومضافاتها ، انساق الكلام إليها استطرادا واستتباعا : كأطراف اليمن ، والهند ، والصين الجنوبية الخارجة عن الإقليم الثانى إلى جهة الجنوب مما استتبعته ممالك الشرق ، والمقصود الآن الكلام على ماعدا ذلك ، وهو بلاد السودان .

وهى بلاد متسعة الأرجاء ، رحبة الجوانب ، حدها من الغرب البحر المحيط الغربى ؛ ومن الجنوب الخراب مما يلى خط الاستواء ؛ ومن [الشرق] بحر القلزم مما يقابل بلاد اليمن والأمكنة المجهولة الحال شرقى بلاد الزنج فى جنوبى البحر الهندى ؛ ومن الشمال البرارى الممتدة فيا بين الديار المصرية وأرض برقة ، وبلاد البربر ، من جنوبى المغرب إلى البحر المحيط .

والمشهور منها ست ممالك :

المملـــكة الأولى

(بلاد البـــجا)

والبجا بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف فى الآخر . وهم من أصفى السودان لونا . قال ابن سعيد : وهم مسلمون ونصارى وأصحاب أوثان ؛ ومواطنهم

فى جَنُوبىّ صعيد مصر مما يلى الشرق، فيما بين بحر القُلْزم و بين نهر النيل، على القُرْب من الديار المصرية .

وقاعدتهم (سَوَاكِن) بفتح السين المهملة والواو وكسر الكاف ونون فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام على بحر القُلْزم : وهى بُلَيْدة للسُّودان، حيث الطولُ ثمانٌ وخمسون درجة، والعرضُ إحدى وعشرون درجة .

قلت وقد أخبرنى من رآها أنها جزيرةٌ على طَرَف بحر القلزم من جهته الغربيَّة قريبةٌ من البَرِّ يسكُنها التُّجَّار. وصاحبها الآن من العرب المعروفين بالحَدَارِبة ـ بالحاء والدال المهملتين المفتوحتين وألف ثم راء مهملة و باء موحدة مفتوحة وهاء فى الآخر، وله مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، و يقال فى تعريفه الحُدْرُبِىّ بضم الحاء وسكون الدال وضم الراء، على ماسيأتى ذكره فى الكلام على المكاتبات فى المقالة الرابعة فيما بعدُ، إن شاء الله تعالى .

وقد عدّ فى "تقويم البُلْدان" من مُدُن البُجَا (العَلَّاقِى) بفتح العين المهملة واللام المشدّدة ثم ألف وقاف مكسورة ثم ياء مثناة من تحتُ . من آخر الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطول ثمانٌ وخمسون درجة، والعرضُ ستٌّ وعشرون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بالقُرْب من بحر القلزم ، ولها مَغَاصٌ ليس بالجَيِّد، وبجبلها معدِنُ ذهَب ، يَتحصَّل منه بقدر ما يُنْفَق فى آستخراجه . قال المهلّبى : إذا أخذْتَ من أُسْوانَ فى سَمْت المشرق تصل إلى العَلَّاقِى بعد آثنَتَىْ عشرةَ مرحلةً . قال : و بين العَلَّاقى وعَيْذابَ ثمان مراحل ومن العلّاقى يُدْخَل إلى بلاد البُجَا .

المملكة الثانيـــة

(بلاد النُّوبة)

بضم النون وسكون الواو وفتح الباء الموحدة وهاء فى الآخر . ولونُ بعضهم يميل إلى الصَّفاء ، وبعضُهم شـديدُ السَّوادِ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبلادهم مما يَلِى مِصرَ فى نِهَاية جَنُوبِيِّها مما يلى المغرب على ضفتى النيل الجارى إلى مصر. قال فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام على الجانب الجَنُوبِىّ : وبينها وبين بلاد النُّوبة جبال مَنِيعة .

وقاعدتها مدينة (دُنْقُلَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : الظاهر أنها بضم الدال المهملة وسكون النون وقاف مضمومة ولام مفتوحة وهاء فى الآخر . وما قاله هو الجارى على ألسـنة أهل الديار المصرية ، ورأيتُها فى "الروض المعطار" مكتوبةً (دَمْقُلَة) بإبدال النون ميما ، مضبوطة بفتح الدال ، وباقى الضـبط على ماتقدّم . وأنشـد بيت شعر شاهدا لذلك . وموقعها فى الإقليم الأوّل من الاقاليم السبعة . قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثمانٌ وخمسون درجة وعشر دقائقَ ، والعرضُ أربعَ عشرةَ درجة وخمسَ عشرةَ دقيقةً . قال : وفى جنوبيِّها وغربيِّها مَجَالَات زَنْج النُّوبة الذين قاعدتهم (كُوشَةُ) خلف الخَطِّ ، وفى غربى دُنْقُلَةَ وشماليِّها مُدُنُهم المذكورة فى الكتب . قال الإدريسىّ : وهى فى غربىِّ النيل على ضَفَّته وشُرْب أهلها منه . قال : وأهلها سُودانٌ لكنهم أحسنُ السُّودان وجوهًا ، وأجملُهم شَـكْلا ، وطعامُهم الشـعيرُ والذُّرة والتمر يُجْلَبَ إليهـم ، واللحوم التى يسـتعملونها لحومُ الإبل : طَرِيَّة ومقدّدةً ، ومَطْبوخة[1] . وفى بلادهم الفِيَلة ، والزَّرَاريف ، والغِزْلان .

(١) فى التقويم "ومطحونة" وهو تصحيف .

قال فى "مسالك الأبصار" : ومُدُنها أشبهُ بالقُرىٰ والضِّياع من المُدُن، قليلةُ الخير والخِصْب، يابسةُ الهَواء . قال : وحدَّثنى غيرُ واحد ممن دخل النُّوبةَ : أن مدينةَ دُنقُلَةَ ممتدَّةٌ علىٰ النيل، وأهلها فى شَظَف من العيش، والحُبوبُ عندهم قليلةٌ إلا الذُّرةَ، وإنما تكثُر عندهم اللحومُ والألبانُ والسَّمك . وأفخرأطْبِختهم أن تُطْبَخ اللُّوبيَا فى مَرَق اللحم، ويُثْرد ويُصفُّ اللحم واللُّوبيا علىٰ وجه الثَّريد . وربَّما عُمِلت اللُّوبيا بورَقِها وعُرُوقها . قال : ولهم آنهماك علىٰ السُّكْر بالمِزْر ومَيْل عظيم إلىٰ الطَّرَب .

ولما خاف بنو أيُّوبَ نورَ الدِّين الشهيدَ صاحبَ الشام علىٰ أنفسهم حين هَمَّ بقصْدهم، بعث السلطانُ صلاحُ الدِّين أخاه شمسَ الدولة إلىٰ (النُّوبة) ليأخُذها لتكون موْئلا لهم إذا قصدهم، فرأَوْها لاتصلُح لمثلهم، فعدَلُوا إلىٰ اليمن وآستَوْلَوْا عليها، وجعلوها كالمَعْقِل لهم . قال آبن سعيد : ودِينُ أهل هذه البلاد النصرانيةُ . قال فى "مسالك الأبصار" : ومن هذه البلاد نَجَم "لُقمانُ الحكيمُ" ثم سَكَنَ مدينة أيْلةَ، ثم دخل إلىٰ بيت المَقْدِس . ومنها أيضا "ذُو النون المِصْرىُّ" الزاهدُ المشهورُ، وإنما سمى المِصْرىّ لأنه سكن مِصرَ فنُسِب إليها . وكان ملوكها فى الزمن القديم وسائرُ أهلها علىٰ دِين النَّصْرانية، فلما فتح عمرو بن العاص رضى الله عنه مِصْرَ غزاهم . قال فى "الروض المِعْطار" : فرآهم يرمُون الحَدَق بالنَّبْل، فكَفَّ عنهم، وقرّر عليهم إتاوةً فى كل سنة . قال صاحب "العبر" : وعلىٰ ذلك جرىٰ ملوكُ مصر بعده، وربما كانوا يُماطلون بذلك ويمتنعون من أدائه، فتغزُوهم عساكُر المسلمين من مصر حتّى يُطيعوا، إلىٰ أن كان ملكهم فى أيام الظاهر بِيبَرْس رحمه الله، رجلا آسمه (مرقَشْنكُز) وكان له آبن أخٍ آسمه (داود) فتغلب عليه، وآنتزع الملكَ من يَده، وآستفحل مُلْكُه بها، وتجاوز حدودَ مملكته قريبَ (أُسوانَ) من آخر صعيد

الدّيار المصرية ، فقدم (مرقشنكز) المذكورُ على الظاهر بِيبَرْس بالدّيار المصرية ، وآستنجده على آبن أخيه (داود) المذكور ، فجهّز معه العساكرَ إلى بلاد النُّوبة ، فانهزم (داودُ) ولحق بمَمْلكة الأبواب من بلاد السُّودان ، فقبض عليه ملِكُها وبعث به مقيَّدا إلى الظاهر بيبرس ، فاعتُقِل بالقلعة حتّى مات ، وآستقرّ (مرقشنكز) فى مُلْك النُّوبة على جزية يؤدّيها فى كل سنة ، إلى أن كانت دولة المنصور (قلاوون) ثم آستقرّ بمملكة دنقلة فى الدولة المنصورية (قلاوون) رجل اسمه سيماءون وغزته عساكر قلاوون سنة ثمانين وستّمائة .

ثم ملكهم فى أيام الناصر "محمد بن قلاوون" رجل آسمه (أمَىْ) وبقِيَ حتّى تُوفّى سنة ستّ عشرةَ وسبعمائة .

وملك بعده دُنقُلةَ أخوه (كرنبس) .

ثم خرج من بيت الملك منهم رجل آسمه (نشلى) فهاجر إلى مصر ، وأسلم وحَسُن إسلامه ، وأقام بمصر بالأبواب السُّلطانيــة ، وأجرى عليه السلطانُ الملك النـاصر رِزْقا ، ولم يزل حتّى آمتنع (كرنبس) من أداء الجزية سنة ستّ عشرةَ وسبعمائة ، فجهّز إليه السلطانُ العساكر مع نشلى المقدّم ذكره ، وقد تسمّى عبدَ الله ففرّ كرنبس إلى بلاد الأبواب ، فآستقرّ (عبد الله نشلى) فى ملك دُنقُلة على دين الإســلام ، ورجعتِ العساكرُ إلى مصر ، وبعث الملكُ الناصرُ إلى ملك الأبواب فى أمر كرنبس فبعث به إليه ، فأسلم وأقام بباب السلطان ، وبقِيَ نشلى فى الملك حتّى قتله أهل مملكته سنة تسعَ عشرةَ وسبعمائة ، فبعث السلطان كرنبس إليهم فملكهم وآنقطعت الجزيةُ عنهم من حين أسلم ملوكُهم . قال فى "العبر" : ثم آنتشرتْ أحياءُ جُهينة من العرب فى بلادهم وآستوطنوها ، وعاثُوا فسادًا ، وعجز مُلوكُ النُّوبة عن مدافعتهم ،

فصاهروهم مصانعةً لهم ، وتفرّق بسبب ذلك مُلْكهم حتّى صار لبعض جُهَيْنَة من أمّهاتهم علىٰ رأى العجم فى تمليك الأُخْت وآبن الأُخْت ؛ فتمزّق مُلْكهُم وآستولت جُهَينةُ علىٰ بلادهم ، ولم يُحْسِنُوا سياسة المُلْك ، ولم ينقـد بعضهم إلىٰ بعض ، فصاروا شِيَعًا ولم يبْقَ لهم رسمُ مَلِك ، وصاروا رَحّالة باديةً علىٰ عادة العرب إلىٰ هذا الزمان .

وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن ملكها الآن مُسْلم من أولاد (كنز الدولة) قال : وأولاد الكنز هؤلاء أهلُ بيتٍ ثارت لهم ثوائرُ مرّات . فيحتمل أن أولاد الكنز من جُهَينة أيضا جمعا بين المقالتين .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أنّ سلطانَهم كواحد من العامّة ، وأنه يأْوِى الغرباءُ إلىٰ جامع دُنْقلة فيُرسِل إليهم ، فيأتونه فيُضِيفُهم ويُنْعِم عليهم هو وأمراؤه ، وأن غالب عطائهم الدّكاديك : وهى أكسيةٌ غلاظ غالبها سُود . وربما أعطَوْا عَبْدا أو جاريةً .

(وقد ذكر فى "الروض المعطار" : أن عمرو بنَ العاص رضى الله عنه قصد قتالَ النُّوبة فرآهم يرمُون الحَدَق بالنَّبْل فكفَّ عنهم ، وقرّر عليهم إتاوةً من الرّقيق فى كل سنة) (١) ، ولم تزل ملوكُ مصر تأخُذ منهم هذه الإتاوةَ فى أكثر الأوقات حتّى ذكر فى "مسالك الأبصار" أنه كان عليهم فى زمنه مُقرّرٌ لصاحبِ مصرَ فى كلّ سنة من العبيد ، والإماء ، والحِراب ، والوُحوش النُّوبية ـ

قلت : أمّا الآنَ فقد آنقطع ذلك . ﴿وربُّك يَخْلُق ما يَشَاءُ ويَخْتارُ﴾ .

---

(١) هذه الجملة مضبب عليها فى القطعة الأزهرية اشارة الى الاستغناء عنها .

المملكة الثالثة

(بلاد البَرْنُو)

وبلاد البرنو ــ بفتح الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وضم النون وسكون الواو . وهم مسلمون والغالب على ألوانهم السواد قال فى "التعريف" : وبلاده تُحَدُّ بلاد التَّكْرور من الشرق ، ثم يكون حدها من الشَّمال بلادَ أفريقِيَّة ، ومن الجنوب الهَمَج .

وقاعدتهم مدينة (كَاكَا) بكافين بعد كلٍّ منهما ألف فيما ذكر لى رسولُ سلطانهم الواصلُ إلى الديار المصرية صحبةَ الحجيج فى الدولة الظاهرية (بَرْقوق) . وقد تعرّض إليها فى "مسالك الأبصار" فى تحديد مملكة مالِّى على ما يأتى ذكره إن شاء الله تعالى .

ومن مدنهم أيضا مدينة (كُتنِسْكِى) بكاف مضمومة وتاء مثناة فوقية ساكنة ونون مكسورة وسين مهملة ساكنة وكاف مكسورة بعدها ياء مثناة تحتية . وهى شرقىّ (كَاكَا) على مَسِيرة يوم واحدٍ منها .

قلت : وقد وصل كتاب ملك البَرْنُو فى أواخر الدولة الظاهرية (بَرْقوق) يذكر فيه أنه من ذرّية "سيف بن ذى يزن" الا أنه لم يحقق النسب فذكر أنه من قريش وهو غلط منهم فان "سيف بن ذى يزن" من أعقاب تَبَابعة اليمن من حِمْير ، على ما يأتى ذكره فى الكلام على المُكاتَبات ، فى المقالة الرابعة فيما بعدُ ، إن شاء الله تعالى .

ولصاحب البَرْنُو هذا مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتى ذكرُها هُناك إن شاء الله تعالى .

المملكة الرابعـــة

(بلادُ الكانِم)

والكانِم بكاف بعدها ألفٌ ثم نون مكسورةٌ وميم فى الآخر . وهم مسلمون أيضا والغالب علىٰ ألوانهم السَّوادُ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبلادهم بين أفْرِيقيَّةَ وبَرْقة ، ممتدَّةٌ فى الجنوب إلىٰ سَمْت الغَرْب الأوســط . قال : وهى بلادُ قَحْطٍ ، وشَظَف ، وسُوء مِزَاج مســتولٍ عليها . وغالب عيشهم الأَرُزُّ ، والقمح ، والذُّرَة ، وببلادهم التِّين ، والليمون ، واللِّفت ، والباذِنْجان ، والرُّطَب . وذكر عن أبى عبدالله السلايحى ، عن الشيخ عثمان الكانمىّ وغيره أن الأَرُزَّ ينْبُتُ عنــدهم من غير بَذْر . ومعاملتهم بقُماش يُنْسَج عنــدهم آسمُه دندى ، طول كلّ ثوب عشرةُ أذرع فأكثر . قال : ويتعاملون أيضا بالوَدَع ، والخَرَز ، والنُّحاس المكسور ، والوَرَق ، لكنه جميعه يسعَّر بذلك القماش .

وذكر آبن ســعيد : أن فى جَنوبِيِّها صَحارىٰ فيهــا أشخاصٌ متوحِّشــة ، كالغُول أقربُ الحيوانات إلىٰ الشَّكْل الآدمىّ ، تُؤْذى بنى آدَمَ ولا يلحَقُها الفارس .

وذكر أبو عبد الله المَرَّاكُشىّ فى كتابه "التكملة" عن أبى آسحاق إبراهيم الكانمىّ الأديبِ الشاعر : أنه يظهر ببلاد الكانِم فى الليــل أمامَ المــاشى بالقُرْب منه قُلَل نار تُضىء ، فإذا مشىٰ بَعُدتْ منه ، فلا يصل إليها ولو جرىٰ ، بل لا تزال أمامَه . وربمــا رماها بحَجَر فأصابها ، فيتشظَّى منها شَراراتٌ . قال فى "مسالك الأبصار" : وأحوالُهــا وأحوالُ أهلها حَسنةٌ ، وربمــا كان فيهم من أخذ فى التعليم ، ونَظَر من الأدب نَظْرة النجوم فقال إنى سَقِيم ، فمــا يزال يُداوى عَليل فَهْمه ، ويُدارِى جامح علمه ، حتّٰى تشرق عليه أشعتها ، ويطَرِّز بديباجه أمتعتها .

وقاعدتها (مدينة جِيمِى) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الجيم و بالياء المثناة تحتُ الساكنة وكسر الميم ثم ياء مثناة تحتية فى الآخر، حسب ما هو فى خط ابن سعيد . وموقعها فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثلاثٌ وخمسون درجة ، والعرضُ تسعُ درج ، وبها مَقرّة سلطانهم . قال فى "مسالك الأبصار" : ومبدأ هذه المملكة من جهة مصر بلدة اسمها (دلا) وآخرُها طُولا بلدة يقال لها (كاكا) و بينهما نحوُ ثلاثة أشهر . وقد تقدّم أن كاكا هى قاعدةُ سلطان البَرْنو . و بينها و بين جيمى أربعون ميلا . قال وبها فواكهُ لا تُشْبِه فواكهَ بلادنا ، وبها الرُّمان ، والخَوْخ ، وقصَب السُّكَّر . قال فى "مسالك الأبصار" : وسلطان هذه البلاد رجل مسلم . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهو من ولد «سيف بن ذى يزن» . قال فى "مسالك الأبصار" : وأوّل من بَثَّ الإسلامَ فيهم الهادى العثمانىّ ، ادّعى أنه من ولد «عثمان بن عفّان» رضى الله عنه وملكها ، ثم صارت بعده لليَزَنِيِّين .

وذكر فى "التعريف" : أن سلطان الكانم من بيتٍ قديم فى الإسلام ، وقد جاء منهم من ادّعى النسبَ العلوىَّ فى بنى الحَسَن . ثم قال : وتَمَذْهَب بمذهب «الشافعىّ» رضى الله عنه . قال فى "مسالك الأبصار" : ومَلِكهم على حَقَارة سُلْطانه ، وسُوء بُقْعة مكانه ، فى غاية لا تُدْرك من الكِبْرياء ، يَمسَح برأسه عَنَان السماء ، مع ضَعْف أجناد ، وقلّة متحصَّل بلاد ، لا يراه أحد إلا فى يوم العيدين بُكْرةً وعند العصر . أما فى سائر السنة فلا يكلِّمه أحد ولو كان أميرا إلا من وراء حِجَاب . قال : والعدل قائم فى بلادهم ، ويتمذهبون بمذهب الإمام «مالك» رضى الله عنه ، وهم ذَوُو اختصار فى اللباس ، يابسون فى الدِّين ، وعسكرهم يتلثّمون ، وقد بَنَوْا مدرسةً للمالكية بالفُسْطاط ينزِل بها وُفُودهم .

المملكة الخـامســـــــة

(بلاد مالِّى ومُضافاتها)

و (مالِّى) بفتح الميم وألف بعدها لامٌ مشدَّدة مفخَّمة وياء مثناة تحتُ فى الآخر. وهى المعروفة عند العامَّة ببلاد (التَّكرور). قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة فى جَنُوب المغرب، متَّصلةٌ بالبحر المحيط. قال فى "التعريف" : وحدّها فى الغرب البحرُ المحيط، وفى الشرق بلاد البَرْنُو، وفى الشَّمال جبال البَرْبر، وفى الجنوب الهَمَج. ونقل عن الشيخ سـعيد الدَّكَّالى : أنها تقع فى جنوب مَرَّاكُش ودواخل برّ العُدْوة جنوبا بغرب إلى البحر المحيط. قال فى "مسالك الأبصار" : وهى شديدةُ الحرّ، قَشِـفَة المعيشة، قليلةُ أنواع الأقواتِ، وأهلهـا طِوَال فى غاية السـواد وتَفَلْفُل الشُّعور، وغالب طُول أهلها من سُوقهم، لا من هَيَاكل أبدانهم. قال ابن سعيد : والتَّكْرور قسمان : قسم حَضَر يسكُنون المُدنَ، وقسم رَحَّالة فى البَوادى.

وقد حكى فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ سعيد الدَّكَّالى : أن هـذه المملكة مُربَّعة، طولهـا أربعةُ أشهر أو أزيدُ، وعرضُها مثـلُ ذلك، وجميعها مسكونةٌ إلاماقلّ، وهذه المملكة هى أعظم ممـالك السُّودان المسلمين.

وتشتمل على ثمـانِ جُمَـــل :

الجمـــلة الأولى

(فى ذكر أقاليمها ومُدُنهـا)

وقد ذكر صاحب "العــبر" : أنها تشـتمل على خمسـة أقالِيمَ كل إقليم منها مملكةٌ بذاتهـا.

الإقليم الأول

(مالّى)

وقد تقدّم ضبطه . وهو إقليمُ واسطة الأقاليم السبعة الداخلةِ فى هذه المملكة ، واقعُ بين إقليم صُوصُو وإقليم كَوْكَوْ : صُوصُو من غربيه ، وكَوْكَوْ من شرقِيّه .

وقاعدته على ما ذكره فى "مسالك الأبصار" : مدينة (بَنْبى)(١) قال فى "مسالك الأبصار" : بالباء الموحدة والنون ثم الباء الموحدة أيضا . قال : وهى ممتدّة تقدِيرَ طُول بريد فى عرض مثل ذلك ؛ ومَبَانيها متفرّقة ، وبناؤُها بالبالستا . وهو أنه يُبْنىٰ بالطين بقدر ثُلثَىْ ذراع ، ثم يُتْرك حتّى يجِفّ ، ثم يُبْنىٰ عليه مثلُه ، وكذلك حتّى ينتهِيَ ؛ وسقُوفُها بالخشب والقَصَب ، وغالبها قِبَاب أو جَمَلُونات كالأقباء ؛ وأرضُها تُرابٌ مُرْمِل ، وليس لها سُور ، بل يستديرُ بها عدّةُ فُرُوع من النيل من جهاتها الأربع ، بعضُها يُخَاض فى أيام قِلّة الماء ، وبعضها لا يُعْبَرَ فيه إلا فى السُّفُن . وللملك عدّة قُصُور يدور بها سُورٌ واحد .

الإقليم الثانى

(صُوصُو)

بصادين مهملتين مضمومتين ، بعد كلّ منهما واو ساكنة . وربما أبدلوا الصادَ سينا مهملةً سُمِّى بذلك باسم سُكّانه . قال فى "العبر" : وهم يسمّونها الانكارية . وهو فى الغرب عن إقليم مالّى المقدّم ذكْرُه فيما ذكره فى "العبر" عن بعض النَّقَلة .

---

(١) فى القطعة الأزهرية " مدينة بيتى بكسر الياء المثناة تحت وسكون الياء الثانية وكسر المثناة فوق وياء مثناة تحت فى الآخر " .

الإقلـــيم الثـالث

(بلاد غانَةَ)

بفتح الغين المعجمة وألف ثم نون مفتوحة وهاء فى الآخر . وهى غربىّ إقلـيم صُوصُو المقدّم ذكْرُه تُجاوِر البحرَ المحيط الغربىَّ .

وقاعدته (مدينـة غانَة) التى قد أُضِيف إليها . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وموقُعها خارجَ الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة إلىٰ الجَنُوب . قال آبن سعيد : حيثُ الطول [تسعٌ وعشرون درجة] (١) والعرضُ عشرُ دَرَج . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى محلُّ سلطانِ بلاد غانَةَ .

وقد حكىٰ آبن سعيد : أن لِغانَةَ نِيلًا شقِيقَ نِيل مصر، يَصُب فى البحر المحيط الغربى عند طُول عَشْر درج ونصفٍ ، وعرضِ أربعَ عشرةَ . وإليها تسـير التُّجّار المغاربةُ من سِجِلْماسة فى برٍّ مُقْفِر ومفاوِزَ عظيمة فى جَنُوب الغرب نحوَ خمسين يوما، فيكون بين غانَةَ وبين مَصَبّه نحوُ أربعِ دَرَج . وهى مبنيَّة علىٰ ضَفَّتَىْ نِيلها هـذا . قال فى "العبر" : وكان أهلُها قد أسلموا فى أوّل الفتح الإسلامى .

وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" : أنها مدينتانِ علىٰ ضَفَّتَىْ نيلها، إحداهما يسكُنها المسلمون والثانية يسكنها الكُفَّار .

وقد ذكر فى " الروض المِعْطار" : أن لصاحب غانَةَ مَعْلَفين من ذهب ، يُرْبَط عليهما فرسان له أيامَ مقْعدِه .

---

(١) الزيادة عن التقويم نقلا عن آبن سعيد .

الإقلـــيم الرابع
(بلاد كَوْكَوْ)

وهى شرقىّ إقليم مالّى المقدّم ذكره . قال فى "الروض المِعْطار" : ومَلِكها قائم بنفسه، له حَشَم وقُوّاد وأجنادٌ وزِىٌّ كامل؛ وهم يركبون الخيل والجمالَ؛ ولهم بأس وقَهْر لمن جاورهـم من الأمَم . قال : وبهـا ينبُتُ عودُ الحَيَّة : وهوعود يُشْـبِه العاقِر قَرْحا ، إلا أنه أسودُ؛ من خاصّته أنه إذا وُضِع على جُحْر الحَيَّة خرجتْ إليـه بسُرْعة ، ومن أمسكه بيـده أخذ من الحيَّات ما شـاء من غير جَزَع يُدْرِكه أو يقعُ فى نَفْسه . ثم قال : والصحيح عند أهل المغرب الأقصى أن هذا العُودَ إذا أمسكه مُمْسِك بيده أو عَلَّقه فى عُنُقه لم تقرَبْه حيةٌ البتّةَ .

وقاعدته (مدينة كَوْكَوْ) بفتح الكاف وسكون الواو وفتح الكاف الثانية وسكون الواو بعدها . وموقعها فى الجَنُوب عن الإقليم الأوّل قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ أربعٌ وأربعون درجة، والعرضُ عشرُ دَرَج . قال : وهى مَقَرُّ صاحب تلك البلاد . قال : وهو كافر يقاتل مَنْ غربيَّه من مسلمى غانة ومَنْ شرقيَّه من مسلمى الكانِم .

وذكر المهلَّبى فى العزيزى أنهم مسلمون ، و بينهـا و بين مدينـة غانةَ مسيرةُ شهر ونصف . قال فى "الروض المعطار" : وهى مدينة كبيرةٌ على ضَفَّة نَهَر يخرج من ناحية الشمال، يمرّ بها ويجاوِزُها بأيام كثيرة، ثم يَغُوص فى الصَّحْراء فى رِمَال كما يَغُوص الفُراتُ فى بطائح العراق . قال آبن سعيد : وكَوْكَوْ فى شرقىّ النهر؛ ولبـاس عامّة أهلها الجُـلُود يستِرون بها عَوراتِهـم؛ وتُجّارهم يلبَسُون الأكْسِيَة ، وعلى رُءوسهم الكرازين ، ولِبْس خَواصِّهم الأزرقُ . قال فى "مسالك الأبصار" : وسُـكّانها قبائلُ يرنان من السُّودان .

الإقلـــيم الخـامس
(بلاد تَكْرُور)

وهى شرقىّ إقليم (كَوْكَوْ) المقدّم ذكره ، ويليه من جهة الغرب مملكة (البرنو) المتقدّمةُ الذكر ، وبها عُرِفت هذه المملكة على كبرها واشتهرت .

وقاعدته (مدينة تَكْرُور) بفتح التاء[(١)] المثناة فوقُ وسكون الكاف وضم الراء المهملة وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر . قال فى "الروض المِعْطار" : وهى مدينة على النِّيل على القرب من ضِفَافِه أكبرُ من مدينة سَـلاَ من بلاد المغرب ، وطعامُ أهلها السمكُ ، والذُّرة ، والألبانُ ، وأكثرُ مواشيهم الجمـال ، والمَعز ، ولباسُ عامّة أهلها الصُّوف ، وعلى رءوسهم كَرَازِينُ صُوف ، ولباس خاصّتهم القُطن والمَآزِر . قال : وبينها وبين سِجِلْماسَـةَ من بلاد المغرب أربعُون يوما بسير القوافل ، وأقربُ البلاد إليها من بلاد لَمْتُونَةَ بالصحراء آسِفِى بينهما خمسٌ وعشرون مرحلة . قال : وأكثر مايُسافِرُ به تُجّار الغرب الأقصى إليها الصُّوف ، والنُّحاس ، والخَرَز ، ويخرُجون منها بالتِّبْر ، والخَدَم . قلت : وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن هـذه المملكة تشتمِل على أربعة عشر إقليما . وهى غانةُ ، وزافُون ، وترنكا ، وتكْرور ، وسنغانة ، وبانبغو ، وزرنطابنا ، وبيترا ، ودمورا ، وزاغا ، وكابرا ، وبراغودى ، وكَوْكَوْ ، ومالِّى . فذكر أربعة من الأقاليم الخمسة المتقدّمة الذكر ، وأسقط إقليم صُوصُو ، وكأنها قد آضمحلَّتْ وزاد باقِيَ ذلك ، فيحتمل أنها آنضافَتْ إلى صاحبها يومئذ بالفتح والآستيلاء عليها .

قال فى "مسالك الأبصار" : وفى شمالىّ بلاد مالِّى قبائلُ من البربر بيضٌ تحت حكم سلطانها : وهم نيتصر ، ونيتغراس ، ومدوسة ، ولَمْتونة ، ولهم أشياخ تحكم عليهم

(١) ضبطه المجد بالضم ولم يتعقبه شرحه ففيه لغتان .

إلا يتنصر ، فإنهم يتداولهم ملوكٌ منهم تحت حكم صاحب مالّي . قال : وكذلك في طاعته قوم من الكفار بعضهم يأكل لحمَ الآدميين . ونقل عن الشيخ سعيد الدَّكَّالي : أن في طاعة سلطانها بلاد مغارة الذهب . وهم بلاد هَمَج ، وعليهم إتاوةٌ من التبر تُحمل إليه في كل سنة ، ولو شاء أخذهم ولكن ملوكُ هذه المملكة قد جربوا أنه ما فُتِحت مدينةٌ من هذه المُدُن وفشا بها الإسلام ، ونَطَق بها داعي الأذان ، إلا قلّ بها وجودُ الذهب ثم يتلاشىٰ حتّى يعدم ، ويزداد فيما يليه من بلاد الكفار ، فرَضُوا منهم ببذل الطاعة ، وحمل قُرِّر عليهم . وذكر نحو ذلك في "التعريف" في الكلام علىٰ غانة .

الجملة الثانية

(في الموجود بهذه المملكة)

قد ذكر في "مسالك الأبصار" عن الشيخ سعيد الدَّكَّالي(١) : أن بها الخيلَ من نوع الأكاديش التترِيَّة . قال : وتُجْلَب الخيل العِرَاب إلىٰ ملوكهم ، يتغالَوْن في أثمانها ، وكذلك عندهم البِغال ، والحَمِير ، والبَقر ، والغنم ، ولكنها كلها صغيرة الجُثَّة ، وتلك الواحدةُ من المَعَز عندهم السبعةَ والثمانيةَ ، ولا مَرْعىٰ لمواشيهم ، إنما هي جَلَّالة علىٰ القُمامات والمَزابل . وبها من الوحوش الفِيَلة ، والآسادُ ، والنُّمورة ، وكلها لا تُؤْذِي من بني آدم إلا من تعرّض لها . وعندهم وحش يسمّى (تُرُمّى) بضم التاء المثناة والراء المهملة وتشديد الميم ، في قدر الذئب ، يتولد بين الذئب والضَّبع لا يكون إلا خُنْثىٰ : له ذكر وفرج ، متىٰ وَجَد في الليل آدميا صغيرا أو مُراهِقا أكله . ولا يتعرض إلىٰ أحد في النهار ، وهو يَنْعَر كالثور ، وأسنانه متداخلة . وعندهم تماسيحُ عِظام منها ما يكون

(١) نسبة إلىٰ دكالة قال في القاموس كرمانة . وفي المعجم بالفتح بلد بالمغرب

طوله عشرة أذرع وأكثر، وقرابه عندهم سُمٌّ قاتل تحمل إلى خزانة ملكهم . وعندهم بقر الوحش، وحمير الوحش، والغزلان . وفيما يسامت سِجِلماسة من بلادهم جواميس متوحّشة تصاد كما يُصاد الوحش . وبها من الطيور الدواجن الإوزّ، والدجاج، والحمام . وبها من الحبوب الأرزّ، والغوثى : وهو دق مزغب، يُدْرس فيخرج منه حبّ أبيض شبيه بالخردل فى المقدار أو أصغر منه، فيغسل ثم يُطْحن ويعمل منه الخُبْز، وهذا الحب هو والأرزّ هما غالب قُوتهم؛ وعندهم الذُّرَة وهى أكثر حبوبهم؛ ومنها قوتهم وعليق خُيولهم ودوابّهم، وعندهم الحِنْطة على قِلّة فيها، أما الشعير فلا وُجودَ له عندهم ألبتة؛ وعندهم من الفواكه البُستانية الجُمَّيز وهو كثير لديهم؛ وعندهم أشجار بَرِّية ذواتُ ثِمار مأكولة مستطابة؛ منها شجر يسمى تادموت يحمل شيئا مثل القواديس كبارًا فى داخلها شىء شبيه بدقيق الحنطة، ساطع البياض، طعمه مُزٌّ لذيذ يأكلون منه، وإذا جف جعلوه على الحناء فيسوّده كالنوشادر؛ ومنها شجر يسمّى زبيزور تخرج ثمرته مثل قرون الخرّوب فيخرج منها شىء شبيه بدقيق التُّرْمُس حلوُ لَذيذُ الطعم، له نوًى . ومنها شجر يسمّى قومى، يحمل شِبيه السفَرْجَل، لذيذُ الطعم يشبه طعم الموز، وله نوًى شبيهٌ بغُضْروف العظم، يأكله بعضهم معه . ومنها شجر آسمه فاريتى، حَمْله شبيه بالليمون وطعمه يشبه طعم الكمّثرى بداخله نوى ملحم، يؤخذ ذلك النوى وهو طرىّ، فيطحن فيخرج منه شىء شبيه بالسمن يجمُد، وتُبيَّض به البيوت، وتوقد منه السُّرُج، ويُعمَل منه الصابون، وإذا قُصِد أكلُه وضع فى قِدْر على نار ليِّنة، ويسقى الماءَ حتى يقوى غَلَيانه وهو مغطّى الرأس؛ ويسارَق كَشْف الغطاء فى آنعقاده، فانه متى كُشِف القِدْرُ فار ولحق بالسقف . وربما آنعقد منه نار فأحرق البيت، فإذا نَضِج بُرِّد، وجعل فى ظُروف القَرْع، وصار يستعمَل فى المأكل كالسَّمْن . ومتى جعل فى غير ظُروف القَرْع

من الآنية خَرَقها . ويُوجَد بها من الثمرات البرِّيَّة ماهو شَبِيه بكل الفواكه البُستانِيَّة على اختلاف أنواعها ، ولكنها حِرِّيفةٌ لا تُسْتطاب ، يأكلها الهَمَج من السُّودان ، وهى قُوتُ كثيرٍ منهم .

وبها من الخَضْراوات اللُّوبياء ، واللِّفت ، والثُّوم ، والبَصَل ، والباذِنْجان ، والكُرُنْب ؛ أما المُلُوخيَّة فلا تطْلُعُ عندهم إلا بَرِّية ، والقَرْع عندهم بكَثْرة . وعندهم شيءٌ شَبِيه بالقُلْقاس إلا أنه أَلَذُّ من القُلْقاس ، يُزْرَع فى الخَلَاء فإن سَرَق منه سارقٌ ، قَطَع الملِكُ رأسَه وعَلَّقه مكانَ ماقُطِع منه ، عادةً عندهم يتوارَثُونها خَلَفا عن سَلَف ، لا تُوجَد فيها رُخْصة ، ولا تنفَع فيها شَفاعةٌ .

وجبالُها ذواتُ أشجار مشتَبِكةٍ ، غليظةِ السُّوق إلى الغاية ، تُظِلُّ الواحدةُ منها خَمْسمِائة فارسٍ . وفيها بغانَةَ وما وراءها فى الجَنُوب من بلاد السُّودان الهَمَج معادِنُ الذهب .

وقد حكى فى "مسالك الأبصار" عن الأمير أبى الحسن علىّ بن أمير حاجب عن السلطان (منسا موسى) سلطان هذه المملكة : أنه سأله عند قُدومه الديارَ المصرية حاجًّا عن معادن الذهب عندهم — فقال : تُوجد على نوعين : نوع فى زمان الربيع ينْبُت فى الصحراء ، له ورق شَبِيه بالنجيل ، أصوله التبر . والثانى يُوجَد فى أماكن معروفة على ضَفَّات مَجارى النيل ، تُحفَر هنالك حفائرُ فيُوجد فيها الذهبُ كالحجارة والحصى ، فيُؤْخَذ . قال : وكلاهما هو المسمَّى بالتِّبْر . ثم قال : والأوّل أخلَ(1) فى العيار ، وأفضلُ فى القِيمة . وذكر فى "التعريف" نحوه . وذكر عن الشيخ عيسى الزواوىّ عن السلطان (منسا موسى) المقدّم ذكره أيضا أنه يُحْفَر فى معادن الذهب كُلُّ حفيرة عمقُ قامة أومايقاربها ، فيُوجد الذهب فى جَنَباتها . وربما وُجد مجتمعا فى سُفْل

(1) فى الأصل والأول أ ... ... فى الخيار والتصحيح عن "التعريف" و "المسالك" .

الحفيرة؛ وأن في مملكته أُممًا من الكُفّار لا يأخُذ منهم جزيةً، إنما يستعمِلُهم في إخراج الذهب من مَعادِنه . ثم قد ذكر في "مسالك الأبصار" : أن النوع الأوّل من الذهب يُوجَد في زمن الربيع عَقيب [الأمطار](١) ينبُتُ في مواقعها، والثاني يوجد في جميع السنة في ضَفّات مَجارى النِّيل . وذكر في "التعريف" : أن نبات الذهب بهـذه البلاد يَبْدأ في شهر (أغشت) حيثُ سلطانُ الشمس قاهرٌ، وذلك عند أخذ النِّيل في الآرتفاع والزيادة . فإذا آنحطّ النيل تُتُبِّع حيثُ رَكِبَ عليه من الأرض؛ فيوجد منه ماهو نباتٌ يُشْبه النجيلَ وليس به . ومنه مايوجد كالحصَى . فجعل الجميع ممـا يحدُث في هـذا الزمن في أماكِنِ النيل خاصّةً، وفيه مخالفة لمـا تقدّم . بل قد قال : إن شهر (أغشت) الذي يطلُعُ فيه الذهب وهو من شهور الروم، ويقع ـ والله أعلم ـ أنه يُركَّب من (تَمُّوز) و(آب) يعني من شهور السريان، وهذا غلط فاحش . فقـد تقدّم في المقـالة الأولى أن شهور الروم منطبقة على شهور السُّريان في الآبتداء والآنتهاء، دون آبتداء أول السـنة؛ وشهر (أغشت) من شهور الروم هو شهر (آب) من شهور السريان بعينه .

ثم قد حكى في "مسالك الأبصار" عن والي مصر عن (منسا موسى) المقـدّم ذكره : أن الذهب ببلاده حِمًى له، يجمعُ له متحصِّله كالقَطِيعة، إلا ما يأخُذه أهلُ تلك البلادِ منه على سبيل السَّرِقة .

وحكى عن الشيخ سعيد الدَّكَّالي : أنه إنما يُهادَى بشيء منـه كالمُصانَعة، وأنه يتكسَّب عليهم في المَبِيعات لأنّ بلادهم لاشيء بها . ثم قال : وكلام الدَّكَّالي أثبت وعليه ينطبق كلامُه في "التعريف" حيث ذكر غانةَ ثم قال : وله عليها إتاوةٌ مقرّرةٌ

(١) بياض بالاصل والتصحيح من "المسالك" .

تحمَلُ إليه فى كلِّ سنة . وبهذه البلاد أيضا معدنُ نُحاس وليس يُوجَد فى السُّودان إلا عندهم . قال الشيخ عيسى الزواوى : قال لى السلطان موسى : إن عنده فى مدينة آسمها (تكوا) معدنَ نُحاس أحمر، يجْلَب منه قُضْبان إلى مدينة نَبْى قاعدة مالىّ فيبعثُ منه إلى بلاد السُّودان الكُفَّار، فيُباع وزن مثقال بثلثَىْ وزنه من الذهب؛ يُباع كُلّ مائة مثقال من هذا النحاس بستةٍ وستين مثقالاً وثلثَىْ مِثقال من الذهب .

وبهذه البلاد (مَعْـدِن مِلْح) وليس فى شيء من السُّودان الوالِجين فى الجَنُوب والمُسامِتين لسِجِلْماسة وما وراءها مِلْحٌ سواه . قال "المقرّ الشهابىّ بن فضل الله" : حدّثنى أبو عبد الله بنُ الصائغ، أن المِلْح معدومٌ فى داخل بلاد السُّودان، فمن الناس من يُغرِّر ويصل به إلى أناس منهم يَبْذُلون نظير كلِّ صُبرة ملح مثلَه من الذهب . قال آبن الصائغ : وحُدِّثت أن من أمم السودان الداخلة مَنْ لا يَظْهَر لهم بل إذا جاء التُّجّار بالمِلْح وضَعوه ثم غابوا، فيجيءُ السُّودان فيضَعُون إزاءَه الذهبَ، فإذا أخذ التجّارُ الذهبَ، أخذ السُّودان المِلْح . قال فى "مسالك الأبصار" : قال لى الدَّكَّالىّ : وأهلُ هذه المملكة كثيرٌ فيهم السحر، ولهم به عِنَاية حتّى إنهم فى بلاد الكُفَّار منهم يصيدون الفِيلَ بالسحر حقيقةً لا مجازا؛ وفى كل وقت يتحاكَمُون عند ملكهم بسببه، ويقول أحدهم : إن فلانا قَتَل أخى أو وَلَدى بالسِّحْر، والسلطان يحكُم على القاتل بالقِصاص وقَتْل الساحر .

وحكى عنه أيضا : أن السُّمُوم بهذه المملكة كثيرة، فإن عندهم حشائش وحيواناتٍ يركِّبون منها السُمُومَ القَتَّالة، ولا سيما من سَمكٍ يوجَدُ عندهم . قال الشيخ سعيد الدَّكَّالى : ومن خِصِّيصة هذه البلاد أن يسرع فيها فسادُ المتدخرات لاسيما السَّمْن فانه يفْسُد ويُنْتِنُ فيها فى يومين .

الجملة الثـالثـــــة

(فى معـاملة هـــذه المملـــكة)

ذكر فى "مسالك الأبصار" عن آبن أمير حاجب : أن المعاملة عندهم بالوَدَع وأن التُّجَّار تجلِبُه إليهم كثيرًا، فتَرْبَح فيه الرِّبح الكثير. وكأن هذا فى المعاملات النازلة من مثل المآكل وما فى معناها، وإلا فالذهب عندهم على ماتقدّم من الكَثْرة .

الجملة الرابعـــــة

(فى ذكر مـــلوك هـــذه المملكة)

قد تقدّم أن هذه المملكة قد آجتمع بها خمسة[1] أقاليم ؛ وهى : إقليم مالِّى ، وإقليم صُوصُو ، وإقليم غانةَ من الجانب الغربىّ عن مالِّى ، وإقليم كَوْكَوْ ، وإقليـم تَكْرُور فى الجانب الشرقى عن مالِّى ؛ وأن كلَّ إقليم من هــذه الخمسة كان مملكةً مستقلَّة ، ثم آجتمع الكلُّ فى مملكة صاحب هــذه المملكة ، وأن مالِّى هى أصـل مملكته . قال فى "مسالك الأبصار" : وهو وإن غلب عليه عند أهل مصر آسمُ سلطان التَّكْرُور فإنه لو سَمِـع هذا انِفَ منه ، لأن التَّكْرور إنما هو إقليم من أقاليم مملكته ، والأحبُّ إليه أن يقال (صاحب مالِّى) لأنه الإقليم الأكبر، وهو به أشهرُ. ونَقَل عن الشيخ سعيد الدَّكَّالِىّ : أنه ليس بمملكته من يُطْلَق عليه آسم مَلِك إلا صاحب غانةَ وهو كالنائب له وإن كان مَلِكًا . وكأنه إنمـا بقِىَ آسم الملك على صاحب غانةَ دون غيره لعـدم آنتزاعها منـه والآستيلاء عليها آستيلاءً كلِّيا . فقد قال فى "التعريف" : وأما غانة فإنه لايملِكُها وكأنه مالكُها ، يتركُها عن قُدْرة عليها : لأن بها وبمـا وراءها جنوبًا منابِتَ الذهب . وذكر ماتقـدّم من أن بلاد منابِتِ الذهب متى فشا فيها الإسـلامُ

---

(١) فى الاصل سبعة ، وهو سهو من الناسخ لان المعدود هنا والمتقدم هناك خمسة .

والأذانُ، عُدِم فيها نبات الذهب، وصاحب مالّي يتركها لذلك لأنه مسلمٌ، وله عليها إتاوةٌ كبيرة مقرّرة تحمَلُ إليه فى كل سنة .

وقد ذكر صاحب " العبر " : أن هذه الممالك كانت بيد ملوكٍ متفرّقة، وكان من أعظمها مملكةُ غانةَ . فلما أسلم الملثَّمون من البربر، تسلّطوا عليهم بالغزو حتّى دان كثيرٌ منهم بالإسلام، وأعطى الجزيةَ آخرون ، وضَعُف بذلك مُلْكُ غانةَ واضمحلّ، فتغلّب عليهم أهلُ صُوصُو المجاورون لهم، وملكوا غانَةَ من أيدى أهلها. وكان ملوك مالّى قد دخلوا فى الإسلام من زمنٍ قديم .

قال: ويقال إن أوّل مَنْ أسلم منهم ملك ٱسمه (بَرَمِنْدانَّة) بباء موحدة وراء مهملة مفتوحتين وميم مكسورة ونون ساكنة ودال مهملة بعدها ألف ثم نون مشدّدة مفتوحة وهاء فى الآخر فيما ضبطه بعضُ علمائهم . ثم حَجَّ بعد إسلامه، فاقتفى سَنَنه فى الحج ملوكُهم من بعده .

ثم جاء منهم ملك ٱسمه (مارى جاطة) ومعنى (مارى) الامير الذى يكون من نسل السلطان ومعنى (جاطة) الأسد، فقوِىَ مُلْكه وغلب على صُوصُو، وٱنتزع ما كان بأيديهم من مُلْكِهم القديم ومُلْك غانةَ الذى يليه إلى البحر المحيط . ويقال : إنه ملك عليهم خمسًا وعشرين سنة .

ثم ملك بعده ٱبنه (مَنْسا وَلِى) ومعنى (منسا) بلغتهم السلطان، ومعنى (ولى) علىّ، وكان من أعظم ملوكهم، وحَجَّ أيام الظاهر بِيبَرْس صاحب مصر .

ثم ملك من بعده أخوه (والى) .

ثم ملك من بعده أخوه (خليفةُ) وكان أحمقَ، يغلب عليه الحُمْق فيرمى الناس بالسِّهام فيقتلهم، فوثب به أهلُ مملكته فقتلوه .

وملك بعــده سِبْط من أسباط « مارِى جاطة » المقدّمِ ذكره ، ٱسمُه (أبو بكر) علىٰ قاعدة العجم فى تمليك البِنْت وٱبن البنت .

ثم تغلب علىٰ المُلْك مَوْلًى من مواليهم ٱسمه (ساكَبُورة) . ويقــال (سيكره) فاتسع نِطَاقُ مملكته وغلب علىٰ البلاد المجاورة له ، وفتح بلاد كَوْكَوْ وٱستضافها إلىٰ مملكته ؛ وٱتّصل ملكُه من البحر المحيط الغربىّ إلىٰ بلاد التَّكْرُور ، فقوِىَ ســلطانه ، وهابه أممُ السُّودان ورحل إليه التُّجّار من بلاد الغرب وأفريقيَّةَ . وحَجّ أيام السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » ورجع فقتل فى أثر عوده .

وملك بعده (قو) بن السلطان « مارى جاطة » .

ثم ملك من بعده (محمد بن قو) ثم ٱنتقل الملك من ولد مارى جاطة إلىٰ ولد أخيه أبى بكر .

فولِىَ منهم (مَنْسا موسى) بن أبى بكر . قال فى "العبر" : وكان رجلا صالحا ، ومَلِكا عظيما ، له أخبار فى العدل تُؤْثَر عنه ، وعظُمت المملكة فى أيامه إلىٰ الغــاية ، وٱفتتح الكثيرَ من البلاد .

قال فى "مسالك الأبصــار" : حكىٰ ٱبنُ أمير حاجب والى مصر عنه ، أنه فتح بسيفه وحدَه أربعًا وعشرين مدينةً من مُدُن السُّودان ذواتِ أعمال وقرى وضياع .
قال فى "مسالك الأبصار" : قال ٱبن أمير حاجب : سألتُه عن سبب ٱنتقال المُلْك إليــه ـ فقال : إن الذى قبلى كان يظُنُّ أن البحر المحيطَ له غايةٌ تُدْرَكُ ، فجهز مِئِين سُفُن ، وشحنها بالرجال والأزواد التى تكفيهم سِنينَ ، وأمر مَنْ فيها أن لا يَرْجِعُوا حتّى يبلغوا نهايته أو تنفَدَ أزوادُهم ، فغابوا مدّة طويلةً ، ثم عاد منهم سفينة واحدة وحضر مقدَّمُها ، فسأله عن أمرهم . فقال : سارت السفُنُ زمانا طويلا حتّى عَرَض

لها فى البحر فى وسط اللُّجَّة وادٍ له جِرْية عظيمة، فابتلع تلك المراكب وكنتُ آخِرَ القوم فرجعت بسفينتى، فلم يصدّقه: بجهّز ألفىْ سفينة ألفًا للرجال وألفا للأزْواد، وآستخلفنى وسافر بنفسه ليعلَم حقيقةَ ذلك، فكان آخِرَ العهد به وبمن معه. قال فى "العبر": وكان حجُّه فى سنة أربع وعشرين وسبعمائه فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون».

قال فى "مسالك الأبصار": قال لى المِهْمندار خرجتُ لمُلتقاه من جهة السلطان فأكرمنى إكراما عظيما، وعاملنى بأجمل الآداب، ولكنه كان لا يحدّثنى إلا بتَرْجُمان مع إجادته اللسانَ العربىّ. قال: ولما قَدِم، قدّم للخِزانة السلطانية حِمْلا من التِّبْر، ولم يترك أميرا ولا ربَّ وظيفة سلطانيّة إلا وبعث إليه بالذهب. وكنتُ أحاوله فى طُلوع القلعة للاجتماع بالسلطان حَسَب الأوامر السلطانية فيأبىٰ خَشْيةَ تقبيل الأرض للسلطان ويقول: جئتُ للحجّ لا لغيره، ولم أزل به حتّىٰ وافق علىٰ ذلك.

فلما صار إلىٰ الحضرة السلطانية، قيل له: قبِّل الأرض، فتوقف وأبىٰ إباءً ظاهرا. وقال: كيف يجوز هذا؟ فأسرّ إليه رجلٌ كان إلىٰ جانبه كلامًا — فقال: أنا أسجُدُ لله الذى خَلَقنى وفَطَرنى ثم سجد، وتقدّم إلىٰ السلطان، فقام له بعضَ القيام وأجلسه إلىٰ جانبه وتحدّثا طويلا، ثم قام السلطان موسىٰ فبعث إليه السلطان بالخِلَع الكاملة له ولأصحابه، وخيلا مُسْرجة مُلْجَمة. وكانت خِلْعتُه طَرْدَ وَحْش بقَصَب كثير، بسِنْجاب مُقَندس، مطرّز بزَرْكَش، علىٰ مفرج إسكندرى، وكَلُّوتة زركش، وكَلاليب ذهب، وشاش بحرير، ورَقْم خَليفَتىّ، ومِنْطقة ذهب مرصَّعة، وسيف محلًّى، ومنديل مُذْهب خزّ، وفرسين مُسْرَجين مُلْجَمين بمراكب بغل محلَّاة وأعلام، وأجرىٰ عليه الأنزالَ والإقامات الوافرةَ مدّةَ مُقامه.

ولما آن أوانُ الحج بعث إليه بمبلغ كبير من الدراهم ، وهُجُن جليلة كاملةِ الأكوار والعُــدّة لمركبه ، وهُجُن أتباع لأصحابه وأزوادٍ جمة ، وركّز له العليقَ فى الطُّرق ، وأمر أميرَ الركب بإكرامه وآحترامه .

ولمـا عاد ، بعث إلىٰ السلطان من هَدِيَّة الحجـاز تبرُّكا ، فبعث إليه بالخِلَع الكاملة له ولأصحابه ، والتُّحَف والألطاف من البزّ السَّكَنْدرى والأمتعـة الفاخرة ، وعاد إلىٰ بلاده .

وذكر عن آبن أمير حاجب والى مصر أنه كان معه مائةُ حِمْل ذهبـا أنفقها فى سَفْرته تلك علىٰ مَنْ بطريقه إلىٰ مصر من القبائل ثم بمصر، ثم من مصر إلىٰ الحجاز توجُّها وعَوْدا حتّى آحتاج إلىٰ القَرْض ، فاستدان علىٰ ذِمَّتـه من تُجَّار مصر بمـالهم عليه فيه المَكَاسِبُ الكثيرة ، بحيث يحصُل لأحدهم فى كلّ ثلثمائةِ دينارٍ سبْعُمائة دينار رِبْحًا ، وبعث إليهم بذلك بعد توجُّهه إلىٰ بلاده . قال فى "العبر" ويقال : إنه كان يَحْمِل آلتَهُ اثنا عشرَ ألفَ وصيفةٍ لابساتٍ أقبِيَةَ الدِّيباج .

قال فى "مسالك الأبصار" : وذكر لى عنـه آبنُ أمير حاجب : أنه حكىٰ له أن من عادة أهــل مملكته أنه إذا نشأ لأحدٍ منهـم بنتٌ حسـناءُ ، قدّمها له أمةً موطوءةً ، فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمين ـ فقلت له : إن هذا لايحل لمسلم شَرْعا ـ فقـال : ولا للملوك ؟ ـ فقلت : ولا للمُلُوك وآسأل العلمـاء . فقال : والله ما كنت أعلم ذلك ! وقد تركته من الآن . قال فى "العبر" : ودام ملكه عليهم خمسا وعشرين سنة ومات .

فملك بعده آبنـه (منسا مَغَا) ومعنىٰ مَغَا عنـدهم محمد ، يعنون السلطان محمدا ، ومات لأربع سنين من ولايته .

وملك بعده أخوه (منسا سليمان) بن أبي بكر ، وهو أخو منسا موسى المقدّم ذكره . قال في "مسالك الأبصار" : واجتمع له ما كان أخوه افتتحه من بلاد السُّودان وأضافه إلى يد الإسلام ، وبنى به المساجدَ والجوامعَ والمناراتِ ، وأقام به الجُمَع والجماعات والأذان ، وجلب إلى بلاده الفُقَهاءَ من مذهب الإمام مالك رضى الله عنه ، وتفقّه في الدين . قال في "العبر" ودام ملكُه أربعا وعشرين سنةً ، ثم مات .

وولى بعده ابنه (قنبتا بن سليمان)(١) ومات لتسعة أشهر من مُلْكه .

وملك بعده (مارى جاطه) بن منسا مغا بن منسا موسى فأقام أربعَ عشرةَ سنة أساء فيها السيرة ، وأفسد مُلْكهم ، وأتلف ذخائرهم بسَرَفه وتبذيره ، حتّى انتهى به الحالُ في السَّرَف أنه كان بخزائنهم حجرُ ذهبٍ ، زنته عشرون قنطارا منقولا من المعدن من غير سَبْك ولا علاج بالنار ، وكانوا يَرَوْنه من أنفَسِ ذخائرهم لنُدُور وجود مثله في المَعْدِن ، فباعه على تُجّار مصر المتردّدين إليه بأبخس ثمن ، وصرف ذلك كله في الفُسوق ، وكان آخر أمره أن أصابتْه عِلّة النوم وهو مرض كثيرا ما يصيب أهلَ تلك البلاد لا سيّما الرؤساءُ منهم ، يأخذ أحدَهم النومُ حتّى لا يكاد يُفيق ، فأقام به سنتين حتّى مات سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

وملك بعده ابنُه (موسى) فنَكَّب عن طريق أبيه ، وأقبل على العدل وحُسْن السيرة .

وتغلب على دولته وزيره (مارى جاطة) فحَجَره وقام بتدبير الدولة ، وكان له فيها أحسنُ تدبير ، وبقى مَنْسا موسى حتّى مات سنة تسع وثمانين وسبعمائة .

وملك بعده أخوه (منسا مَغَا) وقُتِل بعده بسنة أو نحوها .

---

(١) وقع في العبر ج ٦ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ "قنفتا" .

وملك بعده (صندكى) زوجُ أم موسىٰ المقدّم ذكره ، ومعنى (صندكى) الوزير ؛ ووثب عليه بعد أشهر رجلٌ من بيت مارى جاطة .

ثم خرج من ورائهم من بلاد الكَفَرة رجل آسمه (محمود) يُنْسَب إلىٰ (منسا قو) آبن منسا ولى ، بن مارى جاطة ، ولقبُه منسا مغا ، وغلب على المُلْك فى سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة .

قال فى "التعريف" : وصاحب التَّكْرور هذا يَدَّعى نسبًا إلىٰ عبد الله بن صالح ، آبن الحسن ، بن علىّ بن أبى طالب كرم الله وجوههم . قلت : هو صالح بن عبدالله آبن موسىٰ ، بن عبد الله أبى الكِرام ، بن موسى الجَوْن ، بن عبد الله ، بن حسن المثنّى ، آبن الحسن السبط ، آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" : أن سلطان غانَة يَدَّعى النسبَ إلىٰ الحسن بن علىّ عليهما السلام ، فيحتمل أنه أراد صاحب هذه المملكة لأنّ من جملة مَنْ هو فى طاعته غانَة ، أو من كان بها فى الزمن القـديم قبل آستيلاء أهل الكُفْر عليها .

الجملة الخامســـة

(فى أرباب الوظائف بهذه المملكة)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن بهذه المملكة : الوُزَراء ، والقُضاة ، والكُتَّاب ، والدَّواوين ، وأن السلطان لايكتُب شيئا فى الغالب ، بل يَكِلُ كلَّ أمر إلىٰ صاحب وظيفته من هؤلاء فيفصِلُه . وكتابتهم بالخط العربىّ علىٰ طريقة المغاربة .

الجملة السادسة

(فى عساكر سلطان هذه المملكة، وأرزاقهم)

أما مقدار العساكر، فقد ذكر الشيخ سعيد الدَّكَّالى : أن مقدار عسكره مائةُ ألف نفر، منهم خيَّالة نحو عشرة آلاف فارس، وباقيهم رَجَّالة لاخيلَ لهم .

وأما الإقطاعات لأمراء هذا السلطان وجنده والإنعامات عليهم ، فقد قال الدَّكَّالى : إن من أكابرهم من يبلغ جملةُ ماله على الملِك فى كلّ سنة خمسين ألف مثقال من الذهب، وانه يتفقَّدهم مع ذلك بالخيل والقُماش، وإن همته كلها فى تجميل زِيِّهم وتمصير مُدُنِهم .

الجملة السابعة

(فى زىّ أهل هذه المملكة)

قال الدكالىّ : لباسُهم عمائمُ بحنَك مثل الغرب، وقُماشهم بياضٌ من ثياب قُطْن تُنْسَج عندهم فى نهاية الرقة واللطف تسمَّى الكمصيا ولِبْسهم شبيه بلِبْس المغاربة جِبابٌ ودَرارِيعُ بلا تَفْرِيج والأبطالُ من فُرْسانهم تلْبَس أساوِرَ من ذهب، فمن زادت فُروسِيَّته لِبس معها أطواقًا من ذَهَب فإن زادت لِبس مع ذلك خلاخل من ذهب، وكلما زادتْ فُروسِيَّة البطل ألبسه الملِك سَراويلَ متسعة وسَرَاويلاتهم ضيقةُ أكمام الساقين متَّسعةُ الشرج ؛ وأهل هذه المملكة يركبون بالسُّروج وهم فى غالب أحوالهم فى الركوب كأنهم من العرب، إلا أن هؤلاء يبدءُون فى الركوب بأرجلهم اليمنىٰ بخلاف غيرهم من سائر الناس جميعا، ولا يعرف عندهم ركوبُ جَمَل بكور.

الجمـــلة الثـامنة

(فى ترتيب هـــذه المملكة)

أما جُلُوس السُّلطان فى قَصْره فإنه يجلس علىٰ مَصْـطبة كبيرة ، علىٰ دِكَّة كبيرة من آبنوسٍ ، كالتخت علىٰ قدر المجلس العظـــيم المتسع ، عليها أنياب الفِيَلة فى جميع جوانبها ، النابُ إلىٰ الناب ؛ وعنده سِلاحٌ له من ذهب كلُّه : سَـيْفٌ ، ومِزْراق ، وقَوْس ، وتركاش ، ونُشَّاب ؛ وعليه سراويلُ كبير ، مفصَّل من نحو عشرين نِصْفية ، لا يلبس مثلَه أحدٌ منهم ، بل هو من خصوصيَّته ؛ ويقف خَلْفَه نحوُ ثلاثين مملوكا من التُّرك وغيرهم ممن تُبْتاع له من مصر ، بيــد واحد منهم چتر من حرير عليه قُبَّة ، وطائرٌ من ذهب صــفةُ بازى يحمَلُ علىٰ يساره ، وأمراؤه جلوس حولَه يمينا وشمالا ؛ ثم دونهم أعيانٌ من فُرْسانِ عسكرِه جلوس ؛ وبين يديه شخص يغَنِّى له وهو سيَّافه ، وآخَرُ سَفِيرٌ بينه وبين الناس يسمَّىٰ الشاعر ؛ وتُنْهىٰ إليه الشَّكاوىٰ والمظالم فيفصِلها بنفسه ؛ ولا يكتُبُ شيئا فى الغالب ، بل يأمر بالقول بلسانه ؛ وحوله أناسٌ بأيديهم طُبُول يَدُقُّون بها ، وأناس يَرْقُصون وهو يَضْحَك منهم ؛ وخلْفه صَنْجقان منشوران ، وأمامه فَرَسانِ مشــدودان محصَّــلان لركوبه متىٰ أحَبَّ ؛ ومن عَطَس فى مجلســه ضُرِب ضَرْبا مُؤْلمـا ، لا يُسامَحُ أحد فى مثل ذلك ، فإن بغتَ أحدا منهم العُطَاسُ ، آنبطح فى الأرض وعَطَس حتّىٰ لا يُعْــلم به . أما الملك فإنه إذا عَطَس ضرب الحاضرون بأيديهم علىٰ صُدُورهم . ولا يدخل أحد دارَ السلطان منتعلًا كائنا مَنْ كان ، ومن لم يخْلَع نعليه قُتل بلا عفو : عامدًا كان أو ساهيا ؛ وإذا قَدِم عليه أحد من أمرائه أو غيرهم ، وقَف أمامَه زمانا ، ثم يُومى القادمُ بيــده اليمنىٰ مثل من يَضْرِب الجوك ببلاد توران وإيران من بلاد المشرق . وصفة ذلك أن يكشِفَ مقدّمَ رأسه ويرفعَ

الذى يضرِبُ الجوكَ يدَه اليمنىٰ إلىٰ قريبِ أذُنه ، ثم يضعها وهى قائمة منتصبةٌ ، ويُلْقيها بيده اليسرىٰ فوق فخذه ، واليَدُ اليسرىٰ مبسوطةُ الكَفِّ لتلقى مِرْفق اليمنىٰ مبسوطة الكف مضمومة الأصابع بعضها إلىٰ جانب بعض كالمُشْط ، تُماسُّ شَحْمة الأُذُن . قال ٱبن أمير حاجب : وقد رأيت هذا عند خِدمتهم للسلطان « موسىٰ » لمـا قدم الديارَ المصرية . فإذا أنعم علىٰ أحد بإنعام أووعده وعْدا جميلا أوشَكَره علىٰ فعل ، تمرّغ المنعَمُ عليه بين يدَيْه من أوّل المكان إلىٰ آخره ، فإذا وصل إلىٰ آخر المَكَان ، أخذ غِلْمـانُ المنْعَم عليه أو مَنْ هو من أصحـابه من رَمَادٍ يكون موضوعا فى آخر مجلس المَلِك مُعَدّا لهذا الشأن ، فيَذُرّ فى رأسِ المنعم عليه ، ثم يَعُود ويتمرّغ ، إلىٰ أن يصل بين يدَيِ الملك ، ويضرب جوكا آخر بيده ثم يقوم .

وأما فى الركوب فقد جرَتْ عادةُ سلطان هذه المملكة أنه إذا قَدِم من سفر أن يحمل علىٰ رأسه الجترَ راكبٌ ، ويُنْشَر علىٰ رأسه علم ، وتُضْرَب أمامه الطُّبولَ ، والطَّنابير ، والبُوقات بقُرُون لهم فيها صناعة محكمة . قال ٱبن أمير حاجب : وشِعَار هذا السلطانِ أعلامٌ وألويةٌ كِبار جدّا ، ورَنْكه أصفَرُ فى أرضٍ حمراءَ .

وأما غير ذلك من سائر أموره ، فقد ذكر الشيخ سَعيد الدَّكَّالىُّ : أن من عادة هذا السلطان أنه إذا عاد إليـه أحدٌ ممَّن بعثه فى شُغُل له أو أمرٍ مُهِمٍّ أن يسأله عن كلِّ ما حَدَث له من حين مفارقته له وإلىٰ حين عَوْده مُفَصَّلا . قال ٱبن أمير حاجب : وقد رأيت السلطان موسىٰ وهو بمصر لا يأكل إلا منفردا وحده ، لا يحضُرُه عنـد الأكل أحد البتّةَ .

المملكة السادســـة

(من ممـالك بلاد السُّودان، مملكة الحَبَشة)

بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة والشين المعجمة وهاء في الآخر .

وهي مملكة عظيمة جليلة المِقْـدار ، متسعة الأرجاء ، فسـيحة الجَوَانب . قال في "مسالك الأبصار" : وأرضها صَعْبة المَسْلَك : لكثرة جبالها الشامخة ، وعِظَم أشجارها ، وآشتباك بعضها ببعض ، حتّى إنَّ ملِكَها إذا أراد الخروج إلى جهة من جهاتها ، تقدّمه قوم مُرْصَدُون لإصلاح الطُّرُق بآلات لقَطْع الأشجار و إحراقها بالنار . قال : وهم قوم كثيرٌ عدَدُهم ، ولم يملك بلادَهم غيْرُهم من النوع الإنسانيّ ، لأنهم أجْبَر بَنِي حام ، وأخبر بالتوغُّل في القتال والآقتحام ، طُول زمنهم في الأسفار ، وصيد الوحش ، وقتالهم انمـا يكون عُرْياً من غير لَأْمة تدْفَع عنهم ولا عن خيلهم . ثم وصفهم بعد ذلك بأوصاف لوْلَا ماهُمْ عليه من الشرك لكانوا في الرُّتْبة العُلْيا من مَرَاتب بني آدم : فذكر أنَّ المشهور عنهم مع ما هم عليه من المجاعة أنهم يقبلُون الحَسَب و يصْفَحُون عن الجرائم . ومن عادتهم أن مَنْ رمىٰ سلاحه في القتال حَرُم قتاله ، ويكْرِمون الضيفَ ، ولا ينْقُضُ الصديقُ منهم عهدَ صديقه ، و إذا أحَبُّوا أظهروا المحبةَ ، و إذا أبْغَضُوا أظهروا البُغْض ، والغالب عليهم الذَّكاء والفِطْنة وصِدْق الحَدْس ، ولهم علومٌ وصناعات خاصَّة بهم ؛ ولهم قلَم يكتُبُون به من اليمين إلىٰ الشِّمال كما في العربيّ ، عِدّة حُرُوفه ستّةَ عشر حرفا ، لكل حرف منها سبعةُ فروع ، فيكون عدّتُها مائةً وآثنين وثمانين (١) حرفا ، سوىٰ حروفٍ أُخَر مستقِلّة بذاتها لا تفتقر إلىٰ حرف من الحروف المذكورة ، مضبوطة بحركاتٍ نحوية متصلةٍ بالخط لا منفصلةٍ عنه . ومع كونهم جنسا واحدا

---

(١) كذا في المسالك أيضا غير أنه قال : الجملة من ذلك مائة وثمانون فتأمله .

فلُغاتُهم تزيد على خمسين لسانا، ويميل الكثير من ألوانهم إلى الصَّفاء، ولكل طائفة منهم وَسْم فى وجوههم يعبر عنه بالتلعيط، بعضهم يَسِم فى الخدَّين وَسْما خَفيفا، وأمْحَرا يَسِمُون فى الخَدّين والجبهة إلى الأنف خُطُوطا طِوَالا . ويقال : إن أوّلَ بلادهم من الجهة الغربيَّة بلادُ التَّكْرور مما يلى جهةَ اليَمَن، وأوّلها من الجهة الشرقية المائلة إلى بعض الجهة الشمالية بحرُ الهند واليمن؛ وفيها يمرّ النهرُ المسمّى سَيْحُونَ الذى يُرْفَدُ منه نيلُ مصر . وقد عدّ منها أحدَ عشَرَ إقليما من جهة الغرب (١) بمفازة بمكانٍ يسمّى (وادى بَرَكَة) يُتَوصَّل منه إلى إقليم يسمّى (سَحَرْت) ويسمّى قديما تِكْراى، وكان به فى الزمن القديم مدينةٌ اسمها (احسْرم) بلغة أخرى من لغاتهم، وتسمّى أيضا (زرفرتا). بها كان كرسىُّ مُلْكِ النَّجاشىّ، وكان مستوليا على أقاليم الحَبَشة . ويليه من جهة الشرق إقليم (أَمْحَرا) الذى به الآن مدينةُ المملكة، ثم إقليم شاوة، ثم إقليم داموت، ثم إقليم لامنان، ثم إقليم السِّيهُو، ثم إقليم الزنج، ثم إقليم عَدْل الأمراء، ثم إقليم حماسا، ثم إقليم باريا، ثم إقليم الطِّراز الإسلامى . قال : وبها أقاليم كثيرة العدد، مجهولة الأسماء، غير مشهورة ولا معلومة .

ثم هى على قسمين :

القسم الأوّل

(بلاد النّصْرانية)

وهى القسمُ الأوفر عَدَدا، الأوسَعُ مَجَالا، وهو الذى يملكه مَلك (أَمْحَرا) بفتح الألف وسكون الميم وفتح الحاء والراء المهملتين وألف فى الآخر . وهم جنس من الحبشة .

ويشتمل على ستّ جمل :

(١) فى القطعة الازهرية مصلحة هكذا [وأوّلها من جهة الغرب مفازة الخ] .

الجمــــــلة الأولى

(في ذكر قواعدها)

وقاعدتها مدينة (مَرِعْدِى) بفتح الميم وكسر الراء وسكون العين وكسر الدال المهملتين وياء مثناة تحتُ في الآخر. وهي مدينة بإقليم أَمْحَرا المقدّم ذكره فيما ذكره في "مسالك الأبصار" إلا أنه لم يذكر صِفَتها، والذى ذكره في "تقويم البُلْدان": أن قاعدة الحبشة (مدينة جَرْمِى) بالجيم المفتوحة والراء المهملة الساكنة ثم ميم مكسورة ثم ياء مثناة تحتية في الآخر كما ضبطه ابن سعيد. وموقعها في الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة. قال في "الأطوال": حيثُ الطولُ خمسٌ وخمسون درجة، والعرضُ تسعُ درج وثلاثون دقيقة. قال في "تقويم البُلْدان": وهي مدينة ذكرها أكثر المصنِّفين في كُتُب المسالك والممالك والأطوال والعروض، وأنها كرسيّ مملكة الحَبَشة وقاعدتُهم، ولم يزد على ذلك، فيحتمل أنها قاعدةٌ قديمة، ويحتمل أنها القاعدة المستقِرّة.

الجمــــــلة الثانيـــــة

(في الموجود بها)

قد ذكر في "مسالك الأبصار": أنَّ بها من المَوَاشى ذواتِ الأربع: الخيلَ، والبغالَ، والبَقَر، والغَنَم وما في معناها، وأغنامُهم تُشْبِه أغنامَ عَيْذَاب واليَمَن. ومن الوُحُوش الأسَدَ، والنَّمِر، والفَهْد، والفِيلَ، والزَّرافة، والغَزَال، وبَقَر الوَحْش، وحمار الوحش، والقِرَدة، وغيرها من الوُحُوش.

وبها من الطُّيور الجوّية : الصُّقُورة، والبُزَاة بكَثْرة، والنُّسور البِيض والسُّود، والغُرَاب، والحَجَل، وطَيْر الواجِب بجملته، والحَمَام، والعُصْفور، وغير ذلك مما لم يُوجَدْ بالديار المِصْرية . ومن الطيور البرّية دَجَاج الحَبَش وأمثالها . ومن الطيور المائية البَطُّ؛ وعندهم بنَهرِهم سَمك يشبه البُورِيّ، وسمكٌ يُشْبِه الثُّعْبان، يطول إلىٰ مقدار ذراعينِ ونصفٍ، ويغْلُظ إلىٰ مقدار كِبار الخَشَب؛ وبنهرهم أيضا التِّمساح وفَرَسُ البحر، وغير ذلك .

وبها من الحبوب : الحِنْطة، والشَّعير، والحِمِّص، والعَدَس، والبِسِلَّا، والذُّرَة، وبعض الباقِلَّا، وحبوبٌ أُخْرىٰ غير ذلك منها حبٌّ يسمَّى (قنابهول) يستعملونه قُوتًا كالحنطة . والحِنطة عندهم علىٰ مثال الحنطة الشاميّة، والشعيرُ حَبُّه عندهم أكبَرُ من حب الشعير بالديار المصرية والشامية؛ ومنه ضَرْب يسمَّى طمجة . ولَوْن الحِمِّص عندهم إلىٰ الحُمْرة . والباقِلَّا عندهم عزيز الوجود فى أكثر البلاد، ولكنهم لا يفتقرون إليه للعَلَف لكثرة المَرَاعى ببلادهم .

وعندهم حَبٌّ يسمَّى (طافى) علىٰ قَدْر الخَرْدل، ولونُه إلىٰ الحُمْرة، ومَكْسِره إلىٰ السَّواد، يتخذون منه الخُبْز . وعندهم ببعض الأقاليم حَبٌّ شَبِيه بالحنطة إلا أنَّ له قِشْرَيْن، يُنْزَعُ قِشْره بالهَرْس كالأَرُزّ، ويتَّخذون منه طعاما يكون مُغْنِيًا عن الحِنطة .

وعندهم بِزْر الكَتَّان وحَبُّ الرَّشاد، وهم يَزْرَعون علىٰ المَطَر فى كل سنة مرتين : مرةً فى الصيف، ومَرّةً فى الشتاء، تحصل فى كل مرة الغَلَّات .

ونقل البطرك (بنيامين) أنه يقع عندهم المَطَر الكثير، وتحصُل مع المطر الصواعقُ العظيمة .

وعندهم من أصناف المَقَاثِئ القَرْع، وفى بعض الأقاليم بِطِّيخ صغير .

وعندهم من البقول : الثُّوم ، والبَصَـــل ، والكُزْبُرَةُ الخضراء ؛ ومن الرياحين الرَّيْحان ، والقَرَنْفُل ، ونبـاتٌ أبيضُ يسمَّى بَعْتَران . وعنـدهم الياسَمِين البَرِّىّ ، ولكنه ليس بمشْمُومٍ لهم .

وعــندهم من الفواكه العِنبُ الأَسْــودُ على قِلَّة ، والتِّين الوَزِيرِىّ ، وأصنافُ الحَوَامض خَلَا النَّارَنْج .

وعندهم شجر يسمَّى (چان) بجيم بين الجيم والشين لا ثَمَـر له ، وإنمـا له قلوب تُشْبِه قلوبَ النارَنْج تُؤْكَل فتزيد فى الذَّكاء والفَهْم ، وتُفرِّح ، إلا أنها تقلِّل الأكْل ، والنَّوْم ، والجِمَاع . وعنايتُهم به عنـايةُ أهل الهِنْد بالتَّنْبُل وإن كان بينهما مباينَـةٌ . وأىُّ نَفْع فيما فائدتُه تقليل النَّوْم والأَكْل والجِمَـاع ، اللاتى هى لَذَّات الدنيا ، حتّى يحكىٰ أنه وُصِف لبعض ملوك اليمن ـ فقال : أنا لا يذهَبُ متحَصِّل مُلْكى إلا على هذه الثلاث ، فكيف أسعىٰ فى ذَهَابها بأكل هذا ؟

ومن أشجـارهم الزَّيْتون ، والصَّنَوْبَر ، والجُمَّـيز ؛ وفى بعض بلادهم الآبَنوس ، وفى بعضها المُقْل ، وفى بعضها القَنَا المجوَّف والمَسْدُود . ومأ كَلُهم شحومُ البقر والمَعَز ، وبعضُ شُحُوم الضأن ؛ ومَشْرُوبُهم اللَّبَـــن البقرِىّ ، وفى ضَعْفهم يتداوَوْن باللابن المُدَافِ بالمـاء وسَمْن البقر .

وعندهم عَسَل النحل بكَثْرة فى جميع الأقاليم ، تختلفُ ألوانُه باختلاف المَرَاعى : منه ما يُوجَد فى الجبال فيؤخذ من غير حَجْر على أخْذه . ومنــه ماله خَلَايَا من خَشَب منقورةٌ ، له مُلَّاك يختصُّون به . ووَقُود مَصَابيحهم شُحُوم البقر . أما الزَّيْت الطَّيِّب فيُجْلَب إليهم . وادِّهانُهم بالسَّمْن . وأوانى طعامهم فَخَّار مَدْهون أسودُ . واغتِسالهم بالمـاء البارد ، وربما استعملوا الحارّ منه .

وحكى البطرك (بَنْيامين) أن عندهم من المعادن معدِنَ الذهب، ومعْدِنَ الحديد .

وحُكِى عن الشريف عزالدين التاجر: أن فى بعض بلادهم يُوجَد معدِنُ الفِضَّة .
ومَصاغُهم الذَّهب، والفِضَّة، والنُّحاس، والرَّصاص، كل أحد منهم بحسبه .

الجملة الثالثة

(فى ذكر معاملاتهم وأسعار بلادهم)

أما معاملاتهم، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أن مُعامَلَتهم مُقايَضَةٌ بالأبقار والأغنام والحُبُوب وغير ذلك . وأما الأسعار فالقمح والشعير اللذان هما أصل المطعومات ليس لهما عندهم قيمة تذكر، لاستغنائهم عن ذلك باللحم واللَّبَن . وسيأتى ذكر معاملة الطِّراز الإسلامىّ فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الجملة الرابعة

(فى ذكر زِيِّهم وسلاحهم)

أما زِيُّهم، فقد ذكر فى "المسالك" أن لِبَاسهم فى الشتاء والصيف واحدٌ : لكُلِّ واحدٍ منهم ثوبانِ غير مَخِيطَيْنِ : أحدهما يَشُدّ به وسَطَه، والآخَر يلتَحِف به ؛ ولا يعرفون لُبْس المَخِيط جملةً، إلا أن الخواصّ والأجناد يفضَّلون فى اللِّبس، فيلبَسُون الحرير والأبراد اليمنِيَّة، والعوامُّ يلبَسُون ثِياب القُطْن على ماتقدّم .

وأما سِلاح المقاتلة منهم، فالسيوفُ، والحِراب، والمَزارِيق، والقِسِىّ، يرمون عنها بالنَّبْل : وهو نُشَّاب صغير، وربما رمى بعضهم بالنبل عن قوس طويل يُشْبِه قوسَ البُنْدُق، ولهم دَرَقٌ مدوّرة، ودِرَاق طِوَال يتَّقُون بها .

الجملة الخامســـة

(فى ذكر بَطَارِكة الإسكندريَّة، الذين عن توليتهم تَنْشأ ولاية ملُوك الحَبَشة)

اعلم أنه قد تقدّم فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ مايحتاج إليه الكاتب عند ذكر النحل والملل أن البَطَاركة عند النَّصارىٰ عبارة عن خُلَفاء الحواريِّين الذين هم أصحابُ المَسِيح عليه السلام، وأنه كان لهم فى القَدِيم أربعةُ كَرَاسِيَّ: كُرسِيٌّ برُومِيَة: قاعدةِ الروم، وكُرْسِىٌّ بالإسكَندرية من الديار المِصرية، وكُرْسِىٌّ بأَنْطاكِيَةَ: قاعدة العَوَاصم من بلاد الشام، وكُرْسِىٌّ ببَيْت المَقْدِس. وأن كرسىَّ رُومِيَةَ قد صار لطائفة المَلكانِيَّة وبه بَطْرَكُهم المعبَّر عنه بالبابا إلىٰ الآنَ. وكرسىَّ الإسكندرية قد صار آخِرًا لبطرك اليَعَاقِبة تحت ذِمَّة المسلمين بالديار المصرية من لَدُنِ الفتح الإسلامىّ وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا. وأن كُرسِىَّ بيت المقدس وكُرسِىَّ أنطاكِيَةَ قد بَطَلا باستيلاء دين الإسلام عليهما. ثم كُرْسِىّ الإسكندرية بعد مَصِيره إلىٰ اليَعَاقبة قد تَبِع البَطْرَكَ القائمَ به علىٰ مَذْهَب اليعاقبة الحبَشَةُ والنُّوبة وسائرُ متنصِّرة السُّودان، وصار لَدَيْهم كالخليفة علىٰ دين النصرانية عندهم، يتصرَّف فيهم بالوِلَاية والعَزْل، لاتَصِحُّ وِلَايَةُ مَلِك منهم إلا بتوليته، حتّٰى قال فى "التعريف" فى الكلام علىٰ مكاتبة ملك الحبشة: ولولا أنَّ معتقَدَ دِين النصرانية لطائفة اليَعاقِبة أنه لايصحُّ تعمُّد معمُودِىّ إلا باتِّصال من البطريرك، وأن كرسىَّ البِطْرِيرَك كنيسةُ الإسكندرية، فيَحْتاج إلىٰ أخذ مُطْران [بعد مُطْران] (١) من عنــده، وإلا كان شَمَخ بأنفه علىٰ المكاتبة، لكنه مضطَرٌّ إلىٰ ذلك. قال: ولأوامر البِطْرِيرك عنده مالشريعته من الحُرْمة، وإذا كتب إليه كتابا فأتىٰ ذلك الكتابُ إلىٰ أوّل مملكته، خرج عَمِيدُ تلك الأرض فحَمَل الكتابَ علىٰ رأس

(١) الزيادة عن "التعريف".

عَلَم ، ولا يزال يحمِلُه بيــده حتّى يُخرِجَهُ من أرضــه وأربابُ الدولة فى تلك الأرض كالقُسُوس والشَّامِسة حوله مُشاةٌ بالأدْخِنَـة ، فإذا خرجوا من حَدّ أرضهم تلقّاهم مَنْ يليهـم أبدًا كذلك فى كل أرض بعـد أرض حتّى يَصِـلوا إلىٰ أمْحرا ، فيخرُج صاحبُها بنَفْسه ، ويفعـلُ مثل ذلك الفعلِ الأول ، إلا أن المُطْرانَ هو الذى يحمِل الكتابَ لعَظمتـه لا لِتَأَبّى المَلِك ، ثم لا يتصرف المَلك فى أمْرٍ ولا نَهْيٍ ولا قليـل ولا كثير حتّى يُنـادى للكتاب ويجمع له يومَ الأحد فى الكنيسـة ، ويُقْرأُ والملك واقفٌ ، ثم لا يجاس مجْلِسَه حتّى ينفذ ما أمره به .

ولمـا تعـذر الوقوف علىٰ معرفة تواريخ ملوكهم ، ٱكتفينا بذكر البطاركة الذين عنهم تنشأ ولاياتهم ، فكانوا هم ملوكَهم حقيقةً .

اعلم أن أوّل مَنْ وَلِيَ من البَطاركة كنيسةَ الإسكندرية مُرْقُص الإنجيلىّ : تلميذ بُطْرس الحَوارىّ ، الذى أرسله المسيحُ عليه السلام إلىٰ رُومِيَةَ . وإنما سُمّى بمرْقُص الإنجيلىّ لأن بُطْرَس الحوارىّ حين كتب إنجيلَه كتبه بالرُّومِيَّة ونسبه إلىٰ مُرْقُص المذكور فتلقّب بالإنجيلى ، وأقام مرقص المذكور فى بَطْركية الإسكندرية سبع سنين يدعو إلىٰ النصرانيـة بالإسكندرية ومصر وبرقة والمغرب ثم قتله نيرون قيصر ٱبن اقليوديش قيصر سادس القياصرة .

ووِلِيَ مكانَه (حنانيا) ويسمّى بالعبرانية أنانيو ثم مات لسبع وثمانين سنة للمسيح .

ووِلِي مكانه (فابو)[1] فأقام ثلاثَ عشرةَ سنة ثم مات .

فولِيَ مكانَه (كرتيانو) ومات لإحدىٰ عشرة سـنة من ولايته فى أيام (طرنبش قيصر) .

(١) فى الخطط المقريزية ج ٢ ص ٤٨٤ مينيو .

ووَلِىَ مكانَهُ (إيريمو) ثنتىْ عشرةَ سنة .

ثم وِلِىَ بعده (نسطس) فى أيام (أندريانوس قيصر) ، وكان حكيما فاضلاً فأقام فى البطركية إحدىٰ عشرةَ سنةً ثم مات .

ووِلِىَ مكانَهُ (أرمانيون) إحدىٰ عشرةَ سنةً أيضا [ومات] فى أيام (أندريانوس) قيصر أيضـا .

ووِلِىَ بعـده (موقيانو) فلبِثَ تسعَ سـنين ومات فى أيام (أنطونيس قيصر) فى الخامسة من ملكه .

ووِلِىَ بعده (كلوتيانو) فأقام أربعَ عشرةَ سنةً فى أيام أنطونيس قيصر ومات .

ووِلِىَ بعده (أغريتوس) فبقِىَ اثنتىْ عشرةَ سنة ومات .

ووِلِىَ بعده (يليانس) فى أيام [أوراليانس](١) قيصر فلَبِث عشرَ سنين ومات .

فوِلِىَ مكانه فى أيام أوراليانس (ديمتريوس) فأقام ثلاثًا وثلاثين سنةً .

ووِلِىَ بعده (تاوكْلا) فأقام ستَّ عشرة سنةً ومات .

فوِلِىَ بعده (دونوشيوش) فلبث تسعَ عشرةَ سنةً [ومات] .

ووِلِىَ مكانه (مكسيموس) فأقام ثنْتىْ عشرةَ سنةً ومات .

ووِلى مكانه (ثاونا) فلبِثَ عشرَ سـنين [ومات] وكان النصارىٰ إذ ذاك يُقِيمون الدِّين خُفْيةً فلمـا صار بطركًا صانع الرومَ ولاطَفَهم بالهدايا فأذِنُوا له فى بنـاء كنيسةِ مريَم ، وأعلنُوا فيها بالصلاة .

ثم وِلِىَ بعده (بطرس) فلبث عشْرَ سنين وقتله (ديقلاديانوس قيصر) .

---

(١) بيض له فى الأصل والتكميل عن المقريزى وفى القطعة الأزهرية [فى أيام طرغش] ولكنه ضبب عليها بالشطب .

وولّى مكانه تلميذَه (إسكندروس) وكان كبير تلامذته فلَبِث ثلاثًا وعشرين سنةً . وقيل ثنتين وعشرين سنة ، وقيل ستَّ عشْرةَ سنة ، وكسَر صَنَم النُّحاس الذى كان فى هيكل زُحَل بالإسكندرية وبنىٰ مكانَه كنيسةً ، وبقيتْ حتّٰى هَدَمها العُبيديُّون عند مِلْكهم الإسكندريةَ ، ومات لإحدىٰ وعشرين سنة من ملْك (قسطنطين) ملك الروم .

ووِلىَ مكانه تلميذه (ايناسيوس) ووثب عليه أهل إسكندرية ليقتُلُوه لانتحاله مذهبا غير مَذْهبهم فهرب .

وتولى مكانه (لوقيوش) ثم رُدّ (ايناسيوس) المتقدّم ذكره إلىٰ كرسيه بعد خمسة أشهر وطرد لوقيوس ، وأقام ايناسيوس بطركا إلىٰ أن مات .

فتولّى بعده تلميذه (بطرس) سنتين ووثب عليه أصحابُ لوقيوس فهرب ورُدّ لوقيوس إلىٰ كرسيه ، فأقام ثلاث سنين ، ثم وثبُوا عليه وردّوا بطرس ومات لسنة من إعادته ، وقيل إنه حُبِس وأُقِيم مكانه (أريوس) من أهل سُمَيْساطَ .

ثم وِلىَ (طيماناواس) أخو بطرس ، فلَبِث فيهم سبع سنين ومات . ويقال : إن ايناسيوس المتقدّم ذكره رُدّ إلىٰ كرسيه ثم مات .

فولى مكانَهُ كاتبُه (تاوفينا) [فأقام سبعا وعشرين سنة][1] ومات .

وتولّى مكانه (كيرلس) ٱبن أخته [فأقام ثنتين وثلاثين سنة][1] ومات .

فولِىَ مكانه (دِيسَقُرس) فأحدث بِدْعةً فى الأمانة التى يعتقدُونها فأجمعوا علىٰ نفيه .

(١) الزيادة من المقريزى .

ووَلّوا مَكانه (برطارس) وآفترقت النصارىٰ من حينئذ إلىٰ يعقُوبيَّة ومَلكانية .

ووثب أهل الإسكندرية علىٰ برطارس البطرك فقتلوه لست سـنين من ولايته وأقاموا مكانه (طيماناوس) وكان يعقوبيا ، وهو أوّل من ولِىَ البطركية من اليعاقبة بالإسكندرية فأقام فيها ثلاث سنين ثم جاء قائد من القسطنطينية فنفاه وأقام مكانه (سوريس) من المَلَكية ، فأقام تسع سنين . ثم عاد (طيماناوس) المتقدّم ذكره إلىٰ كرسيه بأمر لاون قيصر . ويقال انه بقى فى البطركيه آثنتين وعشرين سنةً ومات .

فولِىَ مكانَه (بطرس) وهلك بعد ثمـان سنين .

ووِلِىَ مكانه (اثناسيوس) وهلك لسبع سنين ، وكان قَيِّماً ببعض البِيعَ فى بطركية بطرس ومات .

فولِىَ مكانه (يُوحنا) وكان يعقوبيا ، ومات بعد سبع سنين .

وولى مكانه (يوحنا الحبيس) ومات بعد إحدىٰ عشرةَ سنةً .

فولِىَ مكانه (ديسقرس الجديد) ومات بعد سنتين ونصف .

ثم ولى مكانه (طيماناوس) وكان يعقوبِيًّا ، فمكث فيهم ثلاثَ سـنين ، وقيل سبعَ عشرةَ سنة ، ثم نُفِى .

ووِلىَ مكانَه (بولص) وكان مَلَكيا فلم تقبله اليَعاقبةُ ، وأقام علىٰ ذلك سنتين .

ثم ولّى قيصر قائدًا من قوّاده آسمُه (أثوليناريوس) فدخل الكنيسة علىٰ زِىّ الجُنْد ، ثم لَبِس زِىّ البَطارِكة وحملهم علىٰ رأى اليعقوبِيّة ، وقَتَل مَنِ آمتنع وكانوا مائتين[1] ، ومات لسبعَ عشرةَ سنةً من ولايته .

---

(١) فى خطط المقريزى مائتا ألف انسان .

وولِيَ مكانَهُ (يوحنا) وهلك لثلاثِ سنين .

وانفرد اليَعاقِبةُ بالإسكندرية وكان أكثرُهم القبط وقدّموا عليهم طودوشيوش بطركا، فمكث فيهم ثنتين وثلاثين سنةً . ثم جعل الملكيةُ بطركهم داقيانوس وطردوا طودوشيوش عن كرسيّه ستة أشهر، ثم أمر قيصر بأن يُعادَ فأُعيد، ثم نفاه بعد ذلك .

وولِّى مكانه (بولس التِّنِّيسى) فلم يقبَلْه أهل الإسكندريةِ ولا ماجاء به، ثم مات وغُلِّقت كنائسُ القبط اليعقوبية، ولَقوْا شِدّة من المَلَكية، ومات (طودوشيوش) الذى كان قد نُفِى .

وتولّى البطركية (بطرس) ومات بعد سنتين .

وولِىَ مكانه (داميّانو) فمكث سِتاً وثلاثين سنةً، وخَرِبت الدِّيَرةُ فى أيامه .

ثم وَلِىَ على الملكية بالإسكندرية ومصر (يوحنا الرَّحُوم) وهو الذى عَمِل البيمارستان للمرضى بالإسكندرية، ولما سمِع بمسير الفُرس إلى مصر هرب إلى قُبْرس فمات بها لعشر سنين من ولايته، وخلا كرسىُّ الملكية بعده بالإسكندرية سبعَ سنين .

وكانت اليعاقبة بالإسكندرية قدّموا عليهم (انسطانيوس) فمكث فيهم ثنتَىْ عشرةَ سنة، واستردّ ما كانت الملكية استولَوْا عليه من كنائس اليعقوبيَّة ومات .

ثم ولى (اندرانيكون) بطركا على اليعاقبةِ فأقام ستَّ سنين خَرِبت فيها الدِّيرةُ، ثم مات .

ووليَ مكانه لأوّل الهجرة (بَنْيامين) فمكث تسعا وثلاثين سنةً . وفى خلال أيامه غَلَب هِرَقْلُ ملكُ الروم على مصر وملَكها .

وولّى أخاه (منانيا) بطركا على الاسكندرية وواليا وكان مَلَكِيًّا . ورأى بنيامين البطرك فى نومه مَنْ يأمره بالاختفاء فاختفى . ثم غضب (هرقل) على أخيه (منانيا) لمعتقَد فى الدين فأحرقه بالنار ثم رمى بُجُثَّتـه فى البحر ، وبق (بنيامين) مختفيا إلى أن فتح المسلمون الإسكندريةَ فكتب له عمـرُو بن العاص بالأمان ، فرجع إلى الإسكندرية بعد أن غاب عن كرسيِّه ثلاثَ عشرةَ سنة ، وبقِىَ حتّى مات فى سنة تسـع وثلاثين من الهجرة ، واستمرت البطركية بعـده فى اليعقُوبِيّة بمفردهم وغلَبُوا على مصر ، وأقاموا بجميع كراسيِّهم أساقفةً يَعاقِبةً ، وأرسـلُوا أساقِفتَهم إلى النُّوبة والحَبَشة فصاروا يعاقِبةً .

وخلفه فى مكانه (أغاثوا) فمكث سبعَ عشرةَ سنة ، ثم مات فى سنة ستٍّ وخمسين من الهجرة ، وهو الذى فى أيامه[1] قد انتُزِعت كنائسُ المَلَكية من اليعاقبة ، ووُلِّى عليهم بطرك بعد أن أقامُوا من لَدُن خلافة عمرَ بغير بطرك نحوًا من مائةِ سنة ورياسةُ البطرك لليعاقبـة وهم الذين يبعثُون الأساقِفَة إلى النَّواحى . ومن هنا صارتِ النُّوبة ومَنْ وراءهم من الحبشـة يَعَاقبةً ، وهو الذى بنى كنيسـةَ مرقص وبقيت حتّى هُدِمت أيامَ العادل أبى بكر بن أيُّوب .

وولى مكانَهُ بطرك اسمه (يوحنا) .

ثم ولى البطركية بعـده (ايسـاك) فأقام سنتين وأحد عشر شهرا [ومات] . وكانت تقدِمتُه فى الثامنـةَ عشرةَ ليوشطيان ملك الروم ، وتقرّر أن لا يقـدّم بطركٌ إلا يومَ الأحد .

---

(١) عبارة "العبر ج ٢ ص ٢٢٧" وفى أيام هشام ردت كنائس الملكية من أيدى اليعاقبة وولى عليهم الخ .

وقُدّم عوضه (سيمون السرياني) فأقام سبع سنين ونصفا، ومات في الرابع والعشرين من أبيب سنة أربعمائة وستّ عشرة للشهداء في خلافة عبد الملك آبن مروان.

ويقال: إنه وصل إليه رسولٌ من الهند يطلُب منه أن يقدّم لهم أسقُفًّا وقُسُوسا فآمتنع إلىٰ أن يأمره صاحبُ مصر، فمضىٰ إلىٰ غيره ففعل له ذلك.

وقُدّم بعده في البطركية (الاسكندروس) في سنة إحدىٰ وثمانين من الهجرة في يوم عيد مرقص الإنجيليّ سنة أربعمائة وعشرين للشهداء، فمكث أربعا وعشرين سنة ونصفا، وقيل خمسا وعشرين سنةً، وقاسىٰ شدّةً عظيمة، وصُودِر دَفْعتين، أُخِذ منه في كل دَفْعة ثلاثةُ آلاف دينار، ومات في سنة ثمان ومائة، وكانت وفاته بالإسكندرية.

وقُدّم عوضه (قسيما) فأقام خمسة عشر شهرا ومات.

فقُدّم مكانه (تادرس) في سنة تسع ومائة فأقام إحدىٰ عشرةَ سنةً ومات.

فقُدّم مكانه (ميخائيل)(1) في سنة عشرين ومائة فأقام ثلاثا وعشرين سنة ولقِيَ شدائدَ من عبد الملك بن موسىٰ نائبِ مروانَ الجعديّ علىٰ مصر ثم من مروانَ لما دخل إلىٰ مصر إلىٰ أن قُتِل في أبي صِير وأطلق البطركَ والنصارىٰ نائبُ أبي العباس السَّفَّاح.

وفي سنة إحدىٰ وثلاثين ومائة رُسِم بإعادة ما آستولىٰ عليه اليعاقبةُ من كنائس المَلَكية بالديار المصرية إليهم، فأُعِيدت وأقيم لهم بطركٌ، وكانت الملكيّة قد أقاموا بغير بطرك سبعا وتسعين سنة من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين الفتح الإسلاميّ إلىٰ خلافة هشام بن عبد الملك.

---

(1) في الأصل جاتيل والتصحيح عن المقريزي.

وفى سنة سبع وأربعين ومائة صرف أبو جعفر المنصورُ (ميخائيل) بطرك اليعاقبة، وأقام عوضه (مينا) فأقام تسع سنين، ومات فى خلافة الهادى «محمد بن المهدىّ».

وقُدِّم مكانَه (يوحنا) فأقام ثلاثا وعشرين سنة، ومات سادسَ عشرِ طُوبة سنة خمسمائة وخمسَ عشرةَ للشهداء.

ثم فى سنة آثنتين وسبعين ومائة فى خلافة الرشيد قُدِّم فى البطركية (مُرْقص الجديد) فأقام عشرين سنة وسبعين يوما. وفى أيامه رسم الرشيدُ بإعادة كنائس الملكية التى آستولىٰ عليها اليعاقبة ثانيا إليهم، وثارت العُرْبان والمغاربة وخَرَّبوا الدِّيرة بوادى هُبَيْب ولم يبقَ فيها من الرُّهبانِ إلا اليسيرُ ثم مات فى سنة إحدىٰ عشرةَ ومائتين.

وقُدِّم عوضه فى البطركيَّة (يعقوبُ) قيل فى السنة الثالثة من خلافة المأمون. وفى أيامه عُمِرت الدياراتُ وعادت الرهبانُ إليها، ومات فى سنة آثنتين وعشرين ومائتين.

وقُدِّم عوضه (سيماون) فى السنة المذكورة فى خلافة المعتصم فأقام سنة واحدة. وقيل سبعةَ شهور وستةَ عشرَ يوما. وخلا الكرسىُّ بعده سنةً واحدةً وتسعة وعشرين يوما.

وفى سنة سبع وعشرين ومائتين قُدِّم فى البطركية (بطرس) ويقال (يوساب) وكانت تقدمته فى دير (بومقار) بوادى هُبَيْب حادى عشرى هاتور سنة خمسمائة وسبعة وأربعين للشهداء. وقيل: إنه قُدِّم فى أيام المأمون، وإنه أقام ثمانىَ عشرةَ سنة، وسيَّر أساقفة إلىٰ أفرِيقِيَّةَ والقَيْروان؛ ومات سنة آثنتين وأربعين ومائتين؛ وخلا الكرسىّ بعده ثلاثين يوما.

وقُدِّم عوضه (جاتيل)(١) فى السنة العاشرة من خلافة المتوكل . ويقال : إنه كان قُسًّا بدير بوحنس ، فأقام سنةً واحدةً وخمسةَ أشهر ، ثم مات ودفن بدير بو مقار ، وهو أوّل من دُفِن [فيه] من البطاركة . وخلا الكرسىّ بعده أحدا وثمانين يوما .

وقُدِّم عوضَه (قسيما) فى سنة أربع وأربعين ومائتين من الهجرة ، وهى الثانيةَ عشرةَ من خلافة المتوكل ، وكان شمَّاسا بدير بُومقار ، فأقام سبع سنين وخمسة شهور ثم مات ودُفِن بدنوشر ، وخلا الكرسى بعده أحدا وخمسين يوما .

وقدّم مكانه بطرك آسمه (اساسو) ويقال (سالوسو) فى أوّل سنة من خلافة المعتزّ وأحمدُ بن طولون بمصر ، فأقام إحدىٰ عشرةَ سنة وثلاثة أشهر ومات ، وهو الذى عمل مجارِىَ المياه التى تجرى تحت الأرض من خليج الإسكندرية إلىٰ آدُرِها .

ولما مات قُدِّم مكانه (ميخائيل) فى خلافة المعتمد فى سنةِ ثلاثٍ وستين ومائتين ، فأقام خمسًا وعشرين سنةً . وصادره أحمدُ بنُ طُولون فى عشرين ألفَ دينار ، فباع فى المُصادرة رِبَاع الكنائس بالإسكندريّة ، وبركةِ الحبَش بظاهر مصر ، ومات .

فبقِىَ الكرسىُّ بعده أربعَ عشرةَ سنة شاغرا إلىٰ سنة ثلثمائة . [وفى يوم الاثنين ثالث شوّال سنة ثلثمائة](٢) آحترقت الكنيسةُ العُظمىٰ بالإسكندرية التى كانت بنتها (كلا بطره) ملكة مصر هيكلا لِزُحَل .

ثم قُدِّم البطرك (غبريال) فى السنة السابعة من خلافة المقتدر ، وهى سنة إحدىٰ وثلثمائة ، فأقام إحدىٰ عشرةَ سنةً ومات .

---

(١) فى المقريزى ميكائيل .

(٢) الزيادة عن المقريزى ليتضح الكلام .

فَقُدِّم مكانه البطرك (قسيما) فأقام آثْنَتَىْ عشرةَ سنة ومات . وفى السنة الأخيرة من رياسته (وهى سنة ثلاثَ عشرةَ وثلثمائة) أحرق المسلمون كنيسةَ مريمَ بِدِمَشْقَ ونهبوا مافيها وتتبَّعوا كنائس اليَعاقِبةِ والنَّساطِرة .

ولمـا مات قسيما المذكور قدّموا عليهــم بَطْركا لم أقف على آسمه، فأقام عشرين سنة، ثم مات .

وقُدِّم فى البطركيــة (تاوفانيوس) من أهل إسكندرية فى الســنة الحاديةَ عشرةَ من خلافة المطيع فأقام أربع ســنين وستةَ أشهر، ومات مقتولا فى ســنة ثمان وأربعين وثلثمائة .

وقُدِّم مكانه البطرك (مينا) فى السنة الخامسةَ عشرةَ من خلافة المطيع، والأخشيد نائبٌ بمصر، فأقام إحدى عشرةَ ســنةً ثم مات . وخلا كرسىُّ اليعاقِبَــةِ بعــد موته سنةً واحدة .

ثم قُدِّم مكانه بطركٌ آسمه (أفراهام السريانى) فى ســنة ست وستين وثلثمائة، فأقام ثلاثَ ســنين وستةَ أشهر، ومات فى أيام العزيز الفاطمى بمصر مسموما من بعض كُتَّاب النصارى: لإنكاره عليه التسرّى، وقُطِعتْ يدُ ذلك الكاتب بعد موته، ومات لوقته . وخَلَا الكرسىُّ بعده ستةَ أشهر .

وقُدِّم عوضه بطركٌ آسمه (فيلاياوس) فى ســنة تسع وستين وثلثمائة . وقيل: فى السنة الخامسة للعزيز الفاطمىّ فأقام أربعا وعشرين سنةً وسبعةَ أشهر ومات .

وقُدِّم بعده بطركٌ آسمه (دخريس) فى سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة فى أيام الحاكم الفاطمىّ، فأقام ثمـانا وعشرين سنة، ثم مات ودفن بِبِرْكَة الحَبَش . وخلا كرسىّ

اليَعَاقبة بعده أربعةً وسبعين يوما . [ثم قدّم اليعاقبة بعده (سابونين) بطركا فى سنة إحدىٰ وعشرين وأربعمائة ، فأقام خمسَ عشرةَ سنة ومات ، فخلا الكرسىّ بعده سنة وخمسة أشهر] (١) .

ثم قُدِّم بعده بطركٌ آسمه (اخرسطوديس) فى سنة سبع وثلاثين وأربعمائة فى خلافة المستنصر الفاطمى ، فأقام ثلاثين سنة ، ومات فى السنة الحادية والأربعين من خلافة المستنصر المذكور بالكنيسة المعلَّقة بمصر . وهو الذى جعل كنيسةَ بومرقورة بمصر وكنيسةَ السيدة بحارة الروم بطركية . وخلا الكرسىّ بعده آثنين وسبعين يوما .

ثم قُدِّم بعده البطركُ (كيرلص) فأقام أربعَ عشرةَ سنةً وثلاثةَ أشهر ونصفا ، ومات بكنيسة المختارة بجزيرة مصر سلْخَ ربيع الآخر سنة خمس وثمانين وأربعمائة . وخلا الكرسىّ بعده مائةً وأربعةً وعشرين يوما .

وقُدِّم عوضه بطرك آسمه (ميخائيل) فى سنة آثنتين وثمانين وأربعِمائة ، فى أيام المستنصر الفاطمى صاحب مصر ، وكان قبل ذلك حبيسا بسِنْجَار ، فأقام تسع سنين وثمانية أشهر ، ومات فى المَعلَّقة بمصر .

وقدّمُوا عوضه بطركا آسمه (مقارى) سنة آثنتين وتسعين وأربعمائة بدير بو مقار ، ثم كمل بالإسكندرية ، وعاد إلىٰ مصر وقدّس بدير بو مقار ثم فى الكنيسة المعلَّقة . وفى أيامه هدم الأفضلُ بنُ أمير الجيوش كنيسةً بجزيرة مصر كانت فى بستان آشتراه .

ولما مات قُدِّم عوضه بطرك آسمه (غبريال) أبو العلا صاعد ، سنة خمس وعشرين وخمسمائة فى أيام الحافظ الفاطمى ، وكان قبل ذلك شمَّاسا بكنيسة بومرقورة ، فقُدِّم

(١) الزيادة عن المقريزى ، وهى لازمة بها يتم الكلام .

بالمعلَّقة، وكُمِّل بالإسكندرية، فأقام أربعَ عشرةَ سنة، ومات بكنيسة بومرقورة . وخلا الكرسىّ بعده ثلاثة أشهر .

وقُدِّم بعده بطرك آسمه (ميخائيل) بن التقدوسىّ فى الســنة الخامسةَ عشرةَ من خلافة الحافظ أيضا، وكان قبل ذلك راهبا بقَلَّاية دنشرى، قُدِّم بالمعلَّقة وكُمِّل بالإسكندرية، ومات بدير بومقار فى رابع شوّال سنة إحدىٰ وأربعين وخمسمائة . وخلا الكرسىُّ بعده سنةً واحدة وسبعين يوما .

وقدّم عوضه بطركٌ آسمه (يونُس) بنُ أبى الفتح بالمعلَّقة بمصر وكُمِّل بالإسكندرية، فأقام تسعَ عشرةَ ســنة، ومات فى السابع والعشرين من جُمادىٰ الآخرة سنةَ إحدىٰ وخمسين وخمسمائة . وخلا الكرسىّ بعده ثلاثةً وأربعين يوما .

وقُدِّم بعده بطرك آسمه (مرقص) أبو الفَرَج بن زرْعة فى ســنة إحدىٰ وستين وخمسمائة بمصر وكُمِّل بالإسكندرية، فأقام آثنتين وعشرين سنة وستة أشهر وخمسةً وعشرين يوما، وفى أيامه أُحْرِقت كنيسةُ بومرقورة بمصر، ثم مات . وخَلَا الكرسىّ بعده سبعة وعشرين يوما .

وقدّم بعده بطرك آسمه (يونُس) بنُ أبى غالب فى عاشر ذى الحِجّة سنة أربع وثمانين وخمسمائة بمصر وكُمِّل بالإسكندرية، وأقام ســتًّا وعشرين ســنة وأحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما، ومات فى رابع عشر رمضان المعظَّم قدرُه، سنةَ ثنتَىْ عشرةَ وستمائة بالمعلَّقة بمصر، ودُفِن ببركة الحَبَش .

وقُدِّم بعــده بطركٌ آسمه (داود) بن يوحنا، ويعرف بابن لَقْلق بأمر العادل بن الكامل، فلم يُوافِق عليــه المصريون فأُبْطلت بطركيتــه، وبقى الكرسىُّ بغير بطرك تسعَ عشرةَ سنة .

ثم قُدِّم بطركٌ آسمه (كيرلس)(١) داود بن لقلق فى التاسع والعشرين من رمضان المعظم سنةَ ثلاثٍ وثلاثين وستمائة ، فأقام سبعَ سنين وتسعة أشهر وعشرةَ أيام، ومات فى السابع عشر من رمضان المعظم سنة أربعين وستمائة، ودُفِن بدير الشَّمَع بالجيزة . وخلا الكرسىّ بعده سبع سنين وستةَ أشهر وستةً وعشرين يوما .

وقُدِّم بعده بطركٌ آسمه (سيوس) بن القُسّ أبى المكارم، فى رابع رجب سنة ثمان وأربعين وستمائة وكُمِّل بالإسكندرية، وأقام إحدى عشرة(٢) سنة وخمسة وخمسين يوما، ومات فى ثالث المحرم سنة ستين وستمائة . وخلا الكرسىُّ من بعده خمسةً وثلاثين(٣) يوما .

ثم قُدِّم بعده فى الدولة الناصريّة محمد بن قلاوون البطرك (بنيامين) وهو الذى كان معاصِرا للمَقَرّ الشهابىّ بنِ فضل الله، ونقل عنه بعض أخبار الحَبَشة .

ثم قُدِّم بعده المؤتمن (جرجس) بن القُس مفضَّل فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة .

ثم قدّم بعده البطرك متّى وطالت مدّته فى البطركية ثم مات فى شهور سنة آثنتىْ عشرة وثمانمائة .

وآستقرّ بعده الشيخ الأمجدُ (رفائيل) فى أواخر السنة المذكورة، وهو القائم بها إلى الآن .

---

(١) عبارة المقريزى بعد ما تقدم "ثم قدم هذا القس" يعنى به داود بن لقلق المتقدم فانه بعد أن منع عنها المدة المذكورة قدم اليها فى التاريخ المذكور .

(٢) فى الأصل إحدى وعشرين وهو خطأ، والتصحيح عن المقريزى .

(٣) فى المقريزى خمسة وثمانين يوما .

أما ملوكهم القائمون ببلادهم، فلم يتَّصِلْ بنا تفاصيلُ أخبارهم؛ غير أنَّ المشهورَ أنَّ ملكهم فى الزمن المتقـدم كان يلقَّب النَّجَاشىّ، سمةً لكُلِّ من ملك عليهم، إلىٰ أن كان آخِرُهم (النجاشىّ) الذى كان فى زمن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأسلم وكتب إليه بإسلامه، ومات وصلَّى عليه صلاةَ الغائب، وكان اسْمُه بالحبشية (أَصْحَمَةَ) ويقال (صَحْمَة) ومعناه بالعربية عَطِيَّة .

وقد ذكر المَقَر الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار": أن الملِكَ الأكبرَ الحاكم علىٰ جميع أقطارهم يسمَّى بلغتهم (الحَطِّى) بفتح الحاء المهملة وتشديد الطاء المهملة المكسورة وياء مثناة تحت فى الآخر . ومعناه السلطان آسمًا موضوعا لكل مَنْ قام عليهم مَلِكا كبيرا . ثم قال : ويقال : إن تحتَ يده تسعةً وتسعين مَلِكا، وهو لهم تمامُ المائة . وذكر أن المَلِك القائم بمملكتهم فى زمانه آسمه (عَمدسيُون) ومعناه ركن صِهْيَوْنَ . قال : وصِهْيَوْنُ بِيعةٌ قديمةُ البناء بالإسكندرية معظَّمة عندهم . قال : ويقال : إنه من الشجاعة علىٰ أوْفَرِ قِسْم، وإنه حَسَن السِّيرة، عادلٌ فى رعيته . قال فى "التعريف" : وقد بلغَنا أن الملِك القائمَ عليهم أسلم سِرّا، وآستمرّ علىٰ إظهار دين النصرانية إبقاءً لمُلْكه . فيحتمل أنه (عَمَدسيون) المقدّم ذكره، ويحتمل أنه غيره . قال فى "التعريف" : ومُدَبِّر دولتـه رجل يقْرُب إلىٰ بنى الأرشى الأطباء بدمشق . قال فى "مسالك الأبصار" : ومع ما هم عليـه من سَعَة البلاد، وكثرة الخَلْق والأجناد، مفتقِرُون إلىٰ العنَاية والمُلاحظة من صاحب مصر . لأن المُطْران الذى هو حاكمُ شريعتهم فى جميع بِلادِهم من أهل النصرانيـة لا يُقَام إلا من الأقبـاط اليَعَاقِبَـة بالديار المصرية، بحيث تَخْرُج الأوامر السـلطانية من مصر

للبطرك المذكور بارسال مُطْرانٍ إليهم . وذلك بعد تقدُّم سؤالِ ملك الحبشة الذى هو الحَطِّى وإرسال رُسُله وهَدَاياه . قال : وهم يدّعون أنهم يحفَظُون مَجارِىَ النيل المنحَدِرِ إلىٰ مصر، ويُساعِدُون علىٰ إصلاح سُلُوكه تقرّبا لصاحب مصر.

وقد ذكر ٱبن العميد مؤرّخُ النصارىٰ فى تاريخه : أنه لما توقف النيل فى زمن المستنصر بالله الفاطمىّ ، كان ذلك بسبب فسادِ مَجَاريه من بِلادِهم ، وأنَّ المستنصِرَ أرسل البطرك الذى كان فى زمانه إلى الحَبَشة حتّٰى أصلحوه واستقامت مَجَاريه . لكن قد تقدّم فى الكلام علىٰ النيل عند ذكر مملكة الديار المصرية من هذه المقالة ما يُخَالف ذلك .

الجملة السادسة

(فى ترتيب مملكتهم)

قال فى "مسالك الأبصار" : يُقال إن الحَطِّى المذكورَ وجيشَه لهم خيامٌ ينقلونها معهم فى الأسفار والتنزُّهات ، وإنه إذا جلس الملك يجْلِس علىٰ كرسىّ ، ويجلس حولَ كُرْسيِّه أمراءُ مملكتِه وكبراؤها علىٰ كراسِىّ من حديد : منها ماهو مُطَعَّم بالذهب ، ومنها ما هو ساذَج علىٰ قدر مراتبهم . قال : ويُقال إن الملِك مع نَفَاذ أمره فيهم يتثبَّتُ فى أحكامه . ولم يزد فى ترتيب مملكتهم علىٰ ذلك .

ولمَلِك الحبشة هذا مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، يأتى ذكْرُها فى الكلام علىٰ المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء اللهُ تعالىٰ .

القســـم الثـانى

(من بلاد الحبشة ما بيد مسلمى الحبشة)

وهى البلادُ المقـابلةُ لبرّ اليمنِ علىٰ أعالى بحْر القُلْزُم ، وما يتصلُ به من بحر الهند ، ويعبَّر عنهـا "بالطّراز الإسلامى" لأنهـا علىٰ جانب البحر كالطّراز له . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى البلاد التى يُقال لهـا بمصرَ والشأم بلاد الزَّيْلَع . قال : والزَّيْلع إنمـا هى قريةٌ من قُراها ، وجزيرةٌ من جزائرها ، غلب عليها ٱسمُها . قال الشيخ عبد المؤمن الزَّيْلعىُّ الفقيه : وطولُها برًّا وبحرا خاصًّا بها نحوُ شهرين ، وعَرْضها يمتدُّ أكثر من ذلك ، لكن الغالب فى عَرْضها أنه مُقْفِر ، أمامقدار العِمَارة فهو ثلاثة وأربعون يومًا طُولا ، وأربعون يومًا عَرْضا . قال فى "مسالك الأبصار" : وبيوتُهم من طين وأحجار وأخشاب ، مسقَّفةٌ بجمَلُونات وقِباب ، وليسَتْ بذوات أسوار ولا لها فخـامةُ بِناء ، ومع ذلك فلها الجوامعُ ، والمساجدُ ، وتُقام بها الخُطَب والجمع والجماعاتُ ، وعنـد أهلها محافظةٌ علىٰ الدِّين ، إلا أنه لا تُعْرف عندهم مَدْرسة ، ولا خانقاه ، ولا رِباط ، ولا زاوِيَةٌ . وهى بلادٌ شـديدة الحر ، وألوانُ أهلها إلىٰ الصَّفاء ، وليست شُعورهم فى غاية التفَلْفُل كما فى أهل مالِّى وما يليها من جنوب المغرب ، وفِطَنُهم أنبَـهُ من غيرهم من السُّودان ، وفِطَرُهم أذْكىٰ ، وفيهم الزُّهَّاد ، والأبرار ، والفُقَهاء والعلمـاء ، ويتمذهبُون بمذهب أبى حنيفة ، خلا وفات فان ملكها وغالبَ أهلها شافعيَّة .

وتشتمل علىٰ ستِّ جمل :

الجمـــلة الأولىٰ

(فيما اشتملت عليه من القواعد والأعمال)

مقتضىٰ ما ذكره فى "مسالك الأبصار" و"التعريف" أن هـذه البلاد تشتمل علىٰ سَبْع قواعد ، كلُّ قاعدة منها مملكة مستقلّة بها ملِكٌ مستقل :

القـاعدة الأولىٰ

(وَفَات)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بالواو المفتوحة والفاء ثم ألف وتاء مثناة فوق فى الآخر، والعامّة تسميها (أَوْفات) . ويقال لها أيضا (جَبَرَة) بفتح الجيم والبـاء الموحدة والراء المهملة ثم هاء فى الآخر، والنسبة إلىٰ جَبَرة جَبَرْتِىٌّ . وموقعها بين الإقليم الأوّل وخط الاستِواء . قال فى " تقويم البُلْدان " : والقياس أنها حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجةً ، والعرضُ ثمـانُ دَرَج . قال : وعن بعض المسافرين أنهـا من أكبر مُدُن الحبشـة . وهى علىٰ نَشَز من الأرض ، وعِمارتهـا متفرّقةٌ ، ودارُ الملك فيها علىٰ تَلٍّ والقلعة علىٰ تَلٍّ ، ولها وادٍ فيه نهر صغير ، وتُمْطَر فى الليل غالبـا مَطَرا كثيرا ، وبها قَصَب السُّكَّر . قال فى "مسالك الأبصار" : وقال الشيخ عبدُالله الزَّيْلعىُّ : وطول مملكتها خمسةَ عشَر يوما وعرضُها عشرون يومًا بالسير المعتاد . قال : وكلُّها عامرة آهلةٌ بقُرًى متصلة ، وهى أقرب أخَواتها إلىٰ الديار المصرية وإلىٰ السَّواحل المُسامِتة لليَمَن ، وهى أوسعُ الممالك السَّبْع أرضا ، والإجلابُ إليها أكثرُ لقُرْبها من البلاد . قال فى " مسالك الأبصار " : وعسكَرُها خمسـةَ عشَر ألفا من الفُرْسان ، ويتْبعُهم عشرون ألفا فأكثَرُ من الرَّجّالة ، وسيأتى الكلام علىٰ سائر أحوالها عند ذكر أحوال سائر أخواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن مُضافاتها (زَيْلَعُ) . قال فى "تقويم البُـلْدان" : الظاهر أنها بفتح الزاى المعجمة وسكون الياء المثناة التحتية وفتح اللام ثم عين مهملة فى الآخر. وهى فُرْضة من فُرَض هذه البلاد، وموقعها بين الإقليم الأوّل وخَطّ الاستواء . قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ إحدى وستون درجةً، والعرضُ ثمانُ دَرَج . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى فى جهة الشرق عن (وَفَات) و بينهما نحوُ عشرين مرحلةً . قال ابن سعيد : وهى مدينة مشهورة وأهلها مسلمون ؛ وهى على رُكْن من البحر فى وَطَاءة من الأرض . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعض مَنْ رآها أنها مدينةٌ صغيرة نحو عَيْذابَ فى القَدْر ؛ وهى على الساحل والتُّجَّار تنزل عنـدهم فيُضيفونهم و يبتاعُونَ لهم . قال ابن سـعيد : وهى شديدة الحَرّ وماؤها عذبى من جفارات ؛ وليس لهم بساتينُ، ولا يَعْرِفون الفوا كِهَ . قال فى "القانون" : وفيها مغاصُ لُؤْلؤٍ . وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" أنها فى مملكة صاحب أَوْفات . وذكر فى "تقويم البُلْدان" عن بعض من رآها أن فيهـا شُيوخا يحكُمون بين أهلها، وقال : إن بينها و بين عَدَنَ من اليمن فى البحر ثلاثَ مجارٍ، وهى عن عَدَنَ فى جهة الغرب بميلة إلى الجَنُوب .

القاعدة الثانيـــــة

(دَوَارو)

بفتح الدال المهــملة وواو ثم ألف وراء مهــملة وواو وهى مدينـة ذكـرها فى "مســالك الأبصـار" و "التعريف" : ولم يتعرّض لصفتهـا . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أنها تلى أوفات المقـدّمةَ الذكرِ ، وان مملكتَها طولُهـا

خمسةُ أيام، وعرضها يومانِ . ثم قال : وهى على هذا الضِّيق ذاتُ عَسكرٍ جَمٍّ، نظيرِ عسكر أَوْفَات فى الفارِس والراجِل . وسيأتى الكلامُ على تفصيل أحوالها مع أخواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

القاعدة الثالثة

(أرابينى)

وهى مدينةٌ ذكرها فى "المسالك" و"التعريف" أيضا، ولم يذكر شيئا من صفتها . ثم ذكر أن مملكتها مربَّعة: طولُها أربعةُ أيام، وعَرْضها كذلك، وعسكرُها يقارب عشرةَ آلاف فارس . أما الرجَّالة فكثيرةٌ للغاية .

القاعدة الرابعة

(هَدْيةُ)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بالهاء والدال المهملة والياء المثناة التحتية ثم هاء فى الآخر على ماذكره بعض من رآها . وموقعُها بين الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة وبين خَطِّ الاستواء . قال : والقياس أنها حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة، والعرض سبعُ درج . وذكر عن بعض المسافرين أنها جنوبىَّ (وَفَات) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى تلى أرابينى المقدّمَ ذكرُها، وطولُ مملكتها ثمانيةُ أيام، وعرضُها تسعةُ أيام، وصاحبها أقوى إخْوانِه من ملوك هذه الممالك السبعة، وأكثر خَيْلا ورِجالا، وأشدُّ بأسا على ضِيق بلاده عن مقدار أَوْفات . قال : ولملكها من العسكر نحوُ أربعين ألفَ فارس سِوى الرَّجَّالة، فإنهم خلق كثير مثل الفُرْسان مرتين أو أكثَرَ . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومنها تُجْلَب الخُدّام، وذكر

أنهم يَخْصُونهم بقريةٍ قريبةٍ منها . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن الخُدّام تُجْلَب إليها من بلاد الكُفّار . ثم حكىٰ عن الحاج فرج الفوّى التاجر : أنه حدّثه أن ملك أمْحَرا يمنع من خَصْى العبيد ويُنْكِر ذلك ويُشَدّد فيه . وإنما السُّرّاق تقصد بهم مدينة اسمها (وَشَلْو) بفتح الواو والشين المعجمة واللام، أهلها هَمَج لادِينَ عنـدهم فتُخْصىٰ بها العبيدُ، لايُقْدِم علىٰ هذا فى جميع بلاد الحبشة سِواهم . قال : ولذلك التُّجّار إذا اشتَرَوُا العبيد يخْرُجون بهم إلىٰ (وَشَلْو) فيَخْصُونهم بها لأجل زيادة الثمن؛ ثم يحمل من خُصِى منهم إلىٰ مدينة (هَدْيَة) لقربها من (وَشَلْو) فتُعادُ عليهم المُوسىٰ مرةً ثانيةً لينفتح مَجْرىٰ البول لأنه يكون قد استَدَّ عند الخَصْى بالقَيْح، فيُعالَجُون بهَدْية إلىٰ أن يبرءُوا، ولأن أهل (وَشَلْو) وإن كان لهم معرفةٌ بالخَصْى فليس لهم معرفةٌ بالعِلَاج، بخلاف أهل هَدْية فإنهم قد دَرَبوا [علىٰ] ذلك وعَرَفوه . ثم قال : ومع هذا فالذى يموتُ منهم أكثرُ من الذى يعيش، وأضرُّ ما عليهم حملُهم بلامعالجة من مكان إلىٰ مكانٍ، فإنهم لو عُولِجُوا فى مكان خَصْيِهم كان أرفَقَ بهم .

القاعدة الخامسة

(شَرْحا)

بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وحاء ثم ألف .

وهى مدينة تَلِي (هَدْيَة) المقدّمةَ الذكر . ذكرها فى "مسالك الأبصار" و"التعريف" ولم يصرّح لها بوصف . قال فى "مسالك الأبصار" : وطولُ مملكتها ثلاثةُ أيام، وعرضُها أربعةُ أيام . قال : وعسكرها ثلاثةُ آلاف فارس، ورجّالةٌ مثل ذلك مرتين فأكثر، وسيأتى الكلامُ علىٰ سائر أحوالها مع سائر أخواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

القاعدة السادسة

(بالى)

بفتح الباء الموحدة وألف ثم لام وياء آخر الحروف .

وهى مدينة تلى شَرْحا المقدّمة الذكر ذكرها فى " المسالك " و " التعريف " قال فى المسالك : ولكنها أكثر خِصْبا ، وأطيب سكَنًا ، وأبردُ هواء ، وسيأتى الكلام على سائر أحوالها مع سائر أخواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

القاعدة السابعةُ

(دارة)

بفتح الدال المهملة وألف بعدها راء ثم هاء . وهى مدينة تلى (بالى) المقدّمة الذكر، ذكرها فى "المسالك" و"التعريف" . قال فى "المسالك" : وطولها ثلاثةُ أيام، وعرضُها كذلك . وهى أضعف أخواتها حالًا ، وأقلها خَيْلا ورِجالا . قال : وعسكرُها لا يزيد على ألفَىْ فارس، ورَجَّالة كذلك، وسيأتى الكلام على سائر أحوالها فى الكلام على سائر أخواتها فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الجملة الثانية

(فى الموجود بهذه الممالك، على ما ذكره فى "مسالك الأبصار")

قد ذكر أنَّ عندهم من المواشى الخيلَ العِرابَ، والبغالَ، والحميرَ، والبقر، والغنم بكَثْرة . أما المَعَز فقليلٌ عندهم . ومن الوَحْش : البقر، والحُمُر، والغِزْلان ،

والمَهَا، والإيَّل، والكَرْكَدَّن، والفهْد، والأسَد، والضَّبُعة العَرْجاء، وتُسمَّى عندهم مرعفيف، وعندهم جواميس بَرِّيَّة تُصاد كما تقدّم فى إقليم مَالِّى . وعندهم من الطيور الدَّواجِن الدَّجاجُ، ولكن لا رغبةَ لهم فى أكله استقذارًا له : لأكله القُمامات والزُّبَالات، ودَجاجُ الحَبَش يصيدونه ويأكلونهُ، وهو عندهم مُستطَاب . وعندهم من الحبوب الحِنْطة، والشعير، والذُّرَة، والطَّافِى : وهو حبٌّ نحو الخَرْدَل أحمرُ اللون علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ القسم الأوّل من بلاد الحَبَشة . وعندهم الخَرْدَل أيضا . وعندهم من الفواكه العنبُ الأسودُ علىٰ قِلَّة، والمَوْز، والرُّمّان الحامض، والتوتُ الأسودُ علىٰ قِلَّة فيه، والجُمَّيز بكثرة . وعندهم من المحمَّضات : الأُتْرُجُّ، واللَّيْمون، والقليل من النارَنْج . وعنـدهم تِينٌ بَرِّىٌ، وخَوْخ بَرِّىٌ؛ ولكنهم لا يأكلون الخَوْخ دونَ التين . وعنـدهم فواكهُ أخرىٰ لا تُعرَف بمصر والشأم والعِراق، منها شجر يسمى كشباد، ثمرُه أحمرُ علىٰ صفة البُسْر، وهو حلْو مَاوِىٌّ، وشجر يسمّى كوشى، ثمره مستدير كالبَرْقُوق، ولونه أصفرُ خَلُوقِىٌّ كالمِشْمِش، وهو مُزٌّ ماوِىٌّ، وشجر يسمّى طانة، ثمره أصغر من البُسْر، وفى وسطه شِبه النَّوىٰ، وهو حُلْو صادقُ الحلاوة ونَواه يُؤْكَل معه لعدم صَلَابته . وشجر اسمه أَوَجَاق ـ بفتح الواو والجيم ـ ثمره أكبر من حب الفُلْفُل وطعمُه شبيه به فى الحَرَافـة مع بعض حلاوة . وعنـدهم شجرجان المقـدّم ذكره فى القسم الأوّل من بلاد الحبشة، وهو الذى يُؤْكل عندهم للذّكاء والفِطْنة، ولكنه يُقِل النومَ والنكاح علىٰ ما تقـدّم ذكره هناك . وعندهم من أنواع المَقَاثِئ البِطّيخ الأخضر، والخيار، والقَرْع . ومن الخضروات اللُّوبيا، والكُرُنْب، والباذِنْجان، والشَّمار، والصَّعتَر . أما المُلُوخيا فإنها تطلُع عندهم بَرِّيةً .

الجملة الثالثة

(فى معاملاتهم وأسعارهم)

أما معاملاتهم فعلى ثلاثة أنواع . منها ماهو بالأعراض مُقايَضةً : تباع البقر بالغنم ونحو ذلك كما فى القسم الأول من بلاد الحبشة . ومنها ماهو بالدّنانير والدراهم كمصر والشام ونحوهما، وهو (وَفات) وأعمالها خاصّة . قال فى "مسالك الأبصار" : وليس بأَوْفات سِكّةٌ تضرَب بل معاملاتُهم بدنانيرِ مصرَ ودراهِمها الواصلةِ إليهم صحبةَ التُّجّار . وذلك أنه لو ضرب أحدٌ منهم سِكّة فى بلاده لم ترُجْ فى بلد غيره . ومنها ماهو بالحَكُنَات، جمع حَكُنة ـ بفتح الحاء المهملة وضم الكاف والنون ـ كما ضبطه فى "مسالك الأبصار" وهى قِطَع حديد فى طُول الإبرة، ولكنها أعرضُ منها بحيث تكون فى عَرْض ثلاثِ إبر، يتَعامَلُ بها فى سائر هذه البلاد سوى ما تقدّم ذكره . قال : وليس لهذه الحَكُنة عندهم سعر مضبوطٌ بل تُباع البقرة الجيِّدة بسبعة آلاف حَكُنة، والشاة الجيِّدة بثلاثة آلاف حَكُنة . وتُكال غلّتهم بكيل آسمه الرابِعيّة، بمقدار وَيْبة من الكيل المِصْرىّ . وزنة أرطالهم اثنتا عشرة أوقية كل أوقية عشرة دراهم بصنجة مصر .

وأما الأسعار فكلُّها رخيّة حتّى قال فى "مسالك الأبصار" : إنه يُباع بالدرهم الواحد عندهم من الحنطة بمقدار حِمْل بغل؛ والشعيرُ لا قيمةَ له . وعلى هذا فقِس .

الجمـــلة الرابعـــة

(فى ملوكهـــم)

قد تقـدّم فى الكلام على القسم الأوّل من بلاد الحبشة أن الحَطِّى الذى هو سلطانُهم الأكبر تحت يده تسعةٌ وتسعون مَلِكا وهو لهم تمامُ المائة . وقد ذكر فى "التعريف" : أن هذه السبعةَ من جملة التسعة والتسعين الذين هم تحت يَده . قال فى " مسالك الأبصار " : والمُلْك منهم فى بيوت محفوظةٍ إلّا بالى اليومَ ، فإن المُلْك بها صار إلى رجل ليس من أهل بيت المُلْك ، تقرّب إلى سلطان أمْحَرا حتّى ولّاه مملكة بالى فاستقلّ مَلِكا بها . على أنه قد وَلِيها من أهل بيت المُلْك رجال أكْفاء ، ولكنّ الأرضَ لله يُورِثها مَنْ يَشاء . قال : وجميع ملوك هذه الممالك وإن توارَثُوها لا يستقِلُّ منهم بمُلْك إلا مَنْ أقامه سلطانُ أمْحَرا ، وإذا مات منهم مَلِك ومن أهله رجال قصدُوا جميعُهم سلطانَ أمْحَرا ، وتقرّبُوا إليه جُهْدَ الطاقة ، فيختار منهم رجلا يُولِّيه ، فإذا وَلّاه سمع البقِيّةُ له وأطاعوا ، فهم له كالنُّوّاب ، وأمْرُهم راجع إليه . ثم كُلُّهم متفِقون على تعظيم صاحب أَوْفات ، مُنْقادُون إليه . ثم قال : وهذه الممالك السبع ضَعِيفة البِناء ، قليلة الغَناء ، لضَعْف تركيب أهلها ، وقِلّة محصول بلادهم ، وتسلُّط الحَطِّى سلطانِ أمْحَرا عليهم ، مع ما بينهم من عَداوة الدِّين ، ومُبَاينةِ مابين النصارى والمسلمين . قال : وهم مع ذلك كلمتُهم متفرِّقة ، وذاتُ بَيْنِهم فاسدة .

ثم حكى عن الشيخ عبد الله الزَّيْلَعىّ وغيره : أنه لو ٱتفقتْ هـذه الملوكُ السبعة وٱجتمعتْ ذاتُ بينِهم ، قَدَروا على مدافعة الحَطِّى أو التماسك معه ، ولكنهم مع ماهم عليه من الضَّعف وٱفتراق الكلمة بينهم تنافُس . قال : وهم على ماهم عليه

من الذِّلّة والمَسْكَنة للحَطِّى سلطان أمْحَرا عليهم قطائعُ مقرّرة، تحمل إليه فى كل سنة من القُمَاش الحريرِ والكتّان، مما يُجْلَب إليهم من مصر واليمن والعراق. ثم قال: وقد كان الفقيهُ «عبد الله الزيلعيُّ» قد سعىٰ فى الأبواب السلطانية بمصرَ عند وصول رسولِ سلطانِ أمحرا إلىٰ مصر فى تنجزُّ كتاب البِطْريرك إليه، بكف أذِيَّته عمَّن فى بلاده من المسلمين وعن أخذ حريمهم. وبرزَتِ المراسيمُ السلطانيةُ للبطريرك بكتابة ذلك، فكتب إليه عن نَفْسه كتابا بليغا شافيا، فيه معنىٰ الإنكار لهذه الأفعال، وأنه حَرَّم هذا علىٰ مَنْ يفعله، بعباراتٍ أجاد فيها؛ ثم قال: وفى هذا دلالة علىٰ الحال.

قلت: وقد كُتِب فى أوائل الدولة الظاهرية «برقوق» كتابٌ عن السلطان فى معنىٰ ذلك، وقرينُه كتابٌ من البطريرك (مَتَّى) بطريرك الإسكندرية يومئذ بمعناه. وتوجَّه به إلىٰ الحَطِّى سلطان الحبشة، «برهانُ الدين الدِّمياطيُّ» فذهب وعاد بالحِبَاء من جهة الملِك؛ لكن ذكر عنه أنه أتىٰ أمورا هناك تقدح فى عقيدة ديانته، والله أعلم بحقيقة ذلك. وستأتى الإشارة إلىٰ المكاتبة إلىٰ هؤلاء الملوك السبعة فى المقالة الرابعة فى الكلام علىٰ المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ.

الجملة الخامسة

(فى زِىّ أهل هذه المملكة)

أما لِبْسهم، فإنه قد جرتْ عادتهم أن الملِك يعصِّب رأسه بعِصَابةٍ من حرير، تَدُور بدائر رأسِه، ويبقىٰ وسطُ رأسه مكشوفًا؛ والأمراء والجند يُعَصِّبون رُءُوسهم كذلك بعصَائِبَ من قُطْن؛ والفقهاء يَلْبَسون العمائم؛ والعامَّةُ يلبَسُون كوافىَ بِيضا

طاقيات، والسلطان والجند يتّزرون بثياب غير مَخِيطة : يشُدّ وسطه بثوبٍ، ويتّزِر بآخر، ويلْبَسون مع ذلك سراويلاتٍ . ومَنْ عداهم من الناس يقتصرُون على شَدّ الوَسَط والاتّزار خاصّةً بلا لُبْس سراويلَ . وربما لَبِس القُمصانَ منهم بعضُ الفقهاء وأربابُ النِّعَم .

وأما رُكُوبهم الخيلَ، فإنهم يركبونها بغير سُرُوج، بل يُوَطَّأُ لهم على ظُهورها بجلود مِرْعِزَى حتّى ملوكهم .

وأما سلاحهم فغالبه الحِراب والنُّشّاب .

الجملة السادسة

(فى شِعار المَلِك وترتيبه)

أما شعار المَلِك، فقد جرتْ عادتُهم أن الملك إذا ركب تقدّم قُدّامهُ الحُجّاب والنُّقَباء لطَرْد الناس، ويضرب بالشَّبّابة أمامه، ويضرب معها ببُوقاتٍ من خشب، فى رءوسها قرون مجوّفة، ويُدقُّ مع ذلك طبولٌ معلّقة فى أعناق الرجال تسمّى عندهم الوَطْواط . ويتقدّم أمامَ الكل بوقٌ عظيم يسمّى الجنبا، وهو بوق مَلْوِىّ من قَرن وَحْش عندهم من نوع بقر الوحش آسمه (عجرين) فى طول ثلاثة أذرع، مجوّف يُسمَع على مسيرة نصف يوم، يَعْلَم من سمعه ركوبَ الملِك، فيبادرُ إلى الركوب معه مَنْ له عادةٌ به .

وأما ترتيب المَلِك عندهم، فإن من عادتهم أن الملك يجلس على كرسىٍّ من حديد مُطَعَّم بالذهب، عُلُوُّه أربعةُ أذرع من الأرض، ويجلس أكابرُ الأمراء حوْلَه

علىٰ كراسىّ أخفضَ من كرسيِّه ، و بقيةُ الأمراء وقوفٌ أمامه ؛ ويحمل رجلان السلاحَ علىٰ رأسه . ويختصّ صاحبُ (وَفَات) بأنه إذا ركب حُمِل علىٰ رأسه چتر علىٰ عادةِ الملوك .

ثم إن كان الملك راكبا فرسا ، كان حاملُ الچتر ماشيًا بازائه والچتْر بيده ، وإن كان راكبا بغلا ، كان حاملُ الچتر رديفه والچتر بيده علىٰ رأس الملك .

وبالجملة فإنه يُعَدّ من حِشْمة الملِك أو الأمير عندهم أنه إذا كان راكبا بغلا أن يُرْدِف غلامَه خلْفَه ، بخلاف ما إذا كان راكبا فرسًا فإنه لا يُرْدِف خلفَهُ أحدا . ومما يعدّ بـ(وَفَات) من حِشْمة الملك أو الأمير أنه إذا مشىٰ يتوكَّأُ علىٰ يدَىْ رجلَيْنِ . وملوكُهم تتصدّىٰ للحكم بأنفسهم وإن كان عندهم القضاةُ والعُلَماء . وليس لأحدٍ من الأمراء ولا سائر الجُنْد إقطاعاتٌ علىٰ السلطان ولا نُقُود كما بمصر والشام ، بل لهم الدوابُّ السائمةُ . ومَنْ شاء منهم زرَع وآستغَلّ ولا يُعارَضُ فى ذلك . وليس لأحدٍ من ملوكهم سِماطٌ عامٌّ ، بل إنما يمدّ سِمَاطُه له ولخاصَّته ، ولكنه يفَرِّق علىٰ أمرائه بَقَرا عِوَضا عن أمر أكلهم علىٰ السِّماط . وأكثر مايعطى الأميرَ الكبير منهم مائتَا بقرة .

قلت : وأهمل المقرُّ الشهابىّ بن فضل الله فى "مسالك الأبصار" و"التعريف" عدّةَ بلاد من ممالك الحبشة المسلمين .

منها (جزيرة دَهْلَك) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الدال المهملة وسكون الهاء ثم لام مفتوحة وكاف . وهى جزيرة فى بحر القُلْزم ، واقعةٌ فى الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ إحدىٰ وستُّون درجةً ، والعرضُ أربعَ عشرةَ درجةً . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى جزيرةٌ مشهورةٌ علىٰ

طريق المســافرين فى بحر عَيْذَاب إلىٰ اليَمَن . قال ٱبن سعيد : غَربِىّ مدينة (حَلْيٍ) من بلاد اليمن ، فطولها نحو مِائتَىْ ميل ، و بينها و بين بَرِّ اليمن نحو ثلاثين ميلا [ومَلِك دَهْلَك من الحبش المسلمين] (١) وهو يُدارى صاحب اليَمن .

ومنها (مدينة عَوَان) بفتح العين المهملة والواو وألف ثم نون . وهى مدينة علىٰ ساحل بحر القُلْزم مقابِل (تِهَامَةِ اليَمَن) حيثُ الطولُ ثمــانٍ وسبعون درجة ، والعرضُ ثلاثَ عشرةَ درجةً ونصفُ درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وإذا كان وقت الضحىٰ ظهر منها (الجَنَاح) وهو جبل عالٍ فى البحر .

ومنها (مدينة مَقْدِشُو) (٢) بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهـملة ثم شين معجمة وواو فى الآخر كما نقله فى "تقويم البُلْدان" عن ضبطه فى "مُزِيل الٱرتياب" بالشكل . وموقعُها بين الإقليم الأوّل من الأقاليم السبعة وخَطِّ الٱستواء . قال ٱبن سعيد : حيثُ الطولُ ٱثنتان وسبعون درجةً ، والعرض درجتانِ . قال فى "مُزِيل الٱرتياب" : وهى مدينة كبيرةٌ بين الزَّنْج والحبشة . قال : وهى علىٰ [بحر] الهند ، ولهــا نهر عظيم شَبِيه بنيل مصر فى زيادته فى الصَّيف . قال : وقد ذكر أنه شقيقٌ لنيلِ مصر فى مَخْرَجه من بُحَيْرة كورا ، ومَصَبُّه بحر الهند علىٰ القُرْب من مَقْدَشُو .

قلت : وقد أتى الحطِّى ملك الحبشة النصارىٰ علىٰ معظم هذه الممالك بعد الثمانمائة وخرّبها وقتل أهلها وحَرَّق ما بهــا من المصاحف وأكره الكثير منهــم علىٰ الدخول فى دين النصرانية ، ولم يبق من ملوكها سوىٰ ٱبن مسمار المقابلة بلاده لجزيرة دَهْلَك تحت طاعة الحطِّى ملك الحبشة وله عليه إتاوة مقرَّرة ، والسلطانـــ سعد الدين

(١) الزيادة عن تقويم البلدان .

(٢) ضبطها ياقوت بفتح الدال .

صاحب زَيْلَع وما معها وهو عاصٍ له خارج عن طاعته بينه وبينه الحروب لا تنقطع ، وللسلطان سعد الدين فى كثير من الأوقات النصرة عليه والغلبة والله يؤيد بنصره من يشاء .

واعلم أن ماتقدّم ذكره من ممالك السُّودان هو المشهور منها ، وإلا فوراءَ ذلك بلادٌ نائيَةُ الجوانب بعيدة المَرْمىٰ منقطِعة الأخبار .

منها (بلادُ الزنج) . وهى بلادٌ شرقىّ الخليج البربَرِىّ المقدّم ذكره فى الكلام علىٰ البِحار، تُقابل بلاد الحبشة من البر الآخَرِ .

وقاعدتها (سُفَالة الزَّنْج) . قال فى "تقويم البُلْدان" بالسين المهملة والفاء ثم ألف ولام وهاء فى الآخِرِ . وموقعها جنوبىّ خط الاستواء . قال فى "القانون" : حيثُ الطولُ خمسون درجةً، والعرضُ فى الجنوب درجتان . قال فى "القانون" : وأهلها مسلمون . قال ابن سعيد : وأكثر معايِشهم من الذهب والحديد، ولِباسُهم جُلُود النُّمُور . وذكر المسعودىّ أن الخيل لاتَعِيش عندهم، وعسكرهم رَجَّالة، وربما قاتلوا علىٰ البقر .

ومنها (بلاد الهَمَج) جنوبىّ بلاد التَّكْرُور. فقد ذكر ابن سعيد انه خرج علىٰ أصناف السُّودان طائفة منهم يقال لهم [الدَّمَادم] (١) يشبهون التتر، خرجوا فى زمن خروجهم فأهلكوا ماجاورهم من البُلْدان . وذكر فى "مسالك الأبصار" عن ابن أمير حاجب والى مصر عن منسا موسى ملك التَّكْرور أنهم كالتتر فى تَدْوِير وجوههم، وأنهم يركبون خُيُولا مشقَّقة الأنوف كالأكاديش ، وأن همج السودان عدد لا يَسْتَوعِبُهم الزمان وأن منهم قوما يأكُلون لحم الناس .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من مسالك الأبصار .

الفصـــــل الرابع

من الباب الرابع من المقـالة الثانية

(فى الجهة الشّمالية عن ممـالك الدّيار المصرية ومضافاتها، خَلَا ماتقدّم ذكره ممـا آنضمّ إلىٰ ممـالك المَشْرِق من شَمَـالى الشرق، نحو أرْمِينِيَة، وأَرّان، وأذْرَبِيجان، وشمالِى خُرَاسان، وشمالِى مملكة تُوران: من خُوارَزْم، وما وراء النهر، و بلاد الأَزَق، و بلاد القِرِم، وما والىٰ ذلك وما آنضم إلىٰ ممـالك المغرب من شَمَـالِىِّ الغرب، وهـــو الأندلُس)

وينقســـم ذلك إلىٰ قسميـــن :

القســـــم الأوّل

(مابيد المسلمين ممـا فى شرقِىِّ الخليج القُسْطَنْطِينى فيما بينه و بين أرمِينِيَة وهى البلاد المعروفة ببلاد الرُّوم)

قال فى "التعريف" : وتُعرَف الآنَ ببلاد الدَّرَبَنْدات . وقد سماها فى "التعريف" و "مسالك الأبصار" بلاد الأتْراك، وكانه يريد بالأتراك التُّرْكُمان ، فإنهم هم الذين آنضافَ مُلْكُها بعد ذلك إليهم، علىٰ ماسيأتى بيانه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" أنه يُحِيط بهذه البلاد من جهة الغرب بحرُ الرُّوم، وعامَّةُ الخليج القُسْطَنْطِينى، و بحر القِرِم . ومن جهة الجنوب بلادُ الشام والجزيرة . ومن جهـة الشرق أرمينِيَةُ . ومن جهـة الشَّمال بلاد الكُرْج وبحر القرِم . وذكر

فى "التعريف" ما يخالف ذلك فقال : إنها منحصرة بين بحرى القرم والخليج القسطنطينى ، تنتهى من شرقيها إلى بحر القرم المسمى بحر نيطش ومانيطش ؛ وفى الغرب إلى الخليج القسطنطينى ، وتنتهى متشاملة إلى القسطنطينية ؛ وتنتهى جنوبا إلى بلاد لاون(١) : وهى بلاد الأرمن يحدها البحر الشامى . وبالجملة فإنها مفارقة مايسامت شرقيها من بلاد الأرمن المضافة إلى بلاد الشام من ممالك الديار المصرية . والحاصل أن هذه البلاد مبتدؤها من الشرق مما يلى المغرب حدود أرمينية فى شمالى بلاد الجزيرة وما والاها من بلاد الأرمن المضافة الآن إلى مملكة حلب ؛ وتأخذ فى جهة الغرب إلى بحر الروم ، فيصير البحر فى جانبها من الجنوب ويمتد عليها حتى يتصل بالخليج القسطنطينى ، فيدور عليها الخليج وما يتصل به من بحر القرم من جهة الغرب ثم من جهة الشمال كالجزيرة ويحيط بها البحر من جميع جوانبها خلا جهة الشرق .

وقد كانت هذه البلاد فى زمان الروم من مضافات القسطنطينية وأعمالها . قال فى "مسالك الأبصار" : وقد كانت هذه البلاد على عهد الروم محتك الأعنه ، ومشتبك الأسنه ؛ دار القياصره ، ومكسر الأكاسره . ثم وصفها بأتم الأوصاف ، فقال بعد أن ذكر أنها أثرى البلاد : صخورها تتفجر ماء ، وجوها يسخر أنواء ، تعقد دون السماء سماء ؛ فيخصب زرعها ، ويخصم المحل ضرعها ، ويخصف ورق الجنة على الحدائق ثمرها وينعها ؛ ويطرب ورقها منظرها البديع ، ويحبرها من صناعة صنعاء الربيع ؛ فلا تسمع إلا كل مطربة تناجى النجى ، وتشجى الشجى ، وتخلب قلب الخلى ، وتهب الغوانى مافى أطواقها من الحلى ؛ يعجب ثوبها السندسى ، ونباتها المتعلق بذيل النهار بسجافها القندسى . فلا تجول فى أرضها إلا على أرائك ، ولاتنظر

(١) فى التعريف آبن لاون .

إلا نِساء كالحُور العِين ووِلْدانا كالمَلاَئِك . ثم قال بعد كلام طويل : وهى شديدةُ البَرْد لا يُوصَف شِتاؤها ، إلا أن سُكَّانها تستعدّ للشِّتاء بها قبل دُخُوله ، وتحصِّل ما تحتاج إليه، وتدّخِره فى بيوتها ، وتستكثِرُ من القَديد والأدْهان والخُمُور، فتأكلُ وتشربُ مدّةَ أيام الشتاء ، ولا تخرجُ من بيوتها ، ولو أرادت ذلك لم تقدِرْ عليه ، حتّى تذوبَ الثُّلُوج . قال وهذه الأيام هى بُلَهْنِية العيش عندهم .

ويَنْحصِر المقصودُ من ذلك فى خمس جمل :

الجمـــلةُ الأولىٰ

(فيما اشتملتْ عليه من القواعد ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(القواعدُ المستقِرّةُ بها الملوكُ والحُكّام
ممن يكاتَبُ عن الأبواب السُّلْطانيــة بالديار المصــرية)

فأما ما ذكره المَقَرّ الشهابِىّ بنُ فضل الله من ذلك فى "التعريف" و"مسالك الأبصار" ، فستَّ عشرةَ قاعدةً عبّر عنها فى "مسالك الأبصار" : بممالك . ونحن نُورِدها علىٰ ما أوردها وإن كان قد أخَلَّ بها فى الترتيب .

القاعدة الأولىٰ — (كِرْمِيان) بكسر الكاف وسكون الراء المهملة والميم وفتح المثناة تحتُ وألف ثم نون فى الآخر . وهى مدينــة فى شرق هذه البلاد، متوسطةٌ فى المِقْدار، مبنِيّة بالحجر، عليها سُور دائر . وبها مساجدُ وأسواقٌ وحَمّامات ، وبوسطها قلعةٌ حصينة علىٰ جبل مرتفع ؛ وخارِجها أنهار تجرِى وبساتينُ ذاتُ أشجار وفواكِهَ منوّعة، وأراضٍ مزدرَعة .

القاعدة الثانية — (طُنغزلُو) بضم الطاء المهملة وسكون النون وضم الغين المعجمة وسكون الراى المعجمة وضم اللام وواو فى الآخر . وهى مدينة متوسّطة فى أوساط هذه البلاد، وبناؤها بالحجر، وليس لها سُور . وبها المساجدُ والأسواقُ والحماماتُ ، وخارجها أنهار تجرى وبساتينُ محدَّقة ذاتُ فواكهَ وثِمارٍ .

القاعدة الثالثة — (تُوَازَا) بضم التاء المثناة فوقُ وواو مفتوحة بعدها ألف ثم زاى معجمة وألف فى الآخر وهى مدينة عظيمة . قال فى "مسالك الأبصار" : وهذه المملكة تقع شرقى كرميان محضا، وموقِعُها مابين جنوبى بركَى إلى قوله ، وكرسيه تُوَازا . قال : ولصاحبها أربع قلاع ونحو ستمائة قرية ، وعساكره نحو أربعة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل . وقد عدّها فى "مسالك الأبصار" من جملةُ مضافات كَصْطَمُونِيَةَ الآتى ذكرها . وذكر أنه كان بها إذ ذاك أميرٌ من قِبَل صاحبها آسمه (مراد بك) . وذكر فى "التعريف" أن آسمه أرينة .

القاعدة الرابعة — (حميدَلِى) . قال فى "مسالك الأبصار" وحميدَلِى اسم للإقليم ، وقاعدته مدينةُ (بركو) وموقِعُها من قوله الى قراصار . قال : ولصاحبها أيضا اقليم بلواج و اقليم قراغاج و إقليم اكرى دوز . قال : وهذه البلاد مدنها قليلة وقراها كثيرة، وبها خمس عشرة قلعةً، وعسكرصاحبها خمسة عشرألف فارس ومثلهم رجّالة وهى نهاية ما أخذ الى الشمال وقد ذكر فى "التعريف" : أن صاحبها كان آسْمه فى زمانه دندار . قال : وهو أخو يُونُس صاحبِ أنْطالِيا، وحينئذ فتكون من مملكة بنى الحميد .

القاعدة الخامسة — (قَسْطَمُونِيَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح القاف وسكون السين و بالطاء المهملتين وضم الميم وسكون الواو وكسر النون و بالياء المثناة

من تحتُ وهاء فى الآخر ، وربمـا أبدلوا القاف كافًا ، وعليه جرى فى "التعريف" و "مسالك الأبصار" : وهى مدينةٌ فى شرقىِّ هذه البلاد داخلةٌ فى حدودها ، موقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ٱبن سعيد : حيثُ الطولُ خمس وخمسون درجةً وثلاثون دقيقـة ، والعرضُ ستٌّ وأربعون درجة وثمـانٌ وأربعون دقيقة . قال : وهى قاعدة التُّرْكان ، وترَاكِمتُها يغْزُون (القُسْطَنْطِينِيَّة) وهى شرقىّ (هِرَقْلَة) وفى الجنوب عن سَنُوب على ثلاث مراحِلَ منها ، وقيــل خمس مَراحِلَ . وهى فى الشرق عن أَنْكُورِيه على خمسة أيام منها . وقد أخبرنى بعضُ أهل تلك النواحى أنها مدينةٌ متوسطةُ المقدار ، مبنيةٌ بالحجر ، ذاتُ مساجدَ وأسواق وحَمَّامات ، وليس عليهـا سُور ، وخارجَها أنهرٌ وبساتينُ ذاتُ فواكِهَ . قال فى "مسالك الأبصار" : وبها الأكادِيش الرُّومِيَّة الفائقة ، المفضَّل بعضُها على كلِّ سابق من الخيل العِراب ، ولها أنسابٌ محفوظة عندهم كخيل العَرَب ، يُتغالىٰ فى أثمانها لا سِيَّما فى بلادها ، حتّٰى تبلغ قيمةُ الواحد منها ألفَ دينار فمـا فوقَهُ ، بل لايستكْثِر فيها مَنْ يعرفها بَذْلَ مال . قال فى "التعريف" : وكانت آخر وقتٍ (لسليمان باشاه) وكان أميرا كبيرا كثير العَدَد ، مَوْفُور المَدَد ، ذا هَيْبة وتمنُّع ، ثم مات

وورث ملكَه ٱبنُه (إبراهيم شاه) وكان عاقًّا لأبيه ، خارجا عن مَرَاضيه ، وكان فى حياته ينْفَرِد بمَمْلَكة سَنُوب . قال : وهى الآن داخلة فى مُلْكه ، منخرطة فى سِلْكه . قال : وعسكره على ما يقال لنا ويبلغنا نحوُ ثلاثين ألف فارس .

القاعدة السادسة — (فاويا) . قال فى "مسالك الأبصار" : ومملكتها تُجـاوِر سمسون من غربيها . قال : ولصاحبها عشر مدن ومثلها قِلاع ، وعسكره نحو سبعة آلاف فارس أما الرجّالة فكثير عددهم ودرهمها نصف درهم فضة خالصة ، ورِطلها

ستة عشر رطلا بالمصرى ، ومدّها نحو إردب بالمصرى ، وأسعارها رخيَّة وقد ذكر في "التعريف" : أن آسم صاحبها فى زمانه (مراد الدين حمزة) . قال : وهو ملكٌ مضْعُوف، ورجل بمجالِس أُنْسِه مَشْغوف .

القاعدة السابعة — (بُرْسَا) بضم الباء الموحدة وسكون الراء وفتح السين المهملتين وألف فى الآخر . وربمـا أبدلت السينُ صادا مهملةً . والموجود فى "التعريف" و"مسالك الأبصار" وغيرهما إثباتُ السين دون الصاد . وهى مدينة كبيرة فى شمالىّ هـذه البلاد ، مبنيةٌ بالطُّوب والحجر ، وسقوفُها من الخشب ، وغالبهـا جَمَلُونات ، وبها مساجد وأسواق وحَمَّامات ، وبعض حَمَّاماتها من أعيُنٍ حارَّة تنْبُع من الأرض كذلك كما فى طَبَرِيَّة بالشام ، ولهـا سُور عظيم ، وبوسطها قلعة شاهقةٌ مرتفعةُ البناء بها سَكَن سلطانها ، وفيها قصور عظيمة متعدّدة ، وجامع وثلاثُ حَمَّامات .

وخارج رَبَض المدينة نهران :

أحدهما — يسمّى (كُكْدَرَا) بضم الكاف الأولى وسكون الثانية وفتح الدال والراء المهملتين وألف فى الآخر . ومعناه وادٍ أزرق ، سُمِّى بذلك لأنه يخرج من جبـلٍ أزرقَ ، وتُقْطَع منـه الحجارة بشِدّة جريه ، فتجرى منه بجريان المـاء ، فيأخذها من عليه من أهل تلك النواحى فيعَمِّر بها ، ومعظم عمارة بُرْسَا منها .

والنهر الثانى — يسمى (منرباشى) فى قدر الفُرَات ، يشُقُّ المدينة ويمُرّ فى جامعها ؛ وبها جبل عظيم آسمه (كمش) به معدِنُ فِضَّة سمِّى باسم الفِضَّة .

وبُرْسَا هـذه هى مَقَرّ مملكة أولاد (عثمان جَقْ) الذين هم الآن رُءُوس ملوك تلك البلاد ، وإليهم آنقياد جميعهم على ما سيأتى ذكره فى الكلام على ملوكها . وقد ذكر فى "التعريف": أن صاحبها فى زمانه كان أرخان بن عثمان . وذكر فى "مسالك

الأبصار" عن الشيخ حَيْدَر العُرْيان : أن عسكره نحوُ خمسةٍ وعشرين ألفا ، وأن بينه وبين صاحب القُسْطنطِينيّة الحُروبَ ، وأيّامُها بينهم تارات ، له فى غالبها علىٰ صاحب القسطنطينيّة الغَلَب ، وملك الروم يُداريه علىٰ مال ، يحمِلُه إليه فى كلِّ هِلال .
قال : ولقد جاز الجزيرةَ إلىٰ بلاد النصارىٰ وعاثَ فى نواحيها ، وشدّ علىٰ بَطَارِقتها لاعلىٰ فَلّاحيها ، وألقىٰ علوجَها بحيث تعتلج سُيُولُ الدماء ، وتختلج سيوفُ النصرِ من الأعداء ، وسيأتى ذكر ما انتهىٰ إليه فتحه من بَرِّ القسطنطينيّة بعد هــذا فى الكلام علىٰ ملوك هذه المملكة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

القاعدة الثـامنة — (أكيرا) . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى تجاور مملكة بُرْسا آخذة الى الشمال وجبل القسيس جنوبيها وسنوب شماليها وهى طريق من طرق سنوب وقلاعها وعساكرها كثيرة . ومنها يخرج الحرير الكثير واللاذن الىٰ غيرها من البلاد ، ورطلها ثمانية أرطال بالمصرى ، ومدّها نحو إردب ونصف وأسعارها رخية وقد ذكر فى "التعريف" : أن صاحبهـا فى زمانه كان (صاروخان بن قرَاسى) ولم يبين من أىّ طوائف التُّرْكمان هو .

القاعدة التـاسعة — (مَرْمَرا) بفتح الميم وسكون الراء المهملة وفتح الميم الثانية والراء المهملة الثانية وألف فى الآخر . وهى مدينة فى شمالىّ هذه البلاد ، بها جبل فيه مَقْطَع رُخَام . قال فى "الروض المعطار" : والروم تسمّى الرخام مَرْمَرا ، فسميت بذلك . وذكر فى "التعريف" : أن صاحبها فى زمانه كان اسمه (بخشىٰ بن قرَاسى) ولم يبــين من أىّ طوائف التُّرْكُمان هو . وقد أخبرنى بعضُ أهـل تلك البلاد أنها قد خَرِبت ودَثَرت ، ولم يبق بها عمارةٌ .

القاعدة العـاشرة — (مَغْنِيسِــيا) بفتح الميم وسكون الغين المعجمة وكسر النون وسكونِ اليـاء المثناة تحتُ وكسر السين المهملة وفتح الياء الثانية وألف فى الآخر .

وهى مدينة فى أوساط هذه البلاد، متوسّطةٌ فى المقدار، مبنيـةٌ بالحجر، وعليها سورٌ دائر، وبها مساجد وأسواق وحمامات وبساتين ومُرُوج . وقد ذكر فى "التعريف" : أنه كان آسم صاحبها فى زمانه (صاروخان) ولم يزد على ذلك .

القاعدة الحـادية عشرةَ — (نِيْف) بكسر النون وسكون الياء المثناة تحتُ وفاء فى الآخر . وهى مدينة لطيفةٌ بأوساط هـذه البلاد، بالقُرْب من (مَغْنِيسِيَا) المقدّم ذكرها على نحو مرحلتين منها . وهى مبنيّة بالحجر، وبها المساجد والأسواق والحمّامات وخارجها الأنهار والزُّروع والبساتين المختلفة الفواكه .

القاعدة الثـانية عشرةَ — (بَرِكِي) بفتح الباء الموحدة وكسر الراء المهملة وكسر الكاف وياء مثناة تحتُ فى الآخر. وهى مدينة متوسطةُ القدر على القُرب من نِيف المقدّم ذكرها على نحو مرحلتين منها؛ وبها المساجدُ والأسواقُ والحَمّامات والمياه والبساتينُ والزروع .

القاعدة الثالثة عشرةَ — (فُوكه) . وقد ذكر فى "التعريف" : أن صاحبها فى زمانه كان آسمه (أرخان بن منتشا) وآقتصر على ذلك .

القاعدة الرابعة عشرةَ — (أَنْطَالِيَا) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون النون وفتح الطاء المهمـلة وألف ولام مكسورة وهاء(١) فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياس أنها حيثُ الطولُ أربع وخمسون درجةً وآثنتان وثلاثون دقيقـةً ، والعرضُ إحدى وأربعون درجة وأربعون دقيقة . قال آبن سعيد : وهى بلدةٌ مشهورةٌ . وقال آبن حوقل : هى حصن [للروم على شَـطِّ البحر منيعٌ واسـعُ الرُّسْتاق كثيرُ الأهـل](٢) . قال

(١) الذى فى التقويم وألف فى الآخر .

(٢) الزيادة عن التقويم .

فى "تقويم البُلْدان" : وهى علىٰ دَخْلة فى البحر، وسُورُها من حجر فى غاية الحَصَانة، ولهـا بابان : بابٌ إلىٰ البحر، وبابٌ إلىٰ البر . وأخبرنى من رآها أنها ذاتُ أشجار وبساتينَ ومياهٍ تجرى، وبها قلعة حَصِينة بوسطها؛ وبها نهر يُعرَف بالصَّبَّاب. قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى كثيرة المُحمضات : من الأُتْرُجّ، والنارَنْج، والليمون، وما أشبه ذلك . قال ٱبن سعيد : وكانت للروم فاستولىٰ عليها المسلمون فى عَصْرنا . قال : وبهـا أسـطول صاحب الدُّروب، ومينـاها غيرُ مأمونةٍ فى الأنواء . قال فى "تقويم البُـلْدان" : وكان الحاكم بها شخصًا من أهـل تلك البلاد فخرج منها إلىٰ بعض جهاتها، فكبسها التُّرْكُمان وملكوها ثم أمسكوه فقتلوه . قال : وصاحبها فى زماننا واحد من بنى الحميد ملوك التُّرْكمان . وقد ذكر فى "التعريف": أن صاحبها فى زمانه كان ٱسمه (خَضِر بن يُونُس) . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن صاحبها فى زمانه كان ٱسمه (خضر بن دندار) من أولاد (منتشا) . وقال : إن عسكره نحو أربعين ألفَ فارس . ثم قال : إن لبنى دندار هؤلاء إلىٰ ملوك مصر ٱنتماءً، وكان بمِصْرَ منهم من له إمرةٌ ثم عاد إلىٰ بلاده .

القـاعدة الخامسةَ عشرةَ — (قَراصار) بفتح القاف والراء المهملة وألف ثم صاد مهملة مفتوحة بعدها ألف ثم راء مهملة فى الآخر. وتُعْرَف بقراصار التَّكا بفتح التاء المثناة فوقُ . وهى قلعـة علىٰ جبل مرتفع يحُفُّ بهـا رَبَضٌ بأعلىٰ الجبل، وحول الرَّبَض فى الجبل زِراعاتُهم وبساتِينُهم . وقد ذكر فى "التعريف": أن ٱسم صاحبها فى زمانه (زكريا) ولم يزد علىٰ ذلك . وهى غير مدينة قَراصَار الصاحب . وهى مدينة لطيفة بأوساط بلاد الروم فى الغرب عن قَراصار هذه وفى الشَّمال عن أنْطاليَا .

القاعدة السادسةَ عشرةَ — (أَرْمِنَاك) بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وكسر الميم وفتح النون وألف ثم كاف فى الآخر . وهى مدينـة فى مَشَارق الروم، مبنيَّـة

بالحجر غير مسوّرة ، وبها مساجد وأسواق وحمّامات ، وبها بساتين كثيرة وفواكه جمّة إلا أنها شديدةُ البرد . وقد ذكر فى "التعريف" : أنهـا بيد أولاد قرمان . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن المملكة كانت بيـد (محمد بن قرمان) . وذكر فى "التثقيف" : أن آخِرَ مَن آستقرّ بها فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة (علاءُ الدّين على بك) بن قرمان .

وأما مازاد ذكره فى "التثقيف" : فخمسُ قواعِدَ :

القاعدة الأولى — (العَلَايَا) بفتح العين المهملة واللام وألف بعدها ثم ياء مثناة تحتُ وألف فى الآخر . وموقعهـا فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "تقويم البُلْدان" : والقياسُ أنهـا حيثُ الطولُ آثنتان وخمسون درجةً ، والعرضُ تسعٌ وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقـةً . قال : وهى بلدة مُحْدَثة أنشأها (عَلَاء الدّين علىّ) بعضُ ملوك بنى سَلْجوق بالروم فنُسِبت إليه . وقيل لها (العَلَائيّة) علىٰ النسب ، ثم خفّفها الناس ، فقالوا : (العلايَا) ثم قال : والذى تحقّق عندى من جماعةٍ قدِمُوا منها أنها بُلَيْدة صغيرة أصغرُ من أنْطاليَا علىٰ دَخْلةٍ فى بحر الروم . وهى من فُرَض تلك البلادِ . وذكر أنها فى الجَنُوب عن أنطاليَا علىٰ مسيرة يومين ، وعليها سورٌ دائر، وأنها كثيرةُ المِياه والبساتين . وقد ذكر فى "التثقيف" : أن الحاكم بها فى زمانه كان آسمه (حُسَام الدين محمود) بن عَلَاء الدين . وقال : إنه كتب إليه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة ، ولم يبين من أىّ طوائف التُّرْكُمان هو . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أنها فى ساحل بلاد بنى قرمان ، وأن الحاكم بها من قبلهم حينئذ كان آسمه (يُوسُف) .

القاعدة الثانيــة — (بَلَاط) بفتح البـاء الموحدة واللام وألف ثم طاء مهملة فى الآخِر . وهى بلدةٌ بأوساط الروم على نحو ثمـانِ مراحلَ من بُرْسَا، وهى مدينة صغيرة بغير سور، وبها قلعةٌ خرابٌ كانت مبنيّة بالرُّخام، وبها مساجدُ وأسواقٌ وأربعُ حَمَّامات . ذكر لى بعضُ أهل تلك البلاد أنها بيد أولاد (منتشا) من ملوك التُّرْكُمان .

القاعدة الثالثـة — (أَكَرْدُور) بفتح الهمزة والكاف وسكون الراء وضم الدال المهملتين وسكون الواو وراء مهملة فى الآخر . قال فى "التثقيف": ويقال أكردون بالنون بدل الراء الأخيرة . وهى بلدة غير مسوّرة بها قلعة عظيمة على جبل شاهق، وبها مساجدُ وأسواقٌ وحَمَّامات، إلا أنّ بساتينها قليلة، وبها بُرْجٌ عظيم .

القاعدة الرابعة — (أَيَاسْ لُوقْ) بفتح الهمزة والياء المثناة تحتُ وألف ثم سين مهملة ساكنة ولام مضمومة بعدها واو ساكنة ثم قاف فى الآخر . وهى مدينــة عظيمة على ساحل البحر الرومىّ، بها المساجدُ والأسواقُ والحَمَّـامات ؛ وبها أعينٌ وأنهــار تجرِى وبساتينُ ذاتُ فواكهَ . وقد أخبرنى بعض أهلِ تلك البلاد أنهــا فى ملك بنى أيدين .

القاعدة الخامسة — (سِنُوب) . قال فى " تقويم البُـلْدان " : بالسين المهملة والنون والواو وباء موحدة فى الآخر ولم يقيِّدها بالضبط . وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة ، والعرضُ ستٌّ وأربعون درجةً وأربعون دقيقــة . قال فى " تقويم البُـلْدان " : وهى فُرْضة مشهورة (يعنى على بحر القِرِم) . ثم قال : وهى فى الشّمال عن كَسْطَمُونِيَةَ وفى الغرب عن سامْسُون . قال : وعن بعض الثِّقـات أن بسـنوبَ سُورًا حصينا، يضربُ البحرُ فى بعض أبراجه . ولهــا بساتينُ كثيرة إلى الغاية؛ وبينها وبين سامْسون نحو

أربع مَراحِلَ . ثم قال : وصاحب سنوب (١) فى زماننا من ولد البرواناه، وله شَوانٍ يغزو بها فى البحر ولا يكاد أن ينقهر . وذكر فى "مسالك الأبصار" : أنها من مضافات كَسْطَمُونِيَة المقدّم ذكرها، وأنه كان بها فى زمانه نائب من جهة (إبراهيم آبن سليمان باشاه) صاحب كَسْطَمُونِيَة آسمه غازى چابى . وقال فى "التثقيف" : يقال إن بها إبراهيم بك بن سليمان باشاه، فإن كان يريد الذى كان فى زمن صاحب "مسالك الأبصار" : بكَسْطَمُونية، فقد أبعد المرمى . وإن كان آخر بعده كان سُمِّى باسمه، فيحتمل أنه فى "التعريف" قد ذكر صاحبها فى جملة ملوك الكُفْر وكأن ذلك كان قبل أن تُفْتَح .

الضرب الثانى

(من هذه البلاد مالم يَسْبِق إلى صاحبه مكاتبةٌ
عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، ممن هو بصَدَد أن تَطْرأ له
مكاتبةٌ، فيُحْتاج إلى معرفته)

وهى عدّة قواعد :

منها (سِيوَاس) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة تحتُ وفتح الواو ثم ألف وسين مهملة فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ إحدى وسبعون درجةً وثلاثون دقيقةً، والعرضُ أربعون درجةً وعشرُ دقائق . قال آبن سعيد : وهى من أُمّهات البلاد مشهورةٌ على ألسنة التُّجّار، وهى فى بَسِيط من الأرض . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة كبيرة مسوَّرة، وبها قلعة صغيرةٌ ذاتُ أعينٍ، والشجر

---

(١) فى التقويم سامسون، والصواب ما هنا .

بها قليل، ونهرها الكبير بعيدٌ عنها بمقدار نصف فَرْسَخ . قال : ويقول المسافِرُون : إن فيها [أربعًا](١) وعشرين خانًا للسبيل؛ وهى شـديدةُ البَرْد، وبينها وبين قَيْسارِيَّة ستون مِيلًا، وكانت سِيواسُ هـذه قد غَلَب عليهـا فى الأيام الظاهرية «برقوق» صاحبِ الديار المصرية قاضيها (القاضى إبراهيمُ) ومَلَكها .

ومنهـا (أَمَاسِيَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة والميم وألف وكسر السين المهملة ثم ياء مثناة تحتية مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال فى "رسم المعمور" : حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، والعرضُ خمسٌ وأربعون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : ذكر بعضُ من رآها أنهـا بلدة كبيرة ذاتُ سور وقلعـة، وفيهـا بساتينُ ونَهَر كبير عليـه نَواعِيرُ، يمرّ عليهـا ثم يَصُبُّ فى بحر سَنُوب يعنى بحر القِرِم . قال ابن سـعيد : وهى من مُدُن الحكماء، وهى مشهورةٌ بالحُسْن وكثرة المياه والبساتينِ والكروم، وهى فى الشرق عن سَنُوب وبينهما سـتة أيام . ثم قال : وذكر بعضُ مَنْ رآها أن بها معدِنَ فِضَّـــة .

ومنها (هِرَقْلَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الهاء وفتح الراء المهمـلة وسكون القاف وفتح اللام ثم هاء فى الآخر . وموقعُها فى الإقلـيم السابع من الأقاليم السبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجةً وعشرون دقيقةً، والعرضُ إحدىٰ وأربعون درجةً وثلاثون دقيقةً . قال ابن سعيد : وهى فى شرقىّ نهرٍ ينْزِل من جبـل العَلَايا إلىٰ نحو سَنُوب وهِرَقْلَةُ عليه فى قُرْب البحر . قال : وهى التى هدمها الرشيدُ . قال : وفى شرقيها جبل الكَهْف .

---

(١) الزيادة عن التقويم .

وقد حكى آبن خُرْداذْبَة فى كتابه "المسالك والممالك" عن بعضهم أنه سار إلى هذا الكهف ودخل بمساعدة صاحب الروم فوجد به أمواتًا برَوَاق فى كَهْف فى جبلٍ عليهم مُسُوح قد طال عليها الزمنُ حتّى صارت تَنْفَرك باليد، وقد طُلِيت أجسادُهم بالمُرِّ والصَّبِر فلم يبْلَوْا، ولَصِقَتْ جلودُهم بعظامهم، وجَفَّت، وعندهم سادِنٌ يخدُمُهم، وأنه أنكر أن يكون أُولئك هم أهل الكهف المذكورون فى القُرءان، للاختلاف فى محلّ الكَهْف هل هو فى هذه البلاد أو غيرها .

ومنها (أَقْسَرَا) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون القاف وفتح السين والراء المهملتين وألف فى الآخر، وربّما أبدلت السين صادًا مهملة . قال: ويقال إن أصلها (أَخْ سرا) يعنى بالخاء المعجمة بدل القاف . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى " الأطوال " : حيثُ الطولُ خمس وسبعون درجةً، والعرضُ أربعون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى مدينةٌ ذاتُ أشجار وفوا كه، ولها نهر كبير ينجرُّ وَسَط البلد ويدخُل الماءُ منه بعضَ بيوتها، ولها قلعة حصينة فى وَسَطها . قال آبن سعيد : وبها تعمل البُسُط الأَقْصَرِيَّة الفائقة ، ومنها إلى قُونِيَة ثمانية وأربعون فرسخا، وكذلك بينها و بين قَيْسارِيَّة .

ومنها (قَيْسارِيَّةُ) . قال فى " اللباب " : بفتح القاف وسكون المثناة من تحتها وفتح السين المهملة وألف ثم راء مهملة و ياء مثناة تحتية مفتوحة مشدّدة وهاء فى الآخر قال فى " تقويم البُلْدان " : وتقال بالصاد المهملة بدلَ السين . قال آبن سعيد : وهى منسوبة إلى قَيْسَر، وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ ستون درجة والعَرْض أربعون درجةً . قال آبن سعيد : وهى مدينة جليلةٌ يحُلُّها سلطان البِلاد . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى بلدة كبيرة

ذاتُ أشجـار وبساتينَ ونواكِه وعيون تدخُلُ إليهـا . وداخِلَها قلعـةٌ حصينة ، وبها دارٌ للسلطنة .

وقَيْسارِيَّةُ هذه كان بها تختُ الساطنة لبنى سَلْجُوق بهذه البلاد . ولمـا ملك التتَرُ هـذه البلادَ بَقَوْا بقاياهم فى المُلْك إلىٰ أن دخلها السلطانُ الملك (الظاهر بيبرس) صاحبُ الديار المصرية ، وجلس علىٰ تخت آل سَلْجُوق بهـا ، ثم عاد إلىٰ الديار المصرية فزال مُلْك السَّلْجُوقِيَّـة منها من حينئذ ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ ملوك هذه البلاد .

ومنها (قُونِيَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم القاف وسكون الواو وكسر النون وبعدها ياء مثناة من تحت مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعُها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السـبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ ستٌّ وخمسون درجة ، والعرضُ تسعٌ وثلاثون درجة . قال ٱبن سـعيد : وهى مدينةٌ مشهورة ، وبها دار للسلطنة ، والجبال مُطِيفةٌ بها من كل جانب ، وتبعُد عنها من جهة الشَّمال . وينزِل من الجبل الجنوبىّ منها نهرٌ يدخُل إليها من غربيِّها ، وبها البساتينُ من جهة الجبل علىٰ نحو ستة فراسخَ ، ونهرها يسقِى بساتينَها ، ثم يصير بُحَيْرة ومُرُوجا ، وبها الفواكهُ الكثيرة ، وفيهـا يُوجَد المشمش المعـروف بقَمَر الدّين ، وهى ثانى قاعدةِ مملكة السَّلْجُوقيَّة ببلاد الروم ، كان الملك ينتقل منها إلىٰ قَيْسارِيَّةَ ، ومن قيسارِيَّةَ إليها . قال ٱبن سعيد [وبقلعتها تُرْبةُ (١)] أفلاطون الحكيم .

ومنها (أَقْ شَهْر) بفتح الهمزة ثم قاف ساكنة وشيـن معجمة مفتوحة وهاء سـاكنة وراء مهـملة فى الآخر ، كما فى "تقويم البُـلْدان" : عمّن يُوثَق به من

(١) بياض بالأصل والتصحيح عن تقويم البلدان .

أهل المعرفة، وربما أبدلوا الهاء ألفا فقالوا (أَقْشار) . وفى كتاب "الأطوال" : (أَخْ شَهْر) بإبدال القاف خاء معجمة . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة ، قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ خمس وخمسون درجةً، والعرضُ إحدى وأربعون درجةً . قال ابن سعيد : وهى من أنزه البُلْدان ، وبها بساتينُ كثيرة وفواكهُ مفضَّلة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وأخبرنى من رآها أنها على ثلاثة أيام من قُونِيَة شمالًا بغرْب .

ومنها (عَمُّورِيَّة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح العين المهملة وميم مشدّدة مضمومة وواو ساكنة وراء مهملة مكسورة ثم ياء مثناة من تحتُ مفتوحة وهاء فى الآخر . قال : وهى بلدة كبيرة ، ولها قلعةٌ داخِلَها حصينة ، وأكثر ساكنيها التركمان وبها بساتينُ قليلةٌ ، ولها نهر وأعينٌ جارية ، وهى التى فتحها «المعتصمُ ابنُ الرشيد» : أحد خلفاء بنى العَبَّاس، وكان المنجِّمون قد زعموا أنها لا تُفْتَح إلا فى زمان التِّين والعِنَب ، فلما فتحها أنشده أبو تمَّام قصيدتَه التى أوّلُها :

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْباءً من الكُتُبِ * فى حَدِّه الحَدُّ بين الجِدِّ واللَّعِبِ!

ومنها (أَنْكُورِيَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الهمزة وسكون النون وضم الكاف وسكون الواو وكسر الراء المهملة ثم ياء مثناة تحتية مكسورة(١) وهاء فى الآخر . ويقال لها (أَنْقِرَةُ) أيضا بفتح الهمزة وسكون النون ثم قاف وراء مهملة وهاء فى الآخر . وموقعُها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة . قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ أربعٌ وخمسون درجةً ، والعرضُ إحدى وأربعون درجةً . قال ابن

(١) كذا فى التقويم أيضا مضبوطا عليه بعلامة التوقف ولعله مصحف عن مفتوحة ونظائرها كثيرة مثل أرمينية وعمورية وانطاكية الخ .

سعيد : وهى بَلْدة لها قلعة علىٰ تلٍّ عالٍ، وهى بين الجبال، وليس بها بساتين ولاماء، وشرب أهلها من الآبار، وهى عن قَسْطَمُونِيَةَ فى جهة الغرب علىٰ خمسة أيام .

ومنها (فَلَكْ بَار) . قال فى "تقويم البُلْدان" : الفَلَك معروف، وبَار بباء موحدة وألف وراء مهملة فى آخرها . قال : وهى مدينة أنشأها مَلِك من ملوك بنى الحميد آسمه (فَلَكُ الدين) وهى فى مستوٍ من الأرض فى وَسَط الجبال علىٰ قريب من منتَصَف الطريق بين قُونِيَةَ والعَلَايَا ، فى الغرب من قُونِيَة علىٰ مسيرة خمسة أيام ، وهى فى الشرق عن أنْطالِيَا علىٰ مسيرة خمسة أيام . قال : وليس فى تلك الجبال الآنَ مدينةٌ أكبرُ منها، وقد صارت قاعدةً لبنى الحميد : ملوك التُّرْكُمان بتلك الناحية .

ومنهـا (لَارَنْدَةُ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بلام وألف وراء مهملة مفتوحة ونون ساكنة ثم دال مهملة وهاء فى الآخر . قال : وهى قريبة من قُونِيَةَ علىٰ مسافة يوم من الشرق والشمال، حيثُ الطولُ سبع وخمسون درجة، والعرضُ أربعون درجة وثلاثون دقيقة .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مملكة الشام من مُضَـافات الديار المصرية أن مدينـة مَلَطْيَةَ دخلتْ فى مملكة مصر ومضافاتها فصارتْ فى معاملة حَلَبَ .

واعلم انه قد تقدّم أن خليج القُسْطَنْطِينيَّة وما اتصل به من بحر نيطش ــ المعروف ببحر الروم ــ يُطِيف بهذه البلاد من غربيِّها وشَماليِّهـا، وعلىٰ ساحل هـذا البحر عِدّة فُرَض منتظمة فى سلك هـذه البلاد قد ذكرها فى "تقويم البُلْدان" فى الكلام علىٰ مملكة أَرْمِينِيَةَ ومامعها، وأشار إليها فى الكلام علىٰ هـذا البحر عند ذكره له فى جملة البِحَار علىٰ ما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الكلام علىٰ البحار فى أوّل هذه المقالة ، غالبها فى مملكة آبن عثمان صاحب بُرْسَا .

أوّلها (الجرون) . وهى قلعة خراب عند فَمِ الخليج القسطنطيني من الجهة الشّمالية مقابلَ القُسْطَنْطِينيّة، حيثُ الطول خمسون درجة، والعرضُ خمس وأربعون درجة وعشرُ دقائقَ .

ويليها من جهة الشّمال بمَيْلة إلىٰ الشرق مدينة آسمها (كربِي) بكاف وراء مهملة ثم باء موحدة وياء مثناة تحت فى الآخر .

ويليها فى الشرق مدينة آسمها (بَنْتَر) بباء موحدة ونون وتاء مثناة فوق وراء مهملة .

ويليها فى الشرق والشّمال بلدةٌ آسمها (سامصرىٰ) بسين مهملة وألف ثم ميم وصاد وراء مهملتين وألف فى الآخر .

ويليها فى الشرق أيضا مدينةٌ آسمها (كُتْرُو) بكاف وتاء مثناة من فوق ثم راء وواو فى الآخر وهى آخر أعمال قسطنطينيّة .

ويليهـا فى الشرق مدينة آسمها (كِينُولِي) بكسر الكاف وسكون المثناة التحتية وضم النون وسكون الواو وكسر اللام وياء مثنّاة من تحتُ فى الآخر .

ويليها فى جهــة الغرب (فُرْضَـة سَنُوب) المقدّم ذكرها فى الكلام علىٰ مازاده فى "التثقيف" .

ويليها من جهة الشرق مدينةُ (سامُسُون) المقَـدَّم ذكرها فى الكلام علىٰ الضرب الثانى من هذه البلاد .

ويليها فى جهة الشرق أيضا مدينــة (أَطْرابُزُون) بألف وطاء وراء مهملتين وباء موحدة بعدها زاى معجمة ثم واو ونون . وهى آخر مُدُن هذه البلاد علىٰ الساحل، ومنهـا ينتهىٰ إلىٰ ساحل بلاد الكُرْج علىٰ ما تقدّم الكلامُ عليه فى الكلام علىٰ بحر نيطش .

الجمـــلة الثـانية
(فى ذكر الموجود بهـــذه البـــلاد)

قد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ حَيْدَر العُرْيان الرُّومى : أن بها من المَوَاشى الخيلَ ، والبَقَر ، والغَنَم مالا يقع عليه عَدَد ولا يدخل تحت الإحصاء ، ونِتاج بلادهم من الخيل هى البَرَاذِينُ الرُّوميَّة الفائقة . وقد تقدّم الكلام على القسطمونيات منها فى الكلام على قَسْطَمُونِيَة ؛ وتُجْلَبُ إليهم العَرَبيَّات من بلاد الشام وغيرها ؛ وأكثر مواشيهم نِتاجًا الغنمُ . قال فى " مسالك الأبصار " : وهى مما يُبْسَط فرشُ الأرض [منها] . قال : ومنهـا المعزَ المِرْعِزّى ، ذواتُ الأوبار المضاهيـةِ لأنْعَم الحرير . ثم قال : وغالب قِنْية أهل الشام وديار بَكْر والعِراق و بلاد العجم وذبائحهم مما يَفْضُل عنها ويُجْلَب إليها منها ، وهى أطيبُ أغنام البلاد لَحْمًا ، وأشهاها شَحْمًا ؛ و يترتب على ذلك فى كثرة الوجودِ الألبـانُ وما يَتحصَّـل عنها من السمن والجُـبْن وغير ذلك .
وبها من الحبوب القمحُ ، والشعير ، والباقِلّا ونحوها ؛ ويُزْرَع بها الكَتَّان ، والقُطْن الكثير ؛ وبهـا من الفواكه كلُّ ما يوجَدُ بمصر والشام من التُّفّاح ، والسَّـفَرجَل ، والكُمَّثرى ، والقَراصيا ، والإجّاص ، والرمّان : الحلو والمزُّ والحامض ، وغير ذلك . أما المحمِّضات فلا تُوجَد إلا ببلاد السواحل من بلادهم على ما تقدّم ذكره ؛ والمَوْز والنَّخيل لا يوجَدُ ببلادهم ؛ وبهـا من العسل ما يُضاهِى الثلجَ بياضا والسُّـكَّر لَذاذة وطَعْما ، لا حِدّة فيه ولا إفراطَ حلاوةٍ تُوقِف الأكل عنه ، إلى غير ذلك من الأشياء التى يطول ذكرها . وقد تقدّم أنّ بها معدِن فِضة بمدينة بُرْسا ، ومعدن فضة بأماسية .

وذكر فى " مسالك الأبصار " عن الشيخ حَيْدر العُرْيان أن بها ثلاثةَ معادِنِ فِضَّـةٍ مستمرّة العمل : معدن بمدينة ركوة ، ومعدن بمدينة كش ، ومعدن بأراضى مدينة تاخرت .

الجملة الثالثة

(فى معاملاتها وأسعارها)

أما معاملاتها، فقد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ حَيْدَر العُرْيان أن لملوك التُّرْكمان هؤلاء نُقودا ولكن لا يَرُوج نقدُ واحد منهم فى بلادِ الآخَر. قال: ودِرْهمهم فى الغالب تقديرُ نصفِ وربع درهم من نقدِ مِصر، وأرطالهم مختلفةٌ، وأكثرها بالتقريب زِنَةُ اثْنَىْ عشر رطلا بالمصرى"، وأقلُّها ثمانيةُ أرطال؛ وكيلهم الذى تُباع به الغَلَّات يسمَّى الوط تقدير إردبٍّ ونصفٍ بالمِصْرى".

وأما أسعارها، فقد ذكر أنها رخيَّة رَخيصةُ الأسعار للغاية لقِلَّة المُكُوس وكثرة المَرَاعى واتِّساع أسباب التجارة واكتناف البحر لها من كل جانب بحيثُ يحمَلُ إليها علىٰ ظهره كلُّ شىء مما لا يوجَدُ فيها. قال: وقيمة الغَلَّات بها دون قيمتها بمصر والشام أو مِثْلُهما فى الغالب. والأغنامُ فى غاية الرِّخص، حتّٰى إن الرأس الغنم الجيِّد لا يُجاوز اثْنَىْ عشَرَ درهما من دراهمهم، يكون بنحو تسعة دراهم من دراهم مصر إلىٰ ما دون ذلك، ويترتب علىٰ ذلك رِخَصُ اللحم. أما اللبَنُ وما يُعمَل منه فإنه لا يكاد يُوجَد مَنْ يشتريه: لاستغناء كلِّ أحد بما عنده من لَبَن مواشيه، لا سيما فى زمن الربيع. قال: والعسلُ لا يتجاوز الرطلُ منه ثلاثةَ دراهم برطلهم ودرهمهم، وهو (ذلك الرطلُ الكبير والدرهم الصغيرُ) والفواكه فى أوانها فى حكم اللبَنِ وما فى معناه فى زمن الربيع، فى عدم وجود مَنْ يشتريه. ثم قال: وبالجملة فبلادُ الروم إذا غلَتْ وأقْحَطَتْ كانت كسعْر الشام إذا أقبل وأرخص.

الجمـــــلة الرابعة

(فى ذكر مَنْ ملك هـــذه البلاد)

قد ذكر ٱبن سعيد : أن هذه البلاد كانت بيد اليُونان ، وهم بنو يُونان بن علجان ابن يافث بن نوح عليه السـلام من جملة ما بيـدهم قبل أن يَغْلِب عليهـم الرُّوم ؛ ثم غلب عليها الرُّوم بعد ذلك فيما غَلَبُوهم عليه ، وٱستمرّت بأيديهم فى مملكة صاحب القُسْطَنْطِينيَّة علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مملكة القسطَنْطِينيَّة فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وكان كلُّ مَنْ ملك هذه البلاد التى شرقِيَّ الخليج القُسْطَنْطِينى يسمَّى (الدُّمُسْتُق) بضم الدال المهملة وفتح الميم وسكون السين المهملة والتاء المثناة فوقُ وقاف فى الآخر، وله ذكر فى حروب الإسلام . قال فى "العبر" : وكان ثُغُور المسلمين حينئذ من جهة الشام (مَلَطْيَة) ومن جهة أذْرَبِيجان (أرْمِينِيَة) إلىٰ أن دخل بعض قرابة (طُغْرُلْبَك) أحد ملوك السَّلْجُوقِيَّة فى عسكرٍ إلىٰ بلاد الروم هذه فلم يَظْفَروا منها بشىء .

ثم دخلها بعـد ذلك (مماني) أحد أمرائهم بعـد الثلاثين وأربعمائة ، ففتح وغنِم وٱنتهىٰ فى بلادهم حتّى صار من القُسْطنطينيَّة علىٰ خمسَ عشرةَ مرحلة ؛ وبلغ سَبْيُه مائةَ ألف رأس ، والغنائم عشرةَ آلاف عَجَلة ، والظَّهرُ مالا يُحْصىٰ .

ثم فتح (قطلمش) بن إسرائيل بن سَلْجُوق قُونِيَة ، وأقْصَرا ، وأعمالها ؛ ثم وقعت الفتنة بين قطلَمُش وبين (ألْب أرسلان) السَّلْجُوقىّ بعد طُغْرُلْبَك ، وقُتِل قطلَمُش فى حربه فى سنة ست وخمسين وأربعمائة .

وملك البلادَ من بعده (آبنُه سليمانُ) ثم كان بين سليمانَ ومسلم بن قريش صاحب الشأم حروبٌ آنهزم سليمان في بعضها وطعن نفْسه بخَنْجَر فمات في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة .

وملك بعده آبنه (قليج أرسلان) تلك البلادَ ، ثم قُتِل قليج أرسلان في بعض الوقائع .

ووليَ مكانه بقُونِيَةَ وأقْصَرا وسائر بلاد الروم آبنُه (مسعود) وآستقام له ملكُها ، ثم تُوُفِّي مسعود بن قليج أرسلان سنة إحدىٰ وخمسين وخمسمائة .

وملك بعده آبنُه (قليج أرسلان) .

ثم قسم قليج أرسلان المذكور هذه البلاد بين أولاده : فأعطىٰ قُونِيَةَ وأعمالها لآبنه (غياث الدين كيخُسْرَوْ) وأقْصَرا وسِيوَاس لآبنه (قطب الدين) ودُوقاط لآبنه (ركن الدين سليمان) وأنْكُورِيَة لآبنه (محيي الدين) ومَلَطْية لآبنه (عِزّالدين قيصرشاه) والأَبُلُسْتَيْن لآبنه (غَيْث الدين) وقَيْسارِيَّة لآبنه (نور الدين محمود) وأعطىٰ أماسِيَةَ لآبن أخيه . ثم ندم علىٰ هذه القسمة ، وأراد آنتزاعَ الأعمال من أولاده فخرجوا عن طاعته إلا آبنَه غياثَ الدين كيخُسْرَوْ صاحبَ قُونِيَةَ فإنه بقيَ معه . وحاصر آبنه محمودا في قَيْسارِيَّةَ فتُوفِّي وهو محاصر لها في منتَصَف شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

وآستقلّ (غياثُ الدين كيخُسْرَوْ) بقُونِيَةَ وما والاها .

ثم ملكها من يده أخوه (نورُ الدين محمود) .

ثم ملك (قطبُ الدين) صاحبُ أقْصَرا وسِيوَاس قَيْسارِيَّةَ من يد أخيه محمود غَدْرا ، ثم مات قطبُ الدين في أَثَر ذلك .

فملك أخوه (ركنُ الدين سليمان) صاحبُ دُوقاط ما كان بيد أخيه قطبِ الدين من سيواسَ وأقْصَرَا وقَيْسارِيَّةَ . ثم ملك قُونِيَةَ بعد ذلك من يد أخيه غياثِ الدين . ثم ملك أماسِيَةَ ؛ ثم سار إلىٰ مَلَطْيَةَ ، فملكها من يد عز الدين قيصر شاه سنة سبع وتسعين وخمسمائة . ثم ملك أَنْكُورِيَةَ بعد ذلك فى سنة إحدىٰ وستمائة ؛ وآجتمع لركن الدين سليمان سائر أعمال إخْوته وتوفى عَقِب ذلك .

وتولّى بعده آبنُه (قليج أرسلان) فأقام يسيرا ثم قبض عليه أهلُ قُونِيَةَ ومَلَّكُوا عمه غياثَ الدين كِيخُسْرَوْ مكانَه فقوِىَ مُلْكه وعَظُم شأنه ، وبقى حتّى قُتِل فى حرب صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة سنة سبع وستمائة .

وملك بعده آبنه (كِيكَاوس) وتلقب الغالبَ بالله ، وبقِىَ حتّى مات سنة ستَّ عشرةَ وستمائة ، وخلّف بنين صغارًا .

وملك بعده أخوه (علاءُ الدين كِيقُباد محمد شاه) وبقِىَ حتّى توفِّى سنة أربع وثلاثين وستمائة .

وملك بعده آبنه (غياث الدين كِيخُسْرَوْ) وتوفى سنة أربع وخمسين وستمائة .

وملك بعده آبنه (عَلاءُ الدين كِيقُباد) بعهدٍ من أبيه . وفى أيامه أرسل القان (منكوقان بن جنكزْخان) صاحب التخت بقَرَاقُوم عسكرا فاستولَوْا علىٰ قَيْسارِيَّةَ ومسيرةِ شهرٍ معها ورجعوا إلىٰ بلادهم . ثم عادوا فى سنة خمس وخمسين وستمائة وآستولَوْا علىٰ ما كانوا آستولَوْا عليه أوّلا وزادُوا عليه ؛ فسار علاء الدين كِيقُباد إلىٰ القان بِهَدايَا آستصحبها معه مُصانِعًا له فمات فى طريقه ؛ فوصل رُفْقَتُه بما معهم من الهدايا إلىٰ القان ، فأخبروه الخبرَ ، ورَغِبوا إليه فى ولاية (عز الدين كِيكَاوس) أخى كيقُباد المذكور فكتب القانُ إليه بالولاية ؛ ثم أشْرَكَ بعد ذلك بينه وبين أخيه

(ركن الدين قليج أرسلان) على أن يكون من سِيواس إلى تُخُوم القسطنطينيَّة غربا لعز الدين كِيكَاوس . ومن سيواس إلى أرْزَن الرُّوم شرقا متصلا ببلاد التتر ، لركن الدين قليج أرسلان ، على إتاوة تُحْمل إلى القان بقَراقُوم ؛ وجهَّز القانُ من أمرائه أميرا آسمه (بيدو) على أن يكون شِحْنَةً له ببلاد الروم ، لا ينفِّذون فى شىء إلا عن رأيه ، ورجعُوا إلى بلادهم ، وقد حملوا معهم جُثَّةَ كِيقُباد إلى قُونِيَةَ فدفنوه بها . ولم يزل الأمرُ على ذلك حتّى سار هولاكو بن طولى بن جنكزخان بعد آستيلائه على بغداد إلى الشام فى سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة ، بعث إلى عز الدين كِيكَاوس ، وركن الدين قليج أرسلان المذكورين بالطَّلَب ، فحضَرا إليه وحَضَرا معه فتح حَلَب ، ومعهما مُعين الدين سليمان البرواناه صاحب دقليم ، فاختار هُولاكُو أن يكون البرواناه المذكور سفيراً بينه وبينهما ؛ ثم هلك بيدو الشِّحْنة ببلاد الروم .

وولى بعده آبنه (صمغان) ثم غلب ركنُ الدين قليج أرسلان على أخيه (عز الدين كِيكَاوس) وبقى فى الملك وحده ، وفرّ كيكاوس إلى (ميخائيل اللشكرى) صاحب القسطنطينيَّة ، فأقام عنده حتّى بلغه عنه ما غيّر خاطِرَه عليه فقبض عليه وآعتقله حتّى مات .

وآستبدّ ركن الدين قليج أرسلان بسائر بلاد الروم ، فغلب على أمره معينُ الدين سليمان البرواناه المقدَّم ذكره ، ولم يزل حتّى قتله .

وأقام آبنَه (غياثَ الدين كِيخُسْرَو) بن قليج أرسلان مكانَه وآستولى عليه وحجره ، وصار البرواناه هو المستولى على بلاد الروم والقائم بملكها .

ثم دخل (الظاهر بِيبَرْس) صاحبُ الديار المصرية إلى بلاد الروم فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، ولقيه صمغان بن بيدو الشِّحْنة من جهة التتار على بلاد الروم

فى جيش التَّـتَر، فهزمهم وقتل وأسر، وسار إلىٰ قَيْسارِيَّةَ فملكها وجلس علىٰ تخت آل سَلْجُوق بها، ثم رجع إلىٰ بلاده .

وبلغ ذلك (أبغا) بن هُولاكُو صاحب إيران، فسار فى جموعه إلىٰ قَيْسارِيَّةَ ورأىٰ مصارِعَ قومه فشَقّ عليه، وآتهم البرواناه فى ممالأة الظاهر، فقبض عليه وقتله .

وآستقلّ (غياثُ الدِّين كَيخُسْرَو) بن ركن الدين قليج أرسلان بالملك بعده .

ثم لما وَلِيَ (أرغون) بن أبغا مملكة إيران بعد أبيه، قبض علىٰ غياث الدين كَيخُسْرَو وقتله فى سنة إحدىٰ وثمانين وستمائة .

وأقام مكانَه (مسعودا) آبن عمه كيكَاوُس، وعزل صمغانَ بن بيدو الشِّحْنة . وولّى مكانه أميرا آسمه (أولاكو) وبقى مسعودُ بنُ كيخُسْرَو فى المُلْك وليس له منه سِوىٰ الآسم، والمتحدّث هو الشِّحْنة الذى من جهة التتر إلىٰ أن مات فى سنة ثمانَ عشرَة وسبعمائة، وآستقلّ الشِّحْنة بالمَمْلكة . وبقى أمراء التتر يتغالَبُون علىٰ الشِّحنَكِيَّة واحدا بعد واحد إلىٰ أن كان منهم الأمير (سَلامش) وبقِىَ بها مدّةً . ثم آنحرف عن طاعة بيت هُولاكُو صاحبِ إيران، وكتب إلىٰ الملك المنصور لاچين صاحبِ الديار المصرية يطلب تقليدا بأن يكون حاكما بجميع بلاد الرُّوم، وأن يكون (أولاد قرمان) ومَنْ عداهم فى طاعته، فكُتِب له تقليدٌ بذلك بإنشاء الشيخ شهاب الدين «محمود الحلبى» علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ التقاليد فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ فى المقالة الخامسة .

ثم خاف علىٰ نفسه من (غازان) صاحب إيران، ففرّ إلىٰ الديار المصرية فى الدولة المنصورية لاچين، ثم عاد إلىٰ بلاد الروم لإحضار مَنْ تأخّر من أهله فقبضت عليه

عساكرُ غازان وحملته إليه فقتله . ولم يزل أمرُهم على التنقل من أمير إلى أمير من أمراء التتر إلى أن كان منهم الأمير (برغلى) وهو الذى قتل هيتوم ملك الأرمن صاحب سِيس .

ثم كان بعده فى سنة عشرين وسبعمائة الأمير (إِبْشُبُغا) .

ثم ولّى أبو سعيد صاحبُ إيرانَ بعد ذلك على بلاد الرُّوم هذه (دَمِرْداش) ابن جُوبان سنةَ ثلاثٍ وعشرين وسبعمائة فقَوِى بها مُلْكه . ثم قتل أبو سعيد جُوبانَ والدَ دَمِرْداش المذكور ، فهرب دَمِرْداش إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الديار المصرية . وكان سُنْقُر الأشقرُ أحد أمراء الملك الناصر قد هرب إلى السلطان أبى سعيد فوقع الصلحُ بين السلطانين على أن كلًّا منهما يقتل الذى عنده ففعلَا ذلك .

وكان قد بقِىَ ببلاد الروم أميرٌ من أمراء دَمِرْداش اسمه (أرتنا) فبعث إلى أبى سعيد بطاعته ، فولّاه البلادَ فملكها ، فنزل سِيواسَ واتخذها كرسيا لمُلْكه ، ثم خرج عن طاعة أبى سعيد وكتب إلى الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب الديار المصرية ، وسأله كتابةَ تقليدٍ بالبلاد ، فكتَب إليه بذلك وجُهِّزت إليه الخِلَعُ ، فأقام دعوةَ الخطبة الناصريّة على منابر البلاد الرُّوميّة ، وضرب السِّكّة باسمه ، وجهّز بعضَ الدراهم المضروبةِ إلى الديار المصرية ، وصارتْ بلادُ الروم هذه من مُضافاتِ الديار المصريةِ ، ولم يزل (أرتنا) على ذلك إلى أن تُوُفِّى سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

واستولى على الروم أولادُه من بعده إلى أن كان بها (محمد بن أرتنا) فى سنة ست وستين وسبعمائة ، وبقِىَ حتّى تُوفِّى فى حدود الثمانين والسبعمائة وخلّف ابنا صغيرا .

فاستولى عليه الأمير (قليج أرسلان) أحد أمراء دولتهم وكَفَله .

ثم غدر به (القاضى إبراهيم) صاحب سِيواس وقتله فى سنة آثنتين وتسعين وسبعمائة وآستولى على مملكة سِيواس .

قال فى "العبر" : وكان من طوائف التُّرْكُمان ببلاد الروم جموعٌ كثيرة ، كانوا يستعينون بهم فى حروبهم على أعدائهم ؛ وكان كبيرُهم فى المائة الرابعة أميرا من أمرائهم آسمه (جق) فلما ملك سليمانُ بن قطلمُش المقدّم ذكره قُونِيَة وأقصرا بعد أبيه على ماتقدّم ذكره ، خرج جق هذا مع «مسلم بن قُرَيش» صاحب المَوْصل على سليمان بن قطلمُش . فلما آلتقى الجمعان مال (جق) بمَنْ معه من التُّرْكُمان إلى سليمان بن قطلمُش ، فآنهزم مسلم بن قريش وقُتِل ؛ وأقام أولئك التُّرْكُمان أيامَ سليمان بن قطلمش بجبال تلك البلاد وسواحلها . فلما ملك التترُ هذه البلادَ وصار الملك لقليج أرسلان بعد غلبة أخيه كيكاوُس ، كان أمراءَ التُّرْكُمان يومئذ (محمد بَكْ) وأخوه (إلياس بك) وصهره (على بَكْ) وقريبه (سونج) فخرجوا عن طاعة قليج أرسلان و بعثوا بطاعتهم إلى هُولاكو صاحب إيران وتقريرِ إتاوةٍ عليهم على أن يبعث إليهم بلواء المُلْك على عادة المُلُوك ، وأن يبعث شِحْنةً من التتر تختصّ بهم ؛ فأجابهم إلى ذلك وقلّدهم الملكَ وبعث إليهم بلِواء . فملّكوا عليهم (محمد بَكْ) .

ثم أرسل هُولاكو يطلب محمد بَكْ ، فامتنع عليه وخالفه صهرُه علىّ بك فقدِمَ على هولاكو فقدّمه على قومه مكانَ محمد بك . ثم جاء محمد بك إلى قليج أرسلان صاحب بلاد الروم مستأمِناً فأمّنه ثم قتله ؛ وآستقرّ على بك فى إمرة التُّرْكُمان .

ولما تناقص أمر التتر وضَعُف ببلاد الروم المذكورة وآستقرّ بنو أرتَنا بسيواس وأعمالها ، غلَبَ هؤلاء(١) على ماوراء الدروب وما كان فتحه التترُ من نواحى الشمال إلى خليج القسطَنْطِينيَّة .

وآشتهر من ملوكهم ستُّ طوائف :

(١) فى الأصل «ثم غلب هولاكو الخ» وهو خطأ والصواب ماأثبتناه نقلا عن "العبر ج ٥ ص ٥٦٢".

الطائفـــــة الأولىٰ

(أولاد قَرْمان)

وهم أصحاب أَرْمِنَاكَ وقَسْطَمُونِيَةَ وما والاها من شرق هذه البلاد كما تقدّم . قال فى "مسالك الأبصار" : وهم أهلُ بيتٍ توارثُوا هذه البلاد، ولا يُخاطَبُ قائم منهم إلا بالإمارة . قال فى "التعريف" : وهم أجلُّ من لَدىٰ ملوكنا من التُّرْكُمان : لقرب ديارهم ، وتواصل أخبارهم ، ولنكايتهم فى متملِّك سِيسَ وأهلِ بلاد الأرمن ، وٱجتياحِهم لهم من ذلك الجانب، مثلَ ٱجْتياح عساكرنا لهم من هذا الجانب . قال : وأكبرهم قَدْرا ، وأفتكُهم نابًا وظُفرا، الأمير (بهاء الدين موسىٰ) وحضر إلىٰ باب السلطان وتُلُقِّىَ بالإجلال ، وأُحِلَّ فى ممتـدّ الظِّلال ، وأُورِد مواردَ الزُّلال، وأُرِى مَيامنَ أسعدَ من طلعـة الهِلال، وحَجَّ مع الركب المِصْرىّ وقضىٰ المناسك ، وأسبَلَ فى ثَرىٰ تلك الرُّبا بقيَّـةَ دمعه المتماسِك ، وشكر أمراءُ الركبِ دِينَه المتين ، وذكروا ما فيه من حُسْن اليقين، وعاد إلىٰ الأبواب السلطانية، وأجلس فى المرتين مع أمراء المَشُورة، فأُشْرِكَ فى الرأى وسأل السـلطان فى مَنْشور يُكتَبُ له بمـا يفتَحُ بسيفه من بلاد الأرمن ليقاتل بعَلَمه المَنْشُور، ويجتنِيَ من شجر المُرَّان جَنىٰ عسَله المَشُور، فكتبه له .

ثم قال : وهم علىٰ ماهم عليه يدارون مُلُوك التتار ، وهو ومَنْ سلف من أهل بيته مع ملوك مصر لاتُغبُّ المكاتَبات بينهم، ولا يَنْقَطع بذل خدمته لهم، وإقبالُهم عليه، وٱعتدادُهم بموالاته .

قال فى "مسالك الأبصار" : وهم عُصْبة ذاتُ أيْد ويَدْ، وجُيوش كثيرة العَدَد، وهم أصحاب الحروب التى ضَعْضعت الجبال، ولهم مع الأرمن وبلاد التَّكْفور، وقائع

لا يجحدها إلا الكفور ، تتخطفهم عقبانهم القشاعم [وتلتهمهم](١) أسودهم الضراغم .
قال : وهم أهل بيت ألقى الله عليهم محبة منه ، وإذا شاء أميرهم جمع أربعين ألفا .
ثم ذكر بعد ذلك بكلام طويل أنهم هم الذين كانوا ألفوا بين سلامش وبين المنصور
لاجين ، وأنهم هم الذين لا يرتاب فى رأيهم ، ولا يطعن فى دينهم ، بل مهما ورد
من جهتهـم تلقى بالقبول ، وحمل على أحسن المحامل . ثم قال : وحكى عمن تردد
إليهم وعرف ماهم عليه أنهم رجال صدق ، وقوم صبر ، لا تستخف لهم حفيظه ،
ولا ترد بحنقها لهم صدور منيظه ؛ ولهذا أمراء الروم لا يطئون لهم موطئا يغيظ ،
ولا يواطئون لهم عدة شهور فى مشتى ولا مقيظ ؛ وما أحد ممن يحسدهم على ما آتاهم الله
من فضلـه إلا من يستجيش عليهم بالتتار ، ويعـدد عليهم عظام الذنوب الكبار ،
ووقاية الله تكفيهم ، وحياطتـه عن عيون القوم تخفيهم ؛ ولذلك كان السلطان
(محمود غازان) يقول : أنا أطلب الباغى شرقا وغربا ، والباغى فى ثوبى ، يريد
أولاد قرمان وتركمان الروم [ومع هذا لم يسلط عليهم](٢) .

وحكى عن الصدر شمس الدين عبد اللطيف أخى النجيب أنه قال يوما : لولا
الأكراد وأولاد قرمان وتركمان الروم ، دست بخيلى مغرب الشمس .

الطائفة الثانيـــــة

(بنو الحميـد)

وهم أصحاب أنطاليا وفلك بار على ماتقدم ذكره ، وهم من عظماء ملوك التركمان .

---

(١) بياض بالاصل والتصحيح عن "مسالك الابصار" .

(٢) الزيادة من المسالك .

الطائفة الثالثة

(بنو أيدين)

وهم أصحاب بِرِكى وما معها، على ماتقدّم ذكره . قال فى "مسالك الابصار" وقد ذكر محمد بن أيدين صاحب بركى المذكورة : وهذا ٱبنُ أيْدِين ما أعرفُ أن له بمن حوله من ملوك الممالك إلْماما، ولا أنَّ له أخبارا تَرِدُ طُروقا ولا إلْماما؛ بل هو فى عُزْلة من كل جانب، لامخالِطَ ولا مُجانِب .

الطائفة الرابعة

(بنو منتشا . وهم أصحاب فوكة وما معها)

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" : أن منهم أولاد دندار . ثم قال : ولهؤلاء بَنِي دندار إلى ملوك مصر ٱنتماء، ولهم من تُحَف سلاطينها نَعْماء . قال : وكان بمصر منهم من له إمْرة فيها ثم عاد إلى بلاده بعد مَهْلِك تَمِرْتاش بن جُوبان ، لأنه كان قد ترك بلاده لأجله ، وفرّ هاربا من يده لعَداوةٍ كان قد ٱضْطَرمت بينهما شُرورُها، وٱضطربت أمورُها، فلمّا خلتْ من مجاورة تَمِرْتاش تلك البلادُ، عاد . ويقال : إنه قُتِل ولم يصل إلى بلاده .

الطائفة الخامسة

(بنو أُورْخَان بن عثمان جَقْ)

وهو صاحب بُرْسا على ماتقدّم ذكره . قال فى "العبر" : وكان قد ٱتخذ بُرْسَا دارًا لملكه ، ولكنه لم يفارق الخيامَ إلى القُصور ، وإنما كان يَنْزِل بخيامه فى بَسِيطها وضواحيها ولم يزل على ذلك إلى أن مات .

وملك بعده ابنُه (مراد بَكْ) وتوغّل فى بلاد النصرانية فيما وراء الخليج القُسْطَنْطِينِىّ فى الجانب الغربىّ، وفتح بلادهم إلى أن قَرُب من خليج البنادقة، وجبال جَنَوة، وصيّر أكثرهم أمراءَ ورعايا له، وعاث فى بلاد الكُفّار بما لم يُعْهَد قبله من مثله؛ وأحاط بالقُسْطَنْطِينِيّة من كل جانب حتّى أعطاه صاحبها الجزيةَ. ولم يزل على ذلك حتّى قُتِل فى حرب الصَّقالبة سنة إحدى وتسعين وسبعمائة.

وملك بعده ابنه (أبو يَزِيدَ) فجرى على سَنَن أبيه، وغلب على قِطْعةٍ من بلاد الروم هذه فيما بين سِيوَاسَ وأنطاليَا والعَلَايا، بساحل البحر إلى قريب مدينة بنى قَرْمان؛ ثم تزوّج فى بنى قَرْمان بنتَ أحدهم وغلب على ما بيده من تلك النواحى؛ ودخل بنو قَرْمان وسائر التُّرْكُمان فى طاعته، ولم يبق خارجًا عن مُلْكه إلا سِيواسُ التى كانت بيد قاضيها (إبراهيم) المتغلِّب عليها ومَلَطْيَةُ الداخلةُ فى مملكة الديار المصرية ومضافاتها على ما تقدّم. ولم يزل على ذلك حتّى قصده تُمرلنك بعد تخريب الشام فى سنة ثلاث وثمانمائة وقبض عليه، فبقى فى يده حتّى مات.

وملك بعده ابنه (سليمانُ جلبى) وبقى حتّى مات.

فملك بعده أخوه (محمد بن أبى يزيد) بن مُراد بَك بن عثمان جق، وهو القائم بمملكتها إلى الآن.

قال فى "مسالك الأبصار": ولو قد اجتمعت هذه البلاد لسلطانٍ واحد، وكُفّت بها أكُفُّ المفاسد، لما وسع ملوكَ الأرض إلا انتجاعُ سَحابه، وارتجاع كل زمانٍ ذاهبٍ فى غير جَنَابه، ثم قال: الله أكبر إن ذلك لَمُلْك عظيم، وسِلْك نظيم، وسلطنة كبرى ودنيا أخرى ﴿ذلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ﴾.

الجملـــــــة الخامسة

(فى زىّ أهل هذه المملكة ، وترتيب الملك بها)

أما زىّ أهلها فإن لِبْس السلطان والأمراء والجُنْد أقبيةٌ تترِيّة ضيقة الأكمام، مزَنّدة على الأكُفِّ ، والأمراء منهم يلبَسُون فوق ذلك أقبيةً قصار الأكمام من رقيق الخام مضرَّبة تضريبًا واسعًا ، وعلى رءوسهم عمائم من لانس متوسطةُ المِقدار بين الكبر والصِّغَر، مكوَّرةٌ تكويرا خاصًّا ، حسَنَ الصَّنْعة ، متداخِلَ بعض اللفّات فى بعض ، ويلبَسُون خفافا من أدَم ؛ وقد شاهدت أميرا من أمرائهم ورَدَ رسولا عن أبى يزيد ابن مراد بك بن عثمان إلى الظاهر «برقوق» صاحب الديار المصرية وهو على هذه الهيئة ، وكثير من الجُنْد يلبَسُون الطراطيرَ البِيض والحمر المتخذة من اللبد .

وأما ترتيب مملكتهم فلم تتحرّر لى كيفية ذلك إلا أنه قد تقدّم نقلا عن صاحب "العبر" أنهم كانوا يسكنون الخيم ثم نزلوا المدن بعد ذلك ؛ فلا يبعد أن يكون ترتيب ملكهم على نحو من ترتيب التتر والله أعلم .

القســـــم الثـانى

(من الجهة الشمالية عن الديار المصرية ، ما بيد ملوك النصارى)

وهو ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(جـــزائرُ بحـــر الروم)

وهو البحر الشامىُّ الممتدُّ من البحر المحيط الغربىّ ، المسمّى (بحر أوقيانوس) إلى ساحل الشام وما على سَمْته من بلاد الأرمن الممتدّ ساحله الجنوبىّ على ساحل

الديار المصرية، ثم على ساحل بَرْقَة، ثم على ساحل أفرِيقِيَّة، ثم على ساحل الغرب الأوسـط ، ثم على ساحل الغرب الأقصى إلى البحر المحيـط . وساحلُه الشَّمالىّ على بلاد الرُّوم التى شرقىّ الخليج القسطنطِينِىّ ، ثم على سواحل بلاد الروم والفرَنْجة من غربىّ الخليج المذكور إلى ساحل الأندلُس إلى البحر المحيط، على ماتقدّم ذكره فى الكلام على البحار فى أوّل هذه المقالة .

و به إحدى عشرة جزيرةً :

إحداها — جزيرة (قُبْرس) . قال فى "اللباب" : بضم القاف وسكون البـاء الموحدة وضم الراء المهملة وفى آخرها سـين مهملة . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السـبعة قال فى "الأطوال" : حيثُ الطولُ سـبع وخمسون درجة ، والعرض خمسٌ وثلاثون درجة . وهى جزيرة فى مَشَارق هذا البحر . قال ابن سعيد : على القُرْب من ساحل الشام بينها وبين الكُرْك[1] (بضم الكاف وسكون الراء المهملة من بلاد الأرمن) نحو نصف مجرى . قال : وطولها من الغرب إلى الشرق مِائتا ميل ، ولهـا ذَنَب دقيق فى شرقيها . قال الإدريسى : ودَوْرها مائتان وخمسون ميـلا ؛ ولصاحبها مكاتبةٌ تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، على ماسيأتى ذكره فى الكلام على المكاتبات، فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

الثانية — (جزيرة رُودِس) . قال فى "تقويم البُلْدان": بضم الراء المهملة ثم واو ساكنة ودال مهملة ويقال معجمة مكسورة ثم سين مهملة . وموقعها فى الإقليم [الرابع][2] من الأقاليم السبعة قال فى "الأطوال": حيثُ الطولُ إحدى وخمسون درجة وأربعون دقيقة، والعرضُ ستٌّ وثلاثون درجة . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى

(١) كذا فى التقويم أيضا بالكاف فى الآخر ولعله بالجيم .

(٢) بياض بالأصل، والتصحيح عن "تقويم البلدان" .

علىٰ حِيَال الإسكندرية، بين جزيرة المَصْطَكىٰ وجزيرة أقريطش . قال : وآمتدادها من الشَّمال إلىٰ الجنوب بانحراف نحوُ خمسين ميلا ، وعرضُها نصفُ ذلك . وبين هـذه الجزيرة وبين ذَنَب جزيرة أقريطش مجرًى واحدٌ ، وهى فى الغرب عن جزيرة قُبْرس بآنحراف إلىٰ الشمال . قال : وبعضها للفَرَنْج ، وبعضها لصاحب اصطنبول (وهى القُسْطَنْطِينِيَّة) ومن رُودِس يُجْلَب العسل الطيبُ العديمُ النظير ، ولصاحبها مكاتبة تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

الثالثـة — (جزيرة أَقْرِيطِش) . قال فى "اللباب" : بفتح الألف وسكون القاف وكسر الراء المهملة وسكون اليـاء المثناة من تحت وكسر الطاء وشين معجمة فى الآخر . قال فى "الروض المِعْطار" : سُمِّيت بذلك لأن أوّل من عَمَرها كان آسمه (قراطى) قال : وتسمى أيضا (أقريطش البترليش) ومعناها بالعربية مائة مدينة . وهى علىٰ سَمْت بَرْقة ، وموقعها فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة ، قال آبن سـعيد : ومدينتها حيث الطولُ سبع وأربعون درجة وثلاثون دقيقـة ، والعرضُ أربعون درجةً وثلاثون دقيقة . قال آبن سـعيد : وهى جزيرةٌ عظيمة مشهورة ، وآمتدادها من الغرب إلىٰ الشرق ودَوْرها ثلثُمائةٍ وخمسون ميلا . وقيل : هذه الأميال إنمـا هى طولها شرقًا بغرب لادَوْرها ، وذكر فى "كتاب الأطوال" أن دَوْرها سبعةَ عشرَ يوما . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومنها يجلب إلىٰ الإسكندرية العَسَلُ والجُبْن وغير ذلك . قال فى "الروض المعطار" : وهى جزيرة عامرة ، كثيرةُ الخِصْب ، ذاتُ كروم وأشجار ، وبهـا معدِنُ ذهب . وأكثرُ مواشيها المَعَز ، وليس بها إبِلٌ ، ولم يكن بها سَبُع ولا ثَعْلب ولا غيرهما من الدوابِّ الدابَّة بالليل ، وكذلك ليس بهـا حَيَّة ، وإن دخلت إليها حيَّة ماتت فى عامها . ويقال : إن صناعة المُوسيقىٰ أوّل ماظهرت بها ، وبينها وبين ساحل بَرْقة يومٌ وليلة ، وبينها وبين قُبْرس أربعة مجارٍ ،

وإليها ينسب الأنْتِيمون الأَقْرِيطِشيّ المستعمَل فى الأدوية . وكان «عبد الله بن أبى سرح» أميرُ مصر قد آفتتحها فى زمان إمارته فى خلافة «عثمان» رضى الله عنه، وبقيت بأيْدِى المسلمين حتّى تغلب عليها النصارىٰ فى سنة خمس وأربعين وثلثمائة . قال فى "الروض المِعْطار": وهى بيد صاحب القُسْطَنطِينِيَّة .

الرابعة — (جزيرة المَصْطَكَى) بفتح الميم وسكون الصاد وفتح الطاء المهملة والكاف وألف فى الآخر . وسمِّيت بذلك لأنه ينبُت بها شجر المَصْطَكىٰ . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى جزيرة بالقُرْب من فَم الخليج القُسْطَنْطِينى . وقال آبن سعيد : هى داخلةٌ فى بحر الروم علىٰ مائة وخمسين ميلا من فَم الخليج القُسْطَنْطِينى . قال : وطولها من الشَّمال إلىٰ الجنوب نحوُ ستين ميلا . قال : وهى شرقىّ (جزيرة التغريب) وبينهما نحوُ ثلاثين ميلا . قال فى "تقويم البُلْدان": وبها دُيورةٌ وقُرًى، ومنها تجلب المَصْطَكىٰ إلىٰ البلاد، وهى صَمْغ شجر ينبُت بها يُشبِه شجر الفُستُق الصغار، يُشْرَط فى فصل الربيع بمَشارِيط فتسيل منها المَصْطَكىٰ، ثم تجمُد علىٰ الشجر، وربما قَطَر منه شىء علىٰ الأرض، والأوّل أجود .

الخامسة — (جزيرة التَّغْرِيب)(١) بالتاء المثناة فوق المفتوحة وسكون الغين المعجمة وكسر الراء المهملة وياء مثناة تحتُ وباء موحدة فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان": وهى من الفُرْبة، وموقعها فى أواخر الإقليم السادس من الاقاليم السبعة . قال آبن سعيد : وطَرَفُها الشرقىّ حيثُ الطولُ ثمانٍ وأربعون درجة وخمسون دقيقة، والعرضُ آثنتان وأربعون درجةً وخمسٌ وخمسون دقيقة . وهى جزيرة كبيرة فى الغرب عن جزيرة المَصْطَكىٰ المقدّم ذكرها، وامتدادها من المغرب إلىٰ المشرق بانحراف إلىٰ

(١) سماها فى تقويم البلدان "جزيرة التقربنت" وذكر أن فى بعض النسخ «التغريب» كما هنا .

الجنوب مائةٌ وخمسون ميـلا ، وفى العرض من عشْرين ميلا إلىٰ نحو ذلك . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى معروفة بخروج الشَّوَانى والقطائع منها .

السادسة — (جزيرة لَمْرِيَا) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح اللام وسكون الميم وكسر الراء المهملة ثم ياء مثناة تحتية وألف فى الآخر . قال : وعن بعض المسافرين أن بعد المثناة هاء . قال ٱبن سعيد : وتُعْرَف فى الكتب بجزيرة بلونس ، وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة . قال ٱبن سـعيد : ووَسَطُها حيثُ الطولُ خمس وأربعون درجة وٱثنتان وأربعون دقيقـة ، والعرضُ ثلاثٌ وأربعون درجة وثلاثَ عشرةَ دقيقة . قال : وهى أكبر جزائر الرُّوم ودَوْرها علىٰ التحقيق سبعُمِائة ميل ، وفيها أخوار وتعريجات ، ومدينتها فى وسطها .

السابعة — (جزيرة صَقَلِّيَة) . قال فى "اللباب" (١) : بفتح الصاد المهملة والقاف ولام وياء مثناة من تحت وهاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الرابع من الأقاليم السبعة ، وبين ذنبها الغربىّ وبين تونس مَجْرًى وستون ميلا ، ودَوْرها خمسمائة ميل . وهى علىٰ صورة شكلٍ مثلَّث حادِّ الزاوية : فالزاوية الأولىٰ شَمَالية ، وهناك المجاز الضيق إلىٰ الأرض الكبيرة (يعنى التى وراء الأندلُس) وهو نحو ستة أميال . والزاوية الثانية جَنُوبِيَّة ، وهى تقابِل برّ طَرابُلُس من أفريقِيَّـة من بلاد الغرب . والزاوية الثالثة غربيَّة ، وهناك (بركان النار) فى جزيرة صغيرة منقطعة شَمـالىَّ الزاوية المذكورة ، وشمـالِىَّ صَـقَلِّية بلاد قلفريَةَ الآتى ذكرها فى الكلام علىٰ الضرب الثـانى . قال فى "تقويم البُلْدان" : وصاحب صَقَلِّية فى زماننا هـذا فَرَنْجِىّ من الكِيتلان ٱسمه الريد افريك .

---

(١) ضـبطها ياقوت بثلاث كسرات وتشـديد اللام والياء ثم قال وأكثر أهـل صقلية يفتحون الصاد واللام .

وقاعدتها مدينة (بَلَرْم) بفتح الباء الموحدة واللام وسكون الزاى المعجمة وميم فى الآخر . قال ابن سـعيد : وهى حيثُ الطولُ خمس وثلاثون درجةً ، والعرضُ ستٌّ وثلاثون درجةً وثلاثون دقيقة . وبها عِدّةُ مُدُن غير هذه القاعدة .

منهـا مدينة (مازَر) . قال فى "المشترك" : بفتح الزاى المعجمة و بعدها راء مهملة ، و إليها ينسب "الإمام المازَرِىُّ المالكى" شارح "موطإ مالك" وغيره .

ومنها (قَصْرُيانَّةَ) بلفظ قصر المعروف ، و يانَّةُ بفتح اليـاء المثناة تحتُ وألف ونون مشدّدة ، وهى مدينة كبيرة علىٰ سِنِّ جبل .

الثامنة — (جزيرة سُردانِيَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم السـين(١) وكسر الراء وفتح الدال المهـملات ثم ألف ونون مكسورة وياء مثناة تحت مفتوحة وهاء فى الآخر . قال : واسمها بالفَرَنْجية صُردانِي ، يعنى بابدال السين صادا مهملةً وحذف الهـاء من الآخر . وهى غربىّ الجُزُر المتقدّمة الذكر . وموقعُها فى الإقليم الرابـع بين مَرْسَى الخَـرَز من البر الجنوبىّ وبين مملكة بِيزَةَ من البَرِّ الشمالىّ . قال فى "الأطوال" : وطولُها إحدىٰ وثلاثون درجة ، وعرضُها ثمانٌ وعشرون درجة . قال ابن سـعيد : وامتدادُها من الطول من الشمال إلىٰ الجَنوب مجرًى ونصف ، وفى غربيها مَغَاص المَرْجان الفائق الذى ليس له نظيرٌ، وبها معدِنُ فِضّة ، وهى الآن بيد الفَرَنج الكِيتْلانيين ، ولمَلِك الكيتلان نائبٌ بها .

التاسعة — (جزيرة قَرْسَقَة) بفتح القاف وسكون الراء المهملة وفتح السين المهملة والقاف وهاء فى الآخر . وهى مقـابل (جَنَوة) الآتى ذكرها فى الضرب الثـانى ؛

(١) فى المعجم بفتح أوّله وسكون ثانيه .

وبينها وبين سَرْدانِيَة المتقدّمة الذكر مجازٌ نحوُ عشرة أميال ، وآمتدادُها من الشمال إلىٰ الجنوب مجرًى ونصف ، ووسطها متّسع ، ورأسها من جهة جَنَوة ضيّق .

العاشرة — (جزيرة أنكَلْطَرة) بألف ونون ساكنة وكاف مفتوحة ولام مفتوحة وطاء مهملة ساكنة وراء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر . قال آبن سعيد : ويقال (أنكَلْتَرة) بابدال الطاء تاء مثناةً من فوقُ . قال : وطُول هذه الجزيرة من الجنوب إلىٰ الشمال بآنحراف قليلٍ أربعمائة وثلاثون ميلا ، وآتساعُها فى الوسط نحو مِائتَىْ ميل ، وفيها معدِن [الذهب](١) والفِضّة والنُّحاس [والقصدير](١) وليس فيها كرومٌ لشدّة البرد بها ، وأهلها يحمِلُون الذهبَ إلىٰ بلاد الفَرَنج ، ويعتاضُون عنه الخمرَ لعدمه عندهم .

وقاعدتُها (مدينة لندرس) بلام ونون ودال وراء وسين مهملات . وصاحب هذه الجزيرة يسمى (الانكِتَار) بنون وكاف وتاء مُثناة فوقية وألف وراء مهملة فى الآخر، وهو الذى عقد الهُدنةَ بينه وبين الملك العادل «أبى بكرِ بن أيوب» فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، والملكُ العادلُ علىٰ عسقلانَ . وكان من أمره أنه لم يحلف علىٰ الهُدْنة بل أُخِذَتْ يده وعاهدوه ، وآحتج بأن الملوك لا يحلِفُون ، وكانت الهُدْنة بينهما ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أوّلها كانون الأوّل الموافق لحادى عشرى شعبان من السنة المذكورة .

الحادية عشرةَ — (جزيرة السَّنَاقِر) . جمع سُنْقُر وهو الجارح المعروف المقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مايحتاجُ الكاتب إلىٰ وصفه فى المقالة الأولىٰ . وهى جزيرة علىٰ القُرْب من (جزيرة أنكَلْتَرة) المقدّمة الذكر . قال آبن سعيد : وآمتدادُها فى الطُّول شرقا بغربٍ سبعةُ أيام ، وفى العرض أربعةُ أيام . قال فى "تقويم البُلْدان" : ومنها

(١) الزيادة عن التقويم .

ومن الجزائر التى شماليها تجلب السَّناقِرُ التى هى أشرفُ أنواع الجوَارِح ، وإلى ذلك أشار فى "التعريف" فى الكلام على أوصاف السَّناقر بقوله وهى مجلوبةٌ من البحر الشامىّ . قلت : وجزيرة جِرْبةَ تقدّم ذكرها مع بلاد أفريقيَّةَ . وجزيرة مَيُورْقةَ وجزيرة يابسةَ وجزيرة قادس تقدّم ذكرها مع جزيرة الأندلُس .

الضرب الثانى

(ماشمالىّ بحر الروم المقدّم ذكرُه من غربىّ الخليج القُسْطَنْطِينىّ مما يمتدّ غَرْبا إلى البحر المحيط الغَرْبىّ ، وما يتصل بذلك مما شمالىّ بحر نيطش المعروف ببحر القِرِم إلى أقصى الشمال ، وهو جهتان) .

الجهـــة الأولى

(ما هو فى جهة الغرب عن الخليج القُسْطَنْطِينىّ . وهو قُطْرانِ)

القُطْـــر الأوّل

(ما بين الخليج المذكور وبين جزيرة الأندلُس ، وما على سَمْت ذلك . ويشتمل على ممالكَ كِبَار وممالكَ صِغار)

فأما الممالك الكِبَار ، فالمشهور منها خمس ممالكَ :

المملكة الأولى

(مملـــكة القُسْـــطَنْطِينَة)

قال فى "اللُّبَاب" : بضم القاف وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وسكون النون وكسر الطاء الثانيـة وسكون المثناة من تحت ثم نون (يعنى مفتوحة) ثم هاء فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : وتسمّى بُوزَنْطِيا يعنى بالبـاء الموحدة والواو

والزاى المعجمة والنون والطاء المهملة ثم ياء مثناة من تحت وألف فى الآخر .
وربما قالوا : بُوزَنْطِيَةُ بابدال الألف هاء . وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال فى "رسم المعمور" : حيث الطولُ ثمانٌ وأربعون درجةً ، والعرضُ خمس وأربعون درجةً ، ووافقه علىٰ ذلك صاحب "الأطوال" وصاحب "القانون" وآبن سعيد : وهى قاعدة الرُّوم بعد رُومِيَةَ وعَمُّورِيَةَ ؛ وهى المستقِرّة قاعدةَ مُلْك لهم إلىٰ الآنَ .

قال فى "الروض المعطار" : نزل رُومِيَةَ من ملوك الروم عشرون مَلِكا ؛ ثم نزل عَمُّورِيَةَ منهم مَلِكانِ ؛ ثم عادت المملكة إلىٰ رُومِيَةَ فنزلها منهم ملكان ؛ ثم ملك (قُسْطَنْطِين) بن هيلانى ، فجدّد بناء بُوزَنْطِيَةَ وزاد فى بنائها ، وسماها قُسْطَنْطِينِيَّةَ نسبةً إليه ونزل بها فصارت دار ملك للرُّوم بعده إلىٰ الآنَ . قال : وهى علىٰ ضَفَّةَ الخليج المُنْصَبِّ من بحر نيطش ومانيطش إلىٰ بحر الرُّوم ، وقد صار هذا الخليج مشهورًا بها ، فيقال فيه (الخليج القُسْطَنْطِينِيّ) كما تقدّم . وجهاتُها الثلاثُ من الشرق والغرب والجنوب إلىٰ البحر ، والجهة الرابعة وهى الشَّمال إلىٰ البَرّ ، وقُطْرها من الشرق إلىٰ الغرب ثمانيةٌ وعشرون ميلا ؛ ولها سُوران من حجارة بينهما فضاء ستُّون ذراعا ، وعَرْض السُّور الداخل آثنا عشر ذراعا ، وآرتفاعه آثنان وسبعون ذراعا ، وعَرْض السُّور الخارج ثمانيةُ أذرع ، وآرتفاعه آثنان وأربعون ذراعا ؛ وفيما بين السُّورينِ نهر يسمّى (قُسْطَنْطِينيانُوس) مغطًّى ببلاط من نُحَاس ، يشتمل علىٰ آثنين وأربعين ألفَ بلاطةٍ ، طولُ كلِّ بلاطة ستة وأربعون ذراعا ؛ وعمق النهر آثنان وأربعون ذراعا . ولها نحوُ مائة باب أكبرها باب الذهب : وهو باب فى شَمَالِيّها ، طوله أحد وعشرون ذراعا ، وهو مضَبَّب بالحديد ، وبه أعمدةٌ من ذهب ؛ وبها قصر فى غاية الكِبَر والعُلُوّ ، وطريقه الذى يُتَوصل إليه منه يعرف بالبدندون . وهو من

عجائب الدنيا، يُمْشىٰ فيه بين سَطْرين من صُوَر مفرَّغة من النحاس البديع الصِّناعة علىٰ صُوَر الآدميين وأنواعِ الخيل والسِّباع وغير ذلك، وفى القصر ضروب من عجائب المصنوعات .

قال فى "تقويم البُلْدان" : وحكىٰ لى بعضُ من سافر إليهـا أن داخلَها مزدرع وبساتينُ، وبها خراب كثير، وأكثر عِمارتها فى الجانب الشرقىّ الشَّمالىّ، وكنيستها مستطيلةٌ، وإلىٰ جانب الكنيسة عمودٌ عالٍ دَوْرُه أكثر من ثلاثة باعات، وعلىٰ رأسه فارسٌ وفرسٌ من نُحَاس، وفى إحدىٰ يديه حَرْبة كبيرة، وقد فتح أصابع يده الأخرىٰ وهو مشير بها . قيل : إن ذلك صورةُ (قُسْطَنْطِين) بانى المدينة . قال فى العزيزىّ : ولها أربعَ عشرةَ معاملةً .

وآعلم أن هـذه المملكة كانت أوّلا بيد اليُونان . قال البيهقىّ : وهم بنو يُونانَ بن علجَانَ، بن يافِثَ، بنِ نوح عليه السلام . وفى التوراة أن يُونانَ ابنُ يافِثَ لصلبه، وآسمه فيها (ياقان) بقاء تقْرُب من الواو . وخالف الكنْدىّ فنسبهم إلىٰ عَابَر بن فالَغ فجعل يُونانَ أخًا لقَحْطانَ، وذكر أنه خرج من اليمن بأهـله وولده مُغاضبًا لأخيه قَحْطانَ فنزل ما بين إفْرَنجة والرُّوم، فاختلط نسَبُه بنسبهم . وردّ عليه أبو العَبّاس[1] الناشى فى ذلك بقوله :

[و] تَخْلِطُ يُونانًا بقَحطانَ ضِـلَّةً * لَعَمْرِى لقد باعدْتَ بينهما جِدًّا!

---

(١) هو عبد الله بن محمد الناشى وأوّل الأبيات :

أبا يوســف إنى نظرت فــلم أجد * علىٰ الفحص رأيا صح منك ولا عقدا
وصرت حكيما عنــد قوم إذا آمرؤ * بلاهم جميعا لم يجــد عندهم عنــدا
أتقرن الحــادا بدين محمــد * لقــد جئت شيئا ياأخا كندة إدّا

وتخلط الخ اه من مروج الذهب (ج ١ ص ١٣٨) .

وقيـل إنهم إنمـا نجمُوا من رجل يقال له (الكن) وُلِد سنة سبع وأربعين لوفاة موسى عليه السلام .

وكانت قاعدةُ ملكهم الأولىٰ (مدينةَ أغريقيَّة) . وهى مدينة بناها (أغريقش) ٱبن يُونانَ المقـدّم ذكره علىٰ الجـانب الغربىّ من الخليج القُسْطَنْطِينىّ ، وهى أوّل مُدُنهم ، ثم هدمها هيليوس أحدُ ملوكهم وبنىٰ (مدينـة مَقَدُونِيَة)(1) فى وسط المملكة بالجـانب الغربىّ أيضا ونزلهـا فصارت منزلا لملوكهم من بعـده ، وإليها يُنْسب ملوكهم فيقـال ملوكُ مَقَدُونِيَـةَ ؛ وقد كان يقال للإسكندر بن فيلبس المَقَدُونى نسبة إلىٰ مَقَدُونِيَة هذه . ومن طائفة اليُونان كان معظمُ الحكماء الذين عنهم أُخِذَتْ علومُ الفلسفة ، ومنهم بقراط وسقراط وأفلاطُن وأرَسْطُوطاليس وإقليدس وغيرهم من الحُكَماء .

وكان لهم عدّة ملوك ، أوّلهم (يُونانُ) بن يافِثَ بنِ نوح .

ثم ملك بعـده آبنه (أغْرِيقش) وهو الذى بنىٰ مدينةَ أغْرِيقيَّةَ المتقدّم ذكرها . وتوالىٰ الملك فى ولده ، وقهروا اللَّطِينيِّين ودَالَ ملْكُهم فى أرمِينِيَةَ .

ثم ملك (هِرَقْلُ الجَبَّار) بن مَلْكان ، بن سلَقُوس ، بن أغْرِيقش .

ثم ملك بعده آبنه (بلاق) وإليـه تُنْسَب الأمّة البلاقيَّـة التى هى الآن علىٰ بحر سُوداق ؛ وآتصل الملكُ فى عقب بلاق المذكور إلىٰ أن ظهر عليهم إخوانُهم الرومُ وآستبدُّوا بالملك .

فكان أوّلهم (هـردوس) بن مطرون ، بن رُومى ، بن يُونان ؛ فملك الأمَمَ الثلاثةَ ، وصار آسمه لقبًا لكل مَنْ ملك بعده .

---

(1) قال ياقوت : بفتح أوّله وثانية وضم الذال المعجمة الخ .

ثم ملك بعده ٱبنُه (هرمس) وحار به الفُرْسُ فقهروه وضربُوا عليه الإتاوةَ .

ثم ملك بعده ٱبنُه (مطرنوس) فحمل الإتاوةَ للفُرْس .

ثم ملك بعده (فيلبوس) فظهر علىٰ الأعداء وهدم مدينـةَ أغْرِيقيَّةَ ، وبنىٰ مدينة مَقَدُونِيَةَ المتقدّم ذكُرها ، وكان محبًّا فى الحكمة فكثر الحكماءُ فى دولته .

ثم ملك بعده ٱبنُه (الإسكَنْدرُ) فاستقام له الأمرُ وملك الشامَ ، وبيت المَقْدِس ، والهندَ ، والسِّـنْدَ ، وبلادَ الصين ، والتُّبَّت ، وخُراسان ، وبلادَ الـتُّرك ؛ وذلَّتْ له سائر الملوك ، وهاداه أهلُ المَغْرِب والأَنْدَلُس والسُّودان ؛ وبنىٰ مدينةَ الإسكندريَّة بالديار المصرية عنـد مصَبِّ النيل علىٰ ساحل البحر الرُّومىّ ، وبنىٰ بالسِّـنْد أيضا مدينةً سمـاها الإسكندريَّة ، ورجع إلىٰ بابِلَ فمات بها ، وعُرِضَ المُلْكُ علىٰ ٱبنـه إسكَندَرُوس فأبىٰ وٱختار الرَّهْبانيَّة .

ثم ملك بعده (لُوغُوس) من بيت المُلْك ، وتلقب (بَطْلَيْمُوس) فصار ذلك علمـا علىٰ كل مَنْ ملك منهم . وقيل : هو بَطْلَيْمُوس بن لاوىٰ صاحب عسكر الإسكندرية ، وهلك لأربعين سنةً من مُلْكه .

وملك بعـده ٱبنه (فلديفش) فأقام ثمـانيا وثلاثين سـنة ؛ وتُرجِمَتْ له التوراةُ من العبْرانِىّ إلىٰ الرُّومىّ .

ثم ملك بعده ٱبنُه (أنطرطيش) (١) فأقام ستًّا وعشرين سنةً وهلك .

فملك بعده أخوه (قلوباطر) (٢) فأقام سبعَ عشرةَ سنةً وهلك .

فملك بعده ٱبنه (أَبِيفانش) فأقام أربعا وعشرين سنة .

---

(١) فى " العبرج ٢ ص ١٨٩ " انطريس .

(٢) فى " العبرج ٢ ص ١٨٩ " فلوباذى .

وملك بعده ابنه (قلوماطر) فأقام خمسًا وثلاثين سنةً . وكان مَقرّه الإسكندرية وهلك .

فملك بعده ابنه (إبرياطش) فأقام سبعا وعشرين سنةً . وعلى عهده استفحل مُلْكُ رُومةَ، وملكوا الأندلس وأفرِيقِيّةَ وهلك .

فملك بعده ابنُه (شوطا)(١) فأقام سبعَ عشرةَ سنة، وهلك .

فملك بعده أخوه (الإسكندر) فأقام عشرَ سنين وهلك .

فملك بعده (دُنونُشيُش) بن شوطا، فأقام ثمانياً وثلاثين سنة، وفى أيامه ملك الرُّوم بيتَ المقدس وأنطاكِيَةَ، وهلك .

فملك بعده بنته (كلابَطْرةُ) فأقامت سنتين، وكان سكنُها الإسكَنْدريةَ . وكان الملك على الروم يومئذ أغُشْطُش قيصر ملك الروم، فقصدها، فاحتالت بأن اتخذَتْ حيّةً تُوجَد بين الحجاز والشام، فلَمَست الحيةَ فيَبِسَتْ مكانَها، وبقيت الحيةُ فى رَيَاحِينَ حوْلَها، وحضر أغشْطُش فوجدها جالسةً ولم يشْعُرْ بموتها، فتناول من الرياحين ليَشَمَّها فلسَعَتْه الحيةُ فمات(٢) . وزالت دولةُ اليُونان بزوالها .

هكذا رتَّبهم (هروشيوش مؤرّخ الروم) وسبب ذلك أن الرومَ واليُونان كانوا متجاوِرِينَ متلاصِقِين لعَلاقة النَّسَب فقد نقل ابن سعيد عن البيهقى أن الرُّوم من ولد رُومِىّ بن يُونان المقدّم ذكره . وقيل هم بنو لَطين بن يُونان أخى رُومىّ المذكور، ولذلك يقال لهم اللَّطِينِيُّون . وقيل هم من بنى كِتّيم بن ياثان وهو يُونان . وقيل بل هم من بنى عِيصُو بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام .

---

(١) فى "العبر ج ٢ ص ١٩٠" شوطار .

(٢) فى القطعة الأزهرية إصلاح على هذا الوجه [فبطل شقه ولم يمت إذ كانت الحية قد أفرغت سمها فى كلابطرة قبله] .

قال صاحب حماة فى تاريخه : وكان أوّلُ ظهورِهم فى سنة ستٍّ وتسعين وثلثمائة لوفاة موسىٰ عليه السـلام . قال : وهم يُعرفُون ببنى الأصْفَر ، والأصفر هو رُوَيْم آبن العِيص . قال فى "العبر" : وذلك أنه لمـا خرج يوسُف عليه السلام من مصر بأبيه يعقوبَ ليدْفِنَه بالشأم عند الخليل عليه السلام ، آعترضه بنو عِيصُو فحـاربهم وهزَمهم، وأسر منهم صفوا بن إليفار بن عيصو، وبَعَث به إلىٰ أفريقيَّة، فأقام بها وآتصـل بمَلِكها وآشتهر بالشجاعة ، ثم هرب من أفريقيَّة إلىٰ أسْبانِيَة ، فزوّجوه وملّكوه عليهم؛ فأقام فى المُلْك خمسا وخمسين سنة، وبقِيَ المُلْك فى عَقِبه إلىٰ أن كان منهم ملك آسمه (رُومِيش) فبنىٰ مدينة رُومِيَةَ وسكنها فعُرِفت به . وبالجملة فإنهم كانوا مجاوِرينَ لهم : الرومُ فى المغرب، واليُونان فى المَشْرِق؛ فوقعت الحربُ بينهم، وكانت الغَلَبة للروم علىٰ اليُونان مرةً بعـد أخرىٰ إلىٰ أن كانت غلبة أُغُشْطُش علىٰ قُلوبطرا علىٰ ما تقدّم ذكره .

ثم ملوكُ الرُّوم علىٰ طبقات :

الطبقة الأولىٰ

(مَنْ مَلَك منهم قبل القَياصِرة)

قال "هروشيوش" مؤرّخ الرُّوم : وأوّل من ملك منهم (بيقش)(1) بن شطونش آبن يوب ، فى آخر الألف الرابع من أوّل العالَمِ علىٰ زمن تِيهِ بنى إسرائيل .

ثم ملك بعده آبنه (بَرْيامِش) وآتصـل المُلكُ فى عقب بيقش المذكور وإخوته إلىٰ أن كان منهم كرمنش بن مرسية بن شبين بن مُرْكة، بعد أربعة آلاف وخمسين

(1) فى العبر ج ٢ ص ١٤٦ "الفنش" .

لأوّل العـالم فى زمن بار بن كلعاد من ملوك بنى إسرائيل، وهو الذى ألَّف حروف اللسان اللَّطِينىّ ولم تكن قبله .

ثم كان منهم (أناش) من عَقِب بريامش بن بيقش(١) المتقدّم ذكره لأربعة آلافٍ ومائة وعشرين للعالم .

وفى أيامه خرَّب الأغريقيُّون مدينة طروبة المتقدّم ذكرها فى قواعد مملكتهم .

ثم ملك بعده آبنه (أشكانيش) وهو الذى بنىٰ مدينة ألبا، ثم آتصل الملكُ فيهم إلىٰ أن آفترق أمرهم؛ ثم كان من أعقابهم برقاش علىٰ عهد عُزْيَا بن أمْصيا من ملوك بنى إسرائيلَ . وآتصـل الملكُ لآبنـه ثم لحافِدَيْه روملش وراملش لأربعة آلافٍ وخمسمائة سنة للعالَم . وهما اللذان آختطَّا مدينة رُومِيَةَ، وكان الرُّوم بعـد روملش وراملش وآنقراضِ عَقِبهم قد سَئِمُوا ولايةَ المُلوك عليهم، فصيَّروا أمرهم شُورىٰ بين سبعين وزيراً . وقال آبن العميد : كانوا يقدِّمُون شيخا بعد شيخ، ولم يزل أمرهم علىٰ ذلك مدّة سبعِمائة سنةٍ، تقترع الوزراءُ فى كل سنة، فيخرج قائدٌ منهم إلىٰ كل ناحيـة علىٰ ماتُوجِبه القُرْعة؛ فيحاربون الأمَمَ والطوائفَ، ويفتحون الممـالكَ حتّىٰ ملكوا الأندَلُس وأثخنوا فى الجلالِقَة، وملكوا سَمّورية(٢) مدينـة القُوط، وآسـتولَوْا علىٰ الشأم وأرضِ الحجاز، وآفتتحُوا بيت المَقْدِس وأسروا ملِكَها، وكانت الحرب بينهم وبين الفُرْس سِجَالا إلىٰ أن كانت القياصرة كما سيأتى إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى العبرج ٢ ص ١٤٦ "الفنش" .

(٢) فى القاموس والمعجم سمورة أى بدون ياء فلعلها من الناسخ .

الطبقة الثانيـــــــة

(القياصرة قبل ظُهور دِين النَّصْرانية فيهم)

قال ٱبن العميد : لم يزل تدبيرُ المشايخ الذين رتَّبُوهم نافذًا فيهم، إلىٰ أن كان آخِرَهم أغانيوش فدَبَّرهم أربعَ سنين وتسمَّى قَيْصَرَ، وهو أوّل من تسمَّى بذلك من ملوكهم، ثم صار سِمةً لمن بعده . وسيأتى الكلام علىٰ معنىٰ هذه اللفظة .

ثم مَلَك بعده (بوليوش قيصر) ثلاثَ سنين .

ثم مَلَك بعـده (أوغشطش قَيْصَر) بن مونوخس ، وهروشيوش يسمِّيه (أكتبيان قيصر) وهو الثـانى من القياصرة ، وهو الذى سلب مُلْكَ كلابَطْرا آخِر ملوك اليونان المقدّم ذكرها . وٱستولىٰ علىٰ مصْرَ(١) والإسكندريةِ وسائر ممالك اليُونانِ الرُّوم . ويقال : إنه كان آخِرَ قُوَّاد الشيخ مدَبِّر رُومةَ ، وإنه توجه بالعساكر لفتح الأندُلس ففتحها ثم عاد إلىٰ رُومةَ فملكها وطرد الشيخَ عنها، ووافقه الناسُ علىٰ ذلك، ثم قتل نائبَهُ بناحية المَشْرِق واستولىٰ عليها لِثِنْتَى عشرةَ سنةً من مُلْكه [ولثنتين وأربعين سنة من ملك أغشطش وُلِد المسيحُ بعد مَوْلِد يحيىٰ بثلاثة أشهر وذلك(٢)] لتمام خمسة آلاف وخمسمائة سنةٍ شمسيَّة للعالَم .

ثم ملك من بعده ٱبنه (طباريش قيصر) فاستولىٰ علىٰ النَّواحى ، وفى أيامه كان رفعُ المسيح عليه السلام وٱفتراقُ الحوارِيِّين فى الآفاقِ لإقامة الدِّين وحمل الأُمَم علىٰ عبادة الله تعالىٰ . ومات لثلاثٍ وعشرين سنةً من مُلْكه بعد أن جدّد مدينةَ طَبَرِيَّة وٱشتَقَّ ٱسْمها من ٱسمه .

---

(١) هنا انتهت القطعة الأزهرية وتوحد الأصل والله المستعان .

(٢) الزيادة من "العبرج ٢ ص ٢٠٠" ليتم الكلام وفيه فى بعض أسماء الملوك مغايرة لما فى الأصل .

ثم ملك من بعده (غايش قيصر) وهو الرابع من القياصرة . وقال هروشيوش : وهو أخو طباريش، وسماه غايش قليفة بن أكتبيان . قال آبن العميد : ووقعت فى أيامه شِدّةٌ على النصارى، وقتل يعقوبُ أخاه يُوحَنّا من الحواريّين، وحبس بُطْرس رأسهم، ثم وثب عليه بعض قُوّاده فقتله .

وملك من بعده (قَلوديش قيصر) وهو الخامس من القياصرة . قال هروشيوش : هو آبن طباريش المتقدّم ذكره فيكون أخا (١) غايش، وعلى عهده كَتَب مَتّى الحواريّ إنجيلَه فى بيت المَقْدس بالعِبْرانية، ونقله يُوحَنّا بن زندى إلى الروميّة، وكتب بطرس رأسُ الحواريّين إنجيلَه بالروميّة وبعث به إلى بعض أكابر الرُّوم، وهلك فلوديش قيصر لأربعَ عشرةَ سنةً من ملكه .

وملك بعده آبنُه (نيرون قيصر) وهو السادس من القياصرة، وكان غَشُوما فاسقا، فأنكر على مَنْ أخذ بدين المَسيح وقتلهم، وقتل بُطْرسَ وبُولِسَ الحواريّين، وقتل مُرْقُصَ الإنجيليَّ : بطركَ الإسكندرية لثنتَيْ عشرةَ سنة من مُلْكه . وفى أيامه هدم اليهودُ كنيسةَ النصارى بالقُدْس، ودفنوا خشبتَيِ الصَّليب بزعمهم فى الزُّبالة . قال هروشيوش : وقتله جماعةٌ من قُوّاده لأربعَ عشرةَ سنة من مُلْكه، وآنقطع ملك آل يوليوش قيصر لمائة وستّ عشرةَ سنة من أوّل ملكهم . قال هروشيوش : وكان نيرون قيصر قد وجّه قائدا إلى جهة الأندَلُس فافتتحها وعاد إلى رُومةَ بعد مَهْلِك نيرون قيصر فملّكه الروم عليهم . وكان لنيرون قيصر صهرٌ على أخته يسمّى (يشبشيان) وآبن العميد يسميه (إشبا شيانس) وكان نيرون قيصر قد وجهه لفتح بيت المَقْدس ففتحه وعاد فقتل ذلك القائدَ الذى آستولى على المملكة بعد نيرون

(٢) لعل الصواب فيكون آبن أخى غايش .

قيصر، وملَك مكانَه، وتسمّى قيصر كمن كان قبله وٱستقام له الملك، هكذا ذكره هروشيوش .

والذى ذكره ٱبن العميد أنه لما هلك نيرون قيصر وإشباشيانس الذى سماه هروشيوش يشبشيان [محاصرٌ للقدس](١) ملّك الروم عليهم غلياش قيصر، فأقام تسعةَ أشهر وكان ردىءَ السيرة فقتله بعضُ خَدَمه .

ثم ملّكوا عِوَضَه (أنون) ثلاثةَ أشهر، وملّكوا (بطالس) ثمانيةَ أشهر، وسار إليه اشباشيانس الذى يسميه هروشيوش يشبشيان فقتله ، وهلك اشباشيانس المذكور لتسع سنين من مُلْكه .

وملك بعده ٱبنه (طيطش قيصر) لأربعمائة سنة من مُلْك الإسْكندر، فأقام فيهم سنتين وقيل ثلاثا وقيل أربعا ، وكان حَسَن السيرة متفننا فى العلوم .

ثم ملك بعده أخوه (دومريان قيصر) وقيل ٱسمه دوسطيانوس ، وقيل دوماطيانوس، فأقام خمسَ عشرةَ سنة، وقيل ستَّ عشرةَ سنة، وقيل تسع سنين، وهو ابن أخت نيرون قيصر المتقدّم ذكره، وكان ظَلُوما غاشِمًا فحَبَس يُوحَنَّا الحَوَارِىَّ، وأمر بقتل النصارى ونَفْيِهم، وقتل اليهودَ من نسل داود حِذارَ أن يَمْلِكوا، وهلك فى حرب الفَرَنج .

وملك بعده (نربا) ٱبن أخيه طيطش ، وقيل ٱسمه تاوداس ، وقيل قارون ، وقيل : برسطوس، فأقام نحوًا من سنتين أو سنةً ونصفا، فأحسن السِّيرة وأمر بردّ مَنْ نُفِى من النصارى وخَلّاهم ودِينَهُم ، ولم يكن له ولد .

(١) الزيادة من المرج ٢ ص ٢٠٢ ليستقيم الكلام .

فعَهِد بالمُلك إلى (طريانش) من عظماء قُوّاده . وقيل : آسمه أنديانُوش، وقيل طرينوس ، فملك بعده وتسمَّى قيصر ، فأقام تسعَ عشرةَ سنة ، ولقى النصارى فى أيامه شِدّةً وتتبع أئمتهم بالقتل وآستعبد عامّتهم . وفى زمنه كتب يُوحَنَّا إنجيلَه برُومةَ فى بعض الجزائر، وهلك طريانش المذكور لتسعَ عشرةَ سنةً من ولايته .

وملك بعده (أندريانوس) فأقام إحدى وعشرين سنةً (١) ، وقيل عشرين سنة وهو الذى بنى مدينة القُدْس وسماها إيليا ، وكان شديدًا على النصارى وقتَل منهم خلقا كثيرا ، وأخذ الناسَ بعبادة الأوثان ، وألزم أهل مصر حَفْر خليج من النيل إلى القُلْزم فحفروه وأجرَوْا فيه ماءَ النيل ثم آرتدم بعد ذلك .

ولما جاء الفَتْح الإسلامىُّ ألزمهم عمرُو بنُ العاص رضى الله عنه حَفْره فحفروه وجرى فيه الماءُ ثم آرتدم أيضا ، وبقِىَ على ذلك مردوما إلى زماننا . ومات أندريانوس لاحدى وعشرين سنةً من مُلْكه .

فملك بعده آبنه (آنطونيش) وتسمَّى (قيصَر الرحيم) فأقام ثنتين وعشرين سنة، وقيل إحدى وعشرين سنة وهلك .

فملك بعده أخوه (أوراليانس) وقيل آسمه أورالش ، وقيل آسمه أنطونيش الأصغر، وأصاب الأرضَ فى زمنه قَحْط ووباءٌ عظيم، وأصاب النصارى فى أيامه شدّةٌ عظيمة، وقتل منهم خلقا كثيرا، وهلك لتسعَ عشرةَ سنة من مُلْكه .

وملك من بعده آبنه (كمودة) ويقال بالقاف بدل الكاف، فأقام ثلاثَ عشرةَ سنة ، وقيل ثانىَ عشرةَ سنة . وفى دائرة مُلْكه ظهر «أردشير بن بابَكْ» أوّل

(١) فى الأصل إحدى عشرة والتصحيح من العبر ج ٢ ص ٢٠٤ .

ملوك الساسانية من الفُرْس . وفى زمنه كان «جالينوسُ» اليونانىُّ المشهورُ بالطِّب، و«بقراطس» الحكيم؛ ومات كمودة المذكور .

فملك بعده (ورمتيلوش قيصر) وقيل آسمه برطنوش، وقيل آسمه فرطيخوس، وقيل برطانوس، وقيل ألبيش بن طنجيش فأقام ثلاثةَ أشهر، وقيل شهرين، وقيل سنة، وقتله بعضُ قوّاده .

فملك بعده (يوليانوس قيصر) فأقام شهرين ومات .

فملك بعـده (سوريانوس قيصر) وقيـل آسمه سورس، وقيل طباريش، فأقام تسعَ عشرةَ سنة، وقيل ثمـانَ عشرةَ، وقيل ستَّ عشرةَ، وقيل ثلاثَ عشرةَ، وقيل ست سنين، وآشتدّ على النصارىٰ وفتك فيهم وسار إلىٰ مصر والإسكندرية فقتلهم، وهدم كنائسَهم وشرَّدهم فى البلاد، وهلك .

فملك من بعده (أنطونيش قيصر) وقيل أنطونيش قسطس لخمسٍ وعشرين سنة وخمسِمائة لغَلَبـة الإسكندر، فأقام ستَّ سنين، وقيل سـبْعَ سنين، وضَعُف عن مقاومة الفُرْس فغَلَبُوا علىٰ أكثر مُدُن الشام ونواحى أرمينِيَةَ، وهلك فى حروبهم .

فملك بعده (مقرين قيصر) بن مُرْكة، وقيل آسمه مَقْرونيوس، وقيل مَرْقِيأنُوس، فأقام سنة وقتله قوّادُ رُومةَ .

ثم ملك من بعده (أنطونيش) قيل ثلاثَ سنين، وقيل أربعَ سنين، وفى أوّل سـنة من ملكه بُنِيتْ مدينـةُ عِمْواسَ(١) بأرض فِلَسْطِين من الشأم وملَك سابورُ آبنُ أرْدَشِير مُدُنا كثيرة من الشام، ومات .

---

(١) وقع فى العبرج ٢ ص ٢٠٦ عمان والصواب ما فى الاصل لان عمواس هى التى من أرض فلسطين أنظر معجم ياقوت .

فملك من بعده (اسكندروس) فأقام ثلاثَ عشرةَ سنةً، وقيل عشرين سنة، وكانت أمُّه نَصْرانيَّةً، فكانت النصارى معه فى سَعَة من أمرهم. قال هروشيوش: ولعشرٍ من مُلْكه غزا فارسَ وقتل سابورَ بنَ أَرْدشير ملِكَ الفُرْس، وثار عليه أهل رُومةَ فقتلوه.

وملك بعده (مخشميان) بن لوجيه، وقيل ٱسمه نقيموس، فأقام ثلاثَ سنين ولقِيَ النصارى منه شِدّةً عظيمة. قال ٱبن العميد: وفى ثالثةِ مُلْكه مات سابورُ ٱبن أرْدَشِير، وهو خلافُ ما تقدّم من كلام هروشيوش أنه قتله [اسكندروس] فى العاشرة من ملكه، وهلك.

فملك بعده (يونيوش) وقيل ٱسمه لوكيوش قيصر، وقيل بلينايوس، فأقام ثلاثةَ أشهر وقُتِل.

ثم ملك بعده (غرديانوس قيصر) وقيل ٱسمه فودينوس، وقيل فرطانوس وقيل غرديان بن بلدسيان، فأقام ستَّ سنين، وقيل سبع سنين؛ وطالتْ حروبه مع الفُرْس، وقتله أصحابه على نهر الفُرَات.

وملك بعده (فلفش قيصر) بن أوليان بن أنطونيش، فأقام سبعَ سنين، وقيل ستَّ سنين، وقيل تسع سنين، ودانَ بدِين النصرانية. وهو أوّلُ من تنَصَّر من ملوك الروم، وقتله قائد من قوّاده.

وملك ذلك القائدُ الذى قتله مكانَهُ، وكان من أولاد الملوك. وٱسمه داجية ٱبن مخشميان فأقام خمس سنين، وقيل سنتين، وقيل سنة، وكان يعبد الأصنامَ ولقِىَ النصارى منه شِدّةً؛ قيل وفى أيامه كانت قصّةُ أهل الكَهْف مع مَلِكهم؛ وهلك.

فملك من بعده (غالش قيصر) فأقام سنتين، وقيل ثلاثَ سنين، واستتبع فى قتل النصارىٰ . وكان فى أيامه وباءٌ عظيم أقفرَتْ منه المُدُنُ، ومات .

فملك بعده (والاريانس) لسبعين وخمسمائة لغَلَبة الإسكندر، وقيل آسمه غاليوش، وقيل أقيوس وغاليوش آبنه، وقيل أورليوس، وقيل غليوش، وقيل أدرياليانوس، فأقام إحدىٰ عشرةَ سنةً، وقيل خمسَ عشرةَ سنة، وقيل أربعَ عشرةَ سـنة، وقيل خمسَ سنين؛ وكان يعبد الأصنامَ فلقى النصارىٰ منه شِـدّةً عظيمةً، ووقع فى أيامه وباءٌ عظـيم فرَفَع الطلبَ عن النصارىٰ بسببه . وفى أيامه خرج القُوطُ من بلادهم وتغلّبوا علىٰ بلاد مَقَدُونِيَة وبلاد النَّبَط وآقتلعوها منه؛ وقتله بعضُ قوّاد رُومةَ .

وملك بعـده (افلوديوش قيصر) لثمـانين وخمسمائة للإسكندر، فأقام سـنةً واحدة، وقيل سنةً وتسعةَ أشهر، وقيل هو فلوديش بن بلاريان ولم يكن من بيت الملك وأقام سنتين، وقيل ملك [بعده أخوه](1) قنطل فأقام سـبعةَ عشرَ يوما؛ ودفع القُوطَ عن مَقَدُونية وأرمِينِيَةَ، وقتله بعضُ قواده .

ثم ملك (أوريليانس) وقيل آسمه أوراليوس، وقيل أورينوس، وقيل أروليوس، وقيل أوراليان بن بلنسيان، فأقام ستَّ سنين، وقيل خمس سنين؛ وآشـتدّ علىٰ النصارىٰ وجدّد بناءَ رُومةَ؛ وفى سادسة ملكه وُلد قُسْطنطين، ثم قتل .

وملك بعـده (طافيش بن اليش) وقيل آسمه طافسيوس، وقيل طافساس، فأقام نحوَ سنة، وقيل تسعةَ أشهر، وقيل ستةَ أشهر .

---

(1) الزيادة عن العبرج ٢ ص ٢٠٨ .

ثم ملك بعده (فروفش قيصر) وقيل آسمه فرويس ، وقيل برويش ، وقيل ولا كيوش ، وقيل ارفيون ، فأقام خمسَ سنين ، وقيل ستَّ سنين ، وقيل سبع سنين ، وقتله قُوّاد رُومةَ .

ثم ملك بعده (قاريوش قيصر) وقيل آسمه قوروش ، وقيل قاروش لخمسمائة وثنتين وتسعين للإسكندر فى زمن سابُورَ ذى الأكتاف : أحدِ ملوك الساسانيَّة من الفُرْس ، فأقام سنتين ، وقيل ثلاثَ سنين ، وتغلَّب على كثير من بلاد الفُرْس ، وآشتدّ على النصارى وقتل منهم خلقا كثيرا وهلك فى الحرب .

فملك بعده آبنه (مناريان) وقُتِل لوقته .

ثم ملك من بعده (ديقلاديانوس) لخمسمائة وخمس وتسعين سنة للإسكندر ، وقيل آسمه دقلطيانوس ، وقيل غرنيطا ، فأقام إحدى وعشرين سنةً ، وقيل عشرين سنة ، وقيل ثمانَ عشرةَ ، ولقى النصارى منه شدّةً وأمر بغَلْق الكنائس ، وقتل جملةً من أعيان النصارى ، وهلك .

فملك بعده آبنه (مقسيمانوس قيصر) فأقام سبع سنين ، وقيل سنةً واحدة .

وكان شريكه فى الملك (مفطوس) وهو أشدّ كفرًا منه ، ولقى النصارى منهما شدّة عظيمةً وقتل منهم خلقا كثيرا ، ووقع فى كلام هروشيوش مايخالف هذا الترتيب ، ولا حاجة بنا إلى ذكره .

الطبقة الثـالثـــة

(القيـاصرة المتنصرة إلى الفتح الإسلامى)

وكانوا يَدينون أوّلًا بِدِين الصابئة، ثم دانُوا بدين المَجُوسيَّة، ثم بعد ظهور الحَوَاريِّين وتسلُّطهم عليهم مرةً بعد أخرى أخذوا بدين النَّصْرانية. وكان أوّل من أخذ منهم به قُسْطَنْطِين بن قسطنش بن وليتنوش، وكان قد خرج على مقسيمانوس قيصر: آخرِ القياصرة من الطبقة الثانية، فهزمه ورجع مقسيمانوس إلى رُومةَ، فازدحم عســكره على الجِسْر فغَرِق فيمن غَرِق، ودخل قُسْطَنْطِين رُومةَ وملكها فبسط العدلَ، ورفع الجَوْر، وتنصر لثِنْتَىْ عشرةَ سنة من مُلْكه، وهدم بيوتَ الأصنام، وتوجهتْ أمُّه (هلانة)[1] إلى القُدْس واستخرجتْ خشبةَ الصَّلَبُوت بزعمهم من تحت القُمامات، وبنَتْ مكانها كنيسةَ قُمامةَ، وذلك لثلثمائة وثمانٍ وعشرين سنةً من مَوْلِد المسيح عليه السلام. وفى السنة التاسعةَ عشرةَ من مُلْكه كان مجمعُ الأَساقِفة بِنيقِيةَ. ولمـا تنصر قُسْطنطِينُ وخرج عن دين المجوسيَّة، خاف من قومه فارتحل من رُومةَ إلى مدينة بُوزَنْطِيَةَ فجدّدها وزاد فيها وسمـاها القُسْطَنْطِينيَّةَ باسمه، وأقام فى المُلْك خمسين سنة: منها ببوزنطيَةَ ستٌّ وعشرون سنة قبل غَلَبة مقسيمانوس، وأربع وعشرون بعد استيلائه على الرُّوم، وهلك لستمائة وخمسين للإسكندر.

وملك بعده ابنه (قُسْطنطين الأصغر) بن قسطنطين، بن قسطنطين،[2] بن قسطنش فأقام أربعاً وعشرين سنةً ومات.

---

(١) الذى فى تاريخ أبى الفداء أن اسمها "هيلانى".

(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناسخ.

فملك بعده ٱبنُ عمه (يوليانش) فأقام سنةً واحدة، وقيل سنتين، فكان على غير دين النصرانية: فقتل النصارى وعزلهم عن الكنائس وٱطّرحهم من الدِّيوان، وسار لقتال الفُرْس فمات من سَهْمٍ أصابه، وقيل ضَلَّ فى مفازة فقتله أعداؤه .

وملك بعده (يليان) بن قسطنطين سنةً واحدة وهلك .

فملك بعده (بوشانوش) فأقام سنةً واحدة، وقيل إنما هو بلنسيان بن قُسْطَنْطين، وقيل واليطينوش، وانه ملك ثنتَىْ عشرةَ سنة أو خمسَ عشرةَ سنة ثم هلك بالفالج .

وملك بعده أخوه (واليش) وقيل ٱسمه وَالَاش فأقام أربعَ سنين، وقيل ثلاثَ سنين، وقيل سنتين، وقيل إنه كان شريكَ واليطينوش المتقدّم ذكره فى المُلْك؛ ثم خرج على واليش خارجٌ من العرب وقُتِل فى حربه .

وملك بعده (اغراديانوس قيصر) وهو أخو واليش، ويقال إن ولنطيانش ويقال والنطوش بن واليش كان شريكًا له فى الملك فأقام سنة واحدة، وقيل سنتين، وقيل ثلاثَ سنين، ومات اغراديانوس وٱبن أخيه فى سنة واحدة .

وملك بعدهما (تاوداسيوس) ويقال إنه طودوشيوش لستمائة وتسعين من مُلْك الإسكندر، فأقام سبعَ عشرةَ سنة، وفى الخامسة عشرةَ من مُلْكه ظهر أهلُ الكَهْف وأفاقوا من نَوْمهم، فأرسل فى طَلَبهم فوجدهم قد ماتُوا فأمر أن تبنى عليهم كنيسةٌ وتُتَّخَذ يومُ ظهورهم عيدًا . وفى أيامه كان المَجْمَع بقُسْطَنطينِيَّة لِمائتين وخمسين سنة من [مَجْمَع] نِيقِيَة .

ثم ملك (اركاديش) بن تاوداسيوس، فأقام ثلاثَ عشرةَ سنة، ووُلِد له ولد سماه طودوشيوش، فلما كَبِر هَرَب إلى مصر وترهَّب، وأقام فى مَغَارة فى الجبل المُقَطَّم ومات، فبنى الملكُ على قبره كنيسةً وديرا يسمَّى دير القُصَيْر، وهو دير البَغْل، وهلك .

فملك بعده آبنــه (طودوشيش قيصر) الأصغر، فأقام ثِنْتين وأربعين سنةً . وفى أيامه كان المجمَعُ الثالثُ للنصارىٰ بمدينة أُفْسُس، وولّى أخاه أنوريش علىٰ رومة وآقتسما الملكَ بينهما ؛ وقيـل إن أركاديش بن طودوشيوش(١) ولّى أخاه أنوريش علىٰ رُومةَ وآقتسما الملك وإنه لمـا هلك أركاديش آستبـدّ أخوه أنوريش قيصر بالملك خمسَ عشرةَ سنة؛ وإنه لمـا هلك ملك من بعده طودوشيش المقدّم ذكره .

ثم ملك (مرقيان قيصر) ويقال بالكاف بدل القاف ، فأقام ستَّ سنين . وفى أيامه كان المَجْمَع الرابعُ بخَلْقَدُونِيَةَ وآنقسم النصارىٰ إلىٰ يَعْقُوبِيَّـة وملَكية ، ونَسْطُوريَّة . وفى أيامه سكن شَمْعُون الحبيس الصَّومعةَ بأنْطاكِيَةَ وترهَّب فيها وهو أوّل من فعل ذلك من النصارىٰ؛ ثم مات مرقيان .

وملك بعده (لاون قيصر) ويُعْرَف بلاون الكبير لسبْعِمائةٍ وسبعين سنةً من مُلْك الإسكندر، وقيل آسمه ليون بن شميخلية، وكان مَلَكيًّا فأقام ستَّ عشرةَ سنة ومات .

وملك بعــده (لاون قيصر) ويعرف بلاون الصغير، وكان يعقوبِيًّا فأقام سـنةً واحدةً وهلك .

فملك بعده (زينون قيصر) وقيل آسمه سينون بالسين المهملة بدل الزاى، وكان يعقوبِيًّا فأقام سبعَ عشرةَ سنةً وهلك .

فملك بعــده (نشطاش قيصر) لثمانمـائة وثلاث سنين للإسكندر ، فأقام سبعا وعشرين سـنةً ، وكان يعقوبِيًّا ، وسكن حماةَ من الشأم ، وأمر أن تُشادَ وتُحَصَّن فبُنِيت فى سنتين؛ وأمر بقتل كلِّ آمرأةٍ قارئةٍ كاتبةٍ؛ وهلك .

(١) تقدم أن آسمه "تاوداسيوس" .

فملك بعده (يشطيانش قيصر) لثمانمائة وثلاثين للإسكندر ، وكان مَلَكِيًّا فأقام تسعَ سنين ، وقيل سَبْعَ سنين ، ويقال إنه كان معه شريكٌ فى مُلْكه يقال له يشطيان ، وهلك .

فملك بعده (يشطينانش قيصر) لثمانمائة وأربعين للإسكندر ، وكان مَلَكِيًّا وهو ابن عم يشطيانش الملك قبله ، وقيل كان شريكَه فأقام أربعين سنةً ، وقيل ثلاثا وثلاثين سنة ، وأمر بأن يُتَّخذَ عيدُ الميلاد فى الرابع والعشرين من كانُون ، والغِطَاس فى ستٍّ منه ، وكانا قبل ذلك جميعًا فى سادسه ، وكانت كنيسةُ بيتِ لَحْم بالقُدْس صغيرةً فزاد فيها ووسَّعها حتَّى صارتْ على ما هى عليه الآنَ . وفى أيامه كان المَجْمع الخامسُ للنصارى بالقُسْطَنْطِينِيَّة ، وهلك .

فملك بعده (يوشطونش قيصر) لثمانمائة وثمانين سنةً للإسكندر فى زمن كِسْرى أُنوشِرْوانَ فأقام ثلاثَ عشرةَ سنةً ، وقيل إحدى عشرةَ سنةً ، وهلك .

فملك بعده (طباريش قيصر) لثمانمائةٍ وثنتين وتسعين للإسكندر ، فأقام ثلاث سنين ، وقيل أربعَ سنين ، وهلك .

فملك بعده (موريكش قيصر) لثمانمائة وخمسٍ وتسعين للإسكندر ، فأقام عشرين سنة ، وكان حَسَن السِّيرة ، ووثَب عليه بعضُ مماليكه فقتله .

وملك بعده (قوقاص قيصر) قريب موريكش الملك قبله ، وكان هو الذى بعث مملوكَهُ على قتله . وفى أيامه ثار كِسْرى أبرويز على بلاد الرُّوم ، وملك الشأمَ ومصرَ ، وأقاما فى مملكة الفُرْس عشرَ سنين ، وحاصر القُسْطَنْطِينيَّة طلبا لثأر موريكش لمصاهرةٍ كانت بينهما ، فثار الرُّوم على قوقاص فقتلَتْه بسبب ماجلبه إليهم من الفتنة .

وملك بعـده (هِرَقْلُ) بن أنطونيش، وقيـل هِرَقْل بن هِرَقْل بن أنطونيش لستمائة و إحدىٰ عشرةَ من تاريخ المَسيح، ولألفٍ ومائةٍ من بنـاء رُومةَ، ولتسعمائة وثنتين وعشرين سـنةً للإسكندر، ولأوّل سنةٍ من الهجرة، وقيل لإحدىٰ عشرة سـنة منها، وقيل لتسع سنين . فارتحل أبرويز عن القُسْطنْطِينيَّة راجعا إلىٰ بلاده، وأقام هِرَقْلُ فى المُلْك إحدىٰ وثلاثين سنةً ونصفا، وقيل ثنتين وثلاثين سنة، وثار علىٰ بلاد الفُرْس فخرَّبهـا فى غَيْبَـة كِسْرىٰ، وضعُفتْ مملكةُ الفُرس بسبب ذلك، وآستولىٰ هِرَقْلُ علىٰ ما كان كِسرىٰ آسـتولىٰ عليه من بلاده : وهو مصر والشأم، وأعاد بناء ما كان خَرَّب من الكنائس فيهما، وكتب إليه النبيُّ صلّى الله عليه وسـلم يدعوه للإسلام .

قال المسعودىّ، وقيل إن مَوْلِد النبىّ صلّى الله عليه وسلم كان فى أيام يوشطيانش، و إن ملكه كان عشرين سنة . ثم ملك (هِرَقْل بن نوسطيونس) خمسَ عشرةَ سنة، و إليه تُنْسَب الدراهم الهِرَقْليّة . ثم ملك بعده (مورق بن هرقل) . قال : والمشهور بين الناس أن الهجرةَ وأيامَ الشيخين كان مُلْكُ الروم لهِرَقْل . قال : وفى كتب السير أن الهجرةَ كانت علىٰ عهد قَيْصَر بن مورق، ثم كان بعده قَيْصَر بن قيصر [أيام أبى بكر ثم هِرَقْل بن قَيْصَر] (١) أيام عمر، وعليه كان الفتح وهو المُخْرَج من الشأم .

---

(١) الزيادة من (العبرج ٢ ص ٢٢٢) .

الطبقة الرابعـــــــة

(ملوكُ الروم بعد الفتح الإسلاميّ إلى زماننا)

قد تقدّم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم بُعِثَ وهاجَرَ وهِرَقْلُ ملكُ الروم، وكتب إليه يدعوه إلى الإسلام . وبقِيَ هِرَقْلُ إلى أن آفتتح المسلمون الشأْمَ فى خلافة عمر آبنِ الخطّاب رضى الله عنه . فلما غلب المسلمون على أكثرِ بلاد الشأم ، خرج إلى الرُّهَا ، ثم عَلَا على نَشَزٍ من الأرض وآلتفت إلى الشأم وقال : "السلامُ عليكِ ياسُورِيا سلامٌ لا آجتماعَ بعده ، ولا يَعُودُ إليكِ رُومِيٌّ بعدها إلا خائفًا" وسار حتّى بلغ القُسْطنْطِينِيَّةَ فأقام بها ، وآستولى المسلمون على الشأم ومصر والإسكندرية وأفرِيقيَّةَ والأندَلُس ، وآستولوا على جزائر البحر الرُّومى : مثل صِقِلِّيَّة ، ودانِيَةَ ، ومَيُورْقَة وغيرها مما كان بيدِ الرُّوم . وأقام فى المُلْك إحدى وثلاثين سنةً ، وهلك لإحدى وعشرين سنةً من الهجرة .

وملك بعده على الرُّوم بقُسطَنْطينيَّةَ آبنُه (قُسْطَنطِين) بنُ هِرَقْل فأقام ستة أشهر وقتله بعضُ نساء أبيه .

وملك بعده أخوه (هِرَقْلُ) بنُ هِرَقْلَ ، فتشاءم به الرومُ فخلعوه وقتلوه . وملَّكوا عليهم (قسطينو بن قسطنطين) فأقام ستَّ عشرة سنة . وفى أيامه غزا مُعاوِيَةُ آبنُ أبى سفيان بلادَ الرُّوم وهو أمير على الشأم من قِبَل عمر بنِ الخطاب فى سنة أربع وعشرين من الهجرة فدوّخ البلاد وفتح منها مُدُنا كثيرة ، ثم أغزى عساكرَ المسلمين إلى قُبْرُصَ فى البحر فى سنةِ سبع وعشرين ، ففتح منها حُصُونا ، وضرب الجِزْيَةَ على أهلها . ومات قسطينو سنةَ سبع وثلاثين من الهجرة .

فملك بعده ٱبنه (يوطيانُس) فأقام ٱثنتىْ عشرةَ سنة ، ومات سنة ثمانٍ وأربعين من الهجرة .

ومَلك بعده ٱبنُه (لاون)(١) فأقام ثلاث سنين ، ومات سنة خمسين من الهجرة .

فملك بعده (طيباريوس قيصر) فمكث سبعَ سنين . وفى أيامه غزا يزيدُ بنُ معاويةَ القسطنطينية فى عساكر المسلمين وحاصرها مُدّةً ، ثم أفرج عنها واستُشْهِد أبو أيُّوبَ الأنصارىُّ فى حِصارها ودُفِن فى ساحتها، وقُتِل طيباريوس المذكور سنة ثمانٍ وخمسين من الهجرة .

ومَلك بعده (أغشطش قيصر) فذبحه بعضُ عبيده .

ومَلك بعده ٱبنه (إصطفانيوس) فى أيام عبد الملك بنِ مَرْوان ثم خُلِع .

ومَلك بعده (لاون) ومات سنة ثمانٍ وسبعين من الهجرة .

ومَلك بعده (طيباريوس) سبعَ سنين، ومات سنة ستٍّ وثمانين من الهجرة .

ومَلك بعده (سطيانوس) فى أيام الوليدِ بنِ عبد الملك بانِى الجامع الأُمَوىّ بدِمَشْق .

ثم ملك بعده (تداوس) فى سنة إحدى ومائة من الهجرة، فأقام سنةً ونصفا .

ثم ملك بعده (لاون) فأقام أربعا وعشرين سنة .

ومَلك بعده ٱبنه (قسطنطين) . وفى أيامه غزا هشامُ بنُ عبد الملك الصائفةَ اليُسْرىٰ من بلاد الروم ، وأخوه سليمان الصائفة اليُمْنىٰ فى سنة ثلاثَ عشرةَ ومائة، فلقيهم قسطنطين المذكور فى جُموع الرُّوم فانهزم وأُخِذ أسيرا ثم أُطْلق .

---

(١) كذا فى العبر أيضا الا أنه جعله تاريخا لوفاة يوطيانس وأسقط لاون من البين .

ثم ملك بعده رجل آسمه (جرجس) من غير بيت المُلْك فبقى ايامَ السَّفَّاح، والمنصور وأمرُهُ مضطرب ثم مات .

وملك بعده (قسطنطين) بن لاون، وبنى المُدُن وأسكنها أهل أرمينِيَة وغيرَهم، ثم مات .

وملك بعده آبنه (لاون) وهلك .

فملك بعده (نقفور) وهلك فى خلافة الأمين بنِ الرَّشيد .

وملك بعده آبنُه (استبراق قيصر) وأقام إلى خلافة المأمون . وفى أيام المأمون غلب قسطنطين [بن قلفط](١) على مملكة الروم، وطرد آبن نقفور، هكذا رتبه آبن العميد . وفى كلام المسعوديّ ما يخالفه .

قال المسعوديّ : ثم ملك بعد قسطنطين (نوفيل) أيَّامَ المعتصم .

ثم ملك من بعده (ميخائيل) بن نوفيل أيَّامَ الواثق، والمتوكل، والمنتصر، والمستعين .

ثم تنازع الرومُ وملَّكُوا عليهم (نوفيل بن ميخائيل) أيام المعتز، والمهتدى، وبعض أيام المعتَمِد .

ثم ملك من بعده آبنُه (أليون) بن نوفيل [بقية] أيام المعتَمِد وصَدْرا من أيام المعتَضِد .

ثم ملك من بعده (الإسكندروس) بن أليون، فنَقَموا سيرتَه، فخلَعُوه .

وملَّكوا عليهم أخاه [لاوى](١) بن اليون، فأقام [بقية] أيام المعتضد والمكتفى، وصدرا من أيام المقتَدِر ثم هلك .

(١) الزيادة عن "العبرج ٢ ص ٢٢٩ نقلا عن المسعودى" لتتم الفائدة .

وملك ٱبنُه (قسطنطين) صـغيرا ، وقام بتدبير دولته أرمنوس بِطْرِيق البحر، وزوّجه ٱبنته وتَسَمّى بالدمستق، والدمستق هو الذى يلى شرقَ الخليج القسطنطينى وٱتصل ذلك أيامَ المقتدِر، والقاهر، والراضى، والمتقى . ثم ٱفترق أمرُ الروم .

ثم ظاهرُ كلام ٱبن الأثير أن أرمنوس المتقـدّم ذكره صار إليـه المُلْك بعد قسطنطين . قال : وكان الدمسـتق على عهده قوقاس فملك مَلَطْيَةَ من يد المسلمين بالأمانِ فى سـنة ثِنْتين وعشرين وثلثمائة ، وولّى تقفورَ دمسـتقا ، وهلك أرمنوس وترك ولدين صغيرين وكان تقفور الدمستق غائبا ببلاد المسلمين فلما رجع ٱجتمع إليـه زعماءُ الروم وقدّموه لتدبير أمر الصغيرين وألبسوه التـاجَ ، ثم دَسّت عليـه أم زوجة أرمنوس أم الصغيرين(١)، فقتلته فى سنة ستين وثلثمائة .

وقام ٱبنها الأكبر وهو (بسـيل بن أرمنوس) بتدبير مُلْكه فطالت مدّته ، وأقام فى الملك نَيِّفا وسبعين سنة ، وهلك بسيل سنة عشر وأربعمائة .

وملَك بعده أخوه (قسطنطين) فأقام تسعَ سنين ، ثم هلك عن ثلاث بنات .

فملَّك الرومُ عليهم الكُبْرىٰ منهن ، وقام بأمرها ٱبنُ خالها (أرمانوس) وتزوّجت به فاستولىٰ علىٰ مملكة الرُّوم ، ثم مالت زوجته إلىٰ المتحكِّم فى دولتـه ، وٱسمه ميخائيل فدسَّتْه عليه فقتله وٱستولىٰ علىٰ الأمر ، ثم أصابه الصَّرْع ودام به .

فعُهِد لٱبن أخت له ٱسمه (ميخائيل) فأحسن السِّيرة وطلب من زوجة خاله أن تَخْلَع نفسها عن المُلْك فأبتْ فنفـاها إلى بعض الجُزُر ، وٱستولىٰ علىٰ المملكة سـنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة ، وأنكر عليه البطرك خَلْع المرأة فهمّ بقتله ، فنادىٰ البَطْرِكُ

(١) لعل لفظ أم زائد ، أنظر العبر .

فى النصارىٰ بخَلْعه فخلعوه، وٱستدعىٰ المَلِكة التى خلعها وأعادها إلىٰ المُلْك، ونفَتْ ميخائيل كما نفاها؛ ثم ٱتفق البطرك والروم علىٰ خَلْعها فخُلِعَتْ .

وملّكوا عليهم أختها (ندورة) وسمّوا ميخائيل فوقع الخُلْف بسبب ذلك، فأقرعوا بين المترشّحين للمُلْك منهم فخرجتْ علىٰ رجل منهم ٱسمه (قسطنطين) فملّكوه عليهم وزوّجوه بندورة الملكة فى سنة أربع وثلاثين وأربعمائة، ثم تُوفّى قسطنطين المذكور سنةَ ستٍّ وأربعين وأربعمائة .

ومُلِّك علىٰ الروم (أرمانوس) وذلك لأوّل دولة السَّلْجُوقيَّة، وخرج لبلاد الإسلام [فزحف إليه ألب أرسلان من أذْرَبيجانَ فهزمه وحَصَل فى أسره، ثم فاداه علىٰ مال يُعْطِيه وأجروه عليه وعقد معه صلحا](١) .

فوثب (ميخائيل) بعده علىٰ مملكة الروم . فلما ٱنطلق من الأَسْر وعاد إلىٰ قُسْطنطِينيَّة، دفعه ميخائيلُ عن المُلْك، وٱلتزم لِألْب أرسلان ما ٱنعقد عليه الصلح . وترهّب أرمانوس وترك المُلْك . إلىٰ هنا ٱنتهىٰ كلام ٱبن الأثير .

ثم توالتْ عليها ملوكُ الروم واحدًا بعد واحد إلىٰ آخر المـائةِ السادسةِ . وكان مَلِكُ القُسْطنطِينيَّة يومئذ قد تزوّج أختَ الفَرَنْسيس ملك الفَرَنجة، فوُلِد له منها ٱبنٌ ذكر .

ثم وثب بالمَلِك أخوه فسَمَله وملَك مكانَهُ ؛ ولحق الٱبن بخاله الفَرَنْسيس، فوجده قد جَهَّز الأساطيلَ لٱرتجاع بيت المَقْدس وفيها ثلاثة من ملوك الفَرَنْجة وهم كيدقليس : أحد ملوكهم، وهو أكبرهم ؛ ودوقس البنادقة، والمركين مقدّم الفَرَنْسيس . فأمرهم الفَرَنْسيس بالجواز علىٰ القسطنطينية لِيُصْلِحوا بين ٱبن أخته

(١) الزيادة عن العبرج ٢ ص ١٣١ ليتضح المقام .

وبين عمه ملك الروم . فلمــا وصــلُوا إلىٰ مَرْسَى القسطنطينيَّة خرج إليهــم عمُّه وحاربهم فهزموه ودخلوا البَــلَدَ ، وأجلسوا الصــبيّ علىٰ سرير المُلْك ، وساء أمرُهم فى البلد ، وصادرُوا أهل النِّعم ، وأخذوا أموال الكنائس ، وثقُلَتْ وطْأتهم على الرُّوم ، فعقَلُوا الصبىّ وأخرجُوهم من البــلد ، وأعادوا عَمَّ الصبىّ إلىٰ المُلْك . ثم هجم الفَرَنْج البلد واستباحُوها ثمــانيةَ أيام حتّىٰ أقفرَتْ ، وقتــلوا مَنْ بها من القِسّيسِينَ والرُّهبانِ والأساقفة ، وخلَعُوا الصبِىَّ ، واقترع ملوك الفرنج الثلاثةُ علىٰ المُلْك ، فخرجت القرعة علىٰ كيدقليس كبيرهم فملّكوه علىٰ القسطنطينية وما يجاورها . وجعلوا لدوقس البنادقة الجزائرَ البحريَّة : مثل أقريطش و رودس وغيرهمــا ، ولمركين البلاد التى فى شرقىّ الخليج : مثــل أرسوا ولارتو فى جوار سليمان بن قليج أرسلان ، فلم يحصل لأحد منهم شىءٌ من ذلك إلا لمن أخذ شرقىَّ الخليج . ثم تغلّب علىٰ القسطنطينية بِطْرِيق من بَطَارقة الرُّوم شهرته لشكرىّ واسمه (ميخائيل) فدفع عنها الفَرَنْجَ وملَكَها وقتل الذى كان مَلِكا قبله ، وعقد معه الصُّلْح الملكُ المنصور « قلاوون الصالحىّ » صاحب مصر والشام ، وتُوفِّىَ سنة إحدىٰ وثمــانين وستِّمائة .

وملك بعده ابنه (ياندر) وتلقّب الدوقس ، وشهرتهم جميعا اللشكرى ، وبقى بنوه فى مُلْكها إلىٰ الآنَ . ولم أقف علىٰ تفاصيل أخبارهم غير أنه لم يبقَ بيدهم سوىٰ قسطنطينيَّةَ وبعضِ أعمالها المجاورةِ لهــا . وقد استولىٰ الفرنجُ علىٰ جهاتها الغربية ، واستولىٰ المسلمون علىٰ ماهو شرقىّ الخليج القسطنطينى وعلىٰ أعمالٍ كثيرة من غربيِّه إلىٰ مايقارب خليجَ البنادقةِ علىٰ ما تقدّم بيانه فى الكلام علىٰ القسم الأوّل من هــذا المَقْصِد ، مع تسلُّط صاحب السَّراى مَلِك تتر الشمال من بنى جنكزخان عليه بالبُعُوث والسَّرايَا قبل ذلك ، حتّىٰ إن « القان أزبك » صاحب هــذه المملكة قرَّر عليه إتاوةً تُحمَلُ إليه فى كل ســنة ليكُفّ عنه ، كما أشار إليــه فى "التعريف" فى الكلام علىٰ

مكاتبة صاحب القُسْطنطينِيَّة . قال ابن سعيد : ومنتهىٰ حكم اللشكرىّ صاحب القسطنطينية الآن إلىٰ إيثنية . قال فى "تقويم البُلْدان" : بالهمزة والياء المثناة التحتية والثاء المثلثة ونون ثم ياء مثناة تحتية ثانية وهاء فى الآخر . قال ابن سعيد : وهى غربىّ الخليج القسطنطينى بشَمَال . قال ابن حوقل : وهى مدينةٌ بها مجمعُ النصارىٰ بقُرْب البحر، وهى دار حِكْمة اليونان فى القديم ، وبها تُحفَظ علومهم، وحِكَمُهم .

ولصاحب القسطنطينية المستقرّ بها مكاتبةٌ تخصُّه من الأبواب السلطانية بالديار المصرية ، علىٰ ما يأتى بيانه فى الكلام علىٰ مكاتبات ملوك الكُفْر فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

المملكة الثانية

(مملكة الألمان)

قال المؤيد صاحبُ حماةَ فى تاريخه : وهم من أكبر أُمَم النصارىٰ ، يسكُنُون فى غربىّ القُسْطنطينِيَّة إلىٰ الشَّمال ، ومِلكُهم كثيرُ الجنود . قال : وهو الذى سار إلىٰ الشأْم فى زمن السلطان صلاح الدين «يوسف بن أيوب» فى سنة ستٍّ وثمانين وخمسمائة ، فهلك قبل وصوله إلىٰ الشام . وكان قد خرج بمائة ألِف مقاتل فسلَّط الله عليهم الغَلَاء والوباء فمات أكثرُهم فى الطريق ، ولما وصل إلىٰ بلاد الأرمن نزل يغتسل فى نهر هناك فغرِق فيه ، وبقِيَ من عسكره قدرُ ألف مقاتل لا غير فعادُوا إلىٰ بلادهم . ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ﴾ .

وقاعدتهم فيما ذكر آبن سعيد (مدينة بُرشان) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الشين المعجمة ثم ألف ونون فى الآخر . قال : ويقال لها أيضا (بُرْجَان) بالجيم وذكر آبن سعيد : أنه كان بها الأُمّة المسماة بُرْجَان فى قديم الزمان فاستولت عليهم الألمانيَّة وأبادوهم حتّى لم يَبْقَ منهم أحد، ولم يبق لهم أثر . وهؤلاء البُرْجان هم الذين كان يقاتلهم قُسْطَنْطِين ورأىٰ فى منامه أعلاما عليها صُلْبان فتنصّر .

المملكة الثـالثـــــة

(مملكة البنـادقة)

وهم طائفةٌ مشهورة من الفَرَنْج، وبلادهم شرقىّ بلاد (الأنبردية) الآتى ذكرهم .

وقاعدة مملكتهم (البُنْدُقِيَّة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم الباء الموحدة وسكون النون ثم دال مهملة وقاف ومثناة تحتية وهاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعةِ قال آبن سعيد : حيثُ الطولُ آثنتان وثلاثون درجةً، والعرضُ أربعٌ وأربعون درجةً . قال آبن سعيد : وهى علىٰ طَرَف الخَلِيج المعروف بجَوْن البَنَادقة، وقد تقدّم الكلام عليه عند ذكره فى الكلام علىٰ بحر الرُّوم . قال : وعَمارتها فى البحر، وتخترق المراكبُ أكثرَها ، تتردّد بين الدُّور، ومَرْكَب الإنسان علىٰ باب داره، وليس لهم مكانٌ يمشُون فيه إلا الساباط الذى فيه سُوق الصَّرْف، صنعوه لراحتهم إذا أرادوا التَمَشِّىَ، ومَلِكهم من أنفسهم يقال له الدُّوكُ، يعنى بضم الدال المهملة وسكون الواو وكاف فى الآخر . ودنانيرهم أفضلُ دَنَانيرِ الفرنجة ، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ معاملة الديار المِصْرية فى أوّل هـذه المقالة أن دينارهم

يقال له (دُوكَات) نسبة الى الدُّوك الذى هو مَلِكهم، و إليها يُنْسَب الجُوخُ البندُقِىّ الفائق لكل نوع من الجُوخ .

قال السلطان عمادُ الدِّين صاحب حماةَ فى تاريخه : وهى قريبة من جَنَوة فى البر، و بينهما نحو ثمانية أيام . أما فى البحر فبينهما أمدٌ بعيدٌ أكثَرُ من شهرين، وذلك أنهم يخرُجُون إلىٰ بحر الرُّوم فى جهة الشرق ثم يسيرون فى بحر الرُّوم إلىٰ جهة الغرب .

قال فى "تقويم البُلْدان" : ومن أعمال البُنْدُقِية (جزائر النَّقْربَنْت) بفتح النون وسكون القاف والراء المهملة وفتح الباء الموحدة وسكون النون وتاء مثناة فوقية فى الآخر . قال : وكثيرا مايكْمُن بين تلك الجزائر شوانى الحَرَامِيَّة .

ثم قال : وفى شمالىّ هذه الجزائر مملكة (أَسْتِيبَ) بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وكسر المثناة الفوقية وسكون المثناة التحتية و باء موحَّدة فى الآخر . وفى مملكة أَسْتِيبَ هذه يُعْمَل الأطلس المعدنىّ .

المملكة الرابعة

(مملكة الجَنَوِيين)

وهم طائفة من الفرنج مشهورة أيضا .

وقاعدة مملكتهم (مدينة جَنَوَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الجيم والنون والواو ثم هاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم الخامس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ إحدىٰ وثلاثون درجةً ، والعرضُ إحدىٰ وأربعون درجةً وعشرون دقيقة . قال : وهى علىٰ غربىّ جَوْن عظيم من البحر الرومىّ، والبحر فيما بينها و بين

الأندلُس يدخُل فى الشّمال . وهى غربىّ (بلاد البَيَازِنة) . قال الشريف الإدريسىّ : وبهـا جَنَّات وأوْدِية، وبهـا مَرْسًى جيِّدٌ مأمونٌ ، ومَدْخَلُه من الغرب . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعض أهلها أنهـا فى ذَيْل جبل عظيم، وهى علىٰ حافَةِ البحر، وميناها عليها سُورٌ ، وأنهـا مدينة كبيرة إلىٰ الغاية، وفيهـا أنواعُ الفَوَاكه ، ودُورُ أهلها عظيمة ، كلُّ دار بمنزلة قَلْعة ، ولذلك آغتَنَوْا عن عمل سُورٍ عليها ، ولها عيونُ ماء ، منهـا شُرْبهم وشُرْب بساتينهم . قال المؤيَّد صاحب حماة فى تاريخه : ولها بلادٌ كثيرةٌ .

المملكة الخامســـة

(بلاد رُومِيَّة)

بضم الراء المهملة وسكون الواو وكسر الميم وفتح الياء المثناة تحت المشـدّدة وهاء[1] فى الآخر . قال فى "تقويم البُلْدان" : ويقال لها أيضا رُومَةُ (يعنى بضم الراء وسكون الواو وفتح الميم وهاء فى الآخر) . وهى مدينةٌ عظيمة واقعةٌ فى الإقليم الخـامس من الأقاليم السبعة قال فى " القانون " : حيثُ الطولُ خمس وثلاثون درجةً وعشرون دقيقة ، والعرضُ أربعون درجةً وخمسون دقيقةً . قال آبن سـعيد : وهى مدينة مشهورةٌ فى جَنُوبِىّ جَوْن البَنادقةِ علىٰ جانبَىْ نهرٍ يُعْرف بنهر الصُّفْر .

وقد ذكر « هروشيوش » مؤرّخ الروم أنهـا بُنِيت لأربعةِ آلافٍ وخمسمائةِ سنة من أوّل العالَم ، علىٰ زمن حزقيا بن احاز رابع عشر ملوك بنى إسرائيل . وذكر آبن كريون : أنها بُنِيت فى زمن داود عليه السلام، وبينهما تفَاوتٌ كثير فى المدّة . قال

(١) ضبطها ياقوت بتخفيف اليـاء ونقل عن الأصمعى أنها مثـل أنطاكية وأفامية إلى أن قال وهو كثير فى كلام الروم و بلادهم فانظره ج ٢ ص ٨٦٦ .

فى "الروض المعطار" : وهى من أعظم المدن وأحْفَلِها . يقال : إنه كان طولها من الشَّمال إلى الجَنُوب عشرين ميلا ، وعرضُها من الشرق إلى الغرب آثنَىْ عشر ميلا . وقيل : دَوْرها أربعون مِيلا ، وقُطْرها آثنا عشر مِيلا ، وآرتفاعُ سورها ثمانيةٌ وأربعون ذراعا . وقيـل آثنان وسبعون ذراعا ، فى عَرْض آثنَىْ عشر شِبرا مبنىّ بالحجر ، وهى فى سهل من الأرض تُحيط بهـا الجبالُ على بُعْـد ، وبينها وبين البحر الرومىّ آثنا عشر ميلا ، ويشُقُّها نَهَر ينقسم داخلَها قسمين ثم يلتقيان آخِرَها ،وأرضه مفروشة بالنُّحاس الأصفرِ مسافةَ عشرين ميلا ، وفى وَسَطها صَحْن فى صخرة مرتفعةٍ لم يظْفَر به عَدُوّ قط .

وفى داخلها كنيسةٌ طولها ثلثُمائة ذراع وارتفاعها مائتا ذراع ، لها أربعة ابوابٍ من فِضَّـةٍ سَبْكا واحدا ، مُسَقَّفةٌ بالنحاس الأصـفر المُلْصَق بالقَصْدير ، وحيطانها ملبَّسة بصفائح النُّحاس ، وبها كنيسةٌ أخرىٰ بهـا بُرْج طولهُ فى الهواء مائة ذراع ، وعلى راس ذلك البُرْج قُبَّة مبنية بالرَّصاص ، وعلى رأس القبة زُرْزُور من نُحَـاس إذا أدرك الزيتونُ آنحشرتْ إليه الزَّرازير من الأقطار البَعيدة ، فى مِنْقاركل زُرْزُور زَيْتُونة وفى رجليـه زيتونتان ، فيطرَحُها على ذلك البُرْج فيُعْصَر ويؤخذ زيته ، فيُستَصْبَح به فى الكنيسة جميعَ السنة . قال : وأهل رُومِيَةَ أجبَنُ خلق الله تعالىٰ ، ومن سنَّتهم أنهم لايدفِنُون موتاهم ، وإنما يُدْخِلونهم فى مغائر(١) ويتركونهم فيها فيستَوْبِئُ هواؤهم ويقع الذُّباب على الموتىٰ ، ثم يقع على ثمـارهم فيُفْسِدها ، ولذلك هم أكثر بلاد الله تعـالىٰ طَوَاعِينَ ، حتّى إن الطاعون يقع فيهـا ولا يتعدّاها إلى غيرها فوقَ عشرين ميلا ، وجميعُ أهلهـا يَحْلِقون لِحَاهم ، ويزعُمون أن كلَّ مَنْ لا يحْلِق لِحيتَه

(١) لعل الصواب "مغارات" أو "مغاور" فان وزنها مفعلة لا فعالة حتى تجمع هذا الجمع ولم ينبه عليها اللغويون فى الشواذ .

فليس نصرانيًّا كاملا ، زاعمينَ أن سبَبَ ذلك أن شَمْعون الصفا والحَوَاريِّين جاءُوهم وهم قومٌ مساكينُ ليس مع كل واحد منهم إلا عصا وجرابٌ ، فدعَوْهم إلىٰ النّصرانية فلم يُجيبوهم ، وأخذُوهم فعذّبوهم وحَلَقوا رءُوسهم ولِحَاهم . فلما ظهر لهم صِدْقُ قولهم واسَوْهم بأن فعلوا بأنفسِهم مثلَ ذلك .

ولم تزل رُومِيَةُ هى القاعدَةَ العُظمىٰ للّروم حتّى بنيت القُسْطَنْطِينِيَّة وتحوّل إليهـا قُسْطَنْطِين ، وصارت قسطنطينِيَّةُ هى دارَ مُلْكِ الروم علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام عليهـا ، مع بقاء رُومِيَةَ عندهم علىٰ رفعة المحلّ وعِظَم الشأْن إلىٰ أن غلب عليها الفَرَنْج وانتزعوها من أيديهم ، ورفعوا منهـا قواعِدَهم واستولَوْا علىٰ ما وراءها من النواحى والبُلْدان والجزائر : جَنَوةَ ، والبُنْدُقيّة ، وأقْرِيطش ، ورُودِس ؛ واسترجعوا كثيرا ممـا كان المسلمون استولَوْا عليه من بلاد الروم كغالب الأندُلس . ثم حدثتِ الفتنُ بينهم وبين الروم بالقُسْطنطِينِيَّة ، وعَظُمت الفتنُ بينهم ودامتْ نحوا من مائةِ سـنةٍ «وملك الروم بالقُسْطنطِينِيَّة معهم فى تناقُص» حتّى إن رجّار صاحب جزيرة صِقِلِّيَة صار يغزو القسطنطينيّة بأساطيله ويأخذ ما يجـد فى ميناها من سُفُنِ التُّجّار وشَوَانِى المدينة ، وانتهى أمره أن جرجا بن ميخائيل صاحب أساطيله دخل إلىٰ مينـا القسطنطينية فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة ورمىٰ قصر الملك بالسِّهام ، فكان ذلك أنكىٰ علىٰ الروم من كلّ نِكَاية . ثم تزايد الحالُ إلىٰ أن استولىٰ الفَرَنْج علىٰ القسطنطينيّة نفسِها فى آخر المـائةِ السادسة ، وأوقعوا بأهلهـا وفتكُوا وخَرّبوا علىٰ ما تقدّم بيانه فى الكلام علىٰ ملوك القسطنطينية . وبالجملة فرومِيَةُ اليوم مِـن قواعد الفَرَنْج ، وهى مقرّ (بابـهـم) الذى هو خليفةُ النصارىٰ المَلِكانية وإليه مرجعهم فى التحليل والتحـــريم .

ولهذا البـابِ مكاتبةٌ تخصُّه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، كما سيأتى ذكره فى الكلام على المكاتبات فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالى .

وأما الممالك الصغار فسبعُ ممـالكَ :

الأولى

(مملكة المَـرَا)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم والراء المهملة وألف . وهى مملكة تبتدئ من الخليج القُسْطنطِينى من الغرب على ساحل بحر الروم وتمتدّ مغرِّبا [وتشتمل على (١) قطعـة من] ساحل بحر الروم وعلى بلادٍ وجبالٍ خارجةٍ عن البحر . قال : وهذه المملكة مناصَفَة بين صاحب قسطنطينيّة وبين جنس من الفَرَنج يقال لهم (القيتلان) بالقاف واليـاء الساكنة آخر الحـروف والمثناة الفوقيـة ولام ألف ونون ، ويقال (الكيتلان) بإبدال القاف كافا، وهذا هو الجارى على ألسنة الناس فى النطق بهم .

الثـانيـــة

(بلاد المَلْفَجُـــوط)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بفتح الميم وسكون اللام وفتح الفاء وضم الجيم وسكون الواو وطاء مهملة فى الآخر . وهم جنس من الروم لهم لسان ينفردون به ، وبلادهم من أعمـال قُسْطنطِينيّة على ساحل بحر الروم ممـا يلى مملكة المَرَا المقدّمَ ذكرها من جهة الغرب فى مقابلة مشاريق بَرْقة من البر الآخَرِ ، على ما تقدّم ذكره فى الكلام على بحر الروم فى أوّل هذه المقالة .

---

(١) الزيادة من التقويم ص ١٩٨ ليستقيم الكلام .

الثـالثـــة

(بـــلاد إقْـــلِيرِنْس)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر الهمزة وسكون القاف وكسر اللام والراء المهملة وسكون النون وسين مهملة فى الآخر . وهى بلاد على ساحل بحر الروم غربىّ بلاد المَلْفَجُوط المقـدّم ذكرها وشرقىّ بلاد الباسَليسـة الآتى ذكرُهـا ، وهم فى مملكة الباسليسة المذكورة .

الرابعـــــة

(مملـــكة بُولِيـــة)

بضم البـاء الموحدة وسكون الواو ولام وياء آخر الحروف وهاء . قال : ويقال لها أَنْبُولِيةُ أيضا يعنى بزيادة همزة فى أوّلها ونون ساكنة بعـدها . وهى مملكة على بحر الروم عند فَم جَوْن البنادقة من غربيّـه ، فى مقابل مملكة الباسَليسة من بر الجَوْن المذكور من الجهة الشرقية ، وببُولِيةَ هـذه يُعْرف الزيت المعروفُ بالبوليـة . قال فى " تقويم البُلْدان " : وملك بولية هذه فى زماننا يقال له الريدشار .

الخامســـة

(بـــلاد قَلفْـــرِيَةَ)

قال فى " تقويم البُلْدان " : بفتح القاف واللام وسكون الفاء وكسر الراء المهملة وفتح المثناة تحتُ وهاء فى الآخر . قال : ويقال لها قَلَوْرِيَةُ أيضا بابدال الفاء واوا . وهى من جملة بُولية المقـدّمة الذكر ، واقعة فى غربيها وشرقىّ مملكة رُومِيَةَ المتقدّمة الذكر ، وقد تقدّم فى الكلام على بحر الروم أنه يقابلها طرابُلُس الغرب من البر الآخَرِ .

السادســــة

(بــــلاد التُّسْقان)

قال فى "تقويم البُلْدان" : بضم المثناة الفوقيّــة وسكون السين المهملة وقاف وألف ونون . قال : وهم جنس من الفَرَنْج ليس لهم ملكٌ بعينه يحكم عليهم بل لهم أكابرُ يحكمون بينهم، ثم قال : وبتلك البلاد يكون نَبَاتُ الزّعفران، وقد تقــدّم فى الكلام على البحر الرومىّ أنه يقابلها مدينة تُونُس من البرّ الآخر .

السابعــــة

(بــــلاد البَيَــازِنَة)

بفتح الباء الموحدة والياء المثناة تحتُ وألفٍ ثم زاى معجمة مكسورة ونون مفتوحة وهاء فى الآخر . وهم فِرقة من الفَرَنْج .

وقاعدة مُلْكهم (مدينةُ بِيزَة) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بباء موحدة مكسورة وياء آخر الحروف ساكنة وزاى معجمة يعنى وهاء فى الآخر . قال : وقد تُبْــدَل الزاى شينا معجمةً . وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال : والقياس أنهــا حيثُ الطولُ آثنتان وثلاثون درجةً ، والعرضُ ستٌّ وأربعون درجة وسبعٌ وعشرون دقيقةً . وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" أنهــا على الركن الشّمالىّ من بلاد الأندلُس فى مقابِل جزيرة سِرْدانِيَةَ المقــدّمة الذكر . وهى غربىّ بلاد رُومِيَــةَ ؛ وليس لهم مَلك وإنما مرجعُهم إلى الباب : خليفةِ النصارى؛ وإلى بِيزَةَ هذه تُنْسب الفَرَنج البَيازِنَةُ والحديد البِيزَانِىّ . وقد تقدّم فى الكلام على البحر الرومىّ أنه يقابلها من البر الآخر مَرْسَى الخَرَز .

القطــــر الثـانى

(ممـا غَرْبِىّ الخليج القسطنطينىّ الأرضُ الكبيرةُ)

قال صاحب حماة : وهى أرضٌ متسعةٌ فى شَمَالىِّ الأندلس ، بهـا ألسُنٌ كثيرةٌ مختلفة . وقد ذكر فى "التعريف" أنها فى شرق الأندلُس ، ولا يصح ذلك إلا أن يُرِيد منها ماهو شرق شمالى الأندلس .

ويتعلق الغرض منها بثلاث ممـالك :

المملكة الأولىٰ

(مملكة الفَـرَنْج القديمــة)

وقاعدتها (مدينة فَرَنْجَة) بالفاء والراء المهملة المفتوحتين وسكون النون وفتح الجيم وهاء فى الآخر، وقد تُبْدَل الجيم منهـا سينا مهـملة فيقال فَرَنْسَة . ويقال لملكهم ريدإفْرَنْس، ومعناه ملك إفْرَنْس ، والعامّة تقول الفَرَنْسِيس . وهو الذى قصد ديار مصرَ وأخذ دِمياطَ وأسره المسلمون ثم أطلَقُوه . يشير بذلك إلىٰ قَضِـية تاريخية ، وهى أن الفَرَنْج فى سـنة خمس عشرةَ وسِتّمـائة وهم مستولُون علىٰ سواحل الشام يومئـذ سار منهم نحوُ عشرين مَلِكا من عَكّا وقصدُوا دِمياطَ فى أيام الملك العـادل «أبى بكرِ بن أيُّوب» رحمه الله، وسار العادل من مِصْرَ إليهم فنزل مقابِلَهم؛ وأقاموا علىٰ ذلك أربعةَ أشهرٍ ، ومات العادل فى أثنـاءِ ذلك ، وآسـتقرّ بعده فى المُلْك آبنُه الملك «الكاملُ محمد» فوقع فى عسـكره آختلافٌ تشاغَلَ به ؛ فهجم الفَرَنْج دِمْيـاطَ وملَكُوها عَنْوة فى سنة ستَّ عشْرةَ وستّمائة ،وطَمِعوا بذلك فى مملكة الديار المصرية ، فبنىٰ الملكُ الكامل بلدةً عند مَفْرَق النيل : الفِرْقة الذاهبة إلىٰ دمياط ، والفرقة الذاهبة إلىٰ أُشْمُوم طَنَاح ، وسماها (المنصورةَ) ونزلها بعساكره ؛ ولم يزل الأمر علىٰ ذلك إلىٰ

أن دخلتْ سنةُ ثمانَ عشرةَ وستمائة ، وقد آشتدّ طَمَعُ الفَرَنْج فى الديار المصرية ، وتقدّموا عن دِمْياط إلىٰ المنصورة وضايقوا المسلمين إلىٰ أن سألهم الملكُ الكاملُ فى الصُّلْح علىٰ أن يكون لهم القُدْس ، وعَسْقلانُ ، وطبَرِيَّةُ ، واللاذِقيَّة ، وجَبَلة ، وسائر ما فتحه السلطان صلاحُ الدين من سواحل الشأم ، خلا الكَرَك والشَّوْبك ؛ فأبوْا إلا أن يكون لهم الكَرَك والشَّوْبك أيضا ، وأن يُعْطَوْا مع ذلك ثلثمائةِ ألف دينار فى نظير ماخرّبوه من سُور القُدْس ؛ فأعمل المسلمون حينئذ الحِيلةَ فى إرسال فَرْع من النيل فى إبَّان زيادتِهِ ، حالَ بين الفرَنْج و بين دِمْياطَ ، آنقطع بسببه المِيرةُ عنهم ، وأشرفوا علىٰ الهَلاك ؛ وكان آخِرُ أمرهم أن أعرضُوا عن جميع ما كانوا سئلوا به من الاماكن المتقدّمة الذكر ونزلوا عن دِمياطَ للمسلمين ، وتسلَّمها الملكُ الكاملُ منهم ؛ ثم عاد إلىٰ مصر وبقيَتْ دِمْياطُ بيد المسلمين إلىٰ أن قصدها الفرَنْسيس فى خمسين ألفَ مقاتل ، ومعه الأدْفُونش صاحب طُلَيْطلةَ فى أيام الملك «الصالح أيوب» بن الكامل محمد ، بن العادل أبى بكر ، بن أيُّوبَ فى سنة سبع وأربعين وستمائة ، وهَجَم دِمْياط وملَكها عَنْوةً ؛ وسار المَلِكُ الصالح فنزل بالمنصورة ، وسار الفَرَنْج فنزلوا مقابلَه ؛ ثم قصدوا دِمْياطَ فتبعهم المسلمون وبذَلُوا فيهم السيْفَ ، فقتلوا منهم نحوَ ثلاثين ألفا ، وأُسِرَ الفرَنْسِيس وحُبِس بالمنصورة بدار الصاحب «فخر الدين إبراهيم بن لُقْمانَ» صاحب ديوان الإنشاء ، ووُكِّل به الطَّواشىّ صَبِيح «المعظمىّ» ومات الصالح فى أثناء ذلك ، وآستقرّ آبنه الملك المعظَّم مكانَهُ فى المُلْك ؛ ثم قُتِل عن قريب ، وفُوِّض الأمر إلىٰ «شجرة الدُّرّ» زوجةِ الملك الصالح ، وقام بتدبير المملكة معها «أيبك التُّرْكُمانىّ» ثم تسلم المسلمون دِمياطَ من الفرَنْسِيس وأطلقوه فسار إلىٰ بلاده فيمن بقىَ معه من جماعته . وفى ذلك يقول جمال الدِّين يحيىٰ بن مطروح الشاعر :

قُــلْ للفرَنْسِيس إذا جِئْتَــه * مَقالَ صِدْقٍ من قَـئُولٍ نَصُوح (١) :
أتَيْتَ مِصْرًا تَبْتَــغِي مُلْكَها * تَحْسَبُ أن الزَّمْرَ يا طبلُ رِيحْ
وكُلَّ أصْحابِكَ أودَعْتَهُـــمْ * بحُسْنِ تَدْبيرِكَ بَطْنَ الضَّرِيحْ !
خمسين ألفًا لا ترىٰ منهم * غيرَ قتيلٍ أو أســيرٍ جَرِيحْ !
وَفَّقَـــــكَ اللهُ لأمثالِهَـا * لعَـلَّ عيسىٰ منكُمُ يَسْــتَرِيح
آجَرَكَ اللهُ علىٰ مَا جَـرىٰ * أفْنَيْتَ عُبَّادَ يَسُوعَ المَسِيح
فَقُــلْ لَهُمْ إن أضْمَرُوا عَوْدَةً ، * لأخْذِ ثارٍ أو لقَصْــدٍ صَحِيح !
دارُ «آبنِ لُقْمانَ» علىٰ حالِهَـا * والقَيْدُ باقٍ، والطَّواشِي صَبِيح !

وقد تعرّض فى "التعريف" للإشارة لهذه الواقعة فى الكلام علىٰ مكاتبة الأدفونش صاحب طُلَيطِلَةَ من الأندلُس ، وآقتصر من هذه الأبياتِ علىٰ الأوّل والأخيرِ فقط .

المملكة الثانيـــــــة

(مملكة الجَلالِقَة)

قال السلطان عمادُ الدين صاحب حماةَ فى تاريخه : وهم أُمّة كالبهائم ، يغلب عليهم الجَهْل والجَفَاء . ومن زِيِّهم أنهم لا يَغْسِلون ثيابَهم ، بل يتركونها عليهم إلىٰ أن تَبْلَىٰ ، ويدخلُ أحدُهم دارَ الآخرِ بغير إذْن . قال : وهم أشدُّ من الفَرَنْج ، ولهم بلادٌ كثيرة شماليَّ الأندَلُس ، ونِسْبتهم إلىٰ مدينة لهم قديمة تسمى جِلِّيقِيَّة . قال فى "اللباب" : بكسر الجيم واللام المشدّدة و بعدها ياء آخر الحروف وقاف . قال فى "تقويم البُلْدان" : [ثم ياء ثانية] (٢) وهاء .

---

(١) فى تاريخ أبى الفداء وخطط المقريزى "قَئول نصيح وفى آبن إياس فصيح" .

(٢) الزيادة عن تقويم البلدان .

وقاعدتها (مدينة سَمُّورَةَ) بسين مهملة وميم مشدّدة مضمومة وراء مهملة مفتوحة وهاء فى الآخر . وموقعها فى الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ عشرُ دَرَج ، والعرض ستٌّ وأربعون درجة . قال فى "اللباب" : وهى من بلاد الرُّوم المتاخمة للأندلس ؛ وكأنه يريد أنها كانت للروم أوّلا . قال فى "تقويم البُلْدان" : وعن بعضهم أنها مدينةٌ جليلةٌ معظَّمة عندهم . قال ابن سعيد : وهى قاعدة جِلِّيقيَّة ، أكبر مُدُن الفنش ، فى جزيرة بين فرعين من نهر يُعْرَف بها . قال : وكان المسلمون قد مَلَكوها ثم استرجعها الجَلَالِقةُ زمن الفِتْنة ، ونهرُها يَصُبُّ فى البحر المحيط الغربىّ حيثُ الطولُ خمسُ درج وثلاثون دقيقةً من الجزائر الخالدات ، والعرضُ ستٌّ وأربعون درجة .

المملكة الثالثة

(مملكة اللُّنْبَرْدِيَّة)

قال فى "تقويم البُلْدان" : باللام المشدّدة المضمومة والنون الساكنة والباء الموحدة المفتوحة والراء المهملة الساكنة والدال المهملة والياء المثناة التحتية والهاء . قال : ويقال لها النُّوبرديّة ، والأنبرديّة . وموقعها فى أوّل الإقليم السادس من الأقاليم السبعة قال ابن سعيد : حيثُ الطولُ ثلاثون درجةً وسبعٌ وثلاثون دقيقة ، والعرضُ ثلاث وأربعون درجة وخمسون دقيقةً . قال فى "تقويم البُلْدان" : وهى ناحية من الأرض الكبيرة ، وبلادها تُحيط بها جبالٌ إلى حدّ جَنَوَةَ . قال : ومَلِكها فى زماننا صاحبُ القُسْطنطِينيَّة ، ورثها من خاله المركيش .

ثم قال : وغربيّ هذه البلاد (الرِّيْدراقُون) بكسر الراء المهملة وسكون المثناة التحتية ثم دال مهملة وراء مهملة [وألف(١)] وقاف مضمومة وواو ونون فى الآخر. ومعناه ملك راقون ، وقد تُبْدَل القاف غينا معجمة . فيقال ريدراغون وهو الموجود فى مكاتبات أهل الأندلس وهُدَنِهم .

الجهة الثانيـــــــة

(ماشَمَالىَّ مدينة القسطنطينية وبحر نيطش وما نِيطش إلىٰ نهاية المعمور فى الشَّمال)

ويشتمل علىٰ عدّة ممالك وبلاد :

منها (بلاد الجَرْكَس) : قال السلطان عمادُ الدين صاحب حماةَ فى تاريخه : وهم علىٰ بحر نيطش من شرقِيِّه ، وهم فى شَظَفٍ من العيش . قال : والغالب عليهم دِينُ النصرانية .

قلت : وقد جلب منهم «الظاهرُ برقوق» صاحبُ الديار المصرية من المماليك أيامَ سلطنته مايربُو علىٰ العَدَد حتّٰى صار منهم معظَمُ جُنْد الديار المصرية ، وصار بهم جَمَالُ مواكبها ، والمُلْك باقٍ فيهم بالديار المصرية إلىٰ الآنَ .

ومنها (بلادُ الآصِ(٢)) : بفتح الهمزة الأولىٰ والثانية وصاد مهملة فى الآخر . وهم طائفة ، وبلادهم علىٰ بحر نيطش .

وقاعدتهم (مدينة قِرْقِر) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بكسر القاف وسكون الراء المهملة وسكون القاف الثانية وكسر الراء المهملة فى الآخر . وموقعها فى الشَّمال

(١) الزيادة من التقويم .

(٢) تقدّم له ضبطه بمد الهمزة وبالصاد وهو الصواب .

عن الإقليم السابع أو فى آخره . قال : والقياس أنها حيثُ الطولُ خمس وخمسون درجة وثلاثون دقيقة، والعرضُ خمسون درجة . وهى قلعة عاصيةٌ منيعة فى جبل لايَقْدِر أحد على الطلوع إليه، وفى وسط الجبل وطاءة تَسَع [أهل](١) تلك البلادِ، وعندها جبل عظيم شاهق يقال له (جاطِرْ طاغ) يظهر لأهل السفن من بحر القِرِم . وهى فى شمالىّ صارِى كَرْمان على نحو يوم منها .

ومنها (بلاد البُرْغال) بضم الموحدة وسكون الراء وفتح الغين المعجمة وألف ثم لام فى الآخر . ويقال لهم أولاقُ أيضا بقاف فى الآخر .

وقاعدتهم (مدينة طِرْنَوْ) . قال فى "تقويم البُلْدان" : بالطاء المكسورة والراء الساكنة المهملتين والنون المفتوحة وواو فى الآخر . وموقعها فى الإقليم السابع . قال : والقياس أنها حيثُ الطولُ ستٌّ وأربعون درجة وثلاثون دقيقة ، والعرض خمسون درجة . وهى غربىّ صَقْجى على ثلاثة أيام وأهلها كُفّار . قال بعض المسافرين وهى على خَوْر البُرْغال .

ومنها (بلاد البُلْغار والسَّرْب) . وهما طائفتان على بحر نيطش .

فأما البُلْغار فبضم الباء الموحدة وسكون اللام وفتح الغين المعجمة وألف ثم راء مهملة . قال المؤيَّد صاحب حماة فى تاريخه : وهم منسوبون إلى المدينة التى يسكُنُونها . وقد سماها فى كتابه "تقويم البُلْدان" بُلَار بضم الباء وفتح اللام وألف وراء مهملة فى الآخر . ثم قال : ويقال لها بالعربية (بُلْغَار) .

وأما السَّرْب فبفتح السين وسكون الراء المهملتين وباء موحدة فى الآخر . وهم فى مملكة صاحب البُلْغار . وقاعدة ملكهم مدينة بُلْغار المذكورة، وموقعها فى الشَّمال

---

(١) بياض بالاصول والتصحيح عن تقويم البلدان .

عن الإقليم السابع من الاقاليم السبعة . قال في "الأطوال" : حيثُ الطول ثمانون درجة ، والعرضُ خمسون درجة وثلاثون دقيقة . قال : وهى بَلْدة فى نهاية العِمارة الشمالية قريبةٌ من شط إثل من الجانب الشمالىّ الشرقىّ ، وهى وصَراى فى برٍّ واحد ، وبينهما فوق عشرين مَرْحلةً ؛ وهى فى وطاءة ، والجبل عنها أقلُّ من يوم ؛ وبها ثلاثُ حَمَّامات ، ولا يكون بها شيء من الفَوا كه ولا أشجارِ الفوا كه من العنب وغيره لشدّة بردها ؛ وبها الفُجْل الاَسودُ فى غاية الكِبَر . قال المؤيَّد صاحبُ حماةَ : وحكىٰ لى بعضُ أهلها انَّ فى أوّل فصل الصيف لا يغيب الشَّفَق عنها ويكون ليلُها فى غاية القِصَر . ثم قال : وهذا الذى حكاه صحيحٌ موافق لما يظْهر بالأعمال الفَلَكيّة ، لأن من عَرْض ثمانية وأربعين ونصفٍ يبتدئ [عدمُ][1] غَيْبوبةِ الشَّفَق فى أوّل فصل الصيف ، وعرضُها أكثر من ذلك ، فصحَّ ذلك علىٰ كل تقدير .

وقد حكى فى "مسالك الأبصار" عن حَسَنٍ الرومى عن مسعود الموَقِّت بها : أنَّ أقصر ليلها أربعُ ساعات ونصفٌ تحريرا ، وأنهم جَرَّبوه بالآلات الرَّصْدية فوجدوه كذلك . قال صاحب حماة فى تاريخه : وكان الغالبُ عليهم النصرانية ثم أسلم منهم جماعةٌ . وذكر فى "تقويم البُلْدان" أن أهلها مسلمون حنفيّة . وذكر المسعودى فى "مروج الذهب" أنه كان بالسَّرب والبُلْغار دارُ إسلام من قديم . قال فى "مسالك الأبصار" : أما الآن فقد تبدّلتْ بإيمانها كُفْرا ، وتداولها طائفةٌ من عُبَّاد الصَّليب ، ووصلَتْ منهم رُسُل إلىٰ صاحب مصر سنةَ إحدىٰ وثلاثين وسبعمائة بكتاب من صاحب السَّرْب والبُلْغار ، يعرضُ نفسَه علىٰ مودّته ويسأله سيفا يتقلَّدُه ، وسَنْجَقا يقْهر أعداءه به ؛ فأكرم رسولَه ، وأحسن نُزُلَه ، وجهَّزله معه خِلْعةً كاملة :

(١) الزيادة عن تقويم البلدان ليستقيم الكلام .

طَرْدَ وَحْش بقَصَب بسنجابٍ مُقَنْدس ، علىٰ مفرَّج إسكندرى ، وكَلُّوته زركش ، وشاش بطَرَفين رقم ، ومِنْطَقة ذهب ، وكلاليب كذلك ، وسيفٍ محلًّى ، وسَنْجَق سلطانىّ أصفر مُذْهَب . قال فى "التعريف" : وجهزله أيضا الخيلَ المُسْرَجة الملجمة . وربما أنه يُظْهِر لصاحب السراى الأنقيادَ والطاعة . قال فى "مسالك الأبصار" : وذلك لعَظَمة سلطانه عليهم ، وأخذه بخِناقهم لقربهم منه .

ولصاحب السَّرْب والبُلْغار مكاتبة تخصه عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية .

ومنها (بلادُ أفْتكُون) بألف وفاء وتاء مثناة ثم كاف وواو ونون . وهى بلادٌ تلى بِلادَ البُلْغار فى جهة الشَّمال .

وقاعدتهم مدينة تسمَّى (قَصَبة أفتكون) . والقَصَبة فى مصطلَحهم المدينةُ الصغيرة . قال فى "مسالك الأبصار" : و بينها و بين البُلْغار مسافةُ عشرين يومًا بالسير المعتادِ . وحُكِي عن مسعود الموقِّت بالبُلْغار أنه حَرَّر ليلهـا فوجد أقصرَ ليلِها ثلاثَ ساعاتٍ ونصف ، أقصَرُ من ليل البُلْغار بساعةٍ واحدة .

ومنها (بلادُ الصَّقالِبَة) بفتح الصاد المهملة والقاف وألف وكسر اللام وفتح الباء الموحدة وهاء فى الآخر . ويقال لبعض بلادها بلاد سبراو ير . وهى تلِي بلادَ أفْتكُون فى جهة الشمال . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى بلادٌ شديدةُ البرد ، لايفارقها الثلْج مدّةَ ستةِ أشهرٍ لايزال يسقُط علىٰ جبالهم وبيُوتِهم ، ولهذا تقلُّ المواشى عندهم . وحكىٰ عن الفاضل شجاع الدين : عبد الرحمن الخوارزمى الترجمان أن منها يُجْلَب السَّمُّور والسِّنْجاب . ثم قال : وليس بعدهم فى العمارة شىءٌ . وذكر أنه جاء جَدَّه فُتْيا من بعض اهلها يسأل فيها كيف تكونُ صلاةُ أهلِ بلدٍ لا يَغيبُ عندهم الشفقُ

حتّى يطلُع الصبحُ ؟ لسرعة آنقضاء الليل وهذا ظاهر فى أن هــذه البلاد مسلمون أو فيهم المسلمون .

ومنهـا (بلاد جُولمـان) بجيم وواو ولام ثم ميم وألف ونون . وهى تلى بلاد سبراوير المقدَّمة الذكر فى جهة الشمال . وهى علىٰ مثل حال بلاد سبراوير فى شــدّة البَرْد وكَثْرة الثلج وأشدّ من ذلك . قال فى "مسالك الأبصار" قال حسن الرومىّ : وهؤلاء هم سُكّان قلب الشَّمال ، والواصل إليهم من الناس قليلٌ ، والأقوات عندهم قليــلةٌ حتى يحكىٰ عنهم أنّ الإنسان منهــم يجمع عظام أىّ حيوانــ كان ، ثم يغلى عليــه بقَدْرِ كفايته ثم يتركها ، وبعد ســبْع مرات لايبقىٰ فيهـا شىء من الوَدَك . قال : وهم مع ضِيق العيش ليس فى اجناس الرَّقيق أنعَمُ من أجسامهم ، ولا أحسنُ من بياضهم ؛ وصورتُهــم تامةُ الخِلقــة فى حُسْن وبياضٍ ونُعُومة عجيبة ، ولكنهم زُرْق العيون . وإذا سافر المسافر من جُولْمـان إلىٰ جهة الشرق ، وصل إلىٰ مدينة قَراقُوم قاعدة القان الكبير القديمة . قال : وهى من بلاد الصين ، وإذا سافر منها إلىٰ جهة الغرب وصل إلىٰ بلاد الرُّوس ، ثم إلىٰ بلاد الفَرَنْج .

ومنها (بلادُ الرُّوس) بضم الراء المهــملة وسكون الواو وسين مهملة فى الآخر . قال فى "مسالك الابصار" : وهى بلادٌ واغلة فى الشَّمال ، فى غربىِّ بلاد جُولْمـان المقدّمةِ الذكر . قال صاحب حماةَ فى تاريخه : ولهم جزائرُ أيضا فى بحر نيطش .

ومنها (بلادُ الباشقرد) . قال صاحب حماةَ فى تاريخــه : وهم أمة كبيرة مابين بلاد الباب وبلاد فَرَنْجــةَ . قال : وغالبهم نصارىٰ وفيهم مســلمون ، وهم شَرِسُو الأخلاق . قال فى "مسالك الأبصار" : وهى مُصاقِبة لبلاد جُولْمـان . ثم قال : وفى باشقرد قاضٍ مسلمٌ معتبر .

ومنها (بلاد البُرْجان) بضم الباء الموحدة وسكون الراء المهملة وفتح الجيم وألف ونون، وقد تبدل الجيم شينا . قال صاحب حماة فى تاريخه : وهم أمم كثيرةٌ طاغية قد فشا فيهم التثليثُ . قال : وبلادهم واغلةٌ فى الشَّمال، وأخبارهم وسِيَرُ ملوكهم منقطعة عنَّا لبُعْدهم وجفاء طِباَعهم . وقد تقدّم أن البُرْجان غلب على مكانهم الألمانيَّةُ، فيحتمل أنهم هؤلاء، ويحتمل أنهم طائفة أخرى منهم غير هؤلاء .

ومنها (بلاد بَمْخ) بباء موحدة وميم ثم خاء معجمة . قال فى "مسالك الأبصار": وهى بلاد مشتركة بين بلاد الروس والفَرَنْج .

ومنها (بلاد بُوغْزَة) بباء موحدة ثم واو وغين وزاى ثم هاء فى الآخر . قال فى "مسالك الأبصار": قال الشيخ عَلاء الدين بنُ النُّعمان الخوارزمى : وهى بلادٌ فى أقصى الشَّمال، وليس بعدها عِمَارة غير بُرج عظيم من بناء الإسكندر على هيئة المَنارة العالية، ليس وراءه مذهب إلا الظلمات، وهى صَحار وجبالٌ لا يفارقها الثلج والبَرْد، ولا تطْلُع عليها الشمس، ولا ينبُت فيها نَبَات، ولا يعيش فيها حيوان أصلا، متصلةٌ ببحرٍ أسودَ لا يزال يُمطِر والغيم منعقِدٌ عليه، ولا تطلُع عليه الشمس أبدا . قال ابن النعمان : ويقال إن الإسكندرَ مرّ بأطراف أوائل جبال الظُّلُمات الغربيةِ من العِمارة فرأى فيه أُناسًا من جنس التُّرك أشْبَهَ شيء بالوحوش لا يعرف أحدٌ بلُغتهم، وإذا أمسكهم أحد فَرُّوا من يده، يأكلون من نبات الجبال المجاوِرة لهم فإذا أَقْحَطوا أكل بعضُهم بعضا، فمرّ بهم ولم يعترضهم .

واعلم أنه قد ذكر فى "مسالك الأبصار" عن الشيخ عَلاء الدين بن النُّعمان أن التُّجَّار المتردّدين إلى بلاد الديار المصرية لا يتعدَّوْن فى سفرهم بلادَ البُلْغار، ثم يرجعون من هناك؛ ثم تُجَّار بلْغار يُسافرون منها إلى بلاد جُولْمان، وتُجَّار جُولْمان

يسافرون إلىٰ بلاد بُوغْرَة التى ليس بعدها عمارة . وقد ذكر فى "تقويم البُلْدان" أن شمالىّ بلاد الرُّوس مما هو متصل بالبحر المحيط الشمالىّ قوما يُبَايعون مُغايبةً . وذكر عن بعض من سافر إلىٰ تلك البلاد أنه إذا وصل التُّجّار إلىٰ تُخُومهم، أقاموا حتّىٰ يعلموا بهم، ثم يتقدّمون إلىٰ مكانٍ معروفٍ عندهم بالبيع والشراء، فيضعُ كُلُّ تاجر بِضاعتَه، ويعلّمها بعلامة، ثم يرجعون إلىٰ منازلهم، ثم يحضُرُ أولئك القومُ ويضعون مُقابِلَ تلك البضائع السَّمُّور، والوشَق، والثعلبَ، وما شاكل ذلك، ويَدَعُونه ويَمْضُون، ثم يحضُر التجّار من الغَد فمن أعجبه ذلك أخذه وإلا تركه، حتّىٰ يتفاصلوا علىٰ الرضا . وقد تقدّم ذكر مثلِ ذلك عن قوم بالهند وعن قوم ببلاد السُّودان فى الكلام علىٰ مملكة مالِّى .

قلت : وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مملكة خوارزم والقَبْجاق من مملكة التورانيين فى القسم الثانى منها أن الجَرْكَس والرُّوس والآص أهلُ مُدُن عامرةٍ آهلةٍ، وجبال مُشْجِرة مُثْمِرة، يَنْبُتُ عندهم الزرع، ويدِرُّ الضَّرْع، وتجرى الأنهار، وتُجْنَى الثِّمار، ولا طاقة لهم بسلطان تلك البلاد . وإن كان فيهم ملوك فهم كالرَّعايا لصاحب السراى إن داروه بالطاعة والتُّحَف والطُّرَف كفَّ عنهم وإلاشَنَّ عليهم الغارات وضايقهم وحاصرهم .

المقالة الثالثة

(فى ذكر أمورٍ تشترك فيها أنواعُ المكاتَبات ، والوِلَايات ، وغيرِهما من الأسماء ، والكُنىٰ ، والألقابِ ، ومَقَادِير قَطْع الورَق ، وما يناسب كلَّ مِقْدار منها من الأقلام ؛ ومقاديرِ البياض فى أول الدَّرْج وحاشيتِه ، ومقدارِ بُعْد ما بين السُّطُور فى الكتابات ، و بيان المستَنَدات التى يصدُرُ عنها ما يُكْتَب من ديوان الإنشاء بهذه المملكة : من مكاتبات ، وولايات ، وكتابة الملَخَّصات ، وكيفيةِ تعيين صاحب الدِّيوان لها ، و بيان الفَوَاتح ، والخَوَاتم . وفيه اربعة أبواب) .

الباب الأوّل

(فى الأسماء والكُنىٰ والألقاب ، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

(فى الأسماء والكُنىٰ ، وفيه طَرَفان)

الطَّرَف الأوّل

(فى الأسماء)

والاسمُ عند النُّحاة مادلَّ علىٰ مسمًّى دِلالةَ إشارة ، واشتقاقه من السِّمَة وهى العَلَامةُ لأنه يصير علامةً علىٰ المسمَّى يميزه عن غيره ؛ أو من السمُوّ لأن الاسم يَعْلُو المسمَّى باعتبار وضعه عليه .

ثم المراد هنا بالاسم أحدُ أقسام العَلَم : وهو ماليس بكُنْية ولا لَقَب ، وفيه جملتان :

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى أصـــل التسمية والمقصودِ منها، وتنويع الأسمـاء، وما يُسْتحْسن منها، وما يُستقبَح)

أما أصلُ التسمية فهى لاتخرج عن أمرين :

أحدهما أن يكون الآسم مُرْتجَلا : بأن يَضعُه الواضعُ علىٰ المسمّى آبتداء ، كأُدَد اسم رجل، وسُعَادَ آسم آمرأة، فإنهما ليسا بمسبوقين بالوضع علىٰ غيرهما . والرجوعُ فى معرفة ذلك إلىٰ النقل والآستقراء .

والثانى أن يكون الآسم منقولًا عن معنًى آخر، كاسَدٍ إذا سمى به الرجلُ نقلا عن الحيوان المفترِس ، وزيدٍ إذا سُمِّى به نقلا عن معنَى الزيادة وما أشبه ذلك . وهذا هو أكثر الأسمـاء الأعلام وُقوعًا، والرجوع فى معرفته إلىٰ النقل والآستقراء أيضا كما تقدّم فى المرتجَل .

وأما المقصود من التســمية ، فتمييز المســمّى عن غيره بالآسِم الموضوعِ عليــه ليتعـــرّف .

وأما تنويع الأسمـاء ، فيختلف باختلاف المســمِّين وما يدُور فى خَزَائن خيالهم ممـا يألَفونه ويُجاوِرُونه ويخالِطُونه .

فالعرب ـ أكثرأسمائهم منقولةٌ عمَّا لديْهم مما يَدُور فى خزائن خيَالهم إما من أسمـاء الحيوان كبَكْر : وهو ولَدُ الناقة ، وأَسَد : وهو الحيوان المفترِسُ المعروفُ ، وإما من

أسماء النَّبات كحَنْظَلَة : وهو آسم لواحدة الحَنْظل الذى هو النباتُ المعروفُ من نبات البـادِيَة ، وطَلْحة : وهو آسمٌ لشجرة من شجر الغَضٰى ، وعَوْسَجَة : وهو آسم لشجرة من شجر البادِيَةِ . وإما من أجزاء الأرض كحَزْن : وهو الغليظُ من الأرض ، وصَخْر : وهو الصَّلْد من الحجارة . وإما من أسمـاء الزَّمان كرَبِيع : وهو أحد فُصُول السنة الأربعةِ . وإما من أسمـاء النُّجوم كَسِماك : آسم لنَجْم معروفٍ . وإما من أسمـاء الفاعلين : كحارِث فاعِل من الحَرْث ، وهَمَّـام فاعِل من هَمَّ أن يفعل كذا ، إلىٰ غير ذلك من المنقُولات التى لا تُحْصىٰ .

وكان من عادتهم أن يختاروا لأبنائهم من الأسماء مافيه البَأْس والشِّدَّةُ ونحو ذلك : كمُحَارِب ، ومُقاتِل ، ومُزَاحِم ، ومُدَافِع ونحو ذلك ؛ ولمواليهم ما فيه معنىٰ التَّفَاؤُل : كفَلَاح ، ونَجَاح ، وسالِم ، ومُبارَك ، وما أشبهها ؛ ويقولون : أسماءُ أبنائنا لأعدائنا ، وأسماءُ مَوالينا لنا ؛ وذلك أن الإنسان أكثَرُ مايدعُو فى ليله ونَهارِه مواليَهُ للآستخدام دُونَ أبنائه فإنه إنمـا يحتاج إليهم فى وقت القتال ونحوه .

والتُّرْك ـــ راعَوْا فى أسمـائهم ما يدُلُّ علىٰ الجَلَادة والقُوّة ممـا يأْلَفُونه ويُجاوِرُونه ، وغالبُ ما يسمُّون باسم بَغَا ، ومعناه بلُغتهم الفحلُ : إما مفرَدا كما تقدّم وهو قليل ، وإما موصوفاً بحيوان من الحيوانات ، مقدِّمينَ الصفةَ علىٰ الموصوف علىٰ قاعدة لُغتهم فى ذلك ، كطيبغا بمعنىٰ فحلٍ مُهْرٍ . وإما بمعدِنٍ من المعادن : كالطنبغا بمعنى فحلٍ ذهبٍ ، وكمشبغا بمعنىٰ فحلٍ فضةٍ ، وتمربَغَا بمعنى فحلٍ حديد . وربما أبدل آسمُ الفحل باسم الحديد ، وآسمه بلغتهم دُمُر كبي دُمُر بمعنى أمـير حديد ، وطى دُمُر بمعنى مهر حديد . وربمـا أفردُوا الآسم بالوصف كدُمُر بمعنى حديد ، وأرسلان بمعنى أسد ، وتُنْكز بمعنى بحر ، ونحو ذلك إلىٰ غير ذلك من المفردات والمركَّبات التى لا يأخذها

حصر . وكذلك كلُّ أمة من أمم الأعاجم تُراعِى فى التسمية ما يدور فى خِزانة خيالها مما يخالِطُونه ويُجاورونه .

وأما الأمم المتدينّة فإنهم راعَوْا فى أسمائهم التسميةَ بأسماء أنبيائهم وصحابهم .

فالمسلمون — تسمَّوْا باسمَيِ النبيّ صلى الله عليه وسلم الوارِدَيْنِ فى القرءان وهما "محمد" و "أحمد" إذ يقول صلّى الله عليه وسلم، تَسَمَّوْا باسمى . وكذلك تسمَّوْا باسم غيره من الأنبياء عليهم السلام : إما بكَثْرةٍ : كإبراهيمَ، ومُوسٰى ، وهارونَ ، وإما بقِلّةٍ : كآدمَ، ونُوحٍ ، ولُوطٍ . وأخذوا بوافِرِ حَظٍّ من أسماء الصَّحابة رِضْوان الله عليهم : كأبى بَكْرٍ، وعُمر، وعُثمانَ، وعليٍّ، وحَسَنٍ، وحُسَيْن، وما أشبه ذلك .

والنصارىٰ — تسمَّوْا باسم عيسٰى وغيره من الانبياء عليهم السلام ممن يعتقدون نُبوّته : كإبراهيم، وإسحاقَ ، ويعقُوب ، ويُوسفَ، وموسٰى ؛ وكذلك أسماء الحوارِيِّين : كبُطْرُس ، ويُوحَنّا ، وتُوما ، ومَتّى ، ولُوقَا، وسِمْعان ، وبرتلوما، وأندراوس، ونحوها : كمُرْقُص، وبُولص، وغيرهما .

واليهود — تسمَّوْا باسم موسٰى عليه السلام وغيره من الأنبياء الذين يعتقدون نُبوّتهم : كإبراهيم ، وإسحاقَ، ويعقوبَ ، ويُوسفَ ؛ ولم يتسمَّوْا باسم عيسٰى عليه السلام لإنكارهم نبوّتهُ .

وأما مايُسْتحسن من الأسماء فما وردت الشريعةُ بالنَّدب إلىٰ التسمية به : كأسماء الأنبياء عليهم السلام ، وعبد الله ، وعبدِ الرحمن ، ففى سُنَنِ أبى داود والتِّرْمذىّ من

رواية أبى وَهْبٍ الجُشَمِىّ أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال : «تَسَمَّوْا بأسماءِ الأنبياء، وأَحَبُّ الأسماءِ إلىٰ اللهِ عبدُ اللهِ، وعبدُ الرحمن؛ وأصدَقُها حارثٌ، وهَمَّام؛ وأقبحُها حَرْبٌ، ومُرَّة» .

وأما ما يُسْتَقْبَح فما وردتِ الشريعةُ بالنهى عنه : إما لكَرَاهةِ لفظه كحربٍ ومُرَّة، وإما للتطيُّر به كرَبَاح، وأفْلَح، ونَجِيح، وراجِح، ورافِع، ونحوها . ففى صحيح مسلم وغيره النهىُ عن التسمية بمثل ذلك معلَّلا بأنك تقول : أثَمَّ هو ؟ فيُقَال لا، وإما لعَظَمةٍ فيه : كالتسمية بشاهِنْشاهْ، ومعناه بالفارسية مَلِك الأملاك . ففى الصحيحين من رواية أبى هُرَيْرة أنه أخْنَعُ اسمٍ . وقد ورد فى جامع الترمذىّ من حديث عائشة رضى الله عنها، «أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم كان يُغَيِّر الاسمَ القَبِيحَ» .

الجمـــــلة الثانية

(فى مواضع ذكر الأسماء فى المكاتَبات والوِلَايات)

أما المُكاتباتُ، فالأسماء التى تذكر فيها علىٰ أربعة أنواع :

النوع الأوّل

(اسم المكتوب عنـــه)

وذِكْره إنمـا يَقَع فى المكاتبات فى موضع الخُضُوع والتواضُع، إذ من شأن المكتوب عنه ذلك؛ وله مَحَلَّان :

المحل الأوّل — فى نفس المكاتَبة وذلك فيما إذا كانت المكاتبة بصورةِ «من فلان إلىٰ فُلانٍ» كما كان يُكْتَب عن النبىّ صلى الله عليه وسـلم : من محمّد رسولِ الله إلىٰ

فلانٍ ، وكما كان يُكْتَب عن الخلفاء : من عبدِ الله فلان أمير المؤمنـين إلىٰ فلانٍ ، وكما يُكْتَب الآن فى المكاتبات السلطانيـة إلىٰ ملوك المغرب ، وما يكتب عنهم إلىٰ الأبواب السلطانية ونحو ذلك .

المحل الثانى — العَلاَمة فى المكاتَبات كما يكتب المملوك فلان، أو أخوه فلان ، أوشاكِرُه فلانٌ، أوفلانٌ فقط، ونحو ذلك علىٰ ٱختلاف المراتب الآتية علىٰ ماسيأتى الكلام عليه إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الثانى

(ٱسمُ المكتوب إليه، وله مَحَلّان)

المحل الأوّل — ابتداء المكاتبـة كما يُكْتَب فى بعض المكاتبات «من فلان إلىٰ فلان، أو إلىٰ فلانٍ من فلانٍ» ونحو ذلك؛ وكما يكتب فى مكاتبات القانات، فُلَان خان؛ وكما يذكر ٱسم ملوك الكُفْر فى مكاتباتهم عن الأبواب السلطانية ونحو ذلك . وفيما عدا ذلك من المكاتبات المصدّرة بالتقبيل والدعاء وغيرهما من المصطلح عليـه فى زماننا وما قاربه لايُصَرَّح باسم المكتوب إليـه غالبا تعظيما له عن التفوّه بذكره ، إذ ترك التصريح بالآسم دليـلُ التعظيم والتوقير والتبجيلِ ، بخلاف الكُنْية واللَّقب ، فإنهما بصدد التعظيم للقَّب أو المَكْنِيّ علىٰ ما سـيأتى بيانُه فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ ولذلك لم يخاطِبِ اللهُ تعالىٰ نبيَّه محمدا صلّى الله عليه وسلم فى كتابه العزيز باسمه تشريفًا لمَقامه ، ورفعةً لمحله ، فلم يقل يامحمدُ و ياأحمدُ كما قال يا آدمُ ، يا نوحُ ، ياإبراهـيمُ ، ياموسىٰ ، ياعيسىٰ . بل قال ﴿ يـٰأيُّها الرّسولُ . يـٰأيُّها النبىُّ ﴾ وقد صرّح أصحـابنا الشافعيةُ وغيرهم أنه لايجوز نِداؤُه صلّى الله عليه وسلم بٱسمه ٱحتجاجا بالآية الكريمة .

وفى كتاب ٱبن السنىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه « أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم رأىٰ رجُلًا معه غُلامٌ فقال للغُلَام : مَنْ هذا ؟ ـ قال أبِى ـ قال : فلا تَمْش أمامَهُ ولا تَسْتَسِبَّ له ، ولا تجلِس قَبْلَهُ ، ولا تَدْعُهُ بِٱسْمِه » .

المحل الثانى — العُنْوان من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ . كما يكتب فى عُنْوان بعض المكاتبات « مُطالَعة المملوك فلان » علىٰ ماسيأتى فى الكلام علىٰ العنوان . وإذا كان من تعظيم المخاطَب أن لايُخاطَب باسمه فكذلك فى مكاتَبَته : لأن المكاتبة الصادرة إلىٰ الشخص قائمةٌ مَقامَ خِطابه ، بل المكاتبة أجدرُ بالتعظيم لٱصطلاحهم فى القديم والحديث علىٰ ذلك .

النــــوع الثالث

(ٱســـم المكتوب بســـببه)

وهو ممـا لانقْص فيه بسبب ذكره ، إذ لا بُدّ من التصريح باسمه ليُعْرف ، اللهم إلا أن يَشْتهر حتّىٰ تغنِيَ شُهرتُه عن ذكر ٱسمه ؛ وله محلان :

المحل الأوّل — فى الطرّة بأن يقال « هذا ماعَهِد به فُلَانٌ » إما الخليفةُ فى عهده بالخلافة أو السَّلْطنة ، أو السلطانُ فى عهده بالسلطنة علىٰ ماسـيأتى بيانُه . وفى معنىٰ ذلك البَيْعات بأن يقال « مبايعةٌ شريفة لفلان » ونحو ذلك .

المحل الثانى — صَـدْر الولاية حيث يقال : هذا ماعهِد عبدُ الله ووليُّه فلان ، أو من عبدِ الله ووليِّـه فُلان ، ونحو ذلك علىٰ ٱختلاف المذاهب فى الٱبتـداء علىٰ ماسيأتى .

النـــــوع الرابع

(اسم مَنْ تَصْدُر إليه الوِلاية، وله محلان)

المحل الأوّل — في الطُّرّة إما في العُهود حيث يقال: هذا ما عهِد فلانٌ إلى فلان. وإما في التقاليد والتواقيع والمَراسِيم، حيث يقـال: أن يُفَوّض إلى فلان، أو أن يستقِرّ فلان، أو أن يرتّب فلانٌ.

المحل الثانى — أثناء الولاية حيث يقـال: أن يُفوّض إلى فلان، أو أن يستقِرّ فلان، أو أن يُرتَّب فلان، على نظير ما في الطرّة؛ أما المولّى عليه فقلَّ أن يُذْكَر كما في التحدث على شخص معيّن ونحوه.

الطَّـــرَف الثـانى

(في الكُنى)

والكُنْية عند النُّحاة أحد أقسام العَلَم أيضا، والمراد بها ماصُدِّر بأبٍ أو أُمٍّ، مثل أبي القاسم، وأمّ كُلْثُوم وما أشبه ذلك. وقد كان للعرب بالكُنى أتمّ العِنَاية، حتّى إنهم كنَّوا جملةً من الحيوان بكُنًى مختلفةٍ: فكَنَّوُا الأسدَ بأبى الحارِث، والثعلبَ بأبى الحُصَيْن، والدِّيكَ بأبى سُليمان، وكَنَّوُا الضَّبُعَ بأمّ عامرٍ، والدَّجاجةَ بأمّ حَفْصَة، والجَرادةَ بأُمّ عَوْف ونحو ذلك. وفيه ثلاثُ جمل:

الجملة الأولىٰ

(فى جواز الكُنْية ، وهى علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(كُنىٰ المسلمين)

قال الشيخ محيي الدين النووىّ رحمه الله فى كتابه "الأذكار" : وجوازُ التكنِّى أشهرُ من أن نذكُرَ فيه شيئًا منقولا ، فإن دلائله يشترك فيها الخواصّ والعوامّ . قال : والأدبُ أن يُخاطَب أهلُ الفضل ومَنْ قاربهم بالكُنْية ، وكذلك إن كَتَب إليه رسالةً ، أو روىٰ عنه روايةً . فيقال : حدثنا الشيخ أو الإمامُ أبو فلانٍ فلانُ بنُ فلان وما أشبهه .

وٱعلم أن الأوّلين أكثَرُ ما كانوا يعَظِّمون بعضُهم بعضا فى المخاطبات ونحوها بالكُنىٰ ، ويَرَوْن ذلك فى غاية الرِّفعة ونهاية التعظيم حتّى فى الخلفاء والمُلُوك : فيقال : أبو فُلان فُلانٌ ، وبالَغُوا فى ذلك حتّى كَنَّوْا من ٱسمُه فى الأصل كُنْيةٌ فقالوا فى أبى بكر «أبو المَناقِب» ٱعتناءً بشأن الكُنْية ؛ وربما وقف الأمرُ فى الزمنِ القديم فى تكنِيَة خاصَّة الخليفة وأمرائه علىٰ ما يكَنِّيه به الخليفةُ ، فيكون له فى الرِّفْعة منتهًى ينتهى إليه ؛ ثم رجع أمرُهم بعد ذلك إلىٰ التعظيم بالألقاب . علىٰ أن التعظيم بالكُنىٰ باقٍ فى الخلفاء والمُلُوك فَمَنْ دُونَهم إلىٰ الآنَ علىٰ ما ستقف عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ ، وكذلك القُضاةُ والعلماء ، بخلاف الأُمراء والجُنْد والكُتَّاب ، فإنه لاعِنايةَ لهم بالتكَنِّى .

ثم لا فرق فى جواز التكنِّى بين الرجال والنساءِ، فقد كانت «عائشةُ» أمُّ المؤمنين رضى الله عنهـا تكنَّتْ «بأمِّ عبدِ الله» وكذلك غيرُها من نساء الصحابةِ والتابعـين كان لهنَّ كُنًى يكْتَنِينَ بها .

النــــوع الثـانى

(كُنىٰ أهل الكُفْر والفَسَقة والمبتدِعين)

قال النووىّ : والكافِرُ والفاسقُ والمبتـدِعُ إن كان لا يُعْرَف إلا بالكُنْية جاز تكْنِيَتُه . قال تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وآسمه عبدُ العُزّىٰ، قيـل : إنه ذكر تكْنِيَتَه لكونه كان لا يُعْرَف إلا بها، وقيل : كراهةً لأسمه حيثُ جُعِل عبدًا للصَّنَم؛ وقد تكرر فى الحديث ذكْرُ أبى طالبٍ بكنيته ، وآسمه عبـدُ مَنَاف . وفى الصحيح أنه صلّى الله عليه وسلم «لَمَّا مَرّ بأرضِ الحِجْر من الشأْم ، قال هذا قَبْرُ أبِى رِغَالٍ» لعاقرِ الناقةِ من قومِ ثَمُودَ . قال : وكذلك إذا خِيف من ذكره باسمِه فِتنةٌ، كما ثبت فى الصحيحين «أن رسولَ اللهِ صلّى الله عليه وسلم رَكِبَ علىٰ حِمَارٍ ليعُودَ سَعْدَ بنَ عُبَادةَ رضى الله عنه، فمَرّ فى طَرِيقه علىٰ عبدِ الله بنِ أُبَيٍّ ابنِ سَلُولَ المنافِقِ ، وما كان من بَذَاءتِه علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم حِينَ مَرّ عليه ، وأن النبيّ صلّى اللهُ عليه وسـلم سار حتّى دخل علىٰ سَـعْدِ بنِ عُبادةَ ـ فقال النبيّ صلى الله عليه وسـلم : ألم تَسْمَعْ إلى ماقال أبو حُبَابٍ ؟ (يريدُ عبدَ الله بنَ أبيٍّ آبنَ سَلُولَ) قال كذا وكذا . وذكر الحديثَ . قال : فإن كان يُعْرَف بغير الكُنْية ولم تُخَفْ فتنةٌ لم يُزَدْ علىٰ الأسم كما ثبت فى الصحيحين أن النبيَّ صـلى الله عليه وسـلم كتَبَ «من محمدٍ عبدِ الله ورسولِه إلىٰ

هِرَقْل » فسمّاه باسمه ولم يكنّه ولا لقّبه بملك الرّوم . قال : ونظائر هذا كثيرة ، وقد أُمِرْنا بالإغلاظ عليهم ، ولا ينبغي لنا أن نكنّيهم ، ولا نَرْفُق بهم ، ولا نُلِين لهم قولا ، ولا نُظْهِر لهم وُدّا ولا مُؤالَفة .

الجملة الثانية

(فيما يُكْنَى به ، وهو على نوعين)

النوع الأوّل

(كُنَى الرجال ، ولها حالان)

الحال الأول — أن يكون للرجل ولدٌ أو أولادٌ . قال النوويّ : فإن كان له ولدٌ يُكَنَّى به ، ولا فرقَ في ذلك بين أن يكون الولد ذكرًا أو أنثى ، فيجوز تكنية الرجل بأبي فلانةَ كما يجوز بأبي فلان . فقد تكنّى جماعةٌ من أفاضل السّلَف من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم بأبي فلانةَ ، فمن الصحابة أبو لَيْلَى : والدُ عبد الرحمن بن أبي لَيْلَى ، وأبو فاطمةَ الليثيُّ ، وأبو مَرْيَمَ الأزديُّ ، وأبو رُقَيَّةَ تَمِيمٌ الداريُّ ، وأبو زُرْعة المِقْدادُ بن معدِى كرِبَ . ومن التابعين أبو عائشةَ مَسْروقُ بن الأجْدَع وخلائقُ لا يُحْصَوْن . وإن كان له أولادٌ يكنّى بأكبرهم : فقد كان النبيّ صلى الله عليه وسلم يُكَنَّى بأبي القاسم ، وكان القاسمُ أكبرَ بنيه .

وفي سُنَنِ أبي داودَ والنَّسائىّ عن شُرَيْحٍ الحارثىّ أنه وَفَد على رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم مع قَوْمِه فسَمِعهم يُكَنُّونه بأبي الحَكَم ، فدعاه رسولُ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم فقال : إنَّ اللهَ هو الحَكَمُ وإليه الحُكْم ! فلِمَ تُكَنَّى أبا الحَكَم ؟ — فقال : إنَّ قومي

اختلفوا فى شىء فأتونى فحكمت بينهم فرضى كلا الفريقين ـ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما أحسن هذا ! فما لك من الولد؟ ـ قال : شريح، ومسلم، وعبد الله ـ قال : فمن أكبرهم ؟ ـ قال ـ شريح ـ قال : فأنت أبو شريح »

فلو تكنى بغير أولاده فلا بأس به قاله النووى . ثم قال : وهـذا الباب واسع لا يحصى من يتصف به .

وقد اختلف فى جواز التكنى بأبى القاسم : فنص الشافعى رضى الله عنه على أنه لا يجوز التكنى بذلك مطلقا، لما ورد أنه صلى الله عليه وسلم قال «تسموا باسمى ولا تكتنوا بكنيتى» . وذهب ذاهبون إلى تخصيص ذلك بحياته صلى الله عليه وسلم احتجاجا بأن المنع فيـه كان لعلة : وهى أن اليهود كانوا ينادون ياأبا القاسم ! فإذا التفت النبى صلى الله عليه وسلم قالوا : لم نعنك ، قصدا لإيذائه صلى الله عليه وسلم وقد زالت هـذه العلة بوفاته صلى الله عليه وسـلم ، واختاره النووى من أصحابنـا الشافعية . وذهب آخرون إلى تخصيص المنع بما إذا جمع لواحد بين الاسم والكنية، بأن يتسمى محمدا و يتكنى بأبى القاسم، بخلاف ما إذا لم يكن اسمه محمدا فإنه يجوز، وهو وجه قوى .

الحال الثـانى ـ أن لا يكون للرجل ولد بأن لم يولد له ولد اصـلا ، قال النووى : فيجوز تكنيته حتى الصـغير . ففى الصحيحين عن انس بن مالك رضى الله عنه قال : « كان النبى صلى الله عليـه وسلم أحسن الناس خلقا، وكان لى أخ يقال له أبو عمير (قال الراوى) : أحسـبه فطيما ، وكان النبى صلى الله عليه وسـلم إذ اجاء يقول ياأبا عمير ، ما فعل النغير ؟ لنغير كان يلعب به » . قال النووى : وكان من الصحابة رضوان الله عليهـم جماعات لهم كنى قبـل ان يولد لهم ،

كأبى هريرةَ وخلائقَ لا يُحْصَوْن من التابعين فمن بعدهم . قال : ولا كراهةَ فيه بل هو محبوب بشرطه .

وآعلم أن الرجل قد يكون له كُنيتانِ فأ كثرُ ، فقد كان لأمير المؤمنين عثمانَ بن عفّانَ رضى الله عنه ثلاثُ كُنًى : أبو عَمْرو، وأبو عبد الله، وأبو لَيْلَىٰ .

النــــوع الثــانى
(كُنىٰ النساء)

والحال فيه أنه إن كان للمرأةِ ولدٌ تكنَّتْ به ذكرا أو أنثىٰ ، كما تقدّم فى الرجل . وإن كان لهـا أولاد تكنَّتْ بأ كْبَرِهم مع جواز الكُنْية بغـير أولادِها كما فى الرجل أيضا . قال النووىّ : ويجوز تكنِيَتُها ولو لم يُولَدْ لها، ففى سُنَنِ أبى داودَ وغيره بأسانيدَ صحيحةٍ عن عائشــةَ رضى الله عنهــا قالت : « يارسولَ اللهِ كُلُّ صَوَاحِبى لَهُنّ كُنًى ، قال : فا كْتَنِي بابْنِك عَبْدِ اللهِ ـ يعنى عبدَ الله بنَ الزُّبير، وهو آبن أختها أسمـاءَ، وكانت عائشةُ رضى الله عنها تكنىٰ أمَّ عبدِ الله» قال : هـذا هو الصحيح المعروف . وما رواه آبن السنىّ عن عائشة أنها قالت «أَسْقَطْتُ من النبىّ صلى الله عليه وسـلم سِقْطا فسمَّاه عبدَ الله » فحديث ضعيف . ثم كما تجوز تكنيةُ الرجل بأبى فلانة، يجوز تكنية المرأة بأُمِّ فلانةَ من باب أوْلىٰ .

الجمـــــــلة الثـالثة

(فى التكنّى فى المكاتبـات والوِلايات)

فأما الكُنْية فى المكاتبات فعلى ثلاثة أنواع :

النوع الأوّل

(تكنّى المكتوبِ عنـــه)

قال محمد بن عمر المداينى فى كتاب "القلم والدواة" : أوّلُ من اكتنى فى كُتُبه «الوليدُ بنُ عبد الملك» . قال النووىّ فى "الأذكار" : والأدبُ أن لايذْكُر الرجلُ كنيتَه فى كتابه ولا فى غيره إلا أن لايُعْرف إلا بكُنْيته، أو كانت الكنية أشهَرَ من اسمه . وقال أبو جعفر النحاسُ : إذا كانت الكنيةُ أشهرَ، يكنَّى على نظيره ويسمّى لمَنْ فوقَه ثم يُلْحَقُ «المعروفَ أبَا فُلانٍ، أو بأبِى فُلانٍ» .

ثم الكنية من المكتوب عنـه قد تكون فى صَـدْر الكتاب كما يُكْتَب عن الخلفاء « من عبد الله ووَلِيِّه أبِى فلانٍ فلانٍ أميرِ المؤمنـين » أو فى موضع العَلَامة كما يكتب فى الطغراة من السـلطان لملوك الكُفْر بعـد سِيَاقةِ ألقـاب السـلطان « أبو فُلانٍ فلانٌ » أو فى العُنْوان كما كان يكتب فى المصطلَح القديم «من أبِى فلانٍ فلان إلى فُلانٍ » .

النوع الثانى

(تَكْنِيَة المكتوب إليـــه)

وبه كان الاعتناء فى الزمن المتقدِّم لا سيَّما إذا كان المكتوبُ إليه ممَّن يَسْتحِقُّ التعظيمَ بالتكنِيَة . وكنيةُ المكتوبِ إليــه(١) تارةً تكون فى عُنْوان الكتاب كما يُكْتَب « إلىٰ أبى فُلانٍ فُلان » وتارة تكون فى صَــدْر الكتاب كما كان يكتب « من فُلان إلىٰ أبى فُلانٍ فُلانٍ » .

النوع الثــالث

(تكنيةُ المكتوب بسببه)

وهى تارةً تذكر فى طُـرَّة الكتاب فيقــال فيمن قُصِــد تعظيمه « بمـا قصـــده أبُو فلان فُلان » واستعماله قليل . وتارة تذكر فى أثناء الكتاب حيث يجرى ذكرُه .

وأما الكنية فى الولايات فلها محلان :

أحدهما ــ فى طُرَّة الولاية ، حيث يقال : «عَهْد شريف [لأبى فُلانٍ](٢) فُلان» أو «تقليدٌ شريفٌ بأن يُفوّض إلىٰ [أبى فلانٍ](٢) فُلان» .

والثانى ــ فى أثناء الولايات حيثُ يجرِى ذكرُه علىٰ ماسيأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى الأصل عنه ، وهو غير مناسب ، والتصحيح عن الضوء للؤلف .

(٢) الزيادة عن الضوء .

الفصـــل الثانى

من البـاب الأوّل من المقـالة الثـالثة

(فى الألقاب، وفيه طرفان)

الطَّرَف الأوّل

(فى أصول الألقاب، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى معنى اللَّقَب والنَّعْت، وما يجوز منه و يمتَنِـع)

أما اللقب فأصلُه فى اللغة النَّـبَزُ ـ بفتح البـاء . قال ابن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" : والنَّبَز مايخاطِبُ به الرجلُ الرجلَ من ذكر عيوبه وما سَتْره عنده أحبُّ إليه من كَشْفه، وليس من باب الشَّتْم والقَذْف .

وأما النعتُ فأصله فى اللغة الصِّفَة . يقال : نعتَه يَنْعَتُـه نَعْتا إذا وصَفَه . قال فى "ذَخيرة الكُتَّاب" : وهو مُتَّفَق علىٰ أنه ما يختاره الرجل ويُؤْثِره ويزيد فى إجلاله ونَبَاهتـه، بخلاف اللَّقب . قال : لكن العامَّةُ ٱستعملت اللقبَ فى موضع النَّعْت الحَسَن، وأوقعوه مَوْقعَه لكثرة ٱستعمالهمْ إيَّاه، حتّٰى وقع الاتِّفاق والاصطِلاحُ علىٰ استعماله فى التشريف والإجْلال والتعظيم والزيادةِ فى النَّباهة والتَّكرِمة .

قلت : والتحقيق فى ذلك أن اللَّقَب والنعت يُستعملانِ فى المَدْح والذمِّ جميعا : فمن الألقاب والنُّعوت ماهو صـفةُ مدحٍ ومنها ما هو صـفةُ ذمٍّ . وقد عرَّفت النحاةُ اللقبَ بأنه ما أدّىٰ إلىٰ مَـدْح أو ذمٍّ ؛ فالمؤدِّى إلىٰ المدح كأميرِ المؤمنين ،

وزَيْنِ العابِدين ، والمؤدّى إلى الذمّ كأنْف الناقة وسعيد كُرْز وما اشبه ذلك . والنعتُ تارةً يكون صفةَ مدح ، وتارةً يكون صفةَ ذمٍّ ، ولا شكَّ أن المراد هنا من اللقَب والنَّعْت ما أدّى إلى المدح دُونَ الذمِّ . وقد آصطلح الكُتَّاب على ان سَمَّوْا صِفاتِ المدح التى يُوردونها فى صُدور المُكاتبات ونحوها بصيغة الإفراد كالأميرِ والاميرىّ والأجلّ والأجلّىّ والكَبِير والكَبِيرىّ ونحو ذلك ألقاباً ، وصِفاتِ المدح التى يُورِدُونها على صورة التركيب كسَيْف أمير المؤمنين وظَهِير الملوك والسَّلاطين ونحو ذلك نُعوتًا ، ولا معنى لتخصيص كلٍّ واحدٍ منهما بالأسم الذى سَمَّوْه به إلا مجرّدُ الأصطلاح ، ولا نزاع فى إطلاق اللقَب والنعْتِ عليهما باعتبارين : فمن حيث إنها صفاتٌ مؤدّيةٌ إلى المدح يُطْلَق عليها آسمُ اللقَب ، ومن حيث إنها صفاتٌ لذواتٍ قائمةٌ بها يطْلَق عليها آسمُ النعْتِ .

وأما مايجوز من ذلك ويمتنع ، فالجائز منه ما أدّى إلى المَدْح مما يحبُّه صاحبه ويُؤْثِره ، بل ربما آستُحِبَّ ، كما صرح به النووىّ فى «الأذكار» للإطباق على آستعماله قديمًا وحديثًا . والممتنع منه ماأدّى إلى الذمّ والنَّقِيصة مما يكْرَهه الإنسان ولا يُحِبُّ نسبتَه إليه . قال النووىّ : وهو حرام بالأتفاق ، سواء كان صفةً له : كالأعْمَش ، والأجْلَح ، والأعمى ، والأحْوَل ، والأبْرَص ، والأشَجّ ، والأصْفَر ، والأحْدَب ، والأصَمّ ، والأزْرَق ، والأشْتَر ، والأثْرَم ، والأقْطَع ، والزَّمِن ، والمُقْعَد ، والأشَلّ ، وما أشبه ذلك . أو كان صفة لأبيه : كابنِ الأعمى ، أو لأمّه : كابن الصَّوْراء ونحو ذلك مما يكرهه قال تعالى : ﴿ولا تَنابَزُوا بِالأَلْقابِ بِئْسَ الأِسْمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ﴾

قال : وٱتفقوا علىٰ جواز ذكره بذلك علىٰ جهةِ التعريفِ لِمَنْ لايَعْرِفه إلا بذلك ؛ ودلائلُ ذكره كثيرةٌ مشهورة ، وهو أحدُ المواضع التى تجوزُ فيها الغِيبَةُ .

الجمـــلة الثـانية

(فى أصل وضع الألقابِ والنُّعوت المؤدِّيةِ إلىٰ المَدْح)

وٱعلم أن ألقـاب المَدْح ونُعوتَه لم تزل واقعـةً علىٰ أشراف الناس وجِلَّة الخَلْق فى القديم والحديث ؛ فقد ثبت تلقيبُ إبراهيم عليه السلام بـ«الخَلِيل» وتلقيبُ موسىٰ عليه السلام بـ«الكَلِيم» وتلقيبُ عيسىٰ عليه السلام بـ«المَسِيح» وتلقيبُ يونُس عليه السلام بـ«ذِى النُّون» وكان النبىّ صلى الله عليه وسلم يلقَّب قبل البعثة بـ«الأَمِين» ووردت التواريخ بذكر ألقابِ جماعةٍ من العرب فى الجاهليَّة : كذِى يَزَن ، وذى المَنَار ، وذى نُوَاس ، وذى رُعَيْن ، وذى جَدَنٍ ، وغيرهم ممـا هو مشهورٌ شائع . وكذلك وقعت ألقابُ المَـدْح علىٰ كثيرٍ من عُظَماء الإسـلام وأشرافِهِ كالصحابة رضوانُ الله عليهم فَمَنْ بَعدَهم من الخُلَفاء والوُزَراء وغيرهم : فكان لقبُ أبى بكر «عَتِيقًا» ثم لُقِّب بـ«الصِّدّيق» بعـد ذلك ، ولَقَبُ عُمَر « الفـاروقَ » ولقَبُ عثمانَ « ذا النُّورَيْن » ولقب علىٍّ «حَيْدَرَة» ولقبُ حمزةَ بنِ عبدالمطلب «أسدَالله» ولقبُ خالدِ بنِ الوليد «سيفَ الله» ولقبُ عَمْرو بن عمرو (١) «ذا اليدَيْنِ» ولقبُ مالك بن التَّيِّهان الأنصارىّ «ذا السَّيْفَيْنِ» ولقبُ خزيمةَ بنِ ثابت الأنصارىّ «ذا الشَّهادتَيْنِ» ولقب جَعْفَر بن أبى طالب بعد ٱستشهاده «ذا الجَنَاحَيْنِ» .

وأما الخُلَفاء ، فخلفاء بنى أُمَيَّة لم يتلقبْ أحدٌ منهم ، فلما صارت الخلافةُ إلىٰ بنى العَبَّـاس وأُخِذت البيعةُ لإبراهيم بن محمدٍ ، لُقِّب بـ«الإمام» ثم تلقب مَنْ بعده من

---

(١) فى كتب اللغة والحديث أن اسمه الخرباق فلعل فيه خلافا .

خلفائهم : فتلقّب محمدُ بن عليّ بـ«السَّفّاح» لكثرة ماسفح من دماء بنى أُمَيّة .
وآختُلِف فى لقبه بالخلافة : فقيل «القائم» وقيل «المهتدى» وقيل «المرتضى»
وألقابُ الخُلفاء بعده وإلى زماننا معروفة مشهورة علىٰ مامرّ ذكره فى المقالة الثانية .
وعلىٰ ذلك كانت ألقابُ خلفاء بنى أُمَيّة بالأندلس إلىٰ حين آنقراضهم علىٰ ما هو
مذكور فى مكاتبة صاحب الأندلس ، علىٰ ماسيأتى فى المكاتبات فى المقالة الرابعة
إن شاء اللهُ تعالى .

ثم تعدّت ألقابُ الخلافة إلىٰ كثير من ملوك الغرب بعد ذلك ، وتلا الخلفاءَ
فى الألقاب الوزراءُ لآستقبال الدولة العباسيّة وما بعد ذلك : فلُقِّب أبوسلمة الخَلّالُ
وزيرُ السَّفّاح بـ«وزير آل محمد» ولَقّب المهدىُّ وزيره يعقوبَ بن داودَ بن طَهْمان
«الأخ فى الله» ولَقّب المأمونُ الفضلَ بنَ سهل حين آستوزره «ذا الكِفايَتَيْن»
ولَقّب أخاه الحسنَ بن سَهْل «ذا الرِّياستَيْن» ولقّب المعتمدُ علىٰ الله وزيره صاعِدَ
آبنَ مخلد «ذا الوزارتَيْن» إشارة إلىٰ وزارة المعتمد والموفّق ؛ وكان لقبُ إسماعيل
آبن بلبل الشكور «الناصرَ لدين الله» كألقاب الخلفاء .

وكذلك وقع التلقيبُ لجماعة من أرباب السُّيوف وقُوّاد الجيوش : فتلقب
أبو مُسْلم الخُراسانيّ صاحبُ الدَّعوة بـ«أمير آل محمد» . وقيل «سَيْف آل محمد»
وتلقب أبو الطيِّب طاهرُ بن الحسين بـ«ذى اليَمِينَيْن» ولَقّب المعتصمُ بالله حيدَرَ
آبن كاووس بـ«الأَفْشِين» لأنه أُشْرُوسَنِيٌّ ، والأَفْشِينُ لقبٌ علىٰ المَلِك بأُشْرُوسَنَة
ولُقِّب إسحاق بن كيداج أيامَ المعتمد بـ«ذى السَّيفين» ولُقِّب مُؤْنِس فى أيام
المقتدر بـ«المظفَّر» ولُقِّب سلامةُ أخو نُجْح أيام القاهر بـ«المؤتَمَن» ولُقِّب أبو بكر
آبن محمد بن طُغْج(١) الراضى بالله بـ«الأَخْشِيد» والأَخْشيد لَقَبٌ علىٰ الملك بفَرْغانة .

(١) معنى طغج عبد الرحمن كما فى آبن خلكان .

ثم وقع التلقيب بالإضـافة إلى الدَّوْلة فى أيام المكتفِى بالله : فلَقَّب المكتفى أبَا الحُسَيْنِ بنَ القاسم بنِ عُبَيْد الله «وَلِيَّ الدولة»، وهو أوّل من لُقِّب بالإضافة إلى الدولة، ولَقَّب المقتدرُ بالله علىَّ بنَ أبى الحسين(١) المتقدّم ذكره «عَمِيدَ الدولة».

ووافت الدولة البُوَيْهِيَّة أيام المُطِيع لله والأمرُ جارٍ على التلقيب بالإضافة للدولة، فافتُتِحت ألقاب المُلوك بالإضافة إلى الدولة، فكان أوّلَ من لُقِّب بذلك من الملوك بَنُو بُوَيْه الثلاثة : فلُقِّب أبو الحسن علىّ بن بُوَيْه بـ«عِمَاد الدولة» ولقِّب أخوه أبو علىّ الحسنُ بـ«رُكْن الدولة» وأخوهما أبو الحُسَين أحمدُ بـ«مُعِزّ الدولة» ثم وافى «عضُد الدولة» من بعدهم فاقترح أن يلَقَّب بـ«تاج الدَّوْلة» فلم يُجَبْ إليه وعُدِل به إلى «عَضُد الدولة»؛ فلما بذل نفْسه للمعاونة على الأتراك، اختار له أبو إسحاق الصابى صاحبُ ديوان الإنشاء «تاجَ المِلَّة» مضافا إلى عَضُد الدولة؛ فكان يقال «عَضُد الدولة وتاجُ المِلَّة» ولُقِّب أبو محمد الحسنُ بنُ حَمْدانَ أيامَ المتقى لله «ناصِرَ الدولة» ولُقِّب أخوه أبو الحسن علىُّ بنُ حَمْدان «سَيْفَ الدولة».

وبقِىَ الأمرُ على التلقيب بالإضافة إلى الدولة إلى أيام القادر بالله فافتتَح التلقيبُ بالإضافة إلى الدين . وكان أوّلَ مَنْ لقِّب بالإضافة إليه أبو نَصْر بهاءُ الدولة بنُ عَضُد الدولة بنِ بُوَيه، زِيدَ على لقبه بهاءِ الدولة «نِظامُ الدِّين» فكان يقال «بهاءُ الدولة ونِظَام الدِّين» قال ابن حاجب النعمان : ثم تزايد التلقيبُ به وأَفْرَط، حتّى دخل فيه الكُتَّاب والجُنْد والأعرابُ والأكراد، وسائرُ من طَلَب وأراد، وكره (؟) حتّى صار لقبا على الأصل . ولا شك أنه فى زماننا قد خرج عن الحدّ

---

(١) لم يذكر فى الضوء لفظ الاب فى المحلين .

حتى تعاطاه أهل الأسواق ومَنْ فى معناهم ، ولم تَصِر به مِيزة لكبير على صغير ، حتى قال قائلهم :

طَلَعَ الدِّينُ مستغيثًا إلى اللهِ* وقال : العِبادُ قد ظَلَمُونى !

يَتَسَمَّوْن بى ، وحقك لا أعـ*ـرِفُ مِنْهُمْ شخصًا ولا يَعرِفُونى !

أما الديارُ المِصرية فكان جريهم فى الألقاب على ما ينتهى إليهم خبرُه من ألقاب الدولة العباسيَّة ببغدادَ ، فتلقب خلفاءُ الفاطميين بها بنحو ألقاب خُلَفاء بنى العبَّاس ببغداد ، فكان لقبُ أوّل خلفائهم بها «المعِزّ لدين الله» وثانيهم بها «العزيز بالله» وعلى ذلك إلى أن كان لقبُ آخرهم «العاضِد لدين الله» على ما تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على مُلُوك الديار المِصْرية .

وتلقَّب وُزراؤهم وكُتَّابهم بالإضافة إلى الدولة ؛ وممن لُقِّب بذلك فى دولتهم «وَلِىّ الدولة » بنُ أبى كُدَيْنة وزيرُ المستنصر ، وأيضا « ولىُّ الدولة » بنُ خَيْران كاتبُ الإنشاء المشهور . ولما صارت الوزارة لبدر الجمالىّ تلقَّب بـ«أمير الجُيُوش» . ثم تلقب الوُزَراء بعده بنحو « الأفْضَل » و « المأمُون» . ثم تلقبوا بالمَلك الفُلانىّ ، كـ« الملك الأفْضل » و « الملك الصالح » ونحو ذلك على ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

وكان الكُتَّاب فى أواخر الدولة الفاطميَّة إلى أثناء الدولة الأيُّوبيَّة يلقَّبُون بـ«الفاضل » و «الرَّشيد » و « العِمَاد» وما أشبه ذلك ؛ ثم دخلوا فى عموم التلقيب بالإضافة إلى الدين ، وآختص التلقيب بالإضافة إلى الدولة كولىّ الدولة بكُتَّاب النصارى ، والأمرُ على ذلك إلى الآنَ .

الطرف الثانى

(فى بيان معانى الألقاب، وفيه تسعُ جملٍ)

الجمــــلة الأولىٰ

(فى الألقابِ الخاصَّة بأرباب الوظائف المعتَبَرة التى بهـا ٱنتظامُ أمور المملكة وقَوامُها، وهى قسمان)

القســـم الأوّل

(الألقابُ الإسلاميَّة، وهى نوعان)

النـــوع الأوّل

(الألقاب القديمةُ المتداوَلة الحُكْم إلىٰ زماننا، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(ألقاب أرباب السيوف، وهى سبعةُ ألقاب)

الأوّل ـــ الخليفةُ. وهو لَقَبٌ علىٰ الزعيم الأعظم القائِم بأمور الأُمَّة، وقد ٱختُلِف فى معناه، فقيل: إنه فَعِيلٌ بمعنىٰ مفعول، كجَرِيح بمعنىٰ مَجْروح، وقَتِيل بمعنىٰ مَقْتول ويكون المعنىٰ أنه يَخْلُفه مَنْ بعده، وعليه حمل قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ علىٰ قول من قال: إن آدم عليه السلام أوّلُ من عَمَر الأرضَ وخَلَفه بَنُوه من بعده. وقيل: فَعِيل بمعنىٰ فاعل، ويكون المراد أنه يَخْلُف من بعده(1)، وعليه حمل الآية من قال إنه كان قبلَه فى الأرض الجِنُّ وإنه خَلَفهم فيها، وٱختاره النَّحَّاس

(1) كذا فى الضوء أيضا وفى نسخة أخرى والأظهر من قبله.

في "صناعة الكُتّاب" : وعليه ٱقتصر البَغَوىّ في "شرح السُّنّة" والماوَرْدىّ في "الأحكام السُّلْطانية" . قال النحّاس : وعليه خُوطِب أبو بكر الصِّدّيق رضى الله عنه بخليفةِ رسولِ الله .

وقد أجازوا أن يُقال في الخليفة « خَليفةُ رسوُل الله » لأنه خَلَفه في أُمَّته . وٱختلَفُوا هل يجوز أن يُقال فيه خَليفةُ الله : فجوّز بعضُهم ذلك لقيامه بحقوقه في خَلْقه محتجِّين بقوله تعالى : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾ وامتنع جُمْهورُ الفقهاء من ذلك محتجِّين بأنه إنما يَسْتَخْلِف من يَغيب أو يموتُ واللهُ تعالى باقٍ موجود إلى الأبَد لايَغيب ولا يموتُ . ويؤيِّد مانُقِل عن الجمهور بما رُوى أنه قيل لأبى بكرٍ رضى الله عنه : ياخليفَةَ الله ـ فقال : لَسْتُ بخَليفةِ اللهِ ولكنّى خليفةُ رسولِ اللهِ ، وقال رجل لعمَرَ بنِ عبد العزيز : ياخليفَةَ اللهِ ـ فقال : وَيْلَكَ ! لقد تَناوَلْتَ مُتناوَلًا بَعيدا ! إنّ أُمّى سَمَّتْنِى عُمَرَ ، فلو دَعَوْتَنِى بهذا الاسم قَبِلْتُ ، ثم كَبِرت فكُنِّيتُ أباحَفْصٍ ، فلو دَعَوْتَنِى به قَبِلْتُ ، ثم وَلَّيْتُمُونِى أُمورَكم فسَمَّيْتُمونى أميرَالمؤمنين ، فلو دَعَوْتَنِى به كفاك . وخصّ البغوىُّ جوازَ إطلاقِ ذلك بآدمَ وداودَ عليهما السلام ، محتجًّا بقوله تعالى في حق آدم : ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وقوله في حَقِّ داود : ﴿يادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ﴾ ثم قال : ولا يسمَّى أحدٌ خليفةَ الله بعدهما . قال في "شرح السنّة" : ويسمَّى خليفةً وإن كان مخالفا لسيرة أئمة العَدْل .

ثم قد كَرِه جماعةٌ من الفقهاء منهم « أحمدُ بنُ حنبل » إطلاقَ ٱسم الخليفةِ على ما بعدَ خلافةِ « الحسنِ بنِ علىّ » رضى الله عنهما فيما حكاه النحاسُ وغيره ، محتجِّين بحديث «الخِلافَةُ بَعْدِى ثَلاثُونَ» يعنى ثلاثين سنة ، وكان ٱنقضاءُ الثلاثين بانقضاء

خلافة الحَسَن، ولما ٱنقضت الخلافةُ صارت مُلْكا . قال المعافىٰ بن إسماعيل فى تفسيره : وقد رُوى أن عُمَرَ بن الخطاب رضى الله عنه سأل طلحةَ والزُّبَيْرَ وكَعْبا وسَلْمانَ عن الفَرْق بين الخَليفة والمَلِك ـ فقال طلحةُ والزبير لانَدْرِى ـ فقال سَلْمانُ : الخليفةُ الذى يَعْـدل فى الرعيَّه، ويَقْسِم بينهم بالسَّوِيَّه، ويُشْفِق عليهم شَفقةَ الرجل علىٰ أهله والوالدِ علىٰ وَلَده، ويقضِى بينهم بكتابِ الله تعالىٰ ـ فقال كعب : ماكُنْتُ أحْسَب أن فى هذا المجلِس مَنْ يُفَرِّق بين الخليفة والمَلِك، ولكنَّ الله ألهم سَلْمانَ حُكْما وعِلْمـا ! .

وٱختُلِف فى الهـاء فى آخره : فقيـل أُدْخلت فيه للمبالغــة كما أُدْخلت فى رجلٍ داهيــةٍ وراوِيَةٍ وعَلَّامة ونَسَّابة وهو قول الفَرَّاء، وٱستحســنه النحاسُ ناقلا له عن أكثر النحويين وخَطَّأه علىُّ بنُ سـليمانَ محتجًّا بأنه لو كان كذلك لكان التأنيثُ فيـه حقيقيًّا . وقيـل : الهـاء فيه لتأنيث الصِّـيغةِ . قال النحاس : وربمـا أسقطُوا الهـاءَ منه وأضافُوه فقالوا «فلانٌ خَلِيفُ فلانٍ» يعنون خليفتَهُ .

ثم الأصل فيه التذكيرُ نظرا للمعنىٰ لأن المراد بالخليفــة رجلٌ وهو مذكَّر ، فيقال أمر الخليفةُ بكذا علىٰ التذكير، وأجاز الكوفيُّون فيه التأنيثَ علىٰ لفظِ خليفــةٍ فيقال أمرتِ الخليفةُ بكذا، وأنشد الفرَّاء .

* أَبُوكَ خَليفةٌ ولَدَتْه أُخْرىٰ *

ومنعه البَصْريون محتجين بأنه لو جاز ذلك لجاز قالتْ طلحةُ فى رجل اسمه طلحةُ وهو ممتنع . فإن ظهر ٱسمُ الخليفة تعين التذكيرُ باتِّفاق فتقول قال أبُو جعفرٍ الخليفةُ او قال الراضى الخليفةُ ونحو ذلك . ويَجمَعُ علىٰ خُلَفَاء ككريم وكُرَماءَ، وعليه ورد قوله تعـالىٰ : ﴿ وَٱذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾ وعلىٰ خَلائِف كصحيفةٍ

وصحائف ، وعليه جاء قوله تعالىٰ : ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ﴾ والنسبة إليه خلفىّ كما ينسب إلىٰ حنيفة حنفىّ . وقول العامة درهم خليفتىّ ونحوه خطأ ، إذ قاعدةُ النسب أن يحذف من المنسوب إليه الياء وهاء التأنيث علىٰ ما هو مقرّر فى علم النحو . وممن وَهِم فى ذلك المقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله رحمه الله فى كتابه "التعريف" حيث قال : وأوّل مانبدأ بالمكاتبة إلىٰ الأبواب الشريفة الخليفتيّة ، ولعله سبقُ قلم منه ، وإلا فالمسألة أظهرُ من أن يجهلها أو تخفىٰ عليه .

الثانى — المَلِك . وهو الزّعيم الأعظمُ ممن لم يُطلَق عليه ٱسمُ الخلافة ، وقد نطق القرءانُ بذكره فى غير موضعٍ كما فى قوله تعالىٰ : ﴿إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾ ﴿وقالَ المَلِكُ ائْتُونِى بِهِ﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات . ويقال فيه مَلِك بكسر اللام ومَلْك بإسكانها ومَلِيك بزيادةِ ياء ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ قال الجوهرىّ : والمَلْك مقصورٌ من مالك أو مَليك ، ويجمع علىٰ مُلوك وأمْلاك . ويقال لموضع المُلْك المَمْلَكة .

الثالث — السُّلطان . وهو ٱسمٌ خاصٌّ فى العُرف العامّ بالملوك . ويقال : إن أوّل من لُقِّب به « خالدُ بنُ برْمَك » وزيرُ الرشيد ، لقّبه به الرشيدُ تعظيما له ، ثم ٱنقطع التلقيب به إلىٰ أيام بنى بُوَيْه فتلقب به مُلوكُهم فمَنْ بعدهم من الملوك السَّلاجِقة وغيرهم وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا .

وأصلُه فى اللغة الحُجّة قال تعالىٰ : ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ من سُلْطان﴾ يعنى من حُجّة . وسُمّى السلطان بذلك لأنه حُجّة على الرعية يجب عليهم الٱنقيادُ إليه .

وٱختُلِف فى ٱشتقاقه : فقيل إنه مشتقٌّ من السَّلاطة وهى القهر والغَلَبة : لقهره الرعيةَ وٱنقيادِهم له ، وقيل مشتقٌّ من السَّليط : وهو الشَّيْرَجُ فى لغة اهل اليمن

لأنه يُستضاءُ به في خَلَاص الحقوق ، وقيل من قولهم لسانٌ سَلِيط أي حادّ ماضٍ لمضيّ أمره ونُفوذِه . وقال محمد بن يزيدَ البَصْريّ : السُّلْطانُ جمعٌ واحده سليط كقَفِيزٍ وقُفْزانٍ ، وبَعِيرٍ وبُعْرانٍ .

وحكىٰ صاحب "ذخيرة الكُتَّاب" : أنه يكون واحدًا ويكون جمعا ، ثم هو يُذَكَّر علىٰ معنىٰ الرجل ، ويؤنَّث علىٰ معنى الحُجَّة . وحكىٰ الكسائيُّ والفرَّاءُ علىٰ التأنيث عن بعض العرب قضَتْ به عليك السلطانُ . قال العسكريّ في كتابه "الفُرُوق" في اللغة : والفرق بينه وبين المَلِك أن الملِكَ يختَصُّ بالزعيم الأعظم ، والسُّلطانَ يُطْلَق عليه وعلىٰ غيره . وعلىٰ ماذكره العسكريّ عُرْف الفقهاء في كتبهم ، إذ يُطْلِقونه علىٰ الحاكم من حيثُ هو حتّى علىٰ القاضي فيقولون فيمن ليس لها وَلِيّ خاصٌّ يزوّجها السلطانُ ونحو ذلك . ومن حيث إن السلطان أعمُّ من الملِك يُقَدَّم عليه في قولهم السلطانُ الملكُ الفلانيّ : ليقع السلطانُ أوّلا علىٰ الملك وعلىٰ غيره ثم يخرج غيرُ الملك بعد ذلك بذكر الملك .

الرابع — الوزير . وهو المتحدّث للمَلِك في أمر مملكته . واختُلِف في اشتقاقه : فقيل مشتق من الوَزَر بفتح الواو والزاي وهو المَلْجأ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴾ سُمِّي بذلك لأن الرعية يَلْجَئُون إليه في حوائجهم ، وقيل مشتق من الأَوْزَار وهي الأمتعة ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ ولٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزارًا من زِينَةِ القَوْمِ ﴾ سمّي بذلك لأنه متقلِّد بخزائن المَلِك وأمتعته ، وقيل مشتق من الوِزْر بكسر الواو وإسكان الزاي وهو الثِّقْل ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ حَتّىٰ تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزارَها ﴾ سمي ذلك لأنه يتحمل أثقال المَلِك ، وقيل مشتق من الأَزْر : وهو الظَّهر ، سمي بذلك لأن المَلِك يقوىٰ بوزيره كقوّة البَدَن بالظهر ، وتكون الواو فيه علىٰ هذا التقدير منقلبةً عن همزة . وقد

أوضحت القولَ فى ذلك فى "النفحات النَّشْرية فى الوزارة البَدْرية" . قال القُضاعى فى "عيون المعارف فى أخبار الخلائف" : وأوّل من لُقِّب بالوِزَارة فى الإسلام أبوسلَمَة : حفصُ بن سلْمان الخلّال وزيرُ السفّاح . قال : وإنما كانوا قبل ذلك يقولون كاتِب . ثم هو إما وَزِيرُ تفويضٍ : وهو الذى يُفَوِّض الإمامُ إليه تدبيرَ الأمور برأيه وإمضاءَها على اجتهاده كما كانت الوُزَراء بالديار المصرية من لَدُنْ وِزَارة بَدْرٍ الجَمَالىّ وإلى حين انقراضها ، وإما وزيرُ تنفيذٍ : وهو الذى يكون وَسِيطا بين الإمام والرَّعايا معتمِدا على رأى الإمام وتدبيره . وهذه هى التى كان أهلُ الدولة الفاطميةِ يعبِّرون عنها بالوَسَاطة . أما الوِزَارة فى زماننا فقد تقاصَرتْ عن ذلك كلِّه حتّى لم يبقَ منها إلا الآسمُ دون الرَّسْم ، ولم تزل الوِزَارةُ فى الدُّوَل تتردّد بين أرباب السيوف والأقلام تارةً وتارةً إلا أنها فى زماننا فى أربابِ الأقلام .

الخامس — الأمير . وهو زعيمُ الجيش أو الناحية ونحو ذلك ممن يولّيه الإمامُ . وأصله فى اللغة ذو الأمْر وهو فعيل بمعنى فاعل فيكون أمير بمعنى آمِر ، سمى بذلك لآمتثال قومه أمره . يقال : أَمَرَ فلان إذا صار أميرا ، والمصدر الإمْرة والإمَارة بالكسر فيهما ، والتأميرُ توليةُ الأَميرِ ، وهى وظيفةٌ قديمة .

السادس — الحاجبُ . وهو فى أصل الوضع عبارةٌ عمن يبلِّغ الأخبارَ من الرعيَّة إلى الإمام ويأخُذُ لهم الإذنَ منه ، وهى وظيفة قديمةُ الوضع كانت لآبتداء الخلافة فقد ذكر القُضاعىّ فى "عيون المَعَارف" لكل خليفة حاجبًا من آبتداء الأمرِ وإلى زمانه : فذكر أنه كان حاجبُ أبى بكرٍ الصدّيق رضى الله عنه « شديدًا » مولاه ، وحاجبُ عمر « يَرْفأ » مولاه ، وحاجبُ عثمانَ « حُمْرانَ » مولاه ، وحاجب علىّ « قُنْبراً » مولاه ، وعلى ذلك فى كل خليفة ، ماعدا الحسنَ بن علىّ رضى الله عنهما فإنه لم يذكر له حاجبًا . وسمّى الحاجب بذلك لأنه يحجُب الخليفةَ أو المَلِكَ عمّن

يدخُل إليه بغير إذن . قال زياد لحاجبه : « وَلَّيتك حِجَـابِي وعَزَلتك عن أربع : هـذا المنادِي إلىٰ اللهِ فى الصلاة والفَلاَح فلا تعُوجَنَّه عنِّي ولا سُلطانَ لك عليـه ، وطارقُ الليـل فلا تحجُبْه فَشَرٌّ مّا جاء به ولو كان خيرًا ما جاء فى تلك السـاعة ، ورسولُ الثَّغْر فإنه إن أبطأ ساعةً أفسد عَمَلَ سنةٍ فأدخِلْه عَلَيَّ وإن كنتُ فى لِحَـافِي ، وصاحبُ الطعام فإن الطعام إذا أُعِيد تسخِينُه فسد » .

ثم تصرَّف الناسُ فى هذا اللقَب ووضَعُوه فى غير موضعه ، حتّٰى كان فى أعقابِ خلافةِ بنى أُمَيَّةَ بالأندلُس ربمـا أُطْلِق علىٰ من قام مَقامَ الخليفة فى الأمر ، وكانوا فى الدولة الفاطميّـة بالديار المصرية يعبِّرون عنـه بصاحبِ البـاب كما سـبق بيانُه فى المقـالة الثانية فى الكلام علىٰ ترتيب دولتهم . اما فى زماننا فإنه عبارةٌ عمن يَقِف بين يدَيِ السلطان ونحوِه فى المواكب ، ليبلِّغ ضَروراتِ الرعية إليه ، ويركب أمامه بعصًا فى يده ، ويتصدّٰى لفَصْل المَظَالم بين المتداعيَيْن خصوصا فيما لاتسوغ الدعوىٰ فيـه من الأمور الدِّيوانية ونحوها . وله ببلاد المغرب والأندلُس أوضاعٌ تخصُّـه فى القديم والحديث ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مكاتباتهم فى المقالة الرابعـة إن شاء الله تعالىٰ .

السابع — صاحبُ الشُّرْطة . بضم الشين المعجمة وإسكان الراء : وهو المعبَّر عنه فى زمانـنا بالوالى ، وتجمع الشُّرْطة علىٰ شُرَطٍ بضم الشين المعجمة وفتح الراء . وفى اشتقاقه قولان : أحدهما أنه مشتقٌّ من الشَّرَط بفتح الشين والراء وهى العَلاَمة ، لأنهـم يجعلون لأنفسهم علاماتٍ يُعرَفون بهـا ، ومنه أشراطُ الساعة يعنى علاماتها ، وقيل من الشَّرَط بالفتح أيضا : وهو رُذَال المـال ، لأنهم يتحدّثون فى أراذل الناس وسِفْلتهم ممن لامالَ له من اللُّصوص ونحوهم .

الصّنف الثانى

(ألقابُ أربابِ الأقلام، وفيه ثلاثةُ ألقاب)

الأوّل — القاضى . وهو عِبارةٌ عمن يتولّى فصلَ الأمور بين المتداعيين فى الأحكام الشرعيّة . وهى وظيفةٌ قديمة كانتْ فى زمن النبىّ صلّى الله عليه وسلم . فقد ذكر القُضاعىّ أنه صلّى الله عليه وسلم ولّى القضاءَ باليمن علىَّ بنَ أبى طالب ومُعاذَ بنَ جبل وأبا موسى الأشعرىَّ ؛ وأن أبا بكر رضى الله عنه ولّى القضاءَ عُمرَ ابنَ الخطاب رضى الله عنه .

ثم هو مشتقٌّ من القضاء ؛ وٱختُلِف فى معناه فقال أبو عبيد : هو إحكامُ الشىء والفراغُ منه ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿وقَضَيْنا إلىٰ بَنِى إسْرائيلَ فى الكتَابِ﴾ أى أخبرناهم بذلك وفرغنا لهم منه . قال أبو جعفر النحاس : وسمّى القاضِى قاضياً لأنه يقال قَضىٰ بين الخصمين إذا فصل بينهما وفرغ ؛ وقيل معناه القَطْعُ ، يقال قضىٰ الشىءَ إذا قطَعه ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَاقْضِ ما أنْتَ قَاضٍ ﴾ وسمى القاضى بذلك لأنه يَقْطَع الخصومة بين الخصمين بالحُكْم . علىٰ أن كُتّاب الزمان يُطلِقون هذا اللقبَ والالقاب المتفرعة منه كالقضائىّ والقاضوىّ علىٰ أرباب الأقلام فى الجملة ، سواء كان صاحبُ اللّقب متصدّيا لهذه الوظيفة أو غيرها ، كسائر العُلَماء والكُتّاب ومَنْ فى معناهم ؛ وعلىٰ ذلك عُرْفُ العامّة أيضا .

الثانى — المحتسِبُ . وهو عبارةٌ عمن يقوم بالأمر بالمعروف والنهىِ عن المنكر، والتحدّثِ فى أمر المَكاييل والمَوازين ونحوهما . قال الماوردىّ فى "الأحكام السلطانية" : وهو مشتقٌّ من قولهم حَسْبُك بمعنى اكْفُفْ ، سُمّى[(1)] بذلك لأنه يكفى

(١) عبارة الضوء نقلا عن الماوردى هكذا (وهو مشتق من قولهم حسبك بمعنى اكفف لأنه يكف عن الظلم وقال النحاس من قولهم أحسبه إذا كفاه لأنه يكفى الخ) وبه تعلم ما فى الاصل .

النـاس مئُونةَ من يَبْخَسُهم حقوقهـم . قال النحاس : وحقيقتـه في اللغة المجتهد في كِفَاية المسلمين ومنفعتهم إذ حقيقةُ آفتعل عند الخليل وسيبويه بمعنى آجتَهَد .

وأوّلُ مَنْ قام بهذا الأمر وصنَع الدِّرّة عمرُ بنُ الخَطّاب رضى الله عنه فى خلافته . وقد كانوا فى الأيام الفاطميّة بالديار المصرية يُضيفونها إلى الشُّرْطة فى بعض الأحيان، كما هو موجود فى تقاليد الحِسْبة فى زمانهم .

الثالث — الكاتب . وقد تقدّم آشتقاقُه ومعناه فى مقدّمة الكتاب، وأنه كان فى الزمن الأوّل عنـد الإطلاق إنمـا يُراد به كاتبُ الإنشاء ثم تغيَّر الحـال بعد ذلك إلى أن صار فى العُرْف العـامّ بالديار المصرية عنـد الإطلاق يراد به كاتبُ المـال ومَنْ فى معناه . وهو من الألقاب القديمة فقد تقدّم فى الكلام على الوِزَارة من كلام القُضَاعىّ أنهم قبل التلقيب بالوِزَارة فى الدولة العباسيّة فى خلافة السفّاح إنمـا كانوا يقولون كاتب .

قلت : ووراء ماتقدّم من الألقاب القديمة المتداوَلة ألقابٌ أُخْرى كانت مستعملة فى الأيام الفاطمية ثم رُفِضت الآنَ وتُرِكَتْ .

كـ«صاحب المَظَالم» وهو المتحدِّث فى فصل الخُصُومات .

وصاحب الصَّلاة : وهو المتحدّث فى أمر المساجد والصلوات .

وكالمتحدّث فى الوَسَاطة ، وهى القيام بوظيفة الوِزَارة ممن لم يؤهَّل لإطلاق آسم الوِزَارة عليه .

وصاحب الباب كنحو الحاجب .

وداعى الدُّعاة للشّيعة ونحو ذلك .

النـــوع الثـانى

(الألقابُ المحدَثة)

وهى إما عَرَبِيَّة ، وإما عَجَمِيَّة . والعجمِيَّة منها إما فارِسِيَّة ، وإما تُرْكِيَّة ، وأكثرها الفارسيَّة . والسببُ فى استعمال الفارِسِىّ منها وإن كانت الفُرْس لم تَلِها فى الإسلام أن الخلافةَ كانت ببَغْدادَ وغالبُ كلام أهلها الفارسِيةُ ، والوظائفُ منقولةٌ عنها إلىٰ هذه المملكة ، إما مُضاهاةً كما فى الدولة الفاطمية علىٰ قِلَّة ، كما فى الاسْفَهْسلَار ، وإما تبعا كما فى الدولة الأيوبية فما بعدها .

وهى أربعة أصناف :

الصنف الأوّل

(المفـرَدة ، وهى ضربان)

الضرب الأوّل

(مالفظه عَرَبِىّ ، وهو ثلاثة ألقاب)

الأوّل ـــ النائِبُ : وهو لقبٌ علىٰ القائم مَقامَ السلطان فى عامّة أموره أو غالبِها ، والألِف(١) فيه منقلبةٌ عن واو . يقال : نابَ فلانٌ عن فلانٍ يَنُوبُ نَوْبا ومَنَابا إذا قام مَقَامه فهو نائِبٌ . ويطلَق هذا اللقب فى العُرْف العامّ علىٰ كل نائبٍ عن السلطان أو غيره بحضرته أو خارجا عنها فى قُرْب أو بُعْد ، إلا أن النائب عن السلطان بالحضرة يُوصَف فى عُرف الكُتَّاب بالكافِل : فيقال « النائبُ الكافلُ » وفى حال الإضافة «كافِلُ الممالِك الإسلاميَّة» علىٰ ماسيأتى ذكره فى النُّعوت إن شاء الله تعالىٰ ،

(١) مراده الهمزة التى هى عين فاعل .

والنـائبُ عنه بدِمَشْق يقال فيـه «كافِلُ السَّلْطنة» ومَنْ دونه من أكابر النُّوّاب: كنائب حلَب ونائب طَرَابُلُس ونائب حَماة ونائب صَـفَد ونائب الكَرَك من المـالك الشامية، ونائبِ الإسكندريّة ونائبَي الوجهين: القِبْلى والبحرى بالديار المصرية. [يقال فيه نائب السلطنة الشريفـة بكذا ليس إلا][1] ويقال فيمن دُونَهم من النُّوّاب بالممـالك الشامية نائب حِمْص ونائب الرَّحْبة وغيرهما «النائبُ بفلانة».

الثـانى — الساقِى. وهو لَقَب على الذى يتولّى مدّ السِّماط وتقطيعَ اللحم وسَقْىَ المشروب بعد رَفْع السِّماط، ونحو ذلك. وكأنه وُضع فى الأوّل لسَقْى المشروب فقط ثم آستُحْدث له هذه الامورُ الأُخْرى تبعًا. ويجوز أن يكون لُقِّب بذلك لأنّ سَقْىَ المشروب آخِرُ عمله الذى يَخْتِم به وظيفتَه.

الثـالث — المُشْرِف. وهو الذى يتولّى امر المَطْبَخ ويَقِف على مشـارَفة الأطبخة فى خِدْمة إستادار الصُّحْبة الآتى ذكره، ومعناه ظاهر.

الضرب الثـانى

(ما لفظه عجمىّ وهو لَقَبٌ واحدٌ)

وهو «الأوْجَاقِىّ»، وهو لقبٌ على الذى يتولّى ركوبَ الخيول للتسْـيِير والرياضة، ولم أقف على معناه.

(١) الزيادة من الضوء ص ٣٤٢ ليتم الكلام.

الصنف الثاني

(المركّبة، وهي ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل

(ما تمحّض تركيبُه من اللفظ العربيّ، وفيه سبعةُ ألقاب)

الأوّل — مَلِك الأُمَراء . وهو من الألقاب التي اصطُلِح عليها لكُفّال الممالك من نُوّاب السلطنة، كأكابر النُّوّاب بالممالك الشامية ومَنْ في معناهم . وذلك أنه قام فيهم مَقامَ المَلك في التصرّف والتنفيذ، والأمراءُ في خِدْمته كخِدْمة السلطان . وأكثَرُ ما يخاطَبُ به النوّابُ في المكاتَبات ، وذلك مختصٌّ بغير المخاطَبات السلطانية ، أما السلطان فلا يُخاطَب عنه أحدٌ منهم بذلك .

الثاني — رأس نَوْبة . وهو لَقَب على الذي يَتَحدّث على مماليك السلطان أو الأمير، وتنفيذِ أمْرِه فيهم ، ويجمع على رُءُوس نُوَب . والمراد بالرأس هنا الأعلى أخذا من رأس الإنسان لأنه أعلاه . والنَّوْبة واحدةُ النُّوَب وهي المرّة بعد الأخرى، والعامّة تقول لأعلاهم في خِدْمة السلطان « رأسُ نَوْبة النُّوَب » وهو خطأ لأن المقصود علُوُّ صاحب النَّوْبة لا النوبة نفسها، والصواب فيه أن يقال : « رأس رُءُوس النُّوَب» أي أعلاهم .

الثالث — أمير مَجْلِس . وهو لقبٌ على مَنْ يتولّى أمر مجلس السلطان أو الأمير في الترتيب وغيره ، ويجمع على أُمَراء ، ومعناه ظاهر ، والأحسنُ فيه أن يقال أميرُ المجْلِس بتعريف المضاف إليه، وتكون الألف واللام فيه للعهد الذِّهْني ، إما مجلسُ السلطان أو غيرُه .

الرابع — أميرُ سِلاح . وهو لقبٌ على الذى يتولَّى أمرَ سِلاح السلطان أو الأمير . ويجمع على أُمَراءِ سِلاح ، والسلاح آلة القتال . قال الجوهرىّ : وهو مذكَّر ويجوز تأنيثه .

الخامس — مُقَدَّم المماليك . وهو لقبٌ على الذى يتولَّى أمر المَماليك للسلطان أو الأمير — من الخُدّام الخِصْيان المعروفين الآنَ بالطَّواشِيَّة . ومقامُه فيهم نحو مَقام رأس النَّوْبة ، ولفظ المقدَّم والمماليك معروف .

السادس — أميرُ عَلَم . وهو لقبٌ على الذى يتولَّى أمرَ الأعلام السلطانية والطَّبْلخاناه وما يجرى مَجْرَى ذلك . والعَلَم فى اللغة يطلق بإزاء معانٍ أحدها الرايةُ(١) ، وهو المراد هنا .

السابع — نقيبُ الجَيْش . وهو الذى يتكفَّل بإحضار مَنْ يطلُبه السلطان من الأمراء وأجناد الحَلْقة ونحوهم ، والنقيب فى اللغة العَرِيف الذى هو ضَمِين القوم وفى التنزيل حكايةً عن بنى اسرائيل : ﴿وبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَىْ عَشَرَ نَقِيباً﴾ ويقال : نَقَب على قومه يَنْقُب نَقْبا مثل كَتَب يكتُب كَتْبا . والجَيْش العسكر ويجمع على جُيُوش . أما بالمَمالك الشامية فإنه يقال فى مثله نَقِيب النُّقَباء .

الضرب الثانى

(ماتمحَّض تركيبُه من اللفظ العجمىّ)

وقاعدةُ اللُّغات العجمية تقديمُ المضاف إليه على المضاف(٢) ، والصِّفة على الموصوف ، بخلاف اللغة العربية . ولهذا الضرب حالتان :

---

(١) فى الأصول الرؤية ، والتصحيح عن الضوء .

(٢) فى الاصول " المضاف على المضاف اليه " وهو سبق قلم .

الحالة الأولى

(أن تكون الإضافة إلى لفظ دار)

وهى لفظة فارسية معناها مُمسك فاعل من الإمساك . وكثير من كُتّاب الزمان أو أكثرهم بل كلهم يظنون أن لفظ دار فى ذلك عربىّ بمعنى المحلة ، كدار السلطان أو الأمير ونحو ذلك ، وهو خطأ كما سيأتى بيانه فى الكلام على إسْتَدَّار ، وخِزَنْدار وغيرهما .

والمضاف إلى لفظ دار من وظائف أرباب السيوف تسعةُ ألقاب :

الأول — الإسْتَدَّار . بكسر الهمزة وهو لقب على الذى يتولّى قبض مالِ السلطان أو الأميرِ وصرفَه ، وتُمتثل أوامرُه فيه . وهو مركّب من لفظين فارسيين : إحداهما إستذ ، بهمزة مكسورة وسين مهملة ساكنة بعدها تاء مثناة من فوق ثم ذال معجمة ساكنة ، ومعناها الأخذ . والثانية دار ، ومعناها المُمسك كما تقدّم ، فأدغمت الذال الأولى وهى المعجمةُ فى الثانية وهى المهملةُ فصار إسْتَدّار . والمعنى المتولّى للأخْذ ، سمى بذلك لما تقدّم من أنه يتولّى قبضَ المال . ويقال فيه أيضا : سِتَدّار بإسقاط الألف من أوّله وكسر السين ، والمتشدّقون من الكُتّاب يضُمّون الهمزةَ فى أوّله ويُلْحِقُون فيه ألفًا بعد التاء ، فيقولون : «أُسْتادّار» وربما قالوا : «أُسْتاذ الدار» بإدخال الألف واللام على لفظ الدارِ ظنًّا منهم أن المرادَ حقيقةُ الدار فى اللفظ العربىّ ، وأن أُستاذ بمعنى السيد أو الكبير ، ولذلك يقولون «أستادّار العالية» أو «أستاذ الدّار العالية» ، وهو خطأ صريح لما تقدّم بيانُه . على أن العامة تنطق به على الصواب ، من كسر الهمزة وحذف الألف بعد التاء . ثم قد يُزاد فى هذا اللقب لفظُ الصُّحْبة ، فيصير «إستدّار الصُّحْبة» ويكون لقبا على متولّى أمر المَطْبخ ، وكأنه لُقّب بذلك لملازمته البابَ سَفَرا وحَضَرا .

الثانى — الجُوكَانْدار. وهو لقبٌ على الذى يحمل الجُوكَان مع السلطان فى لَعِب الكُرَة، ويجمع على جُوكَان داريَّة، وهو مركَّب من لفظين فارسيَّيْن أيضا: إحداهما جوكان، وهو المِحْجَن الذى تُضْرَب به الكُرَة، ويعبر عنه بالصَّوْلجَان أيضا: والثانية دار، ومعناه مُمْسِك كما تقدّم. فيكون المعنى ممسك الجُوكان. والعامّة تقول: «جُكَندار» بحذف الواو بعد الجيم والألِف بعد الكاف.

الثالث — الطَّبَرْدار. وهو الذى يحمل الطَّبَر حولَ السلطان عند ركوبه فى المَوَاكب وغيرها. وهو مركَّب من لفظين فارسيين: أحدهما طَبَر ومعناه الفأس، ولذلك يقولون فى السُّكَّر الصُّلْب الشديد الصَّلابة طَبَرْزَد بمعنى يكسر بالفأس. والثانى دار ومعناه ممسك كما تقدّم، فيكون المعنى مُمْسِك الطَّبَر.

الرابع — السَّنْجَقْدار. وهو الذى يحمل السَّنْجَق خلفَ السلطان. وهو مركب من لفظين: أحدهما تُركيٌّ وهو سَنْجَق، ومعناه الرُّمْح وهو فى لغتهم مصدر طَعَن، فعبِّر به عن الرُّمْح الذى يُطْعَن به. والثانى دار ومعناه ممسك كما تقدّم، ويكون المعنى مُمْسِك السَّنْجق وهو الرمح. والمراد هنا العَلَم الذى هو الراية كما تقدّم، إلا أنه لما كانت الرايةُ إنما تُجْعل فى أعلى الرمح عُبِّر بالرمح نفسه عنها.

الخامس — البُنْدُقْدار. وهو الذى يحمِل جراوة[(١)] البُنْدُق خلفَ السلطان أو الأمير. وهو مركَّب من لفظتين فارسيتين إحداهما بُنْـدُق، وإن كان الجوهرىّ قد أطلق ذكره فى الصحاح من غير تعرُّض لأنه معرَّب فقال: والبُنْدُق الذى يُرْمى به. ثم هو منقولٌ عن البُنْدُق الذى يؤْكَل وهو الجِلَّوْز بكسر الجيم والزاى المعجمة فى آخره.

(١) كذا فى الاصل ولعله مصحف عن غرارة أو نحوه.

فقد قال أبو حنيفة فى كتاب "النبات" الجلّوز عربىّ وهو البُنْدُق والبُنْدق فارسىّ .
اللفظة الثانية دار ومعناها ممسك كما تقدّم ، ويكون المعنى ممسك البُنْدق .

السادس — الجَمَدار ، وهو الذى يتصدّى لإلباس السلطان أو الأمير ثِيَابَهُ .
وأصله جَامَا دار فحُذِفت الألف بعد الجيم وبعد الميم آستثقالا وقيل جَمَدار .
وهو فى الأصل مركب من لفظين فارسيين احدهما جاما ، ومعناه الثوب . والثانى دار ،
ومعناه ممسك كما تقدّم فيكون المعنى ممسك الثوب .

السابع — البَشْمَقْدار ، وهو الذى يحمل نعلَ السلطان أو الأمير ، وهو مُرَكّب
من لفظين : أحدهما من اللغة التركية وهو بَشْمَق ومعناه النعلُ . والثانى من
اللغة الفارسية وهو دار ومعناه مُمْسِك على ماتقدّم . ويكون المعنى ممسكَ النعلِ .
على أن صاحب « الأنوار الضوّية فى إظهار غلط الدرّة المضية فى اللغة التركية »
قد ذكر أن الصواب فى النعل بصمق بالصاد المهملة بدل الشين المعجمة ، وحينئذ
فيكون صوابه على ما ذكر بَصْمَقْدار . والمعروف فى ألسنة الترك بالديار المصرية
ما تقدّم .

الثامن — المَهْمَنْدار ، وهو الذى يتصدّى لتلقى الرُّسُل والعُرْبان الواردين على
السلطان ويُنْزِلهم دارَ الضيافة ويتحدّثُ فى القيام بأمرهم . وهو مركب من لفظين
فارسيين : أحدهما مَهْمَن بفتح الميمين ومعناه الضيف ، والثانى دار ومعناه ممسك
كما تقدّم ، ويكون معناه ممسكَ الضيف ، والمراد المتصدّى لأمره .

التاسع — الزَّنَانْ دار المعبر عنه « بالزِّمام دار » . وهو لقب على الذى يتحدّث
على باب سِتارة السلطان أو الأمير من الخُدّام الخِصْيان . وهو مركّب من لفظين
فارسيين : أحدهما زَنَان بفتح الزاى ونونين بينهما ألف ، ومعناه النساء .

والثانى دار، ومعناه ممسك كما تقدّم فيكون معناه ممسك النِّساء، بمعنىٰ أنه الموكَّل بحفظ الحريم إلا أن العامّة والخاصة قد قلبوا التونين فيــه بميمين فعبَّروا عنــه بالزِّمام دار كما تقــدّم، ظنًّا أن الدار علىٰ معناها العربىّ والزِّمام بمعنىٰ القائد، أخذا من زِمَام البعير الذى يُقاد به .

الحالة الثانيــــــة

(أن تكون الإضافة إلىٰ غير لفظ دار، وفيها لقبان)

الأوّل — الجَاشْنَكِير . وهو الذى يتصدّىٰ لذَوَقان[1] المأكول والمشروب قبــل السلطان أو الأمير خوفًا من أن يُدَسّ عليه فيه سُمٌّ ونحوه . وهو مركَّب من لفظين فارسيين : أحدهما جاشْنا بجيم فى أوّله قريبةٍ فى اللفظ من الشين، ومعناه الذَّوْق، ولذلك يقولون فى الذى يذوقُ الطعام والشرابَ الشَّيشْنِىُّ . والثــانى كِير وهو بمعنىٰ المتعاطى لذلك، ويكون المعنىٰ الذى يذوقُ .

الثانى — السَّرَاخُور . وهو الذى يتحدّثُ علىٰ عَلَف الدّوابِّ من الخيل وغيرها . وهو مركَّب من لفظين فارسيين : أحدهمــا سَرًا[2] ومعناه الكبيرُ . والثــانى خُور، ومعناه العلَف، ويكون المعنىٰ كبيرُ العلَف والمراد كبير الجمــاعة الذين يتولَّوْن عَلَف الدّوابّ . والعامّة يقولون سَرَاخُورِىٌّ باثبات ياء النسب فى آخره ولا وجه له . ومتشدّقو الكُتّاب يُبْدِلون الراء فيه لاما فيقولون سَلَاخُورِىّ وهو خطأ .

---

(١) مصدر ذاق الذوق والمذاق والذواق فما فى الأصل جارىٰ فيه لغة العامة .

(٢) خالف فى هذا قاعدة اللغة العجمية من تقدم المضاف اليه علىٰ المضاف . و وجد بهامش بعض النسخ "السراخور مركب من سرا فارسى بمعنى الرأس واخور بمعنى اصطبل فمعناهما رأس الاصطبل السلطانى" .

الضرب الثالث

(ما تركّب من لفظ عربيّ ولفظٍ عجميّ، وله حالتان)

الحالة الأولى

(أن يصدّر بلفظ أمير وهو لفظٌ عربيّ كما تقدّم

في الكلام على ألقابِ أربابِ الوظائف، وفيها أربعةُ ألقاب)

الأوّل — أَميرآخُور . وهو الذى يتحدّثُ على إصطبل السلطان أو الأمير، ويتولّى أمرَ مافيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل فى حكم الإصطبلات، وهو مركَّبٌ من لفظين : أحدهما عربيّ وهو أمير، والثانى فارسيّ وهو آخُور بهمزة مفتوحة ممدودة بعدها خاء معجمة ثم واو وراء مهملة ومعناه المَعْلَف، والمعنى أمير المَعْلَف : لأنه المتولىّ لأمر الدوابّ على ماتقدّم وأهمُّ أمورها المَعْلَف .

الثانى — أميرُ جانْدَار . وهو لقب على الذى يستأذِنُ على الأمراء وغيرِهم فى أيام المواكبِ عند الجُلُوس بدار العَدْل . وهو مركَّب من ثلاثةِ ألفاظ : أحدها عربيّ وهو أَمير وقد تقدّم معناه . والثانى جان بجيم وألف ونون ، ومعناه الروح بالفارسيَّة والتركية جميعا . والثالث دار، ومعناه ممسك كما تقدّم ، فيكون المعنى « الأمير الممسك للروح » ولم يظهر لى وجهُ ذلك إلا أن يكون المراد أنه الحافظُ لدم السلطان فلا يأذنُ عليه إلا لمن يأمَنُ عاقبتَه .

الثالث — أميرُ شِكَار . وهو لقب على الذى يتحدّث على الجوارح من الطيور وغيرها وسائر أمور الصيد . وهو مركَّب من لفظين : أحدهما عربيّ وهو أمير والثانى فارسيّ وهو شِكَار بكسر الشين المعجمة وكاف وألف ثم راء مهملة فى الآخر، ومعناه الصيد فيكون المرادُ « أمير الصيد » .

الرابع — أمير طَبَر . وهو لقب على الذى يتحدّث على الطَّبَرْدارِيَّة الذين يحملون الأطْبارَ حولَ السلطان فى المواكب ونحوها . وهو مركّب من لفظين : أحدهما عربىّ وهو أمير، والثانى طَبَر وهو بالفارسية الفأس كما تقدّم فى الكلام على الطَّبَرْدار .

الحالة الثانية

(أن لا يُصدَّرَ اللقبُ بلفظ أمير، وفيها خمسةُ ألقاب)

الأوّل — الدَّوادَار . وهو لقب على الذى يحمل دَواةَ السلطان أو الأمير أو غيرِهما، ويتولَّى أمْرَها مع ما ينضمُّ إلى ذلك من الأمور اللازمةِ لهذا المعنى من حُكْمٍ وتنفيذِ أمور وغيرِ ذلك بحسب ما يقتضيه الحالُ . وهو مركّب من لفظين : أحدهما عربىّ وهو الدَّواة، والمراد التى يُكْتَب منها . والثانى فارسىّ وهو دار، ومعناه ممسك كما تقدّم . ويكون المعنى « مُمْسِك الدَّواة » وحُذِفَت الهاء من آخر الدواة استثقالا . أما فى اللغة العربية فإنه يقال لحامل الدواة « داوٍ » على وزن قاضٍ، فتثْبُت الياء فيه مع الألف واللام فتقول جاء الدَّاوِى ورأيت الداوِىَ ومررت بالدَّاوِى، ويجوز حذفها كما فى سائر الأسماء المنقوصة .

الثانى — السِّلاح دَار، وهو لقب على الذى يحملُ سلاحَ السلطان أو الأمير ويتولَّى أمر السِّلاح خَانَاه وما هو من توابع ذلك . وهو مركّب من لفظين : أحدهما عربىّ وهو السِّلاح، وقد تقدّم معناه فى الكلام على أمير سِلاح . والثانى فارسىّ وهو دار ومعناه مُمْسك كما تقدّم، ويكون المعنى «مُمْسك السِّلاح» .

الثالث — الخِزَنْدار بكسر الخاء وفتح الزاى المعجمتين . وهو لقب على الذى يتحدّث على خِزَانة السلطان أو الأمير أو غيرهما . وهو مركّب من لفظين : أحدهما

عربيّ وهو خِزانة : وهى ما يُخْزَن فيه المـال . والثانى فارسىّ وهو دار، ومعناه مُمْسك كما تقدّم فحذفت الألف والهاء من خِزانةٍ آستثقالا فصار خِزَنْدار ويكون المعنى «مُمْسك الخِزانة» والمرادُ المتولّى لأمرها ، ومتشدّقو الكُتّاب يُسْقطون الألف والهاء من خِزانة على ما تقدّم ويُلْحِقون بعد الخاء ألفا فينقُلُون لفظ خزانة إلى خازن فاعلٍ من الخَزْن ويُضيفونه إلى دار، ظنًّا منهم أن الدار على معناها العَرَبىّ كما تقدّم فى الإستدّار والزّنّان دار ، وهو خطأ كما تقدّم بيانه هناك . على أن العامة تنطق بحروفه على الصواب إلا أنهم يكسِرُون الزاى بعد الخاء والصواب فتحها .

الرابع — العَلَمْ دار . وهو لقبٌ على الذى يحمل العَلَم مع السلطان فى المواكب . وهو مركّب من لفظين : أحدهما عربىّ وهو العَلَم ، وقد تقدّم أن معناه الراية . والثانى فارسىّ وهو دار ومعناه ممسك كما تقدّم، ويكون المعنى « ممسك العَلَم » .

الصنف الثانى (١)

(ألقابُ أربابِ الأقلام، وهى على خمسة أضرب)

الضرب الأوّل

(ألقابُ أرباب الوظائف من العُلَماء، وفيه خمسة ألقاب)

الأوّل — الخَطِيب . وهو الذى يَخْطُب الناسَ ويُذكّرهم فى الجُمَع والأعياد ونحوهما . وقد كان ذلك فى الزّمن المتقدّم مختصًّا بالخلفاء والأمراء بالنّواحى على ماتقدّم فى الكلام على ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية .

---

(١) كذا فى الأصل ولعله الثالث ومع ذلك لم يذكر الصنف الرابع وقد جعل فى الضوء هذا القسم من نوع ألقاب أرباب الوظائف الدينية وهو الموافق .

الثـانى — المُقْرِئُ . وهو الذى يُقْرِئُ القرءانَ العظيمَ، وقد غلب آختصاصُه فى العُرْف على مشايخ القِراءة من قُرَّاء السبعة المُجِيدين المتصدِّين لتعليم عِلْم القِراءة .

الثالث — المُحدِّث . والمراد به مَنْ يتعاطى علم حَديثِ النبىّ صلّى الله عليه وسلم بطريق الرِّواية والدِّراية، والعلِم بأسماء الرجال وطُرُق الأحاديث، والمعرفةِ بالأسانيد ونحو ذلك .

الرابع — المُدَرِّس . وهو الذى يتصدّى لتدريس العلوم الشرعية : من التفسير، والحديث، والفِقْه، والنحو، والتصريف ونحو ذلك . وهو مأخوذ من دَرَسْت الكتابَ دِراسةً إذا كرّرته للحفظ .

الخامس — المُعيد . وهو ثانى رُتْبةِ المدرِّس فيما تقدّم، وأصلُ موضوعه أنه إذا ألقى المدرِّسُ الدرسَ وآنصرف أعاد للطلبةِ ماألقاه المدرِّسُ إليهم ليفهَمُوه ويُحْسِنُوه .

الضرب الثـانى

(ألقـابُ الكُتّاب، وهى نَمَطانِ)

النمـــط الأوّل

(ألقاب أرباب الوظائف من كُتّاب الإنشاء . وفيه ثلاثة ألقاب)

الأوّل — كاتبُ السّر . وهو صاحبُ ديوان الإنشاء وقد تقـدّم الكلامُ عليـه مستوفًى عند الكلام على الكِتابة والكُتّاب فى مقدّمة الكِتاب .

الثـانى — كاتبُ الدَّسْت . وهو الذى يجلِس مع كاتِب السرّ بدار العدل أمامَ السلطانِ أو النائبِ بمملكة من الممـالك، ويوقِّع على القِصَص . وهم جماعة وقد تقدّم الكلام عليهم فى المقدّمة أيضا .

الثالث — كاتب الدَّرْج . وهو الذى يكتُب المكاتَبات والوِلَايات وغيرها فى الغالب وربما شاركه فى ذلك كُتّاب الدَّسْت ، ويعبر الآنَ عنه بالمُوَقِّع ، وقد تقدم الكلام عليه هناك أيضا .(١)

الضرب الثالث

(ألقاب أرباب الوظائف من كُتّاب الأموال ونحوِها ، وفيه تسعةُ ألقابٍ)

الأوّل — الوَزِير إذا كان من أرباب الأقلام ، وقد تقدّم الكلامُ عليه فى ألقاب أربابِ السُّيوف فى الصِّنْف الأوّل .(٢)

الثانى — الناظِرُ . وهو مَنْ ينظُر فى الأموال ويَنفِّذ تصرُّفاتِها ويُرْفَعُ إليه حسابُها لينظر فيه ويتأمّله فيُمْضِى ما يُمْضِى ويرُدُّ ما يرُدُّ . وهو مأخوذ إمّا من النظر الذى هو رأىُ العين : لأنه يُدِير نظَرَه فى أمور ما ينظُر فيه ، وإما من النظر الذى هو بمعنى الفِكْر : لأنه يفكّر فيما فيه المصلحةُ من ذلك . ثم هو يختلِفُ باختلاف ما يُضاف إليه كـ(ناظر الجَيْش) وهو الذى يتحدّثُ فى أمر الجُيُوش وضَبْطِها . أو (ناظرِ الخاصّ) وهو الذى ينظُر فى خاصّ أموال السلطان . أو (ناظر الدّواوِين) وهو الذى يعبَّر عنه بناظر الدَّوْلة ويُشارِكُ الوزيرَ فى التصرف . أو (ناظر النُّظّار بِدِمَشْق) وهو الذى يقومُ بها مقامَ الوزير بالديار المصرية . أو (ناظر المَمْلَكة) بحلَب ، أو طرابُلُس ، أو حماةَ ونحوها . أو (ناظِرِ أوقافٍ أو جِهات بِرٍّ) وما يجرى مجرىٰ ذلك .

---

(١) لم يذكر النمط الثانى من هذا الضرب ولعله سهو من الناسخ . وهو كذلك فى نسخة أخرىٰ .

(٢) أى من الالقاب الاسلامية القديمة وقد تقدم فى ص ٤٤٨ من هذا الجزء .

الثـالث ـــ صـاحبُ الديوان . وكانوا فى الزمن الاوّل يعبِّرون عنـه بمتولِّى الدِّيوان ، وهو ثانى رتبةِ الناظر فى المراجَعة . وله أمورٌ تخصُّـــه كترتيب الدَّرْج ونحو ذلك .

الرابـــع ـــ الشاهد . وهو الذى يَشْهَد بمتعلَّقات الديوان نَفْيا و إثباتًا .

الخامس ـــ المستَوْفِى . وهو الذى يَضْبِط الديوانَ ، وينبِّه علىٰ ما فيه مصلحته من آستخراج أموالِهِ ونحوِ ذلك . ولعظم موقِعِه أشار إليـه الحريرىُّ فى مَقاماته بقوله : «منهم المستَوْفِى الذى هوقُطْب الدِّيوان» إلىٰ آخره . ثم فى بعض المُبَاشَرات قد ينقسم إلىٰ مستوفِى أصـلٍ ومستَوْفِى مباشَرة ، ولكلٍّ منهما أعمال تخصُّه .

السادس ـــ العامل . وهو الذى ينَظِّم الحسـبانات ويكْتُبها . وقد كان هـذا اللقبُ فى الاصل إنما يقع علىٰ الأمير المتولِّى العمل ثم نقله العُرفُ إلىٰ هذا الكاتب وخصَّه به دُونَ غيره .

السابع ـــ المـاسِحُ . وهو الذى يتصدّٰى لقياس أرض الزِّراعة ، وهو فاعِلٌ من مَسَحَ الأرضَ يَمْسَحُها مِساحةً إذا ذَرَعَها .

الثـامن ـــ المُعِين . وهو الذى يتصدّٰى للكتابة إعانةً لأحدٍ من المبـاشِرين المذكورين ، ومعناه واشتقاقه ظاهر .

التـاسع ـــ الصَّـيْرَفِىُّ . وهو الذى يتولّٰى قبضَ الأموال وصَرْفَهـا . وهو مأخوذ من الصَّرْف : وهو صَرْفُ الذهب والفِضّة فى الميزان . وكان يقال له فيما تقدّم الجِهْبِذُ .

الضـــرب الرابع

(ألقابُ أربابِ الوظائفِ من أهل الصِّناعات ، وفيه خمسةُ ألقاب)

الأوّل — مُهَنْـدِس العمائرِ . وهو الذى يتولّى ترتيبَ العمائر وتقـديرَهَا ويحكم علىٰ أربابِ صناعاتِها . والهندسةُ عِلْم معروف فيه كتبٌ مفرَدَة بالتصنيف .

الثـانى — رئيس الأطِبّـاء . وهو الذى يحكم علىٰ طائفةِ الأطِبّـاء ويأذَنُ لهم فى التطْبيب ونحو ذلك . وسيأتى الكلامُ علىٰ ضَـبْط ذلك ومعنـاه فى الكلام علىٰ الرئيس فى الألقاب المُفْرَدة فى حرف الراء فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

الثالث — (رئيسُ الكَحّالين) . وحكمه فى الكلام علىٰ طائفـةِ الكَحّالين حُكْمُ رئيس الأطِبّاء فى طائفة الأطِبّاء .

الرابع — رئيس الجَرَائحيّة . وحكُـه فى الكلام علىٰ طائفةِ الجرائحيّة والمجبِّرين كالرئيسَيْن المتقدّمَيْن .

الخـامس — رئيس الحَرّاقة . وهو الذى يحكُم علىٰ رجال الحـرّاقة السـلطانية ويتولّى أمْرَها . وكان فى الزمن المتقـدّم يقال له رئيس الخِلَافة جَرْيًا علىٰ ما كان الأمر عليه فى الخلافة الفاطمية بالديار المصرية .

الضـــــرب الخـامس

(ألقاب أربابِ الوظائفِ من الأتباع والحواشي والخَدَم، وهم طائفتان)

الطـائفة الأولىٰ

(الأعوانُ، وهم نمَطان)

النمـــــط الأوّل

(ما تمحّضت ألفاظه عربيّةً، وفيه ثلاثة ألقاب)

الأوّل ــ مُقَدَّم الدَّوْلة . وهو الذى يتحدّثُ علىٰ الأعوان والمتصرِّفين لخِدْمة الوزير . والمراد المقدَّمُ علىٰ الدولة، والدولةُ لفظٌ قد خصه العُرْف بمتعلَّقات الوِزَارة . كما يقال لناظر الدَّواوين ناظر الدولة علىٰ ما تقدّم ذكرُه .

الثـانى ــ مُقدَّم الخاصّ . وهو المتحدّث علىٰ الأعوان والمتصرفين بديوان الخاصّ المختصّ بالسلطان، كمقدَّم الدولة بالنسبة إلىٰ أعوان الوِزَارة .

الثالث ــ مقدّم التُّرْكُمان . ويكون بالبلاد الشاميَّة والحَلَبية متحدّثًا علىٰ طوائف التُّرْكُمان الذين يُقَدَّمُ عليهم .

النمـــــط الثـانى

(ما تمحّض لفظُه عجميًّا، وفيه لَقَب واحد)

وهو (البَرْدَدار) . وهو الذى يكون فى خدمة مباشِرِى الدِّيوان فى الجملة متحدّثًا علىٰ أعوانه والمتصرِّفين فيه، كما فى مقدّم الدولة والخاصّ المقدّم ذكرهما . وأصـله

(فَرْدادار) بفاء فى أوّله وهو مركّب من لفظين فارسيين : أحدهما فَرْدا ، ومعناه الستارة. والثانى دار، ومعناه ممسك، والمراد «ممسكُ السِّتارة» وكأنه فى أوّل الوضع كان يقف بباب السِّتارة ثم نقل إلى الديوان .

الطائفة الثانيـــــة

(أرباب الخِدَم ، وهم نَمَطان)

النَّمَـــــط الأوّل

(ما يُضاف إلى لفظ الدار كما تقدّم فى أرباب السُّيوف، وهى سبعة ألقاب)

الأوّل — الشَّرَبْدار . وهو لقبٌ على الذى يتصدّى للخِدْمة بالشَّرابْ خاناه، التى هى أحدُ البيوتِ . وهو مركب من لفظين : أحدهما شَراب وهو ما يُشْرَب من ماء وغيره، فحذفوا الألف فيه استثقالا . والثانى دار، ومعناه ممسك على ما تقدّم، والمعنى «ممسكُ الشَّراب» .

الثانى — الطَّشْتَ دَار . وهو لقبٌ على بعض رجال الطَّشْت خاناه . وهو مركب من لفظين أحدُهما طَشْتٌ بفتح الطاء وإسكان السين المهملة فى اللغة العربية، وهو الذى يُغْسَل فيه، ويجمع على طُسُوس بسينين من غير تاء ، ويقال فيه أيضا طَسٌّ بإسقاط التاء ، إلا أن العامة أبدلُوا السين المهملة فيه بشين معجمة . والثانى دار ومعناه ممسكٌ على ما تقدّم، فيكون معناه «مُمِسك الطَّشْت» .

الثالث — البَازْدَار . وهو الذى يحمل الطيورَ الجوارحَ المَعدّةَ للصيد على يَدِه . وخُصَّ بإضافته إلى البازِ الذى هو أحد أنواع الجوارح دُونَ غيره لأنه هو المتعارَف بين الملوك فى الزمن القديم ، على ما سيأتى ذِكْرُه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الرابع — الجَوْنْدار . وهو الذى يتصـدّى لخدمة طُيُور الصـيد من الكَرَا كِيّ والبَلَشُونات ونحوها ، ويحملهـا إلىٰ موضع تعليم الجَوَارح . وأصله « حَيَوَانْ دَار » أطلق الحيوانـ فى عُرْفهم علىٰ هذا النوع من الطيور، كما أُطْلِق علىٰ مَنْ يتعانىٰ معامل الفَرُّوج الحَيَوانِىّ .

الخـامس — المَرَقْدار . وهو الذى يتصدّى لخِدْمة ما يحوزُ المَطْبَخُ وحفظِه . سمِّى بذلك لكثرة معاطاته لمَرَقِ الطعام عند رفع الخِوَان ونحو ذلك .

السادس — المِحَفَّدار بكسر الميم . وهو الذى يتصدّى لخِدْمة المِحَفَّة . وهو مركب من لفظين . أحدهمـا مِحَفَّة فحـذفت التاء منها آستثقالا ، والثـانى دار ، ومعناه ممسكٌ علىٰ ما تقدّم ، فيكون بمعنى « ممسك المِحَفَّة » .

النمـــط الثـانى

(مالا يتقيَّد بالإضافة إلىٰ دار ولا غيرها، وفيه خمسة ألقاب)

الأوّل — المِهْتَـارُ . وهو لقبٌ واقع علىٰ كبير كلِّ طائفة من غِلْمـان البيوت، كمِهْتَار الشَّراب خاناه، ومِهْتار الطَّشْت خاناه، ومِهْتار الرِّكَاب خاناه . ومِهْ بكسر الميم معناه بالفارسية الكبير، وتَار بمعنى أفعل التفضيل، فيكون معنىٰ المِهتار الأكبر .

الثـانى — البَابَا . وهو لقبٌ عامٌّ لجميع رجال الطَّشْت خَانَاه ممن يتعاطىٰ الغَسْل والصَّقْل وغير ذلك . وهو لفظ رومىٌّ، ومعناه أبو الآباء علىٰ ماسيأتى بيانه فى لقب البـابِ فى الكلام علىٰ ألقاب أهـل الكُفْر . وكأنه لُقِّب بذلك لأنه لمـا تعاطىٰ ما فيه ترفيـهُ مخدومه : من تنظيف قُمَـاشه وتحســين هيئته أشْـبَهَ الأَبَ الشفيق فلُقِّب بذلك .

الثالث — الرَّخْتَوان . وهو لقبٌ لبعض رجال الطسْت خاناه يتعاطىٰ القُماش، والرَّخْت بالفارسية آسمٌ للقماش، والواو والألف والنون بمعنى ياء النسب، ومعناه «المتولّى لامر القُماش» .

الرابع — الخِوَان سَلَار . وهو لقب مختصٌّ بكبير رجال المَطْبَخ السلطانىّ، القائم مقام المِهْتار فى غير المَطْبَخ من البيوت . وهو مركّب من لفظين : أحدهما خِوَان، وهو الذى يؤكَل عليه . قال الجوهرىّ : وهو معرّب . والثانى سَلَار، وهى فارسية ومعناها المقدّم وكأنه يقول مقدّم الخِوَان . والعامة تقول : «إخوان سلار» بألف فى أوّله وهو لحن .

الخامس — المِهْمَرْد . وهو الذى يتصدّى لحفظ قُماش الجمَال او قُماش الإصطبل والسقائين ونحو ذلك . ومعناه باللغة الفارسية « الرجل الكبيرُ » فمِهْ آسمٌ للكبير، ومَرْد آسمٌ للرجل .

السادس — (الغُلَام) . وهو الذى يتصدّى لخِدْمة الخيل، ويجمع علىٰ غِلْمانٍ وغِلْمةٍ بكسر الغين وسكون اللام . وهو فى أصل اللغة مخصوصٌ بالصبىّ الصغير والمملوكِ ثم غَلَب علىٰ هذا النوع من أرباب الخِدَم ؛ وكأنهم سَمَّوْه بذلك لِصغَره فى النُّفوس . وربما أُطْلِق علىٰ غيره من رجال الطَّسْت خاناه ونحوهم .

القســم الثـانى

(من ألقاب أرباب الوظائف ألقابُ أرباب الوظائف من أهل الكُفْر، والمشهور منهـم طائفتان)

الطائفة الأولى النصارى

(والمشهور من ألقاب أرباب وظائفهم ثمانيةُ ألقابٍ)

الأوّل — الپاپ — بباءين موحدتين مفخمتين فى اللفظ . وهو لقب على القائم بأمور دِين النصارى المَلِكانيَّة بمدينة رُومِيَةَ . وما ذكره فى "التثقيف" من أنه عندهم بمثابة القانِ عنـد التتار نخطأٌ ظاهر : لأن الپـاپَ قائم فى النصارى مَقَام الخليفة، بل به عندهم يُناطُ التحليلُ والتحريمُ، وإليه مرجعهم فى أمر دِياناتهم بخلاف القان فإن أمره قاصرٌ على أمر المُلْك، وأصله الپاپا بزيادة ألف فى آخِره، والكُتَّاب يُثْبِتُونها فى بعض المواضع ويحذفونها فى بعض، وربمـا قيل فيه الپاپه بابدال الألف هاءً . وهى لفظة رومِيَّـة معناها أبو الآباء . وأوّل ماوُضع هـذا اللقبُ عندهم على بَطْرك الإسـكندرية الآتى ذكره فيما بعـدُ ؛ وذلك أن صاحب كلِّ وظيفة من وظائفهم الآتى ذكُرها كان يخـاطِبُ مَنْ فوقه منهم بالأَبِ، فالْتَبَس ذلك عليهـم فاخترَعُوا لبطرك الإسكندرية البَابَا دفعًا للاشتراك فى آسم الباب، وجعلوه أبًا للْكُلّ ؛ ثم رأَوْا أن بَطْرَكَ رُومِيَةَ أحقُّ بهذا اللقب : لأنه صاحب كرسىِّ بُطْرس كبير الحَوَارِيِّيـن ورسولِ المسـيح عليه السـلام إلى رُومِيَـة ؛ وبطركُ الإسكندرية صاحبُ كرسىِّ مُرْقُص الإنجيلى تلميذِ بُطْرس الحوارىّ المقـدّم ذكره فنقـلوا آسمَ الپاپا إلى بَطْرك رُومِيَةَ، وأبقَوْا آسم البطرك على بَطْرك الإسكندرية .

الثاني — البَطْرَك — بباء موحدة مفتوحة ثم طاء مهملة ساكنة وبعدها راء مهملة مفتوحة ثم كاف فى الآخر . وهو لقب على القائم بأمور دين النَّصْرانية . وكراسىّ البَطارِكةِ عندهم أربعةٌ : كرسىّ برومية وهو مَقرّ الپاپ المقدّم ذكره، وكرسىّ بأنْطاكِيَةَ من بلاد العواصم، وكرسىّ بالقُدْس، [وكرسىّ بالإسكندرية](١) وقد غلب الآن بالديار المصرية على رئيس النصارى اليَعْقُوبيَّة بالديار المِصرية وهو المعبر عنه فى الزمَن القديم ببطرك الإسكندرية، ومقرّه الآن بالكنيسة المعلقة بالفُسْطاط على ماسيأتى ذكره فى موضعه ان شاء الله تعالى .

وأصله البَطْرِيَرْك بزيادة ياء مثناة تحتُ مفتوحة بعدها راء ساكنة وهو لفظ رومىّ معناه ... ...(٢) ورأيت فى ترسُّل العَلاء بن موصَلايا كاتب القائم بأمر الله العباسىّ فى تقليدٍ أنشأه "الفَطْرك" بابدال الباء الموحدة فاءً . وقد تقدّم أن هذا البطرك هو الذى كان يُدْعى أوّلا بالپاپا ثم نُقِل ذلك إلى بابا رومية، على أن بطرك الإسكندرية لم يكن فى الزمن المتقدّم مختصا ببطرك اليعقوبية بل كان تارةً يكون يعقوبيا وتارةً يكون مَلِكانيا وانما حدث اختصاصه باليعقوبية فى الدولة الإسلامية على ما سيأتى بيانه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الثالث — الأُسْقُفُ — بضم الهمزة والقاف . وهو عندهم عبارة عن نائب البَطْرَك .

الرابع — المِطْرانُ — بكسر الميم . وهو عبارة عن القاضى الذى يفصِل الخُصوماتِ بينهم .

الخامس — القِسِّيسُ — بكسر القاف . وهو القارئ الذى يَقْرأ عليهم الإنجيلَ والمَزامِيرَ وغيرها .

---

(١) الزيادة من الضوء .

(٢) بياض بالاصول .

السادس — الجَاثَلِيقُ ـ بجيم بعدها ألف ثم تاء مثناة فوق[1] ولام ثم ياء مثناة تحتُ وقاف فى الآخر . وهو عندهم عبارة عن صاحبِ الصَّلاة .

السابع — الشَّمَّاس ـ بشين معجمة فى الأوّل وسين مهملةٍ فى الآخر وميم مشدّدة . وهو عبارة عندهم عن قَيِّم الكَنِيسة .

الثامن — الراهِبُ . وهو عبارةٌ عن الذى حَبَس نفسَه على العبادة فى الخَلْوة .

الطائفة الثانية اليهود

(والمشهور من ألقابِ اربابِ وظائفهم ثلاثةُ ألقابٍ)

الأوّل — الرَّئيس . وهو القائم فيهم مَقامَ البَطْرك فى النصارى ، وقد تقدّم الكلامُ علىٰ لفظ الرئيس وأنه يقال بالهمز وبتشديد الياء .

الثانى — الحَزَّان ـ بحاء مهملة وزاى معجمة مشدّدة وبعد الألف نون . وهو فيهم بمثابة الخَطيب يَصْعَد المِنبَرَ ويَعِظهم .

الثالث — الشَّلِيَحْصَبُّور ـ بكسر الشين المعجمة واللام وفتح الياء المثناة تحتُ وبعدها حاء مهملة ساكنة ثم صاد مهملة مفتوحة وباء موحدة مشدّدة مضمومة بعدها راء مهملة . وهو الإمام الذى يصلِّى بهم .

(١) نص فى القاموس علىٰ جواز الفتح والكسر فيه وأورده بالثاء المثلثة فلعل ما أثبته فى الاصل تصحيف أولغة .

الجملة الثانية

(فى ذكر الألقاب المرتَّبة على الأصول العِظام من ألقابِ أرباب الوظائف المتقدّمة، وهى نوعان)

النوع الأوّل

(ألقابُ الخُلَفاء المرتَّبة على لقب الخليفة، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(ماجرى منها مَجْرى العُمُوم، وهو لقبان)

الأوّل — أميرُ المؤمنين . وهو لقَبٌ عامٌّ للخلفاء . وأوّل من لُقِّب به منهم عمرُ آبنُ الخطاب رضى الله عنه فى أثناءِ خلافته، وكانوا قبل ذلك يَدْعُون أبا بكر الصدّيقَ رضى الله عنه بخليفةِ رسول الله، ثم دَعَوْا عُمَر بعده لآبتداء خلافته بخليفةِ خليفةِ رسول الله .

وآختُلِف فى أصل تلقيبه بأمير المؤمنين فروى أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" بسنده إلى أبى وبْرَة، أن أصلَ تلقيبه بذلك أن أبا بكر وعمر رضى الله عنهما كانا يَجْلِدان فى الشراب أربعين، قال فبعثنى خالدٌ إلى عمر فى خلافته أسأله عن الجَلْد فى الشراب بحضرته، فقلت : يا أمير المؤمنين إن خالدًا بعثنى اليك — قال فِيمَ؟ قلت : إن الناس قد تَخَافُّوا العقوبة وآنهمكوا فى الخمر فما ترى فى ذلك فقال عمرُ لمن حولَه ما ترون فى ذلك فقال علىّ نرى يا أمير المؤمنين ثمانين جلدةً فقبِل ذلك عمرُ فكان أبو وبْرَة ثم علىّ بن أبى طالب أوّلَ من لَقَّبه بذلك .

وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" أن أصل ذلك أن عمر رضى الله عنه بعث إلى عامله بالعراق أن يرسل إليه رجلين عارفين بأمور العراق يسألهما عما يريد فأنفذ إليــه لبيدَ بنَ ربيعةَ وعدىَّ بن هشام (١) فلما وصلا المدينةَ دخلا المسجدَ فوجدا عَمْرو بن العاص فقالا له : آستأذِنْ لنا على أمير المؤمنين ـ فقال لهما عمرو : أنتما أصبتُما آسمَه ! ثم دخل على عمرَ فقال السـلام على « أمير المؤمنينَ » ـ فقال : مابَدَا لك يا آبنَ العاص ؟ لَتَخْرُجَنَّ من هذا القول ! فقصَّ عليه القصــةَ فأقرّه على ذلك ، فكان ذلك أوّلَ تلقيبــه بأمير المؤمنين ، ثم آستقرَّ ذلك لقباً على كلِّ من وَلِىَ الخلافةَ بعــده أو آدَّعاها خَلَا خلفاءَ بنى أُمَيَّةَ بالأندلُس فإنهــم كانوا يخاطَبُون بالإمارة فقط إلى أن وَلِىَ منهم عبدُ الرحمن بنُ محمدِ بن عبد الله ، بنِ عبد الرحمن ، وهو الثالثَ عشرَ من خلفائهم إلى زماننا .

الثــانى ــ عبــدُ الله ووليُّه . وهو لقبٌ عامٌّ للخلفاء أيضا ، إذ يُكْتَب فى نعت الخليفة فى المكاتبات ونحوها « من عبدِ اللهِ ووَليِّــه أبى فلانٍ فُلانٍ أمير المؤمنين » فأما عبدُ الله فأوّلُ من تلقَّب به أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه أيضا ، فكان يكتُب فى مكاتبــاته « من عبدِ اللهِ عمــرَ » ولزم ذلك مَنْ بعــده من الخلفاء حتّى إن المأمون كان آسمه عبدَ الله فكان يكتب من « عبدِ الله عبدِ الله بن هارون » مكرَّرًا لعبدِ الله على الآسم الخاص واللقبِ العــامّ ، وأما إردافها بقوله « ووليُّــه » فأُحْدِث بعد ذلك .

---

(١) كذا فى الأصول ومثله فى الضوء وفى مروج الذهب عدىّ بن حاتم وهو الصواب .

الصـــنف الثـانى
(ألقابُ الخلافة الخاصــةُ بكل خليفة)

والمتلقِّبون بألقاب الخلافة خمسُ طوائف :

الطائفة الأولىٰ
(خلفـــاء بنى العَبّـاس)

قد تقدّم فى الجملة الثانية من الطَّرَف الأوّل من هذا الفصل فى الكلام علىٰ أصلِ وضْع الألقاب والنُّعُوت أن خلفاء بنى أُمَيَّــة لم يتلقَّبْ أحَدٌ منهم بألقابِ الخلافة ، وأن ذلك آبتُدِئ بابتداء الدولة العبَّاسية فتلقب إبراهيمُ بنُ محمدٍ حين أُخِذتْ له البيعةُ بـ«الإمام» وأن الخُلْف وقع فى لقب السفَّاح : فقيل «القـائِم» وقيل «المهتدِى» وقيل « المرتضِى » ، ثم تلقب أخوه بعده بـ«المنصور» وآستقرّت الألقابُ جاريةً علىٰ خلفائهم كذلك إلىٰ أن وَلِىَ الخلافةَ أبو إسحاق إبراهيمُ بنُ الرشيد بعد أخيه المأمون فتلقَّب بـ « المعتصِم بالله » فكان أوّلَ من أُضِيف فى لَقَبه من الخلفاء آسمُ الله . وجرىٰ الأمر علىٰ ذلك فيما بعده من الخلفاء، كـ«الواثِق بالله» و «المتوكِّل علىٰ الله» و«الطائع لله» و «القائِم بأمر الله» و «الناصِر لدين الله» وما أشبه ذلك من الألقاب المتقدّمة فى الكلام علىٰ ترتيب الخلافة فى المقالة الثانية .

وكان من عادتهم أنه لا يتلقَّب خليفةٌ بلقبِ خليفــةٍ قبْلَه إلىٰ أن صارت الخلافةُ إلىٰ الديار المصرية فترادَفُوا علىٰ الألقاب السابقة ، واستعملوا ألقابَ مَنْ سلف من الخلفــاء علىٰ ماتقدّمت الإشارة إليــه فى الكلام علىٰ ترتيب الخلفاء، إلىٰ أن تلقب أميرُ المؤمنين محمدُ بنُ أبى بكر خليفــةُ العصر، بـ « المتوكل علىٰ الله » وهو من أوائل ألقاب الخلافة العباسية .

الطائفـــة الثـانية

(خلفـاء بنى أُميَّـــة بالأندلُس)

(حين غلب بنو العباس علىٰ الأمر بالعراق، وٱنتزعوا الخلافة منهم)

وأوّل من وَلِيَ الخلافة منهم بالأندلُس « عبدُ الرحمن » بنُ معاوية ، بنِ هشامِ، ٱبنِ عبدالملك ، بنِ مَرْوان ، المعروفُ (بالداخل) لدخوله الأندلُس فى سنة تسع وثلاثين ومائة علىٰ ماسـيأتى ذكره فى مكاتبة صاحب الأندَلُس . ولم يتلقَّبْ بلقبٍ من ألقاب الخلافة جَرْيا علىٰ قاعدتهم الأولىٰ فى الخلافة . وجرىٰ على ذلك مَنْ بعده من خلفائهـم إلىٰ أن وَلِيَ منهم « عبدُ الرحمن » بنُ محمد، المعروف بـ«المَقْبول» فتلقب بـ« النـاصر» بعد أن مضىٰ من خلافته تسعٌ وعشرون سنة ، وتبعه مَنْ بعـده منهم علىٰ ذلك إلىٰ أن ولى عبدُ الرحمن بنُ محمد ، بن عبد الملك ، بن الناصر عبد الرحمن المقدّم ذكره، فتلقب بـ«المرتضِى بالله» وهو أوّل من أُضِيف فى لقبه بالخلافة منهم ٱسمُ الله، مضاهاةً لبنى العباس ، وذلك فى حدود الأربعمائة . وبقى الأمرُ علىٰ ذلك فى خلفائهـم إلىٰ أن كان آخرهم هشام بن محمد فتلقب بـ«المعتمد بالله » وٱنقرضت خلافتهم من الاندلس بعد ذلك بانقراضه فى سنة ثمـان وعشرين وأربعمائة .

الطائفة الثالثـــــة

(الخلفاء الفاطميُّون ببلاد الغرب ثم بالديار المِصْرية)

وأوّل ناجمٍ نَجَم منهم ببلاد الغرب (أبو محمد عبيدُ الله) فى سـنة ست وتسعين ومائتين من الهجرة ، وتلقب بـ«المَهْدِىّ» ثم تلقب بنوه من بعده بألقاب الخلافة المضافِ فيها ٱسمُ الله كـ«القائم بأمر الله» و « المنصورِ بالله » إلىٰ ان كان منهم

المعزُّ لدين الله أبو تميم مَعَدٌّ، وهو الذى انتزع الديارَ المصرية من أيدى الأَخْشِيدِيَّة، وصار إليها فى سنة تسع وخمسين وثلثمائة . وتداول خلفاؤُهم بها مثل هذه الألقاب إلىٰ أن كان آخرُهم العاضدَ لدين الله عبدَ الله وانقرضتْ خلافتهم بالدولة الأيُّوبية علىٰ ماتقدّم ذكره فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ ملوك الديار المصرية .

الطائفة الرابعة

(الخلفاء الموحّدون الذين ملوكُ أفريقيَّة بتونُس الآنَ من بقاياهم)

وأوّلهم فى التلقيب بألقاب الخلافة إمامُهم محمدُ بن تُومَرْت البربرىّ، القائمُ ببلاد الغربِ فى أعقاب الفاطميين المتقدّم ذكرهم، تلقب بـ«المهدىّ» وآل الأمرُ من جماعته إلىٰ الشيخ أبى حفصٍ أحدِ أصحابه، ومن عقبه ملوكُ تونُسَ المتقدّمُ ذكرهم فلم يتلقب أحد منهم بألقاب الخلافة إلىٰ أن ولى منهم أبو عبدالله محمدُ بنُ أبى زكريَّا يحيىٰ فتلقب بـ«المستنصر بالله» وتبعه مَنْ بعده من ملوكها علىٰ التلقيب بألقاب الخلافة إلىٰ زماننا . ولذلك قال المقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" فى الكلام علىٰ مكاتبة صاحب تونُسَ «لايدّعى إلا الخلافةَ» وشبهتُهم فى ذلك أنهم يدّعون انتسابَهم إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه، وهو من صميم قُرَيْش .

الطائفة الخامسة

(جماعةٌ من ملوك الغرب ممن لاشبهة لهم فى دعوىٰ الخلافة)

كملوك الطوائف القائمين بالأندلُس بعد انقراض الدولة الأَمَويّة منهـا : من بنى عَبَّاد وبنى هُود وغيرهم حيث كانوا يلقَّبون بـ«المعتمد» وغيره .

النـــــوع الثـانى

(ألقابُ الملوك المختصةُ بالملك ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(الألقابُ العامةُ ، وهى التى تقع بالعموم على ملوكِ ممالكَ مخصوصةٍ تصدُق على كلِّ واحد منهم ، وهى ضربان)

الضرب الأوّل

(الألقابُ القديمة ، والمشهور منها ألقابُ ستِّ طوائفَ)

الطائفة الأولى

(التَّبابِعةُ ملوكُ اليمن)

كان يقال لكلِّ منهم «تُبَّعٌ» . قال السُّهَيْلىّ فى "الروض الأُنُف" : سُمُّوا بذلك لأن الناس يَتْبَعونهم ، ووافقه الزمخشرىّ على ذلك . وقال ابن سيده فى "المحكم" : سُمُّوا بذلك لأنهـم يَتْبَعُ بعضُهم بعضـا . قال المسعودىّ فى "مروج الذهب" : ولم يكونوا لِيُسَمُّوا أحدا منهم تُبَّعًا حتّى يملك اليمنَ والشِّحْرَ وحضرموتَ . وقيل : حتّى يتبعه بنو جُشَمَ بن عبد شمس ، أما إذا لم يكن كذلك فإنمـا يسمَّى مَلِكا . وأوّل من لُقِّب منهم بذلك «الحارثُ بن ذى شمر» وهو الرائشُ . ولم يزل هذا اللقب واقعا على ملوكهم إلى أن زالت مملكتُهم بملك الحبشة اليمنَ .

الطائفـــة الثـانية

(ملوك الفُرْس، وهم على أربع طبقات)

الطبقة الأولى — البيشـدادية . كان يقال لكل من ملك منهم فيشـداد، ومعناه « سيرة العَدْل » وأوّلهم كُيُومَرْث، والفُرْس كلهم مطبقون على أنه مبدأ نَسْل البَشَر، وكأنهم يريدون به آدمَ عليه السلام .

وحكى الغزالىّ فى "نصيحة الملوك": أن كيومرث ابنُ آدم لصُلْبه، وأن آدم عَهِد إلى شيثٍ بأمر الدّين وإلى كُيومرث بأمر الملك . وبعضهـــم يقول إنه كامِرُ ابنُ يافثَ بن نوح عليه السلام .

الطبقة الثانية — (الكَيَانِيَّة)[1] . سُمّوا بذلك لأن فى أوّل اسم كل واحد منهم لفظ كِى، وأوّلهم (كِيقْباذ) .

الطبقة الثالثة — (الأَشْغَانِيَّة) . كان يقال لكل منهم «أَشْغَان»[2] . قال المسعودىّ : بالغين المعجمة ويقال بالكاف .

الطبقة الرابعة — (الأَكَاسِرَةُ) . كان يقال لكل منهم «كِسْرى» بكسر الكاف وفتحها، وربمـا قيل فيهم « الساسانِيَّـة » نسبةً إلى جَدّهم ساسانَ بنِ أَرْدَشِير بن كِى بَهْمَنْ . وأوّلهم أردَشِـير بنُ بابَكْ وآخرهم يَزْدَجِرد الذى انقرض ملكُهم بانتزاع المسلمين الملكَ من يديه فى خلافة عثمانَ رضى الله عنه .

---

(١) فى العبرج ٢ ص ١٥٩ "الكينية" .

(٢) فى الاصول بدون نون والتصحيح من المسعودىّ .

الطائفـــة الثـالثة

(ملوك مصر من بعد الطُّوفان من القِبْط)

كان كلُّ مَنْ ملكها منهــم يسمَّى « فِرْعَوْن » قال إبراهيم بن وَصِيف شاه فى "كتاب العجائب" : والقِبط تزعم أن الفراعنة مَنْ مَلَكها من العمالقة دُون القِبْط ، كالوَليد بن دُومَغ ونحوه ، و يقال : إن أوّل من تسمَّى بهــذا الآسم منهم (فرعان) آخر ملوكها قبل الطُّوفان ثم تسمَّى مَنْ بعده بـ«فِرْعَوْن» . قال المؤيد صاحب حماة فى تاريخــه : ولم أدر لأىّ معنًى سمِّى بذلك . والمذكور فى القرءان منهم هو الذى بُعِث موسٰى عليه السلام فى زمانِه .

الطائفــــة الرابعة

(مــلوك الروم ، وهم طبقتان)

الطبقةُ الأولٰى منهــما ليس لهم لقبٌ يعمُّ كل مَلك ، بل لكلِّ ملك منهــم آسم يخصُّــه .

الطبقة الثـانية — القَيَاصِرةُ . كان يقال لكُلِّ مَنْ ملك منهم قَيْصَرُ . وأصل هذه اللفظة فى اللغة الروميــة جاشَر بجيم وشين معجمة فعرّبتها العرب قَيْصَر ولهـا فى لغتهم معنيان : أحدُهما الشَّعَر ، والثانى الشىءُ المشقوقُ .

وآختُلف فى أوّل مَنْ تلقّب بهذا اللقب منهم : فقيل أغانيوش أوّلُ ملوك الطبقة الثـانية منهم . سمِّى بذلك لأن أمه ماتت وهو حمْل فى بطنها فشُقَّ جوفُها وأُخْرج فأُطْلِق عليه هــذا اللفظ أخذًا من معنَى الشقّ ، ثم صار عَلَما على كل مَنْ مَلَكهم بعده ، وقيل أوّل مَنْ لقِّب بذلك يوليوش الذى ملك بعد أغانيوش المذكور ، وقيل

أول من لُقِّب به أُنْشْطش ، واختلف فى سبب تسميته بذلك : فقيل لأن أمه ماتَتْ وهو فى جوفها فشُقّ عنه وأُخرج كما تقدّم القول فى أغانيوش ، وقيل لأنه وُلِد وله شَعَر تامٌّ فلُقِّب بذلك أخذا من معنى الشعر كما تقدّم . ولم يزل هذا اللقبُ جاريًا على ملوكهم إلى أن كان منهم هِرَقْل الذى كَتَب إليه النبىُّ صلى الله عليه وسلم .

وزعم القاضى شهابُ الدين بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" فى الكلام على مكاتبة الأدفونش أن هِرَقْل لم يكن المَلِكَ نَفْسه وإنما كان متسلِّم الشام لقَيْصَر، وقَيْصَرُ بالقسطنطينية لم يَرِمْ، وإنما كتب النبىّ صلى الله عليه وسلم إلى هِرَقْل لقربه من جزيرة العرب وبقى هذا اللقب عليهم بعد الإسلام إلى أن كان آخِرُ من تلقَّب به منهم (إستبراق قيصر) ملك القسطنطينية فى خلافة المأمون بن الرَّشيد .

الطائفة الخامسة

(ملوكُ الكَنْعانيِّين بالشأم)

كان كلُّ مَنْ ملك منهم لُقِّب «بجَالُوتَ» إلى أن كان آخرهم جالوتَ الذى أخبر الله تعالى عنه بقوله ﴿ وقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ .

الطائفة السادسة

(ملوك الحبشة)

كان كلُّ مَنْ ملك منهم يلقَّب «بالنَّجَاشىِّ» ولم يزَلْ ذلك لقبا على ملوكهم إلى أن كان منهم النجاشىُّ الذى كتب إليه النبىُّ صلَّى الله عليه وسلم وصلَّى عليه النبىّ صلى الله عليه وسلم بعد موته . وهو الذى هاجر إليه مَنْ هاجر من الصحابة رضوانُ الله عليهم الهجرةَ الأولى . واسمه صَحْمة ويقال أَصْحَمةُ ، ومعناه بالعربية عَطِيَّة .

الضرب الثانى
(الألقابُ المستحدَثةُ، والمشهور منها ألقابُ ستِّ طوائفَ)

الطائفة الأولى
(مــلوكُ فَــرْغانةَ)

كان كلُّ مَنْ ملك منهــم يلقَّب « الأَخْشِيد » ولذلك لَقَّب الراضى بالله العباسىُّ محمدَ بنَ طُغْج صاحبَ الديار المصرية والبلاد الشامية بـ«الأَخْشِيد» لأنه كان فَرْغانياً .

الطائفة الثانية
(مــلوك أُشْرُوسَــنَةَ)

كان كلُّ مَنْ ملكها يقــال له « الأَفْشِــين » . قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : وبه لَقَّب المعتصمُ بالله حَيْدَر بن كاوس بـ«الأَفْشِين» لأنه أُشْرُوسَنِىٌّ .

الطائفــــة الثالثة
(مــلوكُ الجَلَالِقةِ من الفَرَنْج)

الذين قاعدة مُلْكهم طُلَيْطِلَةُ وبَرْشَــلُونةُ من الأندلُس . يقــال لكلِّ مَنْ ملك منهم « أَدْفُونَش » بدال مهملة ثم فاء بعــدها واو ثم نون مفتوحة وشــين معجمة فى آخره . وهــذا اللقب جارٍ على ملوكهم إلى زماننا ، وهو الذى تُسَــمِّيه العامةُ « الفُنْش » .

الطائفـــة الرابعة

(ملوك فَرَنْسَة، ويقال فَرَنْجَة بالجيم)

وهو ملك الأرض الكبيرة بظاهر الأندلس. يقال لكلّ من ملكها «ريدافرَنْس» ومعنى رِيد بلغتهم المَلِك، والأفرَنْس اسم للجنس الذين يملك عليهم. والمعنى ملك الأفرَنْس. وهو الذى تسميه العامّة «الفَرَنْسِيس» وهـذا اللقب جارٍ على ملوكهم إلى الآن.

الطائفـــة الخامسة

(ملوك البُنْدُقيّة من بلاد الفَرَنْج)

كلّ من ملك منهم يسمّونه «دُوك» بالكاف المشوبة بالجيم فيقال: «دُوك البُنْدُقِيّة». وهذا اللقب جارٍ على مُلُوكهم إلى آخر وقت.

الطائفـــة السادسة

(ملوك الحَبَشة فى زماننا)

كلّ مَنْ ملك منهم يقال له «حَطِّى» بفتح الحاء المهملة وكسر الطاء المهملة المشدّدة. وهذا اللقب يُذْكَر فى مكاتباتهم عن الأبواب السلطانية على ماسيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالى.

الصـــــنف الثـانى

(من النوع الثانى الألقابُ الخاصـــة)

وهى التى يُخَصُّ كلُّ ملكٍ من ملوك الإســلام منها بلقبٍ ، وهو المعبَّر عنه عند الكُتّاب باللقب المُلُوكىّ . ويختلف الحالُ فيه باختلاف البلادِ والزمانِ .

فأما بلاد المشرق فأوّل ٱفتتــاح تلقيب مُلُوكهم بالإضافة إلى الدولةِ ، وكان أوّلَ من تلقّب منهم بذلك بنو حَمْدانَ ملوكُ حلَبَ ، فتلقب أبو محمـدٍ الحسنُ بنُ حَمْدانَ فى أيام المتقى لله «ناصِرَ الدولةِ» وتلقَّب أخوه أبو الحسن علىٌّ «سيفَ الدولة» وعلى ذلك جرى الحال فى ملوك بنى بُوَيْه على ما تقدّم ذكره فى الكلام على أصول الألقاب ، وتوالى ذلك فيهم إلى ٱنقراض دولتهم . ثم وقع التلقيبُ بالسلطان فيما بعدهم من الدُّوَل كدولة بنى سُبُكْتِكين ، وبنى ساسانَ ، وبنى سَلْجُوق ، إلى أن غلبت التتارُ على بلاد المشرق فجرَتْ ملوكُهم فى التلقيب بألقابٍ على عادة ملوكهم .

وأما بلاد المغرب : فأوائلُ ملوكهم على عموم ملوكهم لجميعها وخصوصه ببعضها مابين مدّعٍ للخلافة ، كبنى أُمَيَّةَ بالأندلُس ، وأتباع المهدىّ بن تُومَرْت ، فيدور أمر أحدهم بين التلقيب بألقــاب الخلافة والٱقتصار على ٱسمــه أو كنيته ، وما بين غير مدّعٍ للخلافة ، فيَقْتَصِر على ٱسمه أو كنيته فقط إلى أن غلب يوسُفُ بن تاشِفِين فى أوائل دولة المُرَابِطين من الملثَّمين من البربر على بلاد المغرب والأندلُس ، ودانَ بطاعة الخلافة العباسـيَّة ببغدادَ ، فتلقّب بـ«أمير المسلمين» خضوعًا عن أن يتلقَّب بـ«أمير المؤمنين» الذى هو من خصائص الخلافة ، وتبعه على ذلك مَنْ جاء بعده من ملوك الغرب من البربر : فتلقّب به بَنُو مَرِينٍ : ملوكُ فاس ، وبنو عَبْد الواد ملوك تِلِمْسانَ ، وبقِىَ الأمر على ذلك إلى أن ملك فاسَ وما معها من بلاد المغرب

ابو عنان من أحفاد السلطان ابى الحسن، فتلقب بـ«أمير المؤمنين» وصارت مكاتباته تردُ إلى الديار المصرية بذلك، وتبعه من بعده من ملوكهم على ذلك .

أما ملوك تونس من بقايا الموحدين، فلم يزالوا يلقبون بألقاب الخلافة على ماسبق ذكره فى الكلام على ألقاب الخلفاء .

وأما الديار المصرية، فمضى الأمر فيها على نواب الخلفاء من حين الفتح الإسلامى وإلى انقراض الدولة الأخشيدية ولم يتلقب أحد منهم بلقب من الألقاب الملوكية . ثم كانت دولة الفاطميين فتلقبوا بألقاب الخلفاء على ما مر ذكره . ولم يتلقب أحد من وزرائهم أرباب السيوف لابتداء أمرهم بالألقاب الملوكية إلى أن ولى الوزارة المستنصرُ بدرُ الجمالى" وعظم أمر الوزارة، وصارت قائمةً مقامَ السلطنة الآنَ فتلقب بـ«أمير الجيوش» وتلقب ابنه فى وزارته بعده بـ«الأفضل» وتلقب ابن السلار بعد ذلك بـ«العادل» وتلقب ابن البطائحى" وزيرُ الآمر بـ«المأمون» ثم وزر بعد ذلك الحافظ بهرام الأرمنىُّ النصرانىُّ فتلقب بـ«تاج الدولة» ثم وزر بعده وزيرٌ اسمه رضوان، فلقبه بـ«الملك الأفضل» . قال المؤيد صاحب حماة : وهو أول من لُقب من وزرائهم بالملك، وجرى الأمر على ذلك فى وزارتهم حتى كان منهم الملكُ الصالحُ طلائعُ بن رزّيك وزيرُ الفائز ثم العاضد، ثم وزر للعاضد آخرا أسدُ الدين شيركوه عمُّ السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوبَ ولُقب بـ«الملك المنصور» ثم وزر له بعده ابنُ أخيه صلاحُ الدين، فلقب بـ«الملك الناصر» ثم استقلَّ بالمُلك بعد ذلك، وبقى فى السلطنة على لقبه الأول . وتداول ملوكُ الدولة الأيوبية بعده مثلَ هذه الألقاب : كالملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين، والملك العادل أبى بكر بن أيوب، والملك الكامل محمدٍ ابنه، والأفضلِ صاحب دمشقَ، والمعظّم صاحب الكَرَك، وغيرهم إلى حين انقراض دولتهم ودخولِ الدولة التركيــة . فتلقب أيبك التركمانىُّ أوّلُ ملوكهم

بـ«الملك المُعِزّ» واستمرّ التلقيب بمثل ذلك فى الدولة التركية إلى ان صارت المملكة آخرًا إلى الظاهر بَرْقُوق، ثم ابنه الناصر فَرَج، وهم على ذلك . وعلى نحو ذلك ملوك البلاد المجاورة لهذه المملكة : كماردين، وحِصْنِ كَيْفَا ونحوهما .

الجملة الثالثـــــة

(فى الألقاب المفرّعة على الأسماء، على ما استقرّ عليه الحال من التلقيب بالإضافة إلى الدّين ، وهى على أربعة أنواع)

النـــوع الأوّل

(ألقابُ اربابِ الســيوف ، وهم صنفان)

الصنف الأوّل

(ألقاب الجُنْد من التُّرْك ومَنْ فى معناهم)

واعلم أن الغالب فى ألقاب التُّرْك من الجُنْد التلقيبُ بـ«سيْف الدّين» لما فيه من مُناسَـبةِ حالهم وانتسابهم إلى القوة والشــدّة : كَبُلْبُغَا، ومنكلى بغـا ، وبى نجا ، وأسن نجا، وتغرى بردى، وتغرى برمش ، ونحو ذلك . وقد يخرج ذلك فى بعض الأسمـاء فيلقّب بألقاب خاصّة ، كما يلقّبون طيبغا، والطنبغا، وقرابغا «علاء الدين» وأيْدُمُر و بيدُمُر « عزّ الدّين » ولاجين « حُسامَ الدين » وأرسلان « بهاءَ الدّين » وأقوش « جمـالَ الدّين » وسَنْجَر « عَلَمَ الدين » ونحو ذلك . وفى المولدين يقولون فى لقب محمد : « ناصرُ الدين » ولَقَبِ أبى بكر « سيفُ الدّيـن » ولقب عُمَر « رُكْنُ الدين » ولقبِ علىّ « عَلاءُ الدين » ولقب إبراهيم «صارم الدّين» ولقب إسمـاعيل « تاج الدين » ولقب حسن وحسـين « حُسَـام الدين » ولقب خالد « شُجاع الدين » ونحو ذلك .

الصنف الثانى

(ألقابُ الخُدّام الخِصْيانِ المعبَّر عنهم الآنَ بالطَّوَاشِيَّة،
وفى زمن الفاطميين بالأستاذِينَ)

ولهم ألقابٌ تخصّهم: فيقولون فى هِلال ومَرْجان «زَيْنُ الدِّين» وفى دِينارٍ «عِزُّ الدين» وفى بَشِير «سَعْدُ الدين» وفى شَاهِين «فارسُ الدين»، وفى جَوْهر «صَفِيُّ الدين» وفى مِثْقال «سابِق الدين» وفى عَنْبر «شُجاع الدين» وفى لُؤْلؤ «بَدْرُ الدين» وفى صَوَاب «شمسُ الدين» وفى مُحْسِن «جمالُ الدين» ونحو ذلك.

النوع الثانى

(ألقابُ ارباب الأقلام، وهى على صنفين)

الصنف الأوّل

(ألقابُ القُضاة والعلماء)

قد كان فى الزمن الأوّل لغالب أسمائهم ألقابٌ لا يتعدَّوْنها، كقولهم فى محمد: «شمسُ الدين» وفى أحمد «شِهابُ الدين» وفى أبى بكر «زَيْنُ الدِّين» وفى عُمَرَ «سِراجُ الدين» وفى عُثمانَ «فَخْر الدين» وفى علىّ «نُور الدين» وفى يوسُفَ «جَمَالُ الدين» وفى عبد الرحمن «زَيْنُ الدين» وفى إبراهيم «بُرْهان الدِّين» ونحو ذلك. ثم ترك أعيانُهم ذلك لابتذاله بكثرة الاستعمال، وعدَلُوا إلى ألقابٍ أُخَر ابتدعوها على حَسَب أغراضهم فقالوا فى محمد «بَدْر الدين» و«صَدْر الدين» و«عِزّ الدين» ونحوها، وفى أحمد «بَهاءُ الدين» و«صدر الدِّين» و«صَلَاحُ الدين» وفى علىّ «تقِىّ الدين» وفى عبد الرحمن «جَلَال الدِّين» ونحو ذلك، ولم يتوقّفوا فى ذلك على لقبٍ مخصوص، بل صاروا يقصِدُون المخالفة لما عليه جادّةُ مَنْ تقدّمهم فى ذلك.

الصنف الثانى

(ألقـاب الكُتّاب من القِبْـــط)

ولهم ألقاب تخصُّهم أيضا : فيقولون فى عبد الله «شمسُ الدين»(١) وفى عبد الرازق «تاجُ الدين» وربمـا قالوا «سَـعْد الدين» وفى إبراهيم «عَلَم الدين» وفى ماجِدٍ «مَجْدُ الدين» وفى وَهْبة «تَقِىّ الدين» ونحو ذلك .

النـــــوع الثـالث

(ألقـاب عامة الناس من التُّجّار والغِلْمان السُّلْطانية ونحوهم)

وهم على سَنَن الفقهاء فى ألقابهم ، وربمـا مالَ مَنْ هو منهم فى الخِدَم السلطانية إلى التلقيب بألقاب الجُنْد .

النـــــوع الرابع

(ألقـاب أهـــل الذِّمّة من الكُتّاب والصَّيَـــارف ومَنْ فى معناهم من اليهود والنصارى)

وقد آصـطلحوا على ألقـابٍ يتلقبون بهـا غالبها مصدَّرة بالشيخ ، ثم منهم مَنْ يجرى على الرسم الأوّل فى التلقيب بالإضافة إلى الدولة فيتلقب بولىّ الدولة ونحوه ؛ ومنهم من يحـذف المضافَ إليـه فى الجملة ويعرّف اللقب بالألف واللام فيقولون

(١) لعل هذا بعد اسلامهم كما يدل عليه ما بعد فى النوع الرابع .

« الشيخ الشمسى » و « الشيخ الصفى » و « الشيخ الموفّق » وما أشبه ذلك . فإذا أسلم أحدهم أُسْقِطت الألف واللام من أوّل لقبه ذلك، وأُضيف إلى لفظ الدين. فيقال فى الشيخ الشمسى «شمس الدين» وفى الصفىّ «صفى الدين» وفى ولىّ الدولة «ولىّ الدين» وما أشبه ذلك . وربما كان لقب الذمىّ ليس له موافقةٌ فى شىء مما يضاف إلى الدين من ألقاب المسلمين، فيراعى فيه إذا أسلم أقربُ الألقاب إليه، مثل أن يقال فى الشيخ السعيد مثلا إذا أسلم «سَعْدُ الدين» ونحو ذلك .

الجملة الرابعة

(فى أصل وضع الألقاب الجارية بين الكُتَّاب، ثم آنتهائها إلى غاية التعظيم ومجاوزتها الحدّ فى التكثير)

أما أصل وضعها ثم آنتهاؤها إلى غاية التعظيم فإنّ ألقاب الخلافة فى آبتداء الأمر — على جلالة قَدْرها وعِظَم شأنها — كانت فى المكاتَبات الصادرة عن ديوان الخلافة وإليه، والولايات الناشئة عنه «عَبْد الله ووليّه الإمام الفُلانىّ أمير المؤمنين» ولم يزل الأمر على هذا الحدّ فى الألقاب إلى أن آستولى بنو بُوَيْه من الدَّيْلَم على الأمر، وغلبُوا على الخلفاء، وآستبدّوا عليهم آحتجبت الخُلَفاء ولم يبق إليهم فيما يُكْتَب عنهم غالبا سوى الولايات، وفُوِّض الأمْرُ فى غالب المكاتَبات إلى وزرائهم، وصارت الحال إذا آقتضَتْ ذكر الخليفة كُنِى عنه بـ«المَوَاقف المقدّسة» و «المقامات الشريفة» و «السُّدّة النبويّة» و «الدار العَزِيزة» و «المحل الممجَّد» يعنون «بالمواقف» الأماكنَ التى يقف فيها الخليفةُ، وكذلك المَقامات ، و بالسدة[1] الأعتاب التى يجلس عليها الخليفةُ، و «بالدار» دارُ الخلافة، و «بالمحَل» محلُّ الخليفة . قال فى "ذخيرة الكُتّاب" : وليت شعرى أىّ شىء قَصَد مَنْ كَنَى عن امير المؤمنين

(١) كذا هو بالراء المهملة فى الأصول وهو آصطلاح لهم .

بهــذه الكنايات ، ويبذل نعوته وصفاته المعظمة المكرّمة بهذه الألفاظ المحقّرات ؟ وإذا ٱستُجيز ذلك ورُضِى به وأُغْضِى عنه كان لآخَرَ أن يقول «المجالِسُ الطاهرةُ» و«المَقاعِدُ المقدّسةُ» و«المَراكِب المعظّمة» و«الأسِرَّة الممجّدة» ومايجرى هذا المَجْرَىٰ ممــا ينبو عنــه السمع وينكره لٱستِحْداثه واستِجْداده ، علىٰ أنه لو توالىٰ علىٰ الأسماع كتوالِى تلك الألفــاظِ لم تنكره بعــدُ إذ لا فرق . قال : ولم يستَسِنَّه النبىّ صلى الله عليه وســلم ولا آختاره لنفسه ، ولا آستحْدَثه الخلفاءُ من بعده ، فمــا وجهُ العمل بموضعه والاّقتفــاءِ لأثره ؟ وكيف يجوز ان يكنىٰ عن الجمــادات، بمــا يُكْنَىٰ به عن الإنسان الحىّ الناطق الكامل الصفات . ولما آنتهىٰ الحال بالخلفاء إلىٰ التعظيم بهذه الألقاب والنعوت المستعارة، تداعىٰ الأمر إلىٰ تعظيم الملوك والوزراء بالتلقيب بـ«المَجْلِس العالِى» و«الحَضْرة السامية» وما أشبه ذلك . قال : وهذا ممــا لم يكن فى زمانٍ، ولا جرىٰ فى وقتٍ، ولا كَتَب به النبىّ صلى الله عليه وسلم، ولا آستعمله الخلفاءُ بعــده ، ثم تزايد الحــال فى ذلك إلىٰ أن كَنَوْا بـ«المَقام» و«المقرّ» و«الجَنَاب» و«المَجْلِس» ونحو ذلك علىٰ ماسيأتى ذكره فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وأما مجاوزتها الحدّ فى الكثرة، فقد تقدّم أن اللقَب الواحدَ كان يُلَقَّب به الشخصُ دُونَ تعــدُّد ألقاب ، إلىٰ أن وافتْ أيامُ القادر بالله والتلقيبُ بالإضافة إلىٰ الدولة فزيد فى لقَب عضُد الدولة بن بُوَيْه (تاجُ المِلّة) فكان يقال «عضُد الدولة وتاج المِلّة» وكان أوّلَ من زِيدَ فى لقبــه علىٰ الإفراد، وان آبنَه «بهــاءَ الدولة» زِيد فى لقبه فى الأيام القادريّة أيضا «نظامُ الدين» فكان يقال : «بهاءُ الدولة ونِظامُ الدين»

ويقال : إنه زاده مَنْ بعدَ بهاء الدولة لفظَ «فى الأمة» فكان يقال : «بهاء الدَّولَة فى الأمة ونظامُ الدِّين» ثم لُقِّب محمودُ بنُ سُبُكْتِكِينَ فى الأيام القادرِيَّة أيضا «يَمِينَ الدولة، وأمين المِلَّة، وكهف الإسلام والمسلمين، وَلِىّ أمير المؤمنين» وتزايد الأمرُ بعد ذلك فى تكثير الألقاب حتّى جاوز الحدّ وبلغ النهاية، وصارت الكُتَّاب فى كل زمن يَقْتَرِحون ألقابا زيادةً على ما سبق إلى أن صارتْ من الكَثْرة فى زماننا على ماستَقِف عليه إن شاء الله تعالى فيما بعدُ .

الجملة الخامسة

(فى بيان الألقاب الأصول وذكْرِ معانيها وآشتقاقِها، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(مايقع فى المكاتَبات والوِلَايات، وهى ثمانيةُ ألقابٍ)

الأوّل — الجانبُ . وهو من ألقابِ وُلاةِ العَهْد بالخلافة ومَنْ فى معناهم : كإمام الزَّيدِيَّة باليمن فى مكاتبته عن الأبواب السلطانية . ورُبّما وقع فى الخِطَاب فى أثناء المكاتبة : فيقال «الجانب الأعلى» و«الجانب الشريف العالى» [والجانب الكريمُ العالى] (١) و«الجانب العالِى» مجرّدا عنهما، رُتْبة بعد رُتْبة .

ثم الجانب فى أصل اللغة اسمٌ للناحية، والمراد الناحيةُ التى صاحبُ اللقب فيها، كُنِيَ بها عنه تعظيما له عن أن يُتَفَوّه بذكره؛ وكذا فى غيره مما يجرى هذا المَجْرى من الألقاب المكتتبة : كالمَقام والمَقرّ ونحوهما .

الثانى — المَقَام بفتح الميم . وهو من الألقاب الخاصّة بالملوك . وأصل المَقَام فى اللغة آسمٌ لموضع القيام، أخذًا من قامَ يقومُ مَقَاما . وقد ورد [فى] التنزيل بمعنى موضع القيام فى قوله تعالى : ﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يريد موضع قدميه

(١) الزيادة ساقطة من الناسخ يحتاج إليها الكلام .

فى الصَّخْرة التى كان يقومُ عليها لِبناء البيت، ثم تُوسِّع فيه فأُطْلِق على ما هو أعمّ من موضع القيـام من مَحَـلَّة الرجل أو مَدينته ونحو ذلك . ومن ثَمَّ قال الزمخشرىّ فى الكلام على قوله تعالى : ﴿إنَّ المتَّقِينَ فى مَقامٍ أَمِينٍ﴾ إنه خاصٌّ ٱسْتُعمِل فى معنى العموم، يعنى أنه يُسْتَعمل فى موضع الإقامة فى الجملة . أما المُقام بالضم فاسمٌ لموضع الإقامة أخذًا من أقامَ يُقِـيم، إذ الفـعل متى جاوَزَ الثلاثة فالموضع منـه مضموم كقولهم فى المكان الذى يُدَحْرَج فيـه مُدَحْرَج كما نَبَّـه عليه الجوهرىّ وغيره . وقد قرئ قوله تعالى : ﴿يأَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقامَ لَكُمْ﴾ بالفتح والضم جميعا على المعنيين . قال الجوهرىّ : وقد يكون المَقام بالفتح بمعنى الإقامة والمُقام بالضم بمعنى موضع القيام . وجعل من الثانى قوله تعالى : ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا ومُقَامًا﴾ أى موضعا . وبالجملة فالذى يستعمله الكُتَّاب فى المَقام الفتحُ خاصةً، يكنون بذلك عن السلطان تعظيمًا له عن التفوُّه باسمه . قال المَقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله فى "عُرْف التعريف" : ويقال فيه «المَقام الأشرفُ» و «المَقام الشريفُ العالى» ورُبَّما قيل فيه «المَقام العالى» ولم يتعرّض لذكر «المَقام الكَريم» ولو عُمِل عليه تأسِّيا بلفظ القرءان الكريم حيث قال تعالى : ﴿ومَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ لكان حَسَنا .

الثالث — المَقرّ — بفتح الميم والقاف . قال فى "عرف التعريف" : ويختص بكِبَار الأمراء، وأعيان الوُزَراء، وكُتَّاب السِّر ومن يجْرِى مَجْراهم : كناظر الخاصّ، وناظر الجَيْش، وناظر الدَّوْلة، وكُتَّاب الدَّسْت ومَنْ فى معناهم . قال : ولا يُكْتَب لأحد من العلماء والقُضاة، وكأنه يريد العُرف العامّ . والتحقيق فى ذلك أن الحال فيه يختلف بحسَب المكتوب عنـه، فلا يقال فيما يُكْتَب عن السلطان إلا لأكابر الأمراء وبعض المـلوك المكاتَبين عن هـذه المملكة : كصاحب مارِدِينَ ونحوه .

بل قد ذكر ابنُ شِيثٍ فى "معالم الكتابة" أن المَقرّ من أجلّ ألقاب السلطان . وقد رأيت ذلك فى العهد المكتتب بالسلطنة للمنصور قلاوون من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبدالظاهر . أما عمّن عدا السلطان كالنّوّاب ونحوهم فإنه يُكْتَب به لأكابر أرباب السيوف والأقلام : من القُضاة والعلماء والكُتّاب . على أن ابن شيثٍ فى "معالم الكتابة" قد جعله من الألقاب المُلوكيّة كالمَقام ، بل جعلهما على حدٍّ واحدٍ فى ذلك . قال فى "عرف التعريف" : ويقال فيه « المَقرّ الأشرفُ » و« المَقرّ الشريفُ العالى» و« المَقرّ الكريم العالى» و « المَقرّ العالى» مجردا عن ذلك . وأصله فى اللغة لموْضع الاستقرار ، والمرادُ الموضع الذى يستقرُّ فيه صاحبُ ذلك اللقب . ولا يخفى أنه من الخاصّ الذى استُعمِل فى العموم كما تقدّم فى لفظ المَقام عن الزمخشرى . إذ يجوز أن يقال فلان مقرّه مَحَلّة كذا و بَلْدة كذا ، كما يقال مَقامه مَحلّة كذا وبلد كذا .

الرابع — الجَنَاب . وهو من ألقاب أربابِ السُّيوف والأقلام جميعا فيما يكتب به عن السلطان وغيره من النوّاب ومَنْ فى معناهم . قال فى "عرف التعريف" : وهو أعلى ما يكتب للقُضَاة والعلماء من الألقاب . قال : ويُكْتَب لمن لا يُؤَهَّل للمَقرّ من الأمراء وغيرهم ممن يجرى مَجْرى الوزراء ، و يزيد على ماقد ذكره أنه يكتب به لبعض الملوك المكاتَبِين عن الأبواب السلطانية . قال فى "عرف التعريف" : ويقال فيه «الجَنَاب الشريفُ العالى» و«الجَنَاب الكريم العالى» و«الجناب العالى» مجردا عنهما . وأصل الجَنَاب فى اللغة الفِناء أو ماقَرُب من مَحَلّة القوم ، ومنه قولهم : لُذْنا بجَنَاب فُلانٍ وفلانٌ خَصِيب الجَنَاب ، فيعبَّر عن الرجل بفِنائه وما قَرُب من مَحلّته تعظيما له ، ويجمع على أَجْنِبَة كمكانٍ وأمْكِنَة وعلى جَنَابات كحَمَاد وحَمَادات .

الخامس — المَجْلِس . وهو من ألقــاب أربابِ الســيوف والأقلامِ ايضا ممن لم يُؤَهَّل لرتبة الجَنَاب ، وربمــا لُقِّب به بعضُ الملوك فى المكاتبات الســلطانية . علىٰ أنه كان فى الدولة الأيُّوبية لايلقَّب به إلا الملوكُ ومَنْ فى معناهم . ومكاتبات القاضى الفاضلِ والعمادِ الأصْفَهانىّ وغيرهما من كُتَّاب الدولة الأيُّوبيَّة ومَنْ عاصرها مشحونةٌ بذلك ، حتّى قال صاحب "مَعَالم الكتابة" : وقد كانوا لا يكتبون المَجْلِس إلا للسلطان خاصّةً . قال : ولم يكن السلطانُ يُكاتِبُ به أحدًا من الداخلين تحت حكمه والمنسَحِب عليهم أمْرُه . ثم ذكر أنه كان يُكْتَب به فى زمانه إلىٰ كِبَار الأمراء والوزراء ووُلَاة العهد بالسلطنة .

أما فى زماننا فقد صار فى أدْنىٰ الرُّتَب وجُعِل الجَنَابُ والمَقَرّ فوقه علىٰ ماتقدّم . ويقال فيه : «المجلس العالى» و«المجلس السامى» رُتْبةً بعد رُتْبة . ويقال فى المجلس السامى السامىّ بالياء ، والسامِى بغير ياء ، رتبةً بعد رتبةً .

واْعلم أن العالِىَ والسامىَ اْسمــان منقوصان كالقاضى والوالِى وقد تقرّر فى علم النحو أنه إذا دخلت الألفُ واللامُ علىٰ الاْسم المنقوص جاز فيه إثباتُ الياء وحذفُها فيقال القــاض والقاضى ونحو ذلك ، وحينئـذ فيجوز فى العالى والسامى إثبات الياء وحذفها ولكن الكُتَّاب لا يستعملونهما إلا بالياء .

فأما فى العــالِى فيجوز أن تكون الياء التى تُثْبتها الكُتَّاب فى آخره هى الياء اللاحقةُ للاْسم المنقوص علىٰ ماتقــدّم وتكونُ حينئذ ساكنةً ، ويجوز أن تكونَ ياءَ النَّسب نسبة إلىٰ العالى وتكون مشدّدة ، وكذلك فى السامِى بالياء .

أما السامى بغــير ياء فيجوز أن يكون المراد حذفَ ياء النسب لا الياءِ اللاحقـةِ للاْسم المنقوص ، لمــا تقدّم من أن الكُتَّاب لم يستعملوها إلا باثبات الياء ، وحينئذ

فتُحذف اليـاء من الألقاب التى تُنْعَتُ بهـا . ويحتمل أن يكون المرادُ حذفَ الياء اللاحقةِ للآسم المنقوص وهو بعيد .

وأصلُ المجلِس فى اللغة لموضع الجُلُوس ، ويشار بذلك إلىٰ الموضع الذى يَجْلِس فيه تعظيما له علىٰ ما تقـدّم فى غيره . ولا يخفىٰ أنه ليس للمَجْلِس ما للمَقرّ والمقَام من العُمُوم حتّى يعمَّ ما فوق موضع الجلوس ، إذ لا يَحْسُن أن يقال مجْلِس فلان مَحَلّة كذا ولا بَلَد كذا كما يحسن أن يقال : مَقرّه أو مَقامه مَحَلّة كذا أو بلَدُ كذا .

السادس ــ مجلس ــ مجرّدا عن الألف واللام مضافًا إلىٰ ما بعـده ؛ وله فى الآصطلاح أربعُ حالاتٍ :

الأولىٰ أن يُضافَ إلىٰ الأمير : فيقـال « مجْلِس الأَمـير » وهو مختصّ بأرباب السيوف علىٰ آختلاف أنواعهم من التُّرك والعَرب وغيرهم .

الثانية أن يُضافَ إلىٰ القاضى : فيقال « مجلِسُ القاضى » وهو مختصّ بأرباب الأقلام من القُضاة والعلماء والكُتّاب ومَنْ فى معناهم .

الثالثة أن يُضاف إلىٰ الشيخ : فيقال « مجلِسُ الشيخ » ويختصّ ذلك بالصُّوفيّة وأهل الصَّلاح ومَنْ فى معناهم .

الرابعة أن يضاف إلىٰ الصَّـدْر : فيقال « مجلِسُ الصَّدْر » وهو مختصّ بالتُّجّار وأربابِ الصَّنائع ومَنْ فى معناهم ، وربمـا كُتِبَ به فى الدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" وما قاربها لكُتّاب الدَّرْج ومَنْ فى معناهم . والمراد بالصَّدْر صَدْر المجلس الذى هو أعلىٰ أماكنه وأرفَعُها ، والمضافُ والمضافُ إليه فيه كالمتعاكسين ، والتقدير صَدْر المجْلِس .

السابع — أن يُقْتَصر علىٰ المضاف إليه من مَجْلِس الأمير، أو مجلِس القـاضِى، أو مجلِس الشيخ، أو مجلِس الصَّدْر ويقال فيه : «الأميرُ الأجَلُّ» و«القاضِى الأجَلُّ» و«الشيخُ الصالحُ» و«الصدْرُ الأجَلُّ» .

الثـامن — الحضرة . والمراد بها حضرةُ صاحب اللَّقَب . قال الجوهرى : وحَضْرةُ الرجُل قُرْبه وفِنَـاؤه . قال ابن قتيبة فى "أدَبِ الكاتِب" : وتقال بفتح الحـاء وكسرها وضمها وأكثر ماتُستعمل فى المكاتَبات . وهى من الألقابِ القديمة التى كانت تسـتَعْمَل فى مكاتبات الخُلَفـاء . وكان يقال فيها «الحَضْرةُ العاليَـةُ» و«الحَضْرةُ الساميَةُ»، وتستعمل الآنَ فى المكاتبات الصادرةِ عن الأبواب السلطانية إلىٰ بعض المُلُوك . ويقال فيها : «الحضرةُ الشريفةُ العاليةُ» و«الحضرة الكريمةُ العاليةُ» و«الحَضْرة العليَّة» بحسب ماتقتضيه الحالُ . قال ابن شيثٍ فى "معالم الكتَابة" : وكانت ممـا يُكتَب بها لأعيان الدولة من الُوزَراء وغيرهم، ولم يكن السلطانُ يكاتِبُ بها أحدا من الداخلين تحتَ حكمِه والمنسحِب عليهم أمْرُه . وتُستعمَل أيضـا فى مكاتبات ملوك الكُفْر، ويقال فيه بعد الدعاء للحَضْرة : «حَضْرةُ الملك الجليل» ونحو ذلك علىٰ ماسيأتى بيانه فى موضعه . وقد تُستعْمَل فى الولايات فى نحو مايُكْتَب للبَطْرَك . فيقال : «حضرةُ الشيخ» أو «حضرة البَطْرَك» ونحو ذلك . قلت : وكثيرٌ من كُتَّاب الزمان يظُنُّون أن هذه الألقابَ الأصولَ أو أكثَرَها أحدثها القاضى شهابُ الدين بنُ فضـل الله وليس كذلك، بل المجلِس مذكورٌ فى مكاتَبات القاضى الفاضل ومَنْ عاصره بكَثْرة بل لاتكاد مكاتَبةٌ من مكاتَباته المُلوكيَّة تخلو عن ذلك . ومقتضىٰ كلام ابن حاجبِ النُّعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" أنه أوّل ماابْتُـدِع فى أيَّام بنى بُوَيْه ملوكِ الدَّيْلَم . والجنَابُ موجود فى مكاتَبات القاضى الفاضل أيضا بقِلَّة .

وقد ذكره ابن شيث فى مصطلح كتابة الدولة الأيوبيــة . والمَقَرُّ موجودٌ فى كلام القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر . والمَقَام موجود فى مكاتبات مَنْ قبل القاضى شهاب الدِّين المذكور، نعم هذا الترتيبُ الخاصُّ : وهو جعل أعلاها المَقَام، ثم المقرّ، ثم الجَنَاب، ثم المَجْلِس، ثم مَجْلِس الأميرِ أو القاضى أو الشيخ، لم أره إلا فى كلام المَقرّ الشهابيّ المشارِ إليــه ومتابعيه، ولا أدرى أهو المقترِح لهــذا أم ســبقه إليه غيره ؟ وقد أُولِــعَ الفضلاء بالسؤال عن وجه هذا الترتيب، بل أخذوا فى إنكاره علىٰ مرتّبه من حيث إن هذه الألقابَ متقاربةُ المعانى فى اللغة، فلا يتجه تقديمُ بعضها علىٰ بعض فى الرتبــة ، ولا يخفىٰ أن واضع ذلك من المَقَر الشهابىّ أو غيره لم يضَعْه عن جهلٍ علىٰ سبيل التشهّى إذ لا يليقُ ذلك بمن عنــده أدنىٰ مُسْكَة من العلم . وقد ظهر لى عن ذلك أجوبة يستحسِنُها الذهن السليم إذا تُلُقِّيت بالإنصاف . ولا بدّ من تقديم مقدّمة علىٰ ذلك : وهى أن تعلَم أن الخطاب فى المكاتَبات، والوصفَ فى الولايات، مبنىٌّ علىٰ التفخيم والتعظيم ، علىٰ ما ســيأتى بيانه فى موضــعه إن شاء الله تعــالىٰ . ومن ثَمَّ أُتِى فيهما بالألقاب المؤدِّية إلىٰ الرِّفْعة كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى أوّل الكلام علىٰ الألقاب . ثم أثبتُوا هذه الألقابَ بمعنىٰ الأماكن كِناية عن أصحابها من باب مَجَاز المُجَاورة، وجعلوها رتبــةً بعد رتبةٍ بحَسَب ماتقتضيه معانيها اللائحةُ منها علىٰ ماسيأتى بيانه ، فجعلوا أدناها رتبــةَ الأمير والقاضى والشيخ ، التى وقع فيهــا التصريح بذكر الشخص، وجعلوا فوق ذلك المجلِسَ لتجرُّده عن الإضافة إلىٰ ماهو فى معنىٰ القريب من التصريح، وجعلوا فوق ذلك الجَنَابَ الذى هو الفِنَاء من حيثُ إن فِنــاء الرجلِ أوسعُ من مجلسه ضرورةً، بل ربمــا آشتمل علىٰ المجلس وآستضافه إليه، وجعلوا فوقَ ذلك المَقَرَّ الذى هو موضع الآستقرار مع ما يقتضيه من شمول جميع المَحَلّة أو البَــلَد الذى هو مُقِيم فيه، من حيث إنه يَسُوغ أن يقال مَقَرُّه مَحَلَّةَ كذا أو بَلَدُ كذا، وتضمُّنه

معنى القَرار الذى هو ضد الزَّوال على ماقال تعالى : ﴿ وإنَّ الآخِرَةَ هِيَ دارُ القَرار ﴾ وجعلوا فوق ذلك المَقَـام لاستعماله فى المعنى العامّ، الذى هو أعم من موضع القِيَام كما أشار إليـه الزمخشرى" مع ما فى معنى القيـام من النَّهضة والشَّهامة الزائدة على معنى الاسـتِقْرار، من حيث إن القعودَ دليـلُ العجْز والقُصُور . قال تعـالى : ﴿ وقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مع القَاعِدِينَ رَضُوا بأنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوالِف ﴾ وقال : ﴿ الَّذِينَ قَالُوا لإخْوانِهِمْ وقَعَدُوا لَوْ أطَاعُونَا ما قُتِلُوا ﴾ فكان المَقامُ باعتبار ذلك أعلى من المَقرّ، ويُوَضِّح ماذكرناه أنهم جعلوا المجلسَ أدنى المراتب والمقامَ أعلاها .

أما تخصيصُه خطابَ الخليفة بالدِّيوان فلبُعْد تعلُّقه، مع كونه عنه تصدُر المخاطَباتُ وعليه تَرِد، على ماسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الصـــــنف الثـانى

(من الألقابِ الأُصولِ مايختص بالمكاتَبات دُونَ الولايات، وفيه تسعةُ ألقاب)

الأوّل — الدِّيوانُ . وقد تقـدّم الكلامُ على ضبطه ومعنـاه فى الكلام على ترتيب ديوان الإنشاء فى مقدّمة الكتاب، ويُصدَّر بالدعاء له فى المكاتَبة إلى أبواب الخلافة المقدَّسة، ويقال فيه «الدِّيوانُ العزيز» على ماسيأتى فى الكلام على المكاتبات فيما بعدُ إن شاء الله تعالى . قال المَقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" : والمعْنِيّ به ديوانُ الإنشاء إذ الكُتُب وأنواع المخاطَبات إليه واردةٌ، وعنه صادِرة . قال : وسببُ الخِطاب بالدِّيوان العزيز الخُضْعانُ عن خِطاب الخليفة نَفْسِـه . ثم كُتَّاب الزمان قد يستعملون ذلك فى غير المكاتَبات مثل أن يُكْتَب عن السلطان منشور إقطاعٍ للخليفة فيقـال : «أن يُجْرىٰ فى الديوان العزيز» ونحو ذلك على ما سيأتى فى الكلام على المناشير فى موضعه إن شاء اللهُ تعالى .

الثانى — الباسطُ . وهو مما يُستعمَل فى المكاتبات بالتقبيل على ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالى . وأصله فى اللغة فاعِلٌ من البَسْط ، والمراد بَسْط الكَفِّ بالبَذْل والعطاء . ومنه قوله تعالى : ﴿ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ﴾ وهو من ألقاب اليَدِ ، ويشترك فيه أربابُ السيوف والأقلام وغيرُهم . قال فى "عرف التعريف" : ويقال فيه « الباسطُ الشَّريف العالِى » و « الباسطُ الكريمُ العالِى » .

الثالث — الباسِطةُ بلفظ التأنيث . وهو بمعنى الباسِطِ إلا أن الباسطة دُونَ الباسط فى الرتبة لمِيزة التذكير على التأنيث .

الرابع — اليَدُ . وهى فى معنى الباسطةِ إلا أنها دُونَها لفَوات الوصف بالبَسْط فيها . قال فى "عرف التعريف" : ويقال فيها «اليَدُ الشريفةُ العاليةُ» و«اليدُ الكريمةُ العاليةُ» واليد العالية مجرَّدة عنهما .

الخامس — الدارُ . وهى معروفة . وتجمع على آدُرٍ ، ودِيارٍ ، ودُوْرٍ ، والمراد دار المكتوب إليه ، تنزيهًا له عن التصريح بذكره كما فى الجَناب وغيره . وكانت مما يُكتَب به فى الزمن القديم فى ألقاب الخُلَفاء ويقال : «الدار العزيزةُ» وما أشبه ذلك ، وربما كُتِب بها فى القديم أيضا للخَواتينِ من نساء الملوك وغيرِهم . وممن كَتَب به لهنَّ العلاءُ بنُ مُوصَلايا صاحب ديوان الإنشاء فى أيام القائم العباسىِّ ، وعلى ذلك الأمرُ فى زماننا فى الكُتُب الصادرة إليهنَّ من الأبواب السلطانية وغيرِها ، وإنما كُتِب إليهن بذلك إشارةً إلى الصَّوْن لملازمتهن الدُّورَ ، وعدمِ البُروز عنها .

السادس — السِّتَارة . وكُتَّاب الزمان يستعملونها فى نحو ما تُستعمَل فيه الدارُ ، ويَكْنُون بها عن المرأة الجليلةِ القَدْر ، التى هى بصَدَد أن تُنْصَب على بابها السِّتارةُ حِجابًا .

السابع — الجِهَةُ . وهو مستعملٌ فى معنىٰ الدار والسِّتارةِ من المكاتبات ، ويُعْنىٰ بها المرأةُ الجليلة القَـدْر . وهى فى أصـل اللغة آسمٌ للناحية ، فكَنَوْا بها عن المرأة الجليلة ، كما كَنَوْا عن الرجل الجليل بالجَناب .

الثامن — البـابُ . وهو من الألقاب المختصـة بالعُنْوان فى جليل المكاتبات ، وأصلُ البابِ فى اللغة لمـا يُتَوصَّل منـه إلىٰ المقصود ، ويجمع علىٰ أبْوابٍ : كحَـالٍ وأحْوالٍ ، وعلىٰ بِيبانٍ : كجَارٍ وجِيرانٍ ، والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه ، وكأنه أجَلَّ صاحبَ اللَّقَب عن الوصول إليـه والقُرْب منه ، لعُلُوِّ مكانِه ورِفْعة مَحَلِّه . ويقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجرّدا عنهما ، وآسـتعماله بلفظ الجمع علىٰ أبواب أعلىٰ منه بلفظ الإفراد لمـا فى معنىٰ الجمع من الشَّرَف . أما الجمع علىٰ بِيبانٍ فلا يستعمله الكُتَّاب أصلًا .

التاسع — المُخَيَّم . وهو من الألقاب المختصة بالعُنْوان للسافر ، والمراد المكانُ الذى تُضْرَب فيه خِيامُ المكتوبِ إليـه ، أخذا من قولهم خَيَّم بالمكان إذا أقام به ، أو خَيَّمه إذا جعله كالخَيْمة . والخَيْمةُ فى أصل اللغة آسم لبيتٍ تُنْشئه العرب من عِيدانٍ ثم تُوُسِّع فيـه فاستُعْمِل فيما يُتَّخَذ من الجلود والقُطْن المنسوج ونحوه ؛ ويُوصَف بمـا يوصَفُ به الباب : من الشريف ، والكريم ، والعالِى .

قلت : وقد يُستعمَل بعضُ هـذه الألقـاب كالدار والسِّتارة والجهـة فى غير المكاتبات من الولايات وغيرها ولكن بقِـلَّة ؛ والغالب آستعمالُهـا فى المكاتبات ، فلذلك خَصَّصتُها بها .

الجملة السادسة

(فى بيان الألقاب المفرَّعة على الأصول المتقدّمة ، وفيها مَهْيَعان)

المَهْيَع الأوّل

(فى بيان أقسامها ، وهى على نوعين)

النوع الأوّل

(المفْردة ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(المجرّدةُ عن ياء النسب)

كالسلطان ، والمَلِك ، والأمير ، والقاضى ، والشيخ ، والصَّدْر ، والأجلّ ، والكَبير ، والعالِم ، والعامِل ، والأَوْحَد ، والأكمل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثانى

(الملحقُ بها ياءُ النسب)

كالسلطانىّ ، والمَلَكىّ ، والأميرىّ ، والقَضائىّ ، والقاضَوِىّ ، والشَّيْخىّ ، والصَّدْرِىّ ، والأجلّىّ ، والكَبيرِىّ ، والعالِمىّ ، والعامِلىّ ، والأوحدىّ ، والأكملىّ ، ونحو ذلك .

ثم الألقابُ الملحقة بها ياء النسب تارةً يُراد بالنسب فيها النسبُ الحقيقىُّ على بابه : كالقَضائىّ ، لأنه منسوبٌ إلى القَضاء الذى هو موضوعُ الوظيفة التى مَناطُها فصلُ

الحُكُومات الشرعية على ماتقدّم؛ وتارةً يُراد به المبـالغةُ كالقاضَوِىِّ، فإنه منسوب إلى القاضى نفسه مبالغةً . وفى معناه الأميرىّ نسبةً إلى الأمير، والوزيرىّ نسبةً إلى الوزير، والشيخىّ نسبةً إلى الشيخ، والكبيرىّ نسبة إلى الكبير، والعالمىّ نسبة إلى العالم، وما أشبه ذلك .

والأصل فيه أنّ عادةَ العرب أنهم إذا أرادوا المبالغةَ فى وصف شىء أدخلُوا عليه ياء النسب فى آخره للمبالغة فى وصفه فيقولون فى الأحمر اذا قصدوا المبالغة فى وصْفه بالحمرة أحْمَرِىّ ونحو ذلك على ماهو مقرّر فى كتب النحو المبسوطة كالتسهيل ونحوه . ثم منها مايستعمل بالتجريد عن ياء النسب أو إثباتها : كالعالم، والعالمىّ ؛ ومنها مايستعمل مجرّدا عنها فقط كالقُطْب والغَوْث من ألقاب الصُّوفيَّة ؛ ومنها مايستعمل باثباتها فقط كالغِيَاثِىِّ . وبكلِّ حالٍ فالألقـاب التى قد تثبُتُ ياء النسب فى آخرها وقد لا تثبت كالأمير والأميرىّ إن كانتْ من ألقاب المجلس السامِىّ بالياء فما فوقه من المجلس العالِى والجَنَاب العالى، والمَقَرّ والمقام على مراتبها تثبُت اليـاء فى آخرها، وإن كانت من ألقاب المجلس السامى بغير ياء فمـا دونه من مجلس الأمير ومجلس القاضى، ومجلس الشـيخ، ومجلس الصَّدْر؛ والأمير، والقاضى، والشيخ، والصدر، لم تثبت اليـاء فى آخرها . والألقابُ المضافةُ إلى الدين، مثـل « ناصِرِ الدِّين » و «شمس الدين» و «نُور الدين» و «عز الدين» و «وَلِىِّ الدين» و «سَيْف الدين» وما أشـبه ذلك إن كانت فى ألقاب مَنْ تثبت الياءُ فى ألقابه من المجلس السامىّ بالياء فما فوقه حُذف المضاف إليه وأُدْخلت الألف واللامُ على المضاف وأُلحِقَتْ به ياءُ النَّسب، فيقـال فى ناصر الدين «الناصِرىّ» وفى شمس الدين «الشَّمْسِىّ» وفى نورالدين «النُّورىّ» وفى عز الدين « العِزّىّ» وفى وَلِىّ الدين « الوَلَوِىّ » وفى سيف الدين « السيْفىّ » وما أشـــبه ذلك .

النـــــوع الثـــانى

(المركَّبـــة)

وهى المعبَّر عنها بالنُّعوت . وأكثر ما يكون التركيب فيها بالإضافة ، ثم تارةً تكون باضافةٍ واحدةٍ نحو « ممهِّد الدُّوَل » وتارةً تكون باضافتين نحو « سيِّد أمراء العالَمين » وتارة تكون بثلاثِ إضافاتٍ نحو « حاكِم أمورِ وُلاةِ الزَّمان » وربما زِيد على ذلك ، وتارة تكون بوَصْف المضاف ، نحو « بقيَّة السُّلالة الطاهرة » وتارة تكونُ بالعطف على المضاف إليه : إما بعَطْفٍ واحد ، نحو « سيدُ الملوك والسلاطين » وإما بأكثر ، نحو « ناج الممالكِ والأقاليم والأقطارِ » وتارة تكون بجارٍّ ومجرور بعد المضاف إليه ، نحو « سيِّدُ الأُمَراء فى العالمين » وربما توسط النعتُ بين المضاف إليه والجارّ والمجرور ، نحو « سيد الأُمَراءِ الأشرافِ فى العالمين » . وقد يكون التركيب بغير الإضافة إما بالجارّ والمجرور ، نحو « المجاهدُ فى سبيل ربِّ العالمين » وإما بغير ذلك مثل المُعَفِّى آلِ ساسانَ وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

[واعلم أنه إذا كان لقبُ الأصل مفردًا نحو المَقرّ والجَناب ، جاءتْ ألقابُه ونعوتُه مفردةً فيقال « المَقرّ الشَّريفُ » و « الجَناب الشريفُ » و « المَقرّ الكريم » وفى نُعوته « سيدُ الأمَراء فى العالمين » ونحو ذلك .

ثم إن كان مذكَّرًا جاء بصيغة التذكير ، كما تقدّم فى ألقاب المَقرّ] (١) .

وإذا كان لقب الأصل فيه مؤنثًا كالجهـةِ فى ألقاب النساء ، أتت ألقابُه ونعوتُه مؤنَّثةً تبعًا له ، فيقال فى ألقاب الجهة « الجهة الشريفةُ أو الجهةُ الكريمةُ العاليةُ » وفى النعوت « سيدةُ الخَوَاتينِ فى العالَمين » ونحو ذلك .

---

(١) هذه الجملة التى بين القوسين غير موجودة فى الأصول ، فنقلناها عن الضوء للؤلف لتتم الفائدة .

وإن كان اللقب فى الاصـل مجموعا ، نحو « مَجالِس الأُمَراء » كما يكتب فى المُطْلَقات ، جاءت الألقابُ والنُّعوتُ مجموعةً فيقال فى الألقاب الأَجِلَّاء الأكابِرُ وما أشـبه ذلك ، وفى النعوت إن كان ذلك اللقب آسم جِنْس نحو « عَضُد المُلُوك والسلاطين » أو مصدرًا ، نحو « عَوْن الأمَّة » جاز إبقاؤه على الإفراد كذلك : لأن المصدَر وآسمَ الجنس لا يثَنَّيان ولا يُجْمَعان ، وإن لُوحِظ فيه معنى التَّعَدُّد ، جاز الجمع فيقال « أعوانُ الأمة » و « أعضادُ المُلُوك والسلاطينِ » ونحو ذلك . وقد أشـار إلى ذلك المقـرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى كتابه " التعريف " فى الكلام على كتابة المُطْلَقات فقال ونحو عَضُد وأَعْضاد .

تم الجزء الخامس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس

وأوله المَهْيَـــع الثـانى

(فى ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتَّاب الزمان ، وبيان معانيها ، ومَنْ يقع عليه كل واحد منها من أرباب السُّيوف وغيرهم ، وهى نوعان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين وآله وصحبــه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(م٠م/٥٤٩٦/١٩١٤/٣٠٠٠)

السابع — الجهةُ . وهو مستعملٌ فى معنىٰ الدار والسِّتارة من المكاتبات، ويُعْنىٰ بها المرأةُ الجليلة القَــدْر . وهى فى أصــل اللغة ٱسمٌ للناحية ، فكَنَوْا بها عن المرأة الجليلة، كما كَنَوْا عن الرجل الجليل بالجَنَاب .

الثامن — البــابُ . وهو من الألقاب المختصــة بالعُنْوان فى جليل المكاتبات ، وأصلُ البابِ فى اللغة لمــا يُتَوصَّل منــه إلىٰ المقصود ، ويجمع علىٰ أبْوابٍ : كحَالٍ وأحْوالٍ، وعلىٰ بِيبَانٍ : كجَارٍ وجِيرانٍ، والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه، وكأنه أجَلّ صاحبَ اللَّقَب عن الوصول إليــه والقُرْب منه ، لعُلوّ مكانِه و رِفْعة محَلّه . و يقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجرّدا عنهما ، وٱســتعماله بلفظ الجمع علىٰ أبواب أعلىٰ منه بلفظ الإفراد لمــا فى معنىٰ الجمع من الشَّرَف . أما الجمع علىٰ بِيبانٍ فلا يستعمله الكُتّاب أصلاً .

التاسع — المُخَيَّم . وهو من الألقاب المختصة بالعُنْوان للسافر، والمرادُ المكانُ الذى تُضْرَب فيه خِيامُ المكتوبِ إليــه ، أخذا من قولهم خَيَّم بالمكان إذا أقام به ، أو خَيَّمه إذا جعله كالخَيْمة . والخَيْمةُ فى أصل اللغة ٱسم لبيتٍ تُنْشئه العرب من عِيدانٍ ثم تُوُسِّع فيــه فاستُعْمِل فيما يُتَّخَذ مــن الجلود والقُطْن المنسوج ونحوه ؛ ويُوصَف بمــا يوصَفُ به الباب : من الشريفِ، والكريمِ، والعالِى .

قلت : وقد يُستعمَل بعضُ هــذه الألقــاب كالدار والسِّتارة والجهــة فى غير المكاتبات من الولايات وغيرها ولكن بقِــلّة ؛ والغالب ٱستعمالُهــا فى المكاتبات ، فلذلك خَصَّصْتُها بها .

الجملة السادسة

(فى بيان الألقاب المفرّعة على الأصول المتقدّمة ، وفيها مَهْيَعان)

المَهْيَع الأوّل

(فى بيان أقسامها ، وهى على نوعين)

النوع الأوّل

(المفْردَة ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(المجرّدةُ عن ياء النسبِ)

كالسلطان ، والمَلِك ، والأميرِ ، والقاضِى ، والشيخ ، والصَّدْر ، والأجَلّ ، والكَبِير ، والعالِم ، والعامِل ، والأَوْحَد ، والأكمل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثانى

(الملحقُ بها ياءُ النسب)

كالسلطانىّ ، والمَلَكىّ ، والأميرىّ ، والقَضَائىّ ، والقاضوىّ ، والشَّيْخىّ ، والصَّدْرِىّ ، والأجلّىّ ، والكَبِيرىّ ، والعالِمىّ ، والعامِلىّ ، والأوحدىّ ، والأكملىّ ، ونحو ذلك .

ثم الألقابُ الملحقة بها ياء النسب تارةً يُراد بالنسب فيها النسبُ الحقيقىّ على بابه : كالقَضَائىّ ، لأنه منسوبٌ إلى القَضَاء الذى هو موضوعُ الوظيفة التى مَناطُها فصلُ

السابع — الجِهَةُ . وهو مستعملٌ فى معنىٰ الدار والسِّتارةِ من المكاتبات، ويُعْنىٰ بها المرأةُ الجليلةُ القَـدْر . وهى فى أصـل اللغة ٱسمٌ للناحية ، فكَنَوْا بها عن المرأة الجليلة ، كما كَنَوْا عن الرجل الجليل بالجَنَاب .

الثامن — البـابُ . وهو من الألقاب المختصـة بالعُنْوان فى جليل المكاتبات ؛ وأصلُ البابِ فى اللغة لمـا يُتَوصَّل منـه إلىٰ المقصود ، ويجمع علىٰ أبْوابٍ : كحـالٍ وأحْوالٍ ، وعلىٰ بِيبَانٍ : كجارٍ وجِيرانٍ ، والمراد بابُ دارِ المكتوبِ إليه ، وكأنه أجَلَّ صاحبَ اللَّقب عن الوصول إليـه والقُرْب منه ، لعُلُوّ مكانِه ورِفْعة مَحَلّه . ويقال فيه « البابُ الشريفُ العالى » و « البابُ الكريمُ العالى » و « البابُ العالى » مجرّدا عنهما ، وٱستعماله بلفظ الجمع علىٰ أبواب أعلىٰ منه بلفظ الإفراد لمـا فى معنىٰ الجمع من الشَّرَف . أما الجمع علىٰ بِيبانٍ فلا يستعمله الكُتَّاب أصلاً .

التاسع — المُخَيَّم . وهو من الألقاب المختصة بالعُنْوان للسافر ، والمراد المكانُ الذى تُضْرَب فيه خِيامُ المكتوبِ إليـه ، أخذا من قولهم خَيَّم بالمكان إذا أقام به ، أو خَيَّمه إذا جعله كالخَيْمة . والخَيْمةُ فى أصل اللغة ٱسم لبيتٍ تُنْشئه العرب من عِيدانٍ ثم تُوُسِّع فيـه فاستُعْمِل فيما يُتَّخَذ من الجلود والقُطْن المنسوج ونحوه ؛ ويُوصَف بمـا يوصَفُ به الباب : من الشريف ، والكريم ، والعالى .

قلت : وقد يُستعمَل بعضُ هـذه الألقـاب كالدار والسِّتارة والجهـة فى غير المكاتبات من الولايات وغيرها ولكن بقِـلّة ؛ والغالب ٱستعمالُهـا فى المكاتبات ، فلذلك خَصَّصتُها بها .

الجملة السادسة

(فى بيان الألقاب المفرّعة على الأصول المتقدّمة ، وفيها مَهْيَعان)

المَهْيَع الأوّل

(فى بيان أقسامها ، وهى على نوعين)

النوع الأوّل

(المفردة ، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(المجرّدةُ عن ياء النسبِ)

كالسلطان ، والمَلِك ، والأميرِ ، والقاضِى ، والشيخ ، والصَّدْر ، والأجلّ ، والكَبير ، والعالِمِ ، والعامِل ، والأَوْحَد ، والأكمل ، وما أشبه ذلك .

الصنف الثانى

(الملحقُ بها ياءُ النسب)

كالسلطانىّ ، والمَلَكىّ ، والأميرىّ ، والقَضَائىّ ، والقاضوىّ ، والشَّيْخىّ ، والصَّدْرىّ ، والأجلّىّ ، والكَبيرىّ ، والعالِمىّ ، والعامِلىّ ، والأوحدىّ ، والأكملىّ ، ونحو ذلك .

ثم الألقابُ الملحقة بها ياء النسب تارةً يُراد بالنسب فيها النسبُ الحقيقىُّ على بابه : كالقَضائىّ ، لأنه منسوبٌ إلى القَضَاء الذى هو موضوعُ الوظيفة التى مَناطُها فصلُ

الحُكُومات الشرعية على ماتقدّم؛ وتارةً يُراد به المبالغةُ كالقاضَوِيّ، فإنه منسوب إلىٰ القاضي نفسِه مبالغةً . وفي معناه الأميريّ نسبةً إلىٰ الأمير، والوزيريّ نسبةً إلىٰ الوزير، والشيخيّ نسبةً إلىٰ الشيخ، والكبيريّ نسبة إلىٰ الكبير، والعالميّ نسبة إلىٰ العالم، وما أشبه ذلك .

والأصل فيه أنّ عادةَ العرب أنهم إذا أرادوا المبالغةَ في وصف شيء أدخلُوا عليه ياء النسب في آخره للمبالغة في وصفه فيقولون في الأحمر اذا قصدوا المبالغة في وصْفه بالحمرة أحْمَرِيّ ونحو ذلك علىٰ ماهو مقرّر في كتب النحو المبسوطة كالتسهيل ونحوه، ثم منها مايستعمل بالتجريد عن ياء النسب أو إثباتها : كالعالم، والعالميّ؛ ومنها مايستعمل مجرّدا عنها فقط كالقُطْب والغَوْث من ألقاب الصُّوفيّة؛ومنها مايستعمل باثباتها فقط كالغِياثيّ . وبكلّ حالٍ فالألقـاب التي قد تثبُتُ ياء النسب في آخرها وقد لا تثبت كالأمير والأميريّ إن كانتْ من ألقاب المجلس الساميّ بالياء فما فوقه من المجلس العالي والجَناب العالي، والمَقَرّ والمقام على مراتبها تثبُت اليـاء في آخرها، وإن كانت من ألقاب المجلس السامي بغير ياء فما دونه من مجلس الأمير ومجلس القاضي، ومجلس الشيخ، ومجلس الصَّدْر؛ والأمير، والقاضي، والشيخ، والصدر، لم تثبت اليـاء في آخرها . والألقابُ المضافةُ إلىٰ الدين، مثـل « ناصِرِ الدِّين » و «شمسِ الدين » و « نُور الدين» و «عز الدين» و «وَلِيِّ الدين» و «سَيْف الدين» وما أشـبه ذلك إن كانت في ألقاب مَنْ تثبت الياءُ في ألقابه من المجلس الساميّ بالياء فما فوقه حُذف المضاف إليه وأُدْخلتِ الألف واللامُ علىٰ المضاف وأُلحِقَتْ به ياءُ النَّسب، فيقـال في ناصر الدين «الناصِريّ» وفي شمس الدين «الشَّمْسِيّ» وفي نورالدين «النُّوريّ» وفي عز الدين « العِزّيّ » وفي وَلِيّ الدين « الوَلَوِيْ » وفي سيف الدين « السيْفيّ » وما أشـــبه ذلك .

النـــوع الثـانى

(المركَّبــة)

وهى المعبَّر عنها بالنُّعوت . وأكثر ما يكون التركيب فيها بالإضافة ؛ ثم تارةً تكون باضافةٍ واحدةٍ نحو « ممهِّد الدُّوَل » وتارةً تكون باضافتين نحو « سيِّد أمراء العالَمين » وتارة تكون بثلاثِ إضافاتٍ نحو « حاكِم أمورِ وُلاةِ الزَّمان » وربما زِيد على ذلك ، وتارة تكون بوَصْف المضاف ، نحو « بقِيَّة السُّلالة الطاهرةِ » وتارة تكونُ بالعطف على المضاف إليه : إما بعَطْفٍ واحد ، نحو « سيدُ الملوكِ والسلاطين » وإما بأكثر ، نحو « فاتح الممالِكِ والأقاليم والأقطارِ » وتارة تكون بجارٍّ ومجرور بعد المضاف إليه ، نحو « سيِّدُ الأُمَراء فى العالمين » وربما توسط النعتُ بين المضاف إليه والجارّ والمجرور ، نحو « سيد الأُمَراءِ الأشرافِ فى العالمين » . وقد يكون التركيب بغير الإضافة إما بالجارّ والمجرور ، نحو « المجاهدُ فى سبيل ربِّ العالمين » وإما بغير ذلك مثل المُعَفِّى آلِ ساسانَ وغير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

[واعلم أنه إذا كان لقبُ الأصل مفردًا نحو المَقرّ والجَناب ، جاءتْ ألقابُه ونعوتُه مفردةً فيقال « المَقرّ الشَّريف » و « الجَنَاب الشريفُ » و « المَقرّ الكريم » وفى نُعُوته « سيدُ الأمَراء فى العالمين » ونحو ذلك .

ثم إن كان مذكَّرًا جاء بصيغة التذكير ، كما تقدّم فى ألقاب المَقرّ] (١) .

وإذا كان لقب الأصل فيه مؤنثًا كالجِهــة فى ألقاب النساء ، أتت ألقابُه ونعوتُه مؤنَّثةً تبعًا له ، فيقال فى ألقاب الجهة « الجهة الشريفةُ أو الجهةُ الكريمةُ العاليةُ » وفى النعوت « سيدةُ الخَوَاتينِ فى العالَمين » ونحو ذلك .

---

(١) هذه الجملة التى بين القوسين غير موجودة فى الاصول ، فنقلناها عن الضوء للمؤلف لتتم الفائدة .

وإن كان اللقب فى الاصل مجموعا ، نحو « مَجالِس الأُمَراء » كما يكتب فى المُطْلَقات ، جاءت الألقابُ والنُّعوتُ مجموعةً فيقال فى الألقاب الأَجلَّاء الأكابِرُ وما أشبه ذلك ، وفى النعوت إن كان ذلك اللقب ٱسم جِنْس نحو « عَضُد المُلُوك والسلاطين » أو مصدرًا ، نحو « عَوْن الأمَّة » جاز إبقاؤه على الإفراد كذلك : لأن المصدَر وٱسمَ الجنس لا يثَنَّيان ولا يُجْمَعان ؛ وإن لُوحِظ فيه معنى التَّعَدُّد ، جاز الجمع فيقال « أعوانُ الأمة » و « أعضَادُ المُلُوك والسلاطينِ » ونحو ذلك . وقد أشار إلى ذلك المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى كتابه " التعريف " فى الكلام على كتابة المُطْلَقات فقال ونحو عَضُد وأَعْضاد .

تم الجزء الخامس . يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء السادس

وأوّله المَهْيَع الثانى

(فى ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتَّاب الزمان ، وبيان معانيها ، ومَنْ يقع عليه كل واحد منها من أرباب السُّيوف وغيرهم ، وهى نوعان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(م ط م/٥٤٩٦/١٩١٤/٣٠٠٠)

صبح الأعشى

الجزء الخامس

فهرست

الجزء الخامس

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

المقصـد الثـانى — فى ممـالك جزيرة العرب الخارجة عن مضافات الديار المصرية، ويتوجه القصد منها إلى ثلاثة أقطار ... ٥

القطــر الأوّل — اليمــن ... ... وهو على قسمين ٦

القســم الأوّل — التهائم، وفيه أربع جمل (والصواب خمس) ٨

الجمـلة الأولى — فى ذكر ما آشتمل عليه من القواعد والمدن، وبه قاعدتان ٨

القاعدة الأولى — تعــز ٨

« الثانية — زبيــد ٩

الجمـلة الثانية — فى ذكر حيوانه، وحبوبه، وفواكهه، ورياحينه، ومعاملاته وأسعاره... ... ... ١٦

الجمـلة الثالثة — فى الطريق الموصـلة إلى اليمن ١٧

« الرابعة — فى ذكر ملوكه جاهلية وإسلاما، أما ملوكه فى الجاهلية فعلى عشر طبقات ١٧

الطبقة الأولى — العـادية ١٨

« الثانية — القحطانية... ... ... ١٩

« الثالثـة — التبابعة ٢١

« الرابعة — الحبشة ٢٥

« الخامسة — الفرس ٢٥

« السادسة — عمال النبي صلى الله عليه وسلم والخلفاء بعده ٢٦

« السابعة — ملوكها من بنى زياد ٢٧

« الثامنـة — « من بنى مهدىّ ٢٩

« التاسعة — « من بنى أيوب ملوك مصر ٢٩

« العاشرة — دولة بنى رسول... ... ... ٣٠

صفحة

الجملة السادسة — (والصواب الخامسة) فى ترتيب هذه المملكة على ماهى عليه فى زمن بنى رسول الخ ٣٣

القســـم الثانى — من اليمن النجود، وفيه أربع جمل ٣٧

الجمــلة الأولى — فيما آشتملت عليه من النواحى والمدن والبلاد ٣٨

« الثانية — فى الطرق الموصلة إلى هذه المملكة ٤٣

« الثالثة — فيمن ملك هذه المملكة إلى زمن المؤلف ٤٤

« الرابعة — (وكتبت الثالثة) فى ترتيب مملكة هذا الإمام... ... ٥١

القطر الثـانى — مـا هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار المصرية "بلاد البحرين" وفيه ثلاث جمل ٥٤

الجمـلة الأولى — فيما تشتمل عليه من المدن ٥٥

« الثانيـة — فى ذكر ملوكها ٥٧

« الثالثة — فى الطريق الموصل إليها ٥٧

القطـر الثالث — مـا هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار المصرية "اليمامة"، وفيها ثلاث جمل ٥٨

الجمـلة الأولى — فيما آشتملت عليه من البلدان ٥٩

« الثانيـة — فى ذكر ملوكها ٦٠

« الثالثة — فى الطريق الموصل إليها ٦١

القطـر الرابع — مملكة الهند ومضافاتها، وفيه إحدى عشرة جملة ... ٦١

الجمـلة الأولى — فيما آشتملت عليه هذه المملكة من الأقاليم ٦٣

الإقليم الأوّل — إقليم السند وما انخرط فى سلكه ٦٣

« الثانى — « الهند، وفيه قاعدتان ٦٧

	صفحة
القاعدة الاولى — مدينة دلى	٦٨
« الثانية — مدينة الدواكير	٧٠
الجملة الثانيــة — فى حيوانها	٨١
« الثالثــة — فى حبوبها وفواكهها ورياحينها وخضراواتها وغيرذلك	٨٢
« الرابعــة — فى المعاملات	٨٤
« الخامسة — فى الأسعار...	٨٥
« السادسة — فى الطريق الموصلة إلى مملكتى السند والهند... ...	٨٦
« السابعــة — فى ذكر ملوك الهند...	٨٨
« الثـامنة — فى ذكر عساكر هذه المملكة وأرباب وظائفها... ...	٩١
« التاسـعة — فى زى أهل هذه المملكة	٩٣
« العـاشرة — فى أرزاق أهل دولة السلطان بهذه المملكة	٩٤
« الحادية عشرة — فى ترتيب أحوال هذه المملكة	٩٥
الفصــل الثـانى — من الباب الرابع من المقالة الثانية فى الممـالك والبلدان الغربية عن مملكة الديار المصرية؛ وفيه أربع (ست) ممالك	٩٩
المملكة الأولى — مملكة تونس؛ وفيها آثنتان وعشرون جملة	٩٩
الجملة الأولى — فى بيان موقعها من الأقاليم السبعة	٩٩
« الثانية — فى بيـان ما آشتملت عليه هذه المملكة من الأعمـال؛ وهو عملان...	١٠٠
العمل الاول — افريقية...	١٠٠
« الثانى — بلاد بجاية	١٠٩
الجملة الرابعة — فى ذكر زروعها وحبوبها وفواكهها وبقولها ورياحينها (١)	١١٢

(١) كذا فى الأصول وحقيقتها الثالثة ثم يتسلسل العدد .

صفحة

الجملة الخامسة — فى مواشيها ووحوشها وطيورها ١١٣

« السادسة — فيما يتعلق بمعاملاتهـا من الدنانير والدراهم والأرطال والمكاييل والأسعار... ... ... ١١٤

« السابعة — فى ذكر أسعارها ١١٥

« الثامنــة — فى صفات أهل هذه المملكة فى الجملة ١١٥

« التاسعة — فى ذكر من ملكها جاهلية و إسلاما ١١٦

الطبقة الأولى — الخلفـاء ١١٧

« الثانية — العبيديون ١٢٢

« الثالثة — ملوكها من بنى زيرى ١٢٤

« الرابعة — الموحدون ١٢٦

الجملة العاشرة — فى منتهى ملوك هذه المملكة القائمين بها من الموحدين ١٣٣

« الحادية عشرة — فى ترتيب المملكة بهـا من زىّ الجند وأرباب الوظائف... ... ... ١٣٧

الجملة الثانية عشرة — فى ذكر الأرزاق المطلقة من جهة السلطان ... ١٤٠

« الثـالثة عشرة — فى لبس سلطان مملكة تونس ولبس أشـــياخه وسائر جنده وعامّة أهل بلده ١٤١

« الرابعـة عشرة — فى شعار الملك بمـا يتعلق بهذا السلطان... ... ١٤٣

« الخامسة عشرة — فى جلوس سلطان هذه المملكة فى كل يوم ... ١٤٣

« السادسة عشرة — فى جلوسه للظالم ١٤٤

« السابعة عشرة — فى خروجه لصلاة الجمعة ١٤٥

« الثامنة عشرة — فى ركوبه لصلاة العيدين أو للسفر ١٤٦

« التاسعة عشرة — فى خروج السلطان للتنزه ١٤٧

صفحة

الجملة العشرون — فى مكاتبات السلطان ١٤٨

« الحادية والعشرون — فى البريد المقرر فى هذه المملكة ١٤٨

« الثانية والعشرون — فى الخلع والتشاريف فى هذه المملكة ١٤٩

المملكة الثانية — من ممالك بلاد المغرب مملكة تلمسان ؛ وفيها جملتان ١٤٩

الجملة الأولى — فى ذكر حدودها وقاعدتها وما آشتملت عليه من المدن والطريق الموصلة إليها ١٤٩

« الثانيـة — فى حال مملكتها... ... ... ١٥١

المملكة الثالثة — من بلاد المغرب الغرب الأقصى ، ويقال له بر العدوة، وفيه ثلاثة [أربعة] مقاصد ١٥٢

المقصد الأول — فى بيان موقعها من الأقاليم السبعة وذكر حدودها وما آشتملت عليه من المدن والجبال المشهورة، وفيه أربع جمل ١٥٢

الجملة الأولى — فى بيان موقعها من الأقاليم السبعة... ... ... ١٥٢

« الثانيـة — فى بيان قواعدها وما آشتملت عليه هـذه المملكة من الأعمال الخ ١٥٣

القاعدة الأولى — فاس ١٥٣

« الثانية — سبتة ١٥٧

« الثالثة — مدينة مراكش ١٦١

« الرابعة — سجلماسة ١٦٣

الجملة الثالثة — فى ذكر جبالها المشهورة... ... ... ١٧٣

« الرابعـة — فى ذكر أنهارها المشهورة... ... ... ١٧٤

المقصد الثانى — فى ذكر زروعها وحبوبها وفواكهها الخ ، وفيه خمس جمل ١٧٥

صفحة

الجملة الأولىٰ — فى ذكر زروعها وحبوبها الخ ١٧٥

« الثانيــة — فى مواشيها ووحوشها وطيورها ١٧٦

« الثالثــة — فيما نتعامل به من الدنانير والدراهم والأوزان والمكاييل ١٧٧

« الرابعــة — فى ذكر أسعارها ١٧٨

« الخامسة — فى صفات أهلها فى الجملة ١٧٨

المقصـد الثالث — فى ذكر ملوكها وماينـدرج تحت ذلك ، وهم علىٰ طبقات ١٧٩

الطبقة الأولىٰ — ملوكها قبل الإسلام ١٧٩

« الثانية — نوّاب الخلفاء من بنى أمية و بنى العباس ١٧٩

« الثالثة — الأدارسة ١٨٠

« الرابعة — ملوك بنى أبى العافية من مكناسة... ... ... ١٨٢

« الخامسة — بنو زيرى بن عطية ١٨٥

« السادسة — المرابطون من الملثمين من البربر... ... ... ١٨٨

« السابعة — ملوك الموحدين ١٩١

« الثامنة — ملوك بنى عبد الحق من بنى مرين ١٩٤

المقصـد الرابع — فى بيان ترتيب هذه المملكة ، وفيه عشر جمل ٢٠٣

الجملة الأولىٰ — فى ذكر الجند وأرباب الوظائف الخ... ... ... ٢٠٣

« الثـانية — فى زىّ السلطان والأشياخ الخ ٢٠٣

« الثـالثة — فى الأرزاق المطلقة من قبل السلطان علىٰ أهل دولته ٢٠٤

« الرابعــة — فى جلوس السلطان فى كل يوم ٢٠٥

« الخامسة — فى جلوسه للظالم ٢٠٦

« السادسة — فى شعار السلطان بهذه المملكة ٢٠٦

صفحة

الجملة السابعة — فى ركوبه لصلاة العيد... ... ... ٢٠٧

« الثامنة — فى خروج السلطان للسفر ٢٠٨

« التاسعة — فى مقدار عسكر هذه المملكة... ... ... ٢٠٩

« العاشرة — فى مكاتبات السلطان ٢١٠

المملكة الخامسة — من بلاد المغرب جبال البربر ٢١٠

« السادسة — من ممالك بلاد المغرب جزيرة الأندلس؛ وفيها ست جمل ٢١١

الجملة الأولى — فى ذكر سمك أرضه وحدوده ٢١٢

« الثانية — فيما آشتمل عليه من المدن؛ ويشتمل على عدّة قواعد ٢١٣

القاعدة الأولى — غرناطة ٢١٣

« الثانية — أشبونة ٢٢٢

« الثالثة — بطليوس ٢٢٣

« الرابعة — إشبيلية ٢٢٥

« الخامسة — قرطبة ٢٢٦

« السادسة — طليطلة ٢٢٧

« السابعة — جيان ٢٢٩

« الثامنة — مرسية ٢٣٠

« التاسعة — بلنسية ٢٣١

« العاشرة — سرقسطة ٢٣٢

« الحادية عشرة — طرطوشة... ... ... ٢٣٣

« الثانية عشرة — برشنونة ٢٣٣

« الثالثة عشرة — ينبلونة ٢٣٤

صفحة

الجملة الثالثة — فى ذكر أنهارها... ... ... ٢٣٤

« الرابعــة — فى الموجود بالأندلس ٢٣٦

« الخامسة — فى ذكر ملوك الأندلس ؛ وهم على طبقات ٢٣٦

الطبقة الأولى — ملوكها بعد الطوفان ٢٣٦

« الثانية — الاشبانية ٢٣٧

« الثالثة — الشبونقات ٢٣٨

« الرابعة — القوط ٢٣٨

« الخامسة — ملوكها على أثر الفتح الإسلامى ٢٤١

« السادسة — بنو أمية ٢٤٤

« السابعة — ملوك بنى حمود من الأدارسة ٢٤٧

« الثامنة — ملوك الطوائف بالأندلس ٢٤٨

الطائفة (وصوابه الطبقة) التاسعة ملوك المرابطين من لمتونة ٢٥٨

« (« «) العاشرة بنو الأحمر ٢٦٠

مملكة قشتالة ٢٧٠

« البرتغــال ٢٧٠

« برشـــلونة ٢٧٠

« نبذة ممـا يلى قشتالة ٢٧١

الجملة السادسة — فى ترتيب هذه المملكة (مملكة الأندلس) ٢٧١

الفصــل الثالث — (أى من الباب الرابع) من المقالة الثانيــة فى الجهة الجنوبية عن مملكة الديار المصرية : من مصر والشام والحجاز ومضافاتها، والمشهور منها ست ممالك ٢٧٣

صفحة

المملكة الأولى — بلاد البجا ٢٧٣
« الثانية — « النوبة ٢٧٥
« الثالثة — « البرنو... ... ... ٢٧٩
« الرابعة — « الكانم ٢٨٠
« الخامسة — « مالى ومضافاتها؛ وفيها ثمان جمل ٢٨٢
الجملة الأولى — فى ذكر أقاليمها ومدنها ٢٨٣
« الثانية — فى الموجود بهذه المملكة... ... ... ٢٨٧
« الثالثة — فى معاملة هذه المملكة ٢٩٢
« الرابعة — فى ذكر ملوك هذه المملكة ٢٩٣
« الخامسة — فى أرباب الوظائف بهذه المملكة ٢٩٨
« السادسة — فى عساكر سلطان هذه المملكة وأرزاقهم... ... ... ٢٩٩
« السابعة — فى زىّ أهل هذه المملكة ٢٩٩
« الثامنة — فى ترتيب هذه المملكة ٣٠٠
المملكة السادسة — من ممالك بلاد السودان مملكة الحبشة؛
وهى على قسمين ٣٠٢
القسم الأول — بلاد النصرانية؛ ويشتمل على ست جمل... ... ... ٣٠٣
الجملة الأولى — فى ذكر قواعدها ٣٠٤
« الثانية — فى الموجود بها... ... ... ٣٠٤
« الثالثة — فى ذكر معاملاتهم وأسعار بلادهم... ... ... ٣٠٧
« الرابعة — « زيهم وسلاحهم... ... ... ٣٠٧
« الخامسة — « بطاركة الإسكندرية الذين عن توليتهم تنشأ
ولاية ملوك الحبشة ٣٠٨

صفحة

الجملة السادسة — فى ترتيب مملكتهم ٣٢٣

القسـم الثانى — من بلاد الحبشـة مابيد مسلمى الحبشـة، ويشتمل على ست جمـل ٣٢٤

الجملة الأولى — فيما آشتملت عليه من القواعد والأعمـال ٣٢٥

« الثانيـة — فى الموجود بهذه الممالك (أى ممالك السودان)... ... ٣٢٩

« الثالثـة — فى معاملاتهم وأسـعارهم ٣٣١

« الرابعـة — فى ملوكهم... ... ... ٣٣٢

« الخامسة — فى زىّ أهل هذه المملكة... ... ... ٣٣٣

« السادسة — فى شعار الملك وترتيبه ٣٣٤

الفصـل الرابـع — من الباب الرابع من المقالة الثانية فى الجهة الشمالية عن ممالك الديار المصرية ومضافاتها خلا ماتقدّم ذكره، وينقسم إلى قسمين ٣٣٨

القسـم الأوّل — ما بيد المسلمين ممـا فى شرقىّ الخليج القسطنطينى فيما بينه وبين أرمينية وهى البلاد المعروفة ببلاد الروم، وفيه خمس جمل ٣٣٨

الجملة الأولى — فيما آشتملت عليه من القواعد، وهى على ضربين ... ٣٤٠

الضرب الاول — القواعد المستقرّة بها الملوك والحكام ٣٤٠

« الثانى — من هـذه البلاد مالم يسـبق إلى صاحبه مكاتبة عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ٣٤٩

الجملة الثانيـة — فى ذكر الموجود بهذه البلاد ٣٥٦

« الثالثـة — فى معاملاتها وأسعارها ٣٥٧

صفحة

الجملة الرابعة — فى ذكر من ملك هذه البلاد ؛ وأشهر من ملوكهم طوائف ٣٥٨

الطائفة الأولى — أولاد قرمان ٣٦٥

« الثانية — بنو الحميد ٣٦٦

« الثالثة — بنو أيدين ٣٦٧

« الرابعة — بنو منتشا ٣٦٧

« الخامسة — بنو أورخان بن عثمان جق ٣٦٧

الجملة الخامسة — فى زىّ أهل هذه المملكة وترتيب الملك بها ٣٦٩

القسم الثانى — من الجهة الشمالية عن الديار المصرية مابيد ملوك النصارى ؛ وهو ثلاثة أضرب ٣٦٩

الضرب الأول — جزائر بحر الروم ٣٦٩

« الثانى — ما شمالىّ بحر الروم ؛ وهو جهتان ٣٧٦

الجهة الأولى — ماهو فى جهة الغرب عن الخليج القسطنطينى ؛ وهو قطران ٣٧٦

القطر الأول — مابين الخليج المذكور وبين جزيرة الأندلس ؛ ويشتمل على ممالك كبار وممالك صغار... ... ... ٣٧٦

المملكة الأولى — (من الممالك الكبار) مملكة القسطنطينية ؛ وملوكها طبقات ٣٧٦

الطبقة الأولى — من ملك منهم قبل القياصرة... ... ... ٣٨٢

« الثانية — القياصرة قبل ظهور النصرانية فيهم ٣٨٤

صفحة

الطبقة الثالثـة — القياصرة المتنصرة إلى الفتح الإسلامى ٣٩٢

« الرابعـة — ملوك الروم بعد الفتح الإسلامى ٣٩٧

المملكة الثانيـــة — مملكة الألمـان... ... ... ٤٠٣

« الثـالثة — مملكة البنادقة ٤٠٤

« الرابعـة — « الجنويين ٤٠٥

« الخامسة — بلاد رومية ٤٠٦

المملكة الأولى — (من الممـالك الصغار) مملكة المرا ٤٠٩

« الثـانية — بلاد الملفجوط... ... ... ٤٠٩

« الثـالثة — بلاد إقلونس ٤١٠

« الرابعـة — مملكة بولية ٤١٠

« الخامسة — بلاد قلفرية ٤١٠

« السادسة — بلاد التسقان ٤١١

« السابعة — بلاد البيازنة ٤١١

القطـــر الثـانى — ممـا غربى الخليـج القسطنطينى الأرض الكبيرة ، وفيه ثلاث ممالك ٤١٢

المملـــكة الأولى — مملكة الفرنج القديمة ٤١٢

« الثانية — « الجلالقة ٤١٤

« الثالثة — « اللنبردية... ... ... ٤١٥

الجهة الثـانية — ماشمـالى مدينة القسطنطينية وبحر نيطش الخ ... ٤١٦

صفحة

المقالة الثالثة

في ذكر أمور تشترك فيها أنواع المكاتبات والولايات؛ وفيها أربعة أبواب... ٤٢٣

الباب الأول — في الأسماء والكنى والألقاب، وفيه فصلان ٤٢٣

الفصل الأول — في الأسماء والكنى؛ وفيه طرفان ٤٢٣

الطرف الأول — في الأسماء؛ وفيه جملتان ٤٢٣

الجملة الأولى — في أصل التسمية والمقصود منها وتنويع الأسماء
وما يستحسن منها وما يستقبح ٤٢٤

« الثانية — في مواضع ذكر الأسماء في المكاتبات والولايات؛
وفيها أربعة أنواع ٤٢٧

النوع الأول — اسم المكتوب عنه ٤٢٧

« الثاني — « « إليه ٤٢٨

« الثالث — « « بسببه ٤٢٩

« الرابع — « من تصدر إليه الولاية ٤٣٠

الطرف الثاني — في الكنى؛ وفيه ثلاث جمل... ... ... ٤٣٠

الجملة الأولى — في جواز الكنية؛ وهي على نوعين ٤٣١

النوع الأول — كنى المسلمين ٤٣١

« الثاني — كنى أهل الكفر والفسقة والمبتدعين ٤٣٢

الجملة الثانية — فيما يكنى به؛ وهو على نوعين... ... ... ٤٣٣

النوع الأول — كنى الرجال ٤٣٣

« الثاني — كنى النساء... ... ... ٤٣٥

صفحة

الجمـلة الثالثة — فى التكنى فى المكاتبات والولايات ، وهو على ثلاثة أنواع... ... ... ٤٣٦

النوع الأول — تكنى المكتوب عنه ٤٣٦

« الثانى — تكنية المكتوب إليه ٤٣٧

« الثالث — « « بسببه ٤٣٧

الفصـل الثـانى — من البـاب الأول من المقالة الثالثـة فى الألقـاب ، وفيه طرفان ٤٣٨

الطرف الأول — فى اصول الألقاب ، وفيـه جملتان ٤٣٨

الجمـلة الأولى — فى معنى اللقب والنعت وما يجوز منه وما يمتنع... ... ٤٣٨

« الثانيـة — فى أصل وضع الألقاب والنعوت المؤدية إلى المدح... ٤٤٠

الطرف الثـانى — فى بيان معانى الألقـاب ، وفيـه تسع جمل ٤٤٤

الجمـلة الأولى — فى الألقاب الخاصة بأرباب الوظائف المعتبرة التى بها انتظام أمور المملكة وقوامها ، وهى قسمان ٤٤٤

القســم الأول — الألقاب الإسلامية ، وهى نوعان ٤٤٤

النــوع الأول — « القديمة المتداولة الحكم إلى زمان المؤلف ، وهى صنفان ٤٤٤

الصنف الأول — ألقاب أرباب السيوف... ... ... ٤٤٤

« الثـانى — « أرباب الأقلام... ... ... ٤٥١

النــوع الثـانى — الألقاب المحدثة ، وهى أربعة أصناف ٥٥٣

الصنف الأول — المفردة ، وهى ضربان ٥٥٣

الضرب الأول — مالفظه عربى ٤٥٣

« الثانى — « عجمى ٤٥٤

صفحة
الصنف الثانى — المركبة، وهى ثلاثة أضرب ٤٥٥
الضرب الأول — ماتمحض تركيبه من اللفظ العربى ٤٥٥
« الثانى — « « « العجمى، ولهذا الضرب
حالتان ٤٥٦
الحالة الأولى — أن تكون الإضافة إلى لفظ دار ٤٥٧
« الثانية — « « إلى غير لفظ دار ٤٦٠
الضرب الثالث — ماتركب من لفظ عربى ولفظ عجمى، وله حالتان ٤٦١
الحالة الأولى — أن يصدر بلفظ أمير ٤٦١
« الثانية — أن لا يصدر اللقب بلفظ أمير ٤٦٢
الصنف الثانى — ألقاب أرباب الأقلام، وهى على خمسة أضرب ... ٤٦٣
الضرب الأول — « « الوظائف من العلماء ٤٦٣
« الثانى — « الكتاب ٤٦٤
« الثالث — ألقاب أرباب الوظائف من كتاب الأموال ٤٦٥
« الرابع — « « « من أهل الصناعات ٤٦٧
« الخامس — « « « من الأتباع والحواشى
والخدم، وهم طائفتان... ... ... ٤٦٨
الطائفة الاولى — الأعوان، وهم نمطان ٤٦٨
النمط الأول — ماتمحضت ألفاظه عربية ٤٦٨
« الثانى — ماتمحض لفظه عجميا ٤٦٨
الطائفة الثانية — أرباب الخدم، وهم نمطان... ... ... ٤٦٩
النمط الاول — مايضاف إلى لفظ الدار ٤٦٩
« الثانى — مالا يتقيد بالاضافة إلى دار ولا غيرها ٤٧٠

صفحة

القســـم الثانى — من ألقاب أرباب الوظائف ألقاب أرباب الوظائف من أهل الكفر ، والمشهور منهم طائفتان ٤٧٢

الطائفــة الأولى — النصارى ٤٧٢

« الثانيــة — اليهود... ... ... ٤٧٤

الجملة الثانيــة — فى ذكر الألقاب المرتبة على الأصول العظام ، وهى نوعان ٤٧٥

النــوع الأول — ألقاب الخلفاء المرتبة على لقب الخليفة ، وهى صنفان ٤٧٥

الصنف الأول — ماجرى منها مجرى العموم ٤٧٥

« الثانى — ألقاب الخلافة الخاصة بكل خليفة ، وهى خمس طوائف ٤٧٧

الطائفة الأولى — خلفاء بنى العباس ٤٧٧

« الثانية — خلفاء بنى أمية بالأندلس ٤٧٨

« الثالثة — الخلفاء الفاطميون ببلاد الغرب ثم بالديار المصرية ٤٧٨

« الرابعة — الخلفاء الموحدون الذين ملوك إفريقية بتونس من بقاياهم على عهد المؤلف ٤٧٩

« الخامسة — جمــاعة من ملوك الغرب ممن لا شبهة لهم فى دعوى الخلافة ٤٧٩

النــوع الثــانى — ألقاب الملوك المختصة بالملك ، وهى صنفان ٤٨٠

الصنف الأول — الألقاب العامة ، وهى ضربان ٤٨٠

الضرب الأول — الألقاب القديمة ، والمشهور منها ألقاب ست طوائف ٤٨٠

الطائفة الأولى — التبابعة ملوك اليمن ٤٨٠

« الثانية — ملوك الفرس ٤٨١

« الثالثة — « مصر من بعد الطوفان من القبط ٤٨٢

صفحة

الطائفة الرابعة — ملوك الروم ٤٨٢

« الخامسة — « الكنعانيين بالشام ٤٨٣

« السادسة — « الحبشة ٤٨٣

الضرب الثانى — الألقاب المستحدثة ؛ والمشهور منها ألقاب ست طوائف... ... ... ٤٨٤

الطائفة الاولى — ملوك فرغانة ٤٨٤

« الثانية — « أشروسنه... ... ... ٤٨٤

« الثالثة — « الجلالقة ٤٨٤

« الرابعة — « فرنسة ٤٨٥

« الخامسة — « البندقية ٤٨٥

« السادسة — « الحبشة فى زماننا ٤٨٥

الصنف الثانى — من النوع الثانى الألقاب الخاصة... ... ... ٤٨٦

الجملة الثالثة — فى الألقاب المفرّعة على الأسماء؛ وهى أربعة أنواع ٤٨٨

النوع الأول — ألقاب أرباب السيوف؛ وهم صنفان ٤٨٨

الصنف الأول — ألقاب الجند من الترك ومن فى معناهم ٤٨٨

« الثانى — « الخدام الخصيان ٤٨٩

النوع الثانى — ألقاب أرباب الأقلام ؛ وهى على صنفين ٤٨٩

الصنف الأول — ألقاب القضاة والعلماء ٤٨٩

« الثانى — « الكتاب من القبط ٤٩٠

النوع الثالث — ألقاب عامة الناس من التجار والغلمان السلطانية ونحوها ٤٩٠

« الرابع — « أهل الذمة من الكتاب والصيارف ٤٩٠

صفحة

الجمـلة الرابعـة — فى أصل وضع الألقاب الجارية بين الكتّاب ثم آنتهائها إلى غاية التعظيم ومجاوزتها الحدّ فى التكثير ٤٩١

« الخامسة — فى بيان الألقاب الأصول، وذكر معانيها وآشتقاقها، وهى صنفان ٤٩٣

الصنف الأوّل — مايقع فى المكاتبات والولايات ٤٩٣

« الثانى — من الألقاب الأصول ما يختص بالمكاتبات دون الولايات ٥٠٠

الجملة السادسة — فى بيـان الألقاب المفرّعة على الأصول المتقــدمة، وفيها مهيعان ٥٠٣

المهيع الأوّل — فى بيان أقسامها، وهى على نوعين ٥٠٣

النوع الأوّل — المفردة، وهى صنفان ٥٠٣

الصنف الأوّل — المجرّدة عن ياء النسب ٥٠٣

« الثانى — الملحق بها ياء النسب ٥٠٣

النـــوع الثانى — المركبة... ... ... ٥٠٥

استلفات للقارئ — وقع فى ص ٣٣ س ٦ من هذا الجزء بياض وحقيقته كما ذكره فى "بغية المستفيد" (وولى بعده ابنه الملك الناصر أحمد ابن الملك الأشرف الخ)

(تم فهرست الجـــزء الخامس من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجـــــزء السادس

دار الكتب الخديوية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء السادس

طبع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

المَهْيَع الثانى

فى ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كُتَّاب الزمان، وبيان معانيها، ومَنْ يقع عليه كل واحد منها من أرباب السُّيوف وغيرهم

(وهى نوعان)

النوع الأوّل

(الألقاب الإسلامية، وهى صنفان)

الصنف الأوّل

(المذكَّرة، وهى ضربان)

الضرب الأوّل

(الالقاب المفردة المختصة فى اصطلاح الكُتَّاب باسم الألقاب)

وهذه جملة منها مرتبة علىٰ حروف المعجم ليسهُلَ استخراجها .

حرف الألف

(الأَتَابِكِىّ) وهو من ألقاب أميرِ الجُيوش ومَنْ فى معناه، كالنائبِ الكافِلِ ونحوه، وهو بالأتابك أخَصُّ. وقد تقدّم معنىٰ الأتابك فى الكلام علىٰ ألقاب أرباب الوَظَائف،

وأنَّ أصلَه بالطاء فقُلِبت تاءً فى الاستعمال، وأن معناه «الأبُ الأمِير» وحينئذ فتكون النسبةُ فيه للمبالَغَة . نعم إن نُسِب إليه غيرُه من أتباعه كانت النسبةُ إليه حقيقيّةً علىٰ بابها .

(الأتقىٰ) من ألقابِ ملوكِ المَغرِب التى يُكْتَب إليهم بها من الأبواب السلطانية، مضاهاةً لما يُوجَد فى مكاتَبَاتهم من الألقاب . وهو أفعلُ التفضيل من التَّقْوىٰ .

(الأَثِير) بالثاء المثلَّثة من ألقاب أرباب الأقلام : من القُضَاة والعلماء والكُتَّاب ونحوهم؛ وربما آستُعمِل فى ألقاب الصُّلَحاء أيضا . وأصله فى اللغة المُخَالِص، وحينئذ فيصلح أن يكون لَقَبا لكلِّ من نُسِب إلىٰ المُخالَصة من أرباب السيوف والأقلام جميعًا؛ والأَثيرِىّ نسبة إليه للمبالغة .

(الأَثِيل) بالمثلثة أيضا من ألقاب أرباب الأقلام كالأثير، ومعناه فى اللغة الأَصِيل، ومنه قيل مَجْدٌ مُؤَثَّل وأَثِيل أى أَصِيل . وحينئذ فيصلُحُ أن يكون لقبا لكلِّ ذى أَصالة من أرباب السيوف والأقلام؛ والأَثِيلِىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأَجَلُّ) يكون فى الاصطلاح من ألقاب السلطان كما يقال السلطانُ السيِّدُ الأجَلُّ ويكون من ألقاب السامِى بغير ياء فما دونه فيقال : «السامى الأميرُ الأَجَلُّ» ونحو ذلك؛ وهو مما يُنْكَر علىٰ كُتَّاب الزمان : لاستعماله فى الأعلىٰ والأدنىٰ علىٰ ماسيأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ . علىٰ أن هذا اللقبَ فى الدولة الفاطميَّة كان هو أعلىٰ الألقاب وأرفَعَها قَدْرا، حتّى قال آبن شِيث فى "مَعالم الكِتَابة": إنه محظورٌ علىٰ غير الوزير . وقد كانت الوزارةُ فى زمانهم بمثابةِ السَّلْطنة فى زماننا، فتصرّفَ فيه الكُتَّاب حتّى آستعملوه فى أدنىٰ الرُّتَب أيضا؛ والأَجَلِّىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأخَصُّ) من ألقاب أربابِ السُّيُوف، والكُتَّابُ يستعملونه فى أدنىٰ الألقاب مما تَسْقُط فيه ياءُ النسب : من السامِي بغير ياء فما دُونَه ، علىٰ أن معناه رَفِيع : لأَخْذه من الخُصُوصية : وهى الآنفراد بالشيء، وكان الأحقُّ أن يكون مختصًّا بالألزام المقرَّبين دُونَ غيرهم؛ والأخَصِّىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأَخَوِىُّ) من الألقاب المختصــةِ فى الغالب بالمكاتَبَات الإخْوانِيَّة ، وربما وقعت فى المكاتبات المُلُوكية إذا كان قَدْرُ المَلِكين المتكاتبين متقارِبًا،وهو نسبةٌ إلىٰ الأخوة، وكأنه جعله أخاه حقيقةً .

(الأَرِيب) من ألقابِ أرباب الأقلام . وهو فى اللُّغة العاقلُ ، ومنه قيل للدَّهَاء إرْبٌ بكسر الهمزة وإسكان الراء لأنَّ الدَّهاء من جملة العقل؛ والأَرِيبِىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الأرْقىٰ) من ألقاب ملوك المَغْرِب . وهو مأخوذٌ من الرُّقِىّ : وهو الآرتفاعُ والعُلُوّ فى الدَّرَج .

(الأَزْكىٰ) من ألقاب ملوكِ المَغرِب أيضا . وهو مأخوذٌ من الزَّكاة : وهى الزيادةُ ، كأنه نَسَبه إلىٰ الزيادة فى الرِّفْعة ونحوها .

(الأَسْرىٰ) بالسين المهملة من ألقاب ملوك المَغرِب . وهو مأخوذٌ من السَّرْو وهو سَخاءٌ فى مُرُوءة ، ومنه قيل لمن آشتمل علىٰ ذلك سَرِىّ ، وبه لُقِّب من لُقِّب «سَرِىَّ الدِّين» .

(الأسْفَهْسِلاز) بسينين مهملتين بينهما فاء ثم هاء من ألقاب أرباب السيوف ؛ وكان فى الدولة الفاطمية لقبًا علىٰ صاحب وظيفةٍ تلِي صاحب البابِ ، علىٰ ما تقدّم

بيانه فى الكلام على ترتيب الدولة الفاطمية فى المقالة الثانية . ومعناه «مُقدَّم العَسْكر» وهو مُرَكَّب من لفظين : فارسىّ ، وتُرْكىّ ، فأسْفَهْ بالفارسية بمعنى المقدّم ، وسِلَار بالتركية بمعنى العسكر ، والعامة تقول لبعض من يقف بباب السلطان من الأعوان : (أسپاسلار) بالباء الموحدة ، وكأنهم راعَوْا فيه معنى المقدّم فى الجملة ، والباء تعاقب الفاء فى اللغة الفارسية كثيرا ؛ ولذلك قالوا : أَصْبِهَان وأصفَهَان بالباء والفاء جميعا ؛ والأسْفَهْسِلارِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وقد ذكر المقرُّ الشهابىُّ بن فضل الله فى بعض دَسَاتيره أن هذا اللقبَ يختصُّ بأمراء الطَّبْلَخاناه ، على أنه قد تُرِك آستعمالُه فى زماننا ، وكأنهم كرهوا مشاركةَ بعضِ الأعوان فيه فأضربُوا عنه لذلك ، أو لم يَفْهَمُوا معناه فتركُوه .

(الأَسْنىٰ) من ألقاب ملوكِ المغرب . وهو مأخوذ من السَّناء بالمدّ : وهو الرفعة ؛ ويجوز أن يكون من السَّنَا بالقصر : وهو الضِّياء .

(الأَشْرَفُ) من ألقاب المَقَام والمَقَرّ فى مصطَلَح كُتَّاب الزَّمان على ما تقدّم ذكره ، وربما وقع أيضا فى ألقاب مُلوك المَغِرب . وهو أفعلُ التفضيلِ من الشَّرَف بمعنى العُلُوّ .

(الأصْعَد) من ألقاب ملوكِ المَغْرِب ، وهو أفعل التفضيل من الصُّعود ضِدّ الهُبُوط .

(الأصيل) من ألقاب أرباب الأقلام غالباً ، وربما وقع فى ألقاب أرباب السُّيوف إذا كان لصاحب اللقب عَرَاقةُ نَسَب ؛ وهو فَعِيل من الأَصْل بمعنى الحَسَب ، والأَصِيلىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . قال فى "عرف التعريف" : ويختصُّ بمن له ثلاثةٌ فى الرِّياسة ، آبنٌ عن أبٍ عن جَدٍّ .

(الأَضْخَم) من ألقابِ ملوكِ المغرب ، وهو مأخوذ من الضَّخَامة ؛ والمراد بها هنا العَظَمة . وهى فى أصل اللغة الغِلَظ وآستعملت فى العَظَمة تجوُّزا .

(الأعَزُّ) من ألقاب ملوك المغرب ؛ وقد يستعمل فى ألقاب من لم يَثْبُت فيه ياء النسب من السامى بغير ياء فما دونه كالأخَصِّ : فيقال « الأعَزُّ الأخَصُّ » ونحو ذلك ؛ وهو أفعل التفضيلِ من العِزِّ .

(الأعظَم) من ألقاب السلطان، يقال فيه « السلطانُ الأعظَمُ » ويقع فى ألقاب ملوك المغرب أيضا. وهو أفعلُ التفضيل من العَظَمة : وهى الكِبْرياء .

(الأعلىٰ) من ألقاب ملوك المَغْرِب. وهو أفعل التفضيل من العُلُوّ: وهو الآرتفاع .

(الأعلم) من ألقاب مُلوكِ المغرب . وهو أفعل التفضيل من العِلْمِ الذى هو خلاف الجَهْل .

(الأفْخَم) من ألقاب ملوك المغرب . وهو أفعلُ التفضيل من الفَخَامة : وهى العَظَمة والقُوّة .

(الأفضل) من ألقاب السلطان ؛ ويستَعْمَل فى ألقاب ملوك المغرب أيضا وهو أفعلُ التفضيل [من الفضل] بمعنىٰ الزيادة، والمراد الزيادة فى الفضيلة .

(الأكمل) من ألقاب السلطان أيضا ؛ ويستعمل فى ألقاب ملوك المَغْرِب وفى ألقاب من لم تَثْبُتْ فيه ياءُ النسب من السامى بغير ياء فما دُونَه ؛ والأكملىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الإمام) من ألقاب الخُلَفاء كما يقال فى المكاتبات عنهم « من عَبْدِ الله ووَلِيِّه الإمامِ الفلانىّ »وقد تقدّم أن أوّل من تلقَّب به «إبراهيمُ بن محمد» أوّلُ من بُويِعَ له

بالخلافة من بنى العبّاس، ويقع أيضا فى ألقاب أكابر العلماء . وأصـل الإمام فى اللغـة الذى يُقْتَدىٰ به ؛ ولذلك وقع علىٰ المجتهِدين كالأئمـة الأربعة أصحـاب المذاهب المشهورة : وهم الشافعىُّ، ومالكٌ، وأبو حنيفةَ ، وأحمـدُ . والإمامىّ نسبةٌ إليه للمبـالغة .

(الأمْجَدُ) من ألقاب ملوك المغرِب ؛ وربمـا كُتِب به للتُّجّار ونحوهم فى ألقاب الصَّدْر الأجَلّ . وهو أفعلُ التفضيلِ من المجد : وهو الشَّرَف أو الأَصَالةُ .

(الأَميرىّ) من ألقـاب أرباب السـيوف . قال فى "عرف التعريف" : ويُكْتَب به لكبَار ... ...(١) وإن كانوا من أرباب الأقلام . وذكر فى دُسْـتورٍ له آخَرَ أنه يكتب به لنقِيب الأشْراف ولا يُكْتَب له القَضَائىُّ أصـلا وإن كان من أرباب الأقلام ؛ وقد تقدّم لقب الأمير مجرّدًا عن ياء النسب وأصـلُه المأخوذُ منه فى الكلام علىٰ ألقـاب أرباب الوظائف فأغنىٰ عن إعادته هُنَا . وآعلم أنهـم لم يستعملُوا فيه النسـبةَ لنفس الإمرة فلم يقولوا فى النسـبة إليـه الإمْرِىّ كما قالوا فى النسبة إلىٰ القضاء القَضَائىّ .

(الأمين) من ألقـاب التُّجّار الخَوَاجكِيَّة وألقـاب الخُدّام المعروفين فى زماننا بالطَّوَاشِيَّة ، خُصُّوا بذلك لآئتمان التجّار علىٰ الجَوَارى والممـاليك فى حال جَلْبِهِم إلىٰ الملوك، وآئتمان الخُدّام علىٰ الحَرِيم والمماليك بأبواب الملوك؛وهو مأخوذ من الأمانة ضِدّ الخِيَانة؛ والأَمِينىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(الأوحد) يقع فى الألقاب السلطانية ، ويكون من ألقاب أرباب الأقلام لمن لا تثبت الياء فى ألقابه من السامى بغير ياء فمـا دونه، وفيه ما تقـدّم فى الكلام علىٰ

(١) بيـاض بالأصول ولعله لكبار الأمراء، أو الوزراء .

الأجلّ من الاعتراض علىٰ الكُتَّاب فى جمعهم الأعلىٰ والأدنىٰ فى لقبٍ واحد؛ والأوحَديُّ نسبة إليه للمبالغة .

حرف البـاء

(البـارِعُ) من ألقاب أرباب الأقلام، وهو فاعلٌ من البَرَاعة : وهى النَّهْضة بالشىء والتقدُّم فيه ؛ والبارِعىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(البَلِيغ) من ألقاب أرباب الأقلام ، وأحسَنُ ما يقع فى ألقاب ذوى البَلَاغة من الكُتَّاب ونحوهم ، وهو فعيل من البَلَاغة : وهى تأديةُ كُنْهِ المراد بإيجازٍ لايُخِلّ ، وإطنابٍ لايُمِلّ ؛ والبَلِيغىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

حرف التـاء

(التَّقِىُّ) من ألقاب ملوك المَغْرِب يقال التقىُّ الزَّكِىُّ ونحو ذلك ؛ وربما آستعمل بالديار المصرية فى ألقاب أرباب الأقلامِ وأهلِ الصلاح ؛ وهو مأخوذ من التقوىٰ كما تقدّم فى الأتقىٰ .

حرف الجـيم

(الجَلِيل) من ألقاب مَنْ يُكتَب له الحاجُّ كمقدَّمِى الدولة ونحوهم ، ويقال فيه : «الحاجُّ الجليلُ» ونحو ذلك ؛ والجَلِيلُ فى أصل اللغة العظِيمُ ، وكان مقتضىٰ الوضع أن يكون لأعلىٰ من هذه الرُّتْبة .

حرف الحـاء المهملة

(الحاجُّ) من ألقاب مقـدّمى الدّولة ومِهْتارِيَّة البُيوت ومَنْ فى معنـاهم وإن لم يكن قد حَجَّ ، وإن كان موضوعُ الحاجِّ فى العرف العامِّ إنمـا هو لمن حَجَّ البيتَ وإنمـا آصطُلِح لهم علىٰ ذلك حتّٰى صار كالعَلَم عليهم .

(الحافظُ) من ألقـاب المحدِّثين ؛ وأصله من الحفظ ضِدّ النِّسيان ، وآختَصّ بالمحدّثين لآحتياجهم إلىٰ كَثْرة الحِفْظ لمتون الأحاديث وأسمـاءِ الرجال ونحو ذلك ؛ والحافِظِيّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الحافِلُ) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه الكثير الجَمْع ، أخذا من قولهم وادٍ حافِلٌ إذا كَثُر سيله .

(الحاكم) من ألقاب القُضَاة . قال أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" : وأصله من الحَكَمة بفتح الكاف : وهى حديدةٌ مستديرةٌ فى اللِّجـام تمنعُ الدابَّة من الجَرْى والشِّبَاب ، سُمِّى بذلك لأنه يردّ النـاسَ عن الظُّلْم ؛ وأكثر مايستعمله كُتَّاب الزمان فى عُنْوان المكاتَبات فى تعريف المكتُوب إليهم ، وفى أثنائها فى وصف المكتوب بسببه ؛ والحاكِمىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الحـائزُ) من ألقاب ملوك المغْرِب ، وهو فاعل من الحِيَـازة : وهى الحِيَاطةُ ، والمراد الحائز للمُلْك ، أو الحائزُ للفضائل ونحو ذلك .

(الحَبْر) من ألقاب أكابر العلماء ــ وهو بفتح الحاء وكسرها لغتان ، والذى آختاره آبن قُتَيبة فى "أدب الكاتب" الكَسر ، وبه سُمِّى الحِـبْرُ الذى يُكْتَب به ، ولكن الجارى علىٰ ألسنة الناس الفتحُ ؛ والحَبْرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الحُجِّىُّ) بضم الحاء وكسر الجيم المشـدّدة وفى الآخر ياء النسب من ألقـاب أكابر القُضَاة والعلماء ، وهو منسوب إلىٰ الحُجَّة بحذف تاء التأنيث منه علىٰ قاعدة النَّسَب ، كما تُحْذَف من طَلْحة ونحوه علىٰ ما هو مقرّر فى علم النحو . وبعضُ جَهلة الكُتَّاب يثبِت فيه تاء التأنيث مع النسب فيقول الحُجّتِىّ وهو خطأ ؛ ثم النسبة فيـه

حقيقيةٌ لأن المنسوب إليــه وهو الجهــة غير مَنْ له اللقبُ، ويجوز أن تكون للبالغة بأن يجعل صاحبُ اللقب هو نَفْس الجهة تجوُّزا وهو أبلَغُ .

(الحَسِيب) من ألقاب الشُّرَفاء من ولد علىّ بن أبى طالب كَرَّم الله وجهــهُ من فاطمة رضى الله عنهــا ، أخذًا من الحَسَب : وهو مايَعُدّه الإنسانُ من مَفَاخر آبائه علىٰ ما ذكره جماعة من أهل اللغــة ولذلك آختص فى الآصطلاح بالشُّرَفاء، إذ كان آباؤهم أعظمَ الناس مَفَاخِرَ، لكن قد ذكر آبن السِّكِّيت فى "إصلاح المَنْطِق" أن الحَسَب يكون فى الرجُل و إن لم يكن له آباءٌ لهم شَرَف، وعلىٰ هــذا فلا يختص هذا اللقب بذوى الأنسابِ التى فيها عَرَاقةٌ، والحَسِيبِىُّ نسبةٌ إليه للبالغة.

حرف الخــاء المعجمة

(الخاشِعُ) من ألقاب الصُّوفِيَّة وأهلِ الصَّلاح ، و ربمــا آستُعْمِل فى العُلَماء ، بل ربمــا آستُعْمِل فى أرباب السُّيوف إذا كان المكتوبُ له متَّصِفًا بذلك ، بل ربمــا آستُعْمِل فى ألقاب بَطَاركةِ النصارىٰ من البــاپ وغيره ، علىٰ ما ســيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . والخاشعُ فى اللغة الخاضعُ والمتذَلِّل، والخاشِعىُّ نسبةٌ إليه للبالغة .

(الخَوَاجَا) من ألقاب أكابر التُّجَّار الأعاجِم من الفُرْس ونحوهم . وهو لفظٌ فارسىّ، ومعناه السيِّد، والخَواجَكِىُّ بزيادة كافٍ نسبةٌ إليــه للبالغة، وكان الكاف فى لغتهم تدخل مع ياء النسب .

(الخَيِّر) بفتح الخــاء وتشديد اليــاء المثناة تحتُ، من ألقــاب أهلِ الدِّين والصَّــلاح . وهو فى أصل اللغة خلافُ الشِّرِّير، ثم غلب آســتعماله فيمن غَلَب عليــه الخَيْرُ، والخَيِّرِىُّ نســبةٌ إليه للبالغة، وقلَّ أن يستعملَه الكُتَّاب إلا باثبــات الياء فى آخره .

حرف الذال المعجمة

(الذُّخر) بضم الذال وإسكان الخاء من ألقاب أرباب السيوف ، وربما أُطْلِق علىٰ غيرهم . وأصله فى اللغــة لمـا يُذْخَرُ من النفائس، وهو مصــدر ذَخَرتُ الشيءَ أَذْخَرُهُ، وكثيرا مايُغْلَط فيه فيجعل بالدال المهملة . وممّن وقع له الوَهْم فى ذلك الشيخُ جمالُ الدين الأسـنَوِىُّ فى "طَبَقات الفُقهاء" فأورد صاحب "الذَّخائر" فى الدال المهملة؛ والذُّخرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة، وأكثر مايستعمله الكُتَّاب كذلك .

حرف الراء المهملة

(الرَّبَّانىّ) من ألقاب الصُّوفِيَّــة وأهلِ الصَّلَاح، وربمـا لُقِّب به العالمُ فيقال «العـالم الرَّبَّانىّ» قال الجوهرىّ، وهو المُتَأَلِّهُ والعارفُ بالله تعالىٰ . قال تعالىٰ : ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ .

(الرُّحْلَة) بضم الراء من ألقاب أكابر العلماء والمحدِّثين، والرُّحْلة فى اللغة مايُرْحَل إليه ، لُقِّب بذلك لأنه فى حَيِّز أن يُرْحَل إليه للأخذ عنه . أما الرِّحْلة بالكسر فالآرتحالُ؛ والرُّحْلىّ بالضم أيضا نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الرَّئِيس) بالهمزة علىٰ وزن فَعِيل من ألقاب عِلْيَةِ الناس وأشرافِهِمْ ، ويقال : فيه رَيِّس علىٰ وزن قَيِّم قاله الجوهرىّ . وأصله من الرِّيَاسة وهى رِفْعةُ القدر وعُلُوّ الرُّتبــة؛ والرئيسِىُّ نسبة إليه للمبـالغة، وغالب مايستعمله الكُتَّاب كذلك، وهو من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكُتَّاب .

حرف الزاى

(الزاهِدُ) من ألقاب الصُّوفِيَّة وأهل الصَّلَاح ، وهو فى اللغة خلافُ الراغب ، والمراد هنا مَنْ أعرض عن الدنيا فلم يلتَفِتْ إليها، والزاهِدىّ نسبة إليه للمبالغة .

(الزَّعِيمىُّ) من ألقاب أكابر أرباب السيوف، كنُوّاب السلطنة ومَنْ فى معناهم؛ وهو نسبة إلىٰ الزَّعيم بمعنىٰ السيد والكافِلِ وكأنَّه بولايته علىٰ القوم سادهم أو كفَلَهم وتولَّاهم ولم يستعملوا فيه الزعيم بغير ياء : لأنه إذا كان مختصا بكبار أرباب السيوف دون أدَانِيهم، وجب إثبات الياء للمبالغة.

(الزَّكِىّ) من ألقاب المتدينين من أرباب الأقلام وغيرهم، يقال التقىّ الزكىّ ونحو ذلك . وهو فى أصل اللغة بمعنىٰ الزاكى وهو الزائد وقد تقدّم مثله فى الأزكىٰ فى حرف الألف .

حرف السين المهملة

(السالك) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو فاعل من السلوك، والمراد سلوكُ سبيل الرشاد الموصل إلىٰ الله تعالىٰ، والسالكىّ نسبة إليه للمبالغة .

(السامى) من ألقاب المجلس، وقد تقدّمت الإشارة إليه فى الكلام علىٰ الألقاب الأصول وأنه ينقسم إلىٰ السامىّ بالياء والسامى بغير ياء فليراجع منه .

(السَّفيرىّ) قال فى "عرف التعريف" : وهو من الألقاب الخاصة بالدَّوَادار، على أنى قد رأيته فى بعض الدساتير الشامية قد كُتِب به لبعض التجار الخواجكيَّة لسِفَارتهم بين الملوك وتردّدهم فى الممالك لجَلْب المماليك والجوارِى ونحو ذلك وهو منسوب إلىٰ السفير : وهو الرسول والمصلح بين القوم نسبةَ مبالغة ولم يستعمله الكتّاب مجرّدا عن الياء : لأنه إذا كان خاصا بهذين ورتبتهما علية لايَليق بها حذف الياء لم يناسب استعماله مجرّدا عنها .

(السلطانىّ) من ألقاب الملوك فيثبت فى ألقاب المقام الشريف ونحوه، فيقال المقام الشريف العالى السلطانىّ ونحو ذلك ؛ وهو منسوب إلى السلطان وقد تقدّم الكلام عليه فى الكلام على أرباب الوظائف .

(السيِّد) من الالقاب السلطانية يقال السلطان السيِّدُ الأجَلُّ ونحو ذلك ؛ ويَقع فى اللغة علىٰ المـالِك والزَّعِيم ونحوهما ؛ والسيِّدِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة ، وهو من الالقاب الخاصة بالجَنَاب الشريف فما فوقه . قال فى "عرف التعريف" ولا يُكْتَب به عن السلطان لأحد .

حرف الشين المعجمة

(الشَّاهِنْشاه) من الألقاب المُلُوكية المختصةِ بالسلطانِ وأكابرِ المُلُوك . وهو لفظ فارسىٌّ معناه بالعربية «مَلِك الأمْلَاك» وقد ورد النهىُ عن التسمِّى به ؛ وفى الحديث أنه صلّى الله عليه وسلم قال : "إنَّ أخْنَعَ آسمٍ عِنْدَ اللهِ رجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأَمْلاكِ ، لا مَلِكَ الأملاكِ إلا اللهُ" . قال سفيان بن عيينة : معناه شاهِنْشَاه ؛ ولذلك يحذفُه المتديِّنون من الكُتَّاب من الألقاب السلطانية ؛ وقد أشار إلىٰ ذلك فى "التثقيف" فى مكاتبة صاحب المغرب .

وآعلم أنه كان قد وقع فى تلقيب الملوك بهـذا اللَّقَب نِزَاع بين العلماء فى سَلْطَنة السلطان "جَلَالِ الدولة" السَّلْجُوقِىّ فى سـنة تسع وعشرين وأربعمائة كما حكاه آبن الاثير فى تاريخه "الكامل" وذلك أن السلطانَ جلالَ الدولة كان قد سأل أميرَ المؤمنين (القائمَ بأمر الله) الخليفةَ يومئذٍ فى أن يُخاطَب بمَلك الملوك فامتنَع ، فكتب فَتْوىٰ للفقهاء فى ذلك ؛ فكتب القاضى أبو الطَّيِّب الطبرى ، والقاضى أبو عبدالله الصَّيْمَرِىّ . والقاضى آبن البيضاوِىّ ، وأبو القاسم الكَرْخِىّ بجَوَازِه ؛ ومنع منـه أقضى القُضاةِ أبو الحَسَـن المـاوَرْدِىّ ، وجرىٰ بينـه وبين من أفتىٰ بجوازه مراجعاتٌ ؛ وخُطب لجـلال الدولة بـ«مَلك المُلُوك» وكان المـاوَرْدِىّ من أخصِّ الناس بجَلَال الدولة ، وكان يتردَّدُ إلىٰ دار المملكة كلَّ يوم فلما أفتىٰ فى ذلك بالمنع ، آنقطع ولزم بيتَه خائفا ،

وأقام منقطعا من شهر رمضان إلىٰ يوم النحْر ؛ فاستدعاه جلالُ الدولة، فحضر خائفًا فأدخله عليه وحْده، وقال له : قد علم كلُّ أحدٍ أنك من أكثر الفُقَهاء مالًا وجاهًا وقُربًا منا وقد خالفْتَهم فيما خالف هَوايَ، ولم تفعل ذلك إلا لعَدَم المحاباة منك واتِّباع الحقِّ، وقد بان لى موضعُك من الدِّين ومَكانُكَ من العِلْم، وجعلتُ جزاءَ ذلك إكْرامَكَ بأن أدخلتك إلىّ وَحْدَك، وجعلتُ إذْنَ الحاضرين إليك، ليتحقَّقُوا عَوْدِى إلىٰ ماتُحِب . فشكره ودعا له وأذن لكل مَنْ حضر للخدمة بالانصراف (١) .

(الشريف) من ألقاب المَقَرّ والجَنَاب، من حيث إنه يقال المَقَرّ الشريف والجَنَاب الشريف، وذكر فى "عُرْف التعريف" أنه مختصٌّ بالأشراف أبناءِ فاطمة من علىّ رضى الله عنهما، وكأنه يريد فى الألقاب المطلقة التى لا تلى المقرّ والجناب وهو فعيل من الشرف وهو العلوّ والرفعةُ، قال ابن السكيت : ولا يكون إلا لمن له آباءٌ يتقدّمونه فى الشرف بخلاف الحسيب ومن هنا جعله الكُتَّاب أعلىٰ رتبة من الكريم لاشتماله علىٰ قدر زائد لايعتبر فى الكريم من عَرَاقة الأصل وشَرَف المحْتِد، والشَّريفىّ نسبة إليه للمبالغة .

(الشهير) من ألقاب ملوك المغرب، ومعناه المشهور الظاهر، والمراد هنا من اشتهر علوّ قدره ورفعتُه .

(الشيخ) من ألقاب العلماء والصلحاء وأصله فى اللغة الطاعن فى السِّن، ولُقِّب به أهلُ العلم والصَّلاح توقيرًا لهم كما يوقَّر الشيخ الكبير، والشيخىّ نسبة إليه للمبالغة.

حرف الصاد المهملة

(الصاحب) من ألقاب الوزراء . قال فى "عرف التعريف" : وهو مختص بأربابِ الأقلام منهم دون أرباب السُّيوف . وهو فى أصل اللغة اسمٌ للصَّديق ،

(١) أورد ابن الأثير هذه العبارة فى كتابه الكامل (ج ٩ ص ١٧١) .

وأوّل مَنْ لُقِّب به من الوزراء كافِي الكُفَاة إسماعيلُ بنُ عبَّاد، وذلك أنه كان يصحب الأستاذَ آبن العَمِيد، فكان يقال له بذلك «صاحبُ آبن العميد» ثم غلب عليه حتّى آستُعْمِل فيه بالألف واللام، ثم صار لَقَبا علىٰ كل مَنْ وَلِيَ الوزارة بعده . علىٰ أن كُتَّاب الإنشاء بالممـالك الشامية يلقِّبون العلمـاء من قضاة القُضَاة ومَنْ فى معنـاهم بذلك ،وهم علىٰ ذلك إلىٰ الآنَ ، بخلاف كُتَّاب الديار المصرية ، فإنهم يَقْصُرُونه علىٰ الوزراء دون غيرهم كما تقدّمت الإشارةُ إليه . والصاحِبِيّ نسبةٌ إليه للمبـالغة . وهو المستعمل عند كُتَّاب الإنشاء، وبغير الياء فى العرف العامّ .

(الصالح) من ألقـاب أهـل الصَّـلَاح والصُّوفِية يقـال الشـيخُ الصالِحُ ونحو ذلك . وهو مأخوذ من الصَّلاح ضِدّ الفساد، ولم يستعملوه باثبات ياء النسب فلم يقولوا الصالِحِيّ ، وكأنهـم تركوا ذلك خوفاً من الآلتبـاس بالنسبة إلىٰ البـلد المعروف أو غيره .

(الصَّدْر) من ألقـاب التُّجّار ونحوهم . والمراد مَنْ يكون صَـدْرا فى المَجَالس؛ وصـدرُ كلِّ شىء فى اللغة أوّلُه ، وعُبِّر عن صَدْر المجلس بأوّله لأنه فى الحقيقة أوّلُ المجلس وكل جانب من جانبيه يَلُوه، والصَّدْرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

حرف الطـاء

(الطاهر) من ألقاب ملوك المَغْرب، والمراد المتَنَزِّه عن الأدناس .

حرف الظـاء

(الظَّهِيرىّ) من ألقاب بِمَار أرباب السُّيُوف كأعيـانِ الأُمَراء من نُوّاب السلطنة وغيرهم؛ وهو نسـبةٌ إلىٰ الظَّهِير بمعنىٰ العَوْن للمبـالغة، ومنه قوله تعالىٰ :

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ ولم يستعملوه مجردا عن ياء النسب لآختصاص المُظَاهِرةِ بأكابر أربابِ السُّيوف، وهو بغير الياء لايقع إلا على الأَدْوان منهم .

حرف العين

(العابِدُ) من ألقاب الصُّوفية وأهلِ الصَّلاح ، وهو فاعِلٌ من العبادة وهى الطاعة . وربما آستُعْمِل فى أرباب السيوف والأقلام أيضا : لآتصافِ متصفٍ منهم بذلك أو وقوعِه أوّلا على متصفٍ به منهم ثم لزومه مَنْ بَعْدَه من أهل تلك المرتبة كما فى نائب الشام، حيثُ كُتِب لبَيْدُمُر الخوارزمى فى نيابته بذلك، ثم لَزِم مَنْ بعده من نوّاب الشام والنائبِ الكافِلِ على ما سيأتى ذكره فى المكاتبات إن شاء الله تعالى .

(العادل) من ألقابِ السُّلْطان، وهو خلاف الجائِرِ، وذلك أعلى ما وُصِف به الملكُ ونحوه من وُلاة الأُمورِ : لأن العدل به تقع عِمَارة الممالك، والعادِلىّ نسبةٌ إليه للمبالغة، وهو من ألقاب أكابِرِ أرباب السيوف من النُّواب ونحوهم .

(العارف) من ألقاب أكابِرِ أهلِ الصَّلاح، وهو خلاف الجاهِلِ، ومنهم مَنْ يفَرِّق بينه وبين العالم بأن المعرفة قد يتقدّمها جَهْل والعلم لا يتقدّمُه جَهْل، ولذلك لم يُطْلق آسمُ العارف على البارئ سبحانه وتعالى بخلاف العالم فإنه يُطْلَق عليه ؛ والعارفىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(العاضد) من ألقاب ملوك المَغْرِب ؛ وهو فى أصل اللغة آسمٌ للمُعين ، يقال عَضَدْته أعضُدُه إذا أعنْته .

(العالم) من ألقاب السُّلْطان ، وهو خلاف الجاهل . ثم هو فى الحقيقة إنما هو من ألقاب العُلَماء إلا أنهم نعَتُوا به الملوك تعظيمًا ، إذ العلم كُلُّ أحدٍ يزاحم على

الاتصاف به ، والعالىُّ نسبة إليه للمبالغة . وهو من الألقاب المشتركة فى الاصطلاح بَيْنَ أرباب السيوف والأقلام وإن كان المختصُّ بها فى الحقيقة العلماءَ .

(العالى) من الألقاب التى يشترك فيها أربابُ السيوف والأقلامِ ، ويُوصَف به المَقَام والمَقرّ والجَناب والمَجْلس فى إحدى حالتيه ، وهو من العَلَاء بالمدّ وهو الشرف . يقال عَلِيَ بكسر اللام يَعْلىٰ بفتحها إذا شَرُف ، ومنه قيل فى علىّ ونحوه «عَلَاء الدِّين» ويحتمل أن يكون من العُلُوّ فى المكان يقال فيه عَلَا بفتح اللام يَعْلُو عُلُوّا ؛ وسيأتى معنىٰ الفرق بينه وبين السامِى وإن كان بمعناه فى اللغة .

(العامل) من ألقاب أهل الصَّـلاح ، والمراد المجِدُّ فى العمل المجتهدُ فى العِبَادة ؛ والعاملىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة ، وهو من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام كالعـالِىّ .

(العريق) من ألقاب ذوِى الأَصَالة ، وأكثرُ ما يقع علىٰ أرباب الأقلام ، والمرادُ مَنْ له عَرَاقة فى كَرَم الأصل ؛ والعَرِيقىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(العَزِيز) من ألقاب ديوان الخِلافة ، يقال فيه « الدِّيوانُ العَزِيز» علىٰ ما سيأتى بيانه فى المكاتبة إلىٰ أبواب الخِلافة ، وربمـا آستعملوه فى الوَلَد فقالوا الولدُ العزيزُ ، ولم يستعملوه مضافا إلىٰ ياء النَّسَب .

(العَضُد) من ألقاب أرباب السُّيوف ؛ وهو فى الأصل آسمٌ للساعِد : وهو ما بين المِرْفَق والكَتِف ، وآستُعْمِل فى المُعين والمُساعد لقيامه فى المُساعدة مَقَام العَضُد الحقيقِىّ من الإنسان ؛ ثم الأفصحُ فيه فتحُ العين مع ضم الضاد ، ويجوز فيه كسرُ الضاد وإسكانُها مع الفتح أيضا وضمُّ العين مع إسكان الضاد ؛ والعَضُـدِىّ نسـبةٌ إليه للمبـالغــة .

(العَوْنِىُّ) من الألقاب المختصة بأكابر أرباب السيوف، وهو نسبة إلىٰ العَوْن وهو الظَّهِيرُ علىٰ الأمر المعاونُ عليه . ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب لوقوع العَوْن علىٰ الواحد من أعوانِ صاحب الشُّرْطة ونحوه .

(العَلَّامة) بالتشديد من ألقاب أكابر العلماء . قال الجوهرىّ : وهو العالِمُ للغاية ، وقَلَّ أن يُستعملُوه إلا فى ألقاب المكتوب بسببه ونحو ذلك، وحذفُ الهاء منه لغةٌ، وليست بمستعملة بين الكُتَّاب أصلا؛ والعَلَّامىّ نسبة إلىٰ العَلَّام أو العَلَّامة للمبالغة . قال فى "عرف التعريف" : ويختص بالمُفْتِى .

حرف الغين المعجمة

(الغازى) من ألقاب أربابِ السُّيوف، وهو من الأسماء المنقُوصةِ كالقاضى ونحوه، وقَلَّ أن يُستعْمَل إلا فى ألقاب السامِى بغير ياء فما دُونَه .

(الغَوْثُ) بالثاء المثلثة من ألقاب الصُّوفيَّة، وهو عندهم لقبٌ علىٰ القُطْب الذى هو رأس الأولياء؛ وأصلُه فى اللغة من قول الرجل واغَوْثَاهْ، وقلَّ أن تستعمله الكُتَّاب بل لم يستعمِلُوه مضافا إلىٰ ياء النسب أصلا .

(الغِيَاثِىُّ) من ألقاب أرباب السيوف ، وأكثرُما يُستعْمَل فى الملوك ، وهو فى اللغة الاسمُ من استغاثَنِى فأغثْتُه ، وأصله الغِوَاثِىُّ بالواو فقُلِبَتِ الواو ياء لانكسار ماقبلها .

حرف الفـاء

(الفاتح) من ألقاب ملوك المغْرِب ، وهو فاعلٌ من الفتح بمعنىٰ النَّصْر ، والمراد فتحُ الأمصار وتملُّكها .

(الفاضل) من ألقاب أرباب الأقلام ، وأكثرُ مايقع فى ألقاب العلماء ، وربما وقع فى ألقاب الكُتّاب ، وهو خلاف الناقِص ، والمراد زائدُ الفَضْـل ، وبه لُقِّب القاضى الفاضـلُ « عبدُ الرحيم البَيْسـانِىُّ » الكاتب المشهورُ ؛ والفاضلِىُّ نسـبة إليـــه للبالغة .

(الفائز) من ألقاب ملوك المغرِب، وهو فاعِلٌ من الفَوْز بمعنى النَّجاةِ أو الظَّفَر، وقد يُتَسَامَحُ فى التلقيب به فإن الفوزَ يطلق علىٰ الهلاك أيضا علىٰ ماهو مقرّر فى كتب اللغة، ومثل ذلك يجبُ آجتنابُه لمـا فيه من الآشتراك بين المحمودِ والمذمُوم، إلا أنه غلب آستعمالُه فى النَّجاة حتّٰى إنه لم يرد فى القُرْءان إلا بمعنـاها، ولذلك عوّل الكُتّاب علىٰ آســتعماله .

(الفقيه) من ألقاب العُلَماء وهو آسم فاعِل من فَقُه بضم القاف إذا صار الفقهُ له سَجِيّة، ككَرُم إذا صار الكَرَم له سجيَّةً . قال المسيلىّ (١) فى "شرح مختَصَر ابن الحاجب": وإنما يقع علىٰ المجتهد دون المقلِّد؛ أما إطلاقه علىٰ فقهاء المَكاتِب ونحوهم فعلىٰ سبيل المجاز . علىٰ أن الكُتّاب بالديار المِصْرية لم يستعملوا هذا اللقبَ إلا فى القليل النادرِ، بل كثير من جَهَلة الكُتّاب وغيرهم يستصغِرُون التلقيبَ به ويَعُدّونه نقصًا ، وإنمـا يُعَظَّم به جِدَّ التعظيم أهلُ المغرِب ؛ والفَقِيهِىُّ نسبةٌ إليه للبـالغة ، وهو مســتعمل فى ألقاب العلمــاء .

(الفَرِيدِىّ) من ألقاب أكابر العلماء، وهو نسبةٌ إلىٰ الفَرِيد بمعنىٰ المنفَرِد للبالغة، والمراد المنفردُ بمـا لم يُشَارِكْه فيه غيرُه، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النَّسَب .

---

(١) كذا بالاصول ولعله السبكى انظر شراح مختصر آبن الحاجب فى كشف الظنون .

حرف القـاف

(القاضَوِىّ) من ألقـاب أرباب الأقلام ، وهو نسـبةٌ إلىٰ القاضى للمبـالغة ، ثم فى الحقيقة كان يجب أن يختص بالقُضَاة الذين هم حُكَّام الشريعة دون غيرهم ، إلا أنه تُوسِّع فيه حتّٰى ٱستُعمِلَ فى غيرهم من ألقاب أرباب الأقلام .

(القِدْوة) بكسر القاف وضمّها لغـةٌ من ألقاب العلمـاء والصَّلَحاء ، وهو بمعنىٰ الأُسْوة . يقال : فلان قِدْوة يُقْتدىٰ به ؛ والقُدْوِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة ، وحذفت منه تاء التأنيث المبدلةُ من الهاء علىٰ قاعدة النسب عند النحاة ، وكثيرٌ من جَهَلة الكُتَّاب يُثْبتون فيه تاء التأنيث مع النسب فيقولون القُدْوتِىّ ، وهو خطأ كما تقدّم فى الكلام علىٰ الحُجَّة فى حرف الحاء .

(القَضَاميرى) من الألقاب التى يستعملها بعضُ الكُتَّاب فى ألقاب مَنِ ٱجتمع له رياسةُ السيف والقلم ؛ وهو نسبة إلىٰ القضاء والأمير تشبيها بمذهب مَنْ يرىٰ النسبةَ إلىٰ المضاف والمضاف إليـه جميعا فيقول فى النسـبة إلىٰ عَبْد شمس عَبْشَمِىّ ، وإلىٰ عبد الدَّارِ عَبْدَرِىّ ، ونحو ذلك ، وهو مذهب مرجوح علىٰ ماتقدّم بيانه فى المقالة الأولىٰ فى الكلام علىٰ النحو ، والأحسن فيه النسـبةُ إلىٰ كلٍّ منهما علىٰ ٱنفراده ، فيقـال القَضَائىُّ الأَميرىّ ، أو الأميرىُّ القضائِىُّ ؛ وعلىٰ العمل به فاللائق بعُلُوّ الرُّتبة أن يقال القاضَمِيرى ليكون مركَّبا من القاضَوِىّ والأميرىّ ، إذ كان القاضوِىّ فى المعنىٰ أبلَغ من القَضَائىّ لما فى القاضَوِىّ من المبالغة علىٰ ماتقدّم بيانه .

(القَضَائىّ) من ألقاب أرباب الأقلام ،وهو نسـبةٌ إلىٰ القَضَاء فلا مبالغةَ فيه .

(القُطْب) من ألقاب الصُّوفية وأهـلِ الصَّلاح ، وهو عندهم عبارةٌ عن رأس الأوْليـاءِ الذى عليـه مَدَارُهم كما تقدّم فى الغَوْث ، وقلَّ أن يستعمله الكُتَّاب ؛

ولم يستعملوه مضافاً إلىٰ ياء النسب فيما وقفتُ عليه أصلا . والقُطْب فى أصل اللغة كَوْكَبٌ بين الجَدْى والفَرْقَدَيْن يدور عليــه الفَلَك فيما قاله الجوهرىّ . والتحقيق أنه نقطةٌ متوهَّمة بالقرب من هــذا الكَوْكَب علىٰ ماهو مقرَّر فى علم الهيئة ، ولذلك قيل لســيِّد القوم الذى عليــه مَدَارُ أمرِهم قُطْبُ بنى فُلانٍ ، ومِنْ هُنَا دبَّروا عن مَدَار الأولياء بالقُطْب . وقلَّ أن يستعمله الكُتَّاب ، ولم يستعملوه مضافا إلىٰ ياء النسب فيما وقفتُ عليه .

(القَوَامِىّ) بفتح القاف من ألقاب أرباب السيوف . وهو نسبةٌ إلىٰ القَوَام وهو العدل . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَانَ بَيْنَ ذٰلِكَ قَوَامًا ﴾ ولم يســتعملوه مجرّدًا عن ياء النسب .

حرف الكاف

(الكافِلُ) من الألقاب المختصَّة بنائب السلطنة بالحَضْرة ، يقال فيه النائب الكافلُ ونحو ذلك ، والكافلُ فى اللغة الذى يَكْفُل الإنسانَ ويَعُولُه ، ومنــه قوله تعالىٰ : ﴿ وَكَفَلَهَا زَكَرِيَّا ﴾ ولُقِّب بذلك لأنه يكفُل الرعيةَ ويعُولهُم ؛ والكافلىّ نسبة إليه للمبالغة . قال فى "عرف التعريف" : وهو مختص بنائب سلطانٍ أو وزيرٍ كبير . وذكر فى دستور آخر أنه لايكتب به لغيرهما .

(الكَبِير) من الألقاب المشتركة بين أرباب السيوف والأقلام ، وهو فى الأصل خلاف الصغير ، والمراد هنا الرفيعُ الرُّتْبة ؛ والكَبيرىّ نسبة إليه للمبالغة .

(الكريم) من ألقاب المَقرّ والجَنَاب ، ويشترك فيه أربابُ السيوف والأقلام ، والكريمُ خلاف اللئيم فيما يقتضيه كلام الجوهرىّ حيث قال : الكَرَمُ نقيضُ اللُّؤْم ، وحينئذ فيكون المراد بالكريم الخالصَ من اللُّؤْم ، ومن ثَمّ جُعِل دون الشريف

فى الرُّتْبة، إذ فى الشَّرَف قَدْرٌ زائدٌ على ذلك، وهو اعتبار ثُبوتِ رِفْعة القَدْر، بل اعتبارُ ذلك فى آبائه أيضا كما قاله ابن السكيت على ما تقدّم ذكرُه فى الكلام على لقبِ الشريف، ويُوضِّح ذلك أن الفُقَهاء قالوا يُسْتحَبُّ فى الزوجة أن تكون نسِيبةً فحمله بعضهم على الصحيحةِ النَّسَب احترازا بذلك عن بنت الزِّنا، وحمله آخرون على العَرَاقة فى النَّسب، والأوّلُ فى معنى الكَرَم الذى لم يُعتَبَرْ فيه سِوى خُلُوصه من اللُّؤم، والثانى بمعنى الشريف الذى اعتُبِر فيه قدرٌ زائدٌ، ثم هو فَعِيل من كَرُم بضم الراء إذا صار الكَرَمُ له سجيةً كما تقدّم فى الفقيه .

(الكَفِيلِىّ) من ألقاب أكابر نُوّاب السلْطَنة، وهو أعلى من الكافِل، لأن صيغة فَعِيلٍ أبلغُ من صِيغةِ فاعلٍ على ماهو مقرّر فى علم النحو والتصريف .

حرف اللام

(اللَّبِيب) من ألقاب أرباب الأقلام، وهو فَعِيلٌ من اللُّبِّ وهو العقل؛ واللَّبيبىُّ نسبة إليه للمبالغة .

(اللَّوْذَعِىّ) بالذال المعجمة من ألقاب أرباب الأقلام، وهو الذَّكِىُّ القَلْب .

حرف الميم

(الماجدُ) من ألقاب أرباب الأقلام غالبًا، وربما أُطْلِق على غيرهم، وهو مختص بذَوِى الأَصَالة فقد قال ابن السكيت إن المَجْدَ لايكون إلّا بالآباء؛ والماجدىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(المالِكِىُّ) من الألقاب المختصّة بأكابر أربابِ السيوف والأقلامِ . قال فى "عُرْف التعريف": ولايكتَبُ به عن السلطان لأحدٍ، وهو نسبةٌ إلى المالك الذى هو خلافُ المملوك للمبالغة، ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب .

(المُثاغِرُ) بالثـاء المثلثة من ألقاب السلطان، والمراد القائمُ بسَدّ الثُّغور: وهى البلادُ التى فى نَحْرِ العدوّ، أخذًا من الثَّغْر وهو السِّنّ، لأنه كالبـاب علىٰ الحلق الذى يمتنع الوصول إليه إلا منه؛ والمُثاغِرِىّ نسبةٌ إليــه للمبالغة. وهو من ألقاب أكابِرِ أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم.

(المتصَرِّفىّ) من ألقاب الوُزَراء ومَـنْ فى معناهم، والمراد مَنْ ينفُـذ تصرُّفه فى الأمور، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب.

(المجاهِدُ) من الألقاب السلطانية، والمرادُ المجاهدُ فى سبيل الله تعالىٰ، وربمـا آستُعْمِل فى ألقاب السامِى من غير ياء فما دونه كما تقدّم فى الغازى؛ والمُجاهِـدِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة. وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم.

(المُجْتَهِد) من ألقـاب العلمـاء، والمرادُ به فى الأصـل مَنْ يَسْتَنْبِط الأحكامَ الشرعيةَ مِـن الكتاب والسُّنّة والإجمـاع والقياس، وقَلَّ أن يستعمله الكُتّاب؛ والمجتهِدىّ نسبةٌ إليه للمبالغة. وأكثرُ آستعماله كذلك.

(المُحْتَرَم) من ألقاب العامّة ممن يلقَّبُ بالصَّدْر الأجَلّ. فيقال: «الصَّدْر الأجَلُّ الكبيرُ المحترَمُ» ونحو ذلك.

(المحقِّق) من ألقاب العلماء، وربمـا آستُعْمِل فى ألقاب الصُّوفية، والمراد أنه يأتى بالأشياء علىٰ حقائقها لِحِدّة ذِهْنه وصِحّة حَدْسِه؛ والمحقِّقِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة.

(المختـارُ) من ألقاب أرباب السُّـيوف غالبا، ويختصّ بالسامى بغير ياء فما دُونَه، وهو آسمُ مفعولٍ من الآخْتِيار، بمعنىٰ أن الملوكَ وأربابَ الأمورِ يَخْتارونَه، علىٰ أن آسم الفاعل منـه أيضا المختارُ كلفظ المفعول علىٰ السَّواء وإنمـا تُرْشِـد إليه القرائنُ.

(المَخْـدُوم) من الألقـاب المختصَّـة بالمكاتَبات، والمراد مَنْ هو فى رُتْبـة أن يكـون مَخْدُوما لعلوّ رتبتـه وسُمُوّ مَحَلِّه ؛ والمخدُومِىّ نسـبةٌ إليه للمبالغـة . قال فى " عرف التعريف " : ولا يُكْتَبُ به عن السُّلْطان لأحد .

(المَدَبِّرىّ) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم كَكُتَّاب السرّ ونحوهم ، وهو نسبة إلىٰ المَدَبِّر بكسر البـاء الموحدة : وهو الذى ينظُر فى الأمر وما تَئُول إليـه عاقبتُه، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النَّسَب .

(المـدَقِّق) من ألقاب العلمـاء، وهو الذى يُنْعِم النظـرَ فى المسائل ويدقِّقُه ؛ والمَدَقِّقِىّ نسبة إليه للمبالغة .

(المُرابِط) من الألقـاب السُّلْطانية، وهو مُفَاعِل من الرِّباط : وهو ملازمةُ ثَغْر العدوّ؛ والمُرَابِطِىّ نسـبةٌ إليه للمبالغة . وهو من ألقـاب أكابر أربابِ السيوف، كنُوّاب السلطنةِ ونحوهم .

(المرَبِّى) من ألقاب الصوفية، والمراد مَنْ يربِّى المريدين ويسَلِّكهم ويعرِّفهم الطريق إلىٰ الله تعالىٰ .

(المرتضىٰ) من ألقاب أرباب السُّيوف والأقلام، ويختصُّ بالسامى بغير ياء فما دونه، والمراد مَنْ يرضاه وُلاةُ الأمور ويختارُونَه .

(المُرْشِد) من ألقاب ملوكِ المغرِب، وربما آستُعْمِل فى ألقاب الصوفيَّة، والمراد مَنْ يُرْشِدُ الناس إلىٰ الحق ويهديهمُ السبيلَ؛ والمرشِدىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(المُسَدَّدِىّ) من ألقاب أرباب السيوف وألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، وهو بفتح الدال المشدّدة نسـبةٌ إلىٰ المسدَّد، وهو آسم مفعول من السَّدَاد بالفتح : وهو

الصَّواب والقَصْد من القول والعملِ . ويجوز أن يكون بالكَسْر علىٰ أنه آسمُ فاعلٍ منه بمعنىٰ أنه يُسَدِّد غيره، ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب .

(المسَلِّك) بتشـديد اللام المكسورة من ألقاب الصوفيَّة ، وهو آسم فاعل من تسـليك الطريق وهو تعريفُها، والمراد تعريفُ المريدين الطريقَ إلىٰ الله تعـالىٰ؛ وأصل التسليك إدخالُ الشيء فى الشيء، ومنه قيل للخيط سلك،لقب بذلك لإدخاله المريدين فى الطريق؛ والمسَلِّكىّ نسبة إليه للمبالغة .

(المُشَيِّدىّ) بتشديد اليـاء المكسورة من ألقاب أكابِرأرباب السيوف، كنُوّاب السلطنة ونحوهم ، وهو نسبةٌ إلىٰ المُشَيِّد فاعل من التشييد وهو رَفْع البناء ، ومنه قوله تعـالىٰ : ﴿ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴾ أى مرتفع، والمراد أنه يُشَيِّد قواعدَ المملكة ويرفعها؛ ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب إذ لايليق بالأدْنَيْنَ .

(المُشِيرىّ) من ألقـاب الوزراء وأكابر الأُمَراء ومَنْ ضاهاهم ممن يُؤْخَذ رأيه فى الأمور . قال فى "عرف التعريف" : ولايُسْمَح به لأحدٍ من أرباب السيوف ما لم يكن مقدَّمَ ألفٍ ؛ وهو نسـبةٌ إلىٰ المُشِير : وهو الذى يُؤْخَذ رأيُه . وآختُلِف فى أصله المأخوذ منه فقيل : من شُرْتُ العسلَ إذا استخرجته من كوّارة النحْل ، لأنْ الرأىَ يُستخْرَجُ من المُشِير. وقيل من شُرْت الناقةَ إذا عرضْتَها علىٰ الحوض لأن المستشير يعرض ما عنده علىٰ المُشِير، ولم يستعملوه مجرّدًا عن ياء النسب لآنحطاطه عن رتبة الأكابر.

(المُظَاهِر) من ألقاب ملوك المغرب ، ومعناه المُعاوِن أخذًا من المُظَاهَرة: وهى المُعَـاونة .

(المُظَفَّر) من الألقاب السلطانية ، أخذًا من الظَّفَر وهو النَّصر ؛ والمُظَفَّرِىّ نسبة إليه للمبالغة، وهو من ألقابِ أكابِرأرباب السيوف .

(المُعْرق) بضم الميم وإسكان العين وكسر الراء من ألقاب ملوك المغرب ،والمراد به من أَعْرَقَ فى الكَرَم . علىٰ أن المُعْرِق قد يُطْلَق فى اللغة علىٰ المُعْرِق فى اللُّؤم أيضا فهو من الأضداد، ومثل ذلك يُجْتَنَب فى التلقيب .

(المُعَزّز) بزاءين معجمتين الأولىٰ منهما مشدَّدة مفتوحة من ألقاب ملوك المغرب، وهو ٱسمُ مفعول من العِزّ خلاف الذُّلِّ، ومنه قراءة من قرأ (ويُعَزِّزوه ويُوَقِّروه) بزاءين معجمتين .

(المعظَّم) بفتح الظاء المشدّدة من ألقاب ملوك المغرب أيضا، وهو ٱسمُ مفعول من العَظَمة وهى الجَلَالة، وربما ٱستُعْمِل فى ألقاب بعض ملوك الكُفْر علىٰ ماسيأتى ذكره فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

(المُفَخَّم) بفتح الخاء المعجمة المشدّدة من ألقاب ملوك المغرب، وهو مأخوذٌ من الفَخَامة وهى الضَّخَامة .

(المُفَوَّه) بفتح الواو المشدّدة من ألقاب البُلَغاء من الكُتَّاب وغيرهم . وهو البَلِيغ اللَّسن؛ والمُفَوَّهِىّ نسبة إليه للمبالغة .

(المُفيد) من ألقاب العلماء، وهو ٱسم فاعِلٍ من الإفادة وهى إنالةُ الشخصِ مالم يكن حاصلاً عنده؛ والمُفيدِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(المُقَدَّمِىّ) بفتح الدال المشدّدة من ألقاب أرباب السيوف . ويختص بمقدَّمى الأُلُوف من الأمراء، والمراد أنه مُقَدَّم علىٰ مضاهيه من الأمراء والأجناد، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النَّسَب .

(المُقَرَّب) بفتح الراء المشـدّدة من ألقـاب الخُدّام والخَواجَكِيَّة، والمراد أنه مقرَّبٌ عند الملوك ومَنْ فى معناهم، وهو من القُرْب خلاف البُعْد؛ والمقَرَّبىّ نسبة إليه للمبالغة .

(المُكَرَّم) بفتح الراء المشـدّدة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّـل من الكَرامة .

(المَلَكِىّ) بفتح اللام من القاب المَلِك وألقابِ أتباعه المنسوبين إليه من الأمراء والوزراء ومَنْ فى معنـاهم؛ وهو نسـبةٌ إلىٰ الملِك بكسر اللام وإنما فُتِحت لامُه فى النسب جَرْيا علىٰ قاعدة النسب فى نَمِر فإنه ينسب إليه نَمَرِىّ بفتح الميم علىٰ ما هو مقرَّر فى علم النحو . علىٰ أن كثيرا من كُتَّاب الزمان يَغْلَطون فيـه فيكسرون لامه فى النسب أيضا وهو خطأ . ثم النسبةُ إن كانت فى حق المَلِك نفسه كقولهم فى ألقاب المَلِك المَلَكِىّ، فالنسـبة فيه للمبالغـة، وإن كانت فى حق أحدٍ من أتباعه كقولهم فى حق بعض الأمراء ونحوهم المَلَكِىٌّ الفلانى فالنسبة فيه علىٰ حقيقة النسب .

(المُمَجَّد) بفتح الجيم المشـدّدة من ألقاب ملوك المغرب . وهو مُفَعَّل من المَجْد وهو الشَّرَف . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الماجد عن ابن السكيت أنه يكون المَجْدُ(١) للرجل وإن لم يتقدّمه شرفُ آباء .

(المُمَهِّدِىّ) بكسر الهاء المشدّدة من ألقاب أكابر أرباب السيوف، نسـبةٌ إلىٰ المُمَهِّد: وهو الذى يمهِّد الممالكَ ويُدَوِّخها، والنسبة فيـه للمبالغة، ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

---

(١) المنقول فى كتب اللغـة عن ابن السـكيت أن المجد والشرف لا يكونان إلا بالآباء والحسب والكرم يكونان للرجل وان لم يكن له آباء كرام وقد نقل المؤلف نفسه هذا المعنى فى غير هذا الموضع فتنبه .

(المنتَخَب) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيَّة : وهو المختار ؛ والمنتخَبىّ نسبةٌ إليه للمبالغـــة .

(المنَفِّـذِىّ) بكسر الفاء المشـدّدة و بالذال المعجمة من ألقـاب الوزراء ومَنْ فى معناهم نسـبة إلىٰ المنفِّذ : وهو الذى له معرفة بتنفيـذ الأمور ووَضْع الأشـياءِ فى مواضعها، والنسبة فيه للمبالغة ؛ ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(الُمنْصِفِىُّ) من ألقـاب الوزراء ووُلَاة الأمور نسبةٌ إلىٰ الُمنْصِف : وهو الذى يُنْصِف المظلومَ من الظالم، والنسبةُ فيه للمبالغة؛ ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(المَنْصورُ) من الألقاب السلطانية، يقال منه «المؤيَّد المنصورُ» ونحو ذلك، ومعناه ظاهر ، والمنصُورِىّ نسـبة إليه للمبالغة ؛ وهو من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(المؤتَمَنُ) من ألقاب الخُدّام والتُّجّار الخَوَاجَكِيَّة، والمراد أن الخُدّامَ يُؤْتَمَنُون علىٰ الحريم والمَمَالِيك فى الحَضَر، والتُّجّار يُؤْتَمَنُون علىٰ المماليك والجَوارِى فى السَّفَر، أو يؤتَمَنُون علىٰ أخبار المَمَالك وأحوالها، فلا يُخْبِرون عن مملكة بمملكة أُخرىٰ إلا بما فيه السَّـــدَاد .

(المَوْلىٰ) من ألقاب الكُتَّاب، وأكثر مايَجْرِى ذلك فى تعيين كاتِبِ السرّ ونحوه . فيقـال : « المَوْلىٰ فلان الدِّين » والمراد هنا السيِّد، والمَوْلَوِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وهو من ألقابِ أكابرِ أرباب السيوف والأقلام . قال فى "عُرْف التعريف" : ولا يُكْتَب به عن السـلطان لأحدٍ . علىٰ أن المولىٰ لفظٌ مشتَرَك يَقَع فى اللغة علىٰ السيد كما تقـدّم ويعبَّر عنه بالمولىٰ من أعلىٰ ؛ ويقع علىٰ المملوك والعَتِيق ويعـبَّر عنه بالمولىٰ من أسـفَلُ؛ ويقع علىٰ المنضَمِّ إلىٰ القبيلة من غير أنفُسها، كما يقال فى الإمام

البُخَارِىّ « الجُعْفِىّ مَوْلاهم » بمعنىٰ أنه ليس من صُلْب القبيــلة ؛ ويُطْلَق علىٰ غير ذلك أيضا . وإذا كان مشــتركا بين المولىٰ من أعلىٰ والمولىٰ من أســفل فكان الأحسنُ الإضرابَ عنه .

(المؤيَّد) بفتح الياء المشدّدة من الألقاب السلطانية، وبالكسر من ألقاب السامىّ بالياء فمــا دُونَه ، والمراد أنه يؤيِّد المَلِك وينصُره ، وكلاهما مأخوذٌ من الأَيْد وهو القُوّة ، والمراد أن الله تعالىٰ يؤيِّده ويُقَوِّيه ، ومنه قولهم فى الدعاء: «أيَّده اللهُ تعالىٰ» أى قَوّاه ؛ والمُؤَيَّدِىّ بالفتح من الألقاب الملوكية نســبةٌ إلىٰ المؤيَّد بالفتح للمبالغة ؛ وبالكسر من ألقاب أكابر أرباب السيوف نسبةٌ إلىٰ المؤيِّد بالكسر للمبالغة .

(المَلاذِىّ) بالذال المعجمة من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم من وُلاة الأمور . وهومنسوب إلىٰ المَلاذِ بمعنىٰ الملْجإ نسبةَ مبالغة ؛ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

حرف النون

(الناسِكُ) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصلاح ، ومعناه العابدُ أخذًا من النُّسُــك وهو العبادة ؛ والناسكىُّ نسبةٌ إليه للمبالغة . وهو من ألقاب الصُّلَحاء أيضا ، وربمــا كُتِب به لأرباب السيوف والأقلام إذا كان فيهم مَنْ يُنْسَب إلىٰ الصَّلاح .

(النَّبَوِىّ) من ألقاب ديوان الخلافة وما فى معناه من متعلَّقاتهــا ، يقال فيه : « الدِّيوانُ العَزِيزُ النبَوِىّ » ونحو ذلك . ويقع أيضا فى ألقاب وُلَاة العهد بالخِلَافة ؛ وربمــا وقع فى ألقاب الأَشْراف . وهو نسبة إلىٰ النبوة لانتسابِ الخلافة العَبَّاسيَّة إلىٰ العَبَّاس عمِّ النبىّ صلَّى الله عليه وسـلم ، وانتساب الأشراف إلىٰ ابنتــه فاطمةَ رضى الله عنها .

(النَّسيب) من ألقاب الشُّرَفاء أبناءِ فاطمـةَ من علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهما، والمراد العَرِيق فى النَّسَب ، لُقِّبوا بذلك لأنهم أعرقُ الناس نسبًا، لانتسابهم إلىٰ بنتِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم . ومن خصائصه صلّى الله عليه وسلم جوازُ نسبة أولاد بَناتِهِ إليه بخلاف غيره ، علىٰ ما هو مقرّر فى كُتُب الفقه . وقد أوضحت ذلك فى كتابى المسمّى بـ«الغُيُوث الهوامع» فى شرح جامع المختَصَرات ومختَصَرِ الجَوَامع» فى أوائل النكاح؛ والنَّسِيبىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(النَّصِـير) من ألقاب أرباب السيوف للمجلس السامىّ بالياء فمن دُونَه . وهو بمعنى الناصر إلا أنه أبلَغ منه، لأن صيغة فَعِيل أبلغُ من صيغةِ فاعِلٍ علىٰ ما تقـدّم؛ والنَّصيرِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة فى نَصْره .

(النِّظَامِىّ) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، وهو نسبة إلىٰ النِّظَام وهو صورة الاجتماع والالتئام ، ومنه نَظْم اللُّؤْلُؤِ وغيره، والمراد أنه يكون به انتظامُ الأمور والتئامُها ، وحينئذ فيكون النسَب فيه علىٰ حقيقته ، لأنه نسـبة إلىٰ غير صـاحب اللَّقَب؛ ويجوز أن تكون النسبة فيه للمبـالَغَة علىٰ معنى أن صاحب اللقب قد جعل (١) عن النظام تجوّزا؛ ولم يستعملوه مجرّدا عن ياء النسب .

(النُّوَيْنُ) بضم النون وفتح الواو وسكون اليـاء المثناة تحت ونون فى الآخر من ألقاب كُفَّال الممالك بالممـالك القانِيَّة : كنائب السَّلْطنة ، وأُمَراء الأُلُوس، والوزير ونحوهم فيما كان عليه مملكةُ إيران إلىٰ آخرِ مملكةِ أبى سـعيد؛ والنُّوَيْنِىّ نسـبةٌ إليه للمبالغة . قال فى "التثقيف" : وهو بمثابة الكافِلىّ فى ألقاب النُّوّاب . قال : وهو نعت يستعمل دائمـا لأهل تلك البلاد ولا يستعملون الكافلىّ أصلا .

(١) أى أطلق عليه النظام .

حرف الهـــــاء

(الهُمَام) من ألقــاب أرباب السُّيوف ، والمراد الشُّجاعُ ؛ والهُمَامِيُّ نسبة إليه للمبالغة .

حرف الـــــواو

(الوالدِىّ) من ألقاب المُسِنِّين من الأكابر ، وهو نسبة إلىٰ الوالد ، وكأنه جعله والدًا له فتكون النسبةُ إليه علىٰ حقيقة النسب ، لأن النسبة فيه ليست(١) إلىٰ صاحب اللقبِ نفســه ، وربمــا قُصِد بذلك الوالد حقيقة ؛ وأكثرُ ما يقع هــذا اللقب فى المكاتَبَات .

(الوَرِع) من ألقاب الصُّوفيَّة واهل الصلاح ، وربمــا لُقِّب به أربابُ السيوف والاقلام أيضا إذا ٱتصفوا بذلك ؛ والمراد مَنْ يتنَزَّه عن الوقوع فى الشُّبُهات . وهو فى اللغــة التقِىّ ، يقال منه وَرِع يَرِع بكسر الراء فيهما وَرَعا فهو وَرِع ؛ والوَرِعِىّ نسبةٌ إليه للمبالغة .

(الوَزيرىّ) من الألقاب الخاصة بالوزراء من أرباب السيوف والأقلام . وهو نســبة إلىٰ الوزير ، وقد تقــدّم معناه وٱشــتقاقُهُ فى الكلام علىٰ ألقــاب أرباب الوظائف .

(الوَلَدِىُّ) من ألقاب الأحداث من الرؤساء ، وهو نسبة إلىٰ الولد ، كأنه جعله وَلَدا له ، وربمــا وقع علىٰ الوَلَد حقيقــة ؛ وأكثر ما يقَعُ فى المكاتبات كما تقــدّم فى الوالدِىّ .

(١) فى الاصل تنسب وهو تصحيف ظاهر .

حرف اللام ألف

(الألمَعِىُّ) من ألقاب الأذْكِياء . قال الجوهرىّ : ومعناه الذَّكِىُّ المتوقِّد .

حرف اليـاء

(اليَمِينِىّ) من ألقاب الدَّوَادَار وكاتبِ السرِّ والحاجبِ . قال فى "عرف التعريف" ولا يقال لغيرهم ، وهو نسبة إلىٰ اليمين كأنه يمينُ السلطان الذى يَتناولُ به الأشياءَ ، وإلا فمَجْلِس كاتب السرّ بدار العَدْل عن يسار السـلطان ، والدَّوَادارُ والحَـاجبُ قائِمـان أمامَه .

الضـــــرب الثـانى

(المركَّبــةُ المعــبَّر عنهـا فى آصطلاح الكُتَّاب بالنُّعوت)

(وهذه جملة منها مرتَّبة علىٰ حروف المعجم أيضا)

حرف الألف

(أَتابك العَسَـاكر) من نُعُوت الأميرِ الأَتابك ومَنْ فى معناه كالنـائب الكافل ومَنْ فى رُتْبته . وذكر فى "عرف التعريف" أنه ممـا يختصُّ بالنـائب الكافل . وقد تقـدّم ذكرُ معنَى الأتابك فى الكلام علىٰ الألقـاب الأصول ؛ والعَسَاكر جمعُ عَسْكَر وهو الجَيْش .

(إِسْكَنْدَر الزَّمانِ) من الألقاب السلطانية ، والمراد بالإسْكَنْدر هنا الإسكندر آبن فيلبس اليُونَانىّ ، وهو الذى يؤرَّخ بظهوره علىٰ الفُرْس وغلبتِه إيَّاهم علىٰ ماسيأتى فى الكلام علىٰ التاريخ فى أواخر هذه المقالة .

كانَ ملِكا عظيما مَلَك الشأم، و بيتَ المَقْدِس، والعِرَاقَيْنِ، والسِّنْدَ، والهِنْد، و بلادَ الصِّين، والتُّبَّت، وخُرَاسانَ، و بلادَ التُّرْك ؛ وذَلَّتْ له سائرُ الملوك ؛ وهاداه أهلُ الغرب، والأندَلُس، والسُّودان ؛ وهو الذى بنىٰ مدينةَ الإسْكَنْدرِيَّة ، ويقال : إنه ذُو القَرْنَيْن الذى ذكره الله تعالىٰ فى كتابه العزيز . قال المؤيَّد صاحب حماة فى تاريخه : والصحيح أن ذا القرنين مَلِكٌ عظيم كان قبل الإسكَنْدَر بزمن طويل .

(أَثِيرُ الإمَام) من ألقاب أرباب الأقلام غالبًا ، وهو أَثِيرٌ بمعنىٰ مَأْثُور، والمراد أن الإمام يُؤْثِره علىٰ غيره فيقدّمه عليه .

(اعْتِضادُ صَنادِيدِ الزمان) من ألقاب أرباب السُّيوف ؛ وقد يكتب به لبعض الملوك . والاعتضاد الاستعانةُ ، يقال : اعتضَدْتُ بفلانٍ إذا استعَنْت به ، والصَّنادِيد جمع صِنْدِيد وهو الشُّجاع .

(أكْرَمُ نُجَباءِ الأَبْناءِ فى العالَمِين) من ألقاب الرؤساء من أرباب الأقلام، وأكْرَمُ أفعلُ التفضيلِ من الكَرَم خلافِ اللُّؤم، والنُّجباء جمع نَجِيب وهو الكريم .

(أجمَـلُ البُلَغاء فى العالَمِين) من ألقاب أرباب البَلَاغة من الكُتَّاب وغيرهم، ومعناه ظاهرٌ .

(الذَّابُّ عن حَوْزة المؤمنين) من ألقـاب ملوك المغرب ، ويصلُحُ لكل مَلِكٍ مسلم يقوم بفَرْض الجهاد . والذابُّ الدافعُ، والحَوْزَةُ بفتح الحـاء المهملة والزاى المعجمة الناحيةُ .

(القائمُ فى مَصالح المسلمين) من القاب ملوك المغرب . ذكر فى " التعريف " أنه يُكْتَب به إلىٰ صاحب تُونُس، ويصلُح لكل متَّصف بذلك من ملوك الإسلام، ومعناه ظاهر .

(المُجاهِدُ عن الدِّين) من ألقاب ملوك المغرب، ومعناه ظاهر أيضا .

(المعَفِّي مُلُوكَ آلِ سَاسَان، وبَقَايَا فراسياب وخَاقَان) من ألقاب عُظَماء ملوك الأعاجم. وقد ذكره فى "التعريف" فى ألقاب صاحب الهِنْد . والمعَفِّي بتشديد الفاء المكسورة الماحِي للأَثَر، يقال عَفَّت الريحُ كذا بالتشديد إذا درَسَتْه ومحَتْ أَثَره، وشُدِّد للمبالغة .

وآل سَاسَانُ ملوك الأَكاسرة وهم الطبقةُ الرابعةُ من ملوك الفُرْس الساسانيَّة إلىٰ أن غَلَبهم الإسلام وانتزع الملكَ من أيديهم ، يُنْسَبُون إلىٰ جدّهم ساسانَ : وهو ساسانُ بن أردشير بَهْمَنْ بن كيبستاسف من ملوك الطبقة الثانية فيهم ، علىٰ ما سيأتى بيانُه فى الكلام علىٰ مكاتبة ملوك إيران، فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

وفرَاسياب بفاء فى أوّله ثم سين مهملة بعدها ياء ثم ألف وباء موحدة ملِكٌ عظيم من ملوك الترك، ويقال إن أصله من أبناء ملوك الفُرْس،وهو فراسياب بن طُوج ابن أفريدون ، من الطبقة الأولىٰ من ملوك الفُرْس ، وإن ابن عمه منوشهر غلب عليه بعد أن قتل أباه طُوجا ففرّ إلىٰ بلاد الترك وتزوّج منهم ، وانتهتْ به الحال إلىٰ أن ملكهم وعَظُم ملكه فيهم .

وخاقانُ بخاء معجمة وقاف ونون ملِكٌ من ملوك الترك أيضا كان فى زمن كسرىٰ أنُوشروان فيما يقتضيه كلام أبى هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" حيث ذكر أنه كان بينه وبينه حرب .

(المَوَاقِف المقدّسة) من ألقاب الخُلَفاء فى مخاطباتهم فى المكاتبات ونحوها، والمراد الأماكنُ التى يقف فيها الخليفةُ ، كُنِيَ بها عن الخليفة تنويهاً عن التصريح بذكره، والمقدّسة المطَهَّرة، والمراد طهارتها عن الأدناس المعنويَّة .

(إمامُ الأئمةِ) من ألقاب العلماء ، وربما قيل «إمامُ الأئمة فى العالَمين» .

(إمام البُلَغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب ومَنْ فى معناهم

(إمام المتكلّمين) من ألقاب العلماء، وهو بأهل المعقول ألْيَقُ لإطلاق علم الكلام علىٰ أصول الدِّين ، وإنما سمِّىَ بذلك لأنه لما وقع القولُ بخَلْق القرءان فى صَدْر الإسلام ممن وقع كثُر الكلامُ والخوضُ فى ذلك فأُطْلِق علىٰ أصول الدين علم الكلام وبقِىَ عَلَما عليه .

(أوْحَدُ الأشراف) من ألقاب الشُّرَفاء، وربما قيل «أوْحدُ الأشراف فى العالَمين» أو «أوحد الاشرافِ الطاهِرين» أو «أوحدُ الأشرافِ الماجِدين» ونحو ذلك .

(أوحدُ الأصحابِ) من ألقاب الوُزراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم ككاتب السِّرّ ونحوه وإن كان الصاحبُ يختصُّ بالوزير فى عُرْف [كُتَّاب الديار المصرية](١) علىٰ ما تقدّم .

(أوْحَدُ الأكابِر) من ألقاب التُّجّار الخَواجِكيَّة ، وربما كُتِب به لغيرهم من الرؤساء ، وربما قيل «أوحدُ الأكابر فى العالَمين» .

(أوحَدُ الأُمَّة) من ألقاب العلماء، وربما أُطْلِق علىٰ غيرهم .

(أوحَدُ الأمَناء فى العالمين) من ألقاب الكُتَّاب ، والأمناءُ جمعُ أمِينٍ وهو خلاف الخائن .

(أوحَدُ الأئمة العلماءِ فى العالَمين) من ألقاب العلماء، وربما ٱقتُصِر علىٰ أوحد العلماء .

(١) بياض بالاصول والتصحيح من لقب الصاحب المتقدم فى الالقاب المفردة .

(أوحد البُلَغاء) من ألقاب أرباب الأقلام، وربما قيل «أوحدُ البلَغاء فى العالَمين» ونحو ذلك والبُلَغاء جمعُ بَلِيغ وقد تقدّم معناه .

(أوْحَدُ الرُّؤَساء) وربما قيل «أوحدُ الرُّؤَساء فى العالمين» أو «أوْحَدُ الرؤساء فى الأنام» ونحو ذلك، ومعناه ظاهر .

(أوحدُ الحُفَّاظ) من ألقاب المحَدِّثين، وربما قيل «أوحدُ الحُفَّاظ فى العالَمين» ونحو ذلك .

(أوْحدُ الخُطَباء فى العالمين) من ألقاب الخُطَباء .

(أوحدُ العلماء الأعْلام) من ألقاب العلماء، وربما قيل «أوحدُ العلماء فى العالَمين» .

(أوحدُ الفُضَلاء) من ألقاب العلماء، وربما ٱستُعْمِل فى غيرهم من أرباب الأقلام، وربما قيل «أوحدُ الفُضَلاء المُفِيدين» أو «أوْحدُ الفضَلاءِ العارِفين» ونحو ذلك .

(أوحدُ الكُبَراء) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجِكِيَّة، ويجوز أن يُستَعْمَلَ فى غيرهم .

(أوحدُ الكُتَّاب) من ألقاب الكُتَّاب سواء كُتَّاب الإنشاء وغيرهم .

(أوحد المتَصَرِّفين) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم .

(أوْحدُ المُجَاهِدين) من ألقاب أرباب السُّيوف .

(أوحدُ المحقِّقين) من ألقاب العلماء .

(أوحد المتكَلِّمين) من ألقاب العلماء، وهو بعلماء المَعْقُول أنسَبُ .

(أوحدُ المُفِيدين) من ألقاب العلماء .

(أوحد المُلُوكِ والسلاطين) من الألقاب السلطانية .

(أوحد الوُعَّاظ) من ألقاب أهل التذكير والوَعْظ .

(أوحدُ الوقْت) من ألقــاب أرباب الأقلام ، وربمــا قيــل «أوحدُ الوقْت والأَوَان» والوقت معروف، والأَوَان الحِينُ، ويجمع علىٰ آوِنَةٍ مثل زَمانٍ وأزْمنةٍ .

حرف البــاء

(برَكَةُ الأَنَام) من ألقاب الصُّلحاء، وقد تُستَعْمَل للعلماء أيضا .

(برَكَةُ الدَّوْلة) من ألقاب الصُّلَحاء أيضا، وقد يقال «بركة الدُّوَل» علىٰ الجمع ، وربمــا كُتِب به لأرباب الأقلام من العلماء وغيرهم. والمرادُ بالدولة المملكةُ القائمةُ، وأصلها من الدَّوْلة فى الحرب وهى النَّصْر والغَلَبةُ .

(برَكَةُ المسلمين) من ألقاب الصُّلَحاء، وقد تُستَعْمَل لأهل العلم أيضا .

(بقِيَّة الأكابِرِ) من ألقــاب بَقايَا البيوتِ الرئيسةِ من أهــل الأقلام وغيرهم ، وربمــا قيل «بقِيَّة الأكابِرِ فى العالَمين» .

(بقِيَّــة البيتِ النَبَوِىّ) من ألقــاب الأشراف ، وبه يُكْتَب إلىٰ إمام الزيدية باليمــن .

(بقِيَّة السَّلَف) من ألقاب العلماء والصُّلَحاء، وربمــا قيل «بقية السَّلَف الصالِح» أو «بقِيَّة السَّلِف الكِرَام» والمراد بالسَّلَف الآباء المتقدّمون، أخْذًا من قولهم سَلَف إذا مضىٰ، وربمــا أُطْلِق علىٰ مَنْ تقدّم فى صَدْر الإسلام من الصَّحابة والتابعين .

(بقِيَّة السُّلالةِ الطاهرةِ) من ألقــاب الأشراف، وقد يقال فيه بقِيَّــة السُّلَالة الطاهرة الزَّكِيَّة،وربمــا أُطْلِق علىٰ غيرهم. وبذلك يُكْتَب لصاحب تُونُس لآدّعائه أنه من نَسْل أمير المؤمنين عمرَ بن الخطَّاب رضى الله عنه . والسُّــلَالة فى الأصــل ما آسْتُلَّ من الشيء، والمراد هنا النُّطْفةُ لأنها مستَلَّة من الإنسان.

(بقيّةُ الملوكِ والسلاطينِ) من ألقاب مَنْ له سلَفٌ فى المُلْك، كصاحب حِصْنِ كَيْفَا من بَقايَا الملوك الأيُّوبِيَّة .

(بقيّة الأصحابِ) من ألقاب الوُزَراء أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم .

(بقِيّة شَجرةِ الفَخَار) من ألقاب ذَوِى الأصالة العَرِيقين فى النَّسَب، وبه يُكْتَب لابن الأحمر صاحب الأندَلُس .

(بَهَاء الأعيان) من ألقاب أرباب الأقلام، والبَهَاء الحُسْن، والأعيانُ جَمْع عين تجمَعُ علىٰ أعيُنٍ وعُيُونٍ وأعْيانٍ، والمراد هنا الخِيَارُ، إذ عينُ كلِّ شيءٍ خِيارُه .

(بَهَاءُ الأنَام) من ألقاب أرباب السيوف غالِبًا، وربما أُطْلِق علىٰ غيرهم ؛ والأنَامُ الخلْق .

(بَهاءُ العِصابة العَلَوِيَّة) من ألقاب الأشراف، وبه يُكْتَب لأَميرَىْ مكةَ والمدينة المُشَرَّفتين ، والعِصَابة بالكسر الجماعةُ من الناس وتجمَعُ علىٰ عصائِبَ . والعَلَوِيَّة نسبة إلىٰ أمير المؤمنينَ علىِّ بن أبى طالب رضى الله عنه

حرف التاء المثناة من فوقُ

(تاجُ العلماء والحُكَّام) من ألقاب القُضاة ، والتاجُ مايُوضَع علىٰ الرأس وهو معروف .

(تاجُ الأُمَناء) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة ، ويصلُح لكُتَّاب الأموال أيضا .

(تاج المتصَرِّفين) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم .

(تاج الفُضَلاء) من ألقاب أرباب الأقلام . ورأيتُ فى بعض الدَّساتِير الشامية «تاجُ الفُضَلاء المُنْشئِين» وهو مناسبٌ لمن هو فى أوّل نَشْأته وٱبتداءِ رِياسته، وحَدَاثة سِنِّه .

(تاج المِـلَّة) من الألقاب التى يشترِك فيهـا أربابُ السيوف والأقلام جميعًا . والمِلَّة فى أصل اللغة الدينُ والشَّرِيعة ، والمراد هنا مِلَّةُ الإسلام، والألفُ واللامُ فيها للعهد الذِّهْنىّ .

حرف الثـاء المثلثة

(ثِقَة الدُّوَل) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيَّة ، وربما قيل «ثِقةُ الدولتيْنِ» والثِّقةُ فى اللغة الأَمِينُ وخُصَّ ذلك بالتُّجّار لتردّدهم فى المَمَالك ، ويحسُـنُ أن يلَقَّب به المتردِّدُون فى الرسائل بين المُلُوك .

حرف الجـــيم

(جامعُ كلمةِ الإيمـان) من الألقاب السلطانية .

(جامعُ طُرُق الواصفين) من ألقـاب الصُّوفيَّة وأهل الصَّـلَاح ، وربمـا قيل «جامع الطُّرُق» ويصلُحُ أن يكون من ألقاب العلماء أيضا .

(جمالُ الإسْلام) من ألقاب العلماء، وربمـا قيل جمال الأكابر من ألقاب التجّار الخَوَاجَكِيَّة، وقد يستعمَلُ لأرباب الأقلام، والجَمَـال فى اللغة الحُسْن .

(جَمَال الذُّرِّية) والمراد ذُرِّيَّة النبىّ صلى الله عليه وسلم لأن الذرِّيَّةَ تشمل أولاد البنات ، وقد عدّ الله تعـالىٰ عيسىٰ عليه السلام [من ذُرِّيَّة إبراهيم عليه السـلام](١) وهو آبن بِنْته .

(جَمَالُ الصُّدُور) من ألقاب أربابِ الأقلامِ ، والصُّـدُور جمع صَدْر ، والمراد صُدُور المَجَالِس .

(١) الزيادة لتتميم الكلام وسقوطها سهو من الناسخ .

(جمالُ الأئمة) من ألقاب العلماء، وربما قيل «جَمالُ الأئمة العارِفين» .

(جَمَال البارِعِين) من ألقاب أربابِ الأقلام، والبارِعِين جمع بارع وهو الناهِضُ.

(جَمَال البُلَغاء) من ألقاب كُتَّاب الإنشاء ونحوهم .

(جَمَالُ الطائفةِ الهاشِمِيَّة) من ألقاب الشُّرَفاء، والطائفةُ فى أصل اللغة ٱسمٌ للقِطْعة من الشيء . قال ٱبن عباس وتُطْلَق على الواحد فما فوقه ، والهاشِمِيَّة نسبةٌ إلى هاشم : وهو هاشِمُ بنُ عبدِ مَنَاف جدُّ النبيّ صلّى الله عليه وسلم .

(جَمَال العِتْرةِ الطاهرة) من ألقاب الشُّرَفاء أيضا، ورُبَّما ٱقتُصِر على جمال العِتْرة فقط . وعِتْرة الرجل نَسْلُه وأهلُه الأَدْنَوْن، والمراد عِترةُ النبيّ صلّى الله عليه وسلم .

(جمالُ العَصَبة الفاطِمِيَّة) من ألقاب الشُّرَفاء أيضا، والعَصَبة بفتح العين والصاد واحدة العَصَبات ، وهى فى أصل اللغة البَنُونَ والقرابةُ للأبِ . قال الجوهرىّ : سُمُّوا عَصَبةً لأنهم عَصَبوا بالشخص بمعنى أنهم أحاطُوا به : فالأُمُّ طَرَف، والأَبُ طَرَف ، والعَمُّ جانب ، والأخُ جانِبٌ . والمراد هنا أبنـاءُ فاطمةَ رضى الله عنها وهم أحدُ أفراد العَصَبة . ولا يجوز أن يقال العُصْبة بضم العين وإسكان الصاد : لأن المراد بذلك الرجالُ ما بين العَشْرة والأربعين كما قاله الجوهرىّ . وبَنُو فاطمة رضى الله عنها قد أَرْبَوْا عن العدد فى الشَّرْق والغَرْب .

(جَمالُ العلمـاء) من ألقاب أهل العلم .

(جَمالُ الفُضَلاء) من ألقاب أرباب الأقلام من العلماء والكُتَّاب، وربما قيل «جمالُ الفُضَلاء المُفِيدِين» ونحو ذلك ويختصُّ حينئذ بالعلماء .

(جَمالُ الكُتَّاب) من ألقاب كُتَّاب الإنشاء وغيرهم من الكُتَّاب .

(جمالُ المَمْلَكة) من ألقاب الكُتَّاب .

(جَمَالُ الوَرِعِينَ) من ألقاب الصُّوفية وأهلِ الصَّلاَح .

(جمالُ أهل الإفْتاء) من ألقاب أكابر العُلَماء .

(جَلاَل الإســلام) من ألقاب أرباب الأقلام، ويصْلُح أن يكون لَقَباً لبعض الملوك، وبه يكْتَب لإمام الزَّيدِيَّة باليمن، وربما قيل «جَلاَل الإسلام والمسلمين» .

(جَلاَلُ الأصْحاب) من ألقاب الوُزراء ومَنْ فى معناهم .

(جَلاَلُ الأكابر) من ألقاب أرباب الأقلام، وبه يُكْتَب لناظر الخاصِّ .

(جَلاَلُ الحُكَّام) من ألقاب أكابر القُضاة ، والجَلاَل فى اللغة العَظَمة .

(جَلاَل العِتْرة الطاهرةِ) من ألقاب الشرفاء، وبه يُكْتَب لأميرىْ مكَّةَ والمدينة المشرَّفتين .

(جَلاَل العُلَماء فى العالَمين) من ألقاب أهل العلم ، وربمـا قيل «جلال العُلَمـاء العامِلين» ونحو ذلك .

(جلالُ الكُبَراء) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام .

(جلال الأُسْرة الزاهرَة) من ألقاب الأشراف . والأُسْرة بضم الهمزة الرَّهْطُ ، والمراد رَهْط بنى هاشِمٍ ، والزاهرة المُضِيئة ،وبه سمِّى الكَوْكَب المعروف بالزُّهَرة .

(جَهْبَذ الحُذَّاق) من ألقاب الكُتَّاب ، وربمـا قيل «جَهْبَذُ الحُذَّاق المتصرِّفين» والجَهْبَـذُ(١) بفتح الجيم وإسكان الهاء وفتح الموحدة النَّقَّاد للذَّهَب والفِضَّة ، ولذلك يقال للصيرِفىِّ جَهْبَذ ، والمرادهنا أنه ينقُدُ الأمورفيستخرج جَيِّدها من رديئهـا كما يفعل الصـــيرَفى .

---

(١) ضبط فى القاموس الفيروزباذى بالكسر ثم قال شارحه كزبرج .

حرف الحـاء المهملة

(حاكِمُ الحُكَّام) من ألقاب قُضاة القُضاة .

(حاكِمُ أُمور وُلَاة الزمان) من ألقـاب أرباب السُّـيُوف، وربمـا كُتِب به لبعض الملوك .

(حافِظُ الاسْرار) من ألقاب كاتِبِ السرِّ .

(حُجَّة الأمة) من ألقاب قُضاة القُضاة وأكابر العلماء، والحُجَّة فى اللغـة البُرْهان ومنه قوله تعـالى : ﴿ وتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ والأُمَّة فى أصل اللغة الجماعةُ، والمرادُ هنا أُمَّة النبىّ صلَّى الله عليه وسلم ، والمعنىٰ أنه تَقُوم به الحجةُ لأهل الإسلام علىٰ غيرهم .

(حُجَّة الأئمة) من ألقاب أكابر العلماء ؛ والأئِمةُ جمع إمَام، وقد تقدّم أنه الذى يُقْتدىٰ به .

(حُجَّة البُلَغاء) من ألقاب أرباب الأقلام، وهو بالكُتَّاب أمَسُّ .

(حُجَّة العَرَب) من ألقاب النُّحاة واللُّغَويين ومَنْ فى معناهم، كأنهم يحتَجُّون به لُلغتِهِـم .

(حُجَّة المَذَاهب) من ألقاب اكابر العلماء ، وربمـا قيل « حُجَّة المَذْهَب » إذا أُريد مَذْهَبُه خاصَّة، وهو دون الأوّل .

(حُجَّة المُفْتِين) من ألقاب أكابر العلماء ، والمراد بالمُفْتِين من هُمْ أهـل للفَتْوىٰ فى الأحكام الشرعيَّة .

(حِرْز الإمام) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم من حَفَظة الأموال . والحِرْز فى اللغة الموضِعُ الحَصِين، والمراد بالإمَام السلطانُ ومَنْ فى معناه .

(حُسَامُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم . والحُسَام من أسماء السَّيْف ، سُمِّى بذلك أخذًا من الحَسْم وهو القَطْع .

(حَسَــنَةُ الأيَّام) من ألقــاب أكابر أرباب الأقلام من الوُزَراء والقُضاة ومَنْ فى معناهم . والحَسَــنة خِلافُ السيئة ، والمراد أنَّ الأيامَ أحسنَتْ بالامتنان به . وقد ذكر القاضى «شهابُ الدين بنُ فضل الله» فى بعض دساتِيرِهِ أنه يصلح لكل مَنْ له سَلَف فى الكِتَابة، وهو بعيد المَأخَذ .

(حَكَمُ المُلُوكِ والسلاطين) من ألقاب قُضاة القُضاة، والحَكَم بمعنى الحاكِم .

حرف الخــاء المعجمة

(خادِمُ الحَرَمين الشريفَيْنِ) من الألقاب السلطانية، والمرادُ حَرَمُ مكةَ المشرّفةِ، والمدينةِ النبويَّةِ الشريفةِ علىٰ ساكنهــا أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام .

(خالِصَةُ الدولة) من ألقاب الوزراء ، والخالِصةُ فى اللغة بمعنى الخاصَّة . يقال هذا لى خالِصَــة يعنى خاصَّةً . ومنه قوله تعالى : ﴿خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ﴾ وعليه [حمل] قوله تعالىٰ : ﴿وَقَالَ المَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ .

(خالصــةُ المُــلوك والسلاطين) مــن ألقــاب أرباب الأقــلام . قال فى ”عُرْف التعريف“ : وهو فى حَقِّ مَنْ لم يكن حاكمًا فى مَقَــام حَكَم المــلوك والسلاطين لمن هو حاكِمٌ .

(خالِصةُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب الأقلام .

(خالِصةُ الإمام) من ألقاب الصُّوفيّة، وربما جعل من ألقاب العلماء أيضا، والمراد بالإمام الخليفةُ أو السلطانُ .

(خالِصةُ سَلَف الأنصار) من الألقاب التى يُكْتَب بها لابن الأحمرِ صاحب الأندَلُس : لأنه يَذْكُر أنه من ذرِّية «سَعْد بن عُبَادة» الأنصارىّ رضى الله عنه ، ويصْلُح لكل مَنْ وافقه فى ذلك ، وكان الأحسنُ أن يقال خُلاصة بدل خالِصة ، لما تقدّم من أن المراد بالخالِصة الخاصّة . والمراد بالأنصارِ أنصارُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم وهم الأَوْس والخَزْرَج الذين هاجَر إليهم النبىّ صلّى الله عليه وسلم بالمدينة .

(خَطِيب الخُطَباء) من ألقاب أكابر الخُطَباء، وربما كُتِب به لقُضاة القُضاة، إذا أُضِيف له خَطَابة جليلة، كخَطَابة جامع القلعة بالديار المصرية ، وخَطَابة الجامع الأَموىّ بدِمَشْق .

(خَلَف الأولياء) من ألقاب أولاد الصالحين .

(خَلِيفة الأئمة) من ألقاب الشِّيعة، والمراد مَنْ يعتقدونه من الأئمة المَعْصُومين كالإمامية ونحوهم . وبه يُكْتَب لإمام الزَيْدِيَّة باليَمَن .

(خَلِيلُ أمير المؤمنين) من ألقاب أولاد السلطان ، وربما كُتِب به لبعض الملوك، والخَلِيلُ بمعنى الصَّدِيق .

(خُلَاصة الخِلافة المعَظَّمة) من ألقاب بعض الملوك ، والخُلَاصة الذى خَلَص من الثُّفْل ونحوه . ويقال فيه خِلَاص أيضا بغير هاء .

(خُلَاصة سَلَف القوم) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصَّلَاح ، والقوم يختَصُّ فى اللُّغة بالرجال دُونَ النساء قال تعالى : ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ﴾ ثم قال : ﴿ولا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ﴾ .

(خِيرةُ الإسْلام) من ألقاب أهل الصَّلاح فيما ذكره فى "عُرْف التعريف" : ويصْلُح لأهل العلم أيضا . والخِيرةُ الاْسمُ من قولك ٱختـار فلانٌ فلاناً، والمراد أنَّ الإسلامَ ٱختاره .

حرف الدال المهملة

(دليلُ المُرِيدين إلىٰ أوضحِ الطَّرائق) من ألقاب مشايخ الصُّوفيَّة، والمراد بالمُرِيدين طُلَّابُ الطَّرِيق إلىٰ الله تعالىٰ .

(داعِى الدُّعاة بالبراهين الظاهرةِ إلىٰ ٱستِعْلام الحَقَائق) من ألقاب العلماء .

حرف الذال المعجمة

(ذُخْرالإسلامِ والمسلمين) من ألقـاب المُلُوك، وبه يُكْتَب لصاحب تُونُس وملك التُّكْرور . والذُّخْرفى اللغة مصدر ذَخَرت الشىءَ أذْخَره بفتح الخاء إذا جعلته ذخيرةً .

(ذُخْرالأُمَّة) من ألقاب أكابرأرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(ذُخْرالدَّوْلة) من ألقاب أرباب السيوف ، وقد يقع فى ألقاب الصُّلَحاء والعلماء .

(ذُخْرالغُزاةِ والمجاهِدِين) من ألقاب أرباب السيوف أيضا .

(ذُخْرالطالِبِين) من ألقاب الصُّلَحاء والعلمـاء، والمراد طالِبو الوصولِ إلىٰ الحق أو نحو ذلك .

(ذُخْرالمسلمين) من ألقاب الملوك ، وبه يُكْتَب لإمام الزيديَّة باليمن فيما ذكره فى "التعريف" .

(ذُخْر المِلَّة) من ألقاب أرباب السيوف، وقد تقدّم معنىٰ المِلَّة .

(ذُخْر المَمَالك) من ألقاب بعض الملوك . وربّما قيل ذُخْر المملكة .

(ذُخْر الموحِّدين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائبِ الكافِل ونحوه ، وجعله فى "عرف التعريف" خاصًّا بالكافل دُونَ غيره .

(ذُخْر أمير المؤمنين) من ألقاب الملوك، وهو دُونَ خَليلِ أمير المؤمنين .

حرف الراء المهملة

(رَأْسُ البلغاء) من ألقاب أكابر كُتَّاب الإنشاء ككاتب السِّرّ ومن يَجْرِى مَجْراه .

(رأْسُ الصُّدور) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام فى الجملة من أهل العلم والكُتَّاب ومَنْ يجرِى مَجْراهم . والمراد رأسُ صدورِ المجالس .

(رأسُ العَلْياء) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام من العلماء والوُزَراء ومَنْ فى معناهم، ويصلح لكلِّ علِيِّ القَدْر فى الجملة، وبه يُكْتَب إلىٰ إمام الزَّيْديَّة باليمن .

(رُحْلة الحُفَّاظ) من ألقاب المُحَدِّثين، وقد تقدّم أن الرُّحْلة بضم الراء مايُرحَلُ إليه ، والحُفَّاظ جمع حافِظٍ، والمراد حِفْظُ الحديث.

(رُحْلة القاصدينَ) من ألقاب كِبَار أرباب الأقلام ، وهو بأهل الكَرَم والجُود أخَصُّ، والمراد مَنْ يُقْصَد بالتَّرحال إليه .

(رُحْلة المُحَصِّلين) من ألقاب العلماء ، والمراد مَنْ يُرْحَل إليه لتحصيل العلم بالأخْذ عنه .

(رُحْلة الوقت) من ألقاب العلماء والمراد من ٱنفرد فى الوقت بالرحيل اليه لأخذ العلْم عنه .

(رَضِىّ الدولة) من ألقاب الكُتَّاب، والمراد من يُرْضيه أعيانُ الدولة بالتقريب . ثم الظاهر أنه بكسر الضاد بمعنى مَرْضىّ عند أعيان أهل الدولة . ويجوز أن يكون بفتح الضاد علىٰ جعله هو نفس الرِّضا تجوّزا .

(رَضِىّ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب الأقلام . والكلامُ فيه كالكلام فى الذى قبله .

(رُكْنُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف . وبه كان يُكْتَب للنائب الكافل علىٰ ماهو مذكور فى "التعريف" والرُّكْن واحد الأركان وهو معروف .

(ركن الأُمَّة) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَب لملك التُّكْرور .

(ركن الملوك والسلاطين) من الألقاب المُلوكِيَّة وما فى معنىٰ ذلك من أرباب السيوف . ونقل فى "التثقيف" أنه كُتِب به لبعض مشايخ التصوّف ثم أنكره وقال : الأولىٰ أن يكون بَدَله (برَكةُ الملوك والسلاطين) وما ذكره واضح . علىٰ أنه فى "عرف التعريف" قد أورده فى ألقاب الصلحاء، وكأنهم راعَوْا فى ذلك أنه رُكْن لهم من حيث البركة والدعاء إلا أن الأوّل أظهرُ .

(رُكْن الأولياء) من ألقاب أهل الصلاح علىٰ أن المراد أولياء الله تعالىٰ ويجوز أن يكون من ألقاب أرباب السيوف وارباب الأقلام أيضا علىٰ معنىٰ أن المراد أولياء الدولة .

(رَئِيس الكُبَرَاء) من ألقاب الوُزَراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم . وأهل الشأم يستعملونه فى أكابر أرباب الأقلام من قُضاة القُضاة ونحوهم، وقد تقدّم المراد بالصاحب فى الكلام علىٰ الألقاب المفردة .(١)

(١) أى فى حرف الصاد المهملة وهذه الجملة غير مناسبة لشرح هذا اللقب .

حرف الزاى المعجمة

(زَعيم الجُنُود) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كالنائب الكافل، والزَّعيمُ الكَفِيل . والمراد هنا التكفُّل بالجنود والقيامُ بأمرها . و يجوز أن يكون بمعنى السيِّد، يُقال لسيِّد القومِ زَعِيمُهم ، والأوّل أليَقُ بالمقام ، والجُنُود جمع جُنْد وهم الأعوان علىٰ ما تقدّم .

(زَعِيم الجُيُوش) من ألقاب أكابر أرباب السُّيُوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم، والجُيوشُ جمعُ جيش وهو العَسْكر .

(زَعِيم الموحِّدين) من ألقاب صاحب تُونُس علىٰ تخصيص المَوحِّدين ، والمراد بالمَوحِّدين فيه أتباعُ المَهْدِىّ بن تُومَرْت الذين من بقاياهم ملُوكُ تُونُس ؛ كان المهدىُّ المذكور قد سمّاهم المَوحِّدين تعريضا بذَمِّ من كان قبله ببلاد المَغْرِب ممن يدّعى التجسيم علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ مكاتبة صاحب تُونُس فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ . ويجوز أن يراد بالمَوحِّدين هنا عامةُ أهل الإيمان ويكون المرادُ بالمَوحِّدين جميعَ المؤمنين . ويصح وقوعُ هذا اللقب حينئذ علىٰ غير صاحب تُونُس من الملوك ونحوهم، ولذلك يُكتَب به لملك التُّكْرور علىٰ ماذكره فى "التعريف" .

(زَعِيم المؤمنين) من الألقاب التى يُكتَب بها لإمام الزيْدِيَّة باليمن . ويصحُّ وُقُوعه علىٰ غيره من ملوك المسلمين أيضا كما فى « زعيم المَوحِّدين » إذا جعل عامًّا فى حق كل موحِّد علىٰ ماتقدّم بيانُه .

(زَعِيمُ جُيوشِ الموحِّدين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف، كنائبِ السلطنة بحَلَبَ، وبه يُكْتَب لصاحب حصْن كَيْفا فيما ذكره فى "التعريف" .

(زَيْنِ الإسلامِ والمسلمين) من ألقـاب أرباب الأقلام ، والزَّيْن في اللغة نَقِيضُ الشَّيْن .

(زَيْنِ الأعْيان) من ألقـاب أرباب الأقلام ، والأعيانُ جمعُ عَيْن ، وقد تقدّم الكلام عليه .

(زَيْنُ الأكابر) من ألقاب التُّجَّار الخَواجَكِيَّة ومَنْ في معناهم .

(زَيْنُ الأنامِ) من ألقاب صِغَار أرباب السيوف، وربمـا كُتِب به لغيرهم .

(زَيْنُ الأئمة) من ألقاب العلماء، وربمـا قيل «زين الأئمة العُلَماء» .

(زَيْنُ البُلَغاء) من ألقاب الكُتَّاب ونحوهم .

(زَيْنُ الحُكَّام) من ألقاب القضاة .

(زَيْنُ الذَّوائب الهـاشِميَّة) من ألقاب الشرفاء ، والذَّوائب بالذال المعجمة جمعُ ذُؤَابة بالهمز : وهي ما يُرْخىٰ من الشَّعَر . قال الجوهريّ : وكان الأصل ذَآئِب [لأن الألف التي في ذؤابة](١) كالألف التي في رسالة حقها أن تُبْدَل منها همزة في الجمع ، ولكنهم آستثقلوا أن تقـع ألفُ الجمع بين الهمزتين فأبدلوا من الأولىٰ واوا . وإنمـا آختَصّ هـذا اللقب بالشُّرَفاء لأنهم من صميم عَرَب الحجـاز، وعادة عرب الحجاز إرخاءُ الرجالِ الذَّوائِب .

(زَيْنُ الزُّهَّاد) من ألقاب الصُّوفيَّة وأهل الصلاح .

(زَيْنُ العُبَّاد) من ألقاب أهل الصَّلاح أيضا .

(زَيْنُ العِتْرة الطاهرةِ) من ألقاب الشُّرفاء، وبه يُكْتَب لأميرَيْ مكةَ والمدينةِ . وقد تقدّم معنىٰ العِتْرة .

---

(١) الزيادة عن الصحاح للجوهري .

(زين الكُتّاب) من ألقاب كُتّاب الإنشاء وغيره .

(زَيْن المجاهِدين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل «زَيْن الأمراء المجاهِدين» وربما كُتِب به لبعض صِغار الملوك، كصاحب دُنْقُلَة ونحوه .

(زَيْن المُنْشئين) رأيتـه فى بعض الدساتير الشاميَّة فى ألقاب الكُتّاب ونحوهم، وهو صالحٌ لكل حَدَثٍ مترقٍّ فى العلوِّ .

حرف السين المهملة

(سِدَاد الثُّغُور) من ألقاب الوزراء، وهو بكسر السين وتخفيف الدال بعدها، بمعنى أنه الذى تُسَدّ به الثُّغور، أخذًا من سِدَاد القارُورةِ وهو ما يُسَدّ به فَمُها، ومنه قول الشاعر :

أَضَاعُونِى وأَىّ فَتًى أَضَاعُوا * لِيَوْمِ كَرِيهـةٍ وسِـدَادِ ثَغْرِ

ويُحْكَىٰ أنّ المأمون نَطَق بمثـل ذلك بفتح السين بحَضْرة النضر بن شُمَيْل فردّه عليـه فأمر له بثمانينَ ألفَ درهم ، فكان النضر يفتخر بذلك ويقول : أخذْتُ بإفادةِ حرفٍ واحد ثمانين ألفَ دِرْهم .

(سَفِير الأُمّة) من ألقاب الدَّوادار وكاتب السرّ، وقد تقدّم معنىٰ السَّفير .

(سَفِير الدولة) من ألقاب المذكورَيْن .

(سَفِير المَمَالك) من ألقاب من تقدّم ، وربما قيل «سَفِير المملكة» .

(سَفِير المُلوك والسلاطين) كذلك .

(سُلطانُ الإسلام والمسلمين) من الألقاب السلطانية .

(سُلْطانُ الأَوان) من الألقاب السلطانية الجليلة .

(سُلْطان البَسيطة) من الألقاب السلطانية، والبَسِيطة الأرض أخذًا من البَسْطة وهى السَّعَة ومنه قيل : تَبَسَّط فلانٌ فى البلاد إذا سار فيها طُولا وعَرْضا .

(سلطان العَرَب والعَجَم والتُّرْك) من الألقاب السلطانية أيضا . وهو غير محرّر الوضع لأن العَجَم فى اللغــة يقع علىٰ مَنْ عدا العربَ فى الجمـلة ولا يختص بالفُرْس علىٰ ماهو المعروف بين العامة وهو مقصودُهم هنا، فالتُّرْك من جملة العجم فكان يكْفِى أن يقال سلطان العَرَب والعَجَم، وإنمـا حملهم علىٰ ذلك زيادةُ الإطراء والمَدْح .

(سَلِيل الأطْهار) من ألقاب الشُّرَفاء، والسَّلِيل الولَدُ، والمراد بالأطهار المبرَّءُون عن الأدناس .

(سَلِيل الأكابِر) من ألقاب أولاد الأكابر والرؤساء .

(سَليلُ الطيِّبين) من ألقاب أرباب الأقلام من ذَوِى الأصالة .

(سَليلُ الملوك والسلاطين) من ألقاب أولاد الملوك ومَنْ مضىٰ له سَلَف فى المُلْك .

(سيدُ الأمراء المقدَّمين) من ألقاب الأمراء مقدَّمى الألوف، فى الرتبة المتوسطة .

(سيِّد الأمراء فى العالَمِين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم، وربمـا كُتِب به لبعض الملوك عن الأبواب السلطانية .

(ســيِّدُ الرؤساء فى العالَمِين) مـن ألقاب أكابر أصحـاب الأقلام ككاتب السرّ ونحوه .

(سيد العُلَماء والحُكَّام فى العالمين) من ألقاب القُضَاة .

(ســيدُ الكُبَراء فى العالمين) من ألقـاب أكابر أرباب الأقــلام كناظر الخاصّ ونحوه .

(سيد الوُزَراء فى العالمين) من الألقاب الخاصّة بالوزراء .

(سيِّدُ أمراء العالمين) من ألقاب النُّوّاب المتوسطين .

(سَيْفُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما كُتِب به لبعض الملوك .

(سَيْفُ الحقّ) من ألقاب العلماء وأهل النَّظَر .

(سيفُ الخِلَافة) من الألقاب الملوكية ، وبه يُكْتب لملك التَّكْرُور .

(سيفُ المناظِرين) من ألقاب العلماء ، والمراد بالمُنَاظِرين أهلُ البحثِ والجَدَل ، أخذًا من النَّظَر وهو الفِكْر المؤدّى إلى الدَّلِيل .

(سيْفُ النَّظَر) بمعناه أيضا .

(سيْفُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ، وهو فى الرُّتْبة المتوسطة .

(سيْفُ جماعة الشاكِرين) من الألقاب الخاصّة بصاحب تُونُس ، وهذا اللَّقَب رأيته واردا فى "التثقيف" ولم أعْرِف له معنًى ؛ وسألتُ «قاضىَ القضاة ولىَّ الدين ٱبنَ خَلْدون» هل يَعرِف لذلك معنًى؟ فقال : لا .

حرف الشين المعجمة

(شَرَفُ الأصفياء المقرَّبين) من ألقاب كِبار التُّجَّار الخَوَاجكيَّة .

(شَرَفُ الدُّوَل) من ألقاب بعض الملوك ، ويصلُح لغير الملوك أيضا .

(شرَفُ الأمراءِ فى العالمين) من ألقاب أرباب السيوف ، وربما قيل شَرَفُ الأمراءِ الأشرافِ فى العالمين إذا كان شريفا ، أو شرفُ الأمراءِ العُرْبان فى العالمين

إذا كان غير أميرِ عرب ، وربمـا قيل «شَرفُ الأمراء المقدَّمين»[(١)] إذا كان مُقـدَّم ألف، وقد يُقتَصَر علىٰ شَرَف الأمراء فقط .

(شَرفُ الرُّؤساء فى العالَمين) من ألقـاب أكابر أرباب الأقلام كوزير الشأم ونحوه، وربمـا آقتُصِر علىٰ «شَرَف الرؤساء» ويكون من ألقـاب التجّار الخواجكيَّة ونحوهـــم .

(شَرفُ الصُّلَحاء فى العالمين) من ألقاب أهل الصَّلَاح .

(شرف العلماء العامِلِين) من ألقـاب أكابر العلمـاء كقُضاة القُضاة ونحوهم ، وربمـا قيل «شَرَفُ العلماء فى العالَمين» .

(شرفُ الكُتَّاب فى العالَمين) من الألقاب الكِتَابية .

(شرف المُلُوك والسلاطين) من الألقاب المُلُوكية .

(شَمْس الأُفُق) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام، وهو بالعلماء ألْيَقُ، لأن بهم يحصُل النُّور كما يحصُـل بالشمس . وهو ما يُتَخَيَّل آنطباقُ السماء علىٰ الأرض بالنظر فى كل ناحيةٍ فيـه . وأصلُ الأفُق الناحيـةُ ومنه قيل للنَّواحِى آفاقٌ، وإنمـا خُصَّ الشمس هنا بالإضافة للأفق لأنها عنـد مَطْلَعها تكون فى النظر أعظَمَ صورةً .

(شَمْس الشَّريعة) من ألقاب أكابر العلماء، والمراد بالشريعة هنـا شريعةُ الإسلام، آستُعِيرت الشمس لها لمشابهتها لها فى النُّور .

(شمسُ العَصْر) من ألقاب العلماء والصُّلَحاء ونحوهم .

(شَمْسُ المَذَاهب) من ألقاب العلمـاء الأكابر، والمَـذَاهب جمع مَذْهب وهو ما يَذْهَب إليه المجتهِدُ، وأصله فى اللغة لموضع الذَّهَاب .

---

(١) الظاهر أن لفظ غير زائد من الناسخ .

(شيخُ المَشَايخ) من ألقاب العلماء وأهل الصَّلَاح، وربما قيل « شيخ شُيوخ الإســلام » .

(شيخُ الملوك والسلاطين) من ألقاب المُسِنِّين من الملوك . وهذا اللقب رأيته فى كتاب وَقْف عن الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيُّوب، بعث به نجمُ الدين أيوبُ والدُ السلطان صلاح الدين يُوسف .

(شيخ شُيُوخ العارفين) من ألقاب الصُّوفية وأهل الصلاح، ومرادُهم بالعارفين العارفُون بالله تعالىٰ .

حرف الصاد المهملة

(صالحُ الأولياء) من ألقاب إمام الزيدِيَّة باليمن، ويصلُح لأهل الصلاح ايضا .

(صَدْر المدرِّسين) من ألقاب العلماء .

(صَدْر مِصْرَ والشام) من ألقاب أكابر العلماء كقُضاة القُضاة ونحوهم، وإنما خُصَّ هذان القُطْران بالذكر لكثرة علمائهما، وربما قيل «صَدْر مصر والعِراقِ والشامِ » وربما ٱقتُصِر علىٰ صَدْر الشام فقط إذا كان برسم وظيفةٍ فى الشأم ونحو ذلك .

(صَفْوة الدَّوْلة) من ألقاب مَنْ فى معنىٰ الوزراء كناظر الخاصِّ ونحوه .

(صَفْوةُ الصُّلَحاء) من ألقاب أهل الصَّلَاح .

(صَفْوةُ الأتْقياء) من ألقاب الصُّلَحاء أيضا .

(صفوةُ المُلوك والسلاطين) من ألقــاب أرباب الأقلام (١) كناظر الشام ونحوه، وربما كتب به للتُّجّار الخَوَاجَكِيَّة .

(صَلَاح الإسلام) من ألقاب الصُّوفيَّة والعلماء .

---

(١) لعله كناظر الخاص أو ناظر الجيش .

(صلاح الإسلام والمسلمين) من ألقـاب أكابر أرباب الأقـلام ، كالوُزَراء وَمَنْ فى معناهم .

(صَـلاَحُ الدول) من ألقاب بعض المـلوك ، وبه يُكْتَب لصاحب تُونُس . ويصلُح أيضا لأكابر أربابِ الأقلام من الوُزَراء وغيرهم .

(صلاحُ المِلَّة) من ألقاب العلماء والصلحاء .

حرف الضاد المعجمة

(ضِياءُ الإسلام) من ألقاب العلماء والصُّلَحاء ، وربما قيل «ضِياءُ الإسلام والمسلمين» والضِّياء خلافُ الظَّلام . وهو مخصوص بما كان مُضِيئا لِذَاتِه ، بخلاف النور فإنه يقع علىٰ ماهو مكتَسِبُ النُّور ، ولذلك قال تعالىٰ : ﴿ جَعَلَ الشمسَ ضِياءً والقَمَرَ نُورًا ﴾ فخصَّ الضياءَ بالشمس لأنَّ نُورها لِذَاتِهـا ، والنورَ بالقمر لأن نُوره مكتَسَب من الشمس ، علىٰ ماهو مقرّر فى علم الهيئة .

(ضياءُ الأنامِ) من ألقاب مَنْ تقدّم ذكره .

حرف الطـاء المهملة

(طِرَازُ العِصَابة العَلَوِيَّة) من ألقاب الأشراف كأميرَىْ مكة والمدينةِ المشرَّفتين . والطِّرازُ فى أصـل اللغة عَلَمُ الثوب . قال الجوهرى : وهو فارسىٌّ معرَّب ، كأن صاحب اللقَب جُعِل عَلَما لتلك الطائفة كما جُعِل الطِّراز عَلَما للثوب .

حرف الظـاء المعجمة

(ظِلُّ اللهِ فى أرضه) من الألقاب السلطانية ، والظل ما يحصُل عن الشاخص فى ضَوْء الشمس ، والمراد أن الخَلْق يستظِلُّون بالسلطان من حرّ الجَوْر كما يستظلّ

المستظِلُّ بظِلِّ الشجرة ونحوها من حَرّ الشمس . وقال ٱبن قتيبة فى "أدب الكاتب" أصل الظِّلِّ السِّتر ومنه قولهم : أنا فى ظِلِّك أى فى سِتْرك ، ثم ٱسمُ الظِلِّ مخصوصٌ بما قَبْل الزوال، أما بعد الزوال فإنه يسمّى فيئا لأنه يَرْجِعُ من جهة الغَرْب إلىٰ جهَة الشرق أخذًا من قولهم فَاءَ إذا رجع .

(ظَهِيرُ الملوكِ والسلاطينِ) من ألقاب أكابر أرباب السـيوف كنُوّاب السلطنة .

(ظَهِيرُ أمير المؤمنين) من ألقاب أرباب السيوف أيضا، وربما كُتِب به لبعض الملوك كصاحب الأندَلُس ونحوه .

(ظَهير الإمامة) من ألقاب بعض الملوك، وبه يُكْتَب إلىٰ صاحب التَّكْرور .

حرف العين المهملة

(عاقِدُ البُنُود) من ألقاب النائبِ الكافِل ونحوه، والعاقِد فاعل من العَقْد نقيض الحَلِّ، والبُنود جمع بَنْد ـ بفتح الباء وإسكان النون ـ وهو العَلَم الكبير قال الجوهرىّ وهو فارسىّ معرب .

(عِزُّ الإسلام) من ألقاب بعض المُلُوك، وبه يُكْتَب إلىٰ ملك التُّكْرور .

(عِزُّ الإسلام والمسلمين) من ألقـاب الرُّتبة الوُسْطىٰ من نُوّاب السلطنة ومَنْ فى مغناهم، وربمـا كُتِب به لبعض الملوك .

(عُدّة الدنيـا والدِّين) من ألقاب الملوك، وبه يُكْتَب لصاحب تُونُس . والعُدّة بالضم فى اللغة ماأعددته لحوادث الدهرِ من المـال والسِّلاح ونحو ذلك وهو المراد هنا، وربمـا أُطْلق علىٰ نَفْس الاستعداد .

(عُدّة الملوكِ والسلاطين) من ألقاب أصاغِرِ أرباب السُّيوف .

(عَضُد الملوكِ والسلاطينِ) من ألقاب متوسِّطى أرباب السيوف ، وقد تقدّم أن أصل العَضُد لما بينَ الساعد والكَتِف .

(عَضُــد أمير المؤمنين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف من نُوّاب السلطنة وغيرهم . وربمـا كُتِب به إلىٰ بعض الملوك كملك التَّكْرور .

(عَلَم الدولة) من ألقاب الأمراء والوُزَراء ومَنْ فى معناهم . وقد تقــدّم معنىٰ العَلَم ومعنَى الدولة .

(عَلَم الزُّهَّاد) من ألقاب الصُّوفِيَّة وأهــل الصَّلاح ، وقد تقدّم أن المراد بالعَلَم الرايةُ و بالزُّهْد الإقلاعُ عن الدنيا .

(عَلَمُ العلماء الأعلام) من ألقاب أكابر أهل العلم ، وربما قيل «عَلَم المُفَسِّرين» أو «عَلَم النُّحاة» ونحو ذلك .

(عَلَم الهُدَاة) من ألقاب إمام الزيديَّة باليمن ، ويَصْلُح لأكابر العلماء والصلحاء . والهُدَاة جمعُ هادٍ وهو المرشِد .

(عَلَم الأعْلام) من ألقاب العلماء والصلحاء ، ويَصْلُح لأرباب السيوف أيضا .

(عِمَادُ الحُكَّام) من ألقاب أكابر القُضاة ، وربما قيل «عِمَادُ الحُكَّام البارِعين» أو «عِمَادُ الحُكَّام فى العالَمين» ونحو ذلك . وأصلُ العِمادِ فى اللغة الأبنيةُ الرفيعةُ واحدها عَمَادةٌ ، ومنه قيل فلانٌ طويلُ العِماد كأنَّ بناءه بالآرتفاع صار عَلَمـا لزائِرِيه .

(عِمَادُ العَرَب) من ألقاب أكابر أُمَراء العُرْبان ، كأميرآلِ فَضْلٍ ونحوه .

(عِمَاد الدَّوْلة) من ألقاب الأمراء وأكابِر الوُزَراء ونحوهم .

(عمَاد المِلَّة) كذلك .

(عمَادُ المملكة) نحوه ، وهو دونه فى الرُّتْبة .

(عِمَـاد المُحَدِّثين) من ألقاب علماء الحديث النبوىّ علىٰ صاحبه أفضلُ الصلاة والسلام، وبه يُكْتَب لقُضاة القُضاة ومَنْ فى معناهم .

(عُمْدة الملوك والسلاطين) من ألقاب صغار أرباب السيوف ، وهو دُونَ عُدّة الملوك والسلاطين والعمدةُ فى اللغة ما يُعتَمَد عليه .

(عَوْنُ العساكر) من ألقاب ناظِرِ الجيش ونحوه، والعَوْن فى اللغة الظَّهِير والمعاوِنُ .

(عَوْنُ جيوش الموحِّدين) من ألقاب بعض الملوك، وبه يُكْتَب لملك التَّكْرور، ويَصْلُح لكبار أرباب السيوف من أهل المملكة أيضا .

(علاء الإسلام والمسلمين) من ألقاب العلمـاء والصلحاء ويصلح لارباب السيوف أيضا .

والعَلَاء بالفتح والمدّ مصدر عَلَا فى الشرف ونحوه يَعْلىٰ بفتح اللام[(١)] .

(عَيْن المملكة) من ألقاب أرباب الأقلام ونحوهم .

(عَيْنُ الأعْيان) نحوه .

حرف الغين المعجمة

(غُرَّةُ الزمان) من ألقاب أرباب الأقلام، والغُرّةُ فى أصل اللغة بياضٌ فى جَبْهة الفرس فوق الدِّرْهَم، شُبِّه بالغرّة فى وجه الفَرَس لظهورها وتحسين الفَرَس بها .

(غَوْثُ الأنَام) من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كالنائب الكافل ونحوه . وقد تقدّم معنىٰ الغَوْث .

---

(١) قوله بفتح اللام أى فيهما وهي لغة فى على يعلىٰ من باب تعب أنظر المختار .

(غِيَاثُ الأَنام) من ألقاب أكابر الملوك كصاحب الهِنْـد ونحوه . وقد تقدّم معنىٰ الغِيَاث .

(غِيَاثُ الأُمَّة) نحـــوه .

حرف الفـاء

(فاتِحُ الأقطار) من الألقاب السلطانية، والفاتِحُ فاعِلٌ من الفتح وهو معروف، والأقْطارُ جمع قُطْر وهو الناحية والجانِبُ، والمراد نواحِى المـالك .

(فارِسُ المسلِمِين) من ألقاب أكابر أرباب السـيوف ، ذكره آبن شِيثٍ من كُتَّاب الدولة الأيُّوبية فى "معالم الكتابة" .

(فَخْر الأَنَام) من ألقاب أرباب الأقلام، ويجوز أن يكونَ من ألقاب أرباب السيوف أيضا .

(فَخْرُ الأُسْرة الزاهِرة) من ألقـاب الشرفاء كأميرَىْ مكة والمدينة المشَرَّفتين ، وأُسْرة الرجل بضم الهمزة رَهْطه .

(فَخْر الأعْيان) من ألقاب التُّجَّار الخَواجَكِيَّة ، ويصلح لغيرهم من الرُّؤَساء أيضا .

(فَخْر الرُّؤَساء) من ألقاب التجَّار الخَوَاجَكِيَّة .

(فَخْر السُّلَالة الزاهِرَة) من ألقاب الأشراف، كأميرَىْ مكةَ والمدينة المشَرَّفتين، والسُّلَالةُ الزاهِرةُ تقدّم الكلامُ علىٰ معناها .

(فَخْر الصُّدُور) من ألقاب أرباب الأقلام، وربما كُتِب به للتُّجَّار الخَواجَكِيَّة .

(فَخْر الصُّلَحاء) من ألقاب الصُّوفِيَّة واهل الصَّلَاح .

(فَخْر العُبَّاد) من ألقاب أهل الصَّلاح أيضا .

(فَخْر المجاهِدِين) من ألقاب أرباب السيوف .

(فَخْر المُحَدِّثِين) من ألقاب أصحاب الحديث .

(فَخْر المدَرِّسِينَ) من ألقاب العلماء، وبه يُكْتَب لقُضاة القُضاة ونحوهم .

(فَخْر المُفِيدين) من ألقاب العلماء أيضا .

(فَخْر المُلُوك والسلاطين) من ألقاب بعض الملوك .

(فَخْر الشَّجَرة الزكِيَّة) من ألقاب الشرفاء، والمراد شَجرةُ نَسَبهم الشريف .

(فَخْر النَّسَب العَلَوِىّ) من ألقاب الشرفاء أيضا، وبه يكْتَب لإمام الزيديَّة باليمن .

(فَرْدُ السالِكين) من ألقاب أهل الصلاح .

(فَرْدُ الزمان) من ألقاب العلماء والصلحاء .

(فَرْدُ الوُجود) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح .

(فَرْعُ الشَّجَرة الزَّكِيَّة) من ألقاب الشرفاء .

حرف القاف

(قامِعُ البِدْعة) من ألقاب أكابر العلماء، وربما قيل «قامِعُ البِدَع» وقد يقال «قامع البِدَع ومُخْفِى أهلِها» والقامع فاعلٌ من قَمَعه إذا ضَرَبه بالمِقْمَعةِ : وهى مِحْجَنٌ من حديد يُضْرَب به على رأس الفِيل، والبِدْعة واحدة البِدَع : وهى خلاف السُّنَّة النبويَّة وماعليه الجماعةُ .

(قُدْوَةُ الأوْلياء) من ألقاب أهل الصلاح .

(قُدْوَةُ البارِعين) من ألقاب أرباب الأقلام، وهو بالكُتَّاب أليق، والبارِعُ الماهر.

(قُدْوَةُ البُلَغـاء) من ألقـاب أرباب الأقلام . وهو بكُتَّاب الإنشاء ومَنْ في معناهم أخصّ .

(قُدْوَةُ الخَلَف) من ألقاب العلماء وأهل الصلاح، والخَلَف في اللغة الذي يَجِيء بعد غيره ويقوم مَقَامه، والمراد خَلَفُ مَنْ سلَف من علماء الأمة أو صالحيها .

(قُدْوة العُبَّاد) من ألقاب أهل الصلاح ، وربمـا قيل «قُدْوة العُبَّاد والزُّهَّاد» أو نحو ذلك .

(قُدْوَةُ العلماء) من ألقاب أكابر أهل العلم، وربما قيل «قُدْوَةُ العلماء العامِلِين» ونحو ذلك .

(قُدْوة الفِرَق) من ألقاب العلماء، والمراد فِرَقُ أهل الحقّ من أرباب المذاهب والعقائد الصحيحة، والفِرَقُ جمع فِرْقة .

(قُدْوةُ الفُضَلاء) من ألقاب أكابر العلماء، والفُضَلاء جمع فاضل وهو خلافُ الناقِص .

(قُدْوة الكُتَّاب) من ألقـاب أكابر الكُتَّاب كالوُزَراء من أرباب الأقلام ومَنْ في معناهم من كاتب السرّ ونحوه .

(قُدْوةُ المجتَهِدين) من ألقاب كبار العلمـاء، وقد تقدّم في الألقاب أنّ الآجتهادَ عبارةٌ عن آستنباطِ الأحكام الشرعية من الكتاب والسُّنَّة والإجماع والقياس .

(قُدْوةُ المحقِّقين) من ألقاب أكابر العلماء، وقد تقدّم معنىٰ التحقيق .

(قُدْوَةُ المُسَلِّكِين) من ألقاب الصُّوفِيَّة وأهل الصَّلَاح، والمراد بالمسَلِّكِين المعرِّفون الطريقَ إلى الله تعالى كما تقدّم بيانُه .

(قُدوةُ المشتَغِلين) من ألقاب أهل العلم، والمرادُ الاشتغالُ بالعلم .

(قُدْوةُ الموَحِّدِين) من الألقاب الخاصّة بصاحب تُونُس : لوقوع الموحِّدين فى اصطلاحهم على أتْباع المهدِىِّ بن تُومَرْت، وصاحب تُونُسَ الآنَ من بقاياهم كما تقدّم .

(قَسِيمُ أميرِ المؤمنين) من الألقاب السلطانية ، وهو فَعِيلٌ بمعنى فاعِلٍ فيكون معناه يُقاسِم أميرَ المؤمنين، والمراد مقاسمتُه الأمْرَ .

(قُطْب الزهَّاد) من ألقاب أهل الصلاح ، والقُطْب تقدّم معناه .

(قُطْب الأوْلِياء) من ألقابهم أيضا ، والأولياءُ جمع وَلِىٍّ وهو خلاف العَدُوّ ، والمرادُ أولياءُ الله تعالى .

(قِوَام الأمة) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والقِوَام بالكسر نِظام الشىء وعِماده ومِلَاكه ، يقال فلانٌ قِوامُ أهل بيته ، ومنه قِوَام الأمر بمعنى نظامه .

(قِوَام الجُمْهور) قال فى "عرف التعريف" : هو من ألقاب الوزراء، والجُمْهور من الناس جُلُّهم، أخذا من الجُمْهور وهى الرملة المجتمعةُ المُشْرِفة على ما حَوْلَها .

(قِوَامُ الدَّوْلة) من ألقاب الكُتَّاب وهو بالكسر أيضا .

(قِوَام المَصَالح) من ألقاب أكابر الكُتَّاب من الوزراء ومَنْ فى معناهم ، وهو بالكسر أيضا، والمَصَالح جمع مَصْلَحَة وهى خلاف المَفْسَدة .

(قِوَامُ الإسلام) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح، وهو بالكسر كالذى قبله .

حرف الكاف

(كافِلُ السَّلْطنة) من ألقـاب كِبَار النُّوّاب كنائب دِمَشْقَ ، وقد تقـدّم معنىٰ الكافل فى الكلام علىٰ ألقابِ أربابِ الوظائف .

(كافِلُ الممالك الإسلامِيَّة) من ألقاب النائبِ الكافل : وهو النائبُ بحضرة السـلطان .

(كَافِى الدَّوْلة) من ألقاب الوُزَراء ومَنْ فى معنـاهم ، والكافِى آسمُ فاعلٍ من الكِفَاية .

(كَنْزُ التُّقىٰ) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح ، والكَنْز فى أصل اللغة المـالُ المدْفُونُ ، استعير لصاحب اللّقب لأنه كالشيء المكنوز لذلك الباب .

(كَنْز الطالبين) من ألقاب العلماء .

(كَنْزُ العلمـاء) من ألقاب أهل العـلم وربمـا قيل «كَنْزُ المُفَسِّرين» أو «كَنْزُ المتفقِّهين» ونحو ذلك .

(كَنْزُ المُسَلِّكين) من ألقاب الصوفيّة وأهلِ الصَّلاح .

(كَهْفُ الأُسْرة الزاهِرَة) من ألقاب الشرفاء ، والكَهْفُ المَلْجَأ ، ومنه قولهم : فُلانٌ كَهْفٌ . والأصـل فى الكهف البيتُ المَنْقُور فى الجبَل ويجمع علىٰ كُهُوف ؛ وقد تقدّم الكلام علىٰ الأُسْرة والزاهِرَة .

(كَهْفُ الكُتَّاب) من ألقاب أكابر الكُتَّاب كالوزير من أرباب الأقـلام وكاتب السرّ ومَنْ فى معناهم .

(كَهْفُ المِلَّة) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم .

(كَوْكَبُ الأُسْرة الزاهِرَة) من ألقاب الأشراف كأميرَىْ مكةَ والمدينة المشرّفتين والكَوْكبُ واحد الكواكبِ وهو يقَعُ علىٰ النجُوم والشمسِ والقمرِ .

(كَوْكَبُ الذُّرِّيَّة) من ألقاب الشرفاء أيضا، والمراد الذُّرِّية العَلَوِيَّة .

حرف اللام

(لِسانُ الحقيقةِ) من ألقاب الصوفية ، واللسانُ هنا جارحةُ الكلام ، والحقيقةُ خلافُ المجَازِ، وهى فى الأصل عينُ الحق ، والمراد هنا معرفةُ الأمرِ علىٰ ما هو عليه .

(لِسانُ الحُفَّاظ) من ألقاب المحدِّثين والوُعَّاظ ، والمراد المتكلِّمُ عنهم، يقال فلان لسانُ القوم إذا كان متكلِّما عنهم؛ ويجوز أن يكون المرادُ اللسانَ الذى هو جارحة الكلام ويكون المعنىٰ آلتَهُم للكلام كما أن اللسان آلةُ الكلام للتكلِّم؛ ويجوز أن يكون من اللسان بمعنىٰ اللُّغة ، كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ومَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إلّا بِلِسَانِ قَوْمِه﴾ ويكون المعنىٰ أنه المترجِمُ عنهم والمتكلِّم بلغاتهم المختلفةِ .

(لِسانُ الدَّوْلة) من ألقاب كاتب السرّ ومَنْ فى معناه ، واللسان فيه يحتمل المعنيين .

(لِسَانُ السلطنة) من ألقاب كاتب السرّ .

(لِسانُ المتكلّمين) من ألقاب العلماء ، والمتكلّمون يجوز أن يراد بهم كلُّ متكلم فى الجملة تعميما للمدح ؛ ويجوز أن يراد العلماءُ بعلم الكلام وهو أصول الدِّين ، لأن أصحابه هم أرباب النظر الدّقيق والبحثِ لدِقَّة متعلَّقه، وهو الظاهر .

(لسانُ المَمَالك) من ألقاب كُتَّاب السرّ، والممالكُ جمع مَمْلكة وهو موضِع المُلْك، والمعنىٰ أنه يتكلم بلسان مُلوكِ المَمَالك .

(لسانُ ملوكِ الأمْصارِ) من ألقاب كاتب السرّ .

حرف المـــيم

(مالِكُ زِمام الأدَبِ) من ألقاب البُلَغاء من الكُتَّاب ونحوهم، ويصلح لكاتب السرّ ومَنْ فى معناه .

(مانحُ الممَالكِ والأقاليم والأمصارِ) من الألقاب السلطانية، والمَانحُ المُعْطِى، والممالكُ تقدّم بيانُه،والأقالِيمُ جمع إقْلِيم، وله معنيان أحدهما واحدُ الأقاليم السبعة التى تُسمِّيها الحكماء، ممتدّة فى طول الأرض مابين المغْرِب والمشرق . والثانى الواحد من الأقاليم العُرْفِيَّة : كمصر والشأم والعِراقِ وما أشبه ذلك وقد مرّ القولُ فيهما .

(متعَمَّد المَصَالح) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والمراد بالمتعَمَّد المتَقصَّد.

(مَجْد الإسلام) من ألقاب صغار أرباب السيوف .

(مجْدُ الإسلام والمسلمين) من ألقاب متوسطيهم .

(مجُد الأُمَراء) من ألقاب أصاغر أرباب السيوف كأمراء العِشْرين ونحوهم .

(مَجْد الرُّؤَساء) من ألقاب التُّجَّار الخَواجَكيَّة .

(مُجَلِّى الغَياهِب) من ألقاب أكابر العلماء، والمُجَلِّى بالتشديد الكاشِفُ، يقال: جَلَا الأمْرَ إذا أوضحه وكَشَفه، ومنه جَلَوت السيفَ ونحوه إذا كشَفْته من الصدَإ؛ والغَيَاهِبُ جمع غَيْهَب وهو الظُّلْمة الشديدة ، يقال : فرسٌ أدْهَمُ غَيْهَبٌ إذا اشتدّ سَــوَاده .

(مَجْد الصُّدُور) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيَّة .

(مُجَمِّل الأمصار) من ألقاب أكابر أربابِ الأقلام ، والمجَمِّل فاعلُ الجَمَال، والأمصارُ جمعُ مصرٍ وهو الإقليم .

(مُجْهِدُّ نَفْسَه فى رِضا مولاه) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح [والمرادُ به] المُعْمِل نفسَهُ للغايةِ . يقال : ٱجْهَدْ جَهْدَكَ فى هذا الأمرِ أى ٱبلغ غايَتَك، والمراد بالمَوْلىٰ هنا الخالقُ سبحانه وتعالىٰ .

(مُحْيِي السُّنَّة) من ألقاب العلماء والصلحاء .

(مُحْيِي العَدْل فى العالَمين) من الألقاب السلطانية .

(مُدَبِّر الجُيُوش) من ألقاب ناظر الجيش .

(مُدَبِّر المَمَالك) من ألقاب الوزراء، وربما قيل «مُدَبِّر الدولة»، والمدَبِّر فاعلُ التدبيرِ، وقد تقدّم معناه فى الكلام علىٰ المُدَبِّرِىّ فى جملة الألقاب المفردة .

(مُدَبِّر أُمُور السلطنة) من ألقاب الوزراء وكُتَّاب السِّرّ وغيرهم .

(مُذَكِّر القُلُوب) من ألقاب الخُطَباء والوُعَّاظ، والمُذَكِّر فاعل التذكير وهو الأَخْذ بالذكرىٰ ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ .

(مُذِلُّ البِدْعة) من ألقاب علماء السنة ، والمُذِلُّ نقيض المُعِزِّ .

(مُذِلُّ حِزْب الشيطان) من ألقاب العلماء والصلحاء ، والحِزْب الطائفةُ، وحِزْبُ الرجل أصحابُه .

(مُرَبِّي المُرِيدِين) من ألقاب الصلحاء .

(مُرَتِّب الجُيُوش) من ألقاب ناظر الجيش .

(مُرْتضىٰ الدولة) من ألقاب الكُتَّاب، والمُرْتَضَى بمعنى المَرْضِيّ المقبول .

(مُرْتضىٰ الملوك والسلاطين) من ألقاب ارباب السيوف والأقلام جميعا .

(مُسْتَخْدِمُ أربابِ الطَّبْل والعَلَم) من ألقاب النائب الكافل ونحوه .

(مُشَيِّد الممالك) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والمُشَيِّد فاعلُ التشييد وهو رَفْع البناء .

(مُشِير الدَّوْلة) من ألقاب الوزراء ومَنْ فى معناهم، والمُشِير الذى يُشِير علىٰ غيره بالرأى .

(مُشِير السلطنة) مثله .

(مُشِير الملوك والسلاطين) مثله .

(مُظْهِر أَنْباء الشريعةِ) من ألقاب العلماء، وهو بضم الميم وإسكان الظاء علىٰ أنه فاعِلٌ من الظُّهُور(١)، والأنباء جمعُ نَبَإ وهو الخبَرُ، والمراد أنه يُظْهِرُ أخبارَ الشريعة ويُذِيعها، ويجوز أن يكون بفتح الميم علىٰ أنه هو نفس المَظْهر وهو أبلَغُ .

(مُعِزُّ الإسلام والمسلمين) من ألقاب النائب الكافِل ومَنْ فى معناه .

(مُعِزُّ السُّنَّة) من ألقاب العلماء، والسنَّةُ خلاف البِدْعة .

(مُعِين الحقّ وناصِرُه) من ألقاب الحُكَّام من أرباب السيوف وغيرهم .

(مُفْتِي المسلمين) من ألقاب العلمـاء .

(مُفِيدُ البُلَغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب وغيرهم .

(١) الاولىٰ من الإظهار .

(مُفيد الطالِبِين) من ألقاب العلمـاء .

(مُفيـد المَنَاجِح) من ألقاب الوُزراء ، والمَنَاجِح جمع مَنْجَح أخذا من النَّجَاح وهو الظَّفَر بالحوائج .

(مُفِيد أهل مِصْرَ والعِراق والشام) من ألقاب العلمـاء .

(مُفِيدُ كلِّ غادٍ ورَائح) من ألقابهم أيضا .

(مُقَرَّبُ الحَضْرتينِ) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة إذا كان متردِّدا بين مملكتَيْن .

(مُقَرَّب الدُّوَل) من ألقاب التُّجَّار الخَوَاجَكِيَّة ، وهو أعمُّ من الأوّل .

(مَلْجَأ الفُقَراء والمَسا كين) من ألقاب النائبِ الكافِلِ ونائبِ الشأْم علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ آخِرا .

(مَلْجَأ المُريدين) من ألقاب الصوفيَّة وأهل الصلاح .

(مَلِكُ البَحْرَيْن) من الألقاب السلطانية ، والمرادُ بحرُ الرُّوم وبحرُ القُلْزُم : لأنهما يتقاربان بينَ مصرَ والشام علىٰ القُرْب من العَرِيش .

(مَلِكُ البُلَغاء) من ألقاب أهل البلاغة من الكُتَّاب وغيرهم .

(مُمَلِّك الممـالك والتُّخُوتِ والتِّيجان) من الألقاب السـلطانية أيضا ، والمرادُ بالتُّخُوت هنا تُخوتُ المُلْك ، يريد أنه مملِّك الملوكِ مِنْ تحتِ يده .

(مُمَهِّد الدُّوَل) من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم ، وربمـا كُتِب به لبعض الملوك أيضا ، وقد تقـدّم الكلام علىٰ التمهيد عند الكلام علىٰ المُمَهِّدىّ فى جملة الألقاب المفردة .

(مُنَبِّه الخَوَاطِر) من ألقاب الخطبـاء والوُعَّاظ ، والمُنَبِّـه المُوقِظ ، والخَوَاطر جمع خاطِرٍ .

(مُنْجِد الملوك والسـلاطين) من ألقاب النـائب الكافِل، وبه يُكْتَب لإمام الزيديَّة باليمن . والمُنْجِد المُعِين أخذًا من قولهم آستنجَدَنِى فلانٌ فأنجدْتُه أى آستَعانَ بى فأعَنْتُه .

(مُنْشِى العلمـاء والمُفْتِين) من ألقاب أكابر العلمـاء .

(مُنْصِف المظلومين من الظالمين) من الألقاب السلطانية .

(مَوْرِد الجُود) من ألقاب الكرماء .

(مُوَصِّل السالكين) من ألقاب الصوفية والصُّلَحاء .

(مُوَضِّح الطَّريقـة) من ألقـاب الصوفيَّـة والصلحاء أيضا ، وربمـا قيـل «مُوَضِّح الطَّرائق» وقد تقدّم أن المراد الطريقُ إلىٰ الله تعالىٰ .

(مُولِى الإحسانِ) من الألقاب السلطانية، والمراد بالمُولِى المُنِيل .

(مُؤَمِّن الأرض المحيطةِ) من الألقاب السلطانية أيضا، وكأنهم يريدون الأرضَ المُحِيطـةَ لآتساعها، ويكون المرادُ أرضَ المملكة، وإلا فالأرضُ محوطةٌ من حيثُ استدارةُ المـاء عليها لامُحِيطةٌ بغيرها .

(مَلَاذُ الطالِبِين) من ألقاب العلمـاء والصلحاء، والمراد المَلْجَأ .

(مَلَاذُ العُبَّاد) من ألقاب الصلحاء . وفيه نظر لأن العُبَّاد لايلوذون إلا بالله تعالىٰ ولا يَلْجَـُون إلا إليه .

(مَلَاذُ الكُتَّاب) من ألقاب أكابر الكُتَّاب، ككاتب السرّ ونحوه .

(مُؤَيِّد الحقِّ) من ألقاب أرباب السيوف وغيرهم ، والمؤَيِّد المُقَوّى أخذا من الأيْدِ وهو القُوّة .

(مُؤَيِّد المِلَّة) من ألقاب العلماء .

(مُؤَيِّد أمورِ الدِّين) كذلك . وبه يُكْتَب لإمام الزيديَّة باليمن .

حرف النون

(ناصِحُ الملوك والسلاطين) من ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيَّة .

(ناصِرُ السُّنَّة) من ألقاب العلماء .

(ناصِرُ الغُزاة والمُجاهِدِين) من ألقاب أكابر أرباب السيوف كالنائبِ الكافِلِ ونحوه، وربما كُتِب به لبعض الملوك كملك التُّكْرور ونحوه .

(ناصِرُ الشَّريعة) من ألقاب العلماء، والشريعةُ ما شَرعه اللهُ تعالىٰ من الدِّين . يقال شَرَع لهم شَرْعا، وأصله من الشَّرِيعة التى هى مَوْرِد الماء .

(ناشِرُ لِوَاء العَدْل والإحسان) من الألقاب السلطانية .

(نَجْل السلطنة) من ألقاب أولاد الملوك ، والمراد أنه وُلِد فى السلطنة .

(نجل الأكابر) من ألقاب ذَوِى الأصالة ، والنجل النسل . يقال نَجَله أبوه إذا ولده .

(نَسِيبُ الإمام) من ألقاب الشرفاء كاميرَىْ مكةَ والمدينة المشرَّفتين ، والنَّسيب القريب . يقال فلان نسيبُ فلان أى قريبُه ، وذلك أن مَرْجِع بنى العبَّاس والعَلَوِيِّين إلىٰ بَنِى هاشم .

(نَسِيب أمير المؤمنين) مثله .

(نَصْر الغُزَاة والمجاهِدِين) من ألقـاب أكابر أرباب السيوف كنُوّاب السلطنة ونحوهم، وهو عندهم [فَوْقَ] ناصِر الغُزَاة .

(نَصِير الغُزَاة والمجاهِدِين) كذلك ، وهو عندهم دُونَ الأوّل وفوقَ الثانى ، وفيه كلامٌ يأتى ذكْرُه .

(نِظَامُ الدولة) من ألقاب أكابر أرباب السيوف والكُتَّاب، وقد تقدّم الكلامُ علىٰ النِّظام فى الألقاب المفردة .

(نِظَام الممالك) من ألقاب الوُزَراء وكُتَّاب السرّ ونحوهم .

(نِظَامُ المَنَاجِ) من ألقابهم أيضا .

(نُورُ الزُّهّاد) من ألقاب الصوفية وأهل الصلاح .

حرف الهـــاء

(هُمَـام الدولة) من ألقاب أرباب السيوف وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب المفردة أن الهُمَام بمعنىٰ الشجاع .

حرف الـــواو

(وارِثُ المُلْك) من الألقاب السلطانية .

(وَلِىّ أمـير المؤمنين) مـن الألقـاب التى يَشْترِك فيهـا أربابُ السـيوف والأقلام : كالوزراء وقُضاة القُضاة وكاتب السرّ ومَنْ فى معناهم ، والوَلِىُّ فى اللغة خلافُ العَدُوّ .

حرف اللام ألف

(لابِسُ ثَوْبِ الفَخَار) من ألقاب أكابر أرباب الأقلام .

(لافِتُ الغُواة إلىٰ طريق الرَّشاد) من ألقاب الصلحاء والوُعَّاظ، واللافِتُ الصارفُ، يقال لَفَتَ وجْهَه عنى إذا صرفه ، وأصل اللَّفْت اللَّىّ ، والغُوَاة جمع غاوٍ وهو الضالُّ ، يقال غوىٰ يَغْوِى غَيًّا إذا ضَلَّ فهو غاوٍ .

حرف اليـــــاء

(يَمِينُ الملوك والسلاطين) قال فى "عرف التعريف" : يختَصُّ بالدَّوادار وكاتب السِّرّ، وقد تقدّم الكلامُ علىٰ معنىٰ ذلك فى الكلام علىٰ اليَمِينِىّ فىالألقـاب المفردة، وأن المراد يمينُ السلطان التى يتناوَلُ بها،وإلا فمجْلِس كاتب السرّ عن يسار السلطان والدَّوادَارُ واقفٌ أمامه .

(يَمين المملكة) مثله .

(يمينُ الدولة) كذلك .

الضرب الثـانى
(من الألقاب المفردةِ المؤنَّثةُ ، ولتأنيثها سببان)

السـبب الأوّل
(الجمـــع)

بأن يجمَع شىءٌ من الألقاب المذكَّرة المفردة أو المرَكَّبـة، فتنتقِلَ من التذكير إلىٰ التأنيث ، فإنَّ الجموعَ كلَّها مؤنثةٌ علىٰ ماهو مقرَّر فى علم النحو . ويتأتّىٰ ذلك

فى المُطْلَقات، مثلُ أن يجمع فى صدر المُطْلَق بين المَقَرّ الكريم والجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى والمَجْلِس العالى؛ ثم يُتْبِعُها بالألقاب التى تليق بها مما يأتى ذكره، فيأتى بتلك الألقاب مجموعةً بلفظ التأنيث مفردةً ومركّبة . مثل أن يكتب إلىٰ المقرّ والجَنَاب الكريمين، والجنابات العاليةِ، والمجلِس العالى الأمِيريَّةِ، الكَبِيريَّة، العالِمِيَّة العادِلِيَّة، المؤيِّدِيَّة، الزَّعِيمِيَّة، العَوْنِيَّة، الغِيَاثية، المُثاغِرية، المُرابطية، الممهِّدية، المشيِّدية، الظَّهيريَّة، الكافليَّة، الفلانية، إعزازِ الإسلام والمسلمين، سادات الأمراء فى العالمين، أنصارِ الغُزاة والمجاهدين، زُعَماءِ الجيوش، مقدَّمى العساكر، ممهِّدى الدول، مشيِّدى الممالك، عماداتِ الملّة، أعوانِ الأمّة، ظَهِيرِى الملوك والسلاطين، سُيوف أمير المؤمنين، ونحو ذلك .

وآعلم أن هذه الألقابَ كلَّها من جملة الألقاب المفردة والمركبة المتقدّم ذكرها، فيستغنىٰ عن بيان مُشْكلها وتعريف أحوالها هنا آكتفاءً بما تقدّم، إلا أن من الألقاب المجموعة ما يقوم لفظُ الإفراد مَقامَه بأن يكون اللقبُ آسمَ جنس، مثل عَضُد ومَجْد ونحو ذلك مما لايجوز جمعه لأنه يُقْصَد به الجنس . فيجوز للكاتب حينئذ أن يأتى بذلك بلفظ الجمع ولفظ الإفراد الذى معناه الجمع . وقد أشار إلىٰ ذلك القاضى شِهابُ الدين بنُ فضل الله فى "التعريف" فى الكلام علىٰ المطلقات . فقال عند ذكره آعتضاد الملوك والسلاطين : ويجوز فيه أعضادُ الملوك وعَضُد الملوك، إطلاقا للافراد علىٰ الجمع .

الســــبب الثـانى

(تأنيثُ اللقبِ الأصلِ الذى تتفرّع عليه الألقابُ الفروعُ . وله حالتان)

الحـالة الأولىٰ — أن يكون اللقبُ الأصـلُ لمؤنَّث غير حقيقىٍّ كالحَضْرة واليَدِ والباسِطَة . فتأتى الألقابُ المفرّعةُ عليها مؤنثةً بناء علىٰ أن الصـفةَ تتبع الموصوفَ فى تَذكيره وتأنيثه ، علىٰ ما هو مقرّر فى علم النحو . أما نعوتُ الحضرة فمثل أن يقال : «الحَضرةُ الشريفةُ، العليَّةُ، السنيَّة، العالِيَّة، العامِلِيَّة، العادِليَّة، الأوحدِيَّة، المؤيّدِيَّة، المُجاهِديَّة، المرابطِيَّة، المُتَاغِرِيَّة، المظفَّرِيَّة، المنْصُورِية، وما أشبه ذلك» وأما نعوت الباسطة فمثل أن يقال : «الباسطةُ الشريفةُ ، العاليـةُ، المَوْلويَّة، الأميريَّةُ ، الكبيرِيَّة ، العالِمية، العادِليَّة، المؤيّدِيَّةُ، المحسِنِيَّة، السيِّدِيَّة، المالكيَّة، الفلانية » وفى معناها نعوت اليد . وألقاب هـذه الحالة كلُّها فى معنىٰ ما تقدّم من الألقاب المذكَّرة لا تختلف الحال فيها إلا فى التذكير والتأنيث، وأنه ليس فيها ألقاب مركَّبة، فيستغنىٰ بمـا تقدّم عن ذكر معانيها وأحوالها أيضا .

الحـالة الثانية — أن يكون اللقب الأصـلُ لمؤنَّث حقيقىّ ، كالدَّارِ والسِّتارة والجِهَة إذا كُنِى بها عن المـرأة فى الكتابة إليها مثـل أن يقال : « الدارُ الكريمةُ » و « الستارةُ الرفيعةُ » و « الجِهةُ المَصُونة » ونحو ذلك، فتَتْبَعُها الألقـابُ المفرّعةُ عليها أيضا فى التأنيث إلا أنَّ لها معانِىَ تخصها . وهى علىٰ ضربين : مفردةٍ ومركبةٍ كما تقـدّم فى المذكَّرة ، وإن لم تبلغ شَأْوَها فى الكَثْرة . فأما المفردة فكالشريفة ، والكُبْرىٰ ، والعالِية ، والمعظَّمة ، والمكرَّمة ، والمحجَّبة ، والمَصُونة ، والخاتُونِيَّة ، والخوند . وربما قيل الوالديَّة إذا كانت والدة حقيقةً أو فى مَقَامها، والوَلَدِية إذا كانت بنتا حقيقةً أو قائمةً مَقامَها ، والحاجِّيَّة إذا كانت حاجَّة ونحو ذلك .

ثم الألقابُ المفردةُ تارةً تكون مجرّدةً عن ياء النسب ، كالألقاب المتقدِّم ذكرها ؛ وقد تلحَقُها ياء النسب للمبالغة فى التعظِيم فيما تدخل فيه ياء النسب فى المذكَّر، مثل أن يقال : المعظَّميّة والمكَرّميّة، والمُحَجَّبيّة، وما أشبه ذلك . وهذه الألقاب أكثرها منقول عن المذكَّر، فيستغنىٰ عن ذكر معانيها وأحوالها؛ وفيها ألقاب لم يتقدّم ذكر مثلها فى المذكر كالمحجَّبِيَّة، وهو مأخوذ من الحِجاب كأنها محجوبةٌ عن أن يراها الناس؛ ومنها المَصُونة وهو مأخوذٌ من الصِّيانة ، وهى جعْل الشيءِ فى الصِّوَان وقايةً له عن مثل النظَر والمَسِّ ونحو ذلك؛ ومنها الخاتُون، وهو لفظ تُرْكِىّ معناه السيدةُ؛ ومنها الخوَنْد، وهى لفظة عجمية بمعنى السيادة أيضا .

وأما المركَّبة فمثل جَلَال النساء، وسيدةِ الخوَاتين فى العالَمين ، وشَرفِ الخوَاتين، وجَمِيلة المحجَّبات ، وجليلة المَصُونات ، وقَرِينة الملوك والسلاطين، وسَلِيلة الملوك والسلاطين، اذا كانت بِنْتاً لسلطانٍ أو فى معنـاها ، وكريمة الملوك والسـلاطين إذا كانت أختَ سلطان . ومعانِى هذه الألقابِ ظاهرةٌ معلومة .

الصـــــنف الثـانى (١)

(من الألقاب المفرّعة علىٰ الأصول ألقـابُ مَنْ يُكْتَب إليـــه من أهل الكُفْر، ممـا ٱصطُلِح عليها لمكاتَبَاتهم)

وٱعلم أنه لم يكن مَلِكٌ من ملوك الكفر ممن يُكْتَب له عن الأبواب السـلطانية غير النصارىٰ : لأنّه لم يكـن لغيرهم من أهـل المِلَل بالقُرْب من هــذه المملكة مملكةٌ نائمـة ، بل اليهودُ ليس لهم مملكةٌ قائمـة فى قُطْر من الأقطار بعد غَلَبـة الإسـلام ، إنمـا يُؤدُّون الجِزْية حيث حَلُّوا ، إذ يقولُ تعـالىٰ فى حقهـم : ﴿ضُرِبَتْ عليهِمُ الذِّلَّةُ أيْنَمَا ثُقِفُوا إلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ﴾ .

(١) لعل الصواب "النوع الثانى" وبالجملة فالتراجم كثيرا ما يقع فيها السهو اما من الناسخ أو المؤلف فتنبه .

ثم مَنْ يلقَّب من أهل الكفر فى المكاتبات إن كان من متديِّنتهم كالپاپ والبَطْرَك، ناسبه من الألقاب مافيه معنى التنسُّك والتعبُّد، وإن كان من الملوك ناسبه ما فيه معنى الشَّجاعة والرِّياسة والقيامِ بأمر دينِه وتحمُّله أعباءَ رعيَّته وما فى معنى ذلك . فقد ثبت فى الصحيحين أن النبي صلَّى الله عليه وسلم كتب إلى هِرَقْلَ : "مِنْ محمدٍ رَسُولِ الله إلى هِرَقْلَ عَظِيم الرُّومِ" وفى كتب السيرة أنه صلَّى الله عليه وسلم كتب إلى كِسْرى : "مِنْ رَسُولِ اللهِ إلى كِسْرى عَظِيم فارِسَ" وأنه كتب إلى المُقَوْقِس : "من محمدٍ رسولِ الله إلى المُقَوْقِسِ عَظِيم القِبْط" فعبَّر عن كلٍّ من الملوك الثلاثةِ بعظيم قومه لمناسَبة ذلك لهم .

وبالجملة فالألقاب التى تُكْتَب إليهم على ضربين :

الضرب الأوّل

(الألقابُ المذكَّرة ، وهى نمطان)

النمط الأوّل

(المفـرَدَة)

وأكثر ما تُبْنَى على صفات الشَّجاعة وما فى معناها . وهذه جملة منها مرتبة على حروف المعجم أيضا ، مقفَّاةٌ عليها .

حرف الألف

(الأسَدُ) من الألقاب التى اصطُلِح عليها بمعنى الشجاعة، وهو فى الأصل للحيوان المفتَرِس، ثم استُعْمِل فى الرجُل الشجاع مَجازًا لعلاقة ما بينهما من الشَّجاعة .

(الأَصِيل) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم أيضا، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب الإسلامية نقلا عن "عرف التعريف" أنه يختَصُّ بكلّ مَنْ له ثلاثةُ آباءٍ فى الرياسةِ، وحينئذ فيكون هنا مختصًّا بمن له ثلاثةُ آباءٍ فى المُلْك، علىٰ أنهم الآنَ لايَقِفُون مع ذلك بل يُراعُون مَنْ له أدْنىٰ نَسَب .

(الأَنْجالُوس) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وهى لفظة يُونانِيَّة معناها المَلَك واحد الملائكةِ ، وإنما كُتِب إليهم بذلك مضاهاةً للكُتُب الواردة عنهم، ولعلَّ الكاتب لم يَعْلَم معنىٰ ذلك، وكذلك غيرها من الألفاظ التى فى معناها .

حرف البـاء

(البالَالُوغِس) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وهى لفظة يُونانِيَّة أصلها البالى لوغس، ومعناها «الكلمةُ القديمةُ» .

حرف الجـيم

(الجَلِيل) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، ومعنىٰ الجليل فى اللغة العظيمُ، لكن قد ٱستُعْمِل فى ألقابهم فى المكاتَبَات لملوكهم . فيقال «الملِك الجليلُ» والمرادُ الجليلُ بالنسبة إلىٰ ملوك الكُفْر، وإلا فالكافر لايُوصَف بالعَظَمة . وكان الأحسَنُ أن لايُكتَب به إليهم، لاسيَّما وهو ٱسم من أسمائه تعالىٰ .

حرف الخاء المعجمة

(الخاشِعُ) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لمتديِّنَتِهم : كالپاپِ والبَطْرك . وقد تقدّم فى الألقاب الإسلامية أنه يكون من ألقاب الصُّلَحاء والصوفية، وأن معنىٰ الخاشع المتذلِّل .

(الخَطِير) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم ، والخَطِير فى اللغــة الكَبِير الجليلُ القدرِ ، ومنه قولهم : أَمْرٌ له خَطَر أى مِقْدار كبيرٌ .

حرف الدال المهملة

(الدُّوقِس) بضم الدال وكسر القاف من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم . وقد يقــال (الضُّوقِس) بالضاد بدل الدال ، وهى لفظة يُونانِيَّــة أصلها دقستين ، ومعناها المشكور .

حرف الراء المهملة

(الرُّوحَانِىّ) من الألقاب التى آصطُلِح عليها للمتدينين منهم ، وهو بضم الراء نسبة إلى الرُّوح التى بها مَنَاط الحياة للمخلوقين ، ومنه نُسِب إلى الملائكة والجِنّ رُوحانِىّ ؛ وبالفتح نسبةٌ إلى الرَّوْح بمعنى الرائحة ، والمعنى الأوّلُ أقربُ إلى مراد الكُتَّاب .

حرف السين

(السَّمَيْدَع) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم . قال الجوهرى : وهو بضم الســين وقال فى "كفاية المتحفِّظ" بفتحها ، ومعنــاه الســيِّد ، وكأن المراد سيدُ قومه وزعِيمُهم .

حرف الضاد المعجمة

(الضِّرْغام) من الألقاب التى آصطلح عليهــا لملوكهم ، وهو من أسماء الأَسَد ، لُقِّب به ملوكُهم لمــا فيه من معنى الشجاعة .

حرف الغين المعجمة

(الغَضَنْفَرُ) بفتح الغين والضاد المعجمتين وسكون النون وفتح الفاء من أسمـاء الأســد، ٱصطَلَح الكُتَّاب علىٰ تلقيبهم بذلك لمـا فيه من معنىٰ الشجاعة كالأسَـدِ والضِّرْغام . علىٰ أنه قد يُطْلَق فى اللغة علىٰ الرجل الغليظ كما حكاه الجوهرىّ . ولا بأس باستعمال الألفاظِ التى لها كامل نارله (١) فى المكاتبات إلىٰ الكُفَّار .

حرف القـاف

(القِدِّيس) بكسر القاف من الألقـاب التى ٱصطُلِح عليها لمتديِّنتهم من البـاب والبَطْرِيَرْكَ ونحوهما، وأصله من التقديس وهو التنْزِيه .

حرف الكـاف

(الكَرَّار) بتشديد الراء من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ،والكَرّارُ صيغةُ مبالغة من الكَرّ خلافِ الفَرّ . والمراد أنه يَرْجِع فى المحاربة علىٰ قِرْنه المرّةَ بعد المرّة ولا ينهزِمُ عنه .

(الكمينيوس) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لملوكهم، وهو لفظ روميّ ،معناه (٢) ... ...

حرف المـــيم

(المَتبتِّل) من الالقاب التى ٱصطُلِح عليها لمتديِّنَتهم، ومعناه المُنْقَطِع عن الدنيا .

(المتَخَتَّ) بفتح الخاء المعجمة المشدّدة من الألقاب التى اصطلح عليها لملوكهم، والمراد أنه ممن يجلِس مثلُه على تخت الملك لاستحقاقه له .

(المتَوَّجُ) بفتح الواو المشدّدة من الألقاب التى ٱصطلح عليها لمُلُوكهم والمراد أنه ممن يلبَس التاجَ لٱستحقاقه له .

---

(١) كذا فى الاصول بالاهمال مع اشارة التوقف والمراد الألفاظ التى تحتمل التعظيم وغيره .

(٢) بيض له فى الاصول وأورده فى الضوء ولم يفسره .

(المُحْتَشِم) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لتُجَّار الروم والفَرَنج ، والمراد بالمحتَشِم هنا الرئيسُ الذى له حَشَم وهم خَوَلُه وخَدَمه . وأصل الحِشْمة فى اللغة الغَضَب ، وسمى خَوَلُ الرجل وخَدَمه حَشَما لأنهم يَغْضَبون له ؛ وبعضُهم يُطْلق المحتَشِم علىٰ المستَحْيِي وعليه عُرْفُ العامة وهو المراد هُنا ، وأنكره ٱبنُ قتيبة وغيرُه حتّٰى قال النحاس إنه لا يُعْرَف ٱحْتَشَم إلا بمعنىٰ غَضِب وإن كان الجوهرىُّ قد حكاه .

(المُعَزَّز) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم [وهو ٱسم مفعول من العز خلاف الذل .

(الممجد) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لملوكهم] (١) وهو مُفَعَّل من المجد . وقد تقدّم الكلام عليه فى الألقاب الإسلامية .

حرف الهاء

(الهُمَام) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وقد تقدّم فى الألقاب الإسلامية ان معناه الشجاعُ .

النمط الثانى

(من الألقاب التى يُكْتَب بها لملوك الكفر الألقاب المركَّبة)

وهذه جملة منها مرتَّبةٌ علىٰ حروف المعجم أيضا .

حرف الألف

(آخر ملوك اليُونان) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وهى تصلُح لكل ملِك ينتسب إلىٰ اليُونان أو قام مقامهم فى المُلْك . واليُونَان أُمَّةٌ معروفة مشهورة ، وكانت مملَكَتُهم أولا فى الجانب الشرقىّ من الخليج القُسْطَنْطِينِىّ المعروف الآنَ ببلادِ

---

(١) الزيادة يقتضيها الكلام كما لايخفى على المتأمل .

الرُّوم ثم ملكوا بعدها العِرَاق، والتُّرْك، والهنـد، وبلادَ أرْمينيَةَ، والشامَ، ومصرَ، والإسكندريةَ . ومنهم أكثر الحكماء والفلاسفة . وكانت دولتهم من أعظم الدُّوَل؛ وٱختُلِف فى نَسَبهم : فنقل ابن سـعيد عن البيهقىّ وغيره من المحقِّقين أنهم من وَلَد أفريقش بن يُونان، بن عَلْجان ، بن يافِثَ، بن نُوح عليه السـلام . والمنقول عن التوراة أن يُونانَ هو ٱبن يافِثَ لصلبه، وٱسمه فيها يَاقَان بفاء تقرب فى اللفظ من الواو فعرِّبت يُونانَ . وخالف كثير من المؤرِّخين فنسبوا يُونان إلىٰ عابَر بن فالَغ ، فجعـله أخا لقَحْطانَ جدِّ العرب العاربةِ ، وأنه خرج من اليمن مُغاضِبا لأخيه قَحْطانَ فنزل ما بين الأفْرَنْجة والروم وٱختلط نسـبُه بنسبهم . وقيل : بل اليُونان من جملة الرُّوم من ولد صُوفر بن العيص، بن إسحاق، بن إبراهيم عليه السلام .

(أُسْوة الملوك والسـلاطين) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لملوكهم، والإسوة بكسر الهمزة وضمها بمعنىٰ القُدْوة ومنه قولهم : لى فى فلانٍ إسوةٌ يعنى قُدوةً، وكأنهم جعلوه إسوَةً لملوك الكفر يقتـدُون به وإلا فلا يجوز إطلاق ذلك علىٰ الملوك من حيث هم لدخُول ملوك الإسلام فيهم .

(العـادِلُ فى مِلّته) من الألقاب التى ٱصطُلح عليهـا لملوكهم ، وقد تقدّم معنىٰ العادل والمِلَّة فى الكلام علىٰ الألقاب الإسلامية .

(العادلُ فى مَمْلكته) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، وقد تقدّم معنىٰ العادل، والمملكةُ فى الأصل موضعُ الملك ثم أطلقت علىٰ الرعيَّة مجازا .

(الرِّيد أرغون) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لبعض ملوكهم ممن يملك البلاد المعروفة بأَرْغُون، وقد ذكر فى "الروض المعطار" بلادَ أرْغُون، وقال: هو ٱسم بلاد غرسيه بن شانجة ، تشتمل علىٰ بلاد ومنازل وأعمـال، ولم يذكر فى أىّ حيِّز هى

ولا فى أىِّ قُطْر . وقد رأيت هـذا اللقب فى " التعريف " : للمقرّ الشّهابىِّ بن فضـل الله فى ألقاب صاحب القُسْطنطينية وفى " التثقيف " لابن ناظر الجيش ، فى ألقاب الأذْفُونش صاحب طُلَيْطِـلةَ من الأندلُس، ويحتاج إلىٰ تحقيق من يملك هذه الطائفةَ منهما فيكْتَب به إليه . والرِّيد فى لغتهم بمعنى الملك كما تقدّم فى الكلام علىٰ رِيد أفرنس فى ألقاب الملوك .

(المُنْصِف لرعِيَّته) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لملوكهم، والرعيَّة من يَسُوسُه المِلكُ ، سُمُّوا بذلك تشبيها لهم بالغَنَم وله بالراعى .

(أوحَدُ المُلوك العِيسَوِيَّة) من الألقاب التى ٱصطلح عليهـا لملوكهم ، ويصلح للمِلكانيَّة واليَعْقُوبية جميعا : لأنه لم يقيد بمذهب من مذاهب النصارىٰ .

(أوحد ملوك اليعقُوبِيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلح عليها لملوك الحَبَشة : لأن مَلِكها من طائفة اليعقُوبيَّة .

حرف البـاء

(بطَلُ النَّصْرانيَّــة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وهو صالح لكل واحد منهم، ومعنىٰ البَطَل فى اللغة الشجاعُ، سُمِّى بذلك لأنه يُبْطِل حركة قِرْنه .

(بقيَّة أبناء التُّخُوت والتِّيجان) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لملوكهم ، وهى تصْلُح لكلٍّ منهم أيضا من المَلِكانية واليَعاقِبَة جميعا .

(بقِيَّةُ الملوك الأغْرِيقيَّة) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لبعض الملوك من بقايا طائفة الأغريقية من اليُونانِ، وهم طائفةٌ من اليُونان تنسب إلىٰ أغريقش بن يُونان المقـدّم ذكره ، وهم اليُونانُ الأول . وقد ذكره فى " التعريف " فى ألقاب مَلِك الكُرْج ، ولعله ٱطّلع علىٰ أنه من بقايا هذه الطائفة ، وهو ممـا يَحْتاج إلىٰ تحرير .

(بقِيَّــة سَلَف قَيْصَر) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لبعض ملوكهم ممن ٱنتسب إلىٰ القَياصِرة ملوكِ الروم أو قام مَقَامهم . وقَيْصَرُ ٱسمٌ قديم لكل مَنْ ملك الروم، وأصل هذه اللفظة فى اللغة الرومية جاشَر بجيم وشين معجمة فعُرِّبت قَيْصَر، ولها عنـدهم معنيان : أحدهما الشىء المشقوقُ عنـه، والثانى الشَّـعَر . وٱختلف فى أوّل مَنْ لُقِّب بذلك منهـم فقيـل : أغانيوش قَيْصَر، أوّلُ الطبقة الثانيـة من ملوك الروم : ماتت أمّه وهو حَمْل فشُقَّ بطنُها وأخرج فسمِّىَ بذلك لما فيه من الشق عليـه ، وقيل يوليوش قَيْصَر، وهو الذى ملك بعد أغانيوش المقـدَّم ذكره ، وقيل أغشطش قَيْصَر وهو الذى وُلِد المسيحُ عليه السـلام فى زمانه ، فقد قيل إنه الذى ماتت أمّه وهو حَمْل فشُقَّ جوفُها وأُخْرِج فسمِّى بذلك، وقيل لأنه وُلد وله شَعَرٌ تامٌّ فسمى قَيْصَر لوجود الشعر فيه حينئذ .

حرف الجـــيم

(جامِعُ البلادِ الساحِليَّة) من الألقابِ التى تصْلُح لكل ملك [مملكة] متسعةٍ علىٰ ساحل البحر كصاحب القُسْطنطِينِيَّة ونحوه .

حرف الحـاء المهملة

(حافِظُ البلاد الجَنُوبِيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لمَلك الحَبَشـة من النصـارىٰ . علىٰ أنه يصلُح لغيره من ملوك السُّـودان أيضا ممن أَخَذ فى الجنوب من المسلمين وغيرهم .

(حامِلُ رايةِ المَسِيحيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، وهى تصلح لكل ملك كبيرٍ من ملوك النصارىٰ ، والمـراد بالمَسيحيَّة الملةُ المَسـيحيَّةُ ، فحذف

الموصوف وأُقيمت الصفةُ مُقامه ، يريدون مِلَّةَ المَسيح وهو عيسىٰ عليه السلام . وٱختُلِف فى[سبب]تسميته بالمَسِيح : فقيل لأنه كان ممسوحَ القدمين بمعنى أنه لاأَخْمَص له . وقيل لأنه مَسَحَ الأرضَ بالسِّيَاحة، وقيل غير ذلك . أماتسمية الدَّجَّال بالمَسِيح فلأنه ممسوحُ العين لأنه أعور . وقيل لأنه يَمْسَح الأرضَ بالسير فيها .

(حامِى البِحَار والخُلْجَان) من الألقاب التى تصلح لكل مَنْ مملكتُه منهم علىٰ البحر ، والبِحارُ جمع بَحْر، وأصله فى اللغة الشَّقُّ ، ومنه سمِّيت البَحيرةُ المذكورة فى القرءان : وهى الناقة التى تُشَقُّ أذنُها فترْسَل فلا تُعارَض ؛ والخُلْجان جمع خَلِيج وهو الجَدْول الصغيرُ ، والمراد ما يتشعَّب من البحر كخَليج القُسْطنطينية وجَوْن البَنادقة ونحوهما .

(حامِى حُمَاةِ بَنِى الأصفر) من الألقاب التى تصلُح لملوك الرُّوم والفَرَنْج بالممالك العِظام : كصاحب القُسْطنطينيَّة وغيره ، والمراد ببَنِى الأصفر الرومُ فإنهم من ولد صوفر بن العيص ، بن إسحاق ، بن إبراهيم عليه السلام ، والمؤرّخون يعبِّرون عن صوفر بالأصفر . وإنما خَصَّه بحماية الحُمَاة تفخيما له فإنه إذا حمىٰ الحُماةَ كان بحماية غيرهم أجدَر .

حرف الخاء المعجمة

(خالِصةُ الأصْدِقاء) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، والمراد بالخالصةِ هنا مَنْ ليس فى صداقته شائبةٌ .

(خُلَاصة ملوك السُّرْيَان) من الألقاب التى تصلُح لكل من يُنْسَب إلىٰ بَقايا السُّرْيانِيِّين من الملوك . والسُّرْيان أقدمُ الأمم فى الخليقة ، وكانوا يَدينون بدين الصابِئة ، وينتسبون إلىٰ صابئ بن إدريس عليه السلام . قال ٱبن حَزْم : ودينهم

أقدمُ الأديانِ علىٰ وجه الأرضِ، ومَدَارُ مذاهبهم علىٰ تعظيم الرُّوحانيَّات والكواكِب، وكانتْ منازلُهم أرض بابِلَ من العراق . قال المسعوديّ : وهم أوّلُ ملوكِ الأرض بعد الطُّوفان .

حرف الذال المعجمة

(ذُخْر ملوكِ البِحار والخُلُج) من الألقاب التى تصلُح لكل مَلِك منهم علىٰ ساحل البحر، وقد تقدّم معنىٰ الذُّخْر والبِحَار، والخُلُجُ هى الخُلْجان، وقد تقدّم معناها .

(ذُخْرالأمة النصرانيَّة) من الألقاب التى تصلح لجميع ملوك النصرانية من المَلِكانِيَّـة واليَعَاقِبـة ، وقد تقـدّم معنىٰ الذُّخْر والأُمَّةِ فى الكلام علىٰ الألقـاب الإســلامية .

حرف الراء المهملة

(رِضىّ البــاب بَابَا رُومِيَة) يجوز أن يكون بفتح الراء وكسر الضاد بمعنىٰ مَرْضِىّ الباب ، و يجوز أن يكون بكسر الراء وفتح الضاد بمعنىٰ أنه يُجْعَلُ نفسَ رِضا الباب وهو أبلغ . وهو من الألقاب التى آصطُلِح عليهـا لملوكهم، وقد تقدّم فى الألقـاب الأصول معنىٰ البَابَا، و رُومِيَة آسم لرومِيَةَ التى بها البابُ مقيم، إضافة إليها لإقامته بها ، وقد مرّ القولُ عليها فىَ الكلام علىٰ المَسالك والمَمَـالك فى المقالة الثانية، وتأتى الإشارة إليها فى الكلام علىٰ مكاتبة البابِ فى المقالة الرابعة إن شاء الله تعالىٰ .

(رُكْنُ الأُمَّة العِيسَوِيَّة) من الألقـاب التى آصطلح عليهـا لِكبَار ملوكهم كملك الحَبَشة ونحوه، ويصلح لِلمَلِكانِيَّة واليَعَاقبة جميعا .

حرف الشين المعجمة

(شَبِيهُ مَرْيُحَنَّا المَعْمَدانِ) من الألقاب التى تصلُح لكبار ملوكهم، ومَرْيُحَنَّا بفتح الميم وسكون الراء المهملة وضم اليـاء المثناة تحتُ و بعدها حاء مهملة ونون . ومعنىٰ مَرْ السيد ، ويُحَنَّـا بلغتهم يحيىٰ ، والمراد شَبيه السـيد يحيىٰ ، والمَعْمَدانُ بميمين مفتوحتين بينهما عين مهملة صـفة عندهم ليحيىٰ فهم يزعُمُون أن مريم عليها السلام خرجَتْ بعيسىٰ عليه السـلام من الشأم إلىٰ مصر وعادت به إلىٰ الشأم وهو ٱبن ٱثنَتَىْ عشرةَ سنةً ، فتلقَّاه يحيىٰ عليه السلام وهو ٱبنُ خالته ، فغَمَسه فى نَهَر الأُرْدُنِّ، وهو عندهم أصلُ ماء المَعْمُودِيَّة الذى لايصح عندهم تنصُّرُ نصرانىّ إلا به فأطلَقُوا علىٰ يحيىٰ عليه السـلام المَعْمَدان لمعنىٰ ذلك،وكأنه شَبَّهه به من حيث إنه أصلُ المَعْمُودِيَّة بزَعْمِهم .

حرف الصاد المهملة

(صَديق الملوك والسلاطين) من الألقـاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، والمراد أن فيه صداقةً ووُدًّا لملوك الإسلامِ وسلاطينِهم .

حرف الضاد المعجمة

(ضابِطُ الممالك الرُّومِيَّة) من الألقاب التى ٱصطلح عليها لصاحب القُسْطنطينِيَّة، وهو نظير حافِظ البلادِ الجَنُوبية لمَلِك الحَبَشة.

حرف الظاء المعجمة

(ظَهِير البـابِ بَابَا رُومِيَةَ) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم،وقد تقدّم معنىٰ الباب والبابَا .

حرف العين المهملة

(عِزُّ المِلَّة النَّصْرانية) من الألقاب التى ٱصطُلح عليها لأكابر مُلُوكهم .

(عِمَادُ بَنِي المَعْمُودِيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لِكبَار ملوكهم، والعِمَاد فى اللغة الأبنِيَةُ الرفيعة، يذَكَّر ويُؤنَّث . وقد مَرَّ بيانُ معنىٰ المعمودية فى حرف الشين .

حرف الفــاء

(فارِسُ البَرِّ والبَحْر) يصلح لمن يكون مجاوِرا للبر والبحر من الملوك كأصحـاب الجزائر، وقد يصلُحُ لغيرهم أيضا .

(فَخْر المِلَّة المَسِيحيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم، وتصلح للمَلِكانيَّة واليَعَاقِبة منهم .

حرف المـــيم

(مُتَّبِـع الحَوَارِيِّينَ والأحْبارِ الرَّبَّانِيِّين والبَطَارِكَة القِدِّيسِين) من ألقـاب عظماء ملوكهم ، والمراد بالحَوَارِيِّين أصحابُ عيسىٰ عليـه السلام الذين بعثهـــم إلىٰ أقطار الأرض للبِشَـارة به وللدِّعايَةِ إلىٰ الله تعـالىٰ ، وعنهـــم أخبر تعـالىٰ بقـــوله : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصارُ اللهِ ﴾ وهم ٱثنَا عشَرَ نفسا أسماؤهم يُونانيَّة .

أحدُهــم — بُطْرس ، ويقـال له شَمْعُون الصَّـفا ، وهو الذى بَشَّر بالقُــدْس وأَنْطاكِيَةَ وما حولهـا .

والثـانى — أندراوس . وهو الذى بَشَّر ببلاد الحَبَشة والسُّودان .

والثـالث — يَعْقُوبُ بن زِيرِى . وهو الذى بشر بمدينة (١) ... ...

(١) بياض فى الأصول .

والرابــع — يُوحَنَّا الإنْجِيلىّ . وهو الذى بَشَّر ببلاد أفْسُس وما معها .

والخامس — فِيلِبس . ولم أقف علىٰ موضع بشارته .

والسادس — برتلُوما . وهو الذى بشرفى الواحات والبَرْبر .

والسابع — تُوما و يعرف بِتُوما الرسول . وهو الذى بَشَّر فى السِّند والهند .

والثامن — مَــتَّى . وهو الذى بَشَّر بأرض فِلَسْطِينَ ، وصُور ، وصَيْدَا ، ومصر ، وقَرْطَاجَنَّةَ من بلاد المغرب .

والتاسع — يَعْقُوب بن حلفا . وهو ممن بَشَّر ببلاد الهند أيضا .

والعاشر — سِمْعان و يقال شَمْعون الصَّـفَا . وهو الذى بشر بشِمْشاط وحَلَب ومَنْبِج و بَزَنْطِيَة : وهى القُسْطنطينِيَّة .

والحادى عشر — بُولس ويقال له تداوس ، وهو الذى بَشَّر بدِمَشْق و بالقدس أيضا و بلاد الروم والجزائر و رُومِيَة .

والثانى عشر — يَهُوذا الأسْخَرْيوطىّ : وهو الذى خرج عن طاعة المَسيح ودلَّ عليه اليهودَ ليقتُلُوه فألقىٰ الله تعالىٰ شَبَه المسـيح عليه فأمسكه اليهود وقتـلُوه وصلبُوه ورفع الله تعالىٰ المسيحَ إليه ، وليس هذا من المراد بالحواريِّين هُنا : لأنه قد خرج عن دائرتهم . فلفظ الحواريِّين مأخوذ من الحَوَر وهو شدّة البياض ، سُمُّوا بذلك لصفائهم وتفانيهم فى اتِّباع المسيح عن الدَّخَل ، وقيل لأنهم كانوا فى الأوّل قصَّارين يبيِّضون الثياب .

والأحبار جمع حَبْر — بفتح الحاء وكسرها وهو العالم .

والرَّبَّانيُّون جمع ربَّانىّ وقد تقدّم معناه فى الألقاب الإسلامية .

والبَطَاركةُ جمع بَطْرك وقد تقدّم الكلام عليه فى الألقاب الأصول وأن أصله بَطْرِيَرْك ، وأنه يقال فيه فَطْرك بالفاء بدل الباء ، وكان لهم خمسةُ كراسىّ : كرسىّ برومِيَةَ ،

وهو الذى قعد فيه الپاپ، وكرسىّ بالإسكندرية: وهو الذى استقرّ لبَطْرك اليعقوبية الآن، وكرسىّ ببَزَنْطِيَـةَ وهى القسطنطينية، وكرسىّ بأنطا كِيَةَ وكان فيه بَطْرك النسطوريَّة، وكرسىّ بالقُدْس وهو أصغرها عندهم .

(محْيِي طُرُق الفلاسـفة والحكماء) من الألقاب التى آصطُلح عليهـا لصاحب القسطنطينية لأن مملكته منْبَع حكماء اليونان وفلاسِفتهم . والفلاسفة جمع فِيلسُوف بكسر الفاء وهى لفظ يونانىّ مركّب من مضاف ومضاف إليه، معناه مُحِبُّ الحكمة، فلفظ فِيل بمعنى محبّ، وسُوف بمعنىٰ الحكمة، وهم يطلِقون الفلسفة علىٰ من يحيط بالعلوم الرياضية . وهى : الهيئة والهندسة والحساب واللحون وغيرها . والحُكَماء جمع حكيم، وهو من يُحْسِن دقائق الصناعات ويُتْقنها أو من يتعاطىٰ الحِكْمة، وهى معرفةُ أفضلِ الأشـياء وأفضلِ العلوم، وأوّلُ ماصارت الحكمةُ فيهم فى زمن بُخْتنَصَّر، ثم آشتهرتْ فيهم بعد ذلك، ولذلك عُبِّر بالفلاسفة القُدَماء إشارة إلىٰ أول زمن الحكماء .

(مُخَوِّل التُّخُوت والتِّيجان) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لصاحب القُسْطنطينِيَّة لعِظَم مَمْلكته فى القديم والحديثِ، والمُخَوّل المُمَلِّك، والتُّخوت جمع تَخْت وهو كُرسِىّ المُلْك الذى يجلس عليه المِلكُ فى مجلسه العـامِّ، والتيجانُ جمع تاج وهو الذى يُوضَع علىٰ رأس الملِك إذا جلس علىٰ تَخْته، والمعنىٰ أنه يُعْطِى المُلوكَ الممـالكَ من تحت يده لسَـعَة مملكته وعَظَمتِها، وقد كانت القُسْطنطِينِيَّة قبـل غَلَبة الفَرَنج وقُوّةِ شوكتهم مُلْكا عظيما .

(مَسِيح الأبطال المَسِيحيَّة) من الألقـاب التى آصطُلِح عليها لأكابر مُلُوكهم كصاحب القسطنطينية . أضافَ المَسِيحَ إلىٰ الأبطال ثم وصفها به جمعًا له بين رتبتَيِ الشجاعة والتديُّن بدينه .

(مُصافِى المسلمين) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لمُلوكهم، والمُصافى مفاعِل من الصَّفاء، والمراد أنه صافى النيةِ للمسلمين والمسلمون صافو النيةِ له .

(مُعِزّ النَّصرانية) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لأكابر ملوكهم، والمراد بالنصرانيــة ملة النصرانية، حذف الموصوفَ وأقام الصفةَ مُقَــامه، والنصرانيــةُ فى الأصل منسوبة إلىٰ الناصرة وهى القريَةُ التى نزلهــا المسيح وأمه عليهما السلامُ من بلاد القُدُس عند عوْدهما إلىٰ مصر، وقيــل مأخوذة من قوله تعالى حكايةً عن عيسىٰ عليه السلام ﴿ مَنْ أنْصَارِى إلىٰ اللهِ قالَ الحَوارِيُّون نَحْنُ أنْصارُ الله ﴾ .

(معظِّم البيت المقدَّس) من الألقاب التى آصطُلِح عليها لملوكهم، وربَّمــا زِيدَ فيها فقيل «معظِّم البيت المقدّس بعَقْد النيــة» لموافقة الروىّ فى السَّجْعة التى تقارنهــا، ويصــلُح لكل ملك من ملوكهم لأن جميعَهم يعتقــدون تعظيم البيت المقــدّس، والبيتُ المقدّس معروف، والتقديس التنزيه والتطهير .

(معظِّم كَنِيسة صِهْيَوْن) من الألقاب المختصة بملك الحبشة لأنه يعقوبىّ، وكنيسة صِهْيونَ بالإسكندرية : وهى كنيسة بَطْرك اليعاقبة الآنَ ، ومعتقَدُهم أنه لايصح ولايةُ ملك منهم الا باتصال من هــذا البَطْرك، على أنه فى ابتداء البَطْركية فى زمن الحوارِيِّين لم يكن بكرسىّ الإسكندريّة أحدٌ من الحواريين، انمــا كان بها مرقصُ الإنجيلى تلميذ بطرس الحوارىّ صاحب كرسىّ رومية، والنصارى يومئذ علىٰ طريقةٍ واحدة قبــل ظهور المَلَكية واليعقوبية ، فلمــا افترق دينُ النصرانية إلىٰ المِلكانية واليعاقبة وغيرهم، كانت بطركية الإسكندرية يتداولها المَلَكية واليعقوبية تارةً وتارةً بحسَب انتحال الملوك والميل إلىٰ كلٍّ من المذهبين، ثم آستقرّت آخرا فى بطرك اليَعاقبة إلىٰ زماننا، وتبعه ملوك الحبشة لأنتحالهم مذهبَ اليعاقبة، كماتبع الروم والفَرَنْجةُ الباب

برومية : لانتحالهم مذهب المَلِكانية، وسيأتى الكلام علىٰ طَرَف من ذلك فى الكلام على مكاتبة ملك الحبشة إن شاء الله تعالى .

(مَلِكُ مُلُوك السُّرْيان) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لصاحب القسطنطينية لعَظَمته عندهم، وقد تقدّم ذكر السُّرْيان فيما قَبْلُ .

(مُوادُّ المسلمين) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، وهو بتشديد الدال أخذا من المَوَدّة .

(مؤيِّد المَسيحيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم ، والمُؤيِّد المقوِّى ، والمراد بالمَسيحية الملةُ المسيحيَّة كما تقدّم بيانُه، وربما قيل «مُؤَيِّد العِيسَويَّة» : والأمر فيهما كذلك .

حرف النون

(ناصِرُ المِلَّة المَسِيحيَّة) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لأكابِر ملوكهم ، وقد تقدّم معنىٰ هذه الألقاب فى مواضعها .

حرف الـــواو

(وارِثُ التِّيجانِ) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لملوكهم. وقد تقدّم معنىٰ التِّيجان، والمراد أنه ٱنتقل إليه الملكُ وِراثةً من آبائه .

(وارثُ آبائه فى الأسِرَّة والتِّيجان) من الألقاب التى ٱصطُلِح عليها لمن يكون عرِيقا فى المُلْك، وهو قريب من اللَّقَب الذى قبله .

(وارِثُ القَياصرة العُظَماء) من الألقاب التى ٱصطُلح عليها لصاحب القسطنطينية التى هى قاعدة القَياصِرَة، وقد تقدّم أوّلُ مَنْ سُمِّى قيصر فيما سَلَف من الالقاب .

الضـــــرب الثـانى

(من ألقاب أهل الكفر الألقابُ المؤنَّثةُ: بأن يكون اللقبُ الأصلُ مؤنّثا فتتبعه الألقابُ الفروعُ فى التأنيث. ولها حالتان)

الحـالة الأولىٰ — أن يكون اللقبُ الأصلُ لمؤنَّثٍ غير حقيقىٍّ كالحَضْرة مَثَلا ، فتَرِدُ ألقابه مؤنَّثـة ، وفى الغالب إنمـا يقع التأنيثُ فى اللَّقَب الأوّلِ ثم يَنْتَقِلُ إلىٰ الألقاب المذكَّرة ، مثل أن يقال : « الحَضْرة العاليةُ أو الساميةُ أو العلية ، حضرة الملك الجليل » ويؤتىٰ بمـا يناسبه من الألقاب بعد ذلك، وربما أُتِى للحَضْرة بلقَبين فأكثَرَ طلبا للتفخيم، ثم يُعْدَل إلىٰ الألقاب المذكَّرة، مثل «الحضرةِ العاليةِ المكَّرمة» ثم يقال « حضرةُ الملِك الجليل » وما أشبه ذلك .

الحالة الثانية — أن يكون اللقب الأصل لمؤنَّث حقيقىّ بأن يكون لامرأة كما إذا كانتْ مِلكةً فى بعض ممالكهم، علىٰ قاعدة الأعاجم فى إسناد المُلْك إلىٰ بنات المُلوك، فيؤتىٰ بألقابها المفردةِ والمرَكَّبَة مؤنثةً، فيُكْتَب مثلا «المَلِكة الجليلةُ المكَّرمة المبَجَّلةُ الموَقَّرة المفخَّمة المعزَّزة فلانةُ العادلةُ فى مملكتها ، كبيرةُ دين النَّصرانية، نُصرةُ الأمَّة العِيسوية، حامِيةُ الثُّغور، صديقةُ الملوك والسلاطين» وماأشبه ذلك، ومعانى هذه الألقاب معلومةٌ ممـا تقدّم .

قلت : قد أتيتُ من ألقاب أهـل الإسـلام وألقابِ أهل الكفر : المفردةِ والمركَّبة علىٰ ماتضمنه "التعريفُ بالمصطلَح الشريفُ" للمقرّ الشهابىّ بن فضل الله، و"عُرْف التعريف" فى الإخوانيَّات له، و"تَثْقيف التعريف" للقاضى تقىّ الدين ابن ناظر الجيش إلا ماشَرَد عنه القلم، مع ماضممتُه إلىٰ ذلك مما وجدتُه فى غيرها من

الدساتير المجموعة فى السلطانيات والإخوانيات المِصريّة والشامية جاريًا علىٰ عُرْفهم مما ٱستعمله أهلُ الزمان ومَن قاربه ؛ والكاتب الماهرُ إذا فَهِم أصلَها وعَرَف طُرُقها، ٱخترع ماشاءَ من الألقاب والنُّعوت؛ والضابط فى وضع الألقاب أن يراعىٰ فيها أحوالُ المكتوب له ، فيؤتىٰ منها بما يناسب حاله فى الوظيفة والرِّياسة وسائر أوصاف المَدْح اللائقة به ؛ فيؤتىٰ لصاحب السيف بالألقاب المقتضية للشَّجاعة والبَسَالة : مثل المُجاهِدىّ والمُثَاغِرِىّ والمرابِطىّ وما أشبه ذلك . وربما أُضيف له بعضُ الألقاب المقتضيةِ للعلم والصَّلاح، كالعالِمىّ والعامِلىّ ونحو ذلك، لاْشتراك الناس فى المَدْح بمثل ذلك . ويؤتىٰ للعالِم والقاضى ونحوهما بالألقاب المقتضية للعِلْم كالعالمىّ والمحقِّقىّ والمدَقِّقىّ ونحو ذلك . وربما أُضيف إليها الألقابُ المقتضيةُ للصَّلاح لتمدّح العلماء به . ويؤتىٰ للصوفية وأهل الصَّلاح بالألقاب المقتضيةِ للصلاح والتعبُّد كالعابدىّ والزاهدىّ ونحوهما . ويؤتىٰ لكُتّاب الإنشاء بالألقابِ المقتضيةِ للبلاغة كالبَلِيغ والمُفَوَّهىّ ونحوهما . ويؤتىٰ للنساء بالألقاب المقتضية للصِّيانة والعِفَّة كالمَصُونة والمحجَّبة وما أشبههما . ويؤتىٰ لأهل الكُفْر من الملوك ونحوهم بما لاحرج فيه علىٰ الكاتب : كالشجاعة وما فى معناها، والتقدُّم علىٰ ملوك طائفته وأهلِ ملَّته وما فى معنىٰ ذلك . فإن ٱجتمع فى شخصٍ واحدٍ أوصافٌ متعدِّدةٌ من المَمادح جُمِعتْ له . علىٰ أن أكثر مايستعملهُ الكُتَّاب من الألقاب غيرُ موجودة فى صاحبها، وإنما هى ألقابٌ حفِظُوها لرتَبٍ معيَّنة لايسعُهم الإخلالُ بشىء منها وإن كانتْ كذبا محضا و﴿ إنَّا لله وإنَّا إليه راجعُونَ ﴾ . وقد كان فى القديم قاعدةٌ مستقرّةٌ : وهو أنه لا يلَقَّب أحد بلقب ولا يُكْنىٰ بكنية إلا أن يكون الخليفةُ هو الذى يلقِّب بذلك أو يكنى .

الجمــــــلة السابعة

(فى تفاوُتِ الألقابِ فى المَراتِب ، وهى قسمان)

القســـــم الأوّل

(مايقع التفاوتُ فيه بالصُّعود والهُبُوط ، وهو نوعانــــ)

النــــوع الأوّل

(ما يقع التفاوتُ فيــه بحسب القِــلَّة والكَثْرة ، وله حالتان)

الحــالة الأولىٰ ـــ أن يكون المكتوبُ إليه من أتباع المكتوبِ عنه ، كنُوّاب السلطنة فيما يُكْتَب عن الأبواب السلطانية من مكاتبَات ووِلَايات ، فزيادةُ الألقابِ وكثرتُها فى هذه الحــالة عُلُوّ وشرَفٌ فى حقِّ المكتوب إليه ، لأنهــا من باب المَدْح والإطراء ، ولا شكَّ أن كثرة المَدْح من المتبوعِ للتــابع أعلىٰ من قِلّته ، ولذلك تقع الإطالةُ فى ألقاب كِبَار النُّوّاب والآختصارُ فى صــغارهم ، وتأتى فى غاية الآختصار فى نحو وُلَاة النَّواحى ومَنْ فى معناهم .

الحالة الثانية ـــ أنــ يكون المكتوبُ له أجنبيًّا عن المكتوب عنه ، كالملوك الذين تُكْتَب إليهم المكاتباتُ عن السلطان ، فقِلَّة الألقاب فى حَقِّه أرفعُ لأن الإكثارَ من ذلك يُرىٰ أنه من باب المَلَق المذمومِ بين الأكابِر فى المكاتَبات فوجب تجنُّبــه كما يجب تجنُّب المدحِ وكثرةِ الدعاء ، ولذلك يقع الآختصارُ فى الألقاب فيما يُكْتَب لهم عن السلطان إجلالا لقَدْرهم عن رُتْبة رعاياه الذين يُكْثِر من ألقابهم .

النـــوع الثـانى

(مايقَعَ فيه التفاوتُ فى العُلوِّ والهُبوط بحَسَب مايقتضيه جَوْهرُ اللفظ
أو ما وقع الاصطلاحُ عليه . وهو صنفان)

الصـــنف الأوّل

(الألقـابُ المفـرَدة . وهى علىٰ أربعة أنمـاط)

النَّمَـــط الأوّل

(التـــوابع)

وهى التى تَلِى الألقابَ الأصولَ كالتى تلى المقامَ والمقرَّ والجنابَ والمجلسَ ؛ فيـلى المَقامَ لفظُ الأشرف ولفظُ الشريف ولفظُ العـالى، فالمقام يقال فيـه « المَقَـام الأشرفُ العالِى » و « المقامُ الشريفُ العالى » و « المقامُ العـالى » . ويلِى المَقَرَّ لفظُ الأشْرَف ولفظُ الشريف ولفظ الكرِيم ولفظ العالِى ، فيقال « المَقَرُّ الأشرفُ العالى » و « المقرُّ الشريفُ العالى» و « المَقرّ الكريمُ العالى» و « المَقرّ العالى » . ويلِى الجنـابَ لفظُ الكريم ولفظُ العـالى ، فيقال « الجنـابُ الـكريم العـالى » و «الجَنابُ العالى» . ويلى المجلس لفظ العالِى والسامِى، فيقال « المجلِسُ العالى » و « المجلِس السـامى » . والألفـاظ التى تتبع وهى الأشرف والشريف والكريم والعالى والسامى بعضُها أرفعُ من بعض علىٰ الترتيب . فالأشرفُ أرفع من الشريف، لأن أشرفَ أفعـلُ تفضـيل يقتضى الترجيحَ علىٰ غيره كما هو مقرّر فى علم النحو ؛ والشريف أرفعُ رتبةً من الكرِيم لمـا تقدّم عن ٱبن السِّكِّيت أن الكرم يكون فى الرجل وإن لم يكن له آباءٌ شرفاءُ ، والشَّرفَ لايكون إلا لمن له آباءٌ شرفاءُ . ومقتضىٰ ذلك ترجيحُ الشريف علىٰ الكريم لٱقتضائه الفضل فى نفس الشخص وفى آبائه ، بخلاف

الكَرَم ؛ ولذلك آختير الشرفُ لأبنـاء فاطمةَ رضى الله عنهـا دُونَ الكَرَم . والكريمُ أرفعُ رتبـةً من العالى، لأن الكريمَ يحتمِل أن يكون من الكَرَم الذى هو خلاف اللُّؤم ويحتمل أن يكون من الكَرَم الذى هو خِلافُ البُخْل وكلاهمـا مقطوعٌ بأنه صفةُ مَدْح ، وإن الأقرب إلىٰ مُراد الكُتّاب المعنىٰ الأوّل . والعـالى يحتمل أن يكون مِن عَلِيَ بكسر اللام يعلىٰ بفتحها عَلاءً بفتح العـين والمدّ إذا شَرُف ؛ ويحتمل أن يكون من عَلَا يعلُو عُلُوّا إذا آرتفع فى المَكَان ، وليس العُلو فى المكان ممـا يدلُّ علىٰ صـفة المَدْح إلا أن يُسْـتَعارَ للآرتفاع فى الشرَف فيكون صـفةَ مَدْح حينئذٍ علىٰ سبيل المجَـاز وإن كان مراد الكُتَّاب هو المعنى الأوّل، وما كان مقطوعا فيه بالمدح من الجانبيْنِ أعلىٰ ممـا يكون مقطوعًا فيه بالمَدْح من جانبٍ دُونَ جانب . وقد آصطلَحُوا علىٰ أن جعلوا العالِيَ أرفعَ رتبةً من السامى ، وهو ممـا أُنْكِر علىٰ واضعه ، إذ لافرق بينهما من حيثُ المعنىٰ ، لأن السمُوّ بمعنىٰ العُلُو . والذى يظهر أن الواضعَ لم يَجْهَلْ ذلك ولعله إنمـا جعل العالِيَ أرفعَ رتبـةً من السامِى وإن كان بمعناه لأن العـالِيَ لفظٌ واضحُ المعنىٰ يفهمُه الخـاصُّ والعامُّ ، فيكون المدحُ به أعَمَّ باعتبار مَنْ يفهمُه ، بخلاف السامِى فإنه لا يَفْهَم معنىٰ العلو منه إلا الخاصةُ ، فيكون المدحُ به أخصَّ لاقتصار الخاصّة علىٰ معرفته دُونَ العامّة .

النمـــط الثانى

(مايقع التفاوتُ فيه بحسَب لُحُوق ياءِ النسب وتَجرُّده منها)

قد تقدّم أن الألقابَ المفردةَ منها ما تُلْحق به ياءُ النسب ومنها ما يَتَجرَّد عنهـا ، وأن الذى تَلحقُه ياء النسب منها منـه ماهو منسوبٌ إلىٰ شيء خارجٍ عن صاحب اللقب كالقضائىّ فإنه منسوبٌ إلىٰ القضاء الذى هو نفسُ الوظيفة، فيكون النسبُ

فيه علىٰ بابه ، ومنه ماهو منسوبٌ إلىٰ صاحب اللَّقَب نفســه كالاميرِىّ فإنه نسبةٌ إلىٰ الأمير وهو عينُ صاحبِ اللقب فدخلتْ فيــه ياءُ النسب للمبالغــة ، كما فى قولهم لشديد الحُمْرة أحمرىّ علىٰ ماتقدّم بيانهُ .

وبالجملة فقد ٱصطلَحُوا علىٰ أن يكون مالحِقَتْ به ياءُ النسبِ ارفعَ رتبةً ممــا تجرّد عنها ، سواء كان منسوبًا إلىٰ نفس صاحب اللقبِ أو غيره ، فيجعلون الأميرىَّ أعلىٰ رتبةً من الأمير ، والقَضَائىّ أرفَعَ رتبــةً من القاضى ؛ ثم يجعلون المنسوبَ إلىٰ نفس صاحب اللقبِ أرفعَ رتبــةً من المنسوب إلىٰ شىءٍ خارجٍ عنــه ؛ ومن أجل ذلك جعلوا القاضَوِىّ أرفعَ رتبةً من القَضَائىّ . أمّا كون مالحِقتْ به ياءُ النسب(١) أرفعَ رتبةً من المجرّد عنهــا فظاهرٌ : لأن المبالغة تقتضى الرفعةَ ضرورةً ؛ وأما كونُ المنسوب إلىٰ شىءٍ آخَرَ غيرِ المنسوب إليــه يقتضى الرفعةَ وإن لم يكن فيه مبالغةٌ ، فللالحاق بمــا فيه المبالغةُ ٱســتطرادًا ، لئلا يلتَبِس الحالُ فى النِّسبتيْن علىٰ الضعيف الفَهْــم فلا يفرُقُ بين ما هو منسوبٌ إلىٰ هــذا وبين ماهو منسوب إلىٰ ذاك . علىٰ أنهم لم يَقِفُوا مع الحــكم فى كون مادخلتْ عليــه ياءُ النسب أرفعَ ممــا لم تدخُل عليــه فقد ٱســتعملوا الأجلّ ونحوَه فى الألقاب الســلطانية التى هى أعلىٰ الألقــابِ ، فقالوا «السلطانُ الأجلُّ العالمُ العادلُ» إلىٰ آخر ألقابه المفْرَدة من غير إلحاقِ ياء النسب بها ؛ ثم ٱستعملوا مثل ذلك فى ألقاب السامِى بغير ياء فما دُونَه مما هو أدنىٰ الألقاب رتبةً . وكأنهم اكتفَوْا بمكانة السلطانِ من الرِّفعة عن المبالغة فى ألقابه بإلحاق ياءِ النسب ، من حيث إن المعرَّف لا يحتاج إلىٰ تعريف .

---

(١) أى التى للمبالغة كما يفيده التعليل بعدُ .

النمــــط الثــالث

(ما يَقَع التفاوتُ فيه بصيغةِ مبالغةٍ غير ياءِ النسب)

فيكون أرفعَ رتبةً لمعنى المبالغة كما فى الكَفِيلىّ فإنه أرفعُ رتبةً من الكافِلىّ ، لأن صيغةَ فَعِيلٍ أبلَغُ فى المعنىٰ من صيغةِ فاعلٍ من حيثُ إن فَعِيلا لا يصاغ إلامن فَعُل بضم العــين إذا صار ذلك الفعلُ له سجيــةً ، كما يقال كَرُم فهو كَرِيم وعَظُم فهو عظيم وحَلُم فهو حَلِيم ، بخلاف فاعلٍ ؛ ومن أجْل ذلك كان لفظُ فَقِيه أبلَغَ من لفظ فاقهٍ لأن فاقِه يُصاغُ من فَقِهَ بكسر القاف إذا فهِم ، ومن فَقَه بفتحها إذا سبق غيْرَه إلىٰ الفهم . وفَقِيه إنمــا يُصاغ من فَقُه بضمها إذا صار الفِقْهُ له سجيَّــة كما مرّ القول عليه فى الكلام علىٰ الفَقِيه والفَقِيهى ّ فى الألقاب الإسلامية المفردة .

النمــــط الرابع

(مايقع فيه التفاوتُ بحسب ما فى ذلك اللَّقَب من ٱقتضاء التشريف لعلو متعلَّقه و رِفْعته)

كالمَمَهِّدِىّ والمُشَيِّدِىّ ، فإن المراد ممهِّد الدول ومشيِّد الممالك علىٰ مامرّ فى الألقاب المركَّبة ؛ فإن من ينتهى فى الرُّتْبــة إلىٰ تمهيد الدُّوَل وتشييد الممــالك فلا نزاعَ فى أنه من عُلُوّ الرتبة بالمكان الأرفَع ، وكذلك ما يَجْرِى هذا المجرىٰ كالمدَبِّرِىّ بالنسبة إلىٰ الوزراء ومَنْ فى معنــاهم ، والمحقِّقِىّ بالنسبة إلىٰ العلمــاء ، والأَصِيلىّ بالنسبة إلىٰ العَرِيق فى كَرَم الأصل ونحو ذلك .

الصنف الثـانى

(الألقابُ المركَّبة، وهى علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل

(ما يترتَّب بعضُه علىٰ بعض لَقَباً بعد لَقَب، وله آعتباران)

الاْعتبـار الأوّل

(أن يشترك فى رعاية الترتيب أربابُ السيوف والأقلامِ وغيْرُهم،
وهـــو علىٰ ثـــلاثة أنمــاط)

النمـــــط الأوّل

(ما يُضاف إلىٰ الإسلام، وله ثلاثةُ أحوال)

الحـال الأوّل — أن يكون ذلك فى ألقـابِ أرباب السُّيوف . وقد آصطَلَح المقرُّ الشِّهابِىّ بنُ فضل الله علىٰ أن جعل أعلاها رُكْنَ الإسلام والمسلمين فذكر ذلك فى المكاتبة إلىٰ النائب الكافِل، ومكاتبتُه يومئذ بالجَنَاب الكرِيم؛ ثم أبدل الكُتَّاب ذلك بعــده بمُعِزّ الإسلام والمسلمين، وجعلوه مع المكاتبة إليه بالمَقَر الكريم علىٰ ما آستقرّ عليه الحـالُ آخِرا فى المكاتَبة إلىٰ النـائب الكافِلِ ونائبِ الشام؛ وجعلُوا دُونَ ذلك عِزَّ الإسلام والمسلمين فأوردُوه مع الجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى علىٰ ما آستقرّ عليـه مصطلَحُهم فى السلطانيـات . وجعل فى "عرف التعريف" فى الإخوانِيَّات عزّ الإســلام والمسلمين أعلىٰ الألقاب فأورده فى ألقاب المَقَرّ الشريف، ثم طَرَده فيما بعد ذلك من المَقَرّ الكريم والمقرّ العالى ولم يَعْدُه إلىٰ مابعدُ؛

ثم جعل دُونَه مجد الإسلام والمسلمين ، فأورده مع المجلس العالى مُطْلقا مع الدعاء وصَدرَتْ ؛ ثم جعل دُونَ ذلك مجدَ الإسلام فقَطْ من غير عطف المسلمين عليه، فأورده فى المجلس السامىّ بالياء والسامى بغير ياء ، ولم يَعْـدُه إلىٰ مجلس الأمير بل أعاضه بمجد الأمراء علىٰ ما سيأتى ذكره ، وتابعه علىٰ ذلك فى التثقيف .

الحال الثانى — أن يكون ذلك فى ألقاب الوزراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم ككاتب السِّر ، وناظر الجَيْش ، وناظر الخاصّ فمن دُونَهم من الكُتَّاب .

وقد ذكر المقرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى بعض دساتيره السامية أن أعلاها لهم رُكنُ الإسلام والمسلمين، وجعل فى "عرف التعريف" أعلاها للوزراء صَلَاح الإسلام والمسلمين، ولمن فى معنىٰ الوزراء عِزّ الإسلام والمسلمين، اوجلال الإسلام والمسلمين وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف ومابعده : من المَقَرّ الكريم، والمقرّ العالى، والجناب الشريف ، والجناب الكريم ، وجعل دُونَ ذلك مَجْدَ الإسلام مجرَّدا عن عطف المسلمين عليه، وأورده مع المجلس العالى، والمجلس السامى .

أما تخصيص صلاح الإسلام والمسلمين بالوزراء، وعز الإسلام والمسلمين وجلال الإسلام والمسلمين بمن فى معناهم فلأن الصلاح فيه معنى السَّداد والقصد، والعز والجَلَال فيهما معنى العَظَمة والهيبة ، ولاشك أن وظيفة الوزارة التى مَنَاطُها تدبير المُلْك بالصلاح أجدر ؛ علىٰ أنه اذا حصل الصلاحُ تبعتْه العظمة والهيبة ضرورةً . وأما كون جَلَال الإسلام والمسلمين أعلىٰ من مجد الإسلام، فلأمرين أحدهما أن الجلالَ بمعنى العظمة والمجد بمعنى الشرف والعظمة أبلغُ من الشرف لما فى العظمة من نَفَاذ الكلمة. والثانى أن الإضافة فى جلال الإسلام والمسلمين فى المعنى إلىٰ شيئين وفى مجد الإسلام إلى أحدهما .

الحـال الثالث — أن يكون فى ألقـاب القُضاة والعلمـاء ، وقد جعل فى "عُرف التعريف" أعلاها حُجّةَ الإسلام أوضياءَ الإسلام، فأوردهما مع الجَناب الشريف الذى هو عنده أعلىٰ الرُّتَب لهذه الطائفة ، وجعل دُونَ ذلك بَهاءَ الإسلام فأورده مع الجَناب الكريم ، وجعـل دُونَه مَجْد الإسلام فأورده مع المجلس العالى والسامىّ بالياء وبغير ياء .

أما كون حجة الإسلام وضـياء الإسلام أعلىٰ رتبة من مجد الإسلام فلأن الحجـة فى اللغـة بمعنى البُرْهان وهو الدليـل القاطع، وبه تتقرّر قواعد الإسـلام ومبانيه؛ والضياء فى أصل اللغة خلاف الظلمة، ثم استعير للهداية وما فى معناها، ولاشكّ أن الوصف بهذين الأمرين أبلغ من الوصف بالمجد الذى هو بمعنىٰ الشرف .

الحال الرابعُ — أن يكون فى ألقاب الصلحاء، وقد جعل فى "عُرْف التعريف" أعلاها صَلَاحَ الإسـلام وأورده مع الحَضْرة، ومع الجَنـاب الشَّريف، والجَنَاب الكريم،وجعل دُونَه جَلَال الإسلام وأورده مع الجناب العالى،ودونه ضياءالإسلام وأورده مع المجلس العالى، وجعل دونه جلال الإسلام فأورده مع المَجلِس السامىّ بالياء فما دُونَه .

أمّا كونُ صَلَاح الإسلام والمسلِمين أعلىٰ من جَلَال الإسلام والمسلمين فقد تقدّم بيانُه . وأمّا كونُ جلالِ الإسلام والمسلمين أعْلىٰ من ضياء الإسلام والمسلمين فلأَنَّ الجَلَال معناه العَظَمة وهى أَعْلىٰ من الضياء على ما فيه من التعسُّف .

النمـــــط الثـانى

(من الألقـاب المركَّبة ما يُضافُ إلىٰ الأُمَراء والوُزَراء ونحوهم ،
من أرباب المراتب السَّنِيَّة ، وهو علىٰ الأحوال الأربعة
المتقدّمة الذكر فيما يُضافُ إلىٰ الإسلام)

الحـال الأوّل — أن يكون في ألقاب أرباب السـيوف . قد جعـل في "عُرْف التعريف" أعلاها سَيِّدَ الأُمَراء في العالمين ، وأورده مع المَقَرّ الشريف ، والمَقَرّ الكريم ، والمَقَرّ العالى . وجعل دُونَه سَـيِّد الأمراء المقدّمين ، وأورده مع الجَنَاب الشريف ، والجَنَاب الكريم ، والجَنَاب العالى . ودُونَه شَرَفُ الأمراء المقدّمين ، وأورده مع المَجْلس العـالى والدُّعاء . ودونُه شَرَفُ الأمراء في الأنام ، وأورده مع السامىّ باليـاء . ودُونَه زَيْن الأمراء المجـاهدين ، وأورده مع السامى بغير ياءٍ . ودُونَه مَجْد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير .

والذى في "التثقيف" بعد سَيّد الأمراء في العالمين سيّد أمراء العالمين ، وأورده مع الجناب العالى . ودونه شرف الأمراء في العالمين ، وأورده مع المجلس العالى والدعاء . ودونه شرف الأمراء المقدّمين ، وأورده مع صدرَتْ والعالى . ودونه شرف الأمراء فقط ، وأورده مع السامىّ بالياء . ودونه فخر الأمراء ، وأورده مع السامى بغير ياء . ودونه مجد الأمراء ، وأورده مع مجلس الأمير . ولا يخفىٰ ما بينهما من الاختلاف . ولا مشـاحَّةَ في الاصطلاح بعـد فهم المعنىٰ ، ولا نزاع في أن الترتيب الذى في التثقيف أحسن . واذا تأملت ذلك وعرضته على ما تقدّم من التوجيه في النمط الأوّل ظهر لك حقيقة ذلك .

الحال الثـانى — أن يكون في ألقـاب الوُزَراء ومن في معناهم . فقـد ذكر في "عرف التعريف" أن أعلاها للوزراء سيدُ الوزراء في العالمين ، ولمن في معناهم

من كاتب السرّ ونحوِه سيِّد الكبراء فى العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف ، والمَقَرّ الكريم ،والمَقرّ العالى ،والجَنَاب الشّريف ،والجناب الكريم ،والجناب العالى ، وجعل دونه لمن دونَ هؤلاء من الكُتَّاب فخر الأنام ، وأورده فى المجلس العالى والدعاء مع ما بعده .

الحال الثالث — أن يكون من ألقاب القضاة والعلماء .

وقد جعل فى "عرف التعريف" : أعلاها شرف الأنام . وأورده مع الجناب الشريف الذى جعله أعلىٰ المكاتبات لهم ، ومع الجناب الكَريم والجناب العالى وجعل دونه فخر الأنام ، فأورده مع المجلس العالى بالدعاء . ودونه بهاء الأنام ، وأورده مع صَدرتْ والعالى ، ومع السامى بالياء والسامى بغير ياء .

الحال الرابع — أن يكون من ألقاب الصلحاء وقد جعل فى "عُرْف التعريف" أعلاها خالِصةَ الأنامِ ، وأورده مع الحَضْرة الشريفة التى جعلها أكبَر رُتَبِهم ، ومع الجَنَاب الشريف ،والجَنَاب الكريم ،والجَنَاب العالى ،وجعل دُونَه شرفَ الأنام واورده مع المجلس العالِى . ودُونَه زَيْن الأنام ، وأورده مع السامىّ بالياء وبغير ياء .

النَّمَـــط الثـالث

(من الألقاب المرَكَّبـة مايُضاف إلىٰ المُلوك والسَّلاطين ،

وهو علىٰ الأحوال الأربعة المتقدّمة الذكر)

الحـال الأوّل — أن يكون من ألقابِ أربابِ السُّيوف . وقد ذكر فى "عُرف التعريف" أن أعلاها ظَهِيرُ المُلوك والسلاطين ،وأورده مع المَقرّ الشريف والمَقرّ الكريم ،والمَقرّ العالى ،والجَنَاب الشريف ،والجَنَاب الكَرِيم ،والجَنَاب العالى ؛

وجعــل دُونَه عَضُدَ الملوك والسلاطين ، وأورده مع المَجْلِس العالى والمَجْلِس السامىّ بالياء. ودُونَه عُمْدَةَ الملوك والسلاطين، وجعله مع مَجْلِس الأمير. والذى فى "التثقيف" إيراد ظَهِير الملوك والسلاطين مع المَقَرّ الكريم ومابعده إلىٰ آخرِ المجلس العالِى؛ وجعل عَضُد الملوك والسلاطين مع السامىّ بالياء، وعُمْدَةَ الملوك والسلاطين مع السامِى بغير ياء، وعُدّةَ الملوك والسلاطين مع مجاس الأمير .

والحاصل أنه فى " التثقيف " زاد رُتْبتيْنِ فى ظَهِير الملوك والسـلاطين ، فجعله فى المجلس السامِى مع الدعاء ومع صدرَتْ، علىٰ أن التحقيق أن عَضُد الملوك والسلاطين أعلىٰ فى الحقيقة من ظَهِير الملوك والسلاطين؛ لأن العَضُد عُضْو من أعضاء الإنسان: وهو مابين المِرْفَق والكَتِف، والظَّهِير خارجٌ عنه، وما كان من نَفْس الإنسان كيف يُجْعَل ماهو خارجٌ عنه أرفعَ منه بالنسبة إلىٰ ذلك الشخص ؟ .

الحـال الثانى — أن يكونَ من ألقـاب الوزراء ومَنْ فى معناهم . وقد جعل فى " عُرْف التعريف " أعلاها ظَهِيرَ المُلُوك والسلاطين أيضـا، وأورده مع المَقَرّ الشريف، والمَقَرّ الكريم، والمَقَرّ العالى؛ والجنابِ الشريف، والجنابِ الكريم، والجناب العالِى؛ وجعل دُونَه صَفْوةَ الملوك والسلاطين، وأورده مع المجلس العالى فمـا دُونَه .

الحـال الثالث — أن يكونَ من ألقـاب القُضَاة والعُلَمـاء . وقد جعل فى " عرف التعريف" أعلاها للقُضَاة حَكَمَ المُلُوك والسلاطين، ولغيرهم من العُلَمَاء خالِصَةَ الملوك والسلاطين، وهو عنده للجَناب الشريف فما فَوْقَه . ودُونَه بَرَكَةُ الملوك والسلاطين ، وأورده مع الجناب الكَرِيم، والجنـاب العالِى، والمجلِس العـالِى، مع الدُّعاء . وجعل دُونَه صَفْوةَ الملوك والسـلاطين، وأورده فى صدَرَتْ والعـالِى فمـا دُونَ ذلك .

الحـال الرابع — أن يكون فى ألقاب الصُّلَحاء . ولم يزد فى "عرف التعريف" علىٰ أنه يُكْتَب لهم بَرَكَةُ الملوك والسلاطين ، وحينئذ فيُقْتَصر عليهـا لجميعهم ممن يستحقُّ ذلك بحسب ما يقتضِيه حالُ المكتوبِ بسببه .

النمـــط الرابع

(من الألقاب المرَكَّبة ما يضاف لأمير المؤمنين ، وهو علىٰ الأحوال الأربعةِ المتقـــدّمِ ذكرها (١))

الحـال الأوّل — أن يكون من ألقـاب أرباب السيوف ، وأعلاها قَسِيمُ أميرِالمؤمنين ، وهو من الألقاب الخاصَّة بالسلطان كما تقدّم ذكره فى موضعه . ودونه خَلِيل أمير المؤمنين ، وهو من ألقاب أولاد المُلُوك وألقاب بعض الملوك الأجانِب المكتوبِ إليهـم عن الأبواب السلطانية . ودُونَه عَضُـد أمير المؤمنين ، وهو أعلىٰ ما يُكْتَب لنُوّاب السلطنة عن الأبواب السلطانية ؛ وجعله فى "عرف التعريف" مع المَقَرّ الشريف خاصَّةً . ودُونَه سـيفُ أمير المؤمنين ، وأورده مع المَقَرّ الكريم والمَقَرّ العالى ؛ ودُونَه حُسَامُ أمير المؤمنين ، وجعله فى "عُرْف التعريف" مع الجَنَاب الشريف والجَنَـاب الكريم والجنابِ العالى ؛ ولم يُورِد بعـد ذلك لَقَبا بالإضافة إلىٰ أمير المؤمنين بل ٱقتَصَر علىٰ ما يضاف إلىٰ الملوك والسَّلاطِين . وأما فى التثقيف فجعله مع المَقَرّ الكريم والمَقَرّ العالى . ودُونَه حُسَام أمير المؤمنين ، وأورده مع المجلس العالى والدُّعاء ، ولم يُورِد فيما بعد ذلك لقباً بالإضافة إلىٰ أمير المؤمنين .

والحاصـل أنه فى " عُرْف التعريف " زاد رتبةً فيما يُضاف إلىٰ أمير المؤمنين ، وهى حُسَام أمير المؤمنين .

---

(١) كذا فى الاصول ولم يذكر الحال الرابع وهو ألقاب الصلحاء فتأمل .

الحـال الثانى — أن يكونَ من ألقـاب الوُزَراء ومَنْ فى معناهم . ولم يَزِد فى "عُرْف التعريف" علىٰ وَلِىّ أمير المؤمنين، وأورده مع المَقرّ الشريف، والمَقرّ الكريم، والمَقرّ العالى والجناب الشريف؛ ويَحْسُن أن يجىء مع الجنـاب الكريم خالِصةُ أمير المؤمنين، ومع الجنَاب العالى صَفِىُّ أمير المؤمنين أو صَفْوة أمير المؤمنين، ولا يُضَاف إلىٰ أمير المؤمنين مع المجلس العالى فما دُونه شىءٌ من الألقاب ٱكتفاءً بما يُضاف إلىٰ الملوك والسلاطين كما تقدّم فى أرباب السيوف .

الحـال الثالث — أن يكون من ألقاب القُضَاة والعُلَمـاء . فقد جعـل فى "عُرْف التعريف" أعلاها وَلِىّ أمير المؤمنين، وجعـله مع الجَناب الشريف فما فوقه، ويَحْسُن أن يجِىءَ مع الجَنَاب الكريم خالِصَةُ أمير المؤمنين، ومع الجناب العالى صَفِىّ أمير المؤمنين أو صَفْوة أمير المؤمنين، كما تقدّم فى الوزراء ومَنْ فى معناهم ومَنْ دُونَهم من الكُتَّاب .

الاعتبـار الثـانى

(فى الألقاب المرَكَّبة أن يختصَّ الترتيبُ فى الألقاب بنَوْع من المكتوب لهم، وهو أربعة أنمـاط)

النمـــط الأوّل

(ما يختصّ بأرباب السـيوف، وله حالان)

الحال الأوّل — أن تقَع الإضافةُ فيه إلىٰ الغُزَاة والمُجاهِدين . وقد جعل المَقَرُّ الشِّهابِىّ بن فضـل الله فى "التعريف" ناصِرَ الغُزَاة والمجاهِدين أعلاها، فأورده فى المكاتبة إلىٰ نائب الشام، والمُكاتبةُ إليه يومئذ دُونَ المكاتبة إلىٰ النائب الكافل؛

وهو خلافُ مقتضىٰ تركيب لغة العَرَب لما تقدّم من أن صِيغةَ فَعِيل أعلىٰ من صيغةِ فاعل ، ولذلك جعلوا الكَفِيل أعلىٰ من الكافل علىٰ ماتقدّم بيانُه . وحينئذ فيكون نَصِير الغُزَاة والمجاهدين أعلىٰ من ناصِرِ الغُزاة والمجاهدين علىٰ خلاف ماذكره .

أما فى "عُرْف التعريف" فإنه أعرضَ عن ذكر الألقاب المضافَة إلىٰ الغُزَاة والمجاهدين مع المَقَرّ الشريف الذى هو أعلىٰ الألقاب لأرباب السيوف من النُّوّاب ومَنْ فى معناهم، وأتىٰ بعده مع المَقَرّ الكريم بنَصِير الغُزَاة والمجاهدين ، ثم أتىٰ بعده مع الجَنَاب الشريف إلىٰ آخر المجلس العالى بنُصْرة الغُزاة والمجاهدين ،فجعل نَصِيرَ الغُزاةِ أبلغَ من نُصْرة الغزاة : لما فى نَصِير من لفظ التذكير وفى نُصْرة من لفظ التأنيث ، والتذكير أعلىٰ رتبةً من التأنيث ؛ ثم أتىٰ مع السامىّ بالياء بذُخْر الغُزاة والمجاهدين، ثم مع السامِى بغير ياء بزَيْن الأُمَراء المجاهدين علىٰ وَصْف الأمراءِ بالمجاهِدين دُونَ عطفِ المجاهدين علىٰ الأمراء ؛ ثم مع مَجْلِس الأمير بزَيْن المجاهدين .

وجعل فى "التثقيف" أعلاها ناصِرَ الغُزَاة والمجاهدين تبعًا "للتعريف" وأورده مع المَقَرّ الكريم ؛ ودُونَه نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، وأورده مع الجَنَاب الكريم وما بعده إلىٰ آخر المجلس العالِى ؛ ثم أتىٰ مع السامِىّ بالياء بأوْحَد المجاهِدين، ومع السامِى بغير ياء ومجلس الأمير بزَيْن المجاهدين، والحالُ فى ذلك قريبٌ .

الحال الثانى — أن يكون اللقب مضافًا إلىٰ الجُيوش . وقد جعل فى "التعريف" أعلاها أَتَابِك الجُيوش، وأورده فى ألقاب النائب الكافل ؛ وجعل دُونَه زَعِيم الجُيوش وأورده فى ألقاب نائب الشام، وهو يومئذ دُون النائبِ الكافِل ؛ ثم جعل دُونَه زَعِيمَ جُيوش الموحِّدين ، وأورده فى ألقاب نائب حَلَب . وعلىٰ نحوٍ من ذلك جرىٰ فى "عرف التعريف" فجعل أعلاها زَعِيم الجُيُوش وأورده مع المَقَر الشريف ،

والمَقَرّ الكريم والمَقَرّ العالى ؛ ودُونَه زَعِيمَ جُيوش الموحِّدين، وأورده مع الجناب الشريف والجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى ؛ ولم يُورِدْ شيئا فى هذا المعنىٰ فيما بعد ذلك، وعلىٰ نحو ذلك جرىٰ فى التثقيف .

النمـــط الثـانى

(ما يختص بالوُزَراء ومَنْ فى معناهم : من كاتِب السرّ ونحوه فمَنْ دُونَهـم من الكُتَّاب)

وقد ذكر فى "عرف التعريف" أن أعلاها للوُزَراء سيِّدُ الوُزَراء فى العالمين، ولمن فى معناهم سيِّدُ الكُبَراء فى العالمين ، وأورد ذلك مع المَقَرّ الشريف والمَقَرّ الكريم والمقرّ العالى والجَنَاب الشريف والجَنَاب الكريم والجَنَاب العالى؛ وجعل دُونَه لمَنْ دُونَهم من الكُتَّاب شَرَف الرؤساء،وأورده مع المجلس العالى؛ ولا شَكَّ أنه يَجِيء بعده أوْحَدُ الكُتَّاب أو شَرَفُ الكُتَّاب مع المجلس السامىّ بالياء ، ثم جَمَال الكُتَّاب للسامى بغير الياء فما دُونَه .

النمـــط الثـالث

(ما يختصُّ بالقُضاة والعلمـاء)

وقد جعل فى " عرف التعريف " أعلاها سَيِّد العلماءِ والحُكَّام، ولغيرهم أوْحَد العلمـاء الأعلام، وجعله للجناب الشريف فما فوْقَه، ثم للجنٰاب الكريم، والجَنَاب العالى؛ وجعل دُونَه تاجَ العُلمـاء والحُكَّام ، أو شَرَف العلمـاء والحُكَّام ، وأورده مع المجلس العالى ؛ ودُونَه جَمَال العلماء أوْحَد الفُضَلاء ، وأورده مع السامىّ بالياء؛ ودُونَه جَمَال الأعيان مع السامِى بغير ياء فما دُونَه .

النَّمَـــط الرابع
(ما يختَصُّ بالصُّـلحاء)

وقد جعل فى "عرف التعريف" أعلاها لهم شَيْخ شُيُوخ العـارفين، وأورده مع الحَضْرةِ الطاهِرةِ ، وجعل دُونَ ذلك أوْحَدَ المحقِّقين ، فأورده مع الجَنَاب الكريم؛ ودُونَه أوْحَد النَّاسِكين، فأورده مع الجَنَاب العالى .

قلت : وليس وَضْعُ هذه الالقاب علىٰ الترتيب فى العُلُوّ والهُبُوط راجعًا إلىٰ مجرّد التَّشهِّى من غير تَقَصٍّ لعُلُوّ أو هُبُوط يدلُّ عليه جوهَرُ اللفظ ، بل لا بدّ أن يكون لتقدُّم كلِّ لقبٍ منها علىٰ الآخر ورِفْعته عليه فى الرُّتْبة سببٌ يقتضيه اللفظُ وتوجبُـهُ دلالتَهُ الظاهرةُ أو الخفيَّةُ . وما وقع فيها مما يخالف ذلك فلعدم تأمُّل الواضع لذلك، أو وُقُوعه من بعض المُدَّعين الظانِّين أن القلَمَ فى ذلك مطلَقُ العِنَان، يتصرَّفُ فى وضعه كيف شاء من غير نظرٍ إلىٰ ما يُوجِب تقديمًـا ولا تأخيرًا . وممـا يُوضِّح ذلك ويُبيِّنه أنك إذا ٱعتبرتَ الألقـابَ المضافةَ إلىٰ الإسلام المتقدّمةَ الذكر فى أرباب السيوف مثلًا ، رأيت أعلاها رُكْنَ الإسلام والمسلمين ، علىٰ ماهو مذكورٌ فى "التعريف" وغيره من سائر دَسَاتيرِ المَقَرّ الشِّهابىِّ بن فضل الله ، وأعلاها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" مُعِزّ الإسلام والمسلمين ، ودُونَ ذلك فى الرتبـة عِزّ الإسلام والمسلمين ، ودونَه مَجْد الإسلام والمسلمين ، ودونه مجد الاسلام فقط من غير عَطْف ، علىٰ ما تقدّم ذكره .

أمَّا كونُ رُكْنِ الإسـلام والمسلمين أعلىٰ من عِز الإسلام والمسلمين ، فلأنَّ رُكْنَ الشىء فى اللغـة جانبُـه الأقْوىٰ ، وقد قال الأُصوليُّون : إن الرُّكْن ما كان داخِلَ المـاهِيَّة ، وحينئذ فيكون رُكْنُ الشيءِ بعضًا منه بخلاف العِزّ فانه معنًى من المعـانى خارجٌ عنه ، وما كان بعضًا للشيء كان أخَصَّ به ممـا هو خارجٌ عنه .

وأما وَجْه إبدالهم رُكْن الإســلام والمسلمين بعِزِّ الإســلام والمسلمين فلأن فى الرُّكْن معنىٰ العِزِّ والقُوَّة ، وقد فسر قوله تعــالىٰ حِكايةً عن لُوطٍ عليه السلام : ﴿ أَوْ آوِى إلىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ بالعِزِّ والمَنَعة ، فجُعل المعزُّ لهذا الاعتبار فى الألقاب قائما مَقَامَ الركن .

وأمّا كَونُ عِزِّ الإسلام والمسلمين أعلىٰ من مَجْد الإســلام والمسلمين ، فلأن العِزَّ أجدىٰ فى النَّفْع من المَجْد ، فقد تقدّم أن ابنَ السِّكِّيت قال : إن المَجْد لا يكون إلا بشَرَف الآباء ؛ ولا نِزاعَ فى أن العِزَّ فى تعــارُف الملوك أكثرُ جَدْوىٰ وأوفرُ نفعًا فى تحصيل المَقَاصد . وقد ذكر أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" أن الكُتَّاب فى الزمن القديم كانوا يجعلون الدُّعاءَ بالعِزِّ عَقِبَ الدعاء بطُول البَقَاء ، فإنه يكون بالعزِّ مَصُونا عاليا آمِنًا غَنِيًّا .

وأمّا كونُ مَجْدِ الإسلام والمسلمين أعلىٰ من مَجْد الإسلام ، فلأنَّ الشىء كلَّما تعدّىٰ فعلُه إلىٰ غيره كان أرفعَ رتبةً ، ومجدُ الإســلام والمسلمين يتَعدّىٰ إلىٰ شيئين : وهمــا الإسلام والمسلمين ، ومَجْد الإسلام لا يتعدّىٰ إلا إلىٰ شىء واحد : وهو الإسلامُ .

فلذلك (١) إذا اعتبرتَ الألقاب المضافة إلىٰ أمير المؤمنين ، رأيتَ أعلاها فى أرباب السيوف قَسِيمَ أمير المؤمنين ، ودُونَه خَلِيل أمير المؤمنين ، ودُونَه عَضُد أمير المؤمنين ودُونَه سَيْف أمير المؤمنين ، ودُونَه حُسَام أمير المؤمنين .

أمّا كونُ قَسِيم أمير المؤمنين أعلىٰ من خَلِيــل أمير المؤمنين ، فلأنَّ القَســيم بمعنىٰ المُقاسِم ، والمراد أنه قاسَمَ أمير المؤمنين المُلكَ وساهمه فى الأمر فصارا فيه مشترِكَيْن ، وخَلِيلُ أميرالمؤمنين مأخوذ من الخُلَّة بضم الخاء وهى الصَّدَاقة ، وفَرْقٌ بين مَنْ يُقاسِم

(١) كذا فى الاصــــول والأظهر وكذلك إذا اعتــبرت الخ عطفا علىٰ أنك إذا اعتبرت الخ المتقــدّم فى الصفحة قبل .

الخليفةَ فيصير عَديلَه فى الامر، وبَيَن مَنْ يكون خَليله وصاحِبَه . علىٰ انه قد تقدّم أن الملوكَ قد أربت بأنفُسِها (١) عن هذا اللقب لاستبدادهم بالملكِ واستيلائهم عليه .

وأمّا كونُ خليلِ أمير المؤمنين أعلىٰ من عَضُد أمير المؤمنين ، فلأن العَضُد ليس المرادُ منه العُضوَ الحقيقيَّ الذى هو بين الكَتِف والمِرْفَق ، وإنما آستُعير للناصر وكأنه يَنْصُره بنَفْسه كما ينصُره عَضُده ، ومثل هذا الوصف لا يكون إلا للأتْباع ، بخلاف الخَلِيل والصَّدِيق فإنه لاتكاد رتبتُه عند الشخص تنحطُّ عن رُتْبة نفسه .

وأمّا كونُ عضُدِ أمير المؤمنين أعلىٰ من سَيْف أمير المؤمنين ، فلأن العَضُد وإن قُصِد به الناصرُ فإنه منقول عن العُضْو للناصِر كما تقدّم وعُضْو الإنسان عنده فى العِزّة وقُوّة النَّصر فوق سيفه فى ذلك .

وأمّا كونُ سيفِ أمير المؤمنين أعلىٰ من حُسَام أمير المؤمنين ـ وإن كان الحُسَام متضمِّنا لوَصْف القَطْع الذى هو المقصودُ الأعظمُ من السيف من حيث إنه مأخوذ من الحَسْم : وهو القطع ـ فلأن السيفَ مأخوذٌ من سافَ إذا هَلَك كما صرح به الشيخُ "جمالُ الدين بنُ هشام" فى شرح قصيدةِ كعبِ بن زُهَيْر ، ولا شكَّ أن معنىٰ الإهلاكِ أبلَغُ من معنَى القطع : لأن القطع قد يقَع فى بعض البَدَن مما لا يتضمَّن الإهلاكَ ، وهذا مما يجب التنَبُّه له فإنه ربما تُوُهِّم أن الحُسام أبلغُ من السيف لتضَمُّن وصف القَطْع كما تقدّم .

وبالجملة فلا سبيلَ إلىٰ استيعابِ جميع مايَرِد من هذا الباب بالتوجيه : لأن ذلك يُؤدّى إلىٰ الإسهاب والمَلَل . والقولُ الجامع فى ذلك أنه يُنْظر إلىٰ الألفاظ الواقعة فى الألقاب وما تقتضيه من أصناف المَدْح ، وما تنتهِى إليه رتبتُها فيه من أعلىٰ

(١) لعله ربأت بأنفسها أى ترفعت أو زمت بأنفها أى شمخت .

الدرجات أوْ أوْسطها أو أدناها فيرتبها على هذا الترتيب، ويوجّهُها بما يظهر له من التوجيه على نحو ماتقدّم . كما إذا ٱعتبَرتَ رتبةَ الجَلال والجَمَال فإنك تجِدُ الجَلال أعلىٰ رتبةً: لأن معنىٰ الجَلال العظمةُ، ومعنى الجَمَال الحُسْن، ولا نزاعَ فى أن العظمة أبلغُ وأعلىٰ مَوْقِعا من الحُسْن . وكما إذا ٱعتبَرْتَ الضِّياء والبَهاءَ، فإن الضِّياء يكون أبلغَ لأن الضياء معناه النُّورِ الذاتىُّ وهو متعدِّى النفع عامُّ الفَضيلة ، والبَهاء معناه الحُسْن وهو قاصرٌ على صاحبه . وفيما ذُكِر إرشادٌ إلىٰ مالم يذكر .

القسم الثانى

(مما تتفاوت فيه مراتبُ الألقاب ما يقَعُ التفاوتُ فيه بالتقديم والتأخير، وهو نوعان)

النوع الأوّل

(الألقابُ المفردةُ، وهى على ستة انماط)

النَّمَط الأوّل

(الألقابُ التى تلى الألقابَ الأصُولَ)

وهى التى تلى المَقام والمَقرّ والجَناب والمَجلِس: كالأشرف والشريف والكريم والعالِى والسامى : فالأشرفُ يلى المقامَ والمقرَّ، فيقال : المقامُ الأشرفُ ، والمقرُّ الأشرفُ ، والشريفُ يلى المقامَ والمقرَّ والجنابَ ، فيقال : المقامُ الشريفُ ، والمقرُّ الشريفُ، والجنابُ الشريفُ . والكريمُ يلى المَقَرَّ والجنابَ ، فيقال : المَقرّ الكريمُ، والجنابُ الكريم . والعالى يلى المَقامَ والمَقرّ والجَناب والمَجْلس ،فيقال : المَقَام العالى، والمَقرّ

العالى ، والجَنَـاب العالى ، والمَجْلِس العالى . والسامى يلى المجلِس خاصَّةً، فيقال : المجلس السَّامِى . والعالِى يلى الأشرفَ والشريف والكريمَ، فيقال : الأشرفُ العالى، والشريفُ العالِى، والكريمُ العالِى .

النمـــط الثـانى

(مايلى العالِى أو السامِى من الألقاب)

وهو اللقب الذى يمــيِّزُ نوعَ المكتوب له ، كالأميرِى لأرباب السيوف، والصاحبِىّ للوُزَراء من أرباب الأقلام، والقَضَائىّ والقَاضَوِىّ لسائر أرباب الأقلام، والشَّيْخِىّ للصوفِيَّة وأهـل الصَّلاح ، والصَّدْرِىّ للتُّجَّار ومَنْ فى معناهم . مثل أن يقال : المَقَرّ الكريم العالى [الأميرىّ](١) والجناب العالى الصاحبِىّ، أو الجناب العالى القاضَوِىّ ، أو المجلس العـالى ، أو المجلس السامى الشَّـيْخِىّ، أو المجلس السـامى الصَّدْرِىّ، وما أشبه ذلك . والمعنىٰ فى وضع هذه الألقاب فى هذا الموضع أن يدُلَّ أوّلُ لقبٍ يُذْكر بعـد اللقب الأصل وتابِعِه علىٰ الوَظِيفـة كما تَدُلُّ براعةُ الاستهلال علىٰ صورة الحـال فى المكاتبة أو الوِلَاية أو غيرهما، وربمـا كان المحلُّ ممـا يقتضى التلقيب بالمَوْلَوِىّ فيقدَّم لقبُ المولوىّ علىٰ لقب الوظيفة . مثل أن يقال : المَقَرّ الشريفُ العـالى المَوْلَوِىّ الأَمِيرِىّ، فإن كان اللقبُ الأصلُ مضافاً لمجلس الأمير أو مجلِس القـاضى أو مجلس الشيخ أو مجلس الصَّدْر ، قام المضافُ إليه مَقامَ لقب الوظيفة، فيقوم الأمير من مجلس الأمير مقام الأميرِىّ، والقاضى من مجلس القاضى

(١) الزيادة متعينة وقد أخذناها من الضوء للؤلف .

مقـام القَضَائىّ، والشـيخ من مجلس الشيخ مقـام الشَّيْخىّ، والصَّدْر من مجلس الصدر مَقـامَ الصَّدْرىّ . ثم لا يُنْعت بعد ذلك فى هذه الحالة إلا بالأجَلّ، ويُؤْتىٰ بعده بمـا يناسبه من الألقاب .

النمـــط الثالث

(ما يلِى لقبَ الوظيفـــة)

وهو الكَبِير أو الكَبِيرى، فيؤتىٰ به تِلْوَ اللقبِ الدالّ علىٰ الوظيفة مثل أن يقال : المَقَرّ العـالى الأمِيرِىّ الكَبِيرى، أو الجناب العالى القَضَائى الكَبِيرىّ، أو المجلس السامِىّ الكبِيرىّ إذا كان بالياء، أو الكبير إذا كان بغير الياء .

النمـــط الرابع

(مايقع قبْل لَقَب التعرِيف الذى هو الفُلَانىّ أو فلانُ الدِّين)

وهو اللقبُ الدالُّ علىٰ الوظيفــة دلالةً خاصَّــةً ، كالكافِلىّ والكَفِيلىّ للنوّاب، والوَزِيرِىّ للوزراء ، والحاكِمىّ للقُضاة . فإن كان المكتوبُ له نائبَ سلطنة كتب له قَبْلَ الفُلَانى الكافلىّ أو الكَفِيلىّ بحسَب ما يقتضيه الحالُ، وإن كان حاكما كُتِب الحاكمىّ . قال فى "التثقيف" : وإن كان وزيرًا كُتِب فى آخر ألقابه الوَزِيرىّ . والذى ذكره فى " عُرْف التعريف " أن الوَزِيرِىّ يلى لقبَ الوظيفـة ، فإذا كان الوَزِير من أرباب السـيوف كُتِب الأَميرىّ الوَزِيرىّ ؛ وإن كان من أرباب الأقلام كُتِب الصاحِبىّ الوزِيرىّ . وما ذكره فى " التثقيف " متَّجه فيما إذا كان الوزير صاحبَ قَلَم ، فإن التعريف فى الوظيفـة يُعْرَف أوّلا من قوله الصاحِبىّ .

وما ذكره فى "التعريف" ظاهرٌ فيما إذا كان الوزيرُ من أرباب السيوف، فإنه يتعين تقديمُ الوَزيرىّ فيــذكر بعــد الأميرىّ ليدل من الابتــداءِ على الوظيفة، إذ مطلق الإمرة لايَدُلُّ على وِزَارة ولاعدمها، فلو أُخِّر إلى آخر الألقاب لَمَا عُرِف أنها ألقابُ وزيرٍ إلى حين ذكر هذا اللقبِ، وإنمــا رُتِّب هذا الترتيب ليدُلَّ باللقب الذى هو أوّل الألقاب بعد العالى أو السامى على حال صاحبِ تلك الالقاب هل هو من ارباب الســيوف أو الأقلام أو غير ذلك، وباللقب الذى هو آخر الألقاب المفردة على وظيفته الخاصّة به .

النمـــــط الخامس

(ما يقع فَصْلا بين الألقاب المفردة والمركّبة)

وهو لقب التعريف كالفُلَانىّ وفُلَان الدين، فقد جعلوه فاصلًا بينهما .

النمـــــط السادس

(ماليس له موضعٌ مخصوصٌ من الألقاب المفردة)

وهو مابين اللقَب الذى يقَع به التميــيزُ بين الأميرىّ ونحوه، وبين اللقب الذى قبل لقب التعريفِ كالعالمىّ والعادلىّ ونحوهما، فالقلم فى ذلك مطلق العِنَان بالتقديم والتأخير على ما يقتضيه الحالُ بحسب ما يراه الكاتبُ .

النـــوع الثـانى

(ممـا تتفاوَتُ فيه مراتبُ الألقاب بالتقديم والتأخير الألقابُ المركَّبة المعبَّر عنها بالنُّعوت، وهى علىٰ ثلاثة أنمـاط)

النمـــط الاول

(ما يلى لقَبَ التعريفِ الذى هو الفُلانِىُّ أو فلانُ الدين)

وهو ما يضاف إلىٰ الإسـلام مثل رُكْن الإسـلام والمسلمين وعِزُّ الإسلام والمسـلمين وما اشـبه ذلك ، فقـد ٱصطلَحُوا علىٰ أن يكونَ ذلك أوّلَ الألقاب المركَّبة ، وتوجيهه ظاهر لأن المضافَ يشْرُف بشرف المضاف إليـه ، ولا أشْرَفَ عند اهل الإسلام من الإسلام فوجب تقديم ما يُضاف إليه علىٰ غيره .

النمـــط الثـانى

(ما يقـــع فى آخر الألقـابِ المركَّبـــة)

ويختلف الحال فيه باختلاف حالِ المكتوبِ له ، فإن كان ممن يُكْتَب له المجلس السامِى بغير ياء فمـا دُونَه جُعِل آخِرُ الألقاب فيه مايضاف إلىٰ المُلوك والسلاطين، مثل أن يقال : صَفْوةُ الملوك والسلاطين، أوٱختيارُ الملوك والسلاطين وما أشـبه ذلك . وإن كانــ ممن يُكْتَب له السامىّ بالياء فمـا فوقه جُعِل آخِرُ الألقاب فيه مايضاف إلىٰ أمير المؤمنين : مثل عَضُد أمير المؤمنين، ووَلِىّ أمير المؤمنين،وخالصة أمير المؤمنين، وما أشـبه ذلك علىٰ ما تقتضيه رُتْبـة المكتوب له . والمعنىٰ فيه أن حُسْن الٱختتام بالإضـافةِ إلىٰ الملوك والسلاطين الذين هم ثانى رُتْبة الخلافة .

النمـــــط الثـالث

(مابين أول الألقاب المركّبة و بين آخرها)

فقد ٱصطلحوا علىٰ أن يكون المقدّمُ منها ممـا يقتضى تقديمَ المكتوبِ له علىٰ أبناء جنسه . مثل : سـيّدُ الأمراء فى العالمين ، وسيّدُ العلمـاء والحُكّام فى العـالمين ، وما أشبه ذلك؛ ثم فى حقّ كل أحد من أرباب الأقلام والسيوف بحسب مايقتضيه حالُه علىٰ نحو ما تقدّم فى الكلام علىٰ ماتتفاوت رتبُه بالعُلُوّ والهُبُوط .

الجمــــلة الثامنة

(فى بيـان محل اللّقب المضافِ إلىٰ الملك ولقبِ التعـريف الخاصّ به الواقعِ تِلْوَ اللقب الملوكىّ ، مثـل المَلَكىّ الناصرىّ الزَّيْنىّ وما أشبه ذلك ؛ وله ثلاثة أحوال)

الحـالة الاولىٰ — أن يكونَ ذلك فى ألقاب السلطان نفسِه ، كما يقع فى التقاليد والمَنَاشير ونحوهما . فموضعُه بعدَ رُسِم بالأمر الشريف ،أو خَرجَ الأمرُ الشريف ، مثـل أن يُكْتَب رُسِم بالأمر الشريفِ العـالِى المَوْلَوِىّ السلطانىّ المَلَكىّ الناصرىّ الزَّيْنِىّ ، أو— فلذلك رُسِم بالأمر الشريفِ الفلانِىّ الفلانىّ ، أو خرج الأمرُ الشريفُ العالى المَوْلوِىُّ السلطانىّ المَلَكِىّ الفُلَانىّ الفُلَانىّ ، وما أشبه ذلك .

الحـالة الثانية — أن يكون اللقب المضاف إلىٰ الملك فى ألقاب المكتوبِ له ، كما لو كُتِب فى تقليد أو نحوه . ومحـلُّه بعد ذكر اسم المكتوبِ له بعـد الألقاب ، مثل أن يقال بعد ٱنتهاءِ الألقـابِ : فُلَان الظاهِرىّ أو الناصِرىّ ونحو ذلك ، ولا يقال له المَلَكىّ حينئذٍ .

الحالة الثالثة — أن يكون فى ألقاب المكتوب عنه كما يُكْتَب فى أوّل المُكاتباتِ المَلَكِىُّ الفلانىّ، وقد آصطلَحُوا علىٰ أن يُكْتَب ذلك تحت جَرَّة البسملةِ علىٰ ماسيأتى بيانه إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة التاسعة

(فى ترتيب جملةِ الألقابِ الفُروع علىٰ الألقاب الأُصُول علىٰ قَدْر طَبَقاتها، وهى قسمان)

القسم الأوّل

(الألقابُ الإسلاميَّةُ)

واعلم أن ترتيبَ الألقاب تارةً يكون فى السُّلْطانِيَّات ، وتارةً يكون فى الإخوانِيَّات وما يُكْتَب عن النُّوّاب . وقد كانوا فى الأيَّام الناصِرِيَّة « محمد بن قلاوون » يستعملون فى الإخْوانِيَّات وما يُكْتَب عن النُّوَّاب النُّعوتَ المركَّبة كما فى السُّلْطانيات، لا يَفْرِق بينهما إلا ماقى الإخوانيات وما فى معناها من الألقاب التى لاتصْلُح للسلطانيات، كالمَوْلَوِىّ والسيِّدىّ والمَخْدُومىّ ونحوها . أما الآنَ فقد وقع الاقتصارُ فيها علىٰ المُفْرَدات دُونَ المركَّبات، وصارت المركَّبات مختصةً بالسلطانِيَّات .

ثم الألقابُ الإسلاميةُ الفروعُ المرتَّبةُ علىٰ الألقاب الأصولِ علىٰ سبعة أضْرُب :

الضرب الأوّل

(الألقاب المتعلّقةُ بالخلافة وما يلتحِقُ بها، ومَبْناها على الاختصار ؛
وهى ثلاثةُ أنواع)

النـــــوع الاوّل

(ألقــابُ الخلفاء ، وهى صـــنفان)

الصنفُ الأوّل — أن تكون لنَفْس الخليفة . فكان يقال فيها فى الزمن القديم « عبدُ اللهِ فلانٌ أميرُ المؤمنين » [فإن كان اسمُ الخليفةِ عبدَ الله كالمأمون كُرِّر الاسمُ مرتين : مرةً للاِسم العَلَم ومرةً للقَبِ الخِلافة ، فيقال : « عَبْد الله عبدُ الله أمير المؤمنين »](١) ثم زِيد فيهـا الكنيةُ بعدِ ذلك، فقيـل « عبدُ الله فلانٌ أبو فلان أمير المؤمنين » ثم زِيدَ لفظُ الإمام فقيـل « عبد الله فلانٌ ابو فلان [الإمام](١) الفلانِىُّ — بلقب الخلافة مثل المتوكل علىٰ الله ونحوه — أمير المؤمنين» ثم زيد ووليُّه بعد عبدِ الله، فقيل : «عبدُالله ووليه فلانٌ أبو فلانٍ الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين» وهو ما استقرّ عليه الحال آخِرا .

الصنف الثـانى — أن تكون الألقـاب للدِّيوان فى مكاتبةٍ أو غيرها . والذى اصطُلِح عليه أن يقال « الدِّيوانُ العزيزُ المَوْلَوىُّ السيِّدىّ النَّبَوىّ الإمامىّ الفلانىّ» بلقب الخلافة .

---

(١) الزيادة عن ضوء الصبح للؤلف ج ١ ص ٣٦٩ لتمام الفائدة .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ وُلَاة العـــهد بالخلافـــة)

وهى « الجـانِبُ الشريفُ ، المَوْلَوِىّ ، السيِّدىُّ ، النَّبوِىّ ، الفُلانىّ » بلقبه المنسوب إلىٰ الخلافة . وربما قيل فيه الجَنَاب بدل الجانب ، وبقيَّةُ الألقاب علىٰ ماتقدّم .

النـــوع الثـالث

(ألقـابُ إمام الزيدية باليَمَن)

وهى «الجَنَاب الكريم، العـالى ، السيِّدىّ، الإمامىّ، الشَّريفىّ ، النَّسِيبىّ ، الحَسِيبىّ، الفلانىّ» بلقب التعريف «سَـلِيل الأطهار ، جَلَال الإسـلام، سَيْف الإمام، بقِيَّة البيت النبوِىّ، نَخْر الحَسَب العلوىّ، مُؤيِّد أمورِ الدين، خليفة الأئمة، رَأس العَلْياء ، صالِح الأولياء ، علَم الهُدَاة ، زَعِيم المؤمنين ، ذُخْر المسلمين ، مُنْجِد الملوك والسلاطين» .

الضرب الثـانى

(الألقابُ المُلوكيـــة ، وهى نوعان)

النـــوع الأوّل

(الألقابُ التى آصطُلِح عليها للسلطان بالدِّيار المصرية علىٰ ما الحالُ مستقرّ عليه، وقد ذكر فيها فى التعريف مذهبين)

المذهبُ الأوّل ــ أن يقال « السُّـلطان السيِّدُ الأجَلُّ الملكُ الفلانىّ العالم العادلُ المجاهِــدُ المرابطُ المثاغرُ المؤيَّد المظفَّر المنصورُ الشاهنْشاه فلانُ الدنيا

والدِّين، سلطـانُ الإسلام والمسلمين ، مُحْيِي العَدْل فى العالَمين، وارثُ المُلْك، مَلِك العَرَب والعجَمِ والتُّرْك ، ظلّ الله فى أرضِه ، القائمُ بسُنَّته وفَرْضه ، إسكندرُ الزمان، مُمَلِّك أصحـابِ المَنابِر والأسِرَّة والتِّيجان ، واهبُ الأقاليم والأمصارِ، مُبِيـد الطُّغاة والبُغـاة والكُفَّار، حامى الحرمين الشريفين والقبلتين ، جامعُ كلمةِ الإيمـان، ناشرُ لِواء العدلِ والإحسان ، سـيِّدُ ملوك الزمان ، أبو فلان فلان، ٱبن السلطان الشهيد الملك الفلانى، والد الملوك والسلاطين، أبى فلان فلان » .

أما فى "التثقيف" فإنه ذكـر ذلك بزيادةٍ وتغيير، وتقديم وتأخير ـ فقال : « السلطان الأعظمُ، المـالك الملك الأشرف السيدُ الأجلُّ العالم العادل المؤيَّد المجاهدُ المرابط المثاغرُ المظفَّر الشاهِنْشاه ناصرُ الدُّنيـا والدين، سلطانُ الإسلام والمسلمين، محيي العدل فى العالمين، مُنْصِف المظلومين من الظالمين، وارث الملك، سلطان العَرَب والعَجَم والترك، فاتح الأقطار، مانحُ الممالك والأمصار، إسكندَرُ الزمان، مُولِى الإحسان، جامع كلمة الإيمـان ، مُمَلِّك أصحاب المَنابِر والتُّخُوت والتِّيجان ، مَلِك البحرين، مسَلِّك سُبُل القبلتين، خادمُ الحرمين الشريفين، ظلُّ الله فى أرضه، القـائمُ بسنَّته وفرضه ، سلطانُ البسيطه ، مؤمِّن الأرض المُحِيطه ، سـيد الملوك والسلاطين ، وَلِىّ أمير المؤمنين، أبو فلان فلان بن فلان » . وذكر أن الغالب أن تُحْذَف الشاهنشاه، لأن معناها مَلِك الأملاك، وقد تقدّم النهىُ عن التسمِّى بذلك.

ثم قال : والواجب أن يكون بدل وَلِىّ أمير المؤمنين، قَسيم أمير المؤمنين .

المذهب الثانى ــ أن يُكْتَب المقامُ الشريف أو الكريمُ أو العالى مجرَّدا عنهما ، ويُقْتَصر علىٰ المفرَدَة دون المركَّبة . مثل أن يُكْتَب « المقـامُ الشريفُ العـالى ،

المَوْلوِىّ، السلطانىّ، المَلَكِىّ، الفلانىّ، ابو فلانٍ فلان» . قال فى "التعريف" : وإلىٰ هذا ذهب المتأخرون من الكُتّاب ؛ ثم قال : وأنا علىٰ الأوّل أعمَلُ .

النــــوع الثـانى

(الألقـاب التى يُكْتَب بهـا عن السـلطان لغيره من الملوك، وهى علىٰ ثلاثة أصـــناف)

الصنف الأوّل

(ألقـابُ وُلاة العهــد بالسّــلْطنة)

« وهى المَقَام العالى ، العالِىّ ، العادِلىّ ، المَلَكِىّ ، الفُلانىّ ، الفُلانىّ ـ بلقبِ الملك واللقبِ المتعارف » . قال فى " التثقيف " : فإن كان أخًا للسلطان زِيد فيه الأَخَوِىّ ، أو ولدا زيد فيه الوَلَدِىّ .

الصّــــنف الثـانى

(ألقابُ الملوك المستقِلّين بِصغَار البُلْدان)

كما كان صاحبُ حماةَ فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وكان يُكْتَب له : «المَقامُ الشريف العالى السُّلطانى المَلَكِىّ الفُلانى، بلقب المَلِك» . وربما كُتِب له قبل لقب الملك «الأَصِيلىّ» لعَرَاقته فى المُلْك .

الصــــنف الثـالث

(ألقابُ المكتوب إليهم من الملوك عن الأبواب السلطانية، وهى نمطان)

النمـــط الأوّل

(مايُصَدَّر بالألقاب المذكَّرة. وهى علىٰ أربع طَبَقات)

الطبقة الأولىٰ — مايُصَدَّر بالمَقَام. وأعلاها «المَقَام الأشرف» كألقاب صاحب الهِنْد، وهى: «المَقَام الأشرفُ العالِى المَوْلَوِىّ السلطانىّ الأعْظَمِىّ الشاهِنْشاهِىّ العالِمِىّ العادلىّ المجاهِدِىّ المُثَاغِرِىّ المظفَّرىّ المؤيَّدىّ المَنْصُورِىّ إسكَنْدَر الزمان، سُلطانُ الأوان، مَنْبَعُ الكَرَم والإحسان، المُعَفِّى آل ساسانَ، و بَقَايَا فراسياب وخاقان؛ ملكُ البَسِيطة، سلطان الإسلام، غِيَاث الأنام، أوحد الملوك والسلاطين».

ودونه «المَقَام الشريف» كألقاب الشيخ حسن الكَبِير صاحب بغـداد كان، وهى: «المَقَام الشريفُ العالى الكَبِيرىّ السلطانىّ العـالمىّ العادلىّ المجاهدىّ المؤيَّدىّ المُرَابِطىّ المنصُورِىّ المَلَكِىّ الفُلَانىّ الفُلَانىّ- بلقَبِ المُلْك والتعارف.

ودونه «المَقَام العـالى» كألقاب القان ببلاد أزْبَك فيما ذكره فى "التثقيف" وهى: «المقامُ العـالى السلطانىّ الكَبِيرىّ المَلَكِىّ الأكْرَمِىّ الفلانىّ- بلقب التعريف- فلان الدُّنْيا والدين مؤيِّد الغُزاة والمجـاهدين قاتِلُ الكَفَرة والمُشْرِكين، وَلِىُّ أمير المؤمنين». وكألقـاب صاحب المغرب فيما ذكره فى "التعريف" وهى: «المَقَام العالى السلطانىّ السيدُ الأجلُّ العالم العـادل المجاهد المُرابِط المُثَـاغِر المؤيَّد المظَفَّر المنصور علىٰ أعداء الله أمير المسلمين، قائد الموحِّدين، مجهِّز الغُزاة والمجاهدين، مجنِّد الجنود، عاقد البُنُود؛ مالئ صُدُور البَرَارى والبِحار،

مُزَعْزِع اسِرّة الكُفَّار ، مؤيِّد السنّه ، مُعِزّ المِلّه ، شرفُ الملوك والسلاطين ، بقيّة السلفِ الكريمِ ، والنَّسب الصَّميم ، ربيب المُلْك القديم ، أبو فلانٍ فلان » .

الطبقة الثانيـة — مايُصَدَّر بالمَقَرّ ، وأعلاها فيما رأيت « المَقَرّ الكريم » كألقاب صاحب هَراةَ فيما ذكره فى "التعريف" وهى : « المَقَرّ الكريم ، العالى العالمىّ العادِلىّ المجاهدىّ المؤيَّدىّ المُرَابِطىّ المثاغرىّ الأوْحَدىّ الفلانىّ ، شرف الملوك والسـلاطين ، خليـل أمير المؤمنين » . وكألقاب صاحب كَرْمِيان [من بلاد الروم](1) فيما ذكره فى "التثقيف" وهى : « المَقَرّ الكريم العالى المَلَكىّ الأجَلّىّ العالمىّ [العادلىّ](1) المجاهدى المؤيَّدىّ المرابِطىّ المثاغرىّ المظفَّرىّ المنصورىّ الفلانىّ ، عِزّ الإسلام والمسلمين ، فخر الملوك والسلاطين ، نَصِير الغُزاة والمجاهدين ، زَعِيم الجيوش مقدَّم العساكر ظَهِير أمير المؤمنين » .

ودونه « المَقَرّ العـالى » كألقاب صاحب مالّى من بلاد التُّكْرور فيما ذكره فى "التعريف" وهى : « المَقَرّ العالى السلطانىّ الجليل الكبير العالم العادلُ المجاهـد المؤيَّد الأوحدُ ، عِزّ الإسـلام ، شرفُ ملوك الأنام ، ناصر الغُزاة والمجاهدين ، زَعِيمُ جيوش الموحِّدين ، جمال الملوك والسلاطين ، سيفُ الخِلافة ، ظَهِير الإمامة ، عَضُد أمير المؤمنين » .

الطبقة الثالثـة — مايُصَدّر بالجناب . وأعلاها « الجَنَاب الكريم » كالقاب ملك التُّكرور فيما ذكره فى "التثقيف" أنه آستقرّ عليه الحال ، وهى : « الجَنَاب الكريم ، العالى المَلِك الجليل العالم العادل المجاهد المؤيَّد المُثاغِر المُرابِط العابِد الخاشِعُ الناسِكُ الأوْحَد فلان ، ذُخْر الإسـلام » . وكألقاب مَلِكى البَرْنُو والكانم فيما ذكره

(١) الزيادة عن الضوء .

فى "التعريف" وهى : «الجَنَاب الكريم العالى الملك الجَلِيلُ الكَبِير العالم العادِل الغازى المجاهِد الهُمَام الأوْحَد المظفَّر المنصُور عِزّ الإسلام» . ثم بقِيَّة الألقاب من نسبة ألقاب ملك التَّكْرور .

الطبقة الرابعة — ألقابُ المَجْلِس . وأعلاها « المَجْلِس العالى » كألقاب صاحب حِصْن كَيْفَا فيما ذكره فى "التعريف" وهو : «المَجْلِس العالى المَلَكِىّ الفلانى الأجَلِّىّ العالِمِىّ العـادِلىّ المجاهِدىّ المؤَيَّدىّ المرابِطِىّ المُثاغِرىّ الأَوْحَدِىّ الأَصِيلىّ الفُلَانى ـ بلقب التعريف ـ عِزّ الإسلام والمسلمين ، بَقِيَّة الملوك والسلاطين ، نَصِير الغُزاة والمجاهِدِين ، زَعِيم جُيوش المُوَحِّدين ، شَرَفُ الدول ، ذُخْر الممالك ، خليلُ أمير المؤمنين أو عَضُد أمير المؤمنين» على مخالَفة فيه فيما أورده فى "التثقيف" تأتى فى المكاتبة إليه .

ودونه المَجْلِس السامِىّ بالياء ـ كألقاب صاحب أَرْزَن ، وهى «المَجْلِس السامىّ المَلَكِىّ الفلانى ـ بلقب المُلْك ـ الأَصِيلىّ الكَبِيرىّ العالمىّ المجاهِدِىّ المؤَيَّدِىّ المرابِطىّ الأوْحَدِىّ الفلانى ـ بلقب التعريف ـ عِزّ الإسـلام ، شرف الملوك فى الأنام ، بقِيَّة السلاطين ، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، ولىّ أمير المؤمنين» .

ودونه المجلِس بغـير ياء فى ألقابه كألقاب صاحب دُنْقُـلة إذا كان مسلما ، فيما ذكره فى "التعريف" وهى : «المجلس الكَبِير الغازِى المجاهِد المؤيَّد الأوْحَد العَضُد ، مَجْـدُ الإسلام ، زينُ الأنام ، فخرُ المجـاهدين ، عُمْدة الملوك والسلاطين» ولم يذكر فيــه السامى ولا لقبًا مضافا إلى المَلِك ، وهو المَلَكِىّ إلا أنهم أوردوه فى عدّة الملوك .

قلت وأكثرُ هذه الالقاب يؤتىٰ فيها بالألقاب المختصّة بالمَلِك : إما فى المفْرَدة كالملَكِىّ الفلانىّ ، وإما فى المركّبة مثل « بقيّة الملوك والسلاطين » ونحو ذلك ، لتدُلَّ علىٰ أن المكتوب له مَلِك فيمتاز عن غيره . وربما أُتِىَ فيها بالألقاب الإماريّة دون الملوكية لوقوع اصطلاح أهل تلك المملكة علىٰ ذلك . كما يُكْتَب فى ألقاب صاحب تُونُس « أمير المؤمنين » لآدّعائه الخلافةَ ، وفى ألقاب صاحب فاس « أمير المُسْلمين » اتباعا لِيُوسُف بن تاشفين صاحبها فى القديم ، إذ كان أوّلَ من تلقب بذلك خُضوعًا عن أن يتلقّب بأمير المؤمنين ، لآختصاصه بالخِلافة كما سيأتى الكلام عليه فى المكاتبة إليه إن شاء الله تعالىٰ .

النمط الثانى

(ما يصدَّر بالالقاب المؤنَّثة ، وهى الحَضْرة)

ويختلف الحال فيها باختلاف الممالك . فألقاب القانِ بمَمْلكة إيران علىٰ ما كان عليه الحال فى أيام السلطان أبى سعيد وما قبله « الحَضْرة ، الشريفةُ ، العاليةُ ، السلطانِيَّة ، الأعظَمِيَّة ، الشاهِنْشاهِيَّة ، الأوحدية ، القانِيَّة ، الفُلانيـة » . قال فى "التعريف" ولا يخلط فيها المَلَكية لهوانها لديهم وإن كان صاحب "التثقيف" قد أثبت فيها المَلَكية أيضا علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ المكاتبة إليه فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . وألقابُ صاحب تُونُس فيما ذكره فى "التثقيف" «الحَضْرة ، العلية ، السَّنِيَّة ، السَّرِيَّة ، المظفَّرِية ، الميمُونَة ، المنصُورة ، المَصُونة ، حضرة الأمير العالم » إلىٰ آخر الألقاب المذكورة .

الضربُ الثـالثُ

(من الألقاب الإسلامية الألقابُ العامّةُ لسائر الطوائف ممـا يُكْتَب به عن الأبواب [السلطانية](١) ، وهى ثمـانية أنواع)

النـــــوع الأوّل

(ألقابُ أربابِ السيوف من أهل المملكة وغيرهم : من الأُمَراء والعُرْبان والأكراد والتُّرْكمان . وهى على خمس درجات)

الدرجـــة الأولىٰ

(درجة المَقَرّ ، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبـــة الأولىٰ ــ مرتبة المَقَرّ الشريف . وهو مختَصٌّ فى عُرْف الزمان بمـا يُكْتب عن نُوّاب السلطنة .

وصورتُهـا على ما أورده فى "عُرْف التعريف" : « المَقَرّ الشريفُ ، العـالى ، المَوْلَوِىّ ، الأميرِىّ ، الكَبِيرِىّ ، العالِمِىّ ، العادلِىّ ، المهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الزَّعِيمىّ ، المقَدَّمىّ ، الغَوْثِىّ ، الغِيَاثِىّ ، المرابِطِىّ ، المُثَاغِرِىّ ، الظَّهِيرِىّ ، المالِكِىّ ، المخدُومىّ ، الفلانى ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّد الأمراء فى العالمين ، زعيمُ الجيوش ، مُقَدَّم العساكر ، عَوْنُ الأمة ، غِيَـاث المِلَّة ، ممهِّد الدُّوَل ، مشَيِّد الممـالك ، ظَهِيرُ الملوك والسلاطين ، عَضُدُ أمير المؤمنين » .

المرتبة الثانية ــ مَرْتَبة المَقَرّ الكريم . وهى مستعملة فى السُّلْطانيات وما يُكْتَب عن النُّوّاب .

(١) الزيادة من الضوء ص ٣٧٢ .

فأما فى السُّـلْطانيات فصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى الألقاب المستَقِرّة للنـائب الكافِلِ ونائب الشام : «المَقَرُّ الكريم ، العـالى ، الأميرِىّ ، الكَبِيرِىّ ، العالِمِىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدِىّ ، الزَّعيمىّ ، الغَوْثىّ ، الغِيَاثىّ ، المُثَاغِرِىّ ، المُرَابِطىّ ، الممهِّدىّ ، المشَيِّدىّ ، الظَّهِيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكىّ ، الأَتَابكىّ ، الكَفيلىّ ، الفُلانىّ ؛ مُعِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّد أُمَراء العالمين ، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين ، زَعِيم جُيوش الموحِّدين ، ممهِّد الدُّوَل ، مشَيِّد الممـالك ، عِمادُ المِلَّة ، عَوْنُ الأمة ، ظَهير الملوك والسلاطين ، عَضُد أمير المؤمنين » .

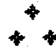

وأما فيما يكتب عن النُّوّاب فقـد ذكر فى " التعريف " أنّ ألقابها من نسـبة ما تقدّم فى ألقاب المقرّ الشريف .

وصورتها علىٰ ما أورده شِهـاب الدين الفـارق فى دُسْتوره عن نائب الشام : «المَقرّالكريم ، العالى ، المَوْلَوِىّ ، الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدِىّ ، الممهِّدىّ ، الغَوْثىّ ، المقدَّمىّ ، الذُّخرىّ ، الغِيَاثىّ ، الفلانى ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، زعيمُ جيوش الموحِّدين ، مقدَّم العساكر المجاهدين ، ذُخْرالدولة بهَاء المِلَّة ، ممهِّد المملكة ، ظَهِير الملوك والسلاطين ، عَضُد أمير المؤمنين » .

وصورتهـا علىٰ ما أورده الصَّلاح الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام أيضا : «المَقرّ الكريم ، العـالِى ، المَوْلَوِىّ ، الأميرِىّ ، الكبِيرىّ ، العالِمِىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ ، المجاهِدىّ ، الذُّخْرىّ ، العَضُـدىّ ، النَّصيرىّ ، المقدَّمىّ ، الغَوْثىّ ، الغِيَاثىّ ، الفلانىّ ؛ رُكْنُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجـاهدين ، غِيَـاث المِلَّة ، كَهْف الأمة ، ذُخْر الملوك والسلاطين » .

ثم قال : وإن كان المكتوبُ إليه نائبَ سلطنة زيد فى ألقابه « المَمَهِّدىّ ، المَشَيِّدىّ ، الزَّعيمىّ ، المدبِّرىّ ، الكافِلىّ ، الفلانىّ » .

وصورتُها على ما أورده غيره : «المَقَرّ الكريم، العالِى، المَوْلَوِىّ، الأَميرِىّ، الكَبِيرىّ، العالِمِىّ، العادلىّ، الغَوْثِىّ، الغِيَاثىّ، الذُّخْرىّ، الزَّعيمىّ، الفُلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيِّدُ الأمراء فى العالمين، جَمالُ الدولة، ذُخْر الملة، زَيْن المملكة، عَيْن السلطنة، سَفِير الأمة، ظَهِير الملوك والسلاطين، عَضُد أميرِ المؤمنين» .

وصورتها على ما رأيتُه فى بعض الدَّساتير عن نائب حَلَبَ : «المَقَرّ الكريمُ، العالِى، المَوْلَوِىّ، الأمِيرِىّ، الكَبِيرىّ، العالمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدىّ، الذُّخرىّ، المُشَيِّدىّ، الزَّعيمىّ، الظَّهيرىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء فى العالمين، ناصِرُ الغُزَاة والمجاهدين، زَعِيمُ الجيوش، مقدَّمُ العساكر، عَوْن الأمة، ظَهِير الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مَرْتبةُ المَقَرّ العالى . وقد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابها من نسبة ما تقدّم فى المَقَرّ الشريف . وذكر الصَّلاح الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام فى ألقابه ما تقدّم له فى ألقاب المَقَرّ الكريم ثم قال : إلا أنه لا يقال فيه الذُّخْرِىّ .

وصورتها على ما رأيته فى توقيع نَقِيب الأشراف بحَلَبَ عن النائب بها : «المقرّ العالى، الأميرِىّ، الكبِيرِىّ، النَّقِيبىّ، الشَّرِيفىّ، الحَسِيبىّ، النَّسِيبىّ، العَرِيقىّ، الأَصِيلىّ، الفاضِلىّ، العَلَّامىّ، الحُجِّىّ، القُدْوِىّ، الناسكىّ، الزاهِدىّ، العابِدِىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، جلالُ العلماء العاملين، جَمالُ الفُضَلاء البارعين، حُجَّة الأمراء الحاكمين، زَيْنُ العِتْرة الطاهرة، شرفُ الأُسْرة الزاهرة، حُجَّة العِصَابة

الهاشمية، قُدوة الطائفة العَلوِيّة، نُخْبةُ الفِرْقة الناجيةِ الحُسَيْنية، شرفُ أُولِى المراتب، نقيب أُولى المَناقب، مَلاذُ الطُّلّاب الراغبين، بَركةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثانيـــــة

(درجة الجَنَاب، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مَرْتبةُ الجَنَاب الشريف . وليست مستعملةً فى السلطانيات، وهى مستعملة فيما يُكْتَب عن النُّوّاب .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" : « الجَنَاب الشريف العالِى، المَوْلَوِىّ، المجاهِدِىّ، المؤيِّدىّ، المَمهّدىّ، الذُّخْرِىّ، الأَوْحدِىّ، العَوْنِىّ، الظَّهِيرِىّ، الفلانى؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء المقدَّمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، عِمادُ الملة، عونُ الأمة، ذخر المِلَّة، ظَهِير الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

المرتبة الثانيةُ — مرتبـــة الجَنَاب الكريم . وهى مستعملةٌ فى السُّلْطانيات وما يُكْتَب عن النُّوّاب .

فأما فى السلطانيات فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب النائب الكافل فى الزَّمن المتقدّم : «الجَنَاب الكريم العالى، الأَميرِىّ، الأجلِّىّ، الكَبِيرِىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، المَمهِّدىّ، المشيِّدىّ، الزَّعِيمىّ، الذُّخرىّ، المقدَّمىّ، العَوْنِىّ، الغِيَاثىّ، المرابِطىّ، المُثَاغِرِىّ، المظَفَّرى، المنصورىّ، الأتابَكىّ؛ رُكْن الإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، أتابك الجُيُوش، مقدَّم العساكر، زعيم الجُنود، عاقد البُنود، ذُخر الموحِّدين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، غِياثُ الأمّة،

عون الملة ، مشَـيِّد الدُّوَل ، كافلُ الممـالك ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، عَضُد أميرِ المؤمنين » .

وصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب النائبِ الكافلِ أيضا علىٰ ما كان الحال عليه أوّلا : «الجَنَاب الكريم العالى، الأَميرىّ، الكبيرى ، العالمىّ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ، الزَّعِيمىّ، العَوْنىّ، الغِيَـاثىّ ، المُثَاغِرىّ ، المُرَابِطىّ، الممَهِّـدىّ، المَشَيِّدىّ، الظَّهِيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ؛ مؤيِّد الإسلام والمسلمين ، سـيِّدُ أمراءِ العالمين، ناصر الغُزَاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، مقدَّم العساكر، ممهِّـد الدول ، مشَـيِّد الممالك، عِمـادُ الملة ، عون الأُمَّة، كافل السـلطنة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التعريف" فىألقاب نائب الشام علىٰ ما كان الحال عليه أوّلا : «الجَنَاب الكريم العـالى، الأميرىّ، الأجَلّىّ، الكَبِيرىّ، العالمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدىّ، الممَهِّدىّ، المشَيِّدىّ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ، الذُّخْرىّ، الزَّعِيمىّ، المقدَّمىّ، الظَّهِيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سـيد الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ الجُيُوش، مقدَّم العساكر، عونُ الأمة، غياثُ المِلَّة، ممهِّد الدول ، مشيِّد الممالك، ظهيرُ الملوك والسلاطين، عضُدُ أمير المؤمنين» .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى المكاتبـة لنائب الشام علىٰ ما كان عليه الحال أيضا : « الجَنَاب الكريم العالى ، الأميرِىّ، الكَبِيرىّ ، العالمىّ، العـادلىّ، المؤيِّدىّ ، الزَّعِيمىّ ، العَوْنىّ ، الغياثىّ ، المُثَاغِرىّ ، المرابطىّ ، الممهِّـدىّ ، المُشَيِّدىّ، الظَّهِيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الاسـلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجـاهدين ، زعيمُ جيوش المَوحِّدين ، مقـدَّم العَساكر،

ممهِّد الدول ، مشيِّد الممالك ، عِمادُ الملة ، عَونُ الأمة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سَيْفُ أمير المؤمنين» .

وصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى المكاتبة إلىٰ أحد الأمراء الأَلُوس بمملكة إيران فى دولة السلطان أبى سَعيد : «الجنَاب الكَريم العالى، الأميرىّ، الكَبيرىّ، العالِمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدى، الزَّعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغِيَاثىّ ، المُثاغِرىّ ، المُرَابِطىّ ، المَمَهِّدىّ ، المُشَيِّدىّ ، النُّوَيْنِىّ ، الفُلانىّ ؛ عَوْنُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء فى العالمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحِّدين، ممهِّد الدُّوَل، عِمادُ المِلَّة، عونُ الأمة، كافِى الدولة القانيَّة، كافل المَمْلكة الشرقية، أميرالتَّوامين، أميرالأَلُوس، ظهيرُ الملوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين» .

وصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب ٱبن المظَفَّر اليزدى : «الجنَاب الكريمُ العالى ، الأميرىّ ، الكَبيرىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ ، الزَّعيمىّ، المُمَهِّدىّ ، المشَيِّدىّ، الظَّهيرىّ، الغِيَاثىّ، المُثاغِرىّ، المرابِطىّ، النُّوَيْنىّ، الفلانىّ ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جيوش الموحِّدين، مقدَّم العساكر، ممهِّد الدول، مشَيِّد الممالك، عمادُ المِلَّة ، عونُ الأمّة، حاكمُ أمور وُلاةِ الزمان، موَضِّح قوانينِ العَدْل والإحسان، اعتضادُ صَناديدِ الأَوان، مستَنيب ملوكِ العَجَم، مستخْدِم أرباب الطَّبْل والعَلَم ، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

وأمّا فيما يُكْتَب عن النوّاب وما كان يكتب به فى الإخْوانيات فى الزمن المتقدّم، فقد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابه من نِسْبة ما تقدّم فى ألقاب الجناب الشريف .

وصورتها على ما أورده القاضى شهابُ الدين الفارقىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام : « الجَنابُ الكريم العالى ، المَوْلوىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العـالمىّ ، العادلىّ ، العَضُدِىّ ، النَّصيرىّ ، المؤيِّدىّ ، المقدَّمىّ ، الذُّخْرِىّ ، الفلانىّ ؛ مَجْدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، نُصرةُ الغُزَاة والمجاهدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها على ما أورده الصَّلاح الصفدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام : «الجَنابُ الكريم العـالى ، المَوْلَوِىّ ، الأمـيرىّ ، العالمىّ ، العـادِلىّ ، العَوْنىّ ، الغِيَـاثىّ ، الظَّهيرىّ ، المُقَدَّمىّ ، الفلانىّ ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، ناصِرُ الغُزاة والمجاهِدِين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنَاب العالى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وما يكتب عن النّوّاب وما كان فى الإخوانِيَّات قديما .

فأمّا فى السلطانيات فلها رتبتان :

الرتبة الأولى — مع الدعاء بمضاعَفَة النعمة .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب نائبِ حلبَ على ما كان الحال عليـه أوّلا : « الجَنابُ العالى ، الأميرىّ ، الأجَلِّىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ، المهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، العوْنىّ ، الذُّخْرِىّ ، الزَّعِيمىّ ، المقدَّمىّ ، الظَّهيرىّ ، المُرابِطىّ ، المُثَاغِرىّ ، الفلانىّ ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الأمراء فى العالمين ، نَصيرُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحِّدين ، عمـادُ الأمة ، ذُخْرُ الدولة ، ظهـيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين » .

وصورتهـا على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب نائب طَرَابُلُسَ ومَنْ فى رُتْبته : «الجناب العـالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنىّ ،

الزَّعيمىّ، المَهِّدى ، المشَـيِّدىّ ، الظَّهِيرىّ، الكافِلىّ ، الفُلانىّ؛ عِزُّ الإسـلام والمسلمين، سـيدُ أمراء العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموَحِّدين مقدَّم العساكر، ممهِّد الدُّوَل، مشَيِّد الممـالك، عمادُ المِلَّة ، عونُ الأمة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب قطلوبغا إيناق أحد امراء الألُوس ببلاد أزْبك : «الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، العَوْنىّ، الزعيمىّ، الممهِّدىّ، المشَيِّدىّ، الظهيرىّ، النُّوَيْنِيّ، الفلانىّ؛ عزُّالإسلام والمسلمين، سيد الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزَاة والمجاهدين، زعيمُ الجيوش، مقدَّم العساكر، كَهْفُ المِلَّة، ذُخْر الدَّوْلة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين» .

الرتبـة الثـانية — مع الدعاء بدوام النعمة .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب مقدَّم العسكر بغَزَّة ومَنْ فى رتبته : «الجنابُ العالى، الأميرىّ، الكَبيرىّ ، العالِىّ، العادلىّ، المؤيِّدى ، الأوْحَدىّ ، النَّصيرىّ، العَوْنىّ، الهُمَامىّ، المقَدَّمىّ، الظَّهِيرىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيدُ الأمراء فى العالمين ، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّم العساكر ، كهفُ المِلَّة ، ذُخْر الدَّوْلة ، عمادُ المملكة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسامُ أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب مماى : أحد الحُكَّام ببلاد أزبك كان : «الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المُجَاهدىّ، المؤيِّدىّ، الذُّخْرىّ، النَّصيرىّ، الهُمَامىّ، المقدَّمىّ ، النُّوَيْنىّ، الفلانىّ؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين ، سـيد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، مقدَّم العساكر، ذُخْر الدولة ، عَضُد الملوك والسلاطين، حُسَام أمير المؤمنين» .

وأمّا ما يكتب عن النوّاب وما كان يكتب فى الإخوانيات قديمـا، فقـد ذكر فى "عرف التعريف" أن ألقابه من نِسْبة ماتقدّم فى ألقاب الجَنَاب الشريف .

وصورتها علىٰ ما أورده الصَّـلاح الصفَدِىُّ فى دُسْتوره عن نائب الشام فى الرتبة الأولىٰ منها : «الجنابُ العالى، الأميرىّ، الأجلىّ، الكبيرىّ، المؤيِّدىّ، المجاهِدىّ، العَوْنىّ، المقدَّمىّ، الاسفَهْسَلَارىّ، الظَّهِيرىّ، الفلانىّ؛ مَجْد الإسلام والمسلمين، شرفُ الأمراء المقدَّمين، نُصرة الغُزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذْكِرة الآمِديَّة" عن نائب الشام أيضا فى الرتبة الثانية من هذه المرتبة : «الجنابُ العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العَضُدىّ، الذُّخْرىّ، النَّصِيرىّ، المؤيِّدىّ، المَقدَّمىّ، الظَّهيرىّ، الفُلانِىّ؛ مجد الإسلام والمسلمين، شرفُ الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين، ظهيرُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــــة

(درجة المجلس وفيهـا ثلاث مراتب)

المرتبـــــة الأولىٰ

(مرتبـــة المجلس العـالى)

وهى مستعملة فى الســلطانيات وما يكتب عن النوّاب وما كان يكتب فى الإخوانيات قديمـا .

فأما فى السلطانيات فلها رتبتان :

الرتبة الأولىٰ — مع الدعاء للمجلس .

وصورتُها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب نائب الكَرَك : «المجلسُ العالى، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، المجاهـدىّ ، المؤيِّدىّ، المقدَّمىّ ، الأوحدِىُّ ، النَّصِـيرى ، الهُـمَامىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانىّ ؛ عِزُّ الإسـلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدَّمُ العساكر ، كَهْفُ المِلَّة ، ذُخْرالدولة، ظهيرُ الملوك والسلاطين، حُسامُ أمير المؤمنين » .

وصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" أيضا فى ألقاب وزير القانِ ببلاد أَزْبك : «المجلس العالى الأميرىّ، الكَبِيرىّ، الذُّخْرِىّ، الأَوْحَدِىّ ، الاكملىّ، المتصرِّفىّ ، العَوْنىّ ، الوَزِيرىّ، الفُلانىّ، مجدُ الإسـلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء والوزراء فى العالمين ، جَمَـالُ المتصرِّفين ، أوحدُ الأولياء المقرَّبين ، ذُخْرالدولة ، مُشِير الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما أورده فى " التثقيف " أيضا فى ألقاب حافظ أخِى على باشاه : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيِّدىّ، الأوحدِىّ، النَّصِيرى، العوْنىّ، الهُمَامىّ،المقدَّمىّ، الظَّهِيرىّ، النُّوَيْنِىّ، الفلانىّ؛ عِزّالإسلام والمسـلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ الجُيُوش، مقـدَّم العساكر، كهفُ المِلَّة ، عِمادُ الأُمَّة، ظَهِير المُلوك والسلاطين ، حُسام أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ ما أورده فى " التثقيف " فى ألقاب أمير مكة المشرفة : « المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الشَّرِيفىّ، الحَسِيبىّ، النَّسِيبىّ، العالمىّ، المجاهِدِىّ،

المُقَدَّمى ، الأوحَدِىّ ، النَّصِيرىّ ، العَوْنىّ ، الهُمَامِىّ ، الظَّهيرىّ ، الأَصِيلىّ ، العَرِيقىّ ، الشِّهَابِىّ ؛ عِزّ الإسلام والمسلمين ، شَرفُ الأمراء الأشراف فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، كهفُ المِلَّة ، عَوْنُ الأُمَّة ، فخرُ السُّلالة الزاهره ، زينُ العِتْرة الطاهره ، بَهاء العِصَابة العَلَويّه ، جَمالُ الطائفة الهاشميه ، ظهير الملوك والسلاطين ، نَسِيبُ أمير المؤمنين» .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب أمير آل فَضْل من عرب الشام : « المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، الأوحدىّ ، النَّصيرىّ ، العَوْنِىّ ، الهُمامىّ ، المقدَّمىّ ، الظهيرىّ ، الأَصِيلىّ ، الفلانى ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء العُرْبان فى العالمين ، نُصرة الغزاة والمجاهدين ، مقدَّم العساكر ، كهفُ المِلَّة ، ذُخْر الدولة ، عمادُ العَرَب ، ظهير الملوك والسلاطين ، حُسَام أمير المؤمنين» .

الرتبة الثانية — المجلس العالى مع صدَرَتْ .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب نائب الرَّحْبة ومَنْ فى رُتْبته : «المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العَضُدىّ ، الذُّخْرىّ ، النَّصِيرىّ ، الأوحدىّ ، المؤيِّدِىّ ، العَوْنىّ ، الهُمَامىّ ، المُقَدَّمىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، نُصرة الغُزاة والمجاهـدين ، مقدَّمُ العساكر ، ذُخْر الدولة ، كَهف المِلَّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين» .

وأما فيما يكتب عن النُّوّاب وما كان يُكْتَب فى الإخوانِيّات أوّلا ، فصورتُها علىٰ ما أورده فى "عُرف التعريف" : «المجلسُ العالى ، الأميرىّ ، الاسفَهْسلارى ،

الأجلِّىّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، النَّصيرىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، زينُ الأمراء المقدَّمين ، نُصرة الغزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما أورده الصلاحُ الصَّفَدىّ فى دُسْتُوره عن نائب الشام "المجلس العالى ، الأميرىّ ، الأجلِّىّ ، الكبيرىّ ، المؤيِّدىّ ، المجاهدىّ ، الاسفَهْسلارىّ ، العَوْنىّ ، الظَّهيرىّ ، الفلانى ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدّمين نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمديَّة" عن نائب الشام : «المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العضُدىّ ، النَّصيرىّ ، المؤيِّدىّ ، المجاهدىّ ، الذُّخْرىّ ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، ذُخْر الغُزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية

(مرتبة المجلس السامىّ بالياء)

وهو مستعمل فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتُها علىٰ ماذكره المَقَرُّ الشِّهابىّ بن فضل الله فى بعض دساتيره فى توقيع نَقِيب الأشراف : «المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدىّ ، الشريفىّ ، الحَسِيبىّ ، النَّسيبىّ ، الذُّخْرىّ ، النَّصيرىّ ، الأوْحدِىّ ، الأَصِيلىّ ؛ عزُّ الإسلام ، زينُ الأنام ، نَسِيب الإمام ، شرفُ الأمراء ، نقيبُ النُّقَباء ، جَمَالُ العِترةِ الطاهره ، جلالُ الأُسْرة الزاهره ، ذُخْر الغُزاة والمجاهدين ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين» .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقـاب الكُشَّاف بالوجهين القبلى والبحرى بالديار المصرية : «المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الذُّخرىّ ، النَّصيرىّ ، الأوحدِىّ ، المؤيِّدىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام ، بَهَـاء الأنام ، شرفُ الأمراء ، أوحدُ المجاهدين ، عضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض المراسيم لأمير آل مرا من عَرَب الشام : « المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهـدىّ ، المؤيِّدىّ ، العَضُـدىّ ، الذُّخرىّ ، النَّصـيرىّ ، الأوحدىّ ، الأَصيلىّ ، العَريقىّ ؛ مجد الإسلام ، بهَـاء الأنام ، شرفُ الأمراء ، زيْنُ القبائل ، فخر العَشَائِر ، مَلَاذُ العرب ، عَضُـد الملوك والسلاطين » .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب وزير الشيخ أويس ببغداد : « المجلس السـامِىّ ، الأجَلِّىّ ، الكبيرىّ ، الأوحـدىّ ، المقـدَّمى ، المنتخَبِىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام ، بَهَاءُ الأنام ، شرفُ الرؤساء ، أوحد الأعيان ، صَفْوة الملوك والسلاطين » .

وصورتها فى ألقـاب أمراء العرب : «المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الكبِيرىّ ، الذُّخرىّ ، المؤيِّدىّ ، الفـلانىّ ؛ مجدُ الإسـلام ، بَهَـاء الأنام ، زينُ القبـائل ، فَخْر العشائر ، عِمادُ الملوك والسلاطين » .

وأما فيما يُكْتَب عن النُّوّاب ونحوهم ، فصورتها علىٰ ما أورده فى "عُرْف التعريف" : «المجلس السامِىّ ، الأميرىّ ، الأجَلّىّ ، الكبِيرىُّ ، المؤيِّدىّ ، العَضُدىّ ، النَّصيرىُّ ،

الأوحدىّ، الهُمَامِىّ ، الفلانىّ؛ مَجْد الإسلام ، زينُ الأمراء فى الأنام؛ ذُخْر الغُزاة والمجاهدين، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتُهـا علىٰ ما أورده شِهابُ الدين الفارقىّ فى دُسْـتُوره عن نائب الشام : «المجلس السامىّ، الأميرىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، المؤيِّدىّ، الفلانى ؛ مجدُ الإسـلام ، جَمالُ الأمراء، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، عَضُـد الملوك والسلاطين » .

وصورتهـا علىٰ ماأورده الصَّلاحُ الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام أيضا : «المجلس السامِىّ، الأميرىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، المؤيِّدىّ، المجاهدىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ ، الهُمَامىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسـلام ، شرفُ الأمراء ، نُصْرة الغُزَاة، عمدةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـالثـــة

(مرتبـــةُ المجلس السامِى بغـــير ياء)

وهى مستعْمَلة فى السلطانِيَّات وغيرها .

فأما فى السُّلْطانيات ، فصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب الوُلَاة الطَّبْلخاناه بالوجهين القِبْلىّ والبحرىّ : المجلسُ السامِى ، الأميرُ، الأجلُّ ، الكبيرُ، الغـازى ، المجاهـدُ ، المؤيِّد، الأوحدُ، المرتَضَى ؛ فلان الدين ، مجدُ الإسـلام، بهاءُ الأنام ، فخرُ الأمراء، زينُ المجاهدين، عمدةُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض نُسخ التَّواقيع : ترتيب الشيخ شِهَاب الدين محمود الحلبى : « المجلسُ السامِى، الأميرُ، الأجلّ، الكبير، الحَسِيب، النَّسِيب،

الطاهرُ ، الكاملُ ، العالم ، العامل ، الفاضــلُ ، الزاهـدُ ، الوَرِع ، الزَّكِىّ ، التقِىّ ؛ فلان الدين ، جلالُ الإســلام ، شرفُ السادةِ الأشراف ، فخرُ العِتْرة الطاهره ، زينُ السُّلالة الزاهره ، نقيبُ نُقَباءِ الشُّرفاء ، مجدُ العَصَبةِ العَلَويَّة ، جمال العَصَبة الفاطميَّة ؛ صدرُ الأئمة العلماء ، مجتبىٰ الدولة ، بهاء المِلَّة ، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتُهـا علىٰ مافى ألقاب النائب باليَنْبُع : «المجلسُ السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، المجاهد ، المؤيِّد ، الشريفُ ، الحَسِيبُ ، النَّسِيب ؛ مجدُ الإســلام ، بَهَـاء الأَنَام ، زينُ العِتْره ، فخرُ الأُسْره ، جمال الذُّرِّيه ، فخر الشجرة الزَّكِيَّه ، عمدةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب أكابر عُرْبان آل فَضْــل من عرب الشام : «المجلسُ السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيِّد ، الأوحدُ ، الأَصِيل ؛ فلان الديــن ، مجدُ الإسلام ، بَهَـاء الأنام ، فَخْر القبائل ، زَيْن العشائر ، عمادُ الملوك والسلاطين» .

وأما فيما يكتب عن النُّــوّاب ومَنْ فى معنـاهم ، فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" : «المجلس السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبـيرُ ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيِّد ؛ فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، زينُ الأمراء ، فخرُ الأنام ، ذُخْر الغُزاة والمجاهدين ، عَضُد الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمِدِيَّة" عن نائب الشام : «المجلسُ السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبير ، المؤيِّد ، المجاهد ، العَضُد ، النَّصِير ؛ فلان الدين ، مجدُ الأمراء ، شرفُ الخَوَاصّ ، زين الغُزَاة ، عُدّة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعـــة
(درجـــةُ مَجْلِس الأمـــير)

وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها علىٰ مَرْتَبة واحدة .

فأما فى السـلطانيات، فصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقـاب الوُلَاة العشرات بالوجهين القبلىّ والبحرىّ : « مجلس الأميرِ، الأجلّ، الكبيرِ، الغازى، المجاهد، المؤيِّد، الأوحد، المُرْتضىٰ؛ فلان الدين، مجدِ الأمراء، زين المجاهدين، عُدّةِ الملوك والسلاطين» .

وأما فيما يُكْتَب عن النُّـوّاب ومَنْ فى معنـاهم، فصـورتُها علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" : « مجلسُ الأميرِ، الأجلّ، الكبيرِ، الغازى، المجاهد، المرتضىٰ؛ فلان الدين، فَخْر الأمراء، زين المجاهدين، عُمْدة الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ما أورده الفارِقىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام : « مجلسُ الأمير، الأجلّ، الكبير، الأخصّ، الأكمل، الغازى، المجاهد، المُرْتضىٰ، المختار؛ فلان الدين، مجدِ الأمراء، زين الغُزاة، عُدّة الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمِدِيَّة" : «مجلس الاميرِ، الأجلّ، الكبيرِ، المؤيِّد، المجاهد، الأعَزّ، الأخصّ، الأكمل، المجتبىٰ، المختار؛ فلان الدين، مجد الأمراء، زين الغزاة، عُدّة الملوك والسلاطين» .

الدرجة الخامســـة

(درجة الأمـــير مجرّدا عن مضاف إليـــه)

وأ كثر ما يأتى ذلك فى الولايات أو فيمن يُكْتَب بسببه كتابٌ وما أشبه ذلك .

وصورتها فى الســلطانيات : « الأميرُ الأجلُّ » وربمـا زِيد علىٰ ذلك فقيل : « الكبيرُ الغازى » .

وصورتها فى غير السُّلْطانيات علىٰ ما أورده فى "التذكرة الآمِدِيَّة" : « الأميرُ، الأجلُّ، الأخصُّ، الأكمُل» .

النـــوع الثـانى

(من الألقاب الإسلامية الألقابُ الدِّيوانية . وهى أيضا علىٰ خمس درجات)

الدرجـــــــةُ الأولىٰ

(درجــة المَقَرّ)

وليست مستعملةً فى السلطانيات جمـلةً لأنه لا يُكْتَب لأحدٍ من هــذا النوع عن السلطان بالمَقَرّ، وهى مســتعملةٌ فيما يكتب عن النُّوّاب ومَنْ فى معناهم، ولهـا ثلاث مراتب :

المرتبــة الأولىٰ — مَرْتَبــة المَقَرّ الشريف . وصــورتهـا علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" فى ألقاب الوُزَراء من أرباب الأقلام، : «المَقَرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، الصاحِبىّ، الوَزيرىّ، المنفِّذىّ، العالِمىّ، المهِّديّ، المشيِّدىّ،

العَوْنىّ، الغِيَـاثِىّ، المـالِكِىّ، المخدُومىّ، الفلانىّ؛ صَلاحُ الإسـلام والمسلمين، سـيِّدُ الوزراء فى العالَمين، رئيسُ الأصحاب، قِوَامُ الأئمة، نِظامُ المِلَّة، مدبِّر الدولة، ذُخْر الممـالك، ظَهِير الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنين» .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "عرْف التعريف" أيضا فى ألقـاب غير الوزراء من الكُتَّاب : «المَقرّ الشريفُ، العـالى ،المَوْلوِىّ، القَضائىّ، السَّـيِّدىّ، العالِمىّ، العادلىّ ، الممهِّدىّ، المشيِّدىّ، العَوْنِىّ، الغِياثِىّ، المـالِكِىّ، المخدُومِىّ، الفلانى؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالمين، رئيسُ الأصحاب، قِوَام الأُمَّة ، نِظَام المِـلَّة، زينُ الدولة، ذُخْر الممالك، ظَهِير الملوك والسـلاطين، ولِىّ أمير المؤمنين » .

وصورتها علىٰ مارأيتـه فى بعض الدساتير عن نائب الشام فى ألقاب بعض كُتَّاب السِّرّ العلماء : «المَقرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، القاضَوِىّ، الكبِيرِىّ، العالِمِىّ، العامِلِىّ، العَلَّامِىّ، الأكْمَلىّ، الأفضَلِىّ، المُفيدِىّ، الفَرِيدىّ، القُدْوِىّ، المحقِّقِىّ، المُسَلِّكِىّ، الأَصيلىّ، العَرِيقىّ، المدبِّرىّ، المُشِيرى ،اليَمِينىّ، السَّفِيرىّ، المالِكىّ، المخدُومِىّ، الشيْخىّ، العَلَّامِىّ؛ ضِياءُ الإسلام والمسلمين، سـيدُ العلماء والرؤساء والمشايخ فى العالَمين، رئيسُ الأصحـاب، فخر الكُتَّاب، حسنَةُ الأيَّام، بقيةُ السَّلَف الكرام، صَدْرُ مِصرَ والشام، لسانُ السلطنة، سَفِير المملكة، شيخُ شُيوخ العارفين، جامع طُرُق الواصِـفِين، صَدْر المُدَرِّسِـين، مشـيرُ الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنيـن» .

المرتبة الثانية — مَرْتَبة المَقرّ الكريم . قال فى "عرف التعريف" : والألقابُ فيها من نِسْبة ماتقدّم فى ألقاب المَقرّ الشريف .

وصورتها على ما أورده الصَّلاحُ الصَّفَدىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام : «المَقرّ الكريم، العالى، المَولوىّ، القَضائى، العالِمىّ، القَوَامِىّ، النِّظامىّ، المُدَبِّرىّ، المُشيرىّ، المَلاذِىّ، الفلانىّ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين، سيِّدُ الأكابر فى العالمين، عونُ الأمَّة، ذُخْر المِلَّة، مدبِّر الدُّوَل، جَمَال الممالك، حسنةُ الوجود، خالِصةُ الملوكِ والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مَرْتبةُ المَقرّ العالى . وقد جعلها فى "عرف التعريف" من نسبة ماتقدّم من ألقاب المقرّ الشريف أيضا .

وصورتها على ما رأيته فى بعض الدَّساتير عن نائب الشام فيما كُتِب به للقاضى شرف الدين عبد الوَهَّاب بن أبى الطيب كاتب السرّ بالشام : «المَقرّ العالى، المَوْلوى، القَضائِىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضِلىّ، الكاملىّ، البارِعىّ، الأوحدِىّ، الماجِدىّ، القَوَامِىّ، النِّظامِىّ، المُفَوَّهِىّ، الرئيسىّ، الأَثيرىّ، الأثيلىّ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، الفلانى؛ عِزُّ الإسلام والمسلمين، شرفُ الرؤساء فى العالَمين، أوحدُ الفضلاءِ الماجدين، حُجَّة المُنْتشِئين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصدور، عينُ الأعيان، خالِصةُ الملوكِ والسلاطين» .

الدرجة الثانيـــة

(درجة الجَناب، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبة الأولى — مرتبةُ الجَناب الشريف . وهى مستعملةٌ[(١)] فى غير السلطان دون السُّلْطانيات . قال فى "عرف التعريف" : وهى من نسبة الألقاب المتقدّمة فى المَقرّ الشريف .

---

(١) عبارة الضوء ج ١ ص ١٨٠ «وهى مختصة بما يكتب عن النوّاب دون السلطانيات» وهى أوضح .

المرتبة الثانية — مرتَبَةُ الجناب الكريم . وجعلها فى "عرف التعريف" من نسبة ماتقدّم فى المقرّ الشريف .

وصورتها علىٰ ماأورده الصَّلاحُ الصَّفَدِىّ فى دُسْتوره عن نائب الشام: «الجَنَاب الكريمُ العالى ،المَوْلوىّ، القَضَائِىّ ، العالِمِىّ، الأوحدِىّ، الرئِيسىّ، الأجَلِّىّ، الأثِيرىّ، البارِعىّ، الماجدىّ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين، شرفُ الرؤساء فى العالمين، جمالُ الأكابر، فخرُالأعيان، أوحَدُ الكُتَّاب، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتُها علىٰ مارأيتهُ فى بعض الدَّساتيرعن نائب الشام فى توقيعٍ باسم شِهابِ الدين ابن أبى الطيب بِكِتَابة الدَّسْت بالشام : « الجَنَاب الكريم ، العالى، المَوْلوِىّ، القَضَائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العاملىّ، البارِعىّ، الكاملِىّ، الماجِدىّ، القَوامِىّ، النِّظامِىّ، الرَّئيسىّ ، الأصِيلىّ ، العرِيقِىّ، الأوحدِىّ ، الفلانى ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الرؤَساء فى العالمين، تاجُ الفضلاء المُنْتشئِين، جِهْبِذ الحُذَّاق المتصرِّفين ، سُلالةُ الأتقياء العارفين ، خالصةُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجناب العالى، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتُها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب الوزارة بالديار المصرية : « الجنابُ العالى ، الصاحِبِىّ ، الكبِيرىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، الأوحدِى ، الأكملىّ ، القَوَامىّ ، النِّظامىّ ، الأَثِيرىّ ، البلِيغِىّ ، المنفِّذِىّ ، المسَدَّدِىّ ، المتصرِّفى ، الممهِّدىّ ، العَوْنِىّ ، المدبِّرىّ ، المُشيرىّ، الوزيرىّ، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الوزراء فى العالمين ، رئيسُ الكُبَراء ، كبير الرؤساء ، أوحَدُ الأصحاب ، مَلاذُ الكُتَّاب ، قِوام الدُّوَل ، نِظَامِالمُلْك ، مُفيد

المَنَاجح، معتَمَدُ المَصَالح، مرتِّب الجُيوش، عِمادُ الملة، عونُ الأمة، مُشِير الملوك والسلاطين، ولَىّ أمير المؤمنين» .

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير عن نائب الشام فى ألقاب كاتبِ دَسْت بالشام : «الجنابُ العالى، القَضَائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأكملىّ، البارعىّ، الأوحدىّ، القَوَامىّ، النظامِىّ، المُفَوَّهِىّ، الرئيسىّ، الماجِدىّ، الفلانى؛ مجدُ الإسلام والمسلمين، شرفُ الرؤساء فى العالمين، أوحدُ الفضلاء الماجِدين، قُدوةُ البلغاء، جمال الكُتَّاب، زين المنتشئين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثة

(درجة المجلس، وفيها ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مرتبةُ المجلس العالى، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فصورتُها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب كاتبِ السرّ بالأبواب السلطانية : «المجلسُ العالى، القاضِوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، العلّامىّ، الأفضلِىّ، الأكملِىّ، البليغِىّ، المسدَّدىّ، المنفِّذىّ، المشيِّدىّ، العونِىّ، المُشيرِىّ، اليمينِىّ، السَّفِيرىّ، الأصِيلىّ، العَرِيقىّ، الفلانى؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالمين، قُدوةُ العلماء العاملين، جمالُ البُلَغاء،

أوحد الفضلاء ، جلالُ الأصحاب ، كَهْفُ الكُتَّاب ، يمينُ المملكة ، لسانُ السَّلْطنة ، سفيرُ الأمة ، سليلُ الأكابر ، مشيرُ الملوك والسلاطين ، وَلىّ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب ناظر الخَوَاصّ الشريفة : « المجلسُ العالى ، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الأوحدىّ ، الأكملىّ ، الرئيسىّ ، البليغىّ ، البارعىّ ، القوامىّ ، النّظامىّ ، الماجدىّ ، الأميرىّ ، المنفِّذىّ ، المسدَّدىّ ، المتصرِّفىّ ، الفلانى ؛ جَمالُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالمين ، قِوام المَصالح ، نِظامُ المَناجح ، جَلَالُ الأكابر ، قُدوة الكُتّاب ، رئيسُ الأصحاب ، عماد المِلّة ، صفوةُ الدولة ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده فى ألقاب وزير دمشق إذا صُرِّح له بالوِزارة : « المجلسُ العالى ، الصاحِبىّ ، الوزِيرىّ ، الأَصِيلىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الأوحدىّ ، القَوَامىّ ، النظامِىّ ، الماجِدىّ ، الأثيرِىّ ، المُشيرِىّ ، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الوزراء فى العالمين ، رئيسُ الكُبَراء ، كَبِير الرُّؤساء ، بقِيَّة الأصحاب ، مَلَاذ الكُتَّاب ، عمادُ الملة ، خالصةُ الدولة ، مُشِير الملوك والسلاطين ، خالِصةُ أمير المؤمنين » .

وصورتها على ما أورده فى ألقابه إذا لم يُصَرَّح له بالوزارة ، بل كان ناظر النُّظّار بالمملكة الشامية : « المجلسُ العالى ، القَضائِىّ ، الكبِيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأوحدِىّ ، الرئيسى ، الأثيرىّ ، القوَامىّ ، النِّظامِىّ ، المنفِّذىّ ، المتصرِّفىّ ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء فى العالمين ، أوحدُ الفضلاء ، جلالُ الكُبَراء ، حُجّة الكُتّاب ، صفوةُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أمير المؤمنين » .

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ ماأورده فى "التذكرة الآمِديّة" فى بعض التواقيع من ترتيب المَقَرّ الشّهابىّ بن فضـل الله بكتابة الدَّسْت بالشام : « المجلس العالى ، القضائِىّ ، الأجلِّىّ ، الكبيرىّ ، الرئيسىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، البارعىّ ، الأوحدىّ ، المـاجدىّ ، الأثيرىّ ، الأَثيلىّ ، الأفضلِىّ ، الأَصِـيلىّ ، الفلانى ؛ مجدُ الإسلام ، بَهاءُ الأنام ، شرفُ الرؤساء ، أوحدُ الكبراء ، صـدرُ الأعيان ، جمالُ الكُتَّاب ، جلالُ الحُسَّاب ، صفوةُ الدولة ، خالصةُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثانية — مرتبةُ المجلس السامىّ بالياء ، وهى مسـتعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأما فى السلطانيات فلم يذكر صورتَها فى "التثقيف" .

وصورتها علىٰ مارأيتُه فى بعض الدساتير : «المجلس السامىّ، القضائىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضِلىّ، الكافِلىّ، الرئيسىّ، الأوحدىّ، الأَصِيلىّ، الأثِيرىّ، البليغِى ، الفلانى ؛ مجدُ الإسـلام، شرفُ الرؤساء، فخرُ الأنام، زينُ البلَغاء، جمالُ الفُضَلاء، أوحد الكُتَّاب، فخر الحُسَّاب، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

وأما فى غير السلطانيات، فصورتهـا علىٰ مارأيته فى "التذكرة الآمِديّة" فى توقيع بكتابة الدَّرْج عن نائب الشام : «المجلس السامىّ، القضَائِىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، البليغىّ، الأصيلىّ، الرئيسىّ، الفلانىّ؛ مجد الإسلام، شرفُ الرؤساء، أوحدُ الكُتَّاب، جمالُ البلغاء، مرتضَى الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـالثة — مرتبة المجلس السامى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأما فى السلطانيات، فلم يذكر لها صورة فى "التثقيف" أيضا .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى "التذكرة الآمدِيَّة" فى توقيع شريفٍ بكتابة الدَّرْج : المجلسُ السامِى، القاضى، الأجلُّ، الكبيرُ، الصدرُ، الرئيس، الأوحَدُ، البارعُ، الكاملُ، الأصيلُ، الفاضلُ؛ فلان الدين، جمالُ الإسلام، بهاءُ الأنام، شرفُ الأكابر، زينُ الرؤساء، أوحدُ الفُضَلاء، زَيْنُ الكُتَّاب، صَفْوة الملوك والسلاطين» .

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ مارأيته فى "التذكرة الآمدِيَّة" فى توقيع كريمٍ عن نائب الشام بكتابة الدَّرْج بالشام، ترتيب مؤلِّف "التذْكِرة" المذكورة : «المجلس السامِى، القاضِى، الأجلّ، الكبيرُ، الفاضلُ، البارعُ، الكاملُ، الأوحدُ، الرئيسُ، الأثيرُ؛ فلان الدين، مجدُ الإسلام، شرفُ الصُّدُور، أوحدُ الفضلاء، زينُ الكُتَّاب، جمالُ الحُسَّاب، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعة

(درجةُ مجلس القاضِى، وهى مستعملةٌ فى السلطانِيَّات وغيرها)

فأما فى السلطانيات، فلم يُورِد لها فى "التثقيف" أيضا صورةً .

وصورتها علىٰ ما يقتضيه عُرْف الدِّيوان : «مجلس القاضى، الأجلِّ، الكبيرِ، الفاضِل، الأوحدِ، الأثيرِ، الرئيسِ، البليغ، العَرِيق، الأصيلِ؛ فلان الدين، مَجْدِ الإسلام، بهاءِ الأنام، شرفِ الرؤساء» .

وأما فى غير السلطانيات، فعلىٰ نحو ذلك .

الدرجة الخامســـــة

(درجةُ القاضى، وهى مستعملة فى السلطانيات [وغيرها] (1))

وصورتها فيهما : « القاضى الأجل » وربما زيد فى تعظيمه فقيل « الكبيرُ الصدرُ الرئيسُ » ونحو ذلك .

النـــوع الثالث

(من الألقاب الإسلامية ألقابُ أرباب الوظائف الدِّينية،
وهى على خمس درجات أيضا)

الدرجـــة الأُولىٰ

(درجة المَقَـــرّ)

وهى مختصّــة بغير السلطانيات، لأنه لا يُكْتَب لأحدٍ من أهل هــذا النوع عن السلطان بالمَقَرّ أيضا، بل قال فى "عرف التعريف" : إنه لا يُكْتَب به لأحدٍ من هــذا النوع فى غير السلطانيات أيضا ولكِنِّى رأيتــه مستعملا فيما يكتب عن النُّوّاب بالممالك . وهى على ثلاث مراتبَ :

المرتبة الأُولىٰ — مرتبة المَقَرّ الشريف .

وصورتها على ما رأيتــه فى بعض الدَّسَاتير فى توقيع عن نائب الشأم للقاضى جمالِ الدين إبراهيم بن العَدِيم ببعض الأنظار والتداريس بالشام : «المَقَرّ الشريف، العالى، المَوْلَوِىّ، القاضَوىّ، الكبيرِىّ، العالمىّ، العادلىّ، الأَصِيلىّ، العَرِيقىّ، القَوَامِىّ، النِّظامىّ، الإمامىّ، العَلَّامىّ، القُدْوىّ، المُفِيدىّ، الشَّيْخىّ، الصاحبِىّ،

(1) من الضوء .

الحاكمىّ، المُحْسِنىّ ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ،سيدُ الفضلاء العامِلين ، قُدْوة العلماء فى العالَمين ، لسانُ المتكلِّمين ، بُرْهان المناظِرين ، صَدْر المدرّسين ، جَلَالُ الطالبين، بقيَّة السلف الكرام الدَّارِجين ، بركةُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أمير المؤمنين» .

المرتبة الثانية — مرتبة المَقَرّ الكَرِيم .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض الدَّساتير عن نائب الشام فى توقيع ببعض الوظائف الدِّينيَّة بدِمَشْق : «المَقَرّ الكريمُ العالى، المولَوِىّ،القضائىّ، الصاحبىّ، الإمامىّ، العالِمىّ، العامِلىّ، العَلَّامىّ، المُفيدىّ، الفريدىّ، البليغىّ، الأوْحَدىّ ، المحقِّقىّ ، القَوَامىّ ، النِّظامِىّ ، العَريقىّ ، الحاكمىّ ، المُحْسِنىّ ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، جَلالُ العلماء العاملين، أوحدُ المتكلِّمين، أكمُل البلغاء فى العالَمين، قُدْوة المحقِّقين ، بركةُ الملوك والسلاطين » .

المرتبة الثالثة — مرتبةُ المَقَرّ العالى .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير عن نائب حلَب بتدريس بها : «المَقَرّ العالى، المولوىّ ، الشيخىّ، الكبيرىّ ، الإمامىّ، العالمىّ ، العلَّامىّ، المفيدىّ ، القُدوىّ، الفَريدىّ، المحقِّقىّ، القَوَامىّ، النِّظامىّ، الحاكمىّ، الفلانى ؛ علاءُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الفضلاء العارفين، رُحلةُ الطالبين، نُخْبة المحقِّقين، جمالُ العلماء فى العالَمين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثـانيـــة

(درجة الجَنَاب)

وقد جعلهـا فى "عرف التعريف" أعلىٰ ما يُكْتَب لهـذا النـوع ، وهى علىٰ ثلاث مراتب :

المرتبة الأولىٰ — مرتبةُ الجَنَاب الشريف . وهى مختصة بغير السلطانيات .

وصورتها علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" «الجنـابُ الشريفُ العـالى، المولوىّ، القضائىّ، السيدىّ، الإمامىّ، العالمىّ، العاملىّ، العَلّامىّ، الكاملىّ، الأَصِيلىّ، الأوحدىّ، المفيدىّ، القُدْوىّ، الفريدىّ، الحُجّىّ، المجتهدىّ، الفلانى؛ حُجّةُ الإسلام (أوضِياء الإسلام) شرفُ الأنام، أثيرُ الإمام، صدرُ الشام، سيدُ العلماء والحُكّام، أو أوْحدُ العلمـاء الأعلام، بقِيّةُ السلف الكِرام؛ شيخُ المذاهب، مُجَلّى الغَيَاهب، قُدْوة الفِرَق، رئيسُ الأصحاب، مفتِي السُّنّة، مؤيِّد الملة، شمسُ الشريعة، سيفُ النَّظَر، مفيدُ الطالبين، لسان المتكلّمين، ولىُّ أمير المؤمنين» .

فإن كان حاكما قيل قبل الفلانى «الحـاكمى» وقبل ولىّ أمير المؤمنين «حَكَم الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة الجَنَاب الكريم . وهى مختصّةٌ بغير السلطانيات أيضا .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض الدّساتير الشامية فى توقيع القاضى جمـال الدين آبن أبى جرادة الحنفىّ ببعض الوظائف الدينية : «الجَنَاب الكريم العالى، المولوىّ، القضائىّ، الكبيرىّ، الصاحبىّ، الإمامىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، الأَرِيبىّ، اللَّبِيبىّ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، القَوَامىّ، النظامىّ، الفلانى؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الفضلاء فى العالَمين، أكملُ نُجَباء الأبناء العالِمين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة الجَنَاب العالى . وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات، فصورتها علىٰ ما آستقرّ عليه الحال فى ألقاب قاضى القُضاة الشافعىّ بالديار المصرية : « الجَنَاب العالى، القاضَوِىّ، الشيخىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ، العاملىّ، الأفضلىّ، الأكملىّ، الأوحدىّ، البليغىّ، الفريدىّ، المفيدىّ، النَّجيدىّ ، القُدْوىّ ، الحُجِّىّ، المحقِّقىّ، الوَرَعىّ، الخاشعِىّ، الناسِكِىّ ، الإمامىّ، العَلَّامىّ ، الأصيلىّ ، العَرِيقىّ ، الحاكمىّ ، الفلانى ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء المُفيدين، قُدوةُ البلغاء، حُجَّة الأمة، عمدةُ المحقِّقين ، فخرُ المدرّسين ، مفتِى المسلمين ، جلالُ الحُكَّام، بركةُ الدولة صَدْر مصر والشام، مُعِز السنة، مؤيِّد الملة، شمسُ الشريعة، رئيسُ الأصحاب، لسانُ المتكلمين، حَكَم الملوك والسلاطين، وَلِىّ أمير المؤمنين» .

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير فى توقيع عن نائب الشام ببعض الوظائف الدينية لبعض العلماء : «الجَنَابُ العالى، الشيخىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الكاملىّ، الأوحدىّ، الماجدىّ، القوَامىّ، النِّظامىّ، الفلانىّ؛ ضياءُ الإسلام والمسلمين ، أوحدُ الفضلاء العارفين ، جلالُ الأئمة فى العالمين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــة

(درجة المجلس وفيهـا ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مرتبةُ المجلِس العالى، وهى مستعملةٌ فى السُّلْطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات ، فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب القُضاة الثلاثة بالديار المصرية غيْرَ الشافعى : «المجلس العـالى، القـاضَوِى ، الكبيرى ، العالِى، العاملى، الأفضلى، الأكملى، الأوحدِى، البليغى، الفريدى، المفيدِى، النَّجيدى ، القُدوى، الحُجّى، المحقِّقى، الإمامى، الأصيلى، العريقى، الحاكمى ، الفلانى؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، سيدُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء المُفِيدين، قُدْوة البلغاء، حُجّة الأمة، عُمْدةُ المحدّثين ، فخرُ المدرّسـين ، مفتِى المسلمين ، جلالُ الحُكّام، حَكَمُ الملوك والسلاطين» .

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ ما أورده فى "عرف التعريف" : «المجلس العـالى، القَضائى ، الأجَلّى، الإمامى، الصَّدْرى، الرَّئيسى، الفَقيهى، العالمى، العَلامى، الكاملى، الفاضلى، الأوحدِى ، الفلانى؛ مجدُ الإسـلام، فخرُ الأنام ، تاجُ العلماء والحُكّام (أو شرف العلماء والحُكّام) جمالُ الأئمة، أوحدُ الأئمة، صدرُ المدرِّسين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـانية — مرتبة المجلس السامى بالياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فلم يذكر لها فى "التثقيف" صورةً .

وصورتها علىٰ ما رأيتــه فى بعض التواقيع : «المجلس السامىّ ، القضــائىّ ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأوحدى ، الرئيسىّ، المُفِيدىّ، البليغىّ، القُدوىّ، الأثيرىّ؛ مجدُ الإسلام والمسلمين، جمــالُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء، صدرُ المدرِّسين، عمدةُ المفتين، خالصةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض تواقيع بعض الخُطَباء «المجلس السامىّ، القضائىّ، الشَّــيْخىّ، الإمامىّ، العالمىّ، العاملىّ، العابدىّ، الزاهدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، الخَطِيبىّ، الفلانى ؛ ضياءُ الإسلام والمسلمين، أوحدُ الخُطَباء فى العالمين، جمالُ الأئمة الفُصَحاء البارعين، لسانُ البيان، تَرْجُمان الزمان، بركةُ الملوك والسلاطين» .

وأمّا فى غير الســلطانيات ، فصورتهــا علىٰ ما أورده فى "عُرْف التعريف" : «المجلس السامىّ، القضائىّ، الأجلِّىّ، الإمامىّ، الصَّدْرى، الفَقِيهى، العــالمىّ، الكاملىّ، الفاضلىّ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام، بهــاءُ الأنام، جمالُ العلمــاء، أوحد الفُضَلاء، شَرَفُ النُّبَلاء، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثــة — مرتبة المجلس السامى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغــيرها .

فأمّا فى السلطانيات فلم يذكر لها صورةً فى "التثقيف" .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض التواقيع : «المجلسُ السامى، القــاضى، الأجلُّ، الكبيرُ، الصدْرُ، الرئيسُ، العالم، الفاضلُ، الكاملُ ؛ فلان الدين، مجدُ الصدور، زينُ الأعيان، مُرْتضىٰ الملوك والسلاطين» .

وأمّا في غير السـلطانيات ، فصورتهـا على ما ذكره في "عرف التعريف" : «المجلس السامِي ، القاضِي ، الأجلُّ ، الكبير ، العالمُ ، الفاضلُ ، الكاملُ ، الأوحدُ ، الأثيرُ ، البارعُ ؛ فلان الدين ، مجدُ الإسـلام ، بَهَـاءُ الأنام ، فخرُ الصـدور ، جمالُ الأعيان ، مرتَضَى الدولة ، صَفْوَةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الرابعـــة

(درجةُ مجلِس القاضى ، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها)

فأمّا فى السلطانيات فلم يذكر لها صورة فى "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيته فى بعض التواقيع : «مجلس القـاضى ، الأجلِّ ، الكبيرِ ، العالِم ، الفاضلِ ، الأوحدِ ، الكاملِ ، الصدرِ ، الرئيسِ ؛ مجدِ الإسلام ، بهاءِ الأنام ، زينِ الأعيان ، فخرِ الصدور ، مرتضى الملوك والسلاطين» .

وأمّا فى غير السلطانيات فعلى نحو من ذلك .

الدرجة الخامســـة

(درجة القاضى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : «القاضى ، الأجَلُّ» وربما زيد فى التعظيم نحو « الكبيرُ الصدرُ الرئيسُ» ونحو ذلك .

النـــــوع الرابع

(من الألقاب الإسلاميّة ألقابُ مشايخ الصوفيّة وأهل الصّلَاح ، وهى علىٰ خمس درجات)

الدرجة الأولىٰ

(درجة المَقَرّ، وليس لها ٱستعمالٌ فى السلطانيّات، وفى غير السلطانيات لهـا ثلاثُ مراتِبَ)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة المَقَرّ الشّريف .

وصورتها : «المَقَرّ الشريفُ، العالِى، المَوْلوِىّ، الشَّيْخىّ، السَّيِّدىّ، الإمامِىّ، العالمىّ، العامِلىّ، الكافِلىّ، الفاضِلىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدىّ، العابِدىّ، الناسِكىّ، السالِكىّ، الخاشِعِىّ، المُسَلِّكىّ، المحقِّقىّ، المدقِّقىّ، الفلانىّ؛ صـلاحُ الإسلام والمسلمين، جمالُ الأصفِياء العاملين، خالصةُ الأنام، صفوةُ الأتقياء، قُطْب العُبَّاد، الملِكُ علىٰ الحقيقـه، والمـالك لأزِمَّة الطريقه، بقِيَّة السَّلَف، قُدْوة الخَلَف، مفيدُ الطالبين، أوحدُ المحقِّقين، رُكْن الملوك والسلاطين، وَلىُّ أمير المؤمنين» .

وقد تقدّم أنّ الأحسن فى اللقب المضافِ إلىٰ السلاطين هنا « برَكةُ الملوك والسَّلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبةُ المَقَرّ الكريم، وألقابُها من نسبة الألقاب المتقدّمة .

المرتبة الثالثة — مرتبة المَقَرّ العـالى، وألقابُها نحوُ ذلك .

الدرجة الثانيـــــة

(دَرَجة الجَنَاب ، وفيها ثلاثُ مراتِبَ)

المرتبة الأولىٰ — مرتبةُ الجناب الشريف . وهى مختصَّة بغير السلطانيات .

وصورتُها : «الجنابُ الشريفُ، العالى، المَوْلَوِىّ، الشيخىّ، الإمامىّ، العالِمىّ، العامِلىّ، الكافِلىّ، الفاضلىّ، الزاهِدىّ، العابِدىّ، الخاشعىّ، الناسِكىّ، الوَرِعىّ، جلالُ الإسلام ، سيفُ الإمام ، قُطبُ الزُّهَّاد ، عَلَمُ العُبَّـاد ، أوحد الناسكين ، فَرْدُ السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة الجناب الكريم . وهى مختصَّة بغير السلطانيات أيضا .

وصورتهـا علىٰ ما رأيتُه فى بعض التواقيع عن نائبِ الشام : «الجنابُ الكريم، العـالى، الشيخىُّ، العالمىّ، العامِلىّ ، العَلَّامىّ ، الأوحَدىّ، القُدْوِىّ، العابِدىّ، الناسكىّ، الخاشعىّ، المسلِّكىّ، المربِّى، الربانىّ، الأَصيلىّ، الفلانى؛ مجدُالإسلام، حسنةُ الأيام ، قِدْوة الزُّهَّاد ، مَلَاذ العُبَّاد ، جمـال الوَرِعِيـــن ، مربِّى المريدين، أوحدُ المسلِّكين، خَلَفُ الأولياء، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبةُ الثالثة — مرتبة الجناب العالى . وهى مختصَّة بغير السلطانيات .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض التواقيع عن نائب الشام : «الجنابُ العـالى، الشيخِىّ، العالمىّ، العاملِىّ، الأوحَدىّ، العابِدىّ، الناسكىّ، الوَرِعىّ، الزاهِدىّ، الخاشعىّ، المسَلِّكىّ، الأَصِيلىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، بهاءُ الأنام، قُدْوة العُبَّاد، جَمَال الزُّهَّاد، أوحدُ المسلِّكين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الثالثـــة

(درجة المجلس، وفيها ثلاثُ مراتب)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة المجلِس العالى، وهى مستعملةٌ فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات، فصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب شَيْخ الشُّيوخ بخانقاه سِرْياقُوسَ : « المجلسُ العـالى ، الشيخىّ، الكَبِيرىّ، العالِمِىّ، العاملىّ، السالِكىّ، الأوحدىّ، الزاهِدىّ، العابِدِىّ، الخاشِـعِىّ، النـاسِكِىّ، المُفيدىّ، القُدْوِىّ، الإمَامىّ، النِّظامِىّ، المَلاَذِىّ؛ جَلاَل الإســلام والمسلمين ، شرفُ الصلحاء فى العالَمِيـــن ، شيخُ شيوخ الإســلام ، أوحدُ العلماءِ فى الأَنَام ، قُدْوة السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

وأما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ ماأورده فى "عرف التعريف" : «المجلس العـالى، الشيخىّ، الأجَلِّىّ ، الإمامِىّ، العـالِمىّ، العاملِىّ، الزاهِدِىّ، العابِدِىّ، الوَرَعِىّ، الخاشِعِىّ، الناسكىّ، القُدْوِىّ، الفلانىّ؛ خِيرةُ الإسلام ، شرفُ الأنام، زين العُبّـاد ، نور الزُّهَّاد، ذُخْر الطالبين ، كنز التُّقىٰ ، ملجأ المريدين ، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس السامىّ بالياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

أما فى السلطانيات ، فصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب الشــيخ شمس الدين الطُّوطى ممَّن كان يُكْتَب إليه قديمـا : «المجلس السامىّ ، الشيخىّ ، الأجَلِّىّ، العالمىّ، العـامِلىّ، الكامِلىّ، الفاضِـلىّ، الزاهدىّ، الوَرَعىّ، العابِدىّ، الخاشِعِىّ، الناسِكِىّ، القُدْوىّ، الأوحدِى ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، ضياءُ الأنام،

بقيّةُ السَلَف الكِرام ، فخر الصُّلَحاء ، أوحدُ الكُبَراء ، زين الزُّهّاد ، عِمَـادُ العُبّاد ، قُدوة المتورّعين ، ذُخْر الدُّوَل ، ركنُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما رأيته فى بعض التواقيع الشريفة : «المجلس السامىّ، الشيخىّ، الكبِيرىّ، الأوحدِىّ، الأكملىّ، العابِدىّ، الخاشِعىّ، الناسِكىّ؛ جمالُ الإسلام، زينُ الأنام، صَفْوةُ الصلحاء، فخر العُبّاد، بركةُ الملوك والسلاطين» .

وأما فى غير السلطانيات ،فصورتها على ما ذكره المَقَرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى بعض التواقيع عن نائب الشام : «المجلسُ السامىّ، الإمامىّ، العالمىّ، العامِلىّ، الخاشعىّ ، الوَرَعىّ، الناسِكِىّ، السالِكىّ، العارِفىّ، القُدْوىّ، البَلِيغىّ، الأصيلىّ، الشيخِىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، شرفُ العلمـاء، قُدْوة الفُضَلاء، فخر الصُّلَحاء، جمـالُ النُّسّاك، قدوة السُّلّاك، أوحدُ العارفين، بركةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـالثة — مرتبةُ المجلس السامى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأما فى السلطانيات فلم يُورد لهـا صورةً فى "التثقيف" .

وصورتها على ما رأيته فى بعض التواقيع الشريفــة : « المجلس السامى ، الشيخُ، الصالحُ، الزاهدُ، العابد، الوَرِع، الخاشـعُ، الناسِكُ ، السالِكُ ؛ فلان الديـن ، مجدُ الصلحاء، زينُ المشايخ، قُدوةُ السالكين ، بركةُ الملوك والسلاطين » .

وأمّا فى غير السلطانيات، فصورتها على نحوٍ من ذلك .

الدرجة الرابعـــــة

(درجة مجلس الشيخ)

وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

ولم يورد لها صورةً فى "التثقيف" . وصورتُها علىٰ مافى بعض الدَّسَاتير: «مجلس الشيخ، الصالحِ، الزاهِدِ، العـابِدِ، الناسِكِ، السالِكِ؛ فلان الدين، مجدِ الصُّلَحاء، زينِ المشايخ، بركةِ الملوك والسلاطين» .

الدرجة الخامســـــة

(درجة الشيخ)

وهى «الشيْخُ، الصالحُ، الوَرِع، الزاهدُ» ونحو ذلك .

النـــــوع الخامس

(ألقاب التُّجّار الخَوَاجَكِيَّة، والمستعملُ فيه أربع درجات)

الدرجة الأولىٰ

(درجـــةُ الجَنَـاب)

ولم أر فيها غير مرتبة الجَنَاب العالى فيما عدا السلطانِيَّات .

وصورتها علىٰ مارايته فى بعض الدَّسَاتير الشامية فيما كُتِب به لبعض الخَوَاجَكِيَّة: «الجنابُ العالى، الصَّدْرىّ، الكبيرىّ، المحتَرَمِىّ، المؤتَمَنِىّ، الأوحَدِىّ، الأكملىّ، الرئيسِىّ، العارفىّ، المُقَرَّبِىّ، الخَوَاجَكىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسـلام والمسـلمين ،

شرفُ الأكابر فى العالَمين، أوحدُ الأمناء المقرَّبين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصُّدُور، عينُ الأعيان، كبيرُ الخَوَاجكيَّة، ثِقَةُ الدولة، مؤتمنُ الملوك والسلاطين» . فإن ٱتفق أن يُكْتَب لاحد من الخَوَاجكيَّة بأعلىٰ من الجناب العالى ، كُتِب له من نظير هـذه الألقاب وأعلىٰ منها .

الدرجة الثانيـــــــة

(درجة المجلس ، وفيها ثلاثُ مراتبَ)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة المجلس العالى، وهى مختصة بغير السلطانيات .

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير الشاميَّة : « المجلسُ العالى ، الصدْرِىّ، الرئيسىّ، الكبيرِىّ، المحترَمىّ، المؤتَمنِىّ، الأوحَدىّ، الأكملىّ، المقرَّبىّ، الخَوَاجكِىّ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، شرفُ الأكابر، أوحدُالأمناء، صدرُ الرؤساء، زَيْنُ الأعيان، ثِقَةُ الدولة، مؤتَمنُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـانية — مرتبةُ المجلس السامِىّ باليـاء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغــيرها .

فأمّا فى السلطانيات، فصورتُهـا علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقـاب خَوَاجا عَسَّافِ بنِ مُسافِر، ونظامِ الدِّين الإسْعِرْدِىّ : «المجلسُ السامىّ ، الصَّدْرِىّ ، الكَبِيرِىّ، الكاملىّ، الماجِدىّ، الأوحدِىّ، المقرَّبِىّ، المنتخَبِىّ، الأَمِينىّ، الأَثِيرِىّ، الخَوَاجَكِىّ، الفلانىّ ؛ مجدُ الإسلام، زينُ الأنام، شرفُ الرؤساء، أوحدُ الكُبَرَاء، تاجُ الأُمَنـاء ، فخرُ الأعيان ، مُقَرَّب الحضرتين ، مؤْتَمنُ الدُّوَل ، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

واما فى غير السلطانيات، فصورتها علىٰ نحوٍ من ذلك .

المرتبة الثـالثة — مرتبة المجلس السامِى بغير ياء، وهى مستعملة فى السلطانيات وغـــيرها .

فأمّا فى السلطانيات ، فصورتها علىٰ ما أورده فى " التثقيف " فى ألقـاب بعض الخَواجَكيَّة : «المجلس السامى، الصدرُ، الأجلُّ، الكبيرُ، الكاملُ، الماجدُ، الأوحدُ، المقرّبُ، المنتخَبُ، الأمينُ، الأثيرُ، الخَواجَا، فلانالدين، مجْدُالرؤساء، زينُالأكابر، مجد الصُّدُور، جمالُ الأعيان، مقرّبُ الدولة، صفوةُ الملوك والسلاطين» .

وأمّا فى غير السلطانيات فعلىٰ نحوٍ من ذلك .

الدرجة الثالثـــــة

(درجة مجلس الصَّدْر، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأما فى السلطانيات، فصورتها علىٰ ماذكره فى " التثقيف " : «مجلسُ الصدر، الأجلِّ، الكبير، المحترَم، المقرّبِ، الأوحدِ، فلان الدين» .

وأمّا فى غير السلطانيات، فلا تخرج عن ذلك .

الدرجة الرابعـــة

(درجة الصَّدْر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأمّا فى السلطانيات فصورتُهـا علىٰ ماأشار إليـه فى "التثقيف" : « الصَّدْرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، المحترَم ، المقرّبُ ، الأوحدُ ، فلان الدين» .

وأمّا فى غير السلطانيات ، فلا تبعُدُ من ذلك .

النـــوع السادس

(من الألقاب الإسلاميـــة ألقـابُ أرباب الصناعات الرئيسيَّة ، كرياسة الطب ، ورياسة الكَحّالين ، ورياسة الجَرَائحية ، ونحو ذلك ، والمستعمل فيه درجتان)

الدرجة الأولىٰ

(درجة المجلس ، وفيها ثلاثُ مراتِبَ)

المرتبة الاولىٰ — مرتبة المجلس العالى ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأمّا فى السلطانيات ، فكألقاب رئيس الأطِبَّاء ، وهى «المجلسُ العالى . [(١) القَضَائِىّ ، العالمىّ ، الفاضِلِىّ ، الكامِلىّ ، الأوحدِىّ ، الفلانىّ ، جمالُ الإسـلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالَمين ، أوحدُ الفضلاء المقرَّبين ، خاصَّةُ الملوك والسلاطين»](١) .

---

(١) بيض لهذه العبارة فى الاصول ، فنقلناها من ضوء الصبح للؤلف .

وأمّا فى غير السلطانيات فعلى نحوٍ من ذلك .

المرتبة الثانية — مرتبة المجلس الساميّ ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس الساميّ ، الصدْرِىّ ، الأجَلّىّ ، الكبيرىّ ، الرئيسىّ ، الفلانىّ » .

واما فى غير السلطانيات فعلى نحوٍ منه .

المرتبة الثالثة — مرتبة المجلس السامِى بغير ياء ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها .

فأما فى السلطانيات ، فصورتها : « المجلس السامِى ، الصدرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، المحترمُ » .

وأما فى غير السلطانيات ، فعلى نحو ذلك .

الدرجة الثانية

(درجة الصَّدْر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتها فيهما : « الصدرُ الأجلُّ » فإن زيدَ فى تعظيمه ، قيل : « الكبيرُ المحتَرَم » .

النـــــوع السابع

(من الألقاب الإسلاميَّة ألقابُ الحاشية السلطانية ، كمِهْتاريَّة البيوت ، ومُهنْدِس العمائر، ورئيس الحَرّاقة ونحوهم، وفيه درجتان)

الدرجـــــة الأولىٰ

(درجة مجلس الصَّدْر، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

فأما فى السلطانيات ، فصورتها علىٰ ماذكره فى " التثقيف " فى ألقاب المهنْدِس والرئيس : «مجلس الصَّــدْر ، الأجلّ ، الكبير، المحترَم ، المؤتَمَن، فلان الدين» . وفى ألقاب مِهْتارِيَّة البيوت : من مِهْتار الشَّرابْ خاناه، والطَّشْت خاناه، والفرَاش خاناه، وإخْوان سَلَار ونحوهم : «مجلس الصَّدْر، الأجلّ، الكبير، المحترَم، المؤتَمَن، الحاج فلان» .

وأما فى غير السلطانيات، فكذلك أو أزْيد .

الدرجة الثـانيـــــة

(درجة الصَّدْر ، وهى مستعملة فى السلطانيات وغيرها)

وصورتُهـا فيهما : «الصــدْرُ الأجلُّ» فإنـــ زِيدَ فى رِعايَته قيل بعد ذلك : «الكبير المحترَم» .

النـــوع الثامن

(من الألقاب الإسلامية ألقاب النساء ، وفيه درجتان)

الدرجـــة الأولىٰ

(درجة الجِهَة ، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولىٰ — مرتبة الجِهَةِ الشريفة ، وصورتها علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقـاب إلىٰ بِنْتِ[1] الملك الناصر محمد بن قلاوون عن والدتها : «الجِهةُ الشريفةُ، العاليةُ المحجَّبَة، المَصُونةُ، الوَلَديَّة، العِصْمِيّة، عِصْمة الدين، جلالُ النساء، شرفُ الخَوَاتين، سليلةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا علىٰ ماذكره فى " التثقيف " أيضـا فى المكاتبة إلىٰ أم آنوك : زوجة السلطان الملك الناصر عنه : « الجِهةُ الشريفةُ، العاليةُ، المعظَّمة، المحجَّبة، المصونةُ ، الكُبْرىٰ ، خُوند خاتونُ ، جلالُ النسـاء فى العالمين ، قرينـةُ الملوك والسلاطين » .

وصورتها علىٰ ما ذكره فى المكاتبة إلىٰ أُخْت السلطان الملك الناصر حَسَن عنه : « الجهةُ الشريفةُ ، العاليةُ ، المكَرَّمة ، المحجَّبة ، المصونةُ ، الكبرىٰ ، الخاتُون ، جلالُ النساء فى العالمين ، جَميـلةُ المحجَّبات ، جليـلةُ المَصُونات ، كريمـةُ الملوك والسلاطين » .

---

(١) سقط لفظ إلىٰ من الضوء وهى أوضح .

وصورتهـا علىٰ ما ذكره فى ألقـاب الستِّ حَدَق : «الجهة الشريفة، العـاليةُ، الكبيريَّةُ، المحجَّبِيَّة، المَصُونِيَّة، الحاجِّيَّة، الوَالِدِيَّة؛ جلالُ النساء فى العالمين ، بركةُ الدولة، والدةُ الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض الدَّساتيرِ فى ألقاب والدةِ الأشرفِ شعبانَ آبن حســين : «الجِهةُ الشريفةُ، العالية، الكُبْرىٰ، المعظَّمة، المحجَّبة، العِصْمىّ، الخـاتُونىّ؛ جلالُ النساء فى العالمين، سيِّدةُ الخواتيـــن ، جميلةُ المحجَّبات، جليلةُ المَصُونات، والدةُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثـانية ـــ مرتبة الجِهَــة الكريمة .

وصورتها علىٰ ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب دلشاه : زوج الشيخ حسن الكبير ببغداد : الجِهةُ الكريمة، المحجَّبة،المصونة، العِصْمِيَّة، الخاتُونِيَّة، المعظَّمة؛ سيدةُ الخَوَاتين، زينةُ النِّساء فى العالَمين، جميلةُ المحجَّبات، جليلةُ المصونات، قرينةُ نُوَيْن الملوك والسلاطين .

الدرجة الثـانيـــــة

(درجةُ الدار. وهى علىٰ نحو المرتبتين المتقدّمتين فى الألقاب السابقة)

الدرجة الثـالثـــــة

(درجة السِّتارة وهى لاتكادُ تخرُج عما تقدّم من المرتبتين المتقدّمتين)

القســـم الثـانى

(من الألقاب المرتَّبة ألقابُ أهل الكُفْر ، وهى علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل

(ألقابُ متدينتهم ، وهى نوعان)

النـــوع الأوّل

(ألقـاب بَطَاركة النصارىٰ)

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التثقيف" فى ألقاب الباب برُومِيَة : «البـابُ، الجليلُ، القِدِّيس، الرُّوحانِى، الخاشعُ، العامل، پَاپَا رُومِيَة، عظيم المِلَّة المَسيحيَّة، قُدْوة الطوائف العِيسويَّة، مملّك ملوك النصرانيـة، حافظ البِحَار والخُلْجان، مَلاذُ البطاركة والأساقِفَـة والقُسُوس والرُّهْبان، تالِى الإنجيـل، معرِّف طائفته التحريمَ والتحليل، صَدِيقُ الملوك والسلاطين».

وصورتهـا علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب البَطْرِيَرْك بالديار المِصْرية : «البَطْرِيَرْك الجليل، القِدِّيس، الخاشع، قُدْوة النصرانية». ثم قال : ومن نسبة ذلك.

وصورتها علىٰ مارأيته فى بعض التواقيع له : «الحضرةُ الساميَة، الشيخ، الرِّئيس، المبجَّل، المكَرَّم، الكافى، المُعزَّز، المفخَّر، القِـدِّيس، شمسُ الرياسة، عمَـاد بنى المعمودية، كنزُ الطائفة الصَّلِيبيَّة، آختيار الملوك والسلاطين».

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض الدساتير الشاميَّة عن نائب الشام للبطْرِيَرْك بها : «البَطْرِيَرْك، المحتَشم، المبجَّل، العارف، الحَبْر، فلان، العالمُ بأمور دينه، المعلِّم لأهل ملته، ذُخْر المِلَّة المَسِـيحية، كنزُ الطائفة العِيسوية، المشـكورُ بعَقْله عند الملوك والسلاطين».

النـــوع الثـانى
(ألقـاب رؤسـاء اليهـــود)

وصورتها على ما رأيته فى بعض التواقيع لرئيس اليهود بالشام من إنشاء القـاضى محيي الدين بن الزكى فى سنة ست وعشرين وستمائة : «الرئيسُ، الأوحدُ، الأعزُّ، الأخصُّ، الكبير، شرفُ الطائفة الإسرائيلية فلان» .

الضرب الثـانى
(ألقاب ملوكهم وتختص بالنصارى ، وهو نمطان)

النمـــط الأوّل
(الألقاب المذكَّرة، وهى على ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل
(ما يُصَـــدَّر بالألف واللام ، وهى على خمس مراتِبَ)

المرتبة الأولى ـــ مرتَبةُ الحضرة العالية .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب مَلِك الحَبَشَـــة : « الحضرةُ العالِيَـــة، حضرةُ المَلِك الجليل ، الهُمَام، الضِّرْغام ، الأســد، الغَضَنْفَر ، الخطير، الباسل، السَّمَيْدَع ، العالم فى مِلَّته ، العادل فى مملكتِه، المُنْصِف لرعيَّته، المتَّبِـع لما يجب فى أقضيته، عزّالأمة النصرانية، ناصر الملة المَسِيحية، رُكْن الأُمَّة العِيسويَّة، عِماد بنى المعمودية، حافظ البلاد الجَنُوبية، مُتَّبِـع الحواريِّين، والأحبار السُّرْيانيِّين،

والبَطَاركة القِدِّيسين، مَعَظِّم كنيسة صِهْيَوْن، أوحد ملوك اليَعْقوبية، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" أيضا فى ألقاب صاحب القُسْطنطينيَّة : « الحضرة العاليةُ ، المكرَّمة ، حضرة الملك الجليـلِ ، الخطيرِ ، الهُمَامِ ، الأسـد ، الغَضَنْفَر ، الباسل ، الضِّرغام ، المُعرِق ، الأصـيل ، الممَّجد ، الأَثِيل ، البلالاوس ، الرِّيدأرغون ، ضابطُ الممالك الرُّوميَّة ، جامع البلاد الساحِلِية ، وارثُ القَياصرة القُدَماء ، مُحْيِي طُرُق الفلاسفةِ والحُكَماء ، العالِم بأمور دينه ، العادلِ فى ممالكه ، مُعِزّ النَّصْرانية ، مؤيِّد المسـيحية ، أوحد ملوك العِيسَـوية ، مُخَوِّل التُّخُوت والتِّيجان ، حامى البِحار والخُلْجان ، مَلِك ملوك السُّرْيان ، عماد بَنِي المعموديَّة ، رَضِىّ الباب پاپا رُومية ، ثِقَة الأصدقاء ، صديق المسلمين ، أسوة الملوك والسلاطين فلان » .

المرتبة الثانية — مرتبة الحضرة العليَّة .

وصورتها على ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب مَلِك الكُرْج : «الحضرةُ العلِيَّة ، حضرةُ الملك الجليـلِ ، الهُمَامِ ، الباسل ، الضِّرْغام ، السَّمَيْدَع ، الكَرَّار ، الغضَنْفَر ، المَتَخَّت ، المتوَّج ، العالم فى مِلَّته ، العادل فى رعِيَّته ، بقيَّة الملوك الاغْرِيقِيَّة ، سلطان الكُرْج ، ذُخْر ملوك البِحار والخُلُج ، حامى حِمَى الفُرْسان ، وارثِ آبائه فى الأسِرة والتِّيجان ، سِيَاج بلاد الرُّوم وإيران ، سـليلِ اليُونان ، خلاصـة ملوك السُّرْيان ، بقية أبناء التُّخُوت والتِّيجان ، مُعِزّ النصرانية ، مؤيِّد العِيسوِيَّة ، مَسِيح الأبطال المَسِيحيّة ، معظِّم البيت المقَـدَّس بعَقْد النية ، عمـاد بَنِي المعموديّة ، ظهير الباب پاپا رُومية ، مُوادِّ المسلمين ، خالصةِ الاصدقاء المقرَّبين ، صديقِ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الثالثة — مرتبة الحضرة السامية .

وصورتهـا علىٰ ما أورده فى "التعريف" فى ألقاب الأدفُونش صاحب طُلَيْطِلَة وإشْبِيلِيَة من الأندَلُس : «الحضرةُ الساميةُ ، الملكُ الجليـلُ ، الهُمَام ، الأسـدُ ، الباسـلُ ، الضِّرْغام ، الغضَنْفَر ، بقِيّـة سلف قَيْصَر ، حامِى حُمَـاة بنى الأصْـفَر ، الممَنّع السـلوك ، وارث لَذَرِيق وذرارِىّ الملوك ، فارس البَرّ والبحر ، ملِك طُلَيْطِلة وما يليها من البـلاد الأندَلُسية ، بطلُ النصرانية ، عمـادُ بنى المعمودِيّة ، حامل راية المَسِـيحيَّة ، وارثُ التِّيجان ، شبيه مَرْيُحَنَّا المَعْمَدان ، محبُّ المسلمين ، صـديقُ الملوك والسلاطين» .

المرتبة الرابعة — مرتبة الحضرة المكرّمة .

وصورتهـا علىٰ ما رأيته فى بعض الدَّسَاتير الشامية فى ألقـاب صاحب قُبْرُس : « الحضرة المكَرَّمة ، حضرة الملك الجليـل ، البطَل ، الباسـل ، الهُمَام ، السمَيْدَع الضِّرْغام ، الغضَنْفَر ، القَمْقام ، مؤيِّد الملة المَسِيحية ، عِماد بَنِى المعموديّة ، ذُخْر الملة النَّصْرانيـة ، حامى الجَزائر القُبْرُسِية ، مُوادّ المسلمين ، صديق الملوك والسلاطين ، الملك فلان» .

المرتبة الخامسة — مرتبة الحضرة الموَقَّرة .

وصورتهـا علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقاب الأدفونش المقـدّم ذكره : «الحضرة الموَقَّرة ، الملك الجليـلُ ، المكَرَّم ، المبجَّل ، الخطير ، البطَلُ ، الباسـل ، الهمام ، الضِّرْغام ، الرِّيدأرْغُون ، نَصْر النصرانيـة ، فخر الأُمَّة العِيسَوِية ، ذُخْر الملة المسيحية ، حامى الثُّغور ، متملِّك السواحل والبُحُور ، عمادُ بنى المَعْمُودية ، ظهِير پاپا رومية ، مَلاذُ الفُرْسان ، جمالُ التُّخُوت والتِّيجان ، صديقُ الملوك والسلاطين» .

النـــــوع الثـانى

(ما يُصَدَّر بحضرة مع الإضافة)

وصورتهـا علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقـاب صاحب القُسْطنطينيَّة : «حضرةُ الملِك، الجليل، المكَرَّم، المبجَّل، الأسدِ، الخَطير، البطَلِ، الباسل، الهُمام، الضِّرْغام، فلان؛ العالم فى مِلَّته، العادل فى أهل مملكتِه، عِزِّ الأمَّة المَسِيحية، كنزِ الطائفة الصَّلِيبيَّة، جَمَـالِ بنى المَعْمُودية، صَمْصَامِ الملوك اليُونانيّـة، حُسَامِ المملكة المـالُوصِية، صاحبِ أمصار الرُّوس والعَلَّان، مُعِزّ اعتقاد الكُرْج والسُّرْيان، وارثِ الأسِرَّة والتِّيجان، الحـاكم علىٰ الثُّغُور والبحور والخُلْجان، الدُّوقس الانجالوس الكمينيوس البَالَالوغس، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقاب ملك الكُرْج : «حضرةُ الملك الجليل، المكَرَّم، الخطيرِ، الباسلِ، القَمْقام، القِدِّيس، الرُّوحَانىّ، فلان؛ عِزّ الأمة المسيحية، كنزِ الطائفة الصليبية، فَخْر دين النَّصرانية، ملك الجبال والكُرْج والجُرْجان، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما رأيته فى بعض الدساتير فى ألقاب ملك الكُرْج أيضا : «حضرة الملكِ الجليـل، العالم فى ملته، العادل فى مملكته، المتوَّج من الله فلان؛ سيد ملوك النَّصْرانية، أكبرِ زُعَماء الملة المَسِيحية، ضابط الممـالك الكُرْجية، ...(1)... ... خَليل الملوك والسلاطين» .

وصورتها علىٰ ما ذكره فى "التعريف" فى ألقاب مُمَلِّك سِيسَ قبـل فَتْحها : «حضرة الملكِ الجليـلِ، البطلِ، الباسـل، الهُمَام، السَّمَيْدَع الضِّرغام، الغَضَنْفر

(1) بياض بالاصول بقدر كلمة .

فلان، فَخْر الملة المَسيحية، ذُخْر الأمة النصرانية، عماد بنى المعمودية، صديقُ الملوك والسلاطين» .

وصورتُها على ما ذكره فى "التثقيف" فى ألقاب متملِّك سِيس المذكور أيضا : «حضرةُ الملك الجليـل، المكَّرم، المبجَّل، المعزَّز، الهمام، الباسل، فلان، عِزّ دين النصرانية، كبير الطائفة الصَّلِيبية، عمادِ بنى المعْمُودية، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتهـا على ما ذكره فى "التثقيف" أيضـا فى ألقاب صاحب البُنْدُقِيَّـة : «حضرة الدُّوك الجليـل، المكَّرم، الخطير، الباسـل، الموَقَّر، المفخَّم، فلان، فخر المِلَّة المسيحية، جمـال الطائفة الصليبيّة، دُوك البندُقِيَّة والمانسية، فلان، زين بَنِى المعمودية، صديق الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب ملك السِّرْب والبُلْغار : «حضرة الملك الجليل، المكَرَّم، المبجَّل، الهُمَام، الضِّرغام، الباسل، الدُّوقس، الأنْجالُوس، الكمينيوس، فلان، عِمادِ النصرانية، مالكِ السِّرْب والبُلْغار، فخر الأمَّة العِيسَوِيَّة، ذخْرِ الملة المَسِيحية، فارسِ البُحُور، حامى الحُصُون والثُّغُور» .

وصورتها على ماأورده فى ألقاب ملك مونفراد : «حضرة المِلك الجليل، المكَرَّم، البطلِ، الهمام، الأسدِ، الضِّرغام، فلان، مجدِ النصرانية، فخر العِيسَوية، عمادِ بنى المعموديَّة، جمـالِ الطائفتين الرُّومية والفَرَنْجِيَّة، ملك منفراد، وارثُ التـاج، مُعِزّ البـاب» .

وصورتُها على ما أورده فى ألقابِ لِدُوك البندُقِيَّة غير ما تقدّم : «حضرة المحتَشم، الجليل، المبجَّل، الموقَّر، المكرَّم، المَفخَّم، الباسـل، الضِّرغام، فلان، عِزّ الملة المسيحية، جمال الطائفة العِيسويَّة، ذُخْرِ الملة الصَّلِيبيَّة، صديقِ الملوك والسلاطين» .

النـــــوع الثـالثُ

(مايُصَدَّر بالمَلِك وما فى معناه)

وصورتُه على ماذكره فى "التثقيف" فى ألقـاب مَلِك الحَبَشة : «الملكُ الجليلُ، المكَرَّم، الخَطِير، الأسدُ، الضِّرْغام، الباسل، فلان، العالِمُ فى ملته، العادلُ فى مملكته، حَطِّى مَلِك أمْحرا، أكبر ملوك الحُبْشَان، نَجَاشِىّ عَصْره، سَنَد الملة المَسِيحيّة، عَضُد دِين النصرانية، عِمَادُ بنى المعمُودية، صديقُ الملوك والسلاطين» .

وصورتها على ماذكر فى "التثقيف" فى ألقاب دُوك البُنْدُقِية غير ماتقدّم : «الدُّوك الجليل، المكَرَّم، المبجَّل، الموقَّر، البطَلُ، الهمام، الضِّرْغام، الغضَنْفر، الخَطِير، مجدُ المِلَّة النصرانيَّة، فخرُ العِيسويَّة، عمادُ بنى المعمُودية، معزُّ بابا رُومِية، صديقُ الملوك والسلاطين فلان» .

النمـــط الثـانى

(من ألقاب ملوك الكُفْر [الألقابُ المؤنَّثة])

وصورتها على ماأورده فى "التثقيف" فى ألقاب صاحبة بابِل : «المَلِكةُ الجليلة، المكَرَّمة، المبجَّلة، المُوَقَّرة، المفخَّمة، المعزَّزة، فلانةُ، العـالمةُ فى مِلَّتها، العـادلةُ فى مملكتهـا، كبيرةُ دِين النَّصْرانية، نصيرةُ المِلَّة العِيسَوِيَّة، حامِيَة الثغور، صديقةُ الملوك والسلاطين» .

الضرب الثـالث

(ألقابُ نوّاب ملوكهم وكَكاصِلَتهم ومَنْ فى معنىٰ ذلك . وهو علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(ألقـاب النُّـوّاب)

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب النائب بالأبواب : «النائبُ الجليلُ، المبجَّل، الموقَّر، القِدِّيس، الرُّوحانىّ» والنُّعوت من نِسْبة ألقاب متملِّك سِيس .

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب صاحب دُنْقُلة : «النائبُ الجليل، المبجَّل، الموقَّر، الأسـدُ، البـاسلُ، فلان ؛ مجدُ الملة المَسيحية، كبيرِ الطائفة الصَّليبيَّة، غَرْسُ الملوك والسلاطين» .

النوع الثـانى

(القـاب الكَكَاصِـلة)

وصورتها علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى ألقاب الكُنْصُل بانكفا(١) كألقاب متملِّك سِيس المنقولة عن التثقيف فيما تقدّم .

وصورتها علىٰ ماأشار إليه فى "التثقيف" فىألقاب المِطْران نائب البابِ بالانهة(١) : وهى قُبْرُس نحو ما تقـدّم فى ألقـاب البَطْرك بالديار المصرية . قال : ويُزاد عليه «المِطْران فلان» ويقـال فى نُعوته «ناصح المُلُوك والسَّلاطين» .

وصورتُها علىٰ مارأيته فىبعض الدَّساتير الشامية فىألقاب إبراهيم كِرِى : أحد كُتَّاب الفَرَنْج عن نائب دمشق : «المُحْتَشم، الكَبِير، المخَوَّل، الأسدُ، الهُمَام، الغَضَنْفر،

(١) كذا فى الأصول بدون نقط .

مُوَادُّ المسلمين، متَّبِع الحَوَارِيِّين، جَمَالُ العِيسويَّة، أوحدُ بنى المعمودية، صاحِبُ الملوك والسلاطين» .

قلت : قد تبيَّنَ بمـا تقدّم من الألقاب والنُّعوت الإسلاميَّة وألقاب أهل الكُفْر ونُعوتِهم أنها ليستْ واقفةً عند حَدّ، بل هى راجعةٌ إلىٰ ٱصطلاح الكُتَّاب وٱختيارهم فى زيادة الألقاب ونَقْصها ، والإتيانِ بلَقَبٍ دون لَقَب، مع رعاية المُناسبة لكلِّ مَقَام وما يحتمِلهُ من الألقاب، إلا أن لذلك (أصولًا يُرْجَع إليها) وقوانينَ يُوقَف عندها، إذا اعتمدها الكاتبُ ومشىٰ علىٰ نَهْجها ونَسَج علىٰ مِنْوالها، أصاب سَـواء الثُّغْرة من الصِّناعة، وطَبَّق المَفْصِلَ بالمَفْصِل فى الإتيان بالمَقْصد، ومتىٰ أهملها وفَرَّط فى مراعاتها ضلَّ سواءَ السبيل، وخرج عن جادَّةِ الصواب : ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فمَالَهُ مِنْ هادٍ﴾ .

الأصل الأوّل — أن يقِفَ علىٰ ما رتَّبه البلغاء من أرباب الصَّنْعة من الألقـاب والنُّعوت لكلِّ صِنْف من ذَوِى الألقاب والنعوت : لأهلِ الأسلام وأهلِ الكفر . ويُجْرِى ذلك منه مُجْرىٰ الحفظ والٱستِحْضَار، ليسهُل عليه إيرادُه فى موضعه، ولايشِذّ عنه شىءٌ منها عند الٱحتياج إليه . وقد تقدّم من ذلك جملة مستكْثَرَة يُهتدىٰ بنَجْمها، ويستضاء فى ظلمة اللَّبْس بضَوْئها .

الأصل الثانى — أن يعرِفَ ماهو من الألقاب والنُّعوت حَقِيقىٌّ لصاحب اللَّقب الذى يستعمله فيه : كالعالِمىّ لأهل العلم، والعابِدىّ لأهل الصَّلَاح، والعادِلىّ للحُكَّام من أرباب السيوف وغيرهم؛ وماهو منها مَجَازِىّ : كالعالمىّ لأرباب السُّيوف والكُتَّاب حيث لا ٱتصافَ لصاحب اللَّقَب بالعلم، والأصِيلِىّ لمن ليس له آباءٌ فى الرِّياسة ولا عَرَاقةٌ فى النَّسب، ونحو ذلك ممـا يَجْرى هذا المَجرىٰ .

الأصل الثالث — أن يَعْرِف الألقابَ الخاصَّةَ ببعضٍ دون بعض، كالشَّرِيفىّ، والحَسِيبىّ، والنَّسِيبىّ، للأشراف أولاد فاطمةَ رضى الله عنهـا، والكافِلىّ لنـائب

السلطنة أو وَزِيرٍ كبير، والنُّوَيْنِيّ لأمير التَّوَامِين بالشرق، والمدبِّرِيّ للوزير ونحوه من ناظر الخاص ومَنْ فى معناه، والمُشيرِيّ لمن يُؤْخَذ رأيه من أكابر أرباب السيوف والأقلام، والسَّفيرِيّ للحاجب والدَّوادَار وكاتِبِ السرّ، واليَمِينيّ للدَّوادار وكاتب السرّ، والعَرِيقِيّ لذِى العَرَاقة فى النسب، والأَصِيلِيّ لمن له ثلاثةُ آباءٍ فى الرياسة .

وكذلك النعوت كوالِدِ المُلوك والسلاطين لمن يكون له أولاد من الملوك، ووَلَد الملوك والسلاطين لأولاد الملوك، وعَضُد الملوك والسلاطين للأمراء ونحوهم، وكافِل الممالك للنائب الكافل، وسَفِير الدولة ولسان المملكة للدَّوادار وكاتب السرّ، ويَمِين الملوك والسلاطين لهما أيضا، ووالدة الملوك والسلاطين لمن يكون من أولادها مَلِك، وكريمة الملوك والسلاطين لمن يكون من إخْوتها سلطان، وقَرِينة الملوك والسلاطين لمن تكون زوجةَ ملك، وصَديِق الملوك والسلاطين، أو مُوادّ الملوك والسلاطين لملوك الكُفْر، وقَرِين الملوك والسلاطين لنُوَّابهم، ونحو ذلك مما يَجْرِى هـذا المَجْرىٰ : فيُوقِع كلَّ لقبٍ او نعتٍ منها فى موضعه ولا يُجاوِزه إلىٰ غيره . وأنت إذا تأملتَ ما سَلَف من ترتيب الألقاب والنُّعوت علىٰ الأصول المتقدّمة، ظهر لك منها ما تستعين به علىٰ ترتيبها وإيقاعها مَواقِعَها .

الأصل الرابع — أن يَعْرِف الألقابَ والنُّعوتَ الرفيعةَ المِقْدارِ، فيُلْحِقَها بمايناسبها من الألقاب الأصول؛ كإلحاق العالمىّ والعادلىّ ومُمهِّد الدُّوَل ومُشيِّد الممالك وماشاكل ذلك بالمَقرّ والجَنَاب الكريم ونحو ذلك . ويَعْرِفَ الألقابَ النازِلةَ، فيُخْرِج منها مايُجَرِّده عن الياء ويلحقُه بالسامى بغير الياء فما دُونَه كالعَضُد والذُّخْر وما أشبه ذلك .

الأصل الخامس — أن يَعرِف مراتبَ الألقاب فى التقديم والتأخير، مثل أن يعلم أن الشريفَ والكريمَ يَلِيانِ المَقرّ والجنابَ، والعالِيَ يليهما؛ ثم العالى يلى المَقرّ

والجناب والمجلَس ، والسامِى يلِى المجلَس حيث لايليه العالِى . وأن النعتَ المضاف إلىٰ أمير المؤمنين مثــل عَضُد أمير المؤمنين ، وسيفِ أمير المؤمنين ، وحُسَام أمير المؤمنــين ، يكون آخِرَ النُّعوت . وأن المضــاف إلىٰ الملوك والسلاطين مثــل عَضُد الملوك و السلاطين ، وظَهِير الملوك والسلاطين ، يكونُ قبله المضاف إلىٰ أمير المؤمنين إن كان فى رتبةٍ يثبت فيهـا ما يُضَـاف إلىٰ أمير المؤمنين، وإلا يكون المضاف إلىٰ الملوك والســلاطين هو آخِر الألقاب . وأن يعلم أن لقب التَّعْريف : وهو الفُلانِىُّ أو فُلانُ الدين يكون واســطةً بين الألقاب والنعوت، فاصلًا بينهما . وأن لقبَ الوظيفة كالكافِلِىّ والحاكِمِىّ وماأشبههما يكون قبل لقَبِ التعريف غالبا علىٰ ماتقــدّم بيانُه؛ فيضع هذه الألقابَ فى مواضِــعِها ولا يخرجُها عنها، بخــلاف مايجوز فيه التقديم والتأخيرُ من الألقاب والنُّعوت .

الجمـــــلة العــاشرة

(فى ذكر ألقابٍ تَقَع علىٰ أشياءَ متفرِّقةٍ قد جرتْ فى عُرْف الكُتَّاب . وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(فيما يجرِى من ذلك مَجْرىٰ التفاؤل، ويختلف باختلاف الأحوال والوقائع، ويَتَنوَّع إلىٰ أنواع)

النـــــوع الأوّل

(مايوصف بالنَّصْر، كالجُيُوش والعساكر والقِلاع والبَرِيد ونحو ذلك)

فيقال فى الجيوش والعساكر : «الجُيُوش المنصورة، والعساكر المنصُورة» ويقال فى القِلاع المنصورة «وقلعــة دمَشْق المنصورة وقلعة حلب المنصورة» ونحو ذلك،

وكذلك يقـال « القِلاعُ المنصورةُ » علىٰ الجمع تَفاؤُلا بحصول النَّصْر لهـا ، ويقال فى البَرِيد : «البَرِيد المنصورُ» علىٰ ما ٱصطَلَح عليه كُتَّاب الزمان . علىٰ أن فى وصف البريد بالمنصور نظرا : لأنه إنمـا وُضِع ليوصِّل الأخبـارَ ونحو ذلك ، وكان الأحسنُ أن يوصف بالسَّعِيد ونحوه اللهـم إلا أن يُراد أنه ربمـا وصل به خبرُ النصر علىٰ العَدُوّ ، وهو من أهم المهمَّات ، وكأنه وُصِف بأشرف متعلَّقاته .

النـــــوع الثـانى

(مايُوصف بالحِرَاســة ، كالمُدُن والثُّغُور)

فيقـال فى المُدُن «مِصْر المحروسةُ» و«القاهرةُ المحروسةُ» و«دِمَشْقُ المحروسةُ» و«حَلَبُ المحروسة» ونحو ذلك . و يقال فى الثغور «الثَّغْرالمحُروس» و« ثغرالإسْكَنْدَرِيَّة المحروس» و«ثغر رَشِيدَ المحروس» و«ثغر دِمْياطَ المحروس» و«ثغر أُسْوانَ المحروس» ونحو ذلك تفاؤُلا بوقوع الحِرَاسة لهـا . علىٰ أنه لو وُصِفَت القِلاع أيضا بالحراسة فقيل « القلعةُ المحروسة » و « القِلَاع المحروسة » ونحو ذلك لكان له وَجْهٌ ظاهر . وبكل حال فكلُّ ما كان محلَّ خوف مما ينبغِى حِراسَتُه والآحتفاظ به ، حَسُن وصفه بالحِراسة . وقد رأيت مَنْ يذكر ضابطا لذلك فى البلاد : وهو أن كل مدينة مُسوَّرة يُقال فيها محروسة وإلا فلا ، وهو بعيد ، والظاهر ما قدَّمنا ذكْرَه .

النـــــوع الثـالث

(مايُوصف بالعِمارة، كالدواوين)

وهى المواضع التى يجلِس فيها الكُتَّاب علىٰ ما تقدّم بيانُه فى مقدِّمة الكِتَاب وغير ذلك. فيقال: «الدِّيوان المعمور» و «الدَّواوينُ المعمورةُ» تفاؤُلا بأنها لاتزال معمورةً بالكُتَّاب، أو بدَوَامِ عِزِّ صاحبها و بقاء دولته .

النـــــوع الرابع

(مايوصف بالسَّعادة، كالدواوين أيضا)

فيقال : «الدِّيوان السـعيدُ» و«الدَّواوين السعيدةُ» تفاؤُلا بدوام سَعَادتها بدوام سعادةِ صاحبها .

النـــــوع الخامس

(مايُوصَـــف بالقَبُـــول)

كالضَّحايا المقْبُولة تفاؤلا بأن الله تعـالىٰ يتقَبَّلُها، وهو فى الحقيقة بمعنى الدعاء، كأنه يقال تقبَّلها الله تعالىٰ .

النـــــوع السادس

(مايُوصف بالبِرِّ، كالصَّدَقة والأَحْباس)

فيقال فى الأحباس : «الأَحْباسُ المبرورة» وفى الصَّـدَقة «الصدقة المَبْرُورة» تفاؤلا بأنها تكون جاريةً مَجْرىٰ البِرِّ الذى يلحقُ به الثوابُ . وكُتَّاب الجيش ونحوُهم يستعملون ذلك فى وصف الرِّزْقة أيضا : وهى القطْعة من الأرض تُرْصَـد لمصالح المسجد أو الرِّبَاط أو الشخص المعيَّن . فيقولون : «الرِّزْقة المبرورةُ» لجَرَيانها مَجْرىٰ الصدقة .

النـــوع السابع

(مايوصف بالخِذْلان ، كالعَدُوّ ونحوه)

فيُقال : « العَـدُوّ المخذول » علىٰ الإجمـال و « فلانٌ المخذُول » بالتصريح باسمه «وأهـل الكُفْر المَخْذُولون» ونحو ذلك تفاؤُلا بأنَّ الله تعـالىٰ يُوقع بالعدوّ الخِذْلان ويَرْمِيـه به .

الضرب الثـانى

(مايجـرِى من ذلك مَجْـرىٰ التشريف، ويختلف أيضا باختلاف الأحوال، ويتنوّع أنواعا)

النـــوع الأوّل

(ما يُوصَف بالعِزّ، كالكِتَاب بمعنى القرءان)

فيقال فيه : « الكِتَاب العزيز» ومن ثَمَّ يقولون فى قارئ القُرءان : « من حَمَلة كِتَاب الله العزيز» وربمـا وُصِف بذلك الدِّيوان أيضا، كما يقال فى دِيوان الخلافة : « الدِّيوانُ العزيزُ» علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ الألقاب .

النـــوع الثـانى

(ما يُوصَف بالشريف، كالمُصْحَف والعِلم)

فيقال فى المُصْحَف : «المصحفُ الشريف » وفى العلم « العِلْم الشريفُ» ولذلك يقولون « فلانٌ من طَلَبـة العلم الشريف» ونحو ذلك، وكذا فى الأماكِنِ الرفيعة،

كمكَّةَ والمدينةِ النبويَّة والقُدْس . فيقال : «مكّة المشرَّفة» و « المدينةُ الشريفةُ» و « القُدْس الشريفُ» والحَرَم الشريفُ تارةً لحرم مكة وتارةً لحرم المدينة . فإذا جمعا قيل : « الحَرَمانِ الشَّرِيفان » وربما أُطْلِق فى عُرْف الكُتَّاب الحَرَمان علىٰ القُدْس الشريف ومَقَامِ الخليل عليه السلام، وهو مراد المَقَرِّ الشهابىّ بن فضل الله فى كتابه "التعريف" فى قسم الوَصَايا بناظر الحرمين الشريفين دُونَ حرم مكة والمدينةِ المشرَّفتين . وقد آصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ أن وصَفُوا أكثر ما يُضاف إلىٰ السلطان بالشريف ، فيقولون فيما يصدُر عن السلطان من عَهْد وتقليد وتَوْقيع ومَرْسوم ومثال وتَذْكرة : «عَهْدٌ شريف» و«تقليدٌ شريف» و«توقيعٌ شريف» و«مرسومٌ شريف» و «مثالٌ شريف» و «تَذْكرة شريفة» ونحو ذلك .

النــوع الثالث

(ما يُوصفَ بالكريم ، كالقرءان)

فيقال : « القُرءانُ الكريم » والأصل فيه قوله تعالىٰ : ﴿ إنَّه لَقُرْءانٌ كَرِيمٌ ﴾ وقد آصطلَح كُتَّاب الزمان علىٰ أن جعلُوه دونَ الشريف فى الوصف ، فوصَفُوا به ما يصدُر عمَّن دونَ السلطان من أكابر الدولة من النُّوّاب والامراء والوُزَراء : من تَوقيع ومرسوم ومثالٍ وتَذْكِرة ونحو ذلك . فيقولون : « توقيعٌ كريم » و« مَرْسومٌ كريم » و« مِثَالٌ كريم » و« تَذْكِرة كريمة » . وقد تُوصف به المكاتبَة أيضا فيقال : « إنَّ مكاتبته الكريمةَ وردَتْ » ونحو ذلك ، وقد ورد فى التنزيل : ﴿ إنِّى أُلْقِىَ إلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ علىٰ أنه قد تقدّم أنه كان ينبغى أن يكون أرفعَ رتبة من الشريف لورود التنزيل بوَصْف القرءان به .

النـــوع الرابع

(مايُوصَف بالعُلُو، وهو فى معنىٰ الكَرَم فى ٱصطلاحهم)

فيقـال : « توقيعٌ عالٍ » و «مرسومٌ عالٍ» ونحو ذلك، وقد يُوصف به الرأىُ. فيقال : «الرأْىُ العالى» وقد يُوصَف به أمرُ السلطان أيضا من ذى الرُّتبة الرفيعة، مثل كِتابةِ الوزير علىٰ المَرَاسيم الشريفة ونحوها «أَمتَثِلُ الأمْرَ العالى».

النـــوع الخامس

(مايُوصَـــف بالســـعادة)

كـ « الرأى السَّعِيد » و « الآراءِ السعيدةِ » وربمـا وصف بذلك الدِّيوان فقيل « الدِّيوانُ السعيد » ونحو ذلك .

النـــوع السادس

(ما يُوصَف بالبركة ، كالكَعْب)

فيقال : « كَعْبٌ مبارَك » وقد يُوصَف به المنْزِل فيقـال : « مَنْزِلٌ مُبارَك » وقد يوصف به الأمرُ لمن دُونَ العـالى، فيقال : « يتقدّم أمرُه المبارَك » وكذلك المكاتبة ، فيقال : « إن مُكاتَبَته المبارَكة وردَتْ » ونحو ذلك .

الباب الثانى

من المقالة الثالثة

(فى مقادير قَطْع الورق، وما يناسب كلَّ مِقْدار منها من الأقلام، ومَقَادِير البياض فى أوّل الدَّرْج وحاشيتِه، وبُعْدِ مابين السطور فى الكتابات ، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

(فى مقادير قَطْع الوَرَق، وفيه طَرَفان)

الطرَف الأوّل

(فى مقادير قطع الورق فى الزَّمن القديم)

قد ذكر محمد بن عمر المدائنى فى كتاب "القَلَم والدواة" أن الخُلَفاء لم تزلْ تستعمل القَرَاطيسَ آمتيازا لها علىٰ غيرها من عَهْد مُعاوِيةَ بنِ أبى سُفْيان . وذاك أنه يكتب للخُلَفاء فى قِرْطاس من ثُلُثَىْ طُومارٍ، وإلىٰ الأمراء من نِصْف طُومار، وإلىٰ العُمَّال والكُتَّاب من ثُلُثٍ ، وإلىٰ التُّجَّار وأشباههم من رُبُع، وإلىٰ الحُسَّاب والمُسَّاح من سُدُس . فهذه مقاديرُ لقطع الورق فى القديم : وهى الثُلُثانِ والنصفُ والثلثُ والربعُ والسُّدُس، ومنها أستُخْرِجت المقاديرُ الآتى ذكرها . ثم المراد بالطُّومار الورقةُ الكاملةُ ، وهى المعبَّر عنها فى زماننا بالفَرْخة؛ والظاهرُ أنه أراد القَطْع البَغْدادِىَّ لأنه الذى يحتمل هذه المقاديرَ، بخلاف الشامِىِّ، لاسيما وبغدادُ إذ ذاك دارُ الخلافة ، فلا يحسُن أن يقدَّر بغير ورقها مع آشتمالِهِ علىٰ كمال المحاسن . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ آلات الكِتابة فى المَقالة الأولىٰ بيانُ الخلاف فى أوّل من صَنَع الوَرَق .

الطـــــرف الثـانى

(فى بيان مقادير قَطْع الورق المستعمل فى زماننا، وفيه ثلاث جملٍ)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى مقادير الورق المستعمل بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية

بالديار المصرية، وهى تسعة مقادِير)

المقدار الأول — قَطْع البَغْدادىّ الكاملِ . وعَرضُ دَرْجه عرضُ البَغْدادىّ بكماله : وهو ذراعٌ واحد بذراع القُمَاش المِصْرىّ ،وطولُ كلّ وصل من الدَّرْج المذكور ذراعٌ ونصفٌ بالذراع المذكور. وفيه كان تُكْتب عهودُ الخلفاء وبَيْعاتُهم. وفيه تُكتَب الآن عُهودُ أكابر الملوك ، والمكاتباتُ إلى الطبقة العُلْيا من الملوك ، كأكابر القاناتِ من ملوك الشَّرْق .

المقدار الثـانى — قَطْع البَغْدادىّ النـاقص . وعَرْض دَرْجه دون عَرْض البغدادِىّ الكاملِ بأربعةِ أصابعَ مطبوقةً . وفيه يُكْتب للطبقة الثانية من الملوك ، وربمـا كُتِب فيه [للطبقة العليا](١) لإعْواز البَغْدادىّ الكاملِ .

المقدار الثـالث — قَطْع الثلثين من الورق المِصْرىّ . والمراد به ثُلُثا الطُّومار من كامل المنصورىّ ، وعَرْض دَرْجه ثُلُثَا ذراع بذراع القُماش المِصْرىّ أيضـا . وفيه تُكْتَب مَناشِيرُ الأمراء المقدّمين، وتقاليدُ النُّوّاب الكِبَار والوزراءِ وأكابرِ القُضاة ومَنْ فى معناهم . ولم تجر العادةُ بكتابة مكاتَبةٍ عن الأبواب السلطانية فيه .

(١) الزيادة من الضوء بالمعنى ليتم الكلام .

المقدار الرابع — قَطْع النصفِ. والمراد به قَطْع النِّصف من الطُّومار المنصورِىّ؛ وعَرْضُ دَرْجه نصفُ ذراع بالذراع المذكور. وفيه تُكْتَب مناشيرُ الامراءِ الطَّبْلَخاناه، ومراسيمُ الطبقة الثانيَة من النُّوّاب، والمكاتباتُ إلىٰ الطبقة الثانية من الملوك.

المقدار الخامس — قطع الثلث. والمراد به ثلثُ القَطْع المنصورىّ؛ وعرضُ دَرْجه ثُلُثُ ذراع بالذراع المذكور. وفيه تُكتَب مناشيرأمراءِ العشرات، ومراسيمُ صغار النُّوّاب، والمكاتباتُ إلىٰ الطبقة الرابعة من الملوك.

المقدار السادس — القَطْع المعروف بالمنصورىّ. وعَرْضه تقديرُ رُبُع ذراع بالذراع المذكور. وفيه تكتَب مناشيرُ المماليك السلطانية ومقدَّمِى الحَلْقة، ومناشيرُ عشرات التُّرْكُمَان ببعض المماليك الشامية، وبعضُ التواقيع وما فى معنىٰ ذلك.

المقدار السابع — القَطْع الصغير، ويقال فيه قَطْع العادة. وعَرْض دَرْجه تقدير سُدُس ذراع بالذراع المذكور. وفيه تُكْتَب عامةُ المكاتبات لأهل المملكة وحُكّامها، وبعضُ التواقيع والمراسِيم الصِّغار، والمكاتباتُ إلىٰ حُكّام البلاد بالممالك، وما يَجْرِى هذا المَجْرىٰ. وقد كان هذا القطعُ والذى قبله فى أوّل الدَّوْلة التركية طُولُ كلِّ وصل منه شبران وأربعةُ أصابع مطبوقةً فما حَوْلَ ذلك.

المقدار الثامن — قطعُ الشامىّ الكاملُ. وعرضُ دَرْجه عرضُ الطُّومار الشامىّ فى طُوله، وهو قليلُ الاستعمال بالدِّيوان، إلا أنه ربما كُتِب فيه بعضُ المكاتبات، كما كتب فيه عن الأشرف شعبانَ بن حُسَين لوالدته حين سافرَتْ إلىٰ الحجاز الشريف.

المقدار التاسعُ — القَطْع الصغير . وهو فى عَرْض ثلاثةِ أصابع مطبوقةً من الورق المعروفِ بورق الطَّيْر، وهو صِنْف من الورق الشامىّ رقيقٌ للغـاية . وفيـه تُكتَب ملطَّفات الكُتُب وبطائق الحمامِ .

الجمـــلة الثـانية

(فى مقادير الورق المســتعملة بدَوَاوين الإنشاء بالممـالك الشاميــة :
دِمشقَ، وحَلَبَ، وطَرابُلُسَ، وحَمـاةَ، وصَـفَدَ، والكَرَك .
فى المُكاتَبَات والوِلَايات الصادرة عن النوّاب بالممـالك،
وهى لاتخرُج عن أربعة مقادير)

المقـدار الأوّل — قطعُ الشامىّ الكاملُ : وهو الذى يكون عَرْضـه عَرْض الطُّومار الشامىّ الكاملِ فى طوله علىٰ ما تقدّم فيه . وفيه يُكْتَب عن النوّاب لأعلىٰ الطبقات من أرباب التَّوَاقيع والمَرَاسيم ليس إلَّا .

المقدار الثانى — قَطْع نصف الحَمَوِىّ . وعرْض دَرْجه عرضُ نِصف الطُّومار الحَمَوىّ ، وطوله بطول الطُّومار . وفيه يُكْتَب للطبقة الثانيـة من أرباب التواقيع والمَرَاسيم الصادرةِ عن النوّاب .

المقدار الثالث — قطع العـادةِ من الشامىّ . وعَرْض دَرْجه سـدُس ذراع بذراع القُماش المِصْرىّ فى طول الطُّومار أو دُونَه . وفيـه يُكْتَب للطبقة الثالثـة من أرباب التواقيع والمراسـيم الصادرة عن النُّوّاب وعامّة المكاتبات الصادرةِ

عن النُّوَاب إلىٰ السلطان فَمَنْ دُونَه من اهل المملكة وغيرهم ، إلا أن نائب الشام ونائب الكَرَك قد جَرَتْ عادتُهما بصدور المكاتبات عنهما فى الورق الأحمر دُونَ غيرهما من النوّاب .

المقدار الرابع — قَطْع ورق الطير المقدَّم ذكره فى آخر المقادير المستعملة بالأبواب السلطانية بالديار المصرية . وفيه تُكتب المَلَطَّفاتُ والبطائقُ علىٰ ماتقدّم .

قلت : هذه مقادير قَطْع الورق بالديار المصرية والبلاد الشاميَّة . أما غير مملكة الديار المصرية من الممالك ، فالحالُ فيها يختلِفُ فى مقادير الورق المستعملِ بدواوينها . فأمّا بلادُ المَشْرِق فعلىٰ نحو المقادير المتقدِّمة . وأما بلاد المَغرِب والسُّودان و بلادُ الفَرَنْج ، فعادةُ كتابتهم فى طُومارٍ واحد ، يزيدُ طولُه علىٰ عَرْضه قليلا ، مابين صغير وكبير بحسَبِ ما يَقْتَضِيه حال المكتوب .

الجملة الثالثة

(فى مقادير قَطْع الورق الذى تَجرى فيه مكاتباتُ أعيان الدَّوْلة
من الأُمَراء والوزراء وغيرهم بالديار المصرية
والبلاد الشامية)

وهو قَطْع العادة من البَلَدىّ بالديار المصرية ، ومن الشامى بالبلاد الشامية .

الفصـــــل الثـانى

من الباب الثانى من المقالة الثالثة

(فى بيان ما يُناسِبُ كلَّ مِقْدار من مقادير قَطْع الورق المتقدّمة الذِّكر من الأقلام ، ومَقاديرِ البَيَاض الواقعِ فى أعلىٰ الدَّرْج وحاشيتهِ ، وبُعْدِ ما بين السُّطور فى الكتابة . وفيه طَرَفان)

الطـــــرف الأوّل

(فيما يناسِبُ كلَّ مقدار منها من قَطْع الورق من الأقلام)

قد ذكر المقرُّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" فى آخر القسم الثانى ما يناسبُ كلَّ مقدار من مقادير الورق المستعملة بديوان الإنشاء بالديار المصرية من أقلام الخَطِّ المنسوب فقال : إن لِقطع البَغْدادىِّ قَلَم مختصر الطُّومار ، ولقَطْع الثلثين قَلَمَ الثلث الثقيلِ، ولقَطْع النِّصف قلَمَ الثلث الخَفِيف ، ولِقَطْع الثلُثِ قلَمَ التوقيعات، ولقَطْع العادة قَلَم الرِّقاع . ومن ذلك يُعْلَم ما يناسب كلَّ قَطْع من مقادير القطع المستعملة بدواوين الإنشاء بالممالك الشامية . فيناسبُ الشامىَّ الكاملَ قلَمُ التوقيعات : لأنه فى مِقْدار قطع الثُّلُث البَلَدىِّ أو قريبٌ منه ؛ ويناسبُ نصفَ الحموىّ والعادةَ من الشامىّ قلَمُ الرِّقاع ، لأنهما فى معنىٰ القَطْع المنصورىّ والعادةِ بالديار المِصْرية . أما قلم الجَنَاح(١) لكتابة بَطائق الحمامِ به . وأما ما كان يَكْتُب به الخلفاءُ

(١) عبارة الضوء للؤلف ج ١ ص ٤١٥ ، ٤١٦ "ويناسب قطع الحموى والعادة من الشامى قلم الرقاع لانهما فى معنى العادة ، ويناسب ورق الطير الذى تكتب فيه البطائق والمطلقات قلم الغبار ولذلك يسميه بعض الكتّاب قلم الجناح الخ" وهى واضحة .

أسماءهم فى الزمن القديم وبه يكتُب الملوكُ أسماءَهم الآنَ ، فقلم الطُّومار : وهو القلمُ الجليلُ الذى لاَقلَم فوقه . وقد تقدّم الكلام علىٰ هذه الأقلام فى بيان ما يحتاج إليه الكاتب فى أواخر المقالة الأولىٰ .

الطـــــرف الثانى

(فى مقادير البياض الواقع فى أوّل الدَّرْج ، وحاشيتِـــه وبُعْد مابين السُّطور فى الكتابة)

أما مقدار البياض قبل البسملة ، فيختلِف فى السلطانيات باختلاف قَطْع الورق ، فكُلَّما عظُم قطعُ الورق ، كان البياضُ فيه أكثَرَ : فقَطْع البَغْدادِى يُتْرك فيه ستةُ أوصالٍ بياضا ، وتُكتَب البسملة فى أوّل السابع ، وقطعُ الثلثين يُترك فيـه خمسةُ أوصال ، وقطعُ النصفِ يُتْرك فيه أربعةُ أوصال ، وقطعُ الثلث يُتْرك فيه ثلاثةُ أوصال ، وقطعُ المنصورىّ والعـادةِ تارةً يترك فيه ثلاثةُ أوصال ، وتارةً يُترَكُ فيه وصلان ، بحسَب ماتقتضيه الحالُ . وقَطْع الشامىّ الكامل فى معنىٰ قطع الثلث ، وقَطْع نِصف الحموىّ والعادةِ من الشامىّ فى معنىٰ القطع المنصورىّ والعـادةِ فى البلدِىّ . وربمـا ٱجتهدَ الكاتبُ فى زيادة بعض الأوصال ونُقْصانها بحسَبِ ماتقتضيه الحال . وفى المكاتبات الصادرةِ عن سائر أرباب الدولة مصرًا وشاما يُتْرك فى جميعها قبل البسملة وصـلٌ واحدٌ فقط . وفى كتابة الأدْنىٰ إلىٰ الأعلىٰ يُترَكُ بعضُ وَصْل .

وأما حاشيةُ الكِتَاب ، فبحَسَب ٱجتهاد الكاتب فيه فى السَّعة والضِّيق . وقد رأيت بعض الكُتَّاب المعتبرِين يقدّر حاشيةَ الكتاب بالرُّبُع من عَرْض الدَّرْج ، وهو ٱعتبارٌ حسنٌ لا يكاد يخرُج عن القانون .

وأما بُعْدُ ما بين السطور ، فيختلِفُ باختـلاف حال المكتوب وآختلافِ قطع الورق : ففى السلطانيات كلِّهـا علىٰ آختلاف قَطْع الورق فيهـا تكْتَبُ البســملة فى أوّل الفصل بعدَ ما يُتْرك من أوصال البيـاض فى أعلىٰ الدَّرْج بحسَبِ ما تقتضيه الحـالُ ، ثم يُكْتَب تحت البسملة سطرٌ ملاصقٌ لهـا بحسَب ما يقتضيه وضعُ القلَم المكتوب به فى القُرْب والبُعْد ، بحسب الدِّقَّة والغِلَظ ؛ ثم يُكْتَب الســطر الثانى فى آخر الوَصْـل الذى كُتِبت البســملةُ فى أوّله ، بحيث يبقىٰ من الوصل ثلاثةُ أصابعَ مطبوقةً أو نحوُها فى القطع الكبير ، وقــدرُ إصبعين فى القَطْع الصــغير ، وما بينهما بحَسَبه .

وقد قدّر صاحبُ «موادّ البيان» البياضَ الباقىَ بين السطر(١) الأوّل والثانى أيضا . وهذا إنمـا يُقارِب فى القطع الكبير . وقد ذكر آبن شيث فى "مَعالم الكتابة" ـ وكان فى آخر الدولة الأيُّوبية فيما أظُنُّ ـ أن مقدار ما بين كلِّ سطرين يكون ثلاثةَ أصابع أو أربعةَ أصابع . والذى جرتْ به عادةُ الكُتَّاب فى زماننـا أنه يكون فى قَطْع العادةِ والمنصورىّ فى كلِّ وصل من أوصال(٢) الزمان ثلاثةَ أسطر ، وفيما عداه سطران . وربما وقع التفاوتُ فى القَطْع الصغير بحسب الحال حتّى يكون فى التواقيع التى علىٰ ظُهُور القِصَص ونحوها بين كلِّ سطرين بَعْـدَ بيتِ العلامةِ قَدْرَ إصبعين ؛ وربمـا تواصلت الأسطرُ كما فى الملطفات ونحوها .

أمّا ما يُكْتَب عن النوّاب من الولايات والمكاتَبات من سائر أعيان الدولة ، فدُونَ السلطانيات فى مقــدار خُلُوّ موضع العلامة ، وهو ما بين قدر خمسِ أصابع مطبوقةً ونحوها ؛ وقدرُ [بُعْدِ] السطور فيما بَعْدَ بيت العلامة من قدرِ إصبعين إلىٰ مادونهما .

(١) عبارة الضوء نقلا عن مواد البيان " بين السطر الأول والثانى بقدر شبر " .
(٢) لعله من أوصاله أى العادة أو المنصورى . انظر الضوء ص ٤١٧ .

الباب الثالث

من المقالة الثالثة

(فى بيان المستَنَدات، وكتابة الملَخَّصات، وكيفيَّةِ التعيين . وفيه فصلان)

الفصــــل الأوّل

(فى بيان المستَنَدات : وهى التوقيع علىٰ القِصَص ومايجرى مجْراه،
وما يُحْتاج فيه إلىٰ كتابة المستَنَدات ، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(السُّلْطانيات ، وهى صنفان)

الصــنف الأوّل

(ما يصدُر عن متولِّى ديوان الإنشاء : كولايات النُّوّاب والقُضاة وغيرهما
من أرباب الوظائف، والتواقيع التى تُكْتَب فى المُسامحات
والإطلاقات، ومكاتَبات البريد الخاصّة بالأشغال السلطانية،
وأوراق الطريق وما يَجْرِى مَجْرىٰ ذلك)

وجميعها مَعْدُوقةٌ بنظَر صاحبِ ديوان الإنشاء . فما كان منها جليلَ الخَطَر كولايات النُّوّاب والقُضاة وأكابر أرباب الوظائف والمكاتَباتِ المتعلِّقة بمهمّات السلطنة ، فلا بُدَّ من مخاطبة صاحبِ ديوان الإنشاء فيها وٱعتمادِ مايبْرُز به أمْرُه . وما كان منها حقيرًا بالنسبة إلىٰ مخاطبة السلطان فيه ٱستقلَّ فيه بما يَقْتضيه رأيُه .

ثم من ذلك ما يَكْتُب به صاحبُ الديوان رقاعًا لطيفةً بخطه ويُعَيِّنها علىٰ الكاتب الذى يكتبها وتُدْفَع إليه لتُخَلَّد عنده شاهدًا له ، كالولَايات والمُسامَحات والإطلاقات

والمُكاتَبات المتعلّقة بأمور المملكة ونحو ذلك . ومن ذلك ما يَبْرُز به أمرُ صاحبِ الديوان مشافَهةً فيكتبه من غير شاهد عنده ، وذلك فى الأمور التى لادَرَكَ فيها علىٰ الكاتب ، كتقاليد النُّوّاب وبعض المكاتبَات ، إذ لا تُهَمَة تلحقُ كاتبَ الإنشاء فى مثل ولاية نائبٍ كبيرٍ أو قاضٍ حَفِيل : لأن مثل ذلك لايخفىٰ علىٰ السلطان ، فأشبه خِطابُ صاحبِ الديوان فيها الكاتبَ خطابَ السلطان صاحبَ الديوان حيثُ لا شاهدَ عليه إلا اللهُ تعالىٰ ، بخلاف الأمور التى يلْحَق كاتبَها الدَّرَكُ ، فإنه لابُدّ فى كتابتها من تخليدِ شاهدٍ . وكان الواجب أن لا يُكتبَ حَقيرٌ ولا جليلٌ إلا بشاهدٍ من صاحب الديوان ، فإن الأمورَ تتراكم وتكثُر ، والإنسانُ معرَّضٌ للنسيان ، وربما عرضَ إنكارٌ بسببِ ما يكتُبه الكاتبُ ونَسِيَهُ صاحبُ الديوان فيكون الكاتبُ قد عرّضَ نفْسَه لأمرٍ عظيم . ولا يُقاسُ الكاتبُ علىٰ صاحب الديوان فى عدمِ أخذه شاهدًا بخطّ السلطان ، فإن صاحبَ الديوان هو المتصرّف حقيقةً ، والسلطانُ وكلُّ جميع أمور المملكة إليه ، فلا يُتَّهَم فى شىء منها ، بخلاف الكاتب .

وقد ذكر أبو الفضل الصُّورىّ فى "تَذْكرته" أن المكتوبَ من الديوان إن كان مكاتبةً فالواجب أن يكون عُنْوانُها بخط متولّى الديوان ، وإن كان منشورًا فالواجب أن يكون التاريخُ بخَطّه ليدُلَّ علىٰ أنه وقَفَ علىٰ المكتوب وأمضىٰ حُكْمه ورَضِيه ، ويكون ذلك قد قام مَقام كتابةِ آسمه فيه . ثم قال : وقد كان الرسمُ بالعِراق ــ وفيه الكُتَّاب الأفاضلُ ــ أن يَكْتُبَ الكُتّابُ ما يكْتُبون ثم يقولون فى آخره : « وكتب فلانُ بن فلان» بآسم متولّى ديوان الرسائل . وماذكره عن أهل العراق قد ذكر نحوه أبو جعفر النَّحاسُ فى "صناعة الكُتّاب" إلا أنه قد جعل بدل آسم متولّى الديوان آسمَ الوزير [فقال] ويُكْتَب فى آخر الكتاب «وكتب فلانُ بنُ فلان» باسم الوزير وآسم أبيه . وقد رأيت نُسَخًا عدّةً من سِجِلّات الخلفاء الفاطميين بالديار المِصْرية

مستشهَدا فيها باسم الوزير على النّهج المذكور . على أنه كان الواجب أن يكون الأستشهادُ فى آخر كل كتابٍ بآسم كاتبه الذى يكتُبه ليُعلَم مَنْ كتبه ، فإن الخطوط كثيرةُ التشابه ، لاسيما وقد كثُر كُتَّاب الإنشاء فى زماننا وخرجوا عن الحدّ ، حتّى إنه لم يَعْرِف بعضُهم بعضا فضلا عن أن يَعْرِف خَطَّه . وقد كان كُتَّاب النبيّ صلّى الله عليه وسلم إذا سَجَّلُوا عنه سِجِلًّا أو نحوه كتب الكاتب فى آخره «وكتب فلان آبن فلان» . وهذه الرُّقْعة التى كتبها النبيّ صلّى الله عليه وسلم لتميم الدارِىّ بإقطاع قُرًى من قُرى الشام موجودةٌ بأيدى التميميِّين إلى الآنَ مستشْهَدا فيها بخَطّ أميرالمؤمنين علىّ بنِ أبى طالب كرَّم الله وجهه . وإنما عَدَلُوا عن آسم الكاتب نفسه إلى آسم متولِّى الديوان أو الوزير آستصغارًا للكاتب أن يُستَشْهَد للكتّاب بآسمه فيما يُكْتَب به عن الخليفة . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : وقد قالوا إن أوّل مَنْ كتب فى آخر الكتاب «وكتب فلانُ بنُ فلان» أُبَىُّ بنُ كعبٍ رضى الله عنه .

الصّنْف الثانى

(ما يصدُر عن غير صاحبِ ديوان الإنشاء : كالأمور التى يُكتَب بها من الدواوين السلطانية غيرِ ديوان الإنشاء وتُلتَمَس الكُتُب من ديوان الإنشاء على مقتضاها ، كالمكاتبات الخاصّة بتعلُّقات شىء من الدواوين المذكورة ، وبعضِ التواقيع التى أصلُها من ديوان الوزارة)

ويَنْحصِر ذلك فى أربعة دواوين :

الديوان الأوّل — ديوانُ الوزارة : وهو أعظمُها خَطَرا ، وأجلُّها قَدْرا .

وقد جرت العادةُ أنه إذا دعتِ الضرورةُ إلىٰ كتابة كِتَابٍ من ديوان الإنشاء يتعلَّقُ بديوان الوزارة أن تُكتبَ به قائمةٌ من ديوان الوزارة فى ورقةٍ ديوانيَّة بمـا مثاله : « رُسِم بالأمر الشريف ـ شرفه الله تعـالىٰ وعظمه ـ أن يُكْتَب مثـالٌ شريف إلىٰ فُلانٍ الفلانى بكذا وكذا » . وكيفية وضع هذه القـائمةِ أن يكون السطرُ الأوّلُ فى رأس الورقة من الوجه الأوّل منها، وآخره «شرفه الله تعالىٰ وعظَّمه» وبينه وبين السطر الثـانى قدرُ إصبعين معترِضين بياضا، وباقى السطور مسترسلةٌ متقارِبةٌ بقلم الرِّقاع؛ ويكتُبُ الوزير فى البياض الذى بين السطر الأوّل والثـانى بقلم الثلث مامثاله : «يُكْتب» . ويوجَّه بالقائمة إلىٰ ديوان الإنشاء صحبةَ مديرٍ من ديوان الوزارة أوغيره، فيَكْتُب علىٰ حاشيتها يُكْتَب بذلك، ويُعيِّنها علىٰ بعض كُتَّاب الإنشاء فيكتب مثالا بمـا فيها، ويخلِّد القائمةَ عنده شاهدًا له؛ وربما خُلِّدت بديوان الإنشاء فى جملة مايُخَلَّد فى الأضَابِيرِ شاهدًا لديوان الإنشاء، والأوّل هو الأليقُ .

وإن كان الذى يُكْتَب من ديوان الوزارة توقيعًا باطلاقٍ أو نحوه ممـا أصـلُه من ديوان الوزارة، كتب الوزيرُ علىٰ حاشيةِ قصةِ صاحبه ما مثاله «يكتب بذلك، أو يُوقَّع بذلك » وتُبْعَث إلىٰ ديوان الإنشاء فيكتُب عليهـا صاحبُ ديوان الإنشاء بالتعيين . ثم إن كان التوقيع مُلْصَقا بقصةٍ فذاك ، وإلا خَلَّد الكاتبُ القصةَ شاهدًا عنـده علىٰ ذلك ؛ وربمـا كُتِب بالإطلاقات من ديوان الوزارة مُربَّعـاتٌ بخطِّ مُسـتوْفِى الصُّحْبة .

الديوان الثـانى ـ ديوانُ الخاصّ :

وهو فى كتابة الأمثلةِ الشريفةِ علىٰ مامرّ من كتابة القائمة ليخرجَ المثالُ علىٰ نظيرها، علىٰ ماتقدّم فى ديوان الوزارة . فتكتبُ القـائمةُ علىٰ الحُكْم المتقـدّم من غير فرق،

ويكتب ناظرُ الخاص عليها نظير كتابة الوزير السابقة، ويوجِّه بها إلىٰ ديوان الإنشاء فيكتب عليها بالتعيين كما تقدم، ويخلِّد الكاتبُ القائمةَ عنده شاهدًا له، أو تُخلَّد بديوان الإنشاء علىٰ ماتقدّم فى ديوان الوزارة. ولا يُكْتَب من ديوان الخاصِّ تواقيعُ بإطلاقات ونحوها بل تُكْتَبُ بها مراسيمُ مربَّعة فى ورقٍ شامىّ بخط مباشِرى ديوان الخاصِّ.

الديوان الثالث — ديوانُ الإستدَّاريَّة :

وحكمُه فى ذلك حكمُ ديوان الخاصِّ من غير فَرْق، ويَكْتُب الإستدَّار عليها كما يكتُب الوزير وناظرُ الخاص، ويبعَث بها إلىٰ ديوان الإنشاء، فيجرى الحكمُ فيها علىٰ ماتقدّم فى الديوانين المذكورين.

الديوان الرابع — ديوان الجَيْش :

والذى يرد إلىٰ ديوان الإنشاء منه آبتداءً هى المربّعات التى تُكْتَب بالإقطاعات لتخرُج المناشيرُ علىٰ نظيرها.

وصورتها أن يُكْتَب فى نصف فرخةٍ مكسورة فى القَطْع البلدىّ بعد البسملة الشريفة مامثاله «المرسوم بالأمر العالى، المَوْلوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ، الفلانىّ، أعلاه الله تعالىٰ وشرَّفه، وأنفذه وصَرَّفه؛ أو أعلاه اللهُ تعالىٰ وأسماه، وشَرَّفه وأمضاه، أن يُقْطَع باسم فلانٍ الفلانى — أحدِ الأمراء المقدّمين، أو الطبلخانات، أو العشرات، أو الخمسات — بالمكان الفلانى؛ أو أحدِ المماليك السلطانية، أو مقدَّمى الحَلْقة، أو أجنادِ الحَلْقة، بالمكان الفلانىّ المرسوم آستقرارُه فى أمراء العشرات، أو الطَّبْلخانات، أو المقدّمين، أو نحو ذلك — ما رُسم له به الآنَ من الإقطاع».

فإن كان أميرا قيل بعد ذلك : «لخاصّته ولمن يستخْدِمه من الأجناد الجِياد للخِدْمة الشريفة، والبَرْك التام، والعُدّة الكاملة، بمقتضى المثال الشريف، او الخطّ

العالى الكافِلىّ؛ أو بمقتضى الإشهاد المشمول بالخَطِّ الشريف، أوالخط الكافلىّ علىٰ نظير ما تقدّم » أو « بمقتضى المربَّعة المكتتبة من المملكة الفلانية المشمولةِ بالخط الشريف» إن كان أصله مربَّعةً من بعض الممالك وما أشبه ذلك . فإن كان أميرا ذُكِرت عِدّته علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ المناشير فى المقالة الخامسة . ثم يقال : « حَسَب الأمر الشريف » ويكمل التاريخ « والحمد لله ، والصلاة علىٰ النبى صلّى الله عليه وسلم » ويُبْعث بها إلىٰ ديوان الإنشاء فيكتب عليها صاحب الديوان بالتعيين علىٰ بعض كُتَّاب الإنشاء ، فيكتبها ويخلِّد المربعةَ شاهدا عنده .

الضرب الثانى

(ما يتعلق بالكُتُب فى المظالم ، والنظرُ فيه من وجهين)

الوجه الأوّل

(فيما يتعلَّق بالقِصَص)

وهى تُرفع إلىٰ وُلَاة الأمور بحكايةِ صورةِ الحال المتعلِّق بتلك الحاجة ، وسُمِّيت قصصا علىٰ سبيل المجاز، من حيث إن القِصَّة آسم للمَحْكِىِّ فى الورقة لا لنفس الورقة . وربما سُمِّيت فى الزمن القديم رِقاعًا لِصغَر حَجْمها ، أخذا من الرُّقعة فى الثوب .

ثم الذى يجب فى هذه القِصَص الإيجازُ والاختصارُ مع تبليغ الغَرَض المطلوبِ والقُرْب من فَهْم المخاطَب . فإنها متىٰ كانتْ خارجةً عن الحدّ فى الطول ، أدَّت إلىٰ الإضْجار والسَّآمة المنفِّرَيْن للرؤساء . وربما كان فى ذلك حِرمانُ الطالب ودَفْعُه عن حاجته : إما للإعراض عنها آستثقالا ، وإما لعدم فَهْم المقصود منها لطُولها وآختلاطِ بعض مقاصِدِها ببعض . وأما كونُها مبلِّغةً للغرض المطلوب وفَهْم المخاطب ،

فلانها إذا كانت بصدد الاختصار المُجْحِف والتعقيد، نبَا عنها فهم الرئيس ومَجَّها سمعُه: فإما أن يُعْرِض عنهـا فيفُوتَ على صاحبها المطلوبُ، وإما أن يسأل غيره عن معناها فيكون سبباً لتنزُّله عن عِزِّ الرياسة إلى ذُلِّ السؤال، وكلاهما غير مستحْسَن .

وقد جرتِ العادةُ فى مثل ذلك أن يخلَّى من أوّل الورقة قليلا ، ويجعل لها هامش بحسَبِ عَرْضها ، ويبتـدأ فيها بالبسملة ثم يُكْتَب تحت أوّل البسملة : «المملوكُ فلانٌ يقبِّل الأرضَ، وينْهِى كذا وكذا » إلى آخر إنهائه : ثم يقال : « وسؤالُه كذا وكذا » فإن كان السؤال للسلطان قال : «وسؤالُه من الصَّدَقات الشريفة كذا وكذا» وإن كان السؤال لغير السلطان قال : « وسؤاله من الصدقات العميمة كذا وكذا» . ثم إن كان المسئول كتابا : فإن كان عن السلطان قال : وسؤاله مثالٌ شريفٌ بكذا وكذا، وإن كان عن غير السلطان قال : « مثالٌ كريمٌ بكذا وكذا » ثم يقول إن شاء الله تعالى، ويحمَدُ الله تعالى ويصلِّى على النبىّ صلّى الله عليه وسلم ويُحَسْبِلُ . وربما كتب « المملوك فلان » بحاشية القِصَّة، خارجا عن سَمْت البسملة . وربمـا أُبْدِل لفظُ المملوك بلفظ الفَقِير إلى الله تعـالى . ويقال حينئـذ بدل « يقَبِّل الأرضَ » « يبتَهِـل إلى الله تعالى بالأدْعية الصـالحة » أو « يواصـل بالأدْعِيَة الصالحـة » ونحو ذلك .

وقد جرتِ العادة فى كتابة القِصَص أن صاحبها إن كان أميرًا ونحوَه كَتَب تحت البسملة « المَلَكىّ الفلانىّ» بلقب سلطانه ، مخلياً بياضا من جانبيها . على أنه قد تصـدّى لكتابة القصص من لايفرّق بين حسَنَهـا وقَبِيحها ، ولا ينظُر فى دلالتها ، ولا يُراعِى مدلولها . وذلك كسُنَّة الزمان فى أكثر أحواله .

قلت : وقد جرتْ عادةُ أكثر الناس فى القِصَص أنه إذا فرغ الكاتبُ من كتابة القِصَّــة يقطع قليلا من زاويتها اليمنىٰ من الجهة السُّــفْلىٰ، مستنِدِينَ فى ذلك إلىٰ كراهة التَّرْبيع .

ومن غريب ما يُحْكىٰ فى ذلك أن بعض الوزراء قال يوما بمجلس ... ... (١) وأنا وُلِّيتُ الوزارةَ رابعَ ربيع الأوّل ســنةَ أربع وأربعين وأربعمائة ـ فقال له بعض جلسائه : إن تفاءلتَ أنتَ به فقد تطيَّرنا نحنُ به . ولا شكَّ أن مستندَهُم فى ذلك التشاؤُم بالتربيع فى القِرَان النُّجومىّ ، ولا يُعوّل عليه . وقد ورد أنَّ حوضَ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى القيامة زَوايَاه علىٰ التربيع ، ولولا أن التربيعَ أحسنُ الأشكال لمــا وُضِع عليه حوضُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم .

الوجـــــه الثـانى

(فيما يتعلق بالنَّظر فى المَظَالم ، وما يكتَبُ علىٰ القصص ، وما يَنْشأ عنها من المُساءلات وغيرها)

وهو أمرٌ مُهِمٌّ ، به يقَعُ إنصافُ المظلومِ من الظالم ، وخَلاصُ المُحِقِّ من المُبْطل ، ونُصرةُ الضعيف علىٰ القوىّ ، وإقامةُ قوانينِ العدل فى المملكة . وقد نَبَّه أبو الفضل الصُّورى فى "تذْكِرته" علىٰ جَلالة هـذا القدر وخَطَره ، ثم قال : ومن المعلوم أن أكثر المتظلِّمين يَصِـلُون من أطراف المملكة ونواحيها ، وفيهـم الحُرَم والمنقَطِعات

---

(١) بياض فى الأصول بقدر كلمتين .

والأيتام والصَّعاليك ، وكلُّ من يَفِد منهم معتقدٌ أنه يصير إلىٰ مَنْ ينصره ويَكْشِف ظُلامته ويُعْديه علىٰ خَصْمه . فيجب أن يُتَلقىّ كلُّ منهم بالتَّرحاب واللُّطْف، ويُنْدَب لهم من يحفَظ رِقَاعَهم ويَتَنَجَّز التوقيع فيها من غير ٱلتماس رَشْوة ولا فائدةٍ منهم ، وأن تكون التوقيعاتُ لهم شافيةً فى معانيها ، مستوعِبةً لكَشْف ظُلَاماتِهم ، مُؤْذِنةً بإنجاح طَلِباتِهم .

قال أبو هلال العسكرىّ : فى كتابه " الأوائل " : كان المهدىُّ يجْلِس للمظالم وتُدْخَل القِصصُ إليه ، فارتشىٰ بعضُ أصحابه بتقديم بعضها ، فاتخذ بيتا له شُبَّاكٌ حديدٌ علىٰ الطريق تُطْرَح فيه القِصَص ، وكان يدْخُله وحده فيأخُذ ما يقع بيده من القِصَص أوّلا فأوّلا فينظر فيه لئلَّا يُقَدّم بعضها علىٰ بعض .

قال : وقدم عليه رجل فتظَلَّم فأنصفه فاستخفَّه الفَرَح حتّٰى غُشِىَ عليه، فلَمَّا أفاق قال : ما حَسِبت أنى أعيشُ حتّٰى أرىٰ هذا العدلَ فلما رأيته داخلَنِى من السرور مازال معه عَقْلى ـ فقال له المهدىّ : كان الواجبُ أن نُنْصِفَك فى بلدك ، وكان قد صَرَف فى نفقة طريقه عشرين دينارا فأمر له بخمسين دينارا وتحلَّل منه .

قال أبو الفضل الصُّورىّ : ومهما كان من الرِّقاع يحتاجُ إلىٰ العَرْض علىٰ السلطان، عرضه عليه ، وأحسنَ السِّفارةَ والتلَطُّف فيه ، ووقّع بما يؤمَرُ به ، فقد تحدُث فى هذه الرقاع الأمورُ المهمَّةُ التى تنتفِعُ بها الدولة ، وتستضِرُّ بتأخير النظر فيها ، ويفهم من طىّ هذه الرقاع من جَوْر بعض الوُلَاة والمستخْدَمين ما تُوجب السياسةُ صَرْفهم عمَّا وُلُّوه منها . ومهما كان منها مما يَشُكُّ السلطان فى صحته ، نَدَب مَنْ يَثِق به للكَشْف مع رافعه ، فإن صح قوله أُنْصِف من خَصْمه ، وإن بان تمحُّله قُوبِل بما

يَرْدَعُ أمثـاله عن الكَذب والتمرُّد؛ ويعلم الوُلاةُ والمشارِفُون وسائرُ المستخْدَمين أن السلطان متفرِّغ للنظر فى قِصص النـاس وشكاوِيهم ، وقد نصب لذلك من يتفرّغ له ويطالعه بالمُهِمِّ منه فيكُفّ أيديهم عن الظلم ، ويحذَرُون سُوءَ عاقبة فعلهم ، ويقِلُّ المتظلّمون قولا واحدا ، وتحسُن سُمْعةُ الدولة بذلك فيكونُ لهـا به الجمـالُ الكبير .

قلت : والذى يُرفَع من القِصَص فى معنىٰ ذلك فى زماننا علىٰ ستة أنواع .

النـــوع الأوّل

منهـــا

(ما يرفع إلىٰ السلطان فى آحاد الأيّام)

وقد جرت العـادةُ فيه أن يُقْرأَ علىٰ السلطان : فمـا أمضاه منه كُتِب علىٰ ظهر القِصَّة ما مثاله «يكْتَب» ثم تحمل إلىٰ كاتب السر فيعيِّنها علىٰ بعض كُتَّاب الإنشاء، فيكتُب بمقتضاها ويخلِّدها عنده شاهدًا له .

النـــوع الثـانى

(ما يُرفَع لصاحب ديوان الإنشاء)

وقد جرتِ العادةُ فى ذلك أن رافع القِصَّة والمحتاجَ إلىٰ الأمثلة الشريفةِ السلطانية فى مُهِمَّاته ومتعلَّقاته إن كان من الأعيـان والمعتَبَرين كأحدٍ من الأمراء أو المماليك السلطانية وأكابرِ أرباب الأقلام ، بَعَث بقصَّته لديوان الإنشاء ، فيقف عليها صاحبُ ديوان الإنشاء ويتأمَّلُهـا وينظر ما تضمَّنته ، فإن كان ممـا يُحتاج فيه إلىٰ مخاطَبة السـلطان ومؤامَرَته ، أخذها ليقرأَها عليه عند حُضُوره بين يديه ، ويمتثل

ما يأمُر به فيها، فيكتب بمقتضاه، سواء طابقَ سُؤالَ السائل أم لا، ويعيّنها على كاتب من كُتَّاب الإنشاء، فيكتب بمقتضاها ويخلِّد القصةَ شاهدا عنده. وهذه المثالات ورقُها من ديوان الإنشاء من المرتَّب السلطانى. وإن كان رافعُ القصة من غير المعتَبَرين كآحادِ الناس، دفعَ القصة إلى مُدير من مُدَراء ديوانِ الإنشاء فيجعل عليها علامةً له، ويجمع كلُّ مديرٍ مامعه من القِصَص، وتُرْفَع إلى صاحب ديوان الإنشاء، فما كان منها غيرَ سائغ للكتابة عليه قَطَعه أو ردّه؛ وما كان منها سائغًا كتب عليه وعَيَّنه. وربما آستَشْكل بعضَها فأخَّره ليقرأه على السلطان وينظُرَ ما يأمُر به فيه فيعتَمِدُه. وإذا عيَّنها على كاتب من كُتَّاب الإنشاء كتب بمقتضاها وخلَّد القِصَّة عنده شاهدا.

النـــوع الثـالث

(ما يُرْفَع من القِصَص بدار العَدْل عند جلوس السلطان للحُكْم فى المواكب)

وقد جرتِ العادةُ فى ذلك أنه إذا ترتَّب مجلسُ السلطان على ماتقدّم فى ترتيب المملكة أن القِصَص تُفَرّق على كاتب السرّ ومَنْ حضر من كُتَّاب الدَّسْت، فيقرأ كاتبُ السرّ منها ما عَنَّ له قراءتُه؛ ثم يقرأ الذى يليه من كُتَّاب الدَّسْت، ثم الذى يليه إلى آخرهم؛ ويشيرُ السلطان برأسه أو يده بإمضاء ماشاء منها؛ فيكتُب كاتب السرّ أو كاتبُ الدَّسْت على تلك القِصَّة بما فيه خلاصُ قَلَمه، ثم تُحمَلُ إلى ديوان الإنشاء فيعينها على من يشاء من كُتَّاب الإنشاء فيكْتُبها، ويخلِّد تلك القِصَص عنده شاهدا.

النـــــوع الرابع

(مايُرفَع منها للنائب الكافِل، إذا كان ثَمَّ نائبٌ)

وقد جرتِ العادةُ أن النائب يكونُ عنده كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت يجلس بين يديه لقراءة القِصَص عليه، وتنفيذِ ما يُكْتَبُ عنه. فاذا رُفِعت القصةُ إلىٰ النائب الكافل قرأها عليه كاتبُ الدَّسْت وآمتثل أمْرَه فيها، وأصلح فى القِصَّة مايجبُ إصلاحُه، وضرب علىٰ ما يجب الضربُ عليه، وزاد بين سطورِه ماتقتضيه الزيادةُ؛ ثم تُدفع القصةُ إلىٰ النائبِ الكافل، فيكْتُب علىٰ حاشيتها فى الوسَط آخذًا من جهة أسفلِها إلىٰ جهةِ أعلاها بقَلَم مختصرِ الطُّومار مامثاله «يُكْتَب» ثم تحمَلُ بعدَ ذلك إلىٰ كاتب السر فيعيِّنها علىٰ بعض كُتَّاب الإنشاء فيكْتُبها.

النـــــوع الخامس

(ما يُرفَع من القِصَص إلىٰ الأتابك، إذا كان فى الدولة أتابك عَسْكر: وهو الأمير الكَبِير)

وغالب ما يكون ذلك إذا كان السلطان طِفْلا أونحوَ ذلك. وقد جرتِ العادةُ أن يكون عند الأتابك كاتبٌ من كُتَّاب الدَّسْت أيضا، فاذا رُفِعت القصةُ إلىٰ الأتابك: فإن كان الأمرُ فيها واضحًا كخلاص حقٍّ أونحوه، كتب كاتبُ الدَّسْت علىٰ حاشيتها ماتقتضيه الحالُ فى ذلك من غير قراءتها علىٰ الأتابك. وإن كان الأمرُ فيها غيرَ واضح كما إذا كان الأمرُ راجعا إلىٰ مُنازَعةِ خَصْمين ونحو ذلك، قرأها علىٰ الأتابك وآمتثل أمْرَه فيها، وكتبَ عليها ما بَرَزَ به مَرْسُومُه. وفى كلتا الحالتين جَرَت العادةُ فى زماننا [أنه يَعْمد] إلىٰ أشهر حرفٍ فى آسم الأتابك فيرقُمه فى آخر ما يكتُبه أو تحته؛ كما كان يُكْتَب عن برقوق قبل السلطنة (ق) وعن إيتمش (ش) وعن نوروز (ن) ونحو ذلك.

النـــوع السادس

(ما يُرْفَع منها للدَّوادار لتُعَلَّق عنه الرسالةُ عن السلطان به)

وآعلم أن العـادة كانتْ جاريةً فى الزمن المتقدّم أن السلطانَ إذا أمر بكتابة شيء علىٰ لسان أحدٍ من الدَّوَادارِيَّة ، حَمل بَرِيدىٌّ من البريديَّة الرسـالةَ لذلك عن ذلك الدَّوادار إلىٰ كاتبِ السرّ فيسـمَعُ كلامَ البَرِيدىّ و يكتبُ علىٰ القِصَّة إنـ كانت أو ورقةٍ مفردة مامثاله : «حضرت رسالةٌ علىٰ لسان فلان البَرِيدىّ بكذا وكذا» ويعيِّنه علىٰ من يكتُبه من كُتَّاب الإنشاء . ولم يزل الأمْر علىٰ ذلك إلىٰ الدولة النـاصرية «محمد بن قلاوون» فأفرد المَقَرُّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله صاحبُ ديوان الإنشاء كاتبًـا من كُتَّاب الإنشاء لتَعْليق الرسالة، فصار يكتب ما كان كاتبُ السرّ يكتبُه من ذلك علىٰ القِصَص أو الورقـة المفردة ثم تُرفَـع إلىٰ كاتب السرّ فيكتُب عليهـا بالأمر بكتابتها، ويعيِّنها علىٰ مَنْ يكتب بمقتضاها ، وتُخَلَّد القصةُ أو الورقة التى عُلِّقت فيها الرسالةُ عنده شاهدًا له . وآستمرّ ذلك إلىٰ مُباشرة القاضى فتح الدين بن شاس أحد كُتَّاب الدست عند الدَّوادار، والدَّوادارُ يومئذ الأميرُ يونس النَّوْرُوزى ، فأذنـ له كاتبُ السرّ فى تعليق الرسالة عن الامير يُونُس الدَّوادار علىٰ ظُهور القِصَص وغيرها ففعل . وكان يكتُبُ علىٰ حواشى القِصَص فى وَسَـط القِصَّة آخذًا من جهة اليمين إلىٰ جِهَة اليسار بمَيْلة إلىٰ الأعلىٰ بقلم دقيقٍ متلاصقِ الأسْطُر ما مثاله : «رُسِم برسالة الجناب العالى الأميرِىّ الكبيرىّ الشَّرَفىّ يونُس الدَّوادار الظاهرىّ ـ ضاعفَ الله تعالىٰ نعمته ـ أنْ يُكْتَب مثالٌ شريف بكذا أو توقيع شريفٌ بكذا» وما أشبه ذلك ، و يؤرّخه بيوم الكتابة ، ثم تحمل إلىٰ كاتب السرّ فيكتب عليها بالأمر بالكتابة ، و يعيِّنها

علىٰ كاتبٍ من كُتَّاب الإنشاء، فيكتُب بمقتضاها ويخلِّدها شاهدًا عنده . وجرىٰ الأمرُ علىٰ ذلك بعده إلىٰ آخر وقتٍ .

قلت : وقد كان في الدولة الفاطميَّة كاتبٌ مفرَد لتعليق الرسالة عن الخليفة، يسمّٰى صاحبَ القلم الدقيق ، يعلّق ما تَبْرُز به أوامر الخليفة في الرِّقاع وحَوَاشِي القِصَص ، وتحمَلُ إلىٰ ديوان الوزارة ، فيعتَمِدُها الوزيرُ، ويُبْرِز أمْرَه إلىٰ ديوان الإنشاء باعتمادها وكتابةِ ما فيها ، علىٰ ماتقدّم ذكره في ترتيب الخلافة الفاطمية بالديار المصرية في المقالة الثانية .

الفصل الثاني

(في التعيين وكيفية كتابة صاحب ديوان الإنشاء علىٰ الرِّقاع والقِصَص، وتعيينها علىٰ كُتَّاب الإنشاء)

ويختلف الحال في ذلك باختلاف حالِ الكاتب المعيَّن عليه وحال الرُّقْعة المعيَّنة . فأما آختلافه باختلاف حال مَنْ يعيَّن عليه . فإنه إن كان المعيَّنُ عليه كاتبا من كُتَّاب الدَّسْت ، كتب له كاتبُ السرّ في التعيين : « المولىٰ ، القاضي ، فلان الدين ، اعزَّه الله تعالىٰ » وربما رَفَع قدرَه علىٰ ذلك فيكتب له : « المولىٰ ، الأخُ ، القاضي ، فلان الدين ، أعزَّه الله تعالىٰ » . وإن كان من كُتَّاب الدَّرْج : فإن كان كبيرا كتب له : « المولىٰ فلان الدين » . وإن كان صغيرا ، كتب له : «الوَلَدُ فلان الدين » وربما وقع التميز لبعض كُتَّاب الدَّسْت أو كُتَّاب الدَّرْج للتقدّم بالفضل فكتب له : « المولىٰ ، الشيخ فلان الدين » أو « الشيخ فلان الدين » تارةً مع الدعاء وتارة دُونَه .

واما ٱختلافه باختلاف حال المكتوب الذى يعيَّن، فإنه إن كان قِصَّةً بظاهرها خط السلطان «يُكْتَب» فموضع كتابة التعيين تحت خط السلطان بظاهر القِصَّة، ولا كتابة له عليها غير ذلك .

وإن كان رُقْعةً جميعها بخط كاتب السرّ، فإنه يكتب فيها «يكتب بكذا وكذا» ثم يكتب التعيين بأوّل ذيلها .

وإن كان قصةً رفعت إلىٰ كاتب السرّ، فإنه يكتب علىٰ حاشيتها فى اعاليها آخذا من جهة اسفلِ القِصة إلىٰ أعلاها ما مثاله : «يُكْتَب بذلك» أو «يكتب بكذا وكذا» ثم يَكْتُب التعيين بحاشيتها أسفلَ ذلك فى عَرْض الحاشية مُميلا للكتابة إلىٰ جهة الأعلىٰ قليلا .

وإن كان قصةً عليها خطُّ النائب الكافل، فإنه يكتب عليها بالتعيين ليس إلا، وموضع التعيين فيها بحاشية القِصَّة أسفلَ خط النائب .

وإن كان قصةً قد كتب بهامشها مرسومُ الأتابك أو عُلِّق بحاشيتها رسالةُ الدَّوادار، كُتِب فى جهة أعلىٰ القصة : «يكتب بذلك» وعلىٰ القُرْب منه التعيين. وإنما يُكْتَب هنا فى جهة أعلىٰ القصة وفيما عليه خَطُّ النائب الكافل فى جهة أسفلها لأن التعليق الذى علىٰ الهامش فيما عُلِّق عن مرسوم الأتابك أو رسالة الدَّوادار بخط كاتب الدَّسْت الذى فى خدمته، بخلاف ما عليه خَطُّ النائب بنفسه .

وإن كان الذى يقع فيه التعيين قائمةً من ديوان الوزارة، أو ديوان الخاصّ أو ديوان الإستدَّار، كتب بهامش القائمة من أعلاها مقابِلَ كتابة المتحدِّث علىٰ ذلك الديوان ما مثاله : «يُكْتَب بذلك» ثم يكتب التعيين تحته علىٰ القُرْب منه .

وإن كان الذى يقَع فيه التعيين مَربَّعةَ إقطاعٍ من ديوان الجيش، كَتَب بالتعيين فى آخرها مقابِلَ التاريخ من الجهة اليمنىٰ، ولا كتابةَ له عليها غير ذلك .

قلت : وقـد جرتْ عادةُ كُتَّاب السرّ فى زماننـا أنه يُكْتَب علىٰ القِصَص ونحوها، "يُكْتَب بذلك" أو "يُكْتَب بكذا وكذا" علىٰ ما تقـدّم بيانه بغير لام فى أوّله . وكذلك الوزير وناظِر الخاصّ والإستَدَّار يكتبون بغـير لام فى الأوّل . أما القُضاة فى الإذن بكتابة المَحـاضر ونحو ذلك فإنهـم يكتبون "لِيُكْتَبْ" باثبات اللام فى أوّله ، وهــذه اللام تسمّى لامَ الأمر وقد صرّح الإمام أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" أنه لا يجوز حَذْفها . وعلىٰ ذلك ورد لفظ القرءان الكريم كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ﴾ . وقوله : ﴿ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مايَغِيظُ﴾ ونحو ذلك . وحكىٰ جمالُ الدين آبنُ هشام فى المغنى [(1) جوازَ حذفها فى الشِّعر كقوله :

فَلَا تَسْتَطِلْ مِنِّى بَقَائِى ومُدَّتِى * ولٰكِنْ يكُنْ لِلخَيْرِ مِنْكَ نَصِيبُ !

وقـــوله :

مُحَمَّدُ تَفْدِ نَفْسَــكَ كُلُّ نَفْسٍ * إذا ما خِفْتَ مِنْ شَيْءٍ تبَالَا ! (2)] .

الطَّرَف الثـانى (2)

(فى كتابة المَلَخَّصات والإجابةِ عنها من الدواوين السلطانية)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ماينْظُر فيه صاحبُ الديوان أنه لمـا كان صاحبُ ديوان الإنشاء يَضيق زمَنُه عن آستيعاب حال الكُتُب الواردةِ من المملكة لوُفُورها وآتّساع

---

(١) بيض فى الأصول لهذه الجملة ، وقد نقلناها من المغنى (ج ١ ص ٢٢٢) والشاعر يخاطب ابنه لما تمنىٰ موته .

(٢) لم يتقدّم له تقسيم بالأطراف فى هذا الباب ولم يذكر الاول حتى يكون هذا ثانيا له نعم قال فى عنوان الباب انه يتكلم فيه علىٰ كتابة الملخصات فهو مما وعد به وجل من لا يسهو .

الدولة وكثرةِ المكاتِبين ، ناسب أن يَتَّخِذَ كاتباً يتصفَّح الكتُبَ الواردةَ ويتأملها ، ويلخِّص مقاصِدَها؛ قال أبو الفضل الصُّورى فى "تذْكِرته" : والرسم فى ذلك أن الكاتب الذى يُقيمه صاحبُ الديوان يتسلَّم الكتبَ الواردةَ ويُخْرِجُ معانيهَا علىٰ ظهورها ، ملخِّصا الألفاظَ الكثيرةَ فى اللفظ القليلِ ، غير مخلٍّ بشىء من المعنىٰ ولا محرِّفٍ له ، مُسْقِطا فضولَ القول وحَشْوَه ، كالدعاء والتصدير والألفاظ المتردِّدة.

قال : ويُخْرِج أيضا مايختصُّ بديوان الخَرَاج ، من الأمور التى تَرِدُ ضِمْنَ الكتب فى معنىٰ الخراج فى أوراق يُعيِّن فيها الكتبَ التى وصلَتْ فيها وتاريخَها والجهةَ التى وردت منها ، وينُصُّها علىٰ هيئتها ، ويوجِّهها إلىٰ ديوان الخَراج ، فيجاب عنها منه ، ويستدْعِى من متولِّى ديوان الخراج الجوابَ عنها؛ ثم يُعْرِض جميع ذلك علىٰ الملك ، ويستخْرِج أمره بإمضاء المكاتَبةِ به أو بغيره . فإن كان بخطٍّ مخالفٍ للعربىّ : كالرُّومىّ والفَرَنْجِىّ والأرمَنِىِّ وغيرها ، أحضر مَنْ يعرف ذلك الخطَّ ممن يُوثَق به ليتَرْجمه فى ظَهْره ، فإن كان ذلك المترجِمُ يُحْسِن الخطَّ العربىّ ، كتب بخطه فى ظهر الكتاب ما مثاله « يقول فلان : إنى حضرْتُ إلىٰ ديوان الإنشاء وتسلمْتُ الرُّقعةَ أو الكتابَ الذى هذا الخط بظاهره ، وسُئِلتُ عن تفسيره فذكرتُ أنه كذا وكذا» ويَسْرُدُه إلىٰ آخره «وبذلك أشهدْتُ علىٰ نفسى» ويشهدُ عليه شاهدانِ: «هذا الذى ذكره بلا زيادةٍ ولا نقص » .

وإن كان الكتابُ مشحوناً بالكلام بطنًا وظهراً ، نقله بخطه بالقلم الذى هو مكتوبٌ به ، وترجمه علىٰ ظاهره بخطِّه بالعربىّ . وإن لم يحسن الكتابةَ بالعربىّ ، كتب عنه الكاتبُ بمحضر من الشاهدين وأشهد عليه ليهَابَ أو يحْجِمَ فيما يقول ، أو يغيِّرَه أوينْقُصَه لأن أكثر من يترجم علىٰ مذهب صاحب الخط ، فربما كتم عنه أوداجىٰ فيه . فإذا خُوِّف بالإشهاد عليه وخَشِىَ أنَّ غيره قد يقرَؤه علىٰ غير الوجه

الذى أَشْهد به علىٰ نفسه ربمـا أَدّى الأمانةَ فيه . فإذا لُخِّصتِ المكاتبةُ بظاهرها، سُـلِّمت إلىٰ متولِّى الديوان ليقابل ظاهِرَها بباطنها : فإن وجده أخَلَّ فيها بشىء، أضافه بخطه وأنكر عليه إهمـالَه ليتنبَّه فى المستقْبَل . فإن لم يكن فيها خلل عرضـه علىٰ المَلِكِ وٱعتمد أمْره فيه ، وكتب تحتَ كلِّ فصل منها ما يجب أن يكون جوابا عنه علىٰ أحسن الوجوه وأفضلها، ثم يسلِّمها إلىٰ مَنْ يكتب الجوابَ عنها ممن يعرف ٱضْطِلاعه بذلك ، ثم يقابل الجوابَ بالتخريج وما وُقِّع به تحته : فإن وَجَد فيها خللا سدّه، أو مُهْمَلا ذكَرَه، أو سَهْوا أصلحه . وإن رآها قد كُتِبت علىٰ أفضل الوُجُوه وأسدِّها، لم يفوِّت فيها معنًى ولم يَزِدْ إلا لفظا يُنَمِّق به كتابه ويُؤكِّد به قوله، عرضها (١) علىٰ المَلِك حينئذ ليُعَلِّم ، ثم استدعىٰ مَنْ يتولَّى الإلصاق فألصقها بحضرته، وجعل علىٰ كلٍّ منهـا بِطاقةً يُشِـير فيها إلىٰ مضمونها : لئلَّا يُسْأل عن ذلك بعـد إلصاقها فلا يَعْلَم ماهو، ثم يسَلِّمها إلىٰ مَنْ يتولَّى تنفيذها إلىٰ حيث أُهِّلت له، وتَسلَّم النسخ الملخَّصة إلىٰ من يُؤَهِّله لحفظها وترتيبها .

قلت : قد تبيَّنَ بمـا تقدّم من كلام أبى الفضل الصُّورىّ [ما كان عليه الحالُ فى زمنه] والذى عليـه حالُ الديوان فى زماننا فيما يتعلق بذلك أن الكُتُبَ الواردةَ إلىٰ الأبواب السلطانية من أهل المملـكة وغيرها من سائر الممـالك يتلقَّاها أكبرُ الدَّوادارِيَّة : وهومقدّمُ ألِفٍ علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ ترتيب الدِّيارالمصرية؛ ويحضُر القاصدالمُحْضِر للكتاب من بَرِيدىّ أوغيره، ثم يناولُه للسلطان فيفُضُّ خِتامَه، وكاتبُ السرّ جالسٌ بين يديه ، فيدفَعُه السلطانُ إليه ، فيقْرَؤُه عليه ويستصْحِبُه معه إلىٰ الديوان : فإن كان الكتابُ عربيًّا دفعـه كاتبُ السرّ إلىٰ نائبه أو من يَخُصُّـه بذلك ليلَخِّص معناه : فيُنْعِم النظرَ فيـه ، ويستوفى فُصولَه ، ويلَخِّص مَقاصدها ،

(١) فى الاصول ثم عرضها ولكن زيادة ثم فى الكلام تنقصه والظاهر أنها زيادة من قلم الناسخ تأمل .

ويكتب لكلّ ديوان من الدواوين التى يرفع إليها متعلّق ذلك الكتاب ملَخَّصا بالفصول المتعلّقة به فى ورقة مفردة، ليجاوبَ عليها متولّى ذلك الديوان بما رُسِم له من الجواب عنها .

وٱعلم أن الذى تُكتَب له الملَخَّصاتُ فى زماننا من الدواوين السلطانية خمسةُ دواوِينَ . وهى : ديوانُ الإنشاء ، وديوانُ الوِزارة ، وديوانُ الجيش ، وديوانُ الخاصّ، وديوانُ الإستَدّارِيَّة : وهو الديوان المُفْرَد .

والطريق إلىٰ كتابة الملَخَّصات أن يَحْذِف ما فى صدْر الكُتب من الحَشْو علىٰ ماتقدّم فى كلام أبى الفضل الصُّورِىّ، ثم يَعْمِدَ إلىٰ مقاصد الكِتاب فيستوفِى فُصولَه ويتصوَّرُها بذهنه، ثم ينظرُ فى متعلَّقات تلك الفصول ، ويكتُب لكل ديوان من الدواوين المتقدّمة ملَخَّصا بما يتعلق به من الفصول فى فصل واحد أو أكثر، بحسَبِ ماتقتضيه قِلّةُ الكلام وكثرتُه .

وكيفية كتابته أن يتْرُك من رأس الوَصْل قدرَ ثلاثة أصابع بياضًا، ثم قدرَ إصبعين بياضا عن يمينه ، وقدرَ إصبعين بياضًا عن يساره ؛ ويكتب فى صدره ما مثاله : « ذكر فلانٌ فى مكاتبته الواردة علىٰ يد فلان المؤرَّخة بكذا وكذا » يمدّ لفظ «ذكر» بين جانبى الوصل، ويكتب باقى الكلام تحتها من أوّل الوصل إلىٰ آخره فى العَرْض من غير خُلُوّ بياض « أنه ٱتفقَ من الأمر ماهو كذا وكذا » أو « أنه سألَ فى كذا وكذا» . ثم يخلِّى بياضا قدر أربعة أصابعَ مثلا ويكتب فى وَسَط الدَّرْج بخلوّ بياض من الجانبين ، « وذكر » علىٰ نحو ماتقدّم؛ ثم يكتب باقى الكلام من أوّل الوصل إلىٰ آخره ، ويفعل ذلك بكل فصل فى الكتاب يتعلَّق بذلك الديوان المختص بذلك الملَخَّص؛ ويكتب فى آخر كل فصل «وقد عُرِض علىٰ المَسامع الشريفة» و«مهما برَزَتْ به المَراسِيمُ الشريفةُ كان العمل بمقتضاه» ونحو ذلك .

ثم إن كان المَلخص لديوان الإنشاء، كَتَب بأعلىٰ الوصل من ظاهره من الجانب الأيسر منه مامثاله «ديوان الإنشاء» . وإن كان لديوان الجَيْش كتب هناك مامثاله «ديوان الجيش» . وكذا ديوان الخاصّ وسائر الدواوين المتقدّمة الذكر . فإذا كملت المَلَخَّصات ، وقف عليها كاتب السرّ : فما كان منها متعلِّقا بديوان الإنشاء عرضه علىٰ السلطان وٱستمطر جوابه عنه ، فيكتب مقابله فى الملخص « يُكْتَب بذلك » أو « يكتبْ بكذا وكذا » أو « رُسِم بذلك » أو «رُسِم بكذا وكذا» . وما كان منها متعلِّقا بديوان الوزارة بَعَث به إلىٰ الوزير؛ وما كان منها متعلقا بديوان الجيش بعث به إلىٰ ناظر الجيش ؛ وما كان منها متعلقا بديوان الخاص بعث به إلىٰ ناظر الخاصّ : ليقرأ كلٌّ منهم ملخَّصه علىٰ السلطان ويَنْظُر ما يأمُرُ به فيه ، فما كان كَتَب به بجانب الفصل الذى كُتِب به فى الملخَّص « أُمْضِىَ ذلك » أو « لم يمض» أو « رسم بكذا وكذا » ونحو ذلك : وسائر الدواوين علىٰ هذا النمط .

وإن كان الكتَابُ غيرَ عربىّ : فإن كان بالتركية المُغْلِيّة ونحوها كالكُتُب الواردة عن بعض القانات من ملوك الشَّرْق ، فإنه يتولّىٰ ترجمتَها من يُوثَق به من أخِصَّاء الدولة : من الأمراء أو الخاصِكيَّة ونحوهم ، ممن يَعْرِف ذلك اللسان؛ ثم يقرأ ترجمته علىٰ السلطان ، ويعتَمِد مايأمر به فى جوابه ليكْتُب به . وإن كان بالرومية أوالفرَنْجية ونحوهما من اللغات المختلفة ، تُرْجِم علىٰ نحو ما تقدّم ، وكُتِب ملخَّصُه وقُرِئ علىٰ السلطان وٱلتُمِس جوابُه ، وكتب كاتبُ السرّ علىٰ الملخَّص بما رُسم فيه .

الباب الرابع

من المقالة الثالثة

(فى الفواتح والخواتم واللواحق، وفيه فصلان)

الفصل الأول

(فى الفواتح، وفيه ستة أطراف)

الطرف الأول

(فى البسملة، وفيه ثلاث جمل)

الجملة الأولى

(فى أصل الافتتاح بها)

كانت قريش قبل البعثة تكتب فى أول كتبها «باسمك اللهم» والسبب فى كتابتهم ذلك ما ذكره المسعودى فى "مروج الذهب" عن جماعة من أهل المعرفة بأيام الناس وأخبار من سلف : كابن دأب، والهيثم بن عدى، وأبى مخنف لوط بن يحيى، ومحمد بن السائب الكلبى: أن أمية بن أبى الصلت الثقفى خرج إلى الشأم فى نفر من ثقيف وقريش فى عير[1] لهم، فلما قفلوا راجعين [نزلوا منزلا واجتمعوا لعشائهم، إذ][2] أقبلت حية صغيرة حتى دنت منهم فحصبها بعضهم بحجر فى وجهها فرجعت، فشدوا سفرتهم، ثم قاموا فشدوا على إبلهم وارتحلوا من منزلهم، فلما برزوا من المنزل، أشرفت

(١) فى الاصول وغيرهم، وهو تصحيف والتصحيح عن المسعودى فى مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ .

(٢) الزيادة عن مروج الذهب ج ١ ص ٣٣ ليتضح الكلام .

عليهم عجوزٌ من كَثِيبِ رملٍ متوكِّئةٌ علىٰ عصًا، فقالت : مامَنَعكم أن تُطْعِمُوا رَحِيبةَ(١) اليتيمة الصغيرةَ التي باتَتْ لطعامكم عَليلةً؟ قالوا : وما أنتِ؟ قالتْ أُمُّ العوام، أَرْمَلْتُ مُنْذُ أعْوام ؛ أما وربِّ العباد ، لَتَفَرَّقُنَّ فى البِلاد ! ثم ضربَتْ بعصاها الأرضَ وأثارتْ بها الرملَ، وقالت : أَطِيلِي إيابَهُم، وفَرِّقِي رِكابَهُمْ! فوثَبت الإبلُ كأنَّ علىٰ ذِرْوة كلِّ منها شيطانا ، ما يَمْلِكُون منها شيئا حتّٰى ٱفترقَتْ فى الوادى ، فجمَعُوها من آخر النهار إلىٰ غُدْوة ، فلما أناخُوا الرَّواحلَ طلعَتْ عليهم العجوزُ وفعلَتْ كما فعلَتْ أوّلا وعادتْ لمَقالها الأوّل ،فخرجتِ الإبلُ كما خرجتْ فى اليوم الأوّل، فجمعوها من غَدٍ . فلما أناخُوها ليَرْحَلُوها ، فعلتِ العجوزُ مثل فِعْلها فى اليوم الأوّل والثانى فنفَرت الإبلُ ، وأمسَوْا فى ليلة مُقْمِرة ويَئِسُوا من ظُهورِهم ، فقالوا لأُمَيَّة ابن أبى الصَّلْت : أيْنَ ما كُنتَ تُخْبِرنا به عن نَفْسك وعِلْمك ؟ [فقال : ٱذهَبُوا أنتم فى طلب الإبل ودَعُونى](٢). فتوجَّه إلىٰ الكَثِيب الذى كانتْ تأتى منه العجوزُ حتّٰى هبَط من ثَنِيَّتهِ الأُخرىٰ، ثم صَعِدَ كَثِيبًا آخرَ حتّٰى هبط منه، ثم رُفِعتْ له كنيسةٌ فيها قناديلُ ورجُلٌ معترِض مضطَجِع علىٰ بابها، وإذا رجلٌ جالسٌ أبيضُ الرأسِ واللحية ؛ قال أميّةُ : فلمَّا وقفْتُ قال لى : [إنك لمَتْبُوع، قلتُ أجَلْ، قال فمِنْ أينَ يأْتيك صاحبُك؟ قلت : من أُذُنِى اليُسرىٰ . قال : فبأيِّ الثِّياب يأمُرك ؟ قلت : بالسَّواد . قال : هـذا خطيبُ الجنِّ ، كِدْتَ والله أن تَكُونه ولم تفْعَلْ . إن صاحبَ النُّبوّة يأتيه صاحبُه من قِبَل أُذُنه اليُمْنىٰ، فيأمُره بلِبَاس البَيَاض، فما(٣)] حاجتُك؟ فحدَّثته حديثَ العَجُوز . فقال : هى ٱمرأة يهودِيَّة هلك زوجُها منذُ أعوام، وإنها لن تزالَ

(١) فى المسعوديّ ج ١ ص ٣٣ ”رحيمة الجارية اليتيمة“ وفى الاغانى ”رجيمة“ بالجيم .

(٢) الزيادة عن الأغانى .

(٣) الزيادة عن المسعودى ج ١ ص ٣٤ ، وهو علىٰ هذا النحو فى الاغانى .

تفعَل بكم ذلك حتّٰى تُهلِكَكُم إنِ ٱستطاعتْ ـ قال أمية : قلتُ فما الحيلةُ ؟ ـ قال : آجمَعُوا ظَهْركم فإذا جاءتكم وفعلَتْ ما كانتْ تَفْعل، فقولُوا سَبْعا من فوقُ وسَبْعا من أسفَلُ "باسمِكَ اللّهُمَّ" فإنها لن تَضُرَّكم . فرجع أميّةُ إلىٰ أصحابه فأخبرهم بما قيل له وجاءتْهم العجوزُ ففعلَتْ كما كانتْ تفْعَل فقالوا سبْعًا من فوقُ وسبْعًا من أسفلُ باسمِكَ اللّهُمَّ فلم تَضُرَّهم . فلما رأت الإبلَ لا تحرَّك، قالت : قد علَّمكم صاحبُكم، لَيُبَيِّضَنَّ الله أعلاه ولَيُسَوِّدَنَّ أسفله . وساروا فلما أدركهم الصبحُ، نظروا إلىٰ أُمَيَّةَ قد بَرِصَ فى غُرَّته(1) و رقبته وصَدْره وآسودَّ أسفلُه . فلما قَدِمُوا مكةَ ذكروا هذا الحديثَ، فكتبتْ قريشٌ فى أوّل كُتُبها "باسمك اللهُمَّ" فكان أوّلَ ما كتبها أهلُ مكةَ وجاء الإسلام والأمرُ علىٰ ذلك .

قال إبراهيم بن محمد الشيبانى : ولم تزل الكُتُب تُفْتتح باسمك اللهمَّ حتّٰى نزل قوله تعالى : ﴿ إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وإنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرحْمٰنِ الرَّحِيم ﴾ فاستفتح بها رسولُ الله صلّٰى الله عليه وسلم وصارت سُنَّةً بعده . وروىٰ محمدُ بنُ سعد فى طَبَقاته، أنَّ رسولَ الله صلّٰى الله عليه وسلم كان يكتُب كما تكتُبُ قريش "باسمِكَ اللهُمَّ" حتّٰى نزل عليه ﴿ وقالَ آركَبُوا فيها بِسْمِ اللهِ مَجْراها ومُرْسَاها ﴾ . فكتب باسم اللهِ، حتّٰى نزل ﴿قُلِ آدْعُوا اللهَ أوِ آدْعُوا الرحْمٰنَ﴾ . فكتب «بسم اللهِ الرحمٰنِ» حتّٰى نزل ﴿ إنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وإنَّهُ بِسم اللهِ الرحْمٰنِ الرَّحيم ﴾ فكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» . وذكر فى "موادّ البيان" نحوَه .

وعن سُفْيانَ الثورىّ أنه كان يَكْرَه للرجل أن يكتُبَ شيئا حتّٰى يكتُبَ «بسم الله الرحمن الرحيم» . وعن هِشام بن عُرْوة عن أبيه أنه كان يكره أن يكْتُبَ

---

(1) فى مروج الذهب ج ١ ص ٣٤ "عذاريه" وكذلك فى الأغانى .

كتابا أو غيره حتى يبـدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم» . وعن سعيد بن جُبَيْر أنه كان يقول : لايصْلُح كِتَابٌ إلا أن يكونَ أوّلُه « بسم الله الرحمن الرحيم » .

وهذه الأحاديثُ والآثارُ كلُّها ظاهرةٌ فى آستحباب الآبتداءِ بالبسملة فيما يُكْتَب به من أصناف المكاتَبـات والوِلاياتِ وغيرها ؛ وعلىٰ ذلك مصطَلَح كُتَّاب الإنشاء فى القديم والحديث، إلا أنهم قد آصطَلَحُوا علىٰ حذفها من أوائل التَّوَاقيع والمَرَاسِيم الصِّغار، كالتى علىٰ ظُهور القِصَص ونحوها ؛ وكأنهم أخذُوا ذلك من مفهوم ما رواه أبو داودَ وآبن ماجه فى سُنَنهما وأبو عَوَانة الأَسْفَرَايِنِىّ فى مُسْـنَده عن أبى هُرَيرَةَ رضى الله عنه أن النبىّ صـلّى الله عليه وسلم قال : "كُلُّ أَمْرٍ ذِى بَالٍ لَا يُبْدَأُ فيـه بِبِسْمِ الله الرحمٰـن الرحيم فهو أَقْطَعُ" يعنى ناقصَ البركة ، وما يُكْتَب فى التواقيع والمَرَاسيم الصِّغار ليس من الأُمور المُهِمَّة فناسب تركُ البسـملةِ فى أوّلهـا . لكن قد ذكر محمدُ بن عمرَ المَدَائِنى فى كتاب "القَلَم والدواة" أنَّ أهلَ العلم كَرِهوا حذفَ البسـملة من التواقيع والسِّراحات وذَمُّوه . وقد كان القـاضى علاءُ الدِّين الكَرَكِىّ كاتبُ السرّ فى الدولة الظاهرية "برقوق" فى أوّل سلطنته الثانية أمر بأن يُكْتَب فى أوّلهـا بسملةٌ بقلمٍ دقيق ، ثم بطل ذلك بعـدَ مَوْته وبقِى الأمرُ علىٰ ما كان عليه أوّلا . ثم قد آختُلِفَ فى كتابتها أمامَ الشِّعر : فذهب سعيدُ بن المسيَّب والزُّهْرِىُّ إلىٰ مَنْع ذلك ، وذهب سعيدُ بن جُبَيْر وإبراهيمُ النَّخَعِىّ إلىٰ جَوَازه . ويروىٰ مثلُه عن آبن عباس رضى الله عنه . قال أبو جعفر النحاسُ فى "صـناعة الكُتَّاب" : ورأيتُ علىَّ بنَ سـليمانَ يميل إليــه . قال محمدُ بنُ عمر المدائنىّ : ولا بأسَ إن يكُنْ(١) بينَ الشِّعر وبينها كلامٌ ، مثل أنشدَنِى فلانٌ الفلانىّ وشِبْهُ ذلك، فأما أن يصلَه بها فلا يجـــوز .

(١) فى الاصول أن يكون ولكن يأباه المعنىٰ وبقية الكلام تأمل .

الجملة الثانية

(فى الحَثِّ علىٰ تحسينِها فى الكِتابةِ وما يجبُ من ترتيبها فى الوضع)

أما الحثُّ علىٰ تحسينها فى الكتابة، فينبغى للكاتب أن يُبالِغَ فى تحسينها فى الكتابة ما آستطاعَ تعظِيمًا لله تعالىٰ. فقد رُوِى أن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال: «مَنْ كَتَبَ بسم الله الرحمنِ الرحيم فحَسَّنه أَحْسَنَ اللهُ إليه». وعن واصلٍ مولىٰ أبى عُيَيْنَةَ قال: سمعتُ حَمَّادا يقول: كانوا يُحِبُّون أن تُحَسَّن بسم الله الرحمن الرحيم.

وأما ما يجبُ من ترتيبها، فأوّل ما يجبُ من ذلك إطالةُ البـاء لتَدُلَّ علىٰ الألف المحذوفة منها لكثرةِ الآستعمال، ثم إثبات السين بأسنانها الثلاث، غيرَ مُرْسِلٍ لها إرسالا كما يفعله بعضُ الكُتَّاب فقد كَرِه ذلك أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه وزيدُ بنُ ثابت والحسنُ وآبنُ سيرينَ، حتّى يُرْوىٰ أن عمرَ رضى الله عنه ضَرَبَ كاتبًا علىٰ حَذْفِ السين منها ـ فقيل له: فِيمَ ضَرَبك عمرُ؟ ـ فقال: فى سين، فجرىٰ مثلا. ويُرْوىٰ أن غلامًا لعمَرَ بن عبد العزيز كتب إليه من مِصْرَ كتابا ولم يجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا، فكتب إليه عمرُ يأمره بالقُدُوم عليه، فلما قدم قال: آجعل لبسم الله الرحمن الرحيم سينا وآنْصَرِف إلىٰ مصر. وكذلك لا يُمَدّ البـاءَ قبل السين ثم يكتب السين بعد المدّة، كما يفعله بعضُ كُتَّاب المَغَاربة فقد روىٰ محمد آبنُ عمر المَدَائِنىّ من حديث شُعَيْب بنِ [أبى] الأشعَث أنّ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال: "إذا كَتَبَ أَحَدُكُمْ بسم الله الرحمن الرحيم فلا يَمُدَّها قبل السين. يعنى البـاءَ" وعن ليثٍ عن مجاهد يرفَعُه إلىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم نحوَه. ويروىٰ مثلُه عن آبن عمر، وابن سِيرينَ. وعن عبد العزيز بن عبد الله وعبدِ الله بن دينار وغيرهما

أن العلمـاء كانوا يَكْرَهون ذلك ويَنْهَوْن عنه أشَـدَّ النهيِ حتّى رُوِى عن الضحّاك ٱبن مزاحم أنه قال : وَدِدْت أنّى لو رأيتُ الأيْدِىَ تُقْطَع فيه . نعم يستَحَبُّ المدّ بين السين والميم كما هو عادةُ كُتَّاب المِصْريين وأهل المَشْرِق . وكذلك ٱستحسَنُوا مدّ الحاء من الرحمن قبل الميم وقالوا : إنه من حُسْن البيان، حتّى يروىٰ أن عمرَ بن عبدالعزيز كتب إلىٰ عُمّاله إذا كتب أحدكم بسم الله الرحمن الرحيم فليمدّ الرحمن . وهذا مما يتعاطاه كُتَّاب المغرب دون كُتَّاب مصر وأهلِ المشرق . أما غير ذلك من وجوه التحسين فيأتى الكلامُ(١) عليه فى الكلام علىٰ الخط إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــــلة الثالثة

(فى بيان مَوْضِعها من المكتوب، ويتعلّق به أمران)

الأمر الأوّل

(تقـــدُّمها فى الكتابة)

فيجب تقديمها فى أوّل الكلام المقصود : من مكاتبةٍ أو ولايةٍ أو منشورِ إقطاع أوغير ذلك، تبرُّكا بالٱبتداء بها وتَيَمُّنا بذكرها، عملا بالأخبار والآثار المتقدّمةِ فى الجملة الأولىٰ . علىٰ أنه قد ٱختُلِف فى معنىٰ قوله تعـالىٰ حكايةً عن بِلْقِيس حين أُلْقِى إليها كتابُ سليمان عليه السلام : ﴿ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ : فذهب بعضُ المفسرين إلىٰ أن قوله ﴿ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ ﴾ من كلام بِلْقِيس، وإنما حكتِ الكتابَ بقولهـا : وإنَّهُ بسم الله

---

(١) قد مضى الكلام علىٰ الخط فى أوائل الجزء الثالث من هذا الكتاب وبين هناك أوضاع البسملة وكيفية كتابتها أوضح بيان فلعل ماهنا سهو عما فات .

الرحمن الرحيم إلى آخر الآية، فيكون ٱبتداء الكتاب بسم الله الرحمن الرحيم، ويكون ذلك ٱحتجاجًا على وجوب تقديمها . وذهب آخرون إلى أن قوله ﴿ إِنَّهُ من سليمانَ ﴾ بدايةُ كتاب سليمان ، فيكونُ سليمانُ عليه السلام قد بدأ فى كتابه باسْمِه . فإن قيل كيف ساغ على ذلك تقديمُ ٱسمه على ٱسم الله تعالى فى الذِّكْر مع أن الأنبياءَ عليهم السلامُ أشدُّ الناس أدبًا مع الله تعالى؟ فالجواب ماقيل : إنه كان عادةُ ملوكِ الكُفْر أنه إذا ورد عليهم كتابٌ بما يكْرَهُون ربما مَزَّقوا أعلاه أو تَفَلُوا فيه، فجعل سليمانُ عليه السلام ٱسمَه تَقِيَّةً لِاسم الله تعالى فذكره أوّلا . ومن هنا ٱصطلح الكُتَّاب فى الكُتُب الصادرة عن ملوكِ الإسلام إلى ملوكِ الكُفْر بكتابة ألقابِ الملك المكتوبِ عنه فى وصل فوقَ البسملة، تأسِّيًا بسليمان عليه السلام .

أما مايُكتَب فى طُرَّة الولايات من العُهُود والتقاليد وغيرها ، فإنه فى الحقيقة جُزْء من المكتوب، فلا يُوصَف بأنه شيءٌ مقدَّمٌ على البسملة . وأما الطغراة التى كانت تُوضَع فى مناشير الإقطاعات فى وَصْلٍ بين وصل الطُّرّة والبسملة فيها ألقابُ السلطان على ما سيأتى فى الكلام على كتابة المَنَاشير فى موضعه إن شاء الله تعالى، فإنها كتابةٌ أجنبيّةٌ مكتوبةٌ بخطٍّ غيرِ الكاتب فلم تُنْسَب فى الحقيقة إلى التقديم . على أن ذلك قد بطل فى زماننا . وهاتان المسئلتان المتعلّقتان بالطُّغراة المكتوبة فى المناشير ومكاتبات أهل الكفر مما سأل عنه الشيخُ جمالُ الدين بْنُ نباتَةَ فى رسالته التى كتبها إلى كُتَّاب ديوان الإنشاء بالشام، فى مباشَرة الشيخ شِهابِ الدين محمودٍ الحلبىّ، حينَ بلغه أن بعضهم وَقَع فيه .

الأمر الثـانى

(إفــرادهـا فى الكتابة)

قال محمد بنُ عمرَ المدائنىّ فى كتاب " القَــلَم والدواة " : ينبغى للكاتب أن يُفْرِد البسملة فى سطر وحدها، تبجيلًا لاسم الله تعالىٰ و إعظامًا وتوقيرًا له ؛ ثم ساق بسنده إلىٰ أبى هُرَيرةَ رضى الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليــه وسلم "نَهىٰ أن يُكْتَبَ فى سَــطْرِ بسم الله الرحمن الرحيم غَيْرُها" . وعلىٰ هذه الطريقة جرىٰ كُتَّاب الإنشاء فى مكاتبتهم وسائر ما يصْدُر عنهم . أما النُّسَّاخ وكُتَّاب الوثائق فربمـا كَتَبُوا بعــدها فى سطرها «الحمد لله» أو «الصَّلاة علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم» ونحو ذلك . وكذلك يكْتُبُ القضاةُ « الحمد للهِ » فى علامات الثُّبوت فى المَكاتِيب الشرعيَّة .

الطـــــــرف الثـانى

(فى الحَمْـــدَلةِ)

لمـا كان الحمدُ مطلوبًا فى أوائل الأمور طلبًـا للتيمُّن والتبرُّك ، عملًا بمـا رواه الراوُون لحديثِ البسملة المتقدّمِ من روايةِ أبى هريرةَ رضى الله عنه أنه صلّى الله عليه وسلم قال : «كلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لايُبْدأُ فيه بحمدِ اللهِ فهو أجذَمُ» ٱصطلح الكُتَّاب علىٰ الآبتــداء به فى الكثير ممـا يكْتُبونه من المكاتبَات والولايات وغيرهما ممـا له شأنٌ وبالٌ : كمكاتبَات أكثر الملوك من قانات الشَّرْق ، وكلّ ما تضمَّن نعمةً من المكاتبات ونحو ذلك ، وكالبيْعات والعهودِ والتقاليدِ على رأيِ من يرىٰ ٱفتتاحها بالخُطَب، وغير ذلك ممـا يأتى ذكرُه فيما بعدُ إن شاء الله تعـالىٰ . بل ربمـا كَرَّروا الحمدَ المرّاتِ المتعدّدةَ إلىٰ السَّبْع فى الخُطْبة الواحدة ، علىٰ ما سيأتى ذكره فى موضعه

إن شاء الله تعالىٰ . وأتَوْا بالحمد لله بعد البسملة تأسِّيًا بكتاب الله تعالىٰ ، من حيثُ إن البسملة آيةٌ من الفاتحة كما هو مذهبُ الشافعيّ رضى الله عنـه ، أو فاتحةٌ لهـا — وإن لم تكن منها — كما هو مذهبُ غيره . أما سائر المكاتَبات والولايات المفتَتَحة بغير الحمد، فإنمـا حذف منهـا الحمد ٱستصغارا لشأنها ، إذ كان الأبتداء بالحمد إنمـا يكون فى أمرٍ له بالٌ كما دل عليه الحديثُ المتقدّمُ ، وسـيأتى الكلامُ علىٰ كل شىء من ذلك فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . قال فى "الصناعتين" : وإنمـا ٱفتُتِح الكلامُ بالحمـد لأن النفوس تَتَشَوّف للثناء علىٰ الله تعـالىٰ، والأفتتاح بمـا تَتَشَوّفُ النفوس إليه مطلوبٌ . وربمـا أتىٰ الكُتّاب بالحمد بعد البَعْـدِيَّة : « فكتبوا » أما بعْدَ حمدِ الله، أو «أما بعدُ فالحمدُ لله » فأما الصيغة الأولىٰ فالحمد مقدّم فيها معنىً وإن لم يُذْكَر لفظا لأن قوله أما بعدَ حمـدِ الله يقتضى تقـدُّم حمد الله ، وأما الصـيغةُ الثانية فإنها تقتضى تقـدُّم شىء علىٰ الحمد، ولا شـك أنَّ المقدّمَ هنا هو البسملة علىٰ ماسـيأتى فى الكلام علىٰ أما بعدُ فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

ثم قد يُستعْمَل الحمدُ بصيغة الفعل كقولهم فى المكاتَبات : فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ . وقد ٱختُلف فى أىّ الصيغتين أبلغُ : صيغةِ الحمدُ لله ، أو صيغةِ أحمَدُ الله : فذهب المحقّقون إلىٰ أن صيغةَ الحمـدُ لله أبلغ : لمـا فيها من معنىٰ الأستغراق والثبوت والأستمرار علىٰ ماهو مقرّر فى علم المعانى . وذهب ذاهبُون إلىٰ أن صـيغةَ أحمدُ اللهَ أبلغ : لأن القائل الحمد لله حاكٍ لكون الحمد لله، بخلاف القائل أحمدُ الله فإنه حامدٌ بنفسه ، ولذلك يُؤْتىٰ بالتحميد ثانيا فى الخُطَب بصيغة الفعل .

وله فى الأستعمال ثلاثُ صيغ :

الصيغة الأولى — « يَحْمَدُه أمير المؤمنين » فيما إذا كان ذلك صادراً عن الخليفة في مكاتبةٍ أو غيرها .

الصيغة الثانية — «نَحْمَده» إما بنون الجمع الحقيقية كما إذا كان ذلك صادرا عن ... ...(١) مثل أن يؤتىٰ بذلك في بيعةٍ لخليفة أو نحوها، أو بنون الجمع للتعظيم كما إذا كان ذلك صادرًا عن السلطان نحو ما يَقَع في خُطَب التقاليد والتواقيع في زماننا .

الصيغة الثالثة — « أحمَدُه » بلفظ الإفراد ، كما إذا كان ذلك صادرا عن واحد فقط حيثُ لا تعظيمَ له .

الطـــرف الثـالث

(في التشهد في الخطب)

قد جرتْ عادة المتأخِّرين بالإتيـان بالتشهُّد بعد التحميد في الخطب ويكون تابعًا لصـيغة التحميد : فإن كان قد قيل يحمَدُه أمير المؤمنين، قيل بعـده : ويَشْهَد؛ وإن كان قد قيل نحمَدُه ، قيل بعده : ونَشْهَد ؛ وإن كان بعْدَ أما بعدَ حمدِ الله ، قيـل والشهادةِ له بالجر عطفًا علىٰ حَمْـد . علىٰ أن الخُطَب الموجودةَ في مكاتبات المتقـدّمين لا تَشَهُّدَ فيها . ومستَنَد المتأخّرين في ذلك ما رواه أبو داود والترمذيّ وصَحّحه البيهقي أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسـلم قال : "كُلُّ خُطْبةٍ ليس فيها تَشَهُّد فهي كاليَدِ الجَذْماء" .

---

(١) بياض في الأصول ولعله "عن متعددين" .

الطـــــــــرف الرابع

(فى الصلاةِ والسلام علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله وصحبه فى أوائل الكُتُب)

لا نِزاعَ فى أن الصلاةَ علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم مطلوبةٌ فى الجملة ، وناهيك فى ذلك قولُه تعالىٰ فى مُحْكَم التنزيل : ﴿إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلىٰ النَّبِيِّ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ والأحاديثُ الواردةُ فى الحثّ علىٰ ذلك أكثرُ من أن تُحْصَر ، فناسب أن تكون فى أوائل الكُتُب ، تيمُّنا وتبرُّكا . وقد جاء فى تفسير قوله تعالىٰ : ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ أن المعنىٰ ماذُكِرْتُ إلا وذُكِرْتَ معى . فإذا أُتِىَ بالحمد فىأوّل كتابٍ ، ناسب أن يُؤْتىٰ بالصلاة علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فى أوّله ، إتيانًا بذكره بعد ذكرِ الله تعالىٰ . وقد رُوِى من حديثِ ٱبن عبّاس رضى الله عنهما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : "مَنْ صَلّى عَلَىَّ فى كتابٍ لم تَزَلِ الصلاةُ جاريةً له مادام ٱسْمِى فى ذلك الكتابِ" . قال الشيخ عمادُ الدين فى تفسيره : إلا أنه ضعيفٌ ، ضعّفه المحدّثون . قال محمد بنُ عمر المدائنِىّ فى "كتاب القَلَم والدواة" : وقد رأينا بعضَ الكُتّاب لايرىٰ الصلاةَ علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فىالكُتُب ، فباءُوا بأعظم الوِزر مع مافاتهم من الثواب .

وأما السلامُ عليه صلّى الله عليه وسلم بعــد التصلية ، فقد قال الشيخ محيي الدين النووىّ فى كتابه "الأذكار" : وإذا صلّى علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فليَجْمَعْ بين الصلاة والتسليم ولا يَقْتصرْعلىٰ أحدهمــا فلا يقال صلّى اللهُ عليه فقط ، ولا عليه

السلامُ فقط . قال الشيخ عمادُ الدين بنُ كثير : وهذا منتزع من قوله تعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ وملائكتَهُ يصَلُّون علىٰ النبِيّ ﴾ الآية .

وأما الصلاة علىٰ الآلِ والصحبِ بعد الصلاة علىٰ النبيّ صلّى اللهُ عليه وسلم، فقد نقل الشيخُ عمادُ الدين بنُ كثير فى تفسيره الإجماعَ علىٰ جواز الصلاة علىٰ غير الأنبياء عليهم السلام بطريق التبَعِيَّة ، مثل أن يقال : اللهمَّ صلِّ علىٰ سـيدنا محمدٍ وعلىٰ آله وصحبه وأزواجِه وذُرِّيته ونحوذلك . ثم قال : وعلىٰ هذا يُخَرَّج مايكتُبونه من قولهم : وصلواتُه علىٰ سـيدنا محمد وآله وصحبه فلا نِزاعَ فيه ، وإنمـا الخلاف فى جواز إفراد غير الأنبياء عليهم السـلام بالصـلاة : فأجازه قوم محتجِّين بنحو قوله تعـالىٰ : ﴿ وصَلِّ علَيْهِمْ ﴾ وقوله صلّى الله عليه وسلم : "اللَّهُمَّ صلِّ علىٰ آل أبِي أوْفىٰ". ومنعه آخرون ٱحتجاجًا بأن الصلاةَ صارتْ شِعارا للأنبياء عليهم السـلام فلا يُلْحَق بهم غيْرُهم ، فلا يقال : أبو بكر صلّى الله عليه وسـلم وإن كان المعنىٰ صحيحا ، كما لا يقال : محمد عَزَّ وجلَّ ، وإن كان عزيزًا جليلًا .

ثم الصحيح من مذهب الشافعىّ رضى الله عنه أن ذلك لايجوز فى غير التبعية . وحكىٰ النووىّ فى "الأذكار" فيه قولا بأنه كراهةُ تحريم ، وقولا بأنه كراهةُ تنزيه ، وقولا بأنه خلافُ الأولىٰ ، ورجَّح كونَه كراهةَ تنزيه ، لأنه شِعارُ أهل البِدَع .

وأما السلام علىٰ غير الأنبياء ، فحكىٰ النووىُّ عن أبى محمدٍ الجُوَيْنِيّ منْعَه فى الغائب من حَىٍّ وميِّت وأنه لا يفرد به غير الأنبياء ، فلا يقال : علىٌّ عليه السلام ، بخلاف الحاضر فإنه يُخاطَب به .

إذا علمت ذلك فالصلاةُ وتوابعُها فى أوائل الكُتُب قد تكون بعدَالتحميد فى الخُطْبة كما فى الولايات [والمكاتبات] المفتَتحة بالخُطَب من البَيْعات والعهود والتقاليد والتفاويض

والتَّواقِيع والمَرَاسِيم وغيرها، وكما فى الكُتُب المفتَتَحة بالخُطَب. وقد تكون فى صُدُور المكاتبات المفتَتَحة بغير الخطب، كما كان يُكْتَب فى القديم فى صدور المكاتبات «وأسأله أن يصَلِّ على محمد عبده ورسوله» وهو مما أحدثه الرشيد فى المكاتبات. قال فى "ذخيرة الكُتّاب": وكان ذلك من أجَلّ مناقبه. وكان الخلفاءُ الفاطميون بمصر يقولون عن لسان الخليفة: ويسألُه أن يُصَلِّ على جدّه محمد، ويخصون الصلاةَ بعده بأمير المؤمنين علىّ رضى الله عنه على طريقة الشِّيعة.

الطرف الخامس
(فى السلام فى أول الكُتُب)

إنما جُعِل السلام فى ابتداءِ الكُتُب وصُدُورِها لأنه تحيةُ الإسلام المطلوبةُ لتأليف القلوب، فكما أنه يُفتَتح به الكلام طلبًا للتأليف كذلك تُفْتَتَح به المكاتبات وتصدّر طلبا للتأليف، إذ يقول صلّى الله عليه وسلم: «أَلَا أُنَبِّئُكُم بشَيْءٍ إذا فَعَلْتُمُوه تحابَبْتُم! أفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُم». قال فى "الصناعتين": وتقول فى أول كتابك: «سلامٌ عليك» وفى آخره «والسلامُ عليك» والمعنى فيه أن الأول نكرةٌ إذ لم يتقدّم له ذِكْر والثانى معرفةٌ يشارُ به إلى السلام الأول على حدّ قوله تعالى: ﴿كما أرْسَلْنَا إلى فِرْعَوْنَ رَسُولاً فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ فأتى فى الأول بتنكير الرسول وفى الثانى بتعريفه. وكذلك قال تعالى فى سورة مريَم فى قصة يحيى عليه السلام: ﴿وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ لعدم تقدُّم ذكر السلام، ثم قال بعد ذلك فى قصّة عيسى عليه السلامُ: ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يومَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ وإلى ذلك يشير أحمد بن يوسف بقوله: اكتُبْ فى أول كتابك

سـلام عليك وٱجعَلْهُ تحيةً ، وفى آخره « والسلامُ عليك » وٱجعَلْه وَدَاعا . وذلك أن سلام التحية يكون ٱبتداءً فيكون نكرةً، وسلامَ الوَدَاع يكون ٱنتهاءً فيكون معرفةً لرجوعه إلىٰ الأوّل . وقد كره بعضُ العلماء أن يقال فى الآبتداء : عليك السـلامُ ، آحتجاجا بمـا رُوِى عن أبى مُكْعِتٍ الأسدِىّ أنه قال « أتيتُ رسولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم فأنشدته :

يَقُول أبُو مُكْعِتٍ صادِقًا: * عَلَيْكَ السلامُ أبَا القَاسِمِ!

فقال : ياأبا مُكْعِتٍ عليك السلامُ تحيَّةُ المَوْتىٰ» . وجعل ابن حاجبِ النُّعمان من ذلك قول عَبْدَةَ بن الطَّبِيب :

عَلَيْكَ سلامُ اللهِ قيسَ بنَ عاصِمٍ * ورَحْمَتُه ما شاءَ أن يَتَرَحَّمـا

قال ابن حاجب النعمان : ويكتبُ السلامُ باسقاط الألف فى صَدْر الكتّاب وعَجُزه . قال أبو جعفر النحاس : وقولهم فى أوّل الكتّاب سـلامٌ عليك ، بالرفع ويجوز فيـه النصبُ والآختيارُ الرفع وإن كان النُّحاة قد قالوا : إنَّ ما كان مشـتقًّا من فعل فالآختيـار فيه النصبُ نحو قولك سَـقْيًا لك : لأن معنىٰ السـلام فى الرفع أعَمُّ، إذ ليس يريد أفعَلُ فعلا ، فيكون المعنىٰ تحيةً عليك بنصب تحية . وقيل : سـلامٌ عليك بمعنى سلامٌ لك . وسيأتى الكلامُ علىٰ إتباع السلام الرحمةَ فى الكلام علىٰ الخواتم فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الطَّـــرَف السادس

(فى أما بعـــد)

اِعلم أن « أما بعْدُ » تُستعْمَل فى صُدُور المكاتبات والوِلَايات وربما آستُعْمِلت فى آبتدائها . وهى مركَّبة من لفظين أحدهما أما والثانى بعد . فأما « أما » فحرف شرط و« بعـدُ » ظرفُ زمان إذا أُفْرِد بنِي علىٰ الضم، قال تعالىٰ : ﴿ لِلّٰهِ الأمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ﴾ وأجاز الفرّاء أمابعدًا بالنصب والتنوين، وأمابعدٌ بالرفع والتنوين. وأجاز هشام أما بعدَ بفتح الدال ومنعه النحاسُ وقال : إنه غير معروف .

ثم أمَّا تقَع فى كلام العرب لتوكيد الخبر ، والفاء لازمةٌ لها : لتصل ما بعدها بالحرف الملاصق لما قبلها، فتقول أما بعدُ أطالَ اللهُ بقاءَك! فإنى قد نظرتُ فى الأمر الذى ذكَرْتَه . ويجوز أمَّا بعدُ فأطال الله بقاءَكَ إنى نظرتُ فى ذلك ، فتثبت الفاء فى أطال وإن كان معترضا لقُرْبه من أما ، ويجوز أما بعد فأطال اللهُ بقاءك فإنِّى نظرت ، ويجوز أما بعد ثُمَّ أطال الله بقاءك فإنى نظرت حكىٰ ذلك كلَّه النحاسُ ، ثم قال : وأجودُها الأوّلُ وهو آختيار النحويين . قال : وأجودُ منه أما بعدُ فإنى نظرت أطال الله بقاءك . فان أضيفتْ بعـدُ إلىٰ ما بعدها فُتحتْ فتقول أما بعدَ حمد الله ونحو ذلك . قال فى "ذخيرة الكتّاب" وإذا كانت بعد البسملة فمعناه أما بعد قولنا «بسم الله الرحمن الرحيم» فقد كان كذا وكذا .

وقد آختُلِف فى أوّل مَنْ قال أما بعدُ : فقيل داودُ عليه السلام، وبه فُسِّر فصلُ الخطاب فى قوله تعالىٰ : ﴿ وآتَيْنَاهُ الحِكْمَةَ وَفَصْلَ الخِطَابِ ﴾ علىٰ أحد الأقوال ، وقيل أوّلُ مَنْ قالها كعبُ بنُ لؤىٍّ جدُّ النبي صلّى الله عليه وسلم، وقيل أوّلُ مَنْ قالها قُسُّ بنُ ساعدةَ الإيادِىّ . قال سيبويه : ومعناها مهما يَكُنْ من شىء .

الفصـــــــل الثانى
(فى الخَوَاتِم واللَّواحِق، وفيه سبعةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل
(فى الآستثناء بالمشيئة : بأن يَكْتُب إن شاء الله تعالىٰ، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ
(فى الحَثّ علىٰ كتابة إن شاء الله تعالىٰ)

اعلم أنه يُسْتحبُّ للكاتب عند آنتهاء مايكتُبُه : من مكاتبَةٍ أو وِلاية أو غيرهما أن يكتب "إن شاء الله تعالى" تبرُّكا ورغبةً فى نجاح مَقْصِد الكِتاب ، فقد ورد الحَثُّ علىٰ التعليق بمشيئة الله تعالىٰ والنَّدْبُ إليه ؛ قال تعالىٰ : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ . وذمَّ قوما [علىٰ تَرْك الآستثناء](١) فقال : ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ وَلَا يَسْتَثْنُونَ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ إلىٰ آخر القِصَّة . قال أصحاب السِّيَر : كان باليمن رجلٌ له جَنَّةٌ يأخُذُ منها قُوتَ سنته ويتصدّقُ بالباقى، وكان يترك للمساكين ما أخطأ المِنْجَلُ من الزَّرْع أو القِطَافُ من العِنَب والنَّخْل وما بَقِىَ علىٰ البِساط الذى يُبْسَط تحت النَّخْلة ، فلمَّا مات شَحَّ بَنُوه علىٰ المساكين بما كان يَتْرُكه أبُوهم وحلَفُوا علىٰ قَطْعها فى الغَلَس كَيْلا يُدْرِكَهم الفُقَراء، فأصابتها نارٌ فى الليل فاحترقَتْ وأصبحتْ كالصَّريم يعنى الليلَ المُظْلِمَ. قال المفسرون : والمراد بقوله : ﴿ ولا يَسْتَثْنُونَ ﴾ أنهم لم يقولوا إن شاء الله تعالىٰ . قال الزمخشرىّ :

(١) الزيادة عن الضوء .

وسُمِّى ٱستثناءً وإن كان بمعنَى الشرط لأنه يؤدِّى مؤدَّى الاستثناء من حيثُ إن معنىٰ قولك لأخرُجَنَّ إن شاء الله ولا أخْرُج إلا أن يشاءَ الله واحدٌ .

وٱعلَمْ أن الاستثناء لا يدخُل علىٰ ماضٍ فلا يقال ما فعلت ذلك إنْ شاء اللهُ ، وإنمـا يدخُل علىٰ مستقبل فتقول لا أفعَلُ ذلك إن شاء الله ، علىٰ حدِّ قوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ . وكذلك كلُّ ما فيه معنىٰ الاستقبال ، كما قال تعالىٰ حكايةً عن يُوسُفَ عليه السلام : ﴿ وقال ٱدْخُلُوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ ﴾ ونحو ذلك .

أما ما ورد من ذلك بلفظ المُضِىّ مثل قول القائل لزوجته أنتِ طالقٌ إن شاء الله فإنه وإن لم يكُنْ مستقبَلا لفظا ، فإنه مستقبَلٌ معنًى ، إذ معناه الإنشاء وإلا لمـا وقع به الطلاقُ . إذا علمت ذلك ، فلفظ "إن شاء الله تعالىٰ" فى آخر المكاتبَةِ أو الوِلاية ونحوِهما يكون معلّقا بآخِر المكتوب ممـا يناسبُ ذلك ، كتعَلُّقها بالتأييد من قوله واللهُ تعالىٰ يؤيِّده بمَنّه وكرمه إن شاء الله تعالىٰ ، ونحو ذلك .

الجمـــلة الثـانية

(فى محل كتابتها وصورةِ وَضْعها فى الدَّرْج)

لا نزاعَ فى أنها أوّلُ خاتمةٍ تُكتَبُ من خواتِم المكتوب ، فمحلها من الدَّرْج أسفلُ المكتوب ، فى وَسَط الوصل ، مكتنَفة ببياض عن يمينها وشِمالها ، وبينها وبين السَّطْر الآخِر من المكتوب كما بين سَـطرين أو دُونَه .

وقد جرتْ عادةُ الكُتّاب فى كتابتها بأنها إن كانتْ بقلم الرِّقاع كما فى القطع الصغير ، كُتبت معلّقة مُسَلْسَلة علىٰ هذه الصورة إن شاء الله تعالى أوما قاربها ، وإن كانتْ بقلم

جليل كالثلث ونحوه ، كُتِبتْ واضحة مبيَّنة ، والغالب فيها أن تكونَ علىٰ هــذه الصورة إن شاء الله تعالى قال جمالُ الدِّين بن شيثٍ فى "معالم الكِتابةِ" : ولا يُضيف الكاتبُ إليها شيئًا فى سطرها ، بل تكون مفرَدةً فى سطرٍ واحدٍ .

الطَّـــرَف الثانى

(فى التـاريخ ، وفيه ثمـانُ جمــل)

الجمـــلة الأولى

(فى معنـــاه)

وقد آختُلِف فى أصــل لفظه : فذهب قومٌ إلىٰ أنه عربِىّ ، وأن معناه نهـايةُ الشىء وآخرُه ، يقـال فلانٌ تاريخُ قومه إذا آنتهىٰ إليه شرفُهم ، وعليـه يدلُّ كلامُ صاحب " موادِّ البيان " وآبنِ حاجب النعمان فى " ذخيرة الكُتَّاب " ونقل الشيـخ علاءُ الدين بن الشاطر فى " زِيجِه " عن بعض أهل اللُّغــة أن معناه التأخير فيكون مقلوبا منه . وذهب آخَرون إلىٰ أنه فارسىّ ، وأن أصلَهُ «ماهزور» فعرّب مورخ ، ثم جعل آسْمه التاريخ ، و إليه يرجع كلام السلطان عماد الدين صاحب حماة رحمه الله فى تاريخه ، و يقـال منه أرَّخْت ووَرَّخْت بالهمزة والواو لغتانـــ ، ولذلك قالوا فى مصدره تأرِيخ وتَوْرِيخ ، كما يقال تأكِيد وتَوْكِيد . قال فى " ذخيرة الكُتَّاب " : أرَّخْت لغةُ قيس ، وورَّخت لغةُ تميم . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتاب "الأوائل": ولا تكاد وَرَّخْت تستعْمَل اليومَ ، وكأنَّ الكُتَّاب كانوا قد رفَضُوا هــذه اللغة فى زمانه و إلا فهى لغــةٌ مستعملةٌ إلىٰ الآنَ ، إلا أنها لمـا غلبَتْ فى ألْسِــنة العوَامِّ

ابتُذِلتْ . قال الشيخ « أثير الدين أبو حيان » فى شرح التسهيل : والتاريخُ هو عدَد الليالى والأيام بالنظر إلىٰ ما مضىٰ من السنة أو الشهر وإلىٰ ما تبقّى منهما ، قال فى "موادّ البيان" : وهو محقق للخبر ، دالٌّ علىٰ قُرْب عَهْد الكِتَاب وبُعْدِه .

الجملة الثانية

(فى وجه الأحتياج إليه)

قال محمد بن عمر المدائنى فى كتاب "القلم والدواة" : أجمعتِ العلماءُ والحكماءُ والأُدَباء والكُتّاب والحُسّاب علىٰ كتابة التاريخ فى جميع المكتَتَبات . قال صاحب "نهاية الأرب" : ولا غُنْيَة عنه ، لأن التاريخ يُستَدَلُّ به علىٰ بُعْد مسافة الكِتاب وقُرْبها ، وتحقيقِ الأخبار علىٰ ماهى عليه . وقد قال بعض أئمة الحديث : لما ٱستعملُوا الكذبَ ٱستعمَلْنا لهم التاريخَ . وقد ٱصطلح الكُتّاب علىٰ أنهم يؤرِّخُون المكاتبات والولاياتِ ونحوَها مما يصدُر عن الملوك والنُّوّاب والأمراء والوزراء وقضاة القضاة ومن ضاهاهم ، بخلاف المكاتبات الصادرة عن آحاد الناس ، فإنه لم تجْرِ العادةُ فيها بكتابة تاريخ .

الجملة الثالثة

(فى بيان أصول التواريخ)

قال القُضَاعىّ فى "عيون المَعَارف فى تاريخ الخلائف" : كانت الأممُ السالفةُ تُؤَرِّخ بالحوادث العِظَام وبمِلْك الملوك : فكان التاريخُ بهبوط آدمَ عليه السلام ، ثم بمَبْعَثِ نوح ، ثم بالطُّوفان ، ثم بنارِ إبراهيمَ عليه السلام .

ثم تفرق بَنُو إبراهيم : فأرّخ بَنُو إسحـاق بنار إبراهيم إلىٰ يُوسفَ ؛ ومن يوسفَ إلىٰ مَبْعَثِ موسىٰ عليه السـلام ؛ ومن مُوسىٰ إلىٰ مُلْك سليمان عليه السلام . ثم بما كان من الكوائن . ومنهم من أرّخ بوفاة يعقوبَ عليه السـلام ، ثم بخُرُوج موسىٰ من مصْر ببنى إسرائيل ، ثم بخَرَاب بيت المَقْدِس .

وأما بنو إسماعيل ، فأرّخُوا ببناء الكَعْبة ، ولم يزالوا يؤرِّخُون بذلك حتّٰى تفرّقت بَنُو مَعَدّ ، وكان كُلَّما خرج قومٌ من تِهامَة أرّخوا بخُرُوجهم . ثم أرّخوا بيوم الفِجار ، ثم بعام الفِيل .

وكان بَنُو مَعَدّ بن عَدْنانَ يؤرّخون بغلبة جُرْهُمَ العماليقَ و إخراجِهم إيَّاهم من الحَرَم . ثم أرّخوا بأيَّامِ الحُرُوب : كحرب بَنِى وائلٍ ، وحَرْب البَسُوس ، وحَرْبِ دَاحِسٍ .

وكانت حِمْيرُ وكَهْلانُ يؤرّخُون بملوكهم التَّبَابِعةِ ، وبنار ضِرَارٍ : وهى نارٌ ظهرتْ ببعض خَرَاب اليَمَن ؛ وبسَيْل العَرِم ؛ ثم أرّخُوا بظهور الحَبَشة علىٰ اليمن .

وأما اليُونانُ والرُّوم ، فكانوا يؤرِّخُون بمِلْك بُخْتُنَصَّر ، ثم أرّخُوا بمِلْك دقلطيانوس القِبْطىّ .

وأما الفُرْس فكانوا يؤرّخُون بآدمَ عليـه السلام ؛ ثم أرّخُوا بقَتْـل دَارَا وظُهورِ الإسْكَنْدَر عليه ، ثم بمِلْك يَزْدَجِرْد . والذى ذكره السلطان عمـاد الدين صاحب حماة فى تاريخه فى دائرة آتصـال التواريخ القديمـة بالهجرة عشرون تاريخًا ، ذكر ما بينها وبين الهجرة من السنين ، إلا أنه لم يراع الترتيبَ فى بعضها ، وأهمل منها تاريخَ يَزْدَجِرْدَ لوقوعه بعد الهجرة .

وبالجملة فالتواريخ علىٰ قسمين :

القســـم الأوّل

(ما قبل الهِجْرة ، وقد أوردتُ منه تسعةَ عشرَ تاريخا)

الأوّل — من هُبُوط آدمَ عليه السلام . وقد ٱختُلِف فيما بينه وبين الهجرة ٱختلافا فاحشا : فمقتضىٰ ما فى التوراة اليُونانيَّة علىٰ ٱختيار المؤرّخين أنَّ بينهما ستةَ آلافِ سنة ومائتين وستَّ عشْرةَ سنة ، وعلىٰ ٱختيار المنجِّمين أنَّ بينهما خمسةَ آلافٍ وسبْعِمائة(١) وتسعا وستين سنة .

ومقتضىٰ ما فى التوراة السامِرِيَّة علىٰ ٱختيار المؤرّخين خمسةُ آلاف ومائةٌ وسبْعٌ وثلاثون سنة ، وعلىٰ ٱختيار المنجِّمين ينقص عن ذلك .

ومقتضىٰ ما فى التوراة العِبْرانيَّة ، علىٰ ٱختيار المؤرّخين أن بينهما أربعةَ آلاف وسبعَمِائةٍ وإحدىٰ وأربعين سنةً ، وعلىٰ ٱختيار المنجِّمين ينقُصُ مائتين وتسعًا وأربعين سنةً .

الثانى — من الطُّوفان . وبينه وبين الهجرة ثلاثةُ آلافٍ وتسعُمائةٍ وأربعٌ وتسعون سنة علىٰ ٱختيار المؤرّخين ، وعلىٰ ٱختيار المنجِّمين ثلاثةُ آلافٍ وسبْعُمائةٍ وخمسٌ وعشرون سنةً وثلثمائةٍ وستةُ أيَّام .

الثالث — من تَبَلْبُل الألْسنِ . وبينه وبين الهجرة علىٰ ٱختيار المؤرّخين ثلاثةُ آلافٍ وثلثُمائةٍ وأربعٌ(٢) وستون سنة ، وعلىٰ ٱختيار المنجِّمين ينقُصُ عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنةً .

---

(١) فى تاريخ أبى الفداء المطبوع وتسعمائة .

(٢) فى تاريخ أبى الفدَاء المطبوع وأربع سنين .

الرابع — من مولد إبراهيم عليه السلام. وبينه وبين الهجرة على اختيار المؤرّخين ألفانِ وثمانُمائةٍ وثلاثٌ وتِسْعون سنة، وعلى آختيار المنجِّمين ينقص عن ذلك مائتين وتسعا وأربعين سنةً .

الخامس — من بِنَاء إبراهيم الكَعْبَةَ . وبينه وبين الهجرة ألفانِ وسبعُمائةٍ وثلاثٌ (١) وسبعون سنة .

السادس — من وَفاةِ موسى عليه السلام . وبينه وبين الهجرة على آختيار المؤرّخين ألفان وثلثُمائةٍ وثمانٌ وأربعون سنة .

السابع — من عِمَارة سليمان عليه السلام بيتَ المقدس . وبينه وبين الهجرة ألفٌ وثمانُمائة وستُّون سنة (٢) .

الثامن — من ابتداء ملك بُخْتُنَصَّر . وبينه وبين الهجرة ألفٌ وثلثمائة وتسعٌ وستون سنة . قال صاحب حماة : بلا خلاف .

التاسع — من تخريب بُخْتُنَصَّر بيتَ المَقْدِس . وبينه وبين الهجرة ألف وثلثمائة وخمسون سنةً .

العاشر — من مَلْك فيلبس أبى الإسْكَنْدَر . وبينه وبين الهجرة تِسْعمائة وخمس وأربعون سنةً ومائةٌ وسبعةَ عشرَ يومًا .

الحادى عشر — من غَلَبَة الإسكندر على مُلْك فارس وقَتْلِ دَارَا مَلِكِ الفُرْس . وبينه وبين الهجرة تسعُمائةٍ وآثنتان (٣) وثلاثون سنة ومائتان وتسعون يوما .

(١) فى المختصر وتسعون .

(٢) فى المختصر وقريب سنتين والظاهر أنه تصحيف .

(٣) فى المختصر وأربع وثلاثون .

الثانى عَشَرَ — من مولد المسيح عليه السلام . وبينه وبين الهجرة ستمّائة وإحدى وثلاثون سنةً .

الثالث عشر — من مَلْك أرديالونص[(١)] . وبينه وبين الهجرة خمسُمائة وتسعٌ وستون سنةً .

الرابع عشر — من مَلْك أرْدِشِيرَ أوّلِ ملوك الأَكاسرة من الفُرْس . وبينه وبين الهجرة أربعمائةٍ وٱثنتان وعشرون سنةً .

الخامس عشر — من خَرَاب بيت المَقْدِس المرّةَ الثانيةَ . وبينه وبين الهجرة ثلثُمائة[(٢)] وستٌّ وأربعون سنةً .

السادس عشَرَ — من مَلْك دِقْلطيانوس : آخرِ عَبَدة الأصنام من ملوك الروم على القِبْط . وبينه وبين الهجرة ثلثُمائة وسبعٌ وثلاثون سنة وأحدٌ وعشرون يوما .

السابع عشر — من غَلَبة أغشطش ملك الروم على قلوبطرا ملكة اليُونان ومصر . وبينه وبين الهجرة مائتان[(٣)] وخمسون سنةً ومائتان وستة وأربعون يوما .

الثامن عشر — من عام الفِيل ، وهو العامُ الذى وُلِد فيه النبي صلّى الله عليه وسلم . وبينه وبين الهجرة ثلاثٌ وخمسون سنةً وشهرانِ وثمانيةُ أيام .

---

(١) فى المختصر أدريانس وبالجملة ففى المختصر المطبوع لابى الفداء ج ١ ص ١٢٥ مخالفة لما فى أصولنا المخطوطة فتنبه .

(٢) فى مختصر أبى الفداء ج ١ ص ١٢٥ خمسمائة وثمانية وخمسون وكان لمضىّ أربعين سنة من رفع المسيح .

(٣) فى المختصر ستمائة واثنان وخمسون سنة وهو أشبه بالصواب لان غلبة أغشطش على قلوبطرا قبل مولد المسيح باحدى وعشرين سنة .

التاسع عشر – من مَبْعث النبيّ صلّى الله عليه وسلم . وبينه وبين الهجرة ثلاثَ عشرةَ سنةً (١) وشهران وثمانيةُ أيام .

القســـــم الثانى

(مابعد الهجرة)

وفيه تاريخٌ واحد، وهو من هلاك يَزْدَجِرْد آخرِ ملوك الفُرْس . وكان بعد الهجرة بعشر سنين وثمانية وسبعين يوما .

الجمـــلة الرابعـــة

(فى أصل وَضْع التاريخ الإسلامىّ وبنائه علىٰ الهجرة دُونَ غيرها)

وقد ٱختُلِف فى أصل ذلك : فحكىٰ أبو جعفر النحاس فى "صِناعة الكُتَّاب" عن محمد بن جرير : أنه روىٰ بسنده إلىٰ ٱبن شِهابٍ أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم لما قَدِم المدينة – وقدمها فى شهر ربيع الأوّل – أَمَرَ بالتاريخ . وعلىٰ هذا فيكون ابتداءُ التاريخ فى عامِ الهجرة . قال النحاس : والمعروف عند العُلَماء أن ٱبتداء التاريخ بالهجرة كان فى خلافةِ عُمَر بن الخطاب رضى الله عنه .

ثم ٱختلف فى السبب المُوجِب لذلك : فذكر النحاس أن السببَ فيه أن عاملَ عمر بنِ الخطاب رضى الله عنه باليمن قَدِم عليه فقال : أما تُؤَرِّخُون كُتُبَكم؟ فاتخَذُوا التاريخَ . ووافقه علىٰ ذلك صاحب "موادّ البيان" . وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" أن السبب فيه أن أبا موسىٰ الأشعرىّ كَتَب إلىٰ عمرَ بنِ الخطاب

---

(١) فى الأصل ثلاث وعشرون سنة وشهر وثمانية أيام وهو تحريف والتصحيح من مختصر أبى الفداء .

رضى الله عنه : إنه يأتينا من قِبَل أمير المؤمنين كُتُبٌ لاندرى علىٰ أيِّها نعمل قد قرأنا [كتابا منها] (١) مِحِلُّه شعبانُ ، فما نَدْرِى فى أىّ الشَّعْبانَيْنِ الماضى أو الآتى ، فأحدَثَ عمرُ التاريخَ . وتبعه علىٰ ذلك ابنُ حاجب النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" . وذكر صاحبُ حماةَ فى تاريخه : أنه رُفِع إلىٰ عمرَ رضِى الله عنه صَكٌّ مَحِلُّه شعبانُ فقال : أىُّ شعبان، لاندْرِى ألذِى نحنُ فيه أم الذى هو آتٍ، ثم جمع وجوه الصحابة وقال : إنَّ الأموالَ قد كَثُرتْ ، وما قَسَمناه منها غيرُ مؤَقَّتٍ فكيف التوصُّل إلىٰ ما يُضْبَطُ به ذلك ؟ — فقالوا : يجب أن نَعرِف ذلك من أمور الفُرْس ، فاستحْضَر الهُرْمُزان وسأله — فقال : إن لنا حساباً نُسَمِّيه (مَاهْ زُور) ومعناه حساب الشُّهور والأيام فعَمِل عمرُ التاريخَ .

الجملة الخامسة

(فى بيان صورةِ ٱبتدائِهم وضعَ التاريخ من الهجرة)

قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : لما أراد عمرُ التأريخَ، جمع الناسَ للمَشُورة، فقال بعضهم : نُؤَرِّخ بمَبْعَث النبىّ صلّى الله عليه وسلم — وقال بعضُهم : بل بوَفاته — وقال بعضهم : بل بهِجْرته من مكةَ إلىٰ المدينة : لأنها أوّلُ ظهورِ الإسلام وقُوّته . فصوّبه عمر واجتمع رأيُه عليه ؛ وكان النبىّ صلّى الله عليه وسلم قد وُلِد فى عام الفِيل المقَدَّم ذكره فى التواريخ القديمة . قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : وكان وقوعُ ذلك فى اليوم الثانِى عشَرَ من شُبَاط سنةَ ثمانمائةٍ وٱثنتين وثمانين لذى القَرْنَيْنِ . وبُعِث النبىّ صلّى الله عليه وسلم علىٰ رأس أربعين سنةً من وِلَادته ، وأقام بمكة بعْدَ النبوّة عَشْرَ (٢) سنينَ ؛

---

(١) بياض بالاصول والتصحيح من الضوء للؤلف .

(٢) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

ثم هاجر إلىٰ المدينة فى شهر ربيع الأول بعد عَشْرٍ(١) من النبوّة، وقَدِم المدينةَ لاثنتى عشرةَ ليلةً منـــه .

ثم بعـد ٱتفاقهم علىٰ التأريخ من الهجرة ٱختلفوا فى الشهر الذى تقع البُدَاءة به : فأشار بعضُهم بالبُداءة برمضانَ لشَرَفه وعِظَمه ـ فقال عمر بل بالمُحَرَّم : لأنه مُنْصَرَفُ الناس من حَجِّهـم، فرجعوا القَهْقَرىٰ ثمـانيةً وستين يوماً، وهى القدر الذى مضىٰ من أوّل المُحرّم [إلىٰ ذلك الوقت](٢) وٱستقر تاريخُ الإسلام من الهجرة .

قال القضاعى فى "عيون المعارف" : وكان ذلك فى سنةِ تسْعَ عشرةَ أو ثمـانِى عشرة من الهجرة .

قلت : وٱسـتقرّتْ تواريخُ الأمم علىٰ أربعـةِ تواريخَ ، ٱبتداءُ بعضها مقـــدّمٌ علىٰ ٱبتداء بعضٍ .

أوّلهـا ـــ غَلَبَةُ الإسكَنْدَر علىٰ الفُرْس . وعليه تاريخ السُّرْيان والرُّوم إلىٰ زماننا .

والثـانى ـــ مِلْك دِقْلِطْيـانُوس ملك الروم علىٰ القِبْط . وعليـه تاريخُ القِبْط إلىٰ زمانـنـا .

والثالث ـــ الهجرةُ النبوّية علىٰ صاحبهـا أفضل الصلاة والسلام . وعليهـا مَدَارُ التاريخ الإسلامىّ .

والرابـع ـــ هَلاك يَزْدَجِرْد آخر ملوك الفرس . وبه تؤرِّخُ الفُرْس إلىٰ زماننـا، وقد تقدّم بيانُ بُعْد ما بين تاريخ كلٍّ من غَلَبة الإسـكندر ومِلْكِ دقلطيانُوس وبين الهجرة فى القَبْلية، وبُعْـد ما بين تاريخ يَزْدَجِرْد وبين الهجرة فى البَعْـدية فى الكلام

(١) ينظر ذلك مع ما تقدم من أن بين المبعث والهجرة ثلاث عشرة سنة .

(٢) الزيادة من الضوء .

علىٰ أصول التواريخ، مع ما سبق فى المقالة الأولىٰ فى بيان مايحتاجُ إليه الكاتبُ من ذكر مقدار سنة كلٍّ منها وعدَدِها من الأيام ، وسيأتى الكلامُ علىٰ ٱستخراج بعضها من بعضٍ فيما بَعْدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة السادســـة

(فى كيفيَّةِ تقييد التاريخ فى الكِتابة بزَمنٍ معيَّنٍ، وهو ضربان)

الضـــــرب الأوّل

(التاريخُ العربىّ)

ومَدَارُه الليالِى دُونَ الأيام: لأن سِنِى العرب قمريَّةٌ، والقمر أوّلُ مايَظْهَر للأبصار هِلالًا فى الليـل ، فتكون الليالِى بهذا الٱعتبارِ سابقةً للأيَّام ، إذ اليومُ عندهم عبارةٌ عن النهار، وهو إما من طُلُوع الفجر علىٰ ماورد به الشرع فى الصوم ونحوِه، وإما من طُلُوع الشمس علىٰ رأى المنجِّمين . قال أبو إسحاقَ الزجاجىُّ فى كتابه " الجُمَـل " : وإنما حُمِل علىٰ الليالى دُونَ الأيام لأن أوّلَ الشهر ليلُهُ ، فلو حُمِل علىٰ الأيام سقطتْ منه ليلةٌ . قال الشيخ أثيرُ الدين أبُو حَيَّان فى " شرح التسهيل " : واستُغْنِى بالليالى عن الأيام للعلم أن مع كلِّ ليلة يوماً ، فإذا مضىٰ عددٌ من الليالى مضىٰ مثلهُ من الأيام، فيجوز أن يُستغنىٰ بذكر أحدهمـا عن الآخر . وقد ذكر جمـالُ الدين عبـدُ الرحيم ٱبن شيثٍ فى كتابه " معالم الكِتَابة " : أن كُتبَ السلطان والأعيانِ تؤرَّخ بالليالى، والكُتُب من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ تؤرَّخ بالأيام . ولم أعلم مِن أين أخَـذَ ذلك ولا مامستَنَدُه فيه .

إذا عُلِم ذلك فلكتابة التاريخ ثلاثةُ ٱعتبارات :

الاعتبـار الأوّل

(أن يؤرَّخ ببعض ليالى الشهر، وله ستُّ حالاتٍ)

الحـالة الأولىٰ

(أن تَقع الكتابةُ فى الليلة الأُولىٰ من الشهر، أو فى اليوم الأوّل منه)

فإن كانت الكتابةُ فى الليـــلة الأولىٰ منــه فقد ذكر أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكتّاب" أنه يُكْتَب «كُتِب غُرّةَ شهر كذا، أو [أوّل](١) ليلةٍ من كذا، أو مُسْتَهَلَّ شهر كذا، أو مُهَلَّ شهرِ كذا». وحكىٰ الشيخُ أثير الدين أبو حَيَّان مثلَ ذلك عن بعضهم، وزاد أنه يُكْتَب أيضا «كُتِب أوّلَ شهرِ كذا».

قال النحاس: ولا يجوز حينئذ لليلةٍ خلَتْ ولا مضَتْ لأنهم فى الليلة بعدُ. قال فى "ذخيرة الكُتَّاب": وربما كتب بعضُ الكُتَّاب ليلَةَ الآستهلال «لليلةٍ [تخلو](٢)».

وإن كانت الكتابةُ فى اليوم الأوّل وهو النهار الذى يلى الليلةَ الأُولىٰ من الشهر، كُتِبَ «لليـلةٍ خلَتْ أو مضتْ من شهر كذا». قال النحاس: ويجوز كُتِب «لغُرّة الشهر أو لأوّل يوم من الشهر» ومنع ان يقال حينئذ: اوّلَ ليلة من شهر كذا، أو مُسْتَهَلَّ شهر كذا، أو مُهَلَّ شهر كذا، مُوَجِّها لذلك بأن الآستهلالَ إنمـا يَقع فى الليــل. وتبعــه علىٰ ذلك آبنُ حاجبِ النعمان فى "ذخيرة الكُتَّاب" وصاحبُ "موادّ البيان" وبه جزم الشيخُ جمالُ الدين بنُ هشام فى وَرَقاته فى الوراقة. وكلامُ آبن مالك فى التسهيل يُوهِم جوازَ ذلك فإنه قد قال: فيقال أوّلَ الشهر، كُتِب لأوّل

(١) الزيادة من الضوء.

(٢) بياض بالاصول، والتصحيح عن الضوء للؤلف.

ليلة منه، أو لغُرّته أو مُهَلّه أو مُسْتَهَلّه . وأوّلُ الشهر أعمّ من اليوم والليلة بل هو إلىٰ الليلة أقربُ، لأن الليلة سابقةٌ بالأوّلية .

قال الشيخ أثير الدين : ومفتَتَحُ الشهر أوّلُ يوم منه . ومقتضىٰ كلامه أنه يؤرّخ بالمفتَتَح فى اليوم الأوّل من الشهر دُونَ الليلة وفيه نظر، بل الظاهر جوازُ ٱستعماله فيهما، بل الليلة بالمُفْتَتَح أولىٰ لسبقها اليومَ كما تقدّم، أللهم إلا أن يُراعىٰ فيه موافقةُ المفْتَتَح لليوم فى التذكير دُونَ الليلة لتأنيثها . قال فى "مواد البيان" : والعرب تُسمِّى أوّل ليلة من الشهر النحيرةَ، ولكن لا تستعمِله الكُتّاب فى التواريخ .

الحالة الثانية

(أن تَقَع الكتابةُ فيما بعدَ مُضِىِّ اليوم الأوّل من الشهر إلىٰ آخر العَشْر)

فإن كان قد مضىٰ منه ليلتان ، كُتِب «لليلتينِ خَلَتَا من شهر كذا»، أو لليلتين مَضَتَا منه» قال فى "ذخيرة الكتاب" : ولا يُكْتَب ليوم خَلَا ولا ليومين خَلَوَا : لأن ذكر الليالى فى باب التأريخ أغلب، كما تقول ليلة السبت وليلة الأحد، فتُضِيف الليلةَ إلىٰ اليوم لأنها أسبقُ، ولا تضيف اليومَ إلىٰ الليلةِ .

وحكىٰ الشيخ أثيرُ الدين أبوحَيَّانَ أنه إذا مضىٰ من الشهر يومٌ كُتِب «ليومٍ مضىٰ» وإذا مضىٰ يومان «كُتب ليومين مَضَيَا» . والتحقيق فى ذلك أنه يختلفُ الحالُ فيه باختلافِ الكتابة فى الليل والنهار : فإن كَتَبَ فى الليلة الثانية، ناسبَ أن يَكْتُب «ليوم خَلَا من شهر كذا» لأنه إن كَتَب لليلتين خَلَتَا فهو فى الليلة الثانية بعْدُ، وإن كَتَب لليلةٍ خلَتْ لم يظْهَر الفرقُ بينه وبين الكتابة فى اليوم الأوّل من الشهر . وإن كتب فى اليوم الثانى من الشهر، ناسبَ أن يَكْتُب لليلتين خَلَتَا أو مَضَتَا . وإن كان

قد مضىٰ من الشهر ثلاثُ ليـال، كَتَبَ لثلاثٍ خلَوْنَ أو مضَيْنَ من شهر كذا، أو لثلاثِ ليالٍ خَلَوْنَ أو مَضَيْنَ . ويجوز فيه لثلاثٍ خلَتْ أو لثلاث ليال خَلَتْ علىٰ قِلَّة . وكذا فى الباقى إلىٰ العشر فتقول : لعشرٍ خلَوْنَ أو مضَيْنَ، أو لعشر ليال خَلَوْنَ أو مَضَيْن، أو لعشرٍ، أو لعشر ليالٍ خلَتْ أو مضَتْ علىٰ اللغة القليلة .

الحـالة الثالثـــة

(ان تقع الكتابة فيما بعدَ العشر إلىٰ النصف)

فيَكْتُب لإحدىٰ عشرةَ خلتْ أو مضتْ من شهر كذا . أو لإحدىٰ عشرةَ ليلةً خلَتْ أو مضت، ويجوز فيه لإحدىٰ عَشْرَة خلون أو لإحدىٰ عشرةَ ليلةً خَلَوْنَ علىٰ قلة . وكذا فى الباقى إلىٰ النصف من الشهر . قال الشيخ أثيرُ الدين أبو حيان : فإن صَرَّح بالمميِّزِ وكان مُذَكَّرا، أُعِيد الضميرُ عليه فيقـال : لاحدَ عَشَر يوما خَلاَ أو مضىٰ ونحو ذلك .

الحـالة الرابعـــة

(أن تَقَع الكتابةُ فى الخامسَ عشَرَ من الشهر)

فيكتُب «كُتِب لنِصفِ شهر كذا» . قال النحاس : وأجازوا لخمسَ عَشْرَةَ ليلة خلَتْ أو مضَتْ . وكلام ابن مالك فى "التسهيل" يُشير إلىٰ جواز لخمس عَشْرَةَ ليلةً خلَتْ أو مضَتْ [أو بقِيَتْ](١) علىٰ رأى من يُجَوِّز التاريخَ بالباقى . ولو حَذَفَ ذِكْرَ الليلة فقال : لخمَس عشْرةَ خلَتْ أو مضَتْ أو بقيت صَحَّ . قال فى "التسهيل" والتاريخ بالنصف أجود .

---

(١) الزيادة لازمة ليصح الكلام .

الحالة الخامسة

(أن تقع الكتابةُ فيما بعدَ النِّصْف من الشهر إلى الليلةِ الأخيرةِ منه)

وفيه لاهل الصِّناعة مذهبان :

المذهبُ الاوّل — أن يؤرِّخ بالماضى من الشهر كما فى قَبْل النصف، فيقال : لِستَّ عشرةَ خلَتْ أو مضَتْ، أو لستَّ عشْرةَ ليلةً خلَتْ أو مضَتْ . وكذا إلى العشرين فيقال : لِعشرينَ خلَتْ أو مضَتْ ، أو لعشرين ليلةً خلَتْ أو مضت ، وكذا فى البواقى إلى آخر التاسع والعشرين ، فيكون التاريخ فى جميع الشهر من أوّله إلى آخره بالماضِى دُونَ الباقى فِرارًا من المجهول إلى المحقَّق ، وهو مذهَبُ الفُقهاء لأنه لا يُعْرفُ هل الشهر تامٌّ أو ناقِصٌ . قال النحاس : ورأيتُ علىَّ بنَ سليمان يختاره . قال فى " ذخيرة الكُتَّاب " : وهو أثبتُ وحُجَّته أقوى . ثم لا شكَّ أنَّ من يرى التاريخ باليوم يجوّز لستةَ عشَر يومًا خَلَا أو مضى من شهر كذا، وكذا فيما بعْده .

المذهب الثانى — أن يؤرِّخ بمـا بَقِىَ من الشهر . وللمؤرِّخين فيه طريقان :

الطريق الأوّل — أن يجْزِم بالتاريخ بالباقى فيكتب لأربع عشرة ليلةً بقيت من شهر كذا ، ثم لثلاثَ عشرةَ ليلةً بقِيَتْ ، وهكذا إلى الليلة الأخيرة من الشهر ؛ فيكتب لليلةٍ بقِيَتْ ، وهو مذهبُ الكُتَّاب . قال النحاس : ورأيت بعض العلماء وأهل النظر يصوّبونه ، لأنهم إنما يكتُبون ذلك على أن الشهر تامٌّ ، وقد عُرِف معناه وأن كاتبَه وقارئه إنما يُرِيد إذا كان الشهرُ تامًّا فلا يحتاج إلى التلفُّظ به .

قال محمدُ بن عمرَ المدائنى : وآحتجُّوا لذلك بأن مُعاوِيةَ بنَ أبى سُفْيانَ رضى الله عنه : حين كَتَب عن النبىّ صلّى الله عليه وسلم لآبن الحَضْرمىّ كتب فى آخر الكتاب :

« وكَتَبَ معاويةُ بنُ ابى سُفْيان لثلاثِ ليالٍ بَقِينَ من ذى القَعْدة بعد فتح مكةَ سنة ثمانٍ» ثم قرأه عثمانُ بنُ عفّان رضى الله عنه والناسُ حَوْلَه . قال النحاس : وقد وقع مثلُ ذلك فى كلام النُّبوّة . فقد ورد فى الحديث أن النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال فى ليلة القدر : "ٱلتَمِسُوهَا فى العَشْرِ الأَوَاخِر لسابعةٍ تَبْقىٰ أو لخامسةٍ تَبْقىٰ" . وهذا الحديث الذى ٱستشهد به النحاسُ ثابتٌ فى الصحيح فلا نِزاعَ فى العمل به .

الطريق الثانى — أن يُعَلِّق التاريخَ بالباقى علىٰ شَرْط . فيكتبُ لأربعَ عشرةَ إن بَقِيَتْ ، أو لأربعَ عشْرةَ ليلة إنْ بَقِيَتْ ، وعلىٰ ذلك فى الباقى ، فِرارًا من إطلاق التاريخ بما لا يُعْلَم تمامُه أو نقصه وتَعْلِيقا له علىٰ حُكْم التمام ؛ وكأنه يقول : لأربَعَ عشرةَ ليلةً بقِيَتْ من الشهر إن كان تمامًا . ومن يرىٰ التاريخ بالأيام يجوّز لأربعةَ عشَر يوما تَبْقى من شهر كذا ، وكذا فى الجميع .

الحالة السادسة

(أن تَقَع الكتابةُ فى الليلة الأخيرةِ من الشهر أو فى اليوم الأخير منه)

فإن كان فى الليلة الأخيرةِ منه كُتِب «لآخرِ ليلةٍ من شهر كذا ، أو فى سَلْخ شهرِ كذا ، أو فى ٱنْسِلاخه» . وإن كان فى اليوم الآخِرِ منه كُتِب «لآخِرِ يومٍ من شهر كذا ، أو فى سَلْخه أو ٱنْسِلاخه أيضا » . ولم يختلفوا هنا فى جواز التاريخ باليوم ؛ قال ٱبن حاجب النعمان : وذلك أن الشهر يبتدئ بابتداء اللَّيالِى وينقضى بانقضاء النهار ؛ وذكر صاحب "موَادّ البيان" أن الذى كان كُتَّاب مصر يستعمِلُونه بالديار المِصْرية أن يُجْعل شهرٌ ثلاثين يوما وشهرٌ تسعةً وعشرين ، وهذا جُنُوح منهم إلىٰ الاعتبار النُّجومىّ ، ولامُعوَّل علىٰ ذلك فى الشريعة .

قلت : وكُتّاب زماننا قد أهملوا النظرَ فى ذلك جُمـلةً وعوّلوا علىٰ التاريخ بالأيّام، واقفين عند حَدِّ اليوم الذى ينتهِى إليه العَدَدُ من الشهر عند الكتابة فيكتبون فى اليوم الأوّل : كُتِب فى مستَهَلِّ شهر كذا ، ثم فى ثانى شهر كذا أو ثالثـه إلىٰ العشر؛ ثم فى حادِى عَشْرِه وثانِى عشره إلىٰ العشرين ، ثم فى العشرين من شهـر كذا ، أو الحادى والعشرين، والثـانى والعشرين إلىٰ التاسع والعشرين . وفى اليوم الأخير من الشهر يكتبون فى سَلْخ شهرِ كذا لا يَعْرِفُون غير ذلك .

ثم ممـا يُستَحْسَن فى التـاريخ أنه إذا وقعتِ الكتابةُ فى يوم مشـهور ـ كايام المواسم ـ أُرِّخ به، مع قطع النظر عن عدد ما مضىٰ من الشهر أو بَقِىَ منه . فيكتب فى اليوم الأوّل من شوّال «كُتِب فى يوم عيـد الفطر» وفى تاسـع ذى الحِجّة «كُتِب فى يومِ عرفـةَ» وفى عاشره «كُتِب فى يومِ عيـدِ النَّحْر، أو فى يوم عيدِ الأضْحىٰ» وفى حادى عشره «كُتِب فى يوم القَرّ» ـ بفتح القاف، سمى بذلك لأن الناس يَسْتقِرُّون فيه بمِنًى ، وفى ثانى عشره «كُتِب فى يوم النَّفْر الأوّل» لأن الحجيج يَنْفِرُون فيه من مِنًى، وفى ثالث عشره «كُتِب فى يوم النَّفْر الثانى» .

الاعتبار الثـانى

(أن يؤرّخ بجمـلة من أيام الشهر)

فإن أَرَّخ بعَشْر من الشهر، بناه علىٰ التأنيث : فيكتب «كُتِب فى العَشْر الأُولىٰ، او فى العَشْر الأُوَل ـ بضم الهمزة وفتح الواو جمع أوّلة (١) . أو كتب فى العَشْر الوُسْطىٰ أوفى العَشْر الوُسَط ـ بضم الواو وفتح السين جمع وُسْطىٰ، أوكتب فى العَشْر الأُخْرىٰ

---

(١) لعل الصواب "جمع أولىٰ" .

اوفى العشر الأُخَر ـ بضم الهمزة وفتح الخاء جمع آخِرةٍ . قال الشيخ اثيُرالدين ابوحَيَّان : ولا يُكْتَب العَشْر الأوّلُ ولا الأوسطُ ولا الآخِرُ . وقال بعض النحويين يُكْتَب «وكتب فى العَشْر الآخرةِ أوالأواخِر» ولايُكْتَب الأُخْرى ولاالأُخَر: لئلايلتبس بالآخِرِ بمعنى الثانى أو الأُخَر بمعنى الثوانى . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ أيام الشهر أن العرب تسمِّى ليالِىَ الشهر كُلَّ ثلاث منها باسمٍ ، وقد تقدّم ذكرُ أسمائها هُنالكَ . فإذا وقعت الكتابةُ فى ثلاثٍ منها ، كالغُرَر: وهى الثلاث الأولىٰ من الشهر، والدَّآدِى : وهى الثلاثُ الأخيرةُ منه ، كان للكاتب أن يؤرِّخ بهـا كما يؤرِّخ بعشر من الاعشار الثلاثِ ، بل الثلاثُ أقربُ لمعرفةِ التاريخ من العشر . وقد أشار إلىٰ ذلك الشيخُ أثير الديـن فى "شرح التسهيل" فقال : وإن أرَّخ بالثلاث الأخيرةِ من الشهر كَتَب الدَّآدِى . وإذا كان فى السَّـنَة أيام مشهورةٌ ، أُرِّخ بها(١) كالأيام المعلومات : وهى العشرُ الأوَل من ذى الحِجّة ، والأيامِ المعدُوداتِ : وهى أيامُ التشريق علىٰ ماتقدّم ذكرُه فى موضعه ، كان للكاتب أن يؤرِّخ بها .

الاعتبار الثـالث

(أن يؤرّخ بأجْزاء اليوم أو الليـلة)

وأكثرُ ما يحتاج الكاتبُ إلىٰ ذلك فى تاريخ بَطَائق الحَمَام ، وقد سبق فى الكلام علىٰ الأيام أنَّ كلَّ واحدٍ من الليـل والنهـار آثنتَا عَشْرَة ساعةً زمانيَّة ، تطولُ بطُول أحدهما وتقصُر بقِصَره ، ولكلِّ ساعةٍ منها آسمٌ يَخُصُّها ، كالشُّروق : وهو أوّلُ ساعاتِ النهار ، والغُروب : وهو آخر ساعاته ، والشَّفَق : وهو أوّل ساعاتِ الليلِ ، والصَّباح وهو آخر ساعاته . فينبغى للكاتب إذا كتب بِطَاقـةً من بَطَائق الحمـام أن يكتب

---

(١) عبارة الضوء ص ١٠٤ "ولانزاع فى أنه يجوز التاريخ بالأيام المشهورة فى السنة كالأيام المعلومات الخ" وهى أوضح .

الساعةَ التى كُتِبت فيها من ساعات النهار ، أما ساعاتُ الليل فلا يتأتّى فيها ذلك ، لأن الحمام لا يُسَرَّحُ فى الليـل ، اللهم إلا أن تَدْعُوَ الضرورة إلىٰ التاريخ بساعةٍ من ساعات الليل فى بعض المكاتبات فيؤرّخ بها .

قلت : وهذا الترتيب قد تركه كُتَّاب زماننا ، وصاروا يؤرِّخُون بالساعات المشهورة عندهم ، كالأُولىٰ من النهار ، أو الثانيـةِ ، أو وقْتِ الظهر ، أو وقتِ العَصْر ، ونحو ذلك .

الضـــــرب الثــانى
(التـاريخ العَجَمىّ)

ومَدَارُه الأيام دُونَ الليالى ، لأن سَنَتَهم مع ٱختلافها فى الشهور ومَبَادئها ومَقَاطعها شمسيَّةٌ ، والشمسُ محلُّ ظهورها النهـارُ دُونَ الليـل ، فلذلك أرّخُوا بالأيام . قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : قال أحمدُ بن يحيىٰ البَلَاذُرىّ : حضرتُ مجلِسَ المتوكِّل ، وإبراهيمُ بنُ العبَّاس يقرأ الكِتابَ الذى أنشأه فى تأخير النَّوْرُوز ، والمتوكِّل يتعجَّب من حُسْن عِبَـارته ولُطْف مَعَانِيـه والجمـاعةُ تشهَدُ له بذلك ، فدخَلَتْنِى نَفَاسةٌ ، فقلت : يا أمير المؤمنين فى هـذا الكتاب خطأ ! فأعادوا النظر ، وقالوا : ما نراه فمـا هو ؟ ـ قلت : أَرَّخ السـنةَ الفارسيَّةَ بالليـالِى ، والعجَمُ تؤرِّخ بالأيام ، واليومُ عندهم أربعٌ وعشرون ساعةً تشتَمِل علىٰ الليل والنهـار ، وهو جزْء من ثلاثين جُزْءا من الشهر ؛ والعربُ تؤرِّخ بالليـالى ، لأن سِنِيهم وشهورَهم قمَريَّة ، وٱبتداءُ الهلال بالليل ـ قال : فشهدوا بِصحَّة ماقلته ، وٱعترف به إبراهيمُ . وقال : ليس هذا من عِلْمِى .

قلت : وأكثَرُ ما يُحْتاج إلىٰ ذلك فى تحويل السِّنينَ ونَقْل النَّيْروز عند دَوَران السنين ، كما فى كِتَاب إبراهيمَ بنِ العباس المقدّم ذكره ، وكذلك فى كتابة الهُدَن فسيأتى أنه يجمَعُ فيها بين التاريخ العَربىّ والعَجَمىّ جميعًا ، ويجب فيه تقديم العَرَبىّ علىٰ العَجَمىّ ، مثل أن يكْتُب «كُتِب لعَشْرٍ خلَوْنَ من المحرّم سنة ثمانمائةٍ ، موافِقًا للعاشر من تُوتٍ من شُهور القِبْط» أو العاشِر من تَشْرين الأوّلِ من شُهور السريان ، أو العاشِر من ينير من شهور الروم ، أو العاشر من أفرودين ماه ، من شهور الفُرْس ونحو ذلك .

الجمـــلة السابعة

(فى تقييـــد التـــاريخ بالســـنة)

قد علمتَ أن فائدةَ التاريخ إنمـا تتحقَّقُ بذكر السنة بعد اليوم والشَّهْر ، وإلا فلا يُعْلَم من أىّ السنين . فإذا كتب يوم كذا من شهر كذا كتَب بعد ذلك ، سنةَ كذا ، ســواء كان التاريخُ عَربيا أو عَجميًّا ، أو مُرَكَّبا منهما ، مثل أن يكتب سنةَ كذا من الهجرة الموافِقِ لكذا من سِنِي الرُّوم أو سِنِي الفُرْس .

ثم للكاتب فى كتابة تاريخ السنة مصطلحانِ .

المصطلح الأوّل — أن يكتُب «سنةَ كذا» فيحتاج إلىٰ حَذْف الهاء من العَدَد ، علىٰ قاعدة حَذْفها من عَدَد المؤنَّث ، مثل أن يكتب سنة ستٍّ وثمانمائةٍ ونحو ذلك ، وعلىٰ هذا آصطلح كُتَّاب الديار المِصْرية وبلادِ المَشْرق .

المصطلح الثانى — أن يكتب «عامَ كذا» فيحتاج إلىٰ إثبات الهاء فى العدد علىٰ قاعدة إثباتها فى عدد المذكَّر ، مثل أن يكتب «عام ستَّةٍ وثمـانمائةٍ» وعلىٰ نحو ذلك

يَجْرِى كُتَّاب الغَـرْب غالبا ، لمـا يقال : إن العـام يختصّ بالخِصْب والسـنة تختص بالمَحْل علىٰ ما تقــدّم ذِكْره فى الكلام علىٰ السِّـنين فيما يحتاج إليه الـكاتبُ فى المقالة الأُولىٰ .

الجمـــــــلة الثامنة

(فى معرفة بعض التواريخ من بعض)

قد ذكر فى " موادِّ البيان " أن من جملة أدَب الكاتب العِلمَ بتواريخ سِنِى العالَم وآسـتخراج بعضها من بعض فى كل وقتٍ من أوقات اليوم الذى هو فيـه من كل شهرٍ وسنة من سِنِى الأمم . وقد تقدّم أيضا أن المستعمل من التواريخ فى زماننا بين الأمم أربعةُ تواريخَ، بعضها أقدَمُ من بعض .

أوّلهـا — تاريخُ غَلَبة الإسكَنْدَر . وهو التاريخ الذى تُؤرّخ به السُّرْيان والرومُ والفَرَنْجة ومَنْ فى معناهم إلىٰ الآنَ، وهو بعـدَ الطُّوفان فيما حَرَّره الشيخُ علاء الدين ابن الشاطر فى " زيجه " بثلاثة آلافٍ وسَـبْعمائةٍ وخمس وثلاثين سنةً وثلثمائةٍ وعشرين يوما .

الثانى — التاريخ من مِلْك دقلطيانوس . وهو الذى يؤرّخ به القِبْط إلىٰ الآن، وربمـا عَبَّروا عنه بتاريخ الشُّهداء، إشارة إلىٰ تسميتهم الذين قَتَلهم دقلطيانوس من القبط شُهَداءَ، وهو بعـد غَلَبة الإسكندر بخَمْسمائةٍ وأربع وتسعين سـنة وثلثمائة واثنين وثلاثين يومًا .

الثالث — التاريخ من الهجرة، وعليه تاريخُ الإسلام . وهى بعد مِلْك دقلطيانوس بثلثمائة وستٍّ وثلاثين سنة وثلثمائة وأحدٍ وعشرين يومًا .

الرابع ــ التاريخُ من هلاك يَزْدَجِرْد آخر ملوك الفُرْس . وقد تقدّم أنه بعد الهِجْرة بعشرِ سنينَ وثمـانيةٍ وسبعين يومًا .

فأما التاريخ السُّرْيانىّ والرومىّ وهو الذى مبدؤه من غَلَبة الإسكندر فقد تقدّم أن شُهور السُّرْيانيين آثنا عَشَر شهرا ، وهى : تشرينُ الأوّلُ ــ تشرين الثـانى ــ كانون الأوّل ــ كانون الثانى ــ شُبَاط ــ أَذَار ــ نَيْسانُ ــ أيَّار ــ حَزِيرانُ ــ تَمُّوز ــ آب ــ أيْلُول . منها سبعةُ أشهر كلُّ شهر منها أحدٌ وثلاثون يوما ، وهى : تَشْرِين الأوّلُ ، وكانون الأوّلُ ، وكانونُ الثانى ، وأدارُ ، وأيَّار، وتَمُّوز ، وآبٌ ، وأربعةُ أشهر كل شهر منهـا ثلاثون يوما ، وهى : تشرينُ الثانى ، ونَيْسانُ ، وحَزِيرانُ ، وأيلولُ . ومنها واحدٌ ثمـانية وعشرون يوما : وهو شُبَاط ، فتكون أيامُ سِنِيه ثلثمائةٍ وخمسةً وستين يوما ، ويُضاف إليها ربعُ يوم مراعاةً للسنة الشمسيَّة ، فتصير ثلثمائة وخمسةً وستين يوما وربُعَ يوم ينقصُ جزءًا يسيرا . ومن أجْل ذلك يَعُـدّون ثلاثَ سـنينَ بسائطَ يكونُ شُبَاطُ (١) فيها تسعةً وعشرين يوما : لإضافة رُبع اليوم فى السنين الأربع إليه ، وتكون السنة فيها ثلثَمائةٍ وستةً وستين يوما .

وقد تقدّم أيضا أن شهور الســنة الرُّومية تُضاهى شهورَ السنة السُّرْيانية فى عَدَد الأيام ، بل هى هى ، إلا أن الرُّوم يُسمُّون أشهرَهم بأسماءٍ غير أسماء شُهور السُّرْيان ، ويكون أوّلُ شهورهم موافقًا لكانون الثانى ، وهو الشهرُ الرابعُ من شهو ر السُّرْيان ، ويكون آخرُ شهورهم موافقًا لكانون الأوّلِ .

(١) كذا فى الاصول و يظهر أن فيه سقطا من الناسخ والاصل "يعدون ثلاث سنين بسائط" وسنة كبيسة يكون الخ كما يؤخذ من نظيره فى التاريخ القبطى تأمل .

وأسماء شهورهم : ينيّر، فبْراير، مارس، ابريل، مايه، يونيه، يوليه، أغشت، شتنبر، أكتوبر، نونبر، دجنبر . ولا فرق فى شيءٍ منها سوىٰ آختلافِ الأسماء وآبتداء رأس السنة، وحينئذ فيكون الكلُّ فيها فى التاريخ واحدا .

وأما التاريخ القِبْطىّ : وهو الذى مبدؤه من مَلْك دقلطيانُوسَ ، فقد تقدّم أن شهور السنة القِبْطية آثنا عشَرَ شهرًا . وهى : توت، بابه، هتور، كيهك، طوبه، أمشير، برمهات، برموده، بشنس، بئونه، أبيب، مسرىٰ . وكل شهر منها ثلاثون يومًا من غير آختلاف ، ثم بعد مسرىٰ خمسة أيام يسمُّونها أيام النسىء، فتكون أيامُ سنَتِهم ثلثمائةٍ وخمسةً وستين يوما، وتزيد بعد ذلك رُبُعَ يوم فى كل سنة كما فى التاريخ الرومىّ، وقد آصطلحوا علىٰ أن يَعُدّوا منها ثلاثَ سنين بسائطَ، كلُّ سنة منها ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما لا زيادةَ فيها، والرابعة كبيسةٌ تكون أيامُ النسىء فيها ستةَ أيام وزيادةَ رُبُعِ يوم، وتصير أيامُ تلك السنة ثلثمائة وستة وستين يوما، علىٰ نحو ما تقدّم فى السُّرْيانىّ والرومىّ .

وأما التاريخ العربىّ : وهو الذى مبدؤه الهجرة، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ الشهور فى المقالة الأولىٰ أن شهور سنة العرب آثنا عشَرَ شهراً . وهى : المحرّم، صَفَرُ، ربيع الأوّلُ، ربيعُ الآخِر، جُمَادىٰ الأولىٰ، جُمَادىٰ الآخِرة، رجبٌ، شعبانُ، رمضانُ، شوّالٌ، ذو القَعْدة، ذو الحِجَّة . وأنها قمرية مَدَارُها رؤية الهلال ، إلا أن المنجِّمين آعتمدوا فيها علىٰ الحِسَاب دُونَ الرؤية لتصحيح حساب التواريخ ونحوها، وجعلوا فيها شهرا تامًّا عدَدُه ثلاثون يوما ، وشهرا ناقصا عدَدُه تسعةٌ وعشرون يوما ، علىٰ ترتيب شهور السنة ، فالمحرّم عنْدهم تامٌّ ، وصفَرُ ناقص، وربيعُ الأول تامٌّ،

وربيعٌ الآخِرُ ناقِصٌ، وجُمادىٰ الأولىٰ تامٌ، وجمادىٰ الآخِرةُ ناقص، ورجب تام، وشعبانُ ناقص، ورمضانُ تام، وشوّالُ ناقصٌ، وذُو القَعْدة تامٌّ، وذوالحِجّة ناقص .
فيكون من السنة ستة أشهر تامة وستة أشهر ناقصة، وتكون السنة حينئذ ثلثمائة يوم وأربعةً وخمسين يوما، ويلحَقُها بعد ذلك كسرٌ فى كل سنة، وهو خُمُسُ يوم وسُدُسُ يوم، فتصير السنةُ ثلثمائة يوم وأربعة وخمسين يوما وخُمُسَ يوم وسُـدُسَ[1] يوم مفرّقة فى ثلاثين سـنة؛ ويجعلون الكَبِيسةَ سنةً بعدَ سنة ثم سنةً بعد سنتين، ثم سنةً بعد سنة، وعلىٰ هذا الترتيب إلىٰ آخر الثلاثين، فتكون الكبائُس هى : الثانيةَ، والخامسةَ، والسابعةَ والعاشرةَ، والثالثةَ عشرةَ، والخامسةَ عشرةَ، والثـامنةَ عشرةَ، والحادية والعشرين، والرابعةَ والعشرينَ، والسادسةَ والعشرين، والتاسعةَ والعشرين . فتكون كل سنةٍ منها ثلثمائة وخمسةً وخمسين يوما، ويجعلُ الزائدُ فيها فى ذى الحجة، فيكون فيها ثلاثين يوما وباقى سنى الثلاثين بسائطُ، كلُّ سنة منها ثلثُمائة وأربعةٌ وخمسون يوما، وذو الحجة فيها تسـعةٌ وعشرون يوما، بناء علىٰ الأصل فى أن يكون شهرٌ تامًّا وشهرٌ ناقصا .

وأما التاريخ الفارسىّ : وهو الذى مبدؤه من هَلَاك يَزْدَجِرْد، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ الشهور أن سِنِي الفُرْس آثنا عَشَرَ شهرا، كلُّ شهر منهـا ثلاثون يوما . وهى : افرودين ماه، أرديهشتماه، حرادماه، تيرماه، ترداه، شهريرماه، مهرماه، أبان ماه،

(١) كذا فى الأصول وعبارة الضوء ص ١٥٦ "ويجتمع من هذا الخمس والسـدس يوم فى كل ثلاث سنين فتصير السنة ثلثمائة وخمسة وخمسين يوما ويبقى من ذلك بعد اليوم الذى آجتمع شىء فيجتمع منـه ومن خمس اليوم وسدسه فى السنة السادسة يوم واحد وكذلك إلىٰ أن يبقى الكسر أحد عشر يوما عند تمام ثلاثين سنة وتسمي تلك السنين كبائس العرب" وهى أوضح .

أدرماه، ذى‌ماه، بَهْمَن‌ماه، اسفندارماه . وبين ابان ماه وأدرماه خمسةُ أيام تسمَّى المسترقةَ بمثابة أيام النسىء فى آخر سنة القِبْط ؛ وبمقتضىٰ ذلك تكون سنتُهم ثلثمائة وخمسةً وستين يوما ، وليس فيها زيادةٌ ولا نقصٌ . فلا بدّ من معرفة هذه الأصول لاستخراج تواريخ بعض السنين المذكورةِ من بعض .

ثم مما يجب تعرّفه بعد ذلك أن تَعْلَم أن التاريخ السُّرْيانىّ والرومىّ سِنُونُه سُرْيانية أو رومية علىٰ ماتقدّم ، فيعتبر فيها مايعتبر فى السنين السُّريانية والروميَّة من عدد الأيام والكبائس ، والتاريخ القِبْطىّ سِنُونُه قبطية فيعتبر فيها مايعتبر فى السنينِ القبطيَّة من الأيام والكبائس ، والتاريخَ العربىّ سِنُونُه عربية فيكون علىٰ ما تقدّم فى السِّنين العربية من عدد الأيام والكبائس ، والتاريخ الفارسىّ سِنُونُه فارسيَّة فيعتبر فيها مايعتبر فى السنين الفارسية من عدد الأيام ، ولا كَبِيسةَ فيها .

إذا علمت ذلك فإذا أردت استِخْراجَ بعض هذه التواريخ من بعضٍ، فانظر التاريخَ المعلومَ عندها عندك، كالتاريخ العربىّ مَثَلا عند الإسلاميين فاجعل السنين التامّةَ من التاريخ المعلومِ أيّاما ، وزِدْ عليها مامضىٰ من السنة المكسورةِ من الشهور والأيام إلىٰ اليوم الذى تُرِيد أن تعلم موافَقَته لمثله من التاريخ المجهول ، ثم آنظر : فإن كان التاريخ المعلومُ اقدمَ من التاريخ المجهول، فانْقُصْ من أيامِ التاريخ المعلومِ ما بين التاريخين من الأيام فما بَقِىَ فهو ايامُ التاريخ المجهول . وإن كان التاريخ المجهولُ اقدمَ ، فزد ما بين التاريخين من الأيام فما بَقِىَ فهو أيامُ التاريخ المعلوم ، فما بلغ فهو أيامُ التاريخ المجهول . فإذا علمت أيامَ التاريخ المجهول بزيادةِ مابين التاريخين علىٰ أيام التاريخ المعلوم أو نُقْصانِها منه علىٰ ما تقدّم، فاجعل ما حصل معك من أيام التاريخ المجهول الذى تُرِيدُ استخراجَه ، فما كان فهو السِّنُون التامّةُ

للتاريخ الذى تريد آستخراجه ، فإن بَقِىَ شىءٌ من الأيام بعد السنين التامّة، نخذ منها لكل شهر عدَدَ أيامه، ومابقى من الأيام دُونَ شهر فهو الماضى من أيام الشهر الذى يَلِى ذلك .

مثال ذلك إذا أردت ان تستخرج التاريخ السُّرْيانىّ أو الرومىّ الموافقَ لآخِرِ سنة ثمانمائة من الهجرة، فقد تقدّم لك أن التاريخ السريانىّ والرومىّ مبدؤه من غَلَبة الإسكندر على الفُرْس ، وهو قبل الهِجْرة بتِسْعِمائة سنةٍ وآثنتين وثلاثين سنة ومائتين وسبعةٍ وثمانين يوما(١)، وذلك ثلثمائة ألف يوم وأربعون ألف يوم وسبعمائة يوم ، فاحفظ ذلك ، ثم آبْسُطِ الماضِىَ من سِنِى الهجرة وهو ثمانمائة سنة أياما ، بأن تضرب الثمانمائة فى عشرة آلاف وستمائة وأحد وثلاثين يوما ، وهى بسط السنة العربية من حين كسرها الزائد على أيامها، وهو خمس يوم وسدس يوم، يكون ثمانية آلاف ألف وخمسمائة ألف وأربعة آلاف وثمانمائة ؛ فاقسمه على ثلاثين وهى مخرج الكسر الذى هو الخمس والسدس ، يخرج بالقسمة مائتا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون، وهو عدد أيام الثمانمائة سنة؛ فأضفه على ما بين غلبة الإسكندر والهجرة من الأيام ، وهو ثلثمائة ألف وأربعون ألفا وسبعمائة يوم، يكون الجميعُ ستّمائة ألف وأربعةً وعشرين ألفا ومائةً وثلاثةً وتسعين، فاجعل تلك الأيامَ سنين سُرْيانية، بأن تضربَ تلك الأيامَ فى أربعة، يحصُل منها ألفا ألف وأربعمائة ألف وستةٌ وتسعون ألفا وسبْعُمائة وآثنان وسبعون يوما؛ فآقسمه على ألف وأربعمائةٍ وأحد وستين ، يخرج بالقسمة ألْفٌ وسبعُمائة وثمانية ، وهى سنونَ تامّة؛ ويفضل بعد ذلك ألْفٌ وثلثمائة وأربعة وثمانون، فاقسمها على أربعة،

---

(١) الذى تقدم له "ومائتين وتسعين يوما" .

يخرج ثلثمائة وستة وأربعون يوما ، يكون ذلك أحد عشر شهرا ، من أول تشرين الأول وأحد عشر يوما من الشهر الثانى عشر من الشهور السُّرْيانية وهو أيلول ؛ فيكون آخر يوم من سنة ثمانمائة هجرية موافقًا لليوم الحادى عشر من أيلول سنة ألف وسبعمائة وتسع من السريانية .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ القبطىّ لآخر سنةِ ثمانمائةٍ، فقد تقدّم أن التاريخ القبطىّ ابتداؤه من ملْك دقلطيانوس على القِبْط ، وهو قبل الهجرة بثلثمائة وسبع وثلاثين سنة وثلثمائةٍ وعشرين يوما ، وجملة أيامه مائةُ ألفِ يوم وثلاثةٌ وعشرون ألفَ يوم وأربعُمائةِ يوم وتسعةُ أيام ، فأضِفْ أيام الماضى من سنى الهجرة : وهو مائتا ألف وثلاثة وثمانون ألفا وأربعمائة وثلاثة وتسعون على ماتقدّم فى التاريخ السريانىّ [على ماقبل الهجرة][1] وهو مائة ألف وثلاثة وعشرون ألفا وأربعمائة وتسعة أيام ، يكون المجموعُ أربعَمائةِ ألفٍ وستّةَ آلاف وتسعِمائة يوم ويومين ؛ فاجعله سنين قبطية، بأن تضرب ذلك فى أربعة عدد مَخْرَج كسر السنة القبطية، وهو الربع الزائد على الخمسة وستين ، يكون ألف ألف وستمائة ألف وسبعة وعشرين ألفا وستمائة وثمانية ؛ فاقسمه على ألف وأربعمائة وأحد وستين ، يخرج بالقسمة ألف ومائة وأربعة عشر ، وهو عدد السنين القبطية التامة ، ويبقى بعد ذلك أربعةٌ وخمسون ؛ فاقسمه على الأربعة المذكورة يخرج بالقسمة أربعة عشَرَ ، وهى أيام من الشهر الأول من السنة القبطية الناقصة، فيكون آخر يوم من سنة ثمانمائة للهجرة موافقا لرابع عشر شهر توت سنة ألف ومائة وخمس عشرة من السنين القبطية .

(١) الزيادة لازمة لتوضيح المقام وهى مرادة للؤلف .

وإن أردت أن تستخرج التاريخ الفارسىّ لآخر سنة الثمانمائة المذكورة ، فقد تقدّم أن ابتداء التاريخ الفارسىّ بعد الهجرة بعشر سنين وثمانين يوما ، وجملةُ أيامه ثلاثةُ آلاف يوم وستّمائةِ يوم وأربعةٌ وعشرون يوما ؛ فأسقطها من الحاصل من أيام النّسِىء (١) الماضى من الهجرة إلى آخر الثمانمائة ، يكون الباقى بعد ذلك مائتىْ ألفٍ وتسعةً وسبعين ألفا وثمانمائة وتسعةً وستين يوما ؛ فاقسمها على ثلثمائة وخمسة وستين ، يخْرُجْ لك سبعُمائة وستةٌ وستون سنة ، وهو عدد السنين الفارسية التامة ؛ ويفْضُل بعد ذلك مائتان وتسعةٌ وسبعون يوما ، نخذْ لكل شهر عددَ أيامه : وهو ثلاثون يوما ويبقى تسعةُ أيام ، منها خمسةُ أيام فى نظير الخمسةِ الأيام الزائدة فى آخر أبان ماه المعروفة بالمُسْتَرقة ، يبقى أربعةُ أيام من شهر ذى ماه : وهو الشهر العاشر من شهورهم ، فيكون آخرُ يوم من ثمانمائة من الهجرة موافقًا لليوم الرابع من ذى ماه من شهور الفُرْس سنةَ سبعمائة وسبع وستين .

فلو فُرِض أنه مضى من سنة إحدى وثمانمائة ستةُ أشهر مثلا ، فاجعل الأشهرَ شهراً تامًّا وشهرا ناقصا على ماتقدّم ، تكون أيامُها مائةً وسبعة وسبعين يوما فأضفها على أيام الثمانمائة ، وافعل فيها ما تقدّم ذكره ، لايتغير العمل فى شىء من ذلك .

مثال ذلك : إذا أردت استخراج التاريخ السُّرْيانىّ فى آخر جمادى الآخرةِ سنة إحدى وثمانمائة ، فأضف مائة وسبعة وسبعين : وهى أيام ستة أشهر على أيام الثمانمائة ، وهى مائتا ألفٍ وثلاثةٌ وثمانون ألفا وأربعُمائة وثلاثةٌ وتسعون ، يكون المجموع مائتَى ألفٍ وثلاثةً وثمانين ألفا وستّمائة وستين يوما ، فأضف إليه ما بين الهجرة والتاريخ السُّرْيانىّ : وهو ثلثمائة ألفٍ وأربعون ألفا وسبعمائة ، يحصل

(١) كذا فى الاصول ولعله السنن الماضية من الهجرة .

من ذلك ستمائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا وثلثمائة وسبعون ؛ فاضربه فى أربعة يخرُجْ لك ألف وستُّمائة وتسعة ، ويفْضُل من الأيام مائةٌ وثمانية وخمسون يوما ، تكون سابع أدار من شهور السريان، فيكون آخر يوم من جمادى الآخرة سنة إحدى وثمانمائة موافقًا للسابع من شهر أدار سنة ألف وسبعمائة وعشر من سِنِى السريان .

قلت : وفى كُتُب الزِّيجات وغيرها طُرُق مختلفةٌ لاستخراج التواريخ ، وجَدَاولُ موضوعةٌ لايحتملها هذا الكتاب فليراجعها من احتاج إلى زيادة على ذلك .

الجملة الثامنة

(فى موْضِع كتابة التاريخ من الكِتَاب، وصورة وَضْعه فى الكتابة)

أمَّا موضعُه من الكتاب، فقال محمدُ بن عمرَ المدائنى فى كتاب "القلم والدَّواة" : رَسَمُوا تاريخَ الكتب فى آخرها ، وجعلته العامَّة فى صُــدُورها . والتحقيق فى ذلك ما ذكره صاحبُ "موادّ البيان" وغيره أن الكُتُب التى تؤرّخ على ضربين :

الضرب الأوّل — الكتب السلطانية، ولهـا حالان :

الحـالة الأولى — أن يكون الكتابُ فى أمر تتشوّفُ النُّفُوس إلى معرفة اليوم الذى وقع ذلك الأمرُ فيه : كالحوادث العِظَام، والفُتوحات والمواسم ونحوِها، فيؤرّخ الكتابُ فى صَدْره ، مثل أن يكتب فى صدر الكتاب «كتابُ أمير المؤمنين إليك ، او كتابنا إليك يوم كذا من سنة كذا» كما كان يُكتَب فى الزمن المتقدّم فى مثل ذلك.

الحـالة الثانية — أن يكون الكتاب فى أمر لاتتشوَّفُ النفوس إلى معرفة اليوم الذى يقع ذلك الأمرُ فيه ، فيؤرّخ الكتاب فى آخره .

الضرب الثانى — كُتُب الأتبـاع إلى الرؤساء .

والرسم فيها أن تُؤرَّخ فى صدورها . قال فى "موادّ البيان" : وذلك مثل أن يقال : كتب العبدُ من مَقَرّ خدمته يوم كذا .

قلت : والذى آستقرّ عليــه حال كُتَّاب الزمان كتابةُ التاريخ فى آخر الكتاب بكل حال ، سواءٌ كان المكتوبُ ولايةً أو مكاتبــةً أو غير ذلك ؛ ولعلَّ الولاياتِ وما فى معناها لم يقع الآختلافُ فى كتابتهــا فى آخر المكتوب فى زمن من الأزمان .

وأمّا صورةُ وضع التاريخ فى الكتابة ، فقد آصطلح الكُتَّاب علىٰ أن جَعَلُوا التاريخ بعد كتابةِ إن شاء الله تعـالىٰ فى سطرين : فيكتبون « كُتِب فى كذا من شهر كذا » فى سطرٍ ، ثم يكتبون « سنة كذا » فى سطر تحته ؛ وفى الكُتُب عن قُضاة القضاة يجعل كُتَّابهم جميعَ التاريخ فى سطر واحد .

الطَّرَف الثـالث

(فى المستَنَدات ، وفيه جملتان)

الجمــــلة الأولىٰ

(فى صورة ما يُكْتَب ، وهو علىٰ ضربين)

الضربُ الأوّلُ

(أن يُضافَ إلىٰ مَرْسوم السلطان ، وله خمسُ حالات)

الحالة الأولىٰ — أن يكون بتلَقِّى كاتب السرّ، إما بما يأمُر به السلطانُ عند قراءته القصةَ عليه ، أو بمــا يكتُبُه كاتب السر ويُمْضيه من نَفْسه ، كما فى خلاص الحُقُوق ونحوها ؛ فيكتب فيه «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطرٍ واحد لا غير .

الحالة الثانية — أن يكون بتلقّى كاتب السرّ أو أحد من كُتّاب الدَّسْت بدار العدل، عند جلوس السلطان فى المواكب بالإيوان وقراءة كاتب السرّ وكُتّاب الدَّسْت قِصَصَ المظالم ونحوها عليه . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف من دار العدل الشريف » سطرين أحدهما تحت الآخر، ويكون فى السطر الأوّل « حسب المرسوم الشريف » والباقى فى السطر الثانى .

الحالة الثالثة — أن يكون برسالة الدَّوَادَار . فيكتب فيه « حسب المرسوم الشريف » سطرا واحدا ، ثم يكتب تحته « برسالة الجناب العالى الأميرىّ الدَّوَادار، الفلانىّ » باللقب المضاف إلى المَلِك كالناصِرىّ ونحوه « ضاعفَ اللهُ تعالى نعمتَه » ويكون آخر السطر الأوّل «الأميرىّ الفلانىّ» .

الحالة الرابعة — أن يكون من ديوان الخاص . فيكتُب فيه «حَسَب المرسوم الشريف من ديوان الخاص الشريف» ويكون « حَسَب المرسوم الشريف » سطرا، وباقى الكلام سطرا .

الحالة الخامسة — أن يكون بخط السلطان بظاهر قِصّة . فيكتب « حَسَب المرسوم الشريف بالخَطّ الشريف» سطرين، ويكون «حَسَب المرسوم الشريف» سطرا على ما تقدّم، وما بعده سطرا .

قلت : ومما يجب التنبُّه له أنَّ لفظ حَسَب الواقع فى المستَنَدات منقولُ اللغة فيه بفتح السين كما تقول : فعلتُ ذلك حَسَب أمرك ، ولا يجوز تسكينها بحال كما أطبق عليه علماءُ اللغة، إلا ما حكاه الجوهرىّ فى "صِحَاحه" من جواز تَسْكينها فى ضرورة الشعر ، على أن جُلَّ كُتّاب الزمان يَغْلَطُون فى ذلك فلا يَنْطِقُون بها إلا ساكنةَ السين ، وربما ضبَطُوه كذلك فى الكِتابة .

الضرب الثـانى

(أن يجعل مستندَه الإشارة، وله ثلاث حالات)

الحالة الأولىٰ — أن يكون بإشارة النائبِ الكافل . فيكتب «بالإشارة العاليـة الأميرية الكبيرية الكافلية، كافلِ الممالك الشريفة الإسلامية، أعلاها الله تعالىٰ! » سطرين ، ويكون آخر السطر الأوّل الكافلية الفلانية .

الحـالة الثانية — أن يكون بإشارة الوزير . فيكتب «بالإشارة العالية الوزيرية الفلانية، مدبِّر المـمالك الشريفة أعلاها الله تعالىٰ! » سطرين، ويكون آخر السطر الأوّل الوزيرية الفلانية .

الحالة الثالثة — أن يكون بأشارة الإستدَّار . فيكتب « بالإشارة العالية الأميريّة الكبيرية الفلانية، إستدَّار العالية، أعلاها الله تعالىٰ! » سطرين، ويكون آخر السطر الأول الكبيرية الفلانية . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب ما جرىٰ عليه الكُتَّاب فى لفظ إستدَّار من التحريف، واستعملوه بلفظ إستادار ، أو استاد الدار ، وتجب موافقتهم عليه وإن كان خطأ جَرْيا علىٰ المصطلح .

الجمـــــلة الثانية

(فى موضـــع كـتابة المستَنَد)

وقد ٱصطلح الكُتَّاب علىٰ أن يُكْتَب المستنَدُ فى الغالب بَعْـدَ التاريخ ، ويكون الظرفُ أو الجارّ والمجرور فيه متعلّقا من التاريخ بلفظ كتِب ، وكأنه يقول : كُتب فى تاريخ كذا، حَسَبَ الأمر الشريف، أو بالإشارة الفلانية . وربما كتب بحاشية المكتوب فى المراسـيم الصِّـغار التى تُكْتَب علىٰ ظهور القِصَص ونحوها ، وكذلك

أوراق الطَّرِيق؛ وموضع كتابته يقابل بين السطرين الأوّلين آخذا من جِهةِ الأسفل إلىٰ جِهَـة الأعلىٰ بحيث يكون آخِرُ كتابة المستند مسامتاً للسـطر الأوّل ، فإن كان «حَسَب المرسوم الشريف» فقط، كتبه سطرا واحدا، وإن كان «من دار العَدْل» كتب «حَسَب المرسومِ الشريف» سطرا، ومنْ «دار العدل الشريف» سطرا تحته، وكذلك إن كان « من ديوان الخـاص » كما يُكْتَب فى أسفل الكتاب . وإن كان برسالة الدوادار، فقد جرت العـادة أن يكتب « حَسَب المرسوم الشريف » فى أسفل الكتاب تحت التاريخ سطرا واحدا ، ويكتب « برسالة الجناب العـالى، الأميرِى" ، الكَبِيرى" ، الفلانى" ، الدَّوادار ، الفُلَانى" ضاعف الله تعالىٰ نِعْمَتَه ! » بالهامش فى المحل المتقدّم سطرين كما كان يُكْتَب بآخر الكتاب . وإن كان المستَنَد الإشارة كتب جميعه بحاشية الكتاب فى المحل المقدّم ذكره سطرين علىٰ ماتقدّم بيانُه .

الطـــرف الرابع
(فى الحمدلة فى آخر الكتاب، وفيه جملتان)

الجمــــلة الأولىٰ
(فى الاصـــل فى كتابتهـا)

والأصلُ فى ذلك أنّ الله سبحانه كما جعل الحمدَ مِفْتاحا للأمور تَيَمُّنا بالافتتاح به، جعله خِتامًا لها تَيَمُّنا بالاختتام به قال تعالىٰ : ﴿ وقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالحَقِّ وقِيلَ الحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ ﴾ وقال جلَّتْ قدرتُه : ﴿ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وتَحِيَّتُهُمْ فِيها سَلَامٌ وآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الحَمْدُ لله رَبِّ العالَمِينَ ﴾ . وكان النبىُّ صلّى الله عليه وسلم إذا رجع من السفر قال : "آيِبون تائِبُونَ لِرَبِّنا حامِدُونَ" . قال السهيلى" : ومن ثَمَّ سُمِّىَ النبىُّ صلّى الله عليه وسلم (أحمد) إشارةً إلىٰ أنه خاتَمُ الأنبياء وآخِرُ المرسلين .

ولما كان الأمرُ كذلك ، ٱصطلح الكُتَّاب علىٰ ٱختتام الكُتُب بالحمـد تبرُّكا .
قال ٱبن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يُخْتَم بالحمْد لله فى التواقيع فى المَظَالم، وربما خُتِم بها فى تواقيع الإطلاقات . وقد ٱصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ حذفها من آخِر مالا تُكْتَب فى أوّله البسملةُ : كالتواقيع الصِّغار ونحوها ، علىٰ ما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ. وكأنهم يُشيرون بذلك إلىٰ أنَّ مثل ذلك لايُهْتَمّ بشأنه، فكما حذفوا البسملةَ من أوّلها حذفوا الحمدلَةَ من آخرها إشارةً إلىٰ عدم الآهتمام بها كما حُذِفت من أوّل الكلام الذى لايُهتَمّ به لأجل ذلك علىٰ ماتقدّم بيانُهُ .

الجملة الثانية

(فى بيان ما يُكْتَب وصورةِ وضعه فى الكتابة)

أمَّا ما يُكْتَب ، فقد ٱصطلحُوا علىٰ أن يكْتُبوا فى حَمْدَلة آخر الكتابِ « الحمدُ لله وحده » وربما كتَبُوا : «الحمدُ لله ربِّ العالمين» . علىٰ أنهم لو أطبقوا علىٰ كتابتها لكان أَوْلىٰ . فقد ذكر النووىّ فى كتابه "الأذكار" أنها أفضـلُ صيغ الحمد ومن أجل ذلك ٱفتُتِحتْ بها فاتحةُ الكتاب التى هى أُمُّ القرءان .

وأما وضعها فى الكتابة، فقد ٱصطلحُوا علىٰ أنْ جعلوها بعد كتابة المستَنَد عن يَمْنة الدَّرْج ، علىٰ بُعْد قدر ما بين إن شاء الله تعالىٰ والسطر الآخِرِ من المكتوب . قال فى "معالم الكتابة" وقد تحتمل الخروج عن سَمْت السُّطور .

الطـــرف الخامس

(فى الصـــلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وســـلم فى آخر الكتاب، وما يلتحق بذلك، وفيـــه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى أصل إثباتها فى آخر الكُتُب)

والأصلُ فى ذلك مع ماتقدّم فى الكلام علىٰ الصلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى أوّل الكُتُب فى الكلام علىٰ الفَوَاتِح أنه كما ذُكِرتْ فى أوائل الكُتُب تبرُّكا، كذلك ذُكِرتْ فى آخرها تبرُّكا. وقد قال تعـالىٰ فى حقّه صلّى الله عليـه وسـلم: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ فإن معناه ما ذُكِرْتُ إلا ذُكِرْتَ مَعِى، ولمـا ٱخْتُتِمَتِ الكتبُ بالحمدُ لله، ناسب أن يُقْرن الحمدُ بالصلاةِ علىٰ النبىّ صلّى الله عليـه وسـلم جمعًا بين ذِكْره وذِكْر الله تعـالىٰ. وقد ذكر آبن هشام فى "سِـيرته": أن النبىّ صلى الله عليه وسـلم كتب فى آخِر عَهْـده لعَمْرو بن حَزْم حِينَ وجَّهَه إلىٰ اليمن «صلّى اللهُ علىٰ محمد».

ثم الكلامُ فى الجمع بين الصلاة والسـلام، والصلاة علىٰ الآل والصَّحْبِ بعـده صلّى الله عليه وسـلم فى آخِرِ الكتاب علىٰ مامَرَّ فى الصلاة عليه صلّى الله عليه وسـلم فى أوّل(١) الكتاب.

قلت: فلو كُتِبَ كتابٌ لسلطانٍ أو غيره من المسلمين إلىٰ أحد من أهل الكُفْر، فهل يُؤتىٰ بالصلاة علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم كما يُؤتىٰ بها فى الكتاب إلىٰ المسـلم

(١) فى الأصول "آخر" وهو خطأ من الناسخ، وعبارة الضوء علىٰ مامر فى الفواتح، وهى أظهر.

إرغاما للكافر بالصلاة علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم، او لا يُؤْتىٰ بها صيانةً لاسمه صلّى الله عليه وسلم عن حُصُوله فى يدِ كافرٍ، كما يمنع من السَّفَر بالمصحف إلىٰ بلاد الكُفْر؟ لم أر مَنْ تعرّض له، والظاهر أنه يُؤتىٰ بها إرغامًا للكافر، ومواجهةً له بما يَكْرَه.

وقد حكىٰ أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل": أن عبدَ المَلِك بنَ مَرْوان، حينَ أحدثَ كتابةَ سورةِ الإخلاص وذِكْر النبىّ صلّى الله عليه وسلم علىٰ الدّنانير والدَّراهم، كَتبَ إليه ملكُ الروم: إنكم قد أحدَثْتم فى طَوَامِيركم شيئًا من ذكر نَبِيِّكم، فاتْرُكُوه وإلا أتاكم فى دَنانيرِنا ذكْرُ ماتَكْرَهون؛ فعَظُم ذلك فى صَدْر عبدالملك، فأرسل إلىٰ خالدِ بن يزيدَ بنِ معاويةَ يستشيرُه فى ذلك، وكان أديبًا عالمًا فقال له خالدٌ: فَرِّخْ رَوْعَكَ(١) ياأمير المؤمنين، حَرِّمْ دنانيرَهم واْضرِب للناس سِكَكا فيها ذكْرُ الله تعالىٰ وذكْرُ رسوله صلّى الله عليه وسلم ولا تُعْفِهم مما يكْرَهُون فى الطَّوامير، فَفَعل.

الجملة الثانية

(فى بيان مايُكْتَب فى التصلية فى آخر الكُتُب، وصورةِ وضعه فى الكتابة)

أماصورةُ مايكتب، فقد اصطلح الكُتَّاب علىٰ أن يكتُبوا فى التصلية فى آخر الكتاب بعد الحمدُ لله وحده ما صورته «وصلَوَاتُه علىٰ سيدنا محمد وآلِه وصَحْبه وسلامُهُ». وهى صيغة مستحْسَنة للإتيان بالصلاة فيها بِصيغة الجَمْع، والجمْع بين الصلاةِ والسلام، وإتباعِ الصلاة والسلام عليه صلّى الله عليه وسلم بالصلاةِ والسلام علىٰ الآلِ والصَّحْب. وربما أتىٰ بعضُ الكُتَّاب بالصلاة بلفظ الإفراد، فيكتب وصَلَاتُه.

---

(١) أى أذهب فزعك ورعبك، ووقع فى الأصول فرج بالجيم وهو تصحيف.

وٱعلم أن الصلاة يجوز كتابتها بالألف على هذه الصورة "الصَّلَاة" ويجوز كتابتها بالواو على هذه الصورة "الصَّلوة" إلا أن محلَّ ذلك ما إذا لم تُضَفْ إلى ضمير نحوُ صلاته وصلاتك . فإن أُضِيفَتْ إلى الضمير تعيَّنَتْ كتابتها بالألف دُونَ الواو ، وربما غَلِط فيها بعضُ الكُتَّاب فكتبها بالواو .

وأما موضعها فى الكتابة ، فقد ٱصطلَحُوا على أن يَكْتُبُوا ذلك تِلْوَ الحمدُ لله وحده ، يفصل بياض بينهما لتكون الحمدلةُ فى أوّل السطر ، والتصلية فى آخره .

الطرف السادس

(فى الحَسْبَلة فى آخِرِ الكتاب ، وفيه جملتان)

الجملة الأولى

(فى أصل كتابتها)

والأصل فى ذلك مادلَّ عليه قولُه تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قد جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وقالُوا حَسْبُنَا اللهُ وِنعْمَ الوَكِيل فانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ ﴾ فجعل قولَهم : حسبُنا الله ونعم الوكيل سبباً لحُسْن المنقلَب والصَّوْن عن السوء . وقد قيل : مَنْ قال حسْبُنا الله ونعم الوكيل لم يَخِبْ فى قَصْده .

الجملة الثانية

(فى بيان ما يُكْتَب فى ذلك ، وكيفيَّة وضعه فى الكتابة)

أما مايكتب ، فقد ٱصطلح الكُتَّاب على أن يكتُبُوا «حَسْبُنا اللهُ ونعم الوكيل» بلفظ الجمع ، على أن المتكلم يتكلَّم بلسانه ولسانِ غيره من الأُمّة ، لا أنَّ الجمعَ للتعظيم : لأنه

ليس بلائِق بالمَنَام . وكان بعض الكُتَّاب يَسْتَحِبُّ أن يكتب «حَسْبِيَ الله» بلفظ الوحدة فِرارًا من اللَّبْس فى لفظ الجمع بين التَّعْظيم والجمع الحقِيقىّ . وقد أشار فى "صناعة الكُتَّاب" إلىٰ بعض ذلك . قال ٱبن شيث فى "معالم الكتابة" : وقد يتأدب الأدنىٰ مع الأعلىٰ ، فيأتى بالآية علىٰ نصها فيقول : ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيلُ﴾ فِرارًا من نُون الجمع التى هى للعَظَمة . قال : وقد يقال فى مكانها : ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُه﴾ ثم قال : فأما الأعلىٰ إذا كَتَب للأدنىٰ فلا يخرج عن « حَسْبُنَا الله ونعم الوكِيلُ » . ثم بعض الكُتَّاب قـد يكتُب مع الحَسْبَلة واوا بأن يكتُب : وحَسْبُنا الله ونعم الوكيل ، ولا معنىٰ للواو هنـا ، إذ لا عِلاقـةَ بين الحَسْبلة وما قبلَهـا حتّى يسوغَ العَطْفُ عليـه ، فالواجب حذْفها كما نبه عليه الشيخُ جمـال الدين بن هشام فى "وَرَقاته فى الوراقة" .

وأما موضع وضعها فى الكتابة ، فقد ٱصطلحُوا علىٰ أن يكتُبوها سطرًا واحدًا بعد سطر الحَمْدَلة والتصلية ، ويكون بينهما فى البُعْد قدرُ مابين إن شاء الله تعـالىٰ و بين السـطر الآخرِ من البياض . قال ٱبن شيث : وموضعُها ثلثُ السطر من الجـانب الأيمنِ إلىٰ حيثُ ينْتَهِى .

وٱعلم أن الكُتَّاب قد ٱصطلَحُوا علىٰ أن يكتُبوا تحت الحَسْبَلَة صورةَ حاء لطيفة منكبة علىٰ هذه الصورة "حر" ولا معنىٰ لها ، إذ هى فى الأصل إشارة إلىٰ الحَسْبلة نفسها ، وكأنّ بعض الكُتَّاب كان يكتفِى بها عن الحَسْبلة ، ثم ٱلتبس ذلك علىٰ بعض الكُتَّاب فأثبتها مع الحَسْبَلَة علىٰ ظَنٍّ أنّ فيها قدرًا زائدًا عليهـا ؛ ويحتمل أنها إنمـا وُضِعتْ فى الأصل لسدّ البياضِ كما يُكْتَب بعض الدّوائر لسَـدّ البياض أو الفَصْل بين الكلامين وغير ذلك .

الطــــرف السابع

(في اللّواحق ، وفيــه جملتان)

الجمــلة الأولى

(في التتريب ، ويتعلّق به أمران)

الأمر الأوّل

(في النّــدب إلى التتريب)

لا نِزاعَ في أن تَتْرِيب الكتاب بعد الفَرَاغ منه بإلقاء الرَّمْل ونحوه عليه مطلوبٌ، وفيه معنيان :

المعنى الأوّل — التبرُّكُ طلبًا لنُجْح القَصْد ؛ فقد روى محمد بنُ عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة" بسنده عن إسماعيلَ بن محمدِ بن وهبٍ عن هشامِ بن خالد وهو أبومَرْوان الأزديّ، عن بَقِيَّةَ بن الوليد، عن عطاءٍ، عن آبن جُرَيج، عن آبن عباس عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم أنه قال : "تَرِّبُوا الكتابَ ونَحِّوه من أسفَلِه فإنه أعظَمُ للبَرَكة وأَنْجَحُ للحاجةِ" . وفي حديث "إذا كتَبَ أحدُكُم كتابًا فليُتَرِّبْهُ فإنَّه مُبارَكٌ وهو أنجحُ لحاجته" .

ومن كلام أمير المؤمنين عمرَ بن الخطّاب رضي الله عنه : تَرِّبُوا(1) الكتاب تَنْجَحُوا . ويؤيدُ ذلك ما رُوِيَ أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم كتب كتابَيْنِ إلى أهل قريتَيْنِ فتُرِّبَ أحَدُهما ولم يُتَرَّب الآخَر ، فأسْلَمَتِ القريةُ التي تُرِّب كتابها . وهذا المعنى موجود في المكاتَبات والوِلَايات وغيرهما لطلب البركة والنَّجاح في جميع ذلك .

(١) رواية كتب اللغة "أتربوا الكتاب" .

وقد حُكِى ان أبادُهْمان مَرِض مَرَضا أشْفىٰ فيه، فأوصىٰ وأملىٰ وصِيَّته علىٰ ٱبنه، فكتبها وأتْرَبَهـا فقال: نَعَمْ تَرِّبْها فإنه أنجحُ للحاجة . ولا فرقَ فى ذلك بين أن يكون المكتوبُ قد جَفَّ أم لا: لأن القصد إنمـا هو النُّجْح والبركة .

المعنىٰ الثانى ـ التجفيفُ لمـا كتبه بطَرْح التُّراب عليـه كى لايَنْمَحِىَ بما يُصيبه قبل الجَفَاف، وهـذا المعنىٰ أضعفُ من الأوّل، ومقتضاه أنه إذا جفَّ الكتاب لا يُتَرَّب، وعليه عملُ كُتَّاب الزمان . ومن هنا يَضَعُون الترابَ علىٰ آخر الكتاب من حيثُ إنه أقربُ عهـدًا بالكتابة فيحتـاجُ إلىٰ التجفيف، بخلاف أوّل الكتاب فإنه يكون قد جَفَّ عند نِهاية الكتاب غالبًا، لاسيَّما فى الزمن الحارّ، أو مع طول الكتاب وٱمتداد زمن كتابتـه . علىٰ أن صاحب "موادّ البيان" وغيرَه من قُدَماء الكُتَّاب قد صرَّحُوا بأنه يستَحَبُّ وضع التُّراب أوّلا علىٰ البَسْملة، ثم يُمِرُّه الكاتبُ منهـا علىٰ سائر المكتوب ليَعُمَّ الكتابَ بركةُ البســملة . ولقائل أن يقول إن التتريب من آخر الكتاب إلىٰ أعلاه لا يخلُو أيضا من بركة، لُملامسة التراب أوّلاً الحمدلةَ والصلاةَ علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسـلم والحَسْبَلة . وربمـا بَلَغ بالتراب من أسـفل الكتاب إلىٰ البسملة ثم أعاده فيجمع فيــه بين البَركتين .

الأمر الثـانى
(فيما يُتَرَّب به الكتابُ)

وقد ٱصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ التتريب بالرَّمـل الأحمر . أما تخصيصهم التتريبَ بالرمل فلأنه لا غُبارَ فيه يَعْلَق بالكتاب فيُذْهِبُ بَهْجة الوَرَق . وأما ٱختيارُهم الأحمرَ دُونَ غيره فلأنه أبْهَجُ إذا لَصِق بالكتاب . قال محمد بن عمر المدائنىّ: وكَرِهوا ونَهَوْا

عن تراب الحيطان، وماثوا إلى النشارة والأشنان . قال : وبلغنا أن بعض الأئمة من أهل العلم كان يترب الحديث بالصندل ويقول : لا أطرح على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التراب . وكان حيوة بن شريح يخرج إلى الصحراء فيأخذ الطين الأسود فيدقه وينخله فيترب به . وقد صرح الرافعي وغيره من أصحابنا الشافعية أنه يحرم التتريب من جدار الغير، ومعناه ظاهر لما فيه من الاغتصاب والاعتداء. وقد سبق في المقالة الأولى في الكلام على الخط ذكر أنواع الرمل، وأن من أحسنه رملا يؤتى به من صحراء ماردين ، فيه شذور صفر كشذور الذهب ، يلقى في الرمل الأحمر فيترب به الأمراء والوزراء ومن في معناهم .

الجملة الثانيــــة

(في نظر الكاتب في الكتاب وتأمله بعد الفراغ منه)

قد نصوا على أنه إذا فرغ الكاتب من كتابة الكتاب ينبغي له أن يتأمله من أوله إلى آخره ويتتبع ألفاظه ويتأمل معانيه ويصلح منها ما لعله وهم فيه الفكر أو سبق إليه القلم : ليسلم من قدح القادح وطعن الطاعن . وقد تقدم في مقدمة الكتاب أن صاحب الديوان لا يكتفي بنظر الكاتب في ذلك ، بل يكله إلى نظر كاتب كامل ينصبه لذلك، ثم يتأمله هو بنفسه بعد ذلك ليتنقح الكتاب ويتهذب .

المقـالة الرابعـــة

فى المـكاتبـات ، وفيهـا بابان

البـاب الأوّل

(فى أمورٍ كُلِّية فى المكاتبَات، وفيه فصلان)

الفصـــــــل الأوّل

(فى مقـــدّمات المـكاتبـات ، وفيـــه ثلاثةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى أصول يعتَمِدها الـكاتبُ فى المـكاتبات)

ويتعلّق المقصود منها بعشرة أصول (١) :

الأصـــل الأوّل

(أن يأتى الـكاتبُ فى أوّل المـكاتبَـــة بحُسْـــن الأفتتاح المطلوبِ فى سائر أنواع الـكلام : من نَثْر ونَظْم ممـا يوجب التحسين : ليكون داعيةً لأستماع مابعده، على ماتقدّم بيانُه فى الـكلام على علوم البلاغة فى المقالة الأُولىٰ)

ويرجعُ حسنُ الأفتتاح فى المكاتبات إلىٰ معنيين .

المعنىٰ الأوّل — أن يكون الحُسْن فيه راجعًا إلىٰ المبتدإ به . إما بالأفتتاح بالحمدُلله كما فى بعض المكاتبات : لأن النُّفوس تتشوّفُ إلىٰ الثناء علىٰ الله تعالىٰ، أو بالسلام الذى جعله الشارع مفتتَح الخطاب أو نحو ذلك . وإما بالأفتتاح بما فيه تعظيم المكتوب

(١) المعدود آثنا عشر كما ستقف عليه .

إليه : من تقبيلِ الأرض أو اليدِ أو الدُّعاء له أو غير ذلك ، فإنَّ أمر المكاتبات مبنيّ علىٰ التملُّق وٱستجلابِ الخواطر وتألُّف القلوب ، إلىٰ غير ذلك مما يجرى هذا المَجرىٰ ، علىٰ ما يقتضيه ٱصطلاحُ كلِّ زمن فى الآبتدا آت .

المعنى الثانى — أن يكون الحُسْنُ فيه راجعا إلىٰ مايوجب التحسينَ : من سُهُولة اللفظ ، وصِحّة السبك ، ووُضُوح المعنىٰ ، وتجنُّب الحَشْو ، وغير ذلك من مُوجِبات التحسين ؛ كما كتب الأستاذ أبو الفضل بنُ العميد عن رُكْن الدولة بن بُوَيه ، إلىٰ مَنْ عصىٰ عليه ، مفتتِحا كتابه بقوله : "كتابِى إليْكَ ، وأنا متردِّد بين طَمَعٍ فيك وإياسٍ منك ، وإقبالٍ عليك وإعْراضٍ عنك ؛ فإنك تُدِلُّ بسالِفِ خِدَمٍ أيسَرُها يُوجب رِعايه ، ويقْتَضِى محافظةً وعِنَايه ؛ ثم تشْفَعُها بحادثِ غُلُول وخِيانة ، وتُتْبِعها بألِف خلاف ومعصية ، أدنىٰ ذلك يُحْبِط أعمالك ، ويُسْقِط كل ما يُرْعىٰ لك" .

وكما كتب أبو حفص بن برد الأندَلُسىّ عن مَلِكه إلىٰ مَنْ عصىٰ عليه ثم عاد إلىٰ الطاعة كتابًا ٱفتتحه بقوله : "أما بعدُ فإن الغلَبَة لنا والظُّهورَ عليك جلَبَاك إلينا علىٰ قَدَمِك ، دُونَ عهْدٍ ولا عَقْدٍ يمنعان من إراقة دَمِك ؛ ولٰكنّا لما وهب اللهُ لنا من الإشراف علىٰ سرائر الرِّياسه ، والحِفْظ لشَرائع السِّياسه ؛ تأمَّلْنا مَنْ ساس جِهتَكَ قبْلَنا ، فوجَدْنا يَدَ سياسته خَرْقاء ، وعينَ خدامته عَوْراء ، وقدَمَ مُداراته شَلَّاء : لأنه مالَ عن ترغيبك فلم ترْجُه ، وعن ترهيبك فلم تخْشَه ؛ فأدَّتْك حاجتك إلىٰ طِلَاب المَطَاعم الدَّنِيَّه ، وقلّةُ مَهابتك إلىٰ التَّهالُكِ علىٰ المَعَاصى الوَبِيَّه" ونحو ذلك من الآفتتاحات البَهِجة ، والآبتداآتِ الرائقة ، ممـا ستقف علىٰ الكثير منه فى خلَال هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ .

الأصـــــل الثـانى

(أن يأتىَ فى ٱبتــداء المكاتبة ببراعة الاستهلال المطلوبةِ فى كلّ فنٍّ من فنون الكلام)

بأن يأتىِ فى صَدْر المكاتبة بمـا يدُلُّ علىٰ عَجُزها . فإن كان الكتابُ بفَتْح ، أتىٰ فى أوّله بما يدُلُّ علىٰ التهنئة . أو بتَعْزِيَة ، أتىٰ فى أوّله بما يدُلّ علىٰ التَّعْزية . أو فى غير ذلك من المعانى ، أتىٰ فى أوّله بمـا يدلُّ عليه : ليُعْلَم من مبدإ الكتاب ما المرادُ منه . كما يحكىٰ أن عمرو بن مَسْعَدَة كاتبَ المأمون أمر كاتبــه أن يكتُبَ إلىٰ الخليفة كتابا يعرِّفه فيه أن بقرةً ولدَتْ عجْلا وجْهُه وجهُ إنسان ، فكتب : "أمّا بعدَ حمدِ الله خالقِ الأنَام ، فى بُطُون الأنعام " . وفُضلاء الكُتّاب وأئمتُهم يعتَنُون بذلك كلَّ الاعتناء ، ويرَوْن تَرْكَه إخلالا بالصنعة ، ونَقْصا فى الكتابة ، حتّى إن الوزير ضياءَ الدين بنَ الأثير فى المَثَل السـائر قد عاب أبا إسحاق الصابى علىٰ جَلَالة قَدْره فى الكتابة ، وٱعترافِه له بالتقدّم فى الصناعة ، بكتابٍ كتبه بفَتْح بغدادَ وهزيمة التُّرك فقال فى أوّله :

"الحمدُ لله ربِّ العالمين ، الملكِ الحقّ المُبِين ، الوحيدِ الفَرِيد ، العَلِيّ المَجِيد ، الذى لا يُوصَف إلا بسَلْب الصِّفات ، ولا يُنْعَت إلا برَفْع النُّعوت ؛ الأزَلِىِّ بلا ٱبتداء ، الأبدىِّ بلا ٱنتهاء ؛ القديم لا منذ أمدٍ محدود ، الدائم لا إلىٰ أجَل مَعْدود ؛ الفاعل لا مِنْ مادّة ٱمْتَـدّها ، الصانِـع لا بآلة ٱستَعْملها ؛ الذى لا تُدْرِكُه الأعين بألحاظها ، ولا تَحُدُّه الألْسُن بألفاظها ، ولا تُخْلِقُه العُصور بمُرُورها ، ولا تُهْرِمه الدُّهورُ بكُرُورها ؛ ولا تُجارِيه أقدامُ النُّظَراء والأشكال ، ولا تُزاحِمُــه مناكبُ الأقْرَناء والأمثال ؛ بل هو الصَّمَد الذى لا كُفْء له ، والفَرْد الذى لا تَوْءَم معه ؛ والحَىُّ الذى لا تَخْتَرِمُه المَنُون ، والقَيُّوم الذى لا تشْغَله الشُّـئُون ، والقدير الذى لا تَئُودُه المُعْضِلات ، والخبيرُ الذى

لا تُعْيِيه المُشْكلات" ثم قال : إن هـذه التحميدةَ لا تُناسب الكتابَ الذى ٱفتتحه بها، ولكنها تصْلُح أن تُوضَع فى صدر مُصَنَّف من مصَنَّفات أصول الدين : ككتاب "الشامل" للجُوينى، أو كتاب "الاقتصاد" للغَزالى، وما جرىٰ مَجْراهما . فأما أن تُوضَع فى أوّل كتابٍ فَتْح فلا .

وٱعلم أن براعة الاستهلال فى المكاتَبات قد تَقَع مع الابتداء بالتحميد، كما فى كتاب عَمْرو بن مَسْعدة المتقدّم ذكْره، وكما كتب أبو إسحاق الصابى عن الطائع إلىٰ بعض وُلَاة الأطراف، عِنْد زَوال الوَحْشة بينه و بين الأُمَراء، ووُقُوع الصُّلْح والاتفاق : "أمّا بعدُ فالحمدُ لله ناظم الشَّمْلِ، بعد شَتَاته، وواصلِ الحَبْلِ، بعد بَتَاته؛ وجابرِ الوَهْن إذا انْثَلَمْ، وكاشفِ الخَطْب إذا أظْلَمْ" .

وقد تَقَع مع الابتداء بالتقبيل : كما كتبت إلىٰ بعض الرُّؤساء بثَغْر الإسكندرية، مُلَوِّحا إلىٰ التعبير عنه بالثَّغْر، وعن الرِّيح التى تَهُبُّ دايه من جانب البحر بالمَلْثَم، وعن مُستَنْزَهٍ[1] من مستَنْزَهاته بالرمل، وعن المَساكن التى به بالقُصُور مع قُرْبه من البحر، ومُناسَبة ذكر النَّسيم بالثَّغْر بما صُورتُه : "يُقَبِّل أرضَ ثغر قَدْرَقَّ مَلْثمُه، وراق مَبْسِمُه؛ باثًّا لشُكر يعترِفُ الرَّمْلُ بالقُصُور عن حَدّه، وتَقِف أمواجُ البَحْر المحيط دُونَ عَدّه" .

وقد تقع مع الابتداء بالدعاء، وتكون براعةُ الاستهلال فى الدعاء المعطوفِ علىٰ المبتَدإ به : بأن يكون الدُّعاء مناسباً للحالة المكتوبِ فيها، كما نبَّه عليه صاحب "المَثَل السائر" وغيْرُه، وسيأتى الكلام علىٰ أمثلة ذلك فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) عبارة الضوء " و يلوّح بذكر مستنزه لهم علىٰ البحر يسمى بالرمل ومساكن لهم فى ذاك المستنزه تسمى القصور" وهى أوضح .

ثم من المكاتَبَات مايَعْسُر معه الإتيانُ بَبَرَاعة الاستهلال (١) فيما يلى ذلك من الكلام فى مقـدّمة المكاتبة قبـل الخَوْض فى المقصود ولا يُهْملها جملة . على أن الشيخ شهاب الدين محمودا الحلبيّ رحمه الله قد ذكر فى كتابه "حسن التوسل" أنه إن عسُر عليه براعةُ الاستهلال، أتى بما يُقاربُ المعنى . وبكل حال فإذا أتى بَبَرَاعة استهلالٍ فى أوّل مكاتبته استصحبها إلى الفراغ من الخُطْبة إن كان الكتاب مفتتَحا بخُطْبة ، وإلا استصحبها إلى الفَراغ من مقدّمة الكتاب الآتى بيانُها .

الأصـــل الثـالث

(أنْ يأتِىَ فى المكاتبة المشتملةِ على المَقَاصد الجليلةِ بمقدِّمة يُصَدِّر بها تأسيسا لمـا يأتى به فى مكاتبته)

مثلُ أن يأتى فى صُـدُور كُتُب الحَثّ على الجهـاد بذكر افْتراضه على الأُمَّة ، وما وعد اللهُ تعـالى به من نَصْر أوْليائه ، وخِذْلان أعدائه ، وإعزاز الموحِّدين ، وقَمْع المُلْحِدين . وفى صُـدُور كُتُب الفَتْح بإنجـازِ وَعْد الله الذى وعدَهُ أهلَ الطاعة من النَّصْر والظَّفَر ، وإظهـار دينِه على الدِّين كُلِّه . وفى صُدُور كُتُب جِبَاية الخَرَاج ، يُصَدِّر بحاجة قيام المُلْك وأُسّ السلطنة إلى الاستعانة بما يُسْتَخْرَج من حقوق السلطان فى عَمارة الثُّغُور ، وتحصين الأعمال ، وتَقْوية الرِّجال ، ونحو ذلك ممـا يجرى على هذا النمط ممـا سيأتى بيانه فى مقاصد المكاتَبَات فى الكلام على الابتـداآت والجوابات فيما بعدُ إن شاء اللهُ تعالى .

فقد قيل : إنه لايحسُن بالكاتب أن يُخْلِىَ كلامه ـ وإن كان وَجيزًا ـ من مُقدِّمة يفتتِحُـه بهـا وإن وقعت فى حرفين أو ثلاثة ، لِيُوَفِّىَ التأليفَ حقَّـه . قال

---

(١) لعله الاستهلال فى البداءة فيأتى بها فيما يلى ذلك ... الخ كما هو ظاهر من بقية الكلام .

فى ” موادِّ البيان “ : وعلىٰ هذا السبيل جرتْ ســنّةُ الكُتّاب فى جميع الكُتُب : كالفُتُوح ، والتّهانى ، والتّعازِى ، والتّهادِى ، والآستِخْبار ، والآستِبْطاء ، والإحْماد ، والإذمام ، وغيرها : ليكون ذلك بِسَاطا لمـا يُريد القولَ فيــه ، وحُجّةً يستَظْهِر بها السلطان ؛ لأن كلَّ كلام لابُدّ له من فَرْش يُفْرَش قبله : ليكون منه بمنزلة الأساسِ من البُنْيان .

قال : ويُرْجَع فى هــذه المقدّمات إلىٰ معرفة الكاتب ما يســتحقُّه كلُّ نوع من أنواع الكلام من المقــدّمات التى تُشاكلُها . ثم قال : والطريق إلىٰ إصابة المَرْمىٰ فى هذه المقدّمات أن تُجْعلَ مشتملةً علىٰ ما بَعْــدَها من المَقاصد والأغراض ، وأن يُوضَع للأمر الخاصّ مقدّمةٌ خاصّة ، وللأمر العامِّ مقدّمةٌ عامّة ، ولايُطَوّل فى موضع الآقتصار ، ولايُقَصِّر فى مَوْضِع الإيجاز ، ولا يجعلَ أغراضها بعيدَة المأْخذ ، مُعتاصةً علىٰ المتصَفِّح . وذلك أن الكاتب رُبّمـا قصد إظهارَ القُدْرة علىٰ الكلام والتّصَرُّف فى وجوه المَنْطِق ، فخرج إلىٰ الإملال والإضْجار الذى تتَبَرّم منه النُّفُوس ، ولا سيما نُفوس الملوك وذَوِى الأخطار الجليلة .

أما الأمور التى لاتشتمل علىٰ المَقاصد الجليلة : كَرِقاع التُّحَف والهَدايا ونحوهما . فقد ذكر فى ” موادّ البيان “ أنه لايُجعل لهـا مقدّمةٌ تكون أمامها فإن ذلك غيرُ جائز ولا واقع مَوْقِعَه . قال : ألا ترىٰ أنهم آستحسَنُوا قولَ بعضهم فى صَــدْر رُقْعة مقترنةٍ بتُحَفَة فى يومِ مِهْرَجان أو نحوه : «هذا يومٌ جرَتْ فيه العاده، بأن تُهْدَى فيه العَبِيدُ إلىٰ الساده» وآستظْرَفوا الكاتبَ لإيجازه وتقرِيب المأْخذ .

الأصـــل الرابع

(أن يَعْرِفَ الفرقَ بين الألفاظ المســتعملة فى المكاتبات فيضَعَهـا فى مواضــعها)

قال فى "ذخيرة الكُتَّاب" : يجب علىٰ الكاتب الرئيس أن يَعْرِفَ مرتبةَ الألفاظ ومواقعها : ليرَتِّبهـا و يفرق بينها فرقا يَقفُه علىٰ الواجب و ينتهى به إلىٰ الصواب ، فيخاطب كُلًّا فى مكاتبته بمـا يستحِقُّه من الخطاب ؛ فإنه قبيحٌ به أن يكونَ خطابهُ أوّلًا خطابَ الرئيس للمرءوس ، و يُتْبِـعَ ذلك بخطاب المَرْءوس للرئيس ، أو يَبْـدأَ بخطاب المرءوس للرئيس ثم يتبعه بخطاب الرَّئيس للمرءوس .

قال : ومتىٰ آستمرّ الكاتب علىٰ هذه المخـالفةِ من الألفاظ والمناقضــةِ ، نقَصَتِ المعانى ، ورَذُلت الألفاظ ، وسقَطت المقاصدُ ، وكان الكاتب قد أخَلَّ من الصِّناعة بمُعْظَمِها ، وترك من البلاغة غايةَ مُحْكَمِها . بل يجب أن يبدأَ بخطاب رئيسٍ أو نظيرٍ أو مرءوسٍ ، ويكون ما يتخلل مكاتبتَــه من الألفاظ علىٰ آتساق إلىٰ آخرها وآطِّرادٍ من غير مخالفة بينها ولا مُضادّةٍ ولا مناقَضةٍ .

فمن ذلك الفرقُ بين أصدَرْنا هذه المكاتبة أو أصدرناها ، وبين أُصْدِرت ، وبين صَدَرت . فأصدرناها أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوبِ إليه : للتصريح فيها بالضمير العائد علىٰ الرئيس التى صدَرت المكاتبةُ عنه ، إذ الشيءُ يَشْرُف بشرف متعلَّقه . ويلى ذلك فى الرتبة أُصْدِرتْ ، لآقتضائها إصـدارا فى الجملة ، والإصدارُ لا بُدّ له من مُصْدِر ، وذلك المُصْــدر هو الرئيس الصادرةُ عنــه فى الحقيقة . وإنمـا كانتْ دونَ الأُولىٰ للتصريح بالضمير هناك دون هنا . ودُونَ ذلك فى الرتبــة صدَرتْ : لآقتضاء الحال صُدو رَها بنفسها دُونَ دِلالةٍ علىٰ المُصْدِر أصلا .

ومن ذلك الفرقُ بين «ونبدى لعِلْمِه» و بين «ونوضِّح لعلمه» : فنبدى لعلمه أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه : لأن الإبداء يرجع فى المعنىٰ إلىٰ إظهار شىءٍ خَفِىّ ، والإيضاح يَرْجِع إلىٰ بيانِ مُشْكِل ، وحصولُ الإشكال المحتاج إلىٰ الإيضاح ربما دلَّ علىٰ بُعْد فَهْم المخاطَب عَن المقصود ، بخلاف إظهار الخفِىّ فإنه لايَنْتَهِى إلىٰ هذا الحدّ .

ومن ذلك الفَرقُ بين « علْمِه الكريم » و بين « عِلمِه المبارك » فالكريم أعلىٰ من المبارك ، لأن فى الكريم عراقةَ أصل وشرفٍ قد تُوجَد فى المبارك وقد تَتَخلف عنه .

ومن ذلك الفرق بين « ومَرْسُومنا لفلان بكذا » وبين « والمَرْسُوم له بكذا » : فمرسومنا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب عنه لاشتماله علىٰ نون الجمع المقتضية للتعظيم ، ولذلك اختَصّت بالملوك دُونَ غيرهم ، بخلاف والمَرسُوم له بكذا فإنه عارٍ عن ذلك .

ومن ذلك الفرقُ بين «والمَسْئول» و بين « والمستَمَدّ » : فإن المسئول أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب اليه (١) ، فإن المسئول يتضمَّن نوعَ ذِلّةٍ بخلاف الاستمدادِ فإنه لا يستلزم ذلك .

ومن ذلك الفرق بين « بلغنا » و بين « أُنْهِىَ إلىٰ علمنا » و بين « اتصل بنا » : فاتصل بنا أعلىٰ من أُنْهِى إلىٰ علمنا ، لما فى معنىٰ الاتصال من اللاصُق ، بخلاف الإنهاء ، وأُنْهِىَ إلىٰ علمنا أعلىٰ من بلغنا : لأن البلوغ قد يكون علىٰ لسان آحاد الناس .

(١) فى الاصول « عنه » والتصحيح من الضوء .

ومن ذلك الفرق بين « أنهىٰ فلان كذا » وبين « عرّفنا كذا » : فعرّفنا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ رافع الخَبَر، لأن فى التعريف مَزِيَّةَ قُربٍ من الرئيس ، بخلاف الإنهاء فإنه لا يقتضِى ذلك .

ومن ذلك الفرق بين « وردت مكاتبتُه » وبين « وردَتْ علينا مكاتبته » : فوردت علينا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ صاحب المكاتبة الواردة : لتخصيصها بالوُرُود علىٰ الرئيس بخلاف الوُرُود المطلق .

ومن ذلك الفرق بين « عُرِضَتْ علينا مكاتبتُك » وبين « وَقَفْنا علىٰ مكاتبتك » فوقفنا أعلىٰ بالنسبة إلىٰ صاحب المكاتبة : لأن الوقوف عليها يكون بنفسه ، والعرض يكون من غيره .

ومن ذلك الفرق بين «وشَكَرْتُ الله تَعالىٰ علىٰ سلامته» وبين «وتَوَالىٰشُكْرِى للهِ تعالىٰ» : فتوالىٰ شُكْرِى أعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه : لما فيه من معنىٰ التكرار ومَزِيد الشكر المَعْدُوق بالآحتفال .

ومن ذلك الفرق بين «ورَغِبْت إلىٰ الله تعالىٰ» وبين «وضَرَعْت إلىٰ الله تعالىٰ» : فضَرَعْت أعلىٰ من رَغِبْت : لما فى الضَّراعة من مزيد التأكيد فى الطَّلَب ، بخلاف الرَّغْبة فإنها لاتبلُغُ هذا المَبْلَغ .

ومن ذلك الفرق بين «وقابلْتُ أمْرَه بالطاعة» وبين «وآمتثَلْتُ أمره بالطاعة» : فآمتثَلْتُ أمْرَه أعلىٰ من قابلت أمْرَه ، لما فى الآمتثال من معنىٰ الإذعان والآنقيادِ ، بخلاف المُقابلَة .

ومن ذلك الفرق بين «وشَفَعْت له» وبين «وسألْتُ فيه»: فالسؤال أعلىٰ فى حق المسئول من الشَّفاعة : لمـا[1] فى الشفاعة من رِفْعة المقام المؤدّى إلىٰ قبُول الشفاعة.

ومن ذلك الفرقُ بين « وخاطبتُ فلانا فى أمره » وبين « وتحدّثتُ فى أمره » : فتحدّثت أشدّ فى تواضع المتكلِّم من خاطبت ، لأن الخطابَ من الألفاظ الخاصة التى لايتعاطاها كُلُّ أحد بخلاف التحدُّث .

ومن ذلك الفرق بين « تشْرِيفِى بكذا » وبين « إسعافى بكذا » [وبين « إتحافى بكذا »][2] فالإسعاف أعلىٰ رتبةً من التشريف لما فيه من دَعْوىٰ الحاجة والفاقة إلىٰ المطلوبِ ، بخلاف التشريف ؛ وإتحافِى دون تشريفِى لأن الإتحاف قد لايقتضى تشريفا .

ومن ذلك الفرق بين قوله : «نزل عِنْده» وبين قوله : «نزل بساحَتِه» : فالساحة أعلىٰ لما فيها من معنىٰ الفُسْحَة والاتّساع .

ومن ذلك الفرقُ بين «فيُحيط علمُه بذلك وبين فيَعْلَم ذلك» : فيُحيط علمه أعلىٰ من يَعْلَم ذلك : لأن فى قوله فيُحيط عِلْمُه بذلك نِسبته إلىٰ سَعةِ العلم : لما فيه من معنىٰ الإحاطة بخلاف فيَعْلم ذلك .

---

(١) عبارة الضوء "لما فى السؤال من معنى الذلة وما فى الشفاعة من معنى الشرف" وهى أوضح .

(٢) الزيادة من الضوء وهى ساقطة من قلم الناسخ بدليل بقية الكلام .

الأصـــل الخـامس

(أن يعرِفَ مواقع الدُّعاء فى المكاتبات ، فيدْعُو بكل دُعاءٍ فى موضعه)

ويتعلق النظر فيه بســتة أوجه

الأوّل — أن يَعْرِف مراتب الدُّعاء لُيوقِعها فى مواقعها ، ويُورِدَها فى مَوَارِدها، ويتأتّى ذلك فى عدّة أدعية .

(منها) الدُّعاء بإطالة البَقَاء ، والدُّعاء بإطالة العُمُر : فالدعاء بإطالة البقاء أرفعُ من الدُّعاء بإطالة العُمُر . وذلك أن البقاءَ لا يدُلُّ علىٰ مُدّة تنقضى لأنه ضِدُّ الفَنَاء ، والعُمُر يدلُّ علىٰ مدّة تنقضى؛ ولذلك يُوصَفُ الله تعالىٰ بالبقاء ولا يوصف بالعُمُر . قال فى "موادِّ البيان" : ومن هنا جُعِـل الدعاءُ بإطالة البقــاء أوّلَ مَراتب الدعاء وخُصَّ بالخلفاء، وجُعِـل مايليه لمن دُونَهم . ويتلوه الدعاء بالمَدّ فى العُمُر، فيكون دُونَ الدعاء بالإطالة ، لأن الوصــفَ بطُول الزمان أبلَغُ من الوصف بالمَــدِّ فيه من حيث إن المدّ قابلٌ للــدّة الطويلة والمدّةِ القصــيرة ؛ ولذلك صارت مرتبةُ الطُّول أقربَ إلىٰ مرتبة البقاء من مرتبة المَدّ .

(ومنها) الدعاء بدَوامِ النِّعمة، والدعاء بمُضَاعفتها : فالدعاء بالمضاعفة أعلىٰ : لأن الدوامَ غايتُه ٱستصحابُ ماهو عليه، والمضاعفةُ مقتضيةٌ للزيادة علىٰ ذلك .

(ومنها) الدعاء بعِزّ الأنصــار، وبعِزّ النَّصْر، وبعِزّ النُّصْرة . وقد ٱصطلح كُتّاب الزمان علىٰ أن جعــلوا أعلاها الدعاءَ بعز الأنصار، لأن عِزَّ أنصاره عِزٌّ له بالضرورة مع ما فيــه من تعظيم القَدْر ورِفْعــة الشأن ؛ إذ الأنصارُ لا تكون إلا لملِكٍ عظيم أو أميرٍ كبـير . والدعاء بعِزّ النصر أعلىٰ من الدعاء بعزّ النُّصْرة : لمــا فى الأوّل من

معنىٰ التــذكير وهو أرفعُ رتبــةً من التأنيث . علىٰ أنه لو جُعِل الدعاء بعز النصر أعلىٰ من الدعاء بعز الأنصــار ، لكان له وجه : لمــا فى عز النصر من الغَنَــاء عن عِزّ الأنصار .

(ومنها) الدُّعاء بعِزّ الأحكام ، والدعاء بتأييــد الأحكام : فالدعاء بعِزّ الأحكام أعلىٰ : لأن المراد بالتأييد التقويةُ ، فقد تُوجَدُ القوة ولا عِزَّ معها .

وينبغى للكاتب أن يحترِزَ فى تنزيل كلِّ أحدٍ من المكتوب إليهم منزلته فى الدعاء ، فلا ينقصُ أحدا عن حقِّه ، ولا يزيدُه فوق حقِّه ، فقد قال فى "موادِّ البيان" : إن الملوك تَسْمَح ببَدَراتِ المــال ولا تسمح بالدَّعْوة الواحدة .

الثــانى — أن يَعْرِفَ ما يناسبُ كلَّ واحد من أرباب المَنَاصبِ الجليــلة من الدعاء فيخُصَّه به .

فيأتى بالدعاء فى المكاتَبَة للملوك بإطالة البقاءِ ، ودَوَامِ الســلطان ، وخُلُود المُلْك ، وما أشبه ذلك .

ويأتى فى المكاتبــة إلىٰ الأُمَراء بالدعاء بعِزّ الأنصــار ، وعِزّ النَّصْر ، ومُضَاعفة النِّعمة ، ومُدَاومتها وماشاكل ذلك . علىٰ أن ابن شيث قد ذكر فى "معالم الكِتَابة" : أن الدعاء بعِزّ النَّصر ومُضَاعفة الاقتدار كان فى الدولة الأيوبية مما يختَصُّ بالسلطان دُونَ غيره .

ويأتى فى المكاتبات للوزراء من أرباب الأقلام ومَنْ فى معناهم بالدعاء بسُبُوغ النَّعْماء ، وتخليدِ السَّعادة ، ودَوامِ المَجْد ، وما يضاهِى ذلك .

ويأتى فى المكاتبــات للقُضاة والحُكَّام بالدعاء بعزّ الأحكام ، وتأييــد الأحكام وما يُطابِق ذلك .

ويأتى فى المكاتبة إلىٰ التُّجَّار بالدعاء بمزيد الإقبال، وخُلُود السعادة وشبه ذلك .

ويأتى فى المكاتبة فى الإخوانيَّات ومكاتبات النُّظَراء من الدعاء بما يقتضيه الحال بينهم من الوُدِّ والإدْلال ، بحسَب ما يراه الكاتبُ ويؤدّى إليه آجتهادُه . قال فى "موادِّ البيان" : وقد كانوا يختارون فى الدعاء للأُدَباء أبقاكَ الله، وأكرمكَ الله . وفى الدعاء للابن والحُرْمة أبقاك الله وأمتع بك .

أمّا أهل الكُفْر فقد آصطلحُوا علىٰ الدعاء لهم بطول البقاء وما فى معناه . أمّا جواز اصل الدعاء لهم فلما رُوِى أنَّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم آستَسْقىٰ فسَقَاه يَهُودِىّ ، فقال له : جَمَّلك الله ، فما رُؤِى الشيبُ فى وَجْهه حتّٰى مات ، فدلَّ علىٰ جواز الدعاء للكافر بما لا ضَرر فيه علىٰ المسلمين ما لم تنضم إليه قُوّة ونحو ذلك، بل ربما كان فى طُول بقائِه حملُ جزية أو غنيمةٌ أو ثوابُ جِهادٍ ونحو ذلك . وقد حكىٰ أبو جعفر النحاسُ فى "صناعة الكُتَّاب" : أن الشافعىّ رضى الله عنه قال لنصرانىّ : أعزَّك الله ! فعُوتِبَ فى ذلك ، فقال (١) ... ...

وآعلم أنه يجب مع ذلك أن يعرف مرتبةَ المكتوب إليه من الدعاء ، فيدعو بعِزّ الأنصار لواحدٍ، ويدعو بعِزّ النصر لمن دُونَه : لأن عزَّ الأنصار مستلزم لعِزّ النصر. علىٰ أنه لو قيل : إن عزّ النصر أعلىٰ لكونه دعاءً لنفس الشىء بخلاف الدعاء بعز الأنصار فإنه دعاءٌ لشىء خارجىّ لكان له وجه . ويدعو بعز النُّصْرة لمن دونَ مَنْ يُدْعىٰ له بعز النصر، لأن النصر مذكّر ورتبةُ التذكير أعلىٰ من رتبة التأنيث .

(١) بياض فى الاصول بقدر كلمتين ولم يورده فى الضوء ولعل الشافعىّ آستدل بالحديث السابق .

ويدعو بدَوَام النعمة لواحِد ويدعُو بمضاعفة النِّعمة لمن دُونه (١) ، لأن الصيغة تقتضى مَزِيدا علىٰ القدر الحاصل ، بخلاف الدَّوام فإنه يقتضى ٱستصحاب القـدر الحاصل فقط ، وعلىٰ هذا النهج . قال فى "معالم الكتابة" : ولا يُكْتَب عن السـلطان إلىٰ أحدٍ ممن فى ممـالكه بلَا زَالَ ، ولا بَرِح ، بل يختصُّ ذلك بملكٍ مثـله . قال : ولاحرجَ فى الكتابة بذلك عن السلطان إلىٰ وَلَده إذا كان نائبًا عنه فى المُلْك . قال : وكذلك لايدعُو الأعلىٰ للأدنىٰ بلَا زالَ ، ولا بَرِح .

قلت : والذى ٱستقرّ عليه الحالُ الكتابةُ عن السلطان بذلك لأكابر النُّوّاب ، ويكتب به أكابر الدّولة بعضهم إلىٰ بعض .

الثـالث — أن يعرف مايناسب كلَّ حالة من حالات المكاتبات ، فيأتى لكل حالة بمـا يناسِبُها من الدُّعاء . قال فى "موادِّ البيَان" : ينبغى أن تكون الأدعيةُ دالَّةً علىٰ مقاصد الكُتّاب : فإن كان فى الهَناء كان بما راجَتْ معرفَتُه ، وإن كان فى العَزاء كانَتْ مشتَقَّةً من وَصْفه ، وكذلك سائرفُنون المكاتَبَات ، فإنه متىٰ خرجَ الدعاءُ عن المناسبة وبايَنَ المقصودَ ، خرج عن جادَّة الصناعة وتوجَّه اللومُ علىٰ الكاتب ، لاسيَّما إذا أتىٰ بما يُضادُّ المراد . كما حكىٰ أبو هلال العسكرىّ فى "الصناعتين" أن بعضهم كتب إلىٰ محبوبته : عَصَمنا اللهُ وإيَّاكِ ممـا يُكْرَه . فكتبَتْ إليه : ياغَلِيظَ الطَّبْع ! إن ٱستُجِيبَ لكَ لم نلتقِ أبدًا .

ويختلف الحـالُ فى ذلك باختلاف حال المكاتبات : فتارةً تكونُ باعتبار الشيء المكتوب بسبَبِه . كما يكتب فى معنىٰ البِشارة بجلوس المَلِك علىٰ تَخْت المُلْك : لازال أمْرُه ! وأمتعه من البشائر بما يتوضَّح علىٰ جَبِينِ الصَّباح بِشْره ، وما يترجَّح علىٰ مِيزان الكَواكب قَدْرُه ، وما ينْفَسِح من أوقات أمنٍ لايختلف فيها زيدُه وعَمْرُه .

(١) صوابه "لمن فوقه" كما هو مقتضى التعليل بعد وكما يؤخذ من عبارة الضوء ص ٤٢٣ .

وكما يُكْتَب فى البشرى بفتح : ولا زالتْ آياتُ النصرِ تُتْـلَى عليـه من صُحُف البشائر، ونفائسُ الظَّفَر تُجْلَى على سِرّه فى أسْعَد طائر، وفواتحُ الفَتْح تُزْهَى به الأَسِرّةُ وتَزْهو بنُوره المَنَابِر .

وكما يُكْتَب فى التهنئة بعافيـة، ولا بَرِح فى بُرْد الصحة رافلا ... ...(١) بعَزْمِه وحَزْمِه كافلا، والإقبالُ لجنابه العالِى بالهَنَاء بعافيته وَاصِلا .

وتارة تكون بٱعتبار حال المكتوبِ إليه التى هو بصَدَدها .

كما يكتب لمن خرج إلى الغَزْوِ : وحفَّه بلُطْفه فلا يَخِيب ، وهَيَّأله النصرَ والفَتْح القَرِيب، وجعـل على يَدَيْه دَمَار الكُفَّار حتّى لا يبقَى لهم بشِـدّة بأسِه من السلامة نَصِيب .

وكما يكتب إلى مَنْ خرج إلى الصَّـيْد : وأمتَعه بصُـيُوده ، وجعل الأقدارَ من جُنُوده ، وأراه من مَصَارع أعدائه بسُيوفِه ورِماحِه ما يراه من مَصَارع صَيْده ببُزَاتِه وفُهُوده .

وكما يُكْتَب لمن خرج فى سَفَر : وقضَى بقُرْب رَجْعته، وجعله كالهلَال فى مَسِيره سَبَبُ رِفعته ، وسكَّن بقُدُومه أشواقَ أوليائه وأهلِ محبَّته .

وكما يُكْتَب لمن خرج لتخضير البلاد : وألْبَس البلادَ بقُدُومه أخْضَرَ الأثواب ، وأحلَّهُ أشرفَ محلٍّ وأخْصَبَ جَناب .

وتارة تكون باعتبار وظيفة المكتوب إليه التى هو قائم بها

كما يُكْتَب إلى كافل المملكة : ولازالَتْ كِفَايةُ كَفَالته تزيدُ على الآمال ، وتَتَقَرَّب إلى الله تعالى بصالح الأعمال، وتَكْفُل ما بين أقصَى الجَنُوب وأقصَى الشَّمَال .

(١) بياض فى الاصول بقدر كلمة ولعله ولا زال الزمان .

وكما يكتب إلىٰ قاض : وفَصَل بين الخُصوم بأحكامِه المسَدَّده، وأقضِيَتِه التى بها قواعدُ الإسلام مُمَهَّده، وأبنيةُ الشرع المطهَّرِ وأركانُه مُشَيَّده .

وكما يكتب إلىٰ متصوّف : وأعاد من بَرَكات تهجُّداته ، وأنار الليالِىَ بصالح دَعَواتِه .

وتارة تكون باعتبار بلد المكتوب إليه وناحِيَته .

كما يكتب إلىٰ نائب الشام : ولا زال النَّصْرُ حِلْيَةَ أيّامه وشَامَةَ شامِه ، وغَمامة مايحلّق علىٰ بلده المُخْصِب من غَمَامِه .

وكما يكتب إلىٰ نائب حَلَب فى زمن الحروب : ولا زال يُعَدّ ليومٍ تَشيب فيه الوِلْدان، ويُصَدّ دُونَه كلُّ مُحارِب بين الشَّهْباء والمَيْدان ، ويعُمُّ حَلَب من حلىٰ أيامه مالا يُفْقَد معه إلا ٱسمُ ٱبن حَمْدان، ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السلك .

وتارة تكون باعتبار ٱسم المكتوب إليه أو لقبِه .

كما يكتب إلىٰ مَنْ لقبه سيفُ الدين : ولازال سيفُه فى رقاب أعدائه مُغْمَدا ، وحَدُّه يَذُرُ كلَّ مُلحِد مُلْحَدا .

وكما يكتب إلىٰ مَنْ لَقَبُه عِزّ الدين : ولا زال عزُّه دائما، والزمانُ فى خِدْمته قائما، وطَرْفُ الدهر عن مراقبةِ سعادتِه نائما .

وكما يكتب إلىٰ مَنْ لقبه شمسُ الدين: ولا زالتْ شمسُ سعادته مُشْرِقه، وأغصان فضله بالعَوارف مُورِقَه ، وعيونُ طوارق الغِيَرِ عنه فى كلّ زَمَن مُطْرِقه .

وكما يكتب إلىٰ مَنْ لقبُه ناصر الدين : ونَصر عزائمه، وشَكَر مكارِمَه ، ووَفَّر من الحسنات مَغَانِمَه . إلىٰ غير ذلك من الأمور التى ستقف علىٰ الكثير منها فى الكلام علىٰ مقاصد المكاتبات إن شاء الله تعالىٰ .

الرابع ــ أن يعرف مواضع الدعاء علىٰ المكتوب إليه، ومَن الذى يُصَرَّح بذلك فى المكاتبـة إليـه . قد ذكر ٱبنُ شيث فى "معالم الكتابة" أن الدُّعاء علىٰ الأعداء فى صُدُور الكُتب كان من عوائد مكاتبة الأدْنىٰ إلىٰ الأعلىٰ . مثل : وقَصَم، وأذَلّ، وقهر، وخضد . وكذلك المماثل والمقارب؛ فأما من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ فلم يكن ذلك معروفا عنـد المتقدّمين ، لاسيمـا إذا كان الكَتّابُ عن السلطان . ثم قال : ولكن قد أُفْلِتَ الحبلُ فى ذلك الآن [إلىٰ أن] قال : ولا يقال للأدنىٰ غير كَبَتَ عدوّه ، أو ضِدّه، أو حَسُوده خاصة .

ومنها(١) ــ أن يَعْرِف ما كرهه الكُتَّاب من الدعاء فيتجنَّبه . وهو علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(ما كَرِهُوه فى المكاتبة إلىٰ كل احد)

قال فى "موادّ البيان" : كانت عادتُهم جاريةً ان يَتَجَنَّبُوا من الأدعية ما لا مَحْصولَ له ، كقولهم : جَعلَنِي الله فِدَاكَ ، وقدّمَنِي إلىٰ السُّوء دُونَك : لما فى ذلك من التصنُّع والمَلَق الذي لا يرضاه السـلطان ، لأن نَفْس الداعى لا تَسْمَح باستجابته . ويؤيِّد ما ذكره ما كتبَ به ٱبن عبدِ كان إلىٰ بعض أصدقائه : جُعِلْتُ فِدَاكَ علىٰ الصحة والحقيقة، لا علىٰ مَجْرىٰ المكاتبة ومَذْهب العادة . قال فى "موادّ البيان" : وإنمـا يحسُن ذلك من الخوَاصّ الذين يتحقّقون أن بقاءهم معدوقٌ ببقاء رؤسائهم ، وثباتَ نِعَمهم مقرونٌ بثَبَاتَ أيام سلاطينهم ، لأنه يصـدر عن عقائدَ مستحْكِمة مِنْ بَذْل الأنفُس دُونَهم . وما ذهب إليه مِن كراهة ذلك قد نقل فى "صناعة الكُتَّاب" مثـله عن مالك بن أنس ، وٱحتجَّ له بمـا رُوِى عن الزبير رضى الله عنـه أنه قال

(١) عدّها فى الضوء مرتبة خامسة وهو أنسب .

للنبيّ صلّى الله عليه وسلم : «جُعِلْتُ فِدَاكَ ـ فقال له أما تَرَكْتَ أَعْرابِيَّتَك بَعْدُ ! » علىٰ أن بعضهم قد أجاز ذلك ٱحتجاجًا بقوله صلّى الله عليه وسلم لسَعْدِ بن مالك يومَ أُحُد : «اِرْمِ فِدَاكَ أبِى وأُمِّى » وبما رُوِى عن ٱبن عباس رضى الله عنهما أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال له : « ألَا أُعَلِّمُك كَلِماتٍ يَنْفَعُك اللهُ بهِنّ ؟ قال نَعَمْ جَعَلَنِى اللهُ فِدَاك ! » ولم يُنْكِر عليه ، ونحو ذلك ؛ وفى معنىٰ ذلك كلُّ ما يجرى هذا المجرىٰ ونحوه .

الضـــرب الثـانى

(ماتختصّ كراهتُه بالبعض دُونَ البعض، وهو نوعان)

النوع الأوّل — مايختص بالرجال، فمن ذلك ماذكره فى "موادّ البيان" : أنهم كانوا لا يَسْتَحْسِنون الدعاءَ بالإمْتـاع نحو أمْتَع اللهُ بِك وأمْتَعـنِى اللهُ بكَ ، فى حق الإخوان . وممـا يُحْكىٰ فى ذلك أن محمدَ بنَ عبد الملك الزَّيات، كتب إلىٰ عبد اللهِ ابن طاهر فى كتاب : وأَمْتَعَ بك، فكتب إليه عبدُ الله بن طاهر :

أَحُلْتَ عَمَّا عهِدْتُ مِنْ أدبِكْ ؟ * أَمْ نِلْتَ مُلْكا فتِهْتَ فى كتبِـك ؟
أتْعَبْتَ كَفَّيــكَ فى مُكاتبَـتِى * حَسْبُك ممـا يَزِيدُ فى تَعَبِـكْ !
إنَّ جَفَاءً كتَابُ ذِى مِقَــةٍ * يكونُ فى صَدْره، "وأمْتَعَ بِكْ" .

فأجابه محمدُ بنُ عبد الملك الزيَّات معتذِرا بقوله :

كيف أخُونُ الإخَاءَ يا أمَلِى ؟ * وكلُّ شىءٍ أنَالُ من سَبَبِكْ !
إنْ يَكُ جَهْلٌ أتاكَ منْ قِبَلِى، * فعُدْ بفَضْلٍ علَىّ من أَدَبِكْ .

علىٰ أن في كراهة الدعاء للإخوان بذلك نظرا فسيأتي في الكلام علىٰ ترتيب المكاتبات علىٰ سبيل الإجمال أن أمَّ حَبِيبةَ بنتَ أبي سُفْيان زوجَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم [قالت] : اللهم أمْتِعْنِي بزَوْجِي رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم وبأبِي أبي سُفْيان، وبأخِي مُعاويةَ — في حديث طويل يأتي ذكره هناك إن شاء الله تعالىٰ .

أما الدعاء بالإمتاع للأَتْباع، فقد أجازه جماعةٌ من محقِّقِي الكُتَّاب، محتجِّين علىٰ ذلك بأنَّه صلَّى الله عليه وسلم دَعَا لأبي اليَسَر : كَعْب بن عُبَيْد الله (١) بقوله « اللَّهُمَّ أمْتِعْنا بِهِ» . قال ٱبن عفير : فكان آخِرَ أهْلِ بَدْرٍ وفاةً، مات سنةَ خمس وخمسين من الهجرة .

النوع الثاني — ما يَخْتصُّ بالنساء . فقد ذكر «أبو جَعْفر النحاسُ» أنه لا يقال في مكاتبتهنّ « وأدامَ كَرَامَتَكِ » ولا « وأتَمَّ نعمتَهُ عليْكِ » ولكن لَدَيْكِ، ولا «فَضْله عندك» ولا «وأدام سَعادَتَك» . أما منع الدعاء لهنّ بالكَرامة، فلما حكىٰ محمدُ بن عمر المدائني أن بعض عمال زُبَيْدَةَ كتب إليها كتاباً بسبب ضِياع لها فوقَّعتْ له علىٰ ظهر كتابه : أردت أن تَدْعُوَ لنا فدعَوْتَ علينا، فأصلِحْ خطأك في كتابك وإلا صَرَفناك عن جميع أعمالك! . فأدركه القلَق، وجعل يتصفَّح الكتاب ويَعْرِضُه علىٰ الكُتَّاب فلا يجِدُ فيه شيئًا، إلىٰ أن عَرَضه علىٰ بعض أهل المعرفة فقال : إنما كرهت دُعاءكَ في صدر كتابك بقولك : وأدام كَرَامَتك : لأنَّ كرامة النساء دفنهنّ — قال رسول الله صلَّى الله عليه وسلم « دَفْنُ البَناتِ من المَكْرُماتِ » فغيَّر ذلك الحرفَ من كتابه وأعاده إليها فوقَّعت له علىٰ ظهره — أحسنْتَ ولا تَعُدْ — . وأما كراهة وأتمَّ نعمته عليك وإبدالُ ذلك بلفظ وأتم نعمتَه لَدَيْك، فكأنه لما يلْمَح فيه من ذكر العُلُوّ علىٰ النساء . وأما منع وأتَمَّ فضلَهُ عندك، أو وأتم سعادَتك فيحتاج إلىٰ تأمل .

(١) الذي في « خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال» للخزرجي (كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو) ونحوه في تاج العروس مادة ي س ر .

الخامس — أن يتجنَّب الخلافَ فى الدعاء فى فُصُول الكتاب، ولا يُوالِىَ بين دَعْوتينِ منه [متفقتين] . فأما الخلاف فى الدعاء، فقال أبو جعفر النحاس : هو مثلُ أن يقول أطالَ اللهُ بقاء سَيِّدى — بلفظ الغَيْبة ، ثم يقول بعد ذلك : وبَلَّغَك أملَك — بلفظ الخطاب . وأما المُوالاة بين دَعْوتين[1] ولا يأتى بهما متفقتين ، فقال فى "موادّ البيان" : هو مثل حَرَس اللهُ الأمير أعَزَّه الله، ثم يقول فى الفصل الذى بعده : أعَزَّه الله تعالىٰ، وما اشبه ذلك .

السادس — أن يتجنَّب وقُوعَ اللَّبْس فى الدعاء . فإذا ذُكِر الرئيسُ مع عدوّه مثلا ، لم يَدْعُ للرئيس حينئذ ، فإنه لو ذَهب يقول وقد كان من عَدُوّ سَيِّدى — أبقاهُ الله — كذا، لاحتمل عودُ الدعاء إلىٰ الرئيس وإلىٰ عَدُوّه فيقع اللَّبْس . أما إذا ذُكِر الرئيسُ وحده كما إذا قال : وقد كنتُ عرَفتُ سيِّدى — أبقاه الله — كذا ، فإنه لا التباس .

الأصل السادس

(أن يَعْرِفَ ما يناسبُ المكتوبَ إليه من الألقاب فيُعْطِيَه حقَّه منها)

ويتعلقُ الغرضُ من ذلك بثلاثة أمور .

أحدها — أن يَعْرِف ما يناسب من الألقاب الأصول — المتقدّمةِ الذكرِ فى المقالة الثالثة عند الكلام علىٰ الألقاب المصطلَح عليها بحسَب ذلك الزمان : كالمَقام، والمقرّ، والجَناب، والمجلس — فى زماننا ، فيعطىَ كلَّ أحد من المكتوب إليهم ما يليق به من ذلك، فيجعل المَقام لأكابر الملوك . والمَقرّ لمَنْ دُونَهم من الملوك، وللرُّتْبة العُلْيا

---

(١) عبارة الضوء ص ٢٦ ٤ هكذا "وأما موالاة دعوتين متفقتين فمثل أن يقول أعزه الله تعالىٰ ثم يقول فى الفصل الذى بعده أعزه الله تعالىٰ" وهى أوضح .

من أهل المملكة . والجَنَاب للرتبة الثالثة من الملوك والرُّتْبة الثانية من أهل الدَّوْلة . والمجْلِسَ للرتبة الرابعة من الملوك والرتبــة الثالثة من أهل الدولة . ومَجْلِس الأمير لمن دُونَ ذلك من اهل الدولة علىٰ المصطلَح المستقِرّ عليه الحالُ .

الثـانى — أن يعرف ما يناسب كلَّ لقب من الألقاب الأُصُـول من الألقاب والنُّعوت التابعةِ لذلك؛ فيُتْبع كلَّ واحد من الأصول بمـا يناسبُه من الفروع .

الثالث — أن يَعْرِفَ مِقدارَ المكتوب إليه، فيُوَفِّيَه قِسْطَه من الألقاب فى الكَثْرة والقِلَّة بحسَب مايَجْرِى عليه الأصطلاحُ . فقد ذكر فى "مَعَالم الكتابة" أن السلطان لا يُكْثَر فى المكاتبة إليه من نُعُوته، بل يُقْتَصر علىٰ الأشياء التى تكون فيه : مثل العالم العـادل . أما غير ذلك فيقع باللقبين المشهورين : وهما نعتُه المفرَد، ونعته المضافُ إلىٰ الدِّين . وأنه فى الكتابة عن السلطان كُلَّمـا زِيدَ فى النُّعوت كان أمْيَزَ : لأنها علىٰ سبيل التشريف من السلطان، ويجعل المضاف إلىٰ الدين متوسِّطا بين الألقاب لا فى أوّلهـا .

الأصــــــل السابع

(أن يُراعِىَ مقاصدَ المكاتَبَات ، فيأتى لكل مقْصِد بمـا يناسبه)

ومَدَار ذلك علىٰ أمرين :

الأمر الأوّل — أن يأتىَ مع كل كلمة بمـا يليق بهـا ، ويتَخَيَّر لكل لفظة مايشا كِلُها . قال آبن عبد ربه : وليكن ماتخْتِمُ به فُصولَك فى موضع ذكر البَلْوىٰ بمثـل : نسألُ اللهَ رَفْعَ المَحْذُور، وصَرْفَ المكروه، وأشباه ذلك . وفى موضع ذكر المُصيبة : إنَّا لِلهِ وإنا إليه راجِعُون . وفى موضع ذِكْر النِّعمة ، الحمدُ لله خالصًا ،

والشُّكرُ لله واجبًا ، وما شاكل ذلك . قال فى " موادّ البَيَان " : وإذا ذكر البَلْوىٰ شفعها بالاستعانة بالله تعالىٰ والرُّجوع إليـه فيها ، وردّ الأمر إلىٰ حَوْله وقوّته . قال ابن عبد ربه : فإن هذه المواضعَ ممـا يتعيَّنُ علىٰ الكاتب أن يتفَقَّدها ويتحفَّظ فيها ، فإن الكاتب إنما يصير كاتبا بأن يَضَع كلَّ معنًى فى موضعه ، ويُعَلِّق كلَّ لفظ علىٰ طِبْقه فى المعنىٰ .

ومما يلتحق بذلك أيضا أنه إذا ذُكِرَ الرئيس فى أثناء المكاتبة ، دعا له ، مثل أن يقول عند ذكر السلطان : خَلَّد الله مُلْكَه . وعند ذكر الأمير الكبير : عَزَّ نَصْرُه ، أو : أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه . وعند ذكر الحاكم : أيَّد الله تعالىٰ أحكامَه ، وما أشبه ذلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ .

الأمر الثـانى — أن يتخطّى التصريحَ إلىٰ التلويح والإشارةِ إذا ألجأته الحال إلىٰ المكاتبة بما لا يجوز كَشْفُه وإظهارُه علىٰ صَراحته ، مما فى ذِكْره علىٰ نَصِّه هَتْكُ سِتْر ، أو فى حكايته اطِّراحُ مَهابة السلطان ، وإسماعُه مايلزم منه إخلالُ الأدَب فى حقه ؛ كما لو أطلق عدُوُّه لسانَه فيـه بلفظٍ قبيحٍ يَسُوءُه سماعُه . قال فى " موادّ البيان " : فيحتاج المنشئ إلىٰ استعمال التَّورِيَة فى هذه المواضع ، والتلَطُّف فى العبارة عن هذه المعـانى ، وإبرازِها فى صورةٍ تقتضى تَوْفيةَ حقِّ السلطان فى التوقير والإجلال والإعظام ، والتنزيه عن المخاطبة بمـا لايجوزُ إمراره علىٰ سَمْعه ، وإيصالِ المعنىٰ إليه من غير خِيَانةٍ فى طَىِّ ما لا غِنًى به عن علمه . قال : وهذا مما لايستَقلُّ به إلا المبرِّزُ فى الصناعة ، المتصرِّفُ فى تأليف الكلام .

الأصـــــل الثـامن

(أن يَعْرِف مقدارَ فهم كل طبقة من المخاطَبين فى المكاتبات من اللسان فيخاطب كلَّ أحد بما يناسبُه من اللفظ ، وما يَصل إليه فهمُه من الخطاب) .

قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين" : أوّلُ ماينبغِى أن تستعملَ فى كتابك مكاتبةُ كل فريق علىٰ مقدار طبقتهم فى الكلام وقُوّتهم فى المَنْطِق . قال : والشاهد علىٰ ذلك أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم لَمَّـا أراد أن يكْتُب إلىٰ أهل فارس ، كتب إليهم بمـا يُمْكِنُهم ترجمتُه فكتب إليهم : "مِنْ محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ كِسْرىٰ أبْرَوِيزَ عظيمِ فارِسَ ، سلامٌ علىٰ مَنِ ٱتَّبع الهُدىٰ وآمَنَ باللهِ ورَسُوله ، وأدْعُوكَ بدِعايَةِ اللهِ فإنى أنا رسولُ اللهِ إلىٰ الناسِ كافَّةً ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ القَوْلُ علىٰ الكافرين﴾ فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، وإن أبَيْتَ فإثمُ المجوس عَلَيْكَ" فسهَّل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم الألفاظَ غايةَ التسهيل حتّى لا يخفىٰ منها شيءٌ علىٰ مَنْ له أدنىٰ معرفةٍ بالعربيّة .

ولمـا أراد أن يكتُبَ إلىٰ قوم من العرب ، فَخَّم اللفظ لِمـا عَرَف من قُوّتهم علىٰ فَهْمه ، وعادَتِهم بسَماع مثله ؛ فكتب لوائلِ بن حُجْرٍ الحَضْرمىّ : "من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ الأقْيـالِ العَباهِلَةِ من أهْلِ حَضْرَمَوْتَ بإقامةِ الصلاةِ وإيتاءِ الزَّكاةِ : علىٰ التِّيعةِ الشاةُ ، والتِّيمةُ لصاحِبها ، وفى السُّيُوب الخُمُس ، لا خِلاَطَ ولا وِرَاطَ ولا شِـنَاقَ ولا شِغَارَ ، ومن أجْبىٰ فقد أرْبىٰ ، وكلُّ مُسْكِرٍ حرامٌ" .

وقد ذكر العَسْـكَرىّ أيضا فى باب الإطنـاب مايحسُنُ أن يكون شاهدًا لذلك من القرءان الكريم ـ فقال : قد رأينا أنَّ اللهَ تعالىٰ إذا خاطب العَرَبَ والأعْرابَ ، اخرج الكلامَ مَخْرَجَ الإشـارة والوَحْى كما فى قوله تعـالىٰ خطاباً لأهـل مـكة

﴿ إنَّ الذين تَدْعونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً ولوِ ٱجتمعُوا لَهُ وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ والمَطْلُوبُ﴾ وقوله : ﴿ إذًا لَذَهَبَ كُلُّ إلٰهٍ بِمَا خَلَقَ ولَعَلَا بَعْضُهُمْ علىٰ بَعْضٍ ﴾ وقوله : ﴿ أوْ أَلْقىٰ السَّمْعَ وهُوَ شَهِيدٌ ﴾ فى أشباهٍ كثيرةٍ لذلك . وإذا خاطب بنى إسرائيل أو حكىٰ عنهم ، جعل الكلامَ مَبْسوطا ، كما فى سورة طٰه وأشباهها ، حتّى إنه قَلَّما تجدُ قِصَّةً لبنى إسرائيل فى القرءان إلا مُطوّلةً مشروحةً ومُكرَّرةً فى مواضعَ مُعادةً ، لبُعْد فَهْمِهم ، وتأخُّر معرفتِهِمْ .

قال فى " موادّ البيان " : فيجبُ علىٰ الكاتب أن يتنقَّل فى ٱستعمال الألفاظ علىٰ حسَب ما تقتضيه رُتَبُ الخطاب والمخاطَبِين ، وتُوجِبُه الأحوالُ المتغايرة ، والأوقات المختلفةُ : ليكون كلامُه مُشاكلا لكلٍّ منها ، فإن أحكام الكلام تتغيَّر بحكم تغيُّر الأزْمِنة والأمْكِنة ومنازِل المخاطبين والمُكاتَبِين .

قال : ولتحرِّى الصَّدْر الأوّلِ من الكُتَّاب إيقاعَ المناسبة بين كُتبهم وبين الأشياء المتقدّمة الذكر ٱستعمل كُتَّاب الدولة الأُمَوِيَّة من الألفاظ العربيةِ الفَحْلة ، والمتينةِ الجَزْلة ، ما لم تَستعمِلْ مثلَه الدولةُ العباسيَّة : لأن كُتَّاب الدولة الأُمَوِيَّة قصدُوا ما شاكلَ زمانَهم الذى ٱستفاضَتْ فيه علومُ العرب ولُغاتُها ، حتّى عُدَّتْ فى جملة الفضائل التى يُتَنابَرُ علىٰ ٱقتنائها ، والأمكنةَ التى نزلها ملوكُهم من بلاد العرب ، والرجالَ الذين كانت الكُتُب تصْدُر إليهم ؛ وهم أهل الفَصَاحة واللَّسَن والخَطَابة والشِّعر .

أما زمان بنى العباس ، فإن الهِمَمَ تقاصرتْ عمَّا كانت مُقْبِلة علىٰ تطلُّبه فيما تقدّم من العلوم المقدّم ذِكْرُها ، وشُغِلتْ بغيرها من علوم الدين ، ونزل مُلُوكُهم ديارَ العِراق وما يُجاوِرُها من بلاد فارِسَ ، وليس ٱستفاضةُ لغةِ العرب فيها كاستفاضتها فى أرض الحجاز والشام . ومن المعلوم أن القوم الذين كانوا يُكاتَبُون عنهم لايُحارُون تلك الطبقة

فى الفَصَاحة والمْعِرفة بدِلالا تِ الكلام، فانتقَل كُتَّابُها من اللفِظ المَتِـين الجَزْل، إلىٰ اللفظ الرَّقيق السَّهْل ، وكذلك آنتقل متأخِّرو الكُتَّاب عن ألفاظ المتقدّمين إلىٰ ماهو أعذبُ منها وأخَفُّ، للمعنىٰ المتقدّم ذكره .

قال : وحينئذ ينبغى للكاتب أن يُراعِىَ هذه الأحوالَ، ويُوقِعَ المُشاكلة بين مايَكْتُبه وبينها ، فإذا آحتـاج إلىٰ إصدار كتابٍ إلىٰ ناحيـةٍ من النواحى ، فلْينْظُرْ فى أحوال قاطنيها : فإن كانوا من الأُدباء البُلَغاء العارفين بنظم الكلام وتأليفه، فلْيُودِعْ كتابَهُ الألفاظَ الجَزْلة، التى إذا حُلِّيتْ بهـا المعانى زادَتْها فخامة فى القلوب، وجَلالةً فى الصُّـدُور . وإن كانوا ممن لا يُفَرِّق بين خاص الكلام وعامِّه ، فلْيُضَمِّنْ كتابَهُ الألفاظَ التى يَتَساوىٰ سامعُوها فى إدارك معانِيهـا ، فإنه متىٰ عَدَل عن ذلك ضاع كلامُه ، ولم يصِـلْ معنىٰ ما كتبَ فيه إلىٰ مَنْ كاتبه : لأن الكلام البليغَ إنمـا هو موضُوعٌ بإزاء أفهام البُلَغاء والفُصَـحاء . فأما العَوامُّ والحِشْوة : فإنمـا يَصِـل إلىٰ أفهامهم الكلامُ العاطِلُ من حُلىٰ النَّظْم ، العـارى من كُسْوة التأليف ، فيجب علىٰ الكاتب أن يستعمل فى مخاطبة مَنْ هذه صورتُه أدْنىٰ رُتَب البلاغة وأقربَهَا من أفهام العامّة والأمم الأعجميَّة إذا كتب إليهم .

ثم قال : فأما الكُتُب المعتدّة عن السلطان، فإنَّ منها كُتُبَ الفتوحات والسلامات ونحوها، وهى محتملةٌ للألفاظ الفَصِيحة الجَزْلة، والإطالةِ القاضيةِ بإشباع المعنىٰ ، ووصوله إلىٰ أفهام كافَّة سامِعيه من الخاص والعـامّ . ومنها كُتُب الخراج وجِبَايتِه وأمورِ المعاملات والحِساب، وهى لا تحتمل اللفظَ الفصيح، ولاالكلامَ الوجيزَ لأنها مبنيَّة علىٰ تمثيل مايُعْمَل عليه، وإفهام مَنْ لايصل المعنىٰ إلىٰ فهمه إلابالبَيَان الشافى

فى العِبارة . ومنها مخاطبته السلطان عن نفسه ، فيجبُ فيها مخاطبته علىٰ قدر مكَانه من الخِدْمة من الألفاظ المتوسِّطة ، ولايجوز أن يستعمل فيها الفصيحةَ التى لاتُحْتَمل من تابع فى حقِّ متْبوع : لمــا فيه من تعــاطِى التفَاصُح علىٰ ســلطانه ، وهو غيرُ جائز فى أدب الملوك ؛ وكذلك لا يجوز فيه تعَاطِى الألفاظ المبتَــذَلة الدائرة بين السُّوقة ، لمــا فى ذلك من الوضع من السلطان بمقابلته إيَّاه بمــا لايُشْبِه رُتْبَته .

وأما الكتب الإخوانِيَّــاتُ النافذة فى التَّهانى والتَّعازِى ، فإنهــا تحتَمِل الألفاظَ الغريبةَ القويَّةَ الأخْذِ بمجامع القُلُوب ، الواقعةَ أحسن المواقع من النُّفُوس : لأنها مبنيَّة علىٰ تحسين اللفظ ، وتزيين النظم ؛ وإظهارُ البَلَاغة فيها مستحسنٌ واقعٌ مَوْقِعه .

قلت : والذى تُراعىٰ الفصاحةُ والبلاغةُ فيهمن المكاتبات عن الأبواب السلطانية فى زماننا مكاتَباتُ ملوك المَغْرب : كَصاحب تُونُس ، وصاحب تِلِمْسانَ ، وصاحب فاس ، وصاحب غَرْناطة من الأندَلُس ، وكذلك القاناتُ العِظامُ من ملوك المَشْرِق ومَنْ يجرِى هذا المَجْرىٰ ، ممن تَشْتَمِل بلادُه علىٰ العلمــاء بالبلاغةِ وصِناعة الكِتابة . ويظهر ذلك بالاستِخْبار عن بلادهم ، وبالاطِّلاع علىٰ كُتُبهم الصادرة عن ملوكهم إلىٰ الأبواب الســلطانية . بخلاف مَنْ لاعِنايةَ له بذلك : كحُكَّام أصاغِر البُــلْدان واصحاب اللُّغات العجمية : من الرُّوم والفَرَنْج والسُّودان ومَنْ فى معناهم ؛ فإنه يجب خطابُهم بالألفاظ الواضحة ، إلا أن يكون فى بعضِ بلادهم مَنْ يتعاطىٰ البلاغةَ من الكُتَّاب ووردَتْ كتبهُم علىٰ نَهْجها فإنه ينبغى مكاتبَتُهم علىٰ سَنَن البلغاء .

الاصـــل التـاسع

(أن يُراعِىَ رتبـــةَ المكتوب عنـه والمكتوب إليـــه فى الخطاب ،
فيعبِّر عن كل واحدٍ منهـــما فى كلِّ مكاتبة بمـا يليق به ،
ويُخاطِب المكتوبَ إليه بمـا يقتضيه مَقامُه)

فأما المكتوب عنه، فيختلف الحالُ فيه باختلاف مَنْصِبه ورُتْبته .

فإن كان المكتوبُ عنه خليفةً، فقد جرتْ عادةُ مَنْ تقدّم من الكُتّاب بالتعبير عنه فى الكُتُب الصادرة عن أبواب الخلافة بأمير المؤمنين، مثل أن يقال : فَجَرىٰ أمرُ أمير المؤمنين فى كذا علىٰ كذا وكذا ، وأوْعزَ أمير المؤمنين إلىٰ فلان بكذا ، وٱقتضىٰ رأْىُ أمير المؤمنين كذا، وخرَج أمرُ أمير المؤمنين بكذا، وتقدّمَ أمرُ أمير المؤمنين إلىٰ فلان بكذا ، وما شاكَل ذلك . وربمـا عُبِّر عنه بالسلطان ، مثلُ أن يقال فى حَقِّ المخالفين : وحارَبُوا عساكِرَ السلطان ، أو وَمنعُوا خراجَ السلطان وما أشبه ذلك ، يريدون الخليفةَ، علىٰ ماستقِف عليه فى الكُتُب التى نُورِدها فى المكاتباب عن الخُلَفاء فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وقال ٱبن شيث فى " معالم الكتابة " : ويُخاطَبُ بالمَوَاقف المقدّسة الشريفةِ ، والعَتَبات العالية ، ومَقَرّ الرحمة ، ومَحلِّ الشرف. وذكر المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضل الله فى " التعريف " نحوه . فقال : ويُخاطَبُ بالديوان العزيز، والمَقَـامِ الأشرف، والجانب الأعْلىٰ أو الشريف، وبأمير المؤمنين، مجرّدةً عن سيِّدنا ومولانا، ومَرّةً غير مجرّدة، مع مراعاة المناسبه، والتسديد والمقاربه . قال : وسبب الخطاب بالديوان العزيز الخُضْعانُ عن مخـاطبة الخليفة نفسِـه ، وتنزيلُ الخطاب منزلةَ مَنْ يخاطب

نفس الديوان ، والمعنيُّ به ديوانُ الإنشاء ، إذ الكُتُب وأنواع المخاطبات إليه واردةٌ وعنــه صادرةٌ .

وقد سبق فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة نقْلا عن ٱبن حاجب النعمان فى " ذخيرة الكتاب " إنكارُ هذه الاستعارات والمخترَعات (١) ، وسيأتى فى المكاتبة إلى الخلفاء ذكْرُ ترتيبها إن شاء الله تعالى .

وإن كان المكتوب عنه مَلِكا ، فقد جرتِ العادةُ أن يعبَّر عنه بنون الجمع للتعظيم فيقال : فعَلْنا كذا ، وأمَرْنا بكذا ، واقتضتْ آراؤنا الشريفةُ كذا ، وبرَزَتْ مراسِمُنا بكذا ، ومَرْسُومنا إلى فلان أن يتقدّم بكذا ، أو يتقدّم أمره بكذا ، وما أشبه ذلك . وذلك أن ملوك الغَـرْب كانوا يجْرُون على ذلك فى مخاطباتهـم ، فجرتِ الملوكُ على سَنَنِهم فى ذلك . وفى معنى الملوك فى ذلك سائرُ الرؤساء : من الأُمَراء ، والوُزَراء ، والعلماء ، والكُتَّاب ، ونحوهم من ذوى الأقدار العلية ، والأخطار الجليلة ، والمراتب السنِيَّة فى الدِّين والدنيا ، ممَّنْ يصلُح أن يكون آمرا وناهيا ، إذا كتبوا إلى أتباعهم ومأْمُوريهم ، إذ كانت هذه النون مما يختَصُّ بذوى التعظيم دُونَ غيرهم . وشاهدُ ذلك من القرءان الكريم قوله تعالى : ﴿حَتَّى إذا حَضَرَ أحَدَهُم المَوْتُ قال رَبِّ ارْجِعُونِ﴾ فدعاه دعاء المُفْرَد لعَدَم المشارَكة له فى ذلك الاسم ، وسأله سُؤالَ الجمع لمكان العَظَمة ، إلى غير ذلك من الآيات الواردةِ مَوْرِدَ الاختصاص له كما فى قوله تعالى : ﴿ إنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأرْضَ وَمَنْ عَلَيْها ﴾ وقوله : ﴿ إنَّا نَحْنُ نُحْيِي المَوْتى ﴾ وقوله : ﴿نَحْن الوارِثُونَ﴾ وغير ذلك من الآيات . قال فى "معالم الكتابة" : وقد أخذ كُتَّاب المغرب بهـذا مع وُلاة أمورِهم فى الجمع بالميم فخاطبوا الواحدَ مخاطبةَ الجمع مثـل : أنتم ، وفعلتم ، وأمَرْتم ، وما أشبه ذلك .

(١) فى الاصول والخوارع وهو تعبير عرفى .

قلت : والأمرُ فى ذلك عندهم مستمِرّ إلىٰ الآنَ . قال ابن شيث : وهو غيرُ ماصُورٍ به عند غيرهم .

وإن كان المكتوب عنه مَرْءُوسا بالنسبة إلىٰ المكتوبِ إليه كالتابع ومَنْ فى معناه ، فقال فى "موادِّ البيان" : ينبغى أن يَتَحَفَّظ فى الكُتُب النافذة عنه من الإتيان بنُون العظمة وغيرها من الألفاظ التى فيها تعظيمُ شأنِ المكتوبِ عنه مثل أن يقول : أمرتُ بكذا، أو نهيتُ عن كذا، أو أوعَزْتُ بكذا، أوتقدّمَ أمْرِى إلىٰ فلان بكذا ، أو أنْهِيَ إلىّ كذا ، أو خرج أمْرِى بكذا، وما فى معنىٰ ذلك مما لايُخاطبُ به الأتباعُ رُؤساءَهم ، بل يعدل عن مثل هذه الألفاظ إلىٰ مايؤدّى إلىٰ معناها مما لاعظمة فيه ، مثل أن يقول : وجدْتُ صواب الرأى كذا ففعلْته ،ورأيت السياسةَ تقتضِى كذا فأمضيْتُه، وما أشبه ذلك،إن كان عُرْفُ الكُتّاب علىٰ الخطاب بالتاء، وإلا قال : وجد المملوكُ صوابَ الرأى كذا ففعله، ورأىٰ السياسةَ تقتضِى كذا فأمضاه، وما يجرى هذا المَجْرىٰ .

وأما المكتوب إليه ، فقال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الصناعتين" : ينبغى أن يَعْرِف قدرَ المكتوب إليه من الرؤساء، والنُّظَراء، والعلماء، والوُكَلاء : ليُفَرِّق بين مَنْ يُكتب إليه «أنا أفعلُ كذا» ومَنْ يكتب إليه «نحن نَفْعَل كذا» (فأنا) من كلام الأشباه والإخوان، (ونحنُ) من كلام الملوك؛ ويفرّق بين من يُكتب إليه «فإن رأيتَ أن تفعلَ كذا» وبين من يكتب إليه : (فرأيك) . قال فى "موادّ البيان" : وذلك أن قولهم فإن رأيتَ أن تفعَلَ كذا لفظُ النُّظَراء والمُساوِين، بخلاف فَرَأْيك،فإنه لايكتبه إلا جليلٌ، معظَّم : لتضمنها معنىٰ الأمر والتقديرُ فرَرأْيك، بخلاف فإن رأيت ، فإنه لا أمر فيه ، إذ يقال : فإن رأيت أن تفعل كذا فافعله . علىٰ أن الأخفش

قد أنكر هذا على الكُتَّاب، لأن أقل الناس يقول للسلطان : آنظُرْ فى أمرى، ولفظه لفظ الأمر ومعناه السؤال . وذكر مثله فى " صناعة الكُتَّاب " عن النحويين . قال فى " موادّ البيان " : و حُجَّة الكُتَّاب أن المشافهةَ تحتمل مالا تحتمله المكاتبةُ ، لأن المشافهةَ حاضرٌ يحضُر الإنسانَ لايمكنه تقييدُه وترتيبه، والمكاتبة بخلاف ذلك، فلا عُذْرَ لصاحبها فى الإخلال بالأدَب . قال آبن شيث : وقد آصطلَحُوا على أن يُكْتَب فى أواخر الكتب : «وللآراءِ العاليةِ فضلُ السُمُوّ والقُدْرة إن شاء الله تعالىٰ» . ودُونَ ذلك : «وللرأْى السامِى حكمه» ودونه : «والرأى أعلىٰ» . ودونه : «والرأْى مُوَفَّق» وموفَّقا بالرفع والنصب . ودونه : «ورأْيُه» للمجلس : «ورأيها» للحَضْرة . قال : وربما قالوا : «فإن رأىٰ مولانا أن يكون كذا وكذا أمر به أو فعل» إلا أنها لاتقومُ مقامَ قوله : والرأى أعلىٰ . فأما لمن دُونهُ فمحتمل . وذكر أنه كان مصطلَحُهم أن يقال فى آخر كُتُب السلطان : «فاعلَمْ ذلك وآعمَلْ به إن شاء الله تعالىٰ» . وأن أعيان أصحاب الأقلام كانوا يكتُبونه إلىٰ مَنْ دُونَهم .

قلت : والذى آستقرّ عليه الحالُ أن يُكْتَب فى مثل ذلك : «وللآراءِ العاليةِ مزيدُ العُلُوّ» وأن تختم الكتابةُ للأكابر بمثل : «فنُحيط عِلْمَه بذلك» ولمن دونهم : «فنُحيط بذلك علما» وللأصاغر : «فليَعْلَمْ ذلك ويعتمدْه» ونحو ذلك . قال محمدُ آبنُ إبراهيم الشيبانىّ : إن آحتجتَ إلىٰ مخاطبة المُلوك والوُزَراء والعلماء والكُتَّاب والأُدَباء والخُطَباء وأوساطِ الناس وسُوقتِهم ، فخاطِبْ كلًّا منهم علىٰ قَدْر أُبَّهته وجَلَالته وعُلُوّه وآرتفاعه وفِطْنته وآنْتِباهه . ولكل طَبَقة من هذه الطَّبَقات معانٍ ومذاهبُ يجب عليك أن ترْعاها فى مُراسلتك إيَّاهم فى كُتُبك ، وتزِنَ كلامَك فى مخاطبتهم بميزانه ، وتُعطِيَه قِسمته ، وتُوفِّيَه نصيبه ؛ فإنه متىٰ أهملْتَ ذلك وأضعْتَه ، لم آمنْ عليكَ أن تَعْدِل بهم عن طريقتهم ، وتَسْلُكَ بهم غيرَ مَسْلَكِهم ،

وتُجرِى شُعاعَ بلاغتك فى غير مَجْراه ، وتَنْظِم جَوْهَر كلامك فى غير سِلْكه ، فلاتعتدّ بالمعنىٰ الجَزْل ما لم تَكْسُه لفظا مختلِفا علىٰ قَدْر المكتوب إليه ؛ فإن إلباسَكَ المعنىٰ ـ وإن صح إذا أُشْرِب(١) ـ لفظا لم تَجْرِبه عادةُ المكتوب إليه تَهْجِينٌ للمعنىٰ ، وإخلالٌ بقَدْر المكتوب إليـه ، وظُلْمٌ يَلْحَقه ، ونقصٌ ممـا يجب له ؛ كما أن فى ٱتباع مُتعارَفِهم ، وما ٱنتشرتْ به عادَتُهم ، وجَرَتْ به سُنَّتهم ، قَطْعاً لعُــذْرهم ، وخُروجًا عن حَقِّهم ، وبُلُوغا إلىٰ غايةِ مُرادِهم ، وإسقاطًا لحُجَّةِ أدَبهم . قال ٱبنُ عبد ربه : فامتثِلْ هذه المذاهبَ وأجْرِ عليها القوم(٢) .

قال فى " موادّ البيان " : وذلك أن المعانِىَ التى يُكْتَب فيهـا وإن كان كلٌّ منها جنسا بعينه : كالتهنئة والتَّعْزِية والآعتــذار والعِتَاب والآستِظْهار ونحو ذلك ، فإنه لا يجوز أن يخرُج المعنىٰ لكلِّ مخاطَبٍ علىٰ صيغةٍ واحدةٍ من اللفظ ، بل ينبغى أن يخرُجَ فى الصيغة المشاكلةِ للخاطَب ، اللائقة بقَدْره ورُتْبته . ألا ترىٰ أنك لو خاطبت ســلطاناً أو وزيرًا بالتعزية عن مُصيبةٍ من مَصَائِب الدنيا ، لمـا جاز أن تَبْنِىَ الكلام علىٰ وَعْظِه وتَبْصِيره وإرشادِه وتذكيره وحَضِّه علىٰ الأخْذ بحظٍّ من الصَّبر ، ومجانَبة الجَزَع ، وتلَقِّى الحـادثاتِ بالتسليم والرِّضا ؛ وإنمـا الصواب أن تبنِىَ الخطابَ علىٰ انه أعلىٰ شانا ، وأرفَعُ مكانا ، وأصَحُّ حَزْما ، وأرجَحُ حِلْمـا ، من أن يُعَزّىٰ ؛ بخلاف المتأخِّر فى الرتبة ، فإنه إنما يُعَزّىٰ تنبيها وتذكيرا ، وهدايةً وتبصيرًا ، ويعرّفُ الواجبَ فى تلقِّ السَّرّاء بالشُّكر ، والضَّرّاء بالصبر ، ونحو ذلك .

وكذلك إذا كاتبت رئيسًا فى معنىٰ الآستزادةِ والشَّكْوىٰ ، لايجوز أن تأتى بمعناهما فى ألفاظهما الخاصَّة ، بل يجب أن تَعْدِل عن [ألفاظ] الشكْوىٰ إلىٰ ألفاظ الشُّكْر ،

(١) هذا الشرط غير موجود فى الضوء .
(٢) لم يذكر فى الضوء لفظ القوم .

وعن ألفاظ الاستزادة إلى ألفاظ الاستعطاف والسؤال فى النظر، لتكون قد رتبت كلامك فى رتبته، واخرجت معناك مخرج من يستدعى الزيادة لا من يشكو التقصير.

قال ابن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يخاطب السلطانُ فى خلال الكتابة إليه بسيدنا مكان مولانا، فإن سيدنا كانها خصصت بأرباب المراتب الدينية والديوانية، ومولانا تخص السلطانَ وحده، وإن كان من نعوت السلطان السيد الأجلّ .

قال : على أن ذلك مخالف لمذهب المغاربة : فإنهم يعبرون عن ولاة أمورهم بالسادة، ويعبرون عن صاحب الأمر بسيدنا ؛ وكأن هذا كان فى زمانه، وإلا فالمعروفُ عند أهل المغرب والأندلس الآنَ التعبيرُ عن السلطان بالمولى، يقول أحدهم مولانا فلان . وأهلُ مصر الآنَ يطلقون السادةَ على أولاد الملوك .

وكذلك لو وقع واقع للسلطان فنصحته لم يجز أن تورد ذلك مورد التنبيه على ما أغفله، والإيقاظ لما اهمله، والتعريف من الصواب لما جهله : لأن ذلك من القبيح الذى لايحتمله الرؤساء من الأتباع، ولكن تبنى الخطابَ على أن السلطان اعلى وأجلُّ رأيا، وأصحُّ فكرا، وأكثرُ إحاطةً بصدور الأمور وأعجازها، وأن آراء خدمه جزء من رأيه، وأنهم إنما يتفرسون مخايل الإصابة بما وقفوا عليه من سلوك مذهبه، والتأدب بأدبه، والارتياض بسياسته، والتنقل فى خدمته، وإن مما يفرضونه فى حكم الإشفاق والاهتمام، ومايُسبغ عليهم من الإنعام، المطالعةَ بما يجرى فى أوهامهم، ويحدث فى أفكارهم، من الأمور التى يتخيلون أن فى العمل بها مصلحةً للدولة، وعمارةً للملكة، ليتصفحه بأصالة رأيه التى هى أوفر وأثبت . فإن استصوبه أمضاه، وإن رأى خلافه ألغاه، وكان الرأىُ الأعلى مايراه ؛ إلى غير ذلك مما يجرى هذا المجرى .

قال ابن شيث فى "معالم الكتابة" : ولا يقارِنُ الكاتبُ السلطان فى تكرار المواضع التى يقع الآلتباسُ فيها بين الكاتب والمكتوب إليه ، لأن هاءَ الضمير تعود عليهما معا لما تقدّم من ذِكْرهما، وإن كان فى القرينة مايدُلُّ علىٰ ذلك بعد الفِكرة وإذا آبتدأ معهم بالمملوك لايقال بعد ذلك العَبْد ولا الخادم، وإن كان ذلك جائزا مع غير السلطان .

قال : ولا بأس بتكرار الإشارة إلىٰ السلطان فى المواضع التى يَجْمُل فيها الآشتراكُ بينه وبين المكتوب إليه،مثل أن يقال: وكان قد ذَكَر كذا وكذا، والضميرُ فى كان يصلُح لهما معا ، فلا بُدّ هُنا من ذكر المملوك، إن كان الآلتباسُ من جهة الكاتب ، أو مولانا إن كانت الإشارةُ إلىٰ السلطان .

الأصـــل العاشر

(أن يُراعِىَ مَوَاقع آيات القرءان والسَّجْع فى الكُتُب، وذكرِ أبيات الشعر فى المكاتبات)

أما آياتُ القرءان الكريم، فقد ذكر آبنُ شيث فى "معالم الكتابة" أنها فى صَدْر الكُتُب قد يذكرها الأدنىٰ للأعلىٰ فى معنىٰ ما يَكْتُب به ، مثل قوله تعالىٰ : ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً﴾ وقوله تعالىٰ : ﴿وقالُوا الحمدُ لِلهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إنَّ رَبَّنا لَغَفُورٌ شَكُور﴾ إلىٰ غير ذلك من الآيات المناسبة للوقائع وإن كانتْ فى أثناء الكُتُب، فقد آستشهد بها جماعةٌ من الكُتّاب فى خلال كتبهم مما رأيتُه .

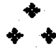

وأما السجع، فقد ذكر ابن شيث: أنه لا يُفرَّق فيه بين كتابِ الأعلىٰ للأدنىٰ وبالعَكْس، وأنه بما يُكْتَب عن السلطان أليَقُ؛ لكن قد ذكر بعض المتأخرين أن الكتابةَ بالسَّجْع نقصٌ فى حق المكتوب إليه، وقضيَّته أنه لا يُكْتَب به إلا من الأعلىٰ للأدنىٰ، إلا أنَّ الذى جرىٰ عليه مصطَلَح كُتَّاب الزمان تخصيصُه ببعض الكُتُب دُونَ بعض من الجانبين.

وأما الشعرُ فيُورِدُه حيثُ يحسُن إيرادُه، ويمنعُه حيثُ يحسُن منعُه، فليس كلُّ مكاتبة يحسُن فيها إيرادُ الشعر، بل يختلفُ الحالُ فى ذلك بحسَب المكتُوب عنه والمكتوبِ إليه. فأما المكاتباتُ الصادرةُ عن الملوك والصادرةُ إليهم، فقد ذكر فى "موادِّ البيان": أنه لا يُتَمَثَّل فيها بشىءٍ من الشعر، إجلالًا لهم عن شَوْب العبارة عن عَزائِمِ أوامِرِهم ونَوَاهِيهم والأَخْبار المرفوعةِ إليهم، بما يُخالف نَمَطَها ووضْعَها، ولأن الشعرَ صناعةٌ مغايرةٌ لصناعة التَرَسُّل، وإدخالُ بعض صنائِع الكلامِ فى بعض غيرُ مستحْسَن.

قلت: الذى ذكره عبدُ الرحيم بنُ شيث فى كتابه "معالم الكتابة ومَوَاضع الإصابة" أنه [يُتَمَثَّل] بالشعر فى المكاتَبات الصادرةِ عن المُلُوك دُونَ غيرهم، وهو معارِضٌ لما ذكره فى "موادِّ البيان". وكأنه فى موادّ البيان يريد الكُتُب النافذةَ عن الملوك إلىٰ مَنْ دُونهم، أو ممَّنْ دُونَهم إليهم. أما الملوكُ والخُلَفاء إذا كتبوا إلىٰ مَنْ ضاهاهم فى أُبَّهة المُلْك وقاربهم فى عُلُوّ الرتبة، فإنه لا يمتنع التمثُّلُ بأبيات الشعر فيها، تطريزًا للنثر بالنَّظْم، وجمعًا بين جنْسَى الكلام اللَّذَيْنِ هما خلاصة مقاصده.

وما زالت الخلفاءُ والملوكُ السالفـةُ يُحَلّون كُتُبهم الصادرةَ عنهم إلىٰ نُظَرائهم فى عُلُوّ الرتبة بالأبيات الرقيقة الألفاظِ ، البديعةِ المعانِى ، للاستشهاد علىٰ الوقائع المكتوب بسببها : كما كتبَ أميرُ المؤمنين "عثمانُ بنُ عفّان" رضى الله عنـه حين تمالأَ عليه القومُ واجتمعوا علىٰ قتله إلىٰ علىّ بن أبى طالب كرَّم الله وجهه !

فإنْ كُنْتُ مَأْكُولًا ، فكُنْ خَيْرَ آكِلٍ * وإلّا فأدْرِكْـنِي ولَمَّـا أُمَزَّقِ !

وكما كتب أمير المؤمنين علىُّ بن أبى طالب كَرَّم الله وجهه ! إلىٰ مُعاويةَ بنِ ابى سُـفْيان ، فى جوابِ كتابٍ له حين جرىٰ بينهما التنازُع فى الخلافة ، فقال فى أثناء كتابه : وزَعَمْتَ أنّى لكلِّ الخلفاء حَسَدْت ، وعلىٰ كلِّهم بَغَيْت ؛ فإن يَكُ ذلِكَ كذلك فليسَتِ الجنايةُ عليك ، فيكونَ العُذْرُ إليك :

* وتِلْكَ شَكَاةٌ ظَاهِرٌ عَنْكَ عَارُها *

وعلىٰ ذلك جرىٰ كثيرٌ من خلفاء الدولتين الأُمَوية والعبّاسية : كما حكىٰ العسكرىّ فى "الأوائل" أن أهـلَ حِمْصَ وثَبُوا بعاملها فأخرَجُوه ، ثم وثَبُوا بعـدَهُ بعاملٍ آخَرَ ؛ فأمر المتوكِّلُ إبراهيمَ بنَ العبـاس (١) أن يكتُب إليهـم كتابًا يحذِّرهم فيـه ويَخْتَصِر ، فكتب .

أما بعـدُ ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يَرىٰ مِنْ حقِّ الله تعالىٰ عليـه فيما قَوَّم (٢) به من أَوَدٍ أو عَدَّل به من زَيْغ ، أو لَمَّ به من شَعَث ، ثلاثًا يقدِّم بعضَهن أمامَ بعضٍ : فأُولاهُنّ مايستظْهِر به من عِظَةٍ وحُجّة ، ثم مايَشْفَعُه به من تحذيرٍ وتنبيه ، ثم التى لاينفَعُ حَسْمَ الداء غيرُهـا :

أَناةٌ ، فإنْ لم تُغْنِ عَقَّبَ بعـدَها * وَعِيدٌ ، فإن لم يُجْدِ ، أجدتْ عَزائمُه !

(١) أى الصولى .

(٢) فى الاصول فى من يقوّم به الخ . والتصحيح من "أدب اللغة" للشيخ أحمد الإسكندرى .

وممن كان يُكثِرُ التمثُّل بالشعر فى المكاتبات من خُلَفاء بنى العباس وتَصْدُر إليه المكاتبات كذلك «الناصرُ لدين الله» حتّى يُحكىٰ أن الملِكَ الأفضل، علىَّ ٱبن السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب دِمَشْق حين تعصَّب عليه أخوه الملكُ العزيز عثمانُ وعمُّه الملكُ العادل أبو بكر، كتبَ إلىٰ الناصر لدين الله يستَجيشُه عليهما كتابًا يُشير فيه إلىٰ ما تعتقِدهُ الشِّيعة من أن الحقَّ فى الخلافة كان لعلىّ، وأن ابا بَكْر وعثمانَ رضى الله عنهما تقدّماَ عليه، إذ كان الناصرُ يَميل إلىٰ التشيُّع، وكتب فيه :

مَوْلَاى ! إنَّ أبا بَكْرٍ وصاحِبَه * عُثمانَ قد غَصبَا بالسَّيْف حَقَّ عَلِى !
فانظُرْ إلىٰ حَظِّ هذا الِاسم كيفَ لِقِى * من الأَوَاخِرِ ما لَاقىٰ من الأُوَل !

فكتب إليه الناصرُ الجوابَ عن ذلك، وكتب فيه :

وافىٰ كتابُكَ يا ٱبنَ يُوسُفَ ناطِقًا * بالحقِّ يُخْبِرُ أنَّ أصلَكَ طاهِرُ !
غَصَبُوا عَلِيًّا حقَّــهُ إذ لَمْ يَكُنْ * بَعْــدَ النَّبِىِّ له بيثْرِبَ ناصِرُ!
فاصْبِرْ فإنَّ علىٰ الإلٰهِ حِسَابَهُــمْ * وٱبْشِرْ فناصِرُكَ الإمامُ الناصِرُ!

وعلىٰ ذلك جرىٰ الملوكُ القائمون علىٰ خُلَفاء بنى العباس فى مكاتباتهم أيضا. كما كتب أبو إسحاق الصابى عن مُعِزِّ الدولة بن بُوَيْه، إلىٰ عُدّة الدولة أبى تَغْلِبَ كتابا يذكُرله فيه خلافَ قريبين له، لم يُمْكِنْه مساعدةُ أحدهما علىٰ الآخَرِ، وٱستَشْهَد فيه بقول المتلمس :

وما كُنْتُ إلا مِثْــلَ قاطِعِ كَفِّهِ * بكَفٍّ لَهُ أُخرىٰ فأصْبَحَ أجْذَما !
فلمَّا ٱستقادَ الكَفَّ بالكَفِّ، لم يَجِدْ * لَهُ دَرَكًا فى أنْ تَبِينَا فأحْجَما .

وعلىٰ هذا النَّهْج جرىٰ الحالُ فى الدولة الأيُّوبية بالديار المصرية . كما كتب القاضى الفاضلُ عن السلطان صلاح الدين "يوسُفَ بن أيُّوب" إلىٰ ديوان الخلافة ببغدادَ، عنـد قتل آبن رئيس الرُّؤساء وزير الخليفـة كتابًا لِيُسَلِّيَ الخليفةَ عنـه ، وكان ممن اساء السيرةَ وأكثر الفَتْكَ ، متمثِّلا بالبيتين المَقولين فى أبى حَفْص الخَلَّال : وزير أبى العَبَّاس السَّفَّاح ، وكان يُعرَف بوزير آلِ محمد .

إنَّ المَـكَارِهَ قد تَسُرُّ، ورُبَّمـا * كان السُّرُورُ بما كَرِهْتَ جَدِيرا!

إنَّ الوَزِيرَ وَزِيرَ آلِ محمَّـــدٍ * أودىٰ، فَمَنْ يَشْنَاكَ كانَ وَزِيرَا.

وكما كتب القاضى « محيي الدين بن عبد الظاهر » عن « المنصور قلاوون » إلىٰ صاحب اليمن فى جوابِ تَعْزِيَة ارسـلها إليه فى وَلَده الملكِ الصالح ، مع تعريضـه فى أَمْرٍ له بأن الحروب ممـا يَشْغَل عن المصائب فى الأولاد، مستشهدا فيه بقوله :

إذا آعْتادَ الفتىٰ خَوْضَ المَنَايَا، * فأهْوَنُ ماتَمُرّ به الوُحُول!

وكما كتب صاحبُنا الشيخُ علاءُ الدين البيرى رحمه الله عن "الظاهر برقوق" صاحب الديار المصرية، جوابا لصاحب تُونُس من بلاد المغرب ، وآستشهد فيـه لبلاغة الكِتابِ الوارِدِ عنه بقوله :

وَكَلامٍ كَدَمْعِ صَبٍّ غَـرِيبٍ * رَقَّ حَتّى الهواءُ يَكْثُفُ عِنْدَهْ!

راقَ لَفْظا، ورَقَّ مَعْنًى، فأضحىٰ * كلُّ سِحْرٍ من البَلاغَةِ عَبْـدَه!

وعلىٰ ذلك جرتْ ملوكُ المَغرِب من بَنِى مَرِينٍ وغيرهم . كما كتب بعضُ كُتَّاب السلطان أبى "الحَسَن المَرِينِيّ" عنه إلىٰ السلطان الملك الناصر "محمد بن قلاوون" صاحبِ الديار المصرية كتابا يُخْبِرُه فى خِلَاله أنَّ صاحب بِجَايَةَ خرج عن طاعته فغزَاه، وأوقع به وبجُيوشه ماقَمَعه، مستشهدا فيه بقوله :

إنْ عادَتِ العَقْربُ ، عُدْنَا لها * وكانتِ النَّعْـلُ لهـا حاضِرَه !

إلىٰ غير ذلك من المكاتبات الملوكية التى لاتُحْصىٰ كثرةً . بل ربما وقع التمثـل بالشِّعْر فى المكاتبات عن الخلفاء والملوك إلىٰ مَنْ دُونَهم وبالعكس . كما حكىٰ العسكرىّ فى "الأوائل" أن رافعًا رفع كتابا إلىٰ الرَّشيد، وكتب فى أسفله :

إذا جِئْتُ عارًا أو رَضِيتُ بِذِلَّةٍ ، * فنَفْسِى علىٰ نَفْسِى من الكَلْبِ أهْوَنُ!

فكتب إليه الرشيد كتابًا وكتب فى أسفله :

ورَفْعُكَ نَفْسًا طالبًا فَوْقَ قَدْرِها * يَسُوقُ لَكَ الحَتْفَ المُعَجَّلَ والذُّلَّا

وبالجملة فمذاهبُ النـاس فى التمثُّل بالشِّـعر فى المكاتبـات الملوكيّـة مختلفةٌ ، ومقاصدُهم متبايِنةٌ بحَسَب الأغراض ؛ ولذلك أورد الشـيخ جمالُ الدين بن نُباتةَ هـذه المسئلةَ فى جملة أَسْئُولَته ، التى سأل عنها كُتَّابَ الإنشاء بدِمَشْق ، مخاطبًا بها الشيخَ شِهابَ الدين محمودًا الحَلَبىّ ، وهو يومئذ صاحب ديوان الإنشاء بها فقال : ومَنْ كَرِه الاستشهادَ فى مكاتبة الملوك بالأشعار؟ وكيف تَرَكها علىٰ مافيها من الآثار؟

أما المكاتَبَات الإخوانيات الواقعـة بالتَّهانى ، والتَّعازِى ، والتَّزاوُر ، والتَّهـادِى ، والمُدَاعبة ، وسائرُ أنواع الرِّقاع فى فنون المكاتبات ، فقد قال فى "موادّ البيان" إنه يجوز أن تُودَع أبياتَ الشعر علىٰ سبيل التمثُّل وعلىٰ سبيل الاختِراع ، محتجًا بأن الصَّدْر الأوّل كانوا يَستعْمِلون ذلك فىهذه المواضع . وهذا الذى ذكره لاخَفاءَ فيه ، وكُتُب الرسائل المدوّنةِ من كلام المتقدّمين والمتأخِّرين من كُتَّاب المَشْرق والمَغْرِب شاهدةٌ بذلك ، ناطقةٌ باستعمال الشعر فى المكاتَبات ، وأثنائها ونِهَاياتها ، مابين البَيت والبيتين فأكثر ، حتّى القصائد الطِّوال . وأكثرُ مايقع من ذلك البيتُ المفرد والبيتان فمـا حَوْلَ ذلك . كما استشهد القاضى الفاضلُ فى بعض مكاتباته فى الشوق بقوله :

ومِنْ عَجَبِي أنّي أَحِنُّ إلَيْهِـمُ، * وأسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أرىٰ وَهُمُ مَعِي!
وتَطْلُبهُــمْ عَيْنِي وهُمْ فِي سَوَادِهَا * ويَشْتاقُهُمْ قلبى وهُمْ بيْنَ أضْلُعِى!

وكما كتب أيضا لبعض إخوانه فى جوابِ كتاب :

وكَمْ قُلْتُ حَقًّا: لَيْتَنِي كُنْتُ عِنْدَهُ! * وماقُلْتُ إجْلالًا له: لَيْتَـهُ عِنْدِى!

وكما كَتَب فى وَصْف كتابٍ وَرَد عليه مستشهِدًا بقوله :

وحَسِبْتُه ـ والطَّرْفُ مَعْقُودٌ به ـ * وَجْهَ الحَبِيب بَدَا لوَجْهِ مُحِبِّـهِ!

وكما كَتَب فى كتاب تَعْزِية بصدِيقٍ مستشهدا فيه بقوله :

وذَاكَ الَّذِى لايَبْرَحُ الدَّهْرَ رُزْؤُه، * ولا ذِكْرُه ماأرْزَمَتْ أُمُّ حائلِ .

إلىٰ غير ذلك من المكاتبات التى لا يأخُذها حَصْر، ولا تدخُل تحت حدّ، مما ستقف علىٰ الكثير منه فى الكلام علىٰ مقاصد المكاتَبات، إن شاء الله تعالىٰ .

الأصل الحادى عشر

(أن يأتى فى مكاتبتـــه بحُسْنِ الآختتام)

ويرجع إلىٰ معنيين، كما فى حُسْن الآفتتاح المقــدّم ذكره .

المعنىٰ الأوّل ــ أن يكون الحسنُ فيــه راجعا إلىٰ المعنىٰ المختَتَم به : إما بمعاطاة الأدَبِ من المرءُوس إلىٰ الرئيس ونحو ذلك ، وإما بمــا يقتضىٰ التعزيرَ والتوقيرَ من الرئيس إلىٰ المرءوس، كالآختتام بالدعاء ونحو ذلك، مما يقع فى مصطلَح كل زمن .

المعنى الثانى ــ أن يكون الحسن فيه راجعا إلىٰ مايوجب التحسينَ من سُهولة اللفظ ، وحُسْن السَّبْك، ووُضُوح المعنىٰ، وتجنُّب الحَشْو، وغير ذلك من مُوجِبات

التحسين ، كما كتب الصاحبُ بنُ عَبَّـاد فى آخر رسالة له : "لَئِنْ حَنِثْتُ فيما حَلَفْت ، فلا خَطَوْت لتحصِيلِ مَجْد ، ولا نَهَضْت لِاقْتِناء حَمْد ، ولا سَـعَيْتُ إلىٰ مَقَامِ فَخْر ، ولا حَرَصْت علىٰ عُلُوِّ ذِكْر" . قال أبو هلال العسكرى : فهذه اليمين ، لو سمعها عامرُ بن الظَّرِب ، لقال هى اليمين الغموسُ لا القسمُ باللاتِ والعُزّٰى ومناةَ الثالثةِ الأخرىٰ ، ونحو ذلك مما يَجْرِى هذا المَجْرىٰ .

قلت : وٱعتبارُ هذه الأصول [الأحد عشر] (١) بعد ماتقدّم ٱعتبارُه فى الكلام علىٰ صنعة إنْشاء الكلام وترتيبِه فى المقالة الأولىٰ ، من أنه لايستَعْمِل فى كلامه ماأتَتْ به آياتُ القرءان الكريم : من الٱختصارِ ، والحَذْف ، ومخاطبةِ الخاصِّ بمخاطَبة العامِّ ، ومخاطبـةِ العامِّ بمخاطَبة الخاصِّ ، ولا مايختَصُّ بالشِّعر : من صَرْف مالا ينصرفُ ، وحَذْف مالا يُحْذَف ، وقَصْر الممدُود ، ومَدِّ المَقْصُور ، والتقديم والتأخيرِ ، والإضمار فى موضعِ الإظهار ، وتصغيرِ الٱسم فى موضع التعظيم ، مثل دُوَيْهِيَة ، وما شاكل ذلك مما تقدّم التنبيهُ عليه فى موضعه ، فلا بدّ من ٱعتباره هنا .

الأصـــــل الثـانى عشر

(أن يعرِفَ مقاديرَ قطع الورق ، وسَعَةَ الطُّرَّة والهامش ، وسَعةَ بيت العلامة ومقدارَ ما بين السُّـــطور وما يُتْرَكُ فى آخر الكتاب)

أما مقدار قطع الورق ، فقد تقدّم فى المقالة الثالثة أنه يختلِف باختلاف المكتوبِ إليهم عن السلطان ، فكلّما عظُم قدرُ المكتوب إليه ، عَظُم مقدار قَطْع الورق ، وربما رُوعِيَ فى ذلك قدرُ المكتوب عنه والمكتوبِ إليه جميعا .

---

(١) فى الاصل "العشرة" .

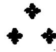

وأما طولُ الطُّرّة فى أعلىٰ الكتاب ، فقد ذكر فى " معالم الكتابة " أنها تُطوَّل فيما إذا كان الكتابُ من الأعلىٰ إلىٰ الأدنىٰ ، وتكون متوسطة من الأتباع ، وسيأتى أن المصطلح عليه فى زماننا أن المكاتبات الصادرة عن السلطان تكون الطرّة فيها ما بين ثلاثة أوصال إلىٰ وصلين ، ومن النوّاب ومن فى معناهم تكون وصلا واحدا .

وأما مِقْدارُ سَعَة الهامش فقد سمِعتُ بعض فضلاء الكُتَّاب يذكر أن الضابط فيه أن يكونَ ثلثَ عَرْض الدَّرْج المكتوب فيه .

وأما بيتُ العَلَامة فقد تقدّم أنه يكون مقدارَ نحو شِبْر فى كُتب السلطان ، أما فى غيره ــ حيث كانت العلامةُ تحت البسملة ــ فتكونُ نحوَ ثلاثة أصابعَ أو أربعةٍ .

وأما سَعةُ مابين السطور فقد تقدّم أنها تكون بمقدار نصفِ بيتِ العلامة . وذكر آبن شيث : أنها ثلاثةُ أصابعَ او أربعة .

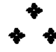

وأما [مايترك فى] آخر الكتاب فقد ذكر آبن شيث أنه لا يُتْرك فى آخر المكاتبة شيئا .

وأما الخطُّ فانه كلَّما غَلُظ القلم وآتسعت السطور كان أنقصَ فى رُتْبة المكتوبِ إليه وقد ذكر فى " معالم الكتابة " أنّ الكتب الصادرة إلىٰ السلطان لا يكونُ بين سُطورها أكثرُ من إصبعين .

الطَّـــــرَف الثـانى

(فى بيان مقادير المكاتبات وما يُناسبها من البَسْط والإيجاز،
وما يلائِمُ كلَّ مكاتبةمنها من المعانى)

ولتَعْلَمْ أن المكاتبات علىٰ ثلاثة أقسام :

القســـــم الأوّل

(مايُكْتَب عن الســلطان أو مَنْ فى معناه من الرؤساء
إلىٰ الأتباع . وهى علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(مايُعْمَل فيــه علىٰ الإيجـاز والاختصار)

وقد استحسنوا الإيجاز فى خمســة مواضع :

أحدها — أن يكون المكتوبُ عن السلطان فى اوقات الحُرُوب إلىٰ نُوّاب المَلِك . قال فى "حُسْن التوســل" : فيجب أن يتوخّى الإيجاز والألفاظَ البليغةَ الدالةَ علىٰ القصد، من غير تطويل ولا بَسْط يُضيع المقصدَ ويَفْصِل الكلامَ بعضه من بعض . ولا يَعْمِد فى ذلك إلىٰ تهويلٍ لأمر العدوّ يُضْعِف القلوبَ، ولا تهوينٍ لأمره بحيث يحصُل به الاغترار .

الثـانى — أن يكون ما يُكْتَبُ به عن السلطان خبرًا يريد التورية به عنه وسَتْرَ حقيقته ، كإعلامهم بالحوادث الحادثةِ علىٰ الملوك ، والنوائب المُلِمَّة بالدولة : من هزيمة جَيْش، أو تغييرِ رَسْم، أو إحداثه ، أو تكليف الرعيَّة مالا يَسْهُل عليها تكليفُه

وما أشبه ذلك . قال فى "موادّ البيان" : فيجب أن يقصدَ فى ذلك إلىٰ الآختصار والإيجاز، ويَعْدلَ عن آستعمال الألفاظ الخاصَّة بالمعنىٰ إلىٰ غيرها مما يحتملُ التأويل، ولا تَنْفِرُ الأسماعُ عنه، ولا تُراعُ القلوبُ به ، من غير أن يحتمل كَذِبا صُرَاحا ؛ فإنه لاشىءَ أقبح بالسـلطان، ولا أغْمَص لشأنه وقَدْره من أن يُضَمَّن كتابه ماينكشف للعامَّة بطلانُه . قال وينبغى للكاتب أن يتخلَّص من هذا البـاب التخلُّص الجَيِّـد الذى يُزَيِّن به الأَثَر، من غير تصريح بكذِب، وأن يخرج الباطل فى صورة الحق، ويعرِّض سلطانه فى ذلك للإحماد والتقريظ من حيث يسـتحقُّ التأنيب والإذمام فإن هذه سبيلُ البلاغة، وطريقةُ فضلاء الصِّناعة، لأن الأمرَ الظاهرَ الحَسَن المجمعَ علىٰ فضله لا يحتاج فى التعبير عن حُسْنه إلىٰ كدّ الخاطر، وإتعاب الفِكْر، إذ الأَلْكَن لايَعْجِز عن التعبير عنه فَضْلا عن اللَّسِن ، وإنمـا الفضلُ فى تحسين ماليس بحَسَن، وتصحيح ماليس بصحيح، بضروبٍ من التمويه والتخييل، وإقامة المعاذير، والعِلَل المغَفِّية علىٰ الإساءة والتقصير، من حيثُ لا يلحَقُ كذبٌ صريحٌ ولا زُور مطلق . ولِضيق هـذا المقام وصُعُوبة مُرْتقاه ، أورده الشيخ جمالُ الدين بنُ نُباتةَ فى جملة مسائله التى سأل عنها كُتَّابَ الإنشاء بدِمَشْقَ ـ فقال : وما الذى يُكْتَب عن المهزوم إلىٰ مَنْ هَزَمه ؟ .

الثـالث ـــ أن يكون المكتوب به عن السلطان أمرًا أونهيـا . قال فى "موادّ البيان" : فحكمها حكم التوقيعات الوجيزة الجامعةِ للمعانى، الجازمة بالأمر أو النهى. اللهم إلا أن يكون الأمر أو النهى مما يحتاجُ إلىٰ رُسُوم ومُثُل يُعْمَل عليها، فيحتاج إلىٰ الإطالة والتكرير، بحسَب مايُؤْمَرُ به ويُنْهىٰ عنه دُونَ الحَذْف والإيجاز.

الرابع — أن تكون الكُتُب المكتوبة عن السلطان باستخراج الخَرَاج وجِبَاية الأموال وتَدْبِير الاعمال . قال فى "موادّ البيان" : فسبيلُها أن يَنُصّ فيها علىٰ ما رآه السلطان ودَبَّره ، ثم يَخْتِم بفصل مقصورٍ علىٰ التوكيد فى آمتثال أمْره وإنفاذه ، ولا يقتصر علىٰ ماتقدّم ، إيجاباً للحُجَّة ، وتضييقا للعُذْر ، وحَسْما لأسباب الِاعْتِذار .

الخامس — أن يكون مايكتب به عن السلطان إحْمادًا أو إذْمامًا ، أو وَعْدا أو وعيدا أو آستِقْصارًا او عَذْلا أو تَوْبيخا . قال فى " موادّ البيان " : فيجب أن يُشْبِعَ الكلامَ ويمدّ القولَ ، بحسَب ما يقتضيه أمر المكتوب إليه : فى الإساءة والإحسان ، والاجتهاد والتقصير ، لينشرح صدر المشمِّر المُحْسِن ، ويَنْبسِطَ أملُه ورجاؤه ، ويرتدع المقصِّر المُسيء ، ويرتَجِع عما يُذَمّ منه ، ويتلافىٰ مافرّط فيه .

الضرب الثانى

(ما يُعمَل فيه علىٰ البَسْط والإطناب)

وقد آستحسنوا البَسْط فى موضعين :

أحدهما — أن يكون ما يَكْتُب به عن السلطان خبراً يُريد تقريرَ صُورته فى نُفُوس العامة ، كالإخبار بالفُتُوحات المتجدّدة فى إعلاء الدِّين والسلطان . قال فى "موادّ البيان" : فيجب أن يُشْبِعَ القولَ فيها ، ويَبْنِيَ علىٰ الإسهاب والإطناب وتكثير الألفاظ المترادفةِ ، ليَعْرِفوا قدرَ النِّعمة الحادثةِ ، وتزيدَ بصائرُهُم فى الطاعة ، ويَعْلُوَ موضعُ سلطانهم من عنَاية الله تعالىٰ به ، فتَقْوىٰ قلوب أوليائه ، وتضعُف قلوب أعدائه ؛ لأنه لو كتب كتابا فى فتح جليل ليُقْرَأ فى المَحافل والمَشَاهد العامّة علىٰ رُءُوس

الأشهاد بين العامَّة ومَنْ يراد تفخيمُ السلطان فى نفسه علىٰ صُورة الاختصار، لأوقع كلامَه فى غير رتبته ، ودَلَّ ذلك علىٰ جَهْله . وقد اوضح الشيخُ شهـابُ الدين محمود الحلبيّ رحمه الله هذا المقام فى كتابه "حُسْن التوسل" فقال : وإذا كَتَب فى التهانى بالفتوح فليس إلا بَسْط الكلام والإطناب فى شُكْرِ نعمة الله تعالىٰ، والتبرِّى من الحول والقُوّة إلا به ، ووَصْف ما أَعْطىٰ من النصر . وذِكْر مامَنَح من الثبات، وتعظيم مايَسَّر من الفتح؛ ثم وصف مابعد ذلك : من عَزْم، وإقدام ، وصَبْر ، وجَلَد ، عن المَلِك وعن جيشه مما حَسُن وصفُه ولاقَ ذِكْرُه، وراقَ التوسُّع فيه، وعَذُب بَسْط الكلام معه . قال : ثم كُلَّما ٱتسع مجالُ الكلام فى ذكر الواقعة ووَصْفِها ، كان احسنَ وأدلَّ علىٰ السَّلامة ، وأدْعىٰ لسُرور المكتوب إليه ، وأحسنَ لتوقُّع المِنَّة عنـده ، واشهىٰ إلىٰ سمعه ، واشفىٰ لغليل شَوْقه إلىٰ مَعْرِفة الحال . قال : ولا بأس بتهويل أمْرِ العَدُو، ووصْف جَمْعه وإقدامه ، فإنَّ فى تصغير أمره تحقيرًا للظَّفر به .

قال فى "موادّ البيان" : ولا يُحتَجُّ للإيجاز فى كُتُب الفُتُوح بمـا كتب به كاتبُ المهلَّب بن أبى صُفْرة إلىٰ الحَجَّاج فى فتح الأزارقة، علىٰ ٱرتفاع خَطَره، وطُول زمانه، وعِظَم صِيتِه، من سُلوكه فيه مَسْلَك الاختصار؛ حيث كَتَبَ فيه :

«الحمد لله الذى كفىٰ بالإسلام فَقْدَ ماسِوَاه، وجعل الحمدَ متصلا بنُعْماه؛ وقضىٰ ان لا ينقَطِع المزيدُ من فَضْله ، حتّى ينقطعَ الشُّكْر من خَلْقه . ثم إنَّا كُنَّا وعدُوَّنا علىٰ حالين مختَلِفين ، نرىٰ منهم ما يسُرُّنا أكثَرَ ممـا يسوءُنا ، ويَرَوْن منا ما يسُوءُهم أكثَرَ مما يَسُرُّهم؛ فلم يزَلْ ذلك دَأْبَنَا ودَأْبَهم : ينصُرنا اللهُ ويخْذُلهم، ويُمَحِّصنا ويَمْحَقُهم؛ حتّى بلغ الكتابُ بِنَا وبِهِـمْ أجلَهُ ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا والحمدُ للهِ رَبِّ العالَمين ﴾ .

فإنه إنما حَسُن فى موضعه لمخاطبة السُّلْطان به، ولغرضٍ كانت المكاتبةُ فيه .
قال : فإنْ كَتَب مثل هذا الكتّاب عن السلطان فى مثل هذا الفتح أو ما يقاربُه ، ليُورَدَ علىٰ العامَّة ، ويُقَرِّر فى نفوسهم به قَدْرُ النعمة ، لم يحسُنْ موقعُه ، وخرج عن شَرْط البلاغة بوضعه إيّاه فى غير موضعه ، وذكر العسكرىّ نحو ذلك فى "الصناعتين" .

ثم قال فى "حسن التوسل" : وإن كان المكتوبُ إليه مَلِكا صاحبَ مملكة بمفرده ، تعيّن ان يكون البَسْط أكثرَ ، والإطنابُ والتهويلُ أبلغَ ، والشرحُ أتمَّ .
ثم قال : وإن اضْطُرّ أن يكْتُب مثلَ ذلك إلىٰ ملكٍ غير مسلم لكنّه غيرُ محارِب ، فالحكم فى ذلك أن يذكُر من أسباب المودّة ما يقتضى المشاركةَ فى المَسَارّ ، وأنَّ أمر هذا العدوّ مع كثرته أُخِذَ بأطْراف الأنامل ، وآلَ أمْرُه إلىٰ ما آل . ويُعَظِّم ذكْرَ ما جرىٰ عليه من القَتْل والأسْر . ويقول : إن تلك عوائدُ نصرِ الله تعالىٰ لنا ، وانتقامِه ممَّنْ عادانا ،

وإن كان المكتوبُ إليه متَّهما بممالأة العدوّ ، كتب إليه بما يدل علىٰ التَّقْريع والتَهكُّم والتهديدِ فى مَعْرِض الإخبار .

الثانى — أن يكون ما يُكْتَب به عن السلطان فى أوقات حَرَكات العَدُوّ إلىٰ أهل الثُّغُور، يُعْلِمهم بالحركة للقاء عدوّهم . قال فى "حسن التوسل" : فيجب أن يُبْسَط القولُ فى وصف العزائم، وقُوَّة الهِمَم، وشِدّة الحَمِيَّة للدِّين، وكثرةِ العساكر والجُيُوش وسُرْعة الحركة ، وطَىِّ المَراحل ، ومعاجَلة العَدُوّ ، وتخْييلِ أسباب النَّصْر ، والوُثُوق بعوائد الله تعالىٰ فى الظَّفَر، وتقويةِ القلوب منهم، وبَسْط آمالهم ، وحَثِّهم علىٰ التيَقُّظ ، وحفظ ما بأيديهم ، وما أشبه ذلك . ويُبْرِزُ ذلك فى أمْثَل كلام وأجَلِّه وأمْكَنِه ، وأقْرَبِه من القُوّة والبَسَالة ، وأبْعدِه من اللِّين والرِّقّة . ويُبالِغ فى وصف الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ واستنزال نَصْره وتأييده ، والرُّجوع إليه فى تَثْبِيت الأقدام ، والاعتصامِ به

فى الصــبر، والاستعانةِ به علىٰ العَدُوّ، والرغبــةِ إليه فى خِذْلانهم وزَلْزلة اقــدامِهم وجَعْلِ الدائرة عليهــم، دُونَ التصريح ببُطْلان حَرَكتهم، ورجاء تأخُّرِهم، وانتظــار العَرَضِيَّات فى ضَعْفِهم، لمــا فى ذلك من إيهامِ الضَّعْف عن لِقَائهم، واستِشْعار الوهم والخوف منهم .

القســـم الثـانى

(مايكتب به عن الأتباع إلىٰ السلطان والطَّبَقة العُلْيا من الرؤساء، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يُعْمَل فيــه علىٰ الإيجاز والاختصار)

وقد استَحَبُّوا الإيجاز فى ثلاثة مواضــع :

احدها — أن يكون مايكتُب به من باب الشكرعلىٰ نعمةٍ يُسْبِغها سلطانهُ عليه، وعارفةٍ يُسْدِيها إليه . قال فى "موادِّ البيان" : فسبيلُه أن لايبنِيَها علىٰ الإسهاب وتَجاوُز الحدّ، بل يَبْنِيها علىٰ اللَّفْظ الوجيز، الجامع لمعانى الشُّكْر، المشتمِلِ علىٰ أساليب الاعتِراف والاعْتِداد، فإن إطناب الأصاغِرِ فى شُكْر الرؤساء داخلٌ فى باب الإضْجار والإبْرام، ولا سِيَّما إذا رجعُوا إلىٰ خُصوصِيَّة وتقدُّم خِدْمة . وكذلك لا يُكْثِر من الثناء عليه، لأن ذلك من باب المَلَق الذى لايَليق إلا بالأباعد الذين لم يتقــدّم لهم من المَوَاتِّ والحُرَم مايدُلُّ علىٰ صِحّة عقائدهم، ولم يُضْفِ عليهم من النِّعم مايوجب خُلُوص نِيَّاتهم . أما إذا كان المُثْنِى أجنبيا متكَسِّبا بالتقريظ والثناء، فإنه لايقْبُح به الإيغالُ والإغراقُ فيهما . قال : وكذلك لاينبغى للخاصة الإكثارُ من الدعاء، وتكريرُه فى صُدُور الكُتُب

عند مايجرِى ذكرُ الرئيس ، فإن فى ذلك مشقّةً وكُلفة يستثقِلُها الملُوك . والحكم فيما يُستعمَل من ذلك فى الكُتُب شبيهٌ بما يُستَعْمَل شِفاهًا منه . ويقبُح من خادم السلطان أن يَشْغَل سمعَه فى مخاطبته إيّاه بكثرة الدعاء وتكريره .

الثانى — أن يكون مايكتُب به التابعُ إلىٰ السلطان ونحوه فى سؤالِ حُسْن النظر وشَكْوىٰ الفَقْر والخَصَاصة . قال : فى "موادِّ البيان": فيبنِى القولَ علىٰ الإيجاز ويمزُجُ الشكوىٰ بالشُّكر والاعتدادِ بالآلاء ، والرغبةِ فى مُضاعفَة الإحسان والزيادةِ فى البِرِّ، والإلحاق بالطَّبَقة الرابعة فى إيلاء العوارف، فإن ذلك أعطفُ لقَلْب الرئيس، وأدْعىٰ إلىٰ بلوغ الغَرَض ، ولا يُكْثِر شكوىٰ الحال ورثاثتها ، واستيلاءَ الخَصَاصةِ والفقرِ عليه، فإن ذلك يجَمعُ إلىٰ الإضجار والإبرام شِكايةَ الرئيس بسُوء حال مَرْءُوسه، وقلةِ ظُهُور نعمته عليه، وذلك ممايكرهه الرؤساء ويَذُمُّونه .

الثالث — أن يكون مايكتب به التابعُ إلىٰ المتبوع من باب التَنَصُّل والاعتذار عن شيءٍ قُرِف به عند رَئيسه . قال فى "موادِّ البيان" فسبيلُه أن يبنى كلامَهُ علىٰ الاختصار ، ويعدِلَ عن الإسهاب والإطْناب ، ويقصدَ إلىٰ النُّكت التى تُزِيل ماعَرَض عنده من الشُّبْهَة فى أمره، وتمحُو المَوْجِدةَ السابقةَ إلىٰ ضمير رئيسه ، ولا يُصَرِّحُ ببراءة الساحة عن الإساءةِ والتقصير، فإن ذلك ممـا يكرهُه الرؤساء من أتباعهم ، لأن عادَتَهم جاريةٌ بإيثار اعترافِ الخَدَم لهم بالتقصير والتَّفْريط ، والإقرار بالمقروف به ليكونَ لهم فى العَفْو عند الإقرار موضعُ مِنّة مستأنَفَة تستَدْعى شُكْرا، وعارفةٍ مستَجدّةٍ تقتضى نَشْرا . أما إذا أقام التابعُ الحجةَ علىٰ براءته ممـا قُرِف به ، فلا موضِعَ للإحسان إليه فى إقراره علىٰ منزلته والرضا عنه ، بل يكونُ ذلك قَدْرا واجبًا له، إن منعه إيَّاه ظلمه وتعدّى عليه .

الضرب الثـانى

(مايعمل فيه على البسط والإطناب)

وقد استحَبُّوا البَسْط هنا فى موضع واحدٍ : وهو ما إذا كان ما يكتُبُ به التابعُ إلى السلطان واقعًا فى باب الإخبار بأحوال ما ينظُر فيه من الأعمال ، وما يجرى على يَدَيْه من المُهِمَّات . قال فى "موادِّ البيان" فسبيله أن يُوَفِّىَ حقَّه فى الشرح والبيان، ويَسْلُكَ فيـه طريقةً يجمَعُ فيها بين إيضاح الأغراض من غير هَذْر يُضْجِر ويُمِلُّ ، ولا آختصار يُقَصِّر ويُخِلُّ، وأن يقصد إلى آستعمال الألفاظ السَّهْلة التى تَصِل معانيها إلى الأفهام من غير كُلْفة، ويتجنبَ مايقع فيه تعقيدٌ وتَوْعِير أو إيهام، إلا أن يعرض له فى المكاتَبـة ما يحتاج إلى التَّورية والكناية كما تقـدّم فيما إذا أطلق عدوٌّ لسـانه فى السلطان فإنه يحتاج إلى الكناية عنه على مامرَّ .

القسـم الثـالث

(ما يُكْتَب به إلى الأكفاء والنُّظَراء ، والطبقةِ الثانيةِ من الرؤساء)

قال فى "موادِّ البيان" : وسبيلُ مكاتبتهم أن يؤتى فيهـا باللفظ المساوِى للمعنى من غير إيجاز ولا إطناب : لأنها رتبةٌ متوسِّـطة بين الرُّتبتين المتقدّمتين . ولا يخفى أن ما ذكره إنمـا هو عِنْد الوقوف مع حقائق المكاتبات . أما الإخوانِيَّات المُطْلقة، فإنها تكون فى الطُّولِ والقِصَر بحَسَب مابين الصديقين من المَوَدّة والقُرْب، وما يعلمُه كلُّ واحدٍ منهما من خُلُق الآخَر ، وما توجبه دالَّته عليه .

وسيأتى فى مقاصد المكاتبات من أمثلةِ الأقسام الثلاثةِ مايُوضِّح مقاصدَها ويقَرِّب مآخذَها إن شاء الله تعالى .

الطَّرَف الثـالث

(فى أمور تختص بالأجوبة ، وفيه جملتان)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى بيانِ أىّ الأمرين من الابتداء والجواب أعلىٰ رتبةً وأبلغُ فى صناعة الكتَابة)

وقد اختلف الكُتَّاب فى ذلك : فذهب أكثرُ البلَغاء إلىٰ أن الكُتُب الجَوَابِيَّـة أتعبُ مَطْلَبا وأصعب مُرْتقىً من الكتب الابتدائية، وأن فيها تَظْهرُ مَهارةُ الكاتب وحِذْقه ، لاسيما إذا كان الخِطَاب محتمِلا(١) للاعتـذارِ والاعْتلالِ عن امتثالِ الأوامر والنواهى، والتَّورِيةِ عن نُصوص الأحوال، والإعراضِ عن ظَوَاهِرِها، قائدًا إلىٰ استعمال المُغالَطة، مُوجِبًا للانفصال عن الاحتجاج والإلزام، ونحو ذلك مما يؤدّى إلىٰ الخلاص من المَكاره .

واحتجُّوا لترجيح ذلك بوجوه .

منها ـــ أن المبتدئ مُحَكَّم فى كتابه ، يبتدئ بألفاظه كيف شاءَ ، ويَقْطَعها حيثُ يشاء ، ويتصرّفُ فى التقديم والتأخير، والحَذْف والإثبات ، والإيجاز والإسْهاب ، ويَبْنِى علىٰ أساس يؤسسه لنفســه ؛ والمجيبُ ليس له تقديمٌ ولا تأخير، وإنمـا هو تابعٌ لغرض المبتدئ، وبانٍ علىٰ أساسه .

ومنها ـ أنَّ المُجِيبَ ـ إذا كان جوابه محتَمِلًا للإشباع والتوسُّع ـ مُضْطَرٌّ إلىٰ اقتصاص ألفاظ المبتـدئ واتِّباعها للإجابةِ عنهـا ، وذلك يؤدّى إلىٰ تصَفُّح كلام المبتدئ والمجيبِ ويَصل مابين الكلامين : لأن الكلامين يتقابلان فلا تَخْفىٰ رتبتهما والفاضلُ منهما من الرَّذْل، وهذا مرفوعٌ عن المبتدئ .

---

(١) أى حاملا ومشتملا .

ومنها ـ أن تأليف الكلام وآنتظامَهُ وآتِّساقه وآلتئامه يقْدِرُ منها المبتدئ علىٰ مالا يقدر عليــه المُجيب : لأن الجواب يُفَصِّــل أجزاء الكلام ويُبَدِّد نِظامه ويُقَسِّـمه أقساما ، لمكانـــ الحاجةِ إلىٰ آســتئناف القول من الفَصْــل بعد الفَصْــل بقول وأمَّا كذا وأمَّا كذا ، فظهور الصورة المستحســنةِ فى المتصــل أكثَرُ من ظهورها فى المنفَصِـــل .

أما إذا كان الجوابُ مقتَضبا مَبْنِيًّا علىٰ آمتثالِ مأمور ، أوآنتهاءٍ عن مَنْهِيٍّ عنــه ، فإنه سهل المَرَام ،قريبُ المتَنَاوَل : لأنه إنما يشتمل علىٰ ذكر وُصولِ الكتَابِ والعمل بمـا فيـــه .

وذهب صاحبُ "مَوَادّ البيـان" إلىٰ أن الأبتـداء والجواب فى ذلك علىٰ حدٍّ واحدٍ ، وإن كان[(1)] الكاتبُ قد يُجيد فى الأبتداء ولايجيد فى الجواب وبالعكس ، محتجًّا لذلك بأن كُلًّا من المبتـدئ والمجيب ممتـاحٌ من جَوْدة الغريزة ، محتاجٌ من البلاغة والصِّــناعة إلىٰ ما يحتاج إليه الآخر : لأن الكاتب يكون تارةً مبتـدئا وتارةً مجيبا ، وليست الإجابةُ بصناعةٍ علىٰ حِيالها ، ولاالبِداية بصناعةٍ علىٰ حِيالها ، بل هما كالنوعين للجنس ، ولا مَنْعَ من أن يكون الكاتب ماهرًا فى نوعٍ دُونَ نوعٍ .

قال : والكاتبُ لايكونُ فى الأمر الأعَمِّ كاتبًا عن نَفْسه وإنما يكونُ كاتبًا عن آمرٍ يأمُرُه بالكتَابة فى أغراضه ويسَلِّمها إليه منثورةً ، فيحتاج إلىٰ نظمها وضَمِّها وإبرازِها فى صورةٍ محيطةٍ بجميع تلك الأغراضِ من غير إخلالٍ بشىءٍ منها ؛ فعلىٰ المبتـدئ من المَشَقَّة فى إيراد أغراض المكتوب عنــه فى الصُّورة الجـامعة لهـا مع نَظْمها

---

(1) الظاهر أن كان زائدة والاصل وأن الكاتب قد يجيد آلخ كما يفيده المعنى وآخر العبارة .

فى سِلْك البلاغة مثلُ ما علىٰ المجيب من المَشَقَّة فى توفِيَةِ فصول كتاب المبتدئ حقَّها من الإجابة والتصرُّفِ علىٰ أوضاع ترتيبها ، بَلْ كلفةُ المجيب قريبــة ، لأنه يستَنْبِط من نفس معانى كتاب المبتدِئ للمعانِى التى يُجيب بها : لأن الجواب لا يخلو من أن يكونَ يوافقُ الآبتداءَ أو يناقضه : فإن وافقه فالأمر سَهْل ، وإن ناقضه فإن كل نقيض قائمٌ فى الوهم علىٰ مقابَلةِ نقيضــه ، إلا أنه أتعَبُ علىٰ كل حال من الموافق ، ولا شكَّ أن الجواب بتَجْزئته قد خَفَّ تحمُّله : إذ ليس من يجمَعُ خاطِرَه علىٰ الفصل الواحد حتّٰى يخرج عن جوابه كمن يجمع خاطِرَه علىٰ الكتاب كُلِّه . ثم قال : وليس القَصــدُ ممــا ذكرناه مناقضةَ مَشَايخ صناعَتِنا[1] ، ولكن القصــدُ تعريفُ الحق الذى يجب آعتقاده والعمل عليه .

الجملة الثانيــــة
(فى بيــان ترتيب الأجْــوِبة)

وآعلم أن للجواب حالتين :

الحالة الأولىٰ — أن يكون الجوابُ من الرئيس إلىٰ المرءوس عما كتب به الرئيس إليــه ، فالذى ذكره فى "موادّ البيان" أن للرئيس أن يَبْنِى حكايةَ كتابِ مَرْءُوسه إليــه فى جوابه علىٰ الآختصار ، ويجمع معانِيَــه فى ألفاظٍ وجيزةٍ ، محيطةٍ بما وراءها كأن يقول : وصل كتابُكَ فى معنىٰ كذا وفَهِمْناه .

الحالة الثانية — أن يكون الجواب من المرءُوس إلىٰ الرئيس عما كتب به الرئيسُ إليه ، قال فى "مواد البيان" : والواجب فى هذه الحالة أن يَحْكِىَ فصولَ كتاب

---

(١) فى الاصول "مشاح هنا عبثا" وهو تصحيف فظيع من الناسخ والتصحيح من الضوء .

رئيسه علىٰ نَصِّها ويُقصُّها علىٰ وَجْهها من غير إخلالٍ بشىءٍ منهـا ، إعظامًا لقـدر الرئيس وإجلالًا لخطَابه. قال: وليس للمجيب إن مرّ فى كتاب الرئيس بلفظة واقعة فى غير موضعها أن يُبْدِلها بغيرها : لما فى ذلك من الإشارة إلىٰ أن هذا أصَحُّ من كتابِ رئيسه فى ألفاظِه ومعانيه . قال : ولا يجوز الخروجُ عن حكاية لفظِ رئيسه فى كتابه بحال ، اللهم إلا أن يكون الكتابُ الواردُ علىٰ المجيب فى معنىٰ الشكر والتَّقْريظ من رئيسه له والثناءِ عليه فى قيامه بالخِدْمة ، فإنه لايجوز أن يأتى به علىٰ نصه : لأنه يصير ذلك مادحًا نَفْسَه ، ومدحُ الإنسان نفسَه غيرُ سائغ ؛ ولا يجوز أن يُهْمِل ذكره جملةً لأنه يكون قد أخلَّ بما يجبُ من شُكْرِه له علىٰ تشريف رُتْبته بإحماده له والثَّناءِ عليه ، بل الواجبُ أن يُوقِعَ تلك الصفةَ علىٰ جملةٍ تجعل نفْسَه بعضا منها ، مثل أن يقول : «فأما ماوصفه من آعتدادِه بخادِمِه فى جملة مَنْ نَهض بحقوق خِدْمته ، وقام بفَرْض طاعته ، فأهَّله لما يَرْفَع الأقدار من إحمادِه وثَنائه ، ويُعْلِي الأخطارَ من شُكْره ودُعائه» وما يضاهى هذا من العبارة التى تشتمل علىٰ معانى ألفاظِ رئيسـه ، فإنه إذا قصـد هـذا السبيل فى حكايةِ كتابِ رئيسه فى هذا المعنىٰ ، فقد جمع بين البلاغة والإتيان علىٰ معانى ألفـاظِ رئيسـه والأدَبِ فى ترك التفخيم لنَفْسه بإضافته لهـا إلىٰ جملةِ الخاصَّة دُونَ إيقاع المَدْح عليها فقط .

قلت : هذا هو الترتيب الذى يجب آعتمادُه فى الأجوبة ، فلايجوز الخروج عنه إلىٰ غيره ؛ علىٰ أن كُتَّاب زماننا قد اطَّرحُوا النظرَ فى ذلك جمـلةً ، وصاروا يكتُبون الأجوبةَ بحسَب التشَّهى : فمنهم مَنْ يحكى الكتابَ الذى يقَع الجوابُ عنه بنصـه مطلقا ، سواءٌ كان من رئيس أومرءوس ، وبالعكس ، مع قَطْع النظر عما وراء ذلك . فتنبه لهذه الجملةِ فإنها دقيقةٌ جليلةٌ .

الفصـــل الثـانى

من البـاب الأوّل من المقالة الرابعة

(فى ذكر أصول المكاتبات وترتيبها، وبيان لواحقها ولوازمها . وفيــه طرفان)

الطـــرف الأوّل

(فى ذكر أصولها وترتيبها . وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى المكاتباتِ إلىٰ اهـــل الإسلام)

وآعلم أن المكاتبات الدائرةَ بين المسلمين من صَدْر الإسلام وإلىٰ زماننا لا يأخُذُها حدٌّ، ولا تدخُل تحت حَصْر .

والمشهور آستعماله منها فى دواوين الإنشاء علىٰ آختلاف الأزمان خمسةَ عشرَ أُسْلُوبا .

الأســـلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح الكتبُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

قال أبو هلال العسكرىّ فى كتابه "الأوائل" : وأوّل مَنْ كتب بذلك قُسُّ بنُ ساعدةَ الإيادىُّ ؛ وعلىٰ ذلك كانتْ مكاتباتُ النبىّ صلّى الله عليه وسلم والسلفِ من الصحابة والتابعين رضوانُ الله عليهم . فكان النبىّ صلّى الله عليه وسلم يكتُب : "من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ فلان". ثم كتب أبو بكر الصدّيقُ رضى الله عنه فى خلافته : «من أبى بكرٍ خليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلم» . ثم كتب عمرُ بعْدَه : «من عُمَرَ

آبن الخطاب خليفةِ خليفــةِ رسول الله" صلّى الله عليه وسلم إلىٰ فلان» . فلمــا لُقِّب بأمير المؤْمنين زاد فى ذلك لفظَ «عبدِ الله» قبل عُمرَ، ولقَبَ «أمير المؤمنين» بعده؛ فكان يكتب : «من عبدِ الله عمرَ أميرِ المؤمنين إلىٰ فلان» . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ خلافة هارونَ الرشيد، فأمر أن يُزاد فى صُدُور الكتب بعدَ «فإنِّى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، وأسأله أن يُصَلِّىَ علىٰ جدّه(١) محمدٍ عبده و رسوله» . فجرىٰ الأمرُ علىٰ ذلك فى زمنه ومابعده . قال أبو هلال العسكرىّ فى "الأوائل" : وكان ذلك من أجَلِّ مَنَاقبه . قال صاحب "ذخيرة الكُتَّاب" : وكان الرشــيدُ قد قال ليَحْيىٰ آبن خالد : إنى قد عزَمْت علىٰ أن يكونَ فى كُتُبى : « من عبدِ الله هارونَ الإمامِ أميرِ المؤمنين عبدِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم » ـ فقال له يحيىٰ : قد عرفَ اللهُ نيَّتك فى هــذا يا أمير المؤمنين ! [وأجْزلَ] لك الأَجْر، والتعبدُ إنمــا هو لله وحْدَه لا لغيره ـ قال : فاكْتُبْ « من هارونَ مَوْلىٰ محمدٍ رسول الله» ـ فقال : إن المَوْلىٰ ربمــا كان فى كلام العَرَب آبنَ العَمِّ ، وجزىٰ الله أميرَ المؤمنين خيرًا عن هــذه النية وهذا الفِكْر .

الأُسْـــــلوب الثــانى

(أن يُفْتَتَح الكتابُ بلفظ « لفلان من فلان » أو « إلىٰ فلان من فلان »
وبقيةُ الصَّدْر، والتخلصُ بـ«أما بعد» أوغيرها، والآختتامُ بالسلام
وغيره علىٰ ماتقدّم فى الأسلوب الأوّل)

وقد آختلف العلماء فى جواز الآبتداء فى المكاتبة باسم المكتوب إليه : فذهب جماعةٌ من العلماء إلىٰ جواز ذلك، محتجِّين بأن الصَّحابة رضى الله عنهم و بعضَ الملوك

---

(١) لعله جدى وسقط لفظ جده من عبارة الضوء وهى أوضح وأصرح .

كانوا يكتُبُون إلىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم كذلك . كما كتب إليه خالدُ بنُ الوليد والنجاشيُّ والمقَوْقِس فى إحدىٰ الروايات، علىٰ ما سيأتى ذكره فى المكاتبات إلىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وقد رُوِى أن رسولَ الله صلّى الله عليه وسلم قال : "إذا كَتَبَ أحدُكُم فليَبْدَأْ بنفسه، إلّا إلىٰ والدٍ أو والدةٍ أو إمام يَخافُ عُقُوبَتَه" وعن نافع قال : كانت لٱبن عُمَرَ إلىٰ معاويةَ حاجةٌ ، فقال له ولده : ٱبدَأْ به فى الكتاب، فلم يزالوا به حتّى كتب : «بسم الله الرحمن الرحيم، إلىٰ معاويةَ من عبدالله بن عمر». وعن الأوزاعىّ أنه كان يكتب إلىٰ عُمَر بن عبد العزيز فيبدأ به فلا يُنْكِر ذلك . وعن سعيد بن عبد العزيز قال : كتب عمرُ (يعنى ٱبنَ عبد العزيز) إلىٰ الحَجّاج، فبدأ بالحَجّاج قبل نفسه — فقيلَ له فى ذلك — فقال : بدأتُ به لأحْقِنَ دَمَ رجل من المسلمين . قال سعيد : فحَقَن له دَمَه . وعن بكر بن عبد الله أنه كتب إلىٰ عاملٍ فى حاجة، فكتب : «بسم الله الرحمن الرحيم، إلىٰ فلانٍ من بَكْر» — فقيل له أتبدأ باسمه فقال : وما علىّ أن أُرْضِىَ صاحبى وتُقْضىٰ حاجةُ أخى المسلم ؟ قال فى "صناعة الكُتّاب" : وعلىٰ ذلك جرىٰ التعارُف فى المكاتبة إلىٰ الإمام .

وذهب قوم إلىٰ كراهة ذلك ، لأنه مأخوذٌ عن ملوك العَجَم . قال ميمون ٱبن مِهْران : كان العجم يبدءُون بملوكهم إذا كتبُوا إليهم . وقد رُوِى عن العلاء ٱبن الحضرمىّ أنه كتبَ إلىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فبدأ بنَفْسه . وعن الربيع ٱبن أنَسٍ قال : ما كان أحدٌ أعظَمَ حرمةً من رسول الله صلّى الله عليه وسلم وكان أصحابه يكتُبون إليه يبدءُون بأنفسهم . وعلىٰ ذلك جرىٰ فى "نهاية الأرب" فقال : كان أصحابُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأمراءُ جُيوشه يكتُبون إليه

كما يكتُب إليهم : يبدءُون بأنفُسِهم . وعن ميمون بن مِهْرانَ أنه قال : كان آبن عُمَرَ إذا كتب إلىٰ أبيــه كتب « من عبــد الله بن عُمَر إلىٰ عُمَر بن الخَطَّاب » . وعن يحيىٰ بن سـعيد القَطَّان قال : قلت لسُفْيانَ الثورىّ : اكتب إلىٰ أمير المؤمنين يعنى المهدىَّ ، قال : إن كتبتُ إليه بدأتُ بنَفْسى ـ قلت : فلا تكْتُبْ إليه إذَنْ . وهــذه الأقوال كلها جانحةٌ إلىٰ ترجيح بُدَاءة المكتوب عنــه بنفسه . قال أبو جعفر النحاس : وهذا عنــد أكثر الناس هو الإجماعُ الصحيح ؛ لأنه هو إجماع الصحابة رضى الله عنهم .

ولْتَعْلَمْ أن الذاهبين إلىٰ جِواز الابتداء باسم المكتوب إليه اختلفوا : فذهب قومٌ إلىٰ أنه إنما يكتبُ « إلىٰ فلان من فلان » كما تقدّم فى كتاب آبن عمرَ إلىٰ معاويةَ ، ولا يكتبُ « لفلان من فلان » . وآستشهد لذلك بمــارُوِى عن آبن عمرَ رضى الله عنه أنه قال : يكتُب الرجلُ «من فلان إلىٰ فلان» ولا يكتب لفلان ؛ وبمــا رُوِى عن هُشَيْم عن المُغِيرة عن إبراهيم انه قال : كانوا يَكْرَهون أن يكتُبوا «بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان» لكن قد رُوِى أن رجلا كتب عند ابن عمر « بسم الله الرحمن الرحيم لفلان من فلان » فقــال آبن عمر : مَهْ ! فإن آسم الله هو له إذَنْ . ومقتضىٰ ذلك أن الكراهةَ إنمــا هى لإيهام أن البسملة للمكتوب إليه ، لا للابتداء باسم المكتوب إليه .

وذهبت طائفــة إلىٰ جواز أن يُكْتَب « لفلانٍ من فلان » واحتجَّ لذلك بمــا رُوِى عن مالك بن أَنَس عن عبــد الله بن دينار أن آبنَ عمر كتب إلىٰ عبــد الملك ابن مَرْوانَ : « بسم الله الرحمن الرحيم أما بعدُ لعبد الله عبد الملك امير المؤمنين من عبدالله بن عمر» وهو ظاهر ، فقد كانت مكاتبةُ خالدِ بن الوليد والنَّجاشىِّ والمقَوْقس

« لمحمد رسولِ الله » علىٰ ما سيأتى ذكره . وعلىٰ ذلك (١) كانت المكاتبةُ للخلفاء : فكان يُكْتَب لعمرَ بن الخطاب رضى الله عنه من عُمَّاله وغيرهم « لعبد الله عمر امير المؤمنين» وعلىٰ ذلك جرىٰ الحال فى المكاتبة إلىٰ سائر الخُلَفاء بعدَه علىٰ ما ستقف عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ .

الأُسْلُوب الثالث

(ان يفتتح الكتابُ بلفظ أما بعد)

وعليه ورد بعضُ المكاتبات الصادرةِ عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، وعن الخلفاء من الصحابة فمن بعدهم فى صدر الإسلام علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

وكانوا بعد حُدُوث الدعاء فى المكاتبات يُتْبِعونها بالدعاء بطُول البقاء غالبا، فيقال : « أما بعدُ أطال الله بقاءَك» ونحو ذلك ؛ ثم أضْرِبَ عنها بعضُ الكُتَّاب بعد ذلك . قال أبو هلال العسكرىّ : فى كتابه "الصناعتين" : وكان الناس فيما مضىٰ يستعملون فى أوائل فصول الرسائل « أما بعدُ » وقد تركها جماعةٌ من الكُتَّاب فلا يكادون يستعملونها . قال : وأظنُّهم ألمُّوا بقول ٱبن القِرِّيّة ـ وقد سأله الحجاجُ عما يُنْكِره من خَطَابته ـ فقال : إنك تُكْثِر الرَّدّ، وتشير باليَد، وتستعين بأمَّا بعد. فتحامَوْها لهذه الجهة . ثم قال : فإن ٱستعمَلْتها ٱتِّباعا للسلف ورغبةً فيما جاء فيها من التأويل أنها فصلُ الخطاب، فهو حَسَن ؛ وإن تركتها توخِّيا لمطابقةِ أهل عصرك، وكراهةً للخروج عما أصَّلوه لم تكن ضائرا . أما الآنَ فقد تُرِكَ الأبتداءُ فى الكتب بأما بعد

(١) فى الاصل وعلى كل حال وهو سبق قلم كما هو ظاهر .

حتّى لا يكاد يُعوِّل عليها فى الأبتداء كاتبٌ من كُتَّاب الزمان ، ولا يَفْتتح بها مكاتبة .
نعم يؤتىٰ بهافى أثناء بعض المكاتَبَات علىٰ ماسيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

وقد تقــدّم الكلام علىٰ معناها وأوّلِ مَنْ قالهــا فى الكلام علىٰ الفواتح فى المقالة الثالثة ، وكُتَّابُ المغاربة ربمـا ٱفتتحوا مكاتباتِهِم بلفظ وبعدُ .

الأســـــلوب الرابع

(أن تفتتح المكاتبةُ بخُطْبة مفتَتَحة بالحمدُ لله)

وأصلُ هذه المكاتبة مختَلَسٌ من الأُسلوب الأوّل من قولهم : فإنّى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . ثم جاء عبدُ الحميــد بنُ يحيىٰ كاتبُ مَرْوانَ بن محمد : آخر خلفاءِ بنى أُميّــةَ ، وأطال التحميداتِ فى صُـدُور الكُتُب مع الإتيان بأما بعــدُ ، وتَبِعه الكُتَّاب علىٰ ذلك ؛ ثم توسَّعُوا فيــه حتّى كَرَّروا الحمــدَ المرَّاتِ فى الكتاب الواحد ، لا سيمـا فى أماكن النِّعم الحادثة ، كالفُتُوحات ونحوها ؛ ثم توسَّع بعضُ الكُتَّاب فى ذلك حتّى جعل الحمــدَ لله ٱفتتاحا ، وٱستمرّ ذلك إلىٰ الآنَ . وعلىٰ ذلك بعضُ المكاتبات السـلطانية فى زماننا ، علىٰ ماستقِف علىٰ ذلك جميعه فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ .

ولا خفاءَ فى أن الحمدَ أفضلُ الآفتتاحات ، وأعلىٰ مراتِب الآبتدا آت ، وإن لم يقع الآبتداء به فى صَدْر الإسلام، فهو من المبتَدَعات المستحسَنَة . وحيث ٱفتتحت المكاتبــةُ بالحمد لله كان التخَلُّص منها إلىٰ المقصود بأما بعْدُ ؛ وربمـا وقع التخَلُّص بغير ذلك ، ويكون الآختتامُ فيها تارةً بالسلام ، وتارةً بالدّعاء ، وتارةً بغير ذلك . قال ٱبن شيث فى " معالم الكتابة " : والتحميدُ فى أول الكُتُب لايكونُ إلا فى الكُتُب

المكتوبة عن السلطان . قال : وغاية عظَمة الكاتب أن يكرِّر التحميدَ ثانيةً وثالثةً في الكتاب، ثم يذكر الشهادتين والصلاةَ علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم .

قلت : والتكرار في الحمد يكون بحسَب مقدار النعمة المكتوب بسببها من فَتْح ونحوه .

الأُسْــــلوب الخامسُ

(أن تَفْتَتِح الكتابَ بلفظ « كتابِى إليك » أو « كتابُنا إليك من موضع كذا، أو في وقت كذا والأمر علىٰ كذا » وتشرح القضـية، وتختِمَ المكاتبةَ « بكتابُنا إليك» بنحو قولك : «فإن رأيتَ أن تفعلَ كذا فعلت» والمكاتبةَ « بكتابى إليـــك » بنحو قولك : «فرأْيَك في كذا » وما يجرِى هـــذا المَجْرىٰ)

والأصلُ في هذه المكاتبــة أنَّ النبيّ صلّى الله عليه وسـلم كان يكتُبُ في بعض المكاتبات الصادرة عنه : « هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ فلانٍ، أو إلىٰ الجماعة الفلانيين » . فلما كان أيامُ بنى بُوَيه في أثناء الدولة العباسية ، آستخرج كُتَّابها من هذا المعنىٰ الآبتــداءَ « بكتابى إليك » إذا كانت المكاتبةُ إلىٰ النظير ومَنْ في معناه، والآبتداءَ « بكتابُنَا إليك » إذا كانت المكاتبةُ عمّن له رتبــةُ نونِ العظمة من الملوك ونحوهم ، وكانوا يُتْبِعون ذلك بالدعاء بطُول البقاء نحو «كتابِى إليكَ أطال اللهُ بقاءك» أو « كتابُنا إليك أطالَ اللهُ بقاءَك » . وربمـا عبر «بهذه الخِدْمةُ»(1) وما أشبه ذلك ، ويكون التخلُّص فيه إلىٰ المَقْصِد بواو الحال، مثل أن يقال : « كتابى إليك والأمْرُ علىٰ كذا وكذا» ونحو ذلك، وربما وقع التخلُّص بخلاف ذلك. ويكون الآختتام فيه

---

(1) أى عبر بدل كتابى اليك مثلاً بقوله «هذه الخدمة إليك» كما يؤخذ مما يأتى في الاسلوب الحادى عشر

تارةً بالسلام وتارةً بالدعاء، وتارةً بغير ذلك . وكُتَّاب المغْرِب عدَلُوا عن لفظ الاسم في كتابي إلىٰ لفظ الفعل . مثل أن يقال : «كتبنا إليك» او «كتبتُ إليكَ والأمرُ علىٰ كذا، او من موْضِع كذا» .

الاســـــلوب السادس

(أن تقع المكاتبة بلفظ «كَتَب» بصيغة الفعل)

وهذه المكاتبة كان يُكْتَب بها عن الوزراء ومَنْ فى معناهم إلىٰ الخُلَفاء . فيكتب الوزير ونحوه : «كتَبَ عبدُ أمير المؤمنين» أو «كتب العبدُ من مَحَلِّ خدمته بمكان كذا، والأمر علىٰ كذا وكذا» . وعلىٰ نحوٍ من ذلك يجرِى كُتَّاب المغـاربة فى الكثير من كُتُبهم، مثـل «إنا كتَبْنا إليكم من محلِّ كذا» أو «كتبتُ إليك من محَـلِّ كذا» وما أشبه ذلك . وهذه فى الأصل مأخوذةٌ من الأُسْلوب الذى قبْلُ .

الأسلوب السابع

(أن يقع الافتتاحُ بالدعاء)

والأصل فى ذلك ماحكاه ابو جعفر النحاسُ : ان معاويةَ بنَ أبى سفيانَ كتب إلىٰ امير المؤمنينَ علىّ بن ابى طالب رضى الله عنه عند جَرَيان الخلاف ووُقُوع الحَرْب بينهما : « أما بعــدُ عافانَا اللهُ وإيَّاكَ من السُّوء » . ثم زاد الناس فى الدعاء بعــد ذلك .

وقد اختُلِف فى جواز المكاتبة بالدُّعاء فى الجملة : فذهب ذاهبُونَ إلىٰ جواز ذلك كما يجوز الدُّعاء فى غير المكاتبَة، سواءٌ تضمن الدعاءُ معنىٰ الدّوام والبقاء ام لا . وهو

الذى رجّحه محمدُ بن عمرَ المدائنىّ فى كتاب "القلم والدواة" وإليه يَميل كلامُ غيره أيضا، وحكاه النحاسُ عن أبى جَعْفرٍ أحمدَ بن سلامة، وكلامه يَميل إلىٰ ترجيحه.

أما ما يتضمن معنىٰ الدَّوام والبقاء، فلمـا رُوِى أنَّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال لأبى اليَسَر كَعْب آبنِ عُلَيَّة (١): "اللهم أمْتِعْنا به" قال النحاس: وذلك دليلُ الجَوَاز، بل حُكى عن بعضهم أنَّ الدعاء بطول البقاء أكمَلُ الدعاء وأفْخَمه، لأن كل نعمةٍ لايُنْتفَع بها إلا مع طُول البَقَاء. ثم قال: والمعنىٰ فى الدُّعَاء فى المكاتبات التودُّد والتحبُّب، وقد أمر صلّى الله عليه وسلم المسلمين أن يكونُوا إخوانًا، ومن أُخُوّتهم وُدُّ بعضهم بعضا. وكذلك القولُ بما يؤكِّد الأُخُوّة بينهم والمودّةَ من بعضهم لبعض، وإذا قال له ذلك، كان قد بلغ من قَلْبه نهايةَ مبلَغ مثلِه منه؛ ويكون مَنْ قال ذلك قد عَلِم من قَلْبه فى شأنه مايكونُ من قَلْب مثله. وقد قال الشيخ محيى الدين النووىّ: من قال لصاحبه ـ حِفْظا لمودّةٍ ـ: «أدامَ اللهُ لك النِّعَم» ونحو ذلك فلا بأس به.

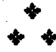

واما ما لم يتضمن معنىٰ الدوام والبقاء: كالعِزّ والكَرامة، فقد روى عن كعب آبن مالك رضى الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلم قال: «مَنْ رأىٰ مِنكُم مَقْتَلَ حمزةَ؟ فقلتُ: أعَزَّكَ اللهُ! أنا رأيتُه». وعن أنس بنِ مالك رضى الله عنه قال: دخل جريرُ بنُ عبدالله علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم، فَضَنَّ الناسُ بمَجَالسهم فلم يُوسِّع له أحدٌ، فرمىٰ له رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم ببُرْدَتِه وقال آجْلِسْ عليها ياجريرُ، فتلقَّاها بوجْهه ونَحْرِه فقبَّلَها ثم ردّها علىٰ ظَهْره، وقال: أكْرمكَ اللهُ

(١) سبق فى صفحة ٢٩٢ من هذا الجزء كعب بن عبيد الله والذى فى "خلاصة تذهيب تهذيب الكمال" للخزرجى ص ٣٢١ أنه كعب بن عمرو بن عباد بن عمرو بن غزية بن سواد بن غنم بن كعب بن سلمة الانصارى السلمى بالفتح أبو اليسر بفتح التحتانية عقبىّ بدرىّ جليل. فلعل علية آسم أمه.

يارسول الله كما أكرمتني» فقد دعا له صلّى الله عليه وسلم كعبُ بنُ مالك بالعز، وجريرُ ابنُ عبد الله بالكرامة ولم يُنْكِرْ ذلك على واحدٍ منهما .

وذهب آخرون إلى أنه لاتجوزُ المكاتبة بالدُّعاء، سواء تضمّن معنى الدوام والبقاء أم لا : لأنه خلافُ ماوردَتْ به السنة وجرى عليه اصطِلاح السَّلَف .

وفَصَّل بعضُهم فقال : إن كان الدعاء مما لايتضمّن معنى الدوام والبقاء نحو «أكرمَك اللهُ بطاعته» و «تولّاك بحِفْظه» و «أسعدك بمعرفته» و «أعزّكَ بنَصْره» جاز، لحديثي كَعْب بن مالك وجَرير بن عبد الله المتقدّمين . وإن كان مما يتضمّن معنى الدوام والبَقاء، نحو «أطال الله بقاءَك» و «نَسأَ أجلَك» و«أَمْتَعَ بك» وما أشبه ذلك، لم تجز المكاتبةُ به .

واحتجّ لذلك بحديث عبدِ الله بن مسعود رضى الله عنه "أنَّ أُمّ حبيبةَ بنتَ أبي سُفْيانَ، زوجَ النبيّ صلّى الله عليه وسلم قالت : اللهُمَّ أمْتِعْنِي بزَوْجِي رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم وبأبِي أبِي سفيانَ وبأخى مُعاوِيةَ ـ فقال لها رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : لقد دعَوْتِ اللهَ لِآجالٍ مَضْروبةٍ، وأرْزاقٍ مقسومةٍ لايتقدّمُ منها شيءٌ قبلَ أجلِه ولا يتأخّر بعد أجَله ! ولو سألْتِ اللهَ أن يَقِيَك عَذابَ النار لكان خَيْرًا لك" وبما رُوِى أن الزُّبيرَ بنَ العوّام رضى الله عنه ! قال للنّبيّ صلّى الله عليه وسلم : «جَعَلني اللهُ فِدَاك» . فقال له النبيُّ صلّى الله عليه وسلم : «أما تَرَكْتَ أعرابِيّتَك بَعْدُ؟» فقد أنكر صلّى الله عليه وسلم على أمّ حبيبة والزبير الدعاءَ بما فيه طولُ البقاء، وإذا امتنع ذلك فى مُطْلق الدعاء، امتنع فى المكاتَبة من بابِ أوْلى : لمخالفة طُرُقها التى وردت بها السنةُ . قال حَمّادُ بن سلمة : كانت مكاتبةُ المسلمين «مِن فلانٍ إلى فلانٍ، أما بعدُ سلامٌ عليك فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو وأسألُه

أن يصلِّى علىٰ محمد عبدِه وآلِ محمد » حتّى أحدث الزنادقةُ ـ لعنهم الله ـ هذه المكاتبةَ التى أوّلها « أطال الله بقاءَكَ » .

وعن إسماعيل بن إسحاق أنَّ أوّل من كتب « أطال اللهُ بقاءَك » الزنادقةُ . وقد قال الإمام الرافعىّ وغيرُه من أئمة أصحابِنا الشافعية : إن الدعاء بالطَّلْبَقَة ـ وهى أطال الله بقاءك ـ لاأصلَ له فى الشرع . قال الشيخ محيي الدين النووىُّ : وقد نصَّ السلفُ علىٰ كراهته . ونقل النحاسُ عن بعضهم : أنه آستحبَّ تقييدَه بالإضافة إلىٰ شىء آخَر، مثل أن يكتب « أطالَ اللهُ بقاءَك فى طاعته وكَرامته » أو «أطال الله بقاءَك فى أَسَرّ عَيْش وأنْعَم بال» وما أشبه ذلك .

وآعلم أنَّ الناس قد آختلفُوا فى صُورة الآبتداء بالدعاء : فالأوّلُون ـ لآبتداع الدُّعاء فى المكاتَبَات ـ كانوا يفتَتِحُون بطُول البَقَاء للخلفاء وغيرهم؛ ثم توسَّعت الطبقةُ الثانيةُ من الكُتَّاب فى المكاتبة فافتتحُوا بالدعاء للخلفاء والمُلُوك بخلود المُلْك، ودوامِ الأيامِ، ودوامِ السُّلْطان وخلوده، وما فى معنىٰ ذلك؛ ولمن دُونَهم بعد النَّصر والنُّصْرة والأنصار بدوام النِّعمة وخُلُود السَّعادة ومَدِّ الظِّل وإسباغِ الظِّلال، وغير ذلك مما يأتى ذكرُه فى الكلام علىٰ مصطَلَح كل طبقةٍ فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

ثم للكُتَّاب فى الخِطاب(١) بالدُّعاء مذهبان :

أحدهما ـ أن يقع الدعاءُ بلفظ الخِطَاب، نحو «أطالَ اللهُ بقاءَكَ، وأعزَّك الله، وأكْرمك اللهُ، وأدامَ كرامتَكَ وسَعادتَك» وماأشبه ذلك .

والثانى ـ أن يقع بلفظ الدعاء للغائب مثل : « أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين» و«أطالَ الله بقاءَ سَيِّدى» و«أطال اللهُ بقاء مَوْلانا» أو«أعز اللهُ أنصار المَقَام أوالمَقَرّ»

(١) كذا فى الأصول ولعله فى الاتيان بالدعاء الخ .

أو « ضاعف اَللهُ تعـالىٰ نعمةَ الجَنَاب» أو « أدام الله نعمةَ الجَنَاب أو المجلس » وما أشبه ذلك .

قال فى ”صـناعة الكتاب“ : وهو أجلُّ الدعاء فيما آصطلَحُوا عليـه . قال : ورأيتُ علىَّ بن سليمان يُنْكِر ذلك ويقول : الدعاءُ للغائب جَهْل باللُّغة، ونحن ندعو الله عز وجل بالمخاطبة .

الأُسلُوب الثامن
(أن يُفْتتح الكتابُ بالسلام)

ويقع التخلُّص إلىٰ المقصود بلفظ « ونُبْدِى لعِلْمه» أونحو ذلك، ويقع الآختتام فيه بالسـلام أيضا؛ وهو منتزَع من قولهم فى صَدْر المكاتبة فى الأسلُوب الأوّل : سـلامٌ عليكَ فإنِّى أحمدُ إليك اللهَ ؛ تصرّف الكُتَّاب فيـه فجعلوا السـلامَ فى آبتداء المكاتبـة، وصاروا يبتدئونها بنحو سلامُ اللهِ ورحمتُـه وبركاتُه . وقد كانوا يبتدئُون المكاتبـة إلىٰ الخلفاء ببغداد فى الدولة الأيُّوبيـة بالديار المصرية بالسلام فى بعض الأحيان ، وعلىٰ ذلك آستقرّتِ المكاتبـةُ عن الخليفة الآنَ . وبه يُفْتَتح بعضُ المكاتبـات إلىٰ مشايخ الصُّوفيَّـة ، علىٰ ما سيأتى فى الكلامِ عليـه فى موضعِه إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى ”صناعة الكُتَّاب“ : وإنمـا قدّمُوا السلامَ علىٰ الرحمة لتصَرُّفه : لأنه من أسماء الله تعالىٰ أو جمعُ سلامة . قال فى ” موادّ البيان “ : أو آسمٌ للجَنَّة كما فى قوله تعـالىٰ : ﴿ لَهُمْ دارُ السَّلامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ ثم عَقَّب ذلك بأن قال : والسلام فى هذا الموضع من السَّلَامة ، وتقديمُ السلامة التى تكونُ فى الدنيا أولىٰ من تقـديم الرحمة التى تكون فى الآخرة .

الأســــلوب التاسع
(أن يُفْتَتح الكتابُ بيُقَبِّــل الأرض)

ويتخلص إلىٰ المقصود بلفظ « وينهى » ويقع الاختتام بـ«طالَع » أو « أنهىٰ »
وهذه المكاتبةُ مما هو موجودٌ فى بعض مكاتَبَات القاضى الفاضل، ولم أرها فيما قبله؛
وكأنهم لما آستعمَلُوا فى صُـدُور المكاتبات إلىٰ الخلفاء المكاتبـةَ بيقبل الأرضَ
والعَتَباتِ ونحو ذلك ، آستنبطُوا منه آبتـداءَ مكاتبةٍ وجعلُوها لمكاتبـة الرُّؤساء من
السلطان ومَنْ فى معناه بالنِّسبة إلىٰ المرْءُوس . والأصـلُ فى ذلك أن تحيَّةَ الملوك
والرُّؤساء والأكابر فى الأمم الخالية كانت بالسُّجُود ، كما يُحيِّي المسلمون بعضُهم بعضا
بالسلام . وقد قال قتادةُ فى قوله تعـالىٰ حكايةً عن إخْوة يوسفَ عليهم السلام :
﴿ وخَرُّوا لَهُ سُجَّدا ﴾ : كانت تحيَّـةُ الناس يومَئِذ سُجُودَ بعضهم لبعضٍ ، وعليه حُمِل
قولُه تعالىٰ : ﴿ وإذْ قُلْنَا للمَلَائِكَةِ آسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا ﴾ علىٰ أحد التفاسير، وهو
المرَجَّح عند الإمام فخر الدين وغيره من المفسِّرين . قال الشيخ عمـادُ الدين بنُ كثير
رحمه الله فى تفسيره : وكان ذلك مَشْروعًا فى الأمم المـاضيةِ ولكنه نُسِخ فى مِلَّتنا .
قال معاذٌ «يارســولَ الله ! إنِّى قَدِمت الشامَ فرأيتُهمْ يَسْجُدُون لِأَسَاقِفَتِهِمْ وعلمائِهم
فأنْتَ يارســولَ الله أحَقُّ أن يُسْـجَدَ لك . فقال : [لا](١) لوكنت آمرًا بَشَرا أن
يَسْجُدَ لبَشرٍ لأَمَرْتُ المرأةَ أن تَسْجُدَ لبَعْلِها من عظم حَقِّه عَلَيْها» . وعن صُهَيْب :
«أن مُعاذًا [لمـا](٢) قَدِم من اليمن سَجَد للنبيّ صلّى الله عليه وسلم فقال يامعاذُ [ماهذا ؟
قال](٢) إن اليهودَ تَسْجُد لعُظَمائها وعُلَمائها ، ورأيتُ النصارىٰ تَسْجُد لقِسِّيسيها وبَطَارِقتِها ،
قلتُ ماهــذا ؟ قالوا تَحِيَّةُ الأنبياء ــ فقال عليه الســلام : كَذَبُوا علىٰ أنْبِيائهم » .

---

(١) الزيادة عن تفسير آبن كثير .

(٢) الزيادة عن مفاتيح الغيب للفخر الرازى .

وعن سفيان الثورىّ عن سِمَاكِ بنِ هانئ قال : دخل الجَاثَلِيقُ علىٰ علىّ بن أبى طالب، فأراد أن يَسْجُدَ له، فقال له علىٌّ : أُسْجُدْ لله ولا تَسْجُدْ لِى .

فلما وردتْ شريعةُ الإسلام بنسخ التحيَّة بالسجود وغلبَ ملوكُ العَجَم علىٰ الأقطار، آستصْحَبُوا ما كان عليه الأمرُ فى الأمم الخالية، وعَبَّروا عنه بتَقْبِيل الأرض فِرارًا من آسم السُّجُود ولورود الشريعةِ بالنَّهْيِ عنه ؛ وآستمر ذلك تحيةَ الملوك إلىٰ الآنَ، فاستعار الكُتَّاب ذلك ونقلُوه من الفعل إلىٰ اللَّفْظ ، فاستعملوه فى مكاتباتهم إلىٰ الخُلَفاء والملوك ؛ ثم تَوسَّعُوا فى ذلك فكاتَبُوا به كلَّ مَنْ له عَظَمة بالنسبة إلىٰ المكتوب عنه، ورَتَّبوه مراتِبَ علىٰ ماسيأتى بيانُه فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ . ولا خَفَاء فيما فى هذه المكاتَبة من الكَرَاهة .

الأُسْلوب العاشر

(أن يُفْتَتَح الكتابُ بيقَبِّل اليدَ وما فى معناها من الباسِط والباسطةِ)

ويقع التخلُّص منه إلىٰ المقصود بما يقَعُ به التخلصُ فى الأسلوب الذى قبله من الإنهاء ؛ ويُخْتَمُ بالدعاء ونحوه .

والأصلُ فى هذه المكاتبة أنَّ يُقبِّل اليدَ وما فى معناها مما يُؤْذن بالتعظيم، والتبجيل والتكريم ، وعُلُوِّ القدر وزيادة الرفعة، مع أنه ليس بممنوع فى الشَّريعة . فقد ثبتَ فى الصحيحين فى حَدِيثِ الإفك : «أنه لما أنزلَ اللهُ تعالىٰ بَرَاءَةَ أمّ المؤمنين عائشةَ رضى اللهُ عنها، قال لها أبُوها : قُومِى إلىٰ النّبىّ صلىٰ الله عليه وسلم فَقَبِّلِى يَدَهُ» . ولم يكن الصدّيقُ رضى الله عنه لِيَأْمُرَها بما هو ممنوعٌ فى الشريعة . وقد نَصَّ الفقهاءُ

رحمهم الله على أنه يجوز تَقْبِيلُ يَدِ العالم والرجُلِ الصالح ونحوهما، فاستعار الكُتَّاب ذلك ونقلوه من الفعل إلى الكتابة أيضا، كما فعلوا فى تَقْبِيل الأرض، ورتَّبوه مراتبَ على ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء اللهُ تعالى . على أنَّ بعض الكُتَّاب قد جعل يُقَبِّل القَدَم رتبةً بين يُقبِّل الأرضَ ويُقَبِّل اليد وما فى معناها، وهو ظاهر لكنه لم يشتهر فى عُرْف الكُتَّاب .

الأُسْلوب الحادى عشر

(أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ « صدرتِ المكاتبةُ »)

ويتخلص فيها إلى المقصود بلفظ «وتُوضِّح لعلمه» أو «مُوضِّحة لعلمه» وما أشبه ذلك . ويقع الاختتامُ فيها بمثل « واللهُ الموفِّق» ونحوِ ذلك . وربما قيل فيها : «أصْدِرَتْ هذه المكاتبةُ» أو «أصدَرْناها» .

وأصل هذه المكاتبة أنه كان يُكْتَب فى الدَّوْلة السَّلْجُوقيَّة ببغداد، والدولة الأيوبيَّة بالديار المصرية « صدرت هذه الخدمة » أو « أُصْدِرَتْ هذه الخدمة » . وربما كتب « صدَرَتْ هذه الجملة » فعدل عنه كُتَّاب الزمان بالديار المصرية ومن قارَبَهم إلى التعبير بقولهم : « صَدَرَتْ هذه المكاتَبةُ » . على أن كُتَّاب الزمان بالديار المصرية إنما أخذُوها من صُدُور المكاتبات المفتَتَحة بالدعاء : مثل أعَزَّ الله أنصار المَقَرِّ، حيث يقال فى تصديرها « أصْدَرْناها » ومثل «ضاعفَ اللهُ نِعمةَ الجَناب» و «أدامَ اللهُ نعمةَ الجَناب أو المجلِس» وما أشبه ذلك ، حيث يقال فى تصديرها : « صدَرَتْ هذه المكاتبةُ » فجعلوا الصُّدُور ابتداء .

الأُسلُوب الثانى عشر

(أن يفتتح الكتاب بلفظ « هذه المكاتبـــة »)

ويتخلص منهـا إلىٰ المقصُود بنحو ما وقع التخَلُّص به فى الأُسْـلوب الذى قبله، ويقع الٱختتامُ بمثل ما وقع به ٱختتامُه .

وهذه المكاتبـةُ مأخوذةٌ فى الأصـل من ٱبتدائهم فى الأُسْلوب الخامس بلفظ : « كتابِى إليك » وما فى معناه ، علىٰ أنَّ كُتَّاب الزمان إنما أخذُوا ذلك من المكاتبة التى قبلها، فجعلوا بعضَ الصَّدْر فيها ٱبتداءً، كما جعلوا جميعَ الصَّـدْر ٱبتداءً فى الأُسلوب الذى قبلهـا .

الأسلوب الثالث عشر

(أنـ يفتتـح الكتاب بالإعلام)

كما يكتُب كُتَّاب الزمان : « يعلَمُ فلانٌ أنَّ الأمر كذا وكذا » والٱختتامُ فيها بمثل الأسلوبين اللّذين قبلها ولا تخلُّص فيها، لأن الٱفتتاحَ فيها موَصِّل إلىٰ المقصود . علىٰ أن الصواب إثباتُ اللام فى أوّلها، بأن يقال : «لِيَعْلَمْ فلان» لأن لام الأمر لايجوز حذفها علىٰ ماتقرَّر فى آخر المقـالة الثالثـة . وعلىٰ ذلك كتب غازانُ أحدُ ملوك بنى جنكز خان ببغداد وما معها إلىٰ الملك النـاصر « محمد بن قلاوون » صاحبِ الديار المصرية،وكُتِب الجوابُ عن الملك الناصر إليه كذلك،علىٰ ماسيأتى ذكرُه فى موضعه إن شاء الله تعـالىٰ .

الاسلوب الرابع عشر

(أن يفتتح الكتابُ بلفظ «يخْــدُم»)

مثل « يخْدُم الجنابَ » أو « يخدُمُ المجلس » وما أشبه ذلك . ويكون التخلُّص منها بمثل : « ويُنْهِى » أو « ويُبْدِى » ونحو ذلك ؛ ويقع الاختتام فيها بالدعاء .

وهذه المكاتبةُ كانت مستعملةً فى مكاتبات الفاضل بقِلَّة ، وتداولها الكُتَّاب بعدَ ذلك إلىٰ أن صارت مستعملةً بين الكُتَّاب فى المكاتبات الدائرةِ بين أهل الدَّوْلة فى زماننا ؛ ثم رُفضَتْ بعد ذلك وتركتْ حتّى لم يستعملها منهم إلا القليلُ النادرُ .

الأسلوب الخامس عشر

(أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ الخِلَافة أو المَقام الذى شأنُهُ كذا ، أو الإمارة التى شأنُهـا كذا)

مثل : « خلافة فلان » أو « مَقَام فلان » أو « إمَارَة فلان » وما أشبه ذلك . ثم يقع التخلُّص فى ذلك بمثـل : « معظِّم مقامها يَخُصها بسلامٍ صِفتُه كذا ويبدى لعلمها كذا » وما أشـبه ذلك . ويقع الاختتام فيهـا بالسلام ؛ وهـذا الأسلوب ممـا اختص به كُتَّاب المغرب لا سيما المتأخِّرون منهم، علىٰ ما سيأتى ذكره فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : ووراء هـذه الأساليب أساليبُ أُخرىٰ لكُتَّاب أهـل الشَّرق والغَرْب بالديار المصرية فى الأزمنة المتقدّمة ، لا يأخُذها حصر ، ولا تدخُل تحتَ حدّ ، وأكثر ماتكون فى الإخوانيات ، وسيأتى ذكرُ الكثير من أنواعها فى مواضعه فيما بعدُ إن شاء الله تعـالىٰ .

الجمـــــلة الثـانية
(فى المكاتَبَات إلىٰ أهل الكُفر، وللكُتَّاب فيه أُسْلوبانِ)

الأُسْلوب الأوّل
(أن تُفتَتَح المكاتبـةُ بلفظِ «من فلانٍ إلىٰ فلان»)

وعلىٰ ذلك كتب النبيّ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ أهل الكُفر، وكان يُكتُب فى مكاتباته صلّى الله عليه وسلم: «السلامُ علىٰ مَنِ ٱتَّبعَ الهُدىٰ» بدل «والسلام» ويَتَخَلَّص فيها بأمّا بعدُ تارةً، وبغيرها أُخرىٰ؛ وعلىٰ ذلك جرىٰ الخلفاءُ من الصحابة رضى الله عنهم، وخلفاءُ بنى أُمَيَّة، وخلفاءُ بنى العَبَّاس ببغداد، ومَنْ شاركهم فى الأمر من ملوك بنى بُوَيْه وبنى سَلْجُوق ومَنْ فى معناهم. وتُخْتَتَم هـذه المكاتبة تارةً بلفظ «والسلامُ علىٰ مَنِ ٱتَّبع الهدىٰ» إن لم يذكر السلامُ فى الأوّل، وتارة بغير ذلك.

الاسلوب الثـانى
(أن تُفْتَتح المكاتبـــةُ بالدعاء)

كما يكتُبُ كُتَّاب الزمان «أطـال الله بقاءَ الحَضْرة الفلانية: حضرة المَلِك الفُلَانى» أو «أطال اللهُ بقاءَ المَلِكِ الفلانى» وما أشبه ذلك. وقد تقدّم الخلافُ فى أصل جواز المكاتَبة بالدُّعاء، وما قيل فى الدعاء بطُول البقاء وما فى معناه: من الكراهة، وأن جماعةً من العلماء والكُتَّاب أجازُوه.

فإن قيل: علىٰ تقدير جواز ذلك فى حَقِّ المسلم، فكيف يجوزُ فى حَقِّ الكافر.
فالجواب أنه قد ورد «أنَّ النبيَّ صلّى الله عليه وسلم ٱستَسْقىٰ فسقاه يَهُودِىٌّ،

فقال له : جَمَّلك اللهُ، فما رُؤِىَ الشَّيْبُ فى وَجْهه حتّى مات» فقد دعا صلّى الله عليه وسلم ليُهوديٍّ بالجَمَال ، وقد لا يكون فى طول بقائه علىٰ الإسلام ضَرَرٌ، بل قد يكون فيه نَفْع ، كحَمْل جِزْية ونحوه ، وإنما يُمْنَعُ الدعاء له بالعِزِّ والنَّصر وما فى معنىٰ ذلك .

تنبيه — اعلم أن الأجوبةَ قد تُفْتَتَح بما تُفْتَتح به الآبتداءاتُ من الأساليب المتقدّمة ، ثم يُؤتىٰ بالأجوبة فى أثنائها مثل أن يقال : « وقد وصل كتابُ المَجْلس أو الجَنَاب» أو «وردتْ مكاتبتُه» أو «عُرِضَتْ مكاتبته علىٰ أمير المؤمنين ، أو علىٰ المَسَامع الشريفةِ» وما أشبه ذلك . وقد يُجْعَل الجوابُ آبتداءً ، فيُفْتَتح الكتاب بنحو : «عُرِضَتْ مكاتبتك علىٰ أمير المؤمنين» مثلا كما كان يكتب فى الزمن المتقدِّم ، أو «عُرِضت المكاتبةُ الواصلةُ من جهة المَجْلِس أو الجناب الفلانى علىٰ المَسَامع الشريفة» أو « وردتْ مكاتبتُه » أو « وصلَتْ مكاتبَتُه » ونحو ذلك ، ويؤتىٰ علىٰ ما تضمَّنته المكاتبةُ وما آقتضاه الجوابُ عنه ، ثم يؤتىٰ فى الآختتامِ بنظير ما يُؤْتىٰ به فى المكاتبة المبتَدَأة .

الطـــرف الثـانى

(فى ذكر لواحق المكاتبات ولوازمها ، وفيه ستُّ جملٍ)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى التَّرْجمة عن المكتوب عنـــه)

أما التَّرجمة عن السلطان ، فقد ذكر آبن شيث أنَّ مصطَلَح الدولة الأيوبيَّة أنْ يَكْتُبَ لأرباب خِدْمته العلامة فإنها أليقُ به معهم . فإن أراد تمييزَ أحدٍ منهم ، كتب له بخطه شيئا مكانَ العلامة ، وأن ترجمته للفقهاء والقُضاة وذَوِى التنسُّك «أخوه»

و « ولده » . وذكر أن الأحسن أن يقال فى «ولده» « محل ولده » لقوله تعالىٰ : ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ﴾ أما «أخوه» فلا حَرَج عليه فيه : لقوله تعالىٰ : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقوله : ﴿فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ وذكر أنه يترْجَم لهؤلاء من ولىّ الأمر أيضا : « المعترِف ببركتِـه » و « المُتبرِّك بدعائه » و «المرْتَهِنُ بمودّته » . وذكر أن الفقهاء والقضاة وذَوِى التنسُّك يترْجُمون عن أنفُسِهم بـ«ـالخادم» ودُونَ ذلك «خادِمُه» .

قال : وربمـا ترفَّعوا عن الترجمة بهـذه اللفظة مطلقا فقالوا : « الخادِمُ بالدُّعاء الصالح » أو « الخادِمُ بدُعائه » . قال : وأهل الوَرَع خاصةً يترجمون بـ«ـالفَقِير إلىٰ رحمةِ الله» . وربمـا راعَوُا المترجَم له مثل أن يكون ولىّ الأمر ، فيقول : «العبْدُ الفقير إلىٰ رحمة الله» ويعنى أنه عبـدُ الله ، ويحصُل بذلك المقصودُ من الأدب مع السلطان . ومنهم من يكتُب : «الدَّاعِى لدولته » و « المبتهِلُ بدعائِه الصالح لأيَّامه» و «المواظِب علىٰ خِدْمته بالدعاء» وأمثال ذلك . قال : وأكثر الناس يرىٰ الترجمةَ لولده ، فإن ترجم له لم يسم آسمه لأنه ليس له والدان ، ولا أقل من أن يكون بينه وبين من يكتب بوالده غير الأب هذا الفرقُ ؛ فأما أنْ يقول : «والدُه فلانُ بن فلان» بحيث يذكر آسمَ أبيه فقبيحٌ . ثم قد كانُوا فى الزمن الأوّل يكتَفُون بذكر آسم المكتوب عنه فى صَدْر الكتاب وعُنْوانه ، نحو : « من فلانٍ إلىٰ فلان » ثم أحدث الكُتَّاب فى أيام بنى بُوَيْه وما بعدها تراجِمَ رتَّبوها ، بعضُها أرفعُ من بعض .

وقد ذكر فى "ذخيرة الكُتَّاب" لذلك مراتبَ فى الصُّـدُور والعُنْوان بعضُها أعلىٰ من بعض ، فجعـل أعلاها بالنسـبة إلىٰ المكتوب عنـه أن يُكتَب آسْمُه ، ودونه « صديقُه » ودونه « مُحِبُّه » ودُونَه « شاكِرُه » ودُونَه «المُعْتَدّ به » ودونه «أخُوه» ودُونَه « وَلِيُّه » ودونه « عَبْده » ودونه « خادِمُه » ودُونَه « عبدُه وخادمُه » ودونه

«العبدُ» ودونه «العبدُ الخادمُ» ودُونَه «الصَّنيعةُ» ودونه «مملُوكُه» ودونه «المملوكُ» ودونه «المملوكُ الصَّنيعةُ». وهو الأعلىٰ بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه. ثم قال: ويتفرّع من هذه الأصول فروعٌ كثيرة لاتحصر ممــا يختاره الكُتّاب ويقتَرِحُونه ويَبْتكرونه، ويكاتبون به أصــدقاءَهم وأَوِدَّاءهم حسبَ ما تقتضيه مَوَدّاتُهم وتُوجِبُه مصافاتهم : كصَفِيّ مَوَدّته، والمفْتَخِر بمحبته، والمعتَمِد علىٰ أُخُوّته، وعَبْد مودّته، وخادم مجْدِه، وشاكر أَيَادِيه، وحامد تفَضُّله، والمعتدّ بتَطَوُّله وما يجرى هذا المَجْرىٰ ممــا هو أوسعُ من أن يُجْمَع وأكثَرُ من أن يُحْصَر؛ ولكنه أكثَرُ ما يكون بين النُّظَراء والأقران.

ورَتَّب عبدُ الرحيم بن شيث فى "معالم الكتابة" ترتيبًا آخَرَ: فذكر أن الترجمة إلىٰ ديوان الخلافة من ذَوِى الولايات كلِّهم «العَبْد» ومن الملوك كُلِّهم «الخادِم» وأن الترجمة إلىٰ الملوك من الأجناد كُلِّهم «المملُوك» مع النسبة إلىٰ أشهر ألقاب الملك : كالناصِرى للناصر، والعــادِلىّ للعادل، وما جَرىٰ مَجْرىٰ ذلك. ودُونَ المـملوك فى الخضوع : «عبدُه، وخادمُه» ودونه «العبد» مُفْرَدة. ودُونَه «مملوكه» ودُونَه «العَبدُ الخادم» لأن الثانى كأنه ناسخٌ للأوّل؛ ودُونَه «الخادِم» ودونه «عَبْدُه» ودونه «خادِمُه» ودونه «عبْده وأُخوه» ودونه «أخُوه» ودونه «شاكِرُ تفَضُّــلِه» ودونه «شاكر إحْسانِهِ» ودونه «شاكِرُ مودّته» ودونه «وَلِيُّه وصفِيُّه» ودونه «محبُّه ووادّه وشاكره». ودونه الاسم، ودُونَه العَلَامةُ.

ثم قال: أما «أصغر المماليك» وما يجرى مجراها، فلا يليق من الأجانب. ورأيت فى دُسْتورٍ صغير فى المكاتبات يعزىٰ للمقرّ الشِّهابىّ بن فضــل الله، أن أكبر الآداب فى اسم المكتوب عنه بالنسبة إلىٰ المكتوب اليه «المملوك» ثم «المملوكُ الرِّقّ» ثم «المملوك الأصْغَر» ثم «المملوك المُحبّ» ثم «المملوك الدّاعى» ثم «مملوكُه ومحبه» ثم «الخادم»

ثم «خادمه» ثم «أخوه» ثم «مُحِبُّـه» ثم «شاكره» ثم «الفقيرُ إلى الله تعـالى» . ولا يخفى مافى بعض هـذه التراجم من التخالُف بين ماذكره وما تقدّم ذكره عن "ذخيرة الكُتَّاب".

والذى ٱستقرّ عليه الحـالُ فى زماننا فى ترجمة العَلَامة بالقـلم الشريف السلطانى «أخوه» ثم «والده» ثم الأسمُ؛ وفى حق غيره «المملوك» ثم الأسم . وربمـا كتب بعضهم «العَبْد» بدل الأسم تواضُعا . على أنهم قد ٱختلفوا فى جواز التَّرجمة بالعَبد والمملوك : فذهب بعضُهم إلى منع ذلك، محتجًّا بما رُوِى أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : "لا يَقُولَنَّ احدُكُمْ عَبـدِى ولا أَمَتِى ، كُلُّكم عَبِيدُ اللهِ وكلُّ نِسائكم إماءُ الله ولٰكنْ غُلامِى وجارِيَتِى" . والذى عليه العملُ جوازُ ذلك ٱحتجاجًا بقوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ ﴾ والأستدلال به لايخلو من نزاع؛ وقُضاة القضاة يكتُبون «الدَّاعِى» .

الجمـــلة الثانية

(فى العُنْوان، وفيه ســبْعُ لغات)

حكاها صـاحبُ "ذخيرة الكُتَّاب" . وٱقتصر فى "صناعة الكُتَّاب" على ذكر بعضها : إحداها عُنْوان ـ بضم العين وواو بعد النون . والثانية عُنْيان ـ بضم العين وياء تحتية بعد النُّون . والثالثة عِنْيان ـ بكسر العين . والرابعة عُلْوان ـ بضم العين ولام بدل النون . والخامسة عَلْوان ـ بفتحها . والسادسـة عِلْوان ـ بكسرها . والسابعةُ عِلْيـان بالكسر مع إبدال الواو ياء ؛ ويجمع عُنْوانٌ على عَنَاوِينَ ، وعُلْوان على عَلَاوِينَ . ويقال : عَنْونْت الكتابَ عَنونةً وعَلْونْتُه عَلْونة، وعَنَّنته بنونين الأولى

منهما مشدّدة تَعْنِينا، وعَنَّيته بنون مشدّدة بعدها ياء تَعْنِيَةً، وعَنَوْته أعْنُوه عَنْوا بفتح العين وسكون النون، وعُنُوّا بضمهما وتشديد الواو .

وآختلف فى آشتقاقه : فمن قال عُنْوان، جعله مأخوذًا من العُنْوان بمعنى الأثر، لأن عُنْوان الكتاب [أثر بيان] (١) ممن هو وإلىٰ مَنْ هو . قال النحاس : وأكثر الكُتّاب لا يعرف غير هذا ؛ وآحتجُّوا لذلك بقول الشاعر يذْكُر قتلَ أمير المؤمنين «عثمانَ بن عفّان» رضى الله عنه :

ضَحُّوا بِأَشْمَطَ عُنْوانُ السُّجُود به * يُقَطِّع الليلَ تَسْبِيحًا وقُرْءانا

وزعم بعضُهم أن العُنْوان مأخوذ من قول العرب : عَنَتِ الأرضُ تَعْنُو إذا أخرجت النباتَ، وأعناها المَطَرُ إذا أظهَرَ نباتَها . قال النحاسُ : فيكون عنوانٌ علىٰ هذا فُعْلانا ينصرف فى النَّكِرة ولاينْصَرِف فى المعرفة . وقيل هو مأخوذٌ من عَنَّ يَعِنُّ، إذا عَرَض وبدا . قال النحاس : فعلىٰ هذا ينصرفُ فى النَّكِرة والمعرفة لأنه فُعْلَال .

ومن قال : عُلْوان، أبدل من النون لاما، كما فى صَيْدَلانِى وصَيْدَنانِى؛ فيكون الآشتقاق واحدا. وقيل عُلْوان مشتَقٌّ من العَلَانِيَة، لأنه خطٌّ ظاهرٌ علىٰ الكتاب .

ومن قال : عُنْيان وعِنْيان، جعله من عَنَيت فلانا بكذا إذا قصدته . قال فى "موادّ البيان" : والعُنْوان كالعَلَامة، وهو دالٌّ علىٰ مَرْتَبَة المكتوبِ إليه من المكتوبِ عنه. والأصلُ فيه الإخبار عن آسميهما (٢) حتّىٰ لايكون الكتابُ مجهولا، والمراد أنه يكتب فيه «من فُلان إلىٰ فلانٍ» أو «لِفُلان من فلان» قال : ولم يزالوا يكاتبُون بأسمائهم إلىٰ أن وَلِيَ عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه الخلافةَ ولُقِّب بأمير المؤمنين،

(١) الزيادة من الضوء للؤلف ص ٤٤١ .

(٢) عبارة الضوء والمعنى فيه وهو مراده بما هنا .

فكتب : « مِن عَبْد الله أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب » . ثم وقع الاصطلاحُ على العَنْونة للرُّؤساء والنُّظراء والمرءُوسين والأتباع بالأسماء؛ ثم تغيَّر هذا الرسمُ أيضا .

وكان المأمونُ يكتُب فى أوّل عنوانات كُتُبه : بسم الله الرحمن الرحيم ، فكانت تكتَبُ قبل آسم المكتوبِ إليه والمكتوبِ عنه . وقد ذكر أبو جعفرٍ النحاسُ أن ذلك بقِىَ إلى زمانه ، وكان بعد الثلثمائة . قال فى " موادّ البيان " : ثم بطل بعد ذلك . قال : والأصلُ فيه أن يُبتدأ بآسم المكتوب عنه ثم بآسم المكتوب إليه وهو الترتيبُ الذى تشهدُ به العقولُ : لأن نُفوذَ الكتاب من المكتوب عنه إلى المكتوب إليه كنشْءِ الشىءِ وخروجه من ٱبتداء إلى نهاية . فابتداؤُه من المكتوب عنه ، وٱنتهاؤه إلى المكتوب إليه؛ ولفظ « من » يتقدّم لفظَ «إلى» بالطبع : لأن حرف «من» ينبئ عن مَنْشإ الشىء ، و «إلى» حرف يُخْبِر عن النهاية التى عندها قرارُ الشىء؛ والإبتداآت فى الأشياء قبلَ النِّهايات .

قال : وعلى هذا كانتْ كتبُ رسول الله صلّى الله عليه وسلم ومَنْ سلف من الأمم الماضية ؛ ثم عَرَض للناس رأىٌ فى تغيير هذا الرَّسْم إلى غيره ، ففرّقوا بين مراتب المكاتَبِين من الرؤساء والعظماء والخَدَم والأتباع بتقديم آسمِ المكتوبِ إليه إذا قصدُوا إعظامَه وإجلالَه وتأخير آسم المكتوبِ عنه ، ورأَوْا أنه الصوابُ الصحيحُ . على أن كُتَّاب زماننا يقتصرون فى أكثر عُنْواناتهم على ذكر المكتوب إليه دون المكتوب عنه ولا يذكُرون المكتوبَ عنه إلا فى مكاتَباتٍ خاصّة قليلةٍ . قال فى " صناعة الكُتَّاب " : ولا يتكنَّى المكتوبُ عنه على نظيره ، بل يتسمَّى له ولمن فوقه ، ثم يقول : المَعْروف بأبى فلان . وإن كانت كنيتُه أشهَرَ من آسمه وآسم

أبيه ، جاز أن يَكْتُبَ كنيته بغير ألف ويُجْرِيها مُجْرى الاسم (١) . قال النحاس : وإن كان الكتابُ إلى آثنين أحدُهما أكبرُ من الآخر، فيقدّم الأكبر، وكذلك لو كان إلى ثلاثة . قال أبو جعفر النحاس : وقد آستحسن جماعةٌ أن يصغَّر آسمُ المكتوب عنه على عنوانات الكُتُب، ورأَوْا أن ذلك تواضعٌ . وماذكره هو المستعملُ في المكاتبات الجارى عليه حكمُ الدواوين إلى زماننا . والأصلُ في ذلك ماذكره النحاسُ أن الحجاجَ آبنَ يوسفَ كتب إلى عبد الملك بن مَرْوانَ وهو خليفةٌ في طُومار : « لعبدِ الله عبدِ الملك أمير المؤمنين » ثم كتب في طُرّته بقلمٍ ضئيل : من الحَجّاج بنِ يوسُفَ، فجرى الكُتّاب على أُسْلوبه فيما بعدُ .

قال في "معالم الكتابة" : ولا يُكثِر النعوتَ ولا الدُّعاء على العنوان للسلطان ولا للكبراء، أما من الأعلى إلى الأدنى فحَسَنٌ (٢) . وقد تقدّم في مقدّمة الكتاب أن صاحب ديوان الإنشاء هو الذى يُعَنوِن الكُتُبَ السلطانية ، وأنها كانت لاتُعَنْوَنُ قبل كتابة السلطان عليها علامته ، والذى آستقرّ عليه الحالُ في كُتُب السلطان وما في معناها من المشتملةِ على الألقاب أن تُكتبَ الالقابُ في العُنْوان ، ويُدْعىٰ فيها بدعوة واحدة وهى المفتتَحُ بها المكاتبة .

---

(١) عبارة الضوء « جاز أن يكتب كنيته ويجريها ... ... الخ » وهى واضحة ولكن قد ورد في مسالك الأبصار في كتاب اقطاع النبي صلى الله عليه وسلم إلى تميم الدارى وذكره المؤلف فيما تقدم أن الكنية فيه بغير ألف ونص على ذلك ، فلعل مراده أن الكنية في هذه الكتب تكتب بغير ألف فيقال في أبي بكر بو بكر .

(٢) لأن ذلك يؤذن بتشريف المكتوب إليه كما تقدم .

الجمـــلة الثـالثة

(فى طىّ الكتاب وخَتْمـــه)

أما طَيُّــه فمعروف ، وهو أن يُلَفَّ بعضُه علىٰ بعض لَفًّا خاصًّا . والطَّىّ فى اللغة خلافُ النَّشْر، ويقال : طوىٰ الكتّاب يَطْوِيه طَيًّا ، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ﴾. والترتيب فى ذلك أن تكون الكتابة إلىٰ داخل الكتَاب : لأن المقصودَ صَوْنُ المكتوبِ فيه .

ثم للناس فى صورة الطىّ طريقتان :

الطريقةُ الأولىٰ ــ أن يكون لفُّه مُدَوَّرا كأُنْبوبة الرُّمْح، وهى طريقة كُتَّاب الشرق من قديم الزمان وإلىٰ الآنَ .

والطريقة الثانية ــ أن يكون طيُّه مبسوطا فى قَدْر عَرْض أربعةِ أصابعَ مطبوقة، وعلىٰ ذلك كان الحال جاريا فى الدولة الأيُّوبية بالديار المصريَّة. فقد ذكر عبدالرحيم آبنُ شـيث من كُتَّاب دولتهم : أن طىّ الكُتُب السـلطانية يكونُ عَرْضَ أربعةِ أصابع، وكذلك من العِلْيَــة إلىٰ مَنْ دُونَهم ، أما الكتَّابُ من الأدنىٰ إلىٰ الأعْلىٰ فلا يُتَجاوَزُ به عَرْض إصبعين، وهذا ظاهر فى أن الطَّىّ يكون عَرِيضا لامُدَوَّرا، وهى طريقة أهل المَغْرب والرُّوم والفَرَنْج .

وأماختمه، فالخَتْم مصدر خَتَم، يقال : خَتَم الكتّابَ يَخْتِمُه خَتْما، ومعناه الطَّبْع، ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلىٰ سَمْعِهِمْ ﴾ والمراد شَــدُّ رأس الكتّاب والطبْعُ عليه بالخاتَم، حتّى لايطَّلِـعَ أحدُ علىٰ مافى باطنه حتّى يفُضَّه المكتوبُ إليه، علىٰ ماسيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ . وهو أمر مطلوبٌ مُرَغَّب فيه، فمن كلام عمر

رضى الله عنه : «طِينَةٌ خيرٌ من ظِنَّة» يعنى أنَّ ختْم الكتاب بطينةٍ خيرٌ من ظِنَّة تقع فى الكتاب بالنظر فيه أو زيادةٍ أو نقْص، والظِّنَّة التُّهَمة . ومن كلام غيره : «اخْتِمْ تَسْلَمْ» . ومن كلام غيره : « إن طَيَّنْتَ وإلا وقَعْتَ » يعنى إن طَيَّنْت الكتاب وإلا وقَعْتَ فى المحذور . ويقال : إن فى خَتْم الكتاب تعظيماً للمكتوب إليه . قال بزرجمهر أحدِ ملوك الفُرْس : مَنْ لم يَخْتِم كتاباً فقد ٱستخَفَّ بصاحبه ، وجُهِّل فى رَأْيه . وقد قيل : إن أوّلَ من خَتَم الكتابَ سليمانُ عليه السلام ؛ وقد فُسِّر قوله تعالىٰ حكايةً عن بِلْقِيسَ : ﴿ إِنِّى أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴾ بأنه مختومٌ . وعلىٰ نَهْجه فى ذلك جرتْ ملوكُ العَجَم . قال فى "موادّ البيان" : ولم تزل كتبُ العرب منشورةً حتّٰى كتب عمرُو بن هندٍ الصحيفةَ إلىٰ المتلَمِّس ، فقرأها ولم يُوصِّلْها ، نختمت العربُ الكتبَ من حِينئذٍ . وقد ورد فى الحديث « أن النبىَّ صلّى الله عليه وسلم أرادَ أنْ يَكْتُبَ إلىٰ بعض العَجَم فقيلَ له يارسول اللهِ إنهم لايقرءُون كتاباً غيرَ مختومٍ ، فأمر أن يُتَّخَذَ له خاتَمُ حديدٍ ، فوضَعه فى إصبعه ، فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال له انْبِذْه مِنْ إصْبَعِك ، فنَبَذه وأمر أن يُتَّخَذَ له خاتَمُ نُحاسٍ فوضَعَه فى إصْبَعِه فأتاه جبريلُ عليه السلام فقال انْبِذْه من إصْبَعِك فنَبَذَهُ ، ثم أمر أن يُتَّخذ له خاتَمٌ ، فاتُّخذ له خاتمٌ من فضة نَختَم بِهِ ، وكتب إلىٰ من أراد أن يكتُبَ من الأعاجم ؛ ونُقِش عليه « محمدٌ رسولُ الله » ثلاثةُ أسطر ؛ وكان الخاتَم فى يَد رسول الله صلّى الله عليه وسلم حتّٰى قبضَهُ الله تعالىٰ ؛ ثم تَخَتَّم به أبو بكْر رضى الله عنه حتّٰى قُبِض ؛ ثم تختَّم به عمرُ بنُ الخطاب رضى الله عنه حتّٰى قُتِل ؛ ثم تختَّم به عثمانُ رضى الله عنه ، فبينما هو ذاتَ يومٍ علىٰ بِئْر أَرِيسَ(١) من بِئَار المدينة ، إذ عبَثَ بالخاتَم فسقَط من يَدِه ، فنزحَ كلَّ ما كان فى البِئْر

(١) قال " فى إرشاد السارى" شرح صحيح البخارى ج ٨ ص ٣٦٢ لاينصرف علىٰ الأصح . ونقل صاحب "تاج العروس" عن ٱبن مالك جواز صرفه . وقال ٱبن فارس الهمزة والراء والسين ليست عربية .

من المـاء فلم يُوجَدْ ؛ فلما يَئِسَ منـه أمر أن يُصاغَ له خاتَمٌ مثلُه وينقشَ عليه «محمدٌ رسولُ الله» ففُعِل ذلك وتختَّم به . هكذا أورده صاحب "ذخيرة الكتاب" وبعضه فى الصحيح . وقيل : إن نقش الخاتم الذى آتخذه كان « آمنْتُ بالّذِى خَلَق فَسَوّى» . وقيل : كان نَقْشه «لَتَصْبِرَنَّ أو لَتَنْدَمَنَّ» .

ثم كان لكلٍّ من الخلفاء بعد عثمانَ رضى الله عنـه خاتَمٌ يختِمُ به ، عليه نقشٌ مخصوصٌ : فكان نقشُ خاتمَ أمير المؤمنـين علىِّ بن أبى طالب رضى الله عنه "المُلْكُ لله الواحدِ القهّار" ونقش خاتم آبنه الحَسَن "لا إلهَ إلا اللهُ الملِكُ الحقُّ المُبِين" ونقش خاتَم معاويةَ بنِ أبى سفيان "لكلِّ عَمَلٍ ثَوابٌ" وقيـل : "لا قُوّةَ إلّا بالله" ونقش خاتَم يزيدَبن معاوية "رَبُّنا اللهُ" ونقش خاتم معاويةَ بن يزيدَ "الدُّنْيا غُرُور" ونقش خاتم مَرْوانَ بن الحكم "اللهُ ثِقتِي ورَجائى" ونقش خاتم عبدالملك بن مَرْوانَ ، "آمنْتُ بالله مُخْلِصا" ونقش خاتم الوليد بن عبدالملك "ياوليدُ إنَّكَ ميِّت ومحاسَبٌ !" ونقش خاتم عمرَ بنِ عبد العزيز "عمرُ بنُ عبد العزيز يُؤْمِنُ بالله" ونقش خاتم يزيد بن عبد الملك "قِنِي السَّيِّئاتِ ياعزيزُ" ونقش خاتم هِشَام بن عبـد الملك "الحُكْم للحَكَم الحكيم" ونقش خاتم الوليد بن يزيد "يا وليدُ آحذرِ الموتَ" ونقش خاتم يزيد بن الوليد "يا يزيدُ قُمْ بالحَق" ونقش خاتم إبراهيم بن الوليد "توكَّلْتُ علىٰ الحىّ القَيُّوم" ونقش خاتم مروان بن محمد "آذكُرِ اللهَ يا غافلُ" .

وكان نقشُ خاتم السَّفّاح : أوّلِ خُلفاء بنى العبّاس "اللهُ ثقةُ عبدِالله" ونقشُ خاتم المهدى(١) "حَسْبىَ اللهُ" ونقش خاتم الرَّشيد "العظمةُ والقُدْرةُ لله" . وقيـل : "كُنْ من الله علىٰ حَذَر" ونقش خاتم الأمين "محمدٌ واثقٌ بالله" ونقش خاتم المأمون

(١) لم يذكر نقش خاتمى المنصور والهادى .

"سَلِ اللهَ يُعْطِيك" ونقش خاتم المعتصِم "اللهُ ثقةُ أبى إسحاقَ بن الرشيد و به يُؤمِن" ونقشُ خاتَم الواثق "اللهُ ثِقةُ الواثِق" ونقش خاتم المتوكِّل "علىٰ الحَىّ ٱتكالِى" ونقش خاتم المنتصِر "يُؤْتىٰ الحَذِرُ من مأْمَنِه" ونقش خاتم المستعين "فى الاعتبار غَنَاء عن الاختبار" ونقش خاتم المعتز "الحمـدُ للهِ ربِّ كلِّ شىء وخالقِ كلِّ شىء" ونقش خاتم المهتدى "من تعدّى الحقَّ ضاقَتْ مَذَاهِبُه" ونقش خاتم المعتمد "السَّعيد من وُعِظَ بغيره" ونقش خاتم المعتضد "الاضْطرار يُزيل الاخْتيار" ونقش خاتم المكتفِى "باللهِ عَلِيُّ بنُ أحمدَ يَثِق" ونقش خاتَم المقْتَدِر بالله "الحمدُ للهِ الذى ليس كمثله شىءٌ وهو خالقُ كل شىءٍ" ونقش خاتم القاهر "محمدٌ رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم" ونقش خاتم المتَّقِى "المتَّقِى لله" كلقبه للخلافة ، ونقش خاتم المستكْفِى "المستكْفِى باللهِ يَثِق" ولم أقف علىٰ نقش خاتم أحد من الخلفاء غير هؤلاء .

وٱعلم أنه كان للختم فى أيام الخُلَفاء ديوانٌ مفْرَد يعبَّر عنـه بديوان الخاتم . وقد ٱختلِف فى أوّل من ٱتَّخَذ ديوان الخاتَم : فروىٰ محمدُ بن عمر المـدائنى فى كتاب "القلم والدواة" بسنده إلىٰ ٱبن عمرَ رضى الله عنه أنه قال : لم يكُنْ أبو بكر ولا عمرُ يلْبَسُون(١) خواتِمَ ولا يَطْبَعون كتابا ، حتّى كتب زيادُ بنُ أبى سـفيان إلىٰ عمر بن الخطاب رضى الله عنـه : إنك تكتُبُ إلينا بأشياءَ ليستْ لهـا طوابِعُ ، فاتخذَ عند ذلك عمرُ طابَعًا يطبَع به ، وخزم الكتاب ولم يكن قبـلُ يُخْزَم .

ومقتضىٰ ذلك أن يكون أوّلُ من ٱتخذ الخَتْمَ عمرَ بن الخطاب رضى الله عنـه ، ويكون لبسُه خاتمَ النبىّ صلّى الله عليه وسلم لغير الخَتْم . وذكر الطبرىّ فى تاريخه : أن أوّل مَنِ ٱتخذ ذلك معاويةُ بنُ أبى سفيان فى خلافته ، وذلك أنه أمر لعمرو بن

(١) استعمل صيغة الجمع للتعظم أو أراد به مافوق الواحد .

الزبير بمـائة ألفٍ من عنـد زياد، ففتح الكتّابَ وجعل المـائة مائتين ؛ فلما رفع زيادٌ حسابَهُ أنكر ذلك معاويةُ، وطلب عَمْرا فحبسه حتّى قضاها عنه أخوه عبدُ الله ٱبن الزُّبَيْر وٱتخـذ معاويةُ حينئذ ديوانَ الختم ، وخَزَم الكتاب ولم يكن قبل يُخْزَم .

قال القاضى «ولِىُّ الدين بن خَلْدون» فى تاريخه : وديوان الخَتْم عبارةٌ عن الكُتّاب القائمين علىٰ إنفاذ كُتُب السـلطان . قال : وهذا الخـاتم خاصٌّ بديوان الرسائل ، وكان ذلك للوزير فى أيام الدولة العباسية. ويشهد لذلك قولُ الرشيد ليحيىٰ بن خالدٍ لمـا أراد أن يستَوْزِر جعفرًا، ويستبدل به من الفَضْل أخيه: إنى أحوّل الخاتم من يمينى إلىٰ شِمَالى، فكنىٰ بالخاتم عن الوزارة ، لأنضمام ديوان الرسائل إلىٰ الوزير إذْ ذاك . ثم ٱختَلف العُرْفُ بعد ذلك ، فصار ليس إليه الرسائل فى الدولة .

ثم للختم ثلاثُ صُـــوَر :

الصورة الأُولىٰ — أن يُلْصَق رأْس الكتاب بنوع من أنواع اللِّصاق، كالكَثيراء المُدَافة بالمـاء، والنَّشَا المطبُوخ ونحو ذلك . وهـذا هو المستعملُ بالديار المصرية وبلاد المشرِق من قـديم الزمان وهلُمَّ جَرًّا إلىٰ زماننا ؛ والمسـتعْمَل بالدواوين هو النَّشَا دونَ غيره ، لنَصَاعة بَيَاضه وشدّة لِصَاقه . قال فى "موادّ البيان" : ويجب أن يكون اللِّصاقُ خفيفا كالدُّهن لئلا يتكَرَّس ويكْثُف فى جانب الورق. وقد كانت عادتهم فى بلاد المشرق أيامَ الخلفاء أن يُخْتَم بخاتم الخليفة ، بأن يُغْمَس فى طين معدّ لذلك أحمرَ الصبغ، ويختم به علىٰ طرفَىِ اللِّصاق، ليقوم مَقامَ علامة الخليفة . وكان هذا الطين يجلب إليهم من سِيرافَ من بلاد فارس، وكأنَّه مخصوصٌ بها؛ وعلىٰ نهج الخلفاء جرىٰ الملوكُ حينئذ . والذى ٱستقرّ عليه الحالُ الآنَ بالديار المصرية ونحوها من البلاد الشرقية الاقتصارُ علىٰ مجرّد اللِّصاق ٱكتفاء بمـا فيه من الضـبط وظهور

فَضِّــه إن فُضَّ . وهذه المسئلة ممــا سأله الشيخُ جمــال الديــن بن نُباتةَ كُتَّاب ديوان الإنشاء بدِمَشْق مخاطبا به للشيخ جمال الدين محمود الحلبي ـ فقال : ومَنْ ختم الكتاب بالطين و رَبَطه ؟ ومن غَيَّر الطين إلىٰ النَّشا وضَبَطه ؟ . وقد سبق الكلامُ فى النَّشا وسائر أنواع اللَّصاق فى الكلام علىٰ آلات الدواة فى المقالة الأُولىٰ .

الصورة الثانيــة ــ أن يُخْزم الكتابُ من وَسَطه بالأشــفار حتّٰى تنفُذَ فى بعض طَيَّات الكتاب ثم تخرج من وجه الورق أيضا ، و يدخل فيه دَسْرة[1] من الورق كالسَّيْر الصغير و يُقَطّ طَرَف الدسرة ؛ ثم يُلْصَق علىٰ ذلك بشَمَع أحمر ؛ ثم يختم عليه بخاتم يظْهَر نقشُه فيه ، ويسمّٰى هذا النوع من الختم الخَزْم ـ بالخاء والزاى المعجمتين ـ أخذا من خَزْم البعير ، وهو أن يُثْقَب أنفهُ و يجعَل فيه خيط أونحُوه . ولعل هذه الطريقةَ من الختم هى التى كان عليها الحالُ حين أُحْدث الختمُ فى صَدْر الإسلام ، و يدل علىٰ ذلك قول آبن عُمَر رضى الله عنه فى رواية الطبرى[2] المتقدّمة : ونَخَزَم الكتاب ولم يَكُنْ قبْلُ يُخْزَم . وعلىٰ هذا الآن أهلُ المغرب والرُّوم والفَرَنْج ومَنْ فى معناهم .

الصورة الثالثــة ــ أن يلَفَّ علىٰ الكتاب بعــد طَيِّه قُصاصةٌ من الورق كالسَّيْر فى عرض رأس الخِنصر ، وتلف علىٰ الكتاب ثم يُلْصق رأسُها ؛ و يكون ذلك فى الرِّقاع الصغيرة المتردِّدة بين الإخوان ، وتسمّٰى القُصاصة التى يُلْصَق بها سَحَاءة ـ بفتح السين و بالمدّ ، وتقال بكسر السين أيضا ، ور بما قيل سِحَايَة ؛ و يقال فيه : سَحَوتُ الكتاب

(١) مراد المؤلف بالدسرة الدسار أى المسمار أوالخيط من الليف وجارى العامة فى تعبيرهم عنه بالدسرة .

(٢) الذى تقدم عن الطبرى أن أول من اتخذ الختم والخزم معاوية وأما رواية ابن عمر التى تفيد أن أوّل من اتخذ الختم والخزم عمر فقد رواها محمد بن عمر المدائنى ففى الكلام سهو واشتباه .

أسْحُوه سَحْوا ، وسَحَّيته بالتشديد أُسَحِّيه تَسْحِيَة فهو مَسْحوٌّ ومَسْحِيٌّ ومُسَحًّى؛ والأمر من سحوتُ الكتابَ أسْحُ ، ومن سَحَّبته بالتشديد سَحِّ ، وأصله من السَّحْو وهو القَشْر . يقال : سحوتُ اللحمَ عن العَظْم إذا قشرته .

الجمـــلة الرابعة
(فى حَمْـــل الكتاب وتأْديتـــه)

وهو من جملة الأمانات الداخلةِ فى عموم قوله تعالىٰ : ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلىٰ أهْلِها﴾ . وقد رُوِى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : من أعْظَم الأمانةِ أداءُ الكتابِ إلىٰ أهْـله . قال محمد بن عمر المدائنى : حملُ الكتاب أمانةٌ ، وتركُ إيصاله خِيانة . وقد رُوِى أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : "مَنْ بَلَّغ كتابَ غازٍ فى سبيلِ اللهِ إلىٰ أهْلِهِ أو كتابَ أهله إليه ، كانَ له بكُلِّ حرفٍ عِتْقُ رقبَةٍ وأعطاه اللهُ كتابَهُ بيمينِهِ وكتب له براءةً من النار" . وقد نطق القرءان الكريم بتأدية الهُدْهُد كتابَ سليمان عليه السلام إلىٰ بِلْقِيس ، حيث قال حكايةً عن سليمان : ﴿اذْهَبْ بِكِتَابِي هٰذا فأَلْقِهْ إلَيْهِمْ﴾ إلىٰ أن قال : ﴿قالَتْ يأَيُّها المَلأُ إنِّى أُلْقِيَ إلَىَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ﴾ .

وقد وردت الأحاديث بأن النبيّ صلّى الله عليـه وسلم كان يبعث كُتُبَه مع رُسُله إلىٰ الملوك : فبعثَ عبدَ الله بنَ حُذافـة إلىٰ كِسرىٰ أبرويز ملكِ الفرس ؛ وبعث دِحْيَـةَ الكلبيَّ إلىٰ قَيْصَر ملك الروم ؛ وبعث حاطبَ بنَ أبى بلتَعـةَ إلىٰ المُقَوْقِس صاحب مصر ؛ وبعث عمرو بنَ أُمَيَّة الضَّمْرِيّ إلىٰ الضَّحَّاك (١) ملك الحبشة ؛ وبعث شُجاعَ بنَ وهْب الأسدىَّ إلىٰ الحارث بن أبى شمر الغسَّانى ؛ وبعث سَليطَ بنَ عمرو

---

(١) فى الضوء "النجاشي" .

إلىٰ هَوْذَةَ بن علىّ صاحب اليمامة ؛ وبعث العَلَاء بن الحَضْرمىّ إلىٰ المنذر بن ساوىٰ ملك البحرَيْن ؛ وبعث عمرو بنَ العاص إلىٰ عبدٍ(١) وجَيْفرٍ ٱبنَىِ الجُلَنْدىٰ ملِكَىْ عُمانَ . قال ٱبن الجوزىّ : وبعث جريرَ بنَ عبد الله البجلىَّ إلىٰ ذى الكَلَاع الحِمْيرىّ .

وٱعلم أنه يجب أن يكون حاملُ الكتاب المؤدّى له عن الملك ونحوه وافِرَ العقل، شديدَ الشَّكِيمة فى الجواب، طَلْق اللسان فى المُحاوَرة، فإنه لسانُ مَلِكه، وتَرْجمانُ مُرْسِله، وربما سأله المكتوبُ إليه عن شيءٍ أو أورد عليه ٱعتراضًا فيكون بصدد إجابته. وقد قيل : إنه يُستَدَلُّ علىٰ عقل الرجل بكتابِهِ ورسولِهِ. ومن غريب ما يُرْوىٰ فى ذلك ما ذكره ٱبنُ عبد الحَكَم : أن النبىَّ صلّى الله عليه وسلم لما بعث حاطِبَ ٱبنَ أبى بَلْتعَةَ إلىٰ المقَوْقِس صاحب مِصْر، وبَلَّغه كتابَ النبىّ صلّى الله عليه وسلم، قال له : مامنَعه أن يَدْعُوَ علَىّ فيُسَلَّطَ علَىّ ؟ ـ قال له حاطبٌ : مامنع عيسىٰ أن يَدْعُوَ علىٰ من أبىٰ عليه أن يَفْعَل ويَفْعل ؟ فوجِمَ ساعةً ثم ٱستعادها، فأعادها عليه حاطبٌ، فسكت. ويُرْوىٰ : أنه حين سأله عن أمْر النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى حَرْب قومه، وذكر له أنَّ الحَرْبَ تكونُ بينهم سِجَالا : تارةً له وتارةً عليه، قال له المقوقس : النَّبِىُّ يُغْلَب ! فقال له حاطب : فالإلٰهُ يُصْلَب ! ـ يشير بذلك إلىٰ ماتزعُمه النصارىٰ من أن المسيح عليه السلام صُلِب مع دعواهم فيه أنه إلهٌ .

وذكر السُّهَيلىّ أن دحيةَ الكَلْبىّ حين دخل علىٰ قَيْصَر بكتاب النبىّ صلّى الله عليه وسلم، قال له دحية : هل تَعْلَمُ أكان المسيحُ يُصَلِّى ؟ قال نعم، قال : فإنِّى أدعوك إلىٰ مَنْ كان المسيحُ يُصَلِّى له، وأدعوك إلىٰ من دَبَّرخلقَ السمواتِ والأرضِ والمسيحُ فى بطن أمه . فألزمه من صلاة المسيح أنه عبدٌ لله تعالىٰ، وضَمَّن ذلك بيتًا من أبيات له فقال :

(١) كذا فى "المواهب اللدنية" أيضا . والذى فى القاموس عبد الله .

فقرّرْتُه بصَــلَاة المَسيح ، * وكانتْ من الجَوْهَرِ الأحمرِ!

ويُحْكىٰ أن بعضَ ملوك الرُّوم كتب إلىٰ خليفةِ زمانه يَطْلُب منه مَنْ يناظر علماءَ النَّصرانية عنده فإن قَطَعهم أسلموا،فوجَّه إليه بالقاضى أبى بَكْر بن الطيِّب المالكىّ، وكان من أئمة علمــاء زمانه؛ فلمــا حضر المجلسَ وٱجتمع لَدَيْه علماءُ النصارىٰ، قال له بعضهم : إنَّ معْتَقَدكم أن الأنبياءَ عليهم السلام معصومون فى الفِرَاش ، وقد رُميتْ عائشةُ بمــا رُمِيَتْ به : فإن كان مارُمِيتْ به حَقًّا، كان ناقضًا لأصلكم الذى أصَّلْتُموه فى عِصْــمة الأنبياء فى الفِرَاش ، وإن كان غيرحقٍّ كان مؤَثِّرًا فى إيمــان مَنْ وَقَع منــه . فقال القاضى أبو بكر : امرأتانِ حَصِينتانِ رُمِيَتَا بالفِرْية ، إحداهما لها زوجٌ ولاولَد لها ، والأخرىٰ لها ولَدٌ ولا زَوْجَ لها ـ يشير بالأولىٰ إلىٰ عائشةَ رضى الله عنها ،وبالثانية إلىٰ مريمَ عليها السلام ، فسجدُوا له علىٰ عادة تحيَّتهم فىذلك ، إلىٰ غير ذلك من الوقائع التى لاتُحْصىٰ كثرةً .

فإذا كان الرسول متمكِّنًا من عقله ، عالمــا بمــا يأتى وما يَذَر ، كفىٰ مَلِكَه مَئُونة غيبته ، وأجاب عن كل مايُسْأل عنــه ؛ وإذا كان بخلاف ذلك ٱنعكست القضيَّة ، ورجع علىٰ مُرْسِلِه بالوَبَال . ثم إن ٱقتضىٰ رأْيُ الملك زيادةً فى الرسالة علىٰ الرسول الواحد فعل : ليتعَاونَا علىٰ مافيه المصلحةُ ، ويتشاوراَ فيما يفعلان ، فقد ذكر السهيْلى : أن جَبْرا مولىٰ أبى ذَرّ(١) الغفارىّ كان رسولا مع حاطب بن أبى بلتعة إلىٰ المقَوْقِس . وإن اقتضىٰ الحالُ إرسالَ أكثَرَ من ٱثنين أيضا فعــل ، فقد ذكر ٱبن الجوزىّ أن أبا بكر الصدّيقَ رضى الله عنه فى خلافته بعَثَ إلىٰ قَيْصَرَ ثلاثةَ رُسُل ، وهم : هشام ٱبن العاص ، ونُعَيم بن عبد الله ، ورجل آخر .

(١) فى شرح المواهب اللدنية ج ٣ ص ٣٩٨ عن السهيلى مانصه "مولى أبى رهم الغفارى وهو وهم فالذى فى الاستيعاب والاصابة وغيرهما أن جبرا كان من القبط وأنه رسول المقوقس بمارية اليه صلى الله عليه وسلم".

ومما يجب التنبيه عليه أنه يحرُمُ علىٰ حامل الكتاب النظرُ فيه ، والاطّلاع على ماتضمّنه . قال محمد بن عمر المدائنى : فى فَضِّ الكتاب إثمٌ وسوءُ أدبٍ ، وساق بسنده إلىٰ معاذِ بن جَبَل رضى الله عنه أنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: "من اطّلَع فى كِتابِ أَخِيه بغَيْرِ إذْنِه، أطْلَعه طَلْعةً فى النارِ" .

الجملة الخامسة

(فى فَضِّ الكتاب وقراءتِه)

أما فَضُّه فالمراد فَكُّ خَتْمه وفتحُه ،والفَضُّ فى أصل اللغة الكَسْر والتفريق ؛ومن الأوّل ماثبت فى الصحيح من قول القائلة لابنِ عَمِّها فى قِصَّة الثلاثة الذين دَعَوُا الله بأحبِّ أعمالهم : « اتَّقِ اللهَ ولا تفُضَّ الخاتَمَ إلا بحَقِّه » تريد إزالة بَكَارتها . ومن الثانى ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لاتُنْفِقُوا علىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُّوا﴾ . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المقالة الثانية أن الرسول أو البَرِيدىّ الواصلَ إلىٰ باب السلطان يقدّمه الدَّوادارُ إلىٰ السلطان ، ثم يتناولُ الكتابَ منه ويَمْسَحُ به وجه مَنْ حضر علىٰ يده ، ثم يَدْفَعه إلىٰ السلطان فيفُضُّ خِتامَه ، ثم يتناوله الدَّوادارُ من السلطان ويدْفَعه إلىٰ كاتب السر ، فيقرؤه علىٰ السلطان .

واعلم أن لفض الكتاب حالتين :

الحالة الأولىٰ ــ أن يكون مختومًا باللِّصاق بالنَّشا علىٰ طريقة المَشارقة وأهل الديار المصرية ، فيشقّ ظاهره على القُرْب من محلِّ اللِّصاق بسِكِّين ثم يفتح .

الحالة الثانية ــ أن يكون مخزومًا مسمَّرا بدَسْرة من الورق علىٰ عادة المغاربة ومَنْ جرىٰ مَجْراهم ، فيرفع الختمُ المُلْصَقُ عليه من الشَّمَع ، وتُقْلَع الدَّسْرة ويفتح الكتاب .

وأما قراءة الكُتُب فإنه يجب أن يكون مَنْ يقرأ الكتبَ على الملوك ومَنْ في معناهم ماهرًا في القراءة، فَصِيحَ اللسان في النُّطْق، رقيقَ حاشية اللّسان في حسن الإيراد، قويّ المَلَكة في آستخراج الخطوط المختلِفة، سريعَ الفَهْم في إدراك المعانِي الخفِيَّة ؛ وأن تكون قراءتُه على رئيسه ـ من سلطان أو غيره ـ بحسَبِ ما يُؤْثِر ملكُه أو أميرُه سماعَه من السُّرعة والبُطْء، وأن يكون ذلك بصوتٍ غيرِ خَفِيّ بحيث يعسُر سمـاعُه ، ولا مرتفع بحيث يُعَدُّ صاحبُه خارجا عن أدب المخاطبـة للأكابر، وأن يُقرِّب لمن يقرأ عليه فهمَ المقاصد التي آعتاصَتْ عليـه إذا سأله عنها ، أو غلب على ظنه أنها لم تَصِل إلى فَهْمه، بحسن إيراد، وتلطيفِ عبارة يحْسُن موقِعُها في النفوس ويجمُل وَقْعُها في الأذهان .

الجمـــــلة السادسة

(في كراهـــة طَرْح الكتاب بعـــد تخزيقه : وهو فَضُّـــه ، وحِفظِه بعد ذلك في الإضْـــبارةِ)

أما كراهةُ طَرْحه فقد قال محمد بن عمر المدائني في كتاب "القلم والدواة": كَرِهوا تَخْزيق الرسائل ورمْيَها في الطُّرُق والمَزابل، خوفا على آسم الله تعالى أن يُداسَ، أو تلحَقَه النجاســةُ والأدْناس . قال : وفي رَفْع ما طُرِح من الكتاب أعظمُ الرغائب وأجلُّ الثواب، وساق بسنده إلى أمير المؤمنيـــن عليّ بنِ أبي طالب كرّم الله وجهه أنه قال : قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم : "ما منْ كتابٍ يُلْقى ببُقْعةٍ من الأرض فيه

ٱسمٌ من أسماءِ اللهِ إلّا بعثَ الله إليه سبعينَ ألفَ مَلَكٍ يحُفُّونه بأجْنِحَتِهم ويُقَدِّسُونَه، حتّى يبعثَ اللهُ إليه وَلِيًّا من أوْليَائِهِ فيرْفَعُهُ مِنَ الأرْضِ . ومَنْ رفعَ كتابًا من الأرضِ فيه ٱسمٌ من أسماء الله تعالىٰ، رفع اللهُ ٱسْمَهُ فى عِلّيين وخَفَّف عن والدَيْهِ العذابَ وإنْ كانَا مُشْرِكَيْنِ" . ويروىٰ : "مَنْ رَفَع قِرْطاسًا من الأرضِ فيه مكتوبٌ «بسم الله الرحمن الرحيم» إجْلالًا له أن يُدَاسَ، أدخَلَهُ اللهُ الجنةَ وشَفَّعه فى عِشْرِينَ من أهْلِ بيتِهِ كُلُّهُمْ قد وجَبَ له النارُ" .

وأما حفظُه فى الإضبارة فهو أمر مطلوب؛ والإضبارةُ عبارةٌ عن ورقةٍ تُلَفُّ علىٰ جملة من الكتب قد جُمِعتْ فى داخلها ويُلْصَق طَرَفها بالنَّشا . والقاعدة فيها أن تُلْوىٰ الكسرة من أسفلها ، وإن طال بعضها فى طَيِّه وقَصُر بعض جعل التفاوت فى الطُّول والقِصَر من أعلاها . قال فى "صناعة الكُتَّاب" : ومعناها الجمع ، لأنها يُجمَع بعضُها إلىٰ بعض . ومنه قيل : تَضَبَّر القومُ إذا تجمَّعُوا ، ورجل مضَبَّر الخَلْق أى مجتمِعُه، وناقة مضَبَّرة ومَضْبُورة، وضَبَر الفرسُ إذا جمَعَ قوائِمَه ووَثَب . ويقال للإضْبارة أيضا إضامةٌ[(١)] بكسر الهمزة وتشديد الميم لضم بعضها إلىٰ بعض ، والمعنىٰ فيها صيانةُ الكُتُب وحفظُها عن الضَّياع . وقد جرتْ عادةُ كُتَّاب ديوان الإنشاء بالديار المصرية أن يجعلَ لكل شهر إضبارةٌ تجمع فيها الكتبُ الواردةُ علىٰ أبواب السلطان من أهل المملكة وغيرهم ، ويُكْتَب عليها « شهر كذا » . وقد سبق القول فى مقدّمة الكتاب أن الديوان كان له فى زمن الفاطميين كاتبٌ يكتُب الكتب

(١) كذا فى الاصول والضوء والذى فى أمهات اللغة بهذا المعنى فى مادة ض م م « إضمامة » أى بكسر الهمزة وتخفيف الميمين بينهما ألف فتنبه .

الواصلةَ ويبسُط عليها جرائدَ ، كما يكتبُ الكتبَ الصادرة عن الأبواب السلطانية ويبْسُط عليهـا جرائد، وأن ذلك بطل فى زماننـا وصار الأمرُ قاصرًا فيها علىٰ حفظ الكتب فى الإضْبارات ، متىٰ آحتِيجَ إلىٰ الكَشْف عن كتاب منها ، أُخِذ بالحَدْس أنه ورد فى السنة الفلانية، وتُكْشَف إضباراتها واحدةً بعد واحدة حتّىٰ يقع العُثورُ عليه، ولا خفاءَ فيما فى ذلك من المشَقَّة ، بخلاف ما إذا كان لها جرائد مبسوطة ، فإنه يسهُلُ الكشف منها ، ويستدلُّ بتاريخه علىٰ إضبارته فتُخْرَج ويقع الكشْفُ منها ، ولكن أُهْمِل ذلك فى جملةِ ما أُهْمِل .

البــاب الثــانى

من المقالة الرابعـــة

(فى مصطلَحَات المكاتبات الدائرة بين كُتَّاب أهل الشرق والغرب
والديار المصرية فى كل زَمَن من صَــدْر الإسلام
وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا، وفيه ستة فصول)

الفصـــل الأوّل

(فى الكُتُب الصادرة عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم، وفيه ثلاثةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى ذكر ترتيب كُتُبه صلّى الله عليه وسلم فى الرسائل علىٰ سبيل الإجمال)

كان صلّى الله عليه وسلم يفْتَتِح أكثر كُتُبه بلفظ «من محمد رسول الله إلىٰ فلان» وربمــا آفتتحها بلفظ «أما بعد» وربما آفتتحها بلفظ «هذا كتابٌ» وربمــا آفتتحها بلفظ "سلم أنت" .

وكان يصرِّح فى الغالب بآسم المكتوب إليه فى أوّل المكاتبات، وربمــا آكتفىٰ بشهرته (١) . فإن كان المكتوبُ إليه ملِكًا كتب بعد ذكره آسمه «عَظِيم القوم الفلانيين» وربمــا كتب «مَلِك القوم الفلانيين» وربمــا كتب «صاحِب مَمْلكة كذا» .

وكان يعبِّر عن نفسه صلّى الله عليه وسلم فى أثناء كُتُبه بلفظ الإفراد. مثل: «أنا» و «لِى» و «جاءِنى» و «وفد علىّ» وما أشبه ذلك ، وربمــا أتىٰ بلفظ الجمع مثــل «بلغنا» و «جاءنا» ونحو ذلك .

---

(١) أى بمــا آشتهر به كالقيصر ونحوه .

وكان يخاطبُ المكتوبَ إليه عند الإفراد بكاف الخطاب . مثل : «لك» و « عليك » وتاء المخاطب . مثل : « أنتَ قلتَ كذا وفعلتَ كذا » . وعند التثنية بلفظها مثل : «أنتما» و «لكما» و «عليكما» . وعند الجمع بلفظه . مثل : « أنتم » و « لكم » و «عليكم» وما أشبه ذلك .

وكان يأتى فى صدور كُتُبه بالسلام . فيقول فى خطاب المسلم « سلامٌ عليك » وربما قال : « السلامُ علىٰ مَنْ آمنَ بالله ورسولِهِ » وفى خطاب الكافر : «سلامٌ علىٰ من ٱتَّبَع الهُدىٰ » وربما أسقَط السلامَ من صَدْر الكتَاب .

وكان يأتى فى صدور الكتب بالتحميد بعد السلام . فيقول : «فإنّى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو» وربما تركه، وقديأتى بعد التحميد بالتشهُّد وقد لايأتى به .

وكان يتخلَّص من صدر الكتاب إلىٰ المقصود تارةً بأما بعدُ وتارة بغيرها .

وكان يختِمُ كُتُبه بالسلام تارة، فيقول فى خطاب المسلم : «والسَّلامُ عليك ورحمة الله وبركاتُه» وربما ٱقتصرعلىٰ السلام . ويقول فى خطاب الكافر : «والسلامُ علىٰ من ٱتَّبع الهُدىٰ» وربما أَسقَط السلام من آخرِ كُتُبه .

أما عنونةُ كتبه صلّى الله عليه وسلم، فلم أقِفْ فيها علىٰ نَصٍّ صريح، والذى يظهر أنه صلّى الله عليه وسلم كان يُعَنْوِن كُتُبَه بلفظ : «من محمد رسول الله إلىٰ فلان» علىٰ نحو ما فى الصَّدر، وتكون كتابته « من محمد رسول الله » عن يمين الكتَاب ، و « إلىٰ فلان » عن يساره ، وعليه يدلُّ ما تقدّم من كلام صاحب "موادِّ البيان" فى الأصل الثانى عشر من أصول المكاتبات حيثُ ذكر فى الكلام علىٰ العُنْوان أن الأصل أن يُبتدأَ باسم المكتوب عنه ويثنّٰى باسم المكتوب إليه، ثم قال : وعلىٰ هذا كانتْ كُتُب رسول الله صلّى الله عليه وسلم .

الطـــرف الثـانى

(فى كتبه صلّى الله عليه وســلم إلىٰ أهل الإســلام ،

وهو علىٰ ثلاثةِ أساليبَ)

الأُسْــلُوب الأوّل

(أن يفتَتِح الكتَابُ بلفظ «من محمد رسول الله إلىٰ فلان»)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ خالدِ بنِ الوليدِ، فى جوابِ كتابِهِ إليه صلّى الله عليه وسلم بإسلامِ بنى الحارث وهو علىٰ ماذكره ٱبن إسحاقَ فى سيرته :

"من محمدٍ رسول اللهِ إلىٰ خالدِ بنِ الوليدِ :

سـلامٌ عليك، فإنّى أحمـدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو . أما بعـدُ فإنَّ كتابَكَ جاءنِى مَعَ رسُولِك ، يُخبِرنِى أنَّ بَنِى الحارث قد أسْلَمُوا قَبْـلَ أن تُقاتِلَهُمْ ، وأجابُوا إلىٰ مادَعَوْتَهم إليه من الإسلامِ، وشَهِدُوا أن لا إلٰهَ إلّا الله،وأن محمدا عبدُه و رسولُه ، وأنْ قَدْ هدَاهُمُ اللهُ بهُـداه، فبَشِّرهم وأنْذِرهم ،وأقبِلْ ولْيُقْبِلْ معَكَ وَفْدُهُمْ، والسلامُ عليك ورحمةُ اللهِ و بركاتُه" .

ومن ذلك كتابهُ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المنذرِ بنِ ساوىٰ ملكِ البَحْرَيْنِ من جهة الفُرْس ، فى جواب كتابِهِ إليــه صلّى الله عليه وسلم . ونسخَتُه علىٰ ما ذكره السُّهَيْلىّ فى "الروض الأُنف" :

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ المُنْذِر بن سَاوىٰ .

سلامٌ عليْكَ ، فإنّى أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هُو ، وأشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وأن محمدًا عبْدُه ورسولُه . أما بعدُ فإنّى أُذَكِّرُكَ اللهَ عزّ وجلّ ، فإنه من يَنْصَحْ فإنما يَنْصَحُ لنفْسه ، وإنه مَنْ يُطِعْ رُسُلِي ويَتَّبِـعْ أمرَهُم فقـد أطاعنى ، ومَنْ نَصَحَ لهم فقد نَصَحَ لِى ، وإنَّ رُسُلِى قد أثْنَوْا عليكَ خيْرًا ، وإنى قد شَفَّعتك فى قومك فاتْرُكْ للسلمِينَ ماأسلَمُوا عليه ، وعفَوْتُ عن أهل الذُّنُوب فاقبَلْ لهم ، وإنك مَهْمَا تُصْلِـحْ فلن نَعْزِلَكَ ، ومن أقام علىٰ مَجُوسِيَّته فعَلَيْه الجِزْيَةُ" .

ومن ذلك كتابه صلى الله عليه وسـلم إلىٰ فَرْوَةَ بن عمرو الجُذَامىّ . ونسخته علىٰ ماذكره ابن الجوزى فى "كتاب الوفاء" .

" من محمد رسول الله إلىٰ فَرْوةَ بن عَمْرو .

أما بعـدُ ، فقد قَدِم علينا رسُولُك ، وبَلّغ ما أَرسَلْتَ به ، وخَبَّرَ عمَّا قِبَلَكُمْ خيْرًا ، وأتانَا بإسلامِك وأنَّ اللهَ هَدَاكَ بهُدَاه " .

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ طِهْفَةَ النَّهدى وقومِه . ونسختُه فيما حكاه ابن الأثير فى "المثل السائر" :

"من محمد رسول اللهِ إلىٰ بَنى نَهْدٍ .

السلامُ علىٰ مَنْ آمنَ باللهِ ورسُوله . لَكُمْ يابَنى نَهْدٍ فى الوَظِيفَةِ الفَرِيضَـةُ ، ولكم الفارِضُ(١) والفَرِيش ، وذُو العِنَان الرَّكُوبُ والفَلُو الضَّبِيس ، لايُمْنَعُ سَرْحُكم ، ولايُعْضَدُ

(١) يروى بالفاء وبالعين فأما بالفاء فيكون المراد بها المريضة وأما بالعين فهى التى أصابها آفة أو كسر اهـ من شرح الزرقانى للواهب ج ٤ ص ١٩٢ .

طَلْحكم ، ولا يُحبَس دَرُّكم مالم تُضمِرُو الإماق ، وتأكُلوا الرِّبَاق . مَنْ أقرّ [بما فى هذا الكتاب] فله [من رسول الله](١) الوفاءُ بالعَهْد والذِّمّة ، ومن أبىٰ فعَلَيه الرِّبْوَةُ ".

وهذا الكتابُ مما يحتاج إلىٰ شَرْح غَرِيبه ليُفْهَم . «فالوظيفة» النِّصابُ فى الزكاة وأصلُه الشيء الراتِبُ . «والفَرِيضة» الهَرِمة المُسِنَّة ، والمراد أنها لا تؤخَذُ منهم فى الزكاة بل تكون لهم . « والفَرِيش » بالفاء والشين المعجمة ما انبسط من النبات وفَرَش علىٰ وجه الأرض ولم يَقُم علىٰ ساقٍ ، وقد يُطْلَق علىٰ الفَرَس إذا حُمِل عليها بعد النِّتاج أيضا . «وذوالعِنَان الرَّكوب» الفرسُ الذَّلُول ، «والفَلُوّ» المُهْر الصغير وقيل الفَطِيم من جميع أولاد الحافر . «والضَّبِيس» بالضاد المعجمة والباء الموحدة والسين المهملة العَسِر الصَّعْبُ الذى لم يُرَض . «والسَّرح» السارحة وهى المَوَاشى ، والمعنىٰ أنها لا تُمنَعُ من المَرْعىٰ . والعَضْد القَطْع . والطَلْح شجرٌ عِظام من شجر العِضاه . والدَّرُّ اللبن ، والمراد ذوات الدَّرّ من المواشى ، أراد أنها لاتحشر إلىٰ المُصَدِّق وتُمْنعُ المرعىٰ إلىٰ أن تجتمع الماشيةُ ثم تُعَدّ لما فى ذلك من الإضرار . و «الإمَاق» مخفَّف ، من أماق الرجلُ إذا صار ذا مَأْقة وهى الحَمِيَّة والأَنَفَة ، وقيل مأخوذ من المُوق وهو الحُمْق ، والمراد إضمار النَّكْث والغَدْر أو إضمار الكُفْر . و « الرِّباق » بالراء المهملة والباء الموحدة والقاف جمع رِبْقة ، وهى فى الأصل اسمٌ لعُرْوة تجعل فى الحَبْل وتكون فى عُنُق البهيمة أو يَدِها تُمْسِكها ، والمراد هنا نَقْضُ العهد واستعار الأكلَ لذلك ، لأن البهيمة إذا أكلتِ الرِّبقةَ خلَصَتْ من الشدّ . و «الرِّبْوَة» بكسر الراء الزيادة ، والمراد هنا الزيادة فى الفريضةِ الواجبةِ عليه كالعقوبةِ له .

(١) الزيادة من « المثل السائر » . ورواية "الشفا" كما فى الأصل .

ومن ذلك كتابه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ أُكَيدر دُومةَ فيما ذكره أبو عُبَيدة، وهو :

"من محمد رسولِ الله لِأُكَيدِر دُومةَ حينَ أجابَ إلىٰ الإسـلام، وخَلَعَ الأَنْدادَ والأَصْنام، مع خالِد بنِ الوليد سيفِ الله فى دُومة الجَنْدل وأكنافها: إنَّ لنا الضاحِيَةَ من الضَّحْل والبَوْرَ والمَعَامِىَ وأغْفالَ الأرض والحَلْقَةَ والسِّلاحَ والحافِرَ والحِصْن. ولكم الضَّامِنةُ من النَّخل، والمَعِينُ من المَعْمُور، لاتُعْدَلُ سارِحَتكم، ولاتُعدّ فاردَتُكم، ولا يُحْظَر عليكم النباتُ، تُقِيمُون الصلاةَ لوَقْتها، وتُؤتُونَ الزكاةَ بحَقِّها، عليكم بذلك عهدُ الله والميثاقُ".

وهذا الكتاب أيضا مما يُحتاجُ إلىٰ معرفة غَرِيبه : فالأندادُ جمعُ نِدٍّ بكسر النون وهو ضدّ الشيءِ الذى يخالِفُه فى أموره، ويناده أى يخالفه، والمراد ما كانوا يتخذونَهُ آلهةً من دُونِ الله تعالىٰ. والأصنام جمع صَنَم: وهو ما اتُّخِذ إلٰهًا من دون الله، وقيل: ما كان له جسمٌ أو صـورةٌ، فإن لم يكن له جسمٌ ولا صورةٌ فهو وَثَنٌ. والأكناف بالنون جمع كَنَف بالتحريك وهو الجانبُ والناحية. والضاحِيَة بالضاد المعجمة والحاء المهملة الناحيةُ البارزَةُ التى لاحائلَ دُونَها، والمراد هنـا أطراف الأرض؛ والضَّحْل بفتح الضاد المعجمة وسكون الحاء المهملة القليلُ من المـاء، وقيل المـاء القريب من المكان، وبالتحريك مكان الضَّحل. والبَوْر الأرض التى لم تُزْرَع، وهو بالفتح مصدرٌ وصف به، وبالضم جمع بَوَار: وهو الأرضُ الخرابُ التى لم تُزْرَع. والمَعَامِى المجهولةُ من الأرض التى ليس فيها أثرُ عمـارةٍ، واحدها مَعْمًى. وأغفالُ الأرض بالغين المعجمـة والفاء الأرضُ التى ليس فيها أثرٌ يعرَف كأنها مغفول عنها. والحَلْقة بسكون اللام السِّلاح عامًّا، وقيل الدُّروع خاصًّا، والسلاح ما أُعدّ للحرب من آلة

الحديد ممـا يُقاتَل به ، والسَّيف وحده يسمّى سلاحا . والضامنة من النخل بالضاد المعجمة والنون ما كان داخلا فى العِمَارة من النخيـل وتضمَّنته أمصارهُم وقُراهم، وقيل سميت ضامنــةً لأن أربابها ضَمِنُوا عِمارتَها وحِفْظها ، فهى ذات ضَمانٍ كعِيشةٍ راضية بمعنىٰ ذاتِ رِضًا . والمَعِين من المعمور المـاءُ الذى يَنْبُعُ من العين فى العامر من الأرض . وقوله : لا تُعْـدَل سارحتكم بالذال المعجمة(١)، أى لا تُصْرَف ماشيتكم وتمـالُ عن الرِّعْى ولا تمنَعُ . وقوله : ولا تُعـدّ فاردتُكم أى لا تُضَمُّ إلىٰ غيرها وتُحشَر إلىٰ الصدقة حتّٰى تعدّ مع غيرها وتحسب . والفاردة الزائدة علىٰ الفريضة . وقوله : ولا يُحْظَر عليكم النَّبات بالظـاء المعجمة ، أى لا تُمنعون من الزَّرْع والمَرْعىٰ حيث شئتم، والحَظْر المنعُ .

ومن ذلك كتابه صلّٰى الله عليه وسلم إلىٰ وائل بن حُجْر وأهل حَضْرموتَ، وهو:

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ الأقْيال العبَاهِلَةَ من أهل حَضْرموتَ، بإقامةِ الصَّلاة، وإيتاء الزكاة . علىٰ التِّيعة الشاةُ، والتِّيمةُ لصاحِبِها، وفى السُّيوب الخُمُس، لا خِلَاطَ ولا وِرَاطَ ولا شِنَاقَ ولا شِغَار، ومَنْ أجبىٰ فقد أربىٰ ؛ وكلُّ مُسْكِرٍ حَرامٌ" .

وذكر القاضى عياضٌ فى "الشِّـفاء" أن كتابه لهم : « إلىٰ الأقْيـال العبَاهِلَة، والأرْواع المَشَابِيب . وفى التِّيعة شاةٌ، لامُقْورَّة الألْياط، ولاضِنَاكَ، وأنْطُوا الثَّبَجة، وفى السُّيوب الخُمُس، ومَنْ زَنىٰ مِمْ بِكْرٍ فاصْقَعُوه مائةً واستَوفِضُوه عامًا، ومَنْ زنىٰ مِمْ ثَيِّبٍ فضَرِّجُوه بالأضاميم، ولا توْصِيمَ فى الدِّين، ولاغُمَّةَ فى فرائضِ الله تعـالىٰ، وكل مُسْكِرٍ حرامٌ ، ووائل بنُ حُجْر يترَفَّل علىٰ الأقْيال» .

(١) صوابه بالدال المهملة كما يفيده المعنى وقد أورده صاحب اللسان ج ١٣ — فى مادة ع د ل بالدال المهملة فانظره .

وهــذا الكتاب فى معنىٰ ماتقدّم من الاحتياج إلىٰ شرح غريبه. الأقيال بالقاف والياء المثناة تحتُ جمعُ قَيْل : وهو المَلِك . والعَبَاهلة الذين أُقِرُّوا علىٰ مُلْكِهم لايُزالُون عنه ، وحَضْرموتَ بلدةٌ فى اليمن فى أقصاها ، وقيــل هى أحَدُ مَخَاليفها . والتِّيعة بالمثناة من فوقُ ثم المثناةِ من تحتُ والعينِ المهملة اسمٌ لأدنىٰ ماتجب فيه الزكاةُ من الحيوان : كالخَمْس من الإبل والأربعينَ من الغنَم . قال ابن الأثير : وكأنهــا الجملةُ التى للسُّعاة عليها سبيلٌ من تاعَ يَتِيعُ إذا ذهب إليه . والتِّيمةُ بالكسر الشاةُ الزائدة علىٰ الأربعــين حتّٰى تبلغَ الفريضةَ الأُخْرىٰ ، وقيــل هى الشاة التى تكون لصاحبها فى مَنْزِله يَحْلُبهــا وليستْ بسائمةٍ ، وهى بمعنىٰ الدَّاجِن . والسُّيُوب الرِّكَاز أخْذا من السَّيْب وهو العطاء، قاله أبو عبيدة؛ وقيل هى عروق الذهب والفِضّة التى تَسِيبُ فى المعدن بمعنى تتلوّن وتظهر . وقال الزمخشرىّ : هى جمع سَيْب، يريدُ به المــالَ المدفونَ فى الجاهلية أو المعدنَ لأنه من فضل الله تعالىٰ لمن أصابه. والخِلَاط بالكسر مصدر خالط، يقال : خالَطَه يُخالِطُه خِلاطا ومخالطةً، والمراد أن يَخْلِطَ الرجلُ إبلَه بإبل غيره أو بقرِه أو غنَمه ليمنع حَقَّ الله تعالىٰ منها، ويَبْخَس المُصَدِّق فيما يجبُ له . والوِرَاط بالكسر أيضا أن تُجعــل الغَنَم فى وَهْدة من الأرض لتَخْفىٰ علىٰ المُصَــدِّق، مأخوذٌ [من الوَرْطة] وهى الهُوّة من الأرض . والشِّناق بكسر الشين المُشَاركة فى الشَّنَق بفتح النون : وهو ما بين الفريضتين من كلِّ ماتجب فيــه الزكاةُ ، وهو مازاد من الإبل علىٰ الخَمْس إلىٰ التِّسع ، وما زاد علىٰ العَشْر إلىٰ أربعَ عشرةَ ، والمراد أن لاتؤخذ الزيادةُ علىٰ الفريضة . قال ابن الأثير : ويجوز أن يكون معناه المُشَاركة فى الشَّنَق والشَّنَقين، وهو بمعنى الخِلَاط المتقدّم ذكره، لكن حملُه علىٰ الأوّل أولىٰ، لتعدّد المعنىٰ . والشِّغار بكسر الشين وبالغين المعجمة نِكاحٌ معروف فى الجاهليــة ، وهو أن يُزوِّج الرجل ابنَتَه أو أُخْتَــه علىٰ أن يُزوِّجَه بنته أو أخته، ويكون بُضْعُ كلٍّ

منهما صـداقًا للأخرىٰ . والأرواعُ جمع رائع : وهم الحسانُ الوجوهِ من الناس . وقيل : الذين يَرُوعونَ الناس أى يُفْزِعُونهم بشِدّة الهَيْبة . قال ٱبن الأثير : والأول أوجهُ . وقوله : ومن أَجْبىٰ هو بالجيم والباء الموحدة : وهو بيع الزَّرْع قبـل بُدُوّ صَلَاحه . وقيـل هو أن يُغَيِّبَ إبلَهَ عن المُصَـدِّق أخْذا من أجبأته إذا واريته . وقيل هو أن يبيع من الرجل سِلْعةً بثمن معلوم إلىٰ أجل معلوم ثم يشْتَرِيَها منه بالنقد بأقَلَّ من الثمن الذى باعها به؛ ومعنىٰ أربىٰ وقع فى الربا. والمَشَابِيبُ السادةُ الرءوسُ الزُّهْرُ الألوان الحِسَانُ المَنَاظِرِ واحدها مَشْبُوب . والمُقْوَرّة الألْيـاط المسترْخية الجُلُود لهُزَالها والآقورار الآسترخاءُ فى الجلود . والألْياط جمعُ لِيط : وهو قِشْر العُود، شُـبِّه به الجلدُ لآلتزاقه باللحم . والضِّناك بالكسر الكثيرُ اللحم، ويقال الذكر والأنثىٰ فيـه سواء، والمراد أنه لا تُؤخَذ المُفْرِطة فى السِّمَن كما لاتؤخذ الهزيلة . وقوله : وأَنْطُوا هو بلغة أهل اليمن بمعنىٰ أعطوا، خاطبهم صلّى الله عليه وسلم بلغتهم . والثَّبَجة بثـاء مثلثة بعدها باء موحدة ثم جيم هى الوَسَـط من المـال التى ليست من خِياره ولارُذَالته، أخْذًا من ثَبَجة الناقة وهو مابين الكاهل إلىٰ الظهر . وقوله مِمْ بِكرٍ جرىٰ فيه علىٰ لغة أهل اليمن حيث يُبْدِلونَ لام التعريف ميما . قال ٱبن الأثير : وعلىٰ هذا فتكون راء بكرٍ مكسورةً من غيرتنوين لأن أصله من البكر، فلما أُبْدِلت الألف واللام ميما بقيت الحركةُ بحالها، ويكون قد ٱستُعْمِل البكر موضع الأبكار . قال : والأشبه أن تكون بكرٌ منوّنةً، وقد أُبْدلت نونُ مِنْ ميما، لأن النون الساكنة إذا كان بعدها باء قلبت فى اللفظ ميمـا نحو عَنْبر ومِنْبر، ويكون التقـدير ومَنْ زنىٰ من بكرٍ . وقوله فاصْقَعُوه هو بالصاد المهملة والقاف أى آضرِبُوه، وأصل الصَّقْع الضرب علىٰ الرأس، وقيل الضربُ ببطن الكف . وقوله : وآستَوْفِضوه هو بالفاء والضاد المعجمة أى آنفُوه، أخذا من قولهم : استوفضت الإبلُ إذا تفرّقت [فى رَعْيها] وقوله : فضَرِّجوهـ

بالضـاد المعجمة والجـيم أى أَدْمُوه بالضرب، ويطلق الضَّرْج على الشَّق أيضـا . والأضاميم بالضاد المعجمة الجارة واحدها إضْمامةٌ، والمراد آرجُمُوه بالجارة. والتوصيم بالصاد المهملة الفَتْرة والتَّوانى، أى لاتَفْتُروا فى إقامة الحدود ولا تَتَوانَوْا فيها . وقوله : ولاغُمَّة فى فرائض الله ـ أصل الغُمَّة السَّتْر، أى لا تُستَرُ فرائضُ الله ولا تُخْفى، بل تُظْهَر ويُجْهَر بهـا وتُعلَن . وقوله : يتَرَفَّل ـ أى يَسُودُ ويَترأَّس ، آستعارة من تَرْفِيل الثوب وهو إسباغُه وإرساله؛ والأَقْيال الملوكُ وقد تقدّم الكلامُ عليه .

الأُسْـــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ «هذا كتاب» ويُذْكر المقصد فيما بعد، وهو قليـــل الوقوع فى المكاتبات)

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم لقَبِيلة هَمْدانَ من اليمن، فيما ذكره آبنُ هشام وهو: "هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لِمخْلاف خَارِفٍ وأهل جِنَاب الهَضْب وحِقَاف الرَّمل، مع وافِدِها ذى المِشْعار[1]، لمـالكِ[2] بنِ نَمَطٍ ولمنْ أسلم من قومه، علىٰ أنَّ لهم فِراعَها ووِهاطَها [وعَزازَها] ماأقامُوا الصلاةَ وآتَوُا الزكاةَ، يأكلُون عِلافَها، ويَرْعَوْن عافِيَهَا، لَكُمْ بذلك عهدُ اللهِ وذِمامُ رسولِه ، وشاهِدُكم المهاجِرون والأنصارُ" .

وذكر القاضى عياضٌ فى "الشفاء" أن فى كتابه إليهم : "إنَّ لكم فِراعَهَا ووِهَاطَها وعَزَازَها، تأكلُون عِلافَهَا وتَرْعَوْنَ عَفَاءَها[3]، لنا مِنْ دِفْئهمْ وصِرَامِهم ما سَلَّمُوا بالمِيثاق

---

(١) كذا فى الامهات اللغوية أيضـا وفى شرح الزرقانى على المواهب ج ٤ ص ٣٩ أنه ذوالمشـغار بالمعجمتين أو المهملتين .

(٢) فى المواهب مالك بدون لام الجر وأعربه الشارح بدلا ممـا قبله .

(٣) ضبطه صاحب اللسان بالقصر وضبطه الزرقانى وملا علىٰ قارى بالمد .

والأمانةِ، ولهم من الصَّدَقة الثِّلْب والنابُ والفَصِـيلُ والفارِضُ والداجِنُ والكَبْش الحَوَرِىّ، وعليهم فيها الصَّالِـغ والقَارِحُ» .

وهذا من نسبة ما تقدّم مما يحتاج إلىٰ شرح غريبه : فالفِرَاع بالكسر[1] جمع فَرْعة، وهو ما آرتفع من الأرض . والوِهاط جمع وَهْطـة : وهى ما آطمأنّ من الأرض ؛ والعِلَاف بالكسر ــ جمع عَلَف كَجَبَل وجِبَال، والمراد ما تعتلفــه الدوابُّ من نبات الأرض؛ والعَزَاز ــ ماصَلُب من الأرض وآشتدّ وخَشُن، ويكون ذلك فى أطرافها؛ والعَفَاء العـافِى ــ وهو ما ليس لأحد فيه ملكٌ ، من قولهم : عَفَا الأثَرُ إذا دَرَس، والدِّفء ــ نِتـاج الإبل وما يُنْتَفَعُ به منها ، سمِّى دِفْئًا لأنه يتَّخذ من أوبارها ما يُستَدْفأ به ، والمراد هنا الإبل والغنَمُ . والصِّرام ــ النخل ، وأصله قَطْع الثمرة ؛ والثِّلْب من ذكور الإبل ــ الذى هَرِم وتكسَّرت أسنانه . والنـاب ــ المُسِنَّة من إناثها . والفَصِيل من أولاد الإبل ــ الذى فُصِل عن أمه من الرَّضاع . والفارض ــ المسنُّ من الإبل، والمراد أنه لا يُؤْخَذ منهم فى الزكاة . والداجنُ ــ الشاة التى يعلِفُها الناس فى منازلهم؛ والكَبْش الحَوَرِىّ منسوب إلىٰ الحَوَر وهى جلود تُتَّخذ من جلود الضأن. وقيل : هو مادُبِـغ من الجلود بغير القَرَظ . والصالغُ بالصاد المهملة والغين المعجمة : وهو من البقر والغنم الذى كَمُل وآنتهىٰ، ويكون ذلك فى السنة السادسة، ويقال : بالسين بدل الصاد . والقارِحُ الفرس الذى دخل فى السنة الخامسة .

---

(١) فى الأصول بالفتح وهو سبق قلم .

الأســــلوب الثــالث

(أن تفتَتح المكاتبةُ بلفظ « سَلْمٌ أنت »)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ المنْذِر بن ساوىٰ . وهو فيما ذكره أبو عبيد في "كتاب الأموال" : « سَلّمٌ أنتَ ، فإنّي أحمدُ إليكَ الله الذى لا إلٰهَ إلا هو .

أمّا بعدُ ، فإنّ مَنْ صلّى صلاتَنَا وٱستقْبَلَ قِبْلَتَنا وأكَلَ ذَبِيحَتَنا ، فذلك المُسْلِم له ذِمّةُ اللهِ وذِمّةُ الرسول ؛ فمَنْ أحبَّ ذلك من المجُوس فإنّه آمنٌ ، ومَنْ أبىٰ فإنّ عليه الجزيةَ » .

الطــــرف الثــالث

(فى كُتُبه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ أهل الكُفْر للدِّعاية إلىٰ الإســـلام ،
وهــو علىٰ ثــلاثةِ أساليبَ)

الأُسْلوب الأوّلُ

(أن يُفْتتح الكتابُ بلفظ « من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ فلان »
كما فى الأُسْلوب الأوّل من كُتُبه إلىٰ أهل الإسلام)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ هِرَقْلَ : وهو قَيْصَر ، وقيل نائبُه بالشــام .

وهو علىٰ ما ثبت فى الصحيحين . « من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ هِرَقْلَ عظيمِ الرُّوم ، سلامٌ علىٰ مَن ٱتّبع الهُدىٰ .

أما بعدُ، فإنّى أدْعُوكَ بدِعَايَةِ الإسْلامِ، أسْلِمْ تَسْلَمْ، أسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتينِ، فإن تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليْكَ إثْمَ الأَرِيسِيِّينَ، ويـٰأَهْلَ الكتَابِ تَعَالَوْا إلىٰ كَلِمَةٍ سَـواءٍ بَيْنَنا وبَيْنَكُمْ ألَّا نَعْبُـدَ إلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أرْبَابًا مِنْ دُونِ الله فإنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأنَّا مُسْلِمُونَ .

وذكر أبو عبيد فى "كتاب الأموال" : أنَّ كتَابَه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ هِرَقْلَ كان فيــه .

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ صاحب الروم، إنّى أَدْعُوكَ إلىٰ الإسْلامِ : فإنْ أسلَمْتَ فلَكَ ما للْمُسْلِمِينَ وعَلَيْكَ ماعَلَيْهِمْ، وإن لم تَدْخُلْ فى الإسلام فأعْطِ الجِزْيَةَ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ يقول : قاتِلُوا الَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ولا يُحَرِّمُونَ ماحَرَّمَ اللهُ ورَسُولُهُ ولايَدِينُونَ دِينَ الحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حتّىٰ يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ وإلا فلا تَحُلْ بين الفَلَّاحين وبين الإسلامِ أن يَدْخُلوا فيه أو يُعْطُوا الجِزْيَةَ" .

قال أبو عبيد : وأراد بالفَلَّاحين أهـلَ مملكتِه ، لأن العَجَم عنـد العَرَب كُلّهم فَلَّاحون لأنهم أهلُ زرعٍ وحَرْثٍ .

وفى مسند البَزّار أنه صلّى الله عليه وسـلم كتب إليه : « من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ قَيْصَر صاحب الرُّوم » .

ومن ذلك كتَابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ كِسْرىٰ أبْرَوِيزَ (١) : ملك الفرس فيما ذكره ابْنُ الجوزىّ ، وهو :

(١) بفتح الواو وكسرها ويقال له أبرواز ومعناه بالعربية المظفر — اه الزرقانى على المواهب ج٣ ص٣٨٩ .

"من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ كِسْرىٰ عظيم فارِس .

سلامٌ علىٰ مَنِ ٱتَّبعَ الهُدىٰ وآمن بالله ورَسُولِه ، وأدْعُوك بِدعايةِ اللهِ عزَّ وجلَّ فَإنِّى أنا رَسُولُ اللهِ إلىٰ الناس كافَّةً ، لِأُنْذرَ مَنْ كَانَ حيًّا ويحِقَّ القولُ علىٰ الكافِرِين ، وأسْلِمْ تَسْلَمْ فإنْ تولَّيْتَ فإنَّ إثْمَ المجُوسِ عَلَيْكَ" .

ومن ذلك كتابه صلَّى الله عليه وسلم إلىٰ المُقَوْقِس صاحب مِصْرَ . وهو فيما ذكره ٱبن عبد الحَكَم .

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ المُقَوْقِس (١) عظيم القِبْط ، سلامٌ علىٰ مَنِ ٱتبعَ الهُدىٰ .

أما بعــدُ ، فإنى أدْعُوكَ بِدعايةِ الإسلامِ ، فأسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتيْنِ ، فإن تولَّيتَ فعلَيْكَ إثْمُ القِبْط . يٰأهْلَ الكتَابِ تَعالَوْا إلىٰ كَلِمةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنا وبينَكُمْ ألَّا نَعْبُدَ إلَّا اللهَ ولا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضًا أرْبابًا مِنْ دُونِ اللهِ فإن تولَّوْا فَقُولُوا ٱشْهَدُوا بأنَّا مُسْلِمُونَ" .

وذكر الواقدىُّ أن كتَابَهُ إليه كان بخطِّ أبى بكرٍ الصدّيقِ رضى اللهُ عنه ، وأنَّ فيه

"من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ صاحب مصر .

أما بعــدُ ، فإنَّ اللهَ أرسلَنِى رسولًا وأنزلَ علَىَّ قُرْءانًا ، وأمَرَنِى بالإعْذارِ والإنْذارِ ومُقاتَلَةِ الكُفَّار حَتَّى يَدِينُوا بِدِينِى ويَدْخُلَ الناسُ فى مِلَّتِى ، وقد دعَوْتُك إلىٰ الإقْرارِ بوَحْدانِيَّتِهِ ، فإن فعلْتَ سَعِدْتَ ، وإن أَبَيْتَ شَقِيتَ ، والسَّلامُ" .

(١) ٱسمه جريج بن مينا بن قرقوب كما ذكره الزرقانى علىٰ المواهب ج ٣ ص ٣٩٧ .

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ النَّجَاشيّ : مَلِكِ الحَبَشَة . وهو فيما ذكره آبن إسحاق :

" من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ النجاشيّ مَلِكِ الحبَشةِ ، إنى أحمَدُ إليْكَ اللهَ المَلِكَ القُدُّوسَ السَّلامَ المُؤْمِنَ المُهَيْمِنَ ، وأشهدُ أن عِيسىٰ آبنُ مَرْيَمَ البتولِ الطَّيِّبةِ الحَصينةِ ، حَمَلَتْهُ من رُوحِهِ ونَفْخِه ، كما خَلَقَ آدمَ بيَدِه . وإنّى أدْعُوكَ إلىٰ الله وحْدَه لا شَرِيكَ لَهُ ، وأن تَتَّبِعَنِي وتُؤْمِنَ بالَّذِى جاءنِى ، فإنِّى رسولُ الله ، وإنِّى أدْعُوكَ وجُنُودَكَ إلىٰ الله عزَّ وجلَّ ، وقد بَلَّغْتُ ونَصَحْتُ ، فاقبَلُوا نُصْحِى . وقد بعَثْتُ إليكُمْ آبنَ عَمِّى جَعْفَرًا ومعه نَفَرٌ من المُسْلِمِينَ ، والسلامُ علىٰ مَنِ آتَّبع الهُدىٰ " .

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ هَوْذَةَ(١) بنِ عليّ : صاحب اليمـامة ، وكان نصرانيًّا . وهو فيما ذكره السهيليّ .

" من محمدٍ رسولِ الله الىٰ هَوْذَةَ بن عليّ .

سـلامٌ علىٰ مَنِ آتَّبَعَ الهُدىٰ . وآعلَمْ أنَّ دِينِي سيَظْهَرُ إلىٰ مُنْتَهىٰ الخُفِّ والحافِرِ ، فأَسْلِمْ تَسْلَمْ ، وأَجْعَل لَكَ ماتَحْتَ يَدَيْكَ " .

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسـلم إلىٰ نَصارىٰ نَجْرانَ . وهو فيما ذكره صاحب " الهَدْيِ المحمّديّ " .

(١) هو بفتح الهاء كما فى الصحاح ونقل الدميرىّ ضمها والواو ساكنة علىٰ كل حال .

بسم الله الرحمن الرحيم، إلٰه إبراهيمَ وإسْحاق ويَعْقُوبَ .

أما بعدُ ، فإنّى أدْعُوكُم إلىٰ عبَادة اللهِ من عِبادةِ العِبَادِ ، وأدْعُوكم إلىٰ وِلايَةِ اللهِ مِنْ وِلَايةِ العِبَاد ؛ فإن أبَيْتُمْ فالجِزْيةُ ؛ فإن أبيتم فقد آذَنْتُكُمْ بحَرْب الإسْلام (١) .

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ جَيْفَرٍ وعَبْدٍ ٱبْنَىْ الجُلَنْدىٰ مَلِكَىْ عُمَـانَ .

وهو : « من محمدٍ رسولِ اللهِ إلىٰ جَيْفَرٍ وعَبْدٍ ٱبنَىِ الجُلَنْدىٰ ، سلامٌ علىٰ مَنِ ٱتَّبع الهــــدىٰ .

أما بعدُ، فإنّى أدْعُوكُمَا بِدِعَايةِ الْإِسْلامِ، أَسْلِمَا تَسْلَمَا، فإنّى رسولُ اللهِ إلىٰ الناسِ كافّةً لِأُنْذِرَ مَنْ كان حَيًّا ويَحِقَّ القولُ علىٰ الكافِرِينَ ، وإنَّكُما إنْ أقْرَرْتُمَـا بالْإِسلامِ وَلَّيتُكُمَا، وإن أبَيْتُمَا أن تُقِرَّا بالإسلامِ فإنَّ مُلْكَكُمَا زائِلٌ عنْكُمَا، وخَيْلِى تَحُلُّ بِسَاحَتِكُمَا، وتَظْهَرُ نُبُوّتى فى مُلْـــكِكُمَا . وكتب أُبَىُّ بنُ كَعْب » .

وفى رواية ذكرها أبو عبيد فى ”كتاب الأموال“ أنه كتب إليهما .

” من محمدٍ رسولِ اللهِ لعبادِ اللهِ أسيد بن مُلُوك عُمَان ، وأسيدِ عُمَان : مَنْ كان منهم بالبَحْرَيْن، إنهم إنْ آمَنُوا وأقامُوا الصــلاةَ وآتَوُا الزكاةَ وأطاعُوا اللهَ ورسُولَهُ وأعْطَوْا حَقَّ النبيِّ صلّى الله عليــه وسـلم ونَسَكُوا نُسُكَ المُسْلِمِين ، فإنَّهم آمِنُونَ ، وإنَّ لهم ما أَسْلَمُوا عليه ، غَيْرَ أنَّ مالَ بيت النارِ ثُنْيَا للهِ ورَسولِهِ ، وإنَّ عُشُورَ التَّمْر صــدَقَةٌ ، ونِصْفَ عُشُورِ الحَبِّ ، وإنَّ للمُسْلِمِينَ نَصْرَهُمْ ونُصْحَهُمْ ، وإنَّ لَهُمْ علىٰ المُسْلِمِين مِثْلَ ذلك ، وإنَّ لَهُمْ أرْحاءً يَطْحَنُونَ بها“ .

(١) كذا فى الأصول وفى ”مفتاح الأفكار“ بحرب والسلام .

قال أبو عبيد : وبعضهم يَرْويه لِعبادِ الله الأسبيين اسْمًا اعجميا نسبَهُمْ إليــه . قال : وإنما سُمُّوا بذلك لأنهم نُسِبُوا إلىٰ عبادة فَرَس ، وهو بالفارسية أسب فنُسِبوا إليه ، وهم قومٌ من الفُرْس وفى رواية من العرب .

ومن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ مُسَيْلِمَةَ الكَذَّاب فى جوابِ كتابِهِ إليه صلّى الله عليه وسلم : أنه إنْ جَعَلَ لَهُ الأمْرَ بعده آمَنَ به .

وهو : « من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ مُسَيْلِمة الكَذَّاب : السلامُ علىٰ من ٱتَّبَعَ الهُدىٰ أما بعدُ، فإنَّ الأرضَ لله يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ والعاقِبَةُ للمُتَّقِينَ .

الأســـلوب الثـانى

(أن يُفتَتَح الكتابُ بلفظ « أما بعدُ » وهو أقلُّ وُقوعا ممـا قبله)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم إلىٰ أهل نَجْرانَ ، ودينُهم النصرانيةُ .

وهو فيما ذكره ٱبن الجَوْزىّ .

«بسم الله الرحمن الرحيم ، إلٰهِ إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعْقُوبَ .

أما بعدُ : فإنّى أدْعُوكُم إلىٰ عبادةِ الله مِنْ عِبـادةِ العِبَاد ، وأدْعُوكُمْ إلىٰ وِلَايَةِ الله مِنْ وِلَايةِ العِبَاد ، فإن أبَيْتُمْ فالجِزية ، فإن أبيتم فقد آذَنْتُكُمْ بحرْبِ[1] الإسلام» .

---

(١) كذا فى الأصول والمناسب لما تقدم له فى اختتام الكتب ما فى "مفتاح الأفكار" وهى "بحرب والسلام" .

الأُســـــلُوبُ الثـالث

(أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ « هذا كتاب »)

فمن ذلك كتابُه صلّى الله عليه وسلم معَ رِفاعةَ بنِ زيد إلىٰ قومه . وهو فيما ذكره ابن إسحاق .

« هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لرِفاعةَ بنِ زيْدٍ ، إنى بعَثْتُه إلىٰ قَوْمِهِ عامَّةً ومَنْ دَخَلَ فِيهِمْ ، يَدْعُوهُمْ إلىٰ اللهِ وإلىٰ رَسُولِه ، فَمَنْ أقبلَ منهم فَفِى حِزْبِ اللهِ وحِزْبِ رسولِهِ ، ومَنْ أدْبَرَ فلَهُ أمانُ شَهْرَيْنِ » .

قلت : وقد كتبَ صلّى الله عليه وسلم إلىٰ جماعةٍ غيرِ مَنْ تقدّم ، لم أقِفْ علىٰ صورة ما كَتَبَ إليهم ، كجَبَلَةَ بن الأيْهَم الغَسّانىّ ، وذِى الكَلَاع الحِمْيَرِىّ وغيرهم ، وستأتى كُتُبهُ صلّى الله عليه وسلم فى معنىٰ الوَلَايات والإقطاعات والهُدَن والأمانات فى مواضِعها إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــــل الثـانى

من الباب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى الكُتُب الصـادرةِ عن الخلفـاء ، وهى على قسمين)

القســـم الأوّل

(المكاتباتُ إلى أهل الإسلام، وفيه تسعة أطراف)

الطَّـــرَف الأوّل

(فى الكُتُب الصادرة عن الخلفاء من الصحابة رضى الله عنهم، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولى

(فى المكاتبات الصادرة عن أبى بكرٍ الصدّيق رضى الله عنه)

وكانت تُفْتتح بلفظ: «مِنْ أبى بكر خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلى فلان» وباقى الكتاب من نِسْبة كُتُب النبىّ صلى الله عليه وسلم من التصدير بالسَّلام والتَّحْميد، والتَّخَلُّص بأما بعدُ ، والاختتامِ بالسلام وما يَجْرِى هذا المَجْرى، مع لزوم الخِطَاب بالكاف وتاء المخاطب للواحد، وبالتثنية للاثنين، والجمع للجماعة . وعَنْوَنَتُها « من أبى بكرٍ خليفـةِ رسول الله » فى الجانب الأيْمن ثم « إلى فلان الفلانى » فى الجانب الأيْسَر على مايقتضيه الترتيب المتقدّم .

وهذه نسخةُ كتابه رضى الله عنه إلى أهل الرِّدّة حين ٱرتَدُّوا عن الإسلام بعد وفاة النبىّ صلّى الله عليه وسلم .

وهو على ما ذكره صاحب "نهاية الأرب"

"من أبى بكرٍ خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلى مَنْ بلغه كتابى هذا من عامّة وخاصّة ، أقام على الإسْلام أو رجَع عنه :

سلامٌ على مَنِ اتّبع الهدى ، ولم يَرْجِع بعدَالهُدى إلى الضَّلالة والعَمى ؛ فإنّى أحمدُ إليكُمُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحْدَه لاشريكَ له وأنَّ محمدًا عبدُه ورسوله ، وأُقرّ بما جاء بِهِ [وأُكَفِّر مَنْ أبى وأُجاهِدُه](١) .

أما بعدُ ، فإن اللهَ أرسلَ محمدًا بالحقِّ مِنْ عِنْده إلى خَلْقِه بَشيرًا ونَذيرًا ، وداعيًا إلى الله بإذْنِهِ وسراجًا مُنيرًا ، لِيُنْذرَ مَنْ كانَ حَيًّا ويحِقّ القولُ على الكافِرين ، يَهْدى اللهُ للحَقِّ مَنْ أجابَ إليه ، وضَرب رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم بإذْنِهِ من أدبَرَعنه حتّى صار إلى الإسلامِ طَوْعا وكَرْها ؛ ثم تُوفِّى رسولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ؛ وقد نَفَّذَ لأمْرِ الله ، ونَصَح لأُمَّتِه ، وقَضى الّذِى عليهِ ؛ وكان اللهُ قد بيَّن له ذٰلكَ ولأهل الإسلام فى الكتاب الذى أنزله ، فقال : ﴿إنَّكَ مَيِّتٌ وإنَّهُمْ مَيِّتُون﴾ وقال : ﴿وَمَا جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أفإنْ مِتَّ فَهُم الخَالِدُونَ﴾ وقال للمؤمنين : ﴿وَمَا محمدٌ إلا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْـلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أعْقابِكُمْ ومَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا وسَيَجْزِى اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ فَمَنْ كانَ يَعْبُدُ محمدًا فإنَّ محمدًا قَدْ ماتَ ، ومَنْ كانَ يَعْبُـدُ اللهَ وحْدَه لاشَرِيكَ لَهُ فإنَّ اللهَ بالمِرْصادِ ، حَىٌّ قَيُّومٌ لا يَمُـوتُ ولا تَأْخُذُه سِـنَةٌ ولَا نَوْم ، حافِظٌ لِأَمْرِه ، منْتقِمٌ مِنْ عَدُوّه بحِزْبه ، وإنِّى أُوصِيكُمْ بتَقْوى الله وحَظِّكم ونَصيبِكُم مِنَ اللهِ ، وما جاء بِهِ نَبِيُّكُمْ ، وأن تَهْتَدُوا بهَدْيِه ، وأن تَعْتَصِمُوا بدِينِ اللهِ ، فإنَّ مَنْ لم يَهْدِ اللهُ ضَلَّ ، وكُلَّ مَنْ لم يُعافِه مُبْتَلًى ، وكُلَّ من لم يَنْصُرْه مَخْذُول .

(١) الزيادة عن العبر (بقية ج ٢ ص ٧٠) .

فَمَنْ هَداه الله كان مَهْدِيًّا ، ومَنْ أضَلَّه كان ضَالًّا : ﴿مَنْ يَهْدِ اللهُ فهُوَ المُهْتَدِ ومَنْ يُضْلِلْ فلَنْ تَجِدَلَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ ولم يُقْبَل منه فى الدنيا عملٌ حتّى يُقرّبه ، ولم يُقْبَل له فى الآخرة صَرْفٌ ولا عَدْل .

وقد بلَغنِي رجُوعُ مَنْ رجع منكم عن دِينِه بعد أنْ أقرّ بالإسلام وعَمِل به ، آغترارًا بالله وجَهالةً بأمره ، وإجابةً للشَّيْطان ، وقال الله جل ثناؤه : ﴿وَإذْ قُلْنَا لِلْمَلائكَةِ آسْجُدُوا لِآدَمَ فسَجَدُوا إلّا إبْلِيسَ كانَ مِنَ الجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أمْرِ رَبِّه أفتَتَّخِذُونَه وذُرِّيَّتَه أوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ . وقال جلَّ ذِكْرُه : ﴿إنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فاتّخِذُوه عَدُوًّا إنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أصْحابِ السَّعِير﴾ وإنّى أنفذْتُ إليكم فُلانًا فى جَيْشٍ من المُهاجِرِين والأنصارِ والتابعين بإحْسانٍ ، وأمرتُه أن لا يُقاتِلَ أحدًا ولا يَقْتُلَه حتّى يَدْعوه إلىٰ داعيَة الله ؛ فمَنِ آستجابَ له وأقرّ وكَفَّ وعَمِل صالحًا ، قَبِلَ منه وأعانَه عليه ؛ ومَنْ أبىٰ أمَرْتُه أن يُقاتِلَه علىٰ ذلك ، ولا يُبْقِيَ علىٰ أحدٍ منهم قَدَرَ عليه ، وأن يُحرِّقَهم بالنِّيران ، ويَقْتُلَهُم كلَّ قِتْلة ، ويَسْبِيَ النساءَ والذَّرارِيَّ ، ولا يَقْبَلَ من أحدٍ إلا الإسلام ؛ فمن آمَنَ(١) فهو خَيْرٌ له ، ومَنْ تركَهُ فلَنْ يُعْجِزَ الله . وقد أمَرتُ رسولِي أنْ يقرأ كتابِي فى كُلِّ مَجْمَعٍ لكم ، والداعيةُ الأذانُ ، فإنْ أذَّن المسلمونَ فأذّنُوا ، كُفُّوا عنهم ، وإن لم يُؤَذِّنُوا [عاجلوهم ، وإن أذَّنوا(٢)] سَلُوهُمْ ماعليهم ، فإنْ أبَوْا عاجِلُوهم ، وان أقَرُّوا قَبِلَ منهم وحَمَلَهُمْ علىٰ مايَنْبَغِى لهمْ .

---

(١) فى العبر بقية ج ٢ ص ٧٠ وتاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ "فن اتبعه" .

(٢) الزيادة من رواية الطبرى ج ٣ ص ٢٢٦ .

الجمــــلة الثـانية

(فى المكاتبات الصادرة عن بقيّةِ الخلفاء من الصحابة رضوانُ الله عليهم)

وهى علىٰ أسلوبين :

الأســــلوب الأوّل

(أن يُفْتَتَح الكتابُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

يقال إن أميرَ المؤمنين عمرَ بنَ الخطاب رضى الله عنه لما صارتِ الخلافةُ اليه بعدَ أبى بكر، كان يكتُبُ فى كُتُبه : «من عُمَرَ بنِ الخطاب خليفةِ خليفةِ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم إلىٰ فلان» فلما تلَقَّب بأمير المؤمنين علىٰ ماتقدّم فى المقالة الثالثة، أَثْبتَ هذا اللَّقب فى كُتُبه، وزاد فى ٱبتدائها لفظَ «عبْدِ الله» قبلَ ٱسمِه، ليكون ٱسمُه نعتًا له (١)، فكان يكتب : «من عبدِ الله عمرَ بن الخطاب أميرِ المؤمنين إلىٰ فلان» وباقِ الكتاب علىٰ ما مَرَّ فى كُتُب النبىّ صلّى الله عليه وسلم والصدّيقِ بعده فى التصدير والتعبير عن نَفْسه بلفظ الإفراد، مثل أنا ولى وعلىّ، وعن المكتوب له بكاف الخِطَاب : مثل لكَ وعليكَ ، وتاء المخاطب : مثل قلتَ وفعلتَ ؛ وتبعه الخلفاء علىٰ ذلك . وعَنْوَنَتُها « من عبدِ الله فلانٍ أمير المؤمنين » فى الجانب الأيمن ، ثم « إلىٰ فلان الفلانى » فى الجانب الأيسر كما تقدّم ترتيبه .

فمن ذلك ما كتب به أميرُ المؤمنين عمرُ رضى الله عنه إلىٰ عَمْرو بن العاص وهو يومَئـذ أميرُ مصرَ، وهو :

---

(١) لعله "تبعا له" .

« من عبدِ اللهِ عمرَ أميرِ المؤمنين إلىٰ عَمْرِو بن العاص : سلامٌ عليك .

أمّا بعدُ، فقد بلَغنِي أنّه فشَتْ لك فاشِيَةٌ من خَيْلٍ وإبِلٍ وبقَرٍ وعَبِيدٍ، وعَهْدِى بكَ قبلَ ذلكَ ولا مالَ لَكَ ، فاكتُبْ إلَىّ من أينَ أصْلُ هذا المالِ » .

ومن ذلك ما كتب به معاويةُ بنُ أبى سفيان فى خلافته إلىٰ آبنه يَزِيدَ ، وقد بلغه مقارفَتُه اللذاتِ ، وآنهماكُه علىٰ الشَّهوات ، وهو :

« من معاويةَ بن أبى سُفْيانَ أميرِ المؤمنين إلىٰ يزيدَ بن مُعاويةَ .

أمّا بعدُ ، فقد أدَّتْ ألسِنَةُ التصريحِ إلىٰ أُذُنِ العِنايةِ بِكَ ما فَجَعَ الأَمَلَ فيك ، وباعدَ الرَّجاءَ منك إذْ ملأْتَ العُيونَ بَهْجةً ، والقُلوبَ هَيْبةً ، وترامَتْ إليك آمالُ الرَّاغِبِين ، وهِمَمُ المتنافِسِين ، وشَحَّتْ بك فِتْيانُ قُرَيْشٍ وكُهُولُ أهلِكَ ، فما يَسُوغُ لهم ذِكْرُك إلا علىٰ الحِرَّة المُمَهِّعَة ، والكَظِّ الجَشِءِ . اقتحمتَ البوائق ، وانقدت للمَعايِر ، وآعتضْتَها من سُمُوّ الفضل ، ورفيعِ القَدْرِ ، فلَيْتَكَ يزيدُ إذ كنت لم تكُنْ . سَرَرْتَ يافعًا ناشِئًا ! وأثكلْتَ كَهْلًا ضالعًا ، فَوَاحَزَناه عَلَيْكَ يزيدُ ! وياحَرَّ صدرَ المُثْكَلِ بك ! ما أشْمتَ فِتْيانَ بنى هاشِم ! وأذَلَّ فِتْيانَ بنى عبدِ شمس ! عِنْد تَفاوُضِ المَفاخرِ ودِراسة المَناقِبِ ! فَمَنْ لصلاحِ ما أفْسَدْتَ ، ورَتْقِ ما فَتَقْتَ ؟ هَيْهاتَ خَمَشت الذَّرْبةُ وجْه التَّصبُّرِ بك ، وأبَتِ الجنايةُ إلا تَحدُّرًا علىٰ الألْسُن ، وحلاوةً علىٰ المَناطِقِ ، ما أرْبَحَ فائدةً نالُوها ، وفُرصةً آنتهزُوها ! ؛ آنتَبِهْ يزِيدُ للّفظه ، وشاوِرِ الفِكْرَه ، ولا تكُنْ إلىٰ سَمْعِكَ أسرَعَ من معناها إلىٰ عَقْلِك . وآعلم أنَّ الذى وَطَّأك وسوسة الشَّيْطان ، وزَخْرفة السُّلْطان ، ممّا حَسُن عندك قُبْحُه ، وآحْلَوْلَىٰ عندك مُرُّه ، أمْرٌ شَرِكَك فيه

السَّواد ونافَسكَه الأعْبُـد، لا لأُثْرة تدَّعيها أو جَبَتْها لك الإمْرة، وأضعتَ بهـا من قَدْرك، فأمكنْتَ بها من نَفْسك؛ فكأنك شانِئُ نَفْسك، فمن لهذا كله ؟ .

اِعلم يا يَزِيدُ أنك طَرِيدُ الموتِ وأسِـيرُ الحَياة، بلَغنِي أنك ٱتخَـذْت المَصانِـعَ والمجَالِسَ للملَاهِي والمزَامِير كما قال تعالىٰ: ﴿أتبْنُونَ بكُلِّ رِيعٍ آيَةً تعبَثُونَ وتَتَّخِذُونَ مَصَانِـعَ لَعَلَّكُمْ تخْلُدُونَ﴾ وأجْهَرْتَ الفاحِشَةَ حتّىٰ ٱتخَذْت سرِيرَتَها عندك جَهْرا .

اِعلم يا يزيدُ أن أوّلَ ماسَلَبَكَهُ السُّكْر معرفةُ مَوَاطن الشُّكر لله علىٰ نِعَمه المتظاهِره، وآلائِهِ المُتَواتِره، وهي الجَرْحة العُظْمىٰ، والفَجْعةُ الكُبْرىٰ: تركُ الصَّلَوات المفروضاتِ في أوقاتهـا، وهو من أعظمِ ما يَحْدُث من آفاتِها، ثم ٱستِحْسانُ العُيوب، ورُكُوب الذُّنوب، و إظهارُ العَوْرة، و إباحةُ السِّرِّ. فلا تأْمَنْ نفسَـك علىٰ سِرّك، ولا تعْقِد علىٰ فعلك. فما خيرُ لذةٍ تُعْقِبُ الندَم، وتُعَفِّي الكَرَم؟ وقد توقَّف أميرُ المؤمنين بين شَطْرَيْنِ من أمْرِك، لمـا يتوقَّعُه من غَلَبة الآفة وٱستهلاكِ الشَّهْوة . فكن الحاكمَ علىٰ نفسِك، وٱجعل المحكوم عليه ذِهْنَكَ تَرْشُدْ إن شاء الله تعالىٰ. وليَبْلُغَ أميرالمؤمنين ما يردُّ شاردًا من نومه، فقد أصبح نُصْبَ الأعتزالِ من كل مُؤَانِس، ودُرأَةَ(١) الألسن الشامتةِ، وفَّقَك الله فأحسن .

الأســلوب الثـانى

(أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ «أمّا بعد»)

وهو علىٰ ما تقدّم خلا الأبتداءَ والتصـديرَ بالسلام والتحميد، ويكون الأفتتاح فيه بالمَقْصِد، كما كتب أمير المؤمنين عثمانُ بن عفَّانَ إلىٰ عليّ بن أبي طالب كَرَّم الله وجهه حين خرج عليّ إلىٰ اليَنْبُع وٱختلف الناسُ علىٰ عثمان .

---

(١) لعله دريئة وهي الحلقة التي يتعلم عليها الطعن .

أما بعـدُ، فقد بلغ السَّيلُ الزُّبىٰ [وجاوز] (١) الحِزَامُ الطُّبْيَيْن، وطَمِع فى كُلِّ من كان يضعف [عن الدفع] (١) عن نفسه، ولم يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّب، فأقبِلْ إلىّ صديقًا كنْتَ أو عدُوًّا :

فإنْ كُنْتُ مَأْكُولًا، فكُنْ خَيْرَ آكِلٍ * وإلا فأدرِكْنِي ولَمَّا أُمَـزَّق

الطـــرف الثـانى

(فى الكُتُب الصادرة عن خلفاء بنى أُمَيَّة)

وهى علىٰ ماتقـدّم من الكُتُب عن الخلفاء من الصحابة فى التصدير والتعبير، إلا أنه يعـبَّر عن الخليفة بأمير المؤمنين، وربمـا عُبِّر عنه بلفظ الإفراد . مثل : فعلْتُ وأفعَلُ وما أشـبه ذلك؛ أما الخطاب للمكتُوب له فبكاف الخطاب وتاء المخاطَب، مثل: إنكَ أنْتَ قلتَ كذا، وفعلتَ كذا، وماأشبه ذلك . وعنوانُها : «من عبد الله فلانٍ أمير المؤمنين» فى الجانب الأيمن، ثم «إلىٰ فلانٍ الفلانىّ» فى الجانب الأيسر.

ثم هى علىٰ أسلوبين :

الأســـلوب الأوّل

(أن يفتَتح الكتَابُ بلفظ «من عبدِ الله فلانٍ أمير المؤمنين إلىٰ فلان»)

كما كتب عبد الملك بنُ مَرْوان إلىٰ الحَجّاج بن يوسفَ ـ وقد بلغه تعرّضُه لأنَسِ آبن مالك رضى الله عنه ـ «من عبدِالله عبدالملك بنِ مروانَ أمير المؤمنين إلىٰ الحَجَّاج آبن يوســف

---

(١) الزيادة عن الضوء .

أما بعدُ، فإنّكْ عبدٌ علَتْ(١) بك الأمورُ فطغَيْتَ، وعلوتَ فيها حتّى جُزْت حدَّ قَدْرِك، وعَدَوْت طَوْرَك. وآيمُ الله لأَغْمِزَنَّك كبعض غَمزاتِ اللُّيوثِ الثَّعالبَ! ولأَرْكُضَنَّك رَكْضــةً تدخُل منهــا فى وَجْعاءِ أُمِّك، اذْكُر مكاسبَ آبائك فى الطائف، إذ كانوا يَنْقُلون الحجارةَ علىٰ أعناقِهم، ويَحْفِرُون الآبارَ والمناهرَ بأيديهم! ،قد نَسِيتَ ما كنتَ عليــه أنت وآباؤُك من الدَّناءة واللُّؤْم والضَّراعة. وقد بلغ أميرَ المؤمنين آستطالة منك علىٰ أنسِ بنِ مالك جُرْأَةً منك علىٰ أميرالمؤمنين، وغِرَّةً بمعرفةِ غِيَرِه ونَقِماته وسَطَواته علىٰ من خالف سبيله، وعَمَدَ إلىٰ غير مَحَجَّته، ونزل عنــد سُخْطته، وأظنُّك أردتَ أن تَرُوزَه بها فتعلم ما عنــده من التغيير والتنكير فيها، فإن سُوِّغْتَها مضيتَ قُدُما، وإن غَصِصْتَ بها ولَّيت دُبُرا أيُّها(٢) العبدُ الأخفَشُ العينين، الأصَكُّ الرجلين، الممسوحُ الجاعِرَتيْن، ولن يَخْفىٰ عن أميرالمؤمنين نَبَؤُك، ولكلِّ نَبَإٍ مستقَرٌّ وسَوفَ تعلمُون.

الأســـــلوب الثانى

(أن يفتتح الكتاب بلفظ «أما بعد» ويقع الشروعُ منه فى المَقْصَد)

كما كتب يزيدُ بن معاوية إلىٰ أهل المدينة النبويَّة ـ علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام ـ وقد بلغه خلافُهم عليه.

"أما بعدُ، فإنَّ الله لا يُغَيِّر ما بِقَوْم حتّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم، وإذا أراد اللهُ بقوم سُــوءًا فلا مَرَدَّ له وما لَهُم مِنْ دُونِه مِنْ والٍ. إنِّى والله قد لبِسْتُكم فأخْلَقْتكم! ورفعتُكم علىٰ رأسى، ثم علىٰ عينى، ثم علىٰ فَمِى، ثم علىٰ بَطْنى؛ وآيمُ الله لئِنْ وضَعْتكم

---

(١) فى مفتاح الافكار ص ١٨١ "طمت" وهى أقرب الى المعنى وفيه فى آخر الكتاب زيادة فراجعه.

(٢) فى "مفتاح الأفكار" فعليك لعنة الله من عبد أخفش الخ.

تحتَ قدَمِى لأطأنَّكم وطأةً أُقِلُّ بها عددَكُمْ ، وأترُكُكم بها أحاديثَ تُنْسَخ منها أخبارُكم كأخبارِ عادٍ وثمودَ" .

وكما كتب عمرُ بنُ عبد العزيز إلىٰ عَدِىّ بن أرطاةَ ، وهو عامله علىٰ بعض النَّواحى .

"أما بعدُ ، فإذا أمكنتك القُدْرةُ علىٰ المخلوق ، فاذكر قُدرةَ الخالق عليك! وآعلم أنَّ مالَكَ عند الله مثلُ ما للرعيَّة عندك" .

وكما كتب يزيدُ بنُ الوليد المعروفُ بالناقص إلىٰ مَرْوان بن محمد ـ وقد بلغه عنه تَلَكُّؤٌ فى بيْعته ـ .

"أما بعدُ ، فإنِّى أراكَ تُقَدِّمُ رِجْلا وتُؤَخِّر أُخرىٰ ، فإذا أتاك كتابِى فاعتَمِدْ علىٰ أيِّهما شئتَ والسلام" .

قلت : ولم يزل الأمرُ فى المكاتبات فى الدولة الأُمويَّة جاريا علىٰ سَنَن السَّلَف ، إلىٰ أن وَلِىَ الوليدُ بنُ عبدالملك ، فجوّد القَراطيس ، وجَلَّل الخُطُوط ، وفَخَّم المكاتباتِ ، وتبعه مَنْ بعـده من الخلفاء علىٰ ذلك ، إلا عُمرَ بن عبد العزيز ، ويزيدَ بنَ الوليـد المقدّم ذكره ، فإنهما جريَا فى ذلك علىٰ طريقة السلَف ، ثم جرىٰ الأمْرُ بعدهما علىٰ ماسنَّه الوليدُ بن عبد الملك ، إلىٰ أن صار الأمْرُ إلىٰ مَرْوانَ بن محمد آخِرِ خلفائهم ، وكتبَ له عبدُالحميد بن يحيىٰ ـ وكان من اللَّسَن والبلاغة علىٰ ما آشتهر ذكره ـ فأطال الكُتُبَ وأطنبَ فيها ، حيثُ آقتضى الحالُ تطويلَها والإطنابَ فيها ، حتّى يقال : إنه كتب كتابًا عن الخليفة جاء وِقْرَ جملٍ ، وآستمرّ ذلك فيما بعده .

الطـــرف الثـالث

(فى الكتب الصـادرة عن خلفـاء بنى العبّـاس ببغــدادَ وولاة العهدِ بالخلافة ، وفيه ثلاثُ جمل)

الجمــلة الأولىٰ

(فى بيان ترتيب كُتُبهم فى الرسائل علىٰ سبيل الإجمال)

كانوا يفتتحون أكثرَ كُتُبهـم بلفظ « من فلانٍ إلىٰ فلانٍ » وتارةً بـ« أما بعـد » وربمـا ٱفتتحُوها بغـير ذلك ؛ فأما ٱفتتاحُها بلفظ من فلان إلىٰ فلان فكان يُكْتَب عنهم فى أوّل دَوْلتهم كما كان يُكْتَب عن خلفاء بنى أُمَيّـة ، وهو «من عبد الله فلان أمير المؤمنين ، سـلامٌ عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمَـدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو» ثم يتخلَّص إلىٰ المقصود بلفظ أما بعـد . إلا أنهـم زادُوا بعد ٱسم الخليفـة لفظ « الإمام الفلانى » بلقب الخلافة ، فكان يقال : « من عبد الله الإمام الفلانى أمير المؤمنين » فلما صارت الخلافةُ إلىٰ الرشيد زاد بعد التحميد « ويسأله أن يصلِّىَ علىٰ محمد عبده ورسوله صلَّى الله عليه وسلم » فلمـا وُلِّىَ ٱبنُه الأمين ٱكتنىٰ فى كتبه وتبعه مَنْ بعده من الخلفاء علىٰ ذلك .

وقد ٱختُلِف فى تقديم الاسم والكُنْية واللَّقَب ، والذى رتَّبـه أبو جعفر النحاس فى " صناعة الكُتَّاب " تقديمُ الاسم علىٰ الكُنْية وتقديمُ الكُنْية علىٰ اللقب . مثـل أن يقال : « من عبـد الله فلانٍ أبى فلانٍ الإمام الفلانى أمير المؤمنين » ثم قال : وهذه المكاتبة هى التى ٱصطُلح عليها فى الأمور السلطانية التى تُنْشَأ بهـا الكتُب من الدواويـن ، إلا أن بعض العلمـاء قد خالفهم فى هذا ، وقال : الأولىٰ أن يُبْدأ

باللقب، مثل أن يقال «من الراضى» أو «المتوكل» وما أشبه ذلك، كما قال الله جل وعز : ﴿إِنَّمَا المَسِيحُ عِيسَىٰ ٱبنُ مَرْيَمَ رَسُولُ الله﴾ وذلك لأن اللقب لايشاركه فيه غيره، فكان أولىٰ أن يُبْدأَ به .

وترتيب المكاتبة علىٰ ماذكره فى "صناعة الكتَّاب" أن يَكْتُب : «من عبد الله فلانٍ أبى فلان الإمامِ الفلانى أميرالمؤمنين، سلامٌ عليك؛ فإن أميرالمؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لاإلٰهَ إلاهو، ويسْألُه أن يصَلِّى علىٰ محمد عبده ورسوله». ثم يَفْصِل ببياض يسير، ويكتب «أما بعدُ فإن كذا وكذا»؛ ثم يأتِى علىٰ المعنىٰ، فإذا فرغ من ذلك وأراد أن يأمر بأمر، فصل ببياض يسير، ثم يكتب : «وقد أمر أميرُالمؤمنين بكذا ورأىٰ أن يُكْتَب إليك بكذا»، فيؤمر بامتثال ما أمر به والعمل بحسَبِه؛ ثم يفصل ببياض ويكتب : فٱعلَمْ ذلك من رأْى أميرالمؤمنين، وٱعمَلْ به، إن شاء الله تعالىٰ. «وكتب فلان بن فلان» باسم الوزير وٱسم أبيه، يوم كذا، من شهر كذا، من سنة كذا . وقد يكتب فى أواخر المكاتبة بعد ٱستيفاء المَقْصِد : «هذه مناجاةُ أمير المؤمنين لك» أو «هذه مفاوَضةُ أمير المؤمنين لك» .

ويقال : فى السلام علىٰ أعلىٰ الطبقات من المكتوب إليهم «والسلامُ عليك ورحمة الله» وربما قيل : «ورحمة الله وبركاتُه» .

وأما افتتاحها بلفظ أما بعد، فغالبُ مايقع فى الكتب المطْلَقة : كالبُشْرىٰ بالفتوح وغيرها . ثم تارة يعقِّب البعديةَ بالحمدُ لله، إما مرةً أو أكثر، وغالب مايكون ثلاث، وتارة يعقِّب بغير الحمد .

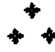

وأما الاْفتتاح بغـير هذين الاِفتتاحين، فتارةً يكونُ بالدعاء، وتارةً يكون بغيره ، ويكون التعبير عن الخليفـة فى كتبه الصـادرة عنه « بأمير المؤمنين » علىٰ ما تقدّم فى خلافة بنى أُمَيَّة .

ثم إن كان المكتوبُ إليه معيَّنا، فالذى كان عليه الحال فى أوّل دولتهم أن يُكْتَب إليه باسمه؛ ثم لمـا تغلب بنو بُوَيْه علىٰ الخلفاء وغَلَبُوا عليهم، وعلت كلمتُهم فى الدولة وتلقَّبوا بفلان الدَّوْلة وفلان المِلَّة، فكان يُكْتَب إليهـم بذلك فى الكتب إليهـم؛ ثم لمـا كانت الدولة السَّلْجوقيَّـةُ فى أواخر الدولة العباسية ببغـداد، آستعملوا كثرةَ الألقاب للمكتوب إليـه عن الخليفةِ فى صَدْر المكاتبـة . قال فى "موادِّ البيان" : ولا يخاطبُ أحدٌ عن الخليفة إلا بالكاف . وقد يخاطِبُ الإمام وزيرَه فى المكاتبة الخاصةِ بما يَرْفَعهُ فيه عن خطاب المكاتبة العامَّة الديوانية، ويتصرَّف فى ذلك ويُزاد ويُنْقَص علىٰ حسب لَطَافة محل الوزير ومنزلته من الفضل والجلالة .

قال فى " ذخيرة الكتّاب " : ويكون الدعاءُ من الخليفـة لمن يكاتبـه علىٰ قدر موْضِعه من خِدْمته ومحلِّه عنده؛ وقد تقدّم أن أعلىٰ الدعاء كان عندهم بإطالة البقاء؛ ولذلك كان يُدْعىٰ لملوك بنى بويه فمن بعدهم بلفظ : «أطال الله بقاءك» وقد تقدّم فى المقـالة الثالثة فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق ومايناسب كلَّ قَطْع من الأقلام أنه إن كانت المكاتبةُ عن الخليفة ترك الكاتبُ من رأس الدَّرْج قدر ذراع بياضا؛ ثم يكتب «بسم الله الرحمن الرحيم» ثم يكتب فى سطر ثانٍ يلاصقها ويخرج يسيرا، من عبد الله إلىٰ آخر التصـدير الذى يليه أمّا بعـد، وأن التصدير يكون فى سطرين

بينهما فضاءٌ قدرَ شبر، لايزيد عن ذلك ولا ينقُص؛ ثم يترك بعد هذين السطرين فضاءً بنصف ما بين الأوّلين فيما ذكره فى "موادّ البيان": وبقدره فيما ذكره فى "ذخيرة الكتّاب" ثم يقول: أما بعد، ويأتى على المكاتبة إلى آخرها على هذا النحو.

أما عَنْونةُ كتبهم، فكانت فى أوّل دولتهم: «من عبد الله فلانٍ الإمامِ الفلانىّ أمير المؤمنين» فى الجانب الأيمن، وفى الجانب الأيسر «إلى فلانِ بنِ فلان». ثم زاد المأمونُ فى أوّل عُنْواناته «بسم الله الرحمن الرحيم». ولما تكنّى الأمينُ فى كتبه بعد ذلك زيدت الكُنْية فى العنوان، فكان يكتب فى الجانب الأيمن «بسم الله الرحمن الرحيم: من عبد الله فلان أبى فلان الإمام الفلانى» وفى الجانب الأيسر، «إلى فلان ابن فلان». وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب المكاتبات أن البسملة بقيت فى العَنْونة إلى زمن النحّاس فى خلافة الراضى، وأن صاحب "موادّ البيان" ذكر أنها بطلت منه بعد ذلك.

قال النحاس: فإن كان المكتوبُ إليه من مَوَالِى بنى هاشم، نُسِب إلى ذلك، وإن لم يكن ينسب إليهم تُرِك.

الجملة الثانية

(فى الكُتُب العامّة، وهى على أَسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن يفتتح الكتابُ بلفظ «من فلان إلى فلان»)

بأن يكتب «من عبد الله فلانٍ أبى فلان الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين» إلى آخر المكاتبة على ما تقدّم ترتيبه.

وهذه نسخة كتابٍ من ذلك كتب به أبو إسحـاقَ الصابى عن الطائع لله إلىٰ صَمْصام الدولة بن عَضُد الدولة بن بويه بسبب كردويه، الخارج عن الطاعة، وليس فيه تكنية للخليفة وهو .

من عبد الله « عبـد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنين » إلىٰ صَمْصام الدولة وشمس المِلَّة أبى كاليجار بن عَضُد الدولة وتاج المِلَّة مولىٰ أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يَحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ويسأله أن يصلِّى علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم .

أما بعـدُ ـ أطالَ الله بقاءَكَ ـ فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوّأكَ المنزلة العُلْيَا ، وأنالك من أُثْرته الغايةَ القُصْوىٰ ، وجعل لك ما كان لأبيك عضدِ الدولة وتاجِ الملة رحمةُ الله عليـه من القَدْر والمَحَلّ ، والموضع الأرْفَع الأجلّ ، فإنه يُوجِب لك عنـد بَذْلِك أَثَرا يكون لك فى الخِدْمه ، ومقامَ حمد تقومه فى حماية البيضة ، إنعاماً يظاهره ، وإكراما يتابعه ويُواتره . والله يؤيِّدك من توفيقه وتسديده ، ويَمُدّك بمعونته وتأييده ، ويَخير لأمير المؤمنين فيما رأيه مستمرّ عليه من مَزِيدك وتمكينك ، والإبقاء بك وتعظيمك ، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيبُ .

وقد عرفتَ ـ أدام الله عزَّك ـ ما كان من أمر كردويه كافرِ نعمة أمير المؤمنين ونعمتِك ، وجاحدِ صَنِيعته وصنيعتِكْ ، فى الوَثْبة التى وثبها ، والكبيرة التى ٱرتكبها ، وتقريره أن ينتهز الفُرْصة التى لم يُمَكِّنه الله منها ، بل كان من وراء [ذلك] دفعُه وردُّه عنها ، ومعاجلتُك إيّاه الحربَ التى أصلاه اللهُ نارها ، وقَنَّعه عارَها وشَنَارها ، حتّى ٱنهزم والأوغادَ الذين شَرِكُوه فى إثارة الفِتْنـة علىٰ أقبح أحوال الذِّلة والقِـلَّة ، بعدَ القتل الذَّرِيع ، والإثخان الوَجِيع ، فالحمد لله علىٰ هـذه النعمة التى جَلَّ موقِعُها ، وبانَ علىٰ

الخاصّة والعامّة أثرها، ولزِم أميرَ المؤمنين خُصوصا والمسلمين عموما نَشْرُها، والحديثُ بها، وهو المسئُول إقامتَها و إدامتَها برحمته .

وقد رأىٰ أمير المؤمنين أن يُجازِيَك عن هذا الفتح العظيم ، والمقام المَجيد الكريم، بخِلَع تامّة ، ودابّتين ومركبين ذهباً من مَرَاكبــه ، وسَيْف وطَوْق وسِوار مرصّع ؛ فتلقَّ ذلك بالشكر عليه، والاعتداد بنعمته فيه، وٱلبَسْ خِلَع أمير المؤمنين وتَكْرِمَتَه ، وسِرْ من بابه علىٰ حملاته، وأظْهِر ماحَبَاكَ به لأهل حضرته ، لِيُعِزَّ الله بذلك وليَّــه ووليَّك ،ويُذِلَّ عدوَّه وعَدُوَّك، إن شاء الله تعالىٰ، والسلامُ عليك ورحمة الله و بركاته .

(وكتب أحمدُ بن محمد لثمان إن بَقِينَ من شهر ربيع الأوّل سنة خمس وسبعين وثلثمائة)

أطال الله بقاءَكَ ، وأدام عِزَّكَ ، وأحسنَ حِفْظك وحِياطَتَك ، وأمتَع أميرَ المؤمنين بك، و بالنعمة فيكَ وعِنْدك .

وهذه نسخةُ كتابٍ آخَر من ذلك أيضا، كُتِب به عن المقتفِي لأمر الله إلىٰ السلطان مسعودِ بن محمد بن مَلِكْشاه السلجوقيّ في تعزيةٍ بولدٍ مات له ؛ وفيه تكنية الخليفة وتقديم الكُنْية علىٰ الاسم وكثرةُ الألقاب للمكتوب إليه وهو .

" من عبد الله أبي عبــد الله محمدٍ المقتفِي لأمر الله أمير المؤمنين ، إلىٰ شاهنشاه المعظَّم مولىٰ الأمم ، مالكِ رِقَاب العرب والعجَم ، جلالِ دين الله ، ظَهِيرِ عِبَاد الله ، حافظ بلاد الله، مُعِينِ خليفة الله، غِيَاثِ الدنيا والدِّين ، ناصرِ الإسلام والمسلمين ، محيي الدولة القاهره، مُعِزّ الملة الزاهره، عماد الملة الباهره ، أبي الفتح « مســعود ٱبن محمد ملكشاه» قسيم أمير المؤمنين .

سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليـكَ اللهَ الذى لاإله إلا هو، ويسأله أن يصَلِّى علىٰ محمد عبده ورسوله ويُسَلِّمَ تسليما .

أما بعدُ، أطال الله بقاءَكَ! وأدام عِزَّك وتأييدَك وسعادتَك ونعمتَك، وأحسنَ حِفْظك وكَلَاءتك ورِعايَتَك، وأمتعَ أميرَ المؤمنين بك، وبالنعمةِ الجليلةِ والمَوْهبةِ الجزيلة والمِنْحة النَّفيسةِ فيك وعندك، ولا أخلاه منك! ، فإن أولىٰ من ٱدَّرع للحوادث جُبَّـة الٱصْطِبار، ونَظَر أحوالَ الدنيا فى تقلُّبها بعينِ الٱعتبار، ورجَع إلىٰ الله تعـالىٰ فى قَدَره وقضائه ، وسَلَّم لأمره الذى لارادّ له فى ٱمْتِحانه وٱبتلائِه ، وعرفَ أنَّ له سبحانه فى كلِّ ما يُجْرِيه علىٰ عباده حِكمَةً باطنـه، ومصلحةً كامنه ؛ من خيرٍ عاجل ينشُره، وثوابٍ آجل يُؤَخِّره لهم إلىٰ يوم الجزاء ويدَّخِره ؛ وفائدةٍ هو أدرىٰ بها وأعْلم، وفعلُه فيها أتقنُ وأحكَم ؛ مَنْ خَصَّه بمـا خصَّك الله به من الدين الراجح ، والخُلُق الصالح، والمعتقَـد الواضح ؛ والنِّعم التى جادكَ فى كلِّ يومِ مُقـامِ سَحابُها، وٱتسعتْ بين يديك عند مَضايق الأمور رِحابُهـا ، وأنِسَتْ إذا ٱستوحشَتْ من العاجزين عن ٱرتباطها بالشُّكر صِحابُها؛ والمناقـب التى فرَعْتَ بها صَهَواتِ المجد، وتملَّكْت رِقَّ الثناء والحمد؛ وعلوتَ فيها عن المُساجِل والمُطاوِل، وبَعُدَ ماحضر لك منها عن أن تنالَهُ يدُ القـائم المُحاوِل. وتأدّىٰ إلىٰ حضرة أمير المؤمنين ــ أمتعه الله ببقائك، ودافَعَ له عن حوبائك ــ (١) نبأُ الحـادثة بسَليلك الذى ٱختار الله له كريمَ جِواره، فأحبَّ له الٱنتقالَ إلىٰ محـلِّ الفوز ومَداره ، فوَجَدَ لذلك وُجُوما موفَّرا ، وهمًّا للسُّكون منفِّرا، وتوزُّعا تقتضيه المشاركةُ لك فيما ساويته(؟) والمساهمةُ الحاصلةُ فى كل ماحَلَا من الأمور وأمَرَّ، وأمَرَ عند ورود هذا الخبر بالتصدِّى للعزاء، وإعلان مايُعْلِنُ عن مقاسمتك فى الضَّرَّاء ــ دفعها الله عنك ــ والسَّرَّاء ؛ ونَدَب جَمْعا من الخَدَم المُطِيفين بشريف سُدّته ،

(١) الحوباء النفس أنظر القاموس .

المختصين بعزيز خدمتـه ؛ بتعزّ يتصوّنه لباس التعزيه ، ويستدْنى بتقمُّصه عازب التسليه ؛ إبانةً عن آنصراف الهِمَم الإماميَّة إليك فيما خصّ وعَمّ من حالك ، وآستجلابِه لك دَواعِىَ المَسَارّ فى حلّك وتَرْحالك ،وكونِ الأفكار الشريفةِ موكَّلةً بكل ماحمىٰ من الروائع قلْبَـك ، وأعذَبَ شِرْبك ؛ وأنت حقيقٌ بمعرفة هـذه الحال من طوِيَّته لك ونيته ، ورأيه فيك وشفقته ، ورعاية مَصْلحتِك منه بعين كاليه ، ورُجوعِه من المحافظة فى حَقِّك إلىٰ أُلْفة بالصَّفاء حاليه ؛ وتلَقِّى الرَّزِيَّة التى أرادها اللهُ وقضاها ، وأنفذ مشيئته فيها وأمضاها ؛ بالصبرِ المأمورِ به والآحتساب ، والتسليم الموعود عليه بجزيل الثَّواب ؛ علما أن الأقدار لا تُغالَب ، وغريمَها لا يُطالَب ؛ وان الله تعالىٰ إذْ قال لنبيه صلّى الله عليه وسـلم ــ وهو سيد البشر ــ ﴿ إنَّك ميِّتٌ وإنَّهم ميِّتُون ﴾ فلا سبيلَ لأحدٍ من خَلْقـه إلىٰ البقاء ، ولا وَجْهَ للخُلود فى دار الفَنَاء ؛ ولا دافعَ لحكمه جلّتْ عظمتُه فيما قدّره من الآجال ، وسبق فى عِلْمه من الرَّوائع فى دار الآبتـلاء والأوحال ؛ وما يزالُ التطلُّعُ واقعا إلىٰ وصـول جوابك الدالّ علىٰ السَّلْوة التى هى الأليقُ بك ، والأدْعىٰ إلىٰ حصول بُغْيتِك من قَضاء اللهِ وأدبك ؛ لتحُطَّ الأنَسةُ مع وصـوله فى رِحالها ، وتُؤْذِنَ لِصرْف الغُموم الجاريةِ لأجلك بارتحالها .

هذه مناجاةُ أمير المؤمنين لك ، أدام الله تأييدك ! وأمتع بك ! إن شاء الله تعالىٰ ، والسلام عليك ورحمة الله .

الأُسْــــلوب الثـانى

(أن يكون الاِفتتاحُ بلفظ «أما بعـــد» وهو علىٰ نوعين)

النـــــوع الأوّل

(أن يَعقب البعديةَ «الحمدُ لله» ، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أن يتعدّد الحمد فى أوّل الكتاب)

و يكون ذلك فى الكتب المؤْذِنة بحصول نعمةٍ ظاهرة : كالفتوح ونحوها . ويقع التعدُّد فيها بحسَب ما تقتضيه النعمةُ ، وغالب ما يكون ثلاث مرات ، و ربمـا وقع التحميدُ فى أوّل الكتاب وآخره .

وهذه نسخة كتابٍ من هذا النوع كُتِب بهـا عن المعتصم إلىٰ ملوك الآفاق من المسلمين عند قبض الأَفْشِين علىٰ بابَك ملك الروم ، وهى :

أما بعدُ ، فالحمدُ لله الذى جعل العاقبةَ لِدِينه ، والعِصْمة لأوليائه ، والعِزَّ لمن نصره ، والفُلْج لمن أطاعه ، والحقَّ لمن عَرَف حقَّــه ، وجعل دائرَةَ السَّوء علىٰ من عصاه وصَدَف عنه ، ورَغِب عن رُبُوبيته ، وٱبتغىٰ إلٰها غيره . لاإلٰهَ إلاهو وحده لاشريكَ له . يحمَدُه أميرالمؤمنين حمدَ مَنْ لايعبُد غيْرَه ، ولا يتوكَّلُ إلا عليه ، ولايفوِّض أمْرَه إلا إليه ، ولا يرجُو الخيرَ إلا مِن عنــده ، والمزيدَ إلا من سَعَةِ فضله ، ولا يستعين فى أحواله كلِّها إلا به . ويسألُه أن يصــلِّى علىٰ محمد عبده و رســوله ، وصَفْوته من عباده ، الذى ٱرتضاه لنبوّته ، وٱبتعثه بوحْيِــه وٱختصَّــه بكرامته ، فأرسـله بالحق شاهدا ومبَشِّرا ونَذيرا ، وداعيًا إلىٰ الله بإذْنه وسِرَاجا مُنِيرا . والحمد لله الذى توجه

لأمير المؤمنين بصنعه، فيسّر له أمْره، وصَدَق له ظَنَّه، وأنجح له طَلِبته، وأنفذ له حيلته، وبَلّغ له محبّتَه، وأدرك المسلمون بثأرهم على يده، وقتــل عَدُوّهم، وأسكن رَوْعتهم، ورحِم فاقتَهم، وآنس وَحْشَتهم، فأصــبحوا آمنين مطمئنّين مقيمين فى ديارهم، متمكّنين فى أوطانهم، بعد القتْل والخوف والتشريد وطُول العناء، وتتابُع البَلَاء، منًّا من الله عز وجلّ على أمير المؤمنين بما خصّه به، وصُنْعًا له فيما وَفّقه لطلبه، وكرامةً زادها فيما أجرىٰ على يده؛ فالحمــدُ لله كثيراً كما هو أهــلُه، ونَرْغَبُ إلىٰ الله فى تمـام نِعَمِه ودوام صُنْعه، وسَعةِ ماعنده بمَنّه ولُطْفه؛ ولا يعلَمُ أمير المؤمنين ـ مع كَثْرة أعداءِ المسلمين وتكنُّفهم إيّاه من أقْطاره، والضغائن التى فى قلوبهم علىٰ أهله، وما يترصّدونه من العداوة، وينْطَوُون عليه من المُكايَدة، إذ كان هو الظاهرَ عليهم، والآخِذَ منهم ـ عَدُوًّا كان أعظم بليّةً، ولا أجلّ خَطْبا، ولا أشدّ كَلَبا، ولا أبلغ مُكايدة، ولا أرْمىٰ بمكروه، من هؤلاء الكَفَرة الذين يغزوهم المسلمون، فيستعلُون عليهم، ويَضَعُون أيديَهُم حيثُ شاءوا منهم، ولايقبلُون لهم صُلْحا، ولا يَمِيلُون معهم إلىٰ مُوادَعَة؛ وإن كان لهم علىٰ طُول الأيّام وتصرُّف الحالات وبعض ما لا يزال يكون من فَتَرات وُلاةِ الثُّغُور أدنىٰ دَوْلة من دَوْلات الظَّفَر وخُلْسة من خُلَس الحرب، كان بمـا لَهُم من خوف العاقبة فى ذلك مُنَغّصا لمـا تعجّلُوا من سروره، وما يتوقعون من الدوائر بعدُ، مُكدِّرا لمـا وصل إليهم من فَرْحةٍ .

فأما اللعين بابك وكَفَرتُه، فإنهـم كانوا يَغْزُون أكثر ممـا يُغْزَوْن، وينالُون أكثَرَ ممـا يُنَالُ منهم؛ ومنهـم المنحرِفون عن المُوادَعة، المتوحّشُون عن المراسَـلَة؛ ومَنْ أُديلوا من تتابُع الدول، ولم يخافوا عاقبةً تُدْرِكهم، ولا دائرةً تَدور عليهم . وكان ممـا وطّأ ذلك ومكّنه لهم أنهم قومٌ ٱبتدؤا أمرهم علىٰ حال تشاغُل السلطان، وتتابُع من الفتن، وٱضطرابٍ من الحبل، فاسـتقبلوا أمرهم بعِزّة من أنفسهم، وضَعْف

وآستثارة ممّن باراهم ، فأجلَوْا مَنْ حولهم لتخلُص البـلادُ لهم ؛ ثم أخربُوا البـلادَ لِيعزّ مطلَبُهم، وتَشْـتدّ المـُونة وتعظُمَ الكُلْفة ، ويَقْوَوْا فى ذات أيديهم ؛ فلم يتوافَ إليهم قُوّاد السلطان إلا وقد توافَتْ إليهم القُوّة من كل جانب ، فآسـتفحل أمرُهم ، وعظُمت شوكتُهـم ، وآشتدّت ضَروراتُهـم وآستجمع لهم كَيْدُهم ، وكثُر عددهم وآعْتِـدادهم ، وتمكّنت الهيبةُ فى صدور النـاس منهم ، وتحقّق فى نفوسهم أن كلّ ما يَعِدُهم الكافرُ ويُمنّيهم أخْذٌ باليـد . وكان الذى بقى عندهم منـه كالذى مضىٰ ، وبدون هذا ما يَخْتدِعُ الأريب ويُستَنْزَل العاقل ويعتَقَل الفَطِن ، فكيف بمن لا فِكرَةَ له ، ولا روِيّة عنده ؟

هذا مع كل ما يقوم فى قلوبهم من حَسَد أهل النِّعم ، ومنافستهم علىٰ ما فى أيديهم ، وتَقَطُّعِهم حسراتٍ فى إثر ما خُصُّوا به ، وأنهم إن لا يكونُوا يَرَوْن أنفُسَهم أحقَّ بذلك ، فإنهم يَرَوْن أنّهم فيه سَواء .

ولم يزل أمير المؤمنين قبل أن تُفْضىَ إليه الخلافةُ مادّا عُنُقه ، موجِّها هِمَّته إلىٰ أن يُولِّيَه الله أمْرَ هٰؤلاء الكَفَرة ويملِّكَه حربهم ، ويجعله المقارع لهم عن دِينه ، والمُناجِز لهم عن حَقِّه ، فلم يكن يَألُو فى ذلك حِرْصا وطَلَبـا وآحتيالا ؛ فكان أمير المؤمنـين رضى الله عنـه يأبىٰ ذلك لضَنّه به ، وصِيانَتِه بقربه ، مع الأمر الذى أعدّه الله له وآثره به ؛ ورأىٰ أن شيئا لا يَفِى بقِوام الدين وصَلَاح الأمر .

فلمـا أفضىٰ الله إلىٰ أمير المؤمنين بخلافتـه وأطلق الأمْرَ فى يده ، لم يكن شىءٌ أحبَّ إليه ولا آخَذَ بقلبه مر المعاجَلَة للكافر وكَفَرته ، فأعزه الله وأعانه الله ، فلله الحمدُ علىٰ ذلك وتيَسُّره ، فأعدّ من أمواله أخْطَرَها ، ومن قُوّاد جيشـه أعلَمَهم بالحرب وأنهضَهم بالمُعْضلات ، ومن أوليائه وأبناء دَعْوته ودَعْوة آبائه ـ صلوات الله

عليهم ــ أحسَنَهم طاعة ، وأشَدَّهم نِكاية ، وأكثَرَهم عُدّة . ثم أتبع الأموال بالأموال، والرِّجالَ بالرجال ، من خاصّة مواليه وعَدَد غِلْمانه، وقبل ذلك ما آتكل عليه من صُنْع الله جَلَّ وعَزَّ ، ووجه إليه من رِعْيته . فكيْفَ رأىٰ الكافرُ اللعينُ وأصحابُه الملاعين؟ ألم يُكْذِب اللهُ ظنونَهم، ويَشْفِ صُدورَ أوليائه منهم؟ يقتُلُونهم كيف شاءُوا فى كل موطن ومعترَك ، مادامتْ عند أنفُسِهم مُقاومةٌ .

فلما ذَلُّوا وقَلُّوا وكَرِهوا الموت، صاروا لايتراءَوْن إلا فى رُءوس الجبال ومَضايِق الطُّرُق وخَلْفَ الأودِيَةِ ومن وراء الأنهار، وحيثُ لاتنالهم الخيلُ ، حصنا للطاولة وآنتظارًا للدوائر، فكادهم اللهُ عند ذلك وهو خيرُ الكائدين، وآستدْرَجهم حتّٰى جمعهم إلىٰ حِصْنهم معتصِمين فيه عند أنفسهم، فجعلوا آعتصامهم لحَيْنٍ لهم،وصُنْعٍ لأوليائه وإحاطةٍ منه به تبارك وتعالىٰ، فجمعهم وحصرهم لكىْ لاتبقىٰ منهم بقيّةٌ ولا تُرْجىٰ لهم عاقبة، ولا يكونَ الدينُ إلا لله، ولا العاقبةُ إلا لأوليائه، ولا التعْسُ والنَّكْس إلا لمن خذَله .

فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانَتْهم مصارعُهم ، سلَّطهم الله عليهم كيدٍ واحدة، يختطِفُونهم بسُيوفهم ، وينتظمونَهُم برِمَاحهم، فلا يجِدون ملْجأ ولا مَهْرَبا؛ ثم أمْكنَهم من أهاليهم وأولادهم ونِسائِهم وحُرَمهم وصيَّروا الدار دارَهم والمحِلة محِلّتهم، والأموال قَسْما بينهم ، والأهلَ إماءً وعبيدا . وفوقَ ذلك كلّه ما فعَل بهؤلاء وأعطاهم من الرحمة والثواب ، وما أعَدَّ لأولئك من الخزْى والعِقَاب؛ وصار الكافر بابك لا فيمن قتل فسَلِم من ذُلِّ الغلَبة ، ولا فيمن نجَا فعاين فى الحياة بعض العِوَض ، ولا فيمن أُصيب، فيشتغل بنَفْسه عن المصيبة بما سواه، لكنه سبحانه وتعالىٰ أطلقه وسَدّ مذاهبه ، وتركه مُلدَّدا بين الذُّل والخَوْف ، والغُصّة والحَسْرة ، حتّٰى إذا ذاق

طعمَ ذلك كلّه وفَهِـمه، وعرف مَوْقِع المصيبة، وظَنَّ مع ذلك كلّه أنه على طريق من النجاة، فأضرب الله وجهه، وأعمى بصره، وسدّ سبيلَه، وأخذ بسمعه وبصره، وحازه إلى مَنْ لا يَرِقُّ له، ولا يَرثِي لمَصْرَعه؛ فآمتثل ما أَمَرَ به الأَفْشِين (حيدر بن طاوس) مولى أمير المؤمنين فى أمْره؛ فبثَّ له الحبائلَ، ووضَع عليه الأرصادَ، ونَصَب له الأشراكَ حتّى أظفره اللهُ به أسيرا ذليلا مُوثَقا فى الحـديد، يراه فى تلك الحالة مَنْ كان يراه ربًّا، ويرى الدائرةَ عليه مَنْ كان يظُنُّ أنها ستكون له. فالحمدُ لله الذى أعزَّ دِينَه، وأظهر حُجَّته، ونَصر أولياءَه وأهلك أعداءَه، حمدًا يُقْضى به الحقُّ، وتَتِمُّ به النِّعمة، وتتصـل به الزيادةُ. والحمدُ لله الذى فتح على أمير المؤمنين وحقَّق ظنَّه، وأنجح سعْيَه، وحاز له أجْرَهذا الفتح وذُخْرَه وشَرَفه، وجعله خالصا لتمـامه وكماله بأكمل الصنع وأحْسـنِ الكِفاية، ولم يربوسًا فيه مايُقْذِى عينَه، ولا خَلا من سُرور يراه، وبشارةٍ تتجدَّد له عنه، فمـا يدرى أميرُ المؤمنين ماُمتِّع فيه من الأمل، أو ماخُتِم له من الظفر؛ فالحمدُ لله أوّلا! والحمد لله آخرًا! والحمد لله على عطاياه التى لاتُحصى، ونِعَمه التى لاتُنْسى، إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب من هذا الضرب، كتب به أبو سعيد العلاءُ بن مُوصَلايَا عن القائم بالله، إلى عَضُد الدولة «ألْب أرسلان» إلى مسعود بن محمود صاحب غَزْنَة من أوائل بلاد الهند، بالبِشارة بالنَّصْر على البَساسيرى وهو.

أما بعدُ، فالحمد لله مُنيـرِ الحق ومُبْديه، ومُبِيرِ الباطل ومُرْديه؛ الكافِلِ بإعزاز حِزْبه، وإذلال حَرْبه، المؤيِّد فى نُصْرة دينـه خِصْبَ الدَّهْر بعـد إمحاله وجَدْبِه، الناظم شَمْلَ الشرع بعد شَتاته وتفَرُّقه، الحاسم داعِيَ الفَساد بعد آستيلائه وتطَرُّقه، ذى المشيئة النافذة المـاضيه، والعِزّة الكاملة الوافرة والعَظَمة الظاهرة البـادية،

والبراهين الرائعة الرائقه، والدلائل الشاهدة بواحدانيّتــه الناطقه ؛ حمدًا لا آنتهـاءَ لأمَده، ولا إحصاءَ لعَدَده . والحمدُ لله الذى آختص محمدا صلّى الله عليه وسلم برسالته وحَبَاه ، وأولاه من كرامته ما حاز له به الفضــلَ وحَواه ؛ وبعثه علىٰ حين فَتْرة من الرُّسُل ، وخلاء من واضِح السُّبُل ؛ فجاهد بمن أطاعه مَنْ عَصَاه ، وبلَغ فى الإرشاد أقصىٰ غايَته ومَدَاه ؛ ولم يَزَلْ مُبــدِياً أعلامَ الإعجاز ، ومُلْحِقا الهوادىَ بالأَعْجـاز ؛ إلىٰ أن دخل النــاسُ فى الدين أفواجا ، وسلَكُوا فى نُصرته جَدَدا واضحًا ومِنْهاجا ؛ وغدَتْ أنوارُ الشرع ضاحكةَ المَبَاسم ، وآثارُ الشِّرك واهيةَ الدعائم ؛ ومناهلُ الهدىٰ عَذْبةً صافيه . فصــلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين ، وأصحابه المنتخَبِين وخُلَفـائه الأئمةِ الراشدين، وسلَّم تسليما . والحمد لله الذى أصار إلىٰ أميرالمؤمنين مِن تُراثِ النبوّة ما آستوجبه وآستحقَّه ، وأنار لدَيْه من مطالع الجَلاَل ما تملك به الفخْرَ وآســترَقَّه ؛ ومنحه من حُسْن التمكين والإظْفار ، وإجراء الأقضيةِ علىٰ مُراده والأقدار ؛ ماردَّ صَرْفَ الدهر عن حَوْزته مفْلُولَ الحَدّ ، ومَدّ باعَ مجــدِه إلىٰ أقصىٰ الغاية والحَدّ ؛ وحمىٰ سَرْبَ إمامته من دَواعِى الخوف والحَذَر ، ووقىٰ مَشْرب خلافته من عَوادِى الرَّنَق والكَدَر؛ وجعل معالم العَدْل فى أيامه مُشْرِقة الأوضاح والحُجُول، مفْتَرَّةَ النواجذ عن الكمال الضافى الأهــدابِ والذُّيول ؛ مُؤْذِنةً باستقرار أمداد السعاده، وآستمرار الأحوال علىٰ أفضــل الرَّسم والعاده ؛ وهو يستــدِيمه من لطيف الصُّنْع وجميــله ، ووافى الطَّوْل وجَزِيله ؛ مايَزِيدُ آراءه سَدَادا ورشادا ، وأَرُومةَ عِزِّه آتِّساعا وآمتِدادا ، ومجارِىَ الأمور لديه آتساقًا علىٰ المراد واطِّرادا ؛ وماتوفيقُ أميرالمؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب ! .

ومعلومٌ ما آعتمده شاهنشاه المعظَّم بعد مَسِيره إلىٰ العراق، فى الجيوش التى يضيق بها الفَضَاء ، ويجْرى علىٰ مرادها القَضَاء؛ قاصدًا تلبيةَ الدعوة، وخاضِدًا شوكَ كلِّ

مَنْ سدّ (١) عن الدين أسباب المَضَرة والمعرّة ؛ ومعتمِدًا ماحمىٰ حَوْزَةَ أمير المؤمنين من الشوائب المعترِضه ، وحوىٰ أقسامَ الفَخَار فى اتباع شروط الخدمة الملتَزمة المفتَرَضه ؛ من المبادرة للُّكَع اللعين البَسَاسيرىّ ولَفِيفه المَخاذيل ، مدَّرِعا من الاعتضاد بالله تعالىٰ أقوىٰ الجُنَن وأسْبغَ السَّرابيل ، ليطَهِّر الأرضَ من دَنَس كُفْرهم ، ويُوفِّر الجَـدَّ فى فَصْم حدّهم وحَسْم كَيْدهم ؛ فأطلَّ علىٰ بلاد الشام متطلِّبا من أجاه حِذْرُه إلىٰ الإمعان فى الهَرَب ، وقَطْع كلِّ أَخيَّة وسبَبْ ؛ ومعتزما الائْتمَام إلىٰ مصر لانتزاعها و بقية الأعمال ، من أيدى أحلاف الغَوَاية والضَّـلال ، وقَرَّب الأمرَ فيما حاولَهُ من ذلك ورامـه ؛ اعتمادُه فيه صنوفَ التجدّد وأقسامه ؛ فاعترضه من عِصْيان إبراهيم اينال وعقوقه ، وخروجه عن زُمْرة أبناء الطاعة ومُرُوقه ؛ بإفساد اللَّعين إيَّاه ، وإحالته بمكره عن مَنَاهج هُدَاه ، ما أحوجه إلىٰ ترك ماهو بصَـدَده واللَّحاقِ بأثره حِذَارا من استفحال خَطْبه ، وبِدارا إلىٰ فَلِّ حَدّه وغَرْبه ؛ فعـاد ذلك بتجمُّع الأعداء واحتشادهم ، وسـلوكهم المحجَّةَ التى خُصُّوا فيها بعدم توفيقهم ورَشَادهم ، وإقدامِهم علىٰ فضل الإمامة المكرمة بالمحاربه ، واطِّراحهم فى منابَذَتِهـا حكْمَ الاحتشام والمراقبـه ؛ ووقُوع التظافُر علىٰ المجاهَرة بخلافها ، والتظاهُر بشِعار أشياع الغَوَاية وأحْلافها ؛ جرأةً علىٰ الله تعـالىٰ واستِنزالًا لعقابه ، واطِّراحا لـمـا توجبه الجنايةُ العُظْمىٰ من توقُّع العذاب وارتقابِه ؛ وادِّراعا لمَلَابس الخِزْى فى الدنيا والآخره ، واتباعًا لداعى الضَّلالة المُغْوِية فى البـدء والخـاتمة ؛ فاقتضى حُكْمُ الاستظهار الانتقالَ من دار الخلافة ـ بمدينة السـلام ـ إلىٰ (حَدِيثة عانَه) لـمـا هى عليه من امتناع الجانب وشِـدّة الحَصانه ؛ إلىٰ أن أسفر خَطْب شاهنشاه رُكن الدين ـ أمتع الله به ـ عن إدراك المَطَالب ، وتيَسُّر المَصَاعب ؛ فعـاد بنُصْرة الدولة العباسـيَّة الإمامية القـائمِيَّة مسـتنفِدًا فى ذلك أقسامَ الوُسْـع

(١) لعله وخاضدا شوك كل من صد عن الدين وأولاه أسباب الخ .

والاجتهاد، ومستنجدا بمعونة الله تعالى على إبادة الكفر بصنوف القِرَاع والجهاد؛ ولم يزل ساعيا فى إزالة العار، وآنتزاع المغتصَب وآرتجاع المستعار؛ إلى أن صدّق الله تعالى الأملَ وحقّقه، وأصفى مَنْهَل العز من كل ما شابَهُ ورَنَّقه؛ وأطلع شمس الحقّ بعد غروبها، ومنّ بخَضْد شوكة الباطل وفَلِّ غروبها.

وعاد أميرُ المؤمنين إلى دار مُلكه ومقرّ مجده فى يوم كذا ضافيةً على راياته جَلَابيبُ النّصر والظَّفَر، جاريةً على إرادته تصاريفُ القضاء والقَدَر، بيُمْن نَقيبة شاهنشاه الذى أدّى فى الطاعة الفَرْض الواجب، وتمسّك من المُشايَعة بأفضل ماتُضَمّ عليه الرَّواجِب؛ وغَدَا للدولة عَضُدًا مُوفِيًا على الأمثال، فى دَفْعه عن الإسلام وذَبّه، ومتقمّصا للجَلَال، بحُسْن إخلاصه فى حالتَىْ بُعْده وقُرْبه؛ وما زالتْ ثِقَةُ أمير المؤمنين مستحْكِمةً بالله تعالى عند ما ألَمَّ به من تلك الحال، ودَهَم من الخَطْب المحتفّ به سَطْوةُ الاشتداد والاستفحال؛ فى إجرائه على ما أَلِفَه من النّصْر والإعزاز، وإظهار آلائِه فى تأييده والإعجاز؛ إذ لم يكُنْ ماعَرّاه آستعادةً للحقّ المسلَّم اليه، والمَوْهِبة التى ضَفَتْ جلابيبُها عليه؛ بل جعل اللهُ ذاك إلى آمتحان صَبْره سبيلا، وعلى وُفُور أجره دليلا، وبإبادة كل ناعقٍ فى الفتنة كَفيلا؛ لتزدادَ أنوارُ عُلاه نَضارة وحُسْنا، وأعلامُ جَلَاله سعادةً ويُمْنا، ورباعُ عِزّه سُكُونا وأَمْنا؛ لُطْفًا منه جلّتْ آلاؤه فى ذلك ومَنًّا. وتلا هذه النعمةَ التى جدّدَتْ عُهودَ الشرع وافيةَ النَّضارة، وأزالتْ عن الدّين مفاسدَه العارضةَ ومَضاره، ما سَهّله الله وهَنّاه، وأجزل به صَنيعه الجزيلَ وأسناه؛ من ظَفَر السّرايا التى توردّها لاصطلام اللُّعَناء وآجتياحهم، وحسم فسادهم وهدم عراصهم؛ وإخماد ما أضرمُوه من نار الشّرك وشَبُّوه، وإبطال ما أحدَثُوه من رسم الجَوْر وسَنُّوه؛ وأفضى الحالُ إلى النّصْر على الأعداء من كل جانب، وقَهْر كلّ منحَرِف عن الرشاد ومجانِب، وحلولِ التأييد على الرايات المنصورةِ العباسيّة التى لم تزل مَكْنوفةً

علىٰ صَرْف الدهرِ أشياعُها وأنصارُها ؛ و إجلاءِ الحرب عن قتل اللعين البَساسيرِى وأخْذِ راسه، وتكذيبِ ظَنِّه فىٱحترازه من طوارق الغِيَرِ وٱحتراسِه، و إراحة الأرض وأهلِها من دَنَسه وعُدْوانه ؛ وكونِ من ضامَّه من طَبَقات العرب والأكراد والأتراك البغداديين والعَوامِّ بين قتيلٍ مُرَمَّل(١) بدَمِه ، وأسيرٍ تلقَّى المنونَ بغُصة أسَفِه ونَدَمه ، وصَريع فى بقِيَّةٍ من ذَمَائه(٢)،وهاربٍ والطلبُ واقعٌ من ورائه . فأنجز اللهُ وعدَه فى هذا المـارق ، والعبدِ الآبق؛ الذى غرّه إمهالُ الله تعـالىٰ إيَّاه فنسِىَ عواقبَ الإهمال فى الغَوايه ، والإمهالِ فى الطُّغيان إلىٰ أقصىٰ الحَدّ والغايه؛ وحمـلَ رأسه إلىٰ الباب العزيز فتقدّم بالتَّطواف به فى جانبَىْ مدينة السـلام وشَهْرِه، إبانةً عن حاله و إيضاحا لجلِيَّة أمْرِه ؛ وكُفِىَ ما يوجبـه إقدامُه علىٰ العظائم التى علِمَ الله تعـالىٰ سُوءَ مصيرها ومآلِها، وحُرِم الرُّشْد فى التمسُّك والتشبُّث بأذيالها؛ وتلك عاقبــةُ من بغىٰ وٱعتدىٰ، وأتَّزَر بالغَدْر وٱرتدىٰ ، وأمعن فى الضِّلَّة وٱعتدىٰ . والجِدُّ واقع من بعدُ فى المسـير للاحتواء علىٰ بلاد المخالفين الدانيــةِ والقاصيه، والأخذِ مع مشيئة الله تعالىٰ بنواصى كل فئةٍ طاغيةٍ عاصيه .

فالحمد لله علىٰ هذه المِنْحة التى بشَّرت الإسلامَ بجَبْر كَسْره، وأنقذتِ الهُـدىٰ من ضِيق الكُفْر وأسْره ؛ وأبْدتْ نجومَ العَدْل بعـد أن أفلَتْ وغارَتْ ، وأرْدَتْ شِيعةَ الباطل بعدَ أن ٱعتدت علىٰ الحقِّ وأغارَتْ ؛ وهو المسـئول صِلتَها بأمْدادٍ لها تَقْضى إذ ذاك سائرَ الأغراض وبلوغها ، وتقضى بكمال رائقِ الآلاء وسُبُوغها .

---

(١) أى بالراء المهملة بمعنى ملطخ قال الشاعر :

ان بنىَّ رمـلونى بالدم * شنشنة أعرفها من أخزم

(٢) الذماء بالذال المعجمة والمدّ بقية النفس .

ٱقتضىٰ مكانُك ـ أمتع الله بك ـ من رَأى أمير المؤمنين الذى وطَّأ لك مَعاقِدَ العِزِّ وهضابَه، وكَلَّل لديك دواعِىَ الفخر وأسبابَه، ونَحَلك من إيجابه الذى وصلْت به إلىٰ ذِرْوة العلاء، وصُلْت علىٰ الأمثال والنُّظَراء، إشعارَك بما جدّده اللهُ تعالىٰ من هذه النعمة التى غدَتِ السُّعود بها جَمَّةَ المَناهل، سامِيةَ المراتب والمنازِل؛ لتأخُذَ من حظِّه بها، والشكرِ لله تعالىٰ علىٰ ماتفضَّل به فيها بالقِسْم الأوفىٰ؛ كِفَاءَ مايُوجِبه وَلَاؤُك الذى ٱمتطَيْتَ به كاهلَ المَجْـد، وٱصطفيت به كاهِلَ السعد، وكونَك لدولة أمير المؤمنين شِهابَها المُشْرِق فى الحَنَـادس، وصَفِيَّها الرافلَ من إخلاص مُشايَعتِها فى أفخر الحُلَلَ والملابس؛ والله تعـالىٰ لا يُخْلِيك، من كل ما تستدرُّ به أخْلافَ(١) معاليك؛ ولا يَعْدَمُ أميرُ المؤمنين منك الولِىَّ الحميدَ السِّيره، الرشيدَ العقيدةِ والسَّرِيره، الشَّـديدَ الشاكلةِ والوَتِيره .

هذه مناجاة أمير المؤمنين لك ، أجراك فيها علىٰ ماعَوَّدك من التجمُّل والإكرام ، وحبَاك فيها بمـا هو مبَشِّر لك بالسعادة الوافية الأصنافِ والأَقْسام ؛ فتلَقَّها بالجَذَل والاستبشار ، وواصِـلْ شُكْرَ الله تعـالىٰ علىٰ ما تضمَّنته من حسن مجارِى الأقضية والأقدار ؛ وطالِـعْ حضرةَ أمير المؤمنين بأنبائك ، وتابِـعْ إنهـاءَ ما يُتشوَّف نحوُه من تِلْقائك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثـانى

(أن يتخذ التحميد فى أوّل الكتاب ، وهو أقلُّ وقُوعا من الضرب الذى قبله)

وهذه نسخةُ كتاب من ذلك ، كتب به أبو إسحاق الصابى عن « المطيع لله » إلىٰ بعض وُلاة الأطراف، عند طاعة عبد الملك بن نوحٍ أحدِ ملوك بنى ساسانَ، وهى :

(١) فى الأصول أعلام وهو تصحيف .

أما بعـد ، فالحمد لله الولىّ بالاستحماد ، المستحقّ لِكُنْه الإعتباد ، القديرِ على تأليفِ الأجساد ، البصيرِ بسُبُل خَفَايا الأحْقاد ، ذى الحكمةِ فى تبْديل الضِّغْن والسَّخيمة ذِمَّه ، والمُنابذةِ عِصْمه ، والقطيعةِ وُصْله ، والشَّحْناء خُلَّه ، والحَرَج فَرْجه ، والشَّعَث نَضارةً وبَهْجَه . الذى جعل الصُّلْح فتحًا هَنِيًّا ، والسِّلْمَ مَنْجًا بَهِيًّا ، والمُوادَعة مَنًّا جَزِيلا ، والإرعاءَ أمْنًا جميلا ، والإقالةَ حَرَما لا يضلُّ هداه ، ولا تُحَلُّ قُواه ، ولا تَخِيب عواقِبُه ، ولا تخفى مآثِرُه ومناقِبُه ، رأفةً منه بالخلق ، وصيانةً لأهل الحَقّ ، وإمهالًا فى العَهْد ، ورُخصةً فى الاختصار دُونَ الحدّ ، ليُقرِّب فَيْئةَ المتأمل ، ويُسَهِّل رَجْعةَ المتحصل ، وتُسْرِع رفاهيَةُ المستَبْصِر ، ويخفّ اجتهادُ المزاوِل المشمِّر ، وقد قال الله عزّ وجلّ ﴿ والصُّلْح خَيْرٌ ﴾ وهو المسئول عِمارةَ الإسلام بالسَّلامه ، والأنامِ بالاستقامه ، والسلطانِ بالطاعه ، والمُلْكِ بخُنُوع(١) الجماعه ، حتّى لا تزالَ الفتنةُ مَهِيضةَ الجَنَاح ، مَرِيشةَ الاجتياح ، قليلةَ الشَّباة ، قليلةَ الأدَوات ، فتكونَ النفوسُ واحده ، والأيْدى مُترافِده ، والمَودّاتُ صافِيه ، والمآرِبُ مُتكافية متضاهيه ، فى الشكر الذى يُذادُ به عن النُّفوس ، ويحمى به حريمُ الدِّين ، ويُرْجىٰ معه التأييد ، ويُبتغى بوَسيلته المَزِيد ، فقد قال الله ــ وقوله الحق ــ : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ والله سميع مجيب . وحَسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْم الوكيلُ !

وقد علمت ما فَرَط من نوح بن نصر فى السَّهو ، ونُقِم منـه فى الهَفْو ، الذى ألهاه عن التقوىٰ ، وأنساه شِيمةَ الرُّقبىٰ ، فعَدل عن سَنَن القَصْد ، وزاغَ عنه على عَمْد ، وحال عن آدابِ آبائه رحمهم الله وهم القُـدْوه ، وسَجاياهم وبهم الأُسْـوه ، وما كان ينتمِى به من الوَلاء ، ويَعْتزى إليه من الوفاء ، وصار أدنىٰ معنًى ممن يحسُدُه على كَرَم الأصـل ، وينافسه فى شَرَف المحل ، ويُدْخِل على عقـله مُدَّخَل النصيحة ، ويَطَّلع

(١) أى انقيادها يقال بخع لى بالحق بخوعا انقاد وبذله .

بظاهرها على آرائه الصريحة ؛ وكلُّ ذلك إلحادٌ فى أمير المؤمنين وعُهْدته ، ومُروق عن أزِمَّتـه ، وعقوقٌ بالبرية يَشْقىٰ به الباقى ، ولن يَشْقىٰ به النازحُ الماضى . فإن أمير المؤمنين مازال واعِيًا لأوامر سَلَفه ، عارفا بمآثِرِ خَلَفـه ؛ متجافِيًا لأُولئك عمـا آبتدعه ، متَنَوِّيا لهذا التَّجاوُزَ عمَّا صنعه ؛ فقد كان نُمِىَ إلىٰ أميرالمؤمنين أن عبدَالملك آبنَ نوح مولىٰ أمير المؤمنين سليمُ السَّرِيره ، بَسَدِيدُ البصيره ؛ يُرْجَع إلىٰ رأيه وتَدْبِيره ، ولم يَجِدْ وشمكير بن زنار ، عاجله بالبوار ؛ مَساغًا إلىٰ خَتْله ، ولا آحتيالا فى لَيِّه وفَتْله ؛ وكان لعبد الملك ركن الدولة بن مالك مولىٰ أمير المؤمنين ظَهِيرَ صِـدْق ، إن وَسِن أيقظَه ، وإن مادأيَّده ؛ خَلَّةٌ فَضْل فَطرهُ اللهُ عليها ، وغريزة تمييز أحسن اللهُ إليه فيها ؛ فإنه لو قال أميرالمؤمنين : إنه لامثِلَ له آستحقَّ هذا الوصف . ولأَمِنَ أمير المؤمنين فيه الخُلْفَ . ترك لِباسَ أبيه فنزعه ، وآعتاض منه وخَلَعه ؛ وتَنَصَّل ممـا كان منـه منتهِكا ، فعاد عليه محتَنِكا ؛ وأتىٰ الأمرَ من طريقه ، ولجأ فيه إلىٰ فريقه ؛ رُكْن الدولةِ أبى علىّ مولىٰ أمير المؤمنين ، أحسنَ الله وِلايته ، ومُعِزِّ الدولة أبى الحسين تولّى اللهُ معونته ، وآستصلحهما ، وكفى ، وآستخلصهما ، وغنى ؛ وراسل فى الإنابة وإن لم يكن حائدا ، والآسـتقالةِ وإن لم يكن جانيا ؛ فمـا ترك ركن الدولة ومعز الدولة ـ كلأهما الله ـ إكبارَقَدْره ، وإجلالَ أمْره ؛ والقيامَ بخلاصه ، والنطقَ عن أميرالمؤمنين بلسان مشاركته ؛ وإذكار أمير المؤمنين بمـا لم يَنْسَه من تلك الوثائق ، التى صدّر بها كتابه ، والعلائق ، التى وَشَّح بها خطابه ؛ إلىٰ أن أجلَّ أبامحمد نوحا وترحم عليه ، وقَبِل عبدَ الملك وأحسنَ إليه ؛ وواصل رُسُله ، وآستمع رسائله ؛ وقَلَّده خُراسانَ ونواحِيَها ، وسائرَ الأعمال الجاريةِ فيها ، وعَهِد إليه فى ذلك عَهْدا ومَيَّزه باللواء ، والخِلَع والحِباء ؛ بعـد أن كَنَّاه بلسانه ، ووفَّاه حُدودَ إحسانه ؛ وألحقه فى ذلك بآبائه ، ولم يُقَصِّر فيه بشَأْوه . وكتابُ أميرالمؤمنين هذا وقد آطَّردت الحالُ وآستوثقَتْ ، وآمتزجت الأهواء

وآتفقتْ ، وخلا المشرقُ من الآضـطراب الذى طال أمدُه ، ولم يكد يُرىٰ أثرُه ؛ وصارتِ العساكر الدانية والنائيةُ فَوْضىٰ لاتمتاز ، ولا تنفرِد وتَنْحاز ، وذلك صنعُ الله لأمير المؤمنـين فى جَمْع الشَّتَات ، وتلافى الهَنَّات ، ولَمِّ خَلَل التَّخاذُل ، ومُداواة نَغَل الدَّخائل ؛ لتتِمَّ الكلمةُ فى وِلَايتـه ، وتَعُمَّ النِّعمُ فى طاعته ، ولا يكونَ للشيطان سبيلٌ علىٰ شيعته ، ولا طريقٌ إلىٰ مَكيدةِ أبناء دَعْوته ، والله ذو الفضل العظيم .

فاحمدِالله علىٰ هذا النبإ الذى تطوّع به المِقْدار ، والخبرِ الذى دلَّتْ عليه الأخبار ، من الفتح الذى لم يُنَغِّصْه تَعَب ، ولم يكدِّره عَناء ولا نَصَب ؛ فإنه تأتَّى سَهْلا ، وأتىٰ رِسْلا ، وآبتَدَأ عَفْوا ، وآنتهىٰ خالصا صَفْوا ؛ فقد قَمَع الله به العَنَـده ، وجمع بتهيئه العَبَده ؛ وآذنَ عُقْباه بالسعاده ، وبَشَّرفى سِيماه باتصال المـاده ؛ وأنزل أبا الفوارس عبـدَ الملِك بنَ نُوح مولىٰ أمير المؤمنين منزلةَ من رآه أمير المؤمنـين أهلا للوديعه ، وآمنه علىٰ الصَّنيعه ؛ ورتَّبه مرتبة المسبحة ، وآستحفظ اللهَ حسنَ الموْهِبة به ، وما قد تجدّد بين أبى الفوارس وبينهما من الاتِحاد ، المتولد عن الآغتباط والآعتداد ؛ فقَلَّ من شاقَّهما فلم ينْدَم ، وتمرّد عليهما فلم يُكْلَم ؛ وتمسك بهما فلم يَسْـعَد ، وآرتبع أكنافهما فلم يوعد ؛ وأجب عن هذا الكتاب بوصوله إليك ، ومَوْقِع متضَمَّنه لَدَيْك ؛ وما يُحدِثه لك من الجَذَل ، وآنفساح الأمل ؛ موفَّقا إن شاء الله تعالىٰ .

النـــــوع الثـانى

(أن لايَعْقُب البعديةَ تحميدٌ ، بل يقع الشروع عقبها فى المقصود)

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، كَتَب به أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله إلىٰ من بصُحَار وسَــوادِها ، وجبال عُمَان وأعمالهـا ، وحاضرتها وباديتها ، بالأمر بالآجتماع علىٰ الطاعة ، وهى :

أما بعدُ، فإنَّ أمير المؤمنين للذى حَمَّله اللهُ من أعباء الإمامة، وأهَّله له من شَرف الخلافة؛ وٱستَوْدعه من الأمانة فى حِياطة المسلمين، والاجتهاد لهم فى مصالح الدنيا والدِّين؛ يرىٰ أن يُراعِىَ مَنْ بَعُدَ منهم ونأىٰ، كما يُراعِى من قَرُب ودَنَا؛ وأن يلاحظ جماعَتَهم بالعين الكاليَه، ويطْلُبهم بالعين الوافيه؛ ويتصَفَّح ظواهرَ أمورهم، وبواطنَ دواخلهم؛ فيحمَدَ مَنْ سلك نَهْج السلامه، ويُرشِدَ من عَدَل عن الاستقامه؛ ويَنْظِم شَمْل الجماعة علىٰ الأُلْفة التى أمر اللهُ بها وحضَّ عليها، ويزيلهم عن الفُرْقة التى ذمَّها ونهىٰ عنها؛ إذ يقول جلَّ من قائل: ﴿وأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ولا تَنَازَعُوا فتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: ﴿وٱعتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا﴾ فلا يزالُ أمير المؤمنين يُعَرِّفهم ما ٱفترض اللهُ عليهم من طاعة الأئمة وأُولِى الأمر الذين لاعِصمةَ لمخالِفهم، ولا ذِمَّةَ لمُعانِدِهم؛ ولا عُذْر لمُسْلم ولا معاهَدٍ نأىٰ بجانبه عنهم، وضَلَّ بوَجْهه عن سبيلهم؛ إذ كان الإمامُ حجةَ الله علىٰ خلقه، وخليفتَه فى أرضه؛ وكانت الطاعةُ واجبةً له ولمن قَلَّده أزِمَّة أموره، وٱستنابه فى حَمْل الأعباء عنه؛ فمن آنَس منه الهِدايةَ أحمده، ومن أنْكَر منه الغَوَاية أرشدَه بالوعظ ما ٱكْتَفىٰ به، أو بالبَسْط إن أحوج إليه. وإن أمير المؤمنين يسأل اللهَ أن يوفّقه للرأى السَّديد، ويُمِدّه بالصُّنْع والتأييد؛ ويتولّاه بالمَعُونة علىٰ كلِّ مالَمَّ الشعث، وسَدَّ الخَلَل، وقَوَّم الأوَدَ وعَدَل المَيْلَ؛ وأحسَنَ العائدَةَ علىٰ المسلمين جميعا فى شَرْق الأرض وغَرْبها، وسَهْلِها وحَزْنها؛ إنه بذلك جدير، وعليه قدير؛ وماتوفيقُ أميرالمؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنِيب.

وقد علمتم أن أمير المؤمنين أحسن إلىٰ الرعيَّة بما كان فوّضه إلىٰ عَضُد الدولة وتاج المِلَّة - رحمةُ الله عليه - من سياستهم باديًا، ثم أحسَنَ باستخلاف عَديله وسَليله صَمْصَام الدولة وشمس الملة ثانِيا؛ إذ كان خِيرةَ أمير المؤمنين وصَفْوتَه، وحُسَامه ومِجَنّه؛ والمُورِد المُصْدِر عنه بالعَهْدين المستمرّين: من أميرالمؤمنين بالنص عليه، ومن

الوالد رحمه الله بالوَصِيَّة إليه . وإن هذه العقودَ المؤكَّده ، والعهود المشدَّده ، موجبة علىٰ الكافَّة طاعةَ مَنْ حصَلَتْ له ، أوآستقرت بوثائقها فى يَدِه ؛ إذ لايصحُّ من حاكم حُكْم ، ولا من عاقدٍ عَقْد ، ولا من والٍ إقامةُ حدّ ، ولا من مسلمٍ تأديةُ فرضٍ حتّىٰ يكون ذلك مبنيًّا علىٰ هذا الأصل ، ومُدَارا علىٰ هذا القُطْب ، وإن كان خارج عنهما وراض بخلافهما ، خرج من دينه ، أَثِم بربه ، بَرِئَ من عِصْمته ؛ وأنتم من بين الرعية فقد خصصتم سالفًا بحُسْن النظر لكم ، وعُرِفت الطاعةُ الحسنةُ منكم ؛ فتقابلت النعمةُ والشُّكر ، تقابُلًا طابَ به الذِّكر ، وآنتظم به الأمر ؛ ثم حدَثت الهفوةُ المعترِضة قُبَيلُ ، فكان أمير المؤمنين مُوجِبا للمعاقبــة المُوجَبة علىٰ الجاهل المُوضِع فى الفِتْنه ، والمُعاتَبة المُمِضَّة علىٰ الحكيم منكم القاعد عن النُّصْره ؛ إلىٰ أن وردَتْ كُتُب أستادهرمز بن الحسن ، حاجب صَمْصام الدولة ، باستمراركم علىٰ كلمةٍ سواء ، فى نُصْرة الأولياء ، والمحاماة دُونَهم ، ومُدافعةِ الأعداء والمُراماة لهم ؛ فوقع ذلك من أمير المؤمنين أحسنَ مواقِعِه ، ونَزَل لديه ألطفَ منازِلِه ، وأوجبَ لكم به رضاه المقترنَ برضا الله سبحانه ، الموجِبَ للقربة والزُّلفىٰ عنــده ، وأميرُ المؤمنيــن يأمركم بالدوام علىٰ ما أنتم ، والثباتِ علىٰ ما آســتأنفتُم ، والمبــادرةِ إلىٰ كلِّ ما يأمركم به فلان الوالى عليكم من صَمْصام الدولة بالآستخلاف والتفويض ، ومن أمير المؤمنين ، بالإمضاء لمــا أمضاه ، والرضا بمــا يرضاه ، فاعلموا ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره ، وآنتَهُوا فيه إلىٰ حدّه ورَسْمه ؛ وكُونُوا لفلان الوالى خير رعيَّــة ، يكُنْ لكم خَيْرَ راع ؛ فقد أَمِرَ فيكم بحُسْن السِّيرة ، وإجمــال المعاملة ، وتخفيف الوطأة ، ورَفْع المئُونة ؛ وجعل إليه عقابُ المُسِىء ، وثوابُ المحسن ، ومسالمــةُ المسالم ، ومحاربةُ المُحــارب ، وأمان المســتأمن ، وإقالةُ المستقيل ، وحملُ الجماعة علىٰ سواء السبيل ، إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الثالثة

(فى الكتب الخاصة مما يصدر عن الخلفاء ، وهى على ضربين)

الضرب الأول

(مايكتب عن الخلفاء إلى وزرائهم)

قال فى "صناعة الكتّاب" : ويُكاتِبُ الإمامُ الوزيرَ أومَنْ حلَّ محله «أمتعنِي الله بك وبدوام النِّعمة عندى بك ، وبقاءِ المَوْهِبَة لى فيك» وما جرى هذا المجرى .

وذكر فى "ذخيرة الكتّاب" : أن الدعاء للوزير «أمتعَنَا الله بك وبدَوام النِّعمة لنا فيك وتجديدِ المَوْهِبة عندنا بك» . ثم قال : ودعا "المكتفى بالله" للقاسم بن عبد الله لما أمر بتكنيته ، وكان الكتّاب بخطه «أمتعنى اللهُ بك وبالنعمة فيك» ووقَّع المستنصر إلى وزيره أحمد بن الخَصِيب «مدّ اللهُ فى عُمُرِك» . وهو قريب مما ذكره فى "صناعة الكتّاب" فى ذلك كله . والذى رأيتــه فى مكاتبات العلاء آبن مُوصَلَايَا عن «القائم بأمر الله» التصديرُ بما فيه تعظيم الوزير وتقريظُه ، من غير ضابط فى الآبتداء ، والدعاءُ فى أثناء ذلك بالحياطة ثم التوصل إلى المقصد .

وهذه نسخة كتاب كتب به العلاء بن مُوصَلَايَا عن القائم إلى وزيره :

لَمَّا خص الله تعالى الدولةَ القاهرة العبَّاسية بآمتــداد الرُّواق ، فى العز وآتساع النطاق ، وأجرى لها الأقدارَ بما يجمع شملَ الحق ويمنعُ من نَفَاق النِّفاق ، وأفرد أيَّامَها بالبهاء المُنيرِ الأعلام ، والآنتهــاء فى قوة الأمر إلى ما يُتأدّى فى طاعتها بين اليَقَظات والأحلام ، وجعل الزمان واقفًا عند حدّها فى النقض والإبرام ، ومتصرِّفا على حكمها فى كلِ ما حاوَلَ من حالٍ ورام ، ومكّن لها فى الأرض حتّى أذلَّتْ نواصىَ الأعداء قَهْرا

وقَسْرا، وحَسَرتْ عن قِنَاع القُدْرة علىٰ ردّ الطامعين فى إدراك مَدَاها ظُلَّعا حَسْرىٰ؛ فإن الله تعالىٰ لم يُخْلِها كلَّ وقتٍ من قائلٍ فى نُصْرتها فاعل، وقائم بإقامة حِشْمتها من كل حافٍ من الأنام وناعِل؛ وراغب فى الذَّبِّ عن حَوْزتها سِرّا وجَهْرا، وخاطب من خِدْمتها ما يُرْجىٰ أن يكون رضا الله فى المُقابَلة عنه أغلىٰ مَهْرا؛ وناهج جَدَد الرُّشد فى المناضلة عنها بسيْفه وقلَمه، وفارج للكُرَب الحادثة فيها بنُطْقِ فِيهِ وسَعْى قَدَمه .

وقد منح اللهُ أيام أمير المؤمنين ـ من كَوْنِكَ الولىَّ بمواصلة المَقاماتِ الغُرِّ فيها، والخَلِيّ من كل ما يُبَاين صِحَّةَ الموالاةِ ويُنافيها؛ والضَّمِينَ لما عاد عليها بٱستقامة النظام، والضَّنِين بما يُوجِدُ للغيْرِ الطريقَ إلىٰ وُصول الحَتْف إليها والٱهْتِضام؛ والمتجرّدَ فى إمداد عزها بالإحصاف والإمرار، والمتفرّد بإعداد أقسام المناضلة دُونَها فى الإعلانِ والإسرار؛ والباذلَ وُسْعَه فيما ثَنىٰ إليها أعِنَّة السعد ولَوَاها، والخاذلَ كلَّ مستنجِدٍ بها فيما يخالف محبتها وهواها؛ ما أوفىٰ (١) علىٰ المألوف فى أمثالها من قبْل، وصار لك به علىٰ كل مَنْ سلفك من الأعضاءِ التقدُّم والفَضْل؛ فهى ـ بآثارك الحميدة فيها، وإكبارِك الجِدَّ فى تشييد مَبَانيها؛ وكونِك كافيًا أمر المحاماة من ورائها، كافًّا عنها ما يُخْشىٰ من حُدُوث أسباب الفَسَاد وٱعتِرَائها ـ مَنِيعةُ الجانب مَرِيعةُ الجَنَاب، سَرِيعةٌ فيها السُّعود إلىٰ ما يلبِّى نِداءَها بأحسن التلبِية والجَوَاب .

ثم إنه وإن كانت زُلَفُكَ إلىٰ حضرة أمير المؤمنين بادِيةَ الحُجول والغُرَر، غيرَ محتاجة إلىٰ إقامة الدليل عليها بما ٱتَّضح من أمرها وٱشْتَهر، فإن فلانا يُعيد جِلاءَها دائما فى أبهىٰ المَلَابس وأنضرها، ويُجِيد الجِدّ فى الدِّلالة علىٰ تقابل مَخْبَرها فى الجمال ومَنْظَرها؛ ويَكْشِف من صَفَاء السرائر فيها والبواطن، وما يَطَّلع عليه منها فى كل المحال والمواطن؛ ما يُسْهِب فى وصفه ويُعْجِب سماعُ ذكره ويُطْرِب .

(١) هذا هو المفعول الثانى لمنح .

وفى هذه النَّوْبة عاد، وقد زاد، علىٰ المعهود من شُكرك وجازَه، وأبان عن صلَته بالوعد فى ضمان النُّجْح منك نَجازه؛ وأوجب علىٰ نفسه أن لايَقِف عند حدّ فيما يؤدّى إلىٰ نَشْر مَحامِدك فى الأرض، وطَىِّ الجَوانح لكَ علىٰ الإخلاص الصادق المَحْض.

ولمـا مثَلَ بحضرة أمير المؤمنين علىٰ رَسْمه الذى وَسَم بالجمـال جَبِينَه، وآبتسم ثغرُ التوفيق فيه عمَّا أصبح النُّجْح أليفَ سَعْيِه وقَرِينَه؛ وبحسَبِ فَوْزِه من شَرَف الحُظْوة برتبةٍ لم ينَلْها أحدُ الأقران له فى الزمان، وفَوْتِه شَأْوَ أبناء جِنْسه يوم المِضْمار والرِّهان؛ كِفاءَ ما يستوجبه بغَلَاء قيمته فى الكمال، والغَنَاء به فى كل مَقام أمِن حدُّ مَضائِه فيه الكَلَال؛ أشار بذِكْر مَقاصدك التى حُزْتَ بها من غَنائم الحَمْد الصَّفَايا، وشادَ مبانِىَ محامِدك بفَضْل الإبانَةِ عن السرائر والخَفَايا؛ وتابعَ الثَّناء علىٰ كلٍّ من أفعـالك التى أمسىٰ هلالُك فيها مُقْمِرا، ووَضَح فيها كَوْنُك بشُروط الإخلاص مُحِبًّا مُضْمِرا؛ وشَرَح من توفُّرك علىٰ كلِّ قُرْبة غرّاءَ تُغْرِى الألسنةَ بحمدك، وتُنْبِئُ عن حُسْن مقْصِدك برفع عِمَاد الحق وعَمْـدك؛ ما قامتْ عليه الأدلّة، وآستقامتْ به علىٰ سَنَن الرُّشْد الأهواءُ المُضِـلّة؛ وبيَّن من إمضائك كلَّ عزم فى تهيئة القُرُبات إلىٰ حضرة أمير المؤمنـين حالا فحالا، وإبطائك خُطا الجِـدّ فيما يُراد بزُلَفِك البالغـةِ أقصىٰ الغاياتِ لديْه سابقا وآتِّصـالا، ما يُضَاهى المظنون فى تلك العقيـدةِ التى طالمَـا أُلفيتْ فى نُصْرة الدولة القاهرة صافيةَ المَوْرِد والمَنْهَل، حاليةً من الحُسْن بكل حالٍ آتضح فيها ما ألْهىٰ عن غيرها من الوصف وأذهَـلْ؛ فقُوبلتْ بمـا تستحقُّه من إحمادٍ أُشِيع وأُذِيع، وآتُّبـِع فيه الواجبُ وأُطِيع؛ وتضاعَفَ الاعتدادُ بأفعالك التى أعْنَتَ بالعُونِ منها فى الجَمالِ والأبكار، وأعدْتَ بهـا الأمورَ فى الصَّلاح إلىٰ ما يُؤَمِّنُ إيضاحُه الجحدَ والإنكار.

ومَنْ أحقُّ منـك بكلِّ فِعالٍ تُضِيء مصابيحُ الخير فيه، ويَنْتَشِرُ جميـلُ الذِّكر من مَطَاويه، وأنت للدولة الولىّ الأمين! ، وبحفظ نظامِ كلِّ أمْرٍ يختَصُّ بها الكَفيلُ

الضِّمين؟ ومن أوْلىٰ منك بكلِّ حمْدٍ يَفِدُ إليك إمدادُه أرسالا، وتَجِدُ منه ضالَّةً نَشَدتْ مثلَها آمالُ سِواكَ فآبتْ بالخَيْبة عِجالًا؟ فلَكَ من الحقوق مالا يُنْسىٰ، وما يَلْزَمُ أن يُرْعىٰ فى كل مُصْبَحٍ ومُمْسىٰ. فأحسنَ اللهُ جزاءَكَ عن كونِك فى دولته ذَابًّا عن المجد حاميا.

فأما ما تُحدِّد فى معنىٰ الأعمال علىٰ الوصف الذى قضىٰ بزوال الخُلْف وٱنْحسامه، وٱقتضىٰ رأيُك إجراءَ الأمرِ علىٰ ما ٱستُصْوِب من ٱتِّساقه وٱنتظامه؛ فقد وَقَفْتُ عليه، وأُجِيزُ ما أشَرْتَ إليه؛ فأعْواضُ الدنيا تهُون وتسْهُل فى ضِمْن ما يُلْحَظ من ٱعتناقك أحكامَ مشايعةِ الدولة التى قُمْتَ بأعبائها فى كل أَوَان، وغَدتْ آثارُكَ فيها باقيةَ الذِّكْر والأجْرِ علىٰ تَقَضِّى الأزمان؛ فأنت المرغوبُ فى الثناء ولايةً وإن شانَتْ الأحوال، والمُخْلِص الذى لاعِوَضَ عنه فى كلِّ مَقَام ومَقَال؛ فقد أحاط العلمُ بتفصيل ذلك وجُمْلته، وتحقق أن الخِيرة فى كل ما تُشِير إلىٰ سلوك طَرِيقه وجَدَده؛ ولذلك أُجِيب فلان إلىٰ الحضور والمستخْدَمون معه، وأُذِن فى المقابلة بالقوانين القديمة والباقى والجرائد، والموافقة علىٰ ما رأيتَه فى البَوَادى والعوَائد؛ والتنزُّه عن كل ماشَذَّ عن المحجة المؤكَّدة بتوفيقك وتوفُّر الموجود لهذه السَّنَة فيه عليه، وحَسْم موادّ ٱستِزادتِهِ فى كلِّ ما تمسَّك به وأشار إليه؛ والثِّقَةُ من بعدُ مستحْكِمَةٌ بتوفُّرِكَ علىٰ ما يُرادِف إليك إمدادَ الحمد، وتجديدكَ كل قُرْبة تنضَمُّ إلىٰ سوابقها المتجاوزةِ حَدَّ الإحصاء والعدّ.

فأما ما تضمَّنته إشارتُك فى حقِّ الستر الرفيع، فهل الصَّلاحُ إلا من نَتائِجِ أقوالك؟، وهل مَساعِيك إلا موقوفة علىٰ الخير وأفعالُك؟، وهل المُوافَقةُ إلا لك فى جميع آرائك وأبحاثك، وبحكم ٱبتدائك لٱستقامة النِّظامِ فيما قَرُب وبَعُد، والسُّكونِ إلىٰ إسعافك فى كلِّ أمرٍ يحْدُث ويَتجدّد؛ ويبعثُ علىٰ ما يُعِيدُ رَوْنَقَ الحِشْمة من الوَهن، ويهز طاعتَك فى كل أمرٍ يُحقِّق التقدير فيها والظَّنّ، فإذا

تُصُفِّحت حقوقُ الوكلاء المُجتباة وُجِدت موفَّرة على آقتناء الأجر، مصروفةً فى وُجوه البِرّ التى هى أنفعُ الذُّخر فى غَد . وهل الأعواضُ إلا عِند مَنْ يظُنُّ الدنيا بعينها قيمة تنافس ، وهل مَصيرها إلا إلى آنقضاء ولو أسْعفَت بالرغائب والنفائس ، غير أن الأحوال إذا كُشِف مستورُها أثبتَ مايقتضى إسبالَ سِتْر الإشفاق ، والبواطِنَ متى أُعْرِب عنها أَشْمَتَ ذاك كلَّ مُجانِب للدولة من أهل النِّفاق ، وأنت المعتَمَدُ لتدبير ما يصونُ حِشمةَ الدولة عن البِذْلة والخَلَل ، والمرجوعُ إليه فى تحسين الأمر فيما وقع الآجتهادُ فيه حتّى تيَسَّر قدره وتَسَهَّل ؛ ولهذا تفصيلٌ قد أُوعِز إلى فلان بآستقصاء شرحه ، و إطلاعِك على حقيقة الأمر وفَصِّه ؛ فكن بحيثُ الظنُّ فيك ، تجِدْ زَنْدَ جمالك بذلك أورى ، وتجبْ لك به صُنُوف الشُّكْر طورا ؛ إن شاء الله تعالى .

الضـــرب الثانى

(مايكتب عن الخلفاء إلى وزراء الملوك)

وهى مما يؤتى فى صدرها بحرف النداء غالبًا . كما كُتِب عن المسترشد إلى معِزّ الدين الفضل بن محمود ، وزير معِز الدين سنجر بن ملكشاه .

مَقامُك يامعِزَّ الدين ــ أحسَنَ الله حِياطتك وكَلَّ مَوْهِبَته عندك ــ فى خدمة الدار العزيزةِ التى مازِلْتَ لجُهْدِك فيها باذِلًا ، وفى جلابيب المُناصحة رافِلا ، لا يقْبِضَنَّك أن تُواصِل حالًا فحالا بأنبائك ، وتستديمَ ماخُصِصْتَ به من شَرِيف الآداب المُوفِيَة بك على أكفائك . وعُرِض بحضرة أميرالمؤمنين ماورد منك دالًّا على طاعتك المعهوده ، ومُوالاتك الرائقة المَشْهوده ، وآستمرارِك على الجَدَدِ والمَهْيَع فيما حاز المَراضِى

الشريفة الإماميَّة لك ، وحقَّق فى الفوز بجميل الآراء أمَلَك . وناطقًا بحـال فلان المـارقِ عن الدين، المجاهر بمعصية الله تعـالىٰ فى مخالفة أمير المؤمنين، وما ٱقتضاه الرأىُ المعزِّىُّ بحُسْن سِفَارتك،وسَدادِ مَقْصِدك فى الطاعة وصَفَاء نيتك. وأحاط عِلْما بمضمونه الذى لاريبَ أنه ثمرةُ مناصحتك، ونتيجةُ سعيك المضاهى نَصيحةَ عَقِيدتك؛ ومَنْ أولىٰ منك بهذه الحال ؟ وأنت الحُوَّل القُلَّب، ذو الحُنْكة المجرَّب، الذى تفرّد فى الأَنَام بكماله ،وقَصَّر أكفاؤُه عن دَرْك شَأْوِه فى الخير ومِثَاله ؛ ومازِلْتَ حديثًا وقديمًا موسوما، بهذه المَزِيَّة مَرْقُوما ؛ وبغير شكٍّ أنك تُرَاعى مابدأْتَ به، وتُعَضِّد مَقَالك فى موارده بمـا تعمدُه فى مصادره ، وتحـْرُس ما قدّمته من الاحتياط بتحرِّيك فى أواخره، وتُمْضِى العزيمةَ لإتمـام ماشرعتَ فيه، كِفاءَ ما يُوجِبه دينك ويقتضيه؛ جَرْيا علىٰ وَتيرتك فيما قضىٰ للأحوال بالانتظام والاتِّسـاق، وآذنَ لشمس الصَّلاح بالإضاءة والإشراق .

وبعدُ فقد عرفتَ ماتكرَّر إليك فى أمر هذه الطائفة الخبيثة، المكاشِفة بمذهب الإلحاد ، المبـارِزةِ بسوء الاعتقاد ؛ بعثًا علىٰ جِهادها ، وكَفِّ ضَرَرها عن الإسلام وفَسَادها ؛ ورَفْع سِتْر المراقبــة عنها، والانتقامِ لله ولرسولِه منهـا ؛ وما يُقْنَع من همة معزِّ الدولة والدين ـ أمتع الله ببقائه ـ ومِنْ وافر عَقْلِك ودينِك، وصِدْق يقينك؛ إلا بإرهاف العَزِيمة فى مُكاشَفَتِها، وخوض الغِمَار فى محاربتها؛ والقَصْد لمضايقةِ من ٱعتَصَم منها بالقلَاع، وقَتْل كلِّ من يُظْفَر به فى سائر البِقاع؛ حميَّةً وٱمتعاضًا للدين، وأَنَفا ممـا ٱســتولىٰ عليه بها من الضرر المُبِين؛ فكُنْ من وراء الحُبِّ لمعزِّ الدنيـا والدين علىٰ تَيَقُّنك هــذا المْثال ، والادِّكار بمـا تفُوز به مع الامتثال له فى المـآل ، وٱنهَضْ فى تنفيذ ما يأمُرك به فى هذا الباب نَهضةَ من ٱتَّزر رضا الله وأراده، وبذَلَ فى صلاح مَعاده ٱجتهادَه ؛ فإن الله سبحانه لايرضىٰ منكما للانتصار لدينه بالتقصير،

وأميرُ المؤمنين أمركما بالجدّ فيه والتشمير، وقد شرَّفك بُتحَفَة أمر بحمْلها إليكَ من بين يدَىْ سُدّته، وأعربَ بها عن مكانك من حَضْرته ؛ إنافةً على الأمثال بقَدْرك ، وإضفاءً لَملابس فَخْرك؛ فاعرِفْ بمكان النعمة فى ذلك، وآسْلُكْ فى القيام بشكْرُها أوضَحَ المسالك؛ وأدِمِ المواصلةَ بمطالعتك، وقدِّم التوقُّع من إجابتك، تفُزْ من المراضى الشريفة بالحظ الأسنى، ويجتمِعْ لك منها الآسمُ والمعنى ، إن شاء الله تعالى .

الطـــرف الرابع

(فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى العباس فى الديار المصرية بعـد مصير الخلافـة إليها)

وهى على ثلاثة أساليب :

الأسلوب الأوّل

(أن يُفْتتح الكتابُ بلفظ «من فلان إلى فلان»)

والحكم فيها على ما كان الأمرُ عليه فى خلافتهم ببغداد ، إلا أنه زاد فيه لفظ « ووَلِّيه » بعد لفظ « عبد الله » فى أوّل الكتاب فيقال فى آفتتاحه : «من عبد الله ووَلِيِّه أبى فلانٍ فلان الإمام الفلانى» . ثم يقال : أما بعدَ حمد الله، ويؤتى على آخر الخطبة، ثم يتخلَّص منها ويختمُ بالأمر بامتثال ما أُمِر به . ويقال بعد ذلك : موفَّقا إن شاء الله تعالى . والخطاب فيه بالكاف، وربما آفتُتِح الكتاب بآية من القرءان الكريم مناسبةٍ للمعنى .

وهذه نسخةُ كتابٍ كُتِب به عن الإمام المستكفِى بالله "أبى الربيع سليمان آبن الحاكم بأمر الله أحمد" إلى الملك المؤيَّد هِزَبْر الدين داود آبن الملك المظفَّر صلاح

الدين يوســف بن رسول فى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » فى ســنة سبع وسبعمائة ، حين منع صاحبُ اليمن الهديَّةَ ، التى جرتِ العادةُ بإرسالها إلىٰ الأبواب الشريفة بالديار المصرية ، مفتتحا بآية من القرءان ، وهو :

﴿ يٰأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأولِى الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ .

من عبد الله ووَلِيِّه أبى الربيع سليمان .

أما بعدَ حمدِ الله مانحِ القلوب السليمةِ هُدَاها ، ومُرْشِدِ العقُول إلىٰ أمرِ مَعادِها ومَبْدَاها ؛ ومُوَفِّق من آختاره إلىٰ مَحَجَّةِ صوابٍ لا يَضِــلُّ سالكُها ، ولا تُظْلِمُ عند إخلافِ الأُمورِ العِظامِ مَسَالِكُها ؛ ومُلْهِمِ من آصطفاه لاقتفاءِ آثارِ السُّــنَن النبوِيَّه ، والعملِ بمُوجِبات القواعد الشرعِيَّه ؛ والآنتظامِ فى سِلْك من طَوَّقَتْه الخلافةُ عُقودَها ، وأفاضتْ علىٰ سُــدّتِه الجليلةِ بُرودَها ؛ وملَّكتْه أقاصِىَ البــلاد ، وأناطتْ بأحكامه السديدةِ أمورَ العباد ؛ وسارتْ تحتَ خَوافِقِ أعلامه أعلامُ المُلُوك الأكاسِره ، وشُيِّدتْ بأحكامه مَناجِحُ الدُّنيا ومَصالِحُ الآخِره ، وتبختَرَ كُلُّ مِنْبرٍ من ذِكْره فى ثَوْبٍ من السيادة مُعْلَم ، وتهلَّلتْ من ألقابه الشريفةِ أساريرُ كلِّ دينارٍ ودِرْهم .

يَحْمَده أميرُ المؤمنين علىٰ أن جعلَ أُمورَ الخلافة ببنِى العبَّاس مَنُوطه ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه إلىٰ يوم القيامة مَحُوطه ؛ ويصَــلِّى علىٰ آبن عمه محمدٍ الذى أخمــدَ الله بمَبْعَثِه ماثَار من الفِتَن ، وأطفأ برسالته ما آضطرم مِنْ نار الإحنْ ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين حَمَوْا حِمىٰ الخلافة وذادُوا عن مواردِها ، وعمدُوا إلىٰ تمهيد المَعالم الدينيّة فأقامُوها علىٰ قواعِدِها ؛ صلاةً دائمةَ الغُدوّ والرَّواح ، متصلاً أوّلُها بطُرَّة الليل وآخرُها بجبِين الصَّباح .

هذا و إنّ الدين الذى فرض الله علىٰ الكافّة الآنضمام الىٰ شعَبْه، وأطْلَع فيه شموس هدايةٍ تُشْرِق من مَشْرِقه ولاتغْرُب فى غَرْبه؛ جعل الله حكمه بأمرنا منُوطا، وفى سلْك أحكامِنا مَخْروطا؛ وقلّدنا من أمر الخلافة المعظّمة سيفًا طال نِجَاده، وكَثُر أعوانه وأنجادُه؛ وفوّض إلينا أمْرَ الممالك الإسلاميّة و إلىٰ حَرَمنا تُجبىٰ ثمراتُها، ويُرفَع إلىٰ ديواننا العزيز نَفْيُها و إثباتُها؛ يَخْلف الأسدَ إن مضىٰ فى غابِه شِبْلُه، ويُلْفىٰ فى الخُبْر والخَبَر مِثْلُه .

ولما أفاض اللهُ علينا حُلَّة الخلافه، وجعل محلَّنا الشريفَ محلَّ الرحمة والرافه؛ وأقعدَنا علىٰ سُدّةِ خلافةٍ طالمَا أشرقَتْ بالخلائف من آبائنا، وآبتهجَتْ بالسادةِ الغَطَاريِف من أسلافنا؛ وألبَسنا خِلْعةً هى من سَوَاد السُّؤدَد مصبوغَه، ومن سَواد العُيون وسُوَيْداوات القلوب مَصُوغه؛ وأمضيْنَا علىٰ سُدَّتنا الشريفة أمْرَ الخاصِّ والعامّ، وقلّدْنا كلَّ إقليم من عَمَلِنا(١) مَن يُصْلِح سياسَتَها علىٰ الدَّوام؛ وآستكفَيْنا بالكُفَاة من عُمَّالنا علىٰ أعمالنا، وآتخذنا مِصْرَ دارَ مُقامنا وبها سُدّة مَقامنا، لِما كانتْ فى هذا العصر قُبّةَ الإسلام، وفَيْئَةَ الإمام وثانيةَ دار السلام؛ تعيّن(٢) علينا أن نتصَفّح جرائدَ عُمّالنا، ونتأمّلَ نِظامَ أعمالنا، مكاناً فمكانًا، وزمانًا فزمانا؛ فتصَفَّحناها فوجدْنا قُطْر اليمن خاليًا من وِلايَتِنا فى هذا الزمن؛ عرّفنا هذا الأمْرَ مِن آتخذْناه للممالك الإسلامية عَيْنا وقَلْبا، وصَدْرا ولُبّا؛ وفوّضْنا إليه أمْرَ الممالك الإسلامية فقام فيها مَقاماً أقعد الأضْداد، وأحسَنَ فى ترتيب ممالكها نهايةَ الإصدَار وغايةَ الإيراد، وهو السُّلْطان الأجلّ، السيدُ الملك الناصر المبجّل؛ لازالتْ أسبابُ المصالح علىٰ يديْه جاريه، وسحابةُ الإحسان من أُفُق راحتِه سارِيه؛ فلم يُعِد جوابا لما ذكرناه، ولاعُذْرا عمّا أبديناه، إلا بتجهيز شرذِمة من جَحَافِلِه المشهوره، وتعيين أُناسٍ من فوارسه المذكوره؛

(١) لعله أعمالنا (٢) جواب ولما أفاض .

يقتحمون الأهوال، ولا يَعْبـؤون بتغيُّرات الأحوال ؛ يَرَوْن الموتَ مَغْنما إن صادفوه، وشَبَا المُرْهَفِ مَكْسَباً إن صافَحُوه ؛ لا يشْرَبون سِوى المُدَام[1] مُدامه ، ولا يلْبَسُون غير التَّرائك عِمامه ؛ ولا يعرِفون طَرَبا إلا ما أصدره صَليلُ الحُسَام من غِنَا ، ولا ينزلون قَفْرا إلا ونبَتَ ساعةَ نزولهم من قَنَا . ولما وثِقْنا منه بإنفاذهم راجعْنا رأْيَنا الشريف، فاقتضىٰ أن يُكاتَب مَنْ بسط يَدَه فى ممالكها ، وآحتاطَ علىٰ جميع مَسَالكها ؛ وآتخذ أهْلها خَوَلا ، وأبْدىٰ فى خِلالِ ديارها من عَدَمِ سياسته خَلَلا . برَز مرسومُنا الشريف النبوىّ أن يُكاتَب مَنْ قعد علىٰ تخت مملكتها ، وتصرَّف فى جميع أمور دَوْلتها ؛ وطُولع بأنَّه ولَدُ السلطانِ الملك المظفر يوسُف بن عمر الذى له شُبْهة تمسُّك بأذيال المواقف المستعْصِمية وهو مستصحِبُ الحال علىٰ زعمه ؛ أوَمَا عَلِم الفرقَ بين الأحياء والأموات ؟ أوَ ما تحقَّق الحال التى بين النفْىِ والإثبات ؟ ، أصدرناها إلىٰ الرِّحاب التَّعزِّيه ، والمعالم اليمنية تُشْعِر مَنْ تولّى عنها فاستبدّ ، وتولّى كِبْره فلم يُعرِّج علىٰ أحد ؛ أن أمر اليمن ما برحت نُوَابُنا تحكم فيه بالآية الصحيحه ، والتَّفْويضاتِ التى هى غيرُ جرِيحه ؛ وما زالتْ تحمل إلى بيت المـال المعمور وما تَمْشى به الجمالُ مَشْيا وَئيدا ، وتَقْــذِفُه بطون الجوارى إلىٰ ظُهور اليَعْمَلات وليـدا ، ويُطالِعُنا بأمر مصالحه ومفاسده ، وبحال دِيارِه ومعاهِدِه ؛ ولك أُسْوة بوالِدِك فلان ، هَلَّا آقتفَيْتَ ما سَنَّه من آثارِه ، ونقَلْتَ ما دوَّنَتْه أيدى الزمن من أخباره .

وآتصل بمواقفنا الشريفة أمور صدرَتْ منك .

منها ــ وهى العظمىٰ التى ترتَّب عليها ما ترتب ــ قطعُ المِيرةِ عن البيت الحرام ، وقد علِمتَ أنَّه وادٍ غيرُ ذِى زَرْع ، ولا يحِلُّ لأحدٍ أن يتطرَّق إليه بمَنْع .

(١) المدام المطر الدائم .

ومنها ـ انصبابُك إلىٰ تفريغ مال بيت المال فى شراء لَهْوِ الحديث، ونَقْض العُهُود القديمة بمـا تُبْديه من حَديث .

ومنها ـ تعطيلُ أجياد المَنَابر من عُقُود ٱسمنا، وخُلوُّ تلك الأماكن من أمور عَقْدنا وحَلِّنا؛ ولو أوضحنا لك ما ٱتصل بنا من أمرك لطال، ولا تَّسعَتْ فيه دائرةُ المَقَال؛ رَسْمنا بهـا والسيفُ يَوَدّ لو سَبَق القَلَمَ حدُّه ، والعَلَمُ المنصورُ يودُّ لو فات العلم وٱهتَزَّ بتلك الرَّوابى قَدُّه؛ والكتائبُ المنصورةُ تختار لو بدَرتْ عُنوانَ الكِتاب، وأهلُ العزم والحَزْم يودُّون إليكَ إعمالَ الرِّكاب، والجَوارِى المنشآت قد تكَوّنَتْ من ليلٍ ونَهار، وبرزَتْ كصُوَر الأفيِـلة لكنَّها علىٰ وجه المـاءِ كالأطيار ؛ وما عمدنا إلىٰ مكاتبَتِك إلَّا للإنذار ، ولا ٱحتَجْنا إلىٰ مخاطبتك إلا للإعذار؛ فأقْلِـع عمَّـا أنت بصدَدِه من الخُيَلاء والإعجاب، وٱنتَظِمْ فى سِلْك من ٱستخلَفْناه فأخذ بيمينه ماأُعْطِىَ من كتاب؛ وصُنْ بالطاعة مَنْ زعمتَ أنهم مُقيمون تحتَ لِواءِ عَلَمك، ومنتظمونَ فى سِلْك أوامِرِ كَلِمك ، وداخلون تحت طاعةِ قَلَمِك ؛ فلَسْنا نَشُنُّ الغاراتِ علىٰ مَنْ نطق بالشهادتين لسانُه وقلبُه ، وٱمتثل أوامرَ الله المطاعةَ عقْلُه ولُبُّه ؛ ودانَ بمـا يجبُ من الدِّيانه ، وتقلَّد عقودَ الصَّلاح وٱلتَحفَ مَطارِفَ الأمانه ؛ ولَسْنا ممن يأمر بتجريد سَيفٍ إلا علىٰ من عَلِمْنا أنه خرج عن طاعتنا، ورفَضَ كتابَ الله ونَزَع عن مبايعتنا . فأصدرنا مرسومَنا هذا إليه نقُصُّ عليــه من أنباء حِلْمنا ما أطال مدّة دَولته ، وشـيَّد قواعِدَ صَوْلته؛ ونستدْعى منه رسولًا إلىٰ مَوَاقفنا الشريفه، ورحاب ممالكنا المُنيفه؛ لينوبَ عنــه فى قَبُول الولاية منابَ نفسه ، ولْيَجْنِ بعد ذلك ثِمـارَ شفقاتنا إن غَرَس شَجر طاعتها ـ ومن سَعادة المرء أن يَجْنِيَ ثِمارَ غَرْسه ـ بعد أن يُصْحِبه من ذخائر الأموال ما كَثُر قيمةً وخَفَّ حَمْلا، وتعالىٰ رتبة وحَسُن مِثْلا؛ وٱشْرُطْ علىٰ نفسك فى كل سنة قطيعةً ترفَعُها إلىٰ بيت المال . وإيَّاك ثم إيَّاك ! أن تكون علىٰ هذا الأمر ممن مال؛

ورتّبْ جيشًا مقيمًا تحتَ عَلَم السلطان الأجلّ الملك الناصر للقاء العدُوّ المخذول التّتار، ألحقَ الله أوّلهم بالهلاك وآخِرهم بالبَوَار . وقد علمتَ تفاصيلَ أحوالهم المشهوره، وتواريخَ سِيَرهم المَنْكُوره؛ فاحْرِص علىٰ أن يَخُصَّك من هـذا المَشْرَب السائغ أوفَرُ نصيب، وأن تكون ممن جَهَّز جيشا فى سبيل الله فرمىٰ بسَهْم فله أجْرُكان مُصيبا أو [غير] مُصِيب؛ ليَعودَ رسولُك من دار الخلافة بتقاليدها وتشارِيفِها حاملًا أهِلَّةَ أعلامنا المنصوره، شاكرا بِرَّ مَوَاقِفنا المَبْروره؛ وإن أبىٰ حالُك إلا أن ٱستمْرَيت علىٰ غيِّك، وٱستمْرَيْتَ مَرْعىٰ بَغْيك؛ فقد منعناك التصرُّفَ فى البلاد، والنظرَ فى أحكام العِبَاد، حتّى تطأ خيلُنا العِتاقُ مشمَخرّاتِ حُصونك، وتعجِّل حينئذ ساعةُ مَنُونك؛ وما عَلَّمناك غير ماعلمه قَلْبُك، ولا فَهَّمناكَ غيرَماحدسـه لُبُّـك؛ ولا تكُنْ كالصغير يزيدُه كثرةُ التحريك نَوْما، ولا ممن غرّه الإمهالُ يوما فيَوْما . أعلمناك ذلك فاعْمَلْ بمقتضاه، موفَّقا إن شاء الله تعالىٰ .

الأُسْـــلُوب الثـانى

(أن يُفتتح الكتابُ بخطبة إما مصدّرةً بآية من القرءان الكريم أو دُونِها)

كما كُتِب عن الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس «أحمد ٱبن المستكفى بالله أبى الربيع سليمان» إلىٰ السلطان الملك الناصر: أحمد ٱبن الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهو بالكَرَك، يستـَدْعى حُضورَه إلىٰ قلعة الجبل بالقاهرة المحروسة لتقليد السلطنة الشريفة، بعـدَ خَلْع أخيه الملِك الأشرف كُجُك ٱبن النـاصر محمد، وإمساك الأمير قُوصون ومَنْ معه من الأمراء .

وقد ذكر صاحب "الدرّ الملتقَط" أنه كتبه فى قَطْع البغدادىّ الكامل بين يدى الأمير قطلوبغـا الفَخْرىّ كافلِ السلطنة الشريفة . وهذه نسخته :

﴿ألم تَرَوْا أنَّ اللهَ سخَّر لَكُمْ ما فِي السَّمٰواتِ ومَا فِي الأَرضِ وأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظاهِرةً وباطِنَةً ومِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ولَا هُدًى ولا كِتَابٍ مُنيرٍ﴾ .

فالحمدُ لله الذى أسبغَ نِعمَه الظاهرةَ والباطنه، وألَّف قلوبَ أوليائه المتفقة والمُتبايِنَه، وأخذ بنواصِى أعدائِه المُراجِعَةِ والبائنه ؛ وأعلىٰ جَدّهذه الدولةِ القاهره، وأطْلَعَ فى أسِنَّة العَوالى نُجومَها الزاهره ؛ وحَرَّك لها العزائمَ فملكَتْ والأمورُ ـ بحمد الله ـ ساكنه، والبلاد ـ والمنةُ لله ـ آمنه، والرَّعايا فى مكانها قاطنه، والسيوفُ فى أغمادها مثلُ النِّيران فى قلوب حُسَّادها كامِنه . وأقام أهلَ الطاعة بالفرض، واستوفىٰ بهم القَرْض، وقالوا الحمدُ للهِ الذى صَدَقَنَا وعْدَهُ وأورَثَنَا الأرضَ ؛ وأعزَّ أنصار المَقامِ الشريف العالى وأعَزَّ نَصْره، وأعدّ لعَـدُوّه حَصْره ؛ وأتىٰ بدولتـه الغراء تسمُو شُموسها، وتُثْمِر غروسُها ؛ وتَظْهَر فى حُلَل الصباح المشرِق عَرُوسها، وتجيءُ منه بخير راعٍ للرعية يسوسها ؛ وبشَّره بالمُلْك والدَّوام، وسَرَّه بما اجتمعَ له من طاعة الأنام، وأقدمه علىٰ كُرسىّ مُلْكه تُظلُّه الغمام، وأراه يومَ أعدائه وكان لا يُظَنُّ أن يُرىٰ فى المَنَام ؛ ولا يزال مؤيَّد الهِمَم، مؤكَّد الذِّمم، مجدَّدَ البَيْعة علىٰ رِقاب الأُمَم ؛ ولا برِحَتْ أيامه المقبلةُ مُقبِلةً بالنِّعم، خُضْرَ الأكناف علىٰ رَغْم مَنْ كاد وغَيْظ من رَغِم ؛ ولا فَتِئَتْ عهودُ سَلَفه الشريفةُ تُنْشأ له كما كانت، ورعاياه تَدين له بما دانَتْ، وجنودُه تُفَدِّيه من النفوس بأعَزِّ ما ذَخرت وما صانَتْ ؛ وسعادةُ سلطانه تَكْشِفُ الغُمَم، وتَنْشُر الذِّمم، وتُعيد إلىٰ أُنُوف أهل الأَنَفَة الشَّمَم، وتحفَظُ ما بَقِىَ لأوليائه من بَياض الوجوه وسَوَاد اللِّمَم .

سَطَّرها وأصدرها وقد حُقِّقت بعوائد الله الظُّنون، وصَدَّقت الخواطرَ العُيون ؛ وأنجزَ اللهُ وعْده، وأتمَّ سعدَه ؛ وجَمع علىٰ مَقامه الكريم قلوبَ أوليائه ،

وفَرَّق فِرقَ عَدُوِّه وأبادَهُ بدائِه ؛ ووطَّد لِرُقِيّه المَنابِر، ورَجّل لترقّيــه العساكر، وهَيّأ لمَقاتِل أعدائه فى أيْدى أوليــائه السُّــيوفَ البَوَاتر. وأُخِذ قُوصونُ وأُمْسِك، ونُهِب مالُه وآستُهْلِك ؛ وهُدِمتْ أبنيتُه ، وهُدَّتْ أفْنِيَتُه ؛ وخُرِّبتْ ديارُه ، وقُلِعتْ آثارُه ؛ وأُخْلِيتْ خزائنُه، وأُخْرِجت من بُطون الأرض دفائِنُه، وما مانَعَت عنه تلك الربائب التى ظَنَّها قَساوِر، ولا ناضَلَتْ تلك القِسِىُّ التى طبعَها أَسَاوِر ؛ ولا أغنىٰ عنه ذلك المــالُ الذى ذهَبْ، ولا ذلك الجوهرُ الذى كان عَرَضا لمن نَهَب . وأُعِيد إلىٰ المَهْد ذلك الطفلُ الذى أكل الدُّنيا باسمِــه، وقهر أبناءَها بحُكْمه ؛ ومَوَّه به علىٰ النــاس، وأخْلىٰ له الغابَ وماخرج من الكِنَاس؛ وغالبَ به الغَلَب حتّى وَطِئ الرِّقاب، وداس الأعقاب ؛ وخادَعَ ودَلَّه الشيطانُ بغُرُوره، ودلَّس عليه عاقبةَ أُمُوره؛ فاعتدّ بعَتاده، وآعتَزَّ بِقِياده، وآغترَّ بأنَّ الأرضَ له وماعَلِمَ أنَّ الأرضَ لله يُورِثُها مَنْ يشاءُ مِنْ عِبادِه؛ فأُمْسِك ومعه رءوس أشياعه ، وحَصِرت بالخوف نُفُوسُ أتباعه ــ ومنهم الطنبغا . وقد أحاط العلمُ الشريفُ بكيفيــة وُصُوله وحقيقةِ الخبر، وما قاساه فى طريقه من العِبَر، وداس عليه حتى وصل من وَخْزِ الإبَرْ؛ وكذلك من جاء معه، وخَلَّف وراءه الحقَّ وتبعه، بعدَ الهزيمة التى ألجأهم إليها خوفُ العساكرِ المنصورةِ التى قعــدت لهم علىٰ الطريق، وأخذت عليهم بمَدارج أنفاسهم فى فَمِ المَضِيق؛ وعُبِّئت لهم صُفُوف الرجال ، وأُعِدّت لهم حُتُوف الآجال ؛ وحيَّرتْهم فى سَــعة الفِجاج ، وأرتْهم بوارقَ الموت فى سُحُب العَجاج؛ ثم لم يصلُوا إلا وهم أشْلاءٌ ممزَّقه، وأعضاءٌ مفرَّقه؛ قد فَنِي تحتهم الظهر، وقَنِيَ بيومهم الدَّهْر؛ وساقَتْهم سعادةُ سلطان المقام العالى إلىٰ شَقَاوتهم وهم رُقُود، وعُبِّئت لهم الخيل والخِلَع إلا أنهــا مَلابِسُ الذُّلّ وهى القيود ؛ فأُخِذُوا جميعا هم ومَنْ كانوا علىٰ مُوالاتِه ، وفارقوا الجماعةَ لمُواتاته ؛ وحُمِلوا إلىٰ الحَبْس النائى المكان؛ وأُودِعوا أحياءً فى مُلْحَده الا أنهم كالأموات ، وقد نالوا المَقْصــد إلا أنهم

ما أَمِنوا الفَوات؛ ووُكِّل بحفظهم إلىٰ أن يُشَرِّف سريرُ المُلْك بقعود مَقامه وعُقُود أيّامه الحَوالى، وسعود زمانه الذى لايحتم بالنجوم إلا خدم الليالى .

وهذا النصرُ إنما تهيَّأتْ ـ ولله الحمد ـ أسبابُه، وهذا الفتح إنما فُتِحتْ بمشيئة الله أبوابُه؛ بمِنَّة الله ونِيَّة المقام العالى لا بِمِنَّةِ أحد، ولا بمُنَّة بأْس من أقدر، ولا يَأْس من حجر؛ وما قضىٰ الله به من سعادة هذه الأيام، ومضىٰ به القَدَرُ السابقُ وعلىٰ الله التمام؛ و بمظَافَرة الجناب الكريم السَّيفىّ، قطلوبغا الفخرىّ الساقى الناصرىّ؛ أدام الله نُصرته لهـذه العصابة المؤيَّدة . و بمَضاء عزائمه التى ماوَنَتْ، وقضاء قواضـبه التى ماآنثنَتْ؛ و بموازَرة من التَفَّ عليه من أكابر الأمراء، و بما أجمعوا عليه من مُظافَرة الآراء؛ ونزولهم علىٰ النية لايضرُّهم مَنْ خَذَلهم ، ولا يُهِنُهُـمْ من بذلهم؛ ولا يبالُون بعساكر دمشق المقيمةِ علىٰ حلب ومن مال إليهم، وتمالأ معهم عليهم؛ ومَن آنضاف إليهم من جنود البلاد، وجيوش العِناد؛ ولا لَوَاهُم ما كان يبعث إليهم ذلك الخائن من وعيده، ولا وَلَّاهم ما كاد يخْطَف أبصارَهم من تهديده ؛ ولا بالُوا بما أَلَّب عليهم من جُنْدُ الشام من كلِّ أوْب، وصبَّ عليهم سُيوله من كل صوب؛ وخادعهُم بالرسائل التى ما تزيدهم عليه إلا إبَاء ، ولا تُشَكِّكُهم أن السيفَ أصدقُ منه إنْباء، حتّى ولّى لا تنفَعُه الخِدَع، ولا تنصُره البِدَع؛ فما أسعدَتْه تلك الجموعُ التى جمعها، ولا أجابَتْه تلك الجنودُ التى سارَعليها إلىٰ مَكْمن أجلِه ، ولا وَقَتْ تلك السيوفُ التى لم يظهرله من بَوَارقها إلا حمرةُ الخَجَـل ؛ حتى أُخِذ مع طاغيته بل طاغُوته بمصرَ ذلك الأخْذَ الوَبِيل، وقُذِف به إلىٰ مَهْوىٰ هَلَكة سَبْل ذلك السبيل ؛ وقام مَنْ بالديار المصرية قيامَ رجلٍ واحد، وتظافَرُوا علىٰ إزالة ذلك الكافرِ النِّعمة الجاحد؛ ولم يبقَ من الأمراء إلا مَنْ بذل الجُهْـد، وجمع قلوبَ الرعية والجُنْد ؛ وفعـل فى الخِدمة الشريفة مالم يكُنْ منه بُدّ، حتّى حُمِد الأمر وَحمد الجَمْر؛ وتواترت الكتبُ بمـا عَمَّتْ به البُشرىٰ

من إقامة البَيْعة باسْمِه الكريم ، وأنه لم يبقَ إلا من أعطىٰ اليمينَ وأعطى اثّمين ، وأتمّ الحِلفَ إتماما لا يُقدَّر معه ثمين ، وأقيمت له السِّكّةُ والخُطبة فرُفِع علىٰ المنابر ٱسمه وتهلل به وجُوه النُّقــود ، وظَهَر علىٰ أسارير الوُجود ، وضُرِبت البشــائر ، ونَبهت المسَرّاتِ السَّرائر ، وتشوّقتْ أولياءُ هذه الدولة القاهرة أدام الله سلطانها إلىٰ حضور مَلِكها ، وسُفُور الصَّباح لإذهاب ماأبقتْه عقابيلُ تِلك الليلة من حَلَكِها . والمقام العالى ما يزداد عِلْما ، ولا يُزادَ عَزْما ، وهو أدرىٰ بما فى التأخير ، و بما فى بُعْده من الضرر الكبير ، ومثله لا يُعَلَّم ، ومنه يُتَعَلَّم ، فهو أعلمُ بمـا يجب من مسابقة قُدُومه للبشير ، وما سيعنّ من معاجلته لٱمتطاء جواديه ظهر الجمال و بَطْن السَّرير ، فاللهَ اللهَ ! فى تعجيل حِفْظ هذا السَّوام المشَرَّد ، وضَمِّ هذا الشَّمْل المشتَّت ونَظْم هذا العِقْد المبَدَّد ، و جَمْع كلمة الإسلام التى طالما ٱفترقتْ ، وٱنجياع عارِض هذه النعمة التى أبرقَتْ ، وسرعةِ المسير فإنَّ صبيحة اليوم المبارك الذى يُعرَف من أوّله قد أشرقَتْ ، فمــا بَقِيَ مابه يُقْتَــدَر ، ولا سِوىٰ مَقْدَمه السعيد يُنْتظَرْ .

وقد كتبناها ويَدُنا ممدودة لمبايَعته ، وقلوبُ الخلق كلُّها مستعدّة لمتابَعتِه ، وكرسىّ المُلْك قد أُزْلِف له مقــعَدُه ، ومؤمِّل الظَّفَر قد أُنْجِــزَ له موعِدُه ، والدهرُ مطاوِعه والزمانُ مُسْــعِدُه ، وطوائف أوليــائه ليوم لقائه تَرْصــدُه ، والعهد له قد كُتِب ، ولواء المُلْك عليــه قد نُصِب ، والمِنبرُ بٱسمه عليه قد خُطِب ، والدينارُ والدرهم هذا وهذا له قد ضُرِبْ ، ولم يبقَ إلا أن يَقْتَرِب ، وترىٰ العيونُ منه ما تَرْتَقِب ، و يجلسَ علىٰ السَّرير ، ويُزْمِعَ المبَشِّر و يعْزِم علىٰ المَسير ، وتُزَيَّن الأقاليم ، ويبَيَّن لتسيير شِهابه ما كان يُقْرأ له فى التَّقاوِيم ، لازال جَيْبُ مُلْكه علىٰ الأقطار مَزْرورا ، وذيل فخَــاره علىٰ السماء مجرُورا ، وحبلُ وَلِيِّه متَّصلا وقلبُه مسرورا ، ومقدمه يحوز له من إرث آبائه نِعمًا جمة ومُلْكا كَبِيرا ، إن شاء الله تعالىٰ .

الأسـلوب الثـالث

(ما آستقرّ عليه الحـال فى زماننـا إلىٰ خلافة الإمام المتوكل علىٰ الله خليفـة العصر)

وهو أن تفتتَح المكاتبةُ بالسلام، ويؤتىٰ فى ألقاب المكتوب إليه بمـا يُكْتَب من الألقاب عن السلطان علىٰ ماسيأتى ذكره فى المكاتبات السلطانيات فى الباب الثانى من هذه المقالة، إن شاء الله تعالىٰ .

مثال ذلك : أن تكون المكاتبةُ إلىٰ نائب الشأم مَثَـلا، فالذى يكتَبُ إليه عن السلطان : «أعزّ اللهُ تعالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم العالى» إلىٰ آخر الألقاب الآتى ذكرها هناك؛ ويكتب عن الخليفة « سـلامُ الله تعالىٰ و رحمته و بركاته يَخُصُّ المقرّ الكريم العالى » إلىٰ آخر الألقاب .

قلت : ولو سلكوا سبيلَ الخلفـاء السابقين فى المكاتبات الصادرةِ عنهم : من الابتداء بلفظ «من عبدالله ووليّه أبى فلان فلان الإمام الفلانى أميرالمؤمنين إلىٰفلان علىٰ ما تقدّم» وأتوا فى ألقاب المكتوب إليه بالألقاب المستعْمَلة فى [ذلك] الزمان فى المكاتبات السـلطانية : مثل أن يُكْتب عن الإمام المتوكِّل علىٰ الله محمد خليفة العصر إلىٰ نائب الشام « من عبد الله ووليّه أبى عبد الله محمدٍ الإمام المتوكِّل علىٰ الله أمير المؤمنين ، إلىٰ المَقَرّ الكريم العالى الأميرىّ الكبيرىّ » إلىٰ آخر الألقاب المقدّم بيانها فى المقالة الثالثة . ثم يقال : «وسلامٌ علىٰ المَقَرّ الكريم ، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليه اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ويسألهُ أن يصَلِّى علىٰ محمد عبـدِه ورسولِه صلَّى الله عليه وسلم» . ثم يقال : أمّا بعد، فإنَّ كذا وكذا، و يؤتىٰ علىٰ المقْصد ويُختَم بالدعاء وغيره لكان أذهَبَ مع الصواب، وأوفق لمكاتبةِ الخُلَفاء السابقين ، وأقربَ إلىٰ آقتفاء سبيلهم .

الطـــــرف الخامس

(فى الكُتُب الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية، وفيه ثلاث جمـــل)

الجمـــــــلة الأولىٰ

(فى الكُتُب الصادرة عنهم علىٰ سبيل الإجمال)

وقد ذكر صاحب "موادّ البيان" وكان من كِبار دولتهم فى المكاتبات الصادرة عنهم نحو المكاتبـات الصادرة عن خلفاء بنى العَبَّاس ببغدادَ، فقـال : وإن كانت المكاتبـةُ من الخليفة فينبغى للكاتب أن يفضل من الدرج قدر ذراع ثم يستـفتح ببسم الله الرحمن الرحيم فى سـطر أوّل : لأنها أوْلىٰ ما يُستفْتَح به، ثم يكتب فى سطر ثانٍ يلاصقها ويخرِّج يسيرًا «من عبد الله ووليه فلانٍ بن فلان إلىٰ فلان» ويبدأ بذكر نَعْتِه إن كان الإمام شَرَّفه بنعت : «سلامٌ عليك فإنَّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ويسألُهُ أن يصَلِّى علىٰ محمدٍ خاتم النبيين وسيِّدِ المرسلين وعلىٰ آله الأئمةِ المهديِّين ويُسلِّم تسليما» . ويكون هذا التصدير فى سطرين، يجعل بينهما فضاء قِيسَ شِبْر، ولا يزيده عن ذلك ولا ينقصه فيخرجه عن حَدِّه؛ ثم يترك بعد هذين السطرين فضاءً نصفَ الذى بينهما . ثم يقول : أمّا بعدُ ، ويقتصُّ المعانى معنًى معنًى، فإن كان أمرا أمر به الإمام قال بعد ٱنقضاء الكلام : وأمر أمير المؤمنـين بكذا . ثم يقول بعد فصلٍ أوسع من الفصل الأوّل «فاعلَمْ ذلك من أمير المؤمنين ورسمه وٱعمَلْ عليه بحَسَبه» . ويقول للمخاطبين من الطبقة العالية : والسلامُ عليك ورحمةُ الله، ويفرد بالسلام مَنْ دونها .

وقد كانت العادة جارية أن يقـال فى آخر الكتب النافذة عن الإمام «وكتب فلانُ بن فلانـــ» باسم الوزير وٱسم أبيــه؛ ثم بطل هذا الرسم فى الدولة العَلَويَّة

ولا يكتب أحدٌ بالتصدير إلا الإمامُ وولىُّ عهده . وهذه المكاتبة عامّةٌ للناس جميعا فى الأمور السلطانية التى تُنْشأ فيها الكتُب من الدواوين، ولا يخاطَبُ أحد عن الخليفة إلا بالكاف .

الجملة الثانية

(فى الكُتُب العامة؛ وهى علىٰ أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن يفتتَح الكتابُ بلفظ : «من عبد الله ووليه أبى فلانٍ فلان الإمام الفلانى» علىٰ ما تقدّم ترتيبه)

وعلىٰ هذا الأسلوب كان الحالُ فى ٱبتداء دولتهم وإلى أوساطها .

وهذه نسخة كتابٍ كتب به الإمامُ العزيزُ بالله نِزارٌ الفاطمىّ إلىٰ عامله بمصر يبشّره بالفتح حين خرج إلىٰ قتال القَرْمَطِىّ بالشام فى سنة سبع وستين وثلثمائةٍ، مما أورده المسبِّحىّ فى تاريخه :

من عبدِالله ووليِّه نِزارٍ أبى المنصور العزيزِ بالله أميرالمؤمنينَ، إلىٰ حُسَينِ بن القاسم .

سلامٌ عليك، فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، ويسأله أن يَصلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ نبيه ورسوله صلىّ الله عليه، وعلىٰ الأئمة من عِتْرته الأبرار، الطاهرين المطهرين وسَلَّم تسليما .

أما بعدُ، فالحمدُ لله الملكِ العظيم، العليم الحليم، ذى الطَّوْل الكريم، والمَنّ الجَسيم؛ والعِزّ المَديد، والمحال الشَّديد؛ ولىِّ الحقّ ونصيرِه، وماحق الباطل ومُبيره؛ المتكفِّل بالنصر والتمكين، والتأييد والتحصين، لأوليائه المتقين، وخلفائه المصطفَيْن الدائنين

عن دينه ، والقائمين بحقّه ، والدالين علىٰ توحيده ؛ الحاكم بإعلاء كلمتهم ، وإفلاج حُجَجهم وظهورهم علىٰ أعدائه المشاقّين له ، الضالّين عن سبيله ، المُلحدين فى آياته ، الجاحدين نِعمه ، المنزّل رِجْزَه ، وقوارع بأســه علىٰ من عصاه فحادّه ، وصَدّ عنه فناده ، القاضى بالعَواقب الحُسْنىٰ والفوز والنعماء لمن أسـلم وجهه له وتوكل عليـه فى أمره ، وفوّض إليـه حُكْمه ؛ كلُّ ذلك فضلًا منـه وعَدْلا ، وقضاءً فصلا ؛ وهو الحَكَم العَـدْل الذى لا يَظْـلِمُ النـاسَ شَيْئا ولٰكِنَّ النـاسَ أنْفُسَهُمْ يَظْلِمُون . فتبارك اللهُ الغالبُ علىٰ أمره الفردُ فى مُلْكِهِ ؛ سبحانه وتعالىٰ عُلُوّا كبيرا . والحمـد لله الذى ٱبتعثَ عبدَه المصطفىٰ ، وأمينَهُ المرتضىٰ ؛ من أكرمِ سِنْخ ونَبْعة ، وأظهر مِلَّتَه وشرعه فى أفضل دَهْر وعَصْر ؛ وأنزل عليه كتابا من وحيه حكيماً غيرَ ذى عِوَج قَيِّمًا بديع النظام ، داخلًا فى الأفهام ، خارجا عن جميع الكَلام ، ليس كسَجْع الكُهَّان ، ولا كتحبير ذوى اللسن والبيان ؛ وقد تفرّقت بالأمم أهواؤُهم ، وتوزَّعَتْهم آراؤهم ، فضَـلَّت أحلامُهم وعَمِيتْ أفهامُهم وٱستحوذ عليهمُ الشيطان ، فعبَـدُوا الأصنام والأوثان ، جَهْلا بعبادة الرحمن ، فدعاهم إلىٰ الاقرار بإلٰهِهم ، وعرَّفهم وحدانية ربِّهم وكان حريصًا علىٰ إرشادهم ، جادًّا فى الاجتهاد ، هاجرًا للدَّعة والمِهاد ، صابرا علىٰ تكذيب المُشْركين ، وتَفْنيد المُلْحِدين ؛ ينصَحُ لهم فيستكبرون ، ويَهْدِيهم فيَضِلُّون ، ويحذِّرهم فيستَهْزئون ؛ حتّىٰ ظهر دينُ الله فسَمَا ، وطُمِس الكفرُ فانمحق وعَفَا ؛ وعمَّتْ بركتُه ، وفُضِّلت علىٰ الأمم أمَّتُه ، وعلَتْ علىٰ الملل مِلَّتُه ، صلّىٰ الله عليه أفضلَ صلاة المصلّين ، وزاده شرفاً فى العالمين إلىٰ يوم الدين .

والحمد لله الذى حبَا أمير المؤمنين وٱنتخبه لخلافته ، وجعله صَفيَّه من خلقه وأمينه علىٰ عبادِه وهاديًا إلىٰ سبيله ، قائمًا بحقه ، مُقْسِطا فى أرضه ؛ ذَابًّا عن دينه ، مُحْيِيا ما أماته أهلُ الكُفْر من أحكامه ؛ وأيّده بنصره ، وأمدّه بقُوّته ؛ وتكفّل له بالنُّجْح

فى مَسْعاه ، والظَّفَر بمُبْتغاه، ونَيْل طَلِبَتِـه فيما أمَّه وآرتآه . وحَكَم بكَبْت كلِّ عدوٍّ له وخِزْيِهم ، و إذلالهم ومَحْقهم وخَذْلهم ، و إيهان كَيْـدِهم ؛ وضَرَبَ الذِّلَّةَ عليهم حيثُ كانوا وأين كانُوا ؛ فلا يَنْعِق ناعقٌ منهـم بِطلَال، أو يَسْعىٰ بفِسْق وخَبَال؛ أو يُدْفَعُ إلىٰ آفتراء علىٰ الله أو مُروقٍ عن دينـه أو إذهابِ ما فرض الله عز وجل من طاعةٍ إلا آصطلَمَهُ وأخْزاه، وأ كَبَّه لوجْهِه وأرْداه، وقضىٰ عليه بالشِّقْوة فى دُنياه، وعذابِ الآخرةِ فى أُخْراه .

والحمد لله الذى مَنَح فأجمل ، وأعطىٰ فأجزل ؛ من نِعَمه السابغه، وآلائِه المتتابعه ؛ التى لايُوازيها شُكْر، ولايُدْرِكُ كُنْهَهَا ذكر ؛ حمـدًا يُوجب منه المَزِيد ، و يستَدْعِى المِنَنَ والتَّجْديد ؛ و إليـه يرغَبُ أمير المؤمنين خاضعا و يسألُه راغبا حُسْنَ العَوْنِ علىٰ ما بَلَّغ رِضْوانه ،وآمترىٰ فضله و إحسانَه. وتقدّم أمير المؤمنين إليك بمـا هيَّأه اللهُ من وُصوله إلىٰ مدينـة الرملة علىٰ أجمل صُنْع وألطف كِفاية ، وأتمِّ أمن ، وأكمل عِزٍّ وأوْطَد حال، وأحْسنِ آنتظام، وأبسَطِ يد، وأظهر قُدْرة، وأشمل هَيْبة؛ و بما أولىٰ الله أمير المؤمنـين فى حَلِّه وظَعْنه ، وآرتِحاله وثَوَائه : من نِعَمه العميمه ، ومَوَاهبه الجَسِيمه ؛ ومِنَحه الجليله ، ومِنَنِه الجَزيله ؛ وانه مما يستغرِق الحمد والشُّكْر ، و يفوتُ الإحصاء والنَّشْر،وذكر أمير المؤمنين أمرَ اللعين التركىّ وهَرَبه من بين يديه ، وأنه لم يُلْوِ علىٰ شىء إلىٰ أن بلغ طَبَرِيَّةَ للذى تَداخلَه من الفَرَق، وآستولىٰ عليـه من القَلَق؛ ولِمَا سكَنَ قَلْبَهُ من الرُّعْب، وحشاه من الرَّهْب؛ بقصْد أمير المؤمنين إيَّاه و إغْذاذِه السيرَ فى طلبه ومواصَلتِه الأسْباب ، ومتابَعته الإدْآب . ووصَفَ أميرُ المؤمنين ماعليه عَزْمُه فى تتبُّعه وآقتفاء أثره، والحلول بعَقْوته (١) حيثُ قَصَـد وَحَلّ، لِثقَته بالله ربِّه، وتوكُّله عليه، وتفويضه إليـه . ولم يزَلْ جلَّ وعز يُولِى أميرَ المؤمنين ـ بعد نُفُوذ

(١) العقوة ماحول الدار والمحلة، انظر القاموس، ووقع فى الأصول بالفاء بدل القاف وهو تصحيف .

كتابه ـ من عِزٍّ يؤيده، وظَفَر يُؤَكّده، ونَصْر يوطّئه، وآلاءٍ يُجَدّدُها، ومواهِبَ يُتابِعُها، وعدوٍّ يُذِلُّه، ومُنَاوٍ يُقِلُّه، وشارِدٍ يَصْرِفه إلىٰ طاعته، ومارق يُعيده إلىٰ مُوالاته، إلىٰ أن تمّ له من ذلك ماواصلَ به حمدَ الله عليه، وتهيَّأ له ما تَواتَر شكرُه له جل وعزّ فيه وكان مع ذلك مواصلاً إلىٰ اللعينِ الإعذار، ومتابعًا الإنذار، ومحذِّرا له مايُعْذر، ومستَدْعِيه إلىٰ ما يُختار ويُؤْثَر، وممنيًا له مما يمنِّي به مثلُه من العفو عنه، وتغمُّد ما جرىٰ منه، والإقالةِ لعثْرته، والتجاوُز عن هَفْوته، والآمتنانِ عليه بما رَغِب فيه من تقليده ناحيةً من نَوَاحِي الشام، وإدْرارِ الأرزاق عليه وعلىٰ رجاله وأصحابه، وإيثاره بالفَضْل الجليل، وآختصاصِه بالطَّوْل الجَزِيل. فما نَجَح فى الفاسق وَعْد، ولا نَجَع فيه وَعْظ، ولاوُفِّق إلىٰ قَبُول حظ، ولا أصْغىٰ إلىٰ قَبُول تذكره، ولا أناب إلىٰ تَبْصِره. وما زال جادًّا فى تَهَوُّكِه، متمادِيًا علىٰ تَمَهُّكه، جاريًا علىٰ ضَلَالته، سالكا سبيل عَمَايته، متردِّدًا فى غَوَايته، متلَدِّدًا فى جَهَالته، مقدّرا أن بأسَ الله لا يَرْهَقُه، وسطوتَه لا تَلْحَقُه، ورجْزه لا يمحَقه، وذُنوبَه لاتُزْهقه، وأجرامه لاتُوبِقُه. وما زال اللَّعينُ فى خلال ذلك يَبْسُط آمال العَرَب ويُرَجِّيها، ويُرَغِّبها ويمَنِّيها، بأقوالٍ كاذبه، وآمالٍ خائبه، ومَواعيدَ باطله، حتّىٰ أصغىٰ أكثرُها إلىٰ غُروره، وقبول إفْكه وزُوره، وأجابَتْه طائفةٌ طاغيه، ووصلَتْ إليه متتابِعه، فتوفَّر جمعُه، وكَثُر عَدَدُه وآشتدّ طَمَعُه، وقوِيَ أملُه، وتمكن له باستدراجِ الله إيَّاه وغضَبِه عليه أن يورِّط عُصْبَته ومن آختدعه بِغَيِّه وآستفزّه معه جهلُه، ويُورِدَهم جميعا ونفْسَه الزَّلَّة مَوْرِدًا لاصَدَر له، ولا عَلَلَ بعده، فخرج من طَبَرِيَّة وحَلَّ بَيْسان، محلَّ الخِزْي والهَوان، فعندها آنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين خبرُه وهو يومئذ فى المَنْهل، الذى حصل فيه بعد رَحِيله من الرملة وهو الموضع المعروف بالطَّواحين. فعند ما قَرُب آستجرارُ الفاسق اللعِين، وآعتمد ما يعودُ بأطماعه، أقام فى الموضع أيامًا ناظرا فيما يحتاجُ إليه، متأهبا

لما يُريده ، وكان ذلك هو السببَ الذى أطمعه . فبَعْد ما طَمِع قاده الحَيْنُ الغالب ، والقَدَر الجالب ، وما أراد اللهُ عز وجلّ من ٱستدراجه إلىٰ موضع نَكاله ، ومَنْهل وَبَاله ؛ ورحَلَ من بَيْسانَ رحِيلَ من ٱستعجَلَتْه البَلِيه ، وٱستَدْعَتْه الرَّزِيَّه ؛ فحلَّ بموضع يُعْرَف بكَفْر سَلاَّم ، كافِرًا بحُدُود الإسلام ، متجَرِّئا علىٰ الله محارِباً لنجل نبِيِّه عليه السلام ؛ وأقام بها متلَدِّدا فى حَيْرته ، متردِّدًا فى سَكْرته ؛ ثم ٱستجَرَّه شُؤْمه ، وقاده حَيْنه ولُؤْمه ؛ إلىٰ أن رحَلَ فنزَل بكَفْرسَابَا البريد ، فأنبأه ٱسْمُها بما حَلَّ به من السَّبْي المُبِيد والخِزْى الشديد ؛ ثم لم يلْبَثْ أن ضَرَب مضاربَهُ المأكوله ، ونصبَ أعلامَهُ المَخْذُوله ، وأقام صُفُوفه المَفْلُوله ؛ وأظهر آلةَ الحَرْب إقداما ، و [أخفىٰ] عن اللقاء إحجاما .

فأمر أمير المؤمنين بتزيين العساكر المنصورة والجيوش المظفَّرة وتَعْبِئتها علىٰ مراتبها ، وترتيبها علىٰ مَوَاكبها ؛ وتقدّم إلىٰ قُوّادها أن لا يَمْشُوا إلا صَفًّا ، ولا يَسِيرُوا إلا زَحْفا ، وعرّفَهُم أنه سيسيرُ بنَفْسه ، ويقصِدُ اللعينَ بموْكبه وجُمْهوره ومن معه من حُماة رجاله ؛ وأنه لا يَثْنِيه عن الفاسق ثانٍ ولا يصْرِفُه عن الاقتحام صارِف ؛ فبَدا من عزائمهم ، وشِدّةِ شكائمهم ، وخلوص بصائِرهم ، وسُكُونِ أفئدتهم ، وثبات أقْدامِهم ، ما كانتْ به دلائلُ النصر واضحه ، وشواهدُ الفَلْج لائحه ؛ وعلاماتُ الفَتْح ظاهره ، وآياتُ النُّجْح باهره ؛ فمَشَوْا علىٰ ما أُمِروا ، وساروا علىٰ ما سُيِّروا ؛ فعند ما دَنَوْا من عُدوِّ الله أصابُوه للجِلَاد مُعِدّا ، وفى المحاربة مُجِدّا ؛ وٱستخارُوا الله عز وجلّ وتدانَوْا للتّلاق ، والأخذِ بالنواصِى والأعْناق ؛ وقامتِ الحَرْبُ علىٰ ساق ، وتجرَّعَ منها أمَرَّ مَذاق ؛ فاستطار شَرارُها ، وتأجَّجتْ نارُها ؛ وٱرتفع دُخَانها ، وعَظُم شأنُها ؛ والتزم الأقْرانُ بالأقران ، وٱشتدّ الضَّرْبُ والطِّعان ؛

إلىٰ أن مشىٰ أمير المؤمنين بنفسه، وجُمْهور مَوْكبه، متوكِّلا علىٰ الله، ماتًّا إليه بجدّه محمدٍ صلّىٰ الله عليه وسلم، متوسِّلًا بمتقدِّم وَعْده، وسالف إنعامه عنْده، وقصدَ اللعينَ غيرَ متَلوِّم عن مصادمته، ولا معرِّج عن ملاحَمَته؛ فقوِيَتْ نفوسُ أوليائه وعَبِيـده، ومن آشتملت عليـه عسا كِرُه المنصوره، وجيوشُه المظفَّره بمـا تبيَّنُوه من إقدامه، وشاهَدُوه من آعْتِزامه؛ وحملُوا علىٰ الفاسق وأحزابِه؛ وقذف اللهُ فى قلوبهم الرُّعْبَ فتزلزلت أقدامهم، وأُرعِشَتْ أيديهم ونَخِبَتْ أفئدتُهم، ووَلَّوُا الدُّبرَ منهزمين، ومَنَحُوا ظُهورَهم مُوَلِّين؛ وآفترقوا ثلاثَ فِرَق: فرقةٌ قُتِلتْ فى المَعْرَكه، وصُرِعتْ فى المَلْحَمه؛ فاحتُزَّت رُءُوسهم، وفرقةٌ أحَسَّت وقْعَ السُّيوف و إرهاقَ الحُتُوف؛ فاستأمنَتْ تحتَ الذِّلَّة والصَّغَار، والغَلَبَة والاقتدار، فبُقِّيَتْ عليهم الأرواح، وحُقِنتْ منهـم الدِّماء. وفرقةٌ أُسِرتْ أَسْرا، وقُيِّدتْ قَيْدا؛ وهرب التُّرْكِىُّ اللعين رئِيسُ ضَلَالتهم، وعَمِيد كُفْرهم؛ فى شُرَيْذمة من أصحابه، فظنَّ أن ذلك من بأس الله يُنْجِيه، ومن الأَخْذ بكَظَمِه يُوقِيه، هَيهاتَ! كما قال الله عز وجل: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهاتَ لمـا تُوعَدُون﴾: ﴿إنْ كانَتْ إلا صَيْحةً واحِدَةً فإذَاهُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ فآتبَّعـه سَرَعانُ الخَيْل وخِفَافُ الرِّجال، مع مفرِّج بن دَغْفَل بن جراح، فأخذه قَبْضا وأَتىٰ به قَوْدا أَسيرًا من غير عَهْد، وذليلًا من غير عَقد؛ وآستولىٰ أهلُ العسا كر المنصوره، والجُيوش المظفَّره، علىٰ مُناخه وسَـوَاده، وما كان فيه من مال وأثاثٍ وكُرَاع وقِناع[1]؛ وقليل وكثير، وجليلٍ وحقـير، فحازُوه وآتَّسَعُوا به، وأكثَرُوا من حمد الله، وآنصرفُوا إلىٰ مُعَسْكَرِهم سالمين، بالمَغْنَم والظَّفَر آمنين، لم يُكْلَمْ منهم أحد، ولم يَنْقُص لهم عَدَد؛ وكان جملة ما أتَوا به معهم من رُءُوس الفَسَقة زائدًا علىٰ ألف رأس، ومن أَسْراهم ثمانمائة أسير، غير من آستُؤْمِنَ وقت الإيقاع بهم، ولم يُفْلِت من الفَسَقة إلا من هَرَب

(١) القناع معانيه كثيرة ومنها السلاح وهو المراد هنا .

بُحَشَاشة نَفْسـه مع مَنْ لاءَم التركىّ اللعـينَ، وصاحبُ عقده ومُوَرِّطُه فى هَلاكه، وقائدُه إلىٰ نَقِمَاته، وسائقُه إلىٰ مُوبِقـاته؛ وهو كاتبه المعروف بابن الحمارة، فلحق بطَبَرِيَّةَ فقُتِل هو وجُلُّ من كان معه وٱحتُزَّ رأسـه وأُتِىَ به؛ فكَمُلَت النعمه، وتمتِ المَوْهِبه؛ وتجدّدَ حمدُ أميرالمؤمنين وٱتصل شُكْره، لما أولاه من جليل عَطَائه، وكريم حِبَائه، وسَنِىّ آلائه. وكان ما آتاه الله من عظيم آياته، وأكبرِ شواهده، وٱختصاصِ الله إيَّاه وٱنتخابِه له؛ فالحمدُ لله! ثم الحمدُ لله! ثم الحمد لله ربِّ العالمين علىٰ عطائه الهَنِىّ، وحِبَائه السَّنِىّ؛ وما أيّد أميرَالمؤمنين، وأعزَّالدين، وقمع المُشْركين؛ اذ كان الفاسـقُ اللعين، التركىّ الغَوِىّ المبين؛ ثُلَّةً من ثُلَلِهم ورُكْنًا من أركانهـم، وحِزْبا من أحزابهم، ووَثَنا من أوثانهم، وطاغيةً من طواغيتهم؛ ولم يكن لهم فى بلد المسلمين يدٌ تَصُـدّ عنهم بأسَ غيرهم، ولا عضدٌ يدفَعُون بها سواه. وأمير المؤمنين يرغبُ إلىٰ الله عز وجلَّ أن يُوزِعه الشُّـكْرَ علىٰ ما أولاه، ويُوجِده سبيلا إلىٰ بلوغ مُبْتغاه؛ من إعزاز الملَّة والدِّين، وإحياء شريعة جَدّه سيد المرسلين؛ ومجاهدة التُّرْك والمشركين، وقَمْع الظالمين والقانطين والمـارقين؛ حتّى يكونَ الدينُ كُلُّه لله، ويَجْمَع القلوب علىٰ طاعته بإذْن الله.

أمر أميرُ المؤمنين بتعريفك ذلك، وتلخيص الكتاب إليك، لتقفَ عليه وتُذيعه، وتَشَهِّره فيما قِبَلك؛ وتحمدَ الله علىٰ ما منح أميرَالمؤمنين من النصر، ومكَّنه من الظَّفَر. فاعلَمْه إن شاء الله تعالىٰ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته. وكتب يوم الخميس لخمس ليال بقين من المحرّم سنة سبع وستين وثلثمائة.

الأسلوب الثـانى

(أن يفتتح الكتاب بخُطْبة مفتَتَحة بالحمد لله)

وعليه كان الحال فى أواخر دولتهم . وعليه جرىٰ فى "مواد البيان" فى الأمثلة التى ذكرها .

وهذه نسخةُ كتاب مما اورده فى "موادّ البيان" ببشارة بفتح، وهى :

الحمد لله مُديل الحقّ ومُنِـيره ، ومُذِلّ الباطل ومُبِـيره ؛ مؤيِّد الإسـلام بباهر الإعجاز، وقصم (١) وَعدِه فى الإظهار بوَشِيك الإنجاز ؛ أحمدَ كلَّ دِينٍ وأعْلاه، ورفَضَ كلَّ شرع وٱجتباه ؛ وجعله نُورَه اللامِع ، وظِله المـاتع ؛ وٱبتَعَث به السراجَ المنيرَ، والبشيرَ النّذير؛ فأوضَحَ مناهِجَه ، وبيّن مَدَارِجَه ؛ وأنارَ أعلامَه، وفَصَّـل أحكامه ؛ وسَنَّ حلالَه وحرامَه، وبيّن خاصَّه وعامّه؛ ودعا إلىٰ الله بإذنه، وحضَّ علىٰ التمسُّك بعِصَم دِينه؛ وشمّر فى نَصْره مجاهدا مَنْ نَدَّعن سـبيله ، وعَنَد عن دليله ؛ حتّٰى قَصَّد الأنصابَ والأصنام، وأبطل المَيْسرَ والأزلام؛ وكَشَف غياباتِ الإظلام، وٱنتعلَتْ خيلُ الله بقبائل (٢) الهام .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن جعله من وُلَاة أمره ، ووَفَّقه لاتِّباع سُنَّة رسولِه وٱقتفاءِ أَثَرِه؛ وأعانه علىٰ تمكين الدِّين؛ وتَوْهين المُشْركين،وشِفاءِ صُدُور المؤمنين؛ وأنهضه بالمُرَاماة عن المِلَّة، والمُحاماة عن الحَوْزة ؛ وإعزاز أهلِ الإيمـان ، وإذلالِ حِزْب الكُفْران. ويسألُه الصلاةَ علىٰ خِيرته المجتبىٰ،وصَفْوته المنتصىٰ، محمدٍ أفضل من ذَبَّ

---

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه بعلامة التوقف ولعله ومتم وعده الخ كما يفيده السجع .

(٢) قبائل الرأس أطباقه وفى الأصول "نبائل" بالنون وهو تصحيف يأباه المعنى.

وكالَحَ، وجاهَدَ ونافَحَ؛ وحمىٰ الذِّمار، وغزَا الكُفَّار . صلّىٰ الله عليه وعلىٰ أخيه وآبن عمه علىّ بن أبى طالب سيفِه القاطع ، ومِجَنّه الدافع : وسَهْمِه الصارِدْ، وناصِره العاضد؛ فارِسِ الوقائع ، ومَعْوسِ(؟) الجمائع؛ مبيدِ الأقران، ومبدِّد الشُّجْعان . وعلىٰ الطَّهرة من عِتْرته أئمةِ الأزمان، وخالصةِ اللهِ من الإنس والجانّ . وإنَّ أوْلىٰ النِّعم بأن يُرْفَل فى لِباسها ، ويتوصَّل بالشُّكر إلىٰ لَبَاتِها ؛ ويُتهادىٰ طَيِّبُ خبَرِها ، ويُتفاوض بحُسْن أثَرِها ؛ نعمةُ الله تعالىٰ فى التوفيق لمجاهدة أهلِ الإلحاد والشِّرْك ، وغزْوِ أُولِى الباطل والإفْك؛ والهجومِ عليهم فى عُقْر دارهم ، وآجتِثاث أصلهم وهَدْم مَنَارِهم؛ وآستِنْزالهم من معاقِلِهم ، وتَشْرِيدهم عن مَنَازِلهم ؛ وتغميضِ نواظِرِهم الشُّوس ، وإلباسهم لِباسَ البُوس ؛ لما فى ذلك من ظُهورِ التوحيد وعِزِّه ، وخُمود الإلحاد وعرِّه ؛ وعلوِّ ملة المسلمين ، وآنخفاضِ دولة المشركين ؛ ووضُوحِ مَحَجَّة الحق وحُجَّته ، وفُضُوحِ بُرهانِه وآيته .

وكتابُ أميرِ المؤمنين هذا إليك ، وقد آنكفأَ عن ديار الفُلانيين والمُشْرِكين إلىٰ دَسْت خلافته ، ومَقَرّ إمامته ؛ بعد أن غزَاهم برًّا وبحرا ، وشرَّدَهُم سَهْلا ووَعْرا ، وجَرَّعهُم من عواقب كُفرهم مُرًّا ؛ وفَرَّق جمائعَهم التى تُطَبِّق سُهُوبَ الفضاء خَيْلا ورَجْلا ، وتَضِيقُ بها المَهامهُ حَزْنا وسَهْلا ؛ ومزّق كتائبهم التى تُلْحِقُ الوِهادَ بالنِّجاد ، وتختطف الأبصار ببَوارِقِ الأَغْماد ؛ وسَبىٰ الذَّرارىَّ والأطفال ، وأسر البطاريقَ والأقْيال ؛ وآفتتح المَعَاقِلَ والأعمال ، وحاز الأسْلابَ والأموال ؛ وآستولىٰ من الحُصُون علىٰ حِصْن كذا وحصن كذا . ومحا منها رُسُومَ الشرك وعَفَّاها ، وأثبت سُنَنَ التوحيد بها وأمْضاها . وغَنِم أولياءُ أميرِ المؤمنين ومتطوّعةُ المسلمين من الغنائم ما أقرّ العُيون ، وحقَّق الظُّنُون ؛ وآنفصَلُوا وقد زادتْ بصائرُهم نَفاذًا فى الدِّين ، وسرائرُهم إخلاصًا فى طاعةِ أميرِ المؤمنين ؛ بما أوْلاهم اللهُ من النَّصْر والإظفار ، والإعْزاز والإظْهار ؛ ووَضَحَ للمشركين بما أنزلَه عليهم

من الخِذْلان، وأنالهم إيَّاه من الهَوَان ؛ أنَّهم علىٰ مَضَلَّة من الغَيّ والعمىٰ، وبُعْدٍ من الرُّشْد والهُدىٰ ؛ فضَرَعُوا إلىٰ أمير المؤمنين فى السِّلْم والموادَعه، وتحمّلوا بَذْلا بذَلُوه تَفادِيًا من الكِفَاح والمُقارعه ؛ فأجابهم إلىٰ ذلك متوكِّلا علىٰ الله تعالىٰ، ومتمثِّلا بقوله تعالىٰ إذ يقول : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾. وعاقَد طاغيتَهم علىٰ كتاب هُدْنة كتبه له، وأقرّه فى يده، حُجَّةً مضمونة .

أشْعَرك أميرُ المؤمنين ذلك لتأخُذ من هـذه النعمة بنَصيبِ مثلك من المُخْلِصين، وتَعْرِف موقِعَ ما تفضَّل اللهُ تعالىٰ به علىٰ الإسلام والمسلمين ؛ فتُحْسِن ظَنَّك، وتُقِرّ عَيْنَك ؛ وتَشْكُر الله تعـالىٰ شُكْر المسـتَمِد من فضله ، المعتدّ بطَوْله ؛ وتتلو كتاب أمير المؤمنين ، علىٰ كافَّة مَنْ قِبَلك من المسلمين ، ليعلَمُوا ما تولَّاهم الله به من نَصْره وتمكينه، و إذلال عدُوِّهم وتوْهِينه ؛ فاعلَمْ ذلك وآعمَلْ به .

الجمـــلة الثـالثة

(فى الكُتُب الخاصَّة، كالمكاتبة إلىٰ الوزير ومَنْ فى معناه)

قال فى "موادّ البيان" بعـد ذكر صُورةِ المكاتبات العامّة عنهم : وقد يخاطِبُ الإمامُ وزيرَه فى المكاتبة الخاصَّة بما يَرْفَعُه فيه عن خطاب المكاتبة العامَّة الدِّيوانِيَّة، ويُتَصرَّفُ فى ذلك، و يزاد ويُنْقَص علىٰ حسَب لطاقة محلّ الوزير ومنزلته من الفَضْل والجَلالة . قال : وليس لهذه المكاتبة الخاصة حدودٌ ينْتَهىٰ إليها، ولا قوانينُ يعتمَدُ عليهـا ، وطريقُها مستفيضة معلومة . وقد تقدّم فى المكاتبات الخاصة عن خلفاء بنى العَبَّاس أن مكاتبة الوزير «أمْتعنِي الله بك» فى أدعيةٍ أخرىٰ .

الطَّـــرَف السادس

(فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى أمية بالأندَلُس)

ولم أقِفْ علىٰ شىء من المكاتبات الصادرة عنهم ، وإن ظَفِرتُ بشىء منها بعد ذلك ألحقته إن شاء الله تعالىٰ .

الطـــرف السابع

(فى الكتب الصادرة عن الخلفاء المَوحِّدين، أتباع المهدىِّ بن تُومَرْت المستمرّ بقاياهم الآنَ بتُونُس وسائر بلاد أفريقِيَّة ، وهى علىٰ أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتتحَ المكاتبة بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

وكان الرسم فيها أن يقال : « من أمير المؤمنين فلان » ويُدْعىٰ له بما يناسبه «إلىٰ فلان» ويُدْعىٰ له بما يليق به؛ ثم يؤتىٰ بالسلام؛ ثم يؤتىٰ بالبعدية والتحميد والصلاةِ علىٰ النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم ، والترضيةِ عن الصحابة ، ثم عن إمامهم المَهْـدِىّ؛ ثم يؤتىٰ علىٰ المَقْصود، ويُختَم بالسلام . والخطاب فيه بنُون الجمع عن الخليفة وميم الجمع عن المكتوب إليه .

كما كُتِب عن عبد المؤمن : خليفة المهدىّ إمامِهم إلىٰ الشيخ أبى عبد الله محمد ابن سعد :

«من أمير المؤمنين أيَّده الله بنَصْره، وأمدّه بمَعُونته؛ إلىٰ الشيخ أبى عبد الله محمد ابن سعد وفَّقه الله، ويَسَّره لما يرضاه، سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاتُه .

أما بعدُ فالحمدُ لله الذى له الاقتدار والاختيار، ومنه العَونُ لأوليـائه والإقْدار، وإليه يَرْجع الأمر كلُّه فلا يمنعُ منه الاستِبداد والاستئثار؛ والصلاةُ على محمد نبيِّـه الذى ابتعثَتْ بمَبْعثه الأضواءُ والأنوار، وعَمرتْ بدعْوته الأنجادُ والأغوار، وخَصَم بحجَّته الكُفْرَ والكُفَّار؛ وعلى آله وصحبه الذيـن هم الكِرامُ الأبرار، والمهاجرين والأنصار؛ والرِّضا عن الإمام المعصوم، المهدىّ المعلوم؛ القائم بأمر الله حين غَيَّرتْه الأغيار، وتقدّم الامتعاض له والانتصار. وهذا كتابُنا ـ كتب الله لكم نَظَرا يُرِيكم المَنْهَج، ويُلْفيكم الأبهجَ فالأبْهج؛ وآتاكم الله من نعمةِ الإيمـان، وعصمةِ الانقياد له والإذعان، ما تجدون به اليقينَ والثَّلج ـ من حضرة مَرَّاكُش حَرَسها الله تعالى؛ ولا استظهارَ إلا بقُوّته وحوله، ولا استِكثارَ إلا من إحسانه وطَوْله.

ولمـا جعل اللهُ هذا الأمر العظيم رحمةً لخلقه، ومَطِيَّة لرقيه وقرارةً لإقامة حَقِّه؛ وحَمَّل حَمَلَتَه الدعاءَ إليه، والدلالةَ به عليه، والترغيبَ فى عظيم ما عنده ونَعيم مالَدَيْه؛ وجعل الإنذارَ والإعذارَ من فُصُوله المستَوْعبه، وأحكامه المرتَّبه؛ ومَنْجاتِه المخلِّصة من الخطوب المُهْلِكة والأحوال المُعْطِبـه ـ رأينا أن نُخاطِبكم بكتابنا هـذا أخذًا بأمر الله تعالى لرسولِه فى المَضَاء إلى سبيله، والتحريض على اغتنام النجاءِ وتَحْصيله، وإقامةِ الحُجَّة فى تبليغ القولِ وتوصِيله؛ فأجيبوا ـ رفعكم الله ـ داعِىَ الله تَسْعَدُوا، وتَمَسَّكُوا بأمر المهدىّ ـ رضى الله عنه ـ فى اتِّباعِ سبيلِه تهتَدُوا؛ واصرِفُوا أعِنَّـة العِنـاية إلى النظر فى المآل، والتفكُّر فى نَوَاشئ التغيُّر والزوال، و تدبَّروا جَرْىَ هذه الأمور وتصرُّفَ هـذه الأحوال؛ واعلموا أنه لا عِزَّةَ إلا بإعزاز الله تعـالى فهو ذوالعِزَّة والجلال، ولا يَغُرَّنَّكُم بالله الغَرُور، فالدُّنْيا دار الغُرُور، وسوقُ المِحَال؛ وليس لكم فى قَبُولِ النصيحه، وابتداءِ التوبة الصحيحه، والعملِ بثُبُوت الإيمان فى هذه العاجلة الفَسِـيحه، إلَّا ما تحِبُّونه فى ذات الله تعـالى من الأَمْنة والدَّعَه، والكرامة

المتَّسِعة والمكانة المرفَّعه، والتنعُّم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعه ؛ فنحن لا نُرِيد لكم ولسائر من نرجو إنابَتَه، ونستدعِى قبولَهُ وإجابته، إلا الصَّلاحَ الأعَمّ، والنجاحَ الأتَمّ ؛ وتأملوا ـ سدَّدكم الله ـ مَنْ كان بتلك الجزيرة ـ حرسها الله ـ من أعيانها، وزعماء شانها ؛ هل تخلَّص منهم إلىٰ مايودُّه، وفاز بما يدَّخِره ويُعِدّه، إلا من تمسَّك بهذه العُرْوة الوُثْقىٰ، وٱستبقىٰ لنفسه من هذا الخيْر الأدومَ الأبقىٰ، وتنعَّم بما لقى من هـذا النعيم المُقيم ويَلْقىٰ . وأما مَنْ أخلَدَ إلىٰ الأرض وٱتَّبع هوَاه، ورغِبَ بنَفْسه عن هذا الأمرِ العزيز إلىٰ ما سِواه ؛ فقد عُلِم بضرورتَى المشاهدة والاستفاضةِ سُوءُ منْقَلَبه، وخَسارةُ مذهبه ومُطَّلَبه، وتنَقَّل منه حادثُ الانتقام أخسرَ ما تنقَّل به ؛ وحقَّ عليكم ـ وفقكم الله ويسَّركم لما يرضاه ـ أن تُحْسِنوا الاختيار، وتصِلُوا الادِّكار والاعتبار، وتبْتَدِروا الابتدار ؛ وماحقٌّ مِن ٱنقَطع إلىٰ هذا الأمرِ الموصول الواصل، وأزْمع ماينالُه من خيره المَحُوز الحاصل ؛ أن ينالَهُ منكم شاغلٌ يشْغَله عن مقصوده، ويُحِيط به ما يَصْرِفه عن محبوبه ومَوْدُوده ؛ فقد كان منكم فى أمرِ أهل بلَنْسِيَة حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلُّقهم بهذا الأمرِ السعيد ما كان، ثم كان منكم فى عقب ذلك ما ٱعتمدتُمُوه فى أمرِ أهل لُورْقَـة ـ وفَّقهم الله ـ حينَ ظهر ٱختصاصُهم، وبان إخلاصُهم ؛ وليس لذاك وأمثاله عاقِبةٌ تُحْمَد، فالخيرُ خيْرُ ما يُقْصَد، والنجاة فيما يُنْزِحُ عن الشر ويُبْعِد ؛ وإنا لنرجو أن يكُفَّكم عن ذلك وأشباهه إن شاء الله تعالىٰ نظرٌ موفَّق، ومتاعٌ محقَّق، ويجذِبُكم إلىٰ مُوالاة هذه الطائفة المباركة جاذِبٌ يُسْعِد، وسائق يُرْشِد ؛ والله يمُنُّ عليكم بما يُنْجِيكم، ويمكِّن لكم فى طاعته أسبابَ تأميلكم وترجِّيكم، بمَنّه . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب فى السادسَ عشَرَ من جُمادىٰ الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

الأسلوب الثـانى

(أن تُفْتَتح المكاتبة بلفظ « أما بعـــد»)

والأمر فيه علىٰ نحو ما تقدّم فى الأُسلوب قبله بعد البعدية ، كما كتب أبوالميمون عن المستنصر بالله : أحدِ خلفائهم إلىٰ بعض نُوّابه ، وقد نقض العهدَ علىٰ بعض المُهادِنين من النصارىٰ .

"أما بعَد حمدِ الله الآمر بالوَفَاء بالعُهود ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد المصطفىٰ الكريم سيِّد الوُجود ، وعلىٰ آله وصحبه لُيوثِ البأس وغُيوث الجُود ؛ والرِّضا عن الإمام المعصوم، المَهْدِىّ المعلوم، الآتى بالنَّعْت الموجود، فى الزَّمن المحدود، وعن خلفائه الواصلين بأمْرِه إلىٰ التَّهائم والنُّجُود، والدعاءِ لسيدنا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين بسَعْدٍ تذِلُّ له النواصِى، ويَهُدّ الأقطار القواصى؛ فكتبناه ـ كتبكم الله ممَّن إذا همّ بأمر تدبَّر عواقِبَه، وإذا عَزَم علىٰ رُكُوب غَرَرٍ ألفىٰ معاطِبَه ـ من فلانة كلأها الله تعالىٰ . وقد بلغَنا ما كان منكم من اكْتِساح النصارىٰ، والزيادة علىٰ ذلك باختطاف الأُسارىٰ؛ ونعوذُ بالله من شَهْوةٍ تغلِبُ عقلا، ونخوةٍ تُعقِب هَوَانا وذُلًّا؛ وقد أخطأتُمْ فى فَعْلتكم الشَّنعاء من ثلاثة أوجه : أحدُها أنه خلافُ ما أمر الله تعالىٰ به من الوفاء بالعهد، والوقوفِ مع العَقْد؛ والثانى عصيانُ الأمر العزيزِ وفيه التغريرُ بالمُهَج، وتركُ السَّعة للحَرَج؛ والثالث أنكم تُثيرون علىٰ أنفسكم من شَرِّ عدوّكم ـ قصمه الله ـ شَرَرا يستَعِر، وضَرَرا يَعْدَم فيه المنتِصر؛ فليتكم إذ تحلَّيتم بالعِصْيان، ورَضِيتم الغَدْر المحرّمَ فى سائر الأديان ؛ ثَبَتُّم للعدوّ إذا دَهَمكم ، ولقيتموه بالجانب القَوِىّ متىٰ زَحَمكم ؛ بل تتدرَّعون له الفِرَار، وتتركُونه فى مُخَلَّفيكم وما اختار؛ وقد جرَّبتم مرّاتٍ أنكم لا تَرْزءُونهم ذرَّه، إلا رَزَءُوكم ألف بَدْره؛ ولا تُصيبونهم مَرَّه، إلا أصابوكم ألف مَرَّه؛ وإلىٰ متىٰ

تُنْهَوْن فلا تنتهُون ؟ وحَتَّام تُنَبَّهون فلا تَنْتبِهون ؟ فاذا وافاكم كتابُنا هذا بحول الله وقوّته فأدُّوا مَنْ أسَرتُم إلىٰ مَأْمَنِه، ورُدّوا ما آنتهبْتُم إلىٰ مَسْرَحه؛ ولا تُمْسِكوا من الأُسارىٰ بشَعْره، ولا من الماشية بوَبَره؛ ومَنْ سمِعْنا عنه ـ بعد وصول هذا الكتاب ـ أنه تعدّىٰ هذا الرَّسْم، وخالف هذا الحُكْم؛ أنفذْنا عليه الواجب، وحكّمنا فيه المهَنّد القاضب؛ فلْتُسرِع من نومة الغَفْلة إفاقَتُكم، ولا تَعرّضوا من الشرّ لما تَعْجِزُ عنه طاقَتُكم؛ ونحن متعرِّفون مايكون منكم من تَأَنٍّ أو بِدَار، ومقابلونَ لكم بما يصْدُر عنكم من إقرار وإنكار؛ وهو يُرْشِدكم بمنِّه. والسلامُ عليكم ورحمة الله" .

قلت : ثم طرأ بعد ذلك الإكثارُ من ألقاب خلفائهم فى المكاتبات الصادرة عنهم، والمبالغةِ فى مدحهم، وإطرائهم علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام علىٰ المكاتبات الواردة من ملوك الأقطار إلىٰ الأبواب السلطانية بالديار المصرية فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

الطَّرَف الثامن

(فى الأجوبة، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يُضاهِى الأجوبةَ فى الآبتداء، وهو علىٰ أسلوبين)

الأسلوب الأوّل

(أن يُفْتتح الجوابُ بلفظ «من فلان إلىٰ فلان»)

مثل أن يكتب «من عبدالله ووليه أبى فلان فلان الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين» إلىٰ آخر الصدر علىٰ ماتقدّم فى الآبتدا آت؛ ثم يقال : أما بعدُ، وينساق منه إلىٰ ذكر الكتاب الوارد وعَرْضه علىٰ الخليفة، وما اقتضَتْه آراء الخلافة فيه، ويُكَمَّل

على نحو الآبتـداء . كما كتب عن المقتفى لأمر الله، إلى غياث الدين مسـعود بن ملكشاه السَّلْجُوقى في جوابِ كتابه الوارد عليه، يخبره بأن بعض مَنْ كان خرج عن طاعته دخل فيها، وآنحاز إليه، وهو :

"من عبد الله أبي عبدالله محمد الإمام المقتفى لأمر الله أمير المؤمنـين ، إلى فلان بألقـابه .

أما بعدُ ـ أطال الله بقاءك ـ فإن كتابَك عُرِض بحضرة أمير المؤمنين مُعْرِبا عن أخبار سعادتِك، وجَرْيِ الأمور على إرادتِك، وبُلوغِ الأغراض من الوِجْهة التى توجَّهْت إليها، والأطراف التى أشرقَتْ سعادتُك عليها، بَمِيامِن ما تَثِق به من الطاعة الإمامية وتُضْمِره ، وتعتقِده من الإخلاص وتَسْتشعِره ، وأن رُكنَ الدين محمدا ومن آنضَمّ إلى جملته وآنتظم فى سِلْك موافقته لَمَّـا ظفِرُوا منك بِذِمام آطمأَنُّوا إليه وسكَنُوا، وأمانٍ وثِقوا به وركَنُوا ، أبصروا الرُّشْـد فاتَّبعوه ، وآستجابوا الداعِىَ إذْ سَمِعُوه ، وأذعَنُوا لطاعتك مسْرِعين ، وآنقادُوا إلى متابعتك مُهْطِعين ، على آستقرارِ مَسِـيرهم تحتَ لوائك إلى باب هَمَذان ليكون تقريرُ القواعد الجامعةِ للصالح عند وُصُولهـا ، والتوفُّر على تحرّى ما تقرّبه الخواطرُ مع حُلُولها ، والآنفصالُ إلى من يَفِدُ إلى الأبواب العزيزة مؤتنِسا بقُرْب الدار ، ومستَسْعِدا بالخـدمة الشريفة الإمامية المؤذنةِ ببُلُوغ الأوطار . ووقف عليه وعرف مضمونَه ، وجدّد ذلك لدَيْه من الآبتهاج ، والآغتباط الواضِح المِنْهـاج ، ما تقتضيه ثقتُه بجانبك وآعتقادُه ، وتعويلُه على جميـل معتقَدك وآعتمادُه ، وآعتضادُه من طاعتك بحبلٍ لا تَنْقُض الأيّامُ مُبْرَمه ، وسكُونُه من وَلَائك إلى وَزَر لا تُرَوِّع المخاوفُ حَرَمه ، وواصِلْ شكْرَ الله تعالى على ماشهدتْ به هذه النعمةُ العميمه ، والمَوْهِبةُ الجسيمه ، من إجابة الأدعية التى مازالتْ جنودُها نحوَك مجهَّزه ، ووعودُه ـ جلَّت عظمته ـ بقبول أمثالها منَجَّزه ، وإمدادُك منها بأمدادٍ تستَدْعى

لك النصرَ وتستنْزِله ، وتستكمِلُ الحظَّ من كلِّ خيرٍ وتستجزِله ؛ وتبلِّغُ الأملَ منك فيمن هو العُدّة للمِلمّات ، والحامِي لتقريرِ الأُنْس من روائع الشَّتات ، ومَنْ ببقائه تُكَفُّ عن الآمتداد أكُفُّ الخطوب ، وتُطْلَق وجوه المَسَارّ من عُقُل القطوب ؛ ويأبىٰ الله العـادلُ فى حكمه وحِكْمته ، الرءوف بعبـاده وخَليقته ؛ إلا إعلاءَ كلمةِ الحق بالهِمَم الإماميّـه ، والإجراء علىٰ عوائدِ صنيعته الحَفِيه ، الكافلةِ بصلاح العِبـاد والرعيّه ؛ وقد أُقيمت أسواقُ التهنئة بهذه البُشْرىٰ ، وأفادَتْ جَذَلًا تتَّابع وفُودُه تَتْرىٰ ؛ لاسيَّما مع الإشارة إلىٰ قُرْب الأَوْبة التى تُدْنِى كلَّ صلاح وتَجْلُبُه ، وتُزِيل كلَّ خَلَل أتعبَ القلوبَ وتُذْهِبُه . وإلىٰ البارى جلَّ آسمه الرغبةُ فى آختصاصك من عنايته بأحسنِ ماعهِدتَهُ وأجملِه ، وصلةِ آخرِ وقتِك فى نُجْح المساعى بأوّلِه ؛ وأن لا يُخْلِيَ الدار العزيزة من إخلاصك فى وَلَائها ، ورَغْبتك فى تحصيل مراضيها وشَريف آرائها .

هذه مناجاة أمير المؤمنين ـ أدام الله تأييـدَك ـ آبتغىٰ الله جَزاءَك فيها علىٰ عادة تَكْرِمته ، وأعربَ بها عن آعتقادِه فيكَ وطويّتـه ؛ ومكانَكَ الأثيل فى شريف حضرته ، وآبتهاجِه بنعمةِ الله عندك وخِيرته ؛ فتأمَّلْها تأمُّلا يشاكل طاعتَك الصافيةَ من الشَّوائبِ والأقذاء ، وتلقَّها بِصدْق الآعتماد عليها وحُسْن الإصغاء ؛ تَفُزْ بالإصابة قِدَاحُك ، ويُقرنْ بالتوفيق مَغْداك ومَرَاحُك ؛ إن شاء الله تعـالىٰ ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاته " .

وكما كتب بعض كُتَّاب الفاطميين عن الحافظ لدين الله : أحدِ خلفائهم إلىٰ شمس الدولة أبى منصور محمد بن ظَهِير الدين بن نُورى بن طُغْتكِين ببَعْلَبَـكَّ جوابا عن كتابه الوارد عنه علىٰ الخليفة ، ويذكر أنه حسَّن لفخر الملك رَوَاج ورُودَه علىٰ الخليفة بالديار المصرية ، ويذكر نُصْرته علىٰ الفَرَنْج بطَرَابُلَس ، وقتله القُومص ملكها .

«من عبدالله ووليّه عبد المجيد أبى الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ، إلىٰ الأمير فلان .

أما بعـدُ، فإنه عُرِض بحضرة أمير المؤمنين كتابُك من يدفتاه ووزيره ، وصَفِيّه وظهيره، السيدِ الأجل الأفضلِ، الذى بَذَل نفْسَه فى نصرة الدين تُقًى ولَيَانا ، وأوضح اللهُ للدولة الحـافظيّة بِوزارته حُجّةً وبرهانا ، وأسبغ النعمةَ علىٰ أهلها بأنْ جعله فيهم ناظرا ولهم سلطانا ، ووفّقه فى حُسْن التدبير، والعمل بما يقضى بمصالح الصغيرِ والكبيرِ، وبما أعاد المملكةَ إلىٰ أفضل ما كانتْ عليه من النَّضْرة والبَهْجه ، ولم يَخْرُج المادحون لهـا إذا آختلَفُوا عن التحقيق وصِدْق اللَّهْجه ؛ فقد ساوتْ سياستُه بين البعيد والقريب ، وأخذ كلٌّ منهما بأجزل حظٍّ وأوْفَر نصيب ؛ وسارتْ سِـيرتُه الفاضلة فى الآفاق مَسِـيرَ المَثَل ، وآسـتوجب من خالِقه أجْرَمن جَمَع فى طاعته بين القول والعمَلْ . وشَفَع عَرْضه من وَصْفك وشُكْرك ، والثناء عليك وإطابة ذِكْرك ، وأنهىٰ ما أنتَ عليه من الولاء ، وشُكْرِ الآلاء ، بما يُضاهى ماذكَرتَهُ فيه مما عُلِم عند تِلاوته ، وأُصْغِى إليه عند قِراءته . وقد آسـتقرّ بحضرة أمير المؤمنين مكانُكَ من المُشايَعه ، وموقِعُك من المُخالَصــه ، وكونُك من ولاء الدولة علىٰ قضـيـة كَسَبَتْك(١) شَرَفًا تفيَّأْتَ ظِلالَه ، وأفاضتْ عليك مَلْبَسا جَرَرْت أذياله ، وسَمَتْ بك إلىٰ محلٍّ لا يُبـاهىٰ مَنْ بلغــه ولا يُطاوَلُ مَنْ ناله ، وكنتَ فى ذلك سالكا للمَنْهَج القويم ، ومعتمدا ما أهلُ بيتِك عليه فى القديم ؛ لا جَرَم أنه عاد عليك من حُسْن رأى أمير المؤمنين بمـا تقْصُر عنه كلُّ أُمْنِيّــه ، ويشهد لك بمخالصةٍ جمعتَ فيهـا بين عملٍ ونِيّه ؛ والله يضاعف

(١) فى المصباح فى مادة كسب "ويتعدّى بنفسه إلىٰ مفعول ثان فيقال كسبت زيدا مالا وعلما أى أنلته . قال ثعلب وكلهم يقول كسبك فلان خيرا إلا آبن الأعرابىّ فانه يقول أكسبك بالألف".

أجركَ علىٰ اعتصامك من طاعة أمير المؤمنين، بالحبل المَتِين، ويُوزِعُك شكر ما مَنَحك من الاِستضاءة بنُور الحق المبين .

فأما الأميـر الأسفهسلار فخر الملك رواج وبعْثك له علىٰ الوُصول إلىٰ البـاب، وحضُّك إيَّاه علىٰ التعلُّق من الخدمة بمُحْصَـد الأسباب، فما كان الإذنُ له فى ذلك إلَّا لأنَّ كتابه وصل بملْتَمَسِه، وعَرَض فيه نفْسَه وبذَلَ المناصحة والخِدْمه، ويسأل سؤالَ مَنْ يعرِف قدر العارفة بالإجابة إليه ومَوْقِعَ النعمه، فأُجيبَ إلىٰ ذلك إسعافاً لهْ بمراده، وعملًا برأى الدولة فيمن يرغَبُ إلىٰ التحيزُّ إليها من أقطاره وبلادِه، وإلا فلا حاجةَ لها إليـه ولا إلىٰ غيره، لأن الله تعالىٰ ـ وله الحمدُ ـ وَفَّر حظَّها من الأولياء والأشياع، والأنصار والأَتْبـاع، والعساكرِ والجُيوش والأجناد والأنْجاد، والأعوانِ الأقوياء الشِّـداد، وعبيدِ الطاعة الذين يتَبـارَوْن فى النُّصْح ويتنافَسُون فى الاجتهاد والحرص، وسَـعةِ الأموال، وعِمَارة الأعمال، وجمعِ الرِّجال فى العزائم بين الأفعال والأقوال، ولو وصل المذكورُ لكانت المِنَّـةُ للدولة عليه، والحاجةُ له فى ذلك لا إليه، قال الله عز من قائل : ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَـانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ ﴾ .

وأمّا توجهه إلىٰ طرابُلُس وظفَرُه بقومصها وقتلُه إيَّاه مع مَنْ بهـا، وعظيمُ أمرِه فيها، فالله تعالىٰ يُعِزُّ الإِسـلام ويَنْشُر لواءه، ويُعْلِي مَناره ويَخْذُل أعداءه، وينصُر عساكِرَه وأجناده، ويبلِّغه فى أحزاب الكُفْر والضلال مُرادَه، وهو عز وجلَّ يمتِّعك من الولاء بما مَنَحك، ويُنِيلك فى دينك ودُنْياك أملك ومُقْتَرَحك، فاعلَمْ هذا واعمَلْ به، إن شاء الله تعالىٰ» .

الأســـلوب الثانى

(أن يُفتتَحَ الجواب بلفظ «أمّا بعد»)

كما كُتب عن المقتفى إلىٰ السلطان محمود بن محمد السَّلْجُوقىّ جواباً عن كتابه الوارد بإخباره باجتماعه مع عمِّه سنجر، ونسخته :

أما بعدُ فإنّ كتابك عُرِض بحضرة أمير المؤمنين ناطقًا بدَرْك الأوطار ، وحصول المَقَاصِد علىٰ الآثار ، وما أنهيته من الاجتماع بعِزّ الدنيا والدِّين جمع اللهُ فى طاعته شَمْلكما! ووصل بالألفة والتوادُد حَبْلكما! ومن إكرام الوِفادة الذى أنت أهلُه ووليُّه، وحقيقٌ أن يَتْبع وَسْمِيَّه لَدَيْك وِليُّـه(١)، والموافقةِ علىٰ كل حال آذنتْ ببُلُوغ الأغراض وتيسُّرِها، ونَجاز المساعِى علىٰ أتمِّ وفاق وتَقَرُّرِها، وانتظامِ الأمور علىٰ أجمل معتـاد وأكمل مُرَاد، وأحسن اتِّساق واطِّراد ، واستقرارِ القواعد علىٰ الوصف الجـامع أشْتاتَ الاتِّفاق ، الدالِّ علىٰ صِدق المحافظة بينكما وفَرْط الإشفاق ، محفوفاً بالسعادة التى لا تزال مآثِرُك فى الطاعة الإمامية تملِكُ قِيادَها ، وتُقلِّدك علىٰ الاتصال نِجادَها ، فتهلَّلَتْ بهـذا النَّبإ المُبهِج أسِرّةُ البُشْرىٰ ، وأصبح الجَذَلُ بمكانه أفعم عَرْفا وأذكىٰ نَشْرا ، وقامت لأجله فى عِرَاص الدار العزيزة مواسِم ، أضحتِ المَسَرَّة بهـا مُفْتَرَّة الثغور ضاحكةَ المَبَاسم ؛ وجديرٌ بمن كان له من الهِمَم الشريفة مَدَدٌ واف، ومُنْجِدٌ يدفَعُ فى صـدر كلِّ خَطْب مُواف، أن تكتَنِفه المَيَامِنُ والسُّعود ، ويَصْدُقَ(٢) فى كل مَرْمًى يَنْحُوه من النُّجْح الموعود ، وتنقادَ له المصاعبُ ذُلُلا ، ويَعودَ بيُمْنِ نَقِيبته كلُّ عافٍ من الصلاح جديدًا مُقْتَبلا ، ولا ينفَكُّ صنعُ الله جلّ اسمه لطيفـا ، وربَاعه

(١) الولىّ علىٰ فعيل المطر بعد المطر وقد يخفف عن كراع أنظر اللسان ج ٢٠ مادة و ل ى .

(٢) لعله ويصادف ... ... النجح .

مُحدِقا مُطِيفا ؛ والتوفيقُ مصاحِبَه أنّى حلَّ وثوىٰ ، أو ثنىٰ عِنـانه إلىٰ وجه ولوىٰ ؛ والله يمتّع أميرَ المؤمنين منك بالعَضُد الذى يذُبُّ عن دولته ويحامِى ، ويناضِلُ دُونَها بجنود الإخلاص ويُرامى ؛ ولا يُخْلِيك من رعايته التى لا يزال يستقر فيها إليك ، ويَرْغَبُ إليه فى إسباغ لِباسها عليك، حتّى تتسنّى لك المَطَالب معا ، ويَغْدُو الزمانُ فيما ينشأ متّبِعا .

هــذه مفاوضة أمير المؤمنــين إليك ، أدام الله تأييدك ، أجراك فيها علىٰ مألوف العاده ، وجدّد لك بهـا بُرودَ الفَخَار والسعاده ؛ فاجر علىٰ وتِيرتك فى إتحاف حضرته بَطيِّب أخبارك ، ومجارِى الأمورِ فى إيرادِك وإصدارك ؛ تُهْدِ إليها آبتهاجًا وافِرا ، وآبتساما يَظَلُّ لثامُه عن حمد الله المسنَدِ بها سافِرا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضــــرب الثــانى

(أن يكون الآفتتاحُ فى الجواب مصدَّرا بما فيه معنىٰ وصولِ المكاتبة إلىٰ الخليفة)

فقــد جرتْ عادةُ المتقدّمين من الكُتَّاب فى التعبير عن ذلك بلفظ «العَرْض علىٰ الخليفة» ويُؤتىٰ فيه علىٰ ماتضمنه الكتابُ المجابُ عنه، ثم يُخْتَم كما تُختَم الآبتداآت.

كما كتب العلاءُ بنُ مُوصَلايَا عن القائم بأمر الله إلىٰ «أتسز» عنـد وُرود كتابه علىٰ أبواب الخلافة يتضَمَّن آنتظامَه فى سِلْك الطاعة وغلَبَته الأعداء، وهو :

عُرِضَ بحضرة أمير المؤمنين ما وَرَدَ منك دالًّا علىٰ تمسُّكك من الطاعة الإمامية بمـا لا تزال تُجِدّ فيه مَلابِسَ التوفيق حالًا بعد حال ، وتَجِدُ به مَرائرَ السعد مُحْصَفة فى كل حَلٍّ وتَرْحال ؛ مُنْبِئًا عن توفُّرك علىٰ المَقَامات التى آنتقَمْت بهـا للهُدىٰ من الضَّلال ، وآستقَمْتَ فيها حتّى أجْلَتْ عن كلِّ صَلاح ممتدِّ الظِّلال ؛ شاهدًا بما أنت

عليه من مُوالاةٍ لا تألُو جُهْدا فى ٱلتزام شُروطها بادئًا عائدا ، ولا تخلو فيها من حُسْن أثرٍ يكونُ لدعائم الصواب عامِدا ، وتُرىٰ فيه قاصدًا لاجتلابِ الخير عائدا . ووقف عليه وقُوفَ من ٱرتضىٰ مايتوالىٰ من قُرُباتك التى لاتزال فى إعذابِ ورُودِها ساعيا . ولما يُفضِى إلىٰ إعشابِ مَرْعاها فى طلَبِ الحمد مُراعِيا ، وٱنتضىٰ منك للخدمة بتلك الأعمال حُسامًا باترا آجالَ بَقايَا الكُفْر هُناك ، ماضيًا فى كل ما يَقْضِى بانْفِساح مجالِ آمالك فى الدهر ومَبارّك ؛ وٱعتدّ لك بمـا أنهاه عنك رسولُ أمير المؤمنين العائدُ من قبَلك ، وأوضحه من زُلَفك التى شَفَع قولَك فيها عملُك ؛ وطالع به الرسولُ الذى نَفَّذتَه معه لقَصْد بابه ، والمُنَابُ فى تأكيد دَواعِى النُّجْح وتمهيد أسبابه ؛ وحلَّ كلُّ ذلك لدَيْه المحلَّ الذى ستجنِى ثمره كلّما يَطيبُ ويحلُو ، ويَسْلَمُ من كل الاستزادة ويخلو،(١) ويعِزُّ مهرُ الفوز به علىٰ غيرك ويَغْلُو ؛ وتأثَّل لك من الرُّتبَـة بحضرته ما يُدْنِى لك كلَّ مطلب إلىٰ مُرادِك آئل ، ويُدوِى قلبَ كلِّ منحَرِف عن وفائك مائل ؛ وصِرتَ من أعيان الخلَصاء الذين وسَمت الهدىٰ أفعالَهم بالحمـد ، وسَمَتْ بالطاعة آمالُهُم إلىٰ توقُّل هِضَاب المجْد ؛ فما تَهُمُّ بك الغِيَرُ إلا وتنقطع دُونك أعناقُها ، وترجع فى جِلْباب الخَيْبة وحَيْصُها إليك وإعناقُها ؛ ولا تمتدّ نحوك يدُ ضِدّ إلا ردّها عنك جميلُ الآراء الشريفةِ فيك وغَلَّها ، وأوجبَ نَهْلَها عن موارد القُصور وعَلَّها ؛ وكيف لايكون ذلك ولك فى الطاعة كلُّ موقِفٍ ٱغتذىٰ بِلبَانِ الحَمْد ، وٱعتنىٰ باشتهاره بلوغَ المـدىٰ فى وَصْفه والحَدّ ؛ فأحسنَ اللهُ توفيقك فيما أنت بإزائه من إخمادِ لَهَب الباطل بتلك الشِّـعاب ، وإجهادِ النَّفْس فى إخمـال المَتَاعِب وإذلال الصِّعاب ؛ وأمدّك بالعَوْن علىٰ ما بدأت له من جب ... ...(٢) فيما يليك ، وطَبِّ أدواء الفَسَاد فى نَوَاحِيك . ومع

(١) كذا فى الأصول ولعله من خلل الاستزادة وفى المختار والقاموس "ٱستزاده ٱستقصره" .

(٢) بياض فى الاصول بهذا المقدار ولعله من جب أصول العناد آلخ .

ما فُزْتَ به من هذه المِنْحة التى قد جاز قدرُها التقديرَ والظَّن، وجادَ لك الدهرُ فيها بما كان شَحَّ به على أمثالك وضَنّ ؛ فيجب أن تستديمها، وتُحَصِّن من النَّغَل أديمها، بمزيدٍ من الخدمة تنتهز الفُرَصَ بالإسراع إليه والبِدار، وتنتهج أقومَ الجُدَد(١) فى مقابلة الإيرادِ منه بالإصدار، وتُنْفِد وُسْعَك فى كل مسعًى ينثنى إليك عِنانُ الثَّناء معه، وتُنْفِق عُمُرَك فى كل أمرٍ يجمع لك مَرْأى الرضا عنك ومَسْمعَه ؛ لتجدَ من جَدْوى ذلك ماينظِمُ فى السعادة شَمْلَك، ويضْحىٰ به القِيادُ فيما يصدِّق أمَلَك أمْلَك ؛ وأن تُحْمَدَ السيرةَ فى الرعايا الذين غدَوْا تحت كَنَفِك، وتجعلَ الاشتمالَ على مصالحهم مُعْرِبا عن فَضْل شَغَفِك بالخير وكَلَفِك ؛ فإنهم ودائعُ الله تعالىٰ يلزم أن تُحْمَىٰ من ضَيَاع يتسلَّط عليها فى حال، وتُحْيَا من درّ الإحسان بَرضاعٍ لايخطُر الفِطامُ عنه ببال ؛ فلا تقِفَنَّ عند غاية فى إفاضةِ الفضل عليهم وإسباغِ ظلّه، واعتمادهم بتخفيف ثِقْل الحَيْف عنهم أو إزالته كُلّه ؛ ليكونوا فى أفياءِ الأمن راتعين، ولخَرق كل مُلِمٍّ بحُسْن ملاحظتك راقِعين ؛ فالذى يراه أميرُ المؤمنين فى فرضك حتّى يزداد باعُك طُولا، ولا يتركَ لك على الزمان اقتراحا ولا سُولا ؛ يقتضى أن يُتْبِع كلَّ سابقٍ إليك من الإحسان بلاحِق، ويُمْرِعَ جَنابَ النُّعمىٰ لدَيْكَ عند ذَرّ كلِّ شارق . وكذلك يرىٰ أن يجدِّد لك من تشريفه المنوِّر مطالِعَ الفجر، المنوِّه بالذِّكْر فى الدهر ؛ الذى لاتزال الهِممُ العالية تصبُو إلىٰ الفوز به وتميل، وتقِفُ عند حدّ الرجاء والتأميل، ما أصحبَ رسولَكَ المشارَ إليه لتدَّرِع من خلاله ما الشَّرفُ الأكبرُ فى مَطَاويه، وتمتطِى من صَهْوة العِزّ فيه مايَبْعُد على النظراء إدراكُ مَراميه . ويجب أن تتلقّى مقدمَ ذلك عليك بما يُنْبِئُ عن اقتران النعمة الغراء فيه، واقمارأهِلَّةِ التوفيق عندك بما تَقْصِد فى المغنىٰ وتنتحيه ؛ وإذا عاد رسولُك إلىٰ باب أمير المؤمنين حسَبَ ما ذكرت، أُصْدِر علىٰ يده من ضُروب التشريفات ما يُقِرّ

(١) فى المصباح (الجدّة بالضم الطريق والجمع جدد مثل غرفة وغرف) .

فيك عُيونَ مَنْ يَوَدُّك ، ويقرّ فى مَغَانيك كلّ سـعد يُورِى فيه زَنْدُك ؛ فاسكُنْ إلىٰ حِبائك بالمَزِيد من كلّ رُتْبة أُهِّلْت لهـا ، وكن بحيث الظَّنُّ فيك تُوَفَّر عليـك أقسامُ الحمد كُلُّها ؛ وثِقْ بمـترادف آلاءٍ ينْضَمُّ لديك شَمْلُها ، ويُثْقِـلُ كلَّ كاهلٍ حملُهـا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطـــــرف التاسع

(فى الكُتُب الصادرة عن ولاة العهد بالخلافة)

لم أقِف علىٰ مكاتبـةٍ صريحةِ التصوير عن وُلَاة العهد ، غير أن الإمامَ أبا جعفرٍ النحاس فى " صناعة الكُتَّاب " بعد أن ذكر أن صورة المكاتبة عن الخليفة : «من عبد الله أبى فلانٍ فلانٍ الإمام الفلانى إلىٰ فلان » أتْبَع ذلك بأن قال : وليس أحد من الرؤساء يُكاتَب عنه بالتصدير إلا الإمامَ وولىَّ العهد، ولم يزد علىٰ ذلك. وقد فسّر آبنُ حاجب النعمان فى " ذخيرة الكتاب " التصديرَ بأن قال : يكتب « من عبد الله أبى فلان فلان» باسمه وكنيته ونَعْته . ويقال : أمير المؤمنين أبى فلان .

أما بعــدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو إلىٰ آخره ، علىٰ ما تقدّم بيانه .

وذكر النحاس فى الكلام علىٰ العُنْوان من الرئيس إلىٰ المرءوس أنه يُحْـذَف من الكتاب عن ولىّ العهد لَفْظ الإمام ، ولفظ أمير المؤمنين ، ويقــال فيه : ولىّ العهد . وظاهر ذلك أن المكاتبـة عن ولىّ العهد مشابِهةٌ للمكاتبـة عن الخليفة ، وأن لفَظ ولىّ العهد فى المكاتبة عنه يقومُ مَقام أمير المؤمنين فى المكاتبة عن الخليفة نفْسِه ، وحينئذ فيتجه أن تكون المكاتبة عنه «من عبدالله أبى فلانٍ فلانٍ المعتضِد بالله مثلا ولىّ عهد المســلمين : ســلامٌ عليك فإنى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو

وأسأله أن يصلّي علىٰ محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم . أمابعدُ : فإن كذا وكذا» ويؤتىٰ علىٰ المقصد إلىٰ آخره . وعلىٰ ذلك يدلُّ كلام صاحب "ذخيرة الكتّاب" . فإنه قال بعد ذكر المكاتبة عن الخليفة : وكذلك المكاتبةُ عن وليّ العهد . علىٰ أنّ المكاتبة عن وليّ العهد قد بطلَتْ فى زماننا جملةً .

الطـــرف العـاشر

(من المكاتبات عن الخلفاء المكاتباتُ إلىٰ أهل الكفر)

وكان الرَّسْمُ فيها أن يُكْتَب « من فـلان إلىٰ فلان » . ويقعُ التخلُّص فيها إلىٰ المقصود بـ«أما بعدُ» . ويختم الكتابُ بلفظ «والسلامُ علىٰ من ٱتَّبع الهدىٰ» . فقـد حكىٰ أبو هلال العسـكريّ فى كتابه "الأوائل" أنه كان علىٰ الروم مَلِكَةٌ ، وكانتْ تُلاطِف الرشـيدَ ولهـا ٱبنٌ صـغير ، فلمّـا نشأ فوّضت الأمْرَ إليه فعاث وأفسدَ ، فخافتْ أُمُّه علىٰ مُلْك الروم فقتَلَتْـه ، فخرج عليهـا تقفورُ ملك الرُّوم فقتلها وٱستولىٰ علىٰ مُلْكها وكتب إلىٰ الرشيد :

«أما بعدُ فإن هذه المرأةَ وضَعَتْك موضِع الشاه ، ووضعت نَفْسَها موضع الرُّخّ ، وينبغى أن تعْلَمَ أنّى أنا الشاه وأنتَ الرُّخّ . فأدِّ إلىّ ما كانتِ المرأةُ تُؤدِّى إليك» . فلما قرأ الكتاب ، قال لكُتَّابه أجيبُوا عنه ، فكَتَبُوا مالم يرتَضِه ، فكتب هو إليه :

«من عبدِالله هارونَ أمير المؤمنين ، إلىٰ تقفور كَلْبِ الرُّوم . أما بعدُ فقد فَهِمْتُ كتابك ، والجوابُ ماتراه لا ماتسمَعُه ، والسلام علىٰ من ٱتبع الهدىٰ» .

ويقـال : إنه كتب « الجوابُ ما تراه لا ما تسمعه ، وسيَعْلَمُ الكافِرُ لِمَنْ عُقْبىٰ الدار» . ولا يخفىٰ ما فى ذلك من البَلَاغة مع الإيجاز .

وكما كُتب عن الحافظ لدين الله : أحد خلفاء الفاطميين بمصر إلىٰ صاحب صِقلِّيَّة وما معها من مُلُوك الفَرَنْج(١) :

«من عبدالله ووليِّه عبدالمجيد أبىالمَيْمُون الإمام الحافِظ لدينِ الله أمير المؤمنين، إلىٰ المَلِك بجزيرة صِقِلِّيّة، وأنكُورِيَةَ وأَنطالِيَـةَ وقِلَّوْرِيَةَ وسترلو وملف وما آنضاف إلىٰ ذلك، وفَّقه الله فى مقاصده! وأرشده إلىٰ العمل بطاعته فى مَصادِره ومَوارِدِه؛

سلامٌ علىٰ من آتَّبع الهـدىٰ ، وأمير المؤمنين يحمَـدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ويسألُه أن يصلِّيَ علىٰ جدّه محمدٍ خاتَم النبيِّين ،وسيدِ المرسلين ،صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين، الأئمة المَهْدِيِّين، وسَلَّم تسليما .

أما بعدُ : فإنه عُرِض بحضرة أمير المؤمنين الكتابُ الواصل من جِهَتك، ففُضَّ ختامُه وآجتُلِي، وقُرِئ مضمونُه وتُلِي؛ ووقعتِ الإصـاخةُ إلىٰ فُصوله ، وحصلت الإحاطة بجُمَله وتفاصيله ؛ والإجابةُ تأتِى علىٰ أجمعه ، ولاتُخِلُّ بشىء من مستَوْدَعه؛ أما ما آفتتحتَهُ به من حمدِ الله تعـالىٰ علىٰ نِعَمه ، وتوسـيعِك القولَ فيما أولاكَ من إحسانه وكرمه؛ فإنَّ مواهب الله تعالىٰ ومِنَنَه التى جعل تَوالِيَهـا آختبار شُكر العبـدِ وآمتحانَهُ علىٰ أنه بخائنةِ الأَعْيُن وماتُخفِى الصدورُ عليم، وهو القائلُ فيمَنْ أثنىٰ عليهم : ﴿ أُولئِكَ الَّذِينَ آمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوىٰ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وأَجْرٌ عظِيمٌ﴾ لا يزالُ مُضاعِفَها ومُرادِفَها ، ومُتْبِعا سالِفَها آنِفَها ؛ وهو يُولِيهـا كلًّا من عبيده بقَدْر منزلتـه عِنْده ، ويُخُصُّ أصـفياءه بأوفىٰ ممـا تمنَّاه الآمِلُ المُبالغ ووَدَّه ؛ واللهُ تبارك وتعـالىٰ يمنحُ أميرَ المؤمنيــن ، وآباءه الأئمةَ الراشدين ؛ ماغدَتْ مستقدِماتُ الحمد والشكرِ عند لوازِمه مستأْخِره، إذكان أفردَهُمْ دون الخليقـة بأن أعطاهم الدنيـا ثم أعطاهُم معها

(١) فى التعبير تساهل والغرض معلوم .

الآخِره ، وآختصّهم من حِبَائه بما لا يُحصِيه عدد، وخَوّلهم من آلائه بما لا يَقُوم بشُكْره أحد .

وأما ماذكرتَه من آفتتاحك الجزيرةَ المعروفةَ بجِرْبَة لما شرحته من عُدْوان أهلها، وعُدُولهم عن طُرُق الخيرات وسُبُلها ، وآجترائِهم فى الطُّغيان علىٰ أسباب لا يجوز التغافل عن مثلِها، وآستعمالهم الظُّلْم تمرُّدا، وتماديهم فى الغىّ تباهِياً فى الباطل وغُلُوًّا، يَأْسًا من الجزاء لَمَّا آستبْطئُوه ، فإن من كانت هذه حالتُهُ حقيقٌ أن تكون الرحمة عنه نائيه ، وخليقٌ أن يأخذَه الله من مَأْمنِه أخذةً رابِيه ، كما أنه مَنْ كان من أهل السلامه ، وسالكًا سبيل الأستقامه، ومُقْبِلا علىٰ صَلَاح شانه، وغيرَ متعدّ للواجب فى سِرّه و إعلانه، تعين أن نوفِّر من الرعاية سَهْمَه، ونُجْزِل من العناية نَصيبه وقِسْمَه، ويُؤَمَّن مما يُقْلِقُه ويُزْعِجه، ويُقْصَد بما يَسُره ويُبْهِجه، ويُصان عن أن ينالَهُ مكروه، ويُحمىٰ من أذًى يُلِمُّ به ويَعْروه .

وأما شُكْرك لوزيرك الأميرِ تأييد الدولة وعَضُدها عزِّ الملك وفَخْرِه نظام الرِّياسة، أميرِالأمراء، فإنَّ من تهذَّبَ بتهذيبك، وتخلَّق بأخلاقك وتأدَّب بتأديبك، لا يُنْكَر منه إصابةُ المَرامى ، ولا يُستَغْرَب عنده نُجح المساعى ، وواجبٌ عليه أن لا يجعل قلبه إلا مثوًى للنصائح ، وأن لا يزال عُمَره بين غادٍ فى المخالصة ورائح .

وأما المركب العروس ووصول كتاب وكيله ذاكرا ما آعتمده مقدّمُ أُسْطولك من صَوْنه وحِمايته ، وحِفْظه ورِعَايته ، وإعادةِ ما كان أُخِذ منه قبل المعرفة بأنه جارٍ فى الديوان الخاص الحافظى ، ففِعْل يَجْمُل عنك صَدَره، ويليقُ بك أن يُنْسَب إليك ذكْرُه وخَبَره، ويدلُّ علىٰ علم أصحابك برأيك و إحكام مُعاقَدة المودّه، ويُعرِب عن إيثارك إبرازَها كُلَّما تقادم عهدُها فى مَلَابِس بهجة مستجَدّه، وهذا الفعلُ من

خلائقك الرضية غيرُ مستَبْدَع ، وقد ذَخَرْتَ منه عند أمير المؤمنين ماحصل فى أعز مقرٍّ وأكرمِ مستودع ؛ لاجَرَم أن أوامره خرجت إلىٰ مقدّمى أساطيله المظفَّرة بما يُجْنِيك ثمرةَ ماغرَسْته ، ويُعلِي منار ثنائك الذى قررته علىٰ أقوىٰ أصلٍ وأسَّسته ؛ وقد نفَذَتْ مراسيمُه بإجرائك علىٰ غلاتك المستمرّة فى المسامحة بما وجب للديوان عمّا وصل برَسْمك علىٰ مراكِبك ، وبرسم الأمير تأييد الدولة وزيرِك ، والرسولين الواردين عن حق الوُرُود إلىٰ ثغر الإسكندرية حماه الله تعالىٰ ، ثم إلىٰ مصر حرسها الله وحَقِّ الصدور عنهما ، وكلُّ مايصل من جهتك فعلىٰ هذه القضية .

وأما شكرك علىٰ الأسْرىٰ الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابةً لرَغْبتك ، ورسم بتَسْييرهم إليك محافظةً علىٰ مرادك وبُغْيتك ؛ فأوزَعنا شِعارُهم أنهم عُتقاءُ شفاعتك ، وأرِقَّاء مِنَّتك ؛ فذلك من الدلائلِ علىٰ ماينطوِى عليه من جميل الرأى وكريمِ النِّيه ، ومن الشواهد بأنه يُوجب لك مالا يُوجِبه لأحدٍ من ملوك النَّصْرانيه ، .

وأما سؤالُك الآنَ فى إطلاق من تجدّد أسْرُه ، وإنهاؤكَ أنَّ ذلك مما يُهِمُّك أمره ؛ فقد شفَّعك أمير المؤمنين بالإجابة إليه علىٰ ماأُلِف من كريم شِيمته ، وسيَّر إليك مع رسولك مَنْ تضمَّن الثبتُ ذكرَ عِدّته ، وقد علمتَ ما كان من أمر بهرامَ ووصوله إلىٰ الدولة الفاطمية خلَّد الله ملكَها شريدًا طريدا ؛ قد نَبَتْ به أوطانُه ، وقذفَتْه ديارُه ، لامالَ له ولا حال ، ولا عَشيرةَ ولا رِجَال ؛ فقبِلَتْه أحسَنَ قبول ، وبلغت به فى الإحسان ما يزيد علىٰ السُّول ؛ وغمَرتْه من الإنعام مايقْصُر عن آقتراحه كلُّ أمل ، وجعلته فواضِلُها يقلِّب الطَّرْف بين الخَيل والخَوَل ؛ وكانت أمورُه كلَّ يوم فى نمّو وزياده ، وأحوالُه تُوفِى علىٰ البُغْية والإراده ، إلىٰ أن جرتْ نوبةٌ آقتضىٰ التدبيرُ فى وقتها أن عُدقتْ به الوزاره ، ونِيطت به السِّفاره ؛ فوسوس له خاطرُه ما زَخرفه

البَطَر وزَيَّنه، وصوّره الشيطانُ وحَسَّنه؛ وأظهر ماظهَرتْ أماراتُه، ووضحت أدلّتُه وعلاماتُه؛ فاستدعىٰ قبيلَه وأُسْرته، وجِنْسه وعَشِيرته؛ بمكاتبات منه سِرِّيَّه، وخطوط عُثِر عليها بالأرمنيه؛ فكانوا يَصِلُون أوّل أوّل، إلىٰ أن آجتمع منهم عشرون ألف رجُل من فارسٍ وراجِل، ومن جملتهم آبنا أخيه وغيرهما من أهله، فدلَّوه بالغُرور، وحَمَلوه علىٰ ما قضىٰ بالآستيحاش منه والنُّفور؛ وقوَّوْا عزمَه فيما يؤدِّى إلىٰ آضطراب الأحوال وآختلال الأُمُور، فامتعضَ العساكُر المنصورة ممّا أساءَ به سياسَتَهم، وأبَوُا الصبرَ علىٰ ما غَيَّر به رسْمَهم وعادتهم؛ فلما رأىٰ أمير المؤمنين ذلك آستعظم الحال فيه، وتيقَّنَ أَن التغافُلَ عنه يَقْضِى بما يَعْسُر آستدراكه وتَلَافيه؛ فكاتب وِليَّه وصفِيَّه الذى رُبِّىَ فى حَجْر الخلافه، وسما به آستحقاقُه إلىٰ أعلىٰ دَرَج الإنافه؛ وحصلتْ له الرياسة باكتسابِه وآنتسابه، وغدا النظرُ فى أمور المملكة لا يصلُح لغيره ولا يَلِيق إلا به؛ السيدُ الأجلُّ الأفضل، وهو يومئذ والى الأعمال الغربية، وصدرتْ كُتُب أميرالمؤمنين تُشْعِره بهذا الأمر الصَّعْب، وتستكشِفُ به ما عَرَا الدولةَ من هذا الخَطْب؛ فأجاب دُعاءه، ولَبَّى نِداءه؛ وقام قيامَ مثلِه ممن أجزل اللهُ حظَّه من الإيمان، وجعله جلَّ وعز حسَنةَ هذا الزمان؛ وآختصَّه بِعناية قوِيَّه، وأمدّه بموادَّ عَلَوِيَّه؛ وأيَّده باعانةٍ سَماوِيَّه، تخرُج عن الآستطاعة البَشرِيَّه؛ فجمع الناسَ وقام خطيبًا فيهم، وباعثًا لهم علىٰ مايُزْلِفُهم عندالله ويُحْظِيهم؛ وموضِّحًا لهم مايُخْشىٰ علىٰ الدولة من الأمرِ المُنْكَر، فاجتمَعُوا إليه كاجتماعهم يومَ المَحْشر، وغَصَّت النُّجودُ والأَغْوار، وآمتلَأَتِ السُّهول والأوعار؛ وضاقَتِ الأرضُ علىٰ سَعَتِها بالخلائق، وآرتفعتْ فى توجُّهِهم لطلب المذكور الأعذارُ والعوائق؛ ولم يبق فضاءٌ إلا وهو بهم شرِق، ولا أحدٌ إلا وهو منزَعِجٌ بقَصْده وعلىٰ تأخُّرذلك قَلِق. وكان بَهْرامُ وأصحابُه بالإضافة إليهم كالشامة فى اللَّوْن البَسِيط، وكالقَطْرة فى البحر المُحِيط؛

وساروا مع السـيِّد الأجلّ الأفضـلِ نحوه مُسارعين ، وعلى الآنقضاض عليهم متهافتين ؛ فلما شعَر بذلك لم يبْقَ له قرار ، ولاذَ بالهرب والفرار ، يهجُرُ المناهل ، ويطوِى المراحل ، ويرىٰ الشُّرود غُنْما ، ويعُـدّ السَّلامة حِلْمـا ؛ وآستقرّت وِزارةُ أمير المؤمنين لهذا السـيـد الأجلّ الأفضلِ الذى لم تزَلْ فيه راغبـه ، وله خاطبه ؛ ونحوَ تولِّيه إيّاها متطلِّعه ، و إلىٰ نظَره فيها مبادِرةً متسرِّعه ، ولم تنفكَّ لزينة دَسْتِها مستَبْطِئـه ، وفى التلهُّف علىٰ تأخُّر ذلك مُعيدةً مُبـدِئه ؛ فأحسَنَ إلىٰ الكافَّة قولا وفِعْلا ، وعَمِل فى حقِّ الدولة ما لم يجعـل له فى الوُزراء شِبْها ولا فى الملوك العُظَماء مِثْلا ؛ وغدا للمِلَّةِ الحنيفيَّـة حُجَّةً وبُرهانا ، وأَوْلىٰ الأولياءَ إعزازًا وتكريمـا والأعداءَ إذْلالا وإهوانا ؛ وصانَ الخلافةَ عن نَفاذ حِيلَه ، وتمام غِيلَه ؛ ومُخادَعة ماكِر ، ومخاتَلة غادِر ؛ فلذلك آنتضاه أمير المؤمنين حُساما باترًا ماضِىَ الغِرار ، وآجتباه هُمـامًا فى المَصالح لا يَطْعَمُ جفنُـه غير الغِرار ؛ وآصطفاه خَليـلا وظَهيرا لتَساوِى باطنِـه وظاهِرِه فى الصَّـفاء ، وآستخلصه لنفسه لمَفاخره الجَمَّـة التى ليس بهـا من خفاء ، وآنتظمت الأمورُ بكَفالته فى سلك الوِفاق ، وعمَّت الخيراتُ بوِزارته عمومَ الشمس بأنوارها جميعَ الآفاق ؛ فسَعِدت بنظره الجُدُود ، وتظاهَرتْ ببركاته الميامِنُ والسُّعود ؛ وأصبح غُصْن المعالى بيُمْنِه مُورِقا ، وعلىٰ المِلَّة من يُمن آرائه تمائمُ من مَسِّ الحوادث ورُقىٰ ، فآثارُه تُوفِى علىٰ ضياء الصَّباح ، وعَزَماتُه تُزْرى بمَضاءِ المهنَّدة الصِّفَاح ، ومآثِرُه تفُوتُ شأْوَ الثناء وغايةَ الآمتداح . فالله تعـالىٰ يحفظُ النعمةَ علىٰ الخلافة الحافظيَّه ، ويُوزِع شُكْرَه علىٰ سُبُوغِها كافَّةَ البريَّه ؛ بكرمه وفضله ، ومَنِّه وطوله .

ولمـا أمعَنَ بهرامُ فى الهرَب ، وجَدَّت العساكر المنصورةُ وراءه فى الطَّلَب ؛ وضاقتْ عليه المَسالك ، وتيقَّنَ أنه فى كل وِجْهة يقصدُها هالك ؛ عَاد لمكارِمِ الدولة

وعواطِفِها، وسأل أمانًا علىٰ نفسه من متالِفِها، فشَمِلتْه الرحمه، وكُتب له الأمان فعاودَتْه النِّعمه، وٱختلَط برجال العساكر المنصوره، وصار حظُّه بعد أن كان مبخوسا من الحُظوظ الموفُوره.

وأما ٱعتذار الكاتب عما وُجِّه إليه بأن من الكلام ما إذا نُقِل من لُغةٍ إلىٰ لُغةٍ أخرىٰ ٱضطرب مَبْناه فٱختَلَّ معناه، ولا سيما إن غُرِس فيه لفظٌ ليس فى إحدىٰ اللُّغَتين سواه؛ فقد أبان فيما نُسِب إليه السهوُ فيه عن وُضُوح سببه، وقد قُبِل عذرُه ولم تُفَكَّ يدُه عن التمسُّك به.

وأما ما سَيَّرته إلىٰ خزائن أميرِ المؤمنين تُحفَةً وهدِيَّه، وأبَنْتَ به عن هِمَّة بدَواعِى المَجْدِ مَلِيَّه؛ فإنه وصل وتَسَلَّم كلَّ صِنْف منه متولِّى الخزائن المختصةِ به بعد عَرْضه علىٰ الثَّبَت المعطوفِ كتابُك عليه وموافَقَته، وقد أُجْرِى رسولُك فى إكرامه ومُلاحظته علىٰ أفضل ما يعتَمَدُ مع مثله بمنزلة مَنْ ورد من جِهَته، وعلىٰ قدر مَنْ وصل برسالته؛ وقد سيَّر أميرُ المؤمنين من أمراء دولته، ووجوهِ المقدَّمين بحضرته؛ الأميرَ المؤتَمَن، المنصور، المنتَخَب، مجدَ الخلافة، تاجَ المعالى، فخرَ المُلْك، مُوالِىَ الدولة وشُجاعَها، ذا النَّجابتين، خالصةَ أمير المؤمنين، أبا منصور جعفرا الحافظىّ رسولًا بهذه الإجابة، لما هو معروف من سَداده، وموصوفٌ من مستوفَق قَصده ومستَصْوَب ٱعتماده، وأَلْقِىَ إليه مايذكُره ويشْرَحه، وعُوِّل عليه فيما يُشافِهُ به ويُوضِّحه؛ وأصحبه من سجاياه وألطافِه، ماتضمَّنه الثبت الواصلُ علىٰ يده، إبانةً لمحلِّك عنده، وموقِفِك منه، ومكانِك لديه. وأمير المؤمنين متطلِّع إلىٰ ورود كُتُبك متضمنةً من سارّ أنبائك وطيب أخبارك ما يسْكُن إلىٰ معرفته، ويثِقُ بعلم حقيقته؛ فاعلَمْ هذا وٱعمل به إن شاء الله تعالىٰ.

الفصـــل الثـالث

من البـاب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى المكاتبات الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم ممـا الجارى عليه الحال فى زمانـنـا ، وهو علىٰ قسمين)

القســـم الأوّل

(المكاتَباتُ الصادرةُ عن الملوك إلىٰ أهل الإسلام ، وفيه أطراف)

الطـــــرف الأوّل .

(فى مكاتباتهم إلىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وفيه ثلاث جُمَل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى ترتيب كتبهم إليه صلّى الله عليه وسـلم علىٰ سبيل الإجمـال)

كانتْ أُمَراء سَرَاياه صلّى الله عليه وسلم ومَنْ أسلم من الملوك تفتَتح المكاتبةَ إليه صلّى الله عليه وسلم باسمه صلّى الله عليه وسلم ، ويُثَنُّون بأنفُسِهم ، ويأتُون بالتحميد والسـلامِ عليه صلّى الله عليه وسـلم ، ويتخلَّصُون إلىٰ المقصود بأما بعـدُ أو بغيرها ، ويختِمُون بالسلام . وملوكُ الكفر يبدءُون بأنفُسِهم ؛ وربمـا بدءوا باسمه صلّى الله عليه وسلم . وكان المكتوبُ عنه منهم يعبِّر عن نفسه بلفظ الإفراد . مثل : أنا ، ولى ، وقلت ، وفعلت . وربما عبَّر بعضُ الملوك عن نفسه بنون الجمع . ثم إنْ كان المكتوب عنه مسـلِما ، خاطبه صلّى الله عليه وسـلم بلفظ الرِّسالة والنُّبوّة مع كاف الخطاب وتاء المخاطب ؛ وإن كان كافرا ، خاطبه بالكاف والتاء المذكورتين ، وربمـا خاطبه باسمه . فإن كان المكتوب عنه مسلما ختم الكتابَ بالسلام عليه صلّى الله عليه وسلم .

أما عَنْونةُ هذه الكُتُب، فيظهر أنها إن ٱفتُتِحتْ باسمه صلّى الله عليه وسلم، وثُنِّىَ باسم المكتوب إليه عُنْوِنَتْ كذلك، فيكتب فى الجانب الأيمن «لمحمدٍ رسول الله» أو نحو ذلك، وفى الجانب الأيسر «من فلان» وإن كانتْ ممن يفتَتح المكاتبةَ باسم نفسه عُنْوِنَتْ على العكس من ذلك.

الجمـــــلة الثـانية

(فى صورة مكاتبتهم إليه صلّى الله عليه وسلم)

[وفيــــه أسلوبانـــ :

الأســـــلوب الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة باسم المكتوب اليه)[1]]

كما كتب خالدُ بنُ الوليد رضى الله عنه إليه صلّى الله عليه وسلم باسلام بنى الحارث، بالكتاب الذى تقدّمت إجابتُه صلّى الله عليه وسلم عنه، وهو على ماذكره ابن هشام فى "السِّيرة".

"لمحمدٍ النبىّ صلّى الله عليه وسلم رسولِ الله من خالدِ بنِ الوليد :

السلامُ عليك يا رسولَ الله ورحمةُ الله وبركاتُه، فإنى أحمدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو. أما بعدُ يارسولَالله صلّى الله عليك، فإنّك بعثتَنِى إلى بنى الحارثِ بنِ كَعْب، وأمرتَنِى إذا أتيتُهم أن لّا أقاتِلَهم ثلاثةَ أيّام، وأن أدْعُوَهم إلى الإسلام، فإن أسلَمُوا قبِلْتُ منهم وعلّمتُهم مَعالِمَ الإسلام ثلاثة أيام وكتابَ الله وسنّةَ نبيه، وإن لم يُسْلِمُوا

(١) الزيادة ساقطة من الاصول وهى لازمة لانتظام الكلام واتساقه كما يظهر من الأسلوب الثانى الآتى.

قاتلتُهم . وإني قدِمْت إليهم فدعَوْتُهم إلىٰ الإســلام ثلاثةَ أيَّام كما أمر رســولُ الله صلَّى الله عليه وســلم، وبعثتُ فيهم كتاباً (١) : يابني الحارثِ أسلِمُوا تَسْلَمُوا . فأسْلَمُوا ولم يُقاتِلوا وأنا مقيمٌ بين أَظْهُرِهم، آمُرُهم بما أمر اللهُ به، وأنهاهُمْ عمَّا نهاهَمُ اللهُ عنه، وأُعَلِّمُهم مَعالِمَ الإسلام وسنَّةَ النبيّ حتّى يَكْتُبَ إلىٰ رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم. والسلامُ عليك يارسولَ الله ورحمةُ الله وبركاتُه ! " .

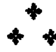

وكما كتب النجاشيُّ ملِكُ الحَبَشة إليه صلَّى الله عليه وسلم فى جوابِ كتابه صلَّى الله عليه وسلم إليه .

ونسختُه علىٰ ما ذكره ابن إسحاق :

" إلىٰ محمدٍ رسولِ الله، من النجاشيّ أصحمةَ ،

سلامٌ عليك يا رسولَ الله ورحمةُ الله وبركاته، الذى لا إلٰهَ إلا هو، الذى هدانِي للإســــلام .

أما بعدُ، فقد بلغني كتابُك يارسولَ الله ؛ فما ذكَرتَ من أمر عيسى فورَبِّ السَّماءِ والأرْضِ إنَّ عيسىٰ عليه الســلام ما يَزِيدُ علىٰ ما ذكَرْتَ ثُفْرُوقا ، إنه لكما قُلْتَ ، وقد عرَفْنا ما بعَثْتَ به إلينا ، وقَدِمَ ٱبنُ عمِّك وأصحابُه (وفى رواية : وقد قَرَّبْنا ٱبنَ عمِّك وأصحابَهُ) وأشهدُ أنكَ رسولُ الله [صادقًا مصدَّقًا]، وقد بايَعْتُك وبايعتُ ٱبنَ عَمِّك، وأسلَمْتُ علىٰ يدَيْهِ للهِ ربِّ العالمين . وقد بعثْتُ إليك بِٱبْنِي، وإن شئت

(١) فى " مفتاح الافكار " ص ٦٦ وبعثت فيهم ركبانا قالوا يابنى الحارث . والزيادة التى فى آخر الصحيفة منه .

أتيك [بنفسى](١) فعلت يارسولَ الله ، فإنى أشهدُ أن ما تقولُه حقٌّ ، والسلامُ عليك ورحمةُ الله و بركاتُه " .

وكما كتب المُقَوْقِس صاحب مصر إليه صلّى الله عليه وسلم جوابَ كتابِه الواردِ عليه منه فى روايةٍ ذكرها ٱبنُ عبد الحَكَم ، وهو :

"لمحمدِ بنِ عبدالله ، من المُقَوْقِس عظيمِ القِبْط . سلامٌ عليك .

أما بعدُ ، فقد قرأتُ كتابَكَ وفهمتُ ماذكرتَ فيه وماتَدْعُو إليه . وقد علمتُ أنَّ نبيا قد بَقِيَ وكنتُ أظُنُّ أنه يخرُج بالشام ، وقد أكرمتُ رسولَكَ و بعثتُ إليك بجاريتَيْنِ لهما مكانٌ فى القبط عظيمٌ وكِسْوةٍ ، وأهديتُ إليك بغلةً لتركَبَها ، والسلامُ عليك".

ولم يزد علىٰ هذا . و زاد غيرُه أنّ فى أوّل الكتاب بسمِ الله الرحمن الرحيم . وذكر الواقدىّ : أن فى كتابه إليه :

باسمك اللّهم ، من المُقَوْقِس إلىٰ محمدٍ .

أما بعد ، فقد بلَغَنِي كتابُك وفَهِمته وأنت تقولُ إن اللهَ أرسلَكَ رسولًا ، وفَضَّلك تفْضِيلا ، وأنزل عليك قُرْءانًا مُبِينا ، فكشَفْنا عن خبرك فوجَدْناك أقربَ داعٍ دَعَا إلىٰ الله ، وأصدَقَ مَنْ تكلَّم بالصِّدْق ، ولولا أنِّى ملَكْتُ مُلْكا عظيما ، لكُنْتُ أوّلَ من آمَنَ بك ، لعِلْمِى أنك خاتَمُ النبيين وإمامُ المرسلين . والسلامُ عليك مِنِّى إلىٰ يوم الدِّين .

---

(١) الزيادة من رواية المواهب ج ٣ ص ٣٩٥ وروايته أتيتك . قال شارحه : فى موضع المفعول أى إتيان .

الأســـــلوب الثـانى

(أن تفْتَتَح المكاتبـــةُ باسم المكتوب عنه)

كما كتب مسيلمةُ الكذّابُ إليه صلّى الله عليه وسلم الكتابَ الذى تقدّمتْ إجابته صلّى الله عليه وسلم فى المكاتبات الصادرةِ عنه، وهو :

«من مُسَيْلمةِ رسولِ الله إلىٰ محمد رسولِ الله .

أما بعدُ، فإنِّى قد أُشْرِكتُ فى الأمرِ معَك، إنَّ لنا نِصْفَ الأرضِ ولقريش نِصْفَ الأرض، ولٰكِنَّ قُرَيْشًا قومٌ يعْتَدُون» .

الجمـــلة الثـالثـــة

(فى المكاتَبَات التى كُتبت إليه قبلَ ظُهوره صلّى اللهُ عليه وسلم وبعد وَفَاته)

أما الكُتُبُ التى كُتبتْ إليه صلّى الله عليه وسلم قبل ظُهوره، فقد حكى "صاحب الهنـاء الدائم بمولد أبى القاسم" أن تُبَّعا الأوّلَ حين مَرَّ بموْضع المدينة النبوِيَّة، علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام والتحية والإكرام، أخبَره مَنْ معه من عُلَماء أهل الكتاب أنَّ هـذا الموضع مُهاجَرُ نبىّ يخْرُج فى آخر الزمان، فعَمَر هناك مدينةً وأسكن فيها جماعةً من العلماء، وكتب إليه كتابًا فيه :

«أما بعدُ، يامحمدُ فإنِّى آمنْتُ بِكَ وبرَبِّكَ وربِّ كلِّ شيء، وبكتابه الذى يُنْزِله عليك وأنا علىٰ دِينِك وسُنَّتك . آمنتُ بربِّكَ وربِّ كلِّ شيء، وبكل ماجاء من ربِّك من شَرَائع الإسلام والإيمان . وإنى قُلتُ ذلك، فإن أدركْتُكَ فبِها ونِعْمَتْ، وإن لم

أُدْرِكْكَ فاشْفَعْ فِي يومَ القيامةِ ولا تَنْسَنِي ، فإني من أُمَّتك الأوَّلين، وتابعتُك قبل مَجيئك وقبل أن يُرْسِلَكَ اللهُ ، وأنا على مِلَّتك ومِلَّةِ أبيك إبراهيم » (١) .

وختم الكتاب . ونقش عليه « لله الأَمْرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بَعْدُ ويَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بنصرِ الله » .

وكتب عنوانه : « إلى محمد بن عبدِ الله خاتَمِ المرسلين ورسولِ رب العالمين صلَّى الله عليه ، من تُبَّعٍ الأول حِمْيَر، أمانَةُ اللهِ في يَدِ مَنْ وقع إليه أن يَدْفَعه إلى صاحبه » .

ودفَعه إلى رئيس العلماء الذين رَتَّبهم بالمدينة ، فبقِيَ عنده وعند بَنِيه يتداولُونه واحدًا بعد واحدٍ، حتّى هاجر النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم إلى المدينة، فلقيَه الذى صار الكتابُ إليه يومئذٍ من بَنِي ذلك العالِم في طريق المدينة ودفع إليه الكتابَ .

وأما الكُتُب التى تُكْتَب إليه صلَّى الله عليه وسلم بعد وَفَاته ، فقد جرتْ عادةُ الأُمَّة من الملوك وغيرهم بكتابة الرسائل إليه صلَّى الله عليه وسلم بعدَ وفاتِه بالسلام والتحيَّةِ والتوسُّل والتشَفُّع به إلى الله تعالى في المَقاصد الدُّنْيويَّة والأُخْرَويَّة ، وتَسْيِيرِها إلى تُرْبته صلَّى الله عليه وسلم . وأكثرُ الناس معاطاةً لذلك أهلُ المغرب لبُعْد بلادهم ، ونُزُوح أقطارهم .

ومن أحسَنِ ما رأيتُ في هذا المعنى ما كَتب به آبنُ الخَطيب وزيرُ آبن الأحمرِ بالأندلُس، وصاحبُ ديوان إنشائه عن سُلْطانه يوسفَ بن فَرَج بن نصر :

إذا فاتَني ظِلُّ الحمَى ونَعِيمُه، * كَفَانِي وحَسْبِي أن يَهُبَّ نَسِيمُه !

(١) تقدم هذا الكتاب في ج ٤ ص ٢٨٦ و ٢٨٧ من هذا المؤلف .

وَيُقْنِعُـــنِي أَنِّي بِهِ متكَيِّفٌ : * فَزَمْزَمُهُ دَمْعِي، وجِسْمِي حَطِيمُهُ!
يَعُودُ فُؤادِي ذِكْرُ مَنْ سَكَنَ الغَضىٰ * فَيُقْعِــدُه فوقَ الغَضىٰ ويُقِيــمُه!
ولَمْ أرَ شَيْئًا كالنَّسِــيم إذا سَرىٰ، * شَفىٰ سَــقَمَ القَلْبِ المَشُوقِ سَقِيمُه!
نُعَــلِّل بالتَّــذْكارِ نَفْسًا مَشُوقَةً * نُدِيرُ عَلَيْهـا كَأْسَهُ ونُدِيمُــهُ!
وَمَا شَــفَّنِي بالْغَــوْرِ رَنْدٌ (١) مُرَنَّحٌ، * ولا شاقَنِي من وَحْشِ وَجْرَةَ رِيمُهُ،
ولا سَهِرَتْ عَيْــنِي لبَرْقِ ثَنِيَّــةٍ * من الثَّغْرِ يَبْــدُو مَوْهِنًا فأَشِيمُه.
بَــرانِيَ شَــوْقٌ للنَّــبِيّ محمدٍ * يَسُــومُ فُؤادِي بَرْحُه مايَسُــومُه!
أَلَا يا رَسُــولَ اللهِ نادَاكَ ضارِعٌ * علىٰ البُعْــدِ محفُوظُ الوِدادِ سَلِيمُه
مَشُــوقٌ إذا ما اللَّيْــلُ مَدَّ رُواقَهُ * تَهُــمُّ به تَحْتَ الظَّلامِ هُمُــومُه
إذا ما حَدِيثٌ عَنْكَ جاءَتْ به الصَّبا، * شَجَاهُ من الشَّــوْقِ الحَدِيثِ قَدِيمُــه
أَيَجْهَــرُ بالنَّجْوىٰ، وأنتَ سَمِيعُهــا! * ويَشْرَحُ ما يَخْفىٰ، وأنت عَلِيمُــه!
وتُعْوِزُه السُّــقْيا، وأنت غِيــاثُه! * وتُتْلِفُه البَلْوىٰ، وأنت رَحِيمــه!
بِنُورِكَ نُورِ اللهِ قد أَشْــرقَ الهُدىٰ * فأقْمــارُه وَضَّاحَــةٌ ونُجُومُــه!
بِكَ انْهَلَّ فضلُ اللهِ فى الأرضِ ساكِبًا * فأنْــواؤُه مُلْتَفَّــــةٌ وغُيُومُــه!
ومِنْ فَوْقِ أطباقِ السماءِ بِكَ اقتدىٰ * خَلِيــلُ الذِّى أوطاكَهـا وكَلِيمُه!
لَكَ الخُلُقُ الأرْضىٰ الّذِى بانَ فَضْلُه * ومَجْــدٌ فى الذِّكْرِ العَظِيمِ عَظِيمُه!
يَجِــلُّ مَدىٰ عَلْياكَ عن مَدْحِ مادِحٍ * فمُوسِرُ دُرِّ القَــوْلِ فيك عَدِيمُــه!
وَلِي يا رَسُــولَ اللهِ فِيــك وِراثَةٌ! * ومَجْــدُكَ لايَنْسىٰ الذِّمامَ كَرِيمُــه،

(١) فى نفح الطيب ج ٤ ص ٥١٦، وريحانة الكتاب "قد" وهو الاوضح.

وعِنْـــدِى إلىٰ أنصارِ دِينِكَ نِسْبَةٌ * هِىَ الفَخْرُ لا يَخْشىٰ انتقالاً مُقِيمُه!
وكان يُودّى أن أَزُورَ مبـــوّءاً * بِكَ آفتخَرَتْ أطْلالُهُ ورُسُـــومُه!
وقد يُجْهِـدُ الإنسانُ طِرْفَ آعْتِزامِهِ * ويُعْوِزُه من بَعْـــدِ ذاكَ مَرُومُـه.
وعُذْرِىَ فى تَسْوِيفِ عَزْمِىَ ظاهِرٌ * إذا ضاق عُذْرُ العَـــزْمِ عَمَّن يَلُومُه.
عَدَتْنِى بأقْصىٰ الغَرْبِ عن تُرْبِكَ العِدا، * جَلالِقَـةُ الثَّغْرِ الغريبِ ورُومُـــه،
أُجاهِدُ منهـــم فى سَبِيلِكَ أُمَّـــةً * هى البَحْرُ يُعْيِى أَمْرُها مَنْ يَرُومُـه!
فلولا آعْتِنَـاءٌ مِنكَ ياملْجأَ الـوَرىٰ! * لَرِيعَ حِمَـاهُ، وآستُبِيحَ حَرِيمُـــه!
فلَا تَقْطَعِ الحَبْلَ الذى قَدْ وَصَلْتَه، * فمَجْدُكَ مَوْفُورُ النَّـوالِ عَمِيمُـــه!
وأنتَ لنا الغَيْثُ الذى نَسْـــتَدِرُّه، * وأنتَ لنا الظِّـلُّ الذى نَسْـتَدِيمُه!
ولَمَّـا نأَتْ دارِى وأعْـوَزَ مَطْمَعِى * وأقْلَقَـنِى شَـــوْقٌ تُشَبُّ جَحِيمُه،
بَعَثْتُ بها جُهْـــدَ المُقِـلِّ مُعَوِّلاً * علىٰ مَجْدِكَ الأَعْلىٰ الذى جَلَّ خِيمُه!
[وَكَلْتُ بها هَمِّى وصِـدْقَ قَرِيحتِى * فساعَدَنِى هاءُ الروِىّ ومِيمُـــه[(١)] !]
فلا تَنْسَنِى ياخَيْرَ مَنْ وَطِئَ الـــثَّرىٰ * فمِثْـلُكَ لا يُنْسىٰ لَدَيْهِ خَدِيمُـــه!
عَلَيْـــكَ صـــلاةُ اللهِ ماذَرَّ شارِقٌ، * وما راقَ من وَجْهِ الصَّباحِ وَسِيمُه!

إلىٰ رسولِ الحقِّ، إلىٰ كافَّة الخَلْق، وغَمامِ الرحمة الصادقِ البَرْق، والحائزِ فى مَيْدانِ آصطفاءِ الرحمن قَصَبَ السَّبْق؛ خاتَمِ الأنبياء، وإمامِ ملائكةِ السماء، ومَنْ وجبتْ له النبوة وآدمُ بين الطِّين والمـاء؛ شفيعِ أربابِ الذُّنوب، وطَبِيبِ أدْواءِ القُـلُوب، ووسيلةِ الخَلْق إلىٰ عَلَّامِ الغُيوب؛ نبىِّ الهُدىٰ الذى طُهِّرَ قلبُه، وغُفِرَ ذَنْبُه، وخَتَمَ به

(١) الزيادة من نفح الطيب "ج ٤ ص ٥١٧" وكذا هو فى ريحانة الكتاب

الرسالةَ ربُّه ، وجَرَىٰ فى النُّفوس مَجرىٰ الانفاس حُبُّه ؛ [الشَّفيع] (١) المشفَّع يومَ العَرْض ، المحمودِ فى مَلإِ السماء والأرض ؛ صاحبِ اللِّواء المنشور يومَ النُّشُور ، والمؤتَمَنِ علىٰ سِرِّ الكتاب المَسْطُور ، ومُخرِجِ الناسِ من الظُّلُمات إلىٰ النُّور ؛ المؤيَّدِ بكفايةِ الله وعِصْمته ، الموفُورِ حظُّه من عِنَايته وحُرْمته ، الظِّلِّ الخَفَّاق علىٰ أُمَّته ؛ مَنْ لو حازتِ الشمسُ بعضَ كماله ما عَدِمتْ إشراقا ، أو كان للآباءِ رحمةُ قلبِـه ذابَتْ نفُوسُهـم إشفاقًا ؛ فائدةِ الكونِ ومَعْناه ، وسِرِّ الوُجود الذى بَهَرَ الوُجودَ سَناه ، وصَفِيِّ حَضْرة القُــدُس الذى لاينامُ قلبُه إذا نامَتْ عيناه ؛ البشيرِ الذى سبقَتْ له البُشْرىٰ ، ورأىٰ من آياتِ ربِّه الكُبْرىٰ ، ونزل فيه سبحانَ الذى أسرىٰ ؛ مَنِ الأنوارُ من عُنْصر نوره مستَمدّه ، والآثارُ تَخْلَقُ وآثارُه مستَجِدّه ؛ مَنْ طُوِىَ بِساطُ الوَحْى لفَقْده ، وسُدَّ بابُ الرسالةِ والنُّبوّة من بعـده ، وأُوتِىَ جوامِعَ الكَلِم فوقَفَتِ البلغاءُ حَسْرىٰ دُونَ حدّه ؛ الذى ٱنتقــل فى الغُرَر الكريمة نُورُه ، وأضاءتْ لميلاده مَصانِـعُ الشام وقُصُورُه ، وطَفِقت الملائكةُ تُحَيِّيه وُفُودُها وتزورُه ؛ وأخبرتِ الكتبُ المنزَّلة علىٰ الأنبياء بأسمائه وصِفَاته ، وأُخِذ عهدُ الأنبيـاءِ (٢) به علىٰ مَنِ ٱتصلتْ بمَبْعَثِه منهم أيامُ حياته ؛ المَفْزَعِ الأمنعِ يومَ الفَزَعِ الأكبر ، والسندِ المعتمَدِ عليه فى أهوال المَحْشَر . ذى المُعْجِزات التى أثبتتها المشاهدَةُ والحِسّ ، وأقرّ بها الجنُّ والإنس : من جمادٍ يتكَلَّم ، وجِذْعٍ لفراقه يتألَّم ؛ وقمرٍ له يَنْشَقّ ، وشجرٍ يشهَدُ أنَّ ماجاء به هو الحَقّ ؛ وشمسٍ بدعائه عن مَسيرها تُحْبَس ، وماءٍ من بين أصابعه يتبجَّس ؛ وغمامٍ باستسقائه يَصُوب ، وطُوًى بصَق فى أُجَاجِها فأصبح ماؤُها وهو العَذْبُ المَشْرُوب . المخصوصِ بمنـاقب الكمال وكمالِ المناقِبْ ، المسمَّى بالحاشرِ العاقِبْ ، ذى المَجْدِ البعيد المَرامى والمَراقِب ؛ أكرمِ من

(١) الزيادة عن نفح الطيب (ص ٥١٧ ج ٤) المطبوع بالمطبعة الأميرية ببولاق سنة ١٢٧٩ هـ وكذا هو فى الريحانة .

(٢) فى النفح " الإيمان به" وكذا هو فى ريحانة الكتاب .

رُفعتْ إليه وسيلةُ المعترف المغترب، ونجحَتْ لديه قربةُ البعيد والمُقْتَرِب، سيد الرُّسُلِ محمد بنِ عبد الله بن عبد المطلب، الذى فاز بطاعته المُحْسِنون، وآستُنْقِذ بشفاعته المُذْنِبون، وسَعِدَ باتِّباعه الذين لاخوفٌ عليهم ولاهم يَحْزَنُون . صلّى الله عليه وسلم ما لَمَعَ بَرْق، وهَمَع وَدْق، وطلعتْ شمس، ونسخَ اليومُ أَمْس .

من عتيقِ شفاعته، وعبدِ طاعته، المعتصِمِ بسببه، المؤمن بالله ثم به، المستشفى بذكره كلَّما تألَّم، المفتتِح بالصلاةِ عليه كلَّما تكلَّم، الذى إن ذُكِر تمثَّل طُلوعَه بين أصحابه وآله، وإن هَبَّ النَّسيمُ العاطرُ وجد فيه طِيبَ خِلَاله، وإن سَمِع الأذانَ تذكَّر صوتَ بِلَاله . وإن ذُكِرَ القرءان آستشْعَرَ تردُّدَ جبريلَ بين مَعاهِده وحِلَاله، [لاثِمِ تُرْبه ومؤمِّلِ قُرْبه، ورهين طاعتــه وحُبِّه](١) المتوسـِلِ به إلىٰ رضا ربه، « يوسفَ بن إسماعيل بن نصر » .

كتبته [اليك](١) يا رسولَ الله والدمعُ ماح، وخيلُ الوَجْد ذاتُ جِمَاح، عن شوقٍ يزداد كلَّما نقص الصَّبْر، وآنكسارٍ لا يُتاحُ له إلا بدُنُوِّ مَزارِك الجَبْر، وكيف لا يُعْنَىٰ مَشُوقُك بالأمْر، ويُوطِئُ علىٰ كَبِـده الجمر، وقد مطَلَت الأيامُ بالقُدُوم علىٰ تُرْبَتك المقدّسةِ اللَّحْد، ووعَدتِ الآمالُ ودانَتْ بإخلاف الوَعْد، وآنصرفتِ الرِّفاقُ والعينُ بنُور ضَرِيحك ما آكتحَلَتْ، والركائبُ إليك ما رُحِلتْ، والعزائم قالتْ وما فعلتْ، والنَّواظر فى تلك المشاهد الكريمة لم تَسْرَحْ، وطيورُ الآمالِ عن وُكُور العَجْز لم تَبْرَحْ، فيالَهَـا من معاهِدَ فاز مَنْ حيَّاها، ومشاهِدَ ما أعطَرَ ريَّاها، بلادٌ نِيطتْ بها عليك التَّمائِم، وأشرقَتْ بنُورِك منها النُّجودُ والتَّهائم، ونزل فى حُجُراتها عليك المَلَكْ، وآنجلىٰ بضياء فُرْقانِك فيها الحَلَكْ، مَدارس الآياتِ والسُّور، ومطالِـعُ المُعْجزات السافرةِ

(١) الزيادة من نفح الطيب ص ٥١٨ ج ٤ وكذا هو فى الريحانة .

الغُرَر ؛ حيثُ قُضِيَت الفروض وحُتِمَتْ ، وٱفْتُتحتْ ســورةُ الوحى وخُتِمَتْ ؛ وٱبتُــدِئتِ الملةُ الحنيفيَّة وتُمِّمتْ ، ونُسِختِ الآياتُ وأُحْكِمَتْ . أما والذى بعثَك بالحق هاديا ، وأطْلعَك للخَلْق نُورا باديًا ، لايُطْفِئُ غُلَّتى إلا شِرْبُك ، ولا يُسَكِّن لَوْعتى إلا قُرْبُك ؛ فمــا أســعدَ من أفاضَ من حرمِ الله إلىٰ حَرَمِــك ، وأصبَح بعــد أداء ما فرضْتَ عن الله ضيفَ كرمِك ؛ وعَفَّر الخدّ فى مَعَاهِدك ومعاهد أُسْرَتِك ، وتردّد ما بين دارَىْ بِعثتك وهِجْرتك !

وإنِّى لَمَّــا عاقَتْنى عن زيارتك العوائق وإن كانَ شُغْلى عنك بك ، وعَدَتْنِى الأعداءُ فيك عن وَصْلِ سَبَبِى بسبَبِك ، وأصبحتُ مابين بحرٍ تتلاطَمُ أمواجه ، وعدوٍّ تتكاثَفُ أفواجُه ، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عَجَاجُه ؛ فى طائفةٍ من المؤمنين بك وطَّنُوا علىٰ الصَّبْرِ نفُوسَهم ، وجعلوا التوكُّلَ علىٰ الله وعليك لَبُوسَهم ؛ ورفَعُوا إلىٰ مُصارخَتِك رءُوسَهم ، وٱستعْذَبُوا فى مَرْضَاة الله تعالىٰ ومَرْضاتك بُوسَهم ؛ يَطِيرونَ من هَيْعةٍ إلىٰ أُخْرىٰ ، ويتلفَّتون والمخاوِفُ يُمْنىٰ ويُسْرىٰ ، ويقارِعُون ـ وهم الفئة القليــلةُ ـ جموعًا بجُموع قيصَرِ وكِسْرىٰ ؛ لايبْلُغون من عدوٍّ كالذَّرِّ عندآنتشارِه ، مِعْشارَ مِعْشاره ؛ قد باعُوا من الله تعالىٰ الحياةَ الدُّنيا ، لأن تكونَ كلمةُ اللهِ تعالىٰ هى العُلْيا ؛ فيالَهُ من سِرْب مَرُوع ، وصريخٍ إلا عنك ممْنُوع ، ودعاء إلىٰ الله وإليك مَرْفوع ؛ وصِبْيةٍ حُمْرِ الحَوَاصِل ، تخفِقُ فوق أوكارها أجنحةُ المَنَاصِل ؛ والصليبُ قد تمطَّى ومدَّ ذِراعَيْه ، ورَفَعتِ الأطماعُ بضَبْعَيْــه ؛ وقد حُجِبتْ بالقَتَام السَّماء ، وتلاطمتْ أمواجُ الحــديد والبأسِ الشديدِ فالْتقىٰ المــاء ؛ ولم يبقَ إلا الذَّماء ، وعلىٰ ذلك فمــا ضَعُفت البصائر ولا ساءَتِ الظُّنُون ، وما وُعِد به الشهداءُ تعتقِــدُه القلوبُ حتّٰى تكادَ تراه العُيُون ، إلىٰ أن نَلْقاكَ غدًا إنْ شاء الله تعالىٰ وقد أبْلَيْنَا العُــذْر ، وأرغَمْنا الكُفْر ، وأعمَلْنَا فى سبيل الله وسبيلِك البِيضَ والسُّمْر .

استَنبتُ(١) رُقْعتى هذه لتطيرَ إليك [من شوقى] بجناحٍ خافق، وتُسْعَدَ من نِيّتِي التى تصحبُها برفيق موافق؛ فتؤدّى عن عَبْدك وتبلِّغ، وتعفّر الخدّ فى تُرْبتك وتمرّغ؛ وتطيبُ بَريًّا معاهِدك الطاهرة وبيوتِك، وتقفُ وقوفَ الخشوع والخضوع تجاه تابوتك؛ وتقول بلسان التَّملُّق، عند التشبُّث بأسبابك والتعلُّق، منكسرةَ الطَّرْف، حَذرا بَهْرَجُها من عدم الصَّرْف : ياغياثَ الأُمَّه، وغَمَام الرحمه، ارحمْ غُرْبتى وٱنقطاعى، وتغمَّدْ بطَوْلك قِصَرَ باعِى، وقَوِّ علىٰ هَيْبتك خَوَرَ طِباعى؛ فكَمْ جُزْتُ من لُجٍّ مَهُول، وجُبْتُ من حُزُون وسُهُول؛ وقابِلْ بالقَبُول نِيابَتِي، وعَجِّل بالرِّضا إجابَتِي . ومعلومٌ من كمال تِلْك الشِّيَم، وسَجَايَا تِيك الدِّيَم، أنْ لا تُخيِّبَ قصْدَ مَنْ حَطَّ بِفنائها، ولا يَظْمأَ واردٌ أكَبَّ علىٰ إنائها .

اللهمَّ يامَنْ جعلتَه أوّلَ الأنبياءِ بالمعْنىٰ وآخرَهم بالصُّوره، وأعطيتَه لِواءَ الحمد يَسير آدمُ فمن دُونَه تحت ظِلالِه المنشوره؛ وملَّكْت أمته ما زُوِى له من زوايا البسيطة المعموره، وجعَلْتنِي من أمَّته المجبُولةِ علىٰ حُبِّه المَفْطُوره؛ وشوَّقْتَنِي إلىٰ معاهِده المَبْروره، ومشاهِدِه المَزُوره؛ ووكَلْتَ لسانى بالصلاة عليه، وقَلْبِي بالحنين إليه، ورَغَّبْتنى بالتماس مالَدَيْه؛ فلا تَقْطَعْ عنه أسبابى، ولا تحْرِمْنى فى حُبِّه أجرَ ثوابى، وتداركْنِي بشفاعته يَوْمَ أخذ كِتابِي .

هذه يا رسولَ الله وسيلةُ مَنْ بَعُدتْ دارُه، وشَطَّ مَزارُه، ولم يُجْعَلْ بيده ٱختيارُه؛ فإن لم يكُنْ للقَبُول أهْلًا فأنتَ للإغضاء والسَّماح أهْل، وإن كانَتْ ألفاظُها وَعْرةً فجنابُك للقاصِدِين سَهْل؛ وإذا كان الحبُّ يُتوارَثُ كما أخبَرت، والعُروقُ تَدُسُّ حسَبَ ما إليه أشَرْت؛ فَلِي بانتسابِي إلىٰ (سعدٍ) عميدِ أنصارِك مَزِيَّه، ووَسِيلةٌ أثيرةٌ حَفِيَّه، وإن لم يَكُنْ لى عملٌ ترتَضِيه فَلِي نِيَّه؛ فلا تَنْسَنِي ومَنْ بهذه الجزيرة المفتَتَحة بسيف

(١) جواب قوله ولما عاقتنى فى أوّل الفقرة السابقة فى الصحيفة قبل .

كلمتك، علىٰ أيدى خِيَارِ أُمَّتك؛ فإنما نحنُ بها وديعةٌ تحتَ بعضِ أقْفالك، نعوذُ بوجه رَبِّك من إغفالك، ونَستَنْشق من رِيح عِنَايتك نَفْحه، ونَرْتقِبُ من نُور مُحيًّا قَبُولك لَمْحه ؛ نُدافِع بها عَدُوًّا طَغىٰ وبَغىٰ، وبَلَغ من مُضايَقتنا ما آبتغىٰ؛ فمواقفُ التمحيص قد أعيَتْ مَنْ كَتَبَ وورَّخ، والبحرُ قد أصمت من آستَصْرَخ، والطاغيةُ فى العُدْوان مستَبْصر، والعَدُوّ محلِّق والوَلِىّ مقَصِّر . وبجاهك نَدْفَع مالا نُطيق، وبعنايتك نُعالِجُ سقِيمَ الدِّين فيُفيق ؛ فلا تُفْرِدْنا ولاتُهْمِلْنا، ونادِ رَبَّك فينا : ربَّنَا وَلَاتُحَمِّلْنَا ؛ وطوائفُ أمتك حيثُ كانُوا عنايةٌ منك تَكْفيهم، وربُّك يقول لك وقولُه الحَقُّ : ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنْتَ فِيهِمْ﴾ .

والصلاةُ والسلامُ عليكَ يا خيْرَ مَنْ طافَ وسَعىٰ ، وأجاب داعِيًا إذا دعَا ؛ وصلَّى الله علىٰ جميع أحزابِك وآلِك ، صلاةً تليقُ بجَلَالك وتَحِقُّ لكمالك ؛ وعلىٰ ضَجِيعَيْك وصدِيقَيْك، وحبِيبَيْك ورفِيقَيْك : خليفتك فى أمتك، وفارُوقك المستخْلَف بعده علىٰ جلَّتك ، وصِهْرِك ذى النُّورَيْن المخصوصِ ببِرِّك ونِحْلتك ، وآبنِ عمكَ بِسيفِكَ المسلولِ علىٰ حلتك، بدرِ سمائك ووالد أهلَّتك؛ والسلامُ الكريمُ عليك وعليهم [كثيرا بثيرا] (١) ورحمة الله وبركاته .

من حضرة جزيرة الأندلُس غَرْناطةَ صانها الله ووقَاها ، ودفع عنها ببركتك كيدَ عِـدَاها .

---

(١) الزيادة عن "نفح الطيب" .

الطــــرف الثـانى

(فى المكاتبات الصادرةِ عن الأمراء من العُمَّال وأُمراء السَّرايا، إلىٰ الخلفاء من الصحابة رِضْوان الله عليهم، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى ترتيب هذه المكاتبات علىٰ سبيل الإجمال)

كانت المكاتبةُ إليهم تُفْتَتح تارةً بلفظ « من فلان إلىٰ فلانٍ » ويؤتىٰ فى الصدر بالســلام والتحميدِ علىٰ نحو ما تقدّم فى المكاتبة عن الخلفاء . ويقع التخلُّص إلىٰ المقصود بـ«أما بعدُ» وتارةً يقع الافتتاحُ بـ«أما بعدُ» ويؤتىٰ بالمقصود تِلْوَذلك؛ ويعبِّر المكتوبُ عنــه فيها عن نَفْســه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمير المؤمنين، وتُخْتَمُ بالسلام علىٰ أمير المؤمنين .

الجمـــلة الثـانيـــة

(فى صُورة هذه المكاتبات، وهى علىٰ أُسلوبيْنِ كما تقدّمت الإشارةُ إليه)

الأسلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح المكاتبةُ بلفظ «لفلان من فلان»)

وكان الرسم فيها أن يُكْتَب : «لعبد الله فلانٍ أمير المؤمنين، ســلامٌ عليك فإنِّى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو أما بعدُ فإنَّ كذا» .

كما كتب عمرو بنُ العاص إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنه فى جوابِ الكتاب منه إليه المقدّمِ ذكره فى المكاتبة عن الخلفاء من الصحابة، وهو:

«لعبدِالله عمرَ أميرِ المؤمنين، سلامٌ عليك فإنِّى أحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلاهو. أما بعدُ، فإنه أتانى كتابُ أمير المؤمنين يذكُر فيه فاشيةَ مالٍ فشَالى، وانه يَعْرِفُنى قبلَ

ذلكَ ولا مالَ لِى، وإنى أَعْلَمُ أمير المؤمنين أنى ببلدٍ السعرُ فيه رَخِيص، وأنّى أُعالِجُ من الزِّراعة ما يُعالِجه الناسُ، وفى رِزْق أمير المؤمنين سَعةٌ . ووالله لو رأيتُ خيانَتك حلالًا ما خُنْتك ، فأَقصِر أيُّها الرجلُ فإنّ لنا أحسابًا هى خيرٌ من العملِ لكَ، إن رَجَعْنا إليها عِشْنا بها ! . ولعَمْرى إنَّ عِندك مَن لا يَذُمُّ معشيةً ولا تُذَمُّ له ، فإن كان ذلك فلم يَفْتَح قُفْلك ولم يَشْركْك فى عَملِك ؟

الأســـــلوب الثانى

(أن تفتَتح المكاتبةُ بلفظ «أما بعدُ» ويتوصَّل منه إلىٰ المقصود)

كما كتب المغـيرةُ بنُ شُعْبَةَ إلىٰ معـاوية ـ وهو علىٰ بعض أعمالِه ـ يستَعْفيه عن العمل .

أما بعدُ، فقد كَبِرسِنِّى ورَقَّ عَظْمى واْقترب أجَلِى وسفَّهنِى سُفَهاءُ قُرَيْش، فَرأْى أميرِ المؤمنين فى عَمَله .

الطـــــرف الثـالث

(فى المكاتبات الصادرةِ عن الأمراء من العُمَّال، وأمراء السَّرايَا أيضا إلىٰ خُلَفاء بنى أُمَيَّة ، وهى فى ترتيبها علىٰ ما تقدّمَ فى المكاتبات إلىٰ الخلفاء من الصحابة رضِىَ الله عنهم . وهى علىٰ أسلوبين)

الأســـــلوب الأوّل

(أن تُفْتَتح المكاتبةُ بلفظ «من فلانٍ إلىٰ فلان» علىٰ نحو ما تقدّم فى المكاتبة عنهم إلىٰ الخُلَفاء من الصحابة مع زيادةِ الدُّعاء بطُول البقاء)

كما كتب الحجاجُ بنُ يوسُفَ إلىٰ عبدِالمَلك بنِ مَرْوانَ فى جوابِ كتابِه الواردِ عليه منه، فى توبيخِه له بسبَب تعرُّضه لأنس بن مالك رضى الله عنه علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه .

«لعبدالله عبدِالملك أمير المؤمنين، [أصلح الله](١) أميرَ المؤمنين وأبقاه، وسَهَّل حَظَّه وحاطه ولا عَدِمْناه؛ فقد وصلَني كتابُ أمير المؤمنين أطال الله بقَاه، وجعلني من كل مكروهٍ فِدَاه، يذكر شَتْمي وتَوْبيخي بآبائي، وتَعْييري بما كان قبلَ [نُزُول النِّعمة بي](٢) من عند أمير المؤمنين أتمَّ الله نعمتَه عليه، وإحسانَه إليه. ويذكر أميرُ المؤمنين ٱستطالةً مني علىٰ أنَس بن مالك، وأميرُ المؤمنين أحقُّ من أقال عَثْرتي، وعفا عن ذَنْبي وأمْهلَني ولم يُعْجِلْني عند هَفْوتي؛ لِلَّذي جُبِل عليه من كريم طَبَائعه، وما قَلَّده الله من أمور عِبَادِه؛ فرأْيَ أمير المؤمنين ـ أصلحه الله ـ في تسكينِ رَوْعتي، وإفراج كُرْبَتِي؛ فقد مُلِئْتُ رُعْبا وفَرَقا من سَطَواته، وفَجَآت نِقْماته؛ وأميرُ المؤمنين ـ أقاله الله العَثَرات، وتجاوَزَ له عن السيِّئات، وضاعَفَ له الحَسَنات، وأعلىٰ له الدَّرَجات ـ أحقُّ مَنْ صَفَح وعَفَا، وتغمَّد وأبقىٰ؛ ولم يُشْمِتْ بي عدوّا مُكِبًّا، ولا حَسُودا مُضِبّا؛ ولم يُجَرِّعْني غُصَصا. والذي وصف أميرالمؤمنين من صَنِيعته إليَّ، وتنويهه لي بما أسند إليّ من عمله، وأوطأني من رِقاب رعيته، فصادقٌ فيه مَجْزِيٌّ عليه بالشكر، والتوسُّلِ منِّي إليه بالوِلَايه، والتقرُّبِ له بالكِفَايه؛ وقد خضَعْت عند كتاب أمير المؤمنين، فإن رأىٰ [أمير المؤمنين](٣) ـ طَوَّقني الله بشُكره، وأعانني علىٰ تأدية حَقِّه، وبلَّغني إلىٰ مافيه موافقةُ مَرْضاته، ومَدَّلي في أجله ـ أن يأمر بالكتاب إليّ من رضاه، وسلامةِ صدره، ما يُؤَمِّنني به من سَفْك دَمِي، ويردُّ ماشَرَدَ من نومي، ويَطْمَئِنُّ به قلبي فعل، فقد ورد

(١) في الأصل "سلام علىٰ أمير الخ" والتصحيح عن مفتاح الافكار (ص ١٨٢).

(٢) بياض بالاصول، والتصحيح عن مفتاح الأفكار. وفيه بعد لفظ أنس بن مالك مانصه.
"خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم جرأة على أمير المؤمنين وغرة بمعرفة غيره ونقماته وسطواته على من خالف سبيله وعمد إلى غير محبته ونزل عند خطته، وأمير المؤمنين أصلحه الله من قرابته من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إمام الهدى وخاتم النبيين أحق الخ".

(٣) الزياده عن مفتاح الافكار.

علىّ أمر جليلٌ خَطْبه، عظيمٌ أمرُه، شديدٌ كَرْبه . أسأل الله أن لايُسْخِط أمير المؤمنين علىّ، وأن يُنيلَه فى حزمه ، وعزمه ، وسِياسته، وفِراسته، ومَواليه، وحَشَمه، وعُمَّاله ، وصَنائعه، مايحمَدُ به حسنُ رأيه ، إنه ولىُّ أمير المؤمنين والذابُّ عن سلطانه، والصانعُ له فى أمره، والسلام .

الأســـــلوب الثـانى

(أن يُفْتَتح الكتاب بلفظ «أما بعد» ويُتَوصَّل منه إلى المقصود)

كما كتب عبدُ الله بن عمرَ رضى الله عنهما إلى عبد الملك بن مَرْوان فى خلافته :

أما بعدُ، لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين من عبد الله بن عمر . سلامٌ عليك فإنى أحمدُ إليكَ الله الذى لا إلٰهَ إلا هو ، وأمرنى بالسمع والطاعةِ على كتاب الله وسُـنَّة نبيِّه فيما ٱستطَعْت .

الطَّـــــرَف الرابع

(فى المكاتبات الصادرة عن المُلُوك ومَنْ فى معناهم إلى خلفاء بنى العباس ، وفيها جملتان)

الجمـــــلة الأُولى

(فى المكاتبات العامَّة من الملوك إلى الخُلَفاء، ولهـا حالتان)

الحـالة الأولى

(ما كان الأمرُ عليه فى ٱبتداء دولة بنى العباس وأوساطها)

أما ٱبتداء دولتهم، فكان الأمرُ فيه على ماتقدّم فى مكاتبات العُمَّال ونحوهم إلى خلفاء بنى أُمَيَّة ، وقد تقدّم تمثيله . إلا أنه زيد فيه فى صُـدُور المكاتبات سؤالُ الصلاة

علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم من حين رَتَّبه المأمون فى صُدور الكتب، وتَكْنِيةُ الخليفة من حين أحدثه الأمينُ فى كُتُبه علىٰ ما تقدّم بيانه فى المكاتبات عن الخلفاء فيما سلف .

وأما أوساط دولتهم من حين ظهور ملوك بنى بُوَيه وغلَبَتِهم علىٰ الأمر ، فللكُتّاب فيه أُسلُوبان :

الأسلوب الأوّل

(أن تفتَتح المكاتبة بلفظ «لفلان من فلان» وتُصَدّرَ بالسلام والتحميد وسؤالِ الصلاة علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم، ويتخلص إلىٰ المقصود بأما بعد)

والرسمُ فيه علىٰ ماذكره قُدامةُ فى كِتاب الخَراج أن يُكْتَب : «لعبد الله فلان أبى فلان ـ بٱسمه وكنيته ونعته ـ أمير المؤمنين، سلامٌ علىٰ أمير المؤمنين، فإنّى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو وأسألُهُ أن يصَلِّيَ علىٰ محمدٍ عبدِه ورسوله صلّى الله عليه وسلم.

أما بعدُ، أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين وأدام عِزّه وتأييدَه وكرامتَه وحِراسَتَه، وأتم نِعمَتَه عليه ، وزاد فى إحسانِهِ إليه، وفَضْلِه عنده وجميلِ بلائه لَدَيه ، وجَزيل عطائه له» .

وزاد فى "صناعة الكُتّاب" : فى السلام «ورحمة الله وبركاته» . قال فى "صناعة الكتّاب" : ثم يقال : أما بعدُ فقد كان كذا وكذا ، حتّى يأتى علىٰ المعانى التى يَحْتاجُ إليها . وتكون المكاتبة : ـ وقد فعل عبد أمير المؤمنين كذا ـ فإن زادتْ حالهُ لم يقل عبد أمير المؤمنين ، فإذا بلغ إلىٰ الدعاء ترك فضاءً وكتب : أتَمّ اللهُ علىٰ أمير المؤمنين نعمتَه وهَنَاءه وكرامته، وألبسه عَفْوَه وعافيتَه وأَمْنه وسلامتَه : والسلام علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . وكُتب يوم كذا وكذا من شهر كذا من سنة كذا.

وقال الفضل بن سهل: يُدْعىٰ للخليفة :

أما بعدُ، أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين، وأدام عِزَّه وتأييدَه، وأتمّ نعمتَه وسعادتَه وتوفيقَه، وزاد فى إحسانه إليه ومَوَاهِبِه له . ولا يكتب إليـه « وجعلنى فِداه » ويكون أوّل فصوله : أُخْبِر أميرَ المؤمنين ـ أطال الله بقاءه ـ أن كذا وكذا. ثم يوالى الفصول بـ«أيّده الله وأدام عزه» . ونحو هذا .

وإن شِئْت كتبت : أما بعدُ أطال الله بقاءَ أمير المؤمنين، وأدام عِزّه وتأييـده وكرامَتَه، وأتمّ نعمتَه عليه، وزادَ فيها عنده وحاطَهُ وكفاه، وتولّىٰ له ما وَلّاه .

وإن شئْتَ كتبت : أطال الله بقـاءَ أمير المؤمنين فى العِزّ والسّـلامة، وأدام كرامته فى السّـعادة والزِّيادة ؛ وأتمّ نعمته فى السُّـبُوغ والغِبْطة ، وأصلحه وأصلح علىٰ يدَيْه ونَصَره؛ وكان له فى الأمور كلّها وليًّا وحافظا .

وإن شئت كتبتَ : أطال اللهُ بقـاءَ أمير المؤمنين فى أعَزِّ العِزّ، وأدْوِمِ الكَرَامة والسُّرور والغِبْطة ، وأتمّ نِعَمَه فى عُلُوٍّ من الدرجة ، وشرفٍ من الفضـيلة ، ومُتابَعٍ من العائدة، ووهب له السلامةَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة .

والذى كانتْ عليه قاعدةُ ملوك بنى بُوَيه فَمَنْ بعـدهم إن كان الكتّاب فى معنىٰ حدوثِ نعمةٍ من فتح ونحوه، أُتِى بعد ذلك بالتحميد ما بينَ مَرّةٍ واحدة إلىٰ ثلاث مرّاتٍ . ويعبِّر المكتوبُ عنه عن نفسه بلفظ الإفراد، وعن الخليفة بأمير المؤمنين، ويُخْتَمُ الكتّابُ بالإنهاء وما فى معناه .

وهـذه نسخةُ كتابٍ كتب به أبو إسحاق الصـابى عن عز الدولة بن بُوَيه إلىٰ المُطِيع لله عند فَتْحه الموصل، وهزيمة أبى تَغْلِبَ بن حَمْدانَ صاحب حَلَبَ فى سنة ثلاث وستين وثلثمائة ، وهى :

لعبدِ الله الفضلِ [الإمام](١) المطيع لله أميرِ المؤمنين، من عَبْده وصَنِيعته عزِّ الدولة آبن مُعِزِّ الدولة مَوْلىٰ أميرِ المؤمنين . سلامٌ علىٰ أمير المؤمنين ورحمة الله، فإنى أحمَدُ إلىٰ أمير المؤمنين اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، وأسألُه أن يصلِّيَ علىٰ محمد عبـده و رسوله صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسَلَّم .

أما بعدُ ـ أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين وأدامَ له العِزَّ والتأييد، والتوفيق والتَّسْديد، والعُلُوَّ والقُدْره، والظُّهورَ والنُّصْره ـ فالحمدُ لله العليِّ العَظِيم، الأَزَلىِّ القديم ؛ المتفرِّد بالكِبْرِياء والمَلَكُوت ، المتوحِّدِ بالعَظَـمة والجَبَرُوت ؛ الذى لا تَحُـدّه الصِّفات ، ولاتَحُوزُه الجهات، ولا تَحْصُره قَرَارةُ مكان، ولايُغَيِّره مُرورُ زمان، ولا تَمَثَّلُه العُيون بنواظِرِها، ولا تَتَخَيَّله القلوبُ بخَواطِرِها . فاطِرِ السموات وما تُظِلّ، وخالقِ الأرض وما تُقِلّ، الذى دلَّ بلطيف صَـنْعته، علىٰ جليـلِ حِكْمته، وبَيَّنَ بجَلِيِّ بُرْهانه، عن خَفِىِّ وِجْدَانه، وآستغنىٰ بالقُدْرة عن الأعْوان، وآستَعْلىٰ بالعِزَّة عن الأَقْران . البعيد عَن كلِّ مُعـادلٍ ومُضارِع ، المُمْتنِـع علىٰ كلِّ مُطاوِلٍ ومُقَارِع، الدائم الذى لايَزُول ولايَحُول، العادِلِ الذى لايَظْلِم ولايَجُور، الكريم الذى لايَضِنُّ ولايَبْخَل، الحليم الذى لا يَعْجَل ولا يَجْهَل ؛ ذٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إلٰهَ إلا هو فَادْعُوه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ، مُنْزِلُ الرحمـة علىٰ كلِّ وَلىٍّ توكّلَ عليـه، وفوّض إليه ؛ وأْتَمر لأوامره، وآزدَجر بزَواجِره، ومُحِلِّ النِّقْمة بكلِّ عدوٍّ صَدَّ عن سبيله وسَنَنه، وصَدَف عن فرائضه وسُنَنه، وحادّه فى مَكْسَب يده ومَسْعاة قَدَمه، وخائنة عينه وخافيةِ صَـدْره؛ وهو راتعٌ رَتْعـة النَّعَم السائمه، فى أَكْلاء النِّعَم السابغـه ؛ وجاهلٌ جَهْلَهَا بشُكْر آلائها ، ذاهِلٌ ذُهولَها عن طُرُق آستِبْقائها ؛ فلا يلبَثُ أن يُنْزَعَ سرابِيلَها صاغرا ، ويَتَعَرّىٰ منها حاسِرا، ويجعل

(١) الزيادة من مختارات الصابى .

اللهُ كَيْدَه فى تَضْلِيل، ويُورِدُه شَرَّ المَوْرِد الوبيل، إنَّ اللهَ لايُصْلِحُ عَمَلَ المُفْسِدين، ولا يَهْدِى كَيْدَ الخائنين .

والحمدُ لله الذى آصطفىٰ للنُّبوّة أحقَّ عباده بحَمْل أعبائها، وآرْتداءِ ردائها؛ «محمدا» صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وسلَّم، وعَظَّم خَطَره وكَرَّم؛ فصَدَع بالرسالَهْ، وبالَغَ فى الدَّلالَهْ؛ ودَعَا إلىٰ الهِدَايه، ونجّى من الغَوَايه؛ ونقَـلَ الناسَ عن طاعةِ الشيطان الرجيم، إلىٰ طاعةِ الرحمن الرحيم؛ وأعْلَقَهم بحبائل خالِقِهم ورازِقِهم، وعِصْمةِ مُحْيِيهم ومُمِيتهم؛ بعـدَ آنتحالِ الأَكاذِيبِ والأَبَاطِيـل، وآستِشْعار المُحَـالات والأَضَالِيل؛ والتَهَوُّكِ فى الاعتقـاداتِ الذائدةِ عن النَّعيم، السائقة إلىٰ العذابِ الأَليم؛ فصلىٰ الله عليـه من ناطقٍ بالحق، ومُنْقِذٍ للخَلْق؛ وناصحٍ للرَّبّ، ومؤدٍّ للفرض؛ صلاةً زاكية ناميه، رائحة غَاديه؛ تزيدُ علىٰ آختلاف الليل والنَّهار، وتعاقُبِ الأَعْوام والأدوار .

والحمدُ لله الذى آنتجبَ أميرالمؤمنين [أطال الله بقاءه](١) من ذلك السِّنْخ الشريف، والعُنْصرِ المُنِيف؛ والعِتْرة الثابتِ أصلُها، الممتدِّ ظِلُّها، الطيِّبِ جَنَاها؛ الممنوعِ حِمَاها؛ وحازَ له مواريثَ آبائهِ الطاهِرِين، صلواتُ الله عليهم أجمعين؛ وآختصَّه من بينهم بتطاوُلِ أَمَدِ الخلافة وآستِحْصافِ حَبْلها فى يَدِه؛ ووفَّقــه لإصابة الغَرَض من كل مَرْمًى يَرْمِيه، ومَقْصِد يَنْتحِيه؛ وهو ـ جل ثناؤه ـ الحقيقُ بإتمـام ذلك عليـه، والزيادةِ فيـه لَدَيْه . وأحمده سبحانه حَمْـدًا أبتدِئه ثم أُعِيده؛ وأُكَرِّره وأستَزِيدُه؛ علىٰ أنْ أهَّل ركنَ الدولة أبا علىّ، وعضُدَالدولة أبا شجاع مَوْلىٰ أميرالمؤمنين، وأهَّلَنى للأَثْرة عنـده التى بَذَذْنا فيها الأَكْفاء، وفُتْنا فيها القُرناء؛ وتقطَّعتْ دُونها أنفـاسُ المُنَافِسين، وتضَرَّمتْ عليها أحشاءُ الحاسـدين. وأنْ أولانِى فى كل مَغْزًى فى خدمة

(١) الزيادة من مختارات الصابى .

أمير المؤمنين أغْزُوه، ومَنْحًى أَنْحُوه ؛ وثَأْيٍ أرْأَبُه، وشَعْث أَلُمُّه ؛ وعَدُوٍّ أُرْغِمه ، وزائغ أُقَوِّمه ؛ أفضلَ ما أولاه عبادَه السليمةَ غُيُوبُهم ، النقيَّةَ جُيُوبهم ؛ المأمونة ضمائِرُهم، المشحوذَةَ بَصَائِرُهم ؛ من تمكين يَدٍ، وتثْبيتِ قدم؛ ونُصرةِ راية، وإعلاء كلمة ؛ وتقريبِ بُغْية، وإنالة أُمْنِيَّة؛ وكذلك يكون مَنْ إلىٰ [ولاء](١) أمير المؤمنين آعتِزاؤُه، وبشِعارِه آعتزازُه ؛ وعن زِنَاده قَدْحُه، وفى طاعته كَدْحُه؛ والله ولِّى [بإدامة](١) ما خَوّلنيه من هذه المَنْقَبه، وسوّغَنيه من هذه المَوْهِبه ؛ وأن يتوجّه أميرُ المؤمنين فى جميع خَدَمِه الذابِّين عن حَوْزَته، المنتَمِين إلىٰ دعوته؛ بيُمْنِ الطائر، وسَعَادة الطالع؛ ونَجَاح المَطْلَب، وإدراكِ الأَرَب؛ وفى أعدائه الغامِطين لنِعْمته، الناقِضين مواثِيقَ بَيْعته؛ بإضْراع الخَدّ، وإتعاس الجَدّ، وإخْفاق الأَمَل، وإحباطِ العمل، بقدرته .

ولم يزل مولانا أمير المؤمنين [أطال الله بقاءه](١) يُنْكِر قديمًا من "فَضْل الله" بن ناصر الدولة أحوالا حقِيقًا مثلُها بالإنكار، مستحِقًّا من آرتكبها الإعراض ؛ وأنا أذهَبُ فى حِفْظ غَيْبه ، وإجمال مَحْضَره ؛ وتمحُّل حُجَجِه وتلفيقِها ، وتأليف مَعَاذِيره وتنميقِها؛ مَذْهبِي الذى أعُمّ به كلَّ مَنْ جرىٰ مَجْراه من ناشئ فى دولته ، ومُغْتذٍ بنعمته ؛ ومنتسِبٍ إلىٰ وِلَايته ، ومُشْتَهِرٍ بصنيعته ؛ وأقْدِر أنْ أستَصْلِحه لأمير المؤمنين ــ أطال الله بقاءه ــ وأُصْلِحَه لنفْسه بالتوقيف علىٰ مَسالك الرَّشاد ، ومَنَاهج السَّداد ؛ وهو يُرِيني أنْ قد قَبِل وآرْعَوىٰ، وأبْصَرَ وآهْتَدىٰ ؛ حتّى رَغِبْتُ إلىٰ أمير المؤمنين فيما شَفَّعَنِي متفضّلا فيه ، من تَقليدِه أعمال أبيه ، والقَنَاعة منه فى الضَّمَان بمَيْسُورِ بَذْله ، وإيثارِه به علىٰ مَنْ هو فوقَهُ من كُبَراء إخْوته وأهْلِه .

(١) الزيادة من المختارات .

فلمـا بَلَغ هذه الحال، أَلَظَّ بالمال، وخاسَ بالعَهْد، وطَرَّق لفَسْخ العقد؛ وأجرىٰ إلىّ أمورا كَرِهْتُها، ونَفِدَ الصـبرُ منِّى عليها؛ وخِفْت أن أستمِرَّ علىٰ الإغضاء عنها والمسامحة فيهـا، فيَطَّلِـعَ اللهُ منى علىٰ إضاعة الاحتياط فى أمرٍ قلّدنى أميرُ المؤمنين زِمامَهُ، وضَمَّنَنى دَرَكه، وإرخاءِ لَبَبِ رجلٍ قَبِـل فى الاعتماد عليــه رَأْيِى، وعَوَّل فى أَخْذِه بما يلْزَمُه علىٰ نَظَرى واستيفائى ــ فتناولته بأطراف العَذْل مُلَوِّحا، ثُمَّ بأَثْباجه مُفْصِحا مُصَرِّحا.

و رَسَمْتُ لعبــد أمير المؤمنين النــاصِح أبى طاهرٍ أن يُجِدَّ به وبوُسطائه وسُفَرائه فى حال، ويَدْخُلَ عليه من طريق المَشُورة والرِّفق فى أُخْرىٰ، ويتَنَقَّلَ معه بين الخُشُونة التى يَقْفُو فيها أثرِى، واللِّين الذى لا يجوز أن يُحِسَّــه منى، تقديراً لانثنائه، وزوال التوائه؛ ففعل ذلك علىٰ رَسْمه فى التأنِّى لكلِّ فاسد حتّىٰ يَصْلُح، ولكلِّ آب حتّىٰ يَسْـمَح؛ ولم يَدَعِ التناهِىَ فى وَعْظه، والتَّمــادِىَ فى نُصْحه وتعريفِـه سُوءَ عاقبـة اللَّجَـاج، ومَغَبَّـةِ الإحْراج؛ وهو يزِيدُ طمعًا فى الأموال وشَرَها، وعَمًى فى الرأْيِ وعَمَهـا؛ إلىٰ أنْ كاد أمْرُنا معه يَخْرُج عن حدِّ الانتظار، إلىٰ حَدِّ الرضا بالإصْرار؛ فاستأنفتُ ادِّراع الحَزْم، وامتطاءَ العَزْم؛ ونهضتُ إلىٰ أعمــال المَوْصِـل وعِنْدِى أنه يُغْنِينى عن الإتمــام، ويتلقَّانى بالإعْتــاب وينقــادُ إلىٰ المُـراد، ويتجَنَّبُ طُرُقَ العِنَـاد.

فحين عَـرَفَ خَبَرَ مَسِيرِى، وجِدِّى فيه وتَشْمِيرى؛ بَرَز بُروزَ المخالف المكاشِف، وتجرَّد تجرُّدَ المُواقِع المُواقِف؛ وهو مع ذلك إذا ازددْتُ منه قُرْبا، ازداد مِنِّى رُعْبا؛ و إذا دَلَفْتُ إليه ذراعا، نَكَص عَنِّى باعا.

وتوافَتْ إلىٰ حضرتى وجوهُ القبائل من عُقَيْلٍ وشَيْبانَ وغيرهما فى الجمع الكَثِيف من صَعَاليكهما ، والعـددِ الكثير من صَنادِيدِهما ؛ داخِلينَ فى الطاعة ، متصَرِّفين فى عوَارض الخِدْمة .

فلما شارَفْتُ الحَدِيثَةَ ، آنتقضَتْ عزائمُ صَبْرِه ، وتقوّضَتْ دعائمُ أمْرِه ، وبطلَتْ أمانِيُّه ووَساوِسُه ، وآضمحَلَّت خَواطِرُه وهَوَاجِسُه ؛ وآضطربَ عليه من ثِقاتِه وغِلْمانه مَنْ كان بهم يَعْتَضِد ، وعليهم يعْتَمِد ؛ وبدءُوا بخِذْلانه والأَخْذِ لنُفُوسهم ، ومُفارقته والطَّلبِ بحظوظهم ؛ وحصَل منهـم بحضرتى إلىٰ هذه الغـايةِ زُهاءُ خمسمائة رجل ذَوِى خَيْلٍ مختارةٍ ، وأسْلِحة شاكِيَة ؛ فصادَفُوا عندى ماأَمَّلُوا من فائضِ الإحسان ، وغامِرِ الآمْتنان ؛ وذكَرُوا عمَّن وراءَهم من نُظَرائهم التنَزِّىَ إلىٰ الآنجذاب ، والحِرصَ علىٰ الآستِئْمان ؛ وأنهم يَرِدُون ولا يتأخَّرُون ، ويُبادِرُون ولا يتلَوَّمُون .

ولـمَّـا رأىٰ ذلك ، لم يملك نَفْسَه أنْ مضىٰ هاربًا علىٰ طريقِ سِـنْجار ، منكَشِفا عن هذه الدِّيار ؛ قانعًا من تلكَ الآمالِ الخائبه ، والظُّنون الكاذبه ؛ بسلامة حُشَاشةٍ هى رَهِينةُ غَيِّها ، وصريعةُ بَغْيِها .

وكان آنهزامُه بعد أنْ فعل الفِعْلَ السَّخِيف ، وكادَنَا الكيْدَ الضَّعِيف ؛ بأن أغـرقَ سُفُنَ المَوْصِـل وعروبَها (١) ، وأحْرقَ جَسْرها وآستَذَمَّ (٢) إلىٰ أهلها ؛ وتزوّدَ منهم اللعْنَ المُطِيفَ به أين يَمَّ ، الكائنَ معه حيثُ خَيَّم .

ودخَلْتُها يومى هـذا ـ أيّدَ اللهُ أميرَ المؤمنـين ـ دُخولَ الغـانم الظافر ، المستَعْلِى الظاهِر ؛ فسَكَّنْتُ نُفُوسَ سُكَّانها ، وشَرحتُ صُدورَ قُطَّانها ؛ وأعلمتُهم ما أمَرنى

(١) نوع من السفن الرواكد كان فى دجلة ولكنه عبر عنها فى القاموس بالعربات . أى فواحدها عربة بالتحريك .

(٢) أى فعل ما يذم عليه .

به أميرُ المؤمنين - [أدام اللهُ عِزّه] وأعلىٰ الله أمره - من تأْنِيس وحشتهم، ونَظْم أُلْفتِهم، وضَمِّ نَشَرِهم، ولَمِّ شَعَثِهم؛ وإجمالِ السِّيرة فيهم فى ضُرُوب معامَلاتِهم وعُلَقِهم، وصُنُوف متصَرَّفاتهم ومَعايِشِهم؛ فكَثُر منهم الثنــاءُ والدعاءُ؛ والله سامعٌ ما رفَعُوا، ومُجِيبٌ ما سألوا .

وأجْلَتْ حالُ هــذا الجاهلِ - أيَّد اللهُ أمير المؤمنين - عن أقْبَحِ هَزِيمه، وأذَلِّ هَضِيمه، وأسْوَإِ رَأْى، وأنْكَرِ آختيار؛ لأنه لم يَلْقَنِى لقاءَ الباخِع بالطاعه، المعتــذِرِ من سالفِ التفريط والإضَاعه؛ ولا لِقاءَ المصَدِّق لدَعْواه فى الآستقلالِ بالمُقارَعه، المحقِّق لزَعْمه فى الثبات للمُدافَعــه؛ ولا كان فى هذين الأمرين بالبَرِّ التَّقِىّ، ولا الفاجِرِ الغَوِىّ؛ بل جمع بين نَقيصةِ شِقاقِه وغَدْره، وفَضِيحة جُبْنه وخَوَره؛ متنكِّبًا للصَّلاح، عادِلًا عن الصَّواب؛ قد ذهَبَ عنــه الرَّشاد، وضُرِبتْ بيْنَه وبيْنَه الأَسْداد، وأنزله اللهُ منزِلةَ مثْلِه مِمَّن أساء حِفْظ الوَديعــه، وجِوارَ الصَّنيعه؛ وآستوْجبَ نَزْعَهما منه وتحويلهما عنه .

وتأمَّلْتُ - أيَّد الله مولانا أميرَ المؤمنين - أمْرَه بالتَّجْريب، وتصفَّحْتُه علىٰ التقليب؛ فإذا هو الرجلُ الذى أطاعَ أبُوه فيه هَوىٰ أمّه [(١)]، وعصىٰ دَواعِىَ رَأْيِه وحَزْمه؛ وقَدَّمَه من وَلَدِه علىٰ مَنْ هو آنَسُ رُشْدا، وأكبَرُ سِنًّا، وأثبت جَأْشا، وأجرأُ جَنَانا، وأشجَعُ قَلْبا، وأوْسَعُ صَدْرا، وأجدَرُ بمَخايِل النَّجابه، وشمائل اللَّبَابه .

فلما آجتمعَتْ له أسبابُ القُدْرة والثَّرْوه، وأمكنَتْه مَناهِزُ الغِرّة والفُرْصه، وثب عليه وَثْبةَ السِّرحان، فى ثُلَّة الضَّان؛ وجَزاه جَزاءَ أمِّ عامِرٍ لمُجِيرها، إذ فرَتْه بأنيابهــا وأظافيرِها؛ وآجتمَع [هو] وأخوه من الأمّ، المرتضِع معــه لِبَانَ الإثْم؛ المُكَنَّى

---

(١) هى فاطمة بنت أحمد الكردية وكانت مالكة أمر ناصر الدولة . من هامش مختارات الصابى المطبوعة .

أبا البركات ـ وليس بأب لهما ، ولا حَرِىٍّ بشىءٍ منها ـ علىٰ أن نَشَزا عنه وعَقّاه ، وقَبَضا عليه وأوْثقاه ، وأقرّاه من قَلْعتِهما بحيث تُقَرُّ العُتاه ، وتُعاقَب الجُنَاه (١) ؛ ثم أتبعا ذلك باستحلالِ دمه ، وإفاضة مُهْجته ، غيرَ راعيَيْنِ فيه حَقَّ الأُبُوّه ، ولاحانِيَيْنِ عليه حُنُوَّ البُنوّه ؛ ولا متذمّمَيْنِ من الإقدام علىٰ مِثله ممن تقدّمتْ عنــد سلطانه قَدمُه ، وتوكّدت أَوَاصِرُه وعِصَمُه ؛ ولا راحمَيْنِ له من ضَعْف شَيْخُوخته ، وذَهَل كِبْرته ؛ ولامُصْغيَيْنِ إلىٰ وصِيةَّ اللهِ إيَّاهما به ، التى نَصَّها فى محكم كتابِهِ ؛ وكَرَّرها فى آيه و بيناته إذ يقول : ﴿ ٱشْكُرْ لِى ولِوَالِدَيْكَ إلَىَّ المَصيرُ ﴾ وإذ يقول : ﴿ وقَضىٰ رَبُّكَ ألَّا تَعْبُدوا إلَّا إيَّاه و بِالْوَالِدَيْنِ إحْساناً إمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الكِبَرَ أحَدُهُمَا أوْ كِلَاهُمَا فَلَا تقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ .

فبأىِّ وَجْهٍ يَلْقىٰ اللهَ قاتِلُ والدٍ حَدِبٍ قد أُمِرَ أن لا يَنْهَره ؟ و بأىِّ لسانٍ يَنْطِق يوم يُسْأَل عمــا ٱستجازه فيــه وفَعَله ؟ وتاللهِ ! لو أن بمكانه عَدُوًّا لهما قد قارَضَهما الذُّحُول ، وقارَعَهما عن النُّفُوس ؛ لقَبُح بهما أنْ يَلُؤُما ذلك اللُّؤْم عنــد الظَّفَر به ، وأن يركبا تلك الخُطَّة الشَّــنْعاء فى الأخذ بناصِيته ؛ ولم يرضَ « فضــلُ الله » بمــا أتاه إليه حتّى ٱســتوفىٰ حُدودَ قَطْع الرَّحِم ، بأن تتَبَّع أكابرَ إخْوته السالكين خلافَ

(١) فى ســنة ست وخمسين وثلثمائة قبض أبو تغلب بن ناصر الدولة بن حمدان على أبيه وحبسه فى قلعة وذلك لأنه كان قد بلغ من الكبر عتيا وساءت أخلاقه وضيق علىٰ أولاده وخالفهم فى أهوائهم فضجروا منــه وكان من جملة ما خالفهم فيه أنه عند وفاة معز الدولة وولاية ابنه بختيار عزموا على قصد العراق فمنعهم قائلا ان معزالدولة قد خلف لولده من المــال ما يتمكن معه من الظهور فاصبروا حتى يتفرق ماله فوثب عليه أبو تغلب ووضعه فى محبس فغضب بعض اخوته ووقع الخلاف بينهم وانتشر أمرهم . وكان ناصر الدولة يستنصر بابنه حمدان على أبى تغلب وأبى بركات فنقلاه الى قلعة كواشى وتوفى فى الاعتقال فى ربيع الأول سنة ثمان وخمسين وثلثمائة اهـ من هامش المختارات المطبوعة .

سَبِيله ، المتبرِّئين إلىٰ الله من عظيم ما ٱكتَسَب ، ووَخِيم ما ٱحتَقَب ، لَمَّـا غَضِـبوا لأبيهم ، وٱمتعضُوا من المستَحِلّ فيه وفيهم : فقبض علىٰ محمدِ بن ناصر الدولة حيلةً وغِيـلة ، وغَدْرا ومَكِيدة ، ونابَذَ حَمْدانَ بنَ ناصر الدولة مُنابذَةً خار اللهُ له فيها ، بأن أصاره من فِنَاءِ أمير المؤمنين إلىٰ الجانب العزيز ، والحِرْز الحَرِيز ، وأن أجرىٰ اللهُ علىٰ يده الحربَ الواقعةَ بينه وبين المَعْروف بكُنْيته أبي البَركات ، التي لَقَّاه الله فيها نَحْسه ، وأتلف نَفْسه ، وصَرَعه بعُقُوقه وبَغْيه ، وقَنَّعه بعاره وخِزْيِه ، وهو مع ذلك لا يتَّعِظ ، ولا يَنْزِع ولا يُقْلِعُ ولا يَزْدَجِر ، إصرارًا علىٰ الجَرائر التي اللهُ عنها حسيبُه ، وبها طَلِيبُه ، والدُّنيا والآخرة مُرْصَدَتان له بالجزاء المحقُوق عليه ، والعقابِ المَسُوق إليه .

وأعظمُ من هذا كلِّه ـ أيد الله أمير المؤمنين ـ خَطْبا ، وأوْعَرُ مَسْلَكا ولَحْبا ، أنَّ من شرائِطِ العَهْد الذي كان عُهِد إليــه ، والعَقْد الذي عُقِــد له ، والضَّمانِ المُخَفَّف مبْلَغُه عنــه ، المأخوذِ عَفْوُه منه ، أن يَتَناهىٰ في ضَبْط الثغور وجِهـادِ الرُّوم وحِفْظ الأطراف ، ورَمِّ الأكناف ، فـما وَفىٰ بشيءٍ من ذلك ، بل عدَلَ عنه إلىٰ الاستئثار بالأموال وٱقتطاعِها ، وإحرازِها في مَكامِنِها وقِلاعها ، والضَّنِّ بها دُونَ الإخراج في وُجُوهها ، والوَضْع لها في حُقُوقها ، وأنْ تراخىٰ في أمرِ عظِيم الرُّوم مُهْملا ، وٱطَّرَح الفِكْر فيه مُغْفلا ، حتّىٰ هَجَم في الديار ، وأثَّر الآثار ، ونَكَىٰ القلوب ، وأبْكىٰ العُيون ، وصَدَع الأكباد ، وأحَرَّ الصُّدور ، فما كان عنده فيه ما يكون عند المسلم القارئ لكتاب الله إذ يقول : ﴿إنَّ اللهَ ٱشتَرَىٰ مِنَ المُؤْمِنِينَ أنْفُسَهُمْ وأمْوالَهُمْ بِأَنَّ لهم الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ في سَبِيلِ اللهِ فيَقتُلُونَ ويُقتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا في التَّوْراةِ والإنْجِيلِ والقُرْءانِ ومَنْ أوْفىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَٱسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وذٰلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ بل صَدَف عن ذِكرِ الله لاهِيا ، وعَدَل عن كِتابه ساهِيا ، وٱستفسَخَه ذلك البيْعَ والعَقْد ، وتنجَّزه الوَعِيدَ لا الوَعْد ، ولاطَفَ طاغيــةَ الرُّوم وهاداه ، ومارَهُ وأعْطاه ، وصانَعه بمـال

المسلمين الذى يَلْزَمُه ــ إن سَلِم دينُه وصَحَّ يقينُه ــ أن يُنْفِقَه فى مَرَابطهم، ويَذُبَّ به عن حَرِيمهم؛ لا أن يَعْكِسَه عن جِهَته، ويُلْفِتَه عن وِجْهته؛ بالنَّقْل إلىٰ عَدُوِّهم، و إدْخال الوَهَن بذلك عليهم. وقادَ إليه من الخيل العِتاقِ ما هو الآنَ عونٌ للكُفْر علىٰ الإيمان، ونَجْدةٌ للطاغية علىٰ السُّلْطان؛ وكان فيما أَتْحَفَه به الخمرُ التى حَظَر اللهُ عليه أن يَشْرَبها ويَسْقِيَها، وتَعبَّده بأن يجتنبها ويَجْتَوِيَها؛ وصُلْبانُ ذهبٍ صاغها لَهُ وتقرّبَ بها إليه تقرُّبًا قد باعدَه اللهُ فيه عن الإصابة والأصاله، وأدْناه من الجَهالة والضَّلاله؛ حتّٰى كأنهُ عاملٌ من عُمّاله، أو بِطْريق من بَطارقته.

فأمَّا فشلُه عن مُكافحته، ولَهَجُه بمُلاطفته، فضِدٌّ الذى أمره الله به فى قوله تعالىٰ: ﴿ يٰأيُّها الَّذين آمنُوا قاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الكُفَّار وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وٱعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾.

وأما نَقْلُه ما نَقَل من الخيل من ديار المسلمين إلىٰ ديار أعدائهم، فنقيضُ قوله عزَّ وجلَّ ﴿وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ﴾.

وأما إهداؤُه الخمرَ والصُّلْبان، فخلافٌ عليه تبارك ٱسْمُه، إذ يقول: ﴿ إنَّما الخَمْرُ والمَيْسِرُ والأَنْصابُ والأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾.

كلُّ ذلك عِنادًا لرب العالمين، وطَمْسًا لأعلامِ الدِّين؛ وضَنًّا بما يُحامِى عليه من ذلك الحُطَام، المجموعِ من الحَرام، المثمَّر من الآثام، المقتَطَع من فَىْءِ الإسلام؛ وقد فعل الآنَ بى وبالعساكر التى مَعِى ومَنْ نَضُم من أولياءِ أمير المؤمنين الذين هُمْ إخوتُه وصَحْبُه ــ إن كان مُؤْمنا، وأنصاره وحزبه ــ إن كان مُوقِنا؛ من تَوْعير المَسَالك وتَغْرِيق العُرُوب، وتَضْيِيق الأقوات، وٱستهلاكِ الأزْواد؛ ليُوَصِّل إلينا الضُّرَّ، ويُلْحِق بنا الجَهْد؛ فعْلَ العَدُوّ المبين، المخالف فى الدِّين؛ فهل يجتمع

[في أحدٍ من المَسَاوِى ـ أيَّد اللهُ أميرَ المؤمنين ـ ما اجتَمَع(١)] في هذا النادِّ العائِد، والشاذِّ الشارد؟، وهل يُطْمَع مِن مِثْله في حق يَقْضِيه، أو فَرْض يُؤَدِّيه، أو عهد يَرْعاه، أو ذِمام يحفَظُـه، وهو لله عاصٍ، ولإمامه مخـالِفٌ، ولِوالِدِه قاتِـل، ولرَحِمِهِ قاطِع؟ كَلّا واللهِ! بل هو الحقيقُ بأنْ تُثْنىٰ إليه الأعِنَّه، وتُشْرَعَ نحوَه الأسِنَّه، وتُنْصَب له الأرصاد، وتُشْحَذ له السُّيوفُ الحِدَاد، لِيَقْطع اللهُ بهـا دابِرَه، ويَجُبَّ غارِبَه، ويَصْرَعه مَصْرَع الأثيم المُليم، المستحقِّ للعذاب الأليم، أو يُفِيءَ إلىٰ الحق، إفاءَة الداخلِ فيه بعـدَ خُرُوجه، العائدِ إليه بعـد مُرُوقه، التائبِ المُنِيب، النازِع المستَقيل، فيكون حُكْمُه شبيهاً بحكم الراجع عن الرِّدَّة، المحمولِ علىٰ ظاهِرِ الشريعةِ، واللهُ يهدِى مَنْ يشاءُ إلىٰ صراطٍ مستقيم.

فالحمـدُ لله الذى هدانا لمَراشدنا، ووقَفَ بنا علىٰ السبيل المُنْجِية لنا، والمَقاصِد المُفْضِية إلىٰ رِضاه، البعيدةِ من سَطاه.

والحمـدُ لله الذى أعز أميرَ المؤمنين بالنصر، وأعطاه لِواءَ القَهْر، وجعلَ أولياءَه العالين الظاهرين، وأعداءه السافِلِين الهابطين، وهَنَّاه الله هذا الفتح ولا أخلاه من أشكالٍ له تَقْفُوه وتَتْبعه، وأمثالٍ تتْلُوه وتَشْفَعه، واصلًا فيها إلىٰ ماوصل فيه إليه من حِيازَتِه مُهَنَّأً، لم يُسْفَكْ فيه دَمٌ، ولم يُنْتَهك محرم، ولم يُنَلْ جَهْد، ولم يَمْسَسْ نَصَب.

أنهيت إلىٰ أميرالمؤمنين ذلك، لِيُضيفَ صُنعَ الله له فيه، إلىٰ السالِفِ من عوارِفه عنـده وأيَادِيه، وليجَدِّدَ من شكره جَلَّ وعلا ما يكونُ داعيا إلىٰ الإدامة والمَزِيد، مقتَضِيا للعَوْن والتأييد، إن شاء الله تعالىٰ.

[وكتب يوم الجمعة لتسع ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وستين وثلثمائة](٢)

---

(١) الزيادة عن مختارات رسائل الصابى المطبوعة (ج ١، ص ٩١) وهى لازمة لانتظام الكلام.

(٢) الزيادة من مختارات رسائل الصابى.

الأســــلوب الثــانى

(أن تفتتَح المكاتبة بلفظ «كتابى للخليفة والحال على كذا وكذا» ويُدْعى للخليفة بطول البقاء فى أثناء ذلك ، ويعبِّر الملِكُ المكتوب عنه عن نفسه بلفظ الإفراد مع التصدير بالعُبودية ، ويخاطَبُ الخليفة بأمير المؤمنين ويُخْتَمُ بالدعاء ونحوه)

كما كتب أبو الفَرَج البَبَّغا عن السلطان أبى تَغْلِبَ بن ناصر الدَّولة أحدِ ملوك بنى حَمْـدان بحَلَب وما معها ، جواباً للكتاب الواردِ عليــه من الطائع أو المُطِيع بالكُنْية والخِلَع ماصُورته :

«كتابى ــ أطالَ اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين ــ وعبدُ أمير المؤمنين مستديمٌ بشكرِ الله تعالىٰ مدَدَ النِّعم المتظاهرةِ عليــه ، والمِنَح المتنـاصِرةِ لدَيْه ؛ بجميــل رأيه أدامَ الله عُلُوّه وتقديمَه ــ معترفٌ بمـا طَوّقَتْه به السعادةُ من عَوارِف تَشْرِيفه ؛ متمسِّكٌ من الطاعة بمـا أحلَّهُ كَنَفَ إحسانه، متوصِّلٌ بالطَّرَف إلىٰ الاستِزادة من طَوْله وامتنانِه .

والحمدُ لله ربِّ العالمين ، وصلّى الله علىٰ سيد المرسلين، محمدٍ وآله الطاهرين .

ووصــل كتابُ أمير المؤمنين ــ أدامَ الله نَصْره ــ مشتمِلًا علىٰ فوائد الإرشـاد والتوقيف ، مقْترِنا بخصائص التَّكْرِمة والتشريف ؛ فاقتدَيْتُ من أوامره ــ أعلاها الله تعالىٰ ! ــ بأهْدىٰ دَليل، وسلَكْتُ فى شُكْر ما اعتمَدَنِى من إيثاره أوضَحَ سَبِيل ؛ وبَرَزْت لسائرِ مَنِ اختارنى ــ أيده الله ــ لسياسته من الخـاصَّة والعامّة فى الحُلَل الحالِيَة بسِمَات تشرِيفِه وإكرامه ، متدَرِّعا ثوبَىْ هَدْيه وسكينَته ، ومختالًا منهما بين كَنَفَىْ دفاعه ومَعُونته ؛ ومتقلِّدا عَضْــبَه الذى هَزَّ النصرُ غِرارَه ، وأطلق المَضاءُ شِفارَه ؛

وعاليًا علىٰ عُنُق الزمان، بامتطاءِ ما حَبَانى به من الحملان؛ مسترِقَّ النية بالرَّغْبة إليه، ومستَخْدِمَ النُّطْق بالثناء عليه؛ ومقتَصًّا أثَرَ أسلافى فى خِدْمته وخِدْمة آبائه المؤمنين، من الخلفاء الراشِدين، صلواتُ الله عليهم أجمعين؛ وآقتفاءِ مَذْهَبهم فى الذَّب عن فِئَة الخلافة والمُراماة دُونَ المِلَّه، والآجتهادِ فى طاعة الأئمه .

فالحمدُ لله الذى جعل صنائعَ أمير المؤمنين مستقرّةً عند مَنْ يرتَبِطُها بعَلائق الشكر، ويَحْرُسها بالتوفُّر علىٰ ما أفاد الإحمادَ وجميلَ الذِّكر؛ وأدامَ علوّ أمير المؤمنين! وأيدنا بعِزّ دولته، وبَسَط بالتمكين قُدرَته، وحَرَس من الغِيَر سلطانَه، وقَرَن بنَفَاذ الأمر يَدَه ولسانَه؛ ولا أخْلاه من ولىٍّ ينشيه ويصْنَعه، وشَكُور يُعْليه ويرفَعُه؛ وعَزْم يَحْمَدُ أثَرَه ويرتَضيه، ورأيٍ بالتوفيق يُبْرِمه ويُمْضِـيه . ووفَّقنى من القيـام بحقوق خِدْمته، والتمسُّك بفرائض طاعته، والمعرفةِ بمواقع آصطِناعه وتفضُّله، والآعتدادِ بمَنْح إنعامه وتَطَوُّله؛ لمـا يستَزِيدُنى من أيَادِيه وآلائِه، ويحرُسُ علىّ مَكَانى من جميـل آرائه، إنه جواد كريم .

وقد آذنتُ مَنْ بَعُـد وقَرُبَ برفع أمير المؤمنين ـ أدام اللهُ بَسْطته ـ ذِكْرِى عن تعريفِ الآسم بنباهة الكُنْية، وإصـدار ذلك إلىٰ الأسمـاع من شَريف عبارته، والإذنِ فيه لسائرِ مَنْ يذكُرُنى بحَضْرته، زادَ اللهُ فى جلالتها . وتقدّمتُ بإثبات ذلك علىٰ عُنْوانات الكُتُب آمتثالًا لأمره، وأخْذا بإذنه، ووُقُوفا عند رَسْمه؛ عارفًا قَدْرَ النعمة والمَوْهِبة فيـه . وآعتددْتُ بمـا أعلمنيه أميرُ المؤمنين من نيابةِ فلان عبده وما توخَّاه من محمود السِّفارة، وحُسْـن الوَسَاطة، ووجدتُ ما يجمعُنِي وإيَّاه من الإخلاص فى ولاء أمير المؤمنين أقربَ الأنسـاب، وأوكَدَ الأسـباب؛ فى تأكُّد الأُلْفة، وتثبيت قواعِدِ الطاعة؛ واللهُ يحرُسُ أمير المؤمنين فى كافَّة رعيته، وخاصَّـة أوليائه وصَنائع دولته؛ من آختلاف الآراء، وتشذُّب الأهواء؛ ويُعيننى من النُّهوض

بمفترَضات أياديه ، وواجبات مايُسْديه إلىّ ويُوليه ؛ [علىٰ] ماقرَّب منه وإليه ، وأزلَف عنده ولَدَيْه ؛ بمنه ومَشِيئته ، وحَوْله وقُوّته .

الحالة الثانية — من مكاتبات الملوك إلىٰ خُلَفاء بنى العباس ما كان عليه الأمرُ فى آخر دولتهم ببَغْداد .

والحال فيه مختلف : فتارةً يفتَتَح بالدعاء للدِّيوان العزيز، وتارةً بالدعاء لما يَعُود عليه ، وتارةً بالصلاة ، وتارةً بالسلام . وربما آفتُتحت المكاتبةُ بآية من القرءان الكريم مناسبة للحال .

قال المقرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" : والصدرُ نحو العبد أو المملوك أو الخادم يُقَبِّل الأرضَ ، أو العتباتِ ، أو مواطِئَ المواقف أو غير ذلك . ويخاطب الخليفة فى أثناء الكتاب بالدِّيوان العزيز، وبالمَوَاقف المقدّسة أو المشَرَّفة ، والأبواب الشريفة ، والباب العزيز، والمقام الأشْرف ، والجانب الأعْلىٰ أو الشريف ، وبأمير المؤمنين مجرّدةً عن سيدنا ومولانا ، ومرةً غير مجرّدةٍ مع مراعاة المناسبه والتسديد والمقاربه . ويختم الكتاب تارةً بالدعاء ، وتارةً بطالَعَ أو أنهىٰ أو غيرهما مما فيه معنىٰ الإنهاء .

قال : وآختُلِف فيما يخاطَبُ به المكتوب عنه عن نَفْسه : فكتب صلاحُ الدين آبن أيوب «الخادِم» وكتب بَنُوه والعادل أخُوه «المملوك» وكتب الكاملُ بن العادل «العبد» وجرىٰ علىٰ هذا آبنُه الصالح . وكتب الناصرُ بن العزيز «أقلّ المماليك» وكتب الناصر داود «أقلّ العبيد» ؛ وكان علاء الدين خوارزم شاه يكتب «الخادم المِطْواع» وتبعه علىٰ ذلك آبنُه جلالُ الدين ، وكانت أمُّ جلال الدين تكتب «الأمَةُ الداعية» . هذا علىٰ شَمَم أُنُوف الخوارزمية وعُلُوّ شأنهم .

وعنوان هــذه المكاتبات علىٰ آختلافها « الديوانُ العزيز، العـالى ، المَوْلوىّ، السـيدىّ، النبوىّ ، الإمامىّ ، الفلانى (بلقب الخلافة) أدامَ الله أيَّامَه، أو خلد الله أيامه، أو أدام الله سلطانه » علىٰ مُناسبة ما فى صَدْر الكتاب .

ثم هو علىٰ ستة أساليب :

الأســلوب الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بالدعاء للديوان العزيز)

قال فى "التعريف" : والمرادُ بالديوان ديوانُ الإنشاء، لأنــ المكاتباتِ عنه صادرةٌ وإليــه واردةٌ . قال : وسبب مخاطَبتِهـم بالديوان الخُضْعان عن مخاطبـة الخليفة نَفْســه ، ويكون الدعاء للدِّيوان بمـا فيه معنىٰ دوام العِزّ والسلطان وبَسْط الظِّلّ وما أشـبه ذلك . مثل : أدام الله أيامَ الديوان العزيز، أو أدام اللهُ ســلطان الديوان العزيز،أو خلَّد اللهُ أيام الديوان العزيز، أو خلَّد الله سلطان الديوان العزيز، وأدام الله ظِلَّ الديوان العزيز، وخَلَّد اللهظل الديوان العزيز، وبَسَط اللهُ ظلَّ الديوان العزيز، وما أشبه ذلك .

وهذه نسخةُ كتابٍ كتب به القاضى الفاضلُ عن السلطانِ «صلاح الدين يوسف آبن أيوب» صاحب الديار المصرية ، إلىٰ الناصر لدين الله الخليفةِ يومَئذ ببغداد ، بفَتْح القُدُس وما معه ، وآقتلاعِ ذلك من أيْدى الفَرَنْج وإعادته إلىٰ ما كان عليـه من الإسلام، وهى :

«أدام اللهُ أيامَ الديوانــ العزيز النبوىّ الناصرىّ ، ولا زال مظَفَّرَ الجِدّ بكلّ جاحد ، [غَنِيًّ](1) التوفيقِ عن رَأْى كلّ رائد، موقوفَ المَسَاعى علىٰ آقتنـاء مُطْلَقات

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من رسائل القاضى الفاضل الفتوغرافية .

المحامد، مستيقظ النصر والسيف فى جفنه راقد، وارد الجود والسحاب على الأرض غير وارد، متعدد مساعى الفضل وإن كان لا يلقى إلا بشكر واحد، [ماضى حكم القول بعزم لا يمضى إلا بنسل غوى وريش راشد][1] ولا زالت غيوث فضله [إلى الأولياء][1] أنواءً إلى المرابع وأنوارًا إلى المساجد، وبعوث رعبه إلى الأعداء خيلًا إلى المراقب وخيالا إلى المراقد.

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التباشير بصبح هذه الخدمه، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمه؛ فإنها بحر للأقلام فيه سبح طويل، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل، وبشرى للخواطر فى شرحها مآرب، ويسرى للأسرار فى إظهارها مسارب، ولله فى إعادة شكره رضا، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى. وقد صارت أمور الإسلام إلى أحسن مصايرها، وآستتبت عقائد أهله على بصائرها، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط، وصدق الله أهل دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط، وكان الدين غريبًا فهو الآن فى وطنه، والفوز معروضا فقد بذلت الأنفس فى ثمنه، وأمر أمر الحق وكان مستضعفا، وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا، [وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمه][1] فأدلجت السيوف إلى الآجال وهى نائمه، وصدق وعد الله فى إظهار دينه على كل دين، وآستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين، وآسترد المسلمون تراثا كان عنهم آبقا، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون به طيفا على النأى طارقا، وآستقرت على الأعلى أقدامهم، وخفقت على الأقصى أعلامهم، وتلاقت على الصخرة قبلهم، وشفيت بها وإن كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم.

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية نمرة ٢٢٩٤ أدب ص ٣٥.

ولمـا قَدم الدينُ عليها عرف منها سُوَيْداءَ قلبه ، وهَنَّأ كفؤُها الحجرُ الأسودُ بِبَتِّ عِصْمتِها من الكافر بحَرْبه ؛ وكان الخادم لايَسْعىٰ سعْيَه إلا لهذه العُظْمىٰ ، ولا يُقاسى تلك البُؤْسىٰ إلا رجاءَ هذه النُّعْمىٰ ؛ ولا يُناجزمن آستمْطَله فى حَرْبه ، ولا يُعاتِب بأطراف القَنا من تمَادىٰ فى عَتْبه ؛ إلا لتكونَ الكلمةُ مجموعه ، والدعوةُ إلىٰ سامعها مَرْفُوعه ؛ فتكون كلمــةُ الله هى العُلْيا ، وليفوز بجوهر الآخرةِ لا بالعَرَض الأدْنىٰ من الدنيا ؛ وكانت الألسنةُ ربمـا سَلَقَتْه فأنضَجَ قُلوبَها بالآحتقار ، وكانتِ الخواطِرُ رُبَّمـا غلَتْ عليـه مَرَاجِلُها فأطفأها بالآحتمال والآصْطِبار ؛ ومَنْ طلب خطيراً خاطَرْ ، ومَنْ رام صَفْقةً رابحة تجاسَرْ ، ومَنْ سَما لأنْ يُجَلِّى غَمْرةً غامَرْ ؛ وإلا فإنَّ القُعود يلين تحت نُيُوب الأعداء المَعـاجِمَ فتعَضُّها ، ويُضْعِف فى أيديها مَهْـــر القوائم فتقُضُّها ؛ هـــذا إلىٰ كون القعُود لايَقْضِى فرضَ الله فى الجِهاد ، ولا يُرْعىٰ به حقُّ الله فى العباد ؛ ولا يُوفىٰ به واجبُ التقليد الذى تطوّقهُ الخـادمُ من أئمــةٍ قضَوْا بِالحقِّ وبه كانُوا يَعْدِلُون ، وخلفاءُ الله كانُوا فى مثل هذا اليوم لله يَسْأَلون ؛ لاجَرَمَ أنهم أوْرَثُوا سُرورَهُمْ وسَرِيرهم خَلَفَهُم الأَطْهر ، ونَجْلَهم الأكبر ، وبَقِيَّتهم الشَّريفه ، وطَلْعتهم المُنيفه ، وعُلْوانَ صحيفةِ فضلِهم لاعَدِم سوادَ العَلَم وبياضَ الصَّحيفه ؛ فما غابُوا لمَّـا حضَر ، [ولا غَضُّوا](١) لمَّـا نَظَر ، بل وصلَهم الأجرُ لمـا كان به موصولا ، وشاطروه العملَ لمـا كان عنه منقولاً ومنه مقبولا ؛ وخَلَص إليهم إلىٰ المضاجع ما آطمأنَّتْ به جُنُوبهـا [وإلىٰ الصفائح ماعَبَقَتْ به جُيُوبها](١) وفاز منها بذِكْرٍ لايَزالُ الليلُ به سَميرا ، والنهارُ به بَصيرا ؛ والشرقُ يهتَـدِى بأنْواره ، بل إن أبدىٰ نُورا من ذاته هَتَف به الغَرْبُ بأنْ وارِهْ ؛ فإنَّه نور لاتُكِنُّه أغساق السُّدَف ، وذكر لاتُوارِيه أوراقُ الصُّحُف .

---

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفوتوغرافية المحفوظة بدار الكتب الخديوية نمرة ٢٢٩٤ أدب ص ٣٥ . وهى لازمة كما لايخفى .

وكتابُ الخادم هذا وقد أظفَر الله بالعَدُوّ الذى تشظَّت قناتُه شَقَقا ، وطارتْ فِرقُه فَرَقا ، وفُلّ سيفُه فصارَ عصًا ، وصُدِعتْ حصَاتُه وكان الأكثرَ عددًا وحصا ، فكَلَّت حملَاتُه وكانت قدرةُ الله تُصرِّفُ فيه العِنَان بالعِيان ، عقوبةً من الله ليس لصاحب يدٍ بها يدَان ، وعثرتْ قدمُه وكانت الأرض لها حَليفه ، وغُضّت عينُه وكانتْ عُيونُ السيوفِ دونها كَسِيفه ، ونام جَفْنُ سيفِه وكانت يقظَتُه تُرِيق نُطَف الكَرىٰ من الجُفُون ، وجُدِعتْ أُنُوفُ رِمَاحه وطالَمَا كانت شامخةً بالمُنىٰ أو راعِفَةً بالمَنُون ، وأضحتِ الأرضُ المقدّسةُ الطاهرةَ وكانت الطَامِثْ ، والربُّ المعبودُ الواحدَ وكان عندهم الثالثْ ؛ فبُيوتُ الشِّرْك مَهْدُومه ، ونُيُوب الكُفْر مهْتومه ، وطوائفُه المحاميه ، مجتمعةً علىٰ تسليم البلاد الحامِيَه ، وشُجعانُه المتوافيه ، مُذْعنةً ببذل المَطَامِع الوافِيَه ؛ لا يَرَوْن فى ماء الحَديد لهم عُصْره ، ولا فى فِنَاء الأفْنِيَةِ لهم نُصْره ؛ وقد ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّة والمَسْكنه ، وبَدَّل اللهُ مكانَ السيئةِ الحَسَنه ، ونَقَل بيتَ عبادته من أيدى أصحابِ المَشْأمةِ إلىٰ أيدى أصحاب المَيْمَنه .

وقد كان الخادمُ لَقِيَهُم اللَّقاةَ الأُولىٰ فأمدّه اللهُ بمداركته ، وأنْجده بملائكته ؛ فكسرهُمْ كَسْرةً ما بعدها جَبْر ، وصَرَعهُمْ صَرْعةً لا يَعِيش معها بمشيئة الله كُفْر ؛ وأسَرَ منهم من أُسِرَتْ به السَّلاسِل ، وقَتل منهم من فَتَكتْ به المَنَاصِل ؛ وأَجْلَتِ المعركةُ عن صَرْعىٰ من الخيل والسِّلاح [والكُفَّار ، وعن أنصاف محيل فانه قتلَهم بالسيوف الأفلاق والرِّماح الأكسار ، فنِيلُوا بثأر من السلاح ونالُوه أيضا بثار](١) ؛ فكم أهِلَّةِ سيوف تقارضن الضِّرابَ بها حتّى عادتْ كالعَرَاجين ، وكَمْ أنْجُم رماحٍ تبادلَتِ الطِّعانَ حتّى صارتْ كالمَطَاعِين ؛ وكم فارسيَّةٍ ركَضَ عليها فارسُها السَّهمَ إلىٰ أجلٍ فاختلَسه ، وفَغرتْ تلك القوسُ فاهَا فإذا فُوها قدنهش القِرْنَ

(١) الزيادة من رسائل الفاضل الفتوغرافية .

علىٰ بُعْد المسافة فافترسَه ، وكان اليومُ مشهودا ، وكانت الملائكةُ شُهودا ، وكان الكُفرُ مفقودا ، والإسلام مولودا ، وجعل اللهُ ضلوعَ الكُفَّار لنار جهنَّم وَقُودا ؛ وأُسِر الملِكُ وبيدِه أوثقُ وثائقه ، وآكدُ وَصْلِه بالدِّين وعلائقه : وهو صَليبُ الصَّلَبوت ، وقائدُ أهل الجَبَرُوت ؛ وما دُهِمُوا قطُّ بأمرٍ إلا وقام بين دهائمهم يَبْسُط لهم باعَهْ ، ويحرِّضُهم وكان مدُّ اليدَيْن فى هــذه الدَّفْعة وَداعه ؛ لا جَرَمَ أنهم تهـافَتَ علىٰ نارهم فَرَاشُهم ، وتجمَّعَ فى ظِلِّ ظَلامه خَشاشُهُم ؛ فيقاتلون تحت ذلك الصَّـليب أصلَبَ قتال وأصــدَقَه ، ويَرَوْنه ميثاقًا يَبْنُون عليه أشدَّ عَقْدٍ وأوثَقَه ، ويَعُدّونه سُورا تَحْفِرُ حوافرُ الخيل خَنْدَقَه .

وفى هذا اليوم أُسِرتْ سَرَاتُهم ، وذهبَتْ دُهاتُهم ، ولم يُفْلِتْ معروفٌ إلا القَوْمص وكان لَعَنه الله مِليًّا يومَ الظَّفَر بالقتال ، ويومَ الخِذْلان بالاحتيَال ؛ فنجَا ولكن كَيْف ، وطار خَوْفا من أن يلحقه مِنْسر الرُّمْح وجَناحُ السَّيْف ، ثم أخذه اللهُ بعد أيَّام بيــده ، وأهلَكه لمَوْعده ؛ فكان لعِدّتهم فَذَالك ، وآنتقَل من مَلَك الموتِ إلىٰ مالِكْ .

وبعد الكَسْرةِ مرَّ الخادمُ علىٰ البِلَاد فطَوَاها بما نَشَر عليها من الراية العبَّاسيَّة السوداءِ صِبْغا ، البيضاءِ صُـنْعا ، الخافقةِ هى وقلوبُ أعدائها ، الغالبةِ هى [وعزائمُ أوليائها](١) المستضاءِ بأنوارها إذا فتح عَيْنَها البِشْر ، وأشارتْ بأنامل العَـذَباتِ إلىٰ وجه النَّصْر ؛ فافتتح بلَدَ كذا وكذا وهــذه أمصارٌ ومُدُن ، وقد تسـمَّى البلاد بلادا وهى مَزارِعُ وفُدُن ؛ وكلُّ هذه ذواتُ معاقِلَ ومَعاقِر ، وبحارٍ وجَزائر ؛ وجَوامِعَ ومَنائِر ، وجُموعٍ وعساكِر ؛ يتجاوزها الخادمُ بعد أن يُحْرِزَها ، ويتركُها وراءَه بعد أن يَنْتَهِزَها ؛ ويَحْصُدُ منها كُفْرا ويَزْرعَ إيمانا ، ويَحُطّ من منائرِجوامِعِها صُلْبانا ويرفَعَ أذانا ؛ ويُبَدِّلَ المَذَابِحَ

---

(١) الزيادة من رسائل الفاضل .

منابِرِ والكنائسَ مساجِد، ويُبوِّئَ بعد أهل الصُّلْبان أهلَ القرءان للذَّبِّ عن دينِ الله مَقاعِدْ؛ ويُقِرّ عينَه وعيونَ أهل الإسلام أن تَعلَّق النصرُ منه ومن عسكره بجار ومَجْرور، وأن ظَفِر بكل سُورٍ ما كان يُخافُ زِلزالُهُ وزِيالُه إلىٰ يوم النَّفْخ فى الصُّور. ولما لم يبقَ إلا القدسُ وقد اجتمع إليها كلُّ شريد منهم وطَرِيد، واعتصم بمنَعَتِها كلُّ قريب منهم وبَعيد، وظَنُّوا أنَّها من الله مانِعَتُهُم، وأن كنيستَها إلىٰ الله شافِعتُهم؛ فلما(١) نازلها الخادمُ رأىٰ بلدًا كبِلَادٍ، وجمعًا كيوم التَّناد، وعزائمَ قد تألَّفَتْ وتألَّبت علىٰ الموت فنزلَتْ بعَرْصته، وهان عليها موردُ السيف وأن تموت بغُصَّته؛ فزاول البلَدَ من جانب فإذا أودِيَةٌ عميقَه، ولُجَج وَعْرةٌ غَرِيقه، وسُورٌ قد انعطفَ عَطْفَ السِّوار، وأبْرِجةٌ قد نزلَتْ مكانَ الواسطةِ من عِقْد الدار؛ فعدل إلىٰ جهةٍ أُخْرىٰ كان للطامع عليها مُعرَّج، وللخيل فيها متوَلَّج؛ فنزل عليها، وأحاط بها وقرُب منها؛ وضُرِبت خَيْمتُه بحيث ينالُه السِّلاحُ بأطْرافه، ويزاحمُه السُّور بأكتافِه؛ وقابلها ثم قاتلها، ونَزَلَها ثم نازَلها؛ وبرزَ إليها ثم بارزَها، وحاجَزَها ثم ناجَزَها؛ فضَمَّها ضَمَّةً ارتقبَ بعدها الفَتْح، وصَدَع أهلَها فإذا هم لايَصْبِرُون علىٰ عُبُوديةِ الجِدّ عن عتق الصَّفْح؛ فراسلُوه ببَذْل قِطيعة إلىٰ مُدَّه، وقصَدُوا نَظِرةً من شِدّة وانتظارًا لنَجْدَهْ؛ فعرَفَهم فى لَحْن القَوْل، وأجابهم بلسان الطَّوْل؛ وقدّم المَنْجنيقاتِ التى تتولّىٰ عُقوباتِ الحُصونِ عِصِيُّها وحبالُها، وأوتَرلهم قسِيَّها التى تَضْرِب فلا تُفارِقُها سهامُها ولا يُفارِقُ سِهامَها نِصالُها؛ فصافَحَتِ السُّورَ بأكافه فإذا سَهْمُها فى ثَنَايَا شُرُفاتها سِوَاك، وقَدَّم النصرُ نَسْرا من المَنْجنيق يُخْلِد إخلادَهُ إلىٰ الأرض ويَعْلُو عُلُوَّه إلىٰ السِّماك؛ فشَجَّ مَرادِعَ أبراجها، وأسمعَ صوتَ عَجِيجها، ورفع مُثَارَ عَجَاجِها، فأخلىٰ السُّور من السيَّاره، والحَربَ من النَّظَّاره؛ فأمكن النَّقَّاب، أن يُسْفِر للحرب النِّقاب، وأن يُعِيد

(١) كذا فى الرسائل أيضا بغير ذكر جواب لما الأولى وهو مفهوم من المقام.

الحجرَ إلىٰ سِيرته من التُّراب؛ فتقدّم إلىٰ الصَّخر فمضغ سَرْدَه ، بأنيابِ مِعْوله ، وحَلَّ عَقْده ، بضَربِه الأخرقِ الدالِّ علىٰ لَطافة أنْمُله ، وأسمعَ الصخرةَ الشريفةَ حَنينه واستغاثته إلىٰ أن كادت ترق لمُقَبِّله ؛ وتبرّأ بعضُ الحجارة من بعض ، وأخذ الخرابُ عليها مَوْثِقا فَلَنْ تَبرحَ الأرض ؛ وفُتح فى السور بابٌ سَدَّ من نَجَاتهم أبوابا ، وأخذ نقْبٌ فى حجره قال عنده الكافر : يالَيْتَنِي كُنْت تُرابا ؛ فحينئـذ يئس الكُفَّارُ من أصحاب الدُّور ، كما يئس الكُفَّار من أصحاب القُبور ، وجاء أمرُ الله وغَرَّهم باللهِ الغَرُور . ●

وفى الحال خرج طاغيةُ كُفرهم وزِمامُ أمرهم ٱبن بارزان سائلا أن يُؤخَذَ البلَدُ بالسِّلْم لا بالعَنْوه ، وبالأمان لا بالسَّطْوه ؛ وألقىٰ بيده إلىٰ التَّهْلُكه ، وعَلَاه ذُلُّ المَلْكة بعد عِزِّ المملَكه ؛ وطرح جَبِينَه فى التُّراب وكان حينًا لا يتعاطاه طارِح ، وبذل مَبْلَغًا من القَطيعة لا يطمَحُ إليه طَرْفُ آملٍ طامح ؛ وقال : ها هنا أُسارىٰ مؤمنون يتجاوزُون الألوف وقد تعاقد الفَرَنْج علىٰ أنهـم إن هُجِمت عليهم الدار ، وحَمَّلت الحربُ علىٰ ظهورهم الأوزار ، بُدِئَ بهـم فعُجِّلوا ، وثُنِّى بنساء الفَرَنْج وأطفالهم فقتِّـلوا ، ثم ٱسـتقتَلُوا بعـد ذلك فلم يُقْتَل خَصْم إلا بعد أن يَنتَصِف ، ولم يُسَلّ سيفٌ من يدٍ إلا بعد أن تنقطِع أو ينقَصِف ؛ وأشار الأمراءُ بالأَخْذ بالمَيْسور ، من البلد المأسُور ؛ فإنه إن أُخِذ حَرْبا فلا بدّ أن تقْتحِم الرجالُ الأنجاد ، وتبْذُل أنفُسَها فى آخر أمرٍ قد نِيل من أوّله المُراد . وكانت الجراحُ فى العساكر قد تقدّم منها ما ٱعتقل الفَتَكات ، واعتاقَ الحَرَكات ، فقُبِل منهـم المبذُولُ عن يدٍ وهم صاغِرُون ، وٱنصرف أهلُ الحرب عن قُدْرة وهم ظاهِرُون ، وملك الإسـلامُ خِطَّةً كان عهدُه بها دِمْنَةَ سُكَّان ، فخَدمها الكُفْرُ إلىٰ أن صارَتْ روضةَ جِنَـان ؛ لا جَرَمَ أن الله أخرجهم منها وأهبطَهم ، وأرضىٰ أهل الحقّ

وأسْخَطَهم، فإنّهم ـ خذلهم الله ـ حَمَوْها بالأسَلِ والصِّفاح [وبَنَوْها بالعمَد والصُّفّاح](١) وأوْدَعُوا الكنائسَ بها وبيوتَ الديوية والاستبارية منها كلَّ غريبةٍ من الرُّخَام الذى يَطَّرِد ماؤُه، ولا يُطْرَد لَأْلاؤه، قد لَطُف الحديدُ فى تجزيعه، وتفنَّن فى توْشيعه، إلىٰ أنْ صار الحديدُ، الذى فيه بأس شديدٌ، كالذهب الذى فيه نَعِيم عَتيد، فما تَرَىٰ إلا مقاعدَ [للرياض لها من بياض الترخيم رَقْراق ، وعمدا كالأشجار لها من التنبيت أوراق](١) .

وأوزع الخادمُ بَرَدِّ الأقصىٰ إلىٰ عَهْدِه المعهود ، وأقام له من الأئمة من يُوفِّيه وِرْدَه المورُود، وأُقيمت الخطبةُ يوم الجمعة رابعَ شهر شعبان ، فكادتِ السمواتُ يتفطَّرنَ للسُّجُوم لا للوُجُوم، والكواكبُ يَنْتثِرْن للطَّرَب لا للرُّجُوم، ورُفِعَتْ إلىٰ الله كلمةُ التوحيد وكانتْ طرائقُها مسدُودَه، وظهرَتْ قُبورُ الأنبياء وكانتْ بَيْنَهم بالنَّجاسات مَكْدُوده، وأُقيمت الخمسُ وكان التثليث يُقْعِدها [وجَهَرت الألسن بالله أكبر وكان سِحْرُ الكفر يَعْقِدُها](١) وجُهِر باسم أمير المؤمنين فى قُطْبه الأقرب من المِنْبر، فرُحِّب به ترحيبَ مَن بُرَّ بمن بَرّ، وخَفَق عَلَماه فى حِفافيه، فلو طار به سُرورا لطار بجناحيه .

وكتاب الخادم وهو مُجِدّ فى آستفتاح بقيّة الثُّغور، وآستشراح ما ضاق بتمادى الحَرْب من الصُّدُور، فإنّ قُوىٰ العساكر قد آستُنْفِدتْ مواردُها، وأيَّامَ الشتاء قد مَرَدَتْ مواردُها، والبلاد المأخوذةُ المشارُ إليها قد جاستِ العساكرُ خلالَها، ونَهَبَتْ ذخائِرَها وأكَلَتْ غِلالَها . فهى بلاد تُرْفِد ولا تُسْتَرْفَد، وتُجَمّ ولا تستنفَد ، ويُنفَق عليها ولا يُنْفَق منها، وتُجهَّز الأساطيل لبحرها، وتقام المَرابط لبرِّها، ويُدْأب فى عمارة أسوارها ومَرَمَّات معاقلها ؛ وكلُّ مشقَّة فهى بالإضافة إلىٰ نعمة الفتح

(١) الزيادة من نسخة الرسائل الفتوغرافية .

محتَّملة ، وأطاعُ الفرنج فيا بعدَ ذلك مذاهبُها غيرُ مُرجِئة ولا مُعتزِله ، فلن يدعُوا دعوة يرجُو الخادم من الله أنها لاتسمَع ، ولن تزولَ أيديهم من أطواق البلاد حتّٰى تُقْطَع .

وهذه البشائر لهـا تفاصيلُ لا تكادُ من غير الألسنة تتشخَّص ، ولا بما سوىٰ المشافهة تتلخَّص . فلذلك نفَّـذنا لسانا شارحا ، ومبَشِّرا صادحا ، ينشُر الخـبر علىٰ سياقته ، ويَعْرِض جيشَ المَسَرة من طَليعته إلىٰ ساقته .

الأســـلوب الثـانى

(أن يفْتَتِح الكتّاب بالدعاء لغير الديوان بما فيه تعظيمُ الخليفة)

كما كتب القاضى الفاضلُ عن الملك الناصر « صلاح الدين يوسف بن أيوب » إلىٰ ديوان الخلافة ببغداد .

أسـعدَ اللهُ عظماءَ الأملاك بالانتِساب إلىٰ الخدمة الشريفةِ النبوية ، وأوزعَهم ما أمَرَهم به من طاعتها . وخلَّد مُلْكَ الديوان العزيز النبوىّ مادامتِ الأفلاكُ قائمه ، والنُّجومُ ناجمــه ، ونقع بغَمَائمها(1) غُلَلَ الآمال الحـائمه ، وفسَّر بمكارمها حُلُمَ الأمانىِّ الحـالمه ، ورَتَق بتـدبيراتها المعصومةِ فُتوقَ النُّوَب المتعاظمه ، وأظهر علىٰ أيدى أوليـائها معجزاتِ نَصرِها ، وصَرَّف الأيّامَ والليالىَ بين المرْضيّينِ لله نهيِها وأمْرِها ، وأودَعَ بركاتِ السماء والأرض بمُودَعها ومستقَرِّها .

المملوك ـ وإن كان قد يسَّر اللهُ له مذ أُطْلِقت عذَبةُ لسانه خدمةَ الدولة العباسية ، فتفسح فى وَسِيع مآثِرِها ، وتخيَّر من بديع جواهرها ، وامتاح من نَمير زواخِرِها . فإنه لايعتذِرُ عن الحَصَر الذى اعتراه فى وَصْف المنعَم عليه به من الخطاب الشريف ،

(1) أى الخدمة النبوية والمراد بها الخلافة .

الذى لولا أنّ عِصْمة الموالاة تُثبِّتُ فُؤادَه الخافِق، وتَسدِّدُ لسانَهُ الناطق، لما تعاطىٰ وَصْفَ ما أعطاه من كتابِه المرقوم، وسَبَقَ إليه من سَحابه المرْكُوم، فإنه مما يَشِفُّ عنه الأَملُ ناكصا وهو كَسِير، وينْقلِب دُونَه البصرُ خاسِئًا وهو حَسِير، إلا أن الإنعامَ الشريف يَبْدأ الأولياءَ بمالو وَكَلهم إلىٰ أمانِيِّهم لتهيَّبت أن تتعاطىٰ حظيته، ولو فَوَّضَه إلىٰ راحتِهم لنكَلَتْ عن أن ترقِّى نَصِيَّته، ولا غَرْوَ للسَّحاب أن يُصافِح قَطْرُه الثَّرىٰ، والفَجْرِ أن يُشْرِق نورُه علىٰ عين الكَرىٰ والسُّرىٰ .

فالحمدُ لله الذى قرّبَ علىٰ المملوك مَنَال الآمال، وثَبَّت حَصاةَ فؤاده لما لاتستقِلُّ بحمله صُمُّ الجبال . ويستنيبُ عن جهر الشُّكر بسِرِّ الأدْعيه، ويقتَصِر علىٰ مايُفْضِى به إلىٰ المحاريب وان لم يُقَصِّر عمـا يقُصُّــه فى الأنديه ؛ ويُطالِـعُ بأن مملوك الخِدْمـة وآبن مملوكها أخذ الكتَابَ بقُوّه، وشَمَّر لخدمة أشرف خلافةٍ لأشرفِ نُبُوَّه، وتلقَّاه تلَقِّىَ أبيه الأوّلِ الكلمات ؛ ورأىٰ إطْلاعَ اللهِ لأمير المؤمنين علىٰ ما فى ضميره من طاعته إحدىٰ المعجِزات والكرامات، وسَمِع المشافهة خاشِعا متصدّعا، وآشتَمَل عليها بفهمه ساميا طَرْفُه متطلِّعا .

ولقد أشبَه هذا الكتَابُ الكريم بَيْعةً أُخِذتْ عليه، مدّ إليها يَدَه آخذا بكلتا يَدَيْه . والمملوك يرجو بل يتحقَّق أن هذا العبدَ المشارَ إليه سَيُوفِى علىٰ سابقه من عبيد الدولة العباسية فى الزمان، ويكون بمشيئة الله أسبقَ منهم بالإحسان .

وقد صدرَتْ خِدْمتانِ من جهته وبعدهما تصْدُر الخِدَم، ولا يألو جَهْدا فى الخدمتين مباشِرًا بيده السيفَ ومستنيبا عنهـا العَلَم، وله نُصْرة باقية فى الولاء وهو غَنِىٌّ بهـا عن النصير، وسريرةٌ باديةٌ فى الطاعة هو إليها أسكَنُ منهـا إلىٰ كل مُشير . يعود المملوك إلىٰ ما لا يزال يفتتحُ به الصلوات المفروضة، ويختَتِمُ به الختَمات المعروضه :

من الدعاء الصالح الذى [وان] أغنىٰ الله وليَّه عنه فقد أحوج ذَوِى العقائد السليمةِ إليه : لأنه مُزَكٍّ لأعمالهم، بل متمِّمٌ لإسلامهم، وكيف لايَدْعُون لمن يُدْعَون به يوم يُدْعىٰ كلُّ أناس بإمامهم، فيقول : ـ جمع اللهُ لأمير المؤمنين طاعةَ خلقه ! ، وأذلَّ رقابَ الباطل سيفُ حقه ! ، وجعل اللهُ ما هو قبضتُه فى الأخرىٰ قبضةَ أمير المؤمنين فى الأولىٰ ! من الأرض التى هى موطوءة كالسموات العُلىٰ ، وأدام نِعَمه علىٰ هذه الأمة بإمامته ، وأظهر كرامة نبيِّه عليه السلام بما يُظاهِره من كرامته ، وعَجَّل لمن لا يقومُ بفرض وَلايته إقامة قيامَتِه ، وردّ بسُيُوفه التى لا تُردُّ ما الإسلام ممطولٌ به من ظُلامته ، وأقام به مَنَاهِج الدِّين لأهله ، وأظهرَه بمظاهرَته علىٰ الدِّين كلِّه ، حتّٰى يلقىٰ اللهَ وما خَلَّف فى الدنيا كافرا ، ولا ضميرًا إلا بالتوحيد عامرا ، ولا بَلَدًا إلا وقد بات الإسلام به آهلا وقد أصبح منه الكفرُ داثرًا، إن شاء الله تعالىٰ .

الأسلوب الثالث

(أن يبدأ بآية من كتاب الله تعالىٰ تناسب الحال)

كما كتب القاضى الفاضل ، عن السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب » إلىٰ الخليفة المستضىء ببغداد ببشرىٰ بفتح بلد من بلاد النُّوبة والنُّصْرةِ عليها :

﴿ ولقد كتبْنا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْـدِ الذِّكْرِ أنَّ الأرْضَ يرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ ﴾ : ﴿ سلامٌ قَوْلًا مِنْ ربٍّ رَحِيم ﴾ : ﴿ فَرَوْحٌ ورَيْحانٌ وجَنَّةُ نَعِيم ﴾ . وصلاةٌ يتبعها تسليم ، وكأْسٌ يمزُجُها تَسْنِيم . وذِكْرٌ من الله سبحانه فى الملإ الأعلىٰ ورحمةُ الله وبركاته معلومةٌ من النشأة الأولىٰ علىٰ مولانا الإمام « المستضىء بالله » المستضاءِ بأنواره ، المستضاف بداره ، الداعى إلىٰ الحقِّ وإلىٰ طريقٍ مستقيم ، الراعى للخَلْق كما يَرْعىٰ

النسيم النَّسيم، العامّ فضلُه، التامّ عدلُه، المطروق مَوْرِدُ فِنائه، المصدوق فى مَوْرِد ثنائه، المحقوق من كل وَلِيٍّ بولائه، آبنِ السادة الغُرّ، والقادة الزُّهْر، والذّادة الحُمْس، والشادة للحق على الأُسّ، سُقاة الكَوْثر وزمزم والسَّحاب، وولاة الموْسِم والموْقف والكِتَاب، والموصولِ الأنساب [يومَ] إذا نُفِخ فى الصور فلا أنسابَ، والصابِرُون على حساب أنفُسهم فهم الذين يُؤْتَوْنَ أجْرَهم بغير حِسَاب .

مملوكُ العَتَباتِ الشريفةِ وعبْدُها، ومن آشتمل على خاطره وَلَاؤُها ووُدُّها، وكانت المشاهدةُ لأنوارهِ العليةِ التى يَوَدُّها، ومَنْ يَقْرُن بفرض الله سبحانه فَرْضها، ويُسابِقُ بطاعته إلى جنةٍ وصفها الله تعالى بقوله ﴿ وجَنَّةٍ عَرْضُها ﴾ : يَلْثُم وجهَ تُرابها، ويرى على بُعْد دارِهَا الأنوارَ التى تُرى بها، ويقِفُ لدَيْها وُقُوفَ الخاضِع، ويَضَع أثقالَ الآثام عن ظهره منها بأشرف المواضِع للواضِع، ويُخْبِتُ إليها إخباتَ الطائع الطائع، ويرجو فضْلَها رجاءَ الطامح الطامِع . ولولا أنَّ الكتابَ حجابٌ بينه وبينَ المَهابة التى تحُولُ بين المرءِ وقلبِه، والجلالةِ التى هو فى تعظيمها على نُورٍ من رَبِّه، لكان خاطِرُه فى قَبْضة الهلَع أسيرا، ولا نْقلَبَ إليه البصرُ خاسِئًا حَسِيرا، ولكنَّ قلَمه قد تَشَاجع، أن كانَ لسانهُ عن الإبانةِ قد رَاجَع . فيقول :

إنَّ اللهَ قد رَفَع مِلَّةَ الإسلام على المِلَل، وكَفَل نَصْرَها وكفى ما كَفل، وحمى مُلْكَها وحَمَل، وجعل لها الأرضَ فى أيْدى المخالِفين وَدائع، ومكَّن يَدَه من أعناقهم فهى إمَّا تَعْقِد الأغْلال أو تَصُوغ الصَّنائع، والحقُّ بها قائمُ العَمُود، والسيفُ الكِفَايةُ لازِمُ الغُمُود، والبشائرُ تُمَسِّك الصَّباح وتُخَلِّقُ الدُّجى، والخيلُ على طُول ما تشتَمل الوَحَا تنتَعِل الوَجى، والأيامُ زاهِره، والآياتُ باهِره، وعِزَّةُ أوليائها قاهِره، وذِلَّةُ أعدائها ظاهِره، وعناياتُ الله لَدَيْها متوالِيَةٌ متظاهِره . إذا تغرَّب آسمُها يوما عن

مِنْبرٍ أُعِيــد إلىٰ وَطَنِه غَدا ، وإذا أُوقِدَتْ نارُ فتنةٍ فى معصيتها أوقِدَتْ فى طاعتهــا نارُ هُدىٰ .

وقد كان النيــلُ قِدْما قَرَتْ عن الفُرات أبناؤه ، وتحصَّنت غُلَل المؤمنين عنــه فلم يتغَلْغَل إليها ماؤه ، وكادتِ السماءُ لاتُعِينه بمطَرِها ، والأرضُ لا تُوشِّيه بزَهَرِها ، والأعناق قد تقاصرَ دُون الراجين بدو معصهــا (١) ، والقلوبُ قد لاذَتْ بأستار الجدار معضها (١) ، والأوثانُ مَنْصوبه ، والآيات مغصوبه ، والتِّيجان بغير أكفائها من الهامات مَعْصُوبه ، والدِّين أديانا ، والمذَّكِّرون بالآياتِ يَخِرُّون عليها صُمًّا وعُمْيانا ؛ والعادلُونَ بالله قد وَطَّنوا ألسِــنَةً وصَرَّحوا عقائد ، والمعتدون قد أضَلُّوا فِعالا وضَلُّوا مَقاصِد ، وكراسيُّ خلافةِ الله قد أُلْقِيَ عليها أجسادٌ كانت تَقْعُد منها مَقاعِد ، ومنابِرُ كلماتِ الله قد كاد كَيْدُهم يأتِى بُنْيانها من القواعد ، وجَرَتْ علىٰ بُنُوة النُّبُوة أشدُّ نَبْوه ، وقَصُرَت الأيدى فلاحَدُّ سَوْط ولاحدُّ سَطْوه ، ثم قَسَتْ قُلُوبٌ ﴿فهى كالحِجارةِ أوأشَدُّ قَسْوه﴾ وغَرَّت الأيَّامُ وما وعدت ، وأوردتِ الهِمَمُ وما أصــدَرَتْ ، وطغىٰ طُوفان الطُّغْيان ولاعاصِمْ ، وسَما بناءُ البُهْتان ولاهادم ، وضاقتِ الصُّدُور ، ورحَلَتْ بغَليلها إلىٰ القبور ، وظُنَّ أن طيَّ دولتهــم معدُوقٌ بالنُّشُور ؛ حتّٰى إذا جَلَّاها اللهُ لوقْتِها ، وأنجزَ جموعَ الضَّلال إلىٰ ميعاد شَتِّها ، وأراهم آيةَ مَعْدِلته ﴿وما نُرِيهِم مِنْ آيةٍ إلَّا هِيَ أكْبَرُ مِنْ أُخْتِها﴾ ﴿وجاء الحَقُّ وظَهر أمْرُ اللهِ وهم كارِهُونَ﴾ : ﴿وحَبِطَ ما صَنَعُوا فِيها وباطِلٌ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

كانت نعمةً مِن الله يمُنُّها علىٰ المملوك أنِ انتجبه من بينِ أهلِ أرضه ، وانتخبه لإقامة ماأمات الباطلُ من فَرْضه ، ويَسَّره لما يَسَّره من نُصْرة الحق وأهلِه ، وبَشَّره

(١) كذا فى الاصول بهذا الرسم ولم نعثر على هذه الرسالة فى الرسائل .

بمـا بَشَّره من لواء النصر ومَدَّ من ظِلِّه ، وألهمه الهِمَّةَ التى ٱفترعَ منها بكرا ، ومنحه النُّصرة فما يستطيع العدوُّ صَرْفا ولا نَصْرا . مكَّنه من صَيَاصِيهم فحَلَّها ، ومن دِمائهم فطَلَّها ، ومن سيوفهم ففَلَّها ، ومن أقدامهم فاستزَلَّها ، ومن منابِرِ دُعَاتهم فعجَّل تَداعِيهَا ، ومن أنْفُسِ أعدائهم فأكثر تَنَاعِيهَا ، وأبْرزَ الذين كُتِبَ عليهم القتلُ إلىٰ مَضَاجعهم ، ويَسَّر الذين كُتب لهم العفوُ إلىٰ مَنَافِعِهم ، ونثَر خَرَزاتِ المُلْك من تِيجانِهـا ، وفَضَح علىٰ يدِه و بلسانِه ما زوّرتْه من أنسابِها ، وحاسَبَها فأظهر زَيْف حِسَابها ، ونقلَها من ظهورِ أسِرَّتها إلىٰ بُطُون تُرابها ، وعمَدَ إلىٰ أهـل دَعْوتها الذين بَسَقُوا بُسُوق النخل فأعلاهم علىٰ جُذُوعِها ، وحملتْ قلوبُهم فُوقَ الحقد فأخرجها من أكمام طُلُوعِها ، فهل تَرىٰ لهم من باقِيه ، أوتَسْمَعُ لهم من لاغيه ، أو تَجِدُ إليهـم من صاخيه ، فأصبَحُوا لا تُرىٰ إلا مساكِنُهم أومَساكِينُهم ، وحُصِدوا حَصْد الحشيش ثم لاتُخاف سُيُوفهم ولا سكاكِينُهم ، وٱستُنْزِلوا من عِقاب اللُّوح ، وسُجِنوا فى الهَمِّ من طول مُداوَمة عِقاب الرُّوح ، ثم تداركُوا إلىٰ الدَّرْك ، وٱشتركُوا فى الشِّرْك ، وأقفرتْ منهم عِراص ، وزَهِدَتْ فيهم خَوَاص ، وعُلِم أنْ ليس لله غالِبْ ، وأن ليس يفُوتُه طالِب ، وأنَّ الملكَ لله وحده ، وأن الوَيْلَ لمن تجاوز أمْره وحَدَّه .

وكان الملوكُ ممن عَطَّل من أوثانهم ، وأبْطَلَ من أديانهم ، قائرًا بحسـنة ينظُر إلىٰ حسناتِ خليلِ الله صلَّى الله عليه وسلم فى كَيْده الأصنام وتكسيرِها ، وتضليلِهِ عابِدِيها وتكفيرِها . وعمد الملوك إلىٰ المحاضر فجمعَها ، وإلىٰ المنـابر فرفعَها ، والجمعةِ فأطاع من شَرَعها ، وأسماءِ صَحابة رسول الله صلَّى الله عليـه وسلم فوصَلها باسمه وما قطَعها ، وعمومتِه رضوانُ الله عليهم فتلاها له وٱتَّبعها ، وأشاد باسم أمير المؤمنين لتكون الصلاةُ جامعه ، والذِّكرىٰ شاملةً والإمامةُ للجماعة شارعه ، والهدايةُ للضَّلالة صارعه ، فعادتْ للملَّة أعياد ، وٱخضَرَّت للمنبر أعواد ، وأُنْجِز للأُمة ميعاد .

وبعد ذلك تحاشدتْ أولياء الذاهبين وتنادتْ ، وتساعتْ نحو مستقرّ المملوك وتعادتْ ﴿وإذْ زَيَّن لَهُمُ الشَّيْطانُ أعمالَهُمْ وقال لا غَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ من النَّاسِ وإنِّى جارٌ لَكُمْ فلَمَّا تَراءتِ الفِئَتانِ نَكَصَ عَلىٰ عَقِبَيْهِ وقال إنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ﴾ وكانوا حِميَّة حامِيَةً من بنى حامٍ كالجراد أرْجُلا ، إلا أنَّ الله أصلاها بِنيرانِه ، وكالماء مَدًّا إلا أنَّ الله أغرقها بطُوفانِه ، وكالنمل لونًا وطُرُقا إلا أنَّ اللهَ حَطَمها بسُلَيْمانه ، مع مَنِ انضمَّ إليهم من ألفافٍ وأطراف ، وأوشابٍ وأوباش : من جُندىٍّ كسَبَه سيفُه ذُلَّه ، وطَرَده عن مواقف الكِرام وبمجالِّ الخِزْى أحَلَّه ، ومن أرمنىٍّ كانوا يفْزَعُون إلىٰ نُصْرة نَصْرانيَّته ، ويعتمِدُون منه علىٰ ابن معمودِيَّته ، ومن عامِّىٍّ أجابهم لفَرْط عَماه وتَفْرِيط عامِّيَّته ؛ فملأ العيونَ سوادُهم الأعظَم ، ووراءهم بأسُ اللهِ الذى لا يُرَدّ عمن أجْرَم ، فأمطرتهم السيوفُ مطرا كانوا غُثاءً لسيوله الجوارِف ، وعصفَتْ بهم الأعِنَّةُ عَصْفا كانوا هَبَاءً لهُوجِه العواصِف ؛ ﴿فظلَّتْ أعناقُهم لها خاضِعين﴾ وعُوتبت الأنفُس والأرؤس ﴿فقالَتا أتَيْنَا طائِعين﴾ . وظلَّتْ قِحافُ بنى حامٍ تحتَ غِرْبان الفَلاَ غِرْبانا ، وشُوهدتْ ظُلُماتٌ بعضُها فوق بعضٍ أفعالا وألوانا ؛ وصفَتْ مواردُ السلطان من القَذىٰ ، وطَفِئَ ذلك الفَحْمُ فلا يَجِدُ النِّفاقُ بعده ما تتعلَّق به الجُذىٰ ، وبُلغت الغاياتُ فى كَشْف كلِّ أذىٰ ، لا بضَرْب بموعِدٍ يقال فيه إذا .

وكاتب المملوكُ ، واسمُ أمير المؤمنين قد كُتب سطرُه علىٰ جبين النقدَيْن ، وسُمِع لفظُه من فَم المنبرين بالبلدين ، ومدّ كلُّ منبر يدا بل يدَيْن ؛ فحِينَ سمع الناسُ قالوا حقًّا ماقاله ذو اليدَيْن ، وصارت تلك الأسماءُ دَبْرَ الآذان ووراءَ الظُّهور ، وحصَّلت المحبَّةُ العباسية سِرًّا من أسرار القلوب إذا حُصِّل ما فى الصُّدُور ، والخلائقُ مبايِعة متابعة وافيةٌ بعهده متوافِيَة ، داخلون فى الحق أفواجا ، سالكون منه شرْعة ومنْهاجا .

والحمد لله الذى جعل أميرَ المؤمنين إماما لخَلْقه، ووارثا لأرضه ولم يَذَرْ فوق الأرض منازعًا لحقّه، ولا مناهبا لأرضه، وآرتجع له الحقَّ الذى كان نادّا، وردّ عليه الأَمْر الذى لم يكن له غيرُ الله رادّا، وبلَّغ كلَّ مؤمن من إعلاء كلمةِ الإيمان به ما كان له وَادّا، وأخَذ بيد آنتقامه مَنْ كان عن سبيله صادّا، والإسلام قد استنار كَنَشْأته، والزمان قد استدار كهيْئته، والحقُّ قد قرَّ فى نِصَابه، والأمر قد فَرَّ عن صَوَابه. فقد وفىٰ اللهُ القَرَار له بضمانه، وأخذ بيده ما روىٰ عن آبن عمه صلّى الله عليه وسلم وأصفىٰ من لسانه.

فالحمدُ لله الذى صدَقَه وعْده، وأورثه الأرضَ وحْده، وجدّدَ عُلاه وأعلى جَدّه، وأسعد نجمَه وأنجمَ سَعْده، ووعده نُجْحه وأنجحَ وَعْده، وأورده وَصْفه وأصفىٰ وِرْده.

المملوك ينتظر الأمثلةَ ليتَمثّلها، والأمانةَ ليتحمَّلَها، والتقليداتِ المطاعة ليتلُوَها، والتشريفاتِ الشريفةَ ليجْلُوَها، والسوادَ ليَجْلِيَ الحَلَكَ عن ضمائر المبْطلين، والسيفَ الحالِيَ لحُكْمِه فى رقاب المعطِّلين، وللآراءِ الشريفةِ فَصْل برهانِها، وفضلُ سلطانها، وأمرها الذى لا يَخْرُج حين يخرج عن عزِّ الملة وتوطيدِ بُنْيانها، وعَزْمها الذى يَرْفَع حين يُرْفَع ظُلمةَ أدخانها. إن شاء الله تعالىٰ.

الأسلوب الرابع

(أن يبتدأ الكتابُ بالصلاة)

كما كتب القاضى الفاضل، عن الملك الناصر "صلاح الدين يوسف بن أيوب" إلىٰ الخليفة ببغدادَ، فى البُشرىٰ بفتح بلدٍ من بلاد النُّوبة أيضا، وانهزام مَلِكها بعساكره.

صلواتُ الله التى أعدّها لأوليـائه وذَخرها ، وتحيّاتُه التى قَذف بشُهُبِها شياطين أعدائه ودَحَرها ، وبركاتُه التى دَعا بها كلّ موحّد فأجاب ، وآنقشع بها غمامُ الغَمِّ وظلام الظُّلْم فانجاب عن أنْجاب ، وزكاتُه التى هى للؤمنين سَكَن ، وسلامهُ الذى لا يعترِى المُوقنين فى ترديده حَصَرٌ ولا لَكَن ـ على مولانا عاقِد ألْوِيةِ الإيمان ، وصاحبِ دَوْر الزمان ، وساحبِ ذَيْل الإحسان ، وغالبِ حِزْب الشيطان ؛ الذى زَلْزلتْ إمامتُه قدَمَ الباطل ، وحَلَّت خلافتُــه ترائبَ الدَّهْرِ العاطل ، واقتضَتْ سيوفُهُ ديونَ الدِّين من كل غرِيمٍ ماطِل ، وأمضتْ غَرْبَ كل عزم للحقّ مفلول وأطلعت غاربَ نَجْم كلِّ هُدًى آفِل ، وشفَعتْ يقَظاتُ آستغفاره إلى غافِرِ ذَنْبِ كلِّ غافل ؛ وعلى آبائِه الغاية والمَفْزَع ، والمَلاذ فى وقتِ الفَزَع ، والقائمين بحقوقِ الله إذْ قعَد الناس ، والحاكمين بعَــدْل اللهِ إذ عُدِم القِسْطاس ، والمستَضيئين بأنوار الإلهـام المورُوثةِ من الوَحى إذا عَجَز الاْقتباس ، والصابرِين فى البَأْساء والضَّرَّاء وحِينَ البـاسِ ؛ خُزَّانِ الحِكَم ، وحُفَّاظها ، ومَعانِى النِّعَم ، وألفاظِها ، وأعلامِ العُــلُوم المنشورةِ إلى يوم القيامه ، وكالِئِى السُّروح المنتَشِرة من كلا سديد الإمامه (١) ؛ ومن لا ينفُذُ سهم عمَلٍ إلا إذا شُحِذَ بموالاتهم ، ولا يتألّقُ صبْحُ هدايةٍ إلا إذا استَصْبَح السارى بِدلَالاتهم .

المملوكُ يقبِّل الأرضَ بمَطَالع الشَّرَف ومنازِله ، ومرابع المَجْد ومعاقِله ؛ ومجالس الجُود ، ومَحَالِّ السجود ، ومختَلَف أنبـاء الرحمة المنزَّله ، ومَرْسى أطواد البسيطة المتزَلْزِله ، ومفْتَرّ مبـاسم الإمامه ، ومَجَرّ مساحِب الكرامه ؛ ومكانِ جُنُوح أجنحة الملائك ، ومشــتَجَرِ مناسك المناسك ، حيثُ يدخُلون من كل بابٍ مسلِّمين ، ويتبَعُهم ملوكُ الأرض مستسلمين ؛ ومَشَاهد الإسلام كيومٍ أنزل فيه اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ـ وينْعقِد على الوِلَاية فأما غيره فله قوله : قاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ ؛ ويناجيها

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه وفى الضوء "المنتشرة بيد الامامة" .

بلسان جليّ الإخلاصُ الصادقُ عقيدتَه، وأنْشَط الولاءُ السابقُ عقيلته ؛ وأرهفَ الإيمانُ الناصعُ مَضارِبَه، وفَسَّح المعتَقَد الناصحُ مذاهِبَه ؛ فأعربَ عن خاطرٍ لم يَخْطُرْ فيه لغيرِ الولاء خَطْره، وقلبٍ أعانه علىٰ وُرُود الولاء [أن] صفاء المصافاة فيه فِطْره - ويخبر أنه ماوَهَنَ عمَّا أوجبَتْه آلاؤه ولا وَهیٰ، ولا ٱنْثَنیٰ عزمُه عن أن يقِفَ حيث أظلَّتْ سِدرةُ المنتهیٰ ، ووضَحتِ الآياتُ لأُولی النُّهیٰ . والله سبحانه يزيل عنه فی شَرَف المُثُول عوائقَ القَدَر وموانِعَه، ويكشِفُ له عن قِنَاع الأنوارِ التی ليست همَّتُه بما دُونَ نظرها قانِعه - وكان توجَّه منصورًا بجيش دعائِه ، قَبْل جيشِ لِوائه ؛ وبعسكر إقباله، قبل عَسكَرِ قِتَاله ، وبنِصَال سُلْطانه، قبل نِصَال أجفانِه ؛ لاجَرَمَ أنَّ كتائبَ الرُّعْب سارتْ أمامَ الكتائب، وقواضبَ الحَذَر غُمِّضتْ فی جُفُونها عيونُ القَوَاضب - وسار أولياءُ أمير المؤمنين الذين تَجَمَّعوا من كلِّ أُمَّه، وتداعَوْا بلسان النِّعمه، وتصرَّفُوا بيد الخِدْمه، وصالوا بسَيْف العَزْمه ؛ متواخِيةً نِيَّاتُهم فی الإقدام ، متآلفةً طَوِيَّاتهم فی طاعة الإمام ؛ كالبُنْيان المرصوص ٱنتظَاما ، وكالغاب المُشْجِر أعلاما ؛ وكالنَّهار الماتـع حديدًا وهَّاجا، وكالليل الشامل عَجَاجا عَجَّاجا ؛ وكالنهر المتدافِع أصْحابا، وكالمُشْط المطَّرِد ٱصطِحابا ؛ والأرضُ ترجل برَجْلهم لما ترفعُه الحوافِرُ من غيومها، والسماءُ تنْزِل نُزولَهم لما تضعه الذَّوابِلُ من نُجُومها ؛ فما ٱنتشرتْ رياضُها المُزْهِره، وغياضُها المُشْجِره ؛ إلا دلَّت علىٰ أن السَّحاب الذی سَقَاهم كريم، والإنعامَ الذی غَمَرهم عَظِيم ، والدُّنْيا التی وَسِعتْهم من عزمتهم تَظْعَنُ وتُقِيم .

ولما عَلِم العدوّ أنَّ الخَطْب المظنونَ قد صَرَّح خِطَابُه، والأملَ المخدُوع قد صَفِر وِطَابُه ؛ راسل ورأیٰ سلَّ السُّيوف يُغْمِده، وماكَرَ وماكَرَّ لعلمه أن الحَتْف يَعْمِده ، وٱندفع هارِبا هائِبا، وخَضَع كاذِبا كاذِبا ؛ فمضَى الملوكُ قُدُما، وحَمَّله ظُلْمَه وقد خاب مَنْ حَمَل ظُلْما ؛ وأجابه بأنه إن وَطِئ البِساط برِجْله وإلا وَطِئه برأسه ، وإن قدم

علىٰ المملوك بأمله و إلا أقدمه ببأسه، وإن لم يُظْهِر أَثَرَ التوبة و إلا أقام عليه الحَدّ بسَكْرة الموت من كأسه ؛ فلم يَخْرُجْ من مُراوغة تحتها مُغَاوَره ، ومُكاسَرة وراءها مُكاشَره ؛ فٱستخار الله فى طَلَبه ، وٱنتهز فيه فُرصةَ شَغْل قَلْبِه بريبِه ، ولم يَغُرّه ماأُمْلِي له فى البلاد من تَقَلُّبِه ، وسار ولم يزَلْ مقتحِما ، وتقدّم أوّلَ العسكر محتَـدِما ؛ و إذا الدار قد ترحَّل أهلُها منها فبانُوا ، وظعَنُوا عن ساحتها فكأنَّهم ما كانُوا ، ولم يبقَ إلا مَواقِدُ نِيرانٍ رحلَتْ قلوبُهُم بضِرَامها ، وأثافِىُّ دُهمٌ أعجلَتِ المهابةُ ماردّ سَغبهم عن طعامِها ؛ وغِربانُ بَيْنٍ كأنها فى الديار ما قُطِع من رءوس بَنِى حامِها ، وعَوافِى طير كانت تنتظر من أشلائهم فِطْر صِيامِها ؛ وعادتِ الرسـلُ المنفَّذة لٱقتفاء آثارهم وأداءِ أخبارهم ؛ ذا كرةً أنهم لَبِسُوا الليل حِدَادا علىٰ النعمةِ التى خُلِعت ، وغسَلُوا بمـاء الصبح أطماع نفسٍ كانتْ قد تطلعت ؛ وأنهم طلَعُوا الأوعارَ أوعالاً والعِقابَ عِقْبانا ، وكانُوا لمَهَابط الأوديةِ سُيُولا ولأعالِى الشَّجر قُضْبانا ــ فرأىٰ المملوك أن الكتّابَ فيهم قد بلَغَ أجلَه ، والعزمَ منهم قد نال أملَه ، والفَتْك بهم قد أعمل مُنْصُلَه ؛ وأن سـيوفَ عساكر أمير المؤمنين متَنَزِّهةٌ أنْ تُرِيق إلا دماءَ أكفائها من الأبطال ،وأن تَلْقَى إلا وُجوهَ أنظارِها من الرجال ؛ وأن المذكورين نَمْلٌ حَطَمه سليمانُ عليه السلام وجنودُه ،ورَمْل أطاره العاصفُ الذى يَسْحَفُه[1] ويَقُوده ــ وأصدر هذه الخدمةَ والبلادُ من معَرَّتهم عاريه ، والكلمةُ بانخفاضهم غاليةٌ عاليه ،ويدُ الله علىٰ أعدائه عادِيه ، وأنفُسُ المخاذيل فى وَثَاق مَهَابته العالية عانِيَه ــ فرأىٰ المملوك أنْ يُرتِّب بعده الأميرَ فلانا ليبْذُل الأمانات ، لسُوقة أهلِ البلاد ومُزارِعيها ، ويفصل المحاكَماتِ ، بينَ مُتابعى السلطنة ومُطاوِعِيها ، ويُفَسِّح مَجالَ الإحسان لمُعاوِدِى المواطن ومُراجِعِيها ؛ فيَعْمُر من البلاد ماقد شَـغَر ، ويُشْعِر بالأَمَنةِمَنْ لاشَعَر ؛ فإنَّ مُقَام المملوك ومَنْ معه من عساكر تمنَعُ الشمسَ من مَطْلَعِها ،

(١) هو بالفاء من قولهم سحفت الريح السحاب اذا ذهبت به والقاف فى الأصول تصحيف .

وتردُّ جِرْيةَ البحر عن موقِعِها ؛ مما يَضُرُّ بالغلال ويَنْسِفها ، ويُجْحِف بالرَّعايا ويُعْسِفها .

فالحمد لله الذى جعل النصرَ لائذاً بأعطاف آعتزامه ، وأنامِلَ الرُّعْب السائرِ إلىٰ الأعداء محرّكةً عَذَباتِ أعلامه ؛ والعساكِرَ المناضلةَ بسلاح ولائه ، تُغْنِى بأسمائها عن مُرْهَفَاتها ، والكتائبَ المقاتلةَ بشعارِ عَلَائه ، تقرأ كُتُبَ النَّصر من حُمَاتها .

الأسلوب الخامس

(أن يبتدأ الكتاب بالسلام)

كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان "صلاح الدين" أيضا ، يعتذر له عن تأخُّر الكتب ، ويذكر له خبرَ صاحب قُسْطنْطِينِيَّة وصاحب صِقِلِّيَّة من ملوك النصرانية من الروم والفَرَنْج :

سلامُ الله الأطيب ، وبركاتُه التى يستدرُّها الحُضَّر والغُيَّب ؛ وزكواتُه التى ترفع أولياءه إلىٰ الدَّرَج ، ونعمُه التى لم تجعَلْ علىٰ أهل طاعته فى الدين من حَرَج - علىٰ مولانا سيِّد الخلق ، وسادّ الخَرْق ، ومسدِّد أهل الحق ؛ ولابِسِ الشِّعار الأطهر سَوَادا ، ومستحق الطاعة التى أسعد اللهُ من خصَّه بها بدءا ومَعَادا ، ومولىٰ الأُمَّة الذى تَشابَه يومُ نَدَاه وبأسِه إن رَكَض جُوداً أو جوادا ؛ وواحدِ الدهر الذى لا يُثَنَّىٰ ، وإليه القلوب تُثْنىٰ ؛ ولا يقبَلُ الله جمعًا لا يكون لولائه جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير ، ولا آستقبالَ قبلةٍ ممن لا تكون محبَّتُه فى قلبه تُقِيم وآسمُه فى عمله إلىٰ الله يَسِير ؛ مولانا أمير المؤمنين ؛ وعلىٰ آبائه المالئى الأرض عَدْلا ، والملَاءِ أهلا وفَضْلا ، والضاربين فَيْصَلا والقائلين فَصْلا ، ومن تقول الجنةُ لأهلها بهم أهْلا ؛ المخصوصين بالعناية الإلٰهيّه ،

الحاكمين فكُلُّ أمةٍ بطاعتهم مأمورةٌ وعن معصيتِهم منهيّه ، والمشرِّف فى الأسارير علىٰ أسِرَّةِ الشرف فكم ملاءَتِ البَهْوَ مناظِرُهم البهيَّة .

المملوك — يخدُم الحرمَ الشريفَ باحترامه، والفِناءَ الكريم بإعظامه، والبساطَ المقبَّل بطُول آستلامه، والسِّتْرَ الذى أسبلَهُ اللهُ علىٰ العباد بتحيَّته وسلَامه ؛ ويُنْهِى أنه آخرُ الخَدَمِ عن أن ينتظم الأوقاتَ المتجدِّده، ويقتضب الحالاتِ المتجرِّده؛ والرُّسُلِ عن أن تَتواردَ دراكا ، وتَتوالىٰ وِشاكا؛ والإنهاءات عن أن تَثْبُت بالمقاماتِ الشريفةِ النبويه ، ومجالس العرض العليه ؛ ما آنتهتْ إليــه الأقدار، وما أفضىٰ إليه من كثير المَناجِح وقَليلِ الأعذار ؛ فإنَّ أدب الأمالى عن المطالعــة كالصوم لا يُفَضُّ ختامُه ، ولا يُحلُّ نظامه، إلا بُعيدَ يَطْلُع هلالُه مبَشِّرا، ويُبَثُّ خبره فى الآفاق معطِّرا ؛ فلو أن متكلِّفا أفطر قبل مَوْعِده، وورد الماءَ قبل مَوْرِده ، لكان مُفْسِدا لعَقْده، ناكثًا لعَهْده .

كذلك المملوك أمســكَ حين كانت الأخبــارُ بجانبه مشتَبِهه ، والحقائقُ لديه غيرَ متوَجِّهه ؛ فإنَّ طاغيتَى الكفرِ بقُسْطَنْطينيَّةَ وصِقِلِّية كانا قد أوقَدا للحرب نارا، ورَفَعا لهاأوزارا، وآتخذَا لها أُسطُولا جاريا وعَسْكرا جَرَّارا، وتبارَيا ولم يَزِدِ اللهُ الظالمينَ إلاتَبارا ؛ وكتبا إلىٰ الفَرَنْج بعد آنهزامهم بالنَّجْدة والنُّصْره، وتضمَّنا لهم الخروجَ والكَرَّه، ويَصفان ما آستعدَّا به بمــا لايعبِّرعنه إلا بالكَثْره ؛ وآستطارت الشَّناعةُ وتداولتها الألْسُن، وخرجَتْ من الأفواه حتّى لقد كادت تدخُل فيما رأته الأعيُن؛ وورد إلىٰ المملوك رسولٌ من طاغيــةِ القسطنطينيَّة وهو أقدمُ ملوك النصرانية قدما ، وأكثرُهم مالًا متَمىً ؛ فعرض عليه مُوادَعةً يكون بها عسكره مُودَعا ، ويكون له بهــا مَفْزَعا ، له ولصاحب صِقِلِّيَّة الذى زعم أنه أصلٌ للشرِّ يكونُ الشرمنه مُفَرَّعا ؛ فلم يَـنْ ولم يُجِبْ إلىٰ السَّلْم ، ولم يَزَعْه أن عسكره خذله الله مُبارٌ فى البَرِّ وفى اليَمّ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الأســــلوب السادس

(أن تُفتتح المكاتبةُ بخطبــة مفتَتَحة بالحمـــدُ لله)

وذلك يختصّ بالفتوح وغيره مما حدث فيه نعمة ، وربما بُدِئت بآية من كتاب الله ، كما كتب العمادُ الأصــفهانيّ عن السلطان " صلاح الدين يوسف بن أيوب " إلىٰ الناصر لدين الله ببغدادَ بفتح القُدس :

﴿ ولَقَدْ كَتَبْنَـا فى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأرْضَ يَرِثُها عِبادِىَ الصَّالِحُونَ﴾ .

الحمدُلله علىٰ ما أنجزَ من هذا الوَعْد ، علىٰ نُصْرته لهذا الدِّينِ الحنيف من قَبْلُ ومن بَعْد ، وعلىٰ أن أجرىٰ هذه الحســنةَ التى ما ٱشتَمَلَ علىٰ شِبْهِها كرامُ الصَّحائف ، ولم يُجادَلْ عن مثلها فى المواقف ، فى الأيام الإمامية الناصرية زادها الله غُرَرا وأوضاحا ، ووالى البشائرَ فيها بالفُتوح غُدُوّا ورَوَاحا ، ومكّن سُيوفَها فى كلِّ مارِق ، من كل كافر ومارِق ، ولا أخلاها من سِـيرةٍ سَرِيَّة تجمع بين مصلحة مخلوقٍ وطاعةِ خالق ، وأطال أيدى أوليائها لتحمىَ بالحقيقة حِمىٰ الحقائق ، وأنجزها الحَقَّ وقذَفَ به علىٰ الباطل الزاهِق ، ومَلَّكهــا هوادِىَ المغارِب ومرامِىَ المشارق ، ولا زالت آراؤها فى الظُّلمات مَصَابح ، وسُيوفُها للبلاد مَفاتح ، وأطرافُ أسنَّتها لدماء الأعداء نَوازح .

والحمدُ لله الذى نَصر سلطانَ الديوان العزيز وأيَّده ، وأظفر جُندهُ الغالبَ وأنجده ، وجَلَا به جلابيبَ الظلماء وجدّد جُدُده ، وجعل بَعد عُسرٍ يُسْرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهوّن الأمرَ الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صَبْرا ، وخُوطِب الدينُ بقوله : ﴿ ولَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرىٰ ﴾ : فالأُولىٰ فى عَصْر النبىّ صلّى الله عليه وسلم والصَّحابه ، والأخرىٰ هذه التى عَتَق فيها من رِقِّ الكآبه ، فهو قد أصبحَ حُرّا فالزمانُ كهيئته ٱستدار ، والحقُّ بمُهْجَته قد ٱستَنَار ، والكُفْر قد ردّ ما كان عنده من

المُستَعار ، وغُسِل ثوبُ الليل بمـا فجّر الفجْرُ من أنهار النّهار ؛ وأتىٰ اللهُ بنيانَ الكُفْر من القوَاعد ، وشفىٰ غليلَ صُدورِ المؤمنين بِرَقْراق ماء المَوْردات البَوارِد . أنزل ملائكةً لم تظْهر للعُيون اللّاحظـه ، ولم تَخْف عن القُلوب الحافظه ؛ عَزّت سِيما الإسلام بِسَوّمها ، وترادَف نَصره بمُرْدِفها ، وأُخذتِ القُرىٰ وهى ظالمةٌ فترىٰ مُتْرَفيها كأنْ لم تُؤْوَ فيها ؛ فكَمْ أقدَمَ بها حَيْزُوم ، وركَضَ فاتّبعه سَحابُ عَجاجٍ مرْكوم ، وضَرب فإذا ضَرْبه كتابُ جِراحٍ مَرْقوم ؛ وإلا فإنَّ الحروب إنما عُقِدت سِجَالا ، وإنما جمعتْ رِجالا ، وإنمـا دَعتْ خِفَافا وثِقَالا ؛ فإما سيوفٌ تقاتِلُ سُيُوفا ، أوزُحُوف تقاتِلُ زُحُوفا ؛ فيكون حدُّ الحديدِ بيدٍ مُذَكّرا وبيد مؤنّثا ، ويكون السيفُ فى اليَدِ الموحّدة يُغْنِي بالضربة الموَحّدة وفى اليـد المثلّثة لا يُغْنِي بالضّرب مثلّثا ؛ وذلك أنه فى فِئتيْنِ الْتقتا ، وعدُوّتين لغير مودّة ٱعتنقتا . وإن هذه النُّصْرة إن زُوِيت عن ملائكةِ الله جُحدتْ كراماتُهم ، وإن زُوِيتْ عن البَشر فقـد عُرِفتْ قبلها مقاماتُهم ؛ فمـا كان سيفٌ يَتيقّظ من جَفْنه قبل أن ينبّهه الصَّرِيخ ، ولا كان ضَرْب يُطِير الهامَ قبل ضَرْبٍ يراه الناظر ويَسْمعه المُصِيخ ، فكم فَرْيةٍ كأنّهـا هِجرةُ الموت وبها التاريخ ، وكَمْ طَعْنةٍ تخِرّ لها هِضَابُ الحديد ولهـا شَمارِيخ .

والحمدُ لله الذى أعاد الإسـلام جديدًا ثوْبُه ، بعد أن كان جَدِيدًا(١) حبْلُه ، مُبْيضًا نَصْرُه ، مُخْضَرًّا نَصْلُه ، متّسعا فَضْله ، مجتمِعا شَمْلُه . والخادم يشرَحُ من نبإ هذا الفتح العظيم ، والنصرِ الكرِيم ؛ مايَشْرح صُدورَ المؤمنين ، ويمْنحُ الحُبور لكافّةِ المسلمين ؛ ويكَرِّر البُشْرىٰ بمـا أنعم اللهُ به ــ من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر

(١) أى مقطوعا قال الشاعر .

أبى حبي لسلمى أن يبيـدا * وأمسى حبلها خلقا جديدا

فـا فى الأصل والضوء من الحاء المهملة اهمـال من الناسخ .

إلىٰ يوم الخميس منسلَخه ـ وتلك سبعُ ليال وثمانيةُ أيام حُسُومه سَخّرها الله علىٰ الكُفّار ﴿فترىٰ القَوْمَ فِيهَا صَرْعىٰ كأنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خَاوِيةٍ﴾ ورايتُها إلىٰ الإسلامِ ضاحكةٌ كما كانت من الكُفر باكيه؛ فيومَ الخميس الأوّل فُتحتْ طبَرِيّةُ وفاض رِيُّ النصر من بُحيْرتهـا، وقضَتْ علىٰ جَسْرها الفَرَنْجُ فقضَت نَحْبَها بِحَيْرتِهـا؛ وفى يوم الجمعة والسبت كُسِر الفَرَنْجُ الكسرة التى مالهم بعدَها قائمه، وأخذ اللهُ أعداءه بأيْدى أوليائه أخْذ القُرىٰ وهى ظالمه. وفى يوم الخميس منسلَخ الشهر فُتحت عَكّا بالأمان، ورُفِعت بهـا أعلام الإيمان؛ وهى أمُّ البِلاد، وأختُ إرمَ ذاتِ العِماد؛ وقد أصبحت كأنْ لم تَغْنَ بالكفر وكأنْ لم تفتقر من الإسلام.

وقد أصدر هذه المطالعةَ وصليبُ الصَّلَبُوت مأسُور، وقلبُ ملكِ الكُفْر الأسيرِ جيشهُ المكسورُ مكسور؛ والحـديدُ الكافرُ الذى كان فى الكفر يَضْرِب وجهَ الإسلام، قد صار حديدا مُسْلِمـا يُفَرِّق خُطُواتِ الكُفْر عن الأقدام؛ وأنصـارُ الصليب وكِبَاره، وكلُّ مَن المعموديةُ عُمدتُه والدَّيْر دارُه؛ قد أحاطت به يَدُ القبضه، وأُخِذَ رَهْنا فلا تُقْبَل فيه القناطير المقنْطَرةُ من الذهب والفِضّه؛ وطَبرِيّةُ قد رُفِعتْ أعلامُ الإسلام عليهـا، ونَكَصتْ من عَكّا مِلّةُ الكفر علىٰ عَقِبَيْها، وعَمّرت إلىٰ أن شهِدَتْ يومَ الإســلام وهو خير يومَيْها؛ بل ليس من أيام الكُفْر يوم فيـه خَيْر، وقد غُسِــل عن بلاد الإسلام بدماء الشِّرْك ما كان يَتخلَّلُها فلا ضَرَر ولا ضَيْر؛ وقد صارت البِيَعُ مساجِدَهم بها مَنْ آمنَ بالله واليومِ الآخِر، وصارت المَناحِرُ مواقِفَ لخُطباء المَنـابِر، واهتزّتْ أرضُها لوقوف المسلمين فيها وطالَمـا ارتَجّت لمَواقف الكافر؛ والبأسُ الإماميّ الناصريُّ قد أمضىٰ مِشْكاتَهُ علىٰ يَدِ الخـادم حتّىٰ بالدَّنِيّ فى الكنائس، وإن عزَّ أوّل الإســلام بحَطِّ تاج فارِس، فكم حطَّتْ سيوفُهُ فى هذا اليوم من تاجِ فارس.

فأما القتلىٰ والأُسارىٰ فإنها تزيد علىٰ ثلاثين ألفا .

وأما فُرْسان الديوية والآستبارية فقد أمضىٰ الله حُكمه فيهم وقطع بهم سيوفَ نار الجحيم، ووصَّل الراحلَ منهم إلىٰ الشقاء المُقِيم، وفتك بافرنس كافِر الكُفَّار، ومشيِّد النار، مَنْ يدُه فى الإسلام كما كانت يدُ الكليم، وآفترَّت النُّصْرة عن ثغرِ عكَّا بحمد الله الذى يسَّر فتْحَها، وتسلَّمتها الملةُ الإسلامية بالأمان وعَرفتْ فى هذه الصَّفْقة رِبْحَهَا .

وأما طبرِيَّةُ فافترتْهـا يدُ الحربِ فأنهرت الحربُ جُرْحَها .

فالحمدُ لله حمدًا لاتُضْرَب عليه الحدود، ولا تُزكّى بأزكىٰ منه العُقُود، وكأنه بالبيت المقدّس وقد دَنا الأقصىٰ من أقصاه ، وبلَّغ الله فيه الأمَلَ الذى علم أنْ يُحْصِيه وأحاط بأجَلِّه وأقصاه ؛ لكلِّ أجلٍ كِتَاب، وأجلُ العـدو هذه الكتّائب الجامعه ، ولكلِّ عملٍ ثواب ، وثواب مَنْ هدىٰ لطاعته جناتُ نعيمه الواسعه؛ واللهُ المشكورُ علىٰ ما وهب، والمسئُول فى إدامة ما آستَيْقظ من جَدِّ الإسلام وَهَبّ .

وقد توجه من جانبه الأميرُ رشـيدُ الدين دام تأبيده فى إهداء هذه البُشرىٰ نيابةً عن الخادم، ووصفِ مايَسَّره الله لأوليائه من العزائم . والبلادُ والمعَاقل التى فُتحتْ هى : «طَبرِيَّةُ، عكَّا، الناصرَة، صَفُّوريّةُ، قَيْسارِيَّةُ، نابُلُس، حَيْفا، مَعْليَا، القزله ، الطُّور، الشَّقِيف، وقِلاعٌ بين هذه كثيرة . والولَدُ المظَفَّر تقىُّ الدين بصُور وحِصْن تِبْنِين . والأخُ العادل سيفُ الدين نصره الله قد أوفت(؟) بالوصول مِنْ عنده مَنْ عِنْدَه من العساكر فينزل فى طريقه علىٰ غَزَّة وعَسْقلان، ويجهِّز مراكبَ الأسطول المنصور ويُكْثِر عدَدها ، ويَسيرُها إلىٰ ثَغْر عكَّا المحروس ويَشْحَنها بالرجال ويُوفِّر سلاحها وعُدَدَها، والنهوض إلىٰ القدس فهذا أوانُ فتحه ولقد دامَ عليه ليل الضَّلال، وقد آنَ أن يستقِرَّ فيه الهُدىٰ مشكور الإحسان، إن شاء الله تعالىٰ .

الجمــــلة الثــانية

(فى المكاتبات الخاصّة، إلىٰ خلفاء بنى العباس)

قال أبو جعفر النحّاس : وقد يكاتَبُ الإمام بغير تصدير إذا لم يكن ذلك فى شىء من الأمور التى سبيلُها أن تُنْشأ الكتبُ بها من الدواوين . كما كتب القاسمُ بن عبدِ الله إلىٰ المكتفِى مهنّئا له بالخِلَافة :

بسم الله الرحمن الرحيم ، والسلامُ عليك يا أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله وبركاتُه ، وأسألُ اللهَ أن يعظّم بركةَ هذا الأمر علىٰ أمير المؤمنين وعلىٰ الأمّة كافّةً .

قال : والمستعمَلُ فى هذا الوقت فى مكاتبة الوزير الإمامَ :

أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين! وأعزّه وأيّده، وأتمّ نعمتَه عليه، وأدام كرامتَهُ له .

ثم قال : وربما ٱستُحسنَتْ مكاتبة المرءوس إلىٰ الرئيس علىٰ غير ترتيب الكتّاب. كما كتب إبراهيم بن أبى يحيىٰ إلىٰ بعض الخلفاء يعزّيه :

أما بعدُ فإنّ أحقَّ من عَرَف حقَّ الله عليه فيما أَخَذ منه، مَنْ عَظُم حقُّ الله عليه فيما أبْقاه لَهُ، وٱعلم أنَّ أجرَ الصابرين فيما يُصابونَ أعظَمُ من النِّعمة عليهم فيما يُعافَوْن فيه .

الطــــرف الخامس

(فى المكاتبات الصادرة إلىٰ الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

قد ذكر فى "موادّ البيان" أن المستعْمَل فى دولتهم أن يقال بعد البسملة : أفضَلُ صلواتِ الله وبركاتِه، وأشرفُ رِضْوانِه وتحيّاتِه، علىٰ مولانا وسيدنا الإمام الفلانى أمير المؤمنين ، وعلىٰ آبائِه الطاهرين ، وأبنائِه الأكرمين ــ إن كان له أبناء ــ فإن لم

يكن له أبناء قيل مكان الأكرمين : المنتظرين . ثم يقال بعد فضاء واسع : كتب عبد المَوْقِفِ النبوىّ خَلَّد الله مُلْكَه ، من مَقَرّ خِدْمته بناحية كذا ، وأمورُ ما عُدِق به ورُدّ إلىٰ نَظَره منتظمةٌ بسعادة مولانا أمير المؤمنين ــ صلواتُ الله عليه وعلىٰ جدّه ــ والحمدُ لله رب العالمين ، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله الطاهرين وسَلَّم تسليما . ثم يقال : العبد يُنْهِى كذا وكذا ينص الأغراض التى بُنِي الكتابُ علىٰ إنهائها وشَرْح حالها . قال : فإن كان الكتاب مبنيًّا علىٰ المُطالَعة ببعض الأخبار ، قيل فى آخره بعد فضاء يسير : "أنهىٰ العبدُ ذلك ليستقرّ علمُه بالمَوْقف الأشرفِ" إن شاء الله تعالىٰ . وإن كان مبنيًّا علىٰ الاستئمار فى بعض الأحوال ، قيل فى هذا الموضع : "ولمولانا أميرِ المؤمنين صلّى الله عليه الرأْىُ العالى فى ذلك" إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة كتاب من هذا النمط فى جوابٍ عن كتابٍ ورد من الخليفة بالسؤال عن المكتوب عنه فى مَرَضه ، وهو :

صلواتُ الله الزَّاكِيَه ، وتحيَّاتُه الذَّكِيَّة الذَّاكِيه ؛ وسلامُه الذى يتنزَّل علىٰ الرُّوح بالرّوح ، ويُؤْذِن مِنْ رضَا الله بأشرفِ موهوبٍ وأكرمِ ممنُوح ؛ وبركاتُه التى فيها للمؤمنين سَكَن ، وبشفاعتها تُتَقَبَّل أعمال المؤمن بقَبُول حَسَن ــ علىٰ إمام الحقِّ المنظور المغنى عن المنتظَر ، وحجّةِ الله التى أرسلها نذيرًا للبَشَر ، وخليفةِ الله الذى نزلَتْ بمدحه مرتَّلاتُ السُّوَر ، قبل مرتَّبات السِّيَر ؛ وبعثه اللهُ بالنُّور الذى لا يُمَكَّنُ الكافرُ من إطفائه ؛ وبرهانِ الله الذى لا يطمَعُ الجاحد فى إخفائه ؛ ونائبِ النبوّة ووارثِها ، ومُحيي القلوبِ وباعِثِها ، ومفيضِ أسرار الأنوار ونافِثِها ؛ سيدِنا ومولانا الإمام الفلانى : ولا زالتِ الأقدارُ له جُنُودا وجُدُودا ، والجديدانِ يَسُوقان إليه من أيَّامهما ولياليِهما إماءً وعَبِيدا ؛ وعلىٰ آبائه الذين سبقَتْ لهم من ربهم الحُسْنىٰ ، ورَغِبُوا عن عَرَض هذا الأدْنىٰ ؛ ولا تتهم وُلاتُهم علىٰ الحيان ، ولا يتِمُّ للثقلين أن ينفذُوا ما لم يكونوا منهم

بسُلْطان ـ وعلىٰ أبنائه وجوه الهدىٰ البارزةِ من الأكِنّه ، وأيْدى النّدىٰ والأعِنّة والأسِنّه .

كتب عبد الموقِف النبوىّ خلّد الله ملكَهُ من مَقرِّ خدمته بالمكان الفلانى ، وأمورُ ماعُدِق به ورُدّ إلىٰ نظره علىٰ أتمّ حالٍ وأكمله، وأحسنِ نظام وأجمله ، بسعادة مولانا أمير المؤمنين ، صلواتُ الله عليه وعلىٰ جدّه وآبائه الطاهرين . العبد يُنْهى أنه لو أَخَذ فى شكر المِنَن التى تُرَقِّيه فى كل يوم لِهضَابٍ بعيدةِ المرتقىٰ ، وتُورِدُه جَمّاتٍ قريبةَ المستقىٰ ، وتوجبُ علىٰ لسانه أن يبْذُل جُهدَ من ٱستَرْسَل وعلىٰ قلبه أن يبْذُل جُهْد من ٱتقىٰ ؛ لقَصُر به الوَصْف ، وأعياه من وَرَق الجنّة الخَصْف ؛ وكيف يُجارى من يده ديمةُ الله بقلمه ، أو كيف ينْزَح بحرَ الجُود الذى يمدّه سبعةُ أبحرِ نعمه ، .
ولما ورد عليه التشريف بالسؤال الذى أحياه بنَسِيم رَوْحه ، ونفخ فيه من رُوحه ؛ فوقع له ساجِدا ، وثاب إلىٰ السجود عائِدا ، وبَذَل مع ضَراعته الابتهالَ جاهدا ، وأخلص فَرْضَ الوَلاء معتقِدا ورفَعَ لِواءَ الحمد عاقِدا ؛ وكُشِفَ عنه الضُّرّ ، وأُطْلعت علىٰ وجهه النِّعَمَ الغُرّ ، وتكافَتِ الأندادُ فى محل عَيْشه فحَلِيَ الحُلْو ومَرَّ المُرّ ؛ وٱنتهىٰ من الدعوات إلىٰ ما ٱنتهىٰ به المَرَض ، وتفَلل منه الجوْهَر الذى عُزِل به العرض ، وصافح بمُهجته السِّهامَ التى نفَذَ بها الغرض ؛ وكاد يشاهِدُه مرتفِعا به الضَّنىٰ والألم ، وفعلتْ أنواره فى ظلمته مالا تفعلُ الأنوار فى الظُّلَم ؛ ولم يرِدْ قبله حُلْوُ الأوّل والآخِر ، مأمونُ المَوَارِد والمَصادر ، مضمونُ الشِّفاءِ فى الباطن والظاهر ، عادت القلوبُ علىٰ الأجسام بفَضْله ، وسَطتِ العافيةُ علىٰ الأسقام بفَضْله بل بفَصْله ؛ والله سبحانه يملِّكه أعناق البِلَاد ، كما أجرىٰ علىٰ يديه أرزاقَ العباد ، إن شاء الله تعالىٰ . وكتب فى يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا .

الطـــــرف السادس

(فى المكاتبـات الصادرة عن المــلوك ومَنْ فى معناهم إلىٰ خلفاء بنى أميــة بالأندلُس)

وكانت المكاتبـة إليهم بالآفتتاح بالدعاء بطول البقاء، مع الإطنـاب فى الإطراء فى شأن الخليفة ومدْحِه والثناءِ عليه والدعاءِ له ، والخطابُ فيه للخليفة بأمير المؤمنين منعوتاً بمولاى وسيدى ونحو ذلك ؛ والتعبيرُ عن المكتوب عنه بلفظ الوحدة من تاء المتكلم ونحوها . كما كتب أبو المطرِّف بن المثنّى من إنشائه عن المنصور إلىٰ هشـام آبن الحكم يخبِرُه بجرَيان الصُّلْح بينه و بين الموفَّق، بعد ما كان بينهما من عَداوةٍ :

أطال اللهُ بقـاءَ أمير المؤمنين ! مولاىَ وسـيدى وسيد العالمين ، وآبن الأئمـةِ الراشـدين ؛ عزيزًا سلطانُه، مُنيرا زمانُه؛ ساميةً أعلامُه، ماضيةً أحكامُه؛ ظاهـرًا علىٰ مَنْ ناواه، قاهـرا لمن عادَاه ؛ كما يُحِبُّ ـ أيد اللهُ أميرَ المؤمنين مولاىَ وسـيِّدى علىٰ أحسنِ ما يكونُ عليه .

العبـدُ المخْلِص ، والموْلىٰ المتَخَصِّص ؛ الذى حَسُن مُضْـمَره ، وآسـتوىٰ سِرُّه وجَهْره ؛ ولاح آستبصاره وجِدّه ، وتنـاهىٰ سعيُه وجُهْـده ؛ فى مِضْمار الجرْى إلىٰ الطاعة، وبَذَل إذعانَهُ وآنقيادَه، وآستَعْبَد إمكانَه و إجهاده؛فيما يَفِى بتمكين الإمامة المهديَّه، والخلافة المَرْضِيَّه ، ويَشُدُّ مبانىَ المملكة المصدّقة لتباشير اليمن والبركه ؛ والله سبحانه ولىّ العون والتأييد، والمليُّ بالتوفيق والتسديد، لاربَّ غيره .

و بعد ـ أبقىٰ الله أمير المؤمنين ـ فإن كتابى إليه سَلَف مُعْرِبا عن النَّزْغة التى كانت بينى و بين الموفَّق مملوكه، وقديما نَزغ الشيطانُ بين المرء وصديقِه، والأخِ وشقيقِه؛ وضربَ ساعيا بالتَّشْتيت والتشغيب، والتبعيد والتقريب؛ بين الأبِ الحانِى الشفيق،

والابن البَرّ الرفيق ؛ ثم يَعُودُ ذَوُو البصائر والنُّهىٰ ، وأولُو الأحلام والحِجا ؛ إلىٰ ما هو للشَّحْناء أذهَبْ ، وبالتجامل أولىٰ وأوجَبْ . وكتابى هـذا وقد نسخَ اللهُ بيننا آيةَ الافتراق ، بالاتصال والاتفاق ؛ ومحاسمةِ التبايُن والخِلاف ، وبُدُوّ التآلُف والإنصاف ؛ وعادت النفوسُ إلىٰ صفائها ، وانطوَتْ علىٰ وَفَائها ؛ وخبَتْ نارُ الفتنه ، وامتدّ رُواقُ الهُدْنه ؛ وثبتَتِ الأسباب الراسخة ، والأواصِرُ العاطفة بأزِمَّة قلوبنا إلىٰ مَعاهد الخُلَّة القديمه ، ومَوَاطن العِشْرة الكريمه ؛ والمعروفِ من الامتزاج فى كلِّ الأحوال والتشابُك وجِلاءِ الشك باليقين ، وقرَّتْ بالانتظام العيونُ ، وصرنا فى القيام بدَعْوة أمير المؤمنين مولانا وسيدنا رَضِيعَىْ لِبَان ، وشريكَىْ عَنَان ؛ وأليفَىْ تناصُر ، وحَليفَىْ تظافُر ؛ فنحن عن قوسٍ واحدة فى نُصْرتها نرمى ، ومِنْ ورائها نَذُودُ جاهِدينَ ونَحْمى ؛ قد فُتْنا الجِيادَ فى السَّبْق إلىٰ الطاعه ، وأحرزْنا قَصَب السبق فى المظاهرة والمشايعة ؛ فما نَفْتأ نسعىٰ فى تمهيدها ونَذْهب ، ولا ننفكُّ نَكْدحُ لهـا ونَنْصَب ؛ والله الكفيلُ بانجـادنا بعِزَّته وقُدرته ، وحولِه وقوّته ؛ لا إلٰهَ إلا هو .

وإن الذى عَقَده الله تعالىٰ لنا ، وحَسَمه من دواعى القطيعة عنَّا ، ما اطَّرد وتأتّى ، وسَنَح وتهيَّأ إلا بسعدِ طائرِ أمير المؤمنين سـيدنا ومولانا أعزه الله ، ويُمْنِ نقيبته ، فمن تمسَّـك بعُرْوته وعاذَ بِعصْمته ، فقد فاز قِدْحُه ، وتبلَّج فى ظُلَمَ الأمور صُبْحه ؛ واسـتدلَّ بأوضح الدليل ، وعَرض بالرأى الأصيل ؛ واستنار بأضوإ سراج ، وسلك علىٰ أقْصدِ مِنْهاج ؛ ولم يُزايِل الرَّشادُ آراءه ، وصاحبَ السَّدادُ أنحاءَه . والله تقدّس اسمُه لا يزال يعرّفنا من سعادة الدعوة الزكية ما يُصْلِح به أحوالَنا ، ويُفْسِح به آمالنا ، بمنِّه .

ولمـا أتاحَ اللهُ من السِّلْم ما أتاحه ، وأزاح من المكْروه ما أزاحه ، لم أجد فى فُسحةٍ ولا غنًى ولا سَعةٍ ، من إطلاع أمير المؤمنين مولاىَ وسـيدى من ذلك علىٰ الجَلِيّه ،

و إعلامه بالصورة ؛ فأنهضْتُ إلىٰ حضرته العالية ذا الوزارتَين عبدَ الرحمن بنَ مطروح رسولى وعَبْـدى وخاصَّتِي مملوكَه لِنُهِيَ إليه الحـالَ علىٰ حقيقتها ، ويُوفِّيَها بكُلِّيَّتها ؛ وأقرُنُ به رسولَ الموفَّق ، متحملًا مثل ما تحَمَّلَه رسولى ، ومتقلِّدًا كالذى تقلَّده ؛ ولأمير المؤمنين مولاى وسـيدى الفضلُ العميم فى الإصغاء إليهما ، والوَعْيِ عنهما ، والسماعِ منهـما جميعَ ما يُورِدانه ويُوضِّحـانه ، ويستَوْفِيانه ويشْرحَانه ، والتطوُّل بالمراجعة فيه ، بما يستوجبُه ويقتَضِيه ، واصلًا لِعزِّ مِننه وأيادِيه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطـــــرف السابع

(فى المكاتبة الصادرةِ إلىٰ خلفاء الموحِّدين بالمغرب ، القائمِ بقاياهم الآنَ بتُونس وما معها من سائر بلاد أفرِيقِيَّـــة . وفيه ثلاثة أساليب)

الأســـلوب الأوّل

(أن تُفْتَتَح المكاتبةُ بالدعاء ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تكون المكاتبةُ من مَلِكٍ آخَر)

والرسم فيه أن تُفْتَتح بالدعاء المناسبِ للحال ، ويعبِّر المكتوب عنه عن نفسه بنون الجمع ويخاطب المكتوب إليه بأمير المؤمنين . كما كتب القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن : أحد خلفائهم فى سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، يستجيشه علىٰ الروم الفَرَنج القاصدين بلاد الشام والديار المصرية ، وهو :

فتح اللهُ بحضرة سيدنا أمير المؤمنين ، وسيدِ العالمين ، وقسيمِ الدنيا والدِّين ؛ أبوابَ الميَامِن ، وأسبابَ المحَاسِن ؛ وأحلَّه من كفايته فى الحَرَم الآمن ، وأنجزه من نُصْرة الحق ما اللهُ له ضامن ، وأصلَح به كلَّ رَأْى عليه الهوىٰ رائن ؛ ومكَّن له فى هذه البَسِيطة بَسْطه ، وزاده بالعِلم غِبْطه ؛ حتّٰى يكونَ للأنبيـاء بالعِلْم وللأرض بالعزم وارِثا ، وحتّٰى يُشَيِّد بحادثٍ قديما من مجده الذى لايزال بِمَحْضِ الحديث حادثا .

كان من أوائل عَزْمنا وفواتح رَأْينا عند وُرُودنا الديارَ المصريةَ مفاتحةُ دولة سيدنا ، وأن نتيمَّن بمكاتبتها ، ونتزيَّن بمخاطبتها ؛ ونُنْهِضَ إليهـا أماثِلَ الأصحاب ، ونستَسْقِىَ معرِفَتَها آستسقاءَ السَّحاب ؛ ونَنْتَجِعَها بالخواطر ونجعل الكُتبَ رسُلَها ، وأيدىَ الرسل سُبُلَها ؛ ونُمْسِكَ طَرَفا من حَبْل الجهاد يكونُ بيد حضرة سيدنا العاليةِ طَرَفُه ، ونَمْسَح غُرّة سبقٍ وارثُها ووارثُ نُورها سلَفُه ؛ ونتجاذبَ أعداءَ الله من الجانبين ، لاسيما بعدَ أن نُبْنا عنه نِيابتَيْنِ فى نَوْبتَيْن : فالأولىٰ تطهيرُ الأرْضَيْنِ المصريَّة واليمنيَّة من ضلالة أغضَتْ عيونَ الأيَّام علىٰ قَذَاها ، وأنامَتْ عُيونَ الأنام بائعةً يقظتَها بكَرَاها ؛ ونيابةٌ ثانية فى تطهير بيت المَقْدس ممن كان يُعارِض برِجْسه تقدِيسَه ، ويُزْعِج ببناء ضَلاله تأسيسه ؛ وما كان إلا جَنَّةَ إسلام فخَرج منها المسلمونَ خُروجَ أبيهم آدمَ من الجَنّه ، وأعقبهم فيها إبليسُ الكفرِ وما أجارته ممـا أعْقبه اللّعنه ، وما كانتْ لنـا بذلك قوّة بل لله القوه ، ولا لنا علىٰ الخلق مِنَّة بل لله المنَّه .

ولمـا حُطَّتْ لِدِين الكفرِ تيجـان ، وحُطِّمت لذويه صُلْبان ؛ وأخْرَس الناقُوسَ الأذانُ ؛ ونَسَـخ الإنجيلَ القرءانُ ؛ وفُكَّتِ الصخرةُ من أَسْرها ، وخَفَّ ما كان علىٰ قَلْب الحجر الأسود بخِفَّة ما كان علىٰ ظهرها ؛ وذلك أن يَدَ الكفر غطَّتْهـا وغمرتْها . فلله الحمـدُ أنْ أحرمت الصـخرةُ بذلك البُنْيـان المُحيط ، وطَهَّرها ماطُرَّ من دمِ

الكُفْر وما كان لِيُطَهِّرها البحرُ المحيط ؛ فهُنــالك غُلِب الشركُ وآنقلب صاغرا (١) ، واستجاشَ كافِرٌ من أهله كافرا ، وآستَغْضَب أنفــاره النافره ، وآستصرخ نَصْرانِيَّته المتناصره ، وتظاهَرُوا علينا وإن الله مَوْلانا ، وطاروا إلينا زُرافاتٍ ووُحْدانا ؛ فلم يبق طاغيةٌ من طواغيهم ، ولا أُثْفِيَّة من أثافِيهم ؛ إلا ألْجَم وأَسْرج ، وأجْلَبَ وأرهج ، وخَرج وأخرج ، وجاد بنَفْسه أو بولده ، وبعَدَده وبعُدَده ؛ وبذات صــدره وبذاتِ يَدِه ، وبكَتائبه بَرّا ، وبمَرا كبه بحرا ؛ وبالأقوات للخَيْل والرِّجال ، والأسلحة والجُنَن لليمين والشِّمال ؛ وبالنقدين علىٰ آختلاف صِنْفيهما فى الجمع ، وآئتلاف وَصْفَيْهما فى النَّفْع ؛ وأنهضَ أبطالَ البــاطل ، مِن فارسٍ وراجِل ؛ ورامح ونابِل ، وحافٍ وناعِل ، ومُواقِف ومقاتِل ؛ كلُّ خرج متطوِّعا ، وأَهْطعَ مُسْرِعا ، وأتىٰ متبرِّعا ، ودعا نفسه قبل أن يُستَدْعىٰ ؛ وسعىٰ إلىٰ حَتْفها قبل أن يُسْتَسْعىٰ ؛ حتّى ظَنَنَّا [أنّ] فى البحر طريقًا يَبَسا ، وحتّى تَيقَّنَّا أن ماوراء البحر قد خَلَا وعسا ؛ وقلنا : كيف تَتْرك ، وقد علم أنه يُدْرَك ؛ وزادت هذه الحُشُود المتوافيه ، وتجافَتْ عنها الهِمَمُ المتجافيه ؛ وكَثُرت إلىٰ أن خرجَتْ من سِجن حَصْرها ، ومستَقرّ كُفْرها ، وبقِيَّة ثَغْرها ــ وهو صور ــ فنازَلَتْ ثغر عَكَّا فى أسطولٍ مَلَك بَحْره ، وجمع سَلَكَ برّه ــ فنهضنا إليه ، ونزَلْنا عليهم وعليه ؛ فضَرب مَعَنا مَصافَّ قُتِّلَتْ فيه فُرسانُه ، وجُدِّلَتْ شُجعانُه ، وخُذلت صُلْبانه ؛ وساوىٰ الضربُ بين حاسِرِ القوم ودارعهم ، وبَرَز الذين كُتِبَ عليهم القَتْــلُ إلىٰ مَضاجِعِهِمْ ؛ فهُنالك لاذُوا بالخَنَادق يحْفِرُونها ، وإلىٰ الستائر يَنْصِبُونها ؛ وأخْلَدُوا إلىٰ الأرض متثاقِلين ، وحَمَلُوا أنفُسَهم علىٰ الموت متحاملين ، وظاهَرُوا بين الخنادق ، وراوَحُوا بين المَجانِق ؛ وكلمــا يُجِنُّ القتلُ من عددهم مائةً أوصلها البحر ممن يَصِل وراءه بألف ، وكُلَّما قلُّوا فى أعيننا فى زحف ، قد كَثُرُوا فيما يَلِيه من الزَّحْف ؛ ولو أن دُرْبة عساكرنا فى البحر

(١) لعل هذا هو جواب الشرط أوّل الفقرة .

كدُرْبتها فى البر، لعجّل الله منهم الانتصاف واستقلّ واحدُنا بالعشرة ومائتُنا بالألف؛ وقد اشتهر خروجُ ملوكِ الكُفّار فى الجمع الجَمّ، والعدد الدُّهْم، كأنّهم إلىٰ نُصُبٍ يُوفِضُون، وعلىٰ نارٍ يُعْرَضُون، ووصولهم علىٰ جهة القسطنطينية ـ يسر الله فتحها ـ علىٰ عزم الائتمام إلىٰ الشام فى مُنْسَلَخ الشتاء ومستهَلّ الصيف، والعساكرُ الإسلامية لهم تستقْبِل، وإلىٰ حربهم تنتقل؛ فلا يُؤْمَن علىٰ ثغور المسلمين أن يتطرّق العدُوُّ إليهم وإليها، ويفْرُغ لها ويتسلّط عليها؛ والله مِنْ وَرَائِهم مُحِيط. وإذا قُسِمت القوّةُ علىٰ تلقِّى القادم وتَوَقِّى المُقِيم، فرُبّما أضر بالإسلام انقسامُها، وثَلَمه والعياذُ بالله انْثِلامُها.

ولما مَخَض النظرُ زُبْده، وأعطىٰ الرأْىُ حقيقَةَ ماعنده، لم نَرَ لِمُكاثَرة البحر إلا بحرًا من أساطيله المنصورة فإنّ عددَها واف، وشَطْرها كاف، ويمكنُه ـ أدام الله تمكينَه ـ أن يمُدّ الشامَ منه بعدٍّ كَثِيف، وحَدٍّ رَهِيف، ويعهَدَ إلىٰ واليه أن يُقِيم إلىٰ أن يَرْتَبِع ويَصِيف، ويمكنه أن يَكُفّ شطرا لأُسْطولِ طاغيةِ صِقِلّيّة لِيَحُصّ جناحَ قُلوعه أن تَطير، ويَعْقِل عُبَابَ بحرِه أن يُغِير، ويعتقِلَه فى جزيرته، ويَجْرِى إليه قَبْل جَرِيرته؛ فيذْهَب سيدُنا وعقبُه بشَرَف ذِكْرٍ لا تُرَدُّ به المحامدُ علىٰ عَقِبها، ويُقِيمَ علىٰ الكفر قيامةً يُطْلِعُ بها شمسَ النصر من مَغْرِبها؛ فإذا نَفَذ طريقُه وعلم الناس بمَوْفِدِه، أوْرَدُوا وأصدَرُوا فى مَوْرِده؛ وشخَص المسلِمُ والكافرُ: هذا ينتظِرُ بُشْرىٰ البِدَار، وهذا يستَطْلِع لمن تكونُ عُقْبىٰ الدار؛ وخاف وطْأَةَ مَنْ يصِلُ من رجال الماء مَنْ وصلَ من رجال النار. ولو بزَقَتْ عليهم بازقةٌ غرِبيّة لأغرقهم طُوفانُها، ولو طلعت عليهم جاريةٌ بحرِيّة لنعقَتْ فيهم بالشّتات غِرْبانُها.

وما رأينا أهلًا لهذه العَزْمة إلا حضرةَ سيدنا أدام الله صِدْق محبة الخيْرِ فيه، إذ كان منحه عادة فى الرضىٰ به وقُدرةً علىٰ الإجابه، ورَغْبةً فى الإنابه (١)؛ وولاية لأمر

(١) كذا فى الأصول ولم نعثر عليها فى رسائل القاضى الفاضل.

المسلمين، ورياســة للدُّنيا والدين ، وقيامًا لســلطان التوحيد القــائم بالموحِّدين ؛ وغَضَباً لله ولدينه ، وبَذْلا لمَذْخُوره فى الذبِّ عنــه دون ما عوده ؛ والآنَ فقد خَلَا الإسلام بملائكته، لمـا خَلَا الكفرُ بشياطينه ؛ وما أُجلت السوابقُ إلا لإطلاقها، ولا أُثِّلتِ الذخائرُ إلا لإنفاقها ؛ وقد آستشرف المسلمون طُلوعَها من جهته المحروسةِ جَارا من الأساطيل تغشىٰ البِحار ، وليـالِيَ من المرا كب تركَبُ من البحر النَّهار ؛ وإذا خفقَتْ قلُوعُها خَفَقت للقِلاع قُلوب، وإذا تجافَتْ جُنوبُها عن المَوْج تجافَتْ من الملاعين جُنُوب ؛ فهى بين ثَغرِ كُفْر تعتَقِله وتحصُره ، وبين ثغر إسلام تُفَرِّج عنه وتنْصُره، يكون بها مصائبُ عند المسلمين(؟) وتَظَل قلائدُ المشركين لغِرْبان بحره طَرائِد ، ويمضى سيفُ الله الذى لايَعْدَم فى كل زمان فيُعلَمُ معه أن سيف الله خالد؛ أعزَّ الله الإســلامَ بمـا يزيد حضرةُ ســيدنا من عِزِّها ، فيما مدّ عليهــا من ظلها ، وبمـا يُسْكِنُه من حِرْزها، فيما يَبْسُط علىٰ الأعداء بهـا من بأسها ويُنْزِل بهــم من رجزها ، وبمـا يجرِّده من سيوفها التى تقطع فى الكفر قبل سَلِّها وهزها .

وقد أوفَدْناه علىٰ باب حضرة ســيدنا ، وهو الداعى المُسْمِع ، والمبَلِّغ المُقْنِــع ، والمجمع المستجمع ؛ علمناه أمرا يسرا، وبوأناه الصدر فكان وجها ، وأودَعْناه السِّرَّ فكان صَدْرا .

الضـــــرب الثـانى
(أن تكون المكاتبةُ صادرةً عن بعض الأتبـاع)

والرسم فيه أن تُفتتح المكاتبةُ بالدعاء بطول البقاء ، مثل أن يكتُبَ أحد أتباعه إليه، ويعبِّر المكتوبُ عنه عن نفسه بلفظ الإفراد ، وعن الخليفــة بأمير المؤمنين . كما كتب أبو الميمون عن بعض أهل دولتهم إلىٰ بعض خُلَفائهم جوابَ كتاب ورد بالكشف عن عامل ثغر شَقُورةَ .

«أطال اللهُ بقاءَ أمير المؤمنين ، وناصرِ الدين والدنيا بفضله العَمِيم ؛ ولا برِحتْ مصالحُ العباد بباله الكَرِيم جائلةً ماثله ، وسيرتُه الحميدةُ لدانيهم وقاصيهم شامِلةً كافِله ، ولا زالَ للهِ فى أرضه بالقِسْط قائما ، وعلىٰ ما ينفَعُ الناس محافِظًا دائما .

كتبْتُه ـ أيَّد الله أمره ! صدْرَ جمادىٰ الأولىٰ ، سنةَ أربع وعشرين وخمسمائة ، بعد آمتثال ماحدّه ، والآنتهاء إلىٰ ماوجبَ الآنتهاءُ عنده ؛ من أمر ثغر شَقُورةَ حرسه الله ! علىٰ ما أنُصُّ مَنَاقِله ، وأَعْرِض مراتِبَه ومنازِلَه ؛ وذلك أن كتابه العزيز وافانى علىٰ يَدِ رجل من أهلها فيه فصول رفعها ، وأحاديثُ سطَّرها و جمَعَها ؛ وآندرج الكتابُ المرفوعُ بذلك طَيَّه ، لينظُر إليه من آدَّعىٰ عليهم رفعه ، ويستَبِينَ حقيقتَه أو وَضْعه ؛ وبإبطاء هذا الرافع سبقَتْه الأنباء ، وآستقرّت عند جمعها الأفراض والأنحاء ؛ فآجتمعُوا إلىٰ عاملهم فلانٍ وفقه الله ، وحضرهم حاكمُ الجهة أبقاه الله ؛ وتَتَبَّعُوا تلك الوجوهَ بالردِّ لها ، والإنكار علىٰ القائم بها ؛ وعقَدُ وافى كل عقْد منها عَقْدا يناقِضُه ، وآستظهروا بشهادات تنافيه وتعارِضُه ؛ وآندرجت العُقُود ، ثابتةً فى كتاب الحاكم علىٰ السبيل المعهود فى إثبات العُقُود ؛ فثبتت عندى لثبوتها عنده ، وخاطَبُونى مع ذلك متبرِّين من هذا الرافع ، واضعين له فى عَقْله ودينه بأحَطِّ المواضع ؛ وصرَّحوا بآرتضائهم بسِيرة عاملهم وآغتباطهم بحمايته وسَدَاد نَظَره ، وعلىٰ تَفِقَّة ذلك وصل هذا الرافع بالكتاب العزيز وما آندرج طيَّه علىٰ ما قدّمت ذكره ؛ فاستأنفتُ النظر ، وأعدْتُ العمل ، وخاطبتُ الحاكم والأعيان والكافَّةَ هنالك بما ورد فى أمرهم ؛ وأردفْتُ الكتاب المرفوعَ ليقِفُوا علىٰ نصِّه ، وينظروا إلىٰ شَخْصه ؛ فراجعُونِى أنَّه لامَزِيد عندهم علىٰ ما قدّموه ، ولا خلافَ فيما نَقَدُوه وأحكموه ، وأحالوا علىٰ ما تَثْبُت به العُقود ، وهى من الناس المقاطِعُ والحُدُود ؛ فآقتضىٰ النظرُ إعلامَ أمير المؤمنين وناصر الدين أعلىٰ الله أمره ، حسَبَ ما حدّه ، بما وقعَتْ عليه الحال ، ليرتَفِعَ الإشكال ،

ولا يتعلق بهذه الحِيبةِ البال ؛ وقد أدرجتُ إلىٰ حضرته السامية الكتبَ المذكورة لتُعرَضَ عليها، وتستقِرّ الحِلْيةُ منها لديها؛ إن شاء الله .

وآندرجت العقُودُ إلىٰ الفقيه فلان قاضي الحضرة وفقه الله، والله يشكُرُ لأمير المؤمنين وناصر الدين تحرِّيَه وآجتهادَه ، وتوفيقَه وسَدَاده ؛ ويُوالِي مَنْ والاه ، ويكيد مَنْ عاداه. ولو كانت الحال بشَقُورةَ علىٰ ماصوّره هذا الرافع لما آنطوت عنّي أسرارُها، ولا [خفِيَتْ عَلَيَّ] علىٰ البعد أخبارها؛ وسفوف (1) إلىٰ فلانة بيِّن، وهو متشرِّع متديِّن، وعَضْدُه علىٰ ما هو بسبيله في ذلك الثغر متعيِّن ؛ والله يُيَسِّر الجميع إلىٰ ما يقضي حقوق النعمه، ويقيم فروضَ الخدمه، بعونه وقدرته! .

الأسـلوب الثـاني

(أن تفتتح المكاتبةُ بألقاب الخليفة نفسه ثم يؤتىٰ بالصدر معبِّرا عن المكتوب عنه بالعبد . ومخاطبا للخليفة بميم الجمع للتعظيم ، ويختم الكتاب بالسلام . وهو علىٰ ضربين)

الضـرب الأول

(أن يُوصَف الخليفة بالمَقَام)

كما كتب أبو الميمون أيضا عن بعض أهل دولتهم إلىٰ الناصر لدين الله أحد خلفائهم :

المَقَام الأعلىٰ ، المقَدّس ، المكرَّم ، الإماميّ ، الطاهر ، الزّكيّ ، مَقَام الخليفة المؤيَّد بنصر الله ، الإمامِ « الناصرِ لدين الله » كَلأَ الله جَلالَهم ، وفيَّأَ ظلالَهُم ، وبوّأَ وُفُود السُّعود ووجود الظهور والصُّعود مواطئَهم المقدّسة وحِلالَهم .

(1) كذا في الأصول وعليه علامة توقف ولعله وتعفف والى فلانة الخ والمراد براءته مما نسب اليه .

عبدهم المتقلِّب فى نعمتهم ، المتقرّب إلىٰ الله عز وجل بالمناصحة فى خِدْمتهم ، المتسبِّب إلىٰ الزُّلْفى عندهم بالتزام طاعتهم ، والاعتصام بعُصْبتهم ، فلان .

كتب عبدُ المقام الأعلىٰ ، والنَّدِىِّ الذى أُسِّس بنيانُه علىٰ تقوىٰ من الله ورضوان وآحتوىٰ علىٰ الفضائل وآستولىٰ ، من موضع كذا حماه الله تعالىٰ ، وجَنانُه لطاعتكم قُطْب ، ولسانُه بشكر نعمتكم رَطْب ؛ فبتلك رجَاءُ الفَوْز ، وبها آبتغاءُ نَيْل الآمال والحَوْز ، وكيف لا يطاوعه الجَنَان ، وشكر اللسان مستَمِدّ لإدرار الإحسان ؛ وللمَقَام الأسنىٰ عَوَارِف ، لا يتقلَّص ظلُّها الوارف ، وقطراتٌ بالرحمة مسطَّراتٌ بمِدْرار سحابها الواكف ؛ وقد كانتْ للعبد سِهام ، فاضتْ عليه بها من النعمة رِهَام ؛ ثم جَزَر الماءُ باسترجاعها الآن ، وسُقِى العبدُ بانتزاعها كأسَ الحُزْن مَلْآن ؛ وردت لك بهذه الجهة آنقطاع المواساه ، وآمتناع الألسن بالمكابدة لشَظَف العيش والمُقَاساه ؛ وإلىٰ المقام الأعلىٰ الأسنىٰ نفْزَع حين نفْزَع ، ونَذْهب حين نَرجو ونرهب ، ونلجا فلا تؤخر طلباتُنا ولا تُرجا ، وخدمةُ العبد هذه تنوبُ عنه فى تقبيل ذلك المقام الأسمىٰ ، والتعرُّض لما عهد لديه من نفحات الرضىٰ ، والتضَرُّع فى إدرار ما جَزَر من تلك المِنَّة ، وغَيْض من فَيْض تلك النعمىٰ ؛ ويُنْهِى من رغبته فى بركة تلك الأدعيه ، التى هى للخيرات كالأوعيه ؛ ما يرجوه بشفاعة تأكُّد الامتنان ، ومجرَّد عوارف الرأفة والحَنَان ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

والرب تعالىٰ يُبقى المقامَ الأعلىٰ والنصرُ له مظاهِر ، والخيرُ لديْه متظاهِر ، والسعدُ لولِيِّه ناصر ، ولعدوّه قاهِر ، بحول الله تعالىٰ وقوّته لا ربَّ غيره ، ولا خير إلا خَيْره ؛ والسلام .

الضـــــرب الثـانى

(أن يعـــبر عن الخليفة بالحضرة)

كما كتب أبو المَطَرِّف بن عميرة عن صاحب أرْغُون من الأندَلُس إلىٰ المستنصر بالله أحد خلفائهم، يستأذِنُه فى وِفَادة صاحب أرغون من الأندَلُس أيضا علىٰ أبواب الخلافة مُغاضِباً لأهل مملكته :

الحضرة الإماميّــة المنصورة الأعلام ، الناصرةُ للإسلام، المخصوصة من العدل والإحسان بمـا يجلو نُورُه متراكم الإظلام ؛ حضرةُ سـيدنا ومولانا الخليفة الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنـين ، أبى يعقوب آبن سادتنا الخلفاء الراشدين؛ وصَلَ الله لها إسعادَ القَدَر، وإنجاد النصْر والظَّفَر، ولا زال مَقَامُها الأعلىٰ سامِيَ النظر، مبارَك الوِرْد والصَّدَر، ويَفِيض منــه الجودُ ، فيضَ المَطَر ، ويحيط به السُّعود ، إحاطة الهـالَةِ بالقَمَر .

نَشْأَةُ أيامها الغرّ، ورَبِىّ إنعامها المواظب علىٰ الحمد والشكر ، المشرَّف باستخدامها الذى هو نعم العون علىٰ التقوىٰ والبر ، عبدُها وآبن عبدها فلان .

سلامُ الله الطيبُ المبـارَك وتحيَّاته ، تخص المقـام الأشرف الأعلىٰ ورحمةُ الله وبركاتُه . وبعــد فكتب العبدُ ـ كتب الله للقام الأعلىٰ فتوحا يعُمُّ جميع الأمصار، وسعوداً يَقْضِى بفَلِّ السُّمْر الطوال والبِيض القِصَار ـ من بَلَنْسِيَة ، وبركاتُه تظهر ظُهورَ النهار، وتَفِيض علىٰ البلاد والعِبَاد فيْضَ الأنهار، فالخلقُ من واردٍ فى سَلْسالها المَعِين، وراجٍ للذى منها وهو من رجائه علىٰ أوضَح مراتبِ اليقين؛ واللهُ يبقى عِزَّ الإسـلام ببقائه ، ويعينُنا علىٰ آمتثال أوامره المبـاركة معشر عبيده وأرقائه ! بمنه .

وقد تقرّر له من المقـام الكريم ـ أدام الله عُلُوّه ، وكَبَتَ عدوّه ؛ أمر بالسك ـ(١) وطال ماله فى البلاد الأَرْغُونية من زَعامَةٍ فى شَأْوِها برّز ، ولغايَتِها أحرز ؛ وكان قد كَفَل صاحب أرغون فى الزمان المتقـدّم كفالةً دار أمرُها عليـه ، وأُلْقِى زمامُها إليـه ؛ وتفرّد منها بعِبْء وحَمَله ، وخُطّة بلغ منهـا أمَلَه ؛ ثم إنه حطَّ من رُتْبته ، وتأكدتِ المبالغـةُ فى نَكْبته ؛ لقضـيّة عرضَتْ له مع أهل أرْغُون، فلفظتـه تلك الجَنَبات، وأزعجه أمْرٌ لم يمكنه عليه الثّبات؛ ورأىٰ أن يلجأ بحاله إلىٰ المقام الباهر الأنوار، العزيزِ الجِوَار؛ فواصل هذا الموضع قبل مَقدَم العبد عليه، مقرّرا مانزَل به، ومستأذِنًا فى الوجه الذى تعرّض لطَلَبه؛ فأُذِنَ له فى مَقْصده، وانصَرف عن التأهُّب للحركة من بلده؛ ثم لمـا وصل العبدُ هذه الجهةَ وفَرَغ هو من شأنه أقبل متوجّها إلىٰ الباب الكريم، ومتوسّلا بأمله إلىٰ فَضْله العميم؛ والظاهرُ من حَنَقه علىٰ أهل أَرْغُون وشدّةِ عداوته لهم ، وما تأكّد من القطيعة بينه وبينهم ؛ أنه إن صادف وقْتَ فتنة معهم ووجد مايؤمِّله من إحسانِ الأمر العالى أيّده الله فيَنْتهِى من نِكَايتهم والإضرار بهم إلىٰ غايةٍ غريبةِ الآثار ، مُفْضيةٍ به إلىٰ دَرْك الثـار ؛ وكثيرٌ من زعماء أَرْغُونَ ورجالها أقاربُه وفُرْسانه ، وكلُّهم فى حَبْله حاطب ، ولإنجاده متىٰ أمكنه خاطِب؛ وللمقام الكريم أعلىٰ الرأى فيه أبقاه الله شافيا للعِلَل ، وكافياً طوارقَ الخطب الجَلَل ، مأمولا من ضروب الأمم وأصناف المِلَل ، وهو سبحانه يُديم سعادةَ جَدّه ، ويُخُصُّه من البقاء الذى يَسُرُّ أهل الإيمـان ويُضَاعِف بَهجةَ الزمان بأطوله وأمـدّه ، والسـلام .

---

(١) كذا فى الأصول بالاهمال وعليه علامة التوقف ، ولم نهتد إليه .

الأســـلوب الثـالث

(أن تُفتَتح المكاتبةُ بأوصاف الخلافة والثناء عليها، والخطابُ فيه بأمير المؤمنين وعن المكتوب عنه بنون الجمـــع)

وهذه المكاتبة من المكاتبات البديعة المُسْفِرة عن صُبْح البلاغة .

ونسختُها بعــد البســملة على ما كتب به ٱبن الخطيب عن سلطانِه ٱبن الأحمر صاحبِ الأندلُس إلى المستنصِر بالله أبى إسحـاق إبراهيم خليفــةِ الموحِّدين يومئــذ بالأنْدلُس . والاستفتاحُ :

الخلافةُ التى ٱرتفَع عن عقائد فَضْلها الأصيلِ القواعدِ الخِلاف ، واستقلَّتْ مَبَانِى فخرِها الشائِع وعِزِّها الذائع على ما أسَّسه الأســلاف ، ووجب لحَقِّها الجازم وفَرْضِها اللازم الاعتراف ، ووَسِعت الآملين لها الجوانبُ الرحيبةُ والأكْناف ، فامتزاجُنا بعلائها المُنِيف ، وولَائها الشريف ، كما ٱمتزج المـاءُ والسُّلاف ، وثناؤُنا على مجدها الكريم ، وفضلِها العميم ، كما تأرَّجت الرِّياضُ الأفْواف [لَمَّا زارها الغَمَامُ الوكَّاف][1] ودُعاؤنا بطُول بقائها ، وٱتِّصال علائِهـا ، يَسْمُو به إلى قرع أبواب السموات العُلَا الاستشراف ، وحِرْصُنا على تَوْفِيَة حقوقها العظيمه ، وفواضِلها العَميمه ، لاتحصُره الحدودُ ولا تُدْرِكه الأوصاف ، وإن عَذَر فى التقصير ، عن نَيْل ذلك المرام الكبير ، الحقُّ والإنصاف . خلافةُ وِجْهةُ تعظيمنا إذا توجَّهت الوجُوه ، ومَنْ نُؤْثِره إذا هَمَّنا ما نرجُوه ، ونُفَدِّيه ونُبَدِّيه إذا اسْتُمْنِح المحبوب وٱستُدْفِع المكروه ، السلطانِ [الخليفة][1] الجليل ، الكبير ، الشهير ، الامام ، الهمام ، الأعلى ، الأوحد ، الأصْعَد ، الأسعَد ، الأسمى ، الأعدل ، الأفضل ، الأسنى ، الأطهر ، الأظهر ، الأرضى ، الأحفل ، الأكمل ، أمير المؤمنين أبى إسحاق

(١) الزيادة من كتاب " ريحانة الكتّاب " المخطوط المحفوظ بدار الكتب الخديوية تحت نمرة ٤ أدب ش .

آبن الخليفة الإمام البَطَل الهمام، عين الأعيان، وواحدِ الزمان، الكبير، الشهير، الطاهر، الظاهر، الأوحد، الأعلىٰ، الحسيب، الأصيل، الأسمىٰ، العادل، الحافل، الفاضل، المعظَّم، الموقَّر، الماجد، الكامل، الأرضىٰ، المقدَّس، أمير المؤمنين أبى يحيى أبى بكر، آبن السلطان الكبير، الجليل، الرفيع، الماجد، الظاهر، الطاهر، المعظَّم، الموقَّر، الأسمىٰ، المقدّس، المرحوم أبى زكريا، آبن الخليفة الإمام، المجاهد الهمام [الكبير الشهير، الخطير، بطل الميدان، مَفْخَر الزمان، الطاهر الظاهر، الأمضىٰ المقدّس الأرضىٰ أمير المؤمنين أبى إسحاق آبن الخليفة](١) الهمام الامام ذى الشهرة الجامِحه، والمَفَاخِر الواضحه، عَلَم الأعلام، نخر السُّيوف والأقلام، المعظَّم، الممَّجد، المقدّس، الأرضىٰ، أمير المؤمنين، المستنصر بالله أبى عبد الله بن أبى زكريا آبن عبد الواحد بن أبى حفص أبقاه الله. ومَقامه مقامُ إبراهيم رِزْقا وأمانا، لايخصُّ جَلْبُ الثمراتِ إليه وقْتا ولا يُعَيِّن زمانا، وكان علىٰ مَنْ يتخطَّف الناسَ مِنْ حوله مؤيَّدا بالله مُعَانا. معظِّم قدره العالى علىٰ الأقدار، ومُقَابل داعى حقّه بالآبتدار، المُثْنِي علىٰ مَعَاليه المخلَّدة الآثار، فى أصْونة النِّظام والنِّثار، ثَناءَ الروضة المِعْطار علىٰ الأمطار، الداعِى إلىٰ الله بطول بقائِه فى عِصمةٍ منسدِلة الأستار، وعزَّةٍ ثابتة المَرْكَز مستقيمةِ المَدَار، وأن يختِمَ له بعد بلوغ غايات الآجال ونهاياتِ الأعمار، بالزُّلفىٰ وعُقْبىٰ الدار.

سلامٌ كريمٌ كما حملَتْ نسمات الأسحار، أحاديثَ الأزهار، ورَوَتْ ثُغُورُ الأقاحىِ والبَهار، عن مسَلْسَلات الأنهار، وتجلّى علىٰ مِنصَّة الآشتهار، وَجْه عَرُوس النَّهار، [يخصُّ خلافتكم الكريمة النِّجار](١) العزيزَةَ الجار، ورحمة الله وبركاته.

أما بعدَ حمد الله الذى أخفىٰ حكمتَه البالغةَ عن أذهان البَشَر، فعجزَتْ عن قياسها، وجعل الأرواح كما ورد فى الخبر، أجنادًا مُجنَّدة تَحِنُّ إلىٰ أجناسها. مُنْجِد هذه

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب".

الملة ، من أوليائه الجلَّة ، بمن يَرُوضُ الآمال بعد شِمَاسها ، ويُيَسِّر الأغراض قَبْلَ ٱلتماسها ، ويُعْنىٰ بتجديد المودَّات فى ذاتِه وٱبتغاءَ مَرْضاته علىٰ حينِ إخلاق لِبَاسها ، الملكِ الحقِّ واصل الأسباب بحَوْلِه بعد ٱنتكاثِ أمْراسِها ، ومُغْنِي النُّفوس بطَوْله بعد إفْلاسِها ــ حمدًا يُدِرُّ أخْلافَ النِّعم بعد إبْساسِها ، ويُنْشِر رِمَمَ الآمال من أرماسها ، ويُقَدِّس النفوسَ بصفات ملائكةِ السموات بعــد إبْلاسِها .

والصلاةُ والسلامُ علىٰ سـيدنا ومولانا محمدٍ رسـولِه سراجِ الهِدَاية ونِبْراسها ، عند ٱقْتِناء الأنوار وٱقْتِباسها ، مطَهِّر الأرضِ من أوْضارها وأدناسها ، ومُصْطفىٰ اللهِ من بين ناسِها ، وسـيدِ الرُّسُل الكِرام ما بين شِيثِها و إلْياسها ، الآتِى مُهَيْمنا علىٰ آثارها فى حينِ فَتْرتِها ، ومن بعد نضْرتِها وٱستئناسها ، مُرْغِم الضَّراغم فى أخْياسها ، بعد ٱفْترارِها وٱفتراسِها ، ومعَفِّر أجرام الأصنامِ ومُصْمِت أجراسهـا .

والرِّضا عن آله وأصحابه وعِتْرته وأحزابه حُمَاةِ شِرْعته البيضاءِ وحُرَّاسها ، ومُلْقِحى غِراسها ، لُيوثِ الوغىٰ عند ٱحتدامِ مِرَاسها ، ورُهْبانِ الرجاء تتكفَّلُ بمناجاة السميع العليم ، فى وَحْشــة الليل البهيم ، بإيناسهــا ، وتَفَاوَح نَواسِمُ الأسحــار عند الاستغفارِ بِطَيبِ أنفاسها .

والدعاء لِخلافتكم العلية المستنصِرِيَّة بالسعادة التى تَشعشَعُ أيدى العِزَّة القَعْسَاء من أكواسها ، ولا زالتِ العِصمةُ الإلٰهية كفيلةً باحترامها وٱحْتراسِها ، وأنباء الفُتوح ، المؤيدة بالملائكة والرُّوح ، رَيحانَ جُلَّاسها ، وآياتُ المفاخر التى تركَ الأوَّلُ للآخر ، مكتتبةَ الأسـطار بأطْراسها ، وميادينُ الوجود مجالًا لجيـاد جُودِها و بأسِها ، والعزُّ والعــدلُ منسو بين لفُسْــطاطِها وقِسْطاسِها ، وصَفِيحةُ النصرِ العزيزِ تُفيضُ كفُّها المؤيدةُ باللهِ علىٰ رِياسها ، عنــد ٱهتياجِ أضدادها وشِرَّة إنكاسها ، لٱلتهاب البــلاد وٱنتهاسها ، وهبوبِ رِياح رِيَاحها وتمرُّد مَرْداسها .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم من كتائب نصره أمدادا تُذْعِنُ أعناقُ الأنام، لطاعة ملكِكُم المنصورِ الأعلامِ ، عند إحْساسها ، وآتاكم من آيات العِنايات آيةً تَضْرِب الصخرةَ الصَّماء ممن عصاها بعصاها فتُبادر بانبجاسها ـ من حمراءِ غَرْناطةَ ـ حرسها الله ـ وأيامُ الإسـلام ، بعناية الملك العَلّام ، تحتفل وفودُ الملائكة الكرامِ لولائمهـا وأَعْراسِها ، وطواعينُ الطّعـان ، فى عدوّ الدّين المُعان ، تجدّد عهـدُها بِعامِ عِمْواسِها .

والحمدُ لله حَمْدا يُعيد شوارِدَ النِّعم ، ويستدِرُّ مواهِبَ الجُود والكَرَم، ويُؤَمِّن من ٱنتكاب الجُـدُود وٱنتِكاسِها ، وَلِىِّ الآمال ومكاسِها . وخلافتُكُم هى المَثـابةُ التى يُزْهىٰ الوجودُ بمحاسن مَجْدِها زُهوَّ الرِّياض بوَرْدِها وآسِها ،وتُستَمَدُّ أضواءُ الفضائل من مِقْباسِها ، وتَرْوِى رُواةُ الإفادة والإجادة غريبَ الوِجادَة عن ضَحّاكها وعَبّـاسها ، وإلىٰ هذا أعلىٰ اللهُ معارِجَ قَدْرِكم وقد فَعَل،وأنطق بحُجَج فَخْرِكم من ٱحتفىٰ وٱنتعل ؛ فإنه وصلنا كتابُكم الذى حَسِبْناه علىٰ صنائع الله لنا تميمةً لاتَلْقَع بعدها عَيْن، وجعلناه علىٰحُلَل مواهِبِه قلادةً لايُحتاج معها زَيْن،ودعَوْناه من جَيْبِ الكِتَابةِ آيةً بيضاءَالكتابة لم يبق معها شكٌّ ولا مَيْن ، وقرأنا منه وثيقةَ وِدٍّ هُضِم فيها عن غَرِيم الزمان دَيْن ؛ ورأينا منه إنشاء، خدَم البراعُ بين يديه وَشّاء،وٱخترع بِهِمْيان عُقْدته مَشّاء، وسئِل عن معـانيه الٱختراعُ فقال : إنّا أنْشأْناهنّ إنْشاء، فأهْلًا به من عربىّ أتىٰ يصف السانح وألبانه[(١)] ، ويُبين فبحُسْن الإبانة أدّى الأمانه، وسئل عن حَيِّه فانتمىٰ إلىٰ كنانه ؛ وأفصح وهو لا يَنْبِس ، وتهلَّلَتْ قَسَماته وليلُ حِبْره يعْبِس ؛ وكأنَّ خاتَمه المُقْفَل علىٰ صِوانه، المُتحف بباكر الوَرْد فى غير أوانِه ، رَعُف مِنْ مسك عُنْوانه . ولله من قلَم

(١) ضبب عليه فى الاصول بعلامة التوقف ولم نهتد الى تثقيفه .

دَبَّج تلك الحُلَل ، ونَقع بمُجاج الدَّواة المستَمِدّة من عين الحيـاة الغُلَل ؛ فلقد تخارق فى الجُود، مُقْتـدياً بالخلافة التى خُلِّد نخرُها فى الوجود ؛ بجاد بسِر البَيـان ولُبَابه ، وسَمح فى سبيل الكَرم حتَّى بمـاء شَبَابه ؛ وجَمح لفرط بَشَاشته وفَهامته ، بعد شهادة السيفِ بشَهامته ، فمشىٰ من التَّرحيب فى الطِّرس الرَّحيب علىٰ أُمِّ هامتِه .

وأكْرِمْ به من حكيم أفصحَ بمَلْغُوز الإكسير ، فى اللفظ اليَسـير ، وشرحَ بلسانِ الخبير ، سرَّ صناعةِ التدبير ؛ كأنما خدم المَلِكة الساحرةَ بتلك البلاد ، قبـل ٱشتجار الجِلَاد ، فآثرتْه بالطارف من سِحْرها والتِّلاد ؛ أو عثر بالمعلَّقه ، وتيك القديمةِ المطلَّقه ؛ بدفينةِ دار ، أو كنزٍ تحتَ جِدار ، أوظَفِر لبانى الحَنايا ، قبل أن تَقْطع به عن أمانيِّه المَنايا ، ببدِيعَهْ ، أو خَلَف جرجيرَ الروم ، قبل منازلة القدوم ، علىٰ وَدِيعه ؛ أو أسْهمه ٱبنُ أبى سَرْح ، فى نَشَب للفَتْح وسَرْح ؛ أو حَـتَم له رَوْح بن حاتِم ببُلُوغ المَطْلَب ، أو غَلَب الحظوظَ بخدمة آل الأغْلَب ، أو خَصَّه زيادةُ الله بمَزِيد ، أو شارَكَ الشِّيعةَ فى أمْرِ ٱبن أبى يَزِيد ؛ أو سار علىٰ مِنْهاج ، فى مُناصَحَـة بنى صِنْهاج ، وفَضَح بتخليد أمداحهم كلَّ هاج .

وأعْجِبْ به ! وقد عُزِّز منه مُثَنَّى البيان بثالث ، بخَلَب سحرَ الأسماع ، وٱسترقاقَ الطباع بين مَثانى الإبداع ومَثالِث . كيف ٱقتدَرَ علىٰ هـذا المجِيد ، وناصح مع التثليث مقامَ التوحيـد ؛ نستغفرُ الله ولِيَّ العَوْن ، علىٰ الصَّمْت والصَّوْن ، فالقَلَم هو الموحِّد قبل الكَوْن ، والمتَّصِفُ من صِفَات الساده ، أُولِى العبـاده ، بضُمور الجسم وصُفْرة اللون ؛ إنمـا هى كرامةٌ فارُوقِيّه ، وأَثَارةٌ من حدِيث سارِيَةَ وبَقِيَّه ؛ سَـفَر وجْهُها فى الأعقاب ، بعـد طُول الٱنتقاب ، وتداوُلِ الأحقاب ، ولسانٌ مُناب ، عن كريم جَنَاب ؛ وإصابةُ السَّهم لِسواه محسُوبه ، وإلىٰ الرامى الذى سَدّده مَنْسوبه ؛ ولا تُنْكر

على الغمام بارقه، ولا على المتحققين بمقام التوحيد كرامةٌ خارقه، فما شاءه الفضلُ من غرائبِ برٍّ وجد، ومحاريبِ خُلقٍ كريم ركع الشُّكْر فيها وسجد. حديقةُ بيان استثارتْ نواسمَ الإبداع من مَهبِّها، واستزارت غمائمَ الطِّباع من مَصبِّها، فآتتْ أُكُلَها مرتين بإذن ربِّها؛ لا، بل كتيبةُ عِزٍّ طاعنتْ بقَنا الألفات سطورُها، فلا يرومُها النقدُ ولا يَطُورها، ونزَعتْ عن قِسيِّ النُّونات خُطوطُها، واصطفَّت من بياض الطِّرس وسَواد النِّقس بُلْقٌ تحوطُها.

فما كأسُ المُدير، على الغدير، بين الخورنْق والسَّدير، تُقامِرُ بنَرد الحَباب، عُقولَ ذَوِي الألباب، وتُغرِق كِسْرىٰ في العُباب، وتُهْدِى وهى الشَّمْطاءُ نَشاطَ الشَّباب، وقد أسْرج ابنُ سُرَيْج وألْجَم، وأفصح الغَرِيضُ بعد ما جَمْجَم، وأعرب النـايُ الأعْجَم، ووقَّع مَعْبَدٌ بالقضيب، وشرعتْ فى حساب العُقَد بنانُ الكفِّ الخَضيب، وكأنَّ الأناملَ فوقَ مَثالثِ العُود ومَثَانيه، وعند إغراء الثقيل بثانيه، وإجابة صدى الغِناء بين مغَانيه، المَرَاودُ تَشْرعُ فى الوَشْى، أو العناكبُ تُسرِع فى المَشْى؛ وما الخَبر بنَيْلِ الرغائب، أو قدومِ الحبيب الغائب؛ لا بل إشارةُ البشير، بكُمِّ المُشير على العشير ـ بأجْلَبَ للسُّرور، من زائرِه المتلقَّى بالبُرور، وأدْعىٰ للحُبور، من سَفيره المبهج للسُّفُور، فلم نَر مثله من كتيبةِ كتابٍ تُجْنب الجُرْدَ [تمرح](١) فى الأرسان، وتتشوّف مجالى ظهورها إلى عرائس الفُرْسان، وتَهُزُّ معاطِفَ الارتياح، من صَهِيلها الصُّراح، بالنَّغمات الحِسان، إذا وجدت الصريخَ نازعتْ أثناءَ الأعِنَّه، وكاثرتْ بأسِنة آذانِها مُشْرَعة الأسنَّه، فإن ادّعىٰ الظليمُ أشكالَها فهو ظالم، أو نازعها الظَّبْىُ هَوادِيَها وأكفالَها فهو هاذٍ أو حالِم، وإن سُئِل عن عُيوب الغُرَر والأوضاح، قال مشيرا إلى وجوهها الصِّباح، جِلْدةُ بين العينِ والأنْف سالِمِ؛ من كلِّ عَبْل الشَّوىٰ،

(١) الزيادة من "الريحانة".

مُسابِقٍ للنجم إذا هوىٰ، سامى التَّلِيل، عريض ما تحت الشَّلِيل، ممسوحةٍ أعطافه بِمنْديل النَّسيم البليل : من أحمر كالمُدَام، تُجْلَىٰ علىٰ النِّدام عَقِب الفِدَام، أُتْحِف لونُه بالوَرْد، فى زمن البَرْد، وحُيِّ أُفُقِ مُحيَّاه بكوكب السَّعْد، وتشوَّف الواصفون إلىٰ عدّ محَاسِنه فأعيَتْ علىٰ العدّ، بحرٌ يساجل البحْرَ عند المدّ، وريحٌ تبارى الرِّيحَ عند الشدّ، بالذِّراع الأشدّ، حكَمَ له مدير فَلَك الكَفَل باعتدال فَصْل القَدّ، وميَّزه قَدْرُه المميَّزُ يوم الآستباق، بقَصب السباق، عند آعتبار الحدّ ؛ وولَّد مختطُّ غُرَّته أشكال الجَمَال، علىٰ الكَمَال، بين البياض والحُمْرة ونقَاءِ الخدّ، وحفظ روايةَ الخلْق الوجيه [عن جدّه الوجيه] (١) ولا تُنْكَر الرواية علىٰ الحافظ بن الجدّ ـ وأشقرَ أبىٰ الخلَق والوَجْه الطَّلْق أن يحقر كأنَّمـا صِيغَ من العَسْجد، وطُرِّف بالدُّرّ وأُنعل بالزبَرْجَد، ووُسِمَ فى الحديث بسِمَة اليُمْن والبركة، وآختصَّ بفَلْج الخِصام، عند آشتجار المعركة، وآنفرد بمُضاعَف السِّهام [المنكسرة علىٰ الهام] (١) فى الفرائض المشـتَرَكة، واتصفَ فلكُ كَفَله بحركَتَى الإرادة والطَّبْع من أصناف الحَرَكة، أصغىٰ إلىٰ السماء بأُذُن المُلْهَم، وأعرب لسانُ الصَّهِيل، عند آلتباس معَانى الهَمْز والتسهيل، ببيان المُبْهَم ؛ وفُتِنت العيونُ من ذَهَب جِسْمه، وبلُجَيْنِ نَجْمه بحُبِّ الدينار والدِّرهم ؛ فإن انقَضَّ فرجم أو ريحٌ لهـا هجم، وإن آعترض فشَفَق لاحَ به للنَّجْم نَجْم ـ وأصفرَ قيَّدَ الأوابِد الحرّه، وأمسك المحاسنَ وأطلَقَ الغُرَّه، وسُـئِل مَنْ أنتَ فى قُوَّاد الكتائب، وأُولِى الأخبـار العجائب، فقال أنا المهلَّب بن أبى صُـفْره ؛ نَرْجس هـذه الألوانِ، فى رياض الأكوان، تحيا به وجوه الحرْبِ العَوان، أغار بنَخْوة الصائل، علىٰ مُعَصْفَرات الأصائل فارتداها ؛ وعَمَد إلىٰ خُيُوط شُعاع الشمس، عند جانحة الأمس، فألحم منها حُلَّته وأسْداها ؛ وآستعْدَتْ عليه ملك المحَاسنِ فـا أعداها، فهو أصـيلٌ تمسَّك بذَيْل الليـل عُرْفُه

---

(١) الزيادة من الريحانة .

وذَيْله ، وكوكَبُ يُطْلِعُه من القَتَام ليلُه ، فيَحْسُده فَرْقَد الأفق وسُهَيْلُه – وأشهبَ تَغَشَّى من لَونِه مُضَاضه، وتَسربَلَ منه لأمَةً فَضْفَاضه، قد ٱحتفل زَيْنُه ، لمـا رُقِم بالنِّبال لُجَيْنُه ، فهو الأشْمَط ، الذى حَقُّه لا يُغْمَط ، والذِّراع المُسَارع، والأعزلُ الدَّارع، وراقى الهِضَاب الفارِع، ومكتُوبُ الكتيبة البارع ؛ وأَكْرِمْ بِهِ من مُرْتاضٍ سالك ، ومجتهِد علىٰ غايات السابِقين الأوّلينَ مُتَهالِك ، وأشهبُ يَرْوِى من الخليفةِ ، ذى الشِّيَم المُنِيفة ،عن مالِكٍ – وحُبَارِىٌّ كلَّما سابَقَ وبارىٰ، ٱستعار جَنَاحَ الحُبَارىٰ ؛ فإذا أُعْمِلت هذه الحِسْبه ، قيل من هنا جاءت النِّسبه، طَرَد النَّمِر، لمـا عَظُم أمرُه وأمِر ، فنسخ وجُودَه بعَدَمِه ، وٱبتَزَّه الفَرْوَةَ ثم لطَّخه بدمه ، وكأن مضاعفَ الوردنُثِر عليه من طبقه، أو الفَلَك، لما ذهب الحَلَك، مُزِج فيه بياض صُبْحه بحمرة شَفَقِه – وقِرْطاسىٌّ حقُّه لايجهلَ، حتّٰى ماترقىٰ العين فيه تَشْهَل، إن نُزِع عنه جُلُّه ، فهو نجمٌ كلُّه ، ٱنفرد بمـادَّة الألوان ، قبل أن تَشُوبَها يَدُ الأكوان ، وتمزجَها أقلامُ المَلَوان ، يتقـدّم منه الكتيبةَ المُقْبِلة لواءٌ ناصع ، أو أبيضُ ممـاصع، لَبِس وَقَارَ المَشيب ، فى رَيْعان العُمُر القَشيب، وأنصتَت الآذانُ من صَهِيله المُطِيل المُطيب، لمـا ٱرتدىٰ بالبياض إلىٰ نَغْمـة الخطيب ، وإنْ تَعَتَّب منـه للتأخيرِ المتعتِّب ، قلنا الواوُ لا تُرَتِّب ، ما بين لخلٍ وحُرَّه ، وبهرمانة ودُرَّه ، ويالله من ٱبتسامِ غُرَّه ، ووضوحِ يُمْنٍ فى طُرَّه ، وبهجةٍ للعين وقُرَّه ، وإن وَلِـع الناس بامتداح القـديم ، وخَصُّوا الحديث بفَرْىِ الأَدِيم ، وأوجب المتعصِّب، وإن أبىٰ المَنْصب، مرتبةَ التقديم ، وطَمَحَ إلىٰ رُتْبَة المخدوم طَرْفُ الخَـدِيم ، وقُرِن المُثْرِى بالعَدِيم، وبُخِس فى سُوق الحَسَد الكيل، ودجىٰ الليل، وظهر فى فَلَك الإنصاف المَيْل، لما تُذُوكِرَتِ الخيـل ؛ بِجَىء بالوَجيه والخَطَّار ، والذائد وذى الخِمـار ، وداحِسٍ والسَّكْب ، والأبْجَر وزاد الرَّكْب، والجَمُوح واليَحْمُوم، والكُمَيْت ومَكْتوم، والأعْوَج وحُلْوان،

ولاحِقٍ والغَضْبان ، وعفورُ (؟) والزَّعْفَران ، والمحبر، واللعّاب ، والأغرُّ والغُراب ، وشُـعْلة والعُقَاب ، والفيّـاض واليَعْبُوب [والمُـذْهَب واليعسوب، والصَّموت والقطيب ، وهيدب والصبيب وأهلوب](١) وهَـدَّاج ، والحَرُون وخَرَّاج ، وجَلْوىٰ ، والجناح والأحْوىٰ، ومُجاج والعَصا، والنَّعامه ، والبَلْقاء والحَمامه ، وسَكَابِ والجَراده ، وحَوْصاءُ، والعَراده . فكم بين الشاهدِ والغائب، والفُرُوض والرَّغائب؛ وفرقُ ما بَيْنَ الأثَرِ والعِيان ، غَنِيٌّ عن البيان ؛ وشتَّانَ بين الصَّريح والمشْتَبِه ، ولله القائل فى مثلها « خُذْ ما تَراه ودَعْ شَيْئا سَمِعْتَ به » والناسخ يختلِفُ به الحكم ، وشَرُّ الدوابِّ عند التفضيل بين هذه الدوابِّ الصُّمُّ البُكْم؛ إلا ماركبه نَبِي ،أوكان له يوم الأفتخار برهان خبي ؛ ومُفَضَّـل ما سَمِـع علىٰ ما رأىٰ غَبِي ، فلو أُنصِفَتْ محاسنُها التى وصَـفْتُ لأُقْضِمَت حَبَّ القلوب عَلَفا ، وأُورِدَتْ ماءَ الشَّبِيبَة نُطَفا ، وٱتُّخِذَت لهـا من عُذُرِ الخُـدود المِلاح عُذُر مَوْشِيّه ، وعُلِّلَتْ بصَفير ألحـان القِيَانِ كلَّ عشيه ؛ وأُنْعِلَتْ بالأهِلَّة ، وغُطِّيت بالرِّياض بَدَلَ الأجِلَّة .

إلىٰ الرقيق ، الخليق بالحُسْن الحَقِيق ،تسوقه إلىٰ مثوىٰ الرعاية روقة الفتيـان رعاته ويُهْـدِى عقيقُها من سَـبَجِه أشكالا تَشْهَد للمخترع سبحانَه بإحكام مخترعاته ، وقَّفَتْ ناظرَ الأستحسان لايَرِيم ، لَمَّـا بهره مَنْظَرُها الكريم ، وتخاملَ الظليم وتضاءَلَ الرِّيم ، وأخرسَ مقولَهُ اللسانَ وهو بملكات البيان الحفيظُ العليم ،وناب لسانُ الحال، عن لسان المَقَال، عند الأعتقال ، فقال يخاطبُ المقامَ الذى أطلعَتْ أزهارَها غمائمُ جوده [وٱقتضَّت ٱختيـارها بركةُ وجوده ،](١) : لو علِمْنا أيُّها الملكُ الأصـيل ، الذى كَرُم منـه الإجمـال والتفصِـيل ؛ أنَّ الثناءَ يُوازِيها لكِلْنا لك بكَيْلِك ،

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

أو الشُّكْر يُعادِلها ويُجازِيها لتعرّضنا بالوَشَل إلىٰ نَيْل نَيْلك ، أو قلنا : هى التى أشار إليها مستَصْرِخ سلفك المستنصر بقوله : أدْرِكْ بَخَيْلك ، حين شَرِق بدفعه الشَّرْق ، وآنهزم الجمعُ وآستولىٰ الفَرَق وآتسع فيه والحكْمُ لله الخَرْق ؛ ورأىٰ أن مقامَ التوحيد بالمظاهَرة علىٰ التثليث ، وحِزْبه الخَبِيث ، هو الأولىٰ والأحقّ . والآنَ قد أغنىٰ اللهُ بتلك النِّيَّه ، عن إنجاد الطِّوال الرُّدَينيه ، وبالدعاء من تلك المَثَابة الدينيه إلىٰ ربِّ البِنَيّه ، عن الأمْداد السَّنِيَّه ، والأجوادِ تخوض بحر الماء إلىٰ بحر المَنِيّه ، وعن الجُرْد العربية فى مَقَاوِد الليوث الأبيّه . وجَدّد برَسْم هذه الهديَّه ، مَرَاسِمَ العهود الوُدِّيه ، والذِّمم الموحِّديّه ، لتكون علامةً علىٰ الأصل ، ومكَذِّبة لدعوىٰ الوَقْف والفَصْل ، وإشعارا بالأُلْفة التى لاتزال أَلِفُها ألفَ الوصل ، ولامُها حرامًا علىٰ النَّصْل .

وحضر بين يدينا رسولُكم فلان فقرَّر من فضلكم ، مالاينُكره مَنْ عَرَف علوَّ مِقدارِكم ، وأصالةَ دارِكم ، وفَلَكَ إبدارِكم ، وقُطْب مَدارِكم ؛ وأجَبْناه عنه بجُهد ما كُنَّا لنَقْنَع من حَناه المهتَصَر ، بالمقتَضَب المختصَر ، ولا نُقابِل طُولَ طَوْله بالقِصَر ، لولا طُروءُ الحَصَر .

وقد كان بين الأسلاف ـ رحمةُ الله عليهم ورضوانُه ـ وُدٌّ أُبْرِمتْ من أجْلِ الله مَعَاقِدهُ ، ووُثِّرت للخُلُوص ، الجَلِيِّ النصوص ، مضاجِعُه القارّة ومَرَاقِدُه ، وتعاهُدٌ بالجميل توجَّع لفقده فاقِدُه ؛ أبىٰ الله إلا أن يكون لكم الفضلُ فى تجديده ، والعطفُ بتوكيده ؛ فنحن الآنَ لا ندرِى أىَّ مكارمكم نَذْكر ، أو أىّ فواضلكم نَشْرَح أو نَشْكر ، أمفاتحتُكم التى هى عندنا فى الحقيقة فَتْح ، أم هدِيّتكم وفى وصفها للأقلام سَبْح ، ولعدوّ الإسلام بحكمة حكْمتها كَبْح ، إنمـا نَكُل الشكر لمن يُوَفِّى جزاء الأعمال

البرّه، ولا يَبْخَس مثقالَ الذَّرّة ولا أدنىٰ [من] مثقالِ الذّره، ذى الرحمة الثّرّه، والألطافِ المتصِلة المستمرّه، لا إلٰهَ إلا هو .

وإن تَشَوّقتم إلىٰ الأحوال الراهنه، وأسباب الكُفْر الواهية بقدرة الله الواهنه؛ فنحن نُطْرفكم بطُرَفها، ونُطْلِعكم علىٰ سبيل الإجمال بطَرَفها؛ وهو أننا لَمَّا أعاد اللهُ من التمحيص، إلىٰ مثابة التخصيص، من بعـد المَرَام العويص، كَحَلنا بتوفيق الله بَصَر البصيره، ووقَفْنا علىٰ سبيله مساعِيَ الحياة القَصِيره؛ ورأينا كما نُقِل إلينا، وكُرِّر علىٰ مَنْ قَبْلنا وعلينا، أنَّ الدنيا ـ وإن غرّ الغَرُور، وأنام علىٰ سُرُر الغفلة السُّرور، فلم ينفع الخُطور علىٰ أجداث الأحباب والمُرور ـ جَسْر يُعْبَر، ومتاعٌ لا يُغْبَط من حُبِي به ولا يُحْبَر، إنمـا هو خبر يُخْبَر، وأن الحَسْرة بمقدارها علىٰ تركه تجبر؛ وأنَّ الأعمار أحلام، وأنَّ النـاس نِيَام؛ ورُبّمـا رَحَل الراحل عن الخان، وقد جلَّله بالأذىٰ والدُّخان، أو ترك به طِيبًا، وثناءً يقوم بعده للآتى خَطِيبا؛ فجعَلْنا العدل فى الأمور مِلَاكا، والتفقُّد للثُّغُور مِسْواكا، وضَجِيعَ المِهَاد، حديثَ الجِهاد، وأحكامَه مَنَاط الاجتهاد، وقولَه : ﴿ يأَيُّها الذين آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ علىٰ تجارةٍ ﴾ من حُجَج الاستشهاد، وبادرنا من الحُصون المُضاعة وجنـحُ التَّقيَّة دامس، وسا كِنُها بائس، والأعصمُ فى شَعَفَاتها من العِصْـمة يائس؛ فزَيَّنّا ببِيض الشُّرُفات، ثناياها، وأفعَمْنا بالعَذْب الفُرات، رَكَاياها، وغَشَّينا بالصَّفيح المُضاعَف أبوابها، واحتسَبْنا عند مُوَفِّي الأجور ثوابَهـا، وبيَّضْنا بناصع الكِلْس أثوابها؛ فهى اليوم تُوهم حِسَّ العِيان، أنها قِطَعٌ من بِيض العَنَان، تكاد تَنَاوَلُ قُرْص البـدر بالبَنَان، متكفِّلةٌ للمؤمن من فَزَع الدنيا والآخرةِ بالأَمَان؛ وأقْرَضْـنا اللهَ قَرْضا، وأوسـعْنا مَدُوّنة الجيش عَرْضا، وفرضْنا إنصافه مع الأهلة فرضا؛ واستَنَدْنا من التوكُّل علىٰ الله الغنىّ الحميد إلىٰ ظـلّ لواء،

ونَبَـذْنا إلىٰ الطاغية عهـدَه علىٰ سَوَاء ؛ وقلنا : ربَّنـا أنت العزيزُ وكلُّ جَبَّار لعِزِّك ذليـل ، وحِزْبُك هو الكثير وما سواه فقليل [أنت الكافى ، ووعدُك الوعدُ الوافى ، فأفض علينـا مَوازِعَ الصابرين] (١) واكْتُبْنا من الفائزين بحظوظ رِضَاك الظافرين ، وثَبِّتْ أقدَامَنا وٱنصُرْنَا علىٰ القوم الكافِرِين .

فتحرَّكنا أُولىٰ الحَرَكات ، وفاتحـةَ مُصْحَف البَرَكات ؛ فى خِفٍّ من الحُشُود ، وٱقتصارٍ علىٰ ما بحضرتنـا من العساكر المظَفَّرة والجُنود ؛ إلىٰ حصن آش البـازى المُطِل ، وركابِ العَدُوّ الضالِّ المُضِل ، ومُهْدِى نَفَثات الصِّلّ ؛ علىٰ ٱمتناعه وٱرتفاعه ، وسُمُوِّ يَفَاعه ؛ وما بَذَل العدوُّ فيه من ٱستعداده ، وتوفيرِ أسلحته وأزْوادِه ، وٱنْتخاب أنجاده ؛ فصَلِينا بنفسـنا نارَهْ ، وزاحَمْنا عليـه الشهداءَ نُصابِرُ أُوَارَه ؛ ونَلْقىٰ بالجَوَارح العزيزة سهامَه المسـمومه ، وجَلَامِدَه الململمه ، وأحجـارَه ؛ حتّٰى فَرَعْنا بحول مَنْ لاحولَ ولاقوَّةَ إلا به أبراجَه المنيعـةَ وأسواره ، وكفَفْنا عن العباد والبلادِ أضرارَهْ ، بعـد أن استضَفْنا إليه حِصْنَ السهلة جارَه ؛ ورحَلْنا عنه بعد أن شحَنَّاه رابطةً وحاميه ، وأزوادا ناميَه ؛ وعَمِلْنا بيـدِنا فى رَمِّ ماثَلَم القِتال ، وبَقَر من بُطُون مسالحه الرجال ، وٱقتدينا بنبينا صلوات الله عليه وسلامه فى الخندق لَمَّا حَمَىٰ ذلك المَجَال ، ووقع الٱرتجازُ المنقولُ خبرُه والٱرْتِجَـال ، وما كان لِيَقِرَّ للاسـلام مع تَرْكه القَرَار ، وقد كُتِب الجوار ، وتداعى الدَّعَرَةُ وتعـاوى الشِّرار .

وكنا أغزينا الجهـةَ الغربية من المسلمين بمدينة بُرْغة التى سدّتْ بين القاعدتين : مَالَقةَ ورُنْدَةَ الطريقَ ، وألْبستْ ذُلَّ الفِراق ذلك الفَرِيق ، ومنعَتْهما أن يُسِيغا الرِّيق ؛ فلا سبيلَ إلىٰ الإلمـام ، لطَيْف المنام فى الأحلام ، ولا رِسالةَ إلا فى أجنحة

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب".

هَدىً الحَمَام ؛ فيَسَّر اللهُ فتحها ، وعَجَّل مَنْحَها ؛ بعــد حَربٍ أنْبَتَّت فيها النُّحور ، وتزيَّنت الحُور ؛ وتَبِـع هذه الأمَّ بناتٌ شهيره ، وبُقَع للزَّرْع والضَّرْع خِيره ، فشُفِى الثَّغر من بُوسه ، وتهلَّل وجهُ الإسلام بتلك الناحية بعد عُبُوسه .

ثم أعملنا الحركَةَ إلىٰ مدينة الجزيرة علىٰ بُعْــد المَدىٰ ، وتعلُّقها علىٰ بلاد العدَا ، وٱقتحامِ هَوْل الفَلَا وغَوْل الرَّدا ؛ مدينةٌ بنتها حمص فأوسعَتِ الدار ، وأغلتِ الشِّوار ، وراعتْ الاستكثار ، وبَسَطتْ الاعتمار ؛ رَجَّح إلينا قَصْدَها علىٰ البُعْد ، والطريقِ الجَعْد ، ما آسفَت به المسلمين ، من استِئصال طائفةٍ من أَسْراهم مَرُّوا بها آمنين ، وبطائِرِها المشئُوم متيَمِّنين ؛ قد أنهكَهُم الاعتقال ، والقُيُود الثِّقال ؛ وأضرعَهم الإسـار ، وجَلَّلهم الانكسار ؛ فخَــذَّلُوهم فى مصرعٍ واحد ، وتركوهم عِبْرةً للرائى والمشاهد ؛ وأهْدُوا بوَقِيعتهم إلىٰ الإسلام ثُكْلَ الواحد ، وتِرَة المـاجد ؛ فكبسناها كبسا ، وبَخَأْناها بإلهـامِ من لَايضِلُّ ولايَنْسىٰ ؛ فصبَّحتْها الخيل ، ثم تلاحق الرَّجْل كما جَنَّ الليل ، وحاقَ بها الوَيْل ؛ فأُبِيح منها الذِّمَار ، وأخذها الدَّمار ، ومُحِقتْ من مَصانِعِها البيضِ الأهلَّةُ وخُسِفَتِ الأقمـار ، وشُـفِيت من دِماء أهلها الضُّلوعُ الحِرَار ، وسلطَتْ علىٰ هَيَا كِلها النـار ، وٱستولىٰ علىٰ الآلاف العــديدةِ من سَبْيها الإسَار ، وٱنتهىٰ إلىٰ إشْبِيلِيَةَ الثَّكلىٰ المَغـار ، فجَلَّل وجوهَ مَنْ بها من كِبَار النصرانية الصَّغار ، وٱستولَتِ الأيدى علىٰ مالا يَسَعُه الوصف ولا تقلُّه الأوقار .

وعُدْنا والأرضُ تموج سَبْيا ، لم تَتْرُكْ بعِفرِّين شِـبْلا ولا بوَجْرَةَ ظَبْيا ؛ والعقائلُ حَسرىٰ ، والعيونُ تبهَرها الصُّنُع الأسرىٰ ، وصُبحُ السُّرىٰ قد حُمِد من بَعْد بُعْد المَسْرىٰ ، فسُـبحانَ الذى أَسْرىٰ . [ولسانُ الحميَّـة يُنادِى ، فى تلك الكنائس المخرّبة والنوادى ، يالَثاراتِ الأسْرىٰ (١)] .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

ولم يكن إلا أنْ نُفِّلت الأنفال ، ووُسِمَتْ بالأرضاخ الأغفال ، وتميزت الهَوادِى والأكفال ، وكان إلىٰ غزو مدينة جَيَّانَ الاحتفال ، قُدْنا إليها الجُرْدَ تُلاعب الظِّلالَ نَشَاطا ، والأبطالَ تقتَحم الأخطار رِضًا بما عندَ الله واغتبَاطا ، والمهنَّدةَ الزُّرْق تَسبِق إلىٰ الرقاب استلالًا واختراطا ، والرُّدينيَّةَ السُّمْر تسترط حياة النفوسِ استراطا ، وأزحْنا العِلَلَ عمَّن أراد جِهادًا مُنْجيا غُبارُه من دُخَان جهنَّمَ ورِباطًا ، ونادَيْنا الجهادَ الجهاد ، ياأمةَ الجهاد ، راية النبيِّ الهاد ، الجَنَّة الجنة تحت ظلال السيوف الحِدَاد ؛ فهَزَّ النداءُ إلىٰ الله تعالىٰ كلَّ عامرٍ وغامر ، وأُتْمِرَ الجَمُّ من دعوة الحقِّ إلىٰ أمْرِ آمِر ، وأتىٰ النـاس من الفُجُوج العميقةِ رِجالًا وعلىٰ كلِّ ضَامِرْ ؛ وكاثرتِ الراياتُ أزهارَ البِطَاح لَوْنا وعَدّا ، وسَـدّتِ الحُشُود مسالكَ الطريقِ العريضةِ سَـدّا ؛ ومدّ بَحْرُها الزاخِرُ مدّا ، فلا يجد لها الناظرُ ولا المناظِر حَدّا .

وهذه المدينةُ هى الأُمُّ الوَلُود ، والجنةُ التى فى النار لسُكَّانها من الكُفَّار الخُلُود ؛ وكرسىُّ المُلْك ومجنبته الوسطىٰ من الممـالك باءَتْ بالمزَايا العـديدة ونَجَحَتْ ، وعند الوِزان بغيرها من أمَّات البُلْدان رَجَحتْ ؛ غابُ الأُسُـود ، وجُحْر الحَيَّات السُّود ؛ ومَنْصِب التماثيل الهائله ، ومَعْلَق النواقيس الصائله .

وأدنَيْنا إليها المَرَاحل ، وعَيَّنَّا لتُجَّار المحلات المستقلات منها الساحِلْ ؛ ولمـا أكْثَبْنَا جوارَها ، وكِدْنا نلْمَح نارَها ، تحرَّكَا وِشاحُ الأُفُق المرقوم ، بزَهْرِ النجوم ، قد دار دائرُه ، والليلُ من خوف الصَّباح ، علىٰ سَرْحه المُسْتَباح ، قد شابت غَدائره ، والنَّسر يُرَفْرِفُ باليمن طائرُه ، والسِّماك الرامح يثأر ثغْر الإسـلام ثائرُه ؛ والنعائمُ راعدةُ فرائص الجَسَد ، من خوف الأسَد ؛ والقوسُ يُرسِل سَهْم السعاده ، بوتَر العاده ، إلىٰ أهداف النِّعَم المُعاده ؛ والجوزاء عابرةٌ نَهر المجَرَّه ، والزُّهَرة تَغارُ من الشِّعرىٰ العبُور بالضَّرَّه ؛

وعُطَارِد يُسْدِى فى حِيَل الحُروب علىٰ البَلَد المحروبِ ويُلْحِم ، ويناظِر علىٰ أشكالها الهَندسِيَّة فيُفْحِم ،والأحمر يَبْهَر،والعَلَم الأبيض يَفْرى ويَنْهر، والمشترِى يُبدِئ فى فضل الجهاد ويُعيد ، ويُزاحِم فى الحلقَات علىٰ ماللسـعادة من الصفَات ويَزِيد ، وزُحَل علىٰ الطالع مترحل ، وعن العاشر مرتحل ، وفى زَلَق السُّـقُوط وحل ، والبـدرُ يُطَـارِح حَجَر المَنْجنيق ، كيف يَهوِى إلىٰ النِّيق ، ومطلَعُ الشمس يَرْقُب ، وجِدَار الأُفُق يكاد بالعُيون عنها يُنْقَب .

ولمَّـا فَشَا سِرُّ الصَّباح ،واهتزَّت أعطافُ الرايات لتِحيَّات مبَشِّرات الرِّياح ، أطْلَلْنا عليها إطلالَ الأُسود علىٰ الفرائس ، والفُحولِ علىٰ العرائس ، فنظرنا مَنْظرا يَرُوع بأسًا ومَنَعه ، ويروقُ وَضْعا وصَنْعه ، تَلَفَّعت معاقِلُه الشمُّ للسَّحاب ببرُود ، ووردَتْ من غَدِير المُزْن فى بُرُود ، وأسرعَتْ لِاختطاف أزهارِ النُّجوم والذراع بين النطاق معاصِمُ رُود ، وبلدًا يُعيِي المـاسِحَ والذارِع ،وينتظم المحانى والأجارِع ، فقلنا : اللهم نفِّله أيدى عبادك ، وأرِنَا فيـه آيةً من آيات جِهادِك ، فنزلنا بساحتها العريضةِ المُتُون ، نُزولَ الغيث الهَتُون ، وتيَمَّنَّـا من فَحْصها الأَفْيح بسورة التِّين والزيْتُون ، مترِبة من أمان الرحمان للبلد المَفْتُون ، وأعجَلنَا الناسُ بحِميَّة نُفُوسهم النَّفِيسه ، وسَجِيَّة شجاعتهم البَئِيسه ، عن أن نُبَوِّئَ للقتال المَقاعد ، ونُدْنِىَ بإسماع شَهِيرِ النَّفِير منهم الأباعد ، وقبل أن يلتَقِىَ الخديمُ بالمخدوم ، ويركَعَ المَنْجنيقُ ركعتَىِ القُدُوم ، فدفعوا مَنْ أصْحَر اليهم من الفُرْسان ، وسَبَق إلىٰ حَوْمة المِيدان ، حتّى أجْحَرُوهم فى البَلَد ، وسَلَبُوهم لباسَ الجَلَد ، فى مَوْقِف يُذْهِل الوالدَ عن الوَلَد ، صارتِ السِّهامُ فيه غَماما ، وطارَتْ كأسرابِ الحَمَام تَهْدِى حِماما ، وأضحَتِ القَنَا قِصَـدا ، بعدَ أنْ كانتْ شِهابًا رَصَدا ، وماجَ بحرُ القَتَام بأمواج النُّصُول ، وأخذ الأرضَ الرَّجَفانُ لزِلْزَال الصِّياح الموصُـول ، فلا ترىٰ إلا شهيدًا

تُظَلِّل مَصْرَعَه الحُور، وصريعًا تَقْذِف به إلىٰ الساحل أمواج تِلْك البُحُور، ونَواشِبَ تَبْأىٰ بها الوُجوهُ الوجيهةُ عندَ الله والنُّحور؛ فالمِقْضَب، فَوْدُه يُخْضَب، والأسمر، غُصْنه يستثمر؛ والمِغْفر، حِماه يَخْفِر؛ وظُهور القِسِيّ تُقْصَم، وعِصَم الجُنَد الكوافر تُفْصَم؛ ووَرَق اليَلَب، في المنقلب، يَسْـقُط، والبُتْر تكتب والسُّمْر تَنْقُط؛ فاقْتُحِم الرَّبَض الأعظمُ لِحِينـه، وأظهر اللهُ لعيون المُبْصرين والمستَبْصرين عِزَّةَ دينه، وتبرَّأ الشيطانُ من خَدينه؛ ونُهِب الكُفَّار وخُذِلوا، وبكُلِّ مَرْصَدٍ جُدِّلُوا؛ ثم دُخِل البَلَدُ بعده غِلَابا، وجُلِّل قتْلًا واستلابا؛ فلا تَسَـلْ، إلا الظُّبىٰ والأسَل، عن قيام ساعته، وهَوْلِ يومها وشَنَاعته؛ وتخريبِ المَبائت والمَبَاني، وغِنىٰ الأيدي من خَزَائن تلك المَغَاني، ونَقْلِ الوُجود الأوّلِ إلىٰ الوُجُود الثاني؛ وتَخارقَ السيفُ فجَـاء بغير المعتاد، ونَهِلَت القَنَا الرُّدَيْنِيَّةُ من الدماء حتّىٰ كادت تُورِق كالأغصان المُغْتَرِسة والأوتاد؛ وهَمَتْ أفلاكُ القِسِيِّ وسَحَّت، وأرَنَّتْ حتّىٰ بَحَّت، ونَفِـدت موادُّها فشَـحَّت بمـا ألَحَّت؛ وسَدَّت المسالكَ جُثَثُ القتلىٰ فمنَعت العابِر، واستأصلَ اللهُ من عدوّه الشأفَةَ وقَطَع الدابِرْ، وأَزْلَفَ الشهيدُ وأُحْسِب الصابر، وسبقَتْ رُسُلُ الفتح الذي لم يُسْمَع بمثله في الزمن الغابِر، تَنْقُل البُشْرىٰ من أفواه المحابر، إلىٰ آذانِ المَنَابر.

أقمنا بهـا أيَّاما نَعْقِر الأشجار، ونستأصِـلُ بالتخْرِيب الوِجَار، ولسانُ الانْتِقام، من عَبَدةِ الأصنام، يُنادِي يالَثَاراتِ الإسكندرية تَشَفِّيا من الفُجَّار، ورَعْيًا لحقِّ الجـار؛ وقفَلْنا وأجْنِحةُ الرايات، برياح العِنَايات، خافقـه؛ وأوفاق التوفيق، النـاشئة من خطوط الطريق، موافقه؛ وأسواقُ العِزِّ بالله نافقه، وحملاء الرفق مصاحبة ــ والحمدُ لله ــ مرافقه؛ وقد ضاقَتْ ذُرُوعُ الجبال، عن أعناق الصُّهْبِ السِّبال؛ ورُفِعت علىٰ الأكفال، رُدَفاءُ كرائم الأنفال؛ وقُلِّقلتْ من النواقيس أجرامُ

الجبال بالهِنْدام والاْحتيال ؛ وهلك بمَهْلِك هذه الأمِّ بناتٌ كُنَّ يرتضِعْن ثُدِيَّها الحوافل ويستَوْثِرْن حِجْرها الكافل ؛ شَمِل التخريبُ أسوارَها ، وعَجَّلت النار بوارَها .

ثم تحرَّكنا بعدها حركَةَ الفتح ، وأرسلنا دِلاَءَ الإدلال قبل المَتْح ، فبشَّرت بالمَنْح ؛ وقصــدنا مدينةَ أُبَّدَةَ وهى ثانيــة الجناحيْن ، وكُبْرىٰ الأختَيْن ، ومساهِمةُ جَيَّــانَ فى حين الحَيْن ؛ مدينة أخذَتْ عَرْض الفضاء الأخرق ، وتمشَّتْ فيه أرباضُها تَمَشِّى الكتابة الجــامحة فى المُهْرق ؛ المشتَمِلة علىٰ المَتَاجِر والمَكَاسب ، والوضْع المُتَناسب ، والفَلْج المُعْيِي رَيْعُــه عملَ الحاسب ، وكُوارة الدَّبْر اللَّاسِب ، المتعــدّدة اليَعَاسب ؛ فأناخَ العَفَاءُ بربوعها العــامِرَه ، ودارتْ كُـئُوس عُقَــار الحُتوف ، ببَنَان السيوف ، علىٰ متديِّريها المعاقِرة ، وصَبَّحتْها طــلائعُ الفاقِرة ، وأُغريتْ ببُطون أســوارها عُوجُ المَعاول الباقره ، ودخلَتْ مدينَتَها عَنْوةُ السـيف ، فى أسرَعَ من خَطْرة الطَّيْف ؛ ولا تسأل عن الكَيْف ، فلم يبلُغ العَفَاءُ من مدينــةٍ حافله ، وعقيلةٍ فى حُلَل المحاسن رافله ، مابلغ من هــذه البائسةِ التى سجدَتْ لآلهةِ النِّيران ابراجُها ، وتضاءل بالرَّغام مِعْراجُها ، وضــفتْ علىٰ أعطافهــا ملابِسُ الخِــذْلان ، وأقفرَ من كَنَائِسها كُنَّاسُ الغِزْلان .

ثم تأهبنا لغزو أمِّ القُرىٰ الكافره ، وخَزَائن المَزَاين الوافِره ، وربَّةِ الشُّهرة السافره ؛ [والأنباء المسافره][(١)] قُرْطبةَ وما أدراك ماهيه ، ذاتُ الأرجاء الحالية الكاسيَه ، والأطْوادِ الراسخة الراسيَه ، والمَبَانِى المباهية والزهراء الزاهيه ، والمحاسنِ غير المُتناهيه ؛ حيثُ هالةُ بدر السماء ، قد آستدارَتْ من السُّور المَشيدِ البِناء ؛ ونَهْرُ المجَرَّة من نَهْرها الفيَّاض ، المسلول حُسامُه من غُمُودِ الغِيَاض ؛ قد لَصِق بهــا جارا ، وفلَكُ الدُّولاب المعتدلُ

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الانقلاب قد استقام مَدَارا، ورَجَّع الحَنِين اشتياقًا إلى الحَبِيب الأوّلِ وادّكارا؛ حيث الطَّوْدُ كالتاج، يزدان بلُجَيْن العَذْب المُجَاج؛ فيُزْرِى بتاج كسرى ودارا؛ حيث قِسِيُّ الجُسُور المديره، كأنها عُوجُ المطىّ الغريره، تعبُرُ النهر قطارا؛ حيث آثارُ العامرىّ المجاهد، تعْبَقُ بين تلك المعَاهِد، شَذًى مِعْطارا؛ حيثُ كرائمُ السَّحائب، تزورُ عرائس الرياض الحبائب، فتحمِلُ لها من الدُّرِّ نِثارا؛ حيثُ شَمولُ الشَّمال تُدارعلى الأدْواح؛ بالغُدُوّ والرَّواح، فترى الغُصونَ سُكارى وما هى بسُكارى؛ حيثُ أيْدى الافتتاح، تَفْتَضُّ من شقائق البِطاح، أبكارا؛ حيثُ ثُغورُ الأَقَاحِ الباسم، تقَبِّلها بالسَّحَر زُوّار النَّواسم، فتَخْفِق قلوبُ النُّجوم الغَيارى؛ حيثُ المصلَّى العتيقُ قد رَحُب مَجَالا وطال مَنَارا، وأزرى ببَلَاط الوليد احتِقارا؛ حيثُ الظُّهور المثارة بسلاح الفلاح تُجَبُّ عن مثل أسنمةِ المَهَارَا، والبطونُ كأنها لتَدْميث الغمائم بُطونُ العَذارى، والأدواحُ العالية تخترِقُ أعلامُها الهاديةُ بالجَداول الخبَارا؛ فما شِئْت من جوٍّ صَقيل، ومُعَرَّس للحُسْن ومَقيل، ومالكٍ للعقل وعَقِيل. وخمائلَ كَمْ فيها للبَلابل من قالٍ وقِيل، وخَفِيف يجاوَبُ بثَقِيل. وسنابِلَ تحكى من فوق سُوقها، وقُضُب بُسُوقها، الهمزاتِ فوق الألِفات، والعصافيرُ البديعةُ الصِّفات، فوقَ القُضُب المؤتَلِفات، تميل بهُبوب الصَّبا والجَنُوب، مائلةَ الجُيوب بدُرَر الحُبوب. وبطاحٍ لاتعرِف عينَ المَحْل، فتطلُبُه بالذَّحْل؛ ولاتَصْرِف فى خدمةِ بيضِ قِبابِ الأزهار، عند افتتاح السَّوْسن والبَهَار، غيرَ العُبْدان من سُودان النَّخْل، وبحرِ الفِلاحة الذى لا يُدْرَك ساحِلُه، ولا يَبْلُغُ الطِّيَّة البعيدةَ راحِلُه، إلى الوادي، وسَمَر النَّوادى، وقرارِ دُموع الغَوادى، المتجاسر على تخطِّيه، عند تمطِّيه، الجِسرُ العادى، والوطَنِ الذى ليس من عمرو ولازيد،

والفَرَا الذى فى جوفه كلُّ صيد، أقلَّ كرسيَّه خلافةَ الإسلام، وأعار بالرُّصَافة والجَسْر دَارَالسلام، وماعسىٰ أن تُطْنِبَ فى وصفه ألسِنةُ الأقلام، أو تُعَبِّر به عن ذلك الكَمال فُنونُ الكلام .

فأعملنا إليها السُّرىٰ والسَّيْر ، وقُدْنا إليها الخيلَ وقد عَقَد اللهُ بنواصيها الخَيْر .

ولما وَقَفْنا بظاهِرِها المُبهِت المُعْجِب، وآصطفَفْنا بخارجها المُنْبِت المُنْجِب؛ والقلوبُ تلتمس الإعانةَ من مُنْعِمٍ مُجْزِل ، وتستَنْزِل مَدَدَ الملائكة من مُنْجِدٍ مُنْزِل ، والركائبُ واقفةٌ من خَلْفِنا بمعْزِل ، تتناشَدُ فى معاهد الإسلام : قِفَا نَبْك مِن ذِكْرىٰ حَبِيبٍ ومَنْزِل – برزمن حاميتها المُحامِيه ، ووَقُودِ النـار الحامِيَه ، وبقيةِ السيف الوافرة علىٰ الحَصَاد النامِيَه ، قِطعُ الغمائم الهامِيه ،وأمواجُ البُحور الطامِيَه ، وآستجَنَّت بظلال أبطال المَجال أعدادُ الرجال الناشبةِ والراميه ؛ وتصدَّى للنِّزال ، من صَنادِيدِها الصُّهبِ السِّبال ، أمثالُ الهِضاب الراسيه ، تُجَنُّهاجُنَنُ السَّوابغ الكاسيه ؛ وقواميسُها المُفَاديةُ للصُّلْبان يوم بُوسِها بنُفُوسِها المُوَاسِيه ، وخنازيرُها التى عدَتْها عن قَبُول حُجَج الله ورسولِه سُتور الظُّلَم الغاشيه، وصُخُور القلوب القاسيه ؛ فكان بين الفريقين أمامَ جَسْرِها الذى فَرَق البحر، وحَلِى بلُجَينه ولآلئ زَيْنه منها النَّحْر، حربٌ لم تَنْسِج الأزمانُ علىٰ مِنوالها ، ولا أتتِ الأيَّامُ الحَبالىٰ بمثل أجِنَّة أهوالها ؛ مَنْ قاسَها بالفِجار أفَكَ وبَجَر، أومَثَّلها بجفر الهباءةِ خَرِفَ وهَجَر، ومن شَبَّهها بحَرْبِ داحِسٍ والغَبْراء فما عَرَف الخبَر، فليسألْ مَنْ جَرَّب وخَبَر؛ ومن نَظَّرها بيومِ شِعْب جَبـلَه ، فهو ذُوبَلَه ؛ أو عادَلَها ببطن عاقِل، فغيرُ عاقل ؛ أو آحتجَّ بيومِ ذِى قار، فهو إلىٰ المعرفة ذو آفتِقَار؛ أو ناضَل بيوم الكَدِيد، فسَهْمه [غير السَّديد،][1] إنما كان مقاما غيرمُعْتاد،

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

ومَرْعى نُفوسٍ لم يَفِ بوصفه لسانُ مُرْتاد، وزَلْزالَ جبال أوتاد، ومَتْلَفَ مَذْخُور لسلطانِ الشيطان وعتاد، أُعْلِمَ فيه البطلُ الباسل، وتوردَّ الأبيضُ الباتر وتأوَّدَ الأسمرُ العاسل، ودوّمَ الجَلْمَدُ المتكاسل، وآنبعثَ من حَدَب الحَنِيَّة إلىٰ هَدَف الرَّمِية الناشرُ النَّاسِل، ورُوِيتْ لمرسَلَات السِّهام المَرَاسل؛ ثم أفضىٰ أمرُ الرِّماح إلىٰ التَّشاجُر والآرْتباك، ونَشِبَت الأسِـنَّةُ فى الدُّروع نَشْبَ السَّمَك فى الشِّباك؛ ثم آختلط المَرْعىٰ بالهَمَل، وعُزِل الرُّدَيْنِيُّ عن العمل؛ وعادتِ السُّيوفُ من فوق المَفَارِق تِيجانا، بعد أن شُقَّتْ غُدُرَ السوابغِ خُلْجانا؛ وآتَّحدَتْ جداوِلُ الدُّروع فصارتْ بَحرا، وكان التعانُقُ فلا ترىٰ إلا نَحْرا يلازِمُ نَحْرا؛ عِنَاق وَدَاع، وموقِفَ شَمْل ذِى آنصـداع، وإجابةَ منادٍ إلىٰ فراق الأبدِ ودَاعْ؛ وآستكشَفتْ مآلَ الصـبر الأنفُسُ الشَّفَّافه، وهبَّتْ بريح النصر الطلائعُ المبَشِّرة الهَفَّافه؛ ثم أمدّ السيلُ ذلك العُباب، وصَقَل الآستِبْصارُ الألباب، وآستخلص العزمُ صَفْوةَ اللُّباب، وقال لسان النصر: آدْخُلُوا عليهمُ الباب؛ فأصبحَتْ طوائفُ الكُفَّار، حصائدَ مَنَاجل الشِّفار، فَمفارِقُهم قد رَضِيتْ حُرُماتُها بالاعْقار، ورؤُوسهم مَحْطوطة فى غير مَعالِم الآسـتغفار، وعلَتِ الراياتُ من فوق تلك الأبراج المستَطْرَفة والأسوار، ورَفْرَفَ علىٰ المدينة جَناح البَوَار، لولا الآنتهاءُ إلىٰ الحدّ والمِقْدار، والوقوفُ عند آختفاء سِرِّ المِقْدار.

ثم عبَرْنا نهرها، وشدَدْنا بأيدى الله قَهْرها، وضَيَّقْنا حَصْرَها، وأقمنا بهـا أياما تَحُوم عِقْبانـ البُنُود علىٰ فرِيسَتها حِيَاما؛ وتَرْمِى الأرواحَ ببوارها، وتُسلِّط النيرانَ علىٰ أقطارها، فلولا عائقُ المطـر، لحَصَلْنا من فتح ذلك الوَطَن علىٰ الوَطَر؛ فرأينا أن نَرُوضَها بالآجتثاث والآنْتِساف، ونُوالِىَ علىٰ زُرُوعهـا ورُبُوعها كَرَّاتِ رِيَاح الآعْتِساف، حتّى يتهـيَّأَ للإسلام لَوْكُ طُعْمَتها، ويتهنَّأَ بفضـل الله إرثُ نعمتها؛

ثم كانت عن موْقِفِها الإفاضةُ من بعــد نحر النُّحُور ، وقَذْفِ جمار الدَّمار علىٰ العَدُوّ المَدْحُور ، وتدافعت خَلْفَنا السابقات المستقِلّات تَدافُعَ أمواجِ البُحور .

وبعد أن أَلْحَحْنا علىٰ جَنّاتها المُصْحِره ، وكُرومِها المشْتَجِره ، إلحاحَ الغريم ، وعوَّضناها المَنْظَرَ الكريهَ من المَنظَر الكريم ، وطاف عليها طائفٌ من رَبِّنَا فأصبحَتْ كالصَّريم ، وأغْرَيْنَا حِلاقَ النار بجَمَم الجَحِيم ، وراكمنا فى أجواف أجوائها غمائمَ الدُّخَان ، تُذَكِّر طَيِّبة البان ، بيَوْم الغَمِيم ؛ وأرسلنا رِياحَ الغارات لاتَذَرُ من شَيْءٍ أَتَتْ عليه إلا جعَلَتْه كالرَّميم ؛ وآستقْبَلْنا الوادىَ يهول مَدّا ، ويَرُوع سيفُه الصَّقيل حدّا ، فيسَّره اللهُ من بعد الإعواز ، وآنطلقَتْ علىٰ الفُرْصَة [بتلك الفُرْصَة] (١) أيدى الآنتهاز ، وسألْنا من ساءله أسَدُ بنُ الفُرات فأفتىٰ بِرُجْحان الجواز فعَمَّ الآكتساحُ والاستباحُ جميعَ الأحواز ؛ فأُديل المَصُون ، وآنتُهِبت القُرىٰ وهُدِمتِ الحُصُون ، واجتُثَّت الأصولُ وحُطِّمت الغُصون ؛ ولم نَرْفع عنها إلىٰ اليوم غارةً تُصافِحُهَا بالبُوس ، وتُطْلِـع عليها غُررَها الضاحكةَ باليوم العَبُوس ؛ فهى الآنَ مَجْرىٰ السوابق ومَجَرّ العوالى ، علىٰ التوالى ، والحسراتُ تتجدَّدُ فى أطلالها البَوالى ؛ وكأنَّ بها قَدْ صُرِعت ، وإلى الدَّعْوة المحمَّديَّة قد أَسْرَعَتْ بقُدْرةِ من لو أنزل القرآنَ علىٰ الجبال لخَشَعتْ من خَشْية اللهِ وتصَدَّعَتْ ، وعِزَّةِ من أذعنَت الجبـابرةُ لِعزِّهِ وخَنَعتْ ؛ وعُدْنا والبُنودُ لايَعْرِف اللفَّ نَشْرُها ، والوجوهُ المجاهدةُ لايخالِطُ التقطيبَ بِشْرُها ؛ والأيْدى بالعُرْوة الوُثْقىٰ معتلِقه ، والألسُنُ بشُكْرِ نعَم الله مُنطلِقه ، والسيوفُ فى مَضاجع الغُمود قَلِقه ، وسرابيلُ الدُّروع خلِقهَ ، والجيادُ من رَدّها إلىٰ المَرابط والأَوارِى رَدَّ العَوارى حَنِقه ، وبعَبَراتِ الغَيْظِ المكظومِ مختَنِقه ؛ تنظر إلينا نَظَر العاتِب ، وتَعودُ من ميادين المِراح والآختيالِ تحتَ حُلَل السِّلاح عَوْدَ

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الصِّبْيان إلىٰ المَكاتِب ، والطَّبْـلُ بلسان العِزِّ هادر ، والعَزْم إلىٰ مُنَادى العَوْد الحَميد مُبادِر،ووجودُ نوع الرِّماح ،من بعد ذلك الكِفَاح ،نادِر، والقاسمُ ترتَّب بين يديه من السبي النَّوادِر،ووارِدُ مَنْهَل الأُجور،غير المُحَلَّإِ ولا المَهْجُور، صادر، ومُناظِرُ الفضل الآتِي عقِبَهُ أُخَيُّـه الثـانى علىٰ المطلوب المُواتِي مُصادِر ؛ والله علىٰ تيسير الصِّعاب وتحويل المِنَنِ الرِّغاب قادِر؛ لا إلٰه إلا هو. فما أجْمَلَ لنا صُنْعه الخفىّ ! وأكرمَ بِنا لُطْفَه الخَفِىّ ! اللهم لانُحْصِى ثناءً عليك ، ولا نَلْجأ مِنْك إلا إليك ، ولا نلْتَمِس خيرَ الدُّنيا والآخرة إلا لَدَيْك ، فأعِدْ علينا عوائدَ نصرِك يامُبْدِئ يامُعيد ، وأعِنَّا من وسائل شُكْرِك علىٰ مانَنال به المَزِيد ، ياحىُّ ياقيُّوم يا فعَّالا لمـا يُريد .

وقارنَتْ رسالتُكم الميمونةُ منه لدَيْنا حدَقُ فتح بعيدٍ صِيتُه ، مشرَّبٌ لِيتُه ، ونَحْرِ من فوقِ النُّجوم العوَاتِم مَبِيته ، عجِبْنا من تأتِّى أملِه الشارد، وقلنا البركةُ فى قُدوم الوارد، وهو أنَّ مَلِكَ النَّصارىٰ لا طَفَنا بجملة من الحُصُون كانت من مملكةِ الإسـلام قد غُصِبت ، والتماثِيلُ فيهـا بِبيوتِ الله قد نُصِبت ؛ أداها الله بمحاولتِنا الطيِّبَ من الخبيث، والتوحيدَ من التَّثْليث ؛ وعاد إليها الإسلامُ عَوْدَةَ الأبِ الغائب، إلىٰ البَنات الحبائبِ ؛ يسأَلُ عن شُئُـونها ، و يمسَحُ دُموعَ الرِّقَّة عن جُفُونها ؛ وهى للرُّوم خُطَّة خَسْفٍ قلَّما ٱرتكبُوها فيما نَعلمُ من العُهُود، ونادرةٌ من نَوادِر الوجود؛ والىٰ الله علينا وعليكم عوارِفَ الجُود ! ، وجعلنا فى محاريب الشُّكر من الرُّكَّع السُّجود ! .

عَرَّفْناكم بمجمَلاتِ أمورٍتحتها تفسير، ويُمْنٌ من الله وتَيْسير، إذ ٱستيفاءُ الجزئيَّات عَسير؛ لنَسُرَّكم بمـا منَح الله دينكم، ونتوِّجَ بعزِّ المِلَّة الحنيفيَّة جَبِينَكم، ونَخْطُب بعده دعاءكم وتأمينكم ؛ فإنَّ دعاءَ المُؤمِن لِأخيه بظَهْرِ الغَيْب سِلَاح ماض،وكفيلٌ بالمواهب المسئُولة من المُنعِم الوَهَّاب مِيْفاض؛ وأنتم أوْلىٰ ماساهم فى بِرّ، وعاملَ الله بخُلُوص

سِرّ ؛ وأين يذهب الفضل عن بَيْتِكم ، وهو صفة حَيِّكم وتُراث مَيْتِكم ؛ ولكم مَزِيَّة القِدَم ، ورسوخُ القَدَم ، والخلافةُ مقرُّها إيوانكم ، وأصحابُ الإمام مالكٍ رضى الله عنه مستقَرُّها قَيْروانُكم ؛ ومجيرُ المنابر ذِكْرُ إمامكم ، والتوحيدُ أعلامُ أعلامكم ؛ والوقائع الشهيرةُ فى الكفر منسوبةٌ إلىٰ أيَّامكم ، والصحابةُ الكرامُ فَتَحة أوطانِكم ، وسُلالةُ الفاروق عليه السلام وَشَائِجُ سُلْطانكم ، ونحن نستكثر من بركة خِطابِكم ، ووُصْلةِ جَنَابكم ، ولولا الأعذار لوَالَيْنا بالمتزيدات تعريفَ أبوابكم .

والله عزوجل يتولَّى عنا من شُكْركم المحتوم ، ماقَصَّر المكتوب منه عن المَكْتُوم ؛ ويُبْقيكم لإقامة الرُّسُوم ، ويُحِلُّ محبَّتَكم من القلوب محلَّ الأرواح من الجُسُوم ؛ وهو سبحانه يَصِل سَعْدَكم ، ويَحْرُس مجْدَكم ، ويوالى نِعمَه عندكم .

والسلامُ الكريم ، الطَّيِّب البَرُّ العميم ؛ يخصُّكم كثيرا أثيرا ، ما أطلع الصبْحُ وجهًا مُنيرا ، بعد أن أرسل النسيمَ سَفِيرا ، وكان الوميضُ الباسم ، لأكواس الغمائم ، علىٰ أزهار الكمائم مُدِيرا ؛ ورحمة الله وبركاته ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطــــرف الثامن

(فى المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العُمَّال وأمراء السَّرَايا فى صدر الإسلام إلىٰ مَنْ فى معناهم)

وكان الغالبُ فى مكاتباتهم الافتتاحَ بأما بعد والتعبيرَ عن المكتوب عنه بلفظ الوحدة ، وخطابَ المكتوب إليه بالكاف .

كما كتب الحَجَّاج بنُ يوسف إلىٰ المهلَّب بن أبى صُفْرة ، وهو يومئذ نائبٌ عن الحَجَّاج علىٰ بعض الأعمال والحُروب .

أما بعدُ، فإنَّك تتراخىٰ عن الحرب حتّى تأتِيَك رُسُلى و يَرْجِعون بعُذْرِكَ، وذلك أنك تُمْسِك حتّى تَبْرأ الجِرَاح وتُنْسىٰ القتْلىٰ ويَجِمّ النـاس، ولو كنتَ تَلْقاهم بذلك الجِدّ لكان الداءُ قد حُسِم ، والقَرْن قد قُصِم ، ولعَمْرِى ما أنت والقَوْم سَـوَاء ، لأنَّ من ورائك رجالا ، وأَمامك أموالا ، وليس للقوم إلا ما معهم ، ولا يُدْرَكُ الوجيف بالدَّبيب ، ولا الظَّفَر بالتعذير .

وكما كتب المهلَّب إلىٰ الحجّاج مجيباًله عن ذلك .

أما بعدُ ، فإنِّى لم أُعْطِ رُسُلَك علىٰ قول الحقِّ أجرا ، ولم أحتَجْ فيهم مع المشاهدة إلىٰ تَلْقِين . فذكرتَ أنى أُجِمُّ القومَ ، ولا بدّ من راحة يستريحُ فيها الغالِب ويحتالُ المغلوب . وذكرت أن فى الجَمَام تُنْسىٰ القتلىٰ وتَبْرأ الجراح ، وهيهـات أن يُنْسىٰ مابيننا و بينهم، يأبىٰ ذلك قتلُ من لم يَجْنِ، وقروحٌ لم تعرق، ونحن والقومُ علىٰ حالة وهم يَرْقُبون مِنّا حالاتٍ، إن طَمِعوا حارَبُوا، وإن مَلُّوا وقَفُوا، و نطلُبُ إذا هَرَبُوا، فإن تركْتَنى فالدَّاء بإذن الله مَحْسوم ، وإن أعْجَلْتنِي لم أُطِعْـك ولم أعْص وجعلت وجْهِى إلىٰ بابِك، وأنا أعوذُ بالله من سَخَطه ومَقْتِ الناس .

الطـــرف التـاسع

(فى المكاتباتِ الصادرة عن الملوك ومَنْ فى معناهم، إلىٰ الملوكِ ومَنْ فى معناهم، علىٰ ما كان عليه مصطلَحُ أهلِ المشرق، وهو علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأوّل

(أن تكون المكاتبةُ عن ملك إلىٰ غير مَلِك)

ورسمهم أن يفتتح الكتابُ بلفظ « كتابُنا إليـك فى يوم كذا ، ومن مكانُ كذا ، والأمر علىٰ كذا وكذا » ويذكر الحال التى عليها المكتوبُ عنه حينئذ أوالتى عليهـا

الخليفةُ إن كان المكتوب عنه من أتباع الخليفة، أوالتى عليها المَلِك إن كان من أتباع الملك ونحو ذلك ؛ ويكون التعبيرُ فى هذه المكاتبة عن المكتوب عنه بنون الجمع ، والخطابُ للمكتوب إليـه بالكاف . ولا يقال فى المكتوب إليه فى هـذه الحالة : سيِّدى ومولاىَ ، ولا سيدنا ولا مولانا . وبذلك يكتب عن الملوك ومَنْ فى معناهم من سائر الرؤساء إلى المرءُوسين .

ثم هو على مرتبتين :

المرتبة الأُولى — أن يُراعىٰ جانبُ المكتوبِ إليه فى الرِّفعة بعضَ المُراعاة .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن صَمْصام الدولة بن عضُد الدولة بن ركن الدولة آبن بُوَيه، إلى الصاحب كافى الكُفَاة إسماعيل بن عَبَّاد وزير فخر الدولة ، فى الشفاعة فى شخص من بعضِ ألزامه :

كتابُنا — أدام الله تأييدَ الصاحب الجليل كافى الكُفَاة — وإن وَثِقْنا من المسئولين بالإيجاب والإجابه ، ومن المأمورين بالآمتثال والطاعه ؛ فإنا نُخُصُّ بكُتُبنا الصادرة عنا فى المآرب العارضـةِ لنا ، من خصتْ(١) من كلا الفريقين نهضَتُه إليها، وظَهرتْ مثابرتُه عليها؛ وإذا آنتهينا إليه — أدام الله عِزَّه — فى ذلك عُدِدنا مع ماقدّم الله عندنا من رتبته فى الطبقة الأولىٰ، ومُيِّزنا مع ماوَفَّر الله علينا من طاعته عن الطبقة الأخرىٰ؛ وأنِسْنا منه عادةً مشكورة فى آتبـاع محبوبنا، والإسـعافِ بمطلوبنا ؛ ليَسْلَس لنـا إلىٰ مخاطبته قيـادٌ يتقاعَسُ عمَّن سِواه، وتَنْبَسِط منا فى مكاتبتــه أناملُ تتجعَّد عمن لايَجْرِي مَجْراه، ولاسيما إذا كان ذلك فى مَكْرُمة يطيبُ ثناؤُها، ومَنْقبة يُشادُ بِناؤُها؛ والله يَمُدّه ويمدُّنا فيه من طِيبِ السَّجايا، وصالح العَطايا؛ بما هو الولِيُّ به، والحقيق بالشكر عليــه .

(١) لعله حصحصت أو وضحت أو نحو ذلك .

وكتابُنا هذا ـ أدام اللهُ عِزَّ الصاحب الجليل كافى الكُفَاة ـ مبنىٌّ علىٰ إذْ كاره بحقٍّ لنا رعَيْناه ، وذِمام من أجْله أوجَبْناه ، وذلك أسدُّ لإحكامه وألزمُ لإيجابه ، وأوكد لأسبابه ؛ وقد عَرَف مكان أبى منصور يزداها دار بن المَرْزُبان من خِدْمتنا ، وموقِعه فى جملتنا ، وتوفُّر حظّه من جميـل رأينـا ، وخالِص آعتقادنا ؛ ومن أوْجهِ وسائله لدينا ، التى أوجبتْ له ذلك علينا ، أنا لانزال عده عليه (١) ، من الآعتداد باحسان الصاحب الجليـل كافى الكفاة إليه ، وإلىٰ أبيه من قبله ، والآعترافِ بأنه أيده الله أبو عُذْرة صنعِه ، والسابقُ إلىٰ الجذب بضَبْعه ؛ ولمن كان أقر له من ذلك معروفٌ لايُنْكر ، ودَخَل من الثناء عليه فى إجماع لايُخْرَق ؛ فقد بيَّن عن نفسه أنه ممن يُطيق حَمْل المِنَن ، ويُحْسِنُ مصاحبةَ النِّعم ؛ ويستحق أن تُقرّ عنده أسلافُها ، وتُدَرَّ عليه أخلافُها ؛ إذ لم يُذْهله الرُّبُوع فيهـا عن التحيد من اصطرافها وآنصرافها ، ولم يُلْهِه التوسُّط لها عن حياطة أطْرافها وأكنافِها ؛ ومَنْ لنا اليومَ بالشَّكور الذى لا يَغْمِط ، والذَّكور الذى لاينسىٰ ؟ والعليم بمـا يلزمه ، والقَـُومِ بمـا يحِقُّ عليه . وأَعْلَمنا حال قريبين له يقال لهما الفركان بن حرزاد ، ورستم بن يزد ؛ وأنهما تصرفا فى بعض الخِدْمة تصرُّفا تزايَلَا فيه عن نَهْج السَّـداد ، وسَنَن الرَّشاد ؛ وآقتضىٰ ذلك أن طُلِبا بالتقويم والتهذيب ، ووَلجَا مَضِيق القصاص والتأديب ؛ وأنه قد مضَتْ لهما فيه مدّةٌ طويلة فى مثلها ما صَلُح المعاقَب ، واكتفىٰ المعاقِب ؛ وسؤالُه لهما ، ومرادنا له فيهما ، شفاعةُ الصاحب الجليل كافى الكُفَاة إلىٰ مولانا الأمير السـيد شاهنشاه فخر الدولة فى أن يَسَعَهُما العفوُ ، ويدركهما العَطْفُ إما بآسـتخدامٍ يتطوّقانِ به المِنَن ، ويأذَنُ لهما بانصراف إلىٰ الوطَنْ ؛ وقدِ آسـتظهرنا بكتابٍ كتبناه فى أمرهمـا : هذا الكتاب يشتمِلُ عليه ، حتّى إذا وجب أن يجعله الصاحبُ الجليـل كافى الكُفاة ذريعةً إلىٰ

(١) كذا فى الأصول ولعله أنه لايزال يعدّ ماعليه من الاعتداد الخ .

الغَرَض ، ومطيَّةً إلى المقصد ، أمضى فى ذلك رأيه ، وعقد عليه تدبيره . فإن رأى الصاحب الجليل أن يتوصّل فى هذا الأمر إلى ما يُشا كل عادته عندنا فى الأمور الواردة عليه فعل ، وتوخّى فى الجواب أن يكون متضمّنا لذكر الفعل دون القول ، والإنجاز دون الوعد ، إن شاء الله تعالى .

وكما كتب الصابى عن صَمْصام الدولة المقدّم ذكره ، إلى الصاحب بن عباد أيضا فى حالة أخرى ، بسبب ردّ إقطاع إلى أبى جعفر محمد بن مسعود قرين كتاب إلى فخر الدولة

كتابُنا والسلامةُ لدينا راهنه ، وعادةُ الله لإقرارها ضامنه ، والحمدُ لله رب العالمين ، والصاحبُ الجليلُ كافى الكُفاة ـ أدام الله تأييده ـ يعلم أنه لم يَزَلْ لممالكنا أفنيةٌ تُقام بها أسواقُ المكارم ، وتحيا بها سُنَن المحامد ، وقد جعله الله بتفضّله الحافظَ لجمال ذلك علينا ، والضاربَ بسهمه فيه مَعنا ، فالحمدُ لله على أن قَرَن الحظوظَ التى خَوَّلَنا ، والمنازلَ التى نَوَّلَنا ، بالخلائقِ الخليقة بها ، الداعيةِ إلى ٱستقرارها ، والطرائقِ المطرِّقة إلى ثَبَاتها واستمرارها ، وأنْ زانَ أيامَنا هذه الحاضره ، بآثار الصاحب كافى الكُفَاة أدام اللهُ عزه فيها النّاضره ، ومساعيه الرَّشيدة ، وأفعاله المستقيمه ، وأحاديثه الجميلة ، وإيّاه نسأل أن يُجْرِيَنا وكلَّ ناصح على أفضل ما عَوَّدَنا وأحسن ما أولاه ومنحنا بقُدْرته .

وإذا كان مولانا الأميرُ السيدُ شاهنشاه فخر الدولة ، وفلَكَ الأمّة ، بالمحلّ الذى أهّله الله له : من ٱستِعْذابِ الإحسان إلى أوليائه ، وٱفتراض الإفضال على نُصَحائه ، وكان الصاحبُ الجليلُ بالحال التى هو بها من القيام بما حمل به (١) المُنابَ فيه عنه ،

(١) فى الاصل « من القيام قد كمل له والمناب الخ » وهو تخليط من الناسخ .

فقد وجب أن تكونَ الرِّعاية لِذَوى الحُرُمات مستحْكِمَةَ الأسباب ، ثابتةَ الأطْناب ، واضحةَ الأعلام ، ماضِـيةَ الأحكام ؛ ولا سيما فيمن تعَلّق مِنّـا بالعناية ، وأخذ من ذِمامِنا بالوثيقة ؛ و « أبو جعفر محمد بن مسعود » أيده الله جامعٌ للَوَاتِّ ، التى يستحِقُّ بها آجتماع العنايات ؛ سالِفًا صالحًا فى الخدمة ، وسابقةً متمكِّنة فى الجملة ؛ وآشتمالًا علىٰ كلِّ ما وجبت به الحقوق ، ولَزِمتْ به الرعايات . وذكر أنه كانتْ له بنواحى الجبـل تَسْويغاتٌ ومعايِشُ أنعم بها مولانا الأمير السـيد فخر الدولة عليـه فى حالٍ بعد حال ، وشرَّفه بها فى مَقَام بعد مَقَام ؛ منها كذا وكذا ، وإذا جُمِـع الجميع كان قليلا فى جَنْب ما يُفِيضه مولانا الأمير السيد شاهنشاه فخر الدولة ، وفلك الأمة علىٰ خَدَمه : من جليل عوارفه الجاريةِ علىٰ يد الصاحب الجليل كافى الكُفَاة أدام الله تأييـده ، والواصلةِ إلىٰ مستحِقِّيها بلطيف توصُّله ، وجميل معتَقَده . وكان موقعه جليلًا عند أبى جعفر محمد بن مسعود أيده الله فى جنب ما يُصْلِـح من شأنه ، ويُقيم من جاهه ، ويرب من معايشه ، ويُلِمُّ من حاله . وقد كتبنا إلىٰ مولانا فى ذلك كتابا مجملا قَصَرناه علىٰ الرَّغْبة إليه ، فى ردّ هذه المَعَايِش عليه ؛ وعوّلْنا علىٰ الصاحب الجليل فى إخراج أمره العالى بذلك له ، وإحكامِ المناشير والوثائقِ بجميعه ، والتقدّم بمكاتَبة العُمَّال والوُلاة بتقوية أيدى أصحابه ، فى آستيفاء ما يجب من الأسلاف والبَقَايا ، علىٰ الأَكَرةِ والمُزارعين ، والوكلاءِ والمعاملين ، وتأكيد الكُتُب بغاية ما تؤكَّد به أمثالها ، ويبلغ به أبوجعفر مَحابَّه كلَّها . فإن رأىٰ الصاحب الجليلُ أن يأتى فى ذلك كلِّه مايجده ويعده ويَرْعاه ويحفَظُه ، جاريا علىٰ المألوف من مُثابَرتِه علىٰ ما عاد علينا وعليه معنا بطِيبِ الذِّكر والبِشْر ، وثَناءِ اليوم والغد ، فقد أنفذنا بهذا الكتاب ركائب لنا دِلالةً علىٰ خصوص متضمَّنه فى تعلقه بالآهتمام منا ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

الضرب الثانى
(أن تكون المكاتبةُ من ملك إلىٰ ملك)

ورسْمُهم فى ذلك أن يُفتَتح الكتابُ بلفظ : كتابِى والأمرُ علىٰ كذا وكذا ، ويُؤتىٰ بالتعبير عن المكتوب عنـه فى أثناء الكتاب بلفظ الإفراد دون الجمع ، وهنـا يَفخَّم شأنُ المكتوب إليه ، فيعبَّرُ عنه بمولاى وسيدى ، ومولانا وسيدنا ، ونحو ذلك .

ثم هـــو علىٰ مراتب[(١)] :

المرتبـــــة الأولىٰ
(أن يكون المكتوب إليه مَلِكا أيضـا)

فيخاطبه علىٰ قدر مَقَامه بالسيادة أو غيرها مع الدعاء بمـا يناسبه : من طُول البقاء ونحوه ؛ ثم تارة يَقَع التعرُّض فيها بذكر الطلب وبرَفْع الحال التى هو عليها ، وتارة لايقع التعرُّض إلىٰ ذلك ــ كما كتب أبو إسحاق الصابى عن عز الدولة ، بن مُعِز الدولة ، آبن بويه ، إلىٰ عضد الدولة بن بويه فى طَلَب الصُّلْح ، وقد جرىٰ بينهما آختلافٌ .

كتابى ــ أطال الله بقاءَ مولانا الملك الجليل المنصور عضـد الدولة ــ من العسكر بظاهر سُوق الأهواز ، ومولانا أمير المؤمنين مشمولٌ بالكفاية والتأييد ، مخصوصٌ بالعِز والتمكين ؛ يجرِى علىٰ أفضلِ ماعوّد الله خُلفاءَه فى أرضه ، وأحِبَّاءَه فى رعاية خَلْقه ؛ من التكفُّل لهم بالإظهار والإداله ، وتولِّيهم بالإعلاء والإنافه ؛ وأنا مستظِلٌّ بكَنَف طاعتـه ، مستكِنٌّ فى حَرَم مشايعته ؛ شاكرٌ لله علىٰ بَلائه ، مُثْنٍ عليه بآلائه ؛ راغبٌ

(١) لم يذكر فى الأصول غير الأولىٰ ويظهر أن التقسيم سهو فان المقسم هو الكتابة من ملك إلىٰ ملك وهو عين المرتبة الأولىٰ فتأمل .

إليــه أن يَعْصِمَنى فى مولانا الملك الجليــل المنصور وفى نَفْسى من كل مكروه ومستَهْجَن، ويُوفِّقَنى وإيَّاه لكل مستحَبٍّ ومستحْسَن ؛ ويُعيــذَنا من المُقَام علىٰ الفُرْقه، والزَّوال عن سَنَن الأُلْفه ؛ وهو المحمودُ ربُّ العالمين .

والحقوقُ بين مولانا الملك وبينى فيما قررتْه منا اللُّحمه،وأكَّدته العِصْمه ،وأثَّلتْه الأسلاف ، ونشأتْ عليــه الأخلاف ؛ حقيقةٌ بأن لاتتَسرَّع إليها دواعى النَّقْض، ولا تَتَمكَّن منها مُلِمَّات النَّسْخ ؛ ولا يَتِمَّ للشيطان عليها مايحاوله بنَزْغه ، ويتَوصَّلُ إليه بكيــده ؛ وأن تنزاح العَوارِضُ عنها ، وتَضْمَحِلَّ دُونَ التأثير فيها ؛ وأن نعتقد جميعا أنَّ بتقَارُضِنا رعايَتَها ثبــاتَ النعم المتصلة بهــا ، فلا يســتنكفُ مستنْكِفٌ منَّا أن يَخْفض جناحَه لأخيــه ، ويَغُضَّ من جِمَاحه فى مقاربة ذويه ؛ إذ كان ذلك حامياً له فى أهول الأحوال مِمَّا هو أشدُّ خَفْضا، وأبلَغُ رَضّا، وأسوأُ مَغَبَّة ، وأنكَرُ عاقبة .

وقد علم مولانا الملك المنصور بالثــاقب من تأمله ، والصحيح من تمييزه وتَدَبُّره ؛ أن دولتنا ــ حرسها الله ــ مبنِيَّةٌ علىٰ أُسِّ الترافُد والتعاضُد، موضوعةٌ علىٰ قاعدة التوازُر والتظَافُر ؛ وأن مشْيَختنا وسادَتَنا رضوانُ الله عليهم جعلوا الائتلاف رِتاجاً بين الأعداء وبَيْنَهــا ؛ ثم إن مِفْتاحَه هو الخلافُ المتطرّق لهم عليهــا ؛ ولو حدث التنافُرُ فى أيام رياسةِ أضعَفِنا مُنَّة ، وأوْهَنِنا عُقْدة ؛ وأحْدَثِنا سِنّا ، وأقلِّنا حُنْكة ، لكان ذلك أقلَّ فى التعجُّب من أن يَعْرِض فى رياســة أحْصَفِنا رأيا ، وأسَدِّنا تَدْبيرا ، وأوْفانَا حِلْما ، وأكْمَلِنا حَزْما . وقد تكــررتْ ــ أيد الله مولانا ــ علىٰ ذاتِ بيننا قَوارِصُ آحتقَرْناها حتّىٰ آمتلأ الإناءمن قَطْرِها ، وآستقَيْنا منها علىٰ العظيمة التى لاثَوَاءَ بعدها ؛ وما أعُودُ علىٰ نفسى بلَوْم فى آبتداء قبيح آبتدأته ، ولا بمركب شَنِيع ركبته ولاحَقٍّ آطَّرحتُه ، ولا آستصلاحٍ تركْتُه ؛ ولا أدفَعُ مع ذلك أننى قابلتُ لمــا تَضاعَفَ بالأقل

*

الأيسر، وجازيت لما ترادفَ بالأدْونِ الأنْزر، إلا أنى ما آثرتُ كثيرَه ولا قليلَه، ولا آخترتُ دقيقَه ولاجليله، لكنه لم يَصْلُح فى السيرة ـ وقد أشفينا علىٰ التراحف للحرب، والتَّدالُف للطَّعن والضرب ـ أن أستعمل ما كنتُ عليه من توفية الحقوق، وإقامة الرسوم، فيرانى الأولياءُ الذين بهم تُحْمىٰ البيضه، وتُحاط الحَوْزه، متناقِضَ الفعلين، متنـافِيَ المذهَبَين، وكنتُ فى ذلك الفِعْـل الذَّميم، والرأيِ الذى ليس بمستقيم، مقتَدِياً لا مبتدِيا، ومُتَّبعا لا مبتَدِعا. ولو وقف بى مولانا الملك الجليل قبل أواخرِ الجَفَاء، وعطَفَ معى إلىٰ أوّل شرائعِ الصَّفاء، لكانت عَرِيكتى عليه أَلْيَن، وطرِيقُه إلىٰ آرتباط طاعتِى وولائِى أقْصَـد، لكنه أيَّده الله أقام علىٰ ما لا يليق به من مجانبتى ومغالطتى، وبَثِّ الحبـائل لى ودَسِّ المكايد إلىّ، ومتابعته الجَواسيسَ والكتب إلىٰ الأولياء فى عسكرى الذين هم أولياؤُه، إن أنصَفَ وعَدَل، ونصحاؤُه، إن أحسن وأجمل.

وكان الأشبَهُ بمولانا لو كنتُ الغـالطَ عليه، والبـاعثَ لهـذه الأسباب إليه، أن يَسُوسَنى سياسةَ الحكيم، ويستخْلِصَنى آستخلاصَ الكريم، إذ كُنَّا لم نقدِّمْه معشَرَ أهلِ البيت علينا، ونُوَلِّه أزِمَّةَ أمورنا، إلا ليأسُوَ جُروحَنا، ويَجْبُرَ كُسورَنا، ويتعهَّدَ مُسِيئَنا، ويستـمِيلَ نافِرَنا، فأما أن يُحاوِلَ منا آستباحةَ الحريم، وإركابَ المَرْكَبِ العظيم، فكيف يجوزُ أن تَدُومَ علىٰ هذا طاعه، أو تُصْلُحَ عليـه جماعه، أو يُغْضِىَ عليه مُغْض، أو يَصْفَح عنه صافح؟. وكان من أشدِّ هذه الجَفْوة وأفْظَعِها، وأقساها وأغلظها، أن عاد رسُولى من حضرته خاليًا من جوابٍ بما كتبت إليه، وما أعرف له أيده الله فى ذلك عذرًا يبسُطه، ولا سلك منه السبيل التى تشبهه، وبالله جُهْدَ القَسَم ومنتهاها، وأجَلِّها وأوفاها، لقد سار مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه، وسرتُ إلىٰ هذا الموضع، وآعتقادُنا لا يجاوزُ حفظَ الحُدود والأطراف، وحياطةَ النهايات

والأكناف ؛ والأغلبُ علينا أنَّ مولانا الملك ـ أدام الله تأييده ـ لا يتجاوز معى المعاتَبةَ اللطيفة ، والمخاطبةَ الجميلة ؛ والآستدعاءَ منِّى لما يَسُوغ له أن يطلُبه ولى أن أبْذُله ، من تعفية السالف ، وإصلاح المستأنَف ، وتوفِيَة للحق فى رُتْبة لا أضِنُّ بها عليه ، ولا أستكثر النُّزولَ عنها له ؛ وتقريرِ أصلٍ بيننا يكونُ أيده الله به مَعْقِلا لى ومَوْئلا ، وأكون نائبًا له ومظَفَّرا ـ إلىٰ أن بدأ الأصحابُ بالعَيْث فى هذه البلاد ؛ وألَحُّوا عليها بالغارات ، وآعتمدُوها بالنِّكايات ؛ وكان هذا كالرَّشاش الذى يُؤْذِن بالآنسكاب ، والوميض الذى يُوعِد بالآضْطِرام ـ وأوجَبْت قبل المقابلة عليه والشُّروع فى مثله فى حقِّ مولانا الملك الجليل ، الذى لا أدَعُ أن أحفَظَ منه ما دعانِى إلىٰ إضاعته ، وأتمَسَّك بما آضطَّرنى إلىٰ مفارقته ؛ أن أُقَدِّم أمامَ الآلتقاء علىٰ الحرب التى هى سِجَال كما يعلَمُ ، إبلاغَ نفسى عُذْرَها وإعطاء المَقَادة منها ؛ داعيا له إلىٰ طاعة الخالق والإمام ، وصِلَةِ اللَّحم والأرحام ، وحَقْن الدماء والمُهج ، وتسكين الدَّهْماء والرَّهَج ؛ وثَنْى العِنَان عن المَوْرِد الذى لا يَدْرِى وارده كيف يَصْدُر عنه ، ولا يَثِق بالسَّلَامة منه ؛ وتعريفى ما يريده مِنِّى لأتَّبِعَه ما لم يكن ثالِمًا لى ، وعائدا بالوَهَن علَىّ ؛ والله الشاهدُ علىٰ شهادةٍ قد علِمَ إخلاصى فيها ، وسماحةِ ضميرى بها ؛ وأننى أكرهُ أن أنال منه ، كما أكره أن يَنَالَ منى ؛ وأتألَّمُ من أن أظْهَرَ عليه ، كما أتألَّمُ أن يظهَرَ علىّ ؛ وأُحِبُّ أن يَرْجِع عنى وأرجع عنه ؛ وقد ٱلتقَتْ قلوبُنا ، وتألَّف علىٰ الجميل شمْلُنا ، وطُرِفتْ أعينُ الأعادِى عنا ، وآنحسمَتْ مطامعهم فينا ؛ فإن فعل ذلك فحقيقٌ به الفضل ، وهو لعَمْرُ الله له أهل ؛ ولا عُذْرَ له فى أن لا يفعله ، وقد وَسَّع اللهُ ماله ، ووفَّر حالَه ، وأغناه عمَّا يلتمسه الصُّعْلوك ، ويُخاطِر له السُّبْروت ؛ وجعله فى جانب الغِنىٰ والثَّرْوه ، والحَزْم والحَيْطة ؛ وإن أبىٰ فكتابى هذا حجةٌ عندالله الذى تُسْتَنْزَل منه المعونةُ وعند الناس الذين تلتَمس منهم العَصَبيَّة ؛ وقد أنفذت به إسفندار بن خُسْرويه وإبراهيم

آبن كالى ، وهما ثِقَتاىَ وأَميناىَ ، ليؤدِّياه ويُشافِهاه عنّى بمثـل متضَمَّنه ونَجْواه ؛ والله يُعِيذنا فى مولانا الملك الجليل من أن يختارَ إلا أوْلىٰ الأمرين وأليَقَهما بدِينِه ومُرُوءته ، وهو ولىٌّ ما يراه فى الأمر بتعجيل الإجابة بمـا أعمَـلُ عليه ، وأنتهى بالتدبير إليه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الضرب الثـالث

(أن تكون المكاتبة عمَّن دُونَ الملك إليـــه)

ورسمهم فيه أن يُبْتَدأ بلفظ كتابى ، والدعاءِ للمكتوب إليه بطول البقاء ونحو ذلك ، ويخاطب فى أوّل الكتاب بمولانا الملكِ السيدِ الأجلّ ، وفى أثناء الكتاب بالسيد والملك ونحو ذلك ، ويعبر عن المكتوب عنه بلفظ الإفراد :

كما كتب أبو إسحـاقَ الصابى عن الأمير نصر خُوزه فيروز بن عَضُد الدولة إلىٰ آبن عمه شرفِ الدولة يذكر له حالَه مع أخيه صَمْصام الدولة .

كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا الملكِ السيد الأجلِّ ، شرفِ الدوله ، وزَيْنِ المِلَّة ، والسلامةُ لى شاملةٌ بمـا مدّه الله تعالىٰ علىّ من ظِلِّه الظليل ، ورأْيِه الحسنِ الجميل ؛ والحمدُ لله رب العالمين . وقد تأدّىٰ إلىٰ مولانا الملكِ السيد من أخبارى ما أستغْنِى به عن تطويل المفصَّل ، وأكتفِى به عن إجمال المُجْمَل ؛ وذلك أن أسفار بن كردويه وعبد العزيز بن يرسف الكافرَيْن لنَعْماء الله ونعمة الملك السعيد عَضُـد الدولة أبينا رحمة الله عليه قَبْلنا ، الغامِطَيْنِ لمـا تظَاهَرَ عليهما من إحساننا وإفضالنا ، هجَمَا علينا بِخُدْعة تظافَرَا عليها ، وشُبْهة جذَبانى إليها ، وأبْرَمَا كَذِبًا من القول لم أظُنّهما يُقْدِمان

علىٰ مثله، ولايتفوّهان باطِلّابه ؛ فأصغيْتُ إليهما إصغاءَ الواثقِ بهما لا المنخَدِع لهما؛ فلما أنزَلانِى علىٰ حُكمِهما ، وأوثَقانى بحيث لا أستطيع مخالفتَهما ؛ ظهرَتِ الحِيله ، ووضَحتِ الغِيله ؛ وفاتنى الآختبارُ ، وغلَبَنى المِقْدار ؛ فجرىٰ ما كانت عاقبتُهُ خِذلانَ اللهِ إيَّاهما ، وإنزالَهُ بأسَه ونقمتَه عليهما ؛ وخَلاصِى بسَلامة الصَّدْر ، واتضاح الغدر ، من حَبائلهما المنصوبه ، وأشراكهما المبثوثه . ولما حصَلْتُ فى كَنَف الملكِ السيد صَمْصام الدولة أقالَنِى العَثْره ، وقَبِل منِّى المَعْذِره ؛ وأحَلَّنِى من دراه وحِماه بحيث لم أعدم عاده ، ولا آنقطعت عنِّى مادّه ؛ وكانت الحال تُوجِب مُقَامِى فيها إلىٰ أن تتعفَّى آثارُ الفتنة التى أثارها ذانكما الخَبِيثان الجانيان .

ثم ورد فلان فى الرسالة ، وتَمَّم اللهُ علىٰ يده عقْدَ الصلح والمسالمة ؛ فأُخرِجتُ عن الآحتجاب إلىٰ الظُّهور ، وعن الآحتِجَار إلىٰ البرُوز ؛ وأُنْزِلتُ من الدار المعمورةِ فى جانبٍ يَصِل إلىَّ منه سَيْب وُصُوله علىٰ العموم دون الخصوص ، وعاملنى الملكُ السيدُ صَمْصام الدولة بما يليق بفضله متَّبِعا فى ذلك مقاطَعَة السيف بينه وبينى ، وطاعةَ مولانا الملك السيد الأجل شرف الدولة فى أمرى ، وجَدّد عندى من الإنعام والتوْسِعة والإيثار والتكرمة آخرا ماشَفَع تلك الشَّفقة أوّلا ؛ ولَقِيَنِى فلان دَفَعات ، وشافهنى مَرَّات ؛ وتحمَّل عنى إلىٰ مولانا الملك موالاتى الشكر كثيرا ، وآعتدادًا طويلا عريضًا ؛ ودعاءً اللهُ يَسْمَعُ مرفوعه ، ويُجِيب مسمُوعَه ؛ بمنِّه وقُدْرته ، وحوله وقوّته .

والآنَ فإذ قد جمعَ اللهُ الكلمه ، ووكّد الأُلفةَ وحرَس النِّعمه ؛ وحصَّن الدولةَ وأخرج عنها مَنْ كان يَشُبُّ الفتنه ، ويُسْدِى ويُنِير فى الفُرْقه ؛ فإنِّى واثقٌ بالله جل وعز وبما تترقَّى الحالُ إليه فى غايةِ محبُوبِى ، ونِهاية مطْلوبى ؛ وأقاصى ماتبلُغُه

أُمْنِيَّتِى ، وتسمُو إليه هِمَّتِى ، وتقتضيه أُخُوّتى وعِصمتى ؛ ولله المشيئه ، ومنه المعونه ؛ فإن رأى مولانا الملكُ السيد أن يَسْكُن إلىٰ سُكونى ، ويطمئن إلىٰ طُمأْنينتى ، ويُجرِىَ إلىَّ غاية فضله وطَوْله فى الأمر الذى أحسَنَ فيه وأجمل : ليشْمَلَنا إنعامُه ، ويتظاهر علينا آمتنانُه ؛ وأستوفِى بَقِيَّة حظِّى من ثمرة ذلك وعائدته ، وجَدْواه وفائدتِه ؛ ويأمُرَ بتشريفِى بكتابه ، وتأهيلى بجليـلِ خِطابه ؛ وتَصْرِيفى بين أمره ونهيه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

تم الجـزء السادس . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجـزء السابع

وأوّله الطـــرف العـاشر

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـه والتـابعين وسـلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

"اســـتدراك لما فات"

نُبِّه فى صفحة (٥٤) من الجزء الثالث من كتاب صبح الأعشى هـذا على بعض كلمات مطموسـة بالحبر لم نهتد اليها عند طبع ذلك الجزء . أما وقد عُثِر الآن فى بعض المكتبات الأهلية على أصل لذلك الجزء فرؤى تكميلا للفائدة إثبات المطموس هنا ليصلحه القارئ فى مواضعه إن أراد . وتسهيلا لمعرفة مواضع البياض من أوّل نظرة قد نقلت الصفحة بتمامها وجعل ما كان ساقطا لطمسه بين قوسين هكذا (   ) . وهى :

يجهَّز بَرِيدىّ بطلب هذه الأقلام من وُلَاة الوجه القِبلىّ ، ويُؤْتىٰ بها فتحفظ عند كاتب السرّ ويُبْرىٰ منها مايحتاج إليه (فى كتابة السلطان و) يوضع فى دواته بقَدْر الحاجة.

قال فى "منهاج الإصابة": ولا بدّ فيه (من ثلاثة شقوق أو أكثر) بقدر مايحتاج إليه فى مَجِّ القلم الحِبْرَ فى القرطاس .

وآعلم أن للكُتَّاب فيه طريقتين — إحداهما طريقةُ الثلُث، فتجرى الحال فيه علىٰ الميل إلىٰ (التقوير — و)الثـانية طريقة المُحَقَّق ، فتجرى الحال فيه علىٰ الميل إلىٰ (البَسْط دون التقوير وسيأتى إيضاح الطر) يقتين وكيفية (تشكيل حروفهما فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

وقد ذكر السُّرَّمَرِّىّ فى أرجوزته آختصـاص قلم الطومار بأمور : أحدهـا أن مستداراته كلها تكون بوجه القلم، والمدّات بسِنِّه، والتعاريق بوجهه منفتلا فيها علىٰ اليمين — الثانى أن الميم منه تكون مفتوحة مدوّرة) والفاء والقاف فيه (أوساطها محدّدة وجنباتها) مدوّرة — الثالث (أن يكون البياض بين الأحرف كمثله بين السطور) — الرابع أن يكون (الفضل من جانبى القرطاس متسـاويا فى المقدار — الخامس أن لايكون) فيه صاد مدوّرة (ولا) كاف مشكولة .

وذكر المولىٰ زين الديـن شعبان الآثارىّ فى ألفيته (أنه يدخل) فيه الترويس فى الألف ، والباء ، والجيم ، والدال (والراء ، والطاء ، والكاف المجموعة) واللام والنون فى الإفراد والتركيب عنـد الآبتداء وأنه (لايجوز فيـه) الطمس فى شىء من عُقَده كالصاد، والطاء، والفاء، والقاف، والميم، والهاء، والواو، واللام ألف المحققة بحال، والمعنىٰ فيه أن الطمس لايليق بالخط الجليل .

فهـــــرس

الجـــــزء السادس

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

المهيع الثاني — في ذكر الألقاب والنعوت المستعملة عند كتاب الزمان وبيان معانيها؛ وهي نوعان ٥

النوع الأول — الألقاب الإسلامية؛ وهي صنفان ٥

الصنف الأول — المذكرة؛ وهي ضربان ٥

الضرب الأول — الألقاب المفردة المختصة في اصطلاح الكتاب باسم الألقاب ٥

« الثاني — المركبة المعبر عنها في اصطلاح الكتاب بالنعوت ... ٣٥

الصنف الثاني — (وكتب خطأ الضرب الثاني) من الألقاب المفردة المؤنثة ٧٥

« « — (لعل الصواب النوع الثاني كما نبه عليه) من الألقاب المفرعة على الأصول ألقاب من يكتب إليه من أهل الكفر ... ... وهي على ضربين ٧٨

الضرب الأول — الألقاب المذكرة؛ وهي نمطان ٧٩

النمط الأول — المفردة... ... ... ٧٩

« الثاني — الألقاب المركبة ٨٣

الضرب الثاني — من ألقاب أهل الكفر الألقاب المؤنثة ٩٥

الجملة السابعة — في تفاوت الألقاب في المراتب؛ وهي قسمان ٩٧

القسم الأول — مايقع التفاوت فيه في الصعود والهبوط؛ وهو نوعان ٩٧

النوع الأول — « « « بحسب القلة والكثرة... ... ... ٩٧

« الثاني — مايقع فيه التفاوت في العلو والهبوط بحسب مايقتضيه جوهر اللفظ أو ماوقع الاصطلاح عليه؛ وهوصنفان ٩٨

صفحة
الصنف الأوّل — الألقاب المفردة؛ وهى علىٰ أربعة أنمـاط ٩٨
النمـط الاوّل — التوابع ٩٨
« الثانى — ما يقع التفاوت فيه بحسب لحوق ياء النسب
وتجرّده منها ٩٩
« الثالث — ما يقع التفاوت فيه بصيغة مبالغة غير ياء النسب... ١٠١
« الرابـع — « فيـه التفاوت بحسب ما فى ذلك اللقب من
ٱقتضاء التشريف لعلو متعلقه ورفعته ١٠١
الصنف الثانى — الألقاب المركبة؛ وهى علىٰ ضربين... ... ... ١٠٢
الضرب الأوّل — مايترتب بعضه علىٰ بعض لقبا بعد لقب؛وله ٱعتباران ١٠٢
الاعتبار الأوّل — أن يشترك فى رعاية الترتيب أرباب السيوف والأقلام
وغيرهم؛ وهو علىٰ ثلاثة أنمـاط (صوابه أربعة) ... ١٠٢
النمط الأوّل — مايضاف إلىٰ الإسلام ١٠٢
« الثانى — « إلىٰ الأمراء والوزراء ونحوهم... ... ... ١٠٥
« الثالث — « إلىٰ الملوك والسلاطين ١٠٦
« الرابع — « لأمير المؤمنين ١٠٨
الاعتبار الثانى — أن يختص الترتيب فى الألقاب بنوع من المكتوب
له؛ وهو أربعة أنمـاط ١٠٩
النمط الاوّل — مايختص بأرباب السيوف ١٠٩
« الثانى — « بالوزراء ومن فى معناهم ١١١
« الثالث — « بالقضاة والعلماء ١١١
« الرابع — « بالصلحاء ١١٢

صفحة

القسم الثانى — مما تتفاوت فيه مراتب الألقاب ما يقع التفاوت فيه بالتقديم والتأخير، وهو نوعان ١١٥

النوع الأول — الألقاب المفردة ؛ وهى على ستة أنماط ١١٥

النمط الأول — « التى تلى الألقاب الأصول ١١٥

« الثانى — مايلى العالى أو السامى من الألقاب ١١٦

« الثالث — مايلى لقب الوظيفة... ... ... ١١٧

« الرابع — مايقع قبل لقب التعريف ١١٧

« الخامس — « فصلا بين الألقاب المفردة والمركبة... ... ... ١١٨

« السادس — ما ليس له موضع مخصوص من الألقاب المفردة... ... ... ١١٨

النوع الثانى — مما تتفاوت فيه مراتب الألقاب بالتقديم والتأخير الألقاب المركبة، وهى على ثلاثة أنماط... ... ... ١١٩

النمط الأول — مايلى لقب التعريف ١١٩

« الثانى — مايقع فى آخر الألقاب المركبة ١١٩

« الثالث — مابين أوّل الألقاب المركبة وبين آخرها ١٢٠

الجملة الثامنة — فى بيان محل اللقب المضاف إلى الملك ولقب التعريف الخاص به ١٢٠

« التاسعة — فى ترتيب جملة الألقاب الفروع على الألقاب الأصول على قدر طبقاتها، وهى قسمان ١٢١

صفحة

القســـم الأول — الألقاب الإسلامية ١٢١

الضرب الأول — « المتعلقة بالخـــلافة وما يلتحق بهـا ؛ وهى

ثلاثة أنواع ١٢٢

النوع الأول — ألقاب الخلفاء ١٢٢

« الثـانى — « ولاة العهد بالخلافة ١٢٣

« الثالث — « إمام الزيدية باليمن ١٢٣

الضرب الثـانى — الألقاب الملوكية؛ وهى نوعان ١٢٣

النوع الأوّل — « التى ٱصطلح عليها للسلطان بالديار المصرية ١٢٣

« الثـانى — « التى يكتب بها عن السلطان لغيره من الملوك؛

وهى على ثلاثة أصناف ١٢٥

الصنف الأوّل — ألقاب ولاة العهد بالسلطنة ١٢٥

« الثانى — « الملوك المستقلين بصغار البلدان ١٢٥

« الثالث — « المكتوب إليهـم من المـلوك عن الأبواب

السلطانية؛ وهى نمطان ١٢٦

النمط الأوّل — ما يصدّر بالألقاب المذكرة ١٢٦

« الثـانى — « « المؤنثة ١٢٩

الضرب الثالث — من الألقاب الإسلامية، الألقاب العامّة لسائر

الطوائف؛ وهى ثمـانية أنواع ١٣٠

النوع الأوّل — ألقاب أرباب السيوف من أهل المملكة وغيرهم ... ١٣٠

« الثـانى — من الألقاب الإسلامية الألقاب الديوانية ١٤٦

صفحة

النوع الثالث — من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الوظائف الدينية ١٥٤

« الرابع — من الألقاب الإسلامية ألقاب مشايخ الصوفية وأهل الصلاح... ... ... ١٦١

« الخامس — ألقاب التجار الخواجكية ١٦٥

« السادس — من الألقاب الإسلامية ألقاب أرباب الصناعات الرئيسية كرياسة الطب ١٦٨

« السابع — من الألقاب الإسلامية ألقاب الحاشية السلطانية ... ١٧٠

« الثامن — « « « النساء... ... ... ١٧١

القسم الثانى — « المرتبة « أهل الكفر، وهى علىٰ ثلاثة أضرب ١٧٣

الضرب الأول — ألقاب متدينتهم، وهى نوعان ١٧٣

النوع الأول — « بطاركة النصارىٰ... ... ... ١٧٣

« الثانى — « رؤساء اليهود ١٧٤

الضرب الثانى — ألقاب ملوكهم وتختص بالنصارىٰ، وهى نمطان ... ١٧٤

النمط الاول — الألقاب المذكرة ١٧٤

« الثانى — « المؤنثة ١٧٩

الضرب الثالث — ألقاب نوّاب ملوكهم وكناصلتهم، وهى علىٰ نوعين ١٨٠

النوع الأول — « النوّاب ١٨٠

« الثانى — « الكناصلة ١٨٠

صفحة

الجمـلة العـاشرة — فى ذكر ألقـاب تقع علىٰ أشـياء متفرّقة قد جرت فى عرف الكتّاب، وهى على ضربين ١٨٣

الضرب الأوّل — فيما يجرى من ذلك مجرىٰ التفاؤل، ويختلف باختلاف الأحوال والوقائع و يتنوّع إلىٰ أنواع... ... ... ١٨٣

« الثانى — ما يجرى من ذلك مجرىٰ التشريف، ويختلف أيضا باختلاف الأحوال، و يتنوّع أنواعا ١٨٦

البـاب الثـانى — من المقـالة الثالثة فى مقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار منها من الأقلام، وفيه فصلان ١٨٩

الفصـل الأوّل — فى مقادير قطع الورق، وفيه طرفان ١٨٩

الطرف الأوّل — « « فى الزمن القديم ١٨٩

« الثـانى — فى بيـان مقادير قطع الورق المسـتعمل فى زمانـنا (زمن المؤلف)، وفيه ثلاث جمل ١٩٠

الجملة الأولىٰ — فى مقادير الورق المستعمل بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ١٩٠

« الثـانية — فى مقـادير الورق المسـتعملة بدواويـن الإنشاء بالممـالك الشامية ١٩٢

« الثالثـة — فى مقـادير قطع الورق الذى تجرى فيـه مكاتبات أعيان الدولة ١٩٣

الفصـل الثـانى — من الباب الثانى من المقالة الثالثة فى بيان ما يناسب كلَّ مقدار من مقادير قطع الورق المتقدّمة الذكر من الأقلام الخ، وفيه طرفان ١٩٤

صفحة

الطـرف الأوّل — فيما يناسب كل مقدار منها من الأقلام ١٩٤

« الثـانى — فى مقادير البياض الواقع فى أوّل الدرج وحاشيته وبُعْد مابين السطور فى الكتابة ١٩٥

البـاب الثـالث — من المقالة الثالثة فى بيان المستندات وكتابة الملخصات وكيفية التعيين، وفيه فصلان ١٩٧

الفصـل الأوّل — فى بيان المستندات : وهى التوقيع علىٰ القصص وما يجرى مجراها، وهو علىٰ ضربين ١٩٧

الضـرب الأوّل — السلطانيات، وهى صنفان ١٩٧

الصنف الأوّل — مايصدر عن متولى ديوان الإنشاء ١٩٧

« الثانى — مايصدر عن غير صاحب ديوان الإنشاء ١٩٩

الضـرب الثـانى — مايتعلق بالكتب فى المظالم، والنظر فيه من وجهين ٢٠٢

الوجه الأوّل — فيما يتعلق بالقصص ٢٠٢

« الثـانى — فيما يتعلق بالنظر فى المظالم ومايكتب علىٰ القصص، وهو ستة أنواع... ... ... ٢٠٤

النوع الأوّل — مايرفع إلىٰ السلطان فى آحاد الأيام ٢٠٦

« الثـانى — مايرفع لصاحب ديوان الإنشاء ٢٠٦

« الثـالث — مايرفع من القصص بدار العدل عند جلوس السلطان للحكم فى المواكب ٢٠٧

« الرابع — مايرفع منها للنائب الكافل إذا كان ثَمَّ نائب ٢٠٨

« الخامس — ما يرفع من القصص إلىٰ الأتابك إذا كان فى الدولة أتابك عسكر وهو الأمير الكبير ٢٠٨

« السادس — مايرفع منها للدوادار... ... ... ٢٠٩

صفحة

الفصـــل الثـــانى — فى التعيين وكيفيـــة كتابة صاحب ديوان الإنشاء على الرقاع والقصص ٢١٠

الطـــرف الثـــانى — فى كتابة الملخصات والإجابة عنها ٢١٢

البـــاب الرابـــع — من المقـــالة الثالثـــة فى الفواتح والخواتم واللواحق؛ وفيه فصلان ٢١٧

الفصـــل الأول — فى الفواتح؛ وفيه ستة أطراف ٢١٧

الطـــرف الأوّل — فى البسملة ٢١٧

« الثـــانى — فى الحمـــدلة ٢٢٤

« الثـــالث — فى التشهد فى الخطب ٢٢٦

« الرابع — فى الصلاة والســـلام على النبى صلى الله عليـــه وسلم وعلى آله وصحبه فى أوائل الكتب ٢٢٧

« الخامس — فى السلام فى أوّل الكتب ٢٢٩

« السادس — فى أما بعد ٢٣١

الفصـــل الثـــانى — فى الخواتم واللواحق؛ وفيـــه سبعة أطراف ٢٣٢

الطـــرف الأوّل — فى الاستثناء بالمشيئة بأن يكتب إن شاء الله تعالى... ٢٣٢

« الثـــانى — فى التـــاريخ ٢٣٤

« الثالث — فى المستندات ٢٦٢

« الرابـــع — فى الحمدلة فى آخر الكتاب ٢٦٥

« الخامس — فى الصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم فى آخر الكتاب وما يلتحق بذلك ٢٦٧

صفحة

الطرف السادس — فى الحسبلة فى آخر الكتاب ٢٦٩

« السابع — فى اللواحق ٢٧١

المقالة الرابعة

فى المكاتبات ؛ وفيها بابان ٢٧٤

الباب الأوّل — فى أمور كلية فى المكاتبات ؛ وفيه فصلان ٢٧٤

الفصل الأوّل — فى مقدّمات المكاتبات ؛ وفيه ثلاثة أطراف ٢٧٤

الطرف الأوّل — فى أصول يعتمدها الكتّاب فى المكاتبات ٢٧٤

« الثانى — فى بيان مقادير المكاتبات وما يناسبها من البسط والإيجاز ٣١٥

« الثالث — فى أمور تختص بالأجوبة ٣٢٣

الفصل الثانى — من الباب الأوّل من المقالة الرابعة ، فى ذكر أصول المكاتبات وترتيبها وبيان لواحقها ولوازمها ؛ وفيه طرفان ٣٢٧

الطرف الأوّل — فى ذكر أصولها وترتيبها ٣٢٧

« الثانى — فى ذكر لواحق المكاتبات ولوازمها ٣٤٥

الباب الثانى — من المقالة الرابعة ، فى مصطلحات المكاتبات الدائرة بين كتّاب أهل الشرق والغرب والديار المصرية فى كل زمن من صدر الإسلام إلىٰ زمننا (زمن المؤلف) ؛ وفيه ستة فصول ٣٦٥

الفصل الأوّل — فى الكتب الصادرة عن النبيّ صلى الله عليه وسلم ؛ وفيه ثلاثة أطراف ٣٦٥

الطرف الأوّل — فى ذكر ترتيب كتبه صلى الله عليه وسلم فى الرسائل علىٰ سبيل الإجمال ٣٦٥

صفحة

الطرف الثـانى — فى كتبه صلى الله عليه وسلم إلىٰ أهل الإسلام ٣٦٧

« الثالث — « « « « الكفر للدعاية إلىٰ الإسلام ٣٧٦

الفصل الثـانى — من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى الكتب الصادرة عن الخلفاء ؛ وهى علىٰ قسمين ٣٨٣

القســم الأوّل — المكاتبات إلىٰ أهل الإسلام ؛ وفيه تسعة [عشرة] أطـــراف ٣٨٣

الطرف الأوّل — فى الكتب الصـادرة عن الخلفاء من الصحابة رضى الله عنهم... ... ... ٣٨٣

« الثـانى — فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى أمية ٣٨٩

« الثالث — « « « بنى العباس ببغداد ، وولاة العهد بالخلافة ؛ وفيه ثلاث جمل ٣٩٢

الجملة الأولىٰ — فى بيان ترتيب كتبهم فى الرسائل علىٰ سبيل الإجمال ٣٩٢

« الثانية — فى الكتب العامة ٣٩٥

« الثالثة — فى الكتب الخاصة مما يصدر عن الخلفاء... ... ... ٤١٥

الطرف الرابع — فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى العباس فى الديار المصرية بعد مصير الخلافة إليها ٤٢١

« الخامس — فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ٤٣٢

« السادس — فى الكتب الصادرة عن خلفاء بنى أميـــة بالأندلس ٤٤٣

صفحة

الطرف السابع — فى الكتب الصادرة عن الخلفاء الموحدين ٤٤٣

« الثامن — فى الأجوبة ٤٤٧

« التاسع — فى الكتب الصادرة عن ولاة العهد بالخلافة ٤٥٦

« العاشر — من المكاتبات عن الخلفاء : المكاتبات إلى أهل الكفر ٤٥٧

الفصل الثالث — من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن فى معناهم مما الجارى عليه الحال؛ وهو على قسمين ٤٦٤

القسم الأول — المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى أهل الإسلام؛ وفيه أطراف ٤٦٤

الطرف الأول — فى مكاتباتهم إلى النبىّ صلى الله عليه وسلم ٤٦٤

« الثانى — فى المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمراء السرايا إلى الخلفاء من الصحابة رضوان الله عليهم ... ٤٧٧

« الثالث — فى المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمراء السرايا أيضا إلى خلفاء بنى أمية ٤٧٨

« الرابع — فى المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن فى معناهم إلى خلفاء بنى العباس ٤٨٠

« الخامس — فى المكاتبات الصادرة إلى الخلفاء الفاطميين بالديار المصرية ٥٢١

« السادس — فى المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن فى معناهم إلى خلفاء بنى أمية بالأندلس ٥٢٤

« السابع — فى المكاتبة الصادرة إلى خلفاء الموحدين بالمغرب ٥٢٦

صفحة

الطرف الثامن — فى المكاتبات الصادرة عن الأمراء من العمال وأمراء السرايا فى صدر الإسلام إلىٰ من فى معناهم ٥٥٨

» التاسع — فى المكاتبات الصادرة عن الملوك ومن فى معناهم إلىٰ الملوك ومن فى معناهم علىٰ ما كان عليه مصطلح أهل المشرق ٥٥٩

(تم فهرس الجـــزء السادس من كتاب صبح الأعشىٰ)

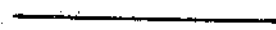

صبح الأعشى

الجـــــزء السابع

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجزء السابع

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٣ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

الطَّرَف العاشر

فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية

(ولها حالتان)

الحالة الأولىٰ

(ما كان الأمرُ عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها فى الدولة الأخشيدية والطُّولُونِيَّة وما قبلهما)

والذى وقفتُ عليه من رسم المكاتبة عنهم أن تُفتتَح بلفظ: «من فلان إلىٰ فلان».

كما كتب ٱبنُ عبد كان عن أحمدَ بن طولونَ إلىٰ ٱبنه العباس حين عصىٰ [عليه][1] بالإسكندرية، منذِرًا له وموبِّخا له علىٰ فعله، وهو:

«من أحمدَ بنِ طولونَ مولىٰ أمير المؤمنين، إلىٰ الظالم لنَفْسه، العاصى لربه، المُلِمِّ بذنبِه، المُفْسِد لكَسْبه، العادى لطَوْره، الجاهلِ لقَدْره، الناكِص علىٰ عَقِبه، المَركُوس فى فتنته، المَبْخُوس [من][1] حَظِّ دنياه وآخرتِه»!

سلامٌ علىٰ كل مُنِيبٍ مستَجِيب، تائبٍ من قريب؛ قبلَ الأَخْذ بالكَظَم، وحلُولِ الفَوْت والنَّدم.

---

(١) الزيادة من الضوء للمؤلف ص ٤٦٦، ٤٦٧.

وأحمَدُ الله الذى لا إلٰهَ إلا هو حمدَ معترِفٍ له بالبَلَاء الجميــل ، والطَّوْل الجليل ؛ وأسأله مسألة مخلِصٍ فى رَجَائه ، مجتهِدٍ فى دُعائه ؛ أنــ يصلى علىٰ محمد المصطفىٰ ، وأمينه المرتضىٰ ، ورسوله المجتبىٰ ؛ صلّى الله عليه وسلم .

أما بعد ، فإن مَثَلَك مثَلُ البقرة تُثير المُدْيةَ بقرنَيْها ، والنملةِ يكون حَتْفها فى جناحَيْها ، وستعلَمُ ـ هَبِلَتْك الهَوَابل ! أيها الأحمقُ الجاهل ؛ الذى ثَنىٰ علىٰ الغىّ عِطْفه ، وآغترّ بضَجَاجِ المَوَاكب خَلْفه ـ أىَّ مَوْرِدةِ هَلَكةٍ بإذن الله توَرّدْت ، إذ علىٰ الله جل وعز تمرَّدْت وشَرَدت ، فإنه تبارك وتعالىٰ قد ضَرَب لك فى كتابه مثلا : ﴿قَرْيةً كانَتْ آمِنةً مُطْمئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغدًا مِنْ كُلِّ مَكانٍ فكَفَرتْ بِأَنْعمِ اللهِ فَأَذاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الجُوعِ والخَوْفِ بِمَـا كانُوا يَصْنَعُون﴾ .

وإنا كُنّا نُقرِّبك إلينــا ، ونَنْسُبُك إلىٰ بُيوتنا ؛ طَمَعًا فى إنابَتِك ، وتأْمِيلا لفَيْئتِك ؛ فلمَّا طال فى الغىّ آنْهِماكُك ، وفى غَمْرة الجَهْل آرتِباكُك ، ولم نَرَ الموعظةَ تُلين كَبِدَك ، ولا التذْكيرَ يُقِيم أوَدَك ، لم تكُنْ لهــذه النِّسبة أهلا ، ولا لإضافَتِك إلينــا مَوْضِعا ومَحَلّا ؛ بل لا نُكْنىٰ بأبى العبّاس إلا تكرُّهًا وطمَعًا بأنْ يَهَب الله منك خَلَفا نقلده آسمك ونُكْنىٰ به دُونَك ، ونَعُدُّك كنتَ نِسْيا مَنْسيّا ، ولم تَكُ شيئا مقضيًّا ؛ فانظُرْ ولا نَظَرَ بك إلىٰ عارِ نِسبتَه تقلَّدت ، وسَخَطٍ من قِبَلِنا تعرَّضْت ؛ وآعلم أن البــلاء بإذنِ الله قد أظَلَّك ، والمكروهَ إن شاء اللهُ قد أحاطَ بِك ؛ والعساكرَ بحمد الله قد أتَتْك كالسَّيْل فى الليل ، تُؤْذِنُك بحربٍ وبوَيْل ؛ فإنّا نُقْسِم ، ونرجُو أن لا نَجُورَ ونَظْلِم ؛ أن لا نَثْنِيَ عنك عِنَانا ، ولا نُؤْثِرَ علىٰ شانِك شَانا ؛ ولا نتوقّلَ ذِرْوةَ جبل ، ولا نَلِجَ بطن واد ؛ إلا جعَلْناك (١) بحولِ الله وقُوّتهِ فيهما ، وطلبناك حيثُ أمَّمْت منهما ؛ مُنْفِقين فيك كُلَّ مالٍ خطير ، ومستَصْغِرِين بسبَبِك كلَّ خَطْب جليل ؛ حتّى تَسْتَمِرَّ من طَعْم العيش

(١) لعله "تبعناك" والمراد اقتفاء أثره حيث يمم .

ما آستحليت، وتستدفع من البلايا ما آستدعيت؛ حين لادافع بحول الله عنك، ولا مزحزح لنا عن ساحتك؛ وتعرف من قدر الرخاء ما جهلت، وتود أنك هبلت ولم تكن بالمعصية عجلت، ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت؛ فحينئذ يتفرّى[(١)] لك الليل عن صبحه، ويسفر لك الحق عن محضه؛ فتنظر بعينين لاغشاوة عليهما، وتسمع بأذنين لاوقر فيهما؛ وتعلم أنك كنت متمسكا بحبائل غرور، متماديا فى مقابح أمور: من عقوق لاينام طالبه، وبغى لاينجو هاربه؛ وغدر لاينتعش صريعه، وكفران لايودى قتيله؛ وتقف على سوء رويتك، وعظم جريرتك؛ فى تركك قبول الأمان إذ هو لك مبذول، وأنت عليه محمول؛ وإذ السيف عنك مغمود، وباب التوبة إليك مفتوح؛ ونتلهف والتلهف غير نافعك إلا أن تكون أجبت إليه مسرعا، وآنقدت إليه منتصحا .

وإن مما زاد فى ذنوبك عندى ماورد به كتابك على بعد نفوذى على الفسطاط من التمويهات والأعاليل، والعدات بالأباطيل؛ من مصيرك بزعمك إلى إصلاح ماذكرت أنه فسد على، حتى ملت إلى الإسكندرية، فأقمت بها طول هذه المده . وآستظهارًا عليك بالحجه؛ وقطعا لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة، ولا أنه خالجنى شك ولا عارضنى ريب فى أنك إنما أردت النزوح والآحتيال للهرب، والنزوع إلى بعض المواضع التى لعل قصدك إياها يوديك ، ولعل مصيرك إليها يكفينيك؛ ويبلغ إلى أكثر من الإرادة فيك، لأنك إن شاء الله لاتقصد موضعا إلا تلوتك، ولاتأتى بلدا إلا قفوتك؛ ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا آستعنت بالله عز وجل فى جد حبلها، وفصم عروتها؛ فإن أحدا لايؤوى مثلك ولا ينصره إلا لأحد أمرين

(١) أى ينشق يقال فراه فانفرى وتفرّى انظر المختار .

من دينٍ أو دُنْيا . فأما الدِّين فأنتَ خارجٌ من جملتــه لمُقَامك علىٰ العُقُوق ، ومخالفةِ ربِّك وإسْخاطِه . وأما الدُّنيا فمــا أُراه بقِيَ معك من الحُطَام الذى سرقْتَــه وحمَلْت نفْسَك علىٰ الإيثار به ، مايتهيَّأ لك مكاثَرتُنا بمثلِه ، مع ما وهَب الله لنا من جَزِيل النعمة التى نستَوْدِعه تبارك وتعــالىٰ إيَّاها ، ونرغَبُ إليه فى إنمائها ، إلىٰ ما أنت مقيمٌ عليه من البغْيِ الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالِبُك .

وأمَّا مامنَّيتناه من مَصيرك إلينا فى حُشُودك وجُمُوعك ، ومَنْ دخَل فى طاعتك ؛ لإصلاح عملنا ، ومكافحةِ أعدائنا ، بأمرٍ أظهَرُوا فيه الشماتة بنا ، فما كان إلا بسبَبك فأصلِحْ أيها الصبيُّ الأخرقُ أمرَ نَفْسك قبل إصلاحك عمَلَنا ، وآحْزِمْ فى أمرك قبلَ آستعمالك الحَزْمَ لنا ؛ فما أحوجَنا اللهُ وله الحمد إلىٰ نُصْرتك ومُوَازرَتك ، ولا اضْطَرنا إلىٰ التكثر [بك] علىٰ شِقاقك ومعصيتك : ﴿وما كُنْتُ متَّخِذَ المُضِلِّين عَضُدا﴾

وليتَ شِعْرى علىٰ مَنْ تَهوِّل بالجُنود ، وتَمَخْرَقُ بذكر الجيوش ، ومَنْ هؤلاء المسخَّرُون لك ، الباذلون دِماءَهم وأموالَهم وأديانهم دُونك؟ دُونَ رِزْق ترزقهم إيَّاه ، ولا عطاء تُدِرّه عليهم ؛ فقد علمتَ إن كانَ لك تمييز ، أو عندك تَحْصيل ؛ كيف كانتْ حالُك فى الوقعة التى كانتْ بناحية أطْرابُلُس ، وكيف خَذَلك أولياؤُك والمرتزِقةُ معك حتّىٰ هُزِمت ، فكيف تغترُّ بمَنْ معك من الجنود الذى لا آسمَ لهم معك ، ولا رِزْق يجرى لهم علىٰ يَدِك؟ فإن كان يَدْعُوهم إلىٰ نُصْرتك هَيْبَتُك والمداراةُ لك والخوفُ من سلطانك ، فإنهم لَيجْذِبُهم أضعافُ ذلك منَّــا ، ووجودُهم من البَــذْل الكثير والعطاءِ الجزيل عندنا ما لا يجِدُونه عندك ، وإنهم لَأحرىٰ بخَذْلك ، والميــل إلينا دُونَك . ولو كانوا جميعا معك ومقيمين علىٰ نُصْرتك ، لرجَوْنا أن يمكِّن اللهُ منك ومنهم ، ويجعلَ دائرةَ السَّوْء عليك وعليهم ، ويُجْرِينا من عادته فى النَّصْر وإعزاز الأمر علىٰ مالم يَزَل . يتفضَّلُ

علينا بأمثاله، ويتطوّلُ بأشباهه . فما دعانى إلىٰ الإرجاء لك، والتسهيل من خِناقك، والإطالة من عِنانك، طُولَ هذه المدّة إلا أمران : أغلَبُهما كان علىّ ٱحتقارُ أمرك وٱستصغارُه، وقلةُ الاحتفالِ والاكتراثِ به، وإنى ٱقتصرت من عُقُوبتك علىٰ ماأخلقته بنفسك من الإباق (١) إلىٰ أقاصى بلاد المَغْرب شَريدا عن منزلك وبلدك، فريدا من أهلك وولَدك ـ والآخر أنّى علمتُ أن الوَحْشةَ دعَتْك إلىٰ الانحياز إلىٰ حيثُ ٱنحزتَ إليه، فأردتُ التسكينَ من نِفارك، والطمأنينةَ من جأْشك، وعملتُ علىٰ أنك تَحِنُّ إلينا حَنِينَ الوَلَد، وتَتُوق إلىٰ قُرْبنا تَوَقانَ ذى الرَّحِم والنَّسَب، فإنّ فى رِفْقنا بك ما يَعْطِفُك إلينا، وفى تآخينا إيّاك مايردُّك علينا، ولم يَسْمَع منا سامع فى خَلاء ولا مَلإٍ ٱنتقاصًا بك، ولا غَضًّا منك، ولا قَدْحا فيك، رِقَّةً عليك، وٱستتماما للَيد عندك، وتأميلا لأن تكونَ الراجعَ من تِلْقاء نَفْسك، والموفَّق بذلك لرُشْدك وحظّك، فأما الآنَ مع ٱضطرارك إيّاىَ إلىٰ ماٱضْطَرَرْتنى إليه من الانزعاج نحوك، وحَبْسك رُسُلى النافذين بعهد كثير إلىٰ ما قِبَلك، وٱستعمالك المُواربةَ والخِداع فيما يجرى عليه تدبيرك . فما أنت بموضع للصِّيانه، ولا أهلٍ للإبقاء والمحافظه، بل اللعنةُ عليك حالَّه، والذِّمَّة منك بريّه، والله طالبُك ومُؤاخذك بما ٱستعملتَ من العُقُوق والقطيعه، والإضاعةلرَحِم الأُبوّه ـ فعليك من وَلَد عاقٍّ شاقٍّ لعنةُ الله ولعنة اللاعنين، والملائكةِ والناسِ أجمعين، ولا قَبِل اللهُ لك صَرفا ولا عَدْلا، ولا ترك لكَ مُنْقلَبا ترجع إليه، وخَذَلك خِذْلانَ من لايُؤْبَه له، وأثْكَلك ولا أمهلك، ولا حاطك ولا حفِظك . فوالله لأستعملَنَّ لَعْنك فى دُبُر كلِّ صلاة، والدعاءَ عليك فى آناء الليل والنهار، والغُدُوّ والآصال، ولأكتبَنَّ إلىٰ مِصْر، وأجناد الشامات والثُّغور، وقِنَّسرينَ، والعَواصِم، والجَزيرة، والحجاز، ومكّةَ، والمدينةِ كُتبا تُقْرأ علىٰ مَنابِرها

(١) مراده على مااخترته لنفسك الخ

فيك، باللَّعْن لك، والبراءةِ منك، والدلالة علىٰ عُقُوقك وقَطِيعتك؛ يتناقَلُها آخِرٌ عن أوّل، ويأْثُرُها غابِرٌ عن ماض، وتُخَلَّد فى بطون الصحائف، وتحملها الرُّكبان، ويُتحدَّثُ بها فى الآفاق، وتُلْحق بك وبأعقابك عارا ما ٱطَّرد الليلُ والنهار، وٱختلَف الظَّلامُ والأنوار.

فحينئــذٍ تعلَمُ أيُّها المخالفُ أمرَ أبيه، القاطعُ رحِمَه، العاصى ربَّه؛ أىّ جناية علىٰ نَفْســك جنيت؟ وأىّ كبـيرةٍ ٱقترفت واجتنيت، وتتمنّى لو كانتْ فيك مُسْــكه، أو فيك فَضْل إنسانيَّة؛ أنك لم تكُنْ وُلِدت، ولا فى الخلق عُرِفْت؛ الا أن تُراجِع من طاعتنــا والإسراع إلىٰ ما قِبَلنا خاضعًا ذليــلا كما يلزمك، فنُقِيمَ الاستغفارَ مُقام اللعنه، والرِّقَّة مقــامَ الغِلْظه؛ والســلامُ علىٰ من سَمِع الموعظة فوعَاهَا، وذكر الله فاتَّقاه، إن شاء الله تعالىٰ.

وكما كتب الأخشيد محمد بن طُغْج [صاحب الديار المصرية](١) وما معها من البلاد الشامية، والأعمال الحجازيَّة، إلىٰ أرمانُوس: ملكِ الروم، وقد أرسل أرمانوسُ اليه كتابا يذكُر من جملته بأنه كاتبه وإن لم تكن عادتُه أن يكاتِبَ إلا الخليفةَ، فأمر بكتابة جوابه فكتب له الكُتَّاب عدّةَ أجوبة ورفعُوا نُسَخها إليه، فلم يرتضِ منها إلا ما كتبه إبراهيم بن عبد الله النَّجيرِمىّ وكان عالمــا بوجُوه الكتابة.

ونسختُه علىٰ ماذكره ٱبن سعيد فى كتابه "المُغْرب فى أخبار المَغرِب":

من محمد بنِ طُغْج مولىٰ أمير المؤمنين، إلىٰ أرمانُوسَ عظيم الروم ومَنْ يليه.

سلامٌ بقدر ما أنتم له مستحِقُّون، فإنا نحمدُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، ونسأله أن يصلّى علىٰ محمد عبده ورسوله صلَّى الله عليه وسلم.

---

(١) بياض فى الاصل والتصحيح من ضوء الصبح للمؤلف ص ٤٦٧.

أما بعدُ، فقد تُرْجِم لنا كتابُك الواردُ مع نُقُولا و إسحاقَ رسولَيْك ، فوجدناه مفْتَتِحا بذكر فضيلةِ الرَّحْمة، وما نُمِيَ عنا إليك، وصَحَّ من شِيَمِنا فيها لَدَيْك ؛ و بمـا نحن عليه من المَعْــدَلَة وحُسْن السِّيرة فى رعايَانَا ، وما وصلتَ به هــذا القول من ذكر الفِداء والتوصُّل إلىٰ تخليص الأسرىٰ، إلىٰ [غير] ذلك ممـا ٱشتمل عليه وتفهَّمناه .

فأما ماأطنبْتَ فيه من فضيلة الرحمة فمن سَدِيد القول، الذى يليقُ بذَوِى الفضل والنُّبْل ؛ ونحنُ بحمد الله ونعمِه علينا بذلك عارِفُون ، و إليه راغِبُون ، وعليه باعِثُون ، وفيه بتوفيق الله إيَّانا مُجتَهِدون، و به مُتَواصُون وعامِلون . و إيَّاه نسأل التوفيقَ لمَرَاشد الأمور وجوامع المَصَالح بمنِّه وقُدْرته .

وأما مانسبْتَه إلىٰ أخلاقنا من الرحمة والمَعْدِلة، فإنا نرغَبُ إلىٰ الله جلَّ وعلَا الذى تفرَّد بكمال هذه الفضيلة، ووهَبَها لأوليائه ثم أثابَهُم عليها، أن يُوَفِّقنا لهـا ، و يجعلَنا من أهلِها، و يُيسِّرنا للاَجتهادِ فيهـا ، والاَعتصام من زَيْغ الهوىٰ عنها، وعِزَّة القَسْوة بهـا ؛ و يجعلَ ما أودَع قلوبَنَا من ذلك موقوفًا علىٰ طاعتــه ، ومُوجِبَات مَرْضاته ؛ حتّٰى نكونَ أهلًا لمـا وَصَفْتَنا به ، وأحقَّ حَقًّا بمـا دعوتَنَا إليه ؛ وممنْ يستحِقُّ الزُّلْفىٰ من الله تعالىٰ ، فإنا فُقَراءُ إلىٰ رحمتــه . وحَقٌّ لمن أنزله اللهُ بحيثُ أنزلَنَا ، وحَمَّله من جسيم الأمْرِ ما حَمَّلنَا ؛ وجمَعَ له من سَعَة الممالك ما جَمَع لنا بمولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه،أن يَبْتَهِل إلىٰ الله تعالىٰ فى مَعُونته لذلك وتوفيقه و إرشاده، فإن ذلك إليه و بيده : ﴿ وَمَنْ لم يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَـا لَهُ مِنْ نُور ﴾ .

وأما ما وصفتَه من ٱرتفاع محلِّك عن مَرْتَبة مَنْ هو دُونَ الخليفة فى المكاتبة لمـا يقتضيه عِظَم مُلْكِكم ، وأنه المُلْك القديم الموهوبُ من الله، الباقى علىٰ الدَّهْر ، وأنك إنمـا خصَصْتنا بالمكاتبة لمَـا تحقَّقْته من حالِنا عندك ، فإنَّ ذلك لو كان حقًّا

وكانت منزلتُنا كما ذكرته تَقْصُرعن منْزلة من تُكاتبُه ، وكان لك فى تَرْك مكاتَبتِنا غُنْم ورُشْـد ، لكان من الأمر البَيِّن أنَّ أَحظىٰ وأرشدَ وأولىٰ بمن حلَّ محلَّك أن يعمل بمـا فيه صلاحُ رعيَّته ، ولا يراه وَصْمةً ولا نَقيصةً ولا عَيْبا ، ولا يَقع فى معاناةِ صغيرةٍ من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركَبُ الأخطار ، ويَخُوضُ الغِمار ، ويُعرِّض مُهْجتــه ، فيما ينفَع رعِيَّته ؛ والذى تجشَّمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمرٌ سَهْل يسير ، لأَمْرٍ عظيم خطير ، وجُلُّ نَفْعه وصلاحِه وعائدته تخُصُّكم ، لأن مذهبنا آنتظارُ إحدىٰ الحُسنَيَيْن ، فمَنْ كان منَّا فى أيديكم فهو علىٰ بيِّنة من ربه ، وعزيمةٍ صادقةٍ من أمره ، وبصـيرةٍ فيما هو بسَـبيله ؛ وإن فى الأُسارىٰ مَنْ يُؤْثِر مكانَه من ضَنْك الأَسْر وشِدّةِ البأساء علىٰ نَعِيم الدنيـا وخيرها لِحُسْن منقَلَبه ، وحميدِ عاقبته ؛ ويعلم أن الله تعـالىٰ قد أعاذه من أن يفْتِنه ، ولم يُعِذْه من أن يبْتلِيَه . هــذا إلىٰ أوامر الإنجيل الذى هو إمامُكم ، وماتُوجِبه عليكم عزائمُ سياستكم ، والتوصـلُ إلىٰ آستنقاذ أُسَرائكم ؛ ولولا أنَّ إيضاحَ القول فى الصواب ، أولىٰ بنـا من المُسامحة فى الجواب ، لأضربْنا عن ذلك صَفْحا . إذ رأينا أنَّ نَفْس السبب الذى من أجْله سَمَا إلىٰ مكاتبة الخلفاء عليهم السلام مَنْ كاتبهم ، أو عَدا عنهم إلىٰ مَنْ حلَّ محلَّنا فى دولتهــم ؛ بل إلىٰ من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من مَنْعه ، وردّ ملتَمَسه ممن جاوره ، فرأىٰ أن يقْصِد به الخلفاءَ الذين الشَّرفُ كلُّه فى إجابتهم ، ولا عار علىٰ أحد وإن جلَّ قدره فى ردِّهم ؛ ومن وَثِق فى نفسه ممن جاوره ، وجد قَصْده أسهلَ السبيلين عليه ، وأدناهما إلىٰ إرادته ، حسب ماتقدّم لها من تقـدّم . وكذلك كاتَب مَنْ حل محلَّك من قَصُرعن محلنا ، ولم يقرُبْ من منْزِلتنا ؛ فمالِكُكا عِدّة ، كان يتقلد فى سالف الدهر كلَّ مملكة منها ملكٌ عظيمُ الشان .

فمنها مُلْكُ مصر الذى أطغىٰ فرعونَ علىٰ خَطَر أمره، حتّىٰ ٱدّعىٰ الإلٰهية وٱفتخر علىٰ نبيّ الله موسىٰ بذلك .

ومنها ممالكُ اليمن التى كانتْ للتبابعة، والأقيال العَبَاهِلة : ملوكِ حمير، علىٰ عظم شأنهم، وكثرة عَدَدهم .

ومنها أجنادُ الشام التى

منها جُنْدُ حِمْصَ، وكانت دارَهُم ودارَ هِرَقْلَ عظيمِ الروم ومَنْ قَبْله من عظمائها .

ومنها جُنْدُ دِمشْقَ علىٰ جَلَالته فى القديم والحديث، وٱختيارِ الملوك المتقدّمين له .

ومنها جُنْد الأُرْدُنّ علىٰ جَلَالة قدره، وأنه دارُ المَسِيح صلّى الله عليه وسلم وغيرِه من الأنبياء والحوارِيِّين .

ومنها جُنْد فِلَسْطِينَ، وهى الأرض المقدّسة ، وبها المسجدُ الأقصىٰ، وكرسىُّ النصرانيـة ، ومعتقَدُ غيرها ، ومَحَجُّ النصارىٰ واليهود طُرًّا ، ومقرّ داودَ وسليمانَ ومسجدُهما . وبهـا مسجدُ إبراهيم وقبرُه وقبر إسحاقَ ويعقوبَ ويُوسفَ وإخوتِه وأزواجِهم عليهم السلام، وبها مولدُ المسيح وأمّه وقبرُها .

هذا إلىٰ ماتنقلّده من أمر مكة المحفوفةِ بالآيات الباهره، والدلالات الظاهره، فانا لو لم نتقلّد غيرها لكانت بشرَفها، وعِظَم قدرها، وماحوتْ من الفضل تُوفِى علىٰ كل مملكة، لأنها مَحَجُّ آدَم ومَحَجُّ إبراهيم وارثه ومُهاجَرُه، ومَحَجُّ سائر الأنبياء ، وقبلتُنا وقبلتُهم عليهم السلام ودارُه وقـبره(١)، ومَنْبِت وَلَده، ومَحَجُّ العرب علىٰ مَرِّ الحِقَب، ومحلُّ أشرافها ، وذَوِى أخطارها ، علىٰ عظم شأنهم، ونخامةِ أمرهم . وهو البيتُ

(١) كذا فى "المغرب" أيضا ويظهر أنه مقدم علىٰ مابعده ويكون الضمير فيه عائدا علىٰ سيدنا إسماعيل فان مكة كانت داره ومنبته تأمل .

العتيق ، المحرّم المحجوجُ إليــه من كل فَجٍّ عميق ، الذى يعترِف بفضله وقِدَمه أهلُ الشرف، من مَضىٰ ومَنْ خَلَف ؛ وهو البيتُ المعمور، وله الفضلُ المشهور .

ومنها مدينةُ الرسول صلّى الله عليه وسلم المقدّسةُ بتُرْبته ، وانها مَهْبِطُ الوحْى ، و بيضةُ هذا الدِّين المستقيم الذى آمتدّ ظلُّه علىٰ البرِّ والبحر، والسَّهْل والوَعْر ، والشَّرْق والغَرْب ، وصَحَارىٰ العَرَب علىٰ بعـد أطرافها ، وتنـازُح أقطارها ، وكثرة سُكَّانهـا فى حاضِرَتها و بادِيَتِها ، وعظمِها فى وفودها وشدَّتها ، وصِـدْق بأسها ونَجْدتهـا ؛ وكبر أحلامِها ، و بُعْدمَرَامها ، وآنعقاد النصر من عند الله براياتها . و إن الله تعالىٰ أبادَ خَضْراء كِسرىٰ ، وشَرَّد قيصرَ عن داره ومحل عِزِّه ومَجْده بطائفة منها . هـذا إلىٰ ماتعلَمُه من أعمالنا ؛ وتحتَ أمْرنا ونَهْينا ثلاثةُ كراسِىَّ من أعظم كراسِيِّكم : بيتُ المَقْدِس ، وأنطاكيةُ ، والإسكندريّةُ . مع ما إلينا من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتمِّ العَتَاد . واذا وفَّيت النظر حقَّه علمت أن الله تعالىٰ قد أصفانا بجُلِّ الممالك التى ينتفع الأنامُ بهـا ، و بشَرَف الأرض المخصوصة بالشَّرف كلِّه دُنْيا وآخرة ، وتحقَّقْت أن منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوقَ كلِّ منْزِلة . والحمد لله ولىِّ كلِّ نعمة .

وسـياستُنا لهذه الممـالك قريبِها و بعيـدِها علىٰ عِظَمها وسَعتهـا بفَضْل الله علينا و إحسانه إلينا ومَعُونته لنا وتوفيقه إيَّانا كما كتبْتَ إلينا وصَحَّ عندك من حُسْن السِّيرة ، و بمـا يؤلِّف بين قُلُوب سائر الطَّبقات من الأوليـاء والرعية ويجمُعهم علىٰ الطاعة وآجتماع الكلمة ، و يوسعها الأمنَ والدَّعةَ فى المعيشة ويُكسِبها المودّة والمحبة .

والحمد لله ربِّ العالمين أوّلا وآخرا علىٰ نِعَمه التى تفوتُ عندنا عَدَدَ العادِّين ، و إحصاءَ المجتهدين ، ونَشْرَ الناشرين ، وقولَ القائلين ، وشُكْر الشاكرين . ونسألُه أن يجعلنا ممن تحدَّث بنعمته عليه شُكْرا لها ، ونَشْرا لمـا منحه الله منها [ومَنْ رضى

اجتهاده فى شكرها، ومن أراد الآخرة[1] وسعىٰ لها سَعْيها؛ وكان سعيهُ مشكورا، إنه حميد مجيد .

وما كنت أُحبُّ أن أُباهِيَك بشيءٍ من أمر الدنيا ، ولا أتجاوزَ الاستيفاءَ لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذى كَرَّمه وأظهره، ووعَدَنا فى عواقبه الغلبةَ الظاهره، والقُدرةَ القاهره، ثم الفوزَ الأكبر يوم الدِّين . لكنك سلكْتَ مَسْلَكا لم يحْسُن[2] أن نَعْدِل عنه ، وقلت قولا لم يَسعْنا التقصيرُ فى جوابه ، ومع هذا فإنا لم نقْصِد بما وصفْناه من أمرنا مكاثَرتَك، ولا آعتمدْنا تعيين فضل لنا نَعُوذ به، إذ نحن نُكْرَم عن ذلك ، ونرىٰ أن نُكْرِمك عند محلك ومنزِلتك ، وما يتَّصلُ بها من حُسن سياستِك ومَذْهبِك فى الخير ومحبَّتك لأهله، وإحسانِك لمن فى يَدِك من أَسْرىٰ المسلمين، وعَطْفِك عليهم ، وتجاوُزِك فى الإحسان إليهم، جميعَ من تقَدَّمك من سَلَفك . ومن كانَ محمودًا فى أمره، رُغِب فى محبته، لأن الخيِّر أهلٌ أن يُحَبَّ حيث كان . فإن كنت إنما تُؤَهِّل لمكاتبتك ومماثلتك من آتسعَتْ مملكتُه، وعَظُمتْ دولتُه، وحَسُنت سيرتُه؛ فهذه ممالكُ عظيمةٌ ، واسعةٌ جَمَّة ؛ وهى أجلُّ الممالك التى ينتفِعُ بها الأنام ، وسِرُّ الأرض المخصوصة بالشرف . فإنَّ الله قد جمع لنا الشرف كلَّه، والولاء الذى جُعِل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مخصوصين بذلك إلىٰ مالنا بقديمنا وحديثنا ومَوْقِعنا . والحمد لله رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمَنِّه وإحسانه، ومنه نرجو حُسْنَ السعْيِ فيما يُرْضيه بلطفه . ولم يَنْطوِ عنك أمرُنا فيما آعتمدناه ،

وإن [كنت] تجرى فى المكاتبة علىٰ رسم مَنْ تقدمك فإنك لو رَجَعْت إلىٰ ديوان بلَدِك ، وجدْتَ من كان تقدمك قد كاتب مِنْ قِبَلِنا مَن لم يحُلَّ محلَّنا ، ولا أغنىٰ

(١) الزيادة من "المغرب فى أخبار المغرب" .

(٢) فى المغرب "لم يجز لنا أن نعدل الخ" .

غَناءنا ، ولا ساسَ فى الأمور سياسَتَنا ، ولا قلَّده مولانا أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلَّدنا ، ولا فوّض إليه ما فوّض إلينا ؛ وقد كُوتِب أبو الجَيْش خُمَارويه بن أحمد ابن طُولون ، وآخر من كُوتِب تِكِين مولىٰ أمـير المؤمنين ولم يكن تقلد سوىٰ مِصْرَ وأعمالِها .

ونحن نحمد الله كثيرا أوّلا وآخرا علىٰ نِعَمه التى يفوت عندنا عدَدُها عدَّ العادِّين ، ونَشْر الناشرين . ولم نرد بمـا ذكرناه المفاخرةَ ، ولكنّا قصدنا بمـا عدَدْنا من ذلك حالاتٍ : أوّلُها التحدُّث بنعمة الله علينا ؛ ثم الجوابُ عما تضمَّنه كتابك من ذكر المحَلِّ والمنْزِلة فى المكاتبة ، ولتعلم قَدْر مابسطه الله لنا فى هذه المَسَالك ، وعندنا قوّةٌ تامةٌ علىٰ المكافأة علىٰ جميل فِعْلك بالأُسارىٰ ، وشكُرٌ وافٍ لمـا تُولِيهم وتتوخَّاه من مَسَرَّتهم إن شاء الله تعـالىٰ وبه الثقة ، وفَّقك اللهُ لمواهِب خيراتِ الدنيا والآخرة ، والتوفيقِ للسَّداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل الذى يُحِبه ويرضاه ويثيب عليه ، ويرفعُ فى الدنيا والآخرة أهلَه ، بمنِّه ورحمته .

وأما المُلْك الذى ذكرت أنه باقٍ علىٰ الدهر لأنه موهوبٌ لكم من الله خاصّة ، فإنَّ الأرض لله يُورِثُها مَنْ يشاءُ من عباده والعاقِبةُ للمتقين . وإن المُلْك كلَّه لله يُؤْتِى المُلْكَ من يَشَاء ويَنْزِع المُلْك ممن يَشَاء ويُعِزُّ من يشاء ويُذِلُّ من يشاء بيَدِه الخير وإليه المَصِير ، وهو علىٰ كل شىءٍ قدير . وإن الله عزَّ وجل نسخَ مُلْك الملوك وجَبَرِيَّة الجبَّارين بنُبُوَّة محمد صلَّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله أجمعين ، وشَفَع نبوّتَه بالإمامة وحازها إلىٰ العِترة الطاهرة من العُنْصُر الذى منه أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءَه ، والشجرة التى منها غُصْنه ، وجعلها خالدةً فيهم يتوارَثُها منهم كابرٌ عن كابر ، ويُلْقِيها ماضٍ إلىٰ غابِرٍ ، حتّى تَنجز أمرُ الله ووعدُه ، ويبهر نصرُه وكلمته ، وأظهر حجته وأضاء عمودَ الدين بالأئمة

المهتدين ، وقَطَع دابَر الكافرين لِيُحِقَّ الحَقّ ويُبْطِلَ الباطِلَ ولو كَرِه المُشْرِكُون حتّى يرثَ الله الأرض ومَنْ عليها وإليه يرجعون .

وإنَّ أحقَّ مُلْكٍ أن يكون من عنـد الله، وأَوْلاه وأخلقَه أن يَكْنُفَه الله بحراسته وحياطته، ويَحُفَّه بعِزِّه وأيْده، ويجَلِّله بهاءَ السكينة فى بَهْجة الكرامة ، ويجمِّله بالبقاء والنَّجاء مالاحَ فجر،وكرَّ دَهر،مُلْكُ إمامةٍ عادلة خلَفَتْ نبوّةً فجَرَتْ على رَسْمها وسَنَنِها ، وٱرتسمَتْ أمْرَها ، وأقامت شرائعَها ، ودعَتْ إلىٰ سُبُلِها ، مستَنْصِرة بأيدها ، منتجِزةً لوعدها ؛ وإنَّ يومًا واحدًا من إمامة عادلةٍ خيرٌ عند الله من عُمُر الدنيا تملُّكا وجَبَرِيَّة .

ونحن نسأل الله تعالىٰ أن يُديم نِعمَه علينا ، وإحسانَه إلينا بشَرَف الولاية ، ثم بحسن العاقبـة بمـا وَفَّر علينا فخْرَه وعُلاه ، ومجدَه وإحسانه إن شاء الله ، وبه الثقة ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وأما الفِداء ورأيُك فى تخليص الأسرىٰ ، فإنا وإن كُنَّا واثقين لَمَنْ فى أيديكم بإحدىٰ الحسنيين ، وعلىٰ بينةٍ لهم من أمرهم ، وثَبَات من حُسْن العاقبة وعِظَم المَثُوبة ، عالمين بمـا لهم ، فإن فيهم من يُؤْثِر مكانَه من ضَنْك الأَسْر وشـدّةِ البأساء علىٰ نعيم الدنيا ولَذَّتها ، سكونا إلىٰ مايتحقَّقُه من حُسْن المنقلَب وجَزِيل الثواب . ويَعلم أن الله قد أعاذه من أن يَفْتِنَه ، ولم يُعِذْه من أن يبتليه ؛ وقد تبيَّنَّا مع ذلك فى هـذا الباب ما شرعه لنا الأئمة الماضُون ، والسَلَفُ الصالحون ؛ فوجدنا ذلك موافقا لمـا ٱلتمسته ، وغيرَ خارج عمـا أحبَبْتَه ؛ فسُرِرْنا بمـا تيَسَّر منه ، وبعثْنا الكتُبَ والرسُلَ إلىٰ عُمَّالنا فى سائر أعمالنا ، وعزمنا عليهم فى جمع [كلِّ من قِبَلهم وأتباعهم بمـا وفر الإيمـان فى إنفاذهم ، وبذلنـا فى ذلك](١) كلَّ ممكن ، وأخَّرْنا إجابتك عن كتابك ليتقـدَّم فعلُنا

(١) الزيادة من "المغرب فى أخبار المغرب" .

قولنا ، وإنجازُنا وعْدَنا ؛ ويُوشِـك أن يكون قد ظهر لك من ذلك ما وَقَع أحسنَ المَوْقِع منك إن شاء الله .

وأما ما ٱبتدأتنا به من المُواصلة، وٱستشعرته لنـا من المودّة والمحبة، فإنَّ عندنا من مقابلة ذلك ماتُوجبه السياسةُ التى تجمعنا علىٰ ٱختلاف المَذَاهب، وتقتضيه نسبة الشرف الذى يؤلِّفنا علىٰ تبايُنِ النحل ، فإن ذلك من الأسباب التى تخُصُّنا وإيَّاك . ورأينا من تحقيق جميل ظَنِّك بنا إيناسَ رُسُلك وبَسْطَهم، والٱستماعَ منهم والإصغاءَ إليهم والإقبال عليهم؛ وتلقينا ٱنبساطَك إلينا، وإلطافَك إيَّانا بالقَبُول الذى يحقُّ علينا؛ ليقع ذلك موقِعَه . وزدنا فى تَوكيد ما ٱعتمدته ماحَمَّلْناه رسـلك فى هذا الوقت علىٰ ٱستقلالنا إيَّاه من طرائف بَلَدِنا وما يَطْرأ من البلاد علينا؛ وإن اللهَ بعَـدْله وحكمته أودَعَ كلَّ قريةٍ صِنْفا، ليتشَوَّف إليه من بَعُد عنه ، فيكون ذلك سـببا لعِمارَة الدنيا ومَعايِش أهلها . ونحن نفردك بمـا سلَّمناه إلىٰ رسولك لتقِفَ عليه إن شاء الله .

وأما ما أنفذْتَه للتجارة فقد أمكَنَّا أصحابَك منـه ، وأذِنَّا لهم فى البيع وفى ٱبتيـاعِ ما أرادُوه وٱختارُوه؛ لأنا وجَدْنا جميعه ممـا لايَحْظُره علينا دينٌ ولا سياسةٌ . وعندنا من بَسْطك وبَسْط مَنْ يَرِد من جِهَتك ، والحرِص علىٰ عِمَارة مابدأْتَنا به ورِعايَتِه ، ورَبِّ ما غَرسـتَه ، أفضلُ ما يكون عند مثلنا لمثلك . والله يُعِين علىٰ ما نَنْوِيه من جميل، ونَعتَقِده من خير، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ومَنِ ٱبتدأ بجميل لزمه الجرْىُ عليه والزيادة، ولاسيما إذا كان من أهله وخليقًا به . وقد ٱبتدأتنا بالمؤانَسة والمُباسَـطة ، وأنت حقيقٌ بعِمارة ما بيننا ، وبٱعتمادِنا بحوائجك وعوارضك قِبَلَنا؛ فأبْشِرْ بتيسير ذلك إن شاء الله .

والحمــد لله أحقُّ ما ٱبْتدِئَ به ، وخُتم بذكره ؛ وصـلَّى الله علىٰ محمد نبيّ الهدىٰ والرحمة، وعلىٰ آله وسلَّم تسليما .

الحـالة الثانيـــة

(من حالات المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ما كان الحالُ عليه بعد الدولة الفاطمية فى الدولة الأيوبية)

وقد ذكر « عبدالرحيم بن شيث » أحد كُتَّاب الدولة الأيُّوبيــة فى أواخر دولتهم مصطلَحَ ما يُكتَب عن السلطان فى خِلال كلامه، فقال : إن الناس كانوا لايَكْتُبون « المجلس » إلا للسُّــلْطان خاصّة، ويكتُبون لأعيان الدولة من الوزراء وغيرهم «الحَضْرة» ثم أفردُوا السلطان بالمَقَام والمَقَرّ، وصاروا يكتُبونَ «المجلس» لمن دُونَه، ولم يُسوِّغوا مكاتبةَ السلطان بعد ذلك بالمجلس ولا بالحَضْرة. قال: ويكْتُب السلطانُ إلىٰ ولده المستخلَف عنه «بالمجلس» دُونَ المقام. وٱصطلَحُوا علىٰ الٱختصار فى نُعُوت المُلُوك المكتوبِ إليهم والدعاء، بخلاف من هو تحتَ أمر السلطان وتحتَ حَوْزته، فإنه كُلَّما كثُرت النعوتُ والدعاءُ له فى مكاتبــة السلطان إليه، كان أبلغ : لأنَّ ذلك فى معنىٰ التشريف من السلطان ، وأنه لا يقال فى المقام «السامى» بل «العالى» . وأنه إذا كتب السلطانُ إلىٰ مَنْ هو دونَه من ذوى الأقدار عبَّر «بالمجلس السامى» ، ولا يُزاد علىٰ ذلك ، ثم يفرد عن النَّسَب بعــد السامى ، فيقال : الأمير الأجل من غير ياء النسب . وأنه لا يقال العــالى مكانَ السامى فى الكتابة عن السلطان ، وقد يُجْمَع بينهما لذَوِى الأقدار، وأنه يُضاف فى نَعْت كل أمير« عمدةُ الملوك والسلاطين عزُّ الإسلام،أو نُصْرة الإسلام، أو فارسُ المسلمين» أو ماشابه ذلك من غير ضَبْط ولا تخصيص لأحدٍ دُونَ أحد إذا أحرزوا النعْتَ الذى ٱشــتهر به المكتوبُ إليه . وأنه يقال: «عمدةُ الملوك والسلاطين» و«عدّةُ الملوك والسلاطين» و«ذُخر الملوك» ودُونَها «ٱختيارُ الملوك» . وللأقارب «فَخْر الملوك» و«جمالُ الملوك» و«عزُّ الملوك» و « زين الملوك » . وللأماثل «مُعين الملوك» و «نُصْرة الملوك» وما أشبه ذلك .

وأنه يكتب للأُمَراء الأعيان : «حُسَام أمير المؤمنين» و «سيفُ أمير المؤمنين» . ولكُبَراء الدولة من الكُتّاب : « خاصّةُ أمير المؤمنين » و « وليّ أمير المؤمنين » و « صفوةُ أمير المؤمنين » . و « ثِقَةُ أمير المؤمنين » و « صَنِيعة أمير المؤمنين » علىٰ مقدار مراتبهم . وأن نعتَ الأجلِّ يذكر بعد العُلو والسُّمو بأن يقال : «المجلس العالى الأجَلّ» أو « السامى الأجلّ » وربما كان بعد ذكر الإِمرة أو القضاء فيقال «الأمير الأجلُّ» أو «القاضى الأجلُّ» . وأنْ السلطان لايبتدئ بالدعاء فى كتبه إلىٰ أحدٍ إلا من ماثله فى المُلْك . وأن السلطان لايكتب إلىٰ أحد ممن هو تحتَ أمره «بلا زَالَ» «ولا بَرِح» فى الدعاء ، وإنما يكتب بذلك إلىٰ من ماثله من المُلُوك ، أو إلىٰ ولده المستخْلَف عنه فى المُلْك . وأن الدعاءَ للملوك يكون مثل «أدام اللهُ أيّامه» و « خَلَّد سلطانه وثَبَّت دولته » وما أشبه ذلك . وأن التحميد فى أوائل الكُتُب لايكون إلا فى الكُتُب الصادرة عن السلطان . وأنَّ غاية عَظَمةِ المكتوب إليه أن يكون الحمدُ ثانية وثالثة فى الكتاب ، ثم يؤتىٰ بالشهادتين ، ويصلّى علىٰ النبيّ صلّى الله عليه وسلم . وأنه يكتب فى الكتب السلطانية «صدرَتْ» و«أصدرناها» ولايكتب «كتبت» . وأن الذى تُخاطَب به الخلافةُ عن السلطان : « المواقِف المقدَّسة الشريفة ، والعَتَبات العالية ، ومَقرّ الرحمة ، ومحلّ الشرف » . والذى يخاطَبُ به الملوك : « المقام العالى ، والمَقرّ الأشرف » ولا يقال « المَقَام السامى » . والذى يخاطب به الوزراء : «الجناب العالى ، والمحَلّ السامى» . ومَنْ دون ذلك «المجلس السامى» ودونه «مجلس الحضرة» . ودونه «الحَضْرة» . وأنه لايكتب عن السلطان لمن هو تحت أمره إلا بنون الجمع لدلالتها علىٰ العَظَمة ، ولا يُكْتَب «تشعر» إلا عن السلطان خاصّةً بخلاف «تعلم» وأن الكتب الصادرة عن السلطان تكون طويلة الطرّة ، وتكون بقلم جليلٍ غير دقيق . وأنه يُوسَّع بين السطور حتّى يكون بين كل

سطرين ثلاث أصابع أو أربع أصابع . وأنه لايخرج عن سَمْت البسملة فى الكتابة ، ولا يحتمل ذلك إلا فى الحَمْدلة . وأنه لايكثر النقط والشكْل فى الكتب الصادرة عن السلطان لاسيَّما فى الألفاظ الظاهرة . وأن الدعاء علىٰ العدو كان محظورا فى الكتب الصادرة عن السلطان إلىٰ مَنْ دُونه ، ثم ٱستعمل ذلك . وأنه لاتترك (١) فضلة فى آخر الكتاب بياضا ، ولا يكتب فى حاشية الكتاب . وأن الترجمة عن السلطان فى كتبه لمن تحت أمره أعلاهم وأدناهم ، العلامة ؛ فان أراد تميـيز أحد منهم كتب له شيئا بخطه فى مكان العلامة . وأن العلامة تكون إلىٰ البسملة من السلطان أقرب ، وأنه لاحرجَ علىٰ السلطان أن يترْجِم للقُضاة والعلمـاء والعُبَّاد بأخيه وولده . وأن عَنْونة الكتاب وختْمَه مختصٌّ بصاحب ديوان الإنشاء ليدُلَّ ذلك علىٰ وقوفه علىٰ الكتاب . وأنه لا يجوز عنونةُ الكتاب قبـل أن يكْتُب عليـه السلطان ترجمتَـه أو علامته . وأن الكتبَ لاتبقىٰ مفتوحة إلا أن تكون بإطلاق مال ، لأن كرم الكِتاب ختمه ، ولا أكْرَم من كتب السلطان ؛ ويكون طَيُّ الكتاب الصادر عن السلطان عَرْضَ ثلاث أصابع .

ثم مشهور مكاتباتهم علىٰ أربعة أساليب :

الأسـلوب الأوّل

(أن تُفتتَح المكاتبـةُ بالدعاء للمجلس أو الجَنَاب)

مثل : أدام اللهُ أيامَ المجلس ، أو أدام الله سلطانَ المجلس ، أو أدام الله نعمةَ المجلس ، أو أدام الله ٱقتدارَ المجلس ، أو أدام الله سعاداتِ المجلس ؛ أو خلَّد الله أيام المجلس أو سلْطان المجلس ، أو ثبَّت الله دولةَ المجلس ، وما أشبه ذلك ممـا فيه معنىٰ

(١) فى الضوء " وأنه يترك " بغير لا النافية واثباتها أوضح .

الدوام؛ وربما أبدل لفظ الدوام وما فى معناه بالمُضاعفة، مثل : ضاعفَ اللهُ نعمة المجلس . ويؤتىٰ علىٰ الألقاب إلىٰ آخرها، ثم يقال : نُشْعِر المجلس أو الأمير بكذا ونحو ذلك، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره، ويُختَم بالدعاء وقد يُختَم بغيره .

وهـذه نسخةُ مكاتبةٍ من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح غَزَّة وٱقتلاعها من الفرنج الديوية، الذين كانوا مستَوْلين عليها، وهى :

« أدامَ الله سعاداتِ المجلس، وأحسن له التدبير، وأصفىٰ عيْشَه من التكدير، وحَقَّق له وفيه أحسنَ الرجاء والتقدير، وجعل وَجْهه من أهِلَّة الأكابر والتكبير، وأعاذ تأخيرَ أجلِه من التقديم وتقديمَ حَظِّه من التأخير .

نُشْعِر المجلس بما مَنَّ الله تعالىٰ به من فتح مدينة غَزَّة يوم الجمعة الجامع لشَمْل النصر، القاطع لحَبْل الكُفْر؛ وهـذه المدينة قد علم الله أنها من أوسع المدائن، وأملإ الكَنائن، وأثرىٰ المَعادن؛ وهى كُرسِىُّ الدِّيويَّة ومَهْبِط رءوسهم، ومَحَطّ نفوسهم، وحِمىٰ كليبهم بل كِلابِهم، وظهيرُ صَليبِهم بل أصلابهم؛ وما كانت الأبصارُ إليها تَطْمَح، ولا الأقدارُ بها قَبْلنا تَسْمَح؛ ولها قلعةٌ أنْفُها شامخ فى الهواء، وعِطْفها جامحٌ عن عطفة اللواء؛ قد أوغلَتْ فى الجوّ مرتفِعَه، وأومضَتْ فى الليل مُلْتَمِعه، وبِرِداء السَّحاب ملتفِعه؛ قد صافَحَتْها أيدى الأنام بالسلامة من قَوارِعها، وهادَنَتْها حوادثُ الأيام علىٰ الأمن من روائعها، إلىٰ أن أُتِيحَ لها مَنْ أتاح لها الحَيْن، وقُيِّض لها مَنِ ٱقتضىٰ منها الدَّيْن؛ فصَبَّحها بما ساء به صَباحُها، وزَعْزعها بالزَّئير الذى خَرِسَ له نُباحُها . وكان من خبرها أننا لما أطللنا عليها مُغِيرين، وأطَفْنا بها دائرين، ولكُئُوس الحرب مُديرين؛ تَغَلَّبت الأنجادُ والأبطال علىٰ الزَّحف، وأعجلَ ٱرتياحُ النصر عن ٱنتظام عِقْد الصَّف؛ وٱنقَضُّوا عليها، ٱنقضاضَ البُزاة علىٰ طرائِدها، وأسرعُوا إليها، إسراعَ العِطاش إلىٰ مَوارِدِها؛

ورُفِعت الألويةُ خافقةً كذوائب الضِّرام، طالعةً برسائل الحَمام، مُشيرةً بالعَذَبات إشارةً لم يطمئنوا إليها بالسَّلام؛ وجاءهم الموتُ من كلِّ مكان، وأُمْطِرت الشُّهُب من كل سِنَان؛ فرأَوْا مَثْواهم الحَبِيب، ومحَلَّهم الخَصِيب؛ وقد ركَضتْ فيه خيولُ الغِيَر، وآعترضَتْ فيه سُيُولُ العِبَر، وجُرِّدت فيه نُصُول القَدَر؛ والنارُ قد لَعِبتْ فيه مُجِـدّه، وآحمرَّت فيـه خدودُها مخدّه؛ وأقواتَهم المُدَّخَره، وأموالَهم المثمَّره؛ نَفَلا مُباحا، وزَبَدا مُطاحا؛ ومَغْنَما مُشَاعا، ونَهْبا مُضَاعا؛ قدمُلِئت منه الرِّحال وأخصبت، وآتَّسعَتْ به الأيدى وضاقَتْ به الأرض بما رَحُبَتْ.

الأســـلوب الثـانى

(أن تُفْتتح المكاتبــةُ بلفظ الإصـــدار)

مثل: أصدَرْنا هذه المكاتبة، أو أُصْدِرت، أو صدرت؛ ويؤتىٰ علىٰ المقصود علىٰ ما تقدّم.

وهذه نسـخة كتابٍ من هذا الأسلوب كتب به القاضى الفاضلُ، عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ أخيه سيفِ الإسلام سلطانِ اليمن، يستقْدِمه إليه معاوِناً له علىٰ قتال الفَرَنْج خذَلَهم الله! ويبَشِّره بفتح كَوْكب، وصَفَد، والكَرَك فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وهو:

«أصدرنا هذه المكاتبة إلىٰ المجلس، ومما تجدّد بحضْرتنا فتُوحُ كَوْكب: وهى كرسىُّ الاستبارِيَّة ودارُ كُفْرهم، ومستقَرُّ صاحبِ أمرهم، وموضعُ سِـلاحِهم وذُخْرهم؛ وكان بمجمع الطُّرُق قاعدا، ولمُلْتقىٰ السُّبُل راصـدا؛ فتعلَّقتْ بفتحه بلادُ الفتح وآستوطَنَتْ، وسُلِكت الطُّرُقُ فيها وأمِنَت، وعُمِرت بلادُها وسكَنَتْ؛ ولم يبق فى هذا الجانب إلا صُور، ولولا أن البحر يُنجِدها، والمَراكب تَرِدها؛ لكان قِيادُها

قد أمكن، وجِمَـاحُها قد أذْعَن ؛ وما هم بحمـد الله فى حِصْن يَحْمِيهم ؛ بل فى سِجْن يَحْوِيهم؛ بلْ هم أُسارىٰ وإن كانُوا طُلَقاء، وأمواتٌ وإن كانوا أحْياء؛ قال الله عز وجل : ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ ولكُلّ آمرئ أجلٌ لابُدّ أن يَصْدُقه غائبُه، وأملٌ لابدّ أن يَكْذِبه خائبـه ـ وكان نزولُنا علىٰ كَوْكَبٍ بعد أن فُتِحت صَفَدُ بلدُ الديوية(١) ومعقِلُهم، ومشتَغَلُهم وعملُهم، ومَحَلُّهم الأحصَنُ ومنزِلُهم؛ وبعد أن فتحنا الكَرَكَ وحصونَه ؛ والمجلسُ السيفىُّ أسماه الله أعلمُ بمـا كان علىٰ الإسلام من مئُونتِه المُثْقِله، وقضيَّته المُشْكِله، وعلَّتِه المُعْضِله ؛ وأن الفرَنْج ـ لعنهم الله ـ كانوا يَقْعُدون منـه مَقَاعِدَ للسَّمْع ، ويتبوّءُون منه مواضِعَ للنَّفْع ؛ ويحولُون بين قات ورا كبهـا ، فيذَلِّلُون الأرضَ بمـا كان منه ثِقْلا علىٰ مَنا كِبها ؛ والآنَ ماأْمنُ بلادِ الهَرَمَيْن ، بأشدَّ من أمْنِ بلاد الحَرَمَيْن؛ فكلُّها كان مشترِكا فى نُصْرة المسلمين بهذه القلعةِ التى كانت تُرامِى ولا تُرام ، وتُسامِى ولا تُسَام؛ وطالَمَـا آستفْرغْنا عليها بيوتَ الأموال، وأنفقْنا فيها أعمـارَ الرجال، وقَرَعْنا الحديدَ بالحديد إلىٰ أن ضَجَّت النِّصالُ من النِّصال؛ والله المشكورُ علىٰ ما آنطوىٰ من كلمة الكُفْر وآنتشَرَ من كلمة الإسْلام . وإنَّ بلاد الشام اليومَ لاتَسْـمَع فيها لَغْوا ولا تأثِيا إلا قيلًا سَـلامًا سَلامًا . وكان نزولُنا علىٰ كوكب والشتاءُ فى كَوْكَبه، وقد طلع يُمْن الأنواء فى مَوْكِبه ؛ والثلوجُ تَنْشُر علىٰ البلاد مُلاءَها الفَضِيض، وتكْسُو الجبالَ عمائِمَها البِيض ؛ والأوديةُ قد عَجَّتْ بمائها، وفاضَتْ عند آمتلائِها ؛ وشمَخَتْ أُنُوفُها سُيُولا ، نخرقتِ الأرضَ وبلغَتِ الجبالَ طُولا ؛ والأوحالُ قد آعتقَلتِ الطُّرُقات، ومشىٰ المُطلَقُ فيها مِشْيةَ الأسيرِ فى الحَلَقَات؛ فتجشَّمْنا العَناء نحن ورجالُ العساكر، وكاثَرْنا العدوَّ والزمانَ وقد يُحْرِزُ الحظَّ المكاثِر؛ وعلِم اللهُ النيـةَ فأنجدَنا بفضلها، وضميرَ الأمانة فأعانَ علىٰ حَمْلها؛ ونزلنامنْ رُءُوس الجبال بمنازِلَ كان

(١) فى "الروضتين" ج ٢ ص ١٣٦ هكذا : بلد الديوية المصونة ، وفتحنا الكرك وحصونه الخ .

الاستقرارُ عليها أصعبَ من نِقَلها، والوقوفُ بساحتها أهونَ من نُقَلِها؛ ﴿وأمّا بنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

والحمد لله الذى ألْهَمنا بنِعْمتِه الحديث، ونصرَ بسيف الإسلام الذى هو سيفُه وسيفِ الاسلام الذى هو أخُونا الطيبَ على الخَبيث ؛ فمَدْحُ السيفِ ينقسم على حدّيه، ومدْحُ الكريم يتعدّى إلى يدَيْه؛ والآنَ فالمجلسُ ـ أسماه الله ـ يعْلَمَ أن الفرَنْج لايَسْلُون عما فتَحْنا، ولا يصْبِرون على ما جرَحْنا؛ فإنهم ـ خذلهم الله ـ أممٌ لاتُحصى، وجيوشٌ لاتُستقْصى؛ ووراءهم من ملوكِ البحر مَنْ يأخُذُ كلَّ سفينة غَصْبا، ويطمَعُ فى كل مدينة كَسْبا؛ ويدُ الله فوقَ أيديهم، واللهُ محيطٌ بأقربِيهم وأبعديهم؛ و﴿سيجْعَلُ اللهُ بعد عُسْرٍ يُسْرا﴾ ، ﴿لاتَدْرِى لعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بعدَ ذلك أمْرا﴾ .

وما هم إلا كلابٌ قد تعاوَتْ ، وشياطينُ قد تغاوَتْ ؛ وإن لم يُقْذَفُوا من كلِّ جانب دُحُورا، ويُتْبَعوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحورا، آستأسَدُوا وآستكلَبُوا، وتألَّبُوا وجلَّبُوا وأجلَبُوا ، وحاربُوا ، وحزَّبوا ؛ وكانُوا لباطِلهم الداحض ، أنصَرَ منّا لحقِّنا الناهض؛ وفى ضلالِهم الفاضح، أبصرَ منا لهدانا الواضح . ولله درُّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ ينصُرُ الكَرَمَ آبْنُها، * وآبنُ اللئيمةِ للِّئـامِ نَصُور !

فالبِدَارَ إلى النَّجْدة البِدَار! والمُسارعةَ إلى الجنة فإنها لاتُنالُ إلا بإيقاد نارِ الحرب على أهل النَّار؛ والهِمَّةَ الهمةَ! فإن البحار لاتُلْقى إلا بالبِحار، والملُوكَ الكِبار لايقِفُ فى وجوهها إلا الملوكُ الكِبار :

وما هِىَ إلا نَهْضَةٌ تُورِثُ العُلَا * لِيَوْمِكَ ماحَنَّتْ رَوَازِمُ نِيبُ !

ونحنُ فى هذه السنة ــ إن شاء الله تعالى ــ نَنْزِل على أنطاكِيَة ، وينزل ولدُنا الملك المظفَّر ــ أظفره الله ــ على طَرابُلُس؛ ويستقرُّ الركاب العادلىّ ــ أعلاه الله ــ

بمصر ؛ فإنها مذكورةٌ عند العدوّ ـ خذله الله ـ بأنها تُطْرَق ، وأن الطلب على الشام ومصر تفرّق ؛ ولا غنَىٰ عن أن يكُون المجلس السيفيُّ ـ أسماه الله ـ بحرًا فى بلاد الساحل يزْخَر سِلاحا ، ويجرِّدُ سيفا يكون علىٰ مافتحْناه قُفْلا ولما لم يُفْتَح بعدُ مِفْتاحا ؛ فإنه ليس لأحدٍ ماللأخ من سُمْعةٍ لهـا فى كل مَسْمع سَمْعه ، وفى كل رُوع رَوْعه ؛ وفى كل مَحْضَر محْضَر ، وفى كل مسجد مِنْبر ، وفى كل مَشْهدٍ مَخْبَر ؛ فمـا يُدْعىٰ العظيمُ إلا للعظيم و[لا يُرْجىٰ](١) لموقف الصبر الكرِيم إلا الكرِيم [هذا](١) والأقدارُ ماضيه ، وبمشيئةِ الله جاريه ؛ فإن يشإ اللهُ ينصر علىٰ العدوّ المضعَّف ، بالعدد الأضعف ؛ ويُوصِّلْ إلىٰ الجوهر الأعلىٰ بالعرض الأدنىٰ ؛ فإنا لا نرتابُ بأن الله مافتح علينا هذه الفتوحَ ليُغْلِقَها ، ولا جَمَع علينا هـذه الأمَةَ ليفرِّقَها ؛ وأن العـدوّ إن خرج من داره بَطَرا ، ودخل إلىٰ دارنا كان فيهـا جَزَرا ؛ وما بقيَ إن شاء الله إلا أموالٌ تُساق إلىٰ ناهبها ، ورقابٌ تقادُ إلىٰ ضارِبها ، وأسلحةٌ تحَمَّلُ إلىٰ كاسبها ؛ وإنمـا نُؤْثِر أن لاتنطوىَ صحائفُ الحمد خاليةً من اسمه ، ومواقفُ الرشْد خاويةً من عَزْمه ؛ ونؤثر أن يُساهِمَ آلَ أيُّوبَ فى ميراثهم منه مَوَاقعَ الصبر ، ومطالع النصر ؛ فوالله إنا علىٰ أن نُعْطيه عطايا الآخرةِ الفاخره ، أشدُّ منَّا حِرْصا علىٰ أن نُعطِيهَ عطايَا الدنيا القاصره ؛ وإنا لايسُرُّنا أن ينقضىَ عمرُه فى قتالِ غيرالكافِر ، ونِزالِ غيرالكُفْء المناظِر ؛ ولا شكَّ أن سيْفَه لو اتصل بلسانٍ ناطقٍ وفَمْ ، لقال مادُمْتُ هُناكَ فلسْتُ ثَمّ ؛ وما هو محمول علىٰ خُطَّة يَخافُها ، ولا متكلِّفٌ قضيةً بحكمنا يَعافُها ؛ والذى بيده لا نَستكْثره ، بل نستقْصره عن حقه ونستَصْغِره ؛ وما ناوَلْناه لفتح أرضه السِّلاح ، ولاأعَرْناه لِملْك مركَزِه النَّجاح ؛ إلا علىٰ سخاءٍ من النفْس به وبأمثاله ، علىٰ علمٍ منَّا أنه لا يقْعُد عنَّا إذا قامتْ [الحرب] بنفسه وماله ؛ فلا نكُنْ به ظَنًّا أحسنَ منه فِعْلا ، ولا نَرْضىٰ وقد جعلنا الله أهلًا أن لانراه

(١) الزيادة من الروضتين ج ٢ ص ١٣٧ .

لنَصْرِنا أهلا ؛ وليستَشِرْ أهلَ الرَّشاد فإنهم [لايألونه](١) حقًّا وآستِنْهاضا ، ولْيَعْصِ أهلَ الغَوَاية فانهم إنما يتغالون به لمصالحهم أغراضا(٢) ؛ ومن بيته يَظْعَن ، وإلىٰ بيته يَقْفُل ؛ وهو يُجيبنا جوابَ مثله لمثلنا ، ويَنْوِى فى هذه الزيارة جمعَ شَمْل الإسلام قبلَ نِيَّة جمع شملنا ؛ ولا تَقْعُد به فى الله نهضةُ قائم ، ولا تخذُلُه عزمةُ عازم ، ولا يستفت فيها فوت طالب ولا تأخُذُه فى الله لومةُ لائم ؛ فإنما هى سَفْرةٌ قاصده ، وزَجْرَةٌ واحده ؛ فاذا هو قد بَيَّضَ الصحيفةَ والوجهَ والذِّكْر والسُّمْعه ، ودانَ اللهَ أحسنَ دَيْن فلا حرجَ عليه إن فاء إلىٰ أرضه بالرَّجْعه ؛ ولْيتدَبَّر ما كتبناه ، وليتفَهَّم ما أردْناه ؛ وليُقدِّم الآسِتخاره ، فإنها سراجُ الآستناره [وليغضب لله ورسوله ولدينه ولأخيه فانها مكان الآستغضاب والآستشارة](٣) ولْيَحْضُرْ حتّٰى يشاهد أولادًا لأَخيه يستشْعِرُون لفُرْقته غَمًّا ، وقد عاشُوا ما عاشُوا لايعرِفُون أن لهم مع عمِّهم عَمًّا ؛ والله سبحانه يلهمه توفيقا! ويسلُكُ به إليه طرِيقا ؛ ويُنْجِدُنا به سيفًا لرقبة الكفر مَرْقًا ودمِه مُرِيقا ؛ ويجعلُه فى مِضْمار الطاعات سابقًا لا مسبُوقا .

الأسلوب الثالث

(أن تُفتتح المكاتبةُ بلفظ «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس»)

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب بالإخبار بفتح أَيْلة التى تحت العقَبة فى ممرّ حُجَّاج مصر . وهى :

هذه المكاتبة إلىٰ المجلس الفلانىّ أعلىٰ الله سلطانَه ، وعَمَر بالنجاح آمالَهُ وبالسعادة أوطانَه ؛ ولا زالَتْ يدُ النصْر تُصَرِّف يومَ اللِّقاء عِنانَه ، ويدُ لطفِ الله تُفِيض علىٰ

---

(١) فى الأصل فانهم يألوه والصواب ما أثبتناه فى الصلب .

(٢) كذا فى الأصل والمراد أنهم يجعلونه غرضا لنوال مصالحهم الذاتية .

(٣) الزيادة مما سيأتى له فى المهيع الثالث من هذا الجزء .

الخلق يومَ العلياء عَنانه، وتمكَّن من هامِ الأعداءِ ونُحورِهم سيفَه وسِنانَه؛ (نُشْعِره) أنه لم تزلْ عوائدُ الله سبحانَه عندنا متكفِّلةً مايُوجِب أنْ يُبْدَأ الحمد ويُعاد، مقرِّبةً لنا من الآمال كلَّ ما كان رَهينَ نَأْيٍ وبِعاد، موافقةً لنا بالتوفيق فكأننا وإيَّاه علىٰ مِيعاد، مُعينَةً لنا علىٰ ما يعتدُّه الغاشُّ معاش وعيدٍ مُعَاد . وقد كان ماعَلِم من غزوتنا إلىٰ أَيْلَةَ التى آتخذها العدُوّ مَعْقِلا ، وتديَّرها مَنْزِلا ، وعَدَّها مَوْئلا ؛ وغاضَ بها رونَقُ الجمله ، وفاضَ بها أهلُ القبله ؛ وصارتْ علىٰ مَدَارِج الأنفاس ، وعلىٰ مراصد الآفْتِراص والآفْتِراس ، وخصَّتِ الحرمين بأعظم قادح، وآشتدّ عن حادثتها من لُطْف الله أعظمُ فاتح؛ ولما توجَّهنا إليها، ونزلنا عليها ؛ شاهَدْنا قلعةً يَحْتاجُ راميها إلىٰ الدَّهْرِ المَديد، والأملِ البعيد، والزاد العَتِيد، والبَأْسِ الشديد؛ تَنْبُو بعِطْفٍ جامح عن الخِطْبه، وتُعْرِض بذِكْرٍ مانع عن الضربه؛ وتَعْطِف بأنفٍ علىٰ السَّحاب شامخ، وتطلُعُ فى الصَّباح بوجهٍ شادخ؛ كأنما بَيْنها وبين الأيَّامِ ذِمام، وكأنَّ نار الحوادث إذا بلغَتْ ماءَها بردٌ وسلام؛ فأَطَفْنا بها متبَصِّرين، ونزلنا من ناحيةِ البَرِّ بها مفكِّرين؛ وبَيْنَا نحنُ نأمر بالحرب أن يُشَبَّ أوارُها ، وبالخيل أن تُسير أسرارُها ؛ وبنار اللِّقاء أن يستطير شَرارُها، وبقَناطيرِ الموت من القِسِيّ أن تُعقَّد أوتارُها ؛ وبالمجانيق أن تُعْقَد حناياها وتُحَلَّ أزرارُها، وبالكواكب أن تُذِيقهم طعمَ الصَّغار كبارُها ؛ إذ نادىٰ منادٍ من أعلىٰ قِمَّتها، ورأس قُلَّتها ، مُعْلِنا بالأمان ، ناسخًا لآية الكفر بآية الإيمان ؛ فأعارَتْه الأسماعُ إنصاتها ، وآستحقت القلوب حَصاتَها ؛ وعمدت إليه بنت بحر، عادتْ بابَ نصر، وساعة بدهر ؛ وبَشَّرنى بغلام علىٰ كِبَر، وبظَفَر فى سَفَر علىٰ قَدَر ؛ فأعطىٰ فَرَنْجَها ما طلبوا، وأتى اللُّطْفُ للمسلمين بما لم يحتَسِبوا ؛ وفى الحال رُفِعتْ عليها ألويةُ الإسلام ونُشِرت، وأوَتْ إليها فئةُ الحق وحُشِرتْ، وتظاهرت عليها أولياءُ الله وظهرَتْ ؛ وقيلَ الحمدُ لله ربِّ العالمين .

الأسلوب الرابع

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : « كتابنا » وباقى الأمر على نحو ما تقدّم)

وهذه نسخة كتابٍ من هذا الأُسْلوب كتب به القاضى الفاضل عن الملك الناصر «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلى بعض الأمراء بالشام عند وفاة السلطان نور الدين محمود . وهى :

كتابُنا هذا إلى الأمير، معزِّين بالرُّزْء الذى كَمُلَتْ أقسامه وتمَّتْ ، ورمتْ أحداثُه القلوبَ فأصْمَتْ وطرقتْ أحاديثُه الأسماعَ فأصمَّتْ ، وأبى أن تعفو كُلُومُه ، وكاد لأجله الأفقُ تتكسف بُدُورُه وتنكدر نُجُومه ، وثلم جانبَ الدِّين لِفَقْد مَنْ لولاه لَدَرَسَت أعلامُه ولم تُدْرَسْ علومُه، وفَجَأ فاستولى على كلِّ قلبٍ وَجِيبُه وعلى كلِّ خاطرٍ وُجُومه؛ بانتقال المولى «نورالدين» إلى سُكْنَى دارالسلام، وقُدومِه على ما أعدّه الله من جزاء ذَبِّه عن الإسلام؛ وبكى أهله على فَقْد عزائمه التى بها حُفِظتْ وحُرِسَتْ، وشكَت الممالكُ وحشةَ بُعْدِه وإن ٱبتهجَتِ الملائكةُ بقُرْبه وأَنِسَتْ ؛ فلله هو! من مُصَابٍ أغرى العيونَ بفيضها ، والنفوسَ بفَيْظِها؛ ونقَلَ الأولياءَ من ظل المَسَرَّة ونعيمها إلى هَجِير المَسَاءة وقَيْظها ؛ وأوجبَ تناجِيَ الكُفَّار بالنَّجاة من تلك السَّطْوة التى لم تزل تزيدُها غَمًّا وتردُّها بغيظها .

ومهنئين بما أَسَا الكَلْمَ وداواه، وحَوَى الحقَّ إلى الجانب الأمْنَع وآواه؛ من جلوس ولده «الملك الصالح» ذى التصويب والتسديد مشمولًا منَّا بالعُرْف العميم، والطَّوْل الجسيم؛ جاريًا على سُنَنه المعهوده، وعادَتِه المحموده؛ فى رفع صالح أدعيته عن صفاء سريرتِه ، وخُلُوص عقيدتِه ؛ مستمرًّا على جميل تحيته ، فى إمدادنا ببركته ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : والمصطلح الجارى عليـه الحالُ فى المكاتبات الصادرةِ عن ملوك الديار المصرية فى زماننا مأخوذةٌ من الأساليب الثلاثة : الأول والثانى والثالث المقدّم ذكرها . على أن فى الدولة الأيوبيــة أساليبَ أُخْرى لا يسع ٱستيعابها ، ويغتنَى عنهـا بمـا تقدّم ذكره .

الطرف الحادى عشر

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب)

وقد ٱنفردوا عن كُتَّاب المشْرِق وكُتَّاب الديار المصرية بأمور :

منها أن المخاطبة تقَعَ للمكتوب إليــه بميم الجمع مع الانفراد ، كما تقع الكتابة عن المكتوب عنه بنون الجمع مع الانفراد .

ومنها أنهم يلتزمون الدعاء بمعنَى الكتابة عند قولهم : كتبنا ، بأن يقال : «كتبنا إليكم كتب الله لكم كذا» .

ومنها أنهم يترضَّوْن عن الخليفة القائمين بدعوته فى كتبهم .

ومنها أنهم يذكُرون ٱسمَ المكتوب إليه فى أثناء الكتاب ، وباقى مكاتباتهم على نحوٍ من مكاتبات أهل الشرق والديار المصرية ؛ وكُتُبهم تُخْتَم بالسلام غالبا ، وربما خُتِمت بالدعاء ونحوه .

ومنها أن الخطاب يقع عنــدهم بلفظ الرياسة مثل أن يقال : رِيَاستكم الكريمة ونحو ذلك . ولهـا حالتان :

الحالة الأولى

(ما كان الأمر عليه فى الزمن المتقدّم، وهو على أربعة أساليب)

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتتحَ المكاتبةُ بلفظ "من فلان إلى فلان" ويُدْعى للمكتوب إليه، ثم يقع التخلّص إلى المقصود بأما بعد، ويُؤْتى عليه إلى آخره، ويُختم بالسلام)

كما كتب أبو بكر بنُ هشام عن أبى محمدِ بنِ هودٍ، فى قيامه بالدعوة العباسية ببلاد المغرب إلى أهل بلدٍ من رعيته .

"من فلان إلى أهل فلانة، أدام الله كرامتَهم وآثرهم بتقواه، وعرّفهم عوارفَ نُعْماه، وكنَفَهم فى حَرَمه المنيع وحِماه، وجعلهم ممن وُفِّق إلى رضاه، وحُفَّ بخيْرِ ماقدَّره وقضاه، بسلام

أما بعدَ حمد الله على مُتتابِع واسع فَضْله، هازِمِ الباطلِ وأهلِه، ومورِّطِ الجاهل فى مَهْواة جَهْله؛ المالئ بدعوة الحق ما اتَّسع من حَزْن المعمورِ وسَهْله، والصلاةِ على سيدنا محمد نبيِّه المصطفى خاتَمِ رُسُله، المؤيدِ بالقرءان الذى عَجَزت الجنُّ والإنسُ أن يأْتُوا بمثْله؛ وعلى آله وصحبه الجارِين على قويم سُنَّته وواضحِ سُبُله؛ والرضَا عن الإمام العباسىّ أمير المؤمنين، الذى لا إمامَ سواه للسلمين؛ المفرَّعِ من مَحْتِدِه الكريم وأصله، المُدافِع عن حرم أمره بسَديد نَظَره وحَديد نَصْله؛ والدعاءِ لمقامه العلىّ، ومَكانِه السنىّ؛ بالسَّعْد المصاحب بمصاحبَةِ ظِلِّه، والعَضُدِ الفاتح مالم يُفْتَحْ لأحد من قبله، فإنا كتبناه لكم ـ كتبكم الله ممن انتَفَع بقوله وعمله، وتوجَّه إلى رضاه بمبسوط أمله، وجَرَتْ له الأقدار بأفضل معتادٍ وأجمله ـ من فلانة، والتوكلُ على الله سبحانه نتائجُ تُبرِزُها الأيَّام، ويستنجدُها السَّعْد والحُسام، ويستدنيها التفويضُ

إلىٰ الله سبحانه والاستسلام ؛ والدعوةُ العليةُ ـ أدام الله أيّامها ، وأسعد أعلامَهَا ؛ ـ الآثار التى تجلت بهـا المَذَاهب ، والأنوار التى وَضَحَت بهـا المَسارِى والمَسارِب ، وأضاءت بهـا المشارق والمغارب . والحمـد لله حمدا كثيرا ـ المكانُ الذى تتجدّدُ حُرْمتُه ، وتتأكّدُ ذِمّتُهُ ، ولا تُوضَع عن يَدِ الاعتناء والاهتمام أزِمّتُهُ ، وإذا أُنْهِضتِ العزائمُ لمصالح العباد تقدّمتْ كلَّ العَزَمات عَزْمته ؛ لأنه المكانُ الذى صرف وُجوهَ الأعداء ، وصابر مكابدةَ الإضرار والاعْتـداء ؛ واحتمَلَ مكروهَ الدواء ، فى مُعالجَةِ الشِّـفاء ومعاجَلَة حَسْم الداء ؛ فكَرُمت آثارُه ، وتعيّن تخصيصُه بالمَزِيد وإيثارُه ؛ وطابتْ أخبارُه ، وطالت فى مَضَايِق مَجَال الرجال أسِنَّتُهُ وشِفَاره ، فنحن نُوجب تكرِيمَه ، ونُؤْثر تقديمه ؛ ونُتْبِـع حديثَه فى الاعتناء قديمَه ، والله يتولّى تكميل قصدِنا الجميلِ فيه وتتميمَه ! .

وقد بَلَغ ـ بلّغكم الله أملكم ، وأتم نعمته قِبَلَكم ـ تحرُّكُ ذلكم الخائنُ للإضرار بالبلاد ، وإيثارُه دَواعِى الشر والفَسَاد ؛ ومتىٰ احتِيج إلىٰ إعلامِ جهة من الجهات بأحواله ، وما يتصوّره بفاسد خَيَاله ؛ وتَغلُّب كِبْره المردِى واختياله ، وما يصدُر عنه من قبيح آثاره وأعماله ؛ فإنمـا يُستَعْلم تحقيقُها منكم ، ويُتَعرَّف تصديقها من لدنكم ؛ بِصِدْق جِوَارِكم ، ودُنُوّ داركم ، وتداخُل آثارِه مع آثارِكم ؛ فأنتم أقربُ اطّلاعا علىٰ خُبْث سِرِّه ، وسُوء مَكْره ، وما يُضْمِر للسلمين من إذايته وضُرّه ؛ فمتىٰ انصرفَتْ وجوهُ المسلمين إلىٰ جهادهم ، واشتغلُوا بتأمين بلادهم ؛ انتهز الفُرصةَ فى فسادٍ يُحْدِثه ، وعَقْد ينْكُثه ، واستعجالِ ما يعجِّل عليه ولا يلبِّثه ؛ ونحن نُعْرِض عنه إعراضَ من يرجُو مَتَابه ، ويرتقب رُجوعَه إلىٰ الحق وإيَابه ؛ وهو متخَبِّط فى أهوائه ، مستمرٌّ علىٰ غُلَوائه ، مُصِرّ علىٰ إضراره واعتدائه ؛ لا يكُفُّ الكَفُّ عنه من استطالته ، ولا يُرِيه الاستبصارُ وجْهةَ جهالته ؛ فوجب علينا بحكم النظَر للبلاد التى لَحِقَها عُدْوانه ، وأضرّ بها مَكانُه ،

وتكرّر عليها آمتحانهُ، أن نُعاجل حَسْم عِلَله ، ونَسُــدّ مَوَاقعَ خَلَله ، ونردّ عليــه كلَّ مضَرّةٍ لاحقةٍ من قِبَله؛ حتّى يَستريح الناسُ إلىٰ أمن مبسوط، وكَنَفٍ مضبوط ، وحَوْزٍ بالكِفاية والوِقاية مَحُوط ؛ وقد كُنَّا عند الفرَاغ من مصالح البلاد الغَرْبيــه ، وآنتهاء الفَتْح فيها إلىٰ مالم يَدُرْ بالخاطر ولم يُحْسَب بالنِّيه ؛ نظَرْنا فى إعداد جموعٍ من أجناد الغَرْب ، وتخيّرنا منهم كلّ من دَرِب بالطَّعْن والضَّرْب ، وسَعِد لكم (؟) من جَمَاهير الأعْراب وجَزُولة وسائر القبائل النازلين بالبِلاد ، المتأهِّبين لمـا يُطْلَبون به من الغزو والجهاد ؛ ورسَمْنا لهم أن يلحَقُوا بنا عند الآستدعاء ، علىٰ ماجدّدْنا لهم فى الآنتخـاب والآنتقاء ؛ لتأخُذَ الجموعُ كلُّها من مَحْوِ أثَرِ هذا الخائن بنصيب ، وتَضْرب فيه ، وفى كلِّ عملٍ يَعفّيه ، بسهم مُصيب ؛ لكن لما تعجّل حركتَه التى تعجّل بها الحَيْن ، وساقه إليها القدَرُ الذى أعمىٰ البصيرةَ والعَيْن ؛ رأينا أن نُنْفِذ إليه قصْدَنا ، وأن نعاجِلَه بما حضر عندنا ؛ متوافرةَ الأعداد ، غنيَّةً عن الآستمداد ، غير مفتقرةٍ إلىٰ الآزدياد ؛ ومع هذا فقد أمرْنا أهلَ الجهات كلِّها باللَّحاق بنا ، وأن ينْهَض جميعُ أعدادهم من الخيل والبَطَل والرُّماة علىٰ سبيلنا ومذهبنا ؛ لتكونَ الأيْدى فى هذه المصلحة العامّة واحده ، والعقائدُ فى دفع هذا الضرر عن الكافة متعاقِده ، حتّى يذهبَ أثَرُ هذه النَّكْبة وعينُها ، ويزُولَ عن بَهْجة الإحقاق والآتّفاق شَيْنُها ؛ وإذَا وجب علىٰ أهل هذه الجهات أن يَنْفِروا فى هذه الدَّعاة خفَافا وثقالا ، ويُبادروا رُكْبانا ورِجَالا ؛ كانَ الوجوبُ فى حقّكم وجوبين ، والفرضُ عليكم فرضَيْن ؛ لمـا يَخُصُّكم من هذه المصلحة التى أنتم أَوْلىٰ من يجتلى صُوَرها ، ويجتَنِى ثمَرها ، ويُجِـدّ فى حالِهِ وآستقباله إثرها ؛ فليكُنِ آستعدادُكم بحسَبِ ذلكم ، وآستوعِبُوا جميع أنجادكم ، من خَيْلكم ورُماتكم ورجالكم ؛ وكونُوا واقفين على قَدَم التأهُّب إلىٰ أن يكون الآجتياز من هُنالكم ؛ إن شاء الله تعالىٰ والسلام" .

الأســــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ «أما بعد» وهو علىٰ ضربين)

الضــــرب الأوّل

(أن تُعقَّب البعديةُ بالحمد لله، ويؤتىٰ علىٰ الخطبة إلىٰ آخرها، ثم يتخلَّص إلىٰ المقصود ويختم بالسلام علىٰ نحو ما تقدّم)

كما كتب أبو عبد الله بن الجيان عن أبي عبـد الله بن هُود أيضا إلىٰ أكابر بَلَده بالرِّفْق بالرعية عند وُرود كتابهم عليه بتحصين البلد، وبلوغه جورُ المستخْدَمين بهـا علىٰ الرعية، وهو :

أما بعدَ حمد الله تعالىٰ مُعْلِي مَنَارِ الحقّ ورافعه، ومُولى مُتوالِي الإنعام ومُتَابِعه ؛ والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد عبدِه ورسوله مشفَّع الحَشْر وشافِعه، المبعوثِ ببدائع الحِكَم وجوامِعِه ؛ وعلىٰ آله وصحبه المبادِرِين إلىٰ مَقاصِــده العلية ومَنَازِعه ، والذابِّين عن حَوْزة الإســلام ، بمواضى الآعتزام، وقواطِعِه ؛ والرضا عن الخليفة الإمام العباسىّ أمير المؤمنين ذى المجد الذى لا يُنَال سموُّ مَطَالعه .

فإنا كتبنا إليكم ـ كتب الله لكم عِزَّةً قِدْحُها بالثبوت فائز، وسعادةً قِسْطها للنماء حائز ـ من فلانة، وكلمةُ الحق منصورةُ اللواء ، منشورةُ الأضواء، والتوكُّلُ علىٰ الله فى الإعادة والإبداء، والتسليمُ إليه مناطُ أمرنا فى الآنتهاء والآبتداء، وحمدُ الله تعالىٰ وشكرُه وَصَّلَنا إلىٰ نَيْل مزيد النَّعماء والآلاء، ومكانتُكم لدَيْنا مكانةُ السَّنِىّ المَنَاصب، المنتمِى إلىٰ كِرام المتَمَيات والمَنَاسب، المتحلِّ فى الغَناء والآكتفاء، والخلوص والصَّفاء، بأكرم السَّجِيَّات والمَنَاقب ؛ المعلومِ مالديه من المصالحة السالكة بأكرم السَّجيَّات فى المَنَاحى الحِسان علىٰ المَهْيَع الأوضح والسَّنَن اللَّاحب .

وقد وقَفْنا علىٰ كتابكم مُعْلِماً بخبر فلانة وما رأيتُموه من المَصْلحة فى تحصينها ، والاجتهادِ فى أسبابِ تأمينها ؛ ونحن نعلم أنكم تُريدون الإصلاح ، وتتوخَّوْن ماتتوسَّمُون فيه النَّجاح ؛ لكن أهمَّ الأمور عندنا ، وأولىٰ مايُوافق غرضنا وقصْدَنا ، الرفقُ بالرعيَّه ، وحملُها علىٰ قوانين الإحسان المَرْعيَّه ـ وعلىٰ أثر وُصُول كتابكم وصَلَنا كتابُ [أهل] فلانة المذكورةِ يشكُون ضَرَرَ الخَدَمة المتصرِّفين فيهم ، ويتظلَّمُون من متحيِّفيهم ومتعَسِّفيهم ؛ وفى هذا مالا يخفىٰ عليكم ، ولاتَرْضَوْن به لو انتهىٰ إليكم ؛ فإنه إذا كان الناظرُ فى خدمةٍ ممن لايُحْسِن سياسةَ الأمور ، ولا يعْلَم طريقةَ الرِّفْق الجارِيَةَ بوَفْق الخاصة والجُمْهور ؛ أعاد التسكينَ تنفيرا ، والتيسيرَ تعسيرا ؛ وتعلمون أنا لا نُقدِّم علىٰ إيثار العدل فى عِباد الله المسلمين عملا ، ولا نبغى لهم باطنة بغير التخفيف عنهم والإحسانِ إليهم بَدَلا ؛ وأنتم أوْلىٰ مَنْ يُعتقَد فيه أنه يكمِّل هذا المَقْصَد ، ويَتحرَّىٰ فى مصالح الرَّعايا هذا السَّنَنَ الأرشَد ؛ وقد خاطبْنا أهلَ فلانة بما يُذْهب وَجَلَهم ، ويَبْسُط أملَهم ؛ وعرّفناهم بأنكم لوعلمتم مَنْ جار عليهم من الخَدَمة لأخذتم علىٰ يَدِه ، وجازيتُمُوه بسُوء معتَقَده ؛ وأشعرناهم بأنَّا قد استوْصَيْناكم بهم خَيْرا ، ونبَّهناكم علىٰ مايَدْفَع عنهم ضَيْماً ويَرْفَع ضَيْرا ؛ وأنتم ـ إن شاء الله ـ تستأنِفُون نظرا جميلا ، وتُؤخِّرون عنهم الخَدَمَةَ الذين لايسلُكُون من السياسة سبيلا ؛ وتُقَدّمون عليهم من تَحْسُن فيهم سيرتُه ، وتَكْرُم فى تمشيته الرِّفقَ علانيتُه وسريرتُه ، ومِثْلكم لا يؤكَّد عليه فى مذهبٍ تحسُن عواقبُه ، وغرضٍ يُوافقه القصدُ الاحتياطىُّ ويصاحِبُه ، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

الضـــــرب الثـانى

(أن تعقَّب البعديةُ بذكر المقصود من غير خُطْبة ، ثم يؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره علىٰ نحو ما تقـــدّم)

كما كتب أبو عبد الله محمد بن عبد الله القُضاعىّ ، المعروف بالأبار ، عن الأمير أبى جميل إلىٰ أهل ناحية بولايةِ والٍ عليهم وهى :

أما بعدُ ، فالكتاب ــ كتب الله لكم مِلْءَ الجوانبِ ، قَرارا ، وأرسَل عليكم سمـاءَ المواهِب ، مِدْرارا ؛ من فلانة ، وليس إلا الخيرُ الدائم ، واليُسْر المُلازِم ؛ وقد تَوالىٰ إعلامُكم بالغرض الجميل فيكم ، والآعتناءِ المتَّصِل بتمهيد نَوَاحيكم ؛ وأنتم اليوم بثغرٍ متحيِّف ، وجنابٍ متطرِّف ؛ يتضاعَفُ الآحتياط عليه ، ويَجب تيسيرُ المِيَر إليه ؛ فالنظر له مُعْمَل ، والتهمُّم به لا يُهْمَل ؛ وهذه ألسُنٌ قد مُلك قِيادُها ، وأُوثِر بوجوه القَرابة إمدادُهـا ، وفلان قد خاطب يستأذن فى القُدُوم علىٰ الباب الكريم ، ويؤكِّد ما عنـده فى الخِدْمة والتصـمِيم ؛ والخيراتُ بسبيل الآتصال ، والمَسرَّات واردةٌ مع البُكُور والآصال .

والحمد لله الجسيمِ فضلُه ، والعظيم نَيْـلُه ؛ فآحَمَـدُوا الله على ما يَسَّر لنـا ولكم ، وآستَوْزِعوه شكر ما خَوّلَنا وخوّلَكُم ؛ وآعلموا أنّا نرْعاكم ، كما رعىٰ أوّلُنا أُولاكم ؛ وقد عُيِّن لموضعكم كذا وكذا فأنفِـذُوا إلينا بعضَكم مُعْجَلا ، وآستشعروا إنمـاءَ الأُثْرة ، وآطِّرادَ النُّصْرة ، حالّا ومستَقْبَلا ، والحركةُ الكبرىٰ ــ يَمَّنها الله ــ قد شُرِع فى أسبابها ، وأُتِىَ ما يُؤْتِى بمشيئة الله الفتحَ القريبُ من بابها ؛ ولا غنًى بما يُدار فى ذلك عن فلان وقد خُوطب بالوصول ، ووُجِّه إليكم فلان واليـا عليكم ، وثاوِيًا لدَيْكم ؛ وهو ممن خُبِرَتْ كفايتُه ، وآرتضِيتْ لجبر أحوالكم سياستُه ، وشُكِر هنا فأُوثِرتم به هنالكم ؛ وقد فُوِّض

إليكم من نظر[(١)] لخاصّتكم وجُمْهوركم، وقلد بما يستقِلُّ أتمَّ الاستقلال من تدبير أموركم؛ وأُمْضِيَ معه من الأجناد طائفةٌ يحسنون الدفاع والذِّياد، ولا يفارقون الجِدّ والاجتهاد؛ ووراءَ هذا من كريم العناية وجميل النظر، مايقْضِى لكم بالفَلْج والظَّفَر، ويُديلكم بالأمانة الشاملة من الذُّعر والحذَر، إن شاء الله تعالىٰ والسلام.

الأســـلوب الثـالث

(أن تفتتح المكاتبةُ بلفظ «كتابُنا إليكم من موضع كذا، والأمرُ على كذا وكذا» ويؤتىٰ على المقْصَد إلىٰ آخره ويُخْتَم بالسلام)

وربما قيل: «هذا كتابنا إليكم» وربما قيل: «كتَبْنا إليكم» ونحو ذلك.

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة عن ابن هود فى البِشارة بفتح حصن، وهو:

كتابُنا إليكم ــ أطلع الله عليكم من البشائر أنْوَرها جَبِينا، وأوضَحَها صُبْحا مُبِينا ــ من فلانة فى يوم كذا.

ســلامٌ عليكم فإنى أحمدُ إليكم اللهَ الذى تكفَّل بنَصْر من ينْصُره، ونصلِّى على سـيدنا محمد الكريم مَحْتِدُه الزاكى عنصُرُه، ونُجَدّد مشفوعَ الصلوات، ونردّد مرفُوعَ الدعوات، للإمام الخليفــة «المستنصر بالله أمير المؤمنين» ذى المناقب التى لاعادّ يعدُّها، ولا حاصِر يحصُرُها.

والحمدُ لله الذى أنعم علينا بتقليد إمامته، التى لا تُعقَد معها إمامه، وأقامنا لإقامة دَعْوته، التى لاتجوز علىٰ غيرها إقامه؛ وجعَلنا نَرْمِى الغرضَ باسمه الأشرف فنُصيبه، ونستـوهِبُ فضلَ الله سبحانه فيتوفَّر قِبلَنا نَصيبُه؛ ونستنزِلُ بخلافته المباركةِ جوامعَ النصر، كما استنزل الفاروقُ بغُرَّة جَدّه هوامِعَ القَطْر؛ فتسيرُ أمامَ رايته السَّوْداء بالأثَرِ

(١) لعله "إليه النظر الخ".

المُبْيض ، وتُرْوِى هذه أُوامَ القلوبِ كما أَرْوىٰ ذلك أُوَامَ الأرض ؛ وما زِلْنا منذُ كان النزولُ على هذا الحصن نتعرَّف فيه من مخايل النُّجْح ، ودلائل الظَّفَر والفَتْح ؛ ما أعطانا فثَلج اليقينُ بأنا نَفْصِم عُرْوته ، ونَقْرَع ذِرْوته ، ولم يزل العزمُ يذلِّل شِمَاسه ، ويقَلِّل ناسَـه ؛ حتّى أذعنُوا لما عُرِّفْتُم به من النزول لوقتٍ معدود ، وأمدٍ محدود . ثم إنهم خامَرَهم طارقُ الوَجَل ، فعجَّلُوا أداء دَيْنِـه قبل حُلُول الأجل ؛ وأمكنَ اللهُ من هذا المَعْقِل الفَذِّ فى المَعَاقل ، وقتلَ الظانين لامتناعِهم والحسامُ إن شاء الله تعالىٰ فى يَدِ القاتل ؛ وقد صَعِدتْ راياتُنـا علىٰ السُّور ، وسَعِدت إدارتُنا بالعَزْم المنصور ؛ وشـيَّد اللهُ من هذا الفتح الجليل أقصىٰ الفُتُوح بعلوّ ، وأشجاها للعدوّ ، وأدلَّهـا علىٰ نُجْح عملٍ مستأنفٍ و بلوغ أملٍ مرجوّ .

والحمـد لله الذى ردّ حَقَّنا المغتصَب ، وكفانا فى وَجْهنا هذا التعبَ والنَّصَب ؛ وعرّفناكم بهذا الخبر الذى هو غِذاءٌ للرُّوح ، والمنبئ عن فَتْح الفُتُوح : لتشكُروا اللهَ عليه شكرا ، وتُوَفُّوه حقَّه إذاعةً له ونَشْرا ؛ وتُجَدِّدوا بحمدالله [علىٰ] ماأَوْلىٰ من خالص النِّعم ، ووافر القِسَم ؛ ما يَطِيب به المُعرَّس والمَقِيـل ، ويُستقْصَر به الأَمَدُ الطويل . وآكتبُوا من خطابنا هذا نُسخًا إلىٰ الجهات ليأخذ منهـا كلٌّ بحظه ، وينْعَم القريبُ والبعيدُ بجَلَالة معناه وجَزَالة لفظه ؛ أعاننا اللهُ وإيَّاكم علىٰ شـكر إحسانِه الجزيل ، ولا أخلىٰ من لطفه العميم ونظره الجميل ، بمنِّه والسلام .

الحالة الثانيـــة

(ما ٱلأمر مستقرّ عليه الآنَ ممـا كان عليه عَلَّامة متأخرى كُتّاب المغرب
أبو عبد الله محمد بن الخطيب وزيرُ ٱبن الأحمر : صاحب
حمراءِ غَرْناطة من الأنْدَلُس)

والأمر فيها علىٰ نحو ماتقدّم فى الحالة الأولىٰ : من التعبير عن المكتوب إليه بميم الجمع وإن كان واحدا، وٱلتزام الدعاء بمعنىٰ الكتابة عند قولهم كَتَبْنا إليكم ونحو ذلك. وعادتهم أن يُكتب كتابُ السـلطان فى طُومارٍ كامل ، فإن ٱستوعب الكلامُ جميع الطومار كُتِب علىٰ حاشيته ، ويكتبُ صاحبُ العـلامة علامةَ السلطان فى آخره ، ويُطوىٰ طيًّـا عريضا فى نحو ثلاث أصابع معترضــة ، ثم يُكْسَر ويطوىٰ نصفين ، ويكتبُ العُنْوان بالألقاب التى فى الصَّدْر ، ويُخْزَم بدَسْرة من الورق ، ثم يُخْتَم بخاتَم السلطان علىٰ شَمَع أحمر كما تقدّم بيانه .

وهى علىٰ ثلاثة أساليبَ :

الأســـلوبُ الأوّلُ

(أن تُفْتتح المكاتبةُ باللَّقَب اللائقِ بالمكتوب إليه، وهو علىٰ أضْرُب)

الضـــرب الأوّل

(أن يبتدَأَ بلفظ «المقام» وهو مختصٌّ بالكتابة إلىٰ الملوك)

والرسم فيه عندهم أن يقال : «المَقَام» ويُنْعت بما يليق به ، ثم يُقال : «محـلُّ أخينا، أو محلُّ ولدنا، أو محلُّ والدِنا السلطان» ويؤتىٰ بألقابه ثم يسمّى ، ثم يقال : « من فلان » ويُفْعل فيــه كذلك إلىٰ منتهىٰ نَسَبه، ويُدْعىٰ له بالبقاء وما يتبعه ،

ثم يقال : معظّم قدره أومعظّم مَقَامه، وما أشبه ذلك، ويذكر آسمُ المكتوب عنه؛ ثم يقال : أما بعدَ حمد الله ويُؤتى بالخطبة إلىٰ آخرها؛ ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم من موضع كذا، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره، ويختَمُ بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب أبُو عبد الله بنُ الخطيب المقدّم ذكره عن سلطانه آبن الأحمر المذكور أعلاه، إلىٰ السلطان أبى عِنانِ بنِ أبى الحسن المَرِينىّ صاحب فاس، عند موت الطاغية ملك قَشْتالة من إقليم أشْبيلِيَةَ ، وطُلَيطُلَة، وقُرْطبةَ وما معها بعد نُزُوله علىٰ جبل الفَتح من مملكة المسلمين بالأندَلُس لمحاربة المسلمين فيه، ورحيل قومِه بعد موته به، وهو :

المقامُ الذى أنارت آياتُ سعده، فى مسطور الوجُود، وتبارَتْ جيادُ مَجْده، فى ميدان البأس والجُود، وضمِنَتْ إيالتُه لمن بهذه الأقطار الغربيةِ تجديدَ السُّعود، وإعادةَ العُهُود، وآختلفَتْ كتائبُ تأييد الله ونصره لوَقْته المشهورِ فيها ويومه المَشْهود؛ مقامُ محلِّ أخينا الذى نُعَظّمه ونرفَعُه، ويُوجب له الحقَّ العلىَّ موضِعُه؛ السلطان أبى عِنَان آبن السلطان أبى الحسن، ابن السلطان أبى سعيدٍ، ابن السلطان أبى يوسُفَ، بن عبد الحق ـ أبقاه الله يتهلّل للبشرىٰ جَنَابُه، ويُفْتَح لواردِ الفتح الإلهىّ بابُه؛ وتُعْمل فى سبيل الله مكارِمُه وعزائِمُه وركابُه، ويتوفَّرُ بالجهاد فيه مجدُه وسعدُه ونخرُه وثوابُه؛ معَظِّم قدره الأمير عبدالله يوسف ابن أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فَرَج بن نصر، سلامٌ كريم مشفوعٌ بالبشائر والتَّهانى، محفوف [الركاب][1] ببلوغ الأمانى، ورحمة الله تعالىٰ وبركاته .

أما بعدَ حمدِ الله مُطْلِع أنوار الصنائع العجيبة متألِّقةَ الغُرَر، ومُنْشِئ سحائب الألطاف، الكريمةِ الأوصاف، هاميةَ الدِّرَر، الكريمِ الذى يُجيب دعوةَ المُضْطَرِّ إذا

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

دعاه، ويَكْشِف السُّوء وما أمرُه إلا واحدةٌ كلمحٍ بالبصر، حجبَ كامِنَ[1] ألطافه عن قُوىٰ الفِطَن ومَدارِكِ الفِطَر، فما ﴿يعلَمُ جنودَ ربِّكَ إلا هُوَ وماهِيَ إلَّا ذِكْرىٰ للبَشَرِ﴾.

والصلاة والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمد رسولِهِ ذى المعجزاتِ الباهرةِ والآيات الكُبَر، الذى بجاهه الحصينِ نمتنِع عند ٱستِشْعارِ الحَذَر، وبنور هُـداه نستضيءُ عنـد التِباسِ الوِرْد والصَّدَر، فنحْصُل علىٰ الخير العاجلِ والمنتَظَر؛ والرضا عن آله وأصحابه الكِرامِ الأثَر، الذين جَنَوْا من أفنانِ الصبرِ فى الله ثمارَ الظَّفَر، وفازوا من إنجاز الوَعْد بأقصىٰ الوَطَر، وٱنتظمُوا فى سِلك المِلَّة الرفيعة ٱنتظَامَ الدُّرَر؛ والدعاءِ لمقامِكم الأعلىٰ باتصـال المَسَرَّات وتَوَالى البُشَر، والسـعدِ الذى تجرى بأحكامه النـافذة تصاريفُ القَـدَر، والصُّنْعِ الذى تُجْلىٰ عجائبُه فى أجمل الصُّوَر - فإنا كتبْناه إليكم - كتب الله لكم من حُظُوط فضله وإحسانه أجزَلَ الأقسام، وعَرَّفكم عوارِفَ نِعَمه الثَّرَّة وآلائه الجسام - من حمراءِ غَرْناطة - حرسها الله - واليُسْرُ بفضـل الله طاردُ الأزَمَات بعـد ماقعَدَتْ، وكاشفُ الشدائد بعد ما أبرقَتْ وأرعدَتْ. ثم ماعندنا من الاعتداد بإيالتِـكم التى أنجزتْ لنـا فى الله ماوعدَتْ، ومَدَدْنا إليها يَدَ الٱنتصار علىٰ أعدائه فأسْعدَتْ؛ إلا الصُّنْعُ العجيب، واليُسْر الذى أتاح ألطافَه السميعُ المجيب؛ واليُمْنُ الذى رفع عمادَهُ التيسيرُ الغريب، ومدّ رُواقَهُ الفرجُ القريب؛ وإلىٰ هذا أيَّدكم الله علىٰ أعدائه، وأجزل لدَيْكم مواهِبَ آلائِه؛ وحَكَم للإسلام علىٰ يديكم بظُهوره وٱعتلائه، وعرّفكم من أخبار الفتح الهنىِّ المَدْفَع وأنبائه كلَّ شاهِدٍ برحمته وٱعتنائِه.

فإنا كتبناه إليكم نُحقِّق لديكم البُشْرىٰ التى بمثلها تُنْضىٰ الرِّكابُ[2]، ويُخَاض العُباب؛ ونَعْرِض عليكم ثمـرةَ سعدِكم الجديدِ الأثواب، المفتِّح للأبواب؛ عِلْماً بمـا عندكم

(١) فى ريحانة الكتاب "مكامن".

(٢) الركاب المطىّ واحدها راحلة من غير لفظها.

من فضل الأخلاق، وكرم الأعراق ؛ وأصالةِ الأحساب ، والمعرفةِ بمَواقِـع نِعَم الله التى لا تجرى لخلقه علىٰ حسـاب ، والعِنَايةِ بأمور هـذا القُطْر الذى تعلَّق بأذيال مُلْكِكم السـامى الجَنَاب . [وقد تقرر لدىٰ مقامكم الأسنىٰ ما كانت الحال آلت إليه بهـذا الطاغية](١) الذى غرَّه الإمهـالُ والإمْلاء ، وأقدمه علىٰ الإسـلام التمحيصُ المكتوبُ والآبتلاء؛ فتَملَّأ تِيهـا وعُجْبا ، وآرتكب من قَهْر هـذه الأمة المسلمةِ مَرْكبا صَـعْبا ؛ وسـام كلمةَ الإسـلام بأسًا وحربا ، فكتائبُ بَرِّه تُوسِـع الأرجاءَ طَعْنا وضَرْبا ، وكتائبُ بحره تأخُذ كلَّ سفينةٍ غَصْـبا ؛ والمَخاوِف قد تجاوبَتْ شرقا وغَرْبا ؛ والقلوبُ قد بلغتِ الحناجِرَ غَمًّـا وكربا ؛ وجبلُ الفتح الذى هو بابُ هـذه الدار ، وسببُ الآسـتعداءِ علىٰ الأعداء والآنتصار ، ومَسْلَكُ المِلَّة الحنيفيَّة إلىٰ هـذه الأقطار ؛ قد رماه ببَوائقهِ ، وصيَّر ساحتَه مَجَرَّ عَواليه ومَجْرىٰ سوابِقه ؛ وآتَّخذه دارَ مُقامه ، وجعله شُغُلَ يَقَظته وحُلُم مَنَامه ، ويُسِّر له مايجاورُه من المعاقل إملاءً [من الله] لأيامه ؛ فاستقرّ به القَرَار ، وآطمأنَّت الدار ، وطال الحِصَار ، وعجزتْ عن نَصْره الحِيلُ والأنصار ، ورَجَمتِ الظُّنونُ وساءتِ الأفكار ، وشجر نُظارَ القلوب الآضطرار ، إلىٰ رحمة الله والآفتقار ، لجَبَر الله الخواطِرَ لمَّـا عظُم بها الآنكسار ، ودارَ بإدالةِ الإسلام الفلَكُ الدَّوّار ، وتمخَّضَ عن عجائب صُنْع اللهِ الليلُ والنهار ، وهبَّتْ نواسِمُ الفَرَج ، عاطرةَ الأَرَج ، ممن يخلُقُ ما يَشاءُ ويَخْتار ؛ لا إلٰهَ إلا هو الواحدُ القهَّار .

وبَيْنا نحن نخُوض من الشَّفَقة علىٰ ذلك المَعْقِل العزيز علىٰ الإسلام لُجَّةً مترامِيةَ المَعَاطب ، ونقْتَعِد صَـعْبا لا يليـق بالراكب ؛ ولولا التعلُّق بأسـبابكم فى أنواء تلك الغيَاهب ، وما خلَصَ إلىٰ هذه البلادِ من موَاهِبِكم الهاميةِ المَوَاهب ؛ ومواعِيدِكم الصادقةِ ومكارِمِكم الغَرائب ، وكُتُبِكم التى تقوم عند العدوِّ مَقام الكتائب ؛ وإمدادِكم المتلاحق

(١) ساقط من الاصل والتصحيح من ريحـانة الكتّاب .

تلاحُقَ العظام الجنائب، لما رَجَع الكفرُ بصفْقة الخائب، إذ تجلّى نورُ الفَرَج من خلال تلك الظُّلْمه، وهَمَتْ سحائبُ الرحمةِ والنِّعمةِ علىٰ هذه الأمَّه؛ ورمىٰ اللهُ العدُوَّ بجيش من جُيوش قُدْرته أغنىٰ عن العديد والعُدَّه، وأرانا رأْيَ العِيَان لطائفَ الفَرَج من بعد الشِّدّه؛ وأهلك الطاغيةَ حتْفَ أنفِه، وقَطَع به عن أمَله قاطِعُ حتفه، وغالَتْه أيدى المَنُون فى غِيلِه، وٱنتهىٰ إلىٰ حُدُود القواطع القويَّة والأشعَّة المرِّيخيَّة نصيرُ دليله؛ فشفىٰ الله منه داء، وأخذه أشدَّ ما كان ٱعتدادا وٱعْتداء؛ وحمىٰ الجزيرةَ الغربية وقد صارَتْ نُهْبَةَ طُغاته، وأشرقه بِرِيقه وهى مُضْغة فى لَهَواته؛ سبحانَه لا مبدِّل لكلماته.

فٱنتثر سِلْكُه الذى نَظَّمه، وٱختلَّ تدبيرُه الذى أحكمه؛ ونطَقتْ بتبارِ مَحَلّاته ألسنةُ النار، وعاجلَتِ ٱنتظامَها أيدى الٱنْتثار؛ وركَدتْ رِيحُه الزَّعْزَعُ من بَعْد الإعصار، وأصبح من ٱستظْهَر به من الأشياع والأنصار ﴿يُخَرِّبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى المُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا يَا أُولِى الأَبْصَارِ﴾ وولَّوْا به يَحْثُون التُّرابَ فوق المَفَارِق والتَّرائب، ويخلِطُون تِبْرَ السِّبال الصُّهْبِ بذَوْب الذَّوائب؛ قد لبِسُوا المُسوحَ حُزْنا، وأرسلُوا الدموعَ مُزْنا؛ وشقُّوا جُيوبَهم أسَفا، وأضرمُوا قلوبَهم تلهُّفا؛ ورأَوْا أنَّ حصنَ استطبونة(١) لايتأتّى لهم به ٱمْتِناع، ولا يُمْكِنُهم لمن يرومُه من المسلمين دِفَاع؛ فأخْلَوْه من سُكّانه، وعاد فيه الإسلام إلىٰ مكانِه؛ وهو ماهو من طِيب البُقْعه، وٱنْفساح الرُّقْعه؛ ولو تمسَّك به العدُوّ لكان ذلك الوطنُ بسُوء جواره مكْدُودا، والمسْلَك إلىٰ الجبل ــ عصمه الله ــ مسْدُودا؛ فكان الصنيعُ فيه طرازًا علىٰ عاتق تلك الحُلَّة الضافِيَه، ومزيدًا لحُسْنىٰ العارفةِ الوافِيَه؛ فلمَّا ٱستجلينا غرّةَ هذا الفتح الهَنِيّ، والمَنْح السَّنِيّ، قابلْناه بشكر الله تعالىٰ وحمده، وضَرَعْنا إليه فى صلة نِعَمه فلا نِعْمةَ إلا من عنده؛ وعلِمْنا أنه عُنوانٌ علىٰ مزيد ملككم الأعلىٰ وعلامةٌ علىٰ سَعْده، وأثرُ نيَّته

(١) فى الريحانة "استبونة" ولم نعثر عليه.

للإسلام وحُسنِ قصده ، ونخرٌ ذَخَره الله لأيامكم لا نهاية لحدِّه ، فإنكم صرفتم وجه عنايتكم إلىٰ هذا القُطْر علىٰ نَأْى المحلِّ و بُعْــده ، ولم تَشْغَلْكم الشواغلُ عن إصلاح شأنِه وإجزال رِفْده .

وأما البَلَدُ المحصورُ ، فظهر فيه من عَزْمكم الأمضىٰ ما صَدَّق الآمالَ والظُّنُون ، وشَرَح الصُّدُور بمَقامِكم وأقرَّ العيون : من صِلَةَ الإمداد علىٰ الخَطَر ، وتردُّد السابلةِ البحرية علىٰ بُعْــد الوطن وتعذُّر الوَطَر ، وٱختلافِ الشَّوانى التى تَسْرِى إليه سُرىٰ الطَّيْف ، وتخلُّص سهامُها إلىٰ غَرَضه بعــد أنَّى وكَيْف ، حتّٰى لم تُعْدَمْ فيه مَرْفَقةٌ يَسُوء فُقْدانُها ، ولا عُدَّةٌ يُهِمُّ شأنُها ، فجزاؤكُم عندَ الله موفُور القِسَم ، وسعْيُكم لديه مشكورُ الذِّمم ، كافأ الله أعمالَكم العاليةَ الهِمَم ، وخِلالَكم الزاكيةَ الشِّيَم ، فقد سَعِد الإسلامُ ــ والحمد لله ــ بمُلْككم الميمونِ الطائر ، وسَرَتْ أنباءُ عنايتكم بهذه البلاد كالمَثَل السائر ، وما هو إلا أن يَسْتَتِبَّ ٱضــطراب الكُفَّار وٱختلافُهم ، ويتنازَعَ الأمْرَ أصنافُهم ، فتغتنمون إن شاء الله فيهم الغِرَّةَ التى ترتَقِبها العزائم الشريفه ، والهممُ المُنِيفــه ، وتَجْمع شِيَمُكم العُلْيــا ، بين فخر الآخرة والدُّنيا ، وتحصُل علىٰ الكمال الذى لاشَرْطَ فيه ولا ثُنْيا ، فاهنَــُوا بهذه النِّعمة التى خَبأها الله إلىٰ أيَّامكم ، والتُّحفة التى بعثها السَّــعْدُ إلىٰ مَقَامكم ، فإنمــا هى بتوفيق الله ثمرةُ إمدادِكُم ، وعُقْبىٰ جِهادكم ، أوزَعنا اللهُ وإيَّاكم شكْرَها ، وألهمَنا ذِكْرها .

عرَّفْناكم بمــا ٱتَّصــل لدينا ، ووردَ من البشائرعلينا ، عَمَلًا بمــا يجِب لمَقَامكم من الإعلام بالمتزيِّدات ، والأحوال الوارِدات ، ووجَّهْنــا إليكم بكتابنا هــذا مَنْ ينوب عنَّا فى هذا الهَنَاء ، ويُقرِّر ماعندنا من الوَلَاء ، وما يتزيَّد لدينا بالأنباء ، خالصةَ إنعامِنا ، المتميِّزَ بالوسيلة المرعيَّــة إلىٰ مَقَامنا ، الحظىَّ لدينا ، المقرَّبَ إلينا ، القائدَ الفلانىَّ أبا الحسن عبادا وصل الله عِزَّته ، ويمَّن وِجْهته ، ومجدُكُم ينْعِم بالإصغاء إليه ، فيما أحلْنا فيه من ذلك عليه ، والله يصل سعدكم ، ويحرُس مجْدكم ، والسلام .

وكما كتب عنه أيضا إلى السلطان (أبى سعيد عثمان بن يغمراسن) صاحب تِلِمْسان، عند بعْثه بطعامٍ إلى الأندلُس، شاكرًا له على ذلك، ومخبرًا له بفتح حصنٍ من حصون الأندلس يسمّى حِصْن قنيط، وهو :

المقامُ الذى تحدّثتْ بسعادته دولةُ أسلافه ، وآتّفق به قولُها من بعد آختلافه ، وعاد العِقْدُ إلى آنتظامه والشَّمْلُ إلى آئتلافه ؛ مقامُ ولِيِّنا فى الله الذى هَيَّأ الله له من جميل صُنْعه أسبابا، وفَتَح به من [مُبْهَم](1) السَّعْد أبوابا ؛ وأطلَع منه فى سماء قومه شهَابا. وصَفِيِّنا الذى نُسْهِبُ القولَ فى شُكر جَلاَله ووصْف خِلاَله إسهابا؛ السلطان أبو سعيد عثمانُ، آبنُ الأمير أبى زيد، آبنِ الأمير أبى زكريَّا، آبن السلطان أبى يحى يغمراسن ، بن زيان ؛ مع ذكر ألقاب كل منهم بحسبه ــ أبقاه اللهُ للدولة الزَّيَّانية ــ يُزَيِّن بالأعمال الصالحة أجيادَها ، ويَمْلِك بالعدْل والإحسان قِيادَها ؛ ويُجْرِى فى ميدان النَّدىٰ والباس، ووَضْعِ العُرْف بين الله والناس، جيادَها . سلامٌ كريم كما زحفَتْ للصباح شُهْب المواكب، وتفتَّحت عن نَهَر المجرّة أزهارُ الكَواكب ؛ ورحمة الله تعالىٰ وبركاته .

أما بعدَ حمدالله جامعِ الشَّمْل بعد آنصداعِه وشَتَاته،وواصلِ الحَبْل بعد آنقطاعه وآنْبِتاته ؛ سبحانَهُ لامبدّل لكلماته، والصلاةِ على سيدنا ومولانا محمد رسولِه الصادعِ بآياتِه ، المؤيَّد ببيِّناتِه ؛ الذى آصطفاه لحمل الأمانَةِ العُظْمىٰ ، وحَباه بالقَـدْر الرفيع والمحلِّ الأسمىٰ ؛ واللهُ أعلَمُ حيثُ يَجْعَلُ رسالاتِه . والرضا عن آله وصَحْبِـه وأنصاره وحزبِه وحُمَـاته، المتواصلين فى ذاتِ الله وذاتِه ، القائمين بنَصْر دينه وقَهْر عُدَاته . فإنَّا كتبْناه إليكم ــ كتب الله لكم سعدًا ثابتَ الأركان ، وعزًّا سامِيَ المكان، ومجدًا

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب .

وَثيقَ البُنْيان، وصُنْعا كريمَ الأثَرِ والعِيان ـ من حمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ والثقةُ بالله سبحانه أسبابُهــا وَثيقه، وأنسابُها عَتِيقه، والتوكُّلُ عليه لاتلتَبِس من سالِكه طرِيقَه ولا تختلِطُ بالمجاز منــه حَقيقه، وعندنا من الاَعتدادِ بكم فى الله عُقودٌ مُبْرَمه، وآىٌ فى كتابِ الإخلاص مُحْكَمَه، ولدَيْنا من السُّرور، بما سَنَّاه الله لكم من أسباب الظُّهور، الذى حُلَلُه مُعْلَمه، وحُجَجُه البالغةُ مسَلَّمه، مالاتفِى العبارةُ ببعض حُقوقه المُلْتَزَمه؛ وإلىٰ هذا ـ أيد الله أمْرَكم ـ فإننا ورد علينا فلان وصل الله كرامَتَه، وسنَّىٰ سلامتَه؛ صادرا عن جهتِكم الرفيعةِ الجانِب، الساميَةِ المَرَاقب، طَلْقَ اللسان بالثناء بما خَصَّكم الله به من فضل الشمائل وكرم المذاهِب، محدِّثًا عن بحر مكارمكم بالعَجَائب؛ فحضر بين يدينا مُلْقِيا ماشاهده من ٱزدياد المَشَاهد، بتلك الإياله، وٱستبشارِ المعاهد، بعوْدة ذلك الملك الرفيع الجَلاله، الشهيرِ الأَصاله؛ ووصل صُحْبَته ماحَمَّلتم جَفْنة[(١)] من الطعام برسم إعانةِ هذه البلاد الأندَلُسيَّه، والإمداد الذى ٱفتتحتم به ديوانَ أعمالكم السنِيَّه، وأعربْتُم به عمَّا لكم فى سبيل الله من خالص النِّيَّــه؛ وأخبر أنَّ ذلك إنمــا هو رَشَّة من غَمَام، وطليعةٌ من جيشٍ لُهَام؛ ووَفْدٌ من عَدَد، وبعْضٌ من مَدَد؛ وأنَّ عزائمكم فى الإعانة والإمداد علىٰ أوّلها، ومكارمَكم يُنْسىٰ المــاضى منها بمستقبَلِها؛ فأثنينا علىٰ قصدكم الذى لله أخلصتموه، وبهذا العمل البِرِّ خصصْتُموه؛ وقلنا : لاينكر الفضلُ علىٰ أهله، وهذا بِرٌّ صَدَر عن محلِّه؛ فليست إعانةُ هــذه البلاد الجِهاديَّة ببِدْع من مكارمِ جنابِكم الرفيع، ولاشاذَّةٍ فيما أسْدىٰ علىٰ الأيام من حُسْن الصَّنيع؛ فقــد علم الشاهدُ والغائب، ولو سكَتُوا أثْنَتْ عليها الحَقَائب، ماتقدّم لسَلَفكم فى هــذه البلاد من الإرْفاق والإرفاد، والأَخْذ بالحظِّ الموفُور من المُدافعَة والجهاد؛ وأنتم أوْلىٰ مَنْ جدّد عُهودَ قومِه، وكان غَدُه فى الفَخْر أكبَرَ من يومه؛ وقد ظهرتْ لله فى حَيِّز تلك

(١) مراده سفينة أو نحو ذلك .

الإيالة الزَّيَّانيّة نتيجةُ تلكَ المقدِّمات، وعُرِفت بركةُ ماأسلفتَه من المَكْرُمات. وسنّى الله سبحانه بين يدَىْ وُصُول مابه تفضَّلتم، وفى سبيله بذَلْتم، أن فَتَح جَيْشُنا حصنًا من الحصون المجاورة لغربىّ مالَقَةَ يُعْرَف بحِصْن قنيط من الحُصُون الشهيرة المعروفه، والبُقَع المذكورة بالخِصْب الموصُوفه، ودَفَع الله مضرّتَه عن الإسلام وأهلِه، ويَسَّره بمعهودِ فضله، فجعَلْنا من ذلك الطعامِ الذى وجَّهتم طُعْمةَ حُمَاته، ونفقاتِ رجالِه ورُمَاته، آختيارًا له فى أرضىٰ المَرافق من سُبُل الخير وجِهاته. وأما نحن فإنْ ذهبْنا إلىٰ تقرير ماعندنا من الثناء، علىٰ معَالِى مُلْككم الأصيلِ البناء، والآعتدادِ بمَقامكم الرفيع العِمَاد، والآستنادِ إلىٰ ولائكم الثابت الإسناد، لم نبْلُغ بعضَ المُراد، ولاوفىٰ اللسانُ بما فى الفؤاد، فمن الله نسألُ أن يجعلَهُ فى ذاته، وذريعةً إلىٰ مَرْضاته، ومرادنا من فضلكم العميم، ووُدِّكم السليم، أن تَحْسِبُوا هذه الجهة لجهتكم فيما يَعْرِض من الأغراض: لنعمل فى تَميمها بمقتضىٰ الوُدّ العَذْب المَوارد، الكريم الشَّواهد، والله يَصِل سعْدَكم، ويَحْرُس مجدَكم، والسلام.

الضربُ الثانى

(أن يقع الآبتداء بالمقرّ)

والرسمُ فيه أن يقال: المَقرّ، ويُنْعت، ثم يقال: مَقرّ فلان، ويُنْعت بالألقاب، ثم يُذْكَر المكتوب عنه. ثم يقال: أما بعدَ حمد الله، ويُؤتىٰ على الخطبة إلىٰ آخرها، ثم يقال: فإنا كَتَبْناه لكم من موضِع كذا، ويُتخَلَّص إلىٰ المقْصد بلفظ: وإلىٰ هذا فإنّ كذا وكذا، ويؤتىٰ علىٰ المقْصِد إلىٰ آخره ويُخْتَم بالسلام.

كما كتب آبنُ الخطيب عن سلطانه آبن الأحمر إلىٰ عَجْلانَ سلطانِ مكةَ شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها، وهو:

المَقرّ الأشرف، الذى فَضَل المحالّ الدينيّة مَحَلُّه ، وكَرُم فى بئر زمْزمَ مُنْبَط إسماعيل صلّى الله عليه وسلم نَهَلُه وعَلُّه ، وخصّه بإمرة الحَرَم الشريف الأمينِ مَنْ بيدِه الأمرُ كلُّه ؛ فأسفَرَ عن صُبْح النصر العزيزِ فَضْـلُه ، وآشتمل علىٰ خواصّ الشَّرَف الوَضَّاح جنْسُه وفَصْلُه ، وطابتْ فُرُوعه لما آستمدّ من ريحانَتَى الجنة أصْلُه .

مَقَرُّ السلطان الجليل، الكبيرِ، الشريف، الطاهرِ، الظاهر، الأمجَد، الأسعدِ، الأوحد، الأسمىٰ الشهيرِ البَيْت، الكريم الحىِّ والمَيْت، الموَقَّر، المعظَّم، ابن الحسين، وحافد سيد الثَّقَلين؛ تاج المعالى، عزِّ الدنيا والدِّين، أبِى السَّبْق عجلان، ابن السلطان الكبِير، الشهير، الرفيع، الخطيرِ، الجليلِ، المَثيِل، الطاهر، الظاهر، الشريفِ، الأصيلِ، المعظَّم، الأرضىٰ، المقدّس، المنعّم، أسدِ الدين، أبى الفضل "رميثة" بن محمد بن أبى سعيد الحسنى ـ أبقاه الله، وجعل أفئدةً من الناس تهوِى إلىٰ قاطنىِّ مَثْواه، علىٰ بُعْدِ الدار، ونتقرّبُ فيه إلىٰ الله بالتثام الترابِ وآستلامِ الجِدار، وتُجيب أذانَ نبيِّه إبراهيمَ بالحجِّ إجابةَ الآبتِدار؛ وهَنَاه المزيَّةَ التى خصه بها من بين مُلُوك الأقطار، وأُولِى المراتب فى عِباده والأخْطار؛ كما رَفَع قدْرَه علىٰ الأقدار، وسَجَّل له بسِقَاية الحج وعمـارةِ المسجد الحرام عَقْدَ الفَخَار. ويُنْهِى إليـه أكرَمَ التحيَّات نتأرّجُ عن شَذَا الروضة المِعْطار، عَقِبَ الأمطار، معظم ماعظَّم اللهُ من شعائر مَثْواه، وملتمسُ البركةِ من أبواب مفاتحتِـه ولكل آمرئ ما نَوَاه؛ ومُوجِبُ حقِّـه الذى يليقُ بمَنِ البتولُ والرِّضـا أَبَواه، الشَّيِّقُ إلىٰ الوِفَادة عليه وإن مَطَله الدهرُ ولَوَاه؛ فلان. كان الله له فى غربته وآنفرادِه، وتولّى عَوْنَه علىٰ الجهادِ فيه حَقَّ جِهادِه .

أما بعـدَ حمدِ الله وَلِىِّ الحمدِ فى الأُولىٰ والآخره، ومَطْمَحِ النُّفوس العاليةِ والهِمَم الفاخره؛ مؤيِّد العزائم المتعاضـدة فى سبيله المتناصره، ومُعِزِّ الطائفة المؤمنة ومُذِلّ

الطائفــة الكافره ، ومُنيل القياصرة الغَلَبَ والأ كاسره ، وتارك أرضها عبْرةً للآذانِ السامعةِ والعُيون الباصِرة .

والصلاةِ علىٰ سـيدنا ومولانا محمدٍ عبـده ورسوله نبيِّ الرحمة الهـامية الهامِرَه ، والبركات الباطنةِ والظاهره، المجاهدِ فى سبيل الله بالعزائم الماضيةِ والصَّوارم الباتره، مُصْمِت الشَّقاشق الهـادِرَه، ومُرْغِم الضَّلالة المكابِره، المنصورِ بالرُّعب من جنود ربِّه الناصِره، المحروسِ بحَرَس الملائكة الوافره، الموعودِ مِلْكَ أُمَّته بما زُوِى له من أطراف البَسيطة العامِرَه ، حسَبَ ما ثبتَ بالدلائل المتواتره .

والرِّضا عن آلهِ وأحزابه ، وعِترته وأصحـابِه ، المجاهـدةِ الصابِره ؛ أُولى القلوبِ المُراقِبـة والألْسُن الذاكِره ، والآداب الحَرِيصةِ علىٰ الاهتداء بهُداه المثابِره؛ الذين جاهدُوا فى الله حقَّ جِهَاده يخوضُون لأن تكونَ كلمةُ الله هى العُلْيا بِحارَ الرَّوْع الزَّاخره؛ ويُقْدِمون بالجموع القليـلة علىٰ الآلافِ المتكاثره، حتّٰى قرّتْ بظُهور الإسلامِ العُيُونُ النـاظره، وحلَّت فى العدوّ الفاقِرَه ، فكانُوا فى الذَّبِّ عن أُمَّته كالأُسُـود الخا رَه، وفى الهِدايةِ بِسَماء مِلَّته كالنُّجوم الزاهِره .

والدعاء لشَرفكم الأَصِيل المَنَاسِب الطاهِره، والمَكَارم الزاهيةِ ببُنوّةِ الزَّهْراء البتُول بِضْعةِ الرسولِ الزَّاهِره ، بالصُّنْع الذى يُسْفِر عن الغُرَر المشرقةِ السَّافره ، والعِزِّ الذى يَضْـفُو منه الجَنَـاحُ علىٰ الوفودِ الوافره ، والفُضَلاءِ من المجاوِره ، ولا زال ذِكْرِكم بالجميل هِجِّيرىٰ الركائبِ الواردةِ والصادِره، والثناءُ علىٰ مكارمكم يُخْجل أنفاسَ الرِّياض العاطره، عَقِبَ الغمائم المـاطره .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم عنايةً تحجُب الأسواءَ [بجُنَنِها](١) الساتره، ورعايةً تجمـع الأهواءَ المختلفةَ والقلوبَ المتنافِرَه ـ من حمراءِ غَرْناطة دارِ المُلْك الإسلامىّ

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب .

بالأندلُس ـ حَرَسها الله ووَفّر جموعَ حاميَتِها المُثَاغِره ـ وسـدّ بيد قدرتِه ماهَمّ بها من أفواه العِدىٰ الفاغِره، ولا زالت سحائبُ رحمةِ الله الحائطةِ لهـا الغامره، تُظَلِّل جُموعَ جهادِها الظافره، وتجُودُ رِمَمَ شُهدائها النـاخره، ونِعَمُ الله تحطُّ ركائب المزيدِ فى نواديها الحامدةِ الشاكره .

والحمـدُ لله كما هو أهلُهُ، فلا فضْلَ إلا فضْـلُه . وجانبُكم موفىً حقَّه من التعظيم الذى أنافَ وأربىٰ، وقدرُكم يَعْرِفه مَنْ صام وصلّىٰ فَضْـلًا عمن حَجّ ولبّىٰ، ومستَنَدُ وُدِّكم ﴿قُلْ لا أسأَلُكُمْ عليْهِ أجْرًا إلا المَوَدّةَ فى القُرْبىٰ﴾. وإلىٰهذا ـ حَرس الله مجْدَكم ومَقرّكم الأشرف، كما سَحَب علىٰ البيت العتيق ظِلّكم الأوْرَف ـ فإنّ الجهادَ والحجَّ أخوان، يشْهَدُ بذلك المَلَوان، مرتَضِعان ثَدْىَ المناسَبَه، ويكادان يتكافآنِ فى المحاسَبَه : سَفَرا وزادَا، ونيّةً وآستِعْدادا، وإتلافًا لمَصُون المال وإنفادا، وخروجًا إلىٰ الله لايُؤْثِر أهْلا ولا وَلَدا وإن آفترقَا محَلًّا فقد آجتمعا جِهادا، ورفعًا للـلة منَارا ساميًا وعِمَا دا، ووطَنُنا ـ والحمد لله ـ علىٰ هذا العهد المخصوصُ بكمال هذه المزِيّه، والقيام بفرضِ كفايتِها البحرية والبرّية عن جميع البَرِيّه، [السليمة من الضَلال البَرِية](١) وهذا النسب واشِجَةٌ عُروقُه، صادقةٌ بُروقه، ومتاتُه(٢) لا يفضُله مَتَاتٌ ولا يفُوقُه . ونحن نعرّفُكم بأحوالِ هـذا القطرِ المستمسكةِ فُروعه بتلك الجُرْثومة الراسِـيَه، الممدودة أيديه إلىٰ مثابتها المتصـدّقة بالدعاء المُواسِـيه، فاعلموا أن الإسـلامَ به مع الحياةِ فى سَفَط حرِج، وفى أمرٍ مَرِج، وطائفةُ الحق قليـلٌ عدَدُها، منقطِع إلا من الله مدَدُها، مستَغْرَق يومُها فى الشِّـدّة وغَدُها، فالطلائع فى قُنَن الجبال تُنوّر، والمُصْحِر من بيتـه مغرّر، والصّيحةُ مع الأحيانِ مسمُوعه، والأعداء لردّ ما آستخلصـه الفتحُ الأوّلُ مجموعه، والصبر قد لُبِست مَدَارِعُه، والنصر قد آلتُمست مَشارِعه، والشُّهداءُ تَنُوش أشلاءَهم

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" . (٢) المتات مايمت به .

القَشَاعم ، وتحتفِلُ منها للعوافِى الولائم والمَطَاعم ؛ والصِّبيانُ تُدرَّب علىٰ العمل بالسِّلاح ، وتُعَلَّم أحكامَ الجهادِ تعلُّمَ القرءان فى الألواح ؛ وآذانُ الخيل مستشرِفة للصِّياح ، ومَفَارِق الطائحين فى سبيل الله تعالىٰ تَبْلىٰ بأيدى الرياح ؛ والمآذنُ تُجيبها النواقيسُ مناقِضه ، وتراجِعُها مُغاضِبةً معارِضه ؛ وعددُ المسلمين لا يبلُغُ من عَدَد الكفَّار، عُشْرَ المعشار، ولا وَبَرَةً من جلود العِشَار؛ إلا أن الله عز وجلّ حَلَّ بوِلَايتنا المَخْنَق المشْدُود، وفتح إلىٰ التيْسير المَهْيَع المسدُود، وأضْفىٰ ظلال اليُمْن الممدُود، وألْهَمَ ـ وله الشكْرُ علىٰ الإلهام، وتسديد السِّهام . والحمدُ لله الذى يفوتُ مَدارِكَ الأفهام ـ إلىٰ اجْتهادٍ قُرِن به التوفيق، وجِهادٍ نُهِج به إلىٰ النجاة المُنْجِيَة الطريق؛ سبحانَهُ من كريم يُلْهِم العملَ ليُثيب، ويأمُرُنا بالدعاء ليُجيب ؛ فتحرَّكْنا حركاتٍ ساعَدَها ـ ولله المنةُ ـ السعد ، وتولَّى أمرَها ونُصْرتَها مَنْ له الأمرُ من قبلُ ومن بَعْد .

ففتحنا مدينة بُرْغة الفاصلةَ كانت بين البلاد المُسْلمه ، والشَّجَا المعترِضَ فى نَحْر الكَلِمه ؛ وتبعتها بناتٌ كُنَّ يرتضعن أخْلاف دِرّتها ، ويتعلَّقْن فى الحرب والسِّلْم بأَزْرتها .

ثم نازلنا حصنَ آش ركابَ الغارات الكافره ، ومستقَرّ الشوكة الوافره ؛ فرفع اللهُ إصْرَه الثقيل ، وكان من عَثْرة الدِّين فيه المَقيل .

ثم قصدنا مدينةَ الجزيرة بنتَ حاضرة الكفر، وعَرِينَ الأسود الغُلْب وكِنَاسَ الظِّباء العُفْر؛ فاستبحناها عَنْوة أضرمت البلادَ نارًا ، ودارت بأسوارها المنيعة سِوَارا ، وٱستأصلْنا أهلَها قتْلًا وإسارا ؛ وملأتِ الأيدىَ من نُقَاوة سبْى تعدّدت آلافه ، وموفُور غُنْم شذَّت عن العبارة أوصافُه .

ثم كانت الحركةُ إلىٰ مدينة جَيَّان وشُهرتُها فى المعمور، وشِياعُ وصْفها المشهور، تُغْنِى عن بَسْط مالها من الأمور؛ ففتحها الله علىٰ يدَيْنا عنوة وجُعلت مقاتِلتُها نَهْبا

للسيوف الرِّقاق، وسَبْيُها مَلْكَةً للاْسترقاق، وأهِلَّةُ مبانيهـا البيض دَرِيئـة للمِحاق، وآستولت على جميعها أيدى الهَدْم والإحراق؛ ثم دُكَّت الأسوار، وعُقِرت الأشجار، وآستُخْلِف على خارجها النـار، فهى اليوم صَفْصف ينشَأُ بها الاْعتبار، وتعجب الأبصـار.

وغزونا بعدها مدينـة أُبَّدَة أختها الكبرى، ولِدَتِها ذات المحل الأسْرى؛ وكانت أُسْوةً لها فى التدمير، والتَّتبير والعَفاءِ المُبِير.

ثم نازلنا مدينـة قُرطبةَ وهى أمُّ هذه البلاد الكافره، ودارُ النِّعَم الوافره، وذاتُ المَحاسن السافره؛ فكِدْنا نستبيحُ حِماها المَنيع، ونُشَتِّت شَملها الجَميع، ونحتَفِل بفتحها الذى [هو للدين أجل] (١) صنيع، لولا عوائقُ أمطار، وأجلٌ منته إلى مِقْدار؛ فرحلنا عنها بعد آنتهاكِ زَلْزَلَ الطَّوْد، ووعدْناها العَوْد؛ ونؤمِّل من فضل الله إنْفاذَ البُشْرى بفتحها على بلاد الإسـلام، ومُتاحَفَةَ مَنْ بها من الملوك الأعلام، بالإخبار به والإعْلام.

وبلغ [من] (١) صُنْع الله لنا وهو كافٍ من توكَّل عليه، وفوَّض الأمورَ إليه؛ أن لاطَفَنا النصرُ بحُصونٍ أربعة لم نُوجِف عليهـا رِكابا، ولا تملَّكتْها غِلَابا؛ فطهَّرنا بيوتَ الله من دَنَس الأوثان، وعَوَّضْـنا النواقيسَ بكلمةِ الإيمـان. والحمـد لله على مواهب الاْمتنان، ومنه نستزيدُ عوائدَ الإحسان.

وهذه المُجْمَلات تحتمل شَرْحا، تسبَحُ فى بحره سِنَانُ الأقلام سَبْحا؛ من أوصافِ مَغانم شذَّتْ عن الحَصْر، ومواقِفَ لتنزُّل السكينة وهُبوبِ النَّصْر؛ وماظهر من جِدِّ المسلمين فى آفتتاح تلك المَعاقل المَنيعة المُنيفه، ومقارعةِ الجموع الكَثيفه؛ وبركةُ الحرمِ الشريفِ فى كل حالٍ موجودَه، وأقطارُ الإسلام بها مَجُوده، والوسائلُ إلى الله بأهْله فى القديم والحديث لا مُخَيَّبةٌ ولا مَرْدُوده؛ فهو الأصل، والغِمْد الذى سُلَّ

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الريحانة.

منه النَّصْل ، حتّى بلغ التخُومَ القاصيه ، وذلَّل المَمالك المتعاصِيَه ، وقاد مَنْ تَقاعدَ أو تقاعَس بالناصيه .

وقد ظهر لنا أن نوجّه الى المدينة المقدّسةِ صلواتُ الله علىٰ مَنْ بها وسلامُه رسالةً نعرّفه بهذه البركات الهامِيَة من سماء عِنايته المعدودِ خارِقُها آيةً من آياته ، وكلُّنا جُنَاه ، وما كُنَّا لنهتَدِىَ لولا أنْ هدانا الله بِهُدَاه ؛ وأصحبْناها أشخاصًا من نوَاقيس الفرَنْج ممـا تأتّى حمله ، وأمكن نَقْلُه ؛ وما سواه فكانت جِبَالا ، لايقبل نقْلُها احتيالا ؛ فتناولَ درعَها المَسْخ والتكسير ، وشُفِى بذَهاب رسُومها الاقامةُ والتكْبير ، والأذانُ الجَهِير ؛ ومرادُنا أن تُعْرَض بمجتمَع الوفُود تذْكرةً تستدْعِى الإمْدادَ بالدعاء ، وتقتضى بتلك المَعَـاهد النَّصْر علىٰ الأعداء ؛ ثم تُصْحَب رِكَاب الزِّياره ، الىٰ أبواب النبُوّة ومطَالع الإناره ؛ وأنتم تعملون فى توفِيَة هذه الأحوال ورِعَايتها ، وإبلاغها إلىٰ غايَتِها ، مايليق بحسَبِكم الوَضَّاح ، ومَجْدكم الصُّراح ، وشَرفكم المتبلِّجةِ أنواره تبَلُّجَ الإصباح (فأنتم خيرُ من ركب المطايا وأندىٰ العالَمين بطُونَ راحْ) ولكم بذلك الحظُّ الرَّغيب فى هـذه الأعمال البَرَّه ، والله سبحانَهُ لايُضِيعُ مثقال الذَّرَّه ؛ وهو سبحانه يتولّاكم بما تولّى به من أعَزَّ شِعارَه وعظَّمها ، ورَعىٰ وسائلَهُ واحترمهـا ؛ ويصِلُ أسبابَ سـعدكم ، وينفعكم بقَصْدِكم . والسـلامُ الكريم ، الطيِّب البَرُّ العميم ؛ يُحَيِّى مَعاهِدَكم الكريمـةَ علىٰ الله عُهودُها ، النامِيةَ بغمائم الرَّحَمات والبركات عُهودُها ؛ ورحمةُ الله وبركاته .

وربمـا قُدِّم علىٰ لفظ المقرّ صلةٌ يُعتَمَدُ عليها فى البُداءة .

كما كتب عنه أيضا فى معنىٰ ذلك إلىٰ أمير المدينة النبوية علىٰ ساكنها سيدِنا محمد افضلُ الصلاة والسلام .

يعتمِد المقرُّ الأشرفُ الذى طاب بطَيْبة نَشْره ، وجَلّ بإمارتها الشريفة أمْرُه ، وقُدِّر فى الآفاقِ شَرفُه وشَرُف قـدرُه ، وعظُم بخِدْمة ضريح سـيِد ولدِ آدم فَخْرُه ،

[أبقاه اللهُ منشرِحا بجوار روضة الجنة صدره، مُشْرِقا بذلك الأفق الأعلىٰ بدره،] (١)
ذائعًا علىٰ الألْسُن المـادحةِ، فى الأقطار النازحة، حمْدُه وشُكْره، مُزْرِيًا بشَذَا المِسك الأذْفَر فى الجمـع الأوْفرِ ذِكْره، تحيـةَ مُعظِّم ما عظَّم اللهُ من دار الهجـرة دارِه، ومَطْلَع إبْدارِه، الملتَمس بركةَ آثاره، المتقرِّب إلىٰ الله بحبِّه وإيثاره . فلان .

أما بعدَ حمدِالله الذى فضَّل البُقَع بخصائصها الكريمة ومَزَاياها، تفْضيلَ الرياض الوَسمِية بَريَّاها، وجعل منها مَثَاباتِ رحمةٍ تضرِبُ إليها العبادُ آباطَ مَطَاياها، مؤمِّلةً من الله غُفرانَ زَلَّاتها وحَطَّ خَطَاياها؛ وخَصَّ المدينةَ الأمينةَ بضَريح سيدِ المرسَلين فأسعَدَ منها ممَـاتَها ومَحْياها، ورفَع عُلْياها .

والصـلاةِ علىٰ سـيدنا ومولانا محمدٍ رسولِه الكريم، الرءُوف بالمؤمنينَ الرَّحيم؛ مُطْلِـعِ أوجُه السعادة ببُرُوق مُحيَّـاها، ومُوضِّح أسرارِ النَّجاة ومبيِّن خَفَاياها؛ الذى تدارَكَ الخليقةَ بهَدْيه وكَشَف بَلَاياها، ورعىٰ لسُنَّةِ اللهِ رَعَاياها، وجمع بينَ صلاح دِينها ودُنْياها .

والرضا عن آله وصَحْبـه، وعِتْرته وحِزْبه؛ التى كَرُمتْ سَجَاياها، وعظُمَتْ ألطافُها الهـاديةُ وهَدَاياها؛ وجاهدتْ بعـده طوائفَ الكُفَّار، تُشَعْشِع لهـا فى أكْواس (٢) الشِّفَار، مَنَاياها، وتُطْلِـع عليهـا فى الليل البَهِيم، سَـنا الصَّباح الوَسِيم؛ من غُرَر سَرَاياها، وتَسُدّ بغَمَام الأسِنَّة ورِيَاح ذَواتِ الأعِنَّة ثنَاياها .

والدعاء لَمقَرِّ أصالتِكم الشريفةِ حيَّاها اللهُ وبَيَّاها، كما شَرَّفها بوِلادة الوصىّ الذى قرّر وَصَاياها، وسُلالةِ النبىّ الذى أعظَمُ مَوَاهِب فَخْرها منه وعَطَاياها، بالسَّعادة التى تُبْرِزُ أكفُّ الأقدار علىٰ مرور الأعصار خَبَاياها، والعِزِّ الذى يُزاحِم فرقَدَ السماء وثُرَيَّاها .

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .
(٢) كذا فى الريحانة أيضا وابن الخطيب يستعمل هـذا الجمع كثيرا ولكن الذى فى كتب اللغة أن جمع الكاس أكؤس وكـئوس وحرر .

فانا كتبْناه إليكم - كتب الله لكم من مَوَاهبِ الصُّنْع الجميل أغْياها ، كما طَيَّب بذِكْركم أطرافَ البَسِيطة وزَوَاياها ؛ وجعلَ فَخْرَ الجِوَار الكريم فى عَقِبكم كلمةَ صِدْق لاتَخْتَلِفُ قَضَاياها ، مامَرَّضتِ الرِّياضُ مُوَرَّساتِ عَشَاياهـا ؛ بجعلَتْ من النَواسِم مشـمُومَها ومن الأزهار البَوَاسِم حَشَـاياها . من حَمراءِ غَرْناطة - حرسها الله - ونِعمُ الله يَحُوكُ حُلَلَها الجِهاد ، والسيوفُ الحِدَاد ، وتلْبَسها البلادُ والعبادُ ، وتترَيَّاها . وفُلُولِ الكفر نا كصةٌ علىٰ الأعقابِ ، من بعد شَدِّ الوَثَاق وضَرْب الرقاب ، خَزَايَاها ؛ وبركاتُ حَرَم النبيّ الوجيـهِ علىٰ الله يستظِلُّها الإسـلامُ ويتفَيَّـاها ، ويَنْقع الغُلَلَ من رَوَاياها .

والحمد لله كثيرًا كما هو أهلُه ، فلا فضلَ إلا فضْلُه ؛ ولمَعَاهِدكم الكريمةِ الاْرتياح ، كُلَّمـا أوْ مَضتِ البُروقُ وخفَقَت الرِّياح ؛ ولِسَنِيّ عنايتَها الاْلتماح ، إذا اْشـتجرت الرِّماح ؛ وفى تأميل المثُول بها تُعْمَل الاْفكارُ وإن هِيضَ الجَنَاح ، وبهُدَاها الاْستنارةُ اذا خَفِيَ للمَرَاشد الصَّباح ، وبالاْعتمال فى مَرْضاة من ضَمَّه منها الثَّرىٰ الفَوَّاح ، والصَّفيحُ الذى تُراث سا كِنه العواملُ المجاهدة والصِّفاح والجهـادُ الصُّراح ، يَعْظُم فى الصَّدْر الاْنشراح ، ويَعِزُّ المَغْدىٰ فى سبيل الله والمَرَاح .

وإلىٰ هذا أجزل الله مسرّتكم بظُهور الدين ، واْعتلاء صُبْحه المُبين ؛ فاننا نعرّفُكم أننـا فتَح اللهُ علينا وعلىٰ إخوانكم المؤمنين بهـذه الثُّغور المنقطعة الغربيَّه ، المـاتَّةِ علىٰ الآمادِ البعيدةِ بالذِّمم العربيَّة ؛ فُتوحًا حَوَّزَتْ من مملكة الكُفْر البِلاد ، ونَفَّلت الطارِفَ والتِّلاد ؛ حسَبَ ما تنُصُّه مخاطبَتُنا إلىٰ نبينا الكريم الذى شرَّفكم الله بخِدْمة لَحْده ، واْستخلفَكُم علىٰ دار هِجْرته من بعدِه ؛ إذ لاحاجةَ إلىٰ التَّكْرار بعد ما شُرِحت به الصُّدُور من الأخبار ، فى الإيراد والإصدار ؛ ووجَّهنا صُحبَتَها من النَّواقيس التى كانت تُشيع نِداءَ الضَّـلال ، وتُعارضُ الأذانَ بجِلاد الجِدال ، وتُبادرُ أمْرَ التِّمْثـال

بالامتثال، ما يكونُ تَذْكِرَةً تحِنُّ بها القلوبُ إلىٰ هذه الطائفة المُسْلِمة إذا رأتْها، وتنتظِرُ قَبولَ الدعاءِ لها من الله كُلَّما نظرَتْها، وتتصوّر الأيدِىَ المجاهدةَ التى جَنَتْها من أفنانِ المستَشْرِفات العاليةِ واهتصَرَتْها إذا أبصرَتْها .

وهذا كلُّه لا يتحصَّلُ علىٰ التَّمام إلا بمشاركةٍ منكم تُسَوّغه، وإعانةٍ تؤدِّيه وتُبَلِّغه؛ تُشِيع لكم عند تعرُّفها الثناءَ الدائمَ التَّرداد، والدعاءَ بحُسن المكافأة من ربِّ العِباد، وسَهْمَكم فى أمر الجهاد؛ وأنتم تعملون فى ذلك بما يناسبُ مثلَكم من الشُّرَفاء الأمجاد، واللهُ عزّ وجلَّ يواليكم بنِعَمه الثَّرَّةِ العِهاد، ويعرِّفُكم عوارِفَ السعادة فى المَبْدإ والمَعَاد، ويختِمُ لنا ولكم بسعادةِ المَعَاد؛ والسلامُ الكريم يخصُّكم عَوْدا علىٰ بَدْء ورحمةُ الله تعالىٰ وبركاتُه .

الضربُ الثالث

(أن تُفتَتَح المكاتبةُ بلفظ الإمارة)

بأن يقال : الإمارةُ التى نَعْتُها كذا وكذا إمارةُ محلِّ أخينا فلان، ويُدْعىٰ له . ثم يقال : معظِّم إمارته، أو معظم أُخُوَّته فلان . سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أمّا بعد حمد الله، ويُؤْتىٰ بخطبة؛ ثم يقال : فإنا كتبْناه إليكم كَتَب الله لكم كذا وكذا من موضع كذا؛ ثم يُتخلَّص إلىٰ المقصود بلفظ وإلىٰ هذا، ويؤتىٰ علىٰ القَصْد إلىٰ آخره، ويُخْتَم بالسلام علىٰ نحو ما تقدّم فى غيره من الضروب، وبذلك يُكْتَب إلىٰ الأمراء من أبناء الملوك وغيرهم . كما كتب ابنُ الخطيب عن ابن الأحمر إلىٰ أبى علىٍّ الناصرِ ابن السلطان أبى الحسن المَرِينىّ بفاس، عند ما أرسله والدُه إلىٰ ناحيةٍ من النَّواحى لِعمارتها وإصلاحِ حالها، مهنِّئًا له بما أجراه اللهُ علىٰ يديه من الصَّلاح، وهو :

الإمارةُ التى لها المَكَارمُ الراضيه، والعَزائمُ الماضيه، والجَلَالةُ الراقيه، والأعمالُ الصالحةُ الباقِيَه، إمارةُ محلّ أخينا الذى نُعَظِّم مجدَه السامى الجَلَال، ونُثْنِى علىٰ شِيَمه الطاهرةِ الخِلال، ونعتدُّ بوُدِّه الكريم الأقوال والأعمال، ونُسَرُّ بما يسنِّيه الله لعزه الفسيح المَجَال، من عوائد اليُمْن والإقبال.

الأميرُ الأجلّ، الأعزّ، الأسمىٰ، الأطْهر، الأظْهر، الأسْنىٰ، الأسعد، الأرْشد، الأرضىٰ، المؤيَّد، الأمضَى، الأفضل، الأكمل، أبو علىّ الناصر ٱبن مَحَلّ أبينا الذى نُعظِّمه ونُجِلُّه، ونُوجبُ له الحقَّ الذى هو أهلُه، السلطان الجليل الكذا أبو الحسن ٱبنُ السلطان المؤيَّدِ، المُعان المظفَّر، صاحبِ الجُود الشهيرِ فى الأقطار، والفضلِ المتألِّق الأنوار، والمَآثِرِ التى هى أبهىٰ من مُحَيَّا النهار، أميرِالمسلمين، وناصرِالدين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، أبى سعيد ٱبن أميرالمسلمين وناصرالدين، قامعِ الكافرين، المجاهدِ فى سبيل رب العالمين، أبى يُوسُف بن عبد الحق. أبقاه الله والسعودُ اليه مبتدِرة مستبِقه، والمَسَرَّات لديه منتظِمة متَّسِقه، وغُرَرُ أيامه واضحةٌ مُشْرِقه، والأهواءُ علىٰ محبته متَّفِقه. معظِّم إمارتِه الرفيعةِ الجانب، القائمُ من إجْلَالها ونَشْرِخِلالها بالحقِّ الواجب، المثْنِي علىٰ مالهَا من السِّيَر الفاضلة المَذَاهب، والأصالةِ الرفيعة المَنَاسِب، والبَسَالةِ الماضيةِ المَضَارب، والمَكارمِ التى تشهَدُ بها مواقِفُ الجهاد، وظُهورُ الجِياد، وصحائفُ الكُتُب وصَفائحُ الجِلاَد، الأميرُعبدُ الله يوسف ٱبن أميرالمسلمين، أبى الوليدِ إسماعيلَ بن فَرَج بن نصر. سلامٌ كريم، بَرٌّ عَميم، تتأرّجُ الأرجاء من طِيب نَفْحته، ويُشْرق نورُ الوُدِّ الأصيلِ علىٰ صفحته، يخُصُّ أُخُوّتكم الفاضله، وإمارتكم الحافِله، ورحمةُ الله وبركاته.

أما بعد حمد الله الذى شرح بالتوكل عليه صدورا ، و[جعل الودّ فى ذاته كنزا مذخورا (١)] والأعمال التى تقرب إليه نورا ، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى بعثه بالحق هاديا وبالرعب منصورا ، ورفع لدعوته العالية لواءً من عنايته منشورا ، واختاره لإقامة دين الحق والأرض قد ملئت إفكا وزورا ، حتى بلغ ملك أمته ما كان منها معمورا .

والرضا عن آله وأحزابه الذين اتسقوا فى قلائد ملته الرفيعة شذورا ، وطلعوا فى سمائها بدورا ، وبذلوا نفوسهم النفيسة فى نصره وإعلاء أمره فكانت شفاعته لهم جزاءً وكان سعيهم مشكورا .

والدعاء لإمارتكم العالية بالسعد الذى يصاحب منه ركابها مددا موفورا ، والتوفيق الذى يوسع عملها نجحا وأملها سرورا .

فإنا كتبناه إليكم ــ كتب الله لكم سعدا متجدد الإحكام ، وصنعا مشرق القسام وافر الأقسام ، وعرّفكم ماعودكم من عوارف الإنعام ، وعوائد النصر الواضح الأعلام ــ [ولا زائد بفضل الله سبحانه ، ثم ببركة سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى أوضح برهانه ، ثم بما عندنا من التشيع فى مقام محل أبينا والدكم السلطان الجليل ، أسعد الله سلطانه ! ومهّد به أوطانه ! إلا مايرجى من عوائد الله الجميله ، ومننه الجزيله ، وألطافه الكافية الكفيله (١)] وعندنا من التعظيم لتلك الإمارة الرفيعة ماهو أشهر من الشهير ، وأعظم من أن يحتاج إلى التفسير ، فلا نزال نعتد لجانب أخوتها بالعتاد الكبير ، والذخر الخطير ، ونثنى على مكارمها بالقلم واللسان والضمير . وإلى هذا أيد الله إمارتكم ، وسنّى إرادتكم ، وأسعد إدارتكم ، فقد علم الغائب والشاهد ، والصادر والوارد ، ماعندنا لكم من الحب الذى

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

صــفتْ منــه الموارد ، والولاءِ الذى تضوّعتْ من طِيبِــه المعَاهد ؛ وإننا تعرَّفْنــا ما كان من قدومِكم السعيد علىٰ أحواز المَرِيَّة من تلك الأقطار، وطُلوعِكم عليها بالعَزْم الماضى والجَيْش الجَرّار . وأن محــلّ والدنا وصلَ اللهُ له عُلُوّ المقدار ، قدّمَ منكم بين يَدَيْه مُقدِّمة اليُمْن والآستبشار، ورائدَ السعادة المشْرِقة الأنوار، بخلال مايتلاحقُ بها رِكابُه العالى قدْرُه علىٰ الأقدار؛ وأن مَخايِل النُّجْح لإمارتكم الرفيعة قد ظهرَتْ ، وأدلّةَ الصُّنْع الجميل قد بهرَتْ ؛ ومَنْ بتلك الجهات، من القبائل المختَلِفات، بالطاعة قد آبتدَرتْ ، وبأوامِرها الإمارِيَّة قد آئْتمَرتْ ؛ وأنكم قد أخذتُمْ فى تسكين الأوطان وتمهيدِها ، وآستئنافِ العزائم وتَجْديدِها ، [وإطفاء نار الفتَن وإخمادها](١) وإعلاءِ أركان تلك الإيَالةِ ورَفْع عِمادها ؛ فكتَبْنا إليكم هذا الكتاب نهنِّئُكم بما سَنَّاه الله لمجْدكم الرفيع ، من حُسْن الصَّنِيع ؛ ونُقَرِّر ماعِنْدنا من الوُدِّ الكريم ، والحُبِّ الصَّمِيم ، ونستفْهِم عن أحوال أُخُوّتكم لنَكونَ من علمها علىٰ السَّنَن القَوِيم ؛ وحتّى لاتزالُ الأسبابُ متّصِله ، والمودّةُ جديدةً مقْتَبِله ؛ ولولاالعوائقُ المانعه ، والشُّقّةُ البعيدةُ الشاسعه ، والامواجُ المترامِيةُ المتدافِعه ، لم نُغِبَّ المخاطَبه ، ولوصَلْنا المراسلةَ والمكاتبه ؛ ومجدُكم يقْبَل الأعذار الصحيحةَ بمقتضىٰ كمالِه ، ومعْهودِ إفضاله ؛ والله تعالىٰ يُصْلح بكم الأحوال ، ويسَكِّن الأهوال ، ويُبَلِّغكم من فضله الآمال . وغرَضُنا أن تعرِّفونا بمــا لديكم من المتزيِّدات ، والصنائع المتجَدِّدات ، وبما عندكم من أحوال محلِّ أبينا وصَل الله عوائد النَّصر لسلطانه ، وتكَفَّل بإعلاء أمره وتمهيدِ أوْطانه . وقد كتَبْنا إليه صحبةَ هذا كتاباً غرَضُنا من أُخُوّتكم الطاهرة ، أن يَصِــلَ إلىٰ حضرته العلية تحتَ عِنايتكم ووصَاتكم ، والرعايةِ التى تليق بذاتكم ؛ وهو سبحانه يَصِل سعْدكم ويحرُس مجدَكم ، ويحفَظ ولاءَكم الكريمَ ووُدَّكم ؛ والسلامُ الكريمُ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب" .

الاســــلوب الثـانى

(أن تُفتتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه أو المكتوب عنه، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تُفتَتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه تعظيمًا له)

والرسم فيه أن يقال : إلىٰ فلان، ويُنْعَت بما يليق به؛ ثم يُؤتىٰ بالسلام، ويقال : أما بعد ويؤتىٰ بخطبة، ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم كتبَ اللهُ لكم كذا وكذا، من موضع كذا، ويُتخلَّص إلىٰ المقصود بلفظ «وإلىٰ هـذا» ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره ويُختم بالســـلام .

كما كتب ٱبنُ الخطيب عن سلطانه ٱبن الأحمر إلىٰ الأمير يَلْبُغا العُمَرىّ الشهير بالخاصِكىّ : أتابك العساكر بالديار المصرية فى الدولة الأشرفيّة «شعبان بن حسين» .

إلىٰ الأمير المؤتمَن علىٰ أمر سلطان المسلمين، المقلَّد بتدبيره السديد قِلادةَ الدِّين، المُثنِي علىٰ رُسوم بِرّه المُقامةِ لسانُ الحَرَم الأمين، الآوِى من مرضاة الله تعالىٰ ورسولِه إلىٰ رَبْوة ذاتِ قرار ومَعين، المستعينِ من الله علىٰ ما تحمَّله وأمَّله بالقوىّ المُعين؛ سيفِ الدَّعوه، رُكنِ الدوله، قِوَامِ المله، مؤمَّل الأمّـه؛ تاجِ الخَوَاصّ، أسـدِ الجُيوش، كافِى الكُفاة؛ زينِ الأُمراء، عَلَم الكُبَراء؛ عَيْن الأعيان، حَسَنةِ الزمان؛ الأَجَلّ، المُرفَّع، الأسنىٰ، الكبير، الأشهر، الأسمىٰ، الحافِل، الفاضِل، الكامل المعظم، الموقَّر، الأمير، الأوحد، «يَلْبُغا الخاصكى» وصل الله له سعادةً تُشْرِق غُرَّتُها، وصنائعَ تَسِحُّ فلا تَشِحُّ دِرّتُها، وأبقىٰ تلك المثابةَ قلادةَ اللهِ وهو دُرّتُها؛ سلام كريم، طيب عمِيم؛ يخص إمارتكم التى جعل الله الفضلَ علىٰ سعادتها أماره،

واليُسْرَ لهـا شاره؛ فيساعد الفلكَ الدوّارَ مهـما أعملَتْ إداره، وتمتثل الرسومَ كُلّما أشارتْ إشاره .

أما بعد حَمـدِ الله الذى هو بعِلْمه فى كل مكان ، من قاصٍ ودان ، وإليه تُوجَّه الوجوهُ وإن آختلفت السِّـيرُ وتباعدتِ البُلْدان ، ومنه يُلْتَمَس الإحسان ؛ وبذكره يَنْشرح الصدرُ ويطمئنُّ القلب ويمرحُ اللِّسان .

والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمد رسولِه العظيم الشان ، ونبيِّـه الصادق البَيَان، الواضِح البُرْهان .

والرضا عن آله وأصحابه ، وأعمامه وأحزابه ، أحْلاسِ الخَيْل ، ورُهبان الليل ، وأُسُودِ المَيْدان .

والدعاءِ لإمارتِكُم السـعيدة بالعزِّ الرائق الخَبَر والعِيان ، والتوفيقِ الوثيقِ البُنْيان ؛ فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم حَظًّا من فضله وافرًا ، وصَنِيعا عن مُحيَّا السُّرور سافِرا، وفى جَوِّ الإعلام بالنِّعم الجِسام مُسافِرا . من حمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ دار الملك بالأنْدَلُس ، دافع الله عن حَوْزتها كيدَ العُدَاه ، وأتحف نصلَها ببَواكر النَّصر المُهْداه ؛ ولا زائدَ إلا الشوقُ إلىٰ التَّعارُف بتلك الأبواب الشريفة التى أنتم عُنْوانُ كِتابِها المَرْقُوم ، وبيتُ قصيـدِها المَنْظوم ، وآلتماسُ بركاتها الثابتة الرُّسُوم ، وتقريرُ المُثُول فى سبيلِ زيارتها بالأرواح عند تعذُّره بالجُسُوم .

وإلىٰ هذا فإنَّنا كانتْ بين سَلَفِنا ـ تقبَّلَ اللهُ جِهادَهم وقدّسَ نُفُوسَهم وأَمَّنَ مَعادَهم ـ وبَيْن تلك الأبوابِ السلطانية ـ ألقىٰ اللهُ علىٰ الإسلام والمسلمين ظِلالَها ، كما عرّفَهُم عَدْلها وإفْضالَها ـ مراسلةٌ يَنِمُّ عَرْفُ الخُلُوص من خِلالهـا ، وتسطَع أنوارُ السعادةِ من آفاق كَمالها ، وتُلْتَمح من أسطار طُرُوسها محاسنُ تلك المعاهد، الزاكيةِ المَشَاهد،

وتُعرِب عن فضل المَذاهب وكَرم المَقاصد، آشتقْنا إلىٰ أن نُجَدّدها بحُسْن مَنابِكم، ونَصِلَهَا بمواصلة جَنَابكم، ونَغْتنِمَ فى عَوْدها الحميد مكانَكم، ونفضل لها زمانكم؛ فخاطَبْنا الأبوابَ الشريفةَ فى هذا الغرَض بمخاطبةٍ نَجلةٍ من التقصير، وجِلةٍ من الناقد البصير؛ ونُؤمِّل الوصول فى خِفارة يَدِكُم التى لها الأيادى البِيض، والمَوَارِد التى لاتَغيض؛ ومِثْلُكم من لا تخيب المقاصد فى شمائله، ولا تَضْحىٰ المَآمِلُ فى ظِلِّ خَمائله؛ فقد آشتهرَ من عظيم سِيرتِكم ماطَبَّق الآفاق، وصَحِبَ الرِّفاقَ وآستلزم الإصْفاق؛ وهذه البلادُ مباركة، ما أَسْلف أحَدٌ فيها مُشَاركه؛ إلا وجَدَها فى نَفْســه وماله ودِينه وعياله، واللهُ أكرمُ مَنْ وَفَّى لآمرئٍ بمكياله؛ والله جل جلالُه يجمع القلوبَ علىٰ طاعته، وينفَعُ بوسيلة النبيّ الذى نُعَوِّل علىٰ شــفاعته؛ ويُبقِى تلك الأبوابَ ملجأ للإســلام والمسلمين، وظِلًّا لله علىٰ العــالَمين، وإقامةً لشــعائرِالحَرَم الأمين؛ ويتولَّى إعانةَ إمارتِكم علىٰ وظائف الدِّين، ويجعَلكم ممن أَنْعَم الله عليه من المجاهِدين؛ والسلامُ الكريمُ يخصُّكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

الضـــــرب الثــانى

(أن تُفتتَح المكاتبة باسم المكتوب عنه، وهو علىٰ صنفين)

الصنف الأوّلُ

(مايُكتَب به إلىٰ بعض الملوك)

والرسمُ فيه أن يقال : من فلان إلىٰ فلان، بألقابه ونعوته ونُعُوت آبائه علىٰ ما تقــدّم؛ ثم يؤتىٰ بالسلام، ويقال أما بعــد حمد الله، ويؤتىٰ بخطبة ثم يقال فإنا كتبناه إليكم كتَب الله لكم كذا؛ ثم يقال : وإلىٰ هذا فإن كذا وكذا، ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره، ويختم بالدعاء ثم بالسلام علىٰ نحو ما مَرَّ .

كما كتب ابن الخطيب عن ابن الأحمر إلى بعض ملوك الغرب يهنئه بدخول مدينة بجاية فى طاعته ماصورته :

من أمير المسلمين عبد الله محمد، ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج، ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر أيد الله أمره، وأعز نصره، إلى محل أخينا الذى نصل له أسباب الإعظام والإجلال، ونثنى عليه بما له من كريم الشيم وحميد الخلال، ونسر له ببلوغ الآمال، ونجاح الأعمال، فى طاعة ذى الجلال، السلطان فلان ابن السلطان فلان، بالألقاب اللائقة بكل منهم، وصل الله له سعدا متصل الدوام دائم الاتصال، وصنعا تجلى وجوهه من ثنايا القبول والإقبال، وعزا تتفيأ ظلاله عن اليمين والشمال، سلام كريم، بر عميم، يخص سلطانكم الأسنى، ويعتمد مقامكم المخصوص بالزيادة والحسنى، ورحمة الله وبركاته .

أما بعد حمد الله الواهب الفاتح، المانع المانح، مظهر عنايته بمن خاص إليه قصده، وقصر على مالديه صدره ووِرده، أبدى من محيا النهار الواضح . الذى وعد من اتقاه حق تقاته، على ألسنة سفرة الوحى وثقاته، بنجح الخواتم والفواتح .

والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد رسوله المبتعث لدرء المفاسد ورعى المصالح، وسعادة الغادى والرائح، منقذ الناس يوم الفزع الأكبر وقد طاحت بهم أيدى الطوائح، وهاديهم إلى سواء السبيل بأزمة النصائح، ومظفرهم من السعادة الدائمة بأربح البضائع وأسنى المنائح .

والرضا عن آله وأصحابه، وعترته وأحزابه، الذين خلفوه امتثالا لأمر الصحائف وإعمالا للصفائح، وكانوا لأمته من بعده فى الاقتداء بسنته والمحافظة على سننه كالنجوم اللوائح .

والدعاء لسلطانكم الأسْمىٰ ، بالسَّعْد الذى يَغْنىٰ بوَثاقة سببه ، ووُضُوح مذهبه ، عن زَجْر البـارِح والسانِح ، والعِزِّ البَعيـد المَطَارح ، السامى المَطَامِح ، والصنع الجميل الباهر المَلاَمح ؛ ولا زال توفيقُ الله عائدًا علىٰ تدبيركم السعيدِ بالسَّعْى الناجح ، والتَّجْر الرابح .

فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم من فضله أوْفَر الأقسام وأوْفَاها ، وأوردكُم من موارد عنايته أعذَبَ الجِمَام وأصْفاها ، كما أسـبغَ عليكم أثوابَ المواهب وأضْفاها . [وأبدى لكم وجوهَ اللطائف الجميـلة وأحفاها](١) من حمراءِ غَرْناطة ـ حرسها الله ـ وفضلُ الله هاميَةٌ دِيَمُـه ، وعوائدُ اللُّطْف يَصِلُها فضلُه وكرَمُه ، والإسلام بهذا الثغرِ الجِهادىّ مَرْعِيَّة ذِمَمه ، وجاهُ النبوّة المحمديَّة يَعْمَلُ بين إرغام العدُوّ الكافر ، و إهداء المَسَرَّات والبَشَائر ، سَيْفُه وقلَمُه . والسُّرور بمـا يبْلُغ من مَزِيد سَـعْدِكم وميضُـه خافِقٌ عَلَمُه ، ووُدُّكم ثابت فى مواقف الخُلُوص قَدَمُه .

وقد اتصل بنا ما كان من دخولِ حضرة بِجاية حرسها الله فى طاعتكم ، وانتظامِها فى سِلْك جماعتِكم ؛ وانقطاعِهـا إلىٰ عِصْمتكم ، وتمسُّكها بأزِمَّتكم ؛ وعقدِكم منهـا ومن أختهـا السابقةِ الذِّمام ، الخليقةِ بمَزِيدِ الاهتمام ؛ علىٰ عقيلَتَى الأقطار التى لايجمَعَ بينهما إلا مَلِك هُمَام ، وخليفةٌ إمام ؛ ومَنْ وَضَحت من سـعادته أحْكَام ، وشُهِّرت بعنـايةِ الله له أدلَّةٌ واضحـةٌ وأعلام ؛ ومن جَمَع الله له بين البَرِّ المترا كض الخُيول ، والجيشِ المتدافع السُّيول ، والخِصْب الذى تُنْضِى مَوَاجده المستنجزةُ ظهور الحُيول ؛ و بين البحرِ الشهير بنَجْدة الأسطول ، و إنجازِ وعد النصر المَمْطُول ؛ ومَرْسىٰ السُّفُن التى تخوض أحشاءَ البِحار ، وتجلُبُ مَرَافِقَ الأمطار والأقطار ، وتُتْحِف علىٰ النَّأْى بطُرَف الأخبـار .

---

(١) الزيادة من الريحانة .

بجايةُ وما بجَاية ! دارُ المُلْكِ الأصيل العتيق، وكرسيُّ العِزِّ الوَثِيق، والعُدّه، إذا تُوُقِّعتِ الشِّدّه، كم ثبَتَتْ علىٰ الزِّلْزال، وصابرتْ مواقِفَ النِّزال، أمطاكم السَّعدُ صَهْوتَها، وأحلّكم التوفيقُ رَبْوتَها؛ من غير مُطاولةِ حصار، ولا آستِنْفادِ ذى وُسْع وآقتدار، ولا تَسَوُّر جدَار؛ فأصبحت دولتُكم السعيدة نتفيأ [جَنىٰ الجنَّتين، وتختال فى حُلَّتين، وتجمع بفُتْيا(١)] السيوفِ المالكيَّة بين هاتين الأختين؛ أوزعكم الله شُكْرها من نعمةٍ جلَّت مَواهبُها، ووَضَحَتْ مذاهِبُها، وصَنِيعةٍ بَهَرت عجائبُها.

وإذا كانت عقائلُ النِّعم تَخْطُب أكفاءَها، وموارِدُ المِنَن تَعْرِض علىٰ الوُرّاد صَفاءَها، فأنتم أهلُها الذين لكم تُذْخَر، وبمَنْ دُونَكم تَسْخَر؛ فإنكم تميزْتم بخِصال العَفاف والبَسالَه، والحَسَب والجَلاَله؛ وأصبحتُمْ فى بيتِكم صَدْرا، وفى هالَةِ قومكم بَدْرا؛ مَوَاقِفُكم شَهِيره، وسِيرتُكم فى الفضل لا تَفْضُلها سِيره؛ ونحن نُهنِّئُكم بما مَنَحكم اللهُ من آنْفِساح الإيالَه، ونُمُوّ الجَلاَله، والنِّعَم المُنْثاله، بسلطانٍ ألقىٰ عِنانَهُ إلىٰ مثلكم قد آختاره لِقيادِه، وآرتادَ فسَعِد فى آرْتيَادِه؛ وتكفَّل الحزمُ بحفظ بِلادِه، وصَوْنِ طارِفِه وتِلادِه؛ وكأنَّ به قد آستولىٰ علىٰ آمادِه، وتطاوَلَ لإرث أجدادِه. ولنا فيكم ـ علم الله ـ وُدٌّ [تأسَّسَ بناؤه، وكَرُمت أبناؤه(١)] وحُبٌّ وجب بالشرع إنفاذُه إليكم وإنهاؤه. وغرضُنا الذى نُؤْثِره علىٰ الأغراض والمَقَاصد، ونقدِّمُه بمقتضىٰ الخُلُوص الذى زكَتْ منه الشَّواهد؛ أنْ نتصلَ بيننا وبينكم المخاطبه، وتتعاقَبَ المواصلةُ والمُكاتبه؛ والله عزَّ وجلَّ المعينُ علىٰ مايجب لودّكم من بِرٍّ تكفل واجبُه، وتوضّح مذاهبُه، وآعتقادٍ جميل يتساوىٰ شاهدُه وغائبُه؛ وهو سبحانه يَصِل سعدَكم، ويحرُسُ مجْدَكم، والسلام الكريمُ يخصُّكم ورحمةُ الله وبركاته.

---

(١) الزيادة من "ريحانة الكتاب".

الصنف الثاني

(ما يكتب به إلىٰ الرَّعايا)

والحكم فيه علىٰ نحو ماتقدّم في الصِّنف الذي قبله ، إلا أنه يخاطبهم بأوليائنا .

كما كتب ٱبنُ الخطيب عن ٱبن الأحمر أيضًا إلىٰ بعض رعَاياه بمدينة المَرِيَّة بالأندَلُس ، بالبشارة بموت الطاغيةِ ملِكِ قَشْتالة بجبَل الفتْح ، و رحيلِ قومه به إلىٰ بلادهم ماصورته :

من الأمير عبدِ الله يوسفَ ، ٱبن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيلَ بنِ فَرَج ٱبن نصر أيَّد اللهُ أمره ، وأعز نصره ، وأسعد عَصْره ، إلىٰ أوليائنا في الله تعالى الذين نُبادِر إليهم بالبشائر السافرةِ الغُرَر ، ونجلُو عليهم وجوهَ[1] الصنائع الإلٰهيَّة كريمةَ الخُبْر والخَبَر ، ونَعْلَم مالهم من الوُدّ الكريم الأَثَر : القائدِ بالمَرِيَّة ، والقاضي بها ، والفقهاءِ ، والأشياخ ، والوزراءِ والأمراء والكافَّة والدَّهْماء من أهلها ؛ عَرَّفهم الله عوارِفَ الأداء ، وأوزعهم شُكْرَ نِعْمَةِ هذا الفتح الرَّبَّانيّ الذي تفتَّحتْ له أبوابُ السماء ، وأنْشرتْ معجزاتُهُ ميِّتَ الرجاءِ في هذه الأرجاء . سلامٌ كريم ، طيبٌ بَرٌّ عميم ؛ تُنْشَقُ منه نَفَحاتُ الفرج ، عاطرةَ الأَرَج ، ورحمةُ الله و بركاتُه .

أما بعدَ حمدِ الله فاتِح أبوابِ الأمَلِ بعد ٱستِغْلاقِها ، ومُتدارِك هذه الأمةِ المحمديَّةِ بالصُّنْع الذي تَجَلَّى لهـا مِلْءَ أحْدَاقها ، والرحمـةِ التي مدّتْ علىٰ النُّفُوس والأموال ، والحُرُماتِ والأحوال ، ضافِيَ رُواقِها .

والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا ومولانا محمدٍ رسوله الذي دَعْوتُه هي العُروة الوُثْقىٰ لمن تمسَك باعتِلَاقها ، وأقام علىٰ ميثاقها ؛ ذي المعْجزات التي بَهَرت العُقُول بائتِلاقها ،

(١) في الريحانة ج ٢ " من وجوه الغنائم الاهلية كريم " الخ .

الذى لم تَرُعْه فى الله الشدائدُ علىٰ آشتدادِ وَثاقِها، وفَظَاعةِ مَذاقها؛ حتّى بلغتْ كلمةُ الله ما شاءتْ من آنتظامها وآتّساقِها .

والرضا عن آله وصحبه ، وعِترته وحِزْبه ؛ الفائزين فى مَيْدان الدنيا والدين بخَصْل سِبَاقها . فإنا كتبناه إليكم ـ كتب الله لكم شُكْرا لنِعَمه، ومعرفةً بمواقع كرمه . من حمراءِ غَرْناطةَ ـ حرسها الله ـ ولا زائدَ بفضل الله سبحانه إلاما أمَّن الأرجاءَ ومهَّدها ، وأنشأ مَعالِمَ الإســلام وجَدّدَها ، وأسَّس أركانَ الدين الحنيف وأقام أَوَدَها ؛ وأتم الأولياءُ، الذين نعْلَم منهم خُلوصَ الأهْواء، ونَتحقّق ماعندهم من الخُلوص والصَّفاء. وإلىٰ هذا فقد علمتم ما كانتِ الحالُ آلتْ اليه من ضِيقة البلاد والعِباد بهذا الطاغية الذى جرىٰ فى مَيْدان الأَمل جَرْىَ الجَمُوح، ودارتْ عليه خمرةُ النَّخْوة والخُيَلاء مع الغَبُوق والصَّبُوح؛ حتّى طَفَح بسُكْر آغترِاره، ومُحِّص المسلمون علىٰ يدَيْه بالوقائع التى تُجاوِزُ منتهىٰ مِقْداره؛ وتوجَّهت إلىٰ آستئصال الكلمة مَطامِعُ أفكاره، ووَثِق بأنّه [يطفئُ][1] نورَ الله بناره، ونازل جبل الفَتْح فشدّ مُخنّق حِصَاره، وأدارَ أشياعَهُ فى البَرِّ والبحر دَوْرَ السِّوار علىٰ أسْواره؛ وانتهز الفُرصَة بانقطاع الأسباب، وآنبهامِ الأبْواب، والأمور التى لم تجرِ للمسلمين بالعُدْوتين علىٰ مألُوفِ الحساب؛ وتكالبَ التثليثُ علىٰ التوحيــد، وساءتِ الظُّنونُ فى هــذا القُطْر الوحيــد؛ المنقطِع بين الأُمَم الكافرة، والبُحُور الزاخرة، والمَرَام البعيد . وإننا صابَرْنا بالله تيّارَ سَيْله، وآستضأْنا بنُور التوكُّل عليه فى جُنح هذا الخَطْب ودُجُنَّة ليله؛ ولجأْنا إلىٰ مَنْ بيده نَواصِى الخلائق، وآعتلَقْنا من حبله المتين بأوْثق العلائق ، وفَسّــحْنا مَجالَ الأمل فى ذلك المَيْدان المتضايِق؛ وأخْلَصْنا لله مُقيلِ العِثار ، ومَوْلىٰ أُولِى الآضطرار، قُلُوبَنا ، ورفَعْنــا إليه أمْرَنا ، ووَقَفْنا عليه مطلُوبَنا؛ ولم نُقَصِّرمع ذلك فى إبرام العَزْم، واستِشْعار الحَزْم؛ وإمداد

(١) من "ريحانة الكتاب" ج ٢ .

الثُّغُور بأقصىٰ الإمكان ، وبَعْث الجيوش إلىٰ ما يَلِينا من بِلاده علىٰ الأحيان ؛ فرحِمَ اللهُ ٱنقطاعَنا إلىٰ كَرَمه ، حين لجَأْنَا إلىٰ حَرَمه ؛ فجلا بفضله سبحانه ظَلامَ الشِّدّه ، ومَدّ علىٰ الحريم والأطفالِ ظِلالَ رحمتــه المُمتدّه ، وعَرَّفَنا عوارفَ الصُّنْع الذى قَدُم به العهدُ علىٰ طول المُدّه ؛ ورماه بجَيْش من جيوش قُدْرته أغنىٰ عن إيجاف الرِّكاب ، وٱحْتشاد الأحزاب ؛ وأظهر فينا قُدرةَ مُلْكِه عند انقطاع الأسـباب ، وٱستخلص العبادَ والبلاد من بين الظُّفُر والناب ؛ فقد كان سَدّ المَجازَ بأساطيله ، وكاثَرَ كلمةَ الحقِّ بأباطيله ؛ ورمىٰ الجزيرةَ الأنْدَلُسِيَّةَ بشُؤْبوب شَرِّه ، وصيَّرها فريسةً بين غِرْبان بحره وعِقْبان بَرِّه ؛ فلم يخلُص إلىٰ المسلمين من إخوانهم مَرْفَقةٌ إلا علىٰ الخَطَر الشديد ، والإفْلاتِ من يَدِ العدُوّ العَنِيد ، مع توفُّر العزائم ـ والحمدُ لله ـ علىٰ العمل الحَميد ، والسعْيِ فيما يعودُ علىٰ الدِّين بالتأييد .

وبينما شَفَقتُنا علىٰ جبــل الفتح تُقيم وتُقْعِد ، وكَلَبُ الأعداء عليه يُبْرِق ويُرْعِد ، واليأسُ والرجاء خصمانِ هــذا يقرِّب وهــذا يُبْعِد ؛ إذ طَلَع علينا البشيرُ بٱنفراج الأزْمه ، وحلِّ تلك العَزْمه ؛ وموتِ شاةِ تلك الرُّقْعه ، وإبقاءِ الله علىٰ تلك البُقْعه ؛ وأنه سـبحانه أخذ الطاغيةَ أكمَلَ ما كان ٱغتِرَارا ، وأعظَمَ أنصارا ؛ وزَلْزل أرضَ عِزِّه وقد أصــابَتْ قرارا ؛ وأنَّ شِهابَ سـعده أصبح آفِلا ، وعَلَمَ كِبْره ٱنقلب سافِلا ؛ وأنْ من بيــده مَلَكوتُ السموات والأرض طَرَقه بحَتْفه ، وأهلكه برَغْم أنفه ؛ وأن مَحلَّته عاجلها التَّبابُ والتَّبار ، وعاثَتْ فى منازله النــار ، وتمخَّضَ عن سُوء عاقبته الليلُ والنَّهار ؛ وأن حُماتَها يُخْرِبُون بيوتَهم بأيديهم ، ويُنادِى بشَتَات الشَّمْل لسانُ مُنادِيهم ؛ وتلاحَق بنا الفُرسان من جبل الفتح : المعقِلِ الذى عليه من عِنايةِ الله رُواقٌ مَضْروب ، والرِّباطِ الذى مَنْ حارَبه فهو المَحْروب ؛ فأخبَرتْ بانْفِراج الضِّيق ، وٱرتفاع العائق لهــا عن الطَّريق ؛ وبُرءِ الداءِ الذى أشرق بالرِّيق . وأن

النصارى دمّرهم الله جدّت فى ٱرتحالها، وأسرعت بجيفة طاغيتها إلى سوء مآلها، وسمحت [للسّهب](١) والنّهب والنار بأسلابها وأموالها؛ فبهرنا هذا الصُّنعُ الإلهىّ الذى مهّد الأقطار بعد رجفانها، وأنام العيونَ بعد سُهاد أجفانها؛ وسألنا الله أن يُعيننا على شُكر هذه النّعمة التى إن سُلّطت عليها قُوى البشر فضحتْها ورجحتها، أو قيست بالنعم فضلتْها؛ ورأينا سِرّ اللطائف الخفيّة كيف سريانُه فى الوجود، وشاهدْنا بالعيان أنوارَ اللطف الإلهىّ والجود؛ وقلنا إنما هو الفتحُ الأوّلُ شُفع بثان، وقواعدُ الدين الحنيف أُيّدت من صُنع الله ببيان .

اللهم لك الحمد على نِعَمك الباطنة والظاهره، ومِننك الوافره، أنت وليّنا فى الدنيا والآخره؛ وأمرْنا للحين فقُلّدت لَبّاتُ المنابرِ بهذا الخبر، وجُلّيت فى جماعات المسلمين وجوهُ هذا الفتح الرائقِ بالغُرَر؛ وعجّلنا تعريفكم به ساعة ٱستجْلائه، وتحقُّق أنبائه؛ لتسحبُوا له أثوابَ الجَذَل ضافيه، وتَرِدُوا به مواردَ الأمل صافيه؛ فإنما هو سِتْرُ الله شَمِل أنفسكم وحريمكم، وأمانه كَفَل ظاعنَكم ومُقيمكم؛ فقرِّطُوا به الآذان [وبَشّروا به الإقامة والأذان](١) وتملّوْا بالعيش فى ظِلّه، وواظِبُوا حمدَ الله ولىّ الحمدِ وأهلِه؛ وٱنشُرُوا فوقَ أعوادِ المنَابر من خطابِه رايةً ميمونةَ الطائر، وٱجعلُوا هذه البِشارةَ سِجِلًّا فى فُرْقان البشائر؛ فشُكْرُ الله سبحانه يستدعى المَزِيدَ من نِعَمه، ويضْمَن ٱتّصالَ كرمه؛ وعرّفوا بذلك من يَليكم من الرعيّة ليأْخُذَ مثلَ أخْذِكم، ويَلْحَظ هذا الأمرَ بمثل لَحْظِكم؛ فحقيقٌ عليكم أن تُشيدُوا بهذا الخبر فى الحاضِر والبادِ، وتجعلُوا يومَ عاشوراءَ الذى تجلّى فيه هذا الصُّنعُ ثالثَ الأعياد؛ والله سبحانه يجعله للمَسَرّات عُنْوانا، ويُطْلِع علينا وعليكم وجوهَ صُنْعه غُرًّا حِسانا؛ والسلامُ الكريم يخصُّكم ورحمة الله وبركاتُه .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" ج ٢ .

الأســـلوبُ الثـالث

(أن تُفْتَتح المكاتبـــة بلفظ «أما بعـــد»)

والرسم فيه أن يقال أما بعدَ حمدِ الله ، أو أما بعـدُ فالحمدُ لله ، ويُؤْتىٰ بخطبة . ثم يقال : فإنا كتبناه إليكم من موضع كذا كتب الله لكم كذا وكذا ؛ ثم يُتَخَلَّص إلىٰ المقصود ويُؤْتىٰ عليه إلىٰ آخره ، ويُخْتَم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ٱبن الخطيب عن ٱبن الأحمر من الأندلُس .

أما بعدَ حمد الله مُحْسن العَوَاقب ، ومُخلِّد المَنَاقب ، ومُعْلي المَراقِي في دَرَجٍ عَلِيَّة (١) المَرَاقب ، ومسَخِّر النجم الثاقب ، في الغَسَق الواقِب ، والكفيل بالحُسْنَى للمتوكِّل عليه المُراقِب ، ناسخ التمحيص ، بالعناية والتخصيص ، لتظهر حكمَةُ المُثيب والمعاقِب .

والصلاةِ والسـلام علىٰ سـيدنا ومولانا محمد رسولِه المـاحِي الحاشر العـاقِب ، ذى القَدْر المُسامِي للزُّهْرِ المُصاقِب .

والرضا عن آله الذين كانُوا في سمـاء ملَّته لهـداية أمته كالشُّهُب الثَّواقب ؛ فإنا كتبْنـاه إليكم ـ كتب الله لكم توالِيَ المَواهب ، ووضُوحَ المَذَاهب ، ووُقوفَ الدهرِ لَدَيْكم مَوْقِفَ التائب من القدح النائب ، ووالىٰ لديكم مُفاتحة الكُتُب المهنِّئة بفُتُوح الكَتَائب ـ من حمراءِ غرناطة ـ حرسهـا الله ـ وفضلُ الله بتعرُّف صُنْعه لكم هامِي السَّحائب ، وكفيلٌ بنَيْل الرغائب ؛ والسرورُ بمـا سَنَّاه الله لكم من ٱستقامة أحوالكم شأنُ الشاهد والغائب ، والرائح والآئب .

والحمدُ للهِ علىٰ ماتوالىٰ من الألطاف والعجائب . وقد وصل كتابُكم الذى أكَّد السُّرورَ وأصَّله ، وأجملَ مقتضىٰ البُشْرىٰ وفصَّـله ، ونَظَّم خبر الفتح ووصَّله ؛ وراش سَهْمَ

(١) في الريحانة في "درج عنايته والمراقب" .

السّعادة والسّداد، والعناية والإمداد، ونصّله، وأحرز حظّ السعادة وحصّله؛ تعرفون ماأتاح لكم اللطيفُ الخبير، والولىّ النصير؛ من الصُّنْع الذى آتّسق نِظامه، والنصر الذى سُنّتْ فى أمّ الكتاب أحكامُه؛ والعز الذى خفقتْ أعلامُه، والتوفيق الذى قَرْطستِ الغرضَ سِهامُه؛ وأنكم من بَعْد الكائنة التى راشَ لطفُ الله بها وجبَر، وأحسن الخير وأدال الخَبَر، وجعل العاقبةَ الحُسْنىٰ لمن صَبر؛ جهزتم الجيُوش المختاره، والعساكرَ الجَرّاره؛ يقودُها الخُلْصان من الوزراء، وتتقدّم رايَتها ميامِنُ الآراء؛ فكتب اللهُ ثباتَ أقدامِها، وتولّى نَصْر أعلامِها؛ ولم يكُنْ إلاأن حَمِيَ وطِيسُ النّزال، ورجفت الأرضُ لهَوْل الزّلْزال، وتُعُوطيت كُئوسُ الآجال، فى ضَنْك المَجَال؛ ودَجَا القَتَام، وتوهّم مع فضل اللهِ الآغتنام، وعَبَس الوجْهُ العبّاس وضَحِك النّصْل البَسّام، وأوْرد الخيلَ مَوَارد الطّعان الإقْدام؛ فكان لحِزبكم الظهورُ الذى حَكّم المهنّدةَ فى الرّقاب، والسُّمْرَ الطّوال فى الثّغَر ثم فى الأعْقاب، وبَشّرت برُؤْية هلال الفتح عُيونُ الآرتقاب، وحطّ عن وجه الصنع الجميل ماران من النّقاب؛ وأن مَنْ بغىٰ عليكم حسَبَ ماقرّرتم، وعلىٰ نحو ما أجملْتم وفسّرتم، من شيوخ الغرب المُجْلبه، ووُجُوه الخَـدَم المنتَمِية إلىٰ حسن العهد المنتَسبه؛ تحصّل فى حُكم آسترقاقكم، وتحتَ شدّ وَثَاقكم؛ وربما أسفر المكروهُ عن المحبوب، وآنجلىٰ المرهوبُ عن المرغوب، والله مقلّب القُلُوب؛ وشِيَمتُكم فى آئتلاف النافر، والأخذِمن فضل العَفْو بالحَظّ الوافر، كفيل لكم بالصُّنع السافر؛ والله يحمِلُكم علىٰ مافيه رِضاه، ويَخير لكم فيما قَضاه؛

فسُررنا بما آتّصل لكم من الصُّنْع وآطّرد، ورحّبنا بهذا الوارد الكريم الذى ورد؛ وشكَرْنا فضلكم فى التعريف بخَبَره المودُود؛ والشرح لمَقامه المحمود؛ وكتبنا نُهنّئكم به هنـاء مَشْفُوعا، وبالدعاء لكم متبوعا؛ والله يُطْلع من توالى مَسَرّتكم علىٰ مايَبْسُط

الآمال، ويُنْجِح الأعمال ؛ ويَفْسَح فى السعد المجال . والذى عندنا من وُدِّكم أعظمُ من ٱستيفائه بالمَقَال، أو نهوضِ اليَرَاع بوظائفهِ الثِّقال ؛ يعلَمُ ذلك عالم الخفيَّات، والمجازى بالنِّيَّات ، سبحانه . والله يصِلُ سعدكم، ويحرُس مجْدكم، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

الطَّرَف الثـانى عَشَر

(فى الكتب الصادرةِ عن وُزَراء الخلفاء المنَفِّذين أمورَ الخـلافة اللاحقين بشَأْو الملوك، وفيه جملتان)

الجمـلةُ الأولى

(فى الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء بنى العَبَّاس ببغداد ووُزَراء ملوكها يومَئِـذ)

أما وُزَراء إقطاعاتها، فقد ذكر أبوجعفر النحاس فى "صناعة الكُتَّاب" أن المكاتبة من الوزير إلى الخليفة فى زمانه كانت : « أطالَ اللهُ بقاءَ أميرِ المؤمنين وأعَزَّه وأيَّده وأتَمَّ نعمته عليه، وأدام كرامته له » .

قال ٱبن حاجب النعمان فى "ذخيرة الكتَّاب" : وإن كانت المكاتبةُ من الوزير إلى مَنْ دونَه فدعاؤه له : « أطال الله بقاءَك وأدام تأييدَك وتمهيدَك وكرامَتَك » . ودونه « أطال اللهُ بقاءك وأدام عِزَّك وحِراسَتَك » . قال : وعلى مقـدار المكاتَب يكونُ الدعاء . وأقسامه كثيرة. ثم ذكر الأدعيةَ العامَّةَ بعد ذلك على الترتيب، فقال : إن أعلاها يومئـذ « أطال اللهُ بقاءه وأدام تمكينَـه ورِفعته وبَسْطته وعُلُوّه وسُمُوّه، وكبَتَ أعداءَه وحسدتَه » . ودونه «أطال الله بقاه، وأدام تمكينَه وارتقاه، ورفْعته

وسناه ، وتمهيده وكبت أعداه» . ودونه «أطال الله بقاه وأدام تأييده ونُعْماه وكبت أعداه» . ودونه « أطال اللهُ بقاه وأدام تأييده وحرس حَوْباه(١)» . ودونه «أطال اللهُ بقاه، وأدام تأييده ونُعْماه » . ودونه «أطال الله بقاءه وأدام نعماءه » . ودونه «أطال الله بقاءه وأدام عزَّه» . ودونه « أطال اللهُ بقاءه وأدام توفيقَه وتسديده» . ودونه «أطال اللهُ بقاءه وأدام سدادَه و إرشاده» . ودونه « أطال الله بقاءه وأدام حراستَه» . ودونه « أدام الله تأييدَه وتمهيدَه » . ودونه « أدام الله توفيقَه وتسديدَه » . ودونه « أدام الله عِزَّه وسناه » . ودونه « أدام الله عِزَّه » . ودونه « أدام الله حِراستَه » . ودونه « أدام الله كرامتَه » . ودونه «أدام الله سلامتَه » . ودونه « أدام الله رِعايتَه » . ودونه « أدام الله كِفايتَه » . ودونه « أبْقاه الله » . ودونه «حَفِظه الله » ودونه « أعَزَّه الله » . ودونه « أيَّده الله » . ودونه « حَرَسه الله » . ودونه « أكْرَمه الله » ودونه « وَفَّقه الله » . ودونه « سَلَّمه الله » . ودونه « رَعَاه الله » . ودونه « عَافَاه الله » .

ثم المكاتبات الصادرة عنهم على أسلوبين :

الأسلوب الأوّل

(أن تُفتَتح المكاتبة بلفظ «كتابى»)

والرسم فيه أن يقال كتابى ــ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ، أو بقاء مولانا ــ والأمرُ على كذا وكذا ، ومولانا أميرُ المؤمنين ، أو والجانبُ الأشرفُ ونحو ذلك على حال كذا ؛ ثم يتخلَّص إلى المَقْصد بعد ذلك بما يقتضيه المقام ويُخْتَمُ بقوله ورَأْى حضرة سيدنا أعلى .

(١) فى القاموس الحوباء النفس .

كما كتب بعض الكُتَّاب عن الوزير قوام الدين بن صَدقةَ إلىٰ بعض وُزَراء ملوك زمانه فى مَعْنىٰ أمير مكة المشرَّفة ، وما كان بينه و بين أمير الحاجِّ فى بعض السِّـنين ما صـــورته :

كتابى — أطال اللهُ بقـاء حضرة سـيدنا — ومواهِبُ الله سـبحانه فى أمر مولانا امير المؤمنين جاريةٌ علىٰ الإراده ، مقابَلَةٌ بالشكر المؤذِنِ لها بالدوامِ والزِّياده ، والحمدُ لله ربِّ العـالمين . وقد تتابعت المكاتَباتُ فى أمر النَّوبة المكِّية تتابُعا عِلْمه السامِى به مُحِيط ، والعُـذْرُ فى الإضجار بها مع إنعام النظَر بسببها مَبْسوط ؛ و بعد ماصَـدَر آنفا فى المعنىٰ المذكور وصل كتابُ زعيمِ مكَّةَ بمـا نفذ علىٰ جهته ايُعْلَم منه وممـا لاريبَ أنه أصْدره إلىٰ الدِّيوان العالى السلطانى — أعلاه الله — حقائِق الأحوال بغير شَكٍّ : أنه قد ٱتضـح تفريطُ من فَرَط فى هـذه النوبة وعَجِل ، وتحقَّق المثـلُ السائرُ « رُبَّ واثِقٍ نَجِل » وأسـبابُ ثمرة الهوىٰ الذى مازال يجمَحُ براكبه ، ويُرِيه سُوءَ عواقبه ؛ وعلِم أنه لم يُخْطِ فيما شَرَع فيه ، وٱستمرَّت علىٰ الخطَإِ أواخِرُه ومَبَاديه ، إلا بوَعْد أُخْلِف ، ومالٍ أُتْلِف ، وخَطرٍ ٱرتُكِب ، وصواب تُنُكِّب ؛ وحَزْم أُضِـيع ، وهَوًى أُطِيع ؛ حتّٰى كان قُصاراه دَفْعَ اللائمة عنه ، فإنه أوصل الحَجِيج إلىٰ مقصودِهم وأعادهم ، وأحسن التواصُلَ حتّٰى أدركُوا من أداء الفريضة مُرادَهم ؛ وهل ٱعترض دُونَ هذا الأمر مانع ، أوكان عنه دافع؟ لولا ماصَوّره من الأسباب التى أفسَدَ بها الأمور ، وأوْغَر بمكانِها الصُّدُور ، وكَفَل بعـدَ ماقرّره من ذلك ومَهَّده ، ماعكسه سفَهُ الرأى عليه ، وأبعده العجزُ عن الوصول إليه ؛ وأىُّ عذر فى هذا المَقَام يُستَمَع؟ أم أىُّ لائمةٍ عنه تندَفِـع ؟ وقد جرت الحال علىٰ ماعُلِم ، وتحدَّثَ بانخراق حِجَـاب الهَيْبة كُلُّ لسانٍ ناطقٍ وفَمٍ ؛ ووقع الاتفاق من كافَّة الحاجِّ علىٰ أن تمَسُّك نائب مكةَ بطلب الرِّضا ، وتكفيل خَصْمه باستدراك ما تَلِفَ من التفريط فى مَعَايشه ومضىٰ ؛

ونظَره فى العاقبة التى يَنْظُر فيها ذُوو الألباب ، وعملَه بمـا أصدره الديوانُ العزيزُ من مكاتبةٍ أُمِر فيهـا بالطاعة وخِطَاب ؛ هو الذى لَأَمَ النوبةَ وشَعَبها ، وسَهَّل عسيرَها ومستصْعَبها ؛ ولو ٱفتقرت إلىٰ سَعْيِ أميرِ الحاجِّ واجتهاده ، وإبْراقِه بعسكره وإرعادِه ؛ لكان الحجُّ ممتنِعا والخَطَر العظيمُ متوقَّعا ، ولم يحصُل الوفدُ إلا علىٰ التغرير بالنفوس ، والجَوْد منها بكل مَضْنُون به مَنْفُوس ؛ ثم عَرَبُ الطريق الذى ما زال أميرُ الحـاجِّ فى حقِّهم خاطبا ، ولإكرامهم بالقولِ المتكرِّر طالبـا ؛ وجاعلاً مالعله يتأخَّرُ من رسم أحدهم مِن دَوَاعى الخطر فى سلوك [الطريق] المُرْديه ، ومُوجِبـات الفَسَاد فى المَنَاهل والأوْديه ، يتلو من النَّهْب والٱجتياح ، والأذىٰ العائد علىٰ فاعله بالٱقتراف العظيم الوِزْر والٱجتراح ، بمـا يُوْلِم شجاعةَ القلوب ويحرِّقُها ، ويُبْكِى العيون ويؤرِّقها ؛ ولقد ٱنتهىٰ أن العسكر المنفَّذ أمامه كان يتنقَّل فى هِضَاب البرِّيَّة وغِيطانِها ، ويُنَقِّب عن مَنَازل العرب وأوطانها ؛ فيستَقْرِى أحياءَهُم حَيًّا حَيًّا ، ويتخَلَّل الفِجَاج فجًّا فجًّا ؛ فاذا شارفُوا قبيلةً منهم طلب النجاةَ منهم بالحُشاشات رجالُها ، وأسْلَمَتْ إليهم نساؤُها وأطفالُها وأموالها ؛ فيتحكَّمون فى ذلك تَحَكُّمَ من ٱسـتحلَّ موْقِفَه فى إباحة محارِم الله ومُقامَه ، وأمِنَ مكْرَه الحائقَ بالظالمين وٱنتقامَه ؛ ويستَبِيحون حريمَ كلِّ بريء غافلٍ لم يُقارِفْ ذنبا ، وطائع لايستَحِقُّ غارةً ولا نَهْبا ؛ فأين كان [من] النظر عند هذا الفعل فى حِفْظ عَرَب الطريق ؟ وكيف عَزُب عنه فى هذا الرأى مَنْهَجُ التوفيق ؟ وهل تُتَصوَّر الثِّقةُ بكل قبـائل العرب عن إفساد الآبارِ والمَصَانع ؟ والعبَث بكل مستطاعٍ فى المَنَاهل والمَشَارع ؛ خاصَّةً إذا علموا أن الذى ظلَمهم ، وأباح حُرَمهم ؛ هو السالكُ للطريق آنِفا ، والمتَمكِّن فيهم من مُعاودة الأذىٰ الذى أضْحىٰ كلٌّ به عارفا ، وٱستدراكُ الفارِط فى هذا الأمر المهِمِّ متعين ، ووجه الرأْى فيه واضحٌ متبيِّن ؛ والإشارة فى كتاب زعيم مكة ، إلىٰ ماجرىٰ من المعاهدة وٱستقرت القاعدةُ عليه [من] إعادة ٱرتفاعه المأخوذ

ورسومه على التمام والكمال إليــه ، أدلُّ الأدلّة على بُعْد النوبة من الآلتئام، ودخولِ الخَلَل عليها وآنحلال النِّظام؛ وتعــذُّر الحجِّ فى المستقبل . على أن مَنْ أفســدها ، لم يتأمَّلْ لنفسه طريقَ الصَّدَر حين أو رَدَها؛ والألمعيَّةُ الساميةُ المعزِّيَّة حرس الله عزَّها اللامحةُ ببديهتها العواقب، المستشْفَعة سرائُرها بالرأى الثاقب، أهدىٰ إلىٰ تدبيرها بمـا يستدْرِك الفارط ،ويتلافىٰ غَلَط الغالِط، و يعيدُ الأحوال إلىٰ جَدَد الصلاح وسَنَنِه، ويُجْريها علىٰ أجمل قانونٍ مألوفٍ وأحسنِه؛ وما أوْلاه بالتقـديم فى هـذا المهِمِّ الذى لا أحق منه بالآهتمام ، والجِـدّ الصادق التام ؛ بمـا تطْمئِنُّ به النفوس إلىٰ صَلَاحه وآنتظامه، وآرتفاع كلِّ مَخْشِىّ من الخلل الداخلِ عليه وآنحسامه؛ والإعلامِ فى الجواب بمـا يقع السكون إلىٰ معرفته ، ويحصُل الأنس والشكر فى مقابلته ؛ ورأىُ حضرة سيدنا أعلىٰ إن شاء الله تعالىٰ .

الأســـلوب الثـانى

(أن تُفتَتح المكاتبــة بلفظ الإصــدار)

مثل أن يقال : أُصْدِرت هذه المكاتبة، أو هذه الجملةُ، والأمرُ علىٰ كذا وكذا، بعد أن يُدْعىٰ للمكتوب إليه بعد لفظ الإصدار ؛ ثم يتخلَّص إلىٰ المقصود بمـا يليق بالمَقَام، ويُؤْتىٰ علىٰ القصد إلىٰ آخره، ويختَمُ بقوله : ورأْيُ حضرة سيدنا أعلىٰ .

كما كُتِب عن الوزير قوام الدين بن صَدَقة أيضا إلىٰ ملك سَمَرْقند جواباً عن كتابٍ وصل منه إليه :

أُصْدِرت هــذه الجملة (١) ــ أطال الله بقاءَ حضرة مولانا ــ ومواهبُ الله سبحانه فى الجَنَـاب الأشرفِ ــ لا زالتْ مطالِـعُ سُعوده مُنِـيره ، وأعوادُ عَلَائه مُورقــةً

(١) تارة يعبر بالجملة وتارة بالخدمة .

نَضيره ـ آهلةُ الرُّبُوع ، عَذْبةُ اليَنْبُوع ؛ قارَّةٌ لايظعَنُ رَكْبها ، دارَّةٌ لايعز حَلَبها ؛ والحمدُ لله رب العالمين .

ووصل كتابه أدام الله علوّه الصادرُ على يد الشيخ الأجلِّ العالِم أبى الحسن بن علىك ووقفتُ عليه وعَرَفت فَحْواه ، وتضاعَفَ الشكرُ لله سبحانه بما حَواه ؛ من ٱطِّرادِ الأمورِ وٱتِّساقها ، وطلوعِ شمس النُّجْح فى سماء مَبَاغيه وإشراقها ؛ وأحدثَ ٱبتهاجًا بوروده متوفِّرا ، وٱغتباطًا بما أولاه جلَّت آلاؤُه من صنعه الذى أصبحَ ذَنْب الأيَّام معه مغتَفَرا ؛ وعُرِضتْ خدمتُه المقترَنة به على مَجَالس العَرْض الشريفة قدّسها الله مشفوعةً بذكر ما لبيته الكريم وسلَفه الزاكى الأَرُومة من المآثِرِ التى أضحى بها فى الفخر عَلَما ، وعلى ناصيَة المجد محتوياً محتكِما ؛ فى ضمن إيضاحِ المحاسن التى أصبح أيَّد اللهُ سموَّه بها منفَرِدا ، ولنِجَاد المحامِدِ بحسَبِها مقلَّدا ؛ والمواقِفِ فى الطاعة الإمامية التى أصبحت غُرَّة فى جَبْهة الزمان ، ولم يَسْعَ فى مثلها لغيره قَدَمان ؛ وٱنتهتْ فى تمكين القواعد وتَوْطيدِها ، وتأكيدِ الأحوال وتمهيدِها ؛ والتجرُّدِ فى تحصيل الأَرَب ، وتيسيرِ المَطْلَب ؛ إلى ما يُوجِبه الودُّ المُحْصَف الأمْراس ، والمصافاةُ الخالصةُ من الشوائب والأَدْناس ؛ فآنَستْ فى مقابلة ذلك من الٱلتفات الى ماأوردته مما يبيِّن عن لُطْف مكاتبته بالموْقِف الأشرف ويُعرِب ، ويصْفُو مَوْرِدُ الفَخَار بمثله ويَعْذُب ؛ وجدّد من التشريف والزيادة فيه مايُوفِى على الذى تقدّمه قدرا ، ويَجِلُّ طَوْقُه عن أن يرضى عَمْرا ؛ وشَفَع ذلك بتنفيذ التشريفات لولده أيَّد الله علوَّه والمُطيفين بحضرته ، واللائذين بحَوْزته ؛ وٱبتدائهم بالإحسان والإنعام ، والتَّكْرِمة المُوفية على المَرَام ؛ إكبارًا لشانه ، وإبانةً عن محلِّه من الآراء الشريفة ومَكانِه ؛ وإيثارًا لإعظام أمرِه ، وإعلاءِ قَدْره ؛ ليعلَمَ ـ أيد الله علوّه ـ مكانَ التجرُّد فى هذه الحال ، وصدْق

السـعيِ الذى ٱقْتَرَنَّت ثُغُوره عن نُجْـح الآمال ؛ وأرجو أن يصادِفَ حسنُ المَقَـام فى ذٰلك عنده مَوْقِعَه ، ويَلْقىٰ لديه ٱعترافًا يُوافِق مَرْآه مَسْمَعه .

فأما الإشارةُ إلىٰ المشار إليه فى التوزُّع لتلك الهَنَات الجاريه ، التى مازالت الأيامُ بمثلها جائِيَه ؛ والاستبشارِ بزوال ما عَرَضَ وٱضمحلاله ، وعودِ الرأْى الأشرفِ إلىٰ أكمل أحواله ؛ وقد عَرَفها بمَزِيد الاعتداد والشكر قائلُها ، ولم يكن الذى جرىٰ ممـا يُشَعِّب فِكرا ، أو يتوَزَّع سِرّا ؛ فإن الاعتداد الأشرفَ كان بحمد الله محفوظا ، والاجتهـادَ فى الخِـدْمة بعين الاعتراف والرضا ملحوظا ؛ لم تُحِـلْه حالٌ متجدّده ، ولا رَتَعت الحوادِثُ مورده ؛ وما زالت ثُغورُ الأيَّامِ فى كل وقْت عن الزيادة باسمه ، وسُحُبه بنُجْح اشـتطاط الآمال ساجِمه ؛ والمندوبُ لتحمُّل المثـال وما يقتَرِن به من التشريف فلان ، وهو من أعيان العلماء ، ومَنْ له فى مَيْدان السبق شأوُ القُرَناء ؛ وله فى الدار العزيزة مجَّدها اللهُ الخدمةُ الوافيـه ، والمكانةُ الوافِره ؛ وما زالت مذاهِبُـه فى خِدَمه حَميـده ، ومقاصِدُه علىٰ تقلُّب الحالات مَرْضِيَّةً سـديده ؛ وجديرٌ بتلك الألمعيَّة الثاقبة أن تتلقّىٰ ما يورده بالإصغاء ، وتقابل النِّعم المسداةَ إليه بالشكر المـاطر الأنواء ؛ وتُوقِظَ ناظرَ ٱهتمامه للنُّهوض بأعبـاء الخدمة الإماميَّـه ، وحيازةِ المَرَاضى المكتَرمة النبويَّه ؛ وتُمْهى عزيمتُها فيما يكونُ بالإحماد الأشرفِ مُحْظيا ، ولأمثال هذا العُرْف المصنوع مستَدْعِيا ؛ ولرأْىِ حضرة سيدنا فى ذلك علُوُّ رأى إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــلة الثانيـــة

(فى الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء الفاطميين بالديار المصرية)

فقد ذكر علىّ بن خَلَف من كُتَّاب دولتهم فى كتابه "موادّ البيان" أنه إذا كانت المكاتبةُ من الوزير إلىٰ مَنْ دونه ، تكون بغير تصدير ، إلا أن الخطاب فيها يجب أن يُبْنىٰ علىٰ أقدار المخاطبين فى مراتبهم فى الدولة ، ولم يزد علىٰ ذلك .

والذى وقفت عليه منه أسلوبٌ واحد: وهوأن يفتَتح الكتَاب بلفظ «كتابُنا والأمر علىٰ كذا» ويُتَعرّض فيه لذكر حال الخلافة والخليفة، ثم يتخَلَّص إلىٰ المقصود بما يقتضيه الحال، ويؤتىٰ عليه إلىٰ آخره، ويختم بالدعاء.

كما كتب القاضى الفاضل عن بعض وزراء العاضِد: آخر خلفَائِهم إلىٰ بعض الملوك ماصورته:

كتابُنا ـ أطال الله بقاءَ الملك ـ عن مودَّةٍ ظاهرةِ الأسباب، متظاهرةِ الأنساب، ضافيةِ جِلْباب الشَّباب؛ وعوائدِ عوارفَ لايتنكَّر معروفها، ووفُودِ فوائدَ لايتصَدَّع تأليفُها؛ ومسَاعِى مَسَاعد لاينقصُ معروفها ولاينفض مَسُوفها؛ وسعادةٍ بالخلافة التى عدقَ إليه أمْرها وأوضح سِرَّها؛ وملأ سرائرها وسريرَها، وأطلع شمسها وقمرَها. بمولانا وسيدنا أمير المؤمنين تتوالىٰ مَيامنُها، وتتلألأُ محاسنُها، وتَشْرُف درجاتُها، وتتضاعفُ سعادتها؛ والكلمةُ قائمة علىٰ أصولها، وأمور الخلق جاريةٌ علىٰ ماهولها، ونظامُ الإسلام بسياستها لايَهِى، وسياقةُ الدوام فى سعادتها لاتَنْتهِى؛ والله المُوزع شكْرَ هذه المِنَن، المسئُولُ فى الإنهاض لما نَهضت فيه النيَّةُ وقَصُرت عنه المُنَن؛ ولم نزل ـ أدام الله إقبال الملك المعظم ـ معظِّمين لأمره، عارفين نُبْلَ قدره وجليلَ فخره، مُشِيدين بجميل ذِكْره وجزيل نصره، مُعيدين لما تتهادىٰ الألسُنُ من مستطاب نَشْره، قارئين من صَفَحات الأيام ما أمَدَّها به من بِشْره، غير مستيمنين لذكر آسمه الكريم إلا بصيامه وشكْره، مُوردين مما هو يبلُغه من بارع ضَرائبه بالمَقامات الشريفة من آثار سلَفِه ومآثِرهم، ومأثورِ مَكارمِهم ومفَاخرهم؛ وآستنادِ المكْرُمات إلىٰ أوّلهم وآخرِهم؛ ومشهورِ ذَبِّهم عن المِلَّه، ودفاعِهم عن أهل القبله؛ وسَدَادهم فى الأمور، وسِدَادِهم الثُّغور، وسِيادتهم الجمهور؛ وآستقلالِهم بالمشَقَّات المتقدّمه، وإخمادِهم نِيرانَ الخُطوب المضطَرِمه، وكَفِّهم سيولَ السيوفِ العَرِمه؛ ومِوالاتِهم أمورَ الدولة

العَلَويَّة التي آشتهر بها منهم الأكابر، وورِثها كابرٌ عن كابرٍ؛ وحافَظُوا منها على سيرة معروفٍ لا يُنْسَخ، وعَقْد صفاءٍ لا يُفْسَخ؛ وسريرةِ صِدقٍ تستقِرّ في الضمائر وتَرْسَخ، وتتوضَّح بها غرّةٌ في جِباه السبْق وتَشْدَخ؛ وتستهْدِى عند إيراد هـذا الذِّكْر العَطِر، والثناء المشتَهِر؛ من الدعوات الشريفة العاضديَّة المعضودة بالنُّجح، المتوضِّحة عن مثل فَلَق الصُّبح؛ ما يتهلَّل لمَساعيه بالمَيامن المستهِلَّه، ولمَراميه بالإصابة المتصله؛ بينه وبين هـذه الدولة العاليه، والخلافة الحاليَه؛ بكتاب منـه نَهَجْنا فيه طريقَها اللاحِب، وآستدْعَيْنا به إجابتَه التي تُتاقُ بالمَراحب؛ وأعلمناه أنَّ تمادىَ الأيام دُونَ المراسَلة وتطاوُلَهـا، وتنقُّلَ الأحوال والدُّول وتناقُلَها؛ لا يزيدُ مودَّتَه إلَّا آستحكامَ معاقد، وآنتظامَ عقائد، ووفاءَ مواعِد، وصَفاءَ مَوارد؛ وأنه لا تبـاعد بين القلوب بغَرَض المَرْمىٰ المتباعد، ولا تُفَرِّق المسافاتُ القَواصى مابين النِّيات القَواصد. فلمـا تأخرت الإجابه، تقدّمت الاِستِرابه؛ وتناجَتِ الظنونُ المعتَلِجة، وتراجعت الآراءُ المختلجه؛ بأن الرسولَ عاقَتْه دُونَ المَقْصد عوائق، وتقسَّمَتْه من الأحداث دُونَ الطريق طرائِق؛ فلم ترِد المكاتبةُ إلىٰ جَنَابه، ولا أسعدَ السعى بطُروق جنابه، الذى تُنالُ السعادةُ وتُجْنىٰ به؛ وإلا فلو أنه أمّ له، بلغَ ماأمَّلَه، ولو وصله، لأجاب عما أوْصَلَه؛ لأن مكارِم خلائقه تبعَثُ علىٰ التبرُّع بالمسنون فكيفَ بقَضاء المفروض؛ وشرائفَ طرائقه تأبىٰ للحقوق الواجبة أن تَقِف لديه وقْف المطَّرَح المرفُوض. فجدّدنا هذه المكاتبةَ مشتملةً علىٰ ذلك المراد، وفاوَضْناه بمـا يُعيره الإصغاء، ويجنِّبه الإلغاء؛ ويُحسن له الإنصات، ولا يَحتـاجُ فيه إلىٰ الوَصَات. ورَسَمْنا أن يكتُمَه حتَّى عن لسانه، وأن يَطْويَه حتَّى عن جَنَـانه، وأن يتمسك بالأمر النبوىّ في آستعانَته علىٰ أمره بكتْمانه؛ فمن حُسْن الحزم سوءُ الظن، وهل لأرباب الأسرار فَرَجٌ إلا مادامتْ في السجن؛ وقد آستلزمنا المرتهن لمـا آستعظَمْنا الرهن، وفوَّضنا إلىٰ مَنْ لا يعترينا فيه الوَهْم ولا منه الوَهْن؛

ونحن تَحَبَّبْنَا بمـا يُعْلَم به حسنُ موقع رسالةِ الآسـترسال، وبمـا يبيّن به عن دلالة الإدلال، وبمـا يرحِّب بمودّته مجالُ الجمال؛ والله سبحانه يؤيِّد المَلِك بنصر تُسْتَخْدَم له الأقدار، وسعادة لا تتصرّف فى تصريفها أحكامُ الفلك المُدَار، وإقبالٍ يقابل آراءه وآدابَه فى فاتحة الوِرْد وعاقبة الإصْدار، وعزٍّ لا يزال منه متوقِّلا فى درجات الآقتدار إن شاء الله تعالىٰ .

الطرف الثـالث عشر

(فى المكاتبات الصادرةِ عن الأتباع، إلىٰ الملوك ومَنْ فى معناهم؛
وفيـه ثلاث جمـل)

الجمـلة الأولىٰ

(فى المكاتبـات الصـادرةِ عن أتبـاع مـلوك الشرق إليهـم
فىالزمن المتقدّم، وهى علىٰ أسلوبين)

الأسـلوب الأوّل

(أن تفتتـح المكاتبـة بلفظ : «كتابى»)

ويدعىٰ للمكتوب[(١)] ... ... كذا وكذا، ويتخلَّص إلىٰ المقصود بما تقتضيه الحالُ، ويخاطَبُ السلطان فى أثناءِ الكتاب بمولانا أو بمولانا الملك، ويعبِّر المكتوب عنه عن نفسه بتاء المتكلم ولفظ الإفراد، ويُخْتَم بقوله : فإن رأىٰ أن يفعل كذا فعل إن شاء الله تعـالىٰ . ويُدْعىٰ للمكتوب إليه بطول البقاء مع التعرّض لذكر الخليفة فى أثناء الكتاب .

---

(١) فى الاصل محو ولعله ويدعى للمكتوب اليه ثم يقال والأمر على كذا الخ .

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأُسْلوب، كتب به أبو إسحاقَ الصابى عن أبى الفضل الشِّيرازى: أحد نُوَّاب بنى بُوَيه إلىٰ عَضُد الدولة بنِ بُوَيه، فى جواب كتاب وصل منه إليه، يخبره بفتح خُراسانَ وطاعةِ صاحبها، وهو:

كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا ـ والأمورُ التى أَخْدمُ فيها جاريةٌ علىٰ السَّداد، مستمرّةٌ علىٰ الاَطراد؛ والنِّعمُ فى ذلك خليقةٌ بالتَّمام، مُؤْذِنةٌ بالدَّوام.

والحمدُ لله حقَّ حمده، وهو المسئُول إطالة بقاءِ مَوَالينا الأمراء، وحراسةَ ما خوّلهم من العز والعَلَاء؛ وأن لايُخْلِيهم من صَلَاح(١) الشان، وسُمُوّ السلطان؛ وظهور الولىّ، وثُبُور العدوّ.

ووصــل كتابُ مولانا [الأمير أطال الله بقاءه](٢) الصادرُ من معسكره المنصور بكازرين(٣)، بتاريخ كذا، مُخْبِرا بشُمول السلامه، مبَشِّرا بعُمُوم الاستِقامه؛ موجِبًا لشكر مامنح اللهُ من فضــله وأعطىٰ، مقتضيًا [نَشْر](٢) ماأسبغ من طَوْله وأضفىٰ؛ مشروحًا فيه الحال فيما كان يجْرِى من الخلاف بين مولانا الأمير السيد «ركن الدولة» وبين وُلاة خُراسانَ، وجهادِه إيَّاهم فى حِياطة الدِّين، وحمايةِ حَرِيم المسلميــن؛ والدعاءِ إلىٰ رضــا رب العالمين، وطاعةِ مولانا أمير المؤمنين؛ وتَذَمُّمه مع ذلك من دماء كانتْ بٱتِّصال الحروب تُسْفَك، وحُرماتٍ باستمرار الوقائع تنتهك؛ وثغورٍ تُهْمَل بعد أن كانت ملحوظه، وحُقُوقٍ تُضاعُ بعــد أن كانت محفُوظه؛ وانه لمــا جُدِّدت العزيمةُ علىٰ قصــد جُرْجانَــ ومنــازعةِ ظهير الدولة أبى منصور بن وشمكير مولىٰ

(١) فى المختارات المطبوعة ص ٩٣ من عُلُوّ الشان.

(٢) الزيادة من نسخة المختارات المطبوعة والمخطوطة.

(٣) فى المختارات «بدارزين» وكلتاهما من بلاد فارس.

أمير المؤمنين [على تلك الأعمال، ودفعه عما ولاه أمير المؤمنين](١) بوسيلة مواليِنا الأمراء أدام الله تمكينهم منها ومنازَعته ومجاذبتِه فيها، نهض مولانا [الأمير الجليل عَضُد الدولة](١) إلى كَرْمان على آتفاقٍ كان بين مولانا الأمير السيد ركن الدولة و بينه فى التوجُّه إلى حدود خُرَاسان . فحين عرف القومُ الجِدّ فى رَدِّهم ، والتجريدَ فى صَدّهم، وأنه لامَطْمَع لهم فى جَنَبةٍ إلى طاعة أمير المؤمنين آنتسابُها، وبذِمام سادتنا الأمراءِ آعتصامُها، آتَّعَظُوا وآتَّزعوا، وعرَّجوا ورجعُوا سالكين أقصَدَ مسالكهم، منتهجين أرشَدَ مَنَاهجهم، معتمدين أعْودَ الأمور على المسلمين عمومًا وعليهم خصوصًا باجتماع الشَّمْل ، وآتصالِ الحَبْل ، وأمْن السِّرْب، وعُذُوبة الشِّرب ، وسكون الدَّهْماء ، وشُمول النَّعْماء ، فخطبُوا الصُّلْحَ والوُصْله ، وجنَحُوا إلى طلب السِّلْم والأُلْفه ، وأن مولانا [الأمير عضد الدولة](٢) آثَرَ الأحسَنَ وآختار الأجمل : فأجاب إلى المرغُوب فيه إليه، وتوسَّط مابين الأمير السيد ركن الدولة و بين تلك الجَنَبة فيه، وتكفَّل بتقريره وتمهيده ، وتحقَّق بتوطيده وتشْييده ، وأخرج أبا الحَسَن عابدَ بن عليّ إلى خُراسانَ حتّى أحكم ذلك وأبرَمَه، وأمضاه وتمَّمه، بمَجْمَع من الشيوخ والصُّلَحاء، ومَشْهَد من القُضاة والفُقَهاء، وأنَّ صاحب خُراسان عاد على يد مولانا [الأمير عضد الدولة](٢) إلى طاعة مولانا أمير المؤمنين ومُشايعته، والإمساك بعلائقِ وَلائه وعِصْمته، وصار وليًّا بعد العَدَاوه ، وصديقًا بعد الوَحْشه ، ومُصافيًا بعد العِنَاد ، ومخالِطا بعد الآنفراد، وفَهِمته . وتأمَّلْت ــ أيد الله مولانا ــ مافى ذلك من ضُروب النعم المتشَعِّبه، وصُنُوف المِنَح المتفرِّعه، العائدةِ على المُلْك بالجَمَال، وعلى الرعيَّة بصلاح الحال،

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطيّة .

(٢) الزيادة من المختارات .

الداعيةِ إلىٰ الآئتلاف والآتفاق، المزيلةِ للخلاف والشّقاق؛ فوجَدْت النفعَ بها عظيما، والحظَّ فيها جَسِيما؛ وحَمِدتُ اللهَ حقَّ حمده عليها، وشكرتُه أنْ أجراهـا علىٰ يَدِ أَوْلىٰ الناس بها؛ وأحقِّهم بالمكارم أجمعها، وأن قرّب الله بيُمْنه [ما كان بعيدا مُعْضِلا ويَسَّر ببركته](١) ما كان ممتنِعا مشكلا . فأصلح ذاتَ البَيْن بعد فسادِها، وأخمد نِيرانَ الفِتَن بعد تلهُّبها وآتِّقادها؛ ووافق ما بين نِيَّات القلوب، وطابق بين نخائل الصدور، وتحنَّت الضلـوع بنُجْح سعيِه علىٰ التَّآلُف، وآنضمَّت الجوانحُ بميمونِ رأْيِه علىٰ التعاطُف؛ وحصـل له فى ذلك من جزيل الأجر، وجميل الذكر؛ وجليل الفَخْر، وأَرِيج النَّشْر؛ مالا تزال الرُّواة تدرُسُـه، والتواريخُ تحْرُسـه؛ والقُرونُ تتوارثُه، والأزمان تتداوَلُه؛ والخاصَّة تتحلَّى بفضله، والعامَّة تأوِى إلىٰ ظله .

فالحمدُ لله كثيرا، والشكْرُ دائما علىٰ هذه الآلاء المتواتِره، والعَطَايا المتناصِره؛ والمَفَاخر السامية، والمآثِر العاليه؛ وإيَّاه أسأل أن يُعرّف مولانا الملكَ الخيرةَ فيما آرتآه وأمضاه، والبركَةَ فيما أوْلاه وأجراه؛ وأن يُهنئه نِعَمه عنـده، ويظاهِرَ مواهِبَه لديه؛ ويسهِّل عليه أسـباب الصلاح، ويفتحَ أمامه أبوابَ النجاح؛ ويَعْكِس إلىٰ طاعته الرقابَ الآبيه، ويذلل لموافقته النفوسَ النائيه؛ ولا يُعْدِمه ومواليَنا الأمراءَ أجمعينَ المنزلةَ التى يرىٰ معها ملوكُ الأرض قاطبةً التعلُّقَ بحبلهم أمنا، والإمساكَ بذِمَامهم حِصْنا؛ والآنتماءَ إلىٰ مخالطتهم عِزّا، والآعتزاءَ إلىٰ مواصلتهم حِرْزا؛ إنه جل وعزّ علىٰ ذلك قدير، وبإجابةِ هذا الدعاء جدير .

وقد آجتهدت فى القيام بحقِّ هذه النعمة التى تلزمُنى، وتأدية فَرْضها الذى يجب علىّ : من الإشادة بها والإبانه، والإشاعة والإذاعه؛ حتَّى آشتهرتْ فى أعمـاله التى

(١) الزيادة من نسخة المختارات الخطية وهى مناسبة .

أنافيها ، وآستوىٰ خاصَّتُها وعامَّتها فى الوقوف عليها ؛ وآنشرحَتْ صدورُ الأولياء معها ، وكَبَتَ الله الأعداءَ بها ، وآعتددت بالنعمة فى المطالعة بها والمكاتبةِ فيها ؛ وأضفْتها إلىٰ ما سبق من أخواتها وأمثالها ، وساف من أترابها وأشكالها ، فإن رأىٰ مولانا الأمير الجليل عضد الدولة أن يأمُرَ أعلىٰ الله أمره باجرائى علىٰ أكرمِ عاداته فيها ، وآعتمادى بعَوارِضِ أمره ونهيه كُلِّها ؛ فإن وفور حَظِّى من الإخلاص ، يقتضى لى وفُورَ الحظ من الآستخلاص ؛ فعل . إن شاء الله تعالىٰ .

الأســـلوب الثـانى

(أن يفتتح الكتاب بالإصـــدار)

مثل : أصدر الخادمُ أو العبدُ ونحوه ، ويؤتىٰ بالصدر إلىٰ آخره ؛ ثم يتخَلَّص إلىٰ المقصود بما يقتضيه المقام ، ويختَمُ بقوله : وللرأى العالى مزيدُ العُلو ونحو ذلك .

كما كُتِب عن بعض وزراء الراشد أو المسترشد إلىٰ السلطان سَنْجَر السَّلْجوقى ، فى حق قُطْب الدين أبى منصور أزدشير العبادىّ : وقد ورد إلىٰ أبواب الخلافة ببغداد رسولًا ، وكان أبوه وخالُه وسَلَفُه من أهل العلم والزُّهد ، وهو من الفُصَحاء البُلَغاء ما صورته :

أصدر خادمُ المجلس العالى هذه الخدمةَ عن ضميرٍ معمورٍ بالوَلَاء ، وإخلاصٍ دَوَاعيه متصلةٌ علىٰ الوِلَاء ، وعكوفٍ علىٰ ما يرجُو به حصولَ المَرَاضى العليه ، والتحقُّقَ لمشايعته الواضحةِ شواهدُها الجليَّه ، والحمدُ لله رب العالمين .

وبعد ، فما زال الجنابُ العالى السلطانىُّ الشاهنشاهىّ الأعظمىّ أعلاه الله لكلِّ خيرٍ مَنْبعا ، وحرمُه الآمنُ للفوائد الجَمَّة مغاثا ومَرْبعا ؛ والسعادةُ والتوفيقُ مقرونين

بسامى آرائه، مُطيفينِ به من أمامه وورائِه؛ فى كل رَأْى يرتَئيه، ومقرَّب يَصْطفيه؛ وٱمرئ يتَخَيَّره ويقلِّده، وأمر يَحُلُّه ويَعْقِده؛ وصُنْع جميــل يُصيب من الٱستحقاق موضِعه، ويعيد طيب الذكر مجهِّزه ومُبْضَعه؛ مناقبُ تفوتُ الإحصاءَ عدّا، وتَرِدُ من مَفَاخر الوصــف مَنْهلا عَذْبا وتسـير بذكرها الرِّفاقُ غَوْرا ونَجْدا، وتُجاوزُ غاياتِ المدح عَلَاء ومجدا؛ وكفىٰ علىٰ ذلك دليلًا قاطعا، وبرهانًا ساطعا؛ ما ٱقتضتْه الآراءُ العلية من التعويل علىٰ فلان العبَّادىّ فى تحمُّل الرسالة الأعظميَّة التى عُدِقت منــه بالنقِىّ الجيب، البَرِىّ من العيب، العارِى من دَنَس الشكِّ والرَّيْب؛ فإن ٱختياره لهـذا الأمر طَبَّق مَفْصِــل الصواب، ولشاكلة رَمْى الرأى أصاب؛ إذ هو الفذُّ فى عِلْمه وفضله، السديدُ فى قوله وفعله؛ البارعُ فى إيجاز الخطاب وفَصْله، المُعْرِق فى الزَّهادة والدِّيانة المزيِّنين لفرْعه وأصله .

ولمــا وصل إلىٰ الأبواب العزيزة الإماميَّة ــ ضاعف الله تعــالىٰ مجدها ــ مثَــلَ بالخدمة مؤدِّيا من فرضها مايلزم أمثالَه من ذوى العقائد الصحيحه، والموالاة المحضة الصريحه؛ وصادف من التَّكْرِمة والإنعــام ما يُوجِبه له محلُّه من العلم الذى لا تُكَدِّر الدِّلاءُ بحره، ولا تُدْرِك الأرشِيَةُ بطُولهــا قعْرَه؛ فهو فيه نَسيجُ وحدِه، وناسِجُ بُرْدِه؛ وناشرُ عَلَمه، ومستغزر دِيَمه . وألقىٰ من ذلك مايقتضيه ٱختبارُ أحواله الشاهدةِ بأنه ممن أُصحِبَ فى يده قيادُ الفصاحة الأبِىّ، وملَّكتْه زمامَها المتنعَ علىٰ من عداه العَصِىّ؛ وجُمِــع له من الفضائل ماأصبح فى سواه متفرّقا، وخيرَ له منها ماجَعَل جَفْن حاسده لفرط الكمد مؤرَّقا؛ إلىٰ مازان هذه الخصائصَ التى تفرّد فيها وبَرَع، وطال مناكبَ الأقرانِ وفَرَع : من الإخلاص الدالِّ علىٰ تمسُّكه بحبل الدِّين المتين، وٱستمراره علىٰ جَدَده الواضح المُبين؛ وفَصَــل عن الأبواب العزيزةِ فائزاً من شَرف الإرعاء، ما وفَّر الحظوظَ والأنصباء؛ حاصلًا من حميد الآراء، علىٰ أنْفَس العطاء وأجزَل الحِبــاء؛

وقد تمهّد له من الوَجَاهة والمكانة ما يَفْخَر بمكانه، وتنقطع دُونَ بلوغ شَأْوه أنفاسُ أقرانه؛ ورسمَ - أعلىٰ الله المراسيمَ الإماميةَ وأمضاها - مطالعةَ المجلس العالى السلطانىّ أعلاه الله بهذه الحال، تقريرا لها عند العِلم الكريم واَستمدادًا للطَّوْل والإنعام، باختصاص قطب الدِّين بالاَحترام؛ الذى هو حقيقٌ بمثله، وخليقٌ أن لا يَضْحىٰ عن وارِف ظله؛ وما يُوعَز به من ذلك يُصادِف من دَوَاعى الاَستحقاق أوْفاها، ويرِدُ من مَنَاهل الذكر الجميل أعْذَبَها وأصفاها، ويُتلَقّى من شرف المحامد بألطفها وأحفاها، وللرأى العالى علوّ رأيٍ، إن شاء الله تعالىٰ.

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الديار المصرية إليهم، والمختارُ منه أسلوبان)

الأسلوبُ الأوّل

(أن تفْتَتح المكاتبة بالدعاء)

مثل أن يدعىٰ بعِزّ الأنصار، أو إدامة السلطان، أو تخليده، أو إدامة بَسْطة السلطان، أو إدامة الأيّام ونحو ذلك. ويخاطَبُ السلطان فيه بمولانا، ويعبّر المكتوب عنه عن نفسه بالمملوك، ويُخْتَم بالدعاء. وهى طريقة القاضى الفاضل ومَنْ تلاه من كتّاب الدولة الأيوبية بالديار المصرية.

قال اَبن شيث فى "معالم الكتابة": ولا يقال فى مخاطبة السلطان: سيدنا مكانَ مولانا، وإن كان السيد من الألقاب السلطانيَّة، لأنّ لفظَ سيدنا مما اَصطُلح عليه لأكابر المتعمِّمين من الفقهاء والقُضاة والكُتّاب، فاَجتُنِب فى حق السلطان كى لا تقَعَ المشاركةُ بينه وبين غيره فى الخطاب.

وهذه نسخةُ كتاب من هذا الأسلوب كُتِب به إلىٰ الملك العادل أبي بكر بن أيوب فى جواب كتابٍ ورد منه بالبشارة بفتح خِلَاط وهى :

أدام الله سلطانَ مولانا الملك العادل و زاده من فضله ! ، ومدّ علىٰ خَلْقه وارِفَ ظلّه ، وأظهر به دينَــه علىٰ الدّين كلّه ، وأوضح إلىٰ مَرْضاته مايَسْلُكه من سُبُله ، ولا عَدِمت يدُ الإسلام والمسلمين التعلُّقَ بوثيق حَبْله ؛ وفرّج به الخُطَط المُطْبِقه ، وفتح به البلاد المســتغلِقه ؛ وأخضع لطاعته الأعناق ، وعمَّ بفتوحه الآفاق ؛ ودَمَّر الكُفْر بمقامه ، وطوىٰ أيَّامَهم بمــا ينشُره ويُدِيمه من أيامه ، وأنزل النصرَ فى مواقف النِّزال بما ترفعه راياتُه من أعلامه .

وقف المملوكُ علىٰ ماأنعم به مولانا : من كتابِ البِشارة التى وصلَتْ إلىٰ كلِّ قلبٍ وسَمْع ، وأمَّل بها كلُّ مسلم كلَّ خيرٍ ونَفْع ؛ وعلِم ماوراءَها من جمْع شَمْلٍ كان عزيزَ الجمع ، وعلم مايتبَعُها من عواطف مولانا التى عوّدها منه أكرمُ طَبْع ؛ وتحقّق أن الله سبحانه قد قلَّد الدين منه سيفا خَلَقه للوصل وخلق السُّيوفَ للقطع .

وبالجملة إن الله سبحانه نظر إلىٰ هــذه المِلّة بنظر مولانا لهــا ، وكَفَالته لأهلها ، وسياستهم بشَرَفِ السجيّة وعَدْلها ؛ وإن كل مااختَلَس الملكُ الناصرُ رحمه الله فإن الله يُتِمُّه علىٰ يديه ، ويجبُر به تارة بصَفْحه وتارة بحَدّيه ؛ ويَهَبُ له عُمُرا نُوحِيّــا إلىٰ أن لايَذَرعلىٰ الأرض من الكافرين دَيَّارا ، وإلىٰ أن يُورِث الإســلامَ بسيفه منهم أرضًا ومالًا ودِيَارا ؛ وهذه مخايِلُ لايُخْلِف اللهُ بارقَتَها ، بل يُردُّ إلىٰ جهة الكفر صاعقَتَها ؛ فمــا يَحْسَب المملوك أن جانبًا يتلوّى علىٰ طاعة مولانا ولا يَنْحرِف ، ولا أنَّ كلمةً عليه بعد اليوم تختَلِف ، ولا أنَّ ممتنِعًا بالأمس يكون معــه اليومَ إلا أن يرضَىٰ عنه مولانا وعليه ينْعطِف .

وعلى هذا فالشام الفرنجى متأخذ بجناح إلى الأخذ وبقية عمر المؤمن كما قال صلى الله عليه وسلم لا ثمن لها، والفرص تمر مر السحاب، والمستعاذ بالله من حسرات الفوت بعد الإمكان ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ وما يشخص(١) لخطاب الله تعالى بالجهاد إلا مولانا : النية خالصه، والبصيرة ثاقبه، والعزيمة ماضيه، والشجاعة منحة من الله له موهوبه، والسماحة خليقة من خلائقه الكريمة موجوده، والرجال تطأ عقبيه، والملوك تطيع أمره والشجعان تبذل أنفسهم بين يديه، والعدو يعرف منه خصما طالما خاطبه بلسان السيف منه إليه . وليس كل من قدر عليه أراده، وعكا أقرب من خلاط وأنفع للسلمين فتحا، وأعظم فى الكفار قدحا، فوالله لئن انغلق باب الشام فى وجه الكفر، لتنقطعن آمال أهل البحر والبر، وما دام فى الشام بقية من الكفر فهو يقبل الزياده، وينتظر النجدة ويؤمل الاستعاده، وما كرر المملوك هذا الحديث جهلا بما يجب فى خدمة الملوك من الأدب فى أن لا يتكلم فى القضية إلا من استشير فيها، ولا يجترئ على الكلام إلا إذا كان مجيبا بما يؤمر بالإجابة عنه، ولكن المملوك غلب على الصحبه، وانقطع عن الخدمه، وعلم أنه لو كان حاضرا لكان مولانا يبسطه ولا يقبضه، ويستشف ماعنده ويستعرضه، ويشفع قلبه فى لسانه إذا هفا، ويحمله على صفاء ضميره فيما يقوله فلا يقابل بالتكدير من صفا، فقد علم الله أن المملوك يتمنى للمسلمين أن يرد عليهم حقهم، وترجع إليهم بلادهم، وأن تكون هذه الأمنية جارية على يد مولانا ومستفادة من عزيمته، ومكتوبة فى صحيفته، ومغتنمة فيما يمده الله فى حياته، فإن الأمور فيما بعد ملموحه، ولكن أبواب قدرة الله مفتوحه، فالله يجعل منها أن يفتح على مولانا فيه بلاد الساحل، وأن يأخذ للإسلام به أهبة المقيم وللمقيم أهبة الراحل، وما يخلط المملوك هذا المهم بغيره، طالع به، ولمولانا علو الرأى .

(١) لعله وما يختص بخطاب الخ .

الأســــلوب الثــانى

(أن تُفْتَتح المكاتبة بيقبِّل الأرض مصَدَّرا بالمملوك)

وهى من مصطلحات الدولة الأيُّوبية أيضا إذا كان المكتوب عنه دُونَ من تقدّم.

كما كتب القاضى الفاضلُ عن نفسه إلىٰ السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» يهنئه بمولودٍ وُلد له :

المملوك يقبّل الأرض بالمَقام العالى الناصرىِّ نصرَ اللهُ الإسلامَ بمقامه، وأهلك أعداءَ الحقِّ بانتقامِه، ولا أعْدم الأمةَ المحمديةَ عَقْد اعْتِزائه بكَفَالتها ومَضاء اعتزامه .

يهَنِّئُ المملوكُ المولىٰ بنعمة الله عنــده وعند الإســلامِ وأهله بمَنْ زاده فى ولده، وكَثَّره فى عدده؛ وهو الأمير «أبو سليمان داود» أنشأه اللهُ إنْشَاء الصالِحين، ومَنَّ الله بكمال خَلْقه، ووَسَامةِ وجهه، وسَلامةِ أعضائه، وتهلُّل غُرَّته، وابتسام أسِرَّته؛ ودل علىٰ أن هــذا البيتَ الكريم فلكُ الإســلام لا يطْلُع فيه إلا البُدُور، كما دلَّ علىٰ عناية الله بأبيه، فإن الله تعالىٰ قال: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إنَاثًا ويَهَبُ لمَنْ يَشَاء الذُّكُور﴾ فطريقُ المولىٰ هــذه قد توالَتْ فيها البَشَائر، ونصر اللهُ فيها بألطاف أغنَتْ بلُطْف الخواطر عن قُوّة العساكر، واشْتملتْ عليـه (؟) فى الغائبِ من أمره والحـاضِر ﴿وإنْ تَعُـدُّوا نِعْمَةَ الله لا تُحْصُوها﴾ وكيف يُحْصِيها المُحْصِى ويحصُرها الحاصر، أيحيطُ ما يَفْنىٰ بمـا لا ينْفَد ؟ .

فالحمدُ لله الذى جعل كُتُبَ المولىٰ إلىٰ أوليـائه وكُتبَهم إليه مبْتِسمةً عن المَسارّ، ناطقةً بأطيب الأخْبار، منكشِفةً أسرارُها عمَّـا يُروِّح الأسْرار؛ وهذا الولد المبارَكُ هو المُوفِّى لاثْنَىْ عشر ولدا، بل اثْنَىْ عشَر نَجْما متوقِّدا؛ فقد زاد اللهُ فى أنجمه عن أنجم

يوسفَ عليه السـلام نَجْمًا ، ورآهم المولىٰ يقظةً ورأىٰ ذلك الأنْجُمَ حُلُمـا ؛ ورآهم ساجدينَ له ورأينا الخَلْقَ له سُجُودا ، وهو سبحانه قادرٌ أن يزيدَ جُدودَ المولىٰ إلىٰ أن يراهم آباءً وجدودا .

الجمـــلة الثـالثة

(فى المكاتبـات الصادرة عن أتبـاع ملوك الغرب إليهـم ، والمختار منـه أربعة أساليب)

الأسلوبُ الأوّل

(أن تفتتَح المكاتبة بلقب المكتوبِ إليه)

مثل : المقـامُ أو الجناب ، ويُنْعت ، ثم يقال : مقام فلان ، ثم يؤتىٰ بالسلام ثم بالبعديَّة ، ويؤتىٰ بخطبة ، ويتخَلَّص إلىٰ المَقْصَد ، ويؤتىٰ عليه إلىٰ آخره ، ويختم بالدعاء ثم بالسلام .

كما كتب ٱبن البَنَّاء عن ٱبن خلاص إلىٰ أمير المسلمين الواثقِ بالله أبى بكر بن هُود ، فى جواب كتابٍ ورد عليه منه ماصورته :

المقام العلىّ ، الواثِقِىّ المعتصِمىّ ، المبارك السامى السَّنِىّ ؛ معْدِنُ الفضل ومَقَرّه ، ومَسْحَب ذيل الفخر ومَجَرّه ؛ ومَنَاط حمل أمانةِ المسلمين التى لا يحملها إلا أبلجُ الشَّرف أغَرُّه ، ولا يتقلَّد قِلادتَهـا إلا تقىٌّ المَنْشإِ بَرُّه ؛ مقـامُ مولانا جمالِ الملك وبهائِه ؛ والباعث فى مَعْطِفه أرْيَحِيَّـة النجابة وٱزدهائه ؛ الأميرِ الأجلِّ المعظم ، المكبَّر الهمامِ المكرم ؛ المبارَكِ الميمونِ السعيد ، الموفَّق الرشيد ؛ المظفَّر المؤيَّد ، المرفَّع الممَجَّد ؛ ولىّ العهد ، وواسطةِ عِقْد المجد ، والمُلْبَس سرابيلَ اليُمْن والسعد ؛ الواثقِ بالله ، المعتصِم به ،

أبى بكر ابن مولانا مجدِ الإسلام، وجمالِ الأنام، ومجاهدِ الدّين، سيفِ أميرالمؤمنين، المتوكِّلِ علىٰ الله تعالىٰ أمير المسلمين . أبقاه الله واردًا من مَشارع التأييد أعذَبَها، متخوِّلا من صُنْع الله الجميل مايسدّد أبعدَ الأمة وأقربَها، ممتدًا مدّ السعادة ماجلَتْ غرَّةُ الفجرِ حِنْدس الظلماء وغَيْهبَها. عبدُ بابه الأشرف، ومملوكُ إحسانه الأسَحِّ الأذْرَف، مسترَقُّه الآوى إلىٰ ظل سلطانه الأمدِّ الأورف، الحسن بن أحمد بن خلاص .

سلام الله الطيبُ الكريم وتحيَّاته، يعتمد الواثقىّ المعتصمىّ ورحمةُ الله وبركاتُه .

أما بعدَ حمدِ الله الذى له الأمْرُ من قبْلُ ومن بعد، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد نبيِّه الذى ترتَّبَتْ علىٰ آجتنابه الشقاوةُ ووجب باتباعه السعد، وعلىٰ آله وصحبه الذين ناضلُوا عن ديانته حتّى وضح السَّنَنُ وبان القَصْد ـ والرضا عن خليفته وآبن عمِّه الإمام العباسىّ أمير المؤمنين أبى جعفر المنصور المستنْصِر بالله، وارثِ شرفه النبوىّ، ومجدِه الهاشمىّ، بخصائصه التى لاتُعَفِّى أنوارَها الأبكار(١)، ولا يَطْمِس آثارها الجحر . وعن مولانا مجد الإسلام، جمال الأنام، مجاهد الدِّين، سيف أمير المؤمنين، المتوكل علىٰ الله تعالىٰ أمير المسلمين، ذى العَزَمات التى لا تُغْنِى غناءَها الذُّبُل(٢) التى مَنْبِتها الخَطّ، ولا القُضُب التى مَنْشؤُها الهند . والدعاء لمَقَام الثِّقة والاعتصام، ومَقَرّ الإحسان والإنعام، بالنصر الذى يؤازِرُه الظَّفَر، ويظاهِره العَضد .

فكتبه عبدُ المقام الواثقىّ المعتصمىّ ـ كتب الله له تأييدًا يحفظ علىٰ الدين نِظامَه، وتخليدًا يرِثُ ليالىَ الدَّهر وأيامه ـ من إشْبِيلِيَةَ حرسها الله تعالىٰ، وللبرَكات المتوكِّليات والواثقيَّات بها آنثيالٌ كما تتابع القطر، وسطوعٌ كما آبتَسَم فى مطالعه الفَجْر، وتعهُّد

---

(١) لعل الصواب "البكر" .

(٢) جمع الذابل ككتب وركع أنظر القاموس .

لا تزال تَقَرُّ به العينُ و ينشرح له الصدر، والخدمةُ اللازمةُ للمثابة العلية الواثقية المعتصميَّة ـ أعلىٰ الله مكانها، وشيَّد بعَضُده أركانها ـ فرضٌ لا يسعُ تأخيرُه، وحقٌّ لا يَعْلَق به تفريطُ المتقلِّد له ولا تقصيرُه ، ولازمٌ من اللوازم التى لا يُشْغَل بسواها سِرُّ المملوك ولا ضميرُه، والله يُنْجِد من ذٰلكم علىٰ مايتسوَّغُ به صفوُ المنِّ ونَميره . وإن الخطاب الكريم الواثقىّ شَرَّف الله مَنَازعه ، ونوّر بأنوار السعادة مَطالِعَه ، ورد علىٰ العبد مُشيدا بذكره ، مُعْليا من قَدْره ، مُسْمِيًا لرتبة فخره ، متضمِّنا من واسع الإنعام وغَمْره ، مالو وُزِّع علىٰ العالَم لشمِلهم بأسْره ، وأغرقهم بفَيْض يسيرٍ من بَحْره ؛ فتناوله المملوكُ بيمين إجلالِه وإعظامه، ووفَّى الواجبَ من لَثْمه وٱستلامه ، وألفىٰ به رِيًّا ناقعًا لغَليل الشوق المبرِّح إلىٰ ٱجتلاء غُرَّته الكريمة وأُوَامه ؛ وجعل يتتبع سُطورَه ، ويستَقْرِى فِقَره وشُذُوره ، فلا يَقِف من ذٰلكم كلِّه إلا علىٰ ما يملأ حَوْباءه جَذَلا ، ويخوِّله الأبتهاجَ غُنْما ونَفَلا ، ويبوِّئُه أسنىٰ مَراتبِ التشريف قُنَنا وقُلَلا ، وهو علىٰ ما حكمتْ به الأقضيةُ من شَحطه عن المَثابة الواثقيَّة شرّفها الله وشُسُوعه ، وإيواءِ مَغَانِى أُنْسه لذلكم ورُجُوعه ، لا يجد أُنْسا إلا ما يتوالىٰ قِبَلَه من متعهَّد ٱهتمامِها ، وتُهْديه إليه ألسنةُ أقلامها ، فكلّما وفَدَ عليه من صحائفِها المكرّمة وافد ، وورد من حضرتها المعظَّمة وارد ، فقد جدّد الزمانُ عنده يَدًا غَرًّا ، وأطْلع عليه بدرا ، وأفاده من الاِبتهاج ما يَغْمُر الخَلَد ، وينْشُر نسيمَ الاِستبشار إذا سَكَن وركَد ، وما ينفَكُّ على نَأْيِ المكان ، وبُعْدِ الأوطان، يحافظ علىٰ رَسْمه مِنْ خدَمِها ، ويؤدِّى وظائف الشكر بجسيم مِنَحِها وعميم نِعَمِها ، ويجعل علىٰ نفسه المتملَّكة رقيبا من أن يُخِلَّ فى سرّ أو جَهْر بعهد من عهودِها أو ذِمَّة من ذِمَمِها ، ومهما تجدَّد صنع يتعين إهداؤه ، ويجب قضاءُ الحق بالدلالة عليه وأداؤُه ، لم يَصْحَبْه فى المطالعة به تَوَانٍ ،ولم يَعْبُرْ فى جِلَائه أوانا إلىٰ أَوان . وقد كان قدّم مُطالعاتِه قبلُ إلىٰ الباب الواثقىّ

شرفه الله باسطًا لتفاصيل الأحوال ، وشارحًا لها علىٰ الآستيفاء والكمال ؛ ولم يتجدّد بعـد ذلك إلا تمكُّنُ الرجاء فى فتح لَبْـلَةَ يَسَّر الله مَرَامها عن دُنُوّ بحول الله وقُرْب ، وأنطق لسانَ الحال بتيسير كلّ عَصِىٍّ من مُحاولاتها وصَعْب . ولو أنَّ مكانا عضَّه الدهرُ من أنياب حَوادثِه الجُونِ بما به عَضَّها ، وفَضَّ الحصارُ أقفالَها التى فَضَّها منه مافَضَّها ؛ لكان قد ذهب شميسُـه ، وخَفِىَ عن أن يُسْمَع حَسِيسُه ؛ لكن أبىٰ الشقاءُ الغالبُ علىٰ أهلها إلا أن يَمُدّ عليهم أَمَدَ العذاب ، ويُزْجِى لهم طِوَلَ المُهْلة المُشْفِية بهم كلَّ يوم علىٰ مَهاوِى الخَسَار والتَّبَاب ، حتّى يبلُغَ الكتابُ فيهم أجلَه ، ويصلَ إلىٰ الحـدّ الذى شاء الله أن يَصِلَه ؛ فيأخُذَهم أخْذَ من عَمِىَ عن إدراك الحق بَصَرُه وبصيرتُه ، وخَبُث فى معانَدَته سرُّه وسريرتُه ؛ ويُرَجّى أن الوقتَ فى ذلكم دانٍ بإمكان ، والله تعالىٰ يُدِيم للمقام الواثقىّ ماعَوَّده من توالى السُّعود وآطّرادها ؛ وإصحاب الآمال وآنقيادِها ؛ وسلامُ الله الطيبُ يُراوِحها ويُغادِيها ، وتحياته ، ورحَماته الموصولةُ وبركاته .

الأسـلوب الثـانى

(أنْ تفتتح المكاتبـة بالحَضْرة)

وتوصف ويُدْعىٰ لهـا ، ثم يقع التخلُّص إلىٰ المقصد ، ويُخْتَم بالدعاء والسلام .

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ المتوكل بن هودٍ القـائم بالدعوة العباسـية بالأندلُس عن بعض أتباعه ، عند ورود كتابه عليه يخبره بفتح (١) ... ... من الأندلُس وقتلِ الثائر بها ، وهو :

---

(١) بياض بالأصل ولعله " بفتح المراد وهو حصن بقرطبة من اخ " كما يؤخذ من تضاعيف الجواب حيث قال (كيف لا وقد بشر خبره بالمراد فى المراد) وفى معجم " ياقوت " المراد حصن قريب من قرطبة بالأندلس .

الحضرةُ العليةَ أبقىٰ اللهُ ظلَّ مُلْكها علىٰ العباد، وعرَّفها من تأييده وإنجاءه أفضلَ المعتاد، وجعل لها من المَلْجإ إليه والتوكُّلِ عليه أكثَرَ الجُموع وأكثفَ الأعداد، ولا زالتْ أحاديثُ نَصْرها سالمةَ المُتُون صحيحةَ الإسناد، وصحائفُ فتوحها تجمعُ صَلاَحَ العباد، وتُطْلِع صَبَاحَ البشائر من ليل المُراد، عبدُها ومملوكُها، السالك من الخدمة والنصيحة الطريقَ التى يجب سلُوكُها، فلان .

وبعد : فكتب العبد ـ كتب الله للمقام العلىّ المجاهدىّ المتوكِّلىّ سعدا يردُّ الصِّعابَ ذُلُلا، ويسُدّ من المكاره سُبُلا، وأمدّه بملائكةِ رسله جاعلُ الملائكةِ رُسُلا ـ من فلانة وبركاته مُرْوِية للظماء، وحركاتُه مسكِّنة للدَّهْماء، وآثارُه فى يومَىْ سِلْمه وحربه آثار الأشِدّاء علىٰ الكُفَّار والرُّحَماء؛ والأرضُ بوُضُوح مُحَيَّاه، وفتوح أسِنَّته وظُبَاه، تهتزُّ أعطافا، وتعتزُّ مَوَاسِطَ وأطرافا، وتبرُزُ فى أثوابها القُشُبِ فيزداد حُسْنها أضْعافا؛ والأيَّامُ بالبشائر التى فَضَّتْ ختامَهَا عَفْوا علىٰ قَدَر، وقَضَتْ مسامَهَا صفْوًا بلا كَدَر، لها أنفُ الشامخ تِيها، ووجهُ الضاحك المتهلِّل إشادةً بحالها وتَنْويها، ودلالةً علىٰ رُحْب مَجَالِها وتَنْبِيها . والحمدُ لله حمدَ من عَرَف قَدرَ نَعْمائه فوَفَّى حقَّ أسمائه تقديسًا وتنزيها . وإن الخطاب العلىّ الكريم وردَ راصفًا أجلَّ الدُّرَر، واصفًا أجمل الفتوح الغُرَر؛ رافلًا فى حُلَل الأيْد والقَهْر، رافعًا مِنْسأَةَ الحوادث بإحدىٰ حسنات الدهر؛ فياله من كتاب! أُودع بدائِعَ الكَلِم، وجوامعَ البيان الملتئِم المنتظِم، لو ٱستمدّ سناءَه أوّلُ الفَلَقَيْنِ لم يَكُ كاذبا، ولو أُعِير محيَّاه ثانِى الشفقين كان عن ضوء النهار نائبا؛ ذكَّر بأيَّام الله المشهودة بالملائكة والرُّوح، ومدّ باعَ الكلام فى فَتْح الفُتُوح، وأطال ذُيولَ القول مِفْتاحًا منه للصَّعْب الجَمُوح؛ فكان الغَزِيرَ الصيِّب، والكثيرَ الطيِّب؛ والمتَّبَعَ إن مضىٰ بقلوب وأسماع، والمضاعَفَ حُسْنُه إن كُرِّر إلىٰ غير ٱنقطاع . كيف لا ؟ وقد بَشَّر خبرُه بالمُراد فى المُراد، وأوقع اليقينَ بما خَرَق

العاداتِ من الإسعافِ والإسعادِ، وكان من آحادِ الأخبار لا من أخبار الآحادِ؛ ومما ٱقتصّه ما جرىٰ من أوائل الحركة السعيده، وٱعترض من المَتاعِب الشديده؛ وأن الشتاءَ كان فى ٱبتدائه، والغيمَ ساحبٌ لِردائه، ساكبٌ فضل أندائه. والمكارهُ فى طَيِّها النِّعم الجِسَام، والنفوسُ الكبارُ تتعَب فى مُرادِها الأجْسام؛ ولذلك هانت علىٰ المَقَام العلى ـ أيده الله ـ تلك المَشَاقّ، ورجّى من عمله ونظره ما جَنىٰ من ثمرة العاقّ؛ فسار إليه بالجحفَل الأحْفَل، والعزيمة الزعيمة بفَضِّ المُقْفَل، ورَضِّ الأعلىٰ والأسفَل؛ وقد ٱعتزّ بأجَلِّ المدائن شانا، وأوْثَقِها بُنْيانا، وأبعدها صِيتاً ومكانا؛ وهى التى أعيَتْ رياضَتُها كلَّ رائض، وتَخِرتْ بكلِّ قاعد بقُنُونِها (١) رابض؛ وجُمِع إليها مِنْ طَرد الآفاق، وأعداد الآجتماع والآتِّفاق؛ أتباعُ كلِّ ناعق، وأشياعُ كل ما ردٍ مارق؛ فاستحَلُّوا الدماء، ورَكِبُوها مَضَلَّةً عَمْياء، وأدرك كلٌّ منهم مما شاء للإسلام ماشاء؛ وعدوُّ الله يَفْتِل لهم فى الذِّروة والغارِب، ويضرِبُ لهم سُكَّانَ البلد ضَرْب الغرائب؛ حتّى أبادَ خَضْراءهم، وجعلهم شَرَّ خَلَف فيمن وراءَهم؛ غيرَ مُبالٍ بما ٱحتقَبَ من الجَرَائر، وٱقترفَ من إباحة الحَرَائر؛ فاجترأ مدّة بالجلاء، وٱزداد إثْما بالإمْلاء؛ وحينئذٍ سَمَتْ إليه عساكِرُ الإسلام، وناولته بالموت الزُّؤَام، ورأىٰ عِيَانا ما كان يَطِيرُ إليه قلْبُه لو رآه فى المَنَام؛ وتَداوَلَتْه المطاولَةُ المستدْرِجه، والعاجلةُ المُزْعِجه؛ وفى كلِّ ذاقَ عذابَ الهُون، فأحسَّ بقاصمةِ المُتُون وقاضِية المَنُون؛ وٱنقسمت شدّته إلىٰ المُهلِكَيْن: خوفٍ وإعدام، وٱستكملتْ تسعةَ أشهر وكان الفتحُ عندها لتمام؛ وإنه للولد الذى هُنِّئَ به الإسلام، وضَنَّت بمثله الأيام، وٱستبشر بوجُوده

(١) القنة بالضم الجبل الصغير أو الجبل السهل المنبسط علىٰ الأرض جمعه قنن وقنان وقنون أنظر القاموس.

الأنام ؛ فما أعلىٰ مقامَه ! وأبهج يومَهُ وأسعَدَ عامه! ؛ ولا غَرْوَ أن تكون غُرَّته أبهىٰ الغُرَر، ومفتتحه مباركا كالبُشر، وقد أسفر عن أيْمَنِ وجه النُّجْح ، وخرج من عموم الأيام بمُخَصَّص هذا الفتح ، وآنتقم اللهُ فيه من الشقيّ الظالم، العظيمِ الجُرْأة علىٰ آرتكاب المَظَالم، فطاح بمُوبِق أعمالِه، وعجَّل اللهُ به إلىٰ ما أُعِدّ لأمثاله ، وكان دَمُه شرَّ دمٍ أُرِيق، وأدِيمُه أخبَثَ أديمٍ لاقىٰ التمزيق .

والحمدُ لله الذى نصر الرايةَ العباسيَّة وأعلاها، وأظهر آيةَ عِنايته وجَلَّاها ، وأسبغ نعمَه الجسيمةَ ووالاها . وحين ورد هذا النبأ العظيمُ [كان] أندىٰ من قَطْر النَّدىٰ علىٰ الأكباد ، وسَرىٰ فى البِلاد سَرَيانَ الأرواح فى الأجساد ، وكَلِفت به الأسماعُ والأسمار، وسَمَتْ به وإليه الأمصارُ والأبصار ، وآستقرَّ من آرتجاع البلد، وآنتزاع النفس الذاهبة إلىٰ جرى الأَبَد ، حُكْمان مدركهما الفِعلُ والإقرار ، وعملان تَمَّ بهما المرادُ والآختيار، فرُفِعت الأدعيةُ إلىٰ سامعها، وغَصَّت الأندية بحاضِرى مَجَامعها، وذاع بالبُشرىٰ فيأحسن ذائِعها وشائِعها، وأذعنت الآمالُ لإدناء نازحِها وشاسِعِها، وأخذ العبد من المَسَرّة بحظِّ أخلص العبيد مَشْهَدا ومَغِيبا ، وأجمعِهم لمَعالى الجِدّ تطنيبا، ولمعانِى الثناء والحمد تطييبا، وجَدَّد من شُكر الواهب لجزيل هذه الهِبه ، والفاتح لأعظم المعاقل الأشبه (؟) مايستَغْرِق المُدَد، ولا يبْلُغ الأمَد، وأنّى [لمثلى] أن يَصف البشرىٰ الواصله ، أو يُنْصِف المقالَةَ المتطاوِله ، ولو حَلَب أشْطُر الإحسان، وجلب أبحُرَ البيان، وكيف والفِكْر قد قَعَد حَصِرا ، والمدىٰ لايؤاخذه التقدير قسرا ، والقول لايجيب مُطوّلا ولا مُختصَرا؟ فحسبُه دعاءٌ هُوَلَه رافع ، ولأوقاتِ الخلَوات به قاطع ، وإلىٰ الله سبحانه فى قَبُوله ضارِع ، والله يجيبُ فى المقام العلىّ المتوكلىّ أفضلَ دعاء الخلق ، ويضاعِفُ له مع السابقين ثوابَ السَّبْق ، ويَجْزيه خير الجزاء عما أزاله

من الباطل وأداله من الحق؛ وهو تعالىٰ ينصُره يومَ الباس؛ ويعصِمُه من الناس، ويُبقِي رِفدَه للاكتساب ونُورَه للاقتباس، ويعرّفهُ فى كل ما يستنبِطُه من أصل التوكل صحّةَ القياس، بمنه والسلام.

الاســـلوب الثـالث

(أن تفتَتح المكاتبةُ بأمّا بعد، ويتخلَّص إلىٰ المقْصد ويختَم بما يناسب المقام)

كما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ المتوكِّل بن هُود المقدّم ذكره، عن نفسه، يهنِّئه بوصول هديّة الخليفة العباسىّ إليه من بَغْداد :

أما بعـد، فكتب العبدُ ـ كتب اللهُ للمقـام العلىّ الناصرىّ المتوكِّلىّ مَجْدًا يَحُلُّ الكَوَاكب، وجَدًا يَفُلُّ الكتائب. من شاطِبَةَ، وبركاتُ دعوته السـعيدةِ قد طبَّقت البَسـيطه، وكاثَرتِ البِحارَ المُحيطه؛ وأنجزتْ للإسلام أفضـلَ مَوَاعده، وجدّدَتْ عهـدَه لأهل بيتِ النبوّةِ الرافعةِ لقواعده؛ وفسَّحَت له مجَـالَ البُشرىٰ، وأطلعتْ عليـهِ أنوارَ العناية الكُبْرىٰ؛ فعـاد إلىٰ الوَطَن، ووجد حالَ السُّهد طعْمَ الوسَن؛ وأورق عُودُه، وآتَّسـقتْ سُعُوده؛ وعاد إلىٰ صِحَّتـه بالنظر الإمامىّ الذى جاء يَعُوده. وحين صـدُور رسولِ دارِ السلام، ومَثَـابةِ أهل الإسلام؛ ومَقْـعَد الجلَاله، ومَصْـعَد إقرار الرساله؛ ومعه الكتّابُ الذى هو غَرِيب، أَنِسَ به الدِّين الغريب، وبَعِيـدُ الدار نزَلَ به النصرُ القريب؛ وآيةٌ بأدلّتهـا الصادقة لتبطيل الشُّبَه الآفكه، وسكينةٌ من ربِّنا وبقيَّة مما ترك آلُ نبِيِّنا تحملُه الملائكه ـ آطمأنّت القلوب، وحَصَل المطلوب؛ ودَرّت أخلافُ الإيناس، وآرتفع الخِلافُ بينَ الناس؛ وعلموا أن السالكَ قد أضاءتْ له المَحَجّه، والحقَّ لايَعْدُو مَنْ بيـده الحُجَّه؛ وأن من أمَّرتْه

الخلافةُ العبَّاسيَّة فطاعَتُه تجبُ قطعا، ومخالَفَتُه تحرُم شرعا؛ ولم يبْقَ إلا أن يبِين للعِيان شَخْصُه، ويرِدَ علىٰ الآذان نَصُّه؛ فيكون يومُه غُرَّةَ الليالى المعتكِرات، وعلَمَ الأيام المُنَكَّرات؛ واليومَ الذى به تؤرِّخ الأيامُ المستقبَله، وتُرْفَعُ فيه الأعمال المتقبَّله. وبإقبال الركاب السعيد إلىٰ هذه يَتْزِل به من سَمَاء العلياء محكَمُ وحكمه، ويصِلُ به إلىٰ الأنام فضلٌ من الله ونِعْمه؛ ويُقْتَضىٰ دينٌ علىٰ الأيام، لايبقىٰ معه عسره، ويوجَدُ جبرٌ للإسلام، لا يكون بعده كَسره، وشفاء لقلوب الأولياء هو للأعداء حَسْره.

الأسلوب الرابع

(أن تُفتَتح المكاتبة بالخطاب بلفظ «سيدى» أو «مولاى»
مع حرف النداء أو دونه)

كما كتب أبو عبدالله بنُ الخطيب وزيرُ ٱبن الأحمر صاحبِ الأندَلُس عن نفسه إلىٰ السلطان أبى عِنَان ٱبن السلطان أبى الحسن المَرِينىّ صاحب فاس، عند ورود كتابه إلىٰ الأندَلُس بفتح تِلِمْسان، معرِّضا بأنَّ صدور كتابه من عند قبر والده السلطان أبى الحسن بالأندَلُس، ما صورته :

مَوْلاىَ! فاتحَ الأقطار والأمصار، فائدةُ الأزمان والأَعْصار، أثيرُ هبَات الله الآمنةِ من الاعتصار(١)، قُدوةُ أُولى الأيْدى والأبْصار، ناصرُ الحق عند قُعود الأنْصار، مستصرِخ الملك الغريب مِنْ وراء البِحَار، مصداقُ دعاءِ الأبِ المولىٰ فى الآصال والأسْحار. أبقاكم الله! لاتقِفُ إيالَتُكم عندحدّ، ولا تُحْصىٰ فتوحاتُ الله عليكم بعدُ، ولا يُفِيق أعداؤُكُم من كدّ، مُيَسَّرا علىٰ مَقَامِكم الكريم ماعَسُر علىٰ كل أبٍ كريم وجَدّ.

(١) فى الأصل قصور وهو تصحيف والتصحيح من "ريحانة الكتّاب" ج ٢ ص ٣٣ .

عبدُكم الذى خَلَصَ إبْرِيزُ عبودِيَّته لمُلْك ملِكِكم المنْصور، المعْتَرِفُ لأدنىٰ رحمةٍ من رَحَماتكم بالعَجْز عن شكرها والقُصُور، الداعى إلىٰ الله سبحانَه أن يَقْصُر عليكم سعادةَ القُصُور، ويُذَلِّل بعز طاعتكم أنفَ الأسَد الهَصُور، ويُبْقِيَ الملك فى عَقِبكم إلىٰ يومِ يُنْفَخُ فى الصُّور . فلان .

من الضَّريح المقدّس: وهو الذى تعدّدتْ علىٰ المسلمين حقوقُه، وسطع نُورُه وتلألأ شُرُوقُه، وبلغ مجدُه السماءَ لَمَّا بَسَقَتْ فروعه ورسَخَتْ عُروقُه، وعظُمَ بتبوُّئِكم نَخرُهُ فما فوقَ البسيطة فَخْر يفُوقه، حيثُ الجلالُ قد رسَتْ هِضابُه، والمُلْكُ قد سُتِرتْ بأستار الكعبة الشريفةِ قِبابُه، والبيتُ العتيقُ قد أُلْحِفت الملاحِد الإمامية(١) أثوابُه، والقرءان العزيزُ تُرَتِّل أحزابه، والعملُ الصالحُ يرتفعُ إلىٰ الله ثوابُه، والمستجيرُ يخفى باطنُه سؤاله فيَجْهَر بنَعْرة العزِّ جوابُه، وقد تفَيَّأَ من أوراق الذكر الحكيم حديقه، ونحيلةً أَنيقه، وحطَّ بجُودِىّ الحقِّ نَفْسا فى طُوفانِ الضُّرِّ غَرِيقَه، وٱلْتحفَ برقَ الهيبةِ الذى لاتهتدى للنفسِ فيها إلا بِهدايةِ الله طَرِيقه، وٱعتزَّ بعزِّ الله وقد توسَّط جيشَ الحرمةِ المَرِينيَّة حقِيقه، إذ جعل المولىٰ المقدّس المرحوم أبا الحسن مقدّمه وأباه وجدّه سقاه المولى الكريمُ بهذا المَجْد سَيْب رُحْماه، وطَنَّب عليه من الرِّضا فُسْطاطا، وأعلىٰ به يَدَ العناية المَرِينيَّة ٱهتماماً وٱغْتباطا، وحرّر له أحكامَ الحُرْمة نصًّا جلياً وٱستِنْباطا، وضمِنَ له حُسْن العُقْبىٰ ٱلتزاما وٱشْتِراطا ؛ وقد عقَد البصرَ بطريق رحمتكم المنتظَرة المرتَقبه، ومدّ اليَدَ إلىٰ اللطائف بشفاعتِكم التى تتكفّل بعِتْق المال كما تكفَّلتْ بعِتْق الرَّقبه، وشرع فى المراح بميدان نِعَمكم بعد ٱقتحام هذه العَقَبه ؛ لما شنفت الآذانَ البشرىٰ التى لم يبقَ طائرٌ إلا سَجع بها وصَدَح، ولا شِهابُ دُجُنَّة إلا ٱقتبس من نُورِها وٱقتدَحْ، ولا صدرٌ إلا ٱنشرح، ولا غُصنُ عَطْف إلا مَرِح ؛ بُشْرىٰ الفتح القريب،

(١) فى الريحانة الاماتية . تأمل .

وخبرُ النَّصر الصحيح الحَسَن الغَريب ، ونَبأُ الصُّنْع العجيب ، وهِدايةُ السميع المجيب : فتحُ تِلِمْسان الذى قلَّد المنابِرَ عقودَ الاِبتهاج ، ووهب الإسلامَ مَنيحةَ النصر غنيَّةً عن الهَياج ، وألحَفَ الخَلْق ظِلًّا ممدُودا ، وفتح بابَ الحجِّ وكان مسدُودا ، وأقَرَّ عُيونَ أولياء الله الذين يَذْكُرونَ اللهَ قِيامًا وقُعُودا ، وأضرع بسَيْف الحقِّ جِباهًا أبِيَّةً وخُدُودا ، وملَّككم حقَّ أبيكم الذى أهانَ عليه الأموال ، وخاض من دُونِه الأهوال ، وأخْلَص فى الضَّراعة والسُّؤال ، من غير كَدٍّ يغْمِز عِطْف المَسَرَّه ، ولا جَهْد يُكَدِّر صفْو النعم الثَّرَّه ، ولا حَصْر ينْفُض به المَنْجِنيقُ ذُؤابَتَه ، ويُظْهِر بتَكَرُّر الركوع إنابَتَه .

فالحمد لله الذى أقال العِثَار ، ونَظَم بدَعْوتِكم الاِنتشار ، وجعل مُلْككُم يجدّدُ الآثار ويأخُذُ الثار . والعبدُ يهنِّئُ مَوْلاه ، بما أنعم اللهُ به عليه وأَوْلاه ، وما أجْدَره بالشُّكر وأَوْلاه ! فاذا أجال العبيدُ قِداحَ السُّرور فلِلْعبد المعَلَّى والرَّقيب ، وإذا آستَهَموا حظُوظَ الجَذَل فلى القِسْمُ الوافرةُ والنصيب ، وإذا آقتسَمُوا فريضةَ شكر الله تعالىٰ فلِيَ الحظُّ والتعْصِيب ، لتَضاعُف أسباب العبودية قِبَلِي ، وترادُفِ النِّعَم التى عجز عنها قَولِي وعَمَلِي ، وتقاصَرَ فى آبتغاءِ مُكافأتِها وَجْدى وإن تطاول أمَلِي ؛ فمقامُكم المقامُ الذى نَفَّس الكُرْبه ، وآنَس الغُرْبه ، ورعىٰ الوَسيلةَ والقُرْبه ، وأنعَشَ الأرماق ، وفَكَّ الوَثاق ، [وأدرّ الأرْزاق ، وأخذ على الدَّهْر بالآستقالة بالعهد والميثاق](١) وان لم يباشر العبدُ اليَدَ العالية بهذا الهناء ، ويَتَمَثَّلْ بين يَدِي الخلافة العظيمة السَّنا والسَّناء ، ويمُدّ بسبب البِدار إلىٰ تلك السماء ؛ فقد باشر به اليَدَ التى يَحِنُّ مولاى لتذَكُّر تقبيلها ، ويُكَمِّل فروضَ المجد بتوفِيَةِ حقوقها الأبَويَّة وتكميلها ؛ ووقفت بين يدى مَلِكِ الملوك الذى أجال عليها القِدَاح ، ووصل فى طلب وِصَالها المَسَاء بالصَّباح .

(١) الزيادة من الريحانة ج ٢ ص ٣٣ .

وكان فتحه إيَّاها أبَا عُذْرةِ الآفتتاح ؛ وقلتُ يهنيك يامولاى ردُّ ضالَّتك المَنْشُوده، وخبرُ لُقَطَتك المعرّفة المشهُودَه ؛ [ودالتك المودودة][1] فقد آستحَقَّها وارثُك الأرْضىٰ، وسيْفُك الأمْضىٰ ؛ وقاضى دَيْنك ، وقرّةُ عينِـك ؛ مستنقِذُ دارِك من يَدِ غاصبها ، ورادُّ رتبتِك إلىٰ مَنَاصِبها ؛ وعامِرُ المَثْوىٰ الكريم ، وسِتْر الأهل والحَرِيم .

مولاىَ ! هذه تلمسانُ قد أطاعَتْ ، وأخبارُ الفتح علىٰ وَلدِك الحبيبِ إليك قد شاعَتْ ، والأُمَمُ إلىٰ هَنَـائه قد تداعَتْ ؛ وعدُوُّك وعدُوّه قد شَرّدتْه المَخَـافه ، وآنضافَ إلىٰ عَرَب الصحراءِ نخفَضَتْه الإضافه ؛ وعن قريب تتحكّم فيه يَدُ آحتِكامه ، وتُسْلِمُه السلامةُ إلىٰ حِمامِه ؛ فلتَطِبْ يا مولاىَ نَفْسُك ، وليستَبْشِر رَمْسُك ، فقد نَمَتْ بركتُك وزكىٰ غَرْسُك . نسأل الله أن يُورِد علىٰ ضَرِيحك من أنبـاءِ نَصْرِه ماتُفَتَّح له أبوابُ السماء قَبُولا ، ويُرادِفُ إليك مَدَدا موصُولا ، وعَدَدا آخرتُه خيرٌلك من الأُولىٰ ، ويَعْترِيه بركةُ رضاك ظَعْنا وحُلُولا ، ويُضْفِى عليه منه سِترا مسدُولا .

ولم يقْنَع العبد بخِدْمة النَّـثْر ، حتّى أجهد القريحةَ التى ركَضَها الدهرُ وأنْضاها ، وآستَشَـفَّها الحـادث الجَلَل وتَقاضَاها ؛ فَلَفّق من خِدمة المنظوم ما يتغمّد حلمُكم تقصِيرَه ، ويكون إغضاؤكم إذا لقِى مَعرّة العَتْب وليَّه ونَصِيره ؛ وإحالة يامولاى علىٰ الله فى نفس جَبَرها ، ووسيلةٍ عرفها مجدُه فـما أنكرها ، وحرمةٍ بضَرِيح مولاىَ والده شَكَرها ؛ ويطّلع العبد منه علىٰ كمال أمله ، ونُجْح عمـله ؛ وتسويغ مقتَرَحه ، وتميم مَطْمَحِه ، إن شاء الله تعالىٰ :

[ياآبْنَ الخلائِفِ ياسمِيَّ محمدٍ * يامَنْ عُلاه ليس يَحْصُر حاصِرُ!
أبشِرْ فأنتَ مجـدِّدُ المُلْك الذى * لَوْلاكَ أصـبَحَ وهو رَسْمٌ داثِرُ!

(١) الزيادة من "الريحانة" ج ٢ ص ٣٣ .

مَنْ ذا يُعاند منـك وارِثَهُ الذى * بُسعُوده فَلَكُ المشـيئة دائر!
ألقتْ إليك يَدُ الخِلافة أمْرَها * إذ كنتَ أنتَ لها الولىُّ الناصر!
هـذا وبَيْنَك للصريح وبيْنَها * حربٌ مُضَرّسَـة وبَحْرٌ زاخر!
مَنْ كان هـذا الصُّنعُ أوّلَ أمْرِه * حَسُنَتْ له العُقْبىٰ وعَزَّ الآخِرُ!
مَوْلاىَ عِنْدى فى عُلَاك محبَّةٌ * واللهُ يعلَمُ ما تُكِنُّ ضمائرُ!
قلْبِي يحَدِّثُنى بأنَّك جابِرٌ * كَسْرى وحظِّى منك حَظٌّ وافِرُ!
بشرىٰ وجودك قد حَططْتُ قَرِيحتِي * ووَسيلتى لِعُلَاكَ نُورٌ باهِرُ!
وبذلْتُ سَعْيِي وٱجتهادِى مثلَ ما * يُلْقِىٰ لمُلْكك سيفُ أمرِك عامر!
وهو المـوالىُّ الذى ٱقتحَمَ الرَّدىٰ * وقضىٰ العزيمـةَ وهو سَيْف باتِرُ!
ووَلِىُّ جَدّك فى الشَّدائدِ عِنـدَ مَا * خذَلَتْ عُـلاه قبائلٌ وعشائرُ!
فاستَهْدِ منـه النُّجْحَ وٱعلم أنَّه * فى كلِّ مُعْضِلةٍ طبيبٌ ماهر
إنْ كنتُ قد عَجَّلتُ بعضَ مدائِحِي * فهِىَ الرِّياضُ وللِّرياضِ بَوَاكر] (١)

الطرف الرابع عشر

(فيما يختص بالأجوبة الصادرة عن الملوك وإليهم)

والرسمُ فيه أنه إن كان الجواب صادرًا عن مَلِك، فالتعبير عن الملك بنون الجمع، وخطابُ المكتوب إليه بالكاف . وإن كان عن بعض أتباع الملِك إليه، فالتعبير عن المكتوب عنه بالخادم، أو العبد، أو المملوك ونحو ذلك، ومخاطبةُ الملك بما تليقُ به مخاطبةُ الملوك . ثم الجوابُ تارةً يكون الآبتداء [فيه] بنفس ورود

(١) لم يذكر فى الأصل ما أشار اليه من النظم وقد عثرنا عليه فى "ريحانة الكتاب" فنقلناه منها استيفاء للفائدة فتنبه .

المكاتبة ، وقد تقدّم فى مثـل ذلك فى الكتب الصادرة عن الخلفاء أن المكاتبـة يبتدأ فيها بلفظ عُرِض . أما الأجوبة المتعلّقة بالملوك فإنه يقال فيها بدل عرض : وصل ، أو ورد ، أو نحو ذلك .

ثم هى علىٰ ضربين :

الضـــرب الأوّل

(الأجوبة الصادرة عن الملوك إلىٰ غيرهم ،وفيه ثلاثُ جمل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك المَشْرِق ،وفيـه أسْلوبان)

الأســلوبُ الأوّل

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : « كتابُنا » و «وصل كتابك»)

ويذكر تاريخ الكتاب ، ويشار إلىٰ ما فيه ، ثم يؤتىٰ بالجواب إلىٰ آخره ، ويختم باستماحة الرأى فى ذلك الأمر ؛ كما كتب أبو إسحـاق الصابى عن صَمْصام الدولة إلىٰ حاجب الحُجّـاب أبى القاسم سـعدِ بن محمد ، وهو مقيم بنَصيبينَ علىٰ محـاربة بادٍ الكُردىّ .

كتابنا ، ووصل كتابُك مؤرّخا بيوم كذا ، تذكر فيه ماجرىٰ عليه أمْرُك فى الخدمة التى نِيطَتْ بِكفايَتِك وغَنَائك ، ووُكِلَتْ إلىٰ تدبيرك ورأيك : من رد بادٍ الكُرْدىّ عن الأعمال التى تطرّقها ، وحدّث نفسَـه بالتغلُّب عليهـا ، وتصرُّفك فى ذلك علىٰ مُوجِبـات الأوقات ، والتردُّد بين أخينا وعُدّتنا أبى حَرْب زيادِ بنِ شهرا كويه وبينك من المكاتبات ، وحُسْن بَلائك فى تحيُّفه ، ومقاماتك فى حَصِّ جَنَاحه ، وآثارك

فى الآنقضاض على فريقٍ بعدَ فريقٍ من أصحابه ؛ وآضطرارِك إيَّاه بذلك وبضُرُوب الرياضات التى آستعملتها، والسياساتِ التى سُسْتَ أمره بها، إلى أن نزل عن وعُورة المعصيةِ إلى سُهُولة الطاعة، وآنصرف عن مجَاهل الغَوَاية إلى مَعَالِم الهِدَايه ؛ وتراجع عن السَّوْم إلى الآقتصار وعن السَّرَف إلى الآقتصـاد، وعن الإباءِ إلى الآنقيـاد ، وعن الآعتياص إلى الإذعان . وأن الأمر آستقر على أن قَبِلتَ منه الإنابه، وبَذَلْتَ له فيما طَلَب الآستجابه ، وآستُعِيد إلى الطاعه، وآستضيف إلى الجماعه، وتصَرَّف على أحكام الخِدْمه، وجرى مَجْرَى من تضُمُّه الجمله ؛ وأُخِذت عليـه بذلك العُهُود المستحكمةُ والأيمان المغَلَّظه ، وجُدِّدت له الولايةُ على الأعمال التى دخَلَتْ فى تقليده، وضربت عليها حدوده ؛ وفهمناه .

وقد كانت كتبُ أخينا وعُدَّتنا أبى حَرْب [زياد بن شهرا كويه][1] مولى أميرالمؤمنين ترِدُ علينا، وتصِلُ إلينا ، مشتملةً على كُتُبك إليه، ومطالعاتك إيَّاه ؛ فنعْرِف من ذلك حُسنَ أثرك وحزم رأيك ، وسَـدادَ قولك ، وصوابَ آعتمادِك ؛ ووُقُوع مَضَارِبك فى مَفَاصِلها، وإصابةَ مَرامِيك أغراضَها ، وما عَدَوْتَ فى مذاهِبك كلِّها، ومتَقَلَّباتك بأسْرها ، المطابَقَةَ لإيثارنا ، والموافقةَ لمـا أُمِرْتَ به عنَّـا ؛ ولا خلَتْ كتبُ أخينا وعُدَّتنا أبى حرب من شكرٍ لسَعْيك ، وإحماد لأثرك ، وثناءٍ جميل عليك ، وتلويح وإفصـاحٍ بالمناصحة الحقيقة بك ، والموالاةِ اللازمةِ لك ، والوفاءِ الذى لا يُستغرَب من مثلك ، ولا يُستكثَرُ ممن حَلَّ فى المعرفة محَلَّك ؛ ولئِنْ كنت قصدْتَ فى كل نهج آستمرَرْت عليـه ، ومَعْدِل عدلت إليه ، مكالَحَةَ هـذا الرجل ومراغَمَتَه ، ومُصابرَتَه ومنازَلَته ؛ والتماسَ الظهور عليه فى جميع ما تراجعتماه من قول ، وتنازعتماه من حَدّ ؛

(١) الزيادة من مختارات الصابى الخطية .

فقد ٱجتمع لك إلىٰ إحمادنا إيَّاك ، وٱرتضائنا ما كان منك ، المِنَّةُ عليه إذ سَكَّنْت جاشَه ، وأزلْتَ ٱستيحاشَه ، وٱستللته من دَنَس [لباس](١) المخالفه ، وكسوتَهُ من حُسْن شعار الطاعه ، وأطلت يَدَه بالولايه ، وبسطت لسانَهُ بالحُجَّه ، وأوفيت به علىٰ مراتب نُظَرائِه ، وَمَنازِل قُرَنائه ، حتّٰى هابُوه هيبةَ الوُلَاه ، وٱرتفع بَيْنَهم عن مطارح العُصَاه .

فالحمدُ لله علىٰ أنْ جعلك عندنا محمودا وعند أخينا وعُدّتنـا أبى حرب مشكورا ، وعلىٰ هـذا الرجل مانًّا وفى إصلاح ما أصلحْتَ من الأمر مُثَـابا مأجورا ، وإيَّاه نسأل أن يُجْرِى علينـا عادتَه الجاريةَ فى إظهار راياتنا ، ونُصْرةِ أوليائنا ، والحكمِ لنا علىٰ أعدائنا ، وإنزالهم علىٰ إرادتنا ، طَوْعا أو كرها ، وسِلْمـا أو حربا ، فلا يخلو أحدٌ منهم أن تحيط لنا بعُنُقه ربقةُ أسر ، أو مِنَّةُ عفو ، إنه جلَّ ثناؤه بذلك جدير ، وعليه قدير . ويجب أن تُنْفَذَ إلىٰ حضرتنـا الوثيقةُ المكتتبةُ علىٰ بادٍ الكردى إن كنت لم تُنْفِذها إلىٰ أوانِ وصول هذا الكتاب : لتكون فى خزائننا محفوظه ، وفى دواوينِنا منسوخه ، وأن تتصرّف فى أمر رسله وفى بقية [ان كانت بقيت من أمره](١) علىٰ ما يرسُمُه لك عنا أخونا وعدّتنا أبو حرب ، فرأْيَك فى العمل علىٰ ذلك ، وعلىٰ مطالعته بأخبارك وأحوالك ، وما يحتاج إلىٰ عمله من جهتك موفقا ، إن شاء الله تعالىٰ .

الاســـــلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : «وصل كتابك»)

والأمر فى ترتيبه علىٰ نحو ما تقدّم فى الأسلوب الذى قبله .

كما كتب أبو إسحـاق الصابى عن صَمْصام الدولة أيضا إلىٰ أبى العَلَاء عبيد الله ٱبن الفضل فى جوابِ كتابه الواردِ عليه بالظَّفَر بأهل الآقتباس ما صورتُه :

---

(١) الزيادة من " مختارات الصابى " .

وصل كتابك -أدام الله عزك- المؤرّخ بوقت الظهر من أمسنا وهو يوم كذا، تذكر ما سهّله الله لك، وأجراه على يدك، وبيمن تدبيرك، وبركة خدمتك: من الإيقاع بالعصاة أهل الاقتباس، وإذاقتهم وبال ما كانوا عليه: من خلع الطاعه، وشنّ الغارة واستباحة المحارم، وارتكاب العظائم؛ وإثخانك فيهم قتلا وأسرا، وتشريدا وتشتيتا؛ وفهمناه وحمدنا الله عليه، وشكرنا ما أولى فيه، وحسن منا موقع أثرك، وتضاعف فيه جميل معتقدنا فيك ولك؛ وارتضينا فعل الأولياء فى الخفوف إليه، والمناصحة فيه؛ وسبيلك أن تبحث عن أموال هؤلاء القوم وثمّرها، وتستدركها وتحصّلها، وتكتب بما يصح منها؛ وتتقدم بقصّ أثر الهاربين حتى تلحقهم بالهالكين، وتشيع الرهبة فى سائر شقّى الفرات، وتتوخّى طوائف الأشرار والخرّاب، ومخيفى السبل والساعين فى الفساد بالتتبع لهم ووضع اليد عليهم؛ فإنّ بحسب النّكاية فى أهل الجهل والدّعارة سكون أهل السلامة والاستقامه؛ فرأيك فى العمل بذلك والمطالعة بما يوفّقك الله له مستأنفا من مثل هذا الفعل الرشيد، والمقام الحميد؛ وبسائر الأمور التى تجرى عينها وتحتاج إلى معرفة مجاريها، موفّقا إن شاء الله تعالى والسلام.

الجملة الثانية

(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية من وزراء الخلفاء الفاطميين القائمين مقام الملوك الآن فمن بعدهم)

والذى وقفت عليه منه أسلوب واحد، وهو الافتتاح بلفظ: «وصل».

كما كتب بعض كتّاب الدولة الفاطمية عن بعض وزراء الحافظ إلى امين الدولة زنكى كشنكين ماصورته:

وصل كتابك أيها الأمير الأجلّ الدالُّ علىٰ مصالحته، المُعربُ عن مناصحته، الشاهدُ له بمؤثّل الحُظْوة والأُثْره، والموضّح من أفعاله وخِلاله مالم تزل قضيته مرتَسِمة فى النفوس مُصَوّره؛ وعرضنا ما اقترنَ به من مطالعة المَقَام المقدّس النبوىّ الحافظىّ ـ ضاعف الله أنواره، وشادَ مَنَاره، وأعز أشياعه وأنصارَه ـ وشَفَعناه من الثنـاء علىٰ الأمير الاسفَهْسلار بمـا لم تزل عادتُنـا جاريةً به مع مَنْ نعلم طاعتـه، ونتحقّق مشايعته؛ ونرىٰ باطنه يضاهى ظاهِره، وسِرَّه يوافِقُ علانيته؛ ووقَفْنا علىٰ ما أنهـاه من حال الفَرَنْج المشركين الملعونين، وما كان من نِعَم الله تعالىٰ من الظَّفَر بهم، والإدالةِ منهم، والخَفْض من مَنَارهم، والتقويض لعُمَارهم؛ والإبادة لفارسهم وراجلهم، وإرشاد السيُوفِ والسِّهام إلىٰ مَقَاتلهم؛ وتطهيرِ الأرض منهم بدمائهم، والإحاطة بهـم عن أيمانهم وشمائلهم، ومن أمامهم وورائِهم؛ فابتهجْنا بذلك الابتهاجَ الذى يوجبه التوحيد، وانتهىٰ بنا السُّرورُ إلىٰ الحدّ الذى ما عليه مَزِيد. علىٰ أننا كنا نَوَدّ أن يكون ذلك بِصِفَاحنا وأسنَّتنا، وأن يُثْبِتَه الله لنا فى صحيفَتنا؛ وإنا لراجونَ من نِعَم الله عندنا، وإحسانه إلينا كما عوَّدَنا، أن يكون من بقِىَ من المذكورين بنا مستأْصَلا، ويكون أجر هذه الخاتمة لنا حاصلاً. وقد عزم الله لنا عند وقوفنا علىٰ كتابه، بما خرج به أمرنا إلىٰ جميع مَنْ بأعمال الدولة الحافظيَّة خلّد الله ملكها. بعيدِها ودانِيها، وقَصِيِّها ونائيها من العساكر المظفَّرة المؤيَّده، وقبـائل العُرْبان المستخْلَصه، وكافَّة الطوائف علىٰ اختلاف أنواعها، وتباين أجناسها، وتفاوُت مَنَازلها، وتغايُرِ مراتبها، بأن يَنْفِروا خِفَافا وثِقَالا، ورُكْبانا ورِجالا، بقوَّتهـم ونَجْدتهم، ووُفُور عَدَدهم وعُدَّتهـم، وكثرة آلاتِهم وأسلِحتهم؛ وبالعَزَمات المـاضـية، والضمائر الخالصة، والنِّيَّات المستبِقه، والعقائد المتَّفقه، وفَسَّحنا للمتطوّعة أن يختلطوا بالمرتزِقه؛ وأمرناهم بمَسِيرهم متتابعين، وتوجُّههم مترادِفين، وأن يكونوا كتائبَ متناصره، وجحافِلَ مُتواتره، وعساكر متواليه،

لاترىٰ الأرضُ منها إلىٰ العدوّ خاليه؛ ومن الله نطلبُ مادّةَ العون والإسعاد، ونسأله توفيقًا لما يَقْضِي بتضَاعفُ أجرنا فى العاجلة والمَعَاد . وقد شكرنا الأمير الاسفَسْهلاركونَ ما أنهاه سببا لهذه الغنيمة المتوقَّعة من فضل الله وإحسانه، والنُّصرة لدينه التى نؤملها من جزيل كرمه وآمتنانه؛ وأضفْنا ما آقتضته مطالعته من جَذَلنا وغِبْطتنا، إلىٰ المستَقرّ عندنا من محبته لنا، وإيثاره الذى لايُحْتاج فيه إلىٰ زيادةٍ علىٰ معرفتنا؛ فليعلم هذا وليعمل به . إن شاء الله تعالىٰ .

وكما كتب القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ صاحب مكةَ المشرّفةِ، جوابًا عن كتابٍ ورد منه عليه فى معنىٰ وُصُول غِلَالٍ بَعَث بها إلىٰ مكة ماصورته :

وصل كتابُك ، أيُّها الشريفُ مُعْرِبا عن المُشايَعة الشائعة أنباؤُها ، والمُخالَصَة الخالصةِ أسرارها الوافرةِ أنصباؤُها، وحسان الخلال، التى آقتسم طرفَي الحمد إعادتُها وإبداؤُها ، ومكْرُمات الآل ، التى تساوىٰ فى آقتناء المجد أبناؤها وآباؤُها ؛ وفضائلِ الإفضال، التى لاتخِفُّ علىٰ غيرأهل العبَاءِ صلوات الله عليهم أعباؤُها . ونَشَر كتابُك من محاسنك ما آنطوىٰ، ووَرَدْنا منه مَنْهَلا أروىٰ واردَه وآرتَوىٰ؛ ووقَفْنا منه علىٰ أثرِ فَضْل آشتمل علىٰ عين الكَرَم وآحتَوىٰ، ووفقنا وإياه من الحمد مالا نُخْلِفه نحنُ ولا هو مكانًا سُوىٰ؛ فاقتضانا مزيدًا فى رفع قدرِه، وآختصاصه من الإنعام بكلِّ غريبِ المَوْقِع نَدْرِه، وأصَرْنا كتابَه إلىٰ مستقَرّ كاتبه من قلب الوُدِّ وصَدْره؛ وكيف لايكون ذلك وقد آشمَخَرَّتْ لبيْته الأنساب، وخرّتِ الأنْصاب، وسجَدتِ الرِّقاب، ورُدّتْ له بعد ماتوارَتْ بالحِجَاب، وشَهِد بفَضْل توقيعهم الحربُ وبفضل ليلهم المِحْراب .

فأمَّا ما أشار إليه من الشُّكْرعلىٰ ماسُيِّر من الغَلّات التى كان الوعدُ بها علينا نَذْرا ، وروّحْنا بإرسالها قَلْبا وشَرَحْنا بتسييرها صَدْرا؛ وأنّها حلّت ربقةَ الجَدْبِ وفَكّتْها،

وجلَتْ هَبْوَةَ القَحْط وكفَّتها ؛ وهوّنَتْ مَصاعِب المَسَاغِب ، وخلَفَتْ سـواحبَ السحائب، وأطفأَتْ ــ ولله الحمد ــ بوار(١) النَّوائب؛ فقد سُرِرْنا بحسنتنا جعله اللهُ ممن تَسُرّه الحسنه، وقد نَبَّهنا من سنتِنا لأنْ نستَقْبِلَ بالحمد لولى السـنه ؛ وقد قوّىٰ النية وقوّمها، وآستزاد لهم بلسان الشكرِ الفصيح، وتناوَلَ لهم بباع التلَطُّف الفَسِيح، وألْقَحَ لهم سحائبَ محلّه منها مَحلَّ مُلْقِحِها من الرِّيح ؛ وآقتضىٰ مايعرِضُه أن خرج الأمرُ بأنْ يضاعَفَ المحمولُ فى كل عام، ولا يُخَصَّ به خاصٌّ دُونَ عام؛ وأمَرْنا أن يوفَّر جَلْبُ الجُلّاب، وتُوقَر ظهورُ الرِّكاب، ليُجْمَع للحرَم الشريف بين بِرِّ البر والبحر، وبين حَمْل البَطْن والظَّهْر؛ فتظَلُّ السنةُ وَدُودا وَلُودا ، ويُشاهَدُ المحلُّ الشريفُ وقد نأىٰ عنـه المَحْلُ شَرِيدا ؛ وتُحَطُّ القلوع عما يُحَطُّ عنه أمثالهـا من السحائب، وتستريح الأنفُسُ اللواغِب، فأما ماألقاه إلىٰ رسوله ، فقد أَسْمَعَ ماأسنده إليه، وأُعِيدَ بما يُعِيده عليه؛ وقد تكاثرت بولَاء الشريف الأشهاد، فغَنِي عن الآستشهاد، وأغنَتْه الحُظْوة بجميـل رأينا عمـا نأى أخذه لشُفْعة العطاء بل لشَفَاعة الآجتهاد، إن شاء الله تعالىٰ .

الجمـــلة الثالثـــة
(فى الأجوبة الصادرة عن ملوك الغَرْب)

وهى علىٰ النحو المتقدّم، وربمـا صُدِّر بلفظ : «قد» ونحوها .

كما كتب أبو المطرف بن عميرة عن بعض ملوكهم فى جواب كتابٍ ورد عليـه بطاعة بلد .

قد وصل كتابكُم ــ وصـل الله مَعُونَتكم وكَلَاءتكم ــ تذكرون ماتقرّر عنـدكم هنالك من أحوال تلك الجهة، وباشرتموه من أمورها؛ وأنتم عندنا بمحَلِّ الصِّـدْق، ومكان الإيثار للحقّ . وقد رسمنا لكم أن تُثْبِتوا فى أهل تِلْكُم الجهاتِ كلّها حميدَ الرأى

(١) لعله أوار .

فيهم، وحسنَ القبول لإنابتهم، وقصدَ الرِّفق بخاصَّتهم وعامَّتهم؛ وأنَّا قد تقبَّلْنا أَوْبتهم، وٱغتفَرْنا زِلَّتهم؛ وأولِئكم المتشبِّثون بسبب الذِّمام، عَرِّفُوهم أنكم رَغِبتم فى شُمول الصَّفْح عنهم، والإقالةِ لمـا كان منهم؛ فأسْعَفْنا رغبَتَكم فيهم، وأدخلْناهم فى العَفْو مع غيرهم؛ وبذَلْنا لهم الأمان، وأغْضيْنا عن جميع ما كان؛ فعرِّفوهم بهـذا كلِّه، وأخبروهم عنَّا بإعطاء التأمينِ لجميعهم وبَذْله؛ وإن كان أطيبَ لنفوسهم أنْ يصِلَهم مكتوبٌ بذلك عرِّفتمونا، ووجَّهْناه إليكم . وأقيموا أنتم هُنالكم أيَّاما خلالَ مايَصِـلكم من مُتناقِل الأحوال ماتُطالَعُون به، وتخاطَبُون بما تعتَمِدُونه إن شاء الله تعالىٰ . أدام الله كرامتكم .

أشرتم فى خطابكم إلىٰ أنَّ عندكم من تلك الأحوال ما تذكُرونه مشافَهةً، وربمـا يكون ذلك أمدا يبنىٰ عليه نظر، أويتوجَّه بحسبه عَمَل؛ فمن الجيِّد أن تكتُبوا بشرحه، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

الضرب الثـانى

(الأجوبة الواردة علىٰ المـلوك)

وهى علىٰ نحو ماتقدّم فى الأجوبة الصادرة عن الملوك من الآبتـداء بلفظ: «وصل» إلا فى الخطاب، فإن المكتوب عنه يقع الخطاب منه بـ«الخادم أوالمملوك أو العبـد» . ويخاطِبُ الملِك المكتوب إليه بمولانا أو مولانا الملِكِ أو نحو ذلك؛ وربما كتب بَدَل وصلَ : ورد .

كما كتب القاضى الفاضل عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» فى جواب كتابٍ ورد عليه مخبرا فيه بالحركة لِلقاء العدوّ ماصورتُه :

ورَدَ علىٰ المملوك ـ أدام الله أيامَ المجلس العالى المَلَكِىّ الناصرىّ، ونصره علىٰ أعدائه، ومَلَّكه أرضَـه بعَدْل حكم سمـائه، ولا أخلىٰ من نعمتَىْ خيره ونَظَره قلوبَ وعيونَ

أوليــائه ، وأعزَّ الإسلامَ ورفع عن أهله البَلْوىٰ بلِوائه . الكتُبُ القديمة التى تسرّ الناظرين من شعارها الأصفر، وتَبَشّر الأولياءَ إن كانوا غائبين مع الغُيَّب بأنّ حظَّهم حاضر مع الحُضَّر؛ وقد كانت الفَتْرة قد طالتْ أيامُها، وآستطالتْ آلامُها،والطُّرُقات قد سبق إلىٰ الأنفُس إبهامُها .

فالحمدُ لله الذى أذهبَ عنَّــا الحَزَن، وأولىٰ من النعمة ما آشترىٰ الحمدَ بلا ثَمَن؛ ذٰلكَ من فَضْلِ اللهِ علينا وعلىٰ الناسِ . ووَعْدُ [الله] سبحانه منْتظَر، إذ يقول فى كتابه : ﴿ وعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالحاتِ ليَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فى الأرض كما آسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ولُيمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذى آرْتَضىٰ لَهُم وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وصَدَق صلّى الله عليه وسلم فى قوله : "إنَّ آخْتِيارَ اللهِ للمُؤْمِنِ خيرٌ من اختياره، وإنَّ مواضِعَ الأمَلِ للعَبْد خيرٌ منها مواقعُ أقضيةِ اللهِ وأقدارِه" . فقد كانتْ حركةٌ آحتاجتْ إليهــا البلاد التى آنفصل عنها، والبلادُ التى قَدِم عليها . أما المصرية منهــا فبكونها علىٰ عِدَةٍ من نَجْدته آجلا، وأما الشاميــة فبكونهــا علىٰ ثقةٍ من نصره عاجلا ؛ فقد تماسكَتْ من المسلمين الأرماق، وقد آنقطعت من المشركين الأعناق :

تُهابُ بك البِلادُ تَحُــلُّ فيهــا * ولَوْلا اللَّيْثُ ماهِيبَ العَرِينُ!

وعرض المملوكُ ماوصل إليه من مكاتبات المولىٰ علىٰ العِلْمِ العادلىّ وأدركها تحصيلا، واحاط بها جملةً وتفصيلا؛ والمَوْلىٰ ـ خلّد الله ملكه ـ فكلُّ ما أشار إليه من عزيمة أبداها، ونيــةٍ أمضاها، فهو الصوابُ الذى أوضح الله له مسالِكَه ، والتوفيقُ الذى قرَّب الله عليه مَدارِكَه؛ ومن أطاع اللهَ أطاعه كلُّ شىءٍ، ومن استخاره بيَّن له الرُّشْدَ من الغَىّ؛ والله تعــالىٰ يجعلُ له من كلِّ حادثةٍ نَخْوه[1]، ويكتبُ أجْرَه فى كلِّ حركةٍ ونَفَس وخَطْوه . إن شاء الله تعالىٰ .

(١) النخوة العظمة

القســـــم الثـانى

(المكاتباتُ الصادرةُ عنهم إلىٰ ملوك الكُفْر، وفيه طرفان)

الطـــــرف الأوّل

(فى الابتداءات، وفيــه ثلاثُ جمــل)

الجمـــــلة الأولىٰ

(فى المكاتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق من بنى بُوَيه فمن بعدهم)

وقد كان الرسم فيها أن تُفْتَتح المكاتبة بلفظ "كتابى أو كتابنا إلىٰ فلان" ويخاطب المكتوب إليه بملك الروم أو نحو ذلك ، ويختَم بقوله : فإن رأىٰ ذلك فعل إن شاء الله تعـالىٰ .

كما كتب أبو إسحاق الصابى عن القائد أبى الفَوَارس ختور التركى المعـزى، إلىٰ وردس بن قُنْبَر المعروف بعسقلاروس .

[كتابى إلىٰ] ملك الروم الفاضل، الجليل، النبيل، الخطير، أدام الله كفايته وسلامتَه، ونعمته وسعادته، وعافيته وحراسته . من الحضرة الجليلة بمدينة السلام لثمانٍ ليالٍ خلَوْنَ من ذى الحجة سـنة تسع وسبعين وثلثمائة ، وهو اليوم التـاسع من أَدَار ، عن شمول السلامه ، وعموم الأسـتقامه ، وصـلاح حالِى فى ظل الدولة المنصوره . والحمدُ لله رب العالمين وحده لاشريكَ له ، وصلّى الله علىٰ محمد وآله وسلم تسليما .

ووصل كتابُ مولانا ملكِ الروم الفاضل الجليل الصادر عن العسكر بمَرْج لارضة بتاريخ التاســع من حَزِيرَان، وفهمته وجلَّ عندى مَوْقِعُه، وعظُم فى نفسى خَطَرُه،

وَحمدتُ الله علىٰ ماشهِدَ به من ٱنتظام أحواله ، وٱطّراد أمورِه ،وسألته أن يتمّ النعمةَ عليه ، ويزيدَ فيها لديْه ، ويُواصِل إحسانه إليه ، ويُطيلَ مدَّته ، فى أتمّ رُشْد وهداية ، وأرفع قَدَم ومنْزِلة ، وأعلىٰ خطرٍ ورتبة ، بمنّه وطَوْله ، وجُوده ومَجْده .

فأما ماذكره سيدنا الملك الجليل : من مُقامه علىٰ العهد ، وٱفتقاره إلىٰ الميل والوُدّ ، فذاك يوجِبُ فضلَه البارع ، وكرمه الشائع ، وخلالَ الخير التى أهلَّه الله لها ، وخصَّه الله بها ، وبالله أحلف إنّنى ماخلَوْتُ منذ ٱفترقنا من مطالَعَة أخباره ، وتَتَبُّع آثاره ، وٱســتعلام مَجارِى شُــؤونه ، والسرورِ بكل ماتمَّ له ووصل إليــه ؛ حتّى كأننى حاضرٌ له ، وضاربٌ بأوْفَر سهم فيه ، بل مخصوصٌ بجميعه . والله يُجْريه علىٰ أحسن ماأولاه وعوّده ، ولا يُخْليه من الصُّنْع الجميل فيما أعطاه وقلَّده ، برحمته .

وكنتُ قبل ذلك عند وُرُود رسولى فى الدَّفْعة الأولىٰ علىٰ غاية الغَمّ وشُغُل القلب بسبب الغَدْر الذى لَحِقه من عدوّه الذى أظفره الله به ؛ وأنهيتُ ذلك فى وقته إلىٰ الملك السعيد المـاضى ، شرفِ الدوله ، وزينِ المله ؛ رضى الله عنــه . فاشتغل قلْبُــه ــ رحمه الله ــ به ، وعَمِل علىٰ إنفاذ العساكر لنُصْرته ؛ ثم أتىٰ من قضاء الله فى أمره ماقد عَرَفه .

ولما ٱنتصب فى المملكة مولانا السيدُ بهاءُ الدوله ، وضياءُ الملة ــ أطال الله بقاءَه ــ شرحْتُ له ماجرىٰ قديمـا علىٰ سِياقته ، ومَهَّدت الحالَ عنده ، ووجدتُه ــ أدام الله سلطانه ــ معتقِدا لسيدنا ملك الروم الجليل ــ أدام الله عزَّه ــ أفضلَ ٱعتقاد ، وسُر بمـا ٱنتهتْ إليه أمورُه ، وتنجَّزت الكتبُ إلىٰ مُوصِلها الرسول حفظه الله ؛ وسَمِعت منه ما كان تحمَّله عن ســيدنا ملك الروم أدام الله تأييــدَه ، وأخرجت معه صاحبى أبا القاسم الحسين بن القاسم ، وحمَّلتهما جميعا ماينْهيانِه إليه فى سائر الأمور التى يرى عَرْضها ويحتاج إلىٰ معرفتها .

وأنا أسأل سيدنا الملك الجليل ـ أدام الله بركته ـ تعجيلَ ردّه إلىّ ، فانه ثقتى ، ومن أسكُنُ إليه فى أمورى ؛ وأن يتفضَّلَ ويكلِّفنى حوائجَه ومهمَّاته ، وأمْرَه ونهيَه لأقوم فى ذلك بالحق الواجب له ، فان رأىٰ سيدنا ملك الروم الفاضل الجليل ، الخطير النبيل ، أن يعتمدنى من ذلك بما يتضاعف عليه شُكْرى ، وتجِلُّ النعمةُ فيه عندى ، ويشاكل الحالَ بينه وبينى ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية إليهم)

والذى وقفْتُ عليه من ذلك أُسْلوب واحد : وهو الآبتداء بـ«أما بعد» والخطابُ فيه بالمَلك ، والآختتامُ بالدعاء .

كما كتب القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» إلىٰ بردويل أحد ملوك الفَرَنْج ، وهو يومئذ مستولٍ علىٰ بيت المَقْدس وما معه ، معزِّيًا له فى أبيه ومهنِّئا له بجلوسه فى المُلْك بعده ، ماصورته :

أما بعد — خصَّ الله الملك المعظَّم حافظَ بيت المقدس بالجَدِّ الصاعد ، والسَّعد الساعد ؛ والحظِّ الزائد ، والتوفيقِ الوارد ؛ وهنّأه من ملك قومه ماوُرِّثه ، وأحسن من هداه فيما أتىٰ به الدهرُ وأحدثه ؛ فإن كتابنا صادرٌ إليه عند ورود الخبر بما ساء قلوبَ الأَصَادق(١) ، والنَّعْىِ الذى وَدِدْنا أنَّ قائله غيرُ صادق ؛ بالمَلك العادل الأعزِّ الذى لقَّاه الله خيرَ مالَقِّى مثله ، وبَلَّغ الأرضَ سعادته كما بلَّغه محلَّه ؛ مُعَزٍّ بما يجب فيه العَزاء ، ومتأسِّفٌ لفَقْده الذى عظُمت به الأَرْزاء ؛ إلا أنَّ الله سبحانه قد هوّن الحادث ، بأنْ جعل ولَدَهُ الوارث ؛ وأنسىٰ المُصاب ، بأن حفظَ به النِّصاب ، ووهَبه

---

(١) جمع جمع لصديق مفرده أصدقاء .

النعمتين : المُلكَ والشَّبَاب؛ فهنيئًا له ماحاز، وسَقْيًا لقبر والده الذى حَقَّ له الفداء لو جاز؛ ورسولُنا الرئيسُ العميدُ مختار الدين أدام الله سلامته قائمٌ عنا بإقامة العَزَاء من لسانه، ووَصْفِ مانالنا من الوَحْشة لفِراق ذلك الصـديق وخُلُوّ مكانِه؛ وكيف لا يستَوْحِشُ ربُّ الدار لفُرْقة جِيرانه . وقد آستفتحنا الملك بكتابنا وارتيادنا ، ووُدِّنا الذى هو ميراثُه عن والده من وِدَادنا؛ فليَلْقَ التحيَّة بمثلها، وليأتِ الحسـنةَ ليكون من أهلها؛ وليَعْلَمْ أنَّاله كما كنا لأبيـه : مودّةٌ صافيـه، وعَقِيدةٌ وافيـه؛ ومحبَّةٌ ثبت عَقْـدُها فى الحيـاة والوَفاه، وسريرةٌ حَكمتْ فى الدنيا بالمُوافاه؛ مع مافى الدِّين من المخالَفَات . فليستَرْسِلْ إلينـا آسـترسالَ الواثِق الذى لايَخْجَل، وليْعتمِدْ علينا آعتمادَ الولد الذى لايجمِلُ عن والده ماتحمَّل؛ والله يُدِيم تعميره، ويحرُسُ تأميره؛ ويقضى له بموافقة التوفيق، ويُلْهِمُه تصديقَ ظنِّ الصديق .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغَرْب)

والرسم فيه أن تفتتَح المكاتبةُ بلفظ : «كتابنا» والمخاطبةُ بنونِ الجمع عن المكتوب عنه وميم الجمع عن المكتوب إليه، والآختتام بالسلام مع الدعاء بمـا يليق .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة عن أبى جَمِيـل زَيَّان، إلىٰ ملك قَشْتالة من بلاد الأندُلُس فى مُراوَدة الصُّلْح :

كتابُنا إليكم ــ أسعدكم الله برضاه، وأدام عِزَّتكم وكرامتَكم بتقواه ــ من مُرْسِيَةَ، ونحن نحمَدُ اللهَ الذى لاشيء كمثله، ونلجأ إليه فى أمرِنا كُلِّه، ونسأله أن يُوزِعَنا شكر إحسانه وفضلِه ــ وعندنا لجنابكم المُرَفَّع تَكْرِمة نستَوْفِيها، ومبَرَّة ننتهى إلىٰ الغاية فيها، وعلْمُنا

بمحلكم الشهير، وكتابكم الخطير، يستدعى الزيادةَ من ذلكمْ ويقتضيها؛ وقد كان من فضل الله المعتاد، وجميل صُنْعه فى آنتظام الكلمة فى هذه البلاد، ما آكتنفَتْه العِصْمه، وكَمُلت به النِّعمة والمِنَّـه؛ وتيسَّر بمعونة الله فتحٌ أقرّ العيون، ورضيه الإسلام والمسلمون، وكانت مطالعتكم به مما آثَرْنا تقديمه، ورأينا أن نحفظ من الأسباب المرعيَّة علىٰ التفصيل والجملة [حديثه وقديمه] وحين ترجَّحت مخاطبتكم من هذا المكان، ومفاوضَتُكم فى هـذا الشان؛ رأينا من تكملةِ المَبَرَّه، وتوفية العناية البَرَّه؛ أن نُنْفِذ إليكم من يُشافِهُكم فى هذا المعنىٰ، ويذكر من قَصْـدِنا مانُولَع به ونُعْنىٰ؛ وهو فلان فى ذكر السِّلْم ومحاولتها، مايتأدّىٰ من قِبَله علىٰ الكمال بحول الله تعالىٰ. وإن رأيتم إذا آنصرف من عندكم، أن توجِّهوا زيادةً إلىٰ ماتُلْقُونه إليه من رجالكم وخاصَّتكم؛ فى معنىٰ هذا العهد وإحكامه، ومحاولتِه وإبرامه؛ فعلتم من ذلك مانرقُبُ أثره، ونصرِفُ إليه من الشكر أوفاه وأوفره، إن شاء الله تعالىٰ: وهو الموفِّق لاربَّ سواه، والسلام الأتَمُّ عليكم كثيرا.

الطَّرَف الخـامس عشر

(المكاتبات الصادرة إلىٰ ملوك الكفر فى الأجوبة [وهى] إما أن تصدَّر بما يصدَّر به الآبتداء وقد تقدّم، وإما أن تصدَّر بلفظ وصل أو ورد)

كما كتب بعض كُتَّاب الدولة الأيوبية عن الملك الجَوَاد: أحد ملوكهم، فى أيام الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر، جوابَ كتابٍ ورد عليـه من فرانك: أحد ملوك الفرَنْج فى شعبان سنة ثلاثين وستمائة:

وردتِ المكاتبة الكريمةُ الصادرةُ عن المجلس العالى، المولى، الملك، الأجل، الأعز، الكبير، المؤيَّد، الخطير، العالم العامل، الظَّهير، العادلِ، الأوحدِ، المجتبىٰ، شمس الملة النَّصرانيــه، جلالِ الطائفة الصليبيه، عضــدِ الأمة الفَرَنْجيه، فخرِ أبناء المعموديَّه، عمدةِ المـالك ضابط العساكر المسيحيه، قيصر المعظَّم فلان معزِّ إمام روميه، ثبَّت الله لديه نعمه، وعزَّز موارد جوده ودِيمَه، وأمضىٰ صوارمَ عزائمــه وأعلىٰ هِمَمَه، ولا بَرِحتْ أنوار سعده، تتلالا، وأخبار مجده، تُبْسَط وتتعالىٰ، وسحائبُ الألسِنة الناطقة بحمده تستهِلُّ[(1)] وتتوالىٰ، إلىٰ أن يتحلَّى جيــدُ الضُّحىٰ بعُقُود الليــل، وتطْلُعَ الشعرىٰ من مَطَالع سُهَيل ـ بجدّد الثناءَ علىٰ جلَاله، وأكَّد المديحَ لإحسانه وإفضاله، وأنفَسَ أســبابَ المودَّة والخَصَافه، وشدّد أواخِيَ الإخلاص والموافاة فاستبشرت النفوس بُوُروده، وسُرَّت القلوبُ بوُفُوده، ووُقِف منه علىٰ الإحسان الذى نعْرِفه، ووُجد عِقْــدُه مشتملاً علىٰ جواهرِ الوداد الذى نألَفُه، فشُكْر الله علىٰ هــذه الأُلْفة المنتظِمه، والمحبَّةِ الصادقةِ المكرَّمه . والمجلس العــالى الملكُ الأجلُّ أعلىٰ الله قدره، ونشر بالخير ذكره، أولىٰ من أهدىٰ المسرَّات، بوُرُود المَرَاسم والحاجات، ووصَلَ الأنس بكريم المكاتبات، مضَمَّنةً السوانحَ والمُهِمَّات .

فأما ماذكره المقام العالى السلطانىّ المَلَكىّ الكاملىّ الناصرىّ ـ زاده الله شرفا وعلوّا ـ من أنه لا فرق بين المملكتين، فهذا هو المعتَقَد فى صِدْق عهده، وخالص وُدِّه، ولا زال ملكه عاليا، وشرفُه ناميا، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله تنهمل .

الفصل الرابع

من الباب الثانى من المقالة الرابعة

(فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية، على ما ٱستقر عليه الحالُ من ابتداء الدولة التركية وإلى زماننا على رأس الثمانمائة، مما أكثره مأخوذٌ من ترتيب الدَّوْلة الأيوبية التى هى أصل الدَّوْلة التركية، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطرف الأول

(فى المكاتبات الصادرةِ عنهم إلى الخلفاء من بنى العبَّاس)

قد تقدّم فى الكلام على المكاتبات الصادرة عن الملوك إلى خلفاء بنى العباس أنها على أساليب فى ٱبتداء المكاتبات : منها مايفتَتَح بآيةٍ من القرءان الكريم ثم بالسلام؛ ومنها مايفتتح بالسلام ٱبتداءً؛ ومنها ما يفتتح بالصلاة على الخليفة على مذهب من يرى جواز إفراد غير الأنبياء بالصلاة؛ ومنها ما يفتتح بالدعاء لديوان الخلافة .

ولكن الذى ذكره المقرّ الشّهابىّ بن فضل الله فى كتابه "التعريف بالمصطلح الشريف" مما الحال مستقرٌّ به أن المكاتبة إلى ديوان الخلافة الشريفة: «أدام اللهُ أيامَ الدِّيوانِ العزيز، المولوىّ، السيِّدىّ، النبوىّ، الإمامىّ، الفلانىّ» ثم الدعاء المعطوف، والصدر بالتعظيم المألوف؛ وأنها قد تفتتح بغير هذا الدعاء نحو : «أدام الله سلطان» و«خلد الله سلطان» أو «أيام» أوغير ذلك مما يقتضى العزَّ والدَّوام . وأن الصدر نحو : «العبد، أوالمملوك، أوالخادم، يقبِّل الأرضَ أوالعَتَبات أومواطئَ المواقف» أوغيرذلك . وأنَّ ختم الكتاب يكون تارةً بالدعاء، وتارةً بـ«طالع أوأنهى»

أو غيرهما ممـا فيه معنىٰ الإنهاء . ويخاطَب الخليفةُ فى أثناء الكتاب بالديوان العزيز، وبالمواقف المقدّســة أو المشرّفة ، والأبواب الشريفة ، والبـاب العزيز ، والمقـام الأشرف ، والجانب الأعلىٰ أو الشريف . وبأمير المؤمنين مجرّدةً عن سيدنا ومولانا ، ومَرّةً غير مجرّدة ، مع مراعاة المناسَبه ، والتسديد والمقارَبه . وأن خطاب المكاتب عنه بحسَب من كُتِب عنه : فكتب بعضُ ملوك بنى أيوبَ بالديار الشامية «الخادم» . وبعضهم «المملوك» وبعضهم « العبـد » وبعضهم «أقلّ المماليك» وبعضُهم « أقلّ العبيد » . وأن علاء الدين خُوارِزْم شاه : صاحب بلاد خُوارِزْم وما معها ، وٱبنه جلال الدين كانا يكتبان « الخـادم المِطْواع » ، وأن أمّ جلال الدين كانت تكتب « الأَمَةُ الداعية » . قال : فى "التثقيف" : وعنوانه « الديوان العزيز » إلىٰ آخر الألقاب ، ثم الدعاء يعنى من نِسْبة الصدر ، نحو «أدام اللهُ أيامه وخلّد الله سلطانه» وما أشــبه ذلك . قال : وعادة العلامة إليه «الخادم» أو «المملوك» أو «العبد» . وكتب بعضهم «أقلّ المماليك» وبعضهم «أقلّ العبيــد» . يريد أنّ العلامة تكون مطابِقة لمـا يقع فى أثناء المكاتبة عن المكتوب إليــه من الخادم وغيره ممـا تقــدّم ذكره ، بحسَبِ ما يُؤْثِر الملك المكتوب عنه الخطابَ به عن نفسه .

وهذه عدّة صدور مختلفاتِ الابتداءات منقولةٍ من التعريف وغيره .

أما قَطْع الورق الذى يكتب فيــه إلىٰ الخليفة ، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق فى المقالة الثالثة ، نقلا عن ٱبن عمر المدائنىّ فى "كتاب القـلم والدواة" أنه يكتب للخلفـاء فى قِرْطاس من ثُلُثَىْ طُومار ، وأن المـراد بالطُّومار الفَرْخة الكاملةُ ، وأن المراد الورق البغدادىّ ؛ وحينئذ فينبغى أن يُجْرَى الأمر علىٰ ذلك تعظيمًا للخلافة .

صدر : أدام الله أيامَ الديوان العزيز، ولا زالتْ سيوفُ أوليائه فى رقابِ أعدائه مُحكَّمه ، وصُنوفُ الكفَّار، فى أيدى عسكره الجَرّارِ، بالنِّهاب مقسَّمه ، وصفوفُ أهل الشرك مُزَلْزَلة بخوافق أعلامه المطهَّرة وسَنابِك جيادِه المطَهَّمه ، ولا برِحَتْ ملائكة النصر من أمداده ، وملوكُ العصر بيضَ الوجوهِ بتعظيم شِعار سَوادِه .

الخادم ينتهبُ ثَرى العتبات ، الشريفة بالتقبيل ، وينتهى فى قُصارى الطَّلِبات ، على الوقوف فى تلك الرُّبوع ، ويكَلِّل رُبى تلكَ الساحات ، هو وكلُّ ابن سبيل بلآلئ الدُّموع ، خضوعًا فى ذلك المَوْقِف الذى تُنْكِر القلوبَ فيه الصُّدور ، وتَلْصَق منه الترائبُ بالنُّحُور ، ويُظهر سِيمَا الجَلالةِ فى الوجود ، ويُغْدِق على الأولياء فيُعْرَفُون بِسِيماهُمْ من أَثَرِ السُّجود . ويُنْهِى أن وَلاءَه القديم ، وبَلاءَه العظيم ، وأيَّامَه السالفه ، وأفعالَه التالدةَ والطارفه ، وسوابقَ خِدَمه فى امتثال الأوامرِ الشريفةِ التى لم يَزَلْ يتسارع إليها ، ويُقَارع عليها ، ويُصارِع غُلْب الأُسُود على تنفيذ مَراسِمها ، وإقامة مَواسِمها ، وإطارة صِيتها ، ودوام تثبيتها ، تحمِلُ الخادم على الاسترسال ، وتُجْمِل له السؤال ، والذى ينهيه كذا وكذا .

صدر آخر من "التعريف" : أدام اللهُ سلطانَ الديوان العزيز ، ولا زالت الخلائقُ بكَرَمه مُضَيَّفه [والكاتبُ فى هَجِير وَطِيسه مصَيِّفه][1] . والأبصار فى نَصْر أنصاره مصَنِّفه ، والمواضى بأوامره فى قَبَضات عساكره مُصَرَّفه ، والنقودُ إلا ماتشرَّفَ باسمه مُزَيَّفه ، والقلوبُ فى صدُور الأعداء بخَواطِف رُعْبه مُسيَّفه ، والوعودُ إلا بما تُنْجِزُه مواهِبُه مُسَوَّفه ، والوغى لاتُرى إلا برماحه مثقَّفة ، والسماءُ وإن علَتْ لاتكون

(١) الزيادة من "التعريف" .

إلا لأذيالِ سُيُوفِه مسَحِّفه، والمَهابةُ بسَطَاه إما لَمَعاقل فاتحةٌ وإمّا عَمّا يُطْمع أن تناله الأيدى منهـا مُجْحفه، والأممُ علىٰ آختلافها تحتَ راياته المنصورة مقاتِلَةٌ وأخرىٰ له مُخَالفه، والأعلام التى يَأْوِى إليها الإسلامُ به جِوارَ الجوزاء مُخَلِّفه، والأبطالُ لقتال الكفر ببوارق سُيوفه، قبْلَ مَضايق صُفُوفه، ومَخانِق زُحُوفه مُخَوِّفه .

الخادم يُقْبِل بوَلَائه إلىٰ ذلك الجَنَاب، ويقبِّـل الأرض وكتابُه يُحسن المَناب، ويُقيل عثراتِه إذْ كانَ به قد لَاذَ، ويُقِيم معاذيرَه إذ كان به قد عاذْ؛ ويَتَسرْبَل بطاعته سَرابِيَل تَقِيه إذا خاف من سِهام الدهر إلىٰ مُهْجته النَّفاذ، ويصُول بانضمامه إلىٰ تلك العِصابة المنصورةِ لا بمـا يُطْبَع من الفُولاذ؛ ويُحِلُّ تلك المواقفَ المقدّسةَ أن يبُـلَّ مواطِئَها بدمعه، وأن يُحُلَّ مواطِنَها بقلبه قبل أن يُعاجِل كلَّ عدوّ بقَمْعه؛ ويَعُـدُّ ماهُدِى إليـه من الآعتصام بسببها سببًا لفَوْزه، ومُوجِبا لِملْك رقِّ عنقِ كلِّ عاص وحَوْزه؛ وينهى كذا وكذا .

صدر آخر: خلَّد الله سلطان الديوان العزيزِ! ولا زالت أيامُه شامخةَ الذَّوائب، شارخةَ الصِّـبا [حتى] حيثُ ياحَقُ الشَّيبُ الشوائب، راسخـةَ الفَخَار فى الظُّهور بالعجائب، نافخةً فى فَحْم الليل جَمْر الكتَائِب، صارخةً والرعدُ تَرْتعد فرائصُه بين السَّحَائب، ناسخةً دولَةَ كلِّ علياءَ بما تأتِى به من الغرائب، وتَبْذُله من الرَّغائب، فاسخةً عقدَ كلِّ خالع يُرِدُّه الله إليها ردّةَ خائب، باذخةً علىٰ ماضِى كلِّ زمانٍ ذاهبٍ من عُصُور الخُلَفاء الشرفاء وآئب، سالخةً لِجلْدة كلِّ أيِّم[1] ظَنَّ أنَّ فى أنياب رُمْحه النَّوائب .

الخادم يقبِّـل العَتباتِ الشريفةَ ساجدًا بجَبِينه، وشاهدًا يستأْديه له علىٰ يَمِينه، وجاحدًا كلَّ وَلَاء سوىٰ وَلَائه المعقود بيَمِينه، وعاقدًا بشَرَف الآنتسابِ إليه عَقْدَ دِينه،

(١) الأيم ككيس والايم بالكسر الحية أنظر القاموس .

وحامدًا اللهَ الذى جعله [من](١) طاعةِ أميرِ المؤمنين عند حُسْن يقينه؛ وعائدًا بأمله إلى كرم تُثْمر به الآمال، وتُقمِر به اللَّيالِى لأنها شعارُه الذى تُضْرَب به الأمثال، وتُمْطِرُ به السُّحُب الجَهَام فتُمْحىٰ بها آيةُ الإمحال . ويُنْهِى وُرودَ المِثال الشريف الذى طلَعَ نَيِّره فأنار، وسطَع متضادُّه فألَّف بين الليل والنهار، وأقبَلَ فما رآه إلا كَابَهُ الذى أُوتِيَه باليمين، وسحابَهُ الذى أُعطِيَه ينْدىٰ منه الجبين؛ ونَصَرَه أكثرَ من الألُوف، وأنْصَفَه أعجَلَ من السيوف، وزاحَمَ به الدهرَ فضلا عن الصُّفُوف، وزارَ به الوَغىٰ لايَهابُها وخَطِّيَّاتُ القَنا وقُوُف(٢)؛ فتشرَّفَ به وطار بغيرِ جَناح، وقاتَلَ بغيرِ سِلَاح، وقرأه وباتَ قِرًى له فى السَّماح، وتسلَّمه كأنما تسنم به المَعاقِلَ وتسلَّمَ منه المِفْتاح .

صدر آخر : خلَّد اللهُ أيامَ الديوان العزيزِ! ولا زالتْ سَطَواتُه تجْمُدُ برُعْبِها الأبطالُ المدَجَّجة ، وتَخْمُد بفَيْضِها النِّيرانُ المؤجَجه، وتَحْمِلُ بركْزِ نفاذها إلى القلوب الرِّماحُ المزَجَّجه، وتَبخَّلُ معها بعوائد كَرَمِها السحُبُ المثَجَّجه، وتخِفُّ لدَيْها أوقارُ الجبال المُفَجَّجه، وتخِرُّ بل تخُور خَوْفا أن تترَقَّى إليها الأصواتُ المضَجَّجه ، وتَغُصُّ بالغَرَق من خاطَرَ فى بِحارها الملَجَّجه، وتحلِفُ بسلطانها للمَوتُ أشهىٰ من البقاء إلى طَرائد سُيوفِها المُهَجَّجة، وتخَلِّد النصرَ بحُجَجها القائمةِ على الخُصَماء المتحَجِّجه .

الخادمُ يقلِّب وجْهَه فى سمَاء الفَخار بتقْبِيل الأرض التى طالَتِ السماء، فأطالَتِ النَّعماء، وفضَلت النُّجومَ اللَّوامِع، وأُوتِيَتْ بمالكها ــ أعزَّ الله سلطانه ــ كَلِمَ الفَضْل الجَوامع، وأحلَّت شَوامِخَ المجْد مَنْ حَلَّها ، وأجلَّتْ قدْرَ من جَدّ فأجَلَّها ، وأعطَتْ مَفَاتيحَ الكُنوزِ كُنوزِ الشَّرف لمن قَبَّلَها كما يقبِّلُ الحجيجُ الحجَرْ ، أو أمَّلَها كما يؤمِّلُ السارى طُلُوعَ القمر؛ وينهى كذا وكذا .

(١) من من "التعريف" وهى لازمة لوضوح المعنى .

(٢) فى التعريف "وخطار" وكل صحيح .

صدر آخر : قال فى "التعريف" : وهو غريب الأسلوب .

أدام اللهُ أيام العدلِ والإحسان، والنِّعم الحِسان، والفضلِ المشْكُور بكلِّ لسان ؛ الأيَّامَ التى أشرقَ صَبَاحها السَّافِر، وعَمَّ سَمَاحُها الوافِر، وآمَنَ بيُمْنِها كلَّ مُسْلم ضُرِب عليه سُرادقُ الليلِ الكافر، وعلَتْ شموسُها وقد جنحَتِ العُصور الذَّواهب، وقُدِحتْ أشعَّتها فأضاءتْ بين لابَتِي الغَيَاهِب ؛ أيَّامَ الديوان [العزيز المولوىّ، السيدىّ، النبوى، الإمامىّ، الحاكمى،](١) لابَرِحتْ أيامُه مفَنَّنه، وأحكامُه مقَنَّنه، وسُحُبه علىٰ الظِّماء محَنَّنه، وقُرَبه بفقد ماحوَتْه مجَنَّنه، وحقائقُه غير مظَنَّنه، وطرائقُه للخير مسَنَّنه، والخلائقُ تحتَ جناحِ رأفته ورُحْماه مكَنَّنه ؛ ولا زال ولاؤُه ضميرَ من اعتقد، ومُميِّرَ من أخَذَ من الدهر ما انْتَقَد، ومُبيرَ الأُسُود المتضائلةِ لدَيْه كالنَّقَد، وسَمِيرَ من تَنَبَّه وضَجِيعَ مَنْ رقَد، ومُعِيرَ البَرْق نَدىٰ كَرَمه وقد وَقَد، ومُغِيرَ متعالِى الصَّباح من راياته العاليةِ بما عَقَد، ومُجِيرَ مَنْ لاذَ به حتَّى لايضُرُّه من فَقَد، ومُبِيرَ عِداه برَدَاه الذى إن تأخَّر إلىٰ حينٍ فقَدْ .

الخادمُ يَخْدُم تلكَ العتباتِ الشريفةَ التى إن تاهَتْ علىٰ السماء فَمَا، وإن دنَتْ للتقبيل فإن الثُّرَيَّا تودّ أن تكُونَ فَمَا ؛ ويَنْهَب ترابَ تلك الأرض التى هى مَسَاجِد، ويُقَبِّل ذلك البِساطَ الذى لامَوْضِعَ فيه إلا مَكَان لاثمٍ أو ساجِد ؛ ويتزَّهها عن سَواكِب دمعه : لأنّ ذلك الحرَمَ [الآمن](١) لاتُطَلّ فيه الدماء، ويُجِلُّها عن مواقع لَثْمه لأنها لا تَلْثَمُ السماء ؛ ويرفَع صالحَ الدعاء وإنما إلىٰ سمائها يرفَعُه، ويُنْهِى صادقَ الولاءِ وما ثَمَّ من يَدْفَعُه، ويدّخِرُ من صحيح العُبُودِيَّة مايرجو أنه ينفَعُه ؛ ويطالع العلومَ الشريفة بكذا وكذا .

(١) الزيادة من "التعريف" .

صدر آخر : أدام اللهُ النعمةَ علىٰ الدين والدنيا بإيالة الديوان العزيز! وأسبغ نِعَمه فالنِّعم فى ضِمْنها ، وملأ الآمالَ منها وأفاض من أنوارها التى علم قَرْن الشمس أنَّه غير قِرْنها ، وأدالَ دولتَه التى نزل الخلقُ من جَنَّات عَدْلها جنَّاتِ عَدْنها ؛ وأمضىٰ سيوفَها التى تُعْرِب فيُعْرَف ضمير النصر فى لَحْنها ، وأعلىٰ آراءها التى تلقىٰ العُدَاة بدُرُوع يقينها ، وتلقىٰ الغيوبَ بسَهْم ظَنِّها ؛ ولا زالت البشائر تَتَبارىٰ إليه بُرُدُها ، ويضْفُو علىٰ أعطاف الإسلام بُرْدُها ؛ ولا بَرحت راياتُه سُوَيْدات قلوب العساكر ، وأجنحةَ الدعاء المحلِّق إلىٰ أفق السماء من أُفُق المنابر ، وولاؤُها السِّرّ المبْهَمَ الذى هو ممـا تُبْلىٰ به السرائر . الخادم .....

صدر آخر : أعلىٰ الله الموحِّدين علىٰ المُلْحِدين ، وثبَّت كلمةَ المتَّقين علىٰ اليَقين ؛ بدوام أيَّام الديوان العزيز ورَوّض بوُلاتِه كل ديوان ، ووَسَم بوَلائه كلَّ أوان ، وأنطق بحمده كلَّ لسان ، وألْهم الخلْقَ أن يُعَنْوِنُوا بطاعته صحائفَ الإيمـان ، وأسعدهم بمـا يتناولُونه فى الدنيـا من كُتُب المِنَن وفى الآخرة من كُتُب الأمان ؛ فكلُّها طائرٌ فى العُنُق يكونُ بالطاعة قلائدَ بِرّ فى الأطواق ، وبالمعصيةِ جوامِـعَ أسْرٍ فى الأعناق .

ورد علىٰ المملوك كتابٌ إن لم يكُنْ أُنْزِل من السماء ، فهو من الذين أنزل عليهم كتاب من السماء ، وإن لم تنزل ألفاظُه بالمـاء ، فهو من الذين أنْزِلَتْ ألفاظُ دعواتهم المـاء ؛ وإن لم يكن كتَابَ العمل : لأنه ليس بيوم الكتاب ، فإنه قِطٌّ عُجِّل له قبل يوم الحساب ؛ ولولا أن أُمَّ الكتاب أَعْقِمتْ لكان ٱبنَ أمِّ الكتاب ، وإنْ هو إلا طائر ألزم في عُنقه وما وَكْر طائره إلا المحْراب .

صدر آخر : أتمَّ الله ما أنعم به علىٰ الديوانِ العزيزِ وعلىٰ الخَلْق، وأشركَ فى هذه النِّعمــةِ أهلَ الغرب والشَّرْق ، وميَّز الحظوظَ فيهـا بحَسَبِ درجات السَّبْق . فإنه ﴿لا يَسْتَوِى مِنْكُمْ مَنْ أنْفَقَ من قَبْلِ الفَتْح وقاتَلَ أُولٰئِكَ أعظَمُ درجةً من الذين أنفَقُوا من بَعْدُ وقاتَلُوا وكُلًّا وعَدَ اللهُ الحُسْنىٰ﴾ والله لايخلف موعده، والديوانُ العزيزُ لايكدر مَوْرِدَه، ولا رَفَع عن أيدى الخَلْق يَدَه، بل يجرى عليها ماضُمِّنه، ويمكِّنها بمـا بَسَط لها فى الأرض ومكَّنه، ويُرسِلُ عليها سحائبَ رحمتــه ، وينشِئُ منها ناشــئةَ نعمتِه، ويوجِّه إلىٰ قَلْبها وجْهَ كلِّ أمَل، ويُفيض طُوفانُها فلايكون به للغليل قِبَل، ولا يأوى إلىٰ حَصَاة قَلْبٍ فيعصمها ولو أنه جبَل .

قلت : ولم أقف علىٰ مكاتبة عن أحدٍ من ملوك الديار المصرية إلىٰ أبواب الخلافة مُذْ صارت دارُ الخلافة بالديار المصرية . والظاهر أنه لم تجرِ مكاتبــةٌ عن السلطان إلىٰ الخليفة، لأنَّ الخليفةَ لايكاد يُفارق الســلطانَ سفَرا ولا حضَرا مفارقةً تُوجِب المكاتبةَ إليه، كما أشار إليه صاحب "التثقيف" . وقد لَوَّح فى "التعريف" إلىٰ ذلك فقال : وأوّل مانبدأ بما يُكْتَب به إلىٰ الأبواب الشريفة الخليفتية (كذا) زادها الله شَرفًا، جريًا علىٰ قديم العاده، ورجاءً لملاحظة السَّعاده .

وهذه نســخةُ مكاتبةٍ من هذا النوع ممـا كتب به القاضى الفاضلُ عن السلطان «صلاح الدين يوسفَ بن أيوب» رحمه الله إلىٰ ديوان الخلافة ببغدادَ فى أيام الناصر لدين الله بخَبرِ ملِك الألمــان من الفَرَنْجة والقتال معه ، فى جوابِ كتابٍ ورد عليه ، يُوضِّح فى هذا الموضع بيانَ هذا الأسلوب، ويُغْنى عن مراجعة [كثير] من الأمثلة المذكورة فى المكاتبات إلىٰ الخلفاء علىٰ ما تقدّم، وهو :

أدام اللهُ ظلَّ الديوان العزيز النبوىّ، الإمامىّ، الشريف الناصرىّ ؛ ومدّه علىٰ الأمة ظليلا، وجعلَ الأنوارَ عليه دليلا؛ وحاطَهُ بلُطْفه وتقبَّل أعمالَهُ بقبولٍ حسنٍ وأنبتها ، وأرْغَم أعداءه وكبتها ، ومسَّها بعــذابٍ من عنده وسحتها ؛ ولا زالتْ رايتُه السوداءُ بيضاءَ الخبرِ، محمرَّة المَخْبَرِ فى الغُداة مسْودّة الأثَر .

ورد علىٰ الخــادم ما كُوتِب به من الديوان العزيزِ رائدًا فى آستخلاصه ، مُبرْهِنا عن آختصاصه ؛ مُطْلِقا فى الشُّكْر لِلسانه، وفى الحَرْب لِعِنانه؛ ومقْتَضِيا لأُمْنِيَّةٍ كان يتهيّبُها، ومُفيضًا لمَكْرُمة لو سمتْ نفسُه إليها كان يتهمها؛ فللّه هو ! من كتابٍ كأنَّه سورةٌ وكلُّ آيةٍ منه سَجْده، قابلَه بالخُشُوع كأنما قلَمُ الكِتَاب القضيبُ وطِرسُه البُرْده؛ وتَلَاه علىٰ من قِبلَه من الأولياء مسترْهِفًا به لعَزَائمهم، مستَجْزِلًا به لمَغَانمهم؛ مستثبتًا به للازمهم، مستدْعيا به الخدمةَ للوَازِمهم؛ مُرْهِفًا به ظُبَاهم فى القتال، فاسحًا به خُطَاهم يومَ النِّزال؛ فأثّر فيهم كالآقتداح فى الزَّنْد ، وكالآنْبجاس من الصَّلْد، وكالآستلَال من الغِمْد ؛ فشمَّرَ مَنْ كان قد أسْبَل، وآنتهىٰ مَنْ كان قد أجْبَل ؛ وكأنَّمــا أُعْطُوا كتابًا من الدَّهْرِ بالأَمَان ، أو سمِعُوا منادِياً يُنادى لِلْإيمان؛ وقالوا : سَمِعْنا وأطَعْنا، وعلينا من الخِدْمة ما آستطَعْنا؛ هذا مع كونِهِم أنْضاءَ زُحُوف، وأشْلاءَ حُتُوف، وضَرائبَ سُيُوف؛ قد وسَمَتْ وُجوهَهُم علاماتُ الكِفَاح ، وأحالَتْ عرضَهم أقلامُ الرِّماح ؛ صابرين مُصابِرِين، مُكاثِرين مُكابِرِين، مُناضِلين مُناظِرين؛ قد قامُوا عن المسلمين بمــا قَعَد عنه سائرُهم، ونزلُوا بقارِعة القِرَاع فلا يَسِيرُ عنها سائرُهم؛ وسَدَّسَتْ كعوبُ الرِّماح أَنمِلَهم، وأثبتُوا فى معترَك الموتِ أرجُلَهم؛ كلُّ ذلك طاعةً لله ولرسوله ولخليفتهما، وإذا رمَوْا فأصابُوا قالُوا ولٰكنَّ الله رَمىٰ .

ومن خبَرِ الكفَّار أنهم إلىٰ الآنَ علىٰ عكَّا يُمدّهم البحْرُ بمراكبَ أكثَرَ عدّةً من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهــم أمَرُّ من أُجَاجه ؛ قد تعاضدتْ ملوكُ الكُفْر

علىٰ أن يُنْهِضُوا إليهم من كلِّ فرقةٍ منهم طائفه ، ويقلّدوا لهم من كل قِرْن يُعْجِز بالكرَّة واصِفَه ؛ فاذا قتل المسلمون واحدًا فى البَرِّ بعث البحرُ عِوضَه ألفا ، وإذا ذهب بالقتل صِنْفٌ منهم أخلفَ بدَلَه صِنفا ؛ فالزَّرْع أكثرُ من الحَداد ، والثمرةُ أنمىٰ من الحَصاد . وهذا العدوّ المقاتل ــ قاتله الله ــ قد زرّ عليه من الخنادق أدراعا متينه ، وآستجَنَّ من الجَنَويات بحُصُون حَصينه ؛ مُصْحِرًا ومُتَمَنِّعا ، وحاسِرًا ومتدَرِّعا ومُواصِلًا ومُنْقطِعا ؛ وكلَّما أخرج رأسا قد قُطِعت منه رُءُوس ، وكلَّما كَشَف وجْها كُشِفت من غِطاء أجسادها نُفُوس ؛ فكم من يوم أرسَلُوا أعِنَّة السوابق فَذَمُّوا عُقْبىٰ إرسالها ، وكَمْ من ساعةٍ فَضُّوا فيها أقفالَ الخنادق فأفضىٰ إليهم البَلاءُ عند فَضِّ أقفالها ، إلا أنَّ عدَدَهم الجَمّ قد كاثَرَ القَتْل ، ورقابَهم الغُلْبَ قد قطَعت النَّصل لِشدّة ماقطَعها النصل . ومَنْ قِبَلَ الخادم من الأولياءِ قد آثَّرت المدّة الطويله ، والكُلَف الثقيله ؛ فى آستطاعَتِهم لا فى طاعتِهم ، وفى أحوالهم لا فى شَجاعتهم ؛ فالبَرْك قد أنضَوْه ، والسِّلاح قد أحفَوْه ، والدِّرهمُ قد أفْنَوْه ؛ وكلُّ من يَعْرِفهم من أهل المَعْرِفه ، ويراهم بالعَيْن فما هُم مثلَ مَنْ يراهم بالصِّفَه ؛ يناشِدُ اللهَ المُناشدةَ النبوِيَّه ، فى الصَّيحة البَدْريه ؛ أللهم إن تَهْلِكْ هذه العِصَابه ، ويُخْلِص الدعاء ويَرْجُو علىٰ يَدِ أمير المؤمنين الإجابه . هذا والساحلُ قد تماسَكَ ، وما تَهالَكَ ؛ وتجَلَّد ، وما تبَلَّد ، وشَجَّعته مَواعِد النَّجْدة الخارِجه ، وأسْلَتْه عن مصارع العِدّةِ الدَّارجه ، فكيْفَ به إذا خرج داعيةُ الألْمان ، ومُلُوكُ الصُّلْبان ، وجموعُ ماوراء البحر ، وحُشُودُ أجناسِ الكُفْر ؟ وقد حَرَّم باباهم ــ لعنة الله عليهم وعليه ــ كلَّ مباح وآستخرج منهم كلَّ مذْخُور ، وأغلق دُونَهم الكنائس ، ولَبِس وألْبَسهم الحِداد ، وحَكَم عليهم أن لا يزالُوا كذلك أو يستخْلِصُوا المَقْبُرة ، ويُعِيدوا القُمامة . ﴿ وإذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أعمالَهُم وقالَ لاغَالِبَ لَكُمُ اليَوْمَ من النَّاس وإنِّى جارٌ لَكُمْ ﴾ .

اللهم أخفِرْ جِواره، واَصْرِفْ جَوْره، وأخْلِفْ وَعْده، واَكْسِرْ ضَمَانَه، وأنْكِصْه علىٰ عَقِبه، وعَجِّل فى الدنيا والآخرةِ منهم تَبابَه . ومابدَأْتَنا به من نعمتك فلا تقطَعْه، وما وهبْتَنا من نَصْرك فلا تَسْلُبْه،وما سَتَرْتَه من عَجْزِنا فلا تَهْتِكْه.[و]فى دُونِ ما الدِّينُ مستقبِلُه، وعدوُّه خذله الله يؤَمِّله، مايستفْرِغُ عزائمَ الرجال، ويستَنْفِدُ خزائنَ الأموال؛ ويُوجِب لإمام هـذه الأمةِ أن يحفَظَ عليها قِبْلتها، ويُزيحَ فى قتل عَدُوّها علَّتَها؛ ولولا أنَّ فى التصريح، مايعودُ علىٰ عدالته بالتَّجْريح، لقال مايُبْكِى العينَ ويُنْكى القلوب، وتَنْشَقُّ له المرائر وتُشَقُّ له الجُيُوب؛ ولٰكِنّه صابرٌ محتَسِب، منتظِرٌ لنصر الله مُرْتَقِب، قائمٌ من نَفْسه بما يجب؛ رَبِّ إنى لاأملك إلا نَفْسِى وأخى، وهاهو قد هاجَر إليك هجرةً يرجُوها عنـدك مقبوله، ووُلْدِى وقد أبرزتُ لعَدُوّك صَفَحاتِ وجوههم، وهانَ علىّ محبوبُكَ بمكروهِى فيهم ومَكْروهِهم . ونَقِف عندَ هذا الحدّ، ولله الأمرُ من قَبْلُ ومن بَعْد؛ وإن لم يشتَكِ الدِّينُ إلىٰ «ناصره» والحقُّ إلىٰ مَنْ قام بأوّلِه وإلىٰ اليوم الآخر يقُومِ بآخِره؛ فإلىٰ مَنْ يُشْتكىٰ البَثّ، وعنـد من يتفرج بالنفْث؟ ، ومنفعةُ الغوث قبل العَطَب، والنَّجاءِ قبل أن يَصِـل الحِزامُ الطُّبْيَيْن، والبَلاغِ قبل أن يَصِل السيلُ الزُّبىٰ .

فياعَصَبةَ محمد صلَّى الله عليه وسلم اَخْلُفْه فى أمَّته بما تطمئن به مَضاجِعُـه، ووَفِّه الحقَّ فينا؛ فإنّا وإنَّ المسلمين عندك ودائعُـه، وما مثَّل الخادمُ نفسَه فى هذا القول إلا بحالةِ مَنْ وقفَ بالباب ضارعا، وناجىٰ بالقول صادعا؛ ولو رُفِعتْ عنه العوائقُ لهاجر، وشافَهَ طبيبَ الإسلام بل مَسِيحَه بالداءِ الذى خامر؛ ولو أمِنَ عدوّ الله أنْ يقول فَرَّ لسافر، وبعـدُ ففيه وإن عَضّ الزمانُ بقيه، وقِبَـلَه وإن تدارَأتِ الشُّهَّاد دَرِيَّه؛ فلا يَزالُ قائمًـا حتّى ينْصَرأو يُعْذَر، فلا يصل إلىٰ حُرَم ذرّية أحمدَ صلّى الله عليه وسلم ومن ذُرّيةِ أيُوبَ واحدٌ يُذْكَر .

أنجزالله لأمير المؤمنين مَوَاعِدَ نَصْره! وتمم مساعَدةَ دهره! وأصفىٰ مَوَارِدَ إحسانه! وأرسىٰ قواعد سلطانه! وحَفِظه وحفظ به فهو خَيْرٌ حافظا، ونَصَره ونصر علىٰ يَدَيْه فهو أقوىٰ ناصِرا، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم ٱعلم أن المقرّ الشِّهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "تعريفه" أيضا أنَّ المكاتبةَ إلىٰ أبواب الخلافة من الملوك والسُّوقة لا تختلف، بل تكونُ علىٰ الأُنْموذَج المقـدّم ذكره، وٱستلزم ذلك : بجرىٰ علىٰ هـذا المصطَلَح فيما كَتَب به إلىٰ الديوان العزيز الحاكمىّ، أحمدَ بنِ أبِى الربيع سليمان : أحدِ الخلفاء العباسيِّين بالديار المصرية، عن رُماة البُنْدُق بالشام، جوابًا عمَّـا ورد عليه من كتابهم، وهو متكلِّم علىٰ رُماة البندق يومئذ فى أمر ناصِر الدين بن الحِمْصىّ وهو أحدُ الرُّماة .

أدام اللهُ تعـالىٰ أيامَ الديوان العزيز، المولوىّ، السيدىّ، النبوىّ، الإمامىّ، الحاكمىّ؛ ونَصَر به جمعَ الإيمـان، وبُشِّر بأيَّامه الزمان، ومتَّعه بالملك الذى لا يَنْبغِى لأحد مِنْ بعـده بمـا وَرِثه من سُلَيمان؛ ولا زال يَخْضَع لمَقَامه كلُّ جليل، ويُعْرَف لأيامه كلُّ وجه جَميـل؛ ويعترف لشَرَفه كلُّ معتَرِف بالتفضـيل، ويشهد بنَفَاذِ أوامره من ذَوِى نسبه الشريف كلُّ أخٍ وخليل؛ ولا كانَ إلَّا كرَمُهُ المأمول، ودعاءَه المقبول، وعَدُوّه المصرُوع ووليُّـه المحمول؛ ولا بَرِحتْ طاعتُه يُعْقَد عليهـا كلُّ جمع، ومراسِمُه يُنْصِت إليها كلُّ سَمْع، وطوائفُ الذين كَذَبُوا عليه لا تُتْلىٰ عليهم آياتُه إلا تولَّوْا وأعينُهم تَفِيض من الدَّمْع .

المـماليك يقبِّلُون الأرضَ بالأبواب العاليـة التى هى خُطَّة شَرَفهم، ومكانُ تعبُّدِ القدماء منهم ومن سَـلَفِهم؛ ويلُوذُون بذلك المَقَـام، ويعُوذون بذلك الحَرَم الذى

لا يبعُد نسبُه من البيت الحَرَام؛ ويؤمِّلون ذلك الكَرَم الذى مامنهم إلا مَنْ سَعِد به طائره، وجاءته به فى وَجْه الصَّباح أشائره؛ وفى وَجْه العِشاء بشائرُه؛ فنالوا به أقصى المَرَام، وقضَوْا به من العُمُر ما إذا قالوا : ياسَعْدُ ! لايَعْنُون به إلا ذلك الإمام؛ وينتهُون إلى ما ورد به المرسومُ الشريفُ الذى ما من المَمَاليك إلا مَنْ مَتَّ لديه بتقديم عُبوديَّتِه ورِقِّه ، وسارع إلى طائِره الميمونِ وحمله بسَبْقه؛ وفتح له عينَه وظَنَّ أنَّه حاكم، وآمتثلوا أمْرَه وكيف لا تمتثل الرماةُ أمرَالحاكم ؟، ولاسيَّما آبنُ عمِّ سيدنا رسولِ اللهصلَّى اللهعليهوسلم الامامُ الحاكم؛ وأجَلُّوه عن رَفْعه على العين إذ كانت تلك بمنْزِلة الحاجب ، وقدّموا إليه خُفُوقَ قلوبهم الطائرة وما علموا أنْ كانوا قامُوا بالواجب؛ ووقفُوا على أحكامِ حاكِمِه فما شَكُّوا أنَّ زمان هـذا الفَنِّ بحياة ناصِره فى بَغدادَ قد عاد، وأنَّ مثاله المتمثِّل فى سَواد الحَدَق مما حكتْه أيامُه العبَّاسيَّةُ من شِعَار السَّواد؛ وعلمُوا مارَسَم به فى معنى محمد بن الحمْصىّ الذى ما نُوِّرت الليلة أكاريخُه، ولابَعُدتْ فى الإقعاد له تَوارِيخُه؛ بل أَخمدَتْ دمُوعُ نَدَمه نيرانَه المشتَعله ، وأصبَحَ به لا يحمل القَوْس فى يده إلا أنه مَشْغَله؛ وما كان أنهاه الدِّيوان العزيز مما لم تذكر الخواطرُ الشريفةُ بأنه قبة المفْتَرِى ، وأنه صاحبُ القوْسِ إلا أن مالَهُ سعادةُ المشترى ؛ وأنه موّه تمويهَ الجاحد، وتلَوَّن مثلَ قَوْسِ قُزَحَ وإلا فقوسُ البندُق لونٌ واحد؛ وأدْلى بغروره، وعَرَض المحْضَر الذى حَمَله على تغريره؛ وذلك فى غَيْبة الأمير بهاء الدين أرسلان البُنْدُقْدار الحاكمى، الذى لو كان حاضرًا لكان حُجَّة عليه، ومؤكِّدا لإبطال رَمْيه وقوسه وبُنْدُقه فى يدَيْه؛ لما تضمَّنه الخطُّ الشريف المقيَّد اللفظ المكتتَبُ على المصطَلَح ، الساحبُ ذيلَ فخاره على المقْتَرح؛ الذى هدى إلى الخير، وبَدَا به ماوُهِب من الملك السليمانىّ الذى أُوتِىَ من كلِّ شىء وعُلِّم منْطِق الطير؛ فإنَّه لم يُكْتب له إلا بأنْ يرمِىَ على الوجه المرْضىّ واستيفاء شروط البندق،

والخروج من جميع الأشكال عملا بقواعده ؛ ويُعْلِم بأنه ما رعىٰ حقّ قُدْمتــه ، ولا فعل فى الباب العزيز مايجبُ من التحلّى بشِعار الصِّدْق فى خِدْمته ؛ وأنه خالف عادةَ الأدَب ، وأخطأ فى الكلّ لكنه نَدَب ؛ وذلك بعد أن عَمِل له جميعُ رُماة البندق ، وسئل فأجاب : بأنه سالمٌ من كل إشكال يُشْكِل ، وأنه بعد أن أُقْعِد رمىٰ وحَمَل وحُمِل ؛ فشهد عليــه السادةُ الأمراءُ ولاةُ العهد إخوة أمير المؤمنــين ومن حضر ، وكتبوا خطوطَهُم فى المحضر ، وما حصل الآنَ عند عَرْض قصة الممـاليك بالمواقف المقدَّسه ، ووضوح قضيته المدَنسـه : من التعجُّب من آعتراف الممـاليك ، لِكونهم رمَوْا معــه بعد أن رأَوُا الخطَّ الشريفَ وهو لفظ مقيَّــد ، وأمرٌ أُيِّد به رأىُ الإمام الحاكم بأمر الله المسترشد بالله والمؤيَّد ؛ وكُلُّ ماأمرَ به أميرُ المؤمنــين لامَعْدِل عن طُرُقه ، ولا جدالَ إلا به إذا أُلْزِم كلُّ أحد طائِرَه فى عُنُقه ، وأمير المؤمنين بحر لايرد إلا من عِلْمِه ، وهو الحاكمُ ولا رادَّ لحُكْمه . وإنمـا آبن الحمصىّ المذكور عَدِم السَّداد ، وخالف جارىَ العادةِ فى الحِمَّص فإنه هو الذى سُلِق فى الأفتراء بألْسِــنة حِدَاد ، ولم يُوقِف الممـاليكَ من الخط الشريف إلا علىٰ بعضه ، ولا أراهم من بَرْقِه المتهلِّل غيرَ وَمْضــه ؛ والذى أوقفهم عليه منه أن يَرْمِى محمدُ بنُ الحمصىّ ويُرْمىٰ معه ، وكلمةُ أمير المؤمنين مستَمَعه ، ومراسيمُه متَّبَعه ؛ وإذا تقدّم كان الناس تَبَعه . غير أن المذكورَ بدَتْ منــه أمورٌ قطع بهـا الأميرُ صارمُ الدين صاروجا الحـاكم البُنْدُقْدار فى حقه ، وأقعده عن قُدْمته التى كان يمُتُّ فيها بسَبْقه ؛ وآنتقل عنه غلْمانُه ، وثقُل عليه زمانُه ؛ ونُودِى عليه فى جمعٍ كبير يزيد علىٰ تسعين قوسا ، وجُرِح بخطإ بُنْدُقه جرحا لايُوسىٰ ؛ ثم بعــد مدّة سنين توسَّل بولد الأمير المرحوم سيف الدين تنكز إلىٰ أبيه ، وتوصَّل به إلىٰ مَرَاميه ؛ فأَمَر أن يُرْمى معه وهَدَّد المخالفَ بالضرب ، ولم يَرْمِ معه أحدٌ برضاه إلا خَوْفَ أن تُوقَد نارُ الحرب ؛ فلما مضَت تلك الأيَّام ، وآنقضَتْ

تلك الأحْلام ، جمع مملوكُ الأبواب العالية الأميرُ علاءُ الدين بنُ الأبو بكرى الحاكم في البندق الآنَ من رُماة البُنْدُق جمعا كبيرا ، وآهتمَّ به آهتماما كثيرا ، وذكر أمْرَ المذكور، وأحضر مَحْضَره المسطور ، ولم يكنْ عليه تعويل ، ولا فى حُكْم الحاكم المتقدّم تعليل ، ولا عِنْد هذا الحاكم الذى آدَّعىٰ له وآدَّعىٰ عنده تجوزُ الأباطيل ، وتحقَّق أنَّ الحقَّ فيما حكم به عليه فتُبِع ، وترجَّح أن لايُقامَ منه من أُقْعِد ولايُوصَل منه ماقُطِع ، فنفَّذ حكْمَ الحاكم المتقدّم، وآستمرّ بقُعُوده المتحتِّم ، ووافقه علىٰ هذا سائر الرُّماة بالبلاد الشامية وحُكَّامها ، ومن يُرْجَع إليه فى الرِّماية وإحكامها ، وبطلَتْ قُدْمة المذكور التى ذهَبَ فيها عمرُه ضائعا ، وزمانُه الذى لو آشترِيتْ منه ساعةٌ بالعُمُر لم يكن نافعا .

ولما ورد الآنَ هذا المرسومُ الشريفُ زاده الله شرفا قَبَّلوا الأرضَ لديه ، وأوقفوا عليه حاكمهم المسمّى فوقَفَ له وعايه ، وجَمَع له جمعا لم يَدَعْ فيه من الرُّماة معتَبَرا ، ولا من يُلْقِم القوسَ وَتَرا ، ولا من إذا قَعَد كالعين جرىٰ ماجرىٰ ، ثم قرأ عليهم ماتضمَّن ، ودعَوْا لأمير المؤمنين ولم يَبْقَ منهم إلا مَنْ دعا أو أمَّن ، وتضاعف سرورُهم بحُكْمه الذى رفع الخَلَل ، وقَطع الجَدَل ، وقالوا : لاعَدِمْنا أيامَ هذا الحاكم الذى أنصَفَ والإمامِ الذى عَدَل ، وبَقِى آبنُ الحمصىّ مُثْله ، ونُودِى عليه إنَّه من رَمىٰ معه كان مخطِئًا مثلَه ، ووَقرتْ هذه المناداة فى كلّ مَسْمَع ، وقرّت استقرارَ الفضل عليه المُجْمَع ، وذلك بما فُهِم من أمير المؤمنين ، وبنص كتابه المبين ، وبما قضىٰ اللهُ به علىٰ لسان خليفته الحاكم والله أحكَمُ الحاكمين ، وطالعُوا بها وأنْهوْا صورةَ الحال ، وجمعوا فى إمضائه الآمال . لا زالَتْ سعادةُ أمير المؤمنين منَزَّهة عن الشُّبْه ، آخذةً من خير الدارين كل آثنين فى وجه ، حتّى تحصُل كلُّ رميةٍ من كَثَب ، ولا يَرْمى فى كل

أمنةٍ إلا كلُّ مصطحب ، ماغَبَّ فى السماء المِرْزَم ، ووقع العُقاب علىٰ ثَنِيَّـةٍ يَقْرَع سِـنَّه و يتندَّم ، وعلا النَّسْرُ الطائرُ والواقـع علىٰ آثاره وسائرُ طيورِ النُّجوم والحُوَّم ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وقد آعترض فى " التثقيف " كلام المقـرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى " التعريف " فقال : وفيما ذكره فى " التعريف " من التسوية فى المكاتبة بين الملوك والسُّوقة نظر . وما أشار إليه من النظر ظاهر : فإن الذى تجب مكاتبتهم به ما يكاتب به المرءوسُ رئيسَه بحسَب ماتقتضيه الحال فى آبتداء المكاتبات مِنْ يقَبِّل الأرض ، كما تكاتب الملوك ، بل هم بذلك أحقُّ وأجدر . ويكون الخطـاب لهم فى أثناء المكاتبة بمـا أشار إليه فى " التعريف " بالديوان العزيز ، والمواقف المقدّسة أو المشرَّفة ، والأبواب الشريفة ، والباب العزيز ، والمقام الأشرف ، والجانب الأعلىٰ ، ومولانا أمير المؤمنين ، ونحو ذلك بحسَب ماتقتضيه الحالُ علىٰ ماتقدّم ذكره .

الطـــــرف الثـانى

(فى المكاتبـــة إلىٰ وُلَاة العهد بالخلافة)

أما علىٰ المصطلح القـديم حين كانت المكاتبةُ إلىٰ الخلفـاء « لفلان من فلان » فقـال فى "صـناعة الكُتَّاب" : و يكون التصـديرُ فى المكاتبة إلىٰ وَلِىّ العهد علىٰ ما تقـدّم فى المكاتبة إلىٰ الخلفاء مع تغيير الأسمـاء ، غير أنه جعل الفرقَ بين الإمام وغيره ممن يكاتَب بالتصـدير أن يقال للإمام فى التصـدير مع السـلام : وبركاته ، فى أوّل الكتاب وآخره . ومَنْ سـوىٰ الإمام تحذَف و بركاتُه من التصدير وتُثْبَت فى آخر الكتاب .

وقد تقدّم أنّ التصدير إلى الخليفة حينئذ كان " لعبدِ الله أبِى فلان فلان أميرالمؤمنين، سلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فإنى أحمدُ إلى أميرالمؤمنين اللهَ الذى لاإله إلّاهو، وأسألُه أن يصلّى على محمد عبده ورسوله . أما بعدُ، أطال الله بقاء أمير المؤمنين إلى آخره ، ويختم بقوله : والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته " .

وحينئذ فتكون المكاتبة إلى ولىّ العهد على ما أشار إليه فى " صِناعة الكُتّاب " من الابتداء بالتصدير مع تغيير الأسماء : " لعبد الله أبى فلان فلان ولىّ عهد المسلمين ، سلامٌ على ولىّ عهد المسلمين ؛ فإنى أحمد إليه اللهَ الذى لا إلهَ إلّا هو ، وأسأله أن يصلّى على رسوله صلى الله عليه وسلم . أما بعدُ : أطال الله بقاء ولىّ العهد ، ويختمه بقوله : والسلامُ على ولىّ عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته" أو نحو ذلك .

وأما على المصطلح الذى حَدَث بعد ذلك، فقد ذكر المقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله فى كتابه "التعريف" أن رسم المكاتَبة إلى ولىّ العهد بالخلافة : ضاعف اللهُ تعالى جَلَال الجانب الشريف ، المَولَوِىّ ، السيدىّ ، النَّبَوِىّ ، الفلانىّ ؛ ثم الدعاء المعطوف . وأبدل فى " التثقيف " لفظ الجانب بالجَنَاب . والخطابُ له بمولانا وسيدنا ولىّ العهد ونحو ذلك . والتعبير عن المكتوب عنه بـ«الخادمُ يقبل العتباتِ الشريفةَ أو اليدَ الشريفةَ » أو نحو ذلك . قال فى " التثقيف " : والعلامةُ إليه «الخادم» والعُنْوان « الجناب الشريف » وبقية الألقاب المذكورة إلى آخرها .

قال : وهو(١) أحسن من الجناب : لعدم اشتراك غيره معه فيه بخلاف الجناب .
قال : وهذا أيضا على عادة من تقدّم من الملوك ، أما فى زماننا وقبله بمدّة مديدة،

(١) أى الجانب المذكور فى عبارة التعريف .

فلم يتفق وجودُ ولىّ عهـدٍ للخلافة ؛ وبتقدير وجوده فإذا لم يكُن الخليفـةُ يكاتَبُ في هذه الأيام فكيف بولىّ عهده .

وهذه صدور مكاتبات إليه أوردها فى "التعريف" .

صدر : ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجانب وأطلع مع وجود الشمس بَدْرَه التَّمام ، وأحوجَ مع زاخر البحر منـه إلىٰ مَدَد الغَمَام ، وقدّمه إماماً علىٰ الناس وأطال بقـاء سيدنا أبيه الإمام ؛ ولا عُدِم منه مع نظر والده الشريف جميـلُ النظر ، ولا برِح صدْرَ دَسْته العلىّ إذا غابَ وثانيَه إذا حضر ؛ ولازال الزمانُ مختالًا من جُود وجودهما لاعرّف الله الأنامَ قدره إلا بالزَّهر والثَّمر ، ولا زاد فيضُ كرمٍ إلا وهو من كَفِّ أبيه فاض أو مِنْ وَبْله العميم ٱنهَمَرْ .

الخادم يخدُم تلك العتباتِ الباذخةَ الشرف ، الناسخةَ بما وجده من الخير فى تقبيلها قول من قال : لا خَيْرَ فى السَّرَف . وينهى ولَاءً ما عُقِد علىٰ مثله ضمير ، ولا ٱنعقد شبيهه لولىِّ عهدٍ ولا أمير ؛ وإخلاصه فى ٱنتماءٍ أشرق منه علىٰ الجبين ، وأشرف فرآه فرضًا عليه فيما نطق به القرءانُ ورُقِمَ فى الكتاب المُبين .

صدر آخر : أعز الله أنصارَ الجانب الشريف ، ولا حَجَب منه سرَّ ذلك الجَلَال ، ولا معنىٰ ذلك البدرِ المشرقِ منه فى صُورة الهلال ، ولا فيضَ ذلك السحاب المُشْرَع منه هـذا الموردُ الزُّلال ، ولا تلكَ المآثرَ التى دلَّ عليهـا منه كَرَمُ الخِلال ، ولا تلك الشجرة المفرّعة ولاما ٱمتدّ منها به من الغُصْن الممتدّ الظلال ، ولا ذلك الإمامَ الذى هو ولىُّ عهده وهو أعظم من الٱستقلال .

الخادم يقبّل تلك اليد مُوفيًا لها بعهده [ومُصْفِيا منها لِوِرْده] (١) ومُضْفِيًا منها جَلَابيبَ الشرف على عِطْفه ، وحَسْبُه فَخَارا أن يُدْعىٰ فى ذلك المقام بعَبْده ، ويترامىٰ علىٰ تلك الأبواب ، ويَلْثِمُ ذلك الثرىٰ ويرجُو الثواب .

صدر آخر : ولا زالَتْ عهودُ وِلَايتِـه منصوصه ، وإيالَتُـه بعُمُوم المصالح مَخْصُوصه ، وصفوفُ جُيُوشِـه كالبُنْيان مَرْصُوصه ، وقوادمُ أعدائه بالحَوالق مَحْصُوصه ، وبدائع أنبائه فيما حاَقّتْ إليه دعوتُه الشريفةُ مقْصُوصه [والوُفُود فى أبوابه أجنحتها بالنَّدىٰ مَبْلُولة مقصوصة] (١) .

الخادم يجدّد بتلك الأعتابِ خِدَمه ، ويُزاحِمُ فى تلك الرِّحاب خَدَمَه ، ويقف فى تلك الصُّفوف لا تُنْقَل عن الطاعة قَدَمُه ، ويتمّثَّل بين تلك الوقُوف ويتميز عليهم إذا ذُكِر فى السوابق قُدَمُه ، ويُدْلِى بحُجَج سيوفه [التى أشهرها ، وصروفه التى لاقىٰ أشهَرَها ، ومواقفه] (١) التى ما أنكرها الديوانُ العزيزُ مُذْ أثبَتَها ، ولا حَطَّ رِماحَها مذ أنبَتَها ، ولا محا سطورها ، مذ كَتَبها ، ليَغيظ الأعداء ولا يشفى صدورها ، منذ كَبَتَها ؛ وينهى كذا وكذا .

صدر آخر : ولا زالتْ مواعيدُ الظَّفَر له منصوصةً ، ورءُوس مَنْ كفر بطوارقه مَرْضُوضه ، وصحائفُ الأيام عمـا يُسَرُّ به الزمان فيه مَفْضُوضه ، وجُفونُ عِدَاه ولو آتصلت بمُقَل النجوم مَغْضوضه ، وطوارقُ الأعداء التى تَجُنُّهم منه بسُيُوفه معضوضه .

الخادم يخدُم أرضَه المقدّسـةَ بترامى قُبَله ، وتقليبِ وجْهـه إلىٰ قِبَله ؛ ويتطوّف بذلك الحَرَم ، ويتطوّل من فَوَاضِـل ذلك الكَرَم ؛ ويتطوّق بقـلائد تلك المِنَن ،

(١) الزيادة "من التعريف" .

وفرائد تلك المواهب التى إن لم تكُنْ له وإلا فمَنْ ؛ فإنه والله يشهدُ له لا يعتقد بعد ولاء سيدِنا ومولانا أمير المؤمنين ، والقيِّم بأمور الدنيا والدِّين؛ عليه الصلاة والسلام إلَّا وَلَاءَها ، ولا يؤمِّل بعد تلك الآلاءِ إلَّا آلاءَها ؛ ولا يرجو من غير هذه الشجرة المباركة لأمله إثمارا ، ولا لليله إقمارا ، ولا لأيّامه حافظا ، ولا لحال إقدامه فى قَدَم صِدْقٍ ولائه لافظا ، قائما فى خِدَم هذه الدولة القاهرة يَجْهَد فى منافعها [ويَجِدُّ فى كَبْت مُدافعها](١) ويَدَّخِر شفاعتها العُظْمىٰ إذا جاءت كلُّ أمةٍ بشافعها ، وينهى كذا وكذا .

الطـــرف الثـالث

(من المصطلح المستقرّ عليه الحال ، فى المكاتبات الصادرةِ عن ملوك الديار المصرية إلىٰ أهل المملكة : من مصر والشام والحجاز ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقْصــــد الأوّل

(فى المكاتبات المفْرَدة ، وفيــه مَسْلَكان)

المسْـــلك الأوّل

(فى بيان رُتَب المكاتبات ورُتَب أهلها ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(المكاتَباتُ إلىٰ الملوك علىٰ ما كان عليه الحالُ فى الزمن المتقدّم مما لَعَلَّه يعودُ مثلُه ، وهى الدعاء للمقام ، وفيه مكاتبتان)

الأولىٰ — المكاتبة إلىٰ ولىّ العهد بالسلطنة [وهى] علىٰ ماذكره فى "التثقيف" :

أعزَّ اللهُ تعالىٰ أنصارَ المقام العالى ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ، الأَخَوِىّ ، أو الوَلَدِىّ ، إن كان أخًا أو وَلَدا . ثم الدعاءُ اللائقُ به ، ثم يقال : «أصدرناها إلىٰ المَقَام العالى

(١) الزيادة من "التعريف".

و يطالع علمه الشريف » والعلامة «أخوه» سواء كان أخًا أو غير أخٍ، و « والده » إن كان والدا . ولم يذكُرْ تعريفَه، والذى يظهر أنه يكتب له «ولىّ العهد بالسلطنة الشريفة» . ولم يذكر قَطْع الورق لهـذه المكاتبة، والذى يظهر أنه فى قَطْع العـادة علىٰ قاعدة المكاتبات إلىٰ أهل المملكة . قال فى "التثقيف" : ولعل هذه المكاتبةَ نظيرُ ما كُتب به إلىٰ الملكِ الصالح علاءِ الدين علىّ ولدِ المنصور قلاوون : فإنه كان ولىَّ عهد أبيه المذكور، تُوفِّىَ فى حياته . ثم قال : ورأيت أمثلةً كثيرةً صـدرت عنه بخَلَاص الحقوق، وعلامته عليها «علىّ بن قلاوون» .

الثانية — المكاتبَةُ إلىٰ صاحب حماةَ من بَقَايا الملوك الأيُّوبية قبل مصيرها نيابةً، وآخر من كان منهم فى الدولة الناصرية «محمدِ بنِ قلاوون» الملكُ الأفضلُ ناصرُ الدين محمد بن الملك المؤيَّد عماد الدين إسماعيل، لَمَّـا صارتْ إليه بعد أبيه المذكور .

ورسم المكاتبة إليـه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" فى قَطْع العادة : « أعز الله تعالىٰ أنصارَ المَقَام الشريف، العـالى، السلطانى، المَلَكىّ، الأفضَلِىّ، الناصرىّ، ونحوهما » . ثم الدعاء، وبعده «أصدرناها إلىٰ المقام الشريف» والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب حماةَ» . قال فى "التثقيف" : ولم يَزل الحالُ علىٰ ذلك إلىٰ أنْ عُزِل عنها الأفضلُ المشار إليه بعد الأيام الشَّهِيدية الملكِ الصالح عمادالدين إسماعيل ٱبن السلطان الشهيد النـاصر محمد بن قلاوون، وٱستقرّ بها بعـدَه نائبًا الأمير طغاى الحموىّ أمير مجلس كان، فبقيتْ نيابةً بعده إلىٰ الآنَ .

الضـــــرب الثـــانى

(المكاتبات إلىٰ مَنْ عدا الملوك من أرباب السيوف والأقلامِ وغيرهم ممن جرت العادةُ بمكاتبته ، وفيه مَهْيَعان)

المَهْيَـــــع الأوّل

(فى رُتَب المكاتبات ، وهى علىٰ عشر[1] درجات)

الدرجـــــة الأولىٰ

(الدعاء للمَقرّ)

وصورته علىٰ ماذكره فى " التثقيف " : «أعزّ اللهُ تعــالىٰ أنصارَ المَقَرّ الكريم ، العــالى ، المَوْلوِىّ ، الأميرىّ ، الكَبيرىّ ، العالِمِىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، الزّعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغِيَاثىّ ، المُثَاغِرِىّ ، المرابِطىّ ، المُمَهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظّهيرىّ ، العابِدِىّ ، النــاسِكِىّ ، الأتابِكِىّ ، الكَفيلىّ ، الفلانىّ ؛ مُعِزِّ الإسلام والمسلمين ، ســيدِ أمراء العالمين ، ناصرِ الغُزَاة والمجاهدين ، ملْجَإ الفقراء والمساكين ، زعيمِ جُيوش الموحّدين ، أتابِكِ العساكر ، ممهِّد الدُّوَل ، مشيِّد الممالك ، عِمادِ الملة ، عونِ الأمة ، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، عضُد أمير المؤمنين» . ثم الدعاء المعطوف والتصدير المناسب : مثل أن يقال : « ولا زال عَزْمُه مؤيّدا ، وعِزُّه مؤبّدا ، وسعده علىٰ ممرّ الجديدين مُجَدَّدا ؛ أصدرناها إلىٰ المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه من السلام أتمّه ، ومن الثناء أعمّه» . ثم يقال : «وتُبْدى لعلمه الكريم كذا وكذا ، ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه الكريمُ بكذا وكذا ، فيحيط علمه الكريمُ بذلك ، والله تعالىٰ يؤيّده بمنّه وكرمه » .

(١) لم يذكر غير ثمــان درجات .

الدرجـــة الثانيـــة

(الدعاء للجنَاب الكريم)

وصورته على ماأورده فى "التثقيف" عما آستقر عليه الحالُ «أعزّ الله تعالى نُصْرة الجناب الكريم ، العـالى ، الأميرىّ ، الكَبيرىّ ، العالِمىّ ، العـادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الزعيمىّ ، العَوْنىّ ، الغِيَاثىّ ، المُثَاغِرىّ ، المرَابِطِىّ ، الممِّهدىّ ، المشيِّدىّ ، الظهيرىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسـلام والمسلمين ، سيفِ الأمراء فى العالَمين ، نُصْرةِ الغُزَاة والمجاهدين ، زعيم جيوشِ الموحِّدين ، سيف أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والتصدير المناسب ، مثل أن يقال : «ولا زالَتْ عزائمُهُ مؤيَّده ، وأوامرُهُ السعيدةُ مسَدَّده ؛ صدرت هـذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدِى إليه سـلامًا طيِّبا ، وثناء مُطْنَبا ؛ وتوضِّح لعلمه الكريم كذا . ومرسومُنا للجناب الكريم أن يتَقَـدّم أمرُه الكريمُ بكذا وكذا ؛ فيحيط علمه الكريمُ بذلك ، والله تعالى يؤيده بمنِّه وكرمه» .

قلت : والذى فى "التعريف" : «أعز الله تعالى أنصارَ الجَنَاب الكريم ، بإبدال نصرة بأنصار ؛ وآختلاف بعض الألقاب المتقدّمة» .

الدرجة الثالثـــة

(الدعاء للجناب العالى بمضاعَفَة النعمة)

وصورته على مافى "التثقيف" : «ضاعفَ اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنىّ ، الزَّعيمىّ ، الممهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظهيرىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ؛ عزّ الإسلام والمسلمين ، سيفِ الأمراء فى العالمين ، نُصْرةِ الغُزَاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحدين ، مُقَدّم العساكر ، ممهِّد الدُّوَل ، مشيِّد

الممـالك، عمادِ الملة، عونِ الأمّة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، سيفِ أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل : «ولا زال قَدْرُه عاليا، ومَدْحه مُتواليا، وجيدُ الدَّهْرِ بمحاسنه حاليا ؛ وتوضِّح لعلمه الكريم كذا ؛ ومرسومُنا للجناب العالى أن يتقدّمَ أمرُه الكريم بكذا ؛ فيحيط علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه» .

الدرجة الرابعـــة

(الدعاء للجناب العالى بدوام النعمة)

وصورتها علىٰ ما أورده فى "التثقيف" : «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى، الأميريِّ، الكبيريِّ، العالمِّ، العادليِّ، المؤيديِّ، الأوحديِّ، النَّصيريّ، العَوْنيّ، الهُمَاميّ، المقدَّميّ، الظَّهيريّ، الفلانيّ ؛ عزِّ الإسـلام والمسلمين، سيِّدِ الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، مقـدَّمِ العساكر، كَهْفِ المِلَّة، ذُخْرِ الدَّوْلة ؛ عمـادِ المملكة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، حُسامِ أمير المؤمنين» والدعاء والتصـدير المناسب، مثل أن يقال : «ولا زال قدرُه رَفيعا، وعِزُّه مَنيعا، و (١) مريعا . صدرت هذه المكاتبـة إلىٰ الجناب العالى تهدى إليه سلاما طيبا، وثنـاء صيبا» ثم يقال : «وتوضِّح لعلمه المبارك كذا، فيُحيط علمُـه الكريم بذلك ؛ والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه» .

---

(١) بيـاض بالأصل ولعله وجنابه مريعا .

الدرجة الخامسة

(الدعاء للمجلس بدوام النعمة)

ورسمها : « أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلِس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، العَوْنىّ، الأوحدىّ، النَّصيرىّ، الهُمَامى، المقدَّمىّ، الظهيرىّ، الفلانىّ؛ عزّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، مقَدَّم العساكر، كَهْفِ الملة، ظهيرِ الملوك والسلاطين، حسام أمير المؤمنين » ثم الدعاء والتصدير المناسب، مثل : « ولا زال عاليا قَدْرُه، نافذًا أَمْرُه، جاريًا علىٰ الألْسِنة حمْدُه وشُكْرُه . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدِى له سَلَاما، وثَنَاءً بسَّاما » ثم يقال : « وتوضح لعلمه المبارَك كذا . ومرسومنا للمجلس العالى أن يتقدَّمَ أمره المبارك بكذا، فيُحيط علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنِّه وكرمه » .

الدرجة السادسة

(صدرتْ والعالى، ويعبَّر عنها بالسامىّ بالياء)

وصورتها علىٰ ما فى "التثقيف" : « صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العَضُدىّ، الذُّخْرىّ، النَّصيرىّ، الأوحدىّ، العَوْنِىّ، الهمامىّ، المقدّمىّ، الظهيرىّ، الفلانى؛ مجدِ الإسلام والمسلمين، شرفِ الأُمَراء المقدَّمين، نُصْرةِ الغُزَاة والمجاهدين، مقدَّمِ العساكر، ذُخْرِ الدوله، كَهْفِ المله؛ ظهير الملوك والسلاطين » ثم الدعاء المناسب، مثل : « أدامَ اللهُ سعادتَه، وأجزل من الخير بِرَّه وإفادَتَه، مُوضِّحةً لعلمه المبارَك كذا؛ ومرسومُنا للمجلس العالى أن يتقدّم بكذا، فيحيطُ علمُه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنِّه وكرمه» .

الدرجة السابعـــة

(صدرت والسامى ، ويعبر عنها بالسامى بغير ياء)

وصورتها : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامِى ، الأميرىّ ، الأجلىّ ، الكبيرىّ ، العضدىّ ، الذُّخرىّ ، النِصيرِىّ ، الأوحدىّ ، الفلانىّ ؛ مجدِ الإسلام ، بَهاء الأنام ، شَرَف الأمراء ، زين المجاهدين ، عضــد الملوك والسلاطين» ثم الدعاء مثل : «أدام الله سعادتَه ، وأجزل من الخير عادتَه ؛ تتضمَّن إعلامَه كذا ، ومرسومنا للمجلس السامى أن يتقدّمَ بكذا ، فلْيعلَمْ ذلك و يعتمده ، والله الموفِّق بمنِّه وكرمه» .

الدرجة الثـامنـــة

«يعلمُ مجلِس الأمير ، الأجلّ ، الكبير ، الغازى ، المجاهِد ، المؤيِّد ؛ فلان الدين ، مجد الإسلام ، بَهاء الأنام ، شَرَف الأمراء ، زَيْن المجاهدين ، عُدّة الملوك والسلاطين» والدعاء ، مثل : « أدامَ الله سعدَه ، وأنجح قصْدَه ؛ أنَّ الأمر كذا ؛ ومرسومنا له أن يتقدّم بكذا ، فلْيعلَمْ ذلك و يعتَمِدْه ، والله الموفِّق بمنِّه وكرمه» .

قلت : وقد تقــدّم فى أوّل المكاتبات أنه يتعين أن يكون الدُّعاء للمكتوب إليــه مناسبا للحال ، مثل أن يكون موافقا لآسم المكتوب إليه أو لَقَبه أو وظيفته ، أو محلِّ نيابته ، أو الأمرِ المكتوب بسببه : من آســتطلاع أمر ، واســتِرْهاف عَزْم ، وفَتْح وظَفَر وبشارة وغيرها وما يجرى مَجْرىٰ ذلك ، وتقــدّم هُنَاك ذكرُ جمــلة من الأدعية فى الأمور المختلفة المعانى .

ونحن نذكر هنا نُبْذة من الأدعيــة والتصديرات اللائقة المتقدّمة ، ممــا يُدْعىٰ به للنوّاب ومَنْ فى معناهم ؛ ليقرُبَ تناوُلُه باقترانه بصور المكاتبات » .

الأدعية والصـــدور لنوّاب الســـلطنة

أدعية تصلح للنائب الكافل

ولا زالتْ كَفَالتُه تَبْسُط المَعْدَله ، وعزائمُه على الإنصافِ والإسعافِ مُشتَمِله ، وتقدماتُه تُبلِّغ كلَّ ذى قَصْدٍ أمله . أصدرناها إلى المَقَرّ الكريم تَهْدِى إليه من السلام أكملَه ، ومن الثناء الحَسَن أجزلَه ، وتُبْدِى .

آخـــر : ولا زالَتِ الممالكُ كلُّها فى كَفَالته ، والمَسالكُ على آختلاف طُرُقها آئِلةً إلى إيالته ، والملائكُ محوّمةً على بنوده محتَفّةً بهالَتِه ، والأرائكُ لاتُثْنى إلا على دَسْت فَخَاره ولا تُعَـدّ إلا لجلالته . أصـدرناها إلى المَقَرّ الكريم تخصُّه بأفضـل السلام ، وأطيبِ الثناءِ المرقوم على أعلى الأعلام ، وتُبْدِى .

آخـــر : ولا زالتْ كِفايةُ كَفَالته تزيدُ على الآمال ، وتتقرَّبُ إلى الله بصَلاح الأعمـال ، وتكْفُل ما بين الجَنُوب وأقصى الشَّمال . أصـدرناها إلى المَقَرّ الكريم وصـدْرُها بذِكْره منشرح ، وبِبِرّه فَرِح ، وبعُلُوّ قدره فى أيامنا الزاهرةِ يُسَرّ ويؤَمَّل منه ما يَزِيد على أمل المقْتَرِح ، وتبدى .

أدعيةٌ تصلُح لنائب الشام المحروس

و[لا زالت][(١)] الممالك [تؤيد][(١)] بعزمه ورأيه تأييدا ، والدول [تسدّد] بكفالته تسديدا و[تشيد][(١)] تشييدا . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُهْدِى إليه سلاما تضاعَفُ أجزاؤُه ، وثناءً يُبْهِج الخواطرَ سناؤُه ، وتُبدى لعلمه .

آخـــر : ولا زالتِ النفوسُ بيُمْن كَفَالته فائقه ، والخواطِرُ فى محبَّته متوافِقه ، والألسُنُ بشكر محاسنه ناطِقه ، وقلوبُ الأعداء من بأسه ومَهابته خافِقه . أصدرناها

(١) الزيادة يقتضيها المقام لتمام الكلام .

إلى المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه أنواعَ السلام المتناسبةَ وأجناسَــه المتناسِقَه ، وتُثْنِى على أوصافه التى أصبحَتِ الأفواهُ فى ذكرها صادِقه ، وتبدى لعلمه .

آخــــر : ولازالت عزائمُه مُرْهَفَةَ الحَدّ ، وكَفَالتُه كفيلةً بُنُجْحِ القَصْد ، ومَغَانِمُه فى سبيل الله تُعْرِب عن الاجتهاد فى قَهْرِ الأعداء والجِدّ . أصدرناها إلى المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه سـلاماً يفوقُ شَذَاه العَنْبَرَ والنَّــدّ ، وثناءً مجاوزا أبدًا الحَصْرَ وأمدًا العَدّ ، وتبدى لعلمه .

آخــــر : ولازالت قلوبُ أهل الإيمـان من كَفَالته مؤتَلِفه ، وفِرَقُ أهل (١) من بأسه وخَوْفه مختَلِفه ، وأحوالُ أهـلِ العِنَاد بجميل تدبيرِه فى آسـتطلاعها واضِحةً مُنْكشفه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُثْنِى على همّته التى لم تَزل على المصالح معتكِفَه ، وتُهْدِى إليه تحيةً شموسُها مشرقةٌ غيرُ منكَسِفه ، وتبدى لعلمه .

آخــــر : ولازالت سعادتُه بحكم الأقدار دائمه ، والمَعْدَلةُ بجميل حلمه وصائب رأيِه قائمه ، والعيونُ بيُمْن كَفَالته فى مِهَاد أمْنِه نائمه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُهْدِى إليه تحيةً طيِّبة المَسْرى ، وثناءً حَسُنَ وصفًا وطاب ذِكْرا ، وتبدى لعلمه .

آخــــر : ولا زال النصرُ حِلْيَةَ أيامه ، وشامةَ شامِه ، وغَمَــامَةَ ما يحلّق على بلده المُخْضَرّ منْ غمامِهْ . أصدرناها إلى المَقرّ الكريم بسلامٍ لا يَرْضَى حافرُ جوادِه الهلالَ نَعْلا ، ولا يَحْظَى به إلا بلَدُه ونخص منه الشرفَ الأعلى ، وتبدى لعلمه .

آخــــر : وسقَى عهدُه العِهَاد ، وشفَى بعَـدْله العِبَاد ، وزانَ به حُسنَ بلده التى لم يُخْلقْ مثلُها فى البِلَاد ، وهى إرمُ ذاتُ العِمَاد . أصدرناها إلى المقرّ الكريم بسلامٍ تُسَرّ به النفوس ، ويطَوَّقُ به فضلُه الجامع وتتحلّى به العَرُوس ، وتبدى لعلمه .

---

(١) بياض بالاصل ولعله الكفر .

آخــــر : ووَقىٰ بسُور جُيُوشه الممتنعةِ ضررَ الضَّرَّاء، وكَسَر بأسُود جُنودِه ذِئابَ الأعداء الضِّرَاء، وسبقَ دَهْماءَ الليل وشَهْباء النهار [وحمراءَ الشفَق](١) وصَفْراء الأصيل وشَـقْراء البَرْق بسابقتــه الخَضْراء . أصــدرناها إلىٰ المقرّ الكريم بسَلَامٍ يملأ حَدَق حدائقه نُورا، وقلْبَ عساكره سُرُورا .

أدعية وصــــدور

(تصــلُح لكلٍّ من النائب الكافــل ، ونائب الشـام ،
ومَنْ فى معناهمـا كالأتابك ونحوه)

دعاء من ذلك : ووَصَـل المسارَّ بعِلْمه الذى لا يُنْكَر، وحِلْمه الذى يُشْكَر، وحكمه الذى يأمُر بالمعروف ويَنْهىٰ عن المُنْكَر . أصدرناها إلىٰ المقرّ الكريم بسلام يُسْرِع إليه، وثناء يَرِدُ مِنَّا عليه، وتبدى لعلمه .

آخــــر : ولا زالتِ الدُّوَلُ برأيه مُقْبِـلة السُّعود، مترقِّيةً فى الصُّـعود، مملوءة الرِّحاب : تارةً تبعَثُ البُعوثَ وتارةً تفِد عليه الوفُود . أصــدرناها إلىٰ المَقَرّ الكريم تُهْدِى إليه من السلام أشرقه نُجُوما، ومن الثناء أغْدقَه غُيُوما، وتبدى لعلمه .

آخــــر : ولا زالت الممـالكُ بآرائه مُنيره، و براياتِهِ لأعدائِها وأعداءِ الله مُبِيره، و بُرُؤْياه تتضاءلُ الشموسُ المُشْرِقة وتخجَلُ السُّحُب المَطِيره . أصــدرناها إلىٰ المقرّ الكريم تُهْدِى إليه من السلام دُرَره، ومن الثناء غُرَره، وتبدى لعلمه .

آخــــر : ولا برحتْ آراؤه كالنُّجوم بعيــدةَ المَدىٰ ، قريبــةَ الهُدىٰ ، متهلِّلة كالغمام : للأعداءِ منها الصَّواعقُ وللأولياء منها النَّدىٰ . أصدرناها إلىٰ المَقَرّ الكريم بسلام حَسَن الافتتاح، وثناءٍ كما نَظْم الوِشَاح، وتبدى لعلمه الكريم .

---

(١) الزيادة من "التعريف"

آخـــر : ولا بَرِحتْ آراؤه تُنير غَياهِبَ الخُطُوب، وعزائمُه تُثير سَنابِكَ الجِياد للجهاد فتظْفَر من التأييد بكلّ مطلوب ، وصوارِمُه تَفْتِك بالأعداء فتَهْتِك منهم كلَّ سِتْرٍ محجوب . أصدرناها إلى المَقرّ الكريم تُهْدِى إليه سلامًا أزهى من الزَّهَر، وأبهى من رَوْضٍ وافى نَضارته النظَر ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : ولَا بَرِح التأييدُ يصْحَب رايته ، والعزم يَخْدُم عَزْمَتَه ، والرُّعب يَؤُمّ طليعته ، والظَّفَر يُحَكِّم فى العدوّ سيفَه فلا يستَطِيعُ عاصى الحُصُون عِصْمتَه . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُكافِى بمزيد الشُّكْر همَّتَـه ، وتُوافِى إليـه بثناءٍ وافٍ يحسُـدُ المسْكُ نَفْحَته ، وتنهى لعلمه .

آخـــر : ولا بَرِحتْ سـيُوفُه تَسِيل يوم الرَّوْع جداوِلُهـا ، وعزائمـه تَنْصر كتائبها وجحافِلُها ، ومنزلتُه على ممرّ الزمان بين السِّماكين منازِلُهـا . أصدرناها إلى المقرّ الكريم تُثْنِى على محاسنه التى بَهَرتْ أوصافُها ، وٱختالت فى مَلَابس الحمدِ أعطافُها ، وتبدى لعلمه .

أدعية وصـــدور

(تصـلح لنائب حلب المحروســـة)

دعاء من ذلك : ولا زال يُعَـدّ ليومٍ تَشِيب منـه الوِلْدانـ ، ويُعَـدُّ دونه [كلُّ محارب](١) بَيْنه وبين الشَّهباء والمَيْدان ، ويعُمُّ حَلَبَ من حِلَى أيامه مالا يُفْقَد معه إلا ٱسمُ ٱبن حَمْدان .

فإن كان لقبُه سيفَ الدين ، قيـل « ويعُمُّ حلبَ من حلى أيامه مالا يُفْقَد معه سيفُ الدِّين إن فُقِدَ سيفُ الدولة بنُ حَمْدان . صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب

---

(١) الزيادة من "التعريف" .

الكريم تُهْدِى إليه سلامًا مامرّ علىٰ روض إلا آنتهب طِيبَه نَهْبا، وثناءً تُعقَد له أعلامُه علىٰ كتيبته الشَّهْبا، و توضِّح لعلمه» .

آخـــر : وفَتح بسُيوفه الفتحَ الوَجِيز، وأحلَّ عقائلَ المَعَاقل منــه فى الكَنَف الحَرِيز، وأعادَ به رَوْنَق بلد ماجَفَّتْ بها زُبْدة حَلَبٍ وهو فيها العزيز . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجَنَاب الكريم بسلامٍ ذَهَبُه لايَذْهَب ، وثناءٍ لاتصْلُح لغير عَقِيلة الشهباء قلادةُ عنبره الأشْهَب ، و توضِّح لعلمه الكريم .

آخـــر : ولا زالت هِمَمُه مُطِلَّة علىٰ النُّجوم فى منازلها ، مُطاوِلةً للبروق بمَنَاصِلها ، قائمةً فى مصالحِ الدوَلِ مَقَـامَ جَحافِلها . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب الكريم تُهْدِى إليه سلامًا كالدُّرَر ، وثناءً طويل الأوْضاحِ والغُرَر ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : وأمدَّه بَعْونه ، وجَمَّله بصَوْنه ، ولا زال رأيُه فى النقيضين : لهذا سببَ فنائه ولهذا علَّة كَوْنه . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب الكريم تُهْدِى إليــه سلامًا رَطِيبا ، وشُكْرا يكون علىٰ ماتُخفِى الصدورُ رَقِيبا ، وتوضح لعلمه .

آخـــر : وأعلىٰ له من الأقدار قَـدْرا ، وضاعف لَدَيْه من لَدُنْهُ سُرورا وبِشْرا ، ولا أعدمَ المَـالكَ من عزائمه تأييدًا ونَصْرا . صدرت هـذه المكاتبةُ إلىٰ الباب الكريم تُهْدِى إليــه سلاما يفُوقُ الزَّهَر ، ويسابِقُ فى سَـيْره الشمسَ والقمَر ، وتبدى لعلمه .

آخـــر : وخَصَّه بجميل المَنَاقب ، ومنحه من المَزِيد عُلوَّ المَرَاتب ، وضاعف لَدَيْه من الإيثار شريفَ المَوَاهب . صدرت هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب الكريمِ تُهْدِى إليه سلامًا كَرُم وفُودُه ، وثناءً حَسُنَ وصفُه وعذُبَ وُرُوده ، وتوضِّح لعلمه .

آخـــر : ولازالتِ الخواطرُ تَشهدُ منه صِدْقَ المحبّه ، والنفوسُ تحقَّق أنه قد جعل النصيحةَ لأيامنا الشريفة دَأْبه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدِى إليه سلاما زاكيةً أقسامُه ، وثناءً كُمَلَ عِقْدُه وآتَّسق نِظامُه ، وتوضح لعلمه الكريم .

آخـــر : وزاد عَزْمَه المباركَ تأييدا ، ومَنَح نِعمَه على ممرّ الأوقات مَزِيدا ، وجعل حظَّه من كلّ خير سَعيدا ، وسعدَه بتجديد الأيام جَدِيدا . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الجناب الكريم تُهْدِى إليه تحيةً حسُنَ إهداؤُها إليه ، وثناء يُبْهِـج الخواطِر وُرُودُه عليه ، وتوضح لعلمه .

آخـــر : وجعل السعدَ المؤبّد من مَغَانمه ، وأقامه لإبقاء الخير فى معادِنِه وإثباتِ العزّ فى معالمه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهْدِى إليه تحيةً طاب نَشْرُها العاطر ، وثناءً أبهجَ ذِكْرُه الخاطر ، وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال بالملائكة منصُورا ، و بمَزِيد النِّعم مَسْرورا ، وبكلّ لسان موصوفًا مشكورا . صدرت هذه المكاتبةُ إلى الباب الكريم تُهْدِى إليه سلامًا يَضُوعُ نَشْرُه ، وثناءً يفُوح عِطْره ، وتوضح لعلمه .

دعاء وصـــــدر

(يصلح لنائب الســـلطنة بطرابُلُس)(١)

[وهو من هذه النِّسبة وما لايبعُد منها .

والدعاء مثل قولنا : وأطاب أيَّامَه التى مارقَّتْ على مثلها أسحار ، وعدّد فى مَنَاقبه العُـقولَ التى تَحَـار ، وأخذ بنواصى الأعداء بيـده لا تنأى بهـم البَرَارِى المُقْفِرة ولا تحصِّنُهم البِحار .

(١) ظهر من فحوى المقام أن هنا سقطا من قلم الناسخ . وقد تداركناه من "التعريف" ووضعناه بين قوسين هكذا [ ] تتميا للكلام فليتنبه .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بسلام وفرت منه أسْهُمَه التى يدرأ بها العدا فى نحرها، وثناءٍ مُطْرِبٍ ترْقُص به الخيلُ فى أعنّتها والسُّفُن فى بَحْرها .

دعاء آخر وصدر

ولا زالتْ صفوفه تَشُدُّ بنيان الحرب، وسيوفه تعَدُّ للقتل وإن قيل للضرب، وسُجُوفُه تُجَرُّ علىٰ بلد مامثله فى شرق ولا حصل علىٰ غير المسمّٰى منه غرب .

صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلاما يزيد أُفُقَه تزيينا، وثناء يأتيه من فائق الدُّرّ بما يستهون معه بالمينا .

دعاء وصدر

[(يصلح لنائب السلطنة بحماة)]

وأتمَّ بخِدَمه كلَّ مبَرّه، وبِهِمَمه كلَّ مَسَرّه، وصانَ ماولِيَه أن يكونَ به غيْرَ النهر «العاصى» أو يُنْسبَ إليه سوىٰ البلد المعروف «معرّه» .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلاما تُمْسَحُ أنديتُه بالسَّحائب، وثناءً يأتى به حِمَا حَمَاةَ وقرونُها المنشورةُ بألويته معقودةُ الذَّوائب .

[دعاء[(١)] آخر وصدر

وحمىٰ حَمَاه، وزان موكبه بأحسن حِمَاه، وحسَّن كائنَ سهامه التى لا يصلُح لها غيرُ بلده حَمَاه[(١)]] .

صدرت هذه المكاتبةُ إلىٰ الجَنَاب العالى تُهْدى إليه سلامًا تحمِلُه إليه الركائبُ السائره، وثناءً تُشْرِق منه الكواكبُ أضعافَ ما تُرِيه أفلاكُ الدواليب الدائره؛ وتوضح لعلمه .

(١) ما بين هذين القوسين [ ] تداركناه من التعريف لينتظم به الكلام فليتأمل .

دعاء وصـــــدر

(يصــلح لنــائب صَــفَد)

وشكرِ هِمَمه التي وفَتْ ، وعزائمِــه التي كَفَتْ ، وأعلىٰ به بلدا مُذْ وَلِيَــه قيل : صفَدُ قد صفَتْ . صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليــه سلامًا لا تزال شــعائرُه تُقام ، وثناءً مُذْ هَبَّ علىٰ بلده قيــل : إنَّ هواءَها يَشْفِي الأسقام ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولازالت مَسَاعيه تسوقُ إليه الحُظُوظَ [البَطِيَّة](١) وتقدِّم له العَلْياءَ مثل المطِيَّه، وتهنِّيه بمــا خُصَّ به من صَــفَد وهى العَطِيــه ؛ [صــدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلاما يحيِّيه فى محلِّه ، وثناءً يودع فى معْقلِه الذى لا تصل أعلىٰ الشوامخ إلا إلىٰ ماسفَل من ظلِّه](١) وتوضح لعلمه .

ادعية وصــــــدور

(تصلُح لكلٍّ من نُوَّاب طرابلُس وحماةَ وصَفَد ومَنْ فى معناهم)

دعاء وصدر من ذلك : ولا برِح منصــورَ العَزَمات ، مســدَّدًا فى الآراء والحَركات، مشيِّدا قواعدَ الممالك بمالَهُ من جميل التقدمات . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الباب العالى تُهْدى إليه سلاما أرِجَا ، وثناءً بَهِجا ؛ وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال سيفُه ماضِيا ، وجِيدُه حاليا ، وضِدُّه خاسيا . صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجنــاب العالى تُهْدى إليه ســلاما ، وتســدِّد لرأْيِه الصائبِ سِهاما ، وتوضح لعلمه .

---

(١) من التعريف .

آخـــر : ولا زالت آراؤه سعيدَه ، وتأثيراتُه حَمِيده ، وسُـيوفُه لرقاب العِـدا مُبيده . صدرت هـذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى تُهْدِى إليه سلامًا يتأرّج ، وثناءً نَشْره نَشْرُ الثوب المدبَّج ، وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولازالتْ آراؤه عاليه ، وأجيادُه حاليه ، ونِعَمُ الله عليه متواليه . صدرَتْ هذه المكاتبة إلى الجناب العالى تُهْدِى إليه السـلام التامّ ، والثناءَ الوافرَ الأقسام ، وتوضح لعلمه .

أدعية وصـــــدور

(تصلح لنائب الكَرَك ومن فى معناه ممن رُتْبته المجلس العالى مع الدعاء)

دعاء من ذلك : وأيّد عزمَه ، وأبّد حَزْمه ، وفوّقَ إلى نحـر العِـدا سَهْمه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدِى إليه سـلاما ، وتُسَدّد لرأيه الصائب سِهَاما ، وتوضح لعلمه .

آخـــر : ولا زال عاليا قدْرُه ، نافذا أمْرُه ، جاريًا على الألسنة حمدُه وشُكْرُه . صدرت هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدِى إليه سلاما ، وثناءً بَسَّاما ، وتوضح لعلمه .

المَهْيَـــع الثـانى

(فى بيـان مَرَاتب المكتوب إليهم من أهل المملكة ، وما يستحقه كلٌّ منهم من المكاتبات . وهم ثلاثة أنواع)

النـــوع الأوّل

(أرباب السيوف، وهم علىٰ ثلاثة أقسام)

القســـــم الأوّل

(من هو منهم بالديار المصرية ، وهم ستة أصــناف)

الصـــنف الأوّل

(نُوّاب السلطنة الشريفة، وهم أربعة نُوّاب)

الأوّل ــ النـائب الكافل : وهو نائبُ السلطنة الشريفة بالحَضْرة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممـالك فى المَقَالة الثانية أنه أعلىٰ نُوّاب السلطان رتبةً . قال فى "التثقيف": وقلَّ أن يُكاتَب إلا إذا كان السلطان مسافرا فى غَزاةٍ أو سَرْحة للصـــيد .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التعريف" : أعزّ الله تعالىٰ أنصار الجناب الكريم علىٰ ما تقدّم فى الدرجة الثانية من الدّرجات العَشْر(١) . قال فى "التعريف" : وقد رأيت بعضَ الكُتّاب قد كتب فى ألقابه بعـد الأميرىّ «الآمرىّ» . قال : والكاتب المذكور كاتبٌ صالحٌ فى المعرفة وليس بحجّة، وكتابته الآمِرِىّ ليست بشىء، وإنمـا حمله عليها كثرة المَلَق . وقد نقل فى "التعريف" عن هذا الكاتب أنه كتب

(١) لم يتقدم الإتمـان فتنبه .

فى تعريفه « نائب السلطنة وكافل الممالك الشريفة الإسلامية » . قال : وهو مقبولٌ منه . ثم قال : والذى أُراه أن يُجْمَع ذكر النيابة والكَفَالة فى تقليده، فيقال : « أن يُقَلَّد نِيابةَ السلطنة المعظَّمة ، وكَفالةَ الممالك الشريفة الإسلامية » أو ما هذا معناه ، نحو : « وكفالة الممالك الشريفة : مِصْرا وشاما وسائر البلاد الإسلامية أو الممالك الإسلامية » ونحو ذلك .

فأما فى تعريف الكتب ، فقد جرتْ عادة نُوّاب الشام أن تقتصر فى كُتُبها إليه علىٰ « كافل الممالك الإسلامية المحروسة » . قال : ولعَمْرى فى ذلك مَقْنَع وإنَّ فى الاقتصار عليها ما هو أكثرُ فَخَامة . وعليه عملُ أكثر الكُتَّاب بديوان مصر أيضا ، ويؤيِّده أنهم مقتصرون فيما يكتب باشارته علىٰ هذا التعريف ، فاعلم ذلك .

ورسمُ المكاتبة إليه علىٰ ما استقرّ عليه الحالُ ، علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" : أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المَقَرّ الكريم ، كما فى الدرجة الأُولىٰ من الدرجات العشر ، والعلامة إليه « أخوه » . وتعريفه : « كافلُ الممالك الشريفةِ الإسلاميَّة أعلاها الله تعالىٰ » . قال فى "التثقيف" : وإنما كُتِب له أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ ، وزيدت ألقابه علىٰ ما كانت عليه لمَّا كُتِب بذلك لنائب الشام فى وِلَاية بيدمر الخُوارِزْميّ ، وكافل المملكة يومئذ الأمير مَنْجَك ، فلزم أن يكتب له مثله لئلا يكونَ نائبُ الشام مميَّزا علىٰ كافل السلطنة ، علىٰ ما سيأتى فى الكلام علىٰ مكاتبة نائب الشام .

قال فى "التعريف" : أما نائبُ الغَيْبة ، وهو الذى يُتْرَك إذا غاب السلطان والنائب الكافل وليس إلّا لإخماد النَّوائر وخَلَاص الحقوق ، فحُكْمه كحكمه فى المكاتبة إليه .

الثانى — نائب ثَغْر الإسكندريةِ المحروس : وهو ممن آستُحدِثت نيابتهُ فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» عند طُرُوق العدو المخذول، فى سنة سبع وستين وسبعمائة من الفَرَنْج المخذولين .

ورسم المكاتبة إليه : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجَنَاب العالى، علىٰ ماتقدّم ذكره، إلا أنه لا يقال فى ألقابه « الكافلىّ» والعلامةُ الشريفة له « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس» .

واعلم أن بالإسكندرية حاجباً يكاتَبُ عن الأبواب السلطانيــة . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه : «هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» إن كان طبلخاناه، و « يعلَمُ مجلس الأمير » إن كان عشرةً، والعلامة الشريفة له الآسم بكل حال . وتعريفه «الحاجبُ بثغر الإسكندرية المحروس» .

الثالث — نائب الوجْه القبلى : وقد تقدّم أن مَقرّ ولايته مدينةُ أُسْيوطَ ، وأنّ آستحداثَ نيابته كان فى الدولة الظاهريَّة « برقُوق» فى سنة ثمـانين وسبعمائة .

ورسم المكاتبة إليــه : « ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى » علىٰ ما تقدّم ذكره . ولا يقال فيــه « الكافلىّ» أيضا ، والعلامة الشريفة « والده » وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بالوجه القبلى» .

الرابع — نائب الوَجْه البحرىّ : وقد تقدّم أن مَقرّ ولايته مدينة دَمَنْهور الوَحْش من أعمـال البحيرة، وأن نيابتَه آستُحدِثتْ بعـد نيابة نائب الوجه القبلىّ، ولذلك لم يتعرّض له فى " التثقيف " .

ورسم المكاتبة إليه : «ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى » كما فى نائب الوجه القبلىّ . والعلامة الشريفة له «أخوه» وتعريفه « نائب السلطنة الشريفة بالوَجْه البحرىّ» .

الصـــــنف الثـانى
(الكُشَّاف)

وقد تقدّم أنه كان قبـل ٱستِقْرار نيابَتِى الوجهين : القبلىّ والبحرىّ كاشـفان بالوجهين المذكورين : كاشفٌ بالوجه القبلىّ ، وكاشفٌ بالوجه البحرىّ . فلمـا ٱستقرّ النيابتان ، ٱستقرّ بالفَيُّوم والبَهْنَساوية كاشفٌ ، وبالشرقيـة وما قاربها كاشفٌ ؛ وكل منهما أميرُ طبْلَخاناه .

ورسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما : « صدرتْ هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى » والعلامةُ لكلٍّ منهما الأسم الشريف ، وتعريف كاشف الفيوم « الكاشفُ بالفيُّوم والبهنساوية » وتعريف الآخر «الكاشف بالوجه البحرىّ» .

الصـــــنف الثالث
(الوُلَاة بالوجهين : القبـــلى والبحرىّ)

وكلٌّ من وُلَاة الوجهين لا يخرج عن طبلخاناه أو عشرة وما فى معناها كالعشرين ونحوِهـا .

فأما الوجهُ القبلى ، ففيه ستة وُلَاة ، منهم ثلاثة طبلخاناه : وهم والى قُوص وإخْمِيم . ووالى الأُشْمُونَيْنِ . ووالى البَهْنَسَا .

ومنهـم ثلاثةٌ عشرات : وهم والى الجِـيزِيَّة ، وكان قبل ذلك طَبْلَخاناه . ووالى إطْفِيح . ووالى مَنْفَلُوط . وكان قبل ذلك طبلخاناه ، وهو اليوم إمرةُ عشرين .

وأما الوجه البحرى ، ففيه سبعةُ ولاة : منهم ثلاثةٌ طبلخاناه . وهم والى الغربِيَّة . ووالى المَنُوفيَّة . ووالى الشَّرْقِيَّة . وكان بدمنهور والٍ طبلخاناه قبل ٱستقرارها نيابةً .

ومنهم أربعــةُ عشرات، وهم : والى قَلْيُوب . ووالى أُشْمُوم : وهى الدقَهْلِيَّــة والمُرْتاحيَّة . ووالى دِمْياطَ . ووالى قَطْيَا .

ورسم المكاتبــة إلىٰ كلٍّ من ولاة الطبلخاناه منهم : « هــذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى » وإلىٰ كلٍّ من ولاة العشرات منهم « يعــلم مجلسُ الأمير» والعــلامة لكل من الطبلخاناه والعشرات الآسمُ الشريف، وتعريفُ كل منهم «والى فلانةَ» .

الصــــــنف الرابع

(من يتوجه من الأبواب السلطانية من الأمراء لبعض الأعمال المتقدّمة الذكر: لكَشْف الجسور وعمارتها أو لتخضير البلاد أو لقبض الغِلَال)

قال فى "التثقيف": فمن كان منهم طبلخاناه، فرسم المكاتبة إليه السامىّ بالياء . ومن كان منهم عشرة، فرسم المكاتبــة إليه السامى بغير ياء . والعلامةُ للجميع الآسم الشريف . قال : ولا تذكر الوظيفة التى توجّه بسببها، ولا الإقليم الذى هو به .

الصنف الخامس

(باقى الأمراء بالديار المِصْــريّة)

وقد رتّبهم فى "التعريف" علىٰ أربع مراتبَ :

المرتبة الأولىٰ — مقدّمو الأُلُوف، وقد ذكر أنَّ لكبارهم أسوةَ كبار النُّوّاب بالممالك الشامية، كالشام وحَلَبَ . ولأوْسطهم [أسوةَ أوسطهم](١) لحَماةَ وطرابُلُس وصَفَد .

(١) الزيادة من "التعريف"، وهى ساقطة من قلم الناسخ .

ولأصغرهم أسوة أصغرِهم، كغَزَّة وحِمْص . ثم قال : فاعلم ذلك وقِسْ عليه . ثم قال بعد ذلك : والذى نقوله أن لكبار المقــدّمين بالأبواب السلطانية «الجَنَاب الكريم» [ثم الجناب العــالى](١) ثم « المجلس العالى » . وهــذا علىٰ ما كان فى زمانه، أما علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ آخرًا ، فإنه يكون لِكبَارهم « المَقَرّ الكريم » كما يُكْتَب للأتابك الآنَ ، ثم « الجناب الكريم » ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» .

المرتبة الثانية ــ الطَّبْلَخانات . قد ذكر أن منهم من يُكْتَب له «المجلِس العالى» كمَن يكون معيَّنا للتَّقْــدِمة ، وله عدَّة ثمــانين فارسًا أو سبعين فارسا أو نحو ذلك ، وكالمقرَّبين من الخــاصِكِيَّة ، أو مَنْ له عَرَاقــةُ نَسَب كبقَايَا المــلوك، أو أرباب وظائفَ جليلة : كحاجبٍ كبير، أو إستَدَّار جليل، أومدَبِّر دولة لم يصَرَّح له بالوزارة، أودَوادار متصرِّف. ثم قال : وهؤلاء وإن كُتِب لهم بالمجلس العالى، فإنه يكتب لهم بغير آفتتاحٍ بالدعاء، والكتابة لهم بالعالى علىٰ سبيل العرض لا الآستحقاق، وإلا فأجَلُّ رسم مكاتبةِ أمراء الطبلخاناه «السامىّ» بالياء وجمهورهم «السامى» بغير ياء .

المرتبــة الثالثة ــ العشرات . وذَكَر أن لكل منهم «مجلس الأمير»، ثم قال : فإن زِيد قدرُ أحدٍ لسببٍ مّا، كتب له « المجلس السامى » بغير الياء .

المرتبــة الرابعة ــ مقدّمو الجُنْد . وقد ذكر أن لهم أُسْوَةَ أمراء العشرات فى المكاتبة . ثم قال : وأما الجُنْد، فالأمير الأجَلُّ. وأما جُنْد الأمراء فالطَّوَاشى . وكأنه يريد ما إذا كُتِب بسببهم مكاتبةٌ أوكُتِب لأحد منهم توقيع ، وإلا فالجنــد لايكاتَبُ أحدٌ منهم عن الأبواب السلطانية حتّى ولا نُوّاب القِلَاع بالشام، كما سيأتى ذكره هناك إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) الزيادة من "التعريف" .

الصـــنف السادس

(العُرْبان بالديار المصرية وبَرْقـــةَ)

وقد تقدّم الكلامُ عليـه مستوفًى فى الكلام علىٰ أنساب العرب ، فيما يحتاجُ إليه الكاتب فى المقالة الأولىٰ . وقد ذكر فى "التعريف" أن العرب بمصر فى الوجهين القبلىّ والبحرىّ جماعاتٌ كثيرةٌ وشعوبٌ وقبـائلُ . ثم قال : ولكنهم علىٰ كثرة أموالهم(١) وآتساع نطق جماعاتهم، ليسوا عند السلطان فى الذّرْوة ولا السَّنام، إذ كانوا أهل حاضرةٍ وزَرْع، ليس منهم من يُنْجِد ولايُتْهِم، ولايُعرِق ولا يُشْئِم، ولا يخرجون عن حدود الجُدْران، وعلىٰ كل حال * فالمَنْدُل الرطب فى أرجائه حَطَب * .

ثم قد قَسَّم منازلهم إلىٰ الوجه القبلىّ والوجه البحرى، وذكر أن بكل من الوجهين مَنْ يكاتَب عن الأبواب السلطانية .

فأما عرب الوجه البَحْرىّ فعلىٰ ضربين :

الضـــرب الأوّل

(عرب البُحَيْرة)

قال فى "التعريف": وأمراؤهم عربُ الديارِ المصرية . قال : وهم أشبهُ القوم بالتخلُّق بخلائق العرب فى الحَلّ والتَّرْحال، يُغْرِبون إلىٰ القَيْرَوان وقابِس، ويَفِدُون علىٰ الحضرة السلطانية وُفودَ أمثالهم من أُمَراء العرب . وذكر أن الإمرة فيهم فى زمانه، كانت فى محمد بن أبى سـليمان وفائد بن مقـدّم . وقال : إنَّ رسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما : « هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى ، الأمير» والعلامة السلطانية « أخوه» ولم يتعرّض لتعريفهما، والذى يظهر أن تعريف كلٍّ منهما آسمه .

---

(١) فى الاصل : أبدالهم، وهو تصحيف والتصحيح من "التعريف" .

أما بعده ، فقد تغيَّرت تلك الأحوال ، وتناقصَتْ رتبـةُ عرب البُحَيرة ، وزالت الإمرةُ عنهم ، ولم يبقَ فيهم إلا مشاع عربان ذوو أموال جَمَّة ، كان منهم فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» رِحَاب ، وموسىٰ بن خَضِر ، وأولاد بَدْران الغَرِينى ، ومن جرىٰ مجراهم ، ثم صار اليوم بها (١) بن رِحَاب ، وخضر بن موسىٰ .

الضــــرب الثـانى

(عربُ الشَّرْقية)

وقد ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه منهـم نَجْم بن هجل شـيخ عائد . وذكر أنه دون محمَّد بن أبى سليمان وفائد بن مقدّم : أميرَىْ عرب البُحَيرة . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه : «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى الأمير» .

قلت : ثم تغيرتِ الأحوالُ بعـد ذلك وصارت رياسةُ عرب الشرقية متداوَلةً فى جماعة ، إلىٰ أن كان منهم فى الدولة الظاهرية «برقوق» محمد بن عيسىٰ أمير (١) وأولادهم ، وكانت الإمرة فيهم أوّلا فى (١) ثم قُتِل بسيف السلطان فى الدولة الناصرية «فرج بن برقوق» وآستقرّ مكانه (٢)

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين .

وأما عرب الوجه القبلىّ ، فقــد ذكر فى "التعريف" أنه كان منهم فى زمانه نَفَران : أحدُهما ناصر الدين عُمَرُ بن فَضْل . وذكر أنَّ رسم المكاتبة إليه «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى» أيضا . وثانيهما سَمُرة بن مالك . قال : وهو ذو عَدَد جَمٍّ ، وشوكةٍ مُنْكِية ، يغزو الحبشة وأُمَمَ السُّودان ، ويأتى بالنِّهاب والسَّبَايا ؛ وله أثرٌ محمود ، وفعل مأثور . وفد علىٰ السلطان وأكرم مَثْواه ، وعُقِد له لواءٌ وشُرِّف بالتشريف ، وقُلِّد ذلك ، وكتب إلىٰ وُلَاة الوجه القبــلىّ عن آخرهم وسائرِ العُرْبان به بمساعدته ومُعاضَــدَته ، والركوب للغَزْو معه متىٰ أراد . وكتب له منشورٌ بما يفتح من البلاد ، وتقليدٌ بإمرة العُرْبان القبلية مما يلى قُوص إلىٰ حيثُ تصــل غايتُه . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه "السامى الأمير" كمن تقدّم .

قلت : ثم كان بعــد ذلك عدد من أمراء العربان ، كان آخِرَهم أبو بكر بن الأحدب . ثم لمــا آنتقلت هوّارة إلىٰ الوجه القبلى ، صارت الإمرةُ فيهم فى الصعيد الأدنىٰ ، فى بنى غَرِيب ، وأميرهم الآن (١) وفى الصعيد الأعلىٰ فى بنى عُمَر ، وأميرهم محمد بن عمر ، ورسم المكاتبة إلىٰ كل منهما (٢)

---

(١) بياض بالاصل .

(٢) بياض بالأصل مقدار سطرين . والظاهر أنه بيض لهذا كما بيض لمـا قبله آنتظارا لوضع مثال المكاتبة الجارية فى زمانه فآخترمته المنية قبل أن يثبت مرغوبه ويدرك مطلوبه .

وأما عربُ بَرْقةَ ، فقد ذكر فى "التعريف" أنه لم يبقَ منهم فى زمانه مَنْ يكاتَب إلا جَعْفرُ بنُ عمر، وأنه كان لايزال بين طاعةٍ وعِصْيان، ومخاشَنة ولِيان؛ وأن أمراء عرب البُحيرة كانتْ تُغْرِى به، وتغيِّر خاطر السلطان عليه، وأنَّ الجيوشَ كانت تمتدّ إليه، وقلَّ أن ظَفِرتْ منه بطائل ، أو رجعت بمَغْنَم إن أصابتْه نوبةٌ من الدّهر . وكان آخِرَ أمره أنه ركب طريقَ الْواحِ حتّٰى خرج من الفيُّوم، وطرقَ بابَ السلطان لائذًا بالعفو، ولم يَسْبِق به خَبَر، ولم يعلم السلطانُ به حتّٰى آستأذن المستأذنُ عليه وهو فى جملة الوُقُوف بالباب؛ فأُكْرِم أتمَّ الكرامة، وشُرِّف بأجل التشاريف، وأقام مدّةً فى قِرىٰ الإحسان وإحسان القِرىٰ . وأهلُه لايعلمون بما جرىٰ، ولا يعرفون أينَ يَمَّ، ولا أىّ جهةٍ نَحَا ، حتّٰى أتتهم وافدات البشائر. وقال له السلطان : لأىّ شىءٍ ماأعلمتَ أهلَك بقصدك إلينا؟ قال : خِفتُ أن يقولوا : يَفْتِك بك السلطان، فأتَبَّط . فآستحسن قولَه، وأفاض عليه طَوْلَه، ثم أعيد إلىٰ أهله، فانقلب بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمسَسْه سوء، ولا رَثىٰ له صاحب، ولا شَمِت به عَدُو .

النـــوع الثـانى

(ممن يكاتب عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية أربابُ الأقلام،

وهـم علىٰ ضربين :)

الضرب الأوّل

(أرباب الدَّواوينِ من الوُزَراء ومَنْ فى معناهم)

قال فى "التعريف" ولم تزل مكاتبةُ أجلّاء الوزراء بـ«المجلس العالى» . ثم كتب لآخرهم بالديار المصرية « الجنـاب العالى » . وكُتِبت بالشام للصاحب عزِّ الدين

أبى يعلىٰ ، حمزةَ بنِ القلاقسىّ(١) رحمه الله ، بجَلَالة قَدْره ، وسابقة خِدَمه ، وعنايةِ مَنْ كتب إليه بها . ثم قال : والذى آستقرّ عليه الحال للوزير بمصر « الجَنَاب » . أما من يَجْرِى مَجْرىٰ الوُزراء ولا صريحَ له بهـا : مثل ناظر الخاصّ ، وكاتب السِّر ، وناظر الجيش ، وناظر الدَّوْلة ، وكُتَّاب الدَّسْت ، فـ«السامىّ» بالياء ، ومَنْ دون هؤلاء فبغير ياء ، ثم «مجلس القاضى أو الصَّدْر» .

قلت : وكأنه يريد ألقـاب هؤلاء فى الجُمْلة ، إما فى مكاتبةٍ تكتب بسبب أحد منهم ، وإما فى توقيع ونحوه يكتب لأحدهم ؛ وإلا فَمَنْ ذكره من الأصاغر لا يكاتَبُ عن الأبواب السلطانية عادةً . والذى صرح فى "التثقيف" بذكر المكاتبة إليه من هذا الضرب نفران :

الأوّل — كاتب السرّ إذا تخلَّف عن الرِّكاب السلطانىّ لعارض . وذكر أن رسم المكاتبة إليه : « أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى » علىٰ ما تقدّم ذكره ، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحبُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة» .

الثانى — ناظر الخاصّ الشريف . وذكَرَ أن رسم المكاتبة إليه علىٰ ما آستقرّ عليه الحال فى أيَّام آبن نقولا « أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى » علىٰ ما تقدّم ذكره ، والعلامة «الآسم» وتعريفه «ناظر الخواصّ الشريفة» .

قلت : ولم يتعرَّض لمكاتبة الوزير ، إنما ذكر ألقابه فى الألقاب العامَّة مما يكتب فى الولايات وغيرها ، ولا يُستغنىٰ عن ذكر المكاتبة إليه ؛ وقد تقدّم فى كلام صاحب "التعريف" أن الذى آستقر عليه الحال فى المكاتبة إليه «الجناب العالى» ولم يعيِّن صورة الدعاء له . والذى ذكره فى "التثقيف" فى ألقـابه أن الدعاء له «ضاعف الله

(١) فى "التعريف" القلانسى .

تعالىٰ نعمته » وحينئذ فتكون المكاتبة إليه إن كتب إليــه « ضاعف الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» بالألقاب السابقة .

الضرب الثـانى

(أرباب الوظائف الدينية والعلمـاء)

قد ذكر فى "التعريف" أن كلًّا من قُضاة القضــاة بمصر يكتب له « المجلس العالى» والمحتَسِب بها يكْتَب له «السامىّ» بالياء، ومَنْ دونَهم من أرباب الوظائف الدينية وبقية العلماء وأكابرهم «السامى» بغير ياء ، ومَنْ دونَهم « مجلس القاضى » او «الشيخ» بحسَبِ مايليق به . وكأنه يريد مطلقَ الألقاب كما تقدّم فى غيره، وإلا فهؤلاء لايكاتَبُون عن الأبواب السلطانية. ولم يذكر فى "التثقيف" مكاتبةً لأحد من أرباب الوظائف الدينية سوىٰ قاضى القُضاة تاج الدين الإخْنائى المـالكى، وقد حَجَّ فى سنة سبع وستين وسبعمائة فى الدولة الناصرية «حسن» ، جواباً عمـا ورد منه، وكتب له الدعاء و« المجلس العالى» . والعلامة الآسم . قال : وأما قاضى القضاة عزّ الدين بن جمـاعةَ فإنه كان يُحُجُّ ويجاور كثيرا ، ولكنى لم أره كتب له قَطّ ، وأنا شاكٌّ فى أمره .

قلت : رأيت فى "إيقاظ المتغَفِّل" لآبن المتوَّج ، أنه كتب إليــه وهو مجاور بمكة : « أعز الله تعالىٰ أحكامَ المجلس العالى» ولم يتعرّض للعلامة ، والظاهر أن العلامة له « أخوه » ، ويكون التعريف « قاضى القضاةِ الشافعيــة أو المـالكية بالديار المصرية» .

النـــــــوع الثـالث

(ممن يُكاتَب عن الأبواب السلطانية ممَّن بالديار المصريَّة الخُوَنْدات السلطانية : من زوجات السلطان وأقاربه ممن تَدْعُو الضرورةُ إلىٰ مكاتبته لسَفَره أو لسَــفَر السلطان)

وقد ذكر فى "التثقيف" منهنَّ جماعةً، نذكرهنَّ ليكُنَّ أُنْموذَجا لمن يكون فى معناهُنَّ .

الأولىٰ — ابنة المقام الشريف الشهيد الناصرىّ «محمد بن قلاوون» لَمَّا كانت بحلَبَ مع زوجها أبى بكر بن أرْغُون ، كتب إليها ما صورته : « الذى يحيط به عِلْمُ الحُرْمة الشريفــة ، العاليةِ، المصونةِ، الوَلَدية، عصمةِ الدين، جلالِ النساءِ، شَرَف الخَوَاتين، سليلةِ الملوك والسلاطين، ضاعفَ الله تعالىٰ جَلَالها» والعلامة «والدها» وتعريفها «الدار السيفيَّة بحلَب» والأسطر متقاربة كالملطف .

الثانيــة — طُغَاى زوجة المقــام الشريف الناصرىّ المشار إليــه، المعروفة بأمّ أنُوك ، كتب إليها لمـا توجَّهت إلىٰ الحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجهةِ الشريفة، العاليةِ، المعظَّمةِ، المحجَّبة، المَصُونة الكبرىٰ خُوَنْد خاتون، جلال النساء فى العالمين، سيدةِ الخَوَاتين، قرينةِ الملوك والسلاطين» . ثم الدعاء، والعلامة الاسم الشريف ، وتعريفها «والدة المقرّ الكريم الولدىّ السيفىّ أنوك» : والأسطر علىٰ ما تقدّم فى المكاتبة السابقة .

الثالثــة — أخت المقام الشريف النـاصر حسن جهةِ الامير طاز، كتب لهـا لما كانت بالحجاز الشريف : «ضاعفَ الله تعالىٰ جَلَالَ الجهة الشريفة العالية الكريمة المحجَّبة المَصُونة الكبرىٰ الخاتون، جَلَال النساء فى العالمين، جميلة المحجَّبات، جليلة المَصُونات، كريمة الملوك والسلاطين، والعلامة «أخوها» .

الرابعة — الحاجَّة السِّتّ حَدَق . كُتِب لها وهى بالحجاز الشريف عن الناصر حسن: «ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجهة الشريفة العالية الكبيرية المحجَّبية المصُونية الحاجِّيَّة الوالدية، جلال النساء فى العالمين، بركةِ الدولة، والدةِ الملوك والسلاطين». ثم الدعاء والعلامة الاْسم الشريف، وتعريفها «الحاجَّة ست حدق» .

الخامسة — والدة السلطان الملك الأشرف « شعبان بن حسين » . كتب إليها عند توجُّهها للحجاز الشريف : « ضاعف الله تعالىٰ جلالَ الجهة الشريفة » . ثم قال : وقد كنت أنكرت ذلك : لأنه كان يعظمها كثيرا ويقبل يديها غالبا ، فكان يمكن أن يُكْتَب لها بتقبيل اليد .

قلت : وصورة المكاتبة علىٰ مارأيته فى بعض الدساتير : «ضاعف اللهُ تعالىٰ جلالَ حِجَاب الجهة الشريفة العالية الكبرىٰ ، المعظَّمة المحجَّبة العِصْمىّ الخاتُونىّ، جلال النساء فى العالمين ، سيدةِ الخواتين ، جميلة المحجَّبات، جليلة المَصُونات، والدة الملوك والسلاطين » ثم الدعاء، وكانت الكتابة لها فى ورق دِمَشْقىّ فى قطع الفَرْخة بالطول كاملةً بقلم الثلث الخفيف أو التوقيع .

القســـــم الثـــانى
(مَنْ يكاتَب بالممـالك الشامية، وهم أربعة أنواع)

النـــوع الأوّل
(أربابُ السيوف من النوّاب الكُفَّال وأتباعهم، وهى ثمـانُ نيابات)

النيـــابة الأولىٰ
(نيابة دِمَشْق، المعبَّرُ عنها فى عُرْف الزمان بالمملكة الشامية)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية ضربان :

الضرب الأوّل
(مَنْ بمدينة دِمشـــقَ، وهم ثلاثة)

الأوّل — كافلُ السلطنة بها، وهو من أكابر مقدَّمى الألوف . وكان رسم المكاتبة إليه علىٰ ما أورده المَقَر الشِّهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" : « أعز الله تعالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم » . قال فى "التثقيف" : ولم تزل المكاتبةُ إليه كذلك من بعد الدولة الشَّهِيدية الناصرية محمد بن قلاوون إلىٰ آخر سنة خمس وسبعين وسبعمائة، وآستقرّ الأميرُ بيدمر الخُوارِزْمى نائبَ السلطنة بها فى ولايته الثالثة، فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» فاستقرّ رسم المكاتبة إليه : «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم» علىٰ الرسم المتقــدّم، والعلامة الشريفة إليه « أخوه » وتعريفه « نائب الســلطنة الشريفــة بالشام المحروس » . قال فى "التثقيف" : « أو كافل المملكة الشاميــة المحروسة» ولا يقال فى نُعُوته : كافل السلطنة .

الثانى — نائب قلعة دِمَشْق . ورسْمُ المكاتبة إليه « صــدرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العــالى» على ماتقدّم رسمه . والعلامة « والده » . قال فى ” التثقيف “ : ثم آستقرّت المكاتبة إليه « السامىّ » بالياء : لأنه طبلخاناه ، والعلامة الشريفة له الآسم . وتعريفه « نائب القلعة المنصورة بدمشق المحروسة » .

الثالث — حاجب الحُجَّاب بها . ورسم المكاتبة إليــه : « أدام الله تعــالى نعمةَ المجلس العالى » على ما تقــدّم رسْمُه ، والعلامة الشريفة له « والده » وتعريفه «أمير حاجب بالشام المحروس» .

الضـــــرب الثـانى

(مَنْ بأعمال دمشق من نُوّاب المُدُن والقِلَاع ،وهم خمسة نوّاب)

الأوّل — نائب حِمْص ، قال فى ” التثقيف “ : كان يكتَبُ إليــه نظير نائب الكَرَك ، يعنى « أدام الله تعالى نعــمةَ المجلس العالى» والعلامة الشريفة له «والده» لَمَّــا كان من مقــدّمى الألوف بالشام ، ثم آستقرّ من أمراء الطبلخاناه ، وآستقرّت مكاتبته « صــدرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس السامى» فيما أظن؛ وقد تقدّم رسمها . والعلامة الشريفة له الآسم الشريف، وتعريفه «النائب بحمص المحروسة» .

الثــانى — نائب الرَّحْبة . وقد تقدّم فى الكلام على المَسَالك والممــالك أنه كان من حقّها أن تكون من مضافات حَلَب . ورسم المكاتبة إليه « صــدرتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى» على ماتقدّم رسْمُه . والعلامة الشريفة له «والده» وتعريفه «النائب بالرَّحْبة» .

الثـالث — نائبُ بَعْلَبَـكّ . قال فى "التثقيف" إن كان من أمراء الطبلخاناه فمكاتبته «صـدرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس السامى» والعلامة له الاسم الشريف . وإن كان من العَشَرات ، فالمكاتبةُ إليـه « يعلَمُ مجلسُ الأمير » والعـلامة له الاسم الشريف وتعريفه « النائب ببَعْلَبَكّ المحروسة » .

الرابع — نائب مِصْياف . وقد تقدّم فى الكلام على المَسَالك والممالك أنها كانتْ مُضافةً إلى طرابُلُس فى جمـلة قِلاع الدَّعْوة، ثم آستقرّت فى مُضافاتِ الشـام . ورسم المكاتبـة إليه « هـذه المكاتبة إلى المجلس السـامى » والعلامة الشريفة له الاسم الشريف .

الخـامس — نائب القُـدْس الشريف . وهو ممن آستُحدِثتْ نيابتُـه فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » فى سـنة سبع وسبعين وسبعمائة ، وكانت قبل ذلك ولايةً وهو طبلخاناه، وربما أُضيف إليه نظَرُ الحرمين : حَرَم القُدْس، وحَرَم الخليل عليه السلام . ورسم المكاتبة إليه « صـدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» . والعلامة « والده » وتعريفه «النائب بالقُدْس الشريف» .

قال فى "التثقيف" : وكان قد آستقرّ بأماكن تُذْكَر من البلاد الشامية نُوّاب ، وآستقرّت مكاتبةُ كلٍّ منهم : إن كان مقـدّما « صدرتْ » و « العالى » والعلامة « والده » . وإن كان طبلخاناه « السامىّ » بالياء والعلامة الاسم الشريف . وهى تَدْمُر، والسُّخْنةُ ، والقَرْيتان ، وسَلَمْيَـةُ . قال : ثم بطل ذلك . ثم قال : ومن النُّوّاب بالقلاع الشاميَّة جمـاعةٌ لم تجرِ لهم عادةٌ بمكاتبة عن المواقف الشريفة ، ولا تصدُر ولايتُهم من الأبواب الشريفة، بل نائبُ الشام مستقلٌّ بذلك. وهم، نائب عَجْلُونَ، ونائب صَرْخَد، ونائب الصُّبَيْبة، ونائب شَقِيف أَرْنُون .

قال : وممن كُتِب إليه أيضا وليس بنائب ولا والٍ جمالُ الدين يوسفُ شاه الأتابك بمِصْياف فى سنة أربع وسبعين وسبعمائة علىٰ يَدِ نافِع بن بَدْران . ورسم ما كتب به إليه «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى» وكُتِب فى ألقابه «الأتابِكى» وكتب تعريفُه «يوسُف شاه الأتابك» . قال : والظاهر أن العلامة «والده» .

النيابة الثانية

(نيابة حَلَب)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية أيضا علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(مَنْ بمدينة حَلَب، وهم ثلاثة)

الأوّل — النائبُ بها . وهو من أكابر مقدَّمى الأُلُوف . ورسم المكاتبة إليه « أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرةَ الجناب الكريم » علىٰ ما تقدّم رسمُه . والعلامةُ الشريفة له «أخوه» وتعريفه «نائب السَّلْطنة الشريفة بحلب المحروسة» .

الثانى — نائب القَلْعة بها . ورسمُ المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» علىٰ ما تقدّم رسمه . والعلامة له الاسم الشريف . وتعريفُه «نائب القلعة المنصورة بحَلَب المحروسة» .

الثالث — حاجب الحُجَّاب بها . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» . والعلامة «والده» وتعريفُه «أمير حاجب بحَلَب المحروسة» .

الضـــــرب الثـانى

(مَنْ بأعمال حَلَبَ من النوّاب ، وهم أحد وعشرون نائبا)

الأوّل — نائب الْبِيرةِ . ورسم المكاتبة إليــه « المجلس العـالى » . والعلامة الشريفة «والده» وتعريفه «النائب بِالْبِيرة المحروسة» .

الثـانى — نائبُ قلعةِ المسلمين المعروفةِ بقلعة الرُّوم . ورسم المكاتبة إليــه والعلامة كذلك[1] . وتعريفه «النائب بقلعة المسلمين المحروسة» .

الثـالث — نائب مَلَطْيَةَ[2] . ورسمُ المكاتبة إليه والعلامةُ الشريفة كذلك ، وتعريفه «النائب بمَلَطْيَةَ المحروسة» .

الرابــع — نائب طَرَسُوس . ورسمُ المكاتبة إليه « صــدَرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى» والعلامة «والده» وتعريفه «النائب بطَرَسُوسَ» .

الخامس — نائب أَذَنَةَ . ورسم المكاتبة إليــه والعلامة له كذلك ، وتعريفــه «النائب بأَذَنَةَ المحروسةِ» .

السادس — نائب الأَبُلُسْتَيْنِ . ورسمُ المكاتبة إليه والعلامة الشريفةُ له كذلك ، وتعريفه « النائب بالأَبُلُسْتَيْنِ المحروسةِ » .

السابــع — نائب بَهَسْنَىٰ . ورسم المكاتبة إليه « صــدَرَتْ هــذه المكاتبة إلى المجلس السامِى » والعلامة له « والده » وتعريفه « النائب ببَهَسْنَىٰ المحروسةِ » .

قال فى "التثقيف" : ولم يُعَلَّمْ لأحد من أرباب السيوف قديمًا « والدُه » مع «السامىّ» بالياء غيره .

---

(١) أى «المجلس العالى» و «والده» مثل الذى قبله .

(٢) صوابه بهذا الضبط قال فى المعجم « والعامة تقوله بتشديد الياء وكسر الطاء » . وقال فى القاموس « وتشديده لحن » .

الثامن — نائب آيَاس (١) . وهو المعبَّر عنه بنائب الفتوحات الجاهَانِيَّة . قال فى "التثقيف" : إن كان مقدّما فالمكاتبةُ إليه بنسبة مكاتبة نائب البِيرةِ ، فيكون رسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» والعلامة «والدُه» . وإن كان طبلخاناه فيكون «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامِى » والعلامة الاسم ، وتعريفه بكل حال « النائب بآيَاس (١) » أو « النائب بالفُتُوحات الجاهانِيَّة المحروسة » .

التاسع — نائب جَعْبَر . ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" « هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى » والعلامة الاسم ، وتعريفُه « النائب بقلعة جَعْبَر المحروسة » .

العاشر — نائب عَيْنتاب . ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما فى "التثقيف" « يعلَمُ مجلسُ الأمير» والعلامةُ الاسم ، وتعريفُه «النائب بعَيْنتاب المحروسة» .

قال فى "التثقيف" : ورأيت بخطِّ القاضى ناصرِ الدين بن النَّشائى أن مكاتبته الاسمُ و «السامى» بغير ياء . ثم قال : وما تقدّم هو ما استقرّ عليه الحالُ آخرا . قال : وقد يكون ذلك لأنه كان بها أميرُ طبلخاناه ، وتعريفه « النائب بعَيْنتابَ» .

الحادى عشر — نائب دَرَنْدَةَ . قال فى "التثقيف" : إن كان طَبْلَخاناه فـ«السامِى» بغير ياء ، وإن كان عشرةً فـ«مجْلِس الأمير» والعلامةُ الاسمُ بكل حالٍ ، وتعريفه «النائب بدَرَنْدَةَ» .

الثانى عَشَر — نائب القُصَيْر . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «يعلَمُ مجلِسُ الأمير» والعلامة الاسمُ ، وتعريفه «النائب بالقُصَيْر» .

---

(١) تقدم للؤلف فى ص ١٣٣ ج ٤ أن قال بفتح الهمزة الممدودة . وقال صاحب القاموس « كسحاب » .

الثـالث عشر — نائب الرَّاوَنْدان . ورسم المكاتبة إليه كمثل نائب القُصَيْر، وتعريفه « النائب بالرَّاوَنْدان » .

الرابع عشر — نائب الرُّهَا . قال فى "التثقيف" : جرتِ العادةُ أن يكون نائبُها طَبْلَخاناه، فتكون مكاتبته « السامى » بغـير ياء، والعلامة الاسم . ثم قال : وقد آسـتقرّ فى الأيام المنصوريّة فى سنة ثمـان وسبعين وسبعمائة مقـدَّمَ ألف، فقد يكتب إليـه نظير نائب البِيرة وقلعـةِ المسلمين، يعنى فتكون مكاتبته «صـدرَتْ» و « العالى » . والعلامة « والدُه » وتعريفه بكل حال « النائب بالرُّهَا » .

الخامس عشر — نائب شَيْزَر . قد ذكر فى "التثقيف" أن مكاتبته «هذه المكاتبة إلى المجلس الســامِى » فتكون العلامة الاسم، وتعريفه « النائب بشَيْزَر » .

السادس عشر — نائب كَرْكَر . ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى " التثقيف " « يعلم مجلِسُ الأمير» فتكون العلامة الاسم، وتعريفُه « النائب بكَرْكَر» .

الســابع عشر — نائب الـكَخْتا . ورسم المكاتبة إليه كذلك، وتعريفه « النائب بالـكَخْتَا » .

الثـامن عشر — نائب بَغْرَاس . ورسم المكاتبة إليه كذلك، وتعريفه « النائب ببَغْرَاس » .

التـاسع عشر — نائب الشُّغْر وبَكَاس . ورسم المكاتبة إليـه كذلك، وتعريفه « النائب بالشُّغْر وبَكَاس » .

العشرون — نائب الدَّرْبَسَاك . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب بالدَّرْبَساك » .

الحادى والعشرون — نائب إسفَنْدَكار . ذكر فى "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه كذلك . ثم قال فى "التثقيف" لكنِّى رأيتُ بخط القاضى ناصرِالدين بن النَّشائى أن مكاتبته الاسم و«السامى» بغير ياء، يعنى «هـذه المكاتبة إلى المجاس السامِى» . قال : وما يبعُدُ أنه كان إذ ذاك طبلخاناه . والمستقِر عليه الحال ما تقدّم .

قلت : وقد ذكر فى "التثقيف" ستَّ قِلَاع آستجدّتْ مكاتبةُ نُوّابها بعد ذلك ، ولم يذكر رسم المكاتبة إليهم : وهم نائب حَجَر شُغْلان ، ونائب كُومْى ، ونائب قلعة كَوْلاك ، ونائب قلعة بَارِى كَرُوكَ ، آستجدّت مكاتبته فى سنة ستين وسبعمائة، ونائب قلعة كاوَرَّا ، آستجدّت مكاتبتُه فى سنة تسع وستين وسبعمائة ، ونائب كِرْزَالَ ، آستجدّت مكاتبتُه فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة . ولم يذكر رسم المكاتبة إليهم . والذى يظْهَر أن رسم المكاتبة إلى كل منهم «يعلَمُ مجلسُ الأمير» والعلامة الاسم، والتعريف «النائب بفُلانةَ» . وحينئذ فيكون المكاتَبُون من نوّاب أعمال حلب سبعةً وعشرين نائبا .

النيابة الثالثة

(نيابة طرابُلُس)

والمكاتَبُون بها عن الأبواب السلطانية أيضا على ضربين :

الضرب الأوّل

(من بمدينة طرابُلُس ، وهم آثنان)

الأوّل — نائبُ السلطنةِ بها، ورسمُ المكاتبة إليه : «ضاعف اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى» على الرسم المتقدّم . والعلامة «والده» وتعريفه «نائب السلطنة الشريفة بطرابُلُس المحروسة» .

الثانى — الحاجب بطَرَابُلُس . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ » و« العالى » . والعلامة «والدُه» وتعريفـه «امير حاجب بطرابُلُس المحروسة» . وليس بطرابُلُسَ قلعة فيكتب إلى نائبها .

الضـــرب الثـانى

(مَنْ بأعمـال طرابُلُس من النوّاب، وهم صنفان)

الصـــنف الأوّل

(نُوّاب قِلاع نَفْس طرابُلُس، وهم سبعة نُوّاب)

الأوّل — نائب اللَّاذِقيَّة . ورسم المكاتبة إليه « السامى » بغير ياء . والعلامة الآسم ، وتعريفه « النائب باللَّاذِقيَّة » .

الثـانى — نائبُ صَهْيُون . ورسم المكاتبة إليه « يعلم مجلس الأمير » . والعلامة الآسمُ ، وتعريفه « النائب بصَهْيُونَ » .

الثـالث — نائب حِصْن الأكْرادِ . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب بحِصْن الأكْرادِ » .

الرابـع — نائب بَلَاطُنُسَ . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب ببَلَاطُنُس » .

الخامس — نائب المَرْقَب . ورسم المكاتبة إليه كذلك .

السادس — نائب حِصْـنِ عَكَّار . ورسم المكاتبة إليـه كذلك ، وتعريفـه « النائب بحصن عكَّار » .

الصّـــنف الثانى

(نُوَّاب قلاع الدَّعْوة المضافة إلىٰ طرابُلُس)

وهى : قِلاعُ الإسماعيلية الذين يُسَمُّون أنفسهم بأصحاب الدعوة الهادِيَة . وكانت سبعَ قلاع فأضيفَتْ مِصْياف منها إلىٰ دِمَشْقَ علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ؛ وبقى من مُضافات طرابُلُس ستُّ قلاع ، وهى الكَهْف ، والمَيْنَقةُ ، والعُلَّيقة ، والقَدْمُوس ، والخَوَابى ، والرُّصافة . ومكاتبة كلٍّ منهم «يعلم مجلسُ الأمير» والعلامة الاسمُ . وتعريف كلٍّ منهم «النائبُ بفلانة» .

النيابة الرابعة

(نيابة حَماةَ)

والمكاتَبُون بها ضربٌ واحد بمدينة حماةَ خاصَّةً ، وهما آثنان :

الأوّل — نائبُ السلطنة بها . وقد تقدّم فى أوائل هذا الطَّرَف أنها كانت بيد بَقايَا بنى أيُّوبَ ، يطلَقُ عليهم فيها لفظ السلطنة ، يتولَّوْنها من ملوك مصرَ إلى أن كان آخِرَهم الأفضلُ محمد بن المؤيَّد عمادِ الدين إسماعيل فى الدولة الناصرية محمد آبن قلاوون، ثم صارت نيابةً بعد ذلك يتداولها النوّاب نائباً بعد نائبٍ . ورسم المكاتبة إلىٰ نائبها « ضاعف الله تعالى نعمةَ الجناب العالى» والعلامة « والده » وتعريفه « نائب السلطنة الشريفةِ بحماةَ المحروسة » .

الثانى — الحاجب بها . ورسم المكاتبة إليه « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى » . والعلامة الاسمُ ، وتعريفه « الحاجب بحماةَ المحروسة » .

قال فى "التثقيف" : ولم يكن بهـا قلعـةٌ فيُكْتَب إلىٰ نائبها . قلت : وليس بأعمالها نوابٌ فيكتب إليهم إنمـا بها وُلاةٌ يكاتَبُون عن نُوّابها .

النيـابة الخامســـــة

(نيابة صَــفَدَ)

والمكاتبون بها ضَرْبٌ واحد أيضا، وهم مَنْ بالمدينة خاصّةً وهم ثلاثة :

الأوّل — نائبُ السلطنةِ بها . ورسمُ المكاتبة إليـه «ضـاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى » . والعلامة «والدُه» . وتعريفه «نائب السلطنةِ الشريفةِ بصَــفَدَ المحروســـةِ » .

الثـانى — الحاجبُ بها . ورسم المكاتبة إليــه « صــدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى» . والعلامةُ الاسمُ . وتعريفُه «الحاجب بصَفَدَ المحروسةِ» .

الثالث — نائبُ القلعةِ بها . ورسم المكاتبـة إليه « هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى » . والعلامةُ الاسم . وتعريفه «نائب القلعة المنصورةِ بصفَدَ المحروسة» .

قلت : ولم يكن بأعمالهـا نُوّاب فيكاتَبُونــ عن الأبواب السلطانية، بل بهـا وُلاةٌ يكاتَبُون عن نائبها خاصّةً كما تقدّم فى حَمَاةَ .

النيابة السادسة
(نيابة غَزَّةَ)

والمكاتَبُون بها أيضا ضربٌ واحدٌ، وهم مَنْ بالمدينة خاصَّةً ، وهما آثنان :

الأوّل — النائبُ بها . وقد تقدّم فى الكلام على المَسَالك والممالك أنه إن آجتمع له البلادُ الساحليَّة والجبليَّة ، عُبِّر عنه بنائب السلطنةِ ؛ وإن قُصِرَ أمرُه على البلاد الساحلية فقط ، عُبِّر عنه بمقَدَّم العسكر وكان تحتَ أمرِ نائب دِمَشْقَ . وبكل حال فإنّ رسم المكاتبة إليه « أدام الله تعالى نعمةَ الجناب العالى» والعلامة «والدُه» . ثم إن أضيف له الجهتان قيل فى تعريفه « مقدّم العسكر المنصور بغزَّةَ » .

الثانى — الحاجب بها . ورسم المكاتبة إليه «يعلم مجلسُ الأمير» . والعلامة الآسم ، وتعريفه «الحاجبُ بغزَّة المحروسة» .

قلت : وليس بعَمَلها نُوّاب ، بل وُلاةٌ يكاتَبُون عن نائبها أو مقدّمِ العسكر بها . إلا أنه قد آستُحْدِث فى أواخر الدولة الظاهرية « برقوق » مكاتبةُ كاشف الرَّمْلة ، وآستقرّت مكاتبته « صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى» . والعلامة الآسم ، وتعريفه «الكاشف بالرَّمْلة» .

النيابة السابعة
(نيابة الكَرَك)

والمكاتَبُون بها مَنْ بالمدينة خاصَّةً، وهما آثنان:

الأوّل — نائبُ السلطنة بها . ورسم المكاتبة إليه «أدامَ الله تعالى نعمةَ المجلس العالى» . والعلامةُ والده» ، وتعريفه «نائبُ السلطنة الشريفة بالكَرَك» .

الثانى — والِى القلعــةِ بها . ورسمُ المكاتبــة إليه « هــذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى » . والعلامة الاسمُ ، وتعريفه «والِى القلعةِ المنصورة بالكَرَك المحروس» .

قلت : ولم يكن بها حاجبٌ يكاتَبُ ولا بأعمالهـا نوّاب، بل وُلاةٌ يكاتَبُون عن النائب بها خاصّةً .

النيـابة الثامنــــة
(نيـابة سِيس)

وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممــالك أنها ممـا آستَجَدّ فتحُه فى الدولة الأشرفية « شــعبان بن حسين » . وقد ذكر فى "التثقيف" أن مكاتبةَ النائب بها كانتْ «ضـاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى» كنائب طرابُلُس ومَنْ فى معناه . ثم قال : وقد صَحَّ لى بعد هــذا أنه آستقرّتْ مكاتبتُه نظيرَ غَزَّةَ . وهى « أدام الله تعــالىٰ نعمةَ الجناب العالى » . والعلامة حينئــذ « والدُه » ، وتعريفه « مقــدَّم العســكر المنصور بغزة (١) » وما ذكَره آخرًا هو المستقرّ عليه الحــالُ إلىٰ آخر وقت . قال فى "التثقيف" : ولم أطَّلِـع علىٰ مكاتبة الحاجِبِ بها . ثم قال : وما يبعُدُ أن يكون «مجْلس الأمير» لأنه فيما أظنُّ أميرُ عَشَرة . قال : وإن كان طبلخاناه، فالاسم و«السامى» بغير ياء إن كتب إليه . ولم يكن بها نائبُ قلعة كما ذكره فى الكلام علىٰ نُوّاب القِلاع .

قلت : وهنا أمران أشار إليهما فى "التثقيف" ينبغى التَّنَبُّــه لها .

---

(١) لعلها بسيس لأن الكلام فيها .

أحدهما — أن القاعدةَ فيمَنْ عدا أكابِرَ النوّاب : كنُوّاب القِلاع والحجاب ونحوهم أنَّ المكتوبَ إليه إن كان مقدّما فـ« والده » و « صدرت » و « العالى » . وإن كان طبلخاناه فالاسم و « السامى » بغير ياء . وإن كان عشرةً ، فالاسم و « مجلس الأمير » . وحينئذ فلا يتوقف مع المكاتبات السابقة ، بل يُنْظَر مَنْ هو مستقِرّ فى ذلك الوقت ويكتَبُ إليه بما تقتضيه رتبَتُه ، فإنه تارةً تكون عادةُ تلك النيابة طبلخاناه ثم تستقرّ عشرةً وبالعكس ، وتارة تكون طبلْخاناه يستقِرُّ فيها مقدّمُ ألف وبالعكس . والعبرة فى ذلك بحال مَنْ هو مستقرٌّ حالَ الكتابة ، خلا ما هو مستقِرّ من قديم الزمان لا يتغيَّر مثل مكاتبة نائب بَهَسْنَىٰ ونحوه .

وثانيهما — أنَّ نائب السلطنة بدِمَشْق ، ونائب السلطنة بحَلَبَ ، ونائب السلطنة بطرابُلُس ، ونائب السلطنة بحَمَاةَ ، ونائب السلطنة بصَفَد ، ونائب السلطنة أو مقدّم العسكر بغَزَّة ، ونائب السلطنة بالكَرَك ، ونائب السلطنة بالقُدُس الشريف يكتب إليهم فى جليلِ كلّ أمر وحقيره من المهمات السلطانية وخَلاص الحقوق وغيرها .

أما من عداهم من نُوّاب القلاع والنُّوّاب الصغار الذين بأعمال هذه الممالك والحُجّاب ، فإنه لا يكتب إليهم إلا فى المهمّات والأمور السلطانية : إما فى مثالٍ شريف مفردٍ لأحدهم ، أو فى مطْلَق شريفٍ عامّ لجميعهم أو لبعضهم ، وكذلك فى البُشْرىٰ بوفاء النيل ، فإنه يكتب إلىٰ كلّ واحد منهم مثالٌ بمفرده ، خلا الحُجّاب فإنه لا يكتب إليهم بذلك .

النـــــــوع الثـانى

(ممّن يكاتَبُ بالممـالك الشاميّة أربابُ الأقلام، وهم صنفان)

الصـــــنفُ الأوّل

(أربابُ الوظائف الدّيوانيـــة)

والذى يكاتَبُ منهم بالبلاد الشامية الوزيرُ بدِمَشْقَ ، أو ناظرُ النُّظّار القائمُ مَقامه ، حيث لم يُصَرّح له بالوِزارة .

أما الوزير بدِمَشْــق ، فقد ذكر فى "التعريف" أنه كُتِب للصاحب عِزّ الدين أبى يعلىٰ حمزةَ بن القلاقسىّ (١) « الجَنَـاب » لجلالة قدره ، وسابقة خِدَمه ، وعنـايةِ مَنْ كَتَب إليه بذلك ، وأن الذى آستقرّ عليه الحال للوزير بالشام « المجلس العالى » بالدعاء . كما كُتِبَ للصاحب « امين (٢) الدين » أمينِ الملك فى وزارته فى الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » «ضـاعف اللهُ تعالىٰ نعمة المجلس العالى، القاضى، الوزيرىّ، الأجلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، الأوحدىّ، القَوَامىّ، النظامىّ ، المدَبِّرىّ ، المـاجدىّ ، الأَثِيرىّ، المشِيرىّ، الفلانىّ ؛ صلاح الإسلام والمسلمين، سيِّد الوزراء فى العالمين، رئيس الأمراء، كبير الرؤساء، بقيّة الأصحاب، مَلاذِ الكُتّاب ، عِمَـاد المُلْك ، خالصة الدوله ، مُشِير الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين» . والدعاء، ثم « صدرَتْ » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه « مدبِّر الممـالك الشريفةِ بالشام المحروس » .

قال : ولم يكتب لأحد بذلك بعدَهُ ولا قَبْلَه . ثم قال: وآستقرّ فى الدولة الناصرية حَسَنٍ، الصاحبُ فخرُ الدين بن قروينـــة وزيرًا بالشام أيضا علىٰ قاعدة جَدّه لأُمِّه، أمين الدين المذكور. ولم أعلم ما كُوتِب به : هل كما كُتِب لجدّه المذكور أودُونَه؟ .

(١) فى "التعريف" القلانسىّ . (٢) ساقط من "التعريف" ولعله من الناسخ .

وأما ناظر النظار، فقد ذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة إليه «حرس الله تعالى مَجْدَ المجلس العالى ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الكاملىّ ، الأوحدىّ ، الرئيسىّ ، الأثيرىّ ، القوامىّ ، النظامىّ ، المنفذىّ ، المتصرفىّ ، العلّامىّ ؛ مجد الإسلام والمسلمين ، سيد الرؤساء فى العالمين ، أوحد الفضلاء ، جلال الكبراء ، حجة الكتاب ، صفوة الملوك والسلاطين ، خالصة أمير المؤمنين» . والدعاء ثم «صدرتْ» . والعلامة الاسم ، وتعريفه «ناظر النظار بالشام المحروس» .

قال فى "التثقيف" : وهذا هو الذى استقر عليه الحال إلى آخر وقت .

الصـــــنف الثـانى
(القضاةُ والعلمـاءُ)

قد ذكر فى "التعريف" : أن المكاتبة لقاضى القُضاة الشافعىّ بالشام بـ«المجلس العالى» ولم يذكر صورتها . قال فى "التثقيف" : والذى كوتب به الشيخ تقىّ الدين السُّبْكىّ رحمه الله ، وهو قاضى القُضاة بالشام : «أعزّ الله تعالى أحكام المجلس العالى ، القاضوىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأفضلىّ ، الأكملىّ ، الأوحدىّ ، البليغىّ ، الفريدىّ ، المفيدىّ ، التجيدىّ ، القُدْوىّ ، الحُجّىّ ، المحققىّ ، الإمامىّ ، الأصيلىّ ، الموفّقىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ؛ جمال الإسلام والمسلمين ، شرف العلماء العاملين ، أوحد الفضلاء المفيدين ، قُدوة البلغاء ، حجّة الأمة ، عُمْدة المحدّثين ، فخر المدرّسين ، مُفتى المسلمين ، جلال الحُكّام ، حَكَم الملوك والسلاطين ، ولىّ أمير المؤمنين » . والدعاء ثم «صدرَتْ هذه المكاتبةُ» . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «قاضى القضاة بالشام المحروس» .

ثم ذكر فيما بعدُ أنه كان يُكْتَب فى نُعُوته : «صدْرُ الشام، معِزُّالسنة، مؤيِّد المِلَّة» قال فى "التثقيف" وكانت مكاتبتُـه « شمسُ الشريعة ، رئيسُ الأصحاب، لسانُ المتكلمين » ، ولم يعيِّن مكانَها . قال : وكُتِب بذلك إلىٰ ولده قاضى القُضاة تاج الدين السبكىّ ، وهو قاضى القضاة بالشام غيْرَ مرَّة . ثم زيد فى ألقابِ أخيه الشيخ بهاء الدين عند آستقراره فى القضاء بالشام مكانَهُ بعد القاضوىّ « الشَّيْخىّ» وبعد المحقِّقىّ « الوَرِعىّ ، الخاشِعىّ ، الناسِكىّ ، الإمامىّ ، العَلَّامىّ ، الأَصِيلىّ ، العَرِيقىّ » . وزِيدفى تعريفه بعد جَلَال الحكام « بَرَكَةُ الدولة » .

النـــــوع الثـالث
(ممن يكاتَب بالبلاد الشاميــة العُرْبان)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ أنساب العَرَب فى المقالة الأولىٰ، فيما يحتاجُ إليه الكاتبُ أنَّ عرب الشام عِدّةُ بطون من عِدّة قبائل . وقد قال فى "التعريف" : إنهم جُلُّ القوم وعينُ الناس، لاعِنايةَ للملوك إلا بهم، ولا مُبالاةُ بغيرهم .

ونحن نذكر هنا ما يتعلّق بالمكاتبات إلىٰ أُمَرائِهم ومشايخِهم خاصَّةً .

البطن الأوّل
(آلُ فَضْـــل من آل رَبِيعــةَ)

وقد تقدّم أنهم من طَيِّئ ، من كَهْلانَ ، من العاربة . قال فى " التعريف " : وآلُ فضْل منهم هُمُ الذين فى نَحْر العدُوّ، ولهم العَديدُ الأكثر، والمالُ الأوْفَر . قال : وقد صاروا الآنَ أهـلَ بيتين : بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ ، وبيت فَضْل بن عِيسىٰ .

قال : وهم فى جِوَار الفُرَات . ولذلك يُضاعَف إكرامُهـم ، وتُوَفَّر لهم الإقطاعاتُ وتُسْنىٰ . والإمرةُ الآنَ منهـم فى بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ . وهو المعبَّر عنـه بأمير آل فضل . وقد ذكر فى " التثقيف " أنه كان فى زمانه قارا بن مهنا ، ثم كان فى الدولة الظاهرية « برقوق » محمد نعير بن حيار بن مُهنَّا بن [عيسى بن مُهَنَّا[(1)] بن ماتِـع بن حَدِيثة آبن عُقْبة بن فَضْل بن رَبِيعة] ، ثم آسـتقر بعده فى الدولة الناصرية « فرج » آبنه العجل ، وهو المستقر إلىٰ الآنَ .

قال فى " التعريف " : ورسمُ المكاتبـةِ إلىٰ الأمير منهم « أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرِىّ » بألقابٍ جليـلةٍ معظَّمة مفخَّمة . وذكر فى " التثقيف " أنّ رسم المكاتبة إليـه « أدامَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ ، الكَبِيرىّ ، العالِمِى ، المجاهِدىّ ، المؤيِّدىّ ، الأوحدى ، النصيرىّ ، العَوْنىّ ، الهُمَامىّ ، المقدَّمىّ ، الظهيرىّ ، الأصيلىّ ، الفلانىّ ، عزّ الإسـلام والمسلمين ، شرف أُمَراء العُرْبان فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين ، مقدّم العساكر ، كَهْف المِلَّة ، ذُخْر الدولة ، عمـاد العَرَب ، ظهيرِ الملوك والسـلاطين ، حُسامِ أمير المؤمنيـن » . ثم الدعاء و « صدرَتْ هذه المكاتبةُ » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه « فُلَان بن فلان » .

قال فى " التعريف " أما من هو نظيرُه أو مُدانِيه وعَدَتْه الإمرةُ ، فرسمُ المكاتبة إليه : « صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى » ومَن دونه « السامىّ الأميرىّ » . قال : ولكلِّ هؤلاء العلامةُ الشريفة « أخوه » ولمَنْ دون هؤلاء « السامى الأمير » والعلامة الشريفة الآسمُ الشريف .

وقد ذكر فى " التثقيف " أسمـاءَ جماعةٍ من أكابر بيت مُهَنَّا بن عيسىٰ ، وبيت فَضْل بن عيسىٰ وذكر لكل منهم رسمَ مكاتبة .

---

(1) بياض بالأصل . والتصحيح مما تقدم للؤلف فى ج ٤ من هذا المطبوع ص ٢٠٨ .

فأما بيت مهنا المذكور، فهم خمسة :

الأوّل منهم — عَسَّافُ بن مُهَنَّا . ورسم المكاتبة إليه : «هـذه المكاتبةُ إلى المجلس السامِي، الأميرِ، الأجلِّ، الكبيرِ، الغـازى، المجـاهِد، المؤيّد، الأوحد، الأصيل، فلان الدين، مجدِ الإسلام، بهاءِ الأنام، فخْر القبائل، زَيْن العشائر، عماد الملوك والسلاطين» والدعاء ثم «صدرَتْ» والعلامة «والده» وتعريفه آسمه .

الثـانى — عَنْقَاء بنُ مهَنَّا أخو عَسَّاف . مثله فى المكاتبة على السواء .

الثالث — زامِلُ بن مُوسىٰ بن مُهَنَّا ، « صـدرتْ » و«السامى» . والعـلامة «والده» وتعريفه آسمهُ .

الرابع — محمد بن حيار بن مهنا : وهو نُعَيْر، مثل عَمَّيه: عَسَّاف وعَنْقاء .

الخامس — علىُّ بنُ سليمان بن مُهَنَّا . ذكر أنه كان يكاتَبُ بـ«السامىّ» بالياء . والعلامة الآسم . وذكر أنَّ أخاه عَوَّادا لم يُعْلَمْ أنه كُوتِب عن الأبواب السلطانية .

وأمَّا بيتُ فضل، فذكر منهم مُعَيْقِل بن فَضْـل ، وقال : إن رسمَ المكاتبة إليه « السامىّ» بالياء . والعلامة « والدُه » . ثم قال : ولم يكاتَب الآنَ من بَنى فَضْـل غيره، فإن أخويه : سَيْفًا وأبا بكر كانا يُكاتبانِ عن الأبواب الشريفة ، ثم تُوُفِّيَا إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، ولم يَبْقَ من أكابر بنى فضـل غيْرُه هو وأولاد أخَوَيْه ، لكنهم لم يكاتَبُوا بشىء . فإن آتفق أن يكاتب أحدٌ من أولاد أخويه المذكورَيْنِ أو من أولاد مُهَنَّا ، مثل أولاد فَيَّاض ، وبقيـة أولاد حيار ورُمَيْثة بن عُمَر بن موسىٰ ونحوهم ، فأعلاهم الآسم و«السامى» بغير ياء، وأدناهم الآسم و«مجلسُ الأميرِ» .

البطن الثانى
(آلُ مِرا)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ أنساب العرب فيما يحتاج إليه الكاتب، فى المقالة الأُولىٰ، أنَّ مِرًا وفضلًا أخوان . قال فى "التعريف" : ومنازلهم بلاد حَوْران . وقد ذكر فى " التثقيف " أن الإمرةَ فى زمانه كانت مقسومةً نصفين بين عَنْقاء بن شَطىٰ آبن عمْرو بن نُونة ، وعَمِّه فضل بن عمرو بن نونة . ثم قال : ومكاتبةُ كلٍّ منهما «صدرتْ» و«السامى» . والعلامة «والدُه» وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الثالث
(آلُ علىٍّ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الأنساب أنهم من آلِ فضل . قال فى "التعريف" : وإنما نَزَلُوا غُوطةَ دمشقَ حيثُ صارت الإمرةُ إلىٰ عيسىٰ بن مُهَنًّا ، وبقى عيسىٰ جارَ الفُرات فى تَلَابِيب التَّتَار . قال فى " التعريف " : ورسم المكاتبة إلىٰ أميرهم « صدرتْ هذه المكاتَبةُ إلىٰ المجلس السامىّ الأميرىّ » . والعلامةُ الشريفة « أخُوه » . وقد ذكر فى " التثقيف " أن أميرهم فى زمانه كان عيسىٰ بنَ رَمْلَةَ بن جَمَّاز . وقال : إن رسم المكاتبة إليه كما ذكر فى " التعريف " وهى : «صدرَتْ» و«السامى» لكنه ذكر أن العلامة «والده» . وتعريفه «فلان بن فلان» .

البطن الرابـــع
(بنو مَهْـــدِىٍّ)

وقد تقـدّمَ فى الكلام علىٰ الأنساب أنَّ منازلهم البَلْقاءُ من مُضافات دِمَشْــقَ . قال فى "التعريف" : والإمرةُ فيهم فى أربعة، رسمُ المكاتبةِ إلىٰ كلٍّ منهم «مجلس الأمير» . وذكر فى "التثقيف" أنها كانت فى زمانه باسم بدرو بن ذؤيب(١) بن سعيد آبن محفُوظ العقيسى، وسعيد بن نجـرى(٢) بن حسن العقيسى، وزامِل بن عُبَيــد بن محفوظ العقيسى، ومحمد بن عَبَّاس بن قاسم بن محمد بن راشد العسرى . وأن مكاتبة كل منهـم « مجلس الأمير » كما تقدّم فى "التعريف" . ثم قال : ومَنْ كان معه نصفُ الإمرة منهم، كانتْ مكاتبتُه الأسم و «السامى» بغير ياء، وتعريفُ كلٍّ منهم «فلان بن فلان» .

البطن الخامس
(بنو عُقْبَـــةَ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ الأنساب أن مَرْجِعَهم إلىٰ جُذَام، وأنَّ منازلهم الكَرَك والشَّوْبك . قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إلىٰ أميرهم مثلُ أميرِ آلِ مِرَا . وكذلك رسم المكاتبة إلىٰ أقاربه كرَسْم المكاتبة إلىٰ أقارب أميرآلِ مِرَا أيضا، فتكونُ مكاتبة أميرهم «صدرتْ » و «السامى» . ومكاتبة أعيان أقارِبِه « السامى الأمير » ولمَنْ دُونَهم «مجلس الأمير» . وقد ذكر فى "التثقيف" أن إمرتهم فى زمانه كانت باسم خاطر بن أحمد بن شَطِىٰ بن عبيد . وذكر أن رسم المكاتبة إليــه الأسم و «السامىّ» بالياء، وتعريفه «فلان بن فلان» ولم يتعرّض لأقربائه .

---

(١) فى ج ٤ ص ٢١٣ من هذا المطبوع «آبن ذئب بن محفوظ العنبسى» و يظهر أنها هى الصواب .

(٢) الذى تقدّم هناك «بحرى» بالباء والحاء .

البطن السادس
(جَــرْم)

وقد تقــدّمَ فى الأنساب أن مَرْجِعَهم إلىٰ طَيِّئ ، وأن منازلهم ببلاد غَزَّةَ .
وقد ذكر فى "التعريف" أن إمْرتَهُم فى زمانه كانت بٱسم فَضْل بن حجىّ(١) . وذكر أن رسم المكاتبة إليه « مجلس الأمير» . والذى ذكره فى "التثقيف" أنّ لهم مُقدَّما لا أميرًا ، وأنه كان فى زمانه علىّ بن فضــل . وذكر أن رسم المكاتبة إليــه الاسم و « السامِى » بغير ياء . وهــذا عَجَبٌ فإنه إذا كان أميرا ورسمُ المكاتبة اليه « مجلس الأمير» فكيف يكون رسمُ المكاتبة إليه « السامِىَ » بغير ياء وهو مقــدّم ، والإمارة فوقَ التَّقْدمة بلا ريب .

قال فى"التعريف" : وأما بقيَّة عربِ الشام، نحو زُبَيْد المَرْج ،وزُبَيْد حَوْرانَ، وخالِدُ حِمْص،والمَشَارقة، وغَزِيَّة إذا أطاعوا ، وزُبَيْــد الأحلاف، فأجلُّ كبرائهم وأشياخهم من يُكْتَب له «مجلس الأمير» . وذكر فى "التثقيف" نحوه، ثم قال : هذا إن ٱنْفرد أحد منهم بالمكاتَبة، وإلا فالعادة أن يُكْتَب لكلِّ طائفــة من هؤلاء مطْلَقٌ شريف . ثم قال : علىٰ أنه لم تجر العادةُ بمكاتبــةِ أحدٍ من هؤلاء القبائل ، لاعلىٰ الآنفراد ولا علىٰ الآجتماع . وهــذا كلام متناقض؛ حيث يقول : إنَّ العادة أن يُكْتَب لكل طائفةٍ منهم مطْلَقٌ شريف ، ثم يقول : إن العادة لم تَجْرِ بمكاتبــة أحدٍ منهم لاعلىٰ الآنفراد ولا علىٰ الاجتماع .

قلت : وقد تقــدّم الكلام علىٰ أنساب(٢) جميع هــذه البُطُون وأما كِنها مستوفًى فى الكلام علىٰ الأنســاب فى المقالة الأولىٰ . ووقع بَسْطُ الكلام علىٰ ذلك وغــيره فى كتابنا المسمّى "نهاية الأرَب فى معرفة قبائل العرب" .

(١) الذى فى التعريف "حمى" ولكنها وردت فى نسختنا فى مواضع كثيرة "حجى" كما هنا . انظرج ٤ ص ٢١١ ، وكذلك وردت فى الضوء للمؤلف أنظر ص ٣٢١ .
(٢) تقدم فى ج ٤ من هذا المطبوع .

النـــوع الثـالث

(ممن يكاتَبُ بالممـالك الشاميّة، التُّرْكُمان)

قد تقـدّم ذكرُ نَسَبِ التُّرْكُمان فى الكلام علىٰ أنساب الأُمَم فى المقـالة الأولىٰ . وقد ذكر فى "التثقيف" أن التُّرْكُمان بهذه المملكة طوائفُ كثيرةٌ، وجماعة كبيرة . ثم قال : وغالبُهم لا يكتَبُ إليه إلا إذا ضمّهم مطلَقٌ شريف . فإن كتب إلىٰ أحد من أعيانهم، كتب إليـه الاسم و«السامى» بغير ياء إن كان طبلخاناه؛ وإن كان عشرةً أو عشرين ، كتب إليـه الاسمُ و«مجلس الأمير» لا غيرُ، ثم أخلىٰ بياضا متّسِـعا ولم يصرّح باسم أحد منهــم . ثم ذكر فى الكلام علىٰ تُرْكُمانـ البلاد الشرقية عِدّةَ طوائف ، عدّ منهم الأوسرية ، وقال : هم تُرْكُمان حَلَبَ، والورسق . وقال : وهم تُرْكُمان طَرَسُوس ، ولم يتعرّض لمواضِع غيرهم . وسيأتى كلامُه مستوفًى عند الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشرقية إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الرابع

(ممن يكاتَبُ بالممـالك الشامية الأكرادُ)

وقد تقـدّم ذكر نَسَبهم فى الكلام علىٰ أنساب الأمم فى المقالة الأولىٰ . وقد ذكر فى "التثقيف" أن بهذه المملكة منهم طوائفَ كثيرةً كالتُّرْكُمان، وأنّ غالبهم لا يكتب إليه إلا إذا ضمّهم مطلقٌ شريف، وأنه إن كُتِب لأحد من أعيانهم، كُتِب له الاسم و«السامى» بغير ياء ، إن كان طبلخاناه . وإن كان أميرَ عشرةٍ أو عشرين ، كتب إليه الاسم و«مجلس الأمير» كما تقدّم فى التُّرْكُمان من غير فرق .

القســـم الثـالث

(من يكاتَبُ بالبلاد الحجازية ، والمعتبر فى المكاتَبِين منهم ثلاثة)

الأوّل – أمـــير مكّةَ المعظّمة .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك ذكرُ أمرائها من ٱبتداء الإمْرة وهَلُمَّ جَرًّا إلىٰ زماننا ، والقائم بها الآن [حسن بن أحمد](١) بن عَجْلان .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التعريف" : « أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، العَضُدىّ ، النَّصيرىّ ، الذُّخْرىّ ، الغَوْثىّ ، المفيـدىّ ، الأوحدىّ ، الظَهيرىّ ، الزَّعيمى ، الكافلىّ ، الشريفىّ ، الحِسيبىّ ، النَّسيبىّ ، الأصيلىّ ، الفلانىّ ؛ عزِّ الإســلام والمسلمين ، سيِّدِ الأمراء فى العـالمين ، جلال العِتْرة الطاهره ، كوكَبِ الأُسْرة الزاهره ؛ فرعِ الشـجرة الزَّكيّه ، طِرازِ العِصابةِ العَلَويّه ؛ ظهيرِ الملوك والسـلاطين ، نسيبِ أمير المؤمنين » ثم الدعاء المعطوف . وبعده « صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى بالسلام والثناء وتوضح لعلمه الكريم كذا وكذا » .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التثقيف" : «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الشريفىّ ، الحَسيبىّ ، النَّسيبىّ ، العالمىّ ، المُجاهِدىّ ، المفيدىّ ، الأوحدىّ ، النصيرىّ ، العوْنىّ ، الهُمَامىّ ، المقدّمىّ ، الظَّهيرىّ ، الأصيلىّ ، العَريقىّ ، الفلانىّ ؛ عزِّ الإسلام والمسلمين ، شَرَف الأمراء الأشرافِ فى العالمين ، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين ، كَهْفِ الملّة ، عون الأمه ، فَخْر السُّلالة الزاهره ، زَيْنِ العترة

(١) بياض بالاصل والتصحيح مما تقدم للمؤلف (أنظرج ٤ ص ٢٧٥) عند ذكر أمراء مكة المكرمة .

الطاهره، بَهاءِ العِصابة العلويّه، جمال الطائفة الهاشِمِيَّه، ظهيرِ الملوك والسلاطين، نسيبِ أمير المؤمنين» ثم الدعاء و«صدرَتْ» .

وهـذا دعاء وصـدر يليق به ذَكَره فى "التعريف" : «ولا زال حَرَمُه أمِينا، ومكانُه مَكِينا، وشرفه يُبيِّضُ(١) له بمجاورة الحَجَر الأسودِ عندَ اللهِ وجْها ويُضِىء جبينا . صدرت هـذه المكاتبة إلى المجلس العالى تحمِلُ إليـه سلامًا تَمِيل به الرَّكائب، وثناء تُثْنِى على مِسْكِه الحقائب، وشوقًا أوسق قلْبَـه لمن نُسُـكُه مع الحبـائب، وتوضِّح لعلمه الكريم» .

صدر آخر : ومتَّعه بجوار بيتِـه الكريم، وزاد بجميـل مَسَاعِيه شرفَ نسـبه الصَّميم، وآنَسه بقرب الحجر الأسود والرُّكْن والحَطِيم . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى تُهْدِى إليه سلاما، وثناء تَطِيب به الصَّبا قبل أن تحمِلَ شِيحًا أو خُزَامىٰ، وتوضح لعلمه الكريم .

صدر آخر : وأراه مَنَـاسِكه، وآنس بالتقوىٰ مَسالِكَه، وأشهدَ علىٰ عمـله الصالِح بَطْحاءَه وما يَنْزِله [من] الملائكه . صدرتْ هذه المكاتبة بتحيَّاتها المباركه، وأثْنِيتِها التى لا تزالُ إليه بها أفئدةٌ من الناس سالكه، وتوضِّح لعلمه الكريم .

الثـانى — أميرُ المدينة النبوية علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام .

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ أُمَرائها فى المسالك والممـالك من المقالة الثالثة أنـ إمارتَها مستقِرّة فى بنى الحُسَيْن، وأنها الآنَ فى بنى جَمَّاز بن شِيحة، وأن جَدَّهم كان

(١) فى التعريف "ينير" .

فقيهًا بالعراق، فقدم على السلطان «صلاح الدين يوسف بن أيوب» رحمه الله، فولّاه المدينةَ فاستقرّت فيها قدمُه ثم قَدَمُ بنيه، وأنّ القائم بها الآنَ [1] [ثابت بن جمّاز آبن هبة بن جماز بن منصور بن جماز بن شيحه بن نعير] [1] .

ورسمُ المكاتبة إليه كرسم المكاتبة إلى أمير مكةَ على الآختلاف السابق فى النقل عن "التعريف، والتثقيف". فقد ذكر كلٌّ منهما رسمَ المكاتبة إلى أمير مكة. ثم قال : ورسمُ المكاتبة إلى أمير المدينة كذلك .

وهذا صَدْر مكاتبة يليق به، وهو : ولا زال فى جِوار اللهِ ورسولِه، ومَهْبِطِ الوَحْى ونُزُوله، ومكانٍ يُردَّد فيه من أبويه الطاهرين بين حَيْدره وبَتُوله . صدرتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى بسلامٍ يحْدُو رِكابَها، وثناء يَزِينُ فى قُبَا قِبابَها، وشوقٍ إلى رؤيته فى الروضة التى طالمَا آستسقى فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم سَحابَها، وتوضح لعلمه الكريم كذا وكذا .

صدر آخر : وزاده من الله ورسوله قُرْبا، وأكّد له بحمايةِ حَرَمه حُبًّا، وأبهجه كُلّمَا رأى جَدَّه رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقد جاور آلًا وجالس صَحْبا . صدرَتْ هذه المكاتبة إلى المجلس العالى مطربةً بالسلام، مُطْنبة فى ثنائه المفَصَّل النِّظام، وتوضح لعلمه الكريم .

الثالث — النائب باليَنْبُع .

(١) بياض بالأصل، والتصحيح مما تقدم فى ص (٣٠١ ج ٤) عند الكلام على أمراء المدينة المنورة .

وقد تقــدّم فى الكلام على المسالك والممــالك أنها فى بَنِى حَسَـن أيضا[(١)] . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى الأمير» . والعلامة الآسم، وتعريفه «النائب باليَنْبُع» .

أما سائر العُرْبان بالحِجَاز فقد ذكر فى "التثقيف" أن لبَنِى حســن القُوّام بمكة «مجالس الأمراء» . والعلامة الآسم . ومَنْ عدا بنى حسنٍ فقد ذكر فى "التعريف" أنهم على ضربين :

الضرب الأوّل — أهل الدَّرْبيْنِ: المِصْرىّ والشامىّ . قال : وليس فيهــم مَنْ هو فى عِيرٍ ولا نَفِير، ولا يَحُلّ فى ذِرْوة ولا غارِب ؛ وأجلّ من فيهــم إذا كُتِب له « مجلس الأمير » كان كمن سُوّر وطُوّق، لابل طِيْلِس وتُوِّج .

الضرب الثانى — شُيوخ لام، وخالِد، والمُنَيفق، وعائد الحِجاز . قال : وهؤلاء من كان منهم المشارَ إليه كُتِب إليــه « صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ الأميرىّ» والعلامة «أخوه» . ثم من يليهم بالسامى بغير ياء . ثم الأعيانُ من بقيتهم « مجلس الأمير» .

المَسْـــــلَك الثــانى

(فى معرفة ترتيب المكاتَبات المقدّمة الذكر، وكيفية أوضاعها . وفيه مأْخَذَان)

المأخذ الأوّل — فى ترتيب مُتُون المكاتبات، ولا يكون إلا آبتداءً . أما الجواب فإنه لايتأتّى فيها .

---

(١) أى كإمرة مكة .

ثم هى على ضربين :

الضرب الأول — ما يكتب فى خَلَاص الحُقُوق .

وهو مايكتب فيه لنُوّاب الإسكندرية ، ونائبِ الوجهين : القبلىّ والبَحْرىّ من الديار المصرية ، ووُلَاتِهما ، ونُوّاب الشام ، وحَلَب ، وطرابُلُس ، وحماةَ ، وصفدَ ، والكَرَك ، ومقدَّم العسكر بغزّة ، من الممالك الشامية علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ مكاتبة أهل المملكة .

والرسمُ فى ذلك إذا كانت المكاتبةُ إلىٰ نائب الشام مثلًا ، بسبب قضيَّة تتعلَّق بالأمير الدَّوادار أن يكتب : « أعزَّ الله تعالىٰ المقرَّ الكريم » إلىٰ آخر الألقاب والصدر ؛ ثم يكتب : «وتبدى لعلمه الكريم أن الجنابَ العالى» ويذكر ألقابَه إلىٰ آخرها « ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه عَرّفنا كذا وكذا» . ويذكر مافى قصته برُمَّته . ثم يكتب : « ومرسومُنا للقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُه العالى بكذا كذا » ويأتى بما رُسِم له به إلىٰ آخره ؛ ثم يقول : « فيحيطُ علمُه بذلك » ويكمِّل علىٰ ماتقدّم .

وإن كان المكتوب بسببه أميرَ عشرة مثلا ، كتب بدل « عَرَّفنا» : « ذكر» .

وإن كان من آحاد الناس كتب بدل ذلك : «إن فلانا أنهىٰ» ويكمل علىٰ ماتقدّم .

وهذه نسخة مكاتبةٍ إلىٰ نائب الشام بسبب خَلَاص حقٍّ :

أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم ، العالى ، الأميرىِّ ، الكبيرىِّ ، العالمىِّ ، العادلىِّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنِىّ ، المُثاغِرىّ ، المرابِطىّ ، الممهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الزَّعيمى ، الظَّهيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكِىّ ، الأتابِكىّ ، الكَفيلىّ ، الفلانىّ ؛ معزِّ الإسلام والمسلمين ، سيد أمراء العالمين ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، مَلْجإ الفقراء والمساكين ، أتابِكِ العساكر ، زعيمِ الموحِّدين ، ممهِّد الدول ، مشيِّد الممالك ، عَوْن الأمه ، كَهْف

اللّه ، عماد الدوله ، ظَهير الملوك والسلاطين ، عَضُـد أمير المؤمنين ، ولا زال عاليًا قدْرُه ، نافذا أمْرُه ، جاريًا على الألسنة حمدُه وشُكْرُه .

أصدرناها إلى المقرّ العالى تُهْدِى إليه من السلام أتمّه ، ومن الثناء أعمّه ، وتُبْدِى لعلمه الكريم أنّ الجنابَ العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الغَوْثِى ، الغِياثىّ ، المرابِطىّ ، الممهِّدىّ ، المشيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، الزَّعيمىّ ، المقدَّمى ، الفلانىّ ؛ ظهيرَ الملوك والسلاطين ، سيفَ أمير المؤمنين ؛ فلان رأسَ نَوْبة الظاهرىّ ضاعف الله تعالى نعمتَه عَرَّفنا أنّ له دَعْوى شرعيةً على أقوام بِدِمَشْق المحروسة ، وهم فلان وفلان . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمْرُه العالى بحمْلهم صُحبةَ فلان قاصد المشار إليه ، إلى الأبواب الشريفةِ ، محتفظا بهم ، قولًا واحدًا ، وأمرًا جازما ، ليصل كلُّ ذى حقّ إلى حقه ، فيحيط علمُه بذلك ، والله تعالى يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

آخــر : وتبدى لعلمه الكريم أن المجلسَ السامىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العَضُدىّ ، الذُّخْرىّ ، الأوْحَدىّ ، الفلانىّ ؛ عُمدةَ الملوك والسلاطين : فلان أدام الله سعادته ، ذكر لنا أن الصَّدَقات الشريفةَ شمِلتْه بخَلَاص حقِّه من فلان . وقد وَكَّل فى ذلك المجلس السامىَّ القضائِىَّ الأجَلِّىّ فلان الدين . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العالى بطَلَب الغريم المذكور ، وخَلَاص الحقِّ منه بتَمامه وكماله . وإن آمتنع عن ذلك يُحْمَل للأبواب الشريفة مع الوصِيَّة بوكيله فى ذلك ، فيُحِيط علمُه بذلك .

آخـــر : وتبـدى لعلمه الكريم أن الأمـير ، الأجلّ ، الكبيرَ ، فلان الدين ، فلان الفلانى ، أنهىٰ أنَّ بيده إقطاعًا بالحَلْقَـة الشامية ، وأن الوزيرَ بالشام المحروس فى كلِّ وقت يتعرّضُ إلىٰ إقطاعه ، ويأخذ المُوجَب المقرّر له بغير طَرِيق . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمُره العالى بطلب المباشِرين ، والآرتجاع عليهم بمـا ٱلتَمَسُوه من إقطاعه ، علىٰ مايشهد به الدِّيوان المعمور ، بتَمـامِه وكماله ، ويستقِرّ هـذا المثالُ الشريف بيـده بعد العمل به ، فيُحيط علمُـه الكريم بذلك ، والله تعـالىٰ يؤيِّده بمِّنه وكرمه .

آخـــر : وتبدى لعلمه الكريم أن فلانا الفلانىّ أنهىٰ أنَّ شخصا يسمَّى فلانا تزوّج بأُخْته ، وهو مقيمٌ بالشام المحروس ، وتُوفيت أختُه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، ووضَع الزوج المذكور يده علىٰ جميع مالهَا . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمُره العالى بخَلَاص الحق علىٰ حُكْم الشرع الشريف مع الوَصِيَّة به ، فيُحيط علمُه بذلك .

آخـــر : وتبدى لعلمه الكريم أن قِصَّةً رُفعتْ إلىٰ أبوابنـا الشريفة بٱسم تُجَّار الفَرَنْج ، أنْهَوْا فيها أنهم يَبِيعون ويبتاعُون البضائعَ ، ويقومون بما عليهم من المُوجَب السلطانىّ . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمُره بخَلَاص حُقُوقهم ممن تتعيَّن فى جهته علىٰ حُكْم الحق ، وكَفِّ أسباب الضرر عنهم ، ومنع من يتعرّضُ إليهم بغير حقٍّ ولا مستَنَد شرعىّ ، والوصية بهم ورعايتِهم وملاحظتِهم ، فيحيط علمه بذلك .

الضـــــرب الثـانى
(مايكتب من متعلقات البَرِيد فى الأمور السلطانية، وهى صنفان)

الصنف الأوّل
(ما يُكْتَب به ٱبتـــداءً)

ويختلف الحـال فيه باختلاف مقتضيه : فإن كان مقتضيه بُرُوزَ أمرِ السلطان بفـعل شىء أو تركه أو الحركة فى شىء، كتب : «إنَّ المراسيم الشريفةَ ٱقتضتْ كذا وكذا» . أو «إن مَرَاسيمنا الشريفة ٱقتضت كذا» . أو «إن المرسومَ الشريف ٱقتضى كذا» . أو «إن مرسومَنَا الشريف ٱقتضى كذا» : فإن كان ذلك الأمر ممـا يَحْتاج إلىٰ إدارة الرأْى فيـه ، كُتِب : «إنَّ الرأْىَ الشريف ٱقتضىٰ كذا» . أو «إنَّ آراءنا الشريفةَ ٱقتضت كذا» ، وما يَجْرِي هذا المَجْرىٰ . وإن كان مقتضيه بلوغَ خبرٍ من حركة عدوٍّ أو ٱطِّلاع علىٰ أمرٍ خفىٍّ، كتب : «إنه ٱتَّصل بالمَسَامِع الشريفة كذا وكذا» . أو «إنه ٱتصـل بمَسَامعنا الشريفة كذا وكذا» . وإن كان بسبب طلبِ مالٍ أوجِبَايةِ خَرَاجٍ ونحو ذلك، كتب : «إنَّ لديوان خاصِّنا الشريف فى الجهة الفلانية كذا» . أو «إنَّ لنا فى الجهة الفُلَانية كذا». ونحو ذلك مما ينخرط فى هذا السِّلْك، ثم يكتب : «ومرسُومنا للمَقرّ الكريم، أو للجَنَاب الكريم، أو الجَناب العالى» علىٰ حَسَب المكاتبة «أن يتَقدّم أمره بكذا وكذا» علىٰ ما تَبْرُز به المراسيمُ السلطانية .

وهذه مكاتبات من ذلك إلىٰ نائب الشام، يُنْسَج علىٰ مِنْوالهـا .

مكاتبةٌ ــ باستقرار نائبٍ فى نيابة بعض القلاع : وتبـدى لعلمه الكريم أن المراسيمَ الشريفـة ٱقتضَت ٱستقرارَ الأمير فلان الدين فلان فى النيابة الشريفـة

وجهزنا مرسومه (١) الشريفين علىٰ يد المتوجّه بهذا المثال الشريف الأمير الأجلّ فلان الدين فلان ، أعزه الله تعالىٰ . فيتقدّم المَقرّ الكريم بتجهيزه إلىٰ جهة قصده بما علىٰ يَده من ذلك ، وإذا عاد ، يعيده إلىٰ الأبواب الشريفة مُكْرَما مَرْعِيًّا علىٰ عوائد همّته العلية ، فيُحيط علمُه بذلك .

مكاتبة — بنقل نائبِ سلطنة من نيابةٍ إلىٰ نيابةٍ : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف ٱقتضىٰ نقلَ الجناب الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمِىّ ، العادلىّ ، المؤيِّدىّ ، الغوثىّ ، الغياثِىّ ، المقدَّمىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ؛ ظهير الملوك والسلاطين ، سيفِ أمير المؤمنين ؛ فلان الظاهرىّ ، أعزَّ الله نُصرتَه — من نيابة السلطنة الشريفـةِ بطَرَابُلُس ، إلىٰ نيابةِ السلطنةِ الشريفة بحَلَبَ المحروسـةِ . والجنابِ العالى الأميرىّ الكبيرىّ الفـلانىّ ، ظهيرِ الملوك والسلاطين فلان الظاهِرِىّ من نيابة السلطنة بصَفَدَ المحروسة ، إلىٰ نيابة السلطنة الشريفة بطرَابُلُس المحروسـة . والجنابِ العالى الفلانىّ الظاهرىّ من تَقْـدِمة العسكر المنصور بغَزَّةَ المحروسـة ، إلىٰ نيابة السلطنة الشريفة بصَـفَدَ المحروسة . وكتبنا لهم تقاليدَ شريفةً بذلك ، وجهَّزْنا إليهم تَشاريفَهم وهى واصلةٌ عقيبها علىٰ يد متسَفِّريهم ؛ وجَهَّزنا الأميرَ الأجلَّ الأعز فلان الدين ، مؤتَمَنَ الملوك والسلاطين ؛ فلان الخاصِكِىّ الظاهرىّ أعزه الله تعالىٰ للبشارة للمشار إليهم بذلك : ليأخذوا حظَّهم من هذه البُشْرىٰ ، وتُضاعَف أدعيتُهم بدوام أيامنا الشريفة ، وآثَرْنا إعلامَ المَقرّ الكريم بذلك : ليكون علىٰ خاطره ؛ والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه .

---

(١) بياض بالأصل ولعله "وجهزنا مرسومه وتشريفه الشريفين" الخ .

مكاتبة — بحمل شخص للأبواب السلطانية : وتُبْدى لعلمه الكريم أن مرسومَنا الشريَف ٱقتضىٰ تقدُّمَ المقرّ الكريم حال وُقوفِه عليها، وقبـل وَضْعها من يده بطَلَب فلان الفلانىّ وفلان الفلانىّ ، وتجهيزهمـا إلىٰ الأبوابِ الشريفـة فى أسْرَع وقت وأقربِه ، من غير فَتْرة ولا تَوَانٍ . ونحن نُؤكد عليـه غايةَ التأكيد فى سُرْعة تجهيزهما إلىٰ الأبواب الشريفة صحبةَ الأمير الأجل، فلان الدين فلان، إلىٰ الأبواب الشريفة محتَفَظًا بهما ، محتَرَزا عليهما ؛ ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّم أمُره العالى بٱعتماد ما ٱقتضاه مرسومُنا الشريف، والاهتمامِ بذلك، والاحتفالِ به، فيُحيط علمه بذلك، والله تعالىٰ يؤيده بمنّه وكرمه .

مكاتبة — باستقرار بعض الأمراء بالقُدْس الشريف بَطَّالا : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومنا الشريف ٱقتضىٰ ٱستقرار الأمير فلان أحسن الله تعـالىٰ عاقبته بالقُدْسَ الشريف مُقيمًا بهـا، وشَمِلته الصَّدَقات الشريفةُ أن (١) فلانة وفلانة باسمه ، بمقتضىٰ مرسومٍ شريفٍ مجهَّز صُحبةَ متسَفِّره الأمير الأجلّ الكبير الأوحد، فلان الدين فلان، البَريدىّ بالأبواب الشريفة، أعزّه الله تعالىٰ، المتوجِّه بهذا المثال الشريف . ومرسومُنا للمَقرّ الكريم أن يتقدّم أمُره العالى بإثبات المرسومِ الشريف المـذكور بديوان الجُيُوش المنصورة بالشام المحروس علىٰ العـادة ؛ وتَجْهيز البَريدىِّ المذكورِ إلىٰ حدود الديار المصرية ، مُكْرَما مَرْعيًّا علىٰ العادة ؛ فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

(١) بياض بالأصل ولعله "أن تقطع جهة فلانة" الخ .

مكاتبة — ببيع غلّة للديوان السلطانى : وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءَنا الشريفة ٱقتضت تجهيز كذا وكذا إردبًّا من القمح من دِيواننا المفْرَد صُحبةَ فلان . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بطَلَب فلانٍ الحاجِب بالشام المحروس : ليتولّى بيعَ ذلك بسِعْر الله تعالىٰ بما فيه الغِبْطة والمصلحةُ ؛ وتجهيزَ الثمن إلىٰ الأبواب الشريفة برسالةٍ دالَّة علىٰ ذلك فى أسرعِ وقتٍ وأقربِهِ ، مع مُضاعفة الوصيَّة بذلك والاحتفالِ به ، فيُحيط علمُه بذلك .

مكاتبة — وتبدى لعلمه الكريم أنّ آراءنا الشريفةَ ٱقتضتْ توجُّه الأمير الأجلّ الكبير، الأوحد، فلان الدين فلان ؛ إستادار الأمير المرحوم فلان كان ، بسبب ٱستخراجِ الأموال وبَيْع الغِلال والأصنافِ الدِّيوانية المتحصِّلة من القُرىٰ المستأْجَرَة ، المرتَجَعة للورثة عن المشار إليه بمقتضىٰ التذْكرة المسطَّرة علىٰ يَده . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقـدَّمَ أمْرُه بمساعدة المذكور وتقويةِ يَده علىٰ ماتضمَّنته فصولُ التذْكرة ومراعاةِ أحواله، وإزالةِ ضَرُوراته ، وخَلَاص الحق منه ممن يتعيَّنُ فى جِهَته ، ويشْمَله بنظره الكريم فيما تعلق بفصول التـذكرة . فإنّ تعلُّقـاتِ الورثة المذكورين تحت نَظَرنا الشريف . فيبادر المقرّ الشريف إلىٰ ذلك وسرعةِ عَوْده بعد قضاء شُـغْله ، وتجهيز المتحدِّث والمباشِرين للأبواب الشريفة ، وصُحْبَتَهم حسابُهم عند نهاية فصولِ التّذْكرة المذكورة . ويقيمُ عنهـم من يعوضهم إلىٰ حينِ عودهم من الأبواب الشريفة علىٰ ماهو المعهود من همّته الكريمة وٱحتفاله ، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بسبب طلب عِصِيّ الجواكين والكَرَابيج والأُكَر : وتبـدى لعلمه الكريم أن المرسوم الشريف ٱقتضىٰ تجهـيزَ عِصِيِّ الجواكين والكَرَابِيج والأُكَر إلىٰ السِّلاح خاناه من الشام المحروس، علىٰ العادة فى كل سنةٍ سريعا، وآثرْنا علمه الكريم بذلك . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّم أمْرُه العـالى باعتماد ما ٱقتضاه مرسومُنا الشريف من ذلك كلِّه علىٰ جارى العادة فى كلِّ سنة ، والٱهتمامِ بذلك ، والٱحتفالِ به، بحيث لايتأخَّر ذلك غيْرَ مسافة الطريق ؛ فإن الٱنتظار واقعٌ لذلك، وفى هِمَّتـه الكريمة مايُغْنِى عن بَسْط القول فى ذلك، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بسبب ٱستقرار قاضٍ بِدِمَشْق عوضَ مَنْ كان بها : وتبـدى لعلمه الكريم أنَّ الصدقاتِ الشريفةَ شَمِلت المجلس العالى، القضائىَّ، الكبيرىّ ، العالمىَّ، العلَّامىّ ، الإمامىَّ، الفلانىّ ، الفَريدىّ، المُفيدىّ، المَجيدىّ، الأَصيلىّ، العَرِيقىّ، الأثيلىَّ ، الأثيرىَّ، الأوحدىّ ، الخِطيبىّ، الشَّيْخىّ، الحـاكمىّ، الفلانىّ؛ جلالَ الإسلام والمسلمين، شرفَ العلمـاء العاملين ، إمامَ البلغاء، خطيبَ الخُطَباء، شيخَ مشايخ العـارفين ، مَلَاذَ المريدين ، مُفْتِي الفِرَق، مُوضِّح الطُّرُق ، لسانَ المتكلمين ، مفيدَ الطالبين، حَكَمَ الملوك والسلاطين، ولِيَّ أمير المؤمنين، فلان الفلانىّ الشافعىّ . أعز الله تعالىٰ أحكامَه — بتفويض قَضاء قُضَاة الشافعية بالشام المحروس إليه؛ عوضًا عمَّن به، بحكم عَزْله مضافًا إلىٰ خَطَابة الجامع الأموىّ ، ومشيخةِ الشُّيُوخ بالشام المحروس. وكتبنا توقيعًا شريفا له بذلك ، وجَهَّزناه إليه قَرِينَ تشريفٍ شريفٍ علىٰ يد فلان المتوجِّه بهذا المثالِ الشريف . وآثرْنا علمه الكريم بذلك ، ليكونَ ذلك علىٰ خاطره الكريم . ومرسومُنا للمَقَرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه الكريم بتقرير القاضى

فلان الدين فلان الفلانى فيما شَمِلتْه به الصدَقاتُ الشريفةُ من ذلك كلِّه ، وتقويةِ يده فى مباشرةِ ذلك والشَّدِّ منه ، وتأييد أحكامه الشرعيةِ، وتنفيذ كلمته، ورعاية جانبه، وإكرامِه وآحترامه، علىٰ عادة هِمَمه الكريمة، وتقْدِماته السعيدة ، فيُحيط علمُه بذلك .

مكاتبة — بسببِ حملِ الثَّلْج إلىٰ الأبواب السلطانية : وتُبْدى لعلمه الكريم أنَّ المرسومَ الشريف آقتضىٰ تجهيزَ نَقَلات الثلج إلىٰ الشَّرَابْ خاناه الشريفةِ علىٰ العادة . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمْرُه العالى بسُرْعة تجهيز النَّقْلة الأولىٰ، بحيث لاتتأخرُ أكثرَ من مسافةِ الطريق علىٰ ماهو المعهود من هِمَّته العالية، وتقدِماته السعيدةِ . وقد جهَّزنا هـذا المثالَ الشريف علىٰ يد الأمير الأجلّ فلان الدين فلان الفلانىّ، أعزه الله تعالىٰ، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بتمكين شخْص من الحُضور للأبواب السلطانية . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ فلانا كان قصدَ الآجتماعَ بأهله وأقاربه بالقاهرة المحروسة . ومرسُومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمره العالى بتمكينه من الحُضور إلىٰ القاهرة المحروسة علىٰ خَيْله : ليجتمع بأهله وأقاربه . وقد جَهَّزنا بهذا المثالِ الشريفِ فلانا البَريدىّ بالأبواب الشريفة، فيُحيط علمُه الكريم بذلك .

مكاتبة — بمنع العُرْبان من الدُّخول إلىٰ البلاد قبل فَرَاغ الزَّرْع . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ المراسيمَ الشريفةَ آقتضت أنه لايدخُل أحدٌ من العُرْبان إلىٰ البلاد الشامية

المحروسة : كبيرِهم وصغيرِهم، جليلِهم وحقيرِهم، إلىٰ أن يُشال الزرعُ علىٰ العادة .
ومتىٰ ـ والعياذُ بالله ـ حصَــل منهم مخالفــةٌ لذلك، حلَّ بهم من الآنتقام الشريف
مالا مَزِيدَ عليــه . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُه العالى باعتماد ما آقتضَــتْه
المراسيمُ الشريفةُ من ذلك، مع الآهتمام به، والآحتفال والآجتهاد فيه، قولًا واحدا،
وأمرا جازما، علىٰ عادة همَّته العالية، وتَقْدِماته المرضِيَّة، فيُحيط علمُه بذلك .

مكاتبة ــ بحفظ السواحل : وتبدى لعلمه الكريم أن مرسومَنَا الشريفَ آقتضىٰ
الآجتهادَ فى حفظ السواحل والمَوَانى ، والآهتمامَ بأمرها ، وإقامةَ الأيْزاك والأبْدال
فى أوقاتهــا علىٰ العادة ، وإلزامَ أربابها بمُواظبَتِها ، وكذلك المنوِّرون بالدّيْدبانات
والمَنَاظر والمَنَاور، فى الأماكِن المعروفة، وتعهُّد أحوالهــا : بحيث تقومُ أحوالُها علىٰ
أحسن العوائد وأكملهــا، ولايقَعُ علىٰ أحد دَرَكٌ بسببها . ومرسومُنا للمقرّ الكريم أن
يتقدّم أمرُه العالى باعتماد ما آقتضاه مرسومُنا الشريف من ذلك، مع مضاعَفَة
الآحتفالِ بذلك والمبادرةِ إليه، حسَبَ ما آقتضته المراسيمُ الشريفةُ . وقد جَهَّزنا بهذا
المِثالِ الشريف مجلسَ الأميرِ الأجَلِّ : فلان الدين فلان البَريدىّ، المقدَّم بالأبواب
الشريفة، فيتقدّمُ أمر المَقرّ العالى بتجهيزه إلىٰ جِهةِ قَصْده بما علىٰ يده، وإعادته عند
عوده إلىٰ الأبوابِ الشريفة، علىٰ ماهو المعهود من همَّته، فيحيط علمُه الكريمُ بذلك .

مكاتبة ــ باستعمال قُمَاش . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ آراءَنا الشريفةَ آقتضت
آســتعمالَ القماش الجارى به العادة برسم الركابخاناه ، والإصطبلاتِ الشريفــةِ ، علىٰ
ماآســتقرّ عليه الحال إلىٰ آخر السنة الخالية والتى قَبْلَها . وقد كُتِبت تَذْكِرَةٌ شريفة

من ديوان آستيفاء الصُّحْبة الشريفة مفَصَّلة بذلك ، وجهَّزناها قرينَ هذه المفاوضة لتُقْرأ علىٰ مَسَامِعِه الكريمة . ومرسومُنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بتأمُّلها، وبُرُوزُ أمره بطَلَب وزير المملكة الشريفة ، وناظر المُهِمَّات الشريفة ، وآستعمال القُمَاش الذى تضمّنته التذكرةُ الشريفة ، والآهتمام بذلك ، والآحتفال بسُرْعته .
وقد آكتفينا بهِمَّة المقرّ الكريم عن تجهيز أميراخورية وأوجاقية من إصْطَبْلاتنا الشريفة لآستعمال ذلك ، لأنَّ المهماتِ الشريفةَ تحت نظره الكريم ، فيصْرِف همَّته العالية إلىٰ الإسراع فى ذلك ، والآحتفال به والآهتمام . وفى آهتمامه وتنفيذه لمراسمنا الشريفة مايُغْنِى عن التأكيد فى ذلك ، فيُحيط علمُه بذلك .

مكاتبة — بجواز . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مرسومَنا الشريفَ آقتضىٰ تجهيز فلان البَرِيدىّ بالأبواب الشريفة ، أعزّه الله تعالىٰ، إلىٰ جهة فلان بما علىٰ يَدِه وما صُحْبَتَه . ومرسومنا للقرّ الكريم أن يتقدّمَ أمرُه العالى بإزاحة أعذارِه، وتجهيزِه إلىٰ المشار إليه فى أسرعِ وقتٍ وأقربِه . وإذا عاد يتقدّم بتجهيزه إلىٰ خدْمة الأبواب الشريفة علىٰ العادة فى ذلك ، علىٰ عادة همَّته العليّه ، وشِيَمِه المَرْضِيّه ، فيحيط علمُه بذلك .

مكاتبة — وتبدى لعلمه الشريف أن مرسومنا الشريف آقتضىٰ أن لا يُمكَّنَ أحدٌ من نَقْل سلاح ولا عُدّةِ حربٍ إلىٰ جهة البلاد الرُّوميَّة . ومرسومُنا للقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه العالى بأن لا يمكَّن أحد من نَقْل سلاحٍ ولا عُدّةٍ إلىٰ جهة البلاد المذكورة ، والآحترازِ علىٰ ذلك كلَّ الآحترازِ ، فيحيط علمُه بذلك .

مكاتبة — وتُبْدى لعلمه الكريم أنه آتصل بالمَسَامع الشريفة أنَّ غالبَ البلاد بالصَّفْقة الفلانية محمِيَّة متجاهية علىٰ الكُشَّاف والرَّعايا، و يُؤْوُون المفسدين . وأنَّ يَدَ الكُشَّاف لاتصِلُ إلىٰ هذه البلاد، ولا إلىٰ النَّصَفة ممن بها من المفسدين . وحَصَل بذلك الضررُ للبِلاد والعِبَاد . وآقتضىٰ الرأى الشريفُ الكَشْفَ عن هـذه البلاد وسائر الأعمال ، والمناداةَ فى البلاد بإبطال الحِمَاية والرِّعاية، والمساواةَ بين العِبَاد فى سائر البـلاد بالعَدْل والإنصاف ، وَكَفَّ أكُفِّ الظلم والعُدْوان . ومرسومُنـا للمقرّ الكريم أن يتقدّم أمرُه الكريم بالمناداة فى سائر البِلَاد بإبطال الحِمَاية والرِّعاية ، والمساواةِ بين الخاصِّ والعامِّ، وتطهيرِ الأرض من المفسدين؛ وأن لايُحْمِىٰ أحدٌ ببلد من البلاد . ومن تظاهر بحمايةٍ أو إيواءِ مفسدٍ ببلد من البلاد، حَلَّ مالُهُ ورُوحُه . والتأكيدِ علىٰ أهل البلاد فى ذلك ، والتشديدِ والفَحْص عمَّن يَتجاهرُ بذلك ورَدْعه ونَشْر العدل والإنصاف بتلك الأقطار، والآهتمام فى ذلك كلِّه، علىٰ عادة هِمَمِه الكريمة، وتَقْدِماته السعيدة، فيحيط علمُه الكريم بذلك، والله تعالىٰ يؤيِّده بالملائك .

مكاتبة — وتُبْدى لعلمه الكريم أنه آتَّصل بَمَسامعنا الشريفة أن فلانا تعرّضَ للجهة الفلانيَّة الجـاريةِ فى ديوان خاصِّـنا الشريف، وأخذ منهـا مبْلَغ كذا وكذا . ومرسومنا للمقرّ الكريم أن يتقـدّم أمرُه العالى بطلَبِ الغريم المذكور، وتجهيزه إلىٰ الأبواب الشريفة، وإلزامه بمـا آستأداه من ذلك، محترزاً عليه مع مضاعفة الوصيَّة بمباشِرى الجهة المذكورة والإحسان إليهم، فيحيط علمُه بذلك .

الصنف الثانى

(مايكتب فى الجواب عمّا يرد من النوّاب وغيرهم)

والرسم فيه أن يكتب بعد التصدير : « إن مكاتبته الكريمة » أو «مكاتبته» على قدر رتبته من ذلك «وردتْ علىٰ يَدِ فلان فوقَفْنا عليها وعلمنا ماتضمَّنته علىٰ الصُّورة التى شرحها » ثم يذكر مايناسب الجواب فى ذلك من شكر الأهتمام أو غيره . ثم إن آشتملت علىٰ مقْصَد واحد، أجابَ عنه .

وهذه مكاتبةٌ يُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى : وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مكاتبته الكريمةَ وردتْ علىٰ يد فلان فوقفْنا عليها ، وعلمنا ما أصدَرَتْه من تجهيزه إلىٰ خِدْمة أبوابنا الشريفة بما علىٰ يَدِه من كتّاب مخدومه . وقد وصل، وأحاطتْ علومُنا الشريفة بما تضَمَّنه ، وأعَدْناه الآن بجوابه وبهذا الجواب الشريف، فيحيط علمُه الكريم بذلك .

وإن آشتَمَلت المكاتبةُ المجابُ عنها علىٰ عدّة فُصول، أتىٰ علىٰ فُصولها فَصْلا فصلًا، وربما قال : «فأماما أشار إليه من كذا» إذا كان علىّ الرتبة، كنائب الشام ونحوه ، «فقد علمناه» وصار علىٰ خاطرنا الشريف أو «فقد رَسَمْنا به» أو «فلم نَرْسُم به» . ونحو ذلك علىٰ مايَقَع به الجوابُ السلطانىّ فى المَلَخَّص المكتوب عن مكاتبة المكتوب إليه بالجواب .

وهذه مكاتبة من هذا النمط يُنْسَج علىٰ مِنْوالها ، وهى : وتبدى لعلمه الكريم ، أنَّ مكاتبتَه الكريمةَ وردتْ علىٰ يد مملوكه الأميرِ الأجلّ فلان الدين فلان، أعزَّه الله تعالىٰ ، فوقَفْنا عليها ، وعلِمْنا ماتضمَّنته علىٰ الصورة التى شرحَهَا ، وشكرنا همَّته العالية، وتَقْدماته السعيدةَ ، ورأيَه السعيد، وآعتمادَه الحميد .

فأما ما أشار إليـه من وصوله ومَنْ صُحْبَته ، ونائبى السـلطنةِ الشريفةِ بطَرَابُلُس وصَفَدَ المحروستين ، إلىٰ مَلَطْيَة المحروسةِ فى التـاريخ الفلانى ، وتلَقِّ نائبَي السـلطنةِ الشريفةِ بحَلَب وحمـاةَ المحروسـتين ، المَقَرَّ الكريمَ ومَنْ معـه علىٰ ظاهر المدينـة المذكورة ، وآستمرار إقامتهم جميعًا بالمَنْزِلة المذكورة إلىٰ تسطير مكاتبته المشار إليها فى آنتظار من رُسِم له بالحضور إليهم من عساكر القِلاع المنصورة وغيرهم ، من أمراء التُّرْكمان والأكراد ومن معهم من أتبـاعهم وأَلْزامهم ، حَسَبَ ما آقتضـتْه المراسيمُ الشريفةُ فى المهمّ الشريف وما كُتِب به إلىٰ نائب طرابُلُس ، وإلىٰ قَرَايوسُف النائب بالرُّهَا المحروسة : من الحضور إلىٰ المهمّ الشريف ، وإجابتهـما إلىٰ ذلك ؛ وكذلك ما كُتِب به إلىٰ الحاكم بسِيواس ، وإلىٰ أحمد بن طرغلى ، وما أجابا به من الحُضُور إلىٰ المهمّ الشريف ، والملتقىٰ فى المكان الذى عيَّنه حاكمُ سيواس ، إلىٰ غير ذلك ممـا بَسَـط القولَ فيه [فقد علمناه](١) علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وتضـاعف شكرنا لهمَّته العلية وتَقْدماته السعيدة .

وأمَّا ما أشار إليه من آعتماده ما بَرَزتْ به المراسـيمُ الشريفةُ فى الجَوَاز الشريف الواردِ إليه علىٰ يَدِ مجلس الأمير الأجلّ فلان الدين فلان ، والمطلَقِ الشريف المجهَّز علىٰ يده ، وآمتثالِ ماتحمَّله من المشافَهة الشريفة ، وتقدُّمِه بجميع نُوّاب السلطنة الشريفة المكتوب إليهم ، وعَقْد المَشُورة معهم علىٰ آعتماد ما آقتضتْه المراسيمُ الشريفة ؛ وتعيين جاليش العسـاكر المنصورة ونائبِ السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسـة ومَنْ معه من الأمراء المقدّمين وأتباعهم من دمشقَ وحلَب المحروستين ، ونائب السلطنة الشريفـة بحماة المحروسة ، ومن معـه من العساكر المنصورة ، وسَـيْرِهم فى التاريخ الفلانى ، وسـيره فى أَثَرهم بمن بقِيَ معـه من العساكر المنصورة الشاميـة الحَلَبية ؛

(١) الزيادة يقتضيها تصحيح الكلام ولعلها ساقطة من قلم الناسخ .

وأن سيرهم علىٰ جهـة بلد كذا علىٰ الصُّورة التى شرحها لمـا قصـده من ذلك من المصلحة ، فقد علمنا ذلك علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وشكرنا همته العالية ، وحُسْنَ فكْرته الصحيحة .

وأمَّا ماأشار إليه من أن نائب مَلَطْيَةَ جهَّز الكتاب الواردَ عليـه من آبن تمرْلَنْك ، علىٰ يد قاصدٍ من جهة تلمـان(١) باللسان الأعجمىّ ، وأنه عَرَّبه وفَهِم مضمونَه وجهَّزه ليُحيط العلومَ الشريفـة بمضمُونه ، وهى علىٰ الخواطر الشريفـة ، فيكونُ ذلك علىٰ الخاطر الكريم ، وشَكَرْنا همتَه العلية .

وأمَّا ماأشار إليه من ورود كتاب تلمان(١) عليه ، وهديَّتِه علىٰ يد قاصده ، وأنه لم يَقْبل هديَّته وأعاد جوابَهُ ، فإنه إن كان مناصحًا فى الخدمة الشريفة وهو صادقٌ فى كلامه ، فيحضُرُ إلىٰ المهـمِّ الشريف ، وما شرح فى هذا المعنىٰ فقد علمناه علىٰ الصورة التى شرحها ، وشكرنا جميلَ آعتماده وسعيدَ رأيه . وكذلك أحاطت العلومُ الشريفةُ بمـا ذكره من أمر حاكم عربركبر(؟) وما شرحه فى ذلك ، فقد عَلِمنـاه علىٰ الصُّورة التى شرحها .

وأما ماأشار إليـه من أمرِ مَلَطْيَةَ المحروسةِ ، وأنهـا تحتاج إلىٰ الفِكْر الشريف ، والنظر فى أحوالِها وترتيبِ مصالحها ، وإقامة عسكر لرجال يحُمونها من طوارق الأعداء المخذُولين : إلىٰ غير ذلك مما شرحه فى هذا المعنى ، فقد علمناه علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وبقِيَ ذلك علىٰ خواطرنا الشريفة . وعقِيبَها إن شاء الله تعالىٰ تبرُز المراسيم الشريفةُ بمـا فيه المصلحة للبلد المذكور علىٰ أكمل ما يكون .

وقد آستَصْوَبوا رأىَ المقرّ الكريم فى هـذا الفكر الحسن ، فإنه أمر ضرورىّ . وقد شكرنا للمقرّ الكريم جميلَ آعتماده ، وحسنَ رأيه ، وبَذْلَ همته وآجتهاده فى هـذا

(١) كذا فى الأصل غير واضح .

المهِمّ الشريف . والقصدُ منه الاستمرارُ على ماهو فيه من بَذْل الاجتهاد فى المهمّات الشريفة بقَلْبه وقالَبِه، والعملِ على بياضِ وجهه عند الله تعالى، من الذَّبّ عن عباده وبِلَاده، وبَذْل المـالِ والرُّوح فى رضا الله تعالى ورسولِه صلّى الله عليه وسلم فى ذلك، وٱستقرارِ خواطِرِنا الشريفة بذلك . فإن المقَرَّ الكريم يعلم ما نحنُ مُثَابرون عليــه ، ومُنْقَادون إليه ، من محبّة رضا الله تعالى فى النصيحة بصَلَاح العباد، وعِمَارة البلاد، وتَسْــطيرِ ذلك فى صحائفِ حَسَنات الدهر بين يدِي الله تعالى . والمقرُّ الكريمُ يعلم أن جُلَّ ٱعتمادنا عليه فى أكابر دولتنا الشريفة . ونحن واثقُونَ برأيه السديد فى حَرَكاته وسَكَناته فى المهمّات الشريفة والأشغال السلطانية . ولأجل ذلك قرّبْناه، ورَضِينا به لنا وعلينا ، وكُلّما بلَغَنا عنــه ٱعتمادٌ حسنٌ تتضاعَفُ منزلتُه عندنا . والآنَ فإنَّ نوّاب السلطنة الشريفة وأمراءَ دولتنا كبيرَهُم وصغيرَهُم تحت أمره ومشورته، وما بَقِى مثلُ هــذه الأيام المباركة والأوقات الســعيدة ، ولم يبقَ سِوى ٱنتهاز الفُرَص ، وٱغتنامِ أوقات السعادة، وهو الحاضِرُ والنائب عنّا فى كل ما يحصلُ من المصالح العائد نفعُها على البلاد والعباد . والمبادرةِ إلى عملها من غير مُعاودة الآراء الشريفة فى كل قَضِيّة تتّفِق له ، فإن المسافةَ بيننا وبينه بعيدةٌ ، وتَضِيعُ المصلحةُ فى وصول الخطاب وعَوْدِ الجواب . وقد فَوَّضنا إليه الرأىَ فى ذلك، والعمل بمـا تقتضيه المصلحةُ الحاضرة، فى جليلِ الأمور ودقيقِها ، فيكون ذلك على خاطِرِه الكريم، ويعملُ بمقتضاه . وقد أعْدَنا مملُوكه بهذا الجواب، فيُحيط علمُه بذلك .

وهذه نسخة مكاتبة فى معنى الرضا عن ٱبن دلغادر التُّرْكمانى وغير ذلك :

وتبدى لعلمه الكريم أن مكاتبته الكريمةَ وردتْ على يدِ فلانالدين فلان مملو كه ، فوقفنا عليها وعلمنا ماتضمّنته .

فأما ماذكره فى معنىٰ ٱبن دلغادر، وتكْرار كُتُبه بالتصريح والتَّرامِى عليــه فى سؤال الصــدقات الشريفة فى الرِّضا والعَفْو عنه ، فقد علمنا ذلك ؛ والذى نعرِّف به المقرَّ الكريم أنا كنا رسَمْنا بأن لا يُكتبَ له جواب وردِّ كتابه وقاصِــدِه ؛ ولمــا تكرر ٱستشفاعه بالمقرّ الكريم، ودخل دخُولَ الحَرِيم، وعرفْنا أنه ضاقتْ عليــه الأرض برُحْبها وأخلص فى النَّدَم، عطفت عليه الصدقاتُ الشريفةُ بالحُنُوّ والعفو كرامةً للمقرّ الكريم ، وإعلاءً لشانه، ورفعًا لمكانتــه ومكانِه . ورسمنــا للمقرّ الكريم أن يكاتِبَ المذكورَ بهذا المعنىٰ، ويلتزم علىٰ نفسه العفوَ الشريفَ،والصَّفْح المُنِيفَ، وإيصالَ أنواع الخــير وفوقَ مافى خاطِره من الأمان علىٰ نفســه وماله ، وغير ذلك . والذى نعرِّفه أنه كان جرىٰ علىٰ اللسان الشريف الحلِفُ أنه لابدّ من حضوره إلىٰ الأبواب الشريفةِ ودَوْسِ البِساط الشريف ، ولا بدّ من تحقيق ذلك لحصول البِرِّوالخَلَاص من الحَلِف الشريف، وقيامِ النــاُموسِ عند القريب والبعيد : ليعلموا أنَّ ســلطاننا غالبٌ علىٰ مَنْ تمرّد ، ومراحِمَنا شــاملة لمن يلتجئ إلىٰ حَرَم عَفْونا الشريف ، وأنه قريبٌ منــــه .

وأما ماذكره فى معنىٰ كَشْف الصَّفْقة الفلانية ، ووقوع الآختيارِ علىٰ فلان الدين فلان، وما عَرَضه علىٰ الآراء الشريفة من تقريره فى ذلك، وبُروزِ المَراسيم الشريفة بكتابة مرسومِه وتقرير غيره (١) ، فقــد علمنا ذلك ورسْمنا بتقريرِه ، وكتبنا مرســومَه الشريف ، وجهَّزناه علىٰ يد فلانٍ العائدِ بهذا الجواب الشريف .

وأما ماذكره من جهة الزاوية المستجِدّة بشَقْحَبَ وتجهيزِ قائمةٍ متضمِّنة بمــا تدعو الضرورةُ إليه من تقرير السِّماط وأرباب الوظائف، وما عَرَضه علىٰ الآراء الشريفة من كتابةِ مرسومٍ شريفٍ مربَّع علىٰ حُكْمِها،أو بما تقتضيه الآراءُ الشريفةُ من زيادةٍ أو نَقْص (٢)، فقد علمنا ذلك ورسَمْنا به حسَبَ ما ٱقتضَتْه الآراءُ الشريفةُ: من ٱستقرار

(١) لعله وتقريره (٢) يظهر أن فى الكلام سقطا ولعله «وما عرضه علىٰ الاراء الشريفة من اخ» .

فلان الدين فلان فى الوِلَاية فى الثَّغْر المذكور ، فقد علمنا ذلك ورَسَمْنـا به ، وكتبنا مرسومَه الشريف ، وجهَّزناه على يد العائد بهذا الجوابِ الشريف . فالمقرُّ الكريم يوصِيه بحُسْن السِّيرة وتَرْك ما كان عليه .

وأما ماذكره من جهة خُفَارة الجهة الفلانية ، وما عرضه على الآراءِ الشريفة : من إمضاء القائمة المجهَّزة بأسماء مَنْ قرّره فى الخَفَر المذكور، فقد علمنا ذلك ورسْمنا بإمضائه حسَبَ ماقصده المقرُّ الكريم .

وأما ماذكره من جهة فلان المعتَقل بقلعـة دِمَشْقَ ، ووقوفِ أولاده وعيالِه وشكواهم حالَهُم بعد كَشْف ما نُقِل عنه وعدمِ صحَّته وما عرضه على الآراءِ الشريفة من الإفراج عنه ،فقد علمنا ذلك ورسْمنا به فيتقدّم أمر المقرِّ الكريم بالإفراج عنه .

وأما ماذكره فى معنى ما ورد به كتابُ النائبِ بالرَّحْبـة المحروسـة : من الأخبار والمتجدّدات ، فقد علمناه وصار على خواطِرنا الشريفة .

وأما ماذكره من وصول قاصِدَىْ حاكِم الدَّرْبَنْد وحاكم القُنَيطِرة بما على أيديهما وتجهيزِ ماورد معهما من الكُتُب وآستئذانِ الآراء الشريفة على مانعتمِدُه فى أمرهما وفيمن يحضر بعدهمـا ، فقد علمنا ذلك ، وكتبْنا الجوابَ عن ذلك ، وجهَّزناه قرينَ هذا الجوابِ الشريف ، فيتقدّم باعادتهما إلى مُرسِلهما . وكذلك يفعَلُ فى كلِّ من حضر من تلك النواحى إلا فى مهمٍّ شريفٍ على عوائد هِمَمه . وقدأعدنا مملوكَهُ إليه بهذا الجواب الشريف ، فيُحيط علمُ المقرّ الكريم بذلك .

مكاتبة أخرى — من هـذ النمط فى معنى أمورٍ مختلفة . وتبدى لعلمه الكريم أنَّ مكاتبته الكريمةَ وردتْ على يد المجلس السامىِّ الأميرىّ فلان . فوقَفْنا عليها وعلِمْنا ماتضمَّنته على الصُّورة التى شرحها .

فأما ماأشار إليه : من وصوله إلىٰ دمشقَ المحروسةِ عائدًا من الأَغْوار السعيدةِ ، وأنه وجدها وسائرَ أعمالهـا وضواحِيهَا والسواحلَ والمَوَانى فى حِرْز الأمْن والسلامةِ ، فقد علمنا ذلك وحَمِدْنا الله تعالىٰ وشكرناه علىٰ ذلك .

وأما ما أشــار إليه : من أنه جهَّز من متحصِّل دار الضرب السـعِيدة بدمشقَ المحروسة كذا وكذا مثقالا بمقتضىٰ رسالة وما قصَد من إعادة رَجْعةٍ شريفةٍ بذلك ، فقد علمناه ووصل المبلغ المذكور ، وكُتِب به رَجْعةٌ شريفة علىٰ العادة فى مثل ذلك ، وجُهِّزت علىٰ يدِ فلان المشار إليه ، فيكونُ ذلك علىٰ خاطرِه الكريم .

وأما ماذكره : من أمر النُّحَاس وقِلَّته من عدم وصول شىء منه ، وأنه لم يُوجَد منه بعد الجَهْد سِوىٰ مبلغ عشرين قِنطارا عند الفَرَنْج ، وأمر الفُلُوس العُتُق وبقائها ، وكثرةِ الفلوس الجُدُد ، وقلّةِ وجُود الدِّرْهم والدِّينار ، وتوقُّف المَعَايِش بسبب ذلك ، وما عرضـه علىٰ الآراء الشريفــة إن ٱقتضت الآراءُ الشريفــةُ إبطال دار الضرب نحو شَهْرين إلىٰ أن يحضُر نحاسٌ يستعْمَل ، وتخِفَّ الفلوسُ ويستصرف مافى أيْدِى الناس ، فقد علمنا ذلك وأجبْنا سؤاله فيه . ومرسومُنا أن يَعْمَل فيه بما تكون [به] المصلحةُ عامَّةً للرعية ، وتَبْطيل دار الضرب مدّةً يراها المقرُّ الكريم .

وأما ما أشار إليه : من أمر الأمير فلان وما قصــده من حُسْن النظر الشريف فى حاله ، وما شرحه من ذلك ، فقد علمناه علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وصار ذلك علىٰ الخواطِرِ الشريفة .

وأما ماأشار إليه : من أمر فلان ، وما ٱتَّفَق من الكَشْف عليه حسَبَ ما ٱقتضته المراسيم الشريفة ، وما ٱدُّعىَ عليه من كذا وكذا ، وما كُتِب عليه من المحاضر وتجهيزها إلىٰ الأبواب الشريفة ، وتجهيز المشار إليه إلىٰ الأبواب الشريفة صُحبةَ البَرِيدىّ المجهَّز

فى طلبه فى أثناء ذلك ، فقد علمنا ذلك علىٰ الصُّورة التى شرحها ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ به جملةً وتفصيلا ، وبما آشتملت عليه المحاضرُ المذكورة ، وبقى ذلك علىٰ الخواطر الشريفة ، وآقتضتِ الآراءُ الشريفة إعادتَهُ ومن معه للخَلَاص من شَكَاته عند المقرّ الكريم ، وقد أعَدْناهم صُحبةَ من يَحْضُربهم إلىٰ المقرّ الكريم ليُكْشَف عليه وتَنَظُّم المَحَاضر وتجهّز .

وأما ما أشار إليه من تجهيز (١) وتعريف الحِسْبة بالأسعار عن البرّ الفلانى علىٰ العادة فى ذلك إلىٰ الأبواب الشريفة ، فقد علمنا ذلك ووصل ماجهّزه من ذلك ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ بما آشتمل عليه ، وشكَرْنا همةَ المقرّ الكريم وسعيدَ تَقْدِماته ، وجميلَ آعتماداته . وقد أعدنا الأمير فلانا بالجواب الشريف ، فيُحيط علمُه بذلك .

قلت : وعلىٰ ذلك يُقاس مايُكتَب به إلىٰ سائر النُّوّاب بالشام والديار المصرية فَمَنْ دُونَهم ممن جَرتِ العادة بمكاتبته من الأبواب السلطانية فى الآبتداء والجواب .

المأخـــذ الثانى

(فى مَعْرِفة أوضاع هـــذه المكاتبات)

أوّلُ مايجب من ذلك معرفة قَطْع الورق الذى يُكْتَب فيه . وقد سبق فى المقالة الثالثـة فى الكلام علىٰ قَطْع الورق بيانُ مقاديرقَطْعه ، وأنَّ من جملتها قَطْع العادة : وهو القَطْع الصغير . وفى هذا القطع تُكتَب عامّةُ المكاتبات المتقدِّمة ، مما يكتب به لأرباب السُّيوف والأقلام بمصر والشـام علىٰ آختلاف مقاديرهم ، وتبايُنِ مَرَاتبهم

---

(١) بياض فى الاصل .

فى الرِّفعة والضَّعَة، خلا ما تقدّم ذكره : من أنه كُتِب إلىٰ والدة السلطان الأشرفِ « شعبان بن حسين » فى قطع الشامىّ الكاملِ . وقد تقدّم هناك أنَّ الكتابة فى قطع العادة جملةً تكون بقَلَم الرِّقاع . فتكون كتابةُ جميع هذه المكاتبات به .

ثم أوّل مايكتُبُ الكاتب فى المكاتبة التعريفُ بالمكتوب إليه : وهو أن يكْتُب فى رأس الدَّرْج ، من وجه الوَصْل، من أوّله، من الجانب الأيمن « إلىٰ فلان » . ويكتب علىٰ سَمْته فى الجانب الأيسر « بسبب كذا وكذا » . ويكتب فى وسَطِهما علىٰ سَمْتِهما التعريفَ بالعلامة التى تُكْتَب . فإن كانت العلامةُ الآسمَ، كتب «الآسمُ الشريفُ » . وإن كانت بالأخوّة، كُتِب «أخوه» . وإن كانت بالوالِدية، كتب «والده» . ثم يَقلِب الدَّرْجَ فيكتُب علىٰ ظاهره عُنْوانَ المكاتبة فى أسفل ما كتب عليه فى رأس الورق باطنا من أوّل عرض الدَّرْج إلىٰ آخر ألقابِ المكتوبِ إليه . ويقلب الدعاء المبتدأ به فى المكاتبة ، فيدعُو له به فى آخر الألقاب . ثم يخلى بياضًا ويكتب تعريف المكتوب إليه : من نيابةِ سلطنةٍ أو ولايةٍ أو آسم أو غير ذلك . وتكون الأسطر متقاربةً متلاصقةً .

فإن كان المكتوب إليه النائبَ الكافلَ مثلا، كتب فى العنوان : «المقرّ، الكريم، العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ» إلىٰ آخر ألقابه . فإذا آنتهى إلىٰ آخر الألقاب ، كتب « أعز الله تعالىٰ أنصاره » . ثم يترك بياضا ويكتب : « كافل الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ» بحيث ينتهِى آخر كتابة ذلك إلىٰ آخرِ السطر .

وإن كان المكتوب إليه كافلَ السلطنة بالشام، كتب : «المقرّ الكريم» إلىٰ آخر الألقاب «أعز الله تعالىٰ أنصاره» ثم يَتْرُك البياضَ المذكور، ثم يكتب : « كافلُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس » .

وإن كان المكتوب إليه نائبَ السلطنة بحَلَب، كتب : « الجَنَاب الكريم » إلىٰ آخر ألقابه « أعز الله تعالىٰ نُصْرته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائبُ السلطنة الشريفة بحَلَب المحروسة» .

وإن كان المكتوب إليه نائب الإسكندرية ، أو نائب طرابُلُس، أو نائب حَمَاة ، أو نائب صَفَد ، كتب : « الجناب العالى » إلىٰ آخر ألقابهم « ضاعف الله تعالىٰ نعمته » ، ثم يترك بياضا ويكتب : « نائب السلطنة الشريفة بثغر الإسكندرية المحروس » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بطرابلس المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بحماة المحروسة » ، أو « نائب السلطنة الشريفة بصَفَد المحروسة » . وكذا فى البواقى بحسَبِ تعريف كلٍّ من المكتوب إليهم علىٰ ما مر ذكره فى مواضعه .

ثم إذا كتب العنوان : فإن كان المكتوب إليه ممن يكتب له «المَقَرّ الكريم» ، أو « الجناب العالى » ، أو « المجلس العالى » مع الدعاء ، ترك من أعلىٰ الدرج ثلاثةَ أوصالٍ بياضا بالوصل المكتوب فى ظاهره العُنْوان ، ثم تكتب البسملة فى رأس الوصل الرابع بهامش من الجانب الأيمن .

وإن كان المكتوبُ إليه ممن يُكْتَب له «المجلس العالى» مع «صدرَتْ» فما دُونَ ذلك، تُرِك فى أعلىٰ الدرج وصلانِ بياضًا فقط . وتكتَبُ البسملة فى رأس الوصل الثالث، ثم يكتَبُ سطران من أوّل المكاتبة تحتَ البسملة علىٰ سَمْتِها ملاصقًا لها، ثم يُخلىٰ بيتُ العلامة بياضًا ويكتب السطر الثانى علىٰ رأس(١) إصبع أو نحوه من أسفل ذلك الوصل، ثم يكتب السطر الثالث فى الوصل الذى يليه علىٰ بُعْد ثلاثةِ أصابع معترضات من السطر الثانى، ويؤتىٰ علىٰ ذلك إلىٰ آخر المكاتبة .

(١) المراد علىٰ قدر إصبع .

وقد كانتْ أوصالُ الوَرَق فى الزمن المتقدّم طويلةً : فكان يكْتَب فى كل وَصْل ثلاثةُ أسطر ، وبين كلّ سطرين أكثرُ من عَرْض ثلاثة أصابعَ . أما الآن ، فقَصُرت الأوصال ، وصار كلُّ وصل لايَسَع فى الغالب أكثرَ من سطرين . فإذا آنتهىٰ إلىٰ آخر المكاتبة ، أخْلىٰ بياضًا يسيرا ، ثم كتب فى وَسَط الوصل : « إن شاء الله تعالىٰ » ثم يكتب : « كتب فى كذا من شهر كذا » فى سطر ، وتحته سنة كذا وكذا فى سطر تحته ، بينهما قدرُ إصبعَيْنِ ؛ ثم يكتب المستنَد بعد تقدير إصبعين . فإن كان بتلَقِّى كاتب السرّ كتب « حَسَب المرسومِ الشريف » . وعلىٰ ذلك يجرى الحكم فى جميع ما يُكْتَب فى البَرِيد ، وهو المختصّ بالأمور السلطانية .

وإن كان من دار العدل بتلقِّى كاتب السِّرّ أو أحد من كُتَّاب الدَّسْت ، كتب : «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر ، وتحته « من دار العَدْل الشريف » فى سطر آخر . وإن كان بِقصَّة مشمولة بخطِّ السلطان ، كتب : «حَسَب الخطِّ الشريف» بمقتضىٰ أعلىٰ ذلك . وإن كان بخَطِّ النائب الكافِل ، كتب : « بالإشارةِ العالية الأميريَّة العاليَّة الفلانية» فى سطر ، وتحته فى سطر آخر « كافِلِ الممالك الشريفةِ الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ » . وإن كان بأمر الوزير ، كتب « بالإشارة العالية الأميريَّة الوزيرية الفلانية » فى سطر ، وتحته فى سطر آخر « مدَبِّر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ » . وإن كان الوزير صاحب قلم ، كتب « بالإشارة العالية الوزيريَّة الصاحبِيَّة الفلانية ، مدبِّر الممالك الشريفة الإسلامية ، أعلاها الله تعالىٰ » سطرين علىٰ نحو ما تقدّم . وإن كان برسالة الدَّوَادار : فإن كان مقدَّمَ ألف ، كتب « برسالة الجناب العالى الأميرىّ الكبيرىّ الفلانىّ » فى سطر ، وفى سطر آخر تحته «الدَّاودَار الناصرىّ أو الظاهرىّ» ونحو ذلك «ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمتَه» . وإن كان طبلخاناه ، كُتِب بدل الجنَاب «المجلس» ويدعو له «أدام الله تعالىٰ

نعمتَه» . وإن كان بأمر الإستادَار ، كتب « بالإشارة العـاليةِ الأميريَّة الفلانيـة إسـتادَار الفلانية أعلاها الله تعـالىٰ » . وإن كان من ديوان الجُيُوش المنصورة ، كتب «حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر، وتحته «من ديوان الجُيُوش المنصورة» فى سطر آخر . وإن كان من ديوان الخَوَاصّ الشريفـة ، كتب « حَسَب المرسوم الشريف من ديوان الخَوَاص الشريفـة » علىٰ ماتقـدّم . وإن كان من الدولة الشريفـة : بأن يكون بخط ناظر الدواوين وهو قليـل ، كتب « حَسَب المرسوم الشريف من الدولة الشريفة» علىٰ نحو ماتقدّم . وقد تقدّم الكلامُ علىٰ المستَنَدات فى الجملة ، فى مقدّمة الكتاب عند الكلام علىٰ ديوان الإنشاء .

المَقْصَـــــد الثـانى

(فى المكاتَبَات العامّة إلىٰ أهل هذه المملكة : وهى المُطْلَقات)

قال فى "التعريف" : وأقسامُها لا تخرُج عن ثمانية أقسام : إلىٰ الوجه القبلىّ ، وإلىٰ الوجه البَحْرىّ ، وإلىٰ عامّة الدِّيار المصرية ، وإلىٰ بعض البلاد الشاميـة ، وإلىٰ البلاد المصرية والشامية ، وإلىٰ الممـالك الإسلاميَّة وما جاوَرَها ، وإلىٰ بعض أوليـاء الدولة ؛ كالأمراء بدمشق أو حلب ، وإلىٰ قبـائل العرب ، أو التُّرْكمان ، أو الأكراد أو بعضِهم .

قلت : والقاعدة فى المطْلَقات أنه إذا آجتمع فى المُطْلَق كِبَارٌ وصغَار، يغلِّب حكمُ الأكبرِ منهم علىٰ الأصغر : تعظيماً لأمر الأكابر . فإن كان فى المطلَق من الألقاب ماتختصُّ به الأكابر دُونَ غيرهم ، آستُوْفى للكبير مايختَصُّ به من الألقاب وأُتِى بالقدر المشتَرَك فيه بعد ذلك .

ثم المطلقات منها مايُخْتَم . قال فى "التعريف" : وهو ما كان لبعض أولياء الدولة إذا كان فى سِرٍّ يُكْتَم ولا يُرادُ إظهارُه إلا عند الوقُوف عليه ، فيُختَم علىٰ عادة الكُتُب . وهذا يكون عنوانُه بظاهره كما فى غيره من المكاتبات المفْرَدة .

ومنها مالايُخْتَمَ ، وهو سائر المطْلَقات . قال فى "التعريف" : وعُنوانُها (مخالف لعنوان)[1] الكُتُب المفردة للآحاد : فإنَّ تلك فى ظاهر الوَرَق ، وهذه فى باطن الورق ، فوقَ وصلين أو ثلاثةٍ ، فوقَ البسملة . ويقال فيها : مثالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلىٰ الوُلَاة والنُّوّاب ، أو غير ذلك من نحو مافى الصدر ، فيضَمَّن العنوانُ ملخَّصَ مافيه . ثم يقال : علىٰ ماشُرِح فيه ، أو حسَبَ ما شُرِح فيه . ومن قاعدتها أن يصَرَّح بذكر المكتوب إليهم فى المطْلَق ، بخلاف غيرها من المكاتَبَات المفرَدَة . قال فى " التعريف " : ثم بعد التعريف فى المطْلَقات الدعاءُ ، ثم الإفضاء إلىٰ الكلام ؛ وفى آخرها يتعيَّن أن يقال : «فلْيعْلَمُوا ذلك ويَعْتمِدُوه» .

وحاصل مرجوعها إلىٰ ثلاثة أضرب :

الضرب الأوّل

(المطلَقات المكبَّرة)

قال فى " التعريف" : وهى مايكتب إلىٰ سائر النُّوّاب بالممالك الشريفة ، خلا سِيسَ فإنها مستَجِدّة ، غير أنه إن رُسِم باضافته إليهم ، فيحتاج إلىٰ تحرير الحال فى أمره : هل يُكْتَب له بعدَ نائب طَرَابُلُس أو بعد نائب صَفَدَ ؟ ولا يمكن أن يكون بعد مقدَّم العسكر بغَزَّةَ ، ولا نائبِ الكَرَك ، لأن رتبته فى المكاتبة أعلىٰ منهما . فإنها نظيرُ مكاتبة نائب طرابُلُس وحماة وصفد .

(١) فى الأصل "وعنوانها كعنوان" الخ وهو خطأ والتصحيح من التعريف (ص ٨٢)

قلت : هذا علىٰ ما كان الامر آستقرّ عليه من كونها نيابةً فى أوّل الأمر ، أما بعد آستقرارها تَقْدِمةَ عسكر، فإنه يكون بعـد مقدّم العسكر بغَزّة : لأن كُلًّا منهما مقدّم عسكر ، ومقـدّم العسكر بغَزّة أقدمُ من مقـدَّم العسكر بسِيس . وأيضـا فإن غَزّة مضافةٌ إلىٰ دِمشْق وسِيس مضافةٌ إلىٰ حَلَب ، ودِمَشْقُ أكبرُ من حَلَب .

قال فى "التثقيف" : وصورةُ هذا المطْلَق أن يكتب فى الطُّرّة : «مثالٌ شريف مطْلَق إلىٰ الجنابين الكريمين ، العاليين ، الأميريَّين ، الكافِليَّين ، الفلانيين ، نائبَيِ السلطنة الشريفة بالشام وحَلَب المحروستين ، أعزّ الله تعالىٰ نُصْرتهما ، وإلىٰ الجنابات العاليةِ الأميريّة الفلانية أو الفلانىّ والفلانىّ» علىٰ الترتيب . ثم يقال : «نُوّاب السلطنة الشريفة بطرَابُلُس وصَفَد وحَمَاةَ المحروسات . وإلىٰ الجَنَاب العالى والمجلس العالى الأميرىّ الأميريَّين الفلانيين أو الفـلانى والفلانى ، مقـدّم العَسْكر المنصور بغَزّة المحروسة ، ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس ، أدام الله تعالىٰ نعمتَهما ، بمارُسِم لهم به أن يتقـدّم أمرهم الكريم بكذا وكذا ويشرح ما رسم به إلىٰ آخره . ثم يُخْـلِي بياضًا يسيرًا . ثم يكتب «علىٰ ماشُرح فيه» ويترك ثلاثة أوصال بياضًا بالوصل الذى تُكْتَب فيه الطُّرّة . ثم تكتب البسملة فى أعلىٰ الوصل الرابع . ثم يكتب قبل آخره بإصبعين ماصورته : «أعزّ الله تعالىٰ نُصْرة الجنابين الكريمين ! وضاعفَ وأدام نعمة الجناب العالى ، والمجلس العالى ، الأميريّة ، الكبيرية ، العالمية ، العادلية ، المؤيّدية ، الزعيمية ، الغَوْثية ، الغِيَاثية ، المُثَاغرِيّة ، المرابطيَّة ، المشيِّدية ، الظهيرية ، الكافلية ، الفلانية أو الفلانىّ والفلانى » إلىٰ آخرهم : « أعِزّاء الإسلام والمسلمين ، سادات الأمراء فى العالمين ، أنصار الغُزَاة والمجاهدين ، زُعَمـاء الجيوش ، مقدّمى العساكر ، ممهِّدى الدُّوَل ، مشـيِّدى الممالك ، عمادات المِلّة ، أعوانِ الأمة ، ظهيرِى الملوك والسـلاطين ، سُيوف أمير المؤمنين ، نُوّاب السـلطنة الشريفـة بالشام وحَلَب

وطَرابُلس وحَماةَ وصَفَد المحروسات، ومقدَّم العسكر المنصور بغَزّة المحروسة، ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس» ثم الدعاء لهم بصيغة الجمع . ثم يقال : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجَنابين الكريمين والجَنابات العالية، والمجلس العالى، تُهْدِى إليهم من السلام كذا، وتُوضِّح لعلمهم الكريم كذا وكذا، فيُحيط علمُهم الكريمُ بذلك، والله تعالىٰ يؤيِّدهم بمنّه وكرمه » . وتكمَّل بالمشيئة وما بعدها . والعلامة «أخوهم» . قال : فى "التثقيف" : وإن أضيف إليهم نائب سِيسَ (١) ... ... فى الطرَّة والصدر حسب ما تقدّم ذكره .

قال فى "التثقيف" : ومما ينبَّه عليه أنه قد يُكْتَب تارة إلىٰ بعض هٰؤلاء النوّاب ويُخْتَصَر البعض، بحسَب ماتدعُو الحاجة إليه، فيُكْتَب كذلك ويختصر منه من رُسِم باختصاره، ويُذْكَر كلُّ واحد منهم فى محلّه ومرتبته علىٰ الصُّورة المتقدّمة من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص . ثم قال : وهذا هو الذى لم يَزَل الحالُ مستقرّا عليه حين كانت مكاتبةُ نائب الشام « الجناب الكريم » نظيرَ نائبِ حلَبَ . أما الآن حيث آستقرت مكاتبته «المقرّ الكريم» . فإنه لايليق أن يكتب لغيره بألقابه الخاصّة به . وإن آختُصرت الألقابُ الخاصَّةُ به كان فيه نقصٌ لرتبته؛ فيلزم من ذلك أن يكتب إليه علىٰ آنفراده، ويُكْتَب المطلَقُ لمَن رُسِم به ممّن عداه من النوّاب المذكورين .

قلت : وقد رأيت فى بعض الدساتير كتابة المطلقِ الشاملِ لكافل الشام وغيرِه من النوّاب بعد آستقرار مكاتبة نائبِ الشام بالمَقَرّ الكريم علىٰ صورتين :

---

(١) بياض بالأصل ولعله يضاف، أو أضيف فى الطرة الخ .

الصورة الأولىٰ — أن تُستوفى ألقابُ المقرّ الكريم بدعائه، ويؤتى بألقابه الخاصّة به، ثم يُعْطَف عليه الجناب الكريم، والجنابات العالية، والمجلس العالى، بالألقاب المشتَرَكة؛ ويميَّز مايمكن تمييزه منها، ويكمَّل علىٰ نحو ما تقـدّم: وذلك بأن يكتب فى الطرّة «مثالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلىٰ كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أعز الله تعالىٰ أنصاره؛ ونُوّابِ السلطنة الشريفـة بحَلَبَ، وطرابُلُسَ، وحماةَ، وصَـفَدَ، ضاعف الله تعالىٰ نعمتهم؛ ومقدّمِ العسكر المنصور بغَزَّةَ وسِيسَ المحروستين، أدام الله تعـالىٰ نعمتهما بمـا رسم لهم به» إلىٰ آخره. ثم يُخْلِى ثلاثة أوصال، علىٰ ماتقـدّم؛ ويُكْتب تِلْوَ البسملة فى أوّل الوصـل الرابع: «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم العالى، المَوْلَوِىّ، الأميرىّ، الكبيرىّ، العابِدِىّ، الناسِكِىّ، الأتابِكِىّ؛ ونُصرةَ الجناب الكريم، وضاعف وأدام نعمة الجنـابات، والمجالس العاليـة، الأميريّة، الكبيريّة، العالمية، العادلية، المثاغِرِيّة، المرابطيـة، العَوْنية، الذُّخْرية، الغِياثيّة، الممهِّدية، المشيِّدية، المقدَّمية، الظهيرية، الكافلية، الفلانى والفلانى» إلىٰ آخرهم: «معزّ وعِزّ الإسلام والمسلمين، سـيِّدى الأمراء فى العـالمين، ناصِر ونُصْرة الغُزَاة والمجاهـدين، زُعَماء الجيوش أتابك ومقـدّمى العساكر، ممهِّدى الدول، مشـيِّدى الممـالك، أعوانِ الأمة، كُهُوف الملة، ظُهَراء الملوك والسلاطين، عَضُد وسيوف أمير المؤمنين، كافل السلطنة الشريفـة بالشام المحروس، ونُوّاب السلطنة الشريفة بحلب، وطرابُلُس، وحماةَ؛ ومقدّم العسكر بغزَّة وسيس؛ ونائب السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس» ولا زال إلىٰ آخره. «أصـدرناها إلىٰ المقرّ والجنـاب الكريم والجنابات والمجالس العالية، تُهْدِى اليهم من السلام كذا، ومن الثّناء كذا، وتُبْدِى لعلمهـم الكريم كذا وكذا. ومرسومنا للمقرّ والجنـاب الكريم والجنابات والمجالس العالية أن يتقدّموا بكذا وكذا، فيُحيط علمُهم بذلك».

الصورة الثانية — أن تُكتَب الطرَّة على ماتقدّم، ثم تكتبُ ألقابُ المقرّ إلىٰ آخرها . ثم يقال : « وتبدى لعلمه الكريم وعلم الجناب الكريم والجنابات العالية والمجلس العالى الأميرية الكبيرية» إلىٰ آخر الألقاب «أن الأمر كذا وكذا . ومرسومُنا للمقرّ والجناب الكريمين والجنابات العالية والمجلس العالى أن يتقدَّموا بكذا وكذا، فيحيط علمهُم بذلك» والعلامةُ فى هذا المطلق « أخوهم » ٱعتبارا بالعَلَامة إلىٰ كافل الشام ونائب السلطنة بحلَب .

الضرب الثانى
(المطْلَقات المصَغَّرة)

وقد ذكر لها فى "التعريف" قواعدَ كليَّة، وأشار إلىٰ ٱختلاف مَقَاصِدها فى ضمن الكلام الجُمْلىّ ، فقال : وفى كلِّها يُكتَبُ : « مثالنا هذا إلىٰ كلِّ واقف عليه من المجالس السامية ، الأمراء ، الأجلَّاء ، الأكابر، المجاهدين، المؤيدين، الأنصار ، الغُزَاة ، الأنجاد ، الأمجاد ، أمجادِ الإسلام ، أشرافِ الأمراء ، أعوانِ الدولة ، عُدَد الملوك والسلاطين : الوُلَاةِ، والنوّابِ، والشادّين، والمتصرِّفين، بالوجه الفلانى، أو بالديار المصرية ، أو بالبلاد الشامية ، [أو بالبلاد الفلانية ، أو بالديار المصرية والبلاد الشامية(١)] وسائر الممالك الاسلامية » . قال : وقد يزاد فى هذا لمقتضيه : «والثُّغور والحُصُون والأطراف المحروسة» . قال : فإذا كان إلىٰ الممالك الاسلامية ، قيل «بالديار المصرية، والبلاد الشامية، وسائر الممالك المحروسة ، وما جاوَرَها من البلاد الشَّرْقية، والممالك القانِيَّة» . وقد تكون إلىٰ جهة الرُّوم . فيقال : «وما جاوَرَها من البلاد الروميَّة وما يليها» . ثم عَقَّب ذلك بأن قال : فأما إذا كان إلىٰ بعض أولياء

(١) ساقط من قلم الناسخ والتصحيح من التعريف .

الدولة نظر : فإن كان إلىٰ عامّة أمراء دِمَشْق ، قيل : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجالس العالية الأمراء » . وبقيــة الألقاب من نِسْبة مايكتبُ للمجلس العــالى . فإذا آنتهىٰ إلىٰ أعضاد الملوك والســلاطين ، [أو عضد الملوك والسلاطين ويجوز إطلاق هــذا الافراد علىٰ الجمع](1) قال : جماعة الأمراء مقــدّمى الألوف ، وأمراء الطبلخاناه، وسائر[مجالس الأمراء](1) أمراء العَشَرات، ومقدّمى الحَلْقة المنصورة . وإن كان يُكتبُ إلىٰ حلَبَ أو غيرها من الممالك فبالسامِيَة . وإن كان لأمراء العُرْبان أو التُّرْكُمان أو الأكراد، كُتِب علىٰ عادة المطلَقات بالسامِية، وكتب بعد عُدَد الملوك والسلاطين «الجماعة الفلانية» أو غير ذلك مما يقتضى التعريفَ بمن كُتِب إليه .

أما فى ”التثقيف“ فقد رتّب المطلقات المصَغَّرة علىٰ ستة أصناف :

الصنف الأوّل — المطلقات إلىٰ جميع نُوّاب القلاع بالمملكة الشامية، أو بالمملكة الحَلبِيّــة .

وصورة ما يكتب إليهم فى الطرّة : « مثــالٌ شريفٌ مطلَقٌ إلىٰ المجالس العالية والسامية الأميريّة ، ومجالس الأمراء النُّوّاب بالقلاع الفُلَانية المحروســة ، أدام الله تعالىٰ نعمتَهم بمــا رُسِم لهم به من كذا وكذا» إلىٰ آخره. ثم يقال : علىٰ ماشُرِح فيه ؛ ثم يُخْلىٰ وصْلَان بيــاضا بوصل الطرّة؛ ثم تكتب البسملة فى أعلىٰ الوصل الثالث ؛ ثم يكتب بعــد البسملة : « صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلىٰ المجالس العاليــة والسامية الأميريّة » وبقية ألقابهم . « ومجالِسِ الأمراء الأجِلّاء، الأكابر، المجاهديــن ، المؤيّدين، الأنصار، أمجاد الإســلام والمسلمين ، شَرَف الأمراء فى العالمين، أنصار الغُزَاة والمجاهــدين، مقدّمى العساكر ، كُهُوف الملّة ، أعوانِ الأمّة ، ظهيرى الملوك

(1) الزيادة من التعريف .

والسلاطين، النوّاب بالقِلَاع المنصورة بالمملكة الفلانية المحروسة» . والدعاء إلى آخره «موضحة لعلمهم كذا وكذا . ومرسومُنا للمجالس العالية والسامية ، ومجالس الأُمَراء أن يتقدّموا بكذا وكذا ، فيُحيطُ علمُهم بذلك . والله تعالى يؤيِّدهم بمنّه وكرمه» والعلامة «والدهم» .

الصنف الثانى — المطْلَقات إلى أصاغر نوّاب القِلَاع ، ممن يكتب إليه بالسامىّ بالياء ، أو بالسامى بغير ياء ، أو بمجلس الأمير .

وصورة مايكتَب إليهم فى الطرَّة : «مثالٌ شريفٌ مطلَق إلى المجالس الساميَّة ، ومجالس الأمراء النوّاب بالقلاع الفلانية ، أو بوِلاية فلانة وفلانة ، أدام الله تعالى عُلُوّهم» بما رُسِم لهم به نظير ماتقدّم . وبعد البسملة : «مثالُنا هذا إلى كلِّ واقف عليه من المجالس الساميَّة ، ومجالس الأمراء ، الأَجِلَّاء ، الأكابر ، الغُزَاة ، المجاهدين ، المؤيِّدين ، الأنصار ، أمجاد الإسلام ، أشراف الأمراء ، زُيُون المجاهدين ، عُمَد الملوك والسلاطين ، أو عُدَد الملوك والسلاطين ، النُّوّاب بالقلاع الفلانية المحروسة» حَسَب ما كتب فى الطرّة ، والدعاء «يتضمن إعلامهم أن الأمر كذا وكذا ومرسومنا للمجالس الساميَّة ومجالس الأمراء أن يتقدّموا بكذا وكذا ، فلْيعلموا ذلك ويعتَمِدُوه ويعملوا بحَسَبه ، والله الموفق بمنّه وكرمه» والعلامةُ الاسم الشريف .

الصنف الثالث — المطلقات إلى عُرْبان الطاعة بالممالك الشاميَّة .

والأمر فيه كما فى الصنف الذى قبله . قال فى "التثقيف" : فإن كان المطْلَق إلى طائفة من العُرْبان ممن له عادةٌ بمكاتبة جليلة : بأن تكون العلامة «والده» أو نحو ذلك : كآل مُهَنَّا ، وآل فَضْل ، وآل علىّ ، وآل مِرَا ، ونحوهم ، فإنه تكونُ صورة مايكتب فى الطُّرة : «مثالٌ شريفٌ مطلق إلى جماعة العُرْبان ، آل فلان» ،

إلىٰ آخره . وفى الصدر بعد البسملة : «مثالُنا هذا إلىٰ كلِّ واقف عليه من المجالس السامية ومجالس الأمراء» وبقية الألقاب «الكُشَّاف(١) والوُلاة والنواب بالوجهين القبلى والبحرىّ» . ثم الدعاء . ثم يقال : «يتضَمَّن إعلامهم كذا وكذا» . ثم البقية من نسبة ما تقدّم .

قال فى "التثقيف" : وغالبا يُفْرَد الوجه القبلىّ بمطلقٍ شريف ، والوجه البحرىّ بمطلقٍ شريفٍ . قال : وقد تضافُ إلىٰ الوجه البحرىّ الثُّغُور . فيقال : «الكُشَّاف والوُلَاة والنُّوّاب بالوجه البحرىّ والثُّغُور المحروسة » . قال : وإضافة الثُّغُور لاتقع إلا نادرا ، لاسيما وقد صار ثغرُ الإسكندرية نيابةً لاولايةً . ثم قال : وفى هــذا الوقت قد يتعذَّر إضافة نائب الوجه القبــلىّ مع الوُلَاة فى المطلق لآرتفاع مكاتبته عنهم بدرجات ، فيفْرَد بمثالٍ شريف ، ويُكْتَب المطلق إلىٰ بقية الكُشّاف والوُلَاة . ثم قال : هذا الذى يظهر .

قلت : ويمكن أن يجمع معهم ، بأن يكتب : «أدام الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» إلىٰ آخره . ثم يقال : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى» إلىٰ آخره «وتُوضِّح لعلمه الكريم وعلم المجالس السامية ومجالس الأمراء» إلىٰ آخر ألقابهم «الوُلَاةِ بالوجه القبلى» أن الأمر كذا وكذا : ويكمل علىٰ ماتقدّم .

قال فى "التثقيف" : ومما جرَتِ العادةُ به أن يُكتَب مطلقٌ شريفٌ إلىٰ الأمراء بالمملكة الطرابُلُسِيَّة ، أو الحَمَوية ، أو الصَّفَدية وغيرها ، عنــد ولايةِ نائب السلطنة

(١) من هنا إلىٰ قوله بعد قال فى التثقيف ومما جرت العادة به الخ لايتعلق بالكلام على مطلقات عربان الطاعة بالممالك الشامية الذى هو موضوع الصنف الثالث كما لايخفى ، ولعله مقدّم مما يأتى بعد فى الكلام علىٰ المطلقات بالديار المصرية فتنبه .

بتلك المملكة بإعلامهم بذلك ؛ فيكتب علىٰ هذا الحكم، ولكنه بعُنْوانٍ بغير طُرَّة . قال : وصورته فى الصدر بعد البسملة : «مثالُنا هذا إلىٰ كلّ واقف عليه من المجالس الساميَّة ، ومجالس الأمراء الأجِلَّاء الأكابر» إلىٰ آخر الألقاب، والدعاء «يتضمن إعلامهم كذا وكذا» إلىٰ آخره كما تقدّم،ولكنه لا يصَرَّح بذكر الوُلَاة والنوّاب كما يصَرَّح بذكر من يُكْتَب إليـه المطلقُ فى غير هذه الحـالة . والعنوان : «المجالس السامية ومجالس الأمراء الأجِلَّاء الأكابر» إلىٰ آخر الألقـاب والنُّعوت جميعها ، والدعاء ، والتعريف «أمراء الطبْلَخانات والعَشَرات بطرابلس المحروسة، أو بحماةَ، أو بصَفَد، أو بغزَّة . قال : أما مملكتا الشـام وحلب ، فإنه لم تجر العـادةُ بكتابةِ مطلق بولَاية نائبهـما، بل يُكتب إلىٰ أمير حاجب بتلك المملكة بإعلامه بذلك . وأما الكَرَك : فإنه يكتب إلىٰ والِى القلعـة به بمثـل ذلك . وكـذلك يكتب إلىٰ الحـاجب بالإسكندرية مثل ذلك .

وهذان شيئان يجب التنبه لها .

أحدهما كلُّ ما كان من ألقاب المطْلَقات بصيغة الجمع وهو (١) كأعضاد، فإنه يجوز فيه الإفراد فيقال : فيه عَضُد، وهذا مما نَبَّه عليه فى "التعريف" فى الكلام علىٰ المطلقات .

الثانى . قال فى "التثقيف" : فإن قلت : لأىّ شيءٍ تُذْكَر أسماء الوُلَاة والنُّوّاب والعُرْبان وغيرهم فى الصَّـدْر بعد تمـام النُّعوت وقبل الدعاء، ولا تُكْتَب فى صدر المطلقات إلىٰ الأمراء بالممـالك المتقدّمة الذكر عنـد ولاية النائب بهـا أو غيره ؟

(١) بياض بالأصل . ولعله وهو فى الأصـل مصدر كأعضاد الخ كما تقدم مثله للمؤلف فى الألقاب مرارا، فتنبه .

فالجواب أن ذلك فى صدر المثال الشريف هو التعريفُ الذى من عادته أن يكون فى العُنْوان ولا يُستغنىٰ عنـه فهو قائم مَقامَه، حيث لاعُنْوان لذلك المطلَق، إنمـا هو بطرّة لاغير، ولهـا عُنْوانات، والتعريف مـذكورٌ فيهـا فلا حاجة إلىٰ ذكره فى الصدر. ثم قال : ومن الجمـاعة من يُنازع فى ذلك، ويدّعى أنّ ذلك فى الطرّة كافٍ ومغنٍ عن ذكره فى الصدر، وقائمٌ مقام التعريف فى العُنْوان. ثم قال : وهو خطأ، وليس بشىءٍ. والأصح ماقلناه.

[الصـنف] (١) الرابع — قال فى "التثقيف" : إذا كان المطلق فى أمر يتعلّق بالديار المصرية والبـلاد الشامية، تكون صـورتُه « إلىٰ الكُشّاف والوُلَاة والنوّاب والشادّين والمتصرفين بالطُّرُقات المصرية والبلاد الشامية . وإن كان يتعلق بالبلاد الشامية خاصة، آختُصِر منه ذكر الطرقات المصرية».

[الصنف] (١) الخامس — ذكر فى "التعريف" أنه يقال فى آخر المطلقات بعـد فلْيَعْلَموا ذلك ويعتمِدُوه : «بعد الخط الشريف». قال فى "التثقيف" ولعل هذا كان فى الزمن الذى كان هو مباشرا فيه، أما الآنَ فإنه لم تجر بذلك عادةٌ، ولم يكتب ذلك فى مطلق شريف مكبّر ولا غيره أصلا .

[الصنف] (١) السادس — ذكر فى "التثقيف" أنه رأىٰ بخط القاضى ناصر الدين آبن النّشائى أنه كتب مطلقا إلىٰ المجاهدين بمِصْـياف؛ يعنى الفِـدَاوية صورته : « يعـلَمُ كُلُّ واقف علىٰ مثالنا هـذا من المقدّمين الأجلاء الغُزَاة المجـاهدين المؤيّدين الأنصار، الأتابِك فلان والأتابِك فلان جماعة المجاهدين» ثم الدعاء .

(١) زدنا هذا اللفظ توضيحا للقام وتتميا لمقسم الكلام .

الضـــــرب الثـانى

(من المطلقـات، البَرَالغ)

بالباء الموحدة والراء المهملة والألف واللام والغين المعجمة جمع بَرْلَغ[1]، وهى لفظة تركيـة معناها المرسوم؛ وعليهـا جرىٰ عُرْف كُتَّاب بلاد الشرق، وقلَّ أن تُكْتَب بالديار المصرية، ولذلك لم يتعرَّض لها فى "التعريف" ولا فى "التثقيف" : وهذه صورة بَرْلَغ شريف رأيتهـا فى تذكرة المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله فى الجزء السادس والأربعين منها، بخط أخيه المَقَرّ العلائىّ بن فضل الله رحمهما الله تعـالىٰ؛ كتب فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» . فى عاشِر شهر رجب الفَرْد سنةَ تسع وعشرين وسبعمائة لتمربُغَا، الرسولِ الواصل إلىٰ الديار المصرية، عن القانِ أبى سعيدٍ صاحب مملكة إيران بالإكرام والمسامحة بمـا يلزمه . وصورته فى أوّل الدرج .

مثـالٌ شريفٌ مطلق إلىٰ كافَّة من يصل إليه، ويقف عليـه، للمجلس السامىّ الأميرىّ السيفىّ تمربغا الرسول، بالطَّرْخانيَّة، وتمكينِ أصحابه من التردُّد إلىٰ الممـالك الشريفة الإسلامية، وإكرامِ حاشيتهم وتسهيل مَطْلَبهم، ومسامحتِهم فى البيع والشِّراء بمـا طُلِب من الحقوق علىٰ آختلافها، وتحذيرِ من سَمِـع هذه المراسيمَ المطاعة ثم أقْدم علىٰ خلافها . وبعد البسملة :

الحمد لله الذى بسط أيدينَا الشريفةَ بالجُود، ونَصَب أبوابَنَا الشريفة كعبةً تهوِى إليها أفئدةُ الوُفُود، وأطاب مَنَاهِلَها لكافَّة الأُمَم لتَنْتَابَهَا فى الصُّدُور والوُرُود .

نَحْمَدُه علىٰ نعَمِه التى كَمْ بلَّغتْ راجيًا مايرجُوه، ونشهد أنْ لاإلٰهَ إلا الله وحدَهُ لاشريك له شهادةً تبيضُّ بهـا الوُجوه، ونشهد أن محمدا عبدُه ورسوله الذى نَدَب

(١) كتب بهامش الأصـل ما نصه «لو لم يقيـده بالباء الموحدة لكان أولى على مالا يخفى» ومراده أنه بالمثناة التحتية كما تقدم .

إلىٰ مَكَارم الاخلاق بقوله : «إذا أتاكُمْ كَرِيمُ قومٍ فأكْرِموه» ؛ صلىّٰ الله عليه صلاةً تزيد من يَقْرُن الثناء بهاتكريمـا، ثم علىٰ آله وصحبه وسلَّم تسليما .

وبعد : فإنه لمـا حضر المجلسُ السامىُّ الأميرىّ ، الأسفَهْسَلارىّ ، السَّـيْفىّ ، مجدُ الإسـلام والمسلمين ، شرفُ الأمراء المقدَّمين ، ناصحُ الدولتين ، ثقةُ المملكتَيْن ، فخرُ الخواصِّ المقرَّبين ، عضدُ الملوك والسلاطين ، تمربغا الرسول ـ أنجح الله تعالىٰ مَسَاعيه ، وأوجب الرعاية لمن يُراعِيه ـ إلىٰ أبوابنا الشريفة ونُورُ ولائه يَسْعىٰ بين يديه ، وإخلاصُ نيَّته يَظْهر عليـه ؛ بلَّغ إلينا ماأُرسل فيه عن الحضرة الشريفة العاليـة ، السلطانيةِ ، العالميَّةِ ، العادليَّة ، الشاهنشاهية ، القانيَّة ، الأوحدية ، الوَلَدية ، العزيزية ، المعظَّمية ، المَلَكية ، العلائيـة ، أبىِ سعيد بَهَادِر خان ـ زِيدتْ عظمتُـه ـ وظهر لنا من كمال صِـفاتِه ما رمىٰ البدْرَ التمـام بنَقْصه ، ومن حسن تأَتِّيـه فى خِدمةِ من أرسـله مايُعْرَف به أنه أرسل حكيما ولم يُوصِّه ؛ وعَرَضَ علىٰ نظرنا الشريف البرلغ الشريف المكتتَب له عن الحضرة الشريفة ، السلطان الأعظم ، الولد العزيز المعظَّم ، الملك بو سعيد ، أعز الله تعالىٰ شأنه بالطَّرْخانِيَّه ، وما نَبَّه عليـه من مكانته العليه ، ورَقَّه مطالبه من تأكيد الوصِيَّه ، ثم رَغِب إلينا فى الكتابة علىٰ حُكْمِه إلىٰ كافَّة الممالك ، وأن يُسَطَّر له منها صحائفُ حَسَـنات تقضِى بها الملوكُ وترضىٰ بها المَلاَئك ؛ فأجْرَتْه مراحمنا الشريفـةُ علىٰ كرمها المُعْتاد ، وأجارته نِعَمُنا الجزيلةُ وجاورَتْه حيث سار من الأرض أو أقام من البِلاد ، وأجابت صدقاتُنا الشريفة بتحقيق المأمول ، وأكرمت كتَابَهُ بمـا يستحق أن يكرم به كتَابُ الرَّسُول . ومرسومُنا إلىٰ كلِّ واقف عليه من النُّوّاب والوُلَاة والشادِّين والمتصرفين والمبـاشرين والمتحدِّثين وبقية الحكام أجمعين إلىٰ كافة الممالك الشريفة الإسلامية شرْقًا وغَرْبا ، وبُعْدا وقُرْبا ، أيَّدهم الله بالتوفيق ، ويَسَّر لهم الطريق ، وجعل حُسْن تلَقِّيهم الوفودَ يأتِى بهم من كلِّ فَجٍّ عَمِيق ، أن يُجْرىٰ

الأمير الكبير المقرَّب تمربغا الرسول علىٰ ماألِفَه فى أبوابنا الشريفـة من كَرَم إكرامه، وفارقنا عليــه من توقير جانبه وتَوْفير آحترامه؛ ويُفْسَحَ لكلِّ من يصــل من جِهَتِــه فى التردُّد إلىٰ هذه المَمَالك الشريفه، والتردِّى بملابس النِّعم المُطِيفه؛ وأن تُضاعَف له الإعانة والعِنَـايه، والمُراعاة والرِّعايه؛ ولا يُطْلَب أحد منهــم فى البيع والشِّراء، والأَخْذ والعطاء، بشيءٍ من المَقرَّرات الدِّيوانيه، والمُوجَبات السلطانيه؛ ولا يُؤْخَذ منهم عليها شيءٌ سواء كان قليلًا أوكثيرا، جليــلًا أو حَقِيرا؛ ولا يَتَأوَّلُ عليهم أحدٌ فى هذا المرسوم الشريف، ولا يتعدّىٰ حكمَه فى تصرُّف ولا تَصريف؛ بل يقف كلٌّ واقف عليه عنده، ويعمَلُ به فى اليوم وما بعدَه، ويلحَظُ منــه علىٰ مَن خالفه سـيفًا مسلولًا وعلىٰ مَنْ تجاوز حَدّه؛ فنحن نحذِّر ونُنْذِر من سَطَواتنا الشريفــة من سمعه ثم زاغ قلبُه عنــه، أو مَنْ بلغه من لايفهم مضمونَه ثم لايسأل عمَّـا هو فرُبَّ حامل كلامٍ إلىٰ مَنْ هو أوعىٰ منه؛ فلْتكُنْ عيونُهم له مُراعِيَه، ومسامعُهم منصِــتةً إلىٰ سمـاعه بأذُنٍ واعيه؛ والآعتماد علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ وشرّفه .

المقْصِـــــد الثـالث

(من المكاتبات، فى أوراق الجَوَاز وبطَائق الحَمَـام، وفيه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى أوراق الجَــوَاز)

وهى المعبَّر عنه فى زماننا بأوراق الطَّريق . قال فى "التثقيف" : تكون ورقةُ الطريق فى ثلاثةِ أوصال فى قَطْع العادة، يُكْتَب فى أعلاها سطرٌ واحدٌ، صورته : « ورقةُ طريقٍ علىٰ يد فلان بن فلان الفلانى » لاغير . ثم يُخْلَىٰ بيتُ العلامة تقديرَ شبر، ويكْتَب فى بقية ذلك الوصل قبل الوصل الثانى بأربعـة أصابع مطبوقةٍ بغير

بسملة : « رُسِم بالامر الشريف العالى المولوىّ السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ وشرّفه ، وأنفـذه وصَرَّفه ـ أنْ يمكَّن فلان الفلانىُّ » . وتُذْكر ألقابه إن كان أميرا ، أو متعمِّما كبيرا ، أو ممن له قدر ، أو له ألقاب معهودة أو غير ذلك بحسَب ما يقتضيه الحـال « من التوجه إلىٰ جهة قَصْـده والعَوْد . ويحمل علىٰ فرسٍ واحدٍ أو أكثر من خيـل البريد المنصور من مَرْكزٍ إلىٰ مَرْكز علىٰ العادة متوجِّها وعائدا » فإن كان متميز المقـدار كُتِب : « ويعـامَلُ بالاكرام والاحترام ، والرِّعاية الوافرة الأقسام ؛ فليُعْتَمد ذلك ويُعْمَلْ بحسبه ، من غير عُدُول عنه بعـد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه » . قال : وما تقدّم من كتابة أنه يمكّن من التوجُّه والعَوْد ، هو فيما إذا كان عائدًا ورُسِم بتمكينـه من العَوْد ، وإلا فيكتَب « أن يمكَّن من التوجُّه إلىٰ جهة قَصْده » . فإن كان قد حضر إلىٰ الأبواب وهو عائدٌ ، فالأحسن أن يكتب فيـه « أن يمكَّنَ من العود إلىٰ جِهَة قصده » . وكذا « ويعامل بالإكرام والاحترام » لا يكتَبُ إلا لأمير ، أوذى قَدْر كبير . فإن كان غيْره ، كتب [بَدَ]له « مع الوصيَّة به ورِعَايته » ونحو ذلك . وإن رسم له بنفَقَة ، كتب بعد ذكر خيل البريد: « ويُصْرَف له من النَّفَـقة فى كلِّ يومٍ كذا وكذا دِرهمـا » خلا الأماكن المرسوم بابطالهـا . وذلك أن بالطُّرُقات أماكن لا يُصْرَف فيها شيء الآنَ ، فيُحتاجُ إلىٰ أن تُسْتثنىٰ ، وكانت قبل ذلك تُعيَّن ، وهى : بلْبيْس ، وطَفِيس ، وأَرْبَدُ وغيرها . ثم كثُرت عن التَّعْداد ، فصار يكتب كذلك . ثم قال : وممـا ينبَّه عليه أن صاحب ورقة الطريق إنْ كان من ممـاليك النوّاب أو رُسُل أحدٍ من أكابر البلاد ، ذكر فيه بعد ذكر مايليق به من الألقاب : « فلانٌ مملوكُ فلان أو رسول فلان » . وتُذْكَر ألقاب مخدومه التى كوتب بها اختصـارا . والا تذكر نعوته علىٰ يدِ من رسم بنفيه (1) ،

(1) كذا فى الاصل ولعله ولا تذكر نعوته وعلىٰ يد مَنْ ، وإن رسم بنفيه كتب الخ تأمل .

كتب : «أنْ يمكَّن الأميرُ فلان الدين فلان من التوجُّه صُحبةَ فلان البريدىّ بالأبواب الشريفة، أو أحد النقباء بالباب الشريف ليوصِّله إلىٰ المكان الفلانى، ويحمل علىٰ كذا وكذا فرسًا من خيل البريد المنصور» إن كان قد رُسِم له بشىء من خيل البريد «ويحمل البَرِيدى علىٰ كذا من خيل البريد المنصور» أو «ويحمل النقيبُ علىٰ فرسٍ واحدٍ من خيل الكِرَاء من ولاية إلىٰ ولاية علىٰ العادة فى ذلك، ويمكَّن البَرِيدىّ إن كان بَرِيديًّا أو النقيبُ إن كان نقِيبًا من العود إلىٰ الباب الشريف» . ثم يكمل بنسبة ماتقدّم . وإذا فرغ من صورته، كتب بعد ذلك « إن شاء الله تعالىٰ » ، ثم التاريخ والمستَنَد علىٰ العـادة .

قال : فى "التثقيف" : والمستَنَد فى أوراق الطريق أحدُ ثلاثة أمور : إماخطُّ كاتب السر، وهو الغـالب . أو رسالةُ الدَّوادَار، وهو كثير أيضا . أو إشارةُ نائبِ السلطان إن كان ثَمَّ نائب، وهو نادر . فإن كان بخطّ كاتب السر، كُتِب علىٰ الهامش من الجانب الأيمن سَطْر واحد يكون آخرُه يقابل السـطرَ الأوّل الذى هو رُسِم بالأمر الشريف ، وهو « حَسَبَ المرسـوم الشريف » . وكذا إن كان بإشـارةِ النائب، كُتِب سطران علىٰ الهامش المذكور آخرهمـا أيضا يقابل أوّل السطر الأوّل « بالإشـارة العـالية » (١) كما تقدّم فى الكلام علىٰ المستَنَدات فى المقالة الثانية . قال : وفى هاتين لايُكْتَب فى ذيلهما بعد التاريخ سِوىٰ الحَسْـبَلة لاغير . وإن كان برسالة الدَّوَادار ، كتب علىٰ الهـامش «حَسَب المرسوم الشريف» فقط ، وكُتِب تحت التاريخ سطران هما «رسالةُ المجلس العالى الأميرىّ الفلانىّ فلان الدَّوادار المنصورىّ أدام الله تعالىٰ نعمته» ، ثم الحَسْبَلة .

(١) صوابه الثالثة . والذى تقدم فى ج ٦ ص ٢٦٤ «فيكتب» ـــ بالاشارة العالية الأميرية الكبيرية الكافلية ، كافل الممالك الشريفة الاسلامية أعلاها الله تعالىٰ ـــ سطرين ويكون آخر السطر الأوّل الكافلية الفلانيـــة .

الجمـــــلة الثانية

(فى نُسَخ البطائق، وهى علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(أن تكون البِطاقةُ بعلامةٍ شريفةٍ)

قال فى "التثقيف" : وتكونُ نحوَ ثلُثَىْ وَصْل من ورق البَطائِق . قال : وصورتها أن يكتب فى رأس الورق المـذكور فى الوسط سَواءً « الآسمُ الشريف » وتحتَـه مُلْصَـقا به من غير بياض سطرٌ واحدٌ كامل من يمين الورق بغـير هامش بمـا يأتى ذكره . ثم يُخْلى بيتُ العلامة تقـديرَ أربعة أصابع مطبوقةٍ، ثم تُكتَب تَتِمَّةُ الكلام أسطرا متلاصقة بنسبة الأوّل، بغير هامش أصلا إلىٰ آخره . والذى يكتب من يمين الورق . «الله الهادى . سُرِّح الطائرُ الميمونُ ورفيقُه، هداهما الله تعالىٰ فى الساعة الفلانية من اليوم الفلانىّ من الشهر الفلانىّ من سنة كذا وكذا، إلىٰ المجْلِس الكريم، أو السـامى ، الأمير فلان وَالِى فلانة ، أو نحو ذلك ، يُعْلِمه أنَّ الأمر كذا وكذا . ومرسومُنا له أنْ يتقـدّم بكذا وكذا ، فلْيَعْـلمْ ذلك ويعتمِدْه ، والله الموفِّق بمنِّـه وكرمـه إن شاء الله تعـالىٰ ، حَسْبنا الله ونعم الوكِيل » . والمستندُ لهـا « حَسَبَ المرسومِ الشريف» .

الضرب الثـانى

(أن تكون بغير علامــة)

وصورتهـا أن يكتب فى رأس الورقة فى الوسط موضِعَ الآسم : «الله الهـادى بكرمه » ، والأسـطر متلاصقةٌ بغـير هامش، ولا يُخلىٰ فيها بيتُ علامة . وصورة

مايكتب فيها : «المرسوم بالأمر الشريف، العالى، المولوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ، الفلانى، أعلاه الله تعالىٰ وصرّفه ـ أنْ يُسَرَّح هذا الطائر الميمونُ ورفيقُه، هداهما الله تعالىٰ فى وقتِ كذا وكذا» . ويكمِّل علىٰ حَسَب ماتقدّم «والله الموفق، حَسَبَ المرسوم الشريف، إن شاء الله تعالىٰ» . قال فى "التثقيف" : وقد يقتضِى الحالُ نقلَها من مكان إلىٰ مكان آخرَ، مثل أن تنقل من بلبيس إلىٰ قَطْيَا، فيكتب بعد ذكر المرسوم به : «ويتقدّمَ بنقل هذه البِطاقةِ إلىٰ فلانٍ الفلانىّ ليعتمدَ مضمُونَها ويعمَلَ بحسَبِها» . فإن كانت منقولة إلىٰ مكانٍ ثالثٍ، كتب بعد ذلك : «ثم ينقُلُها إلىٰ فلان ليعتمدَ مضمونَها أيضا ويعملَ بمقتضاها فيعلم ذلك ويعتمِده» . والتتمة حَسَب ماتقدّم .

الطــــرف الثـالث

(فى المكاتبات إلىٰ عُظَماء ملوك الإسلام، ومن ٱنطوَتْ عليه ممالكُهُم ممَّن دُونَهم من الملوك والحُكَّام المنفردين ببعض البُلْدان، والأمراءِ والوزراءِ وسائِر مَن ضَمَّه نِطاقُ كلِّ مملكة من تلك الممالك، ممَّن جرتِ العادةُ بمكاتبته عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية، ممن هو مستَمِرُّ المكاتبة أو زالت مكاتبته بزواله : ليُقاس عليه مَنْ لعله يظْهَر مَظْهَره)

وٱعلم أن كُتَّاب الديار المصرية يُراعُون فى المكاتبة إلىٰ كلِّ مملكةٍ صورةَ المكاتبة الواردة عن تلك المملكةِ فى غالب حالِها : فى الٱبتداء والخِطاب والٱختتامِ وغيرذلك.

وفيه أربعة مقاصد :

المقصــــد الأوّل

(فى المكاتبات إلىٰ عُظَماء ملوك الشَّرْق، ومَنِ آنطوت عليه كلُّ مملكة من ممالكهم، ممن جرتِ العادةُ بمكاتبته، وفيه أربعة مَهَايِـعَ)

المَهْيَـــع الأوّل

(فى المكاتبة إلىٰ الملوك والحُكَّام، ومَنْ جرىٰ مَجْراهم بمملكة إيرانَ، وهى مملكةُ الأكاسرةِ الصائرةُ إلىٰ بيت هُولاكُو من بنى جنكزخان)

وقد تقدّم فى المقالة الثالثة فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ذكرُ حدودِ هذه المملكة وقواعِدها ومُدُنها ، وإلىٰ من تُنْسَب ، ومَنْ ملكها جاهليّــةً وإسلامًا إلىٰ زماننا . والمقصُود هنا ذكرُ المكاتَبَات فقط؛ ويشتمل المقصود منها علىٰ ثلاث جُمَل .

الجمــــلة الأولىٰ

(فى رسم المكاتبة إلىٰ قانِها الأعظم الجامع لحُدُودها، علىٰ ما كان الأمرُ عليه من مَبْدَإ ملك بيتِ هُولاكُو وإلىٰ آخر دولة أبى سعيدٍ، وله حالتان)

الحـالة الأولىٰ — ما كان الأمر عليه فى رَسْم المكاتبة فى أوائل الدولة التُّرْكية ، والعداوةُ بعدُ قائمةٌ بين ملوك الديار المصرية وبين مُلُوكها . وفيه أسلوبان

الأسلوب الأوّل — أن يُكْتَب تحتَ البسملةِ من الجانب الأيمن «بقُوّة الله تعالى» ويكون "بقوة الله" سطرا و«تعالىٰ» سطرا؛ ثم يكتب من الجانب الأيسر: «بإقبال دولة السلطانِ الملك الفلانى» . ويكون « بإقبال دولة» سطرا، وباقى الكلام سطرا ثانيا . ثم يكتب تحتَ ذلك «كلام فلان» سطرا ثانيا « إلىٰ السلطان فلان سطرا ثالثا » . ثم يُؤتىٰ ببَعْدِيَّة وخُطْبة ، ويُؤتىٰ بالمقصود .

وطريقُهم فيه على التكلُّم عن لسان صاحب مصر بنون الجمع ؛ والخطابِ لسلطان إيران بميم الجمع الغائب ، مضاهاة لمكاتبتهم الواردة عنهم فى جميع ذلك .

وهذه نسخة كتاب ، كُتِب به عن السلطان الملك المنصور قلاوون ، صاحبِ الديار المصرية ، فى جوابِ كتابٍ ورد عن السلطان أحمدَ القانِ بإيران فى زمانه . يذكر فيه أنَّه أسلم ، إذ كان أوّل من أسلم من مُلُوكهم ، ويذكر فيه أن أخاه الكبيرَ كان قد عَزَم على دخول ممالك الديار المصرية قبل مَوْته ، وأنه مَنَع ذلك ، وأنه لايحب المسارعة إلى القتال ، وأن المشير بذلك الشيخُ عبدُ الرحمن : أحد صُلَحاء بلادهم ، وأنه حَرَّم على عساكره الغاراتِ على البلاد ، وتعرَّض فيه إلى أمر الجَوَاسيس ، وأشار إلى أنَّ الاتِّفاقَ فيه صلاحُ العالمَ ، وأشار إلى أشياءَ حَمَّلها لرُسُله يذكرونها مُشافهةً ، ووقع الجواب عن جميع ذلك على ما سيأتى ذكره فى الكُتُب الواردة على الديار المصرية .
وكُتِب بخط ناصرِ الدين شافع بن علىّ بن عباس : أحد كُتَّاب الإنشاء ، فى رمضان سنة إحدى وثمانين وستمائة . والتكلُّم بنون الجمع ، والخطاب بالجمع الغائب كما تقدّم فى الأسلوب الأوّل ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوّة الله تعالى — باقبال دولة السلطان الملك المنصور

كلام قلاوون

إلى السلطان أحمد

أما بعد حمدِ الله الذى أوْضَح بنا ولنا الحَقَّ مِنْهاجا ، وجاءَ بجاء نصرُ الله والفتحُ ودخَل الناسُ فى دينِ اللهِ أفْواجا ، والصلاةِ على سيدنا ونبيِّنا محمد الذى فَضَّله الله

علىٰ كلّ نبيّ نجّى به أمتَه وعلىٰ كل نبيّ ناجا، صلاةً تُنير مادَجَا ؛ فقد وصل الكتَابُ الكريم، المتَلَقّى بالتكريم، المشتملُ علىٰ النَّبأ العظيم ؛ من دُخُوله فى الدِّين، وخُروجِه عمن سلفَ من العشـيرةِ الأقربين ؛ ولمـا فُتِح هذا الكتاب بهذا الخبر العَلَم المُعْلِم، والحديثِ الذى صَحّح عند أهل الإسلام إسلامَه وأصحُّ الحديث مارُوِى عن مسلم، توجّهت الوجوهُ بالدعاء إلىٰ الله سـبحانه فى أن يُثَبِّته علىٰ ذلك بالقول الثابت، وأن يُنْبِت حَبَّ حُبِّ هـذا الدين فى قلبه كما أنْبتَ أحْسَن النَّبْت من أخشن المَنَابت ؛ وحصل التأمُّلُ للفصل المبتدإ بذكره من حديث إخلاصه فى أوّل عُنْفُوان الصِّبا إلىٰ الإقرار بالوَحْدانيه، ودُخُوله فى المِلَّة المحمديه، بالقول والعمل والنيَّه ؛ فالحمدُ لله علىٰ أنْ شرح صدْرَه للإسلام، وألهمه شرِيفَ هذا الإلهـام ؛ فحمِدْنا اللهَ علىٰ أنْ جعلَنا من السابقين إلىٰ هـذا المَقَالِ والمقام، وثبّتَ أقدامنا فى كلّ موقِف آجتهاد وجِهَاد تتزلزل دُونَه الأقدام .

وأمَّا إفضاءُ النَّوْبة فى المُلْك وميراثُه بعد والده وأخيه الكبير إليه، وإفاضةُ جَلابِيبِ هذه النعمةِ العظيمة عليه ؛ وتوقُّلُه للأسِرَّة التى طَهّرها اللهُ بإيمانِه، وأظهرهابسُلْطانه ؛ فلقد أورثها اللهُ مَن آصـطفاه من عباده، وصَـدَّق المبشِّرات من كرامة أوليـاءِ الله وعُبَّاده .

وأمَّا حكاية الإخْوان والأمراء الكبارِ ومقدّمِى العسـاكر وزُعمـاء البلاد فى مجمع قوريلتـاى الذى ينقدح فيـه زَنْدُ الآراء، وأن كلمتهم آتفقت علىٰ ماسبقتْ به كلمة أخيه الكبير فى إنفاذ العساكر إلىٰ هـذا الجانب، وأنه قد فكّر فيما آجتمعت عليـه آراؤهم، وآنتهتْ إليه أهواؤهم ؛ فوجده مخالفًا لما فى ضميره : إذ قَصْـدُه الصَّلاح، ورأيُهُ الإصلاح ؛ وأنه أطفأ تلك النائره، وسَكّن تلك الثائره ؛ فهذا فعل الملِك المتّقِى، المُشْفِق من قومه علىٰ مَنْ بَقِى ؛ المفكِّر فى العواقب، بالرأْى الثاقب ؛ وإلا فلو تُرِكوا

وآراءَهُم حتّٰى تحملهم الغِزه ، لكانت تكون هذه هى الكَرَّه ؛ لكن هو كمن خاف مَقامَ ربه ونَهىٰ النفس عن الهَوىٰ ، فلم يوافق قولَ مَنْ ضَلَّ ولا فِعْلَ مَنْ غَوىٰ .

وأما القول منـه إنه لايُحِبُّ المسارعه ، إلىٰ المُقَارعه ؛ إلا بعد إيضاح المَحَجَّه ، وتَرْكيب الحُجَّه ؛ فبانتظامه فى سلك الإيمـان صارت حُجَّتنا وحجتـه متركّبه ، علىٰ مَنْ غَدَت طواغيتُه عن سلوك هـذه المَحَجَّة مُتنَكِّبه ؛ فإن الله سبحانه وتعالىٰ والناسَ كافَّةً قد علموا أنَّ قيامَنا إنما هو لنُصْرة هذه المله ، وجِهادَنا وٱجتهادنا إنما هو لله ؛ وحيثُ قد دخل معنـا فى الدِّين هـذا الدُّخُول ، فقـد ذهبت الأحقادُ وزالت الذُّحُول ؛ وبارتفاع المُنَافَره ، تحصُـل المُظَافره ؛ فالإيمـان كالبُنْيان يُشَدّ بعضُه ببعض ، ومن أقام مَنَاره فله أهلٌ بأهل فى كل مكان وجِيران بجِيران بكلِّ أرض .

وأما ترتيبُ هذه الفوائد الجمَّة علىٰ إذْكار شيخ الإسلام قُدْوة العارفين كمال الدين عبد الرحمن ، أعاد الله تعـالىٰ من بركاته ، فلم يُراولىَ قبْـلَه كرامةٌ كهذه الكرامه ، والرَّجاءُ ببركته وبركة الصالحين أن تُصْبِح كُلُّ دارِ إسلام دارَ إقامه ؛ حتّٰى تتمَّ شرائطُ الإيمان ، ويعودَ شَمْلُ الإسلام مجتمِعًا كأحسنِ ما كان ؛ ولا يُنْكَر لمن بكرامته ٱبتداءُ هذا التمكين فى الوُجُود ، أنَّ كلَّ حقٍّ ببركته إلىٰ نِصَابه يَعُود .

وأما إنفاذُ أقضىٰ القُضاة قُطْبِ الملة والديـن ، والأتابك بَهاءِ الدين ؛ الموثوقِ بنقلهما فى إبلاغ رسائلِ هذه البلاغة ، فقد حضرا وأعادا كلَّ قولٍ حسنٍ من أحوال أحواله ، وخَطَرات خاطِره ، ومسَطَّرات ناظِره ؛ ومن كلِّ مايُشْكَر ويُحمَدُ ، ويُعنْعَن حديثُهما فيه عن مُسنَد أحمد .

وأما الإشارة إلىٰ أنَّ النُّفوس إن[(١)] كانت نتطلَّع فى إقامة دليل ، تستحكم [به] دواعى الودّ الجميـل ؛ فلينظُر إلىٰ ماظهر من مآثرِه ، فى موارد الأمر ومَصادره : من العَدْل

(١) لعل زيادة "إن" من قلم الناسخ

والإحسان، بالقَلْب واللسان، والتقدُّم بإصلاح الأوقات ، فهذه صفاتُ من يُرِيد لمُلْكه الدوام ؛ فلما مَلَك عدل ،ولم يلتفِتْ إلىٰ لُؤْم مَنْ عدا ولا لَوْم من عَذَل . علىٰ أنها وإنْ كانت من الأفعال الحسـنه ، والمَثُوباتِ التى تستنطق بالدعاء الألْسِـنه ؛ فهى واجبات تؤدّى ، وهو أكبر من أنه يؤخر غيره أوعليـه يقتصر ، أوله يدّخر ؛ إنمـا يفتخر المِلك العظيم بأن يُعطِىَ ممـالكَ وأقاليمَ وحُصُون ، أو يَبْـذُل فى تشييد مُلْكه أعزَّ مصُون .

وأما تحريمُـه علىٰ العساكر والقَراغُولات والشحانى بالأطراف التعرّضَ إلىٰ أحد بالأذى ، و[تحتيم]إصفاء مَوارد الواردين والصادرين من القَذى ؛ فمن حينَ بلغنا تقدُّمه بذلك تقدّمْنا أيضا بمثله إلىٰ سائر النُّوّاب ، بالرَّحْبة وحَلَب وعَيْنتاب ؛ وتقـدّمنا إلىٰ مقدَّم العساكر بأطراف تلك الممالك ، بمثل ذلك ؛ وإذا آتحد الإيمـان ، وآنعقدت الأيمـان ؛ تحتَّم إحكام هذه الأحكام ، وترتب عليه جميعُ الأحكام .

وأما الجاسوس الفقير الذى أُمسِـك وأُطْلِق وأنّ بسبب من تزَيَّا من الجواسيس بزىّ الفقراء قُتِـل جماعةٌ من الفقراء الصُّلَحاء رجمًـا بالظن ، فهـذا باب من ذلك الجانب ستَرُوه ، وإلىٰ الآطّلاع علىٰ الأمور صَوَّروه ؛ فظفِر النوّابُ منهم بجماعةٍ فرفع عنهم السيف ، ولم يكشف ماغَطّته خرقة الفقر ولا كيف .

وأما الإشارة إلىٰ أن فى آتفاق الكلمة يكونُ صَلاحُ العالم ، وينتظم شملُ بنى آدم ؛ فلا رادَّ لمن طرَق بابَ الآتّحاد ، ومن جَنَح للسِّلم فمـا جارَ ولاحاد ؛ ومن ثنىٰ عِنانَه عن المكافحه ، كمن يُرِيد المصافحة للمصالحَه ؛ والصُّلْح وإن كان سيدَ الأحكام فلا بدّ من أمورٍ تُبْنىٰ عليها قواعده ، وتُعلَمُ من مدلولها فوائدُه ؛ فإن الأمور المسطورةَ فى كتابه عن كلّيّات لازمة ينعم بها كلُّ معنىً معلوم إن تهيأ صلح أو لم ، وثَمَّ أمورٌ لابدّأن تُحْكَم ، وفى سلْكها عقودُ العهود تُنْظَم ؛ قد تحمَّلهـا لسانُ المشافَهَة التى إذا أُوردتْ أقبلتْ

من معنىٰ دُخوله فى الدين ، وآنتظام عِقْده بسلك المؤمنين ؛ وما بَسَطه من عَدْل وإحسان، وسيرة مشهورةٍ بكلّ لسان ، فالمِنَّة لله فى ذلك فلا يَشِيبُها منه بامْتِنان ؛ وقد أنزل اللهُ تعالىٰ علىٰ رسُوله صلىَّ الله عليه وسلم فى حَقِّ من آمتَنَّ بإسلامه : ﴿قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْلامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عليكم أنْ هَدَاكُم للْإيمان﴾ .

ومن المشافَهَة أنه قد أعطاه الله من العَطَاء ماأغْناه به عن آمتدادِ الطَّرْف إلىٰ مافى يدِ غيره من أرضٍ ومال ، فإن حصَلت الرغبةُ فى الآتفاق علىٰ ذلك فالأَمْنُ حاصل؛ فالجواب أنَّ ثَمَّ أمورا متىٰ حصَلَت عليها الموافَقه ، تمَّت المُصاحبة والمُصادَقَه ؛ ورأىٰ اللهُ تعالىٰ والناسُ كيف يكون إذلالُ مُعادِينا ، وإعزازُ مُصافِينا ؛ فكم من صاحبٍ وُجِد حيثُ لا يُوجَد الأبُ والأخُ والقَرَابه ، وما تمَّ أمرُ الدين المحمدىّ وآستحكم فى صدر الإسلام إلا بمُظافرة الصَّحابه؛ فإن كانت له رَغْبةٌ مصروفة إلىٰ الآتحاد، وحُسنِ الوِدَاد، وجميلِ الآعتضاد، وكَبْت الأعداء والأضْداد، والاستناد إلىٰ من يشْتَدّ به الأَزْر عند الآستناد، فقد فُهِم المراد .

ومن المشافَهَة إذا كانتْ رغبَتُنا غيرَ ممتدّة إلىٰ مافى يده من أرضٍ ومال، فلا حاجةَ إلىٰ إنفاذ المُغيرين الذين يُؤْذون المسلمين بغير فائدةٍ تعودُ؛ فالجواب أنه لو كُفَّ كَفُّ العُدْوان من هُنالك،وخُلِّى لملوك المسلمين مالهم من مَمَالك؛ سكَنتِ الدَّهْماء ، وحُقِنت الدِّماء ؛ وما أحقَّــه بأن لاينْهى عن خلق ويأتى مِثْلَه ، ولا يأمُرَ بشىء وينسىٰ فِعْله ؛ وقنغرطاب بالرُّوم الآنَ،وبين بلاد فىأيديكم خراجُها يُجْبىٰ إليكم، فقد سَفَك فيها وفَتَك ، وسبىٰ وهَتَك ؛ وباع الأحرار ، وأبىٰ إلا التمادى علىٰ ذلك والإصْرار .

ومن المشافهة أنهإن حصَل التصميم علىٰ أن لاتُبْطَل هذه الإغارات، ولا يُقْتَصر عن هذه الإثارات؛ فتُعَيِّن مكانا يكون فيه اللِّقاء، ويُعْطِى اللهُ النصرَلمن يشاء؛

فالجواب عن ذلك أن الأماكن التى ٱتَّفَق فيهـا ملتقىٰ الجمعـين مَرَّةً ومرةً ومرةً قد عافَ مواردَها من سلَفَ من أولئـك القوم ، وخافَ أن يُعَـاودها فيعاوِدهُ مصْرَعُ ذلك اليوم؛ ووقْتُ اللّقاء علمه عند الله لا يُقْدَر، وما النصر إلا من عندالله لمن أقدر لالمن قدر؛ وما نحن ممن ينتظر فَلْته ، ولا ممَّن له إلىٰ غير ذلك لَفْته، وما أمْرُ ساعةِ النصر إلّا كالساعة التى لاتأتِى إلا بَغْته؛ والله تعالىٰ الموفِّق لما فيه صَلاحُ هذه الأمه، والقادر علىٰ إتمـام كلِّ خير ونعمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ . مُستَهَلّ شهر رمضان المعظم قدره، سنة إحدىٰ وثمـانين وستمائة . الحمدُ لله وحده، وصلواته علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه . حسبنا الله ونِعْم الوكيل .

الأسلوب الثـانى

(أن يُكْتَب تحتَ البسملة علىٰ حِيَال وَسَطها « بقُوّة الله تعـالىٰ ومَيَامِين المـــلة المحمدية »)

ويكون « بقوّة الله تعالىٰ » سطرا ، و« مَيَامِين الملة المحمدية » سطرا ثانيـا . ثم يؤتىٰ ببعديَّة وخُطْبة مختَصَرة ؛ ثم يُكْتب سطران ببياض من الجانبين ، فيهما : « بإقبال دولةِ السلطان الملِك الفلانى، كلام فلان بن فلان» . ويكون السطر الأوّل « باقبال دولة السلطان الملِك » وباقى الكلام فى السطر الثانى . ثم يقال : « فلْيَعْـلَمْ السلطان فلان» . ويؤتىٰ علىٰ المقصود إلىٰ آخره .

وهــذه نسخةُ كتاب من إنشاء القــاضى علاءِ الدين علىّ بنِ فَتْح الدين محمد بن محيى الدين بن عبــد الظاهر، صاحبِ ديوان الإنشــاء بالديار المصرية فى جواب كتابٍ ورَدَ عن السلطان محمود غَازَان، القان بمَمْلكة إيرانَ ، يذكُر فيه أنَّ جماعةً من عساكر البلاد الشاميَّـــة أغارُوا علىٰ ماردِين ، وأن الحَمِيَّةَ ٱقتضت الرُّكوبَ فى مُقابلَة

ذلك . وذكر أنه قدَّم الرسُلَ بالإنْذار . ويذكر فيه أنهم صَبَرُوا علىٰ تماديهم فى غَيِّهم؛ ويذكر فيه نُصرتَه علىٰ العساكر الإسلامية فى المرَّة السابقة . ويذكر فيه أنه أقام بأطراف البلاد، ولم يدْخُلْها خَوفَ التخريب والفساد . ويذكر فيه جمعَ العساكر وتهْيئةَ المجَانِيق وغير ذلك من آلة القِتال . ويذكر أنه إذا لم تجْرِ مُوجِبات الصلح كانتْ دماءُ المسلمين مطلولةً؛ ويذكر إرسال رُسُله بكتابه ويلتمس التُّحَف والهَدَايا، مما كُتِب به عن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فى المحرّم سنة إحدىٰ وسبعمائة وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقُوّة الله تعالىٰ

ومَيَامِين المـلَّة المحمدية

أمَّا بعد حمدِ الله الذى جعلنا من السابقِين الأوّلين ، الهادِين المهتَدين ؛ التابعين لسُنَّة سيد المرسلين ، بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين ؛ والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصَحْبه الذين فَضَّل الله مَنْ سبق منهم إلىٰ الإيمان فى كتابه المكنون . فقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ والسَّابِقُون السابقُون أُولٰئك المُقَرَّبُون ﴾ .

بإقبال دولةِ السلطان الملك

الناصر كلام محمد بن قلاوون .

فلْيَعْلَمِ السلطانُ المعظَّم محمود غازَان أنَّ كتابه ورد ، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمِثْله من الإكرام ، ورعَيْنا له حقَّ القصد فتلقيناه منَّا بسلام ؛ وتأمَّلناه تأمُّل المتفهِّم لدقائقه، المستَكْشف عن حقائقِه ؛ فألفيناه قد تضمَّن مُؤاخَذات بأمورِهم بالمؤَاخَذة

عليها أخرىٰ، معتذرا فى التعدّى بما جعله ذُنُوبا لبعضٍ طالبَ بها الكُلّ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ﴾ .

أمّا حديثُ مَنْ أغار علىٰ ماردِينَ من رِجَالة بلادنا المتطرّفة وما نسبُوه إليهم من الأمور البَديعه، والآثام الشّنيعه ؛ وقولُهم : إنهم أَنِفُوا من تهجّمهم، وغارُوا من تقحّمِهم، وآقتضت الحميّةُ رُكُوبَهم فى مقابلة ذلك، فقد تلمّحْنا هذه الصورةَ التى أقامُوها عُذْرا فى العُدْوان، وجعلُوها سببًا إلىٰ ما آرتكبوه من طُغْيان ؛ والجواب عن ذلك أنّ الغاراتِ من الطّرَفين[و]لم يحْصُل من المُهادَنة والموادَعة مايكُفّ يدَنا الممتدّه، ولا يُفَتّرِ هِمَمها المستعدّه ؛ وقد كان آباؤُكُم وأجدادُكم علىٰ ما علمتم من الكُفْر والشّقاق، وعدمِ المُصافاة للإسلام والوِفَاق ؛ ولم يزل مَلِكُ ماردِينَ ورعيّتُه منَفّذين ما يصدر من الأذىٰ للبلاد والعباد عنهم ، متولّين كِبْرَ نُكرِهم ؛ والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾ . وحيث جعلتم هذا ذَنْبا للحميّة الجاهليّه، وحاملًا علىٰ الآنتصار الذى زعمتم أنّ هِمّتكم به مَلِيّه ؛ فقد كان هذا القصدُ الذى ادّعيتمُوه يتِمّ بالآنتقام من أهل تلك الأطراف التى أوجبَ ذلك فعلُها، والآقتصارِ علىٰ أخْذ الثار ممن ثار، آتباعا لقوله تعالىٰ: ﴿ وجَزَاءُ سيّئةٍ سَيّئةٌ مثلُها ﴾ لا أن تقْصِدُوا الإسلام بالجموع الملَفّقة علىٰ آختلافِ الأدْيان ، وتطَئُوا البِقاعَ الطاهرةَ بعَبَدة الصُّلْبان ؛ وتنتهكُوا حرمةَ البيت المقدَّس الذى هو ثانِى بيتِ الله الحَرَام ، وشقيقُ مسجد رسول الله عليه الصلاةُ والسلام ؛ وإنِ آحتججتم بأنّ زمامَ تلك الغارة بيدِنا، وسبب تعدّيهم من سُنّتنا ؛ فقد أوضحنا الجوابَ عن ذلك ، وأنّ عدم الصُّلْح والموادَعة أوجب سلوكَ هذه المسالك .

وأما ما آدّعَوْه من سُلوكِ سَنَن المرسلين ، وآقتفاءِ آثار المتقدّمين ، فى إنفاذ الرُّسُل أوّلا، فقد تلمحنا هذه الصُّوره، وفهِمْنا ماأوردُوه من الآيات المسطُوره؛ والجواب

عن ذلك أنّ هؤلاء الرُّسُلَ ما وصلُوا إلينا إلا وقد دنَتِ الخِيامُ من الخِيام، وناضلتِ السهامُ السِّهام، وشارفَ القومُ القوم، ولم يَبْقَ للّقاء إلا يومٌ أو بعضُ يوم؛ وأُشْرِعت الأسِنَّةُ من الجانبَيْن، ورأىٰ كلٌّ خَصْمَه رأْيَ العين؛ وما نحن ممن لاَحتْ له رَغْبةُ راغبٍ فتشاغَلَ عنها، ولا ممن يُسالَمُ فيقابِلُ ذلك بجفْوة النِّفار، والله تعالىٰ يقول: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾. كيف والكتاب بعُنْوانه! وأميرُ المؤمنين علىُّ بنُ أبى طالب رضى الله عنه يقول: «ما أضْمَرَ إنسانٌ شَيْئا إلا ظَهَر فى صَفَحاتِ وَجْهِه وفَلَتَاتِ لِسانِه». ولو كان حضور هٰؤلاء الرُّسُل والسُّيوفُ وادعةٌ فى أغمادها، والأسِنَّة مستكِنَّة فى أعوادها؛ والسِّهامُ غيرُ مفوَّقه، والأعنَّة غير مُطْلَقه؛ لسمِعْنا خِطابَهم، وأعَدْنا جوابهم.

وأما ماأطلَقُوا به لسانَ قلَمِهم، وأبْدَوْه من غليظ كَلِمِهم؛ فى قَوْلهم: فصبَرْنا علىٰ تَماديكم فى غَيِّكم، وإخْلادكم إلىٰ بَغْيِكم؛ فأىُّ صَبْرٍ ممن أرسل عِنَانه إلىٰ المكافَحَه، قبل إرسال رُسُل المصالَحَه؛ وجاسَ خِلالَ الدِّيار، قبل مازَعَمه من الإعْذار والإنْذار؟ وإذا فكَّرُوا فى هـذه الأسباب، ونظروا ما صـدَر عنهم منْ خِطاب؛ علموا العُذْر فى تأخير الجواب، وما يتذَكَّرُ إلا أُولُوا الألباب.

وأمَّا ما تَبَجَّحُوا به ممـا ٱعتقَدُوه من نُصْره، وظنُّوه من أنَّ الله جعل لهم علىٰ حِزْبه الغـالبِ فى كلِّ كرَةٍ الكَرَّه؛ فلو تأمَّلُوا ما ظَنُّوه ربما لوجَدُوه هو الخُسْران المبين، ولو أنْعَمُوا النظَرَ فى ذلك لمـا كانُوا به مفتخرين؛ ولَتحقَّقُوا أنَّ الذى ٱتَّفق لهم كان غُرْمًا لاغُنْما، وتدبَّرُوا معنىٰ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾. ولم يخْفَ عنهم ما نالتْه السيوفُ الإسلامية منهم، وقد رأَوْا عَزْم مَنْ حضر من عساكرنا التى لو كانتْ مجتمعةً عنـد اللّقـاء ماظهر خَبَرٌ عنهـم؛ فإنا كنّا فى مُفْتَتَح مُلْكنا، ومبتدإ أمْرِنا؛ حلَلْنا بالشأم للنظر فى امور البلاد والعِباد. فلما تحقَّقنا خبركم، وقَفَوْنا أثرَكم؛

بادرْنا نقُدّ أديمَ الأرض سَـيْرا ، وأسرعنا لندفَعَ عن المسلمين ضَرَرا وضَيْرا ، ونؤدِّىَ من الجهاد السنَّةَ والفَرْض ، ونعمَلَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ . فاتفق اللِّقاءُ بمن حضَرمن عساكرنا المنصوره ، وُثُوقا بقوله تعالىٰ : ﴿ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَه ﴾ . وإلا فأكابرُكم يعلَمُون وقائعَ الجُيُوش الإسلاميَّـة التى كم وَطِئتْ مَوْطِئًـا يَغيظ الكُفَّار فكُتِب لهـا عملٌ صالح ، وسارتْ فى سبيل الله ففَتَح عليها أبوابَ المَنَاجح ، وتعدّدتْ أيامُ نُصْرتها التى لو دقَّقتم الفكر فيها لا زالَت ماحصَـل عندكم من لَبْس ، ولَمَّـا قـدَرتم أن تُنْكروها وفى تَعَبٍ من يُنْكِر ضوْءَ الشمس ، وما زالَ الله نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النصير ، وإذا راجعْتمُوهم قَصُّوا عليكم نَبَأَ الاستظهار ولا يُنَبِّئُك مثلُ خَبِير ، وما زالت تتفِّق الوقائع بين المُلُوك والحُرُوب ، وتجرِى المواقفُ التى هى بتقـدير الله فلا فَخْرَ فيهـا للغالب ولا عارَ علىٰ المغلُوب ، وكم من ملِكٍ استُظْهِر عليـه ثم نُصِر ، وعاوَدَه التأييدُ فجُبِر بعد ما كُسِر ، خصوصا ملوكَ هـذا الدِّين ، فإنَّ الله تعالىٰ تكفَّل لهم بحُسْن العُقْبىٰ فقال تعالىٰ : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين ﴾ .

وأما إقامتُهُـم الحجةَ علينا ، ونِسْبتُهم التفريطَ إلينا ، فى كوننا لم نُسَيِّر إليهم رسولًا عند ماحَلُّوا بدمشق ، فنحن عنـد ماوصَلْنا إلىٰ الديار المصرية لم نَزِد علىٰ أنِ اعتدَّينا وجمعْنا جُيوشَـنا من كل مكان ، وبذلْنا فى الاسـتعدادِ غايَةَ الجُهْـد والإمكان ، وأنفقْنا جزِيلَ الأموال فى العساكر والجَحَافل ، ووَثِقْنا بحُسْن الخلَف لقوله تعـالىٰ : ﴿ مَثَـلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِل ﴾ . ولَمَّـا خرجنا من الديار المصرية ، بلغَنا خروجُ الملك من البلاد ، لأمرٍ حال بينَه وبينَ المُراد ، فتوقَّفْنا عن المسير توقُّفَ من أغنىٰ رُعْبُه عن حَثِّ الركاب ، وتَثَبَّتْنا تثبُّتَ الراسـيات ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَاب ﴾ . وبعثنا طائفةً من العساكر

لمقاتَلَة من أقام بالبلاد فما لاحَ لنا منهم بارقٌ ولا ظَهَر ، وتقدّمتْ فتخطَّفَت من حملَه علىٰ التأَخّر الغَرَر ، ووصلتْ إلىٰ الفُرات فما وقفتْ للقوم علىٰ أَثَر .

وأما قولهم : إننا ألقَيْنا فى قلوب العساكر والعَوَامّ أنهم فيما بعدُ يَتَلَقَّونا علىٰ حَلَب أوالفُرَات ، وأنهم جمَعوا العساكر ورحَلُوا إلىٰ الفُرات وإلىٰ حلب مرتقبين ؛ فالجواب عن ذلك أنهم من حينَ بلَغنا حركتُهم جَزَمْنا ، وعلىٰ لقائهم عزَمْنا ؛ وخرجْنا وخرج أمير المؤمنين الحاكمُ بأمر الله آبنُ عم سيدنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم الواجبُ الطاعة علىٰ كُلِّ مُسْلِم ، المفترَضُ المبايعةِ والمتابعةِ علىٰ كل منازِعٍ ومسَلِّم ؛ طائعين لله ولرسوله فى أداء مُفْتَرَض الجِهاد ، باذلين فى القِيام بما أمَرَنا الله تعالىٰ غايةَ الآجتهاد ؛ عالمين بأنه لايتِمُّ أمرُ دينٍ ولا دُنْيا إلا بمشايعته ، ومَنْ والاه فقد حَفِظه الله تعالىٰ وتولّاه ، ومَنْ عانده أو عاند مَنْ أقامه فقد أذلَّه الله ؛ فحِينَ وصَلْنا إلىٰ البلاد الشامية تقدّمت عساكُرنا تملأ السَّهل والجبَل ، وتُبَلِّغ بقوّة الله تعالىٰ فى النصر الرَّجاءَ والأمَلْ ؛ ووصلتْ أوائلُها إلىٰ أطراف حماةَ وتلك النواحى فلم يُقْدِم أحدٌ منهم عليها ، ولا جَسَر أن يَمُدَّ حتّٰى ولا الطَّرْفَ إليها ؛ فلم نزل مقيمين حتّٰى بلَغَنا رجوعُ الملك إلىٰ البلاد ، وإخلافُه مَوْعِدَ اللقاء والله لايُخْلِف الميعاد ؛ فعُدْنا لآستعداد جُيُوشنا التى لم تزل تَنْدَفِع فى طاعتنا آنْدِفاعَ السيل ، عاملين بقوله تعالىٰ ﴿ وأَعِدُّوا لَهُمْ ما آسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الخَيْل ﴾ .

وأمَّا ماجعَلُوه عُذْرا فى الإقامة بأطراف البلاد وعَدَمِ الإقْدام عليها ، وأنهم لو فعلُوا ذلك ودخَلُوا بجُيُوشهم ربما أخْربَ البلادَ مُرورُها ، وبإقامتهم فسدَتْ أمورُها ؛ فقد فُهِم هذا المقصود . ومتىٰ أَلِفَت العبادُ والبلادُ منهم هذا الإشفاق ؟ ومتىٰ آتَّصفَتْ جيوشُهم بهذه الأخلاق ؟ وها آثارُهم موجودةٌ علىٰ مُلْك آل سَلْجُوق وما تعرَّضُوا

لدارٍ ولا جار ، ولا عَفَّوْا أثرًا من الآثار ، ولا حَصَل لمسلم منهم ضَرَر ، ولا أُوذِىَ فى وِرْد ولا صَدَر ، وكان أحدُهم يشتري قُوتَه بدِرْهمه ودِيناره ، ويأبىٰ أن تمتدَّ إلىٰ أحدٍ من المسلمين يدُ إضراره ، هـذه سُنَّةُ أهل الإسلام ، وفعلُ مَنْ يُرِيد لملكه الدوام .

وأما ما أَرْعَدُوا به وأَبْرَقُوا ، وأرسلُوا به عِنَان قلمهم وأَطْلَقُوا ، وما أبدَوْا من الأهتمام بجمع عساكرهم وتهيئة المجانيق إلىٰ غير ذلك مما ذكره من التهويل ، فالله تعالىٰ يقول : ﴿ الَّذِينَ قالَ لَهُمُ الناسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزادَهُمْ إيمَاناً وقالوا حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل ﴾ .

وأما قولهم : وإلا فدِماءُ المسلمين مَطْلُوله ، فما كانَ أغْناهم عن هذا الخِطَاب، وأوْلاهم بأنْ لا يصدُرَ إليهم عن ذلك جوَاب ، ومَنْ قصَدَ الصُّلْح والإصْلاح ، كيف يقول هذا القولَ الذى عليه فيه من جهةِ الله تعالىٰ ومن جهةِ رسوله أىُّ جُنَاح ؟ وكيف يُضْمِر هذه النيه ، ويتبجَّحُ بهذه الطويَّه ؟ ولم يَخَف مواقِعَ زَلَلِ هذا القول وخَلَلِه ، والنبي صلّى الله عليه وسلم يقول : "نِيَّـةُ المَرْءِ أبْلَغُ من عَمَله" وبأىِّ طريق تُهْدَر دماءُ المسلمين التى من تَعرّضَ إليها يكون اللهُ له فى الدنيا والآخرة مطالبا وغَرِيما ، ومؤاخذًا بقوله تعالىٰ : ﴿ ومَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً متعمِّدًا فجَزاؤُه جَهَنَّمُ خالِدًا فِيها وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْه ولَعَنَهُ وأعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيما﴾ ؟ وإذا كانَ الأمْرُ كذٰلك فالبُشْرىٰ لأهل الإسلامِ بما نحن عليه من الهِمَم المصروفةِ إلىٰ الاستِعْداد ، وجمع العساكر التى تكونُ لها الملائكةُ الكرامُ إن شاء الله تعالىٰ من الأَنْجاد ، والاستكثارِ من الجُيوش الإسلاميةِ المتوفِّرة العَدَد ، المتكاثرةِ المَدَد ، الموعودةِ بالنصر الذى يحُفُّها فى الظَّعن والإقامه ، الواثقةِ [به](1) من قوله صلّى الله عليه وسلم : "لا تَزَالُ طائفةٌ من أُمَّتى ظاهِرِينَ

(1) أى بالنصر وزدنا الجار والمجرور لاقتضاء الكلام إياه .

علىٰ عَدُوِّهِمْ إلىٰ يوم القِيَامه" . المبلِّغة فى نَصْر دين الله آمالا، المستعدّة لإجابة داعى الله إذا قال : ﴿ ٱنفِرُوا خِفَافًا وثِقَالا﴾ .

وأما رُسُلهم فلان وفلان فقد وصلوا إلينا، ووَفَدُوا علينا؛ وأكرمْنا وِفَادتهم، وعَزَّزْنا لأجل مُرْسِلهم من الإقبال مادَّتَهم، وسمِعْنا خِطابَهم، وأعدْنا عليهم جوابَهم؛ هـذا مع كوننا لم يَخْفَ علينا ٱنحطاطُ قَدْرِهم، ولا ضَعْفُ أمرهم؛ وأنهم مادُفِعوا لأفواه الخُطُوب، إلا لِمَـا ٱرتكبوه من ذُنُوب؛ وما كان ينبغى أن يُرسَلَ مثلُ هؤلاء لمثلنا من مثله، ولا يُنتدَبَ لمثل هذا الأمر المهمِّ إلا من يُجْمَع علىٰ فَصل خطابه وفضْله .

وأما ما ٱلتمسوه من الهَـدايا والتُّحَف، فلو قدّموا من هَدَاياهم حسـنةً لعوّضناهم بأحسن منها، ولو أتحفُونا بتُحَفَة، لقابلناها بأجلِّ عوضٍ عنها . وقد كان عمُّهم الملك أحمدُ راسَـلَ والدَنا الشهيد، وناجىٰ بالهَدَايا والتُّحَف من مكانٍ بعيـد؛ وتقرب إلىٰ قَلْبه بحُسْن الخطاب، فأحسن له الجوَاب؛ وأتىٰ البُيوتَ من أبوابها بحُسْن الأدَب، وتمسَّك من الملاطَفَة بأقوىٰ سبَب .

والآنَ فحيثُ ٱنتهتِ الأجوبة إلىٰ حدّها، وأدركتِ الأنَفةُ من مقابلة ذلك الخطاب غايةَ قَصْدها؛ فنقول : إذا جنَح الملك للسَّـلْم جنَحْنا لهـا، وإذا دخل فى المِلَّة المحمدية ممتثلًا ما أمر الله تعـالىٰ به مجتنبا ما عنه نهى؛ وٱنتظَم فى سِلْك الإيمـان، وتمسك بمُوجَبَاته تمَسُّكَ المتشرّف بدُخُوله فيه لا المنَّان؛ وتجنَّب التشبُّه بمن قال الله تعـالىٰ فى حقهم : ﴿قُل لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إسْـلامَكُمْ بلِ اللهُ يَمُنُّ عليْكُمْ أنْ هَدَاكُمْ للإيمـان﴾ . وطابق فعلُه قولَه، ورفَضَ الكُفَّارَ الذين لا يحلُّ له أن يتَّخذَهم حَوْله؛ وأرْسَل إلينا رسولًا من جهتـه يرتِّل آياتِ الصلح ترْتِيلا، ويَرُوقُ خطابُه وجوابُه حتّى يتلُوَ كلُّ أحد عنـد عوده : ﴿ يالَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مع الرَّسُولِ سَبِيلا ﴾ .

صارتْ حجَّتنا وحجّته مركبةً علىٰ مَنْ خالف ذلك ، وكلمتُنا وكلمتُه قامعةً أهلَ الشرك فى سائر الممـالك ؛ ومظافرتُنا له تُكْسِب الكافرين هَوَانا ، والشاهـدُ لمصافاتنا مُفادُ قوله تعالىٰ : ﴿ واذْكُرُوا نِعمةَ اللهِ عليْكُمْ إذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فألَّفَ بيْنَ قُلُوبِكُمْ فأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمتِهِ إخْوَانا ﴾ . وينتظِمُ إن شاء الله تعالىٰ شَمْلُ المصالح أحسَنَ ٱنتظام ، ويحصُلُ التمسـك من المَوَادَعة والمظَافَرة بعُرْوةٍ لا ٱنفِصال لهـا ولا ٱنْفِصام ، وتستقِرُّ قواعدُ الصُّلْح علىٰ ما يُرضِى اللهَ تعالىٰ ورسولَه عليه أفضل الصلاة والسلام .

الحـالة الثانيـــــة

(ما كان عليه رسمُ المكاتبةِ فى الدولة الناصريةِ "محمد بن قَلَاوون" إلىٰ أبى سعيد بَهَادِرخان بن خدابندا : آخرِ ملوك بنى هُولاكُو، ملك إيران)

قال فى "التعريف" : وهو كتاب يكتب فى قَطْع البغدادىّ الكامل؛ يبتدأ فيه بعـد البسملة وسطر من الخُطْبة الغراء(١) المكتتبة بالذهب المزَمَّك ، بألقاب سلطاننا علىٰ عادة الطغراوات ؛ ثم تكَمَّل الخطبة وتفتتح ببعْـديَّة إلىٰ أن تُساق الألقـاب ، وهى : « الحضرةُ الشريفـةُ ، العالية ، السـلطانية ، الأعظميَّة ، الشاهنشاهيَّة ، الأوحدية ، الأخَوِيَّة ، القانية ، الفلانية» من غير أن يخلط فيها « المَلَكِيَّة » لِهَوَانها عليهم وٱنحطاطها لديهم ثم يدعىٰ له بالأدعيـة المعظَّمة المفخَّمة الملوكية : من إعزاز السلطان ونَصْر الأعوان ، وخُلُود الأيام ، ونَشْر الأعلام، وتأييـد الجُنود، وتكثير الوفود . وغير ذلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ . ثم يقال ما فيه التلويحُ والتصريحُ بدوام الوِدَاد، وصفاء الاعتقاد، ووصْف الأشـواق ، وكَثْرة الأتْواق، وما هو من هـذه

---

(١) فى التعريف ص ٤٤ "بالطغراء" وهو تصحيف .

النسبة . ثم يؤتى على المَقَاصد، ويختَم بدعاء جليل، وتستعْرَض المراسيم والخِدَم(١)، ويُوصَف التطلع إليها، ويُظْهر التهافُتُ عليها .

وهذا الكتاب تكتب جميع خطبته وطغراه [وعنوانه](٢) بالذهب المزمَّك، وكذلك كلُّ ما وقع فى أثنائه من ٱسمٍ جليـل ، وكلِّ ذى شأن نبيل : من ٱسم الله تعـالىٰ، أو لنبينا صلّى الله عليه وسـلم، أو لأحدٍ من الأنبياء ، أو الملائكةِ عليهم السـلام، أو ذكرِ دين الإسلام، أو ذكر سلطاننا، أو السلطانِ المكتوب إليه، أو ماهو متعلِّق بهما . مثاله « عندنا وعندكم » و « لنا ولكم » و « كتابنا وكتابكم » . كلُّ هذا يكتب بالذهب، وما سواه يُكْتَب بالسَّواد .

فأما العنوان ، فهو بهذه الألقاب إلىٰ أن ينتهى إلىٰ اللَّقَب الخاص ، ثم يُدْعىٰ له بدعوة أو ٱثنتين، نحو : «أعزَّ الله سلطانها، وأعلىٰ شانها» أو نحو ذلك . ثم يسمَّى ٱسمُ السلطان المكتوب إليه، ثم يقال «خان» كما كنا نكتب، فنقول : « بو سعيد بَهَـادرخان » فقط . ويطمغ بالذهب بطَمَغات عليها ألقاب سلطاننـا، تكون علىٰ الأوصال، يبدأ بالطَّمْغة علىٰ اليمين فى أوّل وَصْل، ثم علىٰ اليسار فى ثانِى وَصْل، ثم علىٰ هـذا النمط إلىٰ أن ينتهىَ فى الآخر إلىٰ اليمين . ولا يطَمَّغ علىٰ الطرّة البيضاء . والكاتب يخلى لمواضع الطمغة مواضعَ الكتابة، تارة يَمْنة، وتارةً يَسْرة .

وأوضح ذلك فى "التثقيف" وبيَّنه ، فقال : والمكاتبة إليه فى عَرْض البَغْدادىّ الكامل، والطرَّة ثلاثة أوصال، والبسملة ذهبٌ مزَمَّك بألفات طِوَال بالمِسْطَرة بخَطِّ الذهب، ثم الخطبـة، وأوّلها « الحمد لله » والسطرُ الذى يلى البسملة الشريفة

(١) فى التعريف ص ٤٥ "الحوائج" .

(٢) الزيادة من التعريف .

وثانيه من أوائل الورق زائدان عن بقيّة السطور التى من أوّل السطر الثالث إلىٰ آخر الكتاب . وبين هذين السطرين المذكورين ، (وهو موضعُ بيت العلامة الشريفة) طُرّةُ ذهب بالألقاب الشريفة ، ثم بعــد هذين السطرين الملاصقين للطُّرّة المذكورة بقيّةُ السطور بهامش جيّد فى يمين الورق على العادة . وجميع السطور مكملة إلىٰ آخر الورق ، لا يخلى فيهــا للطُّمْغة مكان . وبعدَ الخطبة ما يناسب الابتداء إن كان ، أو الجواب إلى أن يتصل الكلام بالألقاب ، وهى : «الحضرة ، الشريفة ، العالية ، السلطانية ، الأعظَمِيّة ، العالمية ، العادلية ، الأكمليّة ، القانِيَّة ، الشاهنشاهية ، الوَلَدِيَّة ، العزيزية ، المَلَكية ، الفلانية» . ثم الدعاء . وفى أثناء خطابه «الحضرة الشريفة» تارة ، وتارة «الحضرة العاليــة» والدعاء فى أوساطه نحو «زِيدتْ عظمتُه ، ودامت مَعْدَلتــه ، وأعلىٰ الله مقامه ، وأعزّ الله شانه» . والخطبة جميعها بالذهب المُزَمَّك . وبعدها بالأسود خلا ذكر اللهِ تعالىٰ أو رســولِه صلّى الله عليه وســلم ، أو ما أضيف إليهما ، أو ما يُعظَّم ذكره : كالحق والعدل وأمثالها ، أو كلِّ لقب أو نعت ، أو كلمةٍ مضافةٍ إلىٰ المكتوب عنــه أو المكتوبِ إليــه ، أو ضمــير فيهما ، فإنه بالذَّهَب . والعنوان بألقابه كاملة ، وفى آخرها الدعاء له من غير توقُّف .

قال : وكان قد آستقرّ من أمر العلامة الشريفة أن يكتب على جانب يمين السطرين : الثانى والثالث ، وهو مما يلى بيت العلامة « المُشْتاق محمد» . ثم قال : ورأيت بخط القاضى المرحوم ناصر الدين بن النَّشائىّ أنَّ ذلك نظــيرُ الكتاب الوارد منه فى رجب ســنة تسع وعشرين وسبعمائة . ثم قال : وقد ذكر فى "التعريف" ثلاثة أمور زائدة (١) التنبيه عليها .

(١) بياض بالاصل ولعله لابد من التنبيه .

أحدها — أنه يذكر تعريفُه فى العُنْوان . فيكتب بعد ذكر الاسم «خان» . فيقال : «بُو سعِيد بَهادِرْخان» .

ثانيها — أنه تستعمل الطَّمَغات على الأوصال .

ثالثها — أنه لايكتب فى ألقابه «المَلَكية» . وذكر أنه لَمْ يكتب لأحد بهذه المكاتبة بعد السلطان أبى سعيد، خلا ماذكر القاضى ناصر الدين بن النَّشائى أنه كتب نظير ذلك بعد أبى سعيد لطغاى تمرخان . قال : ولو كتب بالمُغْلية كتب فى القطع المذكور . أما الملطفات، ففى قَطْع الثلث .

وهذه نسخة مكاتبة كتب بها المقرّ الشهابىّ بنُ فضل الله عن السلطان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلى السلطان أبى سعيد بَهادِرخان المقدّم ذكره، وهى :

الحمدُ لله الذى جعلَنا بنِعْمته إخْوانا، وجمَعَنا على طاعته أصولًا لانتفرَّق أغصانا؛ نَحمده على ماأولانا، ونشكُرُه على ماوَلَّانا، ونرغَبُ إليه فى مزيد ألطافه التى شَملت أقصانا وأدْنانا؛ ونشهد أن لا إلَهَ إلّا الله وحده لاشريكَ له، شهادةً كالشمس لاتدَع فى الأرض مكانا؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الذى شيَّد بِنَا لشريعته أركانا، وشدّ بعْضَنا ببعض لنكونَ كما شبَّهَنا به بنانا أو بنيانا؛ صلَّى الله عليه وعلى آله صلاةً لاتَتَوانى، ورضى الله عن أصحابه والتابعين لهم بإحسان وزادهم إحسانا، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد: فإن من أعظم المُبْهجات لدَيْنا، المُنْهجات لطريق السُّرور إلينا، المُلْهِجات بوصفِ أكرمِ وارد علينا، هو الكتابُ الشريف، بل السَّحاب المُطِيف، بل البحرُ الذى يَقْذِفُ دُرَرا، ويقُصُّ عن السحاب أثرا، ويَرْفَع سَرَرا، ويُطْلِع قمرا، ويطوِّلُ أوضاحًا وغُرَرا، ويحدِّث عن العجائب خبَرا، بل ينشُر الروضَ حِبرا، ويهُبُّ الرياح

سَحَرا ، ويبْرُق ذهبهُ المموّهُ آصالًا وبُكَرا ؛ الصادرُ عن الحضرة الشريفة العالية السلطانيه ، الأعظمية ، العالمِيَّة ، العادلية ، الشاهنْشاهية ، الأخَوِيَّة ، القانيَّه ؛ زادها الله شرفا ، وأدام بها تُحَفا ، وصاغ بها لكلّ سمع شَنْفا ، وأيَّدها بزائد مزيده حتَّى تقول : حَسْبي وكفىٰ ؛ فإنه وصلَ صُحْبَةَ المجلس السامى الأمير ، الكبير ، المقرَّب ، المجتبىٰ ، المرتضىٰ ، المختار ، شرفِ الدين ، مجدِ الإسلام ، زينِ الأنام ، جمال المقرّبين ، مرتضىٰ الملوك والسلاطين ، الحاجِّ أحمد الأشقر ؛ والشوقُ إليه شديد ، والتطلُّع إليه كمثل العِيد ؛ فقرَّبناه إلينا نَجيّا ، وتلقَّينا منه مَهْـدِيّا ؛ وكأنَّ السماء ألقتْ منه حُلِيّا ، أو أقلَّت كوْكبا دُرِّيّا ؛ أو مدّت من المَجَرَّة دَرْجا ، وعطَفَت من مُهَنَّـدات البُروق خُلُجا ؛ وقدّتْ من سَوَاد القلوب شَطْر كلِّ سطر فيها ، وأغارتْ مُقْلَةَ كلِّ رَيْم قام بسَوَاد ناظِرِه يُفَدّيها ؛ وسرَّحْنا منه الحَدَق فى حَدَائق ، ونَفَحْنا به للحقائب حقائق ؛ وآستطْلَعْنا به شُموسَ الآفتقاد ، وآطَّلعْنا منـه علىٰ نُفُوس نفائسِ الوِدَاد ؛ وصادف مِنّا قلبا صادِياً إلىٰ ما يروقُ من أخباره ، وشـوْقًا إلىٰ ما يَهُبُّ من نَسِيم دِيَاره ؛ وتطَلَّعْنا إلىٰ مَنْ يَرِد من رُسُـله الكِرام ، ويقُصُّ علينا مالا يُستقْصىٰ من مواقع الغَمَام ؛ وعلمْنا منه وممـا ذكره المقرَّبُ الحـاجُّ شرفُ الدين أحمدُ ماللحضرة الشريفة عليه من نعمةٍ يلتحف بمَلَابسهاٰ ، ويقتطف من مَغَارِسها ؛ وتُجْرِى فى السَّـيْف رَوْنقا ، وتُزَيِّن بالكواكب أُفُقا ، وتَجُرُّ علىٰ الكُثْبان من الشُّموس رِدَاءً مخلَّقا . وأحضَرْنا الحـاجّ شرفَ الدين أحمدَ بين أيدينا الشريفه ، وشَمِلناه بحُسْن مُلاحظَتِنا التى زادتْ تشريفَه ؛ وكان حُضُوره وركابُنا الشريف يهيجَانِ الصيد المحمود ، ونحن نَلْهَج بذكره عند آنتهاز كل فُرْصة فى الصُّيود ؛ وما حصلنا فيه علىٰ لَذَّة ظَفَر إلا وتمنَّينا أنْ يكونَ له فيها مشاركةُ شُهود ، أو أن يكون حاضرا يرىٰ كيف يُسَهِّل اللهُ لنا بلوغَ كلِّ مقصود ؛ وخرج معنا إلىٰ المَصايِد ، وتفرّجَ علىٰ الصائد ؛ ورأىٰ ماحَفَّ بموكبنا المنصور من ذوات الوَبَر

والجناح، وما سُخِّر لنا من جياد الخيول من الرِّياح ؛ فشاهد ماأوتينا من المُلْك السُّلَيمانى فى سُرْعة السير، وٱختلافَ ماجُمِع لنا من الإنْس والوحْش والطَّيْر؛ وٱستغرقتْ أوقاتُنا الشريفةُ فى السؤال عن مِزَاجه الكريم، وما هو عليه من السُّرور المستديم؛ والتأييد الذى ٱنقلب به أولياؤه بنعمةٍ من الله وفضلٍ لم يمْسَسْهم سُوءٌ وٱتَّبَعُوا رضوانَ الله والله ذُو فَضْلٍ عظيم ؛ وتجدّدت المَسَرَّات، بهذه البشائرِ المُسِرَّات (١)؛ وأضفْنا هذه النعمةَ إلى ما نحمدُ اللهَ عليه مما أيَّدَنَا به من النصر والظَّفَر والتأييد، والنعم التى توالَتْ إلينا ونحن نرجُو المَزِيد؛ ونُضاعفُ الحمدَ والشكرَ لله على هذه المواهب التى أطافَتْ بنا بِطاقاتُها الثمينة، وأنارت فى آفاقنا أقمارُها المُبينه؛ وشمِلتْ ملوكَ الإسلام نعمُها من كل جانب، وأشرقتْ شموسُها حتّى ملأتْ بأنوارها المَشَارقَ والمَغَارب .

وأما ما أتحَفْتَ به من البلكات الشريفة فقد وصلتْ، وتُقُبِّلتْ وقُبِّلتْ، وأُكْرمت لأن مُهْدِيَها كريم، وأُعْظمت لأنها تُحَفَةٌ من عظيم؛ وأثنينا عليه بما طاب، وشكَرَ بحرُنا الزاخرُ جُودَ أخيه السَّحاب .

وأما الإشارة العالية إلى تقاضى تجهيزة من الملاكمين والسوقات فقد رسْمنا بالأنتهاء إليه، لأنه لا فرقَ بينَنا وبينَ أخينا فيما يخصُّ مراسِمَنا جميعًا عليه؛ وقد جُهِّز من الملاكمين والطين المختوم ما أمكنَ الآن، ومنه ما كُنَّا رسْمنا بٱستعماله من البلكات بٱسمه الشريف وتأخر؛ فلما فرَغ جُهِّز معه، وبعد هذا نُجَهِّز من يتوجَّه إلى حضرته العالية ليجدّدَ عَهْدا، ويؤدِّىَ إليه وُدّا؛ وما يتأخر إلا رَيْثَما تَنْجَلِى السُّحُب المتواليه، ويمكنُ التوصُّل سالما إلى حَضْرته العاليه .

(١) حقيقته السارات وإنما أتى به بهذه الصيغة على توهم أسرّه بمعنى أفرحه كما حكاه ٱبن سيده فى تفسير المثل «كل مجر بالخلاء مسر» انظر اللسان (ج ٦ ص ٢٦) .

وأما غير هــذا : فهو أنّ الحاج أحمد أحضر إلينا ورقةً كريمه ، بل دُرّةً يتيمه ؛ بخط يد الحضرة الشريفة فأُعْجِبْنا بهـا ، ووجدْناها فى غاية الحُسْن التى لا يعدّ زَهْر الرياض لها مُشْبِها ،وما رأينا مثلَ ما كُتب فيها ، كأنّ السماء قد نظّمت فى سُطورها النجومَ الزُّهْر من دَرَارِيها ، فأكرِمْ بيدٍ كتبَتْ سطورا آعترف بها الرُّمْح للقلم ! وآستمدّ السَّحابُ من طُروسها الكَرَم ! وجرتْ بجامدِ ذهبٍ وسائلِ دم ، وتنافسَتْ علىٰ إثباتها صحائفُه وأقلامُه ودُوِيُّه والجو والبُروقُ والدِّيَم ، وطلعتْ منها تَباشيرُ النَّجاح ، وتحاسدَ عليهـا مِسْكُ الليل وكافُورُ الصَّباح ، وآتفقتْ علىٰ معنًى واحد وقد تنوَّعت قسما ، وأشرقَتْ فتمنَّت السماءُ أن تكون لهـا صحيفةً والبرقُ قلَما ، فأرخصتْ قدرَ ياقوتٍ فى التقليب ،وحسَّنَتْ بمحاسنها هِجْرانَ حبيب ، لقد أُوتِيتْ من الخَطِّ غايةَ الكمال ، وبسطَتْ يدَ آبن هلال فيه عن فَمِ آبنِ هلال ،فأما الوَلِىُّ فإنَّه من أوليائهـا ، وأنواؤه ممـا فاض من إنائهـا ، طالمَـا حَدَّق إليه أبو علىٍّ فآختطف برقُه أباه مُقْله ، وفَطِن آبنُ أسد أنه لو أدركه أبُوه لنَسِى شِبْله ،فسبحانَ من صرّف فى يمينه القلمَ بل الأقالِيم ، ووهبه من أفضل كلِّ شىء ﴿ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ واللهُ ذُو الفَضْل العَظِيم﴾

وقد أُعِيد المقرّبُ شرفُ الدين أحمدُ ، وحَمَل من المشافَهات الشريفة ماتُفَضُّ علىٰ أخينا عقودُه ، وتُفاض برودُه ، والحضْرةُ الشريفةُ لاتقطع أخبارَها عنّـا التى تَسُرُّ بأنبـائه ، وتَسيرُ بنُجُوم سمائه ، لازالت مناقبُه مسمُوعه ، والقلوبُ علىٰ مايجمع كلمةَ الإيمانِ مجموعه . إن شاء الله تعالىٰ .

تنبيه ــ أما المَلَطَّفات التى كانت تُكتَب إلىٰ هذا القان ، فقد ذكر فى "التثقيف" أنها فى قَطْع الثلث ، وكذا مايكْتَب به بالمُغْلَىّ ،فإنه يكون فى القَطْع المذكور أيضا .

الجملة الثانية

(فى المكاتبات إلىٰ مَنْ ملك تَوْرِيز وبَغدادَ بعد موتِ أبى سعيد)

قد تقدّم أنه ملك تَوْرِيزَ وبغدادَ بعد السلطان أبى سعيد (موسىٰ خان) ثم محمدُ بن عدجى[1]، ثم الشيخُ حَسَن الكبير، ثم ٱبنه الشيخُ أُوَيس، ثم ٱبنُه حسن، ثم أخوه أحمد . ومنه ٱنتزعها تمرلنك . وذكر فى "التثقيف" أنَّه ملك بعد أبى سعيد أرفاخان، ثم موسىٰ خان، ثم طغاى تمرخان؛ بعد أنْ ذكر أنه لم يُكْتَب إلى أحدٍ بعد أبى سعيد بالمكاتبة المتقدّمة . ثم قال: ورأيت بخط القاضى ناصر الدِّين بن النَّشائى أن مكاتبة طغاى تمرخان كانت نظير مكاتبة أبى سعيد . ثم قال: وهذا يدل علىٰ أنه لم يكاتَبْ بذلك بعد أبى سعيد غير طغاى تمرخان المذكور .

قلت : وقد وقفت علىٰ مكاتَبَة عن الملك الناصر « محمد بن قلاوون » إلىٰ موسىٰ خان المقدّم ذكره من إنشاء المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله، فيما ذكره صاحب "الدُّرِّ الملتقط" جوابًا عن كتابٍ ورد منه يذكُر فيه النُّصرةَ علىٰ عدوّله ؛ والقائم بتدبير دولته يومئذ على باشا . بَدَأ فيها بعد الافتتاح بآيةٍ من القرءان الكريم فى معنىٰ النصر بقوله :

«إلىٰ الحضرة الشريفة» إلىٰ آخر الألقاب المناسبة «من أخيه ومحبه» ؛ ثم خطبة بعد ذلك مفتتحة بـ« الحمد لله » . ثم « وبعد ، فقد ورد الكتاب الشريف » . والخطاب بـ« الحضرة الشريفة » . والاختتام بالدعاء . ولاخَفاءَ فى أن هذه نحو المكاتبة إلى أبى سعيد ؛ لكنى لم أقف علىٰ مقدار قَطْع الورق فيها ، ولاصورة الكتاب . وهذه نسختها :

---

(١) كذا فى الأصل هنا وتقدم فى ج ٤ ص ٤٢٤ (غبرجى) .

﴿وقالُوا الحَمْدُ للهِ الَّذِى أذْهَبَ عَنّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنَا لغَفُورٌ شَكُور﴾. ﴿ويَوْمَئذٍ يفْرَحُ المُؤْمِنُون بنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وهو العَزيزُ الرحيم﴾ .

إلى الحَضْرة الشريفة العاليــة ، السلطانيَّــة ، الأعظميَّة ، العــالميَّة ، العادليَّة ، الأوْحديَّة ، الشاهنشاهيَّــة ، القانيَّــة ، الأَخَوية ، الأخِ العزيزِ ، الكبير ، المعظَّم ، موسىٰ خان ، أعزَّ الله سلطانه ، وثبَّت بسعادة مُلْكه أوطانَه . مِنْ أخيه ومحبِّــه ، المخْلِص فى حُبِّه ، الصادقِ المودّةِ له فى بُعْده وقُرْبه .

الحمــدُ لله الذى أيَّد الإسلامَ بنصره ، وضيَّق علىٰ أعدائه مَجَال حَصْره ، وجدّد بتأييده فى زمانه ماتحلَّى به أعطافُ عَصْره . نحمَــدُه عن الدِّين الحنيف على نُصْرةٍ أضاء لهــا الوُجودُ بأَسْره ، وأوقعتْ كلَّ خارجٍ(١) علىٰ الدِّين والمُلْك فى قَبْضة أَسْره ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُخْلِص قائلُها غايةَ ٱجتهاده ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى جاهدَ فى الله حقَّ جِهاده ، صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تستقِلُّ ببشائرها أعباءُ عِباده ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فقد ورد الكتابُ الشريفُ من الحضرة الشريفة العاليــة ، السلطانيَّة ، القانيَّــة ، أخينا وولدنا العزيز ، المؤيَّد بالنصر على الأعداء والفتحِ الوَجيز ؛ لا زالتْ دولتُه الشريفة دائمةَ الإقْبــال ، متزيِّدةً تزيُّد الهــلال ، علىٰ يد المَجْلِسَيْن الساميَيْن ، الأميرين ، الكبيرَيْن ، عضُدَى الملوك والسلاطين : "دلنجى ، وكراى" أدام الله تعالىٰ عزَّتهما ــ بالبشائر بنُصْرة الإسلام ، وتأييد أخينا علىٰ عدُوّه الخارج(١) علىٰ الدِّين والمُلْك . وحَمِدنا اللهَ تعالىٰ علىٰ هذه النُّصره ، وتضاعفَتْ بها المَسَرَّه ؛ ونحن كُنَّا خارجين بجميع العساكر والجيوش المنصورة الإسلاميَّة ، لنَتَساعدَ كلُّنا علىٰ نُصْرة الإسلام . وما تأَخَّرْنا

(١) فى الأصل "خارجى" .

إلا لمّا جاءت إلينا مماري(؟) الأخبار وما كان تحقّقناها ثم تحقّقنا بحمد الله تعالى هذه الأخبار، وضربْنا لها البشائر في سائر الأقطار، وعرّفنا بها عنايةَ الله تعالى بأخذ المسلمين بنَواصي الكُفَّار ، وقيام الجناب الكريم العالى الأميرِ الكبير النُّوَيْن العادل المعظَّم على باشا، أعزَّ الله تعالى نُصرتَه فى إعادة الحقِّ إلى أهله ، وصَبْره على ما سبقَ به كلَّ أحدٍ إلى جميل فِعْله ، وآجتهادِه فى هذا الأمر الآجتهادَ الذى ما كان يُطْلَب إلا من مثله ؛ وكذلك الجناباتُ العاليةُ الأمراءُ النُّوَيْنات الأكابِر، زِيدتْ سعادتُهم! فإنَّهم سارعُوا إلى ما كان يجب ويتعين عليهم فى خدْمة سلطانه ، ومن هو أحقُّ بهم وأولى من عظيم عظم قانهم؛ وما من الأمير النُّوَيْن العادِل على باشا وبقيةِ الأمراءِ الأكابر إلا مَنْ قام بما كان عليه من العُهود ، وبذل آجتهادَه حتّى حصَل بحمد الله المقصُود ؛ وما قَصَّروا فى قيامهم حتّى تسلم المستحقُّ حقَّه وميراثَه وما هو أحقُّ به وأوْلى . وهم ـ جزاهم الله الخيرَ ـ قد عمِلُوا ما يجب عليهم ، وبقِىَ ما يجب على الحضرة الشريفة من الإحسان إليهم .

وأما قولُ الحضرة الشريفة : إنه مثلُ ولدنا فهو هكذا مثل الولد وأعَزُّ من الولد ، وكلُّ أحدٍ منَّا لأخيه فى الآتِّفاق على المَصالح الإسلامية عَضُد ويَدْ ، وذُخْر وسَنَد ؛ وقد سبَقَ من تآلُف القلوب ما آشتدَّت به الآنَ أَوَاخيه ، وأضحى له منّا شفقةُ الوالدِ على الوَلَد وتوقيرُ الأخِ لأخيه ؛ وقد أعدنا رسُلَه الكرام وحمَّلناهم مشافَهةً ووصيةً للحضرة الشريفة فى أمورٍ تقتضيها مصْلحتُه ، فإنه عندنا أعزُّ من الوَلَد . وما القَصْد إلّا الآتفاقُ على مصالح الإسلام ، وما فيه نظام كلمة الوفاق [والوِئام] ، فيُدِيم المواصلةَ بكُتبُه وأخباره السارّه ، والله تعالى يديم مَسارّه ويضاعف مَبارّه ؛ إن شاء الله تعالى .

ولم أقِفْ لهذه المكاتبة على قَطْع ورق ، والظاهر أنها فى قَطْع النصف لما سيأتى أنه الذى عليه الحال فى مكاتبة صاحب بَغْداد وتَوْرِيز ، فيما بعدُ إنْ شاء الله تعالى .

وآعلم أن صاحب "التثقيف" قد ذكر أن المكاتبة إلى الشيخ أُوَيْس : صاحب بغدادَ وتَوْرِيز، وآبنه حسَنٍ بعده فى ورَق قَطْع النصف . ورسمها : «أعزّ الله تعالىٰ أنصارَ المَقام الشريف العالى، الكبيرىّ ، السلطانىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، المجاهِدىّ ، المؤيدىّ ، المرابِطىّ ، المنصورىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ» بلقب السلطنة «الفلانىّ» بلقبه الخاص . والدعاء بما يناسبه « أصدرناها إلىٰ المقام الشريف تُهْدِى وتبدى » و «القصد من المقام الشريف» . ويختم بدعاء يناسب، مثل : «أعزّ الله أنصاره» ونحو ذلك . ومخاطبته بـ«المقام الشريف » . والعنوان «المقام الشريف» إلىٰ آخر الألقاب المذكورة . والدعاء «أعز اللهُ تعالىٰ أنصاره» . وتعريفه "فلان بهادرخان" مثل أن يقال : « الشيخ حَسَن بَهَادرخان » . والعلامة إليه « أخوه » . قال فى "التثقيف": وكان الشيخ أُوَيْس المذكور عند آستقراره بتَوْرِيز وبغدادَ يكتب له «المقام العالى» ، ثم كُتِب له بعد ذلك «المقام الشريف» .

وهذه نسخةُ مكاتبـةٍ كُتِب بها إلىٰ الشيخ أُوَيْس المقدّم ذكره، جواباً عن كتابٍ ورد منه، من إنشاء القاضى تقىّ الدين آبن ناظر الجيش ، حينَ كان يُكْتَب إليه « المقام العالى » لآبتداء أمره، على ما تقدّم، وهى :

أعزّ الله تعالى أنصارَ المقام العالى، إلىٰ آخر ألقابه، ولا زال المُلْك زاهرًا زاهيًا بشَرَف سلطانه، والفَلَكُ يجرِى بإعزاز قَدْره، وإحراز نَصْره، مدىٰ زمانه، والفتك منه بالأعداءِ يسُرّ الأولياءَ من أهل موَدّته وإخوانه، وسِلْك جواهرِ عِقْد ولائه منظّما من الإخلاص بجُمَانه، ولا بَرِح مؤيّدا بأنصار الإسلام وأعوانِه، مُجدّدا سعدُه الذى يبلّغه جميلَ أوْطاره فى جميع أوْطانه .

أصدرناها إلىٰ المقام العالى تصِفُ مالدينا من المحبّة التى ظهر دليلُها بواضح بُرْهانه، وتَبُثُّ إلينا أنباء مكنون المودّة التى تَغْنىٰ عن صريح القول وتِبْيانه ، وتُبْدِى لعلمه

الكريم أن كتابه الكريمَ ورد على يد فلان رسولِه فأقبلْنا عليه، وصرفْنا وجهَ الكرامة إليه، وعلِمْنا ماتضمَّنه من محبّته ومُوالاته، ومخالَصَته ومُصافاته، وما آشتمل عليه ضميرُه من صحيح الوِداد، وصَريح الآتِّحاد، وجميل الآعتقاد، وجزيل المُخالصةِ التى يتِم بها الأملُ والمُراد . وأن المقام العالى جهز رسولَه المشارَ إليه ليُوضِّحَ إلينا ماهو عليه من ذلك، ويُنهِىَ إلينا أسباب الآئتِلاف التى عَمَرت أرجاءَ الجهتين هُنا وهُنالك ؛ ويُبْدِىَ ماتحمَّلهُ عنه من المشافَهات، وتفَهَّمه من الرسائل والإشارات؛ وقد أحطْنا علماً بذلك ووصل رسولُه المذكور، وتمثَّل بمَواقِف سلطاننا المنصور، وشَمِلَه إقبالُنا الشريف، وإنعامُنا المُطيف؛ وسمِعْنا جميعَ كلامه، وما تحمَّله من المشافَهَة الكريمة من عالى مقامه؛ وشكَرْنا محبَّةَ المقام العالى ووُدّه الجميل، وأثنينا على مُوالاته التى لا نَمِيدُ عنها ولا نَميل، وآبتهَجْنا بسلامةِ مَقامه الجليل . وقد أعدْنا فلانا رسولَه المذكور بهذا الجواب الشريف، إلى المقام العالى أعزَّ اللهُ أنصارَه، فيُتْحِف بمكاتباته ومهِمّاته، واللهُ تعالى يمدّه بالتأييد فى حَركاته وسَكَناته، ويُعِزُّ نصرَه ويَزيد فى حياته .

أما المنفرد بتَوريزَخاصَّةً، فقد ذكر فى "التثقيف" أنَّ المكاتبة إلى الأشرف (آبن علاء الدين تمرتاش) الذى كان قدوثَب على تِبْريزَخاصَّةً فملكها، فى قَطْع الثلُث بقلم التوقيعات «ضاعف اللهُ تعالى نعمةَ الجناب العالى الأميرىّ الكبيرىّ» وبقية الألقاب والنُّعوت، ومنها النُّوَيْنِىّ . ثم الدعاء . «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى الجناب العالى وتُوضِّح» والعلامة « أخوه » . وتعريفه « الأشرف بن تمرتاش » .

ثم ذكر أنَّ أخى جق الذى وَثَب عليه وقتله وآستولى على تِبْريزَ بعده آستقرّت مكاتبته كذلك، وأنه كان يُكْتَب فى تعريفه «أخى» لا غير . ثم قال: وقد ماتا وبطَلَ ذلك .

(أبو بكر بن خَوَاجا على شاه) وزير صاحب تِبْرِيزَ «الأسمُ» و «السامى» وتعريفه أبو بكر ابن الخواجا المرحوم على شاه . قال فى "التثقيف" : ولم أعلَمْ وُزِّر فى زَمَن مَنْ من المتولِّين

(عُمَر بك) أحد أمراء الأشرف بن تمرتاش صاحب تِبْريز فى قَطْع الثلث ، الدعاء(١) و « العالى » والعلامة «أخوه» وتعريفه «عمر بك» . قال فى "التثقيف" : وهذا ممن بطل حكمه بزوال مخْدُومه .

الجمـــــلة الثـالثـــــة

(فى رسم المكاتبة إلىٰ مَن ٱنطوتْ عليه مملكةُ إيران، ممن جَرَت عادتُه بالمكاتبة عن الأبواب السلطانية، فى أيام السلطان أبى سعيد فمَنْ بعده، وهم ثمانية أصناف)

الصنف الاول

(كُفَّال المملكة بحضرة القان ، وهم علىٰ ضربين)

الضرب الاول

(كُفَّال المملكة بالحَضْرة فى زمن القانات العِظام كابى سعيد ومَنْ قبله من ملوكهم حينَ كانتِ المملكة علىٰ أتم الأُبَّهة وأعلىٰ الترتيب)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثالثة أنَّ القائمَ بتدبير العسكر لهذه الدولة حين كانتْ قائمَةً علىٰ نمط القانِيَّة المتقدّم إلىٰ آخر زمَنِ أبى سعيد أربعةُ أمراءَ، يعَبَّر عنهم بأُمَراء الأُلُوس، ويعبَّر عن أكبرهم بِبكْلارى بك بمعنىٰ أمير الأمراء . وربما أُطْلِق عليه أمير الأُلُوس أيضا . والقائمُ بتدبير الأمور العامَّةِ هو الوزير .

---

(١) يظهر قياسا على ماقبله أنه سقط هنا من قلم الناسخ شىء نحو والمكاتبة ضاعف الله الخ . ثم الدعاء والعالى الخ .

فأما الأمراءُ المذكورون ، فقد كان كلٌّ من الأمراء الأربعة والوزير يكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية . وقد ذكر فى "التعريف" أن المكاتبة إلىٰ بكلارى بك فى قَطْع النصف : « أعزَّ الله تعالىٰ نَصْرَ المقرّ الكريم » . وإلىٰ الثلاثة الذين دُونَه فى قطع الثلث : « أدامَ الله تعالىٰ نَصْر الجناب الكريم » . وأنَّهُ يقال لكلٍّ من الأربعة «النُّوَيْنىّ» . ثم قال : ومثلُ هذا مكاتبة أرتنا بالرُّوم، وأمير التُّومان بديار بَكْر : من سُوناى وبنيه وكذلك سائرُ الامراء النُّوَيْنات : وهم أمراءُ التَّوامين .

والذى ذكره فى "التثقيف" أن المكاتبة إلىٰ الشيخ حسن الكبير أمير الأَلُوس كانت علىٰ ما ٱستقرّ عليه الحال إلىٰ حين وفاته ببغدادَ فى قَطْع الثُّلُث بقلم التوقيعات: «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ الجناب الكريم ، العالى ، الأميرىّ، الكَبِيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ، المؤيَّدىّ، الزَّعيمىّ، العَوْنىّ، الغِيَاثىّ، المُثَاغرىّ، المُرابِطىّ، الممهِّدىّ ، المشيِّدىّ، الظَّهيرىّ، النُّوينىّ، الفلانىّ : عونِ الإسلام والمسلمين، سيِّدِ الأمراء فى العالَمين، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، زعيم جُيوش الموحِّدين، ممهِّد الدُّوَل، عمادِ الملة ، عَوْنِ الأمه ، كافى الدولة القانيَّه ، كافِل المملكة الشَّرْقيه ، آمِرِ التَّوامين ، أمير الأَلُوس، ظهير الملوك والسلاطين، عضُدِ أمير المؤمنين» . والدعاء أربع قرائن أو أكثر : « أصدَرْناها إلىٰ الجناب الكريم » و « تبدى » و « القَصْد من الجناب الكريم » . والعلامة « أخوه » . وتعريفه «الشَّيْخ حسن أَلُوس بك» .

قال فى "التثقيف" : ولما تُوفِّى الشيخُ حسنٌ المذكور إلىٰ رحمة الله تعالىٰ لم يقُمْ غيره مكانَهُ فيما أظُن، ولا كُوتِب أحدٌ بعده بهذه المكاتبة . قال : والنُّوينىّ فى ألقاب هٰؤلاء بدل «الكافِلىّ» فى ألقاب النُّوّاب، يعنى بالمملكة المِصْريَّة والشاميَّة. ثم قال : وهو نعتٌ يُستعمَل دائمًا لأهل تلك البلاد ، ولا يُستعْمَل الكافلىّ أصلا.

وهذا عجيب منه ! فقد أثبت هو «الكافِلىّ» فى الألقاب التى أوردها فى المكاتبة إلىٰ الشيخ حَسَن الكبير .

وأما الوزير بهـذه المملكة فقد ذكر فى "التعريف" أن رسمَ المكاتَبة إليه فى قطع الثلث «ضـاعفَ اللهُ تعـالىٰ نِعـمةَ المجلس العالى الأَميرىّ الوزيرىّ» علىٰ عادة المكاتبات إلىٰ الوزراء بألقـاب الوِزَارة . قال : فإن لم تكُنْ له إمْرة ، فيقال له «الوَزِيرىّ» ولا يُقال له «الصاحِبىّ» لَهوَانها لديْهم . ولم يتعرّض فى "التثقيف" إلىٰ المكاتبـة إلىٰ وزير هـذه المملكةِ ، ولا إلىٰ الأُمَراءِ الثلاثة البـاقين من أُمَراء الأَلُوس ، بل عدَل عن ذلك إلىٰ المكاتبـة إلىٰ الوزير ببلاد أزْبَك . وسيأتى ذكرها فى موضعها إن شاء اللهُ تعالىٰ .

قلت : وقد مُحِيتْ رسومُ تلك المملكة ، وعفَتْ آثارها بزَوَال ترتيبِ المملكة بموت السلطان أبى سعيد : آخرِ ملوك بنى جنكزخان بهذه المملكة . وإنما ذكْرنا ذلك حِفْظًا لما كان الأمرُ عليه : لاحتمال طُرُوِّ مثل ذلك فيما بعد ، فيُنْسَج ما يأتى علىٰ مِنْوال مامضىٰ ، ويُجْرىٰ فى المستقبل علىٰ مِنْهاج المـاضى ؛ فالأمور ترتفِـعُ ثم تنخفِض ، وربمـا ٱنخفَضَتْ ثم ٱرتفعت . واللهُ تعالىٰ يقول : ﴿ وتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُها بَيْنَ الناس ﴾ .

الضرب الثـانى

(كُفَّالُ المملكة بالحضْرة بعد موت أبى سعيد)

قد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً : منهم محمدٌ الكازَرُونىُّ وزكَرِيًّا وزيرَا الشيخ أُوَيْس . وقد ذكر أنَّ رسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما فى قَطْع العـادة «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامىِّ ، الأجلِّىّ ، الكبيرىّ ، الأوْحَدىّ ، المقدَّمىّ ، المُنْتَخَبىّ ، الفلانىّ ؛ مجدِ الإسلام ، بَهاءِ الأنام ، شرفِ الرؤساء ، أوحدِ الأعيان ، صَفْوة الملوك

والسلاطين» . ثم الدعاء . والعلامة « الاسمُ الشريف » وتعريفُه «فلان وزير الشيخ أُوَيْس بَهادِرْخان» .

ومنهم ـ الطَّواشى مَرْجان، نائبُ القان أُوَيْس ببغداد، ولقبه أمينُ الدين بالِس . ورسم المكاتبة إليه «والده» و«السامى» بالياء . وتعريفه «خَوَاجا مَرْجان» .

ومنهم ـ محمد فَلْتان، نائب الشيخ أُوَيْس أيضا . وذكر أنَّ رسمَ المكاتبة إليه مثل المكاتبة إلىٰ مَرْجان . والعلامة « الاسمُ الشريف » . وتعريفه : «فَلْتان نائب الشيخ أُوَيْس» .

قلت : فإن ٱتفق أنْ أُقيم لصاحب بغدادَ: كأحمد بن أُوَيْس ومن فى معناه مثلُ هؤلاء ، كانت المكاتبةُ إلىٰ كلٍّ منهم نظيرَ مثله من المذكورين بحسَب مايقتضيه الحالُ .

الصنف الثانى

(ممَّن جرَتِ العادة بمكاتبته بمملكة إيرانَ عن الأبواب السلطانية، صِغَارُ الملوك المنفردين ببعض البُلْدان، والحُكَّامُ بها ممن هو بمَمْلكة إيران)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنَّ مملكة إيرانَ تشتمِلُ علىٰ عِدّة من الأقاليم داخلةٍ فى حدودها، منتظمةٍ فى سِلْكها . وقد ذكر فى "التعريف" جملةً من المكاتبات عن الأبواب السُّلْطانية إلىٰ بعض هٰؤلاء الملوك . وخالفه فى "التثقيف" فى بعض المواضع وزاد عليه عِدّةَ مكاتبات . وها أنا أذكُر ما ذكراه من ذلك ، وأزيد ما ٱتَّفَق زيادتهُ مميِّزا لكلِّ إقليم من أقاليم هذه المملكة بمَنْ فيه من المُلُوك والحُكّام ومَنْ جرىٰ مجراهم .

فمّن جرتِ العادةُ بمكاتبته من الملوك والحُكّام بالجزيرة الفُراتيّة، ممـا بين دِجْلةَ والفُرَات من ديار بكر وربيعة ومُضَر وغيرها علىٰ ماتقدّم ذكره فى المسالك والممـالك فى المقالة الثالثة

صاحبُ مارِدِينَ — وقد تقدّم فى المَسالك والممَالك أنها مدينةٌ ذاتُ قَلْعة حَصِينة بديار بَكْر من هذه الجزيرة ، وأنها بيد بَقَايَا بنى أُرْتُق(١) المستقِلّين بمُلْكها من قديم الزمان وإلىٰ الآنَ .

ورسمُ المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" : «اعزّ الله تعالىٰ نُصْرة المقرّ الكريم العالى، الكبيرىّ المَلَكى الفلانىّ الفلانى» يعنى باللّقب الملوكى، واللّقب المضاف إلى الدين؛ مثل «الصّالحى الشّمْسى» وما أشبه ذلك . ثم الدعاء . قال فى "التثقيف": ثم يقال : «أصدرناها إلى المَقرّ الكريم»، «وتُبْدى لعلمه الكريم» . «فيتقدّم أمره الكريم» . ويُخْتَم بمـا صورته «فُيحيط علمُه الكريم بذلك» . والدعاء . والعلامة «أخوه» . وتعريفه «صاحب مارِدِينَ» . وورقُه قَطْع العادة . ثم قال : ويتعيّن أن تكون ألقابُه إلى آخر اللقب الملوكىّ سَطْرَيْن سواءً ، وأن يكون لقبُـه العادىّ كالفَخْرىّ مثلا أوّل السطر الثالث .

وقد ذكر فى "التعريف" ثلاثةَ صُـدُور لمكاتبة تتعلّق بصاحبها فى زمانه ، وهو «الصالح شَمْس الدّين صالح» .

أحدها — ولا زالَ مَلِكا تاجُه المَدَائح، ومِنهاجُه المَنَائح، وطريقتُه إذا وُصفتْ قيل : هذه طريقةُ الملِكِ الصالح. أصدرْناها إليه وشكْرُها تَسُوقه إليه حُداةُ الركائب، وتشوقُ منـهِ إلىٰ لقـاء الحَبَائب ، وتُثْنى علىٰ مَكارمه التى كلّما أَقْلعتْ منهـا سحائبُ أُعْقِبتْ بسحائب، وتُوضِّح للعلم الكريم .

(١) هو بهذا الضبط كما فى ص ٨٦ ج ١ من تاريخ ابن خلكان .

الثانى — ولا زالتْ شمسُه فى قُبَّة فَلَكِها ، وسَمـاءُ ممالِكه مملوءةً حَرَسًا شـديدًا وشُهُبا بمَلِكها ؛ ونِعَـمُه تتعب البِحارَ إذا وقفَت فى طـريقها ، والغمائمَ إذا جازت فى مَسْلَكها . أصدرناها إليه والسلامُ متنوِّع علىٰ كَرَمه ، متضوِّع بأطيبَ من أنفاسِ المِسْك فى نِعَمه ، متسرِّع إليه تَسَرُّع مواهِبِه إلى وُفُود حَرَمه . وتوضِّح للعلم الكريم .

الثالث — ولا زالتِ العُفاة تلتَحِفُ بنَعْمائه ، وتنتَجِع مَسَاقِطَ أنوائه ، وتستضىءُ منه بأشرقِ شمسٍ طلعت من المُلْك فى سَمَائه ؛ أصدرناها وثناؤها يسابِق عَجِلا ، ومدائحها تُجِيد مَتروِّيا ومُرْتَجِلا ؛ وشُكْرها لورُصِّع مع الجواهر لأقام عُذْرَ الياقوت إذا آكْتَسىٰ خَدُّه الحمرةَ خَجِلا ، وتوضِّح للعِلْم الكريم .

قلت : وعلىٰ نمط هـذه الصدور يجرى الكاتبُ فيما يكْتُبه إلىٰ صاحبها مناسـبا لحاله ولقَبِه بحَسَبِ مايقتضيه الحال من المُناسَبات .

وهذه نسخةُ كتاب ، كُتِب به إلىٰ الملك "الصالح شرفِ الدِّين محمود بن الصالح صالح" ، جواباً عمَّا ورد به كتابُه : من وفاةِ والده المنصور أحمد . نقلتها من مجموع بخطِّ القاضى تقىّ الدين آبن ناظر الجيش وهو : [(١)]

أعزَّ الله تعالىٰ نُصرةَ المَقرِّ الكريم ، الى آخر ألقابه — ولا زال المُلْك باقيا فى بيته الكريم ، والفَلَك جاريا بإظهار شَرَفه العَميم ؛ وأعظَم له الأجْرَ فى أكرمِ مَلِك آنتقل إلىٰ جنَّات النعيم ، وهَنَّاه بما أَوْرثه من ذلك المحلِّ الأسنىٰ الذى هو الأوْلىٰ فيه بالتقْديم ؛ وضاعفَ لسلطانه الصالحِ عُلوّ جَدّه ، بما مَنَحه من مُلْكه المَوْرُوث عن المنصور أبيه والصالح جَدّه ، وبما خَصَّه من إقبالنا الشريف وإحساننا المستديم . أصدرناها مُعْرِبةً عن الوُدّ الثابت الصَّمِيم ، مهنِّئة له بقيـامِه بأُمور مملكته التى تَجَمَّلت بمحمود صفاته

(١) هو على مايؤخذ من نسخة الجواب بعد : محمود بن أحمد بن صالح فنسبه إلى جدّه .

ومَنْ سلَفَ من أسلافه فى الحديث والقديم، مُبدِيَةً لعلمه الكريم أنَّ مكاتبته الكريمه، ومُخاطَبَته التى فَضَحتْ من الدُّرّ نَظِيمه، وردَتْ علىٰ أبوابنا الشريفة علىٰ يد فلان فأقبلْنا عليها، وألفَتْنا وجهَ الكرامة إليها؛ وعلمنا ماتضمَّنته من ٱستمْساك المقرّ الكريم بأسباب الوِداد، وٱقتفائه فى ذلك سبيلَ الآباءِ والأجْداد؛ وماشَرَحه فى معنىٰ ماقدّره الله تعالىٰ من وَفاة والده طابَ ثَراه، مستمِرّا علىٰ الإخلاص فى الطاعة الذى لم يكن شانَهُ شينٌ ولا ٱعتراه؛ وأنه مضىٰ - إن شاء الله تعالىٰ - إلىٰ الجنة وقد خَلَّف من خَلَّفه، وٱرتضىٰ بما نال من الرِّضا عما قدّمه من العمل الصالح وأسْلَفه؛ وماأبداه: من أنه إن ٱقتضت مراسِمُنا الشريفة وآراؤنا العاليةُ أن يقومَ مقامه، ويَرْعىٰ فى حقوقه ومَصَالح تلك المملكةِ ذِمَامه؛ فنَرْسُمُ بإجرائه علىٰ السُّنَّة المعتاده، من إحسانِ بيتنا الشريف الذى بَدَأ به وأعاده؛ وإلا فتَبرُز الأوامر الشريفة بمَنْ يَسُدّ ٱختلالها، ويُسَدّد أحوالها، ويَشَيِّد مَبانِيَها ويُصْلِح أعمالها؛ ليقصِدَ المَقامَ الشريف بأبوابنا الشريفة سالكًا سبيلَ الطاعة المُبين، منتظِمًا فى سِلْك أوليائنا المُقرّبين؛ إلىٰ غيرذلك مما حَمَّله لأستاد داره من مشافهته، وجميلِ مقاصده ووافر محبَّته وطاعته؛ وقد أحطْنا علمًا بذلك وسمعنا المشافَهةَ المذكوره، وشكرنا محبَّتَه المأثوره؛ وإخلاصه فى الخِدْمة الشريفه، وجميلَ الموالاة التى تمنَحُه تكريمَه وتشريفَه؛ وٱستمْساكه بسُنَّة آبائه الكِرام، وٱجتهادَهُ فى المُناصحة والطاعة التى لاتُسَامىٰ من مثله ولا تُسَام؛ ونحن نُعرِّف المقرَّ الكريم أنَّ محلَّه ومحلَّ بيته الكريم لم يزَلْ لدينا رفيعًا مِقدارُه، عاليًا مَنَاره؛ وأن مَكانَتَه من خواطرنا الشريفةِ متمكِّنه، ومنْزِلتَه قد صحَّت أحاديثُها المعَنْعَنه؛ وهو الأحقُّ بمحلِّ مُلْكه، والأولىٰ بأن يكون من نِظام عُقودِ مُلُوكه واسطةَ سِلْكه؛ وقد ٱقتضت آراؤُنا العاليةُ أن يقومَ مَقام والده المرحوم، ويحُلَّ محلَّ هذه السلطنة ليعْلوَ قدْرُه باقبالنا الشريف علىٰ زُهْر النُّجوم؛ ولْيجلِسْ بمكانه، وليَبْسُط

المَعْدِلة لتكونَ حليــةَ زمانه، وليستنْصِرعلىٰ أعدائنا وأعدائه بأنصارالمَلِك وأعوانه؛ وليستقِرَّ على ماهو عليه من المحافَظة على الوِداد، ولْيستمْسِكْ بعُرىٰ الإخلاص المبَرَّإ من شوائب الآنتقاد؛ وليقْتَفِ فى ذلك سبيلَ سَلَفه الكريم، ولْيُواصِــلْ بمكاتباته وأخبارِه علىٰ سَنَنِهم القَويم؛ وقد أعدنا إستاد داره بهذا الجواب الشريف إليه .

وآعلم أنه قد ذكر فى "التثقيف" أنَّ ممن يكتَبُ إليــه عن الأبواب السلطانية من أتباع صاحب مارِدِينَ نائبُه، وذكر أنه كان آسمه فى زمنه «بَهَادِر» . وأن رسم المكاتبــة إليه الآسمُ والسامى بغير ياء؛ وكذلك نائبُ الصالحيَّــة من عَمَل مارِدِينَ؛ وأنَّ رسمَ المكاتبة إليه الآسمُ و «مجلس الأمير» . فليَجْرِ الكاتب علىٰ سَنَن ذلك إن آحتيج إلىٰ مكاتبتهما .

صاحب حِصْن كَيْفَا — وهى مدينةٌ من دِيار بكرمن بِلاد الجَزِيرة، بين دِجْلةَ والفُرات . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المَسَالك والممالك نقلا عن "التعريف" أن صاحبها من بقَايا الملوك الأيوبيَّة، وممن تنْظُر إليه ملوكُ مصَر بعين الإجلال : لمكان وَلَائهم القديم لهم، وآستمرار الوداد الآنَ بينهم .

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" : «أدام اللهُ نعمةَ المجْلِس العــالى، المَلَكى، الفلانى» باللَّقَب الملوكى «العالمِىّ، العادِلىّ، المجاهِــدىّ، المؤيَّدىّ، المرابطىّ، المُثَاغِرىّ، الأوحدىّ، الأَصِيلىّ، الفلانى» باللقب المتعارَف «عِزِّ الإسلام والمسلمين، بقيَّةِ الملوك والسلاطين، نُصْرة الغُزاة والمجاهِدين، زَعيم جُيوش الموحِّدين، شَرَف الدُّوَل، ذُخْرِ الممــالك، خليلِ أميرالمؤمنين» . ورُبَّمــا قيل : «عَضُد أمير المؤمنين» إذا صُغِّر .

وذكر فى "التثقيف" مايخالِفُ فى بعض ذلك، فقــال : إنَّ مكاتبته : «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، المرابِطىّ،

المثاغرى"، الأوحدى"، الفلانى"» باللقب الملوكى واللقب المتعارف . «عِزّ الإسلام والمسلمين، زعيم جيوش الموحِّدين. ذُخْرِ الملة، سليل الملوك والسلاطين، عضُـد أمير المؤمنين» . ثم الدعاء . «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى . "والعلامة" أخوه» وتعريفه «صاحب حِصْن كَيْفا» . قال : والكتابة إليه فى قَطْع العادة .

وقد ذكر فى "التعريف" صُدورا لمكاتبته .

صدر : وٱستعادَ بِه من الدَّهْر من عُهود سلفه ماتسلَّف؛ وحاز له من مَوَارِيث المُلْك أكثر مما خَلَّى له أوّلُه وماخَلَّف، وحطّ للرحال فى حِصْن كَيْفا به علىٰ مَلِكٍ : أما المستجيرُ به فيتحَصَّن وأما فضْلُه فلا يُكَيَّف؛ وأعان السحابَ الذى كَلَّ عن مجاراته ويَجْرِى هو ولا يتكلف . أُصـدِرتْ هذه المكاتبةُ إليـه ونَوْءُها يَصُوب، ولَأْلاؤها تَشُقُّ به الظلماءُ الجُيُوب، وثناؤُها على حُسْن بَلائه فى طاعة ربِّه يقول له : صَبْرا صبْرًا كما تعوّدتم يا آلَ أيُّوب .

صدر آخر : وشَدّ به بقِيَّةَ البيت ، وحَيَّـا طَلَله البـالى وأحيـا رسْمَه المَيْت؛ وذَكَّر به من زمان سَلَفه القديم مالا يُعْرَف فيه هَيْت، وأبقىٰ منه مِلِكا من بنى أيُّوبَ لا يَثْنِي وعْدَه اللَّيُّ ولا يقـال فيه لَيْت ؛ ونَوَّر الملك بغُرّته لا بمـا قَرَع السـمْعَ عن الشَّـمع ووَرَدَ المصابيحَ من الزَّيْت، وحَفِظ منه جَوَادا لو عينه(١) أخُوه السَّحابُ علىٰ السَّبْق، لقال له : هَيْهاتَ كم خَلَّفْت مثلَك خَلْفى وخَلَّيْت . أُصدِرتْ هذه المكاتبةُ إليه، أعزَّ الله جانبه والتحيَّاتُ مُوَشَّحةٌ بنُطُقها، مصَبِّحةٌ لسَجاياه الكريمة بخُلُقهـا، ساحبةٌ إليه ذَيْلَ خُيَلَائها : لأنها إذا ٱختالَتْ بهتَخْتال، وبسَبَبه علىٰ السُّرور تَخْتال .

ملوك كيلان ــ قال فى " التعريف " : وهم جمـاعةٌ كلُّ منهم مسـتقِلٌّ بنَفْسـه ، منفردٌ بمُلْكه، علىٰ ضِيقِ بلادهم وقُرْب مجاورةِ بعضِهم من بعض . وقد

(١) كذا بالأصل، وفى التعريف "عتبه" والاولىٰ عاتبه أنظر كتب اللغة .

تقدّم الكلامُ علىٰ بلادهم فى المسالك والممالك . قال فى "التعريف" : ورُسُلهم قليلة، وكُتُبهم أقلُّ من القليل .

ورسمُ المكاتبة إلىٰ كلّ منهم علىٰ ماذكره فى "التعريف" نحوُ مايُكْتَب إلىٰ صاحب حِصْن كَيْفا . يَعنى يكْتَب لكلٍّ منهم : « أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ المجلِس العالى المَلَكى الفلانى » إلىٰ آخر ما تقدّم هُناك . قال فى "التعريف" : إلا صاحب يُومنْ فإنه يكْتَب له بـ«الجناب» . وهو مثلهم فى بقِيَّة الألقاب . قال فى "التثقيف" : ولم أَرَ لهم مكاتبةً ، ولا كُتِب لهم فى مدّة مباشرتى بديوان الإنشاء الشريف شىْءٌ ؛ غير أنى رأيت بخطّ المولىٰ القاضى المرحوم زين الدين خَضِر، أنه كتب أمثلةً شريفةً إلىٰ جماعة، منهم «حَرَم الدين» . بيُومِنْ، ثم قال : وهذا هو الذى ذكر القاضى شهابُ الدين أنَّ مكاتبته أعلىٰ مكاتباتهم، وأنه يكْتَب إليه «الجناب» . قال : ومايَبْعُدُ أن الجماعة الذين كُتِبَ إليهم علىٰ ما ذكر القاضى زينُ الدين المشار إليه هم من جملة ملوك كَيْلَان . ثم عدّد مَنْ كُتِب إليه منهم فقال : وهم نُوباذ شاه، وسالوك ولده ، فى قَطْع العادة .

ورسم المكاتبة إليهما : «خلَّد الله تعالىٰ سعادةَ الجَنابين الكريمين، العاليين، الكبيريَّيْن، العادِليَّين، المجاهديَّيْن، المرابطيين، المَلَكيين : الشَّرَفىّ والسَّيْفىّ» . والدعاء . والعلامة «أخوهما» . والعُنْوان سطران . وتعريفهما : نُوباذ شاه وسالُوك ولده صاحبا كوحسفا (؟) .

ناصر الدّين بَهْلَوَانُ ، وشَرَفُ الدين شَرَف الدولة صاحِبَا لاهَجَان مثلُ ذلك سواءً .

فَلَك الدين صاحب دشْتَ كذلك .

حُسَام الدين صاحب يُومِنْ كذلك . ثم قال نقلا عن ابن الزَّيْنىّ خَضِر أيضا : وقيل إنّ حُسام الدين هـذا كان صاحب يُومِن ، وصاحبُها الآنَ أخُوه علىٰ ماذكره محمود بن إبراهيم بن اسفندار الكِيْلانى حين كَتَب إليهم .

قلت : وهٰؤلاء هم ملوك كِيْلان ، وهذه مُدُنُهم علىٰ ما تقدّم فى المسالك والممالك . والعَجَب كيف وقع الشَّك فى ذلك من صاحب "التثقيف" حتّى قال : وما يَبْعُد . وأما التسويةُ فى الآخر بين صاحب يُومِنْ وغيره ، فيجوز أنّ قدْره ٱنحطَّ بعد زمن صاحب "التعريف" أو جَهِل الكاتب الثانى مِقدارَه .

صاحب هَرَاةَ ــ وهى مدينة من خُرَاسانَ . قال فى "التعريف" : ولا يَجْرِى علىٰ الأَلْسُن الآنَ إلا صاحب هَرىٰ . قال : وكان ملِكُها الملِكَ غياثَ الدين . ولم أسمع أعجميًّا يقول إلا قِيَاس الدين . وكان مَلِكا جليلا نَبِيلا مفَخَّما معظَّما، له مَكانةٌ عند الملوك الهُولاكوهِيَّة، ومنزلةٌ رفيعة عليَّة . وكان بينه وبين النُّوَيْن جُوبان مودّةٌ أكيدة وصداقةٌ عظيمة ؛ فلما دارتْ به دوائرُ الزمان وأفضَتْ به الحال إلىٰ الهَرَب ، لجأ إلىٰ صاحب هَرىٰ هذا ، على أنه يُسَهِّل له الوُصُولَ إلىٰ صاحب الهند ؛ أو إلىٰ مَلك ماوراء النهر، فأجابه وأنزله ، وبَسَطَ أَمَلَه ؛ وأسرّ له الخِدَاع حتّى ٱطمأنّ إليه ، فأصعَدَه إلىٰ قَلْعته ليُضيفه ، فصَعِد ومعه ٱبنُه جلوقان ، وهو ٱبنه من خُوَندة بنت السلطان خدابَنْدا ؛ وجُلُوقان هذا هو الذى أجيب إلىٰ تزويجه ببنت السلطان الملك الناصر، وعلىٰ هذا تمّتْ قواعدُ الصُّلْح . وبنىٰ جُوبانُ أمرَه علىٰ أنه بعدَ التزويج يأخذ له مُلكَ بيتِ هُولاكو بِشُبْهة أنه ٱبن بنْت خدابندا ، وأنه لم يَبْقَ بعد أبى سعيد من يَرِث المُلْك سِواه . ثم يستضيف له مُلكَ مصر والشام بشُبْهة أنّ بنتَ صاحب مصرهى التى تَرِث المُلْك من أبيها ؛ فحالت المَنَايا دُون الأمانِى .

وحالَ صُعودِ جُوبان وآبنه جلوقان القلعة أمسكهما غياثُ الدِّين وخنَقَهما ليتّخذ وجها بذلك عند أبى سعيد ،وبعثَ بذلك إلىٰ أبى سعيد،فشكَرَله إمساكَهما،وانكر عليه التعجيلَ فى قتلهما ،فاعتذر بأنّى لو لم أقتُلْهما لم آمَنِ آستعدادَ مَنْ معهما لمحاصرتى ، فقبَل عُذْره ، وطلب منه إبهام[(١)] جُوبانَ ليعْرِف أنه قد قتله ، وكان فيه زيادةُ سِلعة ظاهرة يُعَرف بها ،فجهَّزه إليه فأكرم رُسُلَه وبعث إليه بالخِلَع ،وأمر بإصبَع جُوبان فطِيف بها فى الممالك . ثم سألتْ بغدادُ خاتُون بنتُ جُوبان : آمرأةُ أبى سعيد،وكان شديد الكَلَف بها ، فى نقل أجسادهما فنُقلتْ ،فعقَدتْ لها المآتِمَ ،ثم أمَرتْ بحملهما إلىٰ مكّة المعظَّمة ، ثم إلىٰ المدينة المشرَّفة ليُدْفَنا فى التربة الجُوبانيَّة التى كان جُوبانُ أعدّها لدَفْنه فى حال حياتِه ، فمُكِّنت من ذلك إلا من الدَّفْن فإنهما دُفِنا بالبَقِيع . ثم حَضَر غياثُ الدين حضرةَ أبى سعيد ،فأُكْرِم وأُعطِىَ العطايا السنيَّة ، ثم لم يلْبَثْ أن مات وولى آبنُه . قال : ولم يكن صاحبُ هذه المملكة ممن يكاتَب عن السلطان حتّٰى كانت واقعةُ جُوبان فكُتِب إليه .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" : «أعزَّالله تعالىٰ نَصْرالمَقرّ الكريم ، العالى ، العالمىّ ، العادِلىّ ، المجاهِدىّ ، المؤيَّدىّ ، المرابِطىّ ، المُثاغِرِىّ ، الأوحدىّ المَلك الفلانىّ ، شَرَفِ الملوك والسلاطين ، خليلِ أمير المؤمنين» . قال فى "التثقيف" : ولم أطَّلِعْ علىٰ مايكتب إليه سوىٰ ماذكره القاضى شهابُ الدِّين بعد واقعة جُوبان . قال : والذى يظهر لى أنه لم يكاتَبْ بعد ذلك هو ولا مَنْ قام مَقَامه : لأنه لم تكن له مكاتبة مشهورةٌ متداوَلَة بين الموالى الجماعة ، ولا كتب إليه فى مدّة مباشرتى شيء . علىٰ أنَّ القاضىَ شهابَ الدين لم يذكر تعريفه

(١) أى أصبعه الابهام .

الحكام بهـــذه المملكة

(مَنْ جرتِ العادةُ بمكاتبته من الحُكَّام بالجزيرة الفُراتيَّة من هذه المملكة)

الحاكم بشِمْشاطَ — وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أنَّها بلدةٌ من ديار مُضَر بين آمِد وخَرْتَ بِرْتَ . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامة الأسمُ . وتعريفه «الحاكم بشِمْشَاط» .

الحاكم بميَّافارِقينَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدة دِيارِ بَكْر . قال: فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامِى» بغير ياء . والعلامة الأسم . وتعريفه «الحاكم بميَّافارِقِينَ» .

الحاكم بِحِيزانَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينة من ديارِ بكر . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامةُ الأسم . وتعريفه «الحاكم بِحِيزان» وهو معدود فى "التثقيف" فى جُمْلة الأكراد .

الحاكم بجزيرة آبن عُمَر — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ صغيرةٌ على دِجْلة من غربيِّها . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامىّ» باليـاء . والعلامةُ له الأسم . وتعريفه «الحاكم بجزيرة آبن عُمَر» . وذكره فى "التثقيف" فى جملة الأكراد، وقال : كان بها عِزُّ الدين أحمد اليخشى . وذكر أن رسم المكاتبة إليه الأسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه «أحمد بن سيف الدين اليخشى الحاكم» . وآستقرّ بعد وفاته ولدُه عيسىٰ، وورد كتابه فى صَفَر سـنة أربع وستين وسبعمائة، أخبر فيه بوفاة والده وآستقرارِه مكانَهُ . على أنه قد ذُكر معبِّرا عنه بصاحب الجزيرة، وسماه بكلمش . وذكر أن المكاتبة إليه الأسم و «السامى» بغير ياء .

الحاكم بسِنْجار — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ من ديار ربيعة . قال فى "التثقيف" : وكان قد كتب لشيخُو الحاكم بها مرسومٌ شريف بأن يكون

نائبًا بها حَسَب سؤاله فى سنة ثلاث وستين وسبعمائة . قال : وكانت المكاتبةُ إليه أوّلا الآسم و « مجلس الأمير » وكُتِب له حينئذ « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتَـلّ أعْفَرَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قَلْعةٌ بين سِنْجارَ والمَوْصِل . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه «السامِىّ» بالياء . والعلامة له الآسم وتعريفه « الحاكم بتَلّ أعْفَرَ » .

الحاكم بالمَوْصِل — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدةُ بلاد الجزيرة كلّها فى القديم حيث كانت بيد الجَرَامِقَة . قال فى " التثقيف " : والمكاتبةُ إليه فى قَطْع العادة الآسم، و «صدرَتْ » و« السامى» . وتعريفه «الحاكم بالمَوْصِل» . ورأيت فى بعض الدساتير أن العلامة آستقرّتْ له «والدُه» عند آستقراره نائبَ السلطنة بها .

الحاكم بالحَدِيثة — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بلْدة على الفُرات . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه الآسم و «السامىّ» بالياء . وتعريفُه « الحاكم بالحَدِيثة » . وهى غير حَدِيثة المَوْصِل . وهى بلدةٌ شرقىَّ دِجْلة تُعَدّ فى بلاد العراق .

الحاكم بعَانَةَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بلدةٌ صغيرة على جزيرةٍ فى وَسَط الفُرات . قال فى " التثقيف " : ورسمُ المكاتبة إليه الآسمُ و « السامىّ » بالياء . وتعريفهُ « الحاكمُ بعانَةَ » . ورأيتُ فى بعض الدساتير أنَّ المكاتبة إليه « السامى » بغير ياء .

الحاكم بتِكْرِيت (١) — وفى " التثقيف " صاحب تِكْرِيت . وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينةٌ من آخر مُدُن الجزيرة بين دِجلةَ والفُرات . قال فى "التثقيف": ورسمُ المكاتبة إليه مثلُ الحاكم بالمَوْصِل، فتكون فى قَطْع العادة . والعلامةُ الآسم . وتعريفُه « الحاكم بتِكْرِيت » .

(١) فى معجم ياقوت بفتح التاء والعامة يكسرونها .

الحـاكم بقَلْعة كُشَاف — وقد تقدّم فى المسالك والممـالك أنها فى الجَنُوب عن المَوْصِل بين الزَّابِ والشَّطِّ، وأنه عدّها فى "تقويم البُلْدان" من بلاد الجزيرة مرَّةً، ومن عِراقَ العجم أُخْرىٰ. وأنه أوردها فى "التثقيف" بإثبات الألف واللام . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه مثلُ حاكِمَىْ عانةَ والحَديثة، فتكون المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . ورأيتُ فى بعض الدساتير أن المكاتبة إليـه «السامِى» بغير ياء . وتعريفه «الحاكم بقلعة كُشَاف» .

الحاكم بإسْعِرْد — وهى سِعِرْتُ . قد تقدّم فى المسالك والممالك أنها مدينـةٌ من ديار رَبِيعة . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه «مجلسُ الأَمير» . وحينئذ فتكون فى قَطْع العادة . والعلامةُ الاسم . وتعريفه «الحاكم بإسْعِرْدَ» .

صاحب حَانِى — ويقال لها حَنَا . وهى مدينـةٌ من ديار بكر . وقد ذكر فى "التثقيف" أنَّ صاحبها تاجُ الدين. ورسمُ المكاتبة إليه الاسم «والسامى» بغير ياء.

من جرت العادة بالمكاتبة إليه

بالجانب المختصِّ ببنى جنكزخان من بلاد الرُّوم من مارِية وما معها

أُرْتَنَا ، الذى كان قائما بهذه البلاد عن بَنِى هُولاكُو من التَّتَر. ورسم المكاتبة إليه فى قَطْع الثلث : « ضاعف اللهُ تعـالىٰ نِعْمةَ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمِىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، العَوْنىّ، الزَّعيمىّ، المهِّدىّ، المشيِّدىّ، الظَّهيرىّ، النُّوَيْنىّ، الفلانىّ؛ عِزِّ الإسلام والمسلمين، سيِّدِ الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغزاة والمجاهدين، زعِيم الجيوش، مقدَّم العساكر، كهفِ المِلَّة، ذُخْر الدولة، ظَهِير الملوك والسلاطين، سيف أمير المؤمنين » . والدعاء والسلام . والعلامة «أخوه» .

وذكر فى "التثقيف" أنه كتب إلىٰ ولده محمد بعده كذلك فى قَطْع الورَق والمكاتَبة والعلامة . وأنه كتب إلىٰ على بك بن محمد المذكور بعده كذلك ، إلا فى العَلَامة فانها ٱستقرّت له «والدُه» وكُتب تعريفه : «على بك آبن أرتنا» .

من جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ببلاد العراق

الحاكم بهِيتَ — وعبَّر عنه فى "التعريف" بصاحب هِيت . وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها شَمَالىّ الفُرات من أعمال بَغْداد . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه الآسمُ و «السامىّ» بالياء؛ وتعريفُه «الحاكم بهِيتَ» .

الحاكم بالقُنَيْطِرة — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها بَلْدة بالقُرْب من مَرْسىٰ الحِلَّة . قال فى "التثقيف" : والمكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . والعلامةُ الآسمُ . وتعريفه «الحاكم بالقُنَيْطِرة» . ثم قال : وآخر ما ٱستقرَّت مكاتبتُه عليه «السامى» بغير ياء . وعبَّر عنه فى موضع آخر «بابراهيم صاحب القُنَيْطِرة» . وذكر أن المكاتبة إليه الآسمُ و «السامى» . وأن تعريفه ٱسمه خاصَّةً .

من جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ببلاد الجَبَل
"وهى عراق العجم"

الحاكم بإرْبِل — وعبَّر عنه فى "التثقيف" بصاحب إرْبِل . قال فى "التثقيف" : كان بها الشريفُ علاء الدين على الدلقندى؛ ثم ٱستقرّ بها الشريفُ يحيىٰ؛ ثم ٱستقر بها علىّ ولَدُه . قال : والمستقِرّ بها الآنَ على ماتحرّر فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة أسدُ الدين أسد . ورسمُ المكاتبة إليه الآسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفُه «الحاكم بإرْبِل» .

صاحب قاشان — وسمّاها فى "التثقيف" قَيْشان. ورسم المكاتبة إليه «السامى» بغير ياء .

صاحب باب الحديد — المعروفة عند الترك بَمُرْقابُو . وهى باب الأبواب . قال فى "التثقيف": كان بها كاوُوس، وكتب إليه جوابٌ فى ثانى عشر ربيع الأول سنة آثنتين وستين وسبعمائة أويس (١) فى قَطْع الثلُث ، والدعاء والعالى . وتعريفه آسمُه لا غيرُ .

مَنْ جرت العادة بمكاتبته من الحُكَّام ، ببلاد فارِس

الحاكم بشِيرازَ — وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها قاعدةُ بلادِ فارس . قال فى "التثقيف": والمستقِرّ بها على ماتحرَّر فى سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة، شاه شُجَاع، أخو شاه ولى . وذكر أنه لم يُكْتَب إليه فى مدّة مباشرته من ديوان الإنشاء، ولا وقف على مكاتبةٍ إليه . ثم قال : غيرَ أنه يمكن أن تكون المكاتبةُ إليه نظيرَ المكاتبة إلى الأشرف تمرتاش المستولى على تِبْريزَ، فإنه قال : إنَّ شيرازَ قدرُ تِبْريزَ ونظيرُها. فعلى هذا يكون رسمُ المكاتبة إليه فى قَطْع الثلث : «ضاعفَ الله تعالى نعمة الجناب العالى الأميرِىّ، الكبيرِىّ» وبقيّة الألقاب والنُّعوت. ويكون فيها «النُّوِيْنِىّ» كما فى مكاتبة المستولِى على تِبْريزَ .

من جرت العادة بمكاتبته ببلاد كِرْمانَ

صاحب هُرْمُز — قد تقدّم فى المسالك والممالك أنَّ قاعدةَ كِرْمان القديمة السِّيرَجَان وأن هُرْمُزَ فُرْضة كِرْمان ، وأنها خرّبها التتر عند خُروجِهم على تلك البلاد بكَثْرة الغارات ، وآنتقل معظَمُ أهلها إلى جزيرةٍ بجُيْرة بحر فارس على القُرْب منها تسمّى وَزَرُون (٢). وقد كُتِب إلى صاحبها عن سلطان العصر "الملك الناصر فرج" آبن الظاهر

(١) كذا فى الاصل ولعله زائد من قلم الناسخ (٢) هى بهذا الضبط فى الأصل ولم تذكر فى المعجم ولا فى التقويم

بَرْقُوق فى سنة ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة مفاتحةً فى قطع (١)

من جرتِ العادةُ بمكاتبته من بلاد أَرْمِينِيَةَ وأَرّان وأَذْرَبِيجانَ

النائب بِخِلَاطَ من أَرْمِينِيَةَ — قد تقدّم فى المسالك والممالك أنها كانت قاعدةَ بلاد الكُرْج . قال فى "التثقيف" : ويقال إن حاكمها من الأكراد ، وٱسمه أبو بكر بن أحمد بن أزبك . ثم قال : ورسم المكاتبة إليه الاسمُ و «السامىّ» بالياء ؛ فيكون فى قَطْع العادة . وتعريفه «النائب بِخِلَاطَ» .

الحاكم بِحِصْن أَرْزَنَ — وهى أَرْزَنُ الرُّوم . قال فى "التثقيف": وهو — على ما ٱتّضح آخِرا فى رمضانَ سنةَ ستٍّ وسبعين وسبعِمائة — علاءُ الدين علىّ بن قَرَا . وردت مكاتبته أن صاحب حِصْن كَيْفَا ٱبنُ خاله . ورسم المكاتبة إليه على ما فى "التثقيف" مثلُ صاحب حِصْن كَيْفَا من غير زيادة ولا نَقْص . على أنه فى "التعريف" قد ذكر أنّ المكاتبة إليه «السامىّ» بالياء . قال فى "التثقيف": والصحيح ماتقدّم، فإنى كتبتُ إليه بهذه المكاتبة مَرّات، وهو المتداوَلُ بين المَوَالى الجماعةِ إلى آخرِ وقْت . وقد تقدّم فى المسالك والممالك أنها فى آخرِ بلاد الرُّوم من جهة الشرق .

صاحب بِدْلِيسَ — قد ذكر فى "التعريف" أنه كان فى زمانه الأميرَ شرفَ الدين أبُو بكر. وقال : إنه يُتّهم بمذهب النّصيريّة. ثم قال : وبلده صغيرٌ، ودَخْله يسير، وعمله

(١) بياض بالاصل مقدار أربعة سطور .

ضيّق . وهو طريقُ المارّة وقُصّادِ الأبواب السلطانية إلىٰ الأردو إذا لم يكن بالعراق وله خِدْمة مشكوره . وعدّه فى "التثقيف" فى جملة الأكراد . قال فى "التعريف": ورسمُ المكاتبة إليه : « صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامىّ الأميرىّ » أسوةَ الأمراء . وذكر فى "التثقيف" أنه كان بها ضياءُ الدين أبو الفَوَارس الروشكى أخو الغرس بالو ، وأن المكاتبة إليه الاسم و«السامىّ» بالياء . وتعريفه «صاحب بِدْلِيسَ» . وأنه آستقرّ بعده ولده الرحاح ، وكوتب بمثل ذلك سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

صاحب مُوقانَ — وهى مُوغانُ . وسمّـاها فى " التثقيف " ميوغان . قال فى "التثقيف" : وكان بها محمدُ شاه بن أميرشاه ، وكتب إليه مستجدًّا فى سنة سبع وستين وسبعمائة «السامى» بغير ياء .

النائب بخَرْتَ بِرْتَ — وهى حصنُ زِياد . ذكره فى "التثقيف" من جملة تُرْكُمان البلاد الشرقية ، وذكر أنّ آسمه يومئذ باليس ، وأن رسم المكاتبة إليه الاسم و«السامىّ» بالياء . وتعريفه آسمه ، ثم قال : وهكذا كان يكتب إلىٰ صاحب خَرْتَ بِرْتَ قبله . ثم ذكر أنه رأىٰ بخط القاضى شِهابِ الدين بن الصَّفَدىّ أنه آستقرّ بها علاءُ الدين آبنُ خالد المليكشى بعد حُسَام الدين نَحْبَنْدة ، وأن مكاتبته «السامىّ» بالياء .

الصـــــنف الثالث

(ممن يكاتب بهذه المملكة العُرْبان ، وهم : عبادة وخَفَاجة)

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ أنسـاب العرب أن نَسَبَهما فى عامر بن صَعْصَعة من قَيْس عَيْلان . وأجلُّ من يكتب إليه منهم رسمُه «هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامِى الأمير» . علىٰ أنَّ صاحب التثقيف قد ذكر أنه لم يَطّلع علىٰ مكاتبةٍ إليهم .

الصـــنف الرابع
(ممن يكاتب بهـــذه المملكة التُّرْكُمان)

قال فى "التثقيف" : والأكابرُ فى البــلاد الشرقية الذين يُكْتَب إليهم من هذه الطائفة مفردا قليلٌ . أما بقيّتهم من تُرْكمان الطاعة الشريفة، فقد يُكْتَب إليهم عند المهمّات مُطْلقَاتٌ شريفة، ثم ذكر جماعةً ممن يكتب إليه على ٱنفراده، ولم يعَيِّن لأحد منهم بلدا ولا رياســة قومٍ معروفين . وها أنا أذكرهم على ماذكرهم : ليقاس عليهم لدى تحقُّق مَقَامهم .

منهم ــ مُراد خَوَاجا . ورسم المكاتبة إليه الآسم و « السـامى » بغـير ياء . وتعريفه ٱسمه .

ومنهــم ــ باكيش الكبير ٱبن أخى تُوزْطُوغان . ورسمُ المكاتبــة إليــه الآسم و «السامى» بغير ياء . وتعريفه ٱسْمه .

ومنهم ــ زَيْن المُلْك تُوزْطُوغان . ورسم المكاتبة إليه الآسمُ و«السامى» بغير ياء . وتعريفه «مُقدَّم التُّرْكمان بالبلاد الشرقية» .

ومنهم ــ على بن إينَال التُّرْكمانىّ من الطائفة البُوزقية . ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامى» بغير ياء وتعريفه ٱسمه .

ومنهم ــ يعقوب بن علِى شَار . ورسم المكاتبة إليه الآسم و « السامىّ » بالياء . وتعريفُه ٱسمه . قال فى "التثقيف" : وقد ذكر القاضى ناصرُ الدين بن النَّشائى أنه كتب إليه كذلك فى سنة إحدى وأربعين وسبعمائة .

ومنهم ــ سالمُ الدُّلكرىّ، ورسم المكاتبة إليه الآسم و «السامىّ» بالياء، وتعريفُه ٱسمـــه .

وآعلم أنه قد تقـدّم فى الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشامية نقلا عن "التثقيف" أن من طوائف التُّرْكُمان الذين هم تحتَ الطـاعة مَنْ لم يُكْتَب إليـه بعدُ ؛ بل إذا كتِبَ فى مهمٍّ شريفٍ، كتِب إلىٰ كلّ طائفـة منهم أو إلىٰ سـائر الطوائف مطلَقٌ شريف . وعدّ منهم طوائفَ :

الأولىٰ — البُوزقية : جماعة آبن دلغادر وابن إينال المقدّم ذكره .

الثانيـة — أولاد رمضان : الأمريّة .

الثالثـة — الأوشَرِيَّة : تُرْكُمان حلَبَ .

الرابعة — الدلكرية : جماعة سالم الدلكرىّ .

الخامسة — الحَرْبَنْدَلِيَّة : جماعة مصطفىٰ .

السادسة — الأَغاجِريَّة .

السابعة — الوَرْسق : تُرْكُمان طَرَسُوس .

الثامنـة — القنقيَّة .

التاسعة — البَابَنْدرِيَّة : وهم النقيبيَّة(١) .

العاشرة — البكْرلية(٢) : أولاد طشحون .

الحاديةَ عشرةَ — البَيَاضِيَّة .

ثم قال : وثَمَّ جمائعُ كثيرة لايمكن آستيعابُهم .

قلت : فإن كان من هذه الطوائف شيءٌ بهذه البلاد ، فحكمه ماتقدّم فى الكلام علىٰ تُرْكُمان البلاد الشامية .

(١) فى الضوء ص ٣٢٧ وهم من القنيعية .
(٢) فى الضوء ص ٣٢٧ البلولية وأولاد طسحون .

الصـــنف الخامس

(ممن يكاتب بهذه المملكة الأكرادُ)

وقد تقدّم الكلامُ علىٰ طوائفِهم ومنازِلهم من بلاد الجبَال من عِراق العَجَم . قال فى "التعريف": وهم خلائقُ لايُحْصَوْن، ولولا أن سيفَ الفتنة بينهم يستَحْصدُ قائمهم، ويُنَبِّـه نائمهم ، لفاضوا علىٰ البلاد ، واستضافُوا إليهم الطارفَ والتِّلاد ؛ ولكنهم رُمُوا بشَتَات الرأى وتفرُّق الكلمة ، لا يزال بينهم سيفٌ مسْلُول ، ودمٌ مطلول، وعَقْد نِظامٍ محلول، وطرفٌ باكيةٍ بالدماء مبْلُول . وهم علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(المنسوب منهم إلىٰ بلادٍ ومَقَرّاتٍ معروفة)

قال فى "التعريف": ولهم رأسان كلٌّ منهما رجل جليل،ولكلٍّ منهما عدد غيرقليل .

أحدهما — صاحبُ جُولَمَرك، من جبال الأكراد من عِراق العَجَم . قال فى "التعريف" : وهو الكبير منهما الذى تتَّفِق طوائفُ الأكراد مع آختلافها علىٰ تعظيمه، والإشارة بأنّه فيهم الملكُ المُطاع والقائدُالمتّبع . وهو صاحب مملكةٍ متسعةٍ ومُدُن وقِلاع وحُصون ، وله قبائلُ وعشائرُوأنفار . قال : وهم يُنْسَبُون إلىٰ عُتْبة آبن أبى سفيانَ بن حرب بنِ أُمَيَّةَ بن عبدِ شمْس بن عبْد مَنَاف . ثم قال : وكانت الإمرةُ قد آنتهت فيهم إلىٰ أسد الدِّين موسىٰ بن مُجَلِّي بن موسىٰ بن منكلان . وكان رجلا كريما عظيما نَهّابا وَهّابا ، تُجِلُّه ملوكُ الممالك الجليلة، وتعظِّمه حُكّام الأردو وصاحبُ مصر. وإشارتُه مقبولة عنـد الجميع . وإذا آقتتلَتْ طائفتان من الأكراد فتقدّم إليهما بالكَفّ كفُّوا ، وسمعُوا له سمعَ [مُرَاع لاسمع](١) مُطيع . وذكر أن القائم

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

فيهم إذ ذاك من بَنِيه الملكُ عمادُ الدين مجلّى : وهو رجل يحبُّ أهلَ العلم والفضل ، ويُحِلُّ منهم عنده مَنْ أتاه أعظَمَ محل . وقد مضىٰ القول علىٰ ذلك مستوفًى فى الكلام علىٰ الأكراد عند ذكر عراق العجم من المسالك والممالك، من المقالة الثانية . قال فى "التعريف" : ورسمُ المكاتبة إليه «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرى» والألقاب التامة الكاملة .

الثانى — صاحب عقرشوش من بلاد الجزيرة . قال فى "التعريف" : ومُلُوكها الآنَ من أولاد المبارِزكَك . قال : وكان مبارِزُ الدين كَكْ هذا رجلا شجاعًا كريما تَغْلِبُ عليه [غرائب من](١) الهوس . فيدّعِى أنّه ولىٌّ من الأولياء يقبل النُّذُور . وكانت تُنْذَر له النذورُ تقرُّبًا إليه،(٢) فإذا أتاه النذرُ أضاف إليه مثلَهُ [من ماله](١) وتصدّق بهما جميعا . قال : وأهل هذا البيت يدَّعُون عَراقةَ الأصل فى الإمرة وقِدمَ السُّؤدَد والحِشْمةِ . ويقولون إنهـم عُقِدت لهم ألويةُ الإمارة وتسلَّمُوا أزِمَّةَ هـذه البلاد وتسنَّمُوا صَهواتِ الصَّياصِى بمناشير الخُلَفاء، وأنهم كانُوا لَهُمْ أهلَ وَفاء . ولهم فى هذا حكاياتٌ كثيره ، وأخبـارٌ مأثُوره، وهم أهـل تَنَعُّم ورَفاهية ونِعْمة ظاهره، وبِزَّة فاخره، وأدُرٍ مُزَخْرفه، ورياض مُفَوّفه ، وخيول مسوَّمه ، وجَوارِحَ معلَّمه، وخَدَمٍ وغِلْمان ، وجَوارٍ حسان ، ومَعَازِفَ وقِيَان، وسِمَاط ممدود وخُوَان(٣) . قال : وموقع بلادِهم من أطرافِ بلادِنا قَرِيب، والمدْعُو منهم من الرَّحْبة وماجاورها يكادُ يُجيب . ثم قال : وملُوكُنا تشْكُر لهم إخلاصَ نَصِيحه، وصفاءَ سريرةٍ صحيحه . وذكر أن القائم فيهم فى زمانه شجاعُ الدين ابن الأمير نجم الدين خَضِر بن المبارِزكَكْ ، إلا أنه

(١) الزيادة من التعريف ص ٣٨ .

(٢) فى التعريف زيادة (بما تنفق عليه لا اعتقادا فيه فيسر بذلك) .

(٣) فى التعريف ص ٣٩ زيادة (وأهل عشرة واخوان) .

لم يبلُغْ مبلَغَ أبيه، بل لايُقارِب به ولا يُدانيه(١)؛ علىٰ أنه قد مَلَكَ مُلْكَه، ونَظَّم سِلْكَه. وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك أيضا فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية.

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" مثل صاحب جُولَمَرْك، وهى: «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ». وذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة كانت إلىٰ خَضِر بنِ المبارزكَكْ «صدرت» و «العالى». والعلامة «أخوه». وتعريفه «خَضِر بن المبارِزكَك». مع عدم تعريجه علىٰ ما فى "التعريف" جملة.

وقد ذكر فى "التثقيف" منهم جماعةً سِوىٰ مَنْ تقدّم ممن هم منهم بالجزيرة، كالحاكم بجزيرة ٱبن عمر، والحاكم بحانى، وصاحب عقرشوش. ولم يذكر بلاد من ذكره منهم ممن يأتى ذكره منهم ومَنْ كان بكل بلد منهم من أكابرهم وحُكَّامهم؛ ورَسْم المكاتبة إليهم علىٰ ما ذكره، وهم قسمان:

القسم الأوّل — من عُلِمت المكاتبة إليه، وهم:

صاحبُ بَرْخُو — وهو يومئذ أمير حُسَينُ بنُ الملك أسَد. ورسم المكاتبة إليه الاسم و «السامىّ» بالياء.

صاحب الباهِتيَّة — قال: وكان بها شمسُ الدين بن البيليق، ثم ٱستقرّ بعده أخوه أحمدُ. ورسم المكاتبة إليه الاسمُ و «السامىّ» بالياء أيضا.

صاحب الدَّرْبَنْده — وهو سيف الدين أَصْبر بن أَزْشِير الحسينانى. ورسم المكاتبة إليه الاسم و «السامى» بغير ياء. وتعريفه «أمير أَزْشِير الحسينانى صاحب الدَّرْبَنْده».

صاحب كَرْمَلَيْس — وهو سحب(٢) مسعود. ورسم المكاتبة إليه الاسمُ و «السامى» بغير ياء.

---

(١) فى التعريف ولا أظنه يقاربه الخ.
(٢) لعله وهو المعروف بخت مسعود.

صاحب العِمَاديَّة — عِمادُ الدين إسماعيلُ بن علىّ بن موسٰى . ورسم المكاتبة إليه «السامى» بغير ياء . وتعريفه «صاحب قَلْعة العِمَادية» . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنهم بالقرب من طائفة الجُولْمَرْكية . قال فى "التثقيف" وكان بها أولادُ الحاجّى بن عُمَرَ، وردت مطالعتُه كذلك «الحاجّى بن عمرَ صاحب العِمَادية» فى سنة أربعين وسبعمائة .

صاحب مازكرد — حسَنُ بن إسماعيل . ورسمُ المكاتبة إليه الاسمُ و«السامى» بغير ياء .

صاحب رِنْدشْت — بجبال همَذَانَ وشَهْر زُور . وهو عبدُ الله بن حُسام الدين رَسْلان . ورسمُ المكاتبة إليه الاسمُ و«السامى» بغير ياء .

صاحب جُرْذَقِيلَ — بهاءُ الدين عمرُ بن إبراهيم الهَكَّارىّ . ورسمُ المكاتبة إليه الاسمُ و«السامى» بغير ياء .

صاحب سكراك — كُرْجى بك . ورسمُ المكاتبةِ إليه «مجلس الأمير» . والعلامة الاسم .

صاحب فلس(١) — سلطان شاه . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الاسم .

صاحب شكوش — أمير أحمد . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الاسمُ .

صاحب جُرْموك — «مجلسُ الأمير» . والعلامةُ الاسمُ الشريف .

(١) كذا بهذا الرسم فى الأصل ولم نعثر عليها كما لم نعثر على كثير غيرها من هذه الاسماء ويظهر أنها أسماء مدن حدثت أو تغيرت .

صاحب بَهْرَمان — عبد الصمد . ورسمُ المكاتبة إليه « مجلسُ الأمير » . والعلامةُ الاسم .

صاحب حِصْن أرّان — وهو حِصْن الملك ـ شُجاع الدين خَضِر بن عيسىٰ الشهرىّ . ورسمُ المكاتبة إليه «مجلسُ الأمير» والعلامةُ الاسم .

القسم الثانى — من ذكره فى التثقيف ولم يذكر مكاتبتَه وقال : إنه وقف عليه كذلك، وهم :

صاحب خُفْتِيَان — تاجُ الدين أخُو باشَاك .

صاحب سُوبَخ — أمير عيسىٰ بن بَاشَاك .

صاحب أكريسنا — مَلِك بن بَاشَاك .

صاحب يزاكرد — بَهاء الدين الزّرْزارِىّ .

صاحب زابْ — فخر الدِّين عثمان الزّابِى .

صاحب العرسه (١) — شمسُ الدين بن بَهاء الدِّين .

صاحب الدَّرْبَنْدات القَرَابِلية — علىّ بن كَراكى، تعريفهُ «صاحب دَرْبَنْد القَرَابِلىّ» .

صاحب قلعة الجَبَلَيْنِ — حُسامُ الدين بنُ تاج الدين العامِلىّ .

صاحب سِيدكان — أمير علىّ بن حسام الدين الزّرْزارىّ .

صاحب هَرُورَ — بَهاءُ الدِّين حسَنُ بن عِمَاد الدين .

صاحب رَمَادَان — أميرُ عبد الله الكُرْكانىّ .

صاحب الشَّعْبانِيَّة — حُسام الدين أمير مرى السبينى .

(١) كذا فى الأصل بغير نقط .

صاحب نمريه — بهاء الدين .

صاحب سياح — سُنْقُر .

صاحب المحمدية — الشيخ محمد .

صاحب كزليك — .

الضـــــرب الثـانى

(من لم يُصَـــرَّح له بمكـــان)

وقد ذكر فى ” التثقيف “ منهم جماعةً ممن كان فى الزمن المتقـدِّم، وصرَّح بذكر المكاتَبة إليهـم، فذكر منهـم أبُو بكر بن المبارِز كَكْ الاسمُ و « إلسامى » بغير ياء، وتعريفه ٱسمه .

مبارِزُ الدين عبد العزيز أخوه مثلُه .

علىٌّ وعمر ولدا ٱبن بروحى(١) خليل بن بروحى(١). ورسم المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما الآسمُ و «السامى» بغير ياء .

خالدٌ المليكشِى كذلك .

أولاده : محمودٌ وأحمد «مجلس الأمير» .

بَهَاء الدين بن الغِرْس بألُو ـ الآسم و «السامى» بغير ياء .

عبد الله الشَّهْرىّ ـ الآسم و «السامى» بغير ياء .

شجاعُ الدين خَضِر بن عِيسىٰ الشَّهرى أخو عبدالله الشَّهرىّ ـ الآسم و «السامى» بغـــير ياء .

---

(١) كذا بالاهمال ولم نعثر عليه بعد البحث .

مبارِز بن عيسىٰ بن حَسَن السّلَارى ـ الآسم و « السامى » بغير ياء . قال فى "التثقيف" : ومكاتبته مستجِدّة فى العشر الأوَل من شعبان سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

خَضِر بن محمد الهَكّارِىّ ـ الآسم و «السامى» بغيرياء. قال: وهو مستجدّ المكاتَبة أيضا فى العَشْر الآخِر من صَفَر سنة تسع وستين وسبعمائة .

قلت : فإن آتّفق المكاتبة إلىٰ أحد من هؤلاء المجهولى الكِتابة أو غيرِهم من الأكراد كُتِب له علىٰ قدر مقداره بالنسبة إلىٰ من عُلِمتِ المكاتبة إليه .

قال فى "التعريف" هنا : ومما يُنَبَّه عليه أنّ فى طُرُق المارِّين، ومسالكِ المسافرين، من بلادنا إلىٰ خُراسانَ ومنها إلينا يظهرُ فى بعض الأحيان أهلُ فساد يعمِدُون إلىٰ عميدٍ يقدِّمونه عليهم فيقْطعون السُّبُل ، ويُخيفون الطُّرُق ، وتطير سمعةُ عَميدِهم ، وتنتَشِر فى قريبِهم وبعيدِهم ؛ فيكاتَبُ ذلك العميدُ من أبواب الملوك ، ويُضْطَرُّ إليه لفتح الطريق بالسُّلُوك ،ويكون من غير بَيْتِ الإمْرة، ورُبَّما هوىٰ نجمُه، فانقطع بانقطاع عُمُرِه آسْمُه، مثل الجملوك الخارج بطريق خُراسانَ ، والغِرْس بالُو الخارج فيما يقارب بلاد شَهْرَزُور ، ومثلُ الخارجين علىٰ دَرْبَنْد القرابلى . قال : وهؤلاء وأمثالهم يَطْلُعون طُلُوع الكَمْأة لاأصلٌ ممتدّ، ولا فَرْع مشتدّ؛ فهٰؤلاء لايعرف لأحد منهم رُتْبة محفوظة، ولا قانونٌ فى رسم المكاتبة معروف ؛ وإنما الشأن فيما يكتب إلىٰ هؤلاء بحَسَبِ الآحتياج وقَدْرِ مايُعْرَف لهم من آشتدادِ الساعد،وعَدَد المُسَاعد . قال : ولقد كتَبنا إلىٰ كلٍّ من الجملوك والغِرْس بالو ، بالسامىّ بالياء ، وجُهِّزت إليهما الخِلَعُ وأُتْحِفا بالتُّحَف .

الصـــــنف السادس

(ممن يكاتَب بمملكة إيران أربابُ الأقلام)

ذكر فى "التثقيف" أنه كُتِب إلىٰ مَجْد الدين أخى الوزير غِيَاث الدين: «أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الصاحِبىّ، الأجلِّىّ، الكبيرىّ، العالِمىّ، الكافلِىّ، الماجدىّ، الزَّيْنىّ، الأَميرىّ، الأوْحدىّ، المعظَّمىّ، الذُّخْرىّ، المجاهدىّ». قال فى "التثقيف": هذا ماوجدته بخطِّ القاضى ناصر الدين بن النشائى؛ ولم يذكر تعريفه ولا العلامة إليه. وكُتِب إلىٰ عَلَاء الدين صاحب الديوان مثلُه. والعلامة إليه «أخوه». قال فى "التثقيف": هكذا وجدْتُه فى خطِّ ٱبن النَّشائىّ ولم يذكر تعريفَه.

الوزيرُ شمس الدين — قال فى "التثقيف": نقلتُ من خطِّ القاضى شهابِ الدين ٱبن الخَضِر أن مكاتَبَته فى قَطْع العادة الأسم و«السامىّ الأميرىّ الشريفىّ الحسيبىّ النسيبىّ» وبقية الألقاب. ولم يُكْتَبْ له «الصاحبىّ» ولا «الوزيرىّ». قال: ولم يذكر شيئًا غير هذا. ثم قال: ولا أعلم لمن وُزِّر المذكورُ، ولا من أىّ بلاد الشرق.

ضياءُ الدين صاحبُ الديوان — المكاتبة إليه حسَبَ مانقله فى "التثقيف" عن خط ٱبن الخَضِر أيضا الأسمُ و«السامى الأميرُ الأجلُّ». وذكر أنه كُتِب إليه علىٰ يد سراج الدين قاضى قَيْسارِيَّة. قال فى "التثقيف": وعلىٰ هذا أنَّ ضِياء الدين هذا من أهل المملكة الرُّومية.

مُعين الدين صاحبُ الديوان — مثلُه.

الصـــــنف السابع

(ممن يكاتب بمملكة إيرانَ أكابر المشايخ والصُّلَحاء)

قد ذكر فى "التثقيف" ممن كُوتِب من مشايخ هذه البلاد ثلاثة مشايخ . فنحن نذكرهم ليُقَاس عليهم، ولئلَّا يهمَلَ شىءٌ ممـا أورده فى التثقيف .

الأوّل — شمسُ الدين الطُّوطىّ . قال فى "التثقيف" : وهو فيما أظُنُّ ممن كان يُكْتَب إليه قديما، ولم يُكْتَب إليه بعد ذلك . قال: ورسمُ المكاتبة إليه حسَبَ مانقلتُه من خط القاضى ناصر الدين بن النَّشائىّ : «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ الشَّيْخىّ، الأَجَلِّىّ، العالمىّ، العامِلىّ، الكامِلىّ، الفاضِلىّ، الزاهِـدِىّ، الوَرَعىّ، العابِدِىّ، الخاشِـعىّ، الناسِكىّ، القُدْوىّ، الأوحدىّ، الفلانى؛ مجدِ الإسـلام، صدرِ الأنام، بقيَّةِ السَّلَف الكِرام؛ فخرِ العلماء، أوْحدِ الكبراء؛ زينِ الزُّهَّاد، عِمَاد العُبَّاد؛ قدوةِ المتورّعين، ذُخْرِ الدُّول، ركن الملوك والسلاطين» . والدعاء «وتَصف لعلمه المبارك» . والعلامةُ الآسم . قال فى "التثقيف" : هذا صورةُ ماوجدتُه من غير زيادة . ولم يذكر تعريفَه ولا محـلَّه من البلاد . قال : وقد كُتِب فى نعوته : «ركن الملوك والسلاطين» . وهو غريبٌ لأنه خلافُ ماجرتْ به العادة .

الثـانى — الشيخ غِياث الكَجِجى بتبْريز . ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره المشارُ إليه : «أعادَ الله تعالىٰ من بركة المجلس السامىّ الشيخىّ» . وبقية الألقاب «الغِيَاثى» وتكملة النعوت بمـا يناسب . والعلامةُ الآسم، وتعريفُه «محمد الكَجَجانى» .

الثـالث — الشيخُ حسنُ بنُ عبد القادر الجَيْلانىّ . وكان من المناصحين الذين يُكْتَب إليهم قديما . قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إليه الآسم و«السامىّ» بالياء . ثم قال : ومن ألقابه : «الشيخُ العالمُ العاملُ القدوةُ المرشدُ فلان الدين» .

قلت : هذا ذُهُول منه، وإلا فمقتضىٰ هذه الألقابِ المجرّدةِ عن الياء أن تكون الكِتابةُ إليه «السامى» بغير ياء .

الصـــــنف الثامن

(ممن يكاتَب بمملكة إيران النِّساء)

وقد ذكر فى "التثقيف" المكاتبةَ إلىٰ أربع منهنّ (١) :

الأولىٰ — دلّ شاد زَوج الشـيخ حسن الكبير . كُتِب إليها فى قَطْع العـادة : « أدام الله تعالىٰ صَوْنَ الجهة المحجَّبة، المصونَةِ، العِصْميَّة، الخاتُونِيَّة، المعظَّميَّة، سيدةِ الخواتين، زِينةِ نساء العالمين، جميلةِ المحجَّبات، جليلةِ المَصُونات، قرينةِ نُوَيْنِ الملوك والسلاطين » . والدعاء، والعلامة « أخوها » . وتعريفها « الخاتون المعظمة دل شاد» .

الثانيـة — كلمش والدة بولاد مثلها ، غير أنَّ العلامة الآسم ، وتعريفها آسمُها المـــذكور .

الثالثـة — زوجة أملكان آبن الشيخ حسن الكبير علىٰ ما آستقرّ عليه الحال عند ما كتِب جوابها علىٰ يد رسولهـا فى ذى القَعْدة سـنةَ أربعين وسبعمائة مثل دلشاد، والعلامة «والدها» . وتعريفها سلطان بختى .

المهيـــــع الثـانى

من المكاتبة إلىٰ الملوك

(مملكةُ تُورَانَ ، وهى مملكةُ الخاقانيَّة)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية نَقْلا عن المقرّ الشِّهابىّ آبنِ فَضْل الله فى كتابه "التعريف" أنَّ هذه المملكةَ من نَهْر بلْخ إلىٰ مَطْلَع الشمس

(١) لم يذكر الرابعة فى الأصل .

علىٰ سَمْت الوَسَط ؛ فما أخَذَ عنها جنوبًا كان بلادَ السِّنْد ، ثم الهِنْد ؛ وما أخذ عنها شَمالًا كان بلاد الخَفْجاج وهى طائفة القَبْجاق ، وبلادَ الصَّقْلَب ، والجَهَارْكس ، والرُّوس ، والمَاجار ، وما جاوَرَهم من طوائف الأمم المختلفة سُكَّان الشَّمال .

فيدْخُل فى هذه المملكة ممالكُ كثيرةٌ وبلادٌ واسعة ، وأعمال شاسعةٌ ، وأممٌ مختلفة لا تَكادُ تُحصىٰ ؛ تشتمل علىٰ بلاد غَزْنَةَ ، والبامِيَان ، والغُور ، وخُوَارِزْم ، ودَشْت القَبْجاق ؛ وما وراء النهر : نحو بُخَارا ، وسَمَرْقَنْد ، والصُّغْد ، والخُوجَنْد . وبلاد تُرْكُسْتان ، وأُشْرُوسَنَةَ ، وفَرْغانةُ . وبلاد صاغُون ، وَطِرَاز ، وصريوم . وبلاد الخطا نحو بشمالق والمالق إلىٰ قَرَاقُوم ، وما وراء ذلك من بلاد الصِّين وصِين الصِّين ؛ فإنها كانت فى القديم بيد فرَاسْياب ، بن شنك ، بن رُسْتُم ، بن تُرْك ، بن كُومَر ، ٱبن يافِث ، بن نُوح عليه السلام . وهو ملكُ الترك فى زمانِ موسىٰ عليه السلام ، علىٰ خلافٍ فى نسبِه سبقَ هُناك . وأنها الآنَ بيد بنى جنكزخان من ولد طُوجى خان ٱبن جنكزخان .

ثم هذه المملكةُ بيد ثلاثةِ ملوكٍ عِظام من بنى جنكزخان .

الأوّل — صاحبُ خُوارِزم ودَشْت القَبْجاق . وتُعرَف فى القديم بمملكة صاحب السَّرير ، ثم عُرِفت فى الدولة الجنكزخانيَّة بِبَيْت بَرَكَةَ ، نسبةً إلىٰ بَرَكَةَ ٱبن طُوجى خان بن جنكزخان . وقاعدتُها مدينة السَّراى (١) وهى مدينةٌ علىٰ نهر إتِل ، بناها بَرَكَةُ بن طُوجى خان المقدَّم ذكره . وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك مستوفًى فى الكلام علىٰ المسالك والممالك .

ثم فيها جملتان :

(١) هى مدينة الصراى بالصاد المهملة المتقدمة فى ج ٤ ص ٤٥٧ .

الجمـــــــلة الأولىٰ

(فى رسم المكاتبــة إلىٰ قانِهــا القائم بهــا)

قال فى "التعريف": وكان صاحبُها فى الأيام الناصريَّة، (يعنى محمد بن قلاوون) «أزْبَك خان» . وقد خطَبَ إليه السلطانُ فزوّجه بنتا تَقَرُّباً إليــه . قال : ومازال بين مُلوكِ هذه المملكة و بين ملوكنا قديمُ اتّحاد، وصِدْقُ وِداد، من أوّل أيام الظاهر بِيبَرْس و إلىٰ آخر وقتٍ . ثم قال : والملكُ الآنَ فيهم [فى أولاد أزبك](١) : إما تنى بك، و إما جانى بك، وأظُنُّها فى تنى بك . وقد تقدّم أن المَلِك بعد أزبك كان جانِى بك لا تنى بك، علىٰ خلافِ ماظنه فى التعريف .

و رسم المكاتبــة إلىٰ قانِها الجامع لحـدودها قال فى " التعريف " : والأغلبُ أن يُكتَب إليه بالمُغْلىّ . وذلك مما كان يتولّاه ايتمش المحمَّدى، وطايربُغَا الناصرى، وإرغدلق التَّرْجُمان . ثم صار يتولّاه قُوصُون الساقى . و رأيت فى بعض الدساتير نقلا عن القاضى علاءِ الدين بن فضل الله أنه كتب له مسودّة علىٰ أن تكتب له بالعربىّ ثم بطل وكُتِب بالمُغْلى . قال : فإن كتب له بالعربى، فرسْمُ المكاتبة إليه مايكتب إلىٰ صاحب إيرانَ .

وقد تقــدّم نقلا عن " التعريف " أنه يكتب فى قَطْع البَغْــدادىّ الكامل، يبتدأ فيه بعــد البسملة وسطرٍ من الخطبــة المكتتبة بالذهب المُزَمَّك ـ بألقــاب ســلطاننا علىٰ عادة الطُّغراوات؛ ثم تُكمل الخطبــة، ويفتتح ببعدية إلىٰ أن تساق الألقاب، وهى : «الحضرةُ الشريفةُ، العالية، السلطانية، الأعظميّة، الشاهنشاهيّة، الأوْحَدية، الأخَوِية، القانية . ولايخلِطُ فيها «المَلَكِيَّة» لَهَوانها عليهم . ثم يُدْعىٰ له بالأدعية المعظَّمة المفخَّمة الملوكية : من إعزازِ السلطان، ونَصْرِ الأعوان، وخُلُود

(١) الزيادة من "التعريف" .

الأيام، ورَفْع الأعلام، وتأييد الجُنُود، وتكثير البُنُود، وما يجرى هذا المَجْرىٰ. ثم يؤتىٰ بذكر دوام الوِدَاد والشَّوْق، ثم يذكر القَصْد، ثم يختَم بدعاءٍ جليل وتستعرض المراسيمُ ويوصف التطلُّع إليها والتهافُتُ عليها.

قال فى "التثقيف": وكان يُكْتَب إلىٰ أزبك فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» فى ورق عَرْض البَغْدادىّ الكامل. وبعد البسملة الشريفة سطران هكذا:

بقُوّة الله تعالىٰ

ومَيَامنِ المِلَّة المحمدية

ثم يخلى موضعُ بيت العَلَامة، ثم تكتَب الألقابُ السلطانيةُ، وهى: «السلطان الأعظم» وبقيةُ الألقاب الشريفة علىٰ العادة حسَبَ ما يأتى ذكْرُه. ثم بعد الحمدلة وخطبةٍ مختصرة جدًّا: «فقد صدرَتْ هذه [المكاتبة] إلىٰ الحضرة الشريفة العالية، حضرة السلطان الكبير، الأخ، الشَّفِيق، العالِم، العادِل، القانِ الأعظم، الأوحدِ، شاهنشاه، الملك، أزبك إل خان، سلطان الإسلام والمسلمين، أوحدِ الملوك والسلاطين، عمدةِ المُلْك، سلطان المُغْل والقَبْجاق والتُّرك، جمالِ ملوك الزمان، ركنِ بيت جنكزخان، معز طُغَاج، صاحب التَّخْت والتاج، عضُد المتقين، ذُخْر المؤمنين. والدعاء بما يناسبه. «فإننا نخصُّه بالسلام وٱستعلام أخباره ونُفاوِض علمَه الشريف».

قال: والكتابةُ بالذهب والأسود حسَبَ ماتقدّم فى المكاتبة إلىٰ أبى سعيد، وكذا العُنْوان. ثم قال: ولم يكاتَب أحدٌ بعده بنظير ذلك. وكان قد ورد علىٰ الأبواب الشريفة فى سنة ست وخمسين وسبعمائة كتابُ جانى بك ٱبن أزبك، وكُتِب إليه الجواب الشريف بنظير الكتاب الوارد من عنده، وهو فى ورقٍ دُونَ البغدادىّ بثلاث أصابعَ مطبوقةٍ، والٱفتتاحُ بخطبةٍ مناسبةٍ مكتتبةٍ بالذهب جميعها، ثم أما بعد

بالأسود خَلَا ما تقدّم ذكره فى مكاتبةِ أبى سعيد. والعُنْوان بالذهب. والذى كُتب إليه من الألقاب: «الحضرةُ الشريفةُ، العاليةُ، السلطانيّة، الأعظميَّةُ، العالمية، العادليّة، الأكملية، القانيّــة، الأخَويَّة، العزيزية، المَلَكيّة، الشَرفيَّة زيدت عظمتها».

قال: ولمـا كان فى العشر الآخر من ربيع الأوّل سنةَ ست وسبعين وسبعمائة، رسم لى بالكتابة إلىٰ القان محمدٍ ببلاد أزبك، وهو القـائمُ مَقام ازبك علىٰ ماقيل، علىٰ يد رُسُــل الأبواب الشريفة، بالسلام والمودّة وآستعلامِ الأخبار ونحو ذلك فكتبْتُ إليه فى عَرْض البغدادىّ الكامل حسَبَ ما رُسِم به، بخطبة مختَصَرة بالذهب، والبقيّة بالأسود والذهب علىٰ ما تقدّم ذكْرُه فى مكاتبــة القان أبى ســعيد. وكُتِب له من الألقاب بعد المراجعة: «المَقام العالى، السلطانىّ، الكبيرىّ، المَلَكىّ، الأكْرمىّ، الأعْدَلىّ، الشمْسىّ، شمسُ الدنيا والدين، مؤيِّد الغُزاة والمجاهدين، قاتلُ الكفَرة والمشركين، ولىُّ أمير المؤمنين خُلِّدت سلطنته». والعنوان بالذهب بغير تعريف. وعلم له فى بيت العلامة الشريفة بالمَغْرة العراقيَّة «المُشْتاق شعبان».

وهذه نسخةُ ما كتب إليه بعد البسملة الشريفة.

الحمد لله الذى وهَبنا مُلْكا دانتْ له ملوكُ الأقطار، وآزدانَت الأَسِرّةُ والتِّيجان بمـا له من عظمة وفَخَار، وأذْعنتِ العظماءُ لعِزَّة سلطانه الذى شَمِل الأولياءَ وقَصم الأعداءَ بِبِرّه الجابر وقهرِه الجَبّــار، وقاد الجيوشَ إلىٰ أن فَتح اللهُ علىٰ يديه الشريفتين معاقِلَ الكُفّار، بأمره الجارى علىٰ الرِّقاب وعسكره الجَرَّار، ومَنحه خدمةَ الحرمين الشريفين اللذين لم يزَلْ لهما منه الآنتصابُ وبهما له الآنتصار. نحمده على أنْ جعل مملَكتنا الشريفة هى مَحَلّ الإمامة العباسية فلا جُحودَ ولا إنكار، ومرتبَتَنا المنيفةَ بمـا عَهِد به إلينـا أمير المؤمنين إلىٰ قيـام الساعة عليّةَ المِقْدار؛ ونشكره علىٰ أنْ أورثَنـا مُلْكَ أسلافنا الشُّهداءِ فأقرَّ العيونَ وسَرّ الاسرار، وجعل الســلطنةَ المعظمة فى بيتنا المكَرَّم تنتقِلُ

تَنْقُل البُدور فى بُروجها إلا أنها آمنةٌ من السِّرار . ونشهد ان لا إلٰهَ إلا اللهُ وحده لاشريك له شهادة لم نزل قائمين بنُصْرتها ، قانتين بالإخلاص فى كلمتها . لُنَعَدَّ بذلك من الأبرار ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله المؤيَّدُ بملائكته ، المخصوصُ بنبوّته ورسالته ، الذى عَظَّم الله قدره على سائر الرُّسُل كما جاءت النصوصُ والأخبار . صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه أولى الفضل الدار ، صلاةً دائمةً باقية بدوام الليل والنهار ، وسَلَّم .

أما بعد ، فإنَّ قلوبَ الأولياء وإن تناءتِ الأجسامُ متعارفةٌ بالآئتلاف ، متقاربةٌ علىٰ بُعْد الديار حيثُ لاتناكُرَ بينها ولا آختِلاف ، لاسيَّما ملوكُ الإسلام ، الذين هم متَّحِدون بالمُصافاة والآستِسْلام ؛ فإن سرائرهم لم تزل متدانيَه ، وضمائرهم مُتَكافِيه ؛ هذا والمحبَّةُ لبيته (١) الكريم قديمه ، والمودَّة بين الأسلاف لم تَزَلْ مستَدِيمه ؛ فلم نكُنْ وَرِثْنا ذلك عن كَلَاله ، بل تَبِعنا فيه سبيلَ السلف الصالح علىٰ أحسنِ حاله : لما هو محكَم من عقود الآتِّحاد والوَلَاء ، حيث المحبةُ فى الآباء صلةٌ فى الأبناء ، وكان لنا مدّةٌ مديدةٌ وقد تأخرتْ رسلُنا عن حَضْرته ولم تصدر من جهتنا الشريفـة ، كذلك ولا وردت رسل من جهته ؛ ولم يَشْغَلْنا عن ذلك إلا مواقعـةُ الفَرَنْج المخذُولين أعداء الدين ، ومقارَعَتُهم فى سائر السَّواحل بشدّةِ البأس والتَّمْكين ؛ إلىٰ أن أمكنَ اللهُ عز وجلَّ من نَواصيهم وصَياصِيهم بنَصْرٍ من عنده ، كما قال تعالىٰ : ﴿وكانَ حَقًّا علَيْنا نَصْرُ المُؤْمِنين﴾ .

والآنَ فقد صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المقام العالى السلطانى ــ وبقيةُ الألقاب والنُّعوت إلىٰ آخرها حسب ماتقدّم ذكره ــ تَخُصُّ مقامه بسلامٍ أرقّ من النَّسيم ، وألطَفَ مِزاجًا من التَّسنيم ، وثناءٍ قد ازرىٰ نَشْرُه بالعَبير ، وسَرىٰ بِشْره فغدَتْ تتهلَّل به الأَسارير . وتُبْدى لعلم المقام العالى زيدتْ معدَلتُه أنه لما يبلغنا من عدل الحضرة الشريفه ، وإنصافه للرَّعايا وتأمين سُبُل الجَوْر المُخيفه ؛ وسُلُوكه سَنَن الإحسـان ،

(١) لم يتقدم فى الكلام ما يعود عليه الضمير .

وتأكُّدِ عقُود المحبة علىٰ عادة مَنْ سلَفَ فى سالف الزمان ؛ قصَدْنا مفاتحتَه بهـذه المكاتَبه، واردنا بُداءَته بهذه المُخاطَبه ؛ ليعلَمَ مانحن عليه من صَحِيح الوِداد ، وأكيد الاتّحاد ،وجميلِ الاعتقاد ، وحُسنِ المُوالاة الخالصة من شَوَائب الانتقاد ،وجَهَّزنا بها رُسُلَنا فلان وفلان ومَنْ معهما نستَدْعِى وُدَّه ، ونستدْنِى وَلَاءه الذى أحكم عَقْده ؛ لتأكُّد المصافاة بين هاتين الدَّوْلتين ، والمخـالصة من كِلْتاَ الجهتين ، والمُوالاةِ بين المملكتَيْن ؛ ويأمر المقامُ العالى لازال عاليا بتَرَدُّد التُّجّارِ من تِلْكُم الديار ، والمواصـلةِ بالأخبار علىٰ حسب الاختِيار ، ومتابعةِ الرُّسُل والقُصَّاد ، علىٰ أجمل وجهٍ معتاد .

وقد وجَّهنا إلىٰ المقام العالى أعلىٰ الله شأْنه صحبةَ رسُلنا المذكورين من الأقْمِشة السَّكَنْدرىّ وغيرها علىٰ سبيل الهَدِيّه ، والمَوَاهِبِ السنِيّه ، ماتضمَّنتْه الورقة المجَهَّزة طَيَّها ،فلْيأْمُرِ المقام العالى دامت معْدَلتُه بتسليم ذلك ،ويتيَقَّنْ وفُورَ المحبة من سلطاننا المـالك ، وتأكُّدَ أسبابِ المودّة علىٰ أجمل المَسالك ، والله تعالىٰ يجمِّل ببقاء سُلْطانه مُلْكَ الممـالك ، ويديم عَدْلَه المبسوطَ علىٰ الأولياء ويَرْمِى ببأسـه الأعداءَ فى مهَاوِى المَهالك ، ويخَلِّد مُلْكَه الذى تفتخِرُ بالملك من مَقامه العالى السُّرُر والأرائك ؛ بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

واعلم أنّ صاحب " التثقيف " قد ذكر أن المكتوب إليه بهـذه المكاتبة هو القائمُ مقام أزْبَك ، وأن اسمه محمد ، وأن المكاتبة إليه كانتْ فى سنة ستٍّ وسبعين وسبعمائة . وقد تقدّم ذكرُ من وَلِىَ هذه المملكةَ بعد أزْبَك ولم يكن فيهم من اسْمُه محمد . وقد كان القائمُ بهذه المملكة فى سنة ستٍّ وسبعين المذكورة اسمه " أرُص " وهو الذى انتزع المملكة من أيبك خان المقدّم ذكره ؛ وأصله من خُوارِزْم علىٰ مامرّ ذكْرُه فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ، فيحتمل أن يكون اسْمُه محمـد وأرُص لقَب

عليه، كما كان خَدَابَنْدا والدُ أبي سعيد من ملوك إيران، ٱسْمُه محمد، ولقبه خَدَابَنْدا. والأمر في ذلك راجع إلى النقل، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قلت: وقد كُتِب في الدولة الناصرية "فرج" بن الظاهر برقوق، للقان القائم بها في سنة ٱثْنَتَي عشرةَ وثمانمائةٍ في قَطْع البغدادي الكاملِ من الورق المِصْري المعمولِ على هيئة البغدادي، ٱبْتُدِئ فيه بعد خمسة أوصالٍ بياضٍ بالبسملة في أعلى الوَصْل السادس، ببياضٍ من جانبيها عرض إصبعين من كل جهة، والسطر الثاني على سَمْته في آخِرِ الوَصْل، بخلو بياض من الجانبين بقَدْر السطر الأول، والطُّغْراة بينهما بألقاب سلطاننا على العادة، مكتوبةٌ بالذهب بالقلم المحقّق مزمَّك بالسواد، بأعلى الطُّغْراة قدرُ عَرْض ثلاثة أصابع بياضًا، ومثل ذلك من أسفلها، وباقي السُّطور بهامش من الجانب الأيمن على العادة، وبين كلّ سطرين قدرُ نصف ذراع بذراع القُماش القاهِري، والأسماءُ المعظَّمة: من ٱسم الله تعالى ورسولِه صلّى الله عليه وسلم، وٱسمِ سلطاننا والسلطان المكتوب إليه، والضمير العائد على واحد منهما بالذَّهب المزَمَّك كما تقدّم تقريره في الكلام على مكاتبة صاحبِ إيرانَ في القديم.

وهذه نسخة مما أنشأتُه، كتِبتْ بإشارة المَقر العالي الفتحيّ: صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف وهي:

الحمد لله مؤيِّد سلطانِنا «الناصِر» بعزيز نَصْره، ورافعِ قدْرِ مَقامِنا الشريفِ بإعلاء مَنَاره وإعظامِ ذِكْره، ومُشَيِّد أركان مُلْكنا الشامخ بإسعاد جَدِّه العالي والله غالبٌ على أمره. نحمَدُه على ماجنَّب من مَوَاقع الحَرَج، وجعل أُمُورَ رعايانا بمَعْدَلتنا الشريفة بعدَ الضِّيق إلى فَرَجْ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارَثُها عظماءُ الملوكِ كابرًا عن كابرٍ، ويتناقَلُها منهم الخلَفُ بعد السَّلَف فيُسْنِدها الناصرُ عن

الظاهر ، ونشهد أنَّ سيدَنا محمدا عبدُه ورسوله أفضلُ نبيّ جمع بعُموم دَعْوته مفْتَرِق الأُمم ، ووفّق بحَنيفيّ ملّته بين أقْيَال العَرَب وأَسَاوِرَة العَجَم ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين آخىٰ بينهم فسَنَّ المُؤاخاه ، ونَقّىٰ من نَغَل الضَّغائن صُدورَهم ففازُوا بأكمل المُصافاةِ وأتمِّ المُوافاه ؛ صلاةً تَسِير بفضلها الرَّكائب ، وتترنّم بذكرها الحُدَاة فتعُمُّ نَفَحاتُها المَشارقَ والمَغارِب ، وسَلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ ، فإنَّ الأرواحَ إذا تمازَجتْ تناجَتْ بالضَّمائر ، والقلوبَ إذا تآلفت اغتَنَتْ بشَواهِدِ الحالِ عن إبْراز مافى السَّرائر ؛ والأجسادَ إذا تباعَدتْ تعلَّلتْ بالمكاتَبَات فى بُلُوغ الأَوْطار ، والدِّيارَ إذا تناءَتِ ٱكتفَتْ بالمُراسَلة عن تَقَارُب الدَّار ؛ والمودَّةَ إذا صَفتْ لايؤثِّر فيها البِعَاد ، والمحبَّةَ إذا صدَقَتْ لاتزال كلَّ يوم فى ٱزْدِياد ؛ (والأُذْن تَعْشَق قبْلَ العينِ أحْيانا) ، والوصفُ يُحرّك من الشَّوْق أغصانًا وأفْنَانا .

هذا وإنَّ أحقَّ ما ٱتَّخذَتْه الملوك ذَرِيعةً لدَواعى الٱبتهاج ، وأهَمَّ ما اهتَمَّ به مُتَخَتِّت بتَخْت أو مُتَوَّجٌ بتاج ؛ إحياءُ مَذاهِب الملوك السالفةِ فى الوِدَاد ، واقتفاءُ آثارِهم الجميلةِ فى مَوَارِد المكاتبات علىٰ التَّنائى والبِعاد ؛ ومن ثم صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المقام العالى ، السلطانِىّ ، الكبيرىّ ، الأخَوِىّ ، الفلانىّ ؛ ركنِ المِلَّة الإسلاميَّـه ، عمـادِ المملكة الجنكزخانيَّه ؛ ذَخِيرةِ الدين ، خليلِ أمير المؤمنين ـ زِيدتْ عظَمَتُه ، ودامَتْ مَعْدِلتُه ـ تخُصُّه بسلامٍ تَهُبُّ به الجَنُوب فتؤثِّر به فى الشَّمَال القَبُول ، وتخُصُّ به إلىٰ السَّراى سُرَاها ليكونَ لها ببيْت برَكَةَ أشرفُ قَدَم وأكرَمُ وُصُول ؛ وتمُدُّ علىٰ خُوارِزْمَ والدَّشْت فَضْلَ رُواقه المَدِيد ، وتنْشُر علىٰ مملكةِ السَّرير لواءَهُ فيعم مابين جَيْحُون وطرنا (١) ويشْمَل مابين الخِطَّا (٢) والباب الحَدِيد . وتُناجى علمَه الشريفَ بأنه غيرُ خافٍ عن شريف مَقامِه

(١) لعله طُنا . أوطُرْلو .

(٢) هو بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف فى الآخر كما تقدم ضبطه كذلك فى ج ٤ ص ٤٨٣ .

أن مَنْ سلَفَ من ملُوك مملكتنا العالية الذُّرىٰ، والمملكةِ القانيَّة المرفوعةِ الذِّكْر رَفْعَ نارِ القِرىٰ، لم تزلْ ملوكُهم مجتمعةً مع تنَائِى الدِّيار، مؤْتلِفةً علىٰ المحبَّة وإن شَطَّ المَزار، محافِظين علىٰ تتَابُع الرُّسُل وإن حالَ دُونَهُم الصِّفاح، مثابِرين على تَوارُدِ الكُتُب ولو علىٰ أجْنحةِ الطير ومُتُون الرِّياح؛ وقد مضَتْ مدّةٌ مديدَةٌ لم يَقْدَم علينا من المقام الشريف ـ عَظَّم اللهُ تعالىٰ شأنه ـ رسولٌ يُطفئ لَوَاعِجَ الاِشتياق، ولا وَرَدَ عنه كتَابٌ يتعَلَّل المحبُّ بتلَقِّيه عن حَقِيقةِ التَّلاَق؛ بل سُدّ بابُ المكاتبة حتّى كأنَّ المكاتبةَ لم تُخْلَق، وأُغْلِقَ بابُ المراسَلة وإن كان بابُ المحبَّة ـ بحمد الله ـ لم يُغْلَق؛ فطَمَح بخاطِرنا الشريفِ طامحُ الشوقِ المُتَزايِد، وحمَلَنا موصولُ المحبَّة المستَغْنِى بمواصلَته عن الصِّلة والعائد، أن نُفاتِحَ المَقامَ العالىَ دامتْ معدَلتُه بهذه المُفاوضة: لتُجدِّد من العهود القديمة رُسومَها، وتُطْلِعَ من مشَارقِ المخاطَبة نجُومَها؛ وتَنْسخَ آيةَ الهِجْران وتَمْحُوَها، وتَصْقُل مِرْآةَ المُصافاةِ وتجْلُوَها؛ وتستَجْلِبَ الأُنْس وإن صَحَّ الميثاق، وتُذَكِّر الخواطِرَ الوِدَاد وإن ثبَتَتْ منه الأصُولُ ورَسخت الأَعْراق؛ وتَنوبَ عن نظرنا الشريف فى مُشاهَدة محيَّاه الكريم، ومُصافحةِ كفِّه التى حديثُ وُدِّها قديم؛ وتستَطْلِعَ أخباره، وتستَعرِضَ علىٰ تَعاقُبِ الأزمان أوطارَه.

وقد ٱخترنا لتبليغ رِسَالتِها، وأداءِ أمانتِهَا؛ المجلسَ السامىَ المقرّبَ الأمين خَواجا فلان أعزّه الله تعالىٰ، وحَمَّلْناه من السلام ما يَهتَدى بضَوْئه السارى، ويفُوقُ بعَرْفه العَنبرَ الشِّحْرىَّ والمِسْكَ الدَّارِى: ليُحكِم بحُسْن السِّفارة من المُخالَصة مَبانِيَها، ويَعْقِدَ منها بمتابعة الرُّسُل والقُصَّاد أوَاخِيَها؛ وجهَّزنا صحبتَه كذا وكذا علىٰ سبيل الهدِيَّة المندوبِ بَذْلُها وقبولُها، والحاكِم بصحَّة عقد المحبَّة كثيرُها وقليلُها؛ والله تعالىٰ يزيدُ فى ٱرتفاع قَدْره الخَطِير، ويحُوط به من ملكه الجنكزخانى ما يُحقّق أنه صاحبُ التاج والسَّرير.

الجمـــلة الثـالثـــة

(فى رسم المكاتبة إلىٰ مَنِ ٱنطوت عليه هذه المملكةُ من الأتباع والحُكّام؛
وهم علىٰ (١) أصـــناف)

الصّـــــنفُ الأوّل

(كُفّال المملكة)

قد تقدّم أن ترتيب هـذه المملكة فى أُمَراء الأُلُوس والوزير نحوُ مملكة إيرانَ ، وإن لم يكن لأَميرِ الأُلُوس والوزير بهـذه المملكة من نَفَاذ الأمر نظيرُ ماهُنالِك . ومقتضىٰ ذلك أن يكونوا منْحَطِّين فى الرتبة عن أُمَراء الأُلُوس بإيرانَ والوزير بهـا؛ وهذه الرسوم التى وقعَتْ فى مكاتباتهم علىٰ ما أورده فى "التثقيف" .

وأُمَراء الأُلُوس أربعة، أكبرهم يسَمّٰى بكلارى بك بمعنى أمير الأمراء كما تقدّم فى مملكة إيران . فقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان منهم فى سـنة ٱثنتينِ وثمـانينَ وسبعمائة قطلوبُغَا إيناق ، وأنه كَتَب إليه فى عاشر جمادىٰ الآخرة منها ما صورته :

«ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعمةَ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمى، العادلِىّ، المؤيّدىّ، العَوْنىّ، الزّعيمىّ، المهّدىّ، المشيِّدىّ، الظهيرىّ، النُّوينْىّ، السَّيْفىّ؛ عزِّ الإسلام والمسلمين، سيفِ الأمراء فى العالمين، نُصْرةِ الغُزَاة والمجاهدين، زَعيمِ الجيوش، مقدّم العساكر، كهفِ الملة، ذُخْر الدوله، ظهيرِ الملوك والسلاطين، سيف أمير المؤمنين» . ثم الدعاء والعلامة «أخوه» وتعريفُه «قطلوبُغا إيناق نائب القان جانِى بك» .

---

(١) بياض فى الأصل ومع ذلك لم يذكر الا صنفين .

ثم ذكر أنّ الأمر كان عند القان محمد بمثابةِ الأمير يلبغا العُمَرى، يعنى الخاصكىّ بالأبواب السلطانية بالديار المصرية، وأنه آستُحدِثت المكاتبةُ إليه فى سنة ثلاثٍ وسبعين وسبعِمائة، وأنه كتب إليه فى قَطْع الثُّلُث ما صورتُه :

«أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى، الأميرِىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، المجاهدىّ، المؤيِّدى، الذُّخْرىّ، النَّصيرىّ، الهُمامىّ، المقدَّمىّ، النُّوَيْنِىّ، السيْفىّ؛ عِزِّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهِدين، مقَدَّمِ العساكر، ذُخْرِ الدولة، عَضُد الملوك والسلاطين، حُسَام أمير المؤمنين». والدعاء المناسب. والعلامة «والده». وتعريفه «ممای». وفى هذا نظر : لأنَّه إذا كان بمَثَابة ما كان عليه يَلْبغا بالديار المصرية، فمقتضاه أن يكونَ أكبرَ أمرائه. وإذا كان كذلك، فكيف يكتب إليه دونَ أمراءِ الأُلُوس؟ فقد تقدّم أنه يكتَبُ إليهم : «ضاعف الله تعالىٰ نعمةَ الجَنابِ العالى».

الوزيرُ بهذه المملكة. قد ذكر فى "التثقيف" أن الوزير بها كان آسمُه محمودا، ولقَبُه حُسَام الدين، وكان يعرف بمحُمود الدِّيوان. وذكر أن رسم المكاتبة إليه فى قطع الثلث ما صورتُه :

«أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الأميرِىّ، الكبيرىّ، الذُّخْرىّ، الأوْحدىّ، الأكملىّ، المتصرِّفىّ، العَوْنىّ، الوَزيرىّ، الحُسَامىّ؛ مَجْدِ الإسلام والمسلمين، شَرَفِ الأمراء والوزراء فى العالَمين، جمالِ المتصرِّفين، أوحَدِ الأولياء المقرَّبين، ذُخْرِ الدولةِ، مشيرِ الملوك والسلاطين. ثم الدعاء، والعلامة «والده». وتعريفُه «خَوَاجا محمود وزير المملكة القانيَّة».

قلت : وقد علمتَ أنَّ المكاتبــةَ إلىٰ أمراء الألُوس والوزير بهــذه المملكة دُونَ المكاتبــة إلىٰ أمراء الألُوس والوزير بمملكة إيرانَ ، فقد تقدّم أن المكاتبةَ إلىٰ بكلارى بك أكبر أمراء الألُوس بمملكة إيران : «أعزَّ الله تعالىٰ نَصْر المَقرّ الكريم» . وإلىٰ الثلاثة الذين دُونَه : «أدام الله تعالىٰ نَصْر الجناب الكريم» ، ثم آستقرّ «أعز الله تعالىٰ أنْصارَ الجناب الكريم» . وأن المكاتبة إلىٰ الوزير : «ضاعَفَ الله تعالىٰ نِعمةَ المجلِس العالى» . والمعنىٰ فى ذلك ماتقدّم من أنه ليس لِأُمراءِ الألوس والوزيرِ بهذه المملكة من التصرُّف مالأُمراء الألُوس والوزيرِ من التَّصَرّف بتلك المملكة .

قَجَا على بك بهذه المملكة . قال فى "التثقيف" : وهو ممن آستُحدِثَت المكاتبة إليه فى سنة خمس وستين وسبعمائة .

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التثقيف" الاسم و « السامىّ » بالياء وتعريفه آسمــه .

الصـــــنف الثانى

(الحُـــكّام بالبـــلاد بهـــذه المملكةِ)

وها أنا أذكُرُ مَنْ ذكر المكاتبةَ إليه منهم فى "التثقيف" .

الحاكم بالقِرِم : وهو إقليمٌ شمالىّ بحر نِيطش . وقاعدتُه مدينة صُلْغاتَ ، وهى مدينة علىٰ نصف يومٍ من البحر، وقد غَلَب عليها آسمُ القِرم . وقد ذكر فى "التثقيف" أن الحاكم بها فى سنةِ خمسينَ وسبعمائة كان آسمُه زينَ الدين رمَضَان ، ثم آستقرّ بعده على بك آبن عيسى بن تلكتمر . وقــد رأيت فى بعض التواريخ أن الحــاكم بهــا فى حدود ســنة ستٍّ وسبعين وسبعمائة كان مَامَاى المقــدَّم ذكرُه . وقد ذكر

فى "التثقيف" أن رسمَ المكاتبـة إلىٰ الحاكم بها فى قَطْع العادة، والعلامة «أخوه» و «صدرَتْ» و «العالى». والذى رأيتُه فى دُسْتُورٍ يُعْزىٰ فى الأصل للمقرّ العلائىّ بن فضلِ الله أنه يكتَبُ إليـه فى قطع الثلث وأن المكاتبـةَ إليه « السامىّ » بالياء. وتعريفه «الحاكم بالقِرم».

الحاكم بأُوزَاق : وهى مدينـةٌ علىٰ بحر مانِيطش المقدَّمِ ذكره فى الكلام علىٰ المسالك والممالك. وهو المعروفُ الآنَ ببحر الأَزَق؛ وهى عن القِرم فى جهة الجَنُوب والشرق، وبينهما نحوُ خمسَ عشرةَ مرحلةً. قال فى "التثقيف" : ورسمُ المكاتبة إلىٰ الحاكم بها مثلُ الحاكم بالقِرم علىٰ السَّواء. والذى رأيته فى الدُّستُور المقدّمِ ذكُره أنه فى قَطْع الثلث «السامىّ» بالياء كما فى الحاكم بالقِرم.

الثـــانى

(من ملوك تُورانَ من بنى جنكزخان صاحب ماوراء النهر)

وقاعدةُ مُلْكه فى القديم بُخارا، والآنَ سَمَرْقَنْد. ومن مضافاتها غَزْنَةُ وما والاها من مُتَاخِم الهند. وقد تقدّم الكلامُ عليها مستوفًى فى الكلام علىٰ المسالك والمَمَالك. وقد ذكر فى "التعريف" أنَّ آخِرَ ما ٱستقرّتْ لترماشِيرِينَ، وكان حسَنَ الإسلامِ عادلَ السِّيرة، طاهرَ الذَّيْل، مُؤْثِرا للخير، محبًّا لأهلِه، مُكْرِما لمن يَرِد عليه من العلماء والصُّلَحاء، وطوائف الفُقَهاء والفقراء.

قال : وكُتِب إليه علىٰ رسم المكاتبـة إلىٰ صاحبِ إيرانَ. وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتَبـةِ إلىٰ صاحب إيران نَقْـلا عن "التعريف" أنه يُكْتَب إليه فى قَطْع

البَغْدادىّ الكامِل ، يبتَدَأ فيه بعـد البسملة وسـطر من الخُطْبـة الغراء المكتتبة بالذهَب المزَمَّـك بألقاب سـلطاننا علىٰ عادة الطُّغْراوات ؛ ثم تكَمَّل الخطبةُ ويُفْتَتح ببعدية الىٰ أنْ تُساق الألقابُ، وهى : «الحضرةُ العالية، السلطانيَّـة ، الأعظمِيَّة، الشاهِنْشاهيَّة، الأوحدية، الأَخَوِية، القانيَّة، الفلانية» . ولا يخلط بها «الملَكِية» لهوانِها عليهم ؛ ثم يُدْعىٰ له بالأدعية المفخَّمة الملوكية : من إعزاز السُّلْطان، ونَصْر الأعْوانِ، وخُلُود الأيام، ونَشْر الأعلام، وتأييد الجُنُود، وتكثير البُنُود، وغير ذلك ممـا يجرِى هـذا المَجْرىٰ . ثم يُقال مافيـه التصريحُ والتلويح بدَوام الوِدَاد ، وصفاءِ الاعتقاد، ووَصْف الأشواقِ، وكَثْرة الأتْواق، وما هو من هذه النسبة؛ ثم يُؤتى علىٰ المَقَاصد ،ويختَمُ بدعاءٍ جليل وتستعرض المَرَاسيم والخِدَم،ويُوصَف التطلُّع إليها، ويظهر التهافُتُ عليهـا؛ وأنه تكتَب جميع خُطبة الكِتَاب وطُغْراه بالذهب المزَمَّك، وكذلك كلُّ ما وقع فى أثنائه من آسم جليل ،وكل ذى شأنٍ نبيلٍ : من آسم الله تعالىٰ أولنبيه صلّى الله عليه وسلم؛أو ذكرِ الإسلام،أو ذكر سلطانِنا أو السلطان المكتوبِ إليـه، أو ماهو متعلّق بهـما ، مثـل لنا ولكم، وكتابُنا وكتابُكم، جميعُ ذلك يكتب بالذهب وما سِواه بالسَّواد . وأن العُنوانَ يكون بالألقاب إلى أن ينتهىَ إلى اللقب الخاص ، ثم يُدْعىٰ له بدعوةٍ أو اثنتين نحو أعزَّ الله تعـالى سلطانَها ، وأعلىٰ شأنَها، ونحو ذلك . ثم يسمَّى آسمُ السـلطان المكتوب إليه، ثم « يقال » خان : مثل أن يقال : ترماشيرين خان ، ويطْمَغُ بالذهب طَمَغات عليها ألقابُ سلطاننا تكونُ علىٰ الأوصال ، يبدأ بالطَّمْغة علىٰ اليمين فى أوّل وَصْل ،وعلىٰ اليسار فى ثانِى وصْل ،ثم علىٰ هذا النمط إلىٰ أن ينتهِىَ فى الآخر إلىٰ اليمين ، ولا يُطْمَغ علىٰ الطرّة البيضاء. والكاتب يخلِي لمواضِع الطَّمْغَـة مواضعَ الكتابة تارةً يمنةً ، وتارة يَسْرةً، إلىٰ غير ذلك مما سبق القول عليه .

قلت : وآخرُما آستقرّت هذه المملكة لتُمُرلنك ، وتُمُر آسمه الذى هو عَلَم عليه ، ومعناه بالتركية حديد . ولَنْك لقبٌ عليـه ، ومعناه بالفارسـية أعْرَج : لأنّه كان به عَرَجٌ ظاهر ، ولذلك تسمِّيه التُّرك تُمُر أقصـق ، إذ أقصَقْ عندهم بمعنىٰ أعرج . وهو يتسمّى فى كُتُبه تَيْموركوركان . ومن هذه المملكةِ آنسابَ علىٰ بلاد إيرانَ حتّى آستولىٰ علىٰ جميعها ، وسار إلىٰ بلاد الهند فآستولىٰ عليها ، ثم طاح إلىٰ الشام فى سنة ستٍّ وثمـانمائة وعاثَ فسادًا ، وخَرَّب وأفسد ولقيه السلطانُ « الملك الناصر » فَرَج آبن الظاهر برقوق صاحب مصر والشام علىٰ دِمَشْق ، وجرت بينهـما مراسَـلَةٌ ، ثم طرأ للسلطان الملك الناصر ماأوجب عَوْده إلىٰ مصر لأمرٍ عرَض له من جهـةِ بعض أمرائه ، وبقىٰ تُمُرْلنك نازلًا بالشام محاصِرًا لدمَشْق ، إلىٰ أن خدَعَ أهلَها وفتحها صُلْحا ، ثم غَدَر بهم ونهبها وسبىٰ حريمَها ، ثم حَرَّقها بعد ذلك بعد أن أسرف فى القتل وأثْخَن فى الجراح ، وأمْعَن فى الأَسْر .

وللمكاتبة اليه حالتان :

الحـالة الأولىٰ — حين كان السلطانُ الملك الناصر فرج — عزَّ نصره — بالشام محاربا له ، وكُتُبه حينئـذ تَرِد فى القطع الصغير علىٰ ما سيأتى ذكره ، وكان يكتب إليه حينئذ فى قطع[1]

---

(١) بيض المؤلف لبقية الكلام ، وآسـتدرك بعضهم له بقية وأثبتها فى النسخة الخطية بخط مغاير لخط الأصل وعنونها هكذا ''مما فات المؤلف'' .

ممـا فات المؤلف رحمه الله تعالىٰ

ما كُتِب عن مولانا الشهيدِ الملكِ الظاهر أبي سعيد بَرْقُوق، تغمّده الله تعالىٰ برحمته ورِضْوانه، فى جوابِ الأمير تمرْلَنْك المدْعُوّ تَيْمور، عن الكُتُب الواردة منه قَبْـلَ ذلك ـ مِن إنشاء المرحوم المَقَرّ البَـدْرى" محمد، ٱبن المرحوم المقرّ العلائىّ علىّ ٱبن المرحوم المقرّ المحْيَوى يحيى، بن فضل الله العُمَرى العَـدَوىّ القرشىّ رحمهم الله تعالىٰ ـ فى سنة ست وتسعين وسبعمائة، عند سَفَر مولانا السلطان المشار إليه إلىٰ حَلَبَ المحروسة لملتقى المذكور، فى قطع الثُّلث بغير علامة، وسَعَةُ مابين السطور قدر عَرْض الإصبعين. والطرّة وصلانِ، طولها نحو الذِّراع الهاشمىّ، وكان عُنوان كتاب تمُرْلَنْك الذى ورد آخرًا وهو الذى ٱقتضىٰ الحركةَ الشريفةَ والجوابَ المشارَ إليه :

سلامٌ وإهْداءُ السَّلامِ من البُعْدِ ✽ دليلٌ علىٰ حُسْن المودّةِ والعَهْدِ

فكتب العنوان الشريف :

طَوِيلُ حياةِ المَرْءِ كاليَوْمِ فى العَدِّ ✽ فَخيرَتُهُ أن لايَزِيدَ عن الحدّ!
فلا بُدَّ من نَقْصٍ لكلِّ زيادةٍ ✽ لأنَّ شديدَ البَطْش يقتصُّ للعَبْد!

بســم الله الرحمن الرحيم

الحمد للهِ العلىّ الشان، العظيمِ السلطان، العَمِيمِ الإحسان، العليمِ بما كانَ ومايكونُ فى كل زمانٍ ومكَان، تاهتْ فى مَيَادِين فَلَوات معرِفته سَوَابقُ جيادِ الأفهام، وتَدَكْدَكَتْ لَهَيْبة جَلَاله جبالُ العُقُول والأوهام، وصلّى الله علىٰ سيدنا محمدٍ حبيب الرحمٰن، وسيدِ الأكوان، وصاحبِ المعجزات والبُرْهان، المبعوثِ الىٰ الخلق أجمعين من الإنس والجانّ، والمنعُوتِ بالفضل العميم، والخُلُق العظيم، فى التَّوراةِ والإنجيل والزبور

والفُرْقان، وعلىٰ آله وصَحْبِه الغُرِّ الكِرامِ الحِسان، وعلىٰ التابعينَ لهم بإحسان، وسَلَّمَ تسليما كثيرا ماتَعاقَبَ الحَدَثان .

وبعد، فقد وصلَ إلىٰ أبوابنا الشريفةِ العاليةِ كُلُّ ماجهَّزته أوّلا وآخِرا ياأمير تَيْمور من كِتاب، وأحاطتْ علومُنا الشريفة بما فيها من كلامٍ وخِطاب، وقَصْدٍ وعِتاب، وإرْعادٍ وإرْغاب وإرْعاب .

فأما ما ذكرته فى أوّل كُتُبك من ألقابنا الشريفة بالتعظيم، والتَّبْجيل والتفْخيم، فقد علمناه وعَرَفْناه، ولكن وجدنا الكلمتيْنِ اللتين فى الطمغات آخِرَ الكُتُب وهما راسْتِى رِسْتِى منافيتَين لذلك التعظيم، وهذا غيرُ مستقيم، لأنه متناقضٌ غير متَناسِب، فعجِبْنا من هذا التناقُض الواضح، والتخالُف الفاضح، وفى المثل السائر : « أصْلِحْ وقابِلْ وأفْسِدْ وقابِلْ » .

وأمّا إرسالُك السيفَ والتِّرْكاش لنا، فقد تعجَّبْنا منه إلىٰ الغايه، وأنكَرْناه إلىٰ النِّهايه : لأنك لم تَزَلْ فى كُتُبك كلِّها تستشهِد بتاريخ جنكزخان وأخبارِه وأحوالِه، وتقتَدِى به فى أقوالِه وأفعالِه، وما سمِعْنا فى التواريخ ولا اتّفق قطُّ من جنكزخان، ولا ممن تقدّمَه وتأخّره من ملوك مملكته فى زمنٍ من الأزمان، أنّه أهْدىٰ إلىٰ خادم الحَرَمين الشريفين سَيْفا ولا تِرْكاشا، ما ٱختلَفَ فى ذلك ٱثنان . فإرسالُها منك إلينا هل هو من باب المحبة أو لا، وإن كان تخويفا، فنحن مانخافُ من سَيْفك وتِرْكاشِك بعناية الله العظيم الأعلىٰ .

السَّيْفُ والرُّمْحُ والنُّشَّاب قد علِمَتْ * مِنَّا الحُروبَ فسَلْها فهْىَ تُنْبِيكا!
إذا ٱلتقَيْنا تَجِدْ هذا مُشاهَدَةً * فى الحَرْبِ، فاثْبُتْ فأمرُالله آتِيكا!
بخِدْمة الحَرَمَيْنِ اللهُ شَرَّفَنا * فَضْلًا ومَلَّكَنا الأمْصارَ تَمْليكا!

وبالجميـلِ وحُلْوِ النّصْـــرِ عوّدنا، * خُذِ التّوارِيخَ وٱقـــرأْها تَلَبّيكا!
والأنبياءُ لنا الرُّكْنُ الشّـــدِيدُ فكَمْ * بجـاهِهِمْ من عَدُوّ راحَ مَفْلُوكا!
ومَـنْ يكُنْ ربه الفَتّاحُ ناصِرَه، * ممّن يَخَافُ؟ وهذا القولُ يكْفِيكا!

وقد أجبناك عن السيف والتّرْكاش فيما مضى قبلَ هذا الوقت وتقدّم، فاعرِفْ ذلك وٱعْلَمْ .

وأما ما ذكرتَه من قولك : إنك فتحتَ معنا بابَ المحبة والوِداد، والصُّحْبة والاتّحاد، لا بابَ المخاصمةِ والمُشارَرة والعِناد، فقد علمنا ذلك وفهِمناه . والذى نُعَرّفك به أنّ الذى وقع منك بخلاف ماقلْتَ : لأنك لو كنتَ صادقا فى قولك، كنتَ لمّـا حضر إليك شُكْر أحمد وأرْغُون السـلامى اللذان هـما من بعض ممـاليكنا ومن جملة رَعايانا أمسكْتَهما وجهزتَهـما إلينا بعـد أن قيّدتَهما ؛ فـا فعلت ذلك بل عملت بالضدّ منه لأنّك آو يتَهُما، وحَمَيتهما وعظّمتهما وأكرمتهما ؛ وجعلتَهما من خواصّك وأحبابِك، وأوليائك وأصحابِك . وأيضا توجّه إليك صَوْلة بن حِيار (١) الذى هو قِطْعة هَجّان من هَجّانتنا فأكرمته، وألبسته التاجَ وعظّمته، وبعثتَ معه خِلعةً إلى نُعَيْر المذكور وإلى غيره من عُرْبانه، ووعدْتَه بالتّقْـدِمة والإماره، بالتصريحِ العظـيمِ لا بالتلويح والإشاره ؛ وكتبتَ إليه كتابا ما تركتَ فيه ولا خَلّيت، وأظهرتَ كلّ ما كان عندك وما أبْقَيْت، فجهّزه إلينا وقُرِئ على مسامعنا الشريفة كلمةً كلمه، وعرَفْنا واضحَ معناه ومبْهَمه ؛ وها نحن نشرَحُه لك لتعلَم وتُحقّق أنه وصل إلينا، وٱطّلعنا عليه وما خفِيَ أمره علينا . وهذا نصه :

(١) هذا الضبط من الأصل ورسم فيه تحتها حاء صغيرة إشارة إلى الإهمـال ولكن الذى سبق فى الأجزاء المتقدمة جبار بالجيم والباء تبعا للأصل والضوء والتعريف فحرر .

دام دولتـــه

الأمير الكبير، المعظَّم أمير نُعَير، أدام [الله] دولته شمسا . نُعْرض لعُلوّ علومه المحروسة أنه قد ٱتَّصل بنا طَرْدُك عن الشام، ومعاملتُهم معك غيرَ الواجب . حال وُقُوفك علىٰ هذا المثال تُسْرع فى الوصول إلينا بحيث نُعْطيك ما أُعطِيَ المرحوم عمك أمير سليمان طابَ ثراه، ونجعَلُك مقدَّم العساكر المنصورة؛ وبهذا بَرزَ الحكمُ المطاعُ من الحضرة العاليــة ؛ ففى عزم العساكر والجيوش المعظَّمة الوصولُ إلىٰ أطراف البــلاد شَرْقا وغَرْبا ورُوميًّا من سائر النواحِى والأمصار، والبلاد والأقطار؛ وإنْ أبطأ ركابُك عن الوصول، فنحن واصلُون إليكم فى طريقنا إلىٰ مِصْر وغيره ، ولا يبقىٰ لطاعتك مزِيَّة ولا مِنَّــة ، فيكون ذلك علىٰ الخاطر المبارَك . فينبغى أن لايكونَ جوابُ الكتَاب، إلا قُدومَ الركاب؛ ففيه لكم الفوائدُ العظيمه، والعطايا الجسيمه؛ ومعَ [ذلك] إصابةُ الرأى منكم، تُغْنى عن تأكيد الوصية إليكم؛ ومهما عُرِض من المهامِّ يقضىٰ حسَبَ المراد، ومَنْهج السَّداد؛ والله الموفق .

وبحاشية الكتَاب المذكور ما نصُّه :

وقد كتبنا إلىٰ السلطان أحمد أنْ يصِــلَ إلينا ، فانظُرْ كيف كان عاقبةُ أمره ؟ فينبغى أن نتوجَّهَ أو يتوجَّه بعضُ أولادك إلينا لأجل مَصَالحك كافَّةً .

فيا أمير تَيْمُور لو كنتَ صادقًا ، وكلامُك بالحق ناطِقا، ما وَقَع منك مثلُ هذا ولا صدَر، ولا ٱتَّفق بَلْ ولا ببالك خَطَر؛ ولكن كلُّ مايكونُ فى خاطر الإنسان يظْهَر من الكلام الذى يخْرُج من فيه، وكلُّ وعاءٍ ماينضح إلا بمــا فيه .

يافاعِلًا بالضِّـــدِّ من قَوْلِهِ * فِعلُ الفتىٰ دالٌّ علىٰ باطنه،
والمَــرْءِ مَجْزِىٌّ بأعمــاله * إذأظْهرتْ ما كان فى كامنه!

وأما طلبُك منَّا السلطان أحمد الجَلَايرى غيرَ مرَّة، فقد علمناه. ولكن عرِّفْنا يا أمير تَيْمُور إيش عَمِل بك؟ حتّى حلفت له عِدَّة مرار بأيمان الله تعالىٰ العظيمة وأعطيتَه العهود والمواثيق بأنك ما تتعرض إليه ولا إلىٰ مملكته ولا توا فيه ولا تشوِّش عليه، حتّى آطمأنَّ بأيمانك، وركن إليك، وأحسن ظَنَّه فيك، ووَثِق بك، واعتمدَ عليك نُخَتَه وغدَرْته، وأتيته بغتةً علىٰ حين غَفْلة وبَدَرته؛ وأخذت مملكتَه وبلادَه، وأموالَه وأولادَه. وأعظمُ من ذلك أنَّك أخذتَ أيضا حريمَه وهُنّ فى عَقْد نِكاحه وعصْمته وأعطيتَهنّ لغيره، وقد نطق الكتابُ والسنةُ بتحريم ذلك وعُظْمِ ذَنْب فاعله وقَبِيح جُرْمه؛ ففى أىِّ مذهَب من المذاهب يحِلُّ لك أخذُ حريم المسلمين، وإعطاؤُهنّ لغير أزواجهنّ من المُفسِدين الظالمين؟ وهنّ فى عِصْمة أزواجهنّ وعَقْد نكاحِهنّ إنَّ هـذا لَهُوَ البَلَاء المبين؛ وكيف تَدَّعى أنك مسلم وتفْعَل هذه الفِعَال؟ عرِّفنا فى أىّ مذهَب لك هـذا حَلَال؟ فأعمالُك هـذه كلُّها منافيةٌ لدعواك، بل منافيةٌ لِدين الإسلام، وشرع سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام. قال الله تعالىٰ: ﴿ومَنْ لَمْ يحكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فأُولٰئِكَ هُمُ الكافِرُون﴾ وقال: ﴿ومَنْ لَمْ يحكُمْ بما أنْزَل اللهُ فأولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمون﴾ وقال: ﴿ومَنْ لم يحكُمْ بما أنْزَلَ اللهُ فأُولٰئِكَ هُم الفاسِقُون﴾ وقال عز وجل: ﴿ومَنْ يَتَعدَّ حُدُودَ الله فقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه﴾ وقد بيَّن لنا الخيرَ والشر، والحلالَ والحرامَ وأهلها فقال: ﴿إنَّ اللهَ يأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسَانِ وإيتَاءِ ذِى القُرْبىٰ ويَنْهىٰ عنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿ولا تَقْرَبُوا الزِّنَا إنَّهُ كانَ فاحِشَةً ومَقْتًا وسَاءَ سَبِيلا﴾ وقال تعالىٰ: ﴿قَدْ أفْلَحَ المُؤْمِنُون الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خاشِعُونَ والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُون والَّذِينَ هُمْ للزَّكاة فاعِلُون والَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حافِظُونَ إلَّا علىٰ أزْوَاجِهِمْ أوْ ما مَلَكَتْ أيمَانُهُمْ فإنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ٱبْتَغىٰ وَرَاءَ ذٰلِكَ فأُولٰئِكَ هم العادُون﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "كُلُّ المُسْلِمِ علىٰ المُسْلِمِ

حَرامٌ دَمُه ومَالُه وعِرْضُه" . وقال عليه السلام: "المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ يَدِهِ ولِسَانِهِ" . ففى أىّ مذهب من دين الإسلام تستَحِلُّ هـذه المحرَّمات العظيمة ، والمُنْكَراتِ القَبِيحة الشنيعَة الجَسِيمة ، التى يهتزُّ لهـا العَرْشُ و يَغْضَبُ اللهُ عز وجلَّ لهـا و رُسُلُه والملائكةُ والنـاسُ أجمعون ؟ وما كفىٰ مافعلْتَ مع القان أحمد المشارِ إليه حتّى تطلبُه منا؟ . اعلم أنَّ القانَ أحمد المشار إليه قد آستجَار بنا وقَصَدنا ، وصار ضَيْفَنا ؛ وقد ورد : مَنْ قصَـدَنا وجَبَ حقُّه علينا . وقال تعـالىٰ لسيد الخلق أجمعين فى حقِّ الكفار الذين هم أنْحَس الناس : ﴿وإنْ أَحَدٌ مِنَ المُشْرِكينَ آستَجَارَكَ فَأَجِرْه حتّى يَسْمَعَ كَلامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَه﴾ فكيف بالمسلمين إذا آستجاروا بالمسلمين؟ وكيف بالمُلُوك أبناءِ ملوك المسلمين ، الذين لأسلافهم الكرام معنا ومع مُلُوك الإسلام خُدّامِ الحرمين الشريفين صُحبةٌ ومحبةٌ وأخوّة فى الله تعالىٰ ؟ ولو لم يكن ذلك كيف يجوز فى شَرع المُرُوءة والنَّخْوة والوفاء أن نُسَلِّم ضيفَنَا ونزيلَنَا والمستجيرَ بنا؟ خصوصًا وجِنْسُنا جَرْكَس جنسُ ملوك الإسـلام السالفين ، خُدّامِ الحرمين الشريفين الذين آتَّفق لهم مع التَّتار ما تشهَدُ به التواريخ ، ومن عادتنا وشأننا وطِبَاع جِنْسنا أننا لانُسَلِّم ضيفَنا ولا نزيلَنا ولامَنِ آستجار بنا لأحدٍ . وإن كنت ماتُصدّق ذلك فعِنْدك مَنْ هم من جنسـنا ، سَلْهُم يعرفُوك ، فنحن لا يُضام لنا نَزِيل ، ونَقْرِى الضَـيفَ ونعامِلُه بالجميل ، وهـذه جِبِلَّتنا الغريزِيَّةُ وعادةُ أصْلِنا الأصـيل ؛ فإرسالُ القان أحمد إليك أمرٌ مستحِيل .

إنَّا ذَوُو الفَضْل الغَزِيرِ الوارِفِ * أبوابُنَـا هِىَ مَلْجأٌ للخـائف!

نَقْرِى الضُّيوفَ ولا يُضامُ نَزِيلُنا ، * شِيَمٌ وَرِثْنـاَفَضْلَها عن سالِف!

وكُلَيمةٌ تَكْفى الذى هو عاقِلٌ ، * والرَّمْزُ تصريحًا غَدَا للعـارف!

وقولك : إن العادة كانتْ جاريةً بين مَنْ سلف من ملوك الإسلام وملوك التتار، أنّه مَنْ هرب من جهةٍ إلىٰ أخرىٰ يُمْسكه الملك الذى يَهْرُب إليه ويقيِّده ويجهِّزه إلىٰ الملك الذى هَرَبَ من عِنْـده ، وأن دَمِرْداش بن جُوبان لما هَرَب فى الزمن الماضى من مَلِكه وجاء إلىٰ سلطان مملكتِنا المعظَّمة المشرَّفة، أمسكه وقيَّده وأرسله إليه، فقد علمناه ، وليس هذا الذى قلتَه وحكيتَه بصحيح ، لأن الذى وقع واتَّفق بخلافه : وهو أنَّ أميرا من أمراء السلطان الملك الناصر كان يسمَّى قَراسُنْقر، هرب من عنده وراح إلىٰ أبى سعيد فقَطَع رأسَه ،وجَهَّزه إلىٰ الملك الناصر. وأما دَمِرْداش المـذكور فالملك الناصر ماأرسله إلىٰ أبى سـعيد مثـل ما قلْتَ وما مات دَمِرْداش المذكور إلا فى مصر المحروسة ، فليكُنْ ذلك فى علمك ثابتًا ، وعلىٰ كلِّ حال فكلامُك حجةٌ عليك لا لك : لأنَّك قد آويْتَ شُكْر أحمد وأرْغُون السلامى وأكرمتهما وقرَّبتهما ، وكذلك كلُّ مَنْ حضر إليـك من ممـالِيكنا ورَعايَانا وخَدَمِنا من أهـل مملكتنا، فلو أمسكْتَهم وقيَّـدتَهم وجهَّزتهـم إلينا، كنتَ تكون صـادقًا فى قولك ، وكنتَ إذا طلبتَ منـا أحدًا مأتَلام علىٰ طلبـه ، فكيف وأنت البادِى والمعتَـدِى ؟ فهـذا الكلام كلُّه شاهدٌ عليك لا لك .

وأما قولك : إنَّ صاحب تِكْريتَ كان حَرَاميًّا قاطعَ طريق، ففعلتَ معه ما فعلتَ مقابَلةً له علىٰ نجســه وحَرامه وقَطْعه الطُّرُقات، فقد علِمناه وسلَّمنا لك هذا الأمر، بَيَّضَ اللهُ وجهَك، وماقَصَّرت فيه، فحبّذا ماعمِلْت، ونِعم مافَعَلْت فى حقّه من إعطائه جزاءه. أفأهلُ بغـداد كانوا حراميَّةً قُطّاع طريق حتّى فعلتَ بهم مافعلتَ ، وقتلت منهم من التُّجّار خاصَّةً ثمانمائةِ نفْسٍ فى المُصادَرة بالعقُوبة والعذاب . ففى أىِّ مذهبٍ يجوز هذا ؟ وهل يحِلُّ لمن يَدَّعى الإسلامَ أن يعمل بخَلْق الله تعالىٰ الذيـن أمر بالشفقة عليهـم والإحسان إليهم ونَشْر العدل فيهم هذه الفِعالَ ؟ وقد تعجَّبْنا منك

يا أمير تَيْمُور إلىٰ الغـاية ! كيف تَدَّعى أنَّك عادل، وتعمَلُ بأهل بغـدادَ المسلمين الموحِّدين وبغـيرهم من المسلمين هـذه العَمَائل؟ أما تعْلَمُ أنَّ الشفقةَ علىٰ خلق الله تعظيمٌ لأمر الله، وأنَّ الله رحيم يُحِبُّ من عباده الرُّحَمَـاء، وأن الظُّلْم حرام فى جميع الملل ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنَّ الله تعالىٰ يقول : ياعِبَادِى إنِّى حَرَّمْتُ الظُّـلْم علىٰ نَفْسِى وجعلتُهُ بينَكُمْ مُحرَّمًا فلا تَظَّالَمُوا" . وقال عليه السـلام : "لا أَحَدَ أغْيَرُ من اللهِ ، من أجلِ ذلِكَ حَرَّم الفَوَاحِشَ ما ظَهَر مِنْها وما بَطَن " . وورد : "إنْ فاتنِي ظُلْم ظالِمٍ فأنا الظَّالِمُ"وحَسْبُ الظالمين رَبُّ العـالَمين الذى قال فى حقهم ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ علىٰ الظَّالِمِين ﴾ وقال ﴿ إنه لا يُفْلِـحُ الظالمون ﴾ . والباغى له مَصْرَع . ولمـا جاء هُولاكُو ومنكوتمر وغازان وقصَـدُوا ملوكَ الإسـلام خدّامَ الحرمين الشريفـين، الذين كانوا من جنسنا كما ذكَرْنا لك أعلاه، ٱتَّفق لهم ما ٱتَّفق ممـا هو مشروح فى التـواريخ ومعلوم عنـد النـاس؛ فمهـما أَخَذَه أولئك تأخُذْه إذا جئت .

وأما قولك فى كُتُبك : إنه إن لم نجهِّز إليك السلطانَ أحمدَ الجَلَايرى مقيَّدا تجِئْ فى أوّل فصـل الربيع إذا نزلت الشمسُ بُرْجَ الحمل، أو لَمَّـا تنزِلُ المـيزان ، وإن جَهَّزناه إليك مقيدا، نتأكد المحبـةُ والصُّـحْبة بيننا وبينك ، فقد علمناه ؛ والذى نعرّفك به هو أننا كنا نتوَقَّع أنك تَجِيء قبل هذا الوقت، فقد أبطأْتَ كثيرا، وملوكُ الإسلام خُدّامُ الحرمين الشريفين الذين كانوا قبْلَنا ما تَصالَحُوا مع مثل هُولاكُو وغيره إلا حتّى تزاوروا وتقابَلُوا وٱجتَمَعُوا،ونحن أيضـا كذلك ما نصْطَلِـح إلا بعد أن نتَزاورَونتقابَلَ ونجتَمِع.وأنت طلبت أحمد الجَلَايرى،وهانحنُ واصلونَ إليك به، نطلب منك أن تَشَـفِّعنا فيه، وتَهبنا ذَنْبه الذى صـدر منه، وندْخُل عليك بسببه، ونسأل إحسانك أنْ تعيِّن لنا موضِـعا نلْتقى معَك فيه، حتّى نأتيك بأحمـد الجَلَايرى

المذكور فيه ، ونشْفَع فيه عندك . فعيِّن لنا الموضعَ المذكورَعلىٰ حسب ماتختار : إما من ذاك الجانبِ من الفُرات ، أو من هذا الجانب . وأىّ موضع عينْتَه وسَّميته لنا جئناكَ بالمشار إليه فيه ، وندخل عليك فى أمره ، ونستوْهِب ذَنْبَه منك .

وأما ما ذكرته من أمر الرسول ، فقد علمناه . والذى نُعرِّفُك به هو أن الرسولَ المذكوركان يكتُبُ المنازلَ منزلةً منزلةً إلىٰ بلادنا المحروسة ، وٱطَّلعَ عليه فى ذلك جماعةٌ من جهتنا ؛ ولما وصلَ إلىٰ الرَّحْبة المحروسة ، قال للنائب بها : بُسِ الأرضَ للأمير تَيْمور وٱقرأ الخُطْبةَ باسمه . فلوكان رسولاً مُصْلحا ما كان كتَبَ المنازل ، ولا أكثرَ فُضُولَه ، وتحدّثَ بما لا ينْبغِى له ، وتكلَّمَ فيما لا يَعْنِيه ، وتعدّى طَوْرَه : لأنه لاينبَغِى للرسول أنْ يكونَ إلا أعمىٰ أخرسَ غزيرَ العقل ، ثقيلَ الرأس ، كما قال بعضهم :

إذا قَصَدْتَ المُلوكَ فالْبَسْ * من التُّقىٰ والعَفَافِ مَلْبَس !
أدخُلْ إذا مادَخَلْتَ أعمىٰ ، * وٱخْرُجْ إذا ماخَرَجْتَ أخْرَس !

وكيف يُمْكن نائِبَنا الذى هو من جملة ممالِيكنا ، وجُبِل لحمُه ودمُه علىٰ أنعُمنا وصَدَقاتِنا ، وغُذِّىَ ورُبِّى بلِبَان فَضْلنا وجُودنا [أن] يبُوسَ الأرض لغيرنا ، أو يخْطُبَ باسم غيرنا؟ وكيف يتركُ ٱسمَ خادم الحرمين الشريفين أستاذِه ، ويذكُرُ ٱسمَ غيره؟ . فقد تكَرَّرت منك الفِعالُ القبيحة ، الموجِبَةُ لما يقدِّره الله تعالىٰ؟ ونحن نُقْسِم بالله تعالىٰ لولا قلت لُنَعَيِّر تعالَ حتّى أعملَكَ مقدّم العساكر ، ونَمْشى علىٰ الشام ومصر ، وقَرَّبْت مماليكَناوآويتَهُم ، وبدأتَ بهذا كلِّه وحصَلَ منك التعدّى ، ما كان يتفقُ لرُسُلك ما ٱتّفق . ولكنَّ الجزاءَ من جِنْس العمل ، والخيرُ بالخير والبادِى أكرم ، والشَّرُّ بالشر والبادى أظْلم .

وأيضا كلَّ وقت تَسأل عن ممالكنا المصونةِ ، وكثرةِ عساكرنا المنصورة من قِلَّتها . فلوكنتَ طالبًا المحبةَ والصحبةَ والمصادَقة ، ماوقع منك هذا .

•أما قولك إنَّ هُولا كو أخذ من كلِّ مائة رجلٍ رجلين وجاء بهــم، وأنت قد جئتَ بالرجلَيْن و بالمــائة، وٱعتمادُك علىٰ كثرة عَسْكرك علىٰ قولك فقد علمناه، وإن كان ٱعتمادُك علىٰ كَثْرة عسكرك فاعتمادُنا نحن علىٰ الله تعــالىٰ وٱستمدادُنا من الحرمين الشريفين، ومَدَدُنا ممَّن بهما من الأنبياء، صلواتُ الله وســلامُه عليهم أجمعين، والصحابةِ والصالحين رضى الله عنهم. فاذا تلاقَيْنا يكون مايقدِّره الله تعــالىٰ ويُعْطِى الله النصْرَ لمن يَشَاء، وتَعلَمُ ذاك الوقتَ لمن العاقِبــةُ؛ ويظهَرُ فعلُ الله الربِّ القادر تعــالىٰ، وعوائده الجميلةُ بنــا التى لا شَكَّ عندنا فيها ولا رَيْبَ، وقَطُّ ملوكُ التتار ما ٱنتصروا علىٰ ملوك الإســلام، بل ملوكُ الإسلام خدّامُ الحرميــن الشريفين، هم المؤيَّدون المنصُورون المظفَّرون بعون الله تعالىٰ، وببركة ســيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، معوَّدُون من الله الكريم بالفضل والإحسان والغَنائم والفُتُوحات: لأنهم أهل الكتاب والسُّنَّة والعَدْل والخير والخَوْف من الله تعــالىٰ، لايقَعُون فى محَارِمه، ولا يُقْدِمُون علىٰ ٱرتكاب ماينْهىٰ عنه، فهم المؤمنون المتَّقُون. وقال الله تعالىٰ: ﴿وكانَ حَقًّا عَلَيْنا نَصْرُ المؤمِنينَ﴾ وقال تعــالىٰ: ﴿إنَّا لنَنْصُر رُسُلَنا والذينَ آمَنُوا﴾ وقال: ﴿والعاقِبَةُ للتَّقوىٰ﴾ وقال تعالىٰ: ﴿ولقد كَتَبْنَا فى الزَّبُورِ منْ بَعْد الذِّكْرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُها عبَادِىَ الصَّالِحُون﴾ وسوف يُنْجِزُ الله تعالىٰ وعده، لأنه لايُخْلِف الميعاد.

وأما ماذكرته من أمر قَرا يُوسف وبير حسن وغيرهما، وأنَّ فى معاشهم زَغَلا، وأنَّهم مفسِدُون. وجعلُك لكل واحدٍ منهم ذنبا، وأنك أنتَ العادل الخيِّر المُفْلِح، والناس كلُّهم مناحيس وأنت الصالح، والله يعــلم المُفْسِدَ من المُصْلِح، فقد علمناه. والذى نعرّفك به هو أنَّ النُّور لايجتَمِع مع الظلام، ولا اليَقظةُ والمَنَام، ولا الخــير والشَّرّ فى حيز واحد: لأنها متَضادّة، ليس بينها ٱتِّفاق ولا ٱلتئام، وفعلُ المرء دالٌّ علىٰ نيته وطويّتِه، قال الله تعــالىٰ: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ علىٰ شَاكِلَتِه﴾ وقال:

﴿وما يَسْتَوِى الأَعمىٰ والبَصيرُ ولا الظُّلُماتُ ولاَ النُّورُ ولا الظِّلُّ ولاَ الحَرُورُ وما يَسْتَوِى الأَحْياءُ ولاَ الأَمْوات﴾ وقال : ﴿إنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُم﴾ وشـتَّانَ مابين أهل الخير والفَسَاد، وأهل العَـدْل وأهل البَغْى والعِناد ؛ فالخَيِّرُ هو المتَّقِى ، ومن يرتكب ماحرّم الله ويعتَقِدْ أنه علىٰ الحق فهو الشَّقِى .

إذَا المَرْءُ لم يَعْرِفْ قَبِيحَ خَطِيَّتِه * ولا الذَّنْبَ منـه معْ عَظِيم بَلِيَّتِـهْ
فذٰلكَ عيْنُ الجَهْل منه مع الخَطَا * وسـوفَ يرىٰ عُقْباه عِنْدَ مَنِيَّتِـه
ولَيْسَ يُجَـازىٰ المرءُ إلا بِفعْـله * وما يَرْجِعُ الصَّـيَّاد إلا بنِيَّتِـه !

وأما قولُك إنَّ نُعَير العرب أرسَل بالخُفْية يطلُب السلطانَ أحمد، وأننا نرسُم لنوّابِنا أنْ يحترِزوا من توجُّهه إليه ولا يمكِّنُوه من ذلك، فإنه إن آتفق توجهه إليه يَكُنْ ذلك سببا لخَرَاب الدِّيار، فقد علمناه. والذى نعرّفك به هو أننا نتحقّق أن مايحصُل خرابُ الديار والدّمار ومحوُ الآثار إلا لمن يسعىٰ ويتكلّم بخراب الديار ﴿وَلَا يَحِيقُ المَكْرُ السَّيِّئُ إلَّا بأهْلِهِ﴾ . وستعلَم ديارُ مَنْ تُخَرَّب، وعُمُرُ من يَذْهَب، وعلىٰ من تكون دائرةُ السُّوء دائره، وسَطَواتُ المَنايا قاهِره؟ ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ . وها نحنُ واصلون بجُيوش وجُنود وعساكر مؤيَّدة من السِّباع أسْبَع، لاترْوىٰ أسْلِحتُهم من دِماء البُغَاة ولا تَشْبع، والجواب ماتَرى لا ماتَسْمَع :

قُلْ لِلّذى فى الوَرَىٰ أضحىٰ يُعادِينَا : * احْذَرْ فأمْرُكَ رَبُّ العَرْشِ يكْفِينا !
مازَالَ يَمْنَحُنا فَضْـــلا ويَكْلَؤُنا * وفى العِـدا بعظِيم النَّصرِ يَشْفِينا !
أقامَنَا رحمـــةً للنـاس أجمعِهم، * ولم يزَلْ من جَزِيل الجُود يُعْطِينا !
بالعِزِّ والنَّصرِ والتأْيِيـــدِ عوَّدَنا، * وزادَنَا فى مَـدِيدِ الأرض تَمْكِينا !
وللجميل وفِعْـلِ الخـيرِ وَفَّقَنا، * شُكْرًا له سِـتْرُه الأعلىٰ يغَطِّينـا !

قَدْ أسْكَنَ الرحمةَ الحُسْنَى التى أَمِنَتْ * بِهَا الأنَامُ بأقْصَى مُلْكِنا فِينا!
فكُلَّما بالدُّعاء المُرْتَضَى نَطَقَتْ * لنا الرَّعايَا، أجابَ الكَوْنُ آمِينَا!
اللهُ حافِظُنا، اللهُ ناصِرُنا، * مَنْ ذا يُعانِدُنا ؟ من ذا يُقاوِينَا؟

واللهُ الموفِّق بفضله العميم، والهادى إلى الصراطِ المستقيم؛ بمنِّه وكرمه، وجُوده ونعمه، إن شاء الله تعالى .

كتب فى ... ... من جمادى الأولى سنة ست وتسعين وسبعمائة(١) .

الحالة الثانية — حين عاد السلطان من الشأم إلى الديار المصرية وخرَّب هو دمشق وحرَّقها، ثم انتقل عنها، وتردّدت رسله بطلب أطلمش : أحدِ أمرائه الذى كان قد أُسِر فى أيام السلطان الملك الظاهر "برقوق" .

وفى هذه الحالة كان يُكْتَب له فى قطع الثلثين، والعنوانُ بقلم جليلِ الثُّلُث بحَلِّ الذهب سطرانِ، مضمونهما « المقامُ الشريفُ العالِى، الكبيرىُّ، العالِمىُّ، العادلىُّ، المؤيَّدىّ، المظفَّرىّ، المَلْجَئىُّ، المَلاذىّ، الوالِدِىّ القُطْبِىّ، نُصْرة الدين، مَلْجأ القاصدين، ملاذُ العائذين، قطبُ الإسلام والمسلمين، دامتْ مَعْدَلَته تيمورْكور كان» . والبسملة فى أوّل الوصل الرابع، والخُطبةُ جميعها بالذهب، وكذلك البَعْدِية وما يتعلَّق بالمكتوب إليه على عادة القانات، والعلامةُ بجليلِ الثُّلُث بحَلِّ الذهب بالهامش ماصورته : « المشتاقُ فرجُ بن برقوق » إلا أنه آختلفَ مكانُها فى المكاتبات على ماسيأتى ذكره . إلا أن افتتاح المكاتبة إليه فى هذه الحالة كان على ضربين بحسَبِ ماآقتضاه الحالُ .

---

(١) هنا آخر ما أضيف الى الأصل من بعضهم .

الضـــــرب الأوّل

(الأفتتاح بـ«أما بعد» وذلك عند أوّل عقد الصلح)

وهـذه نسخةُ مكاتبـةٍ كُتِبت إليه جواباً عمـا ورد منه بطلب أطلمش المذكور والتماسِ الصُّلْح. جُهِّزت صحبةَ الأمير شهاب الدين أحمد بن غلبك، والأمير قانى بيه (١) صحبةَ رسوله خَواجا مسعود الكججانِىّ رسوله الوارد بكتابه، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة خمسٍ وثمـانمـائة. وعُلِّم له فيها فى الهامش بين السطرين الثانى والثالث بقلم جليل الثلث بحَلِّ الذهب «المشـتاق فرج بن برقوق» علىٰ ما تقدّم ذكره، والورق قطع الثلثين وهى:

أمَّا بعد حمدِالله الذى جعل الأرواح أجنادًا مجنَّده، ووصلَ أسباب الرُّشْد والفلاح بِمَنِ افتتح بابَ الإصـلاح ولم يُخْلِف مَوْعِدَه، وكَفَلَ لمن توكَّل عليه فىأموره النجاحَ يومَه وغَدَه. والشهادةِ له بأنهالله القاهرُ فوق عباده بقدرته المؤيِّده، والصلاةِ والسلام علىٰ أشرف نبىٍّ طيَّب الله عنصُرَه ومَحْتِدَه، وأصلح ببعض نَسْلِهِ الشريف بين فئتين عظيمتين بلَغَ كلٌّ منهما من الخير مَقْصدَه. وعلىٰ آلِهِ الطاهرين، وذُرِّيته الظاهرين بالمصالح المُرْشده، وأصحابه الذين كانتْ غالبُ قضاياهم صُلْحا بين النـاس ورسُلُهم بالأتِّفاق مردَّدة ومِنْ عدَمِ الشِّقاق غير متردِّده، صلاةً وسلاماً نَصِل بهما حبْلَ البُنُوّة بالأُبُوَّة المتجدِّده، ونُخمِد بهما نارَ الحَرْب المتوقِّده.

فقد أصدرنا هـذه المفاوضةَ إلىٰ المقام الشريف، العـالِى، الكبيرىّ، العالمىّ، العـادلِىّ، المؤيَّدىّ، المظفَّرىّ، المَلْجَئِىّ، المَلاذىّ، الوالِدِىّ، القُطْبِىّ، نُصْرة الدين، مَلْجإِ القاصدين، ملاذِ العائذين، قُطْب الإسلام والمسلمين، تَيْمُوركوركان، دامتْ مَعْدلتُه. تُهْدى إليه سلاما تُتْلىٰ سُوَره وآياتُه، وثناءً تتوالىٰ غَدَواته ورَوْحاته

---

(١) سيأتى قريبا قانى باى الخاصكى.

ولا تتناهىٰ غاياتُه ، وتبدى لشريف علمه أنَّ مفاوَضَته العالية [التى] وردَتْ أوّلا وآخِرا ، تضمنت رموزُها باطنا وظاهِرا ، تجهِيزَ الأمير أطلمش لَزَم المقـام الشريف إلىٰ حضرته العليَّـــة : لتنحَسِمَ مادّةُ الحركات ، وتسكُنَ القلوب والخواطرُ فى سائر الجهات ، وتَتَّحِدَ المملكتان فى الصَّـداقة والوفاء ، والمحبَّة والصَّفَاء ، علىٰ الصُّورة التى شَرَحها ، وبيّن مَنَاهجها ووَضَّحها ، خصوصا ماأشار إليه من أنَّ لجواب الكتّاب حقًّا لايَضِيع ، فوقَفْنا عليها وُقُوفَ إجلال ، وفَهِمْنا ما تضمَّنْته علىٰ التفصيل والإجْمال .

والذى نُبْديه إلىٰ علومه الشريفـة أنَّ سـبب تأخير أطلمش أنه لمَّـا قَدِم المقام الشريف إلىٰ حدود الممـالك الشاميَّة ، وتوجَّهْنا من الديار المصريه ، عرض لنـا ما أوجب العَوْدَ إليها سريعا ، وكان الحزمُ فيما فعلناه بمشيئة الله تعالىٰ . ثم تحقَّقْنا من المفاوضة الواردةِ علىٰ يد سُوْدُون ، وسودون (؟) والنمر ، والحاج بيسق أحد أمراء أخورية ، قَسَمَه بالله الطالب الغالب ، المُدْرِك المُهْلِك ، الحىّ الذى لاينام ولايموتُ أنه إن جُهِّز إليه أطلمش المشارُ إليه ، رجع المقام الشريف إلىٰ بلاده ، وأنه متوقِّع حُضُوره إليه بقَارَةَ ، أو سَلَمْيةَ ، أو حِمْصَ ، أو حماةَ . فأخذْنا فى تجهيزه إلىٰ حضرته الشريفةِ علىٰ أجمل مايكُون .

فبينَا نحنُ علىٰ ذلك إذ وردَتْ علينا الأخبارُ بما آتفق لدِمَشْقَ وأهلها : من أنواع العذابِ وتَخْرِيب قَلْعتها ودِيارِها ، وإحراقِ جامعها الذى هو الجامعُ الفَرْد فى الممالك الإسلاميَّة ، وغيرِه من المساجد والمَدَارس والمَعَاهد والمَعَابد . فلمَّا تواترتْ هذه الأخبارُ ، وتحقَّقتْ هذه المَضَارّ ، لمحنا من عدم ترحُّلِكم عن دِمَشْقَ وهى عامرةٌ نَقْضَ ما تَقرّر ، وعدمَ آلتفاتِكم إلىٰ الأمير أطلمش المذكور وتجهيزه . فلما وردتْ مفاوضتُه الشريفةُ المجهَّزةُ إلىٰ صاحب مارِدين ، أرسلها إلينا [وهى] الواصلةُ علىٰ يد المجلِس السامىّ ، الشيخى ، الكَبِيرى ، العالِمى ، الناسكى ، الحَسِيبى ، النَّسيبى ، الشَّرَفى ، عبدِ المؤمن ، شـيخ

الجبال، آبن ولىِّ(١) الله، إمام العارفين، عبد القادر الكيْلانىّ، أعاد الله تعالىٰ من بركاته. والصَّــدرِ الأجلّ فخر الدِّين التـاجر السَّفَّار، المؤرّخةُ بثانى عشر ذى القَعْدة الحرام من ســنة أربع وثمـانِمائة، المتضمِّنةُ وصولَ المقـام الشريف إلىٰ أَرْزَنْكان وكَماخ قاصدًا للبلاد الرُّومية، والقصدُ فيها تجهيزُ الأمير أطلمش وأن يُفْتَح بابُ المصالحه، ويُسْلكَ طريق المصادَقَة، رعايةً لصَلَاح المملكتين، ونظرًا إلىٰ إصلاح ذاتِ البَيْن، وأنّه لامَطْمَعَ إلا فى صحة المودّة، وإرسال أطلمش صحبةَ شخص من مقرّبى حضرتنا الشريفة: لينظر ما يصــدُر بعد وُصُولها من تمهيد قواعد المجاملة، وتشييد مبَـانى المحبة. وأنَّ المقـام الشريف ـ زِيدتْ عظمَتُه ـ أقسمَ بالله الَّذى هو فى السَّماء إلٰهٌ وفى الأرض إلٰهٌ، أن يكون فى هذه الحياةِ محبًّا لمن يُحبُّنا، مُبْغضا لمن يُبْغِضنا، وأنَّا نتلَفَّظ بحضور الأمير أطلمش كما تلفَّظتم. فعند ذلك آجتمَعْنا مع مولانا أميرِ المؤمنين، المتوكل علىٰ الله، أدام الله تعالىٰ أيَّامه، والشيخِ الإمامِ الفرد، شيخ الإسلام سراج المِلَّة والدِّين عمر البُلْقينىّ ـ أعاد الله تعالىٰ من بركته ـ وقُضاة القضاة ومشايخ العِلْم والصَّــلَاح، وأركان الدولة الشريفة، وقُرِئتِ المفاوضــةُ بحضورهم. فلمـا سمِعُوا ما تضمَّنَتْه من عظيمِ القَسَم، والحَلِف ببـارئ النَّسَم، وعلموا أنَّ جُلَّ القَصْد فيها تطلُّعُ المقـام الشريف إلىٰ تجهـيز الأمير أطلمش المذكور، فآجتمعتِ الآراءُ علىٰ إرساله إلىٰ حضرته الشريفة صحبةَ من آقتضَتْه الآراء الشريفة. ثم وردت بعد ذلك المفاوضةُ من المقام الشريف ـ زِيدت عظمتُه ـ علىٰ يدِ شخص من أهل أَزْمِــيرَ ـ مؤرَّخةً بثانى عَشر شهر صفر المبارك ســنة تاريخه، متضمِّنةً ما حصل من النصر علىٰ آبن عُثْمان، والظَّفَر به، والآستيلاء علىٰ غالب قلاعه. وزُبْدة الكلام فيها الإسراعُ بتجهيز أطلمش المذكور، ليجتمع شمْلُه بأولاده بالحَضْرة الشريفة. ثم بعد ذلك وردت

---

(١) يريد أنه من ذريته لان عبد القادر توفى سنة ٥٦١ .

علينا مفاوضةٌ شريفةٌ على يد المجلس السامىّ، الشيخىّ، الكبيرىّ، الأوحدىّ، العارفىّ، السالكىّ، المقربىّ، مسعود الكججانىّ، رسول المقام الشريف. وصحبته المجلس السامىّ، الشيخىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العاملىّ، الإمامىّ، القدوىّ، الشَّمْسىّ، شيخ القُرَّاء، إمام أئمة الكُبَراء، محمد بن الجَزَرىّ أدام الله النفع به. مؤرّخةٌ بغرَّة ربيع الأوّل سنة تاريخه، متضمنة معنى الكتابين المجهَّزيْن من ماردين وأزْمير. وجُلُّ القصد فيها تجهيزُ الأمير أطلمش لتحْصل طُمَأْنينة قلوب العالمين، وإخمادُ باب الفِتَن، وأنَّ العمدة على المشافهة التى تحمَّلها الخَوَاجا نظامُ الدين مسعودٌ المشار إليه، وأن قولَهُ قولُ المقام الشريف. ومهما عَقَد الصلح عليه وآلتَزَم به، كان من رأْى المقام الشريف وشوره[1]، لا يخرُج عنه ولا يميل إلى غيره بقول ولا فعل. فلما أحضَرْناه وأصْغَينا إلى ما تحمَّله من المشافَهَة، فإذا هى مشتملةٌ على خالص المحبَّه، وأن يكون المقامُ الشريف والدنا عوضًا عمن قدّس الله تُرْبه؛ وأن نُجهز الأميرَ أطلمش إليه، وتكون عمدتُنا بعدَ الله عز وجَلَّ عليه؛ فقابلنا ذلك بالقبول والآستبشار، ومَحَونا آيةَ ليل الجَفَاء، وأثبتْنا آية نهار الوَفَاء، فى الإعلان والإسرار؛ وقبلْنا أُبوّتَهُ الكريمةَ على مدى الأزمان وتَوَالِى الأعصار، وشاهَدَ الخواجا مسعودٌ حال أطلمش، وعلم آهتمامنا بتجْهيزه قبل وصوله بمُـدّةٍ آعتمادا على أليّته السابقه، ووُثُوقا بمـا صَرح به من الآتِّحاد والمصادَقَه، وعقَدْنا الصُّلْح مع الشيخ نظامِ الدين مسعودٍ المذكور بطريق الوَكَالة الشرعية عن المَقَام الشريف، وحَلَفْنا نظير ما حَلَف عليه، بموافقة مولانا أمير المؤمنين ــ أدام الله أيامه ــ على ذلك بمحْضَر من شيخ الإسلام، وقضاة القضاة، ومشايخ العِلْم والصَّلَاح، وأركانِ الدولة الكِبَار، مع حضور الأمير أطلمش، لَزَم المقام الشريف، وشهادةِ من يَضَعُ خطه على نُسَخ الصُّلْح التى

(١) كذا فى الأصل وهى عامية لاأصل لهـا فى اللغة بالمعنى المراد له اذ مراده المشورة كما لايخفى .

كتبت ، وجهَّزنا منها نسختين مثْبُوتَتَيْن إلىٰ حضرته الشريفة قرينَ هـذا الجواب الشريف ، لتُحيط العلومُ الشريفـة بمضمونِهما ؛ و بأحدهما خطُّنا الشريف لتخلَّد بِخزانته الشريفة ، والأُخرىٰ يشمَلُها بخطه الشريف وتُعادُ إلينا صحبةَ رسولنا : المجلس العـالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهدِىّ ، المؤيدِّىّ ، المقرَّبِىّ ، الأعَزِّىّ ، الأخَصِّىّ ، الأصيلىّ ، الشِّهابىّ ، أحمد بن أغلبك الناصرى مقَرَّبِنـا ومقرَّبِ والدنا الشهيد ــ أدام الله تعـالىٰ نعمته ــ وجهَّزنا صحبتَه المجلَس السامِىَ ، الأميرَ ، الأجلَّ ، الكبير ، المقَرَّبَ ، المرتضىٰ ، الأخَصَّ ، الأكمَلَ ، سيفَ الدين ، قانِى باى الخاصكِىّ الناصرىّ ، أدام الله سعادته ، المتوجهَيْنِ بهـذا الجواب الشريف ، المجهَّزين صحبة الأمير أطلمش ، و بقية قُصَّاد المقام الشريف ورُسُلِه .

وممـا نبديه لعلومه الشريفـة أنه ممـا تضمنه الملخَّص الشريف المجهَّز عطفَ الكتاب الواصل علىٰ يد الشيخ مسعود الكججانى مضاعفةُ الوصـية بأولاد الشـيخ شمس الدين الجَزَرىّ ورعايةِ أحوالهم وتعلُّقاتهـم . وقد قابلنا ذلك بالإقبال والقَبُول وقرَّرنا لهم بالأبواب الشريفة . ونحن بشهادة الله ــ وكفىٰ به شَهِيدا ــ قد أخلَصْنا النيـة للمقـام الشريف ، وعاهدْنا اللهَ عز وجلَّ فى التعاضـــد والتناصُرِ والاجتهاد ، فى عمل المَصَالح للعباد والبلادِ ، وعدم التَّقاصُر والعمل بمـا فيه بياضُ الوجه عِنْد الله فى الدنيا والآخرةِ ، و إجراءُ الأمور علىٰ السَّداد . بتوفيق الله عز وجلَّ ، وطلبًا لرحمته الباطنة والظاهرة . ثم استقبل لسان الحال يُنْشِدنا :

* يا أوَّلَ الصَّفْوِ هَذَا آخِرُ الكَدَر *

فيكون ذلك فى علومه الشريفة ، والله تعالىٰ يُديم عوارفَه الوَرِيفه ، بمنِّه وكرمه .

والمستند «حسَبَ المرسوم الشريف» .

الضـــــرب الثـــانى

(ما صار إليه الأمر بعد وُصُول أطلمش إليه)

وهذه نسخة جواب

والعنوانُ سطران بقَلَم الثلُث بماء الذهَب ماصورتُه :

«المقامُ الشريفُ، العالى، الكبيرىُّ ، العالمىُّ، العادلىّ، المؤيدّىّ، المظفّرىّ ، الملجئِىّ، المَلَاذىّ ، الوالِدِىّ ، القُطْبىّ ، نُصْرةُ الدين ، ملجأَ القاصدين ، مَلَاذُ العائِذين، قطبُ الإسلام والمسلمين؛ تَيْمُوركوركان ـ زيدت عظمته ـ .

والطرَّةُ ثلاثة أوصال ، والبسملةُ الشريفة فى أوّل الوصل الرابع . ثم « الحمدُ لله » وتمة الخُطْبــة بالذّهب ، و بيت العلامة عرضُ أربعــة أصابع مضمومةً ، وما يليها من الأسطر سعةُ ثلاثةِ أصابع ، والعلامةُ الشريفة بين السطر العاشر والحادى عَشَرَ من سطور الكتابة ، موافِقا لانتهاء الخطبة عند « أما بعــد فقد صدرت هــذه المفاوضةُ» .والعلامة الشريفة بجليل الثلُث بماء الذهب «المشتاقُ فرج بن برقوق» . وهامش الكتاب أربعةُ أصابع مطبوقةً ، والخطبة وما يليها من البَعْدية وألقاب المقام القُطْبِى المركبة والمفردة الجميعُ بالذهب . ومضمونه بعد البسملة :

الحمدُ لله الذى شيَّد قواعدَ الإصلاح ، ومهَّد مواطنَ الرُّشْد والنَّجَاح ، وجعل أذَانَ المؤمِن يُجِيب داعِىَ الفَلَاح .

نحمَـدُه علىٰ أنْ ألَّف بين القلوب بلطيف الارْتيـاح ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له إلٰهٌ زمَّ نفوسَ المؤمنين بحبْـل التقوىٰ من حَمِيَّة الجِمَـاح ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله الذى وَضَح من نُور رسالته فجرُ الإيمـان وَلَاح ، وَنَفَح

من نَوْر معْجزاته زَهَرُ الدين الحنيفيّ وفاح ؛ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله الذين شَدُّوا ظهور كلمهم من الصِّدْق بأتقَنِ وِشَاح ، وعلى صَحَابته الذين بينوا من عُهُودهم(؟) بفِقْهِهم فى الدين الواجبَ والمندوبَ والمحظورَ والمُباح ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فقد صدرَتْ هذه المفاوضةُ إلىٰ المقام الشريف ، العالى ، الكبيريّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ، المؤيَّدىّ ، المظفَّرىّ ، الملجئِيّ ، المَلاذىّ ، الوالدىّ ، القُطْبىّ ، نُصْرة الدين ، ملجإ القاصدين ، ملاذِ العائذين ، قطبِ الإسلام والمسلمين :

مَلِكٌ يفُوقُ الخَلْقَ طُرًّا هَيْبةً * فِيه نِهايَةُ غايةِ التَّأْمِيل !

تيمور كوركان ـ زيدَتْ عظمتُه ، ودامتْ معدِلَتُه ؛ ولا زالتْ راياتُ نَصْره خافقةَ البُنود ؛ وآياتُ فضله متلوّةً فى التهائم والنُّجُود ؛ وسُحُبُ فضائله هاميةً بالكرم والجُود ، ومَهَابةُ سطوته تملأُ الوُجُود ـ تُهْدِى إليه من السلام ماحَلا فى حالتى الصُّدُور والورُود ، ومن الإخلاص ما صَفَا وضَفَتْ منه البُرود .

وتبدِى لعلمه الشريف أن مفاوضتَه الشريفة وردَتْ علينا جواباً عما كتبناه إلىٰ حضرته الشريفة ، علىٰ يد المجلس العالى الأميرىّ الشهابى ، أحمد بن غلبك وسَيْف الدين ، قانى بيه الناصرى ، المجهَّزين صحبةَ المجلس العالى ، الأميرىّ ، الجلالىّ أطلمش ، لَزِم المقام الشريف ، بوصول الأمير جلال الدين أطلمش إلىٰ حضرته الشريفة طَيِّباً ، مبدِياً بين يديه ماحَمَّلناه من رسائل الأشواق ، مبَيِّناً ماهو اللائق بخَلاله الحسنة عن حضرتنا مادبَّجَ به الأوْراق ؛ شاكِرًا لإنعاماتنا التى هى فى الحقيقة من شِيَمِ فضلكم الخَفَّاق ، مثبِتاً منه ومن فَحْوىٰ الخطاب فى نَظْم الكتاب صدقَ المَقَال وصِحَّةَ العهد ورسُوخَ الميثاق ؛ وأنه قد ثبتَ بما بَثَّ من غرائب المَعَانى حصولُ الأمانىّ ، وسَرىٰ بعدُ مايكون من هَدَايا التَّهانى ؛ وأن الذى آتفق الآنَ هو

المطلوب ، والمكتوبَ به إلىٰ والدنا الشهيد الطاهر أوّلا هو المرغوب ؛ وخلافُه كان موجِبًا لنقل الحركات الشريفة إلى جِهَة البلاد ، وما ٱتفق فيه للعباد ؛ ولكن كلٌّ بقضاء وقَدَر . ولما حصل قبولُ الإشارة بتجهيز الرُّسُل والأمير أطلمش ، صارت القلوب متَّفِقه ، والعُيونُ قارّة ؛ وصفَتْ مواردُ الصَّفاء ، وضَفَتْ بُرود الوفاء ؛ وقُطِعت حبالُ المنافاةِ والجفاء . وأنَّ المقام الشريف كان أقسَمَ فى كتبه قَسَما وأعاده ، ثم فصَّلَ مجملَه وأفاده ؛ وهو ـ واللهِ الطالب الغالبِ ، المدرِكِ المهلكِ ، الحىِّ الذى لا ينام ولا يموت ـ من يومه هذا لا يخالِفُ ماصدر من عقد الصُّلح المسطور ، ولا يرجع عن حُكْمِه للعهد المزْبُور ؛ ويُحِبُّ من يُحبُّنا ويُبغِض من يُبْغِضنا ؛ ويكون سِلْما لمسالمينا ، حَرْبا لمحارِبينا ؛ ومتىٰ ٱستنصَرْنا به علىٰ أحد من مخالفينا أمدَّنَا بما شئنا من العساكر ، وانه أمْرٌ مانالَه أحد من الناس غيْرَنا ، وإنه لوكان القَسَم علىٰ الوجه الذى ذكره مصرَّحا مذكورا فى لفظ الكتاب ، وعبارة الخطاب ؛ لكان أوْضَحَ ، والتبيينُ أملَح ؛ وأنه حيث كان بأطراف ممالكه المجاورةِ لممالكنا أحدٌ من المفسدين يجهِّزه إلينا مقيَّدا . وحيث كان أحدٌ من المفسدين بممالكنا المجاورةِ لممالكه يعرِّفُنا به لنجهِّزه إليه : لاتفاق الكلمتين ، وٱتحاد المملكتين ، وطمأنينةً لقلوب الرعايا والسالكينَ من الجهَتين ؛ وما تفَضَّل به : من سؤال المقام الشريف اللهَ عزَّ وجل زيادةَ أسبابِ دولتنا ، ونُمُوَّ إيالَتِنا ؛ وأنَّ الهلالَ إذا رأيت نموَّه ، أيقنْتَ أن سيصير بُدْرا كاملا . وأنَّا سنرىٰ ما يصنعُه المقام الشريف ، من الفضل المنيف ؛ ومن تَلافِى الأمور ، مايظهر للخاصَّة والجُمْهور ، مما يَزيدُ بدْرَنا نُمُوّا ، وقَدْرنا بين المُلُوك سُمُوّا : لأنه لنا أكفىٰ كفيل ، وأشفَقُ من الوالدِ والصاحبِ والخَليل ؛ وإن من علامة الصفا ، إظهار ماخفىٰ : وهو أن فى أطراف ممالكنا الآنَ بلادًا كانتْ داخلةً فى ممالكه ، وهى أَبُلُسْتينُ ، ومَلَطْيَةُ ، وكَركَرُ ، وكَخْتَا ، وقلْعة الرُّوم ، والبِيرةُ ؛ وأنه

كان حُمِل معناها على لسان المجلس السامى، النظامى، مسعود الكجحانى أوّلا، المجهّز الآن صحبةَ الامير شهاب الدين بن غلبك وسـيف الدين قانِى بيه ، وأن القصد أن نامرَ مَنْ بها من النوّاب أن تسلِّمها لنوّابه، والمعوّل فى ٱنتظام الأمور على ماتحمّله المشارُ إليه وعوّلَ عليـه؛ وأنه شاكِرٌ لمرافقنا، موافِقٌ لمُوافِقنا؛ وأنه يصغىٰ إلىٰ مانُبْديه ، ونُتْحِف به ونُهْديه ؛ علىٰ الصورة التى أبداهـا، والتحيَّةِ التى بكرِيم الشِّـيَم أهْداها؛ فقــد علِمْنا ذلك جملةً وتفصيلا ، وشكَرْنا حسنَ صنيعه إقامةً و رَحِيلا ؛ وتضاعَفَ سُرورُنا بوصول الأمير أطلمش إلىٰ الحضرة الشريفة . ووصــل إلينا الأميرُ شهاب الدين بن غلبك وسيف الدين قانى بيه مرتِّلَيْنِ من ذكر محاسِنكم ترتيــلا ، وعَرَضَا ماتفضلتم به فى حقِّنا إكراما وتوْقِيرا وتبْجيلا؛ وأنهَيَا بين أيدينا ماعُومِلا به من الفضل الذى ماعليــه مَزِيد، والبِرِّ الذى تَعجِز الفصحاء أن تُبْدِئَ بعض محَاسِنه أو تُعيــد؛ وأنهما كانَا كلَّ يوم من توَفُّر الفضل فى يومِ عِيد، وحصَلَ لهما من الإقبال مالا يُحْصىٰ بالحصر والتحديد؛ فحمِدنا للقام الشريف الوالدِىّ حُسنَ هذا الفَضْل العام، وشكَرْنا جميلَ تفضُّله الذى أخجل الغَمَام؛وتزايد شوقُنا وحبُّنا حيثُ زُمْزِمتْ ألفاظُ المفاوضة الشريفة إلى ذلك المقام .

لَيْس علىٰ اللهِ بمُسْتَنْكَرٍ * أنْ يجمَعَ العالَمَ فى واحِد!

وهذا هو اللائق بالخِلَال الشريفـه ، والمؤمَّل فى جَلَال صفاته المُنِيفه ؛ ووصل الخواجا نظامُ الدين صحبتهما مبدياً عن جَنَابكم من رسائل المحبَّـة والصَّفاء، والمَوَدّة والوفاء؛ مايَعْجِز عن وَصْـفه الناظمُ والناثِر، مُظْهِرا من حُسْن المودّة وغَزِير المعرفة مايَفْخَرُ به المُوالِي والمؤَاثِر؛ سالِكًا من تأكيد أسباب الصُّلْح ماتجمَّل به مَفارِقُ المفاخِر؛ معتذِرًا عما تقدّم فما قُدِّر رُبَّما يكون سبباً لإصلاح الآخِر؛ متكفِّلا عن صفاء طوِيَّتكم لنا بمـا يَسُرّ السرائر . فضاعَفْنا إكرامَه، ورادَفْنا إنعـامه، ووفَّرنا من العزِّ

أقسامه، وأنزلناه مَنْزِلا يليقُ به، ووصَلْنا كلَّ خيرٍ بسَبِبه ؛ وما هوإلا مستحقٌّ لكل ما يُراد به من فيض فَضل وفَضْل .

وأمّا ما أشار إليـه من إعادة القسم تأكيدًا للصُّلْح ، وتوضيحا للنُّجْح ؛ ولو كان القسم الذى أقسَمْنا به مصرّحا لكان أولى ، فقـد علمنا ذلك وكتبْنا ألفاظ القَسَم فى كتاب الصُّلْح مصَرَّحةً، وأعدناه إلى حضرته ليُقْرأ علىٰ مسامعه الشريفة؛ ويَشْمَله الخط الشريف ويُعادَ إلينا، ونحن نكِّرر القَسم، بباريءِ النَّسَم ؛ الذى لا إلٰهَ إلا هو، الطالبُ الغالب، المدرِكُ المهلِك، الحيّ الذى لاينـام ولا يموت، أنَّا من يومنا هذا لانُخالف ما آنتظم من عَقْـد الصُّلح المسطور، إلى يوم البعْث والنُّشور؛ ولا تُحَـلَّ عُراه الوثيقـةُ المشارُ إليها ، إلى أنْ يرثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها ؛ ونكونُ حَرْبا لمن حاربه، وسِـلْما لَمْن سالمه ؛ ومُبْغِضين لُمبغضيه، ومحِّبين لمحبِّيه؛ ومَنْ أشارَ بإشاره، أو شنّ علىٰ أحد من [رعاياه] غارَه، رادَفْنا إسعافَه وضاعَفْنا آستِظْهاره ؛ وأخلَصْنا القولَ والعمل فى مصافاة المقام الشريف : لأن الصلح بحمد الله قد تمَّ وكَمَل، فيكون ذلك فى شريف علمه .

وأمّا ما أشار إليه من أمر القُرىٰ التى قصد تسليمَها لنُوّابه، وأنّها داخلةٌ فىحدود مملكته : كأُبلُسْتَين،ومَلَطْية، وكَرْكَر، ونَخْتَا، وقَلْعة الرُّوم، والبِيرة، فقد علمنا ذلك . ونحن نُبْدى إلى علومه الشريفة أنَّ هـذه البلادَ لايحصُـل لنا منها خَراج، ولا ينالُ مُلْكَنا ونُوابَنا منهـا فى كلِّ وقتٍ إلا الآنزِعاج ؛ وإذا جهَّزنا إليها أحدًا من النُّوّاب، نتكَفَّل له غالبًا بالخيل والرَّجْل والرِّكاب ؛ وبضواحيها من سُرّاق التُّرْكمان ، وقُطّاع الطريق من العُرْبان ؛ مالا يخْفىٰ عن مقامه . ولو كانَتْ دِمَشْقُ أو حَلَبُ، أو أكبر من ذلك مماله(؟) عن الطَّلَب، ماتوقَّفْنا فيها عن قَبُول إشارته لتأكيد المحبه، وآتِّحاد الكلمتين من الجانبين فى أعلىٰ رُتْبه ؛ غير أنَّ لتسليمها من الوَهْن لَمْلكتنا منافاةً لمـا

تفضَّل به المقامُ الشريف من سُؤال الله تعالىٰ فى زيادة سَلْطنتنا . خصوصًا وقد وعَدَ المقامُ الشريف الوالدىُّ بما سنرىٰ، وسوف تظهر نتيجتُه مما يتفضَّل به بين الورىٰ؛ وأنَّ الذى سمح لنا به من الآستظهار مانا له أحدٌ من النـاس ، وما حصل لنا بمـا أبداه الخواجا مسـعود بين أمراءِ دولتنـا من المشافَهَة عن مقامه الشريف من قوّة الجاش والإيناس ؛ ونحن نترقَّب بيُمْن حَرَكاته ، وسديدِ إشاراته ؛ زيادةَ الخـير فى النَّفس والمُلْك والمال،ونتوقَّع من جميل كَفَالته السعادةَ الأبديَّةَ فى الحال والمآل؛ فيكونُ ذلك فى شريف عِلْمه .

وقد جهَّزْنا بهـذه المفاوضة المجلسَ العـالىَ، الأميرىَّ ، الكبيرىّ ، الأعزىّ ، الأخَصِّىّ، المقرَّبىّ، المؤتَمَنىّ، الأوحدىّ ، النَّصيرىّ ، مجدَ الإسلام والمسلمين، شرفَ الأمراء الخواصِّ فى العالمين ، منتخَبَ الملوك والسـلاطين ، منكلى بُغَا النـاصرى أميرَ حاجب ، أدام الله تعـالى سعدَه ، وأنجح قصْـدَه ؛ وعلى يده من الهـدِيَّة المصرية ما تهيَّأَ تجهـيزُه بمقتضىٰ القـائمة المُلْصَقة بذَيْلهـا ، وأعدنا المجلسَ العـالىَ النظامىّ : مسعودًا ومَنْ معــه إلىٰ المقـام الشريف، متحمِّلين من رسائل الأشواق والآتِّحاد ، مالا يقع عليـه الحصرُ والتَّعداد ؛ وماأخرنا الخواجَا نظامَ الدين مسعودا هـذه المدّةَ بالباب الشريف إلا لأمرٍ عرض من قضِيَّة السلطان أحمد بن أويس ، وهربِه من بغـدادَ إلى حَلَب ، وجهَّزنا من البـاب الشريف من يُحْضِره إلىٰ دمشق ليَحْصُلَ منه الأرب ؛ ثم بعـدَ ذلك بأيَّام ورد الخبرُ من كافل الشام المحروس ، بوصول قَرَا يوسُفَ بن قَرَا محمد إلىٰ دِمَشْـق فى نَفَر قليل . فجهَّزنا أحدَ الأمراء إلىٰ كافل الشام بمثـالٍ شريف ، يتضمَّن القبض علىٰ السـلطان أحمدَ بن أويس وقَرَا يوسفَ المذكورين ، وإيداعَهُما الآعتقالَ بقلعة دمشْقَ المحروسة ، وفاءً

للعهد وتأكيدًا . وحمَّلنا الأمير سيف الدين منكلي بغا المذكور، مشافهةً في معناهما . والقصدُ من جميل محبَّته، وجزيل أُبُوَّته، قبولُ المجهَّز من ذلك، وبسطُ العذر فيه إذا وصل إلىٰ حضرته هنالك : لأن الديارَ المصرية وأعمالَها حَلَّ بها من المَحْلِ لعدم طلوع النِّيل في هذه السنة مالايُحْصَر ولايحصىٰ، ولاسُمِع بمثله . وشمولُ نسخةِ الصلح المعادة بالخط الشريف، ومضاعفةُ إكرام حاملها الأمير منكلي بغا بالبِرِّ الوَرِيف؛ والإصغاءُ إلىٰ ماتحمَّله من المشافَهَة في معنىٰ أحمد بن أُوَيْس وقَرَا يوسف، والله تعالىٰ يشيِّد بتمهيده قواعدَ الدين الحنيف، بمنِّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

الثـــــالث

(من مُلُوك تُورَانَ من بني جنكزخان القانُ الكبير، صاحب التَّخْت، وهو صاحب الصِّين والخِطَا)

قال في "التعريف": وهو أكبرُ الثلاثة، ووارثُ تَخْت جنكزخان . قال : ولم يكُنْ يكاتَبُ لترَفُّعه وإبائه، وطَيَرانه بسُمْعة آبائه؛ ثم تواتَرتِ [الآن] الأخبارُ بأنه قد أسْلَم ودانَ دِينَ الإسلام، ورَقَم كلمةَ التوحيد علىٰ ذَوائب الأعْلام . قال : وإن صَحَّ ذلك ــ وهو المؤمَّل ــ فقد ملأتِ الأمةُ المحمدية الخافقين، وعَمَّت المشرقَ والمغربَ، وٱمتدَّت بين صَفَّتَي المحيط . ثم قال : فإنْ صَحَّ إسلامه وقُدِّرت المكاتبةُ إليه، تكون المكاتبة إليه كالمكاتبة إلىٰ صاحبِ إيرانَ ومَنْ في معناه من سائر القانات المقدَّم ذكرهم، أو أجلَّ من ذلك .

قلت : ولم يتعرّض إلىٰ المكاتبة إليه علىٰ تقدير بقائه علىٰ الكفر، ويشبه أن تكونَ المكاتبة إليه علىٰ ذلك[(١)] وشدّة سَطْوته، فيُعطىٰ من قَطْع الورق بقدر رُتبته . ثم يجوز أن تبتدأ المكاتبةُ إليه كصاحب القُسْطنطينية ومَنْ فى معناه ، مع مُراعاة معتَقَده فى ديانته بالنسبة إلىٰ [(٢)] كما يُرْعىٰ مثلُ ذلك فى المكاتبة إلىٰ ملوك النّصْرانية، والوقُوف فى الخطاب ومايَنْخرِط فى سلكه عنــد الحدّ اللائِق به . والأمرُ فى ذلك موكولٌ إلىٰ اجتهاد الكاتب ونظرِه .

المهيـــــــع الثــالث

(فى المكاتبات إلىٰ مَنْ بجزيرة العرب ممـا هو خارجٌ عن مضافات الديار المصرية، وفيـــه جملتان)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى المكاتبات إلىٰ ملوك اليمن، وهم فرْقتان)

الفــــــرقة الأولىٰ

(أئمـــة الزيدية)

قال المقرّ الشهابىّ بن فضــل الله فى "التعريف" : وهو من بقايا الحَسَنِيِّين القائمين بآمُل الشَّطّ من بلاد طَبَرِسْتان، وقد كان سلَفُهم جاذبَ الدولةَ العباسية حتّى كاد يُطيح رداءها، ويُشْمِت بهـا أعداءَها. وهـذه البقية الآنَ بصَنْعاء وبلاد حَضْرَمَوْت وما والاها من بلاد اليمن . قال : والإمامة الآنَ فيهـم فى بنى المُطَهَّر، وتقدّم فى المقـالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك أن أول مَنْ قام من هذه الأئمة باليمن الإمامُ (يحيىٰ الهـادى) بن الحُسيْن الزاهد، بن أبى محمد القاسم الرَّسِّىّ،

---

(١) لعله على ذلك بنسبة قدرته وشدة الخ تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعله النعوت والألقاب كما يعلم مما تقدم .

آبن إبراهيم طَبَاطَبا ، بن إسماعيل الدِّيباج ، بن إبراهيم الغَمْر (١) ، بن الحسن المثنَّى ، آبن الحسن السِّبط ، آبن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، فى سنة ثمان وثمانين ومائتين فى خلافة [المعتضد] (٢) ؛ وأنه كان فقيها عالما مجتهِدا فى الأحكام ، حتَّى قال فيه آبن حزم : إنه لم يبعُد عن الجماعة فى الفقه كلَّ البُعْد . ثم [ولى بعده آبنُه محمد المرتضىٰ وتمَّت له البيعةُ فاضطرب الناس عليه وآضطُرَّ إلىٰ تجريد السيف بجرده ومات سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة لثنتين وعشرين سنة من ولايته و] (٣) ولى بعده أخوه (أحمدُ الناصر) ثم أخوه (القاسمُ المختار) (٤) ثم (الحُسَين المنتَجَب) . وآطَّرد أمرهم بصنعاءَ إلى أن غلب عليهم السُّليمانيُّون أمراءُ مكة عند خُروجهم منها ، فاستقرّت بأيديهم إلى أنْ ملك اليَمَن من جهة الساحل (أحمدُ المُوطِّئُ) آبن الحسين المنتجَب المقدّم ذكره ، وذلك فى أيام سيف الإسلام آبن أيوبَ سنة خمس وأربعين وستمائة . وبقى أمر الزيديَّة هناك فى عَقِبه .

وقد ذكر المقرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله أن الإمامة فى زمانه ، فى الدولة الناصرية آبن قلاوون كانت فى (حَمْزة) وذكر فى "مسالك الأبصار" أنَّ يحيىٰ بنَ حمزة وُلِّى بعد أبيه ، وكان فى زمن المؤيَّد داود بن يوسف صاحب اليمن . وذكر قاضى القضاة آبن خَلْدون أن الإمام قبل الثمانين والسبعمائة كان (علىَّ بنَ محمد) من أعقابهم ، وتُوُفِّى قبل الثمانين . وولى آبنه (صَلَاح) وتابعه الزيدية ، وكان بعضهم يُنكِر إمامتَه لعدم

(١) ذكره فيا تقدّم فى ج ٥ ص ٤٧ "عبد الله" . وقد نبهنا هناك نقلا عن "الكامل لابن الأثير" أنه إبراهيم كما هنا ، فليتنبه .

(٢) فى الاصل المأمون وهو خطأ فان المأمون توفى سنة ٢١٨ وقد تقدم الكلام على هذه الدولة فى ج ٥ ص ٤٧ وما يليها فارجع اليه .

(٣) الزيادة من جزء ٥ ص ٤٨ وهى لازمة لأن أحمد الناصر آبن يحيي الزاهد لا أخوه .

(٤) أخره فيا تقدّم عما بعده .

آستكمال الشروط فيه فيقول : "أنا لكم ماشئتم إمام أو سلطان". ثم مات سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة ، وقام بعده آبنه (نجاح) فامتنع الزيديّة من بيعته فقال : أنا "محتسبٌ لله تعالى". قال فى "التعريف" : وأمراء مكة تُسرّ طاعته ، ولا تفارق جماعته . قال : ويكون بين هذا الإمام وبين الملك الرّسوليّ باليمن مهادنات ، ومفاسخات تارةً وتارةً . قال : وهذا الإمام وكلّ من كان قبله على طريقة ماغيّروها . وهى إمارة أعرابية لا كِبْرَ فى صدورها ، ولا شَمَم فى عَرَانينها ؛ وهم على مُسْكة من التقوى ، وتردٍّ بشِعار الزُّهْد ؛ يجلس فى نَدِيّ قومه كواحدٍ منهم ، ويتحدَّث فيهم ويحكم بينهم ، سواءٌ عنده المشروفُ والشريف ، والقويُّ والضعيف ؛ وربما آشترى سِلْعته بيده ، ومشى فى أسواق بلده ، لا يُغلِّظ الحِجَاب ، ولا يكِلُ الأمورَ إلى الوزراء والحُجّاب ، يأخذ من بيت المال قدرَ بُلْغته من غير توسّع ، ولا تكثُّرٍ غيرِ مُشْبِع ؛ هكذا هو وكل مَنْ سَلَفَ قبله مع عَدْلٍ شاملٍ ، وفَضْلٍ كاملٍ . قال : فى "مسالك الأبصار" : ولشيعة هذا الإمام فيه حُسْن الآعتقاد ، حتّى إنهم يستشفُون بدعائه ، ويُمِرُّون يده على مَرْضاهم ، ويستسقُون به المطرَ إذا أجْدَبوا ، ويبالغُون فى ذلك كلَّ المبالَغة . ثم قال : ولا يكبُر لإمام هـذه سيرتُه ـ فى التواضُع لله ، وحُسْن المعاملة لخلقه ، وهو من ذلك الأصْل الطاهر والعُنْصُر الطّيِّب ـ أنْ يُجاب دعاؤه ويُتقبَّل منه . قال : وزِىّ هذا الإمام وأتباعِه زِىُّ العرب فى لِباسهم والعمامةِ والحَنَك ، ويُنادى عندهم بالأذان «حَيَّ على خير العَمَل» .

ورسم المكاتبة إليه على ماذكره فى "التعريف" : أدام الله تعالى أو ضاعف الله تعالى نعمةَ ، أو جلالَ الجانبِ الكريم ، العالى ، السيّدىّ ، الإمامىّ ، الشريفىّ ، النَّسيبىّ ، الحَسيبىّ ، العَلّامىّ ، سليلِ الأطهار ، جَلالِ الإسلام ، شرفِ الأنام ، بقيّةِ البيت النبوىّ ، فخرِ النَّسب العَلَوىّ ، مؤيِّد أمور الدِّين ، خليفةِ الأئمة ، رأسِ العَلْياء ،

صالح الأولياء، عَلَم الهُداة، زَعيم المؤمنين، ذُخْر المسلمين، مُنْجِد الملوك والسلاطين. ولا زَالَ زمانُه مُرْبِعا، وغِيلُه مُسْبِعا، وقِرَاه مُشْبِعا، وكرُمه لفيض نَدَاه مَنْبَعا، وهُدَاه حيثُ أمَّ بالصُّفُوف متَّبَعا، ومُلْكه المجتمع باليَمَن لو أدركه سيفُ بنُ ذى يَزَن لم يكن إلا لديه منتضًى وتُبَّعٌ لم يكن له إلا تَبَعا . ولا فتِئَتْ معَاقِدُ شَرَفه بالجوزاء، وعقائدُ حُبِّه تُعَدُّ لحسن الجَزَاء، ومعاهِدُ وطنِه آهلةً بكثرة الأعِزَّاء، ومَيَاسِمُ أهل ولائه تعزُّ إليه بالاعتزاء، ومَبَاسِم ثغور أودَّائه ضاحكةَ السُّيوف فى وجُوه الأرْزاء، هذه النَّجْوىٰ إلىٰ روْضِه المُمْرِع وإلا فما تُزَمُّ الرَّكائب، وإلىٰ حَوْضه المُتْرَع وإلا فما الحاجةُ إلىٰ السَّحائب، وإلىٰ حِمَاه المُخْصِب وإلا ففيمَ يَسْرِى الرائد، وإلىٰ مَرْماه المُطَنَّب فوق السماء وإلَّا إلىٰ أيْنَ يُرِيد الصاعد، تَسْرِى ولهـا من هادى وَجْهه دَلِيل، وفى نادِى كَرَمِه مَقِيل، وإلىٰ بادِى حَرَمه وما فيه للعاكف، وإلىٰ عالى ضَرَمه مالا ينكره العارف، وفى آثارِ قَدَمه ما يحكُم به كل عائف، وفى بدار خِدَمـه مايَذَرِ عِداه كَرمادٍ ٱشْتَدَّتْ به الرِّيح فى يومٍ عاصف . مبديةً وأوّل ما تبدأ بسلام تُقَدِّمه علىٰ قولِ كَيْتَ وكَيْتَ، وثناءٍ ولا مثلَ قوله : ﴿إنَّمَـا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهْلَ البيْت﴾ .

صدر آخر — ولا عُطِّل محراب هو إمامُه، ولا بَطَل عمَلٌ هو تَمامه، ولا جَفَّ ثرىٰ نباتٍ هو غَمَامه، ولا خَفَّ وَقَارُ ٱمرئٍ بيده المصَرِّفةِ زمامُه، ولا ٱرتدّ مَضْربُ سيفٍ رءُوسُ أعَادِيهِ كِمَامُه، ولا ٱرتأىٰ فى حصُول الخيرةِ له مَنْ كانَ إلىٰ كَنَفه ٱنضمامُه . وأطال الله باعَ عَلْيائه، وأطابَ بأنبائه سَمَاعَ أوْليائه، وأدامَ إجماعَ السُّرور عليه، ومُصافاتَه لأصفيائه وترامِيَه إليـه . صدرَتْ بها الركائبُ إليه مُخِفَّة، وسَرَتْ

بهـا النجائبُ لتقِفَ عليـه والقلوبُ بها مُحِفَّه[(١)]، وأهوَتْ لدَيْه يشـمَخُ بها لوصولهـا إليه الكِبر، وطوَتْ إليه البِيدَ طَيَّ الشُّقّة تَقِيسُها المَطَايا بالأذْرُع والثُّرَيَّا بالشِّـبْر؛ تأتِى بالعَجَب إذ تَجْلُبُ إليـه المِسْكَ الأذْفَر، وتجلُو له الصَّـباحَ وما لاحَ والليلَ وما أسْفَر؛ وتَحُلُّ فى مَقَرِّ إمامتـه، وتُحَلِّى العاطلَ بمـا نَثَره من الطَّلِّ صوبُ غَمَـامتِه؛ مُوصِّـلةً لعلمه مالا يُقْطَع، ومضوِّعة عنده من عَنْبَر الشِّحْر ما يُستَبْضَع، ومُعْلِمةً له كَيْت وكيت .

قلت : هـذا ما أصَّله فى "التعريف" وحاصلُه أنه يأتى بالصَّـدْر المقدَّم ذكره إلىٰ قوله : « مُنْجد الملوك والسـلاطين » ، ثم يأتى بالدعاء المناسب؛ ثم يقول : «هذه النجوىٰ» إلىٰ آخره «مبدية لعلمه» أو «معلِمة» أو « صدرتْ بها الركائب » ونحو ذلك .

ثم لم يتعرّض فى "التعريف" لقطْع الورق الذى يُكْتَب إليه فيـه، ولا للعلامة له، ولا لعُنْوان كتابه، ولا لتعريفه، ونبَّه علىٰ ذلك فى "التثقيف" وأنه أهمل ذلك ثم لم يُنَبِّه هو عليه . وقد رأيت فى دُسْتور منسوب للمقرّ العَلَائىّ بن فضـل الله بيانَ ماأهملاه من ذلك فقـال : والخطابُ له بمولانا الإمام، والطلب منه «والمسئُول» وخَتْم الكتاب بالإنهاء، والعُنْوانـ بالألقـاب والدعاء المقـدّم ذكره، والعلامة « الخـادم » .

وقد ذكر فى "التعريف" أنه وصل إلىٰ الديار المصرية، فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» سقىٰ الله عهده رسولٌ من هذا الإمام [ابن مطَهَّر إمام الزيدية][(٢)] من صَنْعاءَ، بكتاب منه يقتضى الاستدعاء . أطال فيه الشَّكْوىٰ من صاحب اليمن، وعدَّد قبائحَه،

(١) لعله محتفة فانه ليس فى كتب اللغة التى بأيدينا أحف به ولكن حف به واحتف فتنبه .

(٢) الزيادة من التعريف ص ١٥ .

ونَشَر علىٰ عُيون الناس فضائحه، وآستنصر بمَدَدٍ يأتى تحت الأعلام المنصورة لإجلائه عن ديارِه، وإجرائه مُجْرىٰ الذين ظلموا فى تعجيل دَماره؛ وقال : إنه إذا حضرت الجيوشُ المؤيَّدة قام معَها، وقاد إليها الأشرافَ والعَرَب أجْمَعها؛ ثم إذا آستنقذ منه مابيده أُنْعِم عليه ببعضه، وأُعطِىَ منه ماهو إلىٰ جانب أرضه . ثم قال: فكتبت إليه مُؤْذنا بالإجابه، مؤدّيا إليه ما يقتضى إعجابَه؛ وضمن الجواب أنه لارَغْبَةَ [لنا] (١) فى السلَب، وأنَّ النُّصْرةَ تكون لله خالصةً وله كلُّ البلاد لاقَدْرُ ماطلَب .

وهذه نسخته :

ضاعفَ الله تعالىٰ جَلاَلَ الجانب ــ بالألقاب والنعوت ــ وأعزَّ جانبه عِزًّا تُعْقَد فواصِلُهُ بنَوَاصى الخيل، وصَياصِى المَعَاقل التى لم يطْلُع علىٰ مثلها سُهَيل ؛وأقاصى الشرف الذى طلَع منه فى الطَّوْق وتمسَّكَ سِواه بالذَّيْل؛ وقدَّمه للمتقين إماما، وجعله للمُستقِين غَماما ، وشرَّفه علىٰ المرتَقِين فى عُلَا النسب العَلَوىّ ونَوّره وصَوّره تَمَاما ، ومَنَّ علىٰ اليمن بيُمْنِه، وأعلَمَ بصَنْعاء حُسْنَ صنيعه وبحَضْرَمَوْتَ [حُضورَ] (٢) موتِ أعدائه، وبعَدَنَ أنَّها مقدِّمةٌ لجَنَّات عَدْنه؛ ولا زالت الآفاقُ تؤمِّل من فيضه سَحَابا دانيا ، وتتَهلَّل إذا شامَتْ له بَرْقًا يمَانيا، وتنتقَّلُ فى رُتَب مَحَامده ولا تبلُغُ من المجد ما كان بانِيًا .

هذه النجوىٰ وكفىٰ بها فيا يقدَّمُ بين يدَيها ، ويُقَوَّم ولا يقوم من كلِّ غالى الثمن ماعَلَيْها ؛ تطوِى المَرَاحِل ،وتَجُوبُ البَرَّ والبَلَد الماحِل ،وتثِبُ إليه البِحار وتَقذف منها العنبرَ إلىٰ الساحل؛ وتُرسِى به سفنها ،وتحط إليه بل تحط لديه مدنها ،وتُؤْذِن علمه ــ سرهالله ــ بما لم يحل إليه من نظر، ولم يخل منه من سبب ألف به النَّوْم أو نَفَر؛ وُرُود وارِدِ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٥ .

(٢) الزيادة من "التعريف" ص ١٦ .

رسوله فقال : يابُشْرای ولم يقُل هذا غُلام، ووصولِهِ بالسلامة والسلام؛ وماتضمّنه ما آستصْحب منه من صحيفة كلُّها كَرَم ، وأخبارٍ صحيحةٍ كلُّها مما لو قُذف به الماء لآضْطرَم؛ذكر فيها أمْرَ المتغلِّب العادى ، [والصاحب الذى يَفْعَل فِعْلَ الأعادى](١)، والجار الذى جارَ والظالِم البادى ؛ وما مَدَّ الأيدىَ إليه من النِّهاب، وما آختطَفَ به القلوبَ من الإرهاب ؛ وتحدَّثَ عن أخباره وعِنْدنا علمه، وأخبر عن أفعاله مما له أجرُ الصبر عليه وعليه ظُلْمُه ؛ وقصَّ رسولُه القَصَص، وزاد الشَّجىٰ وضَيَّق مَجَالَ الغُصَص، وأطار من وَكْر هذا العُدْوان طائرا كأنما كان فى صَدْره، وحَرَّك منه لأمْرٍ كان يتجرَّع له كأسَ صَبْره ؛ وقد أسمعَ الدَّاعى، وأسْرَع الساعى؛ وبَلَّغ الأمانةَ حاملُها، وأوصل الكلمةَ قائلُها؛ ومَرْحَبًا مَرْحَبًا بداعى القيام مِنْ قِبلَه ، وأهْلًا أهْلًا بما بَلَّغ علىٰ ألسنة رُسُله ؛ وهَلُمَّ هَلُمَّ إلىٰ قلع هذه الشجرة التى لم يُنْجِب ظَنُّ غارسها، وقَطْع هذه الصَّخْرة التى لم تُنْصَبْ إلا مَزْلقةً لدائسها؛والتعاضُدَ التعاضُدَ لِمَا هتَفَ به هاتِفُه الصارخ، وسمِعَه حتّى الرُّمْحُ الأصَمُّ والسيفُ المُتصاوِخ ، فلْيأخُذْ لهذا الأمرِ الأُهْبه، ولْيَشُدَّ عليه فقد آنَتِ الوَثْبه ؛ فقد سُطِّرت وقد نَهَض إلىٰ الخيل مُلْجِمُها، وبادَرَ وضْعَ السهام فى الكَنَائن مُزْحِمها؛ وكأنَّه بأوّل الأعِنَّه، وآذانُ الجِيادِ تفوِّق بين شَطْرى وجهها الأسِنَّه ؛ وكأنه برسوله القائد وفى أعقابه الجيشُ المُطِلّ ، والألويةُ وكلُّ بَطَل باسِل يبتدِرُ الوَغىٰ ولا يَسْتذِل؛ ولا أربَ لنا فى آستزادة بلادٍ وَسَّع الله لنا نِطاقَها، وكثَّر بنا موادَّ أموالها وقدّر علىٰ أيدينا إنفاقَها؛ وإنما القصْدُ كلُّه والأربُ جميعهُ كشْفُ تلك الكُرَب، وتدارُكُ [ذلكَ الذَّماء الذى](١) أوْ شَكَ أو كَرَب، وإن قُدِّر فُتُوح ، وتَيَسَّر ماطَرْف سِوَانا إليه طَمُوح ؛ كان هو أحَقَّ بسقْبِه(٢) : لأنه جارُ

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عن التعريف ص ١٧ .

(٢) فى الأصل والتعريف بسبقه وهو تصحيف مكانىّ كما لايخفىٰ .

الدار، والأوّلُ الذى كان له البِدَار؛ ويقِلّ له لعظيم شَرَفه ما نَسْمَح به وإنْ جَلّ، ومانَهَبُهُ منه وإن عَظُم ـ شأنُ كلّ تَبَع وهو ببعْضه ما ٱستَقَلّ؛ وكأنّه والخيلُ قد وافَتْه تُجِدّ فى الإحضار، وتُسْرِع إليه وتَكْفِيه مُؤُونَةَ الآنتظار، إن شاء الله تعالىٰ .

الفِرْقة الثـانيــــة
(أولاد رسول)

وهم المعرُوفُون بملوك اليمن عنـد الإطلاق، ومقرُّ مملكتهم حِصْنُ تَعِزَّ . ورسولٌ هذا الذى كان يُنْسَب إليه ملوك هـذا النَّسَب من اليمن هو رسولٌ أمير اخُور الملك الكاملِ محمدِ بن العادل أبى بكر بن أيُّوب . قال فى "التعريف" : ولما بعثَ الملكُ الكامل ولدَه المِلك المسعود أطْسز، وهو الذى تسـمِّيه العامّة أقسيس، بعثَ معه رسـولًا أميراخور فى جملة مَنْ بعثه معه . قال : ثم تنقَّلت الأحوال حتّى آستقلّ رسول بمُلْك اليمن، وصار المُلْك فى عَقِبــه إلىٰ الآنَ . والذى ذكره المؤيَّد صاحب حمـاة، وقاضى القُضاة ولِىُّ الدين بن خلدون فى تاريخيهما وهو الصـواب أنّ أوّلَ مَنْ ملَك اليمن علىُّ بنُ رسول، ثم آبنه المنصورُ عمَرُ، ثم آبنه المظَفَّر يوسُفُ، ثم آبنه الأشرفُ عمرُ، ثم أخُوه المؤيَّد هِزَبْر الدين داودُ، ثم آبنه المجاهدُ سيفُ الدين علىّ، وهو الذى قال المقرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى "التعريف" إنه كان فى زمنـه، ثم المنصور أيوبُ، ثم المجاهدُ علىّ المقدّم ذكره ثانيا، ثم آبنُه الأفضلُ سيفُ الدين عَبَّاس . وهو الذى قال فى "التثقيف" إنه كان فى زمنه فى الدَّوْلة الأشرفية «شعبان آبن حسين» ثم آبنُه المنصورُ محمـد، ثم أخوه الأشرفُ إسماعيل، وهو الذى كان فى الدولة الظاهرية برقوق . ثم آبنه [الملك الناصر أحمد](1) وهو القائم بها الآنَ .

(١) بياض بالأصل هنا وفى ج ٥ ص ٣٣ أيضا عندالكلام على ملوك اليمن من أولاد رسول والتصحيح من بغية المستفيد لابن الديبع .

وآعلم أنّ المكاتبات بينَ صاحب مصر وصاحب اليَمَن من حين آستقرّت مملكةُ اليمن مع بنى أيُّوب ملوكِ مصر وصارت المملكتان كالمملكة الواحدةِ ، ثم تواصلت المكاتبات بين مُلُوكهما وتأكّدت المودّة إلىٰ زماننا هذا، خَلَا ماوقع فى خِلاَل ذلك من حصول تباينٍ وقع بين أهل المملكتين فى بعض الأزمان، وهو علىٰ ضربين :

الضـــــرب الأوّل

(ما كان الأمرُ عليه فى الدولة الأيوبية ، وهو أن تُفْتتح المكاتبة بلفظ « أصـــدرناها »)

وهذه نسـخةُ كتابٍ عن السلطان صلاح الدين يوسفَ بن أيوبَ صاحبِ مصر والشام ، إلىٰ أخيهِ سيفِ الإسلام صاحب اليمن يستقدِمُه إليه ، معاوناً له علىٰ قتال الفَرَنْج، ويُخْبِره بما وقع له من الفُتُوحات فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة . وهى :

أصدَرْنا هذه المكاتبةَ إلىٰالمجلس، ومما تجدّد بحضرتنا فُتُوح «كَوْكَب» وهى كرسىُّ الاِسْتبارِيَّة ودارُكُفْرهم ،ومستقَرُّ صاحبِ أمرهم ، وموضعُ سلاحهم وذُخْرهم ، وكان مَجْمَع الطُّرُق قاعدا ،ولملتقىٰ السُّبُل راصدا ، فتعلَّقت بفتحه بلادُ الفتْح وآستُوطِنَت ، وسُلِكت الطرقُ فيها وأُمِّنت ، وعُمِّرتْ بلادُها وسُكِنت ، ولم يبقَ فى هـذا الجانب إلا «صُور» ولولا أنّ البحر يُنْجِدهـا والمراكب تَرِدها ، لكان قيادُها قد أمْكَن ، وجِمَاحُها قد أذْعَن ، وماهمْ بحمد الله فى حِصْن يحميهم ، بل فى سِجْن يَحْوِيهم ، بل هم أَسَارىٰ وإن كانوا طُلَقاء ، وأمواتٌ وإنْ كانُوا أحيـاءً ، قال الله عز وجلّ : ﴿ فلا تعْجَلْ عَلَيْهِمْ إنّمَـا نَعُدّ لَهُمْ عَدّا ﴾ ولكل آمْرِئٍ أجلٌ لابدّ أن يَصْدُقَه غائِبُه ، وأملٌ لابدّ أن يَكْذبه خائبُه .

وكان نزولُنا علىٰ « كوكب » بعد أن فتحْنا « صَفَدَ » بلدَ الدّيويّة ومَعْقِلَهم ، ومُشْتَغَلَهم وعملَهم ومحلّهم الأحْصَنَ ومنْزِلهم ؛ وبعد أن فتحْنا « الكَرَك » وحصُونَه ، والمجلسُ السيفى ــ أسماه الله ــ أعلَمُ بما كان على الإسلام من مَئُونَته المُثْقِله ، وقضيّته المُشْكلة وعلّتهِ المُعْضِله ؛ وأن الفَرَنْج ــ لعنهم الله ــ كانوا يقْعُدون منه مَقَاعِد للسَّمْع ، ويتبوّءُون منه مواضع للنَّفْع ؛ ويحولُون بين قات (؟) وراكِبها ، فيُذَلّلون الأرضَ بما كان منه ثِقْلًا علىٰ مَنَاكبها . والآنَ ماأمْنُ بلادِ الهَرمين ، بأشدَّ من بلاد الحَرَمين ؛ فكُلُّها كان مشْتَرِكا فى نُصْرة المسلمين بهذه القلعة التى كانت تُرامِى ولاتُرام ، وتُسَامِى ولاتسام ؛ وطالَمَا آستفْرَغْنا عليها بيوتَ الأموال ، وأنفَقْنا فيها أعمارَ الرجال ، وقَرَعْنا الحديد بالحديد إلىٰ أن ضَجّت النِّصالُ من النِّصال ؛ والله المشكورُ علىٰ ما آنطوىٰ من كلمة الكُفْر وآنتَشر من كلمة الإسلام . وإنَّ بلاد الشام اليومَ لاتسمَعُ فيها لغوا ولا تأْثيما إلا قيلًا سلامًا سلامًا [فادخُلُوها بسلام][1] ؛ وكان نزولُنا علىٰ « كَوْكَب » والشتاءُ فى كَوْكَبه ، وقد طَلع بُمْن الأنْواءِ فى مَوْكبه ؛ والثلُوج تنْشُر علىٰ البلاد مُلاءَها الفَضِيض ، وتكْسُو الجبالَ عمائِمَها البيض ؛ والأوديةُ قد عَجّت بمائها ، وفاضَتْ عِنْدَ آمتلائها ؛ وشمَخَتْ أُنُوفها سُيُولا ، نخرَقَتِ الأرضَ وبلَغتِ الجبالَ طُولا ؛ والأوْحالُ قد اعْتَقَلت الطُّرُقات ، ومَشْىُ المطْلَقِ فيها مِشْيةَ الأسيرِ فى الحَلَقات ؛ فتجَشَّمنا العَناءَ نحن ورجالُ العساكر ، وكاثَرْنا العدوَّ والزَّمانَ وقد يُحْرِز الحظَّ المُكاثِر ؛ وعلِم اللهُ النيَّةَ فأنْجَدَنا بفَضْلها ، وضميرَ الأمانةِ فأعانَ علىٰ حَمْلها ؛ ونزلنا من رُءُوس الجبالِ بمنازِلَ كان الآستِقْرارُ عليها أصعَبَ من نَقْلِها ، والوقوفُ بساحتها أهونَ من نُقَلها ﴿ وأمَّا بنِعْمَةِ رَبِّك فَحَدِّثْ ﴾ .

---

(١) الزيادة عن كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (ج ٢ ص ١٣٦) .

والحمدُ لله الذى ألهمَنا بنعمَتِه الحديث ، ونَصر بسَيْفِ الإسـلام الذى هو سيْفُه وسيْفِ الإسـلام الذى هو أخُونا الطيِّبَ علىٰ الخَبيث ؛ فمدْحُ السيف ينقَسِم علىٰ حَدَّيه ، ومدْحُ الكريم يتعدّى إلىٰ يدَيْه ؛ والآنَ فالمجلسُ ـ أسماه الله ـ يعلَمُ أنَّ الفرَنْج لايَسْلُون عما فتَحنا ، ولا يَصْبِرُون علىٰ ماجَرَحْنا ؛ فإنهم ـ خذَلهم اللهُ ـ أممٌ لا تُحْصَىٰ ، وجيوشٌ لاتُستَقْصىٰ ؛ ووَراءَهم من مُلُوك البحْرِ من يأخُذ كلَّ سـفينةٍ غَصْبا ، ويطْمَعُ فى كلِّ مدينةٍ كَسْبا ؛ ويَدُ الله فَوْقَ أيْديهم ، والله محيطٌ بأقرَبِيهم وأبْعَدِيهم ؛ و﴿سَيَجْعَلُ اللهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرا﴾ . ﴿لا تَدْرى لعَلَّ اللهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذٰلكَ أمْرا﴾ .

وماهُمْ إلا كِلابٌ قد تَعاوَتْ ، وشياطِينُ قد تَغاوَتْ . وإن لم يُقْذَفُوا من كلِّ جانِبٍ دُحُورا ، ويُتْبَعُوا بكلِّ شهابٍ ثاقبٍ مَدْحُورا ؛ آستَأْسَدُوا وآستَكْلَبُوا ، وتألَّبُوا وجَلَّبُوا وأجْلَبُوا ، وحاربُوا وحَرَّبوا ؛ وكانُوا لباطلهم الدَّاحِض ، أنصَرَ منَّا لحقِّنا الناهِض ؛ وفى ضَلالهم الفاضِح ، أبصَرَ منَّا لهُدَانا الواضِح ؛ ولله درُّ جرير حيث يقول :

إنَّ الكريمةَ يَنْصُر الكَرَمَ آبنُها * وآبنُ اللَّئيمةِ للِّئام نَصُورُ !

فالبِدَارَ إلىٰ النَّجْدة البِدَار ! ، والمُسارعةَ إلىٰ الجنـة فإنها لن تُنَال إلا بإيقاد نارِ الحربِ علىٰ أهلِ النَّار ، والهمَّةَ الهمةَ ! فإن البحارَ لاتُلْقىٰ إلا بالبِحار ، والملوكَ الكِبَارَ لايقِفُ فى وُجُوهها إلا الملوكُ الكِبار :

وما هِىَ إلَّا نَهْضَةٌ تُورِثُ العُلَا * ليومِـك ما حَنَّت رَوَازِمُ نِيبُ !

ونحنُ فى هذه السنة ـ إن شاء اللهُ تعالىٰ ـ نَنزِل علىٰ أنْطاكِيَة ، وينْزِل ولدُنا الملكُ المظفَّر ـ أظفره الله ـ علىٰ طرابُلُس ؛ ويستقِرّ الرِّكابُ العادلىّ ـ أعلاه الله ـ بمصر فإنها مذكورة عنـد العدُوّ ـ خذله الله ـ بأنها تُطْرَق ، وأنَّ الطَّلَب علىٰ الشام ومِصْر تفرَّق ؛ ولا غنًى عن أن يكونَ المجلسُ السيفى ـ أسمـاه الله ـ بحراً فى بلاد الساحل

يَزْخَرُ سِلَاحا، ويجرِّدُ سيفا يكونُ علىٰ مافتحناه قُفْلا ولما لم يُفْتَح بعدُ مِفْتاحا؛ فإنه ليس لأحدِما للأخ من سُمْعةٍ لهـا فى كل مَسْمَع سَمْعـه، وفى كلِّ رُوعٍ رَوْعه؛ وفى كل مَحْضَر مَحْضَر، وفى كل مسجدٍ منْبر، وفى كل مَشْهَد مَخْبَر؛ فما يُدْعىٰ العظيمُ إلا للعظيم، ولا يُرْجىٰ لموْقف الصبرِ الكَرِيم إلا الكرِيم؛ والأقدارُ ماضيه، وبمشيئة الله جاريه؛ فإنْ يشإ الله ينْصُرْ علىٰ العـدوّ المضَعَّف، بالعدد الأضْعَف؛ ويُوَصِّلْ إلىٰ الجوهر الأعلىٰ، بالعَرَض الأدْنىٰ؛ فإنَّا لانرتابُ بأنَّ الله مافتَح علينا هـذه الفُتوحَ ليُغْلِقها، ولا جمعَ علينـا هـذه الأمـة ليُفرِّقها؛ وأنَّ العدوَّ إنْ خرج من داره بَطَـرا، ودخل إلىٰ دارنا كان فيهـا جَزَرا؛ وما بَقِيَ إن شاء الله تعـالىٰ إلا أموالٌ تُساقُ إلىٰ ناهبها، ورقابٌ تُقاد إلىٰ ضارِبها، وأسلحةٌ تحمَلُ إلىٰ كاسِبها؛ وإنما نُؤْثِر أن لاتنطَوِيَ صحائفُ الحمد خاليةً من آسمه، ومواقفُ الرُّشْد خاويةً من عَزْمه؛ ونُؤْثِر أنْ يُساهِم آلَ أيوبَ فى ميراثِهم منه مواقِعَ الصبر، ومطالِـعَ النصر؛ فوالله إنَّا علىٰ أن نُعطِيَه عطايا الآخرةِ الفاخره، أشدُّ منَّا حِرْصا علىٰ أن نُعْطِيَـه عطايَا الدنيا القاصره، وإنَّا لايسُرُّنا أن ينقضِيَ عُمُره فى قتال غير الكافر، ونِزَالِ غير الكُفْءِ المُناظر؛ ولا شكَّ أنَّ سيفه لو آتَّصلَ بلِسانٍ ناطقٍ وفَمٍ، لقال : مادمْتُ هناكَ فلستُ ثَمّ؛ وما هو محمولٌ علىٰ خُطَّة يخافُها، ولا متكلِّفٌ قضيةً بحُكْمنا يَعافُها؛ والذى بيده لانَستكْثِره، بل نَستقْصِره عن حقِّه ونستَصْغِره؛ وما ناولْنَاه لفتْح أرضِه السِّلاح، ولا أعرْناه لِملْك مركَزِه النَّجاح؛ إلا علىٰ سَخَاءٍ من النفس به وبأمثالِه، علىٰ علمٍ منَّا أنه لا يقعُدُ عنا إذا قامتْ [الحرب] بنفسه وماله؛ فلا نَكُنْ به ظنًّا أحسنَ منه فعلا، ولا نرضىٰ وقد جعلَنا الله أهلاً أنْ لانَرَاه لنَصْرِنا أهْلا؛ ولْيستَبْشِرْ أهلَ الرشاد فإنهم [لا يألُونه] (١) حقًّا وآستِنْهاضا، وليَعْصِ أهلَ الغَوَايَة

(١) فى الأصل «يالوه حقا» كما تقدم أيضا فى ص ٢٧ من هذا الجزء والصواب ما أثبتناه فى الصلب كما يقتضيه المعنى وقواعد اللغة تأمل .

فإنهم إنمـا يتغالون به لمَصَالحهم أغْراضا ؛ ومن بيتِه يظْعَن و إلىٰ بيته يَقْفُل ، وهو يجيبُنا جوابَ مثـله لمثلِنا ، وينوِى فى هذه الزيارَة جمعَ شملِ الإسلامِ قبـل نِيَّة جمع شمْلِنا ؛ ولا تقْعُدُ به فى الله نهضةُ قائم ، ولا تخذُلُه عزمةُ عازم ؛ ولا يستفتِ فيها فَوْت طالب ولا تأخُذه فى الله لومةُ لائم ؛ فإنمـا هى سَفْرة قاصده ، وزَجْرة واحده ؛ فإذا هو قد بَيَّض الصحيفـةَ والوجْهَ والذِّكْر والسُّمْعه ، ودانَ الله أحسن دَيْن ولا حرجَ عليه إنْ فاء إلىٰ أرضه بالرَّجْعه ؛ وليتدبَّرْ ما كتبناه ، وليتفهَّمْ ما أردْناه ؛ وليُقَدِّم الآستخاره ، فإنها سِراجُ الآستناره ، ولْيغْضبْ لله ولرسولِه ولدينِه ولأخيـه فإنها مكان الآستِغْضاب والآستثاره . ولْيحضُرْ حتّىٰ يشاهد أولادَ أخيه يستشْعِرون لفرقته غمًّا ، وقد عاشُوا ماعاشُوا لايعرفُون أنَّ لهم مع عمِّهِـم عَمًّـا ؛ والله سبحانه يلْهِمه توفيقا ، ويسْلُك به إليـه طريقا ، ويُنْجِدُنا به سيفا لرقبة الكفر ممزقا ودَمِه مُرِيقا ، ويجعله فى مِضْمار الطاعات سابقا لا مسبُوقا . إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــرب الثـانى

(من المـكاتبات إلىٰ صاحب اليمن ما الأمرُ عليه من آبتداء الدولة التركيه وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا ، وهو علىٰ ثلاثة أساليب)

الأســـــلوب الأوّل

(أن تفتَتَح المكاتبةُ بلفظ «أدام الله تعالىٰ نعمةَ [أيام] المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كُتِب عن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، جوابَ كتابٍ ورد من صاحب اليمن فى مقـابلة البُشْرىٰ بدخُول العساكر المنصورة إلىٰ بلاد الأرمن ، وطلبِ سـلامش نائب التتار بالرُّوم الدخولَ فى الطاعة ؛ وذَكَرَ أنَّ (١) نائبًا كان لأبيـه

---

(١) أى صاحب اليمن فى كتابه الذى ورد منه فى مقابلة البشرى .

فى قلعةٍ طَمِع وعصىٰ عليه فظَفِر به فبشَّر بذلك ؛ ويحرِّضه علىٰ الجهاد وإنفاذ الأموال، ويهدِّده، ويوجِّه به قُصَّادَه إليه . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى رحمه الله، وهى :

أدام الله تعالىٰ نعمةَ أيام المقام العالى ! وأنْهَضه بفرْض الجهاد الذى بمثْله يُبْتَهَج، وأيقظه لمتعيِّن الغزو الذى ما (١) له تُدْرَك الرُّتَب وترتَفِع الدَّرَج ؛ وأشهَدَه فى سبيل الله مواقِفَ النصر التى إذا أودَعْنا نَشْر بِشْرها الطروسَ عبَقت بما فيها من الأَرَج ؛ وأَراه مَشَاهدَ فتوحِنا التى إذا حدّثتِ الأحلامُ عن عجائبها حدِّثْ عن البحر ولا حَرَج ؛ وصانَ مجدَه عن إضاعة الوقتِ فى غير حديثِ الجهادِ الذى هو أوْلىٰ مابُذِلت له الذَّخائرُ وٱبتُذِلت فيه المُهَج .

صدرتْ هذه المكاتبةُ تخصُّه بتحيةٍ تتضَوَّعُ نَشْرا ، وتُتْحِفُه من متجدّدات الظَّفَر بِشْرا ، يَمْلأُ الوجودَ مَسَرَّة وبُشْرىٰ ، وتقُصُّ عليه من متجدّدات فَتْح يأتى علىٰ ماأَتْعبت فيه الأفكارُ قرائحَها من مشتهىٰ التَّهانِى فلا يَدَعُ له ذكرا ؛ ونتلو علىٰ من ظنَّ بعد ما سمع من البَلَاغ بلاغِ العِدا أنَّ إزالة والٍ عن مركَزه فتحٌ كبير : لقد جئتَ شيْئا نُكرا . وتُوضِّح لعلمه الكريم أنَّ مكاتبتَه الكريمة وردت مقصورةً علىٰ نَبَإٍ لا يُعْتَدّ بذِكْره ، محصورةً علىٰ خبرٍ لا ينبغى لمثل مَجْدِه أنْ يُمِرَّه علىٰ فكْره ، مطْلقةً عِنانَ القلم فيما كان ينبغى طَىُّ خبرِه وتعفِّى أَثَرِه ، وإخْفاء سببِه وترْكه نَسْيا مَنْسِيًّا فضلا عن التبجُّح بذِكْره ، والتهنئةِ به ، إذْ فى ذلك مقابَلةُ البحر بالثِّماد ، والرُّوح بالجَماد ؛ والشَّمْس بالذُّبَال، والهُدىٰ بالضَّلال ؛ فلم يكْمُل له فى ذلك المراد ، وأتىٰ بما قالتِ له التهانى : (نحنُ فى وادٍ وأنْتَ فى واد) ؛ وقابلْناها مع ذلك بالقَبُول الذى ٱجتلىٰ غُرَرَها،

(١) بياض فى الاصل ولعله الذى بالقيام به تدرك الخ .

وأحمدتْ لديْه وِرْدَها وصَـدَرَها ؛ فأحطنا عِلْمًا بمـا تضمّنته من الأحوال التى أبداها، وَالمتجدّدات التى عَظُم موقِـعُ نشرها عنده فأهْداها .

وأما ماذكره من أمر القلعـةِ التى كان [النائب بها](١) لوالده شخصا آعتمد عليه، وولّاه مستحفِظًا ظَنّـه مع تغاير الأحوال مؤتَمَنا على مافى يدَيْه؛ وأن ذلك الشخصَ بعد آنتقال والده رحمهالله طمِع فيما آستُودِع بجَحَد الوديعةَ والمُوادَعه، ورام المنازَعة والمقاطَعَه ،وخالَفَ وحالَف ، وقاربَ العِصْيان وقارَف؛ وأنه فى هذا الوقت قلَعَ ذلك النائبَ، من تلك القلعـةِ المغْتَصَبه، وأراحَ من هَمّه الناصِب، أفكارَهُ ووصَبَه؛ إلىٰ غير ذلك ممـا أورده علىٰ وجه البشرىٰ لهذا السبب الضَّعيفْ ، وأبرزَه فى مَعْرِض التهنِئةِ من هذا الأمرِ الطفيف؛ وأراد أنْ يتكَثَّر فيه بما لامَدْخَل له فى كُثْره وقُلّه، فذكَر بُروزَه بجمعه إلىٰ شخص واحد فى قُبَالَةِ ماآتصل به من نبإ كل موطن برَزَ فيه الإسلامُ كلُّه إلىٰ الشّرْك كلّه؛ وظاهرُ الأمر أنَّ ذلك الشخص ماعصَىٰ بالمكان الذى كان فيه إلا لمَـا رأىٰ بالمملكة اليمنِيَّة من آضْطِراب الأحوال ، وأسبابِ الآختلاف والآِخْتلال ، والوَهْن الذى حَسَّن له الآحتِرازَ والاِختِزَال، والخَلْوةِ التى حمَلَتْـه علىٰ أنْ (طلَبَ الطعْنَ وحدَه والنِّزال) ؛ وآمتدادِ الأيْدى العادِيَة بكلِّ جِهةٍ إلىٰ مايليها، وضَيَاع رَعايا كلِّ ناحيـة بالاِشتغال عن آفتقادِ أحوال مَنْ يُباشِرها وآنتقاد تصرُّف مَنْ يليها؛ فهو الذى أوجب طمَعَه، وقوّى ضِلَعه، وحمله من مَرْكَب العناد، وأراه نظراءه بتلكَ الجهة ممّنْ سلَك الفساد . وهذا الأمرُ ماخَفِىَ علينا خَبَرُه ، ولا توارىٰ عنّا وِرْدُه ولا صَدَرُه ؛ فإن أخبار مملكة اليمن مازالتْ متواصلةً إلينا بما هى عليه من آضطرابٍ وافٍ ، وآختلافٍ غير خافٍ، وهَيْج لايرجِعُ الأمر فيه إلىٰ كافٍ كافّ؛ وما أخَّرْنا لَحْقَ جيوشِنَا المنصوره، وعساكِرِنا التى ممـالكُ العِـدا بمَهابتها محصوره،

(١) لم يأت لأما بجواب واضح ولكنه يدرك بالتأمل .

عن الوُصول إلىٰ المملكة اليمنيـة لتقويم أوَدِها، وتَمْكين شـدّها، وإقامة أمْر المُلْك فيها، وحَسْم مادّة الفَساد عن نَواحِيها، وتَطْمين البلاد، وإنامة الرَّعايَا من الأمْن فى أوطإ مهاد، والاحْترازِ علىٰ الخزائن والأموال، وصَوْنها عن الإنفاق فى غير جُنْد الله الذين منَعُوا دعوةَ الشرك أن تُقَام وكلمةَ الكُفْر أن تُقَال، إلّا لأنَّ عساكرنا كانتِ الآنَ فى الممالك والأقاليم التى بيد الكُفْر: من التَّتار المخذُولين، ومن يقُول بقَوْلهم من أعداءِ الدين، تقْتُل وتأسِر، وتلْقىٰ الجيوشَ الكافرةَ فتكْسِب وتَكْسر، وتصْحَبُهم حيثُ حلُّوا طَلائِـعُ رُعْبها، وتُصَبِّحُهم منها أين طَلُّوا ريحُ عاد التى تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بأمْرِ ربِّها .

وماسَطَّرْنا هـذه المكاتبةَ إلا وجُيوشُـنا المنصورةُ قد وَطِئت عُقْر بلادهم فأذَلَّتها وأذَالتْها، وغيَّرت أحوالَها وحالَتها، وقاسمَتْهم شرَّ قسمة فلها منها الحُصُون والمصُون، والجنّاتُ الوارفة الغُصُون، ولهم منها الخَرَاب والتَّباب، والدارسُ الذى لا يحصُـل بكفِّ دارِس بيْته إلا التُّراب، وهاهى قادمةٌ إلينا يَقْدُمُها النصر، ويتقدّمُهَا من أسْر العِـدا وغنائمهم مايُرْبِى عن الحصر، ومابَيْنها و بين رُكُوب هـذا البحرِ لمُلْك تمهِّده، وعَدْل تُجَدّده، وبُغاة تكُفُّ غَربَها، ورُعاة تؤمِّن بالمَهَابة سِرْبَها، وتُصَفِّى من أكدار الفِتَن شِرْبَها، وخزائنَ لهـا عن غير الإنفاق فى سبيل الله تَصونُها إلا بمقدار ماتستقِرُّ بهـا المنازلُ آستِقْرار السِّنَة بالجُفُون لا النوم (١) ، وأضَرَمتْ نواحيَها، وآستاقَتْ أهلَها ومواشِيَها، وجعلتْ قُصُورَها صَعيدا، وزَرْعها حَصيدا، وعقائلَها إماء، ومعاقِلَها هَبَـاء، وآبتـذلَتْ مَصُونَها الذى جعله اللهُ لهـا أثقالا، وآختارَتْ من حصونها لمُلْكنا ما كانتْ سيوفُنا له مَفَاتِح فلَمَّـا فُتح عُدْن له أقفالا، وآقتلعَتْ من القِلَاع التى كانتْ بيد الكُفْر كلَّ مَعْقِل أشِب، وحِصْنٍ شابَتْ نواصِى

(١) بياض بالأصل ولعله لاالنوم بالعيون فما من جهة للعدا إلا وأضرمت الخ تأمل .

اللَّيْل وهو لم يَشِبْ ، قد صُفِّح بالصِّفَاح ، وشُرِّف بأسِنَّة الرِّماح ، واستَدارَ بقُنَّة قلة يَنْهَب الترقِّ إليها هُوجَ الرِّياح ، فطَهَّرتْه من النَّجَس ، وعوضَّتْه بصوت الأذان عن صَوْتِ الجَرَس ، وأخرَسَتِ الناقوسَ بسورةِ الفتح الذى عوَّذتْه نُوبُ الدهر بآياتِ الحَرَس ، مع ماأُضِيف إلىٰ تلك القِلاع من بِلاد وتِلاد ، وأغوار ونِجَاد ، وجَنَّاتٍ وعُيون ، وأموالٍ ٱرْتُجِـع بها ما كانللاسلام فىذِمَّة الكُفْر من بَقَايا الدُّيون .

وكُلُّ تلك الغنائم منَحْناها جُيوشَنا المنصورة وأبَحْناها ، وقوَّيناهم علىٰأمثالها من الفُتُوح برَفْع العوائق التى أزلْنَاها ، بالقناطيرِ المقَنْطرة من الذهب والفِضَّة وأزَحْناها ؛ وما وصل الآنَ قُصَّادُه إلىٰ أبوابنا العاليةِ إلا والبشائرتَنْطِق بألْسِنةِ التَّهانى ، وتَخْفُق بمجدَّدات هذه الفتُوحِ فى الأقاصِى من ممالكنا والأَدَانِى ؛ وقد شاهَدُوا ذلك وشَهِدُوه ، ورأَوْا ما رأىٰ غيرُهم من نَوَادرِ الفُتُوح التى أربَتْ علىٰ ما ألِفُوه من قبْلُ وعَهِدوه . هـذا وما وَضَعت الحـربُ إلىٰ الآنَ أوزارَها ، ولا خَمَدتْ نارُ الوغىٰ التى أَعَدّتْ جيوشُنا المنصورةُ للأعداء أُوَارَها ؛ وما يَمْضى وقتٌ إلا والبشائرُ متواردةٌ علينا بفتح جديد ، ونَصرٍ له فى كلِّ يومٍ مُخَلَّق تخَلُّق وفى كل بَرٍّ بريد . وقُصارىٰ أمرِ العدوّ الآنَ أنهم ليس لهم بلَد ، إلا وقد (أخْنىٰ عليه الذى أخْنىٰعلىٰ لُبَد) ؛ ولادارٌ إلا وقد أضحت كدارِمَيَّةَ التى (أقوتْ وطال عليها سالِفُ الأمَد) ؛ ولا جيشٌ إلا وقد فَرَّ وأين يفرّ وهو يطْوِى فى قبْضتنا المَرَاحل؟ ، ولا طرائدُ بحر إلا وهى مَطْرُودة فى اللُّجَج لتيقُّنهم أن العَطَب لا السلامةَ فى الساحل .

فمن أجل ذلك رأينا أنَّ ٱشتغالَ جيش الإسلام بجانب الكُفْر هو المهمُّ المقدّمُعلىٰ ماسواه ، والغَرَضُ الذى نيَّتُنا فيه إنقاذُ أهل الإسلام من كلمةِ الكفر وتحكُّمه «ولكُلِّ ٱمْرِئٍ مانواه» ورأيْنا أنَّ أمر هذه الجهة مايفُوتُ بمشيئة الله وعونِه وتمكينه ، وإذا كان الله قد أقام بقُدْرته منا مَلِكا لنصرة دينه فإنَّ اليَمَن وغيرَه فى يَمِينه ؛ وهى محسوبةٌ

من أعداد ممالكنا المحروسه، ومعدودةً من أقسام بلادنا التى هى بوفود الفتوح مأنوسه؛ ولا بُدّ من النظر فى أمرها، وإعمال الفكر فى إزاحة ضُرِّها، وتجريد العساكر المنصورة إليها، وإقدام الجيوش التى عادتُها الإقدامُ فى الوَغىٰ عليها؛ ليكونَ العملُ فى أمرها بما يُرْضى الله ورسولَه، ويبلُغَ مَنْ كان بتلك الجهات يروم الجهاد ولا يُطيقُه سُولَه؛ فإن المملكةَ المذكورة توالتْ عليها المُدَد، ومضىٰ عليها الأبَد، وهِمَّةُ من فيها إلىٰ اللَّهو مصْرُوفه، وعلىٰ اللَّذات موقُوفه؛ وأحكامُ الجهادِ عندهم مرفُوضة حتى كأنَّ الجهادَ لم يبلُغْهم وغره حلمه (١)، ولا أحاطتْ أفكارهم بشىء من علمه؛ بل كأنه علىٰ غيرِهم وجَب، وكأنَّ ما أعدّ اللهُ من الأجر عليه إنما أُريد به الذين يَكْنِزُون الذهب؛ وتمادَتِ الأيامُ وليس فى نِكَايَةِ أعداء الله منهم مُصيب، وتفرّقت الأموالُ وما لجُنْد الله فيما ٱحتَوَوْا عليه من ذلك سهْمٌ ولا نَصيب؛ وأىُّ عذْرٍ عند الله لَمْنْ جعله مؤتمَنًا علىٰ مالِهِ فلم يكُنْ له فى سبيل الله إنْفاق؟ وأىُّ حجةٍ لمن [لم] يقِفْ موقِفَ جهاد وقد قال رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم: "مَنْ ماتَ ولم يَغْزُ ولم يُحَدِّثْ به نَفْسَه ماتَ علىٰ شُعْبة من نِفَاق".

والآنَ فإنَّ اللهَ سبحانَه وتعالىٰ قد أقامَنَا لنُصْرةِ الإسلام ورَفْعِ كلمةِ الإيمان وتمهيد البلاد، وإجراء الأحوالِ فى القريب منها والبعيدِ علىٰ ما يُرضى الله تعالىٰ ويُرضى رسوله عليه السلام من السَّداد؛ وأهمُّ الأمور عندنا أمرُ الغُزاة والمجاهدين الذين ما منهم إلا مُمْسِكٌ بعِنَان فَرَسه، مكْتَحِلٌ بسُهَاد حَرَسه؛ لا يأمن العَدُوُّ مهاجمةَ خيله فى سُراه، ولا مفَاجَأة خَيَاله فى كَرَاه، حِصْنُه ظهْرُ حصانه، وجوابُه علىٰ لسان سِنَانه، كلَّما سَمِع هَيْعةً أو وَقْعةً طار علىٰ مَتْن فرسه يلتمِسُ الموتَ والقتلَ فى مظَانِّه؛ وهؤلاء هم جيوشُنا الذين دوّخُوا البلاد، وأذلُّوا أهلَ العناد، وطَهَّروا السَّواحل، وأجْرَوْا فى كل

(١) لعله «لم يبلغهم فرض حكمه».

موطن من أنهار الدماء مايُروِى البلدَ الماحل؛ وهزَمُوا جيوشَ التتار وهم فى أعداد الكواكب، وحصَدُوهم بسُيوفهم عروزة (؟) وهم فى نحو المائةِ ألف راكب؛ حتّى إن ملوك التتار الآنَ ليتمنَّون إرضاءَنا وإغضاءَنا، ويستَدْعُون ويَدّعُون للآباءِ وَلاءَنا، ويطْلبُون المسالمةَ منا، ويوَدُّون نَسَمةَ قبول تصْـدُر إليهم عنَّا؛ والطويلُ العُمُر منهم وممَّن والاهم هو الذى يَهْرُب من بين يدَىْ جيوشنا المنصورةِ ليَسْلَمَ بنَفْسه، وإنْ أسلَمَ ما يعِزُّ عليه من مالِه وولَده وعِرْسه . فمثلُ هؤلاء الذين يستحقُّون أموالَ الممالك الإسلامية ليستَعِينُوا بها فى جَهَازهم لجِهَادِهم، ويُنْفقُوها فى إعدادِهم لأعْدائهم؛ ويَصْرِفوها فى ذَبِّهم عن دِينِ رَبِّهم .

وهذه المملكة اليمنِيَّة قد اجتمع فيها من الأموال مايُرْبِى عن الحَصْر والحَدّ، ويزِيدُ علىٰ الإحصاء والعَدّ؛ لايُنْفَق منها شىءٌ فى الجِهاد، ولا يُعَـدّ منها مصْرُوفٌ إلا بما لا تُحمَـدُ عاقبتُه فى المَعَاد؛ قد صُـدَّ عنها جندُ الله الذين ينفِقُونها سِرًّا وجَهْرا، ويستنزلون بها أرواحَ أعداءِ الله علىٰ حُكْم سُـيُوفهم قَسْرا وقَهْرا؛ وأبِيحتْ لمن تأبَّى الجهادَ جانبا، ورضِى باللهو صاحبا؛ واقتنىٰ السِّلاح لغير يوم الباس، واعتنىٰ بارتباطِ الجِياد بَطَرا ورِئاءَ الناس .

وكان كتابنا قد تقدّم فى أمر المجاهدين وما يحتاجُونه من الإعانة بما يحمَلُ إليهم من الأموال بالمملكة اليمنِيَّة : ليُصْرَف ذلك فى حقه، ويصل إلىٰ مستَحِقِّه؛ ويكونَ قد أُعِدّ منها للإنفاق فى سبيل الله جانبٌ بحيث لا يُضَاع، ووصَـل إلىٰ مجاهدى الأمـة نصيبٌ من مال الله الذى هو فى يَد مَنْ وَلّاه شيئًا من أمور عبـاده علىٰ حكم الإيداع؛ ويدخُل ذلك(١) فى زُمْرة الذين يكْنِزُون الذهبَ والفِضَّة ولا ينْفِقُونها؛ فحصلتِ المكابرةُ فى الجواب عن ذلك، وأىُّ عُذْر فى المكابرة عن

(١) كذا فى الأصل ولعله ويخرج بذلك من زمرة الخ تأمل .

مثل هـذا الأمر وشَغْلِ الوقت بذكره ؟ ونحن عنـدنا فى كل وقتٍ من البشـائر بمَوَاهب الفتح، وغرائب المَنْح، ومتجدّدات الظَّفَر والنصر، ومتحلّيات التأييد التى قسَّمَتْ أعداءَ الله بين الحَصْد والحصْر، مايهُبُّ نَشْرُه هبوبَ الرِّيح فى البَرِّ والبِحار، ويودُّ الدهرُ لوَرقَه بذهب الأصيل على صَفَحات النَّهار، وكلُّ ذلك فى أشدّ أعداء الله تعـالىٰ : من التتار، الذين عُرِف عَدَدُهم وجلَدُهم ، والفـرَنْج الذين طال وكثُر فى عَدَاوة الإسـلام أبَدُهم ومَدَدُهم ، والأرمن الذين هم أكثَرُ الطائفتين فى الظاهر وِفَاقا ، وأشـدّ الفئتيْنِ فى الباطن نَفْرا ونِفَاقا، وهم لهؤلاء وهؤُلاء مادّة تمـير وتمير، وتُغْريهم وتَغُرُّهم فتصيرُبهم من نارالحربِ المضَرَّسةِ لسيوفنا إلىٰ جهَنَّمَ وبِئْس المَصير، وأىُّ شيءٍ من ذلك يُذْكَر عندمواقف جيوشنا المنصورة، وظَفَرِ عساكرنا المؤيَّدة؟ ، لوكان حَصَـل عنده الفكرُ الصائب ماوردتْ مكاتَبته إلا وهى مقْترِنةٌ بما يُرضى اللهَ ورسولَه وأهلَ الإسلام : من إمداد الغُزَاة بالأموال، وإعانتِهم علىٰ الكُلَف التى كُلَّما أعد لها مال[بدتْ]حال يُلائِمها الإنفاقُ فى سبيل الله ويَسْئَلُونَكَ عن الجِبال، وهاهى قادمةٌ إلينا يَقْدُمُها النصر، ويتقدَّمُها من أسْرىٰ العِـدا وغنائِمِهم مايُرْبِى عن الحَصْر، وما بينها وبينَ رُكوبِ ثَبَج هـذا البحر لمُلْك تُمهِّـده ، وعَدْل تُجَدّده، وبُغاة تَكُفُّ غَرْبها، ورَعايَا تُؤَمَّن بالمَهابة سِرْبَهـا، وتُصَفَّى من أكدار الفِتَن شِرْبهـا، وأموالٍ تصونها، وخزائنَ يُنزَّه عن غير الإنفاقِ فى سبيل الله مَصُونُها، إلا بمقْدار ماتستقرُّ بها المنازلَ آستقرار السِّنة بالجُفُون لاالنوم، وتَأْخُذُ أُهْبةً لذلك المُهِمِّ فى يومٍ أو بعضِ يَوْم.

أللهم إلا أنْ تلبَّى دَعوةُ الجَهاد من تلك الجِهَة بألسنة النَّفير، وتُعبَّى صُفوفُ الجِلَاد فى الجَوَارِى التى تكادُ بأجنحة القُلُوع تَطِـير، أو تَنُوبَ عنها خزائنُ الأموال التى تُنْفَق فى سبيل الله تعالىٰ، أو تَقُومَ مَقَامهـا النفقاتُ التى تُصْرَفُ إلىٰ جنود الله التى تَنْفِرُ فى سبيل اللهِ تعـالىٰ خِفَافا وثِقَالا ، ليَكُونَ قد آسـتدرَّ ببركة ذلك الطَّلِّ

أخلافَ الوابل ، وأنفقَ ما ٱختَزَنه فى سبيلِ اللهِ الذى مَثَـلُ ما يُنْفَقُ فيه كَمَثَلِ حَبَّةٍ أنبتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ ؛ وتسْـتعدّ الجيوش المنصورةُ إلىٰ طوٍ يَصُونُ برأيه مُلْكه ويَصُول،ويستطِيلُ علىٰ الوجُود ولوأنَّ البَرَّسُيُوف والبحْرَ نُصُول؛ واللهُ تعالىٰ يُرْشِده إلىٰ ماهو أقرب للتقوىٰ ، ويُمَسِّكه من طاعتـه بالسبيلِ الأقوم والسَّبَبِ الأقوىٰ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الأسلوب الثـانى

(وهو المــذكور فى "التعريف")

أن تفتَتح المكاتبةُ بلفظ : «أعزَّ الله تعالىٰ جانبَ المقام العالى» إلىٰ آخر الألقاب، ثم الدعاء، مثل: ولا زَال يُحْسِن وِلايةَ حَسَبه، ويَنْهَضُ بجناح نَسَبه، ويصُونُ مُلْكَه بعَدْ له أكثَر من قُضُبه، ويُثْبِت فى اليَمَن اليُمْنَ فى حالةِ إقامتِه ومنْقَلَبه .

أصدرْناها إلىٰ مَقَامه موشَّحةَ المَعَاطف بحُلِيِّه، شاكرةً عُلَا عَلِيِّه، ذاكرةً من محامده مايتَكَثَّر السحابُ بوَلِيِّه، مُبديةً لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ .

وهذه أدعيةٌ وصدُور تناسِبُ كل سلطانٍ بها :

ولا زالَ به «تَعِزُّ» تَعِزُّ وتَفُوز ببره زَبِيـدْ ، ويخْرُجُ من عَدَنَ عَدْنُ فضله المَديد، وتَمتَلِى بوُفُود البَرِّ والبحْر : هـذا تطيرُبه المَراكِبُ وهذه الركائبُ كِلَاهما من مكانٍ بعيد؛ ولا برِحتْ به آهلةَ الأوطان، مشتقةً صفاتُ قُطْره اليَمنِيِّ من «الإيمانُ يمَانْ» ؛ محجُوبًا بالجلالة أو محْجُوجًا لمـا يُنْسَب إليه من أحدِ الأركان .

أصدرْناها والسـلام يُبارِى ما تُنْبت أرضه من نَبـاتِها الطيِّب ، ويجارى بالثَّناء ما يَنْهَلُّ فى أكنافه الجَنُوبيَّة من سَحَـابها الصيِّب؛ وتسْرِى إليـه بتحيَّاتنا الشريفة علىٰ قادمةِ كل نَسِيم، وفى طىِّ كلِّ عامٍ له وُقُوف علىٰ ربْعه وتَسْليم؛ وتوضِّح لعلمه الكريم .

دعاءٌ وصدرٌ يختصّ بالمجاهد علىّ، وهو :

ولازال أفضَلَ متوَّجٍ فى يمَنِه، وأعلىٰ عَلِىّ إذا قِيس بابْنِ ذى يَزَنِه ، وأشجعَ مَنْ حمىٰ بعُهُوده مالا تقْدِر السُّيوف علىٰ حِمَايته من وطنه، ولا آنفكَّ الملكَ المجاهدَ عن عِرْضه المَصُون، وسيْفَ الدين الذى يقومُ فى المَفْروض من مَرَاضى الله بالمَسْنُون، وأبَا الحَسَن لما يَحْسُن فى فِطْنته الحُسْنىٰ أو فِطْرته من الظُّنون ، والعلِىَّ قدرا إذا أخذتِ الملوكُ مراتِبَها وحَدَّقت إليه العُيُون .

صدرتْ هذه المفاوضةُ إلىٰ حضرته وسلامُها يتفاوَحُ لدَيْها ، ويُصافِح غمائمَه فى يدَيْها ، وتجرى سفائنُ إخلاصِه حتّى تقِفَ عليها ، وتَسْرى بتحياتِنا محلِّقةً بالبُشْرىٰ فى صباح كلِّ يومٍ يقرِّب من الوصُول إليها، وتبدى لعلمه الكريم .

قلت : ولم أقف علىٰ صورة مكاتبة مفتَتَحة بلفظ «أعز الله تعالىٰ جانب المقام» كُتِب بها إلىٰ بعض ملوك اليمن فى زمنٍ من الأزمان، فأُورِدَها آستشهاداً لهذا الأسلوب .

الأسلوب الثالث

(أن تفتَتَح المكاتبةُ بلفظ : «أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرة المقام العالى»)

وهذه نسخةُ كتاب كتب به إلىٰ صاحب اليمن أيضا، عن السلطان الملك المنصور قلاوون، مبَشِّرا بفُتُوح(1) صافِيتَا ، من إنشاء القاضى محيي الدين بنِ عبد الظاهر رحمه الله، وهو :

(1) لم نجد لفتح مصدرا على فعول فإما أن يكون جارى العرف و إما أن يكون جمع المصدر باعتبار أنواعه ووقائعه وهو بعيد تأمل .

أعزَّ الله تعالىٰ نُصرة المَقام العـالى، المولَوى، السلطانى، المَلَكى، المظفَّرى، الشَّمْسى؛ وأشركَه فى كل بُشْرىٰ تُشَدُّ الرحالُ لاَستماعها، وتُحَلُّ الحُبىٰ لاَستِطْلاعها؛ وتتهافَتُ التواريخُ والسِّـيَر علىٰ آستِرْفاعها، وتتنافس الأقلامُ والسـيوفُ علىٰ الأفهام بأجْناسها وأنْواعها؛ ولا خَلاَ موقِفُ جهادٍ من اسمِه، ولا مصرِفُ أجرٍ من قَسْمه، ولاغَرضُ هَناءٍ من سَهمه، ولاأُفُق ابْتهاجٍ من بُزُوغ شمسه وطُلُوع نَجْمه. سطَّر المملوكُ هذه البُشْرىٰ والسيفُ والقَلَمُ يستمدّانِ : هذا من دمٍ وهذا من نِقْس، ويَمْضيان : هذا فى رأْس وهذا فى طِرْس؛ ويتجاوَبان : هذا بالصَّليل وهذا بالصَّرير، ويتناوَبانِ : هذا يستَميلُ وهـذا يستَمير؛ وكلٌّ منهما ينافِسُ الآخَر علىٰ المشافهة بخبر هذا الفَتْح الذى ماسمَتْ إليه هممُ المُلُوك الأوائِل، ولا وُسِمَتْ به سِيَرُهم التى بدَتْ أجيادُها من حِلَاه عَواطِل؛ ولادارَ فى خَلَدٍ أن مثله يتَهيَّأ فى المُدَد الطويله، ولا تشكَّلَ فى ذهن أنه سـيُدْرَك بحوْل ولا حِيله؛ وهو النَّصْر المرتَّب علىٰ حركتنا التى طَوىٰ الله لركابنا فيهـا المَراحل، وألقىٰ بِدرَر عساكِرِنا من بَحْر الحديد المـالح إلىٰ الساحل؛ وهُجومنا علىٰ البلاد الفرَنجيَّة : وهى طرابُلُس وصافِيتَا وأنْطَرسُوس ومَرقِيَّة والمَرْقَب، كما يهْجُمُ الغيث؛ ومُصادمتِنا صُدُورَها كما يَصْدِمُ الليثُ، وسلوكنا منها حيثُ لم يَبْقَ حيث؛ وما جرىٰ فى هـذه الوِجْهة من إغاراتٍ أحسنَتْ متقلَّبَ الأعِنَّه؛ ومتعلَّق السيُوف ومخْتَرَق الأسِـنَّه؛ وماتهيَّأ منها من فُتُوح صافِيتَا التى هى أمُّ البلاد، ومنتجَعُ الحاضِر والبـاد؛ وكونُها قدَّمت نفسَها فى جملة ما يُقْرىٰ به الضيف، وقالتْ : هـذا فتوحٌ حضَر علىٰ هـذا الفُتُوح لهذا السيف؛ وتلطَّفتْ فى مَسْح أطرافِ الأمان، وطلبَتْ شُكْرا ومِنًّا شُكْران؛ وأحضرتْ إلينا من أهلها الوقت وهَدّتِ السـيوفُ فى أعناقهم فتشَبَّهتْ بها الأغلال، وأنِفَت أيمـانُ أهـلِ الإيمـان من مُصافَحَتِهم لأنهُم أصحاب الشِّمال؛ فأطلقَهُـم سيفُنا وأمَلُه يمتدُّ إلىٰ مَنْ هو أعزُّ منهم مالا، وأكثر آحتِفالا،

وأَبْزُماَلا ، وأَهَزُّ سيوفًا قِصارا ورِماحًا طِوَالا ؛ وآستطار منها شَرَارُ نارِ الحرْب المُوقَدة الىٰ غيرها من القِلاع ، وآستطال إلىٰ سِوَاها من الحُصُون منهم البــاع ؛ فلا حِصْنَ إلا وآفترّت ثنِيَّتُه عن نَصْرٍ مُسَهَّل ، وفتح مُعَجل ومؤَجَّل .

فمن ذلك حصنُ الأكراد الذى تاهَ بعِطْفه علىٰ الممـالك والحُصُون ، وشَمَخ بأنْفه عن أنْ تمتدَّ إلىٰ مثـلِه يَدُ الحَرْب الزَّبُون ؛ وغَدَا جاذِبًا بضَـبْع الشام، وآخذًا بمَخانِق بلادِ الإسلام؛ وشَلَلًا فى يَدِ البلاد، وشجًـا فى صَدْر العباد؛ تنْقَضُّ من عُشِّه صُقُور الأعداءِ الكاسره، وترتاعُ من سَطْوتها قلوبُ الجُيُوش الطائره؛ وتَرْبِضُ بأرباضه آسادٌ تحمِى تلكَ الآجام، وتُفَوَّقُ من قِسِيِّه سهامٌ تُصْمِى مُفَوَّقاتِ السِّهام؛ تُعْطِيــه الملوكُ الجزيةَ عن يدٍ وهُمْ صاغِرُون، ويَصْطفِى كِرامَ أموالهم وهم صابِرُون لامُصابِرُون؛ كم شكَتْ منه حماةُ تثنى بنكرها قِلَّةَ الإنصاف ، وكم خافَتْـه معرّةُ وما من مَعَرَّةٍ خافْ ؛ مازالتْ أيدى الممالك تمتدُّ إلىٰ الله بالدعاء عليه تشكو من جَوْر جِوَاره تلك الحصونُ والصَّيَاصى، وتبْكِى بمدمع نَهْرُها من تأثيرِ آثارِه مع عِصيانها وناهِيك بمَدْمَعِ العاصى؛ حتّٰى نَبَّه الله ألحاظَ سيوف الإسلام من جُفُونها، ووَفّٰى النُّصرةَ ماوجب من دُيُونها؛ وذاكَ بأنَّا قصدْنا فَسِيحَ رَبْعه ، ونزلْنا ونازَلْنا محِىَّ صُقْعه ، وختَمْنا بِنصالِنا علىٰ قَلْبــه وسَمْعه؛ وله مُدُنٌ حَوْلَه خمسٌ هو كالراحةِ وهى كالأَنامل، وتكادُ بُرُوجه تُرىٰ كالمطايا المُقَطَّرة وهى منها بمنْزِلة الزَّوامِل؛ ماخيَّمْنا به حتّٰى آستبَحْنا مَحْمِىَّ تلك المدائنِ المكنِىِّ عنها بالأرباض ، وأسحْنَــا بساحاتها بحرًا من الحــديد ما آندفَعَ حتّٰى فاض ؛ وأخذنا الثُّقُوبَ فى أســوار لا تُنْقَض ولا ينقَضُّ بُنْيـانها المرْصُوص ، ولا تَقْرأُ المَعـاوِلُ مالخَوَاتم أبراجِها من نُقُوش الفُصُوص؛ ونصَبْنا عليها عِدّةَ مجانيقَ حُمِلتْ فى شَوَاهق الجبال ، علىٰ رُءُوس الأبطال ؛ فتغيَّظتِ السَّمْهَرِيَّة أنَّ الذى تقومُ به هــذه تِلْكَ به لاتقُوم ، وأنَّ مامنها إلا لَهُ من الأيدى والرُّءُوس مقامٌ معــلوم ؛ وصار يَرْمِى بها كلَّ

كمِىّ مختَلِس، وأروعَ منتَهِس، وكلُّ ليثِ غابةٍ يحميها وتحميه! فشُكْرًا لأسود حتّى غاباتها تفترس، إلىٰ أن جثتْ أسوارُها علىٰ الرُّكَب، وكانتْ سِهامُ مجانيقِها تميلُ من العُجْب فصارتْ تميـدُ من العَجَب، وكانتْ تطلُبُ فصارتْ تهْرُب من الطَّلَب، وآشـتدّ الأمر علىٰ الكُفَّار فقاتَلُوا قتالًا أقضَّ مَضاجعَ الأسلحه، وأطار حِجارةَ مجانيقِهم بغير أجنحه، وأشْجىٰ بشَـجْو النُّصول المترنِّمة علىٰ غُصون السِّهام المترنِّحه؛ هـذا وأهل الإيمان يتلَقَّوْن ذٰلك كلَّه بصبرٍ يستطْعِمُون منه شُهْدا، وإقدامٍ يتلقّىٰ صَدىٰ الحديد بأكبادٍ مازالتْ إلىٰ مَوارِده قَصْدا؛ يقتَحِمون نارَ الحرب التى كُلَّما أوقَدُوها أطفأها الله وقال يانَارُ كُونِى بَرْدا، والبلادُ الفرَنْجِيَّة قد غُضَّت منها الأبصارُ وخَشعتِ القُلُوب، وآعتقد كلٌّ منهـا فى نَفْسه أنه بعد هـذا الحصن المَطْلوب؛ فهذه تَوَدّ لو أَكَنَّتْها البحارُ تحتَ جَناح أمواجها، وهذه لو أسبلَتِ الرياح العواصفُ عليها ذُيولَ عَجاجِها؛ وهذه لو آجتُثَّت منْ فَوْقِ الأرضِ مالها من قَرار، وهذه لو خُسِف بها الثَّرىٰ وعَفَت منها الآثار؛ وذلك لِمَا بلغهم وشاهَدُوه من وَيْلٍ حلَّ بأهل هـذا الحِصْن المَنِيع، ومن فَتْكٍ أمحلَ رَبْعه المَرِيع، وضَيَّق مجالَهُ الوَسيع؛ وقِراعٍ أضْجَرَ الحديدَ من الحديدِ والأبطالُ لم تَضْجَر، ونضالٍ أسْهرَ كلَّ جفن حتّى جفونَ السيوفِ لأنا عَوَّدْناها مثلَ جفُونِنا أن تَسْهَر؛ فكم شكَت النَّقُوب من مَنَا كبِهم زِحاما، والشُّرفات من ترقِّبهـم آلتزاما، والرِّقابُ من سيُوفِهم آقتِساما؛ وكم حَمِدت التجارِبُ من رأيهـم شيخا وحمِدَ الإقدامُ من ثُبُوتِهم غُلاما؛ قد دَوَّخوا البـلاد فلا مَوْطِنَ إلا لهم به مَعْرَكه، وأرملُوا الحلائلَ فلا مُشْرِكَ إلا وقد أرمَلَ من مُشْركه، وأزعَجُوا الكفرَ فلا قلْبَ إلا به منهم خوفٌ ولا سَمْع إلا لهم به حَرَكة، ومَلَئُوا الأرضَ كثرةً وكيف لايكثِّر الله جمعاً للإسلام جعل اللهُ فيه بَرَكه .

وكتابُنا هذا والمولىٰ بحمد الله أحقُّ من هُنِّئَ بهـذا الفتح الذى تُثْنِى علىٰ كتاب بشائِرِه الحقـائب ، وتجْرِى إلىٰ سَمَـاع أخباره الركائِب ؛ وتتَزاحمُ علىٰ المَسِير تحت البُرُدِ الواصلةِ به متونُ الصَّـبَا وظهورُ الجنائب ؛ وإذا ذُكِرت ملاحمة ، قال كلٌّ : هذا كتابٌ أم كتيبةٌ تلوح ، وإذا شُوهِدتْ حمْرةُ طِرْسه قيل : وهذا ما صَبَغَتْه فى اليد المعَلِّمة عليـه دمُ الكفر المسْـفُوح ، ويَنْعَم ـ أعز الله نصرَه ـ بالإعلان بهذا النبإ الحسن الذى تسْتَرْوِح إليه الأسماع ، وتُسَرّ بالإفهام به أخَواتُ هذا الحصن من مُدُنِه ومن قلاعه العظيمةِ الآمتناع ؛ فإنه ما بَرِحَ الأخُ يفْرَح بأخيه ، وإذا كان الهناء عظيما آشترك كلُّ شىءٍ فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة كتاب آخَرَ إلىٰ صاحب اليمن من هذا الأسلوب : كتب به الفاضل محيي الدين بن عبد الظاهر أيضا ، عن الملك المنصور قلاوون ، جوابَ تعزيةٍ أرسلها إليه فى وَلَده الملك الصالح فى ورقٍ أزْرقَ ؛ وكانت العادة أن تكون فى ورق أصفرَ . ونصها بعد البسملة .

أعز الله تعـالىٰ نُصْرةَ المقام إلىٰ آخر الألقاب ، وأحسَنَ بتسليَتِه الصبرَ علىٰ كل فادح ، والأجرَ علىٰ كلِّ مصابٍ قَرَح القرائح وجَرَح الجَوَانح ؛ وأوفَدَ من تَعَازِيه كلَّ مسَكِّن طاحتْ به من تِلقاء صنعاءِ اليمن الطَّوائح ؛ وكتَبَ له جزاءَ التصـبُّر عن جارٍ من دمع طافحٍ ، علىٰ جارٍ لسُوَيْداء القلبِ صالح .

المملوكُ يَخْـدُم خدمةً لا يَذُود المواصـلةَ بها حادث ، ولا يؤَخِّرها عن وقتها أمْرٌ كارث ، ولا ينْتُضُها عن تحسينها وترتيبها بواعثُ الآختلاف ولا آختلافُ البواعث ؛ ويُطْلِـع العِلمَ الكريمَ علىٰ ورود مثـالٍ كريم ، لولا زُرْقةُ طِرْسه وزرقةُ لِبْسه لقال :

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ . تتضمّن ما كان حَدَث من رُزْءٍ تَلَافَىٰ الله بتَناسِيه ، وتوافىٰ بعَوْد الصبر فتولّى التسليمُ تليين تَقاسِيه وتمْرِينَ قاسِيه ؛ فشكَرْنا اللهَ تعالىٰ علىٰ ما أعطىٰ وحَمِدْناه علىٰ ماأخذ، وما قُلْنا : هـذا جَزَع قد ٱنتَبَه إلا وقلنا هذا تثَبُّتٌ قد ٱنتَبَذ، ولا توهَّمنا أنَّ فِلْذةَ كبد قد ٱختُطِفتْ إلا وشاهدْنا حولنا من ذرِّيتنا والحمدُ لله فِلَذ ؛ وأحسنَّا الاحتساب ، ودخلتِ الملائكةُ علينا من كل باب، ووفَّانا الله عز وجلَّ أجرَ الصابرين بغـيْرِ حساب؛ ولنا ــ والشكرُ لله ــ صبرٌ جميل لانأسَفُ معه علىٰ فائت ولا نَأْسىٰ علىٰ مفْقُود، وإذا علم الله سبحانه حُسْنَ الاستِنابة إلىٰ قضَائه، والاستِكانة إلىٰ عطائه، عوَّض كلَّ يوم مايقول المبَشِّر به : هـذا مَوْلًى مولُود . وليست الإبلُ بأغلظَ أكبادًا ممن له قَلْبٌ لايُبالِى بالصَّدَمات كثُرتْ أو قلَّت ، ولا بالتَّبارِيح حَقُرت أو جَلَّت ؛ ولا بالأَزَمات إنْ هي توَالتْ أو تَوَلَّتْ ، ولا بالجُفُون إنْ ألقتْ بما فيها من الدُّموع والهُجُوع وتخلَّتْ ؛ ويخافُ من الدَّهْر مَنْ لاحَلَب أشْطُرَه ، ويأسَفُ علىٰ الفائت من لا باتَ بنبإ الخطوب الخَطِره ؛ علىٰ أنَّ الفادِح بموتِ الولد الملكِ الصالح ــ رضى الله عنه ــ وإن كان مُنْكِيا ، والنافِحَ بشجوه وإن كان مُبْكِيا ، والنائحَ بذلك الأسَف وإن كان لنار الأسف مُذْكِيا ، فإن وراءَ ذلك من تثبيتِ الله عز وجلَّ ماينْسِفُه نَسْفا ، ومن إلهامِه الصبْرَ ما يجدّد لتمزيقِ القلوبِ أحسَنَ مابه تُرْفىٰ . وبكتاب الله تعالىٰ وبسُنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلم عندنا حُسْنُ اقتداءٍ يَضْرب عن كلِّ رِثاءٍ صفحًا ، وما كُنَّا مع ذلك ــ والمنةُ لله ــ نُصْغى لمن يؤنِّب ويؤَبِّن أُذُنا ، ولا نُعيرها لمن يَلْحا إذِ الولَدُ الذاهبُ فى رضوانِ الله تعالىٰ سالكًا طريقًا لا عِوجَ فيها ولا أَمْتَا ، وانتقَل سارًّا بارًّا صالحًا صالحا وما هكذا كلُّ المَوْتىٰ نَعْيا ونَعْتا ، ولَئِنْ كان نَفَعَنا فى الدنيا فها نحنُ بالصَّدَقات والترحُّم عليه نَنْفَعُه ، وإذا كان الولَدُ عملَ أبيه وقد رَفَع الله تعالىٰ رُوحَ

ولدنا إلى أعلى عِلّيّين تحقّق أنه العمَلُ الصالحُ يرفَعُــه ؛ وفيما نحن بصَدَده من آشتغالٍ بالحروب ، مايُهَوِّنُ مايَهُول من الكُرُوب ؛ وفيما نحن عاكفُون عليه من مُكافَحات الأعداء ما بيْنَ المرْءِ وقلْبه يحُول ، بل عن تَخَيُّل أسَفٍ فى الخاطر يَحُول .

إذا آعْتادَ الفَتى خَوْضَ المَنَايا * فأَهْونُ ماتَمُرّ به الوُحُول !

فلنا بحمد الله تعالى ذُرّية دَرِيَّه ، وعقُودٌ والشكر لله كلُّها دُرِّيَّه .

إذا سيِّدٌ منهم خَلَا قامَ سيِّدٌ * قَئُولٌ لمـا قال الكِرامُ فَعُولُ !

مامنهم إلا مَنْ نُظر سـعدُه ومن سَعْدُه يُنْتَظر ، ومَنْ يحسُن أن يكونَ المبتدأَ وأن يسُدَّ حالُه بكَفَالته وكفايَتِه مَسَدَّ الخبر ، (والشمسُ طالعةٌ إن غُيِّب القمر) ؛ لاسيما من الذى يراد(١) هو صلاحه أعْرَف ، ومَنْ إذا قيل لبناءِ مُلْك هذا عليه قد وَهى قيل هذا خير منه من أعلى بِناءِ سعدٍ أشرف . وعلى كل حال لا عَدِمَ إحسانَ العمل الذى يتنوّع فى بِرِّه ، ويُعــاجِلُ قضاء الحقوق فيُساعِفُ مرسومَه فى توصـيله طاعةَ بحره وبَرِّه ؛ وله الشكرُ على مساهَمة المولى فى الفَرَح والتَّرَح ، ومشاركتِه فى الهَناء إذا سَنَح وفى الدمع إذا سَفَح ؛ وما مِثْلُ مَكارم المولى من يعزُبُ ذلك عن عِلْمها ، ولا يُعْزى إلى غير حُكْمِها وحِلْمِها ؛ وهو ــ أعزه الله ــ ذو التَّجارِب التى مَخَضَتْ له من هــذه وهذه الزُّبْده ، وعَرَضتْ عليه منها الهَضْبةَ والوهْده . والرغبةُ إلى الله تعالى أن يجعلَ تلك المصيبةَ للرَّزايَا خاتِمه ، كما لم يجعَلْها للظُّهور قاصِمَه ؛ وأن يجعلَها بعــد حَمْل هذا الهَمِّ وفِصاله على عليِّه فاطِمَه ؛ وأن يحبِّبَ إلينا كلَّ مايُلْهِى عن الأموال والأولاد ، من غَزْوٍ وجِهاد ، وأن يخوّلنــا فليس يُحدّ لدينــا على مفقود تأدُّبا مع الله عز وجل غيرُ السيوف فإنها تُعْرَفُ بالحِداد ، وأن لاتُقْصَفَ رِماحُنا إلا فى فَوْد أو فؤاد ، ولا تُحَوّل سروجُ خيلنــا إلا مِن ظَهْر جَوادٍ فى السَّرايا إلى ظَهْر جَواد ؛ وأن لاتُشق لدَيْنا إلا

(١) كذا فى الأصل ولم ندرك مغزاه .

أكبادُ النـادّ، ولا تُجز غيرُ شعُور ملوك التتار تُتَوَّجُ بها رُءُوس الرماح ويُصْعَد بها علىٰ قِمَم الصِّـعاد ؛ والله تعالىٰ يشكُر للولىٰ سعْيَ مَرَاثيه التى لولا لُطفُ الله بمـا صبَّرَنا به لأقامتِ الجنـائز ، وآستخفَّتِ النحائز ، ولأهْوتْ بالنُّفُوس فى آســتعمال الجائز من الأسَف وغير الجـائز، ولا شَـغَل الله لُبَّ المولىٰ بفادِحَه ، ولا خاطِرَه بسانِحة من الحُزْن أو بارِحَه ، ولا أسمَعَه لغير المَسَرَّات من هواتف الإبْهـاج صادِحه، إن شاء الله تعالىٰ .

الأســــلوب الرابع

(أن تفتَتَح المكاتبةُ بلفظ «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقام الشريف العالى»
وعليها كان الأمرُ فى أوّل الدولة التركية)

وهذه نسخةُ كتاب من ذلك، كُتِب بهـا عن الملك المظفَّرقطز ـ وصاحبُ اليمن يومئـذ المنصورـ بالبِشارة بهزيمة التَّتار . وأظنها من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، وهى :

أعزَّ اللهُ تعالىٰ أنصار المقرّ الشريف العـالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، المنصورىّ، وأعلىٰ مَنَارَه ، وضاعف آقتِدارَه؛ تُعْلِمه أنه لمـا كان النِّصف من شهر رجب الفرد، فتح الله تعالىٰ بنصر المسلمين علىٰ أعداء الدين :

مِنْ كُلِّ مَنْ لَوْلَا تَسَعُّر بأْسِهِ * لَاخْضَرَّ جُودا فى يَدَيْه الأَسْمَرُ

فصدرت هذه التهنئة إليه راويةً للصدق عن اليوم المحجَّل الأغر :

يَوْمٌ غَدَا بالنَّقْع فيــه يهْتدِى * مَنْ ضَلَّ فيــه بأنْجُم المُرَّان

ففى أُذُنِ الدهر من وَقْعِه صَمَم ، وفى عِرْنِين البَـدْر من نقعه شَمَم؛ ترفَعُــه رواةُ الأَسَل عن الأسنَّه ، ويُسْــنِده مَجَرُّ العوالى عن مَجَرِّ الأعِنّــه، أما النصرُ الذى شهد

الضربُ بِصحَّته ، والطعْنُ بنصيحته؛ فهو أن التتر خذلهم الله تعالىٰ آستطالُوا علىٰ الأيام، وخاضُوا بلادَ الشام، واسْتنجَدُوا بقبائلهم علىٰ الإسلام :

سَعىٰ الطَّمعُ المُرْدِى بهم لحُتُوفهم * ومَنْ يُمْسِكَنْ ذَيلَ المَطَامِعِ يَعْطَبِ

فاعتاضُوا عن الصحة بالمَرَض، وعن الجَوْهر بالعَرَض؛ وقد أرْخت الغفلةُ زِمَامهم، وقاد الشيطانُ خِطَامَهم؛ وعاد كيْدُهم فى نُحورهم : ﴿وردَّ اللهُ الَّذِينَ كفروا بِغَيْظِهِمْ لم يَنَالُوا خَيْراً وَكفىٰ اللهُ المُؤْمنِينَ القِتالَ وَكَانَ اللهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ .

رامُو الأَمورَ فمُذْ لاحَتْ عَوَاقِبُها * بِضِدّ ما أمَّلُوا فى الوِرْدِ والصَّدَر،

ظَلُّوا حَيَارىٰ وكأْسُ الموتِ دائرةٌ * عليْهِمُ شَرَعًا فى الوِرْدِ والصَّدَر!

وأَضْعفَ الرُّعْبُ أيْدِيهم فطَعْنُهُمُ * بالسَّمْهرِيَّةِ مِثْلُ الوَخْزِ بالإِبَرِ!

لاجرمَ أنَّهم لِسنِّ النَّدم قارِعُون، وعلىٰ مقابَلَةِ إحسانِنا بالإساءة نادِمُون .

تَدرَّعُوا بِدُرُوعِ البَغْيِ سابغة * والمَرْءُ يَحْصُدُ من دُنْياه مازَرَعا!

فأقلعَتْ بهم طَرَائقُ الضَّلال، وسارتْ مراكبُ أمانِيِّهم فى بِحَار الآمال؛ فتلك آمالٌ خائبه ، ومراكبُ للظُّنُون عاطِبه ؛ وأقلَعُوا فى البحر بمَرَاكبه ، والبَرِّ بمَوَاكِبه؛ وساروا وللشيطان فيهم وَسَاوِس ، تغرُّهم أُمْنِيَّةُ الظُّنُون الحَوا(١)س ؛ فما وَسْوَسَ الشيطانُ كُفْرًا إلا وأحرقه الإيمانُ بكوكب هذا

وعساكرُ المسلمين مستوطَنةٌ فى مَوَاطنها ، جاذِيةٌ عِقْبانُها فى وُكُور ظِبَاها ، رابضةٌ آسادُها فى غِيل أقْناها، ماتَزَلْزَلَ لمؤْمنٍ قدمٌ إلا وقدَم إيمانه راسِخه، ولاثبتَتْ لأحدٍ حجّةٌ إلا وكانت الجمعةُ لها ناسِخه ؛ ولا عُقِد[تْ] بُرْجُمة ناقوس إلا وحلَّها الأَذَان، ولا نَطَق كتابٌ إلا وأخرسه القُرءان؛ ولم تزَلْ أخبارُ المسلمين تنتقِلُ إلىٰ الكُفّار،

(١) بياض بالاصل .

وأخبارُ الكُفَّار تنتقل إلىٰ المسلمين إلىٰ أنْ خَلَط الصَّباحُ فِضَّته بذَهَبِ الأَصِـيل، وصار اليومُ كأَمْس، ونُسِخَتْ آيةُ الليل بسُورة الشمس؛ وآكتحَلتِ الأعينُ بمِرْوَد السُّبَات، وخافَ كلٌّ من المسلمين إصدارَ البَيَات

ينـامُ بإحـدىٰ مُقْلتَيْـهِ ويَتَّقِى * بأُخْرىٰ الأَعادِى، فهو يَقْظانُ نائمُ!

إلىٰ أن تراءتِ العينُ بالعين، وآضطَرمَ نار الحربِ بين الفريقَيْن؛ فلم تَرَ إلا ضَرْبا يجعلُ البَرْقَ نِضْوا، ويتركُ فى بطنِ كلٍّ من المشركين شِلْوا؛ حتّٰى صارت المَفَاوِزُ دِلَاصا، ومراتِـعُ الظِّبا لِلظُّبَا عِراصا؛ وآقتنصَتْ آسادُ المسلمين المشركينَ آقْتِناصا، ورأىٰ المجرِمُونَ النارَ فظَنُّوا أنَّهُمْ مُواقِعُوها ولم يجِدُوا عَنْها مَناصا؛ فلا رَوضَةَ إلا دِرْعٌ ولا جَدْوَلَ إلا حُسَام، ولا غمـامةَ إلا نَقْعٌ ولا وَبْلَ إلا سِهَام؛ ولا مُدَامَ إلا دِماءٌ ولا نَغَمَ إلا صَهِيل، ولا مُعَرْبِدَ إلا قاتِلٌ ولا سَكْرانَ إلا قَتِيل؛ حتّٰى صار كافُورُ الدِّين شَقِيقا، وتَلَوَّنُ الحَصْباء من الدِّماء عَقِيقا؛ وضَربَ النقْعُ فى السماء طَرِيقا، وآزدحمت الجنائبُ فى الفَضَاء فجعلَتْه مَضِيقا؛ وقُتِل من المشركين كُلُّ جَبَّار عَنِيـد، ذلك بمـا قدَّمَتْ أَيْدِيهم ﴿وما رَبُّك بظَلَّام للعَبِيد﴾ .

قلت : وهذه النسخة تلقَّفْتها من أفواه بعض الناس، ذكر أنه وجدها فى بعض المجاميع فحفِظها منـه، وهى فى غايةٍ من البَلَاغة، إلا أنهـا لا تخلُو من تغْـيير وقع فى بعض أماكنها، ولعـله من الناقل لهـا، من حيثُ إنه ليس من أهـل هـذه الصـناعة . ولم يسَعْنِى تركُ إيرادها لمـا فيها من المَحَاسن، ولآنفرادِها بأُسْـلوب من الأساليب التى كتب بها إلىٰ ملوك اليمن؛ فأوردتُها علىٰ ماهى عليه، وجزىٰ الله خيرا من ظَفِر لها بنسخة صحيحة فقابلها عليها وصحَّحها وأصلح مافيها .

الأسلوب الخامس

(وهو ماجرىٰ عليــه فى "التثقيف" أن تُفْتَتح المكاتبةُ بلفظ أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقام العالى)

صدره علىٰ ماذكره فى "التثقيف" أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المقام العالى، السلطانىّ، المَلَكى، الفلانى، الفلانى، مثل أن يقال : الأفضلىّ السيْفىّ، ثم الدعاء، ثم يقال : أصدَرْناها وتُبْدِى لعلمه الكريم كذا وكذا . قال فى "التثقيف" والمكاتبة اليه فى قَطْع النصف والطلب منه «والقصد من المقام العالى» وخاتمة الكتاب بالدعاء، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب اليمن» . وفى دُسْتور المقرّ الشهابىّ بن فضـل الله أنَّ خطابَه يكون بالمقام العالى .

وهذه نسخة كتاب إليه، ذكر المقرّ الشهابى بن فضل الله فى تذكرته أنه أنشأها جوابا عن هدِيَّتـه ولم يَكتُبْ بها إليه، وهو يومئذ الملكُ المجاهد سيفُ الدين علىّ آبن داود .

أعَزَّ الله تعالى أنصارَ المَقام العالى، ولا زالتْ مكارِمُه تَخُصّ من كلّ نوع بأَحسَنِه، وتُتْحِف بأزْيدِه وأزْيَنِـه، وتجْلُبُ كلّ غريبِ الديار من وَطَنه، وتمنَح من السَّوابق بمـا تَمتَدُّ المجرَّةُ فى رَسَنِه، ومن المحاسن بما يُمْلِي علىٰ (علىّ) أوصاف حُسْنه، ويُعْرِب عن الفَرَس والسيف والرمح بأطْيَبِ لحَنْ فى نصبِه وجرِّه ورَفْعه .

صـدرت إلىٰ المقام العالى أعزّ الله جانِبَه تصِـلُ بوداده، وتَصِـفُ حُبًّا عَلِق بفُؤاده، وتَعَرّض ببُرَحَاء يمنِيَّـةٍ أحلام الكَرىٰ طَمَعًا أن يرىٰ طيفـه فى رُقَاده . وتبـدى أن كتابه الكريمَ ورد جالبا لِدَرِّ مِننه، جالِبًا لليُمْن من يَمَنِه، نافِحًا بالطِّيب

من عَدَنِه ، ناقِدًا من قوّة السيوف بمـا لايدَّعِيه ٱبنُ ذِى يَزَنِه ، فتُؤمِّل ما حوىٰ من كَرَم لا يُجارىٰ ، ونِعَمٍ تملأ البَرَّ بِرًّا والبِحارَ بِحارا ، وأبدَعَ فى الهبة التى قدر مُهْدِيها (١) ، وقدّر فيها من التُّحَف مالا يُوجَد إلا فيها ، وجاء بكلِّ ما يستعينُ به المُرابِط ، وتهتزُّ به الخزائنُ والمرَابط ، وتفتخِرُ من الرِّماح بكل معتدِل قاسِط ، و بمـا يُرْدِى العِـدَا من أسِنَّته بكلِّ نَجْم هابط . كَمْ لهـا من فعلٍ جميل لايُشَارَك ، وكم قال طَعِين : إنَّ لهـا كَعْبا مُدَوَّرا وما قَدَر الطاعِنُ أن يقولَ إلا أنها كَعْبٌ مبارَك . ومن السُّـيوف بمـا لايُطْبَع النهر فى نَصْـله ، ولا يَطْمَع البرق فى مناضَلَةِ مِثْـله ، ولا يطمَحُ الهلال أن يستـقِيمَ علىٰ شَكْله ، كم أخمدتْ أنفاسا ولهـا ٱلتِهاب ، ولَمَعَتْ من نواحى الغُمُود كما نصَلَتْ أنْمُلٌ من خِضاب . ومن الخيل بما ترْقُص فى أعِنّتها ، وتفتخِرُ علىٰ البُدُور بأنها تدُوسُ علىٰ أهِلَّتها : من كلِّ أشهبَ يُحْسِنُ ٱبتِـدارا ، ويُحْسَبُ قمرًا قد تكمَّل إبدارا ، ويُطْلِـع فى كلِّ ناحيةٍ نَهارا جِهارا . وأدهَمَ قد غَصَب الظلام ، وٱستَدارت غُرَّتُه فأسفَر وجهُه تحتَ بُرْقُعٍ من لِثَام . وأحْوىٰ أخضَرِ الجلدة من بَيْتٍ للعرب ، قد حَوىٰ من الروض ماسَلَب . وكُمَيْت يَنْضُو النقْعَ وهو سَبُوق ، وتقدَّمَ فى مَيادينِه فجاء مضَمَّخا بالخَلُوق . وأشقَرَ قد كشَفَ البَرْق عِذاره ، وأطار الرَّكْضُ منه شَرَاره ؛ ومعها كلُّ فِيـلٍ كأنه غَمـام تبدّى ، أو مَلِكٌ مُفَدّى ؛ بخُرْطُوم يرتدُّ كالصَّوْلَجان ، و يمتدُّ كالأُفْعُوان ؛ ويَهُولُ مَنْظَرُه كأنه من تَمـام الخَلْق بُنْيان ، و يتحرَّكُ فتحسَبُه كُمَّ راقصةٍ تُشِير به إلىٰ النُّدْمان ؛ تقْشَعِرُّ منها الجلود ، وتقتُلُ نَفْسَها بنيرانِ الحقْد محافَظَةً علىٰ عُهود الهُنُود ؛ كم أحسنَتْ بخَرَاطِيمها لهـا من صُـدُورها الضـيِّقة مَخْرَجا ، وأضاءتْ من فُروجها بينَ أنيابها طُرّةَ صُبْح تحتَ أذيالِ الدُّجىٰ ؛ وزَرَافةٍ ، لها إنَافةٌ ، كأنَّها شفَقٌ بينه نُجُوم ، أو بُروقٌ تكلَّلَتْ بقَطْرِ الغُيُوم ؛ لهـا فى المَدْخَل علىٰ القُلُوب

(١) لعله التى دلت على الخ تأمل .

حذاقه، وولُوج من بابٍ ودُخُول من طاقه. وحمارةٍ وحشيّة جاءتْ بوَصْف الرّبيع فى آعتِدالِ الليل والنَّهار، وجمعتِ الهالاتِ والأقْمار؛ ودلّتْ علىٰ أصلٍ كريم تفتّحتْ فى فُروعه الأزْهار، وحكَتْ بخُطُوطها الدَّوْحَ مما تراكم ظِلُّه فأظلم وآنفَرج فأنار. ونمِرٍ يُؤلَف علىٰ نِفَاره، ويَسْبح ليلُه فى أنهارِ نَهاره؛ يتدفَّق فى مثل أنبوب القَنَاة المضْطَمِر، ويُصَدِّق من شبَّه رُكودَ الرُّبَا علىٰ الرِّمال بقِطْعةٍ من جِلْدة النَّمِر. وقِطّ الزَّبَاد الذى لاتَحْكِيه الأُسُودُ فى صُورَها، ولا تسمَحُ غِزْلانُ المسْك بما يَخْزُنُه من عَرَفِه الطيِّب فى سُرَرِها؛ كم تَنَقَّل فى بيوتٍ وطابَتْ مَوْطِنا، ومشىٰ من دار أصحابه فقالوا: رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا؛ وكذلك من الطِّيب ما يَطيب، وما يَزُور بنَفْحه الحبيب؛ قد بعثَ أكْبَره، وأفاد أكْثَره؛ وآستخدم المتنعِّمون به صَنْدَلَه وكافُوره وعنْبَرَه. وغيرهذه الأنواعِ مما جاد بإرساله، وأتىٰ من كلِّ بديع به وبأمثاله؛ فقُوبلتْ بالقَبُول هذه التُّحَف، وأُكرِمَتْ إكرامَ مَنْ لها عَرَف و[بها] آعتَرَف؛ وحُمِد سحابُه الذى تسرَّعتْ مَوَاطِره، وبعثَتْ من طُرَفِها بالروض وما تَنُوءُ عنه أزاهِرُه؛ وشرعت بما آتَّصلتْ بمصر أوائلُه وباليَمَن أواخِرُه؛ والله تعالىٰ يشكُرهِمَمَه التى تعالَتْ، وشِيَمَه العَلَوِيَّةَ التى لأجلها المحامِدُ قد توالَتْ. وقد جَهَّزنا له من التُّحَف المنعِم بها ما أمكن تعجيلُ حَمْله، وجرتْ عوائدُ ملوك الأقاليم بالتشريف من خزائننا العالية بمثله؛ وحمَّلْنا رسُلَه من السلام ما تَعْبَق به الفِجَاج، وتعذُبُ به البحار وهى مِلْحٌ أُجَاج. والمرادُ منه أن يواصِلَ بمكاتَبَاته التى تتناوَبُ الصُّدُور، وتنوب عن لَمْحَةِ البُدُور، وتَثُوبُ بما تَقَدَّمُ به من السرور؛ والله تعالىٰ يُديم لسلطانه التأييد، ولمُلْكه التأبيد، ولاقتدارِه ما به تَعِزُّ تَعِزُّ وتَميدُ زَبِيد. إن شاء الله تعالىٰ.

فائدة — المكاتبةُ إلى صاحب اليمن عن ولىّ العهد بالسلطنة كالمكاتبةَ إليه عن السلطان نفسه فى جميع المكاتبة علىٰ السَّواء.

وعلىٰ ذلك كتب القـاضى محيي الدين بن عبـد الظاهر عن « الأشرف خليل آبن قلاوون» قرين كتاب أبيه المنصور قلاوون إلىٰ صاحب اليمن، بالبشرىٰ بفتح طرابُلُس .

وهذه نسخته :

أعزَّ الله تعالىٰ نُصرةَ المقام! وأوْفَدَ عليـه كلَّ بُشْرىٰ أحسَنَ من أختها ، وكلَّ تهنئةٍ لايجلّيها إلا هو لوَقْتِها، وكلَّ مُبْهِجةٍ يَعْجِز البنانُ والبيانُ عن ثَبَتِها ونَعْتِها، وتتبلَّج فتودُّ الدُّرَر والدَّرارِيُّ لو رَقَتْ هذه إلىٰ تَرَقِّيها وسَمَتْ هذه إلىٰ سَمْتِها . وصبَّحه منهـا بكل هاتفةٍ أسْجَعَ من هَواتِف الحمائم، وبكل عارفةٍ أسرَعَ من عَوَارِف الزَّهَر عنـد عَزَائم النَّسائم ، وبكلِّ عاطفةٍ أعِنَّـةَ الإتحاف بالإيجاف الذى شكَرتْ الصِّفاحُ منه أعظَمَ قادرٍ والصحائفُ أكرَمَ قادِمٍ ، والغَزْوِ الذى لا يَخُصُّ تِهـامةَ ببُشْراه بل جميعَ النُّجود والتَّهـائم ، وذَوِى الصَّوارم والصَّرائم، وأُولِى القُوىٰ والقوائم، وكلَّ ثغر عن آبتهاج الإسلامِ باسم، وكلَّ بَرٍّ بَرَّ بتوصيل ماترتَّب عليه من مَلاَحم، وكلَّ بَحْر عَذْبٍ يمونُ كلَّ غازٍ لايَحْبِس عن جِهاد الكُفَّار فىعُقْر الدَّار الشَّكائم،وكلَّ بحرٍ مِلْحٍ كم تَغَيَّظ من مجاورةِ أخيه لأهل الشرك ومشاركَتِهم فيه فراحَ وموجُه المتلاطِم .

المملوكُ يَخْدُم خدمةً يقتَفِى فيها أثَروالده، ويجْرِى فى تجميلِهـا علىٰ أجملِ عوَائده، ويستفْتِح فيها آسـتِفتاحًا تَحُفُّ به من هُنا ومن هُنا تُحَفُ محَامده، ويصِـفُ وَلاَءً قد جعله الله أجملَ عُقُوده وأكملَ عقائده، ويَشْفَعُها باخلاصٍ قد جعله مَيْلُه أحسن وسائِلِه وقلْبُه أزيَنَ وسائده، ويُطْلِـعُ علمَه علىٰ أنَّ من سَجَايا المتعرِّضين إلىٰ الإعلان بشكرِ الله تعالىٰ فى كلِّ مايعرِضُ للمسـلمين من نصر ، ويُفْتَرَض لهم من أجر غَزْوٍ كم قَعَد عنه مَلِك فيما مضىٰ من عَصْر، أن يَقْدُروا هذه النعمةَ حقَّ قَدْرِها من التحدُّث

بنِعْمتها ، والتنبيه بسَماع نَغْمتِها ، وإرسال أعِنَّة الأقلام بها فى ميادين الطُّروس ، وإدارة حِرْباءِ وصف حَرحرب (؟) إلىٰ مُواجَهة خير الشُّموس .

ولما كانت غَزَواتُ مولانا السلطانِ ملكِ البسيطة الوالدِ خَلَّد الله سلطانه قد أصبحَتْ ذِكْرىٰ للبَشَر، ومواقِفُه للنصر كم جاءتْ هى والقَدَرُ علىٰ قَدَر، وقد صارت سِيَرُها وسَيْرُها هذه شَدْو فى الأسمار، وهذه جادّةٌ تَسْتَطِيبُ منها حُسْنَ الحَدْو السُّفّار، فكَمْ قاتلتْ مَنْ يليها من الكُفَّار، وكم جعلَتْ من يُوَاليها وهو مَنْصُورها منصورا بالمهاجِرين والأنصار .

ولمَّا أذلَّ الله ببأسها طوائِفَ التَّتار فى أقاصِى بلادِ العَجَم ، وجعلَ حَظَّ قلوبِهم الوَجَع من الخَوْف ونَصِيبَ وجُوهِهم الوَجَم ، وأخلىٰ الله من نُسُورهم الأوكارَ ومن أُسُودِهم الأَجَم ، وقَصَّرتْ بهم هِمَمُهُم حتّى صارُوا يخافُون الصُّبحَ إذا هَجَم ، والظَّنَّ إذا رَجَم ، وصارتْ رُؤْية الدماء تُفْزِعُهم فلو ٱحتاج أحدُهم لتنقيص دم لمرضٍ لأَجْنَح من خَوْفه وما ٱحتَجَم . وأباد اللهُ الأرمَنَ فحل بالنَّبيل منهم الوَيْل ، وما شَمَّر أحد من الجنود الإسلاميَّة عن ساعد إلا وشَمَّر هو من الذُّلّ الذيل ، ولا أثارَتِ الجِيادُ من الخيل عِثْيَرًا منعَقِدا إلا وظَنُّوه مَساءً قد أقبل أو لَيْل ، وٱنتهتْ نوبةُ القتل بهم والإسَار إلىٰ التكفور ليفون ملك الأرمن الذى كان يحمِى سَرْحَهم ، ويمردُ صَرحَهم ، ويستنطِقُ هَتْفَ التَّتار ويستَرْجِع صَدْحَهم ، وتعتَزُّ طرابُلُس الشام بأنّه خالُ ٱبْرَنْسها الكافر، ولسان شُورته السَّفِير ووجهُ تدبيره السَّافر . وطالَما غَرّ وأغْرىٰ ، وأجَرّ وأجْرىٰ وضَرّ وأضْرىٰ ، فلما توكَّل مولانا السلطان وعزم فَتَوكَّل ، وتحقّق أنَّ البلاء به قد نَزَل وما تشكَّك أنَّ ذلك فى ذِهن القَدَر قد تصوّر وتشكَّلْ ، وأنَّ يومَه فى الفَتْك سيكونُ أعظَمَ من أُمنِيَّته ، وأعظمُ منهما مُعاداة غَده ،

وأنَّ نصر الله لن يُخْلِفَـه صادقُ وعده، أكَلَ يَدَه ندامـةً علىٰ ما فَرَّط فى جَنْب الله وساق الحَتْفَ لنفسه بيده، فعمَر اللهُ بِرُوحه الخبيثةِ الدَّرْكَ الأسفلَ من النار، وسقاه الحَتْف كأسًا بعد كأْس لم يكن لها غَيْرُ المَلَك من خَمَّار . وكانتْ طرابلُس هى ضالَّةَ الإسلام الشَّريده، وإحدىٰ آبقاتِه من الأعوامِ العَديده، وكلما مَرَّتْ شَمَخَتْ بأنْفها ، وتأنَّقتْ فى تحسِـينِ مَنَازه منازِهها وتزيين رَيْحانهـا وعَصْفِها، ومَرَّتْ وهى لاتُغازِلُ مَلِكا بطَرْفها ، وكلَّمـا تقادَمَ عهـدُها تكثَّرت بالأفْواج والأمْواج من بين يَدَيْها ومن خَلْفها . إذِ البحرُ لها جِلْباب والسَّحابُ لهـا خِمار، وليس لهـا من البَرِّ إلا بمقْـدار ساحَةِ الباب من الدار، كأنها فى سِيف ذلك البحر جبَلٌ قد ٱنحَطّ، أو مَيْلُ ٱستواءٍ قد خرج عن الخَطّ، وما قصد أحدٌ شطَّها بنِكايةٍ الاشَطَّ وٱشتَطّ .

قدَر اللهُ تعالىٰ أنْ صَرفَ مولانا السلطانُ إليها العِنَان، وسبَقَ جيشُه إليها كلَّ خَبرٍ و"ليس الخَبَرُ كالعِيَان"، وجاءها بنَفْسه النفيسةِ والسعادةُ قد حرسَـتْه عيونُها وتلك المَخاوفُ كلُّها أمان، وقد ٱتَّخذ من إقدامه عليها خير حبائِلَ ومن مُفَاجآته لها أمدَّ عِنَان، وفى خِدْمته جنودٌ لاتستبْعِدُ مَفَازه ، وكم راحتْ وغدَتْ وفى نفسها للأعداء حَزازه، فامتطَوْا بخُيولهم من جبال لُبْنانَ نِيجاناً لهـا صاغتْها الثُّلوج، ومَعارِجَ لامُرافِق بها غيْرُ الرياح الهُوج، وٱنحطَّتْ تلك الجيوشُ من تلك الجَنَـادل، ٱنحطاطَ الأجادِل، واندفعُوا فى تلك الأوْعار، اندفاعَ الأوعالِ، ولم يحْفَلْ أحدٌ منهـم بسَرْب لاصق، ولا جبـلٍ شاهق، فقال : أهـذا منْخَفِضٌ أو عال، وشرَعُوا فى التحصـيلِ لمـا يُوهِى ذلك التحصِـين، وٱبتنىٰ كلُّ سورا أمامَ أسوارها من التـدْبير الحَسَن والرأْى الرَّصين، فمـا لَبِثُوا إلا بمقدار ماقِيـلَ لهم دُونَكُم والاختطاب ، ونَقْـلِ المَجانِيقِ علىٰ الخيـلِ وعلىٰ الرقاب، حتَّى جَرُّوها بأسرَعَ من جَرِّ النَّفَس ، وأجْرَوْها علىٰ الأرض سفائِنَ وكم قالوا : السَّـفينةُ لاتَجْرِى علىٰ يَبَس، وفى الحـال نُقلتْ إليها فرأَوْا من

متوقّلها مَنْ يمشِى بها على رجلين ومِنْهم مَنْ يَمْشِى على أربع ، ووجّهتْ سِهامُها وجُوهَها إلى مَنافذها فما شُوهدتْ منها عينٌ إلا وكان قُدّامَها منها إصْبَع ؛ وألقيتِ العَدَاوةُ بين الحجارةِ من المَجانِيق والحجارة من الأسوار ، فكم ثَقبت ونقبت عن فلْذة كبدها ، عن (١) وأَوقدت نِيرانُ المكايد ثمّ فكم حولَها من صافِن ومن صافِر ، وكم رَمْتهم بشَرَر كالقَصْر فوقَع الحافِرُ كما يقال على الحافِر ؛ وما بَرِحتْ سُوقُ أهلِ الإيمان فى نَفَاق ، على أهل النِّفاق ، وأكابِرُهم تُساقُ ، أرواحُهم الخبيثةُ إلى السّاق .

وكان أهلُ عَكّا قد أنجَدُوهم من البحر بكل بَرّ ، ورَمَوُا الإسلام بكل شَرَر وبكلّ شَرّ ؛ فصار السهْمُ الذى يخرُجُ بها لا يَخْرُج إلا مقترِنا بسِهام ، وشُرُفاتُ ذلك الثغر كالثّنايا ولكنها لكَثْرة مَنْ بها لا تَفْتَرّ عن ابتِسام .

وما زالتْ جنودُ الإسلام كذلك ، ومولانا السلطانُ لا تُرىٰ جماعةٌ مقدمة ولا متقدِّمة إلا وهو يُرىٰ بين أولئك . وٱستمرّ ذلك من مستهَلّ ربيع الأوّل إلى رابع ربيع الآخر ، فزحف إليها فى بُكْرة ذلك النهار وهو الثُّلاثاء زَحْفا يقتحِم كُلَّ هَضْبة ووَهْده ، وكلَّ صُلْبةٍ وصَلْده ؛ حتّى أنجز الله وعْدَه ، وفتحها المسلمونَ مجازًا وفى الحقيقة فتَحها وَحْده ؛ وطلعتْ سناجِقُ الإسلام الصُّفْر على أسوارها ، ودُخِلَتْ عليهم من أقْطارها ، وجاستِ الكسابة إلى دِيارها ؛ فاحتازها مولانا السلطان لنفسه مِلْكا ، وما كان يكون له فى فَتْحها شريكٌ وقد نَفىٰ عنها شِرْكا ؛ وكُلّما قيل هذه طرابُلُس فُتِحتْ قال النصْرُ لمن قُتِل فيها من النِّجد الواصلةِ : واكثر عَكّا وأهلَ عَكّا ؛ وأعاد الله تعالى بها قوّةَ الكفر أنكاثا ، فكان أخذُها من مائة سنةٍ وثمانين سنةً فى يومِ ثُلاثا ، واستُرِدّت فى يوم الثُّلاثا .

(١) بياض بالاصل .

ولمـا عَمَّت هذه البشائر ، وكَلَ بها مولانا السـلطان إلىٰ كلّ من يسْتَجْلِي حِسَان هذه العَرَائس ، ويستحْلي نَفِيس هذه النَّفائِس .

سيَّر مولانا السلطان إلىٰ المولىٰ كلَّ بشرىٰ تقَعْقَع بها البريد ، لتُتْلىٰ بأمره علىٰ كلِّ من ألْقىٰ السمع وهو شَهِيد ؛ وكما عَمَّ السرورُ بذلك كلَّ قريب قصـد أن يعُمَّ الهَنَاءُ كلَّ بعيد .

وأصدر المملوكُ هذه الخدمةَ يتجرّب بين يديه نَجْواها ، ويتوثَّب بعد هذه الفاتحةِ المباركةِ لكلِّ سانحةٍ يحْسُن لدىٰ المولىٰ مستَقَرُّها ومَثْواها ؛ لابَرِح المقامُ العالى يستبْشِر لكُمَاة الإسـلام بكلِّ فضل وبكل نُعمىٰ ، ويَفْرَح بسَرْح الكُفْر إذا آنتُهِك وبسَفْح المُلْكِ إذا يُحمىٰ ، وبسَمْع الشِّرك إذا يُصَمُّ وبقلبه إذا يُصْمىٰ ؛ والله الموفق .

الجمـــــلة الثـانية

(فى المكاتبات إلىٰ عرب البحريْنِ ومَنِ آنضافَ إليهـم)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنَّ بلاد البحَرْينِ لم تزل بيد العرب ، وأنها صارتِ الآنَ بيد بنى عُقَيل ـ بضم العين ـ من بنى عامر بن صَعْصَعَة ، من هَوازِنَ ، من قَيْس عَيْلان ، من العَدْنانية . قال فى " التعريف " : ومنهم قومٌ يَصِلُون إلىٰ باب السلطان وُصُولَ التُّجّار ، يَجْلُبون جيادَ الخيل وكِرَام المهَارِى واللُّؤلؤَ وأمتعةً من أمتعة العِراق والهند ، ويرجعون بأنواع الحِبَاء والإنعام والقُماش والسُّكَّر وغير ذلك ؛ ويُكْتَب لهم بالمسامَحة فيَرِدُون ويَصْدُرون . قال : وبلادهم بلاد زَرْع وضَرْع ، وبَرٍّ وبحر ، ولهم مَتاجِرُ مُرْبِحة ، وواصِلُهم إلىٰ الهند لاينقَطِع ، وبلادُهم مابين العِراق والحِجاز ، ولهم قُصور مبنيّه ، وآطامٌ عليّه ، ورِيفٌ غير متّسِع ، إلىٰ مالهم من النَّعَم والمـاشِيَة ، والحاشية والغاشـية ؛ إلا أنَّ الكلمة قد صارت بينهم شتّى ،

والجمـاعةَ متفرِّقة . وقد سبق الكلامُ علىٰ بلادهم مستوفًى فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك .

قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إلىٰ كُبرائهم «السامىّ» بالياء . والعلامة الشريفة «أخوه» ثم مادُونَ ذلك لمن دُونَهم .

وآعلم أنه فى "التثقيف" قد جمع بين عَرَب البحرين وعربِ البصرة وما وَالىٰ ذلك ، وجعل المكاتبةَ إليهم علىٰ ثلاث مراتِبَ .

المرتبة الأولىٰ — مَنْ يكتب إليه «السامىّ» باليـاء والعلامةُ الآسم ، وذكر أنَّ بهـا يكاتب أميرهم ، وسماه حينئذ «صَدَقة بن إبراهيم بن أبى دلف» وأن تعريفه فلان بن فلان . وذكر فى رتبته فى المكاتبة يومئذ محمدَ بن مانع ، وأخوه حسين بن مانع ، وعلىّ بن منصور .

المرتبة الثانية — من يكتب إليـه «السامى» بغير ياء والعلامة الآسم . وذكر منهم بَدْرانَ بنَ مانع — رُومِىّ بن أبى دلف — زَيْن بن قاسم — يُوسُـف بن قاسم ، سَـعِيد بن مَعْدى — راشد بن مانع — عيسىٰ بن عَرَفة — ظالم بن مُجَاشع — إسماعيل آبن صوارى — كَلْبى بن ماجد بن بَدْران — مانع بن علىّ — مانع بن بَدْران .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه «مجلس الأمير» والعلامة الآسم . وعدّ منهم جماعةً ، وهم عظيم بن حسن بن مانع — موسىٰ بن أبى الحسن — سعد بن مُغَامس — زيد بن مانع — هلال بن يحيىٰ — معمر بن مانع — محمد بن خَلِيفة .

قلت : وحاصلُ ما ذكره فى "التعريف" و"التثقيف" أنَّ جملةَ المكاتبة إليهم لاتجاوِزُ المراتبَ الثلاث المذكورة ، والكاتبُ يستخبِر أخبـارَهم فى المِقْدار ، ويُنْزِل كلَّ واحد منهم علىٰ قَدْر مرتبته من ذلك كما فى الأسماء المتقدِّمة الذكر .

المَهْيَـــعُ الرابع

(فى المكاتبة إلى صاحب الهِنْد والسِّنْد)

وقد ذكر فى "التعريف" أن صاحبَـه فى زمانه كان آسْمُه أبا المجاهـد محمدَ بن طُغْلقشاه . ثم قال : وهو أعظم ملوك الأرض شرقًا وغَرْبا وجَنُوبا وشَمَـالا ، وبَرًّا وبحرا ، وسَهْلا وقَفْرا ؛ وأن سِمَته فى بلاده « الإسكندر الثانى » ثم قال : وتالله إنه يستحِقُّ أن يسـمَّى بذلك ويُوسَم به : لاَتِّساع بلاده ، وكَثْرة أعْدادِه ، وغُزْر أمداده ؛ وشَرَف مَنابت أرضه ، ووُفُور معَادنه ، وما تنبتُه أرضُـه ، ويُخْرِجه بحره ، ويُجْبىٰ إليه ، ويَرِدُ من التُّجَّار عليه . وأهلُ بلاده أممٌ لاتُحصىٰ ، وطوائف لاتُعَدُّ . ثم حكىٰ عن قوم ثقات منهـم قاضى القُضاة سِراجُ الدين الهنـدىّ الحَنَفىّ ، وهو يومئـذ مدرِّس البِيدُمرِيَّة بالقاهرة ، والتاجُ البَزِّى ، والشيخ مبارك الأنْباتِىّ : أن عسكرَ هذا السلطان نحوُ التسعمائة ألفِ فارس ، وعنده زُهَاءُ ألفَىْ فِيل يقاتِل عليها ، وخلْقٌ من العبيد تقاتِلُ رَجَّالة مع سَعَة المُلْك والحال ، وكَثْرة الدَّخْل والمال ؛ وشَرَف النَّفْس والإِباء ، مع الاَتِّضاع للعلمـاء والصُّلَحاء ؛ وكَثْرةِ الإنفاق ، وعميم الإطلاق ؛ ومعامَلةِ الله تعالىٰ بالصَّدَقه ، وإخراج الكِفَاية للمرتَزِقه ؛ بمرتَّبات دائمة ، وإدْرارات متَّصِـلة ؛ بعـد أنْ حكىٰ عن رسُولَيْـه دميرخوان(١) وافتخار ما قال : إنه لو سكنتِ النفوسُ الى براءتهما من التعصب [فيه] لحكى منه العجائب ، وحدَّث عنه بالغرائب ؛ ثم ذكر أنه أرسل مَرَّة مالا برَسْم الحرمين وبيتِ المَقْـدِس ، وهديةً للسلطان تزيد علىٰ ألف ألف دينار ؛ فقُطِع عليها الطريقُ باليمن ، وقُتِـل مُحضِرُها بأيدى ممـاليك صاحب اليمن ، لأمرٍ بُيِّت بليل ؛ ثم قُتِل قاتلُوه ، وأخذ أهل اليمن المـال وأكلُوه ؛

---

(١) فى التعريف ص ٤٩ دفترخوان والافتخار .

وكتب عن السلطان إلى صاحب ايمن فى هذا كتاب منه « وقد عدَدْت عليه فَعْلته » وقيل فيه : « وفعَل مالا يَليق ، وأمسى وهو يُعَدّ من الملوك فأصبح يعدّ من قُطّاع الطريق » . وقد سبق(١) فى الكلام على المسالك والممالك من عظيم هذه المملكة وعِظم قَدْر رجالها مافيه كفايةٌ عن الإعادة .

قال فى " التعريف " : ورسمُ المكاتبة إليه رسمُ المكاتبة إلى القانات الكِبار المقدَّم ذكرهم ، فى هيئة الكتاب وما يُكْتب به والطُّغْراة والخُطْبة . وألقابه «المقام الأشرف، العالى، المَوْلَوِىّ، السلطانىّ، الأعظمىّ، الشاهنشاهىّ، العالمىّ، المجاهِدىّ، المرابِطىّ، المثاغِرىّ، المظفَّرىّ، المؤيَّدىّ، المنصورىّ، إسكندرُ الزمان، سلطانُ الأَوَان، منْبع الكرم والإحسان، المَعفِّى على ملوكِ آل ساسان، وبَقَايا أفراسياب وخاقان، ملكُ البسيطة، سلطانُ الإسلام، غياثُ الأنام، أوحدُ الملوك والسلاطين» ويُدعى له . قال : ولم يكتب إليه فى ذلك الوقت لقبٌ ينسب إلى الخلافة نحو «خليل أمير المؤمنين» ومايجرى هذا المجرى، إذ كان قد بلغنا أنه يَرْبأ بنفسه إلى أن يدَّعى الخلافه، ويرى له فضْلَ الإنافه .

قلت : مقتضى ماذكره فى "التعريف" حيث قال : إن رسم المكاتبة إليه رسم المكاتبة إلى القانات الكبار فى هيئة الكِتَاب وما يكتب به، والطُّغراة والخُطْبة، أن المكاتبة إليه تُفْتَتح بخُطبة مبتَدأة بـ«الحمد لله» كما تقدّم فى افتتاح المكاتبات إلى القانات . والذى ذكره فى " التثقيف " أن المكاتبة إليه تكون فى قَطْع البغدادىّ الكامل بالذهب والأسود، كما جرت العادةُ به، يعنى فى كُتُب القانات، إلا أنه جعل رسْمَ المكاتبة إليه : « أعزّ الله تعالى أنصارَ المقام، العالى، السلطانىّ،

(١) فى الأصل وقد سبق القول فى الكلام الخ ولكن زيادة « القول » ضارة .

العالىّ ، العادلىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ » . ثم قال : وهذه الألقابُ سطران كاملان وبينهما بيت العلامة على العادة ، وبعد السطرين المذكورينِ فى الجانب الأيمن من غير بياض «أبو المُجاهد محمدُ ابن السلطان طغلقشاه زيدت عظمته» . ولا يذكر لقبه . والدعاء ، والعلامة « أخوه » . وتعريفه « صاحب الهند » . وقد رأيت تصويره فى بعض الدساتير على هذه الصورة :

أعــز الله تعــالى أنصــار المقــام العــالى

بيت العلامــة

الســلطانىّ ، العــالمىّ ، العــادلىّ ، المــلكىّ ، الفــلانىّ

قال فى "التعريف" : والعُنوانُ جميعُـه بالذهب وهو سطران ، وتعريفه « صاحب الهند » . وبقية الكتاب بالسواد والذهب أسوةَ القانات ؛ وبه يُشْعِر كلام "التعريف" فيما تقدّم .

وهذا دعاء معطوف وصدر يليق به ، ذكره فى "التعريف" وهو :

ولا زال سلطانه للأعداء مُبِيرا ، وزمانُه بما يقضى به من خُلود مُلْكه خبيرا ، وشأنه وإن عَظُم يتدفّق بحرا ويُرْسِى ثَبِيرا ، ومكانُه ـ وإن جلّ أن يجلْبَبه مِسْكىّ الليل ـ يملأُ الأرجاءَ أَرَجًا والوجودَ عَبِيرا ، وإمكانه يستكين له الإسكندر خاضعًا وإن حاز نَعِيما جَمًّا ومُلْكا كبيرا ، ولا بَرِحَتِ الملوك بولائه تتشرّف ، وبآلائه تتعرّف ، وبما تَطْبَعُ مهابَتُه من البيض بيِض الهند فى المُهَج تتصرّف . المملوكُ يخدُم بدعاء يحلّق إلى أفُقه ، [ويُحِلّ العلياءَ والمجرّة فى طُرُقه][1] ، ويُهْدى منه مايعتدلُ به التاج فوقَ مَفْرَقه ، ويعتدُّ له النَّجمُ ولايثْنِيه إلّا وسادة تحتَ مِرْفَقِه ؛ ويسمو إلى مقام جَلَالِه ولا يسأمُ

(١) الزيادة من "التعريف" وهى لازمة .

من دعاء الخير، ولا يَمَلّ له إذا ملّت النجوم عن السيرْ، ولا يزال يَصِفُ ملكَه المحمّديّ بأكثر مما وُصف به المُلْكُ السليمانى، وقد قال: وأُوتِينا من كلّ شَىْء، وعُلِّمْنا مَنْطِقَ الطير .

قلت : وهذا الدعاء المعطوف مما يؤكد ٱبتداء المكاتبة بالدعاء، خلافا لما تقدّم أنه مقتضىٰ تصوير كلامه فى "التعريف" .

وٱعلم أنَّ فى هذه المكاتبة علىٰ ما ذكره فى "التعريف" شيئين قد خالف فيهما قاعدةَ المكاتبات عن الأبواب السلطانية .

أحدهما ــ إتيانه فى "التعريف" فى ألقابه بالمولوىّ . والثانى ــ قوله فى الصدر المتقدّم الذكر «المملوك يخدم» . فقد ذكر صاحب "التعريف" فى كتابه "عرف التعريف": أن السلطان لا يكتب عنه فى العلامة «المملوك» وإنما خالف القاعدةَ فى ذلك هنا تعظيماً لمقام المكتوب إليه وإعلاءً لرتبته، حيث قال فى أوّل كلامه : إنه أعظمُ ملوك الأرض علىٰ ما تقدّم ذكره، فعبَّر عن مقامه بما يليقُ به، وخاطبه بما يليق بخِطَابه، كما تقدّم أنه كان يُكْتَب إلىٰ أبواب الخلافة «المملوكُ» أو «الخادم ينتهِبُ ثرىٰ الأعتاب» أو «يقبِّل الأرض» ونحو ذلك تعظيما لمحل الخلافة، لا سيما وقد تقدّم أن صاحب الهند حينئذ كان يدّعِى الخلافةَ، إلا أنَّ نظام هذا الملك قد ٱختَلَّ ونَقَص عمَّا كان بموت السلطان محمد بن طغلقشاه حين توفى، وٱستقر مكانه ٱبن خالتِه فَيْرُوز شاه .

ولعل المكاتبةَ التى ذكرها فى "التثقيف" إنما رُتِّبت علىٰ حُكْم ما كان فى أيّامه بعد[1] ذكر المكاتبة المذكورة، بعد أن ذكر أنَّ محمد بن طغلقشاه مات وقام فَيْرُوز شاه

(١) لعل هذه البعدية برمتها من زيادة الناسخ أو طغيان القلم كما لا يخفى .

مَقَامه ، إلا أنه مثل المكاتبة المذكورة بمحمد بن طغلقشاه ، فاقتضىٰ أن يكون هو المعنىَّ بالمكاتبة . ثم تفرّقتِ المملكةُ بعـد ذلك فى سلطانين ، فيما اخبرنى به بعضُ أهل الهند ، ثم تزايد نقصُها بعد أن غزا[ها] تمرلنك وغَلَب عليهـا ، ثم نزح عنها . وبكل حال فلاينبغِى أن يقَصَّر بصاحب الهند عن رُتْبة القانات . ولم أقف علىٰ نص مكاتبةٍ كتب بها إلىٰ صاحب الهند فأذكُرَها .

المقصـــد الثـانى

(من المصطلح المستقرّ عليه الحال من المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية فى المكاتبات إلىٰ ملوك الغرب ، وفيه أربع جمل)

الجمـــلة الأولىٰ

(فى المكاتبات إلىٰ صاحب أفريقيَّة ، وهو صاحب تُونُس ، وتنضم إليها بِجاَيةُ وقُسَنْطِينةُ تارةً ، وتنفرد عنها أخرىٰ)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممالك نقلا عن "التعريف" أنَّ حدّ هذه المملكة غَرْبا من جزائر بَنِى مِزْغَنَّانَ إلىٰ عَقَبـة بَرْقَة الفارقةِ بين طرابُلُس وبين بَرْقة ، وهى نهـايةُ الحدّ الشرقى ؛ ومن الشام البحرُ(١) ؛ ومن الجَنُوب آخر بلاد الجريد والأرضُ السَّوَّاخة ؛ إلىٰ ما يُقـال إنه موقعُ المدينة المسَّماة بمدينة النُّحاس . ثم قال : وهو أجلُّ ملوك الغرب مطلقا .

وقد تقدّم هُنَاك أيضا ذكر حال مملكتها ومَنْ ملكها جاهليـة وإسلاما ، وأنهـا كانت قبلَ الإسلام بيـد البَرْبَرِ حينَ كان معهم جميعُ المغرِب ، ثم آنتزعها منهم الرُّوم

---

(١) أى الرومى كما تقدم فى ج ٥ أثناء الكلام علىٰ مملكة تونس .

والفَرَنج إلىٰ أن انتهتْ حالَ الفتح الإسلامىِّ إلىٰ جرجيس ملك الفَرَنج فى جملة ممالك المغرِب، ودارُ مُلْكه يومئذٍ سُبَيطَلَةُ، إلىٰ أنْ فُتِحت فى خلافة عثمان رضى الله عنه علىٰ يدِ عبدِ الله بن أبى سَرْح، وتوالتْ عليها نوّاب الخُلَفاء، وصارتْ دارُ المملكة بها القَيْرَوان حتّى صارَتْ منهم إلىٰ [بنى الأغلب](1) ثم إلىٰ العُبَيْدِيين بنى عبيد الله المهدىّ؛ ثم الموحِّدين أصحاب المهدىّ بن تُومَرْت، وهى بأيديهم إلىٰ الآنَ. وهى مستقرّة الانَ بيد الحَفْصِيِّين منهم، وهم يدَّعون النسبَ إلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب رضى الله عنه فيقولون: أبو حَفْص عمرُ بن يحيىٰ بن محمد بنِ وانُّود بن علىّ بن أحمد بن والّال بن إدريس بن خالد بن اليَسَعَ بن إلياس بن عُمر بن وافتن ابن محمد بن نُجَيه بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب. وباعتبار ذلك القائمُون بها من بنى أبى حفص يدَّعُون الخلافةَ، ويُدْعىٰ القائم منهم فى بلاده بأمير المؤمنين، وربّما كاتبه بها بعضُ ملُوك المغرب. قال فى "التعريف": ومن أهل النسب من يُنْكِر ذلك، ويجعلُهم تارةً بنَسبٍ إلىٰ عَدِىّ بن كعب: رهْط عمرَ بن الخطاب دُونَ بنى عمرَ. ومنهم من ينْسُبهم إلىٰ هَنْتاتَةَ من قبائل البربر بالمغرب، وهى قبيلة عظيمةٌ مشهورة.

وهى الآن (إلىٰ حدود الثمانمائة) بيد السلطان أبى فارس عَزُّوز؛ وقد دوّخَ البلاد وأظهر العدلَ ورفَع مَنارَ الإسلام. وقد ذكر فى "التعريف" أنَّ السلطان بها فى زمانه كان المتوكِّل علىٰ الله أبو يحيىٰ أبو بكر.

ورسم المكاتبة إليه فيما ذكره فى "التعريف" أن يُكتَب بعد البسملة. «أما بعد حمدا لله» بخطبة مختَصَرة فى مقتضىٰ الحال، ثم يقول فهذه المفاوضةُ، أو النجوىٰ، أو المذاكَرة، أو المطارَحة، أو ما يجرِى مَجْرىٰ ذلك، تُهْدِى من طِيبِ السلام (ومن

(1) بيض له فى الاصل والتصحيح مما تقدم فى ج ٥ ص ٢٢.

هذا ومثله) إلىٰ الحضرةِ الشريفة ، العليَّــة ، السنية ، السريَّة ، العالميّة، العادليّة، الكامليَّة ، الأوحدية ، حضرة الإمارة العدَوِيَّة ، ومكان الإمامة القُرَشِـيَّة، و بقية السُّلالة الطاهرة الزكيَّة، حضرة أمير المسلمين، و زعيم الموحِّدين، والقائم فى مصالح الدنيا والدين، السلطانِ السـيِّد الكبير، المجاهِد، المؤيَّد، المرابط، المثاغِر، المظفَّر المنصور، المتوكِّل على ربه، والمجاهد فى حبِّه، والمناضل عن الإسـلام بذَبِّه، فلان ويُدْعىٰ له بما يناسب مختصَرا، ثم يذكر مايليق بكرم الجُدُود .

صدر آخر — من "التعريف" أيضا :

صـدرت إليه تُهدِى إليه من طِيبِ السلام ما ترِقُّ فى جانبـه الغربِيِّ أصائِلُه، ويروقُ فيما يَنْصَبُّ لديه من أنهار النَّهار جَداوله، ويحملُه لكلِّ غادٍ ورائح، وتجرى به السُّفُن كالمُدُن والركائبِ الطَّلائح، وتخصُّ ذلك المقرّ منه بثناءٍ يعِزُّ لأن يُنِيبَ لبُعْده الدار، ويستطْلِع ليلُ العِرَاق به من فَرْق أفْرِيقيَّة النهار، وتحامِى مِصرُ عن جارتها المَنَّعه، وتَفْخَر بجاريتها الشمس التى لا تُرىٰ فى أفُقِها إلا مُبَرْقَعه .

ولم يذكر فى "التعريف" قَطْع الورق، ولا العُنْوان ، والخاتمة، والعلامة، ومافى معنىٰ ذلك . والذى ذكره فى "التثقيف" أنَّ رسم المكاتبة اليه فى قطع الثلث بقَلَم التوقيعات ، نظيرُ ما كُتِب به لصاحب فاس، وهو أن يكتَب بعـد البسملة بحيث يكون تحتها سواءً فى الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبدُ الله ووليُّه » ثم يخلَّى مقدارُ بيت العلامة، ثم تكتب الألقـابُ الشريفة من أوّل السطر مسامتًا للبسملة . وهى «السلطانُ ، الأعظمُ، المـالكُ، المَلِك، الفلانىُّ، السيدُ، الأجلُّ، العـالمُ، العادلُ، المؤيَّد، المجاهد، المرابِط، المثاغِر، المظفَّر، الشاهنْشاه ــ وهــذه

تختصر غالبـا ـ ناصرُ الدُّنيا والديـن ، سلطان الإسلام والمسلمين ، محيي العدلِ فى العـالمين ، مُنْصِف المظلومين من الظالمين ، وارثُ المُلْك ، سلطانُ العرَب والعجَم والتُّرْك ، فاتح الأقطار ، مانح الممالك والأقالِيم والأمْصار ، إسكَنْدَرُ الزّمان ، مُولِى الإحسان ، جامعُ كلمة الإيمان ، مُملِّك أصحابِ المَنابر والتُّخُوت والتِّيجان ، ملكُ البحرين ، مسَلِّك سبيِل القبلتين ، خادم الحَرَمين الشريفين ، ظلُّ الله فى أرضه ، القائم بسُنَّته وفَرْضه ، سلطان البسيطة ، مؤمِّن الأرض المُحِيطة ، سـيدُ الملوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، أبو فلان فلان ، ابن الملك الفلانى فلان الدين والدنيا » ويرفع فى نسبه إلىٰ منتهاه «خلَّد اللهُ سلطانَهُ ، ونصَرَ جيوشَه وأعوانَه . ويجتهد أن يكون «وأعوانه» آخرَ السطر أو قريبًا من آخره . قال : والواجبُ بدل ولىّ أمير المؤمنين قَسِيم امير المؤمنين ، ثم يقول : يخُصُّ الحضرةَ ، العاليةَ ، السَّنِيَّة ، الشَّريفة ، الميمُونة ، المنصُورة ، المصُونَة ، حضرة الأمِيرِ العـالم ، العادل ، العابِد ، المؤيَّد ، الأوحد ، فلان ، ذُخْر الإسلام والمسلمين ، عُدّة الدنيـا والدِّين ، ناصر الغُزاة والمجاهِدين ، سـيفِ جماعةِ الشاكرين ، صَلَاحِ الدول ، والدعاء بإهداء السلام والشكر . ثم بعد حمدِ اللهِ بخُطْبة مختَصَرة جِدّا ، فإنا نوضِّح لعلمه الكريم ، وتعريفه «صاحب تونس» .

قلت : وخطابه بالإخاء .

وهذه نسخة كتاب كتب بها عن الظاهر "برقُوق" من إنشاء عَلَاء الدين ، وهى

بســم الله الرحمن الرحيم :

من عبــد الله و وليِّـــه .

السلطانِ الأعظم المـالك ، المَلِك الظاهرِ ، الأجلِّ العـالِم العادِل ، المجاهِد المرابِط ، المثاغرِ المؤيَّد ، المظفَّر ، سيفِ الدُّنْيا والدِّين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ،

مُحيي العدْل فى العالَمين، مُنْصِف المظلومين من الظالمين، قامع الخوَارج والمتمرِّدين؛ وارث المُلْك، مَلِك ملوك العَرب والعَجَم والتُّرْك، مُبيـد الطُّغاة والبُغاة والكُفَّار، مُمَلِّك الممـالك والأقاليم والامصارِ؛ إسكَنْدرِ الزمان، ناشِرِ لواء العدْل والإحْسان؛ مليك أصحاب المَنَابِرِ والأَسِرَّة والتُّخُوت والتِّيجان؛ مالكِ البحرين، صاحبِ سُبُل القِبْلتين، خادمِ الحَرَمين الشريفين؛ ظلِّ الله فى أرضه، القائم بسنَّته وفَرْضه، سلطانِ البسيطه، مؤمِّن الأرض المحيطه؛ سـيدِ الملوك والسلاطين، قسيم أمير المؤمنين؛ «أبى سـعيد بَرْقُوق» خلد الله سلطانَه، ونصر جُنُودَه وأعوانَه، وأفاض علىٰ العباد والبلاد جُودَه وإحسانَه؛ تحيـــةٌ تتأرَّج نَفْحا، وتتبلَّجُ صُبْحا؛ وتَطْوِى بعَرْفها نَشْرَ الخُزامىٰ، وتعيدُ ميِّتَ الأشواق حَيًّا إذا ما؛ تخُصُّ الحضرةَ العلية، السنيَّة السريَّة؛ المظفَّرة الميمُونه، المنصورةَ المَصُونه؛ حضرةَ الأميرِ العالم، العادلِ، المجاهِدِ، المؤيَّد، الأوحد؛ ذُخْرِ الإسلام والمسْلمين، عُدّةِ الدنيا والدين، قدوة الموحِّدين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، سيفِ جماعةِ الشاكريـن، صلاحِ الدول، المتوكِّل على اللهِ أحمد، آبن مولانا الأميرِ أبى عبـدِ الله محمد، آبن مَوْلانا أمير المؤمنـين أبى يحيىٰ أبى بكر، آبن الأمراء الراشـدين، أعَزَّ الله دولتـه وأذَلَّ عُدَاتَه، وأنجَزَ من صُعُود أوليـائه وسُعود آلائِه صادَق عِدَاتِه .

بعدَ حمد اللهِ جامعِ الشمل بعد تَفْرِيقه، راتِقِ خَلَل المُلْك عند تمزيقه؛ والشهادة بأنْ لا إلٰه إلا هو مُبيدُ الباطل بحقِّ سِرِّه وسرِّ تحقيقه؛ والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه موضِّح سبيلِ التوكُّل على الله وطريقه . وإهـداءِ سلامٍ ما الزَّهَرُ بأعبقَ من فَتيقه، وثناءٍ ماالروضُ بأعطَرَ من خَلُوقه؛ فإننا نُوضِّح لعلمه الكريم أنَّ كتابه الكريم ورَدَ وُرُودَ السِّنة علىٰ الجَفْن الساهر، أو المُزْنة علىٰ الروض الزَّاهر؛ أو الزُّلَال علىٰ الأُوَام؛ أو البُرْء علىٰ السِّقام؛ فمدَدْنا إليـه يَدَ القَبول، وآرتَحْنا له آرتياحَ الشمائل

إلى الشَّمول، ومِلْنا إلى مُفاكهته ميْلَ الغُصُون إلى الرِّياح، وامتزجنا بمُصافاته امتزاجَ الماءِ بالراح، وفضَضْنا خِتامَه عن فِضِّيِّ كلامه، وذهبْنا إلى ذهبِيِّ نِثاره ونِظامه، وتأمَّلناه تأمُّلا كلَّ نَظرِ عبدِه وخادمه، ووقفْنا عليه وقوف شَحِيح ضاعَ فى التُّرْب خاتَمُهُ، ونظَمْنا جواهرَ اعتبارِه فى قلائِدِ الأفكار، وصبَوْنا إلى اختباره كما صبَت النُّفُوسُ إلى الآدّكار، وفتحْنا له جُهْد الطاقةِ بابًا من المحبة لم يُغْلَق، ونُقْسِم بمَنْ خَلَق الإنسانَ من عَلَق أنَّها بغير قلوبنا لم تعْلَق، فإذا سطورُه جنودٌ مُصْطَفَّه، أو قِيانٌ بها الحِسان محتَفَّه، وإذا رقْمُه طِرازُ حُلَّه، أو عَقْدٌ شدّه البَنانُ وحَلَّه، وإذا لفْظُه قد رَقَّ وراق، ومَرَّ بالأسماع فملأ بحلاوتِه الأوْراق، وإذا معناه ألطَفُ من النَّسِيم السارِى، وأعذَبُ مذَاقا من الماء الجارِى، وإذا سَجْعه يفوقُ سجْعَ الحَمَائم، ويُزْرِى بالرَّوْض الضاحك لبُكاء الغَمَائم، وإذا سلامُه قد حيَّتْه الأزَاهِر، وطوَى بعَرْفه نَشْرَ الروض الزَّاهِر، وإذا هَناؤُه قد ملَك عِنانَ التَّهانى، واسْتَمْطَر عَنَانَ الأمانِ من سَماء الأَمَانِى، فعبَّر لنا لفظُ عَبِيره عن معْنى المحَبَّه، وقرَّب شاسِعَ الذِّكر وإنْ بعُد المَدَى بينَ الأحِبَّه، وأقام شاهِدَ الإخاء على دعوى الإخلاص فقبِلْناه، ونادى مُطِيعَ المودَّة فاستَجَبْنا له ولبَّيناه، سَقْياً له من كتَاب غُذِّى بِلبان الفَصاحه، وجرى جوادُ التماحه من مِضْمار المَلاحه، لاعيبَ فيه، سِوى بلاغةٍ فيه، ولا نقْصَ يعتريه، سِوى كمالِ باريه، لعمرى لقد فاق الأواخِرَ والأوائل، فما أجدرَ كلامَه بقول القائل :

وكَلامٍ كدَمْع صَبٍّ غَرِيبٍ * رَقَّ حَتَّى الهواءُ يَكْثُفُ عِنْده!
راق لَفْظًا ورَقَّ معنًى فأضْحَى * كُلُّ سحرٍ من البَلَاغة عَبْدَه!

لله دَرُّه من كتَابٍ حلَب دَرَّ الأفراح، وجدّدَ من أثوابِ المَسَرَّة ما كان قد أخلقَتْه يَدُ الأتْراح، فَهِمْنا معناه فَهِمْنا، وشرحْنا متْنَ فَحْواه فانشَرَحْنا، وعلمنا ما اتَّصل

بسمعِكم من خَبَرنا العجيب ، وحديثِ أمرنا القَـديم الغريب ؛ الذى أظْهَر فينا لله أسرارا ، وكتَب لنا منه عناية كَبَت بها أشرارا ؛ جلَّ جلالُه خافِضٌ رافع ، مُعْلٍ بحكمته واضِع ؛ سبحانَه أوجدَ بعدَ العدم وأنسىٰ ثم أنشا ، قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ المُلْكِ تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشَا ؛ كَسَر وجبَر ، وقرَنَ المبتدأ بالخَبَر ، وهبَ ما كان سلب ، وجعل لصبرِنا حسْنَ المنقَلَب ؛ أعادنا إلىٰ المُلْك مع كثرةِ الأعداء وقِـلّة الأنصار ، وأظهَرنا بعـد الخَفَاء فاعتَبِرُوا ياأُولِى الأبْصار ؛ وأبْرزَ إبْرِيزَنا بعـد السَّبْك خالصًا يَرُوقُ الناظر ، ويفوق برَوْنَقه وجْهَ(١) الروضِ الناضر ؛ فاعلموا أنَّ لله فى ذلك سِرًّا خفِيًّا ، لم يزل ببركة رسوله صلّى الله عليه وسـلم بنا حَفِيًّا ؛ فُتْم لنا فيه بواجِبِ الهَنَا ، وأحاط بنا طَوْلُكم الطويلُ من هاهُنا وهاهنا ؛ فاستجْلَيْنا من كتابكم عرائسَ بُشْراه ، وحمِدْنا عند صَباح طِرْسِـه ليلَ مَسْراه ؛ وشكرنا له هذه الأيادِىَ التى تقصُر عنها الأيْدى المتطَاوِله ، وثنَيْنا إليكم عِنانَ الثناء الذى فاق بمخايِلِه الروضَ الأرِيضَ وخمائله .

ولـمَّـا تمثل إلينا رسولُكم المكَرَّم ، وصاحبُكم الكاملُ المعظَّم ؛ ذُو الأصْل الطاهر ، والنَسب الباهِر ، والرأْى السَّديد ، والبَأْس الشديد ؛ فلان : لازال علىٰ مقامه حَسَنا ، وجَفْنُ علمه لايبعَثُ الجهلُ عليه وسَـنا ؛ فأبْدىٰ إلينا مافى وِطَابه ، وأثلج الصُّدورَ بحكمَةِ فَضْله وفَصْلِ خطابه ؛ وأخذ يجاذِبُنا عنكم أطرافَ الأحاديثِ الطيِّبه ، ويرسِلُ علينا من سَماء محبتِّكم مُزْنَها الصَّيِّبه ؛ وأطرَبَنَا بسَماع أخبارِكم ، ونَصْرِ أعوانكم وأنْصارِكم ؛ ونَبَّه على ما أُودِعَه كتابُكم ، وتضمَّنَه من النُّصرة خِطابُكم ؛ ودَوْس جنودكم جزيرة «غُودِش» وعَوْدِهم بالمَنِّ والمَنْح ، وتِلاوتِهم عند الانتصار ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ والفَتْح﴾ وقُفُولِهم متفيِّئين من الجهاد بظِلِّه ، فَرِحِينَ بما آتاهُمُ اللهُ من فَضْله ؛ بعدأن نَعَقتْ منهم على الكُفَّار الغِرْبان ، واقتنَصتِ الرجالُ آجالَهُم اقتناصَ العِقْبـان ، وجاءتْهم كالجبال

(١) لعله "حسن الروض" .

الرَّواسى ، وظَفِرت بهـم أظافيرُ الرُّماة ومخالِبُ المَراسى ؛ وغنَّتْ عليهم أوتارُ القِسِىّ فأرقصَتْ رُءوسَهم على الضَّرْب ، وسقَتْهم كُئُوسَ الرَّدىٰ مُتْرَعةً ونعم هـذا الشِّرْبُ لأولئك الشَّرْب ؛ وأعادتِ المسلمين بالغنائِم إلىٰ الأوطان بعد نَيْل الأوْطار ، وبَشَّرت الخواطرَ بما أقرّ العُيونَ من النَّجاح والنَّجاة من الأخطار ؛ هذا والعدُوّ المُلْقِى السَّلَم عند الجِهاد ، جِىءَ بهم مقَرَّنِينَ فى الأصْفاد ؛ يالَهَـا غَزاةً أشرق نُورُها كالغَزاله ، وأشرق يومُ إسلامها على ليل الكُفْر فأزالَه ؛ وتولَّدمنها الجهـادُ فلا يرىٰ بعدها إن شاء الله عقيما ، وتلَا لسانُ الشَّوقِ إليه ﴿ ياليْتَنِى كُنْتُ معَهُمْ فأفُوزَ فوزًا عَظِيما ﴾ . لا زالتْ رقَابُ الأعداء لأسيافكُمْ قِرابا ، وغزَواتكم الصالحةُ تُنيلكم من الله أجْرا وثوَابا .

ولمـا عُرِضَتْ علينا من جُودكم عنـد العَشِىّ الصافِناتُ الجِيَـاد ، وحَلَّينا منهـا بقلائِد مَنِّها الأجياد ؛ نُقْسم لقد حيَّرتنا ، ألوانُها إذ خيَّرتنا .

فمن أشهَبَ ـ كأنَّ الشُّهُب له قَنِيصه ، أو الصَّباحَ ألبسه قميصَه ؛ أو كأنمـا قُلِب من اللُّجين فى قالَب البياض ، وسُقِى سوادُ أحداقِه أقداحَ الرَّباحة من غير حياض .

ومن أدهَمَ ـ كأن النِّقْس لمسه(١) فى مِدَاده ، أو الطَّرْف أمدّ طرفه بسَوَاده ؛ أو كأنما تقَمَّص إهابَ الليل ، لَمَّـا طلع عليه فجْرُ غُرَّته فولّى مشمِّر الذيل .

ومن آحمر ـ كأنما صِيغَ من الذهَب ، أو كُوِّن من النار واللَّهَب ؛ أو كأنَّ الشَّفَق ألقىٰ عليه قميصَه ثم أشْفق ، أو الشَّقيقَ أجرىٰ عليه دمعه دمًا وجَيْبَه شقَّق .

ومن أشْقَر ـ كأنمـا أُلْبِس ثوبَ الأصيل ، وبَشَّر السرِيَّةَ يُمْنُ طَلْعته بالنصر والتحصيل ؛ أو كأنَّ النُّضار كساه حُلَّة العُشَّاق ، وقد آدّرَعُوا بأسواق المحبَّة مَطارِفَ الأشواق ؛

(١) لعله غمسه فتأمل .

ومن أخضرَ ـ كأنما تلفّع من الروض الأَريض بأوراقِه، أوصُبِـغَ بالعِذار المخضرّ وقد شُقّتْ عليه مرائرُ عُشّاقه، أوكأنّما الزُّمُرُّد تلوينُه، أومن شاربِ الشادنِ تكوينُه، كلٌّ بِطرْف منها يسبِقُ الطَّرْف، ويروقُ الناظرَ بالحُسْن الناضِر والظَّرْف، تُقامُ به حُجّةُ الإعراض وهو باعترافِ ممتطيه قادرملى، وينصب إلىٰ الادراك حسنَ السير كجُلْمُود صَخْرٍ حَطّه السَّـيْلُ من عَلِ ـ فأسرَجْنا(١) لهـا جواد القَبُول، وٱمتطَيْنا منها صَهوةَ كلِّ مأمول، وأعددْناها مَرَاكب لَمَواكب، ولليلِ المهمّات الواقعة بُدورًا وَكواكِب، وأطلَقْنا أعِنّةَ شُكْرِها فى ميادينِ المَحامد، وطَفِقْنا نُرَجِّع ذكرها بين شاكرٍ وحامِد.

مكاتبة وزير تونُس

رأيت فى الدستور المنسوب للمقرّ العلائىّ بن فضل الله أنه كتب إلىٰ أبى عبد الله ٱبن بعلاص.

صدرَتْ هذه المكاتبةُ الى (٢) الشَّيْخىّ، الكبيرىّ، العالِمى، الفاضلىّ، الأوْحَدىّ، الأكْمَلىّ، الأرشَـدى، الأمجدىّ، الأثيرىّ، البليغىّ، الفلانى؛ مجدِ الإسلام، بَهَاءِ الأنام، شرفِ الفضلاء، زينِ العلماء، نجل الأكابر، أوْحدِ الأعيان، بركة الدَّوْلة؛ صَفْوة الملوك والسلاطِينِ؛ (ويدعىٰ له بما يناسبه). وتوضِّح لعلمه المبارك كيت وكيت؛ ولم يذكر قطع الورق ولاالعلامة ولا التعريف. والذى يظهر أنَّ قَطْع الورق العادة، والعلامة «أخوه». والتعريف «وزير تُونُس».

---

(١) الظاهر أن هذا هو جواب لمـا عرضت قد قرن بالفاء وهو جائز بعد لمـا وحتى اذا تأمل.

(٢) بياض بالأصل والظاهر أنه "إلىٰ المجلس الشيخىّ الخ".

الجمـــــلة الثـانية

(فى مكاتبة صاحب الغَرْب الأوسط ، وهو صاحبُ تِلِمْسانَ)

وقد تقدّمَ فى المقالة الثانيــة فى الكلام على المَسَالك والمَمَالك الكلامُ علىٰ هــذه المملكة ومَنْ ملكها جاهليَّةً و إســلامًا ؛ وهى الآنَ بيد بَنِى عبــد الوادِ من زَناتةَ من قبائل البربر ــ والقائمُ بها الآنَ منهم إلىٰ حدود الثمــانمــائة من الهجرة هو الســلطانُ أبو زَيَّان ، ابنُ السلطانِ أبى حَمُّو : موسىٰ بن يوسُف ، بن عبد الرحمن ، بن يحيىٰ ، آبن يَغْمَراسِن ، بن زَيَّان ، بن ثابت ، بن محمد ، بن ركدار (١) ، بن تيدوكس ، بن طاع الله ، آبن علىّ ، بن القاسم ، بن عبد الواد .

قلت : وذكر هــذه المملكةَ فى "مســالك الأبصار" مضافةً إلىٰ مملكة فاس : لاَنضمامها حينئذٍ إليها فى مملكة السلطان أبى الحسن المَرِينىّ : صاحب فاس فى زمانه ، ولذلك لم يذْكُر لصاحبها مكاتبةً فى "التعريف" . على أنِّى رأيت من صاحبها موسىٰ آبن يغمراسن مكاتبةً إلىٰ الناصر «محمد بن قلاوون» صاحب مصر . وسيأتى إيرادُها فى جملة المكاتباتِ الواردةِ إلىٰ هذه المملكة . وذكر صاحب "التثقيف" أن صاحبها فى زمانه فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حســين » أى سلطانَهَا يومئذ أبو حفص عمرُ بن أبى عمران موسىٰ ، وأن المكاتبة إليه مثلُ المكاتبة إلىٰ صاحب تونُس المقدّم ذكره علىٰ السواء . وذكر أنه كتب ذلك إليه ورأىٰ جماعةَ كُتّاب الإنشاء يكتُبونه ، وكذلك رأيته فى الدُّسْتور المنسوب إلىٰ المقرّ العلائى بن فضلِ الله ، ولم أظْفَر بصورة مكاتبةٍ فأذْكُرَها .

---

(١) فى "العبر" ج ٧ ص ٧٥ زكراز وحرر .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى المكاتبة إلىٰ صاحب الغَرْب الأقصىٰ)

وهو صاحبُ فاس، وتعرف مملكته ببَرِّ العُدْوة . وقد تقدّم الكلامُ علىٰ مملكتها وأحوالهـا ومَنْ ملَكها جاهليَّةً وإسـلامًا فى المقالة الثانيـة فى الكلام على المسالك والممالك ، وأنها الآنَ بيد بَنِي عبد الحق من بَنِي مَرِينٍ من زناتَةَ من قبائل البربر، وأنها الآنَ بيدِ السلطان أبى فارسٍ عثمانَ، آبنِ السلطان أبى العبَّاس أحمد، آبنِ السلطان أبى سالِمٍ إبراهيمَ ، آبنِ السلطان أبى الحسن علىّ ، آبنِ السلطان أبى سـعيدٍ عثْمانَ ، آبن السلطان أبى يوسفَ يعقوبَ، آبن عبد الحق، بن محيُو، بن أبى بكر، بن حَمَامةَ، آبن محمد ، بن ورصيص (١) ، بن فكُّوس ، بن كوماط، بن مَرِيـن ، بن وَرْتاجن، آبن ماخُوخ، بن وحريج (٢)، بن قاتن، بن بدر، بن نجفت، بن عبد الله، بن ورتبيص، آبن المعز، بن إبراهيم ، بن رجيك ، بن واشين ، بن بصلتن، بن شرا (٣) ، بن أكيا ، آبن ورشيك، بن أديدت، بن جانا، وهو زناتة .

وقد ذكر فى " التعريف " أن السلطنة فيهم فى زمانه فى الدولة النـاصرية «محمد بن قلاوون» صاحب مصر كانت فى السلطان أبى الحَسَن علىّ بن عثمان المقدّم ذكره . ثم قال : وورِث هذا السلطانُ مُلْكَ العزفِيِّين بسَبْتَةَ، وملْكَ بنى عَبْد الواد بتِلِمْسانَ ، وأطاعه ملِكُ الأندَلُس ، ودانَ له ملِكُ أفريقيَّة ، وعرض عليــه آبنته فتزوَّجها ، فساقها إليــه سَوْقَ الأمَة . ثم قال : وبنو مَرِينٍ رجالُ الوغىٰ وناسُها ،

---

(١) تقدم فى ج ٥ ص ١٤٤ " ورزيز " .

(٢) تقدم " جديج " .

(٣) تقدم " ورمشد " .

وأبطالُ الحربِ وأحلاسُها؛ وهم يفخَرون بغَزارة علمه وفضْل تقواه . قال : وهو اليوم ملِكُ ملوك الغرب، ومُوقدُ نار الحرب .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" بعد البسملة :

من السلطان الأعظم الملك الفلانىّ، إلى آخر الألقاب المذكورة فى المكاتبة لصاحب تونُس، إلى قوله ونصر جيوشَه وجنودَه وأعوانه . ثم يقول: تحيّةٌ يفتَتح بها الخِطاب، ويقدّم منها ما زكا وطاب؛ وتقال هنا سَجعاتٌ مختصرة نحو أربع أو خمس، يُخَصُّ بها الحضرةَ الشريفة العلية، الطاهرة الزكيّة، حضرةَ المقام العالى، السلطان، السيد، الأجلّ، العالم، العادل، المجاهِد، المرابِط، المثاغِر، المؤيَّد، المظفَّر، المنصور، الأسرىٰ، الأسنىٰ، الزّكىّ، الأتقىٰ؛ [المجاهد فى الله] (١) المؤيَّد علىٰ أعداء الله؛ أمِير المسلمين، قائد الموحِّدين، مجهِّز الغُزاة والمجاهدين، مجنِّد الجنود، عاقد البُنود، مالِئ صدور البَرارِى والبحار، مُزَعْزِع أسرَّة الكُفَّار، مؤيِّد السنة، معِزّ الملة، شَرَف الملوك والسلاطين، بقِيّة السَّلَف الكريم، والحَسَب الصَّمِيم، رَبيبِ المُلْك القديم، أبى فلانٍ فلان بن فلان . ويرفع نسبه إلى عبد الحق وهو أوّل نسبه . ويقال : فى كل منهم : أمير المسلمين أبى فلان فلان؛ ثم يُدْعىٰ له : نحو أعز الله أنصاره أو سلْطانَه أو غير ذلك من الأدعية الملوكية بدعاء مطوَّل مفخَّم . ثم يقال : أما بعدَ حمد الله، ويخطُب خُطبة مختصرة . ثم يقال : أُصدِرتْ إليه، وسُيِّرت لتُعرَض عليه، لتهدِىَ إليه من السلام كذا وكذا . ثم يقال : ومما تبديه كذا وكذا .

صدر : يليق بهذه المكاتبة ـ تُهْدِى إليه من السلام مايطْلُع عليه نهاره المُشْرِق من مَشْرِقه، ويحييه به الهلالُ الطالع من جانِبِه الغَرْبىّ على أُفُقه؛ وتَصِف شَوْقا أقام

(١) زدناها من "التعريف" .

بين جَفْنَيْه والكَرَىٰ الحَرْب ، ووِدَادا يملأ برسله كلَّ بحر ويأتى بكل ضَرْب ، وثناءً يُستَرْوَح بنسيمه وإن كان لا يستَرْوَح إلا بمـا يهُبُّ من الغرب ؛ مقدِّمةً شكْرا لمـا يبهَـر من عَزَماته التى أعزَّتِ الدين ، وغَزتِ الملْحدين ؛ وحلَّقتْ على مَنْ جاورها من الكُفَّار [تحليق](١) صُقور الرجال علىٰ مُسِفَّة الغِرْبان ، وتُقيم عند الشجاع عُذْرَ الجبان ؛ وتبيِّن آثارَها فى أعناق الأعداء وللسُّيوف آثارُ بيَان ؛ وإن كان فعلهُ أكثرَ مما طارَتْ به الأَخْبَـار ، وطافَتْ به مُخَلَّقات البشائر فى الأقطار ؛ وسار به الحجيجُ تعْرِف آثارَه عَرَفات ، وصارت تَستَعْلِم أخبارَه وتندُبُ قبل زمانِهِ مافات .

والذى ذكره فى "التثقيف" أنه كان السـلطان فى زمانه فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون» عبدالعزيز بن أبى الحَسَن علىّ المقدّم ذكره ؛ وذكر أنَّ المكاتبة اليه فى قطع النِّصف ، وأنه يكْتَب تحتَ البسملة فى الجانب الأيمن من غير بياض ما مثاله « عبْدُ الله ووَلِيُّه» ثم يخلَّى بيت العلامة ؛ ثم تكْتَب الألقابُ السلطانيةُ فى أوّل السطر مسامتًا للبسملة «السلطانُ الاعظمُ الملك الفلانى» إلى آخر الألقـاب السلطانية المـذكورة فى المكاتبة إلى صاحب تونس ، إلى قوله : ونصر جُيوشَه وأعوانَه . ثم يقول : تخُصُّ المقـام العالى ، السلطان ، الملك ، الأجلَّ ، الكبيرَ ، المجاهدَ ، المعاضدَ ، المرابَط ، المثاغر ، المُكَرَّم ، المعظَّم ، المظَفَّر ، الموقَّر ، المؤيَّد ، المسدَّد ، الأسعد ، الأصعد ، الأرشَدَ ، الأنْجَدَ ، الأوحَدَ ، الأمجد ، البَهِىّ ، الزَّكِىّ ، السَّنِىّ ، السَّرِىّ ، فلان ، أمير المسلمين ابن أبى فلان فلان ، إلى عبد الحق المَرِينِى . والدعاء بمـا يُناسب ذلك المقـام ؛ ثم أمَّا بعـد حمـد الله ، بخطبـة لطيفة ، فإنا نُفاوضُ علمه الكريم ونحو ذلك . وأكثرُ مخاطبته بالإخاء وتُختَم بالدعاء ،

(١) زدنا هذه الكلمة وان لم تكن فى الاصل ولا فى التعريف لمـا لايخفى من لزومها لصحة الكلام .

والعلامة «أخوه» وتعريفه «مَلِك الغَرب» . وفى الدستور العلائىّ أنَّ الطلَب منه بالمستمدّ، ويختم باستعراض الحوائج والخِدَم مكَمَّلا بالدعاء .

وهذه نسخة كتابٍ من الملك الناصر «محمد بن قلاوون» إلىٰ السلطان أبى الحسَن المَرِينىّ، فى جوابِ كتابٍ ورد عليه منه وهى :

عبدُالله ووليُّه ، السلطان الملكُ الناصر ، ناصرُ الدنيا والدين ، سلطانُ الإسلام والمسلمين ، مُحْيِي العدل فى العالمين ، مؤمِّن أولياء الله المؤمنين ، ظلُّ الله الممدود ، ومُيَسِّر السُّبُل للوُفُود ، حامِي القبلتَيْن بحُسَامه من أهل الجحود ، وخادمُ الحرمين الشريفين متَّبِعا للسنة الإبراهيمية فى تطهير بيت الله للطائفين والعاكِفين والرُّكَّع السُّجُود ، والقائم بمصالح أشرف روضة وطِيبُه يعطِّر طِيبَها فى الوجود ، ولىّ أمير المؤمنين جمعَ الله به كلمة الإسلام بعد الآفتراق ، وقمَعَ برُعْبه أهلَ العناد والشِّقاق ، وأوزعه شُكْرَ نعم الله التى ألَّفتْ على وَلَائه قلوبَ ملوكِ الآفاق ، وأمْتَعه بها مِنحةً صيَّرت له الملك بالإرث والآستِحْقاق ، وسَيَّرت كواكِبَ مناقبِه فلها بالمَغَارب إضاءةٌ وبالمشارق إشراق . آبن السلطانِ السعيدِ الشهيدِ الملك المنصور ، سيف الدنيا والدين ، سقىٰ الله عهدَه عِهادَ الرحمة ذواتِ إغْراق ، وأبقىٰ مجدَه بمحمَّده الذى للأمة المحمدية علىٰ تعظيمه إجماعٌ وعلىٰ تقديمه آتِّفاق ؛ يخُصُّ المقام العالىَ ، الملكَ الأجَلَّ الكبيرَ ، المجير ، العاضد ، المُثاغِر ، المظاهِر ، الفائز ، الحائز ، المنصُور ، المأثُور ، الفاتح ، الصَّالح ، الأمْكَن ، الأصْوَن ، الأشْرف ، الأعْرَف ، الكريمَ ، المعظمَ ، أبَا الحسن علِيّاً أميرَ المسلمين ، آبنَ السلطان السعيد ، الحميد ، الطاهر ، الفاخرِ ، الماهِد ، الزاهِد ، الأورع ، الأرْوَع ، أمير المسلمين ، أبى سعيد عثمان ، آبن السلطان ، السعيد ، الرَّشيد ، السابِق ، الوامق ، الجامِع ، الصادِع ، أميرالمسلمين

أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق، ناظم مُفَرَّق الفَخَار، وهازِم فِرَق الفُجّار، والملازِم لإحياء سنَّة الجهاد المتروكةِ فى الأقطار، حتّى يجمع فى ملكه أطرافَ الغرب الأقصىٰ للاّستيلاء والإِستظهار، ويُخْضِع لفَتْكه كلَّ متكبِّر جَبَّار، ويُرصِّع فى سِلْكه ماتأبَّى وصَعُب من تلك الديار، ويرفَع لنُسُكه أعمـالاً من الجهاد والاجتهاد تَسُرّ الحفَظة الأبرار، يظْهَر فيها لبَركة الاسم العَلَوىّ من نَشْر الهدىٰ، وقَهْر العِدا، أوضَحُ الأدِلّة وأبينُ الآثار، ويُؤْثِر سلطانَنا المحمدىَّ من علِىّ عَزْمه، وحِمِىّ حَزْمه، بأعزِّ الأعوان والأنصار، فتَظْفَر دارُ الإسلام من قومه بمهاجرين من أبناء البلاد يَقَرُّ لهم بأمِّ القُرىٰ قَرار، ويَسِير سِوَاهم للبيت ذِى الحَجَر والحِجْر والباب والمِيزاب والمُلْتزَم والجِدار والأستار، بسلام مُشْرِق الغُرَر، مُونَق الحِبَر، وثناءٍ مع ريَّاه لا يُعْبأ بالعَبِير مع نَشْره ولا يعتَبَر، ووِداد مُخْفِىِّ الخبر، وٱعتـدادٍ يطُول منه فى ألسِـنَة الشكر عن إحصائه وٱستِقْصائه قِصَر، وإيرادٍ لمَفَاخره التى سارتْ بها الأخبار والسِّير، وٱعتقادٍ لمآثِره التى سبق عثمانُها إلى إحراز مَزَايا الفضل وجاء عَلِيُّها علىٰ الأثَر.

أما بعـــدَ حمدِ الله الذى أمر أوْلياءَه المؤمنين بالمُعاونة والمُظَافره، ونَهىٰ عبـادَه الصالحين عن المباينةِ والمُنافَره، ورعىٰ لحُجَّاج بيتــه حرمةَ القَصْـد وكتب لهم أجر المهاجَره، ودعا إلى حَرَمه، من أهَّله من خَدَمه، فأجابه بالتلبية وأثابَه وآجَره. والشهادة له بالواحدانِيَّة التى تُسْـعِد بمصاحبة المصابره، وتُصْـعِد إلى الدرجات الفـاخره. والصلاة والسلام على سيدنا محمد ذى المَنَاقب الباهره، والمواهب الزّاخره، والمراتب التى منهـا النُّبوّة والرسالةُ فى الدنيا والوسـيلةُ والشفاعةُ فى الآخره، وعلى آله وصَحْبه الذين أفنىٰ الله الشركَ بصَوارمهم الحاصدةِ وأدْنى القَتْـلَ بعزائمهم الحاضره، صلاةً إلىٰ مظانِّ الرِّضوان متواتِره، مابرحتْ وفودُ مكةَ البركةَ الوافره، ووَضَحتْ لقاصدى الكعبة البيت الحرام أوجهُ القبول سافره.

فإنه ورد ـ أورد الله تعالى البُشرىٰ على سمعه ، وأيَّد آهتمامه بتأليف شَمْل السَّعْد وجمعه ـ من جانبه المُكَرَّم ومَعْهَده ورَبْعه ، كتابٌ كريم نسبُه ، نخيم أدَبُه ، عليٌّ منْصبه ، مَليٌّ إذا أخْلف السَّـحابُ بما يَهَبُـه ، سَرِيٌّ سَرَتْ إلىٰ بيتِ الله وحَرَم رسـوله القريب قُرَبُه ، على يد رسوله : الشـيخِ الأمينِ الأزكىٰ ، الأوْرَع الأتقىٰ ؛ الخطيب البليغ ، المدرِّس ، المفيد أبي إسحاق ابنِ الشيخ الصالح أبي زيد ، عبـدِ الرحمن بن أبي يحيىٰ ، نَفَع الله به ؛ وحاجبه الكبيرِ المختارِ ، المرتضىٰ ، الأعزّ ، أبي زَيَّان عريف آبن الشيخ المرحوم أبي زَكَرِيَّا ، أيده الله تعالى ؛ وكاتِبِه الأمجد الأسعدِ أبي الفضل آبن الفقيه المُكَرَّم أبي عبد الله ، بن أبي مَدْيَنَ ، وفقه الله تعالىٰ وسدّده ، ومَنْ معهم من الخاصَّة والزعماء والفُرْسان الماثِلين فى خدمة الجهة المصونةِ بلَّغها الله أرَبَها ، وقَبِل قُرَبها ؛ الواصلةَ برَكْبكم المبارَكِ الرَّواح والمَغْدىٰ ، المُعَانِ على إكمال فرض الحج المؤدَّى ، المَرْحُولين بحمد العقبىٰ كما حُمِد المَبْدا ؛ ففضَضْنا خِتامه الذَّكِيّ ، وأفضْنا فى حديث شكره الزَّكى ؛ وعرَضْنا منـه بحضرتنا روْضًا يانعُ الروض به مَحْكِيّ ، وحضَضْنا نُوَّابنا على إعانة خاصَّة وفْدِه وعامتهم علىٰ قضاء النُّسُك بذلك الحرم المكِّيّ ؛ وتلمَّحنا فصولَه الميمونة فإذا هى مقصوراتٌ على مَثُوباتٍ محضـه ، ورَغَبات تُؤَدِّى من الحج فَرْضَه ؛ وهِباتٍ يعامِلُ بها مَنْ يضاعِفُ أجرَه ويُوَفِّيه قَرْضه ، وقُرُباتٍ يَحْمَدُ فاعلُها يوم قيام الأشهاد نَشْرَه وحشْرَه وعَرْضَه .

فأمَّا ما ذكره من ورود الكتابين الواصلين إلىٰ حضرته صُحْبـة الشيخين الأجَلَّين « أبي محمدٍ عبـدِ الله بن صالح ، والحاج محمد بن أبي لحان » وأنه أمضىٰ حكمهما ، وأجرىٰ رسمَهما ، فقد آثَرْنا للأجر حَوْزَه ، وآخترنا بالشُّكر فوزه ؛ وقصدْنا بهما تجديد جلبَاب الودَاد ، وتأكيدَ أسباب الولاء علىٰ البِعاد ؛ وإلا فمع وجودِ إنصافه الحقُوقَ

من غاصبها تُستَعاد ، والوثُوقُ بنَصْره للمظلوم وقهرِه للظالم لا يختَلِف فيه ٱعتِقَاد ؛ وقد شكرنا لكم ذلك الٱحتفال ، وآثرنا حمْدكم فى المحَافل والمحال .

وأما مانعته مما أشرتم إليه مما يتعَيَّن له التقديم، ويستحِقُّ توفِيَةَ حقه من تكرير التكريم ؛ وهو تجهيزُ رَكْبِكم المحروس فى السُّرىٰ والمُقام ، فى خدمة مَنْ يقُوم مقام الوالدة المرحومة فى الٱحترام؛ سقىٰ الله صوبَ الرحمة صفيحَها، ورَقّىٰ إلى الغُرُفات روْحها؛ ومعها وجوهُ دولتكم الغرّ ، وأعيانُ مملكتكم من سُرَاة بنى مَرِينٍ الذين تُبْهِج مرائيهم وتَسُر ؛ وما نبهتم عليــه من ٱرتفاع شانهم ، وٱجتماع فُرْسانهم ، وٱستِيداع أمانَتِنا نفائسَ أنفُسهم وأديانِهــم ؛ فقد ٱستقبلْناهم علىٰ بُعْدٍ بالإكرام، وأحلَلْناهم من القُرْب فى أعلىٰ مقام ، وصرفْنا إلى تِلْقائهم وجهَ الإقبــال والٱهتمام، وعَرَّفْنا حقَّهم أهلَ الإسلام ؛ ونشَرْنا لهم بفِنائِنا الأعلام ، ويَسَّرنا لهم باعتنائنا كلَّ مَرام ؛ وأمَرْنا بتسهيلِ طريقِهم، وتَوْصِيل البِرِّ لفريقِهم؛ وأسدَلْنا الخلَع علىٰ جميعهم، وٱحتفَلْنا بهم فى قُدومهم ومُقامهم وتَشْييعهم ؛ وأجزَلْنــا لهم أقسامَ الإنعام فى توجيههم ، وكذلك يكون فى رُجُوعهم؛ وعَرَضُوا بين أيدينا ماأصْحَبْتَهم من الطُّرَف والهَدَايا، التى لاتحملها ظهورُ البِحار فكيفَ ظُهورُ المطايا ؛ من عُقُود مَنظَّمه ، وبُرودٍ مُسَهَّمه ، ومَطَارِفَ مُعْلمه، ولطائفَ بالإمكان والإتقان مُعْلِمه، وصنائعَ محْكَمه، وبدائعَ للأفهام مفْحِمه، وذخائرَ معظَّمه ، وضرائرَ للشموس فى الكون والسِّــمه ، وبَوَاتِرَ تفرِّق بين الهــامِ والأجسام والهام ملحمه ، وأخايرَ بمقدار مُهْدِيها فى الجَلَال مُفْهِمه، وخيولٍ مُسَوَّمه بالأهــلَّة مُسْرجَة وبالنُّجوم ملْجَمه ، معَوَّدةٍ نِزَال الأبطال معلَّمه ، ذواتِ صــدور مبقُورةٍ وأكفالٍ مسلَّمه؛ تسحَبُ من الحرير أذيالا ، وتَصْحَب من الوَشْى سِرْبالا ، وتَمِيسُ بحُلَلها وحِلَاها عُجْبا وٱختيالا ، ويقِيسُ مشبِّهُها سُرْعتها بالبرق فلا يتغالىٰ ، عاتيات الأجْسام، عالياتٍ كالآكَام ؛ لفُحُولهــا صَهِيل يَذْعَر الأُسُود ، ولسنابِكِها

وقع يفطر الجلمود، أتعبت الرواض ، وركبت منها صهوة كل بحر سابح حيث لجج الموت تخاض ؛ وقرنت مرابطها بحماية جواهر النفوس من الأعراض ، وجنيبة تجر من ذيولها كل فضاض ؛ وحسبت لاختلاف شياتها كأنها قطع الرياض : من شهب كأنما ارتدت الأقاح ، أو غدت رافلة فى حلل الإصباح . ودهم نفضت عليها الليالى صبغها فلا براح ، وربما أغفلت من ذلك غرر وأوضاح . وكمت كأنها فتح[1] صلب البطاح ، تطير إلى الظفر بجناح . وحمر كأنها خلقت للنجاح ، وأطلقت أعنتها فقالت ألسنة أسنتها للطرائد : لا براح . وخضر كأنها البزاة الموشاة الوشاح ، أو مشيب فى الشباب قد لاح . وشقر تكبو فى طلبها الرياح ، وتخبو نار البرق إذا أمسى بسنا سنابكها اقتداح .

ووراءها البغال ، التى تحمل الأثقال ، ولا تزل فى الأوحال بحال ؛ وعليها الزناريات الموشعه ، وحليها الجلال الملمعه ؛ وهى تمشى رويدا ، وتبدى قوة وأيدا ؛ كأن قلامتها قناه عيدا (؟) وهى وافرة الأمداد ، فاخرة على الجياد ، باهرة العدد متكاثرة الأعداد ، راسخات القوائم كأنها أطواد ، شامخات الرءوس حاليات الأجياد ، باذخات الأكفال غلاظ شداد ، وسارت لها إلى رحابنا انقياد ، وصارت من محل إسعاد إلى مواطن إصعاد ؛ فتقبلنا أجناسها وأنواعها ، وتأملنا غرائبها وإبداعها ؛ وجعلنا يوما أو بعض يوم فى حواصلنا إيداعها ؛ ثم استصفينا منها نفائس آثرنا إليها إرجاعها ، وفرقنا فى أوليائنا اجتماعها ؛ وقسمنا مشاعها ، وغنمنا لما أفاء الله صفاياها ومرباعها ؛ فتوالت لكل ولى منها منح ، وسارت إلى كل صفى منها ملح ؛ وقالت الألسنة وطالت فى وصف ما عليه به فتح ، فاستبان ووضح ؛ وكان لأهل الإيمان بنعته أعظم هناء وأكبر فرح .

(١) من جملة معانى الفتح الماء الجارى على وجه الأرض شبهها فى جريها بالماء الجارى على البطحاء الصلبة تأمل .

وسطّرناها وركبُكم المباركُ قد رامتِ السُّرىٰ نجائبُهم ؛ وأمّت أُمَّ القُرىٰ ركائبُهم ؛ يسايرهم الأمنُ ويصاحِبُهم ، ويُظاهرهم اليُمْن ويواظِبُهم ؛ فقد أُعِدّت لهم المِيَرُ فى جميع المَنازِل ، وشُــدّتْ لهم الهِجَانُ البَوَازِل ؛ وأتْرِعت لهم المواردُ والمناهِل ، وأُمْرِعت لهم بالمِيرةِ القِفارُ والمَرَاحل ؛ ووُكِّلت بهــم الحَفَظةُ فى المَخاوِف ونُصِبَتْ لهم الأدلّةُ فى المَجَاهل ؛ وجُرِّد معهم الفُرْسان ، وجُدّد لهم الإحْسان ، وأُكِّد لهم حَقّــانِ حقُّ مُرْسِلِهم وحقُّ الإيمـان ، وقُلِّد درَكَ حياطتهم أمراءُ العُرْبان ، وشُوهِد من تعظيمنا لهم مايَحْسُدهم عليه ملوكُ الزمان بكلّ مكان ؛ وكتَبْنا علىٰ أيديهم إلىٰ أُمَراء الأشراف بالنُّهوض فى خدمتهم والوقوف ، وأن يُحِيط بهم كلُّ مقدّمِ طائفةٍ ويَطُوف ، يتسلَّمهم زعِيمٌ من زعِيم ، إلىٰ أن تُحطَّ رحالُهم بالحَطِيم ؛ ويَحُلَّ كلُّ منهم بالمَقَام ويُقِيم ، وتَكْمُل مناسِكُهم بشُهُود الموقِف العظِيم .

وكذلك كتبنا إلىٰ أُمَراء المدينة المشَرَّفه ، أن نتلقّىٰ بالقَبُول الحَسَن مُصْحفَه ؛ وتُحِلّه بين الروضة والمِنْبر ، وتُجِلّه فقد ربِحَ سعىُ كاتبه وبَرّ ، وكتبَتْ له بعدد حُروفِه أُجُور تُوَفَّر ؛ ويمكِّنَ مَنْ يرِقُّ لتلاوته فى الآصالِ والبُكَر ، ويُهَيْمنَ علىٰ ذلك فإنّه من بيتٍ هم المَلاكُ الأعلىٰ وعندهم وفيهم جاءت الآياتُ والسور .

وعمّـا قليل يتمُّ حجُّهــم واعتِمارُهم ، ويَؤُمُّ طَيْبَةَ الطيِّبَةَ العــاطرةَ زُوّارُهم ؛ فيكْرُمُ جِوارُهم ويعْظُم نخارُهم ، وتنْعَم بإشراقِ تلكَ الأنوار بصائرُهم وأبصــارُهم ؛ وتفُوحُ أرواحُ نجــد من ثِيابهم ، وتلُوح أنوارُ القبول علىٰ شِيبِهم وشَبَابِهم ؛ ثم يعُودُون إلينا فنُعيدُ لهم الصِّلات ، ونُفِيد كلًّا منهم دِيَمَ النِّعم المُرسَلات ؛ ثم يَصْدُرُونَ إن شاء الله إليكم ركائبُهم بالمنائح مُثْقَلات ، ومطالِبُهم بالمَنَاجِح مكَمّلات ؛ ويظْفَرُون مِن الله فى الدارين بقسم النِّعم الْمجزَلات حتّىٰ يُلْقُوا برحابكم عصــا التّسْــيار ، ويصونوا حُرَّ وجوههم بالصبر علىٰ حَرِّ الهَجير [من] لَفْح النار ، ويَدَّخروا بمــا أنفقُوا عنْد الله من

دِرْهم ودينار، أجرا جَمًّا وماعِنْدَ الله خيْرٌ للأبرار، والله تعالىٰ يقرِّبه من تلك المواطن، ويُدْنِيه منها بالظاهر وإنْ كان يَسْرِى إليها بالباطن، ويسهِّل [له] ذُلُل الحَرَم، وإن كان قد أعان القاطن والقادم، حتّى تحُلَّ ركائبُه بين المرْوَتين وتجيز، ويكونَ له بذلك على مُلُوك الغَرْب تميز، وما ذلك على الله بعزيز.

لازالتْ مقبولةً على المَدىٰ هَدَاياه، مجبولةً على النَّدىٰ سَجَاياه، مدلولةً على الهدىٰ قَضَاياه، منصورةً على العِـدَا سَرَاياه، مبرورةً أبدا تَحَاياه . والسلامُ الأتمُّ الذى يعْبَق رَيَّاه، والثناء الأعَمُّ المشْرِق محيَّاه، عليكم ورحمة الله وبركاته، والخير يكون، إن شاء الله تعـالىٰ .

وهذه نسخة جوابِ الكتَاب الوارد على الملك النـاصر « محمد بن قلاوون » من ٱبن أبى الحسن علىّ المَرِينِىّ ، صاحب فاس المغرِب ، بالبشـارة بفتح بِجاية، والانتصار على تلمسان .

وٱستفتاحُه بعد البسملة بقوله تعالىٰ : ﴿ يأيُّها الذين آمَنُوا إنْ تَنْصُرُوا الله يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أقْدامَكُمْ والَّذِين كَفَرُوا فتَعْسًا لَهُمْ وأضَلَّ أعمـالَهُمْ ﴾ .

ثم المكاتبة المعهودة : من ألقاب المَلِكين ، والدعاء . والصدر :

قَهر الله بِبأسه مَنْ ناواه من أئمة الكُفْر وطُغَاتِه ، ونَصَره على مَنْ لاواه من حِزْب الشيطان وحُماتِه . ونَشَر أعلامَه بالظَّفَر بمن خالفه من عُداة اللهِ وعُدَاتِه . وأجراه من بلوغِ الوَطَر فى سُكُونه وحَرَكاته ، على أجملِ أوضاعه وأكمل عاداتِه . ويسَّرله بدوام سُعوده فَتْح ما ٱستَغْلق من مَعَاقل الحائِدين عن مَرْضاته . ولا زالتْ ركائبُ البشائر عنه تَسْرى وإليه من تِلْقائنا تَسِـير ، ومَصيرُ الظَّفَر حيثُ يصير ، ويَدُورُ الفَلَكُ المستدير ، بسَعْده الأثيل الأثِير ، ويُنوِّر الحَلَكُ بضَوْء جبينه الذى يهتدى به الضالُّ

ويلْجَأ إليــه المستَجير، وتغُورُ أعينُ العِـدا إن عاينُوا تَجْفَله الجرَّار وناهَدُوا جيشـه المبير. بتَحِيَّةٍ تَحْكى اللَّطائمُ(١) عَرْفَها الشميم، وتَوَدُّ الكمائمُ لو تفتَّقت عن مِثْـل مالهـا من نَضارةٍ أو تسنيم، ويودّ عِقْدُ الجَوْزاء لو ٱنتظم فى عِقْدِها النَّضِيد النظيم.

وكيف لا وهى تحيَّةٌ صادرةٌ عن مقـام شريف إلىٰ روضة غَنَّـاء تُزْرى بالنَّبْتِ العَميم، واردةٌ من محلٍّ عظيم، علىٰ مُحيًّا وَسيم، منطويةٌ علىٰ (٢) الأرض من سلامةٍ وللملوك الإسلام من سلامٍ سليم، وطُرْفةٍ نَشْرُها كالمسك الذى ينْبَغِى أن يختَتم به هذا الكتاب، وثناءٍ يستفِزُّ الألباب، ويستقِرّ فى حَبَّات قلوبِ الأحباب، ويستدِرّ أخْلافَ الوُدَّينِ المتحابَّينِ فى الله فلا غَرْوَ أن دخلَتْ عليهم ملائكةُ النصر من كلِّ باب. يتسابقانِ إلىٰ ذلك المجدِ الأسنىٰ فى أسعَدِ مِضْمار، ويتساوَقان بجَازِ قَصَبات السَّبْق إلىٰ تلك العُصْبة المشْرِقة الأنْوار، ويَزْداد فيهما بالوُفُود عليه طِيبا، ويغْدو عُودُ الوُدِّ بهما رَطِيبا؛ حيثُ الرَّبْع مَريع، والمَهْيَعُ مَنيع، والعِزُّ مجدَّد والقَدَر مُطِيع؛ وسُحُبُ الكَرَمِ ثَرّه، ورياضُ الفضل مُخْضَرّه، وعساكرُ النصر تَحُلُّ نحوه من المَجَرّه؛ حيث تَسْتَعِرُ الحَرْب، ويَسْتَحِرُّ الضَرْب، وتشرِقُ شموسُ المَشْرَفِيَّات لامعه (٣).

أما بعْدَ حمدِ الله مُظْهِر دِينه علىٰ كلِّ دِين، ومُطَهِّر أرجاء البسيطة من المـارِدين المـارقين، ومجرِّدِ سـيف النصر علىٰ الجاحدين الحائِدين؛ ومُوهِنِ كَيْد الكافرين، ومُجْزِل أجْرِ الصابرين، ومُنْجز وَعْدِ مَنْ بَشَّرهم فى كتابه المبين بقوله: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وهو خَيْرُ النَّاصِرِين﴾.

---

(١) هى أوعية المسك أو أسواقها واحدها لطيمة وفى الأصل العظائم وهى تصحيف.

(٢) بياض بالأصل ولعله علىٰ ملء الارض.

(٣) بياض فى الاصل يسير.

الذى عَصَم حِمىٰ الإسلام بكل ملك قاهر ، وفَصَم عرىٰ الشِّرْك بكلّ سلطان غَدَا علىٰ عدُوِّ الله وعدُوِّه بالحقِّ ظاهر ، وقَصَم كلَّ فاجرٍ بمهابة أئمة الهُدىٰ الذين مامنهم إلا مَنْ هو للمحاسن ناظِمٌ ولِقِمَم العِدا ناثر ؛ ناشِرِ عَلَم الإيمان بحُمَاة الامصار ، وناصِرِ علم الإسلام بملُوك الأقطار ، وجاعِلِ كلمته العُلْيا وكلمة الذين كَفَرُوا السفلىٰ ، لاجَرَم أنَّ لَهُمُ النَّار ؛ جامعِ قلوب أهل الإيمان علىٰ إعلاء عَلَم الدِّين الحنيف وإن بَعُدت بينهم شُقَّة النَّوىٰ وشَطَّ المَزَار .

والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيِّدنا محمد الذى أرسله اللهُ رحمةً للعالمين ونِقْمة علىٰ الكُفَّار ؛ ونصره بالرُّعْب مسيرةَ شهر وبالملائكة الكرام فى إيراد كلِّ أمرٍ وإصدار ؛ وألانَ بِبَأْسه صليبَ الصَّلَبُوت وأهانَ بالتنكيس عَبَدَةَ الأصنام وسَدَنَةَ النار ، وأيَّده بآلٍ وأصْهار ، وأصْحابٍ وأنصار ، وجنودٍ تهون النَّقْع المُثَار ؛ وأتباعٍ ما أظلم خَطْب إلا أجالوا سيُوفَهم فبدا نَجْم الظَّفَر فى سماء الإيمان وأنار ، وأمةٍ ظاهرةٍ علىٰ من ناواها ، ظافرةٍ بمَنْ عاداها ، ما تعاقبَ الليلُ والنَّهار ، صلاةً وتسليماً يدُومان بدوام العَشِىِّ والإبكار .

فقد ورد علينا كتابٌ مختومٌ بالتكريم ، محتومٌ بالتبجيل والتقديم ؛ محتوٍ علىٰ وَصْف فضلِ الله العَمِيم ، ونَصْرِه العظيم ، ومَنِّه الجسيم ؛ فأكرمْنا نُزُلَه ، ونَشَرْنا حُلَله ، وتفهَّمنا تفاصيلَه وجُمَلَه ؛ فتيمَّنَّا بوصوله ، وتأمَّلْنا مخايِلَ النصر العزيز من فُصُوله ؛ ووجدناه قد آشتمل من سعادة مُرْسِله علىٰ أنواع ، ومن وَصْف تَعْدادِ نُصْرته علىٰ عونٍ من الله ومَنْ يُعِنِ اللهُ فهو المنصورُ المُطاع .

فأما ماذكره المقامُ العالى من أمر الوالدةِ المقدَّس صَفِيحها ، المغمورِ بالرحمة ضَريحُها ؛ وما كانت عزمتْ عليه من قصد مبْرور ، وتجارةٍ لن تَبُور ، وأَمِّ إلىٰ البيت

الآمِنِ والحرمِ المعمُور، وما فاجأَها من الأجَل، وعاجَلَها من أمر الله عزّ وجَلّ ؛ فالمقامُ أجزل اللهُ ثوابَه يتحقّق أنّ النيَّةَ فى الأُجُور أبلغُ من العمل ، وأنه مَنْ أجاب داعِيَ الحِمَام فلا تقصيرَ فى فعله ولا خَلَل ؛ واللهَ نسْأل أن يكتُب لها ما نوَتْه من خير ، وأن يُطِيف رُوحَها الزكية ببيتِه المعمورِ فى جَنّاتِ عدنٍ كما أطافَ أرْواح الشهداء فى حَوَاصل ذلك الطَّيْر .

وكنّا نودُّ أن لو قَدِمتْ ليتلقَّاها منّا زائدُ الإكرام ، ويُوافِيَ مَضارِبَها وافدُ الاحتِفالِ والاهتمام ؛ ونستَجْلب دعواتِها الخالصــةَ الصالحه ، وتَظْفر هى من مشاهَــدَةِ الحَرَم المعظَّمِ والمَثْوىٰ المكَرَّم والبيتِ المقدّسِ بالصَّفْقة الرابحه . علىٰ أنَّه مَنْ ورد من تلقائِكم قابَلْناه من جميل الوِفادةِ بمـا به يَليق ، وتقَدّمْنا بمعاملتِه بمـا هو به حَقيق ؛ ويَسَّرْنا له السبيلَ وهدَيْناه الطريق ، وأبلغْناه فى حِرْز السلامة مع رَكْبِنا الشريف أمَلَه من قضاء المَنَاسك والتَّطْوافِ بالبيت العَتيق .

وأمّا ما أشار إليه من أمر مَنْ كان «بتلِمْسان» وأنه ممن لا يَعْرف مواقِعَ الإحسان ، وما وصَــفَه المقامُ العالى من أحوالٍ ليس الخَـبَرُ فيها كالعِيَان ، وأنه اعتدىٰ علىٰ مَن يتاخِمُه من الملوك ، وخرج عن القَصْد فيما اعتمَدَه من ذلك السُّلُوك ، حتّى أن ملك تُونُس أرسل إلىٰ المقــامِ ابنَه ووزيرَه ، وسأله أنْ يكونَ ظهيرَه علىٰ الحق ونَصيرَه ، وأن المقامَ العالىَ أرســل إلىٰ ذلك الشَّخص منْكرا اعتماده ، طالبًــا إصــلاحَه لا إفسادَه ، راجيًا أن يكون ممن تنفَعهُ الذِّكرىٰ ، ظانًّا أنه ممّن يأبىٰ أن يُقَــال له : ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرا ﴾ وأنه بعــد ذلك تمــادىٰ علىٰ غَيِّه ، وأراد أن يذُوق طَعْم الموت فى حَيِّه ، وأبىٰ الظالمُ إلا نُفُورا ، وذكر الملكُ عنه أنه قَتَل أباه بعدَ أن آتاه اللهُ به نِعمةً ومُلْكا كَبِيرا . وأن المقامَ العالى أتاه نَبأٌ عن أخيــه المقيم بسِجِلْماسه ، وخَبَرٌ صِدْقٌ أوجب أن يُعامَلَ بمـا يليقُ بجميل السِــياسة وحَرِيزِ الحراسه ؛ فجنَّد المقام له

جُنودا ، وعقَـد بُنُودا ، وأضرىٰ أُسُودا اوهنت كَيْده ، وأذهبَتْ أيْدَه ، وعاجلَتْ صيْدَه، وأذالَتْ باسه، وأزالَتْ عنـه سِيما المُلْك ونزعَتْ لباسَـه . وأنه فى غُضُون ذلك أتاه سلطانُ الأنذَلُس يستصْرِخ به علىٰ عدُوّ الله وعدُوّ المؤمنين، و يستَعْدِيه علىٰ الكَفَرة المعتدين . وأنَّ المقام لبَّىٰ دَعوته مسْرِعا، وأ كرم نُزُلَه مُمْرِعا، ووعَده الجميل، وحقَّق له التأميــل . وأن صاحب تِلْمسان لمـا غَرَّه الإمهال ، وظنَّ هــذه المَهامَّ توجب للمقام بعضَ آشـتِغال، أعمل أطماعَه فى التجرّى علىٰ بعض ممـالكه المحروسة ومَدّ،وسار إلىٰ محلٍّ هو بينهما كالحَدّ.وأنَّ المقام عند ذلك صَرَف اليه وجْهَ العَزْم، وأخذ فى حِفْظ شأنه بمـا لأَعلام النصرِ من نَصْب وما للاِعتداء من رَفْع وما للاهتمام من جَزْم . وأنه لم يَقدِرْ عليه إلا بعد أنْ حَذَّره من أليم العقاب حُلُولا، وتمسك فيه بقوله تعـالى : ﴿ وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حتَّى نَبْعثَ رَسُولا ﴾ [ولمَّـا][(1)] لم ينفَـعْه الإنذار، وأبىٰ إلا المداومةَ والإصْرار، أرسل اليه المقــامُ العالى من جيشه الخِضَمّ ، وعسكره الذى طالَمَـا تُعَضِّـده ملائكةُ السماء و إلىٰ أعداده تنْضَمّ ، كلَّ باسِـل يقوم مَقامَ الكتيبه، وكلَّ مُشاهد يشاهَد منه فى العَرِين كلُّ غَرِيبه ، وكلَّ ضِرْغام تَعْرِف العِدا مواقع ضَرْبه لكنها تجهَل نِدّه أو ضَرِيبــه، فأذاقُوه كأس الحِمَـام صِرْفا ، ولم يبتغُوا عن حِمَـاه بدُون نَفْســه عَدْلا ولا صَرْفا ، إلى أنْ أخذوه فى جماعةٍ من بنى أبيــه ، وشِرْذِمةٍ قليلة مِّمن كانتْ تخالصُه فى الشدائد وتُوا فيه، وأن المقام العالى بعد ذلك سيَّر مَطارِفَ العَدْل فى الرعيَّه، وأقرَّ أحوالَهُمْ فى عدم التعرُّض إلى الأموال والذُّرّيه، على ما هو المســنون فى قتال البُغَاة من الأمور الشرعيَّه . وفَهِمْنا جميعَ ما شرحه فى هذا الفصل، وما أخبر به من هذا الظَّفَر الذى آبيَضَّ به وجهُ الفَتْح و إن كان قد آحمرّ به صَدْرُ النصل ، والله تعالى يزيد مُلْكه رُقِيّا، ويَجْزِيه لقَبُول النِّعم لُقِيّاً، ويجعلهُ دائما

(١) فى الأصل "فلم ينفعه" بدون لمـا .

كوصفه مظفّرا وكاسمه عَليّا . وأن المقام العالى لما فرغ وجهه من هــذه الوجْهة، وحاز هــذا المُلْك الذى لم يحُزْ آباؤه كُنْهه، عاد إلى المهــمّ الذى قَدِم فيــه سلطان الأندلُس لأنه ابدىٰ ما المسلمونَ فيه من محاورة الأذىٰ، ومجـاورة العــدا ؛ وقُرْب المسافةِ بيْنَ هذين العدُوّيْن كالشَّجَا . وفى عيونهم كالقذىٰ . وأنه ثوىٰ به من الطُّغَاة من أسْدل علىٰ المسلمين أردِيَةَ الرَّدىٰ . وأنه علىٰ جانب البحر المعروف بالزُّقَاق، وبه قُطّانٌ يمنعُون الإرفادَ والإرْفاق، ويصُدّون عن السبيل مَنْ قصد سُلوكَه من الرفاق. وأن البرَّ أيضا مملوءٌ منهم بصُقُور صائده، وعُلُوج مُكايِده ، وكُفّار معانِده، وفُجّار علىٰ السُّــوء متعاضده، والبحْرَ مشحونٌ بغِرْبان طائرةٍ بأجنحة القــلوع طارِدَه، صادرةٍ بالموت وارده،جارِيةٍ فى فَلَك البحر كالأعلام إلا أنّها بالإعلام بالخبر شاهده، تتخطَّف كلَّ آمٍّ وقاصد، وتقعُدُ لأهل الإيمــان بالمَراصد،وتُدْنِى الموتَ الأحمر، ممن ركِب البحرَ الأخْضر، وتمنَعُ الســالك، إلا أن يكونـــ من أهل الضَّلال الحالك، من بَنِى الأصْفَر .

وأنَّ المقامَ العالىَ عند ذلك قام لله وغار، وأنْجد جُنوده فى طلب الثار من أهل النار وأغار، وأنجد قاصدَ حرمه ببُعُوث كرمه وأعار، وأرسل عِقْبانَ فُرْسانه محلِّقــةً إلىٰ ذلك الجبل الشَّامخ الذُّرىٰ وأطار، إلىٰ أن احاطت بهــم جنودُه إحاطةَ الآساد بالفرائس لاإحاطةَ الهالاتِ بالأقْمار، فمـا منْهم إلّا مَنْ أعمل علىٰ العِدا رحىٰ المَنُون وادار، وسار وناعِى البيْن يَقْدُمه إلىٰ أيْنَ سار ؛ وقدّمَ عليهم ولَدَه الميمونَ النَّقيبه، الممنوحَ غَرْبُهُ من مَوَاقع النصر بكلِّ غَرِيبه، الجارِىَ علىٰ سَــنَن آبائه الكِرام، المظفَّر أنّى سَرىٰ الممدوحَ حيث أقام.وأنه مَزّق جُموعَهُم الكثيفه، وهَدَم مَعاقِلَهم المُنِيفه، وآستذْنىٰ منهم القاصِى،وآستنْزَل العاصِى، وأخذ بالأقْدام والنَّواصى،وأحَلَّ العذابَ والنَّكال، بمن يستحقُّه من أهل الإلحاد والمَعاصى، وقرن بيْنَ الأرواح والآجَال ،

وأذْكَرهم بهذا النصر أيَّامَ ٱبنِ نَصْر وأعاد ، وأثبت لهـذا الجبَل حقيقةَ ٱسم المدح، وٱستقرّ فى صحائف فِعْله المقام إلى آخر هذا المنح .

وعلِمْنـا أيضا ما ٱعتَمَده الطاغى المُغْتال لعنه الله من الحضور بنَفْســه ، وجَمْعه المُلْحدين من أبناء خَدَمتِه والمـارِقين من جِنْسه . وأنَّه أعظَمَ هذا الأمْرَ وأكبَرْ، وأبْدىٰ الزفيرَ لهذا المُصَاب وأظهر، وأقسَمَ بمعبُوده المُصوّر وصَلِيبه المكَسَّر، أن لا يعُودَ إلا بعْـدَ أنْ يظْفَر بمـا سلَبَه الحقُّ إيَّاه وتبصَّر ؛ فأبىٰ اللهُ والمؤمنونَ أن تكونَ النِّيَّة إلا خائبه ، وقضت ســعادةُ الإسلام أن تكون الأيَّامُ لمـا عَقَده من الطَّوِيَّة الرَّدِيَّة ناكبه ؛ فلمَّـا طال عليه الأمَدُ وحان الحَيْن ، عاد صِـفْرَ اليدين ولٰكن بخُفَّىْ حُنَين ؛ ناكصًا علىٰ عَقِبــه ، خاسئًا لسُوء منْقَلَبه ، وأسرَعَ إلىٰ مَقَرّ طاغُوته سُرًّى وَســيْرا ، ولو كان من ذَوِى الألباب لتعَقَّل فى أمر قول الله تعالى : ﴿ وَرَدَّ اللهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِــمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرا ﴾ . وأنَّ المقام العــالىَ ألزمه بعـد ذلك ما كان علىٰ أهـل «أغرْنَاطة» له فى كلِّ عام موظَّفا ، ووُضِـع عنهم إصْر ما بَرِح كالأسر مُجْحفا .

وهـذه عِزَّةٌ إسلاميَّة جدّد اللهُ علىٰ يد المَقَام بذلك القُطْر صـدُورَها ، وسَـطَّر فى صحائف حَسَناته أُجورَها ، وأبقىٰ له مَذْخُورها ، وأعدّها له ليوم تَجِدُ فيه كلُّ نَفْسٍ ماعَمِلتْ من خيْرٍ مُحْضَرا إذا شاهدت عَرْضَها ونشرها . ومِنَّةٌ من الله أرْبَتْ علىٰ العَدّ ، وتجاوزَت الحدّ ، ومَزِيَّة لا تطمَحُ الآمال إلى مَيْلها فى جانبها ولا تَمْتَدّ ، ورُتَبُ جَدّ يَلْحق بها الولدُ الناجمُ فى سماء المعالى رُتَبَ الكِرام من أبٍ له وجَدّ ـ واللهُ يجعلهُ مظَفَّرا علىٰ العِـدا ، منصُورا علىٰ مَنْ حاد عن سَــواء السبيل وٱعتَدىٰ ؛ مستحقا لمحَاسِن الأخبار علىٰ قُرْب المُدَّة وبُعْد المَدىٰ .

وقد كان أخُونا أمير المسلمين ، وسلطانُ الموحِّدين ، والدُك الشهيدُ قدّس اللهُ سرَّه ، وبوّأه دارَ النعيم وبها أقرَّه ، فى كلِّ آوِنَةٍ يُخْبِرنا بمثل هـذا الفتْح ، ويذكُر لنا

ماناله من جَزِيل المنح ؛ (فهذه شِنْشِنةٌ نَعْرِفُها من أخْزَم)، وسُنّةٌ سلك فيها الشِّبلُ الصائدُ سَنَنَ ذلك الضَّــيْغَم الأعظَم ، ونحن نحمَدُالله الذى أقام المَقامَ مَقامَ أبيه لنُصْرة الإسلام وأبقىٰ ، وصَدَّق بمـا تُنْشِئه من حُسْن أفعالك وســعيدِ آرائك أنّك أبو الحُسيْن وأنَّ أباك أبُو سعيد حَقّا .

وحيثُ سلك المقامُ سَنَنَ والده الشهيد، وأتحفَنا من أنبائه بكُلِّ جَديد؛ وقصَّ علينا أحاديثَ ذلك الجـانبِ الغَرْبىِّ المُشرِقِ بأنواره، ونَصَّ متجَدِّداته مفَصَّلةً حتىّ صِرْنا كأنّا مشاهِدُون لذلك النصرِ ومَوَاقِعِ آثارِه، فقضىٰ الوُدُّ أن نُتْحِفَه من أحاديث جَيْشِنا الذى أشرقَتْ لَمَعاتُ سُيوفِه فى الشَّرْق الأعلىٰ بما يُشَنِّف سَمْعه ، ويسُرُّ معشَرَ الإسلام وجَمْعه ، ومَوطِنَه ورَبْعه : ليتحقَّق أنَّ نِعَم الله لكلِّ مَنْ قام بتشييد هذا الدِّين المحمَّدىِّ عامَّه ، ومِنَنه لديْهِم تامّه ، وألطافَهُ بهم حافَّه ، ومُناصَرتَه ليَد سُلطانِ الإسلام فى أعناق العِــدا مُطْلَقةٌ ولأكُفِّ أهلِ الشِّرْك كافّه ، ﴿وأمَّا بنِعْمةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ .

فمما نُبْدِيه لعلمه ، ونُهْدِيه لســعيد فَهْمه ، أنَّ من جملة من يَحمِلُ لأبوابِنا الشريفةِ من ملوكِ الكُفْر القَطِيعــةَ فى كلِّ عام ، ويَرىٰ أنَّ ذلك من جمــلة الإفضال عليــه والإنعام ، متَمَلِّكَ سِيسَ ، الذى هو فى مِلّته من ساكِنِي البَرِّ كالرَّئيس ، وبين بطارِقَتِه وطُغَاته كالكَنَد الأعظَم أو كالقِدِّيس النفيس ؛ وعليــه مع ذلك لأبوابنا الشريفةِ من القناطيرِ المُقَنْطَرة من الذهب والفِضَّــة والخَيْل المُسَوَّمة مالا يَحِيد عنه ولا يَحِيس ، ومرَتَّب لايقْبَل التنقيص ولايسمَح لخِناقِه بتنفيس ، تحمِلُه نُوَّابه إلى أبوابنا الشريفةِ عن يَدٍ وهم صاغرون ، ويقومُون به علىٰ قَدَم العُبُوديّة وهم ضارِعُون .

ولَمّـا كان فى العام المـاضى سوّف ببعْضِه وأخَّر ، ودافَعَ عند إبّانِه وقَصَّر ، وسأل مَراحمَنا فى تنقيص بعض ذلك المُقرّر ، وأرسَل ضَراعاتِه إلىٰ نُوّابنا بالممـالك الشامية

فى هذا المعنىٰ وكَرَّر، وقدّر فى نَفْسه المُراوغَةَ وأسرَّ خُسْرا فى ارتعا (؟) والله أعلم بما قدّر، فاقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أنْ نُرسِل إليـه بعثًا يذلّل قِيَاده ، ويُنَكِّس صِعَادَه ، ويخرِّبُ بِلادهَ ، ويوطِئُ أطواده ، ويُوهِن عِنَاده ، ويُذْهِب فَسَاده ، ويُفَـرِّق أجْناده ، ويمزِّق أنجـاده ، ويقلّل اعدادَه ، ويُفلِّل جموعه ، ويُدَكْدِكُ رُبوعَه ، ويُذْرِى علىٰ مُلْكِه دُموعَه ، ويُدْنِى خُضوعَه ، ويَفْصِـل تلك الأبدانَ التى هى للطُّغْيـان مجموعه ، فأنهَضْـنا إليـه من الأبطال كُلَّ باسـل ، وأنهَدْنا إليـه منهـم كُلَّ ضِرْغام خادِرٍ يظُنُّ الجاهلُ أنه مُتَكاسِل ، وأشهَدْنا حَرْبَه كلَّ مؤمنٍ يرىٰ الشهادة مَغْنَما ، والتخلُّفَ مأْثمًـا والتَّباطُؤَ مَغْرَما ، والعُذْرَ فى هذا المُهِمِّ أمْرًا محرَّما . ويعُدُّ الرُّكوبَ إلى هذا السَّفَر قُرْبه ، والرُّكُونَ إلى وَطنِه غُرْبه ، ويرْغَبُ فيما وعد الله به جَيْشَـه المنصورَ وحِزْبَه ، ويَرْبَأُ بنَفْسـه أن يكون من الخالفين حُبًّا لهـا وتكريمـا ، ويبادِرُ إلىٰ ما أُمِرَ به رغبةً فى قوله تعـالى : ﴿ وفَضَّل اللهُ المجاهِدِينَ علىٰ القاعِدِينَ أجْرًا عَظِيما ﴾ . علىٰ صافنات جياد ، ليس لها غَيْرُ الطَّـيْر فى سُرْعة المَرام أضـداد ، وعاديات عادياتٍ علىٰ أهل العِنَاد ، وضابِحات ذابحات لذَوِى الفَسَاد ، ومُغـيرات طالَمَا أسْفَر صُبْحُها عن النَّجاح ، ومُثيرات نَقْع يتَبَلَّج غيهبُهَا عن تحقُّق النَّجاة وإزالة الجُنَاح . وصَوَاهِلَ عِراب ، كَمْ للفضل بها من كُمُون وللموت اقْتراب ، وأصَائلِ خَيْل ، تُخَيِّل لراكبها أنها أجرىٰ من الرياح وأسرىٰ من اللَّيْل ، قد عُقِد الخيرُ بنَوَاصيها ، وعُهِد النصْرُ من أعْرافها وصَيَاصيها ، وتسَنَّم راكبُوها لذِرْوة العِزِّ من ظُهُورها ، واحتَوَوْا علىٰ الكبير الأعلىٰ من نُصْرتها علىٰ العِـدا وظُهُورها ، بسُيُوف تبدِّدُ الأوهام ، وتُزِيل الإيهـام ، وتَقُدّ الهامْ ، وتُدْنِى الموتَ الزُّؤام ، وتُطَهِّر بميَامِنِها نَجَس الشركِ ودَنَسَـه ، وتَقْرَعُ أجسادَهُم فتَغْـدو كلُّها عُيونا ولكنْ بالدِّماء مُنْبجِسه ، قد تَسَرْبَلَ كلٌّ منهـم من الإيمـان دِرْعا حَصِينا ، واتخذ لُبْسَه جُنَّـةً ولكن من الذهَب والإستبْرَق ليكون

لفضلِ الله مُظْهِراً ولإحساننا مُبِينا ، واتَّخذ لِسِهَام القِسِيّ ليومِ اللِّقاءِ الأَلْسُنَ الحِدَاد ، ومدّ يَدَ المُظاهَرة بِبِيضٍ قِصارٍ وسُمْرٍ صِعَاد .

فلمّـا جاسُوا خِلالَ تلكَ الدِّيار ، وماسُوا يَرْفُلون فى حُلَل الإيمـان التى تَشْـفِى صُدورَ قومٍ مؤمنين وتَغيظُ الكُفَّار ، لم يسْلُكُوا شِعْبا إلا سلك شيطانُ الكُفرِ شِعْبًا سواه ، ولا وطِئُوا مَوْطِئا إلّا وكلُّ كافرٍ يَأْباه ؛ ولا نالُوا من عَدُوٍّ نَيْلا إلّا كُتِبَ لهم به عملٌ صالحٌ كما وعدَهُم الله ؛ وما أتَوْا لهم علىٰ ضَرْعٍ حافلٍ إلا جَفّ ، ولا مَرُّوا علىٰ زَرْعٍ حاقِلٍ إلا أصبح هشِيما تَذْرُوه الرِّياح أو حَطِيما تكْفِيه الكَفّ ؛ ولا هَشِيمٍ إلا حَرَّقُوه ، ولاجمعٍ إلا فرَّقوه ، ولا قطيعِ شاءٍ إلاقطَّعوه ومزَّقوه ، ولاضائرٍ إلا ضَنُّوا عليه أن يَدْعُوه لهم أو يُطْلِقُوه ، ومابَرِحوا كذلك إلىٰ أن نازلُوا البَلَد المسمّى بآيَاس ، فحصل لأهـلِهِ من مسمَّاه الآشتقاقُ الأصغر والآشـتقاق الأكبر بقَطْع الأمل منـه واتِّصال الإيَاس ؛ فناداهم مَنْ بذلك الحصْن من أسَارىٰ المؤمنين :

يارحمـــةَ اللهِ حُـلِّى فى مَنَـازِلِنـا * حَسْبِى برائِحـةِ الفِرْدَوْس مِنْ فِيك

ويا نَصْرَ الله انْشُر بالظَّفر راياتِ مُوَاجِهنا ومُنَـازِلِنا فطالمَـا كُنَّا نؤمِّلك ونرتجيك ؛ وياخيلَ اللهِ اركبِى ، وياخَيْلَ الكُفَّار اذهبِى ، وياجُنْد إبليس ارهبِى ، من جُنْدِ الله الغـالِبِين ؛ وانْ وَجَدْتِ مناصًا فانفِرِى ، ويامَا لِلإسـلام من جُنُودٍ وأنصار ، قاتِلُوا الذين يلُونَكم من الكُفَّار .

وكانتْ موافاةُ عسكرِنا المنصور إليهم عندَ الإسْفار ، فلم يملِكُوا القَرار ، ولا آستطاعُوا الفِرَار ، ولم يجِدُوا ملْجأ من اللهِ إلّا إليه . وقال : لاوزَرَ وكيفَ به لمن يُلَبِّي الأوْزار ، ورأوا ما أعدَدْنا لِحصارِهم من مجَانيقَ تقُدّ الصُّخُور ، وتُدكْدِك القُصور ، وتَغِيض بها مياهُ نفوسِ تلك الأجساد الخبيثةِ فلا يجتمعانِ إلىٰ يومِ البَعْث والنُّشور ؛ وأنا أمدَدْنا

جُيوشَنا بجاريات فى بحر الفُرات، مشحونة بالأموال والأقوات، والعُدَد والآلات؛ وأرفَدْناهم من الذَّهَب والفِضَّة بالقناطير المقَنْطَرات ، وأوفَدْنا عليهم من أنْجادِنا بالديار البَكْرِيَّة ، وأطراف البلاد الشامية ، جُيوشًا كالسَّحاب المتراكِمْ، وأطَرْنا عليهم عِقْبانَ اقتناصٍ من عِقْبان التَّراكِمينَ اعتادَتْ صَيْدَ الأَراقِم ، وأسْرَ الضَّراغِم ؛ فلمَّا تحقَّقُوا الدَّمار، لم يلْبثُوا إلا كما وصف الله تعالىٰ حالَ مَنْ أهلك من القَوْم الفاسقين ساعةً مِنْ نَهَار .

فعِنْد الظهيرة حَمِيَ الوَطِيس ، ونَكَص عِنْـد إعلان الأذانِ علىٰ عَقِبـه ابليس ؛ وشاهدُوا الموتَ عِيَانا، وتحقَّقُوا الذَّهابَ أموالًا و إخْوانا ووُلْدانا؛ أذعنُوا إلىٰ السِّلْم، ونادَوُا الأمانَ الأمانَ ياأهل الإيمانِ والعِلْم؛ والكَفَّ الكَفَّ ياجُنْد الملِك الموصُوف عند الشِّـقَاق بالحزم ؛ وعند القُدْرة على العِقَاب بالحِلْم . وأرسـل طاغِيتُهم الأكبَرُ ليفون، يُقْسِم بصليبه : إنَّا من القوم الذين يقُومُون بما عليهم من الجِزْية ويُوفُون ؛ ومن الرَّعِيَّة الذين يُطِيعون أمر مَلِكهم الأعظم وعن حمىٰ الإسـلام يكُفُّون ؛ فعند ذلك رأىٰ نوَّابُنا بذلك العسكر أن تُكَفَّ عنهم شُقَّة الشِّقاق وتُطْوىٰ ، ولانَتْ قلوبُهم لتَذْكار قوله تعالىٰ : ﴿وأنْ تَعْفُوا أقْرَبُ للتَّقْوىٰ﴾ . وطالَعُوا علُومَنا بمـا سأله القومُ من الرحمة والرَّأفه، وما ضَرَعوا إليهم فيه من الأمانِ والأُلْفه، وإعطاء ما كُنَّا رَسَمْنا به من تسليم قلاعٍ معْدُوده، وتسويغ أراضٍ مَحْدوده، تستقرّ بيد نُوَّابنا وتُقْطَع بالمناشير الشريفةِ لأهلِ الجِهاد من أبوابنا ، مع استقرار مارَسَمْنا به من قَطيعه، وعَقْد الهدنة على أمور هى عندنا مُحَبَّبَة ولَدَيْهم فظيعة .

هذا بعـدَ أنِ آستولت عساكِرُنا علىٰ قِلاعٍ لهم وحُصُون، ومُحْرز من أموالهـم ومَصُون ؛ وطلعت أعلامنا المحمَّدِيَّة علىٰ قَلْعة آياس ، ونزل أهـل الكُفْر على حُكْم

(١) لعله وحين شاهدوا الخ ليتعلق به أذعنوا بعد .

أهل الإيمان وزال التحفُّظُ والاحتراس، وأُعْلِن بالأذان فى ذلك الصَّرْح ، وظهرتْ كلمةُ الإيمــان كما بدأَتْ أوّلَ مرَّة وهذا يُغْنِي عن الشَّرْح ؛ وعلَت الملَّةُ الحنيفيَّةُ بذلك القُطْر وقام أهلُها وصالُوا ، وغُلَّت أيدى الكُفَّار ولُعِنُوا بمـا قالُوا .

وكان جيشُنا قبــلَ ذلك أخذ قلعــةً تسمَّى « بكاوَرًّا » واستنزلُوا أهلَها قَسْرا ، واستزالُوهم عنها مابينَ قتْلىٰ وأسْرىٰ ؛ وهى قلعةٌ شامخةُ الذُّرىٰ ، فسيحةُ العَرَا ، وَثِيقــةُ العُرا ، يكاد الطرفُ يرجع عنها خاسِئا .

ولمـا ٱتَّصل بأبوابنا هذا الخبرُ السَّارّ ، وشَفَع لنا مَنْ نرىٰ قبولَ شفاعتِه فى إجابة ماسأله هذا الشَّعبُ من إرجاء عذابِ أهــل الكُفْر إلىٰ نار تِلْكَ الدار ؛ مَنَنَّا عليهم بالأمان ، وقابَلْناهم بعــدَ العَدْل بالإحسان ؛ وتقــدّم أمرُنا إلىٰ نُوَّابنا بكفِّ السيف وإغمادِه ، وإطفاءِ مُسَعَّر الحرب وإخمادِه ؛ وأنْ يُجرىٰ المَنُّ علىٰ مألوفِه منَّا ومعتادِه ، بعــد تسليم تلكَ القِلَاع ، وهَــدْم الأسوار التى كان بها لأهْــل الكُفْر الاِمْتنــاع ؛ واستِبْقاء الرعيَّه ، واستِحْيَاء الذُّرِّيه ، وإجراء الهُدْنة المسئُولة علىٰ القواعد الشرعِيَّه ؛ وعاد عســكرُنا منشُورَ الذوائِب ، مظَفَّــر الكتائب ، مؤيَّد المَوَاكب ، مشْــحُونا بغرائِبِ الرَّغائب .

وعندَ وُصُولهم إلى أبوابنا فتحْنا لهم أبوابَ العطاء الأوْفَر ، وبَدَّلناهم بالتى هى أحسَنُ وعوَّضْــناهم الذى هو أكْثَر ؛ وأفضْنا عليهــم من خِلَع القَبُول ماأنساهم مشَقَّةَ ذلك السُّرىٰ وشُقَّةَ السَّيْر ، وتلا عليهم لسانُ الإنصاف ﴿ولِبَاسُ التَّقْوىٰ ذٰلِكَ خَيْرٌ﴾ .

وبعدَ ذلك ورد علينا كتابُ بعضِ نُوَّابنا بالأطرافِ مِنْ أولاد قرمان ، القائمين بمَشَارق ممالكنا علىٰ وجه الأمْن وسَعَةِ الأمَان ، بأنَّهم عِنْد عوْدهم من سِيس ؛ ونُصْرتِهم علىٰ حِزْب إبليس ، استطْردُوا فأخذُوا للكُفْر تِسعَ قِلَاع ، مابرِحَتْ شديدةَ الاِمتِناع ،

لا تمتدّ إليها الأطماع ؛ فتكمّل المأخوذُ فى هـذه السفرة وما قبلها خمسَ عشرةَ قلعـه ، و بدّد الله شَمْلَ الكُفْر وفرّق جَمْعه ، وآثرنا أن نعـلِم المقامَ العالى بلَمْحة ممـا لِلّهِ لدينا من النِّعم ، ولبره من شارة يُسْـتَدلّ بها على أثر أخلاف كالدِّيَم ، ونُطْلِعه علىٰ دَرّة من سَحاب ، وغَرْفة من بحرٍ عُباب ؛ وطُرْفة نَشْرها كالمِسْـك الذى ينبغِى أن يختَتَم بها هذا الكتاب .

ونحن نرغَبُ الى المقام أن يواصلَ بكُتُبه المفتتَحةِ بالوِدآد ، المشتملةِ علىٰ النُّصْرة علىٰ أهل العِناد ، المشحونةِ بمَوَاقع الفتح والظَّفَر التى تتضاعَفُ إنْ شاء الله وتَزْداد ؛ المحتويةِ علىٰ الطَّـارف من الإخلاص والتِّـلاد ، المتصـلِ سبَبُها بين الآباء الكِرا م ونُجَباء الأولاد ، والله تعالىٰ يجعَـلُه دائمـا لثَمرات النصر من الرماح يَجْتنِي ، ولوُجُوه الفتح من الصَّوارم يجْتَلِي ؛ ويُدِيم علىٰ الإسلام مزِيدَ العِزّ الذى يتجدَّد كلَّ آوِنةٍ من طلائـِع راياتِ محمدٍ وبدائع آراءِ علِي ، بمنه وكرمه .

وهذه نسـخة كتاب جواب إلىٰ صاحب فاس حيثُ ورد كتابه بالتعرُّض لوقعة « تمرلنك » من إنشاء مؤلِّفه ، كُتِب بذلك عن السـلطان الملك الناصر « فرَج بن برقوق » وهو .

عبـد الله ووليُّه السـلطان الأعظَم (إلى آخر ألقاب سلطاننا) أجرىٰ الله تعـالىٰ الأقدار برِفْعة قَدْره ، وأدار الأفلاك بتأييده ونَصْره ، وأذلَّ رِقابَ الأعداء بسَطْوته وقَهْره ، وشَحن الأقطارَ بسُـمْعته وملأ الآفاقَ بذِكْره ، يخُصُّ المقامَ العالى (إلىٰ آخر الألقاب) : رفع اللهُ تعالىٰ له فى مُلْكه الشامِخ مَنارا ، وجعل النصْرَ والظَّفَر له شِعارا ، وأحسن بحُسْنِ مُواتاتِه إلا لأهل الكفر جِوارا ، بسَلَام يفوق العبير عَبِيقه ، ويزرى

بفَتيق المِسْك الدارىّ فَتيقُه ، ويُخْجِل الروضَ المنَمْنَم إذا تزيَّن بالبَهار خَلُوقه، وثناء تَكِلُّ الالسنةُ البليغةُ عن وَصْفه، ويَعْجِز بُنَاةُ المجد الأثيل عن حُسْن رَصْفه، وتعترِفُ الأزاهرُ بالقُصور عن طِيبِ أرَجه ومسك عَرْفه، وشُكْر يوالى الوِرْدُ فيه الصَّدَر، ويحقِّق الخُبْرُ فيه الخَبَر، ويُشيع فى الآفاق ذِكْرَه فتتَّخِذُه السُّمار حديثَ سَمَر .

أما بعدَ حمدِ اللهِ واصلِ أسبابِ المَوَدّة وحافِظ نظامِها، ومؤكّدعلائِقِ المحبَّة بشِدّةِ الْتِئامها، ورابط جأشِ المُعاضَدةِ باتّحاد كلمتِها وتَناسُب مَرَامها، ومجدّدِ مَسَرَّات القلوب بتَوَالِى أخبارها المُبْهِجة عن عالى مقَامِها . والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد أفضلِ نبىّ رعىٰ الذِّمام علىٰ البِعَاد، وأكرِم رسولٍ قرَنَ صِدْقَ الإخاء منه بصِحَّة الوِدَاد، صلاةً تبلُغ من رُتْبة الشَّرف مُنْتهاها ، وتَنْطوى الشُّقَّة البعيدةُ دُونَ بلوغِ مَدَاها ؛ فإنه ورد علَيْنا علىٰ يدِ رسُولكم فلان كتابٌ كريم طاب وُرُوده ، وتهلَّلَتْ بالبشر سُعُودُه ، وشهِدَ بصِدْق المحبة الصادقة شُهُوده ؛ وطلَع من الجانبِ الغَرْبِىِّ هلالُه فلاحَتْ بالمشرِق بحُسْن التلَقِّى سُعُوده ؛ فقرّ منه بُرؤْيته الناظر، وابتهَج بمُوافاتِه الخاطر، ولاحَتْ من جوانبه لوائحُ البِشْر فأحسَنَ تلقِّيَه سلطانُنا الناصر .

وقابلناه من القَبُول بما كاد باطِنُه لكمال الموافاة يكونُ عُنْوانا للظاهر ؛ وفَضَضْنا ختامَه المصونَ عن بَدِيع كلامٍ مخترَع ، وبناتِ فكرٍ قبلَه لم تُفْتَرَع ؛ وفصاحةٍ قد أحكم اللَّسَنُ مبانِيها ، وبلاغةٍ تناسبَتْ ألفاظُها فكانَتْ قوالِبَ لمَعَانِيها ؛ وبراعةٍ قد أحسنَتِ البديهةُ ترتِيبَها فجاءتْ وتواليها تتْبَع هوادِيها ؛ وفَهِمنا ما أظهره من كَوامِنِ المحبة التى بلغتْ من القلب الشَّغاف ، وبَوَارِح الشوق الذى عِنْدنا من مثله أضْعافُ أضْعاف ؛ وانتهينا إلىٰ ما أشار إليه المقامُ العالى من التلويح إلىٰ ماطَرَقَ أطرافَ ممالكنا الشريفة مِنْ طارق الأعدا ، وما كان من الواقعةِ التى كاد خَبَرُها لفظاعته يكونُ كالمُبَتدا .

ونحن نُبْدِى لعلم المقام العالى ما يوضِّح له أنَّ ما وقع من هذه القِصَّة لم يكُنْ عن سُوءِ تدبير، ونُورِد عليه من بيان السبَبِ ما يحقِّق عنده أنَّ ذلك لم يكُنْ لعجْز ولا تقصير، بل لأمرٍ قُدِّر فى الأزَل، ومقدُور الله تعالىٰ لا يُدْفَع بالحِيَل .

وذلك أنه لما ٱتَّصل بمسامعنا الشريفة قَصْدُ العدوّ إلىٰ جهتنا، وتجاوُزُه حَدَّ بلاده إلىٰ أطراف مملكتنا، بادَرْنا الحرَكَةَ إليه فى عَسْكَرٍ لجب، وجُيوشٍ يضيقُ عن وُسْعها الفضاءُ الرَّحْب، من كل بطلٍ عركَتْه الحرُوب، وثقَّفته الخُطُوب، وحنكَتْه التَّجارِب، وعَجَم عُودَه بكَثْرة المُنازلات قِراعُ الكتائب . قد ٱمتطىٰ طِرْفًا عربيَّ الأصل كريمَ الحَسَب، خالصَ العِتْق صريحَ النَّسَب، يفوتُ الطَّرْف مَدىٰ باعه المَديد، ويَسْبِقُ حافِرُه موقِعَ بصرِه الحديد . ولبس دِرعًا قد أُحْكِم سَرْدُها، وأُبْرِم شَدُّها، وبالغَتْ فى السُّبُوغ فاتَّصفَت بِصفَات الكرام، وضاقتْ عيْنُها فمنعَتْ شَبَحا حتَّى ذُبَابَ السِّهام . ووَضَع علىٰ رأسه بيضةً يَخْطَف الأبصارَ ومِيضُ بَرْقها، وتُزْلِقُ السِّهامَ الراشقةَ صلابَةُ طَرْقِها، وترفَعُها الأبطالُ علىٰ الرءوس فلا ترىٰ أنها قامتْ ببعض حقِّها . وتقلَّد سيفًا يَمْضِى علىٰ الرقاب نافِذُ حكمه، ويقْضِى بانقضاء الأجلِ ٱنقضَاضُ نجمِه، لا ينْبُو عن ضَرِيبة فيُرَدّ، ولا يقِف حدُّه فى القَطْع عند حَدّ . وٱعتقل رُمْحًا يُجْرِى الدماءَ سِنَانُه بأنابيبه، ويمدّ إلى الفارس باعَهُ الطويلَ فيأخُذُ بتَلَابيبه، وتُمَسِّك المَنَايا بأسبابه فتتعلَّق منه بالأذْيال، وتُضَرِّسُ الحربُ بُزْرق أنْيابه كأنها أنيابُ أغْوال . وتنكَّب قَوْسا مُوعِزُ الآجالِ هِلالُ هلاَلهـا، ومُورِد المنُونِ إرسالُ نبالهـا، ومُدْرِكُ الثار رَنَّةُ وَتَرِها، ومُوقِدُ نارِ الحرب قَدْحُ شَرَرها، قد ٱقترَنَ بها سِهامٌ تُسابِقُ الريحَ فى سُرْعتها، وتُعاجِلُ الموتَ بصَرْعتها، وتختطِفُ العُيون فى مَمرِّها، وتختلِسُ النفوسَ من مَقَرِّها، تدخُل هجْمًا كُلَّ محتَجب، وتأتِى الحَذِرَ من حيثُ لا يحتَسِب . وتناولَ عمُودًا يهْجُم على الأضالع بأضلاعه فيفْدَغُها، ويُصافِحُ الرُّءوس بكَفِّه الملتحمةِ الأصابعِ

فيدْمَغُها ؛ يُقرّب من الأجل كُلَّ بعيد ، ويُخْلِقُ من العُمُر كلَّ جديد ، ولا يُقاومه في الدِّفاع بيضةٌ وأنّى تُقاوِمُ البيضةُ زُبْرةً من حَدِيد .

وتحرَّكْنا من الديار المِصْرية في جُيوش لا يأخذُها حَصْر، ولا يلحقها هَصْر، ولا يُظَنُّ بها على كثْرةِ الأعداد كَسْر ،ولم نزل نَحُثُّ السير، ونُسْرِع الحركةَ لِلقاء العدوّ إسراعَ الطير، حتّى وافينا دِمَشْــقَ المحروسةَ فنزَلْنا بظاهرها ، مستمْطِرِين النصْرَ في أوائل حركتِنا وأواخِرِها ،وآنْضَمَّ إلينا من عساكر الشام وعُرْبانها، وتُركمانها الزائدة على العَدّ وعشرانها، مالا ينقطِع له مَــدَد، ولا يدخُل تحتَ حَصْر ولا عدَد . وأقبــل القومُ في لفيف كالجَرَاد المنتَشِر، وأمواجِ البحر التي لاتَنْحصر : من أجنـاسٍ مختلفــه ، وجموعٍ على تبايُنِ الأنواع مُؤْتلِفه، وتراءىٰ الجمعانِ في أفسح مكان، ورأىٰ كُلُّ قبيلٍ الآخَرَ رأْيَ العين وليس الخبَرُ كالعِيَــان، وآعتدَّ الفريقانِ للنِّزال ، وآحتفَرُوا خنادِقَ للاحتراس وتبوَّأْنا مَقاعِدَ للقتال، ولم يَبْقَ إلا المُبارَزه، وآلْتقاءُ الصُّفُوف والمُناجزه، إذ ورد وارِدٌ من جهتهم بطلب الصُّلْح والمُوادَعه، والجُنوح إلىٰ السَّلْم وقَطْع المنازَعه ؛ فأجَبْناهم بالإجابه، ورأينا أنَّ حَقْن الدماء من الجانبين من أتمِّ مواقِع الرأى إصابَهْ؛ وكتبنا إليهم في ضمن الجواب :

لَمّــا أتانَا مِنْكُمُ قاصِــدٌ * يَسْأَلُ في الصُّلْحِ وَكَفِّ القِتَال
قُلْنَـا لَهُ نِعْــمَ الَّذى قُلْتَــهُ * والصُّلْحُ خَيْرٌ وأجَبْنَا السُّــؤَال

فبينا نحن علىٰ ذلك ،واقفُون من المواعَدةِ علىٰ المُوَادَعة علىٰ ما هنالك، إذ بلغَنا أن طائفةً من الخَوَنة الذين ضَلَّ سعيُهم ، وعاد عليهم بالوبالِ ولله الحمدُ بَغْيُهم، توجَّهُوا إلىٰ الديار المصرية للآستيلاء علىٰ تَخْتِ مُلْكنا الشريف في الغَيْبه ، آملِينَ مالم يحْصُلوا منه إلا علىٰ الخَيْبه؛ فلم يسَعْ إلا الإسراعُ في طَلَبِهــم ، للقبْض عليهم وإيقاع النَّكال

بهـم، وجازيناهم بما يجازى به الملوك من رام مرامهـم، وظنّ العدوّ أن قصدنا الديارَ المصرية إنما كان لخوفٍ أو فشل، فأخذ فى خِداع أهـل البلد حتّى سلّموه إليه وفعل فَعْلتَه التى فعَل، ليَقْضِىَ اللهُ أمْرا كانَ مَفْعُولا .

ثم لم نزل نَدْأبُ فى تحصين البلادِ وتَرْويج أعمالها، وترتيب أمورِها وتعديل أحوالها، حائطين أقطارَها المتسعةَ بجيوش لا يكِلُّ حدُّها، ولا يُعْقَب بالجَزْر مَدُّها، ليكُونُوا للبلاد أسْوارا، وللدولةِ القاهرةِ إن شاء الله تعالىٰ أعوانًا وأنصارا؛ وأعاد الله تعالىٰ المملكةَ إلى حالها المعروف، وترتيبِها المألوف، فاستقرّتْ بعـد الاضْطِراب، وتوطّنت بعد الاغتراب .

وفى خلال ذلك تردّدت الرسُلُ إلينا فى عَقْد الصلح وإمْضائه، ودَفْن ما كان بين الفريقين من المباينة وإخفائه؛ فلم يسَعْنا التلكُّؤ عن المصالحة [بل سَعَيْنَا] سَعْيها؛ والله تعالىٰ يقول : ﴿ وإنْ جَنحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَهَا ﴾ . فعقَدْنا لهم عقدَ الصُّلح وأمضَيْناه، وأحكَمْنا قواعدَه توكُّلا علىٰ الله تعالى وأبرمْناه، وجهَّزْنا إليهم نسخةً منه طمغت بطمغة قانهم عليها، وأعيدَتْ إلينا بعد ذلك ليكونَ المْرجِعُ عنْد الاختلاف والعياذ بالله تعالى إليها : ﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما ينْكُثُ علىٰ نَفْسِه ومَنْ أوفىٰ بما عاهَدَ علَيْهُ اللهَ فسيُؤْتِيهِ أجْرا عَظِيما﴾ .

والله تعالى يجنِّب إخاءكُم الكريمَ مواقع الغِيَر، و يقْرُن مَوَدّتَه الصادقة بصفاءٍ لا يَشُوبُه علىٰ ممرّ الزمان كَدَر، والسلامُ عليكم ورحمة الله و بركاته .

الجمـــــــلة الرابعة

(فى مكاتبة ملك المسلمين بالأندلُس)

وهو صـاحب غَرْناطةَ ، وقلعتها تسمى حَمْراء غَرْناطةَ . وقد تقـدّم فى المقالة الثانية فى المسالك والممالك ذكْرُ هذه المملكة وأحوالها ، ومَنْ مَلَكها جاهليّة وإسلاما ، وأنها الآنَ بيَدِ بَنِي الأحمر . وقد ذكر فى "التعريف" أنهم من وَلَدِ قيسِ بنِ سعد ابن عُبَادة سيد الخزرج الأنصاريّ : صاحب رسول الله صلّى الله عليه وسلم . وهى منهم الآنَ بيد السلطان محمد بن يوسف بن محمد المخلُوع آبن يوسُفَ بن إسمـاعيل آبن الرئيس أبى سعيد فرج بن إسمـاعيل بن يوسـف بن نصر؛ وقد أزلّ اللهُ من يجاوره من نَصارىٰ الفَرَنْج بسيفه ، وآمتنع فى أيامه ما كان يؤدِّيه مَنْ قَبْله من أواخر ملوك الأندَلُس إلى مَلِك الفَرَنج من الإتاوة فى كل سنةٍ ، لأستقبال سنةِ ثنتين وسبْعين وسبعمائة و إلى آخر وقت .

وقد ذكر فى "التعريف" أنّ سلطانها كان فى زمانه فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» أبا الفضـل يوسف؛ ولعله يوسف بن إسمـاعيل المقدّم ذكره . قال : وهو شابٌّ فاضل له يدٌ فى الموشَّحات . ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى "التعريف" بعد البسملة "أما بعد" بخطبة مختصرة ، «فهذه المفاوضَةُ إلى الحضرة العلية ، السنيَّة ، السريَّة ، العالميَّة ، العادليَّة ، المجاهِدية ، المؤيَّديَّة ، المرابِطيّة ، المثاغِرية ، المظفَّرية ، المنصوريَّة ، بقيَّة شجرة الفَخَار ، وخالصةِ سَلَف الأنْصار ، المجاهد عن الدين ، والذابِّ عن حوزة المسـلمين ، ناصِرِ الغُزاة والمجاهدين ، زعيم الجيوش ، خُلاصـة الخلافة المعظمة ، أثيرِ الإمامة المكَرَّمة ، ظهير أمير المؤمنين ، أبى فلان فلان . »

وهذا صدر لهذه المكاتبة ذكره فى "التعريف" وهو .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إليه متكفِّلةً بالنصر على بُعْد الدار ، مجرّدةَ النصل إلا أنه الذى لا يؤخِّره البِدَار ، مُسعَدةً بالهِمَم ولولا الآشتغالُ بجهاد أعداءِ الله فيمن قَرُب لَمَا تقدّمتْ سَرْعانُ الخيل ، ولا أقبلت إلَّا وفى [أوائل](١) طلائعِها للأعداء الوَيْل ، ولا كُتبَتْ إلا والعَجَاج يُتَرِّب السُّطور ، والفِجَاج تقذِفُ مافيها على ظُهور الصَّواهل إلى بُطون البُحور . مبديةً ذكرَ ماعندنا بسببها لمجاورة الكُفَّار ، ومحاورة السيوف التى لاتَملُّ من النفار ، مع العلم بما لها فى ذلك من فَضِيلة الجهاد ، ومَزِيَّة الجَلَد على طول الجِلَاد ، ومصابَرةِ السهَر لأوقات منيمه ، ومكاثرةِ هـذا العدوِّ بالصـبر ليكونَ لهـا غنيمه ، ونحن على إمدادها ــ أيدها الله ــ بالنصر وبالدعاء الذى هو أخفُّ إليها من العساكر ، وأخفى مسيرًا إذا قدَّر حقَّه الشاكر ، ثقةً بأن الله سينصُر حِزْبَه الغالب ، ويكُفُّ عدوَّه المغالب ، ويصل بإمداد الملائكةِ لجُنْده ، ويأْتِى بالفتح أو بأمْرٍ من عنده ، لتجرى ألطافُه على ماعوّدَتْ ، ويُؤخَذَ الأعداء بالجريرة ، ولينصرنَّ اللهُ من ينصره وينظُرُ إلى أهل هذه الجزيره .

والذى ذكره فى "التثقيف" أن رسم المكاتبة إليه مثل صاحب تونس فى القطع والخطابة ، والاختتام ، والعلامة ، والتعريفُ " صاحبُ حمراء غَرْناطةَ " .

وهذه نسخة جوابٍ إلى صاحب حمراء غَرْناطة . وقد ورد كتابه فى ورقٍ أحمر يتضمَّن قيامَه بأمر الجهاد فى الكُفَّار ، وما حصل من آستيلاء بعض أقاربه على مُلْكه ونَزْعه منه ، وأنه استظهر بعد ذلك على المذكور وقتَلَه ، وعاد إلى مُلْكه على عادته . فى جمادى الأولى سنة خمس وستين وسبعمائة ، وهى :

---

(١) من "التعريف" زدناه .

نَخُصُّ الحضرةَ العلية، حضرة الأمير فلان، وألقابه، جعل الله له النصْرَ أينَ سارَ قرينا، والظَّفَر والاستظهارَ مصاحِباً وخَدِينا، وزاد في محلِّه الأسنىٰ تمكينا وتأمينا، ومنَحَ أُفُقَه الغربيَّ من أسِرَّةِ وجهه المتلألئ الإشراق، ومَهَابةِ بطْشه الذى يُورِد العِدا مَوَارد الرَّدىٰ بالاتِّفاق، تحسيناً وتحصينا ـ بإهداء السلام الذى يتأرَّجُ عَرْفا، ويتبلَّج وصْـفا، ويكاد يمـازِجُ النَّسِـيم لُطْفا ـ وإبْداء الشُّكْرِ الذى جلَّلَه ملابِس الإكرام وأضْفىٰ، وأجملَ منه نفائسَ عَقْدِ المودَّة التى أظهرها فلم تكُنْ تخفىٰ .

ثم بعدَ حمدِ الله مؤكِّد أسباب عُلَاه، ومؤيِّد موجِباتِ نَصْره وما النصرُ إلا من عنـد الله؛ والصلاةِ والسـلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبده ورسوله الذى أمَدَّه بملائكته المقَرَّبين، ونصَرَه بالرُّعْب مســيرةَ شهرٍ كما ورد بالنصِّ والتعيين؛ ورفع باسمه ألْوِيةَ المؤمنين الموحِّدين، وقمع ببأسه ثائرةَ البُغاة والمتمرِّدين .

وعلى آله وصَحْبـه الذين لازَمُوا التمسكَ بأسباب الدين، وجاهَدُوا فى إقامة مَنَار الإسلام لمـا علِمُوا مقدارَ أجرهم عِلْمَ اليقين، صلاةً متواليةً متواترةً علىٰ ممَرِّ الأحقاب والسِّنين؛ فإنا نوضِّح لعلمه الكريم أنَّ كتابه ورد علينا مشتملا علىٰ المحاسن الغَرّاء، مُغْرِبا بل معرِبا لنا بحمرة لونِهِ أن نسبتَه إلىٰ الحمراء، مُشْبِهًا وَرْدَ الخدُود والنِّقْسُ فيه كالخال، أو شَقائقَ النُّعمان كما بدَا روضُه غِبَّ السحاب المتَوال . فوقَفْنا علىٰ مضمونه جميعِه، وتلمَّحنا بديعَ معانيه من جميل تَوْشيعِه وترصيعه، وعلِمْنا ما شرحه فيه : من ٱستمراره علىٰ عادة سَلَفه فى القيـام بأمر الجهاد، وقَطْع دابر الكَفَرة ذوى الشِّقاق والعِناد، وتوطيـدِ ما لديه من تلك البِلاد، وتطمينِ ما بها من العِباد؛ وما ٱتفق من قريبِه فى الصورة لافى المعنىٰ، وكيف أساء إليه فِعْلا وقد أحسَنَ به ظنًّا، وأنه رَصدَ الغفلةَ من جنابه، وأقدَمَ على ما أقدَمَ عليـه من اقترافِ البغْي والتمسُّك بأسبابه، ولم

يزلْ يُراعِى غَيبةَ الرَّقيب وهُجُوعَ السامر، إلى أن تمكّن من الاستيلاء على ذلك المُلْك الذى ظنّ أنّ أمره اليه صائر، لكنه مع كونه قد اقتحم فى فَعْلته هذه الأَهْوال، وتوهّم أنه قد حصَل بمكره على بُلُوغ بعض الآمال، فإنه ماسَلِمَ ولله الحمدُ والمِنَّة حتّى وَدّع، ولا أقبل سَحابُ استيلائه حتّى أَقْشَع، بما قدّره الله تعالى لحضرة الأمير من نُصْرته، وعَوْده إلى محلّ أَمْره وإمرته . وأنه آثَرَ اطِّلاع علومنا الشريفـة على هذه الواقعه، لما يعلمُ من تأكيد المودة التى غدَتْ حمائمها على أفنانِ المحبَّة ساجعه ؛ وقد علمنا هذا الأمر ، وشكَرْنا جميلَ محبّته التى لم يَنْسُجْ على منوالها زيدٌ ولا عمرو ؛ وابْتَهَجْنا بما يَسَّره الله تعالى له من ذلك ، وانتهزْنا فُرَصَ السُّرور بما منحه الله من ظَفَره المتقارِب المتَدارِك، وحمِدْنا اللهَ تعالى على تأييد هذه العِصَابة الإسلاميَّة، وما مَنَّ به من عَوْد شمس هذا الأُفُقِ الغربيِّ إلى مطالعها السنيَّه ؛ ولا جرمَ ان كانت له النُّصْره، والاستيلاءُ والقُدْره : لأن الله تعالى قد تكفّل سبحانه لاوليائه بمَزيد التكريم والتعْزيز، إذ قال عز وجل : ﴿ذٰلكَ ومَنْ عاقَبَ بمثْل ماعُوقب به ثم بُغِيَ عليه لينْصُرَنَّه الله﴾ ﴿إنَّ اللهَ لقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ .

وأما غير ذلك، فقد وصل رسولُ الحضرةِ العلية إلينا وتمثل بمواقِفِنا المعظَّمه، ومحالِّ مملكتِنا المكَرَّمه ؛ وأقبَلْنا عليه، وضاعَفْنا الإحسانَ إليه ؛ وأدّى إلينا ما تحمَّله من المشافَهَة الكريمه ، ورسائل المحبَّة والمودَّة القديمه؛ فرسمنا باجابة قَصْده ، وتوفير بِرِّه ورِفْده، وقضاءِ شُغُله الذى حضر فيه، وتسْهيلِ مآربه بمَزيد التنْويل والتنْويه ؛ ومسامحةِ الحضرة العلية بما يتعيَّن على ما قيمته ألفَا دينار مصرية حسَبَ ماعيَّنَه رسوله المذكور، ولو كان سألَنَا أضعافَ ذلك لأجبْنا سُؤالَه من غير تروٍّ ولا فُتُور. وقد جهَّزنا إليه صُحبَتَه ماأنعمَتْ به صدَقاتُنا الشريفةُ عليه من الدِّرْياق ودُهْن البَلَسان، فليتحقّق

ماله عندنا من المكانة والمحلّ الرفيع الشان ؛ وقد أعدْنا رسولَه المذكورَ إلىٰ جهته الكريمة بهذا الجواب الشريف ، محترما مكرّما مشمُولا من إحساننا بالتّليد والطّريف ؛ فيُحيط عِلمًا بذٰلك والله تعالى يُمدُّه بمزيد التأييد ، ويمنحُه من جميل الإقبالِ ، وجزيلِ النَّوال ، ما يُرْبى على الأمل ويَزِيد ! .

تم الجزء السابع . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الثامن

وأوله المقصـــد الثـالث

(فى المكاتبة إلىٰ أهل الجانب الجنوبى ممن جرتِ العادةُ بالمكاتبة إليه من العرب والسُّودان ، وفيه ثلاث جمل)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين وآله وصحبـــه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ٧٠٠٠/١٩١٤/٣٠٠٠)

فهــــرس

الجـــــزء السابع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

الطـــرف العـــاشر — فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية ، ولهـا حالتان... ... ... ٥

الحـــالة الأولى — ما كان الأمر عليه قبل دولة الخلفاء الفاطميين بها فى الدولة الأخشيدية والطولونية وما قبلهما... ... ٥

« الثانيـــة — ما كان الحـــال عليه بعد الدولة الفاطمية فى الدولة الأيوبيـــة ١٩

الطرف الحادى عشر — فى المكاتبات الصادرة عن ملوك أهل الغرب، ولهـا حالتان... ... ... ٣٠

الحـــالة الأولى — ما كان الأمر عليه فى الزمن المتقدّم... ... ... ٣١

« الثانيـــة — ما الأمر مستقرّ عليه مما كان عليه علامة متأخرى كتاب المغرب أبو عبد الله محمد بن الخطيب... ... ٣٩

الطرف الثانى عشر — فى الكتب الصادرة عن وزراء الخلفاء المنفذين أمور الخلافة اللاحقين بشأو الملوك ، وفيه جملتان ٧٢

الجمـــلة الأولى — فى الكتب الصادرة عن وزراء خلفاء بنى العباس ببغداد ووزراء ملوكها يومئذ ٧٢

« الثانيـــة — فى الكتب الصادرة عن وزراء خلفـــاء الفاطميين بالديار المصرية ٧٨

الطرف الثالث عشر — فى المكاتبات الصادرة عن الأتبـــاع إلى الملوك ومن فى معناهم، وفيه ثلاث جمل... ... ... ٨١

صفحة

الجمـــلة الأولىٰ — فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الشرق إليهم
فى الزمن المتقدّم ٨١
« الثانيــة — فى المكاتبــات الصادرة عن أتبــاع مــلوك الديار
المصرية إليهم ٨٧
« الثالثـة — فى المكاتبات الصادرة عن أتباع ملوك الغرب
إليهـــم ٩١
الطرف الرابع عشر — فيما يختص بالأجوبة الصادرة عن الملوك إليهم،
وهى علىٰ ضربين ١٠٣
الضـــرب الأوّل — الأجوبة الصـــادرة عن المـــلوك إلىٰ غيرهـــم،
وفيه ثلاث جمل ١٠٤
الجمـــلة الأولىٰ — فى الأجوبة الصادرة عن ملوك المشرق... ... ... ١٠٤
« الثانية — فى الأجوبة الصادرة عن ملوك الديار المصرية
من وزراء الخلفاء الفاطميين القائمين مقــام الملوك
الان فمن بعدهم ١٠٧
« الثالثة — فى الأجوبة الصادرة عن ملوك الغرب ١١٠
الضـــرب الثـــانى — الأجوبة الواردة علىٰ الملوك ١١١
القســـم الثـــانى — المكاتبـــات الصادرة عنهـــم إلىٰ مـــلوك الكفر،
وفيه طرفان ١١٣
الطـرف الأوّل — فى الأبتداءات، وفيه ثلاث جمل ١١٣

صفحة

الجملة الأولى — فى المكاتبات الصادرة إليهم عن ملوك بلاد الشرق
من بنى بويه فمن بعدهم ١١٣
« الثانية — فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية
إليهم ١١٥
« الثالثة — فى الأجوبة الصادرة إليهم عن ملوك الغرب... ... ١١٦
الطرف الثانى — (وكتب خطأ الخامس عشر) المكاتبات الصادرة إلى
ملوك الكفر فى الأجوبة، وهى إما أن تصدّر بما
يصدّر به الابتداء وقد تقدّم، وإما أن تصدّر
بلفظ وصل أو ورد ١١٧
الفصل الرابع — من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى المكاتبات
الصادرة عن ملوك الديار المصرية على ما آستقرّ
عليه الحال من آبتداء الدولة التركية وإلى زمان
المؤلف على رأس الثمانمائة، وفيه أربعة أطراف
(وكتب خطأ ثلاثة) ١١٩
الطرف الأوّل — فى المكاتبات الصادرة عنهم إلى الخلفاء من بنى
العباس ١١٩
« الثانى — فى المكاتبة إلى ولاة العهد بالخلافة... ... ... ١٣٤
« الثالث — فى المكاتبات الصادرة عن ملوك الديار المصرية
إلى أهل المملكة من مصر والشام والحجاز،
وفيه ثلاثة مقاصد ١٣٨

صفحة

المقصـــد الأول — فى المكاتبات المفردة ، وفيه مسلكان ١٣٨

المســـلك الأوّل — فى بيان رتب المكاتبـات ورتب أهلهـا ،
وهى على ضربين ١٣٨

الضرب الأوّل — المكاتبات إلى الملوك على ما كان عليه الحـال
فى الزمن المتقدّم ١٣٨

« الثـانى — المكاتبات إلى من عدا الملوك من أرباب السيوف
والأقلام ... ... وفيه مهيعان ١٤٠

المهيع الأوّل — فى رتب المكاتبات، وهى على عشر درجات ... ١٤٠

« الثانى — فى بيـان مراتب المكتوب إليهـم من أهل
المملكة ... ... وهم على ثلاثة أنواع ١٥٤

النـوع الاول — أرباب السيوف ١٥٤

« الثـانى — أرباب الأقلام، وهم على ضربين ١٦٣

الضرب الاول — أرباب الدواوين من الوزراء ومن فى معناهم... ١٦٣

« الثـانى — أرباب الوظائف الدينية والعلماء ١٦٥

النـوع الثالث — ممن يكاتب عن الأبواب السلطانيـة ... ...
الخوندات السلطانية ١٦٦

المســـلك الثـانى — فى معرفة ترتيب المكاتبات المقدّمة الذكر وكيفيـة
أوضاعها... ... ... ١٩٤

صفحة

المقصد الثاني — في المكاتبات العامة إلى أهل هذه المملكة وهي المطلقات، وحاصل مرجوعها إلى ثلاثة أضرب ٢١٨

الضرب الأوّل — المطلقات المكبرة ٢١٩

« الثاني — المطلقات المصغرة ٢٢٣

« الثالث — (وكتب خطأ الثاني) من المطلقات البرالغ ٢٢٩

المقصد الثالث — من المكاتبات في أوراق الجواز و بطائق الحمام، وفيه جملتان ٢٣١

الجملة الأولى — في أوراق الجواز ٢٣١

« الثانية — في نسخ البطائق، وهي على ضربين ٢٣٤

الضرب الأوّل — أن تكون البطاقة بعلامة شريفة ٢٣٤

« الثاني — أن تكون بغير علامة ٢٣٤

الطرف الرابع — (وكتب خطأ الثالث) في المكاتبات إلى عظماء ملوك الإسلام ومن انطوت عليه ممالكهم ممن دونهم ... وفيه أربعة مقاصد ٢٣٥

المقصد الأوّل — في المكاتبات إلى عظماء ملوك الشرق ... ... وفيه أربعة مهايع... ... ... ٢٣٦

المهيع الأوّل — في المكاتبة إلى الملوك والحكام ومن جرى مجراهم بمملكة إيران ... ... ويشتمل المقصود منها على ثلاث جمل ٢٣٦

صفحة

الجملة الأولى — فى رسم المكاتبة إلى قانها الأعظم ٢٣٦

« الثانية — فى المكاتبات إلى من ملك توريز وبغداد بعد موت أبى سعيد ٢٥٧

« الثالثة — فى رسم المكاتبة إلى من آنطوت عليه مملكة إيران ٢٦٢

المهيــع الثانى — من المكاتبة إلى الملوك، مملكة توران ٢٩٢

« الثالث — فى المكاتبات إلى من بجزيرة العرب ... وفيه جملتان ٣٣٢

الجملة الأولى — فى المكاتبات إلى ملوك اليمن ٣٣٢

« الثانية — فى المكاتبات إلى عرب البحرين ومن آنضاف إليهم ٣٧٠

المهيــع الرابع — فى المكاتبة إلى صاحب الهند والسند ٣٧٢

المقصد الثـانى — ... ... فى المكاتبات إلى ملوك الغرب، وفيه أربع جمــل ٣٧٦

الجمــلة الأولى — فى المكاتبات إلى صاحب افريقيــة وهو صاحب تونس ٣٧٦

« الثانية — فى مكاتبة صاحب الغرب الأوسط وهو صاحب تلمسان ٣٨٥

« الثالثة — فى المكاتبة إلى صاحب الغرب الأقصى ٣٨٦

« الرابعة — فى مكاتبة ملك المسلمين بالأندلس... ... ... ٤١٢

(تم فهرس الجـــزء السابع من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجـــــزء الثامن

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الثامن

طبــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقصد الثالث

فى المكاتبة إلى أهل الجانب الجَنُوبىّ ممن جرت العادةُ بالمكاتبة إليه من العرب والسُّودان، وفيه ثلاث جمل

الجملة الأولى

(فى المكاتبة إلى مَنْ بهذا الجانب من العُرْبان)

وقد ذكر فى " التثقيف " ممن كُوتِب منهم جماعةً بالطُّرُقات الموصِّلة من الديار المصرية إلى بلاد الحَبَشة وغيرها . ثم قال : ولعلَّ هؤلاء أيضا من عُرْبان الممالك المحروسة ، غير أنه لا إقطاعاتِ لهم ، وعدّ منهم ثمانية أشخاص ، وذكر أنه كتب إلى كل منهم الاسم ومجلس الأمير :

الأول — سَمُرة بن كاملٍ العامرىّ .

الثانى — عَبَّاد بن قاسم .

الثالث — كمال بن سِوَار . قال : وهو مستحْدَث المكاتبة فى العشر الأول من جمادى الأولى سنة ثلاث وستين وسبعمائة .

الرابع — جُنَيد : شيخُ الجَوابرة من الهكارِيَّة بأبواب النُّوبة . قال : وهو مستحْدَث المكاتبة فى سنة تسع وستين وسبعمائة .

الخـامس ـــ شَرِيف : شـيخ النَّمانِمَة ، بأبواب النُّوبة أيضـا ، ومكاتبتـه مستجِدّة حينئذ .

السادس ـــ علىّ : شيخ دُغَيْم .

السـابع ـــ زامِلٌ الثـانى .

الثـامن ـــ أبو مُهَنًّا العِمْرانىّ .

الجمـــــلة الثـانيـــــة

(فى المكاتبة إلىٰ مسلِمِى ملوكِ السُّودان ، وهم أربعة ملوك)

الاول ـــ ملِك النُّوبة . وهو صاحب مدينة دُنْقُلَة : وقد تقدّم الكلامُ عليها مستوفًى فى الكلام علىٰ المقالة الثانية فى "المسالك والممـالك" . قال فى "التعريف": وهو رَعِيَّة من رَعايَا صاحبِ مصر، وعليه حِمْلٌ مقرّرٌ، يقوم به فى كل سنة، ويُخطب [ببلاده](١) لخليفة العصر، وصاحب مصر .

قلت : هذا كان فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وهذه الإتاوة كانتْ مقرّرةً عليهم من زمن الفَتْح ، فى إمارة عَمْرو بن العاص رضى الله عنه ؛ ثم صارت تنقطع تارةً وتُحمَل أُخْرىٰ ، بحسَب الطاعة والعِصْيان . وهى الآنَ مملكةٌ مسـتقِلَّة بذاتها ، ولذلك أوردتُ مكاتبةَ صاحبها فى جملة الملوك :

ورسم المكاتبة إليه إن كان مسلما علىٰ ما ذكره فى "التعريف" :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس الجليل ، الكبير ، الغازِى ، المجاهِد ، المؤيَّد ، الأوحدِ ، العَضُد ، مَجْدِ الإسـلام ، زينِ الأنام ، فخرِ المجاهدين ، عُمْـدةِ الملوك والسلاطين .

(١) الزيادة من "التعريف" .

وذكر ذلك فى « التثقيف » نقلا عنه . ثم قال : ولم أجد له مكاتبةً متداوَلةً بين الجماعة . قال : ولم يُكْتب له شىءٌ فى مدّة مباشرتى بديوان الإنشاء ، ولم يزد علىٰ ذلك .

ورأيت فى الدُّستور المنسوبِ للمقرّ العَلَائىّ بن فضل الله أنَّ مكاتبته هذه المكاتبةُ أيضا، وأنه يقال بعد عمدةِ الملوك والسلاطين : «أدام الله سعادتَه ، وبلَّغه فى الدارين إرادتَه، تتضمَّن إعلامه كَيْتَ وكَيْتَ ، فيتقدَّم بكذا وكذا، فيحيطُ علمُه بذلك» . ثم قال : والمكاتبة إليه فى قَطْع العادة ، والعلامة « أخوه » ولا يخفىٰ أنَّ العنوان بالألقاب، ويظهر أن التعريف «صاحب دُنْقلة» .

الثانى — ملك البَرْنُو . قال فى "التعريف": وبلاده تَحُدّ بلاد [ملك](١) التَّكرور من الشرق، ثم يكون حدّها من الشمال بلادَ [صاحب](١) أفريقيَّة، ومن الجَنُوب الهَمَج ؛ وقد تقدّم الكلام عليها مستوفًى فى المقالة الثانيـة فى الكلام على المسالك والممالك . ولم يذكر هذه المملكة فى "مسالك الأبصار" . قلت : وملكها يزعُم أنه من ذُرّية سَيْف بن ذِى يَزَن ملك اليمن علىٰ ماورد به كتابُه فى أواخر المائة السابعة .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" :

أدام اللهُ تعالىٰ نَصْر الجناب الكريم ، العالى ، الملكِ الجليـلِ ، الكبيرِ ، العالم ، العادل ، الغازى ، المجاهد ، الهُمَام ، الأوحد ، المظَفَّر ، المنصور ، عزِّ الإسلام ، (من نوع ألقاب ملك التَّكرور) : يعنى شرف ملوك الأنام ، ناصر الغُزاة والمجاهدين ، زعيم جيوش الموحِّدين ، جمال الملوك والسلاطين ، ظهير الإمام ، عضد أمير المؤمنين الملك فلان . ويدعىٰ له بما يناسبه ، وبعد إهداء السلام والتشوُّق هذه المفاوضَة تبدى ، علىٰ ماسيأتى ذكره فى مكاتبته .

(١) الزيادة من "التعريف" .

وهذا صدر يليق به : ولا زالتْ هِممُ سلطانه غيرَ مُقْصَره، ووُفودُ حجِّه غير محصَره، وسيفُه فى سَواد مَنْ جاوره من أعدائه الكُفَّار يقول: ﴿وجَعَلْنَا اللَّيْلَ والنَّهَارَ آيتَيْنِ فمَحَوْنا آيَةَ اللَّيْلِ وجَعَلْنَا آيَةَ النَّهارِ مُبْصِرَة﴾ صدرتْ، ولهامَثلُ مِسْكةٌ افقه عبق، وعنبرةُ طينتِه سوادٌ إلا أنَّه من السَّواد اليَقَق، وشبيبة مَلِكه الذى يُفَدِّيه سَوادُ الحَدَق. أوجبها وُدّ أسكنه [مَسْكَنه](١) من سُوَيْداء القلب لايَرِيم، وأراه غُرَّة الصَّباح الوَضَّاح تحتَ طُرّة الليل البَهِيم . وحكىٰ ذلك عنه فى "التثقيف" ولم يزد عليه .

ورأيت فى الدُّستور المنسوب للمقرّ العلائىّ بن فضل الله أنَّ مكاتبته فى قطع الثُّلُث، والعلامة «أخوه» وتعريفه «صاحب بَرْنُو» .

قلت : ووصل من هذا الملك كتاب فى الدولة الظاهرية (برقوق) يتشكَّى فيه من عرب جُذَامَ المجاورين له؛ ويذْكُر أنهم أخذُوا جماعةً من أقاربه باعُوهم فى الأقطار، وسأل الكَشْفَ عن خبرهم، والمنْعَ من بَيْعهم بمصر والشام؛ وأرسل هديَّة صالحةً من زِنْبَق وغيره . وكُتِب جوابُه بخط زين الدين طاهر : أحدِ كُتَّاب الدَّسْت . صدره: أعزَّ الله تعالىٰ جانبَ الجناب الكريم، العالى، الملِك الجليلِ، العالم، العادل، الغازى، المجاهِد، الهمامِ، الأوحدِ، المظَفَّر، المنصور، المتوكِّل، فخر الدين أبى عمرو عثمانَ بنِ إدريس : عزِّ الإسلام، شرفِ ملوك الأنام، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين، زعيم جيوش الموحِّدين، جمالِ الملوك والسلاطين، سيفِ الجَلالة، ظهير الإمامه .

وبُعِث إليه به مع رسوله الوارد صُحْبةَ الحجيج، فأُعِيد وقد كتب الجواب علىٰ ظهره بعد سنة أو سنتين .

الثالث — ملك الكانِم . قال فى "مسالك الأبصار" : وقاعدة الملك منها بلدةٌ آسمُها «جِيمِى» ومبدأ مملكته من جهةِ مصر بلدةٌ آسمها «زَلَّا» وآخِرُها طُولا بلْدةٌ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ٢٩ .

يقال لها «كَاكَا» وبينهما نحو ثلاثة أشهر . قال : وعسكرهم يتلثَّمون، وملِكُهم علىٰ حَقَارة سلطانه، وسُوء بُقْعة مَكَانه، فى غايةٍ لاتُدْرَك من الكِبْرياء، يمسَحُ برأسه عَنَانَ السماء، مع ضَعْف أجناد، وقِلّة متحصِّلِ بلاد، محجوبٌ، لا يراه أحد إلا فى يوم العيدين بُكرةً وعندَ العَصْر، وفى سائر السنة لايكلمه أحدٌ ولو كان أميرا إلّا من وراء حجاب .

وقال فى "التعريف" ملوكُها من بيتٍ قديمٍ فى الإسلام، وجاء منهم من ادَّعىٰ النسب العَلَوىّ فى بنى الحَسَن، وهو يتمذهبُ بمذْهَب الشافعىّ . ورَسْم المكاتبة إليه علىٰ ماذكره فى "التعريف" كرسم مكاتبة صاحب البَرْنُو، بدون الكريم، وتبعه علىٰ ذلك فى " التثقيف " ناقلا له عنه . ثم قال : ولم أطّلع علىٰ مكاتبةٍ له غير الذى قد ذكره .

الرابع — ملك مالِّى . قال فى "مسالك الأبصار" وهى فى نِهاية الغَرْب متصلةٌ بالبحر المحيط ، وقاعدة المُلْك بها بَنِى . وهى أعظمُ ممالك السُّودان ؛ وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام علىٰ المسالك والممالك ذكرُ أحوالها، وما تيَسَّر من ذكر ملُوكها، وأن مالِّى اسمٌ للإقليم، والتَّكْرور مدينةٌ من مُدُنه، وكان ملكُها فى الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » مَنْسا موسىٰ، ومعنىٰ مَنْسا السلطانُ .

وقد ذكر فى " مسالك الأبصار "(١) أنه وصل منه كتابٌ عن نفسه لنفسه فيه ناموسًا، وأنه وصل إلىٰ الديار المصرية حاجًّا، واجتمع بالسلطان الملك الناصر، فقام له وتلقّاه، وأكرمه وأحسن نُزُلَه، علىٰ ماهو مبسوط فى موضعه .

---

(١) عبارة "المسالك" فى الكلام علىٰ مملكة مالى نصها « ولقد جاء كتاب من هذا السلطان الى الحضرة السلطانية بمصر وهو بالخط المغربى فى ورق عريض، السطر الى جانب السطر وهو يمسك فيه ناموسا لنفسه» فلعل مافى الأصل هكذا « عن نفسه وهو يمسك لنفسه الخ » فتدبر .

قال فى " التعريف ": وملك التَّكْرور هذا يدَّعى نَسَبا إلى عبدِ الله بن صالح ابن الحسن، بن علىّ، بن أبى طالب .

ورسم المكاتبة إليه على ما ذكره فى " التعريف " : « أدام الله تعالى نصرَ المَقَرّ العالى ، السلطانِ ، الجليلِ ، الكبيرِ ، العالِمِ ، العادلِ ، المجاهِدِ ، المؤيَّدِ ، الأوحدِ ، عزِّ الإسلام ، شرفِ ملوك الأنام ، ناصرِ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمِ جُيوش الموحِّدين ، جمالِ الملوك والسلاطين ، سيفِ الجَلالة ، ظَهِيرِ الإمامة ، عَضُد أميرِ المؤمنين » الملك فلان . ويُدْعىٰ له بما يناسبُ . وبعد إهداء السلام والتشوّق « هذه المفاوضة تبدى » .

قال : ولا يُعرّض له ولا يُقرّ بشىءٍ من الالقاب الدالة على النسب العَلَوىّ .

وهذا صدر لهذه المكاتبة ذكره فى "التعريف" .

ويَسَّر له القيامَ بفَرْضه ، وأحسنَ له المعاملَةَ فى قَرْضه ، وكثَّر سوادَهُ الأعظَمَ وجعلهم بِيضَ الوجوه يومَ عَرْضه ، ومتّعه بمُلْك يجد الحديدَ سَجْفَ سمائه والذهَبَ نَبَاتَ أرضه . صدرتْ هذه المفاوضةُ وصدْرُها به مملُو ، وشُكْرُها عليه يحلُو ، ومَزَايَا حُبِّه فى القلوب سِرُّ كلِّ فؤاد ، وسبَبُ ما حَلِىَ به الطَّرْف والقلْبُ من السَّواد ، تُنْزَل به سفُنُها المسيَّرةُ فى البحر وتُرْسى ، وتَحُلُّ عند ملك ينقُص به زائدُه وينسىٰ موسىٰ مَنْسىٰ ، وتُقِيمُ عليه والدهْرُ لا يطرُقُه فيما ينوب ، والفكر لا يَشُوقه إلا إذا هبّتْ صَبًا من أرضه أو جَنُوب .

والمتداوَلُ بين جماعة كُتَّاب الإنشاء أن المكاتبة إليه : « أعز الله تعالىٰ جانبَ الجناب الكريم العالى ، الملكِ ، الجليل ، العالِم ، العادلِ ، المجاهد ، المؤيَّدِ ، المرابِط ، المثاغر ، العابدِ ، الناسك ، الأوحد ، فلان ، ذُخرِ الإسلام والمسلمين ، نُصْرة الغُزاة

والمجاهــدين، عَوْنِ جُيوش الموحِّدين، رُكْنِ الأمّة ، عمـاد المِلّة ، جمـال الملوك والسلاطين، ولىّ أمير المؤمنين» والدعاء .

وذكر نحو ذلك فى الدُّسْتور المنسوب للمقرّ العلائىّ بن فضل الله، ثم قال ويقال : «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى مملوءةَ الصــدر بشُكْره ، باسمةَ الثغر برفعةِ قَدْره، موضِّحةً لعلمه الكريم كيْتَ وكيْتَ . وذكر أنَّ خطابه بالجناب الكريم، والطلبَ والقصد والختم بالإحاطة ،وذكر هو وصاحب "التثقيف" أن المكاتبة إليه فى قطع الثلث، والعلامة «أخوه»، وتعريفه «صاحب مالِّى وغانةَ» .

الجمـــــلة الثـالثة

(فى المكاتبة إلىٰ ملوك المسلمين بالحَبَشة)

قد تقدّم فى المقالة الثانيــة فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك أنَّ ببلاد الحبشــة ســبعة ملوك مســلمين، لهم سبْعُ ممـالكَ، كلُّ مملكة منفردةٌ بمِلك، وبها الجوامعُ والمساجدُ ينادىٰ فيها بالأذان ، وتُقامُ بها الجُمَعُ والجماعات ، وهم مع ذلك تحتَ أمرِ صاحبِ أَمْحَرا ملك ملوك الحبشة، يَخْتار لولاية ممالكهم مَنْ شاء توليتَه، ولا يَرِدُون ويَصْدُرون إلا عن أمره ، وهى مملكة أَوْفَات والزَّيْلَع ، ومملكة دَوَارُو ، ومملكة أرَابِينى، ومملكة هَدْيَةَ، ومملكة شَرْحا، ومملكة بالِى، ومملكة دارَة .

وقد تقدّم الكلام عليها وعلىٰ أحوالها مستوفىً عند الكلام عليها فى المقالة الثانية . قال فى " مسالك الأبصار " : وهذه الممـالك تُجاور ناصِع ، وسوا كِن، ودَهْلَك، وليس بها مملكة مشهورة .

قال فى "التعريف" : ولم يَرِدْ من هــذه الملوك السبعة كتاب ، ولا صــدَر إليهم خِطَاب . قال : فإن ورد منهم شئٌ فتجرى مكاتبتُهم مثـلَ مكاتبةِ صاحب الكانم والبَرْنُو . وقد تقـدّم أنَّ رسم المكاتبة إليهما علىٰ ما ذكره فى "التعريف" : «أعزَّ الله تعالى نُصْرَةَ الجناب الكريم ، وأعزَّ اللهُ تعالى جانب الجناب الكريم» علىٰ ما كتب به القـاضى زينُ الدين طاهر فى جواب صاحب البَرْنُو علىٰ ما هو مذكور فى موضعه .

المقصـــــد الرابع

(فى المكاتبة إلىٰ أهل الجانب الشَّمالى ، وفيه ثلاثة أطراف)

الطـــــرف الأوّل

(فى المكاتبات إلىٰ أُمَراء الأتراك بالبــلاد المعروفةِ ببـــلاد الرُّوم المسمَّاة الآنَ ببلاد الدُّرُوب)

قال فى "التعريف" : وهى البلاد المُنحصِرة بين بَحْرِى القِرمِ والخليج القُسْطَنْطِينىّ تنتهى فى شرقيِّها إلىٰ بحر القِرمِ المسمَّى بحر نِيطِش ، وفى الغرب إلىٰ الخليج القُسْطَنْطِينىّ وتنتهى متشاملة إلىٰ القُسْطنطينية ، وتنتهِى جَنُوبا إلىٰ بلاد الأرمن ، يحـدُّها البحر الشامىُّ . قال : وهــذه البلاد بلادٌ متسـعه ، وهى مفَرّقةٌ لملوك مجتمعه ، ولكنه لا يُطْلق عليهم إلّا ٱسم الإمارة ، ولا ٱنتظامَ لكلمتهم ، ولا ٱجتماعَ لجُمْلتِهم ، ثم قال : وأكبرهم صاحب كِرْمِيان ، وله بينهم وَضْع محفوظ ، ونظامٌ مرعىّ .

أما ملوكنا ، فأجلُّ مَنْ لديهم منهم جماعةُ بنى قرْمان ، لقُرْب ديارهم ، وتَواصُــل أخبارهم ، ولِنكَاياتهم فى مَتملَّك سِيسَ وأهل بلاد الأرمن ، وٱجْتياحِهم لهم من ذلك

الجانب، مثلَ ٱجتياح عساكرِنا لهم من هذا الجانب، فمكاتبتنا إلىٰ بَنِي قرمان لاتكاد تنقطع ، وأما إلىٰ البقِيّة فأقلُّ من القليل، وأخفىٰ من مَرْأىٰ الضئيل . ثم عدّ منهم ستةَ عشَرَ أميرا، وذكر رسمَ المكاتبة إلىٰ كلِّ واحدٍ منهم :

الأوّل — صاحب كِرْميان . قال فى "التعريف" : ولم يُكْتب إليه مُدّة مُقَامى بالأبواب السلطانية ؛ ويُشْبِه أن تكون المكاتبةُ إليه بالمَقَرّ نظيرِ صاحب مارِدِينَ، لكن بأبسطِ ألقاب : إذ هى أدْعىٰ لٱستحسانهم لقِلَّة مَعارفهم ، وعلىٰ هذا التقدير يكون رسم المكاتبة إليه : «أعزَّ الله تعالى نَصْرَ المقرّ الكريم ، العالى، المَلَكىّ، الأجلّىّ، العالمىّ، العادلىّ، المجاهدىّ، المؤيَّدىّ، المرابطىّ، المثاغرىّ، المظفَّرىّ، المنصورىّ، الفلانى، عونِ الأنام، شرف الملوك والسلاطين، نَصِير الغُزاة والمجاهدين، زعيم الجُيوش، مقدّمِ العساكر، ظهيرِ أمير المؤمنين» .

قال : فإن لم يُسْمَح له بكل هذه المخاطَبه، ولم يؤَهَّل لنظير هذه المكاتبه ؛ كُتِبَتْ إليه هذه الألقاب مع الجناب الكريم ، وخُوطب بالإمارة إن لم يسمح له بالمخاطبة بالمُلْك .

قال فى "التثقيف" ولعل مكاتبتَهُ بالجناب مع هذه الألقاب كما ذُكِر ومخاطبتَه بالإمارة أوْلىٰ: لأنه إذا كان بنو قِرْمان أجلَّ لدىٰ ملوكنا، ومكاتباتُهم بالدعاء والمجلس العالى، فيتعين حيثُ هو أكبَرُ منهم أن يكون هو أعلىٰ منهم رتبةً فى المكاتبة بدرجتين (١) وهى : الجناب الكريم . قال : هذا هو الأولىٰ عندى .

قلت : وهذا كلُّه إنما كان قبل أن يعْلُوَ قدرُ ٱبن عثمان صاحب بُرْسَا الآتى ذكره، ويرتفعَ قَدْرُه على مَنْ بتلك البلاد جملة ؛ أما بعدَ ٱرتفاعه وٱنحطاطهم دُونَه فينبغى أن يُنْظَر فى قدر المكتوب إليه، ويكتب إليه بحَسَب ماتقتضيه الحالُ .

(١) لعله بدرجة تأمل ،

الثـانى — صاحب طُنْغُزْلُو . قال فى "التعريف" ورسم المكاتبـة إليـه : «صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى الأميرى» ولم يذكر العلامةَ اليه . قال فى "التثقيف" والذى وجدتُه مسطورا فى مكاتبته الأسمُ والسامىٌّ بالياء .

الثـالث — صاحب تُوازا . قال فى "التعريف" : وهو فى المكاتبـة نظيرُ صاحب طُنْغُزْلُو، ولم يزد علىٰ ذلك، غيرَ أنه ذكر أن آسمه فى زمانه كان «على أرينه» وذكر فى "التثقيف" أنه لم يقِف له علىٰ رسم مكاتبة سِوىٰ ذلك .

الرابع — صاحب عَيْـدَلِى . قد ذكر فى "التعريف" أن آسمه فى زمانه دَنْدار أخو يونُس صاحب أنْطاليَا ، وأنه نظير صاحب تُوازَا فى المكاتبة ، فتكون المكاتبة إليه : صدرتْ والعالى . قال فى "التثقيف" ولم أقِفْ علىٰ رسم مكاتبة إليه سِوىٰ ذلك، إلا أنه ذكر بعد ذلك صاحب عدليو. وقال : إن المكاتبة إليه الأسمُ والسامىّ بالياء، وذكر أن المقرّ الشهابىَّ بن فضـل الله لم يتعرّض إلىٰ ذكره فى "التعريف" ثم قال : وقد تكون هى عَيْدَلِى المقدّم ذكرها، وإنمـا تكرَّرتْ بتغيير الحروف . قال ولم يتحرّر هل هما آثنان أو واحد .

الخـامس — صاحب كَصْطَمُونِيَة وهى قَسْـطَمُونِيَة . قال فى "التعريف" وكانت آخِرَ وقتٍ لسليمان باشا، وكان أميرًا كبيرًا، كثيرَ العَدَد، موفورَ المَدَد، ذاهَيْبةٍ وتمنُّع . ثم قال : وورث مُلْكَه آبنُه إبراهيم شاه ، وكان عاقًّا لأبيـه ، خارجًا عن مَرَاضيه، وكان فى حياته منفرِدا بمملكة سَنُوبَ . قال : وهى الآنَ داخلةٌ فى مُلْكه، منخرطةٌ فى سِلْكه .

وذكر أنَّ رسم المكاتبة اليه : «أدام اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى الأميرىّ» بأكمل الألقاب، واتمّ ما يُكْتَب فى هـذا الباب، وذكر فى "التثقيف" نقلاً عن القاضى ناصرالدين بن النشائى، وأمين الدين خضر مثلَ ذلك، وأن العلامة إليه «أخوه» .

السادس — صاحب فاوِيَا. قال فى "التعريف" وهو (يعنى فى زمانه) مرادُ الدين حمزةُ، وهو مَلِك مضْعُوف، ورجلٌ بمجالس أُنْسِه مشْغُوف. قال: ورسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامىّ الأميرىّ» بالياء. قال فى "التثقيف" وهو غير بعيد.

السابع — صاحب بُرْسَا. وقد ذكر فى "التعريف" انه فى زمانه أرْخَان بن عثمان. ثم قال: وهو نظير صاحب فاوِيَا فى المكاتبة، فتكون مكاتبته السامىّ بالياء. قال فى "التثقيف" ولم أطَّلع على رسم للمكاتبة إليه غيرَ ذلك، إلا أنه ذكر فى الفصل الأول من الباب الرابع فى الكلام على مكاتبات الحُكَّام أَرْخان بن عثمان. وقال: إنَّ لقبه سيفُ الدين. ثم قال: ويقال إنه صاحب بُرْسَا؛ وذكر أن رسم المكاتبة إليه فى قَطْع العادة والدعاء والمجلس العالى، والعلامة أخُوه، وتعريفُه اسمه.

قلت: وقد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك أن الأمر قد آل فى بنى عثمان إلى أرْخان بن عثمان جَق؛ ثم إلى ٱبنه مُرَاد بك؛ وأنه ٱتَّسع مُلْكُه وجاوز فى الفتح الخليج القسطنطينىَّ حتّى قارب خليجَ البَنَادقة؛ ثم إلى ٱبنه أبى يزيدَ فزاد فى المُلْك على ما كان بيد أبيه؛ وتزوّج فى بنى قِرْمان، ودخل بنُو قِرْمان وسائر التُّرْكمان فى طاعته، ولم يبقَ خارجًا عن مُلكه إلا سِيواس؛ فإنها كانتْ مع قاضيها إبراهيمَ المتغلبِ عليها، ولم يزل كذلك حتّى قصده تمُرْلَنْك وأسَرَه، ومات فى يديه؛ وملك بعده ٱبنُه سليمان چَلَبى. ثم مات؛ وملك بعده أخوه محمدُ بنُ أبى يزيد بن مُرَاد بك ٱبن عثمان جق، وهو القائم بها إلى الآن. وكانت المكاتبة قد استقرّت إلى أبى يزيد فى الأيام الظاهرية (برقوق) (١)

---

(١) ترك بياضا فى الاصل لصورة المكاتبة.

الثامن — صاحب أكبرا . قد ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه دمرخان (١) آبن قَرَاشِى، وذكر أن مكاتبته نظير مكاتبة صاحب بُرْسا ، يعنى السامىَّ بالياء؛ وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يقف علىٰ سوىٰ ذلك .

التاسع — صاحب مَرْمَرا . وقد ذكر فى "التعريف" : أنَّه فى زمانه كان بَخْشِى بن قَرَاشِى . وقال : إن رسم المكاتبة إليه : «صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى» .

قلت : وقد تقدّم فى المسالك والممالك أن هـذه البلدة كانت جزيرةً بالخليج القسطنطينى بها مَقْطَع رُخَام، وأنَّ النصارىٰ غَلَبُوا عليها .

العاشر — صاحب مَغْنِيسِيَا . ذكر فى "التعريف" : أن آسمه صارُوخَان . وقال : إن المكاتبة إليه السامىّ بالياء . وذكر فى "التثقيف" : أنها صارتْ بعده إلىٰ آبنه إسحاق بنِ صارُوخانَ ؛ وأنه كَتَب إليه فى شوّال سنةَ سبع وستين وسبعمائة بالآسمِ والسامىِّ بالياء .

الحادى عشر — صاحب نِيفِ . ذكر فى "التعريف" : أنه فى زمانه كان على باشا أخو صارُوخانَ صاحب «مَغْنِيسيَا» المقدّم ذكره؛ وذكر أنَّ رسم المكاتبة إليه مثلُ أخيه المذكور، فتكون صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى .

الثانى عشر — صاحب بَرِكِي . ذكر فى "التعريف" : أنهـا فى زمانه كانت بيد آبن أيْدِين ولم يصَرِّح باسمه . قال : وإن المكاتبةَ إليـه « أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلسِ العالى» بالألقاب التامّة؛ وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يقِفْ له علىٰ مكاتبة غير ذلك .

---

(١) هى كذلك فى كتاب "المسالك" والذى تقـدم فى ج ٥ نقلا عن "التعريف" أيضـا صاروخان ، وليست فى نسخة "التعريف" التى بأيدينا .

الثالث عشر — صاحب فُوكَه . ذكر فى "التعريف": أنه كان فى زمانه أَرْخَان آبنِ منتشا، وأنّ المكاتبة إليه نظيرُ صاحب بَرِكى، فتكون الدعاءَ مع العالى بالألقاب التامّة أيضا، وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يَقِف فى مكاتبته علىٰ غير ذلك .

الرابع عشر — صاحب أنطاليا . ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه آسمه خَضِر بنُ يونُس . وقال : إن رسم المكاتبة إليه «صدرتْ هذه المكاتبةُ إلى المجلس العالى» . وذكر فى "التثقيف" : أن خَضِر بنَ يونس المذكورَ كان يلقَّب سِنانَ الدين، وأنه آستقرّ بعده دادى بك، ثم آستقرّ بها آخرًا محمدٌ المعروف بكاجُوك، وذكر أن المكاتبة(١) إليه «أخوه» والدعاء والعالى . ثم قال : وهو الأصحّ لأنه آخرُ ما آستقرّ عليه الحال فى مكاتبته وكتب به إليه .

الخامس عشر — صاحب قَرَاصار . ذكر فى "التعريف" : أنه كان فى زمانه آسمه زكَرِيًّا، وأن رسم المكاتبة إليه : هذه المكاتبةُ إلى المجلس السامى، بلا ياء، وذكر فى "التثقيف" : أنه لم يطلع علىٰ مكاتبةٍ إليه سوىٰ ذلك ؛ وأنه لم يكتب إليه شىءٌ فى مدّة مباشَرته .

السادس عشر — صاحب أَرْمِنَاكَ . ذكر فى "التعريف" : أنها كانتْ فى زمانه بيد ابن قِرْمان ولم يصرح باسمه، وذكر فى "التثقيف" : أن آسمَه عَلَاءُ الدين سُلَيمان . قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إليه : أدامَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى بأكمل الألقاب وأكبرها، وأجمعها وأكثَرِها . وذكر فى "التثقيف" أنّ آخر مَن آستقرّ بها فى شوّالٍ سنةَ سبع وستين وسبعمائة علاءُ الدين على بك بن قِرْمان ؛ ووَافق علىٰ رسم المكاتبة المذكورة . وقال : إن العلامة إليه «أَخُوه» وتعريفه «فلان بن قِرْمان» .

(١) لعله "العلامة إليه" .

قال فى "التعريف": ولإخوة صاحبِها آبنِ قِرْمان المذكورِ رسومٌ فى المكاتبات، فأكبرهُم قَدْرا، وأفتكُهم نابًا وظُفُرا، الأميرُ بهاءُ الدين موسىٰ . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنّه حضر إلى الأبواب السلطانية، وحَجّ مع الركب الشريف، ثم عاد إلىٰ الأبواب السلطانية، وأُجلِس فى المرّتين مع أُمراء المَشُورة، وأُشْرِك فى الرأى . وسأل السلطانَ فى كتابة منشورٍ بما يَفْتَحُه من بلاد الأرمن فكُتِب له . قال فى "التعريف": وآستقرّتْ المكاتبةُ إليه مثلَ مكاتبة أخيه . قال: أما بقيّة بنى قِرْمان فدُونَهُما فى المكاتبة .

وآعلم أن صاحب "التثقيف" قد زاد علىٰ ذلك من أمراء هذه البلاد ستّةَ نفر .

أحدهم — الحاكمُ بالعَلَايَا . وذكر أنه كان آسمُه حُسَامَ الدين محمودَ بنَ عَلَاء الدين، وأنه كتب إليه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة «أخوه» والدعاء، والعالى، فى قَطْع العادة .

الثانى — صاحب بَلَاط وريحو[(١)] . ذكر أنه كان بها «أمير موسىٰ» بنُ ابراهيم آبن مَنْتشا، وأن المكاتبة إليه فى قَطْع العادة «والده والدعاء، والمجلس العالى» .

الثالث — صاحب أَكَرْدُور وهى أكَرْدُون . ذكر أنه كان بها إلياسُ بنُ مصطفىٰ من بنى حُمَيد، وأن رسم المكاتبة إليه علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ عند ما كتِبَ إليه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة «والده» والسامىّ بالياء .

الرابع — صاحب أَيا سُلُوق . ذكر أنه كان بها عيسىٰ بنُ أيْدِين، وأنه كَتَب إليه فى شوّال من السنة المذكورة أيضا .

---

(١) كذا باهمال جميع حروفها نعم تقدّم فى القواعد «بلاط» فقط ولم نعثر عليها بعد البحث والتصحيف .

الخامس — صاحب يلى شَار . ذكر أنه كان بهـا الأميرُ محمدٌ ولم يذكر نِسْبته . وقال : إن المكاتبة اليه الاسمُ والسامىّ بالياء .

السادس — الأمير ذَرْوان بن كِرْمان بن مَنْتَشا . ذكر أنه ممن ٱستَجدّت مكاتبتُه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة .

وٱعلم أنه قد زاد فى "التثقيف" ذكرَ مكاتبة جماعةٍ لم أتحقَّق هلْ هم من أهل هذه البلاد أم من غيرها .

منهم صاحب قلعة الحُنَفاء، ذكر أنه كان ٱسمُه سيفَ الدين قُوجِى، وأن المكاتبة اليه فى قَطْع الثلث والسامىّ بالياء .

ومنهم صاحب قلعة الجوز، فى قَطْع الثُلث الاسمُ والسامىّ بالياء، وتعريفه ٱسمه .

ومنهم صاحب بكجرى : ٱستَجَدّت الكتّابةُ إليـه فى شوّال سنة سبع وستين وسبعمائة، وكتب إليه الاسمُ والسامِى بغير ياء .

ومنهم الحاكم بقَلْعة أبْيَض كتب اليه الاسمُ ومجلسُ الأمير .

ومنهم الحاكم بقَلْعة نِعْمة، كتب إليه الاسمُ ومجلسُ الأمير أيضا .

ومنهم الحاكم بقلعة أشْنىٰ : وهى أشْنُو كُتِب إليه كذلك .

علىٰ أنه قد ذكر منهم جماعةً أيضا ليسُوا من أهل هـذه البلاد جملةً؛ منهم نائب خِلَاط، وصاحبُ مُوغَان، وهى مُوقانُ، والحاكم بإسْعِرْدَ وهى سِعِرْت، وصاحب قَيْشان وهى قاشَانُ .

وقد تقدّم أن خِلَاط من أرمينِيَةَ، ومُوقانَ من أرمينية، وإسْعِرْدَ من ديار ربيعةَ من الجزيرة الفُراتيَّة، وقاشانَ من عِراق العَجَم؛ وبالجملة فقد خَلَّط فى "التثقيف" فى البُلْدان تخليطا كثيرا، وخلَط بعضَ أقاليم البلاد ببعض .

قلت : قد تقدّم فى صَــدْر الكلام على المكاتبات ذكْرُ أصول يعتمِدُها الكاتب فى كتبه تعُمُّ الكتبَ السلطانيــة وغيْرَها ؛ وأنا أذكُر هنا ما يختَصُّ منهــا بالكتب الصادرة عن الســلطان علىٰ النَّمَط الجارى عليه الأصطلاحُ الآنَ ليسْهُل القصدُ إليها لقُرْبها، ويحصلُ الغرضُ من ذٰلك، بذكر [تسعة] أمور :

أوّلُها — مقاديرُ قَطْع الورق؛ قد تقدّم فى الكلام علىٰ مَقَادير قطْع الورق المستعملةِ فى دواوين الإنشاء جملةً، والذى يختص منها بالكُتُب الصادرة عن السلطان أربعةُ مقــادير:

أحدها — قَطْع البغدادىّ الكامل ؛ وقد مرَّ أنه يكتَبُ فيه لِلْقانات .

وثانيهــا — قطْع النِّصف، وفيه يكتَبُ إلىٰ أكابر الملوك ممَّن دُونَ القَانات .

وثالثهــا — قطْع الثُّلُث، وفيه يكتَبُ إلىٰ الرتبة الثانيةِ من الملوك .

ورابعها — قَطْع العادة، وفيه يكْتَب إلىٰ أصَاغِرِ الملوك والوُلَاة وغيرهم .

الثــانى — العُنْوان؛قد تقدّم فى مقدّمة الكتاب أنَّ الذى كان يَكْتُب عُنْواناتِ الكتب السلطانية فى الزمنِ المتقدمِ هوصاحبُ دِيوان الإنشاء دُونَ غيره؛ أما الآنَ، فإنَّ كاتب كلِّ كتَاب صار هو الذى يكتب عُنْوانَه بنفسه .

وقد جرتِ العادة فى عامة الكتب السلطانية أن يكون المكتوب فيها هى ألقاب المكتوب اليــه ونُعوتُه التى فى صــدر المكاتبة فى الباطن ؛ ثم يُدْعىٰ للمكتوب إليه فى آخر الألقاب بالدَّعوة التى صُدِّر بها الدعاء فى الصدْر مثــل : أعَزَّ الله أنصارَه ، أو ضاعَفَ الله نِعمَتَه، وما أشــبه ذلك من الأدعِيَة التى تُفْتَتَح بها المكاتبات؛ فإن كان الكتاب مفتتَحا بالحمــدلة أو بلفْظِ من فلان ، كُتِب فى العنوان الألقابُ التى فى صَــدْر الكتاب بعــد ذٰلك ؛ ثم بعد الدعاء يُخَلِّى بياضا قليــلا ؛ ثم يذكر تعريفَ

المكتوب إليه . مثل «صاحب فلانة» ونحو ذلك مما تقدّم ذكره من التعريفات . وتكون كتابة العُنْوان بنظير قلم الباطن فى الدِّقة والغلَظ . وتكون أسطُره متصلةً من أوّل عرْض الدَّرْج إلى آخره، وأسطُره متلاصقةً متتاليةً .

الثالث — الطُّرّة التى يُكْتَب فيها تعريفُ المكتوب إليه ، والعلامةُ التى يكتُبها المكتوبُ عنه، والسببُ فى كتابته .

وقد جرتِ العـادةُ فى ذلك أنه يكتب فى رأْس الدَّرْج فى الجـانب الأيمن «إلىٰ فلان» وفى الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» وفى الوسط العلامة التى يعلِّمها السلطانُ مثل «أخوه» أو «والده» أو «آسمه» : لِيُنْظَر عنـد علامة السلطان على الكتاب فيعلَم حالُ الكِتاب، ويجرىٰ الأمرُ فى العلامة (١) على هذا الرسم، وتكون كتابتُها بقلَم الكتاب من ثُلُث أو رقاع أو غيرهما، إلا أن يكون الكتابُ بمختصَر الطُّومار فى قطع البغدادىّ فيكون ذلك بقلم الثلث . وهذه الطرَّة تقطع بعد أن يعلَّم علىٰ الكتاب .

الرابع — البياض فى أعلى الكِتاب ، وقد جرت العادةُ فى الكتُب السلطانية أنَّ العلامة إلى المكتوب إليه : إن كانت « أخوه» أو « والده» ترك فيه ثلاثة أوصال بياضا بمـا فيه من وَصْل العُنْوان؛ ثم تكتَبُ البسملةُ فى رأس الوصل الرابع؛ وإن كانت العلامةُ إليه الآسم، ترِك وَصْلان بياضًا فقط وكتبت البسملةُ فى أوّل الوصل الثالث؛ ثم يُكْتَب السطر الأوّل من الكتاب على سَمْت البسملة ملاصِقًا لها؛ ثم يخَلّى موضع العلامة بيـاضا، ويكتَبُ السـطر الثـانى على سَمْت الأوّل فى أواخر ذلك الوصل على قدر إصبعين من آخره؛ ثم يُجْعَل بين كل سطرَيْنِ أربعةُ أصابعَ مطْبُوقة، إن كان القطع صغيرا، وإن كان القطع كبيرا كان فيه قدرُ رُبُع ذراع أو نحوه بحسَبِ

(١) لعله فى الكتابة أى يكتب ما يناسب العلامة .

المناسبة ؛ فإذا ٱنتهى إلىٰ آخر الكتاب كتب «إن شاء الله تعالىٰ» فى الوَسَط علىٰ بُعْدِ قدر إصـبعين من السطر الآخر . ثم يكتب : «كُتِب فى تاريخ كذا من شهر كذا سنة كذا وكذا » ويكون إلى آخر ذكر الشهر سطر ، ومن أوّل سـنة كذا إلى آخره سطر . ثم يكتب المستَنَد على نحو البُعْد المذكور : فإنْ كان بتلَقِّى كاتب السِّرِّ خاصَّةً كتب « حَسَب المرسوم الشريف » فقط . وإن كان بتلَقِّى كاتب السر وكُتَّاب الدَّسْت من دار العَـدْل كتب « حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر، وتحته بقدر إصبع « مِنْ دار العَـدْل الشريف » فى سـطر . وإن كان برسالة الدَّوَادار كتب « حَسَب المرسوم الشريف » فى سطر ، وتحته بقدر إصبع « برسالة الجنابِ العالِى الأميرىّ الفلانىّ الدَّوادار الفلانىّ » بلقب السلطان «ضاعف الله تعالى نعمتَه» . وإن كان من ديوان الخـاصّ ، كتب « حَسَب المرسوم الشريف» فى سطر وتحته «من دِيوان الخاصّ الشريف» . وإن كان بخطّ السلطان : بأن كُتِب علىٰ القِصَّة بالخط الشريف ، كتب « حسَبَ الخَطِّ الشريف » فى سـطر واحد . وإن كان بإشارة النائب الكافل كتب «بالإشارة العالية الأميريَّة الكبيريَّة الفلانية» فى سطر، وكتب تحته بقدر إصبع « كافِلِ الممـالك الشريفة الإسلامية أعْلَاها الله تعالىٰ» . وإن كان باشارة أستاد الدار، كتب « بالإشارة العالية الأميرية الكبيرية الفلانية » فى سطر، ثم يكتب تحته بقدر إصبع «أستاد الدار العالِيةِ أعلاها الله تعالى» . علىٰ أنه قد تقدّم فى الألقاب أن كتابتهم أستاد الدار هو عرف جرىٰ عليه ٱصطلاحُهم؛ وأنَّ الصواب فيه إسـتَدَّار بغـير ألف بعـد التاء . وتكون كتابة المستَنَد ببيـاض من جانبيه ، سواء كان سطرا واحدا أو سطرين ؛ ثم إذا فرغ من كتابة المستَنَد، كتب الحمدَلة والصلاةَ علىٰ النبىّ صـلّى الله عليه وسـلم فى سطر كامل علىٰ بُعْدِ قدر إصبعين من المستَنَد، ثم يكتب الحَسْبلةَ علىٰ قدر إصبعين من سطر الحمدلة والتصلية .

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ الخواتم فى المقالة الثالثة نقلاً عن عبد الرحيم بن شِيثٍ أن موضعَها من ثُلُث السطر الأخير من أوّله إلىٰ حينِ تنتَهِى كتابتُها .

الخـامس — قد ذكر ٱبن شيثٍ فى معـالم الكتابة أنه لا يُكْتَب فى حوَاشِى الكتب السـلطانية : لأنّ فى ذلك شُحا بالورق ، وذلك ممـا لا يليق بالسلطان ؛ ولا خفاءَ فى ٱستقباح ذلك ، بل قد يُستقْبَح ذلك فى غير السلطان كما سيأتى ذكره فى الإخوانيّـات .

السادس — العلامةُ السلطانية علىٰ المكتوب، فى بيت العلامة من البياض السابق ذكره . قد ذكر فى "التعريف" أن أكبر مَنْ يكتب إليه من الأمراء ومماليك البيت الشريف فترجمته بالخط الشريف « والده » ومَنْ دونَ ذلك «الاسمُ الشريف» ؛ أما الغُرَباء كملوك المسلمين والعُرْبان وأكابرُ القضاة وأهْل الصَّلاح والأكابر، فترجمته بالخط الشريف «أخوه» ومَنْ دُونَ ذٰلك الاسمُ الشريف .

والذى ٱستقرّ عليـه الحالُ آخرا فى زماننا أنّ لأكابر الأمراء من النوّاب وغيرهم «أخوه» لرفعة مكان الأخ علىٰ الولد، ولمن دُونَهم «والده» ولمَنْ دُونَ ذلك «الاسم» وباقى الحـال على ما ذكره ؛ وقد سبقَتْ ترجمة كلِّ مكتوب إليـه فى الكلام علىٰ المكاتبة إليه .

أما القانات الكِبَار فقد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتبة إليهم أنه تكتب لهم طُغْراة بالألقاب السلطانية فى موضع العلامة ؛ وأما ملوك الكُفْر، فسيأتى أنه تكتب طُغْراة بالألقاب السلطانية فوق البسملة .

السابع — طىّ الكُتُب السلطانية : قد تقـدّم فى صَدْر الكلام علىٰ المكاتبات نقلا عن ٱبن شيثٍ من كُتَّابِ الدولة الأيوبية أنّ كُتُب السـلطان يكون طيُّها

فى عَرْض أربعــة أصابع ، وأن مقتضىٰ ذلك أن كُتُبَ الســلطان بالديار المصرية كانت تُطْوىٰ على هــذه الهيئة كما فى كُتُب أهل المغرب الآنَ؛ والذى ٱســتقرّ عليه الحال آخرا أنها يجعَلُ طيُّها فى صورة أُنْبُوبِ القَنَاة ولا تُضْـغَط فى طَيِّها لتكون نبيلة تعظيما لأمر السلطان وإجلالًا لقدره .

الثـامن — خَتْمُ الكُتّاب : قد تقدّم فى الكلام على الخَوَاتم واللَّواحق فى المقالة الثالثــة أنَّ الكتبَ السلطانية كانت تُخْتَم بسَحَاءة(١)، ويُطْبَع عليها بِطين أحمر، يُؤْتىٰ به من سِيرافَ ، وتُختَم بخاتَم كما تَخْتُمُ المغاربةُ الآنَ؛ أما الآن فقد ٱستقرّ الحالُ على أن الكتب تُلْصَق بالنَّشَا أو ما فى معناه من الكَثِيراءِ ونحوِها ؛ وقد سأل الشيخُ جمـالُ الدين بن نُبَاتةَ فى رسالتــه التى كتبها إلىٰ الشِّهاب محمود رحمه الله حينَ بلَغَــه وقوعُ بعض كُتَّاب دِمَشْقَ فى حقه عمن غيَّر طينَ الختم إلىٰ النَّشا ، ولم أَقِفْ علىٰ زمان تغيُّر ذلك ولا مَنْ غيَّره ، علىٰ أنى حلَلْت معظَم أَسْئُولة هذه الرسالة فى خِلَال هذا الكتاب مفرّقةً فى مواضعها .

التاسـع — أن الكتبَ الصادرةَ عن الأبواب السلطانية : إن كانت إلىٰ أحد من عُظَماء المُلوك كالقاناتِ ببلاد الشَّرْق ، أو ملوكِ بلاد المغرِب ونحوهم ممن يَتَعانىٰ البلاغةَ فى الكتب الصادرة عنــه ، كُتبت مسجوعةً كلُّها ؛ وإن كانت إلىٰ صِغَار الملوك والحُكَّام كتبت غيرَ مَسْـجوعة ؛ وإن كانت إلىٰ أحد من أهــل المملكة ؛ فإن كانت فى أمرٍ بعد وُقُوعه : كالكِتَابة بالبِشارة بوَفَاء النيل ، أو جلوس السلطان علىٰ التَّخْت لأوّلِ أمره ، أو بُرْئِه من المرض، أو وِلادَة ولدٍ له، أو البِشارة بفَتْح، أو الإعلام بركوب المَيْدان، أو الإنعام بخَيْـل أو نحوها ؛ كتبت مسجوعةً، وإلا كتبت مُرْسَلةً غيرَ مسجوعة .

---

(١) يريد تلف عليها سحاءة كما يؤخذ من بقية العبارة ومما تقدم فى جزء ٥

الطـــرف الثـانى

(فى المكاتبة عن ملوك الديار المصرية على المصطَلَح المستقِرّ عليه الحـالُ، إلى مـلوك الكُفْر)

وٱعلم أن ملوك الكفر المكاتَبِين عن هذه المملكة جميعهم نصارى : من الرُّوم، والفَرَنْج، والكُرْج، والحَبَشـة وغيرهم؛ إذ كانوا هم المستولِينَ على أكثر الممالك؛ أما اليهود، فإنهـم لم يبْقَ لهم مملكةٌ معروفة، بل هم تحتَ الذِّمَّـة أينَ كانوا . قال تعالى : ﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْـلٍ مِنَ اللهِ وحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ ﴾ . قال فى "التعريف" وجميعُ الكُتُب المكتوبة إلى ملوك الكُفْر لا يشْـمَلُها الخطُّ الشريف أصلًا، بل يُكْتَب فوقَ البسملة فى الكتاب بخط الكاتِبِ عِوَضَ العلامة الشريفة أسطُرٌ قصيرةٌ ببياض من الجانبين ماصورته :

« من السلطان الأعظم الملكِ الناصر ـ مثلا ـ العالم، العادلِ، المجاهدِ، المرابِط، المُثَاغِر، المؤيَّد، المظَفَّر، المنصور، الشاهنشاه؛ فلان الدنيا والدين، سلطان الإسلام والمسلمين، مُحْيِي العـدل فى العالمين، وارث المُلْك، مَلِك العرب والعَجَم والتُّرْك؛ ظلِّ الله فى أرضـه، القائم بسُنَّته وفَرْضـه؛ إسكَنْدرِ الزمان، مملِّك أصحاب المنابر والتُّخوت والتِّيجان؛ واهبِ الأقاليم والأمصار، مُبِيد الطُّغاة والبُغَاة والكُفَّار؛ حامِي الحرمين والقِبْلتين جامعِ كلمة الإيمـان، ناشرِ لواء العدل والإحسان؛ سـيدِ ملوك الزمان، إمام المتقين، قسيم أمير المؤمنين؛ أبى فلان، ٱبن السـلطان الشهيد الملك الفلانى فلان، خلَّدالله سلطانه، ونصر جنودَه وجيوشه وأعوانَه » .

وأوضح ذلك فى "التثقيف" فقال : ويكون فى الطرّة بعد وصْلين بياضًا من أوّل الكتاب بهامِش جيد من الجانبين يَمْنةً ويَسْرةً، ويكونانِ فى قَدْر بياضهما سواءً

تقديرَ أربعــةِ أصابع فأكثرَ من كل جانب، من الورق العريض؛ وفى قَطْع العــادة دُونَ ذلك . وتكون الأسطرُ متقاربةً، ما بينهما من البياض تقديرُ إبهام أو أزيدُ منه بشىءٍ يسير؛ وإذا انتهت الألقاب يَتْرُك بعــدَها وصلًا أبيض؛ ثم يكتب البسملةَ الشريفة، وبعدها رَسْم المكاتبة للمكتوب إليه .

الطـــرف الثـالث

(فى المكاتبة إلى مَنْ وراءَ بحر القِرِم بالجانب الشمالىّ منه)

وهو صاحبُ البُلْغار والسِّرْب . وهى بلادٌ فى نِهَـاية الشَّمال ، متاخمةٌ لصاحب السَّراى ؛ وقــد ذكر فى "التعريف" المكاتبةَ إليــه فى المكاتبة إلىٰ جمــلة ملوك المسلمين . وقال : إنَّ صاحبها يُظْهِر الانقيادَ لصاحب السَّراى، وإنه أرسل رسُلَه تَطْلُب له الألوِيَةَ من الأبواب السلطانية فجُهِّزت إليــه مع ما جَرَتْ به العــادةُ من السيف والتشريف والخَيْل المُسْرَجَة المُلْجَمة . وذكر أن رسم المكاتبة إليــه علىٰ ما كُتِب إذ ذاك :

«أعزَّ الله نصْرَ الجناب الكريم، العالى، المَلَكىّ، الأجَلّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المجاهِدىّ، المؤيَّدىّ، المُرابِطىّ، المثاغِرىّ، الأوحدىّ، سيف الإسلام والمسلمين، ناصر الغُزاة والمجاهدين، زعيم الجُيوش، مقدّمِ العساكر، جمالِ الملوك والسلاطين، ذُخر أمير المؤمنين» .

ثم هذا الطرف يشتمل علىٰ أربعةِ مقاصدَ مشتملةٍ علىٰ الجهات الأربع :

المقصـــد الأوّل

(فى المكاتبة إلى ملوك الكُفَّار ببلاد الشَّرْق ، وجملةُ مَنْ بهـا من ملوك النصارىٰ المكاتَبِين عن هــذه المملكة مملكتان)

الأولىٰ ـ مملكةُ الكُرْج من النصارىٰ المَلَكِيَّة . قال : فى "التعريف" ويقـال فى المسلمين الكُرْد ، وفى النصارى الكُرْج . قال : وموقع هذه [البِلادِ] بين بلاد الرُّوم وبين بلاد أرمِينِيَـةَ . وهى بلادٌ جليـلةٌ ، ومملكةٌ مفخَّمة ، وكأنها مقتَطَعـة من البلادَيْن ، ولهـا ملِك قائم ، وبها مُلْك دائم ؛ وأُمُّها مدينة تَفْلِيس ، وسـلطانُ بيت هُولاكُو بمملكة إيرانَ يحكُم عليها ، ويَرَالِغُهُ تَصِلُ إليها ؛ إلا أنه لا يَطْغىٰ بها سَيْلُه ، ولا تجوسُ خِلالَ ديارِها للحرْب المُضْمَرةِ خَيْلُه ؛ وإنمـا له بها تُومانٌ اتخذه سِدَادا لثَغْرها ، وقياماً بأمْرِها ؛ مَنْزِلُهم فَسِيحُ بَوَادِيها ، أهـلُ حَلٍّ وتَرْحال ، وتنقُّل من حال إلىٰ حال . قال : وآخِرُ مَنْ كان له فى هذه البلاد سُمْعة ، وأُقِيلَتْ به للمَهَابة صَرْعه ؛ الشيخُ محمودُ بنُ جُوبان ، وكان باسـلًا لا يُطاق ، ورجُلا مُرَّ المَذَاق ؛ ولـمَّا جرتِ الكائنةُ لأبيه ، لاذَ بالسلطان (أزبك قان) ثم لم تَطُل له مُدّه ، ولا انفرجَتْ له حِلَقُ شِدّه ؛ وأتاه أجَلُه وما استطاع رَدَّه . ثم قال : وعسْكرُ الكُرْج صَليبةُ دِين الصَّليب وأهـلُ البأْس والنَّجده ، وهم للعساكر الهُولاكُوهِيَّـة عَتَاد وذُخْر ، ولهم بهم وُثُوق وعليهم اعْتِماد ، [ولا] سِيَّمـا لأولاد جُوبَانَ وبَنِيه ، وبَقَايا مُخَلَّفيه ، لسالِف إحسانِ جُوبانَ إليهم ، ويدٍ مشكورةٍ كانتْ له عندهم ، وكان صديقاً لمِلكهم برْطِلْما يَغْرس عنده الصَّنائع ، ويَسْتَرْعِيه الوَدَائع ؛ فكان أخصَّ خصيصٍ به ، وأصـدقَ صديقٍ له ، يدعُوه للمُهِم ، ويستصْرِخ به فى المُلِم ، ويَعُدُّه رِدْءاً لعسكره ، ومُزِيلا لمُنْكَره .

وعقَّب ذلك بأن قال : وبرطلما المذكور عَهْدِى به حَىٌّ يُرْزَقُ من أجَلِّ ملوك النَّصْرانيـه ، وأعْرَقِ أنساب بنى المعْمُوديَّه ؛ وقد كان كاتَبَ الأبوابَ السلطانية بسبب كنيسةِ المُصَلَّبه ، وأن تُرْفَعَ عنها الأيدى المتغلِّبه ؛ فبرزَتِ الأوامر المُطاعةُ بإعادتها عليهم وكانت قد أُخِذتْ منهم ــوهى بظاهر القُدْس الشريف ــ واتُّخِذتْ مسجِدا ، وعزَّ هذا علىٰ طوائِفِ العلماء والصُّلَحاء وان لم يُعْمل هذا سُدىٰ . قيل إنه كان يُحَسِّن لجُوبَانَ قصدَ البلاد ، ويبذُل له عليه الطارِفَ والتِّلاد . وذكر أن رسم المكاتبة إليـه : « أدام الله تعالى بهجةَ الحضرة العليـة ، حضرةِ الملك الجليل الهُمام، الباسِل، الضِّرغام، السَّمَيْدَع الكَرَّار، الغضَنْفَر، المتخَّت، المتوَّج، العالم فى مِلَّته، العادِلِ فى رعِيَّته، بقيَّةِ الملوك الأغرِيقِيَّة، سلطانِ الكُرْج، ذُخْرمُلْك البِحار والخُلُج ، حامى حِمىٰ الفُرْسان، وارثِ آبائه فى الأسِرّة والتِّيجان ، سيَاج بلاد الروم وإيران، سليلِ اليُونان، خُلَاصةِ ملوك السُّرْيان، بقيَّـة أبناء التُّخُوت والتِّيجان، مُعِزِّ النصرانيه ، مؤيِّد العيسويَّه، مَسِيح الأبطال المَسِيحيه ، معظِّم البيت المقدَّس بعقد النيَّه، عمـادِ بنى المعْمُوديه، ظهير الباب پاپا رومية ، مُوادِّ المسلمين، خالصةِ الأصدقاء المقرَّبين، صديق الملوك والسلاطين" .

وهذا دعاء أورده فى "التعريف" يليق به وهو : وحَمىٰ ملكَه بوُدّه لابجُنْـده ، وبوفائه بعَهْده لا بجَيْشه ومَدِّبَنْده، وبما عندنا من سَجَايا الإحسان لا بما يَظُنُّ أنه من عِنده ، وبما فى رأينا المُورِى لا بما يَقْدح النارَ من زَنْده ــ وربما قيل مُصافِى المسلمين بدلَ مُوادّ المسلمين .

أما فى "التثقيف" فقد ذكر أن للكُرْج مِلكين (أحدهما) صاحب تَفْليسَ المقدَّمُ ذكره، وذكر أنه كان آسمه إذ ذاك «داود» (الثانى) الحاكم "بسخوم" و"أبخاس" وهما مدينتان علىٰ جانب بحر القِرِم من الجانب الجَنُوبِى" كما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ

المسالك والممالك فى الجانب الشمالى، وسمّى صاحبها إذ ذاك (ديادان) . قال : ورسمُ المكاتبة إلىٰ كلٍّ منهما فى قَطْع النصف : أطال اللهُ تعالىٰ بقاء حضرة الملك الجليل، المكرَّم، الخطيرِ، الباسلِ، الهُمَام، المقدّس، الرُّوحانِيّ، فلان، عِزِّ الأمَّة المَسيحيه، كَنْزِ الطائفة الصليبيّه، فخرِ دينِ النّصرانيه، مَلِك الجبال والكُرْج والجُرْجان، صديقِ الملوك والسلاطين . وتعريف كلٍّ منهما "ملِك الكُرْج" .

ثم قال : وقد ذكر القاضى المرحوم شهابُ الدين بن فضل الله فى المكاتبة المذكورة من التغييرات مالا حاجةَ إلىٰ ذكره : لأنَّ ماذكرتُه هو المستقِرُّ فى المكاتبة إليه الىٰ آخِرِ وقتٍ .

قلت : وذلك لأنه فى زمن المَقَر الشهابى بن فضل الله كان مَرْعِيَّ الجانب بمُمالأة التَّتَر وانضمامِه إلىٰ جُوبان، كما تقدّمت الإشارةُ إليه، فكانت المكاتبةُ إليه إذ ذاك أعْلىٰ وأفْخَم، فلما زالت دولةُ التَّتَر من إيران وخَمَدت قَسْوتُهم انحطَّت رُتْبةُ المكاتبة إلىٰ ملك الكُرْج عن هذه الرتبة . ثم قد تقدّم فى المسالك والممالك فى الكلام علىٰ مدينة تَفْلِيسَ أنها من إقليم أرَّانَ، وأنها كانت قد فتحها المسلمون . ثم غَلَبَ عليها الكُرْج وملَكُوها، فلو عُبِّر[(١)] عن صاحبها بمتملِّك تَفْلِيس كما كان يعبَّر عن المستولى علىٰ سِيسَ من الأرمن بمتملِّك سيس ، وعن المستولى علىٰ قُبْرس بمتملِّك قُبْرس علىٰ ماسيأتى ذكره على الأثر إن شاء الله تعالىٰ .

الثانية ــ مملكة الأرمَنِ وقاعدتُها مدينة "سِيسَ" قبل فتحها ؛ وقد سبق فى الكلام على مدينة سِيسَ عند ذكر مُضافاتِ حَلَبَ، فى الكلام على الممالك الشامية فى المسالك والممالك ذكرُ حدود هذه البلاد وبيانُ أحوالها، وأنها كانت تسمّى

(١) جواب لو معلوم أى لكان له وجه .

فى زمن الخُلَفاء بلادَ الثُّغور والعَواصم؛ وأنها كانت بأيدى المسلمين، وأهلُها نصارىٰ أرمن؛ وعليهم جِزْية مقرّرةٌ يؤدُّونها إلىٰ الملوك؛ إلىٰ أن كانت طاعتهم آخرًا لبقيَّة الملوك السَّلاَجقة ببلاد الروم، والعُمَّالُ والشَّحانِى علىٰ بلادهم من جهة الملِك السَّلْجُوقىّ حتّٰى ضُعُفت تلك الدوله، وسكَنَتْ شقاشِــقُ تلك الصَّوْله، وآنتدبَ بعضُهم لقتـال بعض، وصارت الكلمةُ شُورىٰ، والرعيَّة فَوْضٰى، وشوامخُ المَعَاقل مجالًا للتخريب، والبلادُ المصونةُ قاصيةً من الغَنَم للذِّيب، وطمِع رئيسُ النصارىٰ بهذه البلاد حينئذ فيها وآستَنْسَر بُغَاثُه، وآشتدَّ إنكاثه، ورأىٰ سَوَامًا لا ذائدَ عنه فساقه، ومتاعًا لا حامِيةَ له فملأَ منه أوْساقه؛ فآستولىٰ علىٰ هذه البلاد وتملَّكها، وتحَيَّفَ مواريثَ بنى سَلْجُوق وآستهلكها. وذكر فى "مسالك الأبصار" أن كبيرهم كان يسمّٰى قليج بن لاُوُنْ.

قال فى "التعريف" وقد أُخذ فى أُخْرَيَات الأيام الناصرية، يعنى (محمد بن قلاوون) بلادُ ماوراءَ نهر جَاهانَ وأمُّها آياس، وكان قد أُخِذ بعضُ ذلك [أيام] الملكِ المنصور (لاچين) واستُنِيب به أستدُمْر الكُرْجىّ؛ ثم أُعيدت إلىٰ الأرمن بمواطأة أستدمر حين قتل لاچين وضَعُفت الدولة. وذكر أنه قُرِّر علىٰ الأرمن لملوك الديار المِصْرية قطيعةٌ مقرَّرة بلغت ألف ألف ومائتى ألف درهم مع أصــناف، ثم حُطَّ لهم منها؛ ثم صاروا بعــد ذلك بين طاعة وعِصْيان. وذكر أنه كان لملوك البيت الهُولا كُوهِىّ عليهم حكْمٌ قاهر، وله فيهم أمرٌ نافذ، قبلَ ضَعْف شوكتهم، ولِين قَسْوتهم، وخلُوِّ غابِهم من قَسْوَرَتهم. ثم قال: ولو تمكّنوا من دِمَشْقَ لمحَوْا آثارَها، وأنْسَوْا أخبارها؛ ثم أشار إلىٰ أنَّ ملِكها يومئذ صاهرَ صاحبَ قُبْرس ليتقوىٰ به، وأنه مع ذلك أوصٰى سلطاننا صاحبَ مصر علىٰ آبنه بوصِيَّة أشهد عليها أهلَ مملكته، وجعل ذلك وسيلة لبقاء دولتــه؛ وكتب له تقليد عوضًا عن أبيه وجُهِّز إليه، وأُلبِس التشريفَ فلبس

وقبَّل الأرض به وخدم . قال فى "التعريف" (١) : ومَنْ ملك منهم سمِّى التَّكْفُور، سِمةٌ جرت عليهم مُنْذُ كانوا و إلىٰ الآن. قال: وملكُهم ملِك عرِيقٌ من أبناء الملوك، يزعُم أن أصله من البيت القُسْطَنْطِينىّ . قال : وعندى نَظَر فى دعواهم ذلك : إذ كان أهلُ ذلك البيتِ هم صَلِيبةُ الرُّوم ومعتَقَدُهم معتقد المَلِكانية والبيْتُ التَّكْفُورىّ أرمَنُ ومعتقَدُهم معتقد اليَعَاقِبة أو مايُقارِبه، وبين المعتقَدين بُعْد عظيم، و بَوْنٌ ناء .

وقد ذكر فى "التعريف" أن آسمه ليفور بن أوشير (٢) . وذكر أن رسم المكاتبة [اليه] صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ حضرة الملِك، الجليلِ، البطلِ، الباسلِ، الهمامِ، السَّمَيْدع ، الضِّرْغام، الغضَنْفَر، فلان بن فلان ؛ فخرِ المِلَّة المَسِيحيَّة ، ذُخْر الأمة النَّصْرانيه، عِمَادِ بنى المعموديَّه، صديقِ الملوك والسلاطين .

وهذه أدعية — ذكرها فى "التعريف" تناسبه :

وفَّقه الله تعالىٰ لطاعةٍ يَكْنُفُه ذِمامُها ، ويَقِيه مَصارِعَ السُّوء الْتِزامُها ؛ وتجرِى له بالسَّلامة فى النَّفْس والمال أحكامها .

آخر : ولا عدِمَ من مِنَنِنا الكَرَم الذى أجاره، والأمْنَ الذى أمَّن جاره، والأمانَ الذى وَسَّع عليه وِجَارَه ، والعفوَ الذى وَقَاه فى الدنيا قبلَ الآخرة نارًا وَقُودها الناس والحِجَاره .

آخر : أبقاه اللهُ لوَلَاءٍ يُبْديه، وفَرْض من الخِدْمة يُؤَدِّيه، ودَيْنٍ فى ذِمَّته من الوظيفة يقومُ به مع طَرَائِف مايُهْديه .

---

(١) فى التعريف بدون خدم .

(٢) فى التعريف المطبوع ص ٥٧ ليغون بن أوشين، ونخشى أن يكون تصحيفا .

آخــــر : أراهالله مايستدْفِع به من مَوَاضِى السُّيوف البلاءَ إذا نَزَل، والسَّمْهَرِىّ الذى لا يُرْوِيه البحْرُ إذا نَهَل ، والسَّيْلِ الذى لا يَقِف فى طريقه شىءٌ ولا يَمْشِى علىٰ مَهَـــل .

آخــــر : صانَ اللهُ تعالىٰ بمصانَعَته من أهل مِلَّته كلَّ قبيل، وأمَّن اللهُ بمُداراتِهِ من خَوْفِ جُيُوشِنا المنصورة كلَّ سبيل ؛ وصَدّ عنه بِصِــدْق صَدَاقته بَعْثَ جنودنا الذى لا يُرَدّ وأوّلُه بالفُرات وآخرُه بالنِّيل .

آخــــر : ولا زال يتوقّىٰ بطاعتــه بَوَادِر الأسِــنَّه ، وعَوادِىَ الخيــل مُوشَّحةً بالأعِنَّــه ، وعَيْث الجَيْش حيثُ لا يبقىٰ إلا أحدُ الأقسام الثلاثة : القَتْلُ أو الأَسْر أو المِنَّـــه .

آخــــر : جنَّب الله رأيَهُ سُوءَ التعكيس ، وشَرَّ ما يُزَيِّن لمثله إبليس ، وأخْذَ جنائبِ قِلَاعه وأوّلُ تلك الجنائبِ سِيس .

والذى ذكره فى "التثقيف" أنه كان آسمه كستندين بن هتيوم ؛ وأنَّ رسم المكاتبة إليه علىٰ ما كان آستقرّ عليــه الحال إلىٰ حين الفُتُوح فى سنة ستٍّ وسبعين وسبعمائة ، فى قَطْع العادة : «صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة الملكِ الجليلِ ، المكرَّم ، المبجَّل ، المعظَّم ، المعزَّز ، الهمام ، الباسل ، فلان بن فلان ؛ عزِّ دِين النصرانيه ، كبيرِ الطائفــة الصليبيَّه ، عمــادِ بنى المَعْمُوديه ، صــديقِ الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمتَه ، وحرس مُهْجتَه ، تُعْلِمه كذا وكذا» . وتعريفه «متملك سيس» قال : وكتبت أنا والجمــاعة إليه بهذه المكاتبة مرَّات .

قلت : وقد بطلتْ هــذه المكاتبة بفَتْح سِيس حين فتحها قُشْــتُمر المنصورىّ نائبُ حلب فى الدولة الأشرفيــة « شعبان بن حسين » فى التاريخ المقــدّم ذكره،

وآستقرتْ نيابةً فى رتبة نيابة طرابُلُس وما فى معناها ؛ ثم آستقرت تَقْدِمةَ عسكر فى مُضافات حَلَب علىٰ ما تقدّم ذكره فى المسالك والممالك هناك . وإنما كان يقال له متملِّك سِيس دُونَ مَلِك سيس لما تقدّم من أنها كانتْ أوّلا بيد المسلمين، ثم وَثَب عليها رئيسُ الأرمن المقدَّمُ ذكره فملكها من أيدى المسلمين ، ولله الحمد فى إعادتها إلىٰ يد المسلمين، وآستقرارها فى جملة الممالك الإسلامية .

المقْصِد الثانى

(فى المكاتبة إلىٰ ملوك الكُفَّار ببلاد المغْرِب من جزيرة الأنْدَلُس وما والاها مما هو شَمَالىّ الأندَلُس من الأرض الكبيرة)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك من المقالة الثانية أن المسلمين كانوا قد آفتتحُوا جزيرةَ الأندَلُس فى خِلَافة أمير المؤمنين عُثْمانَ بنِ عَفَّان رضى الله عنه وأنها أقامتْ بأيدى المسلمين إلىٰ رأس السِّتِّمائة من الهجرة، ولم يبقَ منها بيد المسلمين إلا غَرْناطة وما معها من شَرْق الأندلس ، عَرْض ثلاثة أيام فى طُول عَشَرة أيام ؛ وباقى الجزيرة علىٰ سَعَتها بيد أهل الكُفْر من نصارىٰ الفَرَنْج ، وأن المستولىَ علىٰ ذٰلك منهم أربعة ملوك :

الأوّل — صاحبُ طُلَيْطُلة(1) وما معها، ولقبُه الأدْفُونش : سمةٌ علىٰ كل من ملك منهم، وعامّة المغاربة يسمُّونه الفُنْش، وله مملكةٌ عظيمة وعُمَالات متَّسِعة، تشتمل علىٰ طُلَيْطُلَةَ، وقَشْتالةَ ، وإشْبِيلِيَة، وبَلَنْسِيَةَ، وقَرْطَاجَنَّة، وجَيَّان، وجلِّيقيَّةَ، وسائر أعمالها .

---

(1) ضبطها ياقوت عن الحميدى بضم الطاءين وفتح اللامين ثم قال وأكثر ما سمعناه عن المغاربة ضم الاولى وكسر الثانية . وكذلك ضبطه المؤلف فيما تقدّم فى جزء ٥ فليتنبه .

الثـانى ـــ صاحب أَشْبُونَةَ وما معها، وتُسمَّى البُرْتُقَال، ومملكته صغيرةٌ واقعة فى الجانب الغربىِّ عَرْضا له ، تشتمل علىٰ أَشْبُونَةَ وغَرْب الأندلس .

الثالث ـــ صاحب بَرْشَلُونة ، وأَرْغُون، وشاطِبـةَ ، وسَرَقُسْطة ، وبلَنْسِـيَةَ[1] ، وجزيرة دانِيَةَ، ومَيُورْقة .

الرابع ـــ صاحب بِيرة : وهى بين عِمَالات قَشْتالة، وعِمَالات بَرْشَلُونَةَ، وقاعدته مدينـة يَنبُلُونةُ ؛ ويقال لملكها ملك البِشْكَنْس . ووراءَ هؤلاء بالأرض الكبيرة صاحبُ إفْرَنْسَـة التى هى أصـل مملكة الفَرَنْج كما تقـدّم فى الكلام علىٰ المسـالك والممالك ، ومِلكُها يقال له الرِّيد إفرنْس . قال فى "التعريف" : وهو الملك الكَبِير المُطَاع ؛ وانمـا الأَدفُونش هو صاحب السـطوة ، وذِكْره أشهر فى المغرب لقُرْبه منهم، وبُعْد الرِّيدِ إفْرنْس .

والمكاتَبُ منهم ملكان :

الأوّل ـــ الأدفونش المبَـدَّأ بذكره . قال فى " التعريف " : وبيـده جُمْهور الأَنْدَلُس، وبسُـيوفه فَنِيَتْ جَحاجِحُها الشُّمُس، وهو وارث مُلْك لذريق . ولذريق هذا الذى أشار إليه فى " التعريف" هو الذى انتزعها المسلمون من يده حينَ الفتح فى صدر الإسلام . قال صاحب "التعريف": وحدّثنى رسولُ الأدفُونش بتعريف تَرْجُمانٍ موثوقٍ به من أهـل العَدَالة يسمّى صـلاحَ الدين الترجمان الناصرى : أن الأدفونش من ولد هِرَقْل المفتتَح منه الشام ؛ وأنَّ الكتاب الشريف النبوىَّ الواردَ علىٰ هِرَقْل متوارَثٌ عندهم مَصُون ؛ يُلَفّ بالدِّيبـاج والأَطْلَس، ويُدَّخرا كثر من ادّخار الجواهر والأعْلاق، وهو إلىٰ الآنَ عنـدهم لا يُخْرَج، ولا يُسْمَح بإخراجه،

(١) هى بلنسية المتقدمة أضيفت إلىٰ برشلونة فيما بعد .

يُنْظَر فيه بعين الإجْلال ، ويُكْرِمُونه غايةَ الكرامة ، بوصيةٍ توارثها منهم كابِرٌ عن كابِرٍ وخَلَفٌ عن سَلَف .

قال : وكان الأدفونش ممن قَوِىَ طمعُه فى بلاد مصر والشام فى أخرى ليالى الأيَّام الفاطمية . ثم قال : ومكاتباتُه متواصلة ، والرُّسُل بيننا و بينه ما تنْقَطع على سُوء مَقاصده ، وخُبْث سرِّه وعَلاَنيته ؛ أهدى مرَّة إلى السلطان سيْفا طويلًا وثوبا بُنْدُقيا وطارقةً طويلةً دقيقةً ، تشبه النَّعْش ، وفى هذا مالا يخفى من آستِفْتاح باب الشر والتصريح المعروف بالكناية ؛ فكان الجواب أن أُرْسل إليه حبل أسود وحجَرٌ ، أى إنه كلب إنْ رُبِط بالحبل و إلا رُمِىَ بالحجر .

قال فى "التعريف" : ورسم المكاتبة إليه أطال الله بقاء الحضرة السامية ، حضرةِ الملك الجليلِ ، الهمامِ ، الأسد ، الباسلِ ، الضِّرغام ، الغضَنْفَر ، بقيَّة سلَفِ قيْصَر ، حامِي حُمَاة بنى الأصْفَر ، الممنَّع السُّلُوك ، وارث لذريقَ وذرارِىِّ الملوك ؛ فارس البِّر والبحر ، ملك طُلَيْطلة وما يليها ، بَطَل النصرانيه ، عمادِ بنى المعمُوديه ، حامل رايةِ المَسِيحيَّه ، وارث التِّيجان شَبِيه مَرْيُحنَّا المَعْمَدان ، محبِّ المسلمين ، صديقِ الملوك والسلاطين .

دعاء وصدر يليقان به

وكفاه شرَّ نَفْسه ، وجَنَاه ثمر غَرْسه ، ووقاه فعلَ يومٍ يجُرُّ عليه مثلَ أمسِه ، وأراه مِقدارَ النِّعمة بالبحر الذى تمنَّع بِسُوره وتوقَّى بتُرْسه .

أصدرناها إليه وجندُ الله لايمنَعُهم مانع ، ولا يُضرُّ بهم فى الله ماهو جامِع ، ولايبالُونَ أكتائبَ يُخَلِّفُونها أم كُتُبا ، وجَداوِلُ تَعْرِض لهم أم بحارٌ لاتقطعُها إلا وَثْبا .

آخـــر : ووقَاه بتوفيقه تِلافَ المُهَج ، وكفاه بأسَ كلِّ أسدٍ لم يُهَجْ ، وحماه من شرِّ فتنةٍ لايبُلُّ البحرُ الذى تحصَّن به غُبارَها من الرَّهَج .

أصـدرناها إليه وأسِنَّتُنا لا تُردّ عن نَحْر ، وأعنَّتُنا لا تُصَـدُّ بسُورٍ ولو ضُرِبَ من وراء البحر .

قلت : وينبغى أن تكون فى قَطْع النِّصف .

الثانى — صاحب بَرْجَلُونة ، ووَهِم فى " التثقيف " فجعله هو الأدفونش المقدّم ذكره . وقال : إنه يلقَّب أتفونش ، دُونَ حاكم . ثم قال : وهم طائفة الكِيتْلان ورسم المكاتبة إليه فى قَطْع النصف بقلم الثُّلث الكبير (١) « أدام الله تعالىٰ بهجةَ الحضرة الموقَّرة ، الملك الجليل ، المكرَّم ، المبجَّل ، الخطير ، البَطَل ، الباسـل ، الهُمَام ، الضِّرْغام ، الرِّيدأرْغُون ، فلان ؛ نَصِير النَّصْرانيـة ، فخر الأُمَّة العيسويَّه ، ذُخْر الملة المسيحيه ، حامى الثُّغور ، متملِّك السَّواحل والبُحُور ، عمـادِ المَعمُوديّة ، ظهير پاپا روميه ؛ ملاذِ الفُرْسان ، جَمَـالِ التُّخوت والتِّيجان ، صديق الملوك والسلاطين ، صاحب بَرْجَلُونة » .

قال فى " التعريف " : أما الرِّيد فَرَنْس فلم يرِدْ له إلا رسولٌ واحدٌ ، أبرقَ وأرْعد ، وجاء يطْلُب بيت المَقْدس علىٰ أنه يُفْتَح له ساحلُ قَيْسارِيَّة أو عَسْقَلان ، ويكون للإسلام بهما وُلَاة مع وُلَاته ، والبلادُ مُناصَفة ، ومساجدُ المسلمين قائمة ، وإدرارات قَوَمَتِها دارّة ، علىٰ أنه يبْذُل مائتىْ ألف دينار تُعَجَّل وتُحمَلُ فى [كل] (٢) سـنة ، نظير دَخْل [نصف] (٢) البلاد التى يتسلَّمها علىٰ معدَّل ثلاث سنين ، ويُطْرِف فى كلّ سنة بغرائب التُّحف والهَدَايا . وحَسَّن هذا كُتَّابٌ من كَتَبَة القِبط ، كانوا صاروا رُءُوسًا فى الدولة بعمائِمَ بِيضٍ وسرائرَ سُودٍ ، وهم أعداءٌ زُرْق ، يجرِّعُون الموتَ الأحمر ، وعملوا علىٰ تمشيَة هذا القصد و [ان] (٢) سرىٰ فى البَدَن هذا السُّم ، وتُطُلِّب له الدِّرْيَاق فعَزَّ .

---

(١) مراده الثلث الثقيل .

(٢) الزيادة من " التعريف " ص ٦٣ .

وقالوا : هذا مالٌ جليل معجَّل ثم ماذا عسى أن يكون منهم وهم نُقْطة فى بحر، وحصاةٌ فى دَهْناءَ .

قال : وبلغ هذا أبى رحمه الله، فآلى أن يُجاهرَ فى هذا، ويجاهدَ بما أمكنه، ويدافِعَ بمهما قَدَر عليه، ولو لاوىٰ السلطانَ علىٰ رأيه إن أصغىٰ إلىٰ أولئك الأفَكَة؛ وقال لى : تقوم معى وتتكلّم، ولو خُضِبت منا ثيابُنَا بالدَّم، وراسلْنا قاضىَ القضاة القَزْوينى الخطيب، فأجاب وأجادَ الاستعداد؛ فلما بكّرنا إلىٰ الخِدْمة وحضرْنا بين يدِى السلطان بدار العَدْل، حضرت الرسل، وكان بعضُ أولئك الكَتبة حاضِرا، فاستعدَّ لأن يتكلّم، وكذلك استعديْنا نحن : فما استتم كلامُهُم حتّى غَضِب السلطانُ وَحِمِى غضَبُه، وكاد يتضَرَّم عليهم حطَبُه، ويتعَجَّل لهم عطَبُه، وأُسْكِتَ ذلك المنافِقُ بخزْيتـه ، وسكتْنا نحن اكتفاءً بما بلغه السلطان مما ردّه بخَيْبَتِه؛ فصُدَّ ذٰلك الشيطانُ وكفىٰ الله المؤمنين القِتَال؛ ورُدّتْ علىٰ راميها النِّصال . وكان الذى قاله السلطان : والكم أنتم عرَفْتم مالقيتم نَوْبةَ دِمْياط من عسكر المَلِك الصالح، وكانوا جماعة أكرادٍ ملفَّقة مجمَّعه، وما كان بعدُ هؤلاء التُّرك؛ وما كان يشغلنا عنكم إلا قتال التتر، ونحن اليوم بحمد الله تعالىٰ صُلْحٌ [نحن وإياهم](1) من جنسٍ واحد ما يتخلّٰى بعضه عن بعض، وما كنا نُريد إلا الابتداء؛ فأما الآنَ فتحَصَّلوا وتعالَوْا ، وان لم تجوا فنحن نَجيكم ولو أننا نخوض البحر بالخيل؛ والْكُمْ صارت لكم ألسنةٌ تذكُرون بها القُدُس؛ والله ما ينال أحد منكم منه ترابةً إلا ما تسفيه الرياح عليه وهو مصلوب ! وصرخ فيهم صَرْخةً زعزعت قُواهم، وردّهم أقبَحَ ردّ، ولم يقرأ لهم كتابا ، ولا ردّ عليهم سوىٰ هذا جوابا .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : فإن ٱتفق أن يكتب إلىٰ الرِّيد إفرنس المذكور فتكون المكاتبة إليه مثل المكاتبة إلى الأدفونش أوأجلّ من ذلك .

وٱعلم أن الريد فَرَنْس هو الذى قصد الديارَ المصريّة بمواطأة الأدفونش: صاحب طُليْطِلَةَ المقــدّم ذكره ، وملكوا دِمْياطَ ، وكانت الواقعــة بينهم فى الدولة الأيوبية فى أيام الصالح أيُّوب ، وأُخِذ الرِّيد فَرَنْس وأَمسِــك وحُبِس بالدار التى كان ينزلهـا فخر الدِّين بنُ لُقْمان : صاحب ديوان الإنشاء ، بالمنصورة ، ورُسِم عليه الطَّواشى صَبِيح ، ثم نُفِّس عنه ، وأطلق لأمرٍ قُرِّر عليه ، وقال فى ذلك جمالُ الدين بنُ مَطْروح أبياته المشهورةَ وهى :

[قُلْ للفرَنْسِيسِ اذا جئتَــــه * مقالَ صِدْقٍ من قَــؤُول نَصُوحْ
أتيْتَ مِصْرًا تبْتــغِى مُلْكَها * تَحْسَبُ أنَّ الزمْرَ ياطَبْلُ رِيْح
وكلّ أصْحــابِكَ أودَعْتَهُـــمْ * بحسْنِ تَدْبيرِكَ بَطْن الضَّرِيحْ
خمســينَ ألفًا لاتَرىٰ منهـــمُ * غيرقَتِيــــلٍ أوأسِــير جرِيحْ
وفَّقَـــــــكَ اللهُ لأمْثالِها * لعَــلَّ عِيسىٰ منْكُمُ يَسْــتَرِيحْ
آجَـــرَكَ اللهُ علىٰ ماجَـــرىٰ * أفْنيْتَ عُبَّــاد يَسُوعَ المَسِيح
فقُـــلْ لهم إن أضْمَرُوا عودَةً * لأخْذ ثارٍ أو لقَصْدٍ صَحِيحْ:
دارُ ابنِ لُقْمانَ علىٰ حالها * والقَيدُ باقٍ والطَّواشِى صَبِيح][1]

---

(١) بيض لهذه الأبيات فى الاصل ونقلناها مما تقدم فى ج ٥

المقصـــد الثـالث
(فى المكاتَبَة إلى ملوك الكُفّار بالجـانب الجنُوبىّ)

والمكاتَب بهذا الجانب منهم مَلِكان :

الأوّل — صاحب أمْحَرَا : ملكِ مُلُوك الحبَشَة ، ولقبه عندهم حَطِّى - بفتح الحاء وكسر الطاء المشدّدة المهملتين ، سِمَة على كلّ من مُلِّك عليهم منهم .

قد تقدّم فى الكلام على المسالك والممالك فى المقالة الثانية أنه نصرانىٌّ يعقوبِىّ ، يحكم على تسعة وتسعين مَلِكا ، منهم سبعةٌ مسلمون ، وهم صاحب وفَاتَ ، وصاحب دَوارو ، وصاحب أرابِينِى ، وصاحب شَرْحَا ، وصاحب هَدْيةَ ، وصاحب بَالِى ، وصاحب دارةَ ؛ وأنه لولا أنَّ معتقَد دين النَّصرانية لطائفة اليعَاقِبة أنه لا يصِحُّ تعمد معمودىٍّ إلا بآتِّصال من البَطْرِيَرك ، وأنَّ كرسىَّ البَطْرِيرك كنيسةُ الإسكندريَّة فيحتاج إلى أخذ مَطْرانٍ بعد مِطْران من عنده ، لشَمَخَ بأنْفِه عن المكاتَبة ، لكنه مُضْطرٌّ إلى ذلك .

قال فى " التعريف " ورسم المكاتبة إليه :

أطال الله بقاءَ الحضرة العاليةِ ، الملكِ ، الجليـلِ ، الهُمامِ ، الضِّرْغام ، الأسـدِ ، الغضَنْفَر ، الخطير ، الباسِـلِ ، السَّمَيْدَع ، العالم فى مِلَّته ، العـادل فى مَمْلكته ، المنْصِف لرعيَّته ، المستمع لما يجب فى أَقضِيَته ، عزِّ المِلَّة النَّصْرانيـه ، ناصر المِلَّة المسيحِيَّة ، رُكْنِ الأمَّة العيسويَّه ، عمادِ بنى المعموديَّة ، حافظ البلاد الجَنُوبيَّه ، متَّبِـع الحوارِيِّين ، والأحبار الرَّبَّانيين ، والبطاركة القِدِّيسِين ، معَظِّم كنيسة صِهْيَوْن ، أوحد مُلوك اليعْقوبية ، صديق الملوك والسلاطين . ويدعى له دعاءً مفخَّمًا يليق به .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، ذكرهما فى "التعريف" :

وأظهر فضْلَه علىٰ مَنْ يُدانيـه من كلِّ ملك هو بالتاج معْتَصِب، ولكَفِّ الَّلجاج بالعَدْل منتَصِب ، ولقطع حِجَاج كلِّ معاند بالحق معتصر أو للحقِّ مغتَصِب .

صدرت هذه المُفاوَضةُ إلىٰ حضرته العليــه ومن حضرة القُدُس مَسْراها ، ومن أُسْرة المُلْك القديم سُرَاها، وعلىٰ صَـفَاء تلك السَّريرة الصافيَة تَرِدُ وإن لم يكُنْ بهـا غَليل، وإلىٰ ذلك الصديقِ الصَّدُوق[المَسيحِىِّ]تصل، وإن لم تكُنْ بُعِثَتْ إلا من تِلْقاء الخَليـــل .

ولم يذكر القطع الذى يكتب إليه فيــه . أما فى "التثقيف" : فإنه ذكر أنه يُكْتَب إليه فى قطع الثُّلُث بقلم التوقيعات مانصه :

أطال الله بقـاءَ الملِك، الجليل ، المكَّرم ، الخطيرِ، الأسـد، الضِّرْغام، الهمام، الباسل، فلان بن فلان، العالم فى مِلَّته، العادل فى مَمْلكته، حَظِّى ملك أمْحرا، أكبرِ ملُوكِ الحُبْشان، نَجَاشِىّ عَصْره، سَنَدِ المِلَّة المَسيحيه، عضُدِ دينِ النصرانيه، عماد بنى المعمُوديه، صديق الملوك والسلاطين، والدعاء، وتعريفه «صاحب الحَبَشة» .

قال : فإن كانت المكاتبة جوابا، صُدِّر الكتابُ إليه بما صورته : ورد كتاب الملك الجليل، ويذكر بقية المكاتبة . ثم قال: وهذه المكاتبة هى التى آستقرّ عليها الحال عند ماكُتِب جوابهُ فى التاسع من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وسبعمائة .

وهذه نسـخة جوابِ كتابٍ ورد عن صاحب الحبشة من سَـلْطنة الملك المظَفَّر صاحب اليمن ، علىٰ الملك « الظاهر بيبَرْس » رحمه الله ، بطَلَب مِطْرانٍ يُقيمُه لهم البَطْرك ، مما كتب به القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهى :

ورد كتابُ الملك، الجليلِ، الهمام، العادل فى مِلَّته، حَطِّى ملك أمْحَرا أكبر ملوك الحُبْشان، الحاكم علىٰ مالهم من البُلْدان، نَجَاشِيّ عصره، صديقِ الملوك والسلاطين، سلطان الأمْحَرا حرَس الله نفسه، وبَنى علىٰ الخير أُسَّه؛ فوقَفْنا عليه وفَهِمْنا ماتضمَّنه: فأما طلبُ المَطْران فلم يحضُرْ من جهة الملك أحدٌ حتّى كنا نعرِف الغرَضَ المطلوب، وإنما كتابُ السلطان الملك المظفَّر صاحب اليمن ورد مضمونُه أنه وصل من جهة الملك كتابٌ وقاصد، وأنه أقام عنده حتّى يسَيَّر إليه الجوابُ . وأما ماذكره من كثرة عساكره، وأن من جملتها مائة ألف فارس مسلمين، فالله تعالىٰ يكثر فى عساكر الإسلام . وأما وَخَم بلاده فالآجالُ مقدَّرة من الله تعالىٰ، ولا يموتُ أحدٌ إلا بأجَلِه، ومَنْ فرغ أجلُه مات .

وآعلم أنَّ العادة جرتْ أنه كلما كُتِب إليه كتابٌ عن الأبواب السلطانية كتب قرينَه كتابٌ عن البطْرِيَرْك . قال فى "التعريف" : ولأوامر البَطْرِيَرْك عنده مالشريعتـه من الحُرْمة، وإذا كتب كتابا فأتىٰ ذلك الكتابُ أوّلَ مملكته، خرج عَمِيـدُ تلك الأرض فحمل الكتابَ علىٰ رأسِ عَلَم، ولايزال يحمِلُه بيـده حتّى يُخْرِجه من أرضه، وأربابُ الديانةِ فى تلك الأرض : كالقُسُوس والشَّمامِسَـةِ حولَه مُشاةٌ بالأدْخِنة؛ فإذا خرجُوا من حَدّ أرضهم تلقَّاهم مَنْ يليهـم أبدا كذلك فى كلِّ أرض بعْدَ أرض حتّى يصلوا إلىٰ أمْحرا، فيخرج صاحبُها بنَفْسه، ويفعل مثلَ ذلك الفعلِ الأوّل؛ إلا أنَّ المَطْران هو الذى يحمل الكتابَ لعظَمته لا لتأبِّى الملك . ثم لايتصرف الملكُ فى أمرٍ ولا نَهْى، ولا قليلٍ ولا كثير، حتّى ينادى للكتاب، ويجتَمَع له يومَ الأحد فى الكنيسة، ويُقْرأُ والملك واقفٌ؛ ثم لايجلس مجلِسَه حتّى ينفِّذَ ماأمره به .

الثـانى — صاحب دُنْقُـلَة . قد تقـدّم فى الكلام علىٰ المسـالك والممـالك أن دُنْقُلَة هى قاعدةُ مملكة النُّوبة، وأنها كانت فى الأصل يكونُ ملكُها من نصارىٰ

النُّوبة، ومعتقَدُهم معتقَدُ اليَعاقبة، وأنه ربمـا غَلَب عليها بعضُ المسلمين من العرب فملَكَها؛ وقد تقدّم ذكر المكاتبة إلىٰ صاحبها إذا كان مسلما؛ أما إذا كان نصرانيا فقد ذكر فى "التثقيف" أن المكاتبة إليـه: هذه المكاتبةُ إلى النـائب، الجليل، المبجَّل، الموَقَّر، الأسدِ، الباسل، فلان؛ مجدِ المِلَّة المسيحيه، كبيرِ الطائفة الصليبِيَّه، غرس الملوك والسلاطين؛ والدعاء، وتعريفه «النائب بدُنْقُله».

المقْصِـــــد الرابـــع

(فى المكاتبة إلىٰ ملوك الكُفَّار بالجانب الشَّمالِيِّ من الرُّوم والفَرَنْجة علىٰ اختلاف أجناسهم، وجميعُهم معتَقَدهم معتَقَدُ المَلِكَانيَّة)

وجملة ماذكر من المكاتبات فى "التعريف" و"التثقيف" اثنتا عشرةَ مكاتبةً:

الأولىٰ — مكاتبة الباب، وهو بَطْرِيَرْك المَلَكِيَّة، القائم عندهم مَقامَ الخليفـة؛ والعجَبُ من جعله فى "التثقيف" بمنْزِلة القان عند التتار، والقان إنمـا هو بمنزلة مِلكهم الأكبر، والبابُ ليس من هذا القبيل، بل إليه أمر الدِّيانة حتّى فى التحليل والتحريم.

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك عند ذكر البَطَارِكة أنهم كانوا يُسَمُّون القِسِّيس ونحوَه أباً، ويُسَمُّون البطْرِيَرْك أباً؛ فأحبُّوا أن يأتُوا علىٰ[(١)] البطْرِيَرك بسِمَةٍ له تميِّزه عن غيره من الآباء، فاختاروا له لفظ الْباب؛ وأنه يقال فيه الباب والبابا ومعناه أبو الآباء؛ ثم لمـا غلب الروم علىٰ المملكة، وعلَتْ كلمتُهم علىٰ اليعاقِبَة، خصُّوا اسم الباب ببطْرِيَرْكهم؛ فصار ذلك عَلَمًا عليـه، ومقَرُّه مدينـةُ رُومِيَةَ علىٰ ما تقدّم

---

(١) مراده أن يطلقوا علىٰ البطريرك سمة الخ.

هناك ، ورسْمُ المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى " التثقيف " ضاعفَ اللهُ تعالى بهْجة الحضرة السامية ، الباب الجليل ، القدّيس ، الرُّوحانى ، الخاشع ، العاملِ ، پاپا رومية ، عظيم الملة المسيحيّه ، قُدْوة الطائفة العيسويّه ، مملّك ملوكِ النَّصْرانية ، حافظ الجُسور والخُلْجان ، ملاذِ البَطارِكة والأساقفة والقُسوس والرُّهْبان ، تالِى الإنجيل ، معرِّف طائفتِه التحريمَ والتحْليل ، صديقِ الملوك والسلاطين . والدعاء ، وصدرت هذه المكاتبة .

قال فى " التثقيف " : هـذا ما وجدته مسطورا ولم يكتب إليـه شىءٌ فى مدّة مباشرتى ، ولا أدرِى فى أىّ شىء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفَه . ولم يتعرّض له المقرّ الشهابىّ بْنُ فضـل الله فى " التعريف " جملةً ، ورأيت فى بعض الدّساتير أنه لم يكتب إليـه إلا مَرَّة واحدة ، وأن الكتابة إليه فى قَطْع النصف مع المكاتبة المتقـدّمة .

الثانية — المكاتبة إلىٰ ملك الروم صاحب القُسْطَنْطِينيَّة . قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممالك أنهـا صارتْ آخِرا إلىٰ بنى الأشكرىّ ؛ فصار الأشكرى سِمةً لهم ملكا بعد ملك . قال فى " التعريف " وقد كان قبل غَلَبة الفرَنْج مَلِكا جليلا ، يرجع إليه من عُبَّـاد الصَّليب سائرُ الملوك ، ويفْتقِر إليـه منهم الغنِيُّ والصُّعْلوك ، وكتبُ التواريخ مشحونةٌ بأخْباره ، وذكرِ وقائعِـه وآثارِه ، وأوّلُ من ألْبَس هامتَـه الذِّلَّه ، وأصار جَمْعَه إلىٰ القِلَّه ، هارونُ الرشيد حين أغزاه أبوه المهدىُّ إيَّاه ، فأزال الشَّمَم من أنْفِه ، وثنىٰ جامحَ عِطْفه . فأما غَزَواتُ مَسْلمةَ بنِ عبد الملك ويزيدَ بن معاوية فإنها لم تبلُغْ فيه حدَّ النِّكايه ، ولا أعظمَتْ له الشِّكَايه ، قال : وهذا الملك الآنَ كان السلطان (أزبك) قد كاد يبتَزُّ تاجَه ، ويُعقِم نِتاجه ، ويُخلِى من جانِب البحر المُغْلَق رِتاجَه ؛ فٱحتـاج إلىٰ مُداراته وبذَلَ له نفائسَ المـال ، وصَحِب أيّامَه علىٰ مَضَض

الأحتمال؛ وكانت له عليـه قطيعةٌ مقرَّره، وجملةُ مال مقدَّره؛ ثم عَميت علينا بعده منهم الأخبار، وتولّى بالدنيا الإدبار .

ورسم المكاتبة إليـه على ما ذكره فى "التعريف" : ضاعف اللهُ تعالى بهْجة الحضرة العالية ، المكرَّمة، حضرةِ الملك، الجليل، الخَطير، الهُمَام، الأسدِ، الغضَنْفَر، الباسـل ، الضِّرْغام، المُعْرِق، الأصـيل ، الممجَّد ، الأثيرِ، الأثِيل ، البلالاوس، الرِّيدأرغون، ضابط الممالك الرُّومِيَّة، جامع البلاد الساحِليَّة، وارث القَياصرة القُدَماء، مُحْيِي طُرُق الفلاسفة والحكماء، العالم بأمور دِينِه، العادل فى ممالكه، مُعِزِّ النَّصرانيه، مؤيِّد المسـيحِيَّه ، أوحدِ مُلُوك العِيسَويه ، مخوِّل التخوت والتِّيجان، حامى البِحار والخُلْجان، آخرِ ملوك اليُونان، ملك ملوك السُّرْيان، عمادِ بنى المعْمُوديَّه، رَضِيِّ الباب بابا رومية، ثِقَة الأصدقاء، صديقِ المسلمين، أُسْوة الملوك والسلاطين . ثم يكتب اسمه هنا ويدعى له ؛ ولم يذكر قَطْع الورق الذى يكتب إليه فيه .

وهذا دعاء وصدر يليقان به، أوردهما فى التعريف .

وجعل له من السَّلامة (١) يَدًا لا تُزَعْزِعه من أوطانه ، ولا تنْزِعُه من سُلْطانه ، ولا تُوجِب له إلا آستقرارًا لِتيجانِه، وآستمرارًا بمُلْكه على مادارتْ على حُصُونه مناطقُ خُلْجانه ، ولا بَرِحتْ ثمـارُ الوُدِّ تَدْنُو من أفْنانِه ، ومَوَاثيقُ العهد تُبَوِّئ له مايُسَرُّ به من إشادة معالم سَلَفه وشَـدِّ بناء يُونانه : أصدرناها ، وشكْرُه كَبحاره البحر لا يُوقَفُ له على آخِر، ولا يُوصَف مثل عِقْده الفاخر، ولا يكاثَر إلا قيـل : أين هذا القليل من هذا الزاخر .

(١) فى التعريف « مع الإسلام » .

آخـــره : ونَظَم سِلْكَه ، وحمىٰ بحُسْن تأتِّيه مُلْكَه ، وكفىٰ مُحِبَّه هُلْكَه ، وأجرىٰ بودّه ركائبَه وفُلْكَه ، ووَقَاه كذِبَ الكاذب وكفَّ إفْكَه ، وأشهد علىٰ ودّه الليلَ والنهار وما جَنَّ كافورُ هذا كافُوره ولا مسك هذا مِسْكَه .

قلت : هـذا الدعاءُ والصدْرُ وإن أورده فى "التعريف" فى جملة الأدعية له والصدور ، فإنه منحطُّ الرتبة عن المكاتبة السابقة ؛ اللهم إلا أن يُخَصَّ هذا بحالة منابذةٍ أو تهديدٍ ، ونحو ذلك .

وذكر فى "التثقيف" أن الذى آستقرّ عليه الحالُ فى المكاتبة إليه أنه يُكْتَب إليه فى قَطْع النِّصف ما نصـه : ضاعف الله تعالىٰ [بهجةَ](١) حضرة الملك الجليـل ، المكَرَّم ، المبَجَّل ، الأسد ، الخطير ، البَطَل ، الباسل ، الهُمَام ، الضِّرْغام ؛ فلان ، العالم فى مِلّته ، العادلِ فى أهل مَمْلَكته ، عزِّ الأمة المَسيحيَّه ، كبيرِ الطائفة الصَّليبيَّه ، جَمَالِ بنى المعمُوديَّه ، صَمْصام الملوك اليُونانيَّـه ، حُسام المملكة الماكصونيَّـه ، مالك البرغليَّـة والاملاحيـه ، صاحبِ أمصار الرُّوس والعَلَّان ، مُعزِّ اعتقاد الكُرْج والسُّرْيان ، وارثِ الأسِرَّة والتِّيجان ، الحاكم علىٰ الثُّغور والبُحُور والخُلْجان ، الضُّوقس الأنجالُوس الكمنينُوس البالألُوغِس ، صـديقِ الملوك والسـلاطين ؛ ثم الدعاء . صدرَتْ هـذه المكاتبة إلىٰ حضرته تشْكُر مُوالاتَه ، (ومن هـذه المـادة) وتوَضِّح لعلمه السعيد .

ورأيت فى بعض الدسـاتير أنه يختمها بقوله : فيُحيط بذلك علمـا ، والله تعالىٰ يديم بهجتــه .

---

(١) مقتبسة من "التعريف" لصحة الكلام .

قال فى " التثقيف " : وتعريفه « ضابط مملكة الروم » وذكر أن هذه المكاتبة هى المتـداوَلَة بديوان الإنشـاء بين كُتَّابه ، وأنه هو كَتَب بهـا إليه ، ولم يتعرّض لإيراد المكاتبـة التى ذكرها فى " التعريف " بل أحال فى معرفتها لمن أرادهـا علىٰ النظر فيــه .

الثالثـة — المكاتبة إلىٰ حُكَّام جَنَوَةَ : وهم جمـاعة متفاوِتُو المراتب ، وهم : البُودشطا ، والكَبْطان ، والمشايخ . ورسم المكاتبة إليهم علىٰ ماذكره فى "التثقيف" فى قطْع الثُّلُث :

صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة البودشطا والكبطان الجليلـين ، المكَرَّمين ، الموقَّرين ، المبجَّلين ، الخَطِيرين ، فلان وفلان ، والمشايخ الأكابرِ المحترمين ، أصحـاب الرأى والمَشُورة ، الكمنون بجَنوه (١) ، أمجـاد الأمّة المَسِيحية ، أكابردين النصرانية ، أصـدقاء الملوك والسلاطين ؛ ألهمهم الله تعالىٰ رُشْدَهم ، وقرن بالخير قَصْدَهم ، وجعـل النصيحة عِنْدهم . تتضمن إعلامهـم كذا وكذا . وتعريفهـمْ «الحُكَّام بجَنوةَ» .

قال فى " التثقيف " والذى ٱستقرّ عليـه الحـال آخِرا فى مفتَتَح سـنة سبع وسـتين وسبعمائة إبطالُ المكاتبة إلىٰ البودشـطا والكبطان ، بحُكْم أنهـما أُبْطِلا ، وٱستقرّ [ت مكاتبة] الدُّوجِ مكانهما بمـا نصه :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الدُّوج الجليـل ، المكَرَّم ، المبجَّل ، الموقَّر ، الخطير ، فلان ، والمشايخ ، والباقى علىٰ ماتقدّم ذكره .

قلت : هكذا هو فى "التثقيف" بدال وواو وجيم ، والمعروف إبدال الجيم فى آخره كافا علىٰ ماسيأتى ذكره فى الكلام علىٰ صاحب البندقية علىٰ الأثر .

---

(١) لعله الحاكمون بجنوة .

وآعلم أنه قد ذكر فى "التثقيف" أنه كان لصاحب جَنَوَة مُقَدّم علىٰ الشّوانى بقُبرُس ، وقيل إنه كان بالماغُوصة ، وأنه كتب إليه فى رمضان جوابًا عما ورد عنه فى قَطْع العادة مانصه :

وردتْ مكاتبة المُحْتشِم ، الجليل ، المبجّل ، الموقّر ، الاسد ، الباسل ، فلان ؛ مَجْدِ الملة المَسيحيه ، كبيرِ الطائفة الصّليبيّه ، غَرْس الملوك والسلاطين ؛ ثم الدعاء . وتعريفه «مقدّم الشّوانى الجَنَويّة بقُبْرس» .

الرابعة — المكاتبة إلىٰ صاحب البُنْدُقِيّة . قال فى "التثقيف" : ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما آستقرّ عليه الحال عند ما كتب إليه جوابه فى شهر رجب سنة سبع وستين وسبعمائة ، وهو يومئذ مَرْكريادُو فى قطع الثلُث :

وردتْ مكاتبة حضرة الدُّوج ، الجليل ، المكَرَّم ، الخطيرِ ، الباسلِ ، الموقّر ، المفَخّم ، مَرْكريادو فخرِ الملة المسيحيه ، جمالِ الطائفة الصّليبيه ، دُوج البُنْدقِيّة والمانسية ، دوج كرال دين بنى المعموديه ، صديق الملوك والسلاطين ، والدعاء . وتعريفه «صاحب البندقية» : ثم ذكر بعد ذلك نقلا عن خط القاضى ناصر الدين آبن النشائى أنه كتب فى الجواب إلىٰ دُوك البنادقة :

وردتْ مطالعةُ الدُّوك الجليل ، المكَرَّم ، المبجّل ، الموقّر ، البَطَل ، الهمام ، الضِّرْغام ، الغَضَنْفَر ، الخطير ، مجدِ المِلة النَّصْرانيه ، فخرِ الأمّة العِيسَويّه ، عِمَاد بنى المَعْمُوديه ، معِزّ پَاپَا رُومية ، صديقِ الملوك والسلاطين ، دُوك البنَادقة ، وديارقة ، والرُّوسَا ، والإصْطَنْبُوليّة . ثم قال : ولم يذكر تعريفَه ولا قَطْعَ الورق الذى يُكْتَب إليه فيه ؛ ثم نقل عنه أيضا أن المكاتبة إلىٰ دُوك البنْدُقِيّة : هذه المكاتبة إلىٰ حضرة المحتَشم ، الجليل ، المبجّل ، الموقّر ، المكرم ، المفَخّم ، الباسل ، الضِّرْغام ، فلان ؛

عِزّ الامة المسيحيّه، جمالِ الطائفة العِيسَويّه، ذُخْر الملة الصليبية، صـديق الملوك والسلاطين . ثم قال : هكذا رأيتـه من غير ذكر تعريفه ولا القَطْع الذى يكتب إليه فيه . قال : وما يبعُد أنه غيرُ الأول ولم يزد علىٰ ذلك .

قلت : ومقتضىٰ ما ذكره من جميع ذلك أن الدُّوكَ غيرُ الملِكِ نفْسِـه . علىٰ أن المكاتبة الأولىٰ والثانيـةَ فى الجواب متقارِبتانِ . اما المكاتبة الثالثـة فمنحطّة عن الأوّلَتينِ . علىٰ أنه قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك عنـد ذكر البنْدُقيّـة نقلا عن آبن سعيد أن مَلِك البنادقة يقال له الدُّوك بضم الدال المهـملة وواو وكاف فى الآخر، وهذا ممـا يحتاج إلىٰ تحرير، فإن كان الدُّوك هو الملِكَ فتكون المكاتبةُ إليه آختلفَتْ باختلاف الحال، أو باختلاف غَرَض الكُتَّاب، أو عدمِ اطّلاعهم علىٰ حقيقة الأقدار والوقوف مع مايُلْقىٰ إليهم من المُزَاحمة فى كل وقتٍ وهو الظاهر .

الخامسة — المكاتبة إلىٰ صاحب سَنُوبَ، من سواحل بلاد الروم، قبل أن تُفْتَح ويستولِىَ عليها التُّرْكمان . قال فى "التعريف" وهى علىٰ ضَفّة الخليج القُسْطَنْطِينىّ، وملكها رومىٌّ من بيت المُلْك القديم ، من أقارب صاحب القُسْطَنْطِينيّة . قال : ويقال إن أباه أعرَقُ من آبائه فى السلطان . قال : ولكن ليس ملكُه بكَبِير، ولا عدَدُه بكثير، ويكونُ بينه وبين أُمراء الأتراك حروب، يكون فى أكثرها المغلُوب .

وذكر أنَّ رسم المكاتبة إليه مثـلُ متَمَلّك سيس، فتكون علىٰ ما ذكره فى مكاتبـة متملك سيس :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ حضرةِ الملِك ، الجليل، البطلِ، الباسـلِ، الهُمامِ، السَّمَيْدَع، الضِّرْغام، الغضَنْفَر، فلان، فخر الملّة المَسيحيه، ذُخْر الأمة النَّصْرانيه، عماد بنى المعْمُوديّه، صديق الملوك والسلاطين .

وهذا دعاء يليق به، ذكره فى "التعريف" :

وكفاه شرّ ماينُوب ، وروّح خاطِره فى الشّمال بريًّا مايهُبُّ من الجنُوب ، ووقاه سُوءَ فِعلٍ يُورِث النّدَم وأوّلُ مايقْرَع السِّنَّ سَنُوب .

السادسة ــ المكاتبةُ إلىٰ صاحب البُلْغَار والسَّرْب . قد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتبات إلىٰ ملوك الإسلام بالجانب الشّمالىّ نقلا عن " التعريف " ما يقتضِى أنّ ملكها مسلمٌ، وذُكِرت مكاتبتُه الإسلاميةُ هناك، وعلىٰ ذلك ٱقتصر فى "التعريف" وتقدّم النقل عن "مسالك الأبصار" أنها صارتْ إلىٰ ملوك النّصْرانية، وعليه ٱقتصر فى "التثقيف" وهو المراد هنا .

ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى " التثقيف " نقلا عن ابن النشائى فى قَطْع الثلث ما نصه :

أطال اللهُ تعالىٰ بقاءَ حضرة الملك، الجليلِ، المكَرَّم، المبجَّل، الهُمام، الضِّرْغام، الباسل، الدُّوقس، الانجالُوس، الكمنينوس، فلان، عمادِ النَّصرانية، مالك السَّرْب والبُلْغار، فَخْرِ الأمّة العيسويه، ذُخْر الملة المسيحيه، فارس البُحُور، حامِي الحُصُون والثُّغُور . والدعاء، أصدرنا هذه المكاتبة، وتعريفه «صاحب البُلْغار» .

وٱعلم أنه فى "التثقيف" بعد أن أورد المكاتبةَ المتقدّمةَ لصاحب السَّرْب والبُلْغار، نقلا عن ٱبن النَّشائى ذكر نَقْلا عنه أيضا أن المكاتبةَ إلىٰ صاحب السَّرْب فى قَطْع الثلث نظير متمَلِّك سِيسَ، فتكون المكاتبة إليه على ماتقدّم أنه الذى استقرّ عليه الحالُ فى المكاتبة لمتملِّك سيس :

صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ حضرة الملك، الجليل، المكَرَّم، المبجَّل، المعَزَّز، الهمام، الباسل، فلان، عزِّ دين النَّصْرانيه، كبير الطائفة الصَّليبيّة، عماد بنى

(١) أى البلد التى هى عاصمة ملكه .

المعمُوديَّه، صديق الملوك والسلاطين، أدام الله نعمَتَه، وحَرَس مُهْجَته، تعلمه كذا وكذا؛ وتعريفه «صاحب السِّرْب» .

ثم قال : ولم أدر هل يجتمعان لشخص واحد تارةً فيكون بهما آثنان تارةً وواحدٌ تارةً أم لا . ثم قال : على أنه لو كان الأمرُ كذلك لكان يتعـين أن يذكُرَ مكاتبـة صاحب البُلْغار وحده مفْردا كما ذكر مكاتبة صاحب السِّرْب وحده مفردا .

قلت : كِلَا الأمرين محتمِلٌ، فيجوز أنهـما كانا مجتمعين لواحدٍ، وأنه كتب تعريفَـه بالإضافة إلى أحدهمـا آستغناءً به عن الآخر، أو أنه كتب إلى صاحب السِّرْب بمفرده، ولم يحطَّ رتبتَه فى قَطْع الورق عن رتْبة من اجتمعا له، ولا يلزم من ذلك أنه كان يكتب لصاحب البُلْغار بمفرده لآحتمال أنه لم يُكْتَب إليه شيءٌ حينئذ، وبالجملة فهذا أمر راجع إلى النقل .

السابعة — المكاتبة إلى ملِك رُودِس . قال فى "التعريف" وهى جزيرةٌ تقابِلُ شُطوطَ البلاد الرُّوميَّـة . قال : وأهلها فى البحر حَرَامِيَّـة، إذا ظَفِرُوا بالمسـلم، أخذُوا مالَه، وأَحْيَوْه، وباعُوه أو آسـتَخْدَمُوه؛ وإذا ظفروا بالفَرَنْجِيِّ، أخذوا ماله وقتَـلُوه .

ورسم المكاتبة إليه مثـلُ متملك سِيسَ، إلا أنه لا يقال فيه مُعِزّ پاپا روميـة، وتختصر بعض ألقابه لأنه دونَه، وحينئذ فيتجه أن تكون المكاتبة إليه :

صدرت هذه المكاتبةُ إلى حضرة الملِك الجليل، البطَل، الباسل، السَّمَيْدَع، فلان، فخر الملة المَسيحيه، ذُخْر الأمة النَّصْرانيه، صديقِ الملُوك والسلاطين، أونحو ذلك . على أنه فى "التعريف" لم يذكر فى المكاتبـة إلى متملِّك سيس، معِزّ پاپا رومية؛ فلم يكن ليحتاج أن يقولَ : إلا أنه لا يقال فيه معزِّ پاپا رومية .

وهذا دعاء يليق به، ذكره فى "التعريف" وهو

قدَّم اللهُ له الأعْذار، وكفاه قَوامعَ الإنذار، وحذَّره عاقبةَ البغْيِ قبل أن لا ينْفعَ الحِذار.

آخـــر : فكَّ الله من وَثاقه كلَّ مأسـور، وأقالَ كلَّ غرابٍ له من الرُّجوع وجَناحُهُ مكسور، وعصمه بالتَّوْبة مما اقترفَ، لا بالبَحْر ولو أنه سبعةُ أبحُر، وسُورِ مدينته ولو أنه مائةُ سُور.

الثامنة — المكاتبة إلىٰ صاحبِ جزيرةِ المَصْطَكىٰ. قال فى "التعريف" : وهى جزيرةٌ صغيرةٌ لاتبعُد مدًى من الإسكَنْدريَّة، وصاحبها صغيرٌ لا فى مالٍ ولا فى رجال؛ وجزيرتهُ ذاتُ قحْط لا يَطُرُّ شاربهـا بزَرْع، ولا يَدِرُّ حالبُها بضَرْع؛ إلا أنها تُنبِت هـذه الشجرةَ فتُحْمَل منها وتُجْلَب، وتُرْسىٰ السفُنُ عليهـا بسببها وتُطْلَب؛ قال : وفى ملكها خدمةٌ لرُسُلنا إذا ركبُوا ثَبَج البحر، وتجهيزٌ لهم إلىٰ حيثُ أرادُوا، وتجيزٌ لهم إذا توجَّهُوا وإذا عادُوا. ورسم المكاتبة إليه علىٰ ما ذكره فى "التعريف" كالمكاتبة إلىٰ صاحب جزيرة رُودِس المتقدّمة الذكر آنِفًا وهى :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة الملك الجليل إلىٰ آخر ما تقدّم.

وهذه أدعية تليق به ذكرها فى "التعريف" دعاءٌ من ذلك، وفقّه اللهُ لطاعتِه، وأنْهضَه من الوَلاء بقَدْر طاقتِه.

آخـــر : أطاب اللهُ قلْبَه، وأدام إلينا قُرْبَه.

آخـــر : لا زالَ إلىٰ الطاعة يبُـادِر، وعلىٰ الخـدمةِ أنْهضَ قادِر، ومكانُه تُزَمُّ إليه ركائبُ السُّفُن بكل واردٍ وصادر.

التاسـعة — المكاتبةُ إلىٰ متملِّك قُبْرس. وإنما قيل له متملِّك قُبْرس لأنها كانت قد فتحها المسلمون، ثم تغلَّب عليها النصارىٰ وملَكُوها؛ فقيل لمن غلبَ عليها متملِّكٌ

ولم يُقَـلْ له مَلِك ؛ وذكر فى "التثقيف" عن القاضى ناصر الدين بن النَّشائى أن المكاتبة إليه [مثل] متملك سيس ولم يَزِد علىٰ ذلك ؛ وحينئذ فتكون المكاتبة إليه مثلَ ما آستقرّ عليه الحال فى المكاتبة إلىٰ متملِّك سيس فى قَطْع العادة :

صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ حضرة الملك ، الجليلِ ، المكَرَّم ، المبجَّل ، المعزَّز ، الهمام ، الباسل ، فلان ؛ عزِّ دين النصرانيـة ، كبيرِ الطائفة الصَّليبية ، عمـاد بنى المعْمُوديَّة ؛ صديق الملوك والسلاطين ؛ أدام الله نعمتَه ، وحرس مُهْجَتَه . وتعريفه « متملك قبرس » .

قال صاحب "التثقيف" : ولم أقِفْ علىٰ مكاتبة إليـه ابتداءً ولا جواباً سوىٰ ذٰلك ، إلا أنه كتب إليه عن الأمير الجاى اليُوسفى عند وقوع الصلح فى سنة آثنتين وستين وسبعمائة ، يعنى عند ما كان الجاى أتابك العساكر المنصورة .

العاشرة — المكاتبـة إلىٰ ملك مُونْفُراد . ذكر فى "التثقيف" أنه كان بهـا آبن ملك إصْطَنْبُول ، وأنه كتب إليه فى سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة :

أصـدرناها إلىٰ حضرة الملك الجليـل ، المكَرَّم ، البَطَل ، الهمام ، الأسَـد ، الضِّرْغام ، فلان ؛ مجد النَّصْرانية ، فخر العِيسَويّه ، عمـاد بنى المعمُوديّه ، جمـال الطائفتين الرومية والفَرَنْجيّـه ، ملك مُونْفُراد ، وارث التـاج ، مُعِزّ الباب ، ادام الله بَقَـاه ، وحَفِظه ووَقَاه ، وأورثه من ابيـه تَخْتَه وتَاجه ووَلَاه ؛ نتضمن إعلامه كذا وكذا . ثم قال : هـذا ماوجدتُه مسطورًا فى رسم المكاتبة المذكورة ، ولم يكْتَب إليه شىءٌ فى مدّة مباشرتى ، ولم أدْرِ ماتعريفه ، ولا فى أىّ قطع يكتب إليـه . قال : والذى يظهر أنه يكتب إليـه فى قَطْع العادة ، وأن يكون تعريفـه « ملك مونفراد » .

الحادية عشرة — المكاتبةُ إلىٰ صاحبة نابُل . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان ٱسم صاحبتها جُوانا، وأنه كُتِب إليها فى أواخر سنة ثلاثٍ وسبعين وسبعمائة ما صورته :

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الملكةِ، الجليلَةِ، المكَرَّمة، المبَجَّلة، الموقَّرة، المفَخَّمة، المعَزَّزة، فلانة ، العالمةِ فى مِلَّتها، العادلة فى مَمْلكتها، كبيرةِ دين النَّصْرانية ، نصيرةِ الأمّة العِيسَويه ، حاميةِ الثغور، صديقةِ الملوك والسلاطين . ثم الدعاء ؛ تتضمَّن إعلامها ، وتعريفُها « صاحبة نابُل » ولم يذكر قَطْع الورق لمكاتبتها ، ولا خَفاءَ أنه يكتب إليها فى قَطْع العادة لِصغَر مَقَامها .

قلت : فإنْ ولِىَ مملكتَها رجلٌ، فينبغى أن يكْتَب إليه بهذه المكاتبة علىٰ التذكير أو أعلىٰ من ذلك ، لمِيزَةِ الرجال علىٰ النساء . وهؤلاء جملةُ من تعرَّض إلىٰ مكاتبته فى "التعريف" و"التثقيف" من ملوك الكُفْر، فإن ٱتفقت المكاتبةُ إلىٰ أحد سِواهم فليُقَسْ علىٰ من هو مثلُه منهم . ثم قد ذكر فى "التثقيف" القنصل بكفا، وذكر أنها جارية فى حكم جَنَوةَ ، وأنه لم يكتب إليه شيءٌ عن المواقف الشريفة، ولا خفَاءَ فى ذلك، فإن مقام القُنْصُل دُونَ أن يكاتَبَ عن الأبواب السلطانية .

الفصـــل الخـامس

من البـاب الثـانى من المقـالة الرابعة

(فى الكتب الواردة على الأبواب الشريفةِ السلطانيــة بالديار المِصْرية؛
ممن جرت العادةُ بمكاتبتــه إليهـا من أهــل المملكة وغيرها من
سائر الممـالك المكاتَبةِ عن هذه المملكة؛ وهى نوعان)

النـــــوع الأوّل

(المكاتباتُ الواردةُ عن ملوك المسلمين ، وهى على قسمين)

القسم الأوّل ــ فى الكُتُب الواردة عن أهل هذه المملكة، بالديار المصرية ، والبلاد الشامية، ممن يؤهَّل للمكاتبةِ إلى الأبواب السلطانيــة، من النوّاب وغيرهم: من الأمراء، وأرباب الأقلام : من الوزراء، والعلمــاء ومَنْ فى معناهم ؛ وهم على ضربيــن :

الضــــرب الأوّل

(فى المُطالَعات الواردةِ عن أكابر أهل الدولة بالديار المِصْرية
والبلاد الشامية : من النوّاب ومَنْ فى معناهم)

قد جرتْ عادةُ من يكتُبُ إلى الأبواب السلطانيــة من أهل هذه المَرْتَبة ، أن يكتب جميعُهم كُتُبَهم فى قَطْع العادة ؛ فإن كان بالديار المصرية فمن الوَرَق البَلَدىّ ، وإن كان بالبلاد الشامية فمن الوَرَق الشامىّ ، وجميعُ ذلك فى الورقِ الأبيض، إلا نائبَ الشــام ونائبَ الكَرَك ، فإنهما قد جرتْ العادةُ فيهما بأنهما يكتُبان إلى الأبواب السلطانية فى الورق الأحمر الشامىّ، شيءٌ اختَصّابه دُونَ سائر أهل المملكة .

ثم قد ذكر فى "عرف التعريف" أن الملوك لا يُكْتَب إليهم إلا «يُقَبِّل الأرض» ويُنْهِى . ويُخْتَم الكتاب بما صورته : طالع المملوكُ بذلك وللآراء العالية مَزِيدُ العُلُوّ، أو أنهى المملوكُ ذلك وللآراء العالية مزيدُ العُلُوّ، والعنوان«المَلَكِىّ الفلانى»، مطالعة المملوك فلان » وحينئذ فالذى جرتْ به العـادةُ فى ذلك أن يبتدئ الكاتبُ فيكتب فِهْرِست الكتاب فى رأس الدَّرْج من جهةِ وجْهِه، فى عَرْض إصبع، فى الجانب الأيمن « إلى الأبوابِ الشريفة » وفى الجانب الأيسر «بسبب كذا وكذا» ثم يقلِبُ الدَّرْج ويكتُب فى ظاهره، بعد تَرْك ماكُتِب الفِهْرِستُ فى باطنه، العُنوانَ ؛ فيكتب : «المَلَكِىُّ الفلانى» فى أوّل العُنْوان، و «مطالَعَة المملوك فلان» فى آخره . ثم بعد ذلك يقلِبُ الدَّرْج، ويترك وَصْلا أبيضَ، ويكتُبُ البسملة فى رأس الوصل الثانى بعد خُلُوِّ هامشٍ من الجـانب الأيمن . ثم يكتُبُ تحت البسملة ملاصقًا لهـا ماصورتُه «المَلَكِىّ الفلانى» بحيث يكون آخر المَلَكِىّ الفلانى مسامتاً لجَلَالة البسملة، بلقب السلطان، كأنه يَنْسُب نفْسَه إلى سلطانه . ثم يكتب صورةَ المكاتبة على سَمْت البسملة فى سطرٍ ملاصقٍ للمَلَكِىّ الفلانى « يقبِّل الأرضَ ويُنْهِى كذا وكذا » فإن كان ٱبتداءً كتب ويُنْهِى أن الأمر كذا وكذا ، ويأتى بمقاصـد المكاتبة : فإن كانت فصـلا واحدا ذكره وختم الكتاب بآخر كلامه ؛ وإن كان الكتاب مشتملا على فُصُول أتى بالفصل الأوّل إلى آخره . ثم يخلِّى بياضا قدرَ خمسةِ أسطُر . ثم يسْرُد الفصولَ بعد ذلك فَصْلًا فصلًا : يُخَلِّى بين كل فصلين قدرَ خمسـة أسطر أيضا ، ويقول فى أوّل كل فصل «المملوكُ يُنْهِى كذا وكذا » وإذا أتى على ذكر السلطان ، قال : خلَّد الله سـلطانه ؛ أو خلَّد الله ظلَّه ؛ أو أتى على ذكر المرسوم الشريف ، قال : شرَّفه الله وعظَّمه ونحو ذلك ؛ وإذا سأل فى أمر ، قال : والمملوكُ يَعْرِض على الآراء الشريفة كذا وكذا ، أو إن ٱقتضت الآراءُ الشريفة كذا فلها مزيدُ العُلو، ولا يقال : يسْأَلُ

الصدقات الشريفة، إلا فى أمر جليـلٍ أو شيءٍ مُهِمٍّ ، والعَرْضُ أبلغُ فى الأدب ، ولا يَلَقِّب أحدا بالجناب والمجاس ومجلس الأمير، وإذا ذكر كبيرا فى الدولة كالنائب الكافل ، ونائب الشـام ، أو نائب حَلَب ؛ أو أمير كبـير . قال : إن مملوك مولانا السـلطان خلَّد الله ملكه الأميرَ فلان الدين فلان النـاصرى مثـلا ، كافل الممـالك الشريفة، أو نائب السلطنة الشريفـة بالمملكة الشامية المحروسـة، أو كافل المملكة الشامية المحروسة، أو نائب السلطنة الشريفة بحَلَب المحروسة، أو الأمير فلان الدين فلان الناصرى مثلًا، أو القاضى فلان الدين، أو ناظِرِ الجُيوش المنصورة بالأبواب الشريفة، وما يجرى هذا المجرىٰ؛ ولا يُدْعىٰ فى المطالعة لأحد . وإذا ٱنتهت الفصول إلىٰ آخرها، قال : وقد جَهَّز المملوكُ بمطالعته هــذه مملُوكَه فلانا السيْفِيَّ مثلا المـاثِلَ بها . وإن كان ثَمَّ مشافهة، قال : وقد حَمَّله مشافَهةً يسأل المَسامِعَ الشريفة سَمَاعها إن ٱقتضت ذلك، أو يُنْهِيها إلىٰ المسامع الشريفةِ إذا رُسِم له بإنهائها، طالع بذٰلك، أو أنهىٰ ذٰلك .

ثم قد جرت عادة النُّوّاب بالبلاد الشامية أن يُقَدِّموا فى صـدر المكاتبة ما ٱشتمل علىٰ أخبـار البلاد الشرقية من مملكة إيران المجاوِرة لأَواخِرِ هذه المملكة : من تجَدُّد أمر ، أو حركة عدُوّ، أو حكايةِ حالٍ مُهِمَّة من أحوال تلك البلاد ؛ مثل أن يقال فى أوّل المكاتبة، ويُنْهِى أنَّ قُصَّاده عادُوا من البلاد الشرقيـة مخبِرين بكذا وكذا ، ويشرح الحال التى أخبر بها قُصَّادُه .

وإن كان الخـبر نقلا عن نائبٍ من نُوَّاب الأطراف كالرُّهَا ونحوها ، قال : إن مطالعة نائب فلانة وردتْ بكذا وكذا ، ويذكر ما تضـمَّنته ملخَّصا ـ وإن كانت المطالعـةُ جواب مثـالٍ شريف ورد فقط ، قال : وينهى أن المرسومَ الشريفَ

شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه ورد علىٰ المملوك علىٰ يد فلانِ الدين فلان البَرِيدىّ بالأبواب الشريفة يتضَمَّن ما ٱقتضتْه المراسيمُ الشريفة ، أو ما ٱقتضَتْه الآراءُ الشريفة شَرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها : من كذا وكذا ، ويذكُرُ نصَّ المثالِ الشريفِ حرفًا حرفًا . ثم يقال : وتفهَّم المملوكُ ما رُسِم له به ، وقابل المراسيمَ الشريفةَ ـ زاده الله تعالىٰ شرَفَها ـ بتَكْرارِ تقبيل الأرض والآمتثال ، وتقدّم بكذا ، ان كان الأمر مما نفذ ، أو والذى ينهيه المملوك كذا وكذا إن كان الأمر قد توقَّف .

ثم إن كان النائب عظيمَ القَدْر كنائب السلطنة الشريفة بالشام أو حَلَبَ ، جعل بُعْدَ ما بين كل سطرين تقديرَ رأسِ إصبع ، وإن كان دُونَ ذلك جعل ما بينهما أقلَّ من ذلك حتّٰى ينتهى فى أقل الرتب إلىٰ ملاصقة السطور بعضِها ببعضٍ .

وإن كانت المطالعة فى أمرٍ مُهِمٍّ كآستقرار نائبٍ أو بشارةٍ بفتح أو نحو ذلك ، أتىٰ بجميع الكتاب مسَجَّعا وإلا فلا .

وهذه نسخةُ مطالعة عن نائب الشام ٱبتداءً .

يقبِّل الأرضَ ، ويُنْهِى أنه ورد علىٰ المملوك مكاتبةُ نائب السلطنة الشريفةِ بحَلَبَ المحروسة ، يذكر فيها أن قُصَّاده عادُوا من جهة بلاد الشرق ، وأخبروا أن العدُوَّ المخذُولَ فلانا قد خرج عليه عدوٌّ من ورائه وقصد بلاده فكَرَّ راجعا إليه بعد أن كان قاصدًا هذه الجهةَ ، وأحبَّ المملوكُ إحاطة الخواطرِ الشريفة بذلك .

المملوك يُنْهِى أنَّ مطالعة نائب الرَّحْبة المحروسة وردت علىٰ المملوك يخبر فيها أن فلانا التُّرْكُمانىَّ قد عاد إلىٰ الطاعة الشريفة ، ولاذَ بمَراحم الأبواب العالية ، وأنه ما كان حمله علىٰ ما وَقَع منه من عَدَم المقابلة إلا الخوفُ من السَّطَوات الشريفة ، وأنه يسأل كتابة أمانٍ شريفٍ له ولجماعته ومَنْ يليه بأن يكونوا آمِنين علىٰ أنفسهم ،

وأموالهم، وسائر ذات يَدِهم، وأنه إذا وصل إليه الأمان قصد الأبواب السلطانية، وتمثل بالمواقف الشريفة، وآمتثل ما تبرز به الأوامر المطاعةُ فى أمره وأمر جماعته. والمملوك ينظر ما يردُ به الجوابُ الشريف فى أمره لكاتبِ نائب الرَّحبة المحروسة بما يعتَمِده فى امره.

المملوكُ يُنْهِى أنه قد بلغ المملوكَ أنَّ البحر مشغولٌ بمراكب الفَرَنْج، ولم يعلم إلىٰ أىِّ مكان يقْصِدون، وقد أخذ المملوك فى الآحتراز علىٰ السواحل المذكورة بإقامة المركَّزين، وأمَرَهم بالآحتراز والآحتفاظ، وقد عرض المملوكُ ذٰلك علىٰ الآراء العالية ليكونَ ذٰلك علىٰ الخواطر الشريفة، ويكاتِب به النوّابَ بالبلاد المجاورة للبحر.

المملوك يُنْهِى أن الأمير فلانا الفلانىَّ : أحد أمراء الطبلخاناه بدِمَشْقَ المحروسةِ قد تُوُفِّى إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، والمملوك يسأل الصَّدقات الشريفةَ فى آستقرار إمْرته بآسم مملوكِ مولانا السلطان عز نصره، ولد المملوك فلان، إعانةً له علىٰ الخدمة الشريفة، وجَبْرا لخاطر المملوك، فإن حَسُن ذٰلك بالآراء الشريفة، وإلا فالرأى العالى مَزِيدُ العلُوّ.

المملوكُ يُنْهِى أن الأمير فلان الدين فلانا : أمير حاجب بالشام المحروس، كان قد برزَتِ المراسيمُ الشريفةُ باستقراره فى نيابة صَفَدَ المحروسة، وقد توجَّه إلىٰ محلِّ نيابَتِه، والمملوك يَعْرِضُ علىٰ الآراء الشريفة إنْ حَسُن بالرأى الشريف أن يستقِرَّ فى الوظيفة المذكورة الأميرُ فلان الدين فلان : أحدُ الأمراء الطبلخاناه بدمشق المحروسة، فإنه كُفْءٌ لذٰلك، أو يستقرّ من تبرُز به الآراءُ الشريفة.

المملوك ينهى أن فلانا : أحد رجال الحَلْقة المنصورة بدِمَشْقَ المحروسة، قد دَرَج بالوَفَاة، وقد كتب المملوكُ مربَّعةً باسم فلان الدين فلانٍ باستقراره علىٰ إقطاعه، وجَهَّزها إلىٰ الأبواب الشريفة لتُعْرضَ علىٰ الآراء العالية، فإنْ حَسُن بالرأى الشريف

إمضاؤُها وإلا فيستقرّ علىٰ إقطاعه مَنْ تبرُزُ المراسيمُ الشريفةُ باستقراره، وقد جَهَّز المملوك هذه المطالعةَ علىٰ يدِ مملوكه فلان إلىٰ الأبواب الشريفة .

طالع بذلك، إن شاء الله تعالىٰ ثم يكمل .

وهــذه نسخة مطالعةٍ عن نائب الشام أيضا ، فى جواب مكاتبةٍ شريفةٍ وردتْ عليـــه وهى :

يقبِّل الأرض ويُنْهِى أن المرسوم الشريفَ ـ شرَّفه الله تعالىٰ وعَظَّمه ـ ورَدَ علىٰ المملوك علىٰ يدِ فلانِ الدين فلان البريدىّ ، بالأبواب الشريفة ، يتضمَّن أنَّ المرسوم الشريفَ ٱقتضىٰ الٱجتهادَ والٱهتمام فى حِفْظ السواحل والموَانِى ، وإقامة الأَيْزاك والأبدال فىأوقاتها علىٰ العادة، وإلزام أربابها بمواظبتها؛ وإلزام المنوِّرين بالدَّيْدَبَانات والمَناظر والمَناور فى الأماكن المعروفة ، وتعهُّد أحوالها وتفَقُّدها ، وتقويم أحوالها بحيث تُقومُ أحوالُهــا علىٰ أحسن العوائد وأكملها؛ ولا يقعُ علىٰ أحدٍ دَرَك بسببها . وأنَّ المملوك يتقدّم باعتماد ماٱقتضاه المرسومُ الشريفُ من ذٰلك مع مُضاعفةِ الٱحتفال بذٰلك والمُبادرةِ إليه . فوقف المملوكُ علىٰ المرسوم الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه، وتَفَهَّم مارُسِم له به، وقابل المراسِيمَ الشريفةَ زاد الله تعالىٰ شَرفَها بالٱمتثال؛ وتقدّم باعتمادِ ما ٱقتضَــتْه المراسيمُ الشريفة من ذٰلك ، وأخذَ فى حِفْظ السواحلِ والمَوانِى ، وإقامة الأيزاك والأبدال، وإلزام أربابها بمواظَبتِها، وإلزام المنوِّريــن بالدَّيْدَبَانات والمناظر [فقامت الأحوال] علىٰ أحسن العوائد ، وجرتْ علىٰ أكملِ القَواعِد ، ولم يُكُنْ عند المملوك غفْلةٌ عما هو بصَدَده من ذلك ؛ وقد أعاد المملوكُ فلانَ الدين فلاناً البريدى المذكورَبهذه المطالعة : ليحصُل الوقوفُ عليها . طالع بذلك ... ...

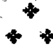

وهذه نسخة مطالعـة تشتمل علىٰ ٱبتداءٍ وجواب : يقبّـل الأرض وينهى أنه قد حضر رسولٌ من القـانِ فلانٍ بالمملكة الفُلَانية [وقصـدُه التوجه] إلىٰ الأبواب الشريفة، والمملوكُ يَعْرِض علىٰ الآراء العالية أمْرَه، فإن أذِنَ له فى التوجُّه إلىٰ أبوابه الشريفة، جَهَّزه المملوك إليها علىٰ العادة .

المملوك يُنْهِى أن المرسوم الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه ورد علىٰ المملـوك على يَد فلان الدِّينِ فلان المُسَـفَّر من الأبواب الشريفـة ، يتضَمَّن طَلَب فلانٍ الفلانىّ ، وحمْلَه إلىٰ الأبواب الشريفة محتَفَظًا به ، فبادر المملوكُ ما برزَتْ به المراسيمُ الشريفةُ بالٱمتثال ، وتقدّم بطلب فلانٍ المذكور وسَلَّمه إلىٰ فلان الدين المسَـفَّر المذكور ، وبعث معه من يحتَفِظ به فى الطريق إلىٰ حينِ وصولِه إلىٰ الأبواب الشريفة .

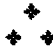

صورة وضع المطالعة من نوّاب السلطنة ومن فى معناهم ، إلى الأبواب الشريفة

الجانب الأيمن	الطـــرة	الجانب الأيسر
إلى الأبواب الشريفة		بسبب كذا

العنوان

الملكى الفلانى	مطالعة المملوك فلان

الصـــــدر

بسم الله الرحمن الرحيم

الملكى الظـاهرى مثلا

يقبل الأرض وينهى أن المرسوم الشريف شرَّفه الله تعـالىٰ وعظَّمه ، ورد علىٰ المملوك، علىٰ يد فلان الدين فلان البريدى، ويكمل عليه إلىٰ آخره .

الضـــــرب الثـانى

(من المطالعات الواردة إلى الأبواب السلطانية عن أهل المملكة)

المطالعات الواردة من الوُلَاة ومن في معناهم (١) .

(١) بيض له فى الأصل بقدر صفحة

القسم الثانى — فى الكتب الواردة على الأبواب السلطانية، عن أهل الممالك الإسـلامية المكاتبةِ عن هـذه المملكة . وحالهـا مختلِفٌ باختـلاف حال مصْطَلَح أهل البلاد وحالِ المكتوبِ عنه فى رِفْعة القَدْر . وفائدةُ معرفة ذلك أنه إذا عَرَفَ الكاتبُ مصطَلَح كلِّ مملكة فى الكتابة ، ظهر له ما هو واردٌ عن مَلِكها حقيقةً وما هو مفتعَل عليه ، ولا يخفى ما فى ذلك من كبير الفائدةِ ، وعظيم النَّفْع ، وآرتفاعِ قَدْر الكاتب عند مَلِكه بإظهار الزَّيْف بمَحَكِّ المعرِفة .

ومن غريب ماوقع فى هذا المعنى أنه وردَ رسولٌ من الشرق، فى الأيام الظاهرية الشهيديَّة بَرْقُوق سقى الله تعالى عهده ، وأظهر لأهـل الطُّرُقات أنه رسولٌ من عند طقتمش صـاحب بلاد أزْبَك، ورُفِعتْ بِطاقَتُـه بالقلعة المحروسـة بذلك ؛ فأمر السلطانُ النائبَ الكافلَ وأكابر الأمراء بالخُروج لمُلاقاته على القُرْب من القاهرة، فخرجوا وتلقَّوْه بالتعظـيم ، على أنه رسـولُ طقتمش خان المقـدّم ذِكرُه ؛ وأُنْزِل بالمَيْدان الكبير تعظيماً لأمره؛ فلمـا عُرِض كتابُهُ نظر فيه المَقرّ البدرىُّ بنُ فضـل الله، تغمَّده الله تعالى برحمته، وهو يومئذٍ صاحب دِيوان الإنشاء الشريف، فوجده غيرَ جارٍ على مصطَلَح كتب القانات فى الورق والكِتابة؛ فاستُفْسِر الرسولُ المذكورُ عن ذلك ونُوقِشَ فى قضيته؛ فأخبر أنه عن الحاكم بالقِرِم من أتْباع طقْتُمش خان، فأنكر عليـه ذلك ، وحَطَّ رُتْبته عند السلطان وأهلِ دولته عمـا كان عليـه ، وعَلَا بذلك مقـدار المقرّ البـدرىّ بن فضـل الله المشار إليه عنـد السلطان ، وشَكَرله ما كان من ذلك .

ويشتمل على أربعة مقاصد :

المقصـــــد الأوّل

(فى الكتب الواردة عن أهل الشرق؛ وفيه أطراف)

الطـــــرف الأوّل

(الكتبُ الواردةُ عن القانات العِظام من بنى جَنْكِزخان؛ ولهـا حالان)

الحال الأولىٰ — ما كان الأمر عليه قَبْلَ دُخُولهم فى دين الإسلام .

وكان الأمر يجْرِى فى كتابتهـم مَجْرىٰ المُخَاشنة ، والتصريح بالعَدَاوة ، ولم أَقِفْ علىٰ مقادير قَطْع ورق كُتُبهم يومَئذٍ ولا ترتيبِ كتابتها .

وهذه نسخة كتابٍ كتَب به هُولاكُو بن طوجِى، بن جَنْكِزخان، المنتزِع العِراقَ من أَيْدِى الخلفاء العباسيين . كتب به إلىٰ الملك المظفَّر قُطُز فى سنة ثمـان وخمسين وسبعمائة، وهو :

من ملِك الملوك شَرْقًا وغَرْبا القانِ الأعظم :

بٱسمك اللهمَّ باسطَ الأرض ورافِعَ السماء .

يعلم الملِك المظفَّر قُطُز الذى هو من جنس الممـاليك الذين هَرَبُوا من سُيُوفنا إلىٰ هذا الإقليم يتمتعون بأنعامه، و يقتلون من كان سلطانه بعد ذلك .

يعلم الملك المظفَّر وسائرُ أمراءِ دولتـه وأهلِ مملكته بالديار المصرية وما حَوْلَهـا من الأعمـال ، أننا جُنْدُ الله فى أرضـه ، خَلَقنا من سَخَطه ، وسلَّطنا علىٰ مَنْ أَحَلَّ عليه غضَـبَه ، فسلِّموا إلينا أُمورَكم تَسْلَمُوا ، قبـل أن ينْكشِفَ الغِطاءُ فتنْدَموا ، وقد عرفتُمْ أنَّا خَرَّبنا البِلاد ، وقتَلْنا العباد ، فلكم منَّا الهَرَب ، ولنا خَلْفَكم الطَّلَب ؛

فما لكم من سُيُوفنا خَلَاص : خُيولُنا سَوَابق، وسُيوفُنا قوَاطِع، وقلُوبُنا كالجبال، وعدَدُنا كالرِّمال ، ومَنْ طلَبَ حَرْبَنا نَدِم، ومَنْ قصــد أمانَنَا سَلِم ؛ فإنْ أنتم لشَرْطنا وأوامِرِنا أطعتم فلَكُم مالنا ، وعليْكم ماعلينا ؛ فقد أعْذَر مَنْ أنْذَر . وقد ثبت عندكم أنَّا كَفره، وثبَتَ عندنا أنكُمُ الفَجَره، فأسْرِعُوا إلينا بالجواب قبلَ أن تُضْرِم الحربُ نارَها ، وتَرْميكم بشَرارِها ، فلا يَبْقىٰ لكم جاهٌ ولا عِزّ ، ولا يعصِمُكم مِنّا جَبَــل ولا حِرْز، فما بقِيَ لنا مقْصِد سِوَاكم ، والســلامُ علينا وعليكم ، وعلىٰ مَنِ ٱتَّبع الهدىٰ ، وخشِيَ عواقِبَ الرَّدىٰ، وأطاع الملِكَ الأعلىٰ .

الحال الثانية — ماكان الأمرُ عليه بعدَ دُخُولهم فى دين الإسلام معَ قِيام العَدَاوة بين الدولتيـــن .

وكان عادتهم فى الكتابة أن يُكْتَب بعد البسملة « بقوّة الله تعـالىٰ » ثم يُكْتَب بعد ذلك «بإقبال قان فَرَمان فلان» يعنى كلام فلان .

ولهم فى ذلك طريقتـــان .

إحداهمـا — أن يُكْتَب بسم الله ســطرا ، ويُكْتَب « الرحمن الرحيم » سطرا تحتها، ويكتب « بقوّة الله » سَطْرا « وتعالىٰ » سطرا آخر تحته ؛ ثم يكتب تحت ذلك فى الوسط بهامش من الجانبين « بإقبالِ قان » سطرا ، وتحته « فَرَمان فلان » باسم السلطان المكتوب عنه سطرا آخر .

والطريقة الثانية — أن تُكتَب البسملةُ جميعُها سطرًا واحدًا، ثم يكتب تحت وَسَطِ البسملة « بقوّة الله تعـالى » سطرا « ومَيَامِينِ المِلَّة المحمَّدية » سطرا آخَر ؛ ثم يكتب تحت ذلك سطر آخر بزيادة يسيرة من الجانبين « فَرَمان السلطان فلان » يعنى كلام السلطان فلان .

ولم أقِفْ علىٰ قَطْع الورق الذى كُتِب فيــه حينئذ ، والظاهرُ أنه فى البَغْدادِىّ الكامل تعظيمًا لشأن المكتوب عنه عندهم . وبالجملة فإنّ الظاهر أنّ الكتبَ الواردةَ عنهم علىٰ نَمَطِ الكتب الواردة من هــذه المملكة إليهــم ، جَرْيا علىٰ قاعدة كُتَّاب هــذه المملكة من أنَّ الغالب مضاهاتُهــم لأكابر الملوك فى كتبهم فى الهيئة والترتيب شَرْقا وغَرْبا .

وهذه نسخةُ كتاب علىٰ الطريقة الأُولىٰ ، ورد عن السلطان « أحمد » صاحب مملكة إيران ، من بنى هُولَاكُو المقدّم ذكره ؛ وهو أوّلُ من أسلم منهم ، كتب به إلىٰ الملك المنصور « قلاوون » صاحبِ الديار المصرية ، تغمّده اللهُ تعالىٰ بِرِضْوانه ؛ ورد مؤرَّخا بأوسط جُمَادىٰ الأولىٰ سنة إحدىٰ وثمــانين وستمائة ، ورأيت فى بعض الدساتير أنه من إنشاء الفَخْر بن عيسىٰ المَوْصلىّ ، وورد بخطه وهو :

بسم الله — بقوّة الله

الرحمن الرحيم — تعالىٰ

بإقبال قاان .

فرمان أحمد .

إلىٰ سلطان مصر؛ أما بعدُ ، فإنَّ الله سبحانه وتعالىٰ بسابق عِنَايته ، ونُور هِدَايته ، قد كان أرشدَنَا فى عُنْفُوان الصِّبا ، ورَيْعان الحَدَاثة ، إلىٰ الإقرار برُبُوبيَّته ، والاعتراف بوَحْدَانيَّته ، والشهادة لمحمد ، عليه أفضل الصلاة والسلام ، بِصِدْق نُبُوّته ، وحُسْن الاعتقاد فى أوليائه الصالحين من عباده وبَرِيَّته ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ للإسلام﴾ فلم نزَلْ نميلُ إلىٰ إعلاء كلمة الدين ، وإصلاح أمور الإسلامِ والمسلمين ، إلىٰ أنْ أفضىٰ إلينا بعدَ أبِينا الجليل ، وأخِينا الكبير ، نَوْبةُ المُلْك ، فأضفىٰ علينا من

جَلَابِيبِ أَلْطافه ولَطَائفه ، ماحَقَّق به آمالَنَـا فى جَزِيل آلَائِهِ وعَوَارفه ، وجَلّى هذه المملكةَ علينا، وأهدىٰ عَقِيلَتَها إلينا، فاجتمع عندَنا فى قُورِيلْيَان المبارك ــ وهو المجتمع الذى تُقْدَحُ فيه الآراءُ ــ جميعُ الإخوان والأَوْلاد والأمراء الكبار، ومقدّمو العساكر، وزعماءُ البلاد، وآتّفقتْ كلمتُهم علىٰ تنفيذ ماسبَقَ به حُكْم أخينا الكبير، فى إنفاذ الجمّ الغفير، من عساكرنا التى ضاقَتْ الأرض برُحْبها من كَثْرتِها، وآمتلأت الأرضُ رُعْبا من عظيم صَوْلتها، وشَدِيد بَطْشتها، إلىٰ تلك الجهة بهمةٍ تخضع لهـا صُمُّ الأطواد؛ وعزمةٍ تلين لها الصُّمُّ الصِّلاد، ففكَّرنا فيما تمخَّضت زُبدُ عزائمهم عنه، وآجتمعت أهواؤُهم عليه، فوجدناه مخالفا لما كان فى ضميرنا من آقتفاء الخير العامّ، الذى هو عبارة عن تَقْوِية شِعَار الإسلام، وأن لايصْدُرَ عن أوامرنا ما أمكننا إلَّا مايُوجِب حَقْنَ الدِّماء، وتسكِينَ الدَّهْمَـاء، وتَجْرِى به فى الأقطار، رُخَاءُ نَسائِم الأمْن والأَمَان، ويستريحُ به المسلمونَ فى سائر الأمصار، فى مِهَاد الشَّفَقة والإحسان، تعظيماً لأمْرِ الله، وشفَقةً علىٰ خَلْق الله ، فألهمَنَا الله تعالى إطفاءَ تلك النائره ، وتسكينَ الفتَن الثائره، وإعلامَ مَنْ أشار بذلك الرأْى بما أرشَدَنا الله إليه : من تقديم مايُرْجىٰ به شفاءُ مِزَاج ١ العالَم من الأدواء، وتأخيرِ ما يجبُ أن يكونَ آخِرَ الدواء ، وأننـا لا نحبُّ المسارَعةَ إلىٰ هزِّ النِّصال للنِّضَال إلا بعدَ إيضاح المَحجَّه، ولا نُبادِرُ لهـا إلا بعد تَبْيين الحق وتركِيبِ الحُجَّه، وقوّىٰ عَزْمَنا علىٰ مارأيناه من دَوَاعى الصَّلاح، وتنفيذِ ماظهر لنا به وجْهُ النَّجاح، إذ كان، الشيخُ قدوةُ العارفين «كمال الدين عبد الرحمن» الذى هو نِعمَ العونُ لنا فى أمور الدين، فأرسَلْناه رحمةً من الله لمن [لبّىٰ] دُعَاه، ونِقْمةً علىٰ مَنْ أعرَضَ عنه وعَصَاه ، وأنفَذْنا أقضىٰ القُضاة قطبَ الملة والدِّين ، والأتابكَ بهـاءَ الدين، اللَّذَيْنِ هما من ثِقاتِ هذه الدولةِ الزاهرةِ ليُعرِّفُوهم طرِيقَتَنَا، ويتحقَّقَ عِنْدهم ماتَنْطوى عليه لعُمُوم المسلمين جميـلُ نِيَّتِنا ، وبيَّنَّا لهم أنَّا من الله تعالىٰ علىٰ بصيرة ، وأنَّ الإسلامَ

يجُبُّ ماقبـله ، وأنه تعالىٰ ألقىٰ فى قلوبِنا أنْ نَتّبع الحقَّ وأهـلَه ، ونُشاهِدَ أنَّ عظيم نعمة الله للكافَّة بمـا دعانا إليه من تقديم أسباب الإحسان ، أنْ لا يُحْرَمُوها بالنظر إلىٰ سائر الأحوال فكُلَّ يوم هُوَ فى شَان ؛ فإنْ تطلّعتْ نفوسُهم إلىٰ دليـلٍ تستحْكِمُ بسَبَبه دَواعِى الأعْتِماد، وحُجّـةٍ يثِقُون بها من بُلُوغ المُرَاد؛ فلينظُروا إلىٰ ما ظَهَر من أمْرِنا ممـا آشتَهَر خـبَرُه ، وعَمّ أثَرُه ، فإنا آبتـدَأْنا بتوفِيقِ اللهِ بإعْلاء أعْلامِ الدِّين وإظْهاره ، فى إيرادِ كلِّ أمْرٍ وإصْـداره ، تقديمًـا لنَامُوسِ الشرعِ المحمَّدِىّ ، علىٰ مقتضىٰ قانُون العَـدْل الأحْمَدِىّ ، إجلالًا وتعظيمًا ؛ وأدخَلْنا السرور ، علىٰ قلوب الجُمْهُور،وعفَوْنا عن كل من اجْتَرَح سيِّئةً وآقترف، وقابلْناه بالصَّفْح وقُلْنا عفَا اللهُ عمّا سَلَفْ ؛وتقدّمنا بإصلاح أمورِ أوقافِ المسلمين من المَساجد والمَشَاهد والمَدَارس، وعِمارةِ بِقاعِ الدِّين والرُّبُطِ الدَّوارس ؛ وإيصالِ حاصلها بمُوجِـبِ عوائدها القائمة إلىٰ مستحَقِّيها بشُروط واقِفِيها؛ ومنَعْنا أن يُلتَمَس شىءٌ مما آستُحْدِث عليها؛ وأنْ لا يغيِّر أحدٌ شَيْئا ممـا قُرِّر أوّلا ؛ وأمرْنا بتعظيم أمرِ الحُجّاج وتجهيزِ وَفْدِها، وتأمين سُبُلِها ، وتسْيِيرِ قَوافِلِها ؛ وإنَّا أطلَقْنا سبِيلَ التّجّار المتردّدينَ إلىٰ تلكَ البلادِ ليُسافِرُوا بحسَبِ آختيـارهم علىٰ أحْسنِ قَواعِدِهم ؛ وحَرَّمْنـا علىٰ العساكر والقَراغُولاتِ والشَّحانِى فى الأطراف التَّعَرُّضَ لهم فى مَصَادرهم ومَوارِدِهم ، وقد كان قَراغُول صادفَ جاسُوسا فى زِىِّ الفُقَراء كان سبِيلُه أن يُهْلَك ، فلم نُهرِقْ دَمَه : لحُرْمة ماحَرَّمه الله تعالىٰ وأعدْناه إليهم . ولا يخفىٰ عنهـم ما كان فى إنفاذ الجَوَاسيس من الضرر العامِّ للمسلمين ، فإنّ عساكِرَنا طالمَـا رأَوْهم فى زِىِّ الفقراء والنُّسّاك وأهـلِ الصَّلاح، فساءتْ ظُنُونُهـم فى تلك الطَّوائف ، فقتَلُوا منهم مَنْ قتـلوا ، وفَعَلُوا بهم مافعَلُوا ، وآرتفعتِ الحاجةُ بحمد الله إلىٰ ذلك بما صدر إذْنُنَا بِهِ من فَتْح الطريق وتَردُّد التُّجّار، فإذا أمعنُوا الفِكْر فى هـذه الأُمُور وأمثالهـا لا يخفىٰ عنهم أنها أخلاقٌ جِبِلّيّة طِبيعيّـه، وعن شوائب

التَّكلُّف والتصَنُّع عَرِيَّه . وإذا كانت الحال علىٰ ذلك فقد آرتفعتْ دَواعِى المَضَرَّة التى كانت مُوجِبَة للمخالفة ، فإنها إن كانتْ طريقًا للذَّبّ والذود عن حَوْزة الإسلام ، فقد ظهر بفضل الله تعالىٰ فى دَوْلتنا النُّورُ المبِين ، وإن كانتْ لما سَبَق من الأسباب ، فَمَنْ يتحرّىٰ الآنَ طريقَ الصَّواب ، فإنَّ له عِنْـدنا لَزُلْفىٰ وحُسْنَ مآب . وقد رفَعْنا الحجاب ، وأتَيْنا بفَصْل الخِطاب ، وعرَّفناهم [طريقتنا و]مَا عزمنا بِنيَّةٍ خالصةٍ لله تعالىٰ علىٰ آستِئْنافها ، وحَرَّمْنـا علىٰ جميع العساكر العملَ بخِلافها ، لنُرْضِىَ اللهَ والرسُول ، ويلُوحَ علىٰ صَـفَحاتها آثارُ الإقبالِ والقَبُول ، وتَسـتريحَ من آختلاف الكلمة هـذه الأمَّة ، وتَنْجلِى بنُور الآئتِلاف ، ظُلمةُ الآختلاف ، والغُمَّه ، ويَشْكُر سابِغَ ظِلّهـا البَوادى والحَواضِر ، وتقرّ القلوبُ التى بلَغتْ من الجهل الحَناجر . ويُعفىٰ عن سالف الجرائر ، فإن وفَّق الله سلطانَ مصر إلىٰ ما فيه صلاحُ العالَم ، وآنتظامُ أمور بنى آدَمَ ، فقد وجب عليه التَّمسكُ بالعُروة الوُثْقىٰ ، وسُلوكُ الطريقة المُثْلىٰ ، بفتْح أبوابِ الطاعة والآتِّحاد ، وبَذْل الإخلاص بحيثُ تعمُرَ تلكَ الممـالك وتِيك البلاد ، وتَسْكُنَ الفِتنةُ الثائِره ، وتُغْمَدُ السُّـيوفُ البـاتِره ، وتَحُلُّ العامَّةُ أرضَ الهُوَيْنىٰ وروضَ الهُدُون ، وتخلُصُ رِقابُ المسلمين من أغلال الذُّلّ والهُون . وإن غلب سُوءُ الظن بما تفضَّل به واهبُ الرحمه ، ومنَع معرفةَ هـذه النعمه ، فقـد شكرَ اللهُ مساعِيَنا وأبلىٰ عُذْرنا ، ﴿وما كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولا﴾ واللهُ تعالىٰ الموفِّق للرَّشاد والسَّداد ، وهو المُهيْمِن علىٰ البِلاد والعِباد ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهـذه نسخةُ كتابٍ علىٰ الطريقة الثانية ، كُتِب به عن السلطان « محمود غازان » صاحبِ إيران أيضا ، إلىٰ السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » صاحب الديار المصريَّة وما معها من البلاد الشامية ، وهى :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقُوّة الله تعـالىٰ

ومَيامين المِلّة المحمَّدية

فرمان السـلطان محمود غازان

ليَعلَمِ السلطانُ الملكُ الناصر، أنه فى العام الماضِى، بعضُ عساكرهم المُفْسِدة دخَلُوا أطرافَ بلادِنا، وأفسدُوا فيها لعِناد الله وعِنـادِنا، كمارِدِينَ ونَواحِيها، وجاهَرُوا اللهَ بالمعـاصى فيمَنْ ظَفِروا به من أهليهـا، وأقْدَمُوا علىٰ أمورٍ بَديعـه، وآرتكبوا آثامًا شَنيعه، من مُحاربةِ الله وخَرْق ناموس الشَّريعه، فأَنِفْنا من تهجُّمِهم، وغِرْنا من تَقحُّمِهم، وأخذَتْنا الحَمِيَّـة الإسلاميةُ لجذبَتْنا إلىٰ دُخول بلادهم، ومقابلتِهم علىٰ فَسادهم، فركِبْنا بمن كان لدَيْنـا من العساكر، وتوجَّهْنا بمنِ اتّفق منهم أنَّه حاضر، وقبل وُقُوع الفِعل منا، وآشتهارِ الفَتْك عنا، سلَكْنا سَنَن سيِّد المرسلين، وآقتفَيْنا آثارَ المتقدِّمين، وآقتدينا بقول الله ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلىٰ اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل ﴾ وأنفَذْنا صُحْبَةَ يعقوبَ السكرجى جمـاعةً من القُضاة، والأئمة الثِّقات، وقلنا ﴿ هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولىٰ أَزِفَتِ الآزِفَةُ لَيْسَ لَهَـا مِنْ دُونِ اللهِ كاشِفَةٌ ﴾ فقابلتم ذٰلك بالإِصرار، وحكَمْتم عليكم وعلىٰ المسلمين بالإضْرار، وخالفتُم سَـنَنَ الملوك، فى حُسْن السُّلوك، وصبرْنا علىٰ تمـادِيكم فى غَيِّكم، وخُلودِكم إلىٰ بَغْيِكم، إلىٰ أنْ نصَرَنا الله، وأراكم فى أنْفِسكم قضاه ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ ﴾ وظَنَّنا أنهم حيثُ تحقَّقُوا كُنْهَ الحال، وآل بهم الأمْرُ إلىٰ ما آل، أنهم تداركُوا الفارِطَ من أمْرِهم، ورتَقُوا مافتقُوا بغَدْرهم، ووُجِّه إلينا وجهُ عُذْرهم، فإنهم ربمـا سَيَّروا إلينا حالَ دُخُولهم إلىٰ الدِّيار المصريه، رُسُلا لإصلاح تلك القَضيه، فبقِينا بدِمَشْقَ غير متحشِّين، وتَثَبَّطْنا تَثَبُّطَ المتمكِّنين، فصدَّهم عن السعْى فى صَلَاح حالهم التَّوانِى، وعَلَّقُوا نُفوسَهم عن اليقين

بالأَمانِى، ثم بلَغَنا بعد عَوْدِنا إلىٰ بلادنا أنهم ألقَوْا فى قلوب العساكر والعَوَامّ، وراموا جَبْرَ ما أوْهَنُوا من الإسلام ، أنهم فيما بَعْـد يلْقُوننا علىٰ حَلَبَ والفُراه، وأنَّ عزْمَهم مُصِرٌّ علىٰ ذلك لاسِواه؛ بجَمَعْنا العساكر وتوجهْنا لِلقَاهم ، ووصَلْنا الفُرات مرتقِبِين ثُبوتَ دَعْواهم، وقلنا لعلَّ وعَسَاهم ، فمـا لَمَع لهم بارِق، ولا ذَرّ شارِق، فقدِمْنا إلىٰ أطرافِ حَلَب، وعجِبْنا من تبَطِّيهم غايةَ العَجَب؛ وفكَّرنا فى أنه متىٰ تقدّمْنا بعساكرنا الباهِره، وجموعِنا العظيمةِ القاهِره، رُبَّمـا أخربَ البلادَ مرورُها، وبإقامتهم فيها فسدَتْ أمورُها، وعمّ الضررُ العِباد، والخرابُ البِلاد؛ فعُدْنا بُقْيَا عليها، ونَظْرةَ لُطْف من الله إليها . وهـا نحنُ الآنَ مهتمُّون بجمع العساكر المنصوره، ومُشْحِذُون[1] غِرارَ عزائمنا المشْهُوره ، ومشْـتَغلُون بصُنْع المَجَانِيق وآلاتِ الحِصَار ، وعازمُون بعـد الإنذار ﴿ وما كُنَّا مُعَـذِّبِينَ حَتّٰى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ . وقد سيَّرنا حامِلَىْ هـذا الكتاب الأميرَ الكبيرَ ناصرَ الدين على خواجَا ، والإمامَ العالمَ ملِكَ القُضاة جمال الدين موسىٰ آبن يوسف ، وقد حَمَّلناهما كلاما شافهناهما به ، فلْتثِقوا بمـا تقدّمنا به إليهما فإنهما من الأعيـان ، المعتمد عليهـما فى الديوان ، كما قال الله تعالىٰ ﴿ فَلِلّٰهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ فَلَوْ شاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِين ﴾ فلْتعُدُّوا لنا الهدَايَا والتُّحَف ، فمـا بعد الإنذار من عاذِر ، وإنلم تتداركوا الأرض فدماء المسلمين وأموالُهم مطْلولةٌ بتدبيرهم، ومطلوبةٌ عند الله فى طُول تقصيرهم .

فليُمْعِن السلطان لرعِيّته النظرَ فى أمره . فقد قال صلىّ الله عليه وسلم « مَنْ وَلَّاه اللهُ أمْرًا من أُمُور هـذه الأُمَّة فاحتَجَبَ دُونَ حاجتِهم وخَلَّتِهـم ، آحتَجَبَ دُونَ حاجَته وخَلَّته وفَقْره» . وقد أعْذَر من أنْذَر، وأنصفَ من حَذَّر، والسلامُ علىٰ من

(١) شحذ السكين كمنع حدّها كأشحذها أنظر القاموس .

أتّبع الهدىٰ ـ فى العشر الأوسط (١) من شهر رمضان سـنة سبعمائة ـ بجبال الأكراد، والحمدُ لله ربّ العالمين، والصّلاةُ والسـلامُ علىٰ سيدنا [محمد] المصطفىٰ وآله وصَحْبه وعِتْرته الطاهرين .

قلت : وقد تقدّم جواب هذين الكتابين فى الكلام علىٰ المكاتبات إلىٰ القاناتِ ببلاد الشّرْق من بَنِي جَنْكِزخان فليُنْظَرْ هناك .

الطـــــــرف الثـانى

(فى المطالعات الواردة إلىٰ الأبواب السلطانية عن أهل الشرق :
من الملوك والحُكّام بالبلاد أتباعِ القانات ومَنْ فى معناهم) (٢)

---

(١) تقدم له أنه لا يقال العشر الاوسـط بل العشر الوسطى أو الوسـط قال وبعض النحو يين أجازه فـا فى الجواب على ذلك الرأى .

(٢) ترك فى الأصل باقى الصفحة بياضا ولم يكتب عن هذا الطرف شيئا .

الطـــرف الثـالث

(فى رسم المكاتبات الواردة عن صاحب اليَمَن إلىٰ هذه المملكة)

وعادةُ مكاتبتِه أن يحْـذُوَ حَذْوَ الديار المصرية ، فيما يُكْتَب إليـه عنها ، فيبتَدِئ المكاتبةَ بلفظ : أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقام الشريف، العالى، المولوىّ، السلطانى، الفلانى بلقب السلطنة؛ ثم يقول أصدرها من مكان كذا ، ويذكر المقْصَد، ويختم بالدعاء ونحوه، ويكتبون فى قَطْع الشامىّ الكامل بقلم الثلُث .

وهذه نسخة كتابٍ عن الملك الأشْرَف « إسمـاعيل » صاحب اليمن ، إلىٰ الملك الظاهر « برقوق» صاحب الديار المصرية، فى شهور سنة ثمـانٍ وتسعين وسبعمائة، علىٰ يَدِ القاضى بُرْهان الدين المحـلِّى ، تاجر الخـاص ، والطواشى آفتخار الدين فاخر دَوَادار الملك الأشرف صاحب اليمن المذكور، وهو :

أعَزَّ الله تعـالىٰ أنصارَ المَقَامِ الشريف العالى السـلطانى الظاهرىّ ، وزاده فى البَسْطة والقُدْرة، وضاعف له مَوادَّ الآستظهار والنَّظَر العزيز، وجعل الظَّفَر مقرونا براياته أيْنَمَا يمَّمتْ ما بينهـما تمْييز، ومحبوباً إلىٰ عساكره المنصورةِ حيثُ توجَّهَت وفَتَح ببركة أيَّامــه كلَّ مُقْفَل ممتنِع بأمرٍ وَجيز؛ ولا زال ممْتَثَلَ الأوامر والمَراسِم ، رافِلًا فى أرْدان العِزِّ والمَكَارم، ممْدُودًا علىٰ الأمة [منه] ظلُّ المراحم، بمنِّه وكرمه .

أصدرها إليه من زُبْدة زَبِيــدَ المحروسةِ مُعْرِبةً عن صِدْق وَلَائه، متمسِّكةً بوَثِيق أسبابِ آلائِه، ناشرةً طِيبَ ثَنَـائه، مترْجِمةً ناظمةً لمنثورِ الكتابِ الكريم الظاهرىّ الوارِدِ علىٰ يد المجلس العـالى البُرْهانِىّ ، بتاريخ ذى الحِجَّة عظَّم الله بَرَكاتِهـا، سنة سبع وتسعين وسبعمائة ، أحسنَ الله خاتِمتَها ؛ فتلقَّيناه باليدَيْن ، ووضَعْناه علىٰ الرأس والعين، وآستَدْلَلْنا به علىٰ شريف همَّته، وصفاء مَوَدّته، وتأكيد أُخُوَّته، وسألْنا الله

تعالىٰ أن يمتعنا ببقاء دَوْلته القاهِره، ويَنْشُرَ فى المَشارق والمَغارب أقلامَهُ الزاهِره؛ ففَضَضْنا خِتامَه، فوجَدْنا فيه من نَشر السِّلْم الأرِيج أذْكاه، ومن أنْوار ما مَجَّه القلمُ الشريفُ ما يَخْجَل منه نُوّارُ الربيع وبَهَاه، فانشرحَتْ به الصُّدور، وتزايَدَ به السُّرور، وقَرّتْ به الأعْيُن، وكَثُر التهجد به لَمَّا استعْذَبتْه الألْسُن؛ وآمتثلنا المرسومَ الشريفَ فى تعظيم المجلِس العالِى ذى الجَلالتين؛ بُرْهانِ الدِّين إبراهيم بن عمَر المَحَلِّى، ومُراعاتِه فى جميع أموره وسُرْعة تجهيزه؛ علىٰ أنا نُجِلُّه ونُبَجِّله، ونُوجِب حقَّه ولا نجهَلُه، فهو عِنْدنا كما كان فى عَهْد الوالد المرحوم الملِكِ الأفضل، بل أمْكَنُ وأفضَل، فهو لدَيْنا المَكين الأَمين؛ وجَهَّزنا له المَتْجَر السعيدَ الظاهرىّ، وبرزتْ مَراسِيمُنا إلىٰ النُّوَّاب بثَغر عَدَنَ المحروس أن لا يُعترَض فى عُشُور ونَوْل، وحَملناه علىٰ ظُهور مَرا كبنا عَزيزا مُكَرَّما، وعَرَّفناه أن لا يصرفَ علىٰ الحِمْل السعيد ولا الدِّرْهَمَ الفَرْد، وذٰلك قليلٌ مِنّا لأجْل غِلْمانِ بابكم الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه؛ وجَهَّزنا الهديَّةَ السعيدةَ المباركةَ المتقبَّلَة، صُحْبَته هو والأمير الأجلُّ الكبير الآفتخارى : آفتخار الدين فاخِر الدَّوادَار، وصارتْ بأيديهما بأوراقٍ مفصَّلةٍ، للمقام الشريف والأُمَراء الأجِلَّاء الكُبَراء، وصُحْبَتهما نَفَر من المعلِّمين البازْدارِيَّة، برَسْم حَمْل الطيور للصيد السعيد، والمِهْتاريَّة للصافِنات الجِيَاد . علىٰ أنَّا لو أهديْنا إلىٰ جَلال المقـام الشريف الظاهرىّ أعزَّ الله أنصاره بِمِقْدار هِمَّته الشريفة العاليه، ورُتْبته المُنِيفة الساميَه، لآستصْغرت الأفلاكُ الدائره، والشُّهب السائره، وآستقلَّت السبعةُ الأقاليم تُحَفه، والأرضُ وما أقلَّتْه طُرْفه، ولم نَرْضَ أن نَبْعثَ إليه الأنامَ مماليكَ وخَوَلا، ونَجْبِيَ إليه ثمراتِ كلِّ شىءٍ قُبُلا، ولو رام محِبُّ المقام هـذه القضية، لقَصُر عنه حَوْلُه، ولم يَصِل إليه طَوْلُه، ولكنه يرجِع إلىٰ المشهور، بين الجُمْهُور، فوجَدْنا العمل يقومُ مقام الآعتِقاد (١)، وليس علىٰ المستمِرّ

(١) لعله "الآعتقاد يقوم مقام العمل" أو "العمل يقوم مقامه الآعتقاد" تأمل .

علىٰ الطاعة سِوىٰ الاجتهـاد ، والمخْلِص فى الوَلَاء محمولٌ علىٰ قُدْرته لا علىٰ ما أراد ؛ فوثِق بهذه القضِيَّه ، وأنفذَ إلىٰ المقام الشريف علىٰ يَدِ مُوصِّلها هـذه الهدِيّه ، راغبًا إلىٰ إنعامه فى بَسْط عُذْره ، وحَمْله علىٰ شُروط المحبّـة طُولَ دهره ، وتصريفـه بيْنَ أوامره الممتَثَله ، ومَرَاسيمه المتقبَّله . والمسئولُ الإتحاف بالمهمّات والمراسيم الشريفة شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها .

ونوضِّح لعلمه الكريم ما أفاء اللهُ به علينا من النَّصْر الذى خفَقَتْ بُنُوده ، وأشرقَتْ سُعُوده ، وبَرَقَتْ سُيوفُه فى رقاب المارقين ، وٱطَّردت فى راياته المآربُ فتناولَها باليمين ﴿ نَصْرٌ من اللهِ وفَتْحٌ قَرِيبٌ و بَشِّرِ المُؤْمِنِين ﴾ وفَتْح القِلَاع والمَصَانع ، والاستيلاءِ علىٰ المَرَابِـع والمَزَارِع ، وٱستئصالِنَا شأْفَةَ المارقين ، وٱسترْجاع حِصْن قاف المحروس بعد طُول مُكْثه تحتَ يَدِ العرب ، فكم من كمِيٍّ مقْتول ، وأَسيرٍ مَكْبُول ، وحَصَانٍ تُرِك سبيلُها ، وربِّ حَصَانٍ كثُرَعليه عوِيلُها ، نخرَّبْنا المَعَاقل ، وأطلَقْنا العقائِل ، وأوْطَنَّاهم الجحيم ﴿ وما جَعَلَه اللهُ إلَّا بُشْرىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكم بِهِ وما النَّصْرُ إلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيم ﴾ وغيرُ ذلك ما أرسَـلْنا علىٰ يد المجلس البرهانى والأمير ٱفتخار الدين : فاخرِ الدَّوادار ، لقَضَاء بعضِ الحَوَائج الطارِئة من الديار المصرية « ألفٌ وأربُعمِائة وسبعُون قِطعةً من أصـناف البَهَار ، وسبْعُ قِطَع حرير » والمستَمَدُّ من إحسان المقام الشريف العالى ، بُرُوزُ أمره الأشرفِ العزيزِ النافذ المُطَاع ، أنفذه الله تعالىٰ شَرْقا وغربا ، وأمضاه بُعْدًا وقُرْبا ، فى قضاء حوائجِهما وسُرْعة تجهيزهما وقُفُولهما إلىٰ يُمْن اليَمَن ، وعِزِّ تَعِزّ قريبا .

وبعـدُ ، فإنَّ الجـلالةَ والاحترام بهـما دوامُ المُوالاة ، وتوفير الحُرُمات ، بل هى أعظمُ الكَرامات ، والمسئول من المقـام الشريف الظاهرىّ أعز الله تعـالىٰ أنصاره ، وضاعفَ ٱقتِدَاره ، بُرُوزُ أمره الأشرف إلىٰ النُّوَّاب بمصر المحروسـة ،

وثغر الإسكندرية ، والشام، بالجلالةِ والاحترام ، لكافَّة غلمـاننا الواردين إلىٰ الديار المصريَّة، ومن انتسب إلينا من تاجرٍ وغيره، مسافرًا كان أو مقيمًا، وأن يُعار في مُهـمَّاته ، جلالةً تفيأُ ظلالها ، ويشـمله إقبالها ، كما سـبق للوالد المرحوم المقدّس الملك المجاهد، تغشّاه الله برحمته، بل نرجُو فوقَ ذلك مَظْهَرا، إن شاء الله، فثَمَّ خُطوط ناصريَّة من السلطان حسن والملك الصالح لخُـدَّامنا القدماء ، لمَّا أُرْسلوا إلىٰ الإسكندرية ودِمَشْق ، كُتِب لهم مربَّعاتٌ ومثالاتٌ شريفة، ولا غَرْوَ أن يُبْدِى المستعْطى مافى ضَميره إلىٰ المُعْطِى ، والاشتهارُ بما بيننا و بين المقام الشريف من الأُخوَّة الممهَّـده ، والمصافاة المؤكَّده ، والمَودّات المُحْكَمَة ، والأسباب الثابتـة ، أوجب ذلك، وحُسْنُ الظنِّ الجميـل نطَقَ به لسانُ الحال، فىهذا الاسترسال، ولم يَخْفَ عن المقام الشريف أنَّ لِله عَوَارِفَ يجذِبُ بها القلوبَ إليـه، ولطائفَ خفيَّةً يستَدِلُّ بها المحبُّ عليه ؛ وتعاطِى كأْس الوِدَاد ، يدُلُّ علىٰ حُسْن الاعتقاد ؛ ولذلك نطَقَ اللِّسان، وكتب البنَان ، بمـا افترض علىٰ عبادِه الرحمن ؛ فقـال فى محكم كتابه المبين ﴿ وَلِلهِ عَلَىٰ النَّـاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فإنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِين ﴾ . ومحبُّ المقام الشريف يقدِّم الكتّاب ، ويسأل الجوابَ ، بالإذْن الشريف : ليعتَمِدَ بعدَ الله عليه فى حَجِّ البيت الحرام، عند تَيْسِير الله تعالىٰ لذلك ، فقد حَسَّن ظنَّه بذلك ، وركَن إليه لقضاء الفَرْض والتبرُّك بالمَشَاعِر العِظام ، فلا زالتْ أيَّام المقام الشريف علىٰ مَنَابر الدنيا تُتْلىٰ ، وآياتُ الشكر لله سبحانَهُ علىٰ استقراره فى المُلْكِ العَقِيم تُمْلىٰ . جميعُ هذا الخطاب مقدِّمةُ الإيجاب بالإذْن بالحج ، وتسفيرِ المَحْمَل فى كل عام، إلىٰ بيت الله الحرام، فحاجُّ اليمن تعذرتْ عليه الطُّرُقات، ولم يُطِق حَمْلَ النَّفَقات ، ونرجُو من الله تعالىٰ أن يفتَحَ ببركة أيامه الشريفـة ، وشُمُول الفكر الشريف، بحَلِّ عُقْدة هذه الأسباب، إنه هو الكريمُ الوَهَّاب، بمنِّه وكرمه .

واما ما نعتقـده من أمانة المجلس البرهانىّ فإنهـا مَتِينه ، وشواهِـدُها من أقواله وأفعاله مُبِينه ، خصوصًا فى المقام الشريف ، وآستمـالَتِه للقلوب بالعبارات اللطيفة ؛ فقد نَظَم مَعاقِدَ الآئتلاف ، وتزايد بشَرْحِه الأُنْسُ فى محـاورته والآختِلاف ؛ ولولا المُهِمُّ الشريف لاستوْقَفْناه عندنا عامًا كاملا من بعد هذا التاريخ : يُمْلِيَ علينا آياتِ المقام الشريف ، شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه . وعلىٰ لسانه مايُبْدِيه فى المَوَاقف الشريفة شِفَاها إن شاء الله تعالىٰ .

فى سابع جمادىٰ الآخرة سنَةَ ثمـانٍ وتسعين وسبعمائة ، أحسن الله تعالىٰ ختامَها ، والحمدُ لله أوّلا وآخرا ، وباطِنًا وظاهِرا .

قلت : أما إمامُ الزيدية باليمن فلم أَقِفْ له علىٰ مكاتَبـة ، وإن كان المقرّ الشهابىُّ آبن فضـل الله قد أشار فى كتابه "التعريف" إلىٰ أنه ورد عنه مكاتَبَةٌ إلىٰ الأبواب السـلطانية الناصرية (محمد بن قلاوون) يستجيشُه علىٰ صاحب اليمن ، والغالبُ علىٰ الظنِّ أنّ مكاتبتـه أعْرابية ، كما أن إمارته أعرابِيَّة : إذ لا آعْتِنَاء لأهـل البادية وعُرْبان الوادى بفَنِّ الإنشاء جملةً ؛ وإنمـا يكتَبُ عنهم بحسَبِ مايقتضيه حالُهم ، علىٰ أن فيما يأتون به مَقْنَعا من الفصاحة والبَلاغةِ بكل حال ، إذ عنهم قد عُلِم اللسان وعليهم فيه يُعَوّل .

الطـــرف الرابع

(فى الكتب الواردة إلىٰ الأبواب السلطانية عن ملوك الهند)

قد تقدّم أن المكاتبة إلىٰ صاحب الهند تُشْبِه المكاتبةَ إلىٰ القانات العِظَام بإيرانَ وتُورانَ . وتقدّم أن الكُتُبَ الواردةَ عن القانات المذكورين تكون فى معنىٰ الكُتُب الصادرة إليهـم فى قَطْع الورق والترتيب ، من حيثُ إن الغالبَ جَرَيانُ العادة

فى الأجوبة بأن تكونَ علىٰ نَمَط الكتُب الواردة ، وحينئـذ فيكون مقتضىٰ ذلك أن الكتُب الواردة من صـاحب الهنـد فى هيئـةِ الكُتب الصادرة إليـه فى قطع الورق وغيره ، فتكون فى البَغْدادىّ الكامل بقلم مختَصَر الطُّومار بالطُّغراء والخطبـة المكتَتَبتيـن بالذهب ، إلىٰ ما يجرِى مَجْرَى ذلك ممـا تقدّم ذكره فى المكاتبات إلىٰ القانات .

قلت : ولم أقِفْ علىٰ صورة مكاتبةٍ من ذلك ولا علىٰ نسخةِ شىء ورد، لكن قد تقدّم فى الكلام علىٰ المسالك والممـالك فى المقالة الثانية عند ذكر مملكة الهند أن من جملة مَمَـالك الهند مملكةً تُعْرَف بالسَّيلان، وقد رأيتُ فى تذكرة (محمد بن مكَرَّم) التى جَمَعها فى وقائع ديوان الإنشاء بالديار المصرية؛ أنه فى سنة آثنتين وثمـانين وستمائة، وصـل كتابٌ من صاحب السَّيَلان هـذه فى صَفيحة ذهب رقيقةٍ ، عَرْض ثلاثة أصابع ؛ فى طُول نِصْـف ذراع ، وحولَه مدوّرة (حَلقة) داخلَها شبيهٌ بالخُوص أخضَرُ، عليـه كتابة تُشْبِه الخط الرومىَّ أو القِبْطىّ ، فطُلِب من يقرؤه فلم يُوجَد ؛ فسُئِل الرسُل عما هو مكتوب فيها . فقيل : إنه سَيَّر رسولَه رومانَ ورفيقَه، وقصَد أن يسـيِّر معهما الهدِيَّةَ إلىٰ الباب الشريف، فقيل له : مالهم طريقٌ . فقال لهم : سافروا إلىٰ (هُرْمُز) لحضروا إليها، وذكروا أنَّ مضمون الكتاب السـلامُ، والدعاء للسلطان، وأنَّ بلادَ السَّيَلان مِصْرٌ ، وبلادَ مِصْرَ السَّيَلان؛ وأنه ترك صحبةَ صاحب اليمن مَرَّةً واحدةً، وتعلق بمحبـة مولانا السـلطان خلَّد الله ملكه ؛ وسأل أن يَحْضُر رسولٌ من عند مولانا السلطان إلىٰ عنده صحبَةَ رُسُله ، ورسولٌ آخَرُ إلىٰ عدَنَ ينتظر حضورَهم من تلك الجهة علىٰ تلك الطريق، وأن عنـده الجواهِرَ واللَّآلِئَ والفِيَـلَةَ والقُمَاش الكثيرَ من البَزِّ وغيره، وكذلك البَقَّم والقِرْفة وجميعَ ما يطلُب الكارِم؛ وأن عنده فى كل سـنة عشرينَ مَرْكبا يسيِّرها إليـه ، فيُطْلق مولانا السلطان التُّجّارَ إلىٰ

البلاد ، وأن رسول صاحب اليمن حضر فى هــذه السنة يتسلم التَّقادِمَ والفِيلَةَ حتّٰى يسافروا إلىٰ اليمن فردّه، ولم يُعْطِه شيئا، وأنه يُعبِّي التَّقادِمَ والفيلةَ إلىٰ أبواب مولانا السلطان ، وأنَّ بمملكة سَيلَان سبعًا وعشرين قلعةً ، وبها معادنُ الجَوْهر والياقوت ومَغَاص اللؤلؤ . ولم يزد علىٰ ذلك . ورأيت فى كتاب "الذيل" علىٰ تاريخ ٱبن الأثير نحو ذلك، وفيه ذكر البلاد التى مرّت عليها رسلُ صاحب السَّيلان فى طُرُقها .

المقصـــــد الثـانى

(فى المكاتبات الواردةِ عن ملُوك الغَرْب)

والعادةُ الجاريةُ فى الكتب الواردة عنهم أن تكونَ علىٰ نَمَط واحدٍ فى الورق، مع تقارُبِ الحال فى الترتيب، وتكونُ كُتُبهم فى طُومارٍ واحدٍ، فى عَرْض نحو شِبْرين، فى طُول نحو ثلاثةِ أشبار، والبسملةُ بعد بياضٍ نَحوِ شبر وثلاثةِ أصابعَ مطبوقة من أعلىٰ الطُّومار، وعَرْض سبعة أصابع مطبوقة عن يمين البسملة؛ والسُّطور منحَطَّةُ الأوائل مرتفعةُ الأواخر حتّٰى يصيرَ البياضُ الذى فى أعلاها فى آخر سَطْرِ البسملة قدرَ شِبْر فقط، وبين كلِّ سطرينِ قدرُ عَرْض إصبع ونِصْـف إصبع؛ وكلُّ سطر ينقص عن الذى فوقه قليـلاً من جهة اليمين علىٰ التدريج ، حتّٰى يكون السطرُ الآخِر قطعةً لطيفة فى زاوية الطُّومار التى علىٰ اليسار من أسفلُ؛ ثم يكتب بحاشية الطُّومار من أسفله آخذا من آخر السطر الأخير، ويكون بين ذلك وبين الكتابة الأصلية قدرُ رأس خِنْصَر، ويبتدئ السطرَ الأول منها بِقِطْعةٍ لطيفةٍ منحَطَّةِ الأوَلِ مرتفعةِ الآخِر ثم السطر الثانى قطعــةٌ أطولُ من ذلك، ولا يزال كذلك حتّٰى يكمل السطر فيكتُب أسطرا كاملةً، إلا أنه فى أوّل كلِّ سطر ينقصه قليلًا عن الذى قبله حتّٰى يكونَ السطرُ

الأخير قدر الأُنْمُلة فى زاوية الطومار من جهة البسملة ؛ ويكون بين كتابة الأصل وبين كتابة الحاشية قدرُ إصبعين بياضًا إلىٰ سَمْت البسملة ، أسطرًا متضايقةً حتّٰى ينتهِيَ إلىٰ آخر الكلام ؛ ويكتب فى آخره بقلم الثلث : وكتب فى التاريخ المؤرّخ، ويزاد فيه هاء مشقوقة راجعة إلىٰ الخلف . وفيه جمل :

الجملة الأولىٰ

(فى المكاتبة الواردة عن صاحب تُونُس)

وعادة مكاتبته أن تُفتَتَح بلفظ : «من عبدالله الفلانى» بلقب الخلافة الخاصّ به ، «أمير المؤمنين ٱبن فلان» . ويقال : فى كل من آبائه أمير المؤمنين إن كان قد وَلِيَ الخلافةَ ويُدْعىٰ له « إلىٰ أخينا فلان » ويُؤْتىٰ بالسلام والتحية ؛ ثم يتخلص بالبَعْدِيَّة إلىٰ المقصد ، ويختم الكتاب .

وهذه نسخةُ كتاب عن المتوكل علىٰ الله أحمدَ بنِ أبى عبدالله بن أبى بكر ، إلىٰ السلطان الملكِ الظاهر (برقوق) صاحب مصر ، جوابًا عن كتابه إليه . وهو :

من عبدِ الله ، المتوكلِ علىٰ الله ، أمير المؤمنين « أحمدَ » ٱبنِ مولانا الأمير أبى عبد الله ، ابن مولانا أمير المؤمنين أبى يحيىٰ أبى بَكْر ، ٱبن الأُمَراء الراشدين ؛ أعلىٰ اللهُ به كلمة الإسلام ، وضاعفَ نَوَافِلَ سيْفِه من عَبَدة الأصنام ، وغَضَّ عن جانب عِزِّه عُيونَ حوادث الأيّام .

إلىٰ أخينا الذى لم نَزَلْ نُشاهِدُ من إخائِه الكريم ، فى ذات الرَّبِّ الرحيم ، قِبْلَة صفاءٍ لم تُغَيِّرها يَدُ بِعادٍ ولا ٱنتِزاح ، ونُثابِر من حِفْظ عهده ، والقيام بحقِّ وُدِّه ، علىٰ ما يؤكِّد معرفةَ الخُلُوص من لَدُن تعارُفِ الأرْواح ؛ ونُبادِر لما يبعَثُ القلوبَ علىٰ الإئْتلاف ، والأَمْن بفضل الله من عوائق الإخْتِلاف ؛ وإن شَحَطت الدارُ وتناءَتِ

الصُّور والأشْباح . ونَعْترِفُ بما له من مَزِيدِ الإعظام، بمجاورة البيتِ الحَرَام، والقِيامِ بما هُنَا لك من مَطَالِـع الوَحْيِ الكريم ومَشَاعِرِ الصَّلاح، ونجتَلِي من أنوائه الكريمةِ الشريفه، ومَطَالِعِه العاليةِ المُنيفه، وجُوهَ البشائر رائقةَ الغُرَرِ والأوْضاح . ونَسْتَهْدِى مايسُرُّنا من أنبائه، ممَّن يَرِدُ من تِلْقائه، حتّى من أنوار الصَّباح وسُفَراء الرِّياح؛ ونَبْتهِلُ إلىٰ الله بالدعاء أن يُخْبِرنا عنه، ويُطْلِعنا منه، علىٰ مايُقِرُّ عيونَ الفَوْز ويشْرَحُ صدُورَ النجاح - السلطانِ الجليلِ الطاهر، الملكِ الأعظم «الظاهر»، جمالِ الدين والدنيا، مؤيِّدِ كلمة الله العُلْيا، سيفِ المِلَّة المرهوبِ المَضَاء، بيد القضاء، ورُكْنِها الباسقِ العَلَاء، فى أَوْجِ عِزِّها المُنْداحِ للفضاء، المشهودِ له من لَدُنْ حلِّ التمائم، ولَوْثِ العمائم، بالشَّهامة التى تُرْعِبُ الأُسْدَ فى أَجَمِها، وتستَخْدم له سائرَ الأمم: تُرْكها وعَرَبِها وعَجَمِها؛ المختارِ للقيام بحقِّه بين عباده، فى أرضه وبلاده، الفائزِ من جِوَار بيتِ الله ومَقَامِ خليله، ومَشْرَعِ الحجيج إليه وتيسيرِ سَبِيله، بما أحْرَزَ له سعادةَ الدارين، وعِزَّ المقامَيْنِ؛ كَوْكبِ السعد الذى شقِيَتْ به أعداؤُه، وبدرِ الدين الذى استضاءَتْ به أنحاؤُه، ميزانِ العدلِ لإنصاف الحقوق، وشمسِ الهداية النيِّرة الغُروب والشُّروق؛ (أبى سعيد برقوق) وصل الله له رتبةً راقيةً يتبوَّأ محَلَّها، ونعمةً باقيةً يتفيأ ظلَّها، وعِزَّةً واقيةً تَسِم وُجوهَ أعدائه خَسْفَها وذُلَّها، بمنِّه وكرمه .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد حمدِ الله ناظمِ الشَّمل وقد رابَ نَثْرُه وشَتاتُه، وجابرِ الصَّدْع وقد اتسعَتْ عن الجَبْرِ جِهاتُه، ورادِّ الأمر وقد أعْيَا ذَهابُه وفَواتُه، وواصلِ الحبل وقد استولىٰ انْقِطاعُه وانْبِتاتُه، العالِم الذى لايَعْزُب عنه مثقالُ ذَرّة مما تُكِنُّه أرضُه وسَمٰواتُه، الذى قَرَن بالعُسْر يُسْرا، وجعل لكل شىءٍ قَدْرا، فلا تتحرّكُ ذَرَّةٌ إلا بإذنه ولا يكون فى مُلْكِه إلا ماتُنَفِّذه أحكامُه وإراداتُه .

والصلاةِ والسلامِ الأكملين ، على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذى صدَعتْ بالحق آياتُه ، وقامتْ بحُجَّة دَعْواه مُعْجِزاتُه ، ونطقَتْ بأنه رسولُ الله على لسان وحيه الصادقِ الأمينِ كلماتُه ، المبعوثِ بالمِلَّة السَّمْحة ، ومن أزكاها حَجُّ بيت الله المقدَّسةِ أركانُه وحُجُراتُه ، المعظَّمةِ عند الله حُرُماتُه ، المَغْفُورةِ لمن سبقَتْ له الحُسنىٰ بحجِّه سَيِّئاتُه ، وعلىٰ آله وأصحابه الذين قَضَوْا رضِىَ الله عنهم وهم أولياءُ دِينه الكريمِ ووُلاتُه ، وأنصارُ حزبِهِ المُفْلِح وحُماتُه ، ولُيُوثُ دِفَاعه فى صدور الأعداء وكُماتُه . والرضا عن الإمام المهدىّ القائم بهذه الدعوة الموحِّديَّة قِيامَ من خَلَصتْ لله نِيَّاتُه ، وصدَقَتْ فى ذاته دَعَواتُه ، وصَمَّمت لإظهار دينِه القويم عَزَماتُه ؛ وصِلَةِ الدعاء لهذا المَقَام الأحمدىِّ المتوكِّلِ الفاروقِىِّ ، بنَصْرٍ تمضِى به فى صُدور أعدائه شَبَاتُه ، وعزٍّ يطَّرِدُ به استقلالُه وثَباتُه ، وسَعْدٍ تطيبُ به أيامُه المتصلةُ وأوقاتُه ، وتطول به حَيَاتُه .

فإننا كتبنا لسُلْطانكم ـ كتبَ الله لكم من إسعاده مايتكَفَّل بعِزِّه ونَصْره ، ويتضمَّن إطالَةَ زَمَنه المبارَكِ وعَصْره ، ويقوم بحِفْظ قُطره الشريف ومِصْره ـ من حَضْرتنا العلية "تُونُس" كَلأَها اللهُ تعالىٰ ، ووُجوهُ نصرِ الله العزيز لدَيْنا وَضَّاحةُ الأَسِرَّة متبَلِّجة الصُّوَر ، وآياتُ فتحه المبينِ ولله المِنَّةُ مُحْكَمَة السُّوَر ، وأحاديثُ الشُّكْر على نعمه سبحانه مُسَلْسَلةُ الخبَر ، وَبِشْرُنا بما مَنّ اللهُ به عليكم قد عَمِل بمقتضاه مَنْ تحت إيَالتِنا(١) الكريمةِ من البَشَر . وإلىٰ هذا فمُوجبه إليكم بعد تقريبِ حُبٍّ شُرِعت فى ملَّة الوفاء قواعِدُه ، وقُبِل فى عَقْد الصَّفاء شاهِدُه ، واستقَلَّ بصلة الخُلُوص عائِدُه ، وثبتَ فى مَرْسوم الصَّداقة الصادقةِ زائِدُه ؛ إعلامُكُم أنَّا علِمَ اللهُ من حِينَ اتَّصل بنا خبرُكُمُ الذى جَرَّه القَدَر المقدُور ، وجرىٰ به فى أُمِّ الكتاب الحُكْمُ المَسْطُور ، لم نزل نتوجَّه إلىٰ

(١) مراده من تحت حكمنا وسياستنا .

الله تعالىٰ فى مَظَانِّ قُبول الدّعاء، ورَفْع النِّداء، بأن يجبرُكم بفضله من حيثُ صَدَع، ويصلَكُمْ بخيره إثْرَماقَطَع، ويُعطِيَكم من نعمتـه أضعافَ مامَنع، إلىٰ أن داركَ اللهُ بلُطْفه وأجاب، وتَأَذَّن بفضـله فى قَبُول الدعاء بظَهْر الغيبِ وهو مُستَجَاب، فردَّ عليكم مُلْككُم، وصَرف إليكم مِلْككم، فأخذ القوْسَ باريها، وفوّق السهمَ مُقرْطِسُها وراميها، وأنفذ القَضايَا حَكَمُها ومُفْتِيها، وإذا كان العَويلُ يُفْضِى إلىٰ النَّجْده، والبِلَا يَقْضِى بالجِدّه، والفرجُ يدُافع فى صَدْر الشِّدّه، فلا جرمَ غفرَ اللهُ للأَيَّام ما ٱقترفَتْ، لمَّا أنابَتْ وٱعترفَتْ، وهل هو إلا التمحيصُ الإلٰهِىُّ أراكم الله من باطن الضَّرَّاء سَرَّاءَكم، وأجزل من جانبِ الغَمَّاء(١) نَعْماءكم، والتِّبْر بعد السَّبْك يروُق النواظِرَ خُلَاصةُ نُضَاره، والبدرُ بعد السِّرار تتألّق أشِعَّةُ أنوارِه .

ولما جاءنا بنَصْركم البَشِير، وطلَع من ثَنِيَّة الهَنَاء بأَكْمام السُّرور إلينا يُشِير، هززْنا له أعطافَ الأِرْتياح، وتلقَّينا منه واردَ التَّهانِى والأَفْراح، وحَمِدْنا اللهَ لكم علىٰ مامَنّ به من الفَوْز والنَّجاح، ورأينا أنَّ تهنِئَتكُمْ به من فُروضِـنا المؤكَّده، وعُهودِنا المجدَّده، وأنه لايقومُ به عنَّا هُنالِكم، ويؤدِّى مايجبُ منه بين يدَىْ كُرْسىِّ جلالِكم، إلا مَنْ له من ديارِ المُلُوك، قربُ الأدَبِ والسُّلوك، فاقتضىٰ نظرُنا الجميلُ أنْ عيَّنا له شيخَ دولتنا المستَشَار، وعَلَمَها الذى فى مُهِمَّاتها إليه يُشَار، فلان .

وقد كان منذُ أعوام يتطارَحُ علينا فى أن نُخَلِّىَ للحجِّ سبِيلَه، ونُبَلِّغَه من ذلك مأْمُولَه، ويَدُ الضِّنَّة لاتسمَحُ به طَرْفةَ عين، ونفسُ الأغتباط لا تُجِيب فيه دَواعِىَ البَيْن، إلىٰ أن تعيَّن من تهنِئَتكم الكريمةِ ماعيَّنَه، وسَهَّل شأنَه علينا وهَوَّنه، فوجَّهناه واللهُ تعالىٰ يُسْعِد وِجْهَته، ويجعَلُ حَجَّته لقَبُول الأعمـال حُجَّتَه . وحمَّلناه من أمانة الحُبِّ مايَأْتِى إليكم، ومن حديث الشَّوْق ما يقُصُّ أخبارَه عليكم، ومن طَيِّب الثَّناءِ مايفُضُّ خِتامَه

---

(١) الغم والغماء والغمة الكرب والشدّة . أنظر القاموس .

بين يديكم، وأصحبناه برسم إصطبلاتكم الشريفة مايسّر الحبُّ سبيلها ، وأوضح الخلوص دليلها ، ورجونا من فضلكم على نزارتها قبولها ، إذ لو كانت الملوك تهادى على قدر جلالها ، لما اتّسعت لذلك خزائن أموالها ، لكنّها عنوان الحبّ السليم ، حسب ما اقتضاه الحديث النبوىّ الكريم .

وفى أثناء شروعنا فى ذلك، وسلوكنا منه أيمن المسالك، وصل إلينا كتابكم الكريم، تعرف النواظر فى وجوه بشائره نضرة النّعيم ؛ فاطّلعنا منه على ما راق العيون وصفا ونعتا، وعبر للخلوص سبيلا لا ترى القلوب فيها عوجا ولا أمتا ؛ ولله هو من كتاب كتب من البيان كتائب ، واستأثر بفلك الإجادة فأحرز به سعادة الكاتب ، فقسما بالقلم وما سطّر! والحبر وما حبّر! لو رآه عبد الحميد لتركه غير حميد، أو بصر به لبيد لأعاده فى مقام بليد، ولو قصّ على قسّ إياد فصاحته لنزّله عن منبر خطابته بعكاظ، أو سحب على سحبان وائل ذيل بلاغته لأراه كيف يتولّد السّحر الحلال بين المعانى الرائقة والألفاظ .

ولما استقرينا من فحواه ، وخطابه الكريم ونجواه، تشوّقكم لأخبار جهادنا ، وسروركم بما يسنّيه الله من ذلك ببلادنا ، رأينا أن نتحف أسماعكم منه بما قرّت به أعين الإسلام، وأثلج صدور اللّيالى والأيّام . وذلك أنّا من حين صدر من عدوّ الملّة فى الجزيرة ماصدر ، حسب ماجرّه محتوم القدر ، لم نزل نبيح لأساطيلنا المنصورة حرمه وحماه ، ونطرق طروق الغارة الشّعواء بلاده وقراه ، ونكتسح بأيدى الاستلاب ماجمعت بها يداه ، إلى أن ذاقوا من ذلك وبال أمرهم ، وتعرّفوا عاقبة مكرهم .

وكان من جزائرهم المعترضة شجا فى حلوق الخطّار ، ومتجشّمى الأخطار ، وركّاب البحار : من الحجّاج والتّجّار ، جزيرة "غودش" وبها من أعداء الله جمّ كثير، وجمع

كبِير، فأرْسَلْنا عليهم من أُسْطولنا المنصور غِرْبانا نعَقَتْ عليهم بالمَنُون ، وعَرَّفتِ المسلمين بركَةَ هـذا الطائرِ المَيْمُون، وشَحَنَّاها عَدَدًا وعُدَدا، وآستَمْدَدْنا لهـا من الله ملائكةَ سمائهِ مَـدَدا ، فسارتْ تحت أجْنِحة النَّجاح إليها ، وتحُوم إلىٰ أنْ رَمتْ مَخالِبَ مَرَاسيها عليها؛ فلمـا نَزلُوا بساحتها ، وكَبَّرُوا تكبيرةَ الإسلام لإباحتها، بُهِت الذى كَفَر، ووَدَّ الفِرارَ والحَيْنُ يناديه أيْنَ المَفَرّ؛ فلمَّـا قضىٰ السيفُ منهم أوْطَارَه، وشفىٰ الدِّينُ من دمائهم أوَارَه ، وشكَر اللهُ من المسلمين أنْصارَه، عَمَدُوا إلىٰ ماتخَطَّاه السيفُ مِنْ والِدٍ وولَد ، ومَنْ أخْلَدَ إلىٰ الأرضِ مِن رجالهم عن المُدافَعةِ فلم يعترِضْه بالقتل منهم أحَد، فجَمَعُوا منهم عَدَدا يُنِيف بعدَ الأرْبعمائة علىٰ الأربعين، وجاءُوا بهم فى الأصفاد مقَرَّنين ، وآمتلأتْ بغنائِمِهم والحمدُ لله أيْدى المسلمين ، وآنقلَبُوا فَرِحين بمـا آتاهُمُ اللهُ مستبْشِرِين ، إلىٰ أنْ دخَلُوا حضرتَنَا العليَّةَ بسلامٍ آمنين .

فعرّفناكم بهذا الفتح : لتأخُذُوا بحَظِّكم من شُكْر الله عليه،وتتوجَّهوا فى مثلِه بصالح أدْعِيَتِكم إليـه ، وهو سبْحانَه وتعـالىٰ يُطْلِعنا ويطلعكُم علىٰ مايسُرُّ النفوسَ ويَهَنِّيها ، ويجلو وُجوهَ البشائر ويُبْدِيها ، بمَنِّه وكرمه ، والسلامُ العَطِر المحيا الجميـلُ المُحَيَّا عائدٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

الجمـــــلة الثـانية

(فى المكاتبات الواردة عن صاحب "تِلْمسانَ" من بَنِى عبد الواد)

ورسمُ مكاتبته فيما وقفْتُ عليه فى المكاتبة الواردةِ علىٰ صاحب الديار المصرية أن يبتدأ الكتّابُ بقوله : إلىٰ الحضرة الفلانيةِ حضرةِ فلان ـ بالألقاب المعظَّمة المفخَّمة ثم يُدْعىٰ له بمـا يناسب الحال، ويؤتىٰ بخُطبةٍ، ثم بالسلام؛ ويقَع الخطاب فى أثناء الكتّاب بالإخاء بلفظ الجمع ، ويُختَمُ بالدعاء المناسب .

كما كتب عبدُ الرحمن بنُ أبى موسى بن يَغْمَراسن ، إلى السلطان الملك الناصر (محمد بن قلاوون) فى سنة خمس وعشرين وسبعمائة :

إلى الحضرةِ العاليةِ السامية ، السنيَّة ، الماجدةِ ، المُحْسِنَة ، الفاضلةِ ، المؤيَّدة ، المظفَّرة ، المنصورةِ ، المالكةِ ، حضرةِ السلطان ، الملكِ ، الجليلِ ، الفاضلِ ، المؤيَّد ، المنصور ، المظَفَّر ، المعظَّم ، ناصرِ الإسلام ، ومُذِلِّ عَبَدة الأصنام ؛ الذى أيَّده الله بالبراهينِ القاطعه ، والأنوارِ المُنيرةِ الساطعه ، الأعلى ، الأوْحَد ، الأكمل ، الأرْفَع ، الأمْجَد ، الأسمى ، الأسْرى ، ذِى المجدِ الظاهر ، والشَّرف الباهر ، الملكِ الناصر ، ابن السلطان ، الملكِ ، الجليلِ ، العادل ، الفاضلِ ، المؤيَّد ، المظفَّر ، الأعلى ، الأوْحد ، الأكمل ، الأرْفع ، الأمْجد ، الأسنى ، الأسْمى ، ناصر الإسلام والمسلمين ، ومُعْلِى كلمة الموحِّدين ، المقدّس ، المرحوم ، ذى المجدِ المشهور ، والفَخْر المنْشُور ، والذكر المَذْخُور ، الملك المنصور ؛ أدام الله علُوَّ قدره فى الدُّنْيا والآخِره ، وأسبغ عليه نعمَه باطنةً وظاهِره ، وجعل وُجوهَ محاسِنِهم فى صَفَحات الدهر سارَّة سافره ، وصَفْقةَ أعدائهم خائبةً خاسره .

وبعدَ حمدِ الله الذى أظهر الأمْرَ العلىَّ الناصرىَّ وأيَّده ، وبَسَط فى قولِ الحق وفِعْلِه لسانَه ويدَه ، وسدّدَ نحوَ الصَّواب مَنْحاه كُلَّه ومَقْصِدَه ، والصلاةِ التامّة المباركة على سيدِنا محمدٍ رسولِه المصطفى ، الذى خصَّه اللهُ بعُمُوم الدَّعْوة وأفردَه ، وقَرَنَ ذِكْرَه بذِكْره فأبقاهُ أبدَ الدَّهر وخَلَّده . والرِّضا عن آلِه الكرام ، وصحَابتهِ الأعلام ، الذين حَفِظُوا بالتوقير والتعزيرِ مَغيبَه ومَشْهَده ؛ وكانُوا عند آستِلالِ السُّيُوف ، ومجَال الحُتُوف ، عَدَده المظَفَّر وعُدَده . والدعاءِ لذلكم المقامِ الشريفِ بسعْدٍ يُطيل فى شرف الدين والدنيا مُدَده وأمَده .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاته، من أخيكم، البَرِّ بكم، الحريص على تَصَافيكم، عبـدِ الرحمن بن أبى موسى بن يغمراســن . وإنا كتبْناه إليكم كتبَ اللهُ لكم أنجحَ المقاصِد وأربَحَهـا، وأثبتَها عِزًّا وأوْضَحَها، من حصن "تلمسان" حَرَسها الله تعالى، ولا ناشئَ بفضْلِ اللهِ تعالى إلا ما عَوّد من بشائرَ تُحَثُّ جِيادُها، ومَسارَّ يتطاولُ إلى المَزِيد آعتِيادُها ـ وإلى هـذا أعلى اللهُ كلمتكم، وأمتَع المسلمين بطول بقائكم، فإنا نعرِّفكم بوصول كتابِكم الخطيرِ الأثير، فتلقيناه بمـا يجب من التكريم والتعظيم، وتَتَبَّعنا فُصولَه، وآســتوعَبْنا فُروعَه وأُصُوله، وتحقَّقْنا مقتضاه ومَحْصُولَه، وعلمنا ما آنْطوى عليه من المَنّ والإفضال، وآشتمل عليه من التفصيل والإجمال، ومن أعظمِ ذلك إذْنُكم لنا فى أداء فرض الحجِّ المبرور وزيارةِ ســيد البَشَر، الشفيعِ فى المَحْشَر، الذى وجبتْ له نبوَّته، ومُثِّل الغيبِ عليه مُنْسدِل، وآدمُ صلواتُ الله عليه فى طِينتِه مُنْجَدِل؛ وعلِم اللهُ أننا لم تزلْ آمالُنا متعلقةً بتِلْكُم المَشاعِرِ الكريمه، وقلوبُنا متشوِّقةً إلى تِلْكُم المشاهِـدِ العظيمه؛ فلنا فى ذلك نِيَّات صادقةُ التَّحْوِيم، وعَزَماتٌ داعيةُ التصْمِيم، وكان بوُدِّنا لو ساعدَنا المِقْدار، وجرى الأمر على ما نُحِبُّه من ذلك ونَخْتار، أن نُمتِّع برؤية المواطن التى تُقِرّ أبصارا، ويُتَشَفَّى بها إيرادًا وإصـدارا، ولعلَّ اللهَ تعالى ينفَعُنا بخالص نِيَّاتنا، وصادق طَوِيَّاتنا، بمنه وكرمه .

وقد وجبَ شُكْرُكم علينا من كلِّ الجهات، وآتَّصلت المحبةُ والمودّةُ طُولَ الحياة، غيرَ أنَّ فى قلوبنا شيئًا من مَيْلكم إلى غيرنا وآستِئْناسكم، ونحنُ والحمدُ لله أعلمُ النـاس بمـا يجب من حقوقِ ذٰلكُم المقامِ الشريف، ولنا القُدْرة على القيام بواجِبكم، والوفاءِ بكريم حقكم، وليس بيْنَنا وبين بلادكم مَنْ يُخْشٰى والحمدُ لله من كيده، ولا يُبَالى بهَزْله ولا جِدِّه؛ وقد توجَّه إلى بابكم الشريف قرابَتُنا الشـيخُ الصالحُ الحسيبُ الأوْرعُ الأكمل الزاهدُ أبو زكرِيّا يحيي ابنُ الشيخ الصالح المرابط المقدَّس المرحومِ أبى عبدالله

محمد، بن جرار الوادىّ، وهو من أهل الدِّين والخير، وقد شافَهْناه بما يُلْقِيه إلى ذلكم المقام الشريف من تقرير الوُدِّ والإخاء، والمحبَّة والصَّفاء، مما يَعْجِز عنه الكتاب؛ فالمقام الشريف يَثِق إلى قوله ويعامله بما يليق ببَيْته ودِينه. وغرضُنا أنْ تعرِّفوه بجميع مايصلُح لذلكم المقام الشريف مما فى بلادنا، ويصلُكم إن شاء اللهُ فى أقْرب الأوقات، على أحْسَن الحالات، ولكم بذلك علينا المِنَّةُ العُظْمى، والمزِيَّة القُصْوى، والله تعالى يُبْقِى ذلكم المقام الشريف محروسَ المَذَاهب، مشكورَ المَناقب؛ إن شاء الله تعالى.

الجملة الثالثة

(فى المكاتبات الواردة عن صاحب "فاس" إلى الأبواب السلطانية، بالديار المصرية)

وعادة كتبهم أن تفتتح بلفظ « من عبد الله فلان أمير المسلمين ». وأوّلُ مَنْ كتب منهم أمير المسلمين « يوسفُ بن تاشفين » حينَ آستولى على المغرب، قبل بَنى مَرِينٍ، خضوعًا أن يتلقّب بأمير المؤمنين مُضاهاةً للخلفاء. وهو:

من عبدِ الله علىٍّ أمير المسلمين، وناصر الدِّين، المجاهِد فى سبيل ربِّ العالمين، مَلِك البَرَّيْن، ومالك العُدْوتيْن، أبى سعيد[(١)]، آبن مولانا أمير المسلمين، المجاهِد فى سبيل ربِّ العالمين، ملكِ البرَّين، وسلطان العُدْوتين، أبى سعيد آبن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملك البرَّين، وسلطان العُدْوتين، القائم لله بإعلاء

(١) كذا فى الأصل الوحيد وصوابه "أبى الحسن" كما يؤخذ مما تقدم فى الكلام على ملوك فاس من أن عليا هذا يكنى أبا الحسن وأنه آبن السلطان أبى سعيد عثمان آبن السلطان أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق فلعل ما فى الاصل من أعمال النساخ فتنبه.

دين الحقِّ، أبي يوسفَ يعقوبَ بنِ عبد الحق، منح اللهُ التأييدَ مَقامه، وفَسَّح لفتح مَعاقِل الكفر وكَسْر جحافل الصُّفْر أيَّامَه .

إلى السلطانِ، الجليلِ، الكبيرِ، الشهير، العادلِ، الفاضلِ، الكامل، الحافل، الملك، الناصر، المجاهِد، المُرابِط، المُثاغِر، المؤيَّد، المظَفَّر، المنصور، الأسْعَد، الأصْعَد، الأرقى، الأوْقى، ناصر الدنيا والدين، وقامع البُغَاة والمعتَدين، مُفِيد الأوطار، مُبِيد الكُفَّار، هازِم جيوش الأرمن والفَرَنْج والكُرْج والتَّتار، مالِئ صـدُور البرارِيّ والبِحار، حامى القِبْلتين، خَديم الحرمين، غيثِ العُـفَاه، عونِ العُنَاه، مُصَرِّف الكتائب، مُشرِّف المَواكب، ناصر الإسلام، ناشِر الأعلام، فَخْرِ الأنام، ذُخْرالأيَّام، قائد الجُنُود، عاقد البُنُود، حافظ الثُّغور، حامى الجُمْهور، نِظامِ المَصالح، بقيَّة السَّلف الصالح، ظهير الخلافة وعَضُدِها، ولِيِّ الإمامة وسنَدِها، عاضِد كلمةِ الموحِّدين، ولىِّ أمير المؤمنين، أبى المَعَالى (محمد) ابن السلطان، الكبير، الجليل، الشهير، الشهيد، الخَطير، العادلِ، الفـاضلِ، الكاملِ، الحافظ، الحافل، المؤيَّد، المظفَّر، المعظَّم المبجَّل، المكبَّر، الموقَّر، المعزَّز، المجاهِد، المرابِط، المثاغِر، الأوحد، سيف الدين (قلاوون) أدام اللهُ فضلَ عزمه المـاضى بتأييـده، وأدار الأفلاكَ بتشْييد مُلْكه الشامِخ وتمهيده، وطَهَّر أرجاءه من أرْجاس المنافقين، وأدْناس المـارِقين، بما يُرِيق عليها من دِمَائهم، فما كلُّ متطهِّرٍ يُجْزِئُ عنه غَسْلُ مائه أو تيمُّ صعيده .

سلامٌ كريم، طَيِّب عميم، أَرِج الشَّميم، متضَوِّع النَّسِيم، تستمِدُّ الشمسُ باهِرَ سَنَاه، ويستعيرُ المسكُ عاطِرَ شَـذَاه، يَخُصُّ إخاءكم العلِيّ، ووفاءكم الوَفِيّ، ورحمة الله وبركاته .

أما بعـدَ حمدِ الله الذى أيَّد المؤمنين، على عَدُوّهم فأصْبَحُوا ظاهِرِين، وعرَّف الإسلامَ وأهلَه من السِّرِّ العجيب، والصُّنع الغريب، مافيه عِبْرةٌ للسامعين والنَّاظِرين؛

حكمةٌ عجزَتْ عن فَهْم سِرِّها المكتوم ، وقَصُرتْ عن كُنْهِها المختوم، ألبابُ عبيده القاصِرين. والصَّلاةِ والسلام علىٰ سيدِنا ومولانا محمدٍ رسوله الذى أرشد به الحائدين الحائرين ، وأرسله بالهُدىٰ ودِين الحقّ ليُظْهِرَه علىٰ الدِّين كلِّه برَغْم الجاحدين الكافرين، وعلىٰ آلِه وصَحْبه الذين هاجَرُوا إليه و بلادَهُم هجَروا، والذين آووْا من أَوىٰ إليهم ونَصَرُوا ،والذين جاهَدُوا فى الله فصَبَرُوا ، ففازُوا بذكر المهاجِرِين والأنصار وأجر المجاهِدِين الصابِرِين ، وصِلةِ الدعاء لحزْب الإسلام فى مَشَارق الأرض ومَغَاربها بفضلٍ لا يزالُون معه لأعدائهم قاهرين ، وسعدٍ لا ينْفَكُّون له بآمالهم ظافِرِين ، ونصرٍ من عند الله وما النَّصْر إلَّا من عند الله وهو خَيْرُ الناصرين .

فإنا كتَبْنا لكم ـ كتب اللهُ لكم مجْدا مَديدَ الظِّلال ، وعَضُدًا حَدِيدَ الإِلَال(١) ، وسعْدًا جَديدَ السِّرْبال ـ من منصورة "تِلِمْسان" حرسها اللهُ تعالىٰ ، والصنائعُ الرَّبَّانيَّة تُكَيِّف العجائب ، وتُعرِّف العَوارِفَ الرغائب ، وتَشَنِّفُ الأسماعَ بما تُسْمِعُها من إجزال المُنُوح والمَوَاهب ، وتُفَوِّفُ الرِّقاعَ بما تُودِعُها من أحاديث الفُتُوح الغرائب ، والحمدُلله علىٰ مايسَّرَ من المآرب ، وسَهَّل من المَوَاهب . و إخَاؤُكم الصادقُ مَبْرورُ الجوانب ، مأثور المَنَاقب ، مُشْرِقُ الكَوَاكب ، مُغْدِقُ السَّحائب ، نامى المَرَاتب ، سامِى المَرَاقب ، واللهُ تعالىٰ يُبْقيه فى ذاتِه ، ويَقِيه من صَرْف الدهر وأَذَاته . وإلىٰ هذا وصلَ الله لكم سعْدًا جديدا ، وجَدّا سعيدا ، ومَجْدًا حميدا ، وحَمْدا مجيدا ، فقد وصل كتابُكم الأَثِير ، المُزْرى بالمسك النَّثِير ، فاجتَلَيْنا منه روْضةً جادَهَا البيانُ فأمْرَعها ، ورادها البَنانُ فوشَّعها ، واجتنيْنَا من غُصون سُطوره ثمرات وِدادٍ ما أيْنَعها ، إنباءً عما تلقَّاه الإخاءُ الكريم من قِبَل الشيخ الأجلّ ، أبى عبدالله محمد بن الجَرَّاح مما عنّا تحمَّل ، وفى إلقائه

---

(١) جمع أَلَّة بمعنى الحربة .

وأدائه بحضْرتكم الكريمة أحسَنَ وأجمَـل ، وهو ما كان عليـه عزْمُ مَوْلاتِنا الوالدة ألحقها الله تعالىٰ رضْوانَه ، وبوَّأها جِنانه : من حَجِّ البيت المحرَّم ، وزيارة [القبر] المعظَّم المكَّرم ، والصلاة بالمسجد الحَرَام ومسْجِد النبيّ صلَّى الله عليه وسلم ، وثالثِها فى شَدّ الرحال المسجِد الأقصىٰ ونِعْم المغْتَنَم ، وقضاءِ النُّسُك بتلك المَناسك والمَشَاهد ، والتبرُّك بتلك المعالم المُنِيفة والمَعاهِد ، وما وَصَف مع ذلك بهذا الجانب الغَرْبى ، ورَصَف من أمْر قِتالنا لكلِّ مارِقٍ أبِيّ وكافرٍ حَرْبِىّ ، وما منحَنا الله من تَدْبِير لقـلوب أهـل الإيمـان مُبْهِج ، ولصُدور عَبَدة الصُّلْبان مُحْرِج ، وأن الإخاءَ الكريمَ حصل له بذٰلك أبْهىٰ آبتهاج ، وحلَّ منه محَلَّ القَبُول الذى آنتهج له من آقتفىٰ سبيلَ القصـد أنهىٰ آنتهاج ؛ فعقَد العزْمَ علىٰ تلقِّى الوافد من تِلْقائنا ، والوارِد رجاءَ أداء فرْض الحجِّ من أرجائنا ، بتسهيل سَبِيله ، وتيسيرِ آرتحاله إلىٰ بيتِ اللهِ ورسوله ، وأنه متىٰ وقع الشُّعور بمَقْدَم المولاة رحمها الله تعالىٰ علىٰ بِلاده ، وقُرْبِها من جهاته المَجُودة من جَوْد جُوده بعِهاده ، يقدّم للخروج مَنْ يتلقَّ رِكابَها ، ويعتَمِدُ بالبِرِّ والتكريم جَنابَها ، حتّىٰ تحمَدَ وِجْهتَها الشريفةَ بجميل نظرِه وإيَابَها ، وقام عنَّا بما نَوَدُّه من بِرِّها ، وساهَمَ فيما تُقَدِّمه إلىٰ الله عزَّ وجلَّ من صالِح أجْرِها . وقد قابلْنا هذا الفضلَ من الشُّكر بأجْزِله ، ومن البِرِّ بأحْفاه وأحفلِه ، وحصل لدَيْنا بإزائه سليمُ وُدِّه وكريمُ إخائه ، من تخليص وَلاَئه ، وتمحيص صَفَائه ، ممَّا لا يزال عهدُه الأنيق فى نَمائه ، وعقْدُه الوثيقُ فى آزدياده ونَمـائه ، وغُصْنه الوريقُ فى رَوْنَق غُلَوائه ؛ ولئن كانتِ المولاةُ الوالدةُ قدَّس الله رُوحَها ، وبَرَّد ضريحَها ، قد وافتْ بمـا قدَّمت عندَ الله من صالح العمل ، وماتَتْ علىٰ ما أبْرَمَتْه فى قصْد البيت الشريف من نِيَّة وأمَل ، اذ كانتْ رحمةُ الله تعالىٰ عليها قد تأهَّبت لذٰلك ، واعتدَّتْ لسُلُوك تلك المَسَالك ، وأداءِ ما فرض اللهُ من السِّعاية والمَناسك ، وعلىٰ الله إجزالُ ثوابِها ؛ وعنده نحْتَسب ما ألَمَّ فآلَمَ من مُصَابها ــ فإنَّ لدينا ممَّن يُمتُّ بحُرْمة المَحْرَم إلينا ،

و يلزم بحقِّ التربية علينا ، من يقومُ عندنا مقامَها ، و يرومُ من ذلك المقْصَد الشريف مَرَامَها ، وسـنُوردها إن شاء الله تعالىٰ علىٰ تِلْكُم البِقَاع ، ونُورِدها من تلكم الأقطارِ والأصْقَاع ؛ ما يَجْمُل بحُسْن نَظَرِكم مورِدُه ومصْـدَرُه ، ويطّابق فى جميـل آعتنائكم وحَفِيل آحتفالِكم خَبَره ومَخْبَرُه ، بفضل الله وعونه .

وأما تشوُّقُ ذلكم الإخاء ، لمواصلة الكتُب بسارِّ الأنباء ، فإنَّ من أقربها عَهْدا ، وأعْذَبِها حديثًا يُهادىٰ ويُهْدىٰ ، ما كان من أمر العاقِّ قاتلِ أبيـه ، الحالِّ من إقليم تِلمْسانَ وممـالكها بالمحلِّ النَّبِيه ، وذاك أنَّ أسلافَه بنى زَيَّان ، كانوا قد آستوْلَوْا علىٰ هذه المملكة فى سالف الزَّمان ، ولم يزلْ بينهم وبين أسلافى المحتوِين علىٰ مُلْك المغرب الأقصىٰ وقائعُ تُورِدهم الحِمام ، وتذِيقُهم الموتَ الزُّؤام ، فيدَعُون المنازَعه ، و يعُودُون للموادعه ، ثم لم يلْبَثُوا ، أن ينْكُثوا ، ولم يصْبِروا ، أن يغْدِروا ، إلىٰ أن كان من حِصَار عمِّنا المقدَّس المرحومِ أبى يعقوبَ قدّس الله تُربَتَه إيَّاهم ، فأكثر موْتَهم وكدَّر مَحْيَاهم ، وتمادىٰ بهم الحصارُ تسعَ سنين ، وما كانُوا غيرَ شِرْذِمةٍ قليلين ، وهُنالكم آتصلَتْ بينكما المُراسَله ، وحصلت الصَّداقةُ والمُواصَله ، ثم حُمَّ موتُه ، وتَمَّ فَوْتُه ، رحمةالله تؤمُّه ، ورضوانه يشمَلُه و يعُمُّه ، فنُفِّس خِناقُهم ، وعاد إلىٰ الإبدار مِحَاقُهم ، وصرفَ القائمُ بعده عنهم الحيْن ، عما كان هو رحمه الله قد طوّعه من بلاد مَغْراوة وتجين ، فآتَّسعتْ عليهم المسالك ، وملَكُوا مالم يكن فيه لأوائلهم طمَعٌ من الممالك ، لكنَّ هذا الخائن وعمَّه كانا ممن أسأرته الفِتَن ، وعم به فيها غوامِرُ المِحَن ، فسلكا مسْلَكَ أسلافهما فى إذاعة المُهَادنه ، والرَّوغان عن الإعلان بالمُفاتَنه .

ولمـا سوّل الشـيطانُ لهٰذا العاقِّ قتـلَ والده ، والاِستيلاءَ علىٰ طارفه وتالدِه ، لم يقَـدّم عملًا (١) علىٰ إشخاص إرساله بحضرة مولانا المقـدّس أبى سـعيد ، قدّس الله

(١) مراده أنه بدأ أوّل كل شيء باشخاص الخ .

مَثْواه ، وجعل الجنةَ مَأواه ، في السِّلْم راغبا ، وللحُكم بموادعته طالبا ، فاقتضى النظر المَصْلحيُّ حينئذموافقتَه في غرضِه ، وإن كان باطنُه على مَرَضه ، فقوِيَ أمرُه ، وضَرِيَ ضُرُّه ، وشَرِيَ شَرُّه ، ووَقَد تحتَ الرَّماد جمْرُه ، وسرى إلى بلادِ جيرانه الموحِّدين داؤُه ، وطال عليهم تضييقُه وٱعتداؤه ، وٱستشعر ضعْفَهم عن مدافَعته ، ووَهْنَهم عن مقاومته ومنازعته ، فبغى وطغى ، ولم يَدْرِ أنَّ مِنْ فوقه سَقْبَ السماء رَغَا ، وباطَنَ جماعةً من عَرب أفريقيَّة المفْسِدين وجَرُّوه بحبل الأطماعِ إليها ، وأقام على بِجاية عشرين سنة يشدّ على بجاية الحِصار ، ويشُنُّ على أحْوازتونُس الغَار[(١)] ، حتّى كان من هزِيمة جيشه لصاحبِها ما كان ، بمالأةٍ منهم ومن غيرِهم من وراتيه (؟) كابن اللِّحيانى ، وٱبن الشهيد ، وٱبن عِمْران ، فأدّى ذلك صاحبَها السلطانَ أبا يحيي أعزَّه الله تعالى أنْ بعَث إلينا وزيرَه في طَلَب النُّصرة رسولا ، وأوْفَد علينا أعزَّ ولدِه أبا زكرِيَّا في إذهاب المضَرَّة عنه دَخيلا ، فخاطبْنا إذ ذاك هـذا الخائن العاقَّ مبصِّرين ، وبقوله تعالى ﴿ وإنْ طائِفتَانِ من المُؤمِنِينَ ٱقتَتَلُوا فأَصْلِحُوا بَيْنَهما ﴾ مذَكِّرين ، فما زادتْه الموعظةُ الاأشَرا ، ولاأفادتْه التـذ كِرةُ إلَّا بَطَرا ، وحينَ ذُكِّر فلم تنفَعْه الذِّكرى ، وفُكِّر فلم يتَيَسَّرْ لليُسْرى ، ٱمتثلْنا فيه أمرَ الله تعالى المرتبَ على قوله ﴿ فإن بَغَتْ إحداهُما على الأُخرىٰ ﴾ فأزمعْنا قَدْعه ، وأجْمَعْنا رَدّه ورَدْعه . وفى أثناءِ ذلكم وصل إلينا أيضا سلطانُ الأندُلس مستغيثًا على النصارى أعداءِ الله جيرانِه على طاغيتهم ، المُصِرّ على عداوته وعداوتهم ، فجهَّزنا معه ولَدَنا عبـدَ الواحد في أربعةِ آلافٍ من الأبطال ، وأمدَدْناهم بـما كَفاهم من الطعام والعُدَّة والمـال ، فأجاز من سَبْتةَ إلى الخضراء عَجِلا ، ولم يُقدّم على منازَلة جَبَل الفتح عملا ، وكان هـذا الجبل الخطيرُ شأنُه منذ ٱســتولى عليه العدوُّ قصَمه الله في سنة تسع وســتين شَجًا في لَهَوات أهـل العُدْوتَيْن ، وغُصَّةً لنُفُوس الساكنين بالجِهَتين ،

(١) المقام للاضمـار .

لإطْلالِه عليهما، وإرسالِه جوارحَ جَوارِيه إليهما، تَخْطَف مَنْ رام العُبور بحرِ الزُّقاق، وما يقرب الملجأ إلىٰ هذا المعْقِل المستقِرّ من اللَّحاق، فكَمْ أرمَلَ وأيْتَم، وأثْكل وأيَّم ـ فأحاطَتْ به العادِياتُ السوابحُ برًّا وبَحْرا، وأذاقتْ مَنْ به مِنْ أهْمـاج الأعْلاج شَرًّا وحَصْرا، إلىٰ أنْ أسلَمُوه للسلمين قَهْرا وقَسْرا، ومنحَ اللهُ حزْبَه المؤمنين فتْحا ونَصْرا، وسمِع الطاغيةُ الغادر إجابةَ اللهِ تعالى بأمْره، فطار بما قَدَر عليه من حُشُوده وجُنوده إلىٰ إغاثَتِه ونَصْره، فوصَله بعدَ ثمانيةِ أيام، من تسليمه للإسلام، فنزل بخَيْله ورَجْله إزاءَه، وأقسم بمعْبوده لايَبْرَح فِناءَه، حتّٰى يُعيـد إليه دينَـه، أو يلْقىٰ مَنُونَه دُونَه، فأكْذبَ اللهُ زَعْمه، وأوْهن عَزْمه، وأحنث يَمينَه، وأقاع بعد شَهْرين وأيام مُدْبِرا، وأسرع العَوْدَ إلىٰ مستقرّه وآسأْله كيْفَ نَجا، وكان ذلك سبَبَ إنابتِه للسِّلم وآنقياده، وإجابتِه لتَرْك ما كان له علىٰ أصحاب "غَرْناطَة" من مُعْتاده، وكانوا يُعْطُونه مايُنِيفُ علىٰ الأربعين ألفًا من الذهب فى العام، ضريبةً ألزمهم الطاغيةُ أداءَها فى عَقْد مصالحتِه أىَّ إلزام، فسُمْناه تركَها وإسقاطَها، وألزمْناه فيما عقَـدْناه له من السِّلْم أن يَدَع آشْتراطَها، والحمْدُ لله الذى أعزَّ بنا دينَ الإسلام، وأذلَّ رقابَ عَبَدةِ الأصنام، وقد آعتنَينا بتحصين حِصْن هذا الجبل تتميمًا لها وتكميلا، وآبتدأْنا من تحصين أسْواره وأبراجه بمـا يَغْدُو علىٰ جبينِه تاجًا وإكْليلا . وكنا فى هذه المدّةِ التى جَرتْ بها هذه الأحوال، وعرَتْ فيها هذه الأهواءُ والأهْوال، منازلِينَ أخانا المتنعَ "بسِجِلْماسة" من بعضِ بلاد القِبْلة، ومحاولين من إزاحة ضُرِّه، والإراحة من شَرِّه، مافيه الصلاحُ والفلاحُ علىٰ التفصيل والجمله، لعِثايتـه فى الفساد، ودِعَايته إلىٰ العِناد، ومعاضَدته صاحب "تِلمْسان"، ومساعَدتِه علىٰ البغْى والعُدْوان، فسهَّل اللهُ آفتتاحَها، وعجَّـل من صنائعه الجميلةِ منها مُباحَها، وذلك بعد تسليم جبل الفتح بثلاثة أشهر ونِصْف، ويَسَّر اللهُ تعالىٰ فى ذٰلك من بدائع الصنائع ما يقْصُر عنـه كلُّ نعْت ووَصْف .

وفى خِلالِ تلكُم المنازَله ، وحال تِلْكم المحاوَله ، لاحتْ للخائن التِّلمْسانىّ فُرصه ، جُرِّع منها غُصَّه ، إذ ظنَّ أنا عنه مشغُولون ، وفى أمْرِ ماعرض من سِجِلْماسةَ وجَبَل الفَتْح معتَمِلُون ، فخرج من بلَده علىٰ حينِ غَفْلة بالعزيمة والجِدّ ، إلىٰ حِصْن ماور برت (١) الذى هو بين بلاده و بلادنا كالحدّ ؛ فوجد هُنالك وَلَدنا الأسعَد تاشفين ، فى ثُلَّة من بنى مَرِين ، آسادِ العَرِين ، فلما نَذِرُوا به ثارُوا إليه مُسْرِعِين ؛ فنكَص علىٰ عَقِبــه ، ولم يَرَ له جُنَّة أوقىٰ من هَرَبه ، وعاد لذلك ثانِيَه ، فلم تكن عساكِرُنا عن طَرْده وانِيَه ، بل ردَّته فى الحافِرَه ، وأنشدتْه بلسان حالِها الساخِره :

إنْ عادتِ العقربُ عُدْنَا لها * وكانَت النعْلُ لهـا حاضِرَه

ولمـا فرغنا والحمدُ لله من تِلكم الشَّواغل ، وأرَغْنا من الخائن التِّلمسانى تَركَ ماهو فيه من إثارة الفِتَن واغِل ؛ فأعرضَ وأشَاح ، وما لاحت عليه مَخِيلةُ فَلَاح ؛ نَهَدْنا نحوَ أرضــه ، لنَجْزِيه بقَرْضــه ؛ بجُيُوش يَضِيق عنها فَسِيح كلِّ مدىٰ ، وخيولٍ تَذَر الأَكَم للحوافِر سُجَّــدا ؛ تنقضُّ علىٰ الأقرانِ أمثـالَ الأَجادِل ، وتقُضُّ الجنادِلَ من حوافِرِها بأصْلَبَ من الجَنَادل ؛ فكَافَنا بتسلُّم مَنازِله مَنْزِلا فَنْزِلا ، وتسنُّم معاقِله مَعْقِلا فمَعْقِلا ؛ وجُلُّ رعاياه تُقِرُّ بفضلنا ، وتَفِرُّ من جَوْره إلىٰ عَدْلنا ؛ ومَنْ تمسَّك منهم بحَبْله ، أو سَلَك من الغَىِّ فى سُبْله ؛ قادَهُ السيفُ برَغْمه ، وٱستنزلَهُ علىٰ حُكْمه ؛ والعفوُ مع ذلك يؤمُّهم ، والإحسانُ يشْمَلُهم و يعمُّهم ؛ حتّٰى لم يبقَ إلَّا مَعْقِلُهُ الأَشِب ، ومنْزِلُهُ الذى رأىٰ أنه عن عين الشَّوائب محتَجِب ؛ قد شَمَخ أنفا حَمِيًّا ، وصافَح كَفًّا للثُّرَيَّا ؛ ولم يرض لهامته عَمائِمَ إلَّا الغَمائِم ، ولا لأنامِل شُرُفاته خَواتِم ، الا النُّجومَ العَواتِم ؛ فنزلْنا بساحه ، وأقبلْنا علىٰ كِفَاحه ؛ وجعلنا نقذِفُهم من حِجارة المَجَانيق ، بأمثال النِّيق ؛ ومن كِيزان النِّفْط المُوقَدَه ، بأمثال الشُّهُب المُرْصَده ، ومن السِّهام العَقَّـاره ، بأمثال العَقارب

(١) كذا فى الأصل باهمال الحروف ولعله مصحف عن بنزرت تأمل

الحَرَّاره ؛ حتّى غدَتْ جُدْرانُهم مهْـدُومَه ، وجُسُومهم مَكْلُومه ؛ وثُغُور شُرُفاتِهم فى أفواه أبراجهم مَهْتُومه ؛ وظلّتِ الفَعلة تُشَيِّد إزاءَ أبْراجهم أبْراجا ، وتُمَهِّد منهـا لتسوير أسوارهم أدْرَاجا ؛ وللمَعاول فى أسافلها إعْوال ، وللعَواسِل على أعاليها أعْمال ، وللأشْقِياء مع ذلك شِدّةٌ وجَلَد ، وعُدَّة وعَدَد ، وحِدَّة ولَدَد ، يقاتِلُون حَمِيَّه ، وينازِلُون بنفوسٍ أبِيَّه ، وحجارةُ المَجانِيق تشْدَخُ هامَهُم ، وبَناتُ الكَنَائِن تُزَلْزِلُ أقدامهم ؛ وهم فى مثل ذلك لازِمُونَ إقْدَامهم ، إلى أن آشـتدَّت أزْمَتُهم فلم يَجِدُوا لهـا من فارِج ، وأحاطتْ بهم الأوجالُ من خارج ؛ وهُدِمتْ أبراجُهم الشَّواهق ، ورُدِمت حفائِرُهم والخنادِق ؛ وأخذَت الكُماةُ ، فى العُروج ، إلى البُروج ، والحُماةُ ، فى السِّباق ، إلى الأنْفاق ، والرماة ، فى النِّضال ، بالنِّصال ، فمن مُرْتَقٍ سُلَّما ، غير مُتَّقٍ مؤْلِما ، ومشتَغِل بالنَّقْب ، غير محتفِلٍ بشابُور الحجارة المنصَبّ ؛ وأفْرِج المَضِيق ، وآنتَهِج الطَّرِيق ؛ وآقتحمَتْه أطلابُ الأبطال ، وولجَتْه أقيال القبائل وولّى الأشـقياء الأدْبار ، وعاذُوا بالفِرَار ، وبدَتْ عليهم علاماتُ الإدْبار ؛ وسابَقُوا إلى الأبواب ، فكانـ مَجِيئُهم من أقوى الأسـباب ، وقتَل منهم الزِّحام ، من أسأره الهَدْم والحُسام ؛ فتملَّكنا مادارتْ عليه الأسوار الخارجة : كفرار السبع والملعب ، وجميع الجِنان والعُروش التى ما آنفكَّ الشقىُّ يجتهد فى عِمارتها ويَتْعَب ؛ وأعلَنَّا بالنِّداء أن كلَّ من جاءنا هاربا ، ووصلَ إلينا تائبا ، منحْناه العَفْو ، ومحَوْنا عنه الهَفْو ؛ وأورَدْناه من إحساننا الصَّفْو ؛ فتبادَرُوا عند ذلك يتساقَطُون من الأسوار ، تَسَاقُطَ جَنِيّات الثِّمار ؛ فُرادى ومَثْنى ، آئبين إلى الحُسْنى ؛ فيسَعُهم الصَّفْح ، ويُحْسِبُهم المَنُّ والمَنْح .

ولمـا رأى الخائن قلَّةَ من بَقِى معه ، وشاهد تفرُّق مَنْ ذلك الموقفُ جمَعَه ؛ أمر بسَرَاح مَنْ فى قبضته وسِجْنه ، وآعتقَدَهم عَوْناً له فكانوا أعونَ شيءٍ على وَهْيِه ووَهْنه ، وآعتمد النـاسُ فى بقيَّة يومهم السُّورَ نتوسَّع أنقابُه ، ونتخرّق أبوابُه ؛ إلى أنْ جَنَّهم

الليل، وحاقَ منهم بالأعداءِ الوَيْل؛ ولزِمَ كلٌّ مَرْكزه، ولم يكُنِ الليلُ ليَحْجُبه من عَمَله ولايَحْجُزه؛ وبات الفُرَّار إلينا يهرَبُون ، ومن كل نَفَق يتَسَرَّبُون؛ فلما ٱرتفَع الضِّياء، ومَتَع الضَّحاء ، أمرنا ولدَيْنا : يعقوبَ وعبدَ الواحد ، ووزيرَنا القاعدَله بالمَراصد، بأنْ زحَفُوا إليها، مع أطلائِنا تحتَ راياتِنا المنصُورة عليها؛ فرجفَتْ قلوُبهم، ووجبَتْ جُنُوبهم ؛ ولم يكنْ إلا كَلَا حتّى ٱمتُطِيَتْ تلك الصَّهوه ، وتُسُنِّمت فيهـا الذِّرْوه ، وتُسُلِّمت بيـد العَنْوه ، وفُصِمتْ عُراها عُرْوةً عُرْوه ، وأُنْزِلُوا من صَياصِـيهم ؛ وتمكَّنتْ يدُ القهر من نَواصيهم، وحقَّتْ عليهم كلمةُ العذاب من معَاصِيهم؛ وفرّ الشَّقِيُّ إلىٰ فِناء داره، فى نَفَر من ذَوِيه وأنصاره؛ وفيهم ولدَاه مسعودٌ وعُثْمان، ووزيرُه موسىٰ ابنُ علىّ معينُه علىٰ البغْيِ والعِصيان؛ وعبدُ الحق بن عثمانَ الخائنُ الغادر، وٱبنُ أخيه العاملُ بعمله ثابتُ بنُ عامر، فتكنَّفَهم هنالك أولياءُ دولتنا العليه، فأوردُوهم ويوسفَ ولدَ الشقيِّ السالبِ حِياضَ المنيَّه، ونُبِذتْ بالعَراء أجسامُهم، وتقدّمْنا للحِين، بأن يُمَدّ علىٰ الرعيَّـة ظلُّ التأمين ، ويُوطَّأَ لهم كنَفُ التهْـدِئة والتسكِين ، ويُوطَّدَ لهم مِهادُ العافيه، وتُكفَّ عنهم الأكُفُّ العاديه، حتّى لاتمتَدَّ إليهم كفُّ منتَهِب، ولايلتفِتَ نحوَهم طَرْفُ مستلِب ؛ ومَنِ ٱنتهبَ شَيْئا أُمِرَ بردّه ، وصُـدَّ عن قَصْده ـ وكَمَلَ لنا والحمدُ لله بالآستيلاء علىٰ هذا القُطْر جميعُ البلاد ، الداخلةِ فى وِلَاية بَنِي عبد الواد ؛ ونُسِخَتْ منها دولَتُهم، ومُحِيَتْ من صَحِيفتِها دَعْوتُهم؛ وعُوِّضَ الرَّعايا من خَوْفهم أَمْنا، ومن شُؤْمهم يُمْنا؛ وشمِلتهم كلمتُنا الراقية، المنصورةُ بكلمةِ الله الباقية؛ وفى ذلك معتَبَرٌ لأهــل اليقين، والأرضُ لله يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِه والعاقِبَةُ للْمُتَّقِين .

والحمدُ لله علىٰ هذه النعمة التى أفاضَتْ علىٰ النِّعم جِلالا ، والصَّنِيعة التى بَهَرت الصنائِعَ جَمالا ؛ وأضْفَتْ علىٰ المسلمين من الصَّلاح والعافية سِرْبالا . وقد رأينـا من حَقِّ هذا الإنعام الجَسِيم، والصُّنْع الرائِقِ الوسيم؛ أن نتبِـع العفوَ بعد المقْدُره،

بالإحسان لمن أسلَفَ لنا غَمْطَه أو شُكْره ؛ [فمَنَنَّا](١) على قبائل بَنِي عبد الوادِ، وأضْفَينا عليهِم صُنوفَ المَلابس نِساءً ورِجالا ، وأوسَعْنا لهم فى العطَاء مجَالا ، وأفعَمْنا لهم من الحِبَاء سِجَالا ، وأقْطَعْنا لهم من بلاد المَغْرب حاطَها اللهُ تعالىٰ ماهو خَيْر من بلادهم ، وحَبَوْناهم منها بما كَفَل بإحْسابِ مُرَادهم ، وإخْصابِ مَرادِهم ، وخلَطْناهم بقبائل بنى مَرِين ، وحُطْناهم باتّحاد الكلمة من تقوُّل المتقوِّلين، وتزوير المزوِّرين؛ وأعدَدْنا منهم لأوَان الجِهاد أوفرَ عَدَد، وأعتَدْنا من فُرْسانهم ورجالهم لِطعَان الأَعادِى أكْبرَ مَدَد ؛ وأزِيل عن الرَّعايا بهذه البلاد الشَّرْقيَّة إصْرُهم ، وأُزِيح عنهم بتوَخّى العدل فيهم جَوْرُهم ووِزْرُهم ؛ وخفَّفْنا عنهم ما آد من المَغَارم ، وهادَ من المكَارم ؛ فانشرحَتْ صُدُورهم، وصَلَحت أُمُورُهم .

والحمدُ لله الذى ثَلَّ محالَّ الباغين ومجالَهم ، وأوْرَثَنا أرضَهم ودِيَارَهم وأمْوالَهُم ، وأخَذَهم بما احتَقَبُوا من المآثم، واكتسَبُوا من الجَرائم واستَحلُّوا من المَحارم ؛ وأباحُوا من المُسْكِرَات ، وأذاعُوا من المُنْكَرَات ، وطالَمَا أصبح رَبْعُهم معدِنَ الفُسوق، ومَوْطِنَ العُقُوق، ومَقْطَنَ إضاعة الحقُوق، لاسيَّما فى أيام المَسْرور بهنَاته، المَغْرورِ بما سَوّلَ له الشيطانُ وأملىٰ له من تُرَّهاتِه، المشْهورِ بقتْـل أبيه ، المأثُورِ من مَثالبه ومَعَايبه بما لم يأْتِ الدَّهْرُ له بشَبِيه ، ولقد طبَّقَتِ الآفاقَ مَعاصِيه ، وبلغَتْ أخبارُ خِيانَتِه مَنْ بأطراف المعْمور وأقاصِيه ، ولكنَّ اللهَ تعالىٰ أملىٰ له ليُكَثِّر مآثِمَه، حتّى إذا شاء أخَذَه أخْذَ القُرىٰ وهىَ ظالِمه .

والحمدُ لله الذى طهَّر بأيدينا هذه الأرجاءَ من أرجاسِه ، ورَحَضَ عنها بأيْدِينا أوْضارَ أدناسِه وأنجاسِه ؛ وأتاح لأهلها بهلاك هذا المَرِيد المُراد، وأراحَ منه ومن شِيعتِه

(١) بيض فى الأصل لهذه الكلمة وقد اقتبسناها من المقام [illegible]

البــلادَ والعباد ؛ ولو لم يكُنْ إلا مانال الحُجَّاجَ من تعنيــه وتعدِّيه ، وطالَ عليهم من تَعرُّضــه لهم وتَصدِّيه ؛ حتّى حجَزَ عن الحِجاز الشريف قُصَّادَه ، وحجرَ بقَطْع السبيل عن بيتِ الله الحرام مَنْ أراده ؛ فكم سلَبَ الحُجّاج ، وسَدَّ عليهم المَسَالك والفِجَاج ؛ وفَرَّق فريقَهــم ، وعوَّق طريقَهم . والآنَ بحمــد الله حقَّت الحقَائق ، وٱرتفَعتِ العَوائِق ؛ وصَحَّ العَليل ، ووَضَح السبيل ؛ وتَسَهَّل المَرَام ،وتيَسَّر القصــدُ إلىٰ البيتِ الحَرَام ؛ مكانٌ تَرِدُه الزُّوَّار عليكم أرسالا ، ووفودُ الأبرارِ للسَّلْم خِفَافاً وثِقَالا ؛ يأتُونَ من كلِّ فَجٍّ عميق ، ويقْضُون ما يقضون من مَنَاسكهم ، آمِنين فى مسالكهم ، إلىٰ البيت العَتيق ؛ وهكذا أيضــا خَلَا وجْهُنا لِجهاد الرُّوم ، ولإعدادِ مَن يغزونهم فى عُقْر دارِهم للقَصْدالمَرُوم ؛ وأن نجَدِّد من هذا العمل بجزيرة الأندَلُس حماها اللهُ تعالىٰ ما لِسَلفِنا بها سَلَف ، ونبَدِّد من شمل عُبَّاد الصليب ما نخلِفَهم بفَضْل الله تعالىٰ خيْرُ خَلَف ؛ فعمَلُ الجهاد ، بهذه البِلاد ، هو الفضيلةُ التى لنا اللهُ سبحانه ذَخَرها ، والحسنةُ التى فى صحائف أعمالنا سَطَرها ، وبجيوشِنا المنصورة عزَّ دينُ الإسلام بهذا المغرب الغريب ، وبسُيوفِنا المشــكورةِ والله المشكور ذَلَّ بها الصَّليب ، أوْزعَنا اللهُ تعالىٰ شُكْرَ آلائِه ، وأمتَعَنا بتَواتُرِ نَعْمائه ، بمَنّه وفضله .

وأنهيْنا لعِلْمِكم الكريم هذه الأنباءَ السارّه ، والآلاءَ الدّارّه : لمـا ذكَرْتم من تَشَوُّفكم لِاستِطْلاعِها ، وسـطَّرتم من تشوُّقِكم لِاستماعها ، ولِعلْمِنا أنكم تُسَرُّون بقَطْع دابر الباغين ، وتستَبْشِرُون بحَسْم أدْواءِ الطاغين ؛ وتُؤْثِرُون الإخبارَ بٱئتِلاف الكلمة علىٰ أعداء الله الكافرين إيثارَ الحـامدين لفِعْل الله تعالىٰ فى إظهار دِينِـه الشاكِرين . لازِلْتم تُشْرَعُ نحْوَكم البشائر ، وتُقْرَع بذِكْرِكم المَنابر ، وتُرْفَع لٱجتلاء آثار أمرِكم الستائر ،

(١) لم يذكر فى الكلام جواب لو ، ولكنه معلوم أى تكفى تأمل .

وٱستِجْلَاء أخبارِ سِيرَكم الباهرةِ النَّواظِر، وتُجْمَعُ لسجَاياكم السنيَّةِ العَلَاء، ومَزَاياكم العليَّة السَّناء، ثواقبُ المنـاقِب وقولُ خيرِ المَفَاخر، إن شاء الله . والسلام الأتم، الأضْوَع الأنَمّ، يخُصّ إخاءَكم الأوْفىٰ، ورحمةُ الله وبركاتُه .

قلت : جواب هذا الكتاب [تقـدّم] فى الكلام علىٰ المكاتبات عن الأبواب السلطانية فى المكاتبات إلىٰ الملوك .

وهـذه نسخةُ كتابٍ ورد من أبى الحَسَن المَرِينِيِّ صحبةَ الهَدَايا ، والحُرَّةِ الحاجَّة فى شهر رمضانَ المعظَّم سنةَ ثمان وثلاثين وسبعمائة ، ونصُّه بعد البسملة :

من عبدِ الله علىٍّ أميرِ المسلمين ، ناصرِ الدين ، المجاهـدِ فى سبيلِ ربِّ العالمين ، ملكِ البرَّيْن ، مالكِ العُدْوتَيْن ، ٱبنِ مولانا أميرِ المسلمين ، المجاهدِ فى سـبيل رب العالمين ، ملِا البرَّيْن ، وسُلْطان العدوتين ، أبى سعيد ، ٱبنِ مولانا أمير المسلمين ، المجـاهدِ فى سـبيل رب العالمين ، ملكِ البرَّيْن ، وسلطانِ العُدْوتين ، أبى سعيدٍ (١) ، ٱبن مولانا أمير المسلمين ، المجاهد فى سـبيل رب العالمين ، ملكِ البرَّين ، وسـلطان العُدْوتين ، أبى يوسُفَ يعقوبَ بن عبـد الحق ، منَح الله التأييدَ مَقـامَه ، وفسَح لفتْح مَعَاقِل الكُفْر وكَسْر جَحَافِل الصُّفْر أيَّامه .

إلىٰ السلطان الجليلِ ، الكبيرِ ، الشهيرِ ، العادلِ ، الفاضلِ ، الكاملِ ، الكافلِ ، الملكِ ، الناصرِ ، المجاهدِ ، المُرابطِ ، المؤيَّد ، المنصورِ ، الأسـعدِ ، الأصْعَد ، الأرْقىٰ ، الأوْقىٰ ، الأمْجَد ، الأنْجَد ، الأفْخَم ، الأضْخَم ، الأوحد ، الأوْفىٰ ، ناصر الدين ، عاضد كلمة المسلمين ، مُحْيِي العدلِ فى العالمين ، فاتِح الأمصار ، حائزِ مُلْك الأقطار ، مُفِيد

(١) تقدم فى ص ٨٧ من هذا الجزء التنبيه علىٰ سلسلة نسب أبى الحسن فتنبه .

الأَوْطار، مُبيد الكُفَّار، هازِم جُيوش الأَرْمَن والفَرَنْج والكُرْج والتَّتار، خادِم الحرمين، غَيْث العُفَاه، غَوْث العُنَاه، مُصَرِّف الكتائب، مُشَرِّف المواكب، ناصر الإسْلام، ناشِر الأعْلام، فَخْرِ الأنام، ذُخْرِ الأيَّام، قائِد الجُنُود، عاقد البُنُود، حافظ الثُّغُور، حائط الجُمْهور، حامِي كلمةِ الموحِّدين، أبي المَعَالى، محمدِ بنِ السلطان؛ الجليل، الكبيرِ، الشهيرِ، الشهيدِ، الخطيرِ، العادل، الفاضِل، الكافل، الكامِل، الحافِظ، الحافِل، المؤيَّد، المكرَّم، المبَجَّل، المكَبَّر، الموقَّر، المعزَّر، المعَزَّز، المجاهد، المرابط، المُثاغِر، الأوحِد، الأسعدِ، الأصْعدِ، الأوفى، الأنْخَم، الأضْخَم، المقدّس، المرحوم، الملكِ المنصور، سيفِ الدنيا والدِّين، قَسِيم أمير المؤمنين. أبقَى اللهُ مُلْكه موصولَ الصَّوْلة والاقتِدار، مَحْمِيّ الحَوْزة حامِيًا للدِّيار، حميدَ المآثِرِ المأثُورة والآثار، عزيزَ الأولياءِ فى كلِّ مَوْطِن والأنصار.

سلامٌ كريم، زاكٍ عَمِيم، تُشْرِقُ إشراقَ النهار صَفَحاتُه، وتَعْبَقُ عن شَذا الروض المِعْطار نَفَحاتُه، يَخُصُّ إخاءكم العَلِيّ، ورحمة الله وبركاته.

أما بعــدَ حمد الله الذى وَسِع العبادَ مَنًّا جَسِيما، وفَضْلا جَزِيلا، وألهمهم الرَّشادَ بأنْ أبدَى لهم من آثار قدرته، على مقْــدار وَحْدته، بُرهانًا واضحًا ودليلا، وألزمَ أمَّة الإسلام، حَجَّ بيتِه الحرام، من استطاعَ إليه سبيلا؛ وجعل تعظيمَ شَعائِره من تَقْوى القلوب، ومَثَابات مَحطِّ الأوزار والذُّنوب؛ فما أجزَلَ نعمَتَه مَنِيلا، وأجملَ رحمةَ ربِّه مَقِيلا؛ والصلاةِ والسلامِ على سـيدنا ومولانا محمدٍ المصطفى من أفضــل العرب فَصِيلةً، فى أكمل بِقَاع الأرض فضيلة، وأكرمِها جملةً وتَفْصيلا، المجتبى لخَتْم الرساله، وحَسْم أدواء الضَّلاله، فأحسَبَ اللهُ به النبوّةَ تَمِيما والرسالةَ تكميلا، المخصُوص بالحوض المَوْرُود، والمَقَامِ المحمود، يومَ يقولُ الظالم ﴿يا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلا﴾ المبوّأ

من دار هِجْرته، ومقرّ نُصْرته، مَحَلًّا مابين بيته ومِنْبره فيه روضةٌ من رياض الجنّة لم يزلْ بها نَزِيلا ؛ والرضا عن آله الأبْرار، وأصحابِه الأخْيار، الّذين فضَّلتْهم سابقةُ السعادة تفضيلا، وأهّلَتْهم العنايةُ [بأمرِ الدّين إلىٰ أن يُوسِعُوا الأحكامَ بُرْهانا ودليلا، فإنا نحيط علم] (١) الإخاءِ الأعزِّ ما كانَ من عَزْم مولاتنا الوالدةِ قدّس الله رُوحَها، ونوّر ضَرِيحَها، علىٰ أداء فريضة الحجِّ الواجبه، وتوفيَةِ مَناسكه اللازِبَهْ؛ فاعترض الحِمَام، دُونَ ذلك المَرَام، وعاقَ القَدَر، عن بلوغ ذٰلك الوطَر، فطُوِي كتابُها، وعُجِّل إلىٰ مَقَرِّ الرحمة بفضل الله مَآبُها، وعلىٰ الله أجرُها، وعنده يُحْتَسَبُ ذُخْرها، وإنَّ لدينا مَنْ نُوجب إعظامَها، ونُقيمها بحكم البِرّ مَقَامَها، وعزْمُها إلىٰ ما أمَّلتْه مصروف، وأملُها إلىٰ ما كانت أمَّتْه موقُوف؛ وهى محلُّ والدتنا المُكرَّمة، المبرورةُ، الأثيرةُ، الموقَّرة، المبجَّلة، المفضَّلة، المعزَّزة، المعزّرة، المعظَّمة، المطهَّرة؛ أسنىٰ الله مكانَتَها، وسَنَّى من هذا القصد الشريف لُبانَتَها؛ وقد شيَّعناها إلىٰ حجِّ بيت الله الحرام، والمُثُول بحولِ الله تعالىٰ مابينَ زمْزَمَ والمَقَام؛ والفوزِ من السلام، علىٰ ضَرِيح الرساله، ومَثابة الجلاله، بِنَيْل السُّول والمَرَام: لتظفَرَ بأملها المرْغُوب، وتَنْفر بعد أداء فَرْضها لأكرم الوُجُوب.

وحينَ شَخَصَ لذٰلكم الغرضِ الكريم، مَوْكِبُها، وخلَص إلىٰ قَصْد الحَرَم العظيم، مَذْهَبُها؛ والكرامةُ تُلْحِفها، والسلامةُ إن شاء الله تكْنُفُها؛ أصحَبْناها من حُور دولتنا وأحْظيائها، ووُجوه دعوتنا العليّة وأوليائها؛ مَنِ اخترناه لهذه الوِجْهة الحميدة الأثَر، والرِّحْلة السعيدة الوِرْد إن شاء الله تعالىٰ والصَّدَر؛ من أعيانِ بنى مَرِينٍ أعزّهم الله تعالىٰ والعربِ، وأولادِ المشايخ أُولى الديانة والتقوىٰ المـائلين دِلاءَ القُرَب، إلىٰ

(١) فى الأصل وأهلتهم العناية الاخاء الخ ولايخفى ما فيه . ولعله سقط من قلم الناسخ شىء فزدنا مابين التربيعين لا على أنه هو الساقط بل ليرتبط الكلام نوع ارتباط تأمل .

عَقْـد الكَرْب، وكلّ من له أثرة مشهوره، وشُهْرةٌ بالمَزايَا الراجحة والسَّجَايا الصالحةِ مأثُوره، وقصدُهم من أداء فرضِ الحجِّ قَصْـدُها، ووِرْدُهم إن شاء اللهُ تعـالىٰ من مَنْهل بركاتِه الجمَّةِ وِرْدُها، وهكذا سيَّرنا من تُحَفِ هذه البلاد إليكم ماتيَسَّر فى الوقت تَسْيِيرُه، وإن تعذَّر فى كثيرٍ ممـا قصدناه ولهذا الغرض أردناه تَيْسِيرُه، لطُول المَغيب عن الحضره، والشُّـغُل بتمهيد البلادِ التى فتحها اللهُ علينا فى هـذه السَّفْره، وعيَّنّا لإيرادها لدَيْكم، و إيفادِها عليكم، أبا إسحاقَ آبنَ الشـيخ أبى زكريَّا يحيىٰ بنِ عثمانَ السُّوَيْدى، وأميرَ الركب الحسنَ بن عِمْران وغيْرَهم، كتب الله سـلامَتَهم، ويَمَّن ظعنَهم و إقامتَهم . ومَقامُ ذلك الإخاءِ الكريم يُسَنِّى لهم من اليُسْرىٰ والتسهيل القصدَ والسُّول، ويأمُر نُوَّاب مالَهُ من الممالك، وقُوَّامَ مابها من المَسَالك، لتكْمُلَ العناية بهم فى المَمَرّ والقُفُول . ومعظَمُ قَصْدِنا من هذه الوِجْهة المباركة إيصالُ المُصْحَف العزيز الذى خَطَطْناه بيَدِنا، وجعلناه ذخيرةَ يومِنا لغَدِنا، إلىٰ مسجد سيدنا ومولانا، وعصمةِ دِيننا ودُنْيانا، محمدٍ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم بطَيْبةَ زادها اللهُ تشريفا، وأبقىٰ علىٰ الأيام فخْرَها مُنيفا، رغبـةً فى الثواب، وحِرْصا علىٰ الفَوْز بحَظٍّ من أجر التـلاوة فيه يومَ المآب .

وقد عيَّنّا بيَدِ محلِّ الوالدة المذكورة فيـه، كَرَّم الله جَبْهَتَها، ويَمَّن وِجْهَتها، من المـال مايُشْـتَرىٰ به فى تِلْكم البلادِ المَحُوطةِ من المستَغَلَّات ما يكون وقْفا علىٰ القَرَأة فيه، مؤبَّدا عليهم وعلىٰ غيرهم من المـالكيَّة فوائدُه ومَجَانيـه . والإخاء الكريم يتلقَّى من الرُّسُل المذكورين ما إليهم فى هذه الأغراض ألقيناه [ويأمر] باحضارهم لأدائهم بالمشافهة ما لَدَيْهم أوْعَيْناه، ويُوعِز بإعانتهم علىٰ هذا الغَرَض المطلوب، ويُيَسِّر لهم أسبابَ التوصل إلىٰ الأمَل والمرغوب، وشأنُهُ العونُ علىٰ الأعمال الصالحه، ولا سيما

ما كان من أمثال هذا إلىٰ مثل هذه السُّبُل الواضحه، وشكْرُ بَادِراتكم موطَّد الأسَاس، مطَّرِد القياس، متجدِّدٌ مع اللَّحَظَات والأنفاس؛ والله يَصِل للإخاء العلىِّ نُصْرَةَ أيّامه، ويوالى نُصْرة أعلامه؛ ويُبْقِى الثُّغورَ القِصِيَّه، والسُّبُل السَّرِيَّه، منوطةً بنَقْضه وإبرامه، محُوطةً بمعاضدةِ أسيافِه وأقلامِه، والسلامُ الكريمُ العميم، يخصُّ إخاءَكم الأعزّ، ورحمةُ الله وبركاته - وكتب فى يوم الخميس المبارك الخامس والعشرين من ربيع الأوّل عام ثمانية وثلاثين وسبعمائة .

وهذه نسخةُ كتابٍ عن السلطان عثمانَ بن أبى العباس المَرِينِىّ، فى العشر الأوسط (١) من شعبانَ سنةَ أربع وثمانمائة، وهو :

من عبدِالله ووَلِيّه : عثمانَ أميرِ المسلمين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، سلطانِ الإسلام والمسلمين، ناشرِ بِسَاط العدل فى العالَمين، المقتدى بآثارِ آبائه الكِرام، المقتَفِى سُنَنَهم الحميدةَ فى نُصرة الإسلام، المُعْمِل نفسَه العزيزةَ فى التهمُّم بما قلَّده اللهُ من أمور عِباده، وحِياطة ثُغُوره وبِلاده، سيفِ الله المسْلُول علىٰ أعدائه، المنتشر عَدْلُه على أقطار المعمُور وأنحائه، ظلِّ الله تعالىٰ فى أرضه، القائم بسُنَّته وفَرْضه، عمادِ الدنيا والدِّين، علم الأئمة المهتَدين، آبنِ مولانا السلطانِ المظفَّر القان الخليفة الإمام، ملكِ الملوك الأعلام، فاتح البُلْدان والأقطار، ممهِّد الأقاليم والأمصار، جامِع أشْتات المَحامِد، مَلْجَإ الصادرِ والوارِد، الملكِ الجَوَاد، الذى حلَّتْ محبته فى الصدُور محلَّ الأرواح فى الأجساد، أميرِ المسلمين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، أبى العبَّاس آبن مولانا أمير المسلمين، المجاهدِ فى سبيل ربِّ العالمين، أبى سالِم، آبن مولانا

(١) جرى على طريقة بعض النحاة وان كان الأكثر أنه يقال العشر الوسطى أو الوسط .

أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، أبى الحسن، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل ربِّ العالمين، أبى سعيد، ابن مولانا أمير المسلمين، المجاهد فى سبيل ربِّ العالمين، أبى يوسُفَ يعقوبَ بن عبد الحق؛ وصلَ اللهُ تعالىٰ أسبابَ تأييده وعَضْدِه، وقضىٰ باتصال عُرْف تجديدِ سَعْدِه، وأناله من جميل صُنْعه ما يتكفَّل بتيسيرِ أمْره و بلُوغِ قَصْده.

إلىٰ محلِّ أخينا الذى نُؤْثِرحَقَّ إخائه الكريم، ونُثْنى علىٰ سلطانه السعيد ثَناءَ الولىِّ الحميم، ونشكر ماله فينا من الحُبِّ السليم، والوُدِّ الثابتِ المُقيم، السلطانِ الجليل، المـاجدِ الأصيل، الأعزِّ الخطيرِ المَثِيل، الشهيرِ الأمْجَد الأرفعِ، الهمامِ الأمْنَع؛ السَّرِىّ الأرضىٰ؛ المجـاهدِ الأمْضىٰ؛ الأوحدِ الأسْنىٰ، المكين الأحمىٰ؛ خَديم الحرمين الشَّريفَيْن، حائزِ الفَخْرينِ المُنيفَيْن؛ ناصرِ الدُّنيا والدِّين، مُحيي العدلِ فى العالمين؛ الأجَدّ، الأودّ، المَكين، الأخلص، الأفضل، الأكمل، أبى السَّعادات فَرَج، ابن السلطان الجليل، الأعزِّ المَثِيل، الخطير الأَصيل، الأرفَع، الأمجد، الشهير، الهُمَام، الأوحد، الأسمىٰ، الأسْرىٰ، الأرضىٰ، المجاهد، الأمضىٰ، خَديم الحرمين الشريفين، حائز الفَخْرين المُنيفين، الافضلِ، الأكمل، المبرُور، المقدَّم، المرحوم، أبى سعيد (برقوق) بن أَنَص؛ وصل اللهُ تعالىٰ لسلطانه المؤيَّد جَدًّا لا يُعْجَم عُودُه، وعِزًّا لا يَميلُ عمُوده، ونصرا يملأ قُطْرَه بما يَغَصُّ به حَسُودُه، وعَضُدا يأخُذ بزِمَام أملِه السنِّى فيَسُوقُه ويقُودُه.

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله و بركاته.

أما بعدَ حمدِ الله علىٰ سُبُوغ نعمائه، وترادُفِ لُطْفه وآلائه؛ الذى عَرَّفَنا من وَلَائكم الكريم ما سَرَّنا من اطِّراد اعتِنائه، وأبْهج النُّفُوسَ والأسماعَ من صفَاء وَلَائه،

ومواصلة صَفَائه ، والصلاةِ والسلامِ الأكملين على سيدنا ومولانا محمد خاتَم رُسُله وأنبيائه ، ومبلِّغ رسالاتِه وأنبائِه ، صاحبِ المقامِ المحمُود ، والحوضِ المَوْرُود ، واللِّواء المعقُود ، فأكْرِمْ بمَقَامه وحَوْضه ولِوائِه ؛ والرضا عن آله وصحبه وأوْليائه ، الذين هم للدِّين بدورُ آهتـدائِه ونُجُوم آقْتدائِه ؛ وصلةِ الدعاء لمقـامكم الكريم بدَوام عزِّه وآعتِلائه ، وآقتِبال النصرِ المبالـغ فى آحتفالِه وآحتفائه ، وحياطةِ أنحائِه وأرجائِه ، وتأييدِ عَزَماتِه وآرائه .

فإنا كتبْنا إليكم كتب الله لكم سَعْدا سافِرا ، وعَزْما ظافِرا ، من حضرتنا العلية بالمدينة البيضاءِ كَلأَها الله تعالى وحَرَسها ، ونِعَمُ الله سبحانَهُ لدينا واكفة السِّجال ، وولاؤه جلَّ جلالُه سابغُ الأذيال ، وخلافتكم التى نَرْعىٰ بعين البِرِّ جوانِبهَا ، ونقتَفِى فى كل مَنْقَبـة كريمةٍ سِيَرَها الحميدةَ ومَذَاهِبَها ــ وإلىٰ هذا وصـلَ الله سعدكم ووالىٰ عَضْدكم ، وكتَابُنا هـذا يُقَرِّر لكم من وِدادِنا ماشاع وذاع ، ويؤكِّد من إخلاصِـنا إليكم ما تحـدَّثُ به السُّمَّار فتُوعِيـه جميعَ الأسمـاع ؛ وقد كان آنتهىٰ إلينـا حركةُ عدُوِّ الله وعدُوّ الإسـلام ، الباغى بالآجتراء علىٰ عبـاده سبحانَه بالبُؤْس والآنتِقام ، الآخذِ فيهـم بالعَيْث والفَسَاد ، الساعى بجَهْده فى تَهْديم الحُصُون وتخرِيب البِلاد ، وتَعَرَّفْنا أنه كان يعلِّق أملَه الخائبَ بالوُصُول إلىٰ أطرافِ بلادكم المِصْريه ، وآنتهـازِ الفُرْصة علىٰ حينِ غَفْلة من خلافتِكم العليه ، والحمدُ لله الذى كفىٰ بفضله شرَّه ، ودفع نِقْمته وضُرَّه ، وآنصرف ناكِصًا علىٰ عَقِبِه ، خائبًا من نَيْل أرَبِه . ولقد كُنَّا حينَ سمِعْنا بسُوء رأْيه الذى غلبه اللهُ عليـه ؛ وما أضمر لخلقِ الله من الشرِّ الذى يجِدُه فى أعراه ظلُّه يسعىٰ بين يَدَيْه [عزمنا علىٰ] أنْ نُمِدّكم من عساكرنا المظفَّرة بمـا يَضِيق عنـه الفَضَا ، ونجهِّز لجِهَتِكم من أساطيلنا المنصورة مايُحْمَـد فى إمداد المناصَرةِ ويُرتضىٰ ؛

فالحمدُ لله علىٰ أنْ كفىٰ المؤمنين القِتَال ، وأذهبَ عنهم الأَوْجال ، ويَسَّر لهم الأعمال ، وهَيَّأ لخلافتكم السنيَّة وللسلمين ، هناءً يتضمَّن السلامةَ لكم ولهم علىٰ تعاقُبِ الأعوام والسِّنين .

وبحسَبِ مالنا فيكم من الوُدِّ الذى أَسَّست المُصافاةُ بُنْيانَه ، والحُبِّ الذى أوضَحَ الإخلاصُ بُرْهانَه ، وقع تخيُّرنا فيمن يتوجَّه من بابنا الكريم لتفصيل مُجْملَه ، وتقرير مالدَيْنا فيه علىٰ أتَمِّ وجه الاعتقادِ وأكمله ؛ علىٰ الشيخ ، الأجل ، الشريف ، المبارَك ، الأصيل ، الأسنىٰ ، الحَظِىّ ، الأعز ، الحاج ، المبرور ، الأمين ، الأحفل ، الأفضل ، الأكمل ؛ أبى عبدِ الله محمد ، ابن الشيخ الأجلّ ، الأعزّ ، الأسنىٰ ، الأوجه ، الأنْوَه ، الأرفَع ، الأمجد ، الآثَر ، الأزهىٰ ، الشريفِ ، الأصيل ، المعَظَّم المَثِيل ، الأشْهَر ، الأخْطَر ، الأمْثَل ، الأجمل ، الأفضل ، الأكمل ، المرضِىّ ، المقَدّس ، المرحوم أبِى عبدِ الله محمد ، بن أبى القاسم ، ابن نفيس الحَسَنى العراقى ؛ وصل الله تعالىٰ سعادتَه ، وأحمد علىٰ حضرتِكم السنيَّة وِفادَتَه ، حسَبَ ما يَفِى بشَرح ماحَمَّلناه نَقْلَه ، ويكمُل بايضاحه لدَيْكم يقظَتَه ونُبْله ، إن شاء الله تعالىٰ ، وهو سبحانه وتعالى يُديم سعادتكم ، ويحفَظُ مَجادَتكم ، ويُسْنِى من كل خير إرادتكم ، والسلام عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

الجمـــــلة الرابعة

(فى عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلُس)

والرسم فى ذٰلك أن يَكْتُب «الأبوابُ الشريفة» ويصفها ، ثم يقول : «أبواب السلطان الفلانى» ويصفُه ، ويذكر ألقابَه ، ثم يدعُو له ، ثم يقول : «سلام كريم» ويَصفُه . من فلان ، ويذكر السلطان المكتوب عنه ، ثم يقول : أما بعدَ حمد الله ،

ويأتى بخُطْبة فى المعنىٰ تشتمل علىٰ التحميد، والتصلية علىٰ النبى صلىّ الله عليه وسلم، والرِّضا عن الصحابة رضى الله عنهم؛ ثم يقول : فإنا كتبنا اليكم، ويأتى علىٰ مايناسب المقام، ثم ينخرط فى سِلْك المقصُود إلى آخره ويختِم بالدعاء .

وهـذه نسخةُ كتاب كُتِب به عن أمير المسلمين السـلطان أبى عبدِ الله محمدِ بن أبى الحَجّاج يوسفَ بن نصرِ بن الأحمر، صاحب غَرْناطة — من الأندلُس، إلىٰ السلطان الملك الأشرف "شعبان بن حُسَين" ابن الملك الناصر محمد بن قلاوون، إنشاء الوزير أبى عبد الله بن الخطيب، صاحبِ ديوان إنشائه، يشير فيه إلىٰ حادثة الفَرَنج بالإسكندرية، الواقعةِ فى سنة سبع وستين وسبعمائة، إلا أنه وهم فى لقبه الملوكىِّ فلقبه المنصور . وهى :

الأبوابُ الشريفـةُ التى تعنو(١) لعزَّة قَدْرِها الأبواب، وتعتَزِى إلىٰ نَسَب عَدْلها الحكمةُ والصَّواب، وتُناديها الأقطارُ البعيدةُ مفتخرةً بوَلَائها، واصلةَ السبب بعَلَائها، فيَصْدُر بمـا يَشْفِى الجَوىٰ منها الجَوَاب، فإذا حَسُن منابٌ عن أئمة الهدىٰ، وسُبَّاق المَدىٰ، كان منهـا عن عُمومة النُّبوّة النُّوّاب، وإذا ضفَتْ علىٰ العُفَاة بغيرها أثوابُ الصِّلات، ضفَتْ منها علىٰ الكعبة المقدَّسـةِ الأثْواب ـ أبوابُ السلطانِ الكبير، الجليلِ الشهير، الطاهرِ، الظاهر، الأوْحد، الأسْعد، الأصعد، الأمجد، الأعْلىٰ، العادلِ، العـالِم العامل، الكامِل، الفاضِل، الكافِل؛ سلطانِ الإسلام والمسلمين، رافعِ ظِلَال العـدْل علىٰ العالمين، جمالِ الإسلام، عَلَمِ الأعْلام، فخرِ الليالِى والأيَّام، مِلكِ البرين والبحرين، إمام الحرمين، مؤمِّل الأمصار والأقطار، وعاصبِ تاج الفَخَار، هازِم الفَرَنج والتُّرك والتتار، الملكِ المنصور أبى الفُتُوح شَعْبان، ابنِ الأمير،

(١) فى الريحانة ج ١ ص ١٠٣ "تفتح" .

الرفيع المجَاده ، الكريم البنُوَّة والوِلَاده ، الطاهِر الظاهِر ، الكبير ، الشَّهِير، المعظَّم ، الممجَّد ، الأسمىٰ ، الموقَّر ، الأعلىٰ ، فَخْرِ المِلَّة ، سَيْفِ الأُمَّة ، تاج الإمارة ، عِزّ الإسلام ، جمالِ الأيَّام ، قَمَرِ المَيادين ، أسَدِ أجمَة الدين ، سِمَام الطُّغاة والمعتدين ، المقدَّس ، المظفَّر ، الأمير أبي علىّ حسين ، ابن السلطان الكبيرِ ، الشهيرِ ، ملكِ الإسلام والمسلمين ، والد السلاطين ، [سيفِ خلافة الله فى العالمين ، ولىّ أمير المؤمنين ، وظهير الدين] (١) سلطانِ الحجِّ والجهاد ، وكاسى الحَرَم الأمين ، قامِع المعتدين ، قاهِرِ الخَوَارج والمتمرِّدين ، ناصر السنَّه ، محيي المِلَّه ، ملك البرَّين والبحرين ، مقيم رُسُوم الحرمين الشريفين ، العادِل ، العالم ، العامل ، الطاهر ، الظاهر ، الأسعدِ ، الأصعدِ ، الأوحد ، الأعلى ، المنصور ، المؤيَّد المُعَان ، المرفَّع ، المعظَّم ، المبجَّل ، المؤمَّل ، المجاهد ، المُرابِط ، الغازى ، أبي عبد الله محمد بن قلاوون ، الصالحىّ أبقاه الله ، وفَلَقُ الصباح يشهَدُ بكماله ، وخدمةُ الحرمين الشريفين طرازٌ مُذْهَبٌ علىٰ حُلَّة أعماله ، ومُسَوَّراتُ الإسلام ، آمنةٌ علىٰ طول الأيام ، من إهماله ، ولا زال رُكْنًا للدِّين الحنيف ، تتزاحَمُ علىٰ مستلَمه الشريف ، شفاه أُمَّالِه .

سلامٌ كريم ، برٌّ عميم ، كما استودعتِ الرياضُ أسرارَها ، صَدْرَ النسيم ، وأرسلَتْ مطالعُ الفجر أنهارَها ، من بحر الصَّباح الوَسِيم ، يَسْرِى من الطِّيب ، والحمدالمُطِيل المُطِيب ، فى الصِّوان الكريم ، ويقِفُ موقِفَ الأدَب والفَهَامه ؛ بما استُحْفِظ من الأمانة إلىٰ محل الإمامه ، وقوفَ الحفيظِ العليم ، يعتمِدُ مَشارِعَ تلك الأبواب الشارِعة إلىٰ الفضل العَمِيم ، المقابِلة لِذِمام وسائل الإسلام بالصَّدْر المشْروح ، والبِرّ الممنُوح ، والقَلْب السليم ـ من معظِّم سلطانه ، ومُجِلّ شانه ، المفتخِر بالانتظام فى سِلْك

(١) الزيادة من ""الريحانة"" ج ١ ص ١٠٤ .

خُلْصانه، أمير المسلمين بالأندلُس، عبدِ الله الغالبِ بالله، محمدِ بن يوسفَ بن إسماعيل آبن فرج بن نصر، بلَّغه الله من رضاه أقصى سُولِه، وأعانه على جهاد عدوِّ الله وعَدُوّ رسولِه.

أما بعدَ حمدالله جاعِلِ قِلادةِ الإسلام، على الدوام، آمنةً من الآنخرام، والآنتثار، مفصَّلةَ النِّظام، بخَرَز المآثرِ العِظام، والآثار. معرّف أهلِها، فى حَزْن البسيطة وسَهْلِها عَوارِفَ الصُّنْع المُثَار، و إقالةَ العِثَار. القويِّ العزيز الذى لايغالَبُ قَدَرُه بالآحتشاد والآستكثار، ولا يبَدَّل غَيْبُه المحجُوب، بعدَ ماعيَّن حكمَه الوُجُوب، فى خزائن الآستئثار، حتّى تظهرَ خبيئةُ عِنايتِه بأوليائه، المعترفين بآلائه، باديةً للأبصار، فيما قَرُب وبَعُد من الأعصار، ورحمتهُ عند الآستغاثةِ به والآنتصار، فى مختلف الأقطار والأمصار. الولىِّ الذى لاتُكَدِّر هِبَاتِ فضلِه شروطُ الآعتصار، ولاتَشِين خُطبَ حمده ضرائرُ الآقتصار والآختِصار.

والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمد رسوله نُخْبة الاكوان، وسِرِّ الدُّهُور والأزمان، وفائدةِ الأدوار. نورِ الله المتميِّز باختصاصه، وآستِصْفائه واستِخْلاصه، قبل خَلْق الظُّلُمات والأنوار. ورحمتِه الوارفةِ الشامله، الهامية الهامِلَه، على الهِضَاب والوِهَاد والنِّجاد والأغْوار. أقربِ عَوَالم الشَّهادة والخَلْق، إلى حضرة الحَقّ، على تعدُّد الرُّتَب وتَفَاضُل الأطوار. منقِذِ النـاس من البَوَار، ومُبَوِّيِهم من جِوار الله خيرَ الجِوار. نبيِّ الرحمة والجِهاد والغِوَار. المنصورِ على الأحزاب عند ماآستداروُا بمثْوى نُبوَّته على الأُطُم والأسْوار دَوْرَ السِّوار. الواعدِ عن ربه بظُهور دينه الحَقِّ على الأديان فمهما أوقَدُوا نارَ الحرب تكفَّلَ الله لهم بإطفاء النار و إخماد الأُوَار.

والرِّضا عن آله وأصحابه حُماةِ الذِّمار، ومقتَحِمِى الغِمَار، و باذِلى كرائم الأموال من دونِه ونَفائِس الأعمار، القائمين فى سَماء ملّته للاهتداء بسُنَنِهم، والآقتداء بسَنَنِهم،

مَقامَ النجوم الهادِية والأقمـار ؛ ماصقلَتْ مَداوِسُ النَّسِيم سُـيوفَ الأنهار ، ونَجِل الوَرْدُ من تَبَسُّم البَهار ، وغازلتْ عيونُ زهَرِ المَجرَّة عُيونَ الأزهار ، وطرَدَ أدهَمُ الليل أشهَبَ النهار .

والدُّعاءِ لتلك الأبْواب ، المتعدِّدة الحِجَاب ، المعوَّدة بٱجْتلاء غُرَر الفتوح ، والمَطَالع المشيدة المَصَانع علىٰ العزِّ الممنوح ، والأوَاوِينِ ، المؤيَّدة الدَّواوين ، بالملائكة والرُّوح ، بإعلاء المَظَاهر والصُّروح ، وإنارة الله تعـالىٰ بأهِلَّة تلك السُّروج ساحاتِ تلكَ السُّروح ، ولا زالتْ أقلامُ بشائرها تأتِي علىٰ سُورة الفتح بأكمل الشُّروح .

فإنا كتبناه لمَثَابتكم السـلطانية دارِ العِـزِّ الأحمىٰ ، والمُلْك الأشرف الأسمىٰ ، والصِّيتِ البعيد المَرْمىٰ ، كتب اللهُ لها من عِنَايته ــ وقد فعل ــ أوفرَ مقَاسِم النُّعمىٰ ، وجعل غيثَ نوالِها الأهْمىٰ ، وحَظَّ جَلالها من الله الأنْمىٰ ، ودامتْ كواكبُ سُعودها تمزِّق جلابِيبَ الظَّلْما ، وأخبارَ بأْسِها وَجُودِها ، وسعادةَ وُجُودها ، تَهْدِيها علىٰ البُعْد ركائبُ الدَّأْما ، وترفْـرِفُ برِيَاح ٱرتياحها أجنحةُ بَنَـات المـا ، من منزلنا المَحْبُور ، بسعادة سلطانكم المنصور ، وخِزْى عدوّه المدْحُور ، بحمراءِ غَرْناطةَ : دارِ ملك الجهاد بجزيرة ثغر الأندلس ، وَالىٰ اللهُ عنها الدِّفاع ، وأنارَ بمشْكاة نُوره الذى وعد بإتمامه الأعلامَ منها والأيفاع ، ووصل لها بشَرَفِ مخاطبَتكم الٱرتفاعَ والٱنتِفاع ، حتَّى تَشْفَع بتَهَانِيكم الأوتارَ وتُوتِرَ الأشْـفَاع ، وآلاءُ الله لَدَيْنا ، بنِعْمةِ دينِ الإسلام علينا ، قد أخْجلتِ اللسانَ الشَّكُور ، وإن ٱستنْفدت الرَّواحَ والبُكُور ؛ والثِّقةُ بالله فى هذا الثغر الغريب قد كَثَّرت العَدَد المَنْزُور ، والحقُّ الصَّرِيحُ قد كافحَ الزُّور ، والتَّوطِينُ علىٰ الشهادة قد شَرَح الصُّدور ، وٱقتَطَع فى الجنـة المَنازِلَ والدُّور ، والمعرِفةُ بمَقَام تلك الأبواب الشريفةِ عقيـدةٌ لاتُبدَّل ، وأدْواحُ عَلائها حمائمُ الحَمْد بها تتَهدَّل ، ومَحافلُ

ثنائها تتراكم فى سمائها الألوّة والمندل ؛ [والحال ماعلمتم : بحرٌ زاخرُ الأمواج ، وعدوٌّ وافرُ الأفواج] وحرمٌ لولا اتّقاءُ الله مقتحَم السّياج ؛ وجيادٌ ضمّرتها مصابرةُ الهياج ، ووداءٌ[1] على الأيام متوقّع الاهتياج ، وعددٌ إلى الإصراخ والإنجاد عظيمُ الاحتياج ؛ فالنفوسُ إلى الله تُجهّز وتُسلِّم ، والصّبيانُ فى المكاتب تُدرّب على مواقف الشهادة وتُعلَّم ، والألسنةُ بغير شعار الإسلام لاتتنبس غالباً ولا تتكلّم ، إلا أنّ عادةَ الخبير اللّطيف ، تخفيفُ الذُّعر المُطيف ، ونصرُ النّزْر الضعيف ، على عدد التضعيف ؛ والحالُ تُزْجى بين الحرْب والسِّلْم ، والمُكالَمة والكَلْم ، وتأميلِ الجبْر ، وارتقابِ عاقبةِ الصّبْر ، على حُماة الدّبْر .

وإلى هذا فإننا اتّصل بنا مارامت الرّوم من المَكيدة التى كان دِفاعُ الله من دُونها سَدّا ، والملائكةُ جُنْدا ، والعِصْمة سُورا ، والرّوحُ الأمينُ مَدَدا منصورا ، وأنها استنفدتِ الوُسْعَ فى احتِشادها ، حتّى ضاقتِ اللُّجج عن أعْوادِها ، وبلغَتِ المجهودَ فى استنفادها ، حتّى غَصّ كافرُ البحر بكُفّارها ، يَصيحُ بهم التأْليب ، ويُذَمِّرهم الصلِيب ، وقد سوّلَ لهم الشيطانُ كِيادَ ثَغر الإسكندرية شَجَا صُدُورهم ، ومَرْمَى آمالِ غُرُورهم ، ومُحَوَّم قَديمهم ، ومتعلَّل غَريمهم ، ليَهْتِمُوا ثَغر الإسلامِ بصَدْمتها ، ويَقُودُوا جنائبَ الساحل فى رُمّتها ، ويرفَعُوا عن دينهمُ المعرّه ، ويتلقّفُوا فى القُدْس كُرَة الكرّة ، ويُقَلِّصوا ما امتدّ من ظِلال الإسلام ، ويَشِيمُوا[2] سُيوفَ التغلّب على الشام ، ويحُولوا بينَ المسلمين وبين مَحطّ أوزارهم ، ومَحجّهم ومَزارهم ، وبيتِ ربّهم الذى يقصِدُونه من كل فَجٍّ عَميق ، ويركَبُون اليه نَهْجَ كلّ طريق ، وقبرِ نبيّهم الذى يُطْفِئُون بزيارته من الشّوق كلَّ حَريق ، ويكْحلُون الجُفونَ بمشاهدةِ آثاره عن بُكاء

(١) الزيادة من الريحانة وهى لازمة كما لايخفى .

(٢) شام السيف غمده واستله ضدّ . والمراد هنا المعنى الثانى كما لايخفى .

وشَهيق، وشوقٍ بذٰلك الحبيبِ خَليق . ويقْطَعوا حبلَ المسلمين حتّى لايتأتّى بلوغُ فريق ولا غَرضُ تشْريق ، واللهُ مِنْ ورائهم مُحيط، وبدمائهم مُشـيط ، وبعِباده بَصير، ولِدينه الحقِّ ولِيٌّ ونَصـير، ﴿ هُوَ الَّذِى أرْسَلَ رَسُـولَه بِالْهُدىٰ ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَه عَلىٰ الدِّين كُلِّه ولَوْ كَرِهَ المُشْرِكُون ﴾. فمـا هو إلّا أنْ صَمأ(١) جرادُهم، وخَلَص إليها مُرادُهم، وفاض عليها بَحْرُهم، وعظُم من المحاولة أمْرُهم، حتّى آشـترَكَ الشّرك بعضَ أسـْوارِها، ونال النهبُ مستطْرَف دِيَارها، وظُنَّت أنهـا الوَهْيةُ التى لاتُرْقَع، والمُصيبةُ التى غُلّتها لاتُنْقَع،وآشْـتَعل البـاس، وذُعِرَ الناس ، وأَرىٰ الشِّـدّة مَنْ تدارك بالفَرَج، وأعادَ إلىٰ السَّعة من الحَرَج، وأنْشأ ريحَ النَّصْر عاطِرةَ الأَرَج، ونَصر حزبَ الإسلامِ مَنْ لاغالِبَ لمن ينْصُره، وحصَر العدُوَّ من كان العدُوُّ يحصُره، وظهر الحقُّ علىٰ البـاطل، والحالِى بزينةِ اللهِ علىٰ العاطل ، نخرج العـدُوُّ الخاسر عما حازه والسُّيوفُ تُرْهِقُه حيثُ تُلْفيه، والسِّهام تُثْبِته وتَنْفيه، وغُرماءُ كَرَّة الإسلام تستَقْضِى منه دينَهَا وتستَوْفيه ، والخِزْىُ قد جلَّل سِـبَالَه الصُّهْب ، وحِنَّاءُ الدِّماء قد خضَبَتْ مَشْيَختَه الشُّهب، والغَلَبُ قد أخْضعَ رِقابَه الغُلْب، فكَمْ من غريقٍ أرْدَتْه دُرُوعه، لَمّـا حُشِى بالرَّوع رُوعُه، وطَعِينٍ نُظِمتْ بالسَّمْهرِىّ ضُلُوعه، فغُلِبوا هُنالِكَ وآنْقَلَبُوا صاغِرِين ، وأَحقَّ اللهُ الحقَّ بكلماته وقَطَع دابِرَ الكافِرِين ، و﴿ كَمْ مِن فِئَـةٍ قَلِيلةٍ غَلَبَتْ فِئَـةً كثيرةً بإذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِين ﴾ . فأىُّ رحمةٍ منشورةٍ ضفَتْ علىٰ الإسلام ظِلالُهـا ، وخِطَّة نعمةٍ آتَّسع نِطاقُها ورَحُبَ مجَالُهـا ، ومَجْلىٰ صَنيعةٍ راقَ عُيونَ المؤمنين جمالُها، فاهتَزَّتْ بها الأرضُ وربَتْ،وبِشُكْر الله جلَّ جلالُه أعربَتْ، وآسْتَبْشَرت النُّفُوس، وذهَبَ البُوس، وضَفَا بمِنَّة الله اللَّبُوس، وظهرتْ عنايةُ الله بمَقامكم ، وإقالةِ عَثْرةِ الإسـلام فى أيّامكم ؛ فمـا كانَ اللهُ سبحانَه لِيُضيع لكم خِدمةَ

(١) صمأ عليهم كمنع طلع أنظر القاموس فى باب المهموز .

الحرمين، وإنّها للوسيلة الكُبْرىٰ ، والذّريعةُ إلىٰ سعادة الدنيا والأُخرىٰ؛ وهى عُهدةُ اللهِ التى يصُونُها من كل اهْتِضام ، وقِلادتُه التى ما كان يتركُها بغير نِظَام .
وكان من لطائفِ هذا الفَتْح الذى أجزَلَ البُشْرىٰ، وأوسَعَ أعلامَ الإسلامِ نَشْرا، ورُودُه بعد أنْ شُفِيت العِلَّه، ونُصِرت المِلَّه، وبعْدَ أن جَفَا الدهرُ وتجافىٰ، وعادىٰ ثُمَّ صافىٰ، وهَجَر ووَافىٰ، وأمْرَضَ ثم عافىٰ؛ فلو ورد مُقدّمه قبل تَاليه، ونَقْدُه متأخِّرا عن كالِيه، أو كانتْ أواخِرُه بعيدًا ما بيْنَها وبيْنَ أَوَاليه، لأَوْحَشَت الظُّنونُ وساءَتْ، وبلغتِ الهمومُ من النُّفوس ماشاءَتْ؛ فإنَّ الإسلامَ كالجسد يتداعىٰ كلُّه لتألُّم بعْضِه، ويتَساهَمُ إخوانُه فى بَسْطه وقَبْضه، وسَماؤُه مرتبِطةٌ بأرْضه، ونَفْلُه متعلِّق بفَرْضه ، فالحمدُ لله الذى خفَّف الأثقال، وألْهم حالَ الضُّرِّ الانتقال ، وسوَّغ فى الشُّكرالمَقال، وزاروأ قال، وجمع بينَ إيقاظ القلوب ، وإنالة المطلُوب ، وأنْ وجد العدوُّ طعمَ الإسلامِ مُرًّا فما ذاقَه ، وعُودَه صُلْبا فما أطاقه ، ورفَع عن طريق بيتِ الله ماعاقَه، وقاد إليكم فى بُيوتِكم فَضْل الجهادِ وساقَه [وردَّ المكر السَّيِّئَ علىٰ العدوِّ وأحاقه](١) فما كانتْ هذه المَكيدةُ إلا داهيةً للكفر طارِقه، ونَكْثةً لعَصَب التثليث عارِقه، ومُعْجِزَةً من آثار النبيِّ الشريف لهذا الدين المنيف خارِقَه؛ واستأصلَتْ للعدوِّ المال، وقطعَت الآمال، وأوهنَتِ اليمينَ والشِّمال . فبادَرْنا عند تعَرُّف الخبَر، المختال من أثواب المَسَرَّة فى أبْهىٰ الحِبَر، المُهْدِى أعظَمَ العِبَر، إلىٰ تهنئتكم تطيرُ بنا أجنحةُ الارتياح، مُبارِيةً للرِّياح، وتستفِزُّنا دَواعِى الأفراح، بحَسَبِ الوُدِّ الصُّراح؛ وكيفَ لايُسَرُّ اليَسَار بيمينه [والوجهُ بجبِينه، والمسلمُ بدِينه، وخاطبنا كم مهنئين ولولا العوائقُ](١) التى لاتبْرح ، والموانعُ التى وضَحَتْ حتّىٰ لاتُشْرَح، ومكايدةُ هذا العدوِّ الذى يأْسُو به الدَّهرُ ويَجْرَح، لم نجْتزِ بإعلامِ القلَم، عن إعمال القَدَم، حتّىٰ نتشرفَ [بالوُرود علىٰ

(١) الزيادة من "الريحانة" .

تلكَ المَثابةِ الشريفه، ونمتازَ بزيارةِ الأبواب المنيفه، فنقضى] (١) الفَرْض تحتَ رَعْيِها، وبركةِ سَعْيِها، لكن المرءُ جَنِيبُ أَمَلِه، ونيّةُ المؤمن أبلغُ من عَمَلِه؛ فهنيئًا بما خوّلكم الله من ظَفَرٍ شهدتْ برِضا الله مراسِمُه، وافترّت عن ثُغُور العناية الربّانيّة مَباسِمُه، وتوفّرتْ لديكم مَواهِبُه ومَقاسِمُه، ويُهنّئُ البيتُ المقدّسُ مكانُ فضلِ الله ومَنّه، وسلامةِ مِجَنّه، ويهنّئُ الإسلامُ عِصمةَ ثغره المُؤْشَر، وطهارةَ كتابه المُنْشَر، وجمالَ عُنْوانه، وقُفْل صِوانه، وبابَ إيوانه: مَرفَأ الفُسْطاط، ومَركَزَ لِواء الرِّباط، ومَحطَّ رحال الاغتباط، ومتخيَّرَ الإسكَنْدَر عند البِناء والاختطاط. ومما زادنا بَجَحا بهذا الفتْح، وسُرُورا زائدا بهذا المَنْح، ما تحقّقْنا أنه يثير من شَفَقة المسلمين لهذا القُطْر الذى لا يزالُ يَطْرُقُه ما طرق الإسكندريةَ علىٰ مَرِّ الأيام، وتُجْلِب عليه بَرًّا وبحرًا عَبَدَةُ الأصنام، بحيثُ البَرُّ موصُول، والكُفرُ بكثرة العَدَد يَصُول، ونيرانُ الجِوَار [مترائيةٌ للعِيان، والفَراسِخ القليلة] (١) متوسّطةٌ بين مختَلف النِّحل والأديان، والعدد لايُنْسَب، والصَّريخ إلّا من عند الله لايُحْسَب، فتُنْجِدُنا بالدعاء ألسِنةُ فُضَلائه، وتُسْهِمنا خواطرُ صالِحيه وأوليائه، واللهُ لايقطَع عن الجميع عوائدَ آلائِه، ويَعَرِّفنا بركَةَ أَنْبيائه، وينصُرنا فى أرضِه بملائكة سَمائه.

وقد كان اتّصل بنا فى هذه الأيامِ الفارطة الذُّخْرُ الذى مَلأ اليد استكثارا، والخَلَد اعتِدادًا واستِظْهارا، والهِمَم فَخَارا، وأضاءَ القُطْرَ أنوارا: جوابُكم الكريمُ يُتَنَسَّم من نَفَحاته شَذَا الإذْخِر والجَليل، وتُلْتَمس من خِلال حافَاته بركاتُ الخليل، وتقرىٰ الوُجُوه به آثارَ المَعاهد، وتُلْتمَح من ثنايا وِفادته بوارِقُ الفوائد، فأَكْرِمْ به من وافدٍ مَخْطوب، وزائرٍ مَرْقُوب، صَدَعْنا به فى حَفْل الجهاد انتحاء وافتخارا، ثم صُنّاه

(١) الزيادة من الريحانة .

فى كرائمِ الخَزائن ٱقتناءً لِخَلَف وادِّخارا ، وجعلْنا قِرَاه شُكْرا مِعْطارا ، وثناءً يبقىٰ فى الخافقين مُطَارا ، ودعاءً يُعْلِى اللهُ به لمقامكم السنِيِّ فى أوليائه مِقْدارا ، ويجهِّزُ به لمُلْكِكم كما فَعَل أنصارا ، ويثِيبُكم الجنةَ التى لا يَرْضىٰ السعداءُ بغيرها قَرَارا ، والله تعالىٰ يجعلُ لأفلاك الهَنَاء علىٰ مخاطَبةِ مقامكم الرفيع العلاءِ مَدَارا ، ويُقيمُ الشكرَ ألزَمِ الوظائِف لحقِّكم ٱبتِدارا ، والثناء أولىٰ ماتحلَّى به مجدكم شعارا ، ويُبْقِيكم للإسلام رُكْنا شديدا ، وظلًّا مَدِيدا ، وسماءً مِدْرارا ، مااستأنفتِ البدورُ إبْدارا ، وعاقَبَ الليلُ نهارا ، والسلام .

المقصـــد الثـالث

(فى رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السُّودان ؛ وفيه ثلاثة أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فى المكاتَبات إلىٰ صاحب مالِّى)[1]

وهو المستولِى علىٰ التَّكْرور وغانةَ وغيرهما ، وهى أعظمُ ممالك السُّودان المسلمين مملَكةً ، ولم أقِفْ لأحدٍ منهم علىٰ صُورةِ مكاتبة إلىٰ الأبواب السلطانية ، إلا أنَّ المقرّ الشهابِىَّ بنَ فَضل الله فى كتابه "مسالك الأبصار" عند الكلام علىٰ هـذه المملكةِ تعرّض لذِكر سُلْطانها فى زمان الملك الناصر «محمد بن قلاوون» وهو مَنْسىٰ موسىٰ ؛ وذكر أنه ورد منه كتاب يُمْسِك لنفسه فيه ناموسًا ولم يورد نسختَه .

---

(١) كذا فى الأصل ولعله « المكاتبات الواردة من صاحب مالى » كما يقتضيه التقسيم فتنبه .

الطـــرف الثـانى

(فى المكاتبات الصادرة عن صاحب البَرْنُو)

ورسم مكاتَبته أن تُكتَب فى ورق مربَّع بخطٍّ كخط المغاربة : فإن فضل من المكاتبة شيء كُتِب بظاهرها، وتُفْتَتح المكاتبة بخُطْبة مفتَتَحة بالحمد، ثم يتَخَلَّص إلىٰ المقْصَد ببَعدِيَّة، ويأتى علىٰ المقصد إلىٰ آخره، ورأيته قد ختَم مكاتبته إلىٰ الأبواب السلطانية بقوله : والسلامُ علىٰ من اتَّبع الهدىٰ . وكأنّ ذلك جهلٌ من الكاتب بمقاصد صناعةِ الإنشاء ، إذ لايهتدُون إلىٰ حقائقها .

وهذه نسخةُ كتابٍ ورد علىٰ الملك الظاهر « أبى سعيد برقوق » ووصل فى شُهور سنة أربع وتسعين وسبعمائة، صحبةَ آبن عمه، مع هدِيَّةٍ بعث بها إلىٰ السلطان بسببِ مايذْكُر فيه من أمر عَرَب جُذَام المجاورةِ لهم، وهى فى ورق مربَّع، السطرُ إلىٰ جانب السَّطْر، بخطٍّ مَغْرِبىّ، وليس له هامشٌ فى أعلاه ولا جانِبِه ، وتَتِمَّة الكتاب فى ظهره من ذيل الكتاب وهو :

بسم الله الرحمن الرحيم، صلّىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما .

الحمدُ لله الذى جعل الخطَّ تَراسُلا بين الأَبَاعد، وتَرْجُمانا بين الأقارب، ومُصافَحَةً بينَ الأحباب ، ومُؤْنِسا بين العلماء، ومُوحِشا بين الجُهَّال ، ولولا ذٰلك لبطلتِ الكلمات، وفَسَدت الحاجات. وصلواتُ الله علىٰ نبينا المصطفىٰ، ورسُولنا المُرْتضىٰ، الذى أَغْلَق الله به بابَ النبوّة وخَتَم، وجعله آخرَ المرسلين بشيرا ونَذِيرا، وداعياً إلىٰ الله بإذنه وسِراجًا مُنِيرا، ماناحتِ الوُرْق ، وما عاقبَ الشُّروقَ الأَصِيل . ثم بعــدَ ذٰلك أبو بكر وعُمَر وعثمانُ وعلىّ، رضى اللهُ عنهم أجمعين .

من المتوكِّل علىٰ الله تعالىٰ، الملِك، الأجل، سيفِ الإسلام، ورَبيع الأيْتام، الملِك المِقْـدام، القائم بأمْرِ الرحمٰن، المستنصِر بالله المنصـورِ فى كلِّ حينٍ وأوَانٍ، ودهْرٍ وزمَان: الملِك، العادلِ، الزاهِد، التقىّ، النقىّ، الأنْجَد، الأمْجَد، الغَشَمْشَم، فخرِ الدين، زيْن الإسلام، قُطْب الجلالة، سُلَالةِ الكرماء، كَهْف الصُّدور، مِصباح الظلام، أبى عَمْرو عثمان الملك، آبن إدريس الحاج أمير المؤمنين المرحوم، كرم الله ضريحه، وأدام ذرّية هذا بملكه ـ هذا اللفظ وارد علىٰ [لسان] كاتبنا لآلنا ولا نخرـ

إلىٰ مَلِك المِصْر الجليل، أرض الله المبـارَكة أمِّ الدنيا .

سلامٌ عليكم أعطرُ من المِسْك الأذْفَر، وأعذَبُ من ماءِ الغَمَام والْيَمّ، زاد الله مُلْككم وسلطانَكُم؛ والسلام علىٰ جلسائكم وفُقَهائكم وعُلَمائكم، الذين يدْرُسُون القرءان والعلوم، وجماعتِكم، وأهل طاعتكم، أجمعين .

وبعدَ ذاك، فإنا قد أرسلنا إليكم رسولَنا؛ وهو ابن عمِّى، آسمه إدريس بن محمد من أجل الجائحةِ الّتى وجدْناها، وملوكَنا، فإنّ الأعرابَ [الذين] يُسـمَّوْن جُذَاما وغيْرَهم قد سبَوْا أحرَارَنا: من النساء والصِّبيان، وضُعَفاء الرجال، وقَرَابتِنا، وغيرهم من المسلمين . ومنهم مَنْ يشرِكُون بالله، يُمـارقُون للديـن، فغارُوا علىٰ المسلمين فقتَلُوهم قتْلا شـديدا؛ لفتنةٍ وقعتْ بيْنَنا وبين أعدائنا، فبسبب تلك الفتنة قد قتلوا مَلِكَنا، عمرو بن إدريس الشهيد، وهو أخونا آبن أبينا إدريس الحاج، بن إبراهيم الحاج؛ ونحن بَنُو سَيْف بن ذى يَزَن، و[الد] قبيلتنا، العربىّ القُرَشىّ، كذا ضـبَطْناه عن شيوخنا، وهؤلاء الأعراب قد أفسدُوا أرضَنا كلَّها، فى بلد بَرْنُو كافَّةً حتّى الآنَ، وسبَوْا أحرارنا وقرابتَنا من المسلمين، ويبيعُونَهم لجُلَّاب مصرَ والشـامِ وغيرهم، ويختدِمُون ببعضهم؛ فإنَّ حكم مصرَ قد جعله الله فى أيديكم من البحرِ إلىٰ أُسْوان، فإنهم قد آتخذُوا مَتْجرا؛ فتبعَثُوا الرسـل إلىٰ جميـع أرضِكم، وأمرائِكم،

ووُزَرائكم، وقُضاتكم، وحُكّامكم، وعلمائكم، وصواحب أسواقكم، ينظُرون ويحثون ويَكْشِفُون، فإذا وجدُوهم فلينتزِعُوهم من أيديهم، وليَبْتَلُوهم، فإنْ قالوا نحن أحرارٌ ونحن مسلمون فصدّقُوهم ولا تكذّبوهم، فإذا تبين ذلك لكم فأطلِقوهم ورُدُّوهم إلىٰ حرّيتهم وإسلامهم، فإن بعضَ الأعراب يُفسِدون فى أرضنا ولا يُصْلِحون، فإنهم الجاهلون كتابَ الله وسنة رسولنا، فإنهم يزيّنون الباطل، فاتقُوا الله واخْشَوْه ولا تَخْذُلُوهم يُسْتَرقُّوا ويُبَاعوا. قال الله تعالىٰ ﴿والمؤمِنُونَ والمُؤْمِنَاتُ بعضُهم أوْلِياءُ بعضٍ يَأْمُرُون بالمَعْروف ويَنْهَوْنَ عن المُنْكر﴾. وقال الله تعالىٰ لنبيه عليه السلام ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُم بما أنْزَل اللهُ ولا تَتَّبِعْ أهْواءَهم﴾. وقال الله تعالىٰ ﴿ولَوْلا دَفْعُ الله النَّاسَ بَعْضَهُمْ ببَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأرْضُ﴾. وكان عليه السلام يقول: «السلطانُ ظِلُّ الله فى الأرض يَأْوِى إليه كلُّ مَظْلوم». وقال: «المُؤْمِنُون كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعْضُهم بَعْضًا إلىٰ يَوْمِ القيامةِ». وقال: «المُؤْمِنُ أخُو المؤمِن لا يَظْلِمه ولا يُسْلِمُه» إلىٰ آخره. وفى الحكمة: ومن الفرائض الأمرُ بالمعروف علىٰ كلِّ من بُسِطتْ يدُه فى الأرض (أراد به السلاطين) وعلىٰ من تَصِل يدُه الىٰ ذلك (أراد بذلك القضاةَ والحكّامَ والأمراءَ) فإن لم يقدر فبلسانه، (أراد بذلك الفقهاءَ والعلماءَ) وان لم يقدر فبقلبه، (أراد بذلك عامّةَ المسلمين) أطال الله بقاءكم فى أرضكم. فازْجُروا الأعراب المفسدين عن دَعَرِهم، قال الله تعالىٰ ﴿والَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنين﴾ وقال عليه السلام: «كُلُّكم راعٍ وكُلُّكم مَسْئُول عن رَعِيَّته». وقال فى الحكمة: لولا السلطانُ لأكل بعْضُهم بعضا. وقال تعالىٰ لنبيه داود عليه السلام ﴿يادَاوُدُ إنَّا جَعَلْناكَ خليفَةً فى الْأرضِ فاحْكُمْ بينَ النَاسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِع الهوىٰ فيُضِلَّكَ عن سبيلِ اللهِ إنَّ الذين يَضِلُّونَ عنْ سَبِيلِ الله لَهُمْ عذابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾ والسلام علىٰ من اتّبع الهدىٰ ــ ولم يؤرّخ.

الطـــــرف الثـالث

(فى المكاتبات الصادرة عن ملِك "الكانِم" ولم أقِف له علىٰ مكاتبةٍ إلا أنه يُشْبِه أن تكون المكاتبةُ عنه نظيرَ المكاتبة عن صاحب "البَرْنُو" فإنه علىٰ قُرْب من مملكته والله أعلم

المقصـــد الرابع

(فى الكتُب الواردة من الجانب الشَّمالىّ، وهى بلاد الروم)

قد تقدّم ذكرُ المكاتبة إلىٰ أُمَرائها ، وأنَّ كبيرهم الذى صار أمْرُهم إليه وٱنقادُوا إلىٰ طاعته الآنَ هو ٱبنُ عثمانَ صاحبُ بُرْسا[(١)] .

القســـم الثـالث

(من المكاتبات الواردة إلىٰ هذه المملكة الكتبُ الواردةُ عن ملوك الكُفّار، وهى علىٰ أربعة أضرب)

الضرب الأوّل

(الكتبُ الواردة عن ملوك الكُرْج[(٢)])

الضرب الثـانى

(الكتبُ الواردةُ عن ملوك الحَبَشة)

والعادةُ فيها أنْ تَرِد فى قَطْع [(٣)] باللسان [(٣)] ولم أظْفَر بصورة مكاتبة فى هذا المعنىٰ إلّا مكاتبةً واحدةً وردَتْ علىٰ الملك الظاهر بِيبَرْس، ضِمْنَ كتابٍ إلىٰ صاحبِ اليمن، وصاحبُ اليمن أرسله إلىٰ هنا فيما وقفْتُ عليه فى بعض المصنَّفات، وهو :

(١) لم يذكر فى الأصل نموذجا من المكاتبة ولا ترك لها بياضا كالعادة فتنبه .

(٢) لم يذكر لها نموذجا ولم يتكلم على رسمها كغيرها . (٣) بياض فى الأصل .

أقلُّ المـاليك يقبِّل الأرض، وينْهِي بين يدِي السلطان الملكِ الظاهر، خلَّد الله مُلْكَه، أنَّ رسولًا وصلَ إلىّ مِنْ والِي قُوص، بسببِ الراهب الذى جاءنا، فنحن ما جاءنا مِطْرانُ مولانا السلطانِ ونحن عبيدُه، فيرسُمُ مولانا السلطانُ للبَطْرِيَرْك [أن] يجهِّز لنا مِطْرانا يكونُ رجلا جيِّدا عالما، لا يَجْنِي ذهَبا ولا فِضَّة، ويُرْسِله إلىٰ مدينة "عوَان". وأقلُّ المماليك يُسَيِّر إلىٰ نُوَّاب مولانا الملك المظفَّر: صاحب اليَمَن ما يلزمه، وهو يُسَيِّره إلىٰ نُوَّاب مولانا السلطان، وما كان سببُ تأخير الرُّسُل عن الحضور إلىٰ [ما] بين يدى مولانا السـلطانِ إلا أننى كنتُ فى سكار (؟) والملكُ داودُ قد تُوُفِّيَ، وقد مُلِّك موضعه ولَدُه، وعِنْدِى فى عسكرى مائةُ ألفِ فارس مسلمين؛ وأما النصارىٰ فكثير لايُحْصَوْن، والكلُّ غِلْمانُك وتحتَ أمْرِك، والمَطْران الكبيرُ يدعُو لك والخلْقُ كلُّهـم يقولون آمين؛ وكلُّ من يصل من المسلمين إلىٰ بلادنا نكونُ له أقلَّ المـاليك، ونحفَظُهم ونسَفِّرهم كما يحبُّون ويختـارُون؛ وأما الرسولُ الذى سفَّروه فهو مريض، وبلادُنا وخِمَة. أىُّ مَنْ مَرِض لا يقدرُ أحد يدخُل إليه، وأىُّ من شَمَّ رائحته فيمْرَض فيموت. ونحن نحفَظُ كلَّ من يأتى من بلاد المسلمين، فسيِّروا مَطْرانا يحفظهم.

قلت: وقد تقـدّم الجوابُ عن هـذا الكتاب من كلام القاضى محيي الدين بن عبد الظـاهر، فى الكلام علىٰ الكتُب الصادرة عن الأبواب السلطانيـة إلىٰ أهل الجانب الجنوبى من أهل الكُفْر، ولكن الكتابُ المذكور يخالف ما تقـدّم هناك من ادِّعائه العظمة، وأنه لولا اضطِرارُه إلىٰ أخْذ المَطْران من بَطْرِيَرْك الديار المصرية لكان يَشْمَخُ بنَفْسه عن المكاتبة، ولعلَّ ذلك كان فى الزمن المتقدّم.

الضـــــرب الثـالث

(الكُتُبُ الواردةُ عن ملوكِ الرُّوم، ورأْسُ الكلِّ صاحبُ القُسْطَنْطِينِيَّة)

وقد وقفْتُ علىٰ كتابٍ ورد منه فى السابع والعشرين من صَفَر سـنَةَ أربعَ عشرةَ وثمانمائة فى دَرْج ورق فَرَنْجِيٍّ فى نحو عشرين وَصْلا قَطْع النصف، والبياضُ فى أعلاه وصلٌ واحد، وفى أسـفلِه وَصْلانِ، وله هامشٌ عن يمينه وهامشٌ عن يساره، كلٌّ منهما تقديرُ إصبعين، ومقدارُ ما بين السُّطور متفاوتٌ: فأعلاه بينَ كلِّ سـطرين أربعةُ أصابع مطبُوقة، ثم بعد تقدير ثلُث الكتاب بين كلِّ سـطرين قدرُ ثلاثة أصابعَ، ثم بعد ذلك بين كل سطرين قدرُ إصبعين، ثم بعد ذلك بين كل سطرين قـدرُ ثلاثة أصابعَ إلىٰ آخر الكتاب، والقـلم فى غاية [الدقة بـ]قلم الرِّقاع الدقيق، وفى آخره ثلاثة أسطر وقطعةٌ بالحمرة بقلم أجلّ من الأوّل قليلا.

وهـذه نسخةُ كتاب معرَّبةٌ بترجمة بَطْرَكِ المَلِكانية، بحضور سيفِ الدين سَيْف(١) التَّرْجُمان، وهى:

المعظَّم، الممجَّد، المبجَّل، الضابط، السلطانُ، الكبيرُ، سلطان مصرَ ودِمَشْق وحَلَبَ وغيرِها، الملكُ الناصر (فرج) آبن السلطانِ الكبيرِ المرحومِ الظاهر (برقوق) المحبوبُ إلىّ العزيزُ أكثر من أولاد مملكتى.

يُحيطُ علمه أننى ومملكتى طيِّبُون بنعمة الله تعالىٰ، وكذلك تكونُ - انْ شاء الله تعالى - سلطنَتُك الممجَّدةُ طيبةً فى خير، وأنَّ المحبةَ والمودّة لم تزلْ بين والدك المرحوم وبين والدى إلىٰ آخر وقتٍ. ونحن بحمد الله قد تزايدت محبَّتُنا علىٰ ذلك وتكاثَرتْ،

---

(١) لعله سودون الآتى بعد فى الضرب الرابع.

ونتوكّد أيضا المحبـةُ بيننـا وبين سلطَنتك المعظَّمة إلىٰ الأبد ، فإنّ ذلٰك واجبٌ ، وتتردّد رُسُلُكم بكُتُبكم إلينا ، وكذلك رسلُنا بكتُبِنا إلىٰ مُلْككم ، وكان قصْدُنا أن نجهّز إليكم رســولا لكنَّ الفِتَنَ فى بلادنا ، وما بلَغَنا من ســفَر مولانا السلطان من تحتِ مملكته ، ولم نعرف إلىٰ أىِّ مكانٍ توجَّه ، أوجب تأخيرَ ذلٰك ؛ وأنَّ حاملَ هذا الكتاب المتوجهَ به إلىٰ السلطان المعظم المسمّٰى (سورمش) التاجر من اسطنبول هو من جِهتَنا ، وله عادَة بالتردُّد إلىٰ مملكتكم المعظَّمة ، ونحن نعلم أنَّ سلطنتك تُحِبُّ الطيورَ الكَوَاهِي ؛ فجهّزنا لكم صحبــةَ المذكور خَمْس كواهي وبازْدَار ، ليكونَ نظرُكم الشريف عليهم ، وكذلك علىٰ البطاركة والنصارىٰ والكَنَائس علىٰ حُكْم مَعْدَلة السلطان ومحبَّته ، والوصيةُ بهــم ، ومعاونَتُهم ورعايتُهم وإجراؤَهم علىٰ جارى عوائدهم ، من غير تشــويشٍ علىٰ ماألِفُوه من إنصافكم أوّلا وآخرا لأجل محبتكم لنــا ومحبتنا ، وٱستمْرار العناية بهــم ، مع أنَّ البطاركة عَرَّفونا أنَّ مولانا الســلطان يُبْرز مرسومه بمراعاتِهِم ، والإحسانِ إليهــم ، ولم يزالوا داعِينَ له شا كرِينَ من مَعْدَلته ، ونُضاعفُ شكرنا من إحسانكم علىٰ ذلك ، وتكونوا انــ شاء الله تعالىٰ طيبين ، والمحبة متزايدة فى أيَّامِكم وأيَّامنا ، ومهما كان لمولانا السلطان بمملكتنا من أطواع (١) ، فيرسمُ يعرّفُنا بهــا ونبادِرُ بذٰلك .

والذى بآخره بالحمرة علامةُ الملك مضمونهــا (مانويك المســيحى بنعمة الله ، ضابط مملكة الروم البَلَاَلُوغس) .

---

(١) كذا فى الأصل ومراده من خدم أو حاجات .

الضـــــــرب الرابع

(الكتبُ الواردةُ من جهة ملوك الفَرَنْج بالأنْدَلُس، والجهاتِ الشَّمالية، وما والىٰ ذلك)

والعادة فيها أن تكتب باللســان الفَرَنْجىّ، وعادةُ الكتب الواردةِ عنهم جملةً أن تكتب فى فَرْخةٍ ورقٍ فَرَنْجىٍّ مربَّعة علىٰ نحو مقدار الفَرْخة البلدىّ أو دُونها، بأسطر متقاربةٍ، باللسان الفَرَنْجىّ وقلمه، ثم يُطْوىٰ طيًّا مسطَّحا ويُعَنْون فى وَسَطه، ويطوىٰ من جهتى الأوّل والآخِر حتّى يصير العنوانُ ظاهرا من الطىِّ، ثم يُخْرَز ويُخْتَم بسَحَاءة، ويختم عليه بطَمْغة فى شَمَع أحمر علىٰ نحو ماتقدّم فى الكتب الواردة عن ملوك الغرب؛ فاذا ورد علىٰ الأبواب السلطانية فُكَّ ختمُه، وتُرْجِم بترجمة التَّرْجُمان بالأبواب السلطانية وكُتب تعـريبُه فى ورقة مفردةٍ وأُلْصِقت به بعـد كتابةِ الجواب من التعريب علىٰ ما تقدّم ذكره فى مقدّمة الكتاب .

وهذه نسخة كتابٍ واردٍ من دُوج البَنَادقة ميكائيلَ، علىٰ يد قاصده نُقُولا البندُقىّ فى سادس عشر صَفَر المبارك سنة أربعَ عشرةَ وثمانمائة ، ترجمةُ شمس الدين سُنْقُر، وسيفِ الدِّين سُودُون ، التراجمة بالأبواب الشريفة، فى فرخةِ ورَق فَرَنْجِىٍّ مربعةٍ متقاربةِ السطور، وهو :

السلطانُ المعظَّم، ملكُ الملوك «فرجُ الله» ناصرُالملة الإسلامية، خَلَّد الله سلطانَه.

يقبِّل الأرضَ بين يديه نُقُولا(١) دُوج البنَادقة ، ويسألُ الله أن يزيد عظَمَته: لأنه ناصرالحق ومؤيِّدُه، ومَوْئل الممـالك الإسلامية كلِّها . ويُنْهى ما عنده من الشَّوْق

(١) تقدم قبل بأسطر أن آسمه ميكائيل وأن اسم رسوله نقولا . فتنبه

والمحبة لمولانا السلطان، وأنه لم تَزل أكابر التجّار والمحتَشِـمين والمتردِّدين من الفَرَنْج إلىٰ الممالك الإسلامية شاكِرِين من عَدْل مولانا السلطان وعلوِّ مجده، وتُزايِدُ الدعاءَ ببقاء دولته، وقد رغِب التُّجّار بالتَّرداد إلىٰ مملكته الشريفة بواسطةِ ذلك، ولأجل الصُّلْح المتصل الآنَ بيننا والمحبةِ .

وأما غيرُ ذلك، فإنه بلغنا ما اتَّفق فى العام الماضى من حَبْس العـسكر فى ثَغْر دِمْياط المحروس، وأن مولانا السلطان مَسَك قُنْصـل البنادقة والمحتَشِـمين من التجّار بثغر الإسكندرية المحروس، وزَنْجرهم بالحديد، وأحضرهم إلىٰ القاهرة، وحصلت لهم البهدلةُ بين جُنُوسهم والضَّرَر والقَهْر الزائد، وكسر حرمَتَنا بين أهل طائفتنا، فإن الذى فُعِل مع المذكورين إنما فُعِل معنا، وتعجَّبْنا من ذلك: لأنَّ طائفتنا لم يكن لهم ذَنْب، وهذا مع كثرةِ عدْل مولانا السلطان فى مملكته، ومحبَّتنا له، ومناداتنا فى جميع مملكتِنا بكثرة عدْله، وبمحبتِـه لطائفتنا، وإقبالِه عليهم، وقولِنا لجميع نُوّابنا: إنهم يُكْرِمون من يجِدُونه من مَمْلكة مولانا السلطان ويُراعُونه ويُحسِنون إليه، والمسئُول من إحسانه الوصيةُ بالقُنْصل والتجّار وغيرهم من البنادقة، ومراعاتُهم وإكرامهم والإقبالُ عليهم، والنظرُ فى أمورهم اذا حصل ما يُشْبِه هذا الأمر، ومنعُ من يشا كلهم لتحصُلَ بذلك الطُّمأنينةُ للتُّجّار، ويتردَّدوا إلىٰ مملكته .

وهذه نسخة كتاب ورد من كَبْطان المـاغُوصة والمستشارين بها، فى ثامن عشر صفر المبارك سنةَ أربعَ عشرةَ وثمـانمـائة، ترجمة شمس الدين سُنْقُر وسيفِ الدين سودون التَّرجُمَانَين بالأبواب الشريفة، وهو :

الملك المعظَّم، ملكُ الملوك، صاحبُ مصر المحروسة، الملك النـاصر، عظَّم الله شأنه .

يقبّل الأرض بين أياديه الكبطانُ والمستشارون، ويُنْهُون أنهم آناءَ الليل داعُونَ بطول بقائه، مجتهدون فى ٱستمرار الصُّلْح والمودّة التى لايشوبُها كَدَر بين القومون(؟) وبين مولانا السلطان، وأنَّ فى هذا الوقت ثَمَّ حراميَّة غراب يتحرّمون بأطراف هذه البلاد، والمِينِ الإسلامية، ونحن لم نزل نُشْحِطهم بالمراكب والأغربة، ونمنَعُهم من ذلك جُهْدَنا وقُدرتَنَا، حتّى إن أحدًا صار لا يَجْسُر علىٰ الدخول إلىٰ مِينَا الماغُوصة جملةً كافيةً، مع أننا كنّا خلَّصْنا فى المدّة الماضيَةِ من الحراميَّة المذكورين خمسةً وعشرين نفَرا من المسلمين، وأكرْمناهم وأطلَقْنا سبيلَهم [وعزُمنا أن][1] نجهِّزهم إلىٰ دِمْياط أو إلىٰ ثغر الإسكندرية .

وأما غير ذلك، فقد بلَغَنا أن برطلما أوْسقَ للواقف الشريفةِ صابُونًا فى مَرَاكبه، وكان قصده أن يَهْرُب بذلك، فللحال عَمَّرنا مركبا كبيرا، وأخذنا برطلما المذكور بالمحاربة، وأحضرناه إلى الماغُوصة، وعَهِدنا بطروق المركب إلى شخص يسمّى (أرمان سليوريون) وهو رجلٌ مشكور السِّيرة، وقلنا له إنه يتوجَّهُ إلى خازن الصابون المذكور ويستشيره إن كان يُوسِقُ شيئا من الأصناف لمولانا السلطان، ويجهِّزه إلى أىِّ مكان اختاره ليسلمه ليد من تبرُزُ له المراسيمُ الشريفة بتسليمه، فليفعل، وهذا القول كلُّه يكون دليلًا عند مولانا السلطان علىٰ صِدْق الولاء والتمسكِ بالصُّلح، والمسئول من الصدقات الشريفة الإقبالُ علىٰ التُّجَّار الجَنَويَّة الذين عند مملكته، وكفُّ أسباب الضرر عنهم، وينشر مَعْدلته عليهم، والله تعالى يديم بقاءه بمنِّه وكرمه.

---

(١) فى الأصل « وعقيبها نجهزهم » .

الفصـــــل السادس

[من البـاب الثـانى] من المقـالة الرابعة

(فى رسوم المكاتَبات الإخْوانِيَّات ـ وهى جمعُ إخوانيَّة، نسبةٌ إلى الإخوان، جمعِ أخٍ ـ والمرادُ المكاتبات الدائرةُ بين الأصدقاء . وفيه طَرَفان)

الطرف الأوّل

(فى رسوم إخوانِيَّات السَّلَف من الصَّحابة رضوانُ الله عليهم والتابعين ؛ وهى فى الغالب لا تخرج عن ضربين)

الضرب الأوّل

(أن تُفتتَح المكاتبةُ باسم المكتوبِ عنه)

وكان رسمُهم فيه أن تفْتتَح المكاتبة بلفظ «من فلانٍ إلى فلان ، سـلامٌ عليك ، إنِّى أحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو» فلمـا كانتْ خلافةُ الرشـيد وأمر أن يُزاد هنـا فى السلطانيات «وأسألُه أن يصَلِّى علىٰ سـيدنا محمدٍ عبدِه ورسوله» كما تقدّم فى موضـعه، جرىٰ الكُتَّاب فى الإخوانيات علىٰ ذلك أيضا ، وكان الخِطابُ يجرى بينهـم فى ذلك بأَنا ، وأنتَ ، ولِى ، ولَك ، وعِنْدى ، وعِنْدك ؛ وما أشـبه ذلك من ألفاظ الخِطاب ، وكانت خاتمةُ الكتب عندهم بالسَّلام .

الضــــرب الثانى

(أن تفتتح المكاتبةُ باسم المكتوب إليه : تفخيماً لأمره ، وتعظيماً لشأنه)

وكان رسمُهم فى ذلك أن يفتتحوا المكاتبةَ بلفظ « إلىٰ فلانٍ من فلان ، سلامٌ عليك ، فإنِّى أحمدُ اليك الله الذى لا إلٰه إلا هو » وباقى الكتاب على ماتقدّم فى الضرب الأوّل فى الخطاب والختام وغيرهما .

الطـــــرف الثانى

(فى رسوم الإخوانيَّات المحدَثة بعد السَّلَف ، وفيه ثلاثة مقاصد)

المقصـــــد الأوّل

(فى رسوم إخوانيَّات أهل المَشْرِق ، وفيه أربعة مَهَايع)

المهيـــع الأوّل

(فى صدور الابتدا آت ، وهى علىٰ أساليب)[1]

الأسلوب الأوّلُ ـ أن تفتتح المكاتبةُ بالدعاء ، وعليه اقتصر أبو جَعْفر النَّحاسُ فى كتابه "صناعة الكتّاب" وكان علىٰ رأس الثَّلثمائة فى خلافة الراضى ؛ وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمات المكاتبات نقْلًا عن "موادّ البيان" أنّ الأدعيةَ كانت فى الزمن الأوّل تُستعمَل فيما يتعلّق بأمر الدِّين : مثل قولك : أكرمه الله ، وحَفِظه الله ووَفَّقه ، وحاطَه ، وماأشبه ذلك ؛ فعُدِل عنها قَصْدا للإجلال والإعظام إلى الدعاء بإطالة البَقاء ، وإدامةِ العِزّ ، وإسباغ النِّعمة ، ونحو ذلك : مما يتنافَسُ فيه أبناءُ

---

(١) لم يذكر منها الا الأسلوب الاوّل ونبه على أن النحاس اقتصر عليه فتنبه .

الدنيـا، جَرْيا علىٰ عادة الفُرْس . ثم رتَّبوا الدعاءَ علىٰ مراتِب : فجعلُوا أعلاها الدعاء بإطالة البقاء ، ثم بإطالة العُمُرِ ، ثم بالمَدّ فى العمر ، وكذلك سائرُ المكاتبات علىٰ ما تقدّم بيانه هُناك .

ثم هو علىٰ ســتة أضرب :

الضـــرب الأوّل

(المكاتبة من المرءوس إلىٰ الرئيس ؛ وهو علىٰ صنفين)

الصـــنف الأوّلُ

(المكاتبةُ إلىٰ الأمراء)

قد ذكر النحَّاسُ أنه يقال فى ٱفتتاح مكاتَبَاتهم : أطال الله بقاءَ الأمير، فإذا أردت أجلَّ ذلك كلِّه، كتبت : أطال اللهُ بقاءَ الأمير فى أعَزِّ العِزِّ وأدْومِ الكرامة والسُّرور والغِبْطة، وأتمَّ عليه نِعَمَه فى علوّ الدَّرَجة، وشرفٍ من الفضيلة، وتتابُعٍ من الفائدة، ووهبَ له السلامةَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة ؛ وبلَغ بالأمير أفضــلَ ما تجرى إليــه هِمَّتُه ، وتسمُو إليه أُمْنِيَّته ، أو بلَغ بالأمير أفضلَ شَرفِ العاجل والآجل، وأجزل له ثواب الآخرة .

ثم قال : ومن الدعاء له : أطال الله بقاءَ الأمير فى عِزٍّ قاهر ، وكرامةٍ دائمــة ، ونِعْمةٍ سابغة ، وزاد فى إحسانِه إليه ، والفضيلةِ لَدَيْه ، ولاأخلىٰ مكانَهُ منه .

قال : ومنــه أطال اللهُ بقــاء الأمير ، وأدام عِزَّه وتأييــدَه ، وعُلُوّه وتمكينَه ، وكَبَت عَدُوّه .

ثم ذكر أدعيةً أُخْرىٰ للأمراء عن الفضل بنِ سهل . منها ــ أطال الله بقاءَ الأمير، ومكَّن له فى البَسْــطة وتزايُد النِّعمة ، وزاده من الكرامة والفَضيلة ؛ والمواهب

الجليله ، فى أعزّ عزٍّ وأدْوَم سلامة ، وأسبَل عافية ـ ومنها ـ أطال الله بقاءَ الأمير ، وأدام له الكرامةَ مرغوبًا إليه ، وزاد فى إحسانه لدَيْه ، وأتمّ نعمته عليه ، ووصل له خيْرَ العاجِل بجزيل الآجل .

الصـــنف الثـانى

(المكاتبة إلىٰ القُضاة)

وقد قال النحاس : إنه يُدْعىٰ للقاضى بمثل مايُدْعىٰ به للأمير ، غير أنه يجعل مكانَ الأمير القاضى ، إلا أنَّ الفضل بن سهل قال : يدعىٰ لقاضى القُضاة : أطال اللهُ بقاء القاضى ، وأدام عِزَّه وكرامتَه ، ونِعمتَه وسلامَتَه ، وأحسن من كلِّ جميل زيادتَه ، وألبسه عَفْوه وعافِيَته . وإنه يدعىٰ له أيضا : أطال الله بقاءَ القاضى فى عزٍّ وسعادة ، وأدام كرامته ، وأحسَن زيادَتَه ، وأتمَّ نعمته عليه فى أسبَغ عافية ، وأشْمَل سلامة . قال : وقال غيرُ الفضل : إن الكُفْء يكاتب كُفْأه ومَنْ كان خارجا من نعمته : أدام الله بقاءَكَ أيُّها القاضى .

الضـــرب الثـانى

(المكاتبةُ من الرئيس إلىٰ المرءوس : كالمكاتبة عن الوزير وقاضى القُضاة وغيرهما ، والخطاب فى جميعها بالكاف)

قال النحاس : وهى علىٰ مَراتب ، أعلاها فى حق المكتوب اليه أطال اللهُ بقاءَك وأدامَ عِزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمتَه عليك ، وإحسانَه إليك وعندك . ودُونه «أطال اللهُ بقاءَك ، وأعزَّك وأكرمك ، وأتمَّ نعمتَه عليك وعندك» . ودونه « أدام الله عزَّك ، وأطال بقاءَك ، وأدام كرامَتَك ، وأتمَّ نعمته عليك ، وأدامها لك» .

ودونه « أعزَّك الله، ومدّ فى عُمُرك، وأتمّ نعمتَه عليك، ومابعــده علىٰ تَوَالى(١) الدعاء الذى تقدّم » . ودونه « أكرمكَ الله وأبقاك ، وأتمّ نعمتَه عليك، وأدامَها لك » . ودونه « أن تُسْقِط وأدامها لك » . ودونه «أبقاكَ الله وحَفِظك وأتمّ نعمتَه عليك، وأدامها لك» . ودونه « أن تُسْقط وأدامها لك » . ودونه « حَفِظك اللهُ وأبقاك، وأمْتَع بك» . ودونه « عافانَا اللهُ وإيَّاك من السُّوء » .

قال فى "صناعة الكتاب" : هذا إذا جرىٰ الأمرُ علىٰ نِسْبتــه ولم تتغيَّر الرسومُ، وإلَّا فقد يَعْرِض أن يكون فى الدولة من هو مقــدَّم علىٰ الوزير أو مساوٍ به فتتغير المكاتبة، فقد كان عبدُ الله بن سليمان (يعنى وزير المعتضد) يكاتِبُ أبا الجيش (يعنى خُمَارَوَيْه بنَ أحمدَ بنِ طُولُون) : أطال اللهُ ياأخى بَقَاك إلىٰ آخر الصــدر، للمصاهَرَة التى كانت بين أبى الجَيْش وبين المعتضد ولأنّ المعتضد كنَّاه . ثم قال : فإن كان الرئيسُ غيرَ الوزير، فربمــا زاد فى مكاتبته زيادةً لمن له محَلٌّ : فيزيده ويكاتِبُه بزيادة التأييــد ودَوامِ العِزّ . قال : ويُدْعىٰ للفقهاء : أدام اللهُ بقاءَك فى طاعته وسلامَتِــه وكِفَايتِــه، وأعلىٰ جَدَّك وصان قَدْرَك، وكان لك ومعك حيثُ لا تكونُ لنفسك . أو : أدام الله بقاءَكَ فى أسَرِّ عَيْش وأنعم بال، وخصَّك بالتوفيق لما يُحِبُّ ويرضىٰ، وحَبَاك بُرشْده، وقطَع بينك وبينَ مَعَاصيه . أو : أطال الله بقاءكَ بمــا أطال به بقاءَ المُطيعين، وأعطاك من العَطَاء ماأعطىٰ الصالحين . أو : أكرمكَ الله بطاعتــه، وتولَّاك بحِفْظه، وأسعدكَ بعَوْنه، وأيَّدك بنصره، وجمع لك خَيْرَ الدنيا والآخرة برحمتِــه، إنه سميعٌ قريب . أو : تولَّاك مَنْ يُمْسِكُ السماءَ أن تَقَع علىٰ الأرض إلَّا بإذنه، وكان لك مَنْ هو بالمُؤْمنين رءُوفٌ رحيم . أو : أكرم اللهُ عن النــار وَجْهَك، وزيَّن بالتقوىٰ تجمُّلَك . أو : أكرمك اللهُ بكرامةٍ تكون لك فى الدنيا عِزًّا، وفى الآخرة من النار حِرْزًا .

(١) لعله على منوال .

الضـــرب الثـالث

(المكاتبة إلىٰ النظراء، والمخاطبةُ فيه بالكاف)

قال فى "صناعة الكُتَّاب" وأعلىٰ مايكتب فى ذٰلك (يعنى بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه) ياسيِّدى «أطال اللهُ بقاءك وأدام عِزَّك وتأييدَك إلىٰ آخر الصدر» . ودونه «أطال اللهُ ياسيدى بقاءَك» . ودونه «ياسيِّدى وأخِى أطال اللهُ بقـاءَك» . ودونه «أدام اللهُ يا أخِى بقاءَك» .

الضـــرب الرابع

(المكاتبة إلىٰ الأبناء، والخطابُ فيه بالكاف)

قال فى "صـناعة الكتّاب" يكتُب الرجل إلىٰ ابنـه : بأبِى أنْت ، أو : فداكَ أبوك . أو : ماتَ قبْلك . أو : أسألُ اللهَ عزّ وجلّ حِفْظَك وحِياطَتك ورعايتَك . أو : أرشدكَ الله أمْرَك . أو : أحسَن البَلاَغ بكَ . أو : بلَّغ الله بكَ أفضلَ الأمل، وأتمَّ السرورَ بك، وجعلك خَلَفا صالحا، وبقيَّةً زاكية .

الضـــرب الخامس

(المكاتبة إلىٰ الفِتْيان، والخطاب فيه بالكاف)

قال النحاس : يُدْعىٰ لهم : صرف اللهُ السوءَ عنك، وعن حَظِّى منـك . أو : أطال الله بقاءَ النعمةِ عليـك وعلَىّ فيك . أو : جُعلت أنا وطارِفى وتالِدِى فِدَاك . أو : مَلَّانى الله إخاءَك، وأدامَ بقاءَك . أو : أستودعُ الله عزّ وجلّ ما وهَبَ لى من خُلَّتك، ومَنحنِى من أُخُوَّتك، وأعزَّنى به من مَوَدَّتك . أو : حاطَ اللهُ حظِّى منك،

وأحسن المدافعةَ عنك . أو : ببقائك مُتِّعت، وفَقْدك مُنِعت . أو : نَفْسى تَفْديك، والله يُبْقِيك، ويقِيني الأسواءَ فيك . أو : ملَّأنى اللهُ النعمةَ ببقائك، وهَنَأنى مامنحنى من إخَائك . أو : أبقىٰ الله النعمةَ لى ببَقَائها لك، وبُلِّغْتُها بك . أو : وفَّر الله حظِّى منك، كما وَفَّر من المكارم حَظَّك . أو : مَلَّأنِى الله ببقَاك، كما منَحنِي إخَاك . أو : دافعَ اللهُ لى وللمكارم عن حَوْبائِك، وأمتَعنِي ببقائِك، وجمعَ أملِى فيـك بجمْعه المكارِمَ لك . أو : زادكَ اللهُ من النِّعم حسَبَ تزيُّدك فى البِرِّ لإخْوانك، وبلَّغ بك آمَالَهم كما بلَّغَ بهم آمالَهُم فيك .

الضـــــرب السادس
(المكاتبة إلىٰ النساء)

قد ذكر النحاس أنهنّ يُكاتَبْنَ علىٰ نظير ما تقــدّم من مكاتبــة الرئيس والمرءُوس والنظير، غيرَ أنه قد وقع فى الاصطلاح من بعضهم أنه لا يقال فى مكاتبتهنّ وكَرامتَك ولا وأتَمَّ نعمتَه عليكِ، ولكن وأتم نعمتَه لَدَيْكِ، ولا فَضْلَه عندكِ، ولا سَعادَتَك، ولا فَعَلْت ولا أن تَفْعَلِي، ولكن يقال : إن رأيتِ أن تَمُنِّي بذلكِ مَنَنْت به، وما أشــبه ذلك، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدِّمات المكاتبات بيانُ كراهتهنّ لذلك .

قلت : ثم راعىٰ الكُتَّاب فى تعظيم المكتوبِ إليــه أنْ عَدَلُوا عن خِطَابه بالكاف (١) عن نظير خطاب المواجهة إلىٰ معنىٰ الغَيْبة، فقالوا : له، وإليه، وعنده، ونحو ذلك وخصُّوا الخطاب بالكاف بأدنىٰ المَراتبِ فى حقِّ المكتوب إليه . علىٰ أنه قد تقدّم من كلام النحاس إنكارُ ذلك علىٰ من اعتمده محتجًّا عليه بأنه لا أعظَمَ من الله تعالىٰ مع أنه يقال فى الدعاء يا ألله ونحو ذلك .

---

(١) كذا فى الأصل ولعل مراده وغير الكاف من ضمير خطاب المواجهة إلىٰ الخ .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان فى كتابه "ذخيرة الكتاب" أدعية مرتبة على الغيبة، وقال: أعلاها «أطال الله بقاءه، وأدام تمكينه وارتقاءه، ورفعته وسناءه، وكبت عدوه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام تأييده، وعلاه وتمهيده، وكبت عداه». ودونه «أطال الله بقاءه، وأدام تأييده وحرس حوباءه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام تأييده ونعماه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام نعماه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام عزه». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام توفيقه وتسديده». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام سداده وإرشاده». ودونه «أطال الله بقاه، وأدام حراسته». ودونه «أدام الله تأييده». ودونه «أدام الله توفيقه». ودونه «أدام الله عزه وسناءه». ودونه «أدام الله عزه». ودونه «أدام الله حراسته». ودونه «أدام الله كرامته». ودونه «أدام الله سلامته». ودونه «أدام الله رعايته». ودونه «أدام الله كفايته». ودونه «أبقاه الله». ودونه «حفظه الله». ودونه «أعزه الله». ودونه «أيده الله». ودونه «حرسه الله». ودونه «أكرمه الله». ودونه «وفقه الله». ودونه «سلمه الله». ودونه «رعاه الله». ودونه «عافاه الله».

وعلى معنى الغيبة يقال فى الدعاء أطال الله بقاء الأمير. أو بقاء القاضى. أو بقاء سيدى. أو بقاء مولاى، وما أشبه ذلك فى كل رتبة بحسبها.

واعلم أن الذاهبين من الكتاب إلى إجراء المخاطبة فى المكاتبة على معنى الغيبة كما هو طريقة ابن حاجب النعمان وغيره، يعبرون عن المكتوب إليه بلقبه الخاص: كالوزير، والأمير، والحاجب، والقاضى، وما أشبه ذلك؛ وذكره بالسيادة وما فى معناها، مفضلين لفظ الجمع، كسيدنا ومولانا على لفظ الإفراد كسيدى ومولاى؛ وينعتون المكتوب إليه بالجليل أو الحاجب الجليل (١)، ويجعلون الإفراد دون ذلك فى الرتبة فيقولون: سيدى، أومولاى الأمير الجليل، أو الحاجب الجليل،

(١) لعله كالحاجب الجليل. ان لم يكن زائدا من قلم الناسخ.

ونحو ذلك . ثم توسَّعُوا فى ذلك فجعلوا الدُّعاءَ متوسِّطا كلامَ الصدر علىٰ القُرْب من الابتداء، مقدّمينَ بعضَ كلام الصدر عليــه، ومؤخِّرين بعضَه عنه . مثل أن يقالَ فى المكاتبة بشُكْر : إذا كان الشُّكْرُ ـ أطال الله بقاء سيدنا الأمير فلان ـ ترجمانَ النِّيَّه، ولسانَ الطوِيَّه، وشاهِدَ الإخلاص، وعُنْوانَ الاْخْتصــاص، وسبَبًا إلىٰ الزِّياده، وطريقًا إلىٰ السَّــعاده، وكانت معارفُه قد أحاطتْ بمعادِنه، واستولَتْ علىٰ محاسِنه، فألْسُنُ آثارِها مع الصَّمْت أفصحُ من لسانِه، وبيانُهــا مع الجُحُود أبلغُ من بيَــانه، ونحو ذلك . ثم أحدثُوا اصطِلاحا آخَرَ أضافُوه إلىٰ الاْصطلاح الأوّل، فقدّموا علىٰ الدعاء لفظ «كتابُنا» أو لفظ «كتابِى» رُتبةً دونَ رُتْبة، مثل أن كتبوا : كتابُنا ـ أطال الله بقاءَ الأمير ـ ونحنُ علىٰ أفضلِ ماعَوَّدَنَا اللهُ من انتظام الأمور وسَدَادها، واستقامتِها بحضْرتنا واطِّرادها . أو كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ مولاىَ الحاجب ـ عن سلامةٍ ينَغِّصها فقدُك، وينتَقِصُها فِراقُك، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك . وربما أبدلوا لفظ كتابُنا أو كتابِى بلفظ كتبتُ بصيغة الفِعْل، وربمــا ابتدَءُوا بلفظ أنا ونحوه . ثم خرج بهم الاْختيار إلىٰ مصطَلَحاتٍ اصطلحُوا عليها مع بقاء بعض المصْطَلَح القديم : فخاطبوا بالحَضْرة تارةً، وبالخِدْمة تارةً، وبالمجلس أُخْرىٰ، فكتبوا : كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ حضرةِ سيِّدنا الوزير، أو سيِّدنا الأمير، ونحو ذلك، أو أسعد اللهُ الحضرةَ، أو أسعدَ الله الخِدْمة، أو ضاعف اللهُ جَلالَ الخِدْمة، أو أعزَّ الله أنصارَ الخِدْمة . وربمــا كتبُوا : صدرَتْ هذه الخِدْمة إلىٰ فلان . وقد يكتُبون : صــدرتْ هـذه الجملةُ، إلىٰ غير ذلك من تفنُّناتهم التى لا يسَع استيعابُها، ولا يمكنُ اجتماعُ متفرِّقها .

قلت : وبالجملة فضَبْط صــدورِ الإخوانيَّــات وابتداءاتِها علىٰ هــذا المصطلَح غيرُ ممكن لاْختــلاف مَذاهبهــم فى ذلك، والذى تحصَّلَ لى من كلام النحاس

وٱبن حاجب النعمانِ، وترسُّل أبى إسحاق الصابى، والعَلاءِ بن مُوصَلايا، وأبى الفَرَج الببَّغاء، وغيرهم من الكُتَّاب المُجيدين أنَّ الغالب فى المكاتبات الدائِرة بين أعيانِ الدول على سبعةِ أساليبَ :

الأسلوب الأوّل

أنْ تفتتَح المكاتبةُ بالدعاء

كما كتب أبو إسحاق الصابى إلى الصاحبِ إسمٰعيل بن عَبَّاد بالشكر والتشوُّق .

أطالَ اللهُ بقاءَ سيدنا الصاحبِ الجليل، فى سلامةِ دُنْيَا ودِين، ونَفَاذِ أمْرٍ وتمكين، وتمامِ عِزٍّ وتأييد، وثَبَاتِ وَطْأة وتَمْهيد، وعُلُوِّ قَدْر وسُلْطان، وتعاظُمِ خَطَرٍ وشان، وتولَّاه فى نَفْسه وأوليائه بأحسن ما عُرِفَ وأُلِف، من نِعَمٍ دارَّةِ الحَلَب، متفرّعة الشُّعَب، محميَّةِ الجهات والجَوَانب، محجوبةٍ عن النوائب والشَّوائب، وأراه فى حُسَّاد فضائله، وكُفَّار فَوَاضِله، ماعَوّدَه فيهم من شَقَاءِ جُدُودهم، وفُلُول حُدُودهم، وحُلُول النَّكَال بهم، وإثباتِ العِصْمة منهم . وجعل حُكْمه قُطْبا لمَدَار الأفلاك، ونَهْجا لمَجارِى الأقدار، فلا يَنْزِل منها محبوبٌ مطلوبٌ إلا توجَّه إليه ونَحَاه، ولا محذورٌ إلا أعْرض عنه وتَحَاماه، ثم كان برُءُوسِ معانِديه حلولُه، وبرِقابهم إحاطَتُه، وفوق ظُهورهم مَحْمَلُه، وعلى صُدُورهم مَجْثَمُه، أمرًا جَزْما قضاه اللهُ له وخَصَّه به، وأعطَتْه الأيامُ عليه عهْدَ أمانِها، وأمرَّتْ له به عَقْدَ ضَمَانها، عاطفةً عليه بطاعتها ومُوَاتاتها، مُغْضيةً له عن نوائبها ونَبَواتِها، وحقيقٌ عليه جلَّ ٱسْمُه أن يفعل ذٰلك به، ويسمعَ هذا الدعاءَ فيه، إذ كان مرفوعًا إليه فى أوفرِ عِبَاده فَضْلا، وأغْمَرهم نَيْلا، وأجْزَلهم أدَبا، وأكثرهم حَسَبا، وأعمِلهم بطاعته، وأوْلاهم بإحسانه ومَعُونَته،

كتبت هذا الكتاب أطال اللهُ بقاءَ سيدنا الصاحبِ الجليل ؛ ثم آنخرط فى سلك مقصده إلىٰ آخره .

الأســــلوب الثانى

أن يتوسَّط الدعاءُ صدرَ الكتاب بعد الابتداءِ بكلامٍ مناسبٍ للحال .

كما كتب أبو إسحاق الصابى أيضًا عن بعض الأمراء إلىٰ أمير آخَر، مبشِّرا بفتح :

ومن أعْظَم النِّعَم ــ أطال اللهُ بقاءَ مولانا الأميرِ الجليلِ ــ خَطَرا ، وأحسنها أثَرا ، نعمةٌ سكَّنَتْ ثَوْره ، وأطفأتْ فَوْره ، وعادتْ علىٰ الناس بجميل الصُّنْع ، وجليل النَّفْع ، ونِظامِ الأمور ، وصَلَاحِ الجُمْهور ، فتلك التى يجبُ أن يكونَ الشكرُ عليها متَرادِفا ، والآعتــدادُ بها متضاعِفًا ، بحسَبِ ما أزالتْ من المَضَرَّه ، وجَدَّدتْ من المَسَرَّه ، وأماطَتْ من المحذُور ، ونشَرتْ من المأمُول . وحَقيقٌ علىٰ الناس أنْ يعْرِفوا حَقَّها ، ويُوفُوها من حمد الله قِسْطَها ، ويَتَنَجَّزُوه وعدَه الحقَّ فى أدائها ، وإطالةِ الإمتاعِ بها ، والحمــدُ لله علىٰ أنْ جعلَنا ممن يعرفُ ذٰلك ويهتَدِى إليه ، ويعتقدُه ويَنْطوِى عليــه ، ويُؤَدِّى فرضَ الآجتهاد فى الآستدامةِ والآستزادة منه ، وأن خصَّنا من هــذه النِّعم بذواتِ الفضل السابغ ، والظِّلِّ المـاتِـع ، الجامعةِ لكَبْت العدوّ ومَسَاءته ، وابتهاج الوَلِىِّ ومَسَرَّته ، وهو المسئُول جلَّ آسمُه وعزَّ ذِكْره ، أنْ لَايسْلُبنا ماألبَسَناه من سَرَابيلها ، وأَجَرَّناه من فَضْل ذُيُولها ، وعَوَّدَناه من جَلَالة أقدارها ، وتعاظُم أخْطارها ، ولايُعْدِمنا مَعُونةً منــه علىٰ بُلُوغ أقصىٰ الوُسْع فى الاعتدادِ بها ، ومُنْتَهىٰ الطَّوْق فى البِشْر لهـا ، بمنِّه وطَوْله ، وقوّته وحَوْله .

وقد عرفَ مولانَا الأميرُ فلان ما كان من كذا وكذا ؛ ثم أتىٰ علىٰ ذكر الفتح إلى آخره .

الأسـلوب الثالث

أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ « كتابى » كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله الحَسَن بن سَعْدان، إلىٰ فخر الدولة بن بُوَيْه فى بِشارةِ فتح .

كتابى ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا الأمير الجليل فخر الدولة ـ ومولانا الملكُ السيِّدُ صَمْصام الدولة وشَمْس المِلَّة ، جارٍ علىٰ أفضلِ حال ، جمع اللهُ بينهما فى تمام عزٍّ ونَصْر، ونفاذِ أمْرٍ ونَهى ، وعُلُوِّ كلمةٍ و رأيٍ ، وسُبُوغ مَوْهبةٍ ونِعْمَه ، وشُكْرُ الله يَستزِيدُ من فضله ، ويستَدِرّ المادَّة من طَوْله ؛ وأنا جارٍ فيما أُحَمَّلُه من أعباءِخدْمتهما، وأتوَلَّاه من تعاظم شُئُونهما، علىٰ أجمل ماعَوَّد الله وُزَراء هذه المملكة المُناصِحين لها، وأوليائها المُحامِين عنها، من هِدايةٍ إلى مَراشد الأمور، وتوفيقٍ لصَوابِ التدبير، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين، وقد كان كذا وكذا .

الأسـلوب الرابع

أن يُفْتَتح الكتابُ بلفظ «كتبتُ» كما كتب الصابى إلىٰ صاحب الجيش فى تعزيةٍ :

كتبتُ ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدنا صاحب الجيش ـ والعينُ عَبْرىٰ، والكَبِد حَرّىٰ، والصبر مسْلُوب، والعَزاءُ مَغْلوب ، بالفَجيعة فى سيِّدى فلان نَضَّر الله وجهَه، وكَرَّم مُنْقَلَبه ، التى هدَّت الجَلَد، وفتَّتْ فى العَضُد، وبسَطَتْ عُذْر الجَزُوع ،وهجَّنتْ حِلْم الحليم ، فإنا لله وإنا إليه راجِعُون ، وإلى أمْرِه صائرُون ، وعند الله نحتَسِبه غُصْنا ذَوىٰ ، وشِهابًا خَبا ، وعِلْقَ مَضِنَّة عَلِقتْ به أيْدى النَّوائب ، وتخَيَّرته سِهامُ المَصائب ، وقارنتْ بين قلوبِ الأباعدِ والأقارِب ، والخواصِّ والعوامِّ فى التألم لفقده والاَستيحاش لمَصْرعه، والكآبةِ لوُقُوع المحذُورِ به، وعزَّ علَىَّ أن يجرىَ لسانِى بهذا القول، ويَدِى بهذا الخطّ ، إلى آخر المكاتبة .

الأســـــلوب الخـامس

أن يُفْتَتح الكتّابُ بالخطاب : كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء فى زمن المسترشِد عن نفسه، إلى شُجاع الدولة وزيرِدِمَشْق ، بعد هَلاك زَنْكِى بن آقْسُنْقُر .

أيها السيدُ الرئيسُ الحامِى عن سِرْبه ، والذى قَصَّر إلا فى المَعَالى، رُبَّ ناءٍ بجِسمه وهو دانٍ بقلْبه ، وغريب إذا نسبتَ وأَمِير علىٰ دِمَشْقَ مطاع فى صَحْبه، وله بالعِراق إخوانٌ من حِزْبه ، إلىٰ آخر المكاتبة .

الأســـــلوب السادسُ

أن تُفْتتحَ المكاتبةُ بلفظ : «أنا» كما كتب الصابى عن نَفْسه إلىٰ الأَثِير أبى الحَسَن يهنِّئه بعِيد .

أنا ــ أطال اللهُ بقاء سيِّدنا الأستاذ الأثير ــ أُحاوِلُ الخـدمةَ له والقُربةَ منه منـذُ وصَلْت إلىٰ العَسْـكر المنصور ،فيعترِضُ دُونَ ذٰلك عوَارِضُ يجرى بها المَقْـدور، إلىٰ الحِين المُوقَّت المسطور ؛ وقد عُلِم منِّى وشُهِر عنى كذا وكذا، إلىٰ آخر الكتاب .

الأســـــلوب السابع

أن تفْتَتح المكاتبةُ بلفظ « صدَرَت » أو «أُصْدِرت» كما كتب صاحبُ ديوان الإنشاء فى زمن المسترشِد عن نَفْسه إلى أبى الفَرَج سَعْد بن محمد تشَوُّقا .

صدَرَتْ هذه الجملةُ إلىٰ فلان، ولَواعِجُ الأشواقِ إليه متضاعِفَة مترَادِفه ،وآستمْرار الصَّبْر علىٰ البُعْدعنه قد رَثَّ قُوَاه، ووهن عُرَاه، وأعْوَزَنا وِجْدانُه إذ عنَّت ذِكْراه،

وإن كان ذِكرُه سَميرَ الخاطر، ونُجَاه الناظر، والغريمَ المُلازِم، الذى يستحق غالبَهُ اللبيبُ الحازم، إلىٰ آخر الكتاب .

المَهْيَـــع الثـانى
(فى الأجوبة علىٰ هـذا المصطَلَح ، وهى علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

أن يُفتَتح الجواب بما يُفْتَتح به الابتداء ثم يقع التعرُّض بعد ذلك لوُصول الكتاب والجوابِ عنه : إما ملاصِقًا لأوّلِ الابتداء ؛ وإما بعدَ كلامٍ طويل .

فأما ماهو متصِل بأوّل الابتداء، فكما كتب الصابى .

كتابِى — ووصل كتابُ مولاىَ وفهِمْته ، وجلَّ عِنْدى قَدْره ومَوْقعه ، وسكنْتُ إلىٰ مادلَّ عليه من سلَامتِه ، وسألتُ اللهَ أن يُسْبِـغَ عليه ظِلَّها، ويُتِّليه نِعَمه كلَّها ؛ فأما ماذكره من كذا وكذا، إلىٰ آخر الكتاب .

وأمَّا ما هو بعد كلام طويل ، فكما كتب الصابى أيضا عن نَفْسه إلىٰ الصاحب ابن عَبَّـاد .

كتابِى — أطال اللهُ بقاء مولانا الصاحبِ الجليلِ كافى الكُفَاه — وليس من جارحةٍ إلا ناطقةٌ بشُكْره وحَمْده، ولافى الدّهْرِ جراحةٌ إلا عافِيةٌ بفضله ورِفْده، وأنامستمرٌّ له علىٰ دعاءٍ: إنْ خلَوْتُ من أن يكونَ عائدًا لصَلَاحى ، ورائِشًا لجَنَاحى ، لأَلْتزِمنَّه عن الأحرارِ العائشين فى نَدَاه ، المستظِلّين بذَرَاه (١) ، فكيف وأنا أوّلُ ساهرٍ فى مَرَابعـه ،

---

(١) الذرى ماتستكن فيه الانسان والظل راجع ج ١٨ من اللسان .

ووارِدٍ لشرائعه، وأحوالى جاريةٌ علىٰ آستقامةٍ أقوىٰ أسبابِها تصرُّفُ الأيام علىٰ آرائه، وآتباعُهـا إيثارَهُ فى أوليائه وأعدائه؛ والحمدُ لله رب العـالمين، قضاءً لحقّه وآقتضاءً لمَزيده، وآستدامةً للنّعمة عنده، التى استحْصفَتْ فى أيدينا سَعتُها، وسالتْ علينـا شِعَابُها، وغَمَرتْنا سِجالُها، وتفيّأت لنا ظلالُها، وما يزالُ بينَ رغبةِ مولانا الصاحب الجليل كافِى الكُفَاة ـ أدام الله عُلُوَّه، وكبت عدُوَّه، فى عبده ورَغْبة عبدِه إليه سِرٌّ مكنونٌ فى الصُّـدور، ومستورٌ تحت الضُّلُوع، فهما يتناجَيَان به علىٰ بُعْد الدار، ويلتقِيانِ عليه بالأفْكار، فإنْ تطلّع من حِجَاب القلُوب، وشذَّ من ظُهور الغيوب، فإنَّ ظهورَه يكون من جِهَته فى نَفَحات الإنْعام، ومن جِهتِى فى ثَمَرات الكلام. وقد وصل كتابُه المخطوطُ بكَرَمه لا بقلَمه، إلىٰ صنيعتِه المـاثِلِ بين يدَيْه بِهمَمه لا بقَدَمه، فلم يستطعْ أن يَنْهَض من الفِكْر، إلّا بقدْر ما يبرِّئُ ساحته من الكُفْر، ويبلِّغُه إلىٰ آخِر الآجتهاد والعُذْر؛ وأسألُ الله أن يطِيلَ بقاءه للإفضال المأخوذ منه، والفَضْل المأخُوذِ عنه، والعِلمِ الذى يَزْخَرُ به بحرُه؛ والفخْرِ الذى يُسْحبُ له ذيله، والعز الذى ضُرِب عليه رُواقُه، والسـلطانِ الذى أُلْقِىَ إليه آستحقاقُه، والأمرِ والنهى اللذين يَحْوِيهما تُرَاثا وآكتِسابا، إذا حَوَاهما غيرُه غُلُولا وآغتصابا، بمنّه وطَوْله؛ وقد كان كذا وكذا.

الضـــرب الثـانى

(أن يُفتتح الجوابُ بلفظ «ورد أو وصل» ونحوهما)

كما كتب الصابى عن الوزير أبى عبد الله بن سَعْدان فى جواب كتابٍ ورد عليه.

وصل كتابُك ـ أطال اللهُ بقاءك ـ وَفهِمتُه، وأدّى فلانٌ ما تحمّله عنك ووعَيتُه، وآزددْتُ به بصيرةً فى سَدادك ومَعْرِفَتك، وفَضْلِك وحَصَافتك، واجتماع الأَدَواتِ الجميلةِ فيك، الداعية إلى إعلاء مَحلّك، وحَمِيد حالِك، والثّقةِ بك، والآستنامة إليك،

وأنهيتُ ذٰلك إلىٰ مولانا الملكِ فلان ، فأصغىٰ إليه مستَمِعا ، وأوجبَ لك به حَقًّا متضاعِفا ، وأمرنِى بكذا وكذا إلى آخر مراده .

وكما كتب أبو الفَرَج الببَّغاء فى جواب كتاب :

ورد كتابُك مُشَافِها من البِرِّ ، ومؤدِّيا من الفضل ، ومتحَمِّلا من المِنَن ، ماتَجَاوَز الإنصافَ إلىٰ الإسراف ، وقَرَن الإكرامَ بالإنعـام ؛ ولم أدْرِ أىُّ المِنَح به أشْكُر ، ولا بأىِّ العَوَارف لهأعترف : أبما تحمَّله منجميل نِيَّته ، أم ماأدَّى من جليل مخاطَبته ، أم ماناجتْنى به فوائدُ ملاطَفتِه ، أم ما ٱعتمَدَنِى من حَلَاوةِ مُفاوَضَـته ، إلىٰ غير ذلك من الوُصول إلىٰ النعمةِ التى لا أُطاولها بشُكْر ، ولا أُقَاوِمها بِمِنَّة ٱعتداد : وهو ابتداؤُه إيَّاىَ من المكاتبة بمـا أحْرزَ به علىٰ عادته قَصَبَ السَّـبْق ، و زاد علىٰ الرَّغْبـة مبَرْهِنا وبصادق الوُدِّ مُخْبِرا ، وإلى البَسْط دليلا ، وعلىٰ مستـأنَفِ الخِدْمة بالمُواصلة باعثا ، ووجدْتُه أيده الله قد فَعَل كذا وكذا .

المَهْيَــــع الثـالث

(فى خَوَاتِم الإخوانِيَّات علىٰ هذا المصطَلَح)

وٱعلم أنه لم يكن لهم ضـابط للاَختِتامات ، ولا ما يقتضى ملازمةَ ٱختتامٍ معينٍ لصدرٍ معَيَّنٍ ، بل ذٰلك موكولٌ إلىٰ رأْى الكاتب لايراعى فيه غير علوّ الرتبةِ وهُبُوطها ، حيثُ تفاوتَتْ رُتَب الاختتامات عندهم .

ثم الاختتاماتُ لدَيْهم علىٰ أنواع شتّى .

منها — الاختتامُ باسْتِماحة الرَّأْى ، وهو علىٰ مراتب : أعلاها «ولمولانا علُوُّ الرأْى فى ذٰلك» كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب : ولمولانا علُوُّ الرأْىِ فى تشريف خادمه

بالقَبُول، والتَقدّمِ بإعلامه بالوُصول ، وآستخدامِه بمـا يتعلق بآرابه وأوطاره ـ ومن نظائر ذلك وأشكاله ـ إن شاء الله تعالى .

ودُونَ ذلك ـ الآختتامُ بلفظ « فإن رأىٰ كذا وكذا فعل » كما كتب الصابى فى خاتمة كتابِ بشارةٍ بفتح ، فإنْ رأىٰ سيِّدى أن يعرِّفِنِى موقِـعَ هذه البُشْرىٰ منه ، ومقابلتَها بالشكر الواجبِ عليها ، ويتقدّم بإشاعتها فى نواحيه وأعمالِه ، ليكْبِتَ الله به عدُوّه وعدُوَّنا ، ويُكاتبنى بمـا أتطَلَّعـه من أحواله وأخبـاره ، وأتعمَّد إسـعافَه به من مآرِبِه وأوطاره ، فإنّى أعتـدُّه شريكًا لنا مساهِمًـا ، وخلِيطا مُفـاوِضا ، فعـلَ إن شاء الله تعالىٰ .

ودونه « فرأْيَكَ فى كذا وكذا » كما كتب أبوالفرج البَبَّغاء فى خاتمة كتابٍ فى الحَثّ علىٰ مواصـلة الكُتُب ، فرَأْيَكَ فى إيناسِنا بكُتُبِك متضمنةً ماتُؤْثِره من آنبساطك ، ونعلمه من أخبارك ، موَفَّقا إن شاء الله تعالىٰ .

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ أصول المكاتبـات لأىِّ معنًى كان فرأْيَك دُونَ فإن رأيتَ .

وذكر آبن حاجب النُّعمان أنَّ أعلىٰ المراتب « وللآراء العالية فضلُ السمُوّ ومزيد القُدْرة . ودونه « ولرأْى المجلس الفلانىِّ فضْلُ وسُمُـوّه » . ودونه « ولرأْى الحَضْرة الفلانية فضلُه » . ودونه « ورأْىُ حضرة مولانا أسْمىٰ » . ودونه « ورأْىُ حضْرةِ مولاى العـالى » . ودونه « ورأْيُه موَفَّقا » . ودونه « ورأْيُه السديدُ » . ودونه « ورأْيُه الأرشَد » . ودونه « والمُؤْثَر كذا » . ودونه « فأُحِب أن يفعلَ كذا » . ودونه « ويجبُ أن يفْعل كذا » . ودونه « فافْعل كذا من غير مخالَفَة » . ودونه « واحْذَر المخالفةَ » .

ومنها — الاختتام بالدعاء، كما كتب الصابى خاتمة كتاب «وأسألُ الله أن يُطيلَ بقاءه، ويَصِلَ إخاءه، ويحفَظَه بَعيدا وقريبا، ويرْعاه غائبًا وحاضرا».

ومنها — الاختتام بطلب مواصلة الكتب، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب: وأنا أسأَلُه أن يُواصِلَنِي بكُتُبه، مُضَمَّنة أخبارَه الطيِّبةَ، وأمْرَه المُمتَثَل، وأوطارَه ومُهِمَّاته، معتَمِدا بذلك، إن شاء الله تعالىٰ.

ومنها — الاختتام بترك التكليف بالمكاتبة فى غير الضرورىّ، كما كتب الصابى فى آخر مكاتبة، وما أُطالِبُ سيدى بالمكاتَبة إلَّا عند الحاجةِ العارضة؛ فإنه يُفيدُنى بها جميلا أشْكُره، ويستفيدُ منِّى سَعْيا يحمَدُه، فأمَّا ماعدَا ذلك مما يَشْغَل أوقاتَ راحته، ويسُدُّ فُرَجَ خَلْوته، فإنى أستَعْفِى منها آستعفاءَ المتقرِّبِ إليه، المُؤْثِر لما خَفَّ عليه، وله فيما سألْتُ فضْلُ النظر فيه، والإسعافِ به، إن شاء الله تعالىٰ.

ومنها — الاختتام بالتحذير من المخالفة، كما كتب الصابى فى خاتمة كتاب إلىٰ جماعة بتحصيلِ قوم: ولْيكْتُبْ كلُّ واحد منهم بخَبَرِ من عسىٰ أن يَظْفَر به من هؤلاء، أو يَقِفَ علىٰ موضِعه، أو ينْتهِىَ إليه شىءٌ من خبره، ولْيحْذَرْ من التقصير فى ذلك. إلىٰ غير ذلك من الاختتامات التى لا تحصىٰ كثرةً.

وقد ذهب كثير من الكُتَّاب [إلىٰ عدم تفضيلِ بعضِ الاختتامات علىٰ بعض](١) علىٰ أنَّ آبن حاجب النُّعمان قد قال فى "ذَخِيرة الكتَّاب" إنَّ أعلىٰ ذلك بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه: وللآراء الفلانيةِ فضلُ السُّموّ ومزيدُ القُدْرة. ودونه «ولرأْى المجلس الفلانى فضلُه وسُمُوُّه». ودونه «ولرأْى الحضرةِ الفلانيَّة فضْلُه». ودونه «ورأْىُ حضرةِ سيدنا أسمىٰ». ودونه «ورأْىُ حضرة مولاى العالى». ودونه «ورأْيُه

(١) اقتبسنا هذه الجملة من المقام وأضفناها لتتميم الكلام وعبارة ابن حاجب النعمان تقدمت فى الصفحة قبل فتنبه.

موَفَّقا » . ودونه « ورأيُه السَّدِيد » . ودونه « ورأيُه الأرشَدُ» . ودونه « والمُؤْثَر كذا» . ودونه «فأُحِبُّ كذا» . ودونه «ويجبُ أن يفْعَل كذا» . ودونه «وسبيلُه أن يعتَمِد كذا » . ودونه « فافعلْ كذا » . ودونه « فافعلْ كذا من غير مخالَفَة » . ودونه «وآحذَرِ المخالفة» .

المَهْيَـــع الرابع

(فى عُنْوانات الكتب علىٰ هذا المصطَلَح، وفيها أربعة أحوال)

الحالة الأولىٰ — أن يكون العنوانُ من الرئيس إلىٰ المرءُوس ، قد ذكر فى "صناعة الكتّاب" أنَّ العُنْـوانات من الوزير والقاضى وغيرهما من الرؤساء علىٰ تِسْع مراتبَ :

(الأولىٰ) أن يكتَبَ فى الجانب الأيمن « لأبى فلانٍ أطال الله بقاءه وأعزه» ، وفى الجانب الأيسر «من فلان بن فلان» باسم الوزير وآسم أبيه إن لم يكَنّه الإمام؛ فإن كَنَّاه، كتب «من أبى فلان»، والقاضى فى معنىٰ ذلك .

(الثـانية) أن يُكْتَب فى الجـانب الأيمن «لأبى فلانٍ أطال اللهُ بقاءه» فقط ، ويُكْتَب الآسم[(١)] ولا يُكْتَب وأعزَّه .

(الثالثـة) أن يكتب فى الدعاء للمكتوب إليه، أدام اللهُ عِزَّه .

(الرابعـة) أن يكتب أعَزَّه الله .

(الخامسة) أن يُكْتب أكْرَمه اللهُ وأدام كرامَته .

(١) أى آسم الوزير فى الجانب الأيسر وقوله ولا يكتب وأعزهُ أى فى الدعاء للمكتوب إليه الذى هو فى الجانب الايمن فتنبه .

(السادسة) أن يُكْتبَ أكرمه اللهُ، وفى ذلك يكتَبُ ٱسمُ الوزير فى الجانب الأيسر.

(السابعة) أن يُكتبَ أبقاه اللهُ، ولا يذكرَ ٱسمُ الوزير فى هذه المرتبةِ ومابعدها .

(الثامنة) أن يكتب حفِظَه الله ولا يكتَبُ ٱسم الوزير.

(التاسعة) أن يكتب عافاه الله .

وعلىٰ نحو ذلك جرىٰ ٱبنُ حاجب النُّعمان فى "ذخيرة الكتّاب" فقال : إنه يُبْدأ فى الجانب الأيمن بذكر المكتوب إليه ونُعُوتِه وكنيتِه وٱسمِه وٱسمِ أبيه ونَسبِه المشهورِ من ناحيتِه أو قبيلتِه أو بَلدِه ؛ ثم يذكر المكتوب عنه فى الجانب الأيْسَر بٱسمه وٱسمِ أبيه؛ فإن كان الكتّابُ عن الوزير، ذكر كُنْيته فى الجانب الأيسر، إن كان الإمام أمره أن يكاتِب متكَنّيا أو متلَقّبا .

وقد سبق فى الكلام علىٰ أصول المكاتبات فى أوّل الباب الثانى من هـذه المقالة أنَّ من السَّلَف من كَرِه لأبِى فلان وقال : الصواب أن يكْتَبَ إلىٰ أبِى فلان . قال فى "صناعة الكتّاب" ويكْتَب : لأبى الحسن، فإن أعَدْت الكنيةَ فى الناحية الأخرىٰ رفعْتَ فقلت أبُو الحسن علىّ بنُ فلان علىٰ المبتدإ والخبر أو علىٰ إضمار مبتدإ، وإن شئت خفضْتَ علىٰ البـدل ، فإن لم تُعد الكنيةَ كان الخفض أحسـنَ فقلت لأبى الحَسَن؛ ثم قال : وإن كتبتَ إلىٰ رجلين كنيةُ كلٍّ منهما أبو الحسن، كتبت لأبَوَى الحسَن إذا لم يكن لهما ولَدٌ يقـال له الحسَن، فإن كان لكل منهما ولد يقال له الحسن ، جاز أن يكتب لأبَوَى الحَسَنَيْنِ . قال : والاختيارُ أن يكتب لأبوِى الحسن أيضا، لأنَّ المعنىٰ للَّذيْنِ يقال لكلّ واحدٍ منهما أبو الحسن . ويجوز أن يكتَبَ إلىٰ الرجلين اللَّذيْن يكَنَّيان بأبى الحسن : لأَبَىِ الحسن بفتح البـاء وكسر الياء علىٰ لغة

من قال جاءنى أَبُكَ ، والأصل فيه لأَبَيْنِ الحسَن سقطت النون للإضافة ، ويكتب فى الجميع لأَبِى الحسَن بكسر البـاء ، الأصل لأَبِين بكسرها أيضا ، سقطت النونُ للإضافة علىٰ لغة من قال : جاءنى أبوك[١] يعنى بضم الواو ، ويجوز أن يكتب لرجل كنيتُه أَبُو الحسنِ لأَبَا الحسن علىٰ لغة القصر ، كما يقال لِفتىٰ الحسَن .

قال فى "ذخيرة الكتّاب" وإن كان الكتاب إلىٰ آثنين وكنايتُهما[٢] مختلِفـة : كأبى جعفر ، وأبى منصور ، وأبى بكْر ، كتبت آباء جعفر ومنصور وبكر . وإن كانت كنايتهم متفِقة مثل أن تكون كنيةُ كُلٍّ منهم أبو جعفر كتبت آباءُ جعفر .

الحالة الثانية — أن يكون العُنوانُ من المرْءُوس إلىٰ الرئيس . قدذكر «النحاس» عن الفضل بن سَهْل أنه إذا خُوطب الكُفْء بجعلَنِى الله فِداءك بالصدر الكامل ، فأحسنُ دُعائه للعُنْوان ، أعزَّه الله وأطال بقاءَه ؛ وذكر أنه إذا كوتب بأعَزَّه الله فأجملُ العنوان مدّ اللهُ فى عُمُره . قال فى "صناعة الكتّاب" ولا يتكَنّىٰ الرجل فى كُتُبه ، إلا أن تكون كنيتُه أشهرَ من آسمه فيتكنّىٰ علىٰ نظيره ، ويتسمّىٰ لمن فوقه ؛ ثم يُلْحِق المعروفُ أَبَا فلان ، أو المعْرُوف بأبى فلان . قال : ويكتب : من أخيه ، إن كانت الحال بينهما تُوجِب ذلك .

الحالة الثالثة — أن يكون العنوانُ من الرجل إلىٰ آبنه ومَنْ فى معناه ، قد ذكر النحاسُ أنه يُعَنْوَن إليه من فُلان بن فلان إلىٰ فلان بن فلان ، ثم قال : وكذا كبير الإخوةِ والرجلُ إلىٰ أهل بيته .

---

(١) كذا فى الأصل ولم نعثر فى كتب النحو علىٰ هذه اللغة ولعله تحريف من الناسخ والأصل جاءنى أبك يعنى بضم الباء فتأمل .

(٢) لعله الى آثنين فأكثر وكنايتهم ... ... تأمل .

الحالة الرابعة — أن يكون المكتوبُ إليه آمرأةً . قال فى "صناعة الكُتَّاب" : إن كان المكتوبُ إليه أمَّ الخليفة ، كتب : للسيدة أمّ فلانٍ أمير المؤمنين ، وإن كانت آمرأة الخليفة وكان ابنُها معهودًا إليه بالخلافة ، كتب للسيدة أمّ فلان ولىّ عهد المسلمين ، وإن كانتْ آمرأةَ رجل جليلٍ ، كتب للحُرَّة أمِّ فلان ، ولا يكتب آسمُها ، ويدعُو لها بالدعاء الذى يكونُ خِطابُها به .

هذا ما كان الحالُ عليه فى زمن النحاس فى خلافة الراضى وما حَوْلَهَا .

وقد ذكر ابن حاجب النعمان فى " ذخيرة الكُتَّاب " أنَّ الحالَ تغيَّر عن ذلك عند تغيُّر المكاتَبَات إلى المجلس العالى ، والحضرةِ السامية ، وما يجرى مَجْرى ذلك ، ثم قال : فعلى هذا إذا كتب إلى المكتوب إليه بالمجلس العالى أو السامى ونعوته ، فيجب أن يكنِّىَ عن نَفْسه بالمملوكِ أو مملوكهِ أو العبدِ أو الخادِم . وإذا كتب : الحَضْرة السامية أو العاليةَ ونُعوتَها ، فيجب أن يكنِّى عن نفسه الخادِمُ أو خادِمُها أو عبدُها . وإذا كتب : حضرة سيدنا ونُعُوتها ، فيجب أن يكنِّىَ عن نَفْسه خادمُها أو خادمُه وعبدُها أو عَبْده . وإذا كتب : حَضْرة مولانا ونُعوته ، فيجوز أن يكنِّى عن نَفْسه ماشاء من ذلك . قال : وفى الكتابة إلى النظير لا ضابطَ لعنوانه كما لا ضابِطَ لمكاتَبتِه ، بل له أنْ يكَنِّى عن نفسه بما شاء مما تقدّم ذكره .

ثم قال : وإن كانت المكاتبةُ من الرئيس إلى المرءوس ، فيجب أن يكنِّى : حضرة الفلانى بغير مولاى — ودونه : الفُلانى بغير حضرة ، وكنيتُه ونُعوته وآسمُه وآسمُ أبيه ، ويكنِّى عن نَفْسه مايختار أن يكْتُبه الرئيس إلى المرءوس مما هو معروفٌ مشهور ، ويزيد فى آسمه وآسم أبيه ألفًا ولامًا ، إن كانا مما يجوز أن يُزادا [فيهما] ، وإذا كتب المرءوس إلى الرئيس وكنّى عن نفسه بما كنّى ، فيجب أن يحذِفَ من آسمه وآسمِ أبيه الألفَ

واللام . قال : وللرئيس أن يكتُبَ عن نفسه بما شاء من الكنايات التى تليق بمَنْصبه وٱسمِه وٱسمِ أبيــه ونعتِه المقْتَرِن بأمير المؤمنين ، مثـل ناصر أمير المؤمنين ، وحُسَام أمير المؤمنين ، وما أشبه ذلك .

المقصـــد الثـانى

(فى [رسوم] إخوانيات أهلْ المغـــرب)

وعادتُهم فيهـا أن يكون الخطابُ فيها خطابَ المُواجَهة ، مثل : أنتَ ، وأنَا ، ولك ، وعندى ، وعندك . وربَّمـا خاطبُوا الواحد بميم الجمع تعظيما للمكتوب إليه ، كما يعبِّرعنَ المتكلِّم الواحدِ بنُون الجمع تعظيماً له . قال ابن شيث فى "معالم الكتابة" ولا يُعـرفَ ذلك لغـيرهم ، وربَّمـا وقع الخطابُ عنـدهم علىٰ الغَيْبـة أيضـا ، وفيه جملتانــ :

[الجمــــلة الأولىٰ

(فى مفْتَتحات المكاتَباتِ علىٰ ٱصطلاحهم ، وفيها مَهْيعان)

المهيــــع الأوّل

(فى ٱبتداء المكاتَبات ، وهى علىٰ طرق)](١)

منها — أن تُفتتَح المكاتبةُ بالدعاء : إمَّا بطُول البقاء كما كتب عبدُ الله بنُ طاهر : أطال اللهُ بقاءَ سـيدى الأعْلىٰ ، ومَفْزَعى فى الجُلّىٰ ، متَمِّمَةً عليـه النِّعم ، ميَسَّرة لدَيْه الهِمَم ؛ أقول بَدْءًا أيَّدك الله : لقد أعْشىٰ الناظِرين سَنَاك ، كما أعْيَا الطالبين مَسْعَاك ، ولِئنْ فُتَّ الجميع ، لقد أبْدعْتَ الصَّنيع ؛ فلا غايةَ لمَجْدٍ إلا وأنتَ آتِيها ، ولا ذِرْوةَ لعزٍّ

(١) بيض لذلك فى الأصل وزدناها من نظيرتها الآتية .

إلّا ومن ظُبَاك بَانِيها ؛ لكَ الهُدىٰ والناسُ ضُلَّال ، وفى يديْكَ الضوءُ والكُلّ أغفال ؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرِّف بن عميرة : أطال اللهُ بقاءَ الأخِ السرىِّ الكريم ، الحرىّ بالتَّقديم والتعظيم ؛ أوحدِ فُرْسانِ الإحسان ، وواحدِ عِقْبان البَيَان ؛ ولا زال قلمُه جالىَ بدائع السِّحر ، جالبَ بَضَائع الشِّحْر ، مغبوطَ السَّبْق ، عند كَلَال جِيادِ الكَلَام ، مبْسُوطَ الرِّزق ، فى حال إمْلاق الأَقْلام ، إنْ ذُكِرتْ ـ أبقاك الله ـ البلاغةُ فمن علىٰ مَوْرِدها يُسَاجلك ، أو قيل فى شَرِيعتها بُنِيتْ علىٰ خمس فإنما هى أنامِلُك ، صَفْوُها متفجِّر من مَعِينك ، وَشَأْوُها لا مطمَعَ فيه لغير يَمِينك ، وشأوها تستوفيه فى هيئةِ متمَهِّل ، وجَنَاها ترعاهُ بعِزَّة أحِى مُهَلْهِل ، فقد صرتَ أمامَ أُمَّتِها ، لا بل إمامَ أئمتها ، والراضعَ لِرِسْلها ، بل الواضعَ لأصلها . فهنيئًا لها أن كنتَ سابِقَ غايَتِها ، وسائقَ رايتِها ، وبُشْرىٰ لمُهْرَقٍ وشَّته يراعَتُك ، ومَشَّته براعتُك ، لقد أُوتِىَ من الحُسْن ما تشْتريه القلوبُ بحَبَّاتها ، وتشْتَهِيه النفوسُ أكثرَ من حَيَاتها ؛ وإن الأمر كذا وكذا .

وإما بالبقاء المجَرَّد .

كما كتب أبو محمدِ بنِ عبد البَرّ ، إلىٰ بعض أرباب الأقلام :

أبقىٰ اللهُ الشيخَ فى عِزّةٍ تالدةٍ طارِفه ، وسعادةٍ لاتزالُ طارقةً بكلِّ عارفه ؛ ولا زالَ قاصدُه مخيِّما من رِفْده برَوْضٍ ناضر ، ومُحَوِّما من مَجْده علىٰ مَسَرَّةِ سَمْع وقُرَّة ناظر ؛ والأمر كذا وكذا .

وإما بالدعاء للحضرة .

كما كتب أبو زيد الفازازى :

أبقىٰ اللهُ حضرةَ السيد ناضِرةَ أدْواحِ السَّـعْد، عاطِرةَ أفْواحِ المَجْد، ساكبةَ أنواعِ الجَدّ، صائبةَ سِهام الجِدّ، ولا زالتْ مَغْشِيَّةَ الجَنَاب، بوفْد الحمْد، مَوْشِيَّةَ الإهاب، بُسودَد الحَفْـد . الظِّلُّ إذا رَحُب ، ازدحم عليه الضَّاحُون ، والوِرْدُ إذا عَذُب ، ازدَلَفَ إليه المُتاحُون ؛ وظِلُّ الحَضْرة المكَرَّمة كثيفُ الأفياء، ووِرْدُها مُغْنٍ عن وسائطِ الأرْشِيَةِ والدِّلاء، فلا غَرْوَ أن تُضْرَبَ إليها أكبادُ الإبل، وتَغَصَّ بالوُفُود عليها أفواهُ السُّبُل ، واللهُ تعالىٰ يُعِين الحضرة المكَرَّمة علىٰ الأيادى تُسَوِّغُها ، والآمال تبَلِّغُها ، بمَنِّه . وإن الأمر كذا وكذا .

وإما بالدُّعاء للمحلّ .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة فى صدر شَفَاعة .

أبقىٰ اللهُ المحلَّ الأعلىٰ حَرَمًا يَتحَاماه الأنام ، وعَلَمًا تَتضاءلُ له الأعلام ؛ ولا زالتْ آراؤه الناجحةُ ، تستمِدّها العقولُ والأفهام ، ومَسَاعِيه الصالحة ، يشْكُرها الله والإسلام . إنّ مجْدا سامىٰ الكواكبَ بمَثْواه ، وسارىٰ الغُرَّ السواكِبَ فى جَدْواه ؛ لداعٍ إلىٰ ٱستلام كَفِّه العليه، والاستِهامِ علىٰ وَصْفه الذى له حقيقةُ الأوّلِيّه ؛ وكيف لا وقد أجار من الدهرِ المُخيف، وصار قِبْلةَ كلِّ داخلٍ تحتَ التكْليف ؛ يُعِيدُ متىٰ أخطأها صَلاةَ الأمل ، ويرىٰ الآجتهادَ فى طلبِها من راحة العَمَل ؛ وإنَّ الأمر كذا وكذا ـ إلىٰ غير ذلك من أنواع الدعاء .

ومنها ـــ أن تفتتح المكاتبة بلفظ « كتابى » كما كتب أبو المطرّف بن عميرة إلىٰ بعض العلمـاء .

كتابى إلىٰ سيدى ـ حفظه اللهُ مُقِيما وسائرا ، وأبقـاهُ لغُرَر البيان ساحِرا ، وعن وجه الإحسان سافِرا ؛ ولا زالتْ آدابُه تُشْرِق وتروق ساهِرا ، ومحاسِنُه كالشمس إذا لم

يَلْقَ نورُها ساتِرا ـ من فلانة ـ والوُدّ روضةٌ مَطْلوله ، ورحِمٌ موصوله ؛ خَلَص من القلب إلىٰ حَبَّته ، واختصَّ منه بما ليس لأحدٍ من أحِبَّته ؛ وأثَارَ شَوْقا علىٰ قَدْره ، وهوًى ثوىٰ فى صَدْره ؛ وأسفًا علىٰ عهْدٍ أصبو إلىٰ ذكره ؛ فاتَ ، وردُّ الفائت يعْسُر ، وقَصُر ، وأيامُ السُّرور تقْصُر ؛ كأنما كان قراءَةَ سطْر ، أو إغفاءَةَ فَجْر ؛ أو زيارةَ مُجْتاز ، أو عبارَةَ ذى إيجاز . فمَنْ لنا بذلك الأرج الذكى ، والأَرْيَحِىّ يرتاحُ لما يخْترع أو يحْكى ، ومتىٰ نفُوزُ بمن ينحت من صَخْر ، ويُزْرِى بأبى صَخْر ، ويَغْرف من بحر ، ويجْرِى مع أبى بَحْر ؛ ويجمَعُ إسنادُه بين الجامع والمُسْنَد ، ويُنْشِد من بدائع حفْظِه مايُؤْثَر يد المسند ، شجرةُ علم تُؤْتِى كلَّ حينٍ أُكُلَها ، ومُزْنةُ فضل تجودُ مانَخْشىٰ بُخْلَها ، وضالَّة أدبٍ يقِلُّ لها أن يُجْعل القارِتُ(١) جُعْلَها ، فات عَنَّا ، فأتعبَ وعَنّىٰ ، فهل معينٌ علىٰ دواء إن نحن لُسِعْنا ، أوسبيلٌ إلىٰ مايفيدنا من الكلام فنحنُ فى حروف تجِيءُ بغير معْنىٰ ، وإن الأمر كذا وكذا .

ومنها ــ أن تفتَتح المكاتبة بلفظ : كتبت .

كما كتب أبو زيد الفازازى .

كتبتُ ــ كتب الله للأخ الأبَرِّ الأوفىٰ ، والفاضِل الذى آثارُ مآثِره لاتَخْفىٰ ، مجدًا هامِىَ الرَّبابه ، سامِىَ الرابَهْ ، وذكرا منتحَلًا بالإطالة والإطابه ، وقَرَن أعمالَه بالقَبُول ودَعَواتِه بالاستجابه ـ من مكانِ كذا ، ولا جديدَ بيُمْن الله تعالىٰ إلَّا صُنْعُه الجميل ، ولُطْفُه العريضُ الطويل ، والحمدُ لله ربِّ العالمين ، حمدًا يؤمِّن آلاءَه من التغيير والتبديل ، والأمرُ علىٰ كذا وكذا .

---

(١) القارت أجف المسك وأجوده .

ومنها — أن تفتتح المكاتبةُ بكِنايةٍ عن المكتوب إليه من لقب ونحوه .

كما كتب أبو المطرّف بنُ عميرة لبعض الرؤساء .

الجنابُ الرِّياسِيُّ أدام الله ٱعتلاءه ، وحرَس مَجْده وسَنَاءه .

صدرت هذه الخدمةُ إليه من فلانة ، ولا مَزِيدَ علىٰ ما يَجِبُ لجَلاله من التعظيم ، ولفَضْله من التقديم ، ولآلائِه من الشُّكْر العميم ؛ وإنَّ الأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو بكر بنُ عيسىٰ شافِعًا فى أنصارىّ .

السيدُ العِمَاد ، والمـاجِدُ الجَواد ، والمَلْجأ المَنيع المَرِيعُ لمن يَرْتاعُ أو يَرْتاد ، أدام اللهُ عَلاَءَه ، وضاعف عنـدَهُ آلاءَه ، بدْرُ الجمـلة الشريفه ، وفَرْع الدَّوْحة المُنِيفه ، من آل قَيْسِ الجُود ، وقَيْلُ بَنِى قَيْـلَةَ الباذلين الموجُود ، أولئـك الذين عزَّ المهاجِرُون بإخائهم وسَخَائهم ، فلا غرْوَ أن تَكْلَف الألسِـنةُ بمَدْحه ، وتُمَـدَّ الأيْدى إلىٰ مَنْحه ، ويُصَدَّر بٱسمِه تاريخُ الأجداد فهو أحَقُّ مفْتَتِحه ، والأمرُ كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرِّف بنُـ عميرة ، عن الأمير أبى جَمِيـل زَيَّان ، إلىٰ الأمير أبى زكريَّا بن إسحاق .

الأميرُ الأجلُّ الهمامُ الأعلىٰ حرَسَ الله مَقَامه ، وأسـعد أيَّامه ، وظـاهَرَ بالنُّصْرة مَضَاءَه وٱعتزامه ، راسِخُ شَرفِ النِّجار ، ثابتُ أصـلِ الفَخَار ، مستَهَلُّ آلاءِ السُّحُب الغِزَار ، والعُيُون إليه سامِيَه ، والهِمَم إلىٰ مالدَيْه مترامِيَه ، والصدورُ بالأمل فيه تُشْرَح ، والنفوسُ الحُـرَّة إلىٰ ٱسـترقاقِهِ تَطْمَح ، ولا غرْوَـ والكرمُ من بعضِ شِيَمِه ، والغِنىٰ من فضلِ دِيَمِه ـ أن يَسيرَ إليـه فى البر والبحْرِ كلُّ ذى رَغْبه ، وتترامىٰ نحوَه ركائبُ الرَّجَاء من كل تُرْبه . ومخاطَبتُنا هـذه إلىٰ مجالِسه أيده الله عمَّا نعلَمُه من كبير قَدْره ، ونُوجِبُه لعالى أمْرِه ، ونُبِيح به من طَيِّب خبَرِه ، وجميلِ ذكْره ؛ والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو الحسن بن شَلْبون :

العِمَاد المذخر، والمَلاذُ الذى بولائه أفْخَر، جعل الله قَدْره عاليا، ودهْرَه بمحاسنه حاليًا، ولا زال للنِّعم قابِلا وللأ[سواء] قاليا ، كتبتُ من مكان كذا ، والوُدُّ حِلْيةٌ يتألَّقُ رَوْنَقُها ، وشجرةٌ لا يسقُط ورقُها ، وإنها مغروسة ، لاتقبل بَذْرَ العوادِى ، ومحروسةٌ، لايَقَع عليها من يَقَع فى شجر الوادى ؛ والأمر كذا وكذا .

وكما كتب أبو المطرِّف بن عميرة إلىٰ بعض الفقهاء شافعا مُوصِيًا :

المحلُّ الأعلىٰ ـ ضاعفَ اللهُ أنوارَ هِدايتِه، وأبقىٰ علىٰ الجميع آثارَ عِنايَتِه ـ مستودَعُ الكَمَال ، ومَشْرَعُ الآمال ؛ ومَقْعد أربابِ السُّؤال، ومَصْعَد الصالح من الأعمال، وإن فلانا من أمره كذا وكذا .

وكما كتب ٱبن أبى الخِصَال :

الشيخُ الأجَلُّ أدام الله عِزَّه ونُعْماه ، ووصل رِفعته وعُلَاه بتَقْواه ؛ مُجِلُّ قدْركم، وملتَزِم بِرِّكم وشُكْرِكم ؛ العارفُ بحقِّكم ، فلان ؛ فكتب يعظِّمكم كتبَ اللهُ لكم خيرا مستَمِرّا ، ورِضًا علىٰ ماتَرْضَوْنه ثابِتًا مستَقِرّا ، من مكان كذا ، علىٰ الرسم الملتَزَم من توفيرِ عَلَائك ، والشُّكْرِ لآلائك ، والربُّ تعالىٰ يُنْهِضُ بحقكم اللازمِ الألْزم، ويصلُ حِراسةَ مجْدِكم الأتْلدِ الأقدم؛ بمنِّه وفَضْله ، وإنَّ الأمر كذا وكذا .

وٱعلم أنه ربَّما أُتِى بعد ذكر النُّعوت بالسلام ، ثم بحمدِ الله تعالىٰ والصلاة علىٰ النبي صلىّ الله عليه وسلم وعلىٰ آله ؛ ثم الرِّضا عن الخلفاء الماضين والخليفةِ القائم . وعلىٰ ذلك كانتْ طريقةُ كُتَّاب دولة الموحِّدين أتباع «المهدىِّ بنِ تُومَرْت» كما كتب أبو محمد بنُ عبد البرّ :

الشيخ الأجلّ، أدام الله عِزّته، ووصلَ كرامتَه ورِفْعته . مُجِلُّ قدْره، وملتزم بِرّه وشُكْرِه، المسرورُ بما يُجْرِيه إحسانُه من طَيِّب ذكره .

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعدَ حمدِ الله العظيم ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد رسولِه الكريم ، وعلىٰ آله — والرِّضا عن الإمام المعصُوم مَهْدِيِّه ، وعن خلفائه الأئمة الراشدين — والدعاءِ لسيدنا الخليفة الإمام أمير المؤمنين ، آبن الأئمة الخُلَفاء أمراء المؤمنين ، بالنَّصْر الأعَزّ ، والفتح الأَتَمِّ الأوْفىٰ ، فكتَب كتب الله لكم مجدًا لا يَبِى شرَفُه ، وسعدا لايَنِي طرفه ، من فلانة — حرسها الله — ولا ناشِئَ عن الله تعالىٰ وعميم لُطْفه إلَّا الخيرُ الأكمل، والصُّنع الأجْمَلُ، والحمد لله رب العالمين كثيرا، وإنَّ الأمر كذا وكذا .

قلت : وعلىٰ هذه الطريقةِ كانتْ كتابةُ أبى عبد الله بن الخطيب : كاتبِ آبن الأحمر بالأندَلُس علىٰ القُرْب من زماننا .

ومنها — أن تفْتَتح المكاتبةُ بالخطاب، إما مع حذف ياء النَّسب أو مع إثباتها.

أما مع حذفها، فكما كتب أبو المطرّف بن المثنّى :

سيِّدى ومَفْخَرى ، وعِصْمتى ووَزَرى ، ورُكْنى وعمادى ، وذَخيرتى وعَتَادى ، أبقاك الله ناهِجًا سُبُل المكارم والمعَالى ، مُوَقًّى حوادثَ الأيَّام واللَّيالِى . كُتُبى أعزَّك الله عن عهدٍ حَسَنٍ لك قد أُحْكِمَتْ معاقِدُه، ووُدٍّ مَحْضٍ فيك قد صفَتْ مَوارِدُه، ونفْسٍ ترتاح لذِكْراك ، ولسانٍ لاهٍ بينَ مَحاسنك وعُلاك، قد آنفَسح فى نَشْر فضائلك مَيْدانُها، وفاق فى وَصْف فَوَاضلك بيانُها ، فهى تَنْظِم عُقودَ مَجْدك،علىٰ أجياد شُكْرِك، وتَحُوك من بُرُود تَقْرِيظك وثَنائك ، خِلَعًا لمجْدك وسَنائك، وشْيُها الذِّكْر الخَطير، وطِرازُها الترفيع والتَّوقير، تكسر عَصْبَ عَدَن ، وتُعَفِّى علىٰ وَشْى اليَمَن ؛

وتُطْلِعُ من رِيَاض أخلاقِك ، فى مَنَابت أعْراقك ، ما يُزْرِى بنَسِيم المِسْك تَضَــوُّعُ عَرْفه وآنتشاره ، ويُرْبِى علىٰ حُسْن النجوم الزاهرة طوالِـعُ أزهاره وأنْواره ، وأخْلِق بمَنْ جمع اللهُ العالَمَ فيه ، وحَرَس مَعاهِدَ البِرّ بكريم مَسَاعيه ، أنْ لا تُعْزَىٰ خَلَّةٌ نَبِيلةٌ إلّا إليه ، ولا تُقْصَر مَنْقَبة جليلةٌ إلّا عليه ، ولا تُؤْثَر مَأْثُرةٌ نَفِيسة إلّا عنه ، ولا تُقْتَبَس سِــيرةٌ جميــلة إلّا منه ، والله تقدّسَ آسمُه يَحْمِى هــذه الأوصافَ البديعه ، والجلالَ الرفيعه ، من طوارِقِ الدَّهر ونَوَازِل الغِيَر ، ويجعلُ عليها يَدَه ، ويَصْرِف عنها معَرَّةَ كل خطب وشدّه ، بحَوْله وطَوْله ، ويكون الأمرُ كذا وكذا .

وأمّا مع إثبات ياء النَّسَب (١) ، فكما كتب أبو المطرّف بن الدبَّاغ إلىٰ بعض الأُدَباء عند وروده إلىٰ بلاده :

يامَوْلاىَ ، وسَــيِّدى ، العظيمَ شأنُه وأمْرُه ، العالِىَ صِيتُه وذِكْره ، ومَنْ أبقاه الله فى عِزٍّ لا تنْفَصِم عُرَاه ، وحِرْز لا يُسْتَباح حِمَاه ، لم أزَلْـ أبقىٰ الله سيِّدى ومَوْلاىَ ـ تسمُو بى إلىٰ الكتَابة هِمَّه ، وتترامىٰ بى إلىٰ البَلَاغة عَزْمه ، حتّى تذلَّلتْ لى صِعابُها فامتطَيْت ، وتسَّهلَتْ لى حُزُونهـا فارتَقَيت . ولـمَّا رُفِعتْ لى عن غَرائِبها الأسْتار ، وعلِمْتُ من غوامضها الأَسْرار ، وفُزْتُ بالمُعَلّى من سِهامها ، والمَوْفُور من أقسامهـا ، جعلت بأَىِّ أئمتها أَأْتَمُّ وأهتَدى ، وإلىٰ أى رُؤسائها أنتَسِب وأعتَزِى ، ناظرًا فى ذلك إلىٰ شائع الأخبار ، ومُتدَاوَل الآثار ، فوجَدتُ الألْسِنةَ إذا تناولَتْ صِفةَ سِواه ، تحلَّتْ بعضَ حِلَاه ، أو أرْقَتْه إلىٰ رُتْبــةٍ من العَلْياء ، تمثَّلتْ به فى الرِّفْعة والسَّناء ، ثم تُفْرِده أعزّه الله دُونَها بالفَهْم المَتين ، والعِلْم المَشْهور ، والحِلْم المتعارَف ، والفضل المُتواصَف ، والرُّتبــة الساميَه ، والجَلَالة المتناهيه . فكُلَّما رأيْتُ محاسنَ مجْده تُجْلىٰ ، وسُوَرَ فضله

(١) لم تثبت فيه ياء النسب كما هو ظاهر فتأمل .

تُتْلىٰ، هَممت أنْ أطيرَ إلىٰ حَضْرته بجَنَاح الِارْتياح، وأرْكَبَ إلىٰ أُفُقه نوّره اللهُ أعناق الرِّياح، والأيَّام تقْطَعُنِي بمَصَائِبها، وتقيِّدُنى بأحداثها و بحَوائِبها، حتّٰى قضىٰ اللهُ أنْ يَرِدَ هذا الأُفُقَ فأفرخَ الأمل بغير نَصَب، وأنَال البُغْيَةَ بغير طَلَب :

وَلَيْسَ الَّذِى يَتَّبِعُ الوَبْلَ رائِدًا * كمَن جاءه فى دَارِه رائدُ الوَبْلِ

ومنها ــ أنْ تُفْتتَحَ المكاتبةُ بالتحيَّة والسلام .

كما كتب أبو المطرّف بن عميرة :

تَخُصُّ الاَبْنَ محبَّةً ومِقَه، والعبادَ ٱعتِدَادا بجانبه وثِقَه، حفظ اللهُ نَجابته ؛ وجعل لِدَاعِى السِّيادة تلْبِيتَه و إجابَتَه، تحيَّةُ الإجلال والتَّكْرِمه، والمَوَدّةِ الخالصةِ المتحكِّمه، ورحمةُ الله تعالىٰ وبركاتُه، من مكان كذا، والوُدُّ كلف، والعهدُ بالصَّوْن من جميع جَوَانِبه مكتنف، وتِلكم الذات السنِيَّة ذخيرة جليلة، وأمل لاتُخْطِى منه مَخِيله، وهِبةٌ يُكذب معهـا أن يُقال الأيَّامُ بخِيله . وكُنَّا نَظُنُّ أنَّ بِنـاءَ الكَرَم صَمَّ صَداه، ومَرْبَعَ الفضل عاصِبٌ برداه، وغائِبٌ عن الرُّشْـد أداه، ونقول : ما كلُّ مَنْ أقعدتْه العَيْلةُ عُمَيله، ومتىٰ يفطن عمير عمر وبجيله، فكفا (١) بكفاتها، وهل سِوىٰ قيسٍ لرحىٰ العجُوز عَدمَتْ جداتها، حتّٰى تمثَّل هذا المجاهدُ من طَرَفيه، المستقبِل آثار سلفَيْه، حفظ اللهُ الألفاظ والألْسِنه، وحمَلَةَ الأقلام والأَسِنَّه .

وكما كتب أبو زيد الفازازى .

السـلامُ الكريمُ العميم، علىٰ الشيخ الذى أَثْبُتُ علىٰ وُدِّه فلا أتحوَّل ، وأُطْنِبُ فى حَمْده فلا أستَعِيرُ ولا أتأوَّل ، وأتعلَّل بذِكْره عنـد عَدَم مَرْآته ولأمرٍمَّا أتعَلَّل ؛ فلان ــ أدام اللهُ رِفْعته، وحَرَسَ من الأَسْواء مُهْجَته . كتب أخُوكم، البَرُّبكم، الشَّيِّق

(١) كذا فى الأصل ولم نقف عليه فى غيره بعد البحث .

إليكم، الشاكرُ لمحاسنكم، المسرورُ بما سَمِعه من صَلاح أحوالكم، فلان، ولا جَدِيدَ بمَنِّ الله تعالىٰ إلا الخيرُ والحمدُ لله كثيرا والأمرُ كذا وكذا .

ومنها — أن تُفتتَح المكاتبةُ بالكناية عن المكتوب عنه .

كما كتب ٱبنُ أبِي الخِصال إلىٰ بعض الكُتَّاب يسأله حاجةً :

مَعَظِّم الشيخ الأجلِّ أبى فلان، ومُجِلُّه المكبِّر له فلان، أعلىٰ اللهُ قدْرَكم، وأوزَعَ أوْليـاءَكم شُكْرَكم، أيَادِيكم أدام اللهُ كرامَتكم أوْكَفُ من الغَمام، ونِعَمُكم ألْزَمُ للأعناق من أطْواقِ الحَمَام، وإنَّ وَلِيَّكم ومعَظِّمَكم يحتاجُ إلىٰ كذا وكذا .

ومنها — أن تُفْتتَح المكاتبةُ بلفظِ من فلان .

كما كتب [بعضهم] من فلان، إلىٰ الشيخِ الحافظِ الأكرمِ أبى فلان : أدامَ اللهُ كرامَته بتَقْواه، فالكتَابُ إليكم كتب اللهُ لكم أحوالًا صالحه، وخَيراتٍ عليكم غاديةً رائحه، من موضعِ كذا، والبركاتُ متوافِره، والخيراتُ متظاهِره، والحمدُ لله تعالىٰ، وإنَّ الأمرَ كذا وكذا .

ومنها — أن تفتتح المكاتبة بلفظ إلىٰ فلان .

كما كتب بعضهم إلىٰ والده .

إلىٰ مَوْلاىَ المعَظَّم وأبِى، المتكَفِّلِ بتعْلِيمِى وحُسْنِ أدَبِى، أبقـاهُ الله ناظرًا إلىّ بعينِ رِضَاه، وأعانَنِى علىٰ الجَرْى فى بِرِّه علىٰ حُكْم الشَّرْع القويم ومُقْتَضاه؛ من ٱبنك المعَظِّم لك، بلْ عَبْدِك، المتطَلِّع إلىٰ مايَصِل من الأنباء الكريمةِ من عِنْدِك، المُواصِلِ المَسْعىٰ فى شكرك وحَمْـدِك، فلان : بأبِى كتبْتُه كتب اللهُ لكم لَيِـانا من العَيْش وخَفْضا، وجمَعَ بعـد الافتراقِ بعْضًا منّا وبعضا؛ ويَسَّر لى بطَوْله ومنّه أن يصْفَح عنِّى وأن يَرْضىٰ، من موضع كذا، ولا جَديدَ إلا نِعَمٌ من الله عزَّ وجلَّ تُراوح

وتُغادِى، وتَجْرِى الخواتِمُ منها علىٰ حُكْم المَبَادِى ، وشوقٌ إليكم يَعْمُر أحناءَ ضُلُوعى وفُؤادِى ، ويَحْسِم عنِّى قَطِيعَىْ دَمْعِى الهَتُونِ وسُهَادِى ؛ واللهُ جلَّ وعزَّ يَيَسِّر ٱنقضاب غُربة النَّوىٰ ، ويُرِيح النفُوسَ من مُحْرِق اللَّوْعة ولاعِجِ الجَوىٰ ؛ والأمر كذا وكذا .

المَهْيَـــــع الثـانى

(فى الأجْوبة)

(وهى علىٰ ما تقدّم فى أجْوِبة المَشَارقة من أنها علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(أن يفتَتَح الجوابُ بمـا يُفْتَتح به الآبتداءُ ، ثم يقع التعرّض إلىٰ وُصُول الكتاب ، وذكر الجواب عنه)

كما كتب أبو عمرو الباجى :

وَعْدُك الكريمُ ـ أدام الله عزَّك ـ دينٌ ، وقَضاؤُه شَرَف وزَيْن ، ومِثْلُك من تَحلّىٰ بمَحاسِنِ الشِّيَم ، وزاحَمَ فى السِّيادة بالمَنْكِب العَمَم ؛ وحفِظَ العهدَ لمَـا أُضِيع ، وٱشترَىٰ المَجْد بمـا بِيع ؛ والتزمَ للوفاء شَرْطا لا يُفْسَخ ، ورآه شَرْعا لا يُنْسَخ ؛ ووصل كتابُك العزيزُ فى معنىٰ كذا وكذا .

الضـــرب الثـانى

(أن يُفتتح الجوابُ بورُود الكتاب ووُصوله ٱبتداء)

كما كتب ٱبن أبى الخصال :

ورَدَ كتابُك فى أمر فلان يَفْرِضُ الحمْلَ عليه فى النُّفوذ لوِجْهته ، والتقدُّم إلىٰ رُتْبته ، وليس عنْدى إلا عَوْنٌ وإنْجاد ، وطاعةٌ وٱنقياد ، غيرَ أنَّ فى الأمر كذا وكذا .

الجملة الثانية

(فى خَوَاتِم المكاتَبَات علىٰ ٱصطِلاحهم ، وهى علىٰ أساليبَ)

منها — أن يُختَم الكتابُ بالسلام المجرَّد عن الدعاء .

كما كتب أبو عمرو الباجى فى خاتمة كتاب :

وأقْرَأُ عليك سيِّدى ، وأسْنىٰ عُدَدى ، أجزَلَ السلام وأحْفلَه ، وأتمَّه وأكملَه .

ومنها — أن يُختَمَ بالدعاء .

كما كتب أبو المطرِّف بنُ الدبَّاغ فى خاتمةِ كتاب :

واللهُ لايُخْلى مولاىَ من عبدٍ يسترِقُّه ، ومنْعم يُنْعِم عليه [بمـا] يستحقُّه ، وجميل يُولِيه ، وصُنْع يُسْدِيه ، بمنِّه وجميل صُنْعه .

ومنها — أن يختَم بذكر التودُّد والمحبَّة .

كما كتب أبو جعفر الكاتب فى آخرِ كتاب :

وإن لم يكُنْ لى من الحقِّ ما لا أتبسَّـط به عليه ، فَلِى من الوُدِّ ما أَمُتُّ به إليه ، فَحَسْبى به سُلَّما إلىٰ فَضْلك ، وذرِيعةً إلىٰ مَجْدِك ، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

ومنها — أن يُختَم باستماحةِ النظر فى أمْرِ المكتوبِ عنه .

كما كتب أبو المطرِّف بن المثَنّى فى خاتمة كتاب :

ولكَ الطَّوْل العامّ ، والفَضْل الزاهِر ، فى ٱعتبار أمْرِى ، وتحقيقِ خَبَرى ، والسلام ؛

إلىٰ غير ذلك من الخَواتِم التى تستدعيها المكاتبَـةُ وتستوجبُها المَقاصد ، وفيما ذُكر من الصُّدور والخواتِم ابتداءً وجواباً مَقْنَع لمن تأمَّل ، والله المستعان فى الأمرِ كلِّه .

المقْصـــــد الثـالث

(فى الإخوانيَّات المستعملةِ بالديار المصرية، وفيه ثلاثةُ مصطَلَحات)

المصـــطلح الأوّل

(ما كان الأمرُ عليه فى الدولة الطُّولونيَّة وماقاربَهَا مما جَرىٰ
عليــه ٱبنُ عبدِ كان وغيرُه، وفيــه ثلاثة مَهَايِــعَ)

المَهْيَـــعُ الأوّل

(فى الصُّدور، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الٱبتــداآت، ولهم فيـــه أساليبُ)

الأُسْـــلوب الأوّل

(أن تفْتَتَح المكاتبةُ بالدعاء، وعليه غالبُ كتابتهم، وهى علىٰ أنماط)

منها — الدعاءُ بطُول البقاء وما فى معناه.

كما كتب ٱبنُ عبدِ كان فى صَـدْر مكاتبةٍ: أطال اللهُ بقَاءَك، ففى إطالَتِه حياةُ الأنَام وأُنْس الأيام والليالى، وأدام عِزَّك، ففى إدامته دوامُ الشَّرف ونُمُوُّ المَعَالى؛ وأتم نعمتَه عليك فإنهـا نعمةٌ حلَّت محلَّ الٱستحقاقِ، ونزلَتْ منزلَةَ الٱستيجاب، ووقفَتْ علىٰ مَنْ لاتكرَهُ الآلاءُ مَكَانَه، ولا تُنْكِرُ الفواضل مَحلَّه.

وكما كتب: عَمَرَ اللهُ بك الأزمِنـةَ والدُّهور، وآنَسَ ببقائك الأيَّامَ والشُّهور، وأمتعَ بدَوَام عِزِّك السُّعداءَ بحظِّهم منك.

ومنها — الدعاء بدوام النِّعمة .

كما كتب : أسبغ اللهُ عليك نِعَمه الراهنة بنِعْمة المستَظْفِر، وصانها لَدَيْك بإيزاع الشُّكْر عليها ، فلم أرَ ولله الحمدُ نعمةً قصدَتْ مستقرّها ، وتوخَّت وَلِيَّها ، وتمنَّتْ كُفُؤَها، إلا نعمتَك أكسبَتْ أولياءَها عِزًّا ونَضْرة، وملأَتْ أعداءَها ذِلّة وغَضاضة، وتمكَّنتْ بمحلِّ الصِّيانة والرِّعاية، وخيَّمتْ بمستَقَرِّ الشُّكْر والحمد .

ومنها — اطِّراح الدعاء بدوام النعمةِ لتقييدها بموجباتها منها .

كما كتب : قد كفىٰ الله عزَّ وجلَّ مَئُونَةَ الدعاء، لنِعْمتك بالنَّماء : لأنها توخَّتْ لدَيْكَ محلّها، فحلّت بفِنَائك سارّه، مطمئنَّة قارّه، تستَوْثِر مِهادَها قِبَلَك ، وتستَهْنِئ مَوارِدَها عِنْدك، ولم تزل تائقةً إليك ، متطلِّعةً نحوَك بما آستجمع لها فيك : من لطيف السِّياسة وحُسْن الآحتمال لأعباء المَغَارم ، فهَنأ كها اللهُ متصلةَ البَقاء بطُول مُدّة بقائك، ومتحلّيةً بحسن فِنائك، فلا زِلْتَ لعَوَارف النعم مستَدْعيا ، وللشكر بالزيادة فيها ممتَريا، وبدوام الحمد لرِدْفها مستَمْرِيا .

ومنها — الدعاء بجُعِلتُ فِداك .

كما كتب : جعلَنِي اللهُ فِداك، فإنَّ فى ذٰلك شرَفًا فى العاجل ، وذُخْر العُقْبىٰ فى الآجل، وخَيْرَ تُراثٍ لمخلَّفي من بعدى . دعاءٌ أخلصَتْه النيه، وصدَّقَتْه الطويّه .

ومنها — آستكراه الدعاء بالتفدية .

كما كتب : إن قلتُ فى كُتُبى إليك : جعلَنى اللهُ فِدَاك، فأكونَ قد بخَسْتُك حظَّ إحسانِكَ إلىّ، وحقَّ مفترَضِك علَىّ : لأنها نفْسٌ لا تُوازنُ ساعةً من يومك ، ولا تُوازِى طَرْفةً من دَهْرك ، وإنما يُفدىٰ مثلُك بالأنفُس التى هى أنْفَسُ من الدنيا وأعرَضُ من أقطار الأرض .

ومنها — تَفْدِيَةُ النِّعمة إعظاما لها :

كما كتب : جعلنى اللهُ فِدَاءَ نعـمَتِك التى علَتْ ذِرْوةُ سَـنَامها ، وفاضَتْ دِرَّةُ سمائها ، فعمَّرتْ أقطارَ الآملين ، ونَضَّرت جَنابَ ناحيةِ المعتَمِدين .

ومنها — الدعاء بصَلَاح الدنيا وغِبْطة الآخرة :

كما كتب : أسعَدَك الله بعواقِبِ قَضَائه وقَدَرِه ، ووهَبَ لك الصَّلَاحَ فى دِينك والسلامةَ فى دُنْياك .

ومنهـا — الدعاء بكَبْت العَدُوّ :

كما كتب : مكَّن الله يَدَك من ناصيةِ عَدُوّك بالصَّوْلة عليه ، ومن زِمَام وَلِيِّك بالإحسان إلْيه ، وبلَّغَك من كِلْتا الحالتَيْن ماتَنْمِى على تأمِيلك ، ويُوفِى على تَمنِّيك .

ومنها — الدعاء المشتَرَك بين المكتوب عنه والمكتوب إليه :

كما كتب : أدام اللهُ أُنْسِى بحَيَاتك ، وحَرَسنِى من الغِيَرِ فى نِعْـمَتك ، وأكرَمنِى بصِيانَةِ أيَّامِك ولَيَاليك ، وأعزَّنى بذُلِّ عدُوّك وقَمْع حاسِدِيك .

ومنها — الدعاء بطِيبِ الحياة :

كما كتب : عِشْ أطيَبَ الأعمـار ، مُوَقًّى من سُوء الأقْدار ، مبلَّغا نِهايةَ الآمال ، مغبوطًا فى كلِّ الأحْوال ، لا ينقَضِى عنـك حقُّ عارفةٍ حتّى تُجَـدَّد لك أُخْرىٰ أجَلّ منها ، ولا يمُرّ بك يومٌ من الأيَّام إلّا كان مؤمِّنًا (١) علىٰ أمْسِـه مقصِّرا عن فضـــلةِ غَدِه .

---

(١) لعله موفيا تأمل .

ومنها — الدعاء باقتضاء العَدْل والإنصاف :

كما كتب : جعلك اللهُ ممَّن ينظُر بعَيْن العَـدْل ، ويَنْطِق بلسان القِسْـط ، ويَزِنُ بقِسْطاس الحقِّ ، ويَكيل بمِعْيار الإنْصاف .

ومنها — الدعاء بإيزاعِ الشُّكْر .

كما كتب : وصـلَ اللهُ لكَ كلَّ نِعْمة يُنْعِمُها عليـك من الشُّكْر بمـا يكون لحَقِّها قاضِيا ، وللمَزيد إليهـا داعِيا ، ومن الغِيَر مؤَمِّنا ، وللسَّلامة مُوجِبا .

ومنها — الدعاء للحاجِّ بالبَلَاغ .

كما كتب : أوْطأكَ اللهُ فى مَسِيرِك أوْثَر المَطَايا ، وخَوَّلك فيما نويْتَه أسبَغَ العَطَايا ، وأوردَكَ الهِدايةَ إلىٰ كرِيم المُشاهَدة وزَكِّى المواقِف وأوْلاها بالزُّلْفة المقْبُوله ، والقُرْبة المَأْموله .

ومنها — الدعاء للمسافر .

كما كتب : جعلكَ اللهُ فى حِفْظه وكَنَفه ، وأحاطَكَ بحَيْطَته ، وجعل سَـفَرك أيمَنَ سفَرٍ عليك ، ورجع لك بدَرْك الحاجة ، وبُلُوغ الأمَلِ ، ونُجْح الطَّلِبة ، ونَيْل السُّـول .

ومنها — الدعاء بالعافِيَة من المَرَض .

كما كتب : مسَحَ اللهُ ما بِك ، وعاد بالبِرِّ عليك ، وعجَّل الشِّفاءَ لك ، ومحَّص بَلْواك .

ومنها — الدعاء للوُلَاة .

كما كتب : أجرىٰ اللهُ بالخير يَدَك ، وصَمـا (؟) بالعِزِّ طَرْفك ، وأوطأَ كُلَّ مَكْرُمة قَدَمَك ، وأطال إلىٰ كلِّ غاية هِمَمَك ، وبلَّغَك أقصىٰ محبَّتك .

ومنها — الدعاء فى الأُضْحِيَة بقَبُول النُّسُك .

كما كتب : جعلك الله بقَبُول النَّسِيكة والقُرْبان، فائزًا بالأَجْر والرِّضْوان ، مُخْلِصا لله بالإيمان، فى السِّر والإعْلان، مؤدِّيًا لمـا ٱفترَض عليك، شاكِرًا لإحْسانه إليك .

ومنها — الدعاء بالهَنَاء فى الأعياد .

كما كتب : عَرَّفَكَ اللهُ فى هــذا العيدِ المبـارَكِ من السَّلامة وعُمومِها، والعافيــةِ وشُمُولها، والعارِفةِ وسُبُوغها، والحِيَاطة وكمالها، والحِمـاية وجَمَالِها، أفضلَ ماعَرَّفك فى ماضِى أعيادِك، وسالِفِ أعْوامك .

ومنها — الدعاء بدَفْع النوائب .

كما كتب : كان اللهُ جارَكَ من فَجَائع الدَّهْر ونُوَبه، ووَلِىَّ إنعامِ النِّعمة فيما آتاك من فَضْله ، وتطَوَّل عليك من حُسن الحِيَاطة لمـا تولَّاك والذَّبِّ عمَّا أفادَك .

الأســـلوب الثـانى

(أن تفتتح المكاتبة بلفظ : كتابى أو كتبت)

فأمَّا كتابى ، فكما كَتَب ٱبنُ عبد كان : كتابِى إليْك ، وأنا أستَعْتِب الأيَّام فِيك ، وأُصَانِـعُ الزَّمان فى تَقْرِيبـك ، وربْعُ الجِوار الذى كنا نَسْكُن تحتَ ظِلَالِه ، ونتفيَّأ بَرْنَق جَماله ، بأجلِّ تُحَفه ، وأيْسَر أُلْفه ، وأعذَبِ مُشَاهدة ، وأصدَقِ مُشافَهَة ، ولعل أن يرتاحَ فيَشْعَب صَدْعا ، ويُؤَلِّف جَمْعا .

وأما كتبت ، فكما كتبَ ٱبنُ عبْـد كان أيضا ؛ كتبْتُ وأنا من حَنِين الصَّبَابة إليْك ، وإرْزام الشَّوْق نَحْوَك ، وألِيم التشوق إليك ، ولاعِج اللَّوْعة بك ، علىٰ ماأَسألُ اللهَ أنْ يرحَمَ ضَعْفى ويتصدَّق علىَّ برؤيتك ، ويَهَب لى النظَر إلىٰ وَجْهك وجمـالِ غُرَّتك ، التى هى حَلِيفُ الجَذَل ، ونُزْهة الأمَل .

الأسلوب الثالث

(أن تُفتتَحَ المكاتبةُ بالخطاب بأنا)

كما كتب : أنَا من جُمْلة صَنائِعك ، وحَفَظة وَدَائعك ، وشَكَرة إحْسانك ، متىٰ تصرَّفتُ فى البلاد، فأنَا المعروفُ بمعروفِك، والعائشُ بجَدْواك، وأنت مَنْزَع هِمَّتى وقُرَّة عَيْنى، ومَدَار أمَلِي، ومحَلُّ رَجائِى .

الضرب الثانى

(الأجوبةُ)

وٱبتداؤها إما كما فى الصُّدور الآبتداآت كما تقدّم ثم يقع التعرُّض لوُصُول الكتاب ؛ وإما بأن تُصَدَّر بوصُوله وهو الأكثر .

كما كتب ٱبن عبدِ كانَ : وصَلَ كتابُك فدَفَع تبَاريحَ الشَّوق ، وقَمع كآبَةَ البَيْن، وأطفأَ لَهِيبَ الحُرْقة، وبَرَّدَ حَرَّ الصَّبابة .

وكما كتب : وصل كتابُكَ مشتَمِلا من أنواع البِرِّ، علىٰ ما يقصُرُ فى جَنْب أيْسَرِه أعظَمُ الشُّكْر .

وكما كتب : وصلَ كتابُك المصَدَّرُ بجواهر لفْظك ، وبدائع مَعانِيك ، ومحاسِنِ نَظْمِك ، مستودِعًا ما لا يُقْدَر علىٰ حمده وشُكْره إلّا بالآعتراف بالعجْز عنه ؛ وما أشبه ذلك .

المهْيَـــــع الثـانى
(فى خواتم الكتب)

وكانَ ٱختتامُ المكاتَبات عند أهل هـذا المصطَلَح علىٰ ماتقدّم فى مكاتبات أهـل المَشْرق من ٱستماحة الرأى : إما بلفظ فإن رأَيْتَ :

كما كتب ٱبن عبد كان : فإنْ رأيتَ أن تأْتِىَ فيه مُؤْتَنِفا ، مالم تزَلْ تأتيه سَلَفا ، فعلتَ .

و إما بلفظ فرأْيَك .

كما كتب : فرَأْيَك فيه بمـا أنت أهلُه ، فإن الرأى [الذى] أنتَ أهلُه ، فوقَ ما يلتمسه المُسْرِف فى هِمَّته ، والمتَبَسِّط فى أُمنِيَّته .

وكما كتب : فرأْيَك فى ذلك بمـا تقْضى به الحقَّ وتَصل به الذِّمامَ ، وتحفَظُ به الحُرمةَ وتُصدِّق به الأمل ، وتقْتَعِد به الصَّنِيعةَ ، وتستَوْجب به الشُّكر .

المَهيـــــعُ الثـالث
(فى عُنوانات الكُتُب)

ومصطلَحُهم فيه علىٰ نحو ماتقدّم فى مكاتَبات أهل المَشْرق : من كتابة إلىٰ فلان من فلان ، أو من فلان إلىٰ فلان .

فأمَّا ما يُكْتب إلىٰ فلان من فلان . فكما كتب ٱبنُ عبد كان : للسيِّد الذى ٱستَعْبد الأحرار بفَضْله .

وكما كتب : لمَنْ قُرْبه يُمْن وسعادةٌ ، ونأْيُه نَكَد ومِحْنة .

وأما ما يكتب من فلان . فكما كتب : من صَريع الشَّوقِ إليه ، وأَسيرالرّقْبة عليه .

وكما كتب : ممَّنْ لا يتمنَّى الخيرَ إلَّا له ، إذ كان لا يناله إلَّا به .

المصـــطلَحُ الثـانى

(من مصطلَحات الديار المصرية ما كان عليه الحالُ فى الدولة الأيُّوبيَّة مما جرىٰ عليه القاضى الفاضلُ ومن بعده . وهو علىٰ قسمين)

القسم الأوّلُ — الآبتداءُ : وليس لمصطلَحهم ضابطٌ فى الآبتداء ولا فى الترتيب فى الرِّفْعة والضَّعَة، بل ٱفتتاحاتُهم فى ذٰلك متباينَةٌ .

فمن ذلك الآفتتاح بالدعاء، وهو أكثر ما يقَع فى مكاتباتهم ، والغالبُ فى ذٰلك الدعاءُ للمَجْلِس، كما كتب القاضى الفاضلُ إلىٰ العِمَاد الأَصْفَهانِىّ : أدام اللهُ أيامَ المجلس التى لحَسَناتِ المُدِلِّ مُدِيله ، ولعَثَرات المُقِلّ مُقِيله ،ولمَعَاطف العِزِّ مُمِيله ،ولمَقَاطِف الفَوز مُنِيله ، ولقِدَاح الجَدْوىٰ مُجِيله ، ولا زالت الآرابُ بمكارِمه باجِحَهْ ، والآراءُ بمَرَاسمه ناجِحهْ ، ومتَاجِرُ المَفاخر بمُوالاته رابِحَهْ ، وأيدى الآمالِ لأَيَاديه بمُصافاته مُصافِحَهْ ، وأرْواحُ أوليائه بِرَوْح آلائه فى مُواطاةِ أعْطياته عابقةً فائحه ، وأدعية الداعين لِأَيَامِن أيَّامِهِ، المُذْعِنِين لعُهُود إنعامه، طيِّبةً صالحه .

ومن ذلك ٱفتتاحُ العِمَاد الأصْفَهانِىِّ فى ٱعتِذار تأخُّر المكاتَبات : إنْ تأخَّرتْ مكاتَباتِى، فإنَّ العُذْر معلُوم، والأجْرَ محتُوم ؛ والقَلَم مصْدُود، واللَّقَم مَسْدُود، والبَلَد محصُور .

إلىٰ غير ذلك من أساليبهم المشهورة التى لايَسَعُ ٱستيعابُها، ولا حاجةَ إلىٰ الإمعان فى ذكرها (١) .

---

(١) لم يذكر القسم الثانى وهو قسم الكلام علىٰ الخواتم ولم يترك له بياضا نعم يفهم ذلك مما تقدّم فى الكلام على الخواتم العمومية فتنبه .

المصـــــطلح الثـالث

(من مصطلحات الديار المِصْريّة فى الإخوانيّات، ماجرىٰ عليه الآصطلاحُ فى الدولة التُّركيّة، مما رتّبه القاضى محى الدّين بنُعبد الظاهر، والشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ، والمقرّ الشّهابىُّ بنُ فضل الله، ومن جرىٰ مَجْراهم: من فُضَلاء الكُتّاب إلىٰ زماننا، ممـا هو دائرٌ بين أعيانِ المملكةِ وأكابرِ أهل الدولة : من نُوّاب السَّلْطنة وسائرِ الأُمَراء والوُزَراء، ومَنْ فى معناهم : من أعيان الكُتّاب ومَنْ نَهَج نَهْجَهم من أرباب الوظائف)

وفيـــه مَهْيعانِ :

المهيَـــعُ الأوّل

(فى رُتَب المكاتبات المصطلَح عليها)

وقد آختلفَتْ مقاصــدُهم فى ترتيبها آختلافًا متقَارِبا فى الزيادة والنقْص والتقدِيم والتأخير، مع مراعاةِ أُصُول المَرَاتب . وها أنا أذكُر ما آستقرّ عليه الحالُ من ذلك، وأُنَبِّهُ علىٰ ماخالفه من ترتيبهم المتقدِّم الذِّكر : لتحْصُلَ الإحاطةُ به ، ويُعلَمَ ماجرىٰ عليه أهلُ كلِّ عصرٍ منهم مما لعَلَّ مختارا يختارُه ، أو ينْسُجُ علىٰ مِنْواله ؛ منبِّها علىٰ وَهَم من وَهِمَ فى شيءٍ من ذلك .

وآعلم أنهم قد بنَوْا هذا النوعَ من الإخوانيّات علىٰ قاعدتين، تتعيَّن معرفتهما قبل الخَوْض فى رُتَب المكاتبات :

القاعدة الأُولىٰ — فيما يتعلَّق بورق هذه المكاتباتِ .

قد جرتِ العادةُ أن تكونَ جميعُ هذه المكاتباتِ : من الأعْلىٰ إلىٰ الأدنىٰ ، ومن الأدْنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، ومن النظير إلىٰ النَّظِير، فى ورَق قَطْع العادة دُونَ مافوْقه من مَقَادير

قَطْع الورق المتقدّمةِ الذكر، غير أنَّ أعيانَ أهـلِ الديار المصرية يُكاتَبُون في الورق المِصْرىّ ، وأعيانَ أهـل الشأم يُكاتَبُون فى الورق الشامىّ : لكثرةِ وُجوده عندهم ، والمعنىٰ فى ذٰلك أنَّ كُتُبَ السلطان الصادرةَ عنـه إلىٰ جميع أهل المملكةِ من النُّوّاب وغيرهم فى هذا القطع ، فلا جائزٌ أنْ تعلُوَ مكاتبةُ أحدٍ منهم علىٰ مكاتبةِ السلطان فى ذلك .

ثم قد ٱصطلَحُوا علىٰ أنْ يكونَ فى أعلىٰ المكاتَبـة عن كلِّ أحدٍ من أعيـان الدولة قبلَ البسملة وصـلٌ واحدٌ بياضا ، إذ كان أقلُّ ما يُجْعَـل بياضا فى كُتُبِ السلطان وصلين فاقتصَرُوا علىٰ وصـلٍ واحد، كى لايُساوِيَهُ غيرُه فى ذلك . وٱصطلَحُوا أيضا علىٰ أنْ لا تنقُصَ المكاتباتُ المذكورةُ عن ثلاثة أوصال : الوصلُ الأبيضُ فى أعلىٰ المكاتبة علىٰ ما تقدّم ، ووصلانِ مكتوبانِ : إذ لو نَقَص عن ذلك، لَخرج الكتابُ فى القِصَرعن الحدِّ فيُزْدرىٰ ، أما لو دَعتِ الضرورةُ إلىٰ الزيادة علىٰ الثـلاثة لزيادةِ الكلام فلا مانِـعَ منه . وٱصطلَحُوا علىٰ أن يُتْرك للكتاب حاشيةٌ بيضاءُ تكونُ بقدر رُبُع الدَّرْج علىٰ ما تقدّم ذكره فى غيرهذا الموضع .

القاعدة الثانية — فيما يتعلَّق بخطِّ هذه المكاتباتِ، وكيفيَّة أوضاعِها .

قد ٱصطلَحُوا علىٰ أنَّ جميعَ هذه المكاتَبات تُكتَب بقلَم الرِّقاع علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ قَطْع الورق [من] أنَّ لِقَطْع العـادة قَلَمَ الرِّقاع . وٱصطلَحُوا أيضـا علىٰ أنْ تكونَ كتابةُ البسملة فى أوّل الوَصْـل الثانى من المكاتَبة ، وأن يكون تحتَ الجَلالة من البسـملة لَقَبُ المكتوبِ عنـه المضافُ إلىٰ مَلِكه أو أميره ، فإن كان المكتوب عنه من أتباع السلطان كنُوّاب السلْطَنة وغيرِهم من الأمراء والوُزَراء ومَنْ فى معناهم من رُؤَساء الكُتَّاب السلطانية، كتب المَلَكِىّ الفلانِى ـ بلقَب مَلِكه السلْطان، مثل المَلَكِىّ الظاهرىّ ونحو ذلك كما فى هذه الصورة :

بسم الله الرحمن الرحيم

المَلَكى الظاهرىّ

وإن كان المكتوبُ عنه من أتباع الأمَراء كإستَدّار أميرٍ ونحوه، ٱنتَسَب فى كتابته إلىٰ لَقَب أميره الخاصّ مما يُضَاف فى التلقيب إلىٰ الدِّين ؛ فإنْ كان أميرُه لقبُه سيفُ الدين مثلًا، كتَب بدَلَ المَلَكى الفلانىّ : السيفىّ؛ وإن كان لقبُ أميره ناصِرالدِّين كتب الناصِرىّ؛ وإن كان لقبُه عَلَاءَ الدين كتب العَلَائىّ؛ ونحو ذلك. وإذا كتب تحتَ الجَلَالة من البسملة المَلَكى الفلانِىّ ونحو ذلك ، جعل ما قبله فى السطر بياضًا وما بعده بياضًا ، ويكون ذلك قطعةً من سطر مفردةً بِذَاتها . وٱصطلَحُوا علىٰ أنه كلّما دقَّ القلمُ وتقاربَتِ الأسطُرُ، كان أعلىٰ فى رُتْبة المكتوبِ إليه ، وكلما غَلُظَ القلمُ وتباعدتِ الأسطُرُ كان أنْزَلَ فى رُتْبة المكتوب إليه . وٱصطلَحُوا علىٰ أن فى الرتبة العليَّة من المكاتبات يكون السطرُ الأوّلُ من المكاتبة تِلْوَ المَلَكىّ الفلانىّ وما فى معناه ملاصِقًا له ، وفيما دُونَ ذلك من المكاتبات يُتْرَك بياضٌ يسير ، ولا يكتَبُ فيه شىءٌ ؛ وكأن المكتوبَ عنه يقولُ للمكتوب إليه هذا محلُّ العلامة ، ولكنِّى قد تركت الكتابةَ فيه وكتبت بحاشية الكتاب تأدُّبا معك ورِفْعةً لقَدْرك ؛ وفيما دُونَ ذلك يُتْرَك بياضٌ أوسعُ من ذلك ويكتُبُ فيه المكتوبُ عنه علامَتَه علىٰ ما سيأتى بيانُه فى مواضعه إن شاء الله تعالىٰ . وٱصطلحُوا علىٰ أنه بعد ٱنتهاء الكلام فى المكاتبَة يكتَبُ "إن شاء الله تعالىٰ" فى خَطِّه؛ ثم يكتَبُ التاريخُ فى سطْرَيْن: اليومُ والشهرُ فى سطر ، والسنةُ فى سطْر؛ ثم تكتَب الحمدلةُ والصلاةُ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم فى سَطْر؛ ثم الحَسْبَلةُ فى سطر علىٰ ماتقدّم بيانُه فى الكلام علىٰ الفَوَاتح والخَوَاتم فى المقالة الثالثة .

ولْيُعْلَمْ أنَّ هذه المكاتبَات علىٰ قسمين :

القسم الأوّل — الآبتداءاتُ ، وهو علىٰ أربع درجاتٍ سبق توجيهُ ترتيبها فى الكلام علىٰ أُصُول المكاتبات ، فى أوّل هذه المقالة

الدرجة الأُولىٰ — [المكاتبة] بتقبيل الأرض، وهى أعلاها رتبةً بالنسبة إلىٰ المكتوب إليه .

وآعلم أنَّ كثيرًا من كُتَّاب الزمان يظُنُّون أن المكاتبة بيقَبِّل الأرضَ من مختَرَعات كُتَّاب الدولة التركية ، بل بعضهم يظُنُّ أنها من مختَرَعات المقَرِّ الشهابىِّ بنِ فضل الله وليس كذلك ، بل المكاتَبةُ بذلك كانتْ موجودةً فى أواخر الدولة العباسيَّة ببغدَادَ ، ثم سَرَتْ إلىٰ الديار المصرية فى أوائل الدولة الأيُّوبيَّة، فاستُعْمِلتْ بعضَ الآستعمال، والمكاتبةُ بذلك موجودةٌ فى كلام القاضى الفاضـلِ فى بعض المكاتَبات الملوكيـة ؛ ومن ذلك ما كَتَب به عن نَفْسـه إلى السلطان « صلاح الدين يوسف بن أيوب» فى صدر كتابِ تَهنِئةٍ بمولود :

المملوكُ يقبِّل الأرضَ بالمَقَام العالى الناصِرِىّ، نصَّرَ الله الإسلامَ بمَقَامه، وأهلك أعداءَ الحقِّ بآنتقامِه ، ولا أعدَمَ الأُمةَ المحمديَّةَ عَقْـدَ التِزامِه ، بكَفَالتهـا ومَضَاء اعتِزامِه . ثم تَوسَّع فيه الكُتَّاب بعد ذلك حتّىٰ كاتب به الآحادُ بعضُهم بعضا،

وقد رتَّبوا المكاتبـةَ بتقْبِيـل الأرض فى المصـطَلَح المسـتقِرِّ عليـه الحالُ علىٰ خمس مراتب :

المرتبة الأولىٰ — الإتيان بالإنهاءِ بعـد يُقبِّل الأرضَ من غير تعرُّض لذكْرِ دعاء ولاثَنَاء، مع مراعاة الآختصار وعدم السَّجْع وتقارُب السُّطور، مثل أن يكْتُب بعد البسملة ولقَبِ المكتوب عنه الذى تحت البسملة :

يُقَبلَ الأرضَ ويُنْهى كيتَ وكَيْتَ ، وسؤالُ المملوك من الصَّدقات العميمة بُروز الاوامر العالية بكَيْتَ وكَيْتَ ؛ أو والمملوكُ يَعْرِض على الآراء العاليـةِ كيتَ وكيتَ ، ونحو ذلك . ويخِتمُ الكتّابَ بقوله : أنهىٰ ذلك ، أو طالَعَ بذلك ، وللآراء العاليةِ مزيدُ العُلُوِّ ؛ ويعبِّر عن المكتوب عنه فى خِلاَل المكاتَبة بالمملوك . ويختلفُ الحال فى خطاب المكتوبِ إليه : فإن كان من أرباب السُّيوف وهو نائبُ سلطنةٍ خُوطِب بمولانا ملكِ الأمراء عَزَّ نصرُه أو أعزَّ الله أنصارَه ؛ وإنْ كان أمـيرًا غيرَ نائب سلْطنةٍ ، خُوطِبَ بمولانا المَخْدُومِ ونحو ذلك مما يقتضيه الحالُ ؛ وإن كان وزيرًا ربَّ سيف خُوطِب بمولانا الوزير ؛ وإن كان وزيرًا ربَّ قلَمٍ ، خُوطب بمولانا الصاحب ، وربَّمـا قيل مولانا الوزير ؛ وإن كان قاضيا خُوطِب بمولانا قاضى القُضاة ؛ وإن كان عالمًـا كبيرا ، خُوطب بمولانا شيخ الإسلام ؛ وإن كان من مشايخ الصُّوفية ، خُوطِب بمولانا شـيخ الشُّيوخ ؛ وعلىٰ ذلك بحسَبَ المراتب والوَظَائف علىٰ ما يقتضيه رأْىُ الكاتب بمـا يُناسب الحالَ .

والعنوانُ فى هذه المكاتبة : الفُلانِىّ مطالعةُ المملوك فُلاَن ، ويعبَّر عن ذلك : بالفُلانىّ بمطالَعة . وقد يعبَّر عن ذلك (١) عن نفس المكاتبة . وصورته : أن يكتب فى رَأْس ظاهر المكاتَبة من الجانبِ الأيمن «الفلانىّ» باللَّقَب الخاص بالمكتوب إليه ، كالسَّيفىّ ، والناصِرِىّ ، والشَّمْسِىّ ، وما أشبه ذلك ؛ ويكون ذلك ممتدّا إلىٰ نحو رُبُع عَرْض الدَّرْج ، وتحته فلان بما يقتضِى تعريفَه من وظيفةٍ أو شُهْرة . فإن كان نائبَ سلطنةٍ كتب تحت الفلانىّ : مولانا مَلك الأمراء بالمكان الفلانِىّ . وإنْ كان وزيرًا كتب : مولانا الوزير بالمكان الفلانى . وإن كان قاضِىَ قُضاة ، كتب : مولانا قاضى القُضَاة

(١) لعله وقد يعبر بذلك عن نفس الخ تأمل .

بالمكان الفلانى، ونحو ذلك، ويعبّر عن ذلك بالتعريف، ويُكْتَب فى الجانب الأيسر من رأسِ ظاهرِ المكاتبةِ مقابِلَ ما كتبَهُ فى الأُولىٰ ماصورتُه «مطالعة المملوك فلان» باسم المكتوب عنه ويكون لفظ المملوك تحتَ ذلك، وفلان تحته عن بُعْد ثلاثةِ أسطر، وتكون لِطيفةَ القَدِّ غيرَ مَمْشُوقة علىٰ الضدّ من المكتوب إليه . وهذا مثال عنوانٍ إلىٰ نائبِ سلطنة بالشام لقَبُه سيفُ الدين، عمّن اسْمُه يلْبُغا .

السـ ـــــــــــــــيفىّ مطالعة

مولانا ملكُ الأمراء بالشام المحروسِ عزَّ نصْرُه المـــلوك

يلْبُغا

وعلىٰ ذلك يُقاس سائرُ العُنْوانات من هـذه المرتبة ؛ والأصلُ فى ذلك أنَّ الحَجّاجَ آبنَ يوسُفَ كتب كتابا إلىٰ عبدِ الملك بن مَرْوان ؛ فكتب فى عُنْوانه بقَلَمٍ جليلٍ لعبدالله عبدالملك أمير المؤمنين، وفى الجانب الأيسر بقلم ضئيل من الحجّاج بن يوسف؛ كما حكاه أبوجعفر النحاس فى "صِناعة الكتّاب" فتبعه الناسُ علىٰ ذلك فى تعظيم آسمِ المكتوبِ إليه، وتلطيفِ آسم المكتوبِ عنه ؛ والعلامةُ فى هذه المكاتبة « المملوك فلان » باسم المكتوب عنه بقلم ضئيلٍ بحاشـية الكتّاب سطرينِ : المملوكُ [سطر] والاسم سطر تحته علىٰ هذه الصورة : المـــلوك

فلان

ويكونُ ذلك مقابلَ « يقبّل » ملاصقًا له بحيث تكونُ جَرَّةُ الكافِ من المملوك تحتَ اليـاءِ من يقبّل، فكأنَّهم راعَوْا فى ذلك صورةَ مايكتَبُ فى القِصَص التى تُرفَع إلىٰ الأكابر لآستماحةِ الحوائج ونحوها من حيثُ إنها يكتب فيها «المملوكُ فلان يقبّل الأرض ويُنْهِى كيت وكيت» لمـا فى ذلك من إظهار الخُضُوع والتواضع .

المرتبـة الثـانية — أن يأتىَ بعد « يقبِّل الأرض » بذكر الدعاء دُونَ الثنـاء مع تقارُب الأسطر أيضا وٱجتناب السَّجْع . وقد ٱصطلَحُوا فى هـذه المكاتَبة علىٰ أنْ يكتُبُوا تحتَ البسملة مع لَقَب المكتوب عنه الذى هو المَلَكِىّ الفُلَانِىّ ونحوه لقبَ المكتوب إليه : كالسـيفىِّ ونحوه ، علىٰ سَمْت المَلَكىِّ الفلانى من الجهة اليمنىٰ مع بياضٍ بينهـما ، بحيث يقَعُ بعضُ اللقب فى حاشـيةِ الكِتاب ، و بعضه تحتَ أوّل البسملة علىٰ هذه الصُّورة :

بسم الله الرحمن الرحيم

السـيفى الملكى الظاهرى

ثم يأتى بصورة المكاتبة بعد ذلك . ويختلف الحال فى هذه المكاتبة بٱختلافِ حالِ المكتوب إليه ؛ فإن كان نائبَ سلطنةٍ ، كتب « يقبِّل الأرضَ ويُنْهِى بعدَ رفْعِ الأدْعية الصالحة ، أو بعد ٱبتهالِهِ إلىٰ الله تعالىٰ بالأدْعية الصالحة ، تقبَّلها الله تعالىٰ من المملوك ومن كلِّ داعٍ مخلِصٍ ، ببقاء مولانا ملكِ الأُمَراء ، أو بدَوَام أيام مولانا ملِكِ الأمراء ، وخُلُود سعادته ، ومزيدِ تأييـدِه ، وعلُوِّ درَجاته فى الدنيـا والآخرة ؛ بمحمَّد وآله : أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ ، والمملوك يسأل الصَّدَقاتِ العميمة ، أوالصدقات الكريمة ، أعزَّ اللهُ تعـالىٰ أنصارها بُروزَ الأوامرِ المطاعةِ بكَيْتَ وكيْتَ . ثم يقول : والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأمراء وعبـدُ بابه ونَشْءُ إحسـانه ، ويسأل تشريفَه بمراسِيمِه وخِدَمه ، أو والمملوك يستعرِضُ المَراسِيمَ الكريمة ، والخِدَم العالية ، ليُبادرَ إلىٰ امتثالها ، والفَوْزِ بقضائها ؛ أو والمملوك مملوكُ الأبوابِ العالية ونَشْؤُها وغلامُها ، ويسأل دوامَ النظَر الكريم عليه فى أحواله كلِّها ، ونحو ذلك ممـا يقتضيه الحال ؛ وقد جهَّز المملوكُ

بهذه المكاتبة فلانًا أو مملوكه فلانا . فإن كان قد حمّله كلامَ مشافَهةٍ ، قال : وحمّله من المشافَهة ما يسأل الصدقةَ عليه بسماعه والإصـغاءِ إليه ونحو ذلك . ثم يقول : طالع بذٰلك والرأىُ العالى أعلاه الله تعالىٰ أعلىٰ . وإن كان المكتوب إليه أميرا غيرَ نائبِ سـلطنة ، كتب « بدوام أيام مولانا المخـدُوم » بدل مولانا ملك الأمراء . وإن كان قاضيا ، كتب « ببقاء مولانا قاضِى القضاة ، أو بدَوام أيّام مولانا قاضى القضاة» . وإنْ كان من مشايخ الصُّوفيَّة ، كتب «ببقاء موْلانا شيخ الشيوخ» ونحو ذلك ، وباقى المكاتبة علىٰ ما تقدَّم بحسَب ما يقتضيه الحال . والعنوانُ فى هذه المكاتبة « الأبوابُ الفُلانِيَّة ، مطالعةُ المملوك فلان » ويعـبر عن ذلك بالأبواب بمُطالعة ، ويختلف الحال فى ذلك باختلافِ حالِ المكتوب إليه : فإن كان المكتوب إليه نائبَ سلطنةٍ ، كتب : الأبوابُ الكريمةُ ، العالية ، المْولَويّة ، الأميرية ، الكبيرية ، المـالكيَّة ، المخدوميَّة ، الكافلية ، بلقبه الخاص كالسيفية ونحوها ، أعلاها الله تعالىٰ فلان الفلانى ، باسمه وشهرته . وإنْ كان المكتُوب إليـه أميرًا غير نائبِ سـلطنة أسقط منه الكافلية . وإنْ كان وزيرًا ربَّ سيفٍ ، كتب بعد الأميرية : الوَزِيريَّة . وإن كان وزيراً ربَّ قلم ، أسقط الأميرية ، وكتب قبل الفلانية الصاحِبِيَّة . وإن كان من رؤساء الكُتّاب ممن فى معنىٰ الوُزَراء : ككاتب السرّ ، وناظر الخاصّ ، وناظر الجَيْش ، ونحوهم ؛ أبدل لفظ الأميرية والوزيرية بالقـاضَوِيَّة . وإن كان قاضِىَ حُكْم ، أتى مع القاضَوِيَّة قبل الفلانية بالحاكِمِيَّة . وان كان من مشايخ الصُّوفيَّة أبدل القاضَوِيَّة بالشَّيْخيَّة ونحو ذلك .

وصورته أن يكتب الألقاب من أوّل عَرْض الدَّرْج سطرا إلىٰ آخر المالِكيَّة ، ويخَلِّىَ بياضًا فى آخر السطر بقَدْر رُبُع الدَّرْج ؛ ثم يكتب المخدومِيَّة الفلانية فى أوّل

السطر الثانى مُلَاصقًا للأول ، ثم يُخَلِّى بياضًا يسيرا ، ثم يكتُبُ : أعلاها الله تعالىٰ ، ثم يخلِّى بياضًا يسيرًا ، ثم يكتبُ «فلان الفلانى» تحت آخر السطر الأوّل ، ثم يكتب فى آخر الدَّرْج من الجهة اليُسْرىٰ بعد خلُوّ بياض «مطالعة المملوك فلان» ثلاثة أسطر علىٰ ماتقدّم فى العنونة بالفلانى بمطالعة كما فى هذه الصورة :

الأبوابُ الكريمةُ ، العاليةُ ، المولويّة ، الأميريَّةُ ، الكبيريةُ ، المالكية ، مطـالعة
المخدومية ، السيفيَّة أعلاها الله تعالىٰ أمير دَوادار الظاهرى المملوك
فلان

والعلامة «المملوك فلان» بقلمٍ ضئيلٍ مُسامِت يقَبِّل كما فى المكاتبة قبلها .

قال فى "التثقيف" : وبهـذه المكاتبة يُكْتَب عن أكابر أمراء الديار المِصْريَّة إلىٰ نائب الشام وحلب فيما أظُنُّ .

قال : وكذلك كان يكْتُب المقرُّ العلائىُّ بن فضلِ الله كاتب السرِّ الشريف إلىٰ المشار إليـه ، يعنى نائبَ حلَبَ ، إلا أنه كان يكتب له العلامة أسفلَ الكتاب دُونَ أعلاه .

قلت : وعلىٰ هذا يكون للعلامة فى هـذه المكاتبة رُتْبتان ، إن عظَّمه ، كتب له العلامة علىٰ سَمْت يقَبِّل ، وإلا ففى أسفَلِ الكتاب ، ومن ثم ذكرت قولَ صاحب "التثقيف" هنـا وإن كان محلُّه رُتَب المتكاتِبِين علىٰ ما سيأتى ذِكْره فى موضـعه إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبـة الثـالثة — أن لايَكْتُب فى أوّل المكاتبة عن يمين أسفل البسملة الفُلانىّ ويأتِىَ بذكر الدُّعاء والثناء مسجُوعا ؛ مثل أن يكتب بعد البسملة ولقب المكتوب عنه الذى هو المَلَكى الفلانى : يقَبِّل الأرضَ ، ويُنْهِى بعـدَ رَفْع دعائِه ، وإخلاصه فى محبَّته وولَائه ، وآعترافِه بإحسان مَوْلانا وجَزِيل آلائِه ؛ أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ ؛

والمملوك يسأَلُ إحسانَ مَوْلانا ، أو صَدَقاتِ مولانا ، أو إحسان المخدُوم ، أو صدقاتِه فى كَيْتَ وكَيْتَ ؛ ثم يقول : والمملوكُ فهو مملُوك مولانا ومُحِبُّه ، والداعِى لإحسانه ، ويسأل تشريفَه بمراسِيمه وخِدَمه ؛ وقد جهَّز المملوكُ بهذه العُبُوديَّة فلانا ، أو مملُوكَه فلانا ، وحَمَّله من الدُّعاء والوَلَاء مايُنْهِيه من لسانه ، ويُعْرِب عنه ببَيَانِه ؛ أو وقد حَمَّله المملوكُ مايقومُ عنــه به فى إنهائه ، من رَصْف الأدعِيَــة ، ووَصْف الأَثْنِية ؛ والمملوكُ يسأَلُ الإصغاءَ إليــه ، والتشريفَ بالمَرَاسِيم العاليةوالخِدَم الكريمة : ليَفُوزَ بإقْبالها ، ويُبادِرَ إلىٰ ٱمتثالهــا . طالَعَ بذٰلك ، أو أنهىٰ ذلك ؛ أو والمملوكُ يستعْرِضُ المراسِيَم العاليه ، والخِدَم الكريمة المتَوَالِيه : ليتَشَرَّف بقضائها ، ويتشَوَّف إلىٰ إمضائها .

صـــدر آخر : ويُنْهِى بعــد رَفْع الأدْعيه ، وبثِّ المَحَامد والأَثْنِيه ، والمُوالاة التى يحمِلُ منها عالِىَ الألْوِيه ، أنّ الأمر كيتَ .

آخــــر : ويُنْهِى بعد رَفْع دعائه الذى لايفْتُر لسانُه عن رَفْعه ، ولايخفىٰ إن شاء الله إبَّانُ نَفْعه ، وٱبتهالِه الذى يرفَعُ السُّحُب ، وشَوْقِه الذى يَهْــدِى النُّجُب ؛ أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

آخــــر : ويُنْهِى بعــد دُعائه المقبول ، وشَوْقه الذى لا يحُولُ عنــه ولا يَزُول ؛ وسلامِهِ الذى يَعْجِز عن شرحه القلَمَ ويَضْعُفُ عن حمله الرَّسُول .

آخــــر : ويُنْهِى بعــدَ دُعاءٍ يرفَعه بالغُدُوّ والآصــال ، ووَلاءٍ لايتغَيَّر ما دامَتِ الأيَّامُ واللَّيال ، وثناءٍ أطْيبَ من عَرْف الرَّوْض إذا مرَّ عليه نَسِيمُ الشَّمال ، أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

آخــــر : ويُنْهِى بعــد رَفْع الدعاء ، ونَصْب لِواء الوَلَاء ، وجَرِّ ذُيُول الفَخْر بالٱنتساب إلىٰ عبُودية مولانا والٱعْتِزَاء ، أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

آخـــر : ويُنْهِى بعدَ دعائه المرفُوع، وثنائِهِ الذى هو كالمسك يَضُوع، وشُكْرِه الذى يُسْمَع منه ويُسْمَع أطْيَبُ مسمُوع، أنَّ الأمر كيتَ وكيتَ .

والعُنوانُ لهذه المكاتبة «الأبواب الفلانية» بغير مطالعة، ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوبُ إليــه من أرباب السُّيوف وهو نائبُ سلطنةٍ، كتب « الأبوابُ الكريمةُ، العاليةُ ، المَوْلَوِيَّةُ، الأميريَّةُ، الكبيريَّةُ، السيِّديَّةُ، المـالكيَّةُ، المخدوميَّةُ، الكافلية، الفلانية، أعلاها الله تعالىٰ» ثم يقال : نائبُ السلطنة الشريفة المحروسة؛ أو كافل المملكة الفلانية المحروسة ؛ وباقى عُنْوانات أرباب الوظائف : من أرباب السيوف والأقلام علىٰ ما تقدّم فى العَنْونة بالأبواب بمطالعة .

وصورة وَضْعه أن يكتب « الأبواب الكريمة إلىٰ آخر الكافليـة » مثلا سـطرا واحدا من أوّل عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره ؛ ثم يكتب « الفُلَانيَّة أعلاها الله تعالىٰ » فى أوّل السـطر الثانى ملاصِقًا له ؛ ثم يترك بياضا قدرَ رأس إبهـام ؛ ثم يكتب فى آخِرِ السطر الثانى «كافل المَمَالك الشريفة الفلانية المحروسة» كما فى هذه الصورة:

الأبواب الكريمة، العالية، المولوية، الأميرية، الكبيرية، السيدية، المالكية، المخدومية، الكافلية،

السيفية ؛ أعلاها الله تعالىٰ كافل المـالك الشريفة بالشام المحروس

والعلامة فى ذيل الكتّاب مقابل تحت البسملة بقلم الرقاع «المملوك فلان» وكأنّهم لمـا ٱنحطّت رُتْبة المكتوب إليه عن أن تُكتب العلامةُ إليــه علىٰ سَمْت « يقَبِّل » ليكون فى معنىٰ القِصّة كما تقدّم ، أخذ المكتوب عنه فى التنازُل إلىٰ آخِرِ المكاتبــة تواضُعًا للمكتوب إليه وتأدُّبا معه .

قال فى ” التثقيف “ وبذٰلك كان يُكْتَب عن الأمير يلْبُغا العُمَرىّ: يعنى الخاصكىّ وهو أتابِك العساكر المنصورة بالديار المصرية إلىٰ نائبَىِ الشام وحلَبَ .

قال : وكذلك كتبَ بعده إلىٰ المذكورَيْن : الأميرِ منكلى بغا ، والأمير الجاى ، ونُوّاب السلطنة بالديار المصرية .

المرتبــة الرابعة — أن يأتى بصدر المكاتبة علىٰ ماتقدّم فى المكاتَبَة قبلَها من الاِبتداء بيُقَبِّل الأرض ويُنْهى بعد رَفْع دعائه ومافى معناه علىٰ ماتقدّم من غير فَرْق : ولايختلف الحال فى الصدر ولافى مَتْن الكتاب، والعنوانُ «الباب الكريم» ولايكون إلا بغير مطالَعة . فإن كان المكتوبُ إليــه من أرباب السُّيوف، كتب « البــابُ الكريم، العــالى، المؤلوىّ، الأميرىّ، الكبيرىّ، العــالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، المالكىّ، المخدومىّ، الفلانى، أعلاه الله تعالىٰ، فلان الفلانى ـ باسم المكتوب إليه . وإن كان من أرباب الأقلام أوغيرهم فعلىٰ ماتقدّم فى «الأبواب بمطالعة» من إبدال الأميرىّ بالقَضَائى، أو الشَّيخىّ، وزيادة قاضى الحُكم الحاكِمىّ قبل الفلانى .

وصورة وضــعه : البــابُ الكريم ـ بالألقاب المتقدّمة إلىٰ آخر المــالكىّ سطرا واحدا من أوّل عَرْض الدَّرج إلىٰ آخره، ثم يكتب المخدُومىّ الفلانىّ أعلاه الله تعالىٰ فى أوّل السطر الثانى، ويترك بياضا، ثم يكتب فلان الفلانى بآسم المكتوب إليــه أو شهرته كما فى هذه الصورة :

الباب الكريم العالى، المؤلوِىّ، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدى، المــالكىّ .

المخدومىّ، السَّيفىّ، أعلاه الله تعالىٰ بَهَادر أميراخور الأشْرَفِىّ .

تنبيه — كلُّ ما كان العُنوانُ فيه البابُ الكريم، كان العُنْوان فيه للمسافر «المخَيَّم» بدلَ الباب، وباقى الألقاب علىٰ حالها كما نَبَّه عليه فى "التثقيف" وغيره، والعلامة فى آخر المكاتبــة مقابل حَسْبى الله، إذ لَمَّا كانت العلامة فى أسفل الكتاب مقابِلَ

تحتِ الحَسْـبلة كانت العـلامةُ فيما فَوْقَ ذلك أنزلَ فى رُتْبـة المكتوب إليـه وأعلىٰ فى رُتْبة المكتوب عنه .

المرتبة الخامسـة — يُقَبِّل الأرض بالمَقر الشريف . والرسمُ فيـه أن يَتْرك بعد البسملة وما تحتها من المَلَكى الفلانى قدرَ سطر أو سطرين بياضًا؛ ثم يكتب يقبِّل الأرض بالمَقر الشريف ؛ ويختلف الحال فيه : فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيوف، كتب « يقبِّـل الأرضَ بالمقَر الشريف، العـالى، المَوْلوِىّ، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، الذُّخرىّ، الظَّهيرىّ، المُسْندىّ، الزَّعيمىّ، المالكى، المخدُومىّ، الفلانى، أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه، وأعلىٰ مَناره، وضاعف مبَاره، ويُنْهِى بعـد وصْف محبتّه، وبَثِّ أثْنِيتَـه ، كيت وكيت ، والمسئولُ من إحسانه كيتَ وكيتَ » وربمـا كتب : « والممـلوكُ يسأل كيتَ وكيتَ » كما فى المكاتبات السابقـة ؛ أو « والمملوك يسألُ تشريفَـه بمراسمه وخِدَمه ، والله تعـالىٰ يُديم عليه سوابِـغَ نِعَمه » .

دعاء آخر لهذه المكاتبة : أعزَّ الله تعـالىٰ أنصارَه، وأدامَ ٱنْتِصارَه، وجعل علىٰ غايات النُّجوم ٱقتصارَه، ويُنْهِى .

آخـــر : لازالتِ الرِّقابُ لمَهابته خاضِعه، والرِّكابُ به فَوْقَ النُّجوم واضِعه، وأجِنَّة السيوفِ بمَضارِبه منْ ماء الأعداءِ راضِعه، ويُنْهِى .

آخـــر : لا زالتْ أعلامُه مُشَرَّفه، وأقلامُه مُصَرَّفه، وأيامُه بِطيبِ ثنائه بين الخافِقيْنِ مُعَرَّفة .

آخـــر : لا زالتِ الدنيـا ببقائه مُجَمَّـله ، والعَلْيـاءُ لِٱرتقائه مُؤَمَّله ، والنِّعَمُ علىٰ ٱختلافها جواهِرَ مكمَّله، ويُنْهِى .

قلت وربما أُتِى بصورة الإنهاء مسجُوعة أيضا، مثل أن يكتب : ويُنْهِى بعد تعبُّده بِوَلَائه، وقيامِه بحقُوق آلائِه. أو ويُنْهِى بعد دعاء يقوم بُوظائِفه، وولاءٍ يتردّى بمَطَارفه. أو ويُنْهِى بعد رَفْع أدعِيَته، وقَطْع العُمُر فى مُوالاته وعُبُوديَّته، ونحو ذلك.

وعلىٰ ذلك جرىٰ فى "عرف التعريف" إلا أنَّ الغالب فى كتابة أهل الزمان إهمالُه. والعُنْوان إن قُصِد تعظيمه : البابُ العالى ـ بألقاب الباب الكريم فى المكاتَبة قبلَها، إلا أنه يُحْذَف منها الكريم. وإن لم يُقْصد تعظيمُه فالمقرُّ الشريف بالألقاب التى فى صَدْر الكتاب. وصورة وضعه فى الباب العالى علىٰ ما تقدّم فى الباب الكريم : أنْ يأتى به فى سطرَيْنِ كاملين من أوّل عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره، كما فى هذه الصورة :

المقرُّالشريف، العالى، المولوىُّ، الأميرىُّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيِّدىّ، الذُّخرى، الظَّهيرىّ، المسنَدِىّ، الزَّعيمىّ، المالكىّ، المخدومىّ، السيفىّ، أعزَّ الله تعالىٰ أنصاره أمير حاجب بالشام المحروس

والعلامة فى هذه المكاتبة «المملوك فلان» بقلم الرقاع، بأسافل الكتاب، مقابِلَ إن شاء الله تعالىٰ.

وآعلم أنَّ هذه المراتبَ الخمسَ هى الدائرةُ فى المكاتبات بين كُتَّاب زماننا بمملكة الديار المِصْريَّة وما جرىٰ علىٰ نَهْجها، والمعنىٰ فى ترتيبها علىٰ هذا الترتيب أنه فى المرتَبَة الأولىٰ منها حُذِف الدعاءُ والثناءُ المقتضِيان للدَّالَّة من المكتوب عنه علىٰ المكتوب إليه، وآقتُصِر علىٰ اليسير من الكلام دُونَ الكثير الذى فيه سآمةُ المكتوب إليه وإضْجارُه، عند قراءة الكِتَاب؛ وعُنْوِنت بالفلانى كالسَّيْفىّ ونحوه، من حيثُ إنه لَقَبٌ مؤدّ إلىٰ رِفْعة؛ وأُتِى فيه بمطالعة المملوك فلان، إشارةً إلىٰ التصريح بالرِّقّ والعبوديَّة من المكتوب عنه للمكتوبِ إليه مع إقامته فى مَقَام الرِّفعة بذكر لَقَبه المؤدّى إلىٰ رفعة قدره ـ وفى المرتبة الثانية أُتِىَ فيها بالفُلانىّ داخلَ المكاتبةِ دُونَ

العُنْوان فكانت أنزلَ ممـا قبلها : من حيثُ إنَّ العُنْوانَ ظاهرٌ وباطِنَ المكاتبةِ خفِيٌّ والظاهرِ المؤدِّى إلىٰ الرفعـة أعلىٰ من الخفىِّ من ذلك ، وأُتِى بالدعاء فكانت أنزلَ رتبةً من التى قبلها لما تقدّم من أنَّ الدعاء فيه معنىٰ الدالَّة ، وٱجتنب فيه السجعُ من حيثُ إنَّ فى الإتْيان به تفاصُحًا علىٰ المكتوب إليه ، وعُنْونَ بالأبواب إشارةً إلىٰ شَرَف محلِّ المكتوبِ إليه من حيثُ الإشعارُ بأن له أبواباً يُوقَف عليها ؛ وجُعِلتْ دُونَ المرتبةِ الثانية (١) من حيثُ إنَّ العَنْونة فى المرتبة الأولىٰ باللَّقَب المؤدّى إلىٰ الرِّفْعة مع دِلَالته علىٰ الذات . وفى الثانية عُنْوِن بالأبواب المُوصِّلة إلىٰ محِّل الشخص ؛ ولا يخفىٰ أنَّ مادلَّ علىٰ نفس الشَّخْص أعلىٰ ممـا هو مُوَصِّل إلىٰ محلِّه ؛ وأُتِى فيها بمطالَعةِ المملوكِ فلانٍ إشارةً إلىٰ التصريح للمكتوبِ إليـه بالرِّقِّ والعبُوديَّة كما تقدّم فى المرْتَبة الأُولىٰ ــ وفى المرتبـة الثالثة حُذِف منها الفلانى المؤدّى إلىٰ الرِّفْعة من داخل المكاتَبة فكانت أنزلَ من التى قبلها فأُتِىَ فيها بذلك ؛ وأُتِىَ بالدعاء مسـجوعاً فكانَ أنزلَ ممـا قبلَهُ لمـا فى السجع من التفاصُح علىٰ المكتوب إليـه ، وأُسْقِط من عنوانه مطالعةُ المملوك فلان فكان أنزلَ من حيثُ إنَّه لم يقَعْ فيه تصريحٌ برِقٍّ وعبوديَّة كما فى المرتَبَـة الأُولىٰ والثانية ــ وفى المرتبة الرابعة بقِى الصَّدْرُ علىٰ حاله وعُنْوِن فيها بالباب بلَفْظ الإفراد ، فكانت أنزلَ ممـا قبلها ، من حيثُ إنَّ الإفرادَ دُونَ الجمع بدليلِ أنه بعضٌ من أبعاضه ــ وفى المرْتَبة الخامسة قيل يُقَبِّل الأرضَ بالمقَرّ ؛ يعنى مَقَرّ المكتوب إليه ، فكانتْ أنزلَ ممـا قبلها من حيثُ إشعارُ ذلك بالقُرْب من محلِّه (٢) بخلاف يقَبِّل مطلق الأرضِ فإنه لا ينْحصِر فى ذلك ، ثم إنْ عُنوِنَتْ بالباب العالى مجرَّدا عن الكريم ، كانت أنزل ممـا عُنْوِنَ فيه بالكريم لمـا جرىٰ عليه الاصطلاح من رفعـةِ رُتْبة الكريم العالى

(١) لعله دون المرتبة الأولىٰ ، ومراده أن العنونة بالأبواب أقل من العنونة بالألقاب للعلة التى ذكرها .

(٢) مراده : يقبل الأرض بغير أن تقيد بالمقر .

على العالى المجرّد عن الكريم ، على ما تقدّم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة ، وإنْ عُنْونت بالمَقرّ الشريف فهى على آنحطاطِ الرتبة عمّا قبلَها من حيثُ إشعارُه بقُرْب المحلِّ من المكتوب إليه . على أنَّ فى عنْونَة هذه المكاتبة بالمقرِّ الشريف نظرا ، فإنَّ أعلى مَرَاتِبِ الآبتداء فى المكاتبة بالدعاء هى الدعاء للمَقرّالشريف ،وهو بعد تقبيل الباسطِ والباسطةِ واليدِ على ما سيأتى ذكرُه فى الدَّرجة الثالثة فيما بعدُ إن شاء الله تعالى .

فرُبَّما آلْتبَسَ عنوانُ هذه بعُنْوان تلكَ قبل فَضِّها، والوقوفِ على صَدْرها هل هو مفْتَتَح بيُقَبِّل الأرضَ بالمقرّ أو بالدعاء للمَقرّ ،إلَّا أنَّ كُتَّاب الزمان قد رفَضُوا المكاتبةَ بالدعاء للمَقرّ الشريف وآقتصَرُوا على الدعاء للمَقرّ الكريم ، إذ كان هو أعْلى ما يكْتَب به عن السلطان لأكابر أُمَراء المملكة على ماتقدّمَ ذِكرُه فى الكلام على مكاتَبَات السلطانِ إلى أهل المملكةِ فى المقالة الرابعة .

قلت : وفى الدساتير المؤلَّفة فى الإخوانيَّات فى الدولة التُّرْكية فى الزمنِ السابِقِ ما يخالِفُ بعضَ هذا الترتيب ، فجعل فى "عُرْف التعريف" أعلى المراتب يقَبِّل الأرضَ ويُنْهِى كيتَ وكيتَ ،والعنوانُ «الفلانى بمطالعة» على ماتقدّم ذكرُه فى الترتيب السابق . ودونه : الصدر بعَيْنه، والعنوان «الأبوابُ بمطالَعَة» . ودونه : كذلك والعُنْوان «الأبوابُ» بغير مطالعة . ودُونه : « يقبِّل الأرضَ بالمقرّ الشريف ، والعُنْوان إما البابُ العالى أو المَقرُّ الشريف» .

وفى دُسْتورٍ يُعْزىٰ لبعض بنى الأثيرِ أنَّ أعلى المراتب يقَبِّل الأرض ويُنْهِى كيتَ وكيتَ على ما تقدّم . ودُونَه : «يقبِّل الأرض ويدعو مثلُ يقَبِّل الأرض ويُنْهِى بعد رفع دعائه الذى لايفتُرُ لسانُه عن رَفْعه ، ولا يخفى إن شاء اللهُ إبَّانُ

نَفْعه » . ودونه : « يقبِّــل الأرض ويَدْعُو لها » ، مثــل : يقبِّل الأرضَ حماها الله تعالىٰ من غِيَرِ الزَّمان ، وٱكتنفها بالأَمَان ، من صُرُوف الحَدَثان ، ولا زالتْ محطَّ وُفُود الجَدَا ، وكعبةَ قُصَّاد النَّدا ، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ » . ودونه « يقبِّل الأرضَ ويصفُها » ، مثل أن يكتب : يقبِّل الأرضَ التى هى ملْجأُ العُفَاه ، ومَلْثَم الشِّفاه ، ومحلُّ الكَرم الذى لايَخِيبُ مَنِ اقتَفَاه ، ومقصِدُ الراجى الذى إذا عَوَّل عليــه كَفَاه ، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ » . ودونه « يقبِّل الأرضَ ويدعو لهــا »(١) ، مثل أن يكتب : يُقَبِّــل الأرضَ لازالَتْ محْروسةَ الرِّحاب ، هامِيَــةَ السَّحاب ، فَسِيحَة الجَنَاب ، لمَنْ أناب ، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ » .

وجرىٰ فى "التثقيف" علىٰ الترتيب المتقدّم فى المرتبة الأولىٰ والثـانية والثالثة والرابعة علىٰ ماتقدّم فى المراتب الخمس السابقةِ ، وجعل المرتبةَ الخامسة يقبِّل الأرضَ مع وَصْفها علىٰ ماتقدّم فى الدُّسْــتُور المنْسوب لبعض بنى الأثير مع العَنْونة بالبــاب العالى ، وجعل يقبِّلُ الأرضَ بالمَقَرّ الشريف مرتبةً سادسةً مع العَنْونة بالباب العالى أو المَقَرّ الشريف .

وفى غير هـــذه الدَّساتير ما يخالفُ بعضَ ذلك فى الترتيب والتقـــديم والتأخير ؛ وفى بعض الدَّساتير بعــد تقبيلِ الأرضِ تقبيلُ العتَبات ، مثل أن يكتب : يُقَبِّــل العَتَباتِ الكريمة ، لابَرِحَتْ مَطْلَع السُّعود ، ومَنْبَع الجُود ، ومَهْيَعًا للمقـام المحمُود . أو : يقبِّل العَتَبات الكريمة ، لازالَتِ الأفلاكُ تتَمنَّى أنها بهـا تَحُفّ ، وأنها لنجومها إليها بحوض الوالدين (؟) تزف . أو : يُقَبِّل العَتَبات الكريمة ، لا زالَتِ الآمالُ بها مُطِيفه ، والسُّعُود لها حَلِيفه ، وسعادتُها لٱستخدامِ كلّ ذى إلْمـام مُضِيفه .

---

(١) هذه المرتبة تقدمت قبل بأسطر الا أن يكون انحطاطها من حيث صيغة الدعاء تأمل .

ولا يخفى أنّ بعض هذه الاختيارات غيرُ مُحْكَم الأَسَاس، ولا موضوعٍ على أصل يقتضِي صحةَ الترتيب فيه، بل الكثير من ذلك راجعٌ إلى التشَهِّى، كلّما تقدّم متقدّم فى دولةٍ من الدُّوَل أحبَّ أن يُؤْثر مخالفةَ غيره، ويجعل له شيئا يُحْدِثه لِيُنْسَب إليه ولا يُبالى وافق فى ذلك غرضًا صحيحًا أم لا، وقَلَّ مَنْ يصيب الغَرَضَ فى ذلك . على أنَّ تقديمَ بعض هذه المراتب على بعضٍ فى العُلُوِّ والهُبُوط إنما هو من جهة ٱستحسانه، لو تكلَّف المتكلِّف تأخيرَ ما تقدّم فيها أو تقديمَ ما أخّر، لأمكنه ذلك .

الدرجة الثانيـــــــة

(المكاتبة بتَقْبِيل اليدِ، وقد رتَّبُوا ذلك على ثلاث مراتبَ)

المرتبـة الأولى — يُقَبِّل الباسِطَ الشريف ، وهى الأعلى بالنسبة إلى المكتوب إليه . والرسمُ فيها أن يترك الكاتبُ تحتَ المَلَكِىّ الفلانىّ بعدالبسملة قدرَ سطرَيْنِ بياضا كما فى المسألة قبلها[(١)] ، ويختلف الحـال فى ذلك : فإن كان المكتوبُ إليـه من أرباب السُّيوف، كتب : يقبِّل الباسطَ الشريفَ، العالىَ، المَوْلوِىَّ، الأميرىَّ، الكبيرىَّ، العالمىَّ، العـادلىّ، المؤيّدىّ، السيدىّ، المالكىَّ، المخدومىّ، المُحْسِنىّ، الفلانى، لا زالت ساحتُه مقبَّـله، وسَمَاحتُه مؤمَّله، ويُنْهِى بعـد وصف خِدَمه، وثُبوتِ قيامِه فيها على قَدَمه، أنّ الأمر كيت وكيت، والمسئولُ من إحسانه كيتَ وكيتَ، والله تعالى يحرُسُه بمنّه وكرمه .

دعاء آخـــر : يليق بهذه المكاتبة، يقال بعد تكملة الألقاب : لا زالتْ نِعمُه باسطه، وأيَّامه لعُقُود الأيام واسِطَه، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ .

(١) يعنى المرتبة الخامسة .

آخـــر : لازال جَنَـاحُ كَرَمه مبْسوطا، وجَنَـابُ حَرَمه من المَخَاوِف محُوطا، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ .

آخـــر : لا زال يُصَرِّف الأعِنَّـة والأسِـنَّه ، ويقلِّد أعنـاقَ أَعدائِه كُلَّ أجَلٍ وأعناقَ أوِدّائِهِ كلَّ مِنَّه، ويُنْهِى .

آخـــر : لا زالتْ حمائلُ السُّيوف تتسابَقُ إلىٰ بَنَـانه ، وأعقابُ الرِّماح تَأْوِى إلىٰ أنامله : لِيُمكِّنَهَا من قلُوب أعداءِ الله يَومَ طِعَانه، ومُتونُ الخيل متحصِّنةً بعزائمه فيقْوىٰ جَنَانُها بجَنَانه .

آخـــر : لا زالتْ رَحىٰ حُروبِه علىٰ أعدائه تُدَار، وأسِنَّةُ رِمَاحه تُنادِى الأعداءَ البِدَارَ البِدَار ، وجُنودُه تقاتِلُ سَـفَرَةَ الوجُوه إذا قاتل الأعداءُ فى قُرًى محصَّنةٍ أو مِنْ وَرَاءِ جِدار .

آخـــر : لازالتْ أعلامُ النصر معقودةً بأعلامه، وجَوارِى اليَمِّ السعيدِ معدُودةً من خُدَّامه ، وسُـطورُ البأس والكرمِ مُثْبَتةً إما بأقلام الخطِّ من رِمَاحه وإمَّا بِرِمَاح الخط من أقلامه .

آخـــر : لازالتِ الأعنَّةُ والأسِـنَّة طوعَ يَمينِه وشِمـاله ، والآمالُ والأحوالُ تحت ظِلاَل كرمه وكَرَم ظِلاَله ، والسيُوفُ والأقلامُ : هـذه جاريةٌ بعوائد بَأْسه، وهذه جاريةٌ بعوائد نَوَاله .

آخـــر : ولازالتْ وجوهُ النصر تُتَراءىٰ فى مِرْءَاة صِفَاحه، وثمـارُ النَّصْر تُجْتنىٰ من أغصان رِمَاحِه، ولا بَرِح السيفُ والقلَم يتَبَارَيَانِ فى ضَرِّ الأعداء ببَأْسه ونَفْع الأولياء بسَمَاحه ــ وان كان المكتوب إليه وزيرًا ربَّ سيفٍ، كتب بعد الأميرىّ «الوزيرى» ــ وإن كان وزيرًا ربَّ قلم ، كتب قبل الفلانى أيضا الصاحِبىّ ــ

وإن كان من أعيان الكُتَّاب: كَكاتب السِّرِّ وناظر الخاصّ وناظر الجيش وناظر الدَّوْلة وكُتَّاب الدَّسْت ونحوهم، كتب بدل الأمِيرِى القَضَائىّ؛ ثم يكتب للجميع بعد الوزيرى أو القضائى؛ العالمىّ، العادلىّ، الممهِّدى، المشيِّدىّ، المالكىّ، المخدومىّ، المحسنىّ، الفلانى؛ أسبغ اللهُ تعالىٰ ظِلالَه ومَدَّها، وشيَّد به مبانِىَ المُلْك وشَدَّها، ووهَبَ الأيامَ منه هِبةً لا تستطِيعُ الليالِى رَدَّها؛ وينهى كيتَ وكيتَ.

دعاء آخر يليق بهذه المكاتبة، يقال بعد تكملة الألقاب، ولا زالتْ أقلامُه تُرَوِّع الأُسْدَ فى آجامِها، وتَزِيد علىٰ الغُيُوث فى ٱنْسِجامها، وتُعَلِّم الرِّماحَ الإقدامَ إذا نَكَصَتْ لإِحْجامها، ويُنْهِى.

آخر: ولازالتِ الدُّوَل مشَيَّدةً بتصريفه، مجدّدةً لتشريفه، مؤيَّدة بين صرير القلم وصَرِيفه.

آخر: ولا زالتْ أقلامُه تَهْزَأ بالغيوث الهامِيَه، وأنعامُه تفُوقُ علىٰ البِحَار الطامِيَه، ومَوارِدُ إحسانه تَأْوِى إليها الوفُودُ الظامِيَهْ.

آخر: وأدام القَصْدَ لِبَابه، ونزُولَ الآمالِ برِحَابه، وصُعودَها إلىٰ سَحَابه.

آخر: لازال فَسِيحا للمَقَاصد جَنابُه، مُجَرَّبا للمَنَاجِح بابُه، صريحًا فى ٱبتغاءِ خير الدنيا والآخرةِ طِلَابُه — وإن كان من القضاة الحُكَّام، كتب: يُقَبِّل الباسطَ الشريف، العالى، المولوىّ، القَضَائى، العالمىّ، الإمَامىّ، العَلَّامى، السيِّدىّ، المالكىّ، المخدومىّ، المُحْسِنىّ، الحاكمىّ، الفلانىّ؛ أعزَّ الله تعالىٰ أحكامَه، وجَمَّل به الدهْرَ وحُكَّامه، وثبَّت به الأمْرَ وزاد إحْكامه، ويُنْهِى كيتَ وكيتَ.

دعاء آخر يناسبه: يقال بعد تكملة الألقاب: أعزَّ الله تعالىٰ أحكامَه وأنفذَها، وتَدَارك به الأُمَّة وأنْقَذَها، وأسعَفَ به المِلَّةَ الإسلاميَّةَ وأسعدَها، وينهى.

آخـــر : نَضَّر اللهُ الدِّينَ بنُوره ، وسـقىٰ الغَمَام باقِىَ سُوره ، وحَمىٰ حِمىٰ الشرعِ الشريف بمـا ضَرَبَ عليه من سُورِه .

آخـــر : وجَمَّل الدهرَ بمَنَاقِبـه، وزيَّن سماءَ العلم بكَوَاكبه ، ولا زالَ الزمانُ يقول لمَنْصِب الشرع الشريف بشخْصه ورأْيه : * عِزٌّ يدُومُ وإقبالٌ لِصَاحِبه * .

آخـــر : وأمضىٰ بيده سُيوفَ الشَّرْع التى هى أقلامُه ، وأعلىٰ طُروسَ العَدْل والحقِّ فإنها أعلامُه، ولا زالتْ يدُ القَصْد مُشيرةً إليه، ولا ينعقد إلا علىٰ ثنائه خِنْصِرٌ ولا يَنْجلى إلا بِهُداه إبْهام .

آخـــر : وسَـدَّد سِهامَ الحقِّ بأقْضِيَتِه، وشَـيَّد أركانَ الشَّرْع بأبْنِيَته ، وأيَّد الإسلامَ بأقلام سِجِلَّاته القائمـةِ للنصر مَقـامَ ألْوِيَتِه — وإن كان المكتوب إليـه من مشايخ الصُّوفيَّة، كتب : يُقَبِّل الباسطَ الشريفَ، العالىَ، المَوْلَوِىَّ ، الشيخىَّ، الإمامىَّ ، العالِمىّ، العامِلِىّ، الخاشِعِىّ، الناسِكِىّ، السيِّدىّ، المـالِكىّ، المخدُومىّ، المُحْسِنىّ، الفلانىّ؛ لا زال يقاتِلُ بِسِلاحه، ويُقابَل فسادُ الدَّهْرِ بصَلَاحه، ويجلُو دُجىٰ الظَّلْماء بصَبَاحه، ويُنْهِى .

آخـــر : ونفعَ ببركَاته فى الرَّوْحات والغَدَوات، وجَمَّل ببقائِه المحافِلَ والمَلَوات، وبَسَط فى صالح الدُّوَل [يَدَه] : إمَّا فى مبـاشَرته بصالح التـدْبير وإمَّا فى انقطاعِه بصالح الدَّعَوات .

والعنوان فى هـذه المكاتبة «الباسطُ الشريف» بالألقاب التى فى صَدْر المكاتبة علىٰ السَّواء، والدعاءُ له بأوّل سَجْعةٍ من دعاء الصَّدْر أونحوها، بحسَبِ حال المكتوب إليه ، مثل أن يكتب لمن هو من أرباب السيوف ، أعَزَّ الله تعالىٰ نَصْرَه، أو عَزَّ

نَصْرَه . ولمن هو من رُؤساء الكُتّاب : أسبغ اللهُ ظِلالَه . ولمن هو قاضى حُكْم : أعزّ الله أحكامَه . ولمن هو من مشايخ الصوفية : أعادَ اللهُ من بَرَكاته .

وصورة وضْعه فى الوَرَق أن تكتبَ الألقابُ والدعاءُ والتعريفُ فى سطرين كاملين من أوّل عَرْض الورق إلىٰ آخره ، إلا أنه يُفْصَل بين الألقاب والدعاء ببياض لطيف ، وبين الدعاء والتعريف ببياضٍ لطيف كما فى هذه الصورة .

الباسطُ الشريف ، العالى ، المَوْلوىّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، السيّدىّ ، المالكىّ ، المخدومىّ المحسنىّ ، الفلانىّ   أعزّ الله أنصارَه   أمير حاجب بحَلَب المحروسة

وقد ذكر فى "عرف التعريف" : أنه إن قَصَد تعظيمَه ، عنونه بالمَقرّ الشريف بالألقاب المتقدّمة علىٰ السَّواء ، ولا تخفىٰ صورةُ وضعه بعد ما تقدّم ، والعلامة «المملوك فلان» بقَلَم الرِّقاع مقابلَ إن شاء الله كالمكاتبة بالمَقرّ الشريف المتقدّمة .

المرتبَة الثانية — [يُقَبِّل الباسطةَ الشريفةَ](١) والرسم فيها أن يَتْرك تحت المَلَكىّ الفلانى قَدْر سطرين بياضًا كما فى المكاتبة قبْلَها ؛ ثم يكتُب يقبِّل الباسطةَ الشريفةَ بالتأنيث ، ويجرى الحالُ فى ذلك كما فى الباسط — فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السيوف ، كتب : يقبِّل الباسطةَ الشريفةَ ، العاليةَ ، المَوْلويَّة ، الأميريَّة ، الكبيريَّة ، العالميَّة ، العادليَّة ، المؤيّدية الذُّخْريَّة ، المالِكية ، المحسنِيَّة ، الفلانية ، لازالتْ سحائبُها مستَهِلَّه ، ومواهِبُها للبِحَار مستقِلَّه ، ويُنْهى كيتَ وكيتَ ، والمستمَدُّ من محبّته كيت وكيتَ . وربما قيل والمسئُولُ ، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه .

دعاء آخر يليق بذلك : لا زالتْ سُيُولُها تملأ الرِّحاب ، وسُيوفُها تُسْرِع السَّلَّ إلىٰ الرِّقاب .

(١) زدنا هذه العبارة أخذا مما سيأتى علىٰ الأثر ولعلها سقطت من قلم الناسخ تأمل .

آخـــر : لا زالتْ خَناصِرُ الحمْدِ علىٰ فَضْل بَنانِها معْقوده، ومآثِرُ البأْس والكَرمِ لهـا ومنها شاهـدَةً ومَشْهُوده ، وبَوَاتِرُ السُّـيوف مُسَيَّرَةَ القصد إلىٰ مُناصَرةِ أقلامِها المنْضُوده .

آخـــر : ضاعف اللهُ تعـالىٰ مَوادَّ نِعمِها، وجَوادَّ كَرَمِها ، وآتِّصـالَ الآمال بمَسَاقِط دِيَمِها .

آخـــر : لا زالَتِ الآمالُ لائذةً بكَرَمِها ، عائذةً بحَرَمِها ، مستَنْجِدةً علىٰ جَدْب الأيَّام بسَقْيِ دِيَمِها.

آخـــر : لازالتْ لرُسُوم الكرم مُقيمه ، ولصَـنائع المعْرُوف مُديمه ، ولأَيادِي الإحْسان متابِعةً إذا قَصَّرتْ عن البرُوقِ دِيمَه — و إن كان المكتوب إليه من رءوس الكُتَّاب كتب بدل الأميرىّ القضائىّ ، والباقى علىٰ ماتقدّم ، ثم يُدْعىٰ له بما يناسبه .

دعاء يناسب ذلك : لا زالتِ السـيوفُ خاضعةً لأقلامِها ، والنجومُ خاشِعةً لكَلاَمِها، والجبالُ متواضعةً لإعلاءِ أعلامِها .

آخـــر : لا زالتْ مُوالاتُها فريضَه ، وأجنِحةُ أعدائِها مَهِيضه ، ومُقَلُ الأسِنَّة إذا خاصمَتْها ألسنةُ أقلامها غَضِيضه .

آخـــر : أسبغ اللهُ ظِلَّها، وهَنَّأ بهـا أُمَّةَ قَرُبَ مبعَثُ زمانها وأظَلَّها، وهَـدىٰ الآمالَ وقد حَيَّرها الحرمانُ وأضَلَّها .

آخـــر : لازال قلمُها مِفْتاحَ الرِّزق لطالبه ، والجاه لكاسِبه ، والنصْر لمستَنِيب كُتُبها عن كتائبه .

آخـــر : لا زال رِفْدُهـا المطْلُوب ، وسَـعْدُها المكتوب ، وقلَمُها المُخاطب فى مصالح الدول والمَخْطُوب .

آخــــر : بَسَط اللهُ ظِلَّها ولا قَلَّصها، وزادها من فَضْله ولا نَقَصها ، ولا جَرَّع كَبِدَ حاسدِها الظامِيةَ إلا غُصَصَها .

آخــــر : ولازال عميماً إنعامُها، قديمًـا وحديثا دِيَمُها و إكرامُها، قاضيةً بسَعْدها النجُومُ التى هى خُدَّامها .

آخــــر : لا زالتْ بَسيطًا ظِلُّها ، مديدًا فضْلُها، سريعًا إلىٰ داعى النَّدىٰ والرَّدىٰ قلَمُها فى المهِمَّات ونَصْلُها ـ و إن كان من قُضَاة الحُكم زاد مع القاضَوىّ قبل الفلانى الحاكِمىّ ودعا بمـا يُناسب .

دعاء : أعزَّاللهُ شانَهَا، وأذلَّ مَنْ شانَهَا، وأغصَّ بأدْمُع أعدائها الضَّريجة شانَهَا(١) .

دعاء آخــــر يليق بذلك : ولا زالت الآمالُ إليها وافِده، والصِّلاتُ عائِده، ومعانى الفضل عن أخبار مَعْنِها زائِده .

آخــــر : لازالتْ خناصِرُ الحمد معقودةً علىٰ فضل بَنَانها، وفَصْل بيَانها، وعوائدُ الفضل والكَرَم شاهدةً بالحسنَيَيْنِ من فَضْلهـا وآمتِنانِها ـ و إن كان من مشـايخ الصُّوفِيَّة أبدل القَضَائِيَّـة بالشيخِيَّة وأسقط العادليَّة والحاكميَّة ودعا له نحو قوله : ومَتَّع الإسلامَ ببقِيَّته الصالحه ، وبَيَّض صحائفَ أعماله التى لأيْدى الملائكةِ الكرام مُصافِحه .

آخــــر : لا أخْلىٰ اللهُ من بركات خَلَوَاته ، وأعادَ من نَوَامى دَعَواته، وسَوَامى دَرَجاته وتوجُّهاته، ونحو ذلك .

والعنوان الألقــابُ التى فى صَدْر المكاتبــة، والدعاءُ بالسَّجْعة الأولىٰ من الدُّعاء باطنَه أو نحوها .

(١) الشأن مجرى الدمع الى العين . قاموس .

وصورة وَضْعه أن تكتَب الألقـابُ والدعاء والتعريف فى سطرين كما تقدّم فى الباسط كما فى هذه الصورة .

الباسطة، الشريفة، العالية، المولَوِيَّة، الأميريَّة، الكبيريَّة، العالِمَّية، العادليَّة، الذُّخْرية، السَنَدِيَّة، الكامليَّة، المحسِنيَّة أعزَّالله تعالىٰ أنصارها أميرحاجب بحماة المحروسة .

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الرِّقاع فى أوَّل الوصل الثالث علىٰ القُرْب من اللِّصَـاق .

المرتبة الثالثة — يقبِّل اليدَ الشريفةَ بألقابِ الباسطةِ المتقدّمة؛ ثم اليَدَ الكريمة؛ ثم اليدَ العـاليةَ مع حذف الكريمة رُتبـةً بعد رُتْبـة ، والألقابُ بحالها ويُدْعىٰ له ؛ ثم يقال والمستمَدُّ من محبَّته كيْتَ وكيْتَ، والله تعـالىٰ يؤيِّده . والحالُ فى ٱختلاف بعض ألقابها بالنِّسبةِ إلىٰ أرباب السيوف وغيرهم علىٰ ماتقدّم فى الباسطة .

وهذه أدعية لأرباب السُّيوف فى هذه المكاتبة

دعاء من ذلك : يقال بعد ٱستكمال الألقاب : لازالتْ مقبَّلةَ البَنَانِ، مؤمَّلةَ الإحسانِ، مفضَّلةً علىٰ أنواء السُّحُب بكل لِسان، ويُنْهِى .

آخـــر : لا زالت تَرُدّ بالسـيف صُدورَ الكَتائب، وتَرِد الظُّماةُ منهـا مَوارِدَ السحائب، وتُحدِّث عن البحر وكم فى البحر من العَجَائب .

آخـــر : لا زالتْ برِّها مأمونَه، وبذَبِّها ممنونه، وأيامُها تصبِّح الأعداءَ بأسنَّتها الزُّرْق المسنُونه .

آخـــر : لا أخلىٰ اللهُ من وُدّها ، ولا قطع وظائفَ حَمْـدها، ولا قضىٰ مَغيبها إلّا جعل لهـا ذِكرىٰ بُعْدها .

آخـــر : لازالتْ مصالحها تظْفَر بالمُنىٰ ، وتحصُــل علىٰ الغِنىٰ ، وتُطلِق لسانه بعاطر الثَّنَا .

آخـــر : لا زالَتْ لتقليد المِنَـــن سابقةً فى الجُود العَذَل ، مقَسَّمةً فى مكارم التكريم : باطِنُها للنَّدىٰ وظاهرُها للقُبَل .

وهذه أدعية تناسب أرباب الأقلام

يقال بعــد آستيفاء الألقاب : لازالت مستهِلّة بالنَّدا ، مستقِلَّةً بكَبْت العِــدا ، مُطِلَّةً علىٰ النجوم علىٰ بُعْد ما بينهما من المَدىٰ .

آخـــر : لابرِحَتْ مفاخِرُها مفَصَّــله ، ومحبَّتُها فى الخواطر ممَثَّله ، والكواكبُ تَوَدّ لو فارقَتْ فلَكَها وأصبحتْ لدَيْها مسبله .

آخـــر : لا زالتْ لصحائف الإحسان مسَــطِّره ، ولقلوب الأعداءِ مُفَطِّره ، ولصنائع المعروفِ إذا أمسكَتِ الأنواءُ مُمْطِره .

آخـــر : أعلىٰ الله تعالىٰ شانَها ، وضاعف إحسانَها .

والعنوان . اليدُ الشريفة ، أو اليد الكريمة ، أو اليد العاليةُ ، بالألقاب التى فى صَدْر الكتاب من غير زيادةٍ ولا نقص ؛ والدعاء بأوّل سَجْعة من المدعُوِّ به فى صدر الكتاب أو نحوها ؛ والتعريف بعد ذلك .

وصورة وضعه فى الكتابة أن يكتب سطران علىٰ ما تقدّم فى الباسط والباسطة كما فى هذه الصورة :

اليد الشريفة ، العالية ، المولويّة ، الأميريّةُ ، الكبيريّة ، العالمية ، العادليَّة ، الذُّخرية ، المــالكيَّة ، المحسنيَّة ، الفلانية .   أعلىٰ الله تعالىٰ شأنها   نائبُ ملَطْيَةَ المحروسة

والعلامة «المملوك فلان» بقلم التوقيعات، فى آخر الوصل الثانى من الكتاب، على القُرْب من موضع لِصاقه[(١)] .

وآعلم أنه ربمـا وُصِف التقبيل فى هذه المراتب بعد الدُّعاء بالأوصاف الدالَّة على زيادة التأدُّب ورِفْعة قَدْر المكتوب إليه، وعلى ذلك جرى فى "عُرْف التعريف". وقد يستعملُه بعضُ كُتَّاب الزمان، وذلك مثل أن يقول فى تقبيل الباسط بعدَ آستعمال الدعاء : تقبيلًا يَحُوم على مَنَاهله، ويحَلِّق نَسْرُ السماء على مَنازِله ؛ أو يقول : تقْبِيلَ محبٍّ أخلَص ولاءَه، ومَحَّص الصِّـــدقُ وفاءَه ـ أو تقبيلًا يُواليـه، ويُنَظِّم لآليه ـ أو تقبيلا يُواصِل به الخِدَم، ويَوَدّ لو سعى لأدائه على الرأْس إن لم تُسْعِف القَدَم ـ أو تقبيلًا لا يُروى الكرمُ إلَّا عنه، ولا تُستفاد المكارمُ إلَّا منه ـ أو تقبيلَ واردٍ على ذلك الزُّلَال، رائدٍ فى ذلك الروض المتدّ الظِّلال ـ أو تقبيلَ مُسارعٍ إليها، مزاحِمٍ عليها .

وربمـا أتى فى الإنهاء بمـا يلائم المَقَام، مثل أن يقول : ويُنْهِى بعـد وَصْف خِدَمه، وتمنِّيه لو وَقَف فى صَفِّ خَدَمه ؛ وما أشبه ذلك .

قلت : وفى بعض الدَّساتير بعد تقبيل اليد العاليـةِ، يُقبِّل يدَ الجناب الكريم، العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العالمىّ، المؤيّدىّ، النصيرىّ، الزَّعيمىّ، الفلانىّ ؛ وبعد ذلك : يخدُم الجنابَ الكريم بنحو هذه الألقاب ؛ وفى "التثقيف" يقبِّل يد الجناب العالى، ويخدم الجنابَ العـالى، بدُون الكريم ؛ ثم يقال بعد ذلك ويُبْدى لعلمه كيتَ وكيتَ ؛ والقَصْد من محبَّته كيت وكيت ؛ فيُحيط علمًا بذلك . وبعضُ الكُتَّاب يستعمل ذلك إلى الآنَ، وهو ذُهُول، إذ سـيأتى فى أوّل الدرجة الثالثة أنَّ أعلى المراتب المفتتحةِ بالدعاء الدعاءُ للمَقَرّ الشريف على المصطَلَح الأول، وللمقَرّ الكريم على ما آستقرّ عليه الحالُ الآنَ ؛ وإذا كان كذلك فكيف يتأتّى أن تكون مرتبـةٌ من مراتبِ الجنابِ الكريم أو الجناب العالى قبل المقرّ الشريف أو المَقَرّ الكريم .

(١) الأظهر من موضع لصقه .

الدرجة الثالثـــة

(المكاتبة بالدعاء)

وقد رتَّبوا المكاتبةَ بالدعاء علىٰ [ثلاث](١) مراتب :

المرتبة الأولىٰ — الدعاء للمقرّ ، والرسمُ فيــه أن يُتْرك بعد «الملكى الفلانى» قدر عَرْض ثلاثة أصابعَ بياضًا ،ثم يؤتىٰ بصَدْر المكاتبة علىٰ سَمْت البسملة .

ويختلف الحالُ فى ذلك : فإن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف ، كتب أعَزَّ الله تعـالىٰ أنصارَ المَقَرّ الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، العـالِمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، النِّصيرىّ ، الفلانىّ ؛ ثم يُدْعىٰ له بما يُناسب ، نحو: ولا زالَتْ جُيوشُـه جائلَهْ ، وجنودُه بين الأعداء و بين مَطَالِبها حائله ، وأولياؤه علىٰ صَهَوات خَيْلها لَدَيْه قائله ؛ أصدرناها إلىٰ المَقَرّ الكريم ، تُهْدِى إليه من السَّلام أطيَبَه ، ومن الثَّناء أطْنَبه ، وتُبْدى لعلمه الكريم أنَّ الأمرَ كَيْتَ وكَيْتَ ؛ والقصـدَ من ٱهتمامه كيتَ وكيتَ ؛ فيُحِيط علمُه بذلك ، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

وهـــذه أدعيةٌ تُنـاسِب ذلك :

دعاء يليق بذلك : يقال بعد تكملة الألقاب : وأيَّد عزا ئِمَه ونَصَرها ، وأعلىٰ أعلامَه ونَشَرها ، ودقَّق فى مَقَاتل الأعداء حيثُ تزُورُ الأسِنَّةُ نظَرَها ، ويُنْهِى .

آخــــر : ولا بَرِحَتِ الآمالُ بكرمه تعترِف ، وبَوارِق صَوارِمه لأبصار الأعداءِ تختَطِف .

---

(١) بياض فى الأصل .

آخـــر : وأعلىٰ قَدْره ، وأنفَذَ أمْرَه ، أصدَرْناها .

وإن كان من رؤساء الكُتّاب، كتب : بسطَ اللهُ ظِلَّ المقرّ . أو أسبَغَ الله ظِلَال المَقرّ الكريم ، العـالى ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيَّدىّ ، السيّدىّ ، السَّـنَدىّ ، المـالِكِىّ ، المخدُومِىّ ، المُحْسِنىّ ، الفلانىّ ؛ وباقى المكاتبة كما فى أرباب السيوف .

وهــــذه أدعيةٌ تنـاسب ذلك :

دعاءٌ يليق به : ولا زالتِ الأمورُ إليه مفَوَّضه، ومَضَارِبُ العِزِّ إلا عنه مُقَوّضَه، وصحائفُ الحَسَنات بتسويده علىٰ أثناء الدَّهْرِ مُبيَّضه؛ أصدرناها .

آخـــر : وصَرَّفَ لسانَ قلمه ، وشَرَّف مكانَ قَدَمه ، وعَرَّف من كان يُناوِيه أنَّه أصبحَ لا يُعدّ من خَدَمه .

قلت : وقد ذكر فى " عرف التعريف " أن القُضاة والحُكّام لامَدْخَل لهم فى المكاتبة بالمَقرّ ، وعلىٰ ذلك جرىٰ فى مشايخ الصوفِيَّة . علىٰ أنه قد كُوتب بذلك . وقد رأيتُ المكاتبـةَ بذلك فى بعض الدساتير ؛ وحينئذ فيُكْتَبُ : أعَزَّ الله تعـالىٰ أحكامَ المَقرّ العالى، القضائىّ، الكبيرىّ ، العالمىّ، العَلّامىّ، الإمامىّ، المالكىّ، المحْسِنىّ، الحاكمىّ، الفلانىّ؛ ويُدْعىٰ له بمـا يناسب . مثل : وجدّد له إقبـالا، وبلَّغه من الدّارَيْنِ آمالا ، وأحسَنَ إليه مَبْدَأ ومآلا ، ونحو ذلك . والباقى علىٰ نحو ما تقـــدّم .

وهــــذه أدعيةٌ تناسب ذلك:

لا برِحت الشريعةُ مَحُوطَةً بأقلامه، مضبوطةً بأحكامه، مَنُوطةً بمـا يُشَيِّد مَبَانيَها ومَثَانيَها من أحكامه، مؤرّخةً أيامَ سُعودها بأيامه .

آخـــر : حرس الله بأحكامه سَرْحَ المَدىٰ ، ولا برِحَتْ فتَاوِيه بهـا يُقْتدىٰ ، ويُظْهِر علىٰ المُناوِين والمبتَدِعين من تجريدها مُهَنَّدا مُهَنَّدا .

آخـــر : لابَرِحَتْ أنوارُ فتاويه لامِعَه ، وسيُوفُ أقْلامِها بها قاطِعه ، وحُدودُها إلىٰ [مَوَارد] أحكام الشريعة المحمَّدية شارعه .

والعنوان لهذه المكاتبة المقرّ الكريم بنظير ما فى الصَّـدْر ، والدعاء بأوّل سجعةٍ فى الصدر من الدعاء .

وصـــورة وضعه فى الورق أن يكتب فى سطرين الألقـاب والدعاء والتعريف كما فى هذه الصورة :

المقَرّ الكريم ، العالى ، الأمِيرىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، العادلىّ ، العَوْنىّ ، النِّصيرىّ ، الفلانىّ ؛ أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه . فلان الفلانىّ

والعلامة « المملوك فلان » بقلم الثلث مقابل السطر الثانى من المكاتبة .

المرتبة الثانية : الدعاءُ للجناب ، وهو علىٰ ثلاث طَبَقات :

الطبقة الأولىٰ — أعزَّ الله تعـالىٰ نُصْرةَ الجناب الكريم . والرسمُ فيـه أن يُتْرك تحتَ «المَلَكىّ الناصرىّ» عَرْض ثلاثة أصابع بياضا كما فى المسئلة قبلها .

ثم إن كان المكتوب إليه من أرباب السُّـيوف ، كتب : أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرة الجناب الكريم ، العـالى ، الأميرىّ ، الكبِيرىّ ، العالِمىّ ، العادِلىّ ، العَوْنىّ ، الذُّخْرىّ ، العَضُدىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدعىٰ له ، نحو : وأعلىٰ قَدْره ، وأنفذَ أمْره ، صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب الكريم ، تُهْدِى إليه سلامًا رائقا ، وثناءً عابِقا ، وتُوضِّح لعلمه الكريم كَيْتَ وكَيْتَ ، والقَصْد من اهتمامه كيتَ وكيتَ ؛ فيُحيط علمهُ بذلك ، والله تعالىٰ يحرُسُه بمنّه وكرمه .

وهـــذه أدعية تُنَاسِبُ ذلك .

دعاء منـــه : ولا زالتْ عزائِمه تُعِير السُّـيوفَ المَضَاء ، وتُعَـلِّم السِّهامَ النُّفُوذَ فى القَضَاء .

آخـــر : ولا زال جنَـابُه مَرْتَعا ، وسحابُه مَرْبَعا ، ورُعْبُـه لايَدَع من قلوب الأعداء مَوْضِعا .

آخـــر : ولا زالتْ عزائمُه تُبَـارِى السُّـيوف ، وتَشُقُّ الصُّفُوف ، وتُجارِى إلىٰ مَقَاتِلِ الأعداء الحُتُوف ، صدرت .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالىٰ جَلَال الجناب الكريم ، العالى ، القضائِىّ ، الكبيرىّ ، الصَّدْرِىّ ، الرَّئيسىّ ، العَوْنِىّ ، الغِيَاثى ، المَلَاذِىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدْعىٰ له بمـا يناسبه ، والباقى من نِسْبَة أرباب السُّيوف .

دعاء يناسبه : وحرَس سماءَه التى تَغْنىٰ عن المَصَابيح ، ونَعْماءه التى هى للنِّعَم مَفَـاتِيح .

آخـــر : وبلَّغَهُ أشرفَ الرُّتَب ، وملأَ به قُلوبَ الأعداءِ غايةَ الرَّهَب ، وشَـكَر نَدىٰ قلمه الذى لم يدَعْ للغَمَام إلا فَضْلَ ماوَهَب ، صدرت .

وإن كان قاضِـيًا ، كَتَبَ : أعزَّ الله تعـالىٰ أحكامَ الجناب الكرِيم العـالِى ، القَضَائى ، الإمامِىّ ، العالمىّ ، العَلَّامىّ ، الأوْحَدىّ ، الفلانىّ . ويدعو له ، نحو : ونَوَّر بعِلْمِه البصائر ، وسَرَّ بحُكْمه السَّرائر ، وجعل فَيْض يَمِّه ممـا لا تُودَع دُرَرُه إلا فى الضمائر . والباقى من نِسْبة ما تقدّم .

وإن كان من مشايخ الصُّوفيَّـة ، كَتَبَ : أعاد اللهُ تعـالىٰ من بركَات الجناب الكريم ، العالى ، الشَّيْخِىّ ، الإمَامِىّ ، العالمىّ ، العامِلىّ ، الوَرِعىّ ، الزاهِدىّ ، الفلانىّ .

ويُدْعىٰ له ، نحو : ولا زال يُقاتَل بسِلاحه ، ويُقابَل فَسادُ الدَّهر بصَلاحه ، وتُجْلىٰ دُجىٰ الظَّلْمـاء بصَـباحه ؛ صدرت هذه المكاتبةُ إلىٰ الجنـاب الكريم تُهدِى إليـه سلامًا يزدان بعَرْض بخِدْمته ، ويزدادُ نَضْرة بنَظْرته .

والعنوان لكلٍّ منهم بألقاب الصدر، والدعاء بأوّل سَجْعة من دعائه أو نحو ذلك.

وصورة وَضْعه أن يكتب فى سطرين ألقابَه ودعاءَه وتعريفَه كما فى هذه الصُّورة:

الجناب الكريم ، العـالِى ، الأَمِيرىّ ، الكَبِيرىّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ،
النَّصِيرىّ ، الفلانىّ ، أعز الله تعالىٰ نُصْرته فلان الفلانىّ

والعـلامة « المملوك فلان » بقـلم الثلث مقابِلَ السطر الثـانى كما فى المكاتبـة التى قبلها .

الطبقة الثانيـة — من المرتبة الثانية : ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى . والرسمُ فيه أن يترك تحتَ المَلَكِىّ الفلانىّ قدر أربعةِ أصابعَ بياضًا . ثم يختلف الحال فى ذلك .

فإن كان المكتوبُ إليـه من أرباب السُّـيوف ، كُتِبَ : ضاعفَ اللهُ تعـالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، الأميرِىّ ، الكَبِيرىّ ، العالمىّ ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ ، العَوْنىّ ، النَّصِـيرىّ ، الذُّخْرىّ ، الفـلانىّ ؛ ثم يدعىٰ له ، نحو : ونَصَره فى جِلَاده ، وأيَّده فى مَواقِف جِهَاده ؛ صدرتْ هذه المكاتبـةُ إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليـه سلامًا يَشُوقُ ، وثناءً يَرُوق ، وتُوضِّح لعلمـه كيتَ وكيتَ ؛ فالجناب العـالى ، يتقدّمُ بكيتَ وكيتَ ؛ فيُحيط علمُه بذلك ، واللهُ تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكَرَمه .

دعاء آخر يناسب هـذه المكاتبة : يقال بعـد ٱستيفاء الألقاب ، ولازالَ عَزْمه مؤيَّدا ، وعِزُّه مؤبَّدا ، وٱجتهادُه وجِهَاده : هذا يسُرُّ الأولياءَ وهذا يَسُوء العِدَا ؛

صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العـالى تخُصُّه بالسَّـلام، والثناءِ الوافرِ الأقْسام، وتُوضِّح لعلمه كيتَ وكيتَ .

آخـــر : ولا زالتْ آراؤه كواكبَ يُهتَـدىٰ بلوامِعِها ، وتُقْـرأ سُـورةُ النصر فى جَوامعها ، وتَسير كالسُّحُب فترْمِى الأعداءَ بصَواعِقِها وتأتِى الأوْلياءَ بهَوامِعِها .

وإن كان من الكُتَّاب، كتب : ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى، القَضائىّ، الكبيرىّ، الصَّدْرىّ، الرَّئيسىّ، القوَامىّ، النِّظامىّ، الفلانىّ ؛ ثم يُدْعىٰ له نحو : ولا زال يُرْجىٰ لكلِّ جَليل ، ويُؤمَّل لكلِّ جميل ، ويُؤهَّل لكلِّ منتَهًى تقصُر دُونه أصابعُ النِّيل ؛ صدرتْ هذه المكاتبةُ، والباقى علىٰ ماتقدّم فى أرباب السيوف .

وإن كان من القُضاة، كتب : ضاعف الله تعالىٰ نِعمةَ الجناب العالى، القَضائىّ، العالِمىّ، الفاضلىّ، الأوْحدىّ، الصَّـدْرىّ، الرَّئيسىّ، الفلانىّ ؛ ويُدعىٰ له نحو : ودَفَع عنه الأبَاطيل، وأرشدَ بِهُداه من الأضَاليل .

وإن كان من مشايخ الصُّوفيَّة، كتب : أعاد اللهُ تعالىٰ من برَكة الجناب العالِى، الشَّيْخىّ، الإمامِىّ، العالِمىّ، الكامِلىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدىّ ؛ ويُدْعىٰ له، نحو : ولا زال تُكْشَفُ به اللَّأْواء، وتُطَبُّ به الأدْواء . صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدى إليه سلامًا، وتُفَضُّ عن مِثْل المِسْك ختاما، وتوضِّح لعلمه .

دعاء آخر : نفَع اللهُ بدَعَواتِه التى لاحاجبَ لها عن الإجَابه، ولا عارضَ يمنَعُها عن الإصابه، وأمتع ببركَاته التى هى أَمْنٌ للناس ومَثَابه . صدرت .

والعنوانُ الألقاب التى فى صـدر المكاتبة . والدعاءُ : ضاعف الله تعالىٰ نِعمَتَه ؛ ثم التعريف .

وصورة وضعه فى الورَق أن يُكْتَب فى سطرين ألقابه ودعاؤه وتعريفه كما فى هذه الصـــورة :

الجنـاب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، المؤيّدىّ، العونىّ، النّصيرىّ، الذُّخْرِىّ، الفلانىّ . ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه فلان الفلانىّ

والعلامة «المملوك فلان» بقلم الثلث الثقيل مقابِلَ السطر الأوّل من المكاتبة .

الطبقة الثالثـة — أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ومافى معنىٰ ذلك . والرسمُ فيه أن يُتْرك تحتَ المَلَكى الفلانى بحيثُ يبقىٰ من الوصـل الذى فيـه البسملةُ مايسَعُ سطرين فقَطْ . ثم يختلف الحال فيه .

فإن كان المكتوب إليـه من أرباب السـيوف ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى ، الأميرىّ ، الكبِيرىّ ، العالِمِىِّ ، المجاهِدىّ ، المؤيِّدىّ ، العوْنِى ، النِّصـيرىّ ، الذُّخْرىّ ، الفلانى . ويُدْعىٰ له ، نحو : وأيَّد عزْمَه وأظهَرَه ، وكَبَتَ عدوَّه وقَهَره ؛ صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليه سلاما طيِّبا ، وثناءً مُطْنَبًا ، وتوضِّح لعلمه كيتَ وكيتَ ؛ فالجناب العالى يتقـدّم بكيْتَ وكيْتَ ؛ فيحيطُ علمُه بذلك ، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

دعاء آخر يناسبه : وموَّه بجهاده كُلَّ سِنَان ، ونَبَّـه بجِلاده جَفْنَ كلِّ سـيفٍ وَسْنَان . صدرتْ هـذه المكاتبةُ تحيِّيه بسلامٍ يَطِيب ، وثناءٍ يهتزُّ غُصْنُه الرَّطيب ، وتوضِّح لعلمه .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالِى ، القضائى . والألقابُ من نِسبة ما تقدّم فى ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العـالى . والدعاء ، نحو : ولا زال قلمُه لِأبوابِ الأرْزاق فاتِحا ، ونَجْمُ رِفْده [لأنواء الفضـل مانحا](1) صـــدرتْ .

(1) بيض فى الاصل لبقية هذه السجعة فاثبتناها ليَلْتئم الكلام .

وإن كان من القُضاة ، كتب : أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، والألقابُ من نِسْــبة ما تقــدّم فى ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجنابِ العــالى . والدعاءُ ، نحو : ولا أخلىٰ اللهُ أُفُقَ الفضل من كَوْكِبِه ، ولا مجالَ الجِدال من مَرْكَبِه . صدرت .

وإن كان من مشـايخ الصوفية ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ الجنـاب العالى الشيخىّ . وبقيّةُ الألقاب من نِسْبة ما تقدّم مع ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب . والدعاء، نحو : نفعَ الله ببركات خَلَواته التى كَم آنجلَتْ عن الرَّشَاد، وبان فى مِرْءاتِها نُورُ الهدىٰ للعِباد، وأنارَتْ إنارَة الشمس لَاإِنَارَةَ الزِّناد .

والعنوانُ بنظير الألقاب التى فى صَدْر المكاتبة ؛ والدعاء أدام الله تعالىٰ نعمتَهُ .

وصورة وضعه فى الورق أن يُكْتَب فى سطرين الألقابُ والدعاءُ والتعريفُ كما فى هذه الصورة :

الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، العالمى، المجاهدىّ، المؤيّدى ، العَوْنى ، النَّصِيرى ، الذُّخْرى ، الفلانى؛ أدام الله نعمتَه فلان الفلانىّ

والعلامة «المملوك فلان» تحت البسملة بقَلَم مختصرِ الطُّومار .

المرتبة الثالثة ــ الدعاءُ للمجلس ، ويختَصُّ بالمجلس العالى ، والبياضُ فيه تحتَ المَلَكى الفلانى بحيث يبقىٰ من الوصــل قدرُ سطرين كما تقدّم فى الجناب العــالى. ويختلف الحال فيه .

فإنْ كان من أرباب السُّــيوف، كتب : أدام اللهُ تعــالىٰ نعمةَ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيِّدى ، الذُّخْرىّ ، العَوْنى ، الفلانى؛ ويدعىٰ له ، نحو : وأيّدَ عَزْمه ، ووَفَّر من الخيرات قِسْمَه ؛ صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدى إليه سَلَاما ، وتُوفِّر له من الخير أقْسامًا ، وتوضح لعلمه المبارَك

كيتَ وكيتَ ، فالمجلسُ يتقـدَّم بكيتَ وكيتَ ، فيحيط بِذلك عِلْمـا . والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه .

وهـــذه أدعية تليق بهذه المكاتبة .

دعاء من ذلك : ولا زالَ مَشْكورَ الاهْتِمام ، موصوفَ المحَاسِن وَصْفَ البَـدْر التَّـمام ، معروفًا بجميل الأَثَر مثلَ ما تُعْرف مواقِعُ الغَمَام . صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى تُهْـدى إليه سـلاما ، وتُسَـدّد لرأيه الصـائِبِ سِهاما ، وتوضِّح لِعلْمه الكريم .

آخـــر : ولا زال سَيْفًا يُدْفَع بحَدّه ، ويَجْرِى ماءُ النصر من فِرنْده ، ويتنوعُ به الظَّفَر فيَقْتُل بتجريده ويُخافُ وهو فى غِمْده .

وإن كان من الكُتَّاب ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، القَضَائى ، الأجَلِّ ، الكبيرىّ ، الرئيسىّ ، المـاجِدىّ ، الأوحَدىّ ، الأَثيرىّ ، الفـلانى ؛ ويُدْعىٰ له ، نحو : وسدّدَ رأْيَه ووَفَّقه ، وصَدَّق فيـه الظَّنَّ وحقَّقه ، وجمع له شَمْلَ السعادةِ ثم لافرَّقه . صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى تَشْكُر مَساعيه ، وٱهتمامَهُ الذى باتَ طَرْفُ النَّجْم وهو يُراعِيه ، وتُوَضِّح لعلمه الكريم .

آخـــر : ولا نَزَع عنه ثوبَ سَعاده ، ولا غيَّر منه جميلَ عادَه ، ولاعُرِف سِوىٰ بابه الذى لوكان له الحقُّ فى جَبْهةِ الأسـدِ لاستعادَه . صدرتْ هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى تُهْدِى إليه السـلام ، والثَّناءَ الذى تَنْطِق به ألْسِـنَةُ الأقلام ، وتوضح لعلمـــه .

وإن كان من القُضاة ، كتب : أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ، القَضَائى ، الكبيرىّ ، العـالمىّ ، العاملىّ ، الفاضـلىّ ، الأوْحَدىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدْعىٰ له ،

نحو : ولا بَرِحتْ طُلْبته(١) مفيدةَ المَطالب، مُورِيَةَ الهُـدىٰ فى الغَياهِب، قائمةً أقلامُ هدايَتِها فى ليالى الحَيْرة مَقامَ الكواكِب .

آخـــر : ولا بَرِحتِ الدنيا ممطورةً بغَمَامِه، محبورةً بدخُولها تحتَ ذِمَامه .

وإن كان من مشايخ الصوفيــة، كتب : أدام الله تعــالىٰ بركَةَ المجلس العالى ، الشَّيْخىّ، الإمَامىّ، العالمىّ، العامِلىّ، العابِدىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدىّ، الأوْحدِىّ، الفلانىّ، ويدعىٰ له نحو : ولا زال نُورُه يسْعىٰ بين يديه، ويُدْعىٰ باسمه إليه .

آخـــر : أعاد اللهُ من بركاته علىٰ الراعى والرَّعِيَّــه ، وجعل خَلَواته خلواتِ كلِّ نفسٍ راضيةٍ مَرْضِيَّه؛ والباقى علىٰ ماتقدّم .

والعنوانُ الألقاب التى فى الصَّدْر ؛ والدعاءُ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه. ثم التعريف.

وصورة وضعه فى الورق أن تُكتب ألقابُه والدعاءُ والتعريفُ كما فى هذه الصورة :

المجلس العــالى ، الأميرِىّ، الكبيرىّ، العــالمىّ، المجاهــدىّ، المؤيَّدىّ، الذُّخْرىّ، العوْنىّ، الفلانىّ، أدام الله تعالىٰ نعمَتَه فلان الفلانىّ

والعلامة « المملوك فلان » بقلم مختَصر الطُّومار تحت المَلَكى الفلانى، علىٰ ماتقدّم فى المكاتبة قبلها .

واعلم أنَّ ترتيبَ هذه الدرجة علىٰ هذه المراتب : من الدُّعاء بأعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم؛ ثم أعزَّ الله تعــالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم؛ ثم ضاعفَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العــالى ؛ ثم أدام الله تعــالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، ثم أدام الله تعالىٰ نِعمةَ المجلس العالى ـ هو المستقرُّ عليه الحال بين كتَّاب الزمان بالديار المصرية . وجعـل فى "عُرْف التعريف" أعلىٰ المراتب فى الدعاء : أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الكريم؛

(١) الطلبة من معانيها السفرة البعيدة ولعلها المرادة إن لم تكن مصحفة عن طلعته .

ثم أعزَّ الله تعالىٰ نُصْرة المَقر الكريم ؛ ثم أعزَّ الله تعالىٰ نَصْرَ المَقَرِّ الكريم ؛ ثم أدام الله تعالىٰ نُصْرَةَ الجناب الشريف ؛ ثم أدام الله نُصْرة الجناب الكريم ؛ ثم ضاعف اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، وحرَسَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى ، مع آختصار الألقاب وحَذْف بعضها ؛ ثم أدام الله تعالىٰ نعمةَ المَجْلس العالى. وعلىٰ كثيرٍ من ذلك كان الحال جاريا إلىٰ آخر الدولة الأشرفيَّـة «شعبان بن حسين» ثم أخذ الناس فى التغيير إلىٰ أن صار الأمرُ علىٰ ماهو عليه الآن .

قلت : وكانوا فى الزَّمَن السالف فى الدولة الناصرية «محمدِ بن قلاوُون» وما والاها لا يأْتُون مع المَقرّ الشريف ، والمَقرّ الكريم ، والمَقرّ العالى ، والجناب الشريف ، بأصدرناها ولا بصدَرتْ هذه المكاتبةُ كما هو الآن ؛ بل بعد الدعاء يقولون مع «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الشريف» : المملوكُ يقبِّل الباسطةَ . ثم يأتى بالإنهاء بعد ذلك مثل أن يقولَ : المملوكُ يُقَبِّل الباسطةَ الكريمةَ التى هى مَعْدِن السَّماح ، ومَوْطِن مايُوهِن العِدَا من صدور الصِّفَاح ، وينهى . أو يقول : يُقَبِّل الباسطةَ الكريمه ، ويرْتَع منها فى كلِّ دِيمه ؛ ويُنْهى . أو والمملوك يقبِّل اليد الشريفَه ، ويلْجأ إلىٰ ظِلاَلها الوَرِيفَه ، وينْهِى . ومع «الجناب الشريف» لفظُ «المملوك يخْدُم» . ثم يقول : ويُبْدِى مثل أن يكتُب : المملوك يَخْدُم بأثنِيَتِه ، ويفُضُّ عقودَ الشُّكر علىٰ أنديَتِه ، ويبدِى لعلمه الكريم . أو المملوكُ يخدُم بأثنِيَتِه التى تزِيدُ الطِّيب طِيبا ، وتَسْرِى سُرىٰ السُّحُب فلا تدَعُ فى الأرض جَرِيبا ؛ ويبدى لعلمه الكريم . وربما أعاض ذلك بقوله : صدرتْ هذه الخدمةُ ، مثل أن يقول : صدرتْ هذه الخدمةُ وسلامُها يتضَوّع ، وثناؤُها السافرُ لا يتَبَرقَع .

الدرجة الرابعـــة

(الأبتداءُ بِصِيَغ مُخْتَرَعة من صدُور مكاتباتِ الأدعية)

اعلم أن صُــدورَ المكاتبات المفتتحةِ بالأدعية يقال فيها بعــد الدُّعاء المعطوف : أصدرناها أو صدرَتْ هــذه المكاتبة ؛ ثم يقال : وتُبْدِى لعلمه أو وتوضِّح لعلمه . ومن أجل ذلك جُعِلتْ هــذه الدرجةُ دونَ درجة الآفتتاح بالدعاء؛ لأنَّ هــذه فرعٌ من فروع تلْكَ، وحينئذٍ فيكون الصدر مُشْتَمِلا بعد الدعاء علىٰ ثلاثة أشياءَ .

أحدهـا ـــ [آفتتاح] صدور المكاتبة بقوله : أصدرْناها أو صدرتْ .

والثـانى ـــ الإشارةُ إلىٰ المكاتبة بقوله : هذه المكاتبةُ .

والثالث ـــ الإعلامُ بما صدرتْ بسببه المكاتبةُ. فآنتظم من ذلك ثلاثُ مراتِبَ.

المرتبة الأولىٰ ـــ الآفتتاحُ بصدور المكاتبة، وفيها طبقتان .

الطبقة الأولىٰ ـــ صدرتْ والعالى؛ وهى أن تُفْتَتَح المكاتبةُ، بأن يقال: صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى . ويختلف الحال فيها .

فإن كان المكتوب إليه من أرباب السُّيوف ، كتب : صدرتْ هــذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى، الأميرىِّ، الكبيرىّ، المجاهدىّ، المؤيِّدىّ، الذُّخْرىّ، الأوحَدِىّ، الفلانىّ، ويدعىٰ له نحو : أدام الله تعالىٰ نعمتَه، ووَفَّر من الخير قِسْمتَه، تتضمَّن إعلامَه كيتَ وكيتَ . فالمجلس العـالى يتقدّمُ بكيتَ وكيتَ؛ فيعْـلَم ذلك ويعتمِدُه والله الموفِّق .

وإن كان من الكُتَّاب، كتب : صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى، القضـائىّ، الكبِيرىّ، الرئِيسِىّ، الكاملىّ، المـاجدىّ، الأثِيرىّ، الأوحَدِىّ، الفلانىّ، ويدعىٰ له، نحو : حرَسَ اللهُ مجْده، وأنجح قَصْده؛ والباقى علىٰ ماتقدّم .

وإن كان من القُضاة ، كُتِبَ : صدرَتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العـالى ، القَضَائىّ ، الأجَلِّىّ ، الإمامِىّ ، الصَّدْرىّ ، الفَقِيهىّ ، الكاملىّ ، الفاضِلىّ ، الفلانىّ ؛ ويدعىٰ له ، نحو : أيّد الله أحكامَه ، ووفَّر من الخير أقسامَه ؛ والباقى علىٰ ماتقدّم .

وإن كان من مشايخ الصوفيَّة ، كتب : صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس العالى ، الشَّيْخِىّ ، الإمامىّ ، العالمىّ ، العامِلىّ ، الزاهِدِىّ ، العابدىّ ، الوَرَعِىّ ، الأوحَدِىّ ؛ ويدعىٰ له نحو : أعاد اللهُ من بركَتِهِ ، ونَفَعَ المسلمين بصالح أدْعِيَتِهِ ؛ والبـاقى علىٰ ماتقدّم .

والعنوان بالألقاب التى فى الصَّـدْر وأوّلِ سَجْعةٍ من الدعاء فيه . وتكون الألقابُ والدعاء والتعريف فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، المجاهدىّ ، المؤيّدىّ ، الذُّخْرى ،
الأوحدىّ ، الفلانىّ أدام الله رِفْعَتَه فلان الفلانىّ

والعلامة « المملوك فلان » تحت « المَلَكِىّ الفلانى » بقلم مختصر الطُّومار الثقيل ، وربمـا جعل بعضُهم العلامةَ « أخوه » .

الطبقة الثـانية — صـدرَتْ والسامى . وهى أن تُفتتح المكاتبةُ بأن يقـال : صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامىّ ، والبياض فيها تحت المَلَكِىّ الفلانىّ كما فى المكاتبة التى قبلهـا : بحيث لا يبقىٰ من الوَصْـل إلّا ما يسَعُ سطرين فقط علىٰ ماتقدّم .

ثم إن كان المكتوبُ إليه من أرباب السُّيوف ، كتب : صدرتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس السـامِى ، الأَمِيرىّ ، الكَبِيرىّ ، المجاهِـدِىّ ، العَضُدىّ ، الذُّخْرىّ ، الأوحَدىّ ، الفلانىّ ؛ ويُدعىٰ له نحو : أدامَ الله سعْدَه ، وأنجح قَصْده . ثم يقال :

تتضمَّن إعلامَه كيتَ وكيتَ . فالمجلس السامى يتقـدّم بكيتَ وكيتَ؛ فيعلَمُ ذلك ويعتَمِدُه ويبادِرُ إليه، والله الموفِّق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِب : صدرتْ هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى القضائىّ، الأجَلِّىّ، الكبيرىّ، الزَّينىّ، الماجدىّ، الأثيرىّ، الأوْحَدىّ، الفلانىّ؛ ويدعىٰ له، نحو : ضاعفَ الله تعالىٰ إقبالَه، أو أدام الله سعادَتَه ، وبلّغه إرادتَه؛ والباقى علىٰ ماتقدّم .

وإن كان من القُضاة ، كُتِب : صدرَتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى، القضائىّ، الصَّدْرىّ، الفَقِيهىّ، الإمامىّ، العالمىّ، الفاضِلِىّ، الكَامِلِىّ، الأوْحَدِىّ، فلان الدين . والباقى من نسبة ماتقدّم .

وإن كان من مشايخ الصوفيــة ، كُتِب : صدَرَتْ هــذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى، الشَّيْخِىّ، العالِمِىّ، العامِلِىّ، الوَرَعىّ، الزاهِدِىّ، الأوحَدِىّ، الفلانىّ؛ ويدعىٰ له ، نحو : لا أخْلاه الله من أُنْسِه، ولا أبعدَهُ من حَضْرة قُدْسه . والبـاقى علىٰ نحو ماتقدّم .

والعُنوانُ الألقابُ التى فى صَـدْر المكاتبة بالسَّجْعة الأولىٰ ممـا فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورَق أن يكتَب فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأَميرىّ، الكَبِيرىّ، المجاهِدِىّ، العضُدىّ، الذُّخْرىّ، الأوحدىّ ، الفلانىّ . أدام الله سعدَه فلان الفلانى

والعلامة «أخوه فلان» تحت المَلَكِىّ الفلانىّ، بقلم مختصر الطُّومار الثقيل .

المرتبة الثانية — الافتتاح بالإشارة إلىٰ المكاتبة ، وهى أن يُكْتَب : هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى بغير ياء فى ألقابه ، ويعبَّر عنه بالسامى بغير ياء ؛ والبياض فيها تحت المَلَكىّ الفلانىّ متَّسِع أيضا : بحيث لا يبقىٰ من الوصل إلا مايَسَع سطرين فقط .

ثم إن كان المكتوبُ إليـه من أرباب السُّيوف ، كُتِبَ : هـذه المكاتبة إلىٰ المجلس السامى ، الأميرِ ، الأجَلِّ ، الكبيرِ ، المجاهِدِ ، المؤيِّد ، الأوحدِ ، الذُّخْر ، فلان الدين ، ويُدعىٰ له نحو : أدامَ الله إقبالَه ، وبلَّغه آمالَه ؛ أو أنجحَ الله قَصْدَه ، وأعْذَبَ وِرْدَه ، تُعْلِمه كيتَ وكيتَ : فالمجلس يتقـدّمُ بكيتَ وكيتَ : فيعلَمُ ذلك ويعتَمِده ويبادر إليه ، والله الموفِّق .

وإن كان من الكُتَّاب ، كُتِب : هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى ، القاضِى ، الأجَلِّ ، الكبيرِ ، الصَّدْر ، الرئيس ، الأَوْحد ؛ ويدعىٰ له ، نحو : أدام الله سعادَتَه ، وبلغه من الخير إرادَتَه ؛ تُعلمه كيتَ وكيتَ . والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كان من القُضاة ، كُتِب : هـذه المكاتبة إلىٰ المجاس السامِى ، القاضِى ، الأجَلِّ ، الكبيرِ ، العالم ، الفاضِلِ ، الكامِلِ ، الأوحدِ ، فلان الدين . والباقى من نسبة ماتقـدّم .

وإن كان من مشايخ الصُّوفية ، كتب : هـذه المكاتبة الى المجلس السامى الشيخ ، الصالِح ، الوَرِع ، الزاهِد ، فلان الدين ، نفع الله تعـالىٰ ببركتِه ، ولا أخلىٰ مجالِسَ الذِّكر من محاسن سَمْتِه وسَمَتِه . والباقى من نِسْبة ما تقدّم .

والعُنْوان الألقـاب التى فى صَدْر الكتاب ، وأوّلُ سَجْعةٍ من الدعاء الذى فيه وتعريفُه ، ويكون فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس السامى ، الأمير ، الأجل ، الكبير ، المجاهد ، المؤيّد ، الأوحَد ،
الذُّخْر ، فلان الدين . أدام الله إقبـالَه فلان الفلانىّ

المرتبـة الثـالثة — الافتتاحُ بالإعلام بالقَصْد ، وهو أن يكتب : يعلَمْ فلان ، وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمة المكاتبات من هـذه المقالة أنّ الصوابَ فيها لِيَعْلَمْ بإثبات لام الأمْر فى أوّله ، فحذَف كتّابُ الزمان منهـا اللامَ اللازم إثباتها وأجرَوْها مُجْرىٰ الخبر. والرسمُ فيه أن يُترك تحت المَلَكىّ الفلانىّ بياضٌ : بحيثُ لايبقىٰ من الوَصْل إلّا ما يسَعُ سطرين كما فى المكاتبة قبلَها وما قَبْل ذلك .

ثم إن كان المكتوب له من أرباب السُّيوف ، كُتِب : يعْلَمْ الأمـير، الأجلُّ، الكبيرُ، المؤيَّد، الذُّخْر، المُرْتَضىٰ ، المختارُ، فلان الدين، ويدعىٰ له ، نحو : أدام الله عزَّه، ووَفَّر من الخير كَنْزَه ، كَيْتَ وكيتَ ؛ فمجلس الأمير يتقـدّمُ بكيتَ وكيتَ ، فيعلَمْ ذلك و يعتَمِدهُ و يبادِر إليه، والله الموفِّق بمنِّه وكرمه .

و إن كان من الكُتَّاب ، كُتِب : يعلم مجلسُ القاضى ، الأجلّ ،الكبيرِ، العالِم، الفاضـِل ، الكامل ، الأوحدِ ، فلان الدين ، كيتَ وكيتَ ؛ والبـاقى من نسـبة ما تقـــدّم .

وإن كان من القُضَاة ، كتب : يعلَم مجلس القاضى، الأجلّ، الكبيرِ، العـالم، الفاضـِل ، الكاملِ ، الأوحد ، فلان الدين ؛ كيتَ وكيتَ ؛ والبـاقى من نسـبة ما تقـــدّم .

و إن كان من مشايخ الصُّوفية ، كتب : يعلم مجلِسُ الشيخ ، الصالح ، الوَرِع، الزاهـِد ، الأوحدِ ، الكامل ، فلان الدين ، كيتَ وكيتَ ؛ والبـاقى من نسـبة ما تقـــدّم .

والعُنْوان لهذه المكاتبـة الألقابُ التى فى الصَّدر والدعاء بأوّل سَجْعة ممـا فيه من الدعاء والتعريف .

وصورة وضعه فى الورق أن يكتب ذلك فى سطرين كما فى هذه الصورة :

المجلس الأمير، الأجلّ ، الكبير، المؤيّد ، الذخر، المرتضى ، المختار ،

فلان الدين . أدام الله عزّه فلان الفلانىّ

والعلامةُ تحت البسملة الاسمُ بقلم مختصر الطُّومار الثقيل .

قلت : ومما يجبُ التنبيهُ عليه أنَّ الألقاب المذكورةَ فى صُدور المكاتبات وعُنواناتِها ليست موقُوفا عندها ، بل لكلّ واحد فيها اختيارٌ من تقديم وتأخير، وتبديل لقَبٍ بلقَبٍ، وزيادةٍ ونَقْص؛ إلا أن الزيادةَ والنقصَ يكونان على المُقارَبة، مثل زيادة لقبٍ ولقبيْنِ وثلاثة، ونَقْصِها . على أنهم فى الزمن السابق كانوا يتعاطَوْن فى الإخوانِيَّات الألقابَ المرَكَّبة فى الصُّدور والعنْوانات فيما يُبْدأ فيه بالدعاء وما بعد ذلك إلى آخر المراتب كما هو فى السُّلْطانيَّات .

فإن كان من أرباب السيوف قيل مع الدعاء للمَقَرّ الشريف لأرباب السُّيوف بعد استيفاءِ الألقابِ المفْرَدة : عِزُّ الإسلام والمسلمين، سيِّدُ الأُمَراء فى العالَمين، زعيمُ الجيوش ، مقدَّمُ العساكر، عَوْنُ الأمة ، غِيَاثُ الملة ، ممهِّدُ الدُّوَل ، مشيِّدُ الممالك ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، عضُدُ أمير المؤمنين . ومع الدعاء للمقرّ الكريم : عزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الأمراء فى العالَمين، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جيوش الموحِّدين، عمادُ الدولة، عونُ الأُمّة ، ذُخْر الملة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين، سيفُ أمير المؤمنين ، وعلى ذلك إلى آخر كل مرتبة بحسَبِها .

وإن كان من رُؤساء الكُتَّاب ، قيل : جَلالُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الكُبَراء فى العالمين ، رئيسُ الأصحاب ، قِوَامُ الأمة ، نِظَامُ المِلّة، مدبِّر الدولة، ذُخْرُ الممالك، ظَهِيرُ الملوك والسلاطين، وكذلك إلى آخر المراتب كُلُّ مرتَبَةٍ بحسَبِها . وكذلك القولُ

فى القُضاة ومشايخ الصُّوفية كلُّ أحد منهم بمـا يناسِبُه من الألقاب لوظيفته ورُتْبته . ثم آقتصروا بعد ذلك علىٰ آستعمال اللَّقَبِ المضافِ إلىٰ الملوك والسلاطِين، مثل ظَهِير الملوك والسلاطين ونحو ذلك ؛ فحذف كُتَّاب الزمان هذه الألقابَ المركَّبَة جملةً آختصارًا، وهو مستحْسَن : لمـا فى ذلك من مَيْل النُّفُوس إلىٰ الآختصار، ولتُخالف المكاتَباتِ الصادرةَ عن السلطان ، فتكون مختصَّةً بالألقاب المركَّبة دُونَ غيرها .

القســـم الثـانى

(من المكاتبات الإخوانيَّات الدائرةِ بين أعيان المملكة وأكابر أهل الدولة، الأجوبةُ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يُفْتَتَح من ذلك بمـا تُفْتتح به الآبتداءاتُ المتقدّمةُ الذّكر)

والرسم فيها أن يكتَبَ صدرُ الكتاب كما يُكْتَب أنْ لَوْ كان آبتداءً، ثم يذكر وُرودُ الكتاب المجاوَب عنه، ويُؤْتىٰ بالجواب عما تضمَّنه ، وهو علىٰ أربع مراتب:

المرتبـةُ الأولىٰ — وهى أعلاها فى تعظيم الكتابِ الوارِد، أن يعبَّر عنه بالمِثَال . وذلك مع الآبتداء بلفظ يقَبِّل الأرض ويُنْهى كيتَ وكيتَ. وصورتُه أن يقول بعد كمال الصَّــدْر : ورودُ[(١)] المثالِ الكريم العالى أعْلاه الله تعالىٰ علىٰ المملوكِ علىٰ يد فلان، ويذكُر ما يليق به من المجلس العالى أو المجلِس السامى أو غيرهما ؛ ثم يقول : فقَبَّـل المملوكُ لورودِه الأرْض، وأدّىٰ من واجبـه الفرْض؛ وتضاعَفَ دعاءُ المملوك لتأْهيلِهِ لغِلْمانية الأبواب الكريمة ، وآبتهج بوُرُوده،وحَمِد اللهَ وشكَرَه علىٰ ما دل عليـه : من عافيةِ مَوْلانا ملِكِ الأمراء أعزَّالله أنصاره ــإن كان المثال قد ورد من نائب سلطنةــ أو من عافيةِ مَوْلانا قاضِى القُضاة ــإن كان قاضياــ أو من عافية المخدُوم وصحَّة مِزَاجه

(١) أى الذى منه و ينهى ورود المثال الخ وهكذا فى الآتى .

المحروس . وقابَلَ المملوكُ المراسيمَ الكريمةَ بالآمتثال ؛ ففهِم مارُسِم له به من كَيْتَ وكَيْت ؛ والمملوكُ لم يكن عنده غَفْلةٌ ولا إهمالٌ فيما رُسِم له به . وإن كان ثَمَّ فصولٌ كثيرةٌ ، قال : فأما مارُسِم له به من كَيْتَ وكَيْتَ فقد آمتثَله المملوكُ ، ويُجاوِبُ عنه . ثم يقول : وأما مارُسِم له به من كيتَ وكيتَ ، فالأمر فيه كيتَ وكيتَ ، حتىٰ يأتِىَ علىٰ آخرِ الفُصُول ؛ فإذا آنتهىٰ إلىٰ آخرها ، قال : وسؤالُه من الصَّدَقات العَميمة ، إمدادُه بمراسِيمِه الكريمة وخِدَمِه ، ليفُوزَ بقضائها ، ويُبادِرَ إلىٰ آمتثالها ؛ والمملوكُ مملوكه وعبدُ بابِه الشريف .

المرتبة الثانية — أن يعبِّرعن الكتاب الوارد بالمثال العالى بدُون الكريم ، وذلك مع الآبتداء بلفظ يُقبِّل الأرضَ ويُنْهِى بعد آبتهالِه إلىٰ الله تعالىٰ ، والآبتداءِ بيقبِّل الأرضَ بعد رَفْع دُعائه ، ويقبِّل الأرضَ بالمَقرّ الشريف ، ويُقبِّل الباسطَ الشريف . فأما مع يُقبِّل الأرضَ بعد آبتهاله ، فالأمرُ علىٰ ما تقدّمَ فى جواب المكاتَبة قبلها ، إلا أنه يقتصر علىٰ المثالِ العالى دُونَ الكريم كما تقدمت الإشارةُ إليه . وأما مع يُقبِّل الأرض بعد رَفْع دعائه ، فإنه يقول بعد تكملة الصَّدْر : ورودَ المثالِ العالى أعلاه اللهُ تعالىٰ علىٰ يد فلان ، فقبَّله حينَ قابلَه ، ووقَفَ علىٰ ما تضمَّنه من كيتَ وكيتَ ، وفَرِح بما دَلَّ عليه من عافيةِ المخْدُوم ، وحمِدَ اللهَ تعالىٰ وشكَره علىٰ ذلك ، وفَهِمَ ما أشار إليه من كيتَ وكيتَ ؛ ويجاوب عنه ، ثم يقول : والمملوكُ يسأل إحسانَ المخدوم بتشريف المملوك بمهمَّاته ومَرَاسِيمِه ليفُوزَ بقضائها ، فإنّ المملوكَ وقْفُ المالك ؛ طالَع بذلك ، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنّه وكرمه ، أو نحو ذلك . وأما مع يُقبِّل الأرضَ بالمَقرّ الشريف ، ويُقبِّل الباسطَ الشريف ؛ فإنه يُقال وُرُودَ المثال العالى أيضا ، وربما قيل ورودَ مثالِه العالى . وقد يقال المشرِّف الكريم العالى علىٰ ماتقتضيه رتبةُ المكتوب إليه ، ويرتَضيه المكتوبُ عنه ؛ والباقى علىٰ نحو ماتقدّم .

المرتبة الثالثة — أن يعبّر عن الكتاب الوارد بالمُشَرِّفة، علىٰ التأنيث؛ وذلك مع يقبِّل الباسطةَ ويقبّل اليـدَ. ويختلف الحال فى ذلك بحسَب المراتب. فيقال: يقبِّل الباسطةَ ويُنْهِى وُرودَ المشَرِّفة الكريمة،ومع اليدِ الشريفةِ،والكريمةِ، والعاليةِ؛ وفى معنىٰ ذلك يخدُم إذا كتب بهـا؛ وكذلك أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الكريم، وإن كان المكتوبُ عنـه يكنِّى عن نَفْسه بنون الجمع المقتضيةِ للتعظيم. ثم يقول: فى كلٍّ منها فقبَّلها المملوكُ حينَ قابَلَها، ووَقَف علىٰ ماتضمَّنَتْه من محبّته ومودّته؛وفَهِم ما شرحه من أمر كيتَ وكيتَ، ويجاوب عنـه؛ ثم يقول: والمستَمَدُّ من محبّتـه تشريفُ المملوكِ بمَراسيمه ومُشَرِّفاته وخِدَمه: ليفُوزَ بقضائها، ويُبادِرَ إلىٰ آمتثالِهـا؛ فإن المملوكَ ما عنده غَفْلَةٌ فيما يَقْتَضِيه رأيُه العالى، والله تعالىٰ يؤيِّده بمنِّه وكرمه.

المرتبة الرابعة — أن يعبّر عن الكتاب الوارد بالمكاتبة. وذلك مع الآبتداء بالدعاء بلفظ: ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى؛ وأدامَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ المجلِس العالى؛ وصدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ المجلِس العـالى، أو المجلس السامِى؛ أو هـذه المكاتبةُ إلىٰ المجلس السامى؛ أو يعْـلَم مجلِس. فيقال: وتُوضِّح لعلمه، أو موضِّحةً لعلمـه، أوتتضَمَّن إعلامَه، أو تُعْلِمُه، أو يعلم علىٰ حَسَب المراتب المتقدّمة،وُرودَ مكاتبته، فوقَفْنا عليها، وأحَطْنا علمًا بما تضمَّنَتْه من كيتَ وكيتَ، ويجاوِبُ عنه؛ ثم يقول: فيتقدّمُ الجناب أو المجلس أو مجلسُ الأمير ونحو ذلك ممـا يقتضيه الحال، بإعلامنا بأخباره وضروراته وحوائجه.

وآعلم أنَّ لكاتب السرِّ أجوبةً لنُوّاب السَّلْطنة وغيرِهم ممن تَرِدُ عليـه مكاتباتُهم بطَلَب الملاحظةِ عنـد عَرْض مكاتَباتهم علىٰ الحضرة السُّلْطانية؛ وتحسينِ السِّفَارة فى ذلك؛ ويقعُ الخطابُ فى جواب كلٍّ منهم علىٰ حسَب رُتْبته.

ففى جوابِ نائبِ السلطان بالشام المحرُوس يُكْتب ما صورته : ويُنْهِى بعد رَفْع أدعِيَته الصالحةِ تقبَّلها اللهُ تعالىٰ من المملوك ومن كلِّ داعٍ مُخْلِص، بدَوَام أيام مولانا ملكِ الأمراء، أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَه ، وخُلُودِ سعادته عليه ، أنَّ المثالَ الكريمَ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يَدِ فلان ؛ فنَهَض له المملوكُ ، وأجمل فى تلقِّيــه السُّلُوك؛ وفَضَّه عن صَدَقاتٍ عميمه، وتفَضُّلاتٍ جسيمه ؛ وفَرِح بمــا دَلَّ عليه من سلامةِ مولانا ملكِ الأمراء ـ أعزَّ الله أنصاره ـ وعافيَته ، وصحّة مِزَاجه المحروس ؛ وتضاعَفَ سرورُ المملوك بذٰلك ، وتزايَدَ ٱبتهاجُه به ، وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُديم حياةَ مولانا ملكِ الأمراء ، أعز الله أنصــاره ، ويُبْقِيَه ؛ وٱنتهىٰ إلىٰ ماتضمَّنته الإشارةُ الكريمةُ فى معنىٰ تجهيز المشارِ إليه إلىٰ خِدْمة الأبواب الشريفةِ بما علىٰ يَده من المكاتبة الكريمة ، وما رَسَم به من القيام فى خِدْمتها وعَرْضها بين يَدَىِ المَوَاقفِ الشريفة شرَّفها اللهُ تعالىٰ وعظَّمها ؛ وقابَلَ المملوكُ الإشارةَ الكريمةَ بالآمتثال بالسَّمْع والطــاعة ، وبادَرَ إلىٰ ما رَسَم به ؛ وقد عَرَض المملوكُ المكاتبةَ الكريمةَ علىٰ المَسَامع الشريفة ، وكُتِب الجوابُ الشريفُ عن ذلك بمــا ستُحِيط به العلومُ الكريمة ؛ وعادَ بذلك إلىٰ خِدْمة مولانا ملك الأمراء أعزَّ الله أنصــاره . والمملوكُ مملوكُ مولانا ملكِ الأمراء عزَّ نصرُه ، ومُحِبُّه القــديم ، والمعترفُ بإحسانه وصَدَقاته ؛ ويسأل تشريفَه بالمهمَّات والخِدَم ، أنهىٰ ذلك ، إن شاء الله تعــالىٰ .

وفى جواب بقيَّة النُّوَّاب بالممالك الشامية : كنُوّاب السلطنة بحَماة وطَرَابُلُس وصَفَد والكَرَك ، ومقدّمِ العسكر بغزَّة ، يكتب : ويُنْهِى بعد رَفْع دُعائه ، وإخلاصه فى محبَّته ووَلَائه ، وٱعترافِه بإحسانِ مولانا وآلائه ، أنَّ المثالَ العالى ـــ أعلاه الله تعــالىٰ ـــ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يَدِ فلان ، فقبَّله المملوك ، وأحسن فى تلقِّيه السُّلُوك ؛ وفَرِح بما دَلَّ عليه من عَافِيةِ مولانا وسلامته ، وصِحَّة مِزَاجه المحروس ، وحَمِدَ اللهَ تعالىٰ علىٰ ذلك ،

وآنتهى إلىٰ ما أشارَ إليه : من تجهيز المطالعةِ الكريمةِ إلىٰ الأبوابِ الشريفةِ ، شرّفها الله تعالىٰ وعظّمها ،وفهمَ المملوكُ ذلك ، وآمتثل ماأشار إليه بالسّمْع والطاعة ، ووَقَفَ فى خدمَتِها عند العَرْض علىٰ المَسَامع الشريفة ، وأحاطت العلومُ الشريفةُ بمضمونها ، وكتبَ الجوابَ الشريفَ عن ذلك بمـا سَيُحيط به علمُ مولانا ، وقد عاد فلان بالجواب الشريف وبهـذه الخدمة ، وحمّـله المملوكُ من السـلام والشوقِ والدعاءِ والوَلَاءِ وتَقْبيل الأرضِ ما يُبْديه لمَسَامع مولانا . والمملوكُ يسأل إحسانَه الإصـغاءَ إلىٰ ذلك ، والتشريفَ بمراسيمه وخِدَمه : ليبادِرَ إلىٰ قبُولهـا . والله تعـالىٰ يؤيّده ويحرُسُه بمنّه وكَرَمه .

وعلىٰ قياس ذلك فى غير هـذه من المكاتبات بحسبِ ما تقتضيه رُتبةُ كلِّ واحدٍ من أصحابها .

الضـــرب الثـانى

(من الأجوبة مايفتتَح بوُرُود المكاتبة مصَدّرا بلفظ : وردَتْ أو وصلَتْ أو وقفْتُ علىٰ المكاتَبة ، وما أشبه ذلك)

مثل أن يكتب : ورد المثالُ الكريمُ الفلانىّ ،وذِكْرُ سَلَامته أحلىٰ من ذِكْر الأوائل ، وقد تطَرّز منه طِرازا أشرفَ من طِراز الغلَائِل ، وما سَكَن القلبُ إلىٰ شىءٍ كسُكُونه إليه ، ولا رأىٰ واردًا أكرمَ منه عليـه ، فقابل نِعمةَ قُدُومه بدوام شُكْرها ، وطوىٰ صحائفَ الآمالِ إلّا من نَشْرها ، وإذا كان وجه الأيّام مُقَطّبا اسـتغْنىٰ ببِشْرِ وجْهِه المَيْمُون عن بِشْرِها ، فإنْ حسُنَ فى رأيه الإجراءُ علىٰ عوائد إحسانه [من التشريف بمراسيمه وخِدَمه] (١) والمواصلةِ بها ، [نالتِ] (١) النفسُ من وُرُودها نِهايةَ أرَبِها .

---

(١) بياض فى الأصل قليل ، وما أثبتناه مأخوذ من المقام .

قلت : أما الأجوبةُ المطلَقة : وهى الدائرة بين الأصدقاء والأصحاب من أفاضل الكُتَّاب ، وعيون أهل الأدَبِ ، ممن له مَلَكةٌ فى الإنشاء ، وقُوَّة فى النظم والنثر ، فإنها لا تتوقَّف علىٰ ٱبتداءٍ مخصوصٍ ، ٱبتداءً ولا جوابا ؛ بل قد تكون مبتدأة بما تقدّم من الٱبتداءات ، وقد تكون بغير ذلك من الٱفتتاحات التى يختارُها صاحبُ الرسالة ، بل أكثرها مفتَتَح بالشعر المناسبِ للحال المكتوبِ فيها ، بل رُبَّما ٱقتُصِر فيها علىٰ الشعر خاصَّةً دونَ النثر .

المَهْيَــــعُ الثانى

(فى بيان رُتَب المكتوب عنهم والمكتوبِ إليهم : من أعيـان الدَّوْلة بمملكة الديار المصرية ، وما يَسْتَحِقُّه كلٌّ منهم من رُتَب المكاتبات السابقةِ علىٰ ما ٱلحال مستقِرٌّ عليه فى زماننا)

اِعلم أنَّ المكتوبَ عنهـم من أعيان الدولة علىٰ طَبَقات ، لكلٍّ منهـم مكاتبات بصَدْر يختصُّ به ، إلىٰ مَنْ فوقَ رُتْبته أو مساوٍ له فى الرتبة أو دُونَه فيهـا ، مُرَتَّبةٌ علىٰ ترتيب المكاتبات الصادرةِ عن الأبواب السلطانية إلىٰ أهل الدولة :

الطبقة الأولىٰ — مِن المكتوبِ عنهم مَنْ يكْتَب إليه عن السلطان «أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المقرِّ الكريم » ككَافِلِ السلطنة : وهو نائبُ السُّلطان بالحضرة ، وأتابكِ العساكر ، ونائبِ السلطنة بالشام . والمكتوبُ إليهم عن هذه الطبقة علىٰ مراتبَ :

المرتبة الأولىٰ — من يكتب له عن هـذه الطبقة « الفـلانىّ بمطالعة » ، وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام فيما رأيته ـ أتابِكُ العساكر بالأبواب الشريفة ؛ وكان ما كتب له «المخدُومىّ الأتابِكىّ فلان الفلانى» باللَّقب المضافِ إلىٰ لَقَب السلطان ، «أتابك العساكر المنصُورة» .

المرتبة الثانية — من يُكْتب إليه « الأبواب بمطالعة » وممن يُكْتَب إليه بذلك عن النائبِ الكافلِ بالحضرة، والأتابكِ نائبُ السلطنة بالشام. فقد قال فى "التثقيف": إنَّ بهــذه المكاتبة يكتَبُ عن أكابر أُمَراء الديار المصرية إلىٰ نائبِ الشام وحَلَبَ فيما أظُنُّ؛ وممن يكتب إليه بذلك عن نائب الشام ـ الدَّوادَارُ، وأميراخُورُ، ومقدَّمو الألوفِ بالديار المصرية، وأكابرُ الأمراء مقــدَّمِى الألوف بالشام، وكافلُ المملكة الشريفة الحَلَبية .

المرتبة الثالثة — من يُكْتَب له عن هذه الطبقة «الأبوابُ بغير مطالعة» وبذلك يكتَبُ عن كافل السلطنة بالحَضْرة إلىٰ نائب السلطنة بحَلَب . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان يكتَب بذلك عن الأمير يَلْبُغا العُمَرى (يعنى الخــاصِكىّ) وهو أتابكُ الديار المصرية، إلىٰ نائب الشام أيضا . ثم قال: وكذلك كُتِب بعده إلىٰ نائبَيِ الشام وحلَبَ، الأميرِ منكلى بُغا، والأمير الجاى؛ ونُوّابِ السلطنة بالديار المِصْرِيَّة؛ وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ كلٍّ من قُضاة القُضاة الأربعة بالديار المصرية؛ وكذلك الوزيرُ وكاتبُ السِّر بها .

المرتبة الرابعة — من يكتَبُ له عن هذه الطبقة «البابُ الكريم والبابُ العالى» أما الباب الكريم، فإنه يكتَبُ بذلك عن النائب الكافل والأتابِك (١)

وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ الأُمَراء الطبلخاناه بالديار المصرية، وإسْتَادار الأملاك الشريفة، وناظرِ الجُيوش المنصورة بالأبواب السلطانية، وناظرِ الخوَاصِّ، وناظرِ الدَّوْلة، وحاجب الحُجّــاب بالشام، وقاضى القُضاة الشافعىّ بالشام، وكاتبِ

(١) بياض فى الأصل بقدر سطر والساقط هو المكتوب إليهم . ولعله الى نائب الشام ونائب طرابلس الى آخر ما يأتى بعد . وحرر .

السِّرِّ به، ونائبِ السلطنة بطرَابُلُس، ونائب السلطنة بحَماةَ، ونائب السلطنة بصَفَد، ونائب السلطنة بالكَرَك .

أمّا مَن يكتب له عن نائب الشام البابُ العالى بدُون الكريم ، فمقدَّمُ العسكر المنصور بغَزَّة ، والقُضاةُ الثلاثةُ بالشام، ما خلَا الشافعيَّ المقدّم ذكره؛ والوزيرَ بالشام .

المرتبة الخامسة — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة «يقبِّل الأرضَ بالمقَرِّ الشريف» وبذلك يكتَبُ عن النائب الكافل والأتَابك ، إلىٰ نائبِ طرابُلُسَ ، ونائب حَماةَ، ونائب صفَدَ، ونائب الإسكَنْدريَّة، وأُمَراء الأُلوف بالديار المِصريَّة؛ وبه يُكتَب عن نائب الشام .

المرتبة السادسة — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة «الباسِطُ الشريف» وبذلك يكتب عن النائب الكَافِلِ والأَتَابك، إلىٰ مقدَّم العسكر بغَزَّة، ومقدَّمِ العسكر بِسِيسَ، ونائبِ السلطنة بالكَرَك، وحاجبِ الحُجَّاب بالشام، وحاجب الحُجَّاب بحلَبَ .

المرتبة السابعة — من يكتَبُ له عن هذه الطبقة «الباسِطَة الشَّريفة» وممن يكتب له بذلك عن نائب الشام قاضِى القُضاة الشافعىّ بحَلَبَ .

المرتبة الثامنة — مَنْ يكتَب له عن هذه الطبقة «اليَدُ الشريفة» أو «اليَدُ الكريمة» أو «اليَدُ العالية» . وبذلك يكْتَب عن النائب الكافل والأتابك، إلىٰ نائبَيِ الوجه القِبْلىّ والوجه البَحْرىّ بالديار المصرية؛ ونائب القُدْس، ونائب حِمْص، ونائب الرَّحبة، ونائب البِيرَة، ونائب قَلْعة المسلمين، ونائب ملَطْيَةَ، ونائب دَبْرَكى، ونائب الأَبُلُسْتَيْنِ، ونائب طَرَسُوس، ونائب أذَنَةَ، ونائب بَهَسْنىٰ؛ وأُمراء الألوف بالشام وحَلَبَ . وبذلك يُكْتَب [أيضا] عن نائب الشام إلىٰ أُمَراء العشَرات بالديار المِصريَّة، وقُضاة

العسكر بهـا ، وحاجب الحُجَّاب بحَلَب ، والقُضَاة الثلاثة : الحنفىّ ، والمـالكى ، والحنْبَلِىّ ، بها .

المرتَبة التاسعة — مَنْ يكتَبُ له عن هـذه الطبقة « أعزّ اللهُ تعالىٰ أنصارَ المقَرّ الكريم » . وبذلك يكتب عن نائب الشام إلىٰ كاشف الصَّفْقةِ القِبْلِيَّة ، وإلىٰ الأُمَراء مقدّمِى الأُلُوف بالشام ، وناظر الجيش به ، وأمير آلِ فَضْل ، ونائب حِمْص ، وكاتب السرّ بحَلَب ، ونائب المملكة بها ، ونائب دَوْرَكى ، ونائب دَرَنْدة .

المرتبة العاشرة — مَنْ يُكتب له عن هـذه الطبقة «أعزّ الله تعـالىٰ نُصْرة المقَرّ الكريم» . وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلى نائب قلْعة دِمَشْق ، والحاجبِ الثانى بها ، ووكيلِ بيتِ المال بها ، ومقدّمِى الأُلُوف بحَلَب ، ونائب الجيش بها ، ونائب الرَّحْبة ، ونائب الأَبُلُسْتَيْن ، ونائب ملَطْيَة ، ونائب قلعة المسلِمين ، ونائب بَهَسْنىٰ ، ونائب البِيرة ، ونائب جَعْبر ، ونائب الرُّها ، ونائب حُسْبَان .

المرتبة الحادِيةَ عشرةَ — مَنْ يُكتَب له عن هـذه الطبقة «أعزّ الله تعالىٰ نُصرةَ الجناب الكريم» . وبذلك يُكْتَب عن نائب الشام إلىٰ أمراء الطَّبْلخاناه بالشام ، ونائب القُدس ، ونائب بَعْلَبَكّ ، ومتولِّى صَـيْدا ، وأمراء الطَّبْلخاناه بحَلَب ، ووكيلِ بيت المـال بها ، والمحتَسِب بها ، وناظرِ خاصّ البريد بها ، وأمير حاجب بصَفَد .

المرتبة الثانيةَ عشْرةَ — مَنْ يكتَب إليه عن هذه الطبقة : « ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى» . وبذلك يُكْتَب عن نائب الشام ، إلىٰ والى قَطْيا ، ورُبَّمـا زيد فيه الكَرِيم .

المرتَبة الثالثةَ عشْرةَ — مَنْ يكتَبُ إليه عن هذه الطبقة : «أدامَ الله تعالىٰ نعمةَ الجناب العالى» . وبذلك يكتَبُ عن نائب الشام إلىٰ أُمَراء العشَرات بمصر ، وأمراء

العِشْرينات بالشام، والمحتَسِب بها، والحاجبِ الكبير بغَزَّة، ومقدَّمِ عَرَب بنى عُقْبة، وأكابِر عَرَب آلِ فَضْل، وأميرِ عَرَب آلِ علىّ، وأمير آلِ مُوسٰى، ونائب مِصْياف، ومتولِّى بَيْرُوت .

المرتبـة الرابعةَ عشْرَةَ — مَنْ يكتب إليه عن هـذه الطبقة : «المجلس العـالى مع الدُّعاء» . وبذلك يكْتَب عن نائب الشام إلىٰ العَشَرات بدِمَشْق، ووالى المَدِينة، ووالى البَرِّبها، والحاجِب الثانِى بغَزَّة، وأميرِ آلِ مِرًا، ومقدّمِ عَرَب جَرْم، ومقدّم بنى مَهْدِىّ، وأمراء العِشْرينات بحَلَب .

المرتبة الخامسةَ عَشْرَةَ — مَنْ يكتب إليه عن هذه الطبقة : «صدَرَتْ والعالى» . وبذلك يكتَبُ عن النائب الكافل والأتَابِك، إلىٰ كاشـف الوجْه البحْرِىّ من الديار المِصْريّة، وكاشفِ الفَيُّوم والبَهْنَساوِيَّة، ووالِى أُسْوان، وكُشَّاف الجُسُور من أمراء الطَّبْلَخاناه بالوجهين : القبلىّ والبحْرىّ بالديار المصرية، ونائب قَلْعة حَلَب، ونائب آيَاس، ونائب جَعْبَر، ونائب دَرَنْدَة، وحاجِب الحُجَّاب بطرَابُلُس، وحاجب الحُجَّاب بحَمَـاة، وحاجب الحُجَّاب بصَفَد، وبذلك يكْتَب [أيضا] عن نائب الشام إلىٰ أجناد الحَلْقة بمصر، والحاجب الكبير بحِمْص، وأمراء العَشَرات بحَلَب .

المرتبة السادسةَ عَشْرَةَ — مَنْ يُكتَب إليه عن هذه الطبقة : «صدرَتْ والسامى» . وبذلك يكتب عن النـائب الكافِل والأتابِك، إلىٰ والى قُوص، ووالى مَنْفَلُوط، ووالى الأُشْمُونَيْنِ، ووالِى البَهْنَسىٰ، ووالى مَنُوف، ووالِى الغَرْبية، ووالِى الشَرْقِيَّة، ووالى قَطْيَا، ونائب مِصْياف، ونائب بَعْلَبَكَّ، ونائب قلعة صَفَد، ونائب عَيْنتَاب، والحاجب الكبير بغَزَّة . وبذلك يُكْتَب [أيضا] عن نائب الشام إلىٰ مقدّم الحَلْقة بالشام، وأعيان الجُنْد بها، ومقـدّمِ بنى مَهْدىّ، ومتولِّى الصَّلْت وعَجْلُونَ، ومتولى صَرْخَد،

والحاجب الصغير بحمص، ووالى تدمر، ومقدّم إقليم الخرّوب بصيدا، ومقدّم إقليم النّعاج، ووالى البقاعين، ووالى بلنياس.

المرتبة السابعة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة «هذه المكاتبة» وبذلك يكتب عن النائب الكافل والأتابك، إلى والى الجيزيّة، ووالى إطفيح، ووالى قليوب، ووالى أشموم الرّمّان بالديار المصرية. وبذلك يكتب أيضا إلى نائب الكختا، ونائب كركر، ونائب حجر شغلان، ونائب سرفندكار، ونائب القصير، ونائب بغراس، ونائب الرّاوندان، ونائب الشّغر وبكاس، ونائب الرّها، ونائب الدّربساك، ونائب شيزر بالمملكة الحلبية؛ وإلى نائب اللّاذقيّة، ونائب صهيون، ونائب حصن الأكراد، ونائب حمص، ونائب المرقب، ونائب بلاطنس، ونائب الكهف، ونائب القدموس، ونائب الخوابى، ونائب العليقة؛ ونائب المينقة: من أعمال طرابلس، ونائب شقيف تبرون من معاملة صفد. وبذلك يكتب [أيضا] عن نائب الشام إلى صغار الأجناد بمصر، وإلى كاشف الرّملة، ومتولّى حسبان، وحامى الخربة.

المرتبة الثامنة عشرة — من يكتب إليه عن هذه الطبقة «يعلم». وبذلك يكتب عن نائب الشام إلى صغار الأجناد بالشّام.

واعلم أنّ وراء ماتقدّم من المكاتبات عن نائب الشام مكاتبات أخرى إلى من هو خارج عن المملكة؛ وهم على مراتب.

المرتبة الأولى — من يكتب له عنه: «يقبّل الأرض» — صاحب بغداد: كما كان يكتب للقان أحمد بن أويس، كان يكتب إليه فى ورق قطع نصف الحموىّ بقلم الثلث الصغير: يقبّل الأرض لدى الحضرة الشريفة، العالية، المولويّة،

السلطانية، العاليَّة، العادليَّة، المؤيَّدية، المالكية، القانيَّة ؛ ولا زالت عَزَماتُها مؤيَّده، وآراؤها مسدَّده؛ ويُنْهِى إلى العِلْم الكريم — صاحبُ السَّراى : ودَشْت القَبْجاق مثله بأبسطِ ألقابٍ .

المرتبة الثانية — مَنْ يكتب إليه : « أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرّ الشريف » آبنُ السلطان أحمدَ بنِ أُوَيْس المذكور . وورقُه نظيرُ ورق والده ، وقلَمُه نظير قلمه — صاحب هَراةَ : مثلُه .

المرتبة الثالثة — مَنْ يكتب إليه : «أعزَّ الله أنصارَ المقرّ الكريم» — صاحبُ مارِدِينَ : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المقرّ الكريم العالِى، المولوىّ، الكبيرىّ، العادلىّ، السلطانىّ، المَلَكِىّ، الفلانىّ؛ ورَفَع مِقْداره، وأجزل مَبارَّه . المملوك يجدِّد الخِدْمة العاليه، ويصِفُ أشواقَهُ المتواليَه؛ ويُنْهِى لعلمه الكريم — صاحب بُرْصا: من بلاد الروم، وهو آبن عُثْمان . والرسم فيه على ما كان يكتب لأبى يَزِيدَ بن مراد بك بن عثمان : أعزَّ الله تعالى أنصارَ المَقرّ الكريم ، العالى، المولَوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، العادلىّ، العَوْنىّ، الغِياثىّ ، المهدِّىّ، المشيِّدىّ، الزَّعيمىّ، الغازى ، المجاهِدىّ، المثاغِرىّ، المرابطىّ، العابِدىّ، الناسِكىّ، الزاهِدىّ ، المقدَّمىّ، الأتابِكىّ، المحْسنىّ، الظهيرىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ ؛ مُعزِّ الإسلام والمسلمين، سيدِ الأمراءِ فى العالمين، ناصر الغُزَاة والمجاهدين ، زعيم جُيوش الموحِّدين ، مُبِيد المشركين ، قامِع أعداء الدين، مقتَلِع الحُصون من الكافرين؛عونِ الأمّة ، عِمَادِ الملة، ذُخْرِ الدولة، ظهيرِ الملوك والسلاطين ، حاكم البلاد الرُّوميَّة ، صاحب بُرْصا وقَيْسَرية ؛ سيفِ أمير المؤمنين؛قَهر [الله] أعداء الدين الحنيفىّ بعزائمه وسَطَواته،وجعله مؤيَّدا فى حركاتِهِ وسَكَناته ، وأيَّده فى جِهَاده وآجتهاده بالنصر الذى لايُفارق ألويَةَ أعلامه وراياته،

ولا زالتْ رعاياه مجبُوره، وعساكرُه منصوره؛ هؤلاء بجُودِه [وهِبَاتِه]، وهؤلاء بوُجوده وحَيَاتِه. المملوكُ يقبِّل اليدَ التى لازال القصْدُ بها يَزِيد، وبحْرُ البِرِّ من أناملها مَدِيد، ونوالُها ينَالُه الوافدُون حيثُ أَمُّوه من قرِيبٍ وبَعِيد؛ ويَصِف صَفاءَ محبَّةٍ يتضاعفُ نَمَاؤها كلَّ يوم جدِيد، وتترادَفُ تحيَّاتُ أشـواقِها بالمُوالاةِ والتحْمِيد، ويُتؤامَر بهادِى رسائِلها بِصدْقِ المودّةِ الدائمةِ علىٰ التأبيد؛ ويُبْدِى إلىٰ العِلم الكريم.

قلت: كذا رأيته فى دُسْـتور بخطِّ القاضى ناصر الدين بن أبى الطيِّب: كاتب سرِّ الشأم كان. وفيه ٱضطرابٌ وتخليطٌ من نَعْته فى ألقابه [بقوله] المَلَكِىّ الفلانىّ؛ وقوله سـيد الأمراء فى العـالمين، حيث وصَفَه أوّلا بأوصاف الملوك، ثم وصـفه بأوصاف الأمراء؛ إلىٰ غير ذلك من الخَبْط الذى لايخفىٰ علىٰ متأمل.

المرتبة الرابعة — «أعز الله أنصـار المقرّ العالى» — وزير صاحب بَغْداد، وورقُه فى قَطْع الحموىّ بقلم الثُّلُث الخفيف — قاضى بَغْداد: مثله سواء — صاحب لارندا: من بلاد الروم بمملكة بنى قرمان. ويقال فى ألقابه: الأصيلىّ نُوَيْن التَّوامين، مجهزُ المقانب، ذُخْرُ القانات — صاحب سِـيوَاس: من البلاد الرومية أيضا — صاحب آيَاس لوق: من البلاد الرُّومِيَّة — صاحب جُولَمَرك: من بلاد الأكراد.

المرتبة الخامسة — «الجناب الكريم» — صاحب حِصْن كَيْفا: من بلاد الجزيرة، ويقال فيه: المَلَكِىّ الفلانىّ — مقدّم التُّرْكُمان البياضية.

المرتبة السادسة — «الجناب العالى» — صاحب أَرْزَنْجَان — صاحب جزيرة ٱبن عُمر من بلاد الجزيرة — صاحب أنْطَالِيَا من بلاد الروم — إبن الشـيخ عبد القادر الكِيلانى شيخُ الجبال.

المرتبــة السابعة — « المجلس العــالى » — صاحب مَيَّافَارِقِينَ : من بلاد الجَزِيرة — صاحب أَكِلّ : من الجزيرة أيضــا — صاحب أَرْقَنِينَ — صاحب قَلْعَة الجَوْزِ — صاحب جرموك — صاحب أَماسِيَا : من بلاد الروم — نائب مَارِدِينَ — خادم صــاحب مَارِدِينَ — صاحب بُطْنَانَ — صاحب سِنْجَارَ : من بلاد الجزيرة — صاحب حاسك(؟) — صاحب أَزْبَك — صاحب المَوْصل — صاحب سَنُوبَ — صاحب بوشاظ — صاحب الدَّرْبَنْد — صاحب عَيْنِ دَارَا — صاحب الحَمَّة — صاحب خِلَاطَ — صاحب طلان — صاحب تاخ — صاحب جمشكزاك — نائب كربزاك — صاحب القَنْطَرَة — نائب خَرْتْ بِرْتْ — صاحب البَارِعِيَّة — صاحب حَرَّانَ — صاحب العِمَادِية — صاحب حَانِى — نائب مازكرد — نائب صالحية مَارِدِينَ — أمير التركمان الشهرية — صاحب أشنو .

الطبقة الثــانية — ممن يكتب عنهم من أعيان الدولة بالديار المصرية، مَنْ يُكْتب إليه عن الســلطان : « أعزَّ الله تعــالى نُصْرة الجناب الكريم » وهو نائب السلطنة بحَلَبَ .

والكتابة عنه على مراتب :

المرتبة الأولى — « الفلانىّ بمطالعة » وهو النَّائب الكَافِلُ بالحضرة السلطانية ، وأتَابِكُ العساكر المنْصُورة .

المرتبة الثانية — «الأبواب بمطالعة» وهو نائب السَّلْطَنَة بالشام، والامير الدَّوَادَارُ بالأبواب السلطانية، واسْتَادُ الدَّارِ بها، وأكابرُ الأمراء المقدَّمين الخَاصِكِيَّة .

المرتبة الثالثة — «الأبواب بغير مطالعة» . وبذلك يكتب إلى نائب الشَّام .

المرتبة الرابعة — «البَابُ الكريم» . وبذلك يكتب إلى نائب السلطنة بطَرَابُلُس ، ونائبِ السلطنة بِحَمَاةَ ، ونائب السَّلطنة بصَفَدَ ، وكذلك يكتب به إلىٰ الطبقة الثانية من الأمراء المقدّمين بالحَضْرة ممن دون الخَاصِكية ؛ وفى معنىٰ ذلك الوزيرُ ، وكاتبُ السِّرِّ ، وناظرُ الخَاصِّ ، ونَاظِرُ الجَيْش ، ومَنْ فى معناهم .

المرتبة الخامسة — «يُقَبِّلُ الأرضَ بالمَقَرِّ الشريف» . وبذلك يُكْتب إلىٰ حاجب الحُجَّاب بالشأْم .

المرتبة السادسة — «يُقَبِّلُ البَاسِطةَ» وبذلك يُكْتب إلىٰ الحاجب الثانى بالشأْم ، وحاجِبِ الحُجَّاب بحَلَبَ ، وحاجِبِ الحُجَّاب بحَمَاةَ ، وحاجِبِ الحُجَّاب بطَرَابُلُس ، وقاضى القُضَاة الشافعىّ بحَلَبَ ، وكاتِبِ السِّرِّ بها .

المرتبة السابعة — «يقبلُ اليدَ الشريفة» . وبذلك يُكْتب إلىٰ نائبِ البِيرَة ، ونائبِ مَلَطْيَةَ ، ونائبِ قَلْعَةِ المسلمين ، ونائبِ جَعْبَرَ ، ونائبِ الرُّهَا ، ونائبِ الأَبُلُسْتَيْن ، ونائبِ حِمْصَ ، وأمراءِ الطَّبْلَخَانَاه بدمَشْقَ .

المرتبة الثامنة — «أعز الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم» . وبذلك يكتب إلىٰ نائب طَرَسُوسَ ، ونائب الرَّحْبَة ، والحاجبِ الثانى بطَرَابُلُس ، ومقدّمى الألوف بها ، والقضاةِ الثلاثة : المالكىّ ، والحَنَفىّ ، والحَنْبلىّ بحلَبَ . إلا أنه يقال : «أعز الله تعالىٰ أحكام المقرّ» .

المرتبة التاسعة — «أعز الله تعالىٰ أنصار المَقرّ الكريم العالى» وبذلك يُكْتب إلىٰ نائب بَهَسْنىٰ ، ونائب الرَّحْبَة ، وأكابر الطبلخاناه بالشام ، ومن تولّى الإمرةَ من عرب آل فَضْلٍ ثم عُزِل ؛ وقضاةِ العساكر المنصورة بحَلَبَ ، وناظرِ المملكة بها ، وأمير آل علىّ .

المرتبة العاشرة — «أعز الله تعالى نُصْرَةَ الجناب الكريم». وبذلك يُكْتب إلى أعيان أمراء الطبلخاناه بحَلَبَ، والحاجبِ الثالث والرابع بها، وأكابر أولاد أمراء عرب آل فَضْلٍ.

المرتبة الحادية عشرة — «ضَاعَفَ الله تعالى نِعْمَةَ الجناب العالى» وما فى معناه مما يُكْتب به إلى أرباب الأقلام وغيرهم. وبذلك يكتب إلى نائب شَيْزَر، وأمراء الطبلخاناه بحلب، غير الأعيان، وناظر الأملاك الشريفة بحَلَبَ، وناظر خاصّ البريد ومُوقِّعى الدَّسْتِ بها.

المرتبة الثانية عشرة — «صَدَرَتْ والعالى». وبذلك يُكْتب إلى نائب عَيْنتَابَ، ونائبِ الرَّاوَنْدانِ، ونائبِ الكَخْتَا، ونائبِ كَرْكَرَ، ونائبِ بَغْرَاس، ونائبِ الدَّرْبَسَاك، ونائب الشُّغْرِ وبَكَاسَ، ونائب القُصَيْرِ، وأمراءِ العِشْرِيناتِ بحَلَبَ، وأعيان العَشَرات بها.

المرتبة الثالثة عشرة — «صدَرتْ والسامى». وبذلك يُكْتب إلى مُقَدَّمى الحَلْقَة بحَلَبَ، ومقدّمى البَرِيدِيَّة بِها، وأعيانهم.

المرتبة الرابعة عشرة — «السامى» بغير ياء. وبذلك يُكْتب إلى والى سَرْمِينَ، ووَالِى البَابِ، ووالى عَزَازَ، ووالى أَنْطاكِيَةَ، ووالى حَارِم، ووالى كَفْرطَاب، ووالى الجُبُولِ، ووالى مَنْبِجَ، ووالى تَلِّ بَاشِر، وأجنادِ الحَلْقَةِ بحَلَبَ، وصغار البريدية بها، وعِدَاد التركمان وعِدَادِ الأكراد.

وآعلم أن وراء ما تقدّم من المكاتبات الصادرة عن نائب حَلَبَ [مكاتبات أخرى] إلى من هو خارج عن المملكة، كما تقدّم فى المكاتبات الصادرة عن نائب الشام؛ وهى على مراتب:

المرتبة الأولى — المكاتبة بـ«يُقَبِّلُ الأرضَ» — القان صاحب بَغْدَادَ : كما كان يُكْتب إلىٰ القَانِ أُوَيْسٍ ، وٱبْنِه أحمدَ : يُقَبِّـلُ الأرضَ بالمقام الشريف العـالى ، المَوْلَوِىّ ، السُّلْطانىّ ، الأعْظَمِىّ الأَوْحَدِىّ ، الملاذىّ ، العَطُوفِىّ ، المُحْسِنِىّ ، القَانىّ ، المَلَكِىّ الفلانىّ ، الجَلَالىّ ؛ أعلىٰ الله تعالىٰ شانه ، وأعز سلطانه ، وأمكن من رِقاب الأعداء مكانه ؛ ولا زال لِوَاؤه يَتَأَزَّرُ بالنصر ويَرْتَدى ، وفِنَاؤه يَرُوحُ إليــه العِزُّ ويَغْتَدى ، وعَزْمُه يُثَقِّفُ صرفَ الزَّمان فلا يعتاد أن يَعْتَدى ؛ ولا بَرِحَ محمودًا فى مَوْقِفِ النصْرِ موقفُه ، مَاضِياً فى هامات أعدائه مُرْهَفُه . ويُنْهِى بعد أدْعِيةٍ رفعها إلىٰ مواطن الإجَابة ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَـا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾ ومُوَالاةٍ شَفَعَها بالإخلاص ، فعجَزَ عن وصفها ذَوُو البلاغة واللَّسَن ، وأَثْنِيَةٍ جمعها فَلَذَّتْ بها الأسماعُ لَذَاذَةَ الأعْيُن الساهرة بالوَسَن ؛ أن الأمر كَيْتَ وكَيْتَ .

المرتبة الثانية — من يُكْتب له «أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرِّ الشريف» — صاحب مَارِدِين . والرسم أن يُكْتب إليه : أعزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرِّ الشريف ، العـالى ، المَوْلَوِىّ ، الكبيرىّ ، العالِمِىّ ، العَادِلىّ ، السُّلْطانِىّ ، المَلَكِىّ ، الفلانىّ ؛ ويدعىٰ له ، نحو : لازَالَتْ أيامُه مَسْـعُوده ، وأبوابه مقصُوده ، وألْوِيَةُ النَّصْرِ بنواصي خَيْـله معقوده ؛ المملوكُ يُقَبل اليَدَ الشريفه ، ويقوم من الخِدْمَة بأكمل وَظِيفَه ؛ ويُنْهِى لعلمه الكريم بعـد السلام الزكىّ ، والثناء المِسْـكِىّ ؛ كيت وكيت ، فيحيط بذلك علمــه الكريم ، ويُتْحِفُ بالمُشَرِّفات علىٰ عادة فضله العميم .

المرتبة الثالثة — «أعزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ الكريم» . وبذلك يكتب إلىٰ ٱبن قرمَانَ نائبِ السلطنة بالبلاد القَرْمَانِيَّة — حاكم جولمرك — صاحب بُرْصا وهو ٱبن عثمان — صاحب آيَاس لوق .

المرتبــة الرابعة — « المَقَرُّ العــالى » وبذلك يكتب إلىٰ صاحب حِصْنِ كَيْفا، والوزيرِ بالممــالك القانية وقاضيها .

المرتبــة الخامسة — « أعز الله تعالىٰ نُصْرَةَ الجناب الكريم » . وبذلك يكتب إلىٰ صاحب أَنْطَاليا من بلاد الروم .

المرتبــة السادسة — «ضاعف الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» . وبذلك يُكْتب إلىٰ نائب كربزاك ، وحاكم جمشكزاك ، وحاكم سِيوَاس ، وحاكم أَمَاسِـيَا ، وحاكم سَنُوب ، والحاكم بخَرْتْ بِرْتْ .

المرتبة السابعة — «أدام الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» . وبذلك يكتب إلىٰ نائب صاحب مَارِدِينَ، ونائب الصَّالِحِيَّة، وبعض خدّام صاحب مَارِدِينَ .

المرتبة الثامنة — «صَدَرَتْ والعالى» . وبذلك يكتب إلىٰ حاكم حَرَّانَ ، ونائب مازكرد، وحاكم قَلْعَة الجَوْزِ .

الطبقة الثالثة — ممن يكتب عنه من أعيان الدولة بمملكة الديار المصرية — مَنْ يكتب إليه عن السلطان : «ضاعف الله تعالىٰ نعمة الجناب العالى» كوزير المملكة بالديار المصرية ، ونَاظر الخَاصّ ، علىٰ ما استقرّ عليه الحال آخرا ؛ وأرباب الوظائف من الأمراء المقدّمين بهــا : كأمير سِلاح ، وأمير مَجْلِس ، وأميرآخُور ، والدَّوَادَار ، وإسْــتَادَار ، وحاجب الحُجَّــاب ، ونائب الإسكندرية ؛ وكذلك نوّاب السلطنة بطَرَابُلُس، وحَمَاة، وصَفَد، من الممــالك الشامية .

والمكتوب إليهم عن هذه الطبقة علىٰ [تسع] مراتب :

المرتبة الأولىٰ — «الفلانىّ بمطالعة » وهم : النَّائب الكَافِل، وأتَابِكُ العساكر، ونائب الشأم .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب إلى نائب حَلَبَ .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلى نائب طَرَابُلُس، ونائبِ حَمَاةَ، ونائبِ صَفَدَ، ونائب الكَرَكِ، وأمير سلاح وغيره مِنْ سائرِ مَنْ فى هذه الطبقـــة .

المرتبة الرابعة — « الباب الكريم » . وبذلك يكتب إلى نَائِبَيِ الوجهين القِبْـلىّ والبَحْرىّ بالديار المصرية ، ومقدّمى العسكر بغَزَّةَ وسِيسَ ، والأمراءِ المقدّمين المتوجهين من الأبواب السلطانية لكَشْفِ الجُسُور والمساحة وقَبْضِ الغِلَال .

المرتبة الخامسة — «يُقَبِّل الأرضَ بالمقرّ الشريف» إن قُصِدَ تعظيمُه، أو الباسِط الشريف إن لم يُقْصَد، وبذلك يكتب إلى (١)

المرتبة السادسة — «يُقَبِّل اليَـدَ العاليَةَ» . وبذلك يكتب إلى أمراء الطبلخاناه المتوجِّهين من الأبواب السلطانيـة لكَشْفِ الجسور والمساحة والقَبْض . وربمـا ٱنْحَطَّتْ رتبةُ أحد هؤلاء فكُتِب إليه : أعزّ الله تعالى أنصار المقرّ الكريم، أونُصْرَةَ الجناب الكريم؛ أو ضاعف الله تعالى نِعْمَةَ الجَنَاب العالى .

المرتبة السابعة — «ضاعف الله تعالى نعمة الجناب العالى» . وبذلك يُكْتب إلى كَاشِفِ الوجه البحْرىّ وكاشف الفَيُّوم والبَهْنَساوِيَّة .

المرتبة الثامنة — «أدام الله تعالى نِعْمَةَ المَجْلِسِ العالى» . وبذلك يكتب إلى الولاة الطبلخاناه بالوجهين القبلىّ والبحْرىّ بالديار المصرية : كقُوص والمَحَلَّة، وغيرهما . وربمـا كُتب "صدرت والعالى" لأحدهم .

---

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

المرتبة التاسعة — « صَدَرَتْ والسامى » . وبذلك يكتب إلىٰ وُلاة العشرات بالوجهين القبلىّ والبحْرىّ بالديار المصرية .

الطبقة الرابعة — ممن يكتب عنه من أعيان الدَّوْلة بمملكة الديار المصرية ، من يكتب إليه عن السلطان « أدام الله تعالىٰ نعمة المجلس العالى » . ككاتب السرّ وناظر الجَيْش ، وكذلك الحُجَّاب الطبلخاناه بالديار المصرية . وعلىٰ ذلك كان ناظر الخاصّ فى الزمن المتقدّم . فلما جُمِعَ للصاحب شَمْسِ الدِّين المقسى بين الوِزَارَة ونظر الخاصّ ، كان يُكْتب عنه بما يُكْتب به عن الوزراء كما تقدّم . فلما آنفصل الخاصّ عن الوزارة رُوعِىَ فى الخاصّ ذلك القَدْرُ ، فكُتِب عن ناظر الخاص كما كتب عن الوزير ، والأمر علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

والمكاتبات الصادرة عن هذه الطبقة علىٰ مراتب :

المرتبة الأولىٰ — « الفلانىّ بمطالعة » . وبذلك يُكْتب إلىٰ النَّائِبِ الكَافل ، والأتَابِك ، ونائب الشَّام ، وألحقوا بهذه الرتبة نائبَ حَلَبَ ، فكتبوا إليه الفلانىّ .

المرتبة الثانية — « الأبواب بمطالعة » . وبذلك يكتب عن هذه الطبقة إلىٰ نوّاب السلطنة بطَرَابُلُس ، وحَمَاة ، وصَفَدَ ، وثَغْرِ الإسْكَنْدَرِيَّة .

المرتبة الثالثة — « الأبواب بغير مطالعة » وبذلك يكتب إلىٰ نَائِبَى الوجهين القبلىِّ والبحْرىّ بالديار المصرية ، ومُقَدَّمى العسكر بغَزَّة وسِيس ؛ وربما كُتِب إلىٰ أحدهم « الباب الكريم » .

المرتبة الرابعة — « الباسط الشريف » . وبذلك يكتب إلىٰ نائب الكَرَك .

المرتبة الخامسة — « يُقَبِّل الباسطة » . وبذلك يكتب إلىٰ نائب القُدْس الشريف ، ونائب الرَّحْبَة ، وكاشف الوجه البحْرىّ ، وكاشِف الفَيُّوم بالديار المصرية .

المرتبة السادسة — «يقبل اليَدَ العالية». وبذلك يكتب إلىٰ الولاة الطبلخاناه، بالوجهين القِبلىّ والبَحْرىّ، بالديار المصرية.

المرتبة السابعة — «يخدم الجناب العالى». وبذلك يكتب إلىٰ الولاة العشرات بالوجهين القبلىّ والبَحْرىّ أيضا.

قلتُ: وعلىٰ هــذه الطبقات الأربــع يُقَاس مَنْ دونهم ممن يكتب إليه عن السلطان، صدرت والعــالى، كنائبي القُدْسِ والرَّحْبَةِ؛ ومَنْ يُكْتب له: صدرت والسامى، كالكاشف بالوجه البَحْرىّ، وكاشِفِ الفَيُّوم؛ ومن يكتب له: هــذه المكاتبة، كالولاة الطبلخاناه بالوجهين القبلىّ والبَحْرىّ؛ ومن يكتب له: «يَعْلَم» كالولاة العشرات بالوجهين أيضا. علىٰ أن الغالب فى مثل هؤلاء أن تكونَ الكتابةُ عنهم لأعيــان الدولة «الفلانىّ بمطالعــة» وفيمن هو مثلهم أو دونهــم يقاس علىٰ ما تقــدّم.

وٱعلم أن هــذه المراتبَ المُضَمَّنَةَ للطبقات ليست علىٰ سبيل اللُّزوم فى الوقوف عنــد حدّها، بحيثُ لا يجوز تَجَاوُزُها بزيادة ولا التأخُّرُ عنها بنقص، بل هى علىٰ سبيل التقريب؛ والأمرُ فى زيادة رتبــة المكتوب إليــه زيادةً لاتُخْرِجُه عن حدّه فى المقــدار مَوْكُولٌ إلىٰ ٱختيار الكاتب، يزيد فى ذلك وينقص، بحسب مايقتضيه الحــال: من رفعة قدر المكتوب إليه، لمزيد رفعته عن نوعه، أو محاباته لٱسْتِمَالته إلىٰ القصد المطلوب منه، أو الغَضِّ منه بحَطيطَة رُتْبته أو نحو ذلك.

الفصـــــل السابع

من البـاب الثـانى من المقالة الرابعة

(فى مقاصد المكاتبات ، وهى الأمور التى تكتب المكاتبات بسببها)

وهى الجزء الأعظم من صِناعة التَّرَسُّل ، وعليها مَدَارُ صنعة الكتابة ، إذ الولايات من مقاصد المكاتبات ، وهى أَهَمُّ ماتَضَلَّعَ به الكاتبُ ، وألْزَمُ مامَهَرَ فيه ؛ وهى قسمان :

القســـــم الأوّل

(مقاصد المكاتبات السلطانيات ، وهى على نوعين)

النـــــوع الأوّل

(ما يُكْتَب عن الخلفاء والملوك ، وهو على ثلاثة أضرب)

الضـــرب الأوّل

(ما يكتب عن الخلفـاء والملوك ومن ضَاهَاهُم)

ممـا هو مستعمل الآنَ ممَّـا كان عليه الحال فى الزمن القديم ممـا يَقِلُّ ويَكْثُرُ ، ويَتَكَرَّر تَدَاوُلُه فى الكتابة وسائر المكاتبـات فى الحوادث المألُوفة التى يكثر تداولها ، وتتكرر الكتابة فيهـا بتكرر وقائعها ؛ وما رَسْمُ الكتابة به بَاقٍ إلى زماننا ، وإن تغـير مصطلح الابتداء والخطاب وغيرِهما من رسوم المكاتبات . وهو على أصناف :

الصـــنف الأوّل

(الكتب بانتقال الخلافة إلى الخليفة)

قال فى "موادّ البيان" : جرت العادة أن تُنَفَّذَ الكتبُ إلى وُلاة الأعمال فى مثل هــذه الحالة ، مُتَضَمِّنةً ماجرى عليــه الأمر بالحَضْرة : من ٱنْقِيَاد الأوليـاء والرعايا

إلىٰ الطاعة، ودُخولِهم فى البَيْعَةِ بصدورٍ مُنْشَرِحة، وحَضِّ مَنْ بالأعمـال من رجال السلطان ورعيته علىٰ الدخول فيما دخل فيه أمثالُهم، وإِعطاءَ الرَّعايا علىٰ ذلك صَفْقَةَ أيمـانهم .

وقد كان الرسمُ فيها أنْ تُصَدَّر بحمد الله تعالىٰ علىٰ عَوارِفِه التى لم تَزَلْ تَكْشِفُ الخَطْب، وتَرْأَبُ الشَّعْب، وتدفع المُهِمّ، وترفع المُلِمّ، وتجبر الوَهْن، وتُسْبِـغُ الأَمْن؛ والصلاةِ علىٰ سـيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم، وذِكْرِ خصائصه ومناقبه، وتشريف الله تعالىٰ له بإقرار الإمامة فى أقاربه، وتخصيصها ببنى عَمِّه الذين هم أَحَقُّ الناس به؛ وما أمر به الله تعـالىٰ رسولَه صلّى الله عليه وسلم من طَلَبِ مودّتهم من الأمة بقوله جَلَّ من قائل : ﴿ قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبَىٰ ﴾ . وما أشار إليـه صلّى الله عليه وسـلم من بقاء الخلافة فيهم بقوله لَعَمِّه العباس : «أَلَا أُبَشِّرُكَ يَاعَمّ، بِى خُتِمَتْ النُّبُوَّةُ وبولدك تختم الخِلَافَة» وما يجرى مجرىٰ ذلك . ثم يتـلو ذلك بالإفصاح عن شرف الخلافة وفضلها، والإبانَة عن رفيع مكانهـا ومحلِّها، وأنها ظِلُّ الله الممدود، وحَبْلُه المشدود، ومِسَاكُ الدِّين ونظامُه، ومِلَاكُ الحق وقوامُه . وٱمْتِنَان الله تعـالىٰ علىٰ العباد بأن جعل فيهم أئمة يُقْسِطُونَ(١) العدلَ عليهم، ويُقيمُونَ الحدودَ فيهم، ويُقَوِّمُون أديانهم، ويُهَذِّبون إيمانهم، ويُرْهِفُون بصائرهم، ويَهْدُونَ حائرَهم، ويَكُفُّونَ ظَلُومَهُم، ويُنْصِفُون مظلومَهُم، ويجمعون كَلِمَتَهم، ويَحْمُون ذِمَارَهم، ويَحُوطُونَ ديارَهُم، وما يجرى مجرىٰ ذلك . ثم يذكر ما أوجبه الله تعـالىٰ علىٰ أهل الإسـلام للإمام من الطاعة وحسن التِّباعة أيام حيـاته، والٱنقيادِ لأمره فى طاعة من يَنُصُّ عليـه فى القيام مقامه بعد وفاته : ليتَّصِلَ حَبْلُ الإمامة بينهم، ويمتدَّ ظِلُّ الخلافة عليهم . فإن كان قد تَلَقَّىٰ الخلافة بعهد عن خليفة قد مات : من أب أو غيره، أتىٰ بمقدّمة فى ذكر الموت، وأن الله تعـالىٰ سوّىٰ فيه بين بَرِيَّتِهِ، وجعل فى تطرّقه

(١) لعله يفيضون العدل .

إلىٰ رسوله أُسْوَةً لخليقته، وتفرّد بالبَقاء، وآمتنع عن الفَناء. ثم يقال : وإن الله تعالىٰ لمـا آختار لعبده ووليه فلان النُّقْلَةَ إلىٰ دار كرامته ، والحُلُولَ بِفنـاءِ طاعته، وأعانه علىٰ سياسة بريته ، وأنهضه بمـا حَمَّلَه ، وأيده فيما كَفَّلَه، من الذبّ عن المسلمين، والمراماةِ عن الدِّين ، والعملِ بكتابه وسنَّته فى القول والفعل ، وآستشعارِ خِيفَته ومُرَاقبَتِه فى السرّ والجهر ، وما يليق بهـذا ــ استخلص عبدَه ووَلِيَّـهُ فلاناً الإمامَ الفلانىَّ لخلافتـه، وأَهْمىٰ سمـاءَ الرحمة بإمامته، وأَحَلَّ عزيزَ النصر بولايته، وألقىٰ فى نفيس رَأْيه النصَّ عليـه ، والتفويضَ إليه ؛ لِمَـا علم سبحانه فى ذلك من شمول المصلحة للعباد، وعموم الأَمَنَةِ للبلاد؛ فأمضىٰ ــ قدس الله رُوحَه ــ ما أُلْهِمَه، وكَمَّلَهُ قبل خروجه من دار الدنيا وتممه ؛ عالمًـا بفضل آختياره ، وأنه لم يَمِـلْ به الهوىٰ فى إيثـاره؛ فقام أمير المؤمنين الإمامُ الفلانىّ مقامه، وحَفِظ نِظَامَه، وسدّ ثُلْمَتَه، وعفَّى رَزِيَّتَه، وأقر الله تعالىٰ الإمامة به فى نِصَابها ومقرّها، وزاد باستخلافه فى صِيتِ الخلافة وقَدْرها .

وأميرُ المؤمنين يسأل الله تعـالىٰ أن يخص وَلِيَّه السـعيدَ بقُرْبِه بأفضل صلواته، وأشرفِ تحياته، ويُحْسنَ جزاءه فى سعيه فى صلاح العباد، وسِدادِ البلاد، وأن يُلْهِم أميرَ المؤمنين الصبر علىٰ تجرُّع الرَّزِيَّةِ فيه [ويجزيه] أفضل ماجزىٰ به صابرا مُحْتَسبا، وأن يَجْبُرَ كَسْره فى فقده، ويُوَفِّقه لجميل العزاء من بعده، ويُسَدّده فى مصادره وموارده، ويَهْدِيَه لمـا يُرْضيه فى جميع مقاصده ، ويُعِينَه علىٰ تأليف الأهواء ، وجَمْع الآراء ، ونَظْم الشَّمْل ، وكَفِّ القتل ، وإرخاء الظل .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك وقد آجتمع مَنْ بحضرته ، من ذَوِى جهته وأمراء دولته ، وكَافَّة جُنْده وجماعة حَوْزَته علىٰ بيعته ، وإعطائه صَفْقَة أيمانهم علىٰ طاعته

ومشايعته ، عن صدور مُخْلِصة نَقيَّة ، وسَرائِر صافية سليمة ، وعقائد مشتملة علىٰ الوفاء بمـا عَقدُوا عليـه ، وٱنقادوا مختارين إليه ، وشَمِلَتهم بذلك الرحمه ، وضَفَتْ عليهم النعمه ، فمـا بَرِحُوا الرَّزِيَّه ، حتّٰى فَرِحُوا بالعطيه ، ولا وَجَمُوا للمصيبه ، حتّٰى بَسَمُوا للرغيبه ، ولا أظلموا لفقد المـاضى ، حتّٰى أضاء الوجود بالآتى .

فلله الحمد علىٰ هذه النعمة التى جَبرَتِ الوَهْن ، وحققت فى فضله المَنّ ، حمدا يَسْتَدِرّ أخلاف فَضْله ، ويستدعى سابغ طَوْله ، وصلّى الله علىٰ محمد وآله . وأميرُ المؤمنين يراك من أهل مخالصته ، والمتحققين بطاعته ، وهو يأمرك أن تأخذ البَيْعَةَ له علىٰ نفسك ، وعلىٰ جميع أوليـائه المقيمين قِبَلك ، وكافَّة رعاياه الذين هم فى عملك ، وتُشْعِرَهم بمـا عنده للسارعين لطاعته ، المبادرين إلىٰ ٱتّباعه ، من تيسير الإنصاف والعدل ، وإفاضَة الإحسان والفَضْل ، وما لمن نَكَبَ عن الطريقة المُثْلىٰ ، وحَادَ عن الأَوْلىٰ ، من الكَفِّ الرَّادِع ، والأَدَب الوَازِع ، ويَتَوَسَّعُ فى هذا المعنىٰ توسُّعاً يشرحُ صدورَ أهلِ السـلامه ، المستمرِّين علىٰ نَهْجِ الٱستقامه ، ويَرْدَعُ أهـلَ الفساد ، ويَغُضُّ من نواظر ذَوِى العِنَاد . ويُحَلِّى الكتاب بآيات من القرءان الكريم تَحْسُنُ ٱستعارتها فى باب العَزَاء ، ويليق ذكرها فى باب الإشادة بالخلافة والخُلَفَاء . فان كان الكتاب ممـا يقرأ بالحَضْرة . قال فى موضـع «وكتاب أمير المؤمنين إليك» : «وأنتم معاشرَ أقارب أمير المؤمنين : من إخوته وبنى عمـه وخَوَاصّ الدولة وأمرائهـا وأجنادها وكُتَّابِها وقُضَاتها وكافَّة رعيتها ، ومن ٱشتمل عليه ظل مملكتها ـ أَحَقُّ مَنْ حافظ علىٰ عوارف أمير المؤمنين وٱعتدّ بلطائفه ، وقام بشكر نعمته ، وسَارَع إلىٰ ٱتباعه وٱعتصم بحبـل دعوته ، فَأَجْمِعُوا علىٰ متابعته ، وإعطائه صَفْقَةَ أيمـانكم علىٰ مبايعته ، ليجمعَ الله علىٰ التأليف كلمتكم ، ويحمِىَ بالتّآزُرِ بَيْضَتكم » ويُتْبِـعُ ذلك من وعد أهل الطاعة

بمـا يضاعف جُدُودهم ، ومن وعيد أهل المعصية بمـا يُصَفِّرُ خُدودهم ؛ علىٰ نسق ما سبق فى الترتيب .

وهـذه نسخة كتاب فى المعنىٰ ، كُتِب به عن الآمر بأحكام الله تعالىٰ عند آستقراره فى الخلافة بعد أبيه المسْتَعْلِى بالله ، والدَّولةُ مشتملة علىٰ وزير ، من إنشاء آبن الصَّيْرَفىّ ، وهى :

الحمد لله المتوحِّد بالبقاء ، القاضى علىٰ عباده بالفَنَاء ، الذى تَمَجَّد بالأزليَّة والقِدَم ، وتفرَّد بالوجود وتَنَزَّه عن العَدَم ، وجعل الموت حَتْمًا مقضيًّا علىٰ جميع الأمم .

يحمده أمير المؤمنين علىٰ ماخصَّه به من الإمامة التى قَمَّصَه سِرْبالَها ، ووَرَّثه فخرَها وجمالَها ، حمدَ شاكرٍ علىٰ جزيل العطيَّه ، صابرٍ علىٰ جليل الرَّزِيَّه ، مُسَلِّمٍ إليه فى الحُكْم والقضيه ، ويسأله أن يصلىَ علىٰ جدّه محمد الذى ثبتت حجتُه ، ووضَحت مَحَجَّتُه ، وعَلَتْ كلمته ، وأنافت علىٰ دَرَجِ الأنبياء دَرَجتُه ، صلّى الله عليه وعلى أخيه وآبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى جعل [الله] الإمامةَ كلمةً فى عقبه باقيه ، وحُبَّه جُنَّةً يوم الفَزَعِ الأكبر واقيه ، وعلىٰ الأئمة من ذرّيتهما الطاهرين ، صلاة دائمة إلىٰ يوم الدِّين .

وإن الإمام المستعلىَ بالله أميرَ المؤمنين قدّس الله رُوحَه وصلّى عليه ، كان من أوليائه الذين آصطفاهم لخلافته فى الأرض ، وجعل إليهم أَزِمَّة البَسْط والقَبْض ، وقام بمـا حُمِّلَه من أَوْقِ الإمامه (1) ، ولم يزلْ عاملًا بمرْضاة الله إلىٰ أن نقله إلىٰ دار المُقَامه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، رِضًا بقضائه ، وصبرا علىٰ بلائه ؛ وإلىٰ الله يرغبُ أميرُ المؤمنين فى إلهامه حُسْنَ الصبر علىٰ هذا المُصَاب ، وإجزال حَظِّه عليه من الأَجر والثواب ، وإمدادِه فى خلافته بموادّ الإرشاد والصواب ، بكرمه .

(1) الأوق الثقل . قاموس .

وكتاب أمير المؤمنين يوم كذا من الشهر الفلانىّ من ســنة كذا؛ بعــد أن جلس للحاضرين بحضرته من الأمراء: عُمُومَتِه وأوليائه وخَدَمِ دولته، وسائرِ أجناده وعبيدِ مملكته، وعامةِ شيعته، وأصنافِ رَعِيَّته؛ وأنوارُ الخلافة عليــه مُشْرِقه، وأغصانُ الإمامــة مُثْمِرةٌ مُورِقه؛ والســيد الأجلُّ الأفضــلُ الذى أمدَّه الله فى نُصْرة الدولة العلوية بالتأييد والإظهار، وأبان به برهانَ الإمامة الآمرية فوضَحَتْ أنوارُها للبصائر والأبصــار، وشَهَر له من المناقب ما سار مَســيرَ الشمس فى جميع الأقطار؛ يتولّى الأمرَ بحضرته تَوَلِّىَ الكافلِ الزَّعيم، ويباشرُ النظرَ فى بَيْعَتِه مُبَــاشرة القَسِيم الحَمِيم؛ والناس داخلون فى البَيْعَة بانشراح صدور، وإظهار ٱبتهاجٍ وسرور؛ يُعْطُون صَفْقَة أيمــانهم، ويعلمون مالهم من الحَظِّ فى طاعة إمام زمانهم؛ قد تحققوا شُمُول السَّعد وعُمُوم الرشاد، وتيقنوا الخِيَرَة لهم فى العاجلة والمَعَاد؛ وأمير المؤمنين يُعَزِّيك ومن قِبلَك من أولياء دولته، وسائر رعيته؛ عن المصيبة فى الإمام المستعلِى بالله ــ صلى الله عليه ــ التى قطعت من النفوس أملَها، وأسكنت الألباب جَزَعا ووَلَهــا، ويُهَنِّيك وإياهم بمُتَجَدِّد دولته التى تَهَلَّلَ لها وجهُ الزمان، وٱستهلت بها سحائبُ الفَضْلِ والإحسان.

وأمير المؤمنين يحمــد الله الذى أقرَّ الحقَّ فى مَنْصِــبِه، وأفرده بمــا كان والدُه الإمامُ المستعلى بالله أُفْرِدَ به.

فٱعلم ما أعلَمَكَ أميرُ المؤمنين من هــذا الخَطْب الجسيم، والنَّبَإ العظيم؛ وٱشكر الله علىٰ ما جدّده لك ولكافَّة المسلمين، من النعمة بإمامة أمير المؤمنين؛ التى أَوْفَتْ بإساءة الزمان وجِنَايته، وشَفَتْ من داء كَلْمه ونِكَايته؛ وتَقَدَّم إلىٰ الدعاء(؟) قِبلَكَ بأخذِ البيعة علىٰ نفسك وعلىٰ كافَّة مَنْ فى وِلايتك، وٱستحمد إلىٰ أمير المؤمنــين أنت وهم بالإخلاصِ فى طاعتــه، والاجْتِهاد فى مُنَاصحته، والتَّمَسُّك بعِصَمِ مشايعتــه؛ لتنالوا

فى العاجلة حَظًّا جسيما ، وتُحْرِزُوا فى الآجلة أجرًا كريما : ﴿ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وطالعْ بالكائن منك بعد قراءة كتاب أمير المؤمنين علىٰ الحاضرين قِبَلَك، وإذاعته فى الواردين عليك والمستوطنين عَمَلَك ؛ ليَحْمَدُوا الله علىٰ ما أنالهم بخلافة أمير المؤمنين من جميل الصُّنْع العائد علىٰ العباد ، وصلاح البلاد ــ وكتب فى اليوم المذكور .

وهــذه نسخة كتاب عن الآمر بأحكام الله المقــدّم ذكره ، كُتِبَ به إلىٰ وُلاة الأطراف بعد قراءة عهده، مهنئا بخلافته، وتجديد ولايته ؛ من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفِىّ أيضا، وهى .

أما بعــدُ ، فالحمد لله مُولِى المنائح من نِعَمِه، ومُجْزِل العطايا من مواهبه وقِسَمِه، ومُعَوِّد الصُّنْع الجميــل من لُطْفه وكَرَمه، الذى له الحكم الظاهر عَدْلُه ، ولَدَيْه الطَّوْل الفائض فَضْلُه، وعنده مفَاتِحُ الغيب وإليه يَرْجِعُ الأمر كُلُّه .

يحمده أمير المؤمنين علىٰ ما أفرده به من سَنِىّ المواهب، ونَظَمَه له من عُقُود المناقب؛ ونَقَلَه إليــه من تُرَاث آبائه الكِرام الذين جلَا ضياؤُهم ظلامَ الغَيَاهِب؛ وتزينت بهم الأرضُ تَزَيُّنَ السماء الدنيا بِزِينَةِ الكواكب؛ ويسأله أن يصــلِّىَ علىٰ جدّه محمد الذى نشر الله به الرحمه، وكشف الغُمَّه، وأنقذ الأمَّه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ أخيه وٱبن عَمِّه علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين، والمذكور فى زُبُرِ الأوّلين، وعلىٰ الصَّفْوَة من ذرِّيتهما الهُدَاة الراشدين ، صلاةً باقيةً إلىٰ يوم الدين .

وإن النِّعَم تتفاضل أقدارُها بحسب مواقِعِها، وتتفاوت أَخْطَارُها بقَدْر مواضعها؛ ومِنْ أَلطَفِها مكانا، وأشرفِها محَلًّا وشانا، وأولاها بأن تُسْتَنْطَقَ به الأقلام، وأحَقِّها بأن يتناقلَ ذكرها الخاصُّ والعام؛ ما خصَّ الله به أميرَ المؤمنين من المِنَنِ الظاهره،

وتولّاه من المِنَح المتظاهره ، وأصارَه إليه من الخِلَافة فى أرضـه ، وآسْـتَخْلَفَه عليه من القيام بسُنَن دِينه وفَرْضه ، وآسترعاه إيّاه من حِيَاطَة بلاده ، وأوجبه من طاعته علىٰ كافَّة خلقه وعباده ، وذَخَره لدولته من كفيله وخليله ، ومقيم أَدِلَّة حقه ومُوضِّح سبيله ، السـيدِ الأجلِّ الأفضلِ الذى آرتضاه الله للذَّبِّ عن الإسلام ، وآنتضاه لنُصْرة إمام بعد إمام ، وشهر مناقبه فى كُلِّ مَوْقِف ومقام ، وخصَّـه بفضائلَ لم تُرَ مجتمعةً لملِك من ملوك الإسلام ، لاجَرَم أنَّ أمير المؤمنين قد أحلَّه منـه محلَّ الرُّوح من الجَسَـد ، والوالد من الوَلَد ، وفوَّضَ الأمور إليه تفويضَ معوّل علىٰ يُمْن نقيبته معتمد ، مبالِـغٍ فى حسن الآختيار للأمة مُجتهد ، والله تعالىٰ يُمَتِّعُ أمير المؤمنين ببقائه الكافل ببلوغ الأمل ، ويجازيه عن تشييد مملكته أحسنَ ما جزىٰ به مُخْلصا جَمَعَ فى الإيمان بين القَوْل والعمل ، بكرمه .

ولمـا وقف أميرُ المؤمنين بما طالعه به السيدُ الأجلُّ الأفضلُ عند مثوله بحَضْرته ، وإنهائه أمورَ دولتـه وأحوال مملكته ، علىٰ أمرك الذى آسـتحمده فى الخدمه ، وآستحقَقْتَ به إفاضةَ الإحسان وإسباغَ النعمه ، وأن لك فى الدولتين : المُسْتَنْصِرِيَّة والمُسْـتَعْلِيَّة من الخدم المشكوره ، والمساعى المبروره ، ما يدلُّ علىٰ مُنَـاصَحَتك وإخلاصك ، ويبعثُ علىٰ آصطناعك وآستخلاصك ــ أمَرَ بكَتْبِ هذا السِّجلِّ لك مؤكِّدًا لأَواخيك ، ومُعْرِبا عن رأيه الجميل فيك ، ومجدّدا من ولايتك ، ومُجْرِيا لك فيهـا علىٰ مُسْتَمِرِّ رسمك ومسـتقرّ عادتك . فقابلْ نعمة أمير المؤمنين من الإخلاص فى طاعته بمـا يرتبطها ، ووَفِّها من حَقِّ الآجتهاد مايُقِرُّها عندك ويُثَبِّطُها ، وآجعلْ تقوىٰ الله تعالىٰ عِمَادك ، وآطْوِ عليها طَوِيَّتك وآعتقادَك ، ومَكِّنْ فى نفوس الأولياء جميلَ رأْيِ أمير المؤمنين فيهم ، وإحْمَادَه لمواقفهم فى الخدمة ومساعيهم ، وحَقِّقْ عند كافَّة المُسْـتَقِرِّين لديك ، والواردين عليك ، ما يُكْنَفُون به من الأمر الشامل ،

ويغمُرُون به من حُسْنِ النظر المتواصل؛ وٱجْرِ علىٰ العـادة المألوفة فى إفاضة العدل والإنصـاف ، وتَنَكَّبْ سبيلَ الجَوْرِ والإجْحَاف ؛ ومَهِّد السُّـبُلَ قِبلَكَ، وٱحْمِ من أسباب الفساد ولايَتَكَ وعَمَلك ؛ وٱخْصُصْ مُتَوَلِّى الحكم والدعوة الهادية ـ ثبتها الله تعـالىٰ ـ بالإعْزَاز والرعايه ، ووَفِّرْ حَظَّهم من الملاحظة والعنايه ؛ وخُذ المُسْتَخْدَم فى الخطبة العَلَوِيَّة باقامتها فى أوقاتها، علىٰ أفضل قوانينها وواجباتها؛ مُعْلِناً فيها بذكر أمير المؤمنين الذى يَتَوَّجُ فرُوقَ المنابر، ويُشَنِّفُ أسماع البوادى والحواضر؛ وتَوَفَّرْ علىٰ ماثَمَّرَ الأموال وأنْمَـاها ، وغَزَّرها ورخَّاها ، وقضىٰ بوُفُورها وحصولها ، ودعا إلىٰ دُرُورها ومواصلة حُمُولها ؛ وٱنظر فى أمر الرجال المستَخْدَمين معك نظرا يؤدّى إلىٰ مصلحتهم . فٱعلم هـذا من أمير المؤمنين ، وٱغتبط بمـا أَصاره الله إليه ٱغتباط أمثالِك من المخلصين ، وٱعتقدْ طاَعتَه ٱعتقادَ مَنْ يجاريك من أهل اليقين ، وٱعمل بوصاياه ومراشده تَحْظَ فى الدنيا والدين؛ وطالعْ بالكائن منك بعد قراءة هذا السِّجِلّ علىٰ كافة الناس أجمعين ؛ وكُتب فى كذا وكذا .

وٱعلم أن العادة جارية بينهم أنه إذا كتب كتاب عن الخليفة بانتقال الخلافة إليه، يُكْتب ملطف عن الوزير، يُلَفُّ كتاب الخليفة ضِمْنَه، ويُوَجَّه به إلىٰ حَيْثُ المقصِد:

وهـذه نسخة مُلَطّف فى هذا المعنىٰ، كُتِبَ به عن وزيرٍ فى الدولة الفاطمية، لِيُلَفَّ كتابُ الخليفة طيَّه، وهو :

ينْطَوِى هـذا الأمرُ الوارد علىٰ الأمير، علىٰ كتاب مولانا وسيدنا الإمامِ الفلانِىّ لدينِ الله، أميرِ المؤمنين ؛ صـلواتُ الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين ، وأبنـائه الأكرمين، أو أبنائه المُنْتَظَرِينَ ، إن كان لا ولد له ـ بمـا أصاره إليه من شَرَف

الإمامه، وبوّأه إيّاه من مقام العظمة والكرامه؛ إثر آنتقالِ الإمامِ فلانٍ أمير المؤمنين ـ قدّس الله رُوحَه ـ إلىٰ جِوارِ ربِّه . فاعتَمِد العملَ بمضمونه فى أخذ البَيْعَـةِ علىٰ نفسك ومن يَلِيكَ، وتلاوته علىٰ رءوس الأشهاد، وإذاعة مكنونه فى الحَاضِر والبَاد، علىٰ الرسم المعتاد؛ فآعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وهذا المعنىٰ فى الكتابة بانتقال الخلافة إلىٰ الخليفةِ جارٍ فى زماننا بانتقال السَّلْطَنة إلىٰ السلطان؛ ويعبَّر عن ذلك بجلوسه علىٰ تَخْت الملك، والأمر علىٰ ما تقدّم فى الخلافة من التعزية بالماضى، والتهنئة بالمسْتَقِرّ، ونحو ذلك ممـا يجرى مجراه .

وهذه نسخةُ مكاتبـة بالبشارة بجلوس الملك الصالح صالح آبن الملك الناصر محمد آبن قلاوون علىٰ التخت، فى شهر رجب الفرد سـنة آثنتين وخمسين وسبعمائة، بعد خَلْعِ أخيه الملك الناصر [حسن] . وصورتها بعد الصَّدْر والألقاب :

وأوردَ عليه من البشائر أسْنىٰ البُشْرْ، وأسمعه من التَّهَانى ما آنتشىٰ حديثُـه بين البرايا وآنتَشَرْ، وحفِظَ عليـه وعلىٰ الأمة ما أراد لهم من الخـيْرِ ووَلّى عليهم خِيَارَهُم وجعل مليكهم صالِـحَ البَشَر .

صدرت هذه المكاتبة إلىٰ فلانـ ونصرها(١) مقدمًا بالظَّفَر، وذكرها قد ملأ الأقطار فَجَمَعَ عليه كُلَّ قلبٍ كان قد نَفَر؛ تُهْدى إليه سلاما عن وجه الشُّكْر سَفَر، وثَناءً يحصُـل منه علىٰ النَّصِيبِ الأوفر؛ وتُوَضِّح لعلمِه أن الجنابات العـالية الأمراءَ الأكابرَ، أمراءَ الدولة الشريفـة، ضاعف الله نِعْمـتَهم؛ كانوا قد عَظَّمُوا أخانا الناصرَ، وحَكَّمُوه، ومَشَوْا إلىٰ خِدْمته علىٰ أحسن سَـنَن؛ وما أبْقَوْا فى خدمته مُمْكِنًا من التعظيم، والإجلال والتحكيم، وآمتثالِ الأمر فى كل جليلٍ وحقير؛ فلم يَرْعَ لهم

(١) كذا بالأصل على هذه الصورة .

ذلك، ولا ٱلتفت إلىٰ مالهم عليــه من حقوق الخدمة ؛ وٱتفق مع الصبيان، وأراد القَبْض علىٰ الأمراء ، و إمساكَ الجنابات العـالية الأمراءِ الأكابرِ والإيقاعَ بهم . فلمــا تحققوا منه ذلك ، ٱجتمعت الأمراء ، وٱتفقت الكلمة علىٰ خَلْعه من الملك الشريف وإقامتِنا. فخلع المشارُ إليه ؛ وكان جلوسُنا علىٰ تخت المُلْك الشريف وكرسيّ السَّلْطنة المعظمة فى يوم الآثنين المبارك ، بحضور الإمام المعتَضِد بالله أميرِ المؤمنين أبى الفتح أبى بكر، ٱبن الإمام المرحوم أمير المؤمنين أبى الرَّبيع سليمان المُسْتَكْفِى بالله، ومبايعته لنــا ، وحضورِ المجالس العالية قُضَاةِ القضاة بالأبواب الشريفة ، أعز الله تعالىٰ أحكامهم ؛ وحَلَف لنــا أمراءُ الدولة الشريفة علىٰ جارى العــادة فى ذلك ؛ وضُرِبَتْ عند ذلك البشائر، وشهد هــذا الهناءَ كلُّ بادٍ وحاضر، وتَشَنَّفَتِ الأسماعُ وقرَّتِ العيون وٱستقرّت الخواطر،وٱبتهجت بذلك الأمم،وتباشرت بهذا السَّعْدِالذى كُتِبَ لنا من القِدَم، وأصبح كُلٌّ من أنصار دولتنا الشريفة مبتهلا بالدعاء مبتهجا .

فليأخُذِ المَقَرُّ حظَّه من هذه التهنيه، وليُذِعْ خَبَرَها لتكون المسارُّ مُعِيدة ومُبْدِيَه ؛ و يتحققْ ماله عندنا من المكانه، والمحلِّ الذى زان بالإقبال الشريف زَمَانَه؛ و يتقدّمْ أمرُه الكريمُ بتهنئة المجالس العالية والسامية ومجالس الأمراء بالمملكة الفلانية، ويتقدّمْ أيضا بضَرْب البشائرو بالزينة علىٰ العادة .

وقد تَجَهَّز إلىٰ الجناب العالى نسخةُ يمين شريفة يحلف عليهــا، و يكتُب خَطَّه، و يجهزها إلينا صُحْبَةَ المجلس السامى، الأميرِ، الأجلّ ، الكبيرِ، العَضُد، الذُّخرىّ، النَّصِيرىّ، الأوحدىّ، عَضُد الملوك والسلاطين، يلبغا الحَمَوىّ الصالحىّ، أدام الله عُلُوَّه، المتوجِّهِ بهذا المثال الشريف . وقد جهزنا نسـخةَ يمين شريفة ليحلف عليها لنا الأمراءُ بطَرابُلُسَ ويكتبوا خطوطهم، و يجهزها إلينا علىٰ العادة صُحْبَة المشار إليه .

وقد جهزنا للجناب العالى صحبة المشار إليه تَشْرِيفًا شريفا كاملا؛ فيتقدّم الجنابُ العـالى بتسلمه منه ولُبْسِه ، ويتحقق ماله عندنا من المكانة والمَنْزِلة ، ويُعِيدُ الأميرَ سيفَ الدِّين يلبغا المشار إليه إلىٰ الباب الشريف، فيحيط علمه بذلك .

الصـــنف الثـانى

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فى الدعاء إلىٰ الدِّين ، وهو من أَهَمِّ المهمات)

قال فى "موادّ البيان" : أشرف ما يُنْشِئُه الكاتبُ الدعاءُ إلىٰ دِينِ الإسلام الذى أظهره الله تعالىٰ علىٰ كُلِّ دِينٍ ، وأعزّه علىٰ كُرْهِ المشركين ، وٱستِجْرَارُ مُخَالفيه إليه ، وٱجتذابُ الخارجين عن دائرته إلىٰ الدخول فيـه ؛ عملا بمـا كان عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم والخلفاءُ من بعده ، لأنه قِوَامُ الملك ونِظَامُ السلطان اللَّذَان لايَصِحَّان إلا به .

قال : والكاتب يحتاج فى إنشاء هذه الكُتُب إلىٰ عِلْمِ التوحيد وبراهينه، وشَرْعِ الرسول صلّى الله عليه وسلم خاصِّه وعامِّه، ومعجزاتِه، وآياتِ نُبُوّته : ليتوسَّعَ فى الإبانة من ظهور حجته ، ووضوح مَحَجَّته .

ثم قال: والرسم فيها أن تُفْتَتَح بحمدِ الله الذى ٱختار دينَ الإسلام فأعلاه وأظهره، وقدّسه وطَهَّره ؛ وجعله سبيلا إلىٰ رِضَاه وكرامته ، وطريقـا إلىٰ الزُّلْفىٰ فى جَنَّته ؛ وشفيعا لا يُقْبَلُ عملُ عاملٍ إلا به ، وبَابًا لا يَصِلُ واصلٌ إلا منه؛ فلا تُغْفَرُ السيئاتُ إلا لمن ٱعتَصَم بِحَبْلِه ، ولا تُتَقَبَّلُ الحسناتُ إلا من أهله . وشُكْرِه تعالىٰ علىٰ الهداية إليه، والتوقيف عليه؛ وذِيَادَته عن مجاهلِ الضلالة بمـا أوضحه من برهانه، ونَوَّره من تِبْيَانه. وتمْجِيـده من تعظيم آياته ، وباهرِ مُعْجِزاته؛ وحكيم صَنْعَتِـه، وبديعِ فِطْرَتِه . وتَنْزِيهِه عما لايليق بسُلْطانه ، ولا تجوز إضافته إلىٰ عظيم شَانِه . وتَسْبِيحه

عما يَصِفُه به المُلْحِدون، ويَخْتلِقُه الجاحدون، والصَّلاة على رسوله محمد صلّى الله عليه وسلم، والإفصاح عن دلائل نُبُوّته، وبَرَاهِينِ رسالته، وما خصَّه الله تعالىٰ به من إعلاء ذكره وإمداده بالمعجزات الباهره، والآيات الظاهره .

ثم يُتْبِعُ ذلك بالدعاء إلى الدِّين والحَضِّ عليه . وإيضاح ما في التَّمَسُّك به من الرَّشَاد في دَارَيِ المَبْدَإ والمَعَاد . والتَّبشير بما وعد الله به المستجيبين له، والداخلين فيه؛ من تَمْحِيص السَّيِّئات، ومُضَاعَفة الحسنات، وعِزّ الدنيا وفَوْز الآخرة . والإنذار بما أوعد الله به النَّاكِبِين عن سبيله، العَادِلين عن دَلِيله؛ من الإذْلَال في هذه الدار، والتَّخْليد بعد العَرْض عليه في النار، وتَصْرِيف المُخَالفين بين الرَّغْبة والرَّهْبة، في العاجل والمَغَبَّة .

قال : وينبغي أن يَتَأَنَّى الكاتبُ فيما يُورِدُه من هذه الأغراض، ليَقَعَ في المواقع اللَّائقة به، ويَجْلُوَ الحججَ في أحسن المعاريض، ويُفْصِحَ عنها بأقرب الألفاظ من النفوس . فإنه إذا وُفِّقَ لذلك، ناب كِتَابُه مَنَابَ الجُيُوش والأجناد، وأقرَّ السيوفَ في الأغماد . ثم قال : ومن صَدَقَتْ في هذا الفَنّ رغبتُه، أيد الله تعالىٰ غريزته، وعَضَّدَ بَدِيهته ورَوِيَّتَه .

قلت : وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانية قد بَطَلَ في زماننا، فلم يُعْهَدْ أنَّ مَلِكًا من الملوك كَتَب إلى بلاد الكُفْر بالدِّعاية إلى الدين . إذ مثل ذلك إنما يصدر مع الغَلَبَة والقُوَّة والقَهْر . كما كان الخلفاء في الزمن المتقدّم، والكُفْر مقهور معهم، مذلول لديهم . أما الآنَ فلولا ما أخبر به صلّى الله عليه وسلم بقوله : «ونُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ» وفي رواية «ونُصِرَتْ أُمَّتِي» لاَجْتَاحَ أهلُ الكُفْر الإسلامَ؛ ولكن الله وعد دينه أن لايُخْذَلَ .

الصـــــنف الثـالث

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ بالحثّ علىٰ الجهَاد)

قال فى " موادّ البيان " : كما أن الدين يَنْتَظِم بالدعاء إليه والترغيب فيه، كذلك يَنْتَظِم بصيَانة حَوْزَتِه، وما دخل فى مملكته، وكَفّ أعدائه عن تَنَقُّص أطرافه، والتَّغلُّبِ علىٰ بلاده . ولهـذا فرض اللهُ تعـالىٰ الجهادَ وأوجبه، وأكَّدَ الأمرَ فيـه وشدّده، والسلطانُ يحتاجُ عند الحوادث التى تَحْدُثُ من تَطَرُّقِ المخـالفين إلىٰ بعض الثُّغُور، أو شَنِّ الغَارَةِ علىٰ أهْل الإسـلام، ان يَدْعُوَ إلىٰ الجهَاد ومُقَارعَةِ الأعداء، وصَوْنِ حريم الملة، وحِفْظِ نظام الدوله .

ثم ذكر أن الرسم فيها أن تفتتح بحمـد الله تعالىٰ علىٰ جَميل صُـنْعِهِ : علىٰ إعزاز الكَلمة، وإسْبَاغ النِّعْمة باظهار هذه الملة، وما وعد الله به من نصر أوليائه، وخِذْلانِ اعدائه، وإدالة الموحدين، وإذَالة المُلْحدين، والصلاةِ علىٰ رسوله صـلّى الله عليه وسـلم وعلىٰ آله، وذِكْرِ طَرَفٍ من مواقفه فى الجهادِ، ومُقَارعتِه لشِـيَعِ الإلحاد، وتأييد الله تعالىٰ أنصارَه علىٰ أهْلِ العِنَاد . ثم يذكر الحادثة بنَصِّها، ويشرح القصة علىٰ فَصِّها، ويَنْدُبُ من جاوره ودناه من أهل المِلَّة أجمعين، ويخاطبُهم بمـا يُرْهِفُ عَزائمهم فى نُصْرة الدين وكافَّةِ المسلمين، وٱتِّبَاعِ سبيل السَّلَف الصالحين، الذين خَصَّهم الله تعالىٰ بصِدْقِ الضَّمائر، ونَفَاذِ البَصَائر، وصِحَّة الدين، ووَثَاقَةِ اليقين، فلم يكونوا لِيَرُوموا مَرامًا إلا سَهَّل لهم ماتوعَّر، ويَسَّر عليهـم ما تَعَسَّر، وسما بهم إلىٰ ما هو أقصىٰ منه مَرْمًى وأبعدُ مَدًى ؛ رغبةً فيما رغَّبَهم فيه من نُصْرته، وتَعَرُّضًا لمـا عرَّضهم له من جزِيل مَثُوبتِه ؛ وأن يَحُضَّهم علىٰ التمسك بعزائم الدين، والعملِ علىٰ بصائر المخلصين، وٱفتراض مافرضَ اللهُ عليهم من جِهَاد أعدائه، وتنجيزِ ماوعَدَهم به

من الإظفار بهم والإظهار عليهم ؛ وأن يجاهدوا مُسْتَنْصِرين ، ويُؤَدُّوا الحَقَّ مُحْتَسِبِين ، ويُقدِمُوا رسلًا لا ناكصين ولا شاكِّين ولامُرْتابِين ، مُتَّبِعين الحَقَّ حَيْثُ يمم وقصد ، ومضار بين دونه من صدّ عنه وعَنَد ، ويُبَالِغ فى تَنْخِيَة أهل البسالة والنَّجْده ، والبَأْس والشِّدّه ؛ ويبعثهم على نَصْرِ حَقِّهم وطاعةِ خالقهم ، والفوز بِدَرْك الثواب والرِّضْوان ، وتَنَوُّر البصائر فى الإِيمـان ؛ وفضيلةِ الأَنَف من الضَّيْم ، والبُعْد من الذَّيْم ؛ إلىٰ غير هذا ممـا يَعْدِل الأرواحَ والمُهَج ، والإقدامِ علىٰ مصارع التَّلَف . فإن الملوك الماضين ـ لعلمهم بأن الناس إنما يَجُودون بذلك للفوائد التى تُوجِبُه ـ كانوا يبذُلُون لمن يدعونه إلى المكافحه ، ويُعَرِّضُونَه للمذابحه ، الرغائبَ التى تُهَوِّن عليهم إلقاء نفوسهم فى المهالك تارة ، ويُذَكِّرُونهم الأحقاد والضغائن ويخوّفونهم من الوقوع فى المَذَلَّةِ أخرىٰ .

ثم قال : وينبغى للكاتب أن يُقَدِّم فى هذه الكُتُب مُقَدِّمات ، يرتبها علىٰ ترتيب يَهُزُّ الأَرْيَحِيَّات ، ويُشْحِذُ العزائم ؛ ليَجْمَعَ بين خِدْمة سلطانه والفوزِ بنصيب من الأجر .

قلت : وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانيات مستمرّ الحكم إلى زماننا . فما زالت الملوك يَكْتُبون إلىٰ مايليهم بالحَثِّ علىٰ الجِهَاد ، والقيامِ بأوامره ، والحضِّ علىٰ مُلَاقاة العَدُوِّ ، والأخذِ بنُصْرة الدين . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمات المكاتبات فى أوّل هذه المقالة : أن الشَّيخَ شهابَ الدين محمودًا الحلبى ذكر فى "حُسْنِ التوسل" أنه إذا كُتِبَ عن الملك فى أوقات حركات العدوّ إلىٰ أهل الثغور ، يُعْلِمُهُم بالحركة للقاء عَدُوّهم ـ أنَّه يبسُط القولَ فى وَصْفِ العَزائم ، وقُوّةِ الهِمَم ، وشِدَّة الحَمِيَّـةِ للدِّين ، وكثرةِ العساكر والجيوش ، وسُرْعَةِ الحركة ، وطَيِّ المراحل ، ومُعَاجلةِ العدوّ ، وتَخَيُّلِ أسباب النَّصْر ، والوُثُوقِ بعوائد الله فى الظَّفَر ، وتقويةِ القلوب منهم ، وبسط آمالهم ، وحَثِّهم علىٰ التَّيقُّظ ، وحَضِّهم علىٰ حِفظِ ما بأيديهم من ذلك وما أشبهه . وأنه يُبرِزُ

ذلك فى أبْيَنِ كلام وأجلِّه ، وأمْكَنِه وأقربِه من القوة والبسالة ، وأبعـده من اللِّين والرِّقَّة ؛ ويبالغُ فى وصف الإنابة إلىٰ الله تعالىٰ وٱستنزالِ نَصْرِه وتأييده ، والرجوعِ إليه فى تَثْبِيتِ الأقدام ، والاعتصامِ به فى الصَّبْر ، والاستعانة به على العَدُوّ ، والرَّغْبَةِ إليه فى خِذْلَانهم ، وزَلْزَلَةِ أقدامهم ، وجَعْلِ الدائرة عليهم ؛ دون التصريح بسؤال بُطْلان حَرَكَتِهم ، ورَجَاءِ تأخيرهم ، وٱنْتِظَارِ العَرَضِيَّات فى تَخَلُّفهم ، لِمَا فى ذلك من إيهام الضَّعْفِ عن لِقَائِهم ، وٱستشعار الوَهْنِ والخَوْفِ منهم ؛ وأن زيادةَ البَسْطِ ونقصَها فى ذلك بحسب المكتوب إليه .

وهـذه نسخةُ مُكَاتبة من ذلك عن السلطان إلىٰ بعض نوّاب الثُّغُور ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبِيّ ، أوردها فى "حسن التوسل" وهى :

أصدرناها ومُنَادِى النَّصْر(١) قد أعلن بيا خَيْلَ الله ٱرْكَبِي ، ويا ملائكةَ الرحمن ٱصْحَبِي ، ويا وُفُودَ الظَّفَرِ والتأييد ٱقْرُبِي ؛ والعَزَائِمُ قد رَكَضَتْ علىٰ سوابق الرَّكْض إلىٰ العِـدا ، والهمم قد نَهَضَت إلىٰ عَدُوِّ الإسـلام فلو كان فى مَطْلَعِ الشمس لٱسْتَقْرَبَتْ ما بينها وبينه من المَدىٰ ؛ والسُّيُوفُ قد أَنِفَتْ من الغُمُودِ فكادت تَنْفِرُ من قُرُبِها ، والأسِنَّةُ قد ظَمِئَتْ إلىٰ موارد القلوب فتشوّفت إلىٰ الارتواء من قُلُبِها ؛ والكُمَاةُ قد زَأَرَتْ كاللُّيُوثِ إذا دَنَتْ فرائسُها ، والجيـادُ قد مَرِحَتْ لِمَا عَوَّدَتْها من الانتعال بجماجم الأبطال فوارسُها ؛ والجيوشُ قـد كاثَرتِ النجومَ أعْدادُها ، وسار بهـا للهجوم علىٰ أعداء الله من الملائكة الكرام أمْدَادُهـا ؛ والنفوسُ قد أضْرَمَتِ الحَمِيَّةُ للدِّين نارَ غَضَبِهـا ، وعدَاها حَرُّ الإشـفاق علىٰ ثُغُور المسلمين عن بَرْدِ الثغور وطِيبِ شَنَبِها ؛ والنَّصْرُ قد أشْرَقَت فى الوجود دلائلُه ، والتأييـدُ قد ظهرت علىٰ الوجوه مَخَايِلُه ؛ وحُسْنُ اليقين بالله فى إعزاز دينه قد أنْبَأَتْ بحسْن المآل أوَائِلُه ؛ والألْسُنُ باستنزال

(١) فى حسن التوسل (ص٩٤) "النفير" .

نَصْرِ الله لَهِجَه ، والأرْجاءُ بأرواح القَبُول أَرِجَه ، والقُلُوب بعوائد لُطْفِ الله بهـذه الأمة مبتهجه ، والحُمَاةُ وما منهم إلا من آستظهر بإمكان قُوَّتِه وقُوَّة إمكانه ، والأبطالُ وليس فيهم من يسأل عن عَدَدِ عَدُوِّه بل عن مَكَانِه ؛ والنِّيَّاتُ علىٰ طَلَب عدوّ الله حيث كان مُجْتَمِعه ، والخواطرُ مطمئنةٌ بكونها مع الله بصدقها و «مَنْ كان مَعَ الله كَانَ الله مَعَه» ؛ وما بَقِيَ إلا طَيُّ المراحل ، والنزولُ علىٰ أطراف الثُّغُور نزولَ الغَيْث علىٰ البَلَد المـاحِل ، والإحاطةُ بعَدُوِّ الله من كل جانب ، وإنزالُ نفوسهم علىٰ [حُكْمِ] (١) الأمرين [الآخرين] : من عذابٍ وَاصِب وهَمٍّ نَاصِب ، وإحالةُ وجودهم إلىٰ العَدَم ، وإجالة السُّيوف التى إن أنكرتْها أعناقُهم فما بالعَهْدِ من قِدَم ، وآصْطِلاَمُهُم علىٰ ما بأيدى العِصَابَةِ المؤيَّدَة بنصر الله فى حربها ، وآبتلاؤُهم من حَمَلاَتها بِرِيحِ عَادٍ التى تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بأمْرِ رَبِّهـا ؛ فلْيَكُنْ مُتَرَقِّباً طلوعَ طلائعها عليـه ، مُتَيَقِّناً من كَرَمِ الله آسْتِئْصَالَ عدوّه الذى إن فرّ أدْرَكَتْه من ورائه وإن ثبت أخَذَتْه من بين يديه ؛ ولْيَجْتَهِدْ فى حِفْظ ماقِبَلَه من الأطراف وضَمِّها ، وجَمْعِ سَوَائم الرعايا من الأماكن المَخُوفَة ولَمِّها ؛ وإصلاح مايُحْتَاجُ إلىٰ إصلاحه من مسالك الأرباض المتطرِّفة ورَمِّها ، فإن الاحتياط علىٰ كل حال من آكَدِ المصالح الإسلامية وأهمها ؛ فكأنَّه بالعَـدُوِّ وقد زال طَمَعُه ، وزاد ظَلْعُـه ، وذَمَّ عُقْبىٰ مسيره ، وتَحَقَّق سُوءَ مُنْقَلَبِه ومصيره ، وتبرأ منه الشيـطانُ الذى دَلَّاهُ بغُرُورِه ، وأصـبح لحمُه مُوَزَّعاً بين ذِئَاب الفَلاَ وضِبَاعِها وبين عِقْبَانِ الجَوِّ ونُسُورِه ؛ ثِقَـةً من وعد الله وتَمَسُّكا منه باليقين ، وتحققا أن الله يَنْصُرُ من يَنْصُرُه والعاقبةُ للمتقين .

* * *

وهذه نسخة مَرْسُوم كريم فى المعنىٰ ، بل هو أصرحُ فى ذلك ممَّـا قبله ، كُتِبَ به عنـد ظهور الفَرَنْجِ اللوسارية والشوانِ بالبحر : من إنشاء الشيخ بدر الدين حبيب

(١) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ٩٤) .

الحَلَبِىّ؛ وهو وإن لم يكن عن السـلطان فإنه فى معناه، لقيام النائب بالمملكة قيـامَ السلطان الذى آستنابه، وهو :

المرسوم بالأمر العالى أعلاه الله تعالىٰ، لازالت مراسمُه النافذة تُبَلِّـغُ أهلَ العِصَابة المُحَمَّدية غَايَةَ الآمال، وأوامرُه المُطَاعَةُ تَقْضِى بكسر اللُّوسَارِيَّة وشَيْنِ الشوال؛ أن تتقدّم العساكرُ المنصورةُ بالمملكة الطَّرَابُلُسِيَّة أيد الله تعالىٰ عزائمهم القاهره، وأذَلَّ بسيوفهم الطائِفَةَ الكافره؛ بارتداء ملابس الجهاد، والتَّحَلِّى بمرارة الصَّبْر علىٰ آجتلاء الجِلَاد، وأن يجيبوا داعِىَ الدِّين، ويَكُفُّوا أيدى المُعْتَدِين، ويُفَوِّقُوا سِهَامَهُم، ويجعلوا التَّقْوىٰ أمَامَهم، ويُشْرِعُوا رماحَهُم، ويَحْمِلُوا سلاحَهُم، ويُومِضُوا بروقَ السيوف، ويرسلوا نِبَالَ الحُتُوف، ويَهْدِمُوا بُنْيَانَ الكُفَّار، ويُطْلِعُوا أَهِلَّةَ القِسِىِّ بمَدِّ الأوتار، ويَهْضِمُوا جانبَ أهلِ العِنَاد، ويقابلوا البحْرَ بملْءِ بَحْرٍ من الجِياد، ويناظروا أمْوَاجَه بأمواج النِّصَال، ويقاتلوا الفِرْقَةَ الفِرَنْجِيَّةَ أشدّ القتال، ولايهملوهم بالنهار ولا بالليل، ويُعِدُّوا لهم ما آسْـتَطَاعُوا من قُوَّةٍ ومن رِبَاطِ الخَيْل، ويُنَوِّرُوا بمصابيح الرِّبَاطِ فى سبيل الله ظَـلَامَ الدُّجُنَّة، وأن يُصابِرُوا ويَصْـبِروا، فإذا استُنْفِرُوا فلْيَنْفِرُوا، ويبـالغوا فى الغُـدُوِّ والرَّوَاح ليُبَلِّغُوا الرَّعِيَّـةَ من الأمْنِ أمانيها . فقد قال صلّى الله عليه وسلم : «لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحَةٌ خيرٌ من الدنيا ومَا فِيهَا» . ويعتمدوا علىٰ القريب المجيب، ويجتهدوا فى كَسْرِ أصْلَابِ أهل الصَّلِيب، وينافسُوا فى أمر الآخرة ويَدَعُوا الدنيـا، ويقاتلوا لِتَكُونَ كلمةُ الله هى العُلْيَا، ويشْهَدُوا المَوَاقِفَ، ويبْذُلوا التَّـالِدَ والطَّارِف، ولْيَبْرُز الفارسُ والراجل، ويظهر الرَّامحُ والنَّابِل؛ فإنَّ الجِهَاد، سَـطْوة الله تعـالىٰ علىٰ ذَوى الفَسَاد، ونقْمَتُه القـائمة علىٰ أهْلِ الشِّرْكِ والعِنَاد؛ وهو من الفُرُوض الواجبه، التى لم تَزَلْ سهام أصحابه صَائِبَه؛ فواظِبُوا علىٰ فعْله،

ولاتذهبوا عن مذاهبه وسُبُلِه ؛ وٱطلبوا أعداءَ الله بَرًّا و بَحْرا ، وقَسِّمُوا بينهم الفتكَاتِ قَتْلًا وأَسْرا ؛ وفاجِئُوهم بمكروه الحَرْب ، ونَاجُوهُم برسائل الطَّعْنِ والضَّرْب ؛ وخُذُوا من الكُفَّار باليَمين ، وجِدُّوا فى تحصيل الرِّبْح الثَّمين ؛ ولازِمُوا النزولَ بساحل البحر لمنازلة الطُّغاةِ والمشركين ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ ولْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾ وسابقوا الأَعِنَّه ، وهُزُّوا أَعْطَافَ الأَسِنَّه ؛ وشَمِّرُوا عن سَاقِ العزائم ، ولا تَأْخُذْكُمْ فى الله لَوْمَةُ لائم ؛ وٱتَّخِذُوا الخيامَ مَسَاكِن ، وٱجعلوا ظُهورَ الخَيْـل لكم مَوَاطِن ؛ وٱنْصِـبوا الأَلْوِيَةَ والأعلام ، وأَطْفِئُوا جَمْرَة الشِّرْذِمةِ الغـائِظَة للإسلام ؛ ولا تَخْشَوْا من جمعهـم الآئِلِ إلىٰ التَّفْرِيق ، وحَشْدِهم الذى هو عَمَّا قَلِيلٍ إن شاء الله تعـالىٰ غرِيق ؛ ولاتَعْبَـئُوا بسُـفُنِهم البَحْرِية ، فإن سـفنكم الخيـلُ المخلوقة من الرِّيَاح ؛ ولا تنظروا إلىٰ مَجَادِيفهِم الخَشَبِيَّة ، فإن مجاديفكم السـيوفُ والرماح ؛ فٱقلَعُوا قُلُوعَهم ، وشَتِّتُوا جُمُوعَهم ؛ وأَذْهِبُوا الجَنَف والحَيْف ، وخاطبوهم بألسِـنَةِ السَّيْف ؛ وأَوْقِدُوا فى قُلُوبِهم بالتَّحْصِـين والاحتراز نارا ، وٱدعوا الله أن لايَذَرَ علىٰ الأرض من الكافرين دَيَّارَا ؛ ونَكِّسُوا صليبَهم المنصوب ، وبادروا إلىٰ حرب حِزْبِهم المغلوب ؛ وٱرفعوا باليقين شَكَّ هذه المِحْنَه ، وقاتلوهم حتّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَه ؛ وٱهجروا فى ذات الله طِيبَ المنام ، وٱنقُلُوا الأقدام إلىٰ الاقدام ؛ وٱكشِفُوا عنكم أستارَ المَلَالِ والمَلَام ، وٱهتموا بما يُعْلى كلمةَ الإسلام والسلام ؛ فَلَيَرْفَعَنَّكُم الله إلىٰ منازل العِزِّ والتمييز ، ﴿ ولَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَنْ يَنْصُرُه إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ .

الصّـــنْفُ الرابع

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ فى الحَثِّ علىٰ لزوم الطاعة وذَمِّ الخِلاَف)

قال فى "موادّ البيان" : طاعةُ السـلطان والآنقيادُ إليـه ، والرجوعُ إلىٰ رَأْيه والآعتمادُ عليه ، أبْدىٰ الأسباب ، فى آستمرارِ الآتِّساقِ والآسْتِتْبَابِ ؛ وهى فرضٌ أوجبه الله تعـالىٰ . فقال : ﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ولا تصح مملكةٌ ولاتدوم دَوْلَةٌ إلا بأمرين : أحدهما عدلُ السلطان ، والآخر طاعة الرَّعِيَّةِ له ؛ فمتىٰ آرتفع أحدهما ، فَسَدَ السَّائِس والمَسُوسُ . ولم تزل ملوك الأزمنة يقـدّمون إلىٰ الرعايا لُزُومَ الطاعه ، والآعتصامَ بحَبْلِ الشريعـة والنَّهْىَ عن مفارقة الجماعه .

قال : والرسم فيهـا أن تفتتح بالحمد لله علىٰ النِّعَمِ فى تأليف قلوب أهـل الدِّين ، وجَمْعِ كلمة المُوَحِّدين ، ورِعَايَةِ أهوائهم إلىٰ الآتِّفاق ، وصِيانة عَصَاهم عن الآنشقاق ، والصلاةِ علىٰ رسولِه صلّى الله عليه وسلم ، والتنبيهِ علىٰ فضائل الطاعة ، فإنهـا العُرْوَةُ الوُثْقىٰ ، والمَعْقِلُ الذى لا يُرْقىٰ ، والحِصْن الحصين ، والكَنَف الأمين ، والحِمىٰ الأَمنع ، والمَرْقَب الأرفع ، وأَنَّ مَنْ حافَظ عليها فاز وسَلِمِ ، ورَبِحَ وغَنِم ، ومَنْ فارَقَها خَسِرَ وخَاب ، ونَكَبَ عن سبيل الصَّواب ، وإيضاحِ مافى سبيل الطاعة من آتِّفَاق الكلمه ، وآنتظامِ شَمْلِ الأمه ، وشُمُولِ الخيرات ، وعمومِ البركات ، وعِمَـارةِ البلاد ، وصَلاَحِ العباد ، وما فى المُشَاقَقَة من الفساد العـام ، العائد بآنْتِثَارِ النِّظَام ، وآنْبِتَاتِ الحَبْل ، وتَفَرُّق الشَّمْل ، وآجْتِثَاث الأَصْل ، وطُمُوس الديار ، وصِيَال الأشرار ، وآنْقِمَاع الأخيار ، وتوالى الفِتَنِ التى لاتُصِيبُ الظالمَ خاصّةً دون العادل ، ولا المُشَاقِقَ دون الموافق ، وحلولِ النَّوائب المُزِيلَةِ للنعم ، وإتباعِ ذلك بمـا يجب من إعذار وإنذار ، وترهيب وترغيب ، وتذكير وتبصير ، ووَعْظٍ وتخويف ، وبَعْث العُلَمَـاءِ

الحُصَفَاء، على رَدْعِ الجُهلاء السُّخَفَاء، وتنبيهِ أهلِ السلامة والصلاح، على كَفِّ ذوى العيْثِ والطَّلَاح، إلىٰ نحو هـذا ممـا يجاريه . وأن يبالغ فيما يُورِدُه من هـذه المعانى، فإن هـذه الكتبَ إذا كانت بليغة مُسْتَوْفاة جَيِّـدة العبارة، أخذت بمجامع القلوب، وأغنَتْ عن الكَتَائِبِ فى إدراك المطلوب .

وهذه [مكاتبات] فى معنىٰ ذلك أوردها أبو الحسين بن سعد فى تَرَسُّلِه، وهى :

أما بعد، فإن الله ٱفترض الطاعة وأوجبها، وأمر بها ورَغَّب فيها، وجعلها عِصْمَةً من كل فِتْنَه، وضياء من كل شُبْهَه، وسَلَامة من كل هَلَكَه، وسببا للظَّفر بخير الدنيا والآخره، من أراد الله به خيرا وفَّقه لهـا، وألزمه المحافظةَ عليها والاعتصامَ بحَبْلِها، فتَعَجَّل عزَّها وشرفَها، وسَعَتَها وأمْنَها، وٱستحق السـعادة فى الدار الآخرة بهـا، والمَثُوبَةَ عليها .

آخـــر : وقد علمتم ما جعل الله فى الطاعة ولزومِها، والمحافظةِ عليها : من العز والمَنَعَةِ والأَيْد والقُوَّةِ والفَوْزِ بخير الدنيـا والآخرة [وما] فى خلافها من صُنُوف المَخَاوِف، وأنواع المَتالِف .

آخـــر : وقد كانت الطاعة أنَافَتْ بك علىٰ كُلِّ ظَلِيـل، وأَفْضَتْ بك إلىٰ لِينِ مِهَادٍ عند إقْضَاضِ المضاجع، وصفاء المشارب عنـد تكَدُّر المناهل، وٱتصال أمَنَةٍ عند حدوث المخاوف، حتّىٰ فعلت كذا وكذا .

آخـــر : فلم يَمْرُق من طاعتـه مَارِق، ولا فارقها مُفَارِق، إلا صَرَعَ الله خَدَّه، وأتعَسَ جَدَّه، وخَضَد شَوْكَته، وأكذب ظَنَّه وأُمْنِيَّتَه، وجعله لسيوف الله غَرَضا، ولأوليائه غنيمة .

آخـــر : والطـاعة هى العُرْوَةُ الوُثْقىٰ ، والطريقـة المُثْـلىٰ ، والغنيمة لاهلها فى الأُخْرىٰ والأولىٰ .

«عبد الحميد» : ـ فان الفِتْنة تتشوّف لأهلها بآنَقِ مَنْظَرٍ ، وأَزْيَنِ مَلْبَسٍ ، تَجُرُّ لهم أذيالَها ، وتَعِدُهم تتابع لَذّاتها ، حتّى تَرْمِيَ بهم فى حَوْماتِ أمواجها ، مُسَلِّمَةً لهم : تَعِدُهم الكَذِبَ وتُمَنِّيهم الخُـدَع ، فاذا لَزِمَهم عِضَاضُها ، ونَفَر بهم شِمَـاسُها ، تَخَلَّتْ عنهم خاذلةً لهم ، وتبرأت منهم مُعْرِضَة ، قد سُلِبوا أجمل لِبَاسِ دِينِهم ، وٱستُنْزِلوا عن أحْصَنِ معاقل دُنْياهم : من الغَنَاءِ البَهِيِّ مَنْظَرُه ، الجميـل أَثَرُه ، حتّى تَطْرَحَهم فى فضائح أعمالهم ، والإيجاف فى التَّعَب ، وسوء المُنْقَلَب ، فمن آثر دينَه علىٰ دنياه تمسك بطاعة وُلَاته ، وتَحَرَّز بالدخول فى الجماعة ، تارِكًا لأثقل الأمرين ، وأَوْبَلِ الحالَين .

«اِبن عبد كان» فى ذَمِّ الخِلاف : ـ وإن فلانا كان عبدا من عبيدنا ، ٱعْتَوَرَه إنعامنا ، ونوه به إكرامنا ، وشرَّفه وَلَاؤنا ، وحسن عنده بَلَاؤنا ، وٱبتنينا له الأموال ، وأسنينا له الأعمال ، وأَوْطَأْنا عَقِبَه الرجال ، فلم تقع النِّعَمُ منه عند شاكر ، ولا الصنيعة عنـد مُحْتَمِل ، فلما رفع الله بمكاننا خَسِيسَتَه ، وبلَّغه من شَرَفِ الذِّكر ونباهة القَدْر وٱنبساط يَده ما كانت هِمَّتُه تَعْجِزُ عنه ، وآماله تَقْصُر دونه ، أَضْراه ذلك وأَبْطَرَه ، وأطْغَاه وأكْفَره ، فٱخْتَال زَاهِيًا ، وٱستكبر عَالِيـا ، وغَدَر باغيا ، وشَاقَّ عَاصِيًا ، وأوضع فى الفِتْنَةِ لنا حَرْبا ، ولأعدائنا حِزْبا ، ولمن ٱنْحَرَفَ عنا يدًا ، ولمن مال إلينا ضـدًّا ، من غير سَبَبٍ أوجبه ، ولا أمر دعاه إليه ، فكان كما قال الله عَزَّ وجلَّ فى كتابه : ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ أَنْ رَآهُ ٱسْتَغْنَىٰ﴾ وكقوله : ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِى الْأَرْضِ﴾ فلما ورده الخبر بمـا هيَّأ الله لنا من الرجوع إلىٰ الفُسْطاط علىٰ الحال السارّة لأوليائنا ، الغائظة لأعدائنا ، سُقِطَ فى يده ، وفكَّر فى غليظ جُرْمِه

وخيانته ؛ فأدّاه الخوفُ الذى ٱستشعره ، والإشفاقُ الذى خَامَرَه ؛ إلىٰ أن رَكِبَ عظيما من الأمور، وكاشف بالعَصَبِيَّة والغُرور، مُكاتفًا أعداء (١) ، وموالِيا ذوى العداوة والشَّنَارَه؛ ونرجو بحَوْل الله وقُوَّته، وإِرَادَتِه ومشيئته، وما لم يَزَلِ اللهُ ـ تقدّس ٱسمه ـ يُجْرِيه عندنا من جميل عاداته فِيمَنْ سَفِهَ الحق، وزَاغَ عن القَصْد؛ أن يُبْسِلَ هذا الخائنَ بخَبَائِثِ أعماله، ويُسْلِمَه لقبائح أفعاله، وأن يَصْرَعه بأسوإ مصارع أمثاله؛ فإنَّ أحدًا لم يَحْمَد النعمه، إلا ٱستدعىٰ النِّقْمَه، ولم يُدِمِ الشكر، ويستعمل الكفر، إلا كانت العَثْرَة منه قريبه، والبلايا محيطه؛ قولا لا يُبَدَّل رسمه ولا يُحَوَّل .

من كتاب موسىٰ بن عيسىٰ .

أما بعـد، فإن ٱمرأ لو خَلَص من فَلَتَاتِ الخطَإِ وخُطُوَاتِ المَلاِ (٢) ، بفضيلة رَأْيٍ ولطافة بَصَر بالأمور ، كُنْتَ أحجىٰ بذٰلك دون أهل زمانك ، للذى جَرَتْ لك عليه تصاريف التبـع ، وتعرَّضَتْ لك به وجوهُ العِبَر ؛ ولِمَا ٱستقبلتَ من موارد أمور نفسك ، وتَعَقَّبْتَ من مصادر أمور غيرك ؛ ولٰكنَّ الله إذا أراد أمرا جعل له من قضائه سببا ، ومن مقاديره عِلَلا ؛ فمن مقادير عِلَلِ البلاء تضييع المعرفه ، وإلغاء ما تُفِيـدُه التَّجْرِبَه ؛ ومن أسباب السَّلامة الٱنْتِبَاهُ بالعِبَر ، والٱسـتدلال بمـا كان علىٰ ما يكون . وأنت ٱمرؤ جَرَتْ لك وعليك أنحاء من النعم ، وأنحـاء من الحِجَج ، عرفْتَ بها ما لك وعليك : فان تأخُذْ بها ، عرفتَ كيف تَسْلُكُ مسالكه ، وإن تَدَعِ الأخذ بذلك ، تَدَعْه علىٰ عِلْم . وقد رأيتَ الذى ٱنقادتْ لك به النِّعْمَة ، ووهبت لك به العافية ؛ فيما ألهمك الله من طاعة وُلَاة أمورك ، والصبرِ لها علىٰ مواطن الحقِّ التى رَفَع الله بهـا ذِكْرَك ، وأحسن عليهـا عُقْباك وذُخْرَك ؛ فلم تَمْضِ بك فى طاعتهـم رُتْبَه ، إلا قرَّبَكَ الله بها فى الخير عَقَبَه ، ولا تَبْذل من نفسك نُصْحًا ، إلا أوجب

(١) بياض فى الأصل ولعله الامارة .
(٢) الملأ هنا معناه الظن والطمع .

لك به نُجحا ؛ ولم تَفْتأْ تُواتِرُ ذلك : من مناصحتك وحُسْنِ طاعتك ، حَتّى طُلْتَ بها علىٰ من طاولك ، وفَضَلت بها من فاضلك ؛ وجريت ممدودا عِنانُك إلىٰ قُصْوىٰ غايات أملك ، فأصبحْتَ قَرِيعَ المسلمين ، بعد خليفة الله أمير المؤمنين ، وخِيرَتَه من خَلْقِه ، بعد ذَوِى الفَضْلِ من أهل بيتـه ؛ حتّى مَالَكَ من رِجَالاتِ العرب نظير فى مَنْزِلَةٍ ، ولا نَدِيدٌ فى حال ولا رُتْبة ؛ بل هم فيك رجلان : إما رَاهِبٌ منك ، وإما راغب فيك .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مستمرّ الكتابة إلىٰ زماننا . فما زالت الملوك يكتبون إلىٰ من يَتَخَيَّلُونَ منه خَلْعَ الطاعة من النوّاب ومن فى معناهم ، ويَحُثُّونَهم علىٰ لزوم الطاعة ، ويُحَذِّرُونهم المخالفةَ والخروجَ عن الجماعة .

ومن ذلك ما كتب به الشيخ شهـاب الدين محمود الحَلَبى إلىٰ متملك سِيسَ عند كَسْرَةِ التتار ، بعد قيامه معهم فى المَصَافِّ ، ومساعَدَتِه إياهم ، وهو :

بَصَّرَه الله بِرُشْـدِه ، وأراه مواقع غَيِّه فى الإصرار علىٰ مخـالفته ونَقْض عهده ، وأَسْلاَهُ بسلامة نفسه عمن رَوَّعَتْه السيوفُ الإسلامية بفَقْدِه .

صـدرت تُعَرِّفُه أنه قد تُحُقِّقَ ما كان من أمر العَدُوّ الذى دَلَّاه بغُرُورِه ، وحَمَلَه التمسك بِخِدَاعِه علىٰ مجانبة الصواب فى أموره ؛ وأنهم آستنجدوا بكل طائفه ، وأقدموا علىٰ البلاد الإسلامية بنفوسٍ طامعة وقلوب خائفه ؛ وذلك بعد أن أقاموا مدّة يَشْتَرُون المخادعة بالموادعة ، ويُسِرُّون المُصَارَمة فى المسالمه ؛ ويُظْهِرون فى الظاهر امورا ، [ويُدَبِّرون فى الباطن أمورا] (١) ويَعِدُونَ كُلَّ طائفة من أعداء الدين ويُمَنُّونَهم وما يَعِدُهُم الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ؛ وكُنَّا بمكرهم عالمين ، وعلىٰ معاجلتهم عاملين ؛ وحين

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩٧) .

تَبيَّن مرادُهم، وتكمَّل آحتشادُهم؛ آستدرجناهم إلى مصارعهم، وآستجررناهم ليقربوا في القتل من مضاجعهم، ويبعدوا في الهرب عن مواضعهم؛ وصدمناهم بقوّة الله صدمة لم يكن لهم بها قبل، وحملنا عليهم حملةً ألجأهم طوفانها إلى ذلك الجبل: وهل يعصم من أمر الله جبل؟ فحصرناهم في ذلك الفضاء المتّسع، وضايقناهم كما قد رُؤي ومزّقناهم كما قد سمع؛ وأنزلناهم على حكم السيف الذي نهل من دمائهم حتّى روى وأكل من لحومهم حتّى شبع؛ وتبعتهم جيوشنا المنصورة تتخطّفهم رماحها، وتتلقّفهم صفاحها، ويبدّدهم في الفلوات رعبها، ويفرّقهم في القفار طعنها المتدارك وضربها؛ ويقتل من فات السيوف منهم العطش والجوع، ويخيّل للحيّ منهم أنّ موضعه كالدنيا التي ليس للميّت إليها رجوع؛ ولعله قد رأى من ذلك فوق ماوصف عيانا، وتحقّق من كلّ ما جرى مالا يحتاج أن نزيده به علمًا ولا نقيم عليه برهانا.

وقد علم أن أمر هذا العدوّ المخذول ما زال معنا على هذه الوتيره، وأنهم ما أقدموا إلا ونصرنا الله عليهم في مواطن كثيره؛ وماساقتهم الأطماع في وقت مّا إلا إلى حتوفهم، ولا عادمنهــم قطّ في وقعة إلا آحادٌ تخبر عن مصارع ألوفهم؛ ولقد أضاع الحزم من حيث لم يستدم نعمة الله عليه [بطاعتنا] (1) التي كان في مهاد أمنها، ومهاد يمنها؛ وحماية عفوها، وبرد رأفتها التي كدّرها بالمخالفة بعد صفوها؛ يصون رعاياه بالطاعة عن القتل والإسار، ويحمي أهل ملّته [بالحذر عن الحركات] (1) التي ما نهضوا إليها إلا وجرّوا ذيول الخسار؛ ولقد عرّض نفسه وأصحابه لسيوفنا التي كان من سطواتها في أمان، ووثق بما ضمن له التتار من نصره وقد رأى ماآل إليه[أمر] ذلك الضمان؛ وجرّ لنفسه بموالاة التتار عناءً كان عنه في غنى، وأوقع روحه بمظافرة المغل في حومة السيوف التي تخطّفت

(1) بياض بالأصل والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ٩٨).

أولياءه من هنا ومن هنا، واقتحم بنفسه مَوارِدَ هَلاكٍ سلبَتْ رداءَ الأمْنِ عن مَنْكِبَيْه، واغْتَرَّ هو وقومه بما زَيَّنَ لهم الشيطانُ من غروره ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ وما هو والوقوفَ فى هذه المَواطِنِ التى تَتَزَلْزَلُ فيها أقدام الملوك الأكاسره؟ وأنّى لضِعَافِ النُّقَّادِ قُدْرَةٌ علىٰ الثبات لِوَثَبَاتِ الأسود الضَّارِيَة واللُّيُوث الكاسره؟ لقد اعترض بين السَّهْم والهَدَفِ بنَحْرِه، وتعرَّض للوقوف بين نَاب الأسدِ وظُفْره؛ وهو يعلم أننا مع ذلك نرعىٰ له حقوق طاعة أسْلاَفِه التى ماتوا عليها، ونحفظ له خدمة آبائه التى بذلوا نفوسهم ونفائسهم فى التَّوَصُّل إليها؛ ونُجْرِيه وأهْلَ بلاده مُجْرىٰ أهل ذمتنا الذين لانُؤَيِّسُهم من عَفْوِنا ما استقاموا، ونَسْلُكُ فيهم حُكْمَ مَنْ فى أطراف البلاد من رعايانا الذين هم فى قبضتنا: نَزَحُوا أو أقاموا؛ ونحن نتحقق أنه ما بقى ينسىٰ ملازمةَ رِبْقَةِ الحَتْفِ خُنَاقَه، ولا يرجع يُورِد نفسَه فى موارد الهلاك وهل يَرْجِعُ إلىٰ الموت مَنْ ذَاقَه؟ فَيَسْتدرك باب الإنابة قبل أن يُغْلَقَ دونه، ويصون نفسه وأهله قبل أن تَبْتَذِلَ السيوفُ الإسلاميةُ مَصُونَه؛ ويبادر إلىٰ الطاعة قبل أن يَبْذُلَها فلا تُقْبَل، ويتمسَّك بأذيال العَفْوِ قبل أن تُرْفَعَ دونَه فلا تُسْبَل؛ ويُعَجِّل بحَمْلِ أموال القطيعة وإلا كان أهله وأولاده فى جملة مايحمل منها إلينا، ويُسَلِّم مَفَاتِحَ ما عَدَا عليه من فتوحنا وإلا فهو يعلم أنها وجَمِيعَ ما تَأَخَّر من بلاده بين يدينا؛ ويكون هو السببَ فى تَمَزُّقِ شَمْلِه، وتفرُّقِ أهله، وقَلْعِ بَيْتِهِ من أصله؛ وهَدْمِ كنائسه، وابتذال نفسه ونفائسه، واسترقاق حُرَمِه، واستخدام أولاده قبل خَدَمِه؛ واستقلاع قِلاَعِه، وإحراق رُبُوعِه ورِبَاعِه، وتعجيلِ رؤية ما وُعِدَ به قبل سماعه. ومَنْ لغازان أن يُجَابَ إلىٰ مثل ذلك، أو يُسْمَحَ له مع الأمْنِ من سيوفنا ببعض مافى يده من الممالك، لينتفع بما أبْقَتْ جيوشنا المؤيدة فى يده من الخَيْلِ والخَوَل، ويعيش

فى الأَمْنِ ببعض ما نسمح له به ومَنْ للعُورِ بالحَوَل ؛ والسيوف الآن مُصْغية إلىٰ جوابه لتَكُفَّ إن أبصر سبيل الرشاد، أو تتعوّض برءوس حُماته وكُماته عن الإغماد إن أصَرَّ علىٰ العِناد، والخير يكون إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الخامس

(من الكتب السلطانية الكُتُبُ إلىٰ مَنْ نَكَثَ العهدَ من المخالفين)

قال فى "موادّ البيان" : إذا نقض مُعَاهَدٌ عهده ، أو نَفَضَ من شروط الهُدْنَة يَدَه ؛ فالرسم أن يصدّر ما يكاتَبُ به بالحمد لله تعالىٰ علىٰ موْهِبته فى إظهار الدين، وإعزاز المسلمين ، وما تكفَّلَه من النصر علىٰ الباغين ، ووعد به أهلَ العدل من الإدالة والتَّمْكين، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد النبى صلّى الله عليه وعلىٰ آله أجمعين؛ وإيرادِ طَرَف من معجزاته وفضائله ، وآياته ومناقبه ؛ التى تنخرط فى هذا النظام ، وتليق بهذا النَّمَط من الكلام؛ ثم يُتْبِع ذلك بمقدّمة تدلُّ علىٰ متانة البصائر فى الدين ، وَوَثاقَةِ العقائد فى إذالة المُحَادِّين ؛ ومَضَاءِ العزائم فى مجاهدة المُعْتَدِين ، والاستطالةِ علىٰ المعاندين ؛ مع ما تَضَمَّنه الله تعالىٰ من نَصْره وإظْفاره ، ووَعَدَ به من تأييده وإقراره ؛ وسَهَّلَه من إهواء الأَهْوِيَة إليه ، وجَمْع الكلمة عليه ؛ بما خوّله من بَأْسٍ وشِدَّة ، وعديد وعُدّة . وما يليق بذلك مما يُعْرِب به عن عُلُو السلطان ، ووُفُور الإخوان ؛ واتِّساع القُوَّة والأَيْد ، وصدقِ العَزْم والجِدّ . ثم يذكر الحال التى انعقدت الهُدْنَةُ عليها ، وأن الإجابة إليها لم تقع قصورا عن غَزْوِهم فى عُقْر دارهم ، وتَشْرِيدِهم بالغارات المبثوثة بَرًّا وبحرا عن قرارهم ؛ وإنما قبولًا لمساءَلتهم ، وامتثالًا لأمر الله تعالىٰ فى مُسَالمتهم . ويأخذ فى تعديد الوقائع التى أوقعها أهل الإسلام بهم، والمشاهد التى نصر الله تعالىٰ فيها عليهم، والمَعَاقل المُنْتَزَعَة من أيديهم؛

وأن تِلْكَ العزائم مُضْطَرِمة متوقده ، وتلك السيوف مُشْحَذَةٌ مُهَنَّدَه ؛ وأن الله تعالىٰ قد أباح حَرَمَ مَنْ نقض عهدَه ، ونَفَض من الذِّمام يَدَه ؛ وأن كتائب الله مُوجِفَةٌ وراء هذا الكتاب ، في جيش يُلحق الخَبْتَ بالهِضاب ؛ مالم يكن منهم مبادرة إلىٰ الإقلاع والإنابه ، ومكاتبةٌ في الصَّفح والآستتابه ؛ وأنه قد قَدَّم الأعذار ، وبدأ قبل الإقدام بالإنذار ؛ وما يقتضيه الحال من هذا ومثله .

قال : فإن كان الكتاب جوابا عن كتاب وَرَدَ ، أجيب بما ينقضه ، وبُنِيَ الأمرُ فيـه علىٰ مايبسط الهَيْبَة ، ويدعو إلىٰ النزول علىٰ أحكام الطاعة . ويختلف الحـال في ذلك بآختلاف الأمور الحادثة ، والأسباب العارضة ؛ فينبغي للكاتب أن يَحْتاطَ فيما يطلق به قَلَمَه من هذه المعاني الخطيرة : لأنهـا مزاحمة بالدُّوَل والملك ، وحُجَجٌ تحصُلُ من كل دولة عند الآخرين ؛ ودَرَكُ ما يقع فيها عائدٌ عليه ، ومنسوب إليه .

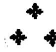

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به عن الحافظ لدين الله الخليفة الفَاطِمىّ بالديار المصرية ، إلىٰ بَهْرَام النَّصرانِىّ الأَرْمَنِىّ الذى كان آستوزره ، ثم خرج عليه رِضْوان بن ولخشى ، آرتغاما للدين ، لتحكُّم نَصْرانِىّ في أهل الملة ، ووَلِىَ الوزارةَ مكانه ؛ فَفَرَّ هاربًا إلىٰ الشام ناقضا للعهد ، وكتب إلىٰ الحافظ يطلبُ أهلَه وجماعتَه من الأَرْمَنِ الذين كانوا معه في جملة جُنْدِ الديار المصرية ، مظهرًا للطاعة والرغبة إلىٰ التَّخَلِّي عن الدنيا ، والآنقطاع في بعض الدِّيَرَةِ للتَّعبُّد مَكْرًا وخديعة ؛ فكَتب له بذلك جوابا عن كتابه الوارد منه . ونَصُّ ما كتب إليه :

عُرِضَ بحَضْرة أمير المؤمنين الكتابُ الواردُ منك أيهـا الأمير ، المقدَّم ، المؤيد ، المنصور ؛ عِزُّ الخلافة وشَمْسُها ، تاجُ المملكة ونِظامُها ؛ فَخْرُ الأمراء ، شيخ الدَّوْلة

وعمادها، ذُو المَجْدَيْنِ، مصطفىٰ أمير المؤمنين . ووقف علىٰ جميعه، وٱستولىٰ بحكمه علىٰ مضمونه .

فأما ماوَسَّعْتَ القولَ فيه وبسطتَه ، وتَفَسَّحْتَ فيما أوردتَه منه وذكَرْتَه ؛ ممَّا فحواه ومحصوله ما أنت عليه من الطاعه ، والولاء والمشايعه ؛ والاْعْتِرافِ بنِعَم الدولة عليك ، والإقرار بإحسانها إليك ؛ فلَعَمْرُ أمير المؤمنين إن هذا الذى يليق بك ويَحْسُن منك ، ويَحْسُن أن يَرِدَ عنك ، ويجب أن يعرف لك ؛ وقد كانت الدولة أسْلَفَتْكَ من حُسْن الظَّنِّ قديما ، ونقلتك فى درجة التَّنْوِيهِ حديثا ؛ حتّٰى رفعتْك إلىٰ أعلىٰ المراتب ، وبلَّغتْك مالم تَسْمُ إليه هِمَّةُ طالب ؛ وأوْطَأَتِ الرِّجالَ عَقِبَك ، وجعلت جميع أهل الدولة تَبَعَك ؛ ممَّا أغنىٰ ٱعترافُك به عن الإطالة بشرحه ، والإطناب فى ذِكْرِه .

وأما ماذكرتَه مما كان أمير المؤمنين أعطاك التَّوْثِقَةَ عليه ، فأجابك منه إلىٰ مارغبت فيه ، فاستَقَرَّ بينه وبينك فى معناه ماٱطمأننت إليه ؛ فلم يزل أمير المؤمنين علىٰ الوفاء باطنا وظاهرا ، ونية وعَلَانِيَة ؛ وٱعتقادُه أن لا يَرْجِعَ عنه ، ولا يُغَيِّر ما أحكمه منه ؛ وإنما حال بينه وبين هذا المراد أن كافَّة المسلمين فى البُعْد والقرب غَضِبُوا لمِلَّتهم ، وٱمتَعَضُوا مما لم تَجْرِ به عادةٌ فى شريعتهم ؛ ونَفَرَتْ نفوسهم مما يعتقدون أن الصَّبْر عليه قَادِحٌ فى دينهم ، ومضاعِف لآلامهم ؛ وأنه ذَنْبٌ لا يُغْفَر ، ووِزْر لا يُتَجاوَزُ ولا يُصْفح [عنه] حتّٰى إن أهلَ المَشْرِق أخذوا فى ذلك وأعْطَوْا ، وعزموا علىٰ ما ٱتفقوا عليه ممَّا صرفه الله وكفىٰ مئونَتَه والاْشتِغَالَ به .

وأما ما ٱلتمستَه من تَسْيِيرِ مَنْ بالباب من طائفتك إليك ، فهذا أمرٌ لا يسوغُ ولا يمكن فعله ، ولو جاز أن يُؤْمَرَ به لمنعَ المسلمون منه فلم يَفْسَحُوا فيه . والآن فلن

يَخْلُو حالُك من أحد قسمين : إما أن تكون مُتَعَلِّقا بأمور الدنيا وغيرَ منفصل عنها، فأمير المؤمنين يُخَيِّرك فى ولاية أحد ثلاثة مواضع : إما قُوص، أو إخْمِيم، أو أَسْيُوط؛ فأيّها آخترت ولّاكَ إيّاه، وردّ أمره والنظرَ فيه إليك؛ علىٰ أن تقتصر من الذين معك علىٰ خمسين أو ستين فارسا، وتُسَيِّر الباقينَ إلىٰ الباب ليُجْرَوْا علىٰ عاداتهم، ورسومهم فى واجباتهم وإقطاعاتهم؛ إذْ كانوا عبيدَ الدولة ومتقلبين فى فَضْلها، وأكثرهم متولِّدون فى ظِلّها . وإما أن تكون علىٰ القضية التى ما زِلْتَ تَذْكر رغبتَك فيها وإيثارَك لها : من التَّخَلِّى عن الدنيا ولزومِ أحد الدِّيَرَة، والآنقطاعِ إلىٰ العبادة؛ فإن كنتَ مقيما علىٰ ذلك فتخَيَّرْ ضَيْعَةً من أىّ الضِّياع شِئْتَ يكون فيها دَيْرٌ تقِيم فيه وتنقطع إليه؛ فتُعَيِّن الضيعة ليجعلَها أمير المؤمنين تسويغا لك مُؤَبَّدا، وإقطاعا دائما مُخَلَّدا، وتَجْرى مجرىٰ المِلْك، ويُكْتب لك بذلك ماجرت العادة بمثله، مما تطمئن إليه وتستحكم ثِقَتُك به . وإن أَبَيْتَ القِسْمَيْنِ المذكورَيْنِ ولم يُرْضِكَ الأوّلُ منهما، ولا رَغِبْتَ فى الثانى، فتَحَقَّقْ أن المسلمين بأجمعهم، وكافَّتهم وأُسْرهم؛ وكُلٍّ من يقول بالشهادتين : من قاصٍ وَدانٍ، وقريبٍ وبعيدٍ، وكَبيرٍ وصغيرٍ، يَنْفِرُونَ إليك، ويتَّفِقون علىٰ القصد لك، ولايختلفون فى التوجُّهِ نَحْوَك؛ وهو عمل دِينِىٌّ، لايُرِيبُه أمرٌ دُنْيَوِىٌّ؛ فتأمَّل ماتضمنته هذه الإجابة من الأقسام، وطالِعْ بما عندك فى ذلك .

قلتُ : وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانية لا وجود له فى زماننا لعدم وقوع الهُدَنِ المترتب عليها هذا الصِّنف من المكاتبات؛ فإن آحتيج إلىٰ ذلك مَشّاه الكاتبُ علىٰ القاعدة القديمة المتقدّمة .

الصــــنف السادس

(من الكتب السلطانية ، الكتب إلىٰ مَنْ خَلَع الطاعة)

قال فى "موادّالبيان" : وهذه الكتب تختلف رسومُها بحَسَبِ آختلاف أقدار المُكَاتَبين وأحوالِهم فى الخروج عن الطاعة . قال : وجَمْعُ أوضاعِها كلِّها فى قانون كلِّىّ عسيرُ المرام ، إلا أننا نَرْسُمُ فيها رسومًا يمكن الزيادة فيها والنقص منها . ثم قال : والعادة أن تنفذ هذه الكتبُ إلىٰ من تُرْجىٰ إنابتُه ، وتُؤَمَّل مراجعته . فأمَّا مَنْ وقع الإياسُ من آستصلاحه ، ودَعَت الضرورةُ إلىٰ كِفَاحه ، فلا حاجَةَ إلىٰ معاتبتـه ، ولا وجه لمكاتبته .

قال : والرسم فيها أن تفْتَتَح بالتحميد المناسب لمعنىٰ الكتاب ، والصلاةِ علىٰ النبيّ صلّى الله عليـه وسلم ، بمـا يَدْعُو إلىٰ إيناسه ، ويزِيلُ أسبابَ اسْتِيحَاشِه ، ويعودُ بثَبَاتِ جَاشِـه ؛ ويبْعثُه علىٰ مراجعـة فِكْرِه ، ومعاودة النَّظَر فى أمره ؛ ويُذَكِّرُه ما أُسْدِىَ من العوارف إليه ، وأُفِيضَ من النِّعم عليـه ؛ وأنه لايُنَفِّرُ سِرْبَها بجَحْدِها وكُفْرِها ، ويُوحِشُ رَبْعَهَا بإهْمال حَمْدِها وشُكْرِها ؛ ويَرْبِطُها بحسن الطاعه ، ويستَرْهِنُها بالتأدّب فى التِّبَاعه ؛ ولا يَجُرّ الوبالَ إلىٰ نفسه بالخروج عن العِصْمه ، فى عَاجِل ذميم الوَصْمة وفى آجل أَليم النِّقْمَه . ويُبَصِّرُه بعاقبته ومن يَلِيـه من ذَوِى الجُنْد بما يقتضى رَبَّ الإنعامِ لديهم ، وإقرار الفَضْـل عليهم ؛ وأن يَسْلُبَهم مَلْبَس الظِّل الظليل ، وأن يُعَطِّلَهم من حَلْىِ الرَّأْىِ الجميل ، ويَتَدَرّعَ فى أثناء ذلك بشِعَارِ النِّفَاق ، ويَتَّسِمَ بمِيسَم الشِّقَاق ؛ ويتَعَجَّل إزعاجَه من داره ، وبُعْدَه من قَرَارِه ؛ وهَدْمَ ماشَيَّدَه الإخلاصُ من ذِكْرِه ، وتَقْوِيضَ ما رَفَعَتْهُ الطاعة من قَدْره ؛ ويعود بعد أن كان مُجاهدا عن الحوزة مُجَاهَدا بمجتدِّها ، وبعد أن كان مُرامِيًا عن السُّدَّةِ مَرْمِيًّا بيَدِّها ؛ ويضيع

ماأسْدِىَ إليه، وأُفِيضَ من الإحسان عليه، وماذَهَبَ من اليقين فى تدريجه إلىٰ مَرَاقى السياده، ومن الرغائب فى إلحاقه بأهل السعاده، ولا يغترّ بمن يُزَيِّنُ له عاجلَ الآجل، ويَتَقَرَّبُ إليه بخِدَعِ الباطل، ويجعلُ أقوالَهم دَبْرَ سَمْعِه، ويُبْعد أشخاصَهم عن نَظَره، ناظِرًا فى عاقبته، وحارسًا مُهْجَته، وراغبا فى حَقْنِ دمه، وصِيَانةِ حُرَمِه، ولْيَرْجِعْ إلىٰ الفِناء الذى لم يَزَلْ يُحْرِزُه، والكَنَف الذى لم يَزَلْ يُعِزُّه، ولا يجعل مُسالَمَه بالعُنُود منازعا، ومُوَاصِلَه بالجُحُود مقاطعا، وواهِبَه بالكُفْر سَالِبا، ومَطْلَعَ النعمة بضَيَاعِه حَقَّها مَغْرِبًا، وقد بَقِىَ فى الحَبْل مُمْسك، وفى الأمر مستدرك، لأن يَهُبَّ من رَقْدَته، ويستبدل من لقاء أمير المؤمنين بلقَاءِ حَضْرَته . ثم يقول : فإن كان ماجَنَاه قد هَدَّ سِرْبَه، وكَدَّر شِرْبَه، وأحس فى نفسه سُوءَ الظن، وأخافَه بعد الأَمْن، فلْيَبْعَثْ رسولَه يَسْتَوْثِق ويُعَاقِدْ، ويَتَوَكَّدْ ويُعَاهِد، فإذا عاد إليه بما يَملأُ فؤادَه أَمْنًا، ويكون عليه حِصْنا، سارع إلىٰ امتثال المَرَاسِم، وجرىٰ فى الطاعة علىٰ سَنَنِه المُتَقَادِم، ولا يستمرّ علىٰ المُدَافَعة والمطاوله، ويقتصر علىٰ المُغَايَظَة والمماطله .

ثم يقال بعد هذا : وقد قَدَّمَ أميرُ المؤمنين كتابَه هذا إليك نَائِبًا عنه فى استصْلَاحك، وقائدًا يَقُودُك إلىٰ طريق نَجَاحك، قبل تجريد مَوَاضيه، وإلحاق مُسْتَأْنَفه فى الحرب بماضيه، وخُيُولُه تُجاذِبُ الأعِنَّه، وذَوابِلُه مُشْرَعَةُ الأَسِنَّه، ولم يَبْقَ إلا قَصْدُك فى عُقْر دارك التى بَوَّأَكَها، وانتزاعُ نعمته التى أَعْطَاكَها، لتذوقَ مَرَارَةَ المخالفه، وتَزِنَها بحلاوة الموافقه، فكُنْ علىٰ نفسك لنفسك حَاكِما، ولا تَكُنْ لها ظالما، ونحو ذلك مما يليق به .

وإن كانت المكاتبةُ إلىٰ رجلٍ قد سَبَقَتْ له سابقةٌ بخَلْع الطاعة، ثم سأل الإقالَةَ فأُقِيلَ بعد مُشَارَفَة الإحاطة به والنِّكَاية فيه، ثم راجع العصيان، فالرسم أن تُفْتَتَح

بحمد الله جاعلِ العاقبةِ للمتقين ، والعُدْوانِ على الظالمين، والعِزّةِ لِحزْبه، والذِّلّةِ لِحرْبه، والإظهارِ لأهلِ طاعته ، والخَسَارِ لأهل معصيته ، ودائرةِ السَّوءِ على الخالعين طاعةَ خُلَفائه، القائمين بحُجّته . ثم يقال : أمير المؤمنين على ماتراك تخوَّلُه به مِنْ تصديق آماله ، وتوفيق أفعاله ، وتسديد مَرَاميه ، وهِداية مساعيه ، وإجابة دعوته ، وتحقيق رَغْبته ، بإدالة مُواليه ، وإذالة مُعاديه ، ومَعُونته على ماولّاه ، وتمكينه ممن ناواه ، ويسأله الصلاةَ على سيدنا محمد نبيه صلّى الله عليه وعلى آله وسلم .

ثم يؤتى بمقدّمة تدل على جميل عاقبة الطاعه ، وذَمِيم مَغَبّةِ المعصيه ، يبسط القول عليها ، ويتوسع فيها ، لتكون فِرَاشا لما يتلوها . ثم يقال بعدها : وإنما يَحْمِلُ ذلك أهلَ الغَرَارَةِ الذين لم يَلُوكوا شكائم التَّجارِب ، ولم يُمَارِسُوا ضرائم النوائب ، وأنت فقد تذوَّقتَ من كراهة المعصية ومرارتها ، وعُذُوبة الطاعة وحلاوتها ، ما يرجو أميرُ المؤمنين أن يكونَ قد وَعَظَك وأدّبك ، وقوّمك وهذّبك ، وكشف لك عن عاقبتهما ، وعرَّفك بغايتهما ، فدعتْك الطاعةُ إليها بما أسبغتْه عليك من لِباس شَرَفها ومَجْدِها ، واستخدمتْه لك من أنصار إقبالها وسَعْدِها ، ونَهَتْك المعصيةُ عنها بما أبلَوْتَه من نوائبها وصنائعها ، وجرَّبتَه من مرمض مراميها ومواقعها ، لأنها أقلّت عَدَدَك ، ومزّقتْ مُطْرفك ومُتْلَدك ، حتّى تداركك من عَطْف أمير المؤمنين ما أنبتك بعد الحَصْد ، وراشَك بعد الحَصّ ، وانتهى إلى أمير المؤمنين أنك حَنَيْتَ إلى أتباع الضلالة الذين غرُّوك ، ومِلْتَ إلى أشياع الفِتْنة الذين استهوَوك ، فأصغيتَ إلى أقوالهم التي ظاهرها نُصْحٌ وباطنها غِشّ ، وآرائهم التي مواردها صلاحٌ ومصادرها فساد ، ومِلْتَ إلى معاودة الشِّقاق والارتكاس في العِصْيان ، ومُقابلة النُّعمى بالكُفْران ، فقدّم كتابه إليك مُذكِّرا ، ومنحك خطابه مُعْذِرًا مُنْذرا ، لِيُعرِّفك حظَّك ، ويَهْديك رُشْدَك ، [ويدُلَّك] على الأحسن لك في مَبْدئك وعاقبتك ، ويُحذِّرك من مراجعة

ماقارفته ؛ وأن تنزِلَ عن المنزلة التى رَقَّاكَ إليها ، وتُجْدبَ رِباعَك من النعمة التى أرتَعَك فيها ، وتتخلَّى عن مرابع الدَّعَةِ التى أوْرَدكَ عليها ؛ فانظر لنفسك حَسَنا ، وكُنْ إليها مُحْسِنا ؛ وآنتفعْ بمراشد أمير المؤمنين ، ولا تُفْسِدَنَّ بخِلافك عن أمره نَصيبَك من الدُّنيا والدِّين ؛ فارجعْ إليه مسترغِماً فإنه يَقْتَدى بالله فى الرحمة للمحسنين ، مادام مُؤْثِرًا لَرَبِّ النعمة لديك ، وإقْرارِها عليك . فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

قال : وإن كانت المكاتبة إلىٰ رَعِيَّةٍ قد خرجت عن الطاعة كَتَبَ إليها بما مثاله :

أما بعد ، وَفَّقَكُم الله لطَاعَتِه ، وعَصَمكم من معصيته ؛ فإنَّ الشيطانَ يُدْلِى الإنسان بغُروره ، ويقيم له الضلال فى صورة الهدىٰ ببُهْتَانِه وزُورِه ؛ مُسْتَخِفًّا لطَائشِي الألباب ، ومُسْتَزِلًّا للأقدام عن مَوْقِفِ الصواب ؛ مُحَسِّنًا بكيده لآعتقاد الأباطيل ، مُزَيِّنًا بغَيِّه آتِّبَاعَ الأضاليل ، صارفا بمَكْره عن سواء السبيل ؛ مُصَوِّرًا للحق فى صورة المَيْن ، مُغَطِّياً علىٰ القلوب بشِغَافِ الرَّيْن ؛ والحَازِمُ اليَقِظُ من تحرَّزَ من أشْراكِه وحَبَائِله ، وتحفَّظَ من مَخَايله وغوائله ؛ وآتَّهم هَوَاجِس فِكْرِه ، وآسْتَرَابَ بوساوس صَدْره ؛ وعرض مايَعْرِضُ له علىٰ عَقْله ، وكَرَّر فيه النظر مُتَحَرِّزاً من مكْر الشيطان وخَتْله ؛ فإن ألْفَاه عَادِلا عن الهَوىٰ ، مائلا إلىٰ التقوىٰ ؛ بريئا من خُدَعِ الشيطان ، آمنا من عوادى الآفتِتَان ؛ أمضاه وَاثِقًا بسلامة مَغَبَّته وعاقبته ، وشُمُول الأمْنِ فى أُولَاهُ وأُخراه .

وآنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين أن الشيطان المَرِيد آسْتَخَفَّ أحلامَ جماعة من جُهَّالِكم ، وآستولىٰ علىٰ أفهام عِدَّة من أَرَاذِلِكم ؛ وحَسَّن لهم شَقَّ عصا الإسلام ، ومَعْصِيةَ الإمام ؛ ومفارقةَ الجماعه ، والآنْسِلَاخَ من الطاعه ؛ التى فرضها الله تعالىٰ علىٰ الجمهور ، وجعلها نظامَ الأمور ؛ فقال جَلَّ قائلا : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وآختيارَ الفُرْقَة التى نهىٰ الله عنها . فقال :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتِ ﴾ ومُجَانَبَـةَ الأُلْفَة التى عدّها فى جلائل نِعَمِه ، فقال مُمْتَنًّا بهـا علىٰ عباده : ﴿ وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ وسوَّل لهم التَّعَرِّى من آداب الدين ، والمُجَاهَرَةَ بالخلاف علىٰ أمير المؤمنين ؛ فنَبَذُوا ما بأيديهم من بَيْعَته ، وسُلِبوا من ظِلِّ دَعْوته ؛ وركِبُوا من ذلك أوْعَرَ المراكب ، وسلكوا أخْشَنَ المسارب ؛ وسَعَوْا فى البـلاد بالفَسَاد ، وقاموا فى وَجْه الحَقِّ بالعِنَاد ، وٱسْتَخَفُّوا بحَمْـل الآثام ، وبَسَطُوا أيديهم إلىٰ الدِّماء الحرام ، وشَنُّوا الغَارَاتِ علىٰ أهل الإسلام .

وقد عَلِمْتم أن من أقْدَمَ علىٰ تأثير مثل هذه الآثار ، فقد ٱستنزل فى هذه الدار سُخْطَ الجَبَّار ، وتبوّأ فى الآخرة مَقْعَدَه من النار ؛ وجَرىٰ علىٰ غير الواجب فى إقامة الفروض والصَّـلَوَات ، وتأْدِيَةِ العبادات والزَّكَوات ، وعَقْد العقود والمناكحات ؛ لأن هـذه الأحوال إنَّمـا تُرْضىٰ وتُرْفَع ، وتُجَاب وتُسْمَع ، إذا تولَّاها أمير المؤمنين ، أو مَنْ يَسْتَخْلِفُه من صُلَحاء المسلمين ؛ فأما إذا ٱستَبْدَدْتم فيهـا بأنفسكم ، وٱقتديتم فى تأديتها بنَاكِبٍ عن سبيله ، مُجَانِبٍ لدليله ؛ فقد تَسكَّعْتم فى الضلاله ، وتطابقتم علىٰ الجهاله ؛ وكُلُّ رَاضٍ منكم بذلك ، عَاصٍ لله ورسوله وللإمام .

ولمـا ٱطَّلَع أميرُ المؤمنين علىٰ ماذهبتم إليه بسُوءِ الآختيار ، ورَكِبْتُمُوه من مراكب الآغْتِرار ، لم يرَ أن يُلْغيَكم ويَهْجُرَكم ، ويُغْفِلَكم ولا يُبَصِّرَكم ؛ فقـدَّم مكاتَبَتَكم مُعْـذِرًا مُنْذِرا ، ومُخَوِّفًا مُحَذِّرا ؛ وبدأكم بوَعْظه مُشْفِقًا عليكم من زَلَّةِ القَدَم ، ومَوْقِف النَّدَم ؛ وجَاذِبًا لكم عن مَضَالِّ الغَوَايَه ، إلىٰ مَراشد الهِـدَايه ؛ وٱفتتحكم باللَّفْظ الأحسن ، والقَوْلِ الألين ؛ وهداكم إلىٰ السبيل الأوضح ، والمَتْجَر الأرْبَح ؛ وٱختار أن يَهْـدِيَكم الله تعالىٰ إلىٰ طريق الرشاد ، ويَدُلَّكم علىٰ مقاصـد السَّداد ، ويُعيدَكم إلىٰ الأَوْلىٰ ،

وَيَبْعَثكم علىٰ الطريقة المُثْلىٰ ؛ وأن تَعرِفُوا الحَقَّ فتعتصموا فى أيديكم من بَيْعَتِه ، وتقوموا بما فرض عليكم من طاعته ؛ وتَرْجِعوا إلىٰ إجماع المسلمين ، وما آتفقت عليه كلمة إخوانكم فى الدِّين ؛ وتَتَّبِعوا مذاهبَ أهل السلامه ، وأُولى الآستقامه ؛ فإن وقع ما ألقاه إليكم المَوْقِعَ الذى قَـدَّرَه فيكم ، وسألتم الإِقالَةَ ؛ فالتَّوْبة تنفعكم ، والعَفْوُ يَسَعكم ؛ وإن تمـاديتم فى غَيِّكم وباطِلكم ، وغُرُورِكم وجَهْلِكم ؛ تقدّمت إليكم جيوش أميرالمؤمنين مُقَوِّمَه ، ومن عُصَاتكم منتقمه ؛ وذلك مَقَامٌ لا يتميز فيه البَرِىءُ من السقيم ، ولا الجاهل من العليم ؛ ألا تسمعون الله تعالىٰ يقول : ﴿وٱتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾؟ وأىّ فِتْنة أشدُّ من طاعة الشيطان ، ومعصيةِ السلطان ؛ وشَقِّ العصا ، و إراقة الدِّما ، و إثارة الدهما ؟ فاتَّقوا الله وآرجعوا ، وتأملوا و راجعوا ؛ وتَبَصَّروا وآستَبْصِروا ؛ وقد أوضح لكم أميرُ المؤمنين المَحَجَّه ، وبدأ كم بالحُجَّه ؛ فأوْجِدُوه السبيلَ إلىٰ مايَنْوِيه لكم ولكافة أهل الإسلام : من حَقْنِ الدماء ، وصيانة الحَريم ، وتحصين الأموال ، وشمول الأَمنِ والأمان ؛ وأجِيبوا عن كتابه هذا بمـا يُوَفِّقكم الله تعالىٰ [إليه] : من إجابة دعائه والعَمَلِ برأيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلىٰ بعض مَنْ خَرجَ عن الطاعة ، وهو :

أما بعد : بلغنى كتابك تذكر أنك تَحْمِلُ المُرْدَ علىٰ الجُرْد ؛ فستَرِدُ عليك جنودُ الله المقرّبون ، وأولياؤه الغالبون ؛ ويَرِدُ عليك مع ذلك حِزْبُه المنصور من الكهول ، علىٰ الفحول ؛ كأنَّها الوُعُول ، تخوض الوُحُول ؛ طِوَالُ السِّبال ، تختضب بالجِرْيال ، رجال هم الرجال ؛ بين رامح وناشب ، ليس معهم إلا كَلِبٌ محارب ؛ ولا يَنْكُلُون عن الأصحاب . قد ضَرُوا بضَرْب الهَام ، وآعتادُوا الكَرّ والإقدام ، ليسوا بذَوِى هِينَة ولا إحجـام ؛ يَقْضُون بالسيوف ، ويخالطون الزُّحُوف ، فى أعنتهم الحُتُوف ؛ يَزْأَرُونَ زئِيرَ الأسود ،

ويَثِبُون وُثُوب الفُهُود، ليس فيهم إلا شَاكٍ مُحْتَبِكٌ، فى الحَرْب مُجَرَّب، قد شَرِب على نَاجِذِ الحرب وأكل، ذو شِقْشِقَةٍ وكَلْكَل، كأنَّما أُشْرِبَ وجْهُه نَقِيعَ الحِنَّاء، قد رَئِمَ الحربَ ورَضَعها، وغَذَّته وأَلِفَها، فهى أُمُّه وهو ابنها، يَسْكُن إليها ويَأْنَس بقُرْبها، فهو بطلبها أَرِب، وعلى أهلها حَرِب، لا يروعه ما يروع، ولا يزيغه ما يزيغ الغُمْر الجَبَان، حين يَشْتَدُّ الوَغى، وتخطر القَنا، وتُقَلَّص الشِّفَاه، وتُسْفِرُ الكُماه، فعند ذلك تُسْلِمُك المُرْد، وتُكْشَفُ عن الجُرْد. فتأهبْ لذلك أُهْبَتَك، واخْطُب له خِطْبَتَك، من المساكين والحَوَكَة، ثم كِيدُونِى جميعًا فلا تُنْظِرُون، فما أَسرنَا إكثارُك الجموع، وحَشْدُك الخيول، فإنك لا تُكَثِّفُ جَمْعا، ولا تُسَرِّبُ خَيْلا، إلا وَثِقْنَا بأن سَيمُدُّنا الله من ملائكته، ويزيدنا من نَصْره، بما قد جَرَتْ به سُنَّتُه، وسلفت به عادته، ونحن نجرى من ذلك على نقمات من الله ونَكال وسَطوات مُهْلِكَة، فرأيتم ذلك فى المنازل، وعرفتموه فى المواطن التى يجمعها الحق والباطل، فأَبْشِرْ منا بما سَاءك صَحرا، ومثَّاك تُقَادُ كما يُقَادُ الجَمَل المخشوش.

ومن أحسن الكُتُب المكتتبة فى هذا الباب ما كَتَب به قِوام الدِّين (يحيى بن زيادة) وزير أمير المؤمنين الناصر لدين الله الخليفة ببَغْدَادَ إلى (طغرل) مُقْطَعِ البَصْرَة بأمر الخليفة له فى ذلك، وقد بلغه أنه نَزَح عنها، قاصدًا بعض الأَطراف، مفارقا لطاعة الخليفة، عند ما طُلِبَ من ديوانه شَىْءٌ من المال، فأوجب ذلك انْثَناءه عن عَزْمه وتوجُّهَه إلى بَغْدَادَ داخلا تحت الطاعة، ومُقَابَلَته بالصَّفْح وتَلَقِّيه بالقَبُول. وهذه نسخته :

أصدرْتُ هذه الخدمة إلى الجناب الكريم، الأميرىّ، الاسفَهْسَلارِىّ، الأجلىّ، الكَبِيرِىّ، السَّيِّدِىّ، العِمَادِىّ، الرُّكْنِىّ، الظَّهِيرِىّ، المُحْتَرَمىّ، العزِّىّ، الجَمَالىّ، أميرِ الجُيُوش، أطال الله بقاءه، وأدام عُلُوَّه ونِعْمَته، وأنا أوقع الأقوال المتواتره،

والأموال المتناصره، مُسْتَغْرِبًا لها، مُتَعَجِّبًا منها، كأنى أسمعها فى المنام، وتخاطبنى بها أَضْغَاثُ أحلام؛ فلولا أن الأيام صَحَائِفُ العجائب، ولا يأنس بمُتَجَدِّدَاتِهـا إلا من حَنَّكَتْه التَّجَارِب؛ لم أُصَدِّق هـذه الحركة المباركَةَ التى وقعت منه بسعادته؛ فإنى ما أراها إلا عَثْرَةً من جَوَاد، وعورة علىٰ كماله؛ و إلا فمِنْ أيْنَ يدخل الزَّلَلُ علىٰ ذلك الرَّأْيِ السديد، والعقل الراجح، والفكر الصائب؟ الذى يُعَلِّمُ الآرَاءَ كَيْفَ تُنِير، ويُعَرِّف النجومَ كَيْفَ تَسِير، ويهدى غيره فى المُشْكَلَات إلىٰ صواب التدبير. والفائتُ لا كَلَامَ فيه، غير أن العَقْلَ يقضِى بٱستدراكِ المُمْكِن وتَلَافِيه؛ بالٱنحراف عن الهوىٰ إلىٰ الرَّأْيِ الصادق، والرُّجوع عن تأويل النفس إلىٰ مراجعة الفِكْر النـاصِح؛ فالعَوْدُ إلىٰ الحق أولىٰ من التَّمَادى علىٰ الباطل، وأُحِبُّ أن تسمعَ ما أقولُ بأُذُنٍ واعية وقَلْب حاضر؛ وحُوشِيَ أن تَسْتدفعَهُ الكواذبُ عن تَدَبُّرِ الحقائق، وعِرْفَانِ النصائح؛ فإنّ من القول ما بُرْهانُه لايحتاج إلىٰ شاهد من غيره .

قبل كُلِّ شَيْءٍ: ما الَّذى أحوجَ إلىٰ هذه الحال القبيحة السُّمْعَه، ورُكوبِ الخَطَر فى هذه الحَركه، وٱحتمالِ هذه المَشَاقّ، والٱنزعاج من غير أن تَدْعُوَ إليـه حاجة؟ هَلْ هو إلا شيءٌ جَرَت العادة بمثله، و بمطالبة ديوانه بمـا كان يَنْدَفِع الأمر ببعضه؟ كما جَرَتْ عادةُ الدواوين، وخِدَمُ السلاطين؛ ثم إنَّه عَمَد ـ أدام الله نِعْمَتَه ـ بأول خاطره، وبادئ رأيه فى هذه العَجَلة، من غير تثبت ولا رَوِيَّة. لِمَ لَا راجعَ فكْرَه الكريمَ، ويقول لنفسه: إلىٰ أين أمْضِى؟ ولمن أَخْدُم؟ وعلىٰ أىّ باب أَقِف؟ وتَحْتَ أىِّ لِوَاءٍ أَسِـير؟ وبأىّ غُبَـارٍ أَكْتَحِل؟ وفَضْلَ مَنْ أطْلُب؟ وعلىٰ حُكْم مَنْ أنْزِل؟ بعـد أن رُبِّيتُ فى عَرْصَـةِ الخِـلَافة، ودار النبوّة، وحِضْـنِ المملكة؛ أنْشَأَنِى نعيمُها صـغيرا، وقَدَّمَنِى كبيرا؛ وكُنْتُ مأمورا فجعلنى أميرا، وطار صِيتِى فى الدنيا ولم أكن شيئا مذكورا؛ فأنا خَيْرٌ من مَلِكٍ أقصده، وأمثَلُ من كُلّ

مَنْ أرجوه وأستنجده، أفأنْزِلُ من السَّماء إلى الحَضِيض، وأهْدِمُ ما بَنىٰ الإنعامُ عندى فى الزمن الطويل العريض؟! هذا هو المكروه الأعظم، الذى تعوَّذ منه رسولُ الله صَلَّى الله عليه وسلم، حين قال: "اللَّهُمَّ إنِّى أَعُوذُ بِكَ من الحَوْرِ بعد الكَوْرِ" ومن يكون حَضِينَ خلافة كيف يرضىٰ أن يكون تَابِعَ إمارة؟ ولو لم يكن ماهجم عليه إلا هذا لكَفَىٰ. ثم لِمَ لايَلْتَفِتُ فى هذه الحال التى هو عليها، التى صَحِبَتْه بوفائها، ويَسْمَع خطابها بلسان حالها ثَمَّ؟ تقول له: ياعماد الدين! أمَا هذه خِيَامِ الإنْعَامِ عليك؟ أمَا هذه الخَيْلُ المُسَوَّمَةُ تحتك؟ أمَا هذه ملابسه الفاخرة مُفَاضَةٌ عليك؟ أمَا هذه مماليكه حَافَّةٌ بك؟ أليس الاصطنَاعُ رَفَع قدرَك إلىٰ المنزلة التى ثَقُل عليك بعضُ الانحطاط عنها، ووهبَ لك الهمةَ التى أبَيْتَ الضَّيْم بها؟ فخُوشِيتَ أن تكون مِمَّنْ تواترتْ عليه النعم فَمَلَّهَا، وتكاثرَتْ عليه فضَعُفَ عن حملها؛ فياليت شعرى! ماذا يكون جوابها؟ والله إنى أقول له بسعادته ولا أُعَقِّبُ: ولو أنه قد تَحَقَّقَ — والعِيَاذُ باللهِ — وقوعَ كُلِّ محذور، وحُلُولَ كُلِّ مكروه؛ لم يكن فى هذه الحركة معذورا، فكيف بظَنٍّ مُرَجَّم، وقول مُسَوِّفٍ مُتَوَهَّم؛ ورَأْيٍ فَطِيرٍ غيرِ مُخْتَمِر. ولقد كان استسلامُه لمالك الرِّقِّ — صلوات الله عليه وسلامُه — أحْسَنَ فى الدنيا وأحْمَدَ فى العُقْبىٰ؛ واقعا ذلك من أحواله حيثُ وقع. والآن فالوقت ضَاقَ فى إصْدَار هذه المُكَاتبه، عن استِقْصَاء العِتَاب والمُحَاققه؛ وإيراد كُلِّ ماتلزم به الحُجَّة، لكِنِّى أقول علىٰ سبيل الجملة:

إنى أخاف علىٰ سديد ذلك الرَّأْيِ إجَابَةَ داعى الهوىٰ، فإنَّ اللَّجَاجَ من أوسع مَدَاخِل الشَّيْطان علىٰ الإنسان، وحُوشِىَ كَمَالُه من هذا القِسْم.

والثانى استِشْعَارُه بسعادته من بَادِرَتِه، واستيحَاشُه من عَجَلَته؛ وهذا أيضا من أدَقِّ مكَايِدِ النَّفْس الأمَّارَة بالسُّوء، فإنها تُؤَمِّنُ من المَخُوف، وتُخَوِّف من المأْمُون،

وتَسْحَرُ العَقْل بالتحَيرِ والشَّــك ، فلا تَصِحُّ له عَزِيمه ، ولا تَصْفُو له فِكْره؛ وهـذا النَّوْعُ إذا عَرِضَ فى الصَّدْر يجب دفعه بالنَّظَر إلىٰ الحَقِّ وشجاعةِ القلب ، والإخلادِ إلىٰ مُناظَرة النَّفْس؛ فإنّ الإنسان ليس بمعصوم،والزَّلَلُ فى الرَّأْى ليس من أوصاف الجَمَاد، بل من الأوصاف اللَّازِمَة للبَشَرِيَّة ؛وليس الكمال لأحد إلا للواحِدِ الصَّمَد، فإذا عَرَض له بسَعَادَتِه هذا الآستشعار، فيدفعهعن نَفْسِه؛ فليس سُلْطَان الوَسْوَاسِ الخَنَّاسِ، إلا فى صـدور النَّاسِ؛ فلهـذا لاينبغى لمُذْنِبٍ أن يَقْنَطَ ، ولا لمُسيءٍ أن يَسْتَوْحِش ؛ لاسِيَّمَـا إذا أتبعَ الذَّنْبَ بالآستقالة والآستغفار ، والآعتذار والإقلاع ؛ وعلىٰ الخصوص إذا كانت الخيانة عنـد من لا يَتَعاظَمُه عَفْوُها ، ولا يَضِيقُ حِلْمُه عنها ؛ فإن كُلَّ كبـيرة تُوجِبُ المخافه ، تَغْرَقُ فى بَحْرِ عَفْوِ الخلافه؛ فيجب أن يُقَرِّر بسعادته ذلك فى نفســه ، ويُخْرِجَ سوءَ الظَّنِّ والآسْتِشْعَارَ من خَيَاله ؛ فإن مثله من خُلْصَانِ المماليك لايُسْمَحُ به ، ولا يُشْغَبُ عليه عند هَفْوَةٍ بادرَة .

والثـالث الآنقباض والحياء. فانه رُبَّما يقول فى نفسه : بأىِّ وَجْهٍ ألقىٰ مولاى؟ وبأى عَيْنٍ أُبصر مواطن الدَّارِ العزيزة؟ رَبَّانِى وأنشانى! .وهذا أيضا لايَصْلُحُ خُطُوره ببَالِه فى هذا المقام، فإنَّه من ضَعْفِ النَّحِيزَة، والمَيْلِ مع خَوَادِعِ الطَّبْع، عن نصائحِ العَقْل والشَّرْع؛ فإن الحَيَاء إتباعُ زَلَّة القدَم بالنَّدَم والآعتذار ، لا(١) التَّهَوُّكُ فى اللَّجَاجِ والإصرار . فقد قال بعض الملوك لخصيصٍ من خَوَاصِّه،عصاه فىشَىْءٍ من أمره : «بأى عَيْنٍ تَلْقَانِىوقد عصيتَ أمرى ؟» فقال: «بالعَيْنِ التى ألقىٰ بها ربِّى فى الصَّلوات الخَمسِ، وهو سبحانه يرانى علىٰ فَوَاضِحِ المعاصِى».وقد أثنىٰ الله سبحانهعلىٰ من أَذْنَبَ ثم تَاب، وشَرَدَ عن طاعتــه ثم أَنَاب . وبحمـد الله تعـالىٰ ما جرىٰ ما يقتَضِى فَرْطَ الآستشعار . هل هو إلا عَبْدٌ خاف بادِرَة مَوْلاه ، فتنحَّى من مكانه إلىٰ أن يَعْطِفَ

(١) فى الأصل "بل" ولا معنىٰ لهـا .

عليه برَحْمته؟ وليس هذا ببديع، ولا من الصَّفْح ببَعِيد. علىٰ أنه بسعادته لو أنْصَفَ من نفسه لَمَا ٱسْتَشْعَر. فكم أخرجت الخزائنُ الشريفة عليه من الأموال حتّىٰ نَبَت عِرْقُه، وأورق غُصْنُه، وكَبُر شَأنُه، وجميع ضَمانِ البَصْرةِ عُشْر معشار ذلك.

والرابع إصْغَاؤه ـ والعياذ بالله ـ إلىٰ قَوْلِ مَنْ لاينصَحُه، ويُغْويه ولا يُرْشِدُه، ويتقرَّب إليه بمتابعةِ هواه. وهذا مالايخفىٰ عن لَمْحَةِ النَّاقث، ولا يحتاج فى الإعراض عنه إلىٰ باعث، فقديما قيل: «صَدِيقُكَ مَنْ نَهَاكَ، وعَدُوُّكَ مَنْ أغْرَاكَ» والله تعالىٰ يوفِّقه لتحقيقه النَّظَر فى هـذه الأقسام الأربعة، التى أحْذَرُها عليه، وأُحَذِّرُه منها، ويُيَسِّرُه لليسرىٰ.

وبعـد ذلك فأنا أُنْصِفُه من نفسى، وأقول الحقَّ: إن نَفْسًا رَبَّاهَا خليفةُ الله فى أرضه ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ بإنعامه، وأعلىٰ هِمَّتَها بٱختصاصه، وشرَّفها بنَسَبِ عُبُودِيَّتِـه، لا تحتمل الهَوَان، ولا تَقِرُّ علىٰ الٱبْتِذَال، فغالبُ ظَنِّى أنَّ نُفُورَه بسعادته إنما هو من ديوان الزِّمَامِ المعمور. والآن فأنا وهو بسعادته عَبْدَانِ، ولٰكِنِّى أنْفَرِدُ عنه بالسِّنِ والتَّجْريب، وطريقتى هو بسعادته يعرفها، وإننى لاأدَّخِرُ عن أحد نُصْحا. فالصواب أن يَقْبَل قَوْلِى، ويتحقق صِحَّة مَقْصَدِى فى نصيحته ومَقْصَدِه، فإنى أُوجِبُ ذلك له علىٰ نفسى، وأَرَاهُ من واجبات خِدَمِ مالك الرِّق ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ أيضا.

وقد علم الله تعالىٰ أنى قد أوضَحْتُ من عُذْره، وأحْسَنْتُ المَنَاب عنه بسعادته، مالو حَضَره وتَوَلَّاه بنفسه لَمَا زاد عليـه، ورأيتُ الإنْعَامَ يسـتغنِى عن كُلِّ شرط ولا يحتاج إليـه، وتقرّرت قاعدتُه بسعادته أن لا يكونَ له مع ديوان الزِّمَام المعمور حديث، ولا مع غيره ممَّنْ لا يَعْرف حَقَّه، ولا يُوَفِّيه من الٱحترام واجبَه؛ فإن أمر

أن أتَوَلّى وَسَاطَتَه فأنا أعتمد ذلك فى مَرَاضيه، وتَمْشِيَة أمره أكثر ممَّـا فى نفسه . وإن آختار بسـعادته أن يَكُونَ غيرى وَسِيطَهُ وسفيره، فيُعَين مَنْ يختاره : ليكونَ حديثُه معه. وقد أسْلَفْتُ من وظائف إحسان المَنَاب أننى تَنجَّزْتُ له بسعادته أمَانًا مُتَوَّجًا بالقَلَم الأشرف المقدّس، علىٰ نفسه الكريمة ومَاله وأوْلادِه ـ والأمان المذكور طَىَّ كتابى هذا ـ مَقْرُونًا بخَاتَم أمَانٍ ثان؛ فيجب أن يكون هو بسعادته جوابَ ذلك . إذ لا يجوز أن يكونَ الجوابُ إلا هُوَ بنفسه الكريمة؛ فلا يَشْـعُر به أحَدٌ إلا وهو مُقَابِل التَّـاجِ الشريف، مُلْقِيًا نفسه بين يَدَىْ مالكها الذى هو أرْحَمُ لها، وألْطَفُ بها، وأشْفَقُ عليها منها؛ تَالِيًا ماحكاه القرءان المجيد عن يُونُس عليه السلام، إذْ نَادىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ : ﴿ سُـبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فإنَّه يرىٰ ـ بمشيئة الله تعالىٰ وتوفيقه ـ كُلَّ مايُحِبُّ، ويَأْمَنُ كُلَّ مايَحْذَر . وأنا أسْتَسْرِعُ وُصولَه عن آستعراض مُهِمَّاتِه، ولرأيه كَرَمُه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : فإن آتفقَتِ المكاتبة فى معنىٰ ذلك فى زماننا، راعىٰ الكاتبُ فيه صُورةَ الحال، وجَرىٰ فى ذلك علىٰ ما يلائم حاله، ويناسب ما هو فيه؛ مع النظر فى كلام مَنْ سَبَقَه إلىٰ شىء من ذلك؛ والنَّسْجِ علىٰ مِنْوَالِ المُجِيد، والآقتداء بالمُحْسِن فى إيراده وإصـــداره .

الصِّـــنفُ السابع
(الكُتُب فى الفُتُوحات والظَّفَـر بأعداء الدَّولة وأعداء المِـلة، وآسترجاع المعاقل والحُصُون، والآستيلاء علىٰ المُدُن)

وأصلها من فَتْح الأقفـال ودُخُول الأبواب . كأنَّ المدينةَ أو الحِصْنَ كان مُقْفَلًا مُمْتَنِعا بالأغلاق علىٰ قاصـده حتّٰى يُفتَح له فيدخل .

قال فى "مواد البيان" : وهو من أعظم المكاتبات خطرا، وأجلّها قدرا؛ لاشتمال أغراضها على إنجاز وعد الله تعالى الذى وعد به أهل الطاعة فى إظهار دينهم على كل دين، وتوفير حظّهم من التأييد والتمكين، وما يمرّ فيها من الأساليب المختلفة التى يشتمل هذا القانون عليها .

قال : والكاتب يحتاج إلى تصريف فكره فيها، وتهذيب معانيها : لأنها تتلى من فوق المنابر على أسماع السامعين، وتجعل نصب عيون المتصفّحين .

ثم قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله العفوّ الحليم، الغفور الرحيم، العليم الحكيم؛ ذى البرهان المبين والفضل الجسيم، والقوة المتين والعقاب الأليم؛ مبيد الظالمين، ومبير القاسطين؛ ومؤيّد العادلين، وجاعل العاقبة للمتّقين؛ المملى إمهالا وإنذارا، والمعاقب تنبيها وإذكارا؛ الذى لا ينجى منه مهرب، ولا يبعد عليه مطلب؛ وكيف يعتصم منه وهو أقرب من حبل الوريد، وله على كل لافظ رقيب وعتيد ؟ . والصلاة على رسوله الأمين، الذى ختم به النبيّين؛ وفضّله على المرسلين، وأيده بأوليائه التائبين؛ الذين قاموا فى نصرته، وإعزاز رايته؛ المقام الذى فازوا فيه بالخصل، فاستولوا به على قصبات الفضل؛ فشركهم معه فى الوصف والثناء، فقال جلّ قائلا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم يؤتى بمقدّمة تشتمل على التحدّث بنعمة الله فى شحذ العزائم لنصرته، وتثبيت الأقدام فى لقاء عدوّه ومجاهدته؛ وإنجازه وعده فى الإعزاز والإظهار، والظّفر والإظفار؛ والاستبشار بموقع النعمة فى الفتح الجليل، والإشادة بإبقاء هذا الأثر الجميل . ثم يفيض بما جرت العادة به فى مقاربة العدوّ ومداناته، وبثّ الطّلائع لتنفيذ السّرايا فى مبادى ملاقاته؛ وما أفضى إليه الأمر فى التقابل

والمُواثَبه ، والتَّوَاشُج فى المُطاعنة والمُضارَبه ؛ وذِكرِ مواقف الشُّجْعَان فى الكِفَاح والمُجَاهَده ، والذَّبِّ والمُجَالَده ، وثبوت الأقدام ، والجَوْد بالنُّفُوس ، وٱشْتِدَاد الأيدى ؛ وقُوَّة الشَّكَائِم ، وٱسْتِصْحَاب العَزَائم ، وتَفْخِيم أَمْرِ العَدُوّ : بوصــفه بكَثْرَة الرِّجال والأَجْنَاد ، والقُوَّة والٱستعداد : لأنّ تَوَقُّعَ الظَّفر بمَنْ هذه صِفَتُه أعظمُ خَطَرا ، وأوقع فى النفوس أثرَا .

ثم يذكر ماجَالَ بين الفريقين من قِرَاع ومِصَاع ، ومُضَــارَبَة ودِفَاع ؛ ومُصَاوَلة ومناضله ، ومُنَاهَدَة ومُكَافَحَه ؛ وحِمَايةٍ ومُنَافَحَه ، وثَبَات ومُصَافَفَه ؛ ومُقَاوَمَة ومُوَاقفه ، ومُخَادَعَة ومطامعــه ؛ وينعت المَوَاكِب والكَتَائِب ، والخيول والأَسْلِحة ؛ والجَرْحَىٰ والمُجَدَّلين ، والأسرىٰ والمُقَتَّلين . وٱستعمال التشبيهات الفَائِقَه ، والٱستعارات الرَّائقه ؛ وإرْدَافِ المَعَانِى فى الإبانة عن لَمَعَانِ أَسِــنَّة الذَّوابل ، وبَرِيقِ صَفَحَات المَنَاصِل ؛ وإعمال المَقَاصِلِ فى القِمَم ، وظهور نجوم السُّيُوف من لَيْلِ الحرب فى دَيَاجِى الظُّلَم ؛ وينعت الدماء المُنْبَعِثةِ من الجراح ، علىٰ متون الرِّماح والصِّفاح .

ويذكر ما أظهره الله تعالىٰ : من تكامُلِ النَّصر ودلائل الظَّفَر ، وما ٱنجلت عنه الحرب : من قَتْلِ من قُتِــل وأَسْرِ من أُسِر ، وهَزِيمة من هُزِم ؛ وما فاز به الرجال من الأَسْلَاب والأموال ، والدَّوابِّ والرِّجَال ؛ وما جَرَتْ عليه الحالُ من ٱنْفِلال العدوّ عند المقاتلة ، أو أَسْرِ العَدُوّ إن أسر ، أو ٱعتصامِه بمَعْقِلٍ لايُحَصِّنُه ؛ أو ٱمْتِناعه بحَيْثُ يحتاج إلىٰ مُنَازَلته باستنزاله قَسْرًا ؛ أو حِيَازَةِ المعقل الذى كان بيَدِه ، وما ٱعتمد فيه : من حُسْن السِّيره ، وتَخْفِيف الوَطْأَة عن الرَّعِيَّــة وحَسْم أســباب الفتنة ؛ أو رَغْبَتِه فى المُسَالمه ، وسُؤاله فى المُهَادَنه ؛ لخَوفٍ أظَلَّه ، وهلَعٍ ٱحْتَلَّه ؛ وما تردّد من رسائل ، وتَقَرَّر من شروط وعُقُود ؛ وإنفــاذِ الأمر فى ذلك كما أوجبــه الحَزْم ، وٱقتضاه صَوَابُ الرأى .

وإن كان السِّلْم قد وقع، والتَّنَازُع قد ٱرتفع، ذكر ٱتِّفاق الحِزْبَيْن(١)، وٱتِّحاد الكَلِمه، وشُمُول النعمه.

وإن كان لم يجبه إلىٰ المهادنه، حَذَرًا من المَكْر والمخادعَه، ذكَرَ ما مَرَّ فى ذلك من رَأْيٍ وتدبير، وتسديدٍ وتقْرير.

وإن كان طلب المهادنة ليَجِدَ فُسْحَةَ المَهْلِ فيُكَثِّر عدده، ويُجِمَّ عُدَدَه، وتَتِمّ حيلَتُه؛ فٱطَّلَعَ منه علىٰ ذلك، فبَادَرَهُ مُفَلِّلًا لكَيْده ومَكْره، مُذيقًا له وبَالَ أمْرِه؛ شَرَحَ الحالَ علىٰ نَصِّها وما ٱنتهىٰ إليه آخرها.

قال: وقد يَقَع من هذه الأمور مالا يُحْتَسَبُ، وسبيلُ جميعه هذا السبيل.

ثم قال: ويُخْتم الكتابُ بحمد الله القَاضِى لأوليائه بالإداله، ولأعدائه بالإذَالَه؛ الذى يستَدْرِج بحِلْمِه إمْهَالا، ولا يَلْقىٰ العادلُ عن حكمه إهْمَالا؛ والصلاةِ علىٰ رسوله صلّى الله عليه وسلم وعلى آله.

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدّمة المكاتبات فى أوائل المقالة الرابعة من الكِتَاب، أن هذه الكُتُب مما يجب بَسْطُها والإطنابُ فيها؛ وأن ماوقع فى كِتَابِ المُهَلَّبِ ٱبن أبى صُفْرَةَ، من كِتَابه إلىٰ الحَجّاج فى فَتْح الأَزَارِقَةِ من الخوارج، علىٰ عِظَم الفَتْح وبُعْد صِيتِه، علىٰ سبيل الإيجاز والٱختصار، حيث قال فيه:

أما بعد، فالحمد لله الذى لا تَنْقَطِعُ موادّ نِعَمه عن خَلْقِه حَتّى تنقطعَ منهم موادّ الشُّكْر. وإنا وعدُوّنا كُنَّا علىٰ حال يسرّنا منهم أكثر ممَّا يَسُوءُنا، ويَسُوءُهم منَّا أكثر ممَّا يَسُرُّهم؛ ولم يزل الله جل ثناؤه يَزيدُنا ويَنْقُصُهم، ويُعِزُّنا ويُذِلُّهم، ويُؤَيِّدُنا ويَخْذُلُهم، ويُمَحِّصُنا ويَمْحَقُهم؛ حتّى بلغَ الكِتَابُ أجلَه. ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ القَوْمِ الَّذِينَ

(١) فى الاصل "ٱتساع الحربين" وهو غير مناسب.

ظَلَمُوا وَالْحَمْـدُ لِلهِ رَبِّ الْعَـالَمِين ﴾ فإنَّمـا سَلَك فيه سبيلَ الإيجازِ، لكونه من التابع إلىٰ المتبوع ؛ إذ الحَجَّاجُ كان هو القائمَ بأمْرِ العِرَاقِ وما وَالَاه لعَبْد المَلِكِ بنِ مَرْوان، علىٰ شدّة سَطْوَتِه، وما كان عليه من قوّة الشَّكِيمة وشِـدَّةِ البَأْسِ؛ مع كون الأدَبِ فى مكاتبة المرءوسِ الرئيسَ الإتْيانَ بقليـل اللفظ الدال علىٰ المَقْصَدِ، حتّىٰ لا يكون فيه شَغْلٌ للرئيس بطول الكلام وبَسْـط القول، علىٰ ما تقدّم بيانه فى موضعه .

وآعلم أن الكتابة فى فتوحات بلادِ الكُفْر ومَعَاقِلِهم والآسـتيلاءِ علىٰ بلاد البُغَاةِ تَكَادُ أن تكون فى الكتابة (١) علىٰ نَسَقٍ واحد ؛ إلا أنَّ مَجَـال الكاتب فى فتوحات بلاد الكُفْر أوسع ،من حيثُ عِزَّةُ الإسلام علىٰ الكفر،وظهورُ دينِه علىٰ سائر الأديان .

وهذه نسخة كتاب بفتحٍ فَتَحَه الخليفة وعاد منه ، وهى :

الحمـد لله مُديلِ الحَقِّ ومُنِـيرِه ، ومُذِلِّ الباطل ومُبِيرِه؛ مُؤَيِّد الإسـلام بباهرِ الإعْجاز، ومُتِمِّ (٢) وعْدِه فى الإظهار بوَشِيك الإنجاز؛ وأخْمَدَ كُلَّ دين وأعْلَاه ، ورفض كُلَّ شرع وآجْتَباه؛ وجعله نُورَه اللّامع، وظِلَّه المَـاتِـع؛ وآبْتَعَثَ به السراجَ المُنِير، والبَشِيرَ النَّذِير؛ فأوضح مَنَاهِجَه ، وبَيَّنَ مَدَارِجَه ؛ وأنَارَ أعلامه ، وفَصَّـلَ أحكامَه ؛ وسَنَّ حَلَالَه وحَرَامَه، وبيَّنَ خاصَّه وعامَّه؛ ودَعَا إلىٰ الله بإذنه، وحَضَّ علىٰ التَّمَسُّك بعِصَمِ دينه ؛ وشَمَّرَ فى نَصْرِه مُجَاهدا مَنْ نَدَّ عن سبيله ، وعَنَدَ عن دَلِيلِه؛ حتّىٰ قَصَّدَ الأنْصابَ والأصنام، وأبطل المَيْسِرَ والأزلام؛ وكَشَفَ غَيَابَاتِ الإظلام، وآنْتَعَلَتْ خَيْلُ الله بقبائل الهَـام (٣) .

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

(٢) يؤيد ماورد هنا التصحيحَ الذى أوردناه بهامش (١) من (ج ٦ ص ٤٤٠) من هـذا المطبوع فليراجع هناك .

(٣) يؤيد ماورد هنا أيضا التصحيحَ الذى أوردناه بهامش (٢) من (ج ٦ ص ٤٤٠) .

يحمده أميرُ المؤمنين أنْ [جَعَله مِن وُلاة أمرِه، ووَفَّقه لاتِّباع سُنَّة رسوله واقْتِفَاءِ أَثَرِه، وأعانه علىٰ تمْكين الدين، وتوْهِين المشركين، وشفاء صدور المؤمنين و] [1] أنهضه بالمُرَامَاةِ عن المِلَّه، والمحاماة عن الحَوْزَه، وإعزازِ أَهْلِ الإيمان، وإذلالِ حِزْبِ الكُفْران؛ ويسأله الصلاةَ علىٰ خِيَرَتِهِ المُجْتَبىٰ؛ وصَفْوَتِه المنْتَصىٰ؛ محمد أفضلِ من ذَبَّ وكافَحَ، وجاهد ونافح؛ وحمىٰ الذِّمَار، وغزا الكُفَّار؛ صلّى الله عليه وعلىٰ أخيه وٱبن عمه أمير المؤمنين عَلِيِّ بن أبي طالبٍ سَيْفه القاطع، ومِجَنِّه المُدَافع؛ وسَهْمِه الصَّارِد، ونَاصِره المُعَاضد؛ فارسِ الوقائع، ومُفَرِّقِ [2] الجمائع؛ مُبِيدِ الأقران، ومُبَدِّد الشُّجْعَان؛ وعلىٰ الطَّهَرَةِ من عِتْرَتِه أئمةِ الأزمان، وخالصة الله من الإِنْس والجَان.

وإنَّ أَوْلىٰ النِّعَم بأن يُرْفَلَ فى لِبَاسِها، ويُتَوَصَّلَ بالشُّكْر إلىٰ إينَاسِها [3]؛ ويُتَهَادىٰ طِيبُ خَبَرِها، ويُتَفَاوَضَ بحسْنِ أثَرِها؛ نِعْمَةُ الله تعالىٰ فى التوفيق لمُجَاهَدة أهل الإلْحَادِ والشِّرك، وغَزْوِ أُولِي البَاطل والإفْك؛ والهُجُومِ عليهم فى عُقْر دارهم، وٱجْتِثَاث أصْلِهم والجِدِّ فى دَمَارِهم؛ وٱستنزالِهم من مَعَاقلِهم، وتَشْرِيدِهم عن منازلهم؛ وتَغْمِيض نواظرهم الشُّوسِ [وإلْبَاسِهم لِبَاسَ البُوسْ] [4] لما فى ذلك من ظهور التوحيد وعِزِّه، وخُمود الإلحاد وعَرِّه؛ وعُلُوّ ملة المسلمين، وٱنخفاض دَوْلَةِ المشركين؛ ووضوح [مَحَجَّة] [4] الحَقِّ وحُجَّته، وصُدُوع بُرْهَانِه وآيته.

وكتاب أميرالمؤمنين هذا إليك وقد ٱنْكفأ عن ديار الفلانيِّين المشركين إلىٰ دَسْتِ خِلَافته، ومَقَرِّ إمامته؛ بعد أَنْ غزَاهم بَرًّا وبَحْرا، وشَرَّدَهم سَهْلًا ووَعْرا، وجَرَّعَهم

(١) الزيادة عما تقدم (ج ٦ ص ٤٤٠).

(٢) ورد بدل هذه الكلمة فى (ج ٦ ص ٤٤١) "معبوس" وقد وضع بجانبها هناك علامة توقف لعدم ظهور معناها.

(٣) كذا هنا، والذى فى (ج ٦ ص ٤٤١) "لبأسها".

(٤) الزيادة عما تقدم فى (ج ٦ ص ٤٤١).

من عواقب كُفْرهم مُرًّا ؛ وفرّق جَمَائِعهم التى تُطَبِّقُ سهوبِ الفَضَاءِ [خيلا ورَجْلا، وتضيق بها المَهَامه حَزْنًا وسهلًا، ومزّق كَتَائبهم التى تُلْحِق الوِهَاد بالنِّجَاد، وتختطف الأبصار ببوارق الأغماد] (١) وتجعل رعود سنابكها فى السماء ، وسَبَى الذَّرَارِىَّ والأطفال، وأَسَرَ البَطَارِيقَ والأَقْيَال، وآفتتح المَعَاقِلَ والأعمال ، وحَازَ الأسلابَ والأموال؛ وآستولىٰ من الحُصُون علىٰ حِصْن كذا وحصن كذا؛ ومَحَا منها رُسُومَ الشِّرْك وعَفَّاهَا، وأثبت سُنَنَ التوحيد بها وأمْضَاها ؛ وغَنِمَ أولياءُ أمير المؤمنين ، ومُتَطَوِّعَةُ المسلمين [من الغنائم] (١) ماأقرَّ العيون، وحَقَّقَ الظُّنُون؛ وآنفصلوا وقد زادت بصائرهم نَفَاذًا فى الدِّين، وسرائرُهم إخْلاصًا فى طاعة أمير المؤمنين؛ بما أولاهُم الله من النَّصْر والإظْفَار، والإعزاز والإظهار ؛ ووَضَحَ للمشركين بما أنزل الله عليهم من الخِذْلَان، وأنالهم إيَّاه من الهوان؛ أنهم علىٰ مَضَلَّة من الغَىِّ والعمىٰ، ومَنْحَاةٍ (٢) من الرُّشْد والهُدىٰ؛ فضَرَعُوا إلىٰ أمير المؤمنين فى السِّلم والموادعه، وتحمَّلوا بَذْلًا بَذَلُوه [تفاديا] (٣) من الكِفَاح والمقارعه ؛ فأجابهم إلىٰ ذلك مُتَوَكِّلًا علىٰ الله تعالىٰ ، وآمتثالًا لقوله إذ يقول : ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ وعاقد طاغيتهم علىٰ كتاب هُدْنَةٍ كتبه له ، وأقره فى يده ؛ حُجَّةً بمضمونه .

أشعرك أمير المؤمنين ذلك : لتأخُذَ من هذه النِّعْمَةِ بنصيبِ مِثْلك من المُخْلِصين، وتَعرفَ مَوْقِعَ ما تَفَضَّلَ الله تعالىٰ به علىٰ الإسلام والمسلمين ؛ فيحسنَ ظَنُّك ، وتَقَرَّ عينُك ؛ وتشكُرَ الله تعالىٰ شُكْرَ المُسْتَمِدِّ من فضله، المُعْتَدِّ بطَوْله ؛ وتَتْلُوَ كتاب

(١) الزيادة عما تقدم فى (ج ٦ ص ٤٤١) .

(٢) فى (ج ٦ ص ٤٤٢) من هذا المطبوع "وبُعْد" .

(٣) الزيادة عما تقدم فى (ج ٦ ص ٤٤٢) .

أمير المؤمنين، على كَافَّة مَنْ قِبَلَك من المسلمين : ليعلموا ما تولاهم الله به من نَصْرِه وتمكينه ، و إذْلالِ عَدُوّهم وتَوْهِينه ؛ فٱعلم ذلك وٱعمل به، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم الفتوح إما فتح لبعض بلاد الكُفْر ، و إما فتح لِمَا استولىٰ عليه البُغَاةُ من المسلمين .

فأما فَتْح بلاد الكُفَّار فكان سبيلهم فيه أن يُصَدَّرَ الكتاب بحمد الله تعالىٰ علىٰ عُلُوِّ دين الإسلام ورِفْعَتِه ، و إظهاره علىٰ كل دين ؛ ثم علىٰ بَعْث النبيّ صلّى الله عليه وسلم بالهِدَايَة إلىٰ الدِّين القويم ، والصِّراطِ المُسْتقيم ؛ ويذكَرَ ما كان من أمره صلّى الله عليه وسلم من جِهَاد الكُفَّار . ثم علىٰ إقامة الخُلَفَاء فى الأرض حِفْظًا للرَّعِيَّه ، وحِيَاطة للبريّه ، وصَوْنًا للبَيْضَه ؛ ويخصّ خليفة زَمانِه من ذلك بما فيه تفضيلُه ورفعةُ شأنه ؛ ثم يؤخذ فى تعظيم شأن العدوّ وتَهويل أمره ، وكثرة عَدَدِه ، ووُفُور مَدَدِه ؛ ثم فى وصف جيوش المسلمين بالقوّة والٱستعداد ، والٱشْتِدَاد فى الله تعالىٰ ، والقِيَام فى نُصْرة دينه ؛ ثم تذكر المَلْحَمَة وما كان من الوَقِيعَة وٱلْتِحَام القِتَال ، وما ٱنْجَلَتْ عنه المَلْحَمَةُ من النُّصْرَة علىٰ عَدُوّ الدين وخِذْلانِه ، والإمكان منه ، وقَتْل من قُتِل منهم ، وأسر من أُسِر ، وتفريق شَمْلِهم ، وٱنتظام كلمة الإسلام ، وطَمَاعِيَتِهم بهَلَاك عَدُوّهم ، وما فى معنىٰ ذلك .

وهذه نسخة كتاب كُتِبَ به إلىٰ الدِّيوان العزيز ، أيام الناصر لدين الله ، عن السلطان صَلَاح الدِّين يُوسُفَ بن أيُّوبَ ، بفتح القُدُس الشريف ، و إنْقَاذه من يدِ الكُفْر ، فى آخر شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، من إنشاء القَاضِى الفَاضل ، وهو :

أدام الله أيام الدّيوان العزيز النَّبوِيّ الناصِرِيّ، ولا زال مظَفَّر الجِدّ بكُلّ جاحِد، غَنِيَّ التَّوفيق[(١)] عن رَأْيِ كُلّ رَائِد، موقوفَ المساعِى علىٰ ٱقْتِنَاءِ مُطْلَقَاتِ المحـامد، مُسْتَيقِظَ النَّصرِ والسيفُ فى جَفْنِه رَاقِد، وَارِدَ الجُودِ والسَّحابُ علىٰ الأرض غيرُ وَارِد، متعدِّدَ مساعى الفَضْل وإن كان لايُلْقىٰ إلابشُكْرٍ واحد، مَاضِىَ [حُكْمِ القَوْل][(٢)] بعزم لايمضى إلابنَسْلِ غَوِيٍّ ورَيْشِ رَاشِد، ولا زالت غيوث فضله [إلىٰ الأوليـاء][(٢)] أنْوَاءً إلىٰ المَرَابِع وأنوارًا إلىٰ المساجد، وبُعُوثُ رُعْبِه إلىٰ الأعداء خَيْلًا إلىٰ المَرَاقِب وخَيَالًا إلىٰ المراقد .

كَتَبَ الخادِمُ هذه الخِدْمَة تِلْوَ ماصدر عنه ممّـا كان يجرى مجرىٰ التباشـير لصُبْح هـذه الخِدْمه، والعُنْوانِ لكِتَاب وَصْف هذه النعمه، فإنهـا بَحْرٌ للأقلامِ فيه سَبْحٌ طويل، ولُطْف تحمُّل الشكر فيه عِبْءٌ ثقيل، وبُشْرىٰ للخواطر فى شَرْحِها مآرِب، ويُسْرىٰ للأسرار فى إظهـارها مَسَارِب، ولله فى إعادة شكره رِضَا، وللنعمة الرَّاهنة به دَوَامٌ لايُقَال معه: هذا مَضىٰ، وقد صارَتْ أمورُ الإسلام إلىٰ أحْسَنِ مصايِرِها، وٱسْتَتَبَّتْ عقـائدُ أهـله علىٰ أبيَنِ بَصَائِرِها، وتَقَلَّص ظِلُّ رجَاءِ الكافر المبسوط، وصَدَقَ اللهُ أهلَ دِينِـه فلمَّا وقع الشرطُ حَصَلَ المشروط، وكان الدِّينُ غَرِيباً فهو الآنَ فى وَطَنِه، والفَوْزُ مَعْروضًا فقد بُذِلَت الأنفسُ فى ثَمَنِه، وأَمِرَ أمْرُ الحَقّ وكان مُسْتَضْعَفًا، وأُهِلَ رَبْعُهُ وكان قد عِيفَ حين عَفَا، وجاء أمرُ اللهِ وأُنُوفُ أهلِ الشِّرْك رَاغِمَه، فَأَدْلَجَت السيوفُ إلىٰ الآجال وهى نَائِمَه، وصدَقَ وعدُ الله فى إظهار دينه

(١) كذا هنـا وفيما تقـدم، والذى فى وفيات الأعيـان لآبن خلكان (ج ٢ ص ٥٨٤) "غَنِيًّا بالتوفيق" .

(٢) الزيادة عن رسائل القـاضى الفاضل الفتوغرافية المحفوظة بدار الكتب السـلطانية نمرة ٢٢٩٤ أدب .

علىٰ كُلِّ دِين ، وٱسْتَطَارَتْ له أنوارُ أبَانَتْ أنَّ الصَّباح عندها حِيَانُ الحين[1] ، وٱستردَّ المسلمون تُرَاثًا كان عنهم آبِقَا ، وظَفِرُوا يَقَظَةً بِمَا لم يُصَدِّقُوا أنهم يَظْفَرُونَ به طَيْفًا علىٰ النَّأْي طَارِقا ، وٱسْتَقَرَّتْ علىٰ الأَعلىٰ أقدامُهم ، وخفَقَتْ علىٰ الأقصىٰ أعْلَامهم ، وتلاقَتْ علىٰ الصَّخْرَةِ قُبَلُهُم ، وشُفِيَتْ بها وإن كانت صَخْرة [قُلُوبُهم][2] كما تُشْفىٰ بالماء غُلَلُهُم .

ولما قَدِم الدِّين عليها عَرَفَ منها سُوَيْدَاءَ قَلْبِه ، وهَنَّأَ كُفْؤُهَا الحَجَرُ الأَسْوَدُ بَيتَّ عِصْمَتِها من الكافرِ بحَرْبِه ، وكان الخادمُ لا يسعىٰ سَعْيَه إلا لهـذه العُظْمىٰ ، ولا يقاسى تلك البُؤْسىٰ إلَّا رَجَاءَ هـذه النُّعمىٰ ، ولا يُنَاجِزُ من يَسْتَمْطِلُه فى حَرْبِه ، ولا يُعَاتِب بأطراف القَنَا مَنْ يَتَمادىٰ فى عَتْبِه ، إلا لتكونَ الكلمةُ مجموعه ، والدَّعْوَة إلىٰ سامعها مرفوعه ، فتكون كلمةُ الله هى العُلْيا ، وليفُوزَ بجَوْهَرِ الآخرة لا بالعَرَض الأدنىٰ من الدُّنيا ، وكانت الألْسِنَةُ رُبَّمَا سَلَقَتْه فأَنْضَج قُلُوبَها بالاْحتقار ، وكانت الخواطر رُبَّمَا غَلَتْ عليه مَرَاجِلُها فأطْفَأَها بالاْحتمال والاْصطِبَار ، ومَنْ طَلَبَ خَطِيرًا خاطَرَ ، ومن رَامَ صَفْقَة رابحـةً تجَاسَر ، ومَنْ سَمَا لأَنْ يُجَلِّيَ غَمْرَةً غامَرَ ، وإلَّا فإنَّ القُعُود يُلِينُ تحتَ نُيُوبِ الأعداء المعاجِمَ فتَعَضُّها ، ويُضْعِفُ بأيديها مَهز القوائم فتَقُضُّها ، هـذا إلىٰ كَوْنِ القُعُود لا يَقْضِى فرضَ الله فى الجِهَاد ، ولا يُرْعىٰ به حَقُّ الله فى العِبَاد ، ولا يُوفىٰ به واجبُ التقليد الذى تَطَوَّقَه الخادمُ من أئِمَّة قَضَوْا بالحَقِّ وبه كانوا يَعْدِلُون ، وخُلَفَاءُ الله كانوا فى مثل هذا اليوم لله يسألون ، لاجَرَمَ أنهم أورثوا سِرَّهم وسَرِيرَهم خَلَفَهُمْ الأطهر ، ونَجْلَهُم الأكبر ، وبَقِيَّتَهم الشريفه ، وطَلْعَتَهم المُنِيفه ، وعُنْوانَ صحيفة فَضْـلهم لا عَدِم سَوادَ العَلَمِ وبَيَاضَ الصحيفه ، فما غابوا

---

(١) كذا فيما تقدم أيضا (ج ٦ ص ٤٩٧) وفى وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) "عند حِسان الجبين".

(٢) الزيادة عن وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٥) .

لَمّـا حضر، ولاغَضُّوا لَمَّـا نَظَر؛ بل وصَلَهُم الأجْرُ لِمَـا كان به موصولا، وشاطروه العَمَلَ لِمَـا كان عنه منقولا ومِنْه مقبولا؛ وخلَص إليهم إلىٰ المضاجع ماآطْمَأَنَّتْ به جُنُوبُها، وإلىٰ الصحائف ماعَبَقَتْ به جُيُوبُها؛ وفاز منها بذِكْرٍ لا يزالُ اللّيلُ به سميرا، والنهارُ به بصيرا؛ والشَّرْقُ يهتدى بأنْوارِه، بل إن أبدىٰ نُوراً من ذَاتِه هتف به الغَرْبُ بأَنْ وَارِه؛ فإنّه نُورٌ لاتُكِنُّه أغْسَاق السُّدَف، وذِكْرٌ لاتُوَارِيه أوْرَاقُ الصُّحُف .

وكِتَاب الخادم هذا، وقد أظفر اللهُ بالعَـدُوّ الذى تَشَظَّتْ قَنَاتُه شَفَقا، وطارت فِرَقُه فَرَقا؛ وفُلَّ سَيفُه فصار عَصًا، وصُدِعَتْ حَصَاتُه وكان الأكْثَرَعَدَدًاوحَصًا؛ وكَلَّتْ حَمَلاَتُه وكانت قدرة الله تُصَرِّفُ فيه العِيانَ بالعِنَان، عُقُوبَةً من الله ليس لصاحب يَدٍ بهـا يَدَان؛ وعثَرَتْ قَدَمُه وكانت الأرض لهـا حَليفَه، وغُضَّتْ عَيْنُه وكانت [عُيُونُ](١) السيوف دونها كَسِيفَه؛ ونام جَفْنُ سَيْفه وكانت يَقَظَتُه تُرِيقُ نُطَفَ الكَرىٰ من الجُفُون، وجُدِعَتْ أُنُوفُ رِمَاحِه وطالَمَـا كانت شامِخَـةً بالمُنىٰ أو رَاعِفَةً بالمَنُون؛ وأضْحَتِ الأرض المقدّسة الطاهرةَ وكانت الطَّامث، والرَّبُّ المعبودُ الواحدَ وكان عندهم الثالث؛ فبُيُوت الشِّرْكِ مهدومه [ونُيُوبُ الكُفْر مَهْتُومَـه](٢) وطوائفه المُحَامِيَه، مُجْتَمِعةٌ علىٰ تسليم البلاد الحاميه(٣)، وشُجْعَانُه المتوافيه، مُذْعِنَةٌ لبَذْل المطامع الوافيه؛ لايَرَوْنَ فى مَاءِ الحديد لهم عُصْرَه، ولافى فِنَاءِ الأفنية لهم نُصْرَه؛ وقد ضُرِبَتْ عليهم الذِّلَّة والمَسْكَنَه، وبَدَّل الله مكانَ السَّيئة الحَسَنَه؛ ونَقَل بيْتَ عبادته من أيْدِى أصحاب المَشْأَمَة إلىٰ أيدى أصحـاب المَيْمَنَه .

(١) الزيادة عن وفيات الأعيان .

(٢) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل .

(٣) فى وفيات الأعيان "القلاع" .

وقد كان الخادم لَقِيَهُم اللَّقاةَ الأولىٰ فأمَدَّه اللهُ بمُدَارَكَتِه، وأنْجَدَه بملائكته؛ فكسرهم كَسْرَةً مابعدها جَبْرٌ، وصرعهم صَرْعَةً لايَنْتَعِش بعدها بمشيئة الله كُفْرٌ، وأسَرَ منهم من أسِرَت به السلاسل، وقَتَلَ منهم من فَتَكَتْ به المَنَاصِل، وأَجْلَتِ المَعْرَكَةُ عن صَرْعىٰ من الخَيْلِ والسِّلاح [والكُفَّار، وعن أنصاف مجيل فإنَّه قَتَلَهُم بالسُّيوف الأفْلاقِ والرِّماحِ الأكْسَار، فنِيلُوا بثَأْرٍ من السِّلاح ونالوه أيضا بثار](1) فَكَمْ أَهِلَّةَ سيوفٍ تَقَارَضَ الضِّرَابُ بها حتَّى صارت كالعَرَاجِين، وكم أَنْجُم أسِنَّةٍ(2) تبادلت الطِّعَانَ حتَّى صارت كالمَطَاعِين؛ وكَمْ فَارِسِيَّةٍ ركض عليها فارسُها الشَّهْمُ إلىٰ أجَلٍ فَٱخْتَلَسَه، وفَغَرَتْ تلك القَوْسُ فَاهَا فإذا فُوهَا قد نَهَشَ القِرْنَ علىٰ بُعْدِ المسافة فَٱفْتَرَسَه؛ وكان اليَوْمُ مَشْهُودا، وكانت الملائكة شُهُودا؛ وكان الكُفْر مفْقُودا والإسلام مَوْلُودا، وجعل الله ضُلُوعَ الكُفَّار لنَارِ جَهَنَّمَ وَقُودا؛ وأُسِرَ المَلِكُ وبيده أوْثَقُ وَثَائِقِه، وآكَدُ وَصْلِه بالدِّين وعَلَائِقِه؛ وهو صَلِيبُ الصَّلَبُوت، وقائد أهل الجَبَرُوت؛ وما دُهِمُوا قطُّ بأمْرٍ إلَّا وقَامَ بين دَهْمَائِهم يَبْسُط لهم بَاعَه، ويُحَرِّضُهم وكان مدُّ اليَدَيْنِ فى هذه الدَّفْعَة وَدَاعَه؛ لاجَرَمَ أنَّهم يَتَهَافَتُ علىٰ ناره فَرَاشُهم، ويَجْتَمِعُ فى ظِلِّ ظَلَامه خَشَاشُهم؛ ويُقاتلون تحت ذلك الصَّلِيبِ أصْلَبَ قِتَالٍ وأصْدَقَه، ويَرَوْنَه ميثاقاً يَبْنُونَ عليه أشَدَّ عَقْدٍ وأوْثَقَه، ويَعُدُّونَه سُورًا تَحْفِرُ حَوَافِرُ الخَيْل خَنْدَقَه.

وفى هذا اليوم أُسِرَتْ سَرَاتُهم، وذَهَبَتْ دُهَاتُهم [ولم يُفْلِتْ منهم معروف إلا القَوْمَص، وكان لعنه اللهُ مَلِيًّا يوم الظَّفَر بالقِتَال، ومَلِيًّا يَوْمَ الخِذْلَانِ](3) بالاحتِيَال؛ فنجَا ولٰكِنْ كَيْف، وطار خَوْفًا من أن يَلْحَقَه مِنْسَرُ الرُّمْح أو جَنَاح السَّيْف؛

(١) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل .

(٢) فى وفيات الأعيان وفى رسائل القاضى الفاضل الفتوغرافية "قنًا" .

(٣) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ومن وفيات الأعيان .

ثم أخذه الله تعالىٰ بعد أيامٍ بيَده، وأهلكه لمَوْعِدِه؛ فكان لِعدَّتِهم فَذَالك، وٱنْتَقَل من مَلَكِ المَوْتِ إلىٰ مالك .

وبعد الكَسْرَة مرّ الخادِمُ علىٰ البلاد فطَوَاهَا بما نَشَر عليها من الرَّاية العباسية السَّوداء صِبْغا، البَيْضَاء صُنْعا، الخافِقَةِ هي وقلوبُ أعدائها، الغالبةِ هي [وعزائم أوليائها] (١) المُسْتَضَاءِ بأنوارها إذا فتَح عينَهَا البِشْر، وأشارَتْ بأَنَامل العَذَبَات إلىٰ وجْه النَّصْر؛ فافتتح بلد كذا وكذا وهذه [كُلُّها] (١) أمْصَارٌ ومُدُن، وقد تُسَمَّى البلادُ بِلَادًا وهي مَزَارِعُ وفُدُن؛ وكل هذه ذَوَاتُ مَعَاقِلَ ومعَاقِر، وبِحَارٍ وجَزَائِر، وجَوَامِعَ ومنَائِر، وجُمُوعٍ وعساكِر؛ يتجاوزها الخادِمُ بعد أن يُحْرِزَها، ويتركها وراءه بعد أن يَنْتَهِزَها؛ ويَحْصُدَ منها كُفْرا ويَزْرَعَ إيمانًا، ويَحُطَّ من منائر جوامعها صلبانا ويَرْفَعَ أَذَانًا؛ ويُبَدِّلَ المذابِحَ منابِرَ والكَنَائِسَ مساجد، ويُبَوِّئَ بعد أهل الصُّلْبَان أَهْلَ القُرْءان للذَّبِّ عن دين الله مَقَاعِدَ . ويُقِرَّ عَيْنَه وعُيُونَ أهل الإسلام أنْ تَعَلَّق النَّصْرُ منـه ومن عسكره بجَارٍّ ومجرور، وأنْ ظَفِرَ بكُلِّ سُورٍ ما كان يُخَافُ زِلْزَالُه وزِيَالُه إلىٰ يوم النَّفْخِ في الصُّورِ . ولمَّـا لم يَبْقَ إلا القُدْسُ وقد ٱجْتَمَع إليها كُلُّ شَرِيدٍ منهم وطَرِيد، وٱعتصم بمَنَعَتِها كُلُّ قريب منهم وبَعِيد؛ وظَنُّوا أنها من الله ما نِعَتُهم، وأن كَنِيسَتَها إلىٰ الله شافِعَتُهم؛ (٢) فلمَّا نازَلَهـا الخادم رَأَىٰ بَلَدًا كبِلَاد، وجَمْعًا كيوم التَّناد؛ وعَزائِمَ قد تأَلَّبَتْ وتأَلَّفَتْ علىٰ المَوْت فنزلت بعَرْصَتِه، وهَانَ عليهـا مَوْرِدُ السَّيْف وأنْ تَمُوتَ بغُصَّتِه؛ فزَاوَلَ البَلَدَ من جانِبٍ فإذا أَوْدِيَةٌ عميقه، ولُجَجٌ وَعْرَةٌ غَرِيقه؛ وسُورٌ قد ٱنْعَطَفَ عَطْفَ السِّوَار، وأَبْرِجَةٌ قد نزلت مكان الواسـطة من عِقْدِ الدار؛ فعَدَلَ إلىٰ جِهَة أخرىٰ

---

(١) الزيادة من رسائل القاضي الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) جواب لمـا الأولىٰ مفهوم من المقـام . أنظر ما كتبناه عنـد الكلام علىٰ هذه الرسالة فيما تقـدم (ج ٦ ص ٥٠١) .

كان للطامع عليها مُعَرَّج، وللخَيْلِ فيها مُتَوَلَّج؛ فنزل عليها، وأحاط بها وقَرُبَ منها؛ وضَرب خَيْمَتَه بحَيْثُ يناله السِّلاح بأطرافه، ويُزَاحِمُه السُّور بأكْتَافه؛ وقابلها ثم قَاتَلها، ونزلها ثم نَازَلَها، وبرز إليها ثم بارزَها، وحَاجَزَها ثم نَاجَزَها؛ فضَمَّها ضَمَّةَ ٱرْتَقَبَ بعدها الفَتْح، وصَدَعَ أهْلَهَا فإذا هُمْ لايَصْبِرُون - علىٰ عُبُودِيَّة الحَدِّ - عن عِتْقِ الصَّفْح؛ فراسلوه ببَذْلِ قَطِيعَةٍ إلىٰ مُدَّه، وقصدوا نَظِرَةً من شِدَّةٍ وٱنتِظَارًا لِنَجْده؛ فعرَفَهُم الخادِمُ فى لَحْنِ القَوْل، وأجابهم بلسَان الطَّوْل؛ وقدّم المَنْجَنِيقَات التى تتولّىٰ عُقُوبات الحُصُون عِصِيُّها وحِبَالُها، وأوْتَرلهم قِسِيَّها التى تَضْرِب فلا تُفَارِقُها سِهَامُها ولا يفارق سِهَامَها نِصَالُها؛ فصافَحَتِ السُّورَ بأكتافه فإذا سَهْمُها فى ثَنَايا شُرُفَاتِها سِوَاك، وقــدَّم النَّصْرُ نَسْرًا من المَنْجَنِيقِ يُخْلِدُ إخْلادَه إلىٰ الأرض ويَعْلُو عُلُوُّه إلىٰ السِّمَاك؛ فشَجَّ مرادِعَ أبراجها، وأسْمَعَ صَوْتُ عَجِيجِها [صُمَّ أعْلاجِها] (1) ورفع مُثَارَ عَجَاجِها؛ فأخلىٰ السُّورَ من السَّيَّاره، والحَرْبَ من النَّظَّاره؛ فأمكن النَّقَّابُ، أن يُسْفِر للحرْبِ النِّقَاب، وأن يعيد الحَجَر إلىٰ سِيرَتِه [الأولىٰ] (1) من التُّراب؛ فتقــدّم إلىٰ الصَّخْرِ فمَضَغَ سَرْدَه بأنياب مِعْوَلِه، وحَلَّ عَقْدَهُ بضَرْبِهِ الأخْرَقِ الدَّالِّ علىٰ لَطَافَة أَنْمُله؛ وأسمع الصَّخْرة الشريفةَ حَنِينَه وٱستغاثته إلىٰ أن كادت تَرِقُّ لمُقَبِّله؛ وتَبَرَّأ بعضُ الحِجارة من بَعْض، وأخذ الخَرَابُ عليها مَوْثِقًا فلَنْ تبرَحَ الأرْض؛ وفتح فى السُّور بابا سَدَّ من نَجَاتِهم أبوابا؛ وأخذَ ينقب فى حَجَره فقال عنده الكافر: ﴿يَالَيْتَنِي كُنْتُ تُرابا﴾ فحينئذ يَئِسَ الكفار من أصحاب الدُّور، كما يَئِسَ الكُفَّارُ مِن أَصْحَابِ القُبُور؛ وَجَاءَ أَمْرُ اللهِ وغَرَّهُمْ باللهِ الغَرُورُ.

وفى الحــال خرج طاغيــة كُفْرهم، وزِمَامُ أمْرِهم؛ ٱبن بارزان سائلا أن يُؤْخَذَ البَلَد بالسَّلام لا بالعَنْوه، وبالأمان لا بالسَّطْوَه؛ وألقىٰ بيــده إلىٰ التَّهْلُكَه؛ وعلاه ذُلُّ

(1) الزيادة عن وفيات الأعيان.

المَلْكَةِ بعد عِزِّ المملكه، وطرح جَبِينَه فى التراب وكان جَبِينًا لا يَتَعاطَاه طَارِح، وبذل مَبْلَغًا من القطيعــة لا يَطْمَحُ إليــه طَرْفُ آمِلٍ طَامِح؛ وقال : هاهنا أُسَارىٰ مؤمنون يتجاوزون الألوف، وقد تعاقد الفَرَنْج علىٰ أنهــم إن هُجِمَتْ عليهم الدار، وحَمَّلت الحَرْبُ علىٰ ظهورهم الأوزار، بُدِئَ بهم فعُجِّلُوا، وثُنِّيَ بنساء الفَرَنْج وأطفالهم فقُتِّلُوا؛ ثم ٱستقْتَلُوا بعد ذلك فلم يُقْتَلْ خَصْمٌ إلا بعد أن يَنْتَصِف، ولم يُسَلَّ(١) سيفٌ من يدٍ إلا بعد أن تنقطِعَ أو ينْقَصِف، وأشار الأمراءُ بالأخذ بالميسور، من البَلَد المأسور؛ فإنَّه إن أُخِذَ حَرْبًا فلا بُدَّ أن تقتحِمَ الرجالُ الأنجاد، وتَبْـذُل أنفُسَها فى آخر أمرٍ قد نِيلَ من أوَّلِه المُراد، وكانت الجِرَاحُ فى العساكر قد تقدّم منها ما ٱعتقَل الفَتَكَات، وٱعْتَاقَ الحرَكَات، فقُبِلَ منهم المَبْذُولُ عن يَدٍ وهم صَاغِرُون، وٱنصَرَفَ أهلُ الحَرْب عن قُدْرَةٍ وهم ظاهِرون، ومَلَكَ الإسلامُ خِطَّةً كان عهدُه بها دِمْنَةَ سُكَّان، نخدمها الكُفْرُ إلىٰ أن صــارت رَوضَــةَ جِنَان؛ لا جَرَمَ أنَّ الله أخرجهم منها وأهبطهم، وأرضىٰ أهلَ الحَقِّ وأسخطهم؛ فإنَّهم خَذَلَهم الله حَمَوْها بالأَسَــلِ والصِّفَاح [وبَنَوْها بالعَمَدِ والصُّفَّاح(٢)] وأودعوا الكنائس بهاوبُيُوت الدّيوية والٱستبارية منها كُلَّ غريبةٍ من الرُّخَام الذى يَطَّرِدُ ماؤه، ولا يُطْرَدُ لَأْلاؤه؛ قد لَطُفَ الحديدُ فى تَجْزيعه، وتَفَنَّنَ فى تَوْشِيعه؛ إلىٰ أن صار الحديدُ، الذى فيه بَأْسٌ شــديد، كالذَّهَبِ الذى فيه نَعِيمٌ عَتِيد؛ فما تَرىٰ إلا مقاعدَ كالرِّيَاضِ(٣) لها من بَيَاضِ الترخيم رَقْراق؛ [وعَمَدًا كالأشجار لها من التَّنْبِيتِ أوراق(٤)] .

---

(١) فى وفيات الأعيان (ج ٢ ص ٥٨٨) ورسائل القاضى الفاضل "يفك" .

(٢) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ووفيات الأعيان وٱنظر ما تقدم من هــذا المطبوع (ج ٦ ص ٥٠٣) .

(٣) فى الأصل "كالأسمار" وفى رسائل القاضى الفاضل "للرياض" والتصحيح من وفيات الأعيان .

(٤) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ووفيات الأعيان .

وأوعَزَ الخادمُ بردّ الأقصىٰ إلىٰ عَهْدِه المعهود، وأقام له مِنَ الأَئِمَّة مَنْ يُوَفِّيه وِرْدَه المورود، وأقيمت الخُطْبة يوم الجمعة رابعَ شهر شعبان فكادت السموات يَتَفَطَّرْنَ للسُّجُوم لا للوُجُوم، والكواكبُ [منها] يَنْتَثِرْنَ للطَّرَب لا للرُّجُوم، ورُفِعت إلىٰ الله كَلِمَةُ التوحيد وكانت طَرَائقُها مسدوده، وظهرت قُبُور الأنبياء وكانت بالنَّجَاسات مكدوده، وأقيمت الخَمْسُ وكان التثليث يُقْعِدُها [وجَهَرَتْ الألْسُنُ بالله أكبرُ وكان سِحْرُ الكُفْر يَعقِدُها] (١) وجُهِرَ بٱسم أمير المؤمنين فى وَطَنِه الأَشْرَف من المِنْبَر، فرُحِّبَ به تَرْحِيبَ مَنْ بَرَّ بمَنْ بَرّ، وخَفَقَ عَلَماه فى حِفَافَيْه، فلو طار به سُرُورا لَطَارَ بجَنَاحَيْه .

وكتَابُ الخادمِ وهو مُجِدٌّ فى ٱستفتاح بَقِيَّة الثُّغُور، وٱستشراحِ ما ضَاقَ بتَمَادِى الحَرْبِ من الصُّدُور، فإنَّ قُوىٰ العساكر قد ٱسْتُنْفِدَتْ مَوارِدُها [وأيامَ الشِّتَاء قد مَرَدَتْ مواردُها] (١) والبلادُ المأخوذة المشارُ إليها قد جَاسَتِ العساكرُ خلاَلَهَا، ونَهَبَتْ ذَخَائِرَها وأكلت غِلاَلَها، فهى بِلاَدٌ تُرْفَد ولا تَسْتَرْفَد، وتُجَمُّ ولا تَسْتَنْفَد، ويُنْفَقُ عليها، ولا يُنْفَقُ منها، وتُجَهَّزُ الأَسَاطِيلُ لبَحْرها، وتُقَامُ المرابِطُ لِبَرِّها، ويُدْأَبُ فى عمَارة أسوارها، ومَرَمَّاتِ مَعَاقِلِها، وكُلُّ مَشَقَّةٍ فهى بالإضافة إلىٰ نِعْمَةِ الفَتْح مُحْتَمَلَه، وأَطْمَاعُ الفَرَنْج [فيما بعد ذٰلك مَذَاهِبُها غيرُ مُرْجِئَةٍ ولا مُعْتَزِله ؛ فلن يَدْعُوا دَعْوَةً يرجو الخادمُ من الله أنَّها لا تُسْمَع، ولَنْ تزولَ] (٢) أيديهم من أطواق البِلَادِ حتّىٰ تُقْطَع .

وهذه البشائرُ لها تفاصيلُ لا تكادُ من غير الألسنة تَتَشَخَّص، ولا بِمَا سِوَى المُشَافَهَةِ تَتَلَخَّص ؛ فلذلك نَفَّذْنَا لِسَاناً شَارِحاً، ومُبَشِّراً صَاحاً، يَنْشُر الخبرَ علىٰ سِيَاقَتِه، ويَعْرِضُ جَيْشَ المَسَرَّة من طَلِيعَتِه إلىٰ سَاقَتِه .

---

(١) الزيادة من رسائل القاضى الفاضل ومن وفيات الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ورسائل القاضى الفاضل ''ولن يفكُّوا'' .

قلتُ : وقد وقفْتُ علىٰ نسـخة كتاب كُتِبَ به عن المُكْتَفِى بالله، عند ما بَعَثَ محمدَ بن سليمان الكاتبَ إلىٰ الديار المصرية، فانتزعها من يد بنى طُولون وٱستولىٰ عليها للخليفة، فى نحو كُرَّاسَةٍ، تاريخها سنة ثمان وستين ومائتين، أوّلها : أما بعدُ فالحمد لله العَلِىِّ الكبير، العزيز القدير؛ أضْرَبْتُ عن ذكرها لطولها .

الصـــــنف الثامن

(المكاتبة بالاعتذار عن السلطان فى الهزيمة)

قال فى "موادّ البيان" : من أخلاق العامّة تقبيحُ سِيرَةِ السلطان إذا زَلَّ فى بعض آرائه ، والإزْرَاءُ علىٰ تدبيره فى جَيْشٍ يُجَهِّزه فيُكْسَر، ونحو ذلك : مما لا يسْلَمُ من مثله ، والإفاضة فيــه والتشنيع به . فيحتاج إلىٰ مكاتبتهم بما يَتَلَافىٰ الوَهْنَ ويقيم العُــذْر، كما يكاتبهم بتفخيم المِنَح، وتعظيم الفُتُوحات، والتَّحَدُّث بمواقع المواهب. وشكر الله تعــالىٰ علىٰ إســباغ النِّعَم ، والإظْفَارِ بأعداء الدين والدَّوْلة : لِيُقَوِّى بذلك مُنَّتَهم، ويُرْهِفَ بَصَــائِرَهم ويَسْتَخْلِصَ طاعتهم، ويملأ صــدورَهم رَهْبَة . قال : وليست لهــذه الكُتُب رسومٌ ينتظم كُلَّ ما وقع فيهــا : لاختلاف ما يلام فيــه ويعتـــذر .

ثم قال : ونحن نَرْسُم فى أصوله قولا وجيزا : وهو أن يَقْتَضِبَ الكاتبُ له المعاذيرَ التى تُحَسِّن أُحْدُوثَتَه ، وتستر زَلَّتَه ؛ والحُجَج التى تُعيدُ اللّائم عاذرا ، والذّامَّ شاكرا ؛ وتُوجبُ التقريظ من حَيْثُ يجب التأنيب، والإحْمادَ من حيث يُسْتَحَقُّ التَّذْنيب. مِثْلُ أن يعتذرَ عن هزيمة جَيْشٍ، فيقول : وقد علِمْتم أن الحَرْب سِجَــال ، والدنيا دُوَلٌ تُدَال ؛ وقد تَهُبُّ رِيحُ النَّصْر للقَاسِطِين علىٰ المُقْسِطين ٱمتحانًا من الله وبَلْوىٰ،

ليَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ويَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ - من غير أن يُصَرِّح بباطلٍ ، ولا يُطْلِقَ كذبا مَحْضًا ، ولا يَخْتَلِقَ زُوراً يعلم الناسُ خِلافَه ؛ فتتضاعَفُ الهُجْنه ، وتتكَاثَفُ المِحْنة ؛ فإنه لاشَىْءَ أقبحُ علىٰ السلطان ، وأقْدَحُ فى جَلالَةِ الشان ؛ من أن يُعْثَرَ فى كُتُبه علىٰ إفْكٍ قد يعلمه بَعْضُ مَنْ يَقِفُ عليه ؛ بل ينبغى أن يعتمدَ فى ذلك حُسْنَ التَّخَلُّص والتَّوْرِيَةَ عن الغَرَض ، وآستعمالَ الألفاظ التى تَدُلُّ علىٰ أطراف الحال ولا تُفْصِح بحقائقها .

وهذه نُسْخَةُ كتاب من ذلك .

الحمد لله الذى سَاسَ الأمورَ بحِكْمَتِه ، وأبان فيها مَوَاقِعَ قُدْرَته ؛ وسلك فيها طريقَ مَشِيئَته ، وصَرَّفها علىٰ ماراَه عَدْلًا بين العباد فى أقسام نِعْمَتِه ومِحْنَتِه ، وأحوال بَلْوَاه وعافيته ؛ وجعلَ الأيامَ فيهم نُوَبا ، والأحوالَ بينهم عُقَبا ؛ فخَصَّ أولياءَه وأهلَ طاعته بالنَّصر فى المُحَاكمه ، والصُّلْح عند المُخَاصمه ، والظُّهُور علىٰ من شَاقَّهُم وعاداهم ، والقَهْر لمن ضَادَّهم ونَاوَاهُم ؛ إنجازا لما وَعَدبه الصابرين المُحْتَسبين ، وإعزازا للدِّين وأنصاره من المؤمنين ؛ ولم يُخْلِ أعداءَه من دَوْلَةٍ أدالها لهم ، وجَوْلَةٍ علىٰ الحق زادها فى طُغْيانهم ؛ ووصل الإمْلاءَ لهم فيها بخِذْلانهم : ليَجِبَ الثوابُ للمحسنين ، ويَحِقَّ العذابُ علىٰ الكافرين . فقال فى مُحْكَم كتابه - وقد ظهر المشركون علىٰ المسلمين - ﴿ إنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ﴾ . وقال : ﴿ لِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴾ وناوب بين الفريقين فى المصائب ، والمواهب ، والمَسَارّ ، والمَضَارّ ؛ ليَشْفِيَ الله صدورَ المؤمنين ، وليُمَحِّص مافى قلوبهم ؛ ويوجبَ لهم إخلاصُ السرائر فى طاعته ، والجهادِ فى سبيله ، والنُّصْرَةِ

لرسوله، والمُرَاماةِ عن دينه، والمدافعةِ عن حريمه؛ضِعْفَ الثَّواب وحُسْنَ المآب، ويُحِلَّ بالمشركين ماأعدّ لهم فى دار الجزاء من أليم العذاب .

وإذا كان الحـال بين الفَريقَيْن المُتلاقِيَيْن، والفِئَتَيْن المُتَجاوِرَتين،والحِزْبَيْن المُتَحاكَمَيْن ؛فى تَعاوُر الغَلَبَه،وتَعاقُب الدَّوْله؛ جاريا علىٰ تقديرالله ومتصرفا علىٰ حُكْمِه، ومُسْتَوسِقًا علىٰ ماسَبَق فى عِلْمه؛ فليس يُغْنِى فى ذٰلك زيادةُ عَدَد، ولا آتصال مَدَد؛ ولا قُوَّةُ أيْد، ولا لُطْفُ كَيْـد، ولا آختيارُ وَقْتٍ مَحْمُودٍ للقتال، ولا الآنْتِخابُ لأهل البَسَالَةَ والنَّجْدَةِ من الرجال ؛ ولا يجبُ أن يَسْتَرِيثَ النَّصرَ مَنْ أبْطَأَ عنه، ويسْتَشْعِرَ الجَزَعَ من نَالَ خَصْمُه منه ؛ بعد تحصيلِه السلامةَ فى نفسه، وقِيَامِ العُذْرله بعنايته وجِدِّه؛ وقد جمع الله للأمير من المناقبِ ـ التى وَرِثها عن آبائه، وحازها فى صدره؛ والحيازَة فيما بَانَ من فَضْل بَأْسه، وثبات جَأْشه؛ وأَصَالَةِ رَأْيِه، وصِحَّةِ تدبيره؛ وإيفائه الحَرْبَ شروطها، والهَيْجاءَ حُقُوقَها : من الحَزْمِ والتُّؤَدَه، والإقْدامِ عنـد الفُرْصَه؛ والإصابةِ فى التَّقْدير والتَّعْبِير، والآحتياط فى سـدِّ مواقع الخَلَلِ والعَوْره، وإعمـالِ النَّظَر والرَّوِيَّه؛ لولا آعتراض القَضَاء الذى هو مَالكُ نَوَاصِى العبـاد، وغيرُ مدفوعٍ بمِحَالٍ ولا جِلَاد ، ولا قُوَّةٍ ولا عُدَّةٍ ولا عَتَـاد ـ ما أوفىٰ حُسْنُهُ علىٰ مَزِيَّةِ الظَّفَر، وزاد عُظْمُه فى السَّنَاءِ والخَطَر؛ إلىٰ ماشَمِلَ عَسْكَرَه فى مُنْقَلَبِه بمراعَاتِه لهم ، ومُدَافَعته من ورائهم؛ حتّٰى تَوَافىٰ الجَمْعُ مَوْفُورِين، وآبُوا سالمـين غانمين؛ وبالله الحَوْلُ والقُوَّةُ وعليـه ضَمَانُ الإدالة علىٰ ما جرى به وَعْدُه الصادق، وأخبر عنه كِتَابُه الناطق؛ وهو حَسْبُ أمير المؤمنيـن وكَافِيه ، ونَاصِرُه ووَالِيـه ، ونِعْمَ الوَكِيلُ والظَّهِير، والمَوْلىٰ والنَّصِير؛ وصلّى الله علىٰ سـيدنا محمد سَـيِّد المرسلين ، وإمام المتَّقين، وآله الطيبين أجمعين؛ وسَلّمَ تسليما .

وفى مثله من إنشاء أحمد بن سعيد .

احكام الله جَلَّ جَلَاله جاريةٌ علىٰ سُبُلٍ جامعةٍ لوجوه الحِكْمه ، منْتَظِمَةٍ لأسباب الصلاح والمَعْدَله . فمنها ما عرَّف الله أوْلِيـاءَه والمندوبين بطاعتـه ، والمجموعين بهِدَايَته ؛ طَرِيقَ المُرَادِ منه ، وسَبَبَ الدَّاعِى إليه ، والعِلَّةَ فيما قُضِى من ذٰلك لحِينه ، والصُّورَةَ المقتضية له . ومنها ما آستَأْثَرَ بعِلْمِه ، وطَوىٰ عن الخَلْقِ معرفةَ حالِه ؛ فهو ـ وإن أشكل عليهم مَوْضعُ الحاجة إليه ، ومَوْقِـعُ العائدة به ؛ ورؤىَ بهم آضطِّرَاباً فى ظاهره عند تَأَمُّلِهم إياه بمقادير عقولهم ، ومَبَالِـغِ أفهامهم ـ مَبْنِىٌّ علىٰ أوْثَقِ آساس الحِكْمه ، وأثْبَتِ أركان الصَّوابِ علىٰ الجمـله ؛ وكيف لايكون كذلك ؟ والله خالق الأشياء كُلِّها ، وعالم بها قبل كَوْنِها ؛ فى أحوال تَكْوِينِه إياها وبَعْـدَه فى منزع غاياتها ومَقْضِىِّ عواقبها ؛ فليس تَخفىٰ عليه خَافِيَه ، ولاتَعْزُبُ عنه دَانِيَةٌ ولاقَاصِيَه ؛ ولايسقط عن معرفته فَضْلُ مابين الخَاطِرَيْن والوَهْمَيْن فى الخَير والشَّر ، ومابين الجَبَلَيْنِ والذَّرَّتَيْن فى الوُفُور والغمور ، فكيف بما يبرزه الظهور ، ويُخْبِرُ فيه عن موضع التدبير ، المُحْتَاجِ فيه إلىٰ إحكام الصَّنْعَة وإتْقَان التقدير ؛ ومَنْ ظَنَّ أنَّ شيئا من ذلك يخرج عن نَهْجِ الصواب ، ويخـالف طَرِيقَ الصَّلاح ؛ فقد ضَلَّ من حَيْثُ ضَلَّل ، وغَلِط من حيثُ غَلَّط ، وآتَّصَـل سُوءُ ظَنِّه ، وفساد فِكْرِه ؛ بالزِّرَايَةِ علىٰ فِعْلِ رَبِّه ، تعالىٰ عن قَوْلِ المُبْطِلِين ، ورَجْمِ الشَّيَاطين .

ثم إن لله جَلَّ جَلَالُه عادةً فى الجَيْشَـيْن المتحاربين ، والحِزْبَيْن المتحاكمين : من عباده المؤمنـين ، وأضْدَادِهم المفسدين المُلْحِدِين ؛ فى المُدَاوَلَة بينهما ، والمُعَاقَبَة بين الفِئَتَيْنِ منهـما ؛ فى العَجْز والظُّهور ، والوفَاء والقُصُور ؛ والمُعَافاة والآمْتِحَان ،

والنَّصْر والخِـذْلَان ؛ والإعلاء لرَايَةِ الحَقِّ فى حال، والإمْلَاء للبـاطل فى أخرىٰ ؛ بتضْـمِينِ الخِـيَرةِ لأوليـائه ، والدائرة علىٰ أعدائه ؛ عاجلا بالتَّمْحِيص لهؤلاء ، وبالمَحْقِ لأولٰئك؛ بما يَصِلُ إليهم من مُصِيبَتِه ، ويَنُوبُهم فى حاضر الدنيا من رَغْبَته؛ ويُحِلُّ العَادِين من المشركين دَارَ الفَاسِقِين ، ويَجْعَلُ العَاقِبَةَ لُلْمُتَّقِين ؛ ومن سَعِدَ بِقسْمٍ من التوفيق، وحَظٍّ من فائدة الإرشاد ؛ فليس (١) فى هذه الحالة بزيادة أنْصَارٍ وعِدَّه، وفضل عَتَادٍ وعُدَّه ؛ وبَسَالَةٍ ونَجْدَه، وأَيْدٍ وقُوَّه، وسَـعَةٍ وبَسْطَه ؛ ولا يَعْدُو أن يُسَـلِّمَ لله تعالىٰ قَاضِيًا له وعليـه ، ويُوفِّىَ بإحدىٰ الحُسْنَيَيْنِ من عُلُوِّه، أو غَلَبَـةِ عَدُوِّه، أو يتوكل عليـه ؛ وهو حَسْبُه مُنْعِمًا، ومُمْتَحِنا ومُعَافِياً ومُسَلِّمـا؛ ونِعْمَ الوكِيل .

قلت : وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية مُسْتَعْمَلٌ بين الكُتَّاب، دائر فى مُصْطَلَحَاتِهم إلىٰ الآن . وللشَّيْخِ شِهَـابِ الدين محمود الحَـلَبِىّ فى ذلك تَفَنُّنَاتٌ كثيرةٌ، أورد بعضَها فى كتابه "حُسْن التَّوَسُّل" .

فمن ذلك ما أنشأه فيمن هُزِمَ هو وجَيْشُه، يَتَضَمَّنُ إقامة عُذْرِه، ووَصْفَ ٱجْتِهَادِه؛ ويَحُثُّ علىٰ معاودة عدوّه، والطَّلَبِ بثَارِه؛ وهو :

هـذه المكاتبة إلىٰ فلان : لازَالَ مأْمُونَ الغِرَّه، مَأْمُولَ الكَرَّه، مُجْتَنِيًا حُلْوَ الظَّفَرِ من أَكْمَامِ تلك المَرَّةِ المُرَّه؛ راجيا من عواقب الصَّبْر أن يُسْفِرَ له مَسَاءُ تلك المَسَاءَة عن صُبْحِ المَسَرَّه، واثقا من عوائد نَصْر الله بإعادته ومن معه فى [القُوَّةِ و] (٢) الٱستظهار كما بدأهم أوّل مَرَّه .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله "فليس ٱنتصاره" تأمل .

(٢) الزيادة من "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

أصدرناها وقد ٱتّصل بنا نَبأُ ذلك المقام الذى أوضَحتْ فيه السيوفُ عُذْرَها ، وأبْدَتْ به الكُمَاةُ صَبْرَها ، وأظْهرتْ فيه الحُمَاةُ من الوَثَبَاتِ والثَّبَاتِ ما يَجب عليها ، وبَذَلَتْ فيه الأبْطَالُ من الجِلَاد جُهْدَها ولٰكِنْ لم يَكُن الظَّفَرُ إليها ؛ وكان عليهم الإقْدَامُ علىٰ غَمَرَاتِ المَنُون ، والٱصْطِلَاءُ بجَمَرَاتِ الحَرْب الزَّبُون ، ولم يَكُنْ عليهم إتْمَامُ ماقُدِّر أنّه لايكون ؛ فكابرتْ رِقَابُ الأعداء فى ذلك المَوْقِف السُّيُوف ، وكاثرت أعْدَادُهم الحُتُوف ، وتدفَّقَتْ بِحَارُهم علىٰ جَدَاوِلِ مَنْ معه ولولا حُكْمُ القَدَرِ لٱنْتَصَفَتْ تلك الآحاد من تِلْكَ الألوف ؛ فضَاقَ بٱزدِحَام الصفوف علىٰ رجاله المَجَالَ ، وزاد العدد علىٰ الجَلَد فلم يُفِد له الإقدام علىٰ الأوجال مع قُدُوم الآجال ؛ وأُمْلِي للكافرين بما قُدِّر لهم من الإنْظار ، وحصَلَ لهم من الٱستظهار ، وعُوِّضُوا بمَا لم يَعْرِفوه من الإقْدام عَمَّا أَلِفوه من الفِرَار . ﴿ ولَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ﴾ وقد ورد أنهم يُنْصَرُون كما نُنْصَر ، وإذا كانت الحُرُوب سِجَالاً فلا يُنْسَبُ إلىٰ مَنْ كانت عليه [وَبَالا] (١) إذا ٱجتهد ولم يُسَاعِدْه القَدَرُ أنه قَصَّر . مع أنه قد ٱشتهر بما فعله فى مَجَاله ، من الذَّبِّ عن رِجَاله ؛ وما أبداه فى قِتَاله ، من الضَّرْب الذى ما تَرَوَّى فيه خَصْمُه إلا بَدَرَه بارتجاله ؛ وأن الرِّماحَ التى ٱمتدّت إليه أخْرَسَ سَيْفُه أَلْسِنَةَ أسِنَّتِها ، والجِيَادَ التى أقدَمت عليه جعل طَعْنَةَ أكْفَالها مكانَ أعِنَّتها ؛ فأثبت فى مُسْتَنْقَع الموت رِجْلَه ، ووقف وما فى الموت شَكٌّ لواقِفٍ لِيَحْمِيَ خَيْله ورَجْلَه ؛ حَتّىٰ تحيَّز أصحابُه إلىٰ فِئَةِ مَأْمَنِهِم ، وأقام نَفْسَه دونهم دريئَةً لمن بَدَر من سَرَعَان القوم أو ظهر من مَكْمَنِهم ؛ وهذا هو المَوْقِفُ الذى قام له مَقَام النّصر ، إذ فاته النُّصراء وفاته النَّصر ، والمَقَامُ الذى أصيب فيه من أصحابه آحاد يدركهم أَدْنىٰ العَدَد وفُقِد

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٧) .

فيه من اعدائه مع ظهورهم ألوفٌ لايدركهم الحَصْر، [وكذا فليكن قَلْبُ](١) الجيش كالقَلْب يَقْوىٰ بقُوَّتِه الجَسَد، وإذا حقَّ اللِّقاءُ فلا يَفِرُّ عن كِنَاسِه إلا الظَّبْيُ ولا يَحْمى [عَرِينَه](١) إلا الأَسَـد؛ وما بَقِيَ إلا أن تَعْفُوَ الكُلُوم، وتَثُوبَ الحُلُوم؛ وتَنْـدَمِلَ الجِرَاح، وتَبْرأَ من فُلُول المَضارِب صُـدُورُ الصِّفَاح؛ وتنهضَ لاقتضاء دَيْنِ الدِّين، من غُرَمائه المُعْتَدين؛ وتُبادِرَ إلىٰ استنجاز وعد الله بأن الله يُمَحِّصُ المؤمنين، ويَمْحَقُ الكافرين؛ واللَّيْثُ إذا جُرِح كان أشـدَّ لثَبَاتِه، وأمَدَّ لوَثَبَـاتِه؛ والمَوْتُورلا يُصْطَلىٰ بناره، والثَّائِرلا يَرْهَبُ الإقدامَ علىٰ المَنُونِ فى طلب ثَاره؛ والدهر ذُو دُوَلٍ، والزمان مُتَلَوِّن إن دَجَتْ عليكم منـه بالقَهْر ليلةٌ واحدةٌ فقـد أشْرَقت لكم منه بالنَّصر ليَـالٍ أُوَل، فالمَوْلىٰ لا يلتفت إلىٰ مافات، ويُقْبِـلُ بفكْرِه علىٰ تدبير ما هو آت؛ ويُعِـدُّ للحرب عُدَّته، ويعجل أمَدَ الاستظهار ومُدَّته؛ ولا يؤخر فُرْصَةَ الإمكان، ولا يعيد ذِكْرَ مامَضىٰ فإنه دخل فى خَبَر كان؛ ولا يُظْهِرُ(٢) بما جَرىٰ عَجْزًا، فإن العاجز مَنْ ظَنَّ أنه يُصِيب ولا يُصَاب، ولا يَتَّخِذْ غيرظَهْرِ حِصَانه حِصْنًا فلا حِرْزَ أمنَعُ من صَهْوَةِ الجَوَاد ولا سُلَّمَ أسْـلَمُ من الرِّكَاب؛ ولْيَعْلَمْ أن العاقبة للمتقين، ويَدَّرِعْ جُنَّةَ الصَّـبر ليكون من النَّصْر علىٰ ثِقَةٍ ومن الظَّفَر علىٰ يَقِين، فإن الله مع الصابرين؛ ومن كان الله معه كانت يَدُه الطُّولىٰ، وإذا لقى عَدُوَّ الله وعَدُوَّه فَلْيَصْبِرْ لحَمْلَتِه فإنَّ الصبرَ عند الصَّدْمَةِ الأُولىٰ؛ والله تعـالىٰ يَكْلَؤه بعَيْنه، ويُمِـدُّه بعَوْنه، ويجعلُ الظَّفَر بعدُوِّه موقوفا علىٰ مطالبته له بدَيْنِه .

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) "حسن التوسل" ولا يظن ماجرىٰ الخ .

ومن ذلك ما كتبه على لسان المهزوم يتضمن الاعتذار ، ويصف الاحتفال بأخذ الثار .

هذه المكاتبة إلى فلان : أتبع الله ما ساءه من أمرنا مع العدو بما يسره ، وبلغه عنا من الانتصاف والانتصار ما يظهر من صدور الصفاح وألسنة الرماح سره ، وأراه من عواقب صنعه الجميل بنا ما يتحقق به أن كسوف الشمس لا ينال طلعتها وان سرار القمر لا يضره . توضح لعلمه أنه ربما اتصل به خبر تلك الوقعة التي صدقنا فيها اللقاء ، وصدمنا العدو صدمة من لا يحب البقاء ، وأريناه حربا لو أعانها التأييد فلت جموعه ، وأذقناه ضربا لو أن حكم النصر فيه إلى النصل أوجده مصارعه وأعدمه رجوعه . وحين شرعت رياح النصر تهب ، وسحاب الدماء من مقاتلهم تصوب وتصب ، وكرعت الصفاح في موارد نحورهم ، وكشفت الرماح خبايا صدورهم ؛ ومابقي إلا أن تستكمل سيوفنا الري من دمائهم ، وتقف صفوفنا على ربوات أشلائهم ؛ وتقبض بالكف من صفحت الصفاح عن دمه ، وتكف بالقبض يد من ألبسته الجراح حلة عندمه ؛ أظهروا الجزع في عزائمهم ، وحكموا الطمع في غنائمهم ؛ فحصل لجندنا عجب أعجل سيوفنا أن تتم هدم بنائهم ، وطمع منع جيوشنا أن تكف عن النهب إلى أن تصير من ورائهم ؛ فاغتنم العدو تلك الغفلة (١) التي ساقها المهلكان ، العجب والطمع ، وانتهز فرصة الإمكان (٢) ، التي أعانه عليها [المطمعان] (٣) إبداء الهلع ، وتخلية ما جمع ،

(١) كذا في حسن التوسل وفي الأصل "الفقرة" ولعلها مصحفة عن «الغفوة» .

(٢) في حسن التوسل " فرصة "الكرة" .

(٣) الزيادة عن حسن التوسل (ص ١١٩) .

فانتثر [من جَمْعِنا](١) بعضُ ذلك العِقْدِ المُنَظَّم، وٱنتقض من حِزْبنا رُكْنُ ذلك الصَّفِّ الذى أخذ فيه الزِّحامُ بالكَظَم؛ وثبت الخادم فى طائفة من ذَوِى القُوّةِ فى يَقِينِهم، وأرباب البصائر فى دِينِهم، فكسّرنا جُفُونَ السُّيوف، وحطَّمْنا صُدُورَ الرِّماح فى صدور الصفوف، وأرَيْنا تلك الألوفَ كيف تُعَدّ الآحاد بالألوف؛ وحُلْنا بين العَدُوّ وبين أصحابِنا بضَرْبٍ يَكُفُّ أطْماعَهم، ويَرُدّ سِرَاعَهُم، ويُعْمِى ويُصِمُّ عن الآثار والأخبار أبْصَارَهم وأسْمَـاعَهم؛ إلىٰ أن نَفَّسْنا للمنهزم عن خِنَاقه، وآيَسْنا طالِبَـه عن لَحَاقه، ورَدَدْناه عنه خائباً بعد أن كادَتْ يَدُه تَعْتَلِق بأطواقه؛ وأحْجَمَ العدُوُّ مع ما يرىٰ من قِلّتِنا عن الإقدام علينا، ورأىٰ منا جِدًّا كاد لولا كثرة جمعه يستسلم به إلينا؛ وعادوا ولنا فى قلوبهم رُعْبٌ يَثْنِيهم وهم الغالبون، [ويُدْرِكهم وهم الطالبون](١) ويَسْلُبُهم رداء الأمْنِ وهم السالبون؛ وقد لَمَّ الخادم شَعَثَ رجاله، وضم فِرَقهم(٢) بذخائر ماله؛ وأمَدَّهم بنَفَقَات أصلحت أحوالهم، وأطلقت فى طلب عَدُوِّ الله أقوالهم؛ وسِلاحٍ جَدَّدَ ٱستطاعَتَهم، وأعَانَ شَجَاعتَهم؛ وخُيُولٍ تكاد تسابِقُهم إلىٰ طَلَبِ عَدُوِّهم، وتَحُضُّهم علىٰ أخذ حَظِّهم من اللقاء كأنّها تساهمهم فى أجْرِ رَوَاحِهم وغُدُوِّهم؛ وقد نَضُوا رِدَاءَ الإعجاب عن أكتافهم، وٱعتَصَمُوا بعَوْن الله وتأييده لا بِقُوّةِ جَلَدِهم ولا بحِدّةِ أسيافهم؛ وسَيُعْجِلُون العدوّ ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ عن ٱندمال جِرَاحه، ويَتَعَجَّلون إليه بجيوش تسوءه طَلائِعُها فى مَسَائِه وتُصَبِّحُه كَتَائبها فى صَبَاحه؛ والله تعالىٰ لا يَكِلُنا إلىٰ جَلَدِنا، ولا يَنْزِع أعِنّة نَصْره من يَدِنا .

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ٩١٩) .

(٢) الأصـل "وضربهم" والتصحيح عن حسن التوسل .

الصــــنف التاسع
(المكاتبة بتوبيخ المهزوم وتقريعه والتّهكّم به)

وهذا النوع من المكاتبات قليل الوقوع، ولذلك لم يتعرَّضْ إليه فى "موادّ البيان". والذى ينبغى أن تُبْنىٰ المكاتبة فيه عليه ذِكْرُ هَزيمة المهزوم وما اسْتَولىٰ عليه من الغَلَبَة والقَهْر، وصورةِ الحال فى النُّصْرَةِ عليه، والاستيلاء علىٰ بلادِه وأموالِه وسائِر ذات يَدِه، وأسْرِ رجاله، واسترقاق ذرارِيهم ونِسَائِهم، ومايجرى مجرىٰ ذلك: ممَّا فيه إيلام خَاطِرِه، وتقطيعُ قَلْبِه حَسَراتٍ علىٰ ما نَالَه، ونحو ذلك ممَّا يدعو المكتوبَ إليه إلىٰ الطاعة، ويوجب الانْقِيَاد.

وهذه نسخة كتاب من هذا النَّمَط: كتَبَ به القاضى مُحْيِي الدِّين بن عبد الظاهر رحمه الله، إلىٰ البولس بمند(1) ملك الفرَنْج، المستولِى علىٰ طَرَابُلُسَ من الشام، وأَنْطَاكِيَة من بلاد العَوَاصم حين غَزَاه المَلِك (2) فى طَرَابُلُس، ثم قصد أنْطَاكِيَة فأخذها من عانِه(3)، وهى:

قد علم القُومَصُ الجليل المُنْتَقِلَةُ مخاطَبَتُه - بأخْذِ أَنْطَاكِيَةَ منه - من البُولسية إلىٰ القومصية؛ ألهمه الله رُشْدَه، وقَرَنَ بالخير قَصْدَه، وجعل النَّصيحةَ محفوظة عنده؛ ما كان من قَصْدِنا طَرَابُلُسَ وغَزْوِنا له فى عُقْرِ الدار، وماشاهده بعد رَحِيلنا من إخراب العمائر وهَدْمِ الأَعمار، وكيف كُنِسَتْ تلك الكنائس من علىٰ بساط الأرض ودَارَتِ الدَّوائرُ علىٰ كُلِّ دائر، وكيف جُعِلَتْ تلك الجزائرُ من الأجساد علىٰ سَاحِل البَحْر كالجزائر، وكيف قُطِّرتِ الرجال واسْتُخْدِمَت الأولادُ وتُمُلِّكَتِ الحَرائر، وكيف قُطِّعَت الأشجار ولم يُتْرك إلا مايَصْلُحُ لأعواد المَجَانيق - إن شاء الله تعالىٰ - والستائر،

(1) كذا بالأصل باهمال النقط وفى "الكامل" لابن الأثير (ج ١٠، ص ٢٥٤) "بيمند".
(2) بياض بالأصل مقدار كلمة. (3) كذا بالأصل ولعله "منه عنوة".

وكيف نُهِبَتْ لك ولرَعِيَّتِكَ الأموالِ والحريمُ والأولادُ والحواشي ، وكيف آستغنى الفقيرُ وتأَهَّلَ العَازِب وآستخدم الحَرِيمَ وركِبَ المَاشي ؛ هذا وأنت تَنْظُر نظَرَ المَغْشيِّ عليه من المَوْت ، وإذا سَمِعتَ صوْتا قلتَ فَزَعًا : عَلَيّ هذا الصَّوْت ؛ وكيف رَحَلْنا عنك رَحيل من يَعُود ، وأَخَّرْناك وما كان تأْخيرُك إلا لأَجَلٍ مَعْدُود ؛ وكيف فَارَقْنا بلادَك وما بَقِيَتْ فيها مَاشِيَه ، إلا وهى لدينا ماشيه ؛ ولا جَارِيه ، إلا وهى فى مِلْكنا جَارِيه ؛ ولا سَارِيه ، إلا وهى بين أيدى المَعَاوِلِ سَارِيَه ؛ ولا زرعٌ إلا وهو محصود ، ولا موجودٌ إلا وهو منك مفقود ؛ ومامَنَعَتْ تلك المَغَايِر(١) التى هى فى رُءُوس الجبال الشَّاهِقه ، ولا تلك الأَوديَةُ التى فى التُّخُوم مُخْتَرِقةٌ وللعقول خَارِقَه ؛ وكيف سُقْنَا عنك ولم يَسْبِقْنا إلىٰ مَدينَتِك أنْطَاكِيَةَ خبر ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تُصَدِّقُ أننا نَبْعُد عنك وإن بَعُدْنا فسَنَعُود علىٰ الأثَر ؛ وها نَحْنُ نُعلِمُك بما تَمّ ، ونُفْهِمُك بالبلاء الذى عَمّ .

كان رَحيلُنا عنك من طَرَابُلُس يوم الأربعاء ، ونُزُولُنا أَنْطَاكِيَةَ فى شهر رَمَضَان ؛ وفى حال النُّزُول خرجت عَسَاكِرُك للمُبَارَزَة وتَنَاصَرُوا فما نُصِرُوا ، وأُسِرَ من بينهم كند اسطمل(٢) فسأل فى مراجعة أصحابك ، فدخل إلىٰ المدينة ، فخرج هو وجماعة من رُهْبَانِك : وإن رَأْيَهم فى الخَيْر مُخْتَلِف ، وقَوْلَهم فى الشَّرّ واحد ؛ فلما رأيناهم قد فات فيهم الفَوْت ، وأنّهم قد قدّر الله عليهم المَوْت ؛ رَدَدْناهم وقُلْنا : نحن الساعَةَ لكم نُحاصِر ، وهذا هو الأوّلُ فى الإنذار والآخِر ؛ فرجعوا به مُتَشَبِّهين بفِعْلِك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخَيْلِك ورَجْلِك ؛ ففى بعض ساعة مَرَّشان المرشان ، وداخَلَ الرُّهْبَ الرُّهْبَان ؛ ولاَنَ للبلاء القَسْطَلاَن ، وجاءهم المَوْت من كُلِّ مكان ؛ وفتحناها بالسَّيْف

(١) لم يرد فى كتب اللغة جمع المغارة على مغاير ، وإنما جمعه مغارات .

(٢) كذا فى الأصل باهمال جميع الحروف .

فى الساعة الرابعة من يوم السبت رَابِع شَهْر رَمَضَان ، وقَتَلْنا كُلَّ من آخترتَه لِحِفْظها والمُحَامَاةِ عنها ، وما كان أحدٌ منهم إلا وعنده شَىْءٌ من الدنيا فما بقى أحدٌ منّا إلا وعنده شَىْءٌ منهم ومنهـا ؛ فلو رأيتَ خَيَّالتَـكَ وهى صَرْعىٰ تحت أرجل الخُيُول ، و يَارَك والنَّهَّابَةُ فيهـا تَصُول والكَسَّابَةُ فيها تَجُول ؛ وأمْوَالَك وهى تُوزَنُ بالقِنْطَار ، و إمَاءك وكُلَّ أرْبَعٍ منها تُبَاع فتُشْترىٰ من مَالِكَ بدينار ، ولو رأيت كَنَائِسَك وصُلْبَانُها قد كُسِّرَتْ ونُثِرَتْ ، وصُحُفُها من الأناجيل المُزَوَّرة قد نُشِرَتْ ، وقُبُورَ البَطَارِقَة وقد تغيرت ؛ ولو رَأَيْتَ عدوّك المُسْـلِمَ وقد دَاسَ مكان القدَّاس ، والمَذْبَحَ وقد ذُبِح فيه الرَّاهِبُ والقِسِّيسُ والشَّمَّاس ؛ والبَطَـارِقَةَ وقد دُهِمُوا بِطَارِقَه ، وأبناء المَمْلَكَةِ وقد دخلوا فى المَمْلَكه ؛ ولو شاهدتَ النِّيرانَ وهى فى قُصُورِك تَخْتَرِق ، والقتلىٰ بنَارِ الدنيا قبل نَارِ الآخرة تَحْتَرِق ؛ وقُصُورَك وأحوالُها قد حَالَت ، وكَنِيسةَ بونصر وكَنِيسةَ القُسِّـيَّان وقد زَلَّت كُلٌّ منهما وزَالت ـ لكُنْتَ تقول : يالَيْتَنِى كُنْتُ تُرَابًا ، وياليتنى لم أُوتَ بهذا الخَبَرِ كِتَابا ؛ ولكانت نَفْسُك تذهب من حَسْرَتِك ، ولَكُنْتَ تُطْفِئُ تلك النيرانَ بمَـاءِ عَبْرتك ؛ ولو رَأَيْتَ مَغَانِيَك وقد أقفرت ، ومَرَاكِبَك وقد أُخِذَت فى السُّوَيْدِيَّة بمَراكِبك ، لصارت شَوَانِيكَ من شَوانِيك ؛ ولتيقَّنْتَ أن الإلٰه الذى أنْطَاكَ أنْطَاكِيَةَ منك آسترجعها ، والرَّبَّ الذى أعطاك قَلْعَتَها منك قَلَعَها ومن الأرض آقتلعَهَا . ولْتَعْلَم أنَّا قد أخذنا ـ بحمد الله ـ منك ما كُنْتَ أخذتَه من حُصُون الإسلام ، وهو دَرْكُوش ، وشَقِيفُ تَلِّ مَنَّس(١) ، وشقيف كَفَرْدُبِّين ، وجميعُ ما كان لك فى بلاد أنطـاكِيَـة فى هذه المدّة إقامة(؟) وكونك ما كُنْتَ بها ، فيكون إما قتيلًا وإما أسيرًا ، وإما جريحًا

---

(١) فى الاصل "تلميس" ولم نعثر عليه فى المعاجم والذى فى معجم البلدان لياقوت أن تَلّ مَنَّس حِصْن قرب معرَّة النعمان بالشام .

وإما كَسيراً ؛ وسلامة النفس هى التى يفرح بها الحَىُّ إذا شاهد الأموات ، ولعلَّ الله إنَّمـا أخَّرك لأنْ تَسْتَدْرِك من الطاعة والخِدْمَة ما فات ؛ ولمـَّا لم يَسْلَم أحدٌ يخبرك بما جَرىٰ خَبَّرْناك ، ولـمَّا لم يَقْدِرْ أحدٌ [أن] يُبَاشِرَك بالبُشْرىٰ بسلامة نفسك وهَلَاك ماسِوَاها بَاشَرْناك بهذه المفاوضة وبَشَّرْنَاك ، لتتحقَّق الأمرَ علىٰ ماجرىٰ ، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغى لك أن تُكَذِّبَ لنا خبرا ، كما أنّ بُعَيد هذه المخاطبة يجب أن لاتَسْأَلَ عمّـا جرىٰ .

وهذه نسخة فى هذا المعنىٰ ، من إنشاء الشيخ شِهَاب الدِّين محمود الحَلَبى ، وهى :

هذه المكاتبة إلىٰ فلان أقَالَه الله عَثْرَةَ زَلَّتِه ، وأقامه من حُفْرَة ذِلَّتِــه ، وتجاوز له عن كبيرة فِرارِه من جَمْع عَدُوِّه علىٰ قِلَّته .

بلغنا أمرُ الواقعة التى لَقِىَ فيها [العَدُوَّ](١) بجَمْعٍ قليلٍ غَنَاؤُه ، ضَعِيفٍ بِنَاؤُه ؛ كثيف فى رَأْىِ العين جَمْعُه ، خفيف فى المعنىٰ وَقْعُه ونَفْعُه ؛ أسْرَعُ فى مفارقة المَجَال ، من الظِّلّ فى الانتقال ، وأشْبَه فى مُمَـاثَلَة الوجود بالعدم من طَيْف الخَيَال ؛ يَمْشُونَ(٢) إليــه بقَلْبٍ واجب ، ويهتدون من تَخَرُّصه برَأْىٍ(٣) بينه وبين الصَّواب أَلْفُ حَاجب ؛ ويأتمون منه بمقدّم يَرىٰ الواحدَ من عَدُوِّه كَأَلْف ، ويَتَسَرَّعُون منه وراء مقدَامٍ يمشى إلىٰ الزَّحْفِ ولٰكِن إلىٰ خَلْف ؛ جَنَاحُ جَيْشِه مَهِيض ، وطَرْفُ سِنَانه غَضِيض ؛ وسَاقَةُ عَسْكَره طالعــه ، وطَلَائِعُه كالنُّجُوم ولٰكِنْ فى حال كونهـا راجِعَه ؛ تَأْسَفُ السيوفُ بيمينه علىٰ ضارب ، وتأسىٰ الجَنَائبُ حوله إذ تُعَـدُّ لمُحَارب فتُعَدُّ لهَارِب ؛

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٨) .

(٢) فى الأصل "يحفون عنه" والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٣) كذا فى "حسن التوسل" والذى فى الأصل "ويهتدون من تجريبه وتهذيبه بينه" الخ ، ولامعنىٰ له .

وأنه حين وقعت العَيْنُ علىٰ العَيْن ، وأيقَنَ عدوّه لِمَا رَأَىٰ(١) من عَدَدِه وعُدَدِه مُعاجلَةَ الحَيْن ؛ أعجَلَ نُصُول العِدَا عن وُصولها ، وترك غنيمة الظَّفَر لعِدَاه بعد أن أشرف علىٰ حُصُولها ، تُنَادِيه ألْسِنَةُ أسِنَّته : الكَرَّةَ الكَرَّةَ فلا يَلْوِي إلىٰ نِدَائها ، وتَشْكُو إليه سيوفُه الظَّمَأَ وقد رأتْ مواردَ الوَرِيد فيردُّها إلىٰ الغُمُود بِدَائِها ؛ فمنح عَدُوّه مَقَاتِلَ رجاله ، وأباحهم كَرَائِمَ مال جُنْدِه ومَالِه ؛ وخلّىٰ لهم خزائنَ سِلاَحه التى أعدّها لقتالهم فأصبحت مُعَدَّةً لِقتَالِه ؛ فنجا مَنْجَى الحارث بن هِشَام ، وآب بسلامةٍ أعْذَبُ منها ـلو عَقَلَـ شُرْبُ كأس الحِمَام ؛ واتَّسَمَ بين أوليائه وأعدائه بِسِمَةِ الفِرَار ، وكان يقال : النَّار ولا العَار ، فجمع له فِرَارُه من الزَّحْف بين النَّار والعَار ؛ وعاد بجَمْعٍ موفورٍ من الجِرَاح ، مُوقَرٍ من الإثْم والاجتِرَاح ؛ لا عِلْمَ بمَا جرىٰ عند أسيافهم ، ولا شَاهِد بمشاهدتهم الوَغىٰ غير مواقع الظُّبا فى أكتافهم ؛ فبأىّ جَنَانٍ يَطْمَعُ فى معاودة عَدُوّه مَنْ هذا قَلْبُه ، وهؤلاء حِزْبُه ، [وذلك القتال قِتَالُه وتلك الحَرْبُ حَرْبه](٢) .

وبعد فإن كانت له حَمِيَّةٌ فستظهرُ آثارُها ، أو أَرْيَحِيَّةٌ فَسَتَشِبُّ نَارُها ؛ أو أَنَفَةٌ فَستَحْمِله علىٰ غَسْلِ هذه الدَّنِيَّه ، وتبعثه علىٰ طَلَبِ غَايَتَيْنِ : إما شهادةٌ مُرِيحَةٌ أو حياة هَنِيَّه ؛ والله تعالىٰ يُوقِظُ عَزْمَه من سِنَتِه ، ويعجل له الانتصاف من عَدُوّه قبل إكمال سَنَتِه .

الصـــــنف العاشر

(فى المكاتبات بالتضييق علىٰ أهْلِ الجرائم)

قال فى "مواد البيان" : لم يَزَل السلطان يكتب إلىٰ الوُلاَة ـعند مايَنْتَهِى [إليه] من إقدام الرَّعَايا علىٰ ارتكاب الجرائم ، واستباحة المحارم ، واقتراف المآثم ؛ كالزِّنا

(١) فى "حسن التوسل" «ولا يلتفت» .

(٢) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١١٩) .

واللِّوَاط، وشُرْب الخَمْر، وقَطْع الطُّرُق، والغَصْب والتَّظَالُم، وما يجرى هذا المجرىٰ ـ بالتضييق عليهم، وإقامة حدود الله تعالىٰ فيهم .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله البادئ بنعمته قَبْل ٱفتراض طاعته، المُمْتَنّ بفَضْله قبل إيجاب شُكْرِه، خالقِ الخلائق جُودًا وكَرَما، ومُوسِعِهم منًّا ونِعَمًا؛ الذى ٱختار دِينَ الإسلام وطَهَّره من الأرجاس، ونَزَّهه عن الأدناس، وٱختصَّ به صَفْوَتَه من النـاس؛ وٱبتعث به محمدا سـيِّدَ المرسلين : ﴿ لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ الْكَافِرِينَ ﴾ . يحمده أمير المؤمنين أن فَوَّض إليه إيَالَةَ خَلْقه، وأقدره علىٰ القيام بخِدْمَته؛ ونصبه لإعزاز دينه، والمُحَافظةِ علىٰ مَفْرُوضـه ومَسْنُونه؛ وذِيَادَة العباد عن محارِمه التى نهىٰ عن التعدّى إليها، وإقامة الحدود عليهم فيها؛ ويسأله الصلاة علىٰ محمد صلَّى الله عليه وسلم .

ثم يقال : وإنَّ أميرَ المؤمنين يرىٰ أنَّ مِنْ أعظم نِعَم الله تعالىٰ عليه تَوْفيقَه لحِفْظ ما ٱسْتَحْفَظَه من شريعته، ورعايةِ ما ٱسترعاه من بَرِيَّته، وتَوْفيرَ القيام علىٰ مَنْ قَلَّده النَّظَرَ فيهم، وٱعتمادَ ما يعود بالصَّلاح فى الدِّين والدُّنيا عليهم؛ ومُسَاواته بين قريبهم وبعيدهم فى تَفَقّده، ومُمَاثَلَتَه بين قَاصِيهم ودَانِيهم فى تَعَهُّده؛ فلاينال القريب [فقط] نصيبا مِن رِعَايَته ويُعَلِّم جاهِلَهم، ويَهْدِى حَائِرَهم، ويُشْحِذُ بصائِرَهم، ويُثَقِّفُ مَائِدَهم، ويُصْلِحُ فاسِدَهم؛ ويَتَخَوَّلُهم من مَوَاعِظه بما يُبَرِّد الغُلَل، ويَشْفِى العِلَل؛ ويَنْسَخ الشَّك باليقين، ويُقْبِسُ مَقَابِس النُّور المبين [فمن] أصغىٰ إلىٰ إرشاده سَعِد جَدُّه، ووَرىٰ زَنْدُه، وأَحْمِد يَوْمُه وغَدُه؛ ومن خالف عن أمره ضَلَّ مَسْعاه، وخَسِر آخِرَتَه ودُنْياه، ودعا إلىٰ ٱتباع أمر الله تعالىٰ فى تقويمه وإصلاحه، والكَفِّ بإقامة الحُدُود عليه من جِماحه .

وانتهى إلى أمير المؤمنين ماأقدم عليه الأحداثُ وأهْلُ الدَّعارة قِبَلكم من احتقاب الآثام، واستدماثِ مَراكب الحرام، والاستهتارِ بمحظور اللّذّات، والإكباب على دنيءِ الشّهوات؛ التي تَسلَخُ من الدِّين، وتُخرِجُ عن دائرة المسلمين؛ وتَدْفَع عن تأدية العبادات، وإقامة الصَّلوات؛ وتَنْظِمُ في سِلْكِ البهائم المُرْسَلَه، والسوائم المُهْمَلَه. وتقصيرُ مشايخهم وعُلَمائهم عن كَفِّهم، والأخذ على أكُفِّهم؛ وتعريفهم وجوه مَراشِدِهم وتقويم أوَدِهم؛ فامتعض من ذلك، وأشفق من نزول القَوارِع والمَثُلات، وحُلُول البَلِيّات والآيات؛ وارتجاع ما أودعكم الله تعالى من نِعْمته، وانتزاع ما ألبسكم من رَحْمته؛ وبادر بكتابه مُوقِظًا لغافلكم، ومُبَصِّرًا لذاهلكم؛ وباعثًا لكم على مَراضيه الأولى، ومعاودةِ الطريقة المُثْلى؛ ومبادرةِ آجالكم بأعمالكم، والأخذِ لأُخراكم من أُولاكم، ولسَقَمِكم من صحّتكم، ولنَوْمِكم من يقظتكم؛ عالمين بأن الدنيا لَعِبٌ ولَهْو، وأن الآخرة هي دار القَرار، وأنكم فيها كسَفْرٍ شارفوا المنزل. فاجهدوا عبادَ الله واحتشِدُوا، وأقلِعُوا وارجِعُوا، واسمعُوا وعُوا؛ فكأنكم والله وقد توضّحت خُدَعُها، وتصَرَّم متاعها، وجلّ متوقَّعها؛ والسعيد من وَثِقَ بما قدّم لنفسه بعد نَفَادِ أيّامه، ووُرُودِ حِمامه؛ والشّقيُّ من أفرط وفرَّط، ونَدِمَ حيث لامَنْدَم. وأوعز إلى والي الحرب فلان بقراءة مانَصَّ فيه عليكم، واختبارِ سيَرِكم بعد مروره على أسماعكم؛ فمن رغِبَ في التّقوى، وآثرَ الآخرةَ على الدنيا؛ عرف ذلك وتوخّاه بتكرمته وتخوّله، ومَنْ أبى إلا غَوَايَةً وضلالا، وبِطَالَةً ومَحالا؛ أقام حدّ الله تعالى عليه غيرَ مراقَب فيه. فرحم الله عبدا صَانَ نفسَه في هذه الدار عن العَار، وحماها في الآخرة من عذاب النّار؛ وأميرُ المؤمنين يَرْجُو أن ينفعكم الله بهدايته، ويَشْفِيَ صُدُورَكم بمَوعظته، ويُرْشِدَكم إلى مايُفْضي بكم إلى الكِفَايَة والحِمَايَة. فَلْيَعْلَم فلان بن فلان ذلك من أمير المؤمنين ورَسْمِه، وليعْمَلْ عليه بجُمْلته؛ إن شاء الله تعالى.

الصنف الحـادى عَشَر
(الكُتُبُ فى النَّهْيِ عن التَّنازُع فى الدِّين)

قال فى "موادّ البيان" : من أهمِّ ماصَرَفَ إليـه السلطانُ تَفَقُّدَه، ووقف عليه [تَعَهُّده] أمرُ الرعايا فى أعماله ، وتنفيذُ الكُتُب إليهم بالنَّهْيِ عن التنازع فى الدين، وحَسْمِ أسباب المُجادَلة والمِراء، والتَّحْذِيرِ من ٱتِّبَاع البِدَع والأَهْواء، والإخْلَادِ إلىٰ مُضِلِّ النِّحَل والآراء: لأنه متىٰ فَسَّح لهم فى هذا الباب صاروا شِيَعًا مُتبَاينين، وفِرَقًا مُتَحَاربين، وٱنْشَقَّت عَصاهم، وٱنقضت حيلُهم، وخرجوا عن أحكام أهل السلامة إلىٰ أحكام أهـل الفِتْنَة، وعاد ضَرَرُ ذلك علىٰ الدِّينِ والسُّلْطان . ولهذا صرف إليه السَّاسَةُ الحَزَمَةُ من الملوك الٱهتمام، ولم يَخْلُوا بحَسْم مادَّته علىٰ تغايُرِ الأيام .

ثم قال : والرسم فيها أن تُصَدَّر بحمد الله تعـالىٰ علىٰ نِعَمِه فى تأليف كلمة أهـل الإسـلام، ومامنّ به عليهم من الٱتفاق والٱلتئام، وشُكْرِه علىٰ مَوْهِبَته فى نَزْع الغِلِّ من صُدُورهم، والتأليف بين قلوبهم، وتَصْيِيرِهم إخوانا مُتَصَافين، وخُلَّانًا مُتَوَافِين، وعَوْنِهم بمـا وفَّقَهم له من إظْهَارِهم علىٰ مَنْ شَقَّ عصاهم ، وإقـدارِهم بمـا مَنَحَهم من الأُلْفَةِ علىٰ مُرَامَاة من رَامَاهم، والصلاةِ علىٰ سـيدنا محمد صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وسلم . ثم يَشْفَعُ هذا بأن أمير المؤمنين بمـا مكَّنه الله تعالىٰ من مَرَاضِيه، ووَفَّقَه له من القيام بفَرْضه، والنُّهُوض بحقوق طاعته ، والعَمَلِ بكتابه وسُنَّته ، ورَغْبَته فى الخير العـام، وشُمُول الصَّـلاح لكافَّةِ الأنام ـ لا يزال يَحُضُّ رَعِيَّته علىٰ مايقضى بسَـدَاد دُنْيَاهم، وحُسْن المُنْقَلَب فى أُخْرَاهم؛ ويرىٰ أن أنفع ذلك عَائِده ، وأجْزَلَه فائده، ما رفع عنهم أسـبابَ التَّنافُر ، ودعاهم إلىٰ التَّعاضُـد والتَّظافُر؛ وحال بينهم وبين الخَوْض فى مُحْدَث النِّحَل والآراء، والإصغاء إلىٰ مُضِلِّ البِدَع والأهْواء؛ التى

تَصُدُّ عن سَنَنِ الهُدىٰ، وتُلْقِي فى مَهاوِى الرَّدىٰ، وتدعو إلىٰ شَقِّ العصا، وتقضى بانتثار النِّظام، وآختلاف الأنام، وآنْفِصام عُرىٰ الإسلام. وكَفِّهم عن المُمَارَاة فى الدِّين، والإصْغاء إلىٰ سُنَّة المُضِلِّين، المُعَطِّلَة للسُّنَن، القادِحَةِ للفِتَن، الداعية إلىٰ آحْتِقَاب الآثام، وإراقة الدِّماء الحرام، ونحو هذا مما يضاهيه.

ثم يقول: وآنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين آلتفاتُكم عن معايشكم التى جعلها الله لدُنْياكم قِوَاما، وعبادتكم التى صَيَّرها لآخِرَتكم نِظاما، وإقبالُكم علىٰ المُمَارَاة والمنازعه، والمُنَاظرة والمجادله، إلىٰ شُكُوك يُقِيمها مَنْ يرغَبُ فى الرِّياسة والتَّقَدُّم: ليفوزَ بخبيث المَطْعَم، الذى يُعْمِى البصائر، ويُفْسِدُ السرائر، ويَقْدَح زَنْدَ الضَّلال، ويُشِبُّ نارَ المِحَال والآنْتِحال، فآمْتَعَضَ أميرُ المؤمنين من ذلك وخاف عليكم أليمَ عاجلته، وذَميمَ آجلته، وبَادَرَكم بكتابه هذا مُنَبِّها لغافلكم، ومُرْشِدًا لجاهلكم، وباعِثًا لكم علىٰ التَّشَاغُل بما أطَابَ أخبارَكم، وحَسَّن آثاركم: من تلاوة كتاب الله الذى آثَرَكُم بتلاوته، وزِيارَةِ بُيُوت عبادته، والتأدّبِ بأَدَبِ نَبِيِّه وعِتْرَتِه، وأوْعَزَ إلىٰ النائب فى الحَرْبِ بتقويم مَنْ خرج عن أمره، وتثقيف من أَصَرَّ علىٰ غَيِّه، وأن يَحْسِمَ الداءَ قبل آسْتِشْرائه، ويَسْتَدْرِكه دُوَيْنَ آستفحاله، فآصْغَوْا إلىٰ زَوَاجِرِ أمير المؤمنين ومَوَاعِظِه، وآقْتَدُوا بِهَدْيِه ومَرَاشِده، لتَفُوزوا بطاعته، وتَسْعَدوا بِرِضَاه، وتَسْلَمُوا فى الحاضر، من مَهَانَةٍ أنتم بغيرها أَوْلىٰ، إن سلكتم الطريقة المُثْلىٰ، وفى الغابر مما أعدّه الله لمَنْ خالف عن أمره من العقاب فى الدار الأُخرىٰ، فآعلموا هذا وآعملوا به إن شاء الله تعالىٰ.

قال: وقد يَكْتُب السلطان إلىٰ الرَّعِيَّة بالنَّهْيِ عن التَّفَاخُر بالبادِيةِ والتنازع فى العَصَبِيَّة. ثم قال: والطريقة فى هذا المعنىٰ مشتقة من طريقة هذا الرسم.

الصنف الثـاني عَشَرَ

(المكاتبـــة بالأوامر والنـــواهى)

قال فى " موادّ البيان " : علىٰ هـذه الكُتُب مَدَارُ أشغال السلطان فى أعماله ، لأنها النافذة فى تصريف الأمور وتنفيذ المراسيم وِلَايَةً وعُمَالة .

قال : وليس لهذا أمثلة فنُورِدَها ، لٰكِنَّه ينبغى للكاتب أن يؤكِّدَ القول بها ، فإن الأمرَ فيها والنَّهْىَ - وإن ٱختلف نَظْمُهما - نوعٌ واحد : لأن كُلَّ مأمورٍ به مَنْهِىٌّ عن ضِـدّه ، وكُلَّ مَنْهِىٍّ عنـه مأمورٌ بضِدِّه ؛ فينبغى له أن يؤكِّدَ القولَ فى ٱمتثال ما أَمَرَ ، والعملِ عليه والإنْفَاذله ، والٱنتهاء عمانهىٰ عنه ، والحَذَرِ من الإلمام به . ويجزم الأمر فى العبارة عنهما جَزْمًا تاما لا يُتَمَكَّن معه من الإخلال ببعضهما والنَّقْصِ فيهما لِهَوًى ؛ ويأتى من المبالغة بما يُضَيِّقُ العُذْرَ ، ومتىٰ وقع تقصيرٌ أوتَثَاقُلٌ عما حُدّد فيهما ، فإنّمـا يُمَثِّلُ ذلك بمُثُلٍ جامعة مع تَفَنُّنِ المعانى التى يأمر بها وينهىٰ عنها .

ثم قال : والكاتب إذا عرف الترتيب الواقعَ فى هذين الغَرَضَين علىٰ طريق الإجمال ، أَمْكَنَه أن يَبْسُطَه إذا ٱحتاج إلىٰ التفصيل والبيان بمشيئة الله تعالىٰ .

وٱعلم أنه كان للخُلَفَاء والملوك وَوُلَاةِ الأمور فى قديم الزمان عنايةٌ بالكتابة إلىٰ الرعايا بالأوامر والنَّوَاهِى المتعلقة بالدِّين : من الأَمْرِ بالمعروف ، والنَّهْىِ عن المُنْكَر ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ؛ وإلىٰ العُمَّال بالوَصِيَّة بالرعايا ، والٱجتهادِ فيما لَدَيْهِم من جِبَايَةِ الخَرَاج ، والٱهتمام بأمر الدَّواوِين ، وما أشبه ذلك .

فأما الأوامرُ والنواهِى المتعلقةُ بالدِّين ، فقد تقـدّم فى الكلام علىٰ مُصْطَلَح أهل الغَرْبِ فى أوائل هـذه المَقَالَة من إنشاء أبى زيد الفازازى ما أغنىٰ ذِكْرُه هناك عن إعادته هنا أو ذكْر غيره .

وأما الأوامرُ والنواهِى المتعلقةُ بأمور السَّلْطَنة، فمن ذلك ما كَتَب به أبو عبد الله آبن الحنان، عن الأمير أبى عبدالله بن هُودٍ أحَدِ ملوك الطوائف بالأَندلُس فى الرِّفْق بالرَّعِيَّة، وهو:

أما بعد حمد الله تعالىٰ مُعْلِى مَنَارِ الحقّ ورافِعه، ومُولِى مُتوالِى الإنعام ومُتَتَابِعه؛ والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد رسولِه مُشَفَّع الحَشْرِ وشَافِعه، المبعوث ببدائع الحِكَم وجَوامِعِه؛ وعلىٰ آله وصحبه المُبَادِرين إلىٰ مقاصده العَلِيَّة ومَنَازِعِه، والذَّابِّينَ عن حَوْزَةِ الإسلام بمَوَاضِى الآعتزام وقواطعه؛ والرِّضا عن الخليفة الإمام العباسىّ أمير المؤمنين ذى المجد الذى لا يُنَالُ سُمُوُّ مطالعه.

فإنا كتبنا إليكم، كتب الله لكم عِزَّةً قِدْحُها بالثبوت فائز، وسعادةً قِسْطُها للنَّماءِ حائز؛ من فلانة: وكلمة الحَقّ منصورةُ اللِّواء، منشورةُ الأضواء، والتوكُّلُ علىٰ الله فى الإعادة والإبداء، والتسليمُ إليه مَنَاطُ أمرِنا فى الآنتهاء والآبتداء؛ وحمدُ الله تعالىٰ وشُكْره وُصْلَتُنا إلىٰ نَيْلِ مَزِيد النَّعْماء والآلاء؛ ومكَانتُكم لدَيْنا مكَانَةُ السَّنِىّ المَناصِب، المُنْتَمِى إلىٰ كِرَام المُنْتَميات والمَنَاسب، المُتَحَلِّى فى الغَناء والآكتفاء، والخلوص والصفاء، بأكرم السَّجِيَّات والمناقب، المعلومِ ما لَدَيْه من المُنَاصَحة السَّالكةِ بأكرم السَّجِيَّات فى المَنَاحِى الحِسَانِ علىٰ المَهْيَع الأوضح والسَّنَنِ اللَّاحب.

وقد وقفنا علىٰ كتابكم مُعْلِما بخبر فُلَانة وبما رأيتموه من المصلحة فى تَحْصينها، والآجتهادِ فى سَبَب تأمينها، ونحن نَعلَم أنكم تُرِيدُون الإصلاح، وتَتَوخَّوْنَ ما تَتَوسَّمون فيه النَّجاح؛ لٰكِنْ أهَمُّ الأمور عندنا، وأَوْلىٰ ما يوافق غَرضَنا وقَصْدنا؛ الرِّفْقُ بالرَّعِيَّه، وحَمْلُها علىٰ قوانين الإحسان المَرْعِيَّه؛ وعلىٰ أثَرِ وصولِ كتابكم وَصَلَنا كتابُ [أهلِ] فلانة المذكورة يَشْكُونَ ضَرر الخَدَمَةِ المتصرِّفين فيهم، ويَتَظَلَّمون من مُتَحيِّفِيهم ومُتَعَسِّفِيهم؛ وفى هذا ما لا يخفىٰ عليكم، ولا تَرْضَوْن به لو آنتهىٰ إليكم؛

فإنه إذا كان الناظر فى خِدْمةٍ مِمَّنْ لا يُحْسِن سِيَاسَةَ الأمور ، ولا يعـلم طريقَ الرِّفْقِ الحـاوِيَةَ لِرِفْقِ الخاصَّة والجمهور، أعاد التَّسْكِينَ تنفيرا ، والتَّيْسِيرَ تعسيرا، وتعلمون أنا لا نقـدّم علىٰ إيثـار العَدْلِ فى عباد الله المسلمين عَمَلًا ، ولا نَبْغِى لهم بَاطِنَةً بغير التخفيف عنهم والإحسان إليهم بَدَلا، وأنتم أوّلُ وأَوْلىٰ من يُعْتَقَدُ فيه أنه يُكَمِّل هذا المَقْصَد ، ويَتَحَرّىٰ فى مصالح الرعايا هذا السَّنَنَ الأرشد، وقد خاطبنا أَهْلَ فُلَانَة بمـا يُذْهِبُ وَجَلَهم ، ويَبْسُط أَمَلَهم، وعَرَّفْناهم بأنكم لو علمتم ماهو جَارٍ عليهم من [بَعْضِ] الخَدَمَةِ لأَخَذْتم علىٰ يَدِه، وجازيتموه بسُوءِ معتمده ، وأشعرْنَاهم بأنَّا قد ٱستوصينا كم بهم خَيْرا ، ونَبَّهْنا كم علىٰ ما يدفع عنهم ضَيْماً ويَرْفع ضَيْرا ، وأنتم ـ إن شاء الله ـ تستأنفون نَظَرًا جميلا، وتؤخرون عنهم الخَدَمَة الذين لايَسْلُكون من السِّيَاسة سبيلا، وتقـدّمون عليهم مَنْ تَحْسُنُ فيهم سـيرَتُه، وتكْرُم فى تَمْشِيَةِ الرِّفْقِ عَلَانِيَتُه وسريرته، ومثْلُكم لا يُؤَكَّد عليه فى مَذْهبٍ تحسن عواقبُه، وغَرَضٍ يوافقه القَصْدُ الاحتياطىّ ويُصَاحِبه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثالث عَشَر

(المكاتباتُ عند حدوث الآيات السَّماوِيَّة)

قال فى "مواد البيان" : جرت العـادة أن يَكْتُبَ السلطان إلىٰ الرعايا ـ عنـد حدوث الآيات المُهَوِّلة التى يريد الله تعـالىٰ بهـا إرشادَ عباده إلىٰ الإقـلاع عن معصيته، والإقبال علىٰ طاعته، كالرِّياح العواصف، والزَّلازل والصواعق، وٱحتباس القَطْر وخروجه فى التَّسْكاب عَمّـا جرت به العادة ـ كُتُبًا يُضَمِّنها من الوَعْظ الشافى الرَّقيق ما يأخذ بمجـامع القلوب ، ويُشْعِرُها التَّقوىٰ والرَّهبـة ، ويبعث علىٰ المراقبة والنَّظَر فى العاقبة .

قال : ويبنغى للكاتب أن يتلطّف فى المَوْعِظة، ويبالغَ فى الذِّكرىٰ التى تُخْطِر الخواطرَ وتَقْدَح الأنفس، وتُحرّك العزائم نحوَ الإخلاص؛ فإنه إذا أبرز هذه المعانِيَ فى صُوَرٍ [تُشْعِر] [(١)] الخِيفَةَ من غَضَب الله تعالىٰ وعِقَابه، وتُرَغِّبُ فى عفوه وثَوَابه؛ نفع الله بذلك (؟) من رَغِبَ عن الهوىٰ، ورَغِبَ فى التقوىٰ بكتابه .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالىٰ علىٰ آلائه التى يُفيضها ٱبتلاء وٱختبارا، وآياته التى يُرسِلها تَخْويفا وإنذارا؛ ومَوْهِبَته فى التَّوقِيف بسابغ نِعْمَته علىٰ طاعته، والتحذير بدافع نِقْمَته من معصيته . والصلاة علىٰ رسوله الذى أنقذ بشفاعته، وعَصَم من نُزُول القوارع بنُبُوّته . ثم يقدّم مُقَدِّمة تتضمن أن الله تعالىٰ يقدّم الإعْذار أمام سُخْطِه وعذابه، ويبدأ بالإنذار قبل غَضَبِه وعِقَابه؛ فمن ٱستيقظ من سِنَتِه، ونظر لعاقبته [ونَهَض] [(١)] إلىٰ طاعته، وأقلَع عن معصيته، كشف الرَّيْنَ عن قلبه، وضاعف أجْرَه؛ ومن أضرب عن مَوْعِظَته، وتَعامىٰ عن تبصيره وتذكيره، أخذه علىٰ غِرَّته، وسَلَبه سِرْبَالَ نعْمَته .

ثم يأخذ فى حَثِّ الأمة علىٰ الفَزَع إلىٰ الصَّلَوات، والمسارعةِ إلىٰ بُيُوت العبادات؛ والإكثارِ من التَّضَرُّع والخشوع، والٱستكانةِ والخُنُوع، بإذراء سَحَائِبِ الدموع؛ وإخلاصِ التَّوْبَةِ عن مُحْتَقَب الآثام ومُخْتَرَع الأوزار، والتَّوَسُّلِ إلىٰ الله تعالىٰ فى قبول الإنابة بقلوب نَقيَّه، وطَوِيَّات علىٰ الطهارة مَطْوِيَّه، وسرائرَ صريحه، ونيَّاتٍ صحيحه؛ يُصَدِّقُها النَّدَمُ علىٰ الماضى، وعَقْدُ العَزْمِ علىٰ الإقلاع فى الآتى؛ والرَّغبةُ إليه فى رَفْع سُخْطه وإنزال رحمته، وما يجارى هذا .

قلت : وهذا الصِّنْف من المكاتبات قد تُرِك فى زماننا فلا عِنَايَةَ لأحد به أصلا، وإن كان مما يجب الٱهتمام به وتقديمه .

(١) بياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

الصّـــــنْف الرابع عَشَرَ

(المكاتباتُ فى التنبيه علىٰ شَرَفِ مواسم العبادة وشريف الأزمنة)

قال فى "موادّ البيان" : إن الله وَقَّتَ لعباده أوقاتا عَظَّم شانها، ورفع مَكَانَها؛ وأمرهم أن يتقرّبوا فيها إليه بتأدية مافرضه عليهم لُطْفًا بهم ورَأْفَه، وحَنَانًا ورَحْمَه .

قال : ولم يزل السلطان يكتب إلىٰ عُمَّـالِه بتنبيه الرعايا عليها ، وتَعْرِيفِهم فضلَ العبادة فيهـا : ليستقبلوها بالإخْبَـاتِ والخُشُوع ، ويَتَلَقَّوْها بالتَّضَرُّع والخضوع ؛ ويتوسلوا فى قَبُول التَّوْبات ، وغُفْرَان الخَطِيَّات ؛ حِفْظًا لنظام الدين ، وتَفَقُّدا لمصالح المسلمين .

قال : وينبغى للكاتب أن يحسن التَّأَتِّى فى هذه الكتب (١) ويُذَكِّر النَّاسِىَ وينبـه الغَافِلَ اللَّاهى، والمُهْمِل السَّـاهى؛ ويُحَرِّك النفوس نحو مصالحها، ويبعثها علىٰ الأخذ بفاضِلِ الأعمال وصَالِحِها .

قال : والرسم فيها أن تفتتح بحمد الله تعالىٰ علىٰ أن وهب لعباده أوقاتا يتقبلُ فيها قُرَبَهُم وأعمـالهم ، ويُخَفِّفُ بالإنابة إليـه عند حلولهـا أوْزَارَهم وأثقالهم ؛ فيغفر لمُسْتَغْفِرهم، ويَعْفُو عن مُسِيئهم؛ ويتقبل التَّوْبَةَ عن تائبهم . والصـلاةِ علىٰ رسول الله صلّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله . ثم يقدّم مقدّمة مبنية علىٰ تعظيم هذه الأوقات، والإبانةِ عمـا فى قَصْرِها على العبادات ، والمسابقة إلىٰ الخيرات ، من عظيم الثواب. ويَشْفَعُ بَبَعْثِ الوُلَاة علىٰ أخذ الرعايا بالمحافظة علىٰ السُّنَن، وتَعَهُّدِ حَقِّ الله تعالىٰ فيها، والتَّوَسُّع فى توكيد الحُجَّه، ونَفْى الشبهه ؛ وإيراد المواعظ الرادعه ، والزواجر الوازعه ؛ التى تَعُود بشَحْذِ البصائر، وصفَاءِ الضَّمائر؛ والإتْيَان بحقوق هذه الأوقات وواجباتها،

(١) بياض بالاصل مقدار كلمة .

والفَوْزِ بما يُوَفِّرُه من جَزِيل بركاتها ، والتَّوفُّر على حُسْنِ مجاورتها ، والتَّقرُّب إلى الله تعالى ببَذْل الصَّدَقات ، والإقبال على الصَّلَوات وزيارة بيوت العبادات ، ومُذَاكرة أهل الدِّين ، والسَّعْيِ فى مصالح المسلمين ، ونحو ذلك مما يناسبه .

ثم قال : فإن كان الكتاب مقصورا على الدعاء إلى الحَجِّ ، ٱفتتح بالحمد لله على أَنْ جعل لعباده حَرَمًا آمنًا يُمَحِّص ذنوبَهم بزيارته ، ويَمْحُو آثامَهم بحَجِّه ووِفَادَتِه ، ويلى ذلك مايليق به من الحَثِّ على تأدية المَنَاسك ، وتكميل الفرائض والسُّنَن ، وزيارة قَبْر النبيّ صلّى الله عليه وسلم ، وكذلك الحكم فى سائر الأبواب الدِّينية .

الصنف الخامس عَشَرَ

(المكاتبةُ بالسلامة فى الركوب فى المواسم والأعياد وما ينخرط فى سِلْكِها من المواكب الجامعة)

قال فى "موادّ البيان" : جَرَت العادة أن يكاتِبَ السلطانُ عُمَّالَه ووُلَاتَه بسلامة المواسم الإسلامية كُلِّها : لأنها تُشَاهَدُ لجميع أصناف الرَّعايا وذَوِى الآراء المختلفة والمذاهب المتباينة ، والقلوب المتعادية والمتصاحبة فى أمر الدين والدنيا ، وكُلّ مُتَرَبِّصٍ لِفتْنَةٍ ينتهز فُرْصَتَها . فلاتكاد هذه المَشَاهِدُ تخلو من ثَوْرَةٍ وحدوث أحداث مُنْكَرَة تُفْضِى إلى الفِتَنِ التى لاتُرْقَع . فإذا أنعم الله تعالى بالسلامة منها ، وجب التَّحَدُّثُ بنِعْمَتِه ، والشُّكْرُ لمشيئته ، وأن يكتب أمير المؤمنين بسلامة ما قِبَلَهُ إلى عُمَّاله ، لتَسْكُنَ الكَافَّةُ إلى ذلك ، ويشتركوا فى حَمْد الله تعالى عليه .

وٱعلم أن المواسمَ التى كان يعتاد الخُلَفَاءُ الركوبَ فيها والكتابةَ بالسلامة منها هى : عِيدُ الفطْر ، وعِيد النَّحْر . وكان الخلفاء الفاطِمِيُّون بالديار المصرية يَعْتادون

مع ذلك الركوبَ فى غُرَّةِ السَّـنَة ، وفى أوّل رَمَضان ، وفى الجمعة الأولىٰ ، والجمعة الثانية، والجمعة الثالثة منه، علىٰ ماتقدّم ذِكْرُه فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المقالة الثانية . وكذلك "عيد الغَدِير" : وهو عِيدٌ من أعياد الشِّيعَة كما سيأتى ذكره . ونحن نُشِير إلىٰ ذِكْر مَوَاكبها مَوْكِبًا مَوْكِبًا ، ونذكُر ما جرت به العادة فى الكتابة فى البشارة بالسلامة فى ركوب كُلِّ مَوْكب منها .

الأوّل — البِشَارَة بالسلامة فى الركوب فى غُرَّة السـنة . وقد تقدّم الكلام علىٰ صُـورَة المَوْكب فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدَّوْلة الفاطميـة بالديار المصرية فى المقالة الثانية .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك، أورده أبوالفَضْل الصُّورِىّ فى تذكرته، وهى:

الحمد لله الذى لم يَزَلْ يُولِى إحسانا وإنعاما ، وإذا أبلىٰ عبيدُه عَامًا أجدَّهم بفضله عَامًا، فقد أمدّكم معاشر[الخلفـاء](١) كَرَما ومَنًّا ، وآتاكم من جُودِه أكثر ممَّـا يُتَمَنَّىٰ ؛ ومنحكم من عطائه ما يُوفِى علىٰ ما أردتموه،﴿وسَخَّر لكم اللَّيْـلَ والنَّهَارَ وآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَاسَأَلْتُمُوهُ﴾وقد آستقبلتم هذه السَّنَة السعيده، وإذا عَمِلْتم بالطاعة كنتم مستنجزين من ثواب الله الأغراضَ البعيده .

وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد نَبِيِّه الذى غدتِ الجنة مُدَّخَرَةً لمن عَمِل بهُدَاه لَمَّـا سَمِعَه، ومُهَيَّأة لمن آمن به وآتَّبع النُّورَ الذى أُنْزِل مَعَه؛ وبيَّن بإرشاده ماتَجْرِى أمورُ السِّنين عليه فى العَدَد والحِسَاب، ونسخ ما كانت الجاهليةُ [تفعله] فيه زِيَادَةً فى الكُفْر وضَلَالًا عن الصَّوَاب ؛ وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى كَمَّلَ الله الإسـلامَ بإمامته، وضاعف الأجْرَ لأهْلِ وِلايتـه، ومنح شِيعَتَه مَقْبُولَ شفاعته ؛

(١) بياض بالأصل، والتصحيح من المقام .

وعلىٰ الأئمة من ذرّيتهما خُلَفَـاءِ الله علىٰ خلقه ، والقائمين بواجب حَقِّه ، والعاملين فى سياسـة الكَافَّةِ بمـا يُرضيه سبحانه ، ويَضْمَنُ غُفرانه ورِضْوانَه ، وسلَّم عليهـم أجمعين ، سلامًا باقيًا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وإنَّ أحق النِّعَم بنَشْر الذِّكْر، وأوجَبها للوَصْف وإعمال الفِكْر، نِعْمةٌ رفعت الشَّكَّ وأزالت اللَّبْس، ووَضَح ضياؤُها لأُولِي الألبـاب وُضُوحَ الشمس ، وٱشـترك الناسُ فتضاعفت الفائدة لديهم ، وٱنتفعُوا بذلك فى تَوارِيخهم ومُعَامَلاَتهم ومالَهُم وعليهم ؛ وتلك [هى] المعرفةُ باليوم الذى هو مَطْلَعُ السَّـنَة وأوّلها ، ومَبْدَؤُها ومُسْـتَقْبلها ؛ وحقيقة ذلك ظُهُورُ إمام كُلِّ زمان . وكان ظهورُ إمام زماننا مولانا وسَيِّدنا الإمام فلان ـ ليتساوىٰ فى الشرف برؤيته العامَّةُ والخاصَّةُ ، فيكون ٱستقلال رِكَابِه إشعارًا بأن اليوم الذى تَجَلَّىٰ فيـه لأوليائه ، ولرَعَاياه المُتَفَيِّئين ظِلَّ لِوَائه ؛ هو ٱفتتاح السـنة وأوّلُ مُحَرَّمها ، وعليه المُعْتَمَد فى عَدَدِ تَامِّ الشهور ونَاقِصها من مُفْتَتَحِها إلىٰ مُخْتَتَمِها ـ يَوْمَ كذا غُرَّةَ المحرّم من سـنة كذا ، فى عساكِرَ لايُحْصَر عَدَدُها ، وقبـائِلَ لاينقطع مَدَدُها ، وإذا ٱضطرمت نار الكُفْر وٱلتَهَبَتْ ، طَفِئَت بأنوارهم وخَبَتْ ، وقدتقلَّدَتْ هنْدِيَّةً تَرُوعُ إذا أشرقت وسكنت ، فما الظَّنُّ إذا ٱصْطُحِبَت ، والأرض بمرورها عليها مُبْهَجَةٌ مُونِقَه ، وملائكة الله عَزَّ وجَلَّ حافَّةٌ به مُحْدِقه ؛ فآذَنَ بأن اليومَ المذكورَ هو غُرَّة السَّنة المعيَّنه ، وأن اليومَ الفُلاَنِىَّ أَمْسُه ٱنسِلاَخ كذاسنة كذا المتقدّمة : لتستقيمَ أمورُهُم علىٰ أعدل نُهُوجِهم ؛ وليُحفظ نظام دينهـم فى صَوْمِهم وفِطْرِهم وحَجِّهم ؛ وكذلك أصدر هـذا الكتاب ليَتْلُوَه الأميرُعلىٰ مَنْ يسكن عَمَلَه ، وجميع مَنْ قِبَلَه ؛ ويتماثلوا فى معرفته ، ويحملَ كُلٌّ منهم الأمْرَ عليـه فى مُعْتَقَدِه وأسـباب معاملاته ؛ ويشـكروا الله علىٰ النِّعْمة عليهم بهدايته . وهو يعتمد ذلك ويُطَالِـعُ بكائِنِه فيـه إن شاء الله تعالىٰ، وكُتِبَ فى اليوم المذكور .

الثـانى — البِشَارَةُ بالسَّـلامة فى الرُّكوب فى أوّلِ شَهر رَمَضَان ، وهى علىٰ نَحْوٍ مما تقدّم فى الركوب فى غُرَّة السَّنة .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك ، من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفِىّ ، وهو :

الحمد لله كَالِئِ خلقـه فى اليَقَظَة والمَنَـام ، والكَافِلِ لهم بمضاعفة الأجر فى شهر الصِّيَام ، وصلَّى الله علىٰ سـيدنا محمد الذى بعثه رحْمَةً للأنام ، وعلىٰ أخيه وٱبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِبٍ أخلص وَلِىٍّ ، وأشْرَف وَصِىٍّ ، وأفْضَلِ إمام ، وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهما الدَّاعِينَ إلىٰ دار السلام ، صلاةً دائمـةَ الاتِّصَال ، مستمرّةً فى الغُدُوِّ والآصَال .

وإن من المَسَرَّة التى تُتَهادىٰ : والنِّعْمَة الشاملة للخلق جميعا وفُرَادىٰ ، ما مَنّ الله به من ظهور مولانا وسيدنا الإمام فلان ، صلوات الله عليـه وعلىٰ آبائه الطَّاهِرِين ، وأبنائه الأكرمين ، يومَ كذا غُرَّةَ شهر رَمَضَان من سـنة كذا ، إعلاما بأوّل الشَّهر وافْتِتَاحه ، وأن الصيامَ الأوّلَ من فَجْرِه الأوّلِ قبلَ تَنَفُّسِ صَبَاحه ، وتَوَجُّهِهِ إلىٰ ظاهر المُعِزِّيَّةِ القاهرة المحروسة فى عساكرِه المُظَفَّرَة وجنودِه ، وأوليائه وأنصارِه وعبيده ، والمِنَّةُ بِرُؤْيته قد تساوىٰ فيها الكَافَّه ، وملائكة الله مُطِيفَةٌ حَافَّه ، وعَوْدِه إلىٰ قُصُوره الزاهِره ، وقد شَمِل المستظلين بأفْيَائِه بسعادَتَىِ الدنيا والآخره .

أُصْدِرَ إليك هذا الأمرُ لتَقِفَ علىٰ الجمله ، وتشكُرَ النِّعْمَةَ السابغةَ علىٰ أهل المِلَّه ، وتَتْلُوَها علىٰ أهل عَمَلِك ، وتطـالع بكائِنِك فى ذلك ، فٱعْلَم هذا وٱعمل به ، إن شاء الله تعـالىٰ .

الثالث — الكِتَابَةُ بالبشارة بالسلامة فى ركوب الجمعة الأولىٰ من شهر رَمَضَان .

وهذه نسخة كتاب من ذلك ، من إنشاء ٱبن الصَّيْرَفِىّ أيضا ، وهى :

أفضل ما سُيِّر ذِكْرُه، ووجب حَمْدُ الله تعالى عليه وشُكْرُه، ما عَادَ على الشريعة بالجَمَال والبَهْجَه، وأضحى واصِفُه صحيحَ المَقَالِ صَادِقَ اللَّهْجَه؛ فضاعف حَسَنة ومَحَّص سَيِّئَه، وجعل أسباب السعادة مُتَسَهِّلَةً مُتَهَيِّئَه؛ وذلك ما يَسَّره الله تعالى من آستقلال رِكَاب سيِّدنا ومولانا صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكرمين؛ يوم الجمعة من شهر رَمَضَان من سنة كذا: مُؤَدِّيا خُطْبَتها وصَلَاتها، وضامنا لأُمَّة آئْتَمَّتْ به خَلاصَها يوم الفَزَع الأكبر ونَجَاتَها؛ فى وَقَارِ النبوّة وسكينة الرِّسَالَه، والهَيْبَة المُسْتَوْلية على العَظَمَة والجَلَالَه؛ والعساكر الجَمَّـةِ التى تُقْلِقُ بمهابَتِها وتُزْعِج، وتُظَنُّ لكَثْرَتِها واقِفـةً والرِّكَاب يُهَمْلِج؛ ولما آنتهى إليه، خَطَبَ ووَعَظَ ففتح أبوابَ التَّوْبَه، وآب إلى الطاعات مَنْ لم يُطْمَعْ منـه بالأَوْبَه؛ وصلّى صلاةً تَقَبَّلها جَلَّ وعزَّ بقَبُولٍ حَسَنْ، وقَصَّر فى وَصْفِها ذَوُو الفَصَاحةِ واللَّسَن؛ وعاد إلى مُسْتَقَرِّ الخلافه، ومَثْوَى الرحمـة والرافه؛ وعَيْنُ الله له مُلَاحِظَه، وملائكته له حَافِظَه. أُعْلِمْتَ ذلك لتُذيعَه فى أهل عملك، وتطالع بكائنك.

الرابع — المكاتبة بالبِشَارَة بالسَّلامة فى ركوب الجمعة الثانية من شهر رَمَضَان.

قد تقـدّم فى الكلام على ترتيب المملكة بالديار المِصْرِيَّة فى الدَّوْلة الفَـاطِمِيَّة، فى المقالة الثانية: أن الخليفة كان يركب فى الجمعة الثانية من شهر رَمَضَان إلى الجامع الأنور، وهو جامعُ بابِ البَحْرِ، الذى عَمَرَه الحـاكِمُ بأمر الله، وجدّده الصَّاحِبُ شمس الدين المَقسِيُّ.

وهذه نسخة كتاب فى المعنى، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِيّ أيضا، وهى:

لم يَزَلْ غَامِرُ كَرَم الله وفَضْلِه، يَفُوقُ حاضِرُه ما كان من قَبْله؛ فنعمة الله تعـالى سابغه، ومِنَنُه مُتَتَابِعَه، ومَلَابِسها ضافِيَه، ومَغَارِسُها نَامِيَه، وسَحَائِبها هَامِيَه؛ وهو جَلَّ

وعَزَّ يضاعفها علىٰ مَن صَلَّى وصام، ويُوَاليها عند من تَمَسَّك بالعُرْوَةِ الوُثْقىٰ التى لا آنفصال لها ولا آنْفِصَام ؛ وتجدّد من ذلك ما كان من بُرُوزِ مولانا وسيدنا الإمام فلان : صَلَوَاتُ الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين، وأبنائه الأكْرَمين؛ يوم الجمعـة من شهر رَمَضَان من سنة كذا : فى شامخ عِزِّه، وبَاذِخ مَجْده ؛وتَوَجُّهه إلىٰ الجامع الأنْوَرِ المنسوب إلىٰ مولانا الإمام الحاكم بأمر الله جدّه ؛ سلام الله عليه وصَلَوَاتُه، وبركاته وتَحِيَّاته ؛ وعساكره قد تجاوزت الحَدّ، وكَثُرَت عن الإحصاء والعَدّ ، فإذا تأملها الطَّرْفُ آنْقَلَب عنها خاسِئًا وآرْتَدّ .

ولمـا وصل إلىٰ الجامع المذكور خَطَبَ فأوْرَدَ من القَوْل أحْسَنَه، ووعَظَ فأسمع من الوَعْظِ أوضَحه وأبْيَنَه ؛ وصلّى صلاةً جَهَر بالقراءة فيها ورَتَّلَها، وعاد إلىٰ قُصُوره الشريفة وقد شملت البَرَكات برؤيته، ووُفِّقَ مَنْ عَمِلَ بمَوْعِظَتِه، ونَجَا مَن آقتدىٰ به فى صلاته ، وآستولىٰ علىٰ السَّعْد من جميع أرْجائِه وجِهَاته . أعلمناك ذلك لتعرف قَدْرَ النِّعْمة به، فآشكر الله سبحانه بمقتضاه ، وآعتمد تلاوة هـذا الأمر علىٰ رُءُوس الأشهاد؛ فآعلم ذلك .

الخامس — المكاتبة بالسَّلامة فى الرُّكوب فى الجمعة الثالثة من شهر رَمَضَان .

قد تقـدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى المقالة الثانيــة أن الخليفة كان يركب فى الجمعة الثالثة منه إلىٰ الجامع العَتِيقِ (1) بمِصْر، فيخطب فيه ويعود إلىٰ قصره .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِيّ، وهى :

---

(1) ما تقدم فى (ج ٣ ص ٥١١) من هذا المطبوع صريح فى أنه كان يركب فى الجمعة الثالثة من رمضان إلىٰ الجامع الأزهر ، وأنه لا يركب إلىٰ الجامع العتيق إلا فى الجمعة الرابعـة ، التى أهمل هنا ركوبه إليها وحاصل ما تقدّم أنه يركب فى جمع رمضان ماعدا الأولىٰ .

من عوائد الله ـ سبحانه ـ الإحْسَانُ إلىٰ عَبِيدِه ، وتَعْوِيضُهم للشُّكْرِ عليه بُمُوِّه ومَزِيدِه؛ والآمتِنَانُ بتيسير عَصِيِّه ، وتعجيل قَصِيِّه ، وتقريب بعيده؛ فهو لا يُخْلِيهم من نَوَاجِمِه ، ولا يُعفيهم من هَوَاجِمِه .

ولمـا أقبل هذا الشهر الشريف كان من عُمُوم بركاته ، وشُمُول خَيْرَاته ؛ أن مولانا وسيدَنا الإمامَ الفلانيَّ صَلَواتُ الله عليه وعلىٰ آبائه الطاهرين ، وأبنـائه الأكرمين ؛ والىٰ فيه بَرَكَاتِه ، وزَكّىٰ أعمالَ المؤمنين في آستماع آختِطَابه والآئتمـام بصَلَاته ؛ وفي هذا اليوم وهو يوم الجمعة من شهر رَمَضَان ، أعمل ركابه إلىٰ الجامع العتيق بمصر لِيُسْهِمَ لهذه المدينة من حَظَّيِ الدنيا والآخره ، مثْل ما أسْهَمَه وعَجَّلَه لأهْـلِ المُعِزِّيَّة القاهره . فكانت هيبَتُه يُعْجِزُ وصفُها كُلَّ لِسَان ، وظهر ـ عليه السلام ـ في الرِّدَاءَيْنِ : السَّـيْفِ والطَّيْلَسَان ؛ والجيوشُ قد آنبسطت وآنتشرت ، والنفوسُ قد آبْتَهَجَت وآستبشرت ، والألسنة قد عكفت علىٰ الدعاء بتَخْلِيد مُلْكِه وتوفَّرت . وعند وُصُوله خَطَبَ فأحسنَ في الألفاظ والمعانِي ، وحَذَّرَ من تأخير التَّوْبَة والتَّضْجِيع فيهـا والتَّوَاني ؛ وصلّىٰ صلاةً شرَّفها الله وفَضَّلها ، ورَضِيَها تبارك وتعـالىٰ وتَقَبَّلها ؛ وآنْكَفَأَ عائدا إلىٰ قُصُوره ومنازله المعظمة : ضاعف الله له ثَوَابَه وأجْرَه ، وأوجب شُـكْرَه ورفع ذِكْرَه ؛ ويجبُ أن تعْتَمِد إذَاعَةَ ذلك لِيُبَالِـغَ الكافَّةُ في الآعتراف بالنِّعْمَة فيه ، ويُوَاصِلُوا شكْرَ الله تعالىٰ عليه ، والمُطَالعَةَ بمـا آعتمد فيه .

السادس ـــ ما يكتب بالبشارة بالسَّلَامة في رُكُوب عيد الفِطْر .

وقد تقدّم في الكلام علىٰ ترتيب الدَّولة الفاطميةِ في المَقالة الثانيـة : أن الخليفة كان يركبُ لصَـلَاة عِيدِ الفِطْر صبيحةَ العِيدِ ، ويخرج من باب العيـد من أبواب

القَصْر، ويتوجه إلىٰ [المُصَلَّى](١) فيُصَلِّى ويَخْطُب، ثم يعود إلىٰ قصوره؛ ويكتب بذلك إلىٰ أعمال المَمْلَكة، تارةً مع خُلُوِّ الدَّوْلَة عن وَزِيرٍ، وتارةً مع آشتمالها علىٰ وَزِيرٍ .

وهذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك، مع خُلُوِّ الدولة عن وزير، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِىِّ، وهو :

الحمدُ لله نَاشِرِ لِوَائِه فى الأقطار، ومُعَوِّض المُطِيعين من جَزَائِه ببُلُوغ الأوطار، الذى نَسَخَ الإفطارَ بالصِّيَام ونسخ الصِّيام بالإفطار؛ وكلَّف عباده ما يُطِيقُونَه ووعد عليه جَزِيلَ أجْرِه، وأَسْبَغَ من نِعَمِه مالا يطمع [فى القِيَام] بواجب حَمْدِه عليه وشُكْرِه؛ وصلّى الله علىٰ سيدنا محمد نَبِيِّه الذى أعْلَنَ بالإيمان وبَاح، وبَيَّنَ المَحْظُور فى الشَّريعة والمُبَاح؛ وأرشد إلىٰ ما حَرَّمَه الإسلام وحَلَّله، ومَهَّدَ سُبُلَ الهُدىٰ لمن آسْتَغْوَاه الشَّيطان وضَلَّله؛ وأوضح مَرَاتِبَ الأوقات ومَنازِلَها، وعَرَّف تَفَاوُتَ الأيام وتَفاضُلَها؛ وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه أمير المؤمنين عَلِىِّ بن أبى طَالِبٍ الذى مضت فى الله عَزَمَاتُه، وبَيَّضَتْ وجهَ الدِّينِ الحَنِيف مَوَاقِفُه ومقَامَاتُه؛ وعلىٰ الأئمة من ذرِّيَّتِهما الذين تَكَفَّلُوا أمر الأمة نَصّا، وآمتَطَوْا علىٰ مَنَارها فلم يألوا جُهْدا ولم يتركوا حِرْصا؛ فالحاضر منهم يُوفِى علىٰ مَنْ كان [مِنْ] قَبْـلِه، وأحزابُ الحَقِّ فَرِحُون بما آتاهم الله من فَضْلِه؛ وسلم عليهم أجمعين سلاما لا آنقطاع لدَوَامه، وشَرَّفهم تشريفًا لا آنفصام لإبرامه؛ وأسْنىٰ ومَجَّد، وتَابع وجَدَّد .

وكتاب أمير المؤمنين هـذا إليك يوم كذا عِيد الفِطْر من سنة كذا : بعد أن وَفَّى الصِّيامَ حَقَّه، وحاز أجْرَ مَنْ جعل الله علىٰ خزائنـه رِزْقَه؛ وبعد أن أفطر بحَضْرَته الأولياء من آله وأُسْرَته، والمُقَدَّمُون من رُؤَساء دَوْلَته، والمُتَمَيِّزُون من أوليـائه

(١) بياض بالأصل، والتصحيح عما تقدّم فى هذا المطبوع (ج ٣ ص ٥١٣) .

وشيعته . وكان من نبإ هذا اليوم أنّ أمير المؤمنين لمّا آرتقب بروزه من قصوره، وتجلّى فأشرقت الأرض بنوره، توجه إلى المصلّى قاضياً لسنّة العيد، فكانت نعمة ظهوره بالنّظر [للحاضر] وبالخبر للبعيد، وآستقلّ ركابه بالعساكر المنصورة التى أبدت منظرًا مفتنا معجبا، وجعلت أديم الأرض بالخيل والرّجل محتجبا، وذخرت الآنتقام ممّن شقّ العصا، وتجاوزت فى الكثرة عدد الرّمل والحصا، وزيّنت الفضاء بهيئتها، وروّعت الأعداء بهيبتها، وجمعت بين الطّاعة وشدّة البأس، وآدّرعت من التّقوى أمنع جنّة وأحصن لباس، ولم يزل سائرا فى السّكينة والوقار، ناظرًا للدّنيا بعين الآحتقار، والثّرى بالجباه والشّفاه مصافح ملثوم، فهما موسومتان به وهو بهما موسوم، إلى أن وصل إلى مقرّ الصّلاه، ومحلّ المناجاه، فصلّى أتمّ صلاةٍ وأكملها، وأدّاها أحسن تأديةٍ وأفضلها، وأخلص فى التّكبير والتّهليل إخلاص من لم يفت أمرًا ويخشى الله ويتّقيه ونصح فى إرشاده ووعظه، وأعرب ببديع معناه وفصيح لفظه، وعاد إلى مثوى كرامته، وفلك إمامته، محمود المقام، مشمولا بالتوفيق فى النّقض والإبرام . أعلمك أمير المؤمنين ذلك لتذيعه فيمن قبلك، وتشكروا الله على النّعمة الشاملة لهم ولك، فآعلم هذا وآعمل به، إن شاء الله تعالى . وكتب فى اليوم المذكور .

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك، والدّولة مشتملة على وزير، عن الحافظ لدين الله العلوىّ خليفة الديار المصريّة، فى سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة، وهى :

الحمد لله الذى أعزّ الإسلام وشيّد مناره، وأيّد أولياءه ونصر أنصاره، وأظهر فى مواسمه قوّته وآستظهاره، وختم الشّرائع بشرفٍ أبدىٍّ فكان حظّها منه إيثاره،

وحَظَّ الإسلام ٱسْتِبْدَادَه به وٱستئثارَه؛ وصلّى الله علىٰ جدّنا محمد الذى كَرَّمه باصْطِفَائه، وأسْـعَدَ من حَافَظَ علىٰ ٱتّبَاع نَهْجِه وٱقْتِفَائه؛ وبَيَّن بشَرْعه ما حَلَّلَه وحَرَّمَه، ودعا الأمة بإرساله إلىٰ دِينٍ قَيِّمٍ أعلىٰ بِنَاءه وأحْكَمَه؛ ووعدهم علىٰ مَفْرُوضه ومَسْنُونه جَزِيلَ الأجْر، وأمر فى ٱعتقاد خِلَافه بالدَّفْع والمَنْع والزَّجْر؛ وعلىٰ أخيـه وٱبن عَمِّه أبينا أميرِ المؤمنيـن عَلِيِّ بن أبى طَالِبٍ أوّلِ الأئمة الخُلَفاء، والمُشْتَهِرة فضائلُه ٱشتهارا ليس به من خَفَاء؛ ومَنْ حَبَاه الله المَحَلَّ الرفيعَ والمَنَّ الجَزِيل، وخَصَّه من الشَّرَف بمـا جاء فيه من مُحْكَم التَّنْزِيل؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهما القائمين بفرض الله والمؤدِّينَ لحُقُوقِه، والذين كَفَلَتْ أمانَتُهم بٱنبساط نُورِ الحَقِّ وٱنتشارِ لِوَائِه وخُفُوقه؛ وسَـلَّمَ وكَرَّم، ومَجَّدَ وعَظَّم.

وكتاب أمير المؤمنين إليك يوم كذا عِيد الفِطْرِ من سنة إحدىٰ وثلاثين وخمسمائة، الذى أمر الله فيه بما نَهىٰ عنه من قَبْلِه، وضاعف الأجْر بكَرَمِه وفَضْله؛ فرفع تكاليفَ الصَّوْم، وأوجَبَ الإفطارَ فى هذا اليوم؛ وساوىٰ فى ذلك [بين] كُلِّ مُتْهِم ومُنْجِد، وأمر بَنِى آدَمَ فيه بأخْذِ الزِّينةِ عند كُلِّ مَسْـجِد؛ وكان من خَبَرِه أن الفَجْر لمَّـا طلع مُبَشِّرًا بالشمس، ومُؤْذِنًا ببَعْثِهـا من الرَّمْس؛ تتابعت الجُيُوش المَوْفُوره، والعساكر المنصوره؛ إلىٰ أبواب القُصُور الزاهرة تَوَكُّفًا لأنوار أمير المؤمنين، وتَرَقُّباً لظهوره قاضيًا حَقَّ الدِّين؛ فلمـا أسفر الصُّبْحُ وأضاء، وملأت الخلائقُ الفَضَاء؛ تَجَلَّى من أفلاكِ إمامته، وبَرَزَ فأُغْبِطَ كُلُّ مُؤْمِنٍ بثَبَاتِه علىٰ المُشَايعَـة وإقَامَته؛ وكان ظاهرًا وهو مُحْتَجِبٌ بالأنوار، ومُمْتَنِعا وهو مُنْتَهَبٌ بالأبصار؛ والكَافَّةُ يُصَافِحُون الأرض ويَجْتَهِـدون فى الدعاء بإخلاص نِيَّاتِهـم، والعساكر المؤيدة لَوْ أنَّهـا عَمَّت الأرضَ بتَطْبِيقِها، وساوت بين قَرِيبِها وسَحِيقِها؛ وصارت كالجبال الرَّوَاسى فيهـا، لكانت قد تزلزلت ومَادَتْ بأهْلِيها، وهى مع تَبَـايُنِ أجناسها وطَوَائِفِها مُتَظَافِرة علىٰ مُعَانِدى

الدَّوْلة ومُخَالِفيها ، مُتلائِمَةٌ علىٰ الوَلَاء ، مُتَمَالِئَةٌ علىٰ الأعداء ، تَتَلَفَّتُ إلىٰ المُجَاهَدة كأنها الأُسُودُ إقْدَامًا وبَأسًا ، وكأنّما فُصِّلت جَوامدُ الغُدْرَانِ سِلَاحا لها ولِبَاسًا ؛ والسيِّدُ الأجَلُّ الأفضلُ التى عَظُمَت به المواهب وجلَّت ، وذهبت بوِزَارَتِه الغَيَاهِبُ وتجلَّت ؛ وتهلَّل بنظره وَجْهُ المِلَّة وكان عَابِسا ، وأعاد الدَّوْلَة مُعْصِرًا وقد كانت قبله عَانِسا ؛ وحَسُنَت الدُّنيا بأيامه إذ ليس فيها مَنْ يُضَاهِيه ، وٱنْتَظَمَت أمورها علىٰ الإرادة بصدورها عن أوامره ونواهيه ؛ تُرتَّبُ المواكبُ بمَهَابَتِه ، ويُسْتَغْنىٰ بتوَغُّلِها فى القلوب عن إيمائِه وإشارَتِه ؛ وكُلُّ طائفة مُقْبِلَةٌ علىٰ شانها ، لَازِمَةٌ لمكانها ؛ مُتَصَرِّفَةٌ علىٰ تهذيبه وتقريره ، عاملةٌ بآدابه : فوُقُوفُها بوُقُوفِه ومَسِيرُها بمَسِيرِه .

وتوجه أمير المؤمنين إلىٰ المُصَلَّىٰ محفوفا بأنوار تُجَلِّى ماأنشأتْه سَنَابِكُ الخَيْل ، وتَمْحُو آيَةَ نَقْعٍ قام مُثَارُهَا مقام ظَلَام اللَّيل ؛ وعليه من وَقَارِ الإمامة ، وسَكِينة الخلافة ؛ ما خَصَّه الله تعالىٰ به دون البَرِيَّة وحده ، لأنه مما وَرِث أميـة رسول الله صلَّى الله عليه وسلم وآله وجدّه ؛ ولما ٱنتهىٰ[(١)] إليه قَصَد [المِحْرَاب][(٢)] وأمّه ، وأدّى الصَّلَاة أكْمَلَ أداءٍ وأتَمَّه ؛ ثم ٱنتهىٰ إلىٰ المِنْبَر[(٣)] فعلاه ، ومجَّدَ الله تعالىٰ وحَمِدَه علىٰ ماأولاه ؛ ووَعَظَ وَعْظًا خَوَّف عاقِبَةَ المعاصى والذُّنُوب ، وحَلَّ وِكاءَ العُيُون وداوىٰ مَرَضَ القُلُوب ؛ وأمر بسُلُوك سبيل الطَّاعات وأفعالِ البِر ، وحَثَّ علىٰ التَّوَفُّر عليها فى الجَهْر والسِّر ؛ وعاد إلىٰ قُصُوره المكرمه ، ومَوَاطِنِه المُقَدَّسه ؛ وقد بذل فى نُصْحه لله ولرسوله وللمؤمنين جُهْدَه ، وفعَل فى الإرشاد والهِدَايَة مالاغَايَةَ بَعْدَه .

---

(١) كذا بالأصل .

(٢) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٣) فى الأصل «إلىٰ المحراب فصلاه» ولا معنىٰ لها .

أنبأك أمير المؤمنين خَبَرَ هذا اليَوْم لتَشْكُرَ الله علىٰ النِّعْمَة فيـه ، وتُذِيعَه قِبَلَك علىٰ الرسم فيما يُجَاريه ؛ فآعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

السابع — مايكتب بالبشارة بالسلامة فى ركوب عِيدِ النَّحْر .

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب دولة الفاطِميِّين فى المقالة الثانيـة أن الخليفة كان يركب لصَلَاة عيـدِ النَّحْر كما يركب لصلاة عيد الفِطْر، تَارَةً مع آشتمـال الدَّوْلَة علىٰ وزير، وتَارَةً مع عَدَم آشتمالها علىٰ وزير .

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِيِّ، وهى :

أما بعـد ، فالحمد لله الذى أعلىٰ مَنَارَ المِلَّه ، وشَرَّفَ مَوَاسِمَ أهلِ القِبْلَه ؛ وكَفَّل أمير المؤمنين أمْرَ الأيَّام، كما كَفَّلَه أمْرَ الأنام، فرأىٰ الناسُ من حُسْن سِيرَته أيْقَاظًا مالايَرَوْنَه مجَازا فى المَنَام؛ وصلّى الله علىٰ جَدِّنا محمد نبيِّه الذى أرسله إلىٰ الناس كافّه، وجعل العِصْمَةَ مُحيطةً به حَافَّه؛ فأطلع فى ظـلام الشِّرْك شَمْسَ التوحيـد وبَدْرَه، وآمن به مَنْ شرح الله للإسلام صَدْرَه، وعصاه من تمرّد فأثقل الوِزْرُ ظَهْرَه ؛ وبَيَّن عبادات كَرُم أجْرُهـا وعَظُم ثوابُها ، وألْزَمَ طاعاتٍ جعل الجَنَّـة للعاملين بها مُفَتَّحَةً أبوابُها ؛ وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالب مُظَافِرِه ومُظَاهِرِه، والمساوِى فى حُكْمه بين باطنه وظَاهِرِه؛ ولم يَزَلْ حاملًا علىٰ المَحَجَّة البيضاء جاعلًا ذلك من قُرَبه وذَخَائِره ، قائمـا بحقوق الله جَاهِدًا فى تعظيم حُرُمَاته وشعائره ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتهما نُجُوم الأرض وهُدَاةِ أهلها ، والواجبةِ طَاعَتُهم علىٰ مَنْ فى وَعْرِها وسَهْلِها؛ والذَّابِّين بالمَشْرَفِيَّة عن حِمىٰ الشريعه، والذّين مُتَابَعَتُهم من أوْجَه ذَرِيعَه .

وكتاب أمير المؤمنين هـذا إليك يوم كذا عِيدِ النَّحْر سنة كذا وكذا : وهو يومٌ أظهر الله فيه قُوَّة الدَّوْلَة وآقْتِدارَها، وأوجب فيه — رَغْبَةً ورَهْبَةً — مسارعةَ النفوس

المخالِفَة إلىٰ الطاعة وٱبتدارَها؛ وذلك أن عساكرَ أمير المؤمنين توجهت إلىٰ قُصُوره الزاهرة عند ٱنْفِجَار الفَجْر، وحافظت علىٰ ماتُحْرِزُه من كريم الثَّواب وجَزِيل الأجْر، وٱستنزلت الرَّحْمَةَ برُؤْيَة إمامِ الأمَّه، وأعَدَّتِ الإخلاصَ فى خِدْمَتِه من أوفى الحُرُماتِ وأقْوىٰ الأَذِمَّه؛ وأقامت إلىٰ أن بَرَز أميرُ المؤمنين والأنوارُ الساطعةُ طَوالِعُه، ومَهَابَتُه تمنع كُلَّ طَرْفٍ من ٱستقصاء تَأَمُّلِه وتُدَافِعُه؛ وقَصَدَ المُصَلَّىٰ فى كَتَائِبَ لَجِبَه، ومَوَاكِبَ للتعظيم مُسْتَوْجِبَه؛ وعِزَّةٍ تتبين فى الشَّمائِلِ والصَّفَحَات، وقُوَّةٍ يشهدُ بطِيبِ وَصْفِها أَرَجُ النَّفَحَات؛ قد غَدَت عُدَدُها مُحَكَّمه؛ وخيولها مُطَهَّمه؛ وذَوابِلُها إذا ظَمِئَتْ كانت مُقَوَّمه، وإذا رَوِيَتْ عادت مُحَطَّمه؛ تتقلَّدُ صفائحَ متىٰ ٱنْتُضِيَتْ أنصفَتْ من الجَائرِ الحَائف، ومتىٰ ٱقْتَضَبَت عَمَلًا كان ٱقْتِضَابُها مُبَيِّضًا للصَّحَائف؛ وفى ظِلِّها مَعَاقِلُ لِلآئذين، وبِحَدِّها مَصَارِعُ لِلْمُنَابِذين؛ وهى للدّماء هَوَارِق، وللهَامَات فَوَالِق، ولِمُسْتَغْلَق البلاد مفاتح ولِمُسْتَفْتِحها مَغَالِق .

ولما ٱنتهىٰ إلىٰ المُصَلَّى قضىٰ الصلاةَ أحْسنَ قَضَاءٍ وأدّاها أفْضَلَ تأديه، وٱستنزل رَحْمَةً لم تَزَلْ بصلاته مُتَمَادِيَه؛ وٱنتهىٰ إلىٰ المِنْبَر فرقِيَه، وخطب خطبةَ مَنِ ٱسْتَخْلَفَه الله فكان مُرَاقِبَه ومُتَّقِيَه؛ ووَعَظَ أبلغ وَعْظ، وأبان عمَّا للعامل بنُصْحِه فى الدُّنيا والآخرة من فائدةٍ وَحَظّ . وعطف علىٰ الأَضَاحِى المُعَدَّة له فنحَرَها جَرْيا فى الطاعات علىٰ فِعْلِها المُتَمَادِى، وأضْحَتْ نتوقع التَّكْميل بإنجازه وَعِيدَه فى الأعادى؛ فالله يَقْضى بتصديقه، ويَمُنُّ بتَخَيُّلِه وتحقيقه؛ وعاد إلىٰ قُصُوره المُكَرَّمة مشكُورًا سَعْيُه، مضمونا نَفْعُه؛ مرضيًّا فعله، مشمولًا عبيدُه منه بما هو أهْلُه . أعلمك أمير المؤمنين ذلك فاعلم هذا وٱعمل به . وكُتِب فى اليوم المذكور .

وهـذه نسخة كتاب فى معنىٰ ذلك، والدولة مشـتملة علىٰ وزير، من إنشاء آبن قادوس، وهى :

أما بعـد ، فالحمد لله مَاحِى دَنَسِ الآثام بالحَجِّ إلىٰ بَيْتِه الحَرَام ، ومُوجِبِ الفَوْزِ فى المَعَادِ لمن عَمِلَ بمراشد أئمة الهُدىٰ الكِرَام، ومُضَاعِفِ الثَّواب لَمن آجتهد فيما أمر الله به من التَّلْبِيَة والإِحْرَام ، ومُخَوِّلِ الغُفْرَانِ لمن كان بفرائض الحَجِّ ونَوَافِلِه شَـدِيدَ الوَلُوعِ والغَرَام؛ وصلّى الله علىٰ جدّنا محمد الذى لبّى وأحرم، وبيّن ما أحَلَّ اللهُ وحَرَّم؛ وعلىٰ أخيه أبينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِبٍ الذى ضَرَب وكَبَّر، وحَقَّر من طَغىٰ وتَجَبَّر؛ وعلىٰ الأئمة من ذرّيّتِهِما أعلامِ الدِّيـن ، وحُتُوف المُعْتَدِين؛ وسَلَّم وكَرَّم، وشَرَّف وعَظَّم .

وإنَّ من الأيام التى كَمُلَت محاسِنُهـا وتَمَّت ، وكَثُرت فضائلُها وجَمَّت ؛ ووجب تخليدُ عِزِّ صِفَاتِها، وتعيَّن تسْطِيرُ تأثيراتها ؛ يَوْمَ عِيدِ النَّحْرِ من سنة كذا : وكان من قَصَصِه أن الفَجْرَ لمـا سَـلَّ حُسَامَه، وأبْدىٰ الصَّباحُ آبْتِسَامَه؛ نَهَضَ عبيد الدَّوْلة فى جموع الأولياء والأنصار ، وأُولِى العَزِيمَـة والآستبصار؛ مُيَمِّمِينَ القُصُور الزاهرة مُتَـبَرِّكين بأفْنِيَتِها، ومُسْتَمْلِين بسعادتها؛ وتألَّفُوا صفوفًا تَبْهَرُ النواظر، ويُخْجِلُ تَألُّفُها تَألُّفَ زَهْرِ الرَّوْض الناضر؛ مُسْتَصْحِبِين فُنُونا من الأَزْيَاءِ تَرُوق، ومُسْتَتْبِعِين أصنافًا من الأسلحة يَغُضُّ لَمعُها من لَمْعِ اللَّهَبِ والبُرُوق؛ والأعلام خافقه، والرَّايات بألْسِنَة النَّصر، علىٰ الإخلاص لإمام العَصْر، مُتَوَافِقه؛ فأقاموا علىٰ تَشَوُّفٍ لظهوره، وتَطَلُّعٍ للتَّبرُّك بلامع نوره .

ولما بَزَغَتْ شمسُ سعادته، وجرت الأمورُ على إيثاره وإرادته؛ وبَدَتْ أنوار الإمامة الجَلِيَّه، وظهرت طَلْعتُها المُعظَّمة البَهِيَّه؛ خَرَّ الأنامُ سُجُودا بالدعاء والتمجيد، والاعترافِ بأنَّهم العبيدُ بَنُو العَبِيد؛ واستقلَّ رِكَاب أمير المؤمنين، ووزيره السَّيِّد الأجَلّ الذى قام بنَصْرِ الله فى إنْجادِ أوليائه، وتكفَّل للإسلام برفعِ مَنارِه ونَشْرِ لوائه؛ وناضَلَ عن حَوْزَةِ الدِّين وجاهد، وناصَلَ أحزابَ الكُفَّار وناهد؛ يقوم بأحكام الوزاره، وتدبير الدولة تدبيرَ أُولِى الإخْلاصِ والطَّهاره؛ ويتَّبع آراءَ أميرِ المؤمنين فيما تنفذ بِهِ أوامِرُه، ويعمل بأحكام الصَّوَابِ فيما تقتضيه مَوارِدُه ومَصادِرُه؛ ويُحْسِن السِّياسَة والتدبير، ويتَوَخّى الإصابةَ فى كُلِّ صغير من أمور الدَّوْلة العَلَوِيَّة وكبير؛ ويُخْلِصُ لله جَلَّ وعَزَّ وللإمامه، ويَكْفكِفُ من الأعداء ببَذْلِ الجُهْدِ فى إعمال لَهْذَمه وحُسَامه؛ وسار أمير المؤمنين والعساكرُ متتابعة فى أثَرِه، مُتوافِقةٌ على امتثال أمْرِه؛ قد رفَعَت السَّنابِكُ من العَجَاجِ سَحَاباً، وخَيَّلَتْ جُنَنُ الجُنْد للناظرين فى البَرِّ عُبَاباً؛ والجِيادُ المُسَوَّمةُ تَمُوجُ فى أعِنَّتها، وتختال فى مراكبها وأجِلَّتها؛ وتُسْرِعُ فتُكْسِب الرِّياحَ نَشَاطا، وتفيد المُتَعَرِّض لوَصْفِها إفراطا، وتُهْدِى لمَن يحاول مماثلتها غُلُوًّا واشْتِطَاطا؛ وأصواتٌ مرتفعةٌ بالتهليل، وأصواتُ الحديد تُسْمِعُ بشائرَ النَّصْر بتَرْجَمة الصَّليل؛ ويكاد يُرْعِب الأرضَ تَزَلْزُلُ الصَّهِيل، وتَرُضُّ سَنَابِكُها الهِضَابَ وتغدو صِلابُها كالكَثِيبِ المَهِيل .

ولما انتهى رِكَابُ أمير المؤمنين إلى المُصَلَّى والتوفيق يَكْتَنِفُه، والسعادة تُصَرِّفه؛ قَصَد المِحْرَابَ فأقام الصلاه، ونَحَا المنبر فشَرَّفَه إذ عَلَاه؛ وأدّى الصَّلاة على أكمل الأوضاع وأتَمِّها، وأجْمعِ [الأحوال] لمراضى الله وأعَمِّها؛ وانْثَنَى للبُدْنِ المُعَدَّة فنَحَر ماحَضَر تقرُّباً لخَالِقِه، وأجرى القانُونَ على حقائقه؛ وعاد إلى قُصُوره الزاهرة وقد غفر الله بسَعْيِه الذُّنُوب، وطَهَّر برُؤْيَتِهِ القلوب، وبَلَّغ الأمم من المَرَاشِد نِهايَةَ المطلوب.

أعلمك أمير المؤمنين نبأَ هذا اليوم الّذى تشـتمل المَسَارُّ علىٰ جميعه أوّلا وآخِرا ، وَباطِنًـا وظاهِرًا ؛ لتُذيعَ نَبأَه فى عَمل وِلَايَتِك ، وتُشيِعَ خَبَره فى الرعايا علىٰ جارِى عَادَتك ؛ فاعْلَم هذا وآعمل به ، وطالع مَجْلِس النَّظَر السيدىّ الأجلىّ بمـا آعتمدْتَه فى ذلك ، إن شاء الله تعالىٰ . وكُتِب فى اليوم المذكور .

قلتُ : وهـذا الصنف من المكاتبات قد رُفِضَ وتُرِكَ آستعمالُه بديوانِ الإنشاء فى زَمَاننـا .

الصنف السادس عَشَرَ

(المـكاتبة بالبِشَارة بوفَاءِ النِّيل والبِشَارة بالسَّلامة فى الركوب لفَتْح الخَلِيج)

وهـذه المكاتبة من خصائص الديار المِصْرِيَّة ، لايشاركها فيها غيرُها من الممـالك . ولم يَزَل القـائمون بالأمر بالديار المِصْرِيَّة من قديم الزمان وهَلُمَّ جَرًّا يكتبون بالبِشَارة بذلك إلىٰ وُلَاة الأعمال ، آهتمامًا بشَأْن النِّيل ، وإظهارا للسُّرور بوفَائه ، الّذى يترتب عليه الخِصْبُ المُؤَدّى إلىٰ العِمارَة وقِوامِ المَمْلَكة ، وآنتظام أمر الرَّعِيَّة . وقد كان للخلفاء الفاطِمِيِّين القائمين بأمر الديار المصرية بذلك كبيرُ العنـاية ووَافِرُ الاهتمام ؛ وكانت عادتُهم فى ذلك أنّهـم يكتبون بالبِشَـارة بوفاء النِّيـلِ كُتُبا مُفْرَدة ، وبفَتْح الخَلِيج وهو المعبر عنه فى زماننا بالكَسْر كُتُبًا مفردة . ولعلَّ فتحَ الخليج كان يتراخىٰ فى زمنهم عن يوم الوَفَاء ، فيُفْرِدُون كُلَّ واحد منهما بكُتُب .

فأما وفاء النِّيـل المبارك فهـذه نسخة كتاب بالبِشَارَة به فى الأيام الفـاطِمِيَّة ، من إنشاء آبن قَادُوس ، وهى :

النِّعَمُ وإن كانت شاملةً للأمم ، فإنّها مُتَفاضلة الأقدار والقِيَم ؛ فأَوْلاها بشُكْر تُنْشَرُ فى الآفاق أعلامُه ، وآعْتِدَادٍ تُحْكَمُ بإدراك الغايات أحكامُه ، نِعْمَةٌ يشترك فى النَّفْع بها

العباد، وتَبْدُو بركتُها على النَّاطق والصَّامت الجَمَاد، وتلك النِّعْمَة النيل المِصْرِيُّ الذى تبرز به الأرض الجُرُز فى أحسن الملابس، وتظهر حُلَلُ الرِّيَاض على القِيعَان والبَسَابِس، وتُرى الكُنُوزُ ظاهرةً للعِيَان، مُتَبرِّجَةً بالجواهر واللُّجَيْن والعِقْيَان، فسُبْحان مَنْ جعله سَبَبًا لإنشار المَوَات، وتعالى مَنْ ضَاعَفَ به ضُرُوب البَرَكات، ووَفَّر به مَوادَّ الأرزاق والأقْوَات، وهذا الأمر صادرٌ إلى الأمير، وقد مَنَّ الله جَلَّ وعَلا بوفاء النِّيل المُبَارَك، وخُلِعَ على القاضى فلان بن أبى الرَّدَّادِ فى يوم كذا وكذا، وطاف بالخِلَع والتشريفات، والمَوَاهب المُضَاعَفَات، بالقاهرة المحروسة ومصرَ على جَارِى عَادَتِه، وقديم سِيرَتِه، ونُودِىَ على المـاء بوَفَائِه ستةَ عشَرَ ذرَاعا وإصْبَعًا من سبعة عشر ذراعا، وآستبشر بالنِّعْمة بذلك الخَلَائق، ووَاصَلُوا بالشُّكْر مواصَلَةً لاتَسْتَوْقِفُهم عنها العَوَائِق، وبَدَا من مَسَرَّات الأُمَم وآبتهاجهم مايَضْمَنُ لهم من الله المَزِيد، ويُنِيلُهم المَنَال السعيد، ويقضى لهم بالمآل الحَميد. ومُوَصِّلُ هذا الأمر إليك فلان، فاعتمدْ عند وُصُوله إليك إكرامَه وإعزَازَه، وإجمال تَلَقِّيه وإفْضَالَه، إلى ماجرت به عادة مثْلِه من رَجَاءٍ، وتَنْوِيه وآحتفاء، وإكرام وآعتناء، ليَعُود شاكرا. فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة أخرى من ذلك، من إنشاء آبن الصَّيْرَفِىِّ، وهى:

أَوْلى ما تَحَدَّث به نَاقِلُه ورَاوِيه، وتَعَجَّلَ المَسَرَّة به حَاضِرُه ورَائِيه، ما كانت الفائدةُ به شائِعَةً لاتَتَحَيَّز، والنِّعمةُ به ذائعةً لايَتَخَصَّصُ أحدٌ بشُمُولها ولا يتميز، إذ كان عِلَّةً لتَكَاثُر الأقوات، وبها يكون التَّمَاثُل فى البَقَاء والتساوِى فى الحيات، وذلك ما مَنَّ الله تعالى به من وَفَاء النِّيلِ المُبَارك: فإنه آنتهى فى يوم كذا من سنة كذا، إلى ستة عشر ذراعا وزاد إصبعا من سبعة عَشَرَ ذرَاعا، وقد سَيَّرْنا أيُّها الأمير فلانا

بهـذه البُشْرىٰ إليك، وخَصَّصْناه بالوُرُود بها عليك ؛ فتَلَقَّها من الشُّكْر بمُسْتَوْجبها، وآسْتَقْبِلْهَا من الآبتهاج والآغتباط بمـا يليق بهـا ؛ وآجعل الرُّسُومَ التى جَرَت العادة بتوظيفها لفلان بن أبى الرَّدَّادِ محمولَةً من جهتك إلىٰ حَضْرَتِنا، لتُولىٰ إليه من جِهَتِنا؛ فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ، وكُتِب فى اليوم المذكور .

وهذا الصِّنف من المكاتبات مُتَدَاوَلٌ بالديار المِصْرِيَّة إلىٰ آخر وقت ، يُكْتَبُ به فى كُلِّ سـنة عن الأبواب السلطانية إلىٰ نُوَّابِ السَّلْطَنَة بالممـالك الشامية عند وَفاء النِّيل ، وتسيرُ به البَرِيدِيَّة ؛ ورُبَّمـا جُبِي للبَرِيدِىِّ من الممـالك شىءٌ بسبب ذلك . وإذا كانت الدَّوْلَة عادلَةً ضُمِّنَ الكتابُ أنه لايُجْبىٰ للبَرِيدِىِّ شىءٌ بسبب ذلك .

وهذه نسخةُ مثَالٍ شريف فى معنىٰ ذلك .

ولا زال يُرْوىٰ عنـه وإليه حَدِيثُ الوَفاءِ والنَّـدَا ، ويُورَدُ علىٰ سَمْعِه الكريم نَبَأُ الخِصْبِ الذى صَـفَا موْرِدًا ؛ ويُهنَّىٰ بكُلِّ نِعْمَةٍ تكفَّلَت للرعايا بمضاعفـة الجُودِ ومُرَادفة الجَدَا ؛ ويُخَصُّ بكُلِّ مِنَّةٍ عَمَّتْ مواهبُها الأنامَ فلن تَنْسىٰ أحدًا .

صَدَرت هـذه المكاتبة إلىٰ الجناب العـالى : وبَحْرُ كَرَمِها لاينتهى إلى مَدىٰ ، وبِشْرُ بُشْراها دائمٌ أبدًا ؛ تُهدى إليـه سلاما مُؤكَّدا ، وثناء أضحىٰ به الشُّكْرُ مُرَدَّدًا ؛ وتُوَضِّح لِعلْمِه الكريم أن الله تعالىٰ قد أجرىٰ علىٰ جميلِ عاداته ، وأراد بالأمَّة من الخَيْر ماهو المألوف من إراداته ؛ ومَنَحَ مزيدَ النِّعَم التى لم تَزَلْ تُعْهَدُ من زِيَادَاته ؛ فأسدىٰ معروفَه المعروفَ إلىٰ خَلْقِه ، وأيَّدَهم بمـا يكون سببا لمَـادَّةِ عَطائه ورِزْقه ؛ فبَلَّغهم تأميلَهم ، وأجرىٰ نِيلَهُم ؛ وزادهم بَسْطَةً فى الأرض ، وملأ به المَلا وطبَّقَ به البلادَ طُولَهـا والعَرْض ؛ ونَشَر علىٰ الخَافقَيْنِ لِوَاءَ خِصْبِه ، وأتىٰ بعسْـكَرِ رِيِّه لقتْلِ المَحْلِ

وجَذْبِه، وبينما هو فى القَاعِ إذ بلغ بإذْن رَبِّه ؛ بجعل من الذَّهَب لِبَاسَه ، وعَطَّر بالشَّذا أَنفاسَه ؛ ولم يترك خِلَالَ قُطْر إلا جاءه بخَاسَه ، ونَصَّ السَّيْر فسَيَّر نَصَّ مجيئه فى الأرض لَمَّا صَحَّح بالوفاء قِيَاسَه ، وغازَلَتْه الشمسُ فكَسَتْه حُمْرة أَصِيلها لما غَدَت له بمشاهدتها مَاسَه ؛ ولم يكن فى هذا العام إلا بمقدار ماقِيلَ : أَقْبَلَ إذ قِيلَ : وَفَّى ، ومدّ فى الزيادة بَاعًا وبَسَطَ ذِرَاعا ، وأطلق بمَوَاهب أصابعه كَفًّا ؛ وعاجلَ إدراكُ الهَرَمِ فى آبتداء أَمْرِه مطال شَبَابِه ، ومَرَّ علىٰ الأرض فَحَلا فى الأفواه لَمَّا ساغ شُكْر سائِغ شَرَابِه ، وآعتمد علىٰ نَصِّ الكِتَابِ العزيزِ فكاد أن يَدْخُلَ كُلَّ بَيْتٍ من بَابِه .

ولما كان يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا من شهور القِبْط بادَرَتْ إلىٰ الوفَاء شِيَمُه ، وأَغْنَتْ أمواجُه عن مِنَّة السُّحُب فذُمَّتْ عندها دِيَمُه ؛ وزار البلادَ منه أَجَلُّ ضَيْفٍ فرشَتْ له صَفْحَةَ خَدِّها للقِرىٰ فعَمَّهَا كَرَمُه ؛ وبلغ من الأَذْرُع ستة عشر ذراعا ورفع لِوَاءَه بالمزيد ونَشَر ، وجاء للبَشَرِ بأنواع البُشَر ؛ فرَسَمْنا بتعليق سِتْرِ مِقْيَاسه ، وتَخْلِيقه وتَضْوِيع أَنْفَاسِه ؛ وفى صبيحة اليوم المذكور كُسِرَ سَدُّ خَلِيجه علىٰ العاده ، وبلغ الانام أقصىٰ الإراده ؛ وتباشر بذلك العامُّ والخاصّ ، وأعلنت الأَلْسِنَةُ بحمد رَبِّها بالإخلاص ؛ وسَطَّرَها وهو بفضل الله ورحمته مُتَتَابِع المزيد ، بَسِيط بَحْره المديد ، مُتَجَدِّدُ النُّمُوِّ فى كُلِّ يَوْم من أَيَّام الزِّيادة جديد . فالجناب العالى يأخذ من هذه البُشْرىٰ بأَوْفَر نَصِيب ، ويشكر نِعْمَةَ الله علىٰ ما مَنَح ـ إن شاء الله ـ هذا العامَ الخَصِيب ؛ ويُذِيعُ لها خَبَرا وذِكْرًا ، ويُضَوِّع بطَيِّ هَنَائِها نَشْرا ؛ ويتقدّم بأن لا يُجْبىٰ عن ذلك بشارة بالجُمْلة الكافيه ، لتَغْدُوَ المِنَّةُ تامةً والمَسَرَّةُ وافيه ؛ وقد جهزنا بهذه المكاتبة فلانا ، وكتبنا علىٰ يده أمثلة شريفة إلىٰ نُوَّاب القِلَاع الفلانية [جَرْيًا](١) علىٰ العادة ، فيتقدّم بتجهيزه بذلك علىٰ عادة هِمَّتِه ، فيُحِيطُ عِلْمُه بذلك .

(١) بياض بالأصل مقدار كلمة والتصحيح يقتضيه المقام .

وهذه نسخة أخرىٰ فى معنىٰ ذلك، كُتِبَ بها فى سابع عَشْرِ ذى القَعْدَة سنة ست وستين وسبعمائة، وصورتها بعد الصَّدْر:

وبَشَّره بأخْصَبِ عام، وأخَصّ مَسَرَّةٍ هَنَاؤُها للوُجُودِ عامّ، وأكملِ نِعْـمةٍ تُقَابِلُ العام من عيون الأرض بمزيد الإنعام.

صدرت هذه المكاتبة إلىٰ الجناب العالى تُهْدِى إليه أتمّ سـلام، وأعمّ ثناء تام؛ وتُوَضِح لعلمه الكريم: أن الله تعالىٰ ـ وله الحمد ـ قد جرىٰ فى أمْرِ النيل المُبارك علىٰ عوائد ألْطَافه، ومَنَحَ عبادَه وبِلَادَه من مديد نِعَمه مَزِيدَ إسْعَافِه؛ وأوردَ الآمال من جُودِه مَنْهَلًا عَذْبا، وملأها به إقبالا وخِصْـبا؛ وأحْيا به من مَوَاتِ الأرض فاهْتَزَّتْ ورَبَت، وأنبتت كُلَّ بَهِيج وأنْجبت؛ وأيْنَعَت الرِّياضُ فجـرت فيها الرُّوحُ ودَبَّت، وآمتلأت الحياضُ ففاضت بالمِيَاهِ وآنْصَبَّت؛ وطلع كالبَـدْرِ فى آزدياده، وتَوالىٰ علىٰ مديد الأرض بأمْدادِه؛ إلىٰ أن بلغ حَدَّه، ووَصَّل الفَرَجَ ومَنع الشِّدَّه؛ وفى يوم كذا من شهر كذا الموافق لكذا وكذا من شهور القِبْط؛ وفَّاه الله سـتة عَشَرَ ذراعا فَاهَ فيها بالنُّجْح، وعم ثَرَاهُ الأرضَ فأشرق بعد لَيْلِ الجَدْبِ بالرَّخاءِ أضْوَأُ صُبْحٍ؛ وفى ذلك اليوم عُلِّق سِتْرِه، وخُلِّق مِقْيَاسُه فاشتهر ذِكْرُه، وكُسِرَ سَدُّه، وتوالىٰ مَدُّه، ونَجَزَ من الخِصْبِ وعْدُه؛ وعلا التُّرَعَ والجُرُوف، وقطع الطريق فأَمَّنَ من الجَدْبِ المَخُوف؛ وأقبـل بوجهه الطَّلْق المُحَيَّا، وأسْبَلَ علىٰ الأرض لِبَاس النَّفْعِ فبدَّلهـا بعد الظَّمإِ رِيًّا؛ فحمِدْنا الله تعالىٰ علىٰ هذه النِّعَم، ورأينا أن يكون للجناب العـالى أوفَرُ نصيب من هذا الهَنَاءِ الأعَمّ؛ وآثرنا إعلامَه بذلك: ليكون فى شُكْرِ هذه النِّعْمَة أكبر مشارك؛ فالجناب العالى يأخذ حَظَّه من هـذه البُشْرىٰ، ويتحققُ ماله عنـدنا من

المكانة التى خَصَّتْه فى كُلِّ مُبْهِجَةٍ بالذِّكْرىٰ؛ ويتقدّم أمْره الكريم بأن لا يُجْبىٰ عن ذلك حَقّ بِشَاره، ولا يتعرّض إلىٰ أحَدٍ بخَسَاره؛ وقد جَهَّزنا بذلك فلانا .

الصنف السابع عَشَرَ

(فيما يكتَب فى البِشَارَة بركوب المَيْدَانِ الكبير بخطّ اللُّوقِ عند وَفَاء النِّيل فى كُلِّ سـنة)

وهو ممـا يتكرر فى كُلِّ سنة عند ركوب المَيْدَان، ويكتب به إلىٰ جميع النوّاب الأكابر والأصاغر؛ وتجهّز إلىٰ أكابر النوّاب خُيُولُ صُحْبَةَ المثال الشريف، ويُرْسم لهم بالركوب فى ميادين الممالك لِلَعبِ الكُرَة، تأَسِّـيًا بالسلطان؛ فيركبون ويلعبون الكُرَة . والعادة فى مثل ذلك أن تُنْشَأَ نسـخةُ كتاب من ديوان الإنشاء الشريف، ويكتَبَ بهـا إلىٰ جميع النيابات، لايختلف فيها سوىٰ صَدْرِها، بحسب مايقتضيه حالُ ذلك النائب .

وهـذه نسخة مثال شريف فى معنىٰ ذلك، كُتِبَ به فى ذى القَعْدَةِ سنة ستين وسبعمائة لنائب طَرَابُلُسَ، وصورته بعد الصَّدْر :

ولا زَالَ تُحْمَلُ إليه أنْبَاءُ مايبرد غُلَّتَه من مُضَاعَفَة السُّرور، وتُبَثُّ له أقوال الهَنَاء بمـا يَجُبُّ علتـه من النَّصْر الموفور، ونَخُصُّه مِن إقبالنا الشريف بأكمل تكريم وأتمّ حُبُور .

صدرت هذه المكاتبة تُهْدى إليه من السلام والثناء كذا وكذا، وتُوَضِّح لِعلْمه الكريم أننا نَتَحَقَّقُ مَضاءَ عَزَائِمِهِ حَرْباً وسِلْما، واْعتِلاَءَ هِمَمِه التى تُحْرَسُ بها الممالك وتُحْمىٰ؛

وأن صَوَافنه تُرْتَبَطُ لتُركَض ، وتُحْبَس لتَنْهَض ؛ فلذلك نُعْلِمُه من أنبـاء آستظهارنا مايُبْهِجُ خاطِرَه، ويُقِرُّ ناظِرَه؛ وهو أنّنا لما كان فى يوم السبت المبارك خامِسِ شوّال، توَجَّه رِكابُنـا الشريفُ إلىٰ المَيْدانِ السـعيد وفاض به جُودُنا فاَخْضَرَّت مُرُوجُه ، وظهربه نَـيِّرُنَا الأعظمُ فأشرقت آفَاقُه وتشرَّفت بُرُوجُه، وأَقَرَّ العيونَ منيرُ وجْهِنا المبارك وبَهِيجُه، وغدا كُلُّ وَلِيٍّ بموالاة إنْعَامنا مَشْمُولا ،و بمَنالَات إكرامنا موصولا ؛ ورَكَضَ الأَولياءُ بين أيدينا جياداً أَلِفَت نِزَالًا وعَرَفَتْ طِرَادَا ، وآنعطفت لِيناً وآنْقِيادَا ؛ وعُدْنا إلىٰ مُسْتَقَرِّ مُلْكِنا الشريف وقد جَدَّدَ الله تعالىٰ لنا إسعادا ، وأيَّد لعَزْمنا المُعَانِ مَبْدَأً ومَعَادا ؛ وآثرنا إعلام الجناب العالى بهذه الوِجْهَة الميمونه ، والحَرَكة التى هى بالبَرَكَة مقرونه : ليأخذحَظَّه من السُّرور بذلك والهنا، و يتحقق من إقبالنا الشريف عليه مايبلغ به المُنىٰ .

وهـذه نسخة مثالٍ شريفٍ فى المعنىٰ ، كُتِبَ به فى العشرين من شعبان، سنة أربع وخمسين وسبعمائة . وصورته بعد الصَّدْر :

ولا زالت مَيَادِينُ سَعْده لاتَتَنَاهىٰ إلىٰ مَدىً، وكُرَات كَرَّاتِه فى رِحَاب النَّصْر تَلْمَع كنَجْم الهُـدىٰ ؛ ومُدَوَّرُ صَوالِجِه كشَوَاجِرِ المُرَّانِ تَحْلُو بتأييدها للأوليـاء وتَغْـدُو مَرِيرَةً للعِدَا .

صدرت هذه المكاتبةُ وظَفَرُها لايزال مؤيَّدا، ونَصْرُها لابَرِحَ مُؤَبَّدا؛ تُهْدى إليه سلاما مؤكَّدا، وثَناءً كَنَشْرِ الأرض بالنَّدىٰ؛ وتُوَضِّح لعلمه أننا لم نَزَلْ بحمد الله نَتَّبِـعُ سَنَنَ سَلَفِنا الشريف ، ونُجْرِى الأمورَ علىٰ عوائد جميلهم المُنِيف ؛ ونرىٰ تَمْرِين الأولياء علىٰ مُمَـارسَة الحروب ، ونُؤْثِرُ إبقاء آثار الجِهَاد فيهم علىٰ أحسن أُسْلُوب ؛

فلذلك لا نُخِلُّ فى كُلِّ عام بالتَّعَاهُد إلىٰ المَيْدان السعيد، والركوب إليه فى أسْعَدِ طَالِـعٍ يُبْدِئُ النَّصْرَ ويُعِيد : لِمَا فى ذلك من ٱبتهاجٍ يَتَجَدَّد ، وأسباب مَسَرَّة لِكَافَّةِ الأنام تتأكَّد، ودعوات أَلْسِنَتُها تتضاعف من الرعية وتَتَرَدَّد .

ولما كان فى يوم السبت المبارك سادس عشر شهر رَجَب الفَرْد، ركبنا إلىٰ المَيْدان السعيد فى أتَمِّ وقت أَخَذ من السَّعْد بِمَجْمُوعه، وأظهر فى أُفُقِ العساكر من وَجْهِنا الشريف البَدْرَ عند طُلُوعه، ولم نَبْرَح يومَنَا المذكور فى عَطَاءٍ نُجِيدُه، وإنعام نُفِيدُه، وإطلاق نُبْدِئه ونُعِيدُه، والأولياء بين أيدينا الشريفة يَمْرَحُون، وفى بِحَارِ كَرَمِنا المُنِيف يَسْبَحُون، وفى مَيْدَانِ تأييدنا المُطِيف يَسِيحُون، والكُرَات كالشمس تَجْنَحُ تارة وتَغيب، وتَخْشىٰ من وَقْعِ الصَّوالِجَة فتقابلها بوَجْهٍ مُصْفَرٍّ مُرِيب، ثم عُدْنا إلىٰ القَلْعة المنصورة علىٰ أتَمِّ حال ، وأسْعَدِ طالع بَلَّغ الأنام الأمانَ والآمالَ ، والعساكر بخدمتنا الشريفة مُحْدِقُون، ومماليكنا بعُقُود وَلَائنا مُطَوَّقُون، والرَّعَايا قد ألبسها السُّرُورُ أثوابا، وفَتَحَ لها من الاَبْتِهَاج أبوابا ، وقد آثرنا إعلامَ الجناب بذلك ليأخذ حَظَّه من هذه المَسَرَّة والبُشْرىٰ، ويَشْتَرِكَ هو والأنام فى هذه النِّعْمَة الكُبْرىٰ، ومَرْسُومُنا للجناب أن يتقدّم بالركوب بِمَنْ عنده من الأمراء فى مَيْدان طَرَابُلُس المحروسة ، ويَلْعَبَ بالكُرَةِ علىٰ جارى العادة فى ذلك ، لِيُسَاهِمَ أولياء دولتنا القاهرة فى ذلك ، ويسلك من طُرُقِهم الجميلة أجْمَلَ المَسَالك .

قلت : وهذا الصِّنْفُ من المكاتبات السلطانية لم يَزَلْ مستعملا بديوان الإنشاء، يُكْتَبُ به كُلَّما ركب السلطان إلىٰ المَيْدَانِ الصَّالِحِىّ بخطِّ اللُّوق، إلىٰ أن عُطِّلَ جِيدُه من الركوب فى أواخر الدَّوْلة الظاهرية «برقوق» وٱقْتُصِر علىٰ لِعْبِ الكُرَةِ فى المَيْدَان الذى جرت به العادة، فتركت المكاتبة بذلك من دِيوَان الإنشاء ورُفِضَ ٱستعمالُها .

الصنف الثامن عَشَرَ

(المكاتبـــة بالبِشَارَة بحجِّ الخليفـــة)

لمـا كانت الأسفار، مَحَلَّ الأخطار، ومَوْقِعَ الآختـلاف وحدوث الفتن؛ كانت الخلفاء يكتبون الكُتُبَ إلىٰ عُمَّالِهم بالسلامة عند الإيَابِ من السَّـفَر للحجِّ وغيره . والرَّسم فيهـا أن يذكر أن الحَجَّ من أجَلِّ العبادات ، وأن من النعمة [أنْ يمنَّ][1] الله تعالىٰ بقضاء المناسك، والوُقُوفِ بالمَشْعَر الحَرَام، والطَّوافِ بالبَيْتِ العَتِيق، والسَّعْيِ بين الصَّفَا والمَرْوَة، وما يجرى مجرىٰ ذلك من شعائر الحَجِّ؛ ثم بَعْدُ بزيارة النبيّ صلّى الله عليه وسـلم، وآتفاقِ الكَلمَة فى جميع هـذه الأحوال، علىٰ كَثْرة الخلائق ومزيد الجيوش والعساكر .

وهذه نسخة كتاب بالسلامة من سَفَر الحَجِّ، وهى :

الحمـد لله الذى جعل بيته مَثَابَةً للناس وأَمْنًا، وحَرَمًا مَنْ دخله كان آمِنا؛ الذى آختار دِينَ الإسلام علىٰ الأديان، وآبْتَعَثَ به صَفْوَتَه من الإنْسِ والجَان، محمدا أكرم بَنِي مَعَدّ بن عَدْنَان .

يحمده أمير المؤمنين أن أعَانَه علىٰ تأدية حَقِّه، ونَصَبَه لكَفَالة خَلْقه، ووَفَّقه للعمل بمـا يُرْضيه ويُدْنِي إليه . ويسأله أن يُصَلِّيَ علىٰ خير من غَارَ وأنْجَد، وصَدَر ووَرَد، وركع وسجد، ووَحَّد ومَجَّد، وصَلّى وعبد، وحَلَّ وأحرم، وحَجَّ الحَرَم، وأتى المُسْتَجَار والمُلْتَزَم، والحَطِيمَ وزَمْزَم، محمد سَيِّد ولد آدم؛ وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه مِصْبَاح الدِّلاله، ومِجَاب الرِّساله، إمام الأمَّه، وبَابِ الحِكْمَه، أمير المؤمنين عَلِيّ بن أبى طَـالِب،

(١) بياض بالاصل والتصحيح مما يقتضيه المقام .

مُمَزِّق الكتائب، ومُفَرِّق المواكب؛ ومُحَطِّم القواضب، في القُلَل والمنَاكب؛ وعلى الأئمة من ذُرِّيَّتِهما الهادين، صلاةً باقيةً في العالمين.

وإنَّ أولى النِّعَم بأن يُستَعذَب ذِكرُها، ويُستَعطر نَشرُها؛ وتتحدَّث بها الألسنَه، وتُعَدَّ في مواهب الله الحَسَنَه؛ نِعَمُ الله تعالى في التوفيق لحجِّ بَيْتِه الذي جعله مَثَابَةً لزائِرِيه، والإطَافَةِ بحَرَمِه الذي يُوجِب المَغْفِرَةَ لقاصديه؛ والنُّزُولِ بأفْنِيَتِه التي من يَخْدُم بها فقد انسلخ من السَّيِّئات، وتَلَبَّس بالحَسَنَات؛ وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك يوم النَّفْرِ الأوّل: وقد قضى بحمد الله تَفَثَه، ووفَّى نَذْرَه؛ وتَمَّمَ حَجَّه، وكَمَّل طَوَافَه؛ وشَهِدَ مَنَافِعَه، وأدَّى مَنَاسِكَه؛ ووقف المَوْقِف بين يدي رَبِّه قَانِتًا داعيا، وراغبًا رَاجِيًا؛ وعَرَّفه بعرفاتٍ إعلامَه قَبُولَ سَعْيِه، وإجابةَ تَلْبِيَتِه، وبلَّغَه في مِنًى أَمَانِيَّه من رأفَتِه؛ وأراه من مَخَايِل الرَّحمه، ودلائل المَغْفِره؛ ماتلألأت أنوارُه، وتوضَّحت آثارُه؛ وأجراه على تفصيل العبارة في شُمُول السَّلامة لِكُلِّ مَنْ حَجَّ بحَجِّه، ووقف مَوْقِفَه من أوليائه وخاصَّته، وعامَّتِه ورَعِيَّته؛ وأنعم باتفاق كلمتهم، واجتماع أهْوِيَتِهم؛ واكتنافِ الدَّعَةِ والسُّكون لهم، وزوالِ الاختلاف والمُبَايَنَة بينهم.

فان أراد زيارة قبر النبيّ صلَّى الله عليه وسلم، قال: وهو يَصْدُرُ بإذن الله تعالى عن مَوْقِفِه هذا من البيت الحرام، إلى زيارة قَبْر النَّبيّ عليه السلام.

فان أزْمَعَ الانكفاءَ إلى مَقَرِّه، قال:

وأشعرك أميرُ المؤمنين ذلك وهو عَائِدٌ بمشيئة الله تعالى إلى مَقَرِّ خلافَتِه، في عِزٍّ من قُدْرَته، وعُلُوٍّ من كَلِمَته؛ وامتداد من سُلْطَانه، وتَضَاعُفٍ من جُنْده وأعْوَانه: لتأخذ بحَظِّكَ من الابتهاج والجَذَل، وتُذِيعَه بين أهل العَمَل: ليشاركك العامَّة في العلم بهذه النِّعْمَة فيُخْلِصُوا لله الشُّكْرَ عليها، ويَرْغَبُوا إليه في الزيادة منها؛ إن شاء الله تعالى.

وهذه نسخة كتاب بسلامة الخليفة من سَفَرٍ فى الجُمْلة .

والرسم فيــه أن تُذْكر نِعْمَةُ الله تعالىٰ بمـا منح أميرَ المؤمنين فى سَفَرِه ذلك : من بُلُوغِ المآرب، وتسهيلِ المقاصـد ، وإدراكِ الأَوْطَار، وشُمُول النِّعْـمَة فى الذَّهَاب والإيَابِ ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ممّـا ينخرط فى هذا السِّلْك، وهذه نسخته :

الحمد لله ذى الطَّوْلِ والإنْعَـام ، والفَضْـلِ والإكرام ، والمِنَنِ العِظَام، والأيادى الجِسَام، الذى أرعىٰ أميرَ المؤمنين من حِيَاطَتِه عَيْنًا لا تنَـام ، وآستخدم لحِرَاسَــتِه والمُرَامَاة دونه اللَّيالِىَ والأيام، وقَضىٰ له بالتوفيق والسَّعادة فى الظَّعْنِ والمُقَام .

يحمدُه أميرُ المؤمنين أن آستخلصه لإمامة الأنام ، وعَدَقَ به أسَالِيبَ النَّقْض والإبرام ، ويسألُه الصلاةَ علىٰ مَنِ آخْتَصَّه بشَرَف المَقَام ، وآبتعثه بدِينِ الإسـلام ، وجَلَا به حَنَادِسَ الظَّلام ، محمد خَاتَمِ الأنبيـاء الكِرَام ، وعلىٰ أخيه وآبن عَمِّه الهُمَامِ الضِّرْغَامِ ، أمير المؤمنين علىّ بن أبِى طَالِبٍ مُكَسِّرِ الأصنام ، وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيَّتِهما أَعْلَامِ الأحكام ، وأدِلَّةِ الحَلَال والحَرَام .

وإن أمير المؤمنين لايزال يتحدّث بنِعَم الله مُسْـتَدِرًّا لأخْلَافها، منتَصِباً لِقِطَافِها، ويُفِيضُ فى ذِكْرِها، مُسْتَدْعِيًا للزيادة بشُكْرِها ، ويُطْلِـعُ خُلَصَاءَه علىٰ حُسْنِ آثارها لَدَيْه : وسُـبُوغِ مَلَابِسِها عليـه ، ليأخذوا بحَظٍّ من الغِبْطَة والآستبشار، ويَسْرَحوا فى مَسارح المَبَاهِج والمَسَارّ ، وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك حين آستقرّ رِكَابُه بناحية كذا ، مبشرا لك بنِعْمَةِ الله فى حِيَاطَتِه ، ومَوْهِبَتِه فى سَلَامَته ، وما أولاه من انارة (؟) الدَّليل ، وتسهيلِ السَّبِيل ، وطَىِّ المَجَاهِل ، وتَقْرِيب المَنَازِل ، وإعْذَابِ المَنَاهل ، وإنَالَة الأوطار ، وتَدْمِيث الأَوْعَار ، وبركَة المُتَصَرَّف ، وسعادة المُنْصَرَف ، ووُصُوله إلىٰ مَقْصَده

قَرِيرَ العَيْن ، قليلَ الأَيْن ، محفوظا سَارِيًا وآيِبا ، مَكْلُوءا عَائِدا وذَاهِبا ، مُشَرَّدَ النَّصَب مسرورا ، مَوْفُورَ النَّصيب مَحْبُورا ؛ فى آجتماع من كلمة أوليـائه علىٰ طاعته ، ونُفُوذِ بصائرهم فى نَصْرِ رَايَتِهِ ، وإِعَانَتِه علىٰ ما آستحفظه من عباده ، وآسترعاه من بلاده : ليأخذ بالحَظِّ الأَجْزَل ، من الآبتهاج والجَذَل ؛ ويشكر الله تعالىٰ علىٰ هذه النِّعْمَة المُتَجَدِّده ، ويضيفها إلى سَوَالِف نِعَمِه التَّالِدَه ؛ ويُذِيعَها بين رَعِيَّتِه ، وأنصار دَعْوَتِه ؛ ليشتركوا فى آرتشاف لُعَابِها ، وآلْتِحَافِ أثوابها ؛ فاعلم هذا وآعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وهـذا الصِّنْفُ من المكاتبات السلطانية قليلُ الوُقُوع ، فإن وقع مثـله للكاتب فى زماننا ، خرّجه علىٰ نِسْبَةِ الأسلوب المتقدّم .

الصنف التاسعَ عَشَرَ
(الكتابة بالإنعام بالتشاريف والخِلَع)

وهذا الصِّنْفُ مِمَّـا أغفله صاحبُ "موادّ البيان" ولا بدّ منه .

والرسم فيـه أن يكتب عن الخليفـة أو السـلطان إلىٰ مَن أخلص فى الطاعة ، أو ظهرت له آثار كِفَايَة : كفَتْح أو كَسْرِ عَدُوّ ، وما يجرى مجرىٰ ذلك .

وهذه نسخة كتاب كَتَب به أبو إسحاق الصَّابِى عن الطائع لله ، إلىٰ صَمْصَامِ الدَّوْلَة آبن عَضُـدِ الدَّوْلَة بن بُوَيْه ، قَرِينَ خِلْعَةٍ وفَرَسَـيْنِ بمَرْكَبَيْنِ من ذَهَب وسَيْف وطَوْقٍ ، وهى :

من عَبْـد الله عَبْد الكريم الإمام الطائع لله أمير المؤمنيـن ، إلىٰ صَمْصَامِ الدَّوْلَة وشَمْس الملة أبى كَالِيجار بن عَضُد الدَّوْلَة وتاج المِلَّة مولىٰ أمير المؤمنين .

سلام عليك : فإن أمير المؤمنـين يَحْمَد إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو، ويسأله أن يُصَلِّىَ علىٰ جده محمد عبده ورسوله صلّى الله عليه وسلم .

أما بعـد، أطال الله بقاءك : فإن أمير المؤمنين وإن كان قد بَوَّأَكَ المنزلة العُلْيا، وأنالك من أُثْرَتِه الغايةَ القُصْوىٰ ؛ وجعل لك ما كان لأبيك عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلَّة ـ رحمة الله عليه ـ من القَدْر والمَحَلّ، والمَوْضِع الأرفع الأجَلّ ؛ فإنه يُوجِبُ لك عند كلِّ أثر(١) يكون منك فى الخدمه ، ومَقَامِ حَمْدٍ تَقُومه فى حِمَاية البَيْضه ، إنعاما يُظَاهِرُه، وإكراما يُتابِعه ويُوَاتِره ؛ والله يَزِيدُك(٢) من توفيقه وتسديده، ويَمُدُّك بمَعُونَتِه وتأييده ؛ ويَخِيرُ لأمير المؤمنين فيما رَأْيُه مُسْتَمِرٌّ عليه من مَزِيدك وتمكينك ، والإبْقَاءِ بك وتعظيمك ؛ وما تَوْفِيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

وقد عرفتَ ـ أدام الله عِزَّك ـ ما كان من [أمر كردويه](٣) كافر نِعْمَة أمير المؤمنين ونِعْمَتِك ، وجَاحد صَنِيعَته وصَنِيعتِك ؛ فى الوَثْبَةِ التى وَثَبَها ، والكبيرة التى ٱرتكبها ؛ وتَقْدِيرِه أن يَنْتَهِزَ الفُرْصَــةَ التى لم يمكِّنْه الله منها ، بل كان من وراء [ذلك] دَفْعُــه وردُّه عنها ؛ ومعاجَلَتِك إياه الحَرْبَ التى أصلاه الله نَارَها ، وقَنَّعَه عارَها وشَنَارَها ؛ حتّىٰ ٱنهزم والأوْغَادَ الذين شَرِكُوه فى إثارَة الفِتْنَه ، علىٰ أقبـح أحوال الذِّلَّة والقِلَّه ؛ بعد القَتْل الذَّرِيع ، والإثْخَان الوجيع . فالحمد لله علىٰ هذه النعمة التى جَلَّ مَوْقِعُها ، وبانَ علىٰ الخاصَّة والعامَّة أثَرُها ؛ ولَزِم أميرَ المؤمنين خصوصا والمسلمين عموما نَشْرُها والحديثُ بها ، وهو المسئُول إقامتَها وإدامَتَها برحْمَتِه .

---

(١) تقدم فى هذا المطبوع (ج ٦ ص ٣٩٦) عند بذلك أثرا .

(٢) الذى تقدّم « يؤيدك » وما هنا أوضح .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح عما تقدّم .

وقد رأىٰ أمير المؤمنين أن يُجازِيَك عن هذا الفتح العظيم، والمَقامِ المَجيد الكريم؛ بخِلَع تامّة، ودابَّتين بمَرْكَبَيْن من ذَهَبٍ من مراكبه، وسَيْفٍ وطَوْقٍ وسِوارٍ مُرَصَّع. فتَلَقَّ ذلك بشُكْر الله تعالىٰ عليه، والاعتدادِ بنعْمَتِه فيه؛ والْبَسْ خِلَعَ أميرِ المؤمنين وتَكْرِمَتَه، وسِرْ [من بابه] (١) علىٰ حُمْلاته، وأظهر ما حَبَاك به لأهل حَضْرَتِه، لِيُعِزَّ الله بذلك وَلِيَّه ووَلِيَّك، ويُذِلَّ عَدُوَّه وعَدُوَّك؛ إن شاء الله تعالىٰ، والسلام عليك ورحمته وبركاته. وكَتَبَ فلان (٢) لثمانٍ بَقِينَ من شهر ربيع الأول سنة خمس وسبعين وثلثمائة: أطال الله بقاءك، وأدام عِزَّك، وأجزل حِفْظَك وحِيَاطَتَك، وأمتع أمير المؤمنين بك وبالنعمة فيك وعندك.

قلتُ: وهذا الصنف من المكاتبات السلطانية باقٍ علىٰ الاستعمال، متىٰ أنعم السلطانُ علىٰ نائبِ سَلْطَنَةٍ أو أميرٍ أو وزيرٍ أو غيره بخِلْعَةٍ بعث بها إليه وكُتِب قرينها مثالٌ شريف بذكر ذلك؛ إلا أنه أهمل فى ذلك السَّجْعُ والازدواج، واقتصر فيه علىٰ الكلام المحلول كما فى غيره من المكاتبات، إلا فى النادر المُعْتَنىٰ بشأنه.

الصنف العشرون

(المكاتبة بالتَّنْويه والتلقيب)

قال فى "مواد البيان": جرت عادة الخُلَفَاء بالكتابة بالتلقيب، لأن اللَّقَب مَوْهبَةٌ من مواهب الإمام: أمضاها وأجازها؛ فإذا جرت عليه كانت كغيرها من نِعَمِه التى يَمْنَحُها علىٰ عبيده؛ والكُنْيَةُ تَكْرِمَةٌ يَسْتعملها الناس فيما بينهم، فليس حُكْمُها كحُكْمِ اللَّقَب.

---

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدم (ج ٦، ص ٣٩٧).

(٢) سماه فيما تقدم «أحمد بن محمد».

قال : والرسم فى هـذه الكتب أن تفتتح بحمد الله على نِعَمِهِ السَّابغَـة الضَّافيَه ، ومَوَاهِبِهِ الزَّاهية الناميه ، وعَوَارِفه التى جعلها جَزَاءً للمحسـنين ، وزيادةً للشَّاكِرِين ؛ ونحوِ هذا ممـا يليق أن يفتتَح به هذا الغَرَض ، والصَّلاة على سيدنا محمد صلَّى الله عليه وسلم . ثم يقال :

وإنَّ أميرَ المؤمنين بمـا خوّله الله تعالىٰ من نِعَمِه ، وبوّأه من قِسَمِه ، وخَصَّه به من التمكين فى أرْضِـه ، والمَعُونَةِ على القيام بفَرْضِـه ، يرىٰ المَنَّ على خُلَصَائه ، وإسْبَاغَ النِّعَم على أوليائه ، وٱخْتِصَاصَهم بالنَّصيب الأوفر من حِبَائه ، والإمالةَ بهم إلىٰ المنازل البَاذخَه ، والرُّتَب الشَّامخَه . وإن أحقَّ من وَفَرَ قِسْمُه من مواهبه ، وغَزُرَ سَهْمُه من عَطَاياه ورَغَائِبه ، مَنْ تَميَّز بمـا تميزتَ به من إخْلاَصٍ ومُطَاوعَه ، وولاءٍ ومُشَايعَه ، وٱنْقيَاد ومُتابَعَه ، وصَفَاءِ عقيدة وسَريرَه ، وحُسْنِ مَذْهَبٍ وسِيرَه ؛ ولذلك رأىٰ أميرُ المؤمنين أن يَنْعَتَك بكذا لاشتقاقه هذا النَّعْتَ من سِمَاتك ، وٱستِنْبَاطه إياه من صِفَاتِك ؛ وشرَّفَكَ من ملابسه بكذا ، وطَوَّقَك بطَوْقٍ أو بعِقْدٍ ، وقَلَّدك بسَيْفٍ من سيوفه ، وعَقَد لك لِوَاءً من أَلْوِيَتِه ، وحَمَلك على كذا من خَيْـله وكذا من مَرَاكِبِـه . ويُحْسِنِ الوَصْفِ فى كُلِّ نَوْعٍ من هـذه الأنواع وٱشتقاق الألفاظ من معانيه ، يعرب عن قَدْرِ الموهبَة فيه . ثم يقال : إبَانَةً لك عن مكانك من حَضْرَتِه ، وإثَابَةً على تشميرك فى خِدْمَتِه ؛ فالْبَسْ تَشْريفَه وتَطَوَّقْ ، وتَقَلَّدْ ماقلَّدك به ، وٱركب حُمُولاته ، وٱبْرُزْ للخاصَّـة والعامَّة فى ملابس نعمائه ، وٱرْفُلْ فى حُلَلِ آلائه ، وزَيِّنْ موكِبَك بلِوَائه ؛ وقُلْ ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ ﴾ وأغْنِى على ما يَسْتَرْهِنُها لَدَىَّ ؛ وخاطِبْ أميرَ المؤمنين متلقبا بسِمَتِك ، مُتَنَعِّتاً بنَعْتِك .

وهذه نسخة مكاتبة إلىٰ الأفضل بن ولخشى ، وزيرِ الحافظ لدين الله الفاطمىِّ ، أحد خلفاء الفاطميين بالديار المصْرِيَّة ، حين قَرَّرَ الحافظُ نُعوتَه : السـيدُ ، الأجلُّ ،

الأفضلُ، أميرُ الجيوش، سَيْفُ الإسلام، نَاصِرُ الأنام، كَافِلُ قُضَاة المسلمين، وهادى دُعَاة المؤمنين، وهى :

أما بعد، فالحمد لله الذى تَفَرَّد بالإلٰهيه، وتَوَحَّد بالقِدَمِ والأَزَلِيَّه؛ وأبدع مَنْ بَرَأَ وخَلَق، وأنشأهم من غيرِ مِثالٍ سَبَق؛ واصطَفىٰ لتدبيرِهِم فى أرضه مَنْ بَعثَه بِرِسَالته، وجعل ما جاءوا به من الشرائع من أمارةِ لُطْفه بهم ودلالتِه؛ وصلّى الله علىٰ جدّنا محمد رسوله الذى جعل رُتْبَتَه اخيرا ونُبوَّته أُولىٰ، فكان أفضلَ مَنْ تقدّمه نَبِيًّا وسَبَقه رسولا؛ وعلىٰ أخيه وابن عَمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طَالِبٍ الذى ذَخَرَه لخلافته، وأيَّده بوِزَارَتِه؛ مع كَوْنِه من منزلة الاصطفاء، وتأييد الوَحْيِ الظاهرِ من غيرِ خَفَاء؛ بحيثُ لايَفْتَقِرُ إلىٰ وَزِير، ولا يحتاج إلىٰ ظَهِير؛ وإنما جعل ذلك تعليما لمن يَسْتَخْلِفُه فى الأرض من عباده، وتمثيلاً نَصَّ - جَلَّ وعَزَّ - إلىٰ قَصْدِه واعتمادِه؛ لِمَا فيه من ضَمِّ النَّشَر، وصلاح البَشَر، وشُمول المنافع، وعُمُوم الخيرات التى أُمِنَ فيها من مُدَافِع؛ وعلىٰ الأَئمة من ذُرِّيَّتِهِما العاملين بمَرْضَاتِه، والمُتَّقِينَ له حَقَّ تُقَاتِه، والكافلين لكُلِّ مُؤْمِنٍ بأَمَانِه يوم الفَزَعِ الأكبر ونجاته؛ وسلَّمَ عليهم أجمعين، سلامًا متصلا إلىٰ يوم الدِّين.

والحمد لله الذى جعل النِّعَم التى أسْبَغَها علىٰ أمير المؤمنين، بِحَسَبِ ما اختصَّه به من مَنْزِلته التى فَضَّله بها علىٰ جميع العالمين؛ بجعله خليفةً فى الأرض، والشَّفِيعَ لمَنْ شايعه يوم الحساب والعَرْض؛ وأجزل له من مِنَنِه مالا يُنَاهِضُه شُكْرٌ إلا كان ظالعا، ولا يُقَابِلُه اعتدادٌ إلا استولىٰ عليه العَجْز فلم يكن بما يجب له طامعا؛ وإنَّ مِنْ أرْفَعِها مكانا، وأَعْظَمِها شانا؛ وأنْخمها قَدْرا، وأنْبَهِهَا ذِكْرا؛ وأعَمِّها نَفْعا، وأحْسَنِها صُنْعا؛ وأغْزَرِها مادَّه، وأثْبَتِها قاعدة إذا غدت النِّعَمُ شاردةً نادَّه؛ وأعودها فائدةً

علىٰ الخاصّ والعام ، وأضمنها للسَّـعْدِ المُساعِد والحظِّ الوافر التَّام ـ ما كان من المِنَّة الشامخة الذُّرىٰ ، والمِنْحَة الشاملة لجميع الورىٰ ؛ والعارفة التى آعترف بها التوحيـد والإسلام ، والمَوْهِبَة التى [إذا] أنْفق كُلُّ أحدٍ عمره فى وَصْفِها وشُكْرِها فما يُعْذَل ولا يُلام ؛ والآية التى أظهرها الله للمِلَّة الحنيفيَّة علىٰ فَتْرةٍ من الرُّسُل ، والمُعْجزة التى هدىٰ أهْلَه لها دون كافَّة الأمَّة إلىٰ أعدل السُّـبُل ؛ والبُرْهانِ الذى خصَّ به أمير المؤمنين وأظهره فى دَوْلته ، والفَضِيلةِ التى أبانت مَكانَه من الله وكريمَ مَنْزِلَته ؛ وذلك ما منَّ الله به علىٰ الشريعة الهاديَه ، والكلمة الباقِيَه ؛ والخلافة النَّبويَّه ، والإمامة الحَافِظيَّه ؛ منك أيُّها السيدُ الأجلُّ الأفضلُ : ولقد طال قَدْرُك فى حُلَلِ الثَّناء ، وجَلَّ آستِحْقاقُك عن كُلِّ عِوَضٍ وجزاء ، وغدت أوْصَافُك مسألةَ آجتماع وآئتلاف ، فلو كانت مَقَالةً لم يَقَعْ بين أرباب المِلَلِ شىءٌ من التَّناقُض فيها والآختلاف ؛ وأين يبلغ أمَدُ آستِيجابِك من مُنْتَحِيه ، أو يَتَسهَّلُ إدراكُ شأْوِه علىٰ طالبه ومُبْتَغيه؟ ؛ والإيمان لو تَجَسَّم لكان علىٰ السَّعْيِ علىٰ شُكْرك أعظمَ مُثَابِر ، والإسلامُ لو أمكنه النُّطْقُ لقام بالدعاء لك خطيبا علىٰ المَنابِر ؛ فأما الشِّرْكُ فلو أبقيته حَيًّا لتصـدَّى وتعرض ، لكنَّك أنحيتَ عليـه وأدلْتَ التوحيـد منه فانهدّ بناؤه بحمد الله وتَقَوَّض ؛ فكان لك فى حقِّ الله الغضبَ الذى تقرَّبْتَ به إليه فأرْضَيْتَه ، والعَزْمَ الذى صَمَّمتَ عليه فى نُصْرةِ الحَقِّ فأمْضَيْتَه ؛ والباطنَ الذى آطَّلَعَ عليه منك فنصرك ولم تُرِقْ دمًا ، ولا رَوَّعْتَ مُسْلما ، ولا أقْلَقْتَ أحدًا ولا أزعجتَـه ، ولا عَدَلْتَ عن مَنْهَجِ صَوابٍ لمـا آنْتهجْتَه ؛ وذلك ممـا آشترك الكَافَّةُ فى معرفته ، وتساوَوْا فى عِلْمِ حقيقته ، مع ما كان من تسييرك العساكر المُظَفَّرة صُحْبَةَ أخيك الأجَلِّ الأوحَد : أدام الله به الإمْتاع وعَضَّده ، وأحسن عنـه الدِّفاع وأيَّده ، مما جَرت الحالُ فيه بحُسْنِ سياستك ، وفَضْلِ سِيَادَتك ، علىٰ أفْضَلِ ما عوّدك الله من بلوغ آمالك ، من غير أذًى لَحِقَ أحدًا من رجالك ؛ والأمر فى ذلك أشهر من

الإيضاح ، وأبْيَنُ من ضِياءِ فَلَقِ الصَّباح ؛ وهذا إذا تأمَّله أمير المؤمنين أوجب عليه أن يُقَابِلَك من إحسانه ، بغاية ما فى إمكانه ؛ وأن يُوليَك من مِنَّته ، أقصى ما فى آستطاعته وقُدْرَته ؛ ولم يَرَ أحضرَ من أن قرَّر نُعُوتَك «السيِّدُ، الأجلُّ، الأفضلُ، أميرُ الجيوش ، سيفُ الإسلام ، ناصرُ الأنام ، كافلُ قُضَاة المسلمين، وهادى دُعَاة المؤمنين ، أبو الفَتْح رِضْوان الحافظىّ» إذ لا أوْلىٰ منك بكَفَالَة قُضَاة دَوْلَته وإرشادِهم ، وهِدَايَة دُعَاتها إلىٰ مافيه نَجَاةُ المستجيبين فى مَعَادِهم ؛ وجدّد لك ما كان قَدَّمه : من تكفيلك أمْرَ مَمْلَكَته ، وإعادةِ القَوْل فيما أسلفه من ردِّه إليك تَدْبِيرَ ما وراءَ سَرِيرِ خلافته ؛ التِذاذا بتَكْرار ذلك وترديده ، وآبتهاجًا بِتطْرِيَةِ ذكره وتَجْدِيده ؛ فأمورُ المِلَّة والدَّوْلَة مَعْدُوقَةٌ بتدبيرك ، وأحوالُ الأدانِى والأقَاصِى موكولةٌ إلىٰ تقريرك ؛ وقد جمع لك أمير المؤمنين من آستخدامِ الأقلام ، وجَعَلَ السيادةَ لك علىٰ سائر القُضَاة والدُّعاة والحُكَّام ؛ وأسجل لك بالآختصاص بالمَعَالِى والآنفراد ، والتَّوحُّد بأنواع الرِّياسات والآستبداد ؛ ولك الإبرَامُ والنَّقْض ، والرَّفْع والخَفْض ؛ والوِلَايَةُ والعَزْل ، والتقديم والتأخير ، والتَّنْوِيهُ والتأمير ؛ فالمُقَدَّم من قَدَّمْتَه ، والمحمود من حَمِدْتَه ؛ والمُؤَخَّر من أخَّرْتَه ، والمذموم من ذَمَمْتَه ؛ فلا مخالفةَ لما أحْبَبْتَه ، ولا مَعْدِلَةَ عما أرَدْتَه ؛ ولا تَجَاوُزَ لما حدّدته ، ولا خُرُوجَ عمَّا دبَّرْتَه ؛ وأين ذلك مِمَّا يُضْمِرُه لك أمير المؤمنين ويَنْوِيه ، ويعتقدُه فيك فلا يزال مدىٰ الدَّهر يُعيدُه ويُبْدِيه؟ ولو لم يكن من بركاتك علىٰ دَوْلَة أمير المؤمنين ، ويُمْنِ تدبيرك العائد علىٰ الإسلام والمسلمين ، إلا أنَّ أوَّل عَسْكرٍ جَهَّزته إلىٰ جِهاد الكَفَرَةِ المَلَاعِين : وكان له النَّصْرُ العزيز الذى تَبَلَّج بَحْرُه، والفَتْحُ المُبين الذى جَلَّ قَدْرُه وآنتشر ذِكْره ، والظَّفَرُ المُبْهِجُ للدِّين ــ العَسْكَرُ المنصور علىٰ الطائفة الكافرة : قَتْلًا لأبطالها ، وأسْرًا لأعناق رِجَالها ، وأخذًا لِقلاعِ المَلَسرة (١)

(١) كذا بالأصل ، وقد وضع فوقها علامة توقف لعدم ظهور معناها ، ولعلها مصحفة عن "الكَفَرَة" .

منها، وأنه لم يُفْلِتْ من جماعتها إلا مَنْ يُخْبِر عنها؛ ولو عَلِمَ أمير المؤمنين تعظُّماً يخرج عمـا تَضَمَّنَه هـذا السِّجِلُّ لـا ٱقتصر عليـه ، إلا أنه عَاجَلَه ما يَسُرُّه بخاهر (١) لك بما هو مُسْتَقِرٌّ لديه ؛ والله عزَّ وجلَّ يُخْدِمُك السُّعُود ، ويَخُصُّك من مَوَاهِبه بما يتجاوز المعهود ؛ ويَمُدُّك بموادّ التوفيق والتأييد ، ويقضى لك فى كُلِّ أُمورك بما لامَوْضِعَ فيه للمَزِيد، إن شاء الله تعالىٰ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

قلتُ : وهذا الصِّنْف من الكُتُب السلطانية قد رُفِضَ وتُرِكَ ٱستعماله فى زماننا فلا معوّلَ عليه أصلا .

الصـــنف الحادى والعشرون
(المكاتبةُ بالإحماد والإذمام)

قال فى " موادّ البيان " : السلطان محتـاجٌ إلىٰ مكاتبة مَنْ يَقِفُ منه علىٰ طاعة وٱجتهاد، ومُناصَحَةٍ وإخلاص، بالشُّكْرِ والإحماد، والبَعْثِ علىٰ الآزدياد من المُخَالَصـة وحُسْنِ السَّعْيِ فى الخِدْمة وغيرها؛ مما يرتبط به النِّعْمَه، ويَسْتَوْجِبُ معه حِفْظَ الرُّتبه. ومُكَاتبـةِ من يَعْثُر منه علىٰ تقصـير وتَضْجِيع ، وتفريط وتضييع ؛ بالذَّمِّ والتقريع والتَّأْنيب : لأنه لايَخْلُو أعوانُ السلطان من كُفَاة يسـتديم كِفَايَتَهم بتصويب مراميهـم ، وٱستحسان مَسَاعِيهـم ؛ وإحْمَـادِهم علىٰ تشميرهم ، وشَرْحِ صُدُورهم بِبَسْـط آمالهم ؛ والعِدَةِ برفع منـازلهم ومحَالِّهم ، وتمييزهم علىٰ نُظَرَائِهـم وأشْكَالِهم ؛ وتحذيرِهم من التوبيخ وتقـديم الأعذار ، والتخويف من سقوط المراتب ، وقُبْحِ المصاير والعواقب .

---

(١) فى الأصـــل "وشاهد" .

قال : وينبغى للكاتب أن ينتهىَ فى خطاب مَن آنتهىٰ فى الحالين إلىٰ غايتيهما ، إلىٰ المعانى الناجعة فى الغَرضَيْن ، ويتوسط فيهما سِيَّما التوسط الذى يقتضيه الحال المُفَاضُ فيها : لأن فى ذلك تقريرا للمُحْسِن علىٰ إحسانه ، ونَقْلًا للمُسِيءِ عن إساءته : لأنه إذا علم النَّاهِضُ أنه مُثَاب علىٰ نَهْضَتِه ، والْوَانِى أنه مُعَاقَبٌ علىٰ وَنْيَتِه ، آجتهد هــذا فى الآستظهار بخِدْمَتِه بمـا يزيد فى رُتْبَتِه ، وخاف هذا من حَطِّ منزلته وتَغَيُّرِ حالته . ثم قال : والرسوم فى هذه المكاتبات تختلف بحسب آختلاف أغراضها ، وتتشعب بتَشَعُّبِ معانيها ؛ والأمر فى ذلك مَوْكُولٌ إلىٰ نظر الكاتب العارف الكامل ، ووضعه كُلَّ شَيْءٍ فى موضعه ، وترتيبه إياه فى مرتبته .

فأمَّا المكاتبة بالإحماد ، فكما كُتِبَ عن صَمْصَامِ الدولة بن عَضُدِ الدَّوْلة بن بُوَيْه ، إلىٰ حاجب الحُجَّاب أبى القاسم سـعد بن محمد وهو مقيم بنَصِيبِينَ علىٰ مُحَارَبَةِ باد الكردىّ .

كتابنا ، ووصل كتابُك مُؤَرَّخا بيوم كذا ، تذكُرُ فيه ماجرىٰ عليه أمْرُك فى الخِدْمَة التى نِيطَتْ بكِفَايَتِك وغَنَائِك ، ووُكِلَت إلىٰ تدبيرك ووَفَائِك : من ردّ باد الكُرْدِىّ عن الأعمال التى تَطَرَّقَها ، وحَدَّثَ نفسَه بالتَّغَلُّبِ عليها ؛ وتَصَرُّفك فى ذلك علىٰ مُوجِبَات الأوقات ، والتَّرَدُّدِ بين أخينا وعُدَّتِنَـا أبى حَرْب : زياد بن شهراكويه وبينك من المكاتبات ؛ وحُسْنِ بَلَائِك فى تَحَيُّفِـه ، ومَقَامَاتك فى حَصِّ جَنَاحه ، وآثارك فى الآنقضاض علىٰ فَرِيقٍ بعد فَرِيقٍ من أصحابه ؛ وآضطرارك إيَّاه بذلك وبضُرُوب الرياضات التى آستعملْتَها ، والسِّيَاسَاتِ التى سُسْتَ أمرَه بها ؛ إلىٰ أن نزل عن وُعُورَة المَعْصِيَةِ إلىٰ سُهُولة الطاعه ، وآنصرف عن مَجَاهِل الغَوَايةِ إلىٰ مَعَالِمِ الهِدَايه ؛ وتراجع عن السَّوْمِ إلىٰ الآقتصار ، وعن السَّرَفِ إلىٰ الآقتِصَاد ، وعن الإبَاءِ إلىٰ الآنقيـاد ،

وعن الاعتياص إلى الإذعان، وأن الأمر استقر على أن قبلت منه الإنابه، وبذلت له فيما طلب الاستجابه، واستعيد إلى الطاعه، واستضيف إلى الجماعه، وتصرف على أحكام الخدمه، وجرى مجرى من تضمه الجمله، وأخذت عليه بذلك العهود المستحكمه، والأيمان المغلظه، وجددت له الولاية على الأعمال التى دخلت فى تقليده، وضربت عليها حدوده، وفهمناه .

وقد كانت كتب أخينا وعدتنا أبى حرب [زياد بن شهرا كويه](١) مولى أمير المؤمنين ترد علينا، وتصل إلينا، مشتملة على كتبك إليه، ومطالعاتك إياه، فنعرف من ذلك حسن أثرك [وحزم رأيك](١) وسداد قولك، وصواب اعتمادك، ووقوع مضاربك فى مفاصلها، وإصابة مراميك أغراضها، وماعدوت فى مذاهبك كلها، ومتقلباتك بأسرها، المطابقة لإيثارنا، والموافقة لما أمرت به عنا، ولا خلت كتب أخينا وعدتنا أبى حرب من شكر لسعيك، وإحماد لأثرك، وثناء جميل عليك، وتلويح وإفصاح بالمناصحة الحقيقة بك، والموالاة اللازمة لك، والوفاء الذى لا يستغرب من مثلك، ولا يستكثر ممن حل فى المعرفة محلك، ولئن كنت قصدت فى كل نهج استمررت عليه، ومعدل عدلت إليه، مكافحة هذا الرجل ومراغمته، ومصابرته ومنازلته، والتماس الظهور عليه فى جميع ماتراجعتماه من قول، وتنازعتماه من حد، فقد اجتمع لك إلى إحمادنا إياك، وارتضائنا ما كان منك، المنة عليه إذ سكنت جاشه، وأزلت استيحاشه، واستللته من دنس لباس المخالفه، وكسوته حسن شعار الطاعه، وأطلت يده بالولايه، وبسطت لسانه بالحجه، وأوفيت به على مراتب نظرائه، ومنازل قرنائه، حتى هابوه هيبة الولاه، وارتفع بينهم عن مطارح العصاه .

(١) الزيادة عن رسائل الصابى المخطوطة .

فالحمد لله على أن جعلك عندنا محمودا، وعند أخينا وعدّتنا أبى حربٍ مشكورا؛ وعلى هذا الرّجل مانًّا، وفى إصلاح ما أصلحتَ من الأمر مُثابًا مأجورا؛ وإياه نسأل أن يُجرِىَ علينا عادَتَه الجارية فى إظهار آياتنا، ونُصْرةِ أوليائنا، والحُكْم لنا على أعدائنا، وإنزالهم على إرادَتِنا؛ طَوْعًا أو كَرْها، وسِلْمًا أو حَرْبا؛ فلا يخلو أحدٌ منهم من أن تحيط لنا بعُنُقه رِبْقَةُ أسْرٍ، أو مِنّةُ عَفْوٍ؛ إنه جَلّ ثناؤه بذلك جدير، وعليه قَدِير.

ويجب أن تُنَفِّذَ إلى حَضْرَتِنا الوَثِيقَةَ المُكْتَتَبَة على باد الكُرْدى إن كُنْتَ لم تُنَفِّذْها إلى أوانِ وُصولِ هذا الكتاب: لتكونَ فى خزائننا محفوظه، وفى دَوَاوِيننا منسوخه؛ وأن تتصرّف فى أمْرِ رُسُلِه وفى بَقِيَّةٍ - إن كانت بَقِيَتْ من أمره - على ما يَرْسُمُه لك عَنّا أخونا وعُدَّتُنا أبو حَرْبٍ، فرأْيك فى العمل على ذلك، وعلى مطالعتنا بأخبارك وأحوالك؛ وما يُحْتَاجُ إلى عِلْمه من جهتك، مُوَفَّقا إن شاء الله تعالى.

وأما الإذمام فيختلف الحال فيه بآختلاف المَلُومِ فيه والمذْمُوم بسببه. فمن ذلك الذمّ على [ترك] الطاعة وشَقّ العَصَا.

كما كتب عِمَارَةُ يَصِفُ شخصا بأنه لمّا آرتفع مَكَانُه، وعَلَا قَدْرُه؛ بَطِرَ معيشتَه، وخرج عن طاعة الخليفة: وأن فلانا كان ممّن عُرِفَت حاله: فى غُمُوض أمْرِه، وخُمُولِ ذِكْرِه؛ وضِيقِ مَعِيشَتِه، وقِلّة عَدَدِه وناهِضَتِه؛ ولا تُجَاوِزُ حياته ما يقوله، ولا يتعاطى ماوراء ذلك ولا يرومه؛ ولا يُمَنِّيه نَفْسَه، ولا يدفع يَدَ لَامِسٍ عنه بقوّة تَنُوءُ بمَلَإٍ، ولا عِزٍّ يلجأ إليه. فأنعم عليه أمير المؤمنين وأكرمه وشَرّفه، وبلغ به الغَايَةَ التى لم يكن يرجوها ولا تُرْجىٰ له؛ وبسط له من الدُّنيا، وآتاه من غَضَارَتِها ونِعْمَتِها، وعِزِّها وسُلْطَانِها، مالم يُؤْتِ أحدًا من أهل زمانه. فلما مكّن الله

له فى الدنيا طَغىٰ وتجَبَّر، وعَلاَ وتكَبَّر؛ وظَنَّ أن الذى كان فيه شىءٌ قاده إلىٰ نفسه بحَوْلِه وقُوَّته : تهْويلا من الشَّيْطان، وآستدراجًا منه له .

وكما كَتَبَ عَبْدُالحميد فى مثله :

أما بعد ، فقد بلغ أميرَ المؤمنين عنك أمْرٌ لم يَحْتَمِلْه لك ، إلا ما أَحَبَّ من رَبِّ صَنيعته قِبَلَك ، وآستِتْمامِ مَعْروفه إليك ؛ وكان أميرُ المؤمنين أحَقَّ مَنْ أصلح ما فَسَد منك ؛ و إنَّك إن عُدْتَ لمثل مقالتك ، وما بلغ أميرَ المؤمنين عنك ؛ رَأىٰ فى مُعَاجَلَتك رَأْيَه ؛ فإن النِّعْمَة إذا طالت بالعبـد مُمْتَدَّةً أبْطَرَتْه : فأساء حَمْلَ الكرامه ، وآستثقل العافيه ؛ ونسب ماهو فيه إلىٰ حِيلَتِه ، وحُسْنِ نَبْتِـه ورَهْطِه وعَشِيرَتِه . و إذا نزلت به الغِيَر ، وآنكشفت عَمايَةُ العَشىٰ عنه ؛ ذَلَّ مُنْقادًا ، ونَدِمَ حسيرا ؛ وتَمَكَّن منه عَدُوُّه : قادرا عليـه ، وقاهِرًا له . ولو أراد أمير المؤمنين مُكَافَأَتك بلَفْظك ، ومُعَاجَلَة إفْسَادِك ، جمع بينه وبين من شَهِد فَلَتَاتِ خَطَئك وعَظِيمَ زَلَّتِك ؛ ولعمرى لوحَاوَلَ أميرُ المؤمنين مكافأَتك بلفظك فى مَجْلِسك ، و جُحُودِك فَضْلَه عليك ، لردّك إلىٰ ما كُنت عليه ، ولَكُنْتَ مُسْتَحِقًّا .

وفى مِثْله :

فإن صَاحِبَ البَرِيدِ كَتَبَ إلَىَّ عن أصحابك بكذا ، فقلتُ : إنهـم لم يُقْدِموا علىٰ ما أقدموا عليـه حَتّٰى عَجَمُوكَ ، فعَرَفوا خَوَرَ عُودِك ، وضَعْفَ مَكْسِرِك ، ومَهَـانَة نَفْسِك ، وأنّه لاغَيْرَ عندك ولا نَكِير .

ومن ذلك الذَّمُّ علىٰ الخطإ، كما كتب أحمد بن يوسف :

كأن البُخْلَ والشُّؤمَ صارا معـا فى سَهْمه ، وكانا قبـل ذلك فى قِسْمِه ؛ فحازهمـا بالورَاثَه ، وآسـتحقّ ما آستملك منهما بالشُّـفْعَه ؛ وأشهد علىٰ حِيازَتِهما أهْلَ الدِّين

والأمانة حتّى خلصا له من كُلّ ممانع، وسلما له من تبعة كُلّ مُنازع؛ فهو لا يُصيب إلا مُخطِئا، ولا يُحْسِنُ إلا نَاسِيا، ولا يُنْفِقُ إلا كَارِها، ولا يُنْصِفُ إلا صَاغِرا .

قلت : وهذا الصِّنْف من المكاتبات السلطانية لا يمتنع وُقُوعُه فى وَقْتٍ من الأوقات . فإن عَرَضَ له مُوجِبٌ، راعى الكاتبُ فيه صورة الحال، وكتب على مايوجبه المقام، وتقتضيه تلك الوَقْعَةُ .

الصنف الثانى والعشرون

(ما يُكْتَب مع الإنعام لنُوّاب السَّلْطَنة بالخَيْل والجَوَارِح

وغيرها من أنواع الإنعامات) وهذا الصِّنْفُ من المستعمل فى زماننا كُلَّ وَقْت

فأما مايُكْتَبُ مع الإنعام بالخَيْل، فقد جرت العادة أن السلطان يُنْعِمُ بالخَيْل على نوّاب السلطنة بالشام ، ويُكْتَب بذلك مِثَالات شريفة إليهم . ورُبَّما أنعم بالخيل وكُتِب بها فى غير ذلك .

وهذه نُسْخة مِثَالٍ شريف من ذلك :

ضاعف الله تعالى نِعْمَةَ الجناب وخَصَّه من النِّعَم بما لاتُحْصىٰ له آثار، ولا يُتَعَلَّقُ له بِغُبَار، ولا يوصف بحالٍ واحدة : لأنه إن جرىٰ فبَحْرٌ وإن وقَفَ فَنار .

صدرت هذه المكاتبة إلى الجناب العالى بكُلّ سلام لا تُدْرَكُ لسوابقه غايه ، ولا تُحْصىٰ له نِهَايه؛ ولا يردّ منه كل ماجاء وله فى وجهه كفلَقِ الصُّبْحِ آيه ،ولايتقدّم فى مَيْدَان إلا وقد حُمِلَ له فى كُلّ مكانٍ رَايَه . وتُوَضِّح لعلمه الكريم أنه قد جُهِّز له قرينَهـا ماجرت به عادته من الحُصُنِ التى لايَدَّعى البَرْقُ أنه لهـا نَظِير، ولا تُجَارِى الرِّيَاحُ من سوابقها مايَطِير؛ كم لها فى مَيْدَانٍ مجَال ، وكم لها فى رؤية دَوِيَّة ٱرتجال ؛

وكم دُعِيَ الوغىٰ بها علىٰ كُلِّ ضَامِرٍ فأتت رجالا تَقْدَحُ سَنَابِكُها نارا، وتَفِيضُ جَوَانِبُها من الرَّكْضِ عَقَارا؛ و يتكَفَّل بَديعُها بكُلِّ مَرَام، وتُعطِى مافى يديها لأنها من الكرام؛ وقد تشرَّفت من نِعمِنَا الشريفةِ بالسُّروج واللُّجُم والعِدّة المُكَمَّلَه، وتحلّت من الذَّهب والفِضَّة مايُغْنِي بجملته المُفَصَّله؛ وأرسلناها إليه تَرْقُصُ فى أعِنَّتِها زَهْوَا، وتَتْرُكُ بطِيبِ صَهِيلِها كُلَّ بَحْرٍ تَخُوضُه إلىٰ المنايا رَهْوَا؛ وتوجَّه بها فلان كالعرائس المَجْلُوَّةِ فى حُلَلِها، والنُّجُومِ لولا ماتميزت به من حَلْيِ عَطَلِها؛ والسَّحابِ إلا أنهـا لا تحتاج مِنَّةَ الرِّياح فى تَنَقُّلِها .

فلْيُقَابِلْ هـذه النِّعْمةَ الشريفةَ بشُكْرِها ، وليَتَسَلَّمْ هذه الصَّدَقاتِ العميمة التى تَعْتَرِفُ كُلُّ نِعْمَةٍ بقَدْرِها ؛ وليحمد الله من تَفَقُّداتنـا الشريفةِ علىٰ كَرَمِ فَرَسٍ جاء وهو سَابِق ، وجُودِ جَوَادٍ لايدور معـه السَّحاب فى طَابِق ؛ و يعتمدها لارتقاء كُلِّ صَهْوَةٍ مُنِيفه ، وجِهَادِ أعداء الله عليها بين أيدينا الشريفه؛ و يعيد الواصـل بها إلىٰ خِدْمَةِ أبوابنا العاليه، والله تعالىٰ يديم عليه بنا النِّعَمَ المُتَوالِيَه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : ولا زال إقبالنا يُمِدُّه من الصَّافِنَاتِ الجِيَادِ بما يُبَارِى الرِّياح، وَيَتَيَمَّنُ بغُرَرِها الصِّبَاح ، ويطلق أَعِنَّتَها فى حَلْبَـةِ السِّبَاقِ فتسبق برَكْضِهـا ذَوَاتِ الجَنَاح ؛ ولا برح إنعامنا يُتْحِفُه بكُلِّ طِرْفٍ يُبْهِجُ الطَّرْف، ويَثْلَجُ الصَّدْرُ بمـا آستمدّ عليه من المَلاحَة التى تَرُوق العَيْنَ وتَفُوق الوَصْف، ويُفْرِدُه بما آجتمع فيه من الحُسْنِ واليُمْنِ : إذ هو وَاحِدٌ كالألف ـ تُهْدِى إليه سلاما تَعْبَقُ بطِيبِ نَشْرِه أرْجَاؤُه ، وثناءً يُعْرِب عما فى ضميره من عُلُوِّ قَدْرِه وسُمُوِّ ذِكْرِه فيُشْرِق سَنَاؤُه و يُضَاعَفُ ثَنَاؤُه ؛ وتوضِّح لعلمه الكريم أنه غير خَافٍ عنه ما يَصِل إلىٰ أبوابنا الشريفة من الخيول البَرْقِيَّةِ فى كُلِّ عام،

وما نَخُصُّه منها بكُلِّ ميمونِ الغُرَّةِ مُبارَكِ الطَّلْعَةِ هَنِيءِ السَّـيْرِ على الإنعام؛ وقد أرسلنا إلى جنابه الكريم من ذلك سَهْمَه، وأضَفْنا إلى ذلك ما آستَصْلَحْناه من الخَيْل العَرَبِيَّة الغريبه والعِتاقِ العجيبة العربيه (؟) مما الخَيْرُ معقودٌ بنواصيها، فتَزْهَقُ على صَهَوَاتِها نفوسَ الأعداء وتَسْتَنْزِلُها من صَياصِيها؛ فيأخذ الجناب العالى ما يَخُصُّه من ذلك، ويُفَرِّقُ البـاقِيَ على من رَسَمْنا له به بِيُمْنِ رَأْيِهِ المُبارَك الذى لا يُساهِمُه فيه أحَدٌ ولا يُشَارِكُ؛ ويُجَهِّزُ الخَيْلَ المخصوصة بفلان إليه، والله تعالى يضاعف عِزَّ ظُهُورها عند آمتطائها لديه .

وأما مايكتب مع الإنعام بالجوارح [فمما يُكْتَب][1] مع إرسال سُنْقُر .

وقد بعثنا إليـه بسُنْقُرٍ كأنَّه مَلِكٌ مُتَوَّج، ورِزْقٌ مُرَوَّج؛ تَجَرَّأَ على سَفْكِ الدِّمَاء، وأبَى أن يَطْلُبَ رِزْقَه إلا من السماء؛ يَوَدُّ الكُرْكِيُّ لو خَلَصَ من مَخَالِبِـه، ويخافُ أن يَسْلَمَ من خرط الشَّبَكَةِ[2] ويَقَعَ فى كَلالِيبِه؛ يُدْرِكُ الصَّيْدَ ولا يُؤَجِّلُه، ويَرْفَعُ صَدْرَه ثم يُومِئ إليه برأسه كأَنَّه يستعجله؛ قد جَمَعَ من المحاسن كُلَّ الصُّنُوف، وكُتِبَتْ عليه أسْطُرٌ تُقْرَأُ بمـا تُقْرَىٰ به الضُّيُوف .

ومِمـا يكتب مع إرسال صَقْر .

وقد وجَّهْنا إليـه بصَقْرٍ لا تُؤْسَىٰ له من الصَّيْد جِرَاح، ولا يَدَعُ من وَحْشٍ يَسْرَحُ ولا طَائِرٍ يطير بجَنَاح؛ أيْنما تَوَجَّهَ لايأتِ إلا بخَيْر، وحَيْثُما أُطْلِق كان حَتْفَ الوَحْشِ والطَّيْر؛ يَدَعُ أقطارَ الفَلاةِ مَجْزَرَه، أو رَوْضَةً بالدماء مُزْهِرَه؛ يَجِدُّ إلى الطير فى عَنَقِه، ويُحَلِّقُ إلى السماء فيرجع وطـائِرُه فى عُنُقِه؛ تَخَـافُه العُفْرُ على نفوسها، وتَخْضَع له ولأمثاله فمـا تخرج إلا والطَّيْر على رُءُوسها؛ يزيد خُبْرُه فى مَظَانِّ الصَّـيْد على الخَبَر،

(١) بياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

(٢) كذا فى الأصل و "التعريف" .

وتخرج الظِّبَاءُ وقد تَسَجَّتْ خَوْفًا منه فى مُلَاءَةٍ من العَجَاج مَخِيطَةٍ من قرونها بالإِبَر؛ شَدِيدِ الأيْد ، قد بنىٰ علىٰ الكَسْرِ حُرُوفَ الصَّيْد؛ يَحْمَـد مُقْتَنِيهِ أيامَه الغُرّ؛ ويقول له إذا تَلَفَّت إلىٰ الصيد : إن جَلَبْتَ ضَبُعًا فأنْتَ حر؛ لايَصْحَبُ مُسْتَصْحِبُه معه إلا مَزَادَه، وأينمـا سار حَامِلُه ـــ وهو معه ـ كان معه زَاده .

وممـا يكتب مع إرسال شَاهِينٍ .

وقد وُجِّهَ إليه بِشَاهِينٍ إذا حَلَّق وراء الطَّيْرِ شاهَتْ به الوُجُوه، وشاهدت الآمالُ به ماترجوه؛ قد أصبح كلُّ مُحَلِّق الجَنَاح رَهِينَ يَدِه، وكُلُّ سارب من الوَحْشِ طَعَام يَوْمِهِ أو غَدِه؛ لايُتْعِبُه خَلْفَ الطَّريدة بُعْدُ المَدَىٰ، ولا يَرُدُّه خوفُ مَسَافَةٍ ولا تَقَحُّمُ رَدىٰ؛ ربيَّةُ عام لم يُمَتَّع بطُولِ مادَهْر، وممتدَّة منه فى الطَّلَق مثل ريح سُلَيْمانَ غُدُوُّها شَهْرٌ ورَوَاحُها شَهر .

وممـا يكتب مع إرسال كوهِيَّة .

وقد جَهَّزْنا إليه كُوهِيَّه، هى بالمحـاسن حَرِيَّه ، ولكثرة الإقْدَامِ جَرِيَّه ؛ يَكِلُ بها صاحِبُها أمرَ مَطْبَخِه ، ويمدّها من الطير مَنْ ليس بمُصْرِخِه؛ لا تَعِفُّ عن دم، ولا تُرىٰ أطرافُها إلا مُثْمِرة(١) بعُنَّـابٍ أو مُخَضَّبَة بعَنْـدَم؛ قد أخْلَتْ(٢) من كُلِّ سانح، ولَبِسَتْ زِيَّ الرَّاهِبِ المُتَعَبِّد وفتكت بكُلِّ سائح .

وممـا يكتب مع سقاوة .

وقد جهزنا إليه بسقاوه ، مَخَالِبُها علىٰ الطَّيْرِ كالحديد أو أشَدُّ قسَاوَه؛ تُسِيلُ دِمَاءَ الصيد كالمَذَانِب(٣)، وتَكْسُو الأرض حِبَراً من رِيَاشِ الحُبَارىٰ وفِرَاءً من جُلُود الأرانب؛

---

(١) كذا فى "التعريف" (ص ٢٢٥) وفى الأصل «مسمرة» .

(٢) فى الأصل «قد أحلت من كل شامخ» والتصحيح عن "التعريف" .

(٣) كذا فى "التعريف" وفى الأصل « كالدايب » .

وجَعلتْ فى قَبْضَةِ الكَفِّ ما كانت العين عليه تَدُور، وتكَفَّلَتْ بِكفايةِ المَطْبَخ وملأت القُدُور .

ومما يُكْتَبُ مع إرسال باز .

وقد بعثنا إليه ببَازٍ مهما لَقِيَ لَقِف، ومهما خطَا لَدَيْه خَطِف ؛ كأنَّما خُطَّ جَوْهَرُه بقلَم، أو رِيشَ عليه من الصَّباح والظُّلَم ؛ قد أُعِدَّ للطوارق، وٱدَّرأَ بِمِثْلِ الطَّوارِق ؛ قد دَحَضَ حُجَج الحَجَل، وكسرها حتّى أبان عليها حُمْرةَ الخجل ؛ لا يُسْأَل فى الصيد عما نَهَب، ولا تُعْرَف له قِيمَةٌ إلا أنَّ له عَيْناً من الذَّهَب .

ومما يُكْتَب مع الفَهْد .

وقد أنعمنا عليه بفَهْدٍ أهْرَتِ الشِّدْق، ظاهرِ الحِذْق ؛ بَادِى العُبُوس، مُدَنَّر الملبوس ؛ شَثْنِ البرَاثِن، ذى أنْيَابٍ كالمُدىٰ ومَخالِبَ كالمحَاجن ؛ قد أخذ من الفَلَقِ والغَسَقِ إهابا، وتقَمَّصَ من نُجْلِ الحَدَقِ جِلْبَابا ؛ يُضْرَبُ المَثَلُ فى سُرْعَةِ وُثُوب الأجل به وبشِبْهِه، وتكاد الشَّمْسُ مُذْ لَقَّبُوهَا بالغزالة لاتَطْلُع من الوَجَلِ علىٰ وَجْهِهِ ؛ يَسْبِقُ إلىٰ الصيد مَرَامِىَ طَرْفه، ويَفُوتُ لَحْظَ مُرْسِله إليه فلا يستكمل النظرَ إلا وهو فى كَفِّه ؛ وتَتَقَدَّمُه الضَّوَارِى إلىٰ الوَحْشِ فإذا وَثَبَ له تعثَّرَتْ من خَلْفِه[1] .

وأما ما يُكْتَبُ مع الإنعام بالسلاح .

فمن ذلك — وقد جهزنا إليه سَيْفًا تَلْمَعُ مَخَايِلُ النَّصْرِ من غِمْده، وتُشْرِقُ جواهر الفَتْحِ فى فِرِنْده ؛ وإذا سابق الأَجَلَ إلىٰ قَبْضِ النُّفُوس، عَرَف الأَجَلُ قَدْرَه فوقف عند حَدِّه ؛ ومتىٰ جُرِّد علىٰ مَلِكٍ من مُلُوك العِدا وَهَتْ عَزَائِمُه، وعجز جَنَاحُ جَيْشِه

(١) وقع فى هذه الرسالة تحريف كثير فى الأصل، فصححناها من "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

أن تنهَضَ به قوادِمُه، وعلم أنه سَيْفُنا الذى على عاتِقِ المَلِكِ [الأعز](١) نِجادُه وفى يَدِ جَبَّار السموات قائمه .

الصـــنف الثـالث والعشرون
(المكاتبة بالبِشَارَة عن الخليفة بوَلَدٍ رُزِقَه)

والرسم فيهـا أن يذكر شَرَفَ الخلافة وعُلُوَّ رُتْبَتِها، ويشـير إلى تخصيص الخلافة بمصيرها إليـه دون سائر البَرِيَّة، وانتقالهـا إليه بالتَّوارُث من آبائه الطاهرين كابِرًا عن كابِر، وبقائها فى عَقِبِـهِ إلى الأبَد . ثم يتخلص إلى ذكر النِّعْمَةِ على أمير المؤمنين التى أنعمها الله تعالى عليه، وأنَّ مِنْ أعظمها نِعْمَةً أنْ رزَقه الله تعالى ولدا، ويذكر اسمه وكُنْيَته، ويَصِفُه بمـا يناسبه .

وهذه نسخة كتاب فى معنى ذلك، وهى :

الحمد لله مُؤَيِّد الإسلام بخُلَفَائِه الراشدين، ومُظْهِرِ الإيمان بأوليائه الهادين، الذى جعـل الإمامة كَلِمَةً باقية فيهم إلى يوم الدِّين، وأقام منهم الحاضِرَ المُتَّبَع، والمَرْجُوَّ المُتوقَّع، وأطلع منهم فى سماء الهِـدَايةِ شُهُبًا لا يَخْبُو منها شِهَابٌ حتَّى يتوقَّدَ شِهَاب، وفتح بهم للإرشاد أبوابا لا يُرْتَجُ منها بابٌ حتّى يُفْتَحَ باب .

يحمده أمير المؤمنين أن فوّض إليه مَنَازِلَ آبائه، ووفّقه (؟) بانتقال ماوَرِثَه من آبائه إلى أبنائه، ويسأله أن يُصَلِّيَ على من كرَّمه بوِلَادته وشَرَّفه بالانتسـاب إلى شجرة سيدنا محمد خاتَمِ رُسُلِه، المُتَرجِمِ عن توحيده وعَدْلِه، وعلى أخيه وابن عمِّه علىِّ بن أبى طالِبٍ قَسِـيمِه فى فَضْلِه، ووَصِيِّه على أُمَّتِه وأهلِه .

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وإن أَوْلىٰ النِّعم بأن يُفَاضَ فى شُكْرِها، وتُعَطَّر المَحَافلُ بنَشْرِها ؛ نِعْمَةٌ حاطت دَعائمَ الدِّين، وأَمَرَّت حبلَ المسلمين؛ وتساوىٰ فى [تَناوُلِ](١) قِطَافِها الكافه، وآذَنَتْ بشُيُوع الرَّحْمة والرافه؛ وأضحت بهـا النُّبُوّة مُشْرِقَةَ الأنوار، والإمامةُ عاليــة المَنَار؛ والخِلافَةُ مُخْتَالَةَ المِنْبَرِ والسَّرير، رَافِلَةً فى حُلَلِ الابتهاج والسُّرور .

وكتاب أمير المؤمنين هذا إليك، وقد رزقه الله تعالىٰ وَلَدا ذَكَرا مُبارَكًا رَضِيًّا، سمّاه فلانا، وكنَّاه أبا فلان، فجلا بنَهارِ غُرَّتِه الدَّامس، وٱفْتَرَّ بمَقْدَمه العَابِس، وٱخْضَرَّ بيُمن [نَقِيبَتِه](١) اليَابِس؛ ووَثِقَتْ الآمال بسعادة مَقْدَمِه، وتَطَلَّعت الأعناقُ إلىٰ جُوده وكَرَمه؛ مُبَشِّرا لك بهذه النُّعمىٰ الحَسَنَةَ الأثَر، القليلة الخَطَر، عِلْمًا بمكانك من وَلائه ومُخَالَصَتِه، وسُرُورِك بمـا يُفيضُه الله عليــه من شآبِيبِ نِعْمَتِه : لتأخذَ من المَسَرَّة والجَذَل بحَظِّ المَوْلىٰ المُخْلِص، والعبد المُتَخَصِّص؛ ولتُشِيعَ مَضْمُونَ كتابه فيمن قِبَلَك من الأولياء، ليُشَارِكُونا فى الشُّكْر والثَّناء؛ فاعلم هذا وٱعمل به، إن شاء الله تعالىٰ .

[قلتُ](١) وهذا الصِّنف من المكاتبات السلطانية مستعمَلٌ فى البِشَارَة عن السلطان إذا حدث له وَلَدٌ، فيُكْتَبُ بالبِشَارة به إلىٰ نوّاب السلطنة وأهل المملكة .

الصنف الرابع والعشرون

(ما يُكْتَب عن السلطان بالبِشَارَة بعافيته من مَرَضٍ)

وهــذه نسخة كتاب بعافيــة المَلِك النَّاصر « محمد بن قلاوون » من مَرَضٍ، إلىٰ صاحب مَارِدِينَ، وهو :

---

(١) بياض بالاصل والتصحيح من المقام .

ولا زالت البشائر على سَمْعِه الكريم مُتَوَاتِرَه ، والمَسَارُّ إلىٰ مَقَام مُلْكه سائره ، والتَّهَانِى، ببُلُوغ الأمانِى، من كمال شفائنا تجعل ثغور الثُّغُور باسِمَةً ووُجُوهَ الدُّهور نَاضِرَه ، ونِعَمُ الله تعالىٰ مُقَابَلَةً بالشُّكْر الجزيل على أن أجَدَّ ملك الإسلام بٱفْتِقاده، وأبْقىٰ للدّين المحمدىّ نَاصِرَه . أصدرناها إلىٰ المقام العالى ومَوَارِدُنا من الصِّحَّة حُلْوَةٌ فى الأفواه، وألْسِنَتُنا شاكِرَةٌ لنِعَم الله، وعافيتنا تُجَدِّدُ فى كُلِّ جديد، وصِحَّتُنا قد بلغت من المَزِيدِ ما نُرِيد، وقد ألبَسَنا الله تعالىٰ من الشِّفَاءِ ثَوْباً قَشِيباً، ونَصَرنا نَصْرًا عَزِيزًا وفَتَحَ لنا فَتْحًا مُبِينَا ــ تُهْدِى إليه سلاما تتأرّج به أرجاء مُلْكِه ، وثَنَاءً تنتظم الأثنيـة فى سِلْكِه، وتُوَضِّح لعلمه الكريم ما حصل من عافيتنا التى تضاعف بها فَرَحُ الإسلام والمسلمين، ووجب الشُّكْر عليهم والحمد لله رَبِّ العالمين .

الضـــرب الثـانى

(من مقاصد المكاتبات السلطانية مايُكْتَبُ عن السلطان فى الجَوَاب)

وكُلُّ معنى من المعانى الوارِدِ بها الكتابُ إليه يُشْتَقُّ جوابه منها ، وغالب مايُعْتنىٰ به من ذلك جوابُ مايرد من المكاتبات بالتَّقادم والهدايا، وما فى معنىٰ ذلك .

وهذه أدعية من ذلك يستضاء بها فى أوائل الأجوبة عن المعانى التى تَرِدُ فيها .

جواب سُلْطانِىٌّ عن وصول خَيْل : ــ ولا زال يُتْحِفُ بكُلِّ صَاهِلٍ فى الجَحْفَل ، وجَمَـال فى المَحْفِل، وأجْرَدَ إذا أمَّ غَايَةً لمعتْ فى أثره البُرُوق تتطَفَّل، ومُسَوَّمٍ يلتزم جَلَاله بمـزيد جلَالِه ، وكيف لا وهى إذا أُسْدِلَتْ عليه يتكَفَّل ! . أصدرناها والعِطْر يَضُوعُ من سلامها، والمِسْكُ يَفُوح من خِتَامها، وآثار الندىٰ تَحْكى آثارَ أقلامها .

آخر فى المعنى : ولا زال مُحْتَفِلًا بالجِيَاد وإرسالها، ومُهْدِيًا لِركابنا الشَّريف السَّوابِقَ التى إذا لم يسابقها شَىْءٌ منا لحيوان تجلَّت فى مُسَابَقَة ظِلَالها، ويَنْتَقِى لمواكبنا الخُيُولَ التى إذا أصبحت فى مَدًى أصبحت الرياحُ تتعلق بأذيالها . أصدرناها .

آخر فى مثله : ولا زال يُهْدِى إلينا من الجِيَادِ بَحْرا، ويقُود من العِرَابِ ماتملأ غُرَّتُه المَوَاكِبَ بِشْرا، وإذا طلع فى الكَتِيبَة يزيدها عِزًّا ونَصْرا ، من كُلِّ طِرْفٍ تأصَّلَ حُسْنا وحَسُنَ إهَابًا وجلَّ قَدْرا .

آخر فى مثله : وأعلى له على صَهَوَات العِتَاقِ مُرْتَقًى ، وخصَّه بكُلِّ جَوَادٍ وهو مُنْتَقَلٌ إليه مُنْتَقًى، وأطلع عليه نَوَاصِىَ الصَّوافِنِ التى عُقِد الخَيْر بها عَقْدا مُوثَقَا . أصدرناها ونُورُ التَّحايا من أرجائها يُنِير، ومَفَاخِرُها تشرَّف بها كُلُّ مِنْبَرٍ وسَرِير، وركائب أثْنِيَتِها تسير إلى مقامه فتَطِيبُ راحلةً فى ذلك المَسِير .

آخر فى مثله : ولازال يُهْدِى من الجِيَادِ المُسَوَّمة أصائلها، ويُتْحِفُ ممـا يحييه عند الوِفَادَةِ عليه صاهلها ، ويقابل أكْرَم غُرَّةٍ : الخَيْرُ معقودٌ بناصيتها واليُمْنُ يُقَابِلها، ويُمَتِّع بأعزِّ جَوَادٍ حِلْيَـةُ الشَّفَقِ دون إهابه إذ يُمَاثلها ، وسُرْعَةُ البَرْقِ خِفَّتُه إذ يُسَاجِلُها .

الضـــرب الثـالث

(من الكتب السلطانية الكُتُب الصادرة عن نوّاب السلطنة إلى النوّاب بسبب مايرد عليهم من المثالات السلطانية)

اِعلم أنه قد جرت العادة بأنّه إذا ورد على نائب السلطنة بالشّام مِثَالٌ شريفٌ من الأبواب السلطانية، يأمرهم (١) كَتَبَ نائب الشّام إلى نُوّاب السلطنة بورود

---

(١) بياض بالأصل ولعله بأمر .

المثـال الشريف مُبَشِّرًا بذلك ؛ ويجهز إلىٰ كُلٍّ منهم مع المثال الوارد إلىٰ كُلِّ نائب من نوّاب السلطان مَعنىٰ المثال الوارد من الأبواب السلطانية بذلك . إلا أنه يكون حا كيا لصُورَة المِثال الوارد بذلك ، لاأنَّه مُبْتَدِئُه ؛ ويشتمل ذلك علىٰ عدّة أمور .

فمن ذلك جلوس السلطان علىٰ تخت المُلْك ، فيخبر نائبُ الشَّام فى الكتاب الصادر عنـه إلىٰ بعض النوّاب بأنَّ المِثَالَ الشريف ورد عليه بذلك ، وأنه ورد كتاب إلىٰ المكتوب إليه فجهزه إليه .

[وهذه نسخة كتاب من ذلك] كُتِب به عن نائب الشَّام إلىٰ بعض نُوَّاب السلطنة ، بالبِشَارَةِ بسلطنة السلطان الملك الصَّالِح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون ، وقد ورد علىٰ يَدِ بعض الحُجَّاب . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة ، فى سـنة ثلاث وأربعين وسبعمائة ، وهى بعد الصدر :

أمتعه [الله] من البشائر بمـا يَتوَضَّحُ علىٰ جَبِينِ الصَّباح بِشْره ، وبمـا يَترَجَّحُ علىٰ مِيزَانِ الكواكب قَدْرُه ؛ وبما يَنْفَسِحُ من أوقات أَمْنٍ لايَخْتَصِمُ فى ظِلِّها زيدٌ وعمرٌو حتّٰى يقال : ولا زَيْدُ النَّحْوِ وعَمْرُه . ويُنْهِى بعد دعاء يَتبَلَّجُ فى الليل فَجْرُه ، وثناءٍ يتَأَرَّجُ فى طَيِّ النَّسيم نَشْرُه ، وَوَلَاءٍ يتساوىٰ فى درجات الصَّفَاءِ سِرُّه وجَهْرُه ـ أنَّ خَيْرَ البشائر ماخَصَّ أولياءَ الدَّوْلَةِ الشريفة وعَمَّ الرعايا ، وسَمَا إلىٰ ثُغُور الإسلام خَبَرُه الجَلِيّ فقال : «أنا ٱبْنُ جَلَا وطَلَّاع الثَّنَايَا» وقُسِمَت مَسَرَّته علىٰ كافِلِي الممالك فقالت مملكة مولانا : « لنَا المِرْبَاعُ مِنْهَـا والصَّفَايَا » وسلك المملوكُ من الإسراع بإشاعته الحَقَّ الواجب ، وَجَهَّز خِدْمَته بين يَدَيِ المثالِ الشريف الذى سبق طائرُ يُمْنِـه ولٰكنَّه جاء وفى خدمته حاجب ؛ وهى البُشْرىٰ الواردةُ فى الأمثلة الشريفـة السلطانيه ، المالكية المَلَكيه ، الصالحية العِمَاديه ؛ العريقة فى نَسَب النَّصْر بالأنساب النَّاصِرِيَّة المنصورة ، أعلىٰ الله

تعالىٰ أبدًا علىٰ قواعد المُلْكِ عِمَادَها، وصَرَّفَ بها الأَعِنَّةَ لِمَا سَرَّ وصَرَفَها عَمَّا دهىٰ؛ بجلوسه علىٰ كُرْسِيِّ المملكة الذى هو آية سَعْدِه الكُبْرىٰ، وتَخْتِ السَّلْطَنَة الذى عاينه مَلِكُ الجُودِ والعِلْمِ فقال: السَّلاَمُ عليك بَحْرا؛ وإجماع الأمة علىٰ أنه صَالِحُ المؤمنين، وكُفَاةِ الحَلِّ والعَقْد علىٰ أنه سُلْطان الإسلام والمسلمين؛ وأركان البيْتِ النَّاصرىِّ علىٰ أنه عِمَادُه، وعلىٰ أنه سَنَدُه المُكَمِّلُ وإذا انقضَّ بيتٌ سِنَادُه؛ فياله جُلُوسًا قامت فيــه كواكب السَّعْدِ مشدودةَ المَنَاطِق، ويا له إجْمَاعًا آتفق فيه ـ حَتَّى من تصميم السيوف وتعبير الأقلام ـ كُلُّ صَامِتٍ ونَاطِق؛ ويا له بَيْتَ مُلْكٍ أبىٰ الله إلا أن يقيم وَزْنَهُ أفْضَلُ الأفاعيل، ويَالَهُ مَلِكًا قال الدَّهْرُ الطويلُ آنتظاره: ﴿الحَمْدُ لِلهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلىٰ الكِبَرِ إِسْمَـاعِيلَ﴾. ويَالَهُ أمرا بلَّغ خُبْرُه وخَبَرُه الأَوْطَار والأوطان، ونفذت بُرُدُه المِصْرِيةُ علىٰ حِينِ فَتْرَةٍ تَالِيَةً له السُّعُود: ﴿فَانْفُذُوا لاَتَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾ وحُشِرَ الناسُ ضُحًى ليوم الزِّينَه، وجاءوا إليها مستبشرين من أدْنىٰ وأقصىٰ كُلُّ مَنْ فى المَدِينَـه؛ وضُرِبَت البشائرُ ويا عَجَبًا! أنَّها تُضْرب ومَكَانَتُها من القلوب مكينه.

حتّٰى إذا أخذت مِصْرُ حَظَّها من الهَنَـاءِ قُسِّمَتْ علىٰ الأمصار، وأضاء بَارِقُ نَشْرِها من كُلِّ وَجْهٍ فسمت بالشَّامَاتِ غُرَّةُ الابصار؛ ورَكَضَ بَرِيدُ الخير بمُبَارِك باب البريد، ووصل نَيْلُ النِّيلِ إلىٰ أنهار دِمَشْق فبَرَدَىٰ علىٰ الشُّكْرِ ثَابِتٌ ويَزِيد؛ وبُشِّرَ الإسلامُ من وجه الخَلَفِ الصَّالِحِ بأكرم مَنْ بَرّ، وآستفاض الآسم الشريف: فلو كُلِّفَ مُشْتَاقٌ فوق وُسْعِهِ لسَعىٰ إليه المِنْبَر.

فالحمــد لله علىٰ أن سُرّ البيتُ الشريفُ النَّاصِرىّ بجمْع شَمْلِه، وعلىٰ أن أتىٰ المُلْكَ العقيمَ الصَّالحُ من أهْلِه؛ وقد جَهَّزَ المملوكُ المِثالَ الشريفَ المختصّ بمَوْلاَنا: ومَوْلاَنا أوْلىٰ من آنتظمت لديه دُرَرُ هذه الأخبار الثَّمِينَه، وعُظِّمَت بنَاحِيَته شعائرُ هذه الدَّوْلَة المَكِينَه، وكَّلَ لخيرِ حماه خَيْرَ قَرِينه؛ والله تعالىٰ يُعِزُّ الإسلامَ بعَزْمِه، ويُمْضِى الآجالَ

والأرزاقَ على يَدَىْ حَرْبِه وسِلْمِه ، ويُنْجِزُ لرَأْيِه ورايَتِه النَّصْر قبل أن يطوف الأولياء بعَلَمِه ، وقبل أن يُحِيطَ الأذكياء بعلْمِه .

ومن ذلك الكتابة بورود مثال شريف بعافِيَةِ السلطان الملك الصالح عِمَادِ الدِّين إسماعيل ، بن الناصر محمد بن قلاوون ، فى خلافة المعتضد بالله أبى الرَّبيع سليمان ؛ من إنشاء الشيخ جمال الدِّين بن نُبَاتَةَ ، وهى بعد الألقاب :

أورد الله عليه من الْهَنَاءِ كُلَّ سَرِىٍّ يَسُرُّه ، وكُلَّ سَنِىٍّ يَقَرُّ أمام ناظره الكريم ويُقِرُّه ، وكُلَّ وفىٍّ إذا طلع فى آفاق حَلَبَ قيل : لله دَرُّه ؛ ولا زالت البشائر تلقاه بكل وَجْه جميل ، وبكُلِّ جَلِىٍّ جليل ، وبكُلِّ خَبَرٍ تَصِحُّ الدنيا بِصِحَّتِهِ فليس بها غيرَ النسيم عليل ؛ تَقْبيلاً يُزَاحِم عُقُود الثُّغُور ، ويكاد يمنع ضَمَّ الشَّفَتَيْنِ لِلَّثْمِ طُولُ الابتسام للسُّرُور ؛ ويُنْهِى بعد رَفْع اليَدِ بدُعَائِه ، وضَمِّ الجوانح على وَلَائِه ، وجَزْمِ الهَنَاءِ المشترك بمَسَرَّةِ مولانا وهَنَائِه ، أن المثال الشريف زاده الله شَرَفا ، وزاد فَضْل سلطانه على العباد سَرَفا ، ورد بالبِشَارَة العُظْمى ، والنَّعْمَاءِ التى ماضاهتها الأيام قَبْلُ بنُعْمى ، والمَسَرَّة التى يأكُلُ حديثُها أحاديثَ المَسَرَّات أكْلا لَمًّا ، ويُحِبُّها الإسلامُ والمسلمون حُبًّا جَمًّا ، بسلامة جَوْهَرِ الجسد الشريف من ذلك العَرَض ، وشفَائه الذى فى عيون الأعداء منه شِفَارٌ تَطْعُنُ وفى قلوبهم مَرَض ؛ وأن مَادَّةَ الأدواء بحمد الله قد انْحَسَمت ، والواردةَ مِنَ الافْتِقَادِ بالأجرِ والعافية قد ابتسمت ؛ وأن ظُنُون الإشفاق قد اضمَحلَّت ، ونَسَماتِ الرَّوْض قد فَدَتِ الجِسْمَ الشَّرِيفَ فاعْتَلَّت ، وأخْبارَ الهَنَاء يُعَيِّنُهَا كُلُّ بَرِيدٍ نَشْوَانَ من الفَرَحِ [ينشدُ] أُسَائِلُها أىَّ المَوَاطِنِ حَلَّت ؛ فيالَهَا بِشَارَةً خَصَّت الإسلام وعَمَّت بَنِيه ، وسارت فوق الأرض وسَرَتْ تحتها أسْلَافُ المُلْك ومُبْتَنِيه ، وشَمِلَت البِلَاد وعِبَادَها ، والسَّلْطَنَة وقد حجب الله عِمَادَها عمّا دهى ، والمُلْكَ السليمانىّ وقد ثَبَّتَ الله

به علىٰ الدنيا من السماء خَيْمتَها ومن الجبال أَوْتَادَها، والطَّيْرَ وقد حملت وُرْقُه أَوْرَاقَ السُّرور، والوَحْشَ وقد قالت مَهَاهُ : علىٰ عَيْنِي أَتحمَّلُ ذلك السِّقَامَ أو ذلك الفُتُور، ﴿ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللهِ وكَفىٰ بِاللهِ عَلِيماً ﴾ والألطافُ الرَّاحِمُ بها المؤمنين من خَاقِه ﴿ وكَانَ بالمؤمنين رَحِيماً ﴾ .

وكان وُرُودُ هذا المثال الشَّريف علىٰ يد فلان ، فيالَهُ من وَارِدٍ لمَشَارِعِ الأَمْنِ أَوْرَد، ولِرَوائِعِ الناس عن القلوب حَجَبَ أَوْرَدَّ، وقد جهزه المملوك بالمثال الشريف المُخْتَصِّ بمولانا وهذه الخِدْمَةِ بعد أن ضربت البشائرُ مُسَوّغَةً فى كُلِّ ضَرْبٍ من التهانى ، وزُيِّنَت البَلَد زِينَةً مانَظَمَتْ فيها غَيْرَ العقود أَيْدى الغَوَانِى ؛ فيأخذ حَظَّه من هذه البُشْرىٰ، ونَصيبَه من هذا الوجه الذى ملأ الوجود بِشْرا، وشَطْرَه من الهَنَاءِ المخصوص الذى تَعَجَّلَ منه المملوك شَطْرا؛ والله تعالىٰ يَسُرُّه بكُلِّ خير تُشْرِقُ زواهره، وتَعْبَقُ فى كمائم الدُّرُوج أزاهِرُه، ويَتَألَّقُ علىٰ يَدِ بَرِيدِه من المخلقات كُلُّ كَوْكَبِ صُبْحٍ تملأ الدنيا بَشَائِرُه .

ومن ذلك المكاتبة بورود المثال الشريف بوَفَاءِ النِّيل .

إذا ورد علىٰ نائب الشام بوَفَاء النِّيل المُبَارَك ، كَتَبَ نائبُ الشَّام عن نفسه إلىٰ نائب حَلَبَ وغيره ، من نوّاب السلطنة بالممالك الشامية ، بوُرُودِ المِثَال الشريف عليه بذلك، ويُكْتَب عنه كما يُكْتَب عن السلطان : من السَّجْعِ، وإيراده مَوْرِدَ البِشَارَةِ ، وإظهارِ الفرح والسرور بذلك، لايكاد يُخَالِفُه إلا فى كونه وَارِدًا مورد الحكاية لمِثال السلطان، ومثالُ السلطان مُخْبِرٌ بذلك ٱبتداء .

وهذه نسخة مثال كريم من ذلك عن نائب الشَّام ، من إنشاء الشيخ جَمالِ الدِّين ٱبن نُبَاتَةَ، كُتِبَ به لسَنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وهى بعد الصدر :

لا زالت مُبَشِّرَةً بكُلِّ مُبْهِجه، مُغَطِّرَةَ الأرجاء بكُلِّ سائرة أَرِجَه ؛ مُيَسِّرَةَ الأوقات بمُقَدِّمَتَيْ سَمَاعٍ وعِيَانٍ : كلاهما للسارّ مُنْتِجه، مُسْتَحْضِرَةً فى معالى الكَرَمِ كُلَّ دقيقةٍ تشهد بَسْطَةُ النِّيلِ أنها أَرْفَعُ منه دَرَجَه ؛ ويُنْهِى بعد دعاءٍ ماالرَّوْضُ أعطَرَ من شَذَاه، ولا ماءُ النِّيل وإن كَرُمَ وَفَاءً بأوفىٰ من جَدَاه ؛ أن المرسوم الشريف زاده الله تعالىٰ شَرَفا، ورد بوَفَاء النِّيـل المبارك وحَبَّـذَا هو من وَفِيٍّ مُوَافِي، ومُتَغَيِّرِ المَجْرىٰ وعَيْشُ البِلَادِ به العَيْشُ الصَّافِي، وحَسَنِ الزِّيَارة والرَّحِيل ماضَاهَتْه الغُيُوثُ فِي ولافِي ؛ ووارِدٍ من مَعَبَّد بعيد، وحَمِيلٍ لا جَرَمَ أن مَدَّه (١) ثابِتٌ ويَزِيد، وجَائِدٍ إذا تتابع حَيْثُ تَيَّارُه يُقَلِّدُ بِرُّهُ ودُرُّهُ من الأرض وسَاكِنِها كُلَّ جِيـد، وإذا ذُكِرَ الخِصْبُ لمكان عِيـدِه المشهود ألقىٰ السَّمْعَ وهو شهيـد ؛ وذلك فى يوم كذا، وأن البـلاد جُبِرَتْ بكَسْرِ خَلِيجِه، وآستقامت أحوالُها بتَفْرِيجِه : وأثْنَتْ عليه بآلائه، ووَسَمَتْ لَوْنَه الأصْهَبَ علىٰ رَغْمِ الصَّهْباءِ بأحْسَنِ أسمائه، وخُلِّقَ فملأت الدُّنيـا بَشَائِرُ مُخَلَّقِه، وعُلِّقَ سِـتْرُه المِصْرِىُّ التِّبْرِىُّ فزكا علىٰ مُعَلَّقِه، وحَلَّقَ مسيرَ تِرَاعِه علىٰ القُرىٰ فبات علىٰ النَّدَا ضَيْفُ مُحَلِّقِه ؛ وحَدَّثَ عن البحرِ ولا حَرَج ، وآنعرج علىٰ البِقَاعِ يَلْوِى مِعْصَمَه فلله أوقات ذلك اللِّوىٰ والمُنْعَرَج ؛ وآسـتقرّت الرعايا آمنين آملين ، وقُطِعَ دابرُ الجَدْبِ بسُعُود هذه الدَّوْلة القَاهِرَة ﴿ وقيل الحمد لله رَبِّ العَالَمين ﴾ ورُسِمَ أن لا يُجْبىٰ حَقُّ بِشَارَة، ولا تَعْبَثَ يَدُ التنقيص منها ليزدادَ الخَبَرُ نُورًا علىٰ نُور، ويكون فى إيثاره وحُسْنِه الخَبَرَ الحَسَـنَ المأثور؛ ووصل بهـذا الخبر فلان وعلىٰ يده مثـال شريف يختص بمولانا وقد جهز به ؛ فيأخذ مولانا حَظَّه من هـذه البُشْرىٰ ، ويُوَضِّحُ بهـا علىٰ كُلِّ الوجوه

(١) فى الاصل "لاجرم أن يده".

بِشرا، والله تعالىٰ يملأ له بالمَسَرَّات صَدْرا، ويضع بعدلِهِ عن الرعية إصْرا، ويَسُرُّهم فى أيامه بكُلِّ واردٍ يقول الإحسان لمُتَحَمِّله : ﴿ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴾ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة كتاب آخر فى المعنىٰ إلىٰ بعض النوّاب، من إنشاء الشيخ جَمال الدِّين آبن نُبَاتَةَ أيضا، وهى بعد الصدر :

وضاعف موادّ نِعَمِه ونَعْمائه ، ومَسَرَّته وهَنَائه ؛ وحَفِظَ عليه ما وُهِبَه من المناقب التى يَرْوِى النِّيلُ عن كَرَمِه ووَفَائِه ، وشَرَّفَ السُّيُوفَ لكونها من سِمَاتِ كَرَمِه والسُّيُولَ لكونها من سمائه .

المملوك يُجَدِّد الخِدْمَةَ بنَفَحَات سـلامه وثَنَائِه ، ويَصِفُ وَلَاءً لو تجسَّم لآستمدّت عَيْنُ الشمس من سَنَائه ؛ ويُنْهِى أن المرسومَ الشريفَ زاده الله تعالىٰ شرفا، وَرَدَ مُبَشِّرا بوفاء النيـل المبارك فى يوم كذا ؛ فياله ربيعًا جاء فى ربيع ، وحاملًا فى مُفْرَدِه الفَضْـل الجميع ؛ ودَاعِيًا بالخِصْبِ ينشد كُلَّ ثَانِيَـةِ آثنين رَيْحَانَةَ الدَّاعِى السميع ، ومُتَغَنِّيًا علىٰ مِنَصَّـةِ المِقْيَاسِ عِرْسه يُجْلىٰ عليـه من شِبَاكِها السِّتْرُ الرفيع ؛ وأنه أقبل والبلادُ أشهىٰ ماتكون لِلُقْياه ، وأشْوَقُ ماترىٰ لمباشرة رِيِّه ورَيَّاه ؛ وقد آمتدّت أيدى الجُسُور لفَمه، وآستعدّت شِفَاهُ الحُرُوف اللُّعْسُ لِلَثْمه ؛ فكَرُم عليها زائره ، وصَحِبَها بالنُّجْح ساريه وسـائره ، ودارت علىٰ الجَدْبِ من خطوط الأمواج دَوَائِرُه ؛ وعَمَّت المنافع ، وتلقت عيون الفلا ناهِلَةً بالأصابع ؛ وفاض البَحْر ببره ، ونشر رِدَاءَه علىٰ الأرض وسَيَضوعُ رَوْضُها بنَشْره ؛ وخُلِّقَ المقياس فيالك من قياس بُشْرىٰ غير ممنوع ، وكُسِرَ الخليجُ فياله غُصْن قلم علىٰ النيل وطائِرُ سَجْعِه علىٰ الفُرَاتِ مسموع ؛ ورُسِمَ أن

لايُجْبيٰ حَقٌّ بشاره ، ولا يدخلَ فيها التنقيصُ لدَارٍ ولا التنغيصُ لدَارَه ؛ ووصل بهذا الأمر فلان وقد جُهِّز بما علىٰ يَدِه ،والله تعالىٰ يُمَتِّعُ مولانا من أقسام المسارِّ بصُنُوف ، ويدفع عن حُصُون الإسلام بيُمْنِهِ أيدِىَ الصُّرُوف ،وينفعها بظِلَالِه التى آواها مُلْكه الكريمُ إلىٰ جَنَّةٍ : وكذلك الجَنَّة تحْتَ ظِلَالِ السُّيُوف .

الضـــرب الرابع

(من المُكَاتبات السُّلْطانية مايُكْتَب عن النُّوّاب والأتباع إلىٰ الخليفة أو السلطان ، وفيـــه مهيعان)

المهيـــع الأوّل

(فى الأجوبة عن الكُتُب السلطانية السابقةِ فى الضَّرْب الأوّل)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ مقدِّمة المكاتبات فى أوّل هـذه المقالة ذِكْرُ الخِلَاف : هل الكُتُب الآبتدائية [أعلىٰ رُتْبَةً](1) فى الإتيان بها أم الجوابية، وذِكْرُ الآحْتِجَاج لكُلٍّ من المذْهَبَيْن ، وذِكْرُ التحقيق فى ذلك ؛ فليراجع من مَوْضِـعِه هُنَاك . ونحن نذكر الكلام علىٰ أجوبة الكُتُبِ السابقة علىٰ الترتيب المتقدّم، جَارِين فى ذلك علىٰ ماقرّره فى "موادّ البيان" .

فأما الجواب عن الكِتَاب الوارِد بانتقال الخلافة إلىٰ الخليفــة ، فإنَّ الكتّاب إن كان متضمنا التعزية فى سَلَفِه ، والهَنَاء بتَجَدُّد النِّعْمَة عنـده فى آنتقـال الخِلَافَة إليــه ، فارَّسْم فيا يُكَاتَب به عن الخليفة أنْ يُبْنىٰ علىٰ الآستبشار بالنِّعْمَة فى خِلَافته ،

---

(1) بياض بالأصل . والتصحيح عما تقدم فى (ج ٦ ص ٣٢٣) .

والمُسَارَعة بإخلاص الضمير إلىٰ الدُّخول فى طَاعَتِه وبَيْعَتِه ؛ وٱنْفِسَاح الآمال فى دَوْلَتِه ، والشُّكْرِ لله تعالىٰ علىٰ جَبْرِ الوَهْنِ وعُلُوِّ كلمة الإسلام والمسلمين بدَعْوَتِه ؛ وتَعْزِيَتِهِ عن أبيه ، بما يُوجِبُه مَحَلُّ المِحْنَةِ ويقتضيه ؛ يعنى إن كان الخليفةُ المَيِّتُ أباه ، فالدعاء له بأن يُنْهِضَه الله تعالىٰ بما حَمَّلَه ، ويُعِينَه علىٰ ما كَفَّلَه ؛ ويَقْرُنَ مُلْكَه بالجَدِّ السعيد ، والخُلُود والتأييد ؛ وإدَالَة الأولياء ، وإذَالَة الأعداء ؛ ونحو هذا مما يُجَارِيه .

وإن كان الكتاب الوارد بٱنتقال الخِلافَة إليه عن أبيه ، ومَنْ فى معناه مِمَّن يُوَالِيه فى المَحَبَّة ، فإنَّ الكاتب يَحُوم فى الجواب علىٰ ماحصل بذلك من صلاح حال الأمَّة ، وٱستقامة أمرِ الرَّعِيَّة بانتقال الخلافة إليه ، من غير أن يُصَرِّح بذَمِّ الذاهب قَبْله . ولا يخفىٰ أن الجواب عن ورود الكتاب بانتقال السلطنة إلىٰ السلطان وجُلُوسه علىٰ تَخْتِ المُلْك فى معنىٰ الجواب فى ٱنتقال الخلافة إلىٰ الخليفة ، لا يكاد يُفَرَّق بينهما ، علىٰ ما سيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالدعاء إلىٰ الدِّين ، فإنما يتكَلَّفُهَا كُتَّاب مُخَالِفِى المِلَّة ، لأنها إنما تصدر إليهم . قال فى "موادّ البيان" : إلا أنه لاغِنًى لكُتَّاب الإسلام عن عِلْم ما يقع فيها ، لتَتَقدَّم عندهم المَعْرِفَة بما يُجِيبُ به المخالفون ، فيأخذوا عليهم بأطراف الحُجَّةِ إذا كاتبوهم ٱبتداء أو جوابا .

قال : ولا تَخْلُو أجوبة هذه الكُتُب من أربعة مَعَانٍ :

أحدها — إجَابَةُ الدعاء إلىٰ الدِّين ، وقَبُولُ الإرشاد والهُدىٰ ، والنُّزُوعُ عن الغَيِّ ، والإقْبَالُ علىٰ التَّبْصِرَة والتذكرة ، بعقائدَ خالصةٍ ، ونِيَّاتٍ صريحة .

والثانى — الإصرارُ علىٰ ماهُم مُتَمَسِّكُونَ به ، وتَمَحُّلُ الشُّبْهَة فى نُصْرَتِه ، وٱدِّعاءُ الحقِّ فيما يعتقدونه ، والمُغَالَطة عن الإجابة إلىٰ قَبُول ما دُعُوا إليه .

والثالث — بَذْلُ الجِزْيَةِ والمُصَالحه، والجُنُوحُ إلىٰ السِّلم والمُوَادَعه .

والرابع — إظهار الحَمِيَّة ، والقيامُ فى دفاع مَنْ يَرُومُ ٱقْتِسَارَهم علىٰ مفارقة شرائعهم وأديانهم ، وبَذْلُ الأنفس فى مُقَارَعَتِه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالحَثِّ علىٰ الجِهَاد، فقد ذكر فى "موادّالبيان" أنها لا تخرج عن معنيين :

أحدهما — إجَابَةُ الصَّرِيخ، والمُبَادَرَةُ إلىٰ التَّشْمِير فى الجِهَاد ، والقِيَامُ فى مَعُونَة الأولياء، علىٰ كِفَاح الأعداء .

والثـانى — الاْعتِذارُ والتَّعَلُّلُ والتَّثَاقُل .

هذا إن كانت الكُتُب صادرةً إلىٰ القُوَّادِ والمُقَدَّمين . أما إذا كانت مقصورةً علىٰ الاْستنفار، فلا جوابَ لها إلا النُّفُور أو الإمساك . قال فى "موادّ البيـان" : والطريق إلىٰ إقامة العُذْر للمُسْتَصْرَخ فى التأخُّر عن مُسْتَصْرِخه متىٰ أراد الاْعتذار عنه صَعْبٌ علىٰ الكاتب، ولا سِيَّما إذا كانت الأعذار مُتَكَلَّفَةً غير صحيحة .

قال : وينبغى أن يتأتَّى لذلك ويُحْسِنَ التلطُّف فيـه ، ولا يَعْتَلّ بكذب صُرَاحٍ ينكشف للمُعْتَذَرِ إليه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالحَثِّ علىٰ لُزُومِ الطاعة ، إذا وردت علىٰ النوّاب والوُلَاة وأُمِرُوا بقراءتها فى أعمالهم علىٰ الرَّعَايَا ، فإنه يكون : إما بانقياد الرَّعَايَا إلىٰ مادُعُوا إليه، أو ٱستدامتهم لمَرْكَبِ النِّفَاق، وٱسْتِدْعَاءِ مَادَّة لتقويمهم .

وأما الجواب عن الكتب إلىٰ مَنْ نَكَثَ عَهْدَه من المُعَاهَدين ، فقـد ذكر فى "موادّ البيان" أنها لا تخلو من أحد أربعة مَعان .

أوّلُها — الاعتذارُ والاستقالة من مراجعة النّكْث، والرغبةُ فى الصفح عن النّبوَة، والمُسامحَة بالهَفْوَة .

والثانى — المغالطة والمراوغه، واستعمالُ المُداهَنَة والمُخادَعه .

والثالث — التّجْليحُ والمُكاشَفَة .

والرابع — إيجاب الحُجّة على المجوب (؟) عنه فى أنه المبتدئ بفسخ ماعاقَد عليه . قال : والكاتب إذا كان ماهرا كسا كُلّ معنًى من هذه المعانى الغَرَضَ اللّائِقَ به فى الصناعة .

وأما الجواب عن الكُتُب إلى مَنْ خَلَعَ الطاعة، فقد قال فى "موادّ البيان": إنها تحتمل معنيين : أحدهما الاعتذار، والآخر الإصرار؛ وكُلٌّ واحدٍ منهما محتاجٌ إلى عبارةٍ لائقةٍ به . ثم قال : والكاتب إذا كان حاذقا، عَرَفَ سبيلَ التّخَلُّص فيها بمشيئة الله تعالى .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردةِ بالفُتُوح، فإنّها إن صدرت من السلطان إلى وُلَاته، فينبغى أن يُبْنَى جَوابُها على الاستبشار بمَوْقِع النّعَم فى الظّفَرِ بالعَدُوّ، والجَذَلِ بمُتَجَدّدِ الفَتْح؛ وأنّ ذلك إنّما تَهَيّأ بسعادته، وعُلُوّ رأيه وانبساط هَيْبَته؛ وما عَوّده من إظهار أوليائه، وخِذْلانِ أعدائه؛ وأنّهم قد أشاعوا هذا النّبأ فى الخاصّة والعامّة من رعاياه فابْتَهَجُوا به، وشكروا الله تعالى عليه ودَعَوْا له بصالح الدّعاء . وإن صدرت من وُلَاةِ الحَرْب إلى السلطان، فينبغى أن يكون ما يجيبهم به مَبنِيًّا على حمد الله تعالى على عَوارِفه، والرّغْبَةِ فى مُضَاعَفَة لَطَائفه؛ وشُكْرِه على إنجاز وَعْدِه فى الإظفار بأعداء المِلّةِ والدّوْلةِ ونحو هذا . ومُخاطَبَة أهل الطاعة بما يُرْهِفُ عَزائمهم، ويُقَوّى شَوْكَتَهُم؛ وتَقْرِيظ والِى الحَرْب ووَصْفه بما يُشْحذُ بَصيرَتَه فى الخِدْمة، والثّناء على

الأَجْنَاد ، ووَعْدِهِم بجزيل الجَـزَاءِ علىٰ الجِهَاد والإبلاء ؛ إلىٰ غير هذا ممـا يقتضيه الحال ، ويُوجِبُه تدبيرالأمر الحاضر .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالآعتذار عن السلطان عند ما يَحْصُلُ له زَلَلٌ فى التدبير أو [فى] الظَّفَرِ بقبض الأعداء علىٰ جَيْشٍ من جُيُوشِه ، فإنمـا تقع الإجابة عنها إذا نُفِّذَتْ إلىٰ أحد العُمَّالِ خصوصا . قال فى "موادّ البيان" : وحينئذ فينبغى أن يكون الجوابُ عنها مَبْنِيًّا علىٰ تَقْوِيَةِ نفس السـلطان وتوثيقه بالأدِلَّة ، وأن ماناله لا يَتَوَجَّه كثيرا علىٰ ذَوِى الحُرَمِ ، إلا أن عواقب الفَلْج والظَّفَـرِ والإصَابَةِ فى الرَّأْيِ والتدبير تكون لهم ، ونحو هذا ممـا يُجَارِيه ويليق به .

قال : أما إذا كانت المكاتبة فى ذلك إلىٰ الكَافَّة ، مُمَهِّدَةً لعُذْرِ السلطان ، قَاطِعَةً قَالَةَ الرَّعِيَّة عنه ، فإنه لاجواب عنها : لأنها إذا لم تُوَجَّهْ إلىٰ واحدٍ بعَيْنِه لاتَسْتَدْعِى خِطَابا .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن السلطان بالنَّهْيِ عن التَّنَازُع فى الدِّين ، إذا صـدرت إلىٰ العُمَّال ، وأُمِرُوا بقراءتها علىٰ الرَّعَايَا علىٰ منابر أعمالهم ، فإنه يُبْنىٰ الأمر فيها علىٰ آمتثال الأمْرِ ، والمطالعةِ بآرتسام القوم مارُسِمَ لهم فيها . أما إذا كانت صَادِرَةً لتقرأ علىٰ العامَّة لِيُبْصِرُوا ما فيها ويعملوا عليه ، فإنه لاجواب عنها ، لأنها إنما تشتمل علىٰ مَوَاعِظ ومَرَاشِدَ تَتَخَوَّلُ بها الأئمة رَعَايَاهُم .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالأوامر والنَّوَاهِى ، فقد ذكر فى "موادّ البيان" أن الكتاب الوارد فى ذلك : إن كان شيئا قد جزم المتبوعُ فيه الأمْرَ ، وضَيَّقَ علىٰ التَّابِـعِ فى إيثاره سبيلَ المُرَاجَعَةِ فيه ، فإن الجواب عنه سَهْلٌ : لأنه إنمـا يُجِيبُ بجواب جامع ، وهو وُقُوفُه علىٰ ما أُمِرَ به وإنْفَاذُه له . وإن كان الوارد أمْرًا محتملا للمراجعة ، من حَيْثُ إنَّ فى إمضائه إذا أُمْضِىَ إفسادًا للعَمَل ، وإخلالا بأسباب

المُلْكِ والسلطان، فالجواب عنه شَاقٌّ صَعْبٌ : لأنه ينبغى أن يُبْنىٰ علىٰ تَلَطُّفٍ شديدٍ فى الإبانة عمـا يُنْتِجُه ذلك المأمور به إذا أُنْفِـذَ علىٰ وجهه من فَتْقٍ وخَلَلٍ ؛ ومَوْرِدُ المراجعة فى ألفاظه لا يَتَبَيَّنُ فيه إزْرَاء علىٰ رَأْيِ الرئيس ولا طَعْنٌ فى تدبيره : بأن تكون نَاطِقَةً بأنَّ رَأْيَه الأعلىٰ، وتدبيره الأَصْوَب ؛ فيكون باطنُ الكلام توقيفا علىٰ الصَّواب ، وظاهِرُه تَصْوِيبا وتقريظا : لأن كثيرا من الرؤساء والمُلُوك يُعْجَبُون بآرائهم ، ويُنْزِلُون أنفسهم بحُكْمِ الرياسـة فى منزلة من لا يُرَاجَعُ ولا يُعَارَضُ فيما يأمر به .

قال : وقد تأتى من كُتُب الأوامر كُتُبٌ يأمر الرئيس فيها المرءوسَ بشَرْحِ حال وٱقتصاص أمور . ثم قال : وأجوبة هذه الكُتُب يجب أن تكون مُسْتَقْصِيَةً للمعنىٰ المُنْشَرِحِ، مُسْتَوْلِيَةً علىٰ حَوَاشِيه، غير مُخِلَّة بشىءٍ ممـا يحتاج إلىٰ تَعَرُّفه منه .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام عنـد حُدُوث الآيات السماويّة ، وهى مشتملة علىٰ مَوَاعِظ ومَرَاشِدَ يتخوَّل بها الأئمة رَعَايَاهُم ؛ فإذا صدرت إلىٰ العُمَّال وأُمِرُوا بقراءتها علىٰ الرَّعَايَا، فأجوبتها إنمـا تُبْنىٰ علىٰ ٱمتثال الأمر والمطالعة بٱرتسام القوم ما رُسِمَ لهم فيهـا . أما إذا كانت صادرةً لتُقْرَأَ علىٰ العَامَّة ليَتَبَصَّروا بمـا فيها ويعملوا عليه، فإنه لا جواب عنها .

وأما الجواب عن التَّنْبِيه علىٰ مواسم العبادة، فإنه يصدر عمَّن وَرَدَ عنه إلىٰ الإمام بعـد شُهُود ذلك المَوْسِم، والٱنفِصَالِ عنه علىٰ حال السلامة، كما فى صلاة العيـد ونحوها . قال فى "مواد البيان" : وأَجْوِبَتُها تصدر إلىٰ الخلفاء مقصورةً علىٰ ذِكْرِ ما مَنَّ الله تعالىٰ به من قَضَاءِ الفريضة علىٰ حَالِ الٱئتلافِ والٱتِّفاق، وشُمُول الأَمْنِ والهُدُوِّ والسُّكون ، وسُبُوغِ النِّعْمَة علىٰ الكَافَّة ؛ وأن ذلك بسعادة وعِنَايَةِ الله تعالىٰ بدَوْلَتِه وبرَعِيَّته ، ونحوها ممـا يقتضيه المعنىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الإمام إلىٰ وُلَاةِ أمْرِه بالسلامة فى ركوب اوّل العـام وغُرّة رَمَضَان ، والجمعة الأولىٰ والثانيـة والثالثة منه ، وعِيدَى الفِطْر والأضْحىٰ ، وفَتْح الخَلِيج بعد وفاء النيل ، فقد قال فى "موادّ البيان" : إنّه إن كان الكتاب عن السلامة فى صلاة العِيدَيْنِ أو جُمَع رَمَضَان ، فينبغى أن يكون مَبْنِياً علىٰ وُرُود كُتُبِه متضمنةً ما أعان الله تعالىٰ عليه أميرَ المؤمنين من تَأْدِيَةِ فريضته ، والجَمْع فى صلاة عِيدِ كذا بِرَعِيَّتِه ؛ وما ألبسه الله تعـالىٰ من الهَدْيِ والوَقَار ، وأفاضه عليه من البَهَاءِ والأنوار ؛ وبُرُوزه فى خَاصَّتِه وعَامَّتِه إلىٰ مُصَـلَّاه ، وسماعِ خُطْبَتِه وعَوْدِه إلىٰ قَصْرِه الزاهر ، وعليه تلألُؤُ القَبُول لصَلَاته ودُعَائه ، مما أجراه الله تعالىٰ فيه علىٰ عادة آلائه ؛ ووقف عليه وقابله بالشكر والإحماد ، والاعتراف والاعتداد ، واقْتَصَّه علىٰ رءوس الأشهاد ؛ فأغْرَقُوا فى شُكْرِ الله تعالىٰ علىٰ المَوْهِبَةِ فى أمير المؤمنين ، ورَغِبُوا إليه فى إطالة بَقَائِه مُرَامِيًا عن الإسلام والمسلمين ؛ ونحو هذا ممـا يُجَارِيه .

ثم قال : فإذا نُفِّذَتْ هذه الكتب من العُمَّالِ إلىٰ أمير المؤمنين مُبَشِّرَةً باجتماع رعاياه لتأدية فريضتهم ، وعَوْدِهم إلىٰ منازلهم سالمين ، فينبغى أن يكون الجواب عنهـا : «وصل كتابك مُتَضَمِّنًا مالا يزالُ الله تعالىٰ يُولِيه لأمير المؤمنين فى رَعِيَّتِه ، وخاصَّتِه وعَامَّتِه : من اتفاق كلمتهم ، وائتلاف أفْئِدَتِهم وسـلامة كَافَّتِهم ؛ ومامنّ الله به عليه وعليهم من اجتماعهم لتأدية فريضتهم ، وعَوْدِهم إلىٰ منازلهم ؛ علىٰ السَّلَامة من ضمائرهم ، والطَّهَارَة من سرائرهم ؛ فَحَمِدَ أمير المؤمنين الله تعالىٰ علىٰ ذلك وسأله مَزِيدَهُم منه ، وتَوْفِيقَهُم لمـا يُرْضِيه عنهم ؛ وشكر مَسْعَاكَ فى سياستهم ، وامْتِدَادَ يَدِك فى إيالتهم ؛ وهو يأمرك أن تَجْرِىَ علىٰ عادتك ، وتسير فيهم بجميل سيرَتِك» وما يليق بهذا .

ثم بَنَىٰ علىٰ ذلك سائرَ كُتُب السلامة ، وقال : ينبغى أن يُسْتَنْبَطَ من نَفْسِ كُلِّ كتاب منهـا المعنىٰ الذى تجب الإجابة به ، مثـل أن يكون الكتاب ورد من أمير المؤمنين إلىٰ أحد عُمَّالِهِ ، مُبَشِّرًا بسلامته من سَفَرِه ؛ فينبغى أن يُبْنَىٰ جوابُه علىٰ ما صُورتُه : « ورد كتاب أمير المؤمنين مُبَشِّرًا عبده بمـا هَيَّأه الله تعالىٰ له من السلامة ويُمْنِ الوِجْهَه ، مع تقريب الشُّقَّه ؛ وإنالة المَسَارّ ، وتسهيل الأوطار ، وإدناء الدار ؛ فوقف العبد عليه ، وآمتثل المرسوم فى إطلاع الأولياء علىٰ ما نُصَّ فيه من هـذه البُشْرىٰ ؛ فَعَظُمَتْ المِنْحَةُ لديهم ، وجَلَّت النِّعْمَةُ عندهم ؛ وآنشرحت صُدُورهم ، وآنفسحت آمالُهم ، ووفقُوا بصُنْع الله تعالىٰ لهم ؛ وآرتفعت أيديهم إلىٰ الله سبحانه بالرغبة فى حِيَاطَةِ أمير المؤمنين قَاطِنًا وظَاعِنًا ، وحُسْنِ صَحَـابَتِه حَالًّا وراحلا ؛ وجميـل الخلافة علىٰ مَنْ خَلفَه من حامّتـه وعَامَّته ، وأهــل دَعْوَتِه وخاصَّة دَوْلَتِه ؛ والله تعـالىٰ يجيب فى أمير المؤمنين صَالِحَ الدُّعاء ، ويَمُدُّه بطُولِ البَقَاء » وما ينتظم فى سِلْكِ هـذا الكلام ويُضَاهِيه .

قلت : وقد تقدّم فى الكلام علىٰ المكاتبة السلطانيــة الأبتدائية : أن المكاتبـة بالبِشَارَة بالسلامة فى رُكُوب العِيدَيْنِ وما فى معناهما من قدوم السَّفَرِ وغيره ، قد ترك آستعماله بديوان الإنشاء فى زماننا . فإن قُدِّرَ مِثْلُه فى هذه الأيام ، أجراه الكاتبُ علىٰ نَحْوٍ ممَّـا تقدّم ، علىٰ مايقتضيه مصطلَح الزمان فى المكاتبات السلطانية .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالخِلَع وما فى معنىٰ ذلك ، فينبغى أن يكون مَبْنِيًّا علىٰ تعظيم المِنَّه ، والآعتراف بجَزَالَة المِنْحَه ، وجميل العطية ، وزائد الفَضْل ؛ وأن ما أُسْدِىَ إليه من ذلك تَفَضُّلٌ عليــه ، وتَطَوُّلٌ من غير آستحقاق لذلك ؛ بل فَائِضُ فَضْلٍ ، وجزيل آمتنان ؛ وأنه عاجز عن شُكْر هذه النِّعْمَة والقيامِ بواجبها ، لا يَسْتطيع

لهـا مكافأةً غير الرَّغْبَـةِ إلىٰ الله تعالىٰ بالأدْعِيَـةِ لهذه الدَّوْلَة . وما يناسب ذلك من الكلام ويُلَائِمه .

وأما الجواب عن الكُتُب بالتَّنْوِيه والتلقيب إذا صــدرت إلىٰ نواب المملكة ، فالذى ذكره فى "موادّ البيان" أن المُنَوَّه به يُجِيبُ عَمَّا يَصِلُه من ذلك بوُصُولِ الكتاب إليه ، ووُقُوفه عليه ، ومَعْرِفَته بقَدْرِ العَارِفَةِ مما تضمنته الرَّغْبَةُ إلىٰ الله تعالىٰ فى إيزَاعه الشُّـكْرَ ، ومَعُونَتِه علىٰ مقابلة النِّعْمَة بالإخلاص والطـاعة . أما إذا كُتِبت بالتَّنْوِيهِ والتلقيب لأَحَدٍ من المقيمين بحَضْرَةِ الخلافة ، فإنه لاجواب لها .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بالإحماد والإذمام ، فيختلف الحال فيه : فإن كان الكتاب الوارد بالإحماد والتَّقْرِيظ ، فجوابه مقصور علىٰ الشُّكْر الدال علىٰ وقوع ذلك الإحمـاد مَوْقِعَه من المحمود ، ومُطَالَبَتِه لنفسه بالخروج من حَقِّه باستفراغ الوُسْع فى الأسباب المُوجِبَةِ للزيادة منه . وإن كان الكتاب بالإذمام : فان كان ذلك لِمَوْجِدَةٍ بسبب أمْرٍ بلغه عنه من عَدُوٍّ أو حاسـدِ نِعْمَةٍ أو منزلة هو مَخْصُوصٌ بهـا من رئيسه ، كان الجواب بالتَّنَصُّلِ والمقابلة بمـا يُبَرِّئ سَاحَتَه ، ويَدُلُّ علىٰ سلامة نَاحِيَتِه ، وأن يُورِدَ ذلك بصيغةٍ تُزِيلُ عن النفس ما سبق إليها ، وتَبْعَثُ علىٰ الرِّضا . وكذلك فى كل واقعة بحسبها ، ممـا يحصل به التَّنَصُّلُ والاسترضاء ونحو ذلك .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة مع الإنعام السـلطانىِّ ، فعلىٰ نحو ماسبق فى الخِلَع : من تعظيم المِنَّة ، والاعتراف [بجَزَالَة المِنْحة](١) وجميل العطية ، وزيادة الفَضْل ، وما فى معنىٰ ذلك ممـا تقدّم ذكره .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة عن الخليفة أوالسلطان بتجدّد وَلَدٍ ، فإنه يكون بإظهار السرور والاغتباط ، وزِيَادَةِ الفَرَح والسُّرُور بمـا منّ الله تعالىٰ به من تكثير

(١) بياض بالاصل والتصحيح عما تقدّم قريبا فى الجواب عن الخلع .

العَدَد، وزِيَادَة المَـدَدِ؛ والرَّغْبة إلىٰ الله تعالىٰ فى أن يُوَالِىَ هـذا المَزِيدَ ويُضَاعِفَه . ونحو ذلك ممـا يجرى هذا المجرىٰ .

وأما الجواب عن الكُتُب الواردة بعافية الخليفـة أو السـلطان من مَرَضٍ كان قد عَرَضَ له ، فطريقه حَمْـدُ الله تعالىٰ وشُكْرُه علىٰ مامَنَّ الله تعالىٰ به من العافية ، وتَفَضَّـلَ به من إزاحة المَرَض ، ووِقَايَةِ المَكْرُوه ؛ وإظْهَارُ الفَرَحِ والسرور بذلك . وما ينخرط فى هذا السِّلْك .

وأما الجواب عن الكتب الواردة بالتعزية بوَلَدٍ أو قَرِيبٍ ، فإنه يظهر فيـه التَّغَمَّ(١) والحُزْنَ والكَآبَةَ ، وحَمْدَ الله تعالى علىٰ سلامة نَفْسه ، والرَّغْبَةَ إلىٰ الله تعالىٰ فى الخَلَف عليه ، إن كان المَيِّتُ وَلَدًا ، مع الدعاء بطُولِ البَقَاءِ وخُلُودِ الدَّوْلَة ، وما يجرى هذا المجرىٰ .

وهـذه نسخ أجوبة عن مكاتبات سلطانية ، ممَّـا يكْثُرُ وقوعه ، ويتَعَدَّدُ تكْرَارُه ، يَسْتَضِيءُ بها الكاتب فى كتابة الأجوبة ، ويَنْسُجُ علىٰ مِنْوالها .

نسخة جواب عن كِتَابٍ وصـل من الخليفة بانتقال الخلافة إليه ، كُتِب به إلىٰ أمير الأمراء ، قَرِينَ خِلْعَةٍ وسَيْفٍ وتَاجٍ وسِوَارَيْنِ ، من إنشاء أبى الحسين بن سعد ، وهو :

فإن كان سَيِّدُنا أميرُ المؤمنين ، بمـا أعلم من فَضْل مُرَاعَاته لأمور الدِّين ، وصِدْق عِنَايَتِه بمصالح المسلمين ؛ وأُفِيضَ له(؟) من مَوَاهِب الله عندهم ، وصُنُوف نِعَمِه عليهم ؛ فيما هداه من طُرُقِ الرَّشَاد ، وبَصَّرَهُ إياه من مَنَاهِجِ الصَّوَاب ؛ وقَرَنَه به من التَّوْفيق فى عَزَائِمِه ، والجِدِّ فى مَرَاسِمِه ؛ وتَوَعَّدَه فيه بالخيرات التَّامَّه ، والكِفَايَة العامَّه ؛ فى كُلِّ

(١) فى الاصل "التغمم" ولم نعثر عليه فى كتب اللغة .

أمْرٍ يُمْضِيه، ورأْيٍ يَرْتَئِيه، آعتمادًا له بحُسْنِ المَعُونة علىٰ ما آسترعاه، ووَصْلِه بالمَزِيدِ فيما خوّله وأعطاه، وحِرَاسَةِ ماساقه إليه من إرْثِ النُّبُوّه، وحَمَّلَه إياه من ثِقْلِ الإمامه؛ لمـا عَرَفَه من نُهُوضِه بالعِبْء، وقيامه بالحَقِّ فيما نَاطَه وأسنده إليه؛ وتأمُّلِه ماتأَمَّله من حال عبــده الذى لم يزل لِطَاعَتِه مُعْتَقِدًا، وبعِصْمَةِ وِلَايَتِــه مُعْتَضِدًا؛ ولوَقْتٍ يُبَلِّغُه منزلة الإحماد، ويحوز له عَائِدَةَ الآجتهاد، فيما أرضاه مُرْتَصِدًا؛ ولسَعْيِه وَنِيَّتِه، وظاهره وطَوِيَّتِه، معتمدا؛ ووُجُودِه أيَّدَه الله فى يسير ما آمتحن به بَلَاءه، وعرف فيه غَنَاءه؛ مَوْضِعًا للصَّنِيعَه، مُحْتَمِلًا للعارفه؛ مُقِرًّا بحَقِّ النِّعْمَه، عارفا بقَدْرِ المَوْهِبَه؛ وتَرَقُّبِه فُرْصَةً ينتهزها فى إبداء عَزْمه، وإمضاء رَأْيِه؛ وأنه [وَاثِقٌ] بالآستظهار بمكانه، والإسْهَامِ له فى عِزِّ سُلْطَانه؛ حتّىٰ أسفرت رَوِيَّتُــه، وآستقرّت عَزِيمته؛ فآختَصَّ عبده بجميــل الأَثَر، وآصطفاه بلطيف الحُظْوة، وآعتمد عليــه فى إمَارة الأمراء، مُوفِيًا به علىٰ رُتْبَةِ النُّظَراء، وكَاسِيًا له حُلَّةَ المَجْد والسَّنَاء؛ وردّ إليــه تدبير الرجال، وتقدير أمور العُمَّال؛ وشَــفَعَ ذلك بالتَّكْنِيَةِ والتَّلْقِيبِ فى مَشَاهِدِ حَفْلَتِــه، ومجالس خَلْوَتِه؛ وأكمل الصُّــنْعَ عنده بإلحاق عبــده فيما قَسَم لكُلِّ واحدٍ منهما من شريف حِبَائِه، وسَنِيِّ عَطَائه؛ وتجاوز فى التَّكْرِمَةِ له إلىٰ أعلىٰ الأحوال، وأرْفَعِ الرُّتَبِ والمَحَالّ؛ فيما أمَرَ ـ أعلىٰ الله أمره ـ بحَمْلِه إليه من الخِلْعَةِ التى يَبْقَىٰ شَرَفُ لِبَاسِها [على] الأيَّام، ويُخَلَّدُ ذِكْرُها علىٰ الدُّهُورِ والأعوام؛ والسَّيْفِ الذى تَفَاءَل لعبده فيه بمـا يرجو يُمْنَ مولاه وسَعَادَة جَدِّه: أن يُحَقِّقَه الله فى الآعتماد به علىٰ أعدائه، وغَمْدِه فى نُحُورِ مُشَاقِّيهِ وغَامِصِي نَعْمَائِه؛ والتَّاجِ المُرَصَّع الذى نَظَم له جَوَامِعَ الفَخْر، والوِشَاحِ المُوَشَّى الذى وشَّحَه حِلْيَةَ الجمال مدىٰ الدهر؛ والطَّوْقِ الذى طوّقه قلائد المَجْد، والسِّوَارَيْنِ اللَّذين آذناه بقوّة العَضُدِ وبَسْطَةِ اليَد؛ واللِّواءِ المعقودِ به مَفَاتِحُ العِزِّ فى طاعته، المرفوعِ به معالم النَّصْرِ علىٰ شَانِئِ دَوْلَتِه؛ ووصل إلىّ وفهمته .

وسيِّدُنا أمير المؤمنين ـ فيما أكرمه الله به من خِلافَته ، وأْتَمَنَه من الحُكْم علىٰ بَرِيَّته ، ووَكَلَه إليه من حُقُوق الدِّين ، وحِياطَتِه كَرَم المسلمين ، وإحياء السِّيَرِ الرَّضيَّه ، والسُّنَنِ الحميده ، وإماطة الأحكام الجائره ، والمَظَالِم الظاهره ، وتقويم أَوَدِ المملكة بعد تَزَعْزُع أركانها ، وتَصَدُّع بُنْيَانِها ، وإعْزَازِ الأمة وإيناسها ، بعد أن آشتملت [الذِّلَّة][1] عليها وتمكنت الوَحْشَةُ فيها ، وحَكَمَ اليَأْسُ فى آمالها ، وغلب القُنُوطُ علىٰ أطماعها ، وتَفَاءل بما آعتمده له ، وفوّضه إلىٰ نَظَرِه : من الحِلْيَةِ بحقائقه ، والتوكيد بما لم تزل المَخَايِل فيه لائِحَه ، والأمارات منه واضِحه ، والشَّوَاهِدُ به صادقه ، والدَّلائِلُ عليه ناطقه ، حَتَّى تدارك بنعمة الله الدِّينَ بعد أن طُمِسَ مَنَارُه ، وتَعَفَّتْ آثارُه ، ودَرَسَتْ رُسُومُه ، وغَارَتْ نُجُومُه ، وأَنْحىٰ الشَّيطانُ بجرانه ، وآشْرَأَبَّ لتبديله بعُدْوَانِه ، وآنتَدب لنُصْرَةِ الإسلام برأيٍ يستغرق آراء الرِّجال ، وحِلْمٍ يَسْتَخِفُّ رَوَاسِىَ الجبال ، ورَوِيَّةٍ تستخرج كَوَامِنَ الغُيُوب ، وتَكْشِفُ عنها حَنَادِسَ الشكوك ، وباعٍ لما يمتدُّ إليه بَسِيط ، وذِرَاعٍ لما ينتظم عليه رَحِيب ، وصَدْرٍ يَتَّسِعُ لمُعْضِلَاتِ الأمور ، ويُشْرِقُ فى مُدْلَهِمَّاتِ الحوادث ، فشَرَّدَ أعداء الله بعد أن آتصلت بهم مُهْلَةُ الآغترار ، وتَطَاوَلَتْ بهم مدّة الإصرار ، ومَدَّ رِوَاقَ المُلْك وضرب قِبَابَه ، وثَبَّتَ أَوَاخِيَهُ وأَحْصَد[2] أسْبَابَه ، وقطع أطْمَاعَ المُلْحِدين ، وأبْطَلَ كَيْدَ الكافرين ، وفَتَّ فى أعضاد المُنَابِذِين ، فتَحَصَّنَت البَيْضَه ، وآجتمعت الكَلِمَه ، وآتَّفقت الأهواء المُتَفَرِّقَه ، وآنتظمت الآراء المُتَشَعِّبَه ، وسَكَنَتْ الدَّهْماءُ المُضطَرِبه ، وقَرَّتِ القلوبُ المُنْزَعِجَه ، وصَدَقَتْ خواطر الصُّدور المُثْلَجَه ، وظهر الحَقُّ ورَسَخ عَمُودُه ، وبَهَرَ جَمالُه ونَضُرَ عُودُه ، ونُشِرَتْ أعْلَامُه وطلعت سُعُوده ، وعَزَّ أوْلِيَاؤُه ونُصِرَتْ جُنُوده ، وسَاخ

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من المقام .

(٢) فى الأصل «أخضد» وهو تصحيف .

بالباطل قَدَمُه، وٱنقطعت وَصَائِلُه وعِصَمُه، وٱنبَتَّتْ حِبالُه ورُمُه، وٱنحلَّت أسبابه وذِمَمُهُ ـ حَقِيقٌ بما بَانَ من فَضْلِه، وٱسْتَفَاضَ فى الأمّة من عَدْلِه، وعَمَّ كافَّة الرَّعِيَّة من طَوْلِه؛ ووصلت إلىٰ المِلِّيّ والذمىّ والدَّانِى والقَاصِى عَائِدَةُ الخَيْرِ فى أيامه، وفائدة الأَمْنِ بمملكته وسُلْطَانه؛ ومأْمُولٌ لأفضَلِ مابدا لعَبْدِه من ثَمَرَةِ ٱجتبائه وٱصْطِفَائِه، وما تَغَمَّدَه به من النِّعَمِ العظيمه، والمَوَاهِبِ الجسيمه؛ وأسْبَغَه عليه من العوارف السَّنِيَّه، ورَفَعَهُ إليه من المنازل العَلِيَّه، التى تَقْصُر عنها هِمَمُ ذَوِى الأقدار، وتَقِفُ دونها آمَالُ أُولِى الأَخْطَار، مُقَدِّمًا له علىٰ أهل السَّوابِقِ من أنصار دَوْلَتِه، وأشياع دَعْوَتِه .

فلو ترادفت أَلْسُنُ العبـاد ـ أيَّدَ اللهُ أميرَ المؤمنين ـ علىٰ ٱختلاف لُغَاتِهم، وتَبَايُنِ طَبَقَاتِهم، وتَفَاوُتِ حالاتهم؛ فى مقابلة نِعْمَةِ سَيِّدِنا التى أعْشَىٰ العُيُونَ بَهَاؤُها، وتأدية حقوقه التى أعيا المجتهدين قَضَاؤُها؛ لكانت ـ حَيْثُ ٱنتهَتْ، وأنَّىٰ تَصَرَّفَتْ؛ علىٰ ٱستفراغ القُدْرة وٱسـتِنفاد الطاعة ـ غيرَ مُقَارِبَةٍ حَدًّا من حدودِها، ولا مُؤَدِّيَةٍ فَرْضًا من فُرُوضِها؛ وإذا كان الأمرُ علىٰ ذلك ـ أيَّدَ اللهُ أميرَ المؤمنـين ـ فى فَوْتِ الإحسان مقاديرَ الشُّكْر، وإيفائه علىٰ مَبَالِـغِ الوُسْع؛ فقصدُ عبدِه فى جَبْرِ النَّقِيصَه، وسدّ الخَلَّه؛ الأزدِيادُ فى الطَّاعَه، والإخْلَاصُ فى المُوَالَاة والمُشَايَعه؛ وإدامةُ الأبْتِهَالِ إلىٰ اللهِ تعـالىٰ، ورَفْعُ الرَّغْبَةِ فى مَعُونَةِ عبد أمير المؤمنين علىٰ مُجَافَاة[1] بَلَائِه، والتَّفَرُّد بجَزَائِه، وتجديدُ المسألة فى إطالة بَقَائِه: فى عِزٍّ لاتَبْلَىٰ جِدَّتُه، وسُلْطَانٍ لاتنتهى مُدَّتُه؛ ومَوَادَّ من مَنَـائِحِه ومَوَائِدِه، ورَوَادِفَ من عَوَائِدِه؛ مُتَظَاهِرةٍ لاينقطع منها أوَّلُ حَتَّىٰ يلحق تَالِيه، ولا يَنْصَرِمُ سَالِفُه حَتَّىٰ يَنْصَرِفَ آتيه؛ ويكون المآل بعد ٱستيفاء شُرُوطِ الأمل، وتَقَضِّى حُدُود المَهَل؛ إلىٰ النَّعِيم المُقِيم، فى جِوَارِ العزيز الكريم .

---

(١) فى الأصل «مصافاة» وهو تصحيف .

ومن تَمَامِ إفضال سَيِّدنا على عبده، ونِظَامِ مَعْرُوفه عنده ؛ بَدْؤُه إيَّاه بما يمتحن به خِفَّةَ نَهْضَته، وسُرْعَة حَرَكَته ؛ وقُعُودَه لأمره بجَدٍّ حَديد، وبعَيْش عَتِيد ؛ وصَمْدَهُ لما يُحْظيه لذلك مَوْلاه، ويحوز له حَمْدَه ورِضَاه ؛ بِصدْق بَصيرَه، وخلوص سَرِيَرِه ؛ وٱستسهالٍ لكُلِّ خُطَّه، وتجَشُّمٍ لكُلِّ مَشَقَّه ؛ دنَت المسافةُ أم شَسَعَتْ، قَرُبَت الطِّيَّةُ أم نَزَحَتْ ؛ وسَيِّدُنا أهْلٌ لٱستتمام يدِ ٱبْتَدَاها، وإكْمَالِ عَارِفَة أنشأها وكرامة ٱبتناها ؛ باستعمال عَبْده بأمْرِه ونَهْيِه، وٱعتماده لمُهِمَّاتِه بحَضْرَته وفى أطراف مَمْلَكَتِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وهذه نسخة كتاب أنشأتُه : ليُكْتَب به إلىٰ أمير المؤمنين المستعين بالله، أبى الفَضْلِ العَبَّاس خليفة العَصْر، عن نائب الغَيْبَة بالديار المِصْرِيَّة، حين وَرَدَتْ كُتُبُه الشريفةُ من الشَّأم إلىٰ الديار المِصْرِيَّة بالقَبْض علىٰ النَّاصِر فَرَج بن الظاهر برقوق بالشَّأم، وٱستِبْدَاده بالأمر دون سلطانٍ معه، فى أوائل سنة خَمْسَ عَشْرَةَ وثمانمائة، مُفْتَتِحًا له بـ«يُقَبِّلُ الأرضَ» التى يُكَاتَبُ بها الملوك. وإن كان قد تقدّم من كلام المقرّ الشِّهابىِّ بن فضل الله أن المكاتبة إلىٰ أبواب الخلافة بالدعاء للديوان، لا يختلف فيه مَلِكٌ ولا سُوقَةٌ، وهو :

يُقَبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى وُرُودَ المثال الأشْرَفِ المَيْمُون طَائِرُه، المرْقُومِ علىٰ صَفَحَاتِ الأفلاك تَهَانِيه، المَحْمُول علىٰ مَتْنِ السَّحَابِ بَشَائِره، الشَّاهِدِ بالفَتْحِ المُبِينِ أَوَائِلُه وبالنَّصْرِ العَزِيزِ أَوَاخِرُه ؛ مُتَضَمِّنًا ما مَنَّ الله تعالىٰ به من جميل الصُّنْعِ الذى وَكَفَتْ بالخَيْرِ سَحَائِبُه، وخَفِىِّ اللُّطْفِ الذى بَهَرت العُقُولَ عَجَائِبُه ؛ بما منح الله تعالىٰ به مولانا أميرَ المؤمنين مدّ الله تعالىٰ علىٰ الإسلام وَارِفَ ظِلِّه، وأَنَام الأنَام بمَدّ رِوَاقِ

الإمامة المعظمة فى مِهادِ عَدْلِه ، ومكَّن له فى الأرض كما مكَّن لآبائه الخُلَفاءِ الراشدين من قَبلِه : من جُلُوسِه علىٰ سُدَّةِ الخلافة المُقدَّسة التى وُصِلَ مُنْقَطِع حديثها بإسناده ، وحازَمِنها بأشْرَفِ مَقْعَدٍ تُراثَ آبائه الكِرامِ وأجْدادِه ؛ وآبتسم ثَغْرُ الخلافة بعبَّاسِـه ، وتآنَسَ منها جانب الدِّينِ بعد الآستيحاش بإينَاسِه ؛ فقبَّلَ الملوكُ له الأرضَ خاضعا ، ولَبَّى أوامِـره الشَّريفةَ ضارعا ، وأجاب داعيَه بالآمتثال سَامِعًا طَائِعا ؛ وسَجَـدَ سُجُودَ الشُّكْرِ لذلك فعُرِفَ بسِــيماه ، وآنتسب إلىٰ الوَلاَءِ الشَّريفِ الإمامىِّ آنتساباً شاملاً لآسمه ومَعْناه ؛ وأعْلَمَ مَنْ قِبَلَهُ من الأمراء والأجناد بذلك فقابلوه بالآستبشار طُرًّا ، وتلقوها تَلَقِّيًا يليق بمثْلِها و إن كان لا مِثْل لهذه البُشْرىٰ ؛ وقُرِئَتْ المُطْلَقَاتُ الشريفة علىٰ المنابر فسَكَنَتِ الدَّهْماء وقَرَّتْ ، وسَرَتْ ألفاظُها إلىٰ الأسمـاع الشَّيِّقَةِ فسُرَّتْ ، وكُرِّرَتْ ألفاظُها العَذْبَةُ مِرارًا فحَلَتْ لدَىٰ النفوس إذ مَرَّت ؛ وآرتفعت الأصوات بالدعاء بَدوامِ هذه الدَّوْلَةِ النَّبوِيَّةِ دوَامًا لايَسْتَشْعِرُ مُسْتَشْعِرُ خِلاَفَه ، فحَقِيـقُ ظُهُورُ مُعْجِزَة أكْرَمِ مُرْسَـلٍ بعد الثمـانمـائة بقوله لعَمِّه العباس : " أَلَا أُبَشِّرُكَ ياعَمّ : بِ خُتِمَتِ النُّبُوَّةُ و بوَلَدِكَ تُخْتَمُ الخِلاَفَه " .

وهــذه نسخة جواب عن نائب طَرابُلُسَ عن مِثَـالٍ شريف ورد بوفاة السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » وآستقرارِ وَلَدِه السلطان الملك المنصور «أبى بكر» مكانه فى المُلْكِ بعَهْدٍ من أبيه . من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارىّ ، بعـد التَّعْزِيةِ بأبيه السلطان الملك الناصر، وهى :

ويُنْهِى وُرُودَ المرسوم الشريف شرَّفَه الله تعالىٰ وعظَّمَه ، يتضمن أمْرَ المُصابِ الذى كَادَتْ لوُقُوعه الأرْضُ تتزلزل بأهْلِها ، والعُقُول تَتَزيَّلُ عن مَحِلِّها ، وبلَغت القُلُوبُ

الحَنَاجِر، وآستوحَشَتِ القُصورُ وآستأنست المَقَابِر، وتَصَدَّعَتْ له صُدُورُ السيوف ورُءوسُ المَنَابِر، وقَصَمَ الظُّهور، وشَيَّبَ السُّودَ من الشُّعور، وجَرَّعَ كُئُوسَه، وصَدَّعَ الحَوْزَةَ المحروسه؛ وذلك بماقدّر الله تعالىٰ من آنتقال مولانا السلطان السعيد، الشهيد، والدمولانا السلطان - خَلَّدَ الله مُلْكَه - إلىٰ رَحْمَتِه ورِضْوَانه: فأجرى المملوكُ عِوَضَ الدُّمُوعِ دَمًا، وأقام الإسلامُ والمسلمون عليه مَأْتَمًا، وتغير البَدْرُ المُنيرُ لفَقْده فأمسىٰ مُظْلِمًا؛ ونَدَبَهُ الإسلام فى سائر مَحَارِيبِه ومُصَلَّاه، وأَسِفَ عليه البَيْتُ الحَرَامُ ورُكْنَاه ﴿إنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

لمَّا دخل النبيّ صلّى الله عليه وسَلَّم المدينة، أشرق منها ذَلك اليَوْمَ كُلُّ شَيْء، ويَوْمَ قُبِضَ أظلم منها كُلُّ شَيْء؛ وكان أبو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضى الله عنه أثْبَتَ النَّاسِ يوم وَفَاتِه صلّى الله عليه وسلَّم، وهو الخليفة من بَعْده؛ ومولانا السلطان الشهيد - قدّس الله رُوحه - كان مُتَشَرِّفًا بآسم نَبِيِّه، ومُتَبَرِّكًا فى ذُرِّيَّتِه الشريفة بذِكْرِ سَمِيِّه(١)؛ ولو ذَابَتِ المُهَجُ أَسَفًا عليه لَمَا أنْصَفَتْ، وقد أَسِفَتْ عليه الأُمَمُ بأسْرِهَا وحَقَّ لها أنْ أَسِفَت؛ نَبَتَتْ لُحُومُنَا من صَدَقَاته، وغَمَرَتِ المُلُوكَ والمَمَالِكَ مجزلاتُ هِبَاته؛ وما نُقِلَ من قَصْرِه إلَّا إلىٰ جَنَّاتِ النَّعِيم، وما فَارَقَ مُلْكَه إلا وبَاتَ فى جِوَارِ اللّهِ الكَرِيم؛ وكان سُلْطَانَنَا وهو اليوم عند الله سُلْطَان، فسقىٰ الله عَهْدَهُ صَوْبَ الرَّحْمَةِ والرِّضْوَان.

وبحمد الله قد جُبِرَت القُلُوبُ المُنْصَدِعَةُ بجلوس مولانا السلطان - خَلَّد الله مُلْكَه - علىٰ تَخْتِ السَّلْطَنَة المعظمة والله مَعَه، وماجَلَس علىٰ كُرْسِيّ الملك إلا أهْلُه، ولا قام بأمْرِ المسلمين إلا مَنْ عُلِمَ فَضْلُه؛ ومولانا السلطان وَارِثُ المُلْكِ الناصريّ المنصور

(١) أى أبى بكر.

حقًّا ، والقائمُ بشأنِ السلطنة غَرْبًا وشَرْقًا ؛ وخُلاصةُ هذا البَيْتِ الشريف زاده الله نَصْرا ، وأدام مُلْكَهُ دوامًا مُسْتمِرًّا ؛ والعُيُون الباكية قد قرَّتِ الآن بهـذه البُشْرىٰ ، والقُلُوبُ الثّاكلةُ قد مُلِئَتْ بَهْجةً : ﴿إِنَّ مَعَ العُسْرِ يُسْرا﴾ وٱستَقَرّ الإسلام بعد قَلَقِه ، ونَامَ علىٰ جَفْنِه بعد أَرَقِه ؛ وٱستقبلت الأُمّة عامًا جديدا ، وسلطانا مَنْصُوراً سَعيدا ؛ وٱستبشرت القِبْلَتَان ، وتَنَاجىٰ بالمَسَرَّة الثَّقَلان ؛ والَّذِين كفروا أَمْسَوْا خائِبِين ، والَّذين آمنوا أَضْحَوْا فَرِحين ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ومَوْلانا السلطان هو العَرِيقُ فى سلطنة الإســلام ، والإمَامُ الأعظم ٱبن الإمام ؛ خَلَّد الله مُلْكه مادامَتِ الأيام ، وأحسن عَزاءَهُ فى خَيْرِ سلطان الأنام ؛ وٱبتهلت الألسنة بالتَّرَحُّم علىٰ مولانا السلطان الشهيد ـ قَدَّسَ اللهُ رُوحَه ـ بدُمُوعٍ سائله ، وقُلُوبٍ موجوعة بجِرَاحَاتِ النِّيَاحَاتِ ثم عُوِّضُوا بالمَسَرَّاتِ الكامِلَه ؛ والدعاء مرفوع لمولانا السلطان ـ خَلَّد الله مُلْكه ـ بَرًّا وبَحْرا ، والبِـلاد مُطْمَئِنَّةٌ والعساكر علىٰ مايَجِبُ من التَّمَسُّـكِ بالطاعة الشريفة ، والتشريف بإقبال دَوْلَةِ سلطانهم ، ووارث سلطانهم ؛ وكان المملوك يَوَدُّ لو شاهد مولانا السلطان ـ خَلَّدَ اللهُ مُلْكه ـ علىٰ ذلك السَّرِيرِ والمِنْبَر ، وقَبَّلَ الأرْضَ بين يَدَيِ المَوَاقِفِ المُعَظَّمَة والمَقَامِ الأكْبَر ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة جَوَابٍ عن وُرُودِ المثال الشريف برُكُوبِ السلطان بالمَيْدَان ، والإذن للنوّاب فى لِعْبِ الكُرَة ، وهى :

ويُنْهِى وُرُودَ المثال الشريف شَرَّفَه الله تعالىٰ وعَظَّمَهُ ، يتضمن الصَّـدَقَةَ التى أجْرَتْ أَوْلِيَاءَها علىٰ أجمل عادةٍ من الاحْتِفَال ، والمَرَاحِمَ الشاملةَ التى وَسَّعَتْ لهم كَرَمَها سافرةً عن أَوْجُه الإقبال ، والبُشْرىٰ التى جَمَعَتْ من أنواع المَسَرَّاتِ ما بلغتـه

الآمال ؛ وهو أنَّ الرِّكَابَ الشريف ٱسْتَقَلَّ إلىٰ المَيْدَانِ السعيد نَهَار السَّبْتِ فى كذا من شهر كذا : فى أسْعَدِ طَالِـع ، وأيْمَنِ وَقْتٍ مُطَاوِع ؛ وفى الخِدْمَةِ الشريفة من الأمراء - كَثَّرَهُم الله تعـالىٰ - مَنْ جَرَت العادة بهـم من كُلِّ كَمِيٍّ مُقَنَّع ، قد لبس من الطاعة بُرْدًا وبالإخلاص تَدَرَّع ؛ وٱمْتَطىٰ من فَائِضِ الصَّدَقاتِ الشريفة صَهْوَةَ سَابِقٍ قَدْ شَمَّر للسَّبْقِ ذَيْلا ، وفَرَّ كَبَرْقٍ لَمَعَ لَيْلا .

وأَنَّ مولانا السلطان - خلَّد اللهُ مُلْكَه - طلع عليهم طُلُوعَ البَدْرِ عنـد الكَمَال ، وحَوْلَه المَمـاليك الشريفة كالأنْجُم الزاهرة التى لا تُعَدُّ ولا تُشَبَّهُ بمِثَال ؛ والجِيَادُ لا يُرىٰ لها أَثَرٌ من الرَّكْض ، والكُرَةُ تتشرَّف بالصَّوْلَجَانِ كما تَتَشَرَّفُ بالتقبيل الأرض ؛ وعاد الرِّكَابُ الشريف - زاده الله شَرَفًا وعَظَّمَه - إلى القَلْعَةِ المنصورة ، إلى مَحَلِّ المملكة الشريفه ، وفى دست السلطنة المُعَظَّمَه ؛ محفوفا من الله تعـالى بلُطْفِه ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وِمِنْ خَلْفِه﴾ .

وما ٱقْتَضَتْه الآراء الشريفه ، والمَرَاحِمُ المُطِيفَه ؛ وآثرتْ به إعلامَ المملوك بذلك ، والمرسوم الشريف - شَرَّفَه الله تعـالى وعَظَّمَه - أن يتقدّمَ المملوكُ بالنُّزُولِ إلىٰ مَيْدَانِ فُلانَةَ المحروسة ، ومعه مماليك مولانا السُّلْطَان - خَلَّدَ الله تعالىٰ مُلْكَه - والأمراء ؛ فقابل المملوكُ هذه الصَّدَقَات ، بتَقْبِيلِ الأرض ورَفْعِ الدَّعَوَات ؛ وجمعوا بين الكُرَة والصَّوْلَجَان ، وحصـل لهم من المَسَرَّاتِ مالا يَحْصُرُه بيَان ؛ وٱنبَسَطَتْ نفوسُهم إذ أصبحوا فى أمْنٍ وأَمَان ، وٱبتهلوا إلىٰ الله تعالىٰ بدوام هذه الأيام التى نَوَّعَتْهُم بأنواع الإحسان ، وضَجُّوا بالأدْعِيَةِ لمولانا السلطان - خَلَّدَ الله مُلْكَه - التى عَمَّتْ مَوَاهِبُه وفاق بمَكَارِمِه المَـاضِين ، وأرْبىٰ علىٰ سَلَفِه الشريف بالعَطَاءِ والتَّمْكِين ، جعل الله أعْدَاءَه تَحْتَ قَهْرِه إلىٰ يوم الدِّين ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة جواب بوَفَاءِ النِّيل المُبَارَك، كتب به عن نائب طَرَابُلُس، وهى :

ويُنْهِى وُرُودَ المثـال الشريف ـ شَرَّفَه الله تعالىٰ وعَظَّمه ـ الذى أشرقت أنوارُ تَهَانيه، وتألَّقَتْ بُرُوقُ ألفاظه ومَعَانيه، فبَشَّرَتْ بفَيْض فَضْل الرَّحْمه، وعموم الرعايا بتَوَاتُرِ عَمِـيم النِّعْمه، ووَفَاءِ النِّيلِ المبارك الذى ما بَرِحَ فى هـذه الأيام الزاهرة يَفِى بعَهْده، ويَسُلُّ سَيْفَ الخصْبِ من غِمْده، ويَقْتُلُ المَحْلَ بحُمْرَةِ مَتْنِه وجَوْهَرِ حَدِّه؛ مُهَنِّئًا للأولياء بهذه الدَّوْلَةِ التى أصبحت قُلُوبُهم مُطْمَئِنَّةً بالأَمْنِ والرَّخَاء، مَسْرُورَةً بمـا مَنَّ الله به من تَرَادُفِ الآلاء وعُمُوم النَّعْماء، وحَالَ ماورد المرسوم الشريف ـ شَرَّفه الله تعالىٰ وعَظَّمه ـ بادَرَ المملوك إلى آمتثال المَرْسُومِ الشريف بتقبيل الأرض والسَّمْع والطَّاعة، وأَخَذَ كُلٌّ حَظَّهُ من هذه البُشْرىٰ، التى عَمَّتْ تَهَانِيهَا بَرًّا وبَحْرًا؛ وجَعَلَتْ أُمُورَ هـذه الأمة بِيُمْنِ بَرَكَةِ هـذه الأيام الشريفة بعد عُسْرٍ يُسْرا؛ وقد عاد فلان البَرِيدِىُّ ومَنْ معه إلىٰ الأبواب الشريفة بالجواب الشريف، طالع بذلك إن شاء الله تعالىٰ .

آخر فى المعنىٰ :

ويُنْهِى ورود المثال الشريف زاده الله عُلُوًّا وشَرَفا، وبَيَّضَ له فى القِيَامَة صُحُفا؛ يتضمَّن أنْواعَ الإنعام الجزيل، وإبْدَاءَ آثار السُّرُور بمـا يَسَّرَ اللهُ من وَفَاءِ النِّيـل؛ فأشْرَقَتْ أنْوَارُ تَهانيه، وتَأَلَّقَتْ بُرُوقُ ألفاظه ومَعَانيه؛ فبَشَّرَ بفَيْض فَضْل الرَّحْمَه، وعموم الرعايا بتَوَاتُرِ عموم النِّعْمَه؛ إذ جاء مُحَيَّاهُ فى هذا العام طَلْقًا، وسَلَكَ فى عوائد البِرِّ والإحسان طُرُقَا؛ وآذن ببلوغ المَرَامِ والمُرَاد، وكُسِرَ سَـدُّ خَلِيجِهِ جَبْرًا للعبـاد

والبلاد ؛ حيث ملأ الأرض رِيًّا ، وأهْدَى من نَفَحاتِ الأمْنِ والمنِّ رَيَّا ؛ والمرسوم الشريف ـ شرَّفه الله وعظَّمه ـ بأن لا يُجْبَى على ذلك حَقُّ بِشَارَه، ولا يُتَعرّض إلى أحَدٍ بخَسَارَه؛ فقابل المملوكُ المثالَ الشريفَ والمرْسُومَ الشريفَ بتقبيـل الأرض والسَّمْع والطَّاعَة، وبَادَرَ المملوكُ إلى إذاعَةِ هذه البُشْرى، التى عمَّتْ تَهَانِيها بَرًّا وبَحْرا، وجعلت أُمُورَ هذه الأمَّة بِيُمْنِ بَرَكَةِ هذه الأيام الشريفة بعد عُسْرٍ يُسْرا ؛ وآستنطق الألْسِنَةَ بالدُّعاء لهذه الدَّوْلَةِ القاهره، وجَلَا وتَلَا صُوَرَ الهَنَاءِ وسُوَرَ الآلاءِ بهذه النِّعْمَة الوَافِيَة والمِنَّةِ الوَافِرَه ؛ وسأل الله تعالى أن يُخَلِّد مُلْكَ مولانا السلطان، ويُوَالِيَ أنْبَاءَ البشائر فى أيَّامه الشريفة مَرْوِيَّةً بالأسانيد الحِسَان؛ وقد عاد فلان البريدىّ بالأبواب الشريفة ـ شرَّفها الله تعالى وعَظَّمها ـ بهذا الجواب الشريف، وقد عَايَنَ آبْتِهَالَ أهْل هذه المملكة الفُلَانية بالدعاء بدوام هذه الأيام الزَّاهِرَة السَّارّة بهـذه البشائر بخلوّها من الكُلَفِ والخَسَارَة، طالع بذلك . إن شاء الله تعالى .

وهـذه نسخة جَوَابٍ عن مثـال شريف بوُصُول فَرَس إنعـام ، كُتِبَ به عن نائب طَرَابُلُس، وهى :

يُقَبِّلُ الأرضَ ويُنْهِي وُرُودَ المرسوم الشريف أعلاه الله تعالى وشرَّفه ، يتضمن ما آقتضته الآراء الشريفةُ من الخَيْرِ التَّامّ، والإنعام العَامّ، والصَّدَقَة الوَافِيَـة الوافرة الأقسام؛ التى ما بَرِحَتْ مماليك هذه الدَّوْلَةِ الشريفة فى إنعامها العميم تَتَقَلَّب، والخَيْلُ السَّوَابِقُ بسعادتها الأبَدِيَّةِ تُجْلَبُ وتُجْنَبُ وتُرْكَب : من تجهيز الحِصَانِ البَرْقِيِّ بسَرْجِهِ ولِجَامِه وعُدَّته الكامله ، وشُمُولِ المملوك بالصَّدَقَات التى ما بَرِحَتْ مُتَرَادِفَةً مُتَواصله ، ولعَبْدِ هـذا البَيْت الشريف شَامله ؛ وقَبَّلَ المملوكُ الأرضَ وقَبَّـلَ حَوَافِرَه، وآعْتَدَّ

بهذه النِّعْمَة الباطنة والظَّاهِرَه، وأعدَّه ليومَىْ تجمُّلٍ وجِهاد، ولِقاءِ عَدُوٍّ وطِراد؛ والله تعالى يُخَلِّدُ هذه الصَّدَقاتِ الشريفةَ التى مابَرِحَتْ تشمل القَرِيبَ والبَعِيد، والمَوَالِىَ من أولياء هذه الدَّوْلَةِ الشريفة والعَبِيد؛ طالع بذلك، إن شاء الله تعالى.

وهــذه نسخة جَوَابٍ عن وُصُولِ خَيْل من الإنعام السُّلْطَانِىِّ، من إنشاء الشيخ شِهَابِ الدِّين محمود الحَلَبِىِّ.

ويُنْهِى وُصُولَ ماأنْعَمَ به من الخَيْـلِ التى وُجِدَ الخَيْرُ فى نواصِيها، وتُتَّخَذُ[(1)] صَهَوَاتُها حُصُونًا يُعْتَصَمُ فى الوَغَىٰ بصَيَاصِيها.

فمِنْ أشْهَبَ غطَّاهُ النَّهار بحُلَّتِه، وأوطأه اللَّيْلُ علىٰ أَهِلَّتِه؛ يتَموَّجُ أَدِيمُهُ رِيًّا، ويتأَرَّجُ رَيًّا، ويقول مَن ٱستَقْبَلَه فى حُلِىِّ لجَـامِه: هذا الفَجْرُ قد طلع بالثُّرَيَّا؛ إن ٱنفلت[(2)] فى المَضَايِقِ ٱنسَاب ٱنْسِيَابَ الأَيْم، وإن ٱنفرجت المَسَالِكُ مَرَّ مُرُورَ الغيم؛ كَمْ أبْصر فَارِسُه يَوْمًا أبيضَ بطَلْعَتِه، وكَمْ عايَنَ [طَرْفُ][(3)] السِّنَانِ مَقَاتِلَ العَدُوِّ فى ظلام النَّقْع بنُورِ أَشِعَّتِه؛ لايَسْتَنُّ دَاحِسٌ فى مِضْمَارِه، ولا تَطْمَعُ الغَبْرَاءُ فى شَقِّ غُبَارِه، ولا يَظْفَرُ لَاحِقٌ من لَحَاقِهِ بسوىٰ آثاره؛ تُسَابِقُ يداه مَرَامِىَ طَرْفِهِ، ويُدْرِكُ شَوَارِدَ البُرُوقِ ثانيًا من [عِطْفِه][(3)].

ومِنْ أَدْهَمَ حَالِكِ الأديم، حَالِى الشَّكِيم، له مُقْلَةُ غَانِيَـةٍ وسَالِفَةُ رِيم؛ قد ألبسه اللَّيْلُ بُرْدَه، وأطْلَعَ بين عَيْنَيْه سَعْدَه؛ يَظُنُّ مَنْ نَظَر إلىٰ سَوَادِ طُرَّتِه، وبَيَاضِ حُجُولِه

(1) فى "حسن التوسل" (ص ٩٩) «وٱدخرت».
(2) فى "حسن التوسل" (ص ٩٩) إن «ٱلتفَّت المضايق» وهى أوضح.
(3) بياض بالأصل والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩).

وغُرَّته ؛ أنه توهَّم النَّهارَ نهرًا فخاضه ، وألقىٰ بين عينيه نُقْطَةً من رَشَاش تلك المَخَاضه ؛ لَيِّنُ الأعطاف ، سَريعُ الانعطاف ؛ يُقبِلُ كالَّليْل ، ويمرُّ كجُلْمُودِ [صَخْرٍ](١) حطَّهُ السَّيل ؛ يكَادُ يَسْبِقُ ظِلَّه ، ومتىٰ جارىٰ السَّهْمَ إلىٰ غَرَضٍ بلَغَه قبْلَه .

ومِنْ أشْقَر : وَشَّاهُ البَرْقُ بلَهَبِه ، وغَشَّاهُ الأصيلُ بذَهَبِه ؛ يتَوجَّسُ(٢) مالدَيْه بدَقِيقتَيْن ، وينفُضُ وفْرَتَيْه عن عَقِيقتَيْن ، ويَنْزِلُ عِذَارُ لجَامِه من سَالِفَتَيْه علىٰ شَقِيقَتَيْن ؛ له من الرَّاح لَوْنُها ، ومن الرِّيَاح لِينُها ؛ إن جَرىٰ فبَرْقٌ خَفَق ، وإن أسْرَعَ فهِلَالٌ علىٰ شَفَق ؛ لو أدْرَكَ أوَائِل حَرْبِ بني وَائِلٍ لم يكن للوَجِيهِ وَجَاهَه ، ولا للنَّعامَة نَباهَه ، ولَكَانَ تَرْكُ إغارة [سَكَابِ لُؤْمًا وتحريمُ بَيْعِها سفاهه](٣) يرْكُضُ ماوجَدَ أرْضًا ، وإذا اعترض به راكِبُه بَحْرًا وَثَبَ عَرْضَا .

ومِنْ كُمَيْتٍ نَهْد ، كأنَّ راكِبَه فى مَهْد ؛ عَنْدَمِيِّ الإهَاب ، شَمَالِيِّ الذَّهَاب ؛ يَزِلُّ [الغلام](٤) الخِفُّ عن صَهَوَاتِه ، وكأنَّ نَغَمَ الغرِيض ومَعْبَدٍ(٥) فى لَهَوَاتِه ؛ قَصِيرِ المَطَا ، فَسِيحِ(٦) الخُطَا ؛ إن رُكِبَ لصَيْدٍ قَيَّدَ الأوَابِد ، وأعْجَلَ عن الوُثُوبِ الوَحْشَ اللَّوابِد ؛ وإن جُنِّبَ إلىٰ حَرْبٍ لم يَزْوَرَّ من وَقْعِ القَنَا بلَبَانه ، ولم يَشْكُ لو عَلِمَ الكَلَامَ بلِسَانه ، ولم يُرْدُون بُلُوغ الغاية ـ وهى ظَفَرُ راكِبه ـ ثانِيًا من عِنَانه ؛ وإن سار فى سَهْلٍ اختَالَ بصَاحِبِه كالثَّمِل ، وإن أصْعَدَ فى جَبَلٍ طار فى عِقَابِه كالعُقَاب وانْحَطَّ فى مجَارِيه

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" (ص ٩٩) .

(٢) فى "حسن التوسل" «يتوخش» .

(٣) بياض بالأصل ، والتصحيح من "حسن التوسل" .

(٤) الزيادة عن "حسن التوسل" .

(٥) فى الأصل «ومقبل» والتصحيح عن "حسن التوسل" .

(٦) فى الأصل «سريع» والتصحيح عن " « " .

كالْوعِل ؛ متىٰ ما تَرقّ العَيْنُ فيـه تَسهَّل ، ومتىٰ أراد البَرْقُ مُجارَاتَه قال له الوُقُوفُ عند قَدْرِهِ : ماأنْتَ هُناكَ فتمهَّل .

ومن حَبَشِيّ أصْـفَرَ يَروقُ العَيْن ، ويَشُوقُ القَلْبَ(١) بمشابهته الْعَين ؛ كأن الشَّمْس ألْقَتْ عليه من أشِعَّتِها جِلالًا ، وكأنَّه نَفَرَ من الدُّجىٰ فٱعْتَنَق منه عُرْفًا وٱعْتَلَق أحْجَالًا ؛ ذى كَفَلٍ يَزِينُ سَرْجَه ، وذَيْلٍ يَسُدُّ إذا ٱستدبرته منـه فَرْجَه ؛ قد أطْلَعَتْه الرِّيَاضَةُ علىٰ مُرَادِ فَارِسه ، وأغناه نُضَارُ لَوْنِه ونَضَارَتُه عن ترصيع قَلَائِده وتَوْشِيع مَلَابِسِه ؛ له من البَرْقِ خِفَّةُ وَطْئِـه وخَطْفُه ، ومن النَّسِيم لِينُ مُرُوره(٢) ولُطْفُه ، ومن الرِّيح هَزِيزُها إذا ما جَرىٰ شَأْوَيْنِ وٱبْتَـلَّ عِطْفُه ؛ يطير بالغَمْز ، ويُدْرِكُ بالرِّيَاضَةِ مَواقِع الرَّمْز ، ويَعْدُو كألِف الوَصْلِ فى ٱستغناء مِثْلِها عن الهَمْز .

ومِنْ أخْضَرَ حَكَاهُ من الرَّوْضِ تَفْوِيفُه ، ومن الوَشْيِ تَقْسِيمُه وتَأْلِيفُه ؛ قد كَسَاهُ النَّهَارُ واللَّيْلُ حُلَّتَيْ وَقَارٍ وسَنًا ، وٱجتمع فيه من السَّوادِ والبَيَاض ضِدَّانِ لَمَّا ٱسْتَجْمعا حَسُنَا ، ومنَحهُ البَازِى حُلَّةَ وَشْيِه ، ونَحلَتْه الرِّيَاحُ ونَعَامُها قُوَّةَ رَكْضِه وخِفَّةَ مَشْيِه ؛ يُعْطِيكَ أَفَانِينَ الْجَرْى قبل سؤاله ، ولَمَّـا لم يُسَابِقْهُ شَىْءٌ من الخَيْلِ أغراه حُبُّ الظَّفَرِ بمُسابَقةِ خَيَالِه ؛ كأنه [تَفارِيقُ](٣) شَيْبٍ فى سَوَادِ عِذَار ، أو طَلَائِـعُ فَجْر خالط بَيَاضُه الدُّجىٰ ، فما سَجىٰ ، ومَازَجَ ظَلَامُه النهار ، فما أنار ؛ يَخْتَالُ لمشاركة ٱسم الجَرْي بينه وبين المَـاءِ فى السَّيْرِ كالسَّيْل ، ويُدِلُّ بسَبْقه علىٰ المعنى المُشْتَرِكِ بين البُرُوقِ اللَّوامع

(١) فى الأصل « العين » والتصحيح عن ''حسن التوسل'' .

(٢) فى الأصل «طروقه» والتصحيح عن '' « '' .

(٣) الزيادة عن ''حسن التوسل'' .

وبين البَرْقِيَّة من الخَيْل ؛ ويكذب [المَانَوِيَّة][1] لتولُّد اليُمْن فيه بين إضاءة النَّهار وظُلْمَة اللَّيْل .

ومِنْ أَبْلَقَ ظَهْرُه حَرَم ، وجَرْيُه ضَرَم ؛ إن قصد غايةً فوجود الفضاء بينه وبينها عَدَم ، وإن صُرِّف فى حَرْبٍ فعَمَلُه ما يشاء البَنَانُ والعِنَانُ وفِعْلُه ما تُرِيد الكَفُّ والقَدَم ؛ قد طابق الحُسْنُ البَدِيعُ بين ضِدَّىْ لَوْنِه ، ودَلَّتْ على اجتماع النَّقِيضَيْنِ عِلَّةُ كَوْنِه ؛ وأشبه زَمَنَ الرَّبِيع باعتدال اللَّيْلِ فيه والنَّهار ، وأخذ وَصْفَ حُلَّتَى الدُّجَى فى حَالَتَيِ الإبدار والسِّرار ؛ لا تَكِلُّ مَنَاكِبُه ، ولا يَضِلُّ فى حَجَرات الجُيُوش رَاكِبُه ، ولا يحتاج لَيْلُه المُشْرِقُ بمجاورة نَهارِه إلى أن تسترسلَ فيه كَوَاكِبُه ؛ ولا يُجَارِيه الخَيَالُ فَضْلًا عن الخَيْل ، ولا يَمَلُّ السُّرى إلا إذا مَلَّه مُشْبِهَاه : النَّهَارُ واللَّيْل ؛ ولا تَتَمَسَّكُ البُرُوق اللَّوَامعُ من لَحَاقه بسِوى الأَثَرِ فإن جهدت فبالذَّيْل ؛ فهو الأَبْلَقُ الفَرْد ، والجَوَادُ الذى لمُحَارِبِه العَكْسُ وله الطَّرْد ؛ قد أغنَتْه شُهْرَةُ نَوْعِهِ فى جِنْسِه عن الأوصاف ، وعدَلَ بالرِّياح عن مُبَارَاتِه لسُلُوكِها له فى الاعْتِراف جادَّة الإنصاف .

فترَقَّى الملوكُ إلى رُتَبِ العِزِّ من ظُهُورِها ، وأعدَّها لخِطْبَة الجِنَانِ إذ الجِهَادُ عليها من أنْفَس مُهُورِها ؛ وكَلِف برُكُوبِها فكُلَّما أكمله عاد ، وكلما أَمَلَّه شَرَهَ إليه فلو أنَّه زَيْدُ الخَيْلِ[2] لَمَا زاد ؛ ورأى من آدابِها مادَلَّ على أنها من أكْرَم الأصَائِل ، وعَلِم أنَّها لِيَوْمى سِلْمِه وحَرْبِه جُنَّةُ الصَّائِدِ وجُنَّةُ الصَّائِل[3] ؛ وقابَلَ إحْسَانَ مُهْدِيها[4] بثنائه ودُعَائه ،

(١) بياض بالاصل ، والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) كذا فى "حسن التوسل" وفى الأصل «زبد البحر والخيل» .

(٣) كذا فى "حسن التوسل" وفى الاصل «جنة للصائل وجنة للصائل» .

(٤) فى الأصل «الصدقات الشريفة» والتصحيح عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

وأعَدَّهَا فى الجِهَادِ لمُقَـارَعَةِ أعداء الله وأعدائه [والله تعـالىٰ يَشْـكُرُ بِرَّهُ الذى أفرده فى النَّدىٰ بمَذَاهِبِه، وجَعَل الصَّافِنَاتِ الجِيَادَ من بعض مَوَاهبه] (١) .

المهيـــــــع الثـانى

(من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يُكْتَبُ به عن نُوَّاب السلطان والأتباع إلىٰ السلطان ٱبتـــداء)

وهو علىٰ أنواع كثيرة، نذكر منها ما يَسْتَضِيء به الكاتب فى مثله .

فمن ذلك ما يُكْتَبُ عن نائب كُلِّ مملكة إذا وصل إلىٰ مَحَلِّ وِلَايَته .

قد جرت العادة أن النائب إذا وصل إلىٰ مَمْلَكَتِه ومَقَرِّ وِلَايَتِه، كَتَب إلىٰ السُّلطان يُخْبِرُه بذلك وبما المملكة عليه .

وهذه نسخة مكاتبة من ذلك، كُتِبَ بها عن نائب حَلَبَ فى معنىٰ ذلك، وهى :

يُقَبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى أن المملوك وَصَلَ إلىٰ المملكة الفلانية المحروسه، وحَلَّ مَحَالَّها المَأْنُوسَه ؛ التى شَمِلَتْه الصَّدَقَاتُ الشريفة بكَفَالَتِها، وأَهَّلَتْـهُ المَرَاحِمُ المُنِيفَةُ لإيَالَتِها ؛ رَافِلًا فى حُلَلِ الإنعـام الشريف، مُتَفَيِّئًا ظِلَّ العِزِّ الوَرِيف ؛ صُحْبَةَ فُلَان مُسَفِّرِه، ودخلها يوم كذا من شهر كذا لَابِسًا تَشْرِيفَه الشريف المُنْعَمَ به عَلَيْه، مَاشِيًا لِمَحَلِّ الكَرَامَةِ الذى سار إليـه ؛ [بحضور مَنْ جَرت العـادة بحُضُوره] (٢) من قُضَاةِ القُضَاةِ والأمراء والحُجَّـاب، والعَسَاكِرِ المنصورة والأَصْحاب ؛ علىٰ أَجْمَـل العوائد، وأكمل

---

(١) الزيادة عن "حسن التوسل" (ص ١٠٠) .

(٢) الزيادة مأخوذة من نسخة الكتاب التالية وهى من سقط الناسخ .

القَوَاعِد؛ وقَبَّلَ الأرضَ ببَابِ القَلْعَة المنصوره، ودخل دَارَ العَدْلِ الشريف وَقُطُوفُ الأَمَانِيِّ له مَهْصُورَه؛ وقُرِئَ بها بحَضْرَةِ أولياء الدَّوْلَة تَقْلِيدُه، وعَظَّمَ المَرَاسِمَ الشريفةَ تَأْيِيدُه؛ وتَصَدَّى لِمَا نَصَبَتْه له المراسم الشريفة من إنْصَافِ المظلوم، وتَنْفِيذِ كُلِّ مُهِمٍّ شريفٍ ومَرْسُوم؛ وتَصَفَّحَ أَحوالَ المملكه، وسَلَكَ كُلُّ أحدٍ مَسْلَكَه؛ وٱسْتُجْلِبَت الأدعيةُ لمولانا السلطان، وٱجتهد فى حِيَاطَة البلاد مِمَّن يمدّ إليه شَيْطَانُ المُفْسِدين بأشْطَان؛ وٱنتظم له أمر المملكة بالمَهَابَةِ الشريفة أَحْسَنَ ٱنتظام، وبلغ به كُلُّ وَلِيٍّ من قَهْرِ العَدُوِّ غايَةَ المَرَام؛ وقد أعاد المَمْلُوكُ فلاناً مُسَفِّرَه إلىٰ خِدْمَة الأبواب الشريفة مُزَاحَ الأعذار، مُبَلَّغَ الأوطار؛ علىٰ العادة ـ طالع بذلك ـ ولا زال منه مَزِيدُ الشَّرَفِ والعُلُوِّ، إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه نسخة كتاب فى المعنىٰ إلىٰ الأبواب السلطانية عن نائب طَرَابُلُس، وهى :

يُقَبِّلُ الأرضَ وينهى أنَّه وصَلَ إلىٰ طَرَابُلُسَ المَحْرُوسَةِ مَغْمُورًا بالصَّدَقَات الشريفه، والإنعامات المُطِيفَه؛ صُحْبَةَ مملوك مولانا السلطان فلان خَلَّدَ اللهُ تعالىٰ مُلْكه، وأُلْبِسَ تَشْرِيفَه الشَّرِيف، وقُرِئَ تقليدُه الشريفُ بدار العَدْلِ، وقَبَّلَ الأرضَ مِرَارًا علىٰ العادة. وتقدّم المملوكُ بالحَلِفِ الشَّرِيف علىٰ النُّسْخَة المُجَهَّزَة صُحْبَةَ المُشَار إليه من الأبواب الشريفة عظَّمَها الله تعالىٰ؛ بحُضُورِ مَنْ جَرَت العادة بحُضُورِه : من قُضَاةِ القُضَاة والأمراء، وكَتَبَ خَطَّه عليها؛ وٱنتصب المَمْلُوك لخَلَاصِ الحقوق، وإزالة المَظَالم؛ ونَشْرِ لِوَاءِ العَدْلِ الشريف، ليَنْتَصِفَ المَشْرُوفُ من الشريف، ويَنْزَجِرَ القَوِيُّ عن الضَّعِيف؛ وٱتِّبَاعِ الحَقِّ فى القَضَايَا، وٱستجلاب الأدعية بدوام هذه الدَّوْلَة العادلة من الرَّعَايا؛ ورَتَّبَ أمور الآزاك المنصورة علىٰ أَكْمَلِ عادةٍ وأَجْمَل

قاعدة، وقد عاد فلان إلىٰ الأبواب الشريفة، شرَّفها الله تعالىٰ وعظَّمها، ليُنْهِىَ بين يَدَى الأيادى المُعَظَّمَة ماعَايَنَه من المملوك من إخْلاَصِه فى الطاعة الشريفة ومُغَالاَتِه. طالع بذلك. إن شاء الله تعالىٰ.

ومن ذلك مايكتب به فى التَّهْنِئَةِ بالخِلاَفة :

أما التهنئة بالخلافة، فقد قال فى "مَوادّ البيان" : من الأَدَبِ المُسْتَفِيض تَرْفِيهُ الخلفاء عن الهَنَاءِ والعزَاءِ، إكْبَارًا لهم وتعظيما. إلا أنَّنا رأينا ذَوِى الأخْطَار من القُدَماءِ قد شَافَهُوهُم بالعَزَاءِ مُسَلِّين، وبالهَنَاءِ دَاعِين؛ ورُبَّمــا دُفِعَ الكاتبُ إلىٰ صُحْبَةِ رئيس يَقْتَضِى مَحَلُّه أن يُهَنِّئَ الخليفــةَ بمتجدِّد النِّعَم لَدَيه، ويُعَزِّيَه لمتطرِّق النوائب إليــه؛ فاحْتِيجَ إلىٰ أن يُرْسَم فى هَنَاءِ الخُلَفَاءِ وعَزَائِهم ما يُحْتَذىٰ عليــه، عند الحاجة إلىٰ آستعمال مِثْله.

وهذه نسخة تَهْنِئَةٍ بالخلافة، أوْرَدَها فى "مَوَادِّ البيان" وهى :

أوْلىٰ النِّعَم - خَلَّدَ اللهُ مُلْكَ مولانا أميرِ المؤمنين - بأن تَنْطِقَ بها أَلْسُنُ الذَّاكِرِين يَضُوعُ عِطْرُها، وتَتَنَاقَلَها أفْوَاهُ الشَّاكِرِين يَفُوحُ نَشْرُها - نعمةُ إيلاَئِه فى خِلاَفَتِــه التى جعلهــا ذُخْرًا للأنام، وعِصْمَةً للإسلام، وحَاجِزًا بين الحَلاَل والحَرَام؛ وقِوَامًا للائتلاف والآتِّفَــاق، وزِمَامًا عن الآختلاف والآفتراق؛ ونِظَامًا لصَلاَحِ الخَاصَّــة والعــامه، وسبيلا إلىٰ آجْتِمَاعِ الكَلِمَة وسُكُون الأمه؛ وسَبَبًا لحَقْنِ الدِّمَاء، ودَعَةِ الدَّهْمَاء، ومُجَاهَدَة الأعداء؛ وإقامة الصَّلَوَات، وإيتاء الزَّكَوَات؛ والعَمَلِ بالفرائض والسُّنَن، وحَسْمِ البِدَعِ والفِتَن؛ وعَدْقِها بالأخْيَار ورَثَةِ نَبِيِّه وعِتْرَتِه، والأبرار الطَّهَرَةِ من أَرُومَةِ رسوله وشَجَرَتِه؛ الّذين نَصَبَهم دُعَاةً إلى طاعته، وهُدَاةً لبَرِيَّتِه، وأعلامًا لشريعتــه؛ يأمرون بالمعروف ويَأْتَمِرُون، ويَنْهَوْنَ عن المُنْكَر ويَنْتَهُون، ويَقْضُونَ

بالحقّ وبه يعدلون ، وكلّما لحق منهم سلف بمقرّ أوليّته ، أقام خلفاً يختصّه بانتخابه وتكرمته .

والحمد لله الذى قصر خلافته على أمير المؤمنين وآبائه ، وجعل منهم الماضىَ الّذى كانت مفوّضةً إليه ، والآتىَ الّذى أقرّت عليه ، وأنجز لهم ماوعدهم من إبقاء الإمامه ، فى عقبهم إلى يوم القيامه ، وآستخلص لها فى عصرنا هذا وليّها الحامىَ لحقيقتها ، المرامىَ عن حوزتها ، المعزّ لكلمتها ، الرّافع لرايتها ، المجدّد لحدودها ، الحافظ لعقودها ، وسلّم قوسًا منه إلى باريها ، وناطها بكفئها وكافيها ، وأفضى إليه بشرف الولادة والأبوّه ، وميراث الإمامة والنّبوّه ، وألّف به بين القلوب الآبيه ، وجمع عليه النفوس النّائيه ، وآتّفقت الآراء بعد تباينها وتنافيها ، وتطابقت الأهواء على آختلافها وتعاديها ، وآستدّت ثلمة الدّين بعد آنثغارها ، وآطمأنّت الدّهماء بعد نفارها ، حمدًا يكون لنعمته كفاء ، ولموهبته جزاء .

وخلافة الله وإن كانت الغاية التى لاتنزع الهمم إليها ، ولا تتطلّع الأمانى عليها : لآختصاص الله بها صفوته من بريّته ، وخالصته من أهل بيت نبيّه وعترته ؛ فإنّ أمير المؤمنين يتعاظم عن تهنئته بوصولها إليه ، وسبوغ ملابسها عليه ؛ إذ لايسوغ أن يهنّأ بإدراك ما كتب الله له أن يدركه بأقلام الأقدار ، على صفحات اللّيل والنّهار ؛ والعبد يسأل الله تعالى ضارعًا إليه فى إنهاض أمير المؤمنين بما حمّله وكلّفه ، وتوفيقه فيما كفّله وآستخلفه ، وأن يمكّن له فى الأرض ، ويعلى يده بالبسط والقبض ، ويمدّه بعزّ السلطان ، وعلوّ الشّان ، وظهور الأولياء ، وثبور الأعداء ، وإعزاز الدّين ، وآبتزاز الملحدين ، وتقوية يده فى نصرة الإسلام ، وسياسة الأنام ، ويعرّف رعيّته من يمن دولته ، وسعادة ولايته ، مايجمعهم على الطاعة والموافقه ، ويعصمهم من المعصية والمفارقه ،

*

ويُوَفِّقهم من الإخلاص فى مُوَالَاته، لمـا يُوَفِّرُ حَظَّهم من مَرْضَاته؛ ويَجْعَل وِلَايَته هذه مقرونةً بٱنفساح المُدَّة والأجَل، وبُلُوغِ المُنىٰ والأَمَل، وصَالِح القَوْلِ والعَمَل؛ ويُبَلِّغَه فى مملكته ودَوْلَتِه أفْضَل ما بَلَّغه خَلِيفَةً منْ خلفائه، وَوَلِيًّا من أوليائه .

ومن ذلك ما يكتب فى البِشَارة بالفُتُوح .

قد جرت العـادة أن السلطان إذا وجه جيشا لِفَتْح قَلْعَـةٍ أو قُطْرٍ من الأقطـار وحصل الفَتْحُ علىٰ يديه أن يكتب إلىٰ السـلطان مُبَشِّرًا بذلك الفَتْحِ، مُنَوِّهًا بقَدْره، معظما لأمره؛ وما كان فيه: من عزيز النَّصْر وقوة الظَّفَر .

[فمن مكاتبة فى البشارة بفتح حِصْنِ المَرْقَب، وهى] (١) :

قد أسـفر عن الفَتْحِ المُبِينِ صَبَاحُه، والتَّأْيِيـد وقد طَارَ بِه مُحَلِّقُ التباشـير نَخفَقَ فى الخَافِقَيْنِ جَنَاحُه؛ والإسـلام وقد وَطِئَ هَامَةَ الكُفْرِ بقَدَمه، والدِّينِ وقد عَزَّ بفَتَكَاتِ سَيْفِهِ المَنْصُورِ فأَنِفَ أن يكونَ الشِّرْكُ من خَدَمه؛ والأفلاكِ وقد علمت أنَّه لهـذا الفَتْحِ القريب كان ٱجْتِمَاعُ كَوَاكِبِهـا، والأملاكِ وقد نَزَلَتْ لتَشْهَدَ أَحْمَدَ النُّصْرَةِ البَـدْرِيَّة فى صُفُوفها ومَوَاكِبِها؛ وحِصْنِ المَرْقَبِ وقد أَلْقَتْ عليه المِلَّةُ الإِسلامية أَشِعَّةَ سَعْدِهَا، وأنْجَزَتْ له الأيام من الشَّرَف بها آمَالَهُ بعد ماطال ٱنتظارُه لوَعْدِهَا، وأمْتَنَه الأقدارُ التى ذَلَّلَتْه للإسلام أن تَطَاوَلَ إليه الحَوَادِثُ من بعـدها؛ وقد أحاطت العُلُوم بأن هـذا الحِصْنَ طَالمَـا شَحَّت الأحْلَام، أن تُخَيِّلَ فَتْحَهُ لمَنْ سَلَفَ من الأنام؛ فما حَدَّثَتِ الملوكُ أنْفُسَها بقَصْدِه إلا وَثَنَاها الخَجَل، ولاخَطَبَتْه ببَذْلِ

(١) لم يذكر المؤلف عنوانا لهـذه المكاتبة، فذكرنا عنوانها بحسب ما يقتضيه المقام ليلتئم الكلام . وقد بحثنا عن هـذه المكاتبة فى الكتب التى بأيدينا فلم نهتد إليها، غير أن الشيخ شهاب الدين محمودا الحلبى قد ذكر فقرات منها فى "حسن التوسل" (ص ١٠١) .

النفائس والنفوس إلا وكانت من الحرمان على ثقة ومن معاجلة الأجل وقته على وجل؛ وحوله من الجبال كل شامخ تتهيب عقاب الجو قطع عقابه، وتقف الرياح خدماً دون التوقل في هضابه؛ [وحوله من](١) الأودية خنادق لا تعلم منها الشهور إلا بأنصافها، ولا تعرف فيها الأهلة إلا بأوصافها؛ وهو مع ذلك قد تقرط بالنجوم، وتقرطق بالغيوم، وسما فرعه إلى السماء ورسا أصله في التخوم؛ تخال الشمس إذا علت أنها تتنقل في أبراجه، ويظن من سما إلى السها أنه ذبالة في سراجه؛ فكم من ذي جيوش قد مات بغصه، وذي سطوات أعمل الحيل فلم يفز من نظره على البعد بفرصه؛ لا يعلوه من مسمى الطير سوى نسر الفلك ومرزمه، ولا يرمق متبرجات أبراجه غير عين شمسه والمقل التي تطرف من أنجمه؛ وقد كان نصب عليه من المجانيق ما سهامه أنفذ من سهام الجفون، وخطراته أسرع من لحظات العيون؛ لا يخاطب إلا بوساطة رسله بضمير الطلاب، ولا يرى لسان سهمه إلا كما ترى خطفات البرق إذا تألق في علو السحاب؛ فنزلت عليه الجيوش نزول القضاء، وصدمته بهممها التي تستعير منها الصوارم سرعة المضاء وروعة الانتضاء؛ فنظرت منه حصناً قد زرر عليه الجو جيب غمامه، وافتر ثغره كلما جذب عنه البرق فاضل لثامه؛ فتذللت صعابه، وسهلت عقابه؛ وركزت للجنو بات(؟) في سفحه وطالما رامت الطير أدناه فلم تقو عليه القوادم، وكم همت العواصف بتنسم رباه فأصبحت مخلفة تبكي عليها الغمائم؛ فضرب بينها وبين الحصن بسور باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، ونصبت فوقه من الأسنة ثغور براقة الثنايا ولكنها غير عذاب؛ فعاد ذلك السفح مصفحاً بصفاحها،

(١) في الأصل «ففي الأودية» والتصحيح من "حسن التوسل".

مُشْرِقًا بأعلام أَسِنَّة رِمَاحِها، فأرْسَلَت إلىٰ أرْجَائِها مَاأَرْبىٰ علىٰ الغَمَائِمِ، وزاد فى نفحه (١) علىٰ التَّمَـائِمِ .

وكَانَ بِهَا مِثْلُ الجُنُونِ فَأَصْبَحَتْ * ومِنْ جُثَثِ القَتْلىٰ عَلَيْهَا تَمَائِمُ!

ونُصِبَتْ عليها المَجَانِيقُ فلم تَرْعَ حَقَّ جِنْسِها، وسَطَتْ عليها فأصْبَحَ غَدُها فى التَّحامُلِ أَبْعَدَ من أَمْسِها ، وٱستنهضتها العِدَا فأعْلَمَتْهم أنَّها لا تُطِيقُ الدِّفَاعَ عن غيرها بعد أن عَجَزَتْ عن نَفْسِها، وبسطت أنْفَهَا أَمَارَةً علىٰ الإذعان، ورَفَعتْ أصابِعَهَا : إما إجَابَةً أن تَذِلَّ للتَّشَهُّد وإما إنَابَةً إلىٰ طَلَب الأَمَان، نخاف العِدَا من ظُهُور هذا الآستظهار، وعَلِمُوا أن المَجَانيقَ فُحُولٌ لاتثبت لها الإنَاثُ التى عَرِيَتْ من النَّفْعِ بأيديهم ٱستعانوا عليهن مَعَ العِدَا بِطُولِ الجِدَار، فعند ذلك غَدَتْ تَكْمُنُ كُمُون الأسَاوِدِ وتَثِبُ وُثُوبَ الأسُود ، وتُبَارِى بها الحُصُونُ السَّمَاءَ فكُلَّما قَذَفَتْ هـذه بكواكبها النَّيِّرة قَذَفَ هذا بكَوَاكِبِه السُّـود، ولم يُكْسَرْ لهم مَنْجَنِيقٌ إلّا ونَصَبوا آخَرَ بمَكَانِه ، ولاقُطِعَتْ لأحَدٍ إصْبَعٌ إلاوصل الآخَرُ ببنَانِه، فظَلَّت تحارَبُ مِثْلَ الكُمَاه، وتَتَحامَلُ تَحَامُلَ الرُّماه، حتّٰى لَقِحَتْ وفَسَحَتْ للرِّضَا مجَالًا، ومَالَتْ ومِيلَ فيها وكذلك الحَرْبُ تكون سِجَالًا .

هذا والنُّقُوبُ قد دَبَّتْ فى باطنه دَبِيبَ السِّقَام ، وتَمَشَّتْ فى مَفَاصِـلِه كما تتمشّٰى فى مَفَاصِـلِ شَارِبِها المُدَام، وحَشَتْ أضالِعَه نَارًا تُشْبِهُ نَارَ الهَوىٰ : تُحْرِقُ الأحشاءَ ولا يَبْدُو لها ضِرَام، قد داخلت مرسـلة الوَجَل ، فتحققوا حُلُولَ الأجَل ، وعَلِموا أن هذا الفَتْحَ الذى تَمَادَتْ عليه الأيام قد جاء يَسْعىٰ إلىٰ ما بين يَدَيْه علىٰ عَجَل، وأيقَنَ الحِصْنُ بالآنتظام فى سِلْكِ الممالك الشريفة فكاد يُرْقِصُه بِمَنْ فيه فَرْطُ الجَذَل، وزاد

(١) كذا بالأصل ولعله فى نفعه .

شَوْقُه إلىٰ التشريف ويأصبابةً لوسمها وآسمها مشتاق لكنهم أظهروا الجَلَد ، وأخْفَوْا ضِرَامَ نَارِ الجَزعِ وكَيْفَ تَخْفىٰ وقَدْ وقَدْ ؛ وتَدَفَّقَتْ إليهـم الجُيُوش فملأت الأُفُق ، وأحَاطَتْ بهم إحَاطَةَ الطَّوْقِ بالعُنُق ؛ ونهضت إليهم مُسْتَمِدَّةً من عَزَمَاتِ سُلْطَانِها ، مُسْتَعِدَّةً لآنتزاع أرواح العِدَا علىٰ يَدَيْها من أوْطَانِها ؛ فانقطعت بهـم الظُّنُون ، ودارت عليهـم رَحىٰ المَنُون ، وأمطرت عليهم المَجَانِيقُ أحْجَارَهَا (فوقَعَ الحَقُّ وبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُون) وحَطَّتْ بسَاحَتِها عِقْبَانُ تِلْكَ الأحجار ، فهدَمَتِ العَمَائِرَ والأعْمَار ، وأجْرَتْ فى أرجائها أنهار الدِّمَاء فهلَكُوا بالسَّيْفِ والنَّبْلِ والنَّار ؛ وتحكَّمت هذه الثلاثة فى أهل التَّثْلِيثِ فبُدِّلُوا بالخوف من أمْنِهِم ، وهَرَبُوا منها إلىٰ مَخَايل حِصْنِهم .

ولمـا ركب الأوْلُ للزَّحْفِ فى جُيُوشِـه التى كَاثَرَتِ البَحْرَ بأمواجه ، تزلزل الحِصْنُ لِشدَّةِ رَكْضه ، وتَضَعْضَعَ من خَوْفِ عِصْيَانِه فلَحِقَتْ سَمَاؤه بأرْضِه ؛ وتَحَلَّلَتْ قَوَاعِدُ ماشُيِّد من أركانه فانحلت ، وألْقَتِ الأرضُ ما فيها وتَخَلَّتْ ؛ ومَشَتِ النَّار من تحتهم وهم لا يَشْـعُرُون ، ونُفِخَ فى الصُّورِ بل فى السُّـورِ فإذا هم قِيَامٌ يَنْظُرُون ؛ وما كان إلا أن قابلت العساكرُ ذلك البُرْجَ حَتّىٰ أهوىٰ يَلْثِمُ التُّراب ، وتأدَّبَ بآداب الطـاعة فخَرَّ راكِعًا وأنَاب ؛ فهاجمتهم الجُيُوش مُهَاجَمَةَ الحُتُوف ، وأسرعت المَضَاء والآنتضاءَ فلم تَدْرِ العِدَا : أهُمْ أم الَّذين فى أيمـانهم السُّيُوف التى تَسْبِقُ العَـذَل . وثَبَتَ منهم من لم يجد وراءه مَجالًا فَلَجَئُوا إلىٰ الأَمَان ، وتَمَسَّـك دَنِيءُ كُفْرهم بعِزَّة الإيمـان ، وتَشَبَّثُوا بسـاحل العَفْوِ حتّىٰ ظَنُّوا أنَّهُـم أُحِيطَ بهم وجَاءَهُم المَوْجُ من كُلِّ مَكَان ؛ وسألونا أن يكونوا لنا من جُمْلَةِ الصَّنَائـع ، وتَضَرَّعوا فى أن نَجْعَلَ أرْوَاحَهم لسُيُوفنا من جملة الودائـع فنتصدّق عليهم بأرواحهم كَرَما ، وظَلُّوا علىٰ مَعْنىٰ الحديث النَّبَوىّ :

يَرَوْنَ المَمَـات يَقَظَةً والحَيَاةَ حُلُما وأطلقتهم اليد التى لايَخِيبُ لدَيْها الآمل، وأَعْتَقتْهم اليُمْنىٰ التى فِجَاجُ الأرض فى قَبْضَتِها : فمتىٰ تشاء تَجْمَعُ عليهم الأنامِل، وخَرَجُوا بنُفُوسٍ قد تجرّدت حَتّٰى من الأجسام، ومُقَلٍ طَلَّقَتِ الكَرا خَوْفاً من الصَّـوَارِم التى تَسُلُّها عليهم الأحْلَام، وسُطِّرَتْ والمدينةُ قدتُسُنِّمَ أعلاها، وشِعَارُ الإيمان قد جَرَّدها من لِبَاسِ الكُفْر وأعراها، والأعلام قد سَلَكَتْ إلىٰ ذلك الحِصْـنِ أعلىٰ مَرْقىٰ، والسَّـعَادَةُ قد بَدَّلَت بِيَعَهُ مَسَاجِدَ ومَحَارِيبَهُ قِبْلَةً وكانت شَرْقَا، فأصبح يَرْفُلُ فى حُلَلِ الإيمان، وأَذْعَنَ بالطاعة فأخرس جَرْسَ الجَرَسِ به صَوْتُ الأَذَان، إن شاء الله تعالىٰ .

[ومن ذلك] مايكتب به فى التَّعَازِى إلىٰ الخلفاء .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ التَّهْنِئَة بوِلَايَةِ الخلافة، أنه كما ينبغى أن لا يُهَنَّأَ الخليفة بالخلافة إعظاما، فكذلك ينبغى أن لا يُعَزَّى فى مُصَابِهِ . إلا أنه رُبَّما دَعَتْ ضرورةُ الكاتبَ إلىٰ ذلك : لإكرام بعض أخصاء الخليفة إياه بالكتابة بذلك إلىٰ الخليفة . ولايخفىٰ أن الحال فىذلك تختلف باختلاف المعزى : من وَالِدٍ أو وَلَدٍ أو غيرهما .

[وهذه نسخة مكاتبة فى معنىٰ ذلك] (١) ذكرها فى "مَوَادِّ البيان" وهى :

أما بَعْدُ، فإن الله تعـالىٰ جعل خِلَافته لخَلْقِه قِوَامًا، ولبَرِيَّتِهِ نِظَامًا، وجعـل له خُلَفَاء يَدَّخِرُهم لميراثها، ويَخْتَصُّهم بتُرَاثِها، فإذا آنقضت مدّة مَاضِيهم : لِمَـا يريده الله من آستدنائه إلىٰ مَقَرّ خُلَصَائِه، نَقَلَها إلىٰ نُورِه بآصطناعه وآصطفائه .

والحمـد لله الذى قَصَرَ خِلَافَتَه علىٰ أمير المؤمنين وآبائه، وجعـل منهم زَعِيمَهم المـاضِىَ الذى كانت بيديه مَوَارِيثُها، والآتِىَ الذى صار إليه [تُرَاثُها] .

---

(١) بياض بالأصل، والتصحيح يقتضيه المقام .

والحمد لله الذى ختم لأمير المؤمنين المُنْتَقِل إلىٰ دار الكَرَامة بأفضل الخَاتِمَه، وأحْسَنَ له الجَزاءَ عن السَّعْيِ فى الأمَّه؛ وأنْعَمَ بآستخلاص أمير المؤمنين لإمامة خَليقته، وحِيَاطَة شريعته، وحِمَايَة بِلاده، وسِيَاسَةِ عباده، ولِوِرَاثَة تُرَاثِ آبائه وأجداده؛ وجعل المَاضِىَ منهم مَرْضِيًّا عنه، والآتِىَ مَرْضِيًّا به؛ وأعْتَدَت الرَّعِيَّةُ من عَدْلِ أمير المؤمنين ما جَبر كَسْرَها فى خَلِيفَته، وصَبْرَها فى رَزِيَّتِه؛ وهو المسئول أن يُلْهِمَه علىٰ المصيبة فى سَلَفه الطاهر صَبْرًا، وعلىٰ ما أخلفه عليه فى تأهيله لخلافته التى لا كِفَاءَ لها شُكْرًا، بمَنّه وفَضْلِه إن شاء الله تعالىٰ.

[وهذه نسخة كتاب فى التَّعْزِيَة أيضا][1] وهى :

إنَّ الله خصَّ أميرَ المؤمنين بما هو أهْلُه من خِلافَتِه، وعَظَّمَ مَحَلَّه بما نَصَبه له من إمامة بَرِيَّتِه؛ وجعله عِمَادًا لأهل الإسلام تَجْتَمِعُ عليه أهْوَاؤُهم، وتَسْكُنُ إليه أمْلاؤُهم؛ ويصلحُ به دِينُهم ودُنْيَاهم، ويستقيم به أمْرُ أُولَاهُم وأُخْرَاهم؛ فإذا أسبغ نِعْمَةً من نِعَمِه عليه، وظَاهَرَ مَوْهِبَةً من مَوَاهِبِه لَدَيْه؛ شَرِكُوه فيها، ونَهَضُوا معه علىٰ الشُّكْر عليها؛ وإذا آبتلاه ببَلِيَّة، وآمْتَحَنَ صَبْرَه برَزِيَّه؛ أخذوا بالنَّصيب العظيم من الحَادِث، والحَظِّ الجَسِيم من الكَارِث؛ [و]ما أفردُوه بثَواب الله فيها وما جعله جَزَاءً من الأجْرِ عليها.

وإن الله تعالىٰ كان أعَارَ أميرَ المؤمنين من وَلَدِه فلان ـ رضى الله عنه ـ عَارِيَةً من عَوَارِيه، وبَلَّغَه من الاستمتاع بها ما آحْتَسَبَ من أمَانيه؛ ثم آسترجعها لِيُثَقِّلَ بها مِيزَانَه، ويُضَاعِفَ إحسانه؛ ويجعلها له ذُخْرًا، ونُورًا يَسْعىٰ بين يَدَيْه وأجرا؛ فعَظُمَ

(١) بياض بالاصل، والتصحيح يقتضيه المقام.

بذلك المُصَابُ علىٰ رعيَّته، وكَبُرَ الرُّزْءُ على أهل دَعْوَته، لما كانوا يرجونه من سُكُون القُلُوب، ونَقْعِ الخُطُوب، وآستقرارِ قَوَاعِدِ الخلَافَه، وشُمُول الرَّحْمَة والرَّافه؛ وقد حصل أميرالمؤمنين علىٰ نِعَمٍ كثيرة من مَوْهِبَتِـه وثَوابِهِ فى آستعادته، وحَصَلَ كَافَّةُ خاصَّتِه علىٰ القَلَقِ لفَقْدِه، والأسىٰ من بعده؛ وقد جعله الله تعالىٰ صَلَاحَ كُلِّ فَسَاد، وثِقَافَ كُلِّ مَيَّاد؛ ومَهْبِطَ كُلِّ رَحْمَـه، وطَرِيقَ كُلِّ نِعْمَه؛ وهو خليق بأن يُظْهِرَ من صَـبْرِه، ورِضَاهُ بقضاء الله وتسليمه لأمْرِه، مايَبْعَثُ علىٰ التَّأَسِّى به، والتَّأَدُّب بأدَبِه؛ والله تعالىٰ يُحْسِنُ لأميرالمؤمنين الخَلَف، ويُعَوِّضُهُ أَحْسَنَ العِوَضِ فى المُؤْتَنَف؛ ويُوَفِّرُ حَظَّهُ من الثَّوَاب، ويُعْظِمُ له الأجرعلىٰ المُصَاب؛ ويُرِيهِ فى أوليائه وأحبابه، أعظم مَحَابِّه وغَايَةَ آرابه؛ وينقل المَنْقُول إلىٰ إيوانِ الكَرَامَة والآحتفاء، بأفاضل الأجداد والآباء؛ بفَضْلِهِ ورَحْمَتِه، إن شاء الله تعالىٰ.

[وهـذه] نسخة كتاب: كُتِبَ به إلىٰ الأبواب السلطانية عنـد فَتْحِ (آيَاسَ) قاعدةِ بلاد الأرْمَنِ وآنتزاعها من أيديهم، وهى: (١)

يُقَبِّلُ الأرضَ ويُنْهِى أن لَيْلَةَ الآنتظار أَطْلَعَتْ صَبَاحَها، ومَوَاعيدَ الآمَال بعثت علىٰ يَد الإقبال نَجاحَهَا؛ والعَسَاكرَ المنصورةَ جَرَّدَتْ رَابِـعَ رَبِيع الأوّلِ بمدينة آيَاسَ صِفَاحَها، وأوردت إلىٰ الصُّدُورِ رِمَاحَها؛ فلم يَكُنْ إلا كَلَمْحِ البَصَر، ولِسَانُ صِدْقِ القِتالِ قَائِلٌ: بأنَّ الجَيْشَ النَّاصِرِىَّ قد آنتصر، وآنقضىٰ ذلك النَّهار، بإيقاد نار حَرْبِ الحِصَار، علىٰ أبْرَاجٍ وأسْوَار، أُدِيرَتْ علىٰ المِينَا كما أُدِيرَ المِعْصَمُ علىٰ السِّوَار؛ فما أشرق

(١) كان الأولىٰ ذكرهذه المكاتبة مع المكاتبات التى ذكرت فى البشارة بالفتوح، إذ لامناسبة فى ذكرها هنا، تأمل.

صَباحُ الصِّفَاحِ ولَاح ، إلّا والأعلام النَّاصِريَّة على قُلَّةِ القَلْعَةِ مَائِسَةُ الأعطاف من الأرْتِيَاح ، مُعْلِنَةٌ أَلْسِنَتُها بحىَّ على الفَلاح وحىَّ على النَّجاح ، وعِزُّ الإسلام يُقَابِلُ ذُلَّ الكُفْر : بهذا النَّصْرِ وهذا الأفْتِتَاح ، وجَمْعُ الأرْمَنِ المَلاَ تفرّقَ ما بين قَتْلٍ وأَسْرٍ وآنْتِزَاح ؛ ولَعِبَتْ أيدى النِّيران فى القَلْعَةِ وجوانِبِهـا ، وتفرَّقت من الأسوار أعضاء مناكِبِها ، ونَطَقَ بالأقْدَارِ لِسَانُ النَّـار : هٰذِى مَنَازِلُ أهْلِ النَّار فى النَّار .

ثم آنتقلت المُحَاصَرَةُ إلى قَلْعَةِ البَحْر ، وضَمَّ الأرْمَنَ المَلاَ إليها سَيْفُ القُدْرَةِ والقَهْر ، وهذه القَلْعَةُ عَرُوسٌ بِكْرٌ فى سماء العِزِّ شَاهِقَه ، لم يَسْبِقْ لأحَدٍ من الملوك الأوائلِ إلى خِطْبَتِها سَابِقَه ؛ قد شَمَخَتْ بأنفها ، ونأت بعِطْفِها ، وتَاهَتْ على وَامِقِها ، وغَضَّتْ عَيْنَ رَامِقِها ؛ فهى فى عُقَابِ لَوْحِ الجَوِّ كالطائر ، وسَوَّرَها البَحْرُ والحَجَرُ فلا يكاد يَصِلُ إلى وَكْرِهَا النَّاظِر ، وقد أُوثِقَتْ بحَلَقَاتِ الحَدِيد ، وقُيِّدَتْ كأنَّها عَاصِيَةٌ تُسَاقُ بالأصفاد إلى يَوْمِ الوَعِيد ؛ فأرْسَـلَ عليها المَنْجَنِيقُ عُقَابَه ، وأعْلَقَ بها ظُفْرَه ونَابَه ؛ فكشف من شُرُفَاتِها شَنَبَ ثَغْرِها ، وسَقَاهَا بأكُفِّ أَسْهُمِه كُئُوسَ حِجَارَةٍ فتَمَايَلَتْ من شِـدَّةِ سُكْرِها ، وفَضَّ من أبراجها الصَّنَادِيقَ المُقْفَلَه ، وفَصَّـلَ من أسوارها الأعضاء المُتَّصِلَه ، فتَزَلْزَلَ عَمَدُهَا ، وزِيلَ عن مَكَانه جَلْمَدُها ، وعلت الأيْدِى المُرَامِيَةِ بِهـا ، وغُلَّت الأيدى المُحَامِيَةُ عنها ، وآشْتَدَّ مَرَضُها من حرارة وَهَجِ الحِصَار ، وضَعُفَتْ قُوَّتُها عن مقاومة تلك الأحجـار ، ولم يَبْقَ على سُورِهَا من يَفْتَحُ له جَفْنًا ، وشَنَّ المَنْجَنِيقُ عليها غَارَتَه إلى أنْ صَارَتْ شَنًّا ؛ فأرْسَلَ إليها من سَمَـاءِ غَضَبِه رُجُومًا ، ووَالَى ذلك عليها سَبْعَ ليال وثَمَانِيَةَ أيَّام حُسُومًا ؛ فبادرت إلى الطَّاعَةِ وآستسلمت ، وكَرَّرَ نَحْوَها رُكُوعه فَسَجَدَت ، ورَكِبَتْ الجيوشُ المنصـورة عِوَضَ الصَّافِنَاتِ اللُّجَج ، وسَمَحَتْ فى سبيل الله عَزَّ وجَلَّ بالمُهَج ؛ فعند ذلك سَارَعَ أهْلُها إلى التَّعَلُّق بأسباب الهَرَب ،

وكان خَرَابُ قَلْعَةِ المِينا هٰذِى لخَرَابِ قَلْعتِهم من الحرب، وأحرقوا كَبِدَها من أيديهم بنـار الغَضَب، وٱنْتَزَحُوا منها لَيْلا، وجَرُّوا من الهَزِيمَةِ ذَيْلًا، وتَسَلَّمَها المسلمون، وتحسَّر عليها الحَسْرَةَ الكُبْرىٰ الكَافِرُون، وهُدِمَتْ حجَرًا حجَرا، وصَافَحَتْ بجَبْهَتِهاوَجْهَ الثَّرىٰ، وأُعْدِمَتْ من الوُجُود عَيْنًا وأَثَرا، فمـا أَعْجَبَ هذا الفُتُوح وأغْرَب!، وما أَحْلىٰ ذِكْرَه فِى الأفْواه وما أَعْذَب!!، وما أَلَذَّ حَدِيثَه فى الأسماع وما أَطْرَب!!، وما أَسْعَدَ هذا الجَيْشَ النَّاصِرِىّ وما أَنْجَب!!!.

بُشْرَاكَ بُشْرَاكَ هٰذا النَّصْرُ والظَّفَرُ * هذا الفُتُوحُ الَّذى قد كان يُنْتَظَرُ!
فَتْحٌ مُبِينٌ ونَصْرٌ جَلَّ مَوْقِعُه * سَارَتْ بِهِ ولَه الأملاكُ والبَشَرُ!
عَجَائِبٌ ظهـرت فى فَتْحِهِ بَهَرَتْ * لم تأْتِ أمْثَالَهـا الأيام والسِّيَرُ!
لو كان فى زَمَنٍ ماضٍ به نَزَلَتْ * فى وَصْفِ وَقْعَتِهِ الآيَاتُ والسُّوَرُ!
هٰذِى أيَاسُ الَّتى قد عَزّ جانِبُها * وعَزّ خَاطِبُهـا حَتّىٰ أَتىٰ القَدَرُ!
جاءت إليها جُيوشٌ كَمْ بهـا أُسُدٌ * بِيضُ الصِّفَاحِ لها الأَنْيابُ والظُّفُرُ
جَيْشٌ لُهَامٌ كبَحْـرٍ زَاخِرٍ لَجِبٍ * إذا سَرىٰ لا يُرىٰ شَمْسٌ ولاقَمَـرُ!
يَسِــيرُ بالنَّصْرِ أَنّى سار مُتَّجِهًا * ما زال يَقْدُمُه التَّأْيِيـدُ والظَّفَرُ.
جَيْشٌ له اللهُ والأملاكُ نَاصِرَةٌ، * مَلِيكُه نَاصِرٌ للدِّين مُنْتَصِرُ!
يَوْمَ الخَمِيس رأيتُ الخَيْلَ حَامِلَةً * علىٰ رُءُوس عُدَاةٍ هَامُهـا أُكَرُ،
وقَلْعَة البَحْـرِ كانت آيَةً لَهُـمُ * فَعَنْ يَسِـيرٍ فأَضْحَتْ للورىٰ عِبرُ!
كانت بأفق سَمَاءِ العـزِّ شاهقةً * أبْرَاجُها بَاسِقاتٌ خَرْتُهـا خَطِرُ!

فَرَكِبَ المُسْلِمُونَ البَحْرَ بَاذِلَةً * أرْوَاحَهَا فى سبيـــل اللهِ تَدَّخِرُ

لم يَبْقَ منهـــم أميرٌ لا ولا مَلِكٌ * يَأْوِى مَقَرًّا إلىٰ أن مُدَّتِ الجُسُرُ!

وعَجَّـلَ اللهُ بالفَتْحِ المُبِينِ لَهُم * هٰـذَا الفُتُوحُ الَّذى تُوفَىٰ له النُّذُرُ

يَرْضىٰ به اللهُ والإسْـلَامُ قَاطِبَةً * وشَاهِدُ القَوْلِ فيه العَيْنُ والأَثَرُ!

تم الجزء الثـامن . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء التـاسع

وأوله القســـم الثـانى

(من مقاصـــد المكاتبـات الإخوانيات)

والحمد لله رَبِّ العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خَاتَم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـــه والتـابعين ، وسلامُه

وحَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوكيل

فهـــــرس

الجـــــزء الثـامن

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

المقصـد الثـالث — فى المكاتبة إلى أهل الجانب الجنوبىّ : من العرب
والسودان، وفيه ثلاث جمل ٥
الجمـلة الأولى — فى المكاتبة إلى من بهذا الجانب من العربان ... ٥
« الثـانية — « « مسلمى ملوك السودان ٦
« الثـالثة — « « ملوك المسلمين بالحبشة ١١

المقصـد الرابـع — « « أهل الجـانب الشمالى ، وفيه ثلاثة
أطـراف ١٢
الطـرف الأول — فى المكاتبات إلى أمراء الأتراك ببلاد الروم المسماة
الآن ببلاد الدروب ١٢
« الثـانى — فى المكاتبة عن ملوك الديار المصرية إلى ملوك الكفر ٢٥
« الثـالث — « إلى من وراء بحر القـرم، ويشتمل على
أربعة مقاصد ٢٦
المقصد الأول — فى المكاتبة إلى ملوك الكفار ببلاد الشرق ٢٧
« الثـانى — « « « « المغرب من
جزيرة الأندلس وما والاها... ... ... ٣٣
« الثالث — فى المكاتبة إلى ملوك الكفار بالجانب الجنوبى ... ٣٩
« الرابع — « « « « الشمالىّ من
الروم والفرنجة على آختلاف أجناسهم ٤٢

الفصـل الخـامس — من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى الكتب
الواردة على الأبواب السـلطانية من أهل المملكة
وغيرها ، وفيه نوعان ٥٤

صفحة

النـــوع الأوّل ــ المكاتبات الواردة عن ملوك المسلمين ، وهى علىٰ قسمين ٥٤

القســم الأوّل ــ فى الكتب الواردة عن أهل هــذه المملكة بالديار المصرية والبلاد الشامية ، وفيه ضربان... ... ... ٥٤

القســم الثـانى ــ فى الكتب الواردة علىٰ الأبواب السلطانية عن أهل الممـالك الإسلاميــة ، ويشتمل علىٰ أربعــة مقاصـــد ٦٢

المقصدالأوّل ــ فى الكتب الواردة عن أهل الشرق ، وفيه أطراف ٦٣

الطرف الأول ــ الكتب الواردة عن القــانات العظام من بنى جنكزخان ٦٣

« الثانى ــ فى المطالعـات الواردة إلىٰ الأبواب السلطانية عن أهل الشرق ٧١

« الثالث ــ فى رسم المكاتبـات الواردة عن صاحب اليمن إلىٰ هذه المملكة ٧٢

« الرابع ــ فى الكتب الواردة إلىٰ الأبواب السلطانية عن ملوك الهنـد ٧٦

المقصدالثانى ــ فى المكاتبات الواردة عن ملوك الغرب ، وفيه جمل ٧٨

الجملة الأولى ــ فى المكاتبة الواردة عن صاحب تونس... ... ... ٧٩

« الثانية ــ فى المكاتبات الواردة عن صاحب تلمسان من بنى عبد الواد... ... ... ٨٤

« الثالثة ــ فى المكاتبات الواردة عن صاحب فاس ٨٧

« الرابعة ــ فى عادة الكتب الواردة عن صاحب الأندلس ... ١٠٦

صفحة

المقصدالثالث — فى رسم المكاتبات الواردة عن ملوك السودان ، وفيه ثلاثة أطراف ١١٥

الطرف الأول — فى المكاتبات إلىٰ صاحب مالى ١١٥

« الثانى — « الصادرة عن صاحب البرنو ١١٦

« الثالث — « « عن ملك الكانم ١١٩

المقصدالرابع — فى الكتب الواردة من الجانب الشمالى وهى بلاد الروم ١١٩

النوع الثانى — [كتب خطأ القسم الثالث] من المكاتبات الواردة إلىٰ هذه المملكة الكتب الواردة عن ملوك الكفار، وهى علىٰ أربعة أضرب ١١٩

الفصل السادس — من الباب الثانى من المقالة الرابعة فى رسوم المكاتبات الإخوانيات، وفيه طرفان ١٢٦

الطرف الأول — فى رسوم إخوانيات السلف من الصحابة والتابعين ١٢٦

« الثانى — « الإخوانيات المحدثة بعد السلف، وفيه ثلاثة مقاصد ١٢٧

المقصد الأول — فى رسوم إخوانيات أهل المشرق،وفيه أربعة مهايع ١٢٧

المهيع الأول — فى صدور الابتداءات... ... ... ١٢٧

« الثانى — فى الأجوبة علىٰ هذا المصطلح... ... ... ١٣٩

« الثالث — فى خواتم الإخوانيات علىٰ هذا المصطلح ١٤١

« الرابع — فى عنوانات الكتب علىٰ هذا المصطلح... ... ... ١٤٤

صفحة

المقصد الثـانى ــ فى رسوم إخوانيات أهل المغرب ،وفيه جملتان ... ١٤٨

الجملة الأولىٰ ــ فى مفتتحات المكاتبات علىٰ آصطلاحهم ،وفيها مهيعان ١٤٨

المهيع الأول ــ فى آبتداء المكاتبات ١٥٤

« الثانى ــ فى الأجوبة ١٥٨

الجملة الثانية ــ فى خواتم المكاتبات علىٰ آصطلاحهم ١٥٩

المقصد الثالث ــ فى الإخوانيات المستعملة بالديار المصرية، وفيـه ثلاثة مصطلحات... ... ... ١٦٠

المصطلح الأول ــ ما كان الأمر عليه فى الدولة الطولونية ... ... وفيه ثلاثة مهايع ١٦٠

المهيع الأول ــ فى الصدور ١٦٠

« الثانى ــ فى خواتم الكتب ١٦٦

« الثالث ــ فى عنوانات الكتب ١٦٦

المصطلح الثانى ــ من مصطلحات الديار المصرية ما كان عليه الحال فى الدولة الأيوبية ١٦٧

« الثالث ــ من مصطلحات الديار المصرية فى الإخوانيـات ماجرىٰ عليه الآصطلاح فى الدولة التركية، وفيه مهيعان ١٦٨

المهيع الأول ــ فى رتب المكاتبات المصطلح عليهـا ... ... وهى علىٰ قسمين ١٦٨

القسم الأول ــ الآبتداءات ١٧١

« الثانى ــ من المكاتبات الإخوانيات الدائرة بين أعيـان المملكة وأكابر أهل الدولة الأجوبة ٢١٢

المهيع الثانى ــ فى بيان رتب المكتوب عنهم والمكتوب إليهم من أعيان الدولة ٢١٧

صفحة

الفصـــل السـابع – من الباب الثـانى من المقالة الرابعة فى مقاصـــد المكاتبات، وهى قسمان ٢٣٣

القســـم الأوّل – مقاصد المكاتبات السلطانية،وهى علىٰ نوعين ... ٢٣٣

النـوع الأول – ما يكتب عن الخلفاء والملوك، وهو علىٰ ثلاثة أضرب [صوابه أربعة] ٢٣٣

الضربالأول – ما يكتب عن الخلفاء والملوك ومن ضاهاهم، وهو علىٰ أصناف ٢٣٣

الصنفالاول – الكتب بانتقال الخلافة إلىٰ الخليفة ٢٣٣

« الثانى – من الكتب السلطانية الكتب فى الدعاء إلىٰ الدين ٢٤٤

« الثالث – « « « بالحث علىٰ الجهاد ٢٤٦

« الرابع – « « « فى الحث علىٰ لزوم الطاعة وذمّ الخلاف ٢٥٢

« الخامس – من الكتب السلطانية الكتب إلىٰ من نكث العهد من المخالفين ٢٥٩

« السادس – من الكتب السلطانية الكتب إلىٰ من خلع الطاعة ٢٦٣

« السابع – الكتب فى الفتوحات والظفر... ... ... ٢٧٤

« الثامن – المكاتبة بالاعتذار عن السلطان فى الهزيمة ٢٩٠

« التاسع – المكاتبة بتوبيخ المهزوم الخ ٢٩٩

« العاشر – فى المكاتبات بالتضييق علىٰ أهل الجرائم ٣٠٣

« الحادى عشر – الكتب فى النهى عن التنازع فى الدين ... ٣٠٦

« الثانى عشر – المكاتبة بالأوامر والنواهى ٣٠٨

« الثالث عشر – المكاتبات عند حدوث الآيات السماوية ... ٣١٠

« الرابع عشر – « فى التنبيه علىٰ شرف مواسم العبادة الخ ٣١٢

صفحة

الصنف الخامس عشر — المكاتبـــة بالسلامة فى الركوب فى المواسم والأعيـاد... ... ... ٣١٣

« السـادس عشر — المكاتبـة بالبشارة بوفاء النيـــل والبشارة بالسلامة فى الركوب لفتح الخليج ٣٢٨

« السابـع عشر — فيما يكتب فى البشارة بركوب الميدان الكبير الخ ٣٣٣

« الثـامن عشر — المكاتبة بالبشارة بحج الخليفة ٣٣٦

« التاسـع عشر — الكتابة بالإنعام بالتشاريف والخلع ٣٣٩

« العشـــرون — المكاتبة بالتنويه والتلقيب ٣٤١

« الحادى والعشرون — المكاتبة بالإحماد والإذمام ٣٤٦

« الثانى والعشرون — ما يكتب مع الإنعـام لنـــوّاب السلطنة بالخيل والجوارح ٣٥١

« الثالث والعشرون — المكاتبة بالبشارة عن الخليفة بولد رُزِقه ... ٣٥٦

« الرابع والعشرون — ما يكتب عن السلطان بالبشارة بعافيته من مرض... ... ... ٣٥٧

الضرب الثانى — من مقاصـــد المكاتبات السلطـانية ما يكتب عن السلطان فى الجواب ٣٥٨

« الثالث — من الكتب السلطانية الكتب الصادرة عن نوّاب السلطنة الخ ٣٥٩

« الرابع — من المكاتبات السلطانيـة ما يكتب عن النوّاب والأتباع إلى الخليفة أو السلطان، وفيه مهيعان ... ٣٦٦

المهيع الأوّل — فى الأجوبة عن الكتب السلطانية ٣٦٦

« الثانى — من مقاصد المكاتبات السلطانية ما يكتب به عن نوّاب السلطان والأتباع إلى السلطان ابتداء... ... ٣٩٠

(تم فهرس الجـــزء الثامن من كتاب صبح الأعشى)

صبح الأعشى

الجـــــزء التـاسع

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء التاسع

طبـع
بالمطبعة الأمـيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

من مقاصد المكاتَبات، الإخوانيَّاتُ

(مما يَكْتُب به الرئيسُ إلىٰ المرءوس والمرءوسُ إلىٰ الرئيس والنظيرُ إلىٰ النظير)

قال فى "موادّ البيان" : ولها مَوْقِع خَطِير من حيثُ تشترِك الكافَّةُ فى الحاجة إليها . قال : والكاتبُ إذا كان ماهرا، أغربَ معانِيَهَا، ولَطَّف مبانِيَهَا، وتسهَّلَ له فيها مالايكادُ أن يتَسَهَّل فى الكُتُب التى لها أمثلةٌ ورسومٌ لاتتغيَّر ولا تُتجاوَزُ، وهى علىٰ سبعةَ عشرَ نوعا :

النوع الأوّل

(التَّهانِى)

قال فى "موادّ البيان" : كُتُب التَّهانِى من الكُتُب التى تظهَرُ فيها مقاديرُ أفهامِ الكُتَّاب، ومنازِلهم من الصِّناعة ، ومواقِعُهم من البَلاَغة . وهى من ضُروب الكتابة الجليلةِ النفيسةِ، لما فى التهنئة البليغةِ من الإفصاح بقَدْر النعمة، والإبانةِ عن مَوْقِع المَوْهِبة، وتَضاعُفِ السُّرور بالعطيَّة . وأغراضُها ومعانيها متشعِّبة لاتقف عندَ حدّ، وإنما نذكر منها الأصولَ التى تفرَّعتْ منها فروعٌ رجعَتْ إليها، وحُمِلتْ عليها .

قال : ويجب علىٰ الكاتب أن يراعِىَ فيها مرتَبةَ المكتوبِ إليه والمكتوبِ عنه فى الرسالة اللائقةِ بهما ممـا لا يُتَسَامَحُ بمثله .

ثم التهانى علىٰ أحَدَ عشَرَ ضربا :

الضـــــرب الأوّل

(التهنئةُ بالوِلَايات ، وهى علىٰ تسعةِ أصناف)

الصنف الأوّل ــ التهنئةُ بوِلَاية الوِزَارة :

قد تقدّم فى المقالةِ الثانيةِ فى الكلام علىٰ ترتيب المملكةِ أنّ الوِزارةَ كانت فى الزمن المتقدّمِ هى أرفَعُ وظائفِ المملكة وأعلاها رُتْبةً ، وأنَّها الرتبةُ الثانية بعـدَ الخلَافة . وكانتْ فى زمن الخُلَفاء تكادُ أنْ تكونَ كالسلطنة الآنَ ، فهى(1) من الأتباع ومَنْ فى معناهم علىٰ نحو ما كانتْ فى الزَّمَن المتقـدّم بينَ الرُّؤَساء والأكابر ، ومن الرؤساء والأكابر بحسبِ ماتقتضيه رتبةُ المهنَّإِ .

وهذه نُسَخُ تهانٍ من ذلك علىٰ ما كان عليه الحال فى الزَّمَن القدِيم .

تهنئةٌ بوِزَارة : من إنشاء أبى الحسين بن سَعْد ، كَتَب بها إلىٰ الوزير محمدِ بن القاسم بن عُبَيد رحمه الله ، وهى :

مَنْ كانتِ النعمةُ ــ أيد اللهُ الوزيرَ ــ نافرةً عنه وبِفِنائِه غَرِيبة ، فهى تَأْوِى من الوزيرِ إلىٰ مَثْوًى معهود ، وكَنَفٍ محمود ، وتُجاوِرُ منـه من يُوَفِّيها حقَّها ، ويُقابِلها بحُسْن الصُّحْبة لها ، ويَجْرِى فى الشكر لمـا يُوَلَّاه ، والرِّعاية لمـا يُسْتَرْعاه ، علىٰ شاكلةٍ مضىٰ عليها السَّلَفُ من أهله ، ونشأ فى مثلها الخَلَف ، مقتدِيًا بالأوّل الآخِر ، وبالماضى

(1) أى التهنئة من الأتباع الخ .

الغابر، تَشَابُهاً فى كَرَم الأفعـال ، ورِعايةً لحُقُوق الآمال ؛ وٱعتماداً للرأفة والرَّحْمه ، وعُمُوما بالإنْصاف والمَعْدِله ؛ إلىٰ ما خَصَّ اللهُ به أهلَ البيت رضىَ اللهُ عن المـاضين منهم وأقام عِزَّ الباقِين وحِراسَتَهم : من العلم بالسياسة والدَّرَابة(١) بتدبير المَمْلَكة ورِعايةِ الأُمَّة ، والهدايةِ فيهم لطُرُق الحَيْطة ونَهْج المصلحة .

والحمدُ لله علىٰ ماخَصَّ به الوزيرَ من فضـله الذى رفع قَدْرَه فيه عن مُسامَاةِ ومشاكلة المُقَادر(٢) والشَّبِيه ، وجعله فيما حباه به نَسِيجَ وَحْدِه ، وقَرِيعَ دَهْرِه ، وجمع له من مَوَاهِب الخيرِ ، وخَصائِص الفَضْل ما أبانَ به مَوْقِعَه فى الدِّين ، وأعطاه معه الوِلايَةَ من جميع المسلِمين .

والحمدُ لله حمدًا مجدَّدا علىٰ ما جَدَّده له من رَأْيِ أمير المؤمنين وٱجْتِبائه ، ومحـلِّه من ٱخْتِيارِه وٱصطِفائه .

والحمدُ لله علىٰ مامَنَحه من كرامته ، وجدّد له من نِعْمته ، فيما أعاد إلىٰ تدبيرِه من وِزَارَتِه ، وأشركَه فيه من أمانَتِه ؛ ٱحتياطًا منه للمْلَكة ، ونظرًا للخاصَّة والعامَّة ؛ فإنَّ عائِدَةَ رأْيِه سَوَّتْ بينَ الضَّعِيف والقَوِىّ ، ووصلَتْ إلىٰ الدَّانِى والقَصِىّ ؛ وأعادت إلىٰ المُلْك بَهاءَه ، وإلىٰ الإسـلام نُورَه وضِياءَه ؛ فاكتستِ الدنيـا من الجِدَّة بعد الإخْلاق ، والنَّضَارة بعد الإنْهاج(٣) ، مالم يكُنْ يوجَدُ مثلُه إلَّا بالوزير فى شَرَف مَنْصِبه ، وكَرَم مُرَكَّبه ؛ فهنَأَ اللهُ الوزيرَ ما آتاه وتابَعَ له قَسْمه ، ووصلَ له ماجدّد له بالسَّعاده ، وأمدَّه فيه بالزِّياده ، وأعطاه من كلِّ مأمُول أعظَمَ حظّ وأوفرَ نصيبٍ وقِسْم ؛ تراخيًا

(١) فى الأصل والوراثة لتدبير وهو تصحيف سخيف .

(٢) فى القاموس "قادرته قايسته وفعلت مثل فعله" .

(٣) الإنهاج البلىٰ ، أنظر القاموس فى مادة (ن ه ج) .

فى مُدّة العُمُر، وتناهِيًا فى درَجةِ العِزّ، وآحتياطًا بالمَوْهِبَةِ فى العاجِله ، وفَوْزا بالكرامة فى الآجِله ، إنه فَعَّال لمـا يشاء .

تهنئة أُخْرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى ترَسُّله ، وهى :

التهنئةُ بالوَزِير للزّمان وأهلِه بمـا جمَّلَهم به، وجدّد لهم من مِيسَم العِزّ، وسَرْبَلَهم إيّاه من حُلَّة الأمْنِ بوِلَايتـه، والنعمةُ علىٰ أوليائه ورعَايَاه علىٰ حَسَب مواقِعِهم من مشاركتـه وحُظُوظِهم من مَعْدِلَتِـه ظاهِرةٌ، ولله علىٰ ذلك الحمْدُ الفاضل ، والشكر الكامِل. وللوزير من هذه النعمةِ الجليلةِ ، والدولةِ السعيدةِ ، أهْنَاها مَوْقِعا، وأسْرَاها مَلْبَسا ، وأدْوَمُها مُدّه ، وأجملها نَغْيـه ، وأثْراها مُبَوّءا ، وأسلَمُها عُقْبىٰ ؛ فتولّاه الله بالمَعُونة والحِرَاسه ، وأيّده الله بالنصر والكِفَايه ، وأنْهضَه بمـا قلّده وآستَرْعاه، وبلّغه مَحابَّه ومُنَاه، وأرجو أنْ يكونَ مَوْقِعِى من ثِقَة الوزير يُلْحِقُنى عنده بمن مَكَّنَتْه الأيام من قَضاءِ الحقّ فى التلَقِّى والإبْعاد، ويُعوِّضُنى بتفْضِيله ممـا حُرِمتُه منها مَحَلَّ ذوى الإخْلاص والآعتِدَاد .

تهنئةٌ أُخْرىٰ فى مثل ذلك : أوردها فى ترَسُّله أيضا، وهى :

وهـذا أوّلُ يتْلُوه مابعـده بلا تَناهٍ ولا نَقْص بإذنِ اللهِ ومَشِيئته ، بل يكون موصُولا لاتُبْلَغُ منه غايةٌ إلا شفعَتْها درجةٌ تُرقىٰ ، تكْنُفُ ذلك كِفايةٌ من الله شاملةٌ كاملةٌ ، وغِبطةٌ فى البَـدْء والعاقبَة بلَا آنْقِطاع ، ولا آرْتِجَاع ؛ حتّى يكونَ المُنْقَلَبُ منه بعد بُلُوغ العُمُر منتهاه، إلىٰ فَوْزٍ برحمةِ الله ورضاه . فهنيئًا للوزير بما لايَقْدِر أحدٌ أنْ يَدّعِىَ فيه مُساعفَةَ المِقْدار، ولا ينَاله بغير آستِحْقاق، إذ لامثلَ ولا نظيرَ للوزير : فَضْـلا ظاهِرا، وعلمـا علىٰ العلوم مُوفِيا، وسابقةً فى تقليب الخلافة ظهرًا لِبطْن، وحَلْب الدَّهْرِ شَطْرا بعد شَطْر، وجَمْعًا من مال السلطان لمـا كان متفرّقا، وحفْظًا

لما كانَ ضائِعا ، وحمايةً لبَيْضةِ المُلْك ، وضَبْطا للثُّغُور ، وتلقِّيًا للخُطُوب بما يَفُلُّ حَدَّها ، ويُطْفِئ نارَها ولهَبَها ويُقِيم أَوَدَها ؛ وما وهَبَ اللهُ في رَأْيِه من فَتْح البلاد المُرْتَجَة ، وقَمْع الأعداء المتغلِّبة ، وسُكُون الدَّهْماء ، وشُمُول الأَمْن ، وعُمُوم العَدْل ؛ والله يَصِل ذلك بأحسَنِه .

تهنئةٌ أُخرى في مثل ذلك : من إنشاء عليّ بن خلف في "موادّ البيان" وهي :

أطال اللهُ بقاءَ حضرةِ الوِزَارة السامية ، فارِعةً من المَعَالِي أَسْمَقَها نُجُودا ، كارِعةً من المِنَنِ أعذَبَها وُرُودا ، ساحِبةً من المَيَامِن أرَقَّها بُرُودا ؛ ممتَّعةً بالنِّعَم التي يُرامِي الشُّكْر عن حَوْزَتِها ، ويُحامِي البِشْرُ عن حَوْمَتِها ؛ مبلّغةً في أوليائِها وأعدائِها ، قاضِيةً ماترتمي إليه رِحَابُها ؛ فلا ترَى لها وليًّا إلّا لاحِبَ المَذْهَب ، ثاقِبَ الكَوْكَب ، سامِيَ الطَّرْف ، حامِيَ الأَنْف ؛ ولا عدُوًّا إلا ضَيِّق المَطْرَح ، وَعِرَ المَسْرَح ؛ صالِدَ الزَّنْد ، مفَلَّل الحَدّ ، راغِمَ العِرْنِين ، مَتْلُولًا للجَبِين . ولازالتْ أزِمَّةُ الدنيا بيَدِها حتّى تَبْلُغ بآمالها مُنْتَهاها ، وتَجْرِي بأيَّامها إلى أقصى مَدَاها ؛ [فهي] من أعظَم النِّعَم خَطَرا ، وأحسَنِها على الكافَّة أَثَرا ، وأوْلاها بأن يُفَاضَ في شكرها ، وتتعطَّرَ الآفاقُ بذِكْرها . ولسيدنا الوزيرِ الأجلِّ يراعٌ يستَيْقِظُ في صلاحهم وهم هاجِعُون ، ويَنْتَصِبُ في الذَّبِّ عنهم وهم وادِعُون ؛ وكَلَ تدبيرَهُم فيه ، إلى مدبِّر يخافُ اللهَ ويتَّقِيه ، ويعمَلُ فيمَنِ ٱسترْعاه بما يرتَضِيه ؛ ولا يَمُدّ يدَ الِاقتدار عليهم متسلِّطا ، ولا يتَّبِع دَواعِيَ الهَوَى فيهم مُتَسَقِّطا ؛ واضعًا الأشياءَ في حقائِقِها ، سالكًا بها أمثَلَ طرائِقِها ؛ مُلَايِنًا من غير ضَعْف ، مُخاشِنًا من غير عُنْف ؛ قريبًا من غيرِ صِغَر ، بَعِيدًا من غير كِبْر ؛ مُرَغِّبا بلا إسْراف ، مُرْهِبًا بإنصاف ؛ ناظرًا إلى محقَّرات الأمور وأطرافِها ، كما يَنْظُر في مَعاظِمِها وأشْرافِها ؛ آخِذًا بوَثائِق الحَزْم ، متمسِّكا بعَلَائق العَزْم ؛ رامِيًا بفِكْرَته من وراءِ العَوَاقب ، خاطِمًا بآرائِه أُنُوفَ المَصَاعب ؛

ناظمًا بإيالَته عُقود المَصالح، مُوطِّئا برِياضَته ظُهور الجَوَامح؛ إن ثقَّفَ ذَا النَّبْوة الفَرِيده، والهَفْوة الوحِيده؛ آقتصر علىٰ ما يُوافِقُه الوالِدُ الحَدِب، من مُقَوِّم الأدَب [وإنْ قبَضَ](١) علىٰ المرتَكِس فى غَوَايته، المُفْلِس فى عِنَايته؛ ضَيَّق عليه مجالَ العَفْو، وأحاق به ألِيم العذاب والسَّطْو؛ فقد سكنَتِ الرعيَّةُ فى عَدْله، وأوَتْ حَرَما مَنيعا من ظِلِّه؛ ووَثِقتْ أنَّ الحق بنظره شامِخٌ شاهِق، والباطلَ سائخ زاهِق؛ والإنصافَ مبْسُوط منْشُور، والإجحافَ محْطُوط مبْتُور؛ والشَّمْل منْظُوم، والشَّرّ مضْمُوم. فنطقَتْ ألسِنَتُها بإحْماده، وآشتمَلَتْ أفئِدتُها علىٰ وِدَاده؛ وآتفقَتْ أهواؤُها علىٰ رِياسـتِه، وتطابقَتْ آراؤُها المسابِقةُ علىٰ دَوامِ سِيادَتِه؛ وعرفَ أميرُ المؤمنين عَدْقَ النظر فى دَوْلته؛ وسلَّم أمورَ مملكته إلى النَّصِيح المأمُون، والنَّجِيح المَيْمُون؛ الذى وفَّقَه اللهُ تعالىٰ لآختياره، ويَسَّره لآصطِفائِه وإيثارِه؛ وأنَّه قد نَاط أُمورَه بمن لم يستخِفَّ ثَقِيلَ حِمْلها، ويَنُوءُ بباهِظِ ثِقْلها؛ فتمتَّع بلَذِيذ الكَرىٰ، وتَوَدَّع بعـدَ السَّيْر والسُّرىٰ؛ وأمِنَ من إلمـامِ مُلِمٍّ مُعْضِل، وحُدوث حَدَثٍ مُشْكِل . وهـذه نعمةٌ تعُمُّ الخاصَّة والعامَّة عُمومَ الغيثِ إذا هَمَع وتدفَّق، وتشْـمَلُهم شُمولَ النهـار إذا لَمَع وتألَّق؛ وهم أوْلىٰ بالتهنئة فيهـا وشكْرِ الله تعالىٰ عليها .

وسيدُنا الوزيرُ حقيقٌ بأن يُهْدىٰ إليـه الدعاءُ المرفُوع، والتضرُّع المسمُوع؛ بأن يُنْهِضَه الله تعالىٰ بمـا حَمَّله، ويُعِينَه علىٰ ما كَفَّله؛ ويتولَّاه بتوفيق يثقبُ أنوارَه، وتأييـدٍ يُطَبِّق غِرارَه، وتسـديدٍ يحَسِّن آثارَه؛ وإجراءِ ما يتولَّاه علىٰ أوْضح سبيلٍ وأقصَده، وأرجحِ دليلٍ وأرشَده؛ إذ لا يجوز أن يَهْنَأ بمـاله عياؤُه وكَلُّه، ولمذْعِنيه صلاحُه كلُّه . والعبـد يسألُ اللهَ ضارعًا لديْه، باسطا يده إليه؛ فى أن يَقْبَـل صالحَ أدعيَته لحضرة الوزارة السامِيَة؛ وأن يجعل ماأحَلَّه فى محَلِّه من رياستها، وأوقعه

(١) الزيادة يقتضيها المقام كما لا يخفى .

فى مَوْقِعه من سياستها؛ دائبًا لاينْتزَع، وخالدا لايرتَجع؛ وأن يؤيِّدها فيه بما يقضى له بالإحْراز والتَّخْويل، ويحْمِيه من الابتزاز والتحويل؛ إنّه سميعُ الدعاء، فعَّالٌ لما يشاء؛ إنْ شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — التهنئة بكَفَالة السلطنة :

وهذه نسخةٌ من ذلك، كُتِب بها عن نائب الشام، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُبَاتة، وهى بعد الألقاب :

لازالَ دائرًا بهنائِه الفَلَك، مُنيرا بضِياء عَدْله وبِشْره الحَلَك؛ قريرًا بحُسْن كَفَالته المُلْكُ شاهدًا بفضل أسمائِه وسِمَاته المَلَك، مقسوما بأمرالله نَدَاه وبأسه ليَحيا مَنْ حَىَّ ويَهلِكَ مَنْ هَلَك؛ تقبيلًا يُشافَهُ به التُّراب، ويُشاهَدُ شَرَفُ مَطْلَعه علىٰ السَّحاب . ويُنهِى قيامَهُ علىٰ قَدَمِ وَلاءٍ ودعاء : هذا يَنزِلُ القلبَ وهذا يَصْعَد إلىٰ الأُفُق، ومُقامَه علىٰ بُشرىٰ وحمدٍ منهما الأمنُ يحلّى بوصْفِه النُّطْقُ كما تُحَلّىٰ الأعطافُ بالنُّطُق؛ وأنه ورَدَ مثالٌ شريفٌ علىٰ يَد فلانٍ يتضمَّن البِشارةَ العامَّه، والمَسَرَّة التامّه، والنعمةَ التى يُعوِّذُ سَنَا جَبِينها من كل عينٍ لامَّه؛ وخبرَ الخيرِ الذى حَيَّت أزهارُه المتضوِّعةُ نَدَّ مِصْرَ فأوّلُ مابلَّغه مَنافِسَ الشام شامَّه، بأنَّ المواقفَ الشريفةَ ــ أعزَّ الله تعالىٰ سلطانَها ــ قد فوّضَتْ إلىٰ مولانا كَفالةَ الإسلام وبَنِيه، وكِفايَةَ المُلْك بصالح مُؤْمِنيه؛ ونيابةَ السلطنة الشريفة وما نَسقَتْ، وتدبيرَ الممالك وما وَسَقَتْ؛ فيالها بُشرىٰ آبتسَمَتْ لها ثغورُ البَشَر، ومسَرَّةً آستجلىٰ سَنَاها مَنْ آمَنَ وبُهِتَ الذى كَفَر، وخبرًا تلقَّت الأسماعُ بَرِيدَه منشدة : قُلْ وأعِدْ بأطْيَبِ الخَبَر؛ هُنالك أخذ المُلوكُ حَظَّه من خيرِ بُشْرىٰ، ونصيبَه من مَسَرَّةٍ حُمِد بصَباح طِرْسِها المَسْرىٰ؛ وحمِدَ الله تعالىٰ علىٰ أن أقام لسلطانِ البسيطة من يَبْسُطُ العدْلَ والإحسانَ لَمنَابه، ويقلِّد رعيَّته

عقودَ النِّعم إذا تقلَّد ماوراءَ سَريره و بابِه ، ومَنْ إذا كَفَل سيفُه ممَالكَ الإسلام وثِقَتْ بالمَغْنَم والسَّلامه ، و إذا كتب قلمُــه قالتْ ولا سِيَّمــا أخبارُ جند المسلمين : هكذا تكونُ العَلاَمه ؛ وجهَّز المملوكُ هــذه الخدمةَ نائبةً عنه فى تقبيل الأرض ، وعَرْض الهناء بين يَدَىْ من يُسَرُّ المملوكُ بوَلاَئه اليومَ ويرجُو أن يُسَرَّ به يومَ العَرْض ، ولو وصفَ المملوكُ ماعنــدَه من السُّرور والشَّوْق لضاق الورقُ عن تسطير الواجب منه وضاقَ الوقتُ عن أداء الفَرْض ؛ والله تعــالىٰ يجدِّدُ لمولانا ثمراتِ الفضلِ الواضِح ، والرأى الراجِح ، والقَــدْر الذى هو علىٰ مِيزان الكواكِب راجِح ، ويمتِّعنا كافَّةَ المماليك بدَوْلة سلطانه الذى علم البيتُ الشريفُ أنَّه علىٰ الحقيقةِ الخلَفُ الصَّالِح .

وهذه نسخة تهنئةٍ لأمير جانْدار بولاية إمْرةِ جاندار ، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُباتةَ ، وهى بعد الألقاب :

أعلىٰ اللهُ منارَها ومَنالَها ، وخلَّد قبولَهــا وإقبالَها ، وأجزل من الغَضِّ الذى تناولتْه ثَمَرها وأسبَغَ به ظِلالَها ، ولا زال فى سَيْفها وعَصاها مآربُ للمُلْك ، وفى بأسِها ونَداها مواقعُ للنَّجاة والهُلْك ، ولا بَرِحتِ القُضُب من سُيُوف وغُصون : هــذه حاكمةٌ بسَعْدها حُكْمَ الملك ، وهذه مُسَخَّرة فى تجريدها تسخيرَ الفُلْك ، تقبيلَ مخاصٍ فى وَلاَئه ودُعائه ، مُهَنَّإٍ القلبِ مسرورٍ بمــا يتجدّدُ من مَسَرَّات مولانا وهَنائه ؛ ويُنْهِى أنه بلغه ماأفاضتْه الصدقاتُ الشريفةُ علىٰ مولانا من المَبرَّات ، وما جَدّدتْ له من المَسَرَّات ؛ وأنها ضاعفَتْ مزيدَ الإحسانــ إليه ، ودعَتْه أميرَ جاندار وَدَّت العِصيُّ النُّجوميَّة لو قدّمتْ نفْسَها بين يَدَيْه ؛ وأنَّ المواقفَ الشريفةَ قرَّتْ به عينا وأقرَّتْ ، وأنَّ الدولة القاهرةَ ألقَتْ عصاها إليه وآستقرَّتْ ؛ وكما سَلَّمت إليــه العَصا فى السِّلْم سَلَّمت إليه السيــفَ فى الحَرْب ، وكما قرَّبَتْــه فى مواقف العَدْل والإحسان قرَّبتْــه فى مواقف الطَّعْن والضَّرْب ؛ فأخذ المملوكُ حظَّه من البُشْرىٰ ، وأوجب علىٰ نَفْســه الفــرَح

وسَجدَ للهِ شُكرا ؛ وودَّ لو حضَر يُشافِه بهـذا الهَناء الشامِل ، ومَثَل قائمًـا لديْه بحقِّ التهنئة القيامَ الحقيقىَّ الكامل ؛ وحيثُ بعُـدَتْ دارُه ، ونأتْ عن العِيان أخبارُه ؛ فقد علِم الله تعالىٰ مُواصلَتَه بالأدعية الصالحةِ ليْلا ونَهارا ، والموالاةِ والمحبَّة التى يشْهَد بها الخاطِرُ الكريمُ سِرًّا وجِهارا ؛ واللهُ تعـالىٰ المسئُول أنْ يزيدَ مولانا من فضله ، ويَسُرَّه بمتجدِّداتِ الخير الذى هو من أهلِه ؛ ويمتِّعنا كافَّةَ المماليك بدوام سلطانِ هذه الدولة الذى شَمِل بظله ، وغَنِى بنَصْره عن نَصْله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـالث ــ التهنئــة بالإمارة .

من كلام الأقدمين :

تهنئـــة من ذلك ، أوردها أبو الحسين بن سَعْد فى ترسُّله ، وهى :

وهَنأ اللهُ الأميرَ مواهِبَه الهنِيَّـه ، وعطاياه السَّوِيَّه ؛ وأدام تمكينَه وقُدْرتَه ، وثبَّت وَطْأتَه ، وحَرَس ماخَوّله ؛ وجعـل مَاهيًّأ له من مُؤتَنَف الكرامة أيمَنَ الأمُور فاتِحـةً وأسعَدَها عاقِبه ؛ ووصل أيَّامَه بأجمل الوِلَايه ، وأجَلِّ الكِفَايه ؛ حتّى ينتهِى [من] ٱستِيفاءِ سعاداتِ الحُظُوظ وحَوْز القِسَم والآمال ، [إلىٰ] الدرجةِ التى تليقُ بما أفرده اللهُ به من الكمال ، وخَصَّه به من الفضل فى جميع الخِصَال . ومن أفضلِ ماأعتَدُّ به من نِعَم اللهِ علَىَّ بالأمير وبجميل رَأيه ، ومَحَلِّى من طاعتِه وخِدْمته ؛ أنِّى لا أخلُو فى كل وَقْت وحالٍ من بَهْجةٍ تَجدَّدُ لى ، ومسرَّةٍ تصلُ إلىَّ ، وتتوفَّرُ علىَّ ، بمـا يُسَهِّله الأمير علىٰ يده من مستصْعَبِ الأمور ، ومستَغْلَق الخُطوب ؛ التى تبْعُد عَمَّن يُزاوِلُهـا ، ويجعل اللهُ بطَوْله وحَوْله للأميرِ القُدرةَ عليها ، ويتَوحَّد بالكِفَاية فيها ؛ فينْمُو بجميل تدبيره ولَطِيف نَظَره ، ويَطَّرِدُ بصاعِدِ نَجْمِـه ويُمْن نَقِيبته وعِزِّ دَوْلتِـه ؛ وذلك من فَضْل الله ونِعْمته ، يُؤْتِى فَضْلَه مَنْ يَشاء وهو ذُو الفَضْل العَظِيم .

الصنف الرابع — التهنئـــة بولاية الحجابة .

وقد كانَ لها فى الزَّمنِ القديم المحلُّ الوافرُ فى الدولة وعُلُو الرتبة فيها .

من كلام الأقدمين :

تهنئـــةٌ من إنشاء أبى الحُسَين بنِ سعد، كُتِب بها إلىٰ أبى بكر بن ياقوت حين وَلِىَ الحِجَابةَ بعد نَكْبةٍ أصابته، وهى بعد الصدر :

وقد كانتْ أنفُسنا مَعْشَرَ عبيدِ سيدِنا وحَمَلةِ إنعامه، ومؤَمِّلى أيامه، فى هذه الأحوال التى نقد سـيدنا منها فيما ٱبتلاه صَبْرَه، وأبانَ فيه قَدْرَه؛ وزاد العارِفَ بفضله نفوذا فى البَصيره، وأعاد ذَوِى الاِرتياب فيه إلىٰ الثِّقَة؛ فٱستوىٰ المنازع والمُسَلِّم، وٱستوىٰ العالمُ والمُعانِد ـ نعمةٌ منه تعالىٰ ذكره خَصَّه بها وصانَهُ عن مُشاكلَة النظير، ومُزاحمةِ الأَكْفاء ـ علىٰ سبيل من القَلَق والاِرْتِماض، والسُّقُوط والاِنْخفاض؛ جَزَعا من تِلْكَ الحـال الغَلِيظه، وإشفاقًا علىٰ تلكَ النَّفْس النَّفِيسـه؛ وخوفًا علىٰ مَعالِم البِرِّ والتُّقىٰ، وبَقِيَّة العلم والحِجَا، وتاريخ الكَرَم والنَّدىٰ؛ أن يَدْرُسَ مَنَارُها، وتُطْمَسَ آثارُها؛ ولولا مامنَّ اللهُ به من الخَلَاص منها وما مَنَح بكرمـه فى عاقِبتِها، لأَوْشَكَتْ أن تأتِىَ عليها وتُعْجِلَها عن مَواقِيتِ آجالها؛ لكنه عَظُمت آلاؤُه، وتقدّسَتْ أسماؤُه؛ أَتَىٰ بالأَمْن والفَرَج، بعد ٱستيلاء الكَرْب والوَجَل، وٱنْبِتات أسـبابِ الرَّجاء والأملْ؛ فعرَفَ سيدُنا مَوْقِعَ الخِيرَةِ فيما قَضاه، ومُيِّز له الخبيثُ من الطيِّب ممَّنْ عاداه وتَولَّاه؛ وجعل النعمةَ التى جدّدَها له فيما ردّه أميرُ المؤمنين إلىٰ تدبيرِه من أَمْرِ دارِه ومملكته، وحِراسة بيضـة رعيَّته، مشتركَةَ النفْع والفائده، مقْسومةَ الخَيْر والعائده؛ بينَ كافَّة الأُمّة فيما عَمَّ من المَعْدِله، وشمل من المَصْلحه . ولاحَ من تَبَاشِـير الخير، وأماراتِ البركة، فى ٱستقامة أمور البِلاد، وصلاح أحوالِ العباد؛ وأفرد اللهُ سيدَنا بحَظٍّ من

المَوْهِبَـة وفَّانى فيه علىٰ حُظُوظ الأولياء، وزادنى علىٰ سِهَام الشُّركاء . وأنا أرغَبُ إلىٰ الله فى إسعاد سيدنا بما جدّدَهُ له، وتَعْرِيفه بركةَ مُفْتَتَحه ويُمْنَ خاتِمته. والحمد لله فى مُبْتَـداه، والسلامةِ فى عُقْباه؛ وتبليغِه من حَظّ مأمول، وخيرِ مَطْلوب؛ وحالٍ عَلِيّـه، ورُتْبة سَنِيّه؛ أفضلَ ما بَلَّغ أحدا آختصَّه بفضله، وآصطفاه من خَلْقه، إنه جَوَاد ماجِد . فإنْ رأىٰ سـيدُنا أن يتطوّل بإجراء عبدِه علىٰ كريم عادتِه فى تشريفه بمكاتبتِه، وتصريفِه فى أمره ونهيه، محقّقا بذلك أمَلَه، وزائدًا فى نِعَمه عنده، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

تهنئةٌ أخرى من ذلك، من إنشاء علىّ بن خَلَف أوردها فى "موادّ البيان" وهى:

إنمـا يُهَنّأ بالوِلَاية ـ أطال الله بقـاءَ الحاجب الجليل سـيّدى ومولاى ـ مَنِ آنْبَسطتْ إليها يدُه بعد آنقِبَاض، وآرتَفَع لها قَدْرُه مِنَ آنْخِفاض؛ وأوجدَتْه الطريقَ إلىٰ إحراز جزيل الأجْر والجَزاء، وآكتنازِ جميـل البركة والثَّنـاء؛ وأفضَتْ به إلىٰ آتّساع السُّلْطان، وآنتِفَاع الأَعْوان؛ فأمَّا من جعل الله يَدَه الطُّولىٰ، وقَدْرَه الأعْلىٰ، ورِيَاستَهُ حاصلةً فى نفسه وجوهره، وسِيادتَهُ مُجتناةً من سِنْخه وعُنْصُره؛ فالأَوْلىٰ ـ إذا آسْتُكْفِىَ رَغْبـةً فى إنصافه وعَدْله، وحاجةً إلىٰ سَـدَاده وفَضْله، وآفْتقارًا إلىٰ فَضْل سِيرته، وآضْطِرارا إلىٰ فاضل سِياسَتِه ـ أن تُهنَّأَ الرعيَّةُ بوِلَايته، وتُسَرَّ الخاصَّة والعامَّة بمـا عُدِقَ من أمورها بكفَايته؛ وغيرُ بِدْعٍ ربْطُ(١) أمير المؤمنين بالحاجب الجليل أمْرَ حِجابته، ونَصْبُه لِلزَّحمة(٢) عن حَضْرته، وجعْلُه الوَسِيطَ والسفيرَ بينَه وبينَ خَواصِّ دَوْلته، وقد وَثِق بيُمْنِ نَقِيبته، وآطَّلع علىٰ خُلُوص نِيَّته، وسكَنَ إلىٰ صِدْق طاعتِـه، وعَرَفَ طهارةَ جَيْبه، وسلامةَ غَيْبه، وصِدْقَ لَهْجته، وحَصافَةَ أمانَته؛

(١) فى الأصول ارباط ولم نقف على فعله فيا بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) أى الدفع والذب يقال زحمته عنه أى دفعته انظر المصباح .

واعتمادَه للحقّ فيما يُورِد ويُصْـدِر ، ويَنْهى ويُجيب ؛ وٱبتلاه فعَرَف طِيبَ طُعْمته ، وخِفَّةَ وَطْأته ؛ ورأْفتَه بالضَّعيف المَهْضُوم ، وغِلْظَته علىٰ العَسُوف الظَّلُوم ؛ [فرأىٰ] أن يُحِلَّه محلّ مَنْ لا يَغِيب عمَّا شَهِده ، ولا يرتابُ بمـا سمعه ، علىٰ أنّنى المهَنَّأ بكل نعمةٍ يجدّدها الله لديْه ، وسعادةٍ يُسْبِغُها عليه ؛ [ولو أنصفت] لسلَكْتُ من الصَّواب سَنَنا ، وٱعتقَدْتُ جميلًا حَسَنا : لٱستشعارى بالأنْفَس من لَبُوس سِيادَته ، وتَحَلِّى بالأنْصَع من عُقُود رِياسته ؛ وإذا كانت رعِيَّتهُ أجدَرَ أن تُهَنَّأ بوِلَايته ، وتَعرِفَ قَدْر ما لها من الحظّ فى نظـره ؛ فأنا أعْدِلُ من هنائه إلىٰ الدُّعاء له بأن يبارِكَ اللهُ تعـالىٰ له فيما قَلَّده ، ويُوفِّقَه فيما وَلّاه ويُسَدّدَه ؛ ويُلْهِمَه ٱدّخارَ الثوابِ والأجْر ، وٱكتنازَ الحمد والشكر ؛ والهدايةَ إلىٰ سَنَن الٱسـتقامه ، وما عاد بمحبَّة الخاصَّـة والعامه ؛ وإنهاضَه فى خِدْمة أمير المؤمنين ، والعَمَل من طاعته بما يُزْلِفُ فى الدنيا والدين ؛ واللهُ يستجيبُ فى الحاجب الجليل هذا الدعاءَ ويَسْمَعُه ، ويتقبَّلُه ويرفَعُه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الخامس — التهنئـــة بولاية القَضاء .

التهنئة بذلك من كلام الأقدمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء علىّ بن خلف ، أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

أَوْلىٰ المِنَح أن يُتفاوض شكْرُها والتحدّثُ بها ، ويُتقارَضَ حمدُها والقيامُ بواجبها ؛ نعمـةٌ شَمِلَ عِطَافُها ، وعَمَّت ألطافُها ؛ وٱشترك الناسُ فيها ٱشتراكَ العُموم ، وحلَّتْ منهم فى النفع محـلَّ الغيث السَّجُوم . وهـذه صورةُ النعمة فى ولاية قاضى القُضاة — أطال الله بقاءه — لمـا تتضمَّنه من إثبات العَـدْل والإنصاف ، وٱنحِسار الجَوْر والإجْحاف ؛ وٱعتِلاء الحقّ وظُهوره ، وٱختلاءِ الباطل وثُبُوره ؛ وعِزّ المظلوم وإدالتِه ، وذُلّ الظَّلُوم وإذالَتِـه ؛ وتمكين المضْعُوف وٱقتدارِه ، وٱنْخِزال العَسُوف وٱقتِساره .

وإنْ هَنَّأْتُه حرس الله عُلَاه بمَوْهِبَة أتىٰ بارقُها بجميل الثَّناء ، وجزيل الجَزَاء ؛ قد ناء من تحمَّلَها بباهظ الشيء ومتعبه ، وقام من سئلها بكل الأدب ومنصبه ، عدلت عن الأمثل وضَلَلْتُ عن الطريقة المُثْلىٰ ؛ لكنِّى أهنِّئه خُصوصًا بالمَواهِب المختصَّـة به ٱختصاصَ أطواقِ الحمـائم بأعناقِها ـ والمناقِبِ المُطيفـةِ به إطافَةَ كواكب السَّماء بنِطَاقها ، فى أنْ ألَّفَ اللهُ القلوبَ المتباينةَ علىٰ الإقرار بفَضْله ، وجمعَ الأفئدةَ المتنافيةَ علىٰ الآعتراف بقُصُور كلِّ محلٍّ عن محلِّه ، وجعل كلَّ نعمةٍ تُسْبَغ عليه ، ومِنَّة تُسْدىٰ إليه ؛ موافقةَ الآمالِ والأمانِى ، مُفْضِيَةً للبشائر والتَّهانِى : لأنَّ مَنْ أحبَّ الحقَّ وآثره ، ولِبِسَ الصِّدْق وٱستشْعره ؛ يَنْطِقُ بلسان الإرادةِ والآختيَار ، ومَنْ تركهُما وقلَاهما ، وخلعَهُما وألْقاهمـا ، ينطِقُ بلسانِ الآفتقار والآضْـطِرار ـ والخصائِص التى هو فيها نَسِيجُ وَحْدِه ، وعِطْرُ يومِه وغدِه ـ والمحاسنِ التى هى أَنَاسِىُّ عيونِ الزَّمان ، ومَصابِيحُ أعيانِ الحُسْن والإحْسان . ثم أُعودُ فأُهنِّئُه عمومًا بالنِّعم المشتَركةِ الشُّمُول ، الفَضْفاضةِ الذُّيُول ؛ التى أقرَّتِ القَضاءَ فى نِصَابه ، وأعادتِ الحكَمَ إلىٰ وطَنِه بعد نُجْعتِه وٱغْترابه ؛ وأعلَتْهما فى الرُّتْبة الفاضلة ، وقَدَعتْ بهما أنْفَ الذِّروة العالِيَه . وأرفَعُ يدى إلىٰ الله تعالىٰ داعيًا فى إمداد قاضِى القُضاة بتوفيقٍ يُسَدِّدُ مَرامِيَه ، ويُرْشِد مَساعِيَه ؛ ويهَذِّب آراءه ويصَحِّحها[1] ، ويُبْلِج أحكامَه ويُوضِّحها ؛ ويخَلِّد عليه النعمةَ خُلودَها علىٰ الشاكرين ، ويُبَصِّره بحُسْن العقبىٰ فى الدنيـا والدِّيـن ؛ وهو سبحانه يتقَبَّل ذلك ويرفَعُه ، إن شاء الله تعالىٰ .

التهنئة بذلك ، من كلام أهل العصر :

تهنئة من ذلك : أوردها الشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبى فى كتابه "زَهْر الربيع فى الترسُّل البديع" وهى :

(١) فى الأصل ويفخمها وهى تصحيف لا يناسب المقام .

أنفَذ اللهُ تعالىٰ أحكامَه، وشكر إحسانَهُ و إنعامَه؛ وخلَّده ناصرًا للشريعة المطَهَّرة وأَدَامه، وجدّد سَعْدَه وأسعد أيَّامَه؛ وجعله المسترشِدَ والمقتفِيَ بأمر الله والرَّاشدَ والمستنْجِد والمستَنْصِر والنـاصِر والعاضِـد، والحـاكم القـائم بأمر الله (١) من القُضاة الثلاثة الواحِد .

المملوكُ يقبِّل اليدَ العاليــة تبرُّكا بتَقْبِيلها، وأداءً لواجب تعظِيمها وتَبْجِيلها؛ ويهنِّئُ المَوْلىٰ بمـا خصَّهُ الله تعالىٰ من مُضاعفة نَفَاذ كلمته ورَفْع منزلتِه ، وإمضاءِ أحكامه الشريفةِ وأقضِيَتِه؛ وتقليده أمورَ الإسلام، وتنفيذِ أوامره فى الخاصِّ والعام؛ ويهنِّئُ بالمَوْلىٰ مَنْ رُدَّت أمورُه إليـه، وعُوِّل فى ملاحظةِ مصالِحه عليه؛ فإنَّ مَوْلانا مازال بالعِـلْم والعَمَل مشهورا ، وسعْيُه فى الدنيـا والآخرةِ سَعْيا مشكُورا؛ ويقظةُ مولانا جديرةٌ بزيادةِ الآهتمام، والآحتياطِ التامّ؛ بملاحظةِ طلبةِ العلم والمشتَغلين، والفُقَهاءِ والمدرِّسين ؛ وسَــبْر أحوال النُّوَاب ، وأنْ لايكفِيَهُ الآعتمادُ علىٰ حسن البِزّة وطهارة الأثواب؛ بل يُمْعِنُ فى الآطِّلاع علىٰ مايعتمِدُونه النَّظَر، ويُلاحِظ كُلًّا منهم إن غاب عن مجلِسه أو حضَرَ؛ فَمَنْ رآه يَهْدِى إلىٰ الحقِّ وإلىٰ الطريق المسـتَقِيم، ولا يَقْرَب إلا بالتى هى أحسَنُ مالَ اليَتِيم ؛ فيحقِّق له من العِنَـاية أمَلا ، ولا يُضِيع أجْرَمَنْ أحسَنَ عملا ؛ حرس اللهُ المولىٰ ومتَّع بحياته ، وأعاد علىٰ الكافَّة بركةَ صِيامِه المقبُول وصَلَاته؛ ونفع الإسلامَ بمستجاب دَعَواتِه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف السادس ــ التهنئة بوِلَاية الدعوة علىٰ مذهب الشِّيعة .

وقد تقــدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدَّولة الفاطميَّة، بالديار المِصْرية، ذِكْرُ موضُوعها وعُلُوّ رُتْبتها عندهم؛ وإنمـا ذكرناها حِفْظا للأصل ولآحتمال وُقُوعها.

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله حتى يكون من القضاة الخ .

تهنئةٌ من ذلك : من إنشاء عليّ بن خَلَف، أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

أطال اللهُ بقاءَ داعِى الدُّعاة لصَبَاح من الرحمة يُبْلِجه، وطريقٍ من الحكمة يُظْهِر بيانَه، وليلٍ من السُّنَّة يَنْزِع طَيْلسانَه؛ وحَرسه علىٰ الإيمان يُجَدّدُ ماأخلَقَ من بُرُوده، ويُنَظِّم ماوَهىٰ من عُقُوده؛ وعلىٰ المؤمنين يفتَحُ لهم أبواب الرَّشاد، ويُهْمِى إليهم سَمَاءَ الإفادة والإمْداد . ولا زالت الحقائقُ مقصودةً منه بالمِيزَة التى رشَّحتْه لحِفْظ مبانِيها، وأهَّلته للعِبارة عن مَعَانِيها؛ حتّى يرقُمَها فى الأَخْلاد، ويَمْحُوَ بهارُسومَ العِناد، ويَنْشُر بُشَرَها فى الآفاق والبِـلاد . أنا أعْدِلُ عن هَنـاءِ داعِى الدُّعاة ـ أطال الله بقاءه ـ بماعُدِق به من أمرِ الدَّعْوة الهادِيَّة العَلَوِيَّه، ونُصِب له من فَرِّ مَضَاحك المُشْكلات عن أسرار الحقائق الإلٰهِيَّـه، والترجمِة عن غوامض الحِكَم الشَّرْعيَّه؛ والتوقيف علىٰ مَوَارد الهُـدىٰ ومَشَارعه، والإرشادِ إلىٰ مَشَارق الحق ومَطالِعه؛ إلىٰ هَنـاءِ الدَّعْوة وأهلِها بمـا قيَّضه الله تعالىٰ لهم من مَحلّه الرفيع الذى ألحقه العقلُ نحوَ هذا الكمال، ووطَّأ له مَدَارجَ الترقِّى والاتِّصال؛ فشَفَّتْ نفسُه وشَرُفَتْ، وتطلَّعتْ علىٰ عالَمِ المَلَكوت وأشرفَتْ؛ وجَنىٰ بيَدِ التَّبصِرَة ثِمـارَ الحِكْمه، وٱستنْزلَ بمَنْزِل المُوادّ غُيوثَ النِّعمه؛ وجَرَّد الضِّـياء من الظلام، تجريدَ الأرواح من الأجسام إلىٰ دار السلام؛ وٱستمَدّ بلطيفته موائدَ علوم عالَمِ اللَّطافه؛ وأمدّ بمركَّب ألفاظها تحا كم الكافَه، وحَلَّ فى الغَبْراء محلَّ الغَرَّاء فى الخَضْراء، إنْ أوضحَتْ سبيلَ سائرٍ بجنب طريقٍ جائرٍ تُوَصِّل بنزوعها غاشية إظلام، حُسِر عن الحق قِناعُ إبهـام، أوفعلَتْ(١) فى الجواهرِ زيادة وثمرة (؟) أخذت تعاديا(؟)فأدْلَته للهمم العاملة شَرَفًا وسُمُوًّا : لما أعلىٰ بذلك من قَدْرها وقَدْرِهم، وطيَّب من ذِكْرها وذِكْرهم؛ وأعْطِف إلىٰ الدعاء لداعِى الدُّعاة بأن يجعل اللهُ تعالىٰ

(١) كذا فى الأصلين ولم نهتد الى تثقيفه تأمل .

ماخُوّله من هذه الرِّياسة راهنًا لا يُرتَجَع، وما نُوّله من هذه السيادةِ مستقِرّا لا يُنْتَزَع؛ وأن يؤيِّده بالتوفيق، ويُعبِّد له مَنَاهِج التحقيق؛ ويُطْلِق لسانَه بالبيان، ويُمِدّه برُوح منه فى نُصْرة الإيمـان؛ وقد حَتَم الله تعالىٰ باجابة داعيه، ولا سيمـا داعى الدُّعاة [فإنه] جدير بأن يُجاب الدعاءُ فيه، إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى "مواد البيان": وإنمـا أوردت هذا المثال بهذه الألفاظ، لأن ألفاظ هذا الدّاعى يجب أن تكون مشتقّة من ألفاظ الدعوة، مناسبةً لمَذْهبها؛ ولولا ذلك لأُغنىٰ عنـه مثالُ تهنئة قاضى القضاة؛ ومن تأملهما عرَف مابينهما من الفُرْقان .

الصنف السابع — التهنئـــة بالتقدمة علىٰ الرجال .

رُقعةٌ من ذلك :

[من حلّ] محـلّ سيدى - أطال الله بقاءه - من السُّؤْدَد الناطقِ الشَّواهـد، المنتظِم المَعَاقِد، المُتضارِع الطارِف والتالِد، المنتقِل فى الوَلَد عن الوالد- والمجدِ الذى قَصُر عن مُطاوَلَتِه الطِّرازُ الأوّل، وتَطأطأ له الإنعامُ المخوّل؛ وحاز ماحازه من شَرَف الرِّياسه، وفَضْل السِّياسه، والاستقلالِ بحقُوق ماتولّاه، وتَسْديد مانوّله وٱستَكْفاه؛ فتشوّفَتْ إليـه أعالى الرُّتَب، وتشوّقَتْ إليه المنازلُ السنيَّة من كَثَب- خطبَتْه العُلَا سائقة عنه مَهْرَها، وتَطامنَتْ له مُوَطِّئةً ظَهْرَها؛ فلم يَكْثُر له أن يتقدّم علىٰ [أهل] عَصْره فَضْلا عن قبيلته، ويتأمَّر علىٰ جميع نَوْعه فضلا عن طائفته: لأنه المقدّمُ عليهم بالرُّتْبة والطَّبْع، لا بالاصطلاح والوَضْع؛ فشكَرَ المملوكُ اللهَ تعـالىٰ علىٰ بُزُوغ هِلَاله وإبْراقه، وطُلوعه لميقات العز وتنفاقه؛ وسأله أنْ يجعلَ ماأقرَّ العيونَ من سـيادته، وحَقَّق الظنونَ فى سـعادته؛ خالدًا راهنـا، ومُقِيمًا قاطِنا؛ وأن يَزيده من السعاده، ويُرقِّيَه كلَّ يوم فى دَرَج السياده : لتكونَ هـذه الرتبةُ علىٰ ٱمتناعِ مَرْقَبها، وٱرتِفاع

مَرْكَبِها ؛ أوّلَ درجة تخطّاها ، ومنزلةٍ فرَعَها وعَلَاها ؛ ثم لايزالُ راقيا فيما يتلوها حتّى يحتَذِىَ بكواكب الجَوْزاء، ويَطْحُودارةً علىٰ الخُلَفاء، مُهَنّأ غيرَ منغَّص، ومُزَيَّدا غيرَ منقَّص ؛ والله تعالىٰ يجيب هذه الأدعيةَ الواقعةَ مواقِعَها ، والمستحَقّات الموضوعةَ مواضِعَها .

الصنف الثامن — التهنئةُ بولاية الديوان .

رُقعةٌ من ذلك :

ويُنْهِى أنَّ من حَلَّ محلَّ مولانا — أطال اللهُ بقاءه رافلًا فى لَبُوس السَّعاده ، متحَفِّلا بسُلُوس السِّياده ؛ متنَقِّلا فى رُتَب المَجْد ، متوقِّلا إلىٰ غَدَنِ(١) الجَدّ ؛ مستَوْليا علىٰ شِعَاب العُلَا ، متمكِّنا من رِقاب الأعداء — فى الاستقلال والاضطلاع ، والمعرفة بحقُوق الاصطفاء والاصطناع ؛ ورفعة مذهَبِه علىٰ الكِفَاية والغَنَاء ، والنهوض بثقيل الأعباء؛ خطبَتْه التصرُّفات حاملةً عنه صدَاقَها، وتشوَّفتْه الولاياتُ مادَّةً إليه أعناقَها ؛ وقد اتَّصل بالمملُوك ماجدّده الله تعالىٰ من سعادَتِه ، وأنجزه من مَواعيد سيادتِه ، التى كانت واضحةً فى مَخَايِل فضله ، لائحةً فى دلائل نُبْله ، مكتُوبةً فى صَفَحات الأقدار ، مرقومةً بسَواد اللّيْلِ علىٰ بيَاضِ النهار ؛ فجَذِل المملوكُ بذٰلك ، جذَلَ الحَمِيم المُشارِك ، وسُرّ به سرورَ الخليطِ المُشَابِك ؛ وليس ذٰلك لأنَّ الذى تولَّاه مَوْلانا وجدَ [فيه] خَللا فرَقَعه ، وخُمولا فرفَعه ؛ بل لأنَّ الحقّ غالَبَ الحظَّ فغلَبَه ، والواجبَ سالَبَ المُمْكِنَ فسلَبَه ؛ وأناخَ رِكابَ الرِّياسة فى المحلِّ الخِصْب الذى يحمَدُه ويرتَضيه ، واللهُ تعالىٰ يتفضَّل علىٰ رعيَّته ، المتوطِّنين بفاضل سياسته ، من حِبائِه ولطفه ، ورأفته وعَطْفه ، بما يُسْبِغ عليهم ظلالَ العَدْل ، ويقلّص عنهم سُدُولَ الجور والحَيْف ، إن شاء الله تعالىٰ.

(١) فى "اللسان" الغَدَن سعة العيش والنعمة .

قلت : وكتبتُ للمقرّ البَدْرىّ محمودٍ الكلستانى الشهير بالسَّراى مهنِّئا له باستقراره فى كتابة السِّرّ الشريف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية «برقوق» فى سلطنته الأُولىٰ :

رَفَعْتَ للمَجْدِ مُـــذْ وُلِّيتَ بُنْيـانَا * وشِدْتَ للفَضْل بَعد الوَهْن أركانَا !
وأصـــبحَ المُلْكُ فى زَهْوٍ، ومالِكُه * يَمِيسُ عُجْبًا، وهَنَّا التَّخْتُ إيوانَا !
قدِمْتَ مِصْرا فأمسَتْ مِنْكَ فى فَرَحٍ * تَهُـزُّ بالبِشْرِ من لُقْياكَ أرْدَانا !
وغُودِرَ النِّيـلُ مُذْ وَافَيْتَ مُبْتَهِجًا * وقد رَمىٰ الصَّـدُّ والإبعادُ جَيْحانا !
ألفاظُكَ الغُرُّ صارَتْ لِلْوَرىٰ مَثَلا * وكُتْبُكَ الزُّهْرُ بَعْـدَ اللَّثْم تِيجانَا !
تَفُوقُ قُسًّـا إذا تَبْـدُو فصاحَتُها * وَتَفْضَحُ المِصْـقَع المَلَّاقَ سَحْبانَا !
قد أَفْحَمَتْ فى مَجَـازاتٍ بلاغَتُهـا * تُرْكًا ورُومًا وبعد الفُرْس عُرْبانا !
كلُّ المَوَالى إذا وَلَّوْا فلا أسَـــفٌ * إذ أنْتَ باقٍ، ويُبْـقِى اللهُ مَوْلانا !
مولًى به قـــدْ تَشَرَّفْنـا وجَمَّلَنـا * بوجهـــه، ولِذِكْرِ القومِ أنْسانَا !

الصنف التـاسع ـــ التهنئـــةُ بولاية عمل .

أبو الفَرَج الببَّغاء :

عَرَّف الله سيدى بركةَ هـذا العملِ الجَليل، بنبيلِ نَظَره الجميل، وحَميدِ أثَرِه المحروس؛ وتناصُر سياسته الشريفة بسِمَةِ رياستِه؛ ووفَّق رعيَّتَه لشُكْر ماوَلِيَها من فائض عَدْله ومحمودِ فِعْله؛ فالأعمالُ منه ـ أيده الله تعالىٰ ـ بالتهنئة أَوْلىٰ، وبالتَّطاوُل بمـا شَمِلَها من بركات تدبيره أَحْرىٰ؛ والله بكَرَمه يسمَعُ فيه صالحَ الدعاء، ويبلِّغُه أبلغَ مُدَدِ البقاء، فى أسبَغ نِعْمه، وأرفعِ مَنْزِله، وأصدَق أُمْنيَّه، وأنجح طَلِبَه؛ بمَنِّه .

وله فى مثـــله :

لولا ما يَشْرَكُ التَّهـانِىَ من بركات الدُّعاء الذى أرجُو أنْ يسمعَ اللهُ فيك صالِحَه، ويُجِيبَ أحسَنَه ، لأجلَلْناكَ عن التَّهنئة بمستَجِدِّ الأعمـال ، ومستَحْدَث الوِلَايات ، لقُصُورها عن ٱستِحْقاقِك ، وٱنحطاطِها وإن جلَّتْ عن أيْسَرِ واجِبـاتك ، وتعجُّلها بمأْثُورِ كِفَايتك ، وبركاتِ نَظَرِك ، ومواقِع إنصافِك . فهنَّأكَ اللهُ نِعمةَ الفَضْل التى الولايةُ أصغَرُ آلاتها ، والرِّياسةُ بعضُ صِـفاتها ، ولا أخْلاكَ من مَوْهِبَةٍ مُجدَّده ، ومِنْحةٍ مُؤَبَّده .

وله فى مثـــله :

سيدى ـ أيده الله ـ أرفَعُ قَدْرا ، وأنْبَهُ ذِكْرا ، وأعظَمُ نُبْلًا ، وأشهَرُ فَضْلا ، مِنْ أنْ نُهَنِّئَه بوِلَاية وإنَّ جَلَّ خَطَرها ، وعَظُم قَدْرها ، لأنَّ الواجبَ تهنِئةُ الأعمال بفائِض عَدْله ، والرَّعِيّة بمحمُودِ فِعْـله ، والأقاليم بآثارِ رِيَاستِه ، والولايات بسِمَات سِيَاسته ، فعرَّفه اللهُ يُمْنَ ماتولَّاه ، ورعَاه فى سائرِ ما ٱسْتَرْعاه ، ولا أخْلاه من التوفيق فيما يُعانيه ، والتسديد فيما يُبْرِمه ويُمْضِيه .

الأجوبة عن التَّهانِى بالوِلَايات

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكُتُب إذا ورَدَتْ ، وجبَ علىٰ المُجيب أن يستَنْبِط من كل كِتَاب منها المعنىٰ الذى يُجيب به . قال : والطريقةُ المستعملةُ فيها أنَّ كتابَ المجيب يجب أنْ يبنىٰ علىٰ أن المهَنَّأَ قسيمٌ فى النِّعمــة المتجدّده ، وشريكٌ فى المنْزِلة المســتحْدَثة ، وأن الحظَّ الأوفرَ فيما ناله المهَنَّى للمهَنِّى وببركةِ دُعائه ، وتوقعه لمـا يَرِدُ

من حاجاته وتَبِعاته لينفِّـذَها ، نازلا علىٰ أخلص مخالصته ، وعاملا بشُروط مَوَدّته ؛ ونحو هــذا ممـا يضارعه . فإن كان المجِيبُ رئيسا أو مرءُوسا ، وجب أن يرتِّب الخطاب علىٰ ماتقتضيه رتبةُ كلٍّ واحد منهما .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وردَتِ المُشرَّفةُ الكريمـةُ ، أتمَّ اللهُ علىٰ مُرْسِلِها نعمتَه ، وأعلىٰ قدْرَه ومنزِلتَـه ؛ وجعل جَناحَ العِـدا مخفوضا ، وعَيْشَـه فى دَعَةٍ وخَفْض ، وقدْرَه للتمييزِ مرفوعا ، وعدُوّه للتقصير فى آنحطاط وخفْض ؛ فتلقَّاها باليمين ، وظنَّها الريحَ الجنوب لما تحمَّلتْه من رِقَّة الحَنِين ؛ وعِلمَ ما أبْداه فيها من تفضُّلاته ، وآعترَف بالتقصير عن مُجاراته ومُجازَاته ؛ فشنَّفَ سْمعَـه بألفاظٍ كأنَّهنَّ اللُّؤلُؤ والمَرْجان ، وبيَّنتِ البَوْنَ الذى بيْنه وبَيْن غيرِه تلكَ الفصاحةُ والبَيَان ؛ وقابل أياديَهُ بشُكْر لسانه ، وجازاه بحُسْن الدُّعاء عن إحْسانه ؛ ولا يقومُ بشُـكْر فضـلِه اللسانُ ولا الجُثْمان ، وهلْ جَزاءُ الإحْسانِ إلَّا الإحْسان؟ .

فأمَّا ماأشار إليه من الهَنَاء بالمَكان الذى تولَّاه ، وأبداه من المحبَّـةِ التى اوجبَتْ عليه أن يتَوالاه ؛ فاللهُ تعالىٰ يُعينه علىٰ ماهو بصَـدَده ، ويجعلُ الحقَّ والخير جارِيَيْنِ علىٰ لسانه ويَده ؛ ويرزُقه آتباعَ محكَم كتابِه وسنَّةِ رَسولِه ؛ ويُحصِّلُ له من الرُّشْد غايةَ سُوله ومأْمُوله ؛ فإن هـذه الولايةَ صَـعْبةُ المِراس ، وجَوادَها كثيرُ الشِّماس ؛ لٰكن ببركات المَوْلىٰ يحصُل من الله الأَرَب ، ويَسْهُل لأوليائه القصدُ والإسعادُ والطَّلَب ؛ أدام اللهُ ظلَّ المولىٰ وأسـعَدَه ، وأوضح لدَيْه طريقَ السـعادةِ ومَهَّـده ؛ ومنَحَه من الألطاف الخفِيَّة أفضلَ ماعوَّده ؛ بمنّه وكَرَمه .

الضـــرب الثـانى

(التهنئـــةُ بكرامة السلطانـــ وأجوبتُهـا)

وفيـــه ثلاثة أصـــناف :

الصنف الاوّل ــ التهنئةُ بالإنعام والمَزِيد ولُبْس الخِلعَ وغير ذلك .

من كلام الأقدمينـــ :

ويُنْهِى أنه ٱتَّصــلَ بالمملوك ماأَهَّل مولانا السلطانُ مَوْلانَا لَهُ : من المحلِّ السَّنِىّ ، والمكانِ العَلِىّ ، الذى لم يزَلْ موقُوفًا عليه ، متشَوّفا إليه ؛ نافِرًا عن كلِّ خاطبٍ سِواه ، جامِحًا علىٰ كلِّ راكبٍ إلَّا إيَّاه ؛ فأقرّ اللهُ عينَ المملُوك بذلك لِصِـدْق ظنه ، وعلم أنَّ ماأصاره اللهُ تعالىٰ إليــه من هذهِ المنْزِلة المُنِيفه ، والرُّتبة الشريفـه ؛ مَدْرَجةٌ تُفْضِى إلىٰ مَدَارج ، ومَعْرَجة تنْتِهى إلىٰ معَارِج ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُ مَعالِيَه عُلُوًّا ، ويُضاعف محلَّه سُمُوًّا ، بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنه ــ ويُنْهِى أنه ٱتَّصــل بالمملوك نَبأُ المَوْهِبَة المتجَدِّدة لديْه ، والنعمةِ المُسْبَغة عليه ، وما ٱختَصَّه به مولانا السلطانُ من الاصْطِفاء والإيثار ، والاجتِباء والاخْتِيار ، وتقديمِهِ للرُّتْبة الأَثِيره ، والإنافةِ إلىٰ المَنْزِلة الخَطِيره ، فسُرَّ المملوكُ للرِّياســة إذْ أحلَّها الله تعالىٰ فى محلِّها ، وأنزَلَها علىٰ أهلِها ، ووصَلَها بكُفْئِها وكافِيها ، وسَلَّم قوْسَها إلىٰ رَامِيها ؛ والله تعالىٰ يجعلُ هذه الرتبةَ أوّلَ مِرْقاة من مَرَاقِى الآمال ، ومكبِرِ الرُّتَب التى يَفْرَعُها من رُتَب الجَلال ، إن شاء الله تعالىٰ .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

أدامَ اللهُ أنصارَه، وجعل التَّقوىٰ شِعَارَه، وألْبَسه من المَحامِد أكرَم حُلَّة، ونوّلَه من المَكَارم أحْمَدَ خَلَّة، ولا زالتِ الخِلَع تتَشَرَّف إذا أُفِيضتْ عليه، والمدائحُ تُسْتطاب بذكره لاسِيَّما إذا أُنْشِدتْ بينَ يَدَيْه .

الخـادمُ يُنْهِى إلىٰ عِلْمِ المَوْلىٰ أنه اتَّصل به خَبرٌ أهْدىٰ إليه سُرورا، ومَنَحه بَهْجةً وحُبُورا : وهو ما أنعم به المولىٰ السلطانُ خلَّد الله سلطانَه، وضاعفَ إحسانَه : من تشريفه بخِلْعته، وما أسْبغَهُ عليه من وَارِف ظِلّه ووافِرِ نِعْمته، وأبداه من عِنايَتِـه بالمولىٰ ومحبَّته؛ وقد حصَلَ له من المَسَرَّة ما أجْذَله، وبَسَط فى مُضاعفةِ سَعْدِ المولىٰ أمَلَه؛ فإنه بلَغه أنَّ هذه الخِلعـةَ كالرِّياض فى نَضَارتِها، وحُسْن بَهْجتِها؛ وأنها كُلَّما بَرَقتْ بَرِقَ لهـا البصرُ، وظَنَّها لحُسْـنِها حديقةً وقد حَدّقَ إليها النظَر؛ وقد جمعَتْ ألوانَ الأزهار، وأرْبىٰ ناسِجُها فى اللُّطْف علىٰ نَسَمة الأسحار؛ وأسكنَتْ حُبَّها حبَّاتِ القلوب التى فى الصُّـدور، وسمَتْ عن المَـدْح برائقِ المنظُومِ وفائقِ المنْثُور؛ وأن ابنَ سُلَيْمانَ[1] لو رآها، لاعترف بأنَّ فى لُبْسها لكلِّ فتًى شرفًا لاريْبَ فيه، ونَسَب البيتَ المنسوبَ إليه إلىٰ أعادِيه؛ وأنَّه لو نظَر نَضْرةَ نُضارِها لمـا جعل لها فى الحُسْن نَظِيرا، ولو ألْقاها علىٰ وَجْهه لارْتَدَّ لوقْته بَصِيرا؛ فلِذٰلك أصدر هذه الخدمةَ مهنِّيَه، ومُعْرِبةً عما حصل له من الفَرَح ومُنبِّيَه؛ ولجِيدِ مَدْحه العاطِلِ من مثل هذه الألفاظِ مُحَلِّيَه؛ نوّلهُ اللهُ فى كلِّ يوم مَسرّةً وبُشْرىٰ، وأجرىٰ له علىٰ الألْسُن حمـدًا وشُـكْرا؛ وجعله لكلِّ خيرٍ أهلا، وشَـكَرله تفَضُّلا شاملًا وفَضْلا؛ ومتَّعه من العافية بلباسٍ لايبْلىٰ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) مراده أبو العلاء المعرى أحمد بن سليمان .

الصنف الثانى — التهنئةُ بِرضا السلطان بعد غَضَبه .

فمن ذلك :

وتُنْهِى أنه اتَّصل بى ماجَدّده اللهُ تعالىٰ لمولاى — أطال الله بقاءه — من حُسْن عاطفة مولانا أميرِ المؤمنين — خلَّد الله ملكه — وانعطافه عليه بعْد انْصرافه ؛ وإعادتِه إلىٰ رُتْبته التى نَشَزتْ عنه دَلَالا لا مَلَالا ، وهجَرتْه هَجْر المستصْلِح المستعْتِب ، لا هَجْرَ القالِى المتجنِّب ؛ وكيْفَ تَقْلاه ، وهى لا تجِدُ لها كُفُؤًا سِواه ؛ ولتوقُّع المملوك بما وقع من هذه الحال ، وعلْمِه أنَّ عَوْدها إليه كعودة المُودَع [إلىٰ مُودِعه ،] لاعَوْدةِ المنتَجِع إلىٰ مَرْبَعه ؛ وأنَّ الذى وقَع من الانْحراف إصلاحٌ باديه تهذيبٌ وتَقْويم ، وخافِيه توقيرٌ وتعظيم : لِما فى عِتاب أمير المؤمنين من شَرَف الرُّتْبه ، والدِّلالةِ علىٰ استِقْرار الأَثْرة والقُرْبه ؛ وحُلُوله محَلَّ الصِّقال ، من أبْيض النِّصال ، والثِّقاف من العَسَّال ؛ ولا سِيَّما ورياسَتهُ محفُوظه ، وسِيادتهُ ملْحُوظه ؛ وهيبتهُ فى النُّفُوس ماثِلَه ، وجَلَالته فى القلوب حاصِلَه ؛ ولم ير[(١)] المملوكُ أجلَّ مَوْهبَةً من الله سبحانه من شكرٍ يستَرْهِنُ هـذه النعمةَ ويخلِّدها ، وحمدٍ يرتَبِطُها ويقيِّدها ؛ ورغبتُ إلىٰ الله سبحانَه أنْ يجعلَ هـذا العِزَّ الحادثَ لابِثًا لا يتحوّل ، والسعدَ الطارِف ماكِثًا لا يتنقَّل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ من عادةِ الزمان أن يَكِفَ سَحابُهُ ثم يَكُفّ ، ويَرِفَ نَباتُه ثم يجِفّ ؛ ويدِرَّ حَلَبُه ثم ينْقَطِع ، ويُقْبِلَ خَيْرُه ثم يرتَجِع ؛ إلا أنَّه إذا سلَبَ النعمةَ ممن يَسْتَوجِب إمرارَها عليه ، وانتزع المَوْهِبَة ممن يستَحِقُّ استِمْرارَها لديْه ؛

(١) لعل الواو زائدة ويكون متعلق اللام فى قوله «ولتوقع» الخ تأمل .

كانَ كالغالِط الذى يُراجع نفْسَه فينْدَمُ علىٰ مافرَط، ولا يلبثُ أن يســتَدْرِك الغَلَط؛ مُعقبا نَبْوته بإنابَتِه، متعقِّبا هَفوته باستِقالَتِه؛ ماحِيا إساءته بَرْأب ماثلَم، وأَسْوِ ما كَلَمْ؛ وإصْــلاحِ ما أفْسد، وتأليف ماشَرَّد . فلا جَرَمَ أنَّ النفُوسَ بإقبالِه علىٰ مَنْ هــذه صفتُه واثِقه، والآمالَ لانصرافِه إلىٰ مَنْ هذه صورتُه متحَقِّقه؛ وإذا سَلَبها هَرْوَلَ فى إيداعها لديْه، وأخذ [فى] إفاضَتها عليه. وما زال المملوكُ ـ مُذْ عاملَ الزمانُ مولانا بسُوءِ أدَبِه، ونَأىٰ عنه بجانبِه، وقبَضَ بنانَه، وغَيَّر عليه سُلطانَه ـ عارفًا أنَّ هذه الفَعْلة فَلْتَةٌ من فلَتَاته التى يتوقّٰى شَرَّها، ولا يرجعُ إلىٰ مثلها؛ وأنَّ الاستِبْصار، يقُودُه إلىٰ الاعْتِذار، والاضْطِرار، يَحْدُوه علىٰ ردِّ ما انتزعه بالإجْبار: لأنه لا يجِدُ من يحُلُّ محلَّ مولانا فى ارتباطه بإيناسه، وتعهُّده بسَقْى أغْراسه؛ وقيامِه بشُكْره، وتزكيته ببِرِّه ـ متوقِّعا لأن تتيَقَّظ عينُه، وينْكشِفَ رَيْنُه؛ فيرىٰ ماصنعَتْ يَدَاه، ويبادِرُ لاستقالة ماجَنَاه؛ حتّٰى طرق البشيرُ بمـا سَهَّله الله تعالىٰ مِنَ انْحِسار الكُرْبه، وعَوْد مولانا إلىٰ شَرَف الرُّتْبه؛ وصلاح مافَســد، وعَوْدِ السلطان أعزَّ الله نصره إلىٰ ماعَهِد؛ وركُونِه إلىٰ حضرته، وانْقِلابِه عنه رافلًا فى تشريفِه ومكْرُمتِه؛ فكانَ معتقَدُ المملوكِ فيه هِلالًا فى السِّرارِ فأهَلّ، وجَنِينا فى الحَشَا فاستهَلّ؛ فاســتَوْلىٰ علىٰ المملوكِ من السُّرور ما عَمّ جَوارِحَه، وعَمَر جَوانِحـه؛ وأطار بجَنَاح المَرَح، وألبس حُلَّةَ الفَرَح؛ إذ ما جَدَّده الله تعالىٰ له من الســعادة يحُلُّ به فى العُموم، محلَّ الغيثِ السَّجُوم؛ لأنَّه حرَسَ الله عزَّه لايستأثِرُ بعَوارِف الله عنــده، ولا يكُزُّ علىٰ عطاياه يدَه؛ بل يمنَح ممـا مُنِح؛ ويُولى ممـا تولّٰى، ولا يَضِنُّ بمـالٍ ولا جاهٍ، ولا يقْعُد عمن أمَّله ورَجَاه؛ والله تعالىٰ يجعلُ ذلك ممـا أقرَّبه العُيونــ، وصدَّق فيه الظُّنون؛ لاتُخْلِقُه الأيام ولا تُبْليه، ولا تَزْويه الحوادثُ ولا تؤثِّر فيه؛ إن شاءالله تعالىٰ .

الصنف الثالث ـ التهنئة بالخلاص من الاعتقال .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

جدّد اللهُ سعدَه، وضاعفَ جَدّه، وأنْجح قَصْدَه، وأعذَبَ مَنْهلَه ووِرْدَه، ولا ٱنفكَّت الأيَّامُ زاهيةً ببَقائِه، والأنْفُس مسرورةً بٱرتِقائِه إلىٰ رُتَب عَلْيائه . أصدرها تُفْصِح عن شَوْقٍ يَعْجِز عن سَوْقِه الجَنَان، ويقْصُر عن طُوله اللِّسان، وسُرورٍ تزايدَ حتّٰى أبكاه، ولاعِج بمشاهَدةِ طَلْعتِه السعيدةِ أغْراه ؛ وتُهنِّيه بما جدّد الله له بعدَ الاعتقالِ من الفَرَج والفَرَح ، ومَنَّ به بعدَ ضِيقِ الخَواطِر من الابتهاج والمَرَح ؛ فهذه المسرّةُ ماءٌ زُلالٌ بَرَد بها الأُوَام ، وإنعامٌ عامّ، حمِد اللهَ عليها الخاصُّ والعامّ ؛ فالحمدُلله الذى عوّضه عن مَأْتَمِ الحُزْن بما تَمَّ من السرور، و[عن] الهَمِّ المانِـع عن الوُرُود والصُّدور بانْشِراح الصُّدُور ؛ فإنَّ القلوبَ شَعَفَها حبُّه وشغَفَها ، وضاعَفَ لتعويقه أسَاهَا وأسَفَها ؛ بحيث ٱعترىٰ المَناطِقَ قلقٌ وعلاها ٱصْفِرار، وعُطِّلت يدُ كل غانية من الحُلِيِّ فما ضمَّها قُلْبٌ ولاسِوَار ؛ ولبِس الخُطباء حزنا وأُلْبِسَتْه المحابِر، وكادت لغَيْبَتِه وفقْد ٱسمِه تندُبه الجوامعُ وتَبْكيه المَنَابر؛ خلّد الله سعادتَه، وسهَّل له من خيْرى الدنيا والآخرة قَصْده وإرادتَه ؛ بمنّه وكرمه .

الأجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان ورضاه بعد غضبه

قال فى "مواد البيان" : يجب أن تكون أجوبةُ هـذه الرِّقاع مُودَعةً من الثناء علىٰ المهنِّى ـ لمحافظته علىٰ رُسوم المَودّة وقيامِه بشُروط الخُلَّة ـ ماتقتَضيه رتبتُه ورُتبةُ المُجيب ، وأنَّه مشاركٌ له فى متجدِّدِ النعمة ، مُفاوِضٌ فى حديث المَسَرَّة ؛ والتيمُّن بالدعاء، ونحو هـذا مما يحسُن موقِعُه عند المبتدئ بالهناء؛ ويضَعُه بحيثُ وضَع نفسَه من الاختصاص بمَنْ كاتَبه .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع : [جواب] هناء بخِلْعة :

أدام اللهُ عَلاءه ، وشَكَر آلاءه ، وضاعف سَـناءه ؛ وحمِد مِنَنه التى أثقلتْ لكلّ مُعتفٍ ظَهْرا وخفَّفتْ هَمّا ، وأنالتْ لكلّ ولىٍّ نصيباً من عَوارفها وقِسْما . المملوكُ يُنْهِى إلى العلم الكريم وُرودَ المكاتبة التى كَسَـتْها يدُه حُلَّةَ جَمَال ، وألبسَـتْها ثوب إفْضال ؛ وأعَـدَّتْها بكَرَمها ، وحسَّنتْ وجْهَها بلِسان قلمِها ؛ فأمطرَتْه سَحاب جُودٍ أرْبىٰ علىٰ السَّحاب الهَتُون ، وأوقفَتْه منها علىٰ ألفاظٍ كأمثالِ اللُّؤْلؤ المكْنُون ؛ فآجتنىٰ ثِمـارَ الفضائلِ من أغصانِها ، وآجتلىٰ عَرُوسَ مَحَاسنها وإحْسانِها ؛ وفهِمَ ماأشار إليه من التهنئـةِ بالخِلْعة التى أنعم المولىٰ بها علىٰ خادمه (١) وتَصدّق ، وحقَّق الأملَ فى مكارمه وصَدَّق ، وإنعامُه خلَّد اللهُ دولتَه ، وأعزَّ نُصْرته ، قد كَثُر حتّى أخجله ، وميَّزه علىٰ كثيرٍ من مماليكِ بيتهِ العالِى وفَضَّله ؛ وأنالَهُ من المَنْزِلة ماسَمَابها علىٰ أمثاله ، ورَقِى بها بعدَ رِقَّةِ حاله ؛ فاللهُ يخلِّد سـلطانَه ، ويثبِّت بالسعادة أركانَه ؛ وهذا بسعادةِ مولانا ومُساعدتِه ، ومعاوَنتِه ومعاضَدتِه : فإنه كان السببَ فى الآتِّصال ببابه أوّلًا وآخِرا ، وممَّن أغاثَهُ بذلك وأعانَه عليه باطِنًا وظاهِرا .

وكلُّ خيرٍ توَخَّانِى الزَّمانُ به * فأنتَ باعثُـهُ لِى او مسبِّبهُ

---

(١) فى الأصول أتم الله بها مخدومه ، ولا معنى له تأمل .

الضـــرب الثـالث
(من التهانى التهنئـــة بالعَوْد من الحجِّ)

وهذه نسخ من ذلك يُنْسَج علىٰ مِنْوالها .

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه طرقَ المملوكَ البشـيرُ بِعَوْد مولانا ـ أطال الله بقاءه ـ من مَقـام الطائفين ، إلىٰ مَقَام المعتَفِين ؛ وأوْبتِـه من كَعْبة الإحرام ، إلىٰ كَعْبـة الإكرام ؛ وتنقُّلِه من مَوْقِف الحُجَّـاج، إلىٰ موْقِف المحتاج ؛ وحُلُوله بمنزله الذى هو قبلةُ ذَوِى الآمال، ومحطُّ الرِّحال؛ بالسَّـــعْى المشكور ، والحجِّ المبرُور ؛ والنُّسُـك المقبُول، والأجْرِ المكتُوب ؛ فحمِدتُ الله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبتِه ، وسألتُه زيادتَه من مَكْرُمتِـه ؛ وآستنجَحْت هـذه المكاتبةَ أمامَ ما أرومُه من مشاهَدتِه ، وأرجُوه من الآستِسْعاد بملاحَظَتِه ، وبَرْد أُوَار الشوق بمحاضَرَته ، ومجدِّدًا عُهودَ التيمُّن بمباسَمَته ؛ فإنِ آقتضىٰ رأيُه العـالى أن يُعَرِّف المملوكَ جملةً من خبره فى بَدْئِه وعَوْده ؛ ومنقَلَبِه ومتوَجَّهه ؛ وما تفضَّل اللهُ تعـالىٰ به من أمانِ سبيله ، وهِدايةِ دليله ؛ وتخفيفِ وَعْثاء سـفرِه، وتسْهيل وَطَرِه : لِأسْكُنَ إلىٰ ذلك إلىٰ حِينِ التمثُّل بنَظَره ، فله الفضـلُ فى ذلك . والله تعالىٰ يبلِّغه سُوله ، ويوَصِّله مرادَه ومأمُولَه ؛ بمنِّه وكرمه .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ مولانا لايزال حاجًّا إلىٰ كعبة الحرَم، أو كعبَةِ الكَرَم ؛ وطائفاً بشـعائر الوُفُود ، أو بشَعائر الجُود ؛ وواقفًا بموقِف الآِسـتِفْتاح ، أو موقِف السَّماح ؛ وناحِرَ البُدْن بِمَنى ، أوناثِرَالبِدَر للمُنىٰ ؛ فلا يرتَفِع فى حالٍ من الأحوال بِرُّه ، ولا ينقطِعُ عن الله

تعالىٰ ذِكْرُه ؛ ومَنْ كان بهذه المَثَابه، فى إحراز الأجْرِ والإنَابه ؛ فهو حقيقٌ أن تُعْمَر بالتهنئـةِ أوقاتُه وأزمانُه ، كما عَمَرها سـعيُه و إحسانُه ؛ وقد عرَف المملوكُ آنْكِفاءه ـ أدام الله علُوَّه ـ عن مَقام الطائِفين والعا كفين ، إلىٰ مَقام القاصِدين والمعتَفِين ، وعوْده إلىٰ منْزِلِه المعمُور، بعد قَضائه فريضةَ السَّعْيِ المشكُور؛ فعدَلْتُ فى مخاطَبته عن الهناء إلىٰ الدعاء بأن يتقَبَّل اللهُ تعـالىٰ نُسُكَه ويثَقِّلَ ميزانَه ، و يُطْلِقَ فى حَلْبـةِ الخيرات عِنَانَه ، ويُحْيِيَه لأجرٍ يُحْرِزه، وثواب يَكْنِزُه ؛ والله تعـالىٰ يُجِيبُ ذٰلك فيه، ويُرِيه فى نَفْسه وأحِبَّته مايرتَضِيه .

ومن ذلك :

وتُنْهِى أنَّه قد طرَقَنِي البشير بآنكفَاء مولانا إلىٰ مَقرِّ علَائه ، وآنْفِصاله عن مَلَاذِ النُّسَّاك والعُبَّاد، إلىٰ مَعَاذِ الزُّوَّار والقُصَّاد؛ فعرفْتُ أنَّ ذلك النسيمَ العليلَ من تِلْقائه ، وذٰلك النُّورَ الصادِعَ من آلائه ؛ وذٰلك الآفْترارَ من أسِرَّته ومَخَايِله ، وتِلكَ العُذُوبةَ من شِيَمِه وشمائله ؛ فكاد المملوكُ يطير ـ لو طار قَبْلِي غيرُ ذِى مَطار ـ فرَحا، وأخْرِقُ الأرض وأَبْلُغُ الجبالَ لو أمكن ذلك مَرَحا ؛ وآنفتَح قلبى حتّىٰ كادت مهجَتُه تَفيضُ سُرُورا ، وطاشَ حِلْمِي حتّىٰ تفرّق مجموعُه بَهْجَةً وحُبورا ؛ والله تعالىٰ يجعل نِعمَـه موصولةَ الحبل، مجموعةَ الشَّمْل؛ بمنّه وكرمه .

أبو الفرج البَبَّغاء :

جعل اللهُ سَعْيك مشكورا، وحجَّك مبْرورا، ونُسُكَك مقبُولا، وأجْرك مكتُوبا؛ وأجزلَ من المَثُوبة جزاءَك، ومِنْ عاجِلِ الأجْر وآجِله عطاءَك؛ وقَرَن بالطاعاتِ عَزَماتِك، وبالسَّعْيِ إلىٰ الخير نَهَضاتِك؛ ووَفَّقك من صالِحِ الأعمال، وزَكِيِّ الأفْعال، لما يجْمَعُ كلَّ خيرِ الدارين . ولمـَّا طرقتْنى البشارةُ بقُدومك ، بدأتُ بإهداء الدعاء ، وتجديدِ

الشكر لله تعالىٰ والثَّناء، وٱستنبتُ فى ذلك المكاتَبَه، أمامَ ما أنا [عازم] عليـه : من المُشافَهَة والمُخاطَبه ؛ ولن أتأخَّرعن حظِّى من المسير إليْك للتيمُّن بالنظر إلىٰ غُرَّتك، ومداواة ماعانيتُه من ألَم الشوقِ بمُشاهدَتِك .

الضـــرب الرابع
(من التهانى ، التهنئةُ بالقُـــدُوم من السَّفَر)

من كلام المتقدّمين :

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنَّه ٱتَّصــل بالمملوك خبرُ توجُّهه(١) إلىٰ الناحية الفلانيــة، فعرَفَ المملوكُ أنه قصَـدَها لِيخُصَّ قاطِنيها ، بنصيبٍ من موَاهِبــه ؛ ويُفِيضَ علىٰ ساكنيها ، سِجالًا من رَغائِبه ؛ ويَسَوِّىَ بينهم وبين مَنْ راشَه بحِبَائه ، وجَبَرَه بنوافله وآلائِه ؛ فسألتُ الله تعـالىٰ أن يُطيلَ عُمُر المَكارِمِ بإطالة بَقائِه ، ويجمعَ شَمْلَ السُّؤدَد بدَوام عَلائه ؛ ثم ٱتَّصل بى عودُه إلىٰ مَقرّه ، خَفيفَ الحقائِب من وَفْره ، ثقيلَها من ثَنائِه وشُكْره ؛ فحمِد المملوكُ اللهَ تعالىٰ علىٰ إسْفارِ سَفَرِهِ عن بُلُوغ الأوْطار، وٱنحسارِ أُمنِيَّته عن أذْيال المَسَار؛ وما خصَّه به من السَّـيْر الشَّحِيح، والسَّعْى النَّجِيح ؛ والسَّلامةِ المفرَّقة علىٰ الوِجْهة والمنقَلَب، والمفتتَح والمعتقَب ؛ ولَمَّـا عرض للمملوك ماقطَعه عن مُشافَهته بالدعاء ، رفعَ يدَه إلىٰ الله تعالىٰ ضارعًا لدَيْه فى أن يتولّاه فى هــذا المَقْدَم الميمون ، بالسعْد المَضْمُون، وإنالة الأمانِىّ المُقِرّة للعيُون ؛ وأن يمنَحَه فى الحِـلِّ والتَّرْحال ، والقَطْن(٢) والآنتِقال، توفيقًا يقارِنُ ويُصاحِبُ، ويُسايِرُ ويُواكِب ؛ وأنْ يجعلَ ماخَوَّله من نعمهْ راهنًا خالدا، وما أوْلاه من موَاهِبه بادِئًا عائِدا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى الأصل وجهته وهو تصحيف إذ الوجهة الناحية والجهة وهو غير مراد كما لا يخفى .

(٢) مصدر قطن فى كتب اللغة التى بأيدينا علىٰ فعول لا علىٰ فعل .

وله أيضـــا :

ويُنْهِى أنه طَلَع عليه البَشِير، طُلوعَ القَمر المُنِير؛ مُؤْذِنا بمَقْدَم حضرته، ومُعْلِما بظُهُور طَلْعتـه؛ وحُلُوله فى مَعَانه (١) الذى هو مَعَان الإقبـال، وعَوْن الرجال؛ وقرارة الأقْيال، ومَحَطُّ الرِّحال؛ وقبلةُ الجُود، ومُعرَّس الوُفُود؛ فسألتُ الله تعالىٰ أن يُبْقِيَه جمالًا للأيَّام، وثِمَـالًا للأنام؛ وعِمادًا للقُصَّاد، ومَرادا للرُّوَّاد؛ والله تعالىٰ لا يُخْلِيه فى تصرُّفاته، وجميع حركاته وسكَنَاته؛ من سَعْى سعيد، وعيشٍ رَغِيد؛ بمَنِّه وكرمه .

أبو الفرج الببَّغاء :

مَن كانتْ غَيبـةُ المكارم مقْرونةً بغَيْبتِه، وأَوْبَةُ النِّعم موصولةً بأَوْبته؛ سافرتِ الأنْفُس حيثُ كانَ إليـه، وقَدِمتِ الآمالُ عند قُدُومه عليـه؛ وما زالتِ الأنْفُس إلىٰ الأُمْنِيَّة بقُرْبه متطَلِّعـه، ولوُرُود السُّرور بوُرُوده متوقِّعه؛ إلىٰ أنْ أنِسَتْ بعد الوحشة بِلقائه، وتنَسَّمَتْ أرَجَ مَنِّه ونَعْمائه؛ فوصلَ اللهُ قُدومَه من الكَرامه، بأضعاف ما قَرَن به مَسِيرَه من السَّلامه؛ محروسًا من طَوارِقِ الغِيَر، مبلَّغا أبعَدَ العُمُر .

وله فى مثـــله :

مَنْ كانت مادَّةُ سُرُوره، بمَغيبه وحُضُوره؛ لم يجِدْ مع بُعْدك مُؤْنِسا يسْكُن إليه، ولا عِوَضا يعوِّلُ فى السَّلْوة عليـه؛ وما زلتُ أيامَ غَيْبتك ـ لا أوحشَ اللهُ منـك ـ بالوَحْدة مستَأْنِسا، وبالشَّوق إليكَ مجالِسا؛ أُلاقيك بالفِكْر، وأشاهِدُك باتِّصال الذِّكْر؛ إلىٰ أنْ منَّ الله مِنْ أَوْبتك بمـا عَظُمت به النعمه، وجَلَّت لدَىَّ معه المَوْهِبَه؛ فوصـلَ اللهُ بالسلامة نَهَضاتِك، وبالسعادة حَرَكاتِك، وبالتوفيق آراءَك وعَزَماتِك؛ وحرَسَنِي ببقائك وبقاءِ النعمة عِنْدك، وهَنَأنى النعمةَ الجليلةَ بقُرْبك .

---

(١) فى القاموس واللسان «المعان المباءة والمنزل» وأورداه فى مادة م ع ن .

وله فى مثـــله :

مَنْ كنتَ نِهـايةَ أمنِيَّته ، وقُطْبَ مَسَرَّته ؛ كان من نَفْسه مستوحِشا مع بُعْدِك ، وبدَهْرِه مستـأْنِسا مع قُرْبك ؛ وما زِلْتُ معـك بالنِّيَّة مُسافِرا ، وبالشَّوق سائِرا ؛ وبالفِكْرِ ملاقِيـا ، وبالأمانِىِّ مُناجِيا ؛ إلىٰ أن جمعَ اللهُ شمْلَ سُرورِى بأَوْبتِـك ، وسَكَّن نافِرَ قلَق بعَوْدتِك ؛ علىٰ الحـال السارّة من كمال السَّـلامه ، ووُفُور الكُلْفه ؛ فأسـعدكَ اللهُ بمَقْدَمكَ سـعادةً تكونُ بها من الزمان محْرُوسا ، وللإقبال مُقابِلا ، وبالأمانِىِّ ظافرا ؛ ولا أوحش اللهُ منـك أوطانَ الفضل ، وعَضَّد إخوانَك ببقائِك وبقاء النعمة عندك .

وله فى مثـــله :

لوكان القلبُ يجِدُ عنـك مُنْصَرفا ، أو يرىٰ منـك فى ٱكتسابِ المسَرَّة خلَفا ؛ لٱستراحَ إليه من ألَمِ بُعْدِك ، وٱستنْجدَه علىٰ مَرارة فِراقك ؛ لٰكنَّك أيَّدك الله جملةُ مسَرَّته ، ونهايةُ أُمنِيَّته ، فليس تتوجَّه أمانيُّه إلَّا إليك ، ولا تَقِفُ آمالُه إلَّا عليك ؛ فالحمدُ لله الذى أقرّ بفَيْئَتك أعيُنَ إخوانك وأوِدَّائك ؛ ووافاكَ اللهُ من السَّعادة فى أَوْبتك أضْعاف ما ٱكتنفَك من الكِفَاية فى ظَعْنك .

اِبن أبى الخِصال :

سَرّ اللهُ مولاى ورَئِيسى ، ورَبَّ تشريفى وأَنِيسِي ؛ بلِقَـاء الأحْباب ، وٱتِّصال الأسْـباب ، وأوْبةِ الغُيَّاب ؛ ولا زالتِ الأيامُ تتصنَّع لإقْباله ، وتُقَبِّـله أوجُهَ العِزِّ فى ٱقتباله ؛ وتُوفيه علىٰ رغم الحاسد حَقَّ جَلاله .

البُشْرىٰ ـ أدام الله ٱعتزازه ـ بمَقْدَم الوزير فلان قد أوضعَتْ رِكابُها ، وٱتَّصل بالنفوس أعْلاقُها وأسبابُها ؛ فهنيئًا مَعْشَرَ الأولياء بسُبُوغ هذه النعمة الجليله ، والمِنْحة

الجزيله، ولا أستوفى شكْرَ مابه أتىٰ مُعَظِّم قَدْره، وملتزِمُ بِرِّه، من ثناءٍ كعَرْفِ الطيب يُهْدىٰ، ومَذْهَب فى الإنهاض لا يُقْضىٰ واجبُه ولا يؤدّى؛ ولا زالتْ حياةُ مولاىَ تُفَدّىٰ، وأفعالُ بِرِّه تتعدّى؛ وقد لثَمْتُ مواقِعَ أناملِه وُدًّا، ووردْتُ من محَاسن بيَانِه مَنْهَلا عَذْبا [ووِردا] فأمتعنِي اللهُ بحياته العزيزةِ الأيَّام، الطيِّبة الإلمام، الموصولةِ العهدِ والذِّمام؛ وأقرأُ علىٰ سيدى من سَلَامى مايلثِمُ يدَه، ويقضى حقَّ اليراع [الذى] أنشأ به البر ووَلَّده، والسلامُ المعادُ عليه وعلىٰ جملته ورحمة الله وبركاته .

الشيخ جمال الدين بن نُبَاتَةَ عن نائب الشام إلىٰ القاضى عَلاءِ الدين بن فضل الله كاتب السرّ الشريف، بالأبواب الشريفة بالديار المصرية، عند عَوْده من الكَرَك إلىٰ الديار المصرية، فى سنةِ ثلاثٍ وأربعين وسبْعِمائة، مهنِّئا له بعوده إلىٰ مَنْزِله بالديار المصرية، وآستِقْراره وعوْدِه إلىٰ كتابة السرّ الشريف بالأبواب الشريفة السلطانية، وهى :

تُقَبِّل الباسطةَ الشريفةَ ـ إلىٰ آخر الألقاب ـ لازالَتْ خناصرُ الحمد علىٰ فَضْل بَنانِها معْقُوده، ومآثرُ البأس والكرم لها ومنها شاهدةً ومشْهُوده، وبَواتِر السُّيوف مسَيَّرَةَ القصد إلىٰ مُناظرةِ أقلامها المقْصُوده؛ تقبيلاً يودُّ لو شافَهَ بشِفاهه موْرِدَ الجُود من الأنامل، وكاثر بثَغْره عند المُثُول للتقبيل ثُغورَ الأَمَاثِل؛ فكان يُشافِهُ بشَوْقه مَوْرِدا كثيرَ الزِّحام، وكان يُكاثِرُ بعِقْد قُبلَه علىٰ يد الفضل عُقُودا جزِيلةَ الآنتظام، وكان يُحاكِم جوْرَ الضَّيْم إلىٰ مَنْ أبىٰ اللهُ لجار مشاهدته أنْ يُضَام . ويُنْهِى ماوصل إليه وإلىٰ الأولياء من السُّرور، وما رُفِع بينهم وبين الآبْتِهاج من الشُّرُور، وما طُولِع فى أخبار المَسَرّة من السُّطور، بوُصُول مولانا ومَنْ معه إلىٰ مَساكن العزِّ ساكنين، ودُخُولهم كدُخُول يوسُفَ عليه السلام ومَنْ معَه إلىٰ مِصْرَ آمِنين؛ وآستقْراره

فى أشرفِ مكانٍ ومَكانَه، واستِنْصار مصرَ بأقلامه علىٰ العادة فإنَّ هـذه سِهامُ وهذه كِنَانه؛ وإسفارِ غَمام السَّفْرة عن كَوْكبٍ عُلّا طالمَـا حَرَس بيَمينه أُفُقَ المُلْك وهداه وزانَه؛ وما كانتْ إلا غيبةً أحمدَ اللهُ عُقْباها، وغَيابةَ بُعْدٍ مَنَّ الله عزَّ وجلَّ وجلّاها؛ وفترةً ثنىٰ الله فتْرتَها فتنفَّس خِناقُ المَنْصب المشتاقِ لوجهه الكريم، وهِجْرةً صرَفَ الله هَجِيرهَا فسَـقىٰ طِرْسَ الإنشاء الذى ٱبيضَّتْ عَيْناه من الحُزْن فهُو كَظِيم؛ وما محَاسِن مولانا إلَّا زينةٌ من زِيَنِ الدنيا فعليها يتَشاكَسُ المتشاكِسُون، وما مزاجُ كلماتِه إلَّا من تسنيم ﴿ وفى ذٰلِك فَلْيَتَنَافَسِ المُتنافسُون ﴾ .

فالحمدُ لله علىٰ أنْ أقرَّ العُيونَ بمُعاودة ظِلِّه الوَرِيف، وعلىٰ أنْ شَـفىٰ الصُّدُورَ بقُرْبه وأوّلهُـا وأَوْلاها صَدْرُ السرِّ الشريف؛ وعلىٰ أنْ أجزَلَ الهَناء وقد شَمِلَ ظِلُّه، وقد كَمُل بابْن الفضل فَضْـلُه؛ وقد بهر سَناؤه وسَناه، وقد تسعَّب القريبُ والبعيدُ فإنْ أجدىٰ علىٰ مِصرَ مَوْرِدُه فقد جادَتْ علىٰ الشام سَماه . وقد أخذ المملوكُ حظَّه من هذه البُشرىٰ، ووالىٰ السُّجود للهِ شُكْرا، وجَهَّز خِدْمَته هذه نائبةً عنه فى تقْبِيلِ بنَان إنْ سَمَّـاه مَوْلىٰ الكَرم بحرا، فقد سَمَّاه مَربِّى الملك برًّا؛ لازالتِ الممـالكُ متْحَفَة بيُمْنِ مولانا ظاعِنًا ومُقِيا، متَّصفةً بحمده وحمدِ سَلَفِه الكريم حديثًا وقديما، تاليةً علىٰ مُهمَّات المُلدِ بصُحْبة بيتِه الشريف ﴿ وكان فَضْلُ اللهِ علَيْكَ عَظِيما ﴾ .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى تهنئة بقدوم من سفر :

أدام اللهُ ظِلَّه، ورفَعَ محَـلَّه، وشكَرَ إنعامَهُ وفضْـلَه؛ وأعزَّ أنصارَه، وضاعفَ ٱقْتِدارَه؛ ولا زال مؤيَّدا فى حرَكاتِه، مسَدَّدا فى سائرِ فَعَلاتِه؛ مصحُوبًا بالسـلامة فى المَهامِه والقِفار، مخصوصًا من الله تعالىٰ بالأعوان والأَنْصار .

الملوكُ يُنْهِى بعد تقبيلِ الأرض ، والقيام بمـا يَجب من سُنَنِه والفَرْض ، عِلْمَه بحلُول ركابِه العالى بمَغْناه، واستقرارِ خاطِره الشريف فى مَحَلِّه ومَثْواه، وجَمْع الشَّمْل بالأهل بعد طُول الغَيْبه، وبَعْد القُفُول والأَوْبه، فتضاعف لذٰلك فَرَحُه وسُرورُه، وزال عن قَلْبِه قليلُ الهمِّ وكثيرُه ، فاللهُ يمنَحُ المولىٰ أطيبَ المَنازِل، وأسرّ الرَّواحِل، ويجعلُ تجارةَ مَجْدِه رابِحه ، وأوامِرَ دوامِ عزِّه لائِحـه، حتّٰى تُنْشِد نفسُه الكريمـةُ قولَ أبى الطيِّب :

أنَا من جَميع النَّاسِ أطْيبُ مَنْزِلًا * وأَسَرُّ راحِـلةً وأرْبَحُ مَتْجَـرَا !

لازالتِ الأعُيُن قريرةً برُؤيتِه، وقلوبُ الإخوان قارّةً بمشاهدَتِه، والأوجهُ وسِيمَه، والنِّعم الظاعِنةُ مُقيمه، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالقدوم من السفر

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تُبْنىٰ علىٰ الآعتراف للمُهَنِّئ بحقِّ تعهُّده، وكرمِ تفَقُّده، وإطْلاعه علىٰ الحالِ فى السَّـفَر ، وما أفضتْ إليـه من السـلامة، والتأسُّف علىٰ ماتقضّٰى من الأيّام فى مُباعدَتِه، والتخلُّف عن مُباسَمَتِـه ؛ وأنه لم يزَلْ يدَّرِع الإدْلاج، ويَقْطَع الفِجَاج، رغبةً فى القُدوم إليه ، والوفادةِ عليه ؛ وبلِّ الغُلَّة برُؤْيته، وترويح النفس بمحاضرته، وما يليقُ بهذا النَّمَط من الكلام .

الضـــــرب الخامس

(من التهانئ التهنئةُ بالشهور والمواسِم والأعياد)

وهى على ثمـانية أصـــناف :

الصنف الأوّل ــ التهنئـــةُ بأوّل العامِ وغُرّة السَّنة .

من كلام المتقدّمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء أبى مسلم محمد بن بحر :

أســعدَ اللهُ سـيِّدى بِعامِه ، والفضل منه وما حَوىٰ من الأعياد والأيّام الخَطِيرة وسائر شُهوره وأيَّامه، ومتصَرِّف أحواله ، و بمـا يأتى و يكُرُّ عليه من زمَانه، سعادةً تَسُوقُ إليه حظُوظَ الدِّين والدنيا كامله ، وتجمَعُ له فوائدَ الأمَدَيْن تامّةً وافِيَـه، وترتَهِنُ إليــه النِّعَم فلا تزالُ لدَيْه زائدةً نامِيه ؛ وبلَّغه بهـا الأمَلْ ، ومدّ له فى البقاء إلىٰ أنْفَس المُهَل .

ولأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ مَوْلاىَ بركةَ الشهر والسنةِ المتجدِّدَيْن، ووهَبَ له فيهما وفيما يتلُوهُما من أيام عُمُره، وأزمان دَهْره ، سعادةً تجمع له أشْتاتَ الحُظُوظ، وتصل لدَيْه مَوادَّ المَزِيد، وتُيَسِّر له بُلوغَ الأمـل فى كلِّ مايُطالع ويُنـازِع ، والأَمْن من كلِّ مايُراقِبُ ويُحـاذر .

وله فى مثـــله :

عَظَّم اللهُ علىٰ سيِّدى بركة الشهر والسَّنة، وأعاشَهُ لأمثالها مُدَّةَ آختلافِ الجديدَيْن، وتَجاوُر الفَرْقَدَيْن، ممتَّعا بالنِّعم السابِغــه، والمَواهب المتَرادفه ، والسَّــعادة والغِبْطه، والعزِّ والمَسَرَّه .

وله فى معناه :

جدّد اللهُ لسيِّدى فى الأيَّام الحاضرة والمستَقْبَله (١) ، والأحوال الراهِنَة والمُتنقِّـلَه ؛ حظُوظًا من السَّـعادات ، وأقساما من الخَيْرات ؛ لايُحْصٰى عددُها ، ولا ينقَضِى مَدَدُها .

وله فى مثـــله :

عَظَّم الله [علىٰ مولاى] بركَةَ الشهر والســنة المتجدّدين عَلَيْـه ، وعَرَّفه فيهما وفى الأيّامِ بعدَهما من حادث صُنْعه ، ولطيف كِفَايته ؛ ماتَدُوم فيه السعاده ، وتَعْظُم به المِنه ، وتحسُن فيه العاقِبَه .

وله فى مثـــله :

عظَّم الله علىٰ مَوْلاىَ بركَةَ هــذا الشهر : المـاضِى [من] أيَّامه وباقيها ، وهــذه السنَة ، وجعلها أيمَن سنةٍ حالَتْ عليه وأسعَدها .

ومنه : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ يُهَنِّئُ غُرَّة الأيَّام ، بغُرَّة الأنام ؛ وصـدْرَ العام ، بصَدْر الكِرام ؛ بل يُهَنِّئُ الزمن كلَّه نعمْ وأهلَه بالحَضْرة التى واسَتِ المَعَالِى .

الصنف الثــانى — التهنئــةُ بشهر رمضانَ .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحُسَيْن بن سعد :

جمع اللهُ لمولاىَ فى هذا الشهر الشريف شُروطَ آماله وأحكامَ أماليه ، فى حاضِر أمرِه وعاقِبتِه ، وعاجِلِ دُنْيـاه وآخرتِه ؛ وأبْقاه لأمثاله بقاءً لايتناهىٰ أمَدُه ، فى ظِلِّ عيش يرضاه ويحمَدُه .

(١) فى الأصول الماضية تأمل .

وله فى مثـــله :

عرَّف الله سيدى بركةَ هذا الشهر الشريف وأعاشَهُ لأمثاله ، ما كرَّ الجَديدان، وٱختلف العَصْران، ممتَّعا بسوابغ النِّعم، محروسًا من حَوادِث الغِيَر، ومُوَفَّقا فى شَهْره، وأزمان دَهْره، لأزكىٰ الأعمال، وأرضىٰ الأحوال، ومقبُولًا منه مايُؤدِّيه من فَرْضه، ويتنفَّل به قُرْبةً إلىٰ رَبِّه .

وله فى مثـــله :

عرَّفه الله بركةَ إهْلالِه، وأبقاه طويلًا لأمثالِه ، موفَّقا فيه من عمل الخير، ومُراعاةِ الحقِّ، وتأديةِ الفَرْض، والتنَفُّل بالبِرِّ، لما يُرْضِيه، ويستحِقُّ جزيلَ المَثُوبة عليه، ممتَّعا بعده بسَنِيِّ المَواهِب، وجَسِيم الفوائد ، مع ٱتصالِ مُدّة العُمُر، وٱجتماع أُمْنِيَّات الأمل .

وله فى مثـــله :

عَرَّف اللهُ مولانا بركةَ هذا الشهر الشريف وأيَّامه، وأعانَك علىٰ صيامه وقِيَامه، ووصـــل لك مايزيدُ من فَضْله وإنعامه، وتابع لك المزيدَ من مَنَائحه وأنْعامه، وختَمَ لك بالسعادة العُظْمىٰ بعد الٱنتقال [فى الجاه والرياسة إلىٰ] أبعد المدىٰ ، وفى العزِّ والثَّروة إلىٰ أقْصىٰ المُنَىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

جعلَ اللهُ ماأظلَّه من هذا الصيامِ مقرُونًا بأفْضل قَبُول، مُؤْذِنا بإدراك البُغْية ونُجْح المأمُول، ووفَّقه فيه وفى سائرِ أيَّامه، ومستأْنِف شُهوره وأعوامِه، لِأشْرَف الأعمال وأفضَلِها، وأزْكىٰ الأفعال وأكَمَلِها، ولا أخْلاه من بِرٍّ مَرْفُوع، ودعاءٍ مسمُوع، وسَعْى مشْكُور، وأمرٍ مَبْرور، إلىٰ أن يَقْطَع فى أجملِ غِبْطةٍ وأتَمِّ مسرَّةٍ أمثالَه .

وله فى مثـــله :

عرَّفكَ اللهُ بركةَ هـذا الشهر المعظَّم قَدْره ، المشرَّف ذِكْرُه، ووفَّقكَ فيـه لصالح الأعمال، وزكَّى الأفعال، وقابَلَ بالقَبُول صِيامَك، وبتعظيم المَثُوبة تهجُّدَك وقِيامَك، ولا أخلاك فى سائر ما يَتْبعـُه من الشُّهور، ويَليه من الأزمِنَـةِ والدُّهور، من أجْرٍ تَذْخره، وأثَرٍ تَشْكُره .

قلت : وممـا كتبتُ به تهنئـةً بالصوم للمَقرّ الأشرفِ الناصرىّ محمدِ بن البارزىّ كاتبِ السرّ الشريف المؤيَّدىّ بالممالك الإسلاميةِ، فى سنة ستَّ عشْرةَ وثمانِمائة نَظْمًا :

أَيَا كاتِبَ السِّرِّ الشَّرِيفِ ومَنْ بِهِ * تَمِيسُ نَواحِى مِصْرَ تِيهًا مَعَ الشَّامِ!
ومَنْ جَلَتِ الحُلَى كتائبُ كُتْبِــهِ، * ومَنْ نابَ عن وَقْعِ السُّيُوفِ بأقْلامِ!
تَهَنَّ بهٰذَا الصَّوْمِ والعِيدِ بَعْــدَهُ، * ومِنْ بَعْدِه بِالعِيد والْعـامِ فالْعامِ!
وتَرْقىٰ رُقِىَّ الشَّمس فى أَوْجِ سَعْدِها * وتَبْقىٰ بَقاءَ الدَّهْرِ فى فَيْضِ إنْعامِ!

الصنف الثـالث — مٰا يصلُح تهنئةً لكلِّ شهرٍ من سائر الشُّهور .

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم الله بركةَ إهْلاَله، وأعاشه لأمْثاله، أطْولَ المُدَة، ممتَّعا بأَدْومِ النِّعمة، ومشَفَّعا(؟) بأفضل الأَمل والأُمْنيَّه .

وله : أسـعد اللهُ سيِّدى بانْصِرامِه وإهْلالِ ما بعـده ، وأبقاه مابَقِىَ الزمان ممتَّعا بالعِزِّ والنِّعمه، محروسًا من الآفات المَخُوفة، والحوادث المحْذُوره .

وله : عَظَّم اللهُ علىٰ سيدى بركةَ الماضِى والمستقْبَلِ من الأيام والشُّهور [والأعوامِ] والدُّهُور، ووصلَ له السعادةَ بأتِّصالها، وجدّدَ له النِّعمةَ بتجدُّدِها .

وله : عظَّم الله بركةَ آنْسِلاخِه ، وإهْلالِ مايتلوه ؛ مُجَدِّدا لك بتجدُّدِه فوائِدَ الخيرات ، وأقْسامَ البركات ، تَدُوم فيها المُدّه ، وتطُولُ بها النِّعمه .

وله : أسعَدَك اللهُ بإهْلاله ، وأعاشك أبدًا لأمْثالِه ؛ ممتَّعا بدَوامِ العِزِّ والنعمه ، وٱجتماعِ أسبابِ الرَّخاء وشُروط المحبَّه ؛ إنَّه جَوادٌ كريم .

[وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولَاى بركاتِ هذا الشَّهْر ومايتلُوه ، وبلَّغه مايُحاوِله ويَنْحُوه ؛ فى مستَأْنَفِ الشُّهور ، ومؤتَنَفِ الدُّهور ؛ مُضاعَفًا له العِزُّ والتأْييد ، ومَوْصولًا له أصلُ النعمةِ بحُسْنِ المَزِيد] (١) .

وله : عَظَّم اللهُ علىٰ مولَاى بركةَ الشَّهر ، وأدامَ له سَلامةَ الدَّهر ؛ مَوْفُورا من العِزِّ والسلطان ، غيرَ مذْعُور بنَوائِبِ الزَّمان .

وله : عظَّم الله علىٰ سيدى بركةَ الأيَّامِ والشُّهور ، والسِّنِينَ والأحْقَاب ؛ وجمع له المواهِبَ كامِلَه ، والفَوائد فاضِلَه ؛ دِينًا ودُنْيا ، وحاضِرةً وعُقْبىٰ .

وله : عظَّم اللهُ عليكَ بركَتَه ، وعَرَّفكَ يُمْنَه وسَعادتَه ؛ وجدّدَ لك الخَيْرات ، بتَجْدِيد الأوقاتِ والسَّاعات ؛ حتّى تحوزَ منها أسْنىٰ الحُظُوظ وتبلُغَ مما تمَنَّاه أقصىٰ الغايات .

الصنف الرابع — التهنئة بعيد الفطر .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ سيِّدى بركةَ هذا العيد ، واعاشَه لأَمْثاله ؛ من الأعْيادِ المَشْهُوده ، والأيَّام الجَدِيده ، [فى] أهنإ عيشٍ وأرْغَدِه ، وأطْوَلِ مدًى وأبْعَدِه .

(١) الزيادة فى بعض النسخ .

أبو الفرج الببغاء :

أسعدكَ الله بهـذا الفِطْرِ الجَديد ، والعِيد السَّعيد ؛ ووَصَـل أيَّامَك بعدَهُ بأكمَلِ السَّـعادات ، وأجْمَل البرَكات ؛ وجعل ما أسلَفْتَه من الدُّعاء مقْبُولا مسْمُوعا ، ومن التَهجُّد زاكِيًا مَرْفوعا ؛ ولا أخلاكَ من نِعمةٍ يحرُسُ الشكْرُ مُدّتَها ، ولا يُخْلِقُ الدَّهْرُ جِدَّتَها .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبي :

المولىٰ أدامَ الله نِعمَه ، وحرَسَ شِيَمَه ، هو سيِّدُ الأفاضل ، ورئيسُ الأَمَاثِل ؛ وحَسَنَةُ الزَّمان ، ولَيْث الأقْران ؛ وهو فى الأَنَام ، كالأعيادِ فى الأَيَّام ، فإنَّ الأنامَ ليلٌ والمولىٰ المِصْباح بل الصَّبَاح ، وسائرَ الأيَّام أجسادٌ وسائرَ الأعيادِ هى الأَرْواح ؛ فإذا كان المولىٰ قد زُهِىَ علىٰ أبناءِ جِنْسِه ، ويومُ العِيـد علىٰ غَدِه وأمسه ؛ فقد صار كلٌّ منكما إلىٰ صاحبه يتقَرَّب ، ويلزَم ويَلْزَب ، وهو أحقُّ الناسِ بأن يُبْهِجَه مَقْدَمُه ، وأن يُهَنَّى بيَومِه الذى هو مَجْمَعُ السُّرور ومَوْسِمُه .

والخادم يُهَنِّئ المولىٰ بهذا العيد ، واليومِ السَّعيد ؛ فإنه وافىٰ فى أَوانِ الرَّبيع وزمانِه ، لِيُبَاهِىَ بغُصْن قَدِّه أغصانَ بَانِه ؛ ويَسْتَنْشِقَ فى صَدَرِه ووِرْدِه ، رائحةَ رَيْحانه ووَرْدِه ؛ ويختالَ فى رِيَاضه وحَدائِقه ، ويُلاحِظَ بَهجةَ أزْهارِه وشَقائِقه ؛ والعيدُ والرَّبيعُ ضَيفانِ ومكارِمُ المولىٰ جَدِيرةٌ بإكرام الضيف ، والتمتُّع بالمَلاذِّ فيهما قبلَ رَحِيلهما وقُدُوم حَرِّ الصَّيْف ؛ وأنْ يُحَسِّنَ وجْهَ عِيـده ، بحُلُوله فى مَغْناه ووُجُوده ؛ بمـا يُولِيه لِعُفَاته من إنعامِه وجُوده ؛ لازالتِ الأعيادُ تُهَنَّى ببَقائِه ، وألسِـنةُ الأيام تَشْكُر سوابِـغَ نَعْمائه ؛ وتَحمَدُ جزِيلَ عَطائِه ، وتَنْطِق بوَلائه وثنائه ، أبدًا ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : ومما كتبتُ به مهنئا للمقرّ الأشرف الناصِرىّ محمد بن البارزى صاحب دَواوِين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية فى الدولة المؤيّديّة «شيخ» بعيد الفِطْر نظما، بعد أن سألتُه حاجةً فقضاها، وأسنىٰ لى الجائزة علىٰ نثرٍ كتبْتُه له .

سأَلْتُ نِظامَ المُلْكِ كاتِبَ سِرّه * إزالَةَ ضَنْك أرهَفَ الدَّهرُ حَدَّه!
فمَنَّ بجاهٍ زَعْزَعَ الأرْضَ وَقْعُه، * وجادَ بمالٍ لايُرىٰ الفَقْرُ بعْدَه.
وبالبارِزِىّ ٱزدانَ وصْفُ مَكارِمٍ * فأشْبَهَ فى فَضْلٍ أباه وجَدَّه!
فيَهْنَاهُ صَوْمٌ ثُمَّ عِيدُ مَسَرّةٍ * وطالِعُ إقْبالٍ يُقارِنُ سَعْدَه!
ورَفْعُ دُعاءٍ لايُغِبُّ تَتابُعًا، * وطِيبُ ثَناءٍ خامَرَ المِسْكُ نَدَّه!

الصنف الخامس — التهنئة بعيد الأضحى .

من كلام المتقدّمين :

أبو الحسين بن سعد :

كتابى والنحر — نحرَ اللهُ أعداءَ مَوْلاىَ وحُسَّادَ نعمتِه ، وأمْتَعه بمَواهِبه عنْده ، وبارك لَهُ فى أعيادِه ومتجدِّد أيَّامه ، بركةً تَنْتَظِم السَّعادات ، وتتضمَّن الخيْرات ؛ متصلةً غير مُنْقطعه، وراهنةً غير فانيَه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

تَهَنَّ فأيَّامُ السُّرورِ أواهِلُ * وكُلُّ مَخُوفٍ عن جَنابِك راحِلُ!
ونَجْمُك من فَوْقِ الكَواكب طالِعٌ، * ونَجْمُ ٱمرئٍ يَشْنا سُمُوّك آفِلُ!

أَلَا أيُّهـا المَوْلىٰ الَّذِى عَمَّ جُودُه: * فَدَتْكَ العَوالِى والجِيادُ الصَّواهِلُ!
تمتَّعْ بِعِيدِ النَّحْر، وافاكَ خاضِـعًا * يُحَقِّقُ مِنْ دُنْيـاكَ ماأنْتَ آمِـلُ!
ودُمْ كابِتَ الأَعْداءِ وآبْقَ مُخَــلَّدًا * علىٰ المـالِ عاٍ ، بالرعِيَّــةِ عادِلُ!
لَقَدْ راقَ مَدْحِى فى مَعالِيكَ مِثْلَما * صَفَتْ منك أوْصافٌ ورَقَّت شَمائِلُ!

جعلَه اللهُ أبركَ الأعياد وأسْعدَها، وأيْمَنَ الأيَّام وأمْجدَها، وأجْملَ الأوقاتِ وألَذَّها وأرْغدَها، ولا بَرِحَ مَسْرُورا مسْتَبْشِرا، مَنْصُورا علىٰ الأعداء مقْتَدِرا؛ مسْعُودا محْمُودا، مُعـانًا بملائكة السماء مَعْضُودا؛ مُهَنًّا بالسُّعود الجَدِيده، والجُدُود السَّـعِيده؛ والقُوَّةِ والناصِر، والعُمُر الطويلِ الوافِر:

ولا زالَتِ الأعيـادُ لِبسَكَ بَعْــدَه * [فتخْلَع](١) مَخْرُوقًا وتُعْطىٰ مُجَـدَّدا،
فذَا اليومُ فى الأيّامِ مِثْلُك فى الوَرىٰ * كما كُنْتَ فِيهِم أوْحَدًا كانَ أوْحَدَا!

وأعاده علىٰ المولىٰ فى صِحَّةٍ دائِمه ، وسلامةٍ مُلازِمه ؛ وأصار عِيدَه مُطِيعا لأوامِرِه كسائر العَبِيد ، وعَبِيدَه فى كلِّ يوم من المَسَرّة ببقائِهِ لها كالعِيد ، والأيَّامَ به ضاحِكةَ المَباسم، والأعوامَ جميلةَ المَواسم ؛ ومتَّعَنا بدَوامِ حَياته ، وآستِجْلاء جميلِ صِـفَاته ، وآستِحلاءِ مدائحِهِ بإنْشادِ عُفَاته ؛ وأراهُ نَحْرَ أعادِيه ، بين يَدَيْه كأضاحِيه ، وأصار الحجَّ إلىٰ بابه غافِرًا سَيِّئاتِ الإفْلاسِ والإعْدام، ومُبِيحًا لُبْس المَخِيـط من إنعامه العـامّ؛ ألبسهُ اللهُ من السعادةَ أجملَ حُلَّه ، ومَنَحه من المكارِمِ أحسَنَ خَلَّه .

الصنف السادس ــ التهنئة بعِيد الغَدِير من أعياد الشِّيعة :

وكان لهم به آهتِمامٌ فى الدولة الفاطميَّـة بالديار المِصْرِيَّة . والطريقُ فى التهنئةِ به علىٰ نحو غيره من الأعياد .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

مايصلح تهنئةً لكلِّ عيد .

أبو الفرج الببغاء :

لولا العادةُ المَشْهوره، والسُّنَّةُ المأثُوره ، بالإفاضةِ فى الدُّعاء ، والمشافهةِ بالتهنِئةِ والثَّناء، فى مثلِ هذا اليومِ الشريف قَدْرُه، الرفيع ذِكْرُه، لكان أيَّده الله دُونَ رُؤَساء الدَّهْر، وملُوكِ العَصْر يَجِلُّ عن التهنِئَةِ : إذ كانتْ سائرُ أيَّامه بمـا يُودِعُها من أفعال الخير مُعَظَّمه ، وبما يَبُثُّها من المحَاسِن مُكَرَّمه ، فبلَّغـه اللهُ أمثالَه محرُوسًا فى نفْسِه ونِعمته ، محفُوظا فى سُلْطانه ودَوْلتـه ؛ مُوفِيًا علىٰ أبْعد أمَانيه ، مُدْرِكا غايتَها فيما يؤمِّلُه ويَرْتَجيـه .

وله فى مثـله :

عرَّفكَ الله يُمْنَ هذاالعيدِ وبركَته ،وضاعفَ لك إقبالَه وسعادَتَه ؛ وأحْياكَ لأمثاله فى أسبَغِ النِّعم وأكملِها ، وأفسحِ المُدَد وأطْوَلِهـا ؛ وأشرفِ الرُّتَب وأرفَعِها ، وأعزِّ المَنازل وأيْفَعها ؛ وحَرسَ مِنْحَتك من المحذُور، ووَقىٰ نِعمتَك من عَثَرات الدُّهُور .

الصنف السابع — التهنئـة بالنَّـيْرُوز .

وهو من أجلِّ أعيادِ الفُرْس ، علىٰ ما تقـدّم ذكره فى الكلام علىٰ أعيـاد الأمَم ، فى المقالة الأولىٰ . وكان للكُتَّاب به اهتمامٌ فى أوائل الدَّوْلة العبَّاسيـة بالعِراق ، جَرْيا علىٰ ما كان عليه الفُرْس من قَديم الزمان .

وفيه لأبى الحسين بن سعد :

هذا يومٌ شَرَّفَتْه العجم ، ورَعىٰ ذِمَامَه الكَرَم ؛ وهو من أسلافِ سيِّدى ذَوِى النَّباهة ، وأخلافه ذَوِى الطَّهارة ؛ بين مُنْشِئٍ رَسْمه ، ومؤدِّى حقِّه ؛ وكاسٍ له بقَبُول

آنتسابِه إليه جمالًا يبقىٰ علىٰ الأيام، وحالًا يَنْفَق بهـا لدىٰ الأنام ؛ فليس أحدٌ أحقّ بالتهنئة [به] ممن سَنَّه آباؤه ، وشـيَّدته آلاؤه؛ فصارتْ إلىٰ أوَّلِيَّتـه نِسبَتُه ، وبكرم سجيَّتِه عِصْمتُه .

وفيـه له : هٰـذا ـ أيد الله سيِّدى ـ يومٌ عظَّمه السَّلَف من العَجَم ، وسيِّدى وارِثُ سُـنَّة الكَرَم ؛ وللسادةِ علىٰ العَبِيد فى هذا اليوم رَسْم فى الإلطاف ، وعليها لهمْ حقٌّ فى القَبُول والإسعاف ؛ وقد بعثْتُ بمـا حضَر جارِياً علىٰ سُنَّة الخِدْمه ، وعادِلًا عن طريق الحِشْمه ؛ ومقتَصِرا علىٰ ما آتَّسعتْ له الحال ، وما يُوجِبُـه قَدْرُ سيِّدى من المبالَغة فى الآحتفال ، فإنْ رأىٰ أن يُشَرِّف عبده بالآحتمال إليه ، وإجرائه مُجْرىٰ الأُنْس عنده ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وفيه للكرجىّ :

هـذا يومٌ تَسْمُو له العَجَم ، ويُسْتَعجِم فى العَرَب (١) ؛ تشريفًا له وآعترافًا بفضـله ، وآقتداءً بأهله ؛ وأخْذا بسُنَّتهم فيه ، فليهن (٢) لإحراز الدولة فى العِزّ [منزلا] بحيثُ لا يُرام ، ولا يُضَام ؛ ولا تَرْقىٰ إليه الأمانِى ، ولا يطْمَع فى مساواته المُساوِى ؛ وإنَّهم بعد تَصَرُّم الدولةِ علىٰ حَميـدِ آثارها ، وجميلِ الذِّكر فيها ؛ أعلامٌ تُضْرَب بهم الأمثـال ، وتَزْهو بأيَّامهم الأيَّام ؛ وآثارُهم تُقْتفىٰ ، وأعيادُهم تُنْتظر ؛ يُتَأَهَّب لها قبْلَ الأَوان ، ويُعْرَف فيها أثَرُ الزمان ؛ وإنَّك منهم فى الذِّرْوة السامِيَه ، والرُّتْبة العالِيه ؛ وبمحلٍّ لا عارَ معـه علىٰ حُرَّة فى الخُشُوع لك ، والتعلُّقِ بحبلك . وقد وجَدتُ الأتباعَ عندَ ساداتِها فى مثل هـذا اليومِ علىٰ عادةٍ فى الإلطاف جسَّمَتْها ، وسيَّرتْ بهـا علىٰ أقوام منحَتْهم ظُهورَ الدَّعْوىٰ فيها ، فأقبَـل قائلهم يقول : « لو كان بابُ الإهداء مفْتُوحا غيرَ مسْدُود ،

---

(١) مراده أن العرب آتبعت العجم فى تعظيمه تأمل . (٢) قد بلغ التحريف من هذا مبلغه حتى لا يكاد يفهم والمراد أن دولة الفرس أحرزت من العز منزلا بحيث إلخ تأمل .

ومُباحًا غير ممنوع ؛ لأتحفْتُ بالغُرَاب الأعْصَم ، والكِبْريت الأحمر، والأبْلَق العَقُوق، وبَيْض الأَنُوق» . وقد بعثتُ بهدِيَّة لا تُرَدُّ (يعنى الدعاء) .

وفيه : من كان مَحَلّك من العِزّ ، ونَبَاهة الذِّكْر، وآرتفاع الدَّرَجه، وعُلُوّ المَنْزِله ، وسَعة البَلَد ، وبُعْد الأمَد ؛ لم يتَقرَّبْ متَحلٍّ بالعلم والأدَب إليه فى يومٍ جديدٍ إلّا بصالح الدُّعاء، وحُسْن الثناء .

وفيه : لو أَخَّرْنا هذا آنتظارًا لوُجود ماتستَحِقُّه ، لآنقضَتْ أيّامُنا ، بل أعمارُنا ، قبل أنْ نقضِيَ لك حَقّا ، أو نُؤَدِّيَ عن أنفُسِنا فرضا : لآرتفاع قَدْرك عمَّا تحويه أيدينا ، وعُلُوّ حالك عما تبْلُغه آمالُنا ؛ وقد آقتديتُ بسُنَّة الخَدَم والأوْلياء فى الأعياد، وأوضَحْتُ العُذْر فى ترك الآجتهاد؛ وبعثْتُ فى هذا اليوم، الذى أسألُ اللهَ أن يُعيده عليك ألْفَ عام ، فى نَماء من العِز، وعُلُو من القَدْر، وتمامٍ من السُّرور، ومزيدٍ من النِّعمة ... ...

الصنف الثامن — التهنئة بالمِهْرجان .

وهو أحدُ أعيادِ الفُرْس، على ماتقدّم ذكره فى المقالة الأُولى، فى الكلام على أعياد الأُمم . وكان للكُتَّاب من الآحتفالِ بالتهنئةِ به فى أوائل الدولة العبَّاسيَّة مالهم بالنَّيْروز.

فيه — لأبى الحسين بن سعد :

لسيِّدى علىَّ فى الأعياد المشْهُورة، والأيَّام الجَدِيدة ، عادةٌ آخترَلَنِى عن بَعْضها فى هذا الفصل ، كَلالُ الطَّبْع عن البَعْض، ووقُوعُ الخطر (؟) بعرضه من الثناء نَظْما ونَثْرا ، ومن الإهداء عرضا وبرا ؛ دعاءٌ تزيد قيمتُه على الأعلاقِ الثَّمينه، وموقِعُه على الذخائر النَّفيسه، ولُطْفُه على التُّحَف البديعه ؛ فأسعدَ اللهُ سيدى بهذا اليوم سعادةً تُقِيم ، ولا تَرِيم؛ وتَزِيد، ولا تَبِيد ؛ وتتوطّن ، ولا تَظْعَن ؛ وتجمع حظُوظًا من

الخيرات، وفوائدَ من البركات؛ يتَّصِلُ سندُها، ولا ينتهى أمَدُها؛ وأبقاه فى أسبغ عِزٍّ وأرفع رُتْبــة وأرغَدِ عِيشة، مكنوفًا بحراسةٍ تَقِيه [وآلَه] عَوادِىَ الزمان، وتصرِفُ عنهما طوارِقَ الحَدَثان؛ ما طَرد الليلُ النَّهار، وطلَع نَجْم وغَار؛ وعلىٰ ذلك ـ أيد الله سيدى ـ فإنَّ الحِرص علىٰ إقامة الرَّسم والتَطَيُّر من إضاعةِ الحقِّ بعثانِى علىٰ مُراجعةِ القَرِيحه، وآستِكْداد الرَّوِيّه؛ فأسعفا بمـا قَبِلتْه الضرورة؛ ولم أُطِعْ فى إهدائه سُلطانَ الحِشْمه؛ وفضلُ سـيدى يتَّسِع لقَبُول المَيْسُور، وتحسينِ القَبِيح؛ والله المعينُ علىٰ تأدية حقِّه، والقيامِ بواجب فرْضِه .

وله فيه أيضا، إلىٰ مَن منع أن تُهْدىٰ إليه فيه هدية .

لو كنتَ فتحْتَ باب الإلطاف، ونَهجْتَ إليــه سَبِيلا ؛ لتنازعَ أوْلياؤُك قصَبَ السَّبْق وتنافَسُوا فى السَّرَف؛ فبان للمجتهِد فضْلُه، وآلتمس العذْرَ فى التقصير ملتَمِسُه؛ وعمَّت المنحةُ كافَّتهم بمـا يظْهَر من مَوَاقعهم، وينكَشِف من أحوالهم؛ لٰكنَّك حظَرْت ذٰلك حَظْرا آستوىٰ فيــه الفريقان فى الحُكْم، وآمتــدّ فيه علىٰ ذَوِى الخَلَل السِّــتْر؛ ولم تحظُر الدُّعاء، إذ حظَرْتَ الإهداء؛ فأنا أُهْـدِيه ضَرورةً وآختِيارا، وإعلانًا وإسْرارا؛ فأسعَدَكَ الله بهذا العيد الجديد، الذى زادَ بك فى قَدْره، وشَرَّفه بأن جعلك من أرْبابه ووُلاة أمْرِه .

أبو الفَرَج البَبَّغاء :

هذا اليومُ من غُرَر الدُّهُور المشهُوره، وفضائِل الأزْمنَــة المذْكُوره؛ معَظَّمٌ فى العَهْد الكِسْرَوِىّ، مستظْرَفٌ فى العَصْر العَرَبِىّ؛ باعثٌ علىٰ عِمـارة المَوَدّات، مخصوص بالآنْبِساط فى الملاطَفَات، ولستُ أستَزِيدُه ـ أيَّده الله ـ من بِرٍّ يُولِيه، ولا تَطَوُّلٍ إلىّ يُسْـدِيه؛ غيْرَ إدخالى فى جُمْلة من بَسَطَتْه الأَنَســه، وثَقَّفَتْه المحبَّه؛

وتقَرَّبتُ منه بوكيد الخِدْمه، فى قَبُول ما إن شَرَّف بقبُوله، كان كثيرًا مع قِلّته، جليلًا مع نَزَارته؛ فإنْ رأىٰ أنْ يقوِّىَ منـه ثِقَتِى، ويُقابِلَ بقبُولٍ ما أنفذْته رَغْبتِى، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

قد أطعْتُ فى الأنْبِساط إليـكَ دَواعِىَ الثّقـه، وسلَكْتُ فى التَحَرُّم بك سُبُل الأَنَسه، وتوصَّلْت بملاَطَفتِك إلىٰ حَسْم موادِّ الحِشْمه؛ فاستشْهَدْتُ علىٰ ثِقتى بك فيما أنفَذْته بمُفارقَة الحَفْله (١)، وكُلَف المكاثره؛ فإنْ رأيتَ أن تَكلنِى فى تَقَبُّله إلىٰ سعَة أخْلاقك، وتَسْلُكَ فى ذٰلك أخصَرَ طريقٍ إلىٰ ما أخطُبُـه من مَوَدّتك، وأزاحِمُ عليه فى إخائك؛ فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

هذا اليومُ ـ أيَّد اللهُ سيدى ـ من أعياد المُرُوّه، ومَوَاسِم الفُتُوّه، وأوطانِ السرور، ومَحاسِن الأزْمِنة والدُّهُور؛ بلّغه [اللهُ] أمثالَهُ فى أنْضَرِ عيشٍ وأسبغ سَلَامه؛ وأبْسَطِ قُدْره، وأكمل مَسَرَّه؛ وقد توثَّبْت إلىٰ الاقتداء فيه بأدَبِه، والأخْذِ بمعرفة فُروضِـه بمَذْهَبِه؛ وأطعْتُ فى الانبساطِ إليـه دَوَاعِىَ الثِّقة، وأنفَذْت ما اعتمَدْتُ فى قَبُوله علىٰ مكانى منه، عائذًا بالتقليل من كُلَف المُكاثَره، ومستثْقل الكُلفه؛ فإن رأىٰ أن يأتِىَ فيما التمسته ما يُناسِبُ شَرَفَ طبعه، وسَعَة أخلاقه؛ فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

لو كانت المُلاطَفَات بحسَبِ الرُّتَب وقدْر المَنازِل، لمـا انبَسطتْ قُدرةٌ ولا اتّسع إمكانٌ لمَا يستَحِقُّه نُبْلُ محلّه، وواجباتُ رِياسـتِه؛ ولكُنْتُ من بين خَدَمه ضعيفَ المُنّة عن خِدْمته فى هذا اليومِ السعيد؛ بلّغه الله أمثالَه فى أفسح أجَل، وأنجح أمَل،

---

(١) كذا فى الأصل ولعله «الكلفة» .

بما يَخْدِمُهُ به ذَوُو الخِدْمات الوكيدةِ عنده، المَكِينة لديْه ؛ غير أنِّى أثِقُ منه ـ أيده الله ـ بحَمْل قليلى علىٰ عِلمْه بإخلاصِى فى وَلَائه، وآنتسابِى إلىٰ جُمْلته، وآختِلاطِى بأنْسابه ؛ فإنْ رأىٰ أن يُجرِيَنى فى قَبُول ذلك علىٰ سُـنَّة أمثاله من ذَوِى الجَلَالة، عند أمثالى من الأولياءِ والحاشيةِ، فعل .

وله فى مثـــله :

لو كانَتِ الهَدايَا لا تُتَقَبَّل مالم تُناسِبْ فى نَفَاسة القَدْر، وجَلَالة الذكر، مَحَلَّ من يُتقَرَّبُ بها إليه، ومنزلةَ من أهداها إليه علَيْه، لَمَـا سمَتْ هِمَّة، ولا آتَّسعتْ قُدْرة، لِمَـا يستَحِقُّه ـ أيده الله ـ بأيْسَرِ واجِباته ، وأصغرِ مفْتَرَضاته، غير أنَّ الأَنَسةَ بتَفَضُّـله، والآعتدادَ بسالف تَطَوُّله ؛ والتحقُّق بخِدْمته ، والآنتسابَ إلىٰ جُمْلتـه ؛ بَسَطَنى إلىٰ إنفاذ ما إن شرَّفنى بقَبُوله كان مع قِلَّتـه كثيرا ، ومع نَزَارتِه جليلاً ؛ فإنْ رأىٰ أن يقوِّى بذلك منه ثِقَتِى، ويحسِمَ مادَّة آحتشامى، فعل .

أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد

قال فى "موادّ البيان" : هذه الكتُبُ والرِّقاع مضمُونُها الهَناءُ بالمَوْسِم الجديد، والدعاء للمهنإ فيه بتَمَلِّيه . قال : وهذا المعنىٰ مُفَاوَض بين المهنِّى والمهنَّى، وينبغى أن تكون أجوبَتُها مشتقَّةً منها . ثم قال : وقد يتصَرَّف الكُتَّاب فيها إذا كاتبوا الرُّؤساء تصَرُّفا يخرج عن هذا الحكم .

وهـــذه أمثلة من ذلك :

أبو الفرج الببغاء :

سَمِـع الله دُعاءَك، وبَدَأ فى تقبُّل المسألة بِك، وأجْزل من أقْسامِه حظَّك، وبلَّغك أمثـالَه فى أفسح مُدَد البقاء، وزاد فيما خوَّلكَ من المواهب والنَّعماء ؛ ولا أخلانِى من بِرِّك، وأنهضَنِي بواجِبَاتِك .

وله فى مثـــله :

كُلُّ يوم أسعَدُ فيه بمشاهَدَتِك، وأقطَعُه فى ظلِّ مودّتِك، حقيقٌ بالإِحْماد، مُوفٍ علىٰ محاسن الأعياد؛ فسمِعَ اللهُ دُعاءَك، وأطال ماشئْتَ البَقاء بقاءَك؛ وجعل سائرَ أيّامِك مقرونةً بالسّعادات، موصولةً بتناصُر البَرَكات .

من زهر الربيع :

يخدُم المجلِسَ العالىَ جعـل الله قَدْره علىٰ الأقدار سامِيًا ، وجزيلَ نَوَاله علىٰ مَنْ هامَ به من العُفَاة هامِيًا ؛ ونصَره نَصْرا عزِيزا ، وأسـكنه من حِراسَتِه حِصْنا حَصِينا وحِرْزا حرِيزا ؛ ولا زالتِ الأيَّام حاليــةَ الجِيدِ بوُجُوده ، والأيْدِى تَهَشُّ إلىٰ تَنـاوُل أياديه وَجُودِه؛ وأخبارُ المَكارِمِ عنه مَرْوِيَّة و إليــه مَعْزوّه ؛ وآياتُ فضله وفضائله بكلِّ لسانٍ متْلُوّه .

ويُنْهِى إلىٰ علمه وُرُودَ مشرِّفته التى حلَّتِ الأسمــاعَ عند ماحَلَّت ، وسَمَتْ عن الرِّياض لَمَّـا جُلِّيَتْ عَروُس فضلها وجَلَّتْ؛ وزهَتْ علىٰ زُهورِها ، برَقْم سُطُورها ؛ وطِيب عَرْفها ونَشْرها ، بمـا فاحَ من طَيِّها عِنْد نَشْرها؛ وفائِق حُسْنها وبَهْجَتها، برائق بَراعةِ عبارَتِها ؛ ومعامَلَتِها بمـا يجِبُ من فُروض إكرامها والسُّنَن ، والمشْيِ فى تبجِيلها علىٰ الطريقِ المألُوف من مُوالاته والسَّنَن ، وعِلْمه بمـا أشار إليه من الهَنَاء بالعيد ، واليوْمِ السعيد ؛ وقد تحقَّق بذٰلك إحسانَه الذى ما بَرِح متَحقِّقا بجميــله وجزِيله ، وشاكِرًا لـكثيره وقليلِه ؛ وحصلَتْ له البُشرىٰ ، والمسَرّةُ الكُبْرىٰ ؛ ليس للعِيد بمُفْرَدِه، ولا لهذا الهناءِ بمجرَّدِه؛ بل لبقاءِ المَوْلىٰ ودَوامِ سـعادَته ، وتخليد سيادَته ؛ فإنَّه لـكلِّ إنسانٍ عينٌ ولـكلِّ عين إنْسان، وهو رُوحٌ والأيّام والأنَامُ جُثْمان؛ فالملوكُ ببقائه كلَّ

يومٍ يتجدَّدُ له عيدٌ جديد ، ويتضاعَفُ له جَدٌّ سَعيد؛ حرَسَ اللهُ شرَفَه الرفيعَ من الأذىٰ، وأراه فى عَيْنِ أعاديه جِذْعا ناتئًا وسلَّم لحظَه المحروسَ من القَذىٰ؛ وأصار أيَّامَه كلَّها أيامَ هَناء، وبِدايَةَ سعادتهِ بغير حدٍّ وآنتهاء .

الضرب السادس

(التهنئــة بالزواج والتســرّى)

من كلام المتقدّمين :

أبو الفرج الببغاء :

وصلَ اللهُ هــذا الاتِّصال السعيد، والعَقْد الحَميــد ، بأحمدِ العَواقِب، وأجملِ المِنَح والمَواهِب ؛ وجعل شَمْــلَ مَسرَّتك به ملتئِما، وسبَبَ أُنْسك بإقبــاله منتَظِما ؛ وعرَّفك به تعجُّلَ البركات ، وتناصُرَ الخيْرات ؛ ولا أخلاكَ فيــه من التَّهانِى بنُجَبــاء الأوْلاد ، وكبَتَ بكَثْرة عدَدِك ســائِرَ الحُسَّاد ؛ وهنأنِى النعمــةَ الجليلةَ بإخائِك، وعضَّدنِى وسائِرَ إخوانِك ببَقائِك .

وله فى مثـــله :

قرنَ الله بالخيرةِ ما عقَدْتَ ، وبالســعادةِ ماجَدَّدْت ، وبجميلِ العاقبةِ ما أفدْت ، وعرّفك بَركاتِ هذا الاتِّصال، ولاأخلاكَ فيه منمَوادِّ السعادةِ والإقبال؛ وعضَّدك بالبَرَرة من عَقِبك، والسادة من ذُرِّيَّتك .

وله فى مثـــله :

إنِّى وإن كنتُ ملتَحِفا بلُحف مودَّتك، ومتَمسِّكا بعِصَم أُخُوَّتِك؛ أَوْلىٰ بالتهنئــة بمــا يَحْدُث لك من وُرودِ نِعْمه، وآتصالِ مَوْهِبــه ؛ فإنِّى ماأجِدُ فرضَ الدعاءِ لك

ساقِطا، ولا واجِبَ الشكر لله تعالىٰ علىٰ ما أوْلانِي فيك زائِلا ؛ فعرَّفك اللهُ بَركةَ هذا الاّتصالِ الحميد، والاّقترانِ السَّعيد؛ وجعله للسُّرور مُكَثِّرا، وباليمن مبَشِّرا؛ وأحْياكَ للتهانى بمثلِه فى السادةِ من وَلَدِك، والنُّجَباء من ذرّيَّتك .

وله فى مثـــله :

وصل اللهُ هذا الاّتصالَ الميْمُون بأرْجَح البركات وأفضَلِها ، وأنْجَح الطَّلبات وأكملِها ؛ وأحمَدَ بَدْأَه وعُقْباه، وبلَّغك الآمالَ فى سائِرِ ما تَهْواه ؛ وأحياكَ للتَّهـانِى بأمثاله فى البَرَرة من وَلَدِك، والنُّجباء من عَقِبك .

من كلام المتأخرين :

للشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جعلَ الله الخِيرَةَ له فيما يَذَرُه ويأْتِيه؛ والنجاحَ مقْروناً بما يُعيده من الأوامر ويُبْديه، والألســنةَ شاكرةً مايُولِيه من الإنعامِ ويُسْدِيه . صدرَتْ هــذه الخدمةُ معْرِبةً عن ثناءٍ تأرَّج عَرْفُه ، وولاءٍ أعجزَ الألسِنةَ شرْحُه ووَصْفُه ؛ وتهنئةٍ بهذه الوُصْلة المباركةِ جعلهـا الله للاّتصال بالسـعادةِ سَبَبا ، ومحصِّــلةً من الخيراتِ مَراما وافِرًا وأرَبا ؛ وعَرَّفه بركةَ هــذا العُرْس الذى أصبحَ الخيرُ بفِنائِه مُعَرِّسا، ونُورُ الشمسِ من ضياء بهجَتِه مقتَبِسا ؛ فنحمدُ اللهَ علىٰ هذه الوُصْلة سِرًّا وجَهْرا ، ونشكُره أنْ جعـلَ بينه وبينَ السَّعْد نَسَـبا وصِهْرا ؛ منحَ اللهُ المولىٰ الرِّفاءَ والبَنِين ، والعُمُر الذى يُفْنِى الأيامَ والسِّـنين ، ورَزَقه إسعافًا دائمًـا وإسْعادا ، وأراه أولادَ أولاده آباءً بل أجْدادًا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالزَّواج والتسَرّى

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجب أن تكون شكرا للمهـنِّى علىٰ العِناية والآهتِمام، و[مشتملة علىٰ] الإبانة عن موْقِع دعائه من التبرُّك والتيمُّن به ، إلا أن تكون البِدايةُ بمعنًى يخرُج عما هذا جوابُه، فينبغى أن يُجابَ عنه بمـا يقتضى الإجابةَ عن ذٰلك .

الضـــــرب السابع

(من التَّهانِى التهنئةُ بالأولاد، وهو علىٰ ثلاثة أصناف)

الصنف الأوّل ــ التهنئـــةُ بالبنيـن .

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

إنَّه ليس من نِعَم الله وفَوائدِ قِسَـمه و إن حسُنَ موقِعُها، ولَطُف محلُّها، نعمــةٌ تَعْدِل النعمةَ فى الوَلَد، لنَمائِها فى العَدَد، و زيادَتِها فى قُوّة العَضُــد ؛ وما يُتَعَجَّل من عظيم بَهْجتِها، ويُرْجىٰ من باقِى ذِكْرها فى الخُلُوف والأعقـاب، ولا حق بركتِها فى الدعاء والآستِغْفار .

ومنــه : إنَّه ليس من النِّعَم نعمةٌ تُشْبِه النعمةَ فى الولد، لزيادَتِها فى قُوّة العَضُد، وحُسْن موقعها فى الخَلَف والعَقِب ؛ وآتصلَ بى خَبَرُ مولودٍ فسَرَّنى ماوصــلَ اللهُ به من العارِفةِ إليك، وشَرِكتُك فى جميل المَوْهِبَة فيه شَرِكةَ مَنْ له مالَكَ وعليه ماعلَيْك؛ وسألتُ اللهَ أن يُوزِعَك شُكْر النِّعمة و يؤْنِسَ بهذا المولُود رَبْعك، ويُكَثِّر به عدَدَك؛ ويَعظِّم بركتَه ويُمْنَ طائره علَيْـك، و يَزِيدَ به فى النعمــة كذلك، و يفْعل اللهُ ذٰلك، بمنِّه وطَوْله .

وفيه لابى الحسين بن سعد إلى أبى مُسْلِم بن بحر يهنئه بابنٍ حدث له :

فأمَّا ماجدّد الله من النعمة فى القادم والموهوب لك وَلَدا وأُنْسا، ولنا سَندًا وذُخْرا، فقد جلَّ قدرُ هذه المَوْهِبَة عن أن يُحاط لها بوَصْف، أو يُوفى لها بشُكْر.

وفيه لعلى بن خلف :

ويُنْهِى أنه آتّصل بالمملوك بُزُوغُ نَجْمِ سعدٍ فى مَشارِق إقْباله، مُؤْذِنٍ باتّساق سُمُوّه وجَلَاله؛ فأحدَثَ من الجَذَل والآستبشار بمَقْدَمه، والتبرُّك والتيمُّن بقدمه، ماتلألأتْ على المملوك أنوارُه، وحسُنَتْ عنده آثارُه؛ وسألتُ اللهَ تعالى راغباً إليه فى أنْ يُعرِّفَه سعادةَ مَوْلِده، ويُمْنَ مَوْفِده، ويجعلَه شادّا لعَضُده، ومُوريا لزَنْده، ويَشْفَعه والسادةَ السابقين، بنُجباءَ مُتلاحِقين، يتَبلَّجُون فى نِطَاق سعادتِه، ويُتوسَّمُون فى آفاق سِيادتِه؛ ويَصُونَ سِلْكهم من الآنفصام، وشَمْلَهم من الآنهدَام؛ ويُبقِيهم غُرَرا فى وُجُوه الأيَّام، وأقمارا فى صَفَحات الظَّلام؛ بمَنّه وفَضْله، إن شاء الله تعالى.

وفيه له : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ يشْكُر اللهَ تعالى على ما أنزلَهُ عِنْد مَوْلانا من عَوارِفه، وآختصَّه به من لطائِفه؛ شُكْرَ مَنْ شارَكه فى النعمة المُسْبَغَة عليه، وآنتهى إلىَّ خبرُ السَّنَد المتجدّد لمَوْلانا، فطار المملوكُ بخَوافِى السُّرور ومَقادِمه، وأخذَ من الآبتِهاج بأوْفى قِسَمه؛ وسأل اللهَ تعالى أنْ يُبارِكَ له فى عطِيَّته، ويُرْدِفَه بزيادتِه؛ ويُوفِّر عدَدَه، ويشُدَّ بصالِح الوَلَد عَضُده؛ ويُجْنِيَه من هذا القادِم ثِمارَ المَسَرَّه، ويُرِىَ عينَه منه أقرّ قُرّه؛ ويَشْفَع المِنْحة فى مَوْهبَته بإطالة مُدّته .

وفيه : ويُنْهِى أنَّ أفضلَ النِّعم مَوْقِعا، وأشْرفَها خَطَرا ومَوْضِعا؛ نِعمةُ اللهِ تعالى فى الولد : لزيادتها فى العَدَد وقُوّة العَضُد؛ وما يُتَعَجَّل من عِظَم جَمالها وزينَتِها، ويُرْجى من حُسْن مآلها وعاقِبتِها؛ فى حفْظ النَّسب والأصْل، وحُسْن الخِلافة على

الأهل؛ وجميلِ الذِّكْروالثّناء، ومتقَبَّل الاَستِغفارِ والدُّعاء؛ وقد آتصل بالمملوك بُزُوغُ هلال سمـاءِ المجْد، ومتعلَّق الإقبال والسَّـعْد؛ فأشرقَت الأيامُ بإشْراقه، ووَثِقتِ الآمالُ باجتلائِه وٱتِّساقه؛ فقـام المملوكُ عن مولانا بشُكْر هـذه النعمة المتجدِّده، والمَوْهِبة الراهنة الخالدَه؛ وهنَّأْتُ نفْسِي بها، وأخذت بحظِّي منها؛ والله تعالىٰ يعرِّفُه يُمْنَ المولودِ من أطهر والدة وأطيبِ والد؛ ويُعمِّر به منْزِله، ويُؤْنس ببقائه رَحْلَه؛ ويبلِّغ محبِّيه، من الآمال فيه، مابَلَّغهم فى المـاجد أبِيه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

وفيه : ويُنْهِى أنَّ نِعمَ الله تعالىٰ وإن كانتْ علىٰ مولانا متظاهِره، ولديه مُتناصِرَه؛ فقد كان المملوك يرغَبُ إلىٰ الله تعالىٰ فى أن يُجمِّل الأيامَ من نَسْـله، بمَنْ يحفَظُ عليها شرفَ أصْلِه، ويَخْلُفُه بعد العُمُر الطويل فى نُبْله وكَرَم فِعْله؛ ولـمَّـا آتَّصـل بالمملوك نبأُ هـذا الهلال البازغ فى سَمـائه، المُقرّ لعُيون أوْليـائِه، المخيِّب لظُنُون أعدائه؛ حَمِدتُ الله تعالىٰ علىٰ مَوْهِبته، وسألتُه إقرار نِعْمته؛ وأن يُعرِّف مولانا بركةَ قَدمه، ويُمْن مَقْدَمه؛ ويوفِّر حظَّه من زيادَتِه، وسعادةِ وِفادته، وأن يجعلَه بَرًّا تقيًّا، مباركًا رَضِيًّا؛ ويُفَسِّح فى أجَلِه، ويُبلِّغه فيه أملَه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

من كلام المتأخريـــن :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

هُنِّئْتَ بالإسْـعافِ والإسْعادِ * ونَفَـاذِ أمْرٍ فى العِـدَا بنَفَادِ!
وبَقِيتَ ما بقِيَ الزمانُ مَهنَّأً * ووُقِيتَ شَرَّ شَمَـاتةِ الحُسَّـاد!
يا مالِكَ الرِّقِّ الَّذى أضْحىٰ لنـا * من جُودِه الأطْواقُ فى الأجْياد!
خُلِّدتَ فى عَيْش هَنِيٍّ أخضَرٍ * يَسْطُو بِبِيضِ ظُبًا وسُمْرِ صِعَاد،
حَتّٰى يخاطبَك الزمانُ مُبَشِّرا : * مُتِّعتَ بالإخْوانِ والأوْلاد!

جدّدَ اللهُ فى كلّ يوم له مَسَرّةً وبُشْرىٰ ، وأطابَ لعُرْفه عَرْفا ونَشْرا ، وشَدّ له بولده السعيدِ الطلعةِ أَزْرا وأَسْرا ، وسَرّىٰ به الهُمومَ عن القلوب وأصارَها لديْه أسْرىٰ ، ورفَع درجَتَه إلىٰ سماء المَعالى ليُقال : سُبْحانَ الذى بعَبْده أسْرىٰ .

المملوك يَخْدُم المولىٰ ويهنّيه ويشْكُره ، ويُطْلِعه علىٰ ماحصل له من الاْبتهاج للسبَبِ الذى يُنْهِيه ويذْكُره ، وهو أنه آتّصل به قُدومُ المسافِر بل إسفارُ البَدْر ، وظهورُ مَيْمُونِ الغُرّة الذى جاء لأهله بأمانٍ من صُروف الدَّهْر ، وهو الولدُ العزيز الموَفّق النَّجِيب ، فلان ، أبقاه اللهُ تعالىٰ ليَحْيا مشكُورًا محمُودا ، منْصُورا بسَيْف مَجْدِه وسِنَان سعدِه مَسْعُودا ، وأدام عِزَّه وعُلاه ، وأعلىٰ نَجْمه وخلَّد شرَفَه وبَهَاه ، وضاعف سَناءَه وسَنَاه ، وأرانا منه ماأرانَا من السعادة فى أبِيه ، فسُرَّ وآبتَهج بهذه النعمةِ غايةَ السُّرور والاْبتهاج ، وآتّضح له فى شُكْر إحسانِ المولىٰ وحُسْن ولدِه كلُّ طريقٍ ومنْهَاج ، وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُطَوّل له عُمُرا ، ويجعلَه لإسعادِ والدِه وإسعافِه ذُخْرا ، ليَرْتَعا فى رِيَاض الدَّعَة فى صِحَّة وسلامه ، ويَجْعلاَ فى فِناء العُلا لهما دارَ إقامه ، ويبْلُغا من السعادة درجةً لا تَرِيم عاليةً ولا تُرام ، وتَخْضعَ لهما الليالِى والأيّام ، ويرْشُقاهما بِسِهام الصُّروف ويَطْعَناهما بأسنّتِها ، ويَفْهما دعاءَ الأيام لهما من صدورها ويسْمَعاه من ألسِنتِها ، مخاطِبةً لأبيه ، ومنشدةً لسائر أهلِه ومحبِّيه :

مَدَّ لكَ اللهُ الحياةَ مَدّا ، * حتّى ترىٰ نَجْلكَ هذا جَدّا

الصنف الثانى — التهنئةُ بالبَنَات .

من كلام المتقدّمين :

أبو الحسين بن سعد :

النِّعمةُ نِعْمتان : إحداهُما تُعجِّل الأُنْس ، والأُخْرىٰ تدّخِر الأجر ، وعلىٰ حَسَب

ماتُتَلقّ به من الشُّكر على ظاهر المحبوب، والتّسليم فيما يَجْرِى مَجْرىٰ بعض المكْرُوه؛ يكون المتاعُ عاجِلا، والثوابُ آجِلا؛ وما قدَّمتُ القولَ [إلّا] لِما ظننته يَعْرِض لك من الوُجُوم فى هذه المَوْهِبَة، فى المولُودةِ التى أرجُو أن يعظِّم اللهُ بركتها، ويجعلها أيْمَنَ مولُودٍ فى عصرها، ودالَّةً علىٰ سعادةِ أبِيها وجَدِّها؛ و [لَئِنْ] كان فى الطبع حُبُّ الذُّكور والشَّغف بالبَنِين، فإنَّ البنينَ من البَنات، وهُنَّ باليُمْن معرُوفات؛ وبالبَرَكات مَوْصُوفات، وبالذُّكور فى أثَرِهنَّ مُبَشِّرات؛ فهَنأك اللهُ النعمةَ فيها تهْنِئةً لاتنْقِضى سعادتُها، ولا يعتَرِضُ النقصُ والتقدير(١) شيئًا منها؛ وابقىٰ هذه الصبِيَّةَ ممتَّعا أبُوها بها، ومُنْشأً له الحظُّ من حَدَاثتها؛ وبلَّغها أفضلَ مَبالِـغ الصالحاتِ القانِتات من أُمَّهاتها؛ وجعلَ فى مَوْلِدها أصدقَ دليل علىٰ طُول عُمُر أبيها وسَعادة جَدّه، وتضاعُف نِعَم الله عِنْده؛ إنه لطيفٌ جَواد .

أبو مسلم محمد بن بحر :

مَرحبًا بِبِكْر النِّساء، وبِكْر الأوْلاد، وعَقِيلة الخِباء، والمأمُولةِ للبركة، والمشْهورةِ باليُمْن؛ وقد جرَّبنـاه فوجدْناه معْهُودًا مسْعودا؛ والله يعرِّفُك أضـعافَ ماعَرَّف مَنْ قَبْلك، ويُبـاركُ لك فيما رزَقَك؛ ويُثَـنِّى لك بأخٍ للولودةِ ويجعَـلُه رديفَها، وفى الخير قرينَها وشريكَها .

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنَّ المملوكَ آتَّصل به آرْتِمـاضُ(٢) مولانا بمَقْدَم الكريمـةِ الوافِده، بطـالع السـعادةِ المتجدِّدَه؛ فعجِبَ المملوكُ من وُقُوع ذٰلك من مثل مَولانا مع كمال نُبْله،

---

(١) المراد به التضييق انظر القاموس .

(٢) يريد قلقه وعدم آنبساطه .

وشرف عقله وعلمه ؛ فإنَّ الله تعالىٰ جلَّ اسْمُه يقول : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وإن ما جدّده الله تعالىٰ من مَواهبه جديرٌ أن يُتَلقّى بالسُّرور والفَرَح، لا بالاستياءِ والترَح؛ لاسيّما والذَّكرُ إنما يتفضَّل علىٰ الأنثىٰ بنَجابته، لا بحِليته وصُورته ؛ وقد يَقع فى الإناثِ مَنْ هو أشرَفُ من الذكور طَبْعا ، وأجزَلُ عائدةً ونَفْعا؛ وقد رُوِى أنَّ رسولَ الله صلّىٰ الله عليه وسلم قال : " إذَا رُزِقَ العَبْدُ الأُنْثىٰ نادىٰ مُنادٍ من السماء : ياأهْلَ الدار أبْشِرُوا بالرِّزْق ؛ وإذا رُزِقَ ذكَرًا نادىٰ منادٍ من السماء : ياأهل الدار أبْشِرُوا بالعِزّ" فليستقبل مولانا الرِّزْقَ بالشُّكْر فإنَّ العِزَّ يَتْبَعه، ولا يعارِضُ اللهَ تعالىٰ فى إرادتِه ؛ ولا يستَقِلُّ شيئا من هِبَته ؛ والله تعالىٰ يُعرِّفه يُمْنَ عُهُودها، وسعادةَ قُدُومها؛ وأن يَسُرّه بعدها بإخوةٍ متَتابعين متلاحقين ؛ يؤيِّدُون أمْرَه، ويُحيُون بعد العُمُر الأطولِ ذِكْرَه .

أبو الفرج الببغاء :

لو كان الإنسانُ متصرِّفًا فى أمره بإرادته ، قادِرًا علىٰ إدراك مَشيئته ؛ لبطَلتْ دلائلُ القُدْره، وآستحالَتْ حقائقُ الصَّنْعه؛ ودَرَسَتْ معالِمُ الآمال، وتساوىٰ الناسُ ببلُوغ الأحوال؛ غيْرَ أنَّ الأمر لمَّا كان بغير مشيئته مَصْنُوعا، وعلىٰ ماعَنَه ظهَر فى الآبتداء مَطْبوعا؛ كان المُخْرِجُ له إلىٰ الوُجود من العدم، فيما آرتَضاه له غيرَ متَّهَم؛ ومولانا ـ أيده الله ـ مع كمالِ فضْلِه ، وتناهِي عَقْله ؛ وحِدَّة فِطْنته ، وثاقب معْرفته ؛ أجلُّ من أن يجهَلَ مواقِعَ النِّعم الواردةِ من الله تعالىٰ عليه ، أو يتسَخَّط مَواهِبَه الصادِرةَ إليه؛ فيرمُقَها بنواظِر الكُفْر ، ويسْلُكَ بها غيْرَ مذاهِبِ الشكر .

وقد آتَّصل بالمملوك خبرُ المولودة كرَّم الله غُرَّتها ، وأطال مُدّتَها ؛ وعرَّفَ مولانا البَرَكةَ بها، وبلَّغه أملَهُ فيها؛ وما كان من تغيُّره عند آتِّضاح الخبَر، وإنْكارِ ما آختارَه

له سابِقُ القَدَر، فعجِبَ المملوكُ من ذلك وٱستنكره، من مولانا وأنكره؛ لضيق العُذْر في مثله عليــه . وقد علِمَ مولانا أنّهنّ أقربُ إلىٰ القُــلوب ، وأنّ الله تعالىٰ بدأ بِهِنّ في الترتيب فقــال جلّ من قائل : ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وما سمّــاه الله هبةً فهو بالشّكر أولىٰ، وبحُسْن التقبّــل أحرىٰ ؛ ولكَم نَسبٍ أفدْن ، وشَرف ٱستحدَثْن ؛ من طُرق الأصْهار ، والاتّصال بالأَخْيار . والملتمسُ من الذكَر نجابَتُه ، لا صُورتُه وولادته ؛ ولكَمْ ذكرٍ الأُنْثىٰ أكرَمُ منه طَبْعا ، وأظهرُ منه نَفْعا ؛ فمولانا يُصوِّر الحالَ بصُورتها ، ويجدِّدُ الشُّكر علىٰ ماوُهِبَ منها ؛ ويستأْنِف الاعتراف له تعالىٰ بمــا هو الأشْبهُ ببصيرته ، والاولىٰ بمثله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـــالث ــ التهنئــــةُ بالتّوْءم .

أحْسَنُ ما رأيتُ من ذلك قولُ بعض الشُّعراء ممــا كَتب به إلىٰ بعض أصحابه ، وقد وُلِد له ذكَرٌ وأُنثىٰ من جاريةٍ سوداء، وهو قوله :

وخَصَّكَ رَبُّ العَرْشِ منها بتَوْءَمٍ * ومِنْ ظُلُماتِ البَحْرِ تُسْتَخْرَجُ الدُّرَر!
وارِكَ أضْحىٰ وارِثًا عِــلْمَ جابِرٍ * فأعطاكَ من ألْقابه الشَّمْسَ والقَمَر!

الأجوبة عن التهنئةِ بالأولاد

قال في "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع يجبُ أن تُبْنىٰ على شُكْر ٱهتمامِ المُهنِّئ ورعايَتِه، والاعتدادِ بعنايتِه؛ وأنّ الزيادة في تجدّد المهنّىٰ [به] زيادةٌ في عَدَده، وأن نصيبَه من تحرُّك السرور فيما يخلُص إليه من المَوَاهب كنصيبه: لتناسُبِهما في الإخاء، وتَوافِيهما في الصَّفاء، وأن تراعىٰ مع ذلك مرتبة المَهنِّئ والمَهنَّى، ويبنىٰ الخطاب علىٰ ما يقتضيه كلٌّ منهما .

وهـــذا مثالٌ من ذلك :

زهر الربيــع :

ويُنْهِى ورودَ الكتابِ الذى تَشرَّف المـــلوكُ بُورُوده ، وأشرقَتِ الأَيَّام بكمالِ سُعُوده، وأرغَمَ ببلاغته مَعْطِسَ مُناوِيه وحَسُوده؛ فشكَرَ أيادِىَ من أنْعم بإرساله ، وٱكتسىٰ بالوُقوف عليه حُلَّةً من حُلَل نَخْره وجَمَاله ، وبالغَ فى إكماله ، حتّى وقف إجلالًا له بين يَدَيْه ، ثم تلا آياتِ حُســنِه على أُذُنَيْه ؛ فوجده مشتمِلا علىٰ إحسانٍ لم يَسْبِقْه إلىٰ مثلِه أحَد، ومِنَنٍ أوْدَعها فيه فلا يُحصِيها حَصْر ولا عَدَد؛ فهَيَّج بُورُوده رَسِيسَ الأشْواق، وتقلَّد بإنعامِ مُرْسِــله كما قُلِّدت الحمائمُ بالأطْواق، ووجدَ لَوْعةً لا يُحْســن وصفَها لسانُ اليَراع فى الأوْراق ؛ وعلم ما أشارَ إليــه المَوْلىٰ من التهنئة بالوَلَد الجديد، بل بأصْغَر الخَـدَم والعَبيد؛ وما أبداه منَ الاْبتهاج لِميلادِه، وأظهره من التفضُّــل المعروفِ من آبائِه الكرامِ وأجْداده ؛ ولِمَ لا يكونُ الأمرُ كذٰلك والوالدُ مملوكُه ، وهو مملوكُ السادةِ الأجِلّاء أولادِه؛ حَرَس الله مجـدَه ومتّعه بثَوْب مكارِمه، وخَفَض قدْرَ مُحارِبه ورفَع كلمةَ مُسالِمه ؛ ولا زال ممـاليكُه تتزيَّد تزيُّد الأيَّام، وســعادتُه باقيةً بقاءَ الأعوام ، وعينُ العنايةِ تحرُسه فى حالَتَىِ السفرِ والمُقام؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــرب الثامن

(من التهانى التهنئةُ بالإبْلال من المَرَض والعافيةِ من السَّقَم)

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه مازالَتْ أجسامُ أهل التَّصافِى، تشترِكُ فى الأسْقام والعوَافِى، كما تَشْتَرِكُ أنفُسُهم فى التخالُص والتَّوافى ؛ ولـمّا ألَمَّ بمولانا هـذا الألَمُ الذى تفضَّل الله تعالىٰ

بإماطتِه، ومَنَّ فيه علىٰ السُّؤدد بحِراسةِ مولانا وحياطَتِه ؛ فرأيْتُه حالًّا فى جَوارِحى، مُحْرِقًا لجوانِحى ؛ ممازِجا لأعْضائِى، متملِّكا لأنْوائِى(١) ؛ ولئن كنتُ قد تحمَّلْت من ذٰلك عِبـا، وآرتقَيْت من تحمُّله مُرْتقًى صَعْبا ؛ فلقد نَخَرتُ بمماسَّتِه، وأحمَدْتُ طَبْعى علىٰ مُشَاكلته ؛ وشكَرْت الله تعالى إذْ جعَلَنى شُعْبة من سَرْحتِه، وجبِلَّة من طينَتِه ؛ وعلىٰ ماسَرَّ به من إقالتِه وإنعاشِه، ومُصافاتِه وإبْشاشِه ؛ وسألتُ الله تعالى أنْ يبقيَه نُورا يُوضِّح مَغْرِبَ الدَّهرِ ومَشْرِقه ، ودُرًّا يُرصِّع فَوْد المجْدِ ومَفْرِقه ؛ ويُحْسِن الدِّفاعَ عن حَوْبائه، وهو سبحانهُ يُجِيب ذلك ويتقَبَّله ، ويرفَعُه ويسْمَعُه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

المملوكُ يُهَنِّئُ مولاه خاصَّةً إذ جعله الله تعالىٰ من صَفْوةِ أوليائِه، وخالِصة أحبَّائه ؛ الذين يبتليهم آختبارا، وينْتابُهــم آختيارا : ليجمع لهم بين تمحيص وِزْرِهم، ومضاعَفَة أجْرِهم ؛ والحضِّ علىٰ طاعته، والآنصراف عن معْصيته ؛ ويُهَنِّئُ الكافَّة عامَّة بالمَوْهِبة فى نُوره المُطلِعــةِ لاملِ الإقبال ، المُرْوِيَة لِمَـاحِل الآمال ؛ ثم أعطِفُ علىٰ حَمْد الله علىٰ مامَنَّ به من إبْلالِه ، ويَسَّره من آستِقْلاله ؛ والرَّغبةِ إليه فى أن يمنَحَه صحةً تُخَلَّد وتُقِيم، وعافيَةً تَرْهَن ولا تَرِيم ؛ وأن يحمِيَه من عَوارِض الأسْقام، ويصُونه من حوادثِ الأيَّام ؛ بفَضْله وجُوده، إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أفضلُ مايَفْزَع إليه العبدُ المخْلِص، والمَوْلىٰ المتخصِّص، فيما ينَوبُ سـيِّدَه ويُهِمُّ وَلِيَّ نعمتِه، الدعاءُ المقترِن بصدْق النيه، وصَفَاء الطوِيَّه [فالحمد لله الذى منَّ بالصحَّة] وتصدَّق بالإقالة، وتدارك بجميل المُدافعة ؛ وعَمَّ سائرَ خدَمِه أيَّده الله بالنِّعمه، وأعاده

(١) كذا فى الأصل ولعله لأحشائى أو نحو ذلك .

إلى أجمل عاداته من السلامة والصِّحه، فائزا بمُدَّخر الأجر، متعبِّدا بمستأنَف الشُّكْر، فلا أخلاه الله من زيادةٍ فيما يُوليه، ولا قصدنا بسَماع سُوءٍ فيه؛ وحرَس من الغِيَر مُهْجته، ومن المحذُور نِعْمَتَه.

وله فى مثـــله :

ما كنتُ أعلم أنّ عافِيتِي مقرونةٌ بعافِيَتِك، ولا سَلامَتِي مضافةٌ لسَلامتِك، إلى أن تحققْتُ ذلك من مُشاركتى إيَّاك فى حالَتَى الألَم والصِّحه، والمرض والمِحْنه؛ فالحمدُلله الذى شَرَّف طبْعِي بمناسَبَتِك، وجَمَّل خُلُقِى بملاءَمتِك، فيما ساءَ وسَرّ، وإيَّاه تعالى أشكُر على ماخصَّنِي به من كَمال عافِيَتِك، وسُبُوغ سلامتِك وسُرْعة إقالَتِك؛ وبه ـ جلَّ اسمه ـ أثِقُ فى مَزِيدك من تظاهُر النِّعم، وتوفُّر القِسَم.

وله فى مثـــله :

ولولا أنَّ متضَمَّن كتابك قرَن ذِكرَ المرض الهاجِم عليك، بذِكر ما وَهبه اللهُ لك من عَوْد السلامةِ إليك، لما اقتصَر بى القلَقُ على[ما]دُون المَسِير نحْوَك، والمبادرة لمشاهدَتِك، غيرأنَّ السُّكون إلى ماأدّاه كتابُك سابقَ الجَزَع، والطُّمأنِينةَ إلى ماوهبه اللهُ من كِفَايتِك حالتْ دُون الهَلَع؛ فالحمدُ لله الذى منّ بالإقالةِ، وتَصدّق بالسَّلامة وعَمَّ بالكِفَايه؛ وهو ولىُّ حِراسَتِك وحراستى فيك.

وله فى مثـــله :

سيِّدُنا فى سائر مايذَكِّره اللهُ من هُجُوم ألَمٍ مُؤْذِن بصحَّه، واعتراض مِحْنةٍ مؤدِّيَة إلى منْحَه، مَرْمُوقٌ بالعافيه، محروسٌ من الله جلَّ اسمه بالحفظ والكَلَاءة؛ فهو مع العلة فائزٌبذخائِر الأجْر، ومع العافيةِ موفَّقٌ لاستزادة الشُّكْر؛ فالحمدُ لله الذى عقَدَ الكَرم ببقائه، وشفى مرَضَ الآمال بشِفَائه، وكفاه اعتِرَاضَ المَخُوف، وعَوَارِضَ الصُّروف.

وله فى مثـــله :

ماٱنْفردَ جِسْمُك بالعِـلَّة دُونَ قَلْبى ، وِلا ٱختصَّت نفْسك ـ حرسها الله تعالىٰ ـ بمُعاناةِ المَرَض دُون نَفْسى ؛ ولم أزلْ بالقَلْب تالِيا ، وفى سائر ماشكوتَهُ بالنِّية مُساوِيا ؛ إلىٰ أنْ كشفَ الله الغُمَّه ، وأقال العَثْره ، ونَفَّس الكُرْبه ؛ ومَنَّ بالسلامه ، وتصَدّق بالكِفايه ؛ وأوجبَ بالعـافيةِ علينا جميعًا فُروضَ الشكر ، بعد ما ادَّخره لك بالألَمَ من كثْرة الأجر ؛ فالحمـد لله علىٰ ذٰلك حمدًا يؤدّى إلىٰ حِراسة ماخَوّلك ، ويُؤْذِن بالمَزِيد فيما منحك .

ومن كلام المتأخريـــن :

أعْلىٰ الله قدرَ الجناب الفُلَانِى ، ولا زالتْ شُموسُ أيامه لاتخَافُ كُسُوفا ولا أُفُولا ، وأقمارُ لياليه تَغْرِس فى قلُوب أوليائه ومحِّبيه فُروعًا وأُصُولا .

المملوكُ يَخْدُم خدمةَ مَنْ تَحمّل جميلا ، ونال من تَفَضُّل الجناب الكريم جزِيلا .

ويُنْهِى ما حصل له من السُّرور بعافيــةِ مولانا ، فالشكرُ لله علىٰ ماجَدّد من النِّعمة التامَّه ، وسَمح به من الكرامة العامَّه ؛ حين أعاد البَــدْر إلىٰ كَماله ، والسُّرورَ إلىٰ أتَمِّ أحواله ؛ وما كانتْ إلا غَلْطةٌ من الدَّهر فاستَدْركها ، وصَفْقةٌ خارجةٌ عن يدهِ فمُلِّكها ؛ فقرَّتْ بذٰلك العُيون ، وتحقَّقت فى بُلوغ الأمل الظُّنون ؛ وٱنجبَرَ قلْبُــه بعدما وهَن ، وعاد جَفْنُه بعد الأرَق إلىٰ الوَسَن ؛ وقال : ﴿ الحمدُ للهِ الَّذى أذْهَبَ عَنَّا الحَزَن ﴾ . ولقد كان يتمنّى المملوك لو فازَ من الرُّؤية الشريفةِ بحظِّ السمع والبَصَر ، وتملّى بمشاهدة وجْهه الكريم فإنَّ فيه البُغْيةَ والوَطَر .

والمملوكُ فمـا يُعدّ نفْسَه إلا من المحبين الذين بذَلُوا نُفوسَهم لمحبته وأعَدُّوها ؛ والله تعالىٰ يسُرّ الأولياء بتضاعُف سُعُوده ، ويُديم بهجةَ الأيَّام بميمُون وُجُوده ؛ ويُطيل

فى مدّته ويحرُسها من الغِيَر، ويحرُس أحوالَ مِزاجه الكريم علىٰ القانُون المعتَبَر، ويَكْفِى أولياءَه ومحبِّيه فيه كلَّ مكروهٍ وحَذَر؛ إن شاء الله تعالىٰ .

من زهر الربيع :

ولَمَّا شَكَوْتَ، ٱشْتكىٰ كُلُّ ما * علىٰ الأرضِ وٱهتَزَّ شَرْقٌ وغَرْبُ!
لِأنَّك قَلْبٌ بِجسْم الزَّمان * وماصَحَّ جِسْمٌ إذا ٱعتَلَّ قَلْبُ!

حرَسَ الله جَنابَه، وأسبَلَ عليه رِداءَ السعد وأثوابَه؛ ومتَّعه بِبُرود العافية وجِلْبابِها، وفتح له إلىٰ نَيْل السعادة سائرَ أبوابِها؛ ومنَحه الكِفايَة والأَمْنَ فى سِرْبه، والعافيةَ فى جِسْمه من قَلَق كلِّ مَرِضٍ وكَرْبه؛ وجمع له بين الثَّواب والأَجْر، وجازاه بجزيل الغُفْران عن جميلِ الصَّبْر .

المملوك يبَشِّر نفْسَه ومولاه بما مَنّ الله به من صِحَّةِ مِزاجه الكَرِيم، والإبلالِ من مرضٍ كاد يُدِير كُئُوس الحِمَام علىٰ كلِّ صدِيقٍ حَمِيم؛ ويحمَدُ الله علىٰ عافيتِه حمدًا جزيلا، ويشْكُره عليها بُكرَةً وأصيلا؛ فإنَّه قد عُوفِى لعافيتِه المجدُ والكَرم، وزالَ عنه إلىٰ أعدائه الأَلَم؛ فالمولىٰ حفِظ الله[1] صِحَّته من السَّقَم، وحَماهُ من أَلَمَ أَلَمّ؛ وجعل سعادَتَه تتزايَدُ علىٰ مَمَرِّ الأنفاس، وجسَدَه سالما من الأذىٰ كسلامةِ عِرْضه من الأدْناس؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وقىٰ اللهُ من الأسواء شَخْصَه الكريم، وشَمْلَه النَّظِيم؛ وقلْبَ محبِّه الذى هو فى كلِّ وادٍ من أوديةِ الإشفاقِ يَهِيم .

(١) لعله حفظ الله على المولىٰ صحته الخ .

ولا زالتِ الصحةُ قرينَه حتّى لايعتَلّ فى منازله غيرُ مُرور النَّسيم . ويصفُ شوقا يَزِيد بالأنفاسِ وَقْدا، ويجدّد للأحشاءِ وَجْدا ، ويبـاشِرُ القلبَ المُغْرَم فيَمُدّ له من عذاب الآنتظارِ مَدّا .

وينهى أنه جهّز هذه الخدمةَ نائبةً عنه فى آستجْلاءِ وجه أكرمِ الأحبَّه ، وتُصافِحُ اليدَ التى أقلامُ كُتُبِها فى شكوىٰ البِعادِ أطِبَّه ؛ مبديةً إلىٰ العـلم الكريم أنَّه معَ ما كان يكابِدُه من الأشواق، ويعالِجُه من خَوَاطر الإشْفاق، بلَغـه ضَعْفُ الجسد الموَقّى، وعارِضُ الألم الذى آستطار من جَوانِح المحبِّين بَرْقا؛ فلا يَسْأَلُ الجنابُ الكريمُ عن قلْبٍ تألّم، وصدْرٍ صامتٍ بالهُموم ولكنّه بجراح الأشْجان تكَلَّم، ولسانٍ أنشد :

ألَا لَيْتَنِي حُمِّلْتُ ما بِكَ من ضَنًى * علىٰ أنَّ لى منه الأَذىٰ ولكَ الأجْرُ!

ثم لَطَف اللهُ تعالىٰ وعجَّل خَبَرَ العافية المأمُوله ، والصحةِ المُقْبِلة عَقِيبَ الدَّعَوات المقبوله ؛ فيالها مسَرَّة شَمِلتْ ، ومبَرَّة كَمُلت ؛ وتهنئـة جمعتْ قلوبَ الأوِدّاء وجَمَلتْ، وأعضاء فَدَتْها(١) عُيونُ المَها فنقلَتْ عنها صِـفاتِ السِّقام وحَمَلَتْ؛ وعافيَة حوَّلتْ إلىٰ قلوب الأعداء المَرَض، وجَوْهَرِ جسدٍ طاهرٍ زال [عنه] بأسُ العَرَض؛ فهنيئاً له بهذه الصحةِ المتَوافِرة الوافيه ، والحمدُ لله ثم الحمدُ لله علىٰ أنْ جمع بين حُصُول الأجْرِ ووُصُول العافيه، وعلىٰ أن حفِظ ذاتَه الكريمة وحفْظُها هو المقدّمةُ الكافيةُ الشافيه :

وتقاسمَ الناسُ المسرَّةَ بينهم * قِسَمًا فكانَ أجلَّهم قِسْما أنا !

والله تعالىٰ يُسْبغ عليه ظِلَال نِعَمه، ويحفَظُه حيثُ كان فى نَفْسه وأهلِه وخَدَمه؛ وكما سرّ الأحبَابَ بخبرِ عافيَته كذلك يسُرُّهم بعِيَان مَقْدَمه .

(١) فى الأصل قيدتها ولا معنى له .

أجوبة التهنئة بالإبلال من المرض والعافية

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصف الألَمِ وصُورته وما تفضَّــل الله تعالىٰ به من إمَاطتِه ، وشكرِ المهنِّى بٱهتمامه وعِنَايتِه .

وهذه أمثلة من ذٰلك :

من زهر الربيع :

أدام اللهُ نعمتَه ، وشكر مِنَّته ، وأدالَ دَوْلَتَــه ؛ وأعلىٰ قدْرَه وكلمتَــه ، وحتَّم علىٰ الألسنة شُكْرَه والقلوبِ محبَّتَه . ولا زالتِ التهانِى من جِهته وافِده ، والبشائرُ وارِدَه .

ويُنْهِى وُرودَ الكتاب الذى أعدّتْه يدُ المَعالى فعادَ كَرِيمــا ، وشاهدَ حُسْنَ منْظَرِه فصار وجْهُه وَسِيما ؛ وأنه وقَفَ عليه ، وأحاط عِلْما بكلِّ ماأشار المَوْلىٰ إليه ؛ فذكَّره أُنْسا كان بخِدْمتِه لم يَنْسَه ، وجدَّد له وَجْدا ما زال يَجِدُ فى قلبه ونَفْسِه عينَه ونفسه ؛ ونَشَر من مآثِرِه المأثُوره ، وفضائله المرقومةِ فى صَــفَائحِ الصَّحائِف المسطُوره ؛ ماشنَّف به وشَرَّف ، وشوَّق إلىٰ لِقــائِه وشَوَّف ؛ وأقامَ البُرهانَ علىٰ ذَكِىّ فِطْنته ، وزَكِى فِطْرته ؛ وعلِمَ ماأنعَم به وتفضَّل ، وأحسَنَ وتطَوّل : من تهنئة المملوك بالإبْلال من مَرَضه ، والبُرء من سَقَمه ، والتخلُّص من يدَىْ وجَعِه وألَمِه ؛ وسُرَّ بوُرودِ كريم مُشَرّفته ، أعظَمَ من سُرورِه بلِباس ثَوبِ عافيَتِه ؛ وبدَوامِ مَجْده وسعادتِه ، أكثَرَ من صِحَّةِ مِزاجه وٱستِقامتِه : فإنَّ مكارمَ المَوْلىٰ كالحدائقِ النَّاضِره ، ومنْزِلَتــه أعزَ فى القلوبِ من الأحداقِ الناظِره .

فالحمدُ لله الذى مَنّ بالعافية من ذلك المَرَض ، والداءِ الذى ألَمَّ بعرضَيْه فاحتوىٰ منهما علىٰ الجوْهَر والعَرَض ؛ وطالَ حتّى أسأمَهُ من نَفْسه وعُوّاده ، وآيَسه من الحياة

لولا لطفُ اللهِ واللهُ لَطِيفٌ بعِبَادِه ؛ وهــذا ببركةِ المولىٰ ودعائِه الذى كان يرْفَعُــه ، والخواطِرُ والأسمــاعُ مع بُعْد الشُّقَّة تشْهَد به وتسْمَعُه ؛ جعل الله التهانِىَ مع الأبد واردةً منه و إليه، وشكَرَ إنعامَه وأتَمَّ نعمتَه عليه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وكتبتُ للمَقرّ العلائىّ علاءِ الدين الكَرَكىّ وهو يومَئِذ كاتبُ السِّرِّ الشريف فى الدولة الظاهِرِيَّة «برقوق» فى سلْطنته الثانيةِ، وقد برَأ من مرض نظما :

أَفْدِيه مِنْ جَسَــدٍ قدْ صَحَّ مِن سَقَم * فبَاتَ جَوْهَرُه خالٍ من العَرَض !
فاستَبْشَرتْ بعَــلِىّ القَوْمِ شِــيعَتُه * وماتَ حاســدُه بالسُّقْمِ والمَرَض !

الضرب التـاسع
(التهنئـــةُ بقُرْب المَـــزار)

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

قَرَّب اللهُ مَزَاره ، وأدْنىٰ جِوَارَه ، وأعانَـــ أعوانَه ونَصَرأنصارَه . ولا زالتِ الأنفُسُ لقُرْبه مَسْروره ، وراياتُ مجْدِه فى الملإِ الأعْلىٰ وأحزاب الإسلام بهيبَتِه علىٰ اعداء الدِّين مَنْصُوره .

المملوكُ يقبِّل الباسطةَ العاليةَ بسَطَ اللهُ ظِلَّها، وشكَرَ علىٰ الأولياء فَضْلَها . ويُنْهِى أنه اتَّصل به طَيِّبُ أخباره ؛ وقُرْبُ مَزَاره؛ فتَضاعفَ شَوْقه، وتَزايد توَقُه؛ وهيَّجتْ صَبَابتُه لاعِجَه ، وسَهَّلتْ إلىٰ نَيْل المَسَرَّة طُرُقَه ومَنَاهِجَه :

وأَبْرَحُ مايَكُونُ الشَّوقُ يَوْمًا * إذا دَنَتِ الدِّيارُ مِنَ الدِّيَارِ!

فاللهُ يقرِّبُ من أمَدِ التَّلاقِى بَعِيدا، ويجعَلُ رِداءَ الاجتماع بخِدْمته قَشِيبا جَدِيدا.

الضـــرب العـاشر
(التهنئـــةُ بنزول المَنـازل المستجدّة)

فمن ذلك [من إنشاء] علىّ بن خلف :

أشرَفُ المَنازل رُقْعه ، وأترَفُها بُقْعه ، وأرفَعُها رفعـه ، ما آتَّخذه مولانا لنفســه موطِنًا ، وجَعله بنزُوله فيه حرمًا آمِنا ، وصيّره بمُخْصِب مكارمه للعُفَاة مَرادًا ومَقْصدا ، وبمُعْذِبِ نوافِـله للظُّماة مَشْرَعا ومَوْرِدا ، وللسُّؤدَد بمجده مَعْقِلا ، وللرِّياســة بشَرَفه مَنْزِلا ، والله تعالىٰ يجعلُ هذه الدارَ التى تدبَّرها وحَلَّها ، وحَطَّ بها رحْلَه ونزلها ، مأهولةً ببقائه ، آنسةً بسُبُوغ نَعْمائه ، عامرةً بسعادته ، مَشِيدةً بتناصُرِ عِزِّه وزيادته ، لاتُخْطِئُها حوائمُ الآمال ، ولا تَتخطَّاها دِيَمُ الإقبال ، ويُعرِّفُه من بركتها ، ويُمْنِ عَتَبتِها ، مايقضى بامتدادِ الاجل ، وآنْفِساح الأَمل ، وبلوغِ الأمانِى ، وآتِّصال التَّهانى ، بمنِّــه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنه قد آتَّصل بالمملوك تحوّلُ مولانا إلىٰ المنْزِل المنْشَإ الجَديد ، ذى الطالِع الســعِيد ، والطائرِ الحميد ، فسألتُ الله تعالىٰ أن يبوّئَه منه المُبوّأَ الكَرِيم ، ويمتِّعه فيــه بالدَّعَة والنَّعيم ، والنَّمـاء والمَزيد ، والعَيْش الرَّغيــد ، ويجعَلَه واصــلًا لحبْله ، مأهولًا بأهله ، ويعرِّفَه بركةَ عتَبتِه ، ويُمَلِّيه ببهائِه ونَضارته ، وحصل للمملوك السُّرورُ بأن بلَّغه الله الوَطَر ، فى سُكْنىٰ ماعَمَر ، وأناله الأمَل والآلتذاذ بخِدْمته ، والسُّرورَ بافْتِضاض عُذْرته ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

مولانا ــ أمتع الله بوجوده ــ غنىّ عن الهَنَاء بمنْزِلٍ ينْزِله ومحلٍّ يحُلُّه ، إذ الله ســبحانَه وتعالىٰ قد كَثَّر أوطانَه وآدُرَه ، وبلَّغه فى تمـامِ عِمارَتها وآنفِساحها وطَرَه ،

وخصَّه بأفضلِها معَانا ، وأشرفها مَكَانا ؛ والمستوجِبُ فى الحقيقـة للهَنَاء هو الموضِعُ الذى آختاره دَارًا ، وآرْتضاه مستقَرّا ؛ وعرَفَ المملوك آنتقالَه ـ لازال يتنقَّلُ فى بُروج السَّعْد ، ويأْوِى إلىٰ ظلّ ظليلٍ من المجْد ـ إلىٰ الدار الفلانية لا زالتْ جامعةً لشَمْله ، مأنوسةً بأهْله ؛ فعدَلَ عن خِدْمته بالهناء ، إلىٰ إخْلاص الدُّعاء ، بأن يعرِّفَه الله تعالىٰ يُمْنَها وبركَتها ، ويُرِيه إقبالَهـا وسـعادَتها ، ويَقْرُنَ تحوُّله إليهـا بأيْمنِ طائِر ، وأبركِ طالِـع ؛ فإنَّ للحرَكات أوقاتاً محمودةً ومَذْمومة : فإذا آعْتنىٰ اللهُ تعالىٰ بعَبْد من عَبِيده ، وفَرَضَ له نصيبًا من تأييده ؛ وفَّقه للحركة فى الزَّمَن السعيد ، والوقتِ الحميد ، لتكُونَ مَصَايِرُه مُشاكلةً لَمبادِيه ، وأعجازُه مشابِهـةً لهَوَادِيه ؛ واللهُ تعـالىٰ يجعَـل بابَها محطًّا للقُصَّاد ، ومناخًا للوُفَّاد ، ومَزَارا للعُفَاه ، وملاذا [للعُنَاه](١) ويصلُ بها حَبْله ، ويُنْشِى بها طِفْله ؛ ويضاعِفُ بآستيطانِها أُنْسه ، ويسر بتَبَوُّئِها نَفْسَه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

أسـعدُ المنـازِل وأشرفُ المواطِن ماآسـتوْطنه أيَّده الله وتبوّاه ، وتخيَّره لنَفْسـه وآرتضاه ؛ فغدا بشَخْصِه وطَنَ الإقْبال ، وبفائِض كَرَمه حَرَمَ الآمال ؛ وبشَرَفه للسُّؤدَد مَعْقِلا ، وبنُبْـله للرِّياسة مَنْزِلا ؛ فعرَّفه الله يُمنَ هـذه الدارِ المعمورة بحُلُول البركات ، المحفوفةِ بتناصُر السَّـعادات ؛ وجعلها وكلَّ رَبْع يقْطُنُه ، ومحلٍّ يسكُنه ، مبَشِّرا بآمتدادِ بقائِه ، وآهِلاً بالزِّيادة فى نَعْائه .

وله فى مثـــله :

كلُّ وطن يحُلُّه ـ أيده الله ـ ويقْطُنه ، ومحـلٍّ يتخَيَّره ويسْكُنه ؛ مقصودٌ بالشُّكر والثناء ، آهِلٌ بالحمدِ والدُّعاء ، لا يتخطاه مُتوارِدُ الآمال ، ولا تنْقطِع عنه موادُّ الإقبال ؛

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ولذلك صار هذا المنزلُ السعيدُ من فضائلِ الأرض ومحاسِنها، ونُجَع الآمال ومَعادِنها؛ فعرَّفه الله يُمْنَه و بركتَه، و إقبالَه وسعادَتَه؛ وقرن آنتقالَه إليــه بأسبَغ نِعْمة، وأكمل سَلَامة وأبسط قُدرةٍ وأعلىٰ رُتْبه .

وله فى مثـــله :

عرَّفه الله [من] بركةِ هذا المنزِل المَوْرود، والفِناء المقصُود، ما يُوفِي علىٰ سالف ماأولاه من تكامُل البركات ، وتناصُر السَّـعادات؛ وجعل مستقَرَّه فيــه مقرونًا بُنُمُوّ الحال ، وتتابُع الإقبال ؛ فى أفسَحِ المُدَد وأطولها ، وأنجَح المطالِب وأفضَلِها ؛ وعمَّر أوطانَ المكارم بإقباله ، وعَضَّد الأمانِيَّ بآتِّساع نَعْمائه (١) .

أجوبة التهنئة بقُرْب المَزار، ونُزولِ المنازل المستجدّة

قال فى " موادّ البيان " : أجوبةُ هــذه الرِّقاع يجب أن تُبْنىٰ علىٰ الآعتداد للمهنِّى بتعهُّده، والشكر له علىٰ تَوَدُّده، والآبتهاج بِهَنائه، والتبرُّك بدعائه؛ وأن المستجدّ غير مبايِنٍ لمنْزِله، ولا خارجٍ عن أحكام محله؛ وأنَّ تمـامَ بركته، أن يُؤْنِس فيه بزيارتِه؛ وما يشابه هذا .

الضرب الحادى عشر

(نَوادِر التَّهانِى، وهى خمســـةُ أصـــناف)

الصنفُ الأوّل — تهنئـــةُ الذِّمىّ بإسلامه .

فمن ذٰلك ماأورده أبو الحُسَين بن سعد فى ترسُّله، وهو :

وما زالتْ حالُك ممثِّــلةً لنا جميلَ ما وهبَ اللهُ فيك حتّى كأنَّك لم تَزَل بالإســلام مَوْسُوما، وإن كنتَ علىٰ غيرِه مُقيما؛ وقد كُنَّا مؤمِّلين لِمَـا صِرْتَ اليه، ومُشْفقين لك

(١) لعله بيقائه ليناسب السجع الذى بعده .

مما كُنْتَ عليه ؛ حتّى إذا كادَ إشفاقُنا يستَعْلى علىٰ رجَائنا ، أتتِ السعادةُ فِيكَ بما لم تزلِ الأنفُسُ تَعِدُ منك ، ونسألُ اللهَ الذى نوّرَ لكَ فى رأْيك ، وأضاءَ لك سبيلَ رُشْدِك ؛ أنْ يؤهِّلك لصالحِ الأعمال ، وأنْ يؤتيَك فى الدنيا حسنَةً ويَقيَكَ عذابَ النار .

ومن ذٰلك ، من كلام أبى العَيْناء :

ولتَهْنِئْكَ نِعمةُ اللهِ عليك فى أُخُوّة المهاجِرين والأنصارِ والتابعين بإحْسان ؛ والحمدُ لله الذى فَوَّزَ قِدْحَك [وأ] علىٰ كَعْبك ، وأنقذَ من النار شِلْوَك ؛ وخلّصَك من لَبْس الشّك ، وحَيْرة الشِّرْك ؛ فأصبحت قد آستبدلت بالأدْيارِ المساجد ، و بالآحادِ الجُمَع ؛ وبقِبْلة الشام ، البيتَ الحَرَام ؛ و بتَحرِيف الإنجيل ، صِحّةَ التنزيل ؛ وبأوْثانِ المشركين ، قبْلَة الموحِّدين ؛ و بحُكْم الأُسْقُفّ رأسِ المُلْحِدين [حكم] أميرِ المؤمنين وسيِّدِ المرسلين ؛ فهنَأك الله ماأنعَم به عليك ، وأحسَنَ فيه إليك ؛ وذَكَّرك شُكْرَه ، وزادك بالشُّكْر من فَضْله .

أجوبة التهنئة بإسلام ذمىّ

قال فى "موادّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تكونَ مبنِيّة علىٰ شكر المهَنِّإ للهَنِّئ ، وآعترافِه بنعمةِ الله تعالىٰ عنده ، وآبتهاجِه بممازَجته فى الدِّين ، الذى جعل اللهُ أهلَه إخوانًا متَصافين ، وخُلّانًا متوافِين ، ومَنّ عليهم به ، و بإماطةِ الحسائِف (1) من قلوبهم ، ونحو هذا .

الصنف الثانى ــ التهنئة بالختَان وخروج اللِّحية .

فمن ذلك تهنئةٌ لأميرٍ بختَان ولدَيْن له :

فمن خَصائص ما حَباه اللهُ بعدَ الذى قدّم له فى نَفْسه ــ نفّس الله مُدّتها ؛ ووسّع له مُهلتها ، وأفنىٰ الأعدادَ دُونَ فَنائِها ، والأعمارَ دُونَ تصرُّمِها وآنتهائِها : [من] الفَضَائل

(1) الحسائف جمع حسيفة وهى الضغينة والسخيمة أُنظر اللسان فى ج ١٠ مادة ح س ف .

المشهوره، والمَحاسن المذكوره، والمَناقِب المأثوره، وأقسامِ الفضل الذى ينْقضى دُونَ تصرُّم(؟) منازِله وصْفُ الواصف إذا أفرطْ، وينتهى دون أيْسرها أملُ الآمِلِ إذا اشتطّ ـ ما وهبَ اللهُ له من أولادٍ سادةٍ فضَّلهم فى الأخلاق والصُّوَر، وأكملهم فى الأجْسام والمِرَر، وقدّمهم فى العُقُول والأفهام، والقرائح والألباب، ولم يجعل للمَعايب فيهم سيمه، ولا للإناثِ بينهم شركه؛ حتّى يكون مسلّما لهم قصبَ العُلا والمَفَاخر، وصدُورَ الأسِرّة والمَنابر، من غير منازِع، ولا مُقارع، ولا مُساهِم، ولا مُقاسِم، وزادهم من النَّماء فى النَّشْء والبركة واليمن بما يُؤذِن الحاضرُ منه بالغابر، ويدلُّ البادِى علىٰ الآخِر، وعْدًا من الله تعالىٰ ذكره لهم بأوْفىٰ السعادات، وأكمل الخيراتِ وأعْلىٰ الدَّرَجات؛ أرجو أن يجعل اللهُ النُّجْحَ قرينه، والنجاةَ ذَريعتَه؛ وما أوْلاه فيهم فى هذه الحال الحادثةِ التى يَعْدق الله بها أداءَ الفريضة، وكمالَ الشريعه؛ ويقع التطيُّر بالخِتَان، الذى جعله الله من شُروط الإيمان، وفَرَضه علىٰ جميع الأدْيان: من السَّلامة علىٰ عِظَم الخَطَر، وشِدّة الغَرَر، فى إمضاءِ الحديد علىٰ أعضاءٍ ناعمه، وإيصال الألَمِ إلىٰ قلُوبٍ وادِعة، لم تُقارِعْ نَصَبا، ولم تُعانِ وَصَبا، واجتمع فيه إلىٰ رقّة الصِّبا، وضَعْف الأَسْر والقُوىٰ، اعتيادُ الرحمه، ومخالفةُ الترفُّه والتنقُّل بين الشهوات، علىٰ أن كلَّ واحد من الأميرين شَهِد المعْركة أعزَلَ حاسِرا، وباشر الحرْبَ مغرّرا مُخاطرا، فثبت لوَقْع السِّلاح، وصَبَر علىٰ ألَمِ الجِراح، وأبلىٰ بَلاءَ الفارس المُدَجَّج، والكَمِىّ المقنَّع، ثم خرجَ خُروجَ شِبْل اللَيْث، وفرخ العُقاب، كالقِدْح المُعَلّى والشِّهاب الساطع، والنَّجْم الثاقب، وكان فلان أكثَرَهما تغيُّرا فى وجه قرْنه، وسطْوةً علىٰ مُنازِله، وكلٌّ قد حصَّل فوق الخَصْل، وحوىٰ فضيلةَ السَّبْق، واستحقَّ اسمَ البَأْس والشّدّه، وحلْيةَ البَسالة والنَّجْده.

ومن ذلك ماأورده أبو الحسين بن سعد فى كتابه :

الحمدُ لله الذى كَسَاك باللّحيــة حُلَّةَ الوَقار، وردَّاك رِداءَ ذِى السَّمْتِ من الأبرار والأخْيار؛ وصانَكَ عن مِيسَم الصِّبا، ومطامع أهــل الهوىٰ؛ بمـا جَلَّلك من اللحية البهِيَّه، وألبَسك من لِباسِ ذَوِى اللُّبِّ والرَّوِيَّه؛ وألحقك فى متصرَّفاته بمن يســتقِلُّ بنفسه ساعِيا، ويستغْنِى عمَّن صحبه حافِظا؛ وجعل ماجَمَّل من صُورتك، وكمَّل من أداتِك وآلَتِك؛ قِرْنًا لمن جاذَبك، وخَصْمًا لمن نازَعك؛ ونفىٰ عنك ذِلَّةَ الاحتِقار، من أهل المَراتِب والأخْطار؛ تَسْتوِى [بهم] فى المجالس الحافِله، وتجرِى مَجْراهم فى المَشاهد الجامعــه؛ مسمُوعا قولُك إذا قُلْت، ومُصْغًى إليك إذا نَطَقْت؛ آمنًا من انصراف الأبصار عنك لقُرْبِ ولَادك، ومن [عدم] الاستِماع لحديثك لقِلَّة الثِّقة بسَدادك؛ وجاريًا مَجْرىٰ كَمَلةِ الرجال علىٰ الجمله، إلىٰ أن يكشفَ اللهُ مَخابِرَك بالمِحْنه؛ وتعطىٰ المَهابةَ من الدّاعِر العادِى، ومن السَّبُع الضارى؛ ولو كان عاريًا من هذه الكُسْوة الشريفه، والحِلْية الملحُوظه؛ لسبقَتْ إلىٰ الازدراء بالأعين، والاستِصغارِ بالقلوب والألْسُن؛ أصنافُ الحيوان : من البهيمة والإنسان؛ ثم لا يُحِسُّ من نفسه قوّةً علىٰ الدَّفْع عنها، ولا من صرعته ثباتا(؟) علىٰ يدها فيه. وتلك نعمةٌ من الله جل وعزَّ حَبَاك بمرتبتِها فى جَمَالِ غَشَاك (١)، وكمالٍ أتاك؛ فَليُصدّق بها اعترافُك وشكْرُك، وليحْسُن ثناؤُك ونَشْرُك؛ قضاءً لحق الله عليك، واستِدْرارا فى المزِيد من إحسانِه إليك .

الصنف الثالث ــ التهنئــة بالمـــرض .

أبو الفرج الببغاء :

فى ذِكْر الله سيدى بهذا العارضِ ــ أماطه اللهُ وصَرفه، وجعل صحةَ الأبَد خَلَفَه ــ مادَلَّ علىٰ ملاحظته إيَّاه بالعناية، إيقاظًا له من سِــنَة الغفْلة؛ إذ كان تعالىٰ لايُذَكِّر

(١) غشى فلان فلانا أتاه كغشاه يغشوه . قاموس .

بطُرُوق الآلام، وتَنْبِيه العِظَات ، غَيرَ الصَّفوة من عِبَاده، الخِيرَة من أولِيائه ؛ فهَنَاه الله الفوزَ بأجرِ مايُعانِيه ، وحَمَلَ عنه بألطافه ثِقْلَ ماهُو فيه ، وأعقبَ ما ٱختَصَّه من ذَخَائر المُثوبةِ والأجْرِ بعافيةٍ تقْتَضِيه ، ولاسلَبَ الدنْيا جمالَ بَقائِه ، ولا نقلَ ظِلّه عن كافّة خَدَمِه وأوْليائه .

الصنف الرابع ـــ التهنئة بالصَّرْف عن الوِلَاية .

أبو الفرج الببغاء :

مَنْ حَلَّ مَحَلَّه ـ أيده الله تعالىٰ ـ من رُتَب الرِّياسة والنُّبْل ، كان معظَّما فى حالَتِى الولاية والعَزْل ، لايقْدَح فى قَدْره تغيُّر الأحوال ، ولا ينْقُله عن موْضِعِه من الفضل تَنَقُّل الأعمال ؛ إذ كان ٱستِيحاشها للفائت مِنْ بَركات نَظَره ، بحَسَبِ أُنْسها كان بما أفادَتْه من محُمود أَثَرِه . فهَنَأه الله نعمةَ الكِفاية ، وأوزَعَه شكْرَ ما ٱحتازه من النَّزاهة والصِّيانه ، ولا أخْلاه من التوفيق فى سائرِ متَصرَّفاته ، والخِيرةِ الضامنةِ لعَوَاقب إراداته .

وله فى مثله :

لَو كان لمستحْدَث الأعمال ومستَجِدِّ الولايات زيادةٌ علىٰ ما ٱختصَّك به من كمَال الفَضْل ، ومأثور النُّبْل ، لحاذرنا ٱنتقالَ ذٰلك بٱنتقالِ ما كنْتَ تتولّاه بمحمود كِفايَتِك ، وتحوطُه بنواظر نَزاهتِك وصِيانَتِك ؛ غير أنَّ الله تعالىٰ جعلك بالفضل متَقَمِّصا ، و بالمحامِدِ متَخَصِّصا ؛ فالأسَفُ فيما تَنْظر فيه عليك لامِنْك ، والفائدةُ فيما تتقلَّده بك لالك ؛ ولذٰلك كنْتَ بالصَّرف مهَنَّأ مسْرورا ، كما كنْتَ فى الولاية محموداً مشكورا ؛ فلا أخْلاكَ اللهُ من تَواصُل آلائه ، وتظاهُرِ نَعْمائه ؛ فى سائرِ ما تُبْرِمه وتُمْضِيه ، وتعتَمده وترْتئِيه .

أبو الحسين بن سعد ـ عمّن تولّى عملًا إلىٰ من صُرف عنه :

قدقُلِّدتُ العملَ بناحيتِك، فهنّأك الله تجديدَ ولايتِك، وأنفذْتُ خليفتِي لخلافتِك؛ فلا تُخْلِه من تبصيرك وهدايتك، إلىٰ أن يمُنَّ اللهُ بزيارتِك .

تهنئة بصرف عن ولاية :

لو كانتْ رِياسةُ سيِّدى مجنيَّةً من عُرُوش الولايات، وسيادتُه خارجةً عن سانح التصرُّفات، لأشفقَ أولياؤُه من زوالها بمزايلتِهما، وحذِرُوا من ٱنتِقالها بنَقْلهما؛ لٰكن ماوُسِم به من الكمال، وعَلَا به من رُتَب الجَلَال؛ موجُودٌ فى غريزته وُجودَ الفِرِنْد فى السيفِ المأْثُور، واللّألاء فى النور؛ وإذا تَصرَّف،أورد الله الرعيَّةَ من مَشارِعها نِطَافا، وأسبغ عليهم من ظِلِّها عِطَافا؛ وإذا ٱنصرف خيرٌ مُسْبَلٌ تقلَّص، وعيشٌ رائعٌ تنغَّص؛ والأسفُ علىٰ العمل السَّلِيبِ من حُلَل سياستِه الفاضله، العاطِلِ من حِلىٰ سيرتِه العادِله؛ ولهذا أصبح ـ أيَّده الله ـ بالعزْل مبتهِجا مسْرُورا، كما كان فى الولاية محمُودًا مشْكُورا؛ وٱنْطلقتْ ألسِنةُ أوليائه، فى هَنَائه، بما وَهَبه الله من الرَّفاهِيَة والدَّعه، وحطَّه عنه من الأثْقال المُقْلقه؛ ولا سِيَّما وقد علِمَ الخاصُّ والعامُّ أنَّ الأعمال إذا رُدَّت إليه، وعُوِّل فيها علَيْه؛ تَسلَّم المودع ودِيعتَه، والناشدُ ضالَّتَه؛ وإذا عُدِل فيها إلىٰ غيره تناولها تناوُلَ الغاصب، وٱستولىٰ عليها ٱستِيلاءَ السَّالِب؛ فلا تزال نازعةً إلىٰ ربِّها، متطلِّعَة إلىٰ خِطْبها؛ حتّٰى تعودَ إلىٰ محلِّها، وتَرجِعَ إلىٰ نَصْلِها؛ واللهَ تعالىٰ أسأل أن يقْضِيَ لمولانا ببُلُوغ الأوطار، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالصرف عن الولايةِ والخِدْمة

قال فى "موادِّ البيان" : يجب أن تكون أجوبتُها مبنيَّة علىٰ شُكر الاهتمام والاعتِداد بالمشاركة فى الأحوال، مع وُقُوع ما ورَد من الخطاب المَوْقِعَ اللطيف، وما ينتظم فى هذا السلك .

جواب مَنْ ورد عليه كتّابُ من وَلِي مكانه فى معنىٰ ذلك .

فمن ذلك :

ما ٱنصرفَتْ عنّى نعمةٌ أُهدِيتْ إليك، ولا خلَوْتُ من كرامةٍ ٱشتملتْ عليك، وإنّى لأجِدُ صَرْفِي بكَ ولايةً ثانيـه، وحُلَّة من الوِزْر واقِيه، لما آمُلُه بمكانك من حميد العاقِبة وحُسْن الخاتمه .

الصنف الخامس — تهنئـةُ من تزوّجتْ أمُّه بزواجها .

قد تقدّم فى أوّل المقالة الأُولىٰ فى حكاية حائِك الكلام مع عمرو بن مَسْعدةَ وزير المأمون[1]، أنه قال يُكْتَب إليه :

أما بعدُ، فإنّ الأمور تجرِى علىٰ خلافِ مَحابّ المخلوقين [واللهُ يختار لعباده][2]، نخارَ الله لك فى قَبْضِها [إليه، فإن القبور أكرم الأكفاء][2] والسلام .

أبوالفرج الببغاء: وقد أمره سيفُ الدولة ٱبنُ حَمْدانَ بالكتابة فى معنىٰ ذلك ٱمتحاناً له :

مَنْ سلَك إليـك — أعزّك الله — سبيلَ الاِنبِسـاط، لم يستَوْعِرْ مَسْلَكا من المخاطَبة فيما يحسُنُ الاِنقباضُ عن ذِكْر مثله . وٱتّصل بى ما كانَ من خبَرِ الواجبةِ الحقِّ عليك، المنْسُوبة بعد نِسْبتِك إليها إلَيْك — وَفَّر الله صيانتَهَا — فى ٱختيارِها مالَوْلا أنّ الأنفُسَ تتناكَرُه، وشرْعَ المُروءة يَحْظُره، لكُنتَ فى مثله بالرضا أوْلىٰ، وبالاعتداد بما جدّده الله فى صِيانتِها أحْرىٰ، فلا يُسْخِطَنّك من ذلك مارضِيَه وجوبُ الشَّرْع، وحسّـنه أدبُ الدِّيانة، ومُباحُ الله أحقُّ أن يتّبع، وإيّاك أن تكونَ ممن لمّا عدِم ٱختياره تَسَخّط ٱختيار القَدَر له، والسلام .

(١) تقدم فى ج ١ ص ١٤٢ "وزير المعتصم" .

(٢) الزيادة مما تقدم فى ج ١ ص ١٤٥ .

النـــوع الثـانى
(من مقاصـــد المكاتبات التّعازِى)

قال فى " موادِّ البيان " : المكاتبةُ فى التعزيَة بالأحداث العارضةِ فى هذه الدنيا واسعةُ المَجَال : لمـا تتضمَّنُه من الإرشاد إلىٰ الصَّبْر، والتسليم إلىٰ الله جلَّت قدرتُه، وتسلِيَةِ المعزّٰى عما يُسْلَبه بمشاركة السابقين فيه، ووْعدِه بحُسْن العِوَض فى الجزاء عنه؛ إلىٰ غير ذلك مما ينتظم فى هذا المعنىٰ . قال : والكاتبُ إذا كان جيِّدَ الغَريزة حسن التأتِّى فيها، بلغ المراد . ثم قال : وحكُمها حكم التَّهانِى من الرئيس إلىٰ المرءُوس ومن المرءوس إلىٰ الرئيس ومن النظير إلىٰ النظير .

ثم التعـــزيةُ علىٰ أضْرُب :

الضـــــرب الأوّل
(التعـــزِيَةُ بالاِبن)

أبلَغُ ما كُتِب به فى ذلك ما كتب به النبيُّ صلّٰى الله عليـه وسلم ، إلىٰ مُعاذِ بن جَبَل، معزِّيًا له بابنٍ له مات، فيما ذكره أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله، وأبو جعفر النحَّاس فى صناعة الكُتَّاب، وهو :

«من محمدٍ رسولِ الله إلىٰ مُعـاذِ بْنِ جَبَـل :

«سـلامٌ عليكَ، فإنّى أحمَـدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّاَ هو »

«أما بعـد، فعظَّم اللهُ لكَ الأجر، وألهمَكَ الصَّبْر، ورزَقنا وإيَّاكَ»

«الشُّكْر . ثم إنَّ أنفُسَنا وأهلِينا ومَوَالِيَنا من مَوَاهِبِ الله السنِيَّة، وعَوارِفِه[1]»

---

(١) فى أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية .

«المستَوْدَعة، تمتَّع بها إلى أجلٍ معدود، وتُقْبَضُ لوقْتٍ معلوم؛»
«ثم افترَض علينا الشُّكْرَ إذا أعْطى، والصبرَ إذا ابتلى؛ وكان ابنُك من»
«مَواهِبِ اللهِ الهنِيَّة، وعَوارِفه(١) المستَوْدَعة؛ متَّعكَ به فى غِبْطةٍ وسُرور،»
«وقَبَضَه منْكَ بأجْرٍ كثير: الصلاةِ والرحمةِ والهُدى إن صبَرْتَ»
«واحتسَبْت؛ فلا تجْمَعَنَّ عليكَ يامُعاذُ خَصْلتين(٢) إنْ يُحْبِطْ جَزَعُك»
«صَبْرَكَ فتنْدَمَ على مافاتَك؛ فلو قَدِمْتَ على ثوابِ مُصيبتِك قد أطعْتَ»
«ربَّك وتنجَّزْتَ موعُودَه، عرفْتَ أنَّ المصيبةَ قد قَصُرت عنه. واعلَمْ»
«أنَّ الجَزَع لايَرُدُّ ميِّتا، ولا يَدْفَع حزنا؛ فأَحْسِن الجزاءَ وتنَجَّزِ الموعُودَ؛»
«ولِيُذْهِب أسَفَك ماهو نازِلٌ بك فكأنْ قَدْ.»

من كلام المتأخرين:

تعزيةٌ بولد. من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ، وهى بعد الألقاب.

وأحسَنَ عَزَاءه بأعَزِّ فَقِيد، وأحبِّ حبيبٍ ووَلِيد، وعوّضَ بجمِيلِ الصبرِ جوانِحه التى سُئِلت عن الأَسى فقالت: ثابتٌ ويَزِيد. صدرَتْ هذه المفاوضةُ تُهْدِى إليه سلاما يَعِزُّ عليه أن يُتْبَع بالتعزيه، وثناءً يشُقُّ عليه أنْ يطارِحَ حمائم سَجْعه المُطْرِبة بحمائم الشَّجْوِ المُبْكِية المُنْكِيه، وتوضِّح لعلمه وُرُودَ مكاتبته المؤْلمة، فوقفْنا عليها إلا أنَّ الدَّمْعة ماوقفَتْ، وخواطِرَ الإشفاق عليه وعلى مَنْ عنده طفَت حُرَقُها وما انطفَتْ؛

(١) فى أصولنا بالفاء ورواية المستطرف (وعواريه) أى بالياء جمع عارية.

(٢) أى فقد الثواب وفقد الولد. وإليه يشير من عزى عمر بن عبد العزيز بابنه فقال:

وعوّضت أجرا من فقيد فلا يكن * فقيدك لا يأتى وأجرك يذهب

وعلمنا ماشرَحه ولم يَشْرح الصَّدْر علىٰ العادة ــ مِنْ وفاة الولد فلان، سقىٰ اللهُ عهدَه ولَحْدَه، ونَضَّر وجهـه وتغمَّد بالرِّضوان خالَه وخَدّه؛ ومابقى إلَّا التمسُّكُ بأسـباب الصـبر، والتفويضُ إلىٰ مَنْ له الأمر؛ والدُّنْيا طريقٌ والآخرةُ دارٌ ودِهْلِيزها القبْر؛ وللمرءِ من تثَبُّته وازع، والاجتماعُ بالأحِبَّـة الراحلِينَ واقِع؛ إن لم يَصِيرُوا إلينا صِرْنا إليهم، وإن لم يَقْدَمُوا فى الدار الفانيـة علينا قدِمْنا فى الدّار الباقيةِ عليهم؛ نسألُ اللهَ تعالىٰ أن يجمَعَنا فى مستقرّ رحمتهِ، ويُحْضِرَنا مع الأطفال أو مع المتطفِّلين ولائِمَ جَنَّته؛ والله تعالىٰ يُدارِكُ بالصبر الجميل قلْبَه، ولا يجمعُ عليه فقْدَ الثواب وفقْدَ الأحِبَّه .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

رزقه الله تعالىٰ ثَبَاتا علىٰ رَزِيَّته وصَبْرا، وجعلَ له مع كلِّ عُسْرٍ يُسْرا؛ وأبقاه مُفَدًّى بالأنفُس والنَّفائس، وكان له أعظَمَ حافظٍ من نُوَبِ الدهر وأجلَّ حارس .

المملوك يُنْهِى علمَه بهـذه النازلة التى فتَّتِ القلوبَ والأكباد، وكادَتْ أن تُفرّق بين الأرواح والأجْساد؛ وأذالَتْ ذخائرَ العيُون، وآبتَذلَتْ من المَدامِع كلَّ مَصُون؛ وأذابتِ المُهَج تحرُّقًا وتلهُّبا، وجعلت كلَّ قلْب فى نارَىِ الأسىٰ والأسفِ متقلِّبا؛ وهى وفاةُ ولده الذى صَغُر سِنُّه، وتزايَدَ لفَقْده هَمُّ المملوك وحُزْنُه :

ونَجْلُك لا يُبْكىٰ علىٰ قَدْرِ سِنِّه * ولٰكنْ علىٰ قَدْر المَخيلة والأَصل!

وكان الأمَلُ يحدّث بأنه يَشُدّ للولىٰ أزْرَه، ويشرَح ببِرِّه صـدْرَه؛ ويؤثّل مجدَه، ويُبقى الذكْرَ الجميل بعـدَه؛ ففُقِد من بين أترابه، وذَوىٰ عند ما أينَعَ غُصْنُ شَبابه؛ وغُيِّب مَنْظَرُه الوسيمُ فى لحده وتُرابه؛ وسيِّدُنا يعلم أنَّ الموتَ مَنْهَل لابدّ من وَرْده(١)، وآبنَ آدم زَرْع لابدّ من حَصْده؛ وأنَّ المنية تشمَلُ الصغيرَ والكبير، والجليلَ والحقير،

(١) هو مصدر كالورود عن آبن سيده أنظر اللسان (ج ٤ ص ٤٧١) .

والغنيّ والفقير ؛ فينبغي له استعمالُ صَبْره ، والاستبْشار بمضاعَفةِ أجْره ؛ والله يمتّعه بأهلِه وطُول عُمُره .

وله :

لَهْفِي وما لَهْفِي عليكَ بنافِعٍ ! * كَلَّا ولا وَجْدِي ولا حُرُقاتِي !
يامَنْ قَضى فقضى سُرورِيَ بعْدَه * وتحدّرَتْ أسَفًا له عبَرَاتِي !
عُقَدُ التجلُّدِ حَلَّها فَرْطُ الأسى * والقلْبُ موقوفٌ على الحَسَراتِ !
لو كُنْتَ ممَّن يُشْترى أو يُفْتَدى * لفُدِيتَ بالأرواح والمُهجاتِ !
كُنْتَ المُعَدَّ لنُصْرتِي في شِدَّتي * فقَضى الحِمامُ بفُرقةٍ وشَتَاتِ !
واللهِ لا أُنْسِيتُ نَدْبَك والبُكا * أبدًا مَدى الأنفاس واللّحظاتِ !
ويَسُوءُني أن عِشْتُ بعْدَك ساعة * أَسَفا لفَقْدِك ميّتًا وحَيَاتِي .

أعظم اللهُ أجْر مولانا ومَنحه صَبْرا جميلا ، وأجرا جزيلا ، وثناءً عريضَ الشُّقّة لثَبَاته على هذه الفادحة طَويلا ؛ وجعل هذه الرزيَّةَ خاتمةَ الرَّزايَا ، وممحِّصةً جميعَ الذنوب والخَطايا ؛ ولا فجَعه بعدها في قُرَّة عين ، ولا أورد محبُوبًا شُغِف به قلْبُه الكريمُ مَنْهلَ الحِمَام ولا سقاه كأسَ الحَيْن .

المملوك يقبّل البِساطَ الذي مافَتِئَ لنَشر المَعْدَلة مبْسُوطا ، وكلُّ أمل ببِرّه مَنُوطا .
ويُنْهِي إلى العلم الشريف علْمَه بهذه المُصيبة التي أصابتْ فُؤادَكلِّ محبٍّ فأصْمَته ، وطرقَتْ سمعَ كلِّ وليّ فأَصَمَّته ؛ وولَجَتْ كلَّ قلبٍ فأحرقَتْه صَبابةً وحُزْنا ، ومرّت على الصَّلْد فصَدَّعته ولو كان حَزْنا ؛ وهي وفاةُ فلان سقى الله عهْدَه ، وأسكنَ الرحمةَ ثَراه ولَحْده ؛ فشَقّ أسفًا على المفقُود جيبَ كلِّ جَنان وطوى الأكبادَ على جِراحها ، وحَسَّر الأجساد على أرواحها :

ومَا هِىَ إلَّا نَكْبَةٌ أىُّ نَكْبةٍ * أهاجَتْ سَــعِيرًا فى الحَشَا يتَلَهَّب !

فَلا جِسْـــمَ إلَّا بالتحَـرُّق ذائبٌ * ولا قَلْبَ إلَّا فى الأَسىٰ يتقلَّب !

بَكىٰ كُلُّ جَفْنٍ مصْرَعَ السيف فٱغتدَتْ * عيونٌ عليْه فى الأَباطِح تَسْكُب !

لقَـــدْ هال عُـــذَّالى بُكائِى تعجُّبا * وإنَّ بكائِى بَعْـد فَقْـدِيه أعْجَبُ !

فلو رَامَ قُسٌّ وَصْــفَ حُزْنِى ولَوْعتِى * لَقَصَّر فى أوصافِه حِين يُسْهِبُ !

فَواللهِ لا جَفَّتْ جُفُونِى من البُكَا * وإنْ زادَ عُذَّالِى العِتابَ وأطْنَبُوا !

ولهذا أصدر المملوكُ هذه المطالعةَ يدعُو لمولانا فيها ويُعزِّيه، ويَنْدُب فقيدَه بألسِنَة الأقلام ويَبْكِيه؛ ويُبَشِّره بمـا وعدَ الله الصابِرِينَ علىٰ مثل هــذه الرَّزِيَّة ويُسَلِّيه؛ فيالها نازلةٌ فَجَعَتْ بغُصْنٍ رَطِيب، وقمرٍ يَرْفُل من الشَّبِيبة فى ثوبٍ قَشِيب، وصدَعتِ القلُوبَ بفقْدِ حبيبٍ وأىِّ حَبِيب :

والمـــوتُ نَقَّادٌ علىٰ كَفِّه * جَواهِرٌ يَختار مِنْها الجِياد !

وبعدُ، فللمملوك فى هــذه الرزِيَّة مشاركَة كادَتْ تُبايِن بينَ رُوحه والجسَــد، وهو المُصِيب لهذه المصيبةِ ماتجِدُه الوالِهةُ علىٰ فقْد الولَد؛ لايَستقِرُّ به قرار، ولا يُنْجِيه من يَدِ الحُزْن فِرَار؛ دأبُه البُكاء والعَوِيل، وحُزْنه العريضُ الطَّوِيل؛ فوا ضَــعْفَاه عن حمل هذا المُصَاب، ووا أَسَفاه علىٰ مُسافِرٍ لا يُنْتظَر له قدُومٌ ولا إيَاب؛ وواعجَباه لِضِدّين آجتمعا لوالده الكريم الجنَاب !

تَخُونُ المَنَايا عَهْـدَه فى سَـلِيلِهِ * وتَنْصُره بَيْنَ الفَوَارس والرَّجْل !

وعلىٰ كلِّ حال فهو أجْدَر من آستعانَ علىٰ هذه الحادثة بصَبْره، وشرحَ لمـا قد قُدِّر فَسِيحَ صَـدْره، وشكرَ اللهَ علىٰ حُلْو القضاء ومُرِّه؛ فمـا كان إلا أحدَ العُمَرين فُقِد فخلفه عُمَر، وثانِى القَمَرين أفَلَ فقام مَقَامه هلالٌ قَدم من سَـفَر؛ وفى بقاءِ المولىٰ

مايُوجب التسليم للقدَر والقضَاء، والشكْرَ لله تعالىٰ فى حالتى الشِّدّة والرَّخاء؛ جعله الله فى حِرْز لايزالُ حَرِيزا مكِينا ، وحِصْن علىٰ ممَرّ الأيام حَصِينا .

وله : أعظَمَ اللهُ أجره ، وأطال عُمُره؛ وشرح صَدْره ، وأجزل صبره ، وسَخَّر له دَهْره .

المملوك يُنْهِى أنه ٱتَّصل به خَبَرٌ صدَع قَلْبه ، وسَرَقَ رُقادَه ولُبَّه ، وضاعف أسَفَه وكَرْبه؛ وهو [موت] فلان تغمَّده الله برحمته ، وأهمىٰ عليه سحائِبَ مَغْفرته ؛ وعامله بلُطْفه، وجعل الخِيرَة له فى حَتْفه؛ فشَقَّ ذٰلك قَلْبَه وعَظُم عليه، وقارب لشديد حُزْنه أنْ يَصِل إلىٰ ماوصَل المرحومُ إليه ؛ لٰكنَّه ثبَّت نفْسَــه وثَبَّطها ، ورفع يَدَه بالدعاء للمولىٰ وبَسَطها ؛ وسأل الله أن يُطِيلَ بقاءه ، ويُحْسِن عزَاءَه ، ويَحْرُسه من أزَمَات الزمان، فإنه إذا سلِمَ كان الناسُ فى السَّلامة والأمان؛ ويجعَلَه عن كل فائتٍ عِوَضا ، كما أصاره جَوْهرا وجعل غيْرَه من الأنام عَرَضا ؛ ولقد جلَّت هــذه الرزيَّةُ علىٰ كلِّ جَنَاب ، ودخَل حُزْنُها إلىٰ كلِّ قلبٍ من كلِّ باب ؛ جعل اللهُ أجره للمولىٰ من أعظم الذَّخائر، ومنَحه الحياةَ الأبدِيَّةَ التى لا تَنْتهِى إلىٰ أمدٍ ولا آخِر، إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــــــرب الثـانى

(التعـــزية بالبنت)

من كلام المتقدّمين :

ابن أبى الخصال المغربى :

الشيخ فلان عَزَّاه الله علىٰ ٱحتِسابه ، وجعــل الثوابَ المرتقَب أفضـلَ ٱقتنائه وٱكْتِسابه ، مُعزِّيه عن فِلْذةِ كَبِده، ومساهِمُه فى أرَقِه وسُهْده ، والفاتُّ فى عَضُـد صــبرِه الجميــلِ وجَلَده؛ فلان . فإنِّى كتبتُه ــ كتب اللهُ لكم خَيْرا يُذْهِب جَزَعكم،

وحَسّن مَنْجاكم بالتفدّى الجميل ومَنْزَعكم ـ عند ماوصَلَنِى وفاةُ ٱبنتِكم المرحومةِ نفعها الله بإيمـانها، وتلقّاها برَوْح الجنّـةِ ورَيْحانها؛ وهى ـ أعزّك الله ـ وإن آلمَكَ فقدُها، وأوجعكَ أنِ ٱستأثرَبها لَحْدُها ؛ فليُعزِّك عنها مُصابُنا بنبينا عليه السلام، وعلمُك بأنّا جميعًا بمَدْرَجة الحِمَام؛ أفتجِد علىٰ الأرض خالدا، وقديمـا ثكلْنا وليدًا نجيبا ووالدا، فمَنْ خُلِق للفَناء، وٱختُلِس بمرّ الساعاتِ والآناء، جدِيرٌ أن يتّعظ بنَفْسه، ولا يَحْزَنَ لذَهاب من ذهب من ذَوِى أُنْسه ؛فاحمدِ الله عزّ وجلّ إذ رَجّحتْ مِيزانَك،وضَمِنت لك يومَ المَعَاد جِنانَك؛ والله عز وجل يرزُقنا ٱحْتِسابا جميلًا وصبْرا، ويُؤْنِسك وقد ٱختار لك الصِّهْر قَبْرا، ويعظّم لك ثوابا جزيلًا علىٰ مُصابك وأجْرا ؛ ويعُمُّ فقيـدَتَك بالرُّحمىٰ، ويسْكُب علىٰ جَدَثها مُزْنَها الأوْكفَ الأهْمىٰ، ويُؤْوِيك إلىٰ كَنَفه الأعظم الأحْمىٰ، بمنّه ورحمته، لا ربَّ غيره ؛ والسلام عليك ورحمةُ الله وبركاته .

الضـــــرب الثـالث

(التعـــزية بالأب)

من كلام المتقدّميـــــن :

ابن أبِى الخصال معزّيا بوزير :

ياسيّدى وواحدى، ومحلَّ الأبن المبْرور، والأخ المشْكُور، عندى؛ أعزّك الله بالتقْوىٰ، ورَضّاك بما قضىٰ، وأمدّك بالنُّعمىٰ، وشَمَلك بالحُسْنىٰ؛ كتبته ـ أعزك الله ـ وقد وصلَ كتابُك الكريم بما نفذ به القَدَر الذى هو فى العِباد حَتْم، وله فى كلّ عُنُق خَتْم؛ فى الوزير الفقيه الشهيد أبيك كان، رحمه الله وأكرم مَثْواه، وجعل الحُسنىٰ التى أعدّها لأوليائه مَقرّه ومأْواه؛ فأسِفْتُ كلَّ الأسَف لِفقْدانه، وقد كان عيْنَ زمانه،

وعُمدةَ إخْوانه ؛ تغمَّده الله بغُفْرانه ، ونقـله إلىٰ رِضْوانه ؛ وتلك ـ أعزك الله ـ غايةُ الأحْياء، وسبيلُ الأعداء والأحِبَّاء؛ كان علىٰ ربِّنا ـ جَلّ وعلا ـ حَتْما مقْضِيًّا، ووَعْدا مَأْتِيًّا؛ والأسوةُ ـ أعزَّك الله ـ فى غَمْره الفَضْفاض، وبِرّه الفَيَّاض، وأنه خُتِم له بالخير والآنْقباض؛ وكان آخرَ ذلك [الحسب] القَديم ، والجيلِ الكريم ؛ وقد أمرَكَ الخير فافعَلْ ما أُمِرت به وكُنْ كما ظَنَّك وقدَّرك وترَكك؛ وإنك بفضل الله تَسُـدّ مَسَدّه ، وتبلُغ فى كل فضيلةٍ حُضْرَه السابقَ وشَدَّه ، وتُعِدُّ للأيام من الجِدّ والآعتِزام ماأعدّه ؛ وإخْوتُك ـ أعزك الله ـ لك أظْهـارٌ وأعْضاد ، وفيهـم غَزْوُمُضَـادّ ؛ فآشتَمِلْ عليهم ، وآرْفُق بهم ؛ فإنهـم يُنْزِلُونك منزلةَ أبيهم ، وتَجِدُ أخلاقَه وعَوْنَه فيهم ؛ وأما ماأعتقِدُه من تكريمك ، وأَراه من تفضـيلك وتقديمك ؛ فشىء تَشْهَدُ به نفْسُـك ، ويُدْرِكه يقينك وحَدْسُك ؛ أشدّ به آعتناء ، وأجمـلُ له آستواء ، وأوفى عنك رِداءا وغَنَاء ؛ جعلنـا الله من المتحابِّين فى خلَاله ، والمتقلِّبين فى ظِلَاله ، وأمَّننا من الزمان وآختلافِ أحوالِه ؛ بمنّه والسلام .

الضـــــرب الرابع

(التعـــزيةُ بالأم)

أبو محمد بن عبد البر المغربى :

مَامات مَنْ أنتَ بعْـدَه خَلَفٌ * والكُلُّ فى البعضِ غيرُممتنِـع !

كتب عبدُه القِنّ ، من الأسىٰ لأجله بعضَ ما يُجِنّ ؛ المُنْطوِى علىٰ قلبٍ تطْمَئن القلوبُ سُلُوًّا ولايطْمَئِن ؛ فلان : بعدَ وصول كتابِه الكريم بصَدْعٍ يُصْمِى القُلُوب ، ويَقُدُّ أفوِياء الجُيُوب ، ويترُكُ الأحبابَ مصَرَّعين علىٰ الجُنُوب ، فوقَفَ العبدُ عليه مترقْرِقَ المَدَامع ، متحَرّق الأضَالِـع ، رائيًا سامِعًا شَجَا الأبصارِ وأسىٰ المسامع ؛ فياأسفِى

لخطب ضَعْضَع رُكْن الجدِّ وكان وَثِيقا ، وصَوَّح روضَ الفضــل وكان وَرِيقـا ؛ ونغَّص حَسَنَ الصبر ولم يزَلْ صَدِيقا ، وترك العبدَ خليقًا بهذا القول ومثلِه معَه حَقِيقا ؛ فآهٍ لدِين ومروءة فُقِدا فى قرَن ، وعلىٰ صونٍ وعفَاف أُدْرِجَا فى كَفَن ، وحَصَانٍ رَزَانٍ لا تُعرفُ بوَصْمة ولا تُزَنّ ؛ لقد أصَمَّ بها النـاعِى وإن كان أسْمَع ، وأرَّق ماشاء الفُؤادَ وأراقَ المدْمَع ؛ ولم يُبْقِ قلبا للصبْر إلاصَدَعه ، ولا أنفا للسُّلُوّ إلاجَدَعه ؛ ولا بابا للتعزِّى إلَّا أَرتجه ، ولا عقِيما للتأسُّــف إلا أنْتجَه ؛ ولو قُبِــل فى الموتِ فِدًا وصَحَّ أن يؤخَذَ فيه فِداءٌ لمـا خَلَص إليكم ولا ألَمّ ، ولا عدَاكُمْ فى صُروف المَنـايَا المخيفـةِ سَـلَمْ ؛ لٰكن أبىٰ الله إلا أن تَعُمَّ الحُرْقه ، وتستولِىَ علىٰ الوقْت الفُرْقه .

الضــــرب الخامس

(التعــزية بالأخ)

أبو محمد بن عبد البر :

وكتبتُ والأنفُس مرتَمِضه ، والعينُ غيرُ مغتَمِضَه ؛ والانفاسُ تتصعَّد ، والأحزانُ تتأكَّد ؛ أسَـفًا للمُصاب الذى عَمّ وغَمّ ، وأسْمَعَ نعْيُه فأصَمّ ؛ وقال للفرح : كُفَّ من عِنَانك ، وللتَّرح آنتظِرْ لأوَانك ؛ بوَفَاة [الفرد] الذى فى رأسه نُور ، وسَدَاد الآراء المختلفةِ وسِــدَاد الثُّغُور ؛ والفَــذِّ الذى شَهِد الرجالُ بفضله ؛ وعَقِم النساءُ فمـا تَجِىء بمثله ؛ أبى فلان صِنْوِكم ، السابِق الذى لا يُجارىٰ ، والشارِق الذى لا يُسارىٰ ؛ والغيثِ الذى عَمَّ المُنِيــل والمستَنِيل ، والليثِ الذى ورَدَ الفُراتَ زئيرُه والنِّيل ، فإنَّا لله وإنَّا إليــه راجِعُون ! تسليمًا للقَدَر وإنْ ساء ، وشَمِلَ المرءُوسِين والرُّؤساء ؛ فيالهُ مُصابًا ترك كلَّ رأس أَمِيًا ، وأودَعَ صميمَ كلِّ فؤاد ثُكلا صَمِيا ؛ لقــد أنصلَ السُّمرَ اللَّهاذِم ، وأغمدَ البِيضَ الصَّوارِم ؛ وعطَّلَ الكتائبَ والمَقَانب ، وأوحشَ المَفاوِزَ والسَّباسِب ؛ ولم يُبْقِ مَشِيدَ

عُلًّا إلا هَدَّه، ولا مَديدَ ثناء إلا صَدّه، ولِمَ لا وهو الشخص يموت بموته بشر كثير، ويبكيه قلمٌ وحُسام ومِنبَر وسَرير، وعندَ الله نحتَسِبه جميعا، ونُوسِعه بمحْض الصَّـفاء وصَفْو الثناء توْ يعا وتشْييعا، ونُفارِقُه فِراقَ الصَّدْر خَلَدَه، والمُصاب جَلَده، فوَاأسفىٰ لرُزْئه ما أفْظعَـه مَوْقِعا! وواحَرَبا ليومه ما أظلمَـه مَطْلَعا! وواحَزنا لنَعْيِه ما أشْنعَه مَرْأًى ومسْمَعا!!! فلئن جَرَتِ الدموعُ له دِما، وأضْمرت الضلُوعُ به مُضْـطَرما؛ لمـا أدَّت حقَّهَ ولا كَرَبَتْ، ولا دانتْ بعضَ الواجب فيـه ولا آقتربَتْ؛ ولولا أنَّ المنيَّـةَ مَنْهَلٌ لا يُحلَّأُ وارِدُه، ومَعْلَم يهْدىٰ إليـهِ علىٰ أهدىٰ سَمْتٍ مُباعِدُه؛ لم يبقَ فى أُنْسٍ مَطْمَع، ولا لحُزْن مستَـدْفَع، ولكان الثاكلُ غيرما ترىٰ وتَسْمَع؛ وما أنتم أيُّها الشيخ المكَرَّم ممن يُنَبَّـه علىٰ ذُخْر من العمل الصالح، يكْتَسِبُه، وصبْرٍ فى الرُّزْء الفادح، يحتَسِبُه، فصبْرًا فالمَنُون غايةُ المُمْسِين والمُصبِحين، والنبأ الذى يُعْـلَمَ ذَوْقًا ولو بعـد حين؛ وهو تعالىٰ المسئُول أن يرْقَع بمكانِكم هـذا الخَرْق المتَّسِع، ويصل بجنابِكم ذٰلك الشَّمْل المنْصَدِع.

ابن أبى الخصال:

الشيخ فلانٌ أبقاه الله يتَلقّى الأرزاء بحُسْن الصبرِ، وجميلِ الآحتِساب، ويتقاضىٰ بالتعزى مرتَقَبَ الأجر، ومُنْتَظَر الثَّواب، مُعَزِّيه فى أخيه الكريم علينا، العظيم مُصابهُ الفادحُ لدَيْنـا؛ فلان: فإنى كتبْته ـ كتبَ الله لكم صَـبْرا تجِدُون ذُخْره، وأوجب لكم عَزاء تَحْمَدُون يوم القيامةِ شأْنَه وأمْرَه ـ عنْدَ ما وصل من وفاة الشيخ أبى فلانٍ أخيكم رحمه الله تعالىٰ ما كَدَّر العيشَ ونغَّصه، وجَشَّم جُرَعَ الحِمَام المقْطُوعةَ وغُصصَه؛ فإنَّا لله وإنَّا إليـه راجعُون!! آستِسْلامًا لقَدَره وقضائه، وأخْذًا فيما يُدْنِى ويقَرِّب من إرْضائه؛ وما نحنُ إلا بَنُو الأمواتِ الذين دَرَجُوا، وسنَخْرُج من الدُّنيا كما قبلَنا خَرجُوا؛ جعلنا اللهُ جميعًا ممن ينظُر لمَعاده، ويجعَلُ التقوىٰ خيرَ ما أَوْعاه بجداده؛

وسلكَ بنا نَهْجَ هِدايته وطريقَ رَشادِه . وهو جلَّ وعلا يُجْزِل لكم علىٰ مُصابِكم ثَوابا عَمِيما موْفُورا، ويجعلُ فقيدَكم بين أيديكم فى يومِ القيامةِ نُورا، ويُلَقِّيه فىدار الفِرْدَوْس مُلْكا كبيرا وحُبُورا؛ ولولا كذا لسِرْت إليكم لأُعَزِّيَكم شِفاها ، وأَحَدِّثَكم عن ضُلوع أحرقَ هذا المصابُ حَشَاها؛ لٰكن ٱمْتثالُ أمره المُطَاع، حملَ علىٰ البِدَار إلىٰ ماأَمَربه والإسْراع؛ والله عزَّ وجل يُدِيم لنا بكم الإمْتاع، بمنِّه وكرمه، والسلام .

الضـــــرب السـادس

(التعـــزية بالزوجة)

من كلام المتقدّمين :

أبو محمد بن عبد البر :

وقد تقرَّر عِنْد ذَوِى الألباب، وثَبَتَ ثُبوتا لا يعلَّل بالاَّ رتياب، أنَّ الدنيا قنطَرةٌ دائِره، ومَعْبَرة إلىٰ الآخِره، وأنَّ ساكنَها وإن طال عُمْره، وطار فى الخافقَيْن أَمْرُه، لَدِيغ سَمِّها، وصريع سَهمِها، فما تُضْحِك إلّا لتُبكِى، ولا تُؤنِس إلا لتُنكِى؛ وقد نفَذ القدَرُ الذى ماله رَدّ، ولا منه بُدّ؛ بوفاةِ فلانةَ ألحقها الله رضوانَه ، وأسكنها بفَضْله المرجوِّ جِنَانَه؛ فإنَّا لله وإنا إليه راجعون! ! تأسِّياً بالسَّلَف الصالح، وتسلِّيا عن ماء الدَّمع السَّافح، وزَنْد القلب القادِح . وعِندَ الله نحتَسِبها عقيلَةً معدُومةَ المَثِيل، مفقُودةَ الدِّين والعِفَّة فى هذا الجِيل؛ متحلِّيةً من دُعاء الفُقَراء، وثَناء الصُّلَحاء، بالغُرَّة الشادخة والتحْجيل؛ لقد ذهَبَ لذَهَابها الرِّفْق والحَنَان، وعُدِم لعَدَمها الشِّـيَم البَرَّة والأخلاقُ الحِسَان؛ وإنَّ فقْـدَها لحَرق لايُرْفَع، وغُلَّة لاتُنْقَع؛ وخَطْبٌ لايَزَال الدهْرُ يُتذَكَّر فيَصْـدَع ، ولولا العِلمُ بأن اللَّحاقَ بها أمرٌ كائِن ، وأن المخلَّف فى الدُّنيا لا محالةَ عنها

بائِن ؛ وأن التنقُّلَ للآخرة مالانفكَّ نسمعُه ونُعاين، لَمَا بقِيتْ صُبابةُ دمْع إلا آرفضّتْ، ولا دِعامةُ صَبْر إلا آنقضَّت ؛ ولكانَ الحُزْن غيرماتَسْمع وترىٰ، والوجدُ فوقَ مايَجْرِي وجَرىٰ، لٰكنْ لامعنىٰ لحُزْن لما يقعُ فيه الاشتراك، ولا وجْهَ لأسَف علىٰ مالايصِحُّ فيه الاستِدْراك . وما أنتمْ بحمدِ الله ممن يُذَكَّر بما هو فيه أذْكَر، ولا ممن يُنَبَّه علىٰ ما هو بالتنبيه عليه أخلَقُ وأجْدَر ؛ ولولا أنَّ التَّعازِىَ مما اطَّرد به العمَل ، وسَنَّه الصالحُون الأُوَل ، لما سُلِك سبيلُه معكم وأنتم ممن قَدَر الأُمورَ قَدْرَها، وعلم أنَّ الحياةَ ولو طالت فالموتُ أثَرَها ؛ وإذا لم يكُنْ من الموت بُدّ، ولم يَمْنَع منه صَدٌّ ولا سَدّ ؛ فالصبر خيْرٌ من الجزَع، وأدلُّ علىٰ كرم المَنْحىٰ والمَنْزَع، وأحْرىٰ بأن يكون الثوابُ جَزِيلا، والجزاء حَسَنا جميلا ؛ والله يبقيكم أتمَّ البقاء، ويرقِّيكم أتم الارتقاء .

ابن أبى الخصال :

الشيخ الأجلُّ فلان ــ آنسَ اللهُ وَحْشَتَه، وجدّد علىٰ فَقِيدته رحمتَه . معزِّيه عن أهله الهالكةِ وسَكَنه ؛ ومساهِمُه بأوجَبِ حُزْنٍ فى القلوب وأسْكَنِه . فلان : فإنا كتبْناه عن دُمُوع تَصُوب وتَنْسَرِب ، وضُلوع تخْفق من وَجِيبها وتضْطَرب ، وأُنْس يشْرُدُ منا ويحتَجِب ، بموت فلانة رحمها الله التى أودعَتْ فى جَوَانحنا من الثُّكْل ماأودعَتْ، ورضَّتْ أكبادَنا بمُصابِها وصدَعت، عزَّانا الله جميعًا فيها، وأوْلاها نعيمًا فى الفِرْدوسِ الأعلىٰ وترْفيها، وأعقَبنا من الوَحْشة أُنْسا، وعَمر بالرُّحْمىٰ جَدَثًا مباركا ورَمْسا ؛ وجعلَنا كُلًّا ممن يَرْدَع عن الانحطاط إلىٰ الدنيا نَفْسا، بمنِّه وكرمه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

لمّا علم مملوك المجلس السامى أطال اللهُ بقاءه، وأعظَم أجْرَه وأحسن عَزاءه، وفاةَ السيدة المرحومةِ سَقىٰ الله عَهْدَها عَهْدا يبُلُّ الثَّرىٰ ، وجعل الرحمـةَ لمن نزلَتْ به لها القِرىٰ؛ تألَّمَ لفقْدها غايةَ الألَمْ، ووجد حُرْقةً كسَتْه ثوبىْ ضَنًى وسَقَم؛ وحُزْنا لا يعبِّر عنه بعبارةِ بَيانِه، ولا يستوعِبُ وصفَه بلسانِ قلمِه وبَنانِه :

ولَوْ كانَ النِّساءُ كَمَنْ فقَدْنا ﴿ لفُضِّلتِ النِّساءُ علىٰ الرِّجال!

والمْولىٰ أوْلىٰ من عَزّىٰ نَفْسـه، وٱستَحسَن رِداءَ الصبر ولُبْسه؛ وعلِمَ أنَّ الموت غريم لا يُنْجِى منه كثْرةُ المِطَال ، ولا يُدافَع بالأطلاب والأبْطـال؛ وأنه إذا طالب بذِمَّة كان ألدَّ الخِصام، وإذا حارب فعلَ بيدِه مالا تَفْعَلُه الكُماةُ بحَدّ الحُسَام .

الضـــرب السـابع
(التَّعازِى المطلَقةُ ممـا يصلُح إيرادُه فى كلِّ صِنْف)

من ذلك، من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

مَن صَحِب الأيامَ وتقلَّب فى آنائها ، ٱعتوَرتْه أحداثُها، وٱختلَفتْ عليه أحكامُها: بين مَسَرّة ومَساءة يعتقِبان، وفَرْحةٍ وتَرْحة يتَناوبانِ [وكان] فيما تأتيه من محبُوبها علىٰ غير ثِقةٍ من دوامه وٱتِّصاله ،ولا أمْنٍ من تغيره وٱنتقاله ؛حتّى تعقُب السلامةَ حَسْرة، وتستحيلَ النعمةُ مِحْنـة ؛ والسعيدُ مَنْ وُفِّق فى كلِّ حال لحظِّـه ، وأُعِينَ علىٰ مافيه سَلامةُ دِينه : من الشُّكْرعلىٰ المَوْهِبة، والصبرِ علىٰ النازِلة ، وتقديم حقِّ الله تعـالىٰ

فى حال الغِبْطــة والرَّزِيَّة . ولم تكن بالفَجِيعَة به مُفْرَدا عنِّى وإن كان النَّسَبُ يقرِّبه منك، والرَّحِم تَصِلهُ بك : لمــا كنتُ أُوجِبه من حقِّه، وأرعاه من موَدّته، وأختَصُّه بالاعتداد فيه دُون أدانِى أهْلِى والثِّقَــة من إخْوانى ؛ فمضىٰ رحمهُ الله أقوىٰ ما كان الأملُ فيه، وأكملَ ما كان عليه فى لُبِّه وأدَبِه ، وآجتماع فَهْمِه وكمال هَدْيه ، وآنتظامِ أسبابِ الخير وأدَوات الفضْل فيه .

ومنــــه : لايُنْكَر للعبد أن يتناوَلَ مولاه عند وُقُوع المِحنة فى أهل خاصَّته، وتَخَوُّن رَيْب المُنون من حاشيته، بالتَّعْزِية عن مُصِيبته، والإخبار عما يَخُصُّه من ألَمِ فَجِيعته وعُظْم رَزِيَّته، لاسِيَّما إذا كانَ بحيثُ لايُرىٰ شخصُه فى الباكين، ولا تُسمَع صَرْخَتُه بين المتفَجِّعِين، ولو سعَيت علىٰ حَدَقِتى .

ومن ذلك :

إنَّ الله تعالىٰ أمرَ أهلَ طاعته، بتنزيل هذه الدنيا بمنزِلتها من إهانته، وسوّىٰ بين البَرِّ والفاجر فى رغائبها ومَصَائبها، ولم يجعل العطيَّةَ دليلًا علىٰ رِضاه، ولا الرزِيَّةَ دليلًا علىٰ سُخْطه ، ولكنَّه ألزمَ كلَّ واحد من أهــلِ الرِّضا والسُّخْط من نِعَمِها بنَصِيب ، وسقاهم من حوادِثها بذَنُوب : ليبتلِىَ أهلَ رِضاه فى أهْون الدارَيْن عليــه، ويُحْسن لهم الجَزاءَ فى أكْرمِهما لدَيْه ، ولذٰلك حبَّب إليهم الزَّهادةَ فى زَهِيد فائدَتِها، وممنُوح زَهْرتها ، وسمَّاها لَعِبا ولَهْوا : لئلَّا يَعْلَقُوا بحُطَامِها ، وينغَمِسُوا فى آثامِها ، وختَمها بالموت الذى كتَبه علىٰ خَلِيقته ، وسوّٰى بينهم فى سَكْرته : ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَساءُوا بِمــا عَمِلُوا ويَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالحُسْنىٰ ﴾ . ويُقرِّبَهم بدار يفْنىٰ الموتُ ويبقَوْنَ فيها بعْده ، كما فَنُوا فى هــذه الدار وبقِىَ الموتُ بعدَهم ؛ فإن تأخَّر الأجل فإلىٰ غايه ، وإن تطاوَلَ الأمَدُ فإلىٰ نِهَايه؛ ولابُدَّ أن يَلْحق التالِى المــاضِى، والآنِفُ بالسالِف ، وهذه حالُ نُصْبَ الأفكار، وتِلقاءَ الأبصار، لاتحتاج أن يرتاض الصبرُ علىٰ آلامها،

والتحمل لمُعْضِلات سِهامِها، والجزَعُ عند وقُوعها قادحٌ فى البصائروالأفهام، دالٌّ علىٰ الجهــل بالليالِى والأيَّام؛ وقد طرق المملوكَ ناعِى فلان فهدَّ جلَدى، وفتَّتَ كَبِدى، لا ٱرتياعا للحادثةِ : لأنَّها لولم تكُن فيه لكانتْ فى المملوك، ولو لم تتطرَّقْ إليه لتطرّقت إلىٰ المدرك(؟)ولٰكن الأسفُ علىٰ عَطَلِ الزمان من حِلْية فضلِه، وتعرّيه من حُلّة نُبْله، وخلُوِّ عِراصه من الأُنْس بمثله، ومانالَ سيِّدى لفقْده، وتحمَّلَه من بُعْده؛ وإلىٰ الله تعـالىٰ يرغَبُ المملوك أن يَرْبُطَ علىٰ قلْبــه بالصبر، ويوفِّقه لتنجُّز ماوعد به الصابرين من الأجْر، إن شاء الله تعالىٰ .

علِى بن خلف :

رقعـــة : ليس عند المُصيبةِ ـ أطال اللهُ بقاء سيدى ـ خيْرٌ من التسليم إلىٰ الله والرِّضا بقضائه، والصبرِ علىٰ بَلاَئه؛ فإنه تعـالىٰ مَدَح الصابرين فى كتابه، ووعدَهُم بصلَواته . فقال جل قائلا : ﴿ ٱلَّذينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصيبَةٌ قالُوا إنَّا للهِ وإنَّا إليْهِ راجِعُون أُولٰئِكَ عليهِمْ صَلَواتٌ من رَبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولٰئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ ﴾ . وقال جل قائلا : ﴿ وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ الَّذينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهـم والصَّابِرِينَ علىٰ مَاأصابَهُـمْ ﴾ . ولم تزل الأولياءُ من القُدَماء يَحُضُّون علىٰ الصـبْر وهم لايَرْجُون عليه ثوابا، ويَنْهَوْن عن الجَزَع ولا يَخافُون عليه عِقَابا؛ ومَنْ عرفَ الأيَّام وتداوُلَها، والأحوالَ وتحوُّلَها، وسَّع صدْرَه للنوائبِ، وصبرَ علىٰ تجرُّع المصائِب، ومن ٱغترَّ(١) بطول السَّلامه، وطَمِع فى الٱستمرار والإقامه .

رُقعـــة : وقد ٱتَّصــلَ بالمملوكِ خبرُ الفَجيعـة بفلانـــ ، فأُفيضتِ المَدَامع، وتضَعْضَعت الأضَالِـع، وزَفَرت الأنفـاس، وهَمَدت الحَوَاسّ، وأذابَ الطرفُ

(١) لم يذكر فى الاصل لهذا الشرط جوابا ويمكن أخذه من المقام أى «فقد حاول محالا، وضل فى سعيه ضلالا» أو نحو ذلك .

سَوادهُ علىٰ الوَجَنَات بدَلًا من الأنقاس، وخلعَتِ القلوبُ سُوَيداءَها علىٰ الأجساد، عِوضًا عن جلابِيبِ الحِدَاد، وعُضّت الأناملُ جَزَعا، ومُزّقت الثيابُ تفجُّعا وتوجُّعا، وكل هذا وإنْ فارقَ حميدَ التّماسُك، ووافق ذَميم التّهالُك، غيرُ مُوفٍ بحقّ ذٰلك الدارج الذى بلغ المَعالِىَ وهو فى مَهْده، وشدّ دَعائم الفضل ولم يبلغ أوانَ رُشْده؛ وعلِمَ سيدى أنَّ غايةَ الجازِع وإن صدَعتِ المصيبةُ قلْبَه، وأطاشَتِ الفجيعَةُ لُبَّه، الصبْرُ والسُّلُوّ، وأنَّ نِهايةَ القَلِقِ وإن هجمَتْ عليه الحُرْقة بما لاتتوفَّر عليه الأضالِع، ولا تَتماسَكُ معه المَدَامِع، القَرَارُ والهُدُوّ، واللهُ تعالىٰ لايُرِيه بعدَ هذا الرُّزْء رُزْءا بفِنائه، وينقل ذٰلك عنه إلىٰ حاسِدِيه وأعدائه .

رقعــة : مَنْ علِمَ أنَّ الأقضِيَةَ لاتُخْطِئ سِهامُها، والأقدارَ لاتُرَدُّ أحكامُها، سلَّم الأمرَ فى السَّرّاء والضَّرّاء، ورَضِى بما مَناه فى البَلَاء والآبتِلاء؛ ولا سيَّما فى مُصيبة الموت التى سوّى بين الخليقة فى تجْرِيع صَابِها، وآقتِحامِ عِقَابها؛ وقد آتَّصل بالمملوك خبرُ الحادثِ الفاصِم لعُرىٰ الجَلَد، البارح (١) فى الجلد . فاستحالَتْ فى عين المملُوك الأحوال، ومالَتْ عنه الآمال، ورأىٰ السماءَ وقد تكدَّر جوّها، والشمسَ وقد تعكَّر ضَوُّها، والسَّحائبَ وقد أخلف نَوُّها، والنَّهارَ وقد آظلم، والليلَ وقد آدْلَهَمّ، والنسيمَ وقد ركَد، والمَعِينَ وقد جَمَد، والزمانَ وقد سُهِمَتْ وجنته، وسُلِبتْ حِلْيَتُه، وأفْرَجت قبضَتُه عن التماسُك، وقبَضَتْ علىٰ التهالُك، وعدلَتْ عن التجلُّد، إلىٰ التبلُّد؛ ثم أفاقَ من غَمْرة فَجِيعتِه، وهَيِيب سِنَة رويّته، فسلَّم لله راضيا بأقضيَتِه، راغبًا فى مَثُوبتِه .

(١) لعله البادح والبَدْح والبدح بالاهمال والاعجام الشق والمراد ظاهر .

أبو الفرج الببغاء :

إذا كان أيّده الله أَهْدىٰ فى النِّعم إلىٰ سُبُل الشكر، وأعرفَ فى المِحَن بطُرُق الصبر، فكيف نُحاذِرُ عليــه من المَصائِب ، ونذكّره التسليمَ لمحتوم النَّوائِب، والمصيبةُ بفلانٍ أعظمُ من أن نهتدى فيها إلىٰ سَلْوةٍ غيرِ مستفادةٍ منه ، أو نقتَدِىَ فى العَزَاء بغير ماناْخُذُه عنــه، إذ كانتْ قلوبنا تَبَع قلْبــه ـ سَرَّه الله ـ فى طُرُوق السَّراء والضَّرَّاء، وحالَتِى الشِّــدّة والرَّخاء . وأحسن [الله] عن الفَجِيعة عَزاءه، وأجزلَ من المَثُوبةِ عطَاءه، ولا شغَلَه عن حَلاوة شكر النِّعم بمَرارة الصبْرِ علىٰ وُرُود المِحَن، وجعل مانقلَ المـاضِى إليه، أنفعَ له ولسيِّدى من الجَزَع عليه .

وله فى مثـــله :

ٱتَّصل بى خَبَرُ المصيبةِ فجدّدَ الحَسْره، وسكَبَ العَبْره، وأضرَمَ الحُرْقة، وضاعَفَ اللّوْعة، وكان الأســفُ عليه، بقَدْر تشوُّف الآمالِ كانتْ إليه : فإنَّا للّٰه وإنَّا إليــه راجِعُون! ! أخْذًا بأمْره، وتسليمًا لحُكْمه، ورِضًا بمَواقع أقضيَتِه، وأحسَنَ الله فى العَزَاء هِدَايته، وحرَسَ من فِتَن المَصائب بَصيرتَه، وحَمَل عن قَلْبه ماأظلَّه من ثِقَل المصيبة وعِظَم الرزيَّة .

ولا أزالُ علىٰ جمـلةٍ من القلَق إلىٰ أن يَرِدَ علىّ كتابُه ـ أيده الله ـ بما أكونُ فيه بأدَبِه مقْتدِيا ، وبهدايتِــهِ إلىٰ سَبِيل العَزاء والصــبْر مُهْتَدِيا ؛ فإن رأىٰ إجرائى من تشريفه بذٰلك علىٰ مشكُور العادة، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

ٱشتراكُ القلوبِ فيما ألَمَّ بقلْب سيِّدى بحسَبِ تَساوِيها فى المَسرّةِ بما سرَّه ، إذ كان لايختصُّ دُونَ أوليائِه بِنعْمه ، ولا ينفرِدُ دُونَ مؤمِّليه بحلُول مَوْهِبه ، والمصيبةُ بفلان

ـ وإن جَلَّ موقِعُها وعظُمت الفَجيعة [بهـا] ـ جَلَل[1] مع سُقُوط الأقدارِ دُونَه ، وتجاوُزِها عنه ، ومُسامحتِها به ، فلا شغَلَ الله قلبه بعْدَها بمَرارة الصبْر عمَّا تُوجبه النِّعم من حَلاوةِ الشُّكر، ولا جاوره برزِيَّة فى حميم ولا نعمه .

وله فى مثـــله :

بصيرتُك إلىٰ العَزاء تَهْديك ، وٱغتباطُك بثَواب الله يُسلِّيك، وعلمُك بقِلَّة الغَنـاء عن الجَزَع يَثْنِيك، وجمُعنا بك فى الصبْر مقتَدُون، ولرأيك فى الرِّضا بمـا ٱختاره الله تعالىٰ متَّبِعُون ؛ فحَمَلَ الله عن قلبك ثِقْلَ المُصيبة، وحرسَ يَقينَـك من ٱعتراض الشبهة ، وأحسن إلىٰ جميل الصبر هِدايَتَك ، وتولَّى من فِتَنِ المِحَن رِعايتَك ، وجعل مانَقَل المـاضى إليه، أنفعَ لك وله من الأسَفِ عليه .

وله فى مثـــله :

ٱتَّصل بى خبَرُ المصيبةِ فأضْرمَ الحَسْره ، وسكَبَ العَبْره ، وقَدَح اللَّوْعه، وٱمترىٰ[2] الدَّمْعه، وكانتْ مُشاركَتِي إيَّاكَ فى المُصيبة به، والفَجيعةِ لفَقْده، بحسَبِ ٱختصاصِي بمواهِب الله عِنْدك ، وٱغتباطِي بِمنَحه لدَيْك ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليـه راجِعُون ! ! تسليماً لأمْره ، وٱنقيـادًا لحُكْمه، ورضًا بمَواقع أقْدارِه، وأحسن اللهُ علىٰ العزَاء توفيقَك، وإلىٰ السَّلْوة إرشادَك ، ولا أخْلاك فيما تطْرُقك به مصيبةٌ من مصاحَبةِ الصبر، وفيما تَفِد به عليك نعمةٌ من الٱستزادةِ بالشكر؛ وحَرسك فى نفْسك وأحبَّتك ، وذَوى عنَايَتك ونِعمَتك .

---

(١) أى يسير هين على حدّ قول امرئ القيس لما قتل أبوه :

بقتل بنى أسـد ربهم * ألا كل شىء سواه جلل

(٢) فى القاموس « ومرىٰ الشىء ٱستخرجه كامتراه » .

وله فى مثـــله :

قدرُك أكبرُ، وبصيرتُك أنْور، وثقتُك بالله تعـالىٰ أعظَمُ من آعتراض الشُّكُوك عليكَ فيما يَطْرُقُك من عِظَاته بالحوادث و إن عظُمتْ، والمِحَن و إن جلَّتْ ؛ آختِبارا بالمَصائب لصَبْرك، و بما يُظاهِرُه عليك من النِّعم لشُكْرك، ومثلُك أيدَّك الله مَنْ قابلَ الفجيعةَ بفلان ـ إذ كانتْ من الواجب المحتُوم ـ بأحسَنِ عَزاءٍ وأفضل تسليم، غيْرَ مرتابٍ بمـا آختاره اللهُ له ولَكَ فيه، فعَظَّم الله به أجْرَك وحَرَسك وحَرَس فيك .

الأجوبةُ عن التَّعازِى

قال فى "موادّ البيـان" : أجوبة التَّعازى يجبُ أن تُبْنىٰ علىٰ وُقُوف المُعزّىٰ علىٰ كتاب المعزِّى ، وأنَّ إرشاده نقع غُلَّته، ووعْظه نفَع عِلَّته ، وتبصـيره سكَّن أُوَاره، وتذكيرَه أخمدَ نارَه، وتنبيهه أيقَظَ منه بحُسْن العَزاء غافلا، وهدىٰ إلىٰ الصبر ذاهِلاً، وحسَّن عنده الرزِيَّةَ بعد جَهَامتها، ودمَّث نفْسه للمصيبة بعد فدَامتها، فسلَّم لله تعالىٰ متأدِّبا بأدَبه، وعَمِل بالحُكْم مقتدِيا بمذْهبه ، وغالَبَ الرُّزْء بالعَزْم، وأخذَ فيه بالحَزْم؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُحْسِن له العِوضَ فى رَدّه ، ويجعلَه له خَلَفا ممن أُصِيب بفَقْده؛ ونحو هذا ممـا ينخرط فى سِلْكه .

جواب عن تعزية : من زهر الربيع :

أعزَّ الله سيدَنا وأسعدَه ، وسهَّل له طريقَ المَسرَّة ومهَّدَه ، وصانَ عن حوادث الأيّام حِجابَه، وعن طوارِق الحَـدَثان جَنـابَه ؛ وجعـله فى حِمىً عن عوارض الغِيَرَ والغَرَر، وأصار أيَّامه محسَّنةً لوجُوه الأيَّام كالغُرَر .

ورد الكتابُ الذى أنعَمَ بإرسالِه ، بل المَشرِّف الذى كَستْه اليدُ العاليةُ حُلَّةً من حُلَل جَمَاله ، فوقَفَ عليه وفهِمَه وتذكَّر به إحسانَهُ الذى لاينْساه ، وتفضُّلَه الذى لايَعْرف سِواه ؛ فأما التعزِيَةُ بفلان، فإنه ردّبعَذْبِ لفظها قُوتَه ، وبَلَّ بماء حُسْنِها غُلَّته ؛ وصَبَّره علىٰ حادثته بفلان بعد أنْ عزَّ عليه العَزَاءُ وأعْوزَه ، وطلَبَ وعْدَه من صَبْره فما أنْجَزه : لأنه كان وَجَد لِمَوْتِ المذكُور حُزْنًا ما ٱستطاعَ له تَرْكا، وفقَدَ لموته خِلًّا مثلُه يُناحُ عليه ويُبْكىٰ ؛ وفى بقاءِ مولانا مسرَّةٌ تطْرُد كلَّ حزَن ، وفى بهاء طَلْعته عوضٌ عن كل منْظَر حَسَن ، جعله اللهُ سامِيًا علىٰ أتْرابه ، مقدَّما علىٰ أضْرابه ؛ ماسَمَتِ الأسماءُ علىٰ الأفعال، وتقدّم الحالُ علىٰ الاستِقْبال .

آخــر : ضاعَفَ اللهُ بقاءه وأطال عُمُره، وشرَحَ لإسْداء المَكارِم صَدْرَه، وأنفَذَ نَهْيَه وأمْرَه ، ولازالَ إلىٰ أوليائه مُحْسِنا، وفضلُه يحصِّل لمحِبِّيه غايةَ السُّول والمُنىٰ ؛ ورد مشَرِّفُه المعزِّى بوفاة فلان سقىٰ الله عهدَه عِهادَ رِضْوانه ، وأسكنه فى غُرَف غُفْرانه ؛ بِخبَرٍ مُصابا، وفَتح إلىٰ الصَّبْر أبْوابا؛ وهدىٰ إلىٰ طريقِ الخير وقال صوَابا ؛ وسكَّن نَفْسَه ، وذكَّره إحسانَهُ الذى لم يَنْسَه ، وأزال الوَحْشَةَ وزاد أُنْسَه، بعد أنْ كان فَقْدُ المذكور قد هَدّ رُكْنَه وفتَّ عَضُدَه ، وأوصله إلىٰ أَمَدِ الحُزْن وضاعف علىٰ الأيام أَمدَه ؛ وألبسه رِداءَ الاكتئاب ، علىٰ تِرْبه الذى أصبح تحتَ التُّراب ، وصديقِه الموصوفِ بالصدق ، الذى فاق سناه ذٰلك الأُفْق ؛ جعله الله أصْلًا فى تحصيل المَسَرَّة إذا ذوَتِ الفُرُوع ، وسيْفًا يقْهَر به ولِيُّه الحوادثَ التى تَرُوع ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخــر : جعل الله أجْره عظيما كقَدْره ، والقلوبَ مجمعةً علىٰ حُبِّه كإجماع الألْسنة علىٰ شُكْره .

المملوك يُعْلِمه بوُرُود كتابه الكريم المعزِّى بفلان ـ قدَّس الله رُوحَه، وأمطر سحائبَ الرحمة ضَرِيحه ـ عليه، وعِنْده من شديد الحَزَن، ما أعدمه لَذِيذَ الوَسَن ؛ ومن زائدِ الاكتئاب، ما كاد يَحْرِمُه التقمُّص بثوب الثَّواب؛ بحيث إنَّه عُوِّض بالزَّمن الأسودِ عن العيشِ الأخْضَر، وذاق من موجب لُبْس الأبيض طَعْمَ الموتِ الأحْمَر، وأنه ضَمَّه إليــه ضَمَّ المحبُوب، وٱبتَهَج به ٱبْتِهـاجَ من ظَفِر بغايةِ السُّول والمطْلُوب ؛ فأغمدَتِ الكآبةُ خوْفًا من قَلَمه سَـيْفَها ، وأزالتِ الدنيا الدنِيَّةُ عنه حَيْفَها؛ وعزَّى نَفْسَــه وسَلَّاها، وشغله إحسانُه عن مَحَاسِنَ محا الموتُ سَنَاها ؛ فرفَضَ من توجُّعه مافرضَتْه حادِثتُه ، وسلَكَ مَنْهَجا غيرَ المَنْهج الذى فُتِّت فيه حَشَاه ومُهْجَته؛ فالله تعالىٰ يَكْفينا ماتحاذِره فى المجلس ويحْرُس سَنَاه، ويُديم سعْدَه وعُلَاه .

النــــوع الثـالث

(من مَقاصد المكاتَبات التَّهادِى والمُلاطَفة)

قال فى "مواد البيان" : رِقاعُ التَّهادى يجب أن تُودَع من الألفاظ المستحْسَنة مايُمَهِّد لقَبُول الملاطَفة والمَبَرَّة التى تميز فى المودّة. قال : وينبغِى أن يُطْرِفَ الكاتبُ إذا كان مُهْدِيا أو مستَهْدِيا؛ وقد جرتِ العـادةُ أن تُودَع هــذه الرقاعُ من أوصاف الشيء المُهْدىٰ مايحسِّــنه فى نَفْس المُهْدىٰ إليه . قال : وينبغى لمن ذَهَب هــذا المذهَبَ أن لايعتمِدَ تفخِيمَ هدِيَّته، ولا الإشارةَ إلىٰ جَلَالة خَطَرها، فإنَّ ذلك يُخِلُّ بشروطِ المُرُوءة ويتحاماه الكُرَماء .

ثم هى علىٰ ثلاثة أضـــرب :

الضـــــرب الأوّل

(مايُكْتَب مع التَّقادم إلىٰ المُلُوك من أهل مملكَتهم إلىٰ القائمين بإيصال التَّقْـــدِمة إلىٰ المَلِك وكاتبِ السِّرّ ونحوهما)

الشيخ جمال الدين بن نباتة : إلىٰ كاتبِ السِّر بالأبواب الســلطانية صحبَةَ تَقْدمة من نائب الشام إلىٰ السلطان :

لازالتْ أقلامُها لنَتائج الفَضْل مُقدِّمه، ولمرَاكض الكَرَم والبَأْس جيادًا مُسوَّمه، ولكَتائبِ المَلِك من كُتُبه أعلامًا بشِعارها العبَّاسيّ مُعْلَمه، وفى يد صاحِبها من أصحاب المَيْمَنة، والذين كَفَروا بآياتِ الله ونِعَمِها من أصحاب المَشْأَمه؛ تقبيلَ مُحِبٍّ لاتُفْسَخُ عقُودُ وَلاَئه المُحْكَمه، ولا تُنْسَخ إلَّا فى الكُتُب عقودُ ثنَـائه المنظَّمه، ولا تطوفُ الأشواقُ ببيْتِ قلبه إلَّا وهى من مَلَابس السُّلْوان المحرَّم مُحْرِمه .

ويُنْهِى أنه قد ٱختارَ منْ عِنَاية مَوْلانا بمَقَاصِده أحسَن الخِـيَر، وبُورِكَ له فى قَصْدها (ومَنْ بُورِكَ لَهُ فى شَىْء فلْيَلْزَمْه) كما جاء الخبَر، وقد جَهَّز فلانا إلىٰ الأبواب الشريفةِ خَلَّد اللهُ سلطانَها بتَقْدِمته علىٰ العادةِ فى كلِّ سنة، وٱتَّبع سِـفَارةَ مَوْلانا بين يدَى المواقِفِ الشريفة فاتَّبع من القَوْل أحْسَنه؛ وسأل حُسْنَ نظر مولانا الذى إذا لاحظَ قَصْدا أعْلَنَه وسَعْدا عيَّنه ، وقد جهَّز المملوكُ برَسْم مولانا ماهو بمقتضىٰ الوَرَقة المجهَّزة عطْفها ، المؤمِّلة وإن كانتْ ورَقةً قطْفها، وسأل مقابلتَها بالجَبْر الذى يَحْسُب الأملُ حِسَابَه ، ويستفْتِحُ ببنانِ القَلَم بابَه ، والإصـغاءَ لمـا يُملىٰ من رَسائل الشَّوْق فإنَّها من رسائل إخْوان الصَّـفا المستطابَه ، لابرِح القاصدُون مَرِحِينَ بأيَّام مولانا وحَقَّ لهم أن يَمْرَحُوا، تالينَ نسبة بيته ورُحْمىٰ الله علىٰ يَدِه: ﴿ قُلْ بفَضْل الله وبرَحْمتِه فبِذٰلِكَ فَلْيفْرَحُوا ﴾ .

وله إليه أيضا مع الجهاز الشريف السلطانى :

أمتعها اللهُ من خيْرِى الدنيا والآخرة بكَرَم الأَمْرَيْن ، وبشَرَف الذِّكْرين ، وسرَّها بمـا يجهّز فى الثَّناء والثَّواب من الوَفْرَيْن ، وأعلىٰ منـارَها المحلّق إلىٰ السماء علىٰ وَكْر النَّسْرين . ولا زالَتِ الآمالُ لاتبرح حتّٰى تبلُغَ من تلك اليدَيْنِ مجْمَعَ البحْرَيْنِ؛ تقبيلَ مخلِصٍ فى الوَلَاء والدُّعاء، مستشهِدٍ بالخَواطِرِ الكريمةِ علىٰ ثُبُوت الادِّعاء، واردٍ لموارد النِّعم قبل صُدُور بل قبل وُرُود الرِّعاء .

وينهى أنه ليس للملوكِ فيما يؤمِّله ويتأمَّلُه ، ويفصِّلُه من عُقُود المَطالب ويُجْمِله ؛ غيرُ إحسانِ مولانا الذى لا يُمَـلُّ علىٰ طُول الإينـاس والإلباس ، وعوارِف بيتـه المستجدة تالية : ﴿ إنَّ اللهَ لَذُو فَضْـلٍ علىٰ النَّاسِ ﴾ . وقد جهَّز المملوكُ الولدَ فلانا بالجَهَاز المبارَك إلىٰ الأبوابِ الشريفةِ خلَّد الله سـلطانَها ، ومَلَأَ به جَواهِرَحبَّات القلوب ورَيْحانَها، وهو علىٰ قَدْر المملوك ومِقْداره، لاعلىٰ قَدْر مُرادِه وٱختيارِه؛ ولو أن المُرادَ ممـا يحمِلُه العبدُ إلىٰ سيِّده ، ويقدّمُه من سَبَد الحال ولَبَده ، علىٰ قدر المحمُول إليه ، والمقدَّم بين يدَيْه، لضَعُفَتْ قُوىٰ أكثر العبيدِ عن ذٰلك، ويَئِس من الرِّضْوان جُهْدُهم المـالِك ؛ وإنمـا علىٰ العَبِيدِ أن تَنْصِبَ علىٰ قُدْرتِها الحال ، وعلىٰ الساداتِ أن تُصرِّف بعَوامل الخبر مستقْبَلَ الأفعال . وعِلْمُ مولانا الكريم مُحِيطٌ بتنقُّل المملوكِ فى هذه السِّنينَ من بلَدٍ إلىٰ بلَد، ومن أمَدٍ كُلِّفه إلىٰ أمَدٍ، وبمـا حَصَل فى ذٰلك من التمَحُّق فى إقطاعاتٍ كاد أنْ يُخْنِيَ عليها الَّذِى أخْنىٰ علىٰ لُبَد . وكان المملوك يودُّ لو كان هـذا المحمولُ من الجَهَاز من جواهرِ النُّجوم المنْثُوره ، وأخْبِية السُّعُود المأثُورَه ، وجميع مازُيِّن للناس من الشَّهَوات المذْكُوره ، أضعافَ أضعافِه الآن، بل أضعاف أضعاف ماحَمَل الأوّلُون من فُلانٍ وفلان؛ كالحَسَن بن سَهْل مع الجهة المأمونيَّة التى حَلَا ذِكْرها، وٱبنِ طُولونَ مع المعتَضِديَّة التى كاثرهـذا الغيْثَ قَطْرُها ، والسَّامانِيِّ

وما أدراك، والسَّلْجُوقىّ وما أسْراك، وجميع ماتضمَّنته التـواريخُ التى لو عاينَتْ تاريخَ هذه الدولةِ الشريفةِ عنَتْ فى الحال لَمجْدِه، وكان كلُّ مجلَّد منها يموتُ للهَيْبة فى جِلْده : لما خلَّدته أيامُها الشريفـةُ من أخبـار حُكْمها وخَيْرها، وكَرَمها و بِرِّها، وعَطْفها علىٰ مماليك بيتِها الشريف: تتقبَّلُ ميْسُورَهم، وتُكمِّل سُرورَهم، وتملأ بُجُيُوش الاْنشراح صُـدورَهم، وتبلِّغُهم من هِمَم مطْلُوبهم، وتُقْبِل علىٰ زاهرات نَجَايَاهم ورياحِينِ قلوبِهم :

ولو لم تُطِعْه نِيَاتُ القلُوب ❊ لَمَا قَبِــل اللهُ أعمالَهَا.

والمملوك يسأل من إحسانِ مولانا الذى أَلِفَـه، ومعروفِه الذى عَرَفه، ملاحظةَ الولد فلان بين يدَىِ المواقِفِ الشريفة خلَّد الله سلطانها، و إقامةَ عُذْر المملوك بعبارتِهِ التى أحلَّ اللهُ سِحْرَها وبيانَها ؛ فما للمملوك فى مَقاصِـده مثلُ مودّةِ مولانا الوافيـةِ المُتَوافيه، ومقدّمةِ عبارتِهِ الكافيةِ الشافيَه ؛ والله تعالىٰ يُعين علىٰ شُكْر مِننه، والقيامِ بفرائض حَمْده وسُنَنه ؛ والنهوضِ بأوصاف أياديه التى يُغرّد بها قلمُ الكُتَّاب كما يُغرِّدُ القُمْرِىُّ علىٰ فَنَنِه .

الضـــرب الثـانى
(ما يكتب مع الهــدِيَّة عنـــد بعْثها)

وهو علىٰ عَشَرة أصـــناف :

الصنف الأوّل — مايكتَبُ مع إهداء الخيل .

على بن خَلَف : فى إهداء جَوادٍ أدْهَم أغرَّ محجَّل .

وقد خدم المملوكُ رِكابَه الأكْرَم ، بجوادٍ أدْهَمَ مُطهَّــم ، قد سَلَبَ الليــلَ غَياهِبَه وكَوا كبَه ، فاَشْتَمَل بأديمه ، وتحلَّى بنُجُومه ، وأَطْلَع من غُرَّتِه السَّاذَجَة قمرًا متَّصــلا

بالمجرَّه ، وتحلّى من رُثْمته(١) بالثُّريّا أو النَّثْره ، صافِى القَميص ، محُوض الفُصُوص ، حديد الناظِر ، صليبِ الحافِر ، وَثيق القَصَب ، نقِيِّ العَصَب ، قَصِير المَطا ، جَعْد النَّسا ، كأنما ٱنتعلَتْ بالرِّياح الأرْبع أرْبعُه ، وأصْغىٰ لٱستراق السَّمْع مَسْمَعُه ، إنْ تُرِك سارْ ، وإن غُمز طَارْ ، وإن ثُنِىَ ٱنْحرف ، وإن ٱسْتُوقِف وقَفْ ، أديب نَجِيب ، مَتِينٍ صَلِيب ، صَبُورٍ شَكُور ، والله تعالىٰ يجعلُ السعادةَ مطلعَ غُرَّته ، والإقبالَ مَعْقِدَ ناصيتِه .

من كلام المتأخرين :

كتاب عن نائب الشام إلىٰ الملك الصالح : شمس الدين صاحب مارِدِينَ قرِينَ خيل مُنْعَم بها إليـه ، عن السلطانِ الملِكِ الصالح : عمادِ الدين إسمـاعيل بن الناصر محمد ٱبن قلاوُون ـ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ ، وهو بعد الألقاب .

وأجْرى بالنَّصْر جِيادَه ، وبالظَّفَر مُرادَه ، وعلىٰ عوائِدِ السَّعْد مَطالِعَ شمْسه التى يُسَمِّيها عُرْفُ المملكةِ بلادَه ؛ ولا زالتْ مُنيرةً بسعادةِ شمْسِه الأحْلاك ، نَظِيمةً بدُرّ محَامِده الأسْلاك ، مائلةً خيولُ سعدهِ حتّى حُمْر السَّوابق من البُروق والشُّهُب السَّوانح فى الأفلاك .

المملوكُ يقَبِّل اليدَ التى إذا بُسِطتْ فلأن تجُودَ وتُسْتَلَم ؛ وإذا قُبِضت فعلىٰ سَيْف أو قَـلَم .

ويُنْهِى بعدَولاءٍ وثناء للإخلاص شارحَيْن ، وفى الضمائِرِ والآفاقِ سانِحيْن ، وٱشتياقٍ وعهدٍ كانا أحقَّ بالٱنتمـاءِ لٱسمه ونَعْتِه وكان أبواهما صالحَيْن ؛ أنَّ المرسومَ الشريـف زاده الله تعالىٰ شَرَفا ، وردَ يتضَمَّن تشريفَ مولانا علىٰ العادةِ وإعظامَه ، وٱستقْرارَ مكانته من الخواطِر الشريفـةِ فى دار مُقَامه ؛ وٱستمرارَ كرامتِه من الآراء المعظَّمة

(١) هى بالضم بياض فى طرف أنف الفرس . قاموس .

ولا يُنكَر بين الصالح والصَّالح استمرارُ الكَرامه ، وأنَّ الصَّدَقاتِ الشريفةَ أنعمَتْ علىٰ مَوْلانا بثلاثةِ أرْؤُس من الخيل كثلاثة الراح ، إلا أنَّ حَبَابها عرَقُ سبْقها ، وثلاثة الشجر (؟) كما قال الطائى تساوى شَرف ثَمَرها وزَهَرِها وعَرْفها ؛ مامنها إلا من[1] تقْصُر الرِّياح أن تَسْلُك بخُفّه ، والبرُوقُ أن تَتْبَع نَهْجَه . ومَنْ تودُّ الثُّرَيَّا أن تكونَ لِجامَه والهلالُ أن يكونَ سَرْجَه . ومَنْ يَتمطَّر[2] كالغَمَام ويركُض كالسَّيل . ومَنْ كَمُلت حِلاه ولبِس حُلَّة الفَخَار فمشىٰ علىٰ الحالتين فى الحُلَّتين مُسْبِلَ الذَّيْل . ومَنْ عُقِد بناصيَته كلُّ الخير وعُقِـد له لواءُ الفَخَار علىٰ كلِّ الخَيْل : من كلِّ خَضراءَ مُعْجِبة فهى علىٰ المجاز حَديقه ، وكل أحمرَ سابقٍ فهو البرْقُّ علىٰ الحَقيقه ، وكلِّ أصفرَ شَفَقِيٍّ إلا أنَّ الرياحَ من مُجاراته علىٰ نَفْسِها شفِيقه . وكيف لا يُشَبَّه بالشَّفَق وهو من الأصائِل ، وكيف لايفتَخِر العسكرىُّ بهذه الخيلِ وخَناصِرُ عَدَدها فى الحُسْن أوائِل ، قد صُرِفَتْ وجوهُها المقبَّله ، لبابِ مولانا أحسنَ المَصارف ، وكُتِبتْ عوارفُ الفضل فى مَعارفه المُسْبَله ، فناهيك منها بكتّاب عَوَارف المَعارف ؛ ووصل لمولانا بذٰلك مثـالٌ شريف ؛ ورسم للملوك بتجهيزها مع مَنْ يراه ؛ وقد جهَّز المملوك لخدمةِ مولانا الخيلَ المذكورةَ مع المثال الشريف صحبةَ فلان ، ومولانا أدرىٰ بنفَحَات رياض الحمدِ بهذه الدِّيَم المُطلّه ؛ وبالتقبيل فى الأرض التى هى سَمـاءُ حوافِرِ هـذه الخيل التى هى أهلّه ؛ وأولىٰ أن يَشرِّف المملوكَ بمُهِمَّاته ، ويؤنِسَ لحظَه بطيف اليَقَظـة من مشرِّفاته ، والله تعـالىٰ يجدّد لمعاليه فى كل قصـد نُجْحا ، ويعلى لمجده[3] فى كل حال قِدْحا ؛ ويُروِّع الأعداءَ

---

(١) كذا فى الأصل باستعمال من فى غير العاقل .

(٢) فى الأصـل يخطر كالغمام ولعله مصحف عمـا أثبتناه يقال تمطرت الخيـل إذا جاءت مسرعة يسبق بعضها بعضا تأمل .

(٣) فى الاصل وجاد مجده تأمل .

من خَطَوات خيْله فى بلادهم بالمُغِيرات صُبْحا ، ومن خَطَرات ذكْره فى قُلوبهم بالمُورِياتِ قَدْحا .

وفى معنـاه :

يقَبِّل الباسطةَ الشريفة أعلىٰ اللهُ شأنَها ، وجمَّـل ببقائها زَمانَهـا ، وضاعفَ علىٰ الأولياء بِرَّها وإحسانها .

وينهِى : أنه ٱبتاع جَوَادًا أعجبه ، وطِرْفا ٱنتخَبَه ، وقدْ قدّمه لوَلِيِّ نِعْمتِه ، ومالك عُهْدته : لأنَّ الكِرامَ لا تكونُ إلا عند سـيِّد الكِرام ، والذى يصلُحُ للولىٰ علىٰ العبـد حَرَام ، فالله تعالىٰ يجعَلُ التوفيقَ ضِياءَ غُرَّته ، واليُمْنَ مَعْقِدَ ناصيَته ، والإقبالَ تحجيل أوْظفَته ، والسعادةَ موضِعَ الجلوس من صَهْوته ؛ والمملوكُ يسأل الإنعامَ بقَبُوله ، و[أن] يبَلِّغه من ذلك [غاية] مأمُوله ؛ مضافًا إلىٰ ماسبَقَ به سابقُ إحسانه العميم ، وفضلِه الجَسِيم ؛ والله تعالىٰ يحرُسه بعينه التى لا تَنَام ، آمين .

الأجوبة بوصول الخيـــل

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ أميراخور بالأبواب الشريفـةِ ، عن وصُول خيـلٍ إليــه من الإنعـام الشريف ـ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعـد الألقـاب :

لا زالَتْ مبَشِّرةً بأعظَم الخير وكِرام الجيل ، ميَسِّرة النعماء(١) بسوابِق السَّـيْر كَدوافق السيل ؛ مُسْفِرةً عن إيجاد سوابِحَ إلا أنهـا فى الفَخَار والشِّيَة ضافِيةُ الذَّيْل ، سـفيرة فى الجَوَادّ بكلِّ جَوَادٍ تبتسمُ غُرَّتُه ٱبتسامَ النهار ويُدرِك طَلَبه إدْراكَ الليل ؛ تقبيلًا يستَبِقُ ٱستِباقَ الجِياد ، ويتَّسِق علىٰ الدَّرج ٱتِّساقَ العُقُود علىٰ الأَجْياد .

---

(١) النعيم والنعمة والنعمى والنعماء ماينعم به فلعل الصواب الانعام .

ويُنْهِى بعد ثناءٍ وولاءٍ : هذا يَهِيمُ فى كل واد، وهـذا يَهِيم بمثله كلُّ وادّ، وُرُودَ مشرِّفةِ مولانا الكريمةِ بما ملأ القلْبَ مَسَرَّه، والعينَ قُرَّه، ودرَجَ عامَ الفيل من نُجُب الخيل السيارة مستَهَلّ وغُرَّه، فقابلها المملوكُ بتقبيله ، وقام لهـا علىٰ قَدَم تبْجِيله ؛ ثم قام إلىٰ الخيل الشريفة المنعَم بهـا عليه فقبَّـل من حوافِرها أهِلَّةً ثم من غُرَرها نُجُوما، وتأمّل شِياتِها البرقِيَّةَ وآستمطر من السُّعود غُيُوما ؛ فأدْنَتْ له من الإقبال أمَدَ قاصيها، وظلَّ بمنزله الخيرُ المعقُودُ بنواصيها ؛ وتضاعفتْ أدعيتُه الصالحةُ لهذه الدولة القاهرة الصالحيَّة زادها اللهُ من فضـله ، والوقتِ الذى ملأَ الدنيا بسَحَاب جُوده ورياحِ جِيَـاده ورِياضِ عَدْله ؛ والملكِ الذى لاينبَغِى لأحدٍ من بعدِه، ولولا شُهودُ العهد الشهيدىِّ لقال ولا لأحدٍ من قَبْله ؛ وأعدَّ المملوكُ هذه الثلاثةَ من الخيل ليُفْنِيَ عليهـا بالقتال أهلَ التعطيلِ والتَّثْليث ، ويستَخفَّ بهـا آجالَ الأعداء بين يدَىْ مالكه : فإنها من ذَواتِ العِزِّ والعزم الحَثِيث ؛ وما هى إلَّا كواكِبُ سَعْد تمددها أسِنَّتها الوَقَّاده ، وزَهَراتُ حسن حيَّتْ بها علىٰ البُعْد سِفارتُه المعتاده ؛ لابَرِح مولانا يقلِّد بعِناياتـه وإعانَتِه المِنَنَ الحِسام، وينصُر بعزائمِه القاطعة، وكيف لاينصُرَ ويقْطع وهو الحُسَام ؟ .

وله فى جواب وصُول أكديش وبازٍ [وكوهية] :

لا زالَ جزيلًا سَمَـاحُه ، جميلًا من الحمد رَبَاحُه ، جليلًا بِرُّه الذى يشْهَد به طائرُ الخيرِ ويمنُه وطائلُ الخيل ونَجاحُه . هذه المفاوضة تُهدِى إليه سلامًا يخْفِقُ جَنَاحُه ، وثناءً تُشْرِق غُرَره وأوضاحُه ؛ وتوَضِّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبتِه سريعةَ الآحْتِثاث ، طائرةً بِيُمْن طِرسها وهـدِيَّتها بأجْنِحةٍ مَثْنَى وثُلَاث ؛ فحصَـل الوقُوفُ عليها ، وتجدَّدَ عهدُ الآرتياحِ لدَيْها ؛ وفَهِمْنا ما لم نَزَلْ نفهَمُه من وُدّ الجناب العالى ، وبِرّه المُتعالِى ؛

ووفاءِ عَهْدِه الذى تتلقَّاه المحامدُ بأمالِى المحبِّ لا بأَمَالِى القَالِى ؛ ووصل الأكديش الايكر ظاهِرًا حُسْنُه ، سافِرا عن وَفْق المُراد يُمْنُه ؛ تتجمَّل به المَواكب ، وتُماشيه الرِّياحُ وبعضُها من خَلْفه جَنائِب ؛ وكذلك وصل البازى والكُوهِيَّة ، وكلاهما بديعُ الأوصاف ، سريعُ الاقْتِطاف لأزاهِرِ الطيرِ والاخْتِطاف ، يَسْبِقُ الطَّرْفَ بجناحه اللَّموح ، ويستَعْجِل من الأُفُق وارِدَ الرِّزْق الممنُوح ؛ ويُواصِلُ الخيرَ والمَيْرَ إلى المَطْبَخ ، فكأَنَّ حوائج كاش تَغْدُو إليه وتروح ؛ لا برِحَ إحسانُ الجناب العالى واصِلا ، وذِكْرُه فى ضمير الاعتداد حاصِلا ؛ وحكْمُ سماحتِه وشجاعتِه باستِحْقاق الثناءِ فاصِلا .

جواب بوصول جَوَارح :

كُتِب به عن نائب الشام ، جوابًا لمطالَعَةٍ وردَتْ على نائب الشام من الصالح صاحبِ ماردِينَ من بَقَايا بنى أُرْتُق ، صحبةَ سَناقِر ، هديَّةٍ للصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون : صاحب الديار المصرية . من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة :

وأيَّد هِمَمه السَّوابح ، ونِعمَه السوابغ ، وشِيَمه التى تنتظم منها عليه دُرَرُ المحامد والمَمَادِح ؛ وشكر هَدَاياه التى منها جَوارِحُ طيرٍ تخفُقُ لفَرْط استِحْسانها الجَوارِح . ولا زال من أجْنِحة نَصْره حتى السِّماك الرامح ؛ ومن جُنُود سعدِه للأولياء سعْدُ السُّعود ، وفى الأعداء سَعْدُ الذابح ؛ ومن جِياد رِكابه الشُّهبُ إلا أنها شُهبُ الأفلاك السَّوابِح ؛ ولا برِح سلطانُ البسيطةِ مكافِئًا عملَ قلبِه الوفِىِّ ، ولا يُنْكَر العملُ بالقلوب بينَ الصالح والصَّالح .

المملوك يقبِّل الأرضَ التى تستمِدُّ السُّحُبُ من سَمائها ، وتستعِدُّ منازِلُ الأنجُم للتعلّم من أنوائها ؛ تقبيلًا يُودِع ورَقَ الرسائل أزاهِرَه ، ويُطْلِع فى ليالى السُّطور زَواهِرَه ، ويَدَّخِرُ فى أيدى الحُروف إلى أن تَصِلَ إلى أجياد المَنابر جَواهِرَهْ .

وينْهِى - بعد دعاءٍ صالح، إذا جُدِّد تجدَّد، وولاءٍ ناجح، إذا ٱنعطف تأكَّد، وثناء سانح، إذا سرىٰ لا يتوقَّف إلا أنَّ نَسيمه فى الآفاقِ يتردَّد، وٱرتياحٍ لما يَرِدُ من أخبار دياره السارّة إذا شافَهَ سروره سَمْعَ الولِيِّ شهِد وسَمْعَ الحاسِد تشهَّد، حيثُ يتَلَقَّ ببلاده النُّجْح والمَقاصد، وصِلاتِ البِرِّ والعوائد، ووُفُودَ الآمال من كل أَوْب: فديارُ بكر ديارُ زيْدٍ وعَمْرو وخالد - وُرودَ المشرِّف الكريم، بل الغيثِ السائرِ بخصْب المُقِيم، علىٰ يَدِ فلان ونِعْمَ اليدُ العائلةُ لأيَادِى البِرِّ العَمِيم، ونِعم المشرِّفُ الوارد عن مَقرٍّ: هذا للأمَل كَهْف وهذا للتأميل رَقيم؛ ففَضَّه المملوك عن علامةِ ٱسم لحُسْنها وُسُوم، ولها رُسُوم، وٱستجلىٰ مواقِعَ تلك الأنامِلِ المُضِيَّة وأقسمَ علىٰ فَضْلها بمَوَاقِعِ النُّجوم؛ وٱنتهىٰ إلىٰ الإشاراتِ العاليه، وعلِمَ ما كان القلبُ يعْلَمُه من ضمائر الوُدِّ الحاليَة لا الخالية، وقابل كلَّ أمْرٍ حسنٍ بما يجب من مَذاهب الوُدِّ المُتواليه، ووصلت السَّناقِرُ المُنيرُ سَنَا فضلها، المُبِير فى مَعارك الصيد شَبا نَصْلها، القائمةُ فى كَواسِر الطير مقَامَ الملوك الأكاسرةِ إلَّا فى حُكْمها وعَدْلها؛ لا جرمَ أنها إذا دخَلَتْ آفاقَ طيْرٍ أفسدَتْها وجعلت أعِزَّة أهلِها أذِلَّه؛ وإذا ٱنقضَّتْ علىٰ سِرْب وحْشٍ جذَبَتْها من دَمِ الأوْرِدة بأرسانٍ حيثُ كسَتْها من قوَادِم الأجْنحة أجلَّه؛ لا يُسْأَلُ كاسِرُها فى الطُّيور بأىِّ ذَنْب قُتِلتْ، ولا يحمِلُها جانب الطير والوَحْش إذا عاندَتْه فياعَجَبا لها علىٰ أيْدى البَشَر كيف حُمِلَتْ؛ تُظِلُّ الصيدَ فلا عَجَبَ أن يَفْزَع بها من ظِلِّه، وتكتُبُ علائِمَ اليُمْن والظَّفَر بما فى لَوْنها من شَبَه الخَطِّ وشَكْله، نِعْمَ الجالبَةُ للخَيْر والمَيْر، والسائرةُ بما يُخيف المتصيِّدات وكيفَ لا؟ وعلىٰ رُءُوسها الطير، أزاهِرُ حُسْنٍ لابِدْعَ أن يكونَ لها كمَائِم، وبوَارِقُ العزم لاجَرَمَ أنَّ أجنحتَها غمَائِم؛ ونواقِلُ البأس والكَرَم عن مُرْسِلها فهما جمَعتْه الشَّجاعةُ فرَّقتْه المَكَارم. ٱستَجْلاها المملوكُ بعد ألفاظ المشرِّف الكريم فقال: (تلكَ الرياضُ وهذه السُّحُب،

وتلكَ الأنوارُ الهاديَةُ وهذه فى أُفُقِ مَطَارِها الشُّهُب) ؛ وجهَّز المملوك المطالعةَ المُحضَرة للأبواب الشريفة أعلاها اللهُ وشرَّفها علىٰ يد فلان المذكور فقُوبِل بالإكْرام والكَرَم، ومَثَل بالمَوَاقف الشريفـة مُثُولا رقىٰ بهمّتـه إلىٰ الكَواكب لا جَرَم ؛ وذكَّر بصالِح بيتِ الأرتقاء صالحَ بيتِ أُرْتُق حتّى أنشد :

فَهَلْ دَرىٰ البيتُ أنّى بعْدَ فُرْقتِه * ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلّا إلىٰ حَرَم!

وقد عاد مُعْلَما مُعْلَما من البِشْر بما يَراه مولانا عليه ، مُعْلِما بمـا تقدّمَ من نجوىٰ الإنعام بين يدَيْه ؛ حاملًا من كَرَمٍ وجاهٍ يُعَدّان للأولياء فى يومِ نُزُل وللأعداء فى يَوْمِ نِزَال، قائلا برجاء سَعْيه المؤمّن : (يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) ولن تَزَال؛ والله تعالىٰ يُجرى كَرَم مولانا علىٰ عوائدِ إسعاده، ويَحْرُس بعيْنِه وملائكتِه نَفَاسة نَفْسه وبِلادِه؛ ويُدْخِله بٱسْمِه ومُسَمّاه لدىٰ الدُّنيا والآخرةِ فى الصَّالِحين من عِباده .

وله جوابٌ بوصول بازِيَيْنِ :

ولا زالَتْ بُزاةُ كرمه علىٰ الحمد مُطِلَّه ، وسحائبُه مسْتهِلَّه ، وهِممُه مسـتقِلَّةً بأعباء المكارم وإن كانتْ لكثِيرِ مايهْدِيه مستقِلّه . هذه المفاوضة تُهدى إليه من السلام أجلَّه ، وتُوضِّح لعلمه الكريم وُصولَ مكاتبته العاليةِ فوقَفْنا عليها ، وعوَّذناها بكلماتِ الثناء التـامَّة من خَلْفِها ومن بين يديْهـا ؛ وعلمنا مالم نزل نَعْلَمُه من مُوالاته وآلائه المُسْنَدَ فى الشكر عنها والمستندَ فى الوَلاء إليها؛ ووصل كِلَا البازِيَيْنِ الحسَنين المُحسِنَين كأنّهما فرقَدَا سماءٍ قد ٱجتمَعا، وقمرَا حُسْنٍ طَلَعا، وعلىٰ مَحاسن الصيد ٱطَّلَعا؛ يَسُرَّان القلوبَ والأبصار، ويُحْمَلُ كلٌّ منهما علىٰ اليمين فيحْصُـل به اليَسَار؛ وما هما بأوّل إحسانِه الأسْنىٰ، وبِرِّه الأهْنىٰ؛ وأياديه التى أبىٰ الكرمُ إلا أن تَرِد مَثْنىٰ مَثْنىٰ . وعلِمَ ٱعتِذارُه عن الكُوهِيَّة التى كان ٱدّخَرها فنفَقَتْ ، ولو أُقيمتْ بها أسواقُ الصيد

نَفَقَت، وأرسل برواياتها تحقيقًا لدَعْوىٰ المكارم التي من زمانٍ تحقَّقتْ ؛ والله تعالىٰ يشكُر بِرَّه، ويملأ بذِكْره بحرَ الثناء وبَرَّه .

وله جوابٌ بوصول كُوهيَّتين علىٰ يدِ شخصٍ ٱسْمه باشَق :

لازالتِ المحامدُ من مَصَايدِ إنعامه، وفوائدِ أيَّامه؛ وثمراتُ البأسِ والكَرَم من قُضُب سُيوفه وأقلامِه؛ تقبيلَ معترِفٍ بإحسانها، مغترِفٍ من مَوَارد ٱمْتِنانها؛ متْحَفٍ منها بعالِي تُحَفٍ تدُلُّ علىٰ مكانِها في الفضل وإمْكانِها .

ويُنْهِي وُرُودَ مشرِّف مولانا الكريم علىٰ يدِ الولد « باشَـق » فياله باشَـقٌ جاء بكُوهِيَّتين جميلتيْن، وطار للسُّرْعة وهو حاملٌ مِنَّتيْن جليلتَيْن؛ وقد وصلَتَا و[كِلْتا] هما حسنةُ الخُبْرِ والخَبَر، حميدةُ الوِرْد والصَّدَر، يحْسُن مَسْرىٰ كلٍّ منهما وسَيْره ؛ ويتجمَّلُ بهما بابُ الشُّكْر خاناه وصدْرُها ويكْثُر خيْرُ المَطْبَخ ومَيْرُه ؛ فمدّ المملوكُ إليهما اليدَ المتحمِّلة الحـامِلَه ، وإلىٰ المشرِّف الكريم اليدَ المتولِّيَـةَ المُتناوِله ؛ وعلم ماتضمنه من الحُسْن والإحسان، وذِكْرِ الموالاة التي يحكُم بها القلب العالِمُ قبـل شَهادةِ اللِّسان ؛ وٱعتِذارِ مَوْلانا عن تعـذُّرِ وُجُودِ الشاهين ؛ وكلُّ إحسـانِ مولانا شهِيٌّ كافٍ ، وكلُّ مَوَارد نِعَمه هَنِيٌّ صافٍ؛ ومافات مَقْصَدٌ وإنعامُ مولانا وراءَ طَلَبه وإنْ طال الأمَد، ولا فَرٌّ مطلوبٌ حتّىٰ يأتِيَ به سعْدُ مولانا مقْرُونا في صَفَد؛ والله تعالىٰ يشكُر عوائدَ فضـله ، ولا يُضْحِي[1] الآمال الملتجئة [إليه] من ظِلِّه .

جواب بوصول طيور، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وشكَرَ هدَاياه المتقبَّله، وسَجَايَاه التي هي بأفْواه المحامد مُقَبَّله ، ولا زال بدرَ سعادتِه المأمولةِ وطائرُ هدِيتِه المتأمَّله .

---

(١) مراده لا يحرمها ولا يخليها .

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهدى إليه من السلام أتمَّه، ومن الثناء أنمَّه، وتوضّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتبَته الكريمه، ومكارمِه العَميمه، وطُيورِ هديَّته التى كلٌّ منها فى الحُسْن بدرُ تمّ، وظهرَتْ ظُهورَ البدْرِ لتَمَامه فأبتْ محاسِنُها أنْ تنكتِمِ، لحُسْنِ ورُودِها، ورُعِى بفضل التلطُّف والتودُّد مقصودُها؛ وأقبلت تلكَ الطيورُ التِّمّيَّة تامَّة الإنعام، دالَّةً بيُمْن طائرِها علىٰ بَركة عامَّة وكيف لا؟ وقد جاءتْ بيضاءَ عددَ شهور العام؛ واللهُ تعالىٰ يزيده من فضله، ويُجْرِى الأقدار بالسُّعود الشاملة لجمعه الجامعةِ لشَمْله؛ إن شاء الله تعالىٰ.

جواب فى المعنىٰ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ أيضا :

لازالتِ الجَوارحُ شاهدةً ببرِّه، والجوانحُ حائمةَ الجَناح علىٰ شَريفِ ذِكْره؛ والمحامد من مَصايِدِ أقلامِه ورِماحه فى السِّلْم والحَرب : فإمَّا بقَوادم سُمْره، وإما بمَناسِر حُمْره؛ تقبيلًا يبعثُه علىٰ أجنحةِ أوراقِ الرَّسائل، ويتصيَّدُ به علىٰ البُعْد مشافهةَ تلك الأنامل الجَلَائِل.

ويُنهِى بعد دعاءٍ، تُحلِّق إلىٰ السماء كلماتُه الحَسَنه، وولاءٍ وثناءٍ: هذا تَخفِق بتشوّقه أجنحةُ القلوب، وهذا تخفِقُ بذِكْره أجنحةُ الألْسِنه ــ أنَّ كتابَ مولانا وردَ علىٰ المملوك فأوردَ عليه المَسارّ، و[ملأ] يده بالمَبار، ومصايدَه بالمَيْر، ومنازِلَه بالخَيْر، وآماله بأمالِى الكَرم لذى السرحات المنشرِح بآيةِ ﴿وعُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْر﴾ فقابله المملوك بتقبيلِه، وواصلَ فضْلَ الاعتِدادِ بتفْضيله، وحصل من هَدَاياها وهُدَاها علىٰ جملة الإحسانِ وتفصِيله، وانتهىٰ إلىٰ الإشارات العالية التى زكَتْ علىٰ العِيَان وتأمُّله وأربتْ علىٰ الجَنَان وتأْميله.

فأمّا الإنعـام بالكُوهِيَّتين اللتيـن ماقَذَف البحرُ إلىٰ الساحِلِ أبهىٰ من دُرَرِهما المكْنُونه ، وأزْهَرَ من وُجُوهِهِما المباركةِ الميمُونه ، فقد وصل كلا الطائرَيْنِ بيُمْنه ، والسابقين بمَنِّه ، والغائبين فى جَوّ السماء الآتيَيْنِ من الصُّيُود بأوْفىٰ من قَطَرات مَوْنه ، وٱستقبل الملوكُ منهـما وُجوهَ المَسارّ ، وحملَتْ يمينُـه الثَّروةَ وحملَتْ علىٰ اليَسَار ، وتناولتْ يُده يدَىْ إحسانٍ يَسُرُّ الناظرين والسامعين ، وٱستُخْدِمَا للشِّكْر خاناه ولحِفْظ مِطْبخ يملأ عُيونَ المُشْبعِين والجائِعين ، وقال صُنْعُ الله لِصناعتهما : ائْتِيَا بصُيُود السَّماء طَوْعا أو كَرْها ﴿قالتَا أتَيْنا طائِعِين﴾ . قد كتبَتْ باليُمْن فى مَطَاوِى رِيشِها أشباهَ الحُرُوف ، وقضىٰ الجُودُ لِتلكَ الأحْرُف أن تَقرِىَ ماتقترِى عَوَاصى الطـير له بطاقةٍ تقيِّد السابحَ فى طَلَقه ، ويعودُ مُطْلِقُها وقد ألزَمَ نجَاحَ الطير طائرَه فى عُنُقه ؛ فشكر الله إحسانَ مولانا الذى ألْحَفَ الأملَ جَناحه ، والقصـدَ نجَاحه ؛ وبِرَّه الذى أحمَدَ فى سوانح الطيرِ وبوَارِحه مَسَاءه وصَبَاحه ؛ وعلمَ ما أشارَ مولانا إليـه فى أمر فلان وأمْرُه علم الله تعـالىٰ فى الخاطِرِ حاضر ، وما يؤخِّرُ شُـغْلَه عن إهمالٍ وعائبُ الإمْهال غادر ؛ وما أشار إليـه فى أمْر فلان أمير شكَاره وأمير شكر المملوك ، وتقدّمَ بخَلاص حقِّه ، وٱستنزل بهدِيَّته قضاءَ الشُّغْل من أُفُقه ؛ لابَرِح مولانا ممتَثَلَ الأوامِر ، هامِىَ سُحُب البِرِّ الهَوَامر ، مجدِّدا فى كل وقْتٍ نُعْمىٰ ، مالئاً بهداياه قلُوبَ(١) محبِّيه وبيُوتَهم شَحْما ولحَمْا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله جواب فى وُصُول طُيُور العَقْعَق :

لا زالتْ متَّصـلةً مِنَنُ إرفاِ ها وإرْفاقِهـا ، نازلةً علىٰ حُكْمها [الأشـياءُ] حتّى الطَّيْرُ العاقَّة من آفاقِها ؛ خافقةً أعلامُ نصرها بالأجنحة مؤمِّنةً لظُنُون القاصدين من

(١) لعل المناسب « بطون » .

إخْفاقِها، تقبيلَ مُطْلِقِ لسانَ الحمدِ علىٰ عوائدِ إطْلاقِها ، مُجْتَنٍ لثَمَرات الإحسان من غُصُونِ أقلامِها وغُضُون أوْراقِها .

ويُنْهِى وُرُودَ مشرِّف مولانا العالى علىٰ يَدِ الولد فلانٍ فوقَفَ المملوكُ عليـه ، وعلم من جميل الاْحتفالِ ماأشار إليه ، وأنه موقِّع علىٰ المقْصود من طُيور العقْعق فأوقعها من مَطَارها ، وٱستنزلهـا من أوكار أُفقِها وأُفُق أوْكارِها ، وأرسلَها قرينَ مشرِّفه الكريم ، وقلدعُنُقَ الأمل بعِقْدها النَّظِيم ، ووصلتْ سبعةً كعَدَد أيام الجُمُعة الكامله ، والكواكِبِ المـائله ، والسَّمٰواتِ لاجَرَمَ أن سُحُبَ يُمْنِها هامله ، حسـنةَ الشَّكْل الموصوف والوَصْـف و إن كان مع عُقُوقه المألُوف ، طائعةً لأوامر توقيعه فمـاعَقَّ منها شيءٌ غير تضَعُّف ٱسمِها المَعْروف ، لابرِحَ إحسانُ مولانا متنوِّعا ، وبِرُّه الجزيلُ متَبَرِّعا ، وغُصنُ قلمه بأنواع المكارِمِ متفرِّعا .

وله جواب بوصول تِمَـاتٍ ، و إوزٍّ صِينِيٍّ ، وطلبِ إمرةِ عشرة :

حمىٰ اللهُ تلك النِّعمةَ من الغِـيَر ، وأطلَعها عليه بأيْمن الغُرَر ، ولا بَرِح طائرُمَنِّـه كوصفه أبيضَ الخُبْر والخَبَر . هذه المفاوضةُ إلىٰ الجناب الكريم تُهْدى إليه سـلامًا يَشُوق الصَّـبَاح ، وثناءً خَفَّاق الجَنَاح ، وتُوَضِّح لعلمه الكريم ورُودَ مكاتبتـه الكريمة جميلةَ الفَوائد ، جليلةَ المَصَايد ، تِمِّيَّة البُدُور المتناوَلةِ من مَنَال الفَراقِد ، فوقفْنا بالأشواق عليها ، وعطَفْنا علىٰ العادة بتأكيد الوَلَاءِ إليها ، ووصلتْ تلك التِّمَّاتُ واضحةَ الأنوار ، لائحةً كبياض النُّوَّار ، تامَّة تمـامَ مِيقاتِ مُوسىٰ عليه السلام إلا أنَّها لبياضِها كأربعينَ نهار ، وكذلك البَطُّ الصِّينىّ كأيَّام الحجِّ عشرةٌ كامله ، مفترَضا علىٰ عَشَرتها ولاءُ القلوب المتأمِّلة الآمِلَه ، صـينيَّةٌ مملوءةٌ بمَحاسن الألوان التى هى بغير مَثَـل ماثله ، وحصل الاْعتدادُ ببِرِّه ، والاْزدياد لحمده وشُكْره ، وفهِمْنا ماذكره من إمرة العَشَرة التى ٱنحلَّت

عن فلان، وقد طالَعْنا بأمرها، وعجَّلنا بذِكْرِها، ونرجُو أن يعَجِّل بأمانِيِّها المنتظَره، وأن يقابلَ بخَوافِقِ أعلامها خَوافِقُ بَطِّـه فتقابلَ عشَرةٌ بعَشَره، والله تعـالىٰ يعجِّل لَمَعاليه الصُّعود، ويؤكِّد لَمَساعيه السُّعُود، إن شاء الله تعالىٰ .

الأجوبة عن وصول الصُّيود ولحومها

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ نائبِ حلَبَ بوصول [لحم] طير صـيد قَديد وصحبته بِطِّيخ أخضرُ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَةَ . وهو بعد الألقاب :

لازالتْ تُقتَنَصُ المحامدُ بعَطاياه المكرَّره، وأوابِدُ الصـيْد برَماياه المُقْتَرة، ورِقابُ الإنس والوَحْش : إمَّا بسهام نِعَمه المتواتِرة، وإمَّا بسِهام قِسِيِّه المُوتَّره، ولا بَرِحتْ نَفَحَات مكارمه، تشهَدُ أنَّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغزال، وسَرَحات عزائِمه، تمتدّ فى صَيْد الوَحْش لقِرىٰ نَزِيل أو فى صيد الأعداء لتقرير نَزال، تقبيلًا تنعطف أجيادُ الظِّباء لمحاولةِ عُقُوده، وتزدَحِمُ أفواهُ الأولياء علىٰ مشافهة وُرُوده .

ويُنْهِى بعد وَلَاءٍ تقومُ الخواطرُ الكريمةُ فى دَعْواه مقامَ شُهوده، وشوقٍ لا تزال النَّسَماتُ الشَّماليَّة قاضـيةً باستمرارِ وُفُوده ـ أنّ مشرِّف مولانا الكريمَ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يد فلان وصُحبَتَه الإنعامُ المتجدّد، وإن كان قديمـا فى المعنىٰ، واللحم القـديد، وإن كان أطرىٰ من الروض النَّضير حُسْنا، والسَّمين المحبوب وإن كان كحال عِداه الذين تُقدَّد جسومهـم فى الحياة قبل الممـات حُزْنا، فقابل المملوكُ المشرِّفَ الكريمَ، بتقبيل أحْرُفه، والإنعامَ العميم، بقَبُول مُسْعده ومُسْعِفه، وعانقَهما بجَوانح آماله، وأخذ الكتّابَ والبِرَّ كما يقال بيمينـه وشِمـاله، فيالهَـا من ظباءٍ تُعْشَـق وإن بليَتْ محاسنُها، وغِزلانٍ تُغازَل وإن بادَتْ عيونُها إلا أنه ماباد حُبُّ من يعاينُها، وصُيودٍ تُوصَف وإن قصدَتْها قِصَـدُ السِّهام بطَعْن، ويُتَّقى بقُرونها القتالُ والقسىُّ تاليـة :

﴿كَمْ أهلَكْنَا من قَبْلِهِم مِنْ قَرْنٍ﴾ . سلكَتْ خيولُ مولانا لقَنْصها المَصَاعِبَ وآتَّخَـذها الآ كِلُون سَهْلا ، وتَصَـيَّدَها من الفَلاة وآصطادَها القاعدُون من المِقْلَىٰ ؛ ووصلَ معه البِطِّيخ الأخضرُ فشبهه بثِمار الجنة المشبَّهُون ؛ وقيل : هكذا ترتيبُ مآ كِلِ الجنةِ لهم فيهـا فا كهةٌ ولحمُ طيْرٍ ممـا يَشْتَهُون ؛ لا زالت مِنَنُ مولانا مشرُوحةً مشْرُوعه ، وثمراتُ نِعَمِه من الدنيا كثمَرات أهلِ الجنـة غيرَ مقْطوعة ولا ممنُوعه ؛ بمنِّه وكَرَمه .

أجوبة هَدَايا الفَوَاكه وما فى معناها

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

جوابُ وُصول مشْمِش لُؤْلُؤِىّ ودَغْمِيشِىّ من حَمَـاة .

بَسطَ الله ظِلَّها ونَدَاها ، وأطلع باليُمْن نُجومَ هديتِّها وهُـدَاها ؛ ولا زالتْ مواهِبُ بحرِها لُؤْلُؤِيَّه ، وشواهد يُمْنِها كَوْكبِيّه ، وثمراتُ جُودها فضِّيةَ الأعيان ذَهبِيّه ، تقبيلًا حلَتْ مواقعه ، وجلَّت مَطالِعُه .

وينهى بعـد ولاءٍ وحمدٍ : هذا قد ثَبَتَتْ فى القلب شريعتُـه وهـذا قد عذُبَتْ فى السمع مشارعه ، أنَّ مشرِّفـة مولانا الكريمَةَ وردَتْ علىٰ المملوك تتضمَّن الحُسن والإحْسان ، ويَمِينَ الْبِرّ الشامل لكلّ إنسـان ؛ وعَهْدَ المحبَّةِ التى حكمتْ فيـه بعِلْمها القلوب فما تحتاج إلىٰ بَيِّنةٍ لِسان ؛ فقابلها المملوكُ مقبِّلا ، وآستجْلىٰ وجهَ الوُدّ والإحسان مُقْبِلا ؛ ووصل المِشْمِشُ الذى شفىٰ لُؤْلُؤِيُّه نظَرَ الناظرين ، ونوعُه الآخَرُ الدغميشى الذى هو الشهد بحسنه ولا يُدَغْمَش باسمه علىٰ الحـاضرين ، فتناوَلَ المملوك عوارِفَ بِرّه المعروفِ والمبتكَر ، وآستضاء نُجومَه المتردِّدةَ مُنْشِدا قولَ المعرّىّ : (كَمْ دُرَرٍ ، وكم يُدْرَنَ هـٰذه الأُكَر) ، وقال : شكَرَ اللهُ هـذه المِنَنَ الحُلْوَةَ الثمرات ، المتَّصـلةَ

الخَطَرات ، وهذه المَجَانِى التى طابَتْ أصولُها وفروعُها فلا أبعَدَهنّ اللهُ من شَجرات ، وحَيًّا حماةَ وما جلَبت ، وجَنَبَاتِ ذٰلك الوادى وما أنجبَتْ ، وحدائقَ ذٰلك العاصى الذى أطاع ببركة مولانا فأنبت أحْلىٰ وأحَلّ ما نبَتْ ، وقد جهّز المملوكُ هذه الخدمة منْطوِيةً علىٰ وظائف الحمدِ المُستَجاده ، ولطائفِ الحُبِّ المستفاده ، وحَمْد المِنَنِ التى لاتزال من مولانا عادَة ومن المحبِّين شَهادَه . لابرِحتْ يدُ مولانا الكريمةُ إن بُسطت فبِعوائد إنْعامها ، وإن قُبِضتْ فعلىٰ سُيوفِها لمَصَالح الدُّول وأقلامِها ، وإن زهتْ(١) فروع المكارم ، تساقطتْ ثمراتُ بِرِّها من زَهَرات أكمامِها .

جواب بوصول مِشْمِش وبِطِّيخ حلَبِىّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة .

ويُنْهِى بعد ولاءٍ وثناءٍ : لهذا فى الأسماع أزهىٰ وأزهَرُ ثَمَره ، ولهذا فى القلُوب أرْسىٰ وأرسَخُ شَجَره ـ وُرودَ المشرِّف الكريم علىٰ يدِ فلان بما مَلأَ السَّمْعَ من أخبار مولانا المرتقَبة سُرورا ، والعينَ من آثارِ يدِه الكريمةِ نُورا ، والفَمَ من هَدَايَا المشمِش الحَمَوىِّ كُئُوس لَذّة كان مِزاجُها كافُورا ، فقبَّل المملوكُ أسطُرَه مستحلِياً مَواقِعَ رَشَفَاته ، وقابله بعَوائد المحامد مستَجْلِيًا عوائدَ افتِقاداتِه وصِلَاته ، ومدّ يدَه وفكْرَه فالتقط النُّجومَ المُشْرِقةَ من هَدَاياه وكلماتِه ، وتقلَّد جواهِرَ المَبَرَّات الحسنةِ المُحسَّنه ، والثمراتِ التى جاءت بدْرِيَّةَ القُدُوم وإن كانتْ نُجومِيَّةَ الهيئاتِ المكَوَّنه ، واستَصْوب نتائجَ الغيث فقال : لعَلَّ هذه بنادِقُ قَوْسِ السماء المُلَوَّنة ، وصفَا وطاب ظاهِرُها وقَلْبُها وكذا تكونُ صِفاتُ ذَوِى القلوبِ المُؤْمنه ، والمُؤْمِنُ حَلَوِىٌّ لاجَرَم ، والحَمَوِىُّ علىٰ عَجَمِه الخُراسانِىِّ أوْلىٰ بفَصَاحة الفَخَار والكَرَم ، لا زالتْ فَعَلَاتُ مِنَن مولانا مستَجادَه ، ونِعَمُه لاسيَّما المِشْمِشيَّة مستزاده ، وافتِقاداتُه المشهورةُ لدىٰ مماليكه

(١) لعل الصواب وإن هزت ، كما لايخفى .

ومحبيه منه عادةً ومنهم شَهاده، وجاءتْ فاكهةُ البِطِّيخ الحلبِيِّ وقد رَضَع حَلَب الغَمَام فأنْجَب، وآستوىٰ باطنُه وظاهِرُه فى الحُسْن فأَعْجَبَ من حينَ أعْشَب ؛ وآستطابَ الذوقُ والشمُّ مَطعَمه وأنفاســه، ووُصِف بالرُّءوس فضَمَّه كلُّ متلقٍّ وقَبَّل راسَه ؛ وقال : نِعْمَ الهديَّة السرِيَّه، والفاكهةُ التى طَلَعَتْ حُزَز[ها] هلالِيَّة وثَمرتها بَدْريه .

جوابٌ عن وصول بِطِّيخ حلَبِىّ، من إنشائه أيضا، [وهو] بعد الألقاب :

وشكَرَ سَجَاياه التى عَلَتْ، وهداياهُ التى تكرَّرتْ فحَلَتْ، وآفتقاداته التى طابَ ظاهِرُها وباطنُها فكأنهــا من أخلاقه الجميــلة نُقِلَتْ ؛ أصدرناها تُهدِى إليــه سلامًا يتقدّم كهديته نَسيمُه العاطِر، وثناءً يُنْتِج أطايبَ الثَّمَر مقدِّماتُ غيثِه الماطِرْ، وتُوضِّح لعلمه الكريم أنَّ مكاتبتَه الكريمةَ وردَتْ فحَسُنتْ بالوُدِّ مشافَهتَها، وأقرّتْ فى الأسماع فاكِهتَها ومُفاكَهتَها ؛ ووصل البِطِّيخ فلله درُّ حَلَبــه ودُرُّ جلَبِه، لقد حسُنَت فى مَلاذِّ المَطاعم طريقتُه المرضِــيّه، ولقد أشبه القناديلَ بتكوينه وفتيــلةِ عِرْقه فلا جرمَ أنَّ قناديلَه عند الشُّكْر مُضِيّه، ولقد ملأ خَبَره وخُبْره عينَ البصر وأذُنَ المُصِيخ، ولقد خُلِقَ دواءً للأجسام حتّى صَحَّ قولُ الحَلَبِيين للأرمَد : دَواؤُك البِطِّيخ ؛ فشكَر اللهُ إحسانَ الجناب العالى، وبِرَّه المُتوالِى ؛ وعلىٰ الوَالد والولد ومن عِنْدَهمــا سلامُ المحبِّ المتغالِى، والله تعالىٰ يحفَظُ عليهم من الفَضل ماوَهَب، ويرزُقُهم بغــير حساب ويَرْزُقُ الظنَّ فيهم ماحسِبَ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله أيضا جواب بوصول بِطِّيخ حلبىّ، وهو بعد الالقاب :

وشكَر إحسانَه الذى حلَا مَذَاقُه، وزكَتْ أعراقُه، وحيَّا علىٰ البُعْد تحيّــةً طيّبةً نفَحَتْ بها أزهارُ الكتاب وأثمرَتْ أوراقُه ؛ هــذه المفاوضة تُهدِى إليه سلامًا طيِّبا كهديَّته، وثناءً زاكيًا كطَويّته، وتوضِّح لعلمه الكريم وُرُودَ مكاتبتــه الجامعة حَسَن

الأقوال والأفعال، المطلعةِ بواردِ غَمَامها أطيبَ الثمر فى الحال؛ فأحيَتْ وَلاءً حاشىٰ لوجوده من العَدَم، وجدَّدت عهد البِشر - وما بالعَهْد من قِدَم - ووصل البِطِّيخ الحلَبىُّ أصلُه، الحموىّ فصْلُه، الدِّمَشْقِىُّ ضمُّه وشمُّه وأكلُه، الفلَكىُّ ولا سِيَّما من الأهلَّة المجتمعةِ شَكْلُه؛ فكَرُم مَطْلَعا، وحَسُنَ من الأفواهِ مَوْقعا؛ وعَمّ الحاضرين نَوَالا، وآشتَملهم بعَطْف الإحسان آشتِمالا، وأخذ الغلامُ السِّكِّين:

فقطَّع بالبَرْقِ شَمْسَ الضُّحىٰ * وناولَ كُلَّ هلالٍ هلالَا

لابَلْ أهلَّةً كثَّر تَعْدادَها، وكَرَّر تَرْدادَها، ورَصَد قُرْبَها ولا نقول كما يقول أصحابُ الهيئــة أبْعادَها؛ فشكَر اللهُ إحسانَ الجناب العالى حاضِرًا وغائِبا، وبِرَّه الذى يُطْلِـع كلَّ وقت من هَدَاياه وكُتُبه أهِلَّةً وكَواكِبا، ومَرْباه الذى نقل عن ملوكٍ كانتْ منازلُهم للحامد رَوْضا وكانتْ أيديِهم للكرم سَحائبا؛ إن شاء الله تعالىٰ.

وله جوابٌ بوصول قَصَب سُكَّرٍ وأُتْرُجٍّ وقُلْقاس:

لازالَتْ أوصافُ شِيَمِها، تُطْرب كما يُطْرِب القَصَب، وألطافُ كَرَمها، ممــا يغَذِّى الجســدَ ويُنْعِش الرُّوحَ ويَشْفِى الوَصَب، وأصــنافُ نِعَمِها من الحُلْو إلىٰ الحامض ممــا يُعْدِى الأيدِىَ المتناوِلة فهِى علىٰ الأعداء تَنْتَصِب؛ تقبيــلَ محِبٍّ حلَتْ له المِنَنُ فتناوَلَها، ومواقِعُ اللَّثْم فعاجَ إليها وعاجَلَها.

ويُنْهِى ورُودَ مشرِّف مولانا الكريم، علىٰ يَدِ فلانٍ يتضمَّن الحُسْن والإحْسان، والبِرَّ المأثُور بكلِّ فَمٍ المشكُورَ بكلِّ لسان، فقابله المملوكُ بمــا يجب من الخِدْمة لمثْله، ولاقاه بعوائِدَ تَحْمَدُ عوائدَ فضْــلِه، ووصل قرِينَه الإنعامُ الذى تنوَّع فُنونا وأفنــانا، وملأَ فَمَ الشراب خاناه سُكَّرًا ويدَ المَطْبَخ إحسانا؛ وذكَّر نباتُه الطرابُلُسِىُّ عُهُودَ الديار المِصْريه، وأوقاتَ الأُنس بخِدْمة مولانا السنِيّه؛ سَقْيًا لها من أوقاتٍ وعُهُود، وشُكْرا

لجُود مولانا الذى هو فى كلِّ وادٍ موجُود ؛ ولتدبيره الشمسىِّ الذى احْيا اللهُ به علىٰ عباده عناصرَ هذا الوُجُود، ولا برِحتْ مكارِمُه متنوعه، ونِعَم أياديه متفرِّعه : فمنها ماحَلَا فرعُه فأصبح لكلِّ حُلْو أصلا ؛ ومنها ماطاب رِيحه وطَعْمُه فكان للمؤمن مِثْلا ؛ ومنها مالَذَّ طعامُه الشهِىُّ فما هو مما يُهْجَر وإن كان مما يُقْلىٰ .

وله جواب بوصول باكُورة خِيَار ومُلُوخِيَّة :

لازالتْ تشْرَح بمكارمها الصُّدور، وتفْتَح بركاتِ الأعوامِ والشُّهور، وتمنَحُ من لَطائِفِ مِنَنِها كلَّ جماعةٍ السُّرور، وتلْمَح فى هَدَاياها المستبقةِ إلىٰ الأولياء خيارَ الأمور؛ تقبيلَ مُحِبٍّ لاتُغيِّر ولاءَه الدُّهور، ماشٍ من طريقِ المُصافاة والمُوافاة فى نُورٍ علىٰ نُور .

ويُنْهِى وُرودَ مشرِّفةِ مولانا علىٰ يدِ فلانٍ تتضمَّن المَعْهُودَ من وَلَائه وآلائه ؛ والمشهودَ المشهورَ من إحسانِ نَدَاه قبْلَ نِدائه؛ فقابلها المملوكُ مقابَلةَ الشَّيِّق إلىٰ قُرْب الديار، المُمْضِى فى المحبَّةِ قَلْبَه لمولاه قَبْل شَرْط الخِيار، ووصلتْ لطائفُ هديَّته الخَضِرة النَّضِره، وطَرائفُ الفضل الباكرةُ كمَعانِى اللفظ المبتكره ؛ فتنجَّز المملوكُ الفاكهةَ قبلَ أوانِها البَدِيع، ورصَد من أفلاك العُلَب فى ذى الحِجَّة غُرَّةَ رَبِيع ؛ وتفاءَلَ بالهدِيَّة المجمِّعة الأحباب فى أن يَعُودَ الشَّمْلُ وهو جَمِيع ؛ وقد عاد فلانٌ حاملًا من رسائِلِ الشوق والشُّكر مايُؤدِّيه بينْ أيْدِى مولانا الكريمه، ويجدِّدُ بذكْراه عُهودَ الأُنْسِ القدِيمه؛ لابَرِحَ مولانا سابقَ الكَرَم، مُخْضَرَّ المَرَابع ببِيض النِّعم .

قلت : وكتبت جوابًا لبعض الأصحاب وقد أهدىٰ لى سَمَكا :

أهدىٰ لنَا سَمَكًا قدْ طابَ مَطْعَمُه * أَكْرِمْ به سَمَكًا لم يَسْكُنِ البِرَكا !
لا شَكَّ أنَّ له بالبَحْر شاكلةً * والبَحْرُ عادتُه أنْ يُهْدِىَ السَّمَكا !

الضـــرب الثـانى
(من كُتُب التهـادى الاستِهْداء)

وٱعلم أنَّ كلَّ ما يُكْتَب مع إهدائه قد يُكْتَب مع ٱستِهْدائه، إلا أنَّ الغالب ممـا جَرَتْ به عادةُ الكُتَّاب فى الاِستهداء طلبُ الأشـياء المستظْرَفة الخفيفةِ المِنَّـة دُونَ ما يعظُمُ خَطَرُه، أللهـم إلا أنْ يكونَ الاَستهداءُ من المـلوك ونحوِهم فيطْلَب فيـه ماجلَّ وعظُم .

والذى جرت عادة الكُتَّاب بالكتابة فى ٱستهدائِه علىٰ أصناف :

الصنف الأوّل ــ آلاتُ الكِتابة : من الأدْوِيَة(١) والمِدَاد والأقْلام :

ممـا تقدّم ذكره فى الإهداء .

أبو الفَرَج الببَّغاء فى ٱستهداء دواة :

أنفَسُ الذَّخائرِ وأشرفُ الآمال ما كان للفَضْل نَسَبا، وللصِّناعة والحُظْوة سببًا؛ وبالدُّوِىِّ تجتنىٰ ثمرةُ الصِّناعة، ويحتَلَبُ درُّ الكتابة، وقد أوحَشَ الملوكَ الدَّهْرُ ممـا كنتُ أقْتَنِيه من نفائِسها، وضايَقَه فى وُجود الرِّضِىِّ علىٰ الحقيقةِ منها، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُميطَ ببعض مايستخْدِمه من حالِيها أو عاطِلِها سِمَةَ عُطْلة المملوك، ويَسْمَحَ بإهدائِها إلىٰ أهلِ تصْرِيفه ويقابِلَ بالنُّجح والتقبُّل رغبَتَه، فعل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى ٱستهداءِ مِدَاد :

التَّنـافُسُ ــ أيدكَ الله ــ فى أدَوَات الكتابة وآلاتِ الصِّـناعة بحسَب التَّفـاخُر فى ظُهُور النعمة، والتخيُّر لبيانِ الإمكان والقُدْرة، وإلا فسائرُ الدُّوِىِّ سَوَاءٌ فيما تُصْدِره

---

(١) لعل الصواب من الدوىّ انظر القاموس .

الأقلام عنها ، وتستَمدُّه بُطونُ الكتُب منها؛ وأَوْلىٰ آلاتها بأن تتوفَّر العنايةُ عليـه، وينْصرف التَّخيرُّ بالضَّرُورة إليـه؛ المِدادُ الذى هو ينْبُوعُ الآداب، وعَتَادُ الكُتَّاب، ومادّةُ الأفهام، وشِرْب الأقْلام؛ بجعلها اللهُ بواجب القضيَّة والحُكْم، فى حَيِّز وصْفه من الحمد والذَّم؛ ومازِلْتَ لنفائس الأخْلاق موْطِنا، ولنُجَع الإخْوان فى المَحْلِ مَعْدِنا؛ ولا مَعْدِلَ بى عن ٱسْماحةِ خزائنك عَمَرها اللهُ المُمْكِنَ من جَيِّده، فإن رأيتَ أن تستَنْقِذ دَواتِى من خُمُول العُطْلة ، وتُنَزِّه قلَمِى عن ظمإ الغُلَّة ، وتكْشِفَ عنها سِمةَ النُّقْصان والخَلَّة، فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ .

علىّ بن خلف، فى مثله :

أوْلىٰ ما أنْبسِط فى ٱستِهْدائه، وتسمَحُ [نفسى] فى ٱستِماحتِه وٱستِجْدائِه، ما كان ناقِعًا لغُلَّة الأقلام ، مقيِّـدًا لشَوَارد الأفْهام ، مُحبِّرًا لبرُود البيَان ، حاليًـا فى معَارض الحُسْن والإحسان، وكتبتُ هذه الشَّكْوىٰ أطال الله بقاء سيدى :

الصنف الثـانى ـــ الشَّراب .

فى ٱستهداء مشروب .

أبو الفـــرج الببغاء :

أنا ـ أيدَ اللهُ سيدِّى ـ ومن سامَحَنِي الدَّهْر بزِيارتِه من إخوانى وأوْليائه، عضَّداللهُ جمْعَنا ببقائه، وُقُوف بحيث يَقِف بنا ٱختِيارُه : من القَبُول والآنْبساط، ويرتَضِيه لنا إيثارُه: من الهَمِّ والسُّرور، لأنَّ الأمرَ فى ذٰلك ممـا يُولِيناهُ من المساعدةِ بالمْمكِن من المشْرُوب إليه، والآعتمادَ دُونَ كلِّ أحد فى ٱجتماع شمْلِ المسَرَّة لَنَا بِهِ عليه، فإن رأىٰ أن يَكِلَنِي إلىٰ أوْلىٰ الظَّنيْن به وأحقِّهما بمأثُور فُتُوَّته، فعل .

وله فى مثـــله :

ألطَفُ المِنَن موْضِعا ، وأَجلُّها من الأنفُسِ مَوْقِعا ، ماعَمر أوطان المَسرَّه ، وطَرد عوارِضَ الهَمِّ والفِكْره ، وجمعَ شَمْل المَودَّة والأُلْفــة ، وأدّى إلىٰ آجتناء ثمرةِ اللَّذَّة ؛ وبذَخائِرك من المشْرُوب مع هــذه الأوصاف [ما] يسترِقُّ حُرَّ الشكر، ويُحْرِز قصَبَ السَّبْق إلىٰ الثناءِ وجميــلِ الذِّكْر ؛ فإنْ رأيتَ أن تُنْجِد بالممكن منه مُرُوّتى، علىٰ قضاءِ حقِّ من أوجبَ المنَّةَ علىّ بزِيارتِى، فعلْتَ .

وله فى مثـــله :

مَنْ كان للفضل نَسَبا ، ولفَلَكِ الفُتُوّة قُطْبا ، لم تَفْزَع القلوبُ من الهَمِّ إلّا إليه ، ولم تُعوّلِ الأنفُسُ فى آستِمـاحة المَسارّ إلّا عليــه ؛ وقد طَرقَنِى من إخوانِى مَنْ كان الدَّهرُ يُمـاطِلُنى بزِيارَتِه ، ويَنْفَسُ(١) عَلَىّ بقُرْبه ومُشاهَدتِه ؛ فصادَفنِى من المشْرُوب مُعْسِرا ، ووجدتُ الانْبِساط فى آلتِمـاسه من غيْرِك عَلَىّ متعَــذِّرا ، وإلىٰ تفضُّلك تَفْزَع مُرُوءتى فى الإسعافِ منه بمـا يَلُمُّ شعثَ الأُلْفة، ويجمع شَمْل المَسرَّة؛ ويجعلنا لك فى رِقِّ الاعتدادِ بالمِنَّة، ويقضِى عنى بتفَضُّلك حقُوقَ المودّة .

علىّ بن خلف :

قد آنتظَم لنا ـ أطال الله بقاءَ سيدى ـ مجلسٌ واقِفٌ بينَ النَّشاط والفُتُور، والكآبةِ والسُّرور : لغُرُوب نُجوم الخَمْر عن سَمائه، وعَطَله من حُلِيّ نُورِه ولألائه؛ وقد عوّلْنا فى إطلاقه إلىٰ إحدىٰ الجهتين عليه، وجعَلْنا زِمامَه بيدَيْه، فإن رأىٰ أنْ يُروّحَ أفكارَنا بشىءٍ من راحِه المُشابهةِ عَبَقا وعِتْقا لأخلاقِه وأعْراقه، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى "القاموس" مادة ن ف س « ونفس به كفرح ضن وعليه بخير حسد » .

وله فى مثـــله :

أفضلُ ماأهْدىٰ سيدى ماأهْدىٰ السرُورَ إلىٰ أحِبّته، ونظَمَ شَمْلَ المتحققّين بخِدْمته؛ وحَسَم عنْهـم هوَاجِسَ الفِكْر، وأعْداهم علىٰ الدَّهْر؛ وقد جمَعَنا مجلسٌ وهَبْناه للثناء عليـه، وزُفَّتْ عرائسُ الخمر إليه، فإنْ رأىٰ إيثارَنا بمـا يُكَمِّل نَشاطَنا، ويَتِمُّ ٱنْبِساطَنا، فلْيعْفِرْ همُومَنا بشىءٍ من عُقَاره، وينْظِمْ [جمعَنا] فى سِلْك أياديه ومَبارِه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الرابع
(الشّـــفاعات والعِنَـــايات)

قال فى "موادّ البيان" : وهذه الكتُب إنما تَصْدُر عن ذَوِى الرُّتَب والأخْطار، والمَنازل والأقْدار، الذِينَ يُتوسَّل بجاههم إلىٰ نَيْل المطْلُوب ودَرْك الرغائب .

قال : والملتَمَس فيها ممن تُنَفَّذُ إليه أحدُ ثلاثةِ أنواع : إمَّا بَذْل مالهِ ولا يَبْـذُل مالَهُ إلا ذُو مرُوءة يَفرِض علىٰ نَفْسه حقًّا فيـه لقاصِديه؛ وإما بذْل جاههِ وفى بَذْل الجاه إراقةُ ماء الوجه والتعرُّضُ لموْقِف الرَّدّ؛ وإمَّا الاستِنْزالُ عن سَخِيمةٍ ومَوْجِدة فى النزول عنهما كفُّ حَدّ الغضَب وغضُّ طَرْف الحَنَق، وهما صَعْبان إلَّا علىٰ من فَضَل حِلْمُه، ولَطُف فهْمُه .

ثم قال : والكاتبُ يَحتاجُ إلىٰ التلَطُّف فيهما وإيداعِهما من الخطاب ما يَخْرُج به الشافِعُ عن صُورة المثقِّل علىٰ المشفُوع إليه بماكَلَّفه إيَّاه، ويؤدِّى إلىٰ بلوغ غَرَض المشفُوع له ونجاح مَطْلَبه؛ ثم أتبع ذلك أن قال : وسبيلُ ما كان فى ٱستِماحة المـال، أن يُبْنى علىٰ الإبانة عن مَوْقِع الإفضال، وفضيلة النَّوال؛ وٱغتنامِ فُرَصِ الاقتِدار،

فى مَعُونة الأحْرار ، وما جارىٰ هذا ـ وسبيلُ ما كان منهما فى طلبِ الآنتفاعِ بالجاه أن يُبْنىٰ علىٰ هزِّ الأريحيَّة لاَصطِناع الصَّنائع ، وتحمُّل المَشاقِّ فى تقليدِ المِنَن ، وآدّخارِ الفِعل الحَسَن ، وآغتنامِ الأجر والشُّكْر ـ وسبيل ما كان منهما فى الآستِنْزال عن السَّخائم أن يُبْنىٰ علىٰ الملاطَفَة ، والإشارةِ إلىٰ فضيلة الحِلْم والصَّفْح عن الخاطِئ ، وما فى ذٰلك من حُسْن السُّمْعة فى العاجله ، ومتوفّر المَثُوبة فى الآجله ، ونحو ذٰلك .

وذكر أنَّ أحسن ماقُصِد فى هذا الفَنِّ مَسْلَكَ الإيجاز والآختصار ، وأن يُسْلَك به مَسْلَكَ الرِّقاع القِصَار المجمَله ، لاالكُتبِ الطِّوال المفَصَّله ، وأنْ يُرْجَع فيما يُودَعه إلىٰ قَدْر الشافع والمشفُوع فيه ، والكاتبُ إذا كان مُرتاضا ماهِرا لم يضِلَّ عن تَنْزِيلِ كلِّ شيء [فى] منزلته ، وترتيبه فى مرتبته .

قلتُ : ومن أحسن مايطابِقُ هذا النوعَ مارأيتُه فى بعض المصنَّفات : أنَّ عمرو آبنَ مَسْعدةَ وزيرَ المأمون كتب إلىٰ المأمون فى رُقْعة :

أما بعدُ ، فإنَّ فلانا سألَنِي أنْ أشفَع له إلىٰ أميرِ المؤمنين ، فأخبَرْته أنِّى لم أبْلُغ عند أمير المؤمنين مَبْلَغَ الشَّفاعة ـ فلمَّا وصلَتِ الرُّقعة إلىٰ المأمون وَقَّع عليها بخطِّه : قد فَهِمْنا تصريحَك به وتعْرِيضَك بنَفْسك ، وأَجَبْناك إليهما وأتحَفْناك بهما .

من كلام المتقدمين :

الحسن بن سهل :

كتابى إليْكَ كتابُ معتَنٍ بمن كَتَب له واثِقٍ بمَنْ كَتبَ إليه ، ولن يَضِيعَ حامله بين عنَاية وثِقَةٍ ، والسلام .

أبو الحَسَيْن بن سَعْد :

وقد توجَّه إليك فلانٌ بقَصْدٍ فيهِ مستَجْمِع ، وأملٍ فيما قِبلَك مُنْبَسِط ، وايس بعدَ إصابتك عنده مَوْضِعا وعندَنا متحمَّلا لليَدِ الحسَنَة إلا آفتراضُ ذلك مِنْه ومِنَّا فى أمره علىٰ يُسْرٍ فى حاجتِه ، وتخفيفٍ من مَئُونتِه ؛ فإنْ رأيتَ أنْ تأتِىَ فى ذلك بما يشبه أملَه وظَنَّه ، وتُوجِب عليه الحقَّ به ، ونشكر لك منه مايبقىٰ عندنا ، بأنك بحيثُ تأتى الفضل وتتوخّى الصِّلَة ؛ [فعلت] إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : معْرفتى بأنك لا تتجاوَزُ فى العُقُوبة سبيلَها من مَوَاقع الأدب ، تَحْمِلنى علىٰ مُسـاءَلتِك ماأنت مُوجِبٌ له والذِّكْرىٰ تنفَعُ المُؤْمِنـين ، ولولا ذٰلك لآسـتغنىٰ صاحبُ كتابى عنه ؛ فإن كان ذَنْبُه صغيرا فالصغيرُ يُخْرِجه من حَبْسه ، وإنْ كان كبيرا فالعفو يسَعُه . وكتابى متقاضٍ لك تقديمَ العَفْو علىٰ العُقُوبة ، والحسنةِ علىٰ السيِّئة ، والآستصلاحِ علىٰ القُوّة فى التأديب .

طِفَال بن شَـــبَّة :

وأحقُّ من يَعْطِف علىٰ أهلِ البُيوتات ، ويجُودُ لهم بمـا يَبْقىٰ ذكْره ، ويَحْسُن به ذُخْره ، مثْلُك ؛ وقد وجَّهت إليكَ فلانا ، وهو من ذَوى قَراباتى ، وذَوِى الهيئة من أُسْرتى ، وعَرَّضْته لمعْروفك ، وأحببْتُ أن تُلْبِسه نعمتَك وتَصْرِفَه إلىّ وقد أودعْتَنى وإيَّاه ماتجِدُه باقيًا علىٰ البِشر(١) الجميل فى الغَيْب والحَضَر .

ولغـــيره :

وقدجعلكَ اللهُ غِياثاً ، وجعل عِنْدكَ لمؤمِّليك وراجى رِفْدك ، أبلغَ ذَرِيعةٍ من كرمك وفَضْلك ؛ وقد أصـبحْتَ مفْزَعَ كلِّ ذى هَمٍّ ، ومَلْجأَ كلِّ ذِى أرَبٍ ، وموضِعَ كلِّ أمل ، وأصبحتَ ملتقىٰ السُّبُل ، ومجمعَ الأصناف المختلفةِ ، والطوائفِ المتصرِّفة .

(١) لعله على نشر الجميل الخ .

أبو مسلم محمد بن بحر :

قد شَهَّرتَنِي باصطناعك [حتّى] تكافأَ فى معرفة خبرها أهلُ بُلْدان المَشْرِق والمَغْرِب . والذين عرفُونى فصديقى منهم مُغتبِط بذٰلك لِى ، وشرِيكٌ فى النعمةِ به عَلَىَّ ، وقوِىُّ الظهر بما مَنَحَنِيه اللهُ من رَأْيك ؛ وإذا نابتْ بعضَهم نائبةٌ يرجُوك لِكَشْفها ولم يَكُنْ له إليك طريقٌ يُدْنِيه ولا حرمةٌ تقربه وتَعْطِفك عليه ، سألنى الشفاعةَ له إليك ؛ ففعلْتُ ذٰلك مُدِلًّا بما أعتقده من الشُّكْر علىٰ نعمتك عِنْدى ، والإخلاص فى طاعتِك المفروضةِ علىّ ؛ واثقًا بتَسْويغك إياىَّ مارُقِّيتُ إليه من درجة الشافع لغيره ، والسائل (؟) فى طريقه وذَوِى الحقِّ عليه : لتكونَ قد أكملْتَ علىّ النِّعمةَ ، ووَكَّدت لَدَىّ العارِفة ، وٱستَمَمْت عندِى الصَّنيعة .

أبو الخَطَّاب بن الصابى :

أبْسطُ الشفاعة وَجْها ، وأقربُها نُجْحا ، وأوْقَعُها فى القلوب ، وأسرَعُها إلىٰ القَبُول ، ماوقَعَ من أقسام ثلاثة : من إدلال السائِل بحُسْن الظنّ ، وٱرتياح المسْئول إلىٰ فعل الخَيْر ، وٱستحقاقِ المسئول فيه لقَضاء الحقّ ؛ فإذا ٱجتمع لها ذٰلك كانت الثِّقةُ بها زائده ، والفُتُوّة لها رائده ، والفضلُ عليها قائما ، والنُّجْح بهاقادِما ؛ وكان الشُّكْر من أقلّ موجُوداتها ، والمِنَّةُ من أجَلّ مَذْخُوراتها .

وله : إنْ دَلَّ الملوك فبِصِدْق المودّة ، أو عَوَّل فعلى حُسْن النيَّة ، أو ٱستظهر فبقديم الحُرْمة ، أو ٱستنْصَر فبكريم الرِّعاية ، ووراءَ ذٰلك هِمَّةٌ من مولانا بعيدةُ المَرامِى ، طويلةُ المساعى ، شامخةُ الأَنْف ، سابقةُ الطَّرْف ، تُوجد الآمال سِراحا ، وتُوسِعُها نَجَاحا ، وتأخُذُها خِماصا ، وتَرُدُّها بِطانا ، وتُورِدُها هِزالا وتُصْدِرها سِمَانا (١) ؛ وثِقةٌ منّى

(١) لم يرد هذا الجمع فى كتب اللغة التى بأيدينا والقياس على بطان وسمان لايأباه .

قد أحكم عَقْدَها الزَّمان، وأوثق شَدَّها الآمتِحان، فصارتْ لأعراض المملوك رائِده، وفى قُوّة نَفْســه زائده؛ فالمملوكُ من آجتماع هذه الأقْسام، ووُجُوب ماتقتضِــيه من الأحكام، بين ظَنٍّ جميلٍ لامجالَ للشكِّ عليه، ويقينٍ صحيح لاوُصولَ للآرتياب إليه .

آخــــر : ولئن كانَ المملوكُ أسْرف فى مَجارِى التثقيل علىٰ مولانا ، فإنَّ المملوك لم يردّ بعضا من دواعى الأمل فيه، فإنَّ المظنونَ من فُتُوّة مولانا رائدُ الثِّقة بجميلِ نيّته، ولن يعدَمَ النجاحَ من آعتمدَ علىٰ الفُتوّة والثِّقة .

آخــــر : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ إن أدَلَّ، فبحقٍّ لدىٰ مولانا أكَّده، أو آسترْسَل، فبفضْلٍ منه عَوَّده، وبين الدالَّة من المملوك والعادة من مولانا موضِعٌ لنَجَاح الحاجة، وبلوغِ الإفادة، وقد فعــل المملوكُ ماتعلَّق به واثقًا بالكرم من مولانا؛ فليَفْعَل مولانا مايتعلَّق به محقِّقا للأمَل فيه .

اخــــر : وينهى أنَّ المملوك إن آنْبَســط، فمُدِلٌّ بالحرمة الوكيدة ، ومعوِّل علىٰ النية الكريمة، أو آنقبض، فلهَيْبة الإقدامِ علىٰ مولانا ومُراعاةِ التخفيف عنه، ولفضله فيما بين ذٰلك مَسْلَك وغلبة تسلُّطٍ يَدْعُوان إلىٰ حُسْن الظن بمولانا، ويُوثِّقان من وُجُود النجاح لديْه .

آخــــر : بذْلُ الجـاه فى إعانةِ الضـعيف ، وإغاثة الملْهُوف ، والترويح عن المضْغُوط، والتفريج عن المَكْروب المكْدود، كبَذْل المـال فى إسعاف المُعْسر، وإسعاد المُقْتر، ومُواساةِ المحروم، والتعطُّف علىٰ المَرْحوم، وما فى الحالتين إلّا ماالدِّيانةُ له ضامِنه، والمُروءة له قائمة، والحقُّ به مستوْجَب، والأجرُ به مكتَسَب، والصنيعةُ به معتَقَده، والمَثُوبة به مُدَّخَره .

آخـــر : وينهى أنّ حُرْمة الجوار من أوْجب الحُرُمات حقّا، وأحكَمِها عقْدا، وأخَصِّها بالعِنايه، وأحَقِّها بالرِّعايه، وما رَعَاها إلا ذُو قَـدْرٍ عظيم، وخُلُقٍ كريم، وأصلٍ عرِيق، وعَهْدٍ وَثِيق. وفلان ممن يَضْرِب بدَالَّتها، ويَمُتُّ بوسِيلتِها، ويَتَخَفَّر بذِمّتها، ويتعلَّق بعِصْمتِها، ويعتدّها وَزَرا مانعا، وذُخْرا نافعا، وعُدّةً موجودةً عند الحاجة؛ وله أمْرٌ يذكره مشافَهَة، فإن رأىٰ مولانا أن يحقّق من ظَنّه ما كان جميلا، ويصـدّقَ من أمله ما كان فَضْلُ مولانا إليـه سَبِيلا، فهو المعهُود من إحسانه، والمؤمَّل من فَضْله.

آخـــر : مَنْ سافَر إلىٰ سـيِّدى بأمله ورَغْبتـه، ومَتَّ إلىٰ حضرته بوِفَادتِه وهِجْرته، فقد ٱستغنىٰ عن الشافع، وكُفِيَ أمْرَ الوسائِل والذّرائع؛ وحاملُ كتابِي هذا قد تجشَّم القُدُومَ إليه، وتمسَّك بذِمام(١) الوِفَادةِ عليه؛ مع ما يتَحَقَّقُ به من حَقِّ المشاركة فى الصِّناعة، ويستوجبُه بفضيلة الكِفَاية والأمانة؛ وإنّما أصدر المملوكُ هذه الخدمةَ علىٰ يده ممهِّدة لأُنْسه، ومقَوِّيةً لنفْسـه؛ وإذا مَثَل بحضرتِه، ونظَره بعَيْن نَبَاهته؛ فقد غَنِيَ عن الشفاعة وبلَغ الإرادة.

آخـــر : ويُنْهِى أنَّ مايفْرِضه مولانا لمن أمَّه بالرجاء، ومَتَّ له بإخلاص الحمد والثناء: من إدْرار أَخْلاف الإفضال، وتحقيق الرَّغَبات والآمال، يُغْنِي قاصـدِيه عن الشَّفاعات والوسائل، ويكفى آمليه تحمُّلَ الذّرائع والمَسائِل؛ والواصلُ إليه بهذه الرُّقْعـة فلانٌ؛ ومولانا يعرِف حقَّه علىٰ المملوك وماله من المَواتِّ لديه؛ وقد توجَّه إلىٰ حضرته، راجيًا أن يُلْحِفه من ظلِّ سـعادتِه مايتكفَّل بمصلحته، ويقضى علىٰ الزمن بإعْدائه ومعُونته؛ ومولانا أحقُّ من تولّاه بحسن خلافتِه فيه، والتفضُّل علىٰ المملوك بتحقيق ما يُرجِّيه.

(١) الذمام بالذال المعجمة الحق والحرمة.

آخر فى معتقل : عِلْمُ المملوكِ بأنَّ مولانا لا يتعدّى فى العِقاب موضِعَ الإصلاح والتأديب ، ولا يتجاوَزُ فى الغَضب موقِعَ التقْوِيم والتهذيب ؛ عملًا بالعَدْل ، وتمسُّكا بالفضــل ؛ يبعَثُــه علىٰ تنبيهِه لمــا أغفَله ، وآنقيادِه لمــا أَصَّــله ؛ وفلانٌ قد تطاوَلَ آعتقالُه : فإن كان جُرْمه صغيرًا فقد ظُلِم فى القِصاص ، وإن كان كبيرًا فقد آستحقّ الخَلَاص ؛ والمسئُول من إحسانه أنْ يُعاوِدَ جميــل عادتِه ، ويُراجِعَ كريمَ شيمتِــه ؛ فيَعْمَلَ فى أمره بالعَدْل ، إذا لم يَرَه أهْلا للفضْــل ؛ وإنْ كانت حقوقُه متأكِّده ، وحرمته مؤكده ؛ فلا يحسن أن يُضاعَ ويُخْفَر ، ولاينبغى أن يُجْحَد ويُنْكَر ؛ وهو حَرِىٌّ أن يحَقِّق الظنَّ فيه ، ويقابل هذا السُّؤال بمــا يقْتضيه .

آخـــر : علىٰ حَسَب أخطار الودائع يكونُ الإشفاقُ عليها ، والشكر ممن صرف رعايَتَــه إليها ؛ وقد كان المملوكُ أودَعَ كَنَفَ مُروءَته ، وفِناءَ همَّته ، فلان ؛ وهو دُرَّة المَحَاسن الفريده ، ونادِرةُ الدَّهْر الشريده ؛ والجامعُ لأسبابِ المَحامِدِ بفضائله ومَناقِبه ، والناظمُ لِنثَار المآثر بخُلُقه وأَدَبه ؛ مع ماخُصَّ به من المعرفة بقَدْر الصنيعة ، والتعويض بالشُّكرِ عن قليــل العارفة ؛ والمملوك يرجُو أن يكونَ مولانا قد أحسَن خِلافَتَه فيه ، ونَزَّله من حياطتِه وتولِّيه ، بما يُوجبه مكانُه من المملوك ويقتضيه ؛ متعوّضا من شكر المملوك وشُكْره بمــا هو خليقٌ أن يطَوّق أجيادَ معَاليه ، وينتظِمَ فى سِلْك مَساعيه .

رقعـــة ـــ وينْهِى أن الأيَّام ، إذا قعدَتْ بالكِرام ، فأنزلتْهم بعد السَّعة ضيقا ، أوجَدَتْهم إلىٰ التثقيل علىٰ من يمُتُّون إليه بسالف الخِدْمة طَرِيقا ؛ وممن تحَدَّاه الزمن بنَكَده ، وعوَّضه ببُؤسِــه من رَغَده ، فلان ؛ وكان قد فَزِع إلىٰ جماعة من الخُلَّان ، واثقًا منهم بالآمتنان والإحسان ، فألفىٰ وَعْدا جميــلا ، ومَطْلا طويلا ؛ فعدَل عنهم

إلىٰ سيدى وعزل عَنْهم إليه، وتوجّه إليه معتمدًا بعد الله فى مَقْصده عليه، ثقةً بفَضل غَيْره(١)، وحُسْن أثره، وتحمّل عبوديّةَ المملوك هذه ذريعةً تبْسُط له من مولانا مُحَيّاه، وتوَصّله إلىٰ مايرجُوه من معروفه ونَدَاه . وما أوْلىٰ مولانا بأن يحقّق ظنّ المملوك وظَنّه، ويحوز شُكْره وشُكْره، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعة — وينْهِى أنّ رَغْبة سيدى فى إسْداء المعروف، وغَوْث المَلْهُوف، تبعَثُ علىٰ السّفَر إليه، والتقدُّم بالرَّغَبات عليه؛ والله تعالىٰ يواصل المِنَح لديْه، كما وصَلَها من يديْه؛ وقد سبقتْ له عَوَارِفُ لاينْساها المملوك، ولا يؤمّل جزاءَها إلا بمرفُوع الدعاء، وكريم الثّناء؛ حتّى تقتضى ضَرائرَها، وتستدْعِى نظائِرها، وحاملُ عبوديّتى هذه، فلان؛ والمملوك يَرْضىٰ لمولانا لسانَ شُكْره، كما يَرْضاه لتحمُّل بِرّه؛ وقد رَكَض ظهْرَ الأملِ إلىٰ حَضْرته، ووَثِق ببُلُوغ الوَطَر من جِهَتِه؛ وأن يُنْظَم فى سِلْكِ من أُسْبِغتْ عليه عَوارِفُه، وعمّتْه لطائفُه؛ وعزّز ذلك بآستِصحاب كتاب المملوكِ إلىٰ بابِه، وتقديمِه ذريعةً فى التزامِ حقّه وإيجابِه .

رُقْعة — مَنْ كان سيدى شافِعَه آنْبَسط فى المُنىٰ، ولم يَرْض بغير العُلا؛ وقد علم مولانا أنّ للشّفاعة أحوالًا ثلاثا؛ حالًا تخُصُّ الشافعَ، وحالا تخُصُّ المستشْفع؛ وحالا تخص [المشفُوع إليه](٢) ولكلّ حدّ يجب الآنتهاءُ إليه، ولا يجوز التقصير فيه؛ فعلىٰ المستَشْفِع آرتيادُ أخصَبِ جَنَاب، وأسْكَبِ سَحَاب، وقَصْدُ الجهةِ التى لا تصُدُّ عن البُغْية سائِلا، ولا تردُّ عن الأمَلِ آمِلا، وأن ينْهض بالشُّكر علىٰ العارفه، ويُحَدّث بالنِّعم عنه فى الأحوالِ الطارِفه؛ وعلىٰ الشافعِ أن يُهَريق ماءَ وجْهه فى السُّؤال،

---

(١) غار الرجل يغوره و يغيره نفعه فالمراد بفضل نفعه تأمل .

(٢) فى الاصل الشفيع وهو غير مناسب .

ويجرِّدَ رَغْبَته فى تسهيل المَنَـال ، ويعتقدَ أنَّ ذلك من الدَّين المقتَرَض، والدِّين المفْتَرَض ؛ ويتكفَّلَ بالقيام بمـا يستَدْعى منه من المكافاه ، ويُلْتَمَس من العوض والمجازاه . وعلىٰ المشفُوع إليه أن يعْلم أنَّ الشافعَ والمستَشْفِع ما قصَدَاه إلَّا بعدَ الثِّقة بأحَدِيَّتِـه ، ولا آعتمَداه إلَّا بعـد السُّكون إلىٰ أرْيَحِيَّتِـه ؛ وأنه لاينبَغِى أن يُخْسر مَتْجَرهما ، ولا يُضِيع سَفَرهمـا ، وقد آجتمعتْ هـذه الأحوالُ الثلاثُ للرئيس المشفُوع إليه ، ولسيِّدى الشافع ، ولخادمه المستَشْفِع به ؛ ولم يبقَ إلا عَزْمةٌ منه تَهُزُّ أفنانَ الإقبال فتَسَّاقطُ أثمـارُها ، وتُنْشِئُ عَوارِضَ الآمالِ فيَتَهافتُ قِطارُها .

أبو الفـــرج الببغاء :

ومُوصِّل كتَابِى هـذا غَنِىٌّ عن شفاعتى له بمـا يَمُتُّ من حُرُمات الرَّغْبـة إليك ، والوقُوفِ دُونَ كلِّ مَقْصِدٍ عليك ، وبما يَشْفَع ذلك من التقدُّم فى الصِّناعة ، والتوصُّل بوجِيه الكفاية ؛ وإنمـا زوّدْتُه هذه الأحْرُفَ لأفْتَح له باب الأَنَسة ، وأُسَهِّل السُّبُل إلىٰ التعلُّق بالخُلَّة ؛ وأدُلَّ بها علىٰ ما تكْشِف منه المُطاوَلة والخِبرة ؛ وأنتَ أيَّدك الله ولِىُّ التطوُّل بالتقدّم فى إيناسِه وبَسْطِه فى الخِدْمة بمـا يستَزِيد له محمودَ الأثَر فيها من حُسْن النظَر وجميلِ الرأْى .

وله فى مثـــله :

ومُوصِّل كتَابى فيما يؤَمِّله منك ويبلُغه بك متمَسِّكٌ من رجائِك بأوكَدِ ذمَّه ، ومن شفاعَتِى بأوجَبِ حُرْمه ، ومهما مَتَّ به بعدَ ذلك من ظهُورِ كِفَاية أو تقدُّم فى صناعةٍ كان غيْرَ ضائع عنـد رِعايَتِك ، ولا مجهولٍ مع تيقُّظ عِنَايتك ؛ وأرجو أن يَحُلَّ من تقبُّلك ، بحيث أحَلَّه حسْنُ النظر تطَوُّلك .

وله فى مثـــله :

وفى عِلمك ماآخُذ به نفْسى ، وأَرُوض به أخلاقِى : من الاِنقبـاضِ عن التسَرُّع إلىٰ مسألةٍ ، والاحتشام من الانبساط فى حاجةٍ ، مادَلَّك علىٰ موضع فلانٍ ومكانِه من إيثارى بواجباتِ حُقُوقه، وسالفِ مَوَاتِّه ؛ ولذلك سمحْتُ بالكتاب له إليك ؛ وفارقْتُ رَسْمى بالتثقيل فى قَضاء حقِّه عليـك ؛ وقد قصـد نَحْوَك بأمله ، واختارك لَرجائه ؛ وقدّرَ بك بلُوغَ البُغْية ، واختصر بشـفاعَتِى إلىٰ تفضُّلك السبيلَ إلىٰ إدراك المحبَّـــة (١) ؛ فإنْ رأيت أن تأتِىَ فى بابه مايُشْـبِه فضلَكَ ، ويُناسِب وَكيدَ ثِقَتِه بك ؛ وأنى أشْرَكُه فى الشكر وأساهِمُه فى الاعتداد، فعلتَ .

آخـــر :

رأَيْتُ المَساكِينَ قد أجْمَعُوا * علىٰ أنَّكَ الوَزَرُ المعتَمَد !
فأنْتَ لِطِفْلِهِـمُ والِـــدٌ * وأنْتَ لشَيْخِهِمُ كالوَلَد !

السلامُ العَمِيمُ ورحمةُ الله و بركاتُه علىٰ مَنْ جعله اللهُ للمساكينِ ظِلًّا يَقِيهم ، وطَلًّا يَسْقِيهم ، ونِعمةً تعُمُّهم ، ورحمةً تضُمُّهم ؛ أبوفلان ، أبقاه الله فى عِزَّةٍ تالدةٍ طارِفه ، وسعادةٍ لاتَزال طارقةً بكلِّ عارِفه .

مَنْ أقامه اللهُ مُقَامَك أيُّها الشيخُ المبرور بالترفُّق بالفُقَراء ، والإحسانِ إلىٰ الضُّعفاء ، لم يَعْدَمْ مَرِيضا يقْصِدُه فى الشِّفاء ، ولا يَعْدَم قَيْضا يعتَمِده للاكتفاء ، لاسيَّما إذا توسَّل وَحْده ، وتشَفَّع بمن لايَضِيع عملُ عامِلٍ عِنْده ، ومتحمِّلُها فلان قَصَّ الفقْرُ جَناحَه ، وأخنىٰ عليه الدَّهْرُ واجْتاحَه ؛ ولما رأىٰ الفُقَراء ببِرِّكم مرتفِقين ، وعلىٰ

---

(١) لعله الطَّلِبـــه .

شكركم متَّفقين ؛ أمَّكم حَسَنَ الظنّ بالمَنّ ،ولم يُقَدِّم شفيعًا دُنيويًا ، ولا طريقًا واضحا سَوِيًّا ؛ وأنتم أيُّها الشيخُ الموقَّر تُنْزِلونه مَنْزلة سِواه ، ممَّن ثوَىٰ مَثْواه ؛ ونَوىٰ فيكم من الأجْرِ والشُّكْر مانَوَاه ؛ إنْ شاء الله تعالىٰ ، والسلام الكريمُ العميمُ ، يَخصُّ جنابكم ورحمةُ الله وبركاتُه :

فاللهُ سُبْحانَه يُبْقِيــكَ فى دَعَةٍ * وحُسْنِ حالٍ وتيْسيرٍ وإقْبالِ !

مُقَــدَّم المجــد فى عِزٍّ وفى كَرَم * مؤَمَّل النَّفْع من جاهٍ ومن مالِ !

الشفاعات من كلام المتأخريـــن :

الشيخُ شهاب الدين محمود الحلبى :

شـــفاعةٌ فى آستــتخدامِ كاتبِ دَرْج :

جعلَ اللهُ تعالىٰ دُورَه رَحْبَة العِراص ، وسعادَتَه فى الازدياد وأعادِيَه فى الانْتِقاص ؛ والدعاءَ لإحسانه مقرونًا بِصِدْق النيَّة والإخْلاص :

وهــذا دعاءٌ لو سكتُّ كُفِيتُه * فإنِّى سألْتُ اللهَ فِيكَ وقَدْ فَعَلْ !

صدرَتْ هذه الخِدْمةُ تستَمْطِر سَحابَ كَرَمه ، وهامِيَ دِيَمِه ، وتسألُ جميلَ شِيَمِه ، فى معْنىٰ مملوكِ المَوْلىٰ وداعِيه ، والشاكرِ لأيَادِيه ، والمُلازم علىٰ رِوايةِ أخبارِ فضائله وبَثِّها ؛ ونَشْرِ تفضُّــلاته وبَثِّها ؛ فإنَّه من بيتٍ كريمِ النِّجار ، زائدِ الفَخَار ؛ وله علىٰ مولانا حَقُّ خِدْمة ؛ وهو يمُتُّ بسالف مَعْرفة ؛ ومحبةُ المملوكِ له شَديده ، والصُّحبةُ بينهما قديمةٌ وشُقَّة المَودّة جَديده ؛ ولولا ذٰلك ماتَقَّل علىٰ خِدْمته ، وتهجَّم علىٰ المولىٰ بمكاتَبتِه ، وقد توجَّه إلىٰ بابه العالى مُهاجِرا ، وناداه لسانُ جُوده فلبَّاه وأجابه مبادرا ؛ وغرضُه أن يكونَ كاتبًا بين يدَيْه ، ومملوكًا تقع عينُ العِناية عليــه ؛ وهو من الكِرَام

الكاتبين، والراغِبين فى الآنتظام فى سِلْك خَدَمه والمُؤْثِرين، وصِفاتُه بالجميل موصُوفه، وفَصاحتُه معرُوفه، وقلَمُه الذى يَقْلِمُ ظُفُر المهمَّات ويكُفُّ كَفَّ الحَدَثان، ولسانُه الذى يُغْنِى بشَباتِه عن حَدِّ السِّنان، ورأيُه المقـدَّمُ فى الهَيْجاء على شجاعة الشُّجْعان؛ فإذا أنعَمَ المولىٰ باستِخْدامه، وتحقيقِ مَرامه، كانَ قد وضع الشىءَ فى محَلِّه، وصنَع المعروفَ مع أهْـلِه؛ وبيَّض وجهَ المملوك وشـفاعتِه، وصـدَّقَ الأملَ فى إحسانه ومُرُوءته، ورأيه العالى؛ إنْ شاء الله تعالىٰ .

وله شفاعة فى آستِخْدام جُنْدىّ :

لازالَ بِرُّه مطْلُوبا، وجُوده مخْطُوبا؛ وذِكْرُ إحسانه فى الملإ الأعلىٰ مكْتُوبا؛ ولا بَرِحتْ رِياضُ جُوده أزْهَر، وأنْضَر من رَوْض الرُّبا، ويَدُه البيضاءُ ترقُم له فى سَواد القلوب سُطورَ حَمْدٍ أحسنَ من نَوْر تُفَتِّحه الصَّبا. هذه الخدمةُ صدَرتْ علىٰ يدِ فلان تُهدى إلىٰ المولىٰ سلامَ المملوك وتحيَّتَه، ودُعاءَه الصالح الذى أخلص فيه نيَّتَه؛ وتَشْفَع إليـه فى تنزيله فى الحَلْقة المنصورةِ وآستِخدامِه، وترتيبِـه فى سلْك جيشِـه المؤيَّد وآنْتظامِه؛ فإنه من الأجْناد الجِياد، وذَوِى الجَلَد علىٰ الجِلَاد؛ وهو الغشَمْشَم الذى لايُرَدّ، والشَّهْم الذى لايُصَـدّ؛ والباسلُ الذى لاتُحْصَر بَسالتُـه بوصف ولا تُحَدّ، والنقيبُ الميمونُ الغُرَّة والنقيبـه، الموصوفُ فى الهيجاء بحَزْم الكُهُول وجهْل ذَوِى الشَّبيبه . والمولىٰ وإن كان بحمدِ الله غيرَ محتاجٍ إلىٰ مُساعد، ولا مفتقِرٍ إلىٰ معاضِد؛ فإنَّ أسِنَّته لاتحتجِب عن رُوح محتَجِب، ونفْسَه الشريفةَ تقوم وحدَها يومَ الكِفَاح مَقامَ عسكَرٍ لجِب؛ وقلبَه يغْنيه عن الأطْلَاب والأبْطال، وجيوشَ سطوتِه لاتكلِّفه المُقامَ فى مَنازِل النِّزال؛ فإنَّ المملوكَ يعلَم أنَّ نفْسَه الشريفةَ تَهْوىٰ تَزيُّدَ عسكرِه وجُنْده، وتَرْعىٰ حرمةَ قاصِده وقَصْده، فلهذا توَسَّل بشَفْع وَتْر الشَّفاعه؛ وتوصَّل إلىٰ إزالة

ضَرَع حالِه بكَثْرة الضَّرَاعه، فإذا أنعَم المولىٰ بقَبُول شفاعة المملوك فيه، وحقّق له من العِنَاية ما يؤمِّله و يَرْتَجِيه، كان قد شَـدّ للمشار إليه ما أضعَفَتْه العُطْلة من مُنَّته، وقلّد المملوكَ للمولىٰ جميلَ مِنَّته .

شفاعة فى ردّ معزول إلىٰ وِلَايته :

يَقبِّل اليدَ العالية لازالتْ مقبَّله ، ولإسداءِ الخـير إلىٰ أهله مؤهَّله ، و بأياديها علىٰ الكافَّة متفضِّله .

وينهِى ملازمتَه علىٰ شُكْر مواهِبِه ، ونشْرِ فضائله الجسيمة ومَناقِبِه، وحمْده كريم شِيَمِه، والآعتذارِ من تثْقِيله علىٰ خِدْمة المولى بخِدَمِه، وسؤالِ إنعامِه بوجُوه مكاتَبتِه ولِسانِ قلَمِه، وما ذاكَ إلا لِمَـا يتحقّقُه من كريم نِجَاره، وشدّة تطَلُّبه لإسداء العَوارِف و إيثارِه، والموجبُ لهذه الوسيلةِ وسُؤالِ مَكارِمه، وآستمطارِ سحائبِ مَراحِمه، مابلَغَه من عَزْل مملوكِ المولىٰ وعبْدِه، وواصِفِ جَميلِ أوصافه بلسانِ شُكْرِه وحَمْدِه، فلان، أفاض اللهُ عليـه إحسانَ المولىٰ و إنعامَه ، وخلَّد لنا وله دَوْلته وأيَّامَه ؛ فإنه صاحبُ المملوكِ وصـديقُه، وشريكُه فى الدُّعاء لمولانا و رَفِيقُه ؛ وهو من العُـدُول الأُمَناء ، والثِّقَات الأتقِياء، وهو قليلُ الجِدَة كثيرُ العِيال، لايَجِد حِيلةً إذا بَطَلَ بخلاف مايُحكىٰ عن البَطَّال؛ وقد تشفَّع بالمملوك ومكاتبتِه فى ملاحظةِ المولىٰ له بعينِ عِنَايته، والتقدُّمِ بردِّه إلىٰ جِهـةِ وِلَايته؛ فلهذا كَتَبَ إليه وأكَّد فى معناه السُّؤال، وعلَّق بتحصـيل أملِه الآمال؛ يعلم ذٰلك موفَّقا .

شفاعة فى خلاص مسجون :

فَسَّح اللهُ فى مُدّتِه، وسهَّل أداءَ مايجِبُ من شُكْرِنعْمتــه ، وألزم الألْسِـنةَ بحمْده والقلوبَ بمحبَّته، وجعله مفرِّجا كلَّ كرب، ومسهِّلا من المقاصد كُلَّ صَعْب .

وبعد، فإنّ كافّة الأُمّة قد تحقّقت رحمةَ قلبِ المولىٰ ورأفته، وتيقّنتْ إحسانه ومُرُوءتَه، وأنه يُؤْثِر إعانةَ كلِّ عانٍ وإغاثةَ كلِّ ملْهوف، وأنه لايُمْسك إلّا بالإحسان ولا يُسرِّح إلّا بالمعْروف، بحيثُ سارتْ بحُسْن سِيرتِه الرِّكاب عوضًا عن الرُّكْبان، ودرأتْ مكارِمُه(١) عن الأولياءِ نُوَبَ الزّمان، وعَلَا علىٰ حاتمٍ فلو تشَبّه بكَرمه لقُلْنا له: (مَرْعًى ولا كالسَّعْدان). وللمملوكِ من إحسانِه أوفَرُ نَصيب، وهو يَرْفُل من جُودِه فى ثَوْبٍ قَشِيب، وقد آشتَهَر مايُعامَلُ به من الإكْرام، وأنَّ قِسْمه من العِنَاية أوفَرُ الأقسامِ، وكان يُعدُّ من جملة العَبِيد فأصبحَ مُضَافا إلىٰ الأَزْلام، وهذا ممـا يُوجِب علىٰ المملوك أنْ يبتَهِل إلىٰ الله فى تخليد دَوْلتِه ويتضَرَّع، وعلىٰ حِلْم مولانا أنه إذا شَفَع إليه فى مُذْنب أن يُشَفَّع، وهو يَشْفَع إليه فى مملوكه وعَبْده، والملازمِ علىٰ رفْع راياتِ مجده وتِلَاوةِ آيات حَمْده، فلان، رزقَه اللهُ رضا الخواطِرِ الشريفه، وأسبلَ عليـه حُلَّةَ عفوِه المنيفة علىٰ الحُلَل بظِلَالها الكَثِيفه، فإنه قد طالَتْ مدّةُ حَبْسه، وآعترف بأنه الجانِى علىٰ نَفْسه، والمعترِفُ بذَنْبه كمن لاأذْنَب، والمغْترِفُ من بحر جُودِه يَرْوىٰ دُونَ أن يَشْرَب، والطالبُ لبِرِّه ينال سُؤْله والمَطْلَب، فإنْ حَسُن فى رأْيه العالى زاده اللهُ عَلاء، وضاعَفَ له سَناء، المشىُ علىٰ مَنارِ جُوده ومِنْهاجِه، وبُرُوزُ أمرِه المُطَاع بإطْلاقه وإخْراجه، آغتَنَم أجرَه، وجبَرَ كَسْره، وربِح فى هـذا الشهر المبارَك دُعاءه الصالِحَ وشُكْره، وكان قد أنعَم علىٰ المملوك بقَبُول شفاعتِه إليـه، وفعلَ مايُوجِب علىٰ كلِّ مسلم الثناءَ عليه، واللهُ الموفِّق.

شفاعة بسبب خلاصِ حقّ:

يخدُمُ المجلسَ السامِىَ لاقِيًا بالتحيات مخْدُوما، وحبلُ سَعده مَبْروما، ودُرُّ المَدائح لجِيـد جُودِه منظُوما، وعدلُه بين الأخصام قاضِـيًا فمـا يَتْرُك ظالمـًا ولا مظْلُوما.

(١) فى الأصلين «ودارت مكارمه على الأولياء» ويظهر أنه تصحيف من الناسخ.

ولا زالتِ الآمالُ متعلِّقةً بهِمَّته ، مَنُوطةً بسعيد عَزْمَتِه ؛ راجيةً خَلاصَ كلِّ حقٍّ ممن هو فى جِهَتِه . وتُوضِّح لعلمه أنَّ فلانا أدام اللهُ سعادتَه ، وخلَّد سِيادتَه ، ذكر أنَّ له دَيْنًا فى جهةِ غريمٍ مُمـاطِلٍ مُدافِع ، وخَصْمٍ مُمانِـع ؛ وقد جعل هذه الخدمةَ ذريعةً إلىٰ خَلاص حقِّه ، وخالهَـا إلىٰ الوصُول إلىٰ عِنَاية المولىٰ أقْربَ طُرُقه ؛ وهو جديرٌ بالتقــدُّم بإحضار غَريمه ومحاققتِــه ، وأخْذِ ماللملوك فى ذِمَّتــه ، وأن لا يُفْسَح له فى تأخِيره ، ولا يُسْمَح بقليلِ الصبْرِ ولا كثيرِه ؛ فإنه يعـلم أنَّ المولىٰ المشارَ إليـه واجِبُ الخِدْمه ، وافرُ الحُرْمه ؛ وقد تعلَّق أملُه فى خَلَاص حقِّه بالمولىٰ ، ولا يُجاوِبُ عن هذه الخِدْمة بلَوْ ولَوْلا ، بل يبْـذُل جُهْدَه ، ويُطلِقُ فى تحصيـل الغَرَض لسانَ الاجتهاد ويَدَه ، ويعتَمِد من الاهتمام مايليقُ بأمثاله ، ويبيِّض وجْهَ الشافع وسُؤاله ، موفَّقا . شعر :

وَلَوْ كانَ [لى] فى حاجَتِى ألْفُ شافِع * لَمَـا كانَ فِيهِمْ مِثْلُ جُودِكَ شافِـعُ

شفاعة فيمن آسمه سراجُ الدِّين إلىٰ من آسمه جمالُ الدين :

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وينهِى بعدَ ولاءٍ يحكُم علىٰ القُلوب شافِعُ جَمَالِه ، وثناءٍ يجُرُّ علىٰ أكمامِ الزَّهْرِ فضْلَ أذْيالِه : أنَّ العلومَ الكريمةَ مُحيطةٌ بإيجابِ حقِّ منْ هاجرَ إلىٰ بابها ، وشكا غُلَّة الفاقةِ إلىٰ مَنْهَلِ مُنْهَلِّ سَحابِها ؛ وأنَّ المـاثِلَ بهذه الخدمة ، فلان ، ذكر آحتياجَه إلىٰ عاطفةٍ من عَواطِفِ مولانا التى شَمِلَتْ ، وعارفةٍ من عَوَارِفه التى لو آستمدّتْ من غُررها الليالى لمـا أظلمتْ ولا ظَلَمتْ ؛ وأنَّ بيده وظيفةَ شَهادةِ بيتِ لَحْمٍ بتواقيعَ شريفةٍ نظرَتْ فى حاله ، ونشرَتْ حالَ عيالِهِ وأطفاله ، وأنَّ ثَمَّ من يُنازعه فى جِهَته المعتاده ،

ويَقْصِـد نَزْعَه والنَّزْع عن (١) تلك الشهادةِ المسطَّرةِ أخَفُّ من نَزْع الشَّهاده ، ومولانا أَوْلىٰ مَنْ رَحِم منبـه ضَعْفا ، وآشتَمَل عليه عَطْفا ؛ ودارَكَ بكرمه هذا السِّراجَ قبل أن يُطْفىٰ ؛ ورعىٰ سيرةَ مباشرتِه الحسنةِ الآثار ، وآغتنَم أَدْعيتَه وأدعيةَ أولادِه الذين هم كقِطَع الشِّطْرَنْج صِغارٌ وكِبار ؛ وكَفَّ يدَ التعرُّض إليه فى أيام عَدْله فإنها أيامٌ لاضَرَرَ فيها ولا ضِرَار ؛ وعلىٰ الجملة فقد تركَتْه الأيَّامُ قِطعةَ لحم ، فمباشرةُ بيتِ لحم أَوْلىٰ به ، ورجالُه فِرجانية وأخواتُها أحقُّ أن يتعلَّق سببُها بأسبابه ، واللهُ تعالىٰ يُنير بِمَنِ مولانا أحوالَ المَضْرورين فإنَّها ظَلَام ، وينصُرهم علىٰ حَرْب الأيَّام بسُيُوفه التى هى أقْلام ، ويمتِّع بأيامِ عدْله وإحسانِه التى تتنافَس فيها أعمارُ الرعايا فإنهم يُتْبِعُون أيَّامًا بأعوام .

وله إلىٰ شخص اسمه شمس الدين :

ويُنهِى بعدَ قيامٍ بوظائِفِ ثناءٍ يتَمَسَّك بنفَحاته [المتواليه] ، وولاءٍ يتمسَّك بحباله المتينةِ وما كلُّ شمسٍ حبالُهـا واهيـه : أنه يرتادُ الأوقاتَ لخطاب مولانا بالأقْلام ، حيثُ حبَس البعـدُ خِطابَ الكلام ، ويتخيَّر حَمَلَةَ رسائل الشَّوْق ، وإنْ أضـعفَ عَطْفُ النَّسيم رسائلَ السَّـلام . ولـما حضر من مكان كذا ، عارض هذه الخدْمة فلان ، وذكر توجُّهَه إلىٰ حِمىٰ حماةَ المحروسه ، وقصد كتاباً يكون فى وَحْشة الاغتراب أَنيسـه ، فوافق ذٰلك غرضَ المملوك ، وسَلَك طريقَ مُراده ولا يُنْكَر من جهةِ هذا الرجُل الصالحِ السُّلوك ، فأعلمته أنّ المَكارمَ الحمادية لاتحتاجُ غيرَ الحمد والأجْرِ شافعًا إليها ، والمنازلَ الشمسيَّةَ لاتفتقر إلىٰ دليلٍ ينَبِّه عليها ، وطالَمَا جمعتْ لقاصدِها الفعلَ والقولَ السخِى ، وطالما قال يوسـف رحمه الله أخو مولانا أبقاه الله للقاصـد : أنا يُوسفُ وهـذا أخِى ، ولكنِ المملوكُ يذَكِّر الخاطرَ الكريمَ بهـذا القادمِ فإنه من

(١) فى الاصل عند وهو تحريف من الناسخ .

أهله ، و يلقاه قبـلَ ذلك بالبِشْر المنشد * أُضَاحِكُ ضَيْفِى قَبْـلَ إنْزالِ رَحْلِه * فإنَّه من أصحا بِ و لِىٍّ لله طالمَـا فاضَ وَلِىُّ معرُوفِه ، وآسـتفاضتْ نِسبَتُه المُرْشِديّة فكان ولِيًّا مُرْشِـدا قامتْ صفتُه مَقامَ موصوفِه ؛ و إنَّ آثارَ هذه البركات علىٰ هـذا القادمِ لائحه ، وإن علىٰ يده تجارةَ ذكر وأجروهى فى سُوقِ هِمَم مولانا تجارةٌ رابِحه ، والله تعالىٰ يجعل له فى كلِّ ثناءٍ وثواب نَصيبا ، و يُديم قلَمَه الكريمَ مَقصِدَ رِفْد وجاهٍ (فَطوْرًا رِشاءً وطَوْرا قَلِيبا) .

وله : عن نائبِ الشامِ إلىٰ نائبِ حماةَ شفاعةٌ فى شخصٍ آسمه شهاب الدين، وهو بعد الألقاب :

لازالتِ الأقدارُ تُسعِده، والملائكةُ تُنْجِده، ومَواطِنُ النصر تجرِّدُ حدَّ بأسه ومَوَاطنُ الحلْم تُغْمِده، والجُناةُ تلوذُ بظلّه : فأىُّ جانِى ذَنْبٍ مايعفو عنه ، وأىُّ جانى بِرّ مايَرِقُّ عليه و يَرْفِده، تقبيلًا يترادَفُ مَدَدُه، ولا تنتهِى فى القُرْب والبُعْد مُدَده .

و ينهى بعـد ولاءٍ وثناء : هـذا لا يَبْلىٰ جَدِيدُه وهـذا لا تخفىٰ جدده ؛ وشوق وآرتياحٍ كلاهمـا يُرْوىٰ عن آبن شِهَاب توقُّدُه ، ويحمل علىٰ يد شِهاب سـنَدُه : أنَّ العلوم الكريمة محيطةٌ بمقدار الحِلْم وفضـله ، والعَفْو ومحلّه ، والتجاوُزِ عن هَفَوات المخطئين من القوم ،وطلبِ العفْو من الله غدًا بالعفو عن عباده اليَوْم،قال الله تعالىٰ : ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾ . ولـمَّـا سَمِـع الصدّيقُ رضى الله عنه هـذه الآيةَ ، قال : (بلىٰ والله إنِّى لَأُحِبُّ أن يغْفِرَ اللهُ لِى) ثم عَفَا عمن نزلَتْ بسببه ، ومملوك مولانا أعزَّ الله أنصاره فلان ، قد آعترف بهَفْوةٍ بدَتْ منـه، و زَلَّة نُقلتْ عنه؛ ما يسَعُها إلّا عفْوُ مولانا ومَرَاحِمُه ؛ وقَدِم علىٰ المملوك فكأنَّه ماخرجَ عن ظلِّ مولانا ولا فارقَتْـه معالمُهُ؛ وسأل سُؤالَ مولانا أن يشْـمَله بالعفْو، و يتجاوَزَ له

عن السَّهْو ؛ ويرحَمَ كِبَرَ سِنِّه وكبيرةَ جَهْله ؛ ويرعىٰ قِدَمَ هجرته لخدْمة هـذا الباب الذى نشأ عُمُرا طويلا فى ظلِّه ، أهْلا لأن تشملَه عواطِفُ أهله ؛ وهو ـ كما عرَف المملوكُ واطَّلع عليـه حيثُ كان فى نيابة حمـاة ـ مشكورُ السِّيرة بالٱعتبار ، ناهضُ الخدمة بالٱختبار ؛ ملازمٌ لثرىٰ الباب بعزْمٍ ماعليـه غُبَار ؛ وله علىٰ المملوك بالأمْس حَقُّ خِدْمـة وباليوم حقُّ سؤال يشفَعُ بهما فى القلوب وهى كِبَار ؛ والمسئُول من صَدَقات مولانا تجاوُزُه عن هَفْوته ، وردُّه إلىٰ أَمْنـه ووظيفته ؛ وإجراؤُه علىٰ عادة إقطاعه ، وحاشاه فى أيَّام مولانا أن يُقْطَع ، بل حاشىٰ المذكورَ أن لايستخبَرَ وأن لايُقْطَع ؛ وٱسـتقرارُه فى مكان خِدْمته ، وإجابةُ سؤالِ المملوك فى كل مايتعلق بنجاح هِجْرته وعَزْمته ؛ لابَرِح مولانا مأمولَ المِنَن الغائبـة والحاضره ، والمقيمةِ والسائره ، مأهُولَ الخواطر برَفْع ذكره وقَدْرِه فى الدنيا والآخِره .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

لا زالتِ المحامدُ بذِكْرها مُتَوَجِّه ، ومقدِّماتُ الفضـل والفضائِل من تِلْقاء شِيَمِها مُنْتِجَه ؛ ومَطالِعُ الكرِم والإكرامِ هاديةً إلىٰ حَرَمها من ٱتَّجَه ؛ تقبيلَ مواظِبٍ علىٰ الدعاء يرفَعُـه ، والولاء يجْمَعُـه ؛ والثناء يقول بَضَّاعُ أرجه لا ممـا نُضَيِّعه بل ممـا نُضَوِّعه ؛ [وينهى] أن عارِضَ هذه الخدْمةِ علىٰ عارِضِ كَرَم مولانا المُمْطِر ، وبابِه الذى هو لكَبِد الحاسد وفَمِ الوارِدِ مُفَطِّر ، فلان ، لقضاء تعلُّقاتٍ له أوّلُها التعلُّقُ بحبل رجائه المُحْصَد ، وٱنتمائِه المُرْصَد ، والتجمُّل بقصد بابِ مولانا الذى هو المُهِمُّ المقدّم علىٰ كل مَقْصَد ؛ وهو من الفضلاء الذين يعرِفُهم ٱنتقادُ مولانا معرفةَ الخبير ، وله ٱتصالٌ بالأكابر الذين سُلِّم منهم زِمامَ المفاخر كُلُّ كبير ؛ وقصَدَ من المملوك هذه الخدمةَ لمولانا تُؤْنِسُ ٱغترابه ، وتنشد المَقَرَّ الذى ماقَرَع سِنَّ الندامة مَنْ قَرَع بابَه :

يَاغَرِيبَ الصِّفاتِ حَقٌّ لمنْ كا * نَ غَرِيبًا أنْ يَرْحَمَ الغُرَباء!

والمملوكُ يسأل من إحسان مولانا مُلاحظةَ المـذكور بعيْن عِنايتِـه التى ما أغفَتْ عن القاصدين ولا غفَلَتْ ، وعَواطِفه التى طالمَاَ فتحَتْ أبوابَها فأثنَتْ عليها الركائبُ التى قفَلَتْ ؛ والله تعالىٰ يُديم تقليـدَ الأعناقِ بكلمه وبِرِّه ، ويمتِّع الممـالكَ الساحليَّةَ بمـا قذَفَ لها من دُرَر بَحْرِه .

النـــوع الخـامس

(التشـــوّق)

قال فى "موادّ البيان" : وينبغِى للكاتب أن يجمَع لها فِكْره، ويُظهِر فيها صناعَتَه، ويأخُذَ فى نظمها مَأْخذا من اللَّطافـة والرِّقَّة يَدُل علىٰ تَمـازُج الأرواح ، وأُتِـلاف القلوب ، وما يَجرِى هـذا المَجْرىٰ؛ وأن يستخدِمَ لهـا أعذَبَ لفظٍ وألطفَ معنًى ؛ ويذْهبَ فيها مَذْهب الإيجاز والآختصار ، ويعدِلَ عن سُبُل الإطناب والإكثار ؛ لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيُمِلَّ ويُضْجِر، وينتظِم فى سِلْك المَلَق والتكلُّف اللذيْنِ لايعتادُهما المُتصافُون من الأصدقاء .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفـــرج الببغاء :

شوْقُ المملوكِ إلىٰ مَوْلانا بحسب مَكانِه من تفَضُّـله ، وحظِّه من جميـلِ نَظَره ، وآخْتِصاصِه بإنعامه، وآغْتباطه بشَرَف خِدْمتِه، ومكانِه من إيثاره؛والله يجمَعُ للمملوك شَمْلَ السـعادةِ بمُشاهدة حَضْرته، وبساه(١) من الدَّهْر بالنظر إلىٰ غُرَّته، علىٰ الحـال السارّة فيه وبِه .

(١) كذا فى الأصلين بإهمال النقط والمراد أنه يمتعه بالنظر الخ تأمل .

وله : شَوْق المملوك إليه شوقُ الظَّمآن إلىٰ القَطْر، والسَّارِى إلىٰ غُرَّة الفَجر .

وله : شوْقِى إليه شوْقُ مَنْ لم يَجِدْ مع بُعْدِه عِوَضًا منه، فتقودُه الزيادةُ إلىٰ الآنصراف بالرَّغبة عنه .

وله : شوْقِى إليه شوْقُ من فقَد بالكُرْه سَكَنه، وفارقَ بالضَّرورة وطَنَه .

وله : لو كان مايُصْدِره من خِطاب، ويُناجِيه به من متَضَمَّن كتاب، بقدر ماأُعانيه من ألَمِ الشوق إلىٰ غُرَّته، ومَضَض الفائتِ من مشاهَدَتِه، لَمَا أحاطتْ بِذِكْره بَسْطةُ لسان، ولا نابَ فى إثباتِه آستِخدامُ بَنَان .

وله : أمَّا الدهرُ فما يَستحِقُّ من إبعاد المملوك عنه عَتْبا، ولا يُعدّ ماجَناه من ذٰلك ذَنْبا، إذ كان إنما نَقَلَ من حِشْمة المخاطَبه، إلىٰ آنْبِساط المُكاتَبه .

وله : وقَدْره - أبقاه اللهُ تعالىٰ - يرتَفِع عن ذِكر الشَّوْق إليه، فالمملوكُ يعبِّر عنه بذِكر الشوق إلىٰ مافارقه من تفَضُّله، وبعُدَ عنه من أوطان تطَوُّله .

وله : ولولا أنَّ المملوكَ يُخْمِد نارَ الآشتياق، ويبَرِّد أُوارَ الفِراق، بالتخَيُّل المُمثِّل لَمنْ نأتْ مَحَلَّته، والتفكُّر المصوّر لمن بَعُدتْ شُقَّته، لأُلْهِبَتْ أنفاسُه، وأُسْعِرَت حَوَاسُّه، وهَمَت دمُوعُه، وأنقَضَتْ ضُلُوعُه، واللهُ المحمودُ علىٰ ماوفَّق له من تمازُجِ الأرواح، عند تبايُنِ الأشْباح .

وله : ولا بُدَّ أن يكُفَّ بالمكاتبات، من غَرْب الآشتِياق، ويستعين بأُنْس المُراسَلات، علىٰ وَحْشة الفِراق، فإنها ألْسُنٌ ناطقه، وعُيونٌ علىٰ البُعْد رامقه .

وله : عِنْد المملوكِ لمولانا خَيَالٌ مُقِيم، لا يبرَح ولا يَرِيم، يجْلُو عليه صُورَته، ويُطْلِع علىٰ عينِ فِكْرته طَلْعتَه، إن سَهِر المملوكُ سامرَ مُعِينًا علىٰ السُّهاد، أو رقَدَ

تصوّر مُعْذِبا طَعْمَ الرُّقاد، لا يَمْطُله بزِيارته، ولا يُوحِشُه بغَيْبَته، كأنما تَصَوّر بصُورته في الوَفَاء، وتخَلّق بخُلُقه في المحافظة علىٰ الإخاء .

وله : إنْ تزايلَتِ الأشْـباح، فقد تواصَلَتِ الأرْواح؛ وإن نَزَحتِ الأشخـاصُ وبعُـدتْ، فقد دَنَت الأنفُس وتقاربَتْ؛ فلا تُمِضُّ الفُرْقةُ وتُؤْلِم، وتُنغِّصُ النَّوىٰ وتَكْلِم؛ وقد ينَالُ بتَناجِي الضَّمائر، وتَحَاوُرِ السَّرائر، مالا تَصِلُ إليه الإشاره، ولا تَدُلُّ عليه العِباره؛ إذ الأنفُس البسيطةُ أرقُّ مَسْرًى، وأبعَدُ من الألْسنة مَرْمًى .

التشوّق من كلام المتأخرين :

نسخة كتاب من ذلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة؛ وهو بعد الصدر:

لازالَ الدَّهْرُ يَقْضِي خِدَمَه، ويُمْضِي رأْيَه وسيْفَه وقَلَمَه، ويُرْضِي الدُّولَ الشاكرَةَ تقْـدِيمَه فِيها وقَدَمَه؛ ولا بَرِحت الأقدارُ المُعْرِبةُ تجزِم أمْرَه وتَكْسِرُ ضِـدّه وترفع عَلَمَه؛ تقبيلًا إذا لَثَم التُّربَ التثمَه، وإذا أُودِع القلْبُ في ذٰلك التُّرْبِ خَتَمه .

ويُنْهِي مواظَبَته علىٰ وَلاءٍ لايَنْسَخ البُعْدُ مُحكَمَه، ودُعاءٍ يقابِلُ النُّجومَ ولا تَنْقَطِـع من القَبُول إدْراراتُه المنجَّمَه .

ويُنْهِي أنه سَطَّرها عن شوقٍ يَعِزُّ عليه أن ينُوبَ فيه سَعْيُ القلم، عن سَعْيِ القَدَم، وٱرْتياحٍ إلىٰ القُرْب الذي بأنسه يُؤْنِسُه أنوارا علىٰ أعْلىٰ عَلَم؛ وتطَلُّعٍ لمعاوَدةِ الأخبار أوْفىٰ من تطَلُّع العامريّ إلىٰ مُعاوَدةِ أيّام ذِي سَلَم؛ وتعَلُّل بقول القائل :

بعَثْتُ لَكُمْ سَوادًا في بيَاضٍ * لِأَنْظُركم بشَيْءٍ مِثلِ عيْني !

وهيهاتَ! أينَ نظراتُ الحُروف المرْقُومة من نَظَرات العُيُون الرامِقه، وأينَ مَنالُ السُّلُوّ من شَجْو يقول : * أُعيذُها نَظَرات منْك صادقه *

ما يَحْسُبُ المملوكُ من النظر إلّا ما يَمْلأُ العينَ من ذٰلك الوجهِ الكريم ، ولا يَلْبَس من خِلَع الأيّام إلا ماتَخِيط الأهْدابُ علىٰ شَبَا ذٰلك القُرْب الرَّقِيم ؛ وعلىٰ ذٰلك فقد جَهَّزها المملوكُ علىٰ يَدِ فلان ، وحَمَّله من رسائل الشَّوْق مايَرْجُو أنْ يَنْهَض فيه بأعباءِ الرِّساله ، ويَسْأَلُ الإصْغاء والمُلاحظةَ فيما توجَّه فيه وإنْ أدّتِ الأمَالِى إلىٰ المَلاَله ؛ واللهُ تعالىٰ المسئُول أن يبلِّغ فى آمتِدادها مولانَا الأُمْنِيَّه ، ويمتِّعَ الدُّولَ منه بهذه البقِيَّة النقِيَّه ، إن شاء الله تعالىٰ .

نسخة كتاب فى المعنىٰ عن نائب الشام ، إلىٰ القاضى عَلَاء الدين بن فضل الله ؛ كاتبِ السِّر بالأبواب السلطانية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَةَ أيضا ؛ وهو بعد الألْقاب .

لازال قَلَمُها مِفْتاحَ الرِّزْق لطالِبِه ، والجاهِ لكاسِبِه ، والظَّفَرِ لمستَنِيبِ كُتُبِها عن كتائبه ، والنُّجْحِ لرائِد مُطالبةِ الدَّهْر بعد المَطَالِ به ، ولا بَرِح البأسُ والكَرَم يتحدّثانِ عن بَحْرِها ولا حَرَجَ عن عَجائِبِه ؛ تقبيلًا تَغْبِطُه فى مَرابِعِها ، ثُغُورُ الأزاهِر ، لابل تَحْسُدُه فى مَطالِعِها ، ثُغُور الزَّواهِر .

ويُنْهِى بعدَ دعاء أحسنَتْ فيه الألسنةُ وأخلصَتِ الضَّمائر ؛ ووَلاءٍ وثناءٍ لهما مَصاعدُ النَّجمَيْنِ إلّا أنَّ هٰذا فى القلوبِ واقعٌ وهٰذا فى الآفاقِ طائِر ـ أنه جهَّز هٰذه الخِدْمَةَ مُعرِبةً عن شوقٍ يتجدَّد ، وآرتياحٍ لايتعدّىٰ ولا يتعدَّد ، ساعيةً عنه بخَطَوات الأقلام ، أنْ منَع الوقتُ خَطَواتِ الأقدام ، نائبةً فى تقبيلِ الأناملِ التى تُستَسْقىٰ دِيَمُها علىٰ القُرْب والبُعْد ولا كَيْدَ ولا كَرَامةَ للغَمَام ؛ وجهَّزها علىٰ يدِ فلان بعْدَ أنْ حَمَّله من رسائل الشوقِ ما إنَّ حِمْلَنا من إحسانه لَيُنْضِى عقُودَ الأنجم لو تعدّدت ، ومفاتيحَ أبوابه لتَنُوءُ بالعُصْبة أُولِى القوّة لو تجسَّدتْ ؛ وهو بين يدَيْه يقدِّمُ نَجْواها ، ويستشهد

بالخاطرِ الكريم قبْلَ حضُور دَعْواها ، والمسئُول إصـغاءُ السَّمْع الكريم إليـه ، والملاحظةُ فيما توجَّهَ فيـه متَّكِلًا علىٰ اللهِ وعليـه ؛ وإذا عادَ مشـمُولا بعنايةِ مولانا المعهُودَه، مكفُولًا برِعَايته المقْصُورةِ علىٰ نُجْح الآمالِ الممْدُوده، فلْيُنْعِم علىٰ المملوكِ من المشرِّفاتِ الكريمة بما يسكِّن علىٰ جَوْر البُعْد خواطِرَه الدَّهِشه، ويُعِينُه علىٰ الوَحْشة التى حَرَّكها نحوه البِعَاد فهى الوَحْشَه ، واللهُ تعالىٰ يشكُر هِمَم مولانا غائبًـا وحاضِرا ؛ وشافِعًا لرسائل خَدَمه وناظِرا ؛ ويَخُصُّ بابَه العَلَوىَّ بسلام كسلامِ سَقِيط الطَّلّ عن ورَق الغُصْن ناضِرا .

آخَر من كلامه : كتب به إلىٰ بعض رؤساءِ مصر .

ويُنْهِى أنه سَطَّرها مُعْرِبةً عن شوقٍ مُقِيم ، وعهدٍ لا يَبْرَحُ علىٰ صِراطِه المستَقِيم ؛ وآرتياحٍ لجَنابِه، أو لكتابه، ليتْلُو لإنصات شَجْوه : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِـيمِ﴾ . متطلِّعا لمـا يَرِد من أخبار مولانا السارّةِ البارّه، مرتقِباً لأنبائه آرتقابَ الزُّهَيْرة الفاغِرةِ إلىٰ ضَرْعِ الغَمام الدَّارّه، ولو أنَّ كُلَّ ما يتَمَنَّىٰ المرءُ يدْرِكه، وكلَّ ما يقْتَرِح علىٰ الدَّهْرِ يَمْلِكه ، لغَنِيَ بقُرب المخاطبه، عن بُعْد المكاتَبه، وآستجلىٰ كوكبَ الجمال المُشْرِقَ وأقصَرَ فى ليالى الآنتظارِ عن المراقَبه . وقد جهَّزَها علىٰ يدِ فلان، وحَمَّله من رسائل الشوق أوْفىٰ وأوفرَ من رسائل الصَّـفا ، وسأَلَ الإصغاءَ والملاحظةَ من مولىً بِحَارِه النيلِ معْروفِ المَنَافع والوَفَا ؛ ولآمالِ المملوك بمشرِّفاته وأوامِرِه مَجَالٌ حينَ يُرِيح وحِينَ يَسْرَح ،وحينَ يَقْتَصِر علىٰ مقْتَرَحات الأيامِ حينَ يشْرَح ؛ فيُنْعِم مولانا بمواصَلتِها علىٰ هذه المقَدَّمه، ويجعلُ ذٰلك من إدرارات صِـلاته المنجَّمَه ؛ واللهُ تعالىٰ لا يُعْدِم المملوكَ فى حال كَرَمه : إما أن يُفيض فى القُرب بَحْرَه وإما أن يبعَثَ علىٰ البُعْد ديمَه .

وله إلى كاتب السر :

أعلى الله أمْرَ قلمها على الأقلام، وأدام بفيْض أناملِه عليه بَسْط كلمةِ الإسـلام، وراع بكتائب كُتُبه العِدَا إذا آنتبهُوا، فإذا أغْفَوْا «سلَّتْ عليهم سُيوفَها الأحلام» .

ولا زالتْ تلكَ الأقلامُ العاليةُ فى تلك اليدِ الكريمةِ إن لم تكُنْ من المنشئات فإنّها من المُنْشَآتِ فى البحر كالأعْلام ؛ تقبيلَ مُواظِب على دُعاء يطلعُ طُلوعَ طُرّة الصبح تحتَ ذلك الظلام ، وولاءٍ إذا آعتبر الخاطرُ الكريمُ مَسْعاه وخِدْمتَه : ﴿ قال يابُشْرایَ هذا غُلَام ﴾ .

وينهى أنه جَهَّز هـذه الخدمةَ مقصورةً على وصْف الأشواق الممْدُودة ، وجَوانح الشَّجْو المعهوده ؛ وأنفاسِ التذكُّر التى لولا شَرفُ مذكُورها لم تكُنْ عنده من الأنفاس المَعْدُوده ؛ فيالها مقصورةً على شوقٍ مافيها غيرَ طيور الجوانح خَفَّاقةُ الجَناح ، سَبَّاقةُ الآرتياح ؛ ويالهَا أنفاسَ ذكر أغنَتْ منادمتُها عن كَيْس كأس وآقتراحِ وقتِ رَاح ؛ ويالها ورقةً فازتْ بمشافهةِ لثْم اليـد الشريفةِ فكَرُمتْ وَصْفا ، ونأتْ عن نَخّار الروض عِطْفا ؛ وآستطابتْ بشِفاه السُّطُور على تِلك البَنانِ رَشْفا :

وسَطَّرتُها والجِسْمُ أنحلُ مايُرىٰ * فياليْتِنى أصبحْتُ فى طَيِّها حَرْفا

واصلةً إلى البابِ الكريم بسلام وصلَ عبقُه قبْلَ ماوصلَتْ ، وواردةً على يد فلان وقد حملَ من رسائلِ الصَّـفاء والوُدّ مثْلَ ماحمَلَتْ ، وحصلَتْ على القُرب وياأسَفى على ماحصَل وحصَلَتْ . والمملوكُ يسألُ الإصغاءَ إليها وإليه بفضل النظر والسَّمْع ، والإنعامَ على المُحِبِّ المفارِق بمشرِّفاتٍ تجلُو عليه أيامَ جَمْع ؛ وتُعينه على أوقاتِ وَحْشةٍ إذا وصفها المشتاقُون وأقلامُهم ولَّوْا وأعيُنُهم تَفيضُ من الدَّمْع ؛ لابَرِح ذكْرُ مولانا عليّا ، وبِرُّه بمَلْء الآمال مليّا ، ووصفُه بالتُّقىٰ وسحاب الجُود على الحالين وليّا :

يامُنيــةَ النَّفْس ويا مَا لِكِى * مُذْ غِبْتَ عَنِّى لم تَــنَمْ مُقْلتِي!

إنْ بِنْتَ عن عَيْنِى بِرَغْمِى فقدْ * سَكَنْتَ فى قلْبى وفِى مُهْجَتِي!

لا أوحشَ اللهُ من طَلْعتــه ، ولا أخْلىٰ من كريم مساعدَتِه ، وجمعَ شَمْــلَ الأُنْس بخِدْمتـــه .

المملوك يشكُو من المولىٰ فِراقًا أوجب له علىٰ نَفْســه فَرَقا ، وجيْشَ صُــدُود منَحَه من العَزائم طوَائفَ وفِرَقا ، وداءَ صَبابةٍ كلَّمــا ترجّى الإفْراقَ(١) منه ٱزْداد تلَهُّبا وحَرَقا ، ووجُوبَ قلبٍ تحتَّم لغَيْبتــه ووجَب ، ودَمْعَ عينٍ يمحو مهْما عَبَّر عنه لسانُ قلمه أو كتَبْ ، وقد أطال الهَجْرُ تألُّمَه وعَتْبَه ، وأطار سِنَتَه ولُبَّــه ؛ مُذْ وصل المولىٰ غيْرَه وقَطَع عنــه كُتْبه ، والمولىٰ يعلمُ أنَّ المملوك لفظٌ والمولىٰ معناه ، وسعْدَه شخص وأنت وجْهُــه الميمُونُ ويُمْناه ؛ فيُواتر إرسالَ مكاتبَاته ، ويُتْحِف بمأثُورِه ولُبَانَاته ؛ ويُعَطِّر بذكْرِه الجميــلِ الأماكِنَ ويُشَــنِّف المَسامع ، كما شَرَّف بحُلُوله فيها الأضالِــع ؛ واللهُ يُدِيمه ويُمِدّه بالإسْعاف والإسْعاد ، وينصُره علىٰ الأضداد والحُسَّاد :

أُقاسِى منْ بِعَــادِكَ ما أُقاسِى * وقَلْبُــكَ راحِمٌ وعَلَىّ قاسِى!

وأحْمِلُ مِن نَوَاكَ بضَعْفِ نفْسٍ * عَنَاءً يُعجِز الشُّمَّ الرَّوا سِى!

وتُبْعِــدُنِى وأمْرُك إنْ أتَانِى * جعلْتُ مَحَــلَّه عيْنِى ورَاسِى!

---

(١) أى البرء مصدر أفرق العليل إفراقا اذا برأ من علته . انظر اللسان ج ١٢ مادة ف رق .

قرَّب اللهُ أوبتَه، وعجَّل رُؤْيَتَه، وحرَس نَفْسه من الغِيَر والحادِثات، وصان حِجابه المنيعَ عن الملِمَّات المُؤْلِمات، وجمَّل الأيامَ بوجوده، والأنامَ بجُوده. ولا زالتِ الدنيا به مجمَّله، وأعناقُ أبنائها لمِنَنه متحمِّله.

صدرتْ هذه الخدمةُ إلى خِدْمته متضمِّنةً إهداء سلامه، وشاكيةً لغَيْبته جَوْرَ أيَّامه، ومُنْهِيةً شِدّةَ أشواقِه التى أفْنَتْ بالصَّبابة قَلْبَه، وأذهبَتْ حُشَاشَتَه ولُبَّه؛ وهى فى ذلك نائبةٌ مَنابَ سائرِ الخدَم، ومعبِّرةٌ عن أَلْسِنَة الأقاليم بلِسانِ القلَم؛ فإنَّ الأعيُنَ متطلِّعة إلى رُؤْيته، والقُلوبَ متعطِّشة إلى قُفُوله ورَجْعتِه؛ كما تتطلَّع إلى السماء عُيونُ النَّرْجِس، وتتعَطَّش الرِّياضُ إلى الوابل الغَدَق بعد اليوم المُحِرِّ المُشْمِس؛ فالمولى يجعلُ مواصلَتَه بأخباره فَرْضًا لازِما، ويمتَنِع من إغفالِه كما يمتَنِع من لَذَّة الطعام إذا كان صائِمًا؛ فإنَّ المَوْلى هو صورةُ الجُود ومَعْناه، وبيتَه الكريمَ فِناءُ الخير ومَغْناه؛ والناسُ مالم يرَوْك أشْباه، حرسه الله وتولَّاه، وضاعفَ عُلَاه، والسلام.

يا أجْملَ الناس سَناءً وسَنَا * جفَتْ جُفُونِى لجفَاكَ الوَسَنَا!
ثِمارَ آلامٍ إلامَ أجْتنِى؟ * ياليْتنِى أعلَمُ خَطِّى ما جَنَا؟
وأنتُمُ ياأهْلَ بانِ لَعْلعٍ * مُذْ بِنْتُمُ لم أرَ شَيْئًا حَسَنا!
أقَمْتُمُ بمُنْحَنَىٰ أضالِعِى * وسِرْتُمُ ياأهلَ وادِى المُنْحَنا!
فى بُعْدِكم مَنِيَّتِى لاتَبْعُدُوا * وقُرْبُكُم غايَةُ سُؤْلِى والمُنَا!

خلَّد اللهُ سعادته، وبلَّغه من العَلْياء إرادتَه، وأثَّل مَجْده، وأدام سعْدَه، وأعذَبَ مَنْهَله ووِرْدَه.

المملوكُ يتشوّقُ إلىٰ لِقائِه، ويتشوّفُ إلىٰ أنْبائِه، ويصِفُ شديدَ اشواقه وصَبابته، وحنينَه إلىٰ مشاهدةِ المَوْلىٰ ومشافَهتِه، وما يجِدُه لذٰلك من ألَمٍ فى جَوارحه الجَريحه، وسَـقَمٍ فى جَوانِحِه الصحيحه، ويلتَمس مواصلَتَه بكُتُبه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، وأخبارِه السارّةِ ليتضاعفَ له مزيدُ الاستبْشار، فإنّ القلْب بنَار الصّـبابة قَدْ وَقَدْ، وأما صبْرُه علىٰ [بُعْدِه] فقَدْ فَقَدْ، ومتىٰ ورد كتابُ المولىٰ شُفِى الغَليل، وأبَلَّ العَليل، ونجع طعْمُ الحياة ونَجَح التأْميل، فليصَيِّرْ وَتْر مكاتبَاتِه شَفْعا، ولا يجعَلْ لوصْلِهنّ قَطْعا، والله يمنح عيشَه خَفْضا ومكانَه رَفْعا، والسلام .

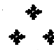

شعر فى معنىٰ التشوّق :

قد كانَ لى شَرَفٌ يصْفُو برُؤْيتِكم * فكَدَّرَتْه يدُ الأيّامِ حينَ صَفَا

غـــيره :

كتَبْتُ (١) للكتَابِ مجَـلَّدٌ * علىٰ أنّه قَبْـلِى بلُقْياكَ يسْـعَدُ

النـــوع السـادس

(فى الاسـتِزارة)

قال فى " موادّ البيـان " : رِقاعُ الاستزارةِ إنمـا تشتَمِلُ علىٰ وصْفِ حالاتِ (٢) الأُنْس ومجالِس اللّذّات، ومَشاهِد المَسَرّات . قال : ويجِبُ علىٰ الكاتب أن يُودِعَها حُلْوَ الألفاظ، ومُؤْنِقَ المَعانِى وبارِعَ التشبيهات، ويُبالِـغ فى تشويق المسـتَزار إلىٰ الحضُور، ويتلطّف فيه أحسنَ تلطُّف .

(١) بياض فى الاصل ولعله "وشوقى للكتاب الخ" .

(٢) لعله مجالات كما لا يخفى .

وهذه نسخ من ذلك :

علي بن خلف :

رُقْعتي ـ أطال الله بقاءَ سيدى ـ ومجْلِسى بمَنْ حلَّه من خَدَمه ، ونزلَهُ من صَنائع كرمه ، فلَكٌ مُزَيَّنٌ بأنجُمه ، فإنْ رأىٰ أن يُطْلِـع فيه بَدْرا بطُلُوعه وينقل قَدَمه إليهم ، ويُكمِّل نقْصَهم بتَمامِه ، ويُضِيف ذٰلك إلىٰ تَلِيد إنعامه ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

قد ٱنْتظَمَ لنا ـ أطال اللهُ بقاءَ سـيدى ـ مجلِسٌ رقَّتْ حَواشِيه ، وتَبَسَّمتْ راحُه عن حَبَب ، كلأَّلِئَ علىٰ ذَهَب ، وقامتْ فيـه سُوقُ السُّرور ، لا يُكْسِدُها إلا تخلُّفُهُ عن الحضُور ، فإنْ رأىٰ أن يُكمِّل جذَلَنا بإطْلاع طَلْعتِه علينا ، ويصَدِّق ظَنَّنا بنَقْل قدمه إلينا ، سَرَّ وأبْهج ، وتَمَّ من الإحسان ماأخْدَجَ ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هذا ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا ـ يومٌ صَـفِيق الظِّلّ ، رقيقُ غِلالةِ الطَّلّ ، قد ترفَّعتْ شمسُـه ببُرْج أُنْسه[1] ، وٱفتَرَّ جذَلا عن مَضاحك بَرْقه ، وترنَّم طَرَبا بزَمجرةِ رعده ، ووَشَتْ مَدارِجُ نَسِيمه ، بأرَجِ شَمِيمه ، وقام علىٰ مَنَابِر السُّرور يخطُب ٱبنةَ الكَرْم لأبناءِ الكِرام ، وينادِى بأعْلىٰ صَوْته : حَىَّ علىٰ المُـدَام ، فقد وجَب علىٰ كلِّ موفَّقٍ لاجْتناءِ ثِمـار السُّرور ، والْتحافِ عِطَاف الحُبُور ، أنْ يلَبِّيَ دعْوتَه ، وينتَهِز فُرْصـتَه ، ويُعوِّضَه من شمسِه الآفِله ، براحٍ لإظهارِ ماٱختفىٰ من شُـعاعها كافلَه ، ويقِفَه علىٰ التَّملِّى بالكاس والنُّدْمان ، ويجعلَه سِلْكا ينتَظِمُ فيه الإخْوان . ورُقْعتى هذه صادرةٌ إلىٰ مولاى وقد تهيَّأ لنا مجلِسٌ من مجالس الأُنْس ، يَبْسُط تجعُّدَ النفس

(١) لعله "افقه" .

فيه بَغْم ونَغْم ، ومِزْهر وزَهْر ، وخُلّان قد تراضَـعُوا لِبانَ العُقَار ، وتَساهموا نَقْلَ (١) الوَقَار ، وشَجُعُوا فى مَعارِك الخَمَّـار ، وأدْمَنُوا علىٰ المُمَـاساةِ والآبْتِكار؛ إلّا أنّ هـذا المَجْلِس مع تَمـامِه مُخْدَج ، وعلىٰ كَمالِه مختلَجْ ؛ لبُعْد مولاى الحالّ منـه مَحَلّ الواسطة من النِّظام ، والأرْواحِ من الأجْسام ؛ فإن رأىٰ أن يُكَمِّل منه مانَقَص ، ويُميط عنه [مانَغَّص] فلْيَجَمِّلْنا بالمَصِـير إلينا ، والطُّلُوع علينا ؛ وإعْفائنا من إضْجار الآنْتظار ، معتدًّا بذٰلك فى كريم الأيادِى والمَبارّ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

هـذا اليومُ ـ أطال اللهُ بقاءَ سـيدى ـ يومٌ أعْرس فيـه الجَوُّ بالجارِيَة البيضاء نَخدّرَها ، وحَجبها بسَجْف الغَمام وستّرها ؛ وآختالَ آختيالَ المعرِّس فى مُعَرَّسه ، بمُصَنْدَله ومُمَسَّكه ومُورَّسِه ؛ وآتَّخـذ من ذَهَب البَوارق نِثَارا ، وآستنْطقَ من زُنَّار الرَّواعد أوتارًا ؛ ودعا إلىٰ حُضُور وليمته ، والسُّرورِ بمَسَرَّته ؛ فإنْ رأىٰ أن يلَبِّىَ طلب (٢) هذا اليومِ الصَّفِيق ، ويتمتَّع بعيْشه الرافِـغ الرَّفِيق ؛ فلْيُطْلِـع علينا طَلعتَه التى تَبْهَرُ القمرَ المُزْهِر ، وتَصْدَعُ الليلَ المعتكِر : لِيُنْهِضَ غُرَّة الإصباح ، بغُرَّة الراح ، ويَقْطِفَ ثِمـارَ الأُنْس والمحاضرِه ، ويتملّىٰ بالسَّماع والمُذَاكره ؛ ويأخُذَ بحظٍّ من لَذَاذة الفَيْخةِ الشبيهةِ بشمائله ، ويُعَدَّ ذٰلك من مبارِّه وفواضِله ؛ [فعل] إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى الآستزارة فى بُسْتان :

كتبتُ ـ أطال الله بقاءَ سيِّدى ـ وقد غدوْتُ فى هذا اليومِ [إلىٰ] بُستانِى والطَّيْرُ فى الأوْكار ، والأنداءُ تَهْبِط كالنِّثار ؛ والليلُ مشتَمِلٌ علىٰ الصَّـباح ، آشتِمال الأدْهَمِ

(١) هو بالفتح و بالضم و بالتحريك ما يتناقل به على الشراب . أنظر اللسان ج ١٤ .

(٢) فى الأصل « أبطل » ولعله من تصحيف الناسخ .

علىٰ الأَوْضاح؛ عازمًا علىٰ مشارَفَته ومُشارَفَة ما آستمَدَدْتُ من عِمـارته، لا للخَلْوة فيه بمُعاطاةِ المُدَام، ومؤانَسةِ النِّدام؛ فحين سَرَّحتُ الطَّرْف فى مَيادِينه وجَداوِله، وأقبَلْتُ علىٰ تصَـفُّح حلَاه وحُلَله؛ رأيتُ مَنَاظِرَهُ تعتلِقُ القلوبَ آعتلاقَ الأشْراك، وتعتاقُ المستَوفِزَ عن الحَراك؛ وتُقِيم قاعِدَ المِزاج والنَّشاط، وتُوقظ هاجِدَ الفَرَح والاِنْبساط: فمِنْ أشجارٍ كالأَوانِسِ، فى رَيْحانِيِّ المَلَابس؛ حاليةٍ من مُوَشَّـع الزَّهَر والثمر، بأنْصَعَ من الياقُوت والجَوْهر؛ كأنما تحفَّلتْ لِاَجتلاءِ عَرُوس، أو مُعاطاةِ كُئُوس؛ ما بين نَخِيلٍ قد نشرَتْ عَذَبَ السُّنْدس علىٰ ذُرَاها، وأطلعَتْ طَلْعا كالخَناجر غَشِيَها صَدَاها؛ ونارَنْج يحمِلُ أكبَرَ العِقْيان، أو وجَنَات القِيَان؛ وأُتْرُجٍّ قد آستعار ثمرَةَ أشْواقِ العُشَّاق، إذا صالتْ عليهم يَدُ الفِراق. ومن رِيضَان(١) زاهيةٍ بنَشْرها، وقُضُبُها مختالةٌ فى مَلَابِسِ زَهْرها؛ ونَرْجِسُها كعينِ محبٍّ حدَّق إلىٰ الحبِيب، وثنَىٰ جِيدَه خوفَ الرَّقيب، إذا عبَثَ به النَّسـيمُ جمعَ بينَ كلِّ قَضِيب وإلْفِه، وسَعىٰ بالاعتناقِ من شَوْقه وكَلَفِه؛ ووَرْدُها كمَدَاهِنِ ياقوتٍ فيها نُضَار، وشقيقُها كمُدامات عقيقٍ فيها صُوَار(٢)، وبَنَفْسَجُها نِخَذٌ تَمضى فيه من القَرْص آثَار، أو جامُ لُجَيْنٍ عليه من النَّدىٰ نِثَار. ومن أنْهار قُدَّتْ حافاتُها قَدّ الأديم، وحُدَّتْ علىٰ صراطٍ مستقِيم؛ بِحرة مَسْجوره، كالسُّيوف المشْهُورة أو المَهارِق المنْشُوره؛ إذا خمَشَها الهوىٰ خلَع عليها مُتونَ المَبَارِد، أو سُلُوخَ الأَساوِد؛ يتَخَرَّق ذٰلك كلَّه نسـيمٌ رقيقُ الغَلَائل، حُلْوُ الشمائل؛ يسـعىٰ بالنَّميم، فى المَعَاطِس والشَّمِيم؛ انْصَبَّتْ إلىٰ مجلِسٍ فَسِيحِ البِناء، ضيِّق الأفْناء؛ مُوَشَّى الجُدْران والسَّماء، فى صَـدْره شاذَرْوان يَرْمِى بِكسَر البَلُّور، وفى وسَـطه نَهَر يَنْسابُ ماؤهُ آنسِـيابَ

(١) الريضان والرياض جمع الروضة.

(٢) الصوار والصوار «أى بالضم والكسر» الرائحة الطيبة والقليل من المسك أنظر ج ٦ ــ ص ١٤٧ من اللسان.

الشُّجَاع المَذْعُور ، وتتوسَّطه بِرْكَةٌ مُنَمنَمَةٌ ينصَبُّ المـاء إليها بالدَّوالِى إلىٰ أربع شاذَرْوانات ، ويَخْرُج عنها من أربع فطيمات ؛ يحتَفُّها كلُّ شجرٍ مُثْمِر ، وروْضٍ مُزْهِر . فقلت : هـذا المَرادُ الذى يحُطُّ به الرائدُ رَحْلَه ، ويُوفِدُ إليـه أهْـلَه ؛ ويدْعُو إلىٰ آختيار مَنْ يهُبُّ إلىٰ السُّرور ، ويُساعِد علىٰ الحضُـور ، للمشاركة فى التمـلِّى ببَهْجتِه ، والتمتُّع بنَضْرته ؛ فكان مولاى أوّلَ مَنْ جَرىٰ إليه ذِكْرى ، ووقَع عليه طَرْفُ فِكْرى : لأنه الساكنُ فى فُؤادِى ، الحالُّ فى مَحَلِّ رُقَادى ؛ فإنْ رأىٰ أراه الله ما يُقِرُّ العينَ أن يُكَمِّل مسرَّتِى بنَقْل قَدَمِه إلىّ ، وإطْلاع سعدِ طَلْعته علَىّ : ليتَمِّم محاسِنَ ما وصَفْته ، ويكمل الآلتذاذ بمـا شرحْتُه ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة رقاع الآسـتزارة

قال فى "موادّ البيان" : لايخلُو المستزَار من الإجابة إلىٰ الحضُور أو التثاقُلِ عنه ، فإنْ حضَر علىٰ الفَوْر ، فلا جوابَ لمـا نَفَذ إليـه ، وإن وعَد الحضُورَ وتلَوَّم ليقْضِىَ شُغُلا ويحضر ، فينبغى أن يَبْنِى الجوابَ علىٰ سُروره بمـا دُعِى إليه ، وحُسْنِ مَوْقِعه منه ؛ وأنَّ تلَوُّمه للعائق الذى قَطَعه عن أن يكون جوابًا عما وردَ عليه ، وأن حضُوره يَشْفَع رُقْعته . وإن أَيِس من الحضور ، وجبَ أن يبنَى الجوابُ علىٰ مايمهِّد عُذْرَه ، ويقرِّرُ فى نفس مستَزِيره أنه لم يتأخَّر عن المساعدة علىٰ الأنس إلا لقَواطِع صدَّت عنه ، يعْلَم المعتذِرُ إليه صحَّتها لينحرس ما بينهما من المودّة ، فإنَّ كثيرا ماتتفاسدُ الخُلَّانُ من مثل هذه الأحوال .

النـــــوع السابع

(فى ٱخْتِطاب المَودّة وٱفتتاح المكاتبـــة)

قال فى " موادّ البيان " : الرِّقاع الدائرةُ بين الإخْوان فى ٱختطابِ المُعاشَره، وٱنماء المكاثره، وطلبِ الخُلْطة والمؤانَسة، يجب أن يقَدَّر الخطابُ فيها علىٰ أن يَصل المرغوبُ فى عِشْرته إلىٰ الٱنخراط فى سلك أحبائه، والٱنحياز إلىٰ أهل وَلَائه، ويبعَث علىٰ قَصْـده، فى الٱلتحاق بوُدّه، ويدُلّ علىٰ المماحصه، والصَّـفاء والمخالَصه، وما جرىٰ هذا المَجْرىٰ ممـا يتعامل به أخِلَّاء الصِّدق، ويجعلونه مَهْرا لمـا يلتَمسُونه من الممـازَجه، ويرُومُونه من الٱختلاط والمواشَجَه .

قال : وينبغى أن يذهب الكاتبُ فى هذه الرِّقاع مَذْهبا لطيفا، ويُحْسِنَ التوصُّلَ إلىٰ الإفصاح عن أغراضها : ليأخُذَ بمَجامِـع القُلوب، ويُعين علىٰ نَيْل المطْلُوب .

وهذه نسخ من ذٰلك :

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ لم يزَلْ مُذْ وقع طَرْفُه علىٰ صُورتِه، وولَجَ سَمْعَـه بُعْدُ شِيمتِه، يُناجِى نَفْسَه بافتتاح مكاتَبتِه ومراسلَتِه، وٱختِطاب ممازَجتِه ومواصَلتِه، رغبةً فى الٱعتقاد بإخائه، والٱرتشاف من مَشارع صَفَائه، والمقاديرُ تَطْوى الطَّويَّة علىٰ ما فيهـا، والعوائقُ تمْطُل النيَّـةَ بنَجاز ماتَنْويه وتَلْويها، إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعـالىٰ بإعْراضِ الأعْراض، وٱنقباض أســبابِ الٱنقباض، فأظهر المملوكُ مافى القُوّه، واثقا من مَوْلانا بحُسْن المُرُوَّه، وأنه يوجب القَبُول بإجابته، ويُجيب إلىٰ مساعدته، ويرضىٰ المملوكَ أهلا لٱصطفائه، ومحلًّا لإخائه، عالمًا بإيجابه للحقّ، والمعرفة بالسَّبْق، وأن تُلقىٰ هذه الرغبةُ بالقَبُول، ويسَلَّم إليها مفتاحُ المأمُول .

رقعـــة : لو كانتِ المودّةُ لا تحصُــل إلّا عن أُلْفة تالِدَة ، ومُواصلةٍ سالفة ؛ لم يستَطْرِفِ المرءُ صفيّا ، ولم يستحْدِث وَلِيّا . وما زال البُعَداءُ يتقارَبُون، والمتنا كِرُون يتعارَفُون ؛ ولـمّـا نُمِيَ إلىٰ المملوك من أنبـاء مولانا ماتضَوَّع عِطْره ، وطاب نَشْرُه؛ سافرَ بالأمَلِ إليه، وقَدِم بالرَّغبة عليه؛ طالبًا الآنخراطَ فى سلك أوْليائه، والآختلاطَ بخاصَّــته وخُلَصائه؛ ومثلُ مولانا مَنْ أجاب السُّول ، وصَــدَّق المأمول ؛ والمملوكُ يرجُو أن تكْشف الأيامُ لمولانا منه عن خُلَّة صادقة ، ومَوَدّةٍ صحيحة، لا تضِيعُ معها إجابتُه، ولا تَخسَر صَفْقتُه .

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ مازال مُذْ وقع طَرْفُهُ علىٰ صُورته البَدْرِيّه ، وأحاط علمًا بخلائِقِه المَرْضِيَّه، راغبًا فى مُواشَجَته، باعثًا نَفْسه علىٰ آختطاب مودّته، وإكبارُه يُقْعِده ، وإعظامُه يُبْعِده ؛ فلَمَّـا تطاوَلَ يراعُ هِمَّتــه ، شجعَتْ علىٰ إنفاذ عَزْمتِــه ؛ فقدّم مكاتَبَته أمامَ مشافهتِه ؛ فإن حظِىَ بالإجابة وتنويل الطَّلِبَة ؛ فقدْ فاز قِدْحُه ، وتبلَّج صُبْحُه؛ ونال مُنَاه، وبلغ رِضَاه، وصادَفَ هَناه، وَبدا موثُوقا بُودّه، مسكونا إلىٰ عَقْــده وعَهْده ؛ يحمَدُه عنــد الآختِبار، ويعرِفُ به صحّةَ رأيه عند الآختيار؛ والمملوك يرجو أن يصِحَّ ماسأله وكَفَله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ منْ عَمر اللهُ تعالىٰ بثَنائه المَحَافل، وعَطَّر بأنبائِه الفَضائل؛ وأقام من مَسَاعِيه الكِرامِ خطيبًا يخْطُب بُسودَده وفَضْلِه ، ويُعْرِب عن شرف محْتَدِه وأُصْــله ؛ تطلَّعتِ الآمالُ للآنتظام فى سِلْك أحبَّائه ، وتشوّفت الهِممُ إلىٰ الآمتزاج بخُلَصائه وأوْليائه : لمـا يَضْفُو علىٰ المعتَصِم بعُرىٰ مُصافاتِه من لِباس جَمـاله ، ويُحَلِّى المعتَـرِى إلىٰ وَلَائه من حِلىٰ جلَاله ؛ وأحقُّ مَنْ أسـعَفَه مولانا بالمودّة إذا خَطَبها ،

وأجابه إلىٰ المُصافاةِ إذا طَلَبها ؛ مَنْ بدأه بالرَّغْبه ، ومَتَّ إليه بالمحبَّه ، لا لمُرْغِب ولا مُرْهِب ، واختاره لنَفْسه علىٰ عِلْم بكماله ، ومعرفةٍ بشَرفِ خِلاله .

وما زال المملوكُ مُذْ أطلعه اللهُ علىٰ ماخُصَّ به مَوْلانا من المحاسن المتعذِّرة إلَّا لديْه ، والفضائل الممتَنِعة إلَّا عليـه ؛ يحُومُ علىٰ مَشارِعِ ممـازَجتِه ولا يَرِدُها ، ويَرُومُ مواقِعَ مُواشَجتِه ولا يعتمِدُها ، إكبارا لقدره ، وإعظامًا لخطَرِه ، وخوْفًا من تصَفُّحه ونَقْده ، وإبقاءً علىٰ ماءِ وجْهِه من رَدِّه ؛ والمملوكُ وإن كان عالمـًا بأنَّ كَرم مولانا يَرْقَع الخلَل ، وفضْلَه يُصَدِّق الأمَل ؛ فإنه لايَعْدَم مذ رَغِب فى قُرْب مولانا مالعلَّه يجِدُه فيه ، ممـا يُخالِفُ مذْهَبه ويُنافِيه ؛ إذ كان لا يبْلُغ تَضاهيه فى التَّمام وتَوافِيه ، إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعـالىٰ بأن أبلغ نَفْسه الأُمنِيَّه ، وأظْهر ماطُوِيَتْ عليه الطَّوِيَّه ؛ فكتب هذه الرُّقعةَ وجعلها فيما رامَهُ من الاعتِلاقِ بحبْل موَدّته سَفِيرا ، وعلىٰ ماالتَمَسـه من الانْضِمام إلىٰ جُمْلتـه ظَهِيرا ؛ وقَدِم بها عليـه وظَنُّه يترجَّحُ من الإعراض إلىٰ القَبُول ، ثقةً بقُرْب نَيْل المأْمُول ؛ فإن رأىٰ أن يُجيبـه إلىٰ ماسأله ، ويُسرَّه بتنويل مااقترَحَه ، فعـل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

اختطاب المودّة ومفاتحة المكاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخ جمال الدين بن نُباتة :

وضاعفَ للمالكِ ببقائِه الانتِفاع ، وبارتقائِه الارتِفاع ؛ وسَرَّ بمحاسن نظره وخَبَره العِيانَ والسَّماع .

ولا زال للمحبِّين من وُدِّه عَطْفُ المتلَطِّف وللأعداء من بأْسِه خَطْفُ الشُّجاع . أصدرها المملوكُ منْطويةً علىٰ ماعَهِد من صِدْق المحبَّه ، ووفاءِ العهُود المستَتِبَّه ، ودُرَر

المحامد التى لا تَسْوىٰ[1] لديْها دُرَرُ العُقُود حَبَّه ، مُبْـديةً لعلمه الكريم أنَّ المودَّات إذا صفَتْ ، والقلوبَ إذا تجنَّدتْ وتعارفَتْ ، حثَّت المحبِّين فى البِعاد علىٰ المفاتَحة بكُتُبهم ورسائِلهم ، والمخاطبةِ فى ظِلال الأوراق بألْسِنة أقلامهم من لَهَوَاتِ أنامِلهم ، إيثارًا لتجديد الأُنْس وإنْ صَحَّ الميثاق ، وتذْكارا لخوَاطرِ الوُدِّ . وإن رسَخَتْ منه الأُصُولُ ونَمَتِ الأَعْراق ؛ ولذٰلك فاتَحَ بها مخاطِبا ، وآرتقَبَ لمُناديها بالأخبارِ السارَّة مُجَاوِبا ؛ نائبةً عنه فى مشاهدةِ الوَجْه الكريم ، ومصافَحَة اليَدِ فى حديثِ بِرِّها القديم ؛ تستطلع أخبارَه ، وتستعرِض أوطارَه ، وتُحيِّى بالسلامِ وجهَه وعَهْدَه ودِيارَه ، علىٰ يد فلان ، وقد حَمَل من المودَّات والمشافَهَات مايُعيِــده علىٰ السَّــمْع الكريم المُنْعِم بإصْــغائه ، المُصْغِى بنَعْمائه ، المتْحِف بالمهِمَّات التى يحصُــل فوزُ القِيام بها ، والمشرِّفات التى كلُّ أسبابِ السُّرور متصلٌ بسببها ، والله تعالىٰ يُبْهِج من تِلْقائه سَمْعا ونظَرا ، ويُبْقِى عيشَ حاسده هَشِيما وعيشَ محبِّيه نَضِرا ، ويُدِيم رياضَ ذكره تاليةً علىٰ المسامع : ﴿فأخرَجْنا مِنْــه خَضِرا﴾ .

أجوبةُ آختطـابِ المَودّة

قال فى " موادّ البيان " : لايخلُو مَنْ يُرام ذٰلك منه من أن يُجِيب أو يعتَلّ ، فإنْ اجاب بنىٰ الجواب علىٰ وُقُوع رَغْبة المختَطِب أحسنَ مواقِعها ، وآبتهاج المختَطَب بها ، ومعرفتِه بقَــدْر مارآه أهلًا له ومسارعتِــه إليه ؛ وإن آعتلّ بنىٰ الجواب علىٰ أنه قد عَرَض له مايقصر عنه ، ولا ترضى نفسُه به ، وأنَّ العذر [ليس] بعادةٍ له فى المُزَايلة ، وطريقةٍ فى الآنفراد والمجانَبَة .

---

(١) أى لاتساوى يقال سوى درهما يسوىٰ من باب تعب ومنعها أبو زيد . أنظر المصباح .

النـــــوع الثـامن
(فى خِطْبــة النِّســاء)

قال فى "موادّ البيـان" : الرِّقاع فى ٱلتمـاس الصِّهْر والمواصَلة يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصْف المَخْطُوب إليه بمـا يقتضِى الرَّغْبة ، ويدل الخاطب عن نفسه بمـا يؤدِّى إلىٰ الكِفَاية والإسعاف بالطَّلِبة .

قال : وينبغى للكاتب أن يُودِعَها من ألفـاظ المعانى المنتظِمة فى هـذا البابِ أوْقَعَها فى النُّفوس ، وأعوَدَها بتقريب المَرَام ، وأدَلَّهـا علىٰ صِدْق القول فيما تكفَّله من حسن معاشرةٍ، ولينِ معاملة؛ وأنْ يذهب بها إلىٰ الاختصار والإيجاز .

وهذه نسَخٌ من ذٰلك :

ممـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

وأفضلُ تِلكَ المواهبِ مَوْقِعًا وألطَفُها وأحمدُها عاقبةً، وأرهنُها يدًا، مايؤلِّف الله به القُربات ، ويؤكِّد به الحُرمات؛ ويوجِبُ به الصِّلات، ويجدّدُ به المَكْرُمات، ويُحْدِثُ به الأنْساب، ويقوِّى به الأسْـباب، ويكثِّر به من القِـلَّة، ويجمَعُ به من الفُرْقة، ويؤْنِسُ به من الوَحْشة، ويُزادُ به فى الحُقوق وجُوبا، وفى المودّات ثُبُوتا؛ ثم لامثلَ لمـا كان لله طاعةً ورِضاء، وبأمره أخذًا وٱقتداء، وبكِتَابه قُدْوة وٱحتِذاء؛ فالله نسألُ الخِيَرَةَ فى قضائه، والبركةَ فيما يقوم(١) بناؤك عليه .

---

(١) فى الاصل فيما يعزم .

ومنــــه : تصِلُ رَحِما، وتعْقِد سبَبا، وتُحدِث نَسَبا، وتُجدِّد وُصْلة، وتؤكِّد أُلْفة .

رقعـــة : مَنْ خصَّه الله تعالىٰ بمـا خَصَّ به سـيِّدى : من طَهارة الأعْراقِ والأنسـاب ، وشَرفِ الأخْلاق والآدابِ ؛ وأفردَه باجتِماع خِلَال الخـير المتفرِّقة فى الأنَام، وعطَّر بثنائه مَلَابس الأيَّام؛ رغِبَ الأحرارُ فى مُواصَلته، وهانَ عليهم بذْلُ الوجه فى ٱختِطاب ممازَجَته، وٱلتمـاس مُواشَجته ومناسبَتِه؛ وجديرٌ من رُغِب إليه، وطُلب مالدَيْه؛ وٱختِير للشابكَةَ فى الوَلَد واللُّحْمه، والمشاركةِ فى المـال والنِّعمه ـ أنْ يجيبَ ولا يمنع ، ويصِـلَ ولا يقْطَع ؛ مصدّقًا لأملِ من أفرده بٱرتيَاده ، وتوحَّده بٱعتِماده ؛ عارفًا له حقَّ ٱبتـدائه بالثِّقة التى لايجُوز ردٌّ من ٱعتقَـدَها، ولا صَدٌّ من حسَّن ظَنَّها؛ وقد علِم اللهُ تعالىٰ أن [مضىٰ] للملوك مدّة طويلة [وهو يَبْحثُ] متطلِّبا مَرْبَعا للتأهُّـل، مُؤْثِرا لِعِمَارة المنْزِل، راغبًا فى سَكَنٍ تطْمئِنُّ النفسُ إليــه ، وتعتمِدُ فى الفَواتِح والمَصايِر عليه؛ وكُلَّمـا عُرِض للملوك بيتٌ أبَاه ، أو ذُكِر له جَنَابٌ قطع عنه رَجَاه : لعدم بعضِ الشروط التى يُريدُها فيه ، وتعذُّرها عليه ؛ فلمـا قَرَع سَمْعَه ذِكْرُ سيدِى، علِم أنَّه الغايةُ التى لامَرْقىٰ بعدها ، والنهايةُ التى لامَطْمَحَ وراءَها، وأنه قد ظَفِر بالثِّقة، ووصـل إلىٰ الأُمْنِيَّـة، ووجد من يجمَع الخِلَال المرضِـيّة ويزيد؛ ويحُوز من الفضـل الشأوَ البَعيد ، وكتب المملوك هــذه الرقعةَ خاطبا كريمتَه فلانة [ليكون لهـا] كالغِمْد الضامِنِ للمهنَّد ، والجِلْد الحافظ للمجلَّد؛ ويكونَ لمولانا كالوَلَد البَرِّ بأبِيه ، ولأخيها كالصِّنو الشفيق علىٰ أخِيــه ؛ فإنْ رأىٰ سيدى أن يتدبَّر ما كتبه المملوكُ ويَتَسمَّعَ من توكيد رُقْعته ماحمَلَتْه، ويجيبَه إلىٰ ماسأله فله عُلُوُّ الرأْيِ فى ذٰلك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رُقْعــة : ويُنْهِى أنَّ مَوْلانا بمـا تمَّم اللهُ تعالىٰ من محاسـنه ومنَاقبه، جديرٌ أن يَلْقىٰ مَنْ خَطَب الاَعتصامَ بعُرىٰ ممازجَتِه، وسعىٰ فى نَيْل عُلْقه من مُواشَجته، بالقَبُول، القاضى بنَيْــل المأمُول ، ودَرْكِ الرَّغَب والسُّول ؛ ولا سِيَّمـا إذا كان عارفًا من سُمُوِّ خَطَره، وٱعتلاءِ قَدْره، مايقْضِى عليــه بخَفْض الجَنَاح فى معاشَرته ، وغَضِّ الطَّرْف فى معامَلتِــه ، والوُقُوفِ دُونَ درَجة المساواةِ والممــاثَلَهْ ، والتزَحْزُح عن رُتْبَة المُبــاراة والمُطاوَله ؛ والاَنتظامِ فى سِلْك الأتباع والحاشِيه، والخُدَّام والغاشيه ؛ وكثيرًا ماوجد المملوكُ البركَةَ فى مشاركةِ مَنْ هذه صفَتُه أوفَرَ منها فى مشاركةِ النُّظَراء، وكانت العاقبةُ فى مشابَكَة مَنْ هذه حالُه أجملَ منها فى مشابَكَة الأَكْفَاء ، الذين يُصادِفُون فى الحُقُوق شَطَطا ، ولا يُغضُّون عن يسـيرِ الواجباتِ تبَسُّطا : لأنهم يَرَوْن أنَّ الوُصْـلة ممَّنْ داناهم فى الرُّتْبــة والمنْزِلة ليستْ عائدةً عليهــم بشَرَف ، ولا مُظْهِرةً لهم من خُمُول . ولأَنْ يَستخْلِصَ مثْلُ سـيِّدى من الرُّؤَساء ، مثلَ المملوكِ من الأوْلياء ، ويختصَّه بأَثَرة الاَجتباء والاَصْطِفاء ؛ فيكُونَ مَفْخَرُه إليه منْسُوبا ، وما يرقِّيه الله تعالىٰ إليه ببركَته من دَرَج الفضل فى نفسه محسُوبا ؛ أَوْلىٰ من طلَبِ مُمـاثِل يُناوِئ بقَدْره ويُطاوِل . علىٰ أنه لو طلَبَ ذٰلك لطَلَب مُعْوِزا ، ورام مُعْجِزا : لمـا أفرده اللهُ تعـالىٰ به من السِّـيادة التى لايُترامىٰ إلىٰ منْزِلتها ، ولا يُتسامىٰ إلىٰ مُطاوَلتِها ؛ وإذا كان النظيرُ معْدُوما ، والكُفُؤ مفقُودا ، ولو وُجِد لَمَـال متَسلِّطا ، ووقَع سومُه (١) منبَسِطا ؛ ومَوْلانا يُطْلَبُ إليــه ولا يَطْلُب ، ويُرْغَب فيما عنـده ولا يَرْغَب ، فقد سَهُلت السبيلُ إلىٰ ما يرُومُه المملوكُ من جِهَته ؛ ويُؤْثِره من مُواصَلته ؛ وٱتَّسع المجَال فيما يُقْدِم عليــه من الرَّغْبــة فى تقليده شَرَف مُصاهَرَته ، وإضافَتِه بذٰلك إلىٰ بِطَانته وأهل خاصَّــته ؛ ويُخْرِجه علىٰ ما يُخْرِج عليــه الوالدُ ولده ، والسيِّدُ عبــدَه ؛ وقد حَمَّل المملوكُ موصِّلَ

(١) لعله يشير إلى المثل العربى «عرض عليه سوم عالة» يضرب لمن يعرض عليك ماأنت عنه غنى تأمل .

مطالعته هذه مالم تسعْ إيداعَه المكاتبة، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُصْغِيَ إليه ويُجيبَ عبْدَه بمـا يعتَمِدُه المملوكُ فى ذلك فله الفضْل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أنــ لذَوِى المَناجِب الطَّيِّبةِ الأنساب، والمَناحِت الزَّكيَّـة الأحســاب ؛ والأخلاقِ الكريمةِ والآداب ، بين الأنام لِسانَ صِـدق يخطب لهم بالمَحاسن والمَحامد، ويُعَطِّر بثنائهم الصادرَ والوارِد؛ ويدْعُو القلوبَ إلىٰ نَيْل عُلَقه من ممــازَجَتهم، وٱلتمسُّــكِ بطَرَف من مُواصــلتهم؛ وقد جمعَ اللهُ لمولانا من كريم المُتْلَد(١) والمُطْرَف، وقَديم وحديثِ الفضــل والشَّرَف ، ماتفرَّق فى السِّيادات، وتَوَزَّع علىٰ أهل الرياسات؛ وجعله فى طَهارة المَوْلِد، وطِيبة المَحْتِد؛ وٱستكمالِ المآثِر، وٱستِتْمامِ المَفَاخر، عَلَمــا ظاهِرا ، ونَجْما زاهِرا؛ فمــا مِنْ رئيس سِوىٰ مولانا تُعْجِزه خَلَّة من خِلَال الرياسة إلا وجدَها لديْه ، ولا نفيسٍ تُعْوِزُه خَصْــلةٌ من خِصال النَّفاسة إلَّا ٱستماحها من يدَيْه ؛ ولذٰلك ٱمتدّتِ الأعناقُ إلىٰ ٱلتمسُّك بحبْله ، وتطلَّعتِ الهِمَمُ إلىٰ مُواشَجتِه فى كريمِ أصْله ؛ وصار مرْغُوبا إليه لا راغِبا ، ومطلوبًا لدَيْه لاطالِبا ؛ وهو جديرٌ بما وهبَهُ الله من هذا الفضل الذَّائع، والنُّبْل الشائع، أن يُجيب سائلَه ، ويصَدِّق آملَه؛ ولا يتجَهَّمَ فى وَجْه قاصِده، ولا يردَّه عن مَقْصَده؛ ولا سيَّما إذا كان قد أسلَفَه الظنَّ الجميل، وبدأه بالثِّقةِ والتأميل؛ وتعذَّر عليه قدرُ العارف بقَدْره، العالِم بخَطَره؛ المرتضِى بشرائِطه، النازل علىٰ حكمه، المتدَبِّر برأيه؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ المملوك مُذْ نشأ وصَلَح للتأهُّل مرغوبٌ فيه، مخطوبٌ إليه؛ من عِدّةِ جهاتٍ جليلة ، وجَنَبات رئيسة ؛ والمملوكُ صادٌّ عن الإجابة ، صارفٌ عن المطاوعَة : لشُذُوذ بعض الشُّروط التى يرُومُ أن تكون مجتمعةً فى النَّسب ، الذى أَعُــدّه شريكًا فى الوَلَد والنَّشَب ؛

(١) المتلد (أى كمكرم) ماولد عندك من مالك أو نتج ومال متلد قديم .

ومُفاوِضًا فى الحال والسَّبَب، مرتادُ من يقْنَع بالموافقه، ويرتِض، بالعِشْرة والمرافَقه؛ حتّى أفضىٰ فى الاَنتقاد إلىٰ مولانا فوجد المُرادَ علىٰ آشتراط، وألفىٰ المقصودَ علىٰ آشتطاط؛ فدعاه ذٰلك إلىٰ التهَجُّم بعد الإحْجام، وحمله علىٰ التجاسُر والإقْدام؛ والتوسُّلِ إلىٰ مولانا بما يتوسَّل به الأحرار، إلىٰ الأخيار، وأمَّه بصادِق الرغبة وصميم المحبة والاَنبساط، فى خِطْبة كريمته فلانة؛ علىٰ أنْ يعاشِرَها بغاية الأُنْس، ويَصْحَبَها صُحْبةَ الجسَد للنَّفْس؛ ويَعْرِفَ لها من قَدْر أبوَّتها وأُمومتها ماتستحِقُّ برياستها، وقد أصدرهذه الرقعةَ نائبةً عنه فى ذٰلك؛ فإنْ رأىٰ مولانا أن يُتْحِفَه بالقَبُول، ويجعله أهلا لإجابة السُّول، فله الفضل فى ذٰلك، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن النادر الغريب ماذكره الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبى فى "حُسْن التوسُّل" فى الكتابة إلىٰ شخص فى تزويج أمه، وهو :

هذه المكاتبة إلىٰ فلانٍ ـ جعله الله ممن يُؤْثِر دِينَه علىٰ الهْوىٰ، ويَنْوِى بأفعاله الوقُوفَ مع أحكامِ الله تعالىٰ فإنما لكُلِّ آمرِئٍ ما نوىٰ؛ ويعلَمُ أنَّ الخَيْر والخِيرَة فيما يسَّره الله من سُنَّة نبيه صلَّى الله عليه وسلم وأنَّ الشرَّ والمكروهَ فيما طوىٰ؛ نُعرِّض له بأمرٍ لاحرجَ عليه فى الإجابة إليه؛ ولا خَللَ يلْحَقُه به فى المُروءة وهل أخَلَّ بالمُروءة مَنْ فعل ماحَضَّ الشرْعُ المطَهَّرعليه؟ وأظهَرُ الناس مُروءةً من أبلغَ النفْسَ فى مَصالح حُرَمه عُذْرَها، ووَفَّى من حقُوق أخصِّهنّ ببِرّه كلَّ ماعلم أنَّ فيه بِرَّها؛ وإذا كانت المرأة عَوْرة، فإنَّ كمالَ صَوْنها فيما جعل اللهُ فيه سَتْرَها، وصَلاحَ حالها فيما أصلحَ اللهُ به فى الحياة أمْرَها، وإذا كانتِ النساءُ شقائقَ الرجال فى باطن أمرِ البشَرِيَّة وظاهِره، وكان الأولىٰ تعجيلَ أسباب العِصْمة فلا فرقَ بين أوّلِ [وقت](١) الاَحتياج [إلىٰ ذلك](٢)

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٦ .

وآخره ؛ وما جَدَع الحلالُ أَنْفَ الغيْرة إلّا ليَزُولَ شَمَمُ الحَمِيَّه ، وتنْزِلَ علىٰ حكم اللهِ فيما شرَعَ لعباده النُّفُوسُ الأبِيّه ، ويُعْلَم أنَّ الفضلَ فى الآنقياد لأمرِ اللهِ لافى آتِّباع الهوىٰ بعَضْل الوليّه ، وإذا كان بِرُّ الوالدة أتمّ ، وحقُّها أعمّ ، والنظرُ فى صَلاح حالها أهمّ ؛ تعيَّنت الإجابةُ إلىٰ مايصْلُح به حالُها ، ويسكُنُ إليه بالُها ، ويتوفَّر به مالُها ، ويعمُر به فِنَاؤُها ، ويحصُل به عن تقلُّد المِنَن آستِغْناؤُها ، وتُحمَلُ به كُلْفــة خَدَمها عنها ، وتُدفَع به ضَروراتٌ لابُدّ لذَوات الحِجابِ والحِجالِ منها ، ويَضْــفُو به سِــتْرُ الإحصانِ والحَصانة عليها ، ويظْهَرُ به سرُّ ماأوجبه الله لها من تتبُّع مواقِعِ الإحسانِ إليها .

وقد تقدّمَ من ساداتِ السَّلَف مَنْ تولّىٰ ذٰلك لوالدته بنَفْسه ، وآعتدَّه من أسباب بِرِّ يومِه الذى قابل به ماأسلفَتْه إليه فى أمْسِه ؛ عِلْمــا منهم أنَّ آستكمال البِرِّ ممــا يُعْلى قدْرَ المرءِ ويُغْــلى ؛ وقد أجاب زيدُ بنُ زينِ العابدين هِشَامًا لَمَّــا سأله : لِمَ زوّجت أُمَّك بعدَ أبيك؟ فقال : لتبشَّرَ بآخَرَ مثْلى ، لاسِيَّمــا والراغبُ [إلىٰ المولى](١) فى ذٰلك ممن يُرْغب فى قُربه ، ويُغْبط علىٰ مالَدَيْه من نِعَم ربِّه ؛ ويعظَّم لِآجتماعِ دُنْياه ودِينه ، ويُكْرَم لِيُمْن نَقيبتِه وجُود يمينِه ؛ ويعْــلَمُ أنَّ العقيلة تَحُلُّ منه فى أمْنَع حَرَم ، وتستظلّ من ذَراه بأضفىٰ سُتور الكَرَم ، مع آرتفاعِ حَسَــبه ، وآشتهارِ نَسَبه ، وعلُوِّ قدْره فى مَنْصبه وحالِه وسَبَبِه ، وأنه ممن يُحْسِنُ أن يحُلَّ من المولىٰ محَلَّ والِدِه ، وأنْ يتجمَّل من ذُرِّيته بمن يكون فى الملِمَّات بَنَانًا لِيَدِه وعَضُدا لساعِدِه ؛ فإنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيه ، وإذا أُطْلِق عليه بحكم المَجاز لفظُ العُمُومة ، فإنَّ عمّ الرجل صِنْوُ أبيــه ؛ وأنا أتوقَّع من المولىٰ الجوابَ بمــا يجْمَع شَمْل التُّقىٰ ، ويُعْــلَم به أنه تخَيَّر من البِرِّ أفضلَ مايُنْتقىٰ ؛ ويتحقَّقُ بفعْله أنَّ مثلَهُ لايُهمِل واجِبًا ؛ ولأمرٍ مّا قال الأحنفُ وقد وُصِف بالأناة : لكِنّى أتعجَّلُ أنْ لا أردَّ كُفؤًا خاطبًا .

---

(١) الزيادة من "حسن التوسل" .

النـــوعُ التـاسعُ

(فى الآِسترضاء والآِستعطاف والآِعتِذار)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبةُ فى آستِعْطافِ الرُّؤساء ، ومُلاطَفة الكبراء ، تحتاج إلىٰ حُسْن تأتٍّ : لمـا تشتمِلُ عليـه من إيجاب حُقُوق الخدمة ، وما أسلَفُوه من مَرْعِىِّ الِخدَم ، وما يَتْبع هـذا من التنَصُّل والآعتِذار الذى يسُـلُّ السخائِمَ من القُلوب ، ويستنزِلُ الأَوْغار من الصُّدور ، ويُطْلِـع الأُنْس وقد غَرَب ، ولها موْقع فى تأليف الكلام .

قال : وينبغى للكاتبِ أنْ يستعمِلَ فيها فِكْرَه ، ويُوفِّيَها حقَّها من جَوْدة الترتيب ، وآستيفاءِ المعانى ، وأنْ يذهبَ إلىٰ آستعمالِ الألفاظ الجامعـةِ لمعانى العُذْر ، الملَوِّحة بالبَراءة ممـا قُرِف به (١) ؛ ولا يُخْرِج لفظَه مُخْرَج من يُقِيم الحُجـةَ علىٰ براءةِ الساحة ممـا رُمِى به ، فإنَّ ذٰلك ممـا يَكْرهه الرؤساء : لأنَّ عادتَهـم جاريةٌ بإيثار آعترافِ الخُدَّام لهم بالتقصير والتفريط والإخلالِ بالفُروض : ليكونَ لهم فى العَفْو عند الإقرار عارفةٌ توجبُ شكرا مستأْنفًا ؛ فأما إذا أقام التابعُ الحجةَ علىٰ براءتِه وسلامتِه ممـا رُفع عنه ، فلا يُوضَع الإحسان إلا إليه فى إقراره علىٰ منْزِلته (٢) ، والرِّضا عنه والآِستعطاف ، بل ذٰلك واجبٌ له ، فى منْعِه منه ظُلْمٌ .

---

(١) فى الاصلين «ممـا قرب منه» وهو تصحيف من الناسخ .

(٢) المراد أن إقراره والرضا عنه ليس من الاحسان بل من الواجب تأمل .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

لأبى الحســـين بن سعد :

فإن رأيتَ أن تنْظرَ فى أمرى نظَرا يُشْبِه أخلاقَك المرضِيّة ويكونُ لحسن ظَنِّى بك مصَدِّقا، ولعظيم أمَلِى [فيك] محققا، ولِمَا لم تزل تَعِـدُنيه مُنْجزا، ولِحقِّ حُرْمتِى بك وقديم ٱتِّصالى بأسبابك قاضِياً، فعلت ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنـــه : لسليمانَ بنِ وَهْب .

مَنِ ٱنصرَفَ فى الآحتجاجِ إلىٰ الإقرار بمـا يَلْزَمه وإن لم يكن لازما، فقد لَطَّف الآستعْطاف، وٱستوجب المسامحةَ والإنْصاف .

ومنـــه : وقد نالَنِى من جَفْوة الأمير بعـدَ الذى كنْتُ أتعَرَّف من بِرِّه وألطافه أمْرٌ أحلَّنِى محَلَّ المُذْنِب فى نَفْسى مع البَراءة من الذَّنْب ، وألزَمنِى الإساءةَ مع الخُروج من التقصـير، وزاده عِنْدى عِظَما وشِدّة أنّى حاوَلْت الخُروجَ منــه بالآعتِذار، فلم أجِدْلى إلىٰ الأمير ذَنْبا أعتذر منــه ، ولا علَىّ فيما ألزمَنِى من مَعْتَبَته حجةٌ أُحاوِلُ دَفْعها والتخلُّصَ منها؛ فأصبحْتُ أُعالجُ من ذٰلك داءً قد خَفِىَ دَواؤُه، وأُحاوِلُ صلاحَ أمْرٍ لم أَجْنِ فَسادَه؛ فإن رأيتَ أن تفْـعل كذا وكذا فتصِـلَ قَديم مااصبَحَ عنـدى من معْروفِك بحديثه ، فليس عِنْدى فى مطالبةٍ حجّةٌ أنجَحُ من التوجُّه إلىٰ الأمير بنَفْسه ، والثقةِ عنده بفَضْله، فإن كنتُ مُذْنِبا عَفَا، وإن كنتُ بَرِيئًا راجع .

ومنـــه : لأبى علىّ البصير .

وأنا أحدُ منْ أسكنْتَه ظِلَّك، وأعلَقْتَــه حَبْلك ، وحبَوْتَه بلطيف بِرِّك ، وخاصِّ عنَايَتِك، وٱنتصفَ بك من الزَّمان، وٱستغنىٰ بإخائِك عن الإخْوان ؛ فهو لايَرْغَبُ

إلّا إليك ، ولا يعتمد إلّا عليك ، ولا يستنجح طلبه إلّا بك ، وقد كان فرط منّى قولٌ : إن تأوّلته لى ، أراكَ أوجهَ عُذرى ، وقام عندك بحُجّتى ، فأغنانى عن توكيد الأيمان على حُسن نيّتى ، وإن تأوّلته علىّ ، أحاقَ بى لائمتك وحبسنى على [أسوإ](١) حال عندك ، وقد أتيتك معترفا بالزّلة ، مستكينا للوجدة ، عائذًا بالصّفح والإقالة ، فإن رأيت أن تُقِرّ عينًا قرّت بنعمتك عندى ، ولا تسلُبنى منها ما ألبستَنى ، وأن تقتصر من عقوبتى على المكروه الذى نالنى بسبب عتبك علىّ ، وتأمر بتعريفى رأيك بما يُطامِنُ هلَعى ، وتسكُن إليه نفسى ، ويأمن به رُوعى ، فعلت ، إن شاء الله تعالى .

ومنـــه : لابى الحُسَين بن أبى البغل .

نُبُوّ الطّرف من الوزير دليلٌ على تغيّر الحال عنده ، والجفاءُ ممن عوّد الله البرّ منه شديدٌ ، وقد آستدللتُ بإزالة الوزير إيّاى النّحلَ الذى كان نحلنيه بتطوّله ، على ما سُوّت له ظنًّا بنفسى ، وما أخافُ عتبا : لأنى لم أجنِ ذنبا ، فإن رأى الوزيرُ أن يُقوّمنى لنفسى ، ويدُلّنى على مايُريده منّى ، فعل ، إن شاء الله تعالى .

ومنـــه : لأبى الرّبيع .

أصدقُ المَقال ، ماحقّقه الفَعال ، وأفضلُ الخبَر ، ماصدّقه الأثَر .

ومنـــه : لمولانا سيرةٌ فى الفضل والإحسان ما أمّلها آمل إلّا جادت وسخت ومنحت ، وعوائدُ فى العفو مارجاها راجٍ إلّا صفحت وسمحت ، وأحقُّ من تلقّاه عند العِثار ، بالإقالة والاغتفار ، ووقف به عند حدّ التقويم والإصلاح ، ولم يُعرّضه

(١) فى الاصل "على ما أحاق" تأمل .

لنَقيصـــة الإقْصاء والاطِّراح، مَنْ شفَع الهَفْوةَ بالاعتِذار، وخطبَ التغَمُّد بلسان الإقْرار، ودلَّت التجارِبُ منه علىٰ حَسْم الأضْرار، وكان له من سالف الخِدَم وسائلُ وذَرائع، ومن صَحيح الإخلاصِ ممهِّد وشافِـع؛ فلا عَجَبَ أنَّ المملوكَ يهْفُو فيعْفُو، ويَظْلِم فيكْظِم، ويجهَل فيَحلُم، ويُخطِئ فيُصيب، ويدْعُو متنصِّلا فيُجيب؛ وقد جعل الله سَهْمَه المعَلَّى، ويَده الطُّولى، وألهمه التفضُّـلَ بالإنْعام، والتغميضَ عن زَلَّات الكِرام؛ وقد حصل للملوكِ فى هــذه النَّبوة من إزْرائِه علىٰ عقْله، وتقْبيحه لفِعْله؛ أعظمُ تجْرِبه، وأكبرُ مَأْدَبه؛ والمملوكُ يسألُ إحسانَ سـيِّدى أن يُعيـدَه إلىٰ رضاه ولُطْفه، ويؤْنِس منه مستَوْحِشَ إقبالِه وعَطْفه؛ ويصَـدِّقَ رجاءَه فيـه، ويُجْزِلَ ثوابَ وِفَادتِه عليه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : المملوكُ يخْطُب صَفْحَ سـيِّده وإقالَتَه بلسانِ الاغتفار، ويسـتَعيدُ ماعَرَف من رِضاه وعاطِفَتِـه بوَسائِل الاعتِذار: ليكونَ المتفضِّلَ فى كلِّ الحالات، والمنعِمَ من كلِّ الجِهات؛ وقد عرفَ السَّهْوَ والنِّسيان، المعْتَرِضين للإنسان؛ وأنَّهما يَحُولانِ بينَهُ وبينَ قَلْبه، ويُزَوِّرانِ عليه خَطَأه فى صُورةِ صوابِه؛ فيتورَّطُ فى السَّقَط غيْرَ عامد، ويتهوَّرُ فى الغَلَط غيْرَ قاصد، وقد قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فِى أَيْمَـانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَـا عَقَّـدْتُمُ الْأَيْمَـانَ ﴾ . وما أوْلىٰ موْلانا بأن يحْفَظَ علىٰ المملوكِ جميـلَ آرائه، ولا يَسْلُبَه ماشَمِلَه من ظلِّ آلائه؛ ولا يَسِمَه بمِيسَمِ العُقُوق فإنه يجدُ نفْسَه بخلاف ذٰلك فى طاعَتِه، ومرتَبَتَها بغير هذه الرتبةِ فى خِدْمته .

فصـــل : وقد آوىٰ سـيدى المملوكَ من ظله، وأعْلَقَه من حَبْله، وأسبغ عليه من فَضْله، ماأنْصفَه به من الزَّمان، وأغْناه عن الإخْوان، ووَقَف رَغَباتِه عليـه، وصَرَف آمالَهُ إليه، ونَزَّله مَنْزِلةَ مَنْ لايشُكُّ فى اعتقاده، ولا يستَرِيبُ بوِدَاده؛ وكان

المملوكُ أرسل لَفْظا علىٰ سبيلِ الإشْــفاق ذهَبَ به الحاسدُ إلىٰ غير مَعْناه ، وخالف فى تفسيرِه حقيقةَ مَغْزاه، وأحاله عن بِنْيته، وعَرَضه عليه علىٰ غَيْر صُورَته : لِيُوحِش محلَّ المملوك المأنوسَ من رِعايَتِــه، ويَنَفِّر سِرْبَه المطمئنَّ بملاحظتِه وعِنَايتِــه ؛ وقد أرسل المملوكُ هذه العُبوديَّةَ سائلا فى مَحْو إظلام مَوْجدته، وأن يُعيدَ المملوك إلىٰ مَكَانه من حَضْرته؛ إن شاء الله تعالىٰ .

لا أتوَسَّلُ إلَيْك إلّا بك، ولا آتيكَ إلا مِنْ بابِك؛ ولا أستشْفِــعُ إليك بسِوَاك، ولا أَكِلُ رَجْعةَ هوَاكَ إلّا إلىٰ هوَاك؛ ولا أنتظِرُ إلّا عَطْفَتَك التى لاتقُودُها زخارِفُ الأموال، ولا تُعيدُها شفاعاتُ الرجال :

إذا أنْتَ لم تَعْطِفْكَ إلّاشفاعةٌ * فلا خَيْرَ فى وُدّ يكونُ بشَــافِعِ

شعر فى معنىٰ ذلك :

هَبْــنِى تَخطَّيتُ إلىٰ زَلَّـــةٍ * ولم أكُنْ اذنَبْتُ فيما مَضىٰ!
ألَيْسَ لِى مِنْ قَبْلِها خِدْمةٌ * تُوجِبُ لى منْكَ سَبِيلَ الرِّضىٰ!

غـــيره :

وَحَقّــكَ ماهَجَرْتُكَ مِنْ مَلَالٍ * وَلَا أَعْرَضْتُ إلّاخوْفَ مَقْتِ!
لِأنَّ طَبَائِــعَ الإنْسَــانِ ليْسَتْ * علىٰ وَفْقِ الإرادَة كُلَّ وَقْتِ!

اعتذار عن التأخر، من ترسل أبى الحسين بن سعد .

إنْ لم يَكُنْ فى تأخّرِى عنْك عُذْرٌ تقبَلُه، فاجعَلْه ذَنْبا تَغْفره .

على بن خلف :

الأعذارُ ـ أطال اللهُ بقاء سَيِّدى ـ تَنْأىٰ علىٰ الاَمتناع ، وتَضيق علىٰ الاَتِّساع ؛ وذٰلك بحَسَبِ ماتُصادِفُه من قَبُول ورَدّ ، ومسامحةٍ ونَقْـد ؛ وأنا أحمَـدُ اللهَ علىٰ أن جعلَ عُذْرى إلىٰ من يتَمَحَّل العُذْر لِمُعْتَذِر ، ويصْفَح صَفْح المـالك المقْتَدِر ، كأنَّمـا ائْتَمَّ بقول الشاعر :

إذَا ماأتَتْ من صاحِبٍ لك زَلَّةٌ * فكُنْ أنتَ مُحتالًا لزَلَّتِـــه عُذْرا

ولم يجعَـلْه إلىٰ من يُغَلِّب هاجِسَ الظُّنون ، علىٰ واضِح الحُجَّـة ، ومعتَلَّ الشكِّ علىٰ صحيح اليَقِـين . ونُمِىَ إلىّ أنَّ غابطا لمكَانى من حَضْرته ، حسـدَنِى علىٰ مَحلِّى من مودّتِه ، وزوّر ماينْكشِفُ عن الإفك والبُهْتان ، ودَلَّس الكذِبَ فى صُورة البُرْهان ؛ فلمـا جَلَّاه فى مَعارِض زَخارِفِه أظهر لسيدى عُوارَه ، وأبدىٰ لطَرْفه شُوارَه [1] ؛ فشَلَّ سَمْعَه عن وَعْيِـه ، وطَرَف طَرْفَه عن رَعْيِـه ؛ واستَنَمَّ عَلَائِمَ شِيمته ، فى حُسْن الظنِّ بأحبَّته ؛ فقدَّمتُ من الاَعتذار مايُقدِّمُه المذنبُ نُزُولا علىٰ طاعتِه ، وتأدُّباً فى خِدْمته ، وشفعْتُه من الشُّكْر بمـا يقتضِيه إحسانُه ويوجبه .

أبو الفـــرج الببغاء :

أحقُّ المَعاذِير بالتقبُّل وأوْلاها بسَعَة القلُوب ماصدَرَ عن اَستِكانةِ الأقْدار ، ودَلَّ علىٰ حَسْم موادّ الأضْرار ، وصَفَا من كَدَر الاَحتِجاجات ، وتنزَّه عن تَمَحُّل الشُّبُهات : ليَخْلُص به مِلْكُ العفْو ، وتتكامَلَ نِعمةُ التَّجاوُز . ولستُ أكْرَه شرَفَ تأْديبه ، ونُبْلَ تثقيفه وتهذِيبه ؛ مالم يتجاوَزْ فى العـقُوبة والتقويمِ إلىٰ مُؤْلِمِ الإعْراض ، ومَضيض

---

(١) أى عيبه وشل سمعه أى طرده والمراد أنه لم يصغ اليه .

التنكُّر والانْقِباض، ولا أخطُبُ الإقالةَ من تفضُّله إلّا بلسانِ الثِّقة وشافِعِ الخِدْمة، هارباً إلى سَعَة كرمه مما دفعتْنِي المحبَّةُ إليه، وأشفىٰ بى عدَمُ التوفيقِ عليه، فإنْ رأىٰ أنْ يكونَ عِنْدَ أحسنِ ظنِّى به فى الصَّفْح، كما هو عِنْد أصدقِ أملى فيه بالإنعام، فَعَل.

وله فى مثـــله :

ليس يَخْلُو الإغْراقُ فى التنصُّـل والمبالَغةُ فى الاعتذار من إقامةِ حُجَّة، أو تمسُّك باعتراضِ شُـبْهة، وأنا أُجِلُّ ما أخْطُبــه من عظيم عَفْوِه، وأُكْبِر ما أُحاوِلُه من نِعمةِ تجاوُزه، عن المقابلة بعيْنِ الاعتراف بالزَّلَل وبعدالاستحقاق من الصَّفْح، مالم يُوجِبْ لى بسَــعَة تأوُّله، ويَعُدْ علىَّ فيه بعاداتِ تفضُّله : لتصْفُوَ منه الأعْضاء، وتلْزَمَنى واجباتُ الشكر والثَّناء، غيْرَ ممتنِـعٍ معَ ذٰلك من التبرِّى إليه مما أَنْكَره من تَجاوُزِ السَّهْو إلىٰ العـمَل، والتوجُّه إلىٰ مافَرَط بالاختيار والقَصْـد اللذيْنِ يُغْفَر بتجنُّبهـما مذْمومُ الأفعال، ويُتَغمَّدُ سَيِّئُ الأعمال، فإنْ رأىٰ أن يحمِلَ أمْرِى فيما قصدَتْنِى الأيامُ بتوجُّه الظُّنُون فيــه علىٰ غَيْر النية لاظاهرِ الفعل، إذ كانتْ صــفاتُ الإنسانِ بالأشْهر من أخلاقه والأكْثَرِ من أفعاله، ولا صِـفةَ لى أعْرَفُ بها وأُنْسَب إليها غيرَ الاعترافِ بإنعامه، والتَّطاوُلِ من اصــطناعه، آخذًا من كلِّ حال بالفَضْـل، ومشَفِّعا بَسْطة الرياسة والنُّبْل.

وله فى مثـــله :

لستُ أخلُو فى المُدّة التى تجاوَزَ الدهرُ لِى عَنْها فى خِدْمتِــه من توصُّـلٍ بفَرْط الاجتهاد، إلىٰ ماوَصَل من رأْيه إلىٰ رُتْبة التقبُّل والإحْماد، وليس يَحْبَطُ ماأتيْتُه من مرضىِّ الخدمة بالنيَّة والعمْد بما لعَلَّه فَرطَ من غير مُراد، إذ كان ـ أيده الله بفائض

طَوْله ، ومأثور فَضْله ـ آخذًا من آدابِ الله بما أحاكمه منه [(١)] : ﴿ إنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئات ﴾ . و [لو] لا إيثارى [(٢)] مفتَرَضَ الطاعة وٱستِكانةَ الاعتداد ، وأن لا أخْطُب رضاه بلِسَان الاحتجاج ، ولا ألْتِمسَ عفْوَه بوجُوب الاستحقاق : لتسْلَمَ له صِفاتُ التفضُّل ، ولى مَوَاتُّ الاعترافِ بسالِفِ التطَوُّل ؛ لبرهَنْتُ علىٰ سَلَامتى مما قُصِر علىّ بتوجُّه الظُّنون وٱعتراضِ الأوهام ؛ ولا أقول بشعَثِ النيَّـة وفَساد الرأْى ؛ فإن رأىٰ أن يحفَظَ ما ٱبتدأه مُخْتارا من ٱصْطِناعى بمـا يصُونُه عن التنكُّر ، ويَصُونَ عادتى فى شكر ذٰلك والاعتدادِ به عن الفُتُور والتغيُّر ، فعل .

أجوبة الاسترضاء والاستعطاف

قال فى "موادّ البيان" : لايخلُو المعتذَرُ إليـه من أمرين : أحدُهمـا أن يقْبَل العذْرَ ، والآخر أنْ يستمرَّ علىٰ المَوْجِدَة ويرفُضَ مايأتى به من حُجَّة ؛ فإن كان قد قَبِل العُذْرَ ، وجب أن يبنىٰ الجوابُ علىٰ وُصُول الكتاب ، والوُقُوف عليه ، والتقبُّل لمـا تضمَّنه ، وتبرئةِ المعتـذِر عن الحاجة إلىٰ الاعتِذار ، والانقياد إلىٰ الاعتراف بالجُرْم والإقْرار ، إكرامًا لخُلَّتـه عن التُّهَمة ، وللمودّةِ عن الظِّنَّـة : فإن الأمر الذى أوجب العُـذرَ لو صدر منـه ، لاقتضىٰ ودادُه التأوّلَ له بأنّه ما صـدر إلا عن باطِنٍ سليم ومصلحةٍ أوجبتـه . قال : وليس هـذا المعنىٰ هو الذى يُجاب به مَنْ قُبِل عُذْره فقط : لأنه يجوز أن يجيب بأنه قد قَبِل العُذْر ، وصفَح عن الجُرْم ، علىٰ أنْ لايعودَ إلىٰ مثله . وإن ٱستمرَّ علىٰ القصـد [(٣)] ، بنى الجوابُ علىٰ إبطال العُذْر ومعارضتِه بمـا

(١) كذا فى الاصل ولعله « إليه » .

(٢) فى الأصول «ولا ايثارى على مفترض .... ألا أخطب الخ» .

(٣) أى قصد الصدّ وبقى على هجره ولم يقبل الاعتذار .

يقتضيه ؛ والدلالة علىٰ خطإ المعتَذِر ، وأنه مما لايسُوغُ الصفْحُ عنه ، ولا يليق بالحَزْم إقالتُه .

قال : وهذانِ معنيانِ يَحْمِلان من العبارة مالا يكادُ يَنْحصر فى قول مشْرُوح مبسوط ، فضلا عن قولٍ مجمَلٍ مُوجَز ، إلَّا أن المتدرِّب بالصناعة إذا مَرَّت به هذه الأصول أمكنه التفريعُ عليها .

النـــوع العـاشر

(فى الشكوىٰ ـ أعاذنا الله تعالىٰ منهـا)

قال فى " موادّ البيان " : رِقاعُ الشَّكْوىٰ ـ عصَمَنا الله من مُوجِباتها ـ يجبُ أن تكون مبنيَّةً من صِفَة الحال المُشْكِية ، علىٰ مايُوجب المشاركة فيها ويقْضِى بالمساعَدَة إن آستُدْعِيتْ عليها ، من غير إغْراقٍ يُفْضِى إلىٰ تَظْلِيم الأقْدار وإحْباط الأَجْر ، وشَكْوىٰ المبتَلِى بالخيْر والشرِّ سبحانه وتعالىٰ ، ويدلُّ علىٰ التهالك بالجَزَع ، وضعف التماسُك وقُوّة الهَلَع ؛ بآستيلاء القُنُوط والإيَاس ، وأن يشْفَع الشكْوىٰ بِذِكْر الثقة باللهِ سبحانه ، والتسليم إليه ، والرِّضا بأحكامه ، وتوقُّع الفَرَج من عِنْده ، وتلَقِّى آختباره بالصبر ، كما نتلَقَّى نعمُه بالشكر ؛ ونحو هذا مما يليق به ويجرى مَجْراه . قال : وقد يكتُبُ الأتباعُ للرؤساء رِقاعاً بشِكاية الأحوال ومساءَلة النظر ؛ ثم ذكر أنَّ سبيل هذه الرِّقاع أن يُعْدَل بها عن التصريح بالشَّكوىٰ إلىٰ لَفْظ الشُّكر ومَعْناه ، وطلب الزيادةِ والإلحاق بالنُّظَراء فى الإحسان : لما فى إطْلاق الشكاية ، والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمُه النظرُ فيه من أحوال خاصَّتهم وتعهُّد مَرَافِقِهم من الكفاية .

وهذه نسخٌ من ذلك :

رُقْعـــة شكوىٰ هُموم :

كتب المملوكُ هذا الكتَابَ وهو رَهِينُ فِكْرٍ وغَمّ، وقَلَقٍ وهَمّ، وحَلِيفُ جَوًى قد سكَنَ القلب، وخوفٍ قد أطار اللُّبّ؛ وبالله العِياذ، وهو المَلَاذ؛ وبيــده تُحَلُّ العُقْده، وبأمره تَزُول الشِّدّه؛ وقد ألهم اللهُ سبحانَه المملوكَ صَبْرا يَسَّر أمْرَه، وأمَلًا فى الفَرَج خفَّف ضُرَّه؛ وليس بآئسٍ من عَطْفته، ولا قانِطٍ من نِعْمتِه .

رقعـــة فى معنىٰ ذلك :

كتب المملوكُ وهو شاكٍ لتجاهُل الأيام، وَقِيذٌ من مواقِع سِهامها الرَّغيبة الكِلَام؛ مَنْهومٌ بهُمُوم تُضْعِف الجَلِيد، وتَسُوء الوَدِيد، وتَسُرّ الحسُود، لاقٍ من قَسْوة الدهر وفَظَاظتــه ، ونَبْوة العَيْش ونُفْرته ؛ ما يردُّ الجفُونَ عن الهُجُوع ، ويُغْــرق العيونَ بالدُّموع ، ولله تعالىٰ فى عباده أقضــيةٌ يَقْضِيها ، وأقدارٌ يُمْضِيها ؛ واللهَ أسألُ حسنَ العاقبة والِختَام، وتمحيصَ الأوزارِ والآثام .

رقعـــة : كتبَ المملوكُ وجِسْــمُه صَحِيح، وقلْبُــه قَرِيح، وجَنَانُه سَلِيم، وجَنَابه سَقِيم : لمــا يَتَبادر إليه من نِكَاياتٍ تقْدَح وتَقْرَح، وحادثاتٍ تَكْلِم وتَجْرَح؛ ونُوَبٍ تَهُضّ، وتَهْدِم وتَرُضّ، وخطوبٍ تُخاطِب شِفَاها، وتُوصِّل من اليَد إلىٰ اليد أذَاها؛ إلَّا أنَّ الله يُهِبُّ رِيح المِنَح، وقد تداكت المِحَنُ فينشِفُها، ويشقُّ عمودَ الفَرَح، وقد ادْلهمَّت فيَكْشِفُها؛ وظنُّ المملوكِ بالله تعالىٰ جميل، وله فى صُنْعه ولُطْفه تأْميل .

رقعـــة : ويُنْهِى أنه قد كتب هذه العُبودِيَّة بيدٍ قد أرعشَتْها الآلام، يُمْلِى عليها قلْبٌ قد قلَبَته الأسْــقام؛ بِجِسْمُه ناحل ، وجَسَده بعــد النَّضْرة قاحل ؛ وقُواهُ قد

وهَنَتْ، وجَلَادتُه قد وهَتْ؛ وصبْره قد تخَلّى وآضْطَرب، وتحمُّله قد نأىٰ وآقترَبْ؛ وعاد شَبَحا من الأشْباح، وهَباءً تَذْرُوه الرِّياح؛ فلو آعتلَق بشَعْرة لم تَنْصَرِم، أو وَلَج خَرْتَ إبرةِ خيَّاط لم تنْفَصِم؛ ولولَا الثِّقةُ باللهوأنه يُتْبِع السُّقْمَ بالصِّحّه، ويَشْفَع المِحْنَة بالمِنْحه؛ لذَهَب مابَقِيَ من ذَمَائه، وأطَلَّ علىٰ شَفَا شَقَائه؛ والمملوكُ يستشْرف منه تعالىٰ لُطْفا يُعيد الكَليل حَدِيدا، والمُخْلَق جَدِيدا .

رقعـــة : ويُنْهِى أنه قد كَتَب هـذه الرُّقْعة، وقد ساءَ أثَرُالأيَّام عليــه، وقَبُح صُنْعُها لدَيْه؛ وآبتلَتْه بمُؤْلِم البَلْوىٰ، وأنطقَتْه بلسان الشَّكْوىٰ؛ فهو محتَرِقٌ بنارِ الغَيْظ، يدْعُو علىٰ نَفْسه بالفَيْظ؛ إن لم يكن فَرَجٌ يفرِّجُ بين الأضْداد، ولُطفٌ يُرِيح من هذا الجِهَاد؛ وكُلَّما طلبَ المُزايلةَ عوَّق، أو طلَبَ الفِكَاكَ آعتلَقْ؛ فهو قاطِنٌ فى صُــورة الظَّاعِن، وحالٌ فى حالِ الراحِل، واللهُ يمنُّ بالمَخْرَج، ويأتِى بالفَرَج .

رقعـــة : وقد سَطَّر المملوك هذه العبُودِيَّة، وقد آنجلَتْ هذه النَّبْوه، عن البَلَاء والشِّقْوه، ونَفَادِ المــال، وآستِحالَةِ الحال، وآستيلاءِ العدُوّ، وآستِعْلاء السُّو، وكذا الدهْرُ خَدُوع غَرُور، خَئُون غَدُور؛ إنْ وهبَ آرتَجع، وإنْ ألبَس آنتزَع؛ وإن أعْطىٰ أعطىٰ قَليلا وقلَع؛ وإنْ أحلىٰ أمَرّ، وإن نَفَع ضَرّ؛ وإن أبْرَم نقَض، وإنْ رفَع خفَض؛ وإن أقبَــلَ أعْرَض، وإن وعَدَ أمْرَض؛ فنِعَمُه مقرونةٌ بالزَّوال، ومِنَحُه معرَّضة للآنتِقال؛ وصفْوُه مَشُوبٌ بالكَدَر، وعيْشُــه ممزُوجٌ بالغِيَر؛ ما أجَنّ الا أوجدَ خَللَا، ولا أمَّن إلا أتْبَع الأَمْن جللَا؛ والمملوكُ يحمَدُ اللهَ تعالىٰ علىٰ أن أوسَعه فى حال البَلَاء شُكْرا، وفى حال الآبتلاء صَبْرا .

أجوبةُ رِقاع الشـكوىٰ

قال فى "موادّ البيان" : يجبُ أن تبنىٰ أجوبةُ هذه الرِّقاع علىٰ الاْرتمـاض فى الحـال المُشْكِيةِ، والتوجُّع منها، وبَذْلِ الوُسْع فى المَعُونة عليها ، والمشاركةِ فيها ؛ وما يجرِى هذا المَجْرىٰ ممـا يلِيقُ به .

النـوع الحـادى عَشَر

(فى آستمـاحةِ الحـوائج)

قال فى " موادّ البيان " : ورقاعُ الاْستماحةِ يُخْتار أن تكونَ مُودَعةً من الألفاظ ما يُحرِّك قُوىٰ السَّماح ، ويبعثُ دَواعِىَ الاْرتياح ؛ ويُوجِب حُرمةَ الفضـل المسَهِّلةَ بَذْلَ المـال الصَّعْبِ بذْلُه ، إلّا علىٰ من وَفَّر اللهُ مُروءَته ، وأرخص عليه أثمانَ المحامِد وإن غلَتْ .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطَّف فيها التلطُّفَ الذى يَعُود بنَجاح المَرام ، ويؤمِّنُ من الحصُول علىٰ إراقة [ماء] الوجْه ، والخيبةِ بالردّ عن البُغْية ، ويعْدِلَ عن التثقيل والإلحافِ المُضْجِريْن ولا يضَيِّق العُـذْرعلىٰ السَّماح إلا أن يتمكَّن للثقة به ، ويعْلَمَ المشاركةَ فى الحال .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

من كتاب [أبى] الحسين بن سعد .

أفضلُ القول أصدَقُه ، وأهنىٰ المعروفِ أعجَلُه ، وأبلغُ الشُّكْرأظهرُه .

ومنـــه : إن حضَرَتْك نيَّةٌ فى قضاء حاجةٍ فعجِّلْها ، فإنَّ أهنىٰ المعروفِ ماعُجِّل ، وأنْكَدَه ماتنازعته العِلل ، وآعترضتْه كثرةُ الاِقتِضاء .

ومنـــه : أنتَ أعزَّك اللهُ واجدُ السبيلِ إلىٰ آصْـطِناع المعروفِ وآكتســابِ الثَّواب ، وأنتَ أعرَفُ بمــا فى آستِنْقاذِ أسيرٍ من أسْرىٰ المسلمين ، من وارد الأَسْر ، وعَرْصة الكُفْر ، وآنتِياشِه من الذِّلّة والفاقة ، والبَلاءِ والمشَقَّة ، من جزيلِ ثوابِ الله وكريم جزائِه [وأجَلُّ] من أنـــ تُخاطَب فى ذٰلك مخاطبَةَ من يحتــاجُ إلىٰ زيادةٍ فى بصيرته ، وتقويةٍ لنيَّته ؛ وبالله توفيقُك وعَوْنُك .

علىّ بن خلف :

قد تَمسَّكَ أمَلِى بضَمانك ، وتطلَّع رجائِى إلىٰ إحْسانك ، وكَفَل لى النجاحَ مشْهورُ كرمِك ، ورَغْبتُك فى رَبِّ نِعَمِك ، ولِى من فضْلك نَسيب أعتزِى إليه ، ومن شُكْرى شفيعٌ أعتمِدُ عليه .

وله : المَوَاعيدُ ـ أطال اللهُ بقاءَ مولاىَ ـ غُرُوس ، حُلْو ثمرِها الإنجازُ والتعْجيل ، ومُرُّه المَطْلُ والتطويل ؛ وقد شامَ أمَلِى من سَحائبِ فضْــله ، حقيقًا بأنـــ ينْهمِر ويَهْمِى ، وآرتاد من روضِ نُبْــله ، جديرًا بأن يَزِيدَ ويَنْمِى ، فإن كانتْ هــذه المَخِيلة صادِقَه ، فلْتكُنْ منه هِمَّةٌ للرجاء محقِّقه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هَمَمتُ أنْ أستصْحِب إلىٰ مولاى ذَريعةً تحجُبُ مَطْلِى ، وتكونُ حِجَــابا علىٰ وَجْهِى فى المطالعة بأَرَبِى ، فَلاحَ لى من أسارِيرِه بَرْقٌ أوضحَ مَقْصــدى ، ومن أخلاقِهِ آنبساطُ أمَالَ تجعُّدِى ، ولسْتُ مع معرِفَتِه بحقِّ نعمة الله تعالىٰ وحقِّ مؤمِّله ، محتاجًا عنده إلىٰ ذَريعة ولا مفتقرًا إلىٰ وَسيلة .

وله : ولا يحملنى مولاى على ظاهر تجملى ، وجميل توكلى ، على[(١)] حالٍ قد أحالتها العطلة ، وتخللتها الخلة ، وإنما أبقى بالتجمل على ديباجة همتى ، وأصون بالتخفيف عن الصديق مروتى ؛ ولولا أن الشكوى تخفف متحمل البلوى ، لأضربت عن مساءلته ، وأمسكت عن تذكيره ، ولكن لابد للوصيب الشاكى ، من ذكر حاله للطبيب الشافى ؛ وقد كان برق لى من سحاب وعده ما هو جدير بالانهمار ، وأورق من نمائه ما هو حقيق بالإثمار ؛ فإن رأى أن يسم وجه التأميل ، بعد الإنجاز والتعجيل ، فعل .

وله : ما حامت آمالى ــ أطال الله بقاءه ــ إلا وقعت بحضرته ، ولا صعبت على جوانب الرجاء إلا سهلت من جهته ؛ ولا كذبتنى الظنون إلا صدقها بعلو همته ؛ فلذلك أعتلق فى المهم بحبله ، وأعتصم فى الملم بظله ؛ وقد عرض لى كذا وعليه فيه المعول ، وهو المرجو والمؤمل ؛ وما أولاه بالجرى على عادته فى ريش جناحى ، والمعونة على صلاحى .

فى طلب كسوة ، من كلام المتأخرين :

ألا أيها المولى الذى نهر جوده * يزيد وعاصى أمره الدهر ينقص!

إليك اشتكائى من دمشق وبردها * وما أنا فيه من أمور تنغص!

وإنى فى عرس من البرد دائم * تصفق أسنانى وقلبى يرقص!

المملوك ينهى بعد الابتهال إلى الله تعالى فى إدامة نعمته ، وإدالة دولته ، أنه ماألف من إحسانه إلا أنه يضاعف رسم الإنعام ، ويواتر إرساله على ممر الأيام والأعوام ؛ وللمملوك فى خزانته الشريفة فى كل عام تشريف يفيضه على جسده ،

(١) كذا فى الأصول والظاهر "بل أنا على" الخ .

ويُسَرّ به قلوبَ أوليائه ويفُتُّ أكبادَ حُسَّده، ويتّقِي به سَوْرة الشتاء وقُرّه، ويجعله قُرّة ويحمِلُ به من الدَّعَة وِقْرَه، وقد دَرَس رسمُه، وفُقِد من الدِّيوان المعمورِ آسْمُه، وهو يسألُ بُروزَ الأمرِ العالى بإجرائه علىٰ عادتِه المستمِرّه، وقاعدتِه السالفةِ المستقَرّه، بتشريفِه بأخْذ التشريف ولُبْسه : ليدْفَع بذٰلك شِدّةَ البَرْد وأليمَ مَسِّه، ويتذكَّربها فى يومه مايُوجِب حمدَ المولىٰ وذَمَّ أمْسِه، ورأيُه العالى .

وله فى طلب ورق :

يا أسْمَحَ الناسِ ويامَنْ غدَا * جَبِينُه يُخْجِل ضَوْءَ الشَّفَق!
جُودُكَ بالوَرْقِ(١) عمِيمٌ [فلِمْ] * أخَّرتَ يامَوْلاىَ بَعْثَ الوَرَق؟

وله فى طلب رَسْم :

رَسْمِىَ يامَوْلاىَ غَدَا * مُؤَخَّرًا ولو حَضَرْ!
ولَوْ أرادَ سيِّدِى * إحْضارَه، كانَ أمَرْ!
فقَدْ مَضىٰ مُحَرَّمٌ * وراحَتِى مِنْه صَفَرْ!

وكتب كاتبٌ إلىٰ مخْدومه، وقد تأخّر صرفُ معلومه :

وتَعلَمُ أنّى كثيرُ العيَال * قَلِيلُ الجِرايةِ والواجِبِ!
فلَسْتُ علىٰ ظَمَإٍ قانِعًا * بوِرْدٍ من الوَشَلِ الناضِبِ!
ولا شَكَّ فى أنّنِى هارِبٌ * [فـ]ـقَدِّرلنَفْسك فى كاتِبِ!

(١) الورق مثلثة وككتف وجبل الدراهم المضروبة اهـ من القاموس .

قلت : وكتبتُ نظْما لأمير المؤمنين المستعينِ بالله أبى الفضل العبّاس : خليفة العَصْر، أسْتمِيحه حاجةً فى مَجْلِس كان فيــه هو وولَدُه يحيىٰ وأخَواه داودُ و يعقوبُ ماصـــورته :

إذا رُمْتَ أن تَحْظىٰ بنَيْـــل مآرِبٍ * فبادِرْ إلىٰ العَبَّاس مِنْ آلِ عبَّاس !

إمامٌ به ثَغْـــرُ الخِـــلافة باسِــمٌ * وعِرْنِينُها يَسْمُو علىٰ قِمَّـــة الراسِ !

أَبىٰ الفضْـــلُ إلاَّ أنْ يكُونَ لِأَهْلِهِ * [دواما]وأنْ يُدْعىٰ أبا الفَضْل فى الناسِ !

فلْلمستَعِينِ آقْصِــدْ تَجِدْ خَيْرَ مُنْجِدٍ * حرِيصٍ علىٰ المَعْرُوف بَرًّا بإيناسِ !

فَيَحْيا له يَحْـــيىٰ وداوُدُ صِـــنْوُه * ويعقوبُ أعْضادًا وحصْنًا من الباسِ !

وكتبت لقاضى القُضاة شيخِ الإسلام جلالِ الدِّين عبد الرحمن آبن شيخ الإسلامِ عُمر البُلْقِينِيّ أستميحُه حاجة أيضا :

أَيَا شَيْخَ إسْـلامٍ وقاضِى قُضاتِهِ * ومَنْ قد سَما فى الناسِ عِلْمًا ومَنْصِبا !

لقَـــدْ عَمَّ نَوْءُ منكَ كلَّ مُؤمِّلٍ * وحاشىٰ لَبرْقٍ شِمْتُ يظْهَرُ خُلَّبا !

أَأُحْرَمُ معْرُوفًا له كُنْتُ أرْتَجِى * ويَحْجُبُ ذُو بُعْدٍ من القومِ أقْرَبا !

وما زِلْتُ أرجُو فى زَمانِك رِفْعةً * ولٰكِنْ جَوادُ الحَظِّ بالبُعْدِ قدْ كَبَا !

ولَنْ يَسْتعِيضَ الخَفْضَ بالرَّفْع ماجدٌ * خُصوصًا ومَنْ أَخَّرْتَ ما نَالَ مَطْلبا !

ولَسْتَ ترىٰ مِنِّى إلَيْكَ وَسِـيلةً * سِواكَ وَحَسْبِي بِاْعتِلاك تَقَرُّبا !

وكتبت لقاضى القُضاة جمالِ الدين محمود القَيْسَرانى (١) ، وهو يومئذٍ قاضى قُضاة الحنفيــة وناظِرُ الجُيوش المنصورة ، أذكُرُ بِطالةً عرضَتْ لى من وظيفةِ مباشرةٍ كانتْ بيدى :

إلىٰ اللهِ أشْكُو مِنْ زَمانِى بَوَارَهُ * فأمسَيْتُ فى الحِرْمانِ بِى يُضْرَبُ المَثَلْ !

تمادَيْتُ بَطَّالًا وأَعْوَزْتُ حِيــلةً * ولم يَبْرَحِ البَطَّالُ تُعْرَفُ له الحِيَــلْ !

فلا مُلْتَجىً جاهٍ ولا عِزُّ صاحبٍ * ولا مالِكٌ يَحْنُو فيــاقَوْمِ ما ٱلعَمَلْ ؟

ولٰكِنَّ (محمــودَ) العَواقِبِ أرْتَجِى * ومَنْ يحمَدُ العُقْبىٰ علىٰ القَصْدِ قدْ حَصَلْ !

وكتبت للقاضى شمسِ الدين العُمَرىّ كاتب الدَّسْت الشريف فى حاجةٍ نَجَّزها :

إن لَّا أرىٰ عُمَرًا حَتّىٰ أُلِــمَّ بِهِ * ألفيْتُ من نَسْلِهِ مَنْ كانَ لِى عُمَرا .

لم يَغْفُ عن حاجَتِى حتّىٰ أُنَبِّهَــه * وكيْفَ يَغْفُو وفى المَعْروفِ كَمْ سَهِرا ؟

جعَلْتُه مبتــدًا فى رَفْعِــه خَبَرى * وعادةُ المبتَــدَا أنْ يَرْفَعَ الخَبَرا !

أجوبة ٱستمــاحة الحوائج

قال فى "مواد البيان" : لايخلُو المستماح والمكلَّف حاجةً من أن يُسْعِف أو يمنعَ ، فإن أسعَفَ فقد غَنِيَ عن الجواب ، وربما أجاب المُسْعِفُ بجواب مبنىٍّ علىٰ حُسْن موْقِعِ ٱنبِساطِ المستميح ، والاعتذار عن التقصيرِ فى حَقِّه وإن كان قد بلَغَ به فوق

(١) نسبة إلى قيسارية على غير قياس .

ما يجِبُ له ـ تكرُّما وتفضُّلا ، وإن منع فربَّما أجاب بعُذْر فى الوقت الحاضِر أو عُذْر فى المستأْنِف ، وربما أخَلَّ بالجواب تغافُلًا .

وهــذه نسخة جواب بالإسعاف بالمقصُود ، كُتِب بها فى جوابٍ لكاتبِ السِّر عن نائب الشام ، فى طَلَبِ إقطاع ، من إنشاء الشيخ جمـالِ الدين بن نُباتَة إجابةً للطلوب ، وهى :

لازال قلَمُها يَمُدُّ علىٰ الإسلامِ ظِلًّا ظَلِيلا ، ويستَجِدُّ صُنْعا جميلا ، ويأخُذُ بأمْرِ الله أعداءَ دِينِه أخْذًا وَبِيلا ، ويقومُ باجتهادِه فى مَصَالِح المُلْك النَّهارَ كُلَّه والليلَ إلّا قليلا ؛ تقبيــلَ مُواظِبٍ علىٰ ولاءٍ لا يجِدُ له تبْـدِيلا ، وثناءٍ لو سمِعَه المُحِبُّ فشَافَهَ الأحبابَ إذًا لاتَّخذُوه خَلِيلا .

ويُنهِى ورُودَ مشرِّفة مولانا القديم فضْلُها ، الكريم وصلُها وأصلها ؛ فوقف المملوكُ عليها ، وأصْغىٰ بجملتِه إليْها ؛ وعلِم مارَسَم به مولانا ، وأشار إليــه تِبْيانا ؛ وكذٰلك بلَّغه مملوكُه الولدُ فلان المشافهة الكريمة خَبَرًا من صاحب السِّرِّ إسرارا وإعلانا ؛ وشكر لها مشرِّفةً ومشافهةً أوردا الإحسانَ مَثْنَى مَثْنىٰ ، وسِرًّا سمعه المملوكُ لفْظا وآستهداه مَعْنىٰ ؛ فمـا مِنْهما فى الإحسان إلّا زائده ، ولا فى الصِّلات إلا عائدَه ؛ لا جَرَمَ أنَّ المملوك أقبل علىٰ قَبِيلهما بسمْعِه وناظِره ، وقلْبِه وخاطِرِه ، وجُمْلتِه وسائِرِه ؛ وآمتثل الإشارةَ العاليةَ التى من حقِّها أن تُقدَّمَ علىٰ كلِّ مهِمٍّ يرِدُ عليه ، وأمْرٍ يتوجَّه إليــه ، ويدُ الزمان مشكورةً يأخُذها منه بكلْتَا يديْه ؛ وعيَّن المملوكُ لوقته الإقطاعَ المطلُوب ، وتقدّم بكتابةِ مربَّعته حَسَب مارَسَم مَنْ تجرى السعادةُ مِنْ سَطْره تحتَ مكتُوب ؛ وجهَّزها قرينَ هــذه الخدمة ومَنْ ذا يُقارِنُ سبْقَ ذٰلك البِرِّ المــديد ، وكيف تُوازى

المربَّعة كتابا هو بالإحسان للعُنُق تقْليد؛ لابرِحتْ مراسِمُ مولانا معدودةً من رُسُوم نِعَمه، ومشرِّفاتُه محسوبةً من تشريفاتِهِ التى يَخْلَعُها علىٰ أبناءِ محبِّيه وخَدَمِه .

النــــوع الثـانى عشر

(فى الشـــكر)

قال فى "موادّ البيان" : رقاعُ الشُّكر يجبُ أن تكونَ مُودَعةً من الٱعتراف بأقْدار المَوَاهب، وكِفاية الٱستقلال بحُقُوق النعم، والٱضْطِلاع بحملِ الأيادى ، والنُّهوض بأعباء الصنائع ، مايَشْحَذ الهِمَمَ فى الزيادة منها، ويُوثِّق المصطَنِع بإفاضة الصُّـنْع ؛ ويعربُ عن كريم سجيَّةِ المحسِنِ إليه .

قال : وينبغى للكاتب أن يفتَنَّ فيها، ويقرّب مَعَانيها، وينتحلَ لهـا من ألفاظ الشكر أنْوطَها بالقلوب: لتستيْقِنَ نفسُ المتفضِّل أنه قد ٱجتنىٰ ثمرةَ تفضُّله، وحصل من الشكر علىٰ أضعافِ مابذَلَه من مالِه أوجاهِه، إلَّا أنَّه ينبغى أنها إذا كانتْ صادرةً من الأتباع إلىٰ رُؤسائهم ، ومَنْ يرجِع إلىٰ ٱختصاصٍ وأثْرة، أنْ لاتبنىٰ علىٰ الإغراق فى الشكر : لأن الإغراق فى الشكر يحمل هذه الطبقةَ علىٰ التملُّق الذى لايليقُ إلَّا بالأباعد الذين يقصِدُون الدِّلالةَ علىٰ ٱستقلالهم بحقُوق ما أُسدِىَ إليهم ؛ فأما من ضَفَا عليـه من النعم ما يدْفَع الشكَّ فى ٱعترافه بالذّل لديه ، فإنه يَغْنىٰ عن المبـالغة فى الشكر والٱعتداد ؛ ثم قال : وإنمـا يجب أن يذهبَ فيما يكتب عن هٰؤلاء من هذا الفنِّ مذْهَبَ الٱختصار، والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعَانى الشكر، دون مَذْهَب الغُلُوِّ والإفْراط، وذُو الطبع السليم، والفكر المستقيم، يكتفى بيسير التمثيل .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفرج الببغاء، فى شكر تابع لمتبوع :

أنا فى شُكْرِه ـ أيده الله ـ مُبَرْهِنٌ عن مَواقِـعِ إحسانِه إلىّ، وتظَاهُرِ إنعامه علَىّ، لامقـدّرٌ أنِّى مع المبالغةِ والإسْهاب ، والإطالةِ والإطْناب ؛ أجازى عفْوَ تفضُّله ، ولا أجامِلُ أيسَرَ تطوُّله ؛ وقد وَسَمنى أيده الله من شَرَف آصْطِناعه ، بمـا بوّأنى به أرفَعَ منازِل خَدَمه وأتْباعه ؛ وإلى اللهِ أرغبُ فى توفيق من مقابلة ذلك بالآجتهـاد فى خِدْمته، والمبالغةِ فى طاعتِه ـ لِمَـا أكونُ به للمزيد مستوْجِبا، ولِلحُظْوة مستحِقّا .

وله فى شكر قريب :

فرْضُ الشكر ـ أعزّك الله ـ لايَسْقُط بقرب الأنساب، ولذلك لا أستجيزُ إغفالَ الواجبِ علَىّ منه، ولا أجدُ عُدُولا فى التسامح فيـه والإضرابِ عنـه، وإن كنتَ غنيًّا عن الإفاضة فيما أعتقدُه من ذلك وأُضْمِره، وأُبْدِيه وأُظْهِره؛ بالمتعَالَم من خُلُوص النيةِ وصحة الآعتقاد ، فلا أخلاكَ [الله] من جميلِ تُسْدِيه، وتفضُّل تُولِيه؛ يمترِى لك المزِيدَ من سوابِـغ النِّعم وفوائِدِ الشكر .

وله : قد آستنفَد مادَّةَ شُكْرِى ، ووُسْعَ آعتِـدَادِى ونَشْرى ؛ تتابعُ تفضُّـلِك ، وتوالِى تَطوُّلِك ؛ ولستُ أقـدِرُ على النُّهوض بشكر مِنَّـةٍ حتّى تطرُقَنى منك مِنَّـه، ولا أُحاوِل مجازاةَ نِعمَةٍ حتّى تَفِدَ عَلَىّ منْـك نِعمه؛ فبأىِّ عَوارِفك أعترِف، أم بأىِّ أياديك بالثَّناء أنتَصِف ؛ فقـد فزِعتُ إلى الإقْرار بالعجْز عمَّـا يلزَم من فُروضك، وواجباتِ حقُوقِك،وآنصرفتُ إلى سُؤال الله جلَّ آسمه بإيزاءى شُكْر ماوهبَ منك، والتَّجاوُز للمكارم والفضل عَنْك .

وله : وقد شكرتُ بِرَّكَ الجليلَ موْقِعه ، اللطيفَ موْضِعه ، الخفيفَ مَحْمَلُه ، العَذْبَ مَنْهَلُه ، وشافهتُك من ذلك بما ٱتَّسعتْ له القُدْرةُ لا ما تقتضيه حقوقُ المِنَّة .

وله : أنا فى الشكر بين نعمةٍ تُنْطقنِى ، وعَجْزٍ عما يجبُ لك يُخْرِسُنى ؛ ولستُ أفْزَعُ إلىٰ غير تجاوُزك ، ولا أعتمِدُ علىٰ غير مسامحَتك ، ولا أتطاولُ إلا بمَكانِى منك ، ولا أُفاخِر إلا بمَوْقِعى من إيثارك ؛ فالحمدُ لله الذى جعلَنِى بوَلَائك مشهُورا ، وفى شكرك مقْصُورا .

على بن خلف :

رقعة : وينهِى أنَّ الله تعالىٰ لَمَّا ألْهَم مولانا البِرَّ ، ألهم المملوكَ الشُّكْر ؛ فهو لايَزالُ يُوسِع فى البِرِّ ويَزِيد ، والمملوكُ لايَزالُ يُبْدى فى الشكر ويُعيد ، ولٰكِنْ شتَّانَ بين فاعلٍ وقائل ، ومُعْطٍ وقابِل ، وواهبٍ وسائِل ، ورافِد وحامِد ، وشاكر وشاكِدْ ؛ والمملوكُ يَحمَدُ الله تعالىٰ إذ جعل يدَه الطُّولى ، وحظَّه الأعلىٰ .

رِقعة : وصل بِرُّ مولانا وقد أحالت الخَلَّةُ من المملوك حالَه ، وأمالَتْ آمالَه ؛ فلأَمَتْ ماصَدَعه الدهرُ من مَرْوَته ، وجدّدَتْ ما أخلقه من فَرْوته ، فكفَّ المملوك يديه [عن] ٱمتحان الخُلَّان ، وقبضَ لسانَه عن شِكاية الزَّمان ؛ وأقرَّ ماءَ وجْهِه فى قَرَارته ، وحفِظ علىٰ جاهِه لِباسَ وَجاهتِه ؛ فيالَهُ من بِرٍّ وقَع من الفقْر ، مَوْقِعَ القَطْر من القَفْر ؛ ولم يتقدّمْه من قدامة الوَعْد ، ما يتقدّم القَطْرَ من جَهَامة الرَّعْد ؛ وكلُّ مَعْروفٍ وإن فاضتْ ينابِيعُه ، وطالتْ فُروعه ، قاصرٌ عن الأمل فى كرمه ، واقعٌ دُونَ غاياتِ هممه ؛ كما أنَّ الشكر ولو واكبَ النَّجْم ، وساكب السَّجْم ؛ قاصرٌ عن مكافاة تفضُّله ، ومُجازاة تطَوُّله ؛ والمملوكُ يسأل اللهَ تعالىٰ الذى جعله قُدْوةَ

الكرام، وحسنَةَ الأيّام، وربَّ الإنعام، وواحدَ الأَنَام؛ أن يُلْهِم المملوكَ من حَمْده، بقدر ما أسبغه عليه من رِفْده .

رقعـــة شكر : عِنْـد المملوك لسيِّدى أيادٍ وصلَتْ سابقـةٌ هَوَاديها ، وظلَّتْ لاحِقةً تَوَاليها ؛ فصارتْ صُـدورُها نسـبا أعتَزِى إليــه ، وأعجـازُها [سبَبًا أُعَوّل فى الملمَّـات عليه] .

رقعـــة : لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ جعل الشُّـكر ثمرةَ البِرّ، والحمـدَ جزاءَ الرِّفْد، وأراد إقرارَهُما علىٰ أهلِهما من الغابِرِين ، وأن يجعَـلَ لهم مِنَّا لسانَ صِـدْق فى الآخِرِين ؛ لكان الذى غَمَر به موْلانا من الإنْعام ، يُحـدّثُ عنـه تحَدُّثَ الرِّياح بآثارِ الغَمَام ؛ ويُكْفىٰ المملوكُ بالإشاره، مَئُونةَ العباره؛ والمملوكُ وإنْ رام تأدِيةَ ما يلزَمُه من شُكره، قاصرٌ عن غاية بِرّه؛ ولو ٱستَخْدَم ألسِـنةَ الأقلام ، وٱستغْرقَ أمَدِى النِّثار والنِّظام؛ وموْلانا جديرٌ بقَبُول اليَسِـير، الذى لا تُمكِنُ الزِّيادة عليه؛ والصَّفْحِ عن التقصِـير، الذى تَقُودُ الضرورةُ إليه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : لو أنَّ هذه العارِفةَ بِكْرُ عَوارِفه ، وباكُورةُ لطائِفه ؛ لعجَزْتُ عن شُكْرها ، وقَصَّرت عن نَشْرها ؛ فكيفَ وقد سبَقَها قرائنُ ونظائر، وتقدّمَها أترابٌ وضَرائِر؛[مما]أثقَلَ من المملوك كاهلَه ،وبَسَط به يدَىْ أملِه ؛فما يَعْدَم شيئًا فيُرَجِّيه، ولا يَفْقِده فيرْغَب فيــه ؛ والذى تَرُبُّه من المملوك جوارِحُه، وتَحْوِيه جوانِحُه؛ علمُه بأنه لايُجارِى أياديه ، ولا يُجازى مَسَاعِيه ؛ واللهُ تعـالىٰ يخصُّه من الفضائل ، بمثل ماتبَرَّع به من الفَواضل .

رقعــــة : ومِثْلُ مَوْلانا من [ذوى الشَّرَف](١) والسُّودد من حَسُن مَحْضَره، وطاب مَخْبَره، وكُرم غيبُه ومَشْهده، وصحّ علىٰ تغايُرِ الأحوال عَقْدُه ووُدُّه؛ وقد آتّصل بالمملوك ماأعاره له مَوْلانا من أوْصافه، وجرىٰ فيه علىٰ عادةِ فضْله وإنصافِه؛ فطَفِق لفضله شاكرا، ولطَوْله ناشِرا؛ وأضاف ذٰلك إلىٰ تَوَالِدِ إحسانه، ونَظْمِه فى عِقْد آمتِنانِه .

رقعــــة : قد طَوّقَ مولانا [مملوكَهُ] من فضله طَوقا كأطواق الحمائِم لايُنْزَع، وألبسه بُرْدا من بِرّه لا يُخْلَع؛ وأولاه من مَزِيده ما قَصَّرت الهِمَّة عن تَمَنّيه، ولم تهتدِ القريحةُ إليــه فتستَدْعِيه؛ ولو وجد المملوكُ جزاءً علىٰ عارفَته، وكِفَــاءً لَمثُوبته، غيرَ المُوالاة الصَّرِيحَه، وعَقْــدِ الضمائرعلىٰ المودّةِ الصحيحه؛ واللَّهَج بالشُّــكر، فى السِّر والجَهْر، لرمىٰ مِن وراء عنايته، ولا استَبْعَدَ طُولَ شُــقّته؛ ولكنِ المملوكُ عادمٌ لمـا يقابِلُ به يَدَه الغَرّاء، عاجزٌ عمَّا يقضِى به حَقَّ مَوْهِبتِه الزَّهْراء؛ مالم يُحْسن كَرَمُه أمْرَه، ويَقْبَلْ منه علىٰ التقصير شُكْرَه؛ ويُضِفْ ذٰلك إلىٰ لطائفه، ويَنْظِمه فى سلْك عَوَارفه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــــة : وآجتهادُ المملوكِ فى نَشْر أياديه وشُــكْرِها، كاجتهادِ مولانا فى كِتْمانها وسَتْرِها؛ فكُلَّما أبديتُها بالثَّناء أخْفاها، أو نشَرْتُها بالإشادة طَوَاها؛ وهيهاتَ أن يخفىٰ عُرْفٌ كعَرْف المِسْك نَشْرا، ومَنٌّ كالروضة نَوْرا والغَزالة نُورا؛ ولو كان المملوك والعياذُ بالله ستَرهــذا العُرْفَ بكُفْر، وآغْتمصه مانعاً لشــكْر؛ لنَمَّ عليه حسنهُ نُمُومَ الصَّباح، وتوَقَّد توقُّدَ المِصْباح؛ فكيفَ وللمملوكِ مِقْوَل لايُسامىٰ [يُعجِم سَــوَادَ](٢) الليالى بالإخماد، ويَرْقُم صَفَحاتِ النهار بالآعْتِداد .

---

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من المقام .

(٢) فى الاصول « ولا يسامى الليالى » الخ وزدنا مايقتضيه المقام ويتم الكلام تأمل .

الأجوبة عن رقاع الشـــكر

قال فى "موادّ البيان" : [ان كانَتْ] هــذه الرِّقاع من المرءُوسين إلىٰ الرُّؤساء فلا جوابَ لهـا . و إن كانتْ من النَّظير فالواجبُ أن يُسْتعمل فى أجو بتها مندُوبُ التناصُف والتفاوض .

جواب عن فعل المعروف والشكر عليه من كلام المتأخرين :

من ذٰلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الصدر :

خَلَّد اللهُ علىٰ الممالك نِعَمَه ، وعلىٰ المـاليك دِيَمَه ، وحَرَّم ببقائه ذَمَّ الزمان وأوجَبَ ذممـه ؛ ولا بَرِح نحوُ المحامد يُنـادِى يومَ الكَرم مُفْرَده و يومَ الهِيَـاج عَلَمَه . تقبيلا يسحَبُ فى الفَخَار بُرودَه المُعْلَمه ، و يتذكَّر بالقرب فلا يزال الشوقُ يُنْتِجه حيثُ كِلَا التَّذْكارِ والعهد مُقَدِّمه .

و ينهِى ورُودَ المثال العالى بمـا مَلَأَ القلبَ خيْرا واليَدَ بِرّا ، والسمْعَ بِشارةً والوجهَ بِشْرا ، حتّٰى تَنافسَتِ الأعضاءُ علىٰ تقْبِيله ، والجَوَارِحُ علىٰ تأميله ؛ فاليَـدُ تسابق إلىٰ مِنَنه بالآمتِدَاد ، والقلبُ يسابِقُ إلىٰ كَرَم عَهْده بالآعْتِداد، والوجهُ يقلِّب ناظِرَه فى سماء مَوَاقِع القَلَم ، والسمعُ يَنْعَم بمـا تقُصُّ عليه المَسَارُّ من أخْبار جِيرة العَلَم ؛ حتّٰى كاد المملوكُ يمحُو بالتقبيـل أسْطُرَه، و يشتَغِلُ بذٰلك عن آستجلاءِ ماذكره المُنْعِم لاعدِم المملوكُ فى مصر والشام تَكَرُّره ؛ وفهِم ما أشار مولانا إليه من الفضـلِ الذى مولانا أهْلُهُ ، وكرِمِ العهد الذى لا يُنكَرُ من مثلِه وأين مِثْلُه؛ وقابل المملوكُ جميعَ ذٰلك بجَهْده من الأدْعِيَـة الصالحِه ، و بسَماحةِ الحمدِ المُتَفاوِحه ؛ والآعتِـدادِ بنعمة مولانا الّتى لولا [مُوالاتُها[(١)]] كلَّ وقتٍ لقيلَ فيهـا «ما أشبَهَ الليـلةَ بالبارِحه» وتَضاعَفَ

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المقـام .

نُهوضَ المملوك علىٰ قَدَم المُوالاة التى [يستشْهِد] فى دَعْواها بشَهادة الخاطر الشريف ، ويتقدَّم بها تقدُّما تحتَ لواء الولاءِ وتأتِى بقيَّة الأولياء فى اللَّفيف ، والله تعالىٰ يُوزِع المملوكَ شُكرَ هذه النِّعَم المتصلِ مددُها ، والمِنَنِ التى لا يَعْدَمُها ولا يعُدُّها ، ويطيلُ بقاء مولانا لحمدٍ يَجْتلِيه ويجتَنِيه ، وشرفِ دنيا وأخرىٰ يهدِمُ وَفْره وعُمُره ويبتَنِيه .

النوع الثالث عشر

(العِتاب)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبةُ بالمعاتَبة علىٰ التحَوُّل عن المودّة والآستخفاف بحقوق الخُلَّة من المكاتبات التى يجبُ أن تُستوفىٰ شروطُها ، وتكمَّل أقسامُها : لأن ترخيصَ الصَّديق لصَدِيقه فى المقاطَعَة والمُصارَمة دالٌّ علىٰ ضَعْف الآعتِقاد ، وآستحالة الوِداد .

من كلام المتقدّمين :

إنِّى ما أحدثتُ نَبْوه ، إلَّا بعد أن أحدَثْتَ جَفْوه ، ولا أبديتُ هَجْرا ، إلَّا بعدَ أن أبديْتَ غَدْرا ، ولا لَوَيْتُ وَجْها عن الصِّلة ، إلَّا بعد أن ثَنَيْت عِطْفا إلىٰ القَطِيعة ، والأوّلُ مِنَّا جان ، والثانى حانٍ ، والمتقدِّمُ مُؤْثِر ، والمتأخِّر مُضْطَّر ، وكم بين فعل المختارِ والمُكْرَه ، والمبتَدِع والمتَّبِع .

آخر : إنْ أمْسكْتُ ياسيدى عن عِتَابِك ، مُرْخِيا من عِنَانك ، كنتُ بين قَطْع لحَبْلك ، ورِضًا بفِعْلك ، أو آقتصرتُ فيه علىٰ التَّلْويح به لم يُغْنِ ذاكَ مع كثرة جُمُوحك ، وشدّة جُنُوحك ، وما آرتكبْته من رائك ، وآستخرجْتَه من جفَائك .

رقعـــة عتاب : لمولانا لدىٰ المملوك عَوارِفُ لا يهتدى إلىٰ معرفتها فيوُفيِّها كُنْـهَ المُراد، وأيادٍ لا يبْلُغ ماتستحقُّه من الإحماد ؛ ولو عَضَّدتْه خُطبـاءُ إيَاد ، أجلُّها فى نَفْســه خَطَرا ، وأحسَنُها عليــه أَثَرا ، ما يَفرِضُــه له من بِرِّه وإكْرامه ، وتعهُّــدِه وآهتمامِه ؛ وقد غيَّر مولانا عادَتَه ، ونقَضَ شيمَتَــه ؛ وبَدَّل المـــلوكَ من الآنعطاف بالإعراض، ومن الآنبِساط بالآنقباض ؛ وحَمَّــله من ذلك ما أوْهىٰ قُوىٰ صَبْره ، وأظلَمَ بصائِرَ فِكْره ؛ فإنْ يكُنْ ذلك لخطَإٍ واقعَــه المملوكُ ساهِيًا ، وجُرْم آجترَمه لاهِيًا ؛ فمِثْـلُ مولانا لا يُطالِب إلَّا بالقَصْد، ولا يُعاقِب إلَّا علىٰ العَمْد ؛ إذ كانـ المملوكُ لا يُعْصَم من زَلَل ، ولا يَسْـلَمَ من خَلَل ؛ اللّٰهمَّ إلا أن يكونَ مولانا أرادَ من المملوك تَقْويمَه وتأديبَــه ، وإصلاحَه وتهذيبَه : ليُحْسِنَ أثَرَه فى خِدْمته ، ويَسْلُكَ السبيلَ الواضِحَ فى تِبَاعته ، فلا أعدَمَ اللهُ المملوكَ تثقيفَه ، ولاسلَبَه تبْصيره وتعْريفَه ؛ وإنْ كان ذلك لشَكٍّ عَرَضَ من المملوك فى وِدَاده(١)، وآرتيابٍ خامَرَ فى حُسْن آعتقاده ؛ فأُعيذُه بالله من القَطْع بالشُّبُهات ، والعمـلِ بمُنْغِلِ(٢) السِّعايات ؛ ومولانا خليقٌ بأن يُطْلِـعَ من أُنْس المملوك ماغَرَب ، ويُنْبِط من سُروره مانَضَب ؛ ويُعيـدَه لِرضاه ، ويُجْرِيَه علىٰ ما أحمدُه منه وأرْضاه .

رقعـــة : ليس المملوكُ يَرْفَع مَوْلانا فى إعراضه ، إلَّا إلىٰ فَضْله ، ولا يُحاكِمُه علىٰ آنْقباضه ، إلَّا إلىٰ عَدْله ، ولا يَستعينُ عليــه إلَّا بمـا يستَمْليه من آدابِه ، ولا يناظِرُه إلا بمـا أخذه عنه من مُحافظتِه وإيجابِه ؛ إذ كان المملوكُ مُذْ وصلَتْه السعادةُ بحِباله ، ناسِجًـا علىٰ مِنْواله ؛ متقبِّلا شرائفَ خِلَاله . وما عهـدْتُه عَمَر اللهُ معَاهِدَه ، وكبَتَ

(١) لعـــله للولىٰ .

(٢) يقال أنغلهم حديثا سمعه ثم إليهم به أنظر اللسان ج ١٤ ص ١٩٤ .

حاسـدَه ؛ يغضَبُ تقليدًا قبـل الاْختبار، ويُحْوج البرِىءَ إلىٰ مَوْقِف الاْعتذار ؛ ولا سِيَّمـا إذا كان المظنُونُ به عالِمًـا بشرُوط الكرم ، عارفًا بمواقِـع النِّعم ؛ لايَنْسَخ الشكرَ، بالكُفْر، ولا يتعوَّضُ عن الحَمْد، بالجَحْد؛ وقد عرف مولانا ثَناءَ المملوك علىٰ تَفَضاله ، ووقف علىٰ بَلائه لأعمـاله ؛ وهو وفىٌّ بِرَبِّ عوارِفه وصنائِعه ، وتثمير مارَهَن لدَيْه من وَدَائعه ؛ وتنزيهِ سَمْعِه عن الإصغاءِ إلىٰ مايختلِقُه حاسِـد ، ويصُوغُه كائد ؛ وقد حَكَّم المملوكُ علىٰ نفسه نَقْـدَه الذى لايُبَهْرَجُ عليـه ولا يدَلَّس ، وكَشْفَه الذى لايُغَطَّى عليـه ولا يُلَبَّس ؛ فليَحُكَّ أفعـالَ المملوك علىٰ مَحَكِّ بَصـيرته ، وليُجِلْ فى تأمُّل مقَاصِده طَرْفَ فكْرَته ؛ فإنه ممن لاتُحِيلُه الأحوال ولا تُحَوِّله ، ولا تُغَيِّره الغِيَرُ ولا تُبَدِّله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعــة : أفعالُ شكرِ(١) المملوكِ فى الحِلْم والغَضَب، والرِّضا والسَّخَط ، إذا لم يقْتض الحَزْمُ إيقاعهـا مَوْقِع الفضل ، واقعـةٌ موْقِعَ الإنصاف والعَـدْل؛ ولا يُغَلِّبُ هواه علىٰ رَأْيه ، ولا بادرتَه علىٰ أَنَاته ؛ وقد جانَبَ مع المملوك عادَتَه ، وبايَنَ فيـه شِيمتَه ؛ ونالَهُ من إعْراضه، وجَفَائِه وٱنْقباضه، وتغيُّر رأْيه، ما وَسَمَ المملوكَ فيـه بالذَّنْب ولم يُذْنِبه ، وحمله علىٰ الجُرْم ولم يَحْتَقبْه ؛ وأوقفه لدَيْه مَوْقِفَ الاْعتذار ، وأحْوَجه إلىٰ الاْستقالةِ والاْستغفار ؛ وليس المملوكُ يُحاكِمُه إلَّا إليه، ولا يُعوِّل فى الاْنتصاف إلَّا عليـه ؛ وما أوْلاه بأن يُعيد المملوكَ إلىٰ محلِّه من رضاه ، فإنه لم يُواقِعْ فى خدْمته إلا مايَرْضاه ؛ وحسـبُه شاهدًا بذٰلك مايعلَمُ من المملوك من سَـلَامةِ غَيْبه ، وطهارةِ جَيْبه؛ وفَضْل وُدِّه، وصحَّة معتَقدِه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) كذا فى غير أصل ولعله " أفعال شيَم المولىٰ " ليستقيم الكلام بعد .

رقعـــة بمعاتبةٍ على (١) :

كلُّ مانعٍ مالَدَيْه مَنْ رَغِبه ، دافعٍ عمَّا عنده مَنْ طَلَبه ؛ فمستغنًى عنه إلَّا الله تعالىٰ المُبتـدِئ بالنِّعم ، العوَّادُ بالكَرَم ؛ ولو عَرَف مَوْلانا بطَعْم شجرةِ المعْرُوف (٢) ، لأسرَعَ إلىٰ ٱحتِـذائِها ، ولو علم مالله تعالىٰ عليــه من الحُقُوق فى مالِه وجاهِه ، لم يُقَصِّر عن أدائِها ؛ غيْرَ أنه ظَنَّ أنَّ الفوْز بالوُجْد ، غايةُ المَجْـد ، وأنه إذا أَحْمَدَ النَّسَبَ غَنِيٌّ عن الحَمْـد ؛ وأنَّ النعمةَ تُرتَبَطُ بالرَّبْط علَيْها ، وتَنْصرِف بالتَّصَرُّف فيها ؛ وما ساء المملوكَ أن تنَزَّه عن تقَلُّد مِنَّـة لئيم ، وحُرِم مَحْمَدَةً من كريم ؛ وهـذا الحِرمانُ أحسَنُ واللهِ فى عين المملوكِ من النَّوال ، وهذا الإكْداءُ أبَرُّ لديْه من بُلُوغ الآمَال ؛ وسينْشُر المملوكُ مَذْهَبه فى كلِّ نادٍ ، ويكُفُّ عنه أمانِيَّ القُصَّاد ، ويكفِيه مَئُونَةَ الاعتذار ، ويصُونُه عن أن تُبْذَل إليه وُجُوهُ الأحْرار : ليعلَمَ أنَّ المملوكَ علىٰ مَنْعه لم يُقَصِّر فى بُلُوغ أوْطارِه ، والسَّعيِ فى إيثارِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة فى المعنىٰ : ماردّ المملوكُ بِرَّ مولانا مستَنْزِرا لقليلِه ، ولا لائِمـا لَنفْسه علىٰ تأميـله ؛ لٰكنَّه ٱنتجعه ٱنتِجاعَ من ظَنَّه عارفًا بقَدْره ، راغبـا فى شُكْره ؛ فلو أغضىٰ المملوكُ منـه علىٰ الاطِّراح لأمْرِه ، لٱستدلَّ منـه علىٰ قِصَر الهِمَّة ، وظَنَّ أنه قوَّمه بدُون القِيمة ؛ لا سيَّما وهو يَفْرِض لمن لا يُجارِى المملوكَ فى مِضْمار ، ولا يُساوِيه فى مِقْدار ؛ من غير قصْدٍ بتأميلٍ ورَجاء ، وتقديم ذريعةٍ من تَقْرِيظ وثَناء ، ماتَضيق عنه الهِمَمُ الفِسَاح ، ولا يَصِل إليه الاقتِراح .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله « على منع عطاء » .

(٢) لعله « ثمرة المعروف ... ... الى اجتنائها » تأمل .

رقعةُ عِتاب، علىٰ تقصير فى خطاب :

حُوشِىَ مولاىَ أن يجُرّ الذَّيْلَ علىٰ آثارِ فَضْـلِه ، ويُميتَ من غُرُوس إحسانه ماهو جديرٌ أن يَتعهَّده بوَبْله ؛ ويُعَفِّىَ مِنِّى رُسُومَ كَرَمه، ويَصْدَعَ بمجانبة الإنْصاف صَفاةَ صِفاته وصفَائه، ويُنْطِقَ الألْسُنَ بعتابه؛ ويُصْلِتَ سيفَ التأنِيبِ من قِرابه؛ بمـا آستحسَنَه من مستقْبَح المُصارَمَة فى المخاطبه، وآستَوْطاه من جامح التَّرْيِيث فى المُكَاتَبه ؛ ولا سِيَّما وهو يعـلَمُ أنَّ موْقِع الإكرام من الكِرام، ألطفُ من مَوْقع الإنْعام ؛ وأن مَحَلَّ القال، أفضلُ من محلِّ النَّوال، وأن تغيُّر العادة فى البِرّ، مُقَوِّض لمَعَاهِد الشُّكْر، وسيح (؟) السنة فى الإنْصاف، قاضٍ بالآنْصِراف بعد الآنْعِطاف، وقد كان المملوكُ أزمَعَ أن يتحَمَّل تقصِــيرَه به ، وأن يفُــلَّ من غَرْبه ، غيرَ مطاوِعٍ للحميَّه ، ولا مُنْقادٍ لنفس العَصَبية، ولا يَقْرَعَ سَمْعـه بعِتَاب ، ولا يُورِدَ عليه مُمِضَّ خِطاب ؛ ثم رأىٰ المملوكُ أن يُرْشِــدَه إلىٰ الأَزْيَن ، ويبعَثَـه علىٰ آعتِمادِ الأحْسَن ؛ ويَحُضَّه علىٰ مُرَاجعةِ الأفضل، ومُعاودة الأجْمَــل : ليتحَفَّظ مع سِواه، ولا يَجْرِىَ مَجْراه ؛ فليس كلُّ أحدٍ يتحَمَّله، ويرضىٰ رِضَا المملوكِ بمـا يفْعَلُه ؛ فمولانا حبَّب اللهُ إليه الرَّشَد، ووفَّقه إلىٰ المَنْهَج الأسَدّ؛ هل هو من شىءٍ سوىٰ بَشَر ؛ فمــا هذا التِّيهُ والبَطَر ؟ ولِمَ هــذا الأزْلُ والأَشَر ؟ وما فِعــل الرئيس إلى مايصْغُر عنــه قَدر ؛ ولا يَيْأَس من نَيْله عمر؛ ولا مضَتْ أقلامُك فى الأقاليم ، ولا أُشِــيرَ إليك ببَنَــان التعظيم ؛ ولا فُوِّضتْ إليك الوزارةُ والرِّدافَهْ ، ولا تأمَّرْتَ علىٰ الكافَه؛ ولا طاوَلْتَ الأكفاءَ فطُلْت، ولا ناضَلْت القُرناءَ فنضَلْت؛ وإنمـا سَرَق إليك الحظُّ من ثِمَــاده وَشَــلا مُصَرَّدا ، وأدَرَّ لك الدَّهْرُ من أخلافه مُجَدَّدا، فافتتحتَ المعامَلَة بظُلْم الإخْوان، ونَسْخ شرائِـع الإحْسان؛ كذبَتْكَ نفْسُك، وغَرَّكَ حَدْسُك؛ كيف بك غدًا إذا آســتَرَدَّ الزمنُ ماخَوَّلَك ، وآســترجَعَ مانوَّلَك ؛ وصَحَوْتَ بالعزل من سَكْرة

الوِلَايه ، وتقرقرت(١) بعـد طَلَب الغايه ؛ وعُدْتَ إلىٰ إخوانك فوجدْتَ أوطانَ أُنْسِهم بك نابِيَه ، ونُفُوسَهم للإقبال عليك آبِيَه ؛ ولو كان الزمنُ أمكَنَكَ من رَقَبتى ، وطرّقَ لك الطريقَ إلىٰ إيداع عُرْفك فى جِهَتى ؛ لَقَبُح بك أنْ تَطُول بطَوْلك ، وتَدَّعِى الفضلَ بفَضْلك ، ولم يحسُنْ أن تُبَدِّل الإنْعام ، وتَضِنَّ بالاْلتزام ؛ فإن كنت تفْخَر بسَلَفك وأُبُوَّتك ، وتُطاوِلُ بأَوَّلِيَّتك وأُسْرتك ؛ فلو كان أبوك كِسْرىٰ ، لما جبَرَ منك كَسْرا ، ولو كان جَدُّك بُخْتَ نَصَّر ، لما ٱنتفعت به فى مُظاهَرة ولا نَصَّر ، فدَعْ أكْثَرَ مافات ، ولا تُعَوِّلْ علىٰ العِظَام الرُّفَات ؛ فما ٱستَنَدَ إليها إلَّا عارٍ من الفضل عاطِلٍ من الحِلىٰ . علىٰ أنَّك لو فاخَرْتَنا بها لفخَرْناك ، وتقدَّمْنا وأخَّرْناك ؛ وإن كنتَ تستَنِد إلىٰ دِيانَتِـك ، وتعتمِدُ علىٰ نُسُكك وأمانَتِك ؛ فهـذه خالصُ حالٍ لا تخْلُص مرتَبَتُها ولا تتِمُّ فضيلتُها إلا بٱستِشْعار التَّواضُع ، والأخْذِ بمكارم الأخلاق لدىٰ التنازُع ؛ فارْجِعْ هِذْيَتَك(٢) إلىٰ الأجَلّ ، وٱعمَلْ بالأفضَل ، وقِفْ بحيثُ رُتْبَتِك ؛ ولا تتشـوّف إلىٰ غير دَرَجَتِك ؛ وإن أبيتَ ذاكَ فٱقطَع المراسَلَه ، وأعْفِها من المواصَله ، والسلام .

رقعة عتاب علىٰ تأخر المكاتبة :

من حُكْمِ الوِدَاد ــ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ــ الزيارةُ عند المُقَاربة ، والمكاتبةُ عند المُبَاعدة ؛ وإن كانت المودّةُ الصريحةُ لايُغيِّرها ٱجْتِناب ، إلا أنَّ الكُتُبَ ألسُنُ البِعَاد ؛ والأعْيُنُ التى تنظُر حقائِقَ الوِدَاد ، ولها فى القُلُوب تأْثير ، وموقِعُها فيها أَثِير ؛ وحُوشِىَ مولانا أن أَهُزَّ أرْيَحِيَّته لما يؤَكِّد الثقةَ بإخائه ؛ ويشْهَد بوَفَائه ؛ ولا سِيَّما وهو يَفْرِضُ ذٰلك لأحِبَّته ، وقولُه واجبٌ فى شرع مَوَدّته .

(١) لعـــله « وتقهقرت » . (٢) فى الأصل « عديتك » .

رقعـــة فى معنـاه :

إنِ ٱبتـدأ المملوكُ مولانا لم يُجِب ، وإنْ سأله الاَبتـداءَ لم يُوجِب ؛ فلا حَقَّ الإجابة تُؤدِّيه ، ولا ناجِزَ المسـألة تَقْضـيه ؛ فإنْ كان إذا شَخَصَ غابَتْ عن فِكْره أشخاصُ أحبَّتِه، وإذا بَعُد عاملَهُم بتَجافيه وجَفْوتِه ؛ فقد كان ينبغى أن يتكلَّف ويتجمَّل ، ويتصَنَّع ويتعَمَّل : فإنه لو علَّل مشُوبا بالاَنتظار ، أو ٱعتـذر ممرِّضًا بالاَعتذار ؛ لأمْتُ ذٰلك مُقامَ المُكاتبه ، وصُنْته عن مَحْض المُعاتبه؛ لٰكنَّه مال مع المَلال، ورضِىَ الاَطِّراحَ والإهمـال ؛ ودلَّ علىٰ أنه مستقِلٌّ بالإخوان ، متَنَقِّلٌ مع الزمان؛ وأرجو أن تَصْدُقَ المَخيله ، ويَرْجعَ إلىٰ العادةِ الجميله .

رقعة معاتبةِ رجل كريمِ الأصل لئيمِ الفعل :

قد عَرَف مولانا وَفَّقه الله ووقفَه علىٰ مَنْهج الرَّشاد ، أنَّ جنايةَ الغضَب الذَّميم ، تقْـدَح فى كَرَم الجِنْثِ(١) الكريم؛ وأنَّ قَبِيحَ الصَّلَف ، ينْسَخ تَليـدَ الشَّرَف، وخبيثَ الذُّريه ، يُعَفِّى علىٰ طِيبِ المَناحِتِ الزَّكيَّـه ؛ وأنه ليس لمن تحلَّىٰ بالظُّـلم والجَوْر ، وتلبَّس بالنَّـكْث والغَـدْر ، وسامح نفْسَه باطِّراح الحُقُوق ، وٱستِيطاء العُقُوق ؛ إلَّا إضاعةُ الحُرَم، وإخْفارُ الذِّمم .

المعاتبة من كلام المتأخريـــن :

الشيخُ شِهاب الدين محمود الحلبى :

يُقَبِّل الأرضَ ويُنْهِى أنه قد صار يَرىٰ قُرْبَه ٱزْوِرَارا، وطويلَ سَلامه ٱخْتِصارا ؛ ويُغالِطُ فى ذٰلك حتَّىٰ شاهده عِيـانًا مِرارا ؛ هـذا وبِكْر الوَلَاء ، صَقِيلةُ الجِلْباب ،

(١) جنث الانسان أصله . ووقع فى الأصل "الحديث" وهو تصحيف .

وعَروسُ الثناء، جميلةُ البِزّة حسنَةُ الشَّباب، وهو لايفتأ من المُوالاة فى صَعَد وقَدْره فى صَبَب ؛ فكُلّما مَكّن وَتَدَ الاستعطاف يرجو عدمَ تخلخُله فُصل بأيسَرِ سبَب ؛ بحيثُ أطفأ الإهمالُ نارَ المُساعَفَة والمُساعَدَه، وٱنتقل توهُّمُ عدمِ العِناية إلىٰ تيَقُّن وُجودِه بالمشاهَدَه ؛ وقدكان يُرْفَع قدرُه نُخُفِض، وعُوِّض فى الحال عن الرَّفْع بالابتداء، أنه مُفْرَد ويُنْصَب كالنكِرة فى النِّداء، وأُهْمِل حتّٰى صار كالحُروف لا تُسْنَد ولا يُسْنَد إليها ، وأُلْغِيَ حتّٰى شابَهَ ظننْتُ إذا وقعتْ متأخِّرةً عن مفعُولَيْها ؛ ومتىٰ يَقْلَقْ لأمر، أنشد نفسه * ما فى وُقُوفِكَ ساعةً من باسِ *

وكان يَغْشىٰ مجْلِسَه الكريمَ خِدمةً وأداءً للواجب ، وطلبًا لعادةٍ أكّدها إحسانُه حتّٰى صارتْ ضربَةَ لازِب ؛ فلا يخلُو مجلِسٌ من إظهار تغيُّر عادةٍ وَطَّد الجُودُ أساسَها، وٱنتقاضِ قاعدةٍ أبْرَم الكَرَمُ أمْرَاسَها؛ فينقَطِع سُلوكًا للأَدَب وتخفِيفًا عن الخَوَاطِر ، ويتلقّٰى مايصْدُرُ بقلبٍ شاكٍ ولسانٍ شاكر ؛ فإنْ كان قد عَزَم مولاه علىٰ طَرْده، وعوَّضه عن مِنْحة القُرْب المِحنَةَ ببُعْدِه؛ فإنه يأبىٰ ذٰلك جُودُه ولُطْفُه، ومعرفه يشْكُر و يزيدُ لا يمكِنُ صَرْفُه؛ ولو جاز الصَّرفُ لمجرّد (١) بالعُبُودية لمَنَعَه العذْلُ من سيِّده، والحِلمُ الذى عُرِفَ من كريم مَحْتِده؛ فكان الملوكُ يستحْسَن فى حِبْرِه وسِبْرِه ، ويَعوَّضُ عن مقابلته بجَبْره ؛ فقد صار سمِينُه غَثًّا وشحمُه ورَمًا، وحديثُه رَثًّا وسهله عَلَمًا :

وعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عيْبٍ كَليلةٌ * كما أَنَّ عيْنَ السُّخْط تُبْدى المَساوِيَا

وما ثَمَّ بحمد الله مايُوجِب ذٰلك ولا بعْضَه ، ولا يُحْدِثُ ذَمَّ المملوك و بغْضَه ؛ ولو بَدَا منه زَلَل، أو لَمَح منه خَطَل؛ فمكارمُ مولانا أوسَعُ من إبقاء ذٰلك فى صُدُور الصُّدور، و[أحرىٰ بـ]ـمَحْوِ آياتِ السيِّئات فإنه لَمِنْ عَزْم الأُمُور .

(١) بياض بالأصل ولعله « لمجرد الشك بالعبودية » .

وله : يخْدُم بدُعائه، وصادِقِ وَلائِه؛ ويُنْهِى أنه انكسر خاطِرُه، وأرِق جَفْنه وناظِرُه؛ وتضاعف بَلْبالُه، وتزايدَتْ فى النَّقْص أحوالُه؛ منذ تأخَّرت الأمثِلةُ الكِرام، وانقطعَتْ عنه بانقطاعها المِنَنُ الجِسام؛ وهو يسأل العفْوَ عن ذَنْبٍ وقَع، وتشريفه بمثال يَرْفَع من قَدْره ما وَضَع؛ واستعمالَ الصَّفْح عنه كسائر عاداته، وإجراءَه على اللُّطْف الذى ألِفَه من تفضُّلاته؛ فقد ضَعُف صبرُ المملوك وجَنانُه، وتفرّقَ للفِراق جَفْنُه وإنسانُه؛ وصَغُر قدْرُه، وأُهْمِل جانِبُه وممَّن أمَرَ بإهانته نَحْره، ولهذا ضاقَتْ عليه المَسَالك، وكان لسانُ حاله [ينشد] فى ذلك :

وأهَنْتَنِى فأهَنْتُ نَفْسِى عامِدًا * ما مَنْ يَهُونُ عَلَيْــكَ مِمَّنْ يُكْرَمُ!

والمملوك معترِفٌ بأنه مازال يجهَلُ مايجب عليه من الخِدَم، ومُقِرّ بتقصيره عن القِيَام بحَمْل مايُواصَــلُ به من النِّعم؛ لكنّه ألِفَ من مولانا أن يقابِل إساءتَه بالإحسان، وجَهْلَه بصَفْحٍ لايقُومُ بشُــكره اللِّسَان، بل جميعُ الجُثْمان؛ فإن كان ذَنْب من المملوك هو الذى أوجَبَ اطِّراحَه، وأوجدَ أسَفَه وأذهب أفْراحَه؛ وكان أيْسَرَ ممـا تقدّمه من جَهْــله وإساءتِه، فحِلْمُك جديرٌ أن يُلْحِقَه بإخوته؛ وإنْ كان قد تزايدَ مِقْدارُه، فالمولىٰ قد تضاعَفَ علىٰ العَفْوِ اقتِدارُه؛ وإذا كَبِرت الخطيئةُ كَثُرَ أجرُ غُفْرانها، وَعلَتِ المجاوزَةُ عنها علىٰ أقْرانها؛ وعلىٰ كِلَا الأمرين فقد استحَقَّ المملوكُ المَغْفِرة بكلّ طريق، وأنْ يُقابَلَ رجاؤه بالتحقيق، وأملُه بالتصديق .

وله : ويُنْهِى أنه ما زالَ يتْــلُو آياتِ مَحاسِــنِه وحَمْده، ويرفَعُ راياتِ إحســانه ومَجْــده؛ ويتَولَّاه ولا يتولّى عن محبَّته، ويُكْثِر الثنــاءَ علىٰ ألْمَعِىِّ فِطْنتــه وجَزِيل

مُرُوءته ؛ وقد صار يُشَاهد من المولىٰ مَلالًا وصُدُودا ، وإعراضًا يَغيظ به صـديقًا ويَسُرُّ به حَسُودا ؛ واَطِّراحا أَوْهَمَه أنه أَلِفُ وَصْلٍ دُرِجتْ ، أو لفظةُ هُجْرٍ لُفِظت ؛ ولا يعْرِف له ذَنْبا يُوجِب إبْعـاده ، ولا جُرْما يستوجِبُ به أن ينقضَ حبلَ وَصْـله ويرْفُض وِدَادَه ؛ ولا يعلمُ سببا يُوجِب سَبَّه ، ولا شَيْئا يُحْدث عَتْبه ؛ مع أنَّ المملوكَ أحقُّ أن يَبْدأَ بالإعْراض ، ويَرْفُلَ من إغفال مَوَدّته فى الثَّوب الفَضْفاض ؛ فإنَّ المولىٰ آلَمَـه بالقَوْل مِرارا ، وجعل سَحابةَ حَيْفه تَهْمِى عليــه مِدْرارا ؛ وهو يحتمل الأَذىٰ ، ويُغْضِى علىٰ القَــذىٰ ؛ ولا يُظْهِر إلا محبَّــة ، ولا يُبْطِن له إلا مَوَدّة ؛ فإن شاهد المولىٰ بعد إعراضِه إعراضا فليَلُمْ نفْسَه ، أو أَحْرقه لَهَبُ نار الجَفَاء فلا يشكُو مَسَّه ؛ يُحيطُ بذٰلك علما ، ورأيه العالى .

شــــعر فى العِتاب :

مَوْلاىَ قَدْ طالَ التَّبـاعُدُ بَيْنَنا * أَوَما سَئِمْتَ قَطِيعتِى ومَـلالِى!
إنْ لَمْ تَرِقَّ لِحالَتِى ياهَاجِرِى * مَوْلاى قُلْ لِى مَنْ يَرِقُّ لِحالِى!

غـــيره :

يُباعِدُنِى عَنْ قُرْبِهِ ولِقَائِهِ * فلَمَّا أذابَ الجِسْمَ مِنِّى تعطَّفَا

غــيره :

إنْ كانَ هِجْرانُنَا يَطِيبُ لَكُمْ * فلَيْسَ للوَصْل عندَنا ثَمَنُ

غـــيره :

شَمَّتَّ بِى الأعْداءَ حينَ هَجَرْتَنِى * والمَوْتُ دُونَ شَماتَةِ الأَعْداء!

غـــيره :

تَنـامُ عَيْناكَ وتَشْـكُو الهَوىٰ * لَوْ كُنْتَ صَبًّا لم تَكُنْ نائمـا!

ولبعضهم : سيدى بادَأنِى(١) بلُطْفٍ من غيرِ خِبْرة، وأعقَبنِى جَفاءً من غيرِ ذَنْب؛ فأطْمَعَنِى أوّلُه فى إخائه، وآيَسَنِى آخِرُه من وَفائه ؛ فسُبْحانَ من لو شاءَ لكَشَفَ بإيضاحِ المُبْهَم عن عَزِيمةِ الرأْى فيه؛ والمملوكُ يقول :

عَجِبْتُ لقَلْبِكَ كَيْفَ ٱنقَلَبْ * وصَفْوِ ودَادِكَ أَنَّى ذَهَبْ
وأعْجَبُ مِنْ ذَا وذَا أنَّنِى * أراكَ بعَيْنِ الرِّضَا فى الغَضَبْ

أجوبة رقاع العِتاب

قال فى "موادّ البيان" : حكم أجوبةِ هذه الرِّقاع حكمُ رِقاع أجوبةِ الاعتذار إلّا أنها لا تخلُو من الإجابة بالإعتاب أو الإصرار علىٰ العِتَاب . قال : ويجبُ أن يسْلُك فيها المجيبُ مذْهَبَ المجيبِ عن رقاع الاعتذار .

زهر الآداب :

فى جواب العَتْب علىٰ تأخُّر مكاتبة .

وعلم المملوكُ ما أشارَ به من العَتْب بسبب تأخُّر خِدَمِه عن جَنَابه ، وما توهَّمَه من ٱشتغالِ المملوكِ بأهله وأصحابِه؛ وحاشاه أن يتَوَهَّمَ فى المملوكِ غيرَ الوَلَاء، والمُلازمةِ علىٰ الحمدِ والثَّناء؛ فهو لا يعتمِدُ ذٰلك إلّا تخفيفًا عن خاطِره ، ووُثُوقا بما يتحقَّقُه المولىٰ من خالص مودَّتِه فى باطِنه وظاهِره؛ حرسهُ الله ووفَّقه،وفتَح له بابَ السعادة ولا أغلقه، بمنّه وكرمه .

---

(١) ضمنه جواب عبد الله بن معاوية فى العتاب .

زهر الربيـــع :

جواب عِتاب :

زاد اللهُ جَنابه حنَانا، وأسبغَ عليه إنعامًا وإحْسانا، وخلَّد له علىٰ كلِّ عدوٍّ سلطانا.

ولا زالت همَّته سماءً لمَناكِبِ الكَوَاكب، وأياديه تُفيضُ علىٰ الأولياءِ غرائبَ الرَّغائب؛ ولا برِحتْ سحائبُ إنعامه هاميه، وقُطوفُ إحسانِه دائمةً دانيه؛ وشرائعُ مِياه جُودِه تُجفِّف جُفُونا من الفاقةِ دَاميه.

المملوك يجدِّدُ خِدْمته، ويُواتِرُ للمولىٰ أدْعيتَه؛ ويعترِف بمِنَنه التى أقرّتْ بها ألسِنةُ جوارِحه فلا يَستطيعُ أن يُنْكِرَها؛ ويغترِفُ بيد تضرُّعه من بِحار جُوده التى تَثْعَبُ الوَلِيّ من سَحَابها إلىٰ كل وَلِيّ وتقْذف له جَواهِرَها.

وينهى وُرودَ المكاتبة والعِلْمَ بمضْمُونها، والاحتواءَ علىٰ سائر مَعانِى فُنُونِهـا؛ وما أشار إليـه من العَتْب الذى يرجُو به بَقاءَ الوِدَاد، واستِصحابَ حالِ التَّواصُل من غيرِ نفَاد؛ والمملوك فلا يُنْكِرُ ذَنْبه، ولا يتنصَّل ولا يتوصَّل بل يعترِفُ بجُرْمه وقِلَّة خِدَمِه؛ ويَستمْسِك بالعُرْوة الوُثْقىٰ من إحسانه وحِلْمِه، ويسألُ مكارمَه إجراءَه علىٰ عادته بالصَّفح عنه ورَسْمِه؛ وهو يرجُو أنَّ أمَّ هذه الهَفْوةِ لاتَلِد لهـا أُخْتا، وأنه لايعتمِدُ إلَّا مايَزِيدُه إلىٰ المَوْلىٰ مِقةً ويُزِيل مَقْتا؛ فإنَّ معاتبَـةَ مولانا قد وعَتْها أُذُنٌ واعيه، ومَراضِيَه لاتَخفىٰ علىٰ المملوك بعدَ ذٰلك منها خافِيَه، إن شاء الله تعالىٰ.

آخــر: أسعدَ اللهُ المجلسَ وعَطَف للأوْلياءِ قَلْبَه، ونَصر نائبَه وأنفَذَ كُتبَه؛ وأرْهَفَ فى نُصْرة الإسلام سِنانَهُ وعَضْبه؛ وألْهَمَ حبَّـةَ قلب الزمان حُبَّه؛ وأقْدَره علىٰ الحِلْم الزائد حتّىٰ يغفرَ به لكلِّ مُذْنِب ذَنْبه.

[وينهى] وُرودَ الكتابِ الذى أعدَّتْه يدُ مولانا فصار كَرِيما، وكسَتْه عبارتُه ثوْبَ بَرَاعتِه فأصبحَ مَنْظَرُه وَسِيما، وآستنْشَق عَرْفَ نَسِيمه المبارك فطاب شَمِيما؛ وعلم المملوكُ منه شِدّةَ عَتْبه، ومُرَّ التجنِّى الذى ظَهر من حُلو لفْظه وعَذْبه؛ ولم يَعْرف لعَتْبه مُوجِبا، ولا لتغيُّر مَوَدّته سَبَبا؛ فإنه ماحادَ عن طريقِ وَلَائه ولا حال، ولا زَلَّت قدَمُه عنه ولا زال؛ ولا مادَ عن مَنْهَج المودّةِ ولا مال؛ وما فَتِئَ لمحاسنِه ناشِرا، ولإحسانِه شاكرا؛ فإن كان قد نُقل عنه إلىٰ مولانا شيءٌ أزْعَجَه، وأخرجه عن عادةِ حِلْمه وأحْرَجه؛ فإن الوُشاةَ قد آختلَقُوا قولَهم ونَقْلهم، وقصَدُوا تشتيت المُصاحبةِ شتَّت اللهُ شمْلَهم:

وقد نَقَلوا عَنِّى الّذِى لَمْ أَفُهْ بِهِ * وَما آفَةُ الأَخْبارِ إِلَّا رُواتُها!

آخر: وردت المشرَّفة العاليـة أعلىٰ اللهُ نَجْمَ مُرْسِلها؛ وأسبغَ أيادِيَه وشكر جسيمَ تفضُّلِها؛ فابتهجتِ الأنفُس بحُلُولها وحُلَل جَمالها، وعُوملتْ بما يَجب من إكرامِها وإجلالِها، وفُضَّ خِتامُها ففاحَ منها أرَجُ العَبيرِ والعَنْبَر، وتُليتْ ألفاظُها التى هى أبهىٰ من الرِّياضِ وأحلىٰ من السُّكَّر؛ فأغنتْ كُئُوسُ فَصَاحتِها عن المُدام، وأزال ماؤُها الزُّلالُ الباردُ حَرَّ الأُوَام؛ وأعربَ مُنْشِيها عمَّا فى ضميره من العَتْب، والضيقِ الذى حَصَل فى ذٰلك الصَّدر الرَّحْب؛ وهو يُقْسِم بنِعْمته، وبصادِقِ محبَّته؛ أنه لم يَبْدُ منه مايُوجب عليه عَتْبا، ولا آنثَنىٰ عن الثَّناء علىٰ [مَحاسنه](١) التى شغَفَتْه حُبّا؛ فإن كان المولىٰ قد توهَّم شيئا أحْرجَه وأقلَقَه، وإلىٰ أليم العَتْب شوَّقه؛ فلْيُزِل ذٰلك الوَهْمَ من خاطِرِه، ولْيَثِق بما تحقَّق من مُوالاته فى باطِنِه وظاهِرِه؛ ورأيه العالى.

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المقام.

آخـــر : أعزَّ الله عَزَماته، وشكَرَ جسِيمَ تفضُّلاته .

ولا زالتْ نِعمتُه باقِيـه، وقدَمُه إلىٰ دَرَج المَعَالى راقِيـه؛ وهِمَّتُه إلىٰ السُّمُوِّ علىٰ الكَوا كِب ساميه، وسماءُ جُوده علىٰ العُفَاة هاميَه؛ وعَزْمتُه لثُغُور الإسلامِ حاميَه، عبْدُ نِعَمه، وغَرْس كَرَمه، يُعلِمُه بِصدْق وُدِّه، والمداومةِ علىٰ شُكْره وحَمْـده؛ وأنه وَقَفَ علىٰ مُشَرَّفه وفَهِمه، وشاهَدَ منه عَتْبه وعَلِمَــه؛ وهو لا يشْكُو من المولىٰ جَفَاءً ولا يَعيب، و [عن] طريق المُصافاةِ والمُخالَصةِ فلا يغيب؛ بل يقول :

أنْتَ البَرِيءُ مِنَ الإسَاءةِ كُلِّها * ولَكَ الرِّضَا وأنا المُسِيءُ المُذْنِبُ

والمرجوُّ من لَطَافة أخلاقه، وطَهارةِ أعْرَاقه، أنْ يصْفَح عن زَلَّته، ويعْفُوَ عن ذنبه وإساءته :

فأنْتَ الَّذى تُرْجىٰ لتَخْفِيف زَلَّتِي * وتَحْقِيق آمالِي ونَيْــل مَآرِبِي!
وقُرْبُك مقْصُودِى وبابُكَ كَعْبتِي * ورُؤْيَاكَ ياسُـؤْلِي أعَزُّ مَطَالِبِي!

قلت : وكتبتُ إلىٰ المولىٰ شِهاب الدين الدُّنَيْسرىّ وقد بلغَنِى عنه مُساعدةُ بعضِ الجُهَّال علىّ فى بعض الأمور :

عَهِدْتُ شِهابَ الفَضْل يَرْمِى بِسَهْمِهِ * شَيَاطِينَ جَهْلٍ أنْ تُدانِى جَنَابَه!
فَمَا بالُ مولانَا علىٰ فَرْط فَضْـلِه * يُعَرِّفُ شَـيطانَ الجَهَـالةِ بَابَهُ ؟

النـــوع الرابع عشر
(العِيادةُ والسُّؤال عن حالِ المريض)

رُقْعـــة عيادة :

ويُنْهِى أنه ٱتَّصـل بالمملوك مِنْ ألَمِ مَوْلانا ـ أطال اللهُ بقاءَه ، وحَرس حَوْباءَه ـ ما أهْمىٰ مَدَامِعَه ، وأحْمىٰ أضالِعـه ، ومَزَّق جِلْده ، وحَرَّق خَلَده ، وأطار الوَسَن عن عَيْنِه ، ونَفَّر الهُدُوءَ عن مَضْجَعِه ، حتّى تدارَكَ اللهُ تعالىٰ بكتابِه الناطِق بإقْلاع المُلِمّ ، المعْرب عن دِفَاع المُهِمّ ، فرَقَأ من دُمُوعى ما ٱرفَضّ ، وجَبَر من ضُـلُوعِ المملوك ما ٱرتَضّ ، والتأم من جِلْده ماتفَطَّر ، وبَرُد من خَلَده ماتوَقَّد(١) ، وجَثَم ماطار من وَسَنه وآنَس من الهُدُوء مانفَر عنه ، والتأمتِ الآمالُ بعد ٱنْثِلامها ، وبرزَتْ ثِمـارُ الأمانِىِّ من أكمامها ، وطَلَع من الرجاء آفِلُه ، ورَوِى من السُّرور ماحِلُه ، وتجدَّد من السُّؤدَد طامِسُه ، وضَحِك من الزمان عابِسُه ، والله تعالىٰ يغُضُّ طَرْفَ الحَدَثانِ ، عن مُهْجَتِه ، ويَصْرِف صُروفَ الزمان ، عن ساحَتِه ، ويهنِّيه بمـا أعاده إليه من الإبْلال ، ويُمَلِّيه بمـا أفاضه عليه من الٱستِقْلال ، بمنّه وكرمِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أن ماخامَرَه من قَلَق وجَزَع ، وفَرَقٍ وهَلَع ، بسبَب مابلَغَه من شَـكْوىٰ مولانا لاتَحْصُرُه الأوْهام ، ولا تُسَطِّره الأقْلام ، ولولا ثِقَةُ المملوكِ بالله تعالىٰ لَوهَتْ عُقَد صَـبْرِه ، ولَا نَخلعَ فُؤادُه من صَدْره ، وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ هـذا الألَم لو نُقِل إلىٰ المملوك لَمَـا ثقُل عليـه ، وكيف يستَثْقِل مايخَفِّف عن مولانا وَصَبَه ويحْسِـمُه ، ويُعَكِّف له سِـلْكَ الشِّفاء ويَنْظِمُه ، والله تعـالىٰ يجعَلُه فى أمانٍ من كِفَايته ، وضَمانٍ من حِيَاطتِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى الاصل "توفر" بالفاء والراء وهو لايناسب المعنى .

أجوبة كتب الشفاعات[1] والعنايات

قال فى "مواد البيان" : هذه الكتب إذا أجيب الملتمس إلى حاجتـه فينبغى أن تبنى أجوبتها على شكر مقصد الشافع ، والإدلال والاسترسال وإنالة المشفوع له وطره إيجابا لحق الشافع ، وإن وقع الامتناع والتوقف عن الإجابة إلى الملتمس؛ فالواجب أن تبنى على إقامة العذر لاغير .

زهر الربيـــع :

جوابُ شفاعةٍ فى حقِّ كاتب :

جدّدَ الله [له] السعادةَ وخلّدها ، وأصارها له شعارًا وأبّدها ، ووطّد به الممـالكَ ومهّدها ، وعضّد به طائفةَ الإسلام وأيّدها ، وشـكر له صنائعَ يعدُّ منها وَلِىٌّ ولا كُلُّ يستطيعُ أن يعدّدها .

المملوكُ يقبّل اليـدَ الشريفةَ أداءً للفرضِ اللازِم ، وشُـكرًا لمـا أولته من الأيادى والمكارم ، وحمدًا لألطافِهِ التى أطمعَتْه بالتميز فأصبحَ برَفْع قدرِه كالجازِم .

وينهى ورُودَ المشرِّف الذى نزّه ناظرَه ، وجبر قلبَـــه بحُسْن ألفاظه وخاطرَه ، والعلْمَ بمـا أمَرَ به ، وشَـفَعَ إلى المملوكِ بسببه ، وهو الكاتبُ الذى أشارَ إليه ، وقد رَكَن إلى ما شكَرَه به المولى وأثنى به عليه ، واعتَقَد يُمْنَ[2] إغارة الشافِع فعقَـدَ على المشفُوع فيه خِنصرَه ، وتقدّم بترتيبه فى ديوان إنْشائه ، وجعله من جُمْـلة خواصّه وخُلَصائِه ، وفعل ذلك كلّه اتّباعًا لإشارتِه ، وقَبولا لشَفَاعته ، فالمولى يواصل بمراسِمِه وأمثلتِه ، فإنّها تَرِدُ على مُرْتَسِم ممتَثِل .

---

(١) حق هذه الأجوبة أن تكون تابعة للنوع الرابع فهى مؤخرة من تقديم فتنبه .

(٢) لعله إشارة الشافع .

ومنـــه : جواب شفاعةٍ فى ٱستخدام جُنْدىّ :

ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعَمَه ، وأرْهفَ فى نُصْرة الإســلام سَيْفه وقَلَمه ، ولا بَرِحتْ أَلْسِنةُ الأنام ناطقةً بولَائه ، وأيْدى ذَوِى الرجاء مملوءةً من فَوَاضل نَعْمائه .

المملوكُ يُواصل بأدْعِيَتِه الصالحه ، ويستَنْشِق رُوحانِىَّ رِيحِكم فيسْكُن منــه بلَذِيذ تلكَ الرائحــه ؛ ويشكُرُله مامنَحَه من المكَارم ، ويباهى بعزَماته اللُّيوثَ الضَّرَاغم ؛ فلا يجد مُضاهِيًا لتلكَ العَزائم .

وينهِى ورُودَ المِثَــال الذى أشرقَتِ الوجُوه بنوره ، وٱبتهجت الأنفُس ببــلاغة مُنْشِيه ووَشْىِ سُطُوره ، وعلم إشارةَ المولىٰ فى مَعنىٰ فلان : أدام اللهُ سعدَه ، وأعذَبَ مَنْهَلَه ووِرْدَه ، والتوصِيَة بأمرِه ، وما أبداه من حَمْده وشُكْرِه ، وأن يُقْطع إقطاعًا يليق بأمثاله ، ويتَفَيَّأ من خراجها ضافِىَ ظِلاله ، وعند مثُول مِثاله العــالِى ٱمتُثِلَ وٱلتثِمْ ، وٱستخْدَم المشارَ إليه لإشارته وخَدَم ، وهذا بعضُ مايجب من قَبُول أمره ، وتعظيم كتابه وتَبْجيل قَدْرِه ، فيواصلُ بمراسِمِه فإنهــا تُقابَل بالاٌرتِسَام ، ومشرِّفاتِه فإنها تُعامَلُ بوافِرِ الإكرام .

جوابُ شـــفاعة فى الجمـــلة :

قُلْ ما تَشاءُ فإنَّنِى لَكَ طائِـعٌ * ماأنْتَ عِنْدى شافِعٌ بل آمِرُ !

جعله اللهُ لكلِّ خيرٍ سبَبَا ، وحقَّق به لأوليائِهِ ظُنُونا وحَصَّل أَرَبا ، ووَفَّر له من أجرشفاعتِه الحسَنَة نَصِيبا ، وأدامه عن كلِّ شرٍّ بعيدًا وإلىٰ كلِّ خيرٍ قريبا .

المملوكُ ينهِى تألُّمَــه لِفِراقه ، وما يجِدُه من صَــبابَتِه وشِدّةِ أشْواقه ، ويُعانيه من حَنِينه وأَتْواقه ، وأنه ورَد عليه كِتابُه فاســتلَمه ولَثَمه ، وبجَّله وعَظَّمه ؛ وعلِم ما أشار

إليه، وأخَذَ أمْرَ المشفُوع فيه بكلْتا يدَيْه ، وجعل قَضاءَ أرَبِه أمرًا لازِما ، وما فَتِئَ علىٰ ساقِ الاَجتهادِ قائمـا ، إلىٰ أنْ حصَّلَ غَرضَه ، وأدّىٰ من حُسْن القيـام بأمره ما أوْجبَه مُشَرِّفُه العالى وآفترَضه ؛ والمَوْلىٰ آمِرٌ غيرُ شَـفِيع ، ومَهْما وردَ من جِهَتِـه علىٰ المملُوك فواردٌ علىٰ سَمِيع مُطِيع ؛ فيوَاصل من مَراسِمه بما سَنَح ، ومن أخباره بمـا تأرَّج طِيبُ عَرْفه ونَفَح ؛ ورأيُه فى ذلك العالى .

آخـــر : شـكَرَ اللهُ عوَارِفَها ، وتالِدَ جُودِها وطارِفَهَا ، ووافِرَ ظِلَالِهـا ووارِفَها ؛ وينهى ثناءَه علىٰ مَعَاليه ، وملازَمتَه ومُداومتَه علىٰ بَثِّ محـاسنِه ونَثِّ أياديه ؛ وحمـدِ عواقِبِ إحسانه ومَبَاديه ، وشِـدّةَ أشواقِه إلىٰ جَنـابه ، ولذيذِ مشاهدتِه وخِطابِه ؛ وما يُعانيه من غَرامٍ لازَمه مُلازمةَ الغَرِيم ، وداءِ صـبابةٍ يُضاعِفُ شَوْقَه إلىٰ رؤية وجْهه الوَسِـيم ؛ ومُداومتَهُ علىٰ التعوُّض بشُكْرِ محاسِـنِه عن المُدامة والنَّـدِيم ؛ ونَظْم جواهِر مَدْحه بِجيد جُوده ، وحمْـدِ المولىٰ علىٰ ذٰلك التنظيم ؛ وأنه ورد عليه مشرِّفُه العالى فقبَّله ، ودعا لمُرْسِله دُعاءً يرجُو من الله تعالىٰ أن يستجيبَه و يتقبَّله ؛ وحصَل له بوصولِهِ آبتهاجٌ عظيم ، وقال لمن حضر وُروده ﴿يأيُّها المَلأُ إنِّى أُلْقِيَ إلَىَّ كتابٌ كَرِيم﴾ وفَهِم مضمُونَه وفَحْواه ، وعلم معْناه وما أظهره فيـه وأبْداه : من الوصيَّة بفلان وما يُؤْثِره من تسهيل مَطَالبِه ، وتيْسيرِ مآربِه ؛ ووصـل المشارُ إليه وحصَلَ الأُنْس برُؤْيته ، وتمتَّعت النَّواظِرُ والمَسامعُ بمشاهَدته ومشافَهتِه ؛ وقام المملوكُ فى أمْره قيامًا تامّا ، وجعـل عينَ آجتهادِه فى مصلَحته متيَقِّظةً لاتعْرِف منَاما ؛ وشمَّر عن سـاق الاَجتهاد ، فى تحصيلِ المَرام والمُراد ، إلىٰ أنْ حصَل له الفوْزُ بنَيْل أمَلِه ، وعاد راتِعًا من العَيْش فى أخْضَره وأخْضَـله ؛ رافلاً من السُّرور فى أبْهىٰ حُللَه ، فيُحيط علمُه بذٰلك ، والله تعالىٰ يعضُدُ به الدُّولَ والممـالك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

آخــر : جعله اللهُ مِفْتاحا لكلّ بابٍ مُرْتَجٍ، وصَدَّق به [أملَ] كلّ آمل وحقّق رجاءَ كلّ مُرْتَجٍ ، ولا زالتْ سحائبُ جُودِه هاميةً بالوَسْمِيّ والوَلِيّ (١) ، ماطرةً بوَبْلها وطَلّها على الوَلِيّ .

المملوكُ يخْدُم بتحيّة أرقّ من النَّسيم ، وسلامٍ أطْيب عَرْفا من بانِ النَّقا إذا تحمّلتْ عَرْفَه رِيحُ الصَّرِيم .

وينهِى إلى علمه الكريم ورُودَ مشرِّفته وأنه أحاطَ بمضْمُونها عِلْما، وشاهدَ منها فى حال طَيّها مكارِمَ أصارَتْ تفضيلَه على حاتمٍ الطائىّ حَتْما؛ ووقَفَ منها على دُرّ لفْظ قذَفَه بحرُ خاطِره نثْرا ونظْما؛ وبراعةِ عبارةٍ زادتْ قلْبَ مُواليه غَراما وأنْفَ مُناويه رَغْما؛ وفصاحةٍ عرّفتْه قولَه صلّى الله عليه وسلم « إنَّ مِنَ الْبَيانِ لَسِحْرًا وإنَّ من الشِّعر لَحُكْمًا (٢) » وفهِم عنايتَه بفلان نفعَ اللهُ بعلمه وعَمَله ، وقرّب له من الخير مالا يُطْمِعُه به بعيدُ أملِه ؛ وإشارتَه بسبَب التنبيه والإرشادِ على جُمَل فضائله، ومفصّل مناقبِه المشهورةِ فى البِلاد، وإيضاحِ كفايتِه فى وَجِيز تلك الفُصُول الصِّحاحِ الإسْناد، فحالَ قُدومِ المذكورِ وحلُولِه ، ووُرودِ مشرِّفه ووُصوله ؛ أنهى المملوكُ أمْرَه إلى مخْدُومِه ، وطالع به شريفَ عُلُومه ؛ ولا زال يُحْسِن سعْيَه ، ويعتمِدُ على مشيئةِ الله ولا يتْرُك حِرْصَه ومَشْيَه ؛ إلى أنْ حقّق قصدَه بقضاء شُغْله ، وقرّب له أمَدَ أملِه ، وكتبَ توقيعَه ولم يُرِد الله تَعْويقَه ، ونجَع طعمُ قصده وأنْجَحَ اللهُ طريقَه ؛ وقد عاد مصحُوبًا بالسّلامه، معروفًا بتحصيل هذا القَصْد بأنه (طَلّاع الثّنايا) من غيرِ وضْع العِمامه، حسَبَ إشارةِ المولى وأمْرِه، والله تعالى يُمِدُّه بصوْنه ونَصْره .

---

(١) الولى المطر الذى يأتى بعد الوسمىّ ووقع فى الأصول "الوبل" وهو تحريف واضح .

(٢) هو بضم الحاء وسكون الكاف العلم والفقه أى إن فى الشعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه...... ويروى إن من الشعر لحكمة وهو بمعنى الحكم . انظر اللسان ج ١٥ ص ٣٠ .

آخـــر : فى ٱستخلاص حقّ .

شكَرَ اللهُ إحسانَه وإنعامَه، وحَصَّل به لكل وَلِيٍّ مَرامه، وحَمِدَ تطوُّلَه وتفضُّله، وأنال به لكلِّ آملٍ أمله، وخلَّد دولتَه، وأدام نِعْمتَه، وأنفذ كلِمَته؛ ولا زال فضلُه كاملا، وإحسانُه إلىٰ الأولياء واصِلًا؛ ونوالُه لبنِي الآمالِ شامِلا .

المملوكُ يخدُمُ بدعاءٍ أحسنَ من نَوْر الرُّبا، وثناءٍ ألطفَ من ريح الصَّبَا؛ وسلامٍ أطيبَ بمُروره من تذَكُّرِ أيَّام الصِّبا .

وينهى وُرُودَ الكتابِ الذى طابَ بالمولىٰ مَحْتِدُه ونِجارُه، وزاد علىٰ كتائبِ الكُتُب نَخَارُه، وأنه وقَف عليــه وُقُوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُرْسِلِه ، شاكرٍ أنعُمَ فضـلِه وجسيمَ تفضُّلِه؛ فأسكرتْه تلكَ الفَصاحةُ بشَذَاها الأَرِجْ، ونزَّهتْ لحْظَه فى دُرِّلفظِها البَهِج؛ فظنَّها لَمَّـا ٱستنْشَق رائحتَها راحًا قَرْقفَا، ولَمَّـا أبْهجَه لفظُها بألفاظ تُزْهِى علىٰ الرِّياض رَوْضةً أُنُفا؛ وعلِمَ الإشارةَ الكريمةَ فى معنىٰ فلان والوصيَّةَ بخِدْمته، وما أمَرَ به من مُساعدتِه ومُساعَفَتِه؛ وعنــد وُصُول مشرِّف المولىٰ وقَبْــل وَضْعه من يَدِه ، نوىٰ المملوكُ مساعدةَ المذكورِ علىٰ مَقْصَده ، فتقــدّم بإحضار غريمه فوجده عن البــلد غائبا، فانتظَره إلىٰ أن عادَ آئبا ؛ فعند وصوله طلَبَــه وأحضَرَه، وسأله عمَّــا يدَّعيه عليه خصْمُه فأنْكَرَه ؛ وطلب الحضُورَ إلىٰ القاضى، وحَثَّ علىٰ ذٰلك حتّٰى أوْهمَ أنه المُتقاضِى ؛ فلَمَّـا رأىٰ المملوكُ أنّ حُجَّة المشفُوع فيه لاتقُوم بصدْق دعواه وحُجج ، ولا يظهَر بها علىٰ غريمه إلا من طريقٍ حَرِج؛ بذَلَ فى مُصالحتهما جُهْدَ الاجتهاد، وما زال يُرشِدُهما إلىٰ طريقِ الرَّشاد ، ويدُلُّها علىٰ سبيل السَّداد ، ويعرِّفهما أنَّ التضارُرضَيْر، وأنَّ الصُّلح خَيْر؛ فكل منهما يَهِـيم فى وادْ، ويسْلُق خصْمَه بألسـنةٍ حداد؛ إلىٰ أنْ تراضَياَ وتوافقَا ، وسلَكَا طريقَ الرِّفق وترَافقَا ؛ وصـدَّق الخصمُ

خَصْمَه فتَصادَقَا ، وٱنفصلَا وكلٌّ منهما قد أرْضىٰ خِدْنه ، وعن المحاكمة والمحاققة أغْضىٰ جفْنه .

آخــر : أيدَّ اللهُ سعدَ المولىٰ وأبَّده ، وأثّل مجْـدَه ومجَّده ، وأعانه علىٰ إسْـداء العَوارِف وعَضَّده ، وأمدَّه من المَسَرَّات بما يُزيل عن الأيَّام أبدَه(١) ، وأناله سَعْدا لاتبْلُغ الأنامُ أمَدَه ، ولا زال بُرْدُ جَدِّه من السعادة جَدِيدا ، ونجْمُ عدُوِّه آفِلًا ونجمه سَعيدا .

الذى نُحيط به علْمه الكريم أنَّ كتابه ورد فسَرَّى همَّ الأنفُس وسَرَّها ، وضاعفَ بمـا ضاعَ من نَشْره بِشْرَها ، وفاحَ منه شَذًا عند إقْباله ، فقيل : قد هبَّتِ القَبُول ، ورَنَّح الأولياءَ ، فقيـل : قد هَبَّتْ رِيحُ الشَّمال وأُديرتِ الرَّاحُ الشَّمُول ؛ وأنَّ المملوكَ وقَفَ منه علىٰ ألفاظٍ سقَتْه كُـئُوسَ سُرُورٍ لا كُـئوسَ مُدَام ، وروَتْ له أخبارَ حِلْم لو أُسنِدَتْ إلىٰ سِواه لتُوهِّمتْ أضـغَاثَ أحْلام ؛ وروَتْ أكبادًا أضرَّ بها لغَيْبَته حَرُّ ظَمَإٍ وأُوَام ؛ وبيَّنت سِحْرَ البَيَان ، وأعرَبَتْ بلسان حُسنها عمَّا لمُنْشيها بل مُوَشِّيها من الإحْسان ، وأغربَتْ فى الفَصَاحة فخِلْنا كلَّ كلمة تنْطِقُ عن سَحْبانَ بلِسَان ؛ وزهتْ بيانِـعِ ثِمَـارِ فضْلِها فنزَّهتْ كلَّ عينٍ فى بُسْتان ؛ وعلم إشارةَ المولىٰ فى معَنىٰ فلان ، وما أبداه من العِنَاية فى حقِّه ، والإيثـار لِصِـلةِ رِزْقه ؛ وأنه من الألْزام ؛ والذين تَجِب معاملتُهم بالإكرامِ والاحترام التـام ؛ وعنـد ماشاهدَ المملوكُ كتابَ من شَرَّفه ، وسَمِـع ألفاظَه التى بلُطْفها أتحفَه ؛ بل بِردائها علىٰ البَرْد ألحفه ، تقدّم بإجابة سُؤاله ، وترتيبِه فى جهةٍ تليق بأمثالِهِ ؛ وقمَّصه من العناية قميصًا لايَبْلىٰ ، وجمع لخاطِره والدَّعة شَمْلا ؛ وهذا حسَب إشارةِ المولىٰ التى لاتُخَالف ، وأمرِه الذى يقِفُ كلُّ أحدٍ عنده ولا يستَوْقِفُ ولا يُواقِف(٢) .

---

(١) أى غضبه فهو مصدر أبد عليه كفرح اذا غضب .

(٢) هذا آخر ماحقه التقديم بعد النوع الرابع وقبل الخامس فتنبه .

كتاب إلىٰ مريض بالسؤال عنه من كلام المتأخرين :

حَاشىٰ مِزَاجَكَ مِنْ أذًى * وكرِيمَ جِسْمِكَ من وَصَبْ !
يَا غَايَةَ المَـأْمُـولِ والْـ * ـمَرْجُوِّيا كُلَّ الطَّلَبْ !
مُذْ غِبْتَ عَــنِّى لَمْ أزَلْ * مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ فى نَصَبْ !
جَفْـنِى غَرِيقٌ بالدُّمُـو * عِ وماءُ صَبْرِى قد نَضَبْ !
واللهِ مَــالِى فى البَقَــا * ءِ وأنْتَ ناءٍ مِنْ أرَبْ !
فَـتُرىٰ أُبَشَّرُ[1] سَـيِّدِى * أنَّ اللِّقَـاءَ قَدِ اقْـتَرَبْ !

حرَسَ اللهُ مِزَاجَ المَوْلىٰ ! وأصار العافِيَةَ له شِعَارا ، والصِّحَّةَ له دِثَارا ، ولا زالَتْ ساكنَةً فى جَوَانِحه ، مقيمةً حَشْوَ أعضائِه المباركةِ وجَوَارِحه .

أصدرها المملوكُ تُعْرِب عن شوْقٍ يكِلُّ عن وصْفِه اللِّسان ، وتَوْقٍ لايُحْسِن وَصْفَه البَنَان ، ولاعِجٍ يَعْجز عن حملِ بعضِه الجَنَان ، ملتَمِسا المواصلةَ بأخْباره ، وواصفًا مايجِدُه القلبُ من ألِمَ الشوق وناره ، وشاكِيًا من جَوْر أيَّام الفِرَاق ، وراجيًا أن يُبَشَّر بالإبْلال من مَرَضِه والإفْراق ، وداعيًا إلىٰ اللهِ بتعجِيلِ أيَّام التَّلاق . ومع ذٰلك فلو رُمت أنْ أشرَحَ كلَّ ماأجِدُه من الصَّبابة لأسأمْتُ وأسْهَبْت ، بل لو ذكرتُ ماأُعانيه لألَمِـه لثقَّلتُ علىٰ خاطِرِه وشَوَّشْت[2] ، لكن خاطِرُ المَوْلىٰ شاهدٌ بوَجْدى ، وعارِفٌ بمـا تحمَّلته من الكآبة التى لم يحمِلْها أحدٌ قَبْلى ولا تُحمَلُ بَعْـدِى ؛ فيُواصِلُ بأخبارِه ، واللهُ يحرُسُه آناءَ لَيلِه وأطرافَ نَهارِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

(١) مراده فتى أبشر . ولعله تصحيف من الكاتب .

(٢) نقل هـذا الفعل الفارابى وتبعه الجوهرى واستعمله كاتب هذه الرسالة وأنكره بعض الحذاق وقال الصواب هوّشت .

فى معنـــاه :

يامَنْ شَكَا فَشَكَا فُؤادِى حُرْقَـةً * لاتَنْطفِى وصَـبابةً لا تَبْرَحُ !
وغَدَا سَقِيمَ الجِسْمِ يَوْمًا واحِدًا * فنَزَحَتْ دَمْعا للمَدامِـعِ يَجْرَحُ !
وٱزْدادَ شَوْقى نَحْوَ طلعتِـه الَّتِى * أبدًا بِيُمْنِ بَهائِها أستَنْجِح !
لا زِلْتَ فى عِزٍّ وسَـعْدٍ دائمٍ * أيَّامُنـــا ببقَـــائِهِ تتَبَجَّح !
وبَقِيتَ ما بَقِيَ الزَّمانُ مُؤيَّدا * تُمْسِى قَرِيرَ العيْنِ فيه وتُصْبِح !

كَمَّل اللهُ عافِيَـةَ المَوْلىٰ وحَرَسَـه ، ولا سَلَبه ثَوبَ الصِّحَّة بل قَمَّصَه إيَّاه وأَلْبَسه ؛ وأخدَمَه الأيَّامَ فلا تستَطِيعُ مخالَفَـةَ أمْرِه ولا الخُرُوجَ عن حُكْمِه ، ورزَقَه أن يَمْلِكَ الدُّنيا بحذَافيرِها وهذا يحصُلُ بعافِيَةِ جِسْمِه .

المملوكُ ينهِى أنه ٱتَّصل به تألُّمُه فشَقَّ ذلك عليه، ووصلَ من القَلَق إلىٰ حَدٍّ لم يَصِـلِ المَوْلىٰ والحمدُ للهِ إليه؛ وٱبتهلَ إلىٰ اللهِ فى مُعافاة جَسَدِه، وأن يُعضِّدَه ببَقاء والدِه وولَدِه؛ ويُضاعفَ تسهيلَ مآربِه ومَقاصِـــدِه ، ويرفعَ كلمتَه وقدْرَه علىٰ رَغْمِ مَعْطِس شانِيهِ الأبْترِ وحاسِدِه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

جوابٌ إلىٰ من قَنْطَره (١) فرسُه :

ثَبَّت اللهُ قواعِدَ مَجْدِه، وبلَّغه سَـعْدا لاتبلُغه الآمالُ لبُعْـده ؛ وأهمىٰ علىٰ محبِّيه سحائبَ جُودِه ورِفْده .

---

(١) جارىٰ فى هذا الفعل اللغة العامية والصواب قطره قال الشاعر :

قد علمت سلمى وجاراتها * ماقطر الفارس الا أنا

أنظر اللسان ج ٦ ص ٤١٨ .

المملوكُ يخْدُم بتحيَّة أرقَّ من النَّسِـيم ، و يشْكُر مواهبَه التى مازالتْ تحنُو عليه حُنُوَّ المُرْضعات على الفَطِيم .

ويُنْهِى ورُودَ الخبر بأنه كَبَابِه جوادُه عنـد مازَلَّت قوائمُه ، وأثقَلَتْه فضائلُ المولىٰ ومكارِمُه ، فٱنْزعَج لذلك وتألَّم ، وكاد قَلْبُـه لولا المبَشِّر بسلَامتِـه أنْ يتكلَّم ؛ وجَوادُ المَوْلىٰ لاسبِيلَ إلىٰ ذَمِّه ، فإنه أسْمحُ جَواد ، ولا ٱتِّهـامِه بالعَجْز ، فإنَّه عُرِفَ بإتْهام وإنْجـاد :

لٰكِنَّه نَظَر الأفلاكَ ساجدةً * إلىٰ عُلَاك فلَمْ تَثْبُتْ قوائِمه !

والمَوْلىٰ أولىٰ مَنْ قابل عُذْر طِرْفه بطَرْف القبُول ، وٱعتمد عليـه دُونَ سائِرِ الخُيُول : فإنَّ المولىٰ ولله الحمدُ فى صحةٍ دائمه ، وسـلامةٍ ملازمه ؛ وهـذا هو القَصْدُ والمُراد ، والاستبشارُ الذى تفْتَرُّله ثُغورُ الثُّغور وتعْمُر به البِلاد ؛ جعله اللهُ فى سعدٍ ماله فَراغٌ ولا نَفَاد ، ورزقه مادعا به العِمادُ الفاضل والفاضِلُ العِماد ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة كُتُب العيـادة

قال فى " موادّ البيان " : يجب أن تبنىٰ هذه الأجوبةُ علىٰ وُصُول الرُّقعـة ، وما صادفت المريضَ عليه من المَرَض ، وأنها أهدَتْ رَوْحَ الهُدُوء ، وأركَدت رِياحَ السُّوء ، وأقبلتْ بنَسيم الإبلال ، وتضوّعَتْ بأرَجِ الاِسـتقْلال ، و بَشَّرت بالعـافيةِ والسَّلامه ، وآذنَتْ بالصَّلاح والاستِقامه ، وأشباه هذا .

ابن نباتة المِصْرى :

شكَرَ اللهُ ٱفتِقـادَها وأُنْسَها ، وقلَمها وطِرْسَها ؛ وحمىٰ مِنْ عارض الخَطْبِ لامِنْ عارض الخصْب شَمْسَها ؛ ولا أعدمَ الأولياءَ قصْدَها الجميل ، ووُدَّها الجليل ، و إحسانَ

رسائِلها التى كَرُمَتْ فما صَوْبُ الغَمَام لها رَسِيل ؛ وأمْتع الممالكَ بُيْمْنِها التى صحَّت بتدبيره فليس غَيْرَ النَّسِيم عَليل .

و يُنْهِى ورُودَ المشرِّف الكريم فتلقَّاه المملوكُ حَبِيبا وارِدًا ، وطبِيبًا بإحسانِه وللجسدِ عائدا ؛ وفَهِم المملوك ما ٱنطوىٰ عليــه من الصَّدَقات التى مازالَتْ فى فَهْمه ، والمحبةِ الصادقةِ التى ما عَزَبتْ عن عِلْمه ؛ وما تضَــمَّن من فصولٍ كانَتْ أنفعَ من فُصُول أَبِقْراط لمعالجة جِسْمِه ؛ وأينَ أبِقْراطُ من بركاتِ كتابِ مولانا الذى طالَعَ منه كتابَ الشِّــفاء علىٰ الحقيقه ، والنَّجاةِ من عُرْوة البأس الوَثِيقه ؛ وأدْنىٰ ورَقَته الحمراءَ لرأسه تبرُّكا و إكْراما وقال : نِعْمَ الجُلَّنارةُ المُعوِّذَةُ من الشَّقِيقه ، وٱستطَبَّ حُروفَها فإنها عن أيْدِى الكرِيم والكَرَامات ، ولَثَم العلامةَ وتمسَّــك بالسُّطور فإنها من أســبابِ الصِّحَّة والعَــلَامات ؛ ووافقتْ عيادةُ مولانا مبادِىَ العافيــة وآذنَتْ بالزِّياده ، وصلَح خطُّه الكريمُ عائدا وما كُلُّ خطٍّ يصــلُحُ للعِيَاده ؛ وما تِلكَ الجارحةُ المتألِّمــةُ إلا يَدٌ أثقلَتْها مِنَنُ مولانا فأعْيَتْ وتألَّمت ؛ ثم أعانَتْها بركتُه هى والقدَمُ بالحمل العظيم وتقدَّمتْ ؛ وما بقِيَّة الجَوارِح إلا عيونٌ كانتْ تنتظِر لُطْفَ الله تعالىٰ و بركتَه وقد قَدِمتْ ، فشُكْرا لها من بركاتٍ تَنْعَمُ بها قبــلَ الجُسُوم أرواحُها ، وأدويةٍ قلبِيَّة تُعالَجُ بها ذواتُ النُّفُوس فكيف أشباحُها ؛ لا بَرِح جوْهَرُ كلماتِ مولانا يُؤْذِن بالشِّفاء من العَرَض ، وسِهام أقلامه إذا كتبَتْ عائدةً أو جائدةً أصابت الغرَضَ وفوْقَ الغَرَض .

وله : تقبَّــلَ اللهُ منه وفيــه صالحَ الأدْعِيه ، وملأ بمحَاســن ذكره وبِرِّه الآفاقَ والأنْدِيه ، وشكرهِباتِه و بركاتِه التى تَنْزِل بعارِض الغيثِ قبل الٱستمطار وترفَعُ عارِضَ الألَم قبــلَ الأدْويه ؛ تقبيــلَ معترِفٍ بسابق النِّعم ، مقيــمٍ علىٰ صحَّة العُبُودية والولاء فى حالَتَى الصِّحَّة والسَّقَم .

وينهى وُرُودَ مشرِّف مولانا الكريم علىٰ يدِ فلان عائدًا من جِهة العِياده ، وعائدًا من جِهةِ الصِّـلات المعتاده ، ومُفْتقِدًا لاعَدِم الأولياءُ فى الشِّـدّة والرَّخاء ٱفتقادَه ، ما كان إلّا رَيْثَمَا نَشِقَ العليـلُ نَسماتِه الصحِيحه ، وتناوَلَ كأسَ ألفاظه الصَّريحه ؛ وإذا بقانُون المِزَاج قد هَمَّ باعتِدَاله ، وكتابِ الشفاءِ والنجاةِ قد تسنَّتْ فوائدُ إقبالِهِ ؛ فتميَّز حال الصحَّة من المَرَض ، وٱستعمل جَوْهَرَ الألفاظ فعَزَم علىٰ زَواله العَرَض ؛ وبلَّغ الولدُ فلان المشافَهةَ وكلُّ مَقاصِد مولانا مبتَدَأة مبْتدَعة ، والمملوك(١) جوابَها وكلُّ أجوبته مُنَوَّلةٌ منوَّعه ؛ شكر اللهُ عوارِفَ مولانا المتَّصِـله ، ورُسلَ ٱفتقاده التى منها العائدُ ومنها الصِّله .

وله : فى جواب كتاب عِيادة وارد فى يومِ عِيد علىٰ يد من ٱسمه جمال الدين محمود.

شـكَر اللهُ مِنَنهـا التى إذا أَبْدتْ أعادَتْ ، وإذا جادَتْ أجادت ؛ وإذا كَرَّرتْ الأفتقـادَ حَلَا وإذا تصـدَّتْ لِمَوَدّاتِ القلوب صادَتْ ؛ تقبيـلَ مخلِصٍ فى وَلَائه وٱبتهاله ، مُقِيم علىٰ صحة العهدِ والحمد فى صِحَّته وٱعتِلاله .

وينهِى وُرُودَ مشرِّفة مولانا الكريمة علىٰ يدِ الولدِ جمـال الدين محمود متفقِّدا علىٰ العـاده ، مكرِّرا لعيادة الإحسانِ وإحسانِ العِياده ؛ فقابل المملوكُ بالحمد وارِدَها ، وبعوائد الأعتِدادِ عائدَها ؛ وفِهم ماتضمَّنته من تألُّم قلب المـالك علىٰ ضَعْف المملُوك ، وقَلَقِ خاطره علىٰ بَدَن كَبِيْت(٢) العُروض مَنْهُوك ؛ وأنه كان ٱبتدأ ضَعْفُ المملوكِ فتألَّم ، ثم تَلا خبَرُ الصحة فتـلَا : ولكنَّ اللهَ سَـلَّم ؛ ثم بلغه أنَّ آلامًا تراجَعتْ ، ومَوادَّ واصلَتْ بعد ما قاطَعتْ ؛ فحملَتْه خواطِرُ الإشفاقِ علىّ علىٰ تكريرِ العِيَاده ، وارتقابِ فَعلَاتِ الشفاء المستَجاده ؛ جاريًا من إحسانه وٱفتقادِه علىٰ أجمل معْهُود ، باعثا مشرِّفته

(١) مراده وناول أى أوصل المملوك الخ تأمل .

(٢) فى الأصول "كثيب" وهو تصحيف من الناسخ .

وحاملَها وكلاهُما حسَنُ الحال محمود ، فعند ماوصَلَا أوصَلَا كمالَ العافيه ، وحقَّقتُ أخْيِلَةَ البُرْءِ الشافيه ، وما كان المشكُوُّ إلا مادَّة يسيرةً وزالتْ ، وبقِيَّةَ ضَعْف تولَّت بحمد الله وبركة مولانا وما تَوالَتْ ، وما عيَّدَ المملوكُ إلا وشـفاءُ الجسد فى ٱزْدِياد ، والنفس بالوقت وبالمشرَّفة فى عيدَيْن قائمَيْنِ بأعياد ، لا زالتْ مِنَنُ مولانا إزاءَ اللَّحْظ حيثُ دار، ووُدُّه وحِمَاه جامعين فَضْلَ الجارِ والدَّار .

زهر الربيـــع :

لازالَ محروسَ الشِّيَم ، هاطِلةً سحائِبُه بالدِّيَم ، مشكورًا بلسانَيِ الإنسانِ والقلَم .

المملوك يقبِّل يدَه الشريفــةَ مُؤَدِّيا للواجب ، ويواصِلُ بدعاءٍ صالِحٍ أصاره إنعامُه ضَرْبَةَ لازِب .

وينهى إلىٰ كريم علمــه وُرُودَ مشرِّفه الذى أبهجَ الأنفُسَ وضاعفَ الصَّـبابه ، وأفنىٰ الصـبْرَ عن مُحيَّاه وإنْ كان ماأفناه أيْسَرَ صُبَابه ، وأنَّه عَلِم منــه إنعامَه وتشوُّفَه إلىٰ المملوك وإلىٰ سَمَـاعِ أخبارِه ، وما أبْداه من شَفَقةٍ أُلِفَت من إحسانه وعُرِفتْ من كريم نِجَاره ، وتُحُقِّقتْ من شِيَمِه علىٰ من ينْأىٰ عن بابه العالى ودارِه ، فاللهُ يحرُس هٰــذه الأخلاقَ التى هى أرقُّ من المـاء الزُّلَال ، والشمائلَ التى تفعَل بلُطْفها فِعْــلَ الجِرْيال ، والمملوكُ فواللهِ لايُحْصى شَوْقَه إلىٰ الخدْمة العاليــة ولا يَحْصُرُه ، ولا يَقْدِر علىٰ وصف مايُسِرُّه من الأَتْواق ويُظْهِره ، إنمــا الاعتمادُ فى ذٰلك علىٰ شاهِدَىْ عدْلٍ من خاطِره وقَلْبه ، وهما يُغْنيان المملوكَ عن شَرْح وَلَائه بألسنةِ أقلامِه ووُجوه كُتْبه ، وأما السؤال عن أخبـارِ مِزاج المملوك فإنه كان فى ألمٍ دائم ، وسُقْمٍ مُلازِم : لشـدّة المَرَض ، الذى كاد يحتوى علىٰ جَوْهَر جســمه والعَرَض ، فمُـذْ ورَدَ كتابُ المولىٰ ٱنتعشَتْ قُوّته ، وٱشْتدّتْ مُنّته ، وصدَقَتْ فى طلب تنـاوُل الغذاء شَهْوتُه ، وترجّى

الشفاءَ بعدَ أن كان علىٰ شَفَا التَّلَف ، وكان له كالطبيبِ الآسِى فى إزالة مَرَض الأَسَا والأَسَفْ . وقد حصلت للملوك مَسَرَّتان بكتاب المولىٰ وعافِيَتـه ، وفَرْحتانِ بمـا أهداه إليه من عَفْوِ إنعامه ومَحْو أثَر الألم وتعْفيَته ، وكلُّ ذلك بسعادَته .

ومنـــه : ورد المُشَرَّفُ العالى لا زال قَدْرُ مُرْسِله شريفا ، وشَرَفُه الباذِخُ يجعل كلَّ شريفٍ مشْرُوفا ، وسحائبُ جُوده تُهْدِى إلىٰ الأولياءِ من مكارمه تَليدا وطَرِيفا ، وقواضِبُه تَرُدّ [طَرْف] حوادثِ الأيَّام عنه مَطْرُوفا ، وأياديه تبعثُ لمحبيـه تُحَفا ، وهيبتُه تُهْدى إلىٰ الأعداء خَوْفا ، والدهرُ بخدمةِ جَنَابه العالى مشْغُوفًا ، فوقفَ عليه وُقوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُسَطِّرِه ، متنَزِّه فى ربيع ألفاظِه وحُسْن أسْطُرِه ، وعَرفَ منه إحسانًا ماقَتِئَ يعْرِفه ، وتفضُّـلا مازال المَوْلىٰ بمثـله يُتْحِفُه ، وما أشار إليه من شِدّة إيثارِه ، لرُؤْية المملوك وسماعِ أخباره ، والذى يُنْهِيه أنَّ جسده كان قد تضَاعف ضَعْفُه ، حتّى أتعبَ الألسِـنةَ وصْفُه ، فلمـا وقَفَ من مشَرِّف المولىٰ علىٰ خَطٍّ هو الوَشْىُ المنَمْنَم ، وألفـاظٍ هى الرَّحِيق المُخَتَّم بل الدُّرُّ المَنَظَّم ، وسحرٍ هو محلَّل وكلُّ سحرٍ مُحَرّم ، أَبَلَّ المملوكُ و بَردتْ غُلّتـه ، و برأتْ عِلّتـه ، وكان كمن آسـتوفىٰ نصيبَه من النَّصَب ، وأخذ قِسْمَه من السُّقْم والوَصَب ، فسقَاه مشَرِّفُه الصحةَ فى كاس ، وأفاضَ عليه من العافية أفخرَ لباس .

آخـــر :

وَرَدَ الكتابُ فعمَّتِ الأفْراحُ * وأضَاءَ فى لَيْل الأَسَا الإصْباحُ !
وآفْـتَرَّ ثغرُ للزَّمانِ بفَرْحةٍ * ولِلفْظه طَرِبَتْ رُبًى وبِطاحُ !
وتَضوّعَتْ أرْواحُ طِيبٍ عَرْفُها * تَحْيـا بِهِ الأجْسامُ والأرْواحُ !
وسَقىٰ سُلَافَ فَصاحةٍ و بَلَاغةٍ * ما المِسْكُ عنْدَ شَمِيمِهَا ما الرَّاحُ !

شكر اللهُ مِننَه، وأخدمه زَمَنَه، ومنَحَه من العَيْش أغَضَّه واحْسَنه، وشَرَّف ببقائه الدهْر وشنَّف بمَدْحه أُذُنَه .

المملوك يُنْهِى إلىٰ علمه وُصول مشرِّفه الذى تنزَّهت الأعيُنُ فى حُسْن مَنْظَره، ويانِع ثمارِ لفظه البديع ووَشْيِ أسْطُره، وأنه آستَنْشق من رِيحه أطيَبَ نَفْحه، وتقَمَّص منه ثوْبَى دَعة وصِحَّه، فشفىٰ داءً شَفَّ منه جِسْمُه، وزاد لوُرودِه سُرورُه وزال هَمُّه، وعلِم إنعامَ المولىٰ الذى لا يَشُكُّ فيه، وإحسانَه الذى لا يحْصُره لسانُ مادح ولا يُحْصِيه، وما ذكره من الألَم المُلِمِّ به وآشتغالِ خاطِرِه الكريم لما أَلَمَّ بجِسْمه، والمرضُ بسعادة المَوْلىٰ قد بَقِيَ منه قُلُّه، وتقلَّص بعدَ ما آمتدّ ظلُّه، والعافيةُ تتكمَّل إن شاء الله تعالىٰ برُؤْية مُحيَّاه الكريم ومشاهدَته، والمُثُولِ بين يديْه العاليتين فى خدْمته .

النوع الخامس عشر
(فى الذّمّ)

ذَمُّ بخيل: لأحمد بن يوسف :

كأنَّ البُخْلَ والشُّؤْم صارا معًا فى سَهْمه، وكانا قبْلَ ذلك فى قِسْمه، فحَازَهُما بالوِرَاثه، وآستحَقَّ ما آستَمْلك منهما بالشُّفْعة، وأشهَدَ علىٰ حِيازتِهما أهلَ الدِّين والأمانة، حتّىٰ خَلَصا له من كلِّ مانع، وسَلِما له من تَبِعة كلِّ مُنَازع، فهو لا يُصيب إلَّا مُخْطِيا، ولا يُحْسِن إلَّا ناسِيا، ولا يُنْفِق إلَّا كارِها، ولا يُنْصِف إلَّا صاغِرا .

وفى مثله : وصلَ كتابُك فرأيْناك قد حَلَّيته بزَخارِف أَوْصافك، وأخْلَيْتَه من حقَائِقِ إنْصافك، وأكثَرْتَ فيه الدَّعاوىٰ علىٰ خَصْمك، من غير بُرْهانٍ أتيتَ به علىٰ دَعْواك وزَعْمِك .

ومنــــه : ولو أراد غيرَ ذلك من الأخلاقِ السَّنِيَّه ، الشريفةِ الهَنِيَّه ، لاَستَوْحَش فى سُبُلهـا ، ووقَع فى مَضَّة منها ، ولن يجِدَ من سَلَفِه ولا نَفْسه دليلًا عليهـا ، ولا هاديًا إليها .

ومنــــه : لأبى العَيْناء :

أما بعــدُ ، فلا أعلَمُ للمعروف طريقًا أحْذَرَ ولا أوْعَرَ من طَرِيقه إليـك ، ولا مستَوْدَعا أقَلَّ زكاءً ولا أبعَـدَ ثمرةَ خيْرٍ من مكانِه عِنْـدك : لأنه يحصُلُ منك فى حَسبٍ دَنِىّ ، ولسان بَذِىّ ، ونَسَبٍ قَصِىّ ، وجهْلٍ قد ملَكَ طِباعَك ، فالمعروفُ لديْك ضائـع ، والشُّكْرعِنْـدك مَهْجور ، وإنمـا غايتُكَ فى المعروف [أنْ] تُحْرِزه ، وفى وَلِيِّه أن تكْفُرَ به .

ومنــــه : لمحمد بن الليث :

بكم عَلَنَ الظُّـلمُ ، وظهَرتِ البِدَع ، وآندفَنَ الحقُّ ، وعَزَّ الفاجِر ، وظَهَر الكافِر ، وفَشَتِ الآثَام ، ونُقِضَت الأحْكام ، وآتُّخِذ عبـادُ الله خَوَلا ، وأموالُه دُوَلا ، ودِينُه دَخَلا .

ومنــــه : لأبى علىّ البصير :

عَدُوُّك مُنْعزِل عَنْك ، وصديقُك على وَجَل منك ؛ إن شاهدْتَه عاقَّك ، وإن غبتَ عنه حاقَّك ؛ تسألُه فوقَ الطاقه ، وترْهَقُه عنـد الفاقَه ، وإن آعتذَرَ إليكَ لم تَعْذِرْه ، وإنِ آستنْصَرَك لم تَنْصُره ، وإنْ أنعَمَ عليك لم تَشْكُره ، ولا يزِيدُك السِّنُّ إلا نَقْصا ، ولا يُفيدك الغِنى إلا حِرْصا ، تَسْمُو إلى الكبير ، بقَـدْر الصغير ، وتشِفُّ للتَّطْفِيف لا للتخْفِيف ، تعتَرِض الناس بالسُّؤال ، غير مُحْتَشِم من الإمْلال ، ولا كارِهٍ لأن يُنْظَر إليكَ بعين الآستقلال ، حتّى لقد أخرجْتَ الأضْغان ، وقَبَّحْتَ الإحْسان ، وزهَّدتَ

فى ٱصطِناعِ المعرُوف، و إغاثةِ الملْهُوف، والنـاسُ منك بينَ أسرارٍ تُفْشىٰ، وبوائِقَ تُخشىٰ، وشَناعاتٍ وارِدَه، ونَوادِرَ بارِدَه، وُدُّك تَخَلُّق، وشكْرُك تَملُّق .

ومنـــه : لسعيد بن حميد :

رجلٌ يَعنُف بالنِّعَم عُنْفَ من قد ساءَتْه مُجاوَرَتها، ويستَخِفُّ بحقِّها ٱستِخْفافَ من لايَخِفُّ عليه مَحْمَلُها، ويُقَصِّر فى شُكْرها تقصيرَ مَنْ لايعلَمُ أنَّ الشكر يرتَبِطُها؛ ومن كانتْ هذه حالَهُ فى ٱختيارِه لنَفْسه، فكيف أرجو حُسْنَ ٱختيـارِه لى ؟ ومَنْ كان فى مُدّة من ٱبتلاءِ الله بعيدةِ مابينَ الطَّرَفَيْن لاأدرى أينفُـذُ بى الأجلُ إلىٰ أقصاها؛ أم يُقَصِّر بى فى أدْناها؛ فكيف يتَّسع الصـدْرُ للصبر عليه ، إنَّ اللهَ لايَخافُ الفوتَ فهو يُمْهِله ، وإنه إنْ ماتَ لم يَخرُجْ من سـلطان الله جلَّ وعزَّ إلىٰ سلطان غيره فيعُاجِلُه؛ وأنا علىٰ خوفٍ من إعجال المَدىٰ عن بلُوغ [مناى فأذهب](١) حرِجًا صدْرى، وعلىٰ ثقةٍ منْ الشُّغُلُ فى الآخرة بنَفْسى عن التَّشفِّى من أهل عدَاوتى وترَتى ؛ وأحمدُ الله علىٰ المِحْنة ، وأسأله تعجِيلَ رَوْح النِّعمة، وفُسحةَ العافية .

النـــــوع السـادس عشر
(فى الأخبـــار)

قال فى "مواد البيان" : كُتُب الأخبار وإن كانت من الكُتُب الكثيرة الدَّوَرانِ فى الآستعمال فليسَتْ ممـا يُمْكِن تمثيلُه ، ولا حصْرُ المعانى الوامقة(٢) فيه برُسُوم تشتمل عليها، نعَمْ ولا أن نقدِّم له مقدّمةً تكون توطئةً لمـا بعدها، كما يجرِى الأمْرُ فى سائر فُنون المكاتبات الأُخَرِ التى لاتخْلُو من مقدّمات تَحُلُّ منها محلَّ الأَسَاس من البُنْيان،

---

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام .

(٢) مراده الواقعة فيه ولعله مصحف عنه تأمل .

والرأس من الجُثمان ؛ لكن المقدّماتُ التى تُوضَـعُ فى الكتب من شَرْطها أن تكون مشتقّةً من نفس معنىٰ الكتاب، ومُنْهِى الخبر لا يمكنه أن يَسْتنبط من كل خبرٍ ينهيه مقدّمةً تكون بساطا له ؛ وإنمـا يقول : كتبت من موضـع كذا يومَ كذا، والذى أنهيه كذا؛ بل الذى يلزمه أن يتحدّاه بطاقَتِه، ويتحرّاه بجهده، أن يبيِّنَ مايطالِـعُ به من الأخبار؛ ويكشِفَه ويوضِّحَه ويُفْصِح عنـه ، ولا يقِفَ منه إلّا عنـد الشفاء والإقناع لتتقرّر صورتُه فى نفس من يُنْهِيه إليه؛ اللهم إلا أن يكون الخبر مما يوجب الأدبُ العُدولَ عن لفظه الخاصِّ به، والإخبارَ عنه بألفاظٍ تؤدِّى معناه، ولا يهجُم علىٰ المُخْبَر بمـا يَسُوء سماعُه ، كأن يكون خبرا يرفَعُه إلىٰ سلطانٍ عن عبدٍ له قد أَطْلَق فيه ما يَضَع منه ويُسْقِط مَهَابته ، أو نحو من ذٰلك ممـا يثْقُل علىٰ السلطان المنغص منه ؛ فإنه ينبغِى أنْ يُعدَل فى هذا وأمثاله عن التصريح إلىٰ التعريض، ومن التصحيح إلىٰ التَّمْريض، وعن المكاشَفَة إلىٰ التَّوْرِية ، وأن يأتِىَ بألفاظ تدُلُّ علىٰ معانِى مايرُوم إبداءه، ويحْرِص [علىٰ] صورة منْزِلة السـلطان وتوقيره عن قَرْع سمعه بمـا يكْرَهه ولا تجوزُ مقابَلتُه به ؛ وأن يقصِـد إلىٰ آستعمال الإيجاز والإطنـاب فى المواضع التى تحتمل كُلًّا منهما، فهذا ما يمكن أن يُتعرَّف من رسوم هذا الباب .

قال : ومن نَفَذ فهمُـه وخاطرُه فى الصناعة وتدرَّب فيهـا ، يكتفِى بهذه اللُّمْعة ولا يَحتاج إلىٰ زيادةٍ عليها .

فى الإخبار بوُقُوع مطر وسَيْل

من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

فالمـاءُ منه يَفيضُ علىٰ العُمْران، بعد أنْ ضاقَتْ به المَغَايِضُ والغُدْران، فأتَىٰ علىٰ كثير من التِّلال والرَّوابِى ، فضْـلا عن الرَّساتِيقِ والقُرىٰ ؛ وصار الوادى علىٰ آتِّساع

عَرْضه، وآمتدادِ طُولِه، وَسَعة مَصَبِّه، وفُسْحة مَغِيضه، لايَفِى بهَضْمه، ولا يقُوم بحَمْله؛ ففاضَ منه ماعطَّل العُمْران ونَسَف الدُّور ومَحَق الزُّروع، فعَظُم به البَلَاء، وكَثُر له الجَلَاء، وشمِل الفَسَاد، وعَظُم الخَراب.

صدر كتاب بإخبارٍ عن الخليفة :

كتبتُ، ومولانا أميرُ المؤمنين فى توطُّد من خِلَافته، وتمهُّدٍ من دَوْلته، وعُلُوٍّ من رَأْيه، ونَفاذٍ من كلمته، وعِزٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ مِنْ شَانه؛ ونِعَمٍ سابغةٍ عليه وعلىٰ أهل طاعته؛ قالصةٍ عن أعدائه وأهل مخالَفته، وآستقامةٍ من أطرافِه وثُغُوره، وآسْتِتبابٍ من أحوالِه وأُموره؛ والحمدُ لله علىٰ إحسانه حمدًا لايَقِف دُونَ رضاه، ولا يُحِيط بمقداره سِواه .

صدر بإخبار عن الوزير :

كتبتُ، وحضرةُ الوِزَارةِ الساميةِ فى نِعَمٍ مُخْصِبةُ الأَكْناف، بَعِيدةُ الأطْراف، سادِرةُ الوَيْل، ساحِبةُ الذَّيْل؛ وما أنظُرُ فيه من أمرِ دَوْلته منتظِم، وأُراعيه من أحوال رَعِيَّته ملْتئِم؛ وقد وَطَّأ اللهُ له أوْعارَ السِّياسة والتَّدْبير، ووَقَفه علىٰ جَوادِّ المصلحة فى التقديم والتأْخير؛ والحمدُ لله حمدًا يستقِلُّ بحقِّه فيَقْضيه، وبواجبه فيؤدِّيه، وينْتهِى إليه عزُّ سلطانه فيُرْضِيه .

صدر بإخبارٍ عن أمير :

كتبتُ، والأميرُ فى عُلُوٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ من شانِه، وظَفَرٍ يُواكِبُ ألوِيَتَه، ونصْرٍ يُصاحِب دَوْلَتَه؛ ووافىٰ علىَّ من ظِلِّه، وشَمِلنى من فَضْله، ماسَبَغ لباسُه، وطابتْ أغْراسُه؛ والحمدُ لله آعترافًا بنعمتِه، حمدًا يُوجب شُمولَ منَّته؛ ويستدْعِى الشكرَ عليها، ويقْضِى بمَزيدِ منها .

صدر باخبـارٍ عن عافيةِ المـكتوب عنه :

كتبتُ، وأنا صالحُ الحال ، وقد مَنّ اللهُ تعـالىٰ بالعافيةِ والإنعاش ، والإقالة والا (١) اش، وأعاد إلىَّ الصحةَ بعد نَبْوِها وذَهَابِها، والسلامةَ بعد نَجْعِها وإغْرابِها؛ وأسبَلَ النِّعمةَ بعـد الإنْذار ، والتحذيرِ من الاغْترار ؛ ممحِّصًا بما أَلَمَّ من الآلام عَصبَ الأيَّام ؛ والحمـدُ لله أولىٰ ماتُليتْ به النِّعم ، وطُرِّز به المفْتتَح والمختَم ؛ حمـدًا يؤمِّن من التغيير والتبديل ، ويُعيذ من الانْتقال والتَّحْويل .

ابن أبي الخصال ، في الإخبار عن زَلْزَلَة عظيمةٍ وقعتْ بمدينةِ قُرْطُبةَ من الأنْدَلُس .

الشيخُ الأجَلّ ، الوليُّ الأكرمُ الأفضل ؛ أبو فلان ، الذى أطْرفَهُ اللهُ تعـالىٰ بعجَائِب الأخبار ، وأذْهَبَ به فى مَسْلَك الاتِّعاظ ومَنْهَج الادِّكار ؛ أبقاه الله آخذًا فى سَنَن الانْزِعاج ونَهْج الازْدِجار . المخلِص له المَحْضَ الناصِعَ من الوَلاء ، ومَعْرفة غَريبِ الآثار وعَجِيبِ الأَنْباء ؛ فلان .

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه .

أمَّا بعدَ حمـدِ الله الذى جعـل عِبَرَه أنْواعا متلَوِّنةً وصُـنُوفا ، وأرسـلَ الآياتِ ﴿وما نُرْسـلُ بِالْآياتِ إلَّا تَخْويفا﴾ . والصلاةِ علىٰ سيدِنا محمدٍ المصطفىٰ صلاةً طيِّبة تعْبق تأَرِيجًا وتَضُوعُ تَعْرِيفا ؛ وعلىٰ آله وأصحـابِهِ الطاهرين الذين حَضَرُوا حُرُوبا وشَهِدُوا زُحُوفا ؛ والدعاءِ لسيدنا الإمامِ أميرِ المؤمنـين فى نَصْرٍ عزيزٍ يُؤَنِّس مَذْعورا ويُؤَمِّن مَخُوفا ، فإنى كتبتُه ـ كتبَ اللهُ لكم دَعةً حافظةً وأمَانا ، وتصديقًا بآياتِ الله البيِّنة وبُرْهانا ـ من موضع كذا ، عنْدَ ماطرَأ علينا ما كَحَلَ العُيونَ بقَذَاها ، ومَنَعها لَذيذَ كَرَاها ، وأخْفَق الضُّلوعَ الحانِيـةَ وأقْلق مَصَارِينَ حَشَاها : وهو أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ

(١) بيض فى الأصول لهذا الحرف .

ذَكَّر عباده إنْ نفعت الذِّكرىٰ، ونبّههم إنْ تنبّهوا ولم يأمنوا منه كيْدًا مُبيرا ولا مكْرا؛ وذٰلك بزلزال قضىٰ به علىٰ قُرطُبةَ وبعضِ أعمالها، وملأ نُفوسَ ساكِنيها من رَوْعاتها وأَوْجالها، وحالَتْ لذٰلك فى الخَوْف(١) والارتفاعِ أقبح حالِها، حتّى نحَوْا إلىٰ الاستكانة والضَّراعه، وأطاعَ اللهَ مَنْ لم يكُنْ له قبْلَ ذٰلك طاعَهْ، وخَشُوا بل كانُوا يُوقِنون أنَّها زَلزلَةُ الساعه . وكان من عظيم آثارها، وكَريهِ إيرادِها وإصْدارِها، آنْهِدامُ القُبّة العُظْمىٰ فى المسجد الجامع صانَهُ الله ، وكانتْ قُبَّةً أُسِّس علىٰ التَّقْوىٰ بِناؤُها ، وذهبَ فى المَشارق والمَغارب ذِكْرها العاطرُ وثَناؤُها ؛ وتهدّمَتْ بسبَب ذٰلك الهَدْم دِيارٌ كثيره، وحدَثَ به حوادثُ مُبيره. وأما تلوكة من أعمالها، وكان فيها مَبْنًى من مَبانِى الرُّوم، فإنه غادَرَها قاعًا صَفْصَفا، وقَرًّا نَفْنَفا، وآضْطَرَّ ذٰلك الخَطبُ الفادِح، والرِّيحُ القادح، إلىٰ أنْ خرج السيِّدُ أبو إسحاق وكافَّةُ أهل قُرطُبةَ من دِيارهم، وفَرُّوا من الموت بأقْواتِهم وأصحابِهم ؛ ثم إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ تَدارَكَ بالرُّحْمىٰ ، وكشَفَ تِلكَ الغُمّى، جعل الله ذٰلك صَقْلا لقُلُوبنا ، وتَوبةً عما سبَقَ من ذُنُوبنا ؛ وعَصَمنا من جُرْمنا المُوبِق وحُوبِنا ، وأَوْلانا وإيَّاكم أمْنا من الغِيَر، وآزْدِجاراً بما ظَهر من العِبَرْ؛ وجعل كِلانَا(٢) جميلَ الحوادثِ طيِّبَ الخبرِ، بمَنّه؛ والسلامُ الطيبُ المبارَك ورحمةُ الله وبركاتُه .

من كلام المتأخرين فى الإخبار بقدوم نائبٍ إلىٰ نيابةٍ .

من ذٰلك نسخة كتاب عن نائب الشام إلىٰ كافل المَمالك الإسلامية مُخْبِرًا له بوُصوله إلىٰ دِمَشْق، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة . وهو بعد الألقاب :

(١) لعله فى الخفض .

(٢) جرى الكاتب فى كلا على لغة من يعربها اعراب المقصور على حد قوله :

نعم الفتى عمدت إليه مطيتى * فى حين جدّ بنا المسير كلانا شرح الأشمونى

لا زالتْ آفاقُ المَـالك مُضيَّةً بأنْوارِ شَمْسه، هَنِيَّةً بأُنْس سعادتِهِ وسَعادةِ أُنْسِـه؛ سَنِيَّةَ المَقاصد التي قام في كَفالتِها بنَفاسة نَفْسه؛ ولا بَرِح يستَثْمِر من خَيْر الدُّنيا والآخِرةِ ماقَدَّم صُـنعُه الجميلُ من غَرْسه. تقبيلًا يُشافِه به القلَمُ القِرْطاس، ويَودّ المملوكُ لو شافَه به الخِدَم ساعِيًا سعْيَ القَلَمِ علىٰ الرَّاس. ويُنهِي قيامَه بوظائِفِ دُعاء يُنِـير الحَلَك، ووَلَاءٍ يدُورُ بكَواكـب الإخْلاص إدارةَ الفَلَك؛ وحَمْـدٍ تَذْهب به صَفَحاتُ الصُّحُف حيثُ ذَهَب وتَسْـلُك عُقُودُ الأفلاك حيث سَلَك، وأنَّه خدم بهـذه العُبُودِيَّة عند وُرُوده إلىٰ دِمَشْق المحروسةِ لنيابةٍ كانتْ عنـايةُ مولانا سـفيرةَ أمْرِها، ومميِّزَة بِرِّها، يوم كذا؛ وسـعادةُ مولانا السلطان ـ خلَّد اللهُ مُلْكَه ـ تعلِّمه وتُعْلِمه، والغيثُ ببركاتِ الدولة القـاهرة يُسايِره ويَقْدُمه؛ وثَغْرُ المطر يسابِقُ ثغرَ المملوكِ إلىٰ مشافَهـةِ الثَّرىٰ ويَلْثِمُه؛ والرعِيَّة منه آمنـةٌ في سِرْبهـا، وادعةٌ بِظِلَال الأبواب الشريفةِ مع بُعْـدها دَعَةَ الصَّوارِم في قُرُبها، وباكر المملوكُ يومَ الاثنين الذي بُورِك فيه: في الخَميسَـيْنِ من يوم وجَيْش، وانتصب لمُهِـمَّاتٍ علىٰ مثلها في الخِـدْمة يَطِيب أن يَرْفُغ لِينُ العَيْش؛ مجتَهِدا فيما هو بصَدَدِه، مستمِدًّا من رَبِّه عزوجل وسعادةِ سلطانه برَشَدِه، معتَدًّا نِعَم مولانا فيما يأتِي[في] ذلك من أوفىٰ وأوفرِ عُدَده ومَدَدِه، والله تعـالىٰ يُعين المـملوكَ علىٰ شُكْر مِنَن مولانا الباطنـةِ والظاهره، والغائبةِ والحاضره، والمُقيمةِ والمسافره، ويصِلُ نَفْع المملوك بوَلَائه في الدنيا والآخره؛ ويُقِيم الرَّعايا بالأمْن في كَفَالته التي مابَرِحتْ بعُيُون الأعداء فإذاهُمْ بالسَّاهره.

الأجوبة عن كتب الأخبار

قال في "موادّ البيان": الأخبارُ علىٰ أكثر الأحوال لاأجْوِبةَ لهـا، وإنمـا هي مُطالَعاتٌ بأمورٍ يُنْهِيها الخُـدَّام، وأصحابُ البُرُد إلىٰ السلاطين، ممـا تخْرُج أوامرُهم

إلىٰ الوُلاة بمـا تضَمَّنته : ممـا يقتضيه كلُّ خبر ينهى من سياسةٍ عامَّة ، أو مصلحة تامّة . قال : فأما ما يستعمِله الإخوانُ فى المكاتبـة بالأخبار التى يكِلُ بعضُهم إلىٰ بعض الإخبارَ بها ، فمنها مايقتضِى الجوابَ ، ومنهـا ما لا يقْتضِيه . قال : وأجوبةُ مايقتضى الجوابَ منهـا تُفْتَنُّ بحسَبِ آفتنان الأخبار والأغراض التى يجيب المُجيبُ بها ، وهو أيضا ممـا لا يعبَّر عنه بقوبٍ جامعٍ ولا برَسْم رَسْم كُلّىّ ، و إنمـا يرجَعُ فيـه إلىٰ الأمور التى يبتدأُ بها و يُجابُ عنها .

النـــــوع السابع عشر

(المُدَاعبـــةُ)

قال فى "موادّ البيان" : ومَعانِى المُدَاعبَاتِ التى يستعْمِلها الإخوانُ غيرُ مُتناهِيَه ، والأغراضُ التى ينْتظِمُها المِزَاح وتُعـدُّ من طَلَاقة النفس لا تَقِف عند قاصِيـه : لِأنها مســتَمْلاةٌ من أحوالٍ متباينه ، ومأخوذَةٌ من أُمُور غير معيَّنه ، وحصْرُها فى رُسومٍ جامعةٍ يستحيلُ ، وتمثيلُها غيرُ مُفِيد : لأنه لا تعلُّق لبعضها ببعْض ، ولا نِسبةَ بينَ الواحِد والآخَر ، ثم قال : والأحسَنُ بأهل الوِداد والصَّـفاء ، والأليَقُ بذَوِى المخالَصَة والوَفاء ، أن يتنَزَّهوا فى المُداعَبة الدائرةِ بينَهُم عن بَذِىء اللفظ ومُفْحِشه ، ومؤلِمِ الخطاب ومُقْذِعه ، ويكُفُّوا اللسانَ واليَدَ عن الآنطلاقِ بمـا يدُل علىٰ خفَّة الأحلام ، والرِّضا بالرَّذْل من الكلام اللائقِ بسُـفَهاء العَوامّ ، و يتحرَّجُوا من إرسالِ قولٍ يبْقىٰ وَصْمةً علىٰ [مَدىٰ الأيَّام] إذْ لا فرقَ بين جَرْح اللسانِ وجَرْح اليَد ، وقد نطَقَ بهذا المَثَلُ : لما فى ذلك من الترفُّع عن دنَايَا الأُمُور التى لا يتنازَلُ إليها الكُرماء ، والتنزُّه عن المَسَاقط التى لا يستعْمِلُها الأُدَباء ، وصيانةِ المُروءة عما يَشِينها و يَخْدشُها ، وتَوْقيرها

عما يَنْقُصها ، والأَمْنِ من الجواب الذى رُبَّمـا قَدَح فى النفس وأثَّر ، وأَحْمىٰ الصدْرَ وأوْغَر ؛ ونَقَل عن التَّوادُد إلىٰ التَّضادُد ، وعن التَّـدانِى إلىٰ التَّباعُد ؛ وقد أشارَ إلىٰ ذٰلك أميرُ المؤمنين علىّ كَرَّم اللهُ وجْهَه بقوله من أبياته المنسوبة إليه :

فَـرُبَّ كَلَامٍ يَمِضُّ الحَشَـــا * وَفِيهِ من الضِّحْك ما يُستَطاب

مع مُراعاةِ السلامةِ من المُداخَلة المُنْطوِيَةِ علىٰ الغِلّ ، والمُراآةِ المبنيَّة علىٰ المكْر ؛ إذا لم يكُنْ للمقابَلَةِ علىٰ الآبتـداء المُمِضّ بالجواب المريض ، وغير ذٰلك ممـا لا تُؤْمَن عاقبتُه ، ولا تَحْسُن عائدتُه . قال : ويكون المستعْمَل فى هذا الفَنِّ ماخَفَّ موْقِعُه ؛ ولَطُف مَوْضِـعُه ، وهَشَّ له سامِعُه ؛ وتلَقَّاه الواردُ عليه مستَحْلِيا لِثِمـارِه ، مستَدْعِياً لأنْظاره ، ولا يُعـدَل به عن سَمْت الصِّدْق ، وطريق الحَقّ ، ومَذْهب التحرُّز من المَذْق ؛ ويُقتصَر فيه علىٰ النادِرة المستَطْرَفه ، والنُّكتة المُستَظْرَفه ؛ واللُّمْعة المستحْسَنَة ، والفِقْرة المستَغْربة ، دُونَ الإطالة المُمِلَّة ، ولا يجعل المَزْحَ غالباً علىٰ الكلام ، مُداخِلًا لجميع الأقسام : فإنَّ ذٰلك يُفْسِد معانِىَ المكاتبـه ، ويُحِيل نِظامَ المخاطَبـه ، ويَضَع من مَعْناها وإنْ كان شَرِيفا ، ويُوخِمُ لَفْظَها وإن كان لَطِيفا ؛ ويَذْهَبُ بجِـدِّها فى مَذْهب الهَزْل ويُميله عن القَصْد ؛ وإلىٰ ذٰلك يُشِير بعضُهم بقوله :

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالِجدِّ راحةً * بلَهْوٍ وعَلِّلْهُ بِشَىْءٍ مِن المَزْحِ !

ولٰكنْ إذا أعْطَيْتَهُ المَزْحَ فلْيكُنْ * بِمقْدارِ مايُعْطىٰ الطَّعامُ مِن المِلْحِ !

وأنْ يَقْتصِد مع ذٰلك . ثم قال : وينبغى أن يَقْصد إلىٰ آستِعْمال الدَّعابَةِ فى المواضع اللائقةِ بهـا ، والأحوالِ المشابِهةِ لهـا ؛ ولا يُودِعَ باباً من الأبواب ، مالا يحتَمِلُه من الخطاب : فإنَّ القصْدَ فى هذا النَّوْع من المكاتبات إنمـا هو الإعْرابُ عن الظَّرْف والبَرَاعة ، والإبانَةُ عن طَلَاقة النَّفْس ؛ والآنِســلاخُ من تعبيس الفَـدامة

والجَهَامة؛ ثم عَقَّب ذلك بأن قال : ومَنْ وَقَف من ذلك عند الحدّ الكافِى، ولَزِم فيه الأدَبَ اللائق بأهْلِ التَّصافِى ، دلَّ علىٰ ما ذكرناه ، وشهد لمستعْمله بإحراز ما وصَفْناه ؛ ومَنْ تعدّىٰ ذلك عُدّ من الُمجُون والُملَاعبة ، وحُسِب من رَذَالة الطبع ونَذَالة الِخيم وسَفَه اللسان ، وغير ذلك من الأمور التى لاتليقُ بالكاتبين الكِرام ، الذين هم خِيَارُ الأَنَام، ووُلاةُ النقض والإبْرام . وختم ذٰلك بأن قال : والكاتب إذا كان مهيَّأً الطبع للانطباع برسوم الصِّناعة ومُناسبةِ أوضاعها ، أغناه الوقُوفُ علىٰ هذا القول المجمَل فى آستعمال مايقَع فى هذا البابِ عن تمثيلٍ مفصَّل . ولم يذكر له مِثَالا .

ابن أبى الخصال :

سيِّدى وواحِدى الذى أجِمّل ذكْرَه ، وأُوالِى شُكْره ؛ لا زال مَغْناكَ رَحِيبا ، وزَمانُك خَصيبا ، ولا زِلْتَ تأخُذ لِأُخْراك نصيبا ؛ عبدُك فلان مؤدِّيها ينتجع الكِرام ، ويُبارِى فى جَرْيِها الأيَّام : فتارة يجْمَع ، وأخرىٰ يفرِّق ؛ وطورًا يُغَرِّب ، وطورًا يُشَرِّق ؛ وأَمَّ الحضْرة ـ وصلَ اللهُ حِراسَتَها ، وأدام بهْجَتها ونَفاسَتها ـ والمُلْك بها غَضُّ الشَّباب، أخضرُ الِجلْباب؛ وإحسانُك إحسانُك، ومكانُكَ من المُرُوءة مَكانُك؛ فأَوْسِعْه قِرَى، وآمْلأْ عينَيْه علىٰ الشِّبَع كَرىٰ ، أستَغْفِر الله، بل أَمْجِدْه تِبْنا وعَلَفا ، وأرْكِبْه حَزْنا من الأرض ظَلَفا (١) ؛ ودُونَكَه لم يقلِّب أرضَه بَيْطار ، ولا لِجنايةِ به جَبَّار، وجُرْحُه جُبَار؛ وعنده كما علمت دعاءٌ مُبَاح ، وثناءٌ فى الشكر مَساءً وصَباح ؛ والسلام .

(١) الظلف بالتحريك ماغلظ من الارض فلم يؤدّ [أى لم يظهر] أثرا . انظر اللسان ج ١١ ص ١٣٤ .

من كلام المتأخريـــن :

كتب بعضُهم إلىٰ كمال الدِّين بنِ الأثير ، وقد جاء إليـــه فى بُســتانه فلم يجِدْه ولا وجد مَنْ أنْصفَه .

حضَر المملوكُ البُسْـتان، مسـتَدْنياً قُطوفَ الْإنعامِ والإحْسان، وٱسْتَمْطر سحائبَ فضله ، وهَزّ إليه بجِذْع نَخْلِه ، فلم تَتَساقَطْ عليـه رُطَباً جَنِيّاً ، فعلِم أنه قد جاءَ شَيْئاً فَرِيّاً ، فثبَّت نَفْسَه مع تَصاعُد الأنفاس ، والطمعُ ينشده :

* مافى وُقُوفِك ساعةً من بَاس *

فانطلق حتّٰى أتىٰ القريةَ مستطْعِما أهلَها فأبَوْا أن يُضَيِّفُوه، مستعْطِفا حاشِيَتَه الرقيقَـة فأبَوْا(١) حاشِيتُه أن يستَعْطِفُوه، وقال كلُّ منهم : تُطالِبُ بالقِرىٰ كما تُطالِبُ بدَيْنِك! ٱرجِعْ حيثُ شِئْتَ هـذا فراقُ بَيْنِي وبَيْنِك! وعلِمَ أنه لو أقامَ بها جِدَارا لَمَـا أُعْطِىَ عليه أجْرا، ولو حاول قِرًى لسَمِع من التوبيخ مالم يَسْتَطِعْ عليه صَـبْرا، فرجع بخُفَّىْ حنين، بعْدَ مَشَاقٍّ جَرَّعتْ كاساتِ الحَيْن، فأينَ هـذه المعاملة ممـا نُشيعه عنه من كريمِ الخِلاَل، وكيف نَشْكو نَقْصَ حظٍّ وله كمالُ الإحسان وإحْسانُ الكَمَال .

الأجوبةُ عن رِقَاع المُدَاعبـــة

قال فى "موادّ البيان" : ينبغِى للْمُجيب عن المُداعبة أن يشْتَقَّ من نفس الٱبتداء جوابًا مناسِبًا لهـا ، وأن يَبْنِيَه متىٰ أحبَّ الأخْذَ بالفضـل علىٰ المُسامحة ، وٱطِّراح المناقشة، والإغضاءِ عمَّـا يُمِضُّ إبقاءً علىٰ المودّة، وتحسيناً لقُبْح الصَّديق ، وتعوُّدا لعادةِ الحلم والٱحتمال، وأن يَذْهَب فى الجواب مَذْهبَ الٱختصار، وإيرادِ النُّكَت الرائعة كما فى الٱبتداء، علىٰ ما تقدّم .

(١) كذا فى النسخ وهو على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة .

الفصل الثامن (١)

(فى إخفاء ما فى الكُتُب من السِّرّ)

وهو مما تَمَسُّ الحاجةُ إليه عند اعتراض معترِضٍ من عدوّ ونحوه يحُولُ بين المكتوبِ عنه والمكتوبِ إليه : من مَلِكين أو غيرهما حيث لم تُفِد الملَطّفات لضرر الرَّصْد و زيادة الفَحْص عن الكُتُب الواردةِ من الجانِبَيْنِ، وهو علىٰ نوعين :

النوع الأوّل

(مايتعلّق بالكتابة، وهو علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يتعلّق بالمكتوب به)

وذٰلك بأنْ يُكتَب بشىْء لايظْهَر فى الحال، فإذا وصل إلىٰ المكتوب إليه فعل فيه فِعْلا يكونُ مقرّرا بين المتكاتبين من إلقاء شىْء علىٰ الكتابة، أو مَسْحه بشىء، أو عَرْضِه علىٰ النار ونحو ذٰلك .

وقد ذكروا لذٰلك طُرُقا :

منها — أن يُكْتَب فى الوَرَق بلَبَنٍ حليبٍ قد خُلِط به نُوشَادِر فإنه لاتُرىٰ فيه صورةُ الكتابة، فإذا قُرِّب من النار ظهَرتِ الكتابةُ .

ومنها — أن يُكتَب فى الورق أيضا بماءِ البَصَل المعْتَصَر منه فلا تُرىٰ الكتابةُ فإذا قُرِّب من النار أيضا ظَهَرت الكتابةُ .

(١) أى من الباب الثانى من المقالة الرابعة وهو آخر فصولها فهى ثمانية لاستة وتقدم فى ج ٦ ص ٣٦٥ أنها ستة موافقة للأصول فتنبه .

ومنها — انه يَكتُب فيما أراد من وَرَق او غيره بماءٍ قد خُلِط فيه زاجٌ، فلا تظْهَر الكتابةُ، فإذا مُسِح بمـاءٍ قد خُلِط فيه العفْص المدقُوق، ظهرتِ الكتابةُ .

ومنها — أن يَكْتُب فى الورق غيرِ المُنَشّى بالشَّبِّ المحلُول بمـاء المطر، ثم يُلْقيه فى المـاء أو يَمْسَحُه به، فإنه إذا جَفَّ ظهرتْ فيه الكتابةُ .

ومنها — أن يكتُبَ بمَرَارة السُّلَحْفاة فإنَّ الكتابة بهـا تُرىٰ فى الليـل ولا تُرىٰ فى النهـار .

ومنها — أن تأخُذَ الليمونَ الأسـودَ وعُروقَ الحَنْظل المقْلُوَّةَ بزيتِ الزيتونِ جزأين مُتساوِيَيْنِ وتَسْحَقَهما ناعِمًا، ثم تُضيفَ إليهما دُهْنَ صَفَار البَيْض وتكتُبَ به علىٰ جسد من شئْتَ، فإنه يَنْبُت الشَّعْرُ مكانَ الكتابة، وهو من الأسْرار العَجِيبة؛ فإذا أُريد إرسالُ شخصٍ بكتابٍ إلىٰ مكانٍ بعيدٍ، فُعِل به ذٰلك، فإنه إذا نبتَ الشَّعَر قُرِئت الكتابةُ .

الضـــرب الثـانى
(ما يتعـلق بالخَـطِّ المكتُوب)

بأن تكون الكتابةُ بقَلَمٍ ٱصطَلَح عليه المُرسِلُ والمُرْسَـل إليـه لايعرِفُه غيرُهمـا ممن لعَلَّه يقِف عليه، ويسمَّى التعمية، وأهـلُ زمانِنا يعبِّرون عنه بحَلِّ المُتَرْجَم، وفيه نظر: فإنَّ الترجمة عبارةٌ عن كَشْف المُعمَّى، ومنه سُمِّى المعبِّرُ لغيره عن لُغَة لايعرِفُها بلُغةٍ يَعْرِفُها بالتَّرْجُمان؛ وإليـه يَنْحَلُّ لفظُ الحلِّ أيضا؛ إذ المرادُ من الحلِّ إزالةُ العَقْد فيصيرُ المرادُ بحلِّ المتَرْجَم ترجمـةَ المتَرْجَم أو حَلّ الحل، ولو عُبِّر عنه بكَشْف المُعمَّى لكان أوفقَ للغرض المطلُوب .

ثم مبنىٰ ذلك علىٰ قاعدتين :

القاعدةُ الأُولىٰ — كيفية التعمية .

اِعلَم أنَّ التعميةَ بالنِّسبة إلىٰ كلِّ واحد من الناس باعتبار ما يجهَلُه من الخُطُوط ، فيعَمَّى علىٰ العربيِّ فى اللغــةِ العربيَّة بالخُطُوط غير العربيــة ، كالرُّوميَّة والعِبْرانيَّــة ونحوهما ، إذا كانت حروفُ تلكَ اللغةِ تُوافِقُ لغةَ العرب ، أو بقلَمٍ مصطلَح عليه علىٰ وَفْق حُروف العربيــة ؛ وكذٰلك يعمَّى علىٰ غير العربيِّ من الرُّومى ونحوه ممن يجهلُ الخطَّ العربيَّ بالقلم العربيّ ، وعلىٰ ذٰلك .

ثم للناس فى التعمية مَذْهبانِ :

المَذْهَبُ الأوّلُ — أن يُكتَبَ بالأقلام القديمة التى ليستْ بمتَداوَلةٍ بين النــاس ممــا لايعْرِفُه إلَّا الآحادُ ، إذا وافق ذٰلك القلَمُ اللغةَ التى تُرِيد الكتابة [بها] .

وقد ذكر ابنالدُّرَيْهِم أنَّ أقلَّ اللُّغات المُغْل وهو سبعَةَ عشَر حرفا ، وأطولَهَــا الأرْمنِيُّ ، وهو ستةٌ وثلاثون(١) حرفا . ثم قال : والتركىُّ عشرون(٢) حرفاً ، وكذٰلك الفارسىّ إلا أنَّ فى الفارسىّ ثلاثةَ أحرف ليستْ فى التُّركى ، وهى الهاءُ والفاءُ والدالُ . وفى التركىّ ثلاثة ليست فى الفارسى : وهى الصادُ والطاءُ المهملتانِ والقافُ ، والعِبْرانىّ والسُّريانىّ آثنان وعشرون حرفا [من أوّل أبجد إلىٰ آخر قرَشَتْ . واليُونانِىُّ والرومىّ القديم أربعةٌ وعشرون حرفا](٣) ولهم قلَمٌ آخر ثلاثون حَرْفا ، والقِبْطىُّ آثنان وثلاثون حَرْفا ، وذكر أنَّ جميع الأقلام مقطَّعةُ الحروف علىٰ آصطلاح أبجــد ، خلا العربِيِّ والمُغْلىّ

(١) فى هذا الحصر مخالفة لما تقدّم فى ج ٣ ص ١٩ من هذا المؤلف فراجعه وحرر .

(٢) قد تقدّم أنه من أربعة وعشرين الى ستة وعشرين حرفا فتنبه .

(٣) زائد فى بعض النسخ .

والسُّريانىّ فإنّ حروفها تُوصَل وتُقْطَع، وقطع السريانى كالعربى، وأقلامُ المتقدّمين المُقرّرة : كالرُّومىّ والفَرَنْجىّ وغيرهما معلومةٌ لاحاجة إلىٰ التمثيل بشىءٍ منها.

المذهب الثانى — أنْ يَصْطَلِح الإنسانُ مع نَفْسه علىٰ قلم يبْتكِره وحُروف يُصَوّرها، وقد ذكر ٱبن الدُّرَيْهِم أنّ الناس ٱختلفَتْ مقاصِدُهم فى ذلك :

فمنهم — من يصطلِح علىٰ إبدال حرفٍ معيّن بحرفٍ آخَرمعيّن حيثُ وقع فى القلم المعروف بالقُمّى، وهو أنهم جعلُوا مكان كلّ حرف من حروف العربية حرفًا آخر من حروفها، فجعلوا الكافَ ميما وبالعكس، والألفَ واوًا و بالعكس، والدّال المهملة راءً مهملة و بالعكس، والسينَ المهملةَ عينا مهملة و بالعكس، والفاءَ ياءً مثناة تحتيةً و بالعكس، فيكتب محمد «كطكر» وعلى «سهف» ومسعود «كعسار» وعلىٰ ذلك، وقد نظم بعضهم ذلك فى بيتٍ واحد ذكر فيه كلّ حرف تلو مايُبْدَل به، وهو :

كَمْ أَوْ حَطٍ صِلاَ لَهُ دَرْ سَعُ * فى بَزْ خَشٍ غَضٍّ ثج تَدَفق

قال : ومنهم — مَنْ يعكِسُ حروفَ الكلمة فيكتُب محمد «دمحم» وعلى «يلع».

ومنهـم — من يبُـدِل الحرفَ الأوّلَ من الكلمـة بثانِيهِ مُطْلَقا فى سائر الكلام فيكتب محمد أخو على «حمدم خا عويل» إلىٰ غير ذلك من التمييزات.

ومنهـم — مَنْ يُبْـدِل الحروفَ بأعدادها فى الجُمَّـل؛ فيكْتب محمد أربعون، وثمـانية، وأربعون، وأربعة، وتعمل التعميةُ صفةَ محاسَبة.

ومنهـم — من يكتُب عِوضَ عدَد الحرف حُرُوفا وهو ابلغُ فى التعْمِيَة؛ فيكتب محمد «لى بو لى اج» لأنّ اللام والياء بأربعين وهى عدد ماللّيم الأولىٰ، والباء

والواو بثمانية وهى عدد ما للحاء، واللام والياء أيضا بأربعين وهى عدد ما للميم الثانية، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ماللدال، فكأنه قال : م ح م د . وإن شاء أتىٰ بغير هذه الحروف مما يتضمن هذه الأعداد .

ومنهم — من يجعَلُ لكلِّ حرفٍ آسمَ رجل أو غيره .

ومنهم — من يَضَع الحروفَ علىٰ منازل القمر الثمانيـة والعشرين علىٰ ترتيبها علىٰ حروف أبجد : فيجعل الألف للشَّرَطين ، والباء للبَطِين، والجيم للثُّرَيَّا ، وهكذا إلىٰ آخرها ، فيكون بطنُ الحوت للغين من ضـظغ . وربما آصطُلِح علىٰ الترتيب علىٰ أسماء البُلْدان أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذٰلك ، أو صُوَر الطير وغيره من الحيوانات، إلىٰ غير ذٰلك من ضروب التَّعامِى التى لايأخُذُها حَصْر. وأكثَرُ أهل هذا الفنّ علىٰ أن يرْسُم الحروفَ أشكالا يخترِعها قلَما له مقطَّعة علىٰ ترتيب حروف المعجم . والطريق فى ذٰلك أن يُثْبِت حروف المعجم ثم يُرتِّب تحتَ كل واحد شَكْلا لايماثِلُ الآخَرَ، فكلما جاءه فى اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لايقَعُ عليه غلطٌ؛ ثم يفصل بين كلِّ كلمتين : إما بخط أو بنقط أو ببياض أو دائرة أو غير ذلك؛ وأكثَرُ المتقدِّمين يجعلون الحرفَ المشدّدَ بحرفين، والمتأخرون يجعلونه حرْفًا واحدا، وهذه صور حروفِ مترْجَمٍ كان قد وصل إلىٰ الأبوابِ السلطانية من مُناصِحينَ فى بغداد يُقَاس عليه

ا	ب	ت	ث	ج	ح	خ	د	ذ	ر	ز	س	ش	ص
٥	ط	لا	ں	لم	عد	#	ده	محام	/		طه	عم	حو

ض	ط	ظ	ع	غ	ف	ق	ك	ل	م	ن	ه	و	لا	ى
[illegible]	نعر	[illegible]	٢	٦	٥	سجد	مى	لا	د	هد	لے	لد	٨	كم

القاعدة الثانية — حلُّ المعمّى، وهو مقصودُ الباب ونتيجتُه .

ويحتاج المتصدِّى لذٰلك مع جَوْدة الحَدْس وذَكاء الفطرة أن يعرفَ اللغـةَ التى يروم حلَّ مترْجَمِها ممـا وَقَع به التعميةُ فيها، ومِقدارَ عدد حُروفِها؛ ولا خفَاءَ فى أن حروفَ العربية ثمـانيةٌ وعِشْرون حرفًا، ويجب أنْ يعرِفَ الحروفَ التى تدخُل كلَّ لغة والحُروفَ الممتنعةَ الوقُوعِ فيها كما تقدّم .

ثم المعَوَّل عليــه، والمنصَبُّ القول إليــه، فيما هو متَعارَف فى هذه المملكة لغــةُ العرب التى [هى] أشرفُ اللغات وأبْذَخُها .

والناظِرُ فى حَلِّ مترجَمِها يحتاجُ إلىٰ أصلين :

الأصلُ الأوّلُ — معرفة الأُسّ الذى يترتَّب عليه الحَلُّ؛ والذى تمسُّ إليــه الحاجةُ من ذٰلك سبعةُ أُمُور :

أحدها — أن يعرف مَقَادير الحروفِ التى تتركَّب منها الكلمة .

وآعلَمْ أنَّ كلام العرب منــه ما يُبْنَىٰ علىٰ حرفٍ واحدٍ مثــل «ق» من الامر بالوِقَاية، و «ع» من الأمر بالوَعْيِ؛ ومنه مايبنىٰ علىٰ حرفَيْنِ من الأفعال مثل «قُمْ» فى الأمر بالقيام، و «كُلْ» فى الأمر بالأَكْل؛ ومن الحروف نحو : مِنْ فِي رُبَّ هَــلْ بَلْ وما أشــبه ذٰلك؛ ومن الأسمــاءِ المبنيَّة نحو : ذِي ذَا مَنْ كَمْ؛ ومن الضــمير مع حروف الجرّ نحو : بِكَ لَهُ؛ ومنــه ما يُبنىٰ علىٰ ثلاثةِ أحْرُفٍ وأربعــةٍ وخمســةٍ فى الحُروف والأفعــال والأسمــاء، ثم تدْخُل فيه أحرف الزيادةِ العشرةِ، وهى « هَوِيتهٖ السِّمانَ » وثلاثةُ أحْرُف أُخَر، وهى الفاءُ وباءُ الجرِّ وكافُ التشبيه

وكافُ الخطاب إلىٰ أنْ تبلُغَ الكلمةُ علىٰ ٱصطِلاح الكُتّاب [أربعةَ] عشَرَ حَرْفا ، كقولك مخاطِبًا لرجلين [أنْثَا] جُنَينةً : أَفَلَمُسْتَنْزِهاتِكُمَا أعددتمـاها .

قال ٱبن الدُّرَيْهِم : وليس فى كلامِ العربِ كلمةٌ رُبَاعِيَّة الأصل أو خُماسيَّةُ الأصل ليس فيها حَرْف من الحُرُوف الذَّلَقِيَّة كاللام والنون والواو، والشَّفَوية كالفاءِ والميم والباء إلا ماشَذَّ مثل «عَسْجَد» من أسماء الذَّهَب .

قال : ونهايةُ الأسماءِ العربيَّة قبل الزِّيادة خمسةٌ، وشَذَّ (؟) مثلُ عَنْدَلِيب ؛ والأفعالِ قبل الزيادةِ أربعةٌ، وليس فى القرءان كلمة خُماسيَّةُ الأصل سِوىٰ الأسمـاءِ الأعْجَمية مثل إبْراهِيم ، ولا يمكنُ أن يتكرر حرفٌ [فى] كلمةٍ واحدةٍ أكثَرَ من خمسة كقول القائل مارأينا [كُكَكَا كَكُكَكَكُكُمْ](١) جمع كُكَّة وهو المركب الكبير مثل عُكَّة وعُكَك، وأربع كافات فى قولك (٢) وكَكَعْكِك .

الثـانى — أن يعرِفَ الحروفَ التى لا يُقاربُ بعضُها بعضا بمعنَى أنهـا لا تجتمع فى كلمةٍ واحـــدة .

وٱعلم أنَّ فى الأحرف مالا يُقارب بعضُـه بعضا مطلقا بتقْـدِيم ولا تأخير كالثـاء المثلَّثة ، فإنها لاتقارِب الذالَ المعجمة والزاىَ المعجمةَ والسينَ والصادَ المهملتين والضاد المعجمةَ، وكذلك الجيم لاتُقارب الطاء المهملة ولا الظاءَ المعجمة ولا الغينَ

(١) بيض له فى الاصول وقد صححناه من المقام ، ولكن لم نعثر علىٰ هـذا البناء فى كتب اللغـة ولعله عامىّ تأمـــل .

(٢) بياض فى الاصل .

المعجمةَ ولا القافَ ولا الكافَ، وما وقع من ذلك فى الكلام نحو : نُغْجَة وبَرْجَق وجُرْمُوق وجَوْلَق وجُلَاهِق ومَنْجَنِيق وجَوْقة وجَوْسَق وصَنْجَق وسَنْجَق وجَرْدَق ونحو ذلك فليست عربيـةً : لأنه لا يجتمع فى كلام العرب جيم وقاف فى كلمةٍ واحدة ؛ وكذلك الدال المهـملةُ لا تقارِنُ الظـاءَ المعجمة والذالُ المعجمة لا تُقارن الزاى المعَجمةَ والصادَ والضادَ والطاءَ والظـاءَ ، وما وقع فى الكلام من ذلك فليس بعربىّ، مثل طبرزذ فارسىّ والزُّطُّ نبطىّ ، ولا تقارن السينُ المهملةُ الصادَ المهملةَ والضادَ المعجمةَ والظاء المعجمةَ؛ ولا تقارن الصادُ المهملة الضادَ المعجمةَ ولا الظاء المعجمةَ ؛ ولا تقارن الضادُ المعجمةُ الشـينَ والظاء المعجمتين؛ ولا تقارن الطـاءُ المهملةُ الظاء المعجمةَ؛ ولا تقارن القاف الغين المعجمةَ (١) ولا الكافَ فى كلمةٍ أصلية، وشــذَّ نَغق الغُرابُ وناقة نَغيق ؛ ولا تقارن الكافُ الخاءَ المعجمةَ فى كلمة أصلية، ولا تقارن الميمُ البـاءَ الموحَّدة والفاءَ فى كلمة أصليَّة إلا فى فَمٍ وأصـله فَوَه، وأما بَمٌّ لأحدِ أوتار العُود فليس بعربىّ ؛ والحروفُ الحَلْقيَّة لا يُقارن بعضُها بعضًا خَلَا الهاءَ فإنها تَعْقُبها زائدة ، كهاءِ الضمير وهاء التأنيثِ، وتعقب العيْنَ أصليةً كالعَهْد والعَهْر وعَهِر؛ وليس فى كلمةٍ أصلية حرفانِ حلْقِيَّان سِوىٰ ما تقدّم من الهـاء، وقد تعقُب بواسـطةٍ كغَيْهَب وعَبْهر ؛ أما حَيْهل فمركَّبة، ولا يجتمع حرفان من هـذه الخمسة : وهى الهاءُ والطاءُ المهملة(؟) والعينُ والغينُ والخاء المعجمةُ فى أوّل كلمة سِوىٰ ماذكر، ولا فى أثناء الكلمةِ إلّا الهاء مع العين كهَلَعَ والهاء مع الغين كأَهْيَغ ، والخاء مع الغين كأَخْيغ (٢)، والهاء مع الخـاء المعجمة فى كلمة واحدة وهى هَبَيَّخَة ؛ ولا تجتمع الهـاءُ

(١) فى الأصول العين المهملة وهوغير مستقيم . وفى كتب اللغة ناقة نغيق «أى باعجام الغين» اذا كانت تبغم مرة بعد مرة .

(٢) لم توجد فى كتب اللغة التى بأيدينا .

الأصليةُ مع الخاءِ المعجمةِ ، ولا الحاءُ المهملةُ والعينُ المهملةُ إلا أن تكون مركَّبة مثل هرقصع (؟) والحَيْعَلة .

الثالث — أن يعرِف الحُروفَ التى لا تُقارن بعضَ الحروف فى الكلمات إلَّا قلِيلا، كمقارنة السِّين المهملة للشِّين المعجمة فى شِسْع والشين مع الزاى كشَزْر والراء مع اللام كورَل .

[واعلم] أنَّ الحرفَ الواحدَ يتكرر فى الكلمة الواحدةِ كثيرًا مثل دَهْدَه وتَهْتَه ونَهْنَه وحَصْحَص وحَبْحَب وحَمْحَم وجَلْجَل وخَلْخَال وشَعْشَعة وزَعْزَع ودَغْدَغ وبَغْبَغ ونَعْنَع وعَسْعَس وزُعَازِع وغَوْغاء وضَحْضاح وخَوْخ وما أشبه ذٰلك .

الرابع — أن يعرف ما يجوز تقديمُه علىٰ غيره من الحروف وما يمتَنِع ، فالثاء لا تتقدّم الشِّينَ المعجمة ، والدالُ المهملة لا تتقدّم علىٰ زاى[1] ولا صادٍ مهملة ولا طاءٍ مهملة بدليل أنهم لما عَرَّبوا مُهَنْدِز ، أبدلوا الزاى سينا فقالوا مُهَنْدِس وهَنْدَسة، والذالُ المعجمة لا تتقدّم الجيمَ ولا السِّينَ المهملةَ ولا الشينَ المعجمة ولا العينَ المهملةَ، ومن هنا لَمَّا عرَّبوا الفالُوذَج من الفارِسيِّ قالوا فالُوذَق؛ والشين المعجمة لاتتقدّمُها الزاىُ المعجمةُ ولا السينُ المهملةُ ولا الصادُ المهملةُ؛ والطاء المهملةُ لا تتقدّم الكافَ فى كلمة أصلية؛ والسين المهملة لاتتقدّم علىٰ الدال المهملةِ إلَّا قليلا كسَدَاب[2] ، والذالُ المعجمة لا تتقدّم علىٰ الدال المهملة إلا قليلا كقولك فى الأمر ذُدِ الغَنَم .

(١) فى الأصل "علىٰ نون" وهو غير مستقيم كما لايخفى .

(٢) أورده القاموس بالذال المعجمة وتكلم عليه شارحه ثم قال ويوجد فى بعض كتب النبات بالدال المهملة .

الخـامس ـــ أن يَعْرِف ما لايقَع فى أوّل الكلمات من الحروف كالجيم لا تقع بعدها التـاء المثناةُ فوق ولا الصادُ المهملة ولا الضادُ المعجمةُ ولا الغين المعجمةُ؛ أما الجِصّ فمعَرَّب .

السادس ـــ أن يعرِفَ أنه لايتكرّر حرفٌ فى أوّل كلمة إلاَّ من هذه العَشْرة الأحرِف وهى: الكافُ واللامُ والميمُ والنونُ والتـاءُ المثناة فوقُ والألفُ والبـاءُ الموحَّدة والواوُ والقافُ واليـاءُ المثناة تحتُ ويجمعها قولك «كُلُّ مَنْ تابَ وُقِى» وأقلُّها وقوعا كذٰلك الياءُ .

السابع ـــ أن يعرِف أكثَرَ الحروف دَوَرَانا فى اللُّغة، ثم الذى يليه من الحُروف فى الكَثْرة إلىٰ أقلّها دَوَرَانا .

وٱعلم أنَّ كلامَ العرب أكثَرُ مايقَع فيـه علىٰ ما دلَّ عليـه ٱستقراءُ القرءانِ الكريم الألِفُ ثم اللامُ ثم الميمُ ثم اليـاءُ المثناة تحتُ ثم الواوُ ثم النُّون ثم الهـاءُ ثم الراءُ المهـملةُ ثم الفـاءُ ثم القافُ ثم الدالُ المهـملةُ ثم الذالُ المعجمةُ ثم اللامُ ألف ثم الحاء المهملةُ ثم الجيمُ ثم الصادُ المهملة ثم الخـاء المعجمةُ ثم الشـينُ المعجمة ثم الضادُ المعجمة ثم الزايُ المعجمة ثم الثـاءُ المثلَّثة ثم الطاءُ المهملة ثم الغينُ المعجمةُ ثم الظاء المعجمةُ؛ وقد جمع بعضهم أحرفَ الكَثْرة فى قوله (اليمونه) وبعضهم يجمعها فى قوله (اليوم هن) وجمع الحروفَ المتوسطةَ فى قوله (رعفت بكدس نخج)[(١)] وجمع أحرفَ القلّة فى قوله (طظغ صخذز قش) .

---

(١) تأمل هذا المثال وما بعده وحررها .

قال آبن الدُّرَيْهِم : وقد يقع فى لَفْظ غير القُرءان علىٰ خلاف ذٰلك كما يتعمَّدُون النَّظْم والنثر بغير ألف أو بغير نقط أو بغير عاطل الحروف أو ألفاظ قليلة، وقد يكون الكلام ألفاظا قلائلَ لاتستوعِبُ الحروف .

الأصل الثانى — كيفيةُ التوصُّل بالحَدْس إلىٰ حَلِّ المتَرْجَم :

قال آبن الدُّرَيْهِم : إذا أردْتَ حلَّ ماتُرْجِم لك، فآبدَأْ أوّلا بعدد الحروف، وكم تكَرَّر كُلُّ شكلٍ منها مرةً فأثبِتْه أوّلا فأوّلا . قال : وأوّلُ ماتستخرج الفاصلَةُ إن كان الذى عمَّى قد بالغ فى التعمِيَة، يعنى بإخفاء الفاصلةِ فى ضِمْن الحروف؛ وذٰلك أنك تأخذ حرفا فتظُنُّ أنّ الفاصلةَ تكون الثانى فتُجْريه علىٰ ماتقرّر من الكلمات من المقادير علىٰ ماتقدّم؛ فإنْ وافق وإلا أخذتَ الثالثَ ، فإن وافقَ وإلَّا الرابع وهكذا حتّٰى يصحَّ لك انفصالُ الكلماتِ، ثم تنظر أكثَرَ الحروف دَوَرانا فى الكلام فتُقاربُه من الترتيب المتقدّم فى أكثر الحُرُوف دَوَرانا علىٰ ماتقدّم، فإذا رأيت حرفًا قد وقع فى الكلام أكثَرَ من سائر الحروف فتظنُّ أنه الألف؛ ثم الأكثر وُقُوعا بعده فتظُنُّ أنه اللام؛ ويؤيد صحةَ ظنك أن اللام يُدَار فى أكثر آستعمالاته تابعًا للالف؛ ثم تنظر إن كان فى الكلام حرف مفرد فتظن أنه اللام ألف؛ ثم أوّل ماتلَفَّق من الكلام الثنائيةَ بتقريب حُرُوفها حتّٰى يصحَّ معك شىءٌ منها فتنظر أشكالَها وترقُمُ عليها، وتُجْرِى الكلامَ فى الثُّلاثيَّات حتّٰى يصحَّ معك شىءٌ منها فترقُم نظائره؛ ثم تجرى الكلام فى الرُّباعيَّات والخُماسيَّات علىٰ الوزن المتقدّم؛ وكلُّ ماآشتبه فاحتمل آحْتمالين أو ثلاثةً أو أكثر تُثْبتْه إلىٰ حين يتعيَّن من كلمةٍ أخرىٰ؛ فما آنتظم لك من ذٰلك

فتُثْبِت الباقِيَ عليــه، و إذا رأيت حرفًا قد تقدّم الألف واللام فى أوّل الكلمة فتظن أنه إما باء واحدة و إما فاء و إما كاف غالبا .

قال : وينبغى أن يكتب للبتدئ أوّلا كلّ كلمة علىٰ حدتها منفصلةً، وأن يكتب له الشِّــعْر دُون النثر، فإنّ الوزن يساعده علىٰ ظُهور بعض الحُروف، كهاء التأنيث وتاء التأنيث الساكنة وتاء المتكلِّم والساكن الذى لا يمكن أن يكونَ إلا أحد حروف العلةِ الدائرةِ فى الكلام وأمثالِ ذٰلك، ثم ضرب لذٰلك مثلا بأنك إذا رأيت هــذه الأسطر مكتوبةً بهذا القلم

قال : فينبغى قبلَ كلِّ شيءٍ أن يبدأ فيرقُمَ تحت كلِّ شكلٍ من هذه الأشكال كم تكرر مرّة أوّلًا فأوّلًا علىٰ هذا المثَال

فيجد قد تكرَّر معه هذا الشكل ٥ أكثر من كلِّ الأشكال بكثيرٍ، فيعلم أنَّه الألفُ فيرْقُم عليه فى مواضعه، ثم المكَرَّر بعده أكثرَ من باقى الأشكال هـذا الشكل 3 فيظُنُّ أنه اللامُ ويحقِّق ظنَّه كونُه تابعًا للألف فى سبعةِ مواضِعَ من الكلام؛ ثم ينظُر فيجِدُ فيـه حرفًا واحدا كلمةً فيظُنُّ أنهـا اللامُ ألف؛ ثم يجد الكلمة الثالثـةَ ثُنائيَّة ثانيها اللام ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه : بلا تلا جلا حلا خلا سلا علا غلا فلا كلا هلا ولا؛ ثم يجد هذا الشكل الذى مع اللام ألف قد ورد مكررا فى أوّل كلمـة آمتنع أن يكون جيا أو حاء أو خاء أو سينا أو عينا أو غينا أو هاء فلم يبق معنا سوىٰ بلا تلا فلا كلا ولا ؛ ثم يجد الكلمةَ الخامسةَ ثُنائيَّة ثانيها ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه با جا دا ذا سا شا ضا فا ما نا يا، ثم يترجَّح أنهـا ما أو يا لأن هذا الشكل قد تكرر أكثر من باقى الحروف فيكون إمَّا الميمَ أو اليـاء وإن قاربهما النون لكِنْ ما ويا أكثر وقْعا فى الكلام من نا فإنها غريبةُ الوقوع، ثم رأينا هـذا الشكلَ المتقدّم قد تلا الشكلَ الذى مع اللام ألف الذى ظننـا أنه أحد هـذه ٥ ب ت ف ك وفى الكلمة الثلاثيـة المكرر أوّلهـا فجـرَّبنا الحروف مع المـيم فظهر منهـا لفظة «ففى» لاغير؛ ثم نظرنا هذا الحرف فوجدناه وقع فى أربعة مواضع فى الكلام لاغير، فقلنا إنه الفاءُ : لأن الياء بنسبة هذا الكلام تقع أكثرَ من ذلك غالبا، فصَحَّ معنا أنَّ الكلمة الثالثـةَ «فلا» والكلمة الخامسة «يا» والحرفَ المفرد «لا» والكلمة الخامسة منـه هى رايد ذلك أننا وجدْنا الكلمةَ الحـاديةَ عشرةَ قد تكرر [فيها] بعد الألف واللام حرفان تلاهما ألف بعده حرف آخر، ولا يمكن أن يتكَرَّر حرف فى مثل هذا المكان سوىٰ الميم إذا جَرَّبته علىٰ جميع الحروف، فقلنا : المَمَات

المَمَاح المَمَار المَمَاس المَمَاع ؛ ورأينا هذا الشكل الذى هو آخر الكلمة قد تكرر أكثَرَ من باقى الحروف بعد الألف واللام والباء ، فبقى أن تكون هـــذه ر س ت ع لأن الميم قد صح معنـا ولم يكن النونَ فعلَّمنا علىٰ الميم فى مواضـعه ؛ ونظرنا فرأينا هـذا الشكل أوّلَ الكلمة الرابعـة الثُّلاثيَّة وقد صح ثانيها اللام وثالثها الميم فجـرَّبناها علىٰ هذه الحروف فسقطتِ الراءُ وبقى أحد هذه : سلم تلم علم ؛ ثم نظرنا الكلمة المجارِية للمات المماع المماس ، فرأينا قبـل الألف واللام حرفا يكون أحد هذه ب ل و : لأن الفاء علَّمناها ؛ ونظرنا هذا الحرف قد تبع الألف واللام قبلَ الياء ، ووجدناه بين البين فى كلمة ثلاثية تكون إحدىٰ هـذه أبا أذا أسا أنا ، فجرَّبنـا الكلمة علىٰ البـاء والدال والســين والنون علىٰ أن يكون الحرف الآخر السين فلم يتفق منه لفظ فسقط « ســلم » ثم جَرَّبناها علىٰ أن تكون العين فحصل منه بعدَ الحرف الأوّل البياع ؛ ثم علىٰ أن تكون تاء فحصل منه الثبات السيات فسقط وبقى أبا أسا أنا ؛ ثم نظرنا الكلمة السابعة وهى ثلاثية أوّلُها اللامُ وثانيها هـذا الحرف الذى قبل الياء وثالثها هذا الدائر بين العين والتاء قلنا يقوم منها « لست » وسقط الباء والنون ، وإنمـا لم يقم منه « كسع » لأنه لمـا سقطت البـاء سقطت العين من البياع ، فصح أنَّ تلك « السيئات » ونظيرها « الممـات » والثلاثية « تلم » وســقط علم ، فرقمنا علىٰ التاء فى مواضعها وعلىٰ السين فى مواضعها ، فصارت الثلاثية « أسا » فقد صح معنا من الكلمات : « فلا تَلُمْ يا لسْتُ الممـاتِ لا أَسَا ففى » وبقِىَ الحرف الذى قبلَ السيئات ؛ ثم نظرنا الكلمة العاشرة الثُّلاثية فيها ت ى فجرَّبناها علىٰ الحروف فظهر منها « حتَّى » لايشارِكُها شىء فعلَّمنا علىٰ الحاء فى مواضـعها ؛ ثم نظرنا كلمـةً خماسيةً قد بقى منهـا الحرفُ

الوسط، بجرّبناها على الحروف فقام من ذلك : « حَسَرات حسكات حَسَنات » فعلمنا أنه حسنات : لأن هـذا الشكل تكرر أكثرَ من باقى الحروف بعـد الألِف واللامِ واليـاء والتاء، وقد صَحَّ الميم فأثبتنا النُّون فى موضعها؛ ثم نظرنا هذا الشكل فى أوّل كلمتين ثُلاثِيتَّين وقد صح من إحداهما ن ى ومن الأُخْرى ل ى، بجرّبنا الحرف فوجدناه إمَّا عينا أو واوا، فيقوم منهما عنى على وبى ولى فتعين أن يكون عينا لقلة الحرف عن مرتبـة الواو ؛ ثم نظرنا كلمة سُباعِيَّة قد بقى منها حرف مجهول، جَرَّبناها على الحروف فصحت «البَيَانُ» لايشاركها لفظةٌ أخرى، وللحرف هذا الشكل الذى قبلَ السيِّئات فتعيَّنت الباء فى مواضعها؛ ثم نظرنا كلمةً سُداسِيَّة ثالثُها حرفٌ مجهول ، بجرّبناها فظهر منها «الكتّاب» ؛ ثم نظرنا كلمة خُماسِيَّةقبل التى قبل«هذه»قد بقىَ حرفُ الوَسَط [منها] مجهولا، بجرّبناها على الحروف فقـام لمحيف لمدنف لمصنف فتعينت « لمصنف » بسبب سياق الكلام بلفظ « الكتّاب » ورقمنا على الصاد؛ ثم نظرنا الكلمة الأخيرة قد بقِىَ منها رابعُها مجهولا، بجرّبناها على الحروف فصَحَّت «المَوْصِل» وصحَّت الكلمة التى بعد لست أنها «أسلو» فرقمنا على الواو؛ ثم نظرنا الكلمة الأولى وهى ثنائيـة أوّلها ص بجرّبناها فصحت صَدَّ، وإنما كنّاأخّرناها لقِلَّة وَقْع حروفها، ثم علّمنا على الدال فوجدنا كلمةً ثنائية آخرها «د» بجرَّبناها على باقى الحروف التى لم تظهر، فقام منها جد حد قد هد؛ ثم نظرنا كلمة ثلاثية فصح أوّلها ت وآخرها ل وسطها هذا الحرف الذى قبل الدال فى الثُّنائيـة، بجرّبناها على الجيم والخاء والقاف والهاء، فسقطت الهـاء وبقى تجل تقل تخل؛ ونظرنا فرأينا سياق الكلام يدل على أن الكلمة قبل أسا «قد» والثلاثية « تَقُلْ » فانتظم الكلام « لاتَقُلْ قَدْ أَسَا » ثم نظرنا الكلمة السادسة قد بقى منهـا

ثانيها مجهُولا ، بجرّبناها على باقى الحـروف فصحت « عَذُولى » ، فرقمنا على الذال فى مواضعه ؛ ثم نظرنا الكلمة الثلاثية التى بين «لمصنف» و بين «الكتاب» أولها هذا الشكل ᗝ وقدصح منها «ذا» فعلِمْنا أنَّها «هذا» ورقمنا على الهاء ؛ ثم نظرنا الكلمة الخُمَـاسِيَّة التى بين «ففِى» و بين «منه» قد بقى رابعُها ، بجرَّبناها على باقى الحروف فصحت « الوجه » ؛ ثم نظرنا الكلمة السباعية التى قبل الأخيرة وقد بقى منها رابعُها مجهولًا ، بجرَّبناها فظهر منها الدُّرَيْهِم ، فتكمل الحلُّ وظهر الكلام :

صُـدَّ عَنِّى فلا تَـلُمْ يا عَذُولِى * لَسْتُ أسْلُو هواهُ حتَّى المَمَـات

لا تَقُلْ قَدْ أسا فَفِى الوَجْهِ منه * حَسَناتٌ يُذْهِبْـنَ بالسَّيِّئات

هذا البيانُ لمصَنِّف هذا الكتابِ ، عَلِىّ بن الدُّرَيْهِم المَوْصِلىّ .

وعلى مثل هـــذا المِنوال يَجْرِى الحلُّ ؛ ثم آنظر إلى حروف هـذا الكلامِ كيف جاءَتْ أحدًا وعِشْرين حرفًا ، ونقص منه ثمـانيةٌ لم تُوجَد فيـه ، فإذا نظرتَ إلى ما قرّرتُ لك من ترتيب وَقْع الحروف كما جاءت فى الكتاب العزيز ، رأيتَ الثمـانية الناقصة هى آخِرُ الترتيب سواء لم يختلط منها شىء بتقديم أو تأخير ، وهـذا آتفاقٌ : لأنه قد يَقَع الحرف قريبا من رُتْبته كما تقدّم ؛ وكما تقدّمت الياء على الميم فى هـذا الكلام ، والفاءُ على الميم والنُّون ، وتقدّمت الهاءُ على الميم أيضا ؛ لكن الأصل معرِفةُ وَقْع الحروف بالتقريب وتجربةُ الكلمات ، ومقارَبةُ ما دلَّ عليه سِياقُ الكلام .

ولْنَضْرب مثالا آخَرَ : لتتضِحَ أنواعُ الحَلِّ .

وهذا مثال آخر أورده ابن الدُّرَيْهِم ، وهو :

فتعدّد المكررات من الأشكال كما مرّ وترقمها على هذه الصفة .

٢٢ ٣ ٩٤ ١٧ ٩٤ ٩ ٦ ٩ ٧ ٩٤ ٧ ٩٤ .

١ ٢ ١ ١ ٢ ١ ٢ ١ ٢ ٩٤ ١ ١ ١

فتنظر فإذا أكثرها وقعا ثم ثم ثم هـذين ثم هـذين ثم هـذا ثم هـذه فتظن أن هـذا الشكل الألف ، وهـذا اللام : لكونهما أكثر وقعا

من الجميع فلم يوافق : لأنه قد تقرر أن اللام تكون تابعـــة للألف فى أكثر المواضـع ولم نجده تبعه البتة ، بل وجدنا العكس فعلمنا أن هـذا ﻛ هو الألف وهـــذا ﻛ هو اللام ، ورقمنا عليهـــما فى مواضعهـــما فإذا الكلمة الثانيـة الثلاثية فيها لامان ، بقى حرف آخرها مجهول ؛ فجربناها على الحروف فظهرت الهـاء لا يمكن غيرها ، فعلمنا أنها « لِلّٰهِ » ورقمنا على الهاء فى مواضعها ، ثم وجدنا الكلمة الخماسـية قد بقى رابعها مجهولا ، فجربناها فظهر الهما ألهجا ألها الهنـا ، ووجدنا الحرف قد تكرر أكثر من كل الحروف بعـد الألف واللام ؛ فظننا أنه الميم ، لكنه يحتمل أن يكون النون ، وسقط البـاء والجيم فوجدناه فى الثنائيات فى كلمتين قبـل الألف ؛ فعلمنا أنهـا « ما » فرقمنا على الميم فى مواضـعها ، ثم رأينـا الميم قد تبعـه فى الثنائيات حرف يحتمل أن يكون مد مر مس مض مط مع من ، ورأينـا الحرف كثير الوقوع ، وقد تكررت ثلاث لفظات ؛ فعلمنـا أنها « مـن » ورقمنا على النون فى مواضعه ، ثم رأينا هذا الشكل ﻛ أكثر من غيره وهو قبل الألف واللام وفى أوائل الكلمات فقلنـا إنه الواو ، ثم رأينا آخر كلمـة قد بقى منها رابعها مجهولا ، فجربنـاها فظهر والبهم والتهـم والجهم والدهم والسهم والشهم والفهم واليهم ؛ ثم وجدنا هـذا الحرف ﻛ الذى فيها قد جاء قبل حرف فى الثنائيات وذلك أكثر ما وقع بعـد الألف واللام والميم ، فيحتمل أن يكون اليـاء ، ووجدنا قد بقى من كلمة هذا الحرف فصح أن يكون النهى وأخرى أولى ، فعلمنا أنها الياء ، فجربنـا الحرف معها ؛ فظهر بى نى ، ووجدنا كلمة خماسية هـذا الحرف ﻛ رابعها وبعد حرف آخر ، جربناها على الياء والفاء فظهر اللبث اللبـد اللبس اللبط اللبك اللفت اللفج اللفح اللفظ اللفق ؛ ثم وجدنا هذا الحرف الآخر ﻛ أول كلمة بعده لامان وهاء ؛ فجربناها فظهر منهـا الحرف الثالث مجهولا ، جربناها ظهر

التَّمام الحَمَام الذِّمام الشمام الغمَام الكمام؛ فرأينا سياق الكلام يدُلُّ علىٰ أنه «ظَلَّل الغمَام» وتعينت تلك اللفظة والأخرى الفَهْم والثنائيـة، فرقمنا علىٰ الفـاء؛ ثم رأينا الكلمة الثالثة الثُّلاثيَّة ثانيها لام وآخرُها ياءٌ وبعدها«ما ألْهمَا» فدل سياقُ الكلام علىٰ أنها «علىٰ» فرقمنا علىٰ العين، فرأينا الرُّباعِيَّة التى بعـد «وآله» قد بقى ثالثُها مجهولا؛ فخرَّبناها فظهرتْ مَعجِن معْدِن فتعين معْدِن والثنائية التىبعدها؛ وقيل «علم كل» فرقمنـا علىٰ الدال فى مواضعه ورأينا الكلمة الأولىٰ قد بقى وسطها مجهُولا؛ فخرَّبناها وظهرت الثمد الحمد الصمد، فدلَّ سياقُ الكلام أنها الحمْدُ : لأن بعدها «لله علىٰ ما ألهما» فرقمنا علىٰ الحـاء فى مواضعها، ورأينا الثالث من الرُّباعِيَّة التى بين علىٰ وظَلَّله، فخرّبناها فظهرت «الذى» ورأينا الكلمة الخُماسِيَّة التى بعد «مُحَمَّد» قد بقى رابعها [مجهولا]، فخرَّبناها فظهرت «النبى» فرقمناعلىٰ الياء فى مواضعها ورأينا قد بقى ثالثُ السُّداسِـيَّة التى بعدَ «من» هـذا الشكل ◡ وهو ثالثُ رُباعيَّـة أوّلهـا الألفُ وثانيها فاء وآخرها حاء، وثانِى خماسيَّة أوّلُها واو وثالثُها حاءورابعها باء وخامسها هاء؛ فتعينت الصاد، فالأولىٰ «الصَّواب» والأُخْرىٰ «أفصح» والأخرىٰ «وصَحْبه» وتعينت الثنائيـة التى هى أوّل البيت الثـانى بعدَ السـطر الأوّلِ «ثم» والتى تليها «صلاة» وتعين السين فى السـلام؛ فصار، «ثُمَّ صلاةُ اللهِ والسَّلامُ» وكلمـا تمرّن الإنسان فى ذٰلك ظهر له أسْرَع بكثرة المباشرة، ثم تعين رابع السُّداسِيَّة التى بعد أفصح مَنْ أنه الضاد، وتعين بسياق الكلام أن بعد بالضاد «فى اللَّفظِ نَطَق» فرقمنا علىٰ القاف فرأينا مجاريها الثلاثية من رأس المِصْراع «خَلَق» فرقمنا علىٰ الخاء، وتعينت الكلمة التى قبـل «مَنْ خُلِق» أنها «خير» فتكملت الأبياتُ وظهر أنهـا :

الحَمْـــــــدُ للهِ علىٰ ما أَلْهَـــمَا * مِنَ الصَّوابِ وعلىٰ ما عَلَّما
ثُمَّ صــلاةُ اللهِ والسَّـــلامُ * علىٰ الَّذِى ظَلَّلَـــــه الغَمَامُ
محمدِ النبيّ خَـــيْرِ مَنْ خَلَقْ * أفْصَحِ مَنْ بالضادِ فى اللَّفظ نَطَقْ
وآلِهِ مَعْدِنِ كلِّ عِــلْمِ * وَصَحْبِـــهِ أُولِى النُّهىٰ والفَهْم

قلت : ومما يلتحق بتعمية الخَطِّ المتقـدّمةِ الذِّكرِ ماحكاه آبنُ شيثٍ فى مَعالِمِ الكتابة : أنَّ بعض الملوك أمر كاتِبَـه أن يكتُب عنه كتاباً إلىٰ بعض أتْباعه يُطَمِّنه فيه لِيَقْبِضَ عليه عند آنتهازِ فُرْصةٍ له فى ذٰلك ؛ وكان بينَ الكاتِب والمكتوبِ إليه صَداقةٌ فكتب الكتابَ علىٰ ما أَمَر به من غير خُروج عن شَيْءٍ من رَسْمه، إلا أنه حين كتب فى آخِرِه « إنْ شاء الله تعالىٰ » جعل علىٰ النُّون صورةَ شَـدّة ، فلما قرأه المكتوبُ إليه، عَرَف أنَّ ذٰلك لم يكن سُدًى من الكاتب فأخذ فى التأويل والحَدْس فوقع فى ذِهْنه أنه يُشِير بذٰلك إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إنَّ المَلأَ يأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ . فأخذ حِذْره، وآحترز علىٰ نَفْسه، وبلغ الملِكَ آحترازُه علىٰ نفْسه فاتَّهم الكاتبَ فى أنه ألحقَ فى الكتابِ شيئا نَبَّهه به علىٰ قَصْـد الملِك ، فأحضره وسأله عن ذٰلك، وأمره بأن يكتُب الكتابَ علىٰ صُـورة ما كتَبَ به من غير خُروج عن شيءٍ منـه ، فكتبه ولم يغـيِّر شيئا من رَسْمه حتّى إنه أثبتَ صُورةَ الشدّة علىٰ النُّون ؛ فلمـا قرأه الملِكُ ونظر إلىٰ صورة الشـدّة أنكرها عليه، وقال : ما الَّذِى أردْتَ بذٰلك ؟ قال : أردت قوله تعالىٰ : ﴿ إنّ المَلأَ يأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ . فأُعْجِب بذلك وعفا عنـه لصِـدْقه إيّاه .

النــــوع الثــانى

(الرُّموزُ والإشاراتُ التى لاتعلُّق لها بالخطِّ والكتابة)

وهى التى يعبِّر عنها أهلُ المَعانى والبيان بالاِستعارة بالكِنايَةِ «بالنون بعد الكاف» وقد يعَبَّر عنها بالوحْيِ والإشارة .

ومن غريبِ ما وقع فى ذلك ما حكاه العَسْكرىّ فى "الصناعتين": أنَّ رجلا من بَنِي العَنْبر أُسِرَ فى بَنِي حَنْظلةَ ، وفَهِم عنهم أنهم يَقْصِدون الغارةَ علىٰ قومه بَنى العَنْبرِ ، فقال لبنى حنْظلةَ : إنَّ لى حاجةً عنــد أَهلى وأُرِيد رسولًا من قومكم أُرْسِــله فيها ، فأجابُوه إلىٰ ذلٰك بشرْط أنْ يخاطِبَه فى حاجتــه بحُضُورهم ؛ فأحضروا له رجُلا فى الليل وقدْ أوقدتِ العربُ نِيرانَهــا ، فأقبل علىٰ الذى أتَوْه به وقال له : أتَعْقِل ؟ قال : إنِّى لعاقلٌ . فقــال : ٱنظُر إلىٰ السماء ونجومِها ، فنَظَر ؛ ثم قال : ٱنظُرْ إلىٰ نِيرانِ العرب ، فنظر ؛ فقال له : ماأَكْثَرُ؟ نجومُ السماء أو نيران العرب؟ فقال : إنَّ كلًّا منها لكثير ؛ قال : إنك إذًا لعاقِل ، ثم دفع إليــه حنظلةً وصُرّةً فيها رَمْل وصُرّةً فيها شَــوْك ، وقال ٱذهبْ إلىٰ قومى فادفَعْ إليهم هــذه الحنظلةَ وهاتَيْنِ الصُّرَّتَيْن ، وقُلْ لهم يُعْرُوا ناقتِي الحَمْراء ، ويَرْحِلوا جَمَلِي الأَوْرَق ، وسَلُوا أخِى الأعورَ يُخْبِرْكم الخَبَر . فقال الحاضرون : ليس فى هــذا مايُنْكَر، ٱذهَبْ فى حاجته ؛ فذهب إلىٰ بنى العَنْبر ودفع إليهم ذٰلك وقَصَّ عليهم القِصَّــةَ ورجع ، فبعث القومُ إلىٰ أخيه الأعورِ فحضر ، فأخبروه الخَبَرَ . فقــال إنه يقول : أتاكُمْ بنُو حنظَلةَ فى عدّ الشَّوْك والرَّمل ، وإنَّ نِيرانَ العرب تُعادُّ نُجُومَ السماء ، ويأمُرُكم أن تَرْحَلُوا عن الدَّهْناء وانْزِلُوا مكان كذا ؛ ففعلوا ورحلُوا لوقتهم فصَبَّحهم بنُو حنظلَةَ فلم يُدْرِكوا منهم أحدا .

وفى معنىٰ ذٰلك ماحكاه المَقَـرّ الشِّهابِىّ بنُ فضـل الله فى كتابه "التعريف" : فى الكلام علىٰ المكاتبة إلىٰ الأدفونش مَلِك الفَرَنج بطُلَيْطُلَة من بلاد الأنْدَلُس، كان خبيثَ النيـةِ ، سَيِّئَ المقاصد لأهل الإسلام ؛ وأنه أرسل مَرَّة إلىٰ الملك النـاصر محمدِ بن قلاوون : صاحب الديار المِصْرية هـديةً فيها سَيْفٌ وثوبُ بُنْدُقِىٍّ وطارقةٌ مستَطِيلة تُشْبِه النَّعش كأنه يقول : أقتُلُك بهذا السَّيف، وأُكَفِّنك فى هذا الثوب، وأحمِلُك علىٰ هذا النَّعْش . قال : وكان الجوابُ أنْ أرسل إليه حَبْلا أسودَ وحَجَرا، أى إنه كلب يُرمىٰ بهذا الحَجَر أو يُربَط فى هذا الحبل .

قلت : وممـا وقع من ذٰلك فى زماننا أنه فى الدولةِ الظاهِرِيَّةِ «بَرْقوق» وتمرلنك يومئذ ببلاد العِراق يُغَاوِر الممـالكَ الشامية لقصد الاستيلاء عليها ورَدَ عليه كتابٌ من المملكة الحلَبِية فيـه : أنه وقع بتلك البلادِ سَيْلٌ عظيم ساقَ جملةً من الأُسْد والنُّمورة والحَيَّات، وأنه دَفَع حيَّة عظيمةً سَـعةُ رأسها بقَدْر قَوْس ، وقرئَ الكتابُ بحضرة السلطان، وحملُوا ذٰلك علىٰ ظاهره : من أنَّ المراد حقيقةُ السيل، وأنه لقوَّته ساقَ تلكَ الحيَّةَ والسِّباع وغيرها، وشاع ذٰلك بينَ الكافَّة من الأمراء وأهل الدولةِ وسائر الرعِيَّـة ، ومضىٰ الأمر علىٰ ذٰلك ؛ ثم ظهر أنَّ المقصودَ بذٰلك السيلِ وما فيـه هو تُمُرلَنْك وعساكره ؛ وأنه كُنِيَ بالحيـة العظيمة عنه نَفْسِـه، وبالسِّباع والحيَّات عن عساكره .

ومن لطيف ماوقع فى ذٰلك أنه ورد علىٰ السلطان الملكِ الناصر «فَرَج بن بَرْقُوق» فى أواخر دولته كتابٌ عن صاحب تُونُس من بلاد المَغْرِب فى آخره خطابا للسلطان (وعلىٰ إحسانِكم المُعَوّل ، وبيتُ الطُّغرائِىّ فى لاميَّـة العجم لايُتأوّل) فسألنى بعضُ أعيان ديوان الإنشاء عن المراد من ذٰلك ولم يكن الكتاب متضمِّنا لغير الوصية

علىٰ حُجّاج المَغَـاربة ، وكان رَكْب المغاربة قبلَ تلك الحَجّـة قد عرضَ لهم عارضٌ من عَرَب دَرْب الحجاز آجتاحُوهم فيه ، وقتلوا منهم خَلْقا كثيرا ، ونهبُوا منهم أموالا جَمَّةً ، فعرضتُ ذٰلك علىٰ أبيات اللامية ، فلاح لى أنه يُشِير إلىٰ قوله فيها :

فقُلْتُ أرْجُوكَ للجُلّٰى لتَنْصُرَنِى * وأنتَ تَخْذُلُنِى فى الحادِثِ الجَلَلِ

والجُلّٰى بضم الجيم هى الأمرُ الجليل العظيمُ ، والجَلَل بفتح الجيم فى اللُّغة من أسماء الأضـدادِ ، يقع علىٰ الشىء الجليل وعلىٰ الشىء الحقير ، كأنه يقول : أنا كـنتُ أرجُوك للأمور العِظام لتنصُرَنى فيها فخذَلْتنى فى هـذا الأمر الخَسِيس ، وهو الأخذُ بثأر حُجّـاج بِلَادى ممن آعتَدىٰ عليهـم من عرب بِلادِك : فخاب ظنّى فيما كنتُ أرجُوه فيـك ، وأؤمِّله منـك ، وأشار بقوله لايُتَأوَّلُ إلىٰ أنه لايحملُ الجَلَل فى قول الطُّغرائىّ علىٰ الشىء الجليل كما قال الصَّـلاحُ الصفدِىُّ فى شرح اللاميـة ، بل علىٰ الأمر الخَسِيس : لأنه هو اللائقُ بالمَقام .

وآعلم أنَّ مثل هذه الأمورِ تحتاجُ إلىٰ قوّة ذكاء وآحتـدام قريحة من الذى يَقَع مِنـه الرمزُ ، وإلىٰ قوّة حَدْس من الذى يحاوِلُ إدراكَ المَقْصَد من تلك [المَعَامِى] كما يقع فى الألغاز والأحاجِىّ للُغز ، والمتصدّى لحَلِّ ألغازه والجواب عنه ، والله تعالىٰ هو الهادى إلىٰ سبيل الصَّواب .

المقـالة الخـامســـة

فى الوِلَايات ، وفيهـا [أربعــــة] (١) أبوابٍ

البـاب الأوّل

فى بيـان طَبَقاتها وما يقعُ به التفاوُتُ ، وفيـــه ثلاثةُ فصول

الفصـــــل الأوّل

فى بيان طَبَقات الولَايات، وهى علىٰ ثلاثِ طَبَقات

الطبقةُ الأُولىٰ — الخلَافة ، ولِمَا يكتب فى وِلَايتها طريقان : إمَّا عهدٌ من الخليفة الأوّل، وإما بَيْعةٌ من أهْل الحَلِّ والعَقْد إن لم يُوجَدْ عهـدٌ من الخليفة قَبْلَه علىٰ ماسيأْتى بيانُه إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثانية — السَّلْطنة ، ولِمَا يكتَبُ فى ولايتها طريقان : أحدُهما العهْـدُ من الخليفة، والثانى العهْدُ من السلطان قَبْلَه . قال فى "التعريف" : أمّا مَنْ قام من المُلُوك بغيْر عهْد، فلم تجر العادةُ أن تُكتَبَ له مبايَعةٌ .

الطبقة الثالثةُ — الولاياتُ عن الخلفاء والمُلُوك وما يُكتَبُ عن السلطان بالديار المصريّة فى أقطار المملكةِ بمصرَ والشامِ والحجازِ : ممـا يكتَبُ من ديوان الإنشاء الشريفِ بالأبواب السلطانية .

وهى علىٰ خمســـة أنواع :

---

(١) بياض فى الأصل والتصحيح ممـا تقدم فى ج ١ ص ٢٤ من هذا المؤلف .

النـــــــوع الأوّلُ

(ولاياتُ أربابِ السُّيوف ؛ وهم علىٰ ثلاثة أصناف)

الصِّنف الأوّل — النُّوّاب من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف ، وغالِبُ مَنْ يكتَب له منهم بالبلاد الشاميــةِ ومُضافاتِها ؛ كنُوّابِ السلطنةِ بدِمَشْقَ وحَلَبَ وطَرابُلُس وحَماةَ وصَــفَدَ والكَرَك ، ومُقَدَّمى العســكر بغَزَّةَ وسِيسَ ؛ ونُوّابِ القِلاع بالمُدُن العِظام ذواتِ القِلاع الرفيعةِ القَــدْر : كالنائبِ بقلعة دِمَشْقَ ، والنائبِ بقَلْعة حَلَبَ ، والنائبِ بقَلْعة صــفَدَ . أمَّا طرابُلُسُ وحَمَــاةُ ، فليس بهما قلعــة ؛ وكذٰلك النِّيابات الصِّغارُ المُضافةُ إلىٰ القواعد الكِبَار : كالقُدْس الشريف وحِمْص ومِصْياف من مُضَافات دِمَشْقَ ، وقلعةِ المسلمين والرَّحبة والبِــيرةِ والرُّها وشَيْزَر وعَيْنتاب وبَهَسْنىٰ ومَلَطْيَة وآياس والأَبُلُسْتَيْن وأَذَنة وطَرَسُوسَ من مضافات حلَبَ ، واللّاذِقيَّة وحِصْــن عَكّار من مضافات طرابُلُس وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك ، علىٰ ما ســيأتى بيانُه مفصلا فى مواضِعِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

أمَّا مادُونَها من النِّيابات فإنَّ نُوّاب السلطنة بالمملكة يستقِلُّون بالتولية فيها .

قلت : والضابِطُ فى ذٰلك أنَّ كلَّ نيابةٍ كان نائبُها تَقْدِمةَ أَلْف فوِلايتُها عن السلطان بمرسوم شريف من ديوان الإنشاء بالأبواب الســلطانية ، وكلّ وِلايةٍ كان نائبُها جُنْديًّا أو مقــدَّمَ حَلْقة فوِلايتها عن نائب السلطنة بالمملكة التى هى مُضافةٌ إليها بتوقيع كريم من ديوان الإنشاء بهــا ؛ وكلّ نيابةٍ كان نائبُها أميرَ طَبْلخاناه أو عشرة ربَّمــا وَلّى فيها السلطانُ وربما ولّى فيها نائبُ السلطنة ، إلا أنَّ توليةَ السلطان لنُوّاب الطبلخاناه أغلَبُ ، وتوليةَ نُوّاب السلطنة لنُوّاب العشرةِ أغلَبُ .

أمَّا الديارُ المِصريةُ فإنه كان يُكتَبُ فيها أوّلًا لوُلاة الوجهين : القبـلىِّ والبَحْرىّ جَرْيا علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى زمَن الخُلَفاء الفاطميِّين، وكذٰلك والى الإسكَنْدرِيَّة قبل أن تستقِرّ نيابةً ، ووالِيَا الوُلاة بالوجهين قبل أن يستقِرّا نيابتَيْن ، فى جماعةٍ أُخرىٰ من أرباب الوظائف : كالنائب الكافل وأتابك الجُيُوش كإسْتادَار وأميراخُور ومقدَّم المماليك ووالِيْ مصرَ والقاهرةِ؛ ثم صارت الكتابةُ لذَوِى الوظائفِ من أرباب السُّـيوف قاصرةً علىٰ النـائب الكافل إذا كان موجُودا والنُّوّاب المستَجِدّين بالإسكندرية والوجهين : القبلىّ والبحرىّ؛ وبطل ماعَدَا ذٰلك ممـا كان يُكْتَب ، وكأنَّ المعنىٰ فيه القُربُ من مَقَرّة السلطان؛ والكتابةُ إنمـا تقَع فى الغالب مع البُعْد : لتكونَ حجـةً للتولىّ علىٰ بُعْـد المَدىٰ ، ولا ينتقضُ ذٰلك بمـا يُكتَب للخلفاء والملُوك فى الحضرة، فإنَّ ذٰلك من الأمور العامَّة التى يُخافُ ٱنتقاضُها أو جُحودُها، إذ مثـلُ ذٰلك لايجوز فى الولايات عن السلطان : لأنه متىٰ شاء عزَلَ مَنْ وَلّاه .

الصِّنف الثـانى — ولايةُ أُمَراء العُرْبان، وهٰؤُلاء لاحظَّ لهم فى الكتابة بالولاية بالديار المِصريَّة الآنَ؛ وربَّمـا يُكْتَب لأمرائهم بالمملكة الشامية : كأميرِ آلِ فَضْل، وأميرآلِ مِرا ، وأمـيرآل عَلِىّ ، ومُقَـدَّم جَرْم ، وكذٰلك أمـيرُمكةَ المشرَّفـة ، وأميرُ المدينـة النبوِيَّة علىٰ ساكنهـا أفضلُ الصلاة والسـلام ، والتحية والإكرام ، والنـائبُ بالْيَنْبُع من البلاد الحجازيَّة . والمعنىٰ فى ٱختصاص مَنْ بَعُـد منهم ماتقدّم فى الكلام علىٰ أرباب السُّـيوف مع ضَـعْف شأن عَرَب الديار المِصْريَّة وعـدمِ الاِهتمام بأمْرهم .

الصنف الثالث — ولاية المُقَدَّمين علىٰ الطَّوائف : كمقدَّمى التُّرْكُمان، والأكْراد، والجَبليَّة بالبلاد الشاميـة ، وأتابكِ طائفةِ الإسماعيلية بقِلاع الدَّعْوة ، وحاكم البُنْدُق

ونحوهم؛ وهذه الطوائفُ ممّن يكتَبُ له إلىٰ الانَ؛ أما حاكم البُنْدُق، فإنه لم يُعْهَد له كتابةٌ من ديوان الإنشاء بمصر والشام . علىٰ أنَّ المقَرّ الشهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر وصيَّته فى ” التعريف “ ولعلَّه ممن كان يكتَب [له] فى زمانه أو قبْلَه ثم تُرِك، وإنما يكون ذٰلك بحسَب ٱعتِناءِ السلطان بشأْن البُنْدُق وعدمِه كما فى لباس الفُتوَّة، وأنه رُبَّما ٱعتنىٰ به بعضُ الملوك فكتب له ثم تُرِك .

النــوع الثانى

(ولايةُ أرباب الأقلام ، وهم صنفان)

الصِّنف الأوّل

(أربابُ الوظائف الدينيَّة ، وهم علىٰ ثمانيةِ أضْرُب)

الضرب الأول — أكابِرُ القُضاة بأقطار المملكة : كقُضَاة القُضَاة بالحَضْرة السلطانيـة بالدِّيار المِصرية وثَغْر الإسكَنْدرية ، وكذلك قُضاة القُضَاة بدِمَشْق وحَلَبَ وطرابُلُس وحَماةَ وصَفَد والكَرَك ، وقُضاةُ العَسْكر بالديار المِصْرية ؛ أما القُضَاة بالنِّيابات الصِّغار المضافاتِ إلىٰ دمشْقَ وحلَبَ ونحوهما فولايتُهم إلىٰ قُضاة القُضاة بها ، وقُضاةُ العسكر بدِمَشْق وحلَبَ ومافى معناهما إلىٰ النُّوّاب بتلك الممالك .

الضرب الثانى — المُفْتُون بدار العَدْل بالديار المصرية؛ أما المُفْتُون بدار العدل بالممالك الشاميَّة فولايتُهم إلىٰ نائبِها .

الضرب الثـالث ــ أكابرُ المحتَسِبين : كمحتَسِبَىْ مصر والقاهرةِ ؛ أما الممـالك الشاميَّةُ فلا يُولَّى فيها إلا نُوّابُها .

الضرب الرابـع ــ أكابر المدَرِّسين فى عامَّة العُلُوم بأماكِنَ مخصوصةٍ : كالزَّاوِيَة الخَشَّابِيَّة بالجامع العَتِيق بمصر، والمدرسةِ الصَّلاحية بتُرْبة الإمام الشافعىّ بالقَرافة، ونحو ذٰلك بأقطار المملكةِ من مُدَرِّسى الفِقْه والحديثِ والتفسيرِ وغير ذٰلك من العلوم الدِّينيَّـــة .

الضرب الخامس ــ أكابرُ الخُطَبـاء بجوامِعَ مخصوصـةٍ بأقطار المملكة : كجامع الناصِرِىّ بقلعة الجَبَل، والجامعِ الأُمَوىّ بالشام ونحوِهما .

الضرب السادس ــ وُكَلاءُ بيتِ المـال بالدِّيار المِصرية وغيرها .

الضرب السابـع ــ المتحدِّثُون علىٰ الوظائف المعتَبَرة : كنِقَابة الأشْراف، ومَشْيَخة الشُّيوخ، فمـا كان بالدِّيار المِصربة فولايتُه من السـلطان ، وتوقيعُه من ديوان الإنشاء، وما كان منها بالممـالك الشاميَّة فوِلايتُها إلىٰ نُوّاب السَّلْطنة بها .

الضرب الثـامن ــ المتحدِّثُون علىٰ جِهات البِرِّ العامَّة المصلحةِ: كنظر الأَحْباس وأنظار البِيمارِسْتَانات ونحوها : فمـا كان منها بالدِّيار المصرِيَّة : كنَظَر الأحْبـاس والبِيمارِسْتانِ المنصُورىّ وما أشبه ذٰلك فتوليتُه (١) إلىٰ نُوّابها ، مالم يكن لها ناظرٌ خاصٌّ فيكون ذٰلك مختصًّا به .

---

(١) لعله فتوليته من السلطان ، وتوقيعه من ديوان الانشاء ، وما كان منها بالممالك الشامية فتوليته الخ كما لايخفى تأمل .

الصنف الثانى

(أرباب الوظائف الدِّيوانيــة)

ودَواوِينُها علىٰ ثلاثة أضْـرُب :

الضرب الأوّل — دَواوينُ المـال؛ وأربابُ الخِدَم بها ممن تُكتَب وِلاياتُهم من ديوان الإنشاء : إمَّا ناظِر، أو وَزِير، أو صاحبُ دِيوان، أو شهادةٌ، أو آستيفاءٌ؛ فأمَّا الوِزارة فلا يُصَرَّح بها إلَّا للوزِير بالأبواب السُّلطانية، وربمـا صُرِّح بهـا لوَزِير دمشْقَ إذا وِلِيهَا من آرتفعَتْ مرتَبَتُه، وإلَّا عُبِّر عنه بناظِرِ المملكة .

وأما النَّظَر، فكنظر الدَّواوين المعبَّر عنـه بنظَر الدَّوْلة، ونظَر الخـاصِّ، ونَظَر الخِزَانة الكُبرىٰ، ونظَر البُيُوت «الحاشِيَة» ونظر بيْتِ المـال، ونظر الإصْطَبْلات السلطانية، ونظرِ دار الضِّـيافة والأَسْواق، ونظر خَزائنِ السِّـلاح، ونظر البَهَـار والكارِمِىّ، ونظَـر الأَهْراء، ونظر المَوَاريث الحَشْرِيَّة، ونظر ثَغْر الإسـكَنْدرِيَّة المحروسِ؛ وغير ذٰلك من وظائف الأنظار بالديار المصرية . وكذلك نظرُ المملكةِ بدِمَشْقَ إذا لم يُصَرَّح لمتولِّيه بالوِزَارة، ونظر المَلَكَة بحلَبَ، ونظر المملكة بطَرَابُلُسَ، ونظر المملكةِ بحَمَاةَ، ونظر المملكةِ بصَفَد، ونظر المملكة بِسِيسَ، ونظر المملكة بغَزَّة، ونظر المملكة بالكَرَك .

وأمَّا صَحَابةُ الدِّيوان، فكصَحَابة دِيوان الجَيْش وصَحابة ديوان الخاصِّ، ونحو ذٰلك .

وأمَّا الشَّهادة، فكشَهادة الخِزَانة الكُبرىٰ، وشهادة خِزانة الخاصِّ ونحوهما .

وأمّا الآستيفاء ، فكآستيفاء الصُّحْبة ، وآستيفاءِ الدَّوْلة ، وآسـتيفاءِ الخاصّ ، ونحو ذلك . ولاحَظَّ لغير النُّظّار من دَواوين الأموال بالممالك الشاميّة : من صاحب ديوانٍ ولا شاهدٍ ولا مستَوْفٍ ، فى الكتابة بالوِلاية من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ، بل وِلايتُها من نُوّاب الممالك الشامية بتواقِيعَ من دَواوِين الإنشاءِ بها .

الضرب الثـانى — دَواوينُ الجُيوش بالديار المصرية وغيرِها من الممـالك الشاميّـة . وأربابُ الخِدَم بها لايخْرُجُون عن ناظرٍ ، وصاحبِ ديوانٍ ، وشاهـدٍ ، ومسـتَوْفٍ .

والذين يُوَلَّوْنَ عن السلطان منهـم [و] تُكْتَبُ تَوَاقِيعُهم من ديوان الإنشـاءِ الشريف ناظِرُ الجيش بالأبوابِ السلطانية ، وناظِرُ الجيش بِدمَشْقَ ، وناظِرُ الجيش بحلَبَ ، وناظرُ الجيش بطرابُلُسَ ، وناظرُ الجيش بحَمَـاةَ ، وناظرُ الجيش بصَفَدَ ، وناظر الجيش بغَزَّةَ ، وناظرُ الجيش بسِيسَ ، وناظرُ الجيش بالكَرَك ، وصاحبُ ديوان الجيش بالأبواب السلطانية ، والشُّهودُ ، والمستوفُون بها ؛ أمّا مَنْ عدَا هٰؤلاء : من نُظّار الجيش وأصحابِ الدواوين والشُّهود بالممـالك الشامية ، فوِلايتُهم إلىٰ نوّاب السـلطنة بها .

الضرب الثالثُ — دَواوينُ الإنشاء ، وأربابُ الخِدَم بها لايخرُجُون عن كاتبِ سِرٍّ ، وكاتب دَسْتٍ ، وكاتبِ دَرْج .

والذين يُوَلَّوْن عن السلطان من كُتّاب هذه الدَّواوين وتكْتَب تواقيعُهم من ديوان الإنشاء السلطانىِّ صـاحبُ ديوانِ الإنشاء بالأبوابِ السـلطانية ، وصاحبُ دِيوان الإنشاء بِدمَشْقَ ، وصاحبُ ديوان المكاتبات بحلَبَ ، وصاحبُ ديوان المكاتَبَات

بطرابُلُس ، وصاحب ديوان المكاتَبَاتِ بحَماةَ ، وصاحبُ ديوان المُكاتَبات بصَفَدَ ، وكاتبُ الدَّرْج بِسِيسَ ، وكاتبُ الدَّرْج بغَزَّة ، وكاتبُ الدَّرْج بالكَرَك ، وكاتبُ الدَّرْج بالإسكَنْدريَّة ، وكُتَّابُ الدَّسْت وكُتَّاب الدرج بالأبواب السلطانية ؛ أما كُتَّاب الدَّسْت وكُتَّاب الدَّرْج بالممالك الشامية فإلىٰ نُوّابها بتواقِيعَ من دَواوين الإنشاءِ بها .

النـــوع الثالث

(وِلاياتُ أربابِ الوظائف الصِّناعيَّة)

كالأَطِبَّاء ، والكَحَّالين ، والجَرائحيَّة ، ومَنْ جرىٰ مَجْراهم من سائرِ أربابِ الوظائف التى هى من تَتِمَّة نظام المُلْك ؛ فما كان منها بالأبوابِ السلطانية فوِلايتُه عن السلطان بتَوْقِيع من ديوان الإنشاءِ السلطانى ؛ وما كان منها بالممالك الشامية فولايته إلىٰ نُوّاب السلطنة بها .

النـــوع الرابع

(ولاياتُ زُعَماء أهل الذِّمَّة . وهى ضربان)

الضرب الأوّلُ — وِلايةُ بَطَاركة النَّصارىٰ من اليَعاقبة والمَلِكانيَّة[(١)] .

الضرب الثانى — وِلايةُ رئيسِ اليَهُود الحاكم علىٰ طوائِفِهم .

---

(١) لم ينص على من له توليتهما .

النــــوع الخامس

(ما لا يختَصّ بطائفة ولا يندرِج تحت نَوْع)

كصغار الأُمُور التى يُكتَب فيهـا لكلِّ فَرْدٍ فَرْد : إما ٱبتـداءً ، وإما بالحمل علىٰ ما بِيَدِه من ولايةٍ سابقةٍ : من نائبٍ أو قاضٍ أو ناظرٍ وقْف أو غير ذٰلك ؛ ممـا لا ينحصِرُ كثْرةً .

قلت : وربمّـا وَلّىٰ السـلطان فى بعض الوظائف بالممالك الشاميَّة ممـا تختصّ توليتُه بنُوّاب السلطنة إذا كانتِ الوظيفةُ وضـيعةَ المَنْزِلة وأدركتِ المُولّىٰ عِنَـايَتُه ، وربّما ولّى بعضُ نُوّابِ السلطنة ما تَختصّ توليتُه بالسلطان إذا عظُمتْ رتبةُ النائب وٱرتفعتْ مَنْزِلتُه ؛ خصوصًا إذا كان نِظامُ المملكة محلُولا وأمُرها مضْطَرِبا .

الفصـــل الثانى
من البـاب الأوّل من المقـالة الخامسة
(فى بيان ماتجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة الوِلايات علىٰ سبِيل الإجْمال)

قال الشيخ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ رحمه الله فى "حُسْن التوسل": يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى ذٰلك أمورًا .

منها — بَرَاعَةُ الآستهلال بذكر الرُّتبـــة ، أو الحـالِ ، أو قدرِ النِّعمة ، أو لَقَب صاحب الولاية ، أو آسْمِه ؛ بحيثُ لايكونُ المطَّلِـع أجنبيًّا من هذه الأحوال ، ولا بعيدًا منها ، ولا مباينًا لهـا ؛ ثم يستصحِبُ مايناسب الغرضَ و يوافق القَصْـد من أوّل الخُطْبة إلىٰ آخرها .

ومنها — أن يراعِىَ المناسَبة وما تقتضيه الحـالُ : فلا يُعْطى أحدا فوقَ حَقِّه ، ولا يصِفُه بأكثرَ مما يُراد من مثله ؛ و يراعى أيضا مقدارَ النعمة والرُّتبة فيكون وصْفُ المِنَّة بها علىٰ مِقْدار ذٰلك .

ومنهـا — أن لا يصفَ المتولِّىَ بمـا [يكونُ] (١) فيـه تعريضٌ بذَمِّ المعْزُول [وتَنْقيصٌ له] (١) ؛ فإنّ ذٰلك ممـا يُوغِر الصُّـدور ، و يُورِث الضَّغائن فى القلوب ، ويدلُّ علىٰ ضَعْف الآراء فى آختيار الأوّل ، مع إمكانِ وصْف الثانى بمـا يحصُل به المقصُود من غير تعريض بالأوّل .

ومنها — أن يتخيَّر الكلامَ والمعانِىَ فإنه ممـا يَشِيع ويَذِيع ، ولا يُعْـذَر المقصِّر فى ذٰلك بعَجَلة ولا ضِـيقِ وقت ، فإنَّ مَجَال الكلام متَّسع ، والبـلاغة تظْهَر فى القليل والكثير .

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٠ .

قلت : ومنها أن يَحْرِص الكاتبُ علىٰ أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى السَّـطْر الأوّل أو الثانى ولا يُؤَخِّرُها عن ذٰلك . وممـا كان يراعىٰ فى ذٰلك أن تكون الخطبةُ من أوّلها إلىٰ آخرها علىٰ رَوِىّ واحدٍ فى السَّجْع ، وكذٰلك الدعاءُ فى أوّل صِغار التواقيع والمَراسِيم المبتدأةِ بلفظ « رُسِم » بخلاف مابعد ذٰلك إلىٰ آخر ما يكتب، فإنه يتّفق فيه روىُّ السجعتين والثّلاثِ فمـا حولَها ، ثم يخالَفُ رويُّها إلىٰ غيره ؛ ولا يكلَّف الكاتبُ الإتيانَ بجميعها علىٰ روىٍّ واحد ؛ وعلىٰ ذٰلك كانت طريقـة فُحُول الكُتَّاب بالدولة التركية، كالقاضى محيى الدِّين بن عبد الظاهر، والشـيخ شهابِ الدين محمود الحلبى، والمقرِّ الشهابىِّ بن فضل الله، ومَنْ عاصرهم إلّا فى القليل النادر؛ فإنه رُبَّمـا وقع لبعضهم مخالفةُ رَوِىّ الخطبة ؛ وإلىٰ هذا قد جنَح غالب كُتَّاب ديوان الإنشاء فى زماننا ومالُوا إليه : لمـا فى الْتزام الرَّوِىّ الواحد فى جميع الخُطْبـة من التكلُّف وعُسْر التلفيق علىٰ مَنْ يتعاناه .

ثُمَّ الكلامُ فيما يُكتَب فى الولاية قد يكون جميعُه بلفْظ الغَيْبـة ؛ مثل أن يقال : عَهِـد إليه بكذا ، أو قَلَّده كذا ، أو فَوّضَ إليه كذا ، أو أنْ يستقِرَّ فى كذا ، ونحو ذلك، ثم يقال : وأْمُره بكذا ، أو ونحن نُوصِـيه بكذا ، أو فعلَيْه بكذا ، وما أشبه ذٰلك ؛ وقد يكون جميعُه بلفظ الخِطاب، مثـل أن يقال : وقد عهِـدَ إليكَ بكذا، أو قلَّدكَ كذا، أو فوّضَ إليك كذا ثم يقال : ونحن نُوصيكَ بكذا، أو فعليكَ بكذا، ونحوه ؛ وقد يُصَـدَّر بلفظ الغَيْبة ثم يُلتفَت منها إلىٰ الخطاب ؛ وقد يُصَـدّر بلفظ الخطاب ثم يلْتفَتُ منه إلىٰ الغيبـة بحسَبِ مايُؤْثِره الكاتب وتُؤَدّى إليه بلاغَتُه ممـا ستَقِفُ علىٰ تنويعه فى خِلَال كلامهم فى أصناف الوِلَايات الآتية فى هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــــل الثـالث

من البـابِ الأوّلِ من المقالة الخامسة

(فى بيان مايقعُ به التفاوُتُ فى رُتَب الولايات، وذٰلك من سبعةِ أوجُه)

الوجـــــه الأوّل

(الألقـابُ، وهى عـــلىٰ ثلاثة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(ألقابُ الخُلَفــاء)

وسبيلُها الاِختصارُ دُونَ البَسْط، اكتفاءً بمـا هو ظاهِرٌ من أُبَّهة الخِلافة، وعُلُوّ مَقَام الإمامة، إذ هى الزَّعامة العُظْمىٰ، والرتبةُ التى هى أعلىٰ الرُّتَب وأسْمىٰ .

وهى صنفان :

الصنفُ الأوّل — ألقابُ الخلفاء أنفُسهم، وغايةُ مايُنعَتُ به الإمام وأميرُ المؤمنين.

الصنف الثانى — ألقابُ أوليـاءِ العَهْد بالخلافة ، وألقابُهم نحوُ السـيِّد الجليل وذَخيرة الدِّين، ونحو ذٰلك علىٰ ماسيأتى بيانُه فى عهُود الخلفاء عن الخُلَفاء .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ المُلُوك، وهى صنفان أيضا)

الصنفُ الأوّلُ — ألقابُ السلطان نفْسِه ، والكُتَّابُ تارة يبتدئُونَها بالسلطان، وتارة يبتدئُونها بالمَقَام، ولكلٍّ منهما نعوتٌ تخصُّه، وسيأتى الكلامُ علىٰ ذٰلك مستوفًى فى الكلام علىٰ عُهُود الملوك عن الخلفاء، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — ألقابُ أولياء العهْد بالمُلْك ، والملوكِ المنفَردين بولايةِ صِـغَار البُلْدان عن السلطان الأعظم ، وهى لاتُفْتَتَح إلّا بالمَقَام ليس إلّا ؛ ولها نعوتٌ تخصُّها يأتى الكلامُ عليها فى الكلام علىٰ عهُودهم أيضا .

النـــوع الثـالث

(ألقـابُ ذَوى الولاياتِ الصادرات عن السلطان : من أرباب الوظائفِ الواقعةِ فى هــذه المملكة)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ الألقـاب فى مقدّمة الكِتاب أنّ أصولَ الألقاب المستعملةِ فى ذٰلك خمسةُ ألقاب علىٰ الترتيب : وهى المَقَرّ، ثم الجَنَاب، ثم المَجْلِس، ثم مجْلس مضـافا : كمجلس الأمير، ومجلِس القاضى ، ومجلِس الشـيخ ، ومجلس الصَّدْر، ثم الآقتصارُ علىٰ المضاف إليه وحذفُ المضاف : كالأميرِ والقاضى والشيخِ والصَّـدْر ؛ ويلتحق بذٰلك لأهل الذِّمَّة الحَضْرة ، وحَضْرة الشـيخ ، والشيخ مجرّدًا عن حَضْرة ، وتقدَّم فى الفصل الأوّل من هــذا الباب أنّ أربابَ الولايات خمسةُ أنواع : أربابُ السُّيُوف ، وأربابُ الأقلام ، وأربابُ الوظائف الصِّناعية ، وزُعَماء أهل الذمَّة ، ومَنْ لايختص بطائفةٍ لِصغَرهم . وجميعُ هــذه الأنواع علىٰ آختلاف أصنافهم لا يخرُجُون عن الألقاب المتقدّمة ؛ وقد تقدّم الكلامُ علىٰ هــذه الألقاب ونُعوتِها لمن يُكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية من أرباب الوظائف مستوفًى فى المكاتَبَات ، إلّا أنه قد يُولَّى عن السـلطان مَنْ لم يؤَهَّل للمكاتبة عنـه ، كأكثرِ أرباب الوظائف من حَمَلة الأقلام وغيرهم ، فاحْتِيج إلىٰ تعريف مراتبِ الألقاب لكلِّ نوع من أرباب الولايات .

فأما أربابُ السُّيوف، فأعلىٰ ألقابِهم المَقرّ، وأدناها مجلِسُ الأمير، ثم الأمير مجرّدا عن مجلس .

وأمَّا أرباب الوظائف الصِّناعيَّة، فأعلىٰ ألقابِهم المجلسُ وأدناها مجلِسُ الصَّدْر، ثم الصَّدرُ مجرَّدا عن مجلس .

وأما من لايختص بطائفة لصغره، فيقتَصَر فيه علىٰ لقب التعريف وهو فلانُ الدِّين إن عُظِّم وإلّا آقتُصِر علىٰ آسمه خاصَّة .

وأما زعماء أهل الذِّمَّة، فأعلىٰ ألقابهم الحَضْرة، ثم حَضْرة الشيخ، ثم الشيخ مجرّدًا عن حَضْرة .

وآعلم أنَّ كلَّ مَنْ كانت له مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، فلقبُ وِلايتِه ونُعوتُه كما فى مكاتبته، غير أنه يُزادُ فى آخر النُّعوت المركَّبة ذكرآسمِه العلم، ونسبتُه إلىٰ السلطان : كالناصِرىّ، والظاهِرىّ، ونحوهما إن كان ممن يَنْتَسب إليه بنيابةٍ ونحوها؛ ثم إن كانت مكاتَبتُه تُفْتَتَح بالدعاء نُقِل ذٰلك الدعاء من أوّل المكاتبة إلىٰ مابعد آسمه والنسبة إلىٰ السلطان فى الولاية، كما إذا كانت مكاتبتُه : أعَزَّ الله تعالىٰ أنصار المَقَرّ الكريم، فإنه يُدْعىٰ له عقِيبَ آسمه والنسبةِ إلىٰ السلطان ــ إن كانت ــ بأعَزَّ الله تعالىٰ أنصارَه، وكذٰلك فى البواقى .

وإن كانت مكاتبتُه تُفْتَتَح بغير الدعاء : كصدرَتْ هذه المكاتبةُ ونحو ذلك، فإنه يدعىٰ له فى الولاية عقِبَ الآسم والنسبةِ إلىٰ السلطان ــ إن كانت ــ بما يُدْعىٰ له فى مكاتبته فى آخِرِ الألقاب، كما إذا كان من أرباب السُّيوف ومكاتبتُه صدرَتْ هذه المكاتبة إلىٰ المجلس العالى أو المجلِس السامىّ بالياء فإنه يُدْعىٰ له بمثل : أدامَ اللهُ سعادتَه، وأدام اللهُ رفعتَه، ونحو ذلك؛ وإن لم تكن له مكاتَبةٌ عن الأبواب السُّلْطانية

كُتِب له فى الولاية مايُناسِبُه من اللَّقب والنُّعوت، ثم يذكر ٱسْمُه والدعاءُ له إن كان مستحِقًّا للدعاء؛ وسيأتى لقبُ كلِّ ذِى وِلاية من الأنواع الخمسةِ المتقدّمةِ الذِّكرِ ونعوتُهُ عند ذكر وِلَايته فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم للألقاب فى الولايات محَلَّان :

أحدهما — الطُّرَّة . ويُقتَصر فيها علىٰ اللَّقب : من المقرّ أو الجَناب أو المَجْلس أو مجلِسٍ مضافا وما بعده من النعوت إلىٰ اللَّقب المميِّز للوظيفة كالأَميرىّ والقَضَائىّ ونحوهما ، ثم يُذكر لقبُه الخاصُّ به وهو الفُلانىّ أو فُلان الدين ، ثم يذكر ٱسْمُه وٱنتسابُه إلىٰ السلطان إن كان، علىٰ ماسيأتى بيانُه مفصَّلا، إن شاء الله تعالىٰ .

الثانى — فى أثناء الوِلَاية . وهُناك تستوفىٰ النُّعوتُ ويُؤْتىٰ بما فى الطُّرَّة فى ضِمْنه إلا أنه يُجعَلُ لقبُ التعريف — وهو الفلانىُّ أو فلانُ الدِّين — بين النعوت المفردة والمركَّبة فاصلا بينهما .

الوجــــه الثانى

(ألفاظ إسناد الوِلَاية إلىٰ صاحب الوظيفة؛ ولها سِتُّ مراتِبَ)

الأولىٰ — لفظُ العَهْد، مثل أن يقال : أنْ يُعْهَد إليه، وهى خاصّةٌ بالخلفاء والمُلوك .

الثانية — لفظ التَّقْليد ، مثل أن يقال : أن يُقلَّد كذا، ويكون مع المَقرّ الكريم والجَنَاب الكريم .

الثالثة — لفظ التَّفْويض ، مثل أن يُقَال : أنْ يفوَّض إليه كذا، ويختصُّ بالجناب لأرباب السيوف، وكذٰلك الجنابُ والمجلسُ العالى لأرباب الأقْلام .

قلت : وكُتَّابُ زماننا يستعملونها (١) مع المَقَرّ أيضا ، ولا يستعملون لفظ يُقلَّد في التقاليد لتوهُّمهم الاكتفاءَ بلفظ تقليدٍ عنها، ولم يعلَمُوا أنَّ يقلَّد فوق يفوّض كما تقدّم . علىٰ أنَّ المَقرّ الشهابيَّ بنَ فضل الله قد صرَّح بذلك في "التعريف" كما سيأتى في موضعه إن شاء الله تعالىٰ .

الرابعة — لفظ الاستقرار والاستمرار، مثل أن يقال أن يستقرَّ في كذا ، أو يستَمِرّ في كذا . ولفظ يستقرّ مختصٌّ بالمستَجِدّ ، ولفظ يستمرّ مختصٌّ بالمستقِرّ ؛ ويكونان مع المجلس السامىّ بالياء ، والمجلس السامي بغير ياء لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم ؛ أما المجلسُ العالى فإن كانت مكاتبته تُفْتتح بالدعاء ، مثل : أدام الله تعالىٰ نعمةَ المجلس العالى ككاتب السلطنة بالكَرَك ، فإنه يقال فيه أن يُفوَّض إليه ، وإن كانتْ مكاتبتُه تُفتَتَحُ بصدرَتْ هذه المكاتبة ككاتب القُدْس ونحوه، فإنه يقال فيه أن يستقِرّ .

الخامسة — لفظ الترتيب، مثل أن يقال : أن يُرَتَّب في كذا ، ويكون مع مجلس مضافا، مثل مجلِس الأميرِ ومجلِس القاضي ونحوهما ، وربَّما استُعْمِلت مع السامي بغير ياء .

السادسة — لفظ التقدّم ، مثل أن يقال أن يُقدَّم فلانٌ علىٰ الطائفة الفلانيَّة ونحو ذٰلك .

قلت : وهاتان المرتبتان أعني السادسةَ والخامسةَ قد ذكرهما المقرُّ الشهابيُّ بن فضل الله في "التعريف" فقال : وقد يقال أن يُرتَّب وأنْ يُقدَّم . وهما موجودان في كتابة معاصِريه بمصر والشام ؛ أمَّا كُتَّاب زمانِنا فقد رفضُوهُما جملةً وأضربُوا عن استعمالها بكلِّ حال، واكتفَوْا عنهما بالمَرْتبة الرابعة وهى لفظُ الاستِقْرار ،

(١) أى لفظة " يفوّض " .

والواجب إثباتُهما لتفاوُتِ ما بين المَرَاتب . علىٰ أنّ آستعمال لفظ يُرتّب موجودٌ في كلامهم بكَثْرة، ولفظ يُقدّم لم يستعمِلوه إلا في النَّزْر اليسير، والله أعلم . وهــذه الألفاظُ تقَع في الطُّرّة وفي أثناءِ الكلام علىٰ حدّ واحدٍ .

الوجـــــه الثـالث

(الآفتِتاحاتُ ، وهي راجعةٌ إلىٰ أربعِ مراتِبَ)

المرتبة الأُولىٰ — الآفتتاحُ بلفظ : هــذه بَيْعة ، أو هذا ماعَهِـد ، ونحو ذٰلك في البَيْعات والعُهُود علىٰ المذهَب القديم ؛ أو بالحمدُ لله . ويقَعُ الآبتداء به في العُهُود والبَيْعات إذا آبتُدِئَ العهدُ أو البيعةُ بخُطْبة علىٰ ما عليه آستعمالُ أهل زمانِنا؛ وكذٰلك في التقاليد لأربابِ السيوف والأقلامِ، والمَراسيم المكَبَّرة لأرباب السيوف؛ والتواقيع الكِبَار لأربابِ الأقلام .

المرتبة الثانية — الآفتتاحُ بأمَّا بعدَ حمدِ الله . ويقَعُ الآبتداءُ به في المَرْتبة الثانية من أرباب المراسيم المكَبَّرة من أصحاب السُّيوف؛ والمرتبةِ الثانية من أرباب التَّواقيع من أصحابِ الأقلام .

المرتبة الثـالثةُ — الآفتتاحُ برُسِمَ بالأمرِ الشريفِ، ويقع الآفتتاحُ به في المرتبـة الثالثة لأرباب التَّواقِيع والمَرَاسِيم من سائرِ أربابِ الوِلَايات .

المرتبة الرابعةُ — ما كان يُستعمَلُ من الآفتتاح بأما بعدُ فإنَّ كذا . أومَنْ حَسُنَتْ طَرائقُه ،وحُمِدت خَلائِقُه، فإنه احَقُّ ،وما أشبهَ ذٰلك؛ كما أشار إليه في "التعريف" إذ كانَ الآنَ قد رُفِض وتُرِك علىٰ ما سيأتي بيـانُه في موضعه إن شاء الله تعـالىٰ؛ وقد كان ذلك يُستَعْمَل فيما تقدّم لأرباب السُّيوف والأقلامِ جميعاً .

الوجـــــــه الرابع

(تعدُّدُ التحميد فى الخُطْبة أو فى أثناء الكلام وٱتحادُه)

فقد قال فى "التعريف" فى الكلام علىٰ عُهُود المُلُوك للمُلُوك : وكُلَّما كَثُرت التحميداتُ فى الخُطَب، كان أكْبَرَ: لأنها تدلُّ علىٰ عِظَم قَدْر النِّعمة؛ وذكر فى الكلام علىٰ عُهود الخلفاء عن الخُلَفاء أنه يُنْتَهىٰ فى التحميد إلىٰ سَبْعة .

الوجـــــه الخامس

(الدعاءُ . وله ثلاثة مواضـــع)

الموضع الأوّل — فى طُرَّة الوَلَاية بعـد ذكر ما يُكْتَب فى الطُّرَّة من ألقابه، ولا يُزاد فيه علىٰ دَعْوة واحدة تناسبه .

الموضع الثانى — فى أثناءِ الولايةِ بعد ٱستيفاء الألقابِ وذكرِ الأسمِ؛ وهو ما فى الطُّرّة من الدعوة المناسبة له بغيْر زائدٍ علىٰ ذٰلك .

الموضع الثالث — [فى] آخِرِ الولاية بالإعانة ونحوها . قال فى "التثقيف": وأقلُّها دعوتان، وأكثرُها أربعٌ . قال فى "التعريف" : ومَن ٱستُصْغِر من المُوَلَّيْن لا يُدْعىٰ له فى آخِرِ ولايته .

ثم قد تقدّم فى المكاتَبَات أنّ الدعاءَ مع تنزيه الله تعالىٰ : كأعَزَّ الله تعالىٰ أنصارَ المقرّ، وضاعف الله [تعالىٰ] نعمةَ الجناب ونحو ذٰلك أعْلىٰ من حذْفه(١)؛ كأدام اللهُ سعدَه، وأعزّه الله ونحو ذلك؛ ولا شكَّ أنه فى الولايات كذٰلك .

---

(١) أى حذف التنزيه وفى الأصل حذفها أى جملة التنزيه .

الوجـــــــه السادس

(طُولُ الكلام وقِصرُه ، فكُلّما عظُمت الوظيفةُ وآرتفعَ قدْرُ صاحبها كانَ الكلام فيها أبسَـطَ)

قال فى ”حُسْن التوسل“ : ويحسُن أنْ يكونَ الكلامُ فى التقاليد منقَسِما أربعةَ أقسام متقارِبة المَقادير، فالرُّبعُ الأوّل فى الخُطْبة ؛ والرُّبعُ الثانى فى ذكر مَوْقِع الإنعام فى حق المقلَّد ، وذكر الرتبـة وتَفْخِيم أمرها ؛ والربعُ الثـالثُ فى أوصاف المُوَلَّى (١) ، وذكرِ ما يناسبُ تلك الرتبةَ ويُناسبُ حالَه من عَدْل وسياسةٍ ومَهابة وبُعْدِ صيتٍ وسُمْعة وشجاعةٍ إن كان نائبا ؛ ووَصِف الرأى والعَـدْل وحُسْن التدبير والمعرفةِ بوُجُوه الأموال ، وعِمـارة البلاد ، وصَلاح الأحوال ، وما يناسبُ ذٰلك إنْ كان وزيرا ؛ وكذلك فى كلّ رتبة بحسَبِها ؛ والربع الرابع فى الوَصايَا .

قال فى ” التعريف “ : والذى أختـارُه آختصارُ مِقْـدار التحميدة [التى] (٢) فى الخُطْبة والخُطَب مطلقا وإطالةُ ما بعـد ذٰلك ؛ والإطنابُ فى الوصاياَ [اللهم] (٢) إلا لمن جَلَّ قدْرُه [وعظُم أمره] (٢) فإن الأولىٰ الآقتصارُ فى الوصايا علىٰ أهَمِّ الجُمْليَّات ، ويعتذِرُ فى الآقتصار بما يُعْرَف من فضله ، ويُعْلَم من عِلْمه ، ويُوثَق به من تَجْربته ومن هذا ومثله . قال : والكاتب فى هـذا [كلِّه] (٢) بحسَبِ ما يراه ، ولكلِّ واقعةٍ مَقَال يليقُ بها ، ولِمَلْبَس كلِّ رجل قدرٌ معروف لايليقُ به غيرُه ؛ وفى هـذا غِنًى لمن عَرَف ، وكفايةٌ لمن عَلِم ؛ علىٰ أن المقرّ الشهابىَّ تابع فى ذلك القاضى « محيي الدين آبن عبـد الظاهر» رحمه الله، فإنك إذا تأملْتَ تقاليـدَه وتواقيعَـه ، وجدتَها كلَّها

(١) فى حسن التوسل ص ١١٠ «المقلد» وهى بمعناها .

(٢) الزيادة من التعريف ص ٨٨ .

كذلك ، ولكلٍّ وجهٌ ظاهر ، فإنَّ المطوّل للخطبة لا يُخْليها من بَراعةِ الاستهلال ، المناسبةِ للحال ، والمقَصّر لها مُراعٍ لزيادة الإطناب فى الوَصْف .

قلت : ولا يخفىٰ أن ما ذكراه فى التقاليد يجىءُ مثلُه فى العُهُود لجَرْيها علىٰ مُوجِبها من مُولٍّ ومُولًّى .

أما إذا كانت الولايةُ بَيْعةً فإنه يجعَلُ موضِعَ الوَصَايا ذكْرَ ٱلتزام الخليفةِ البِرَّ والإحسانَ للخلق ، ووَعْدَ النظر فى أُمور الرعية ، وصلاحِ أحْوالهم ، وذكر التحليف للخليفة ، أوله وللسلطان إن كان معه سلطان قام بعقْد البَيْعة له علىٰ الوَفَاء بالعَهْد والدُّخُول تحت الطاعة . قال فى "حسن التوسل" : والأمْرُ الجارى فى ذٰلك علىٰ العادة معروفٌ لٰكنه قد تَقَع أشياءُ خارجةٌ عن العادة فيحتاجُ الكاتبُ فيها إلىٰ حُسْن التصرُّف علىٰ مايقتضيه الحالُ ، وذكر من ذلك تقليدًا أنشأه لمتملّك سيس ، وتقليدًا كتبه بالفُتُوّة ، وسيأتى ذكرُ ذٰلك مع ماشاكله فى مواضعه إن شاء اللهُ تعالىٰ .

الوجه السابع

(قطع الورق)

وٱعلم أنَّ الولاياتِ من ديوان الإنشاءِ بالأبواب السلطانية بجملتها يَنْحصِر قَطْعُ الورَق فيها فى خمسة مَقاديرَ لا يتعدّاها :

أحدها — قَطْع البغداديِّ الكاملِ ، وهو مختصٌّ بالبَيْعات والعُهُود مُطْلَقا علىٰ أىِّ الافتتاحات كان .

الثـانى — قَطْع الثلثَيْن من المنصورىّ، وهو لأجل الوِلاياتِ السُّلطانياتِ لأرباب السُّيوف وبعضِ أرباب الأقلام، ولا يفْتَتَح فيها إلّا بالحمد .

الثالث — قطع النِّصف منه، وهو لما دُونَ ذلك، ولا يفتَتَح فيه إلّا بالحمد أيضا :

الرابع — قطع الثُّلُث منه، وهو لمـا دُونَ ذلك .

وآعلم أنه إذا وُلِّىَ صاحبُ وظيفـةٍ تستحِقُّ قطعَ النصف وظيفةً أُخْرىٰ تستحق قَطْع العـادة، فإنه يُراعىٰ مقدارُ صاحبِها ويُزادُ علىٰ مِقْـدار العادة؛ إلا أنه لا يَبْلُغ مَبْلَغَ رتبة وظيفَتِه العُلْيـا، بل ينبغِى أن يتُوَسَّط بينهما؛ فيكتب له فى قَطْع الثلث لتكون رتبة بين رُتْبتين فتحصُل مراعاةُ تعظيمه من حيث الزيادةُ علىٰ قَطْع العادة، ومراعاةُ قدر الوظيفة من حيثُ إنها لم تَبْلُغ شأْوَ وظيفتِه العُلْيا؛ أما إذا وُلِّىَ منحطُّ القدر وظيفةً تستحق القَطْع الكبير، فإنه يكتَبُ له فيه، وتكون توليتُه لهـا رَفْعًا إلىٰ درجَتِها .

الخامس — قطعُ العـادة، وهو أصغَرُها، والأصلُ أن يفتَتَح فيـه بلفظ «رُسِم بالأمرِ الشريفِ» وربمـا علتْ رتبـةُ صاحبِ الوِلاية ولم يؤهَّـلْ للكتابة فى قطع الثلث فيُكْتَب له فيه : أما بعدَ حمد الله، وهو قليلُ الآستعمال، فإن آستُعْمِل أما بعدُ فإنَّ كذا، أو إنَّ أوْلىٰ، أو إن أحَقَّ ونحو ذلك كُتِب فى قَطْع العادة أيضا .

الباب الثانى

من المقالة الخامسة فى البيعات، وفيه فصلان

الفصل الأول

(فى معناها)

البَيْعات جمع بَيْعة، وهى مصدرُ[(١)] بايَعَ فلانٌ الخليفةَ يُبايِعه مُبايعةً؛ ومعناها المعاقَدةُ والمُعاهَدةُ، وهى مُشَبَّهة بالبيْع الحقيقىّ . قال أبو السَّعادات بنُ الأثير فى نهايته فى غريب الحديث : كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما باعَ ماعِنْدَه من صاحبِه وأعطاه خالصةَ نَفْسه وطاعَتَه ودَخِيلةَ أمْرِه . ويقال : بايَعَه، وأعطاه صَفْقةَ يدِه؛ والأصلُ فى ذٰلك أنه كان من عادةِ العربِ أنه إذا تَبايَعَ ٱثنانِ صَفَقَ أحدُهما بيده علىٰ يَدِ صاحبِه .

وقد عَظَّم الله تعالىٰ شأْنَ البيعةِ وحَذَّر من نَكْثِها بقوله خطابا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وأمر بمبايعة المُؤْمنات فى قوله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّهَا النَّبِىُّ إذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلىٰ أنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وبايع النبىُّ صلى الله عليه وسلم الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهم بيعَتَيْنِ .

---

(١) ليس مراده المصدر الصناعى كما لايخفى والأوضح "وهى آسم مصدر لبايع" الخ تأمل .

الفصـــــــل الثـانى

(فى ذكر تنويع البَيْعات، وهى نوعان)

النــــوع الأوّل

(بَيْعـاتُ الخُلَفــاء، وفيهــا سبعة مقـاصِـــدَ)

المقصــــــد الأوّل

(فى أصل مشروعيتها)

فالأصْل فى ذٰلك بعد الإجماع ماثَبَت فى الصحيحين من حَديث عائشة رضى الله عنها "أنّه لمـا تُوُفِّىَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم، ٱجتَمَعتِ الأنصارُ إلىٰ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فى سَقِيفَةِ بَنِى ساعِدَةَ، فقالُوا: مِنَّا أميرٌ ومِنْكُمْ أميرٌ، فذهب إليهم أبُو بَكْرٍ وعُمَرُ وأبُو عُبَيْـدَةَ بْنُ الجَرَّاح، فذهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ فأسْـكَتَهُ أبُو بَكْرٍ، وكان عُمَرُ يقُول: ما أرَدْتُ بذٰلك إلّا أنِّى قد هَيَّأْتُ كَلامًا أعْجَبَنِى خَشِيتُ أن لّايَبْلُغَهُ أبُو بَكْرٍ، ثم تكَلَّمَ أبو بَكْرٍ فتكَلَّم أبلغَ النـاسِ. فقال فى كلامِه: نَحْنُ الأُمَرَاءُ وأنْتُمُ الوُزَراء. فقال الحُبَـابُ بنُ المُنْذِر: لَا واللهِ لانَفْعَلُ! مِنَّا أميرٌ ومِنْكُمْ أَمير. فقال أبو بَكْر: لَا ولٰكنَّا الأُمَراءُ وأنْتمُ الوُزَراءُ. فبايِعُوا عُمَرَ أَوْ أبَا عُبَيدةَ. فقال عمرُ: بَلْ نُبايِعُكَ فأَنْتَ سيِّدُنا وخَيْرُنا وأَحَبُّنا إلىٰ رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلم، فأخذ عُمَرُ بيدِه فبايَعه وبايَعَ النّاسُ".

وهــذه أوّلُ بيعةٍ بالخِلافَة كانتْ فى الإسلام؛ ولكن لم يُنْقَل أنه رضى الله عنه كُتِبَ له مبايعةٌ بذٰلك، ولعلَّ ذٰلك لأنَّ الصحابةَ رِضوانُ الله عليهم كانوا إذا بايَعُوا لايَجْحَدُون البَيْعَةَ بعد صُدُورها، بخِلاف مابعد ذٰلك.

المقصـــــد الثانى

(فى بيانِ أسبابِ البَيْعة المُوجبة لأخْذها علىٰ الرَّعِيَّة)

وهى خمســـة أسباب :

السببُ الأوّل — موتُ الخليفة المنتصِبِ من غير عَهْد بالِخلافة لأحدٍ بعــده ، كما فى قِصَّة الصِّــدِّيق المتقدِّمة بعد وَفَاة النبىّ صلّى الله عليه وسلم؛ أو بتَرْكها شُورىٰ فى جماعة معيَّنة، كما فعل عمُر رضى الله عنه عند وَفَاته حيثُ تَركها شُورىٰ فى ستة : علىّ بنِ أبى طالب، والزُّبَير بن العَوَّام، وعُثْمانَ بنِ عفَّان ، وعبدِ الرحمٰن بنِ عَوْف ، وطلحةَ، وسعدِ بنِ أبى وَقَّاص، رضى اللهُ عنهم .

السبب الثــانى — خَلْع الخليفةِ المنتصِبِ لمُوجِب يقتضِى الخَلْع، فتحتاجُ الأمةُ [إلىٰ] مبايعةِ إمام يقُوم بأمورها، و يتحمَّل بأعبائها .

السبب الثالث — أن يتوَهَّم الخليفةُ خُروجَ ناحيةٍ من النَّواحِى عن الطاعة فيُوجِّه إليهم من يأخُذ البيعةَ له عليهم : لينقادُوا لِأمْرِه، ويدخُلوا تحتَ طاعتِه .

السبب الرابع — أن تُؤْخَذَ البيعةُ للخليفة المعهودِ إليه بعدَ وَفَاة العاهد ، كما كانتِ الخلفاءُ الفاطميُّون تفعَلُ فى خِلَافتهم بمصر، وكانوا يُسَمُّون البيعةَ سِجِلًّا كما كانوا يُسَمُّون غيْرَها بذٰلك .

السبب الخــامس — أن يأخُذَ الخليفةُ المنتصبُ البيعةَ علىٰ الناس لولِىّ عهــدِه بالخلافة بأن يكونخليفةً بعدَه إمضاءً لعَهْده، كما فعلمعاويةُ رضى الله عنه فى أخذه البيعةَ لولده يَزِيدَ .

المقصـــــــد الثـالث

(فى بيان ما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة البَيْعة)

وٱعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة البَيْعة أمورا :

منها — أن ياتِىَ فى بَراعة الِاستهلال بمـا يتهيَّأ له من ٱسم الخليفة أو لَقَبه : كفلانِ الدِّين، أولقَبِ الخلافة : كالمتوكِّل أو المستكْفِى، أومقتضىٰ الحال المُوجِب للبَيْعة من موتٍ أو خَلْع ونحوهما، أو غير ذٰلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة وعُلُو قدْرها ورِفْعة شأنها ، وأنها الغايةُ التى لافَوْقَها، والدرجةُ التى لابَعْدَها ؛ وأن كلَّ رُتْبة دُونَ رُتْبتها ، وكلَّ مَنْصِب فرعٌ عن مَنْصِبها .

ومنها — أن ينَبِّـه علىٰ مَسِيس الحاجةِ إلىٰ الإمام ، ودِعايَة الضَّرورةِ إليه ، وأنه لايستقيمُ أمْرُ الوجود وحالُ الرعِيَّة إلَّا به، ضرورةَ وُجوبِ نصبِ الإمام بالإجماع، وإن شذَّ عنه الأصمُّ نخالف ذٰلك .

ومنها — أنْ يُشِـيرَ إلىٰ أنَّ صاحبَ البَيْعة ٱستوعبَ شُروطَ الإمامةِ وٱجتمعتْ فيـه ، ويصِفَه منها بمـا يَعِزُّ وجُودُه، ويُتَمَـدَّحُ بحصوله : كالعِلْم والشَّجاعة والرأْى والكفاية ؛ بخلاف مالا يعِزُّ وجودُه ولا يُتمَدَّحُ به وإن كان من الشروط : كالحُرِّية والذُّكورة والسمْع والبصَر ونحو ذٰلك؛ فإنَّ الوصف بذٰلك لا وجْهَ له .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ أفضليةِ صاحبِ البَيْعة وتقدُّمه فى الفضل وٱستيفاءِ الشُّروط علىٰ غيره : ليخْرُج من الخِلاف فى جَواز تولِيَةِ المفضُول مع وجُود الفاضل .

ومنها — أن يَنَبِّـه علىٰ أنَّ المختارين لصاحب البَيْعة ممن يُعْتَبرَ ٱختيارُه من أهل الحَلِّ والعَقْد : من العلماء والرُّؤساء ووجُوه النـاس الذين يتيسَّر حضُورُهم علىٰ الوجه المعتَبَر .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ تعيين المختارِين للبَيْعة، إن كان الإمامُ الأوّلُ نصَّ عليهم ؛ إذ لا يِصِحُّ الاختيار [من] غير من نَصَّ عليه، كما لا يصحُّ إلا تقليدُ من عَهِد إليه .

ومنها — أن يَنَبِّـه علىٰ جَرَيان عَقْـد البَيْعةِ من المختارين، ضرورةَ أنه إن ٱنفردَ شَخْصٌ بشروط الإمامة فى وَقْته لم يَصِرْ إماما بمجرّد ذٰلك .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ سبب خَلْع الخليفة الأوّلِ إن كانت البيعةُ مترتِّبة علىٰ خَلْع، إذ لا يصح خَلْع الإمام القائم بلا سبَب .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ قَبُول صاحب البيعةِ العقدَ و إجابته إليه إذ لابُدّ من قَبُوله .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أنَّ القَبُول وقع منـه بالٱخْتيار : لأنه لا يِصِحُّ الإجبارُ علىٰ قَبُولها؛ أللهم إلَّا إن كان بحيثُ لا يصلُح للإمامة غيْرُه فإنه يجبَرُ عليها بلا خِلَاف .

ومنها — أن يَنَبِّـه علىٰ وُقُوع الشهادة علىٰ البَيْعة، خروجًا من الخلاف فى أنه هل يُشْتَرَط الإشهادُ علىٰ البيعة أم لا ؟ .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أنها لم تقْترن ببَيْعةٍ فى الحالِ ولا مسبُوقةٍ بأُخْرىٰ، إذ لا يجوز نَصْبُ إمامَيْن فى وقتٍ واحدٍ وإنْ تباعَدَ إقْليماهُمَا ، خلافا للأُسـتاذ أبى إسحاق الأَسْفَرايِينِى حيثُ جوز نصْبَ إمامين فى إقليمَيْن .

ومنها — أن يَنَبِّـهَ علىٰ أنه بمجرّد البَيْعـة تجبُ الطاعةُ والٱنقيادُ إليـه ، ويجب علىٰ كافَّة الأمة تفويضُ الأمور العامَّة إليـه ، وطاعتُـه فيما وافَقَ حكمَ الشرع وإنْ كان جائرًا .

ومنها — أن يعزِّىَ فى الخليفة الميت ويُهَنِّئَ بالمستقِرّ إن كانت البيعةُ مبنيَّةً علىٰ موتِ خليفةٍ ؛ وأن يبيِّن(١) سببَ خلْع الخليفة الأوّل إن كانت مرتَّبةً علىٰ خَلْع .

أما التَّعزِيَةُ والتهنئـةُ بموت الأوّل ، فعليـه جرىٰ عامَّة الكُتَّاب ؛ إلَّا أنه يختصُّ فى عُرْفهم بمـا إذا كان الخليفةُ الأوّلُ شـديدَ القُرْب من الثانى ؛ كأبيه وأخيه وٱبن عمِّـــه .

وكان الأوّلونَ يتعَاَنَوْن ذلك فى خطاب الخلَفاء بالتهنئـة بالخلافة بعدَ أقارِبهم ، وقد رُوِى أنَّ عطاءَ بنَ أبى صَـيْفِىّ دخل علىٰ يَزِيدَ بن معاويةَ فهنَّأه بالخلافة وعزَّاه فى أبيه فقال :

رُزِئْتَ بأمير المؤمنـين خليفـةِ الله ، وأُعْطِيتَ خِلافةَ الله ؛ قضىٰ معاويةُ نَحْبَـه ، فغفرَ اللهُ ذَنْبه ؛ ووُلِّيت الرِّياسه ، وكنتَ أحقَّ بالسِّياسه ؛ فٱحتَسِبْ عندَ اللهِ جليلَ الرَّزِيَّه ، وٱشكُرْه علىٰ جَزِيل العطِيَّـه ؛ وعَظَّم اللهُ فى معـاويةَ أجْرَك ، وأحسنَ علىٰ الخلافة عَوْنَك .

وتعرَّضتْ أعرابيَّة للمنصور فى طريق مكَّةَ بعد وفَاة أبى العَبَّاس السَّفَّاح ، فقالت :

ياأميرَ المؤمنين ٱحتَسب الصَّبر ، وقدِّمِ الشُّكْر ؛ فقد أجزلَ اللهُ لك الثَّواب فى الحالين ، وأعظَمَ عليك المِنَّةَ فى الحادثَيْن ؛ سَلَبَكَ خليفةَ الله ، وأفادكَ خِلافَةَ الله ؛ فسَلِّم فيما سَلَبك ، وٱشكر فيما مَنَحك ؛ وتجاوزَ اللهُ عن أمير المؤمنين ، وخارَ لَكَ فيما ملَّكك من أمرِ الدُّنيا والدِّين .

وأما التعريف(١) بسبب الخَلْع ، فلأنه لا يصِحُّ خلْعُ الإمام بغير مُوجِب للخَلْع .

ومنها — أن يشير إلىٰ ذكر السلطان القائِم بالبَيْعة إن كان القائمُ بهـا سلطاناً علىٰ ما ٱستقرّت عليه قاعدةُ الكُتَّاب فى ذلك .

(١) سبق التنبيه على هذا فى الصفحة قبل .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أنَّ من ٱستُحْلِف فى البَيْعة من وُجُوه الدولة وأعيان المملكة إن جرىٰ حَلِفٌ، ويذكر صفةَ حلِفِهم وما ٱلتزمُوه من الأيمان المؤكَّدة، والمَوَاثيق المغَلَّظة .

المقصد الرابع

(فى بيان مواضع الخلافة التى يستَدْعِى الحالُ كتابةَ المبايَعات فيها)

وهى أربعة أمور :

أحدها — موتُ الخليفة المتقدّمِ عن غير عهدٍ لخليفةٍ بعده ، وهو موضوعها الأصلىّ الذى عليه بُنِيتْ .

الثانى — أن يَعْهَد الخليفةُ إلىٰ خليفةٍ بعدَه ، ثم يموتَ العاهد ويستقرّ المَعْهود إليه بالخلافة بالعَهْد بعده، فتؤخَذله البَيْعةُ العامَّة علىٰ الرَّعية، إظهاراً لوقُوع الإجماع علىٰ خلافته، والاتِّفاقِ علىٰ إمامتِه .

الثالث — أن تؤْخَذ البيعةُ للخليفة بحضْرة وِلَايته ، ثم تُنَفَّذ الكتُبُ إلىٰ الأعمال لأخْذ البَيْعة علىٰ أهلها، فيأخذُ كلُّ صاحب عملٍ له البيعةَ علىٰ أهل عَمَله .

الرابع — أن يَعْرِض للخليفة خَلَلٌ فى حال خلافته : من ظهور مخالِف أو خُرُوج خارجىّ، فيحتاج إلىٰ تجديد البَيْعة له حيثُ وَقَع الخلافُ .

ولكلٍّ من هذه الأحوال ضَرْبٌ من الكتابة يُحتاجُ فيه إلىٰ بيان السبَب الموجب لأخْذ تلك البيعةِ .

المقصـــــد الخـامس

(فى بيـان صورة مايُكْتَب فى بَيْعات الخلفاء، وفيها أربعة مذاهب)

المـــــذهب الأوّل

(أن تُفتتحَ المبايعةُ بلفظ «تُبَايِع فلانا أمـيرَ المؤمنين»
خطاباً لمن تُؤْخَذ عليــه البَيْعة)

ويذكر ما يقَعُ عليـه عقدُ المُبايعة، ويأتى بمـا سَنَح من أمر البَيْعـة، ثم يذكر الحالِفَ عليها، وعلىٰ ذٰلك جرىٰ مصطَلَح كُتَّاب خلفاء بنى أُميَّةَ، ثم خلفاءِ بنى العَبَّاس بعدهم ببغدَادَ .

وآعلَمْ أنه قد تقَـدّم فى المَقْصد الأوّل من هـذا الفصل أنه لم يُنْقَـل أنه كُتِب للصدّيق رضى الله عنه ولا لمن وَلِيَ الخلافةَ بعـده من الصَّحابة من غير عهدٍ بيعةٌ . ولمـا كانتْ خلافةُ بنى أُمَيَّة ، وآلَ الأمْرُ إلىٰ عَبْد الملِكِ بنِ مَرْوان ، وأقام الحَجَّاجَ آبنَ يوسُفَ علىٰ إمَارة العِراق، وأخذ فى أخْذ البيعة لعبد الملك بالعِراق ، رَتَّب أيمانا مغَلَّظةً تشتمل علىٰ الحَلِف بالله تعالىٰ والطَّلاقِ والعَتَاق والأيمان المُحْرِجات يُحْلَف بها علىٰ البَيْعة ، وآشتهرَتْ بين الفُقَهاء بأيمـانِ البيعةِ، وآطَّرد أمْرُها فى الدولة العبَّاسيَّة بعد ذٰلك . وجرىٰ مصطلَحُهم فى ذٰلك علىٰ هذا الأُسْلوب .

وهـذه نسخةُ مبايعـــةٍ ، ذكرها أبو الحُسيْـن بن إسحـاقَ الصـابِى فى كتابه "غُرَرِ البَلاَغة" وهى :

تُبَايِع عبـدَ الله أمير المؤمنين فلانا بَيعةَ طَوْع وآخْتِيار ، وتَبَرُّع وإيثار ، وإعلانٍ وإسْرار، وإظْهارٍ وإضْمار ، وصِحَّة من نَغَل ، وسلامة من غير دَغَل ، وثباتٍ من غير

تبديل، ووقار من غير تأويل ؛ وآعتراف بما فيها من آجتماع الشَّمْل، وآتِّصال الحبْل ؛ وآنتظام الأمور، وصلاح الجُمْهور ؛ وحقْن الدِّماء، وسُكون الدَّهْماء ؛ وسعادة الخاصَّة والعامَّه، وحُسْن العائدة على أهل المِلَّة والذِّمَّه ـ على أنَّ عبدَالله فلانا أمير المؤمنين عبدُالله، الذى آصطفاه، وخليفتُه الذى جعل طاعتَه جاريةً بالحق، ومُوجَبةً على الخَلْق ؛ ومُوردةً لهم مَوَارِدَ الأَمْن، وعاقدةً لهم مَعاقِدَ اليُمْن ؛ وولايتَه مُؤْذِنةً لهم بجميل الصُّنْع، ومؤدِّيةً بهم إلى جزيل النَّفْع ؛ وإمامتَه الإمامةُ التى آقترَنَ بها الخيرُ والبَرَكه، والمصلحةُ العامَّةُ المشترَكه ؛ وأمَّل فيها قمعَ المُلْحد الجاحد، وردَّ الجائرِ الحائد ؛ ووقْمَ العاصى الخالع، وعطْفَ الغازِى المُنازِع ـ وعلى أنَّك ولِيٌّ أوليائه، وعدُوٌّ أعدائه : من كلِّ داخِلٍ فى الجُمْله، وخارجٍ عن المِلَّه، وحائدٍ عن الدَّعْوه. ومتمسِّكٌ بما يدليه، عن إخْلاصٍ من رَأْيك، وحقيقةٍ من وَفَائك ؛ لا تنقُضُ ولا تَنْكُث ولا تُخْلِف ولا تُوارى ولا تُخادِع، ولا تُداجِى ولا تُخاتِل ؛ علانيتُك مثلُ نِيَّتك، وقولُك مثلُ طَوِيَّتك ـ وعلى أن لا تَرْجع عن شيءٍ من حُقُوق هذه البيعةِ وشرائطِها على مَرِّ الأيام وتَطاوُلِها، وتغيُّرِ الأحوال وتنقُّلِها، وآختلافِ الأزمانِ وتقلُّبِها ـ على أنَّك فى كلِّ ذلك من أهل المِلَّة الإسلامية ودُعاتِها، وأعوانِ الدولة العبَّاسيَّة ورُعاتِها ؛ لا يُداخِل قولَك مُواربةٌ ولا مُداهَنه، ولا تعترِضُه مغالَطَةٌ ولا تتعقَّبُه مخالفه ؛ ولا تَخِيس به أمانه، ولا تَغُلُّه خِيانه ؛ حتَّى تلقَى الله تعالى مقيماً على أمْرِك، وَفِيًّا بعَهْدك ؛ إذ كان مُبايِعو وُلاة الأمور وخلفاءِ الله تعالى فى الأرض ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ .

عليكَ بهذه البيعةِ ـ التى أعطَيْت بها صَفْقة يَدِك، وأصْفيْتَ فيها سَرِيرةَ قلْبك ؛ وآلترمتَ القيامَ بها ماطالَ عُمُرك، وآمتدَّ أجَلُك ـ عهدُ اللهِ إنَّ عهدَ اللهِ كانَ

مسئُولا ؛ وما أخذه علىٰ أنبيائِه ورُسُله وملائكتِه وحَمَلةِ عَرْشــه من أيمـانٍ مغلَّظةٍ وعُهُودٍ مؤكَّده، ومَواثِيق مشــدَّده ، علىٰ أنك تَسْمَع وتُصْغِى، وتُطِيع ولا تَعْصِى؛ وتعتَدِلُ ولا تَمِيل، وتســتَقِيم ولا تَحِيد ؛ وتَفِى ولا تَغْدِر، وتثبُتُ ولا تتغيَّر؛ فمتىٰ زِلْتَ عن هذه المَحجَّة حاقرا لأمَانتِك، ورافِعًا لدِيانَتِك؛ فجحدْتَ اللهَ تعالىٰ رُبُوبِيَّته، وأنكرْتَه وَحْدانِيَّته ؛ وقطعْتَ عِصْمةَ محمدٍ صــلَّى الله عليه وســلم وجذَذْتَها، ورميْتَ طاعَتَــه وراءَ ظهرِك ونبَذْتَها ؛ ولَقِيتَ اللهَ يومَ الحشر إليه، والعَرْض عليــه، مُخالِفًا لأمْره، وخائنًا لعَهْده، ومقيماً علىٰ الإنـكارِ له ؛ ومُصِرًّا علىٰ الإشراكِ به ؛ وكُلُّ ماحالَّه الله لك محرَّمٌ عليــك، وكُلُّ ماتملكه يومَ رُجُوعك عن ذٰلِك، وآرتجاعِك ما أعطَيْتَه فى قولك : من مالٍ موجودٍ ومَذْخُور ، ومَصُــوغ ومَضْروب ، وسارِحٍ ومَرْبوط ، وسائِم ومعقُول ؛ وأرضٍ وضَــيْعه ، وعَقَار وعُقْــده ، ومملوكٍ وأَمَه ، صــدقةٌ علىٰ المَسَاكين ، محرَّمةٌ علىٰ مرّ السِّنين ؛ وكُلُّ آمرأةٍ لك تملِكُ شَعَرها وبَشَرها ، وأُخرىٰ تتزوَّجُها بعدها ، طالقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّنَّة لارجْعةَ فيــه ولا مَثْنوِيَّة ؛ وعليك الحجُّ إلىٰ بيتِ الله الحرامِ الذى بمكَّةَ ثلاثين دَفْعــة حاسِرًا حافِيــا ، راجِلًا ماشِــيا ، نَذْرا لازما ، ووَعْدا صادقا ؛ لايبرِّئُك منها إلا القضاءُ لهــا ، والوفاءُ بها ؛ ولا قَبِلَ اللهُ منك تَوْبةً ولا رَجْعةً ؛ وخذَلَك يومَ الآستنصار بحَوْله ، وأسلَمَك عنــد الآعتصام بحبْله ؛ وهذه اليمينُ قولُك قلتَها قَوْلا فَصِيحا ، وسرَدْتَها سَرْدا صحيحا ؛ وأخلصْتَ فيها سِرَّك إخلاصًا مُبِينا ، وصدَقْتَ فيها عَزْمَك صِدْقا يَقِينا ؛ والنيةُ فيها نيةُ فلان أميرِ المؤمنين دُونَ نِيَّتك ، والطَّوِيَّةُ [فيها طوِيَّته] دُونَ طوِيَّتك ؛ وأشهدتَ اللهَ علىٰ نَفْسك بذٰلك وكفىٰ باللهِ شَهِيدا ، يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نفس عليها حافظًا ورَقِيبا .

وهـذه نسخةُ بَيْعةٍ أُخرىٰ من هذا الأُسْلوب ، أوردها ٱبنُ حَمْدُونَ فى تَذْكِرته ، وربَّمـا وافقَ فيها بعضَ ألفاظ البيعة السابقةِ، وهى :

تُبايعُ الإمامَ أميرَ المؤمنين فلانا بيعةَ طَوْع وإيثـار ، وٱعتِقادٍ وإضمار ، وإعلان وإسْرار ؛ وإخلاصٍ من طوِيَّتك، وصِـدْقٍ من نِيَّتك ؛ وٱنشراحِ صـدرِك وصِحَّة عزيمتك؛ طائعًا غيرَ مُكْرَه، ومُنْقادا غيرَ مُجْبَر ؛ مُقِرًّا بفضلها، مُذْعِنـا بحقِّها؛ معترِفا ببركتها، ومعتـدًّا بحُسْن عائدتها؛ وعالمـًا بمـا فيها وفى تَوْكيدهامن صَلَاحِ الكافَّة، وٱجتماعِ الكلمـة [من] الخـاصَّة والعامَّة؛ ولَمِّ الشَّعَث، وأَمْنِ العَواقِب؛ وسُكُونِ الدَّهْماء، وعِزِّ الأوليـاء ، وقَمْعِ الأعداء ـ علىٰ أنَّ فلانا عبدُ الله وخليفتُه، المفترَضُ طاعتُه، والواجبُ علىٰ الأمة إقامتُه وولايتُه؛ اللازمُ لهم القيامُ بحقِّه، والوفاءُ بعهْده؛ لاتشُكُّ فيـه ، ولا ترتابُ به ، ولا تُداهِن فى أمره ولا تَميل . وأنك وَلِىُّ وليِّـه ، وعدُوُّ عدوّه: من خاصٍّ وعامّ، وقريبٍ وبعيـدٍ، وحاضِرٍ وغائب؛ متمسِّكٌ فى بَيْعته بوَفَاء العهْد، وذِمَّة العَقْد؛ سريرتُك مثـلُ علانِيَتِك ، وظاهرُك فيه وَفْقُ باطنِك ـ علىٰ أنْ أعطيتَ الله هـذه البَيعةَ من نَفْسِـك ، وتوكيدَكَ إيَّاها فى عُنُقِـك ، لفلانٍ أميرِ المؤمنين عن سلامةٍ من قَلْبك ، وٱسـتِقامةٍ من عَزْمك ؛ وٱستمرارٍ من هَوَاك ورَأْيك ـ علىٰ أن لاتتأوَّلَ عليـه فيها ، ولا تَسْـعىٰ فى نَقْض شىءٍ منها؛ ولا تقْـعدَ عن نَصْره فى الرَّخاء والشِّـدّة ، ولا تَدَعَ النصرَله فى كلِّ حالٍ راهنةٍ وحادثة ؛ حتَّى تلقىٰ الله مُؤَدِّنا بهـا ، مُؤدِّيا للأمانةِ فيها ؛ إذكان الذين يُبـايعونَ وُلاةَ الأمر ، وخلفاءَ الله فى الأرض ﴿ إنَّمـا يُبايِعُـونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْديهِـمْ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمـا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسه ﴾ .

عليكَ بهذه البيعة ـ التى طوّقتها عُنُقك ، وبَسَطْتَ لها يَدَك ، وأعطيْتَ فيها صَفْقتك ، وما شُرِط عليكَ فيها : من وفاءٍ ومُوالاة ، ونُصْح ومشايعه ، وطاعةٍ وموافقة واجتهاد ومتابعه ـ عهدُ الله إنّ عهدَ الله كان مَسْئُولا . وما أخذ اللهُ تعالىٰ علىٰ أنبيائه ورُسُـلِه عليهم السلام ، وعلىٰ مَنْ أخَذَ من عباده ، وَكِيدات مَوَاثِيقه ومُحْكَمات عُهُوده ؛ وعلىٰ أن تَمَسَّكَ بها ولا تُبَدِّل ، وتستَقِيمَ ولا تَمِيل ؛ وإن نكثْتَ هذه البيعةَ أو بدّلت شَرْطا من شُرُوطها ، أو عفَّيْت رسْما من رُسُومها ، أو غيّرت حُكْما من أحكامها ؛ معْلِناً أو مُسِرًّا أو مُحتالا أو مُتأوِّلًا ؛ أو زِغْتَ عن السبيل التى يَسْلُكُها من لا يُحقِّر الأمانه ، ولا يستحِلُّ الغَدْر والخيانه ، ولا يستجيزُ حَلّ العقود ، فكلُّ ماتملِكُه من عينٍ أو وَرِق أو آنيه ، أو عَقَار أو سائمة ، أو زَرْع ، أو ضَرْع ؛ أوغير ذلك من صُنُوف الأملاك المعتدَّه ، والأموال المُدّخَره ؛ صدقةٌ علىٰ المساكين ، محرَّمٌ عليك أن ترجع من ذٰلك إلىٰ شىء من مالك بحيلةٍ من الحِيَل ، علىٰ وَجْه من الوجوه ، وسببٍ من الأسْباب ، أو مَخْرَج من مَخارج الأَيمان ؛ وكلُّ ماتعتدّه فى بقيّة عمرك من مالٍ يقِلُّ خَطَرُه أو يجِلُّ فتلك سبيلُه إلىٰ أن تتوفَّاك منِيَّتُك أو يأتيك أجَلُك ؛ وكلُّ امرأةٍ لكَ(١) اليومَ : وأخرىٰ تتزوّجها بعدها مدّةَ بقائك طالقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّنّة لامَثْنوِيَّةَ فيه ولا رجْعَة ؛ وعليك المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام ثلاثين حَجَّة حافيا ، حاسِرًا راجلا ؛ لايَرْضَىٰ اللهُ منك إلّا بالوفاء بها ، ولا يقْبلُ اللهُ منك صَرْفا ولا عَدْلا ؛ وخَذَلك يوم تحتاجُ إليه ؛ وبرّأك من حَوْله وقُوّته ، وألجأك إلىٰ حَوْلك وقُوّتك ، والله عزّ وجل بذٰلك شهيدٌ ، وكفىٰ به شَهِيدا .

(١) فى الأصول "وكل مملوك لك اليوم من ذكر وأنثى مدة" الخ وهو غير مناسب كما لايخفى .

وهـذه نسخة أُخرىٰ من هـذا الأسـلوب ، أوردها أبو الحسين الصابى فى "غُرَر البَلاغة" وهى :

تُبايِعُ أميرَ المؤمنين بقُوّةٍ من بَصِيرتك، وصِحّة من سَريرتك؛ وصَفاءٍ من عَقيدتك، وصِدْقٍ من عَزِيمتك؛ علىٰ الرِّضا [به] والوَفاء له، والإخلاصِ فى طاعته؛ والاجتهادِ فى مُناصحتِه، وعَقْد النيَّة علىٰ مُوالاته، وبَذْل القُدْرة فى ممالاته؛ وأن تكونَ لأنصارِه عَوْنا، ولأوْليـائه حِزْبا، ولأعدائه حَرْبا؛ عارفين بمـا فى ذٰلك من الحَظِّ، ومعترِفين بمـا يلزَمُ فيه من الحقّ؛ ومحافِظين علىٰ ماحَرَس المِلَّة الإسلاميّة، والدولةَ العبَّاسيه؛ ثبَّت الله قواعِدَها، وأحكم مَعاقِدَها؛ وزادها استِمْرارا علىٰ مَرِّ الدُّهور، واستِقْرارا علىٰ كَرِّ العُصُور؛ وعِزًّا علىٰ تنَقُّل الأمور، واشتِدادا علىٰ تغَلُّب المَقْدور؛ فإن خالفْتُ ذٰلك مُسِرًّا أو مُعلِنا، وحُلْتُ عنه مُظْهِرا أو مُبْطِنا، وحَلَلْتُ عقُودَه ناكثًا أو ناقِضا؛ وتأوّلتُ فيه مُحاوِلا للخُروج منه، واستثنيْتُ عليه طالبًا للرّجوع عنه؛ فبرِّأنى اللهُ من حولِه وقُوّته، وسلبَنِى ماوَهبَ من فضْله ونِعمته؛ ومنعنِى ماوعدَ من رأفتِه ورحمتِه؛ وخَلَّانى من يَدَيْه، يومَ الفَزَع الأكبر لدَيْه؛ وحنث كلّ يمين حلَفَها المسلمُون علىٰ قديم الأيّام وحدِيثِها، والتّناهى فى تأكيدها وتشديدها؛ وأعرَوْها من لباس الشُّبْهه، وأخْلَوْها من دَواعِى المخاتَله؛ وهذه اليمينُ يمينى : أوردتُها علىٰ صِدْق من نِيَّتى، وصحَّـةٍ من عزيمـتِى، واتِّفـاقٍ من سِرِّى وعَلانِيَتى؛ وسَرَدْتُها سرْدا متتابِعا من غير فَصْـل، وتلفظت بها تلفُّظا من غير قطع؛ والنيّةُ فيها نيّةُ فلان : علىٰ حُضُور منـه وغَيْب، وبُعْـد وقُرْب؛ وأُشْهِد الله تعالىٰ بمـا عقدْتُه علىٰ نفسى منها، وكفىٰ بالله شهيدا علىٰ من أشهده، وحسيبًا علىٰ من اجترأ علىٰ إخفار عهْده، ونقض عقده .

قلت : فإن كان من تؤخذ عليــه المبايعة ٱثنين ، أُتِى فى المبايعة بِصيغة التثنية؛ أو ثلاثة فأكثر، أُتِى بصيغة الجمع . ولم أقِف علىٰ كيفية وضْعِهم لذٰلك فى الكتابة، والذى يظهر أن المبايعة كانتْ تكتَبُ علىٰ الصورة المتقـدّمة ، ثم يكتُب المبايِعُون خطوطهم بصُدُورها عنهم؛ كما يفعل الآنَ فى تحليف من يحَلَّف من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف بالمملكة المصرية والممـالك الشامية ، أو يُشْهَد عليهـم فى آخر البيعة بمعاقَدتِهم عليها ورضاهُم بها ونحو ذٰلك .

المــــذهب الثـانى
(ممـا يكتب فى بَيْعـات الخلفَـــاء)

أن تُفْتتح المبـايعةُ بلفظ « من عبْدِ الله ووليِّــه فلانٍ أبى فلان الإمام الفُلَانى » إلىٰ أهل دَوْلته، ونحو ذٰلك(١) بالسَّلام عليهم، ويُؤْتىٰ بما سَنَح من الكلام؛ ثم يُقال : أمَّا بعدُ، فالحمدُ لله ؛ ويؤتىٰ علىٰ وصْـفِه بشريـف المَنَـاقِب، وٱستحقاقِه للخِلافة ، وٱستِجْماعه لشُرُوطها، وما يجْرِى هذا المَجْرىٰ؛ ثم يَنْخرِطُ فى سِلْك البيعة ، ويذكُر القـائِمَ بأخذها علىٰ الناس من سُلْطانٍ أو وزيرٍ عظـيم أو نحو ذٰلك؛ ويذكُر من أمْرِ ولايةِ الخليفةِ ما فيــه ٱستجلابُ قلُوبِ الرعية والأخذُ بخواطرهم وما يَنْخـرط فى هذا السِّلْك .

وهذه نسخةُ بَيْعةٍ من هذا الأُسْــلوب ، لولِىِّ عهْد بعد موْتِ العاهد ، كُتِب بها لبعضِ خُلَفاء الفاطميين ، ليس فيها تعرُّض لذكر الوزير القائِم بها، وهى :

---

(١) لعله ونحو ذلك ويتبع ذلك الخ تأمل .

من عبدِ الله ووليّه «أبى فلان فلان بن فلان» الإمامِ الفلانىّ، بأمرِ الله تعالىٰ أميرِ المؤمنين، إلىٰ من يضُمُّه نِطاقُ الدولة العَلَوية : من أُمَرائها وأعيانها، وكُبَرائها وأوليائها؛ علىٰ آتّساع شُعُوبهم، وعساكرِها علىٰ آختلاف ضُرُوبهم؛ وقبائلِ عَرَبِها القَيْسيَّة واليَمَنيَّة، وكافَّةِ من تشملُه قطارُها من أجناس الرعيَّه : الأميرِ منهم والمأْمُور، والمشهورِ منهم والمَغْمُور؛ والأَسْودِ والأحمر، والأصْغَر والأكْبر؛ وفَّقهُم الله وبارَكَ فيهم .

سلامٌ عليكم، فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليكُمُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو، ويسأَلُهُ أن يُصَلِّىَ علىٰ محمدٍ خاتَمِ النبيِّين، وسيِّدِ المرسَلين، صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله الطاهِرين، الأئمة المَهْدِيِّين، وسلَّم تسليما .

أما بعدُ، فالحمدُ لله مُولِى المَنِّ الجَسيم، ومُبْدِى الطَّوْل العَمِيم، ومانحِ جزيلِ الأجْر بالصَّبْر العظيم، مُفيدِ النعم المتشعِّبة الفُنُون، ومُدْنِى المُهَج المتعالية لتناوُلِ المَنُون؛ ومُبِيدِ الأعمارِ ومُفْنيها، وناشرِ الأمْواتِ ومُحْيِيها؛ والفاتحِ إذا آستَغْلَقتِ الأَبْواب، والقائلِ : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب ﴾ الذى لايغيِّر مُلْكه مُرورُ الغِيَر، ولا يَصْرِف سلطانَهُ تصرُّفُ القَدَر؛ ولا يُدْرَكُ قِدَمُه وأزليَّته، ولا يَنْفَدُ بقاؤُه وسَرْمديَّتُه؛ مُسْلِمِ الأنام للحِمَام، ومُصْمِى الأنفُسِ بسِهامِ الآخْتِرام؛ ومُورِدِ البَشَر من المنيَّة مَنْهَلا ما بَرِحُوا فى رَنْقِه يكْرَعُون، ولمُرِّه المُشْرِق يتجرَّعُون؛ ومعزز ذلك بقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ المَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنةً وإلَيْنا تُرْجَعُونَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نَصَب الأنبياءَ لمَرَاشده أعلاما، وحَفِظ ببعْثِهم من الحقِّ والهُدىٰ نِظَاما؛ وجعل نُبوّةَ جَدِّنا محمدٍ صلّى الله عليه وسلم لنُبوّاتِهم خِتَاما، وعَضَد بوَصِيِّه أبينا

امير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كمالا للدِّين وإتمـاما ، وٱستخلَص من ذُرّيتهما أئمةً هادينَ إتْقانًا لصَـنْعتِه وإحْكاما ، وأنَامَ الحُجَّـة علىٰ الأُمَم بأنْ أقامَ لكلِّ زمانٍ منهم إمامًا ، وعاقَب بيْنَ أنوار الإمامةِ فإذا ٱنقبَضَ نُورٌ ٱنبَسط نُور ، وتابـعَ ظُهورَ بُدُوره لِيُشرِق طالعٌ إثرَ غارِبٍ يغُور ، رحمــةً شاملةً للعــالَمِين ، وحكمةً تامَّةً حتّى يرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خيرُ الوارِثِين ، ولم يُخْلِ نَبِيًّا مع ما شرَّفه [به] من تناوُلِ وَحْيه وتلَقِّيه ، ولا عَصَم إماما مع ٱختِصاصِـه بفُروعِ مَنْصِب الإمامة وترَقِّيه ، من لِقَـاء المنِيَّه ، ووَدَاع الأَمنِيَّه ، بل أجَّل لكلٍّ منهم أجَلًا مكتُوبا ، وفَسَّح له أمَدًا محصُورا محسوبا ، لا يَصْرِفُه عن وُصوله فَضِيله ، ولا يَصِل إلىٰ تجَاوُزه بقُوّةٍ ولا حِيله ، قُدْرةٌ محكمة الأسـباب ، وعِبْرةٌ واضحةٌ لأُولِى الألباب ، وقضِـيّةٌ أوضَحها فُرقانُه الذى أقرَّ بإعجازه الجاحِدُون ، إذ يقول مخاطبا لنبيه : ﴿ وما جَعلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإنْ مِتَّ فَهُمُ الخَـالِدُونَ ﴾ .

والحمــدُ لله الذى مَنَـح أميرَ المؤمنين من خَصائص الإمامةِ وأنْوارِها ، وحازَ له من ذَخائرِها وأودَعَه مِن أَسْرارِها ، ماخوّلَهُ فاخرَ تُراثِها ، وأصار له شَرفَ مِيراثِها ؛ وجعله القائمَ بحقّه ، والمرشدَ لخلْقه ، والماحِىَ بهُدَاه ليْلًا من الضَّلال بهيما ، والحاوِىَ بخلافته مجدًا لا يزالُ ثناؤه عظِيما : ﴿ ذٰلك الفضْلُ مِنَ اللهِ وكَفىٰ بِاللهِ عَلِيما ﴾ .

يحمَدُه أميرُ المؤمنـين علىٰ أنْ أوضَحَ بآبائه الأئمـةِ سُبُلَ الحقـائق ، فأصبحُوا خلفاءَ الخـالِق وأئمّـةَ الخـلائق ؛ وخوّلَهُ ما ٱختصَّهم به من الإمامه ، ورفَعَـه بها إلىٰ أشْمَخ منـازِلِ العُلَا وأرفَع مَواطِن الكَرامه ؛ ويستمِدُّه شُـكْرا يُوازِى النِّعَمَ التى أثبتَتْ [له] علىٰ سرير الخلافة وسِرِّها قَدَما ، وصَبْرا يُوازِنُ الفجيعةَ التى قلَّ لها فيضُ المَــدَامع دَمَا .

ويسأله أن يصلّى على جدّه محمد الذى فضّ بجهاده جُموعَ الإلحاد، وحصدَ باجتهاده مَنْ مال عن الهُدىٰ وحاد، وصَدَع بما أُمِر به حتّى عمّ التوحيد، ودانَتْ لمُعجزاته الأممُ وقد دعَاها وهو المُفْردُ الوحيد، ولم يزلْ مبالِغًا فى مَرْضاة ربّه، حريصًا علىٰ إظهار دينه بيدِه ولسانِه وقلبِه، حتّى آستأثَر به وقَبَضه، وبدّله من الدنيا شرفَ جِوَاره وعوّضَهْ، وأصاره إليه أفضلَ نبىّ بصَّر وبَشَّر، وأحيا دينَ اللهِ وأنْشَر، وعلىٰ أبيه أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب إمامِ الأمّه، وأبِى الأئمّه، وقُدوةِ السعداء، وسيِّد الشُّهداء، وعاضِد الدِّين بذى الفقَار، ومَنْ لم يزَلِ الحقُّ إلىٰ ذَبِّه شديدَ الآفتِقار، صلّى الله عليه وعلىٰ آبائه والأئمةِ من ذرّيتهما الذين أيقظُوا العُقولَ بإرشادِهم من السِّنَه، وأفاضُوا من العَدْل والإحسان ما ألْهَجَ بتمْجيدهم الألْسِنَه.

وإنَّ الإمامَ الفلانىَّ لدين الله أميرَ المؤمنين كان وليًّا لله شرَّفه الله وآستخْلَصه، وأفردَه بإمامة عَصْره وخَصَّصه، وفوّضَ إليه أمْرَ خلافته، وأحلَّه محلًّا تقعُ مَطارحُ الهِمَمِ دُونَ علُوّه وإنافَتِه، نقام بحقِّ الله ونَهَض، وعمِل بأمره فيما سَنَّ وفَرَض، وقهرَ الأعداءَ بسَطَواته وعَزَائمه، وصرَّف الأمورَ بأزِمّة التدْبير وخَزَائمه، وبالغ فى الذَّبِّ عن أشْياع المِلَّه، وآجتهَدَ فى جِهَاد أعداءِ القبلِه، ووقف علىٰ مصلحةِ العباد والبلادِ أملَه، ووفَّر علىٰ مايُحْظِى عنـدَ اللهِ قولَهُ وعمَله، ولم يتْرُك فى مَرْضاة خالقِه مشقّةً إلا آحتمَلَها، ولارويّةً إلا صَرَّفها فى إرشادِ خلقه وأعملَها، حتّى بلغ الغايةَ المحدُوده، وآستكمَلَ الأنفاسَ المعدُودَه، وأحسنَ اللهُ له الآختيار، وآثرله النُّقلةَ من هذه الدار والزَّائلِ بسُكْنىٰ دار القَرار، والفوزَ بمصاحبة الأنبياءِ الأبرار، والحُلُولَ فى حظائر قُدُسه مع آبائه الأئمّة الأطهار، فسار إليه طاهرَ السَّريره، جميلَ المَذْهَب والصُّوره، مستوجبًا بسَعْيه أفضلَ رضوانِه، ممهِّدا بالتقْوىٰ لتَدْبيره أكنافَ جنانه.

وأمير المؤمنين [يحتسب] عندَ اللهِ هذه الرَّزِيَّةَ التى عظُمَ بها المُصَـاب، وعظم عنـد تجرّعها الصَّاب، وأضرَمت القلوبَ نارا، وأجْرتِ الآماقَ دَمًا مُمَـارا[1]، وأطاشَتْ بهَوْلها الأكبادَ بالحَرَق، وكَحَلت الأجفانَ بالأَرَق، وكادتْ لهُجُومها الصدورُ تَقْذِف أفئدَتَها، والدنيـا تَنْزِع نَضْرتَها وبهجَتَها، وقواعدُ المِلَّة تضْعُف وتَهِى، والخطوبُ الكارثةُ تُصِرُّ[2] ولا تنتَهِى، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون !! تسليماً لأَمْرِه الذى لا يُدْفَع، وإذعانًا لقضائه الذى لا يُصَدّ ولا يُمْنَع .

وكان الإمام الفلانىّ لدين اللهِ أميرُ المؤمنين عند نُقْلته جعل لِى عَقْـدَ الخلافه، ونصَّ علىَّ بارتقـاءِ مَنْصِبها المخصوصِ بالإنَافه، وأفضىٰ إلىَّ بسِرِّها المكْنُون، وأودعَنِى غامضَ عِلْمها المَصُون، وعَهِد إلىَّ أن أشمَلَكُمْ بالعَدْل والإحسان، والعَطْف والحَنَان، والرحمةِ والغُفْران، والمَنِّ الرائقِ الذى لا يكَدِّره آمتِنان، وأنْ أكونَ لأعلام الهُـدىٰ ناشرا، وبمـا أرْضىٰ اللهَ مُجَـاهِرا، ولأحزابِ القبـلة مُظافِرا مُظاهِرا، ولأعداء الملةِ مُرْغِمـا قاهِرا، ولِمَنار التوحيـدِ رافعا، وعن حَوْزة الإسلام بغـاية الإمكان دافِعًا، مع علمه بما خُصِصْتُ به من كَرَم الشِّيَم، وفُطِرتُ عليه من الخِلال القاضيةِ مصالحَ الأُمَم، وأُوتِيتُه من آستحقاق الإمامة وآسْتِيجابهـا، ومُنِحتُه من الخصائص المُبْرِمة لأسبابها .

فتَعَزَّوْا جميعَ الأولياء، وكافَّةَ الأُمَراء، وجميعَ الأجناد، والحاضِرِ من الرَّعايا والْباد، عن إمامِكم المنقُول إلىٰ دار الكَرامه، بإمامكم الحاضِرِ الموجودِ الذى أوْرثه الله مَقامَه، وآدخُلوا فى بَيْعته بصُدُورٍ مشروحةٍ نَقِيَّه، وقلوبٍ علىٰ محْض الطاعة مَطْويَّه، ونيَّات

---

(١) مار الدم سال وأماره أساله . انظر القاموس .

(٢) أى تدوم من قولهم أصر علىٰ الأمر داوم عليه .

فى الوَلَاء والمشايَعة مَرْضيَّه ، وبصائرَ لاتَزال بنُور الهُدىٰ والاستبصار مُضيَّه ؛ وأميرُ المؤمنين يسألُ اللهَ أن يجعل إمامَتَه محظُوظةً بالإقبال ، دائمةَ الكمال ، صافيةً من الأكدار ، معضُودةً بمُواتاة الأقدار ، ويوالى حَمْدَه على مامَنَحه من الاصطفاء الذى جعله لأمور الدِّين والدنيا قِوَاما ، وأقامه للبريَّة سيِّدا وإماما ؛ فاعلمُوا هذا واعملُوا به ، والسلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته .

وكتب فى يوم كذا من شهر كذا سنة كذا .

وهذه نسخة بيعة : كتب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمىّ بعد وفاةِ ابن عمه الآمرِ بأحكام الله ، قام بعَقْدها الوزيرُ أبو الفتح يانِس الحافظى ؛ اقتَصر فيها على تحميدةٍ واحدةٍ ، وعَزَّى بالخليفة الميِّت ، ثم انتقل إلى مقصُود البَيْعة ، وهى :

من عبدِ الله ووليِّه عبدِ المجيد أبى الميْمُون ، الحافظ لدينِ الله أميرِ المؤمنين ، إلىٰ كافَّة أهل الدولة شريفِهم ومشْرُوفِهم ، وأميرِهم ومأمُورِهم ، وكبيرِهم وصغيرِهم ؛ وأحمَرِهم وأسْوَدِهم ، وفَّقهم الله وبارَك فيهم .

سلامٌ عليكم ، فإنّ أمير المؤمنين يحمَد إليكم اللهَ الذى لاإلٰه إلَّا هو ، ويسألهُ أن يصلى علىٰ جدّه محمدٍ خاتمَ النبيين وسيِّد المرسَلين ، صلَّى الله عليه وعلى آله الطاهرين ، الأئمة المهْديِّين ، وسلَّم تسليما كثيرًا .

أما بعد ، فالحمدُ لله اللطيف بعبادِه وبَرِيَّته ، الرَّءُوف فى أقداره وأقضيتِه ، المُهيْمن فلا يخرج شيءٌ عن إرادتهِ ومَشيئته ؛ ذى النِّعم الفائضة الغامره ، والمِنَن المتتابعة

المتظاهِرَهْ، والآلاءِ المَتواليـةِ المُتـاصِرَه ، القائل فى محكم كتابه : ﴿ يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثَّابِتِ فى الحياةِ الدُّنْيا وفِى الْآخِرَهْ ﴾ . مدبِّرِ أرضه بخُلَفائه، الذين هم زينةٌ للدنيا وبَهْجَه، وهادى خَلْقِه بأوْليائه، لئلا يكونَ للنَّاس علىٰ اللهِ حُجَّه ؛ فسُبْحانَ الذى هو للنعم مُسْبِـغ وبالكرم جَدِير، و ﴿ تبَـارَكَ الَّذِى بِيَـدِهِ الْمُلْكُ وهُوَ علىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِير ﴾ .

يحمَدُه أميرُ المؤمنين أنْ جعَلَه خليفةً دُونَ أهل زَمانِه، وأوجبَ ثوابَ المستَجيبين له بكَفَالتـه وضَمانه، وجعلهم يوْمَ الفَزَعِ الأكْبرِ مكْنُوفِينَ بحِفْظه مشمُولِين بأَمَانه ؛ وأوْزَعَه الشُّـكْرَ علىٰ ما آسترعاه إيّاه من أمرِ هذه الأُمَّه ، ونَقَله إليْه من تُرَاث آبائه الهُداةِ الأئمَّه، وكشفه بإمامته من أفجع نائبةٍ وأفظع مُلِمَّه .

وصلَّى اللهُ علىٰ جدِّنا محمدٍ رسولِه الذى أخبر الأنبيـاءُ المرسَلُونَ بصفتِه ونَعْتِه، وتَداولُوا البُشْرىٰ بمـا يُستقْبَلُ من زمانِه وبعْثِه ؛ وذَكَرُوه فيما أتَوْا به من كلِّ كتاب أوحاه اللهُ وأنزَلَه ، وآعترفُوا بأنه أفضَلُ من كلِّ من نَبَّأه اللهُ وأرسَله ؛ فيَسَّر اللهُ سبحانَهُ ما كان مُرْتقَبًا من ظُهُوره، وأَذِن فى إشراقِ الأرض بمـا آنتشَر فى آفاقِها من نُورِه؛ وبعثَهُ ــ جلَّتْ قُدرتُه ــ إلىٰ الأُمَّة بأَسْرِها قاطِبَـه ، وجعل ألْسِـنةَ الأغمادِ مجادِلةً لمن خالف شَرْعَه مخاطِبَه ؛ فكان لآيةِ الكُفْر ماحِيا، وفى مصالح البَرِيَّة ساعِيًا، وإلىٰ سبيلِ ربِّه بالحِكْمة والمَوْعِظة الحسَـنةِ داعِيًا؛ إلىٰ أن لَمَعَتْ آياتُ الحقِّ وسطَعَتْ، وآنحسَمتْ مادّةُ الباطلِ وآنقطعَتْ ؛ وظَهَر من آياته ما كَبُر له المُخْبِتُون، وآشتَهَر من مُعْجِزاته ما خُصِم به المتعَنِّتُون ، وخاطبه اللهُ فيما أنزَلَ عليه بقوله : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وإِنَّهُمْ مَيِّتُون ﴾ . فحينئذ نقلهُ اللهُ إلىٰ ماأعدّ له من جَنّاته، وخصَّه بشرفِ الشَّفاعة

فى يوم مُجازاته، وصدّقه وعْدَه فيما بوّأه من النعيم المُقيم : ﴿ ذٰلكَ فَضْـلُ اللهِ يُؤْتيه مَنْ يشاءُ واللهُ ذُو الفَضْل العَظِيم ﴾ .

وعلىٰ أبينا أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب أَوْلىٰ الناس بالنّبىّ، وأوّلُ من ٱتّبعه من ذَوِى قرابةٍ وأجنَبِىّ؛ وٱبنِ عمّه الذى ٱختصّه بمُؤاخاته، وجعله خليفةً علىٰ كافّة الناس بعدَ وفَاته؛ وتحمّل بأمر الله، فيما ولّاه وأوْلاه، وخطبَ الناسَ فى حَجّة الوَداع فقال: «من كُنتُ مَوْلاه فَعَلِىٌّ مَوْلاه»، وعلىٰ آلهما الكِرَام الأبْرار، وعِتْرتِهما المصطَفَيْن الأخْيار؛ وهُداةِ المسلمين وقُدْوتِهم، وأمراءِ المؤمنين وأئمّتهم؛ الذين حكَمُوا فأقْسَطُوا وما قَسَطُوا، وسلك الحـٰضِرُون منهم سَنَنَ أسلافهم الذين فَرَطُوا، وٱقْتفَوْا آثارَهم فى السِّـياسة فما قصَّروا ولا فرَّطُوا؛ ولم يزلْ كلٌّ منهم دائلاً من ذٰلك بما حَسَّن أيامَه، فاعلاً فى أمر الدِّين مارفَع مَنَـاره ونَشَرأعلامَه، حتّى ٱختار اللهُ له ماعنْـده فنَصّ علىٰ مَنْ أقامه الٱستحقاقُ مُقَامه؛ وسَـلّمَ عليهم أجمعين سلامًا لا ٱنْقضاء لأَمَدِه، ولا ٱنْقطاعَ لِمَدَده؛ فنيل المطالب بكرمه ومَلَكُوتُ كل شىءٍ بيدِه .

وإنَّ الحقّ إن خَفِىَ حِيناً فلا بُدَّ لهِلاَله من الإبْدار وٱنْبِساطِ النُّور، وإن الشمسَ إن توارتْ بالحِجاب فما أوْشَكَ عَوْدَتَها إلىٰ البُزُوغ والظُّهور؛ وإنَّ حسنَ الصبر إلىٰ أن يبلُغَ الكتابُ أجلَه يُؤمِّن من تَدْلِيَـة الشيطانِ بالغُرور، قال اللهُ عزَّ وجلَّ فى كتابه، الذى هَدَانَا به: ﴿ وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذٰلِكَ مِن عَزْمِ الأُمُور ﴾ .

وإنَّ الله تعالىٰ لرأْفتِه بمَن أبْدَعَهُ من خَلْقه وأنْشاه، ولسابِق عِلْمه فى عِمَارة هـذه الدار علىٰ ماأرادَه عزَّ وجَلَّ وَشاه؛ لا يُخْلِى الأرضَ من نُورٍ يستَضِىءُ به السارى فى الليلِ البَهِـيم، ولا يَدَعُ الأمّةَ بلا إمام يَهْدِى إلىٰ الحَقِّ وإلىٰ طَرِيقٍ مُسْـتَقِيم؛ فهو جَلَّ وعَلَا أعدَلُ من أن يجعَل جِيـدَ الإيمـانِ من حِلىٰ الإمامة عاطلا، أو يَترُك

الخلق هَمَلا وقد قال : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ وما بَيْنَهما باطِلًا ﴾ .
بل يقْطَعُ أعذارَ العِبَادِ فيما خَلَقهم له ووقَفَهم، ويَهْدِيهم بالأئمة إلىٰ التوفُّر علىٰ عَمَل
ماألزمهم وكَلَّفهم ؛ فالأمور محروسةُ الترتيبِ محفُوظةُ النِّظام، والأرضُ إذا أظلمتْ
لفَقْد إمامٍ، أضاءتْ وأشرقتْ لقِيام إمَام . وقد علِمَ الكافَّةُ أنَّ حجةَ الله فى أرضه،
والمجتَنِبَ من الأعمال مالم يُرْضِه، والمحسِنَ إلىٰ البريَّة ببعثِه علىٰ المصالح وحَضِّه؛
الإمامَ الآمِر بأحكام الله أميرَ المؤمنين الذى آتاه اللهُ الحُكْم صبيًّا، ورَفَعه من إرْث
النبُّوة مكانًا عليًّا ؛ وآستَخْلفه علىٰ خلْقِه فكان للفضل باسِطًا ولرايةِ العَدْل ناشِرا،
وجعله لشَمْل المحاسن جامِعًا ولأئمة الخُلَفاء الراشِدين عاشِرا، لم يزلْ ناظرًا فى البعيد
والقَريب، عاملًا فى سياسة الأُمَّة عمل المجتهِد المُصيب ؛ مستقْصِيًا حِرْصَه
فى المحافظة علىٰ إعزاز المِلَّة، مستنفِدًا جُهْدَه فى الجِهاد فيمن خالَفَ أهل القِبْلة،
باذلًا من جزِيل العَطاء وكثيرِه ما لا يُعرَفُ معه أحدٌ من خاصَّته بالفقْر ولا يُنْسَب
معه إلىٰ القِلَّة ؛ حتّٰى آستوفىٰ مُدَّتَه المَوْهو به، وآستوعَبَ غايتَه المكتُو به ؛ وناله
من القَضَاء ما أخرجه من الدُّنيا سَعيدا، وأقدَمَه علىٰ الله شَهِيدا، وأصارَه إلىٰ ماأعدّ
له من نَعيم لايُرِيد به بَدِيلا ولايطْلُب عليه مَزِيدا ؛ وكان آنتقالُه إلىٰ جِوار ربِّه تبارك
وتعالىٰ، كآنتقال أبيه أميرِ المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب بَغْيًا من الكافرين وآغْتيالا .
وقد كان يذْكُر مايعلَمُه من حقِّ أمير المؤمنين (١) تارةً مُجاهِرا وتارة مُخافِتا، إلىٰ أنْ صار
علىٰ بَسْط القول فى ذٰلك وتبيينِه مُثابِرا مُتهافِتا ؛ وأفصحَ بما كان مستبهِما مستعْجِما،
وصَرَّح بما لم يزَلْ فى كَشْفه ممرِّضًا وعن إفْصاحه مُحْجِما ؛ وذٰلك لَمَّا ألفاه أشْرف
فَرْع من سِنْخ النبوّه، ورآه أكْرَم فى نَخَارة الأُبُوَّه ؛ وعلمه من أباه الأميرِ أبَا (٢) القاسم

(١) المراد به الحافظ لدين الله صاحب هذه البيعة .
(٢) جرىٰ الكاتب علىٰ لغة القصر .

عَمِّهِ سلامُ الله عليه الذى هو سَلِيلُ الإمامة القليلُ المِثْـل، ونجلُ الخلافة المخصوصُ من الفَخْر بأجزل حظٍّ وأوفر كِفْل؛ كان المستنصرُ بالله أميرُ المؤمنين سمَّاه ولىَّ عهْد المسلمين، وتضمَّن ذٰلك ما خرجَتْ به توقيعاتُه وتسويغاتُه إلىٰ الدواوين، وثُبِّتَ فى طُرُز الأبْنيه، وكُتبِ الابْتياعات والأَشْرِيَه، وعلمته الكافَّةُ علمًا يقينا ظلَّت فيه غيرَ مُرْتابةٍ ولا ممترِيَه، وفى ضمن ذلك باطنٌ لايعقِلُه إلا العالِمُون، ولا يُنْكِره إلا من قال فيهم : ﴿ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ . وذلك أنَّ أميرَ المؤمنين الغرضُ والمَقْصَد، والبُغيةُ والمَطْلَب؛ وله عَهْد بالتلْويح والإشارَه، وإليْه أوحىٰ بالنَّصِّ وإن لم يُفْصِح فيه بالعبـاره؛ وكان والدُه الأميرُ أبو القاسم ـ قدَّس الله رُوحَه ـ بمنزلة الأشجار التى يُتأنَّى بهـا إلىٰ أنْ يَظْهر زَهَرُها، والأكمامِ التى يُنْتظَر بها إلىٰ أن يخرج ثَمَرُها؛ والزَّرَجُونة التى نقَلَتِ المـاءَ إلىٰ العُنقود، والسَّـحابةِ التى حَمَلتِ الغيثَ فعمَّ نفعُه أهلَ السُّهول والنُّجود؛ وممـا يبيِّن ذٰلك ويُوضِّحه، ويحقِّقه ويصحِّحه؛ وتَثْلَج به للمؤمنين صُدُور وتَقْوىٰ أفْئِـده؛ وتَشْهد البصائرُ أنَّ النعمةَ به علىٰ الإسلام متتابعةٌ متجدِّدَه، أنَّ الأمرَيْنِ إذا تشابهَا من كلِّ الجهات، وكانتْ بينهما مُدَد مُتطاولاتٌ متباعدَات؛ فالسابق منهما يُمَهِّد للتـالى، والأوَّلُ أبدًا رمْزٌ علىٰ الثانى؛ ولا خِلافَ بين كافَّة المسلمين فى أنَّ اللهَ تعـالىٰ أمر جدَّنَا محمدًا صلىٰ الله عليه وسـلم بعَقْد ولايةِ أميرِ المؤمنين علىِّ بنِ أبى طالب صلىٰ اللهُ عليه فعَقَدها له يومَ غَديرخُم، وأميرالمؤمنين علىٌّ آبنُ عمِّـه وكان له حينئذ عمٌّ حاضر، وأمضىٰ ما أُمِر به والإسلامُ يومئذٍ غَضٌّ وعُودُه ناضِر؛ وكذٰلك أنَّ أمير المؤمنيـن ، هو آبنُ عمِّ الإمام الآمِرِ بأحكام الله أميرِ المؤمنين؛ وقد نصَّ مع حضور عُمُومته عليـه، وفعل مافعَل جدُّه رسـولُ الله آقتداءً به وآنتهاءً إليه؛ وكان أبو علىٍّ المنصورُ الإمامُ الحـاكمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين صلواتُ الله عليه، جعل آبنَه عبدَ الرَّحيم إليـاسَ ولِىَّ عهد المسلمين، وميَّزه بذلك

علىٰ كافَّة الناس أجمعين؛ ونقَش اسمَه فى السِّكَّه، وأمر بالدعاء له علىٰ المنابر وبمكَّه؛ وألبَسه شَدَّةَ الوَقار المرصَّعةَ بالجوهر، وآستنابَهُ عنه إمامَ الأعيادِ فى الصلاة وفى رُقِىّ المِنْبَر؛ وأقامه مُقامَ نَفْسه فى الاستغفار لمن يُتوفَّى من خواصِّ أوليائه، وفى الشَّفاعة لهم بتَقبُّلِ مُناجاتِه ومَسْمُوع دُعائِه، مع عِلْمِـه أنه لايَنالُ رُتبـةَ الخلافه، ولا يبلغ درجةَ الإمامه؛ وأن الإمام الظاهرَ لإعزازِ دينِ الله ـ صلى الله عليـه ـ هو الذى خُلِقَ لها؛ وحِينَ حُمِّل أعباءَها أَقلَّها وما آستثقلَها؛ وإنمـا تحتَ ذٰلك معنًى لطيفٌ غامض، وسرٌّ عن جُمْهور الناس مستَتِرٌ وبرقُه لأُولى البصائر وامِض: وهو أنَّ مكْنُون الحِكْمه، ومكتُومَ علْم الأمـه؛ يدُلَّان علىٰ أنَّ الإمامَ المنصورَ أبا علىّ، سيَفْعل فيمن يستخلِفُه بعده مثلَ فِعْل النبىّ؛ وقد علم الإمام الحاكم ـ عليه الســلام ـ أنَّ المرادَ بذٰلك مَنْ يأتى بعده ممن أوْلده أو أنْسَله، لأنَّ ولَدَه حاضرٌ والمقصودُ مَنْ لاوَلَدَ له؛ فجعل وِلايةَ عبد الرحيم العهْدَ تأسيسا لمـا سيكون، وتنْقلا للنُّفُوس من الانزعاج إلىٰ أن تشمَلَها الطُّمأنينة والسُّكُون؛ فلمَّا أفضىٰ اللهُ إلىٰ الإمام المنصور أبى علىّ الإمامِ الآمرِ بأحكامِ اللهِ أميرِ المؤمنيــن بالخلافة التى جعلها واجبًا له حقًّا، ووافقَ جَدّه ـ عليه الســلام ـ وكان لقبُه من لقبِـه مشتَقًّا، ظهر المنكَتِم، ووَضَح المستَتِر؛ وعاد التعريضُ تَصْريحا، والتمريضُ تَصْحِيحا؛ والرَّمزُ إبَانَه، والنصُّ علىٰ أميرالمؤمنــين أمانه؛ فاقتدىٰ بجـدّه رسولِ الله صلَّى الله عليه وسـلم فى آسـتخلاف أمير المؤمنين مع حُضُورِ عُمُومته، وفَعَـل فى ذٰلك فَعْلَتَه وجرىٰ علىٰ قضيَّته؛ وكَشَف عمَّا أبْهمهُ الإمامُ الحاكُم بأمر الله قَدَّس الله لطيفَتَه فتَساوىٰ الخاصُّ والعامُّ فى معْرِفته؛ ثم حَلَّه أميرُ المؤمنين محلَّ نفْسه فى الجُلُوس علىٰ الأسْمطه، وعَمِـل لأوليائه ورعيَّته فى ذٰلك بالقَضَايا المُحِيطه؛ ونَصَبه مَنْصِبَه فى الصلاة علىٰ مَنْ جرتْ عادتُه بالصلاة علىٰ مِثْله؛ وجمع فى اعتمادِ ذٰلك بيْنَ إحسانه وفَضْـله وبينَ امتنانه وعَدْله؛ وإذ قد تبيَّن هـذا

الأمرُ الواضحُ الجَلِىّ ، وتساوىٰ فى علمه الشانئُ والوَلِىّ ؛ وعلم هو ماخَصَّ الله به أميرَ المؤمنين من الإمامه ، وأزاله عن العُقُول من ضَبابٍ متكاثِفٍ وغَمَامه ؛ وشَمِله به من فَضْله ورافته ، ونصَبه فيه من مَنْصِب خلافته ، التى أيَّدها بوليِّه ووزيره ، وعضَّدها بصفِيِّه وظهيره ، السيد الأجل أبى الفتح يانس الحافظىّ الذى جعله الله علىٰ اعتنائه بدَوْلة أمير المؤمنين من أوْضَح الشواهد والدلائل ، وصَرَف به عن مملكته محذُورَ الصُّروف والغَوائل ؛ وأقام منه لمُناصحةِ الخلافة مُخْلِصا جمعَ فيه أسبابَ المَناقب والفَضائل ، وأيده بالتوفيقِ فى قوله وفِعْله فأربىٰ علىٰ الأَواخِر والأَوائل ؛ ودلَّت سيرتُه الفاضلةُ علىٰ أنه قد عَمَر مابينَ الله وبيْنَه ، وحكمَتْ سُنَّته العادلةُ أن كلَّ مدْح لا يبلُغ ثناءَه وكلّ وصف لايقعَ إلّا دُونه ؛ والله يضاعف نِعَمه عنده ولدَيْه ، ويفتَحُ لأمير المؤمنين مشارِقَ الأرض ومَغارِبَها علىٰ يدَيْه ؛ وهذا يحقِّق أنَّ الإسلام قد أحدثَ له قُوّةً وتمكينا ، وأن ذَوِى الإيمٰن قد ازدادُوا إيمانا واستِبْصارا ويقِينا ؛ فيجبُ(1) عليكم لأمير المؤمنين أن تدخُلوا فى بَيْعته مُنشرحةً صُدُورُكم ، طيِّبة نفوسُكم ، مجتهدين له فى خدْمة تُقابِلون بها إحسانَه ، متقرّبين إليه بمناصحة تُحْظيكم عندَ الله سبحانَه ؛ عاملين بشرائط البَيْعة المأخُوذةِ علىٰ أمثالكم الذين يُتَّبَعون فى فعلهم ، ويقعُ الإجماع بِمِثْلهم ؛ ولكم علىٰ أمير المؤمنين أن يكون بكم رَحِيما ، وعن الصغائر مُتجاوِزا كريما ، وبالكافَّة رءُوفا رفيقا ، وعلىٰ الرَّعايا عَطُوفا شفيقا ، وأن يصفح عن المسىء مالم يأتِ كبيره ، ويُبالغَ فى الإحسان إلىٰ مَنْ أحسن السِّيره ؛ ويُولِىَ من الإفضال مايستخلِصُ الضمائر ، ويُسبِغَ من الإنعام مايقتضى نَقاءَ السرائر ؛ وأمير المؤمنين يسألُ اللهَ أن يعرِّفكم بركةَ إمامته ، ويُمْنَ خلافته ؛ وأن يجعلها ضامنةً بلُوغَ المطالِب ، كافلةً لكافّتكم بسعادة المَبادئ والعَواقب ؛ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

(1) هذا متعلق إذ قد تبين كما لايخفىٰ .

المـــــذهب الثـالث

(أن تُفْتَتح البيعةُ بعدَ البسملة بخُطبة مفتَتَحة بالحمدُ لله،
ثم يؤتىٰ بالبعديّة ويُتَخلَّص إلىٰ المقصُود ، وقد يُذْكَر السـلطان القائمُ بهـا
وقد لا يُذْكَر . وعلىٰ ذلك كانتْ تكتَبُ بيعاتُ خُلَفاء بنى أُمَيَّة
بالأَنْدَلُس ، ومن ٱدَّعىٰ الخلافة ببلاد المَغْرِب)

وهذه نسخةُ بيْعةٍ كتب بهـا طاهرُ الأنْدَلُسىّ ، فى أخذ البيعة علىٰ أهل دانِيَـة من الأندَلُس ، للرشيد بن المأمُون الأُمَوِىّ ، وهو منتصِبٌ فى الخلافة : تخلُّفْ توهُّمه من الرعية . ٱقتصر فيهـا علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ ، وليس فيها تعرُّض لسلطانٍ قائم بعقْدها ، وهى :

الحمدُ لله الذى أسبَغَ إنعامَه باطنًا وظاهِرا ، وسوَّغَ إفضاله هاملًا وهامِرا ، وأعْجز عن وصْف إحسانه ناظِما وناثِرا ، وقَهَر الخلقَ ناهيًا وآمِرا ، وتعـالىٰ جَدُّه فلا ترىٰ له مُضاهِيًا ولا مُظاهِرًا ، ولا مُوازِيا ولا مُوازِرا ، ونصر الحقَّ وكفىٰ به وليًّـا وكفىٰ به ناصِرا ، وجعل جَدّ المطيع صاعِدًا وجَدّ العَصِىّ عاثِرا ، وحَذَّر من الخلاف باديًا وحاضِرا ، وماضِيًا وغابِرا .

نحمَدُه سبحانَه علىٰ نِعَمه حمدَ من أصبح لعُلَق الحمد ذاخِرا ، ونشكُره علىٰ مِنَنِه ولن يُعْـدِمِ المزيدَ منه شاكِرا ، ونَضْرَع إليه أن يجعل حظَّنا من بركةِ الاعتصام وافِرا ، ووجْهَ نِيَّتنا فى الانتظامِ سافِرا ، وأن يمنَحَ أولياءَه النصرَ ظاهرًا والفتحَ باهِرا ، وأعداءَه الرُّعْب شاجِيًا والرُّمْح شاجِرا ، ونشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ شهادةَ من أقرّ له بالوَحْدانيّـة صاغِرا ، وأضْحىٰ لأوامِره ممتثِلًا ولنواهيه مُحاذِرا ، ونسألُه أن يجعلَ حزْب الإيمـان

ظافرا، ويمدّه بنصره طالبًا للثار ثائرا؛ وصلّى الله على سيدنا محمد رسوله الذى ٱنتخبه من صفوة الصّفوة كابرًا فكابرا، وجعله بالفضيلة أوّلًا وبالرّسالة آخرا؛ فأيقظ بالدّعاية ساهيًا وناسيًا وسكّن بعد الإبانة منافيا ومنافرا، وأذهب بنوره ليلًا من الجهالة ساترا؛ وقام بجهاد الكفرة ليثا خادرا، وباشر بنفسه المكاره دارعا وحاسرا؛ وشهد بدرا مبادرا، وحنينًا منذرًا بالخبر ناذرا؛ وظهر عليهم فى كلّ المشاهد غالبا وما ظهروا نادرا؛ وعلى آله وأصحابه الذين منهم صاحبه وخليفته، المعلومة رأفته، أبو بكر الذى ٱقتحم لهول الرّدّة مصابرا، وسلّ فى قتال الرّوم أهل الجلد والشّدّة سيفا باترا؛ ومنهم القوىّ فى ذات الله عمر الذى أصبح به ربع الإسلام عامرا، ولم يخش فى الله عاذلًا ولم يرج غادرا؛ ومنهم الأصدق حياءً عثمان ملاقى البلوى صابرا (١)، والخفر الذى لم يرَ للأذمّة خافرا؛ ومنهم أقضاهم علىّ الذى قاتل باغيًا وكافرا، وبات لخوف الله ساهرا؛ ورضى الله عن الإمام المهدىّ الذى أطلعه نورا باهرا، وبحرًا للعلم زاخرا، وأتى به والضّلال يجرّ رسنه سادرا، والباطل يثبت وينفى واردا وصادرا؛ فجدّد رسم الحقّ وكان داثرا، وقام بآرائه علما هاديا وقرما هادرا؛ وعن الخلفاء الراشدين المرشدين من أصبح حائدًا عن الحقّ جائرا، المجاهدين خاتلًا بالعهد خاترا.

أما بعد، فإنّ الله سبحانه جعل الإمامة للناس عصمه، ومنجاةً من ريب الالتباس ونعمه، بها تتمهّد عمارة الأرض، ويتجدّد صلاح الكلّ والبعض؛ ولولاها ظهر الخلل، وٱختلط المرعىّ والهمل؛ وٱرتكبت المآثم، وٱستبيحت المحارم؛ وٱستحلّت المظالم، وٱنتقم من المظلوم الظالم؛ وفسد الائتلاف وٱفترق النّظام؛ وتساوى الحلال والحرام؛ فٱختار لأمرهم رعاةً أمرهم بالعدل فعدلوا، وبالتواصل

(١) أى لم يخف وفى بعض النسخ «ولا يبرح غادرا» وهو غير مناسب .

فى ذات الله والتّقـاطُع فقطَعوا فى ذاتِ اللهِ ووصَلوا ، وعدَلوا بين أهْلِيهم وأقْربِيهم فيما وُلُّوا ، ونَهَضُوا بأعبـاء الكِفايةِ والحِماية وآسـتقَلُّوا ، وألزمهم الآتِّفاقَ والآنقياد ، وحظَر عليهم الآنشِقاق والعِنَاد ، فملَكُو بأزمَّة العقل قِيادَ الأُمُور ، وأشرقَتْ بسِيرتِهم المباركةِ أقاصِى المعْمُور ، وشاهد النّاسُ فواضِلَ إمامهم ، وتبيَّنُوا من سيرتِهم العادلة عُلُوّ محلِّهم فى الخلائِف ومَقَامِهم ، ولم يُطْرَقْ فى مُدّتهم للإسلامِ جَنَاب ، ولا آقْتُحِم له باب ، وأنَّى وسُيُوفُهم تقْطُر من دِمَاء الأعداء ، وبلادُهُم ساكنةُ الدَّهْمـاء ، والكَفَرةُ بالرُّعب المُخامِر والداءِ العَياء ، وأهلُ الإيمان ، يَجُرُّون ذُيولَ العَزائم ، وعَبدةُ الصُّلْبان ، يعْثُرُون فى ذَيْل الهَوَان الدائم ، إلىٰ أنْ عَدِمتِ الأرضُ منهم بِحارَها الزّواخِر ، وأنوارَها البَوَاهِر ، ورأتْ بعـدَهم العُيونَ الفوا قِىَ والمُتُونَ الفواقِر ، وآكْفهَرَّ وجهُ اللَّأْواء ، وتفرّقت الفِرقُ بحَسَب الأَهْواء ، وسُفِكت الدِّماء ، ورُكِبتِ المَضَلَّةُ العَمْياء ، وآحتُقِبتِ الجَوائِر ، وأُهْمِل الشرْعُ والشّـعائِر ، ثم إنّ الله تعـالىٰ أَذِنَ فى كشْف الكُرَب ، وأطلَع بالغرْب نُورا مَلَأ الدَّلْوَ إلىٰ عَقْـد الكَرَب ، وهو النُّور الذى أضاء للبَصَائر والأَبْصار ، وطلع علىٰ الآفاق طُلُوعَ النَّهـار ، وذُخِرتْ أيّامُه السـعيدةُ لدرْك الثار ، وكَلِفتْ به الخلافةُ وطال بهـا كَلَفُهُ ، وقام بالإمامة مثـلَ ما قام بها الخلفاء الراشدون سَلَفُه ، وذٰلك هو الخليفـةُ الإمامُ أميرُ المؤمنين الرشيدُ بالله آبنُ الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعيـن ، وخَلَّد فى عَقِبهم الإمامةَ إلىٰ يومِ الدِّين ، وهو الأسَدُ الهَصُور ، ومَنْ أبوه المأمونُ وجدّه المنْصُور ، العريقُ فى الخلافه ، والحقيقُ بالإمامـة والإنافه ، فجمَع ما آفترَق ، ونَظَّم الأمور ونَسَّـق ، ومنَع الحَوْزَةَ أن تُطْرق والملّةَ أن تَفْترِق أو تُفَرَّق .

وهذه نسخةُ بيعةٍ كتبَ بها أبو المطَرِّف بنُ عُميرةَ الأندلُسىّ بأخْذ البيعة علىٰ أهل شاطِبةَ من الأندلُس لأبى جعفر المستَنْصِر بالله العبَّاسِىّ ، قام بعَقْـدها أبُو عبدِ الله محمد بنُ يوسفَ بنِ هُودٍ صاحبُ الأندلس ، ثم أخذ البيعةَ بعد ذٰلك عليهم لنفْسه ، وأن يكون ٱبنُه ولىَّ عهْده بعدَه ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعَلَ الأرضَ قرارا ، وأرسـلَ السَّماء مِدْرارا ، وسَخَّر ليْلا ونَهارا ، وقدَّر آجالًا وأعْمارا ، وخلَقَ الخلْقَ أطْوارا ، وجعل لهم إرادةً وٱخْتِيارا ، وأوجدَ لهم تفكُّرا وٱعتبارا ، وتعاهَدَهم برحمتِه صِغَارا وكِبَارا .

نحمَدُه حمدَ من يرْجُو له وَقَارا ، ونبْرأُ ممن عانَدَه ٱستِكْبارا ، وألْحدَ فى آياته سَفَاهةً وٱغْتِرارا ، وصـلَّى الله علىٰ سيدِنا محمد الشريف نِجَارا ، السامِى نَخَـارا (١) ؛ فرفع اللهُ من شريعتِه للأُمَّة مَنارا ، وأطْفأ برسالته للشِّرْك نارا ، حتّٰى عَلَا الإسلامُ مِقْدارا ، وعَزَّ جارًا ودارًا ؛ وأذعنَ الكُفْرُ ٱضْطِرارا ، وٱستسْلَمَ ذِلَّةً وصَغَارا ؛ فمضىٰ وقد ملأَ البسيطَةَ أنْوارا ، وعمَّها بدَعْوته أنجادًا وأغْوارا ؛ وأوجب لوُلَاة العَهْد بعـدَه طاعةً وأِئْتمارا ، فجزاه اللهُ أفضـلَ ماجزىٰ نبيًّا مخْتارا ، ورسولًا ٱجتباه ٱختِصاصًا وإيثارا ؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله الطيبين آثارًا وٱختِيارا ، وعلىٰ أصحابه الكِرام مهاجِرِين وأنْصارا ، صلاةً نُوالِيها إعْلانا وإسْرارا ؛ ونرجُو بها مغْفِرةَ ربِّنا إنَّه كانَ غفَّارا .

أما بعـدُ ، فإنَّ المستَأْثِر بالدَّوام ، اللَّطيفَ بالأَنَام ؛ أنشأَهُمْ علىٰ التغايُر والتبايُن ، وٱضـطرهم إلىٰ التَّجاوُرِ والتعاوُن ؛ وجعل لهم مصلَحةَ الٱشتراك ، ومنفعةَ الٱلتحامِ

(١) لعله " الذى رفع الله به من " الخ . تأمل .

والاشتباك ؛ طريقًا إلى الأفضل فى حياتهم ، والأسعد لغاياتهم ؛ وبعث النبيين مرغبين ومحذرين ، ومبشرين ومنذرين ؛ فأدوا عنه ما حمّل ، وبيّنوا ما حرّم وحلّل ؛ وكان أعمهم دعوه ، وأوثقهم عروه ؛ وأعلاهم فى المنزلة عنده ذروه ، وأعطفهم للقلوب وهى كالحجارة أو أشد قسوه ؛ المخصوص بالمقام المحمود ، والحوض المورود ، وشفاعة اليوم المشهود ، ولواء الحمد المعقود ، صلّى الله عليه وعلى آله وسلم أفضل صلاة تفضى إلى الظلّ الممدود ، وتبلغنا من شفاعته أفضل موعود ؛ بعثه الله للأحمر والأسود ، والأدنى والأبعد ؛ فصدع بأمره وظلام الليل غير منجاب ، والداعى إلى الله غير مجاب ؛ وأهل الجاهليّة كثير عددهم ، شديد جلدهم ، بعيد فى الضلالة والغواية أمدهم ؛ فسلك من هدايتهم سبيلا ، وصبر لهم صبرًا جميلا ، يحبّ صلاحهم وهم العدو ، ويلين لهم إذا جدّ بهم العتو ، ويجهد فى إظهار دينه ولدين الله الظهور والعلو ؛ حتى انقادوا بين سابق سبقت له السعاده ، ولاحق تداركته المشيئة والإراده ؛ ولما رفعت راية الإسلام ، وشفعت حجّة الكتاب حجة الإسلام ، ودعى[(١)] الناس إلى التزام الأحكام ، ونهوا عن الاستقسام بالأزلام ، أخبتوا إلى الربّ المعبود ، وأشفقوا من تعدّى الحدود ، ووعظوا فى الأيمان والعهود ؛ فأتمروا للشرع حين أمر ، وخافوا وخامة من إذا عاهد غدر ؛ فكان الرجل يدع الخوض فيما لا يعلمه ، ويترك حقه لأجل يمين تلزمه ، وشرعت الأيمان فى كلّ فنّ بحسب المحلوف عليه ، وعلى قدر الحاجة إليه ؛ فواحدة فى المال لحقّ الأداء ، وأربع مخمّسة عند ملاعنة النساء ، وخمسون انتهى إليها فى أحكام الدماء ، فتوثّق للحدود على مقاديرها ، وجرت أمور العبادات والمعاملات على أفضل تقديرها ؛ وقبض رسول الله صلّى الله عليه وسلم والعدل قائم ، والشرع على القوى والضعيف حاكم ، والربّ

(١) لعل المراد بالأول الدين وبالثانى الانقياد إن لم يكن مصحفا عن الاستسلام .

جلّ جلالُه بما تُخْفى الصدورُ عالم ؛ وقام بعده الخلفاءُ الأربعة أركانُ الدِّين ، وأعضادُ الحقِّ المبين ؛ يحمِلون الناسَ على سَنَنِه الواضح ، وينفِّذُون أمورَ المَصالح ، ويتفقَّهُون فى الأحكام وُقوفًا مع الظاهر وترجيحًا للراجح ؛ وكانوا يتوقَّفُون فى بعض الأحيان ، ويطلُبون للشُّبَه وجْهَ البيَان ، ويستظْهِرون على تحقيقِ كثيرٍ من الوقائع بالأيْمان ؛ حتّى كان علىٌّ كرم الله وجهه يستثْبِتُ فى الدِّرايه ، ويستحْلِفُ الراوِىَ على الرِّوايه ؛ وما أنكر ذٰلك أحدٌ ، ولا أعْوزَه من الشرع مستَنَد ؛ رضى الله عنهم أئمَّةً بالعَدْل قَضَوْا ، وعلى سبيله مَضَوْا ، والسِّيرةَ الجليلةَ تخيَّرُوا وآرتضَوْا ؛ وعن سيدِ الأنَام ، ومستنْزِلِ دَرِّ الغَمَام ، عمِّ نبيِّنا عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ الحامى الحَدِب ، والمَعْقِل الأشِب ، والغيثِ الهاملِ المُنْسكِب ، أبى الفضْل العبَّاس بنِ عبدالمطَّلب ؛ وعن الفائزين بالرُّتْبة الكريمه ، والصُّحْبة القديمه ، والمَناقب العظيمه ؛ بُدُورِ الظَّلام وبُحُورِ الحِكَم ، وصُدُورِ أنْدِيَة الفضلِ والكَرَم ؛ وسائر صحابته عليهم السلامُ الذين أسلموا على غُمْرَه (١) ، وأسلفُوا جِدًّا فى نَصْره ، وأدركُوا من بَركة عِيانه وزمانه مالا مُدْرِكَ لحصره ؛ كرَّم الله مآبَهُم ، وأجزَلَ ثوابَهُم ، وشكر لهم صَبْرَهم وآحتسابَهم ؛ فلقد عَقَدُوا نيَّةَ الصِّدق عند قِيامِهم لأداء فريضةِ الإطاقَهْ ، وآستباحُوا صلاةَ الشكر حين رفَعُوا حدَثَ الرِّدَّة وأراقُوا سُؤْرَ الشِّرك وقد آستحَقَّ بنجاسَته الإراقَهْ ، وآبتزُّوا كِسرى زِينَته فأبرزُوها على سُراقَه ؛ فرأَوْا عِيانًا ما أخبر به سيدُ المرسَلِين ، وملَكُوا ما زُوِىَ له منها فاطَّلع عليه بحقِّه المبين ؛ وذهبُوا فأظلَمَت الأرض من بعْدِهم ، وتنكَّرت المَعارِفُ لفَقْدِهم ، وآختلط الهَمَل والمَرْعىّ ، وتشابَهَ الصَّريحُ والدَّعِىّ ؛ وثارت الفِتَنُ من كل جانِب ، وصارت الحقوقُ نُهْبَةَ [كل] ناهِب ؛ ولَمَّا بَرِحَتِ (٢) العُهود ، وتُعدِّيَت

---

(١) مراده على عهد النبي وفى زمنه .

(٢) لعله ولما تركت العهود . تأمل .

الحُدُود، بلَغَ الوقتُ المحدُود، وطلعتْ بِبياضِ العَدْل الراياتُ السُّود؛ تحتَها ساداتُ النـاس، وذَادَةُ مَوقِف الباس؛ وشُهُبُ اليومِ العَمَاس، ونُجُبُ البيت الكريم من بنى العَبَّاس؛ فأعادُوا إلىٰ الأمْر رونَقَــه، ونفَوْا عن الصَّفو رَنْقَه؛ وحَمَوْا حُرَمَ المسلمين، وأحْيَوْا سُــنَّةَ آبن عَمِّهم سـيِّدِ المرسَلين؛ فأصبحَتِ الأُمورُ مضْبُوطه، والثُّغُور محُوطه؛ والسُّبل آمنه، والرعيَّةُ فى ظلِّ العَدْل والأمْن سا كنَه؛ وكان الناسُ قبْلَهم قد ركِبُوا الصَّعْبَ والذَّلُول، وآمتَطُوا الحَزْنَ والسُّهول؛ فوثِقُوا منهم بطاعَتِهم، وآستحْلَفُوهم علىٰ بَيْعاتِهِــم؛ ذلك بأنهم ألزمُوهم منهـا واجباً علىٰ القَطْع، لازماً بإلزام الشَّرْع؛ ووجَدُوا لمِصْلَحةِ الآرتباط بالأَيْمـان شواهِدَ من الآثار المنْقُوله، والأُصول المقْبُوله؛ ومَنْ أعطىٰ من نَفْسه كلَّ ما عليها، وراعىٰ جمـلةَ المصالح وكلَّ ما تطَرَّق إليها، فكيف لا يكونُ فى سَعةٍ من هـذا التكليف المستَنَد إلىٰ الآثار الشرعيَّه، الداخلِ فى أقسام المَصالح المرْعِيَّه؛ كما سلَفَ من الأئمة المُهتَدين؛ آباءِ أميرِ المؤمنين وخليفةِ ربِّ العالمين، آبن عمِّ سيِّدنا وسيِّد المرسَلين، صلواتُ الله عليهم أجمعين .

لمـَّا دعا الناسَ بالمملكة الفُلانيةِ حَماها اللهُ إلىٰ حُجَّتهم القَوِيَّه، وإمْرتِهم الهاشميَّه؛ مجاهِدُ الدين، بسيْفِ أمير المؤمنين، جمـالُ الإســلام، مجْدُ الأَنَام، تاجُ خَوَاصِّ الإمَام؛ فَخْرُ مُلُوكه، شرفُ أُمَرائه؛ المتوكِّلُ علىٰ الله تعالىٰ أميرُ المسلمين أبو عبد الله محمدُ بْنُ يوسُفَ بن هود، أسـعَدَ الله أيَّامه، ونصَرَ أعْلامَه؛ وقام لذٰلك متوحِّدا المَقام الكريم، مشمِّرا عن ساعِدِ التَّصْمِيم؛ ماضِـيًا إلىٰ الهَوْل مَضاءَ الحُسَام القاضِب، غاضبًا لأمر الله ورضاه علىٰ غايةِ هـذا الغاضب؛ مالَتْ إليه الأجياد، وآنثالت عليه البِلَاد؛ فانتظَمَها مَدِينةً مَدِينه، وجعل التوكُّلَ علىٰ الله سبحانه شريعةً مَنِيعة وذريعةً مُعِينه؛ وتقَـدَّمَ ـ أيده الله ـ بأخْذ البيعة علىٰ نَفْسه وعلىٰ أهـل المِلَّة قاطبــةً للقائِم بأمْرِ الله سـيِّدِنا ومولانا الخليفــة الإمامِ المستنصِرِ بالله أبي جَعْفر

أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلىٰ آله الخُلَفاء الراشدين ؛ وكان له فى ذٰلك المَرامُ السَّعيد، والمَقامُ الحميد، والقَدَمُ[1] الذى رضِىَ إبْداءَه وإعادَتَه المُبْدِئُ المُعيد، وخاطب الدِّيوانَ العزيز النبوىَّ ــ خلَّد الله شَرَفه ــ متضرِّعا لوسائِل خِدْمته، متعرِّضا لعوَاطِف رحْمَتِــه ؛ وبعث رسُولَه علىٰ أصْــدق رجاءٍ فى القَبُول، وأثْبتِ أمَلٍ فى الإسْــعاف بالمأمُول ؛ وأثْناءَ هــذه الإرادةِ القَوِيمه، والسَّــعادةِ الكرِيمه ؛ تفاوضَ أهــلُ البِلاد فى توثِيقِ عَقْدهم للسلطان فلانــ المشارِ إليــه الذى هو حُكْم من أحكام الإجْماع المنعَقِد، وأصلٌ أفضىٰ إليه نظَرُ الناظِرِ وٱجتِهادُ المجتَهِد ؛ إذ أجالُوا الأمْرَ فيما يَزِيدهُ وَثاقَهْ، ويكْسُو وجْهَه علىٰ الأيَّام بِشْرا وطَلَاقه ؛ ويجعــل القلوبَ مطمئِنَّةً برُسُوخه فى الأعْقاب، وثُبُوتِه علىٰ الأَحْقاب ؛ فلم يَرَوْا رأْيا أسَدّ، ولا عَملًا أحْصَفَ وأشَدّ ؛ من أن يطْلُبُوه بعقْد البيعة لِٱبْنِه الواثِقِ بالله المعتصِمِ به أبى بكْرمحمدِ بنِ مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنيــن، علىٰ أن يكونَ ولِىَّ عهــدِهم مُدّةَ والِده مَدّ اللهُ فى حَياته، وأميرَهُم عند الأجَل الذى لابُدَّ من مُوافاتِه ؛ فأمضىٰ لهم ذٰلك من ٱتِّفاقِهم، وأَثْبتُوا علىٰ ماشرَطَتْه بيعتُــه فى أعناقهــم ؛ وبعــد ذلك أتىٰ صولةُ الإســلام، وصِلةُ دار الســلام ؛ وورد رسول مَثابَةِ الجلاله، ونِيَــابَةِ الرِّساله ؛ ومُلْتزَم المَلَائك، ومعْتَصَم المَمَالك ؛ ومعــه الكتابُ الذى هو نصٌّ أغنىٰ عن القِيــاس، بل هو نورٌ يَمْشى به فى الناس ؛ وأدّىٰ إلىٰ السلطان فلان المشارِ إليه من تشريف الدِّيوان العزيز النبوىِّ ماوَسَمه من الفَخار بأجَلِّ وَسْمِه، وقلَّده السيْفَ الصارمَ وسَمَّاه بِٱسْمِه ؛ فَتلاقىٰ السيْفان المضْرُوبُ والضارِب، وٱشْتبه الوَصْــفَانِ المــاضى والقاضِبْ ؛ وبرزَتْ تلك الخِلَعُ فابيَضَّ وجهُ الإسلام من سَوَادها، ووُضِع الكتابُ فكادتِ المَنابِرُ تَسْعىٰ إليه شوْقًا من أعْوادها ؛ وقُرِئت وَصَايَا الإمام، علىٰ الأَنَام ؛ فعلمُوا أنهــا من تُراثِ الرِّساله،

(١) ذكر القدم لأنه بمعنى السبق تأمل .

وقالوا : كافِلُ الإسـلام جدّدَ له بهٰـذا الصُّقْع الغربِيِّ حُكْمَ الكَفَاله ؛ وسَمِعُوا من التقـدُّم بإنصافهم ، والتهمُّم بمَوَاسِـطهم وأطْرافهم ؛ جُمَلًا عفَّروا لها الجِبَاهَ جُودًا بالجهد ، وسجَدُوا للشُّكْر والحمـد ؛ فأدركوا من بركة المَشَاهِد أثبتَ شَرفٍ وأبقـاه ، ورأَوْا حقيقةَ ما كادتِ الأوْهامُ تزُولُ عن مَرْقاه ؛ وآزْدادوا يقِيناً بفضْـل ماصارُوا إليـه ، ورأَوْا عِياناً يُمْنَ مابايَعُوا عليـه ؛ فتوافَتْ طوائِفُهم المتبُوعه ، وجماهيرُهُم المجْمُوعه ؛ بِدَارًا إلىٰ المَرَاضِي الشَّرِيفه ، وبناءً علىٰ وَصايَا عَهْدِ الخَليفه ، أن يُجدِّدوا البَيْعةَ لمجاهِدِ الدِّين ، سيفِ أميرِ المؤمنـين ؛ تولّٰى الله عَضْـدَه ؛ ولابنِهِ الواثِق بالله المعتصِمِ به أنْهضه اللهُ بإمْرتهِ بعْدَه ؛ ولم تَعْدُ أن تكونَ الزِّيادةُ الطارِئةُ شَرْطا فى تقْرير الإمْرة المؤدَّاة وإثْباتِها ، أو جاريةً مَجْرىٰ السُّنَنِ التى يُؤْمَرُ المصَلِّى بالإعادة عِنْد فَوَاتِها ؛ فأعادوا بَيْعته أداءً للفَريضـة ورجاءً للفَضِـيله ؛ وآستنَدُوا إلىٰ الإشارات الجليـله ، بعْدَ الآستِخارات الطويله ؛ ورأَوْا أنْ يأخُذوا بها عادةَ البَيْعات العبَّاسِـيَّه ، واتخاذُ حُكْمِ الأصل طرِيقُ الإلْحاقات القِياسِـيَّه ؛ فبايَعُوا علىٰ تذكُّرٍ بيعـةً أكَّدوها بالعُهُود المستحْفَظه ، ووَثَّقوها بالأيمانِ المغَلَّظَهْ ؛ وبادَرُوا بها نِداءَ مُنادِيهم ، وأعطَوْا علىٰ الإصْفاقِ بها صَفْقةَ أيْدِيهم .

ولمـَّا آنتهىٰ ذٰلك إلىٰ المَلَإِ من أهل فلانةَ وجِهاتِها ، رأَوْا أن يحْلِفَ من سَـبَقْ ، ويَصْدُقُوا النِّيَّة مع مَنْ صـدَق ، ويعْقِدُوا ما عقَدُوه علىٰ ماصَرَّح به العهْدُ الشريف ونَطَق ؛ فحضر منهـم العلمـاءُ والصُّلحاءُ ، والأجْنادُ والوُزَراءُ والفُقهاءُ ، والْكافَّةُ علىٰ تبايُنِهِم فى المَرَاتب ، وتفَاوُتِهِـم فى المَنَاصِب ، وآخْتِلافِهِم فى المَوَاطن والمكاسب ؛ فأمْضَوْها بيعةً كريمةَ المَقَاصِـد ، سليمةَ المَعَاقِد ؛ عَهْدُها مُحْكَم ، وعَقْدُها مُـبْرَم ؛ ومُوجَبُها طاعةٌ وسَمْع ، والتقيُّد بها سُـنَّة وشَرْع ؛ ويَعْمُرونَ بها أسْرارَهُم ، ويُفْنُون عليها أعمارَهُم ؛ ويَدِينُون بها فى عُسْرٍ ويُسْر ، وربْحٍ وخُسْر ؛ وضيق ورَفاهِيَهْ ، ومحبَّة

وكَرَاهِيَه؛ تبرّعُوا بذٰلك كلّه طَوْعا، وٱستوفَوْه فصْلًا فَصْلًا ونَوْعا نَوْعا؛ وعاهدُوا عليها الذى يعلم السِّرَّ وأخفىٰ، وأضمَرُوا منها علىٰ ما أبَرَّ علىٰ الظاهر وأوْفىٰ؛ وتقبَّلُوا من الوَفَاء به ماوصف الله به خليلَه إذ قال: ﴿وإبْرَاهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾؛ وأقسموا بالله الذى لاإلٰهَ إلا هو عالمُ الغيب والشهادة العزيزُ الرحيم، وبما أخَذَه علىٰ أنبيائه الكِرام من العُهُود المؤكَّده، والمَوَاثيقِ المُشَدَّده، علىٰ أنهم إن حادُوا عن هذه السبيل، وٱنقادُوا لداعِى التحْريف والتَّبْديل؛ فهُم بُرَآءُ من حول الله وقوّته إلىٰ حَوْلهم وقُوّتهم، تاركون ذِمَّته الوافيةَ لذِمَّتهم؛ والأيمانُ كلها لازمةٌ لهم علىٰ مذهب إمامِ دار الهجرة، وطلاقُ كل ٱمرأةٍ فى مِلْكِ كل واحدٍ منهم لازمٌ لهم ثلاثا، وأيُّما ٱمرأةٍ تزوّجها فى البلاد الفلانيـة فطلاقُها لازمٌ له، كلّما تزوّجَ واحدٌ منهن واحدةً خرجتْ طالقا ثلاثا؛ وعلىٰ كلّ واحدٍ منهم المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام علىٰ قدمَيْه، مُحْرِمًا من مَنْزِله بحَجَّةٍ كفَّارةً لاتُجْزِئُ عن حَجَّة الإسلام؛ وعبيدهُم وأرِقَّاؤهم عُتَقاءُ لاحقُونَ بأحرار المسلمين، وجميعُ أموالِهم عَيْنا وعَرْضا، حَيوانًا وأرْضا، وسائرُ مايَحْوِيه المُتملِّكُ كُلًّا وبعضا، صدقةٌ لبيتِ مال المسلمين؛ حاشىٰ عَشَرَة دنانِير. كُلُّ ذٰلك علىٰ أشدّ مذاهب الفَتْوىٰ، وألزمها لكلمةِ التَّقْوىٰ؛ وأبْعدِها من مخالَفةِ الهَوىٰ والظاهر والفَحْوىٰ؛ أرادُوا بذٰلك رضا الخلافة الفلانيـة والفلانية (بلقبي السلطنة) للسلطان وولده المأخُوذِ لهما البيعةُ بعد بيْعته، وأشهدُوا اللهَ علىٰ أنفسهم، وكفىٰ بذلك ٱعتزاما وٱلتزاما، وشَدًّا لما أمَر به وإحْكاما: وَ﴿مَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه﴾ ﴿ومَنْ يفْعَلْ ذٰلكَ يَلْقَ أثَاما﴾. وهم يرفعُون دعاءهم إلىٰ الله تضرُّعا وٱستِسْلاما، ويسألُونه عِصمةً وكفايةً ٱفْتِتاحا وٱخْتِتاما؛ اللهم إنّا قد أنفَذْنا هذا العقْد ٱقتداءً وٱهْتِماما، وقضَيْنا حقَّه إكْمالا وإتمامًا، وأسلَمْنا وجْهنا إليك إسْلاما؛ فعرِّفْنا من خيره وبركتِه نَماءً ودوَاما، وٱكْلأْنا بعينك حركةً وسُكُونا ويقْظَةً ومَنَاما:

و﴿ هَبْ لَنَـا مِنْ أزْواجِنَا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ وٱجْعَلْنا للمُتَّقِينَ إماما ﴾ إنك أنتَ اللهُ منتهىٰ الرَّغَبات، ومجيبُ الدَّعوات، وإلٰهُ الأرض والسَّمٰوات .

وهــذه نسخةُ بيعة مرتَّبة علىٰ موتِ خليفة، أنشأتُها علىٰ هــذه الطريقة لموافقتها رأْي كُتَّاب الزمان فى ٱفتتاح عُهُود الملوك عن الخلفاء بالحمـدُ لله كما سيأتى بيانه فى موضــعه إن شاء الله تعالىٰ ؛ وتعرّضت فيها إلىٰ قيامِ سـلطانٍ بعقْدِها : لمطابقة ذٰلك لحال الزّمان، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جعَـلَ الأُمَّةَ المحمدية أبذَخَ الأُمَمِ شَرَفا ، وأكْرَمها نِجارًا وأفضَلَها سَلَفا، وجعل رُتْبة الخلافة أعلىٰ الرُّتَب رتبةً وأعزَّها كَنَفا ، وخصَّ الشجرةَ الطيِّبة من قريش بأنْ جعـل منهم الأئمـةَ الخُلَفا، وآثر الأُسْرةَ العبَّاسيَّة منها بذٰلك ، دعوةٌ سبقَتْ من ٱبن عمِّهم المُصْطفىٰ ، وحفِظ بهم نِظامَها علىٰ الدَّوام بجعـل ممن سلَفَ منهم خَلَفا .

نَحمُده علىٰ أنْ هيَّأَ من مقدِّمات الرَّشَد ماطاب الزّمانُ به وصَفَا، وجدّدَ من رُسُوم الإمامة بخـير إمامٍ مادَرَس منها وعفَا، وأقام للسلمين إمامًا تأرَّج الجوُّ بنَشْره فأصبح الوجُودُ بعَرْفه معترِفا .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ الَّا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ مخلِص تمسَّــكَ بعهْدها فوفىٰ، وأعطاها صَــفْقةَ يده للمبايَعـةِ فلا يَبْغِى عنها مَصْرِفا، وأنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الذى تداركَ اللهُ به العالَمَ بعد أنْ أشْفىٰ فشَفىٰ، ونَسخَتْ آيةُ دينِــه الأديانَ وجَلاَ بشِرْعته المُنيرة من ظُلْمة الجهل سَدَفا ؛ وجَعَلَ مُبايعه مُبايِعا للهِ يأخُذُه بالنَّكْث ويُوفِّيه أجْرَه علىٰ الوَفَا، صلّى الله عليــه وعلىٰ آلهِ الأطهار وعِتْرتِه الشُّرَفا، ورضى اللهُ عن أصحـابه

الذين لَيس منهم مَنْ عاهد اللهَ فَغَدر ولا وَادَّ فى الله جَفَا، خصوصًا مَنْ جاء بالصِّدْق وَصَدَّق به فكان له قرابةٌ وصَفْوةَ الصَّفا ؛ والمرجوعَ إليه فى البَيْعة يوم السَّقيفة بعدما ٱشرأَبَّت نحوَها نفُوسٌ كادتْ تذُوبُ عليها أسَفًا ؛ والقائمَ فى قتال أهلِ الرِّدَّة من بنى حنيفةَ حتّى ٱستقامُوا علىٰ الحنيفيَّة السَّمْحةِ حُنَفا. ومَنِ ٱستحالَ دَلْوُ الخلافة فى يَدِه غَرْبا فكان أفْيَدَ عبْقَرِىّ قامَ بأمْرِها فكَفىٰ، وعَمَّتْ فتوحُه الأمصارَ وحُمِلَتْ إليه أموالُهَا فلم يُمْسِكها إقتارًا ولم يُبَذِّر فيها سَرَفا. ومَنْ كان فضْلُه لسَهْم الٱختِيار من بيْنِ أصحابِ الشُّورىٰ هَدَفا ؛ وجمع الناسَ فى القُرءان علىٰ صَحِيفةٍ واحدةٍ وكانتْ قبْلَ ذٰلك صُحُفا. ومَنْ سرىٰ إليه سِرٌّ : "أَمَا تَرْضىٰ أنْ تَكُونَ منِّى بمنزلة هارُونَ من مُوسىٰ" فغَدَا يجُرّ من ذَيْل الفَخَار سَجْفا، وٱستولىٰ علىٰ المَكارم من كلِّ جانبٍ فحازَ أطْرافَها طَرَفًا طَرَفا ؛ وعلىٰ سائر الخلفاء الراشدين بعدهم ممَّن سلَك سبيلَ الحق ولطريق الهُدىٰ ٱقْتفىٰ ؛ صلاةً ورِضْوانًا يُذْهبان الداءَ العُضَالَ من وَخَامة الغَدْر ويَجْلُبان الشِّفا ؛ ويرفَعان قدْرَ صاحبهما فى الدنيا ويُبَوِّئانِ منتحِلَهما من جنَّات النعيم غُرَفا.

أمَّا بعدُ، فإنَّ عَقْد الإمامة لمن يقُومُ بأمْرِ الأمَّة واجبٌ بالإجماع، مستنِدٌ لأقْوىٰ دليلٍ تنقَطِع دُونَ نقْضِه الأطْماع ؛ وتنبُو عن سَماع ما يخالِفُه الأسْماع ؛ إذ العبادُ مجبولون علىٰ التبايُنِ والتغايُر، مطبُوعون علىٰ التحالُف والتناصُر ؛ [مضْطَرُّون إلىٰ التَّعاوُنِ والتَّجاوُر، مفْتقرُون إلىٰ التعاضُدوالتَّوازُر (١)] ؛ فلا بُدَّ من زعيمٍ يمنعهم من التظالُم، ويحمِلُهم علىٰ التناصُف فى التداعى والتحاكُم ؛ ويُقِيم الحُدودَ فتُصانُ المَحارمُ عن الٱنْتِهاك ؛ وتُحْفَظ الأنساب عن الٱختلاطِ والٱشْتِراك ؛ ويَحْمى بيضةَ

(١) زائد فى بعض النسخ .

الإسـلام فيَمْنعُ أن تُطْرَق ، ويصونُ الثُّغورَ أن يتوصَّل إليها أو يتطرَّق : ليعزَّ الإسلامُ دارا ، ويَطْمئنَّ المستخْفِي ليـلا ويأْمَنَ الساربُ نَهارا ؛ ويَذُبُّ عن الحُرَم فتُحتَرَم ، ويَذُودُ عن المنْكَرات فلا تُغْشىٰ بل تُصطَلَم ؛ ويُجهِّز الجيوش فتَنْكأُ العدُوّ ، وتُغير علىٰ بلاد الكُفْر فتمنَعُهم القَرار والهُدُوّ ؛ ويُرْغِمُ أَنْفَ الفِئـة الباغية ويَقْمَعُها ، ويُدْغِمُ الطائفةَ المبتـدِعةَ ويَردَعُها ؛ ويأخُذُ أموالَ بيتِ المـال بحقِّها فيُطـاوَع ، ويصرفها إلىٰ مستحقِّها فلا يُنـازَع ـ لاجَرَم ٱعتُـبرَ للقيام بهـا أكمُل الشُّروط وأَتمُّ الصِّفات ، وأكرمُ الشِّيَم وأحسنُ السِّمات .

وكان السـيدُ الأعظمُ الإمامُ النبوِيّ ، سليلُ الخلافه ، ووَلِيُّ الإمامه ؛ أبو فلان فلان العبَّاسِيّ المتوكِّل علىٰ الله « مثلا » أميرُ المؤمنين ، سَلَكَ الله تعالىٰ به جَدَدَ آبائه الراشدين ؛ هو الذى جمع شُروطَها فوَفَّاها ، وأحاطَ منها بصفاتِ الكمالِ وٱسْتَوْفاها ؛ ورامَتْ به أَدْنىٰ مَراتِبِها فبلغَتْ إلىٰ أَغْيَاها ، وتَسوّر مَعَالِيَها فرقِيَ إلىٰ أعلاها ، وٱتَّحدَ بهـا فكان صُورتَها ومَعْناها ـ وكانتِ الإمامةُ قد تأَيَّمت ممن يَقُومُ بأعبائها ، وعَزَّتْ خُطَّابُها لقِلَّة أكفائِها ؛ فلم تُلْفِ لهـا بَعْلا يكونُ لها قَرِينا ، ولا كُفْئًا تَخْطُبه يكونُ لديْها مَكِينا ، إلَّا الإمامَ الفلانىَّ المشار إليه ، فدعَتْـه لخِطْبتها وهى بيتُ عِزِّـه : ﴿ ورَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِه ﴾ فأجاب خِطْبَتَها ، ولَبَّى دَعْوتَها : لتحَقُّقه رَغْبتَها إليـه ، وعِلْمِه بوجُوب إجابَتِها عليـه ؛ إذ هو شِـبْلُها النـاشئُ بِغَابِها ، وغَيْثُها المستَمْطَر من سَحَابها ؛ بلْ هو أَسَـدُها الهَصُور ، وقُطْبُ فَلَكِها الذى عليه تدُور ؛ ومَعْقِلُها الأمنَعُ الحَصِين ، وعِقْدُها الأنفَسُ الثَّمين ، وفارِسُها الأروعُ ولَيْثُها الشَّهير ، وٱبنُ بَجْدَتِها الساقطةُ منه علىٰ الخَبِير ؛ وتِلادُها العليمُ بأحْوالها ، والجَدِيرُ بمعرفة أقْوالِها وأفْعالها ؛ وتَرْجُمانها المتكلِّم بلِسانِها ؛ وعالِمُها المتفنِّن فى أفْنانها ؛ وطَبِيبُها العارفُ بطَبِّها ، ومُنْجِدُها الكاشِفُ لكَرْبها .

وحين بلغت من القصد سولها، ونالت بالإجابة منه مأمولها، وحرم على غيره أن يسومها لذلك تلويحا، أو يعرج على خطبتها تعريضا وتصريحا، احتاجت إلى ولي يوجب عقدها، وشهود تحفظ عهدها، فعندها قام السلطان الأعظم الملك الفلاني (بالألقاب السلطانية إلى آخرها) خلد الله سلطانه، ونصر جنوده وجيوشه وأعوانه، فانتصب لها وليا، وأقام يفكر في أمرها مليا، فلم يجد أحق بها منه فتجنب عضلها، فلم تكن تصلح إلا له ولم يكن يصلح إلا لها، فجمع أهل الحل والعقد، المعتبرين للاعتبار والعارفين بالنقد: من القضاة والعلماء، وأهل الخير والصلحاء، وأرباب الرأي والنصحاء، فاستشارهم في ذلك فصوبوه، ولم يروا العدول عنه إلى غيره بوجه من الوجوه، فاستخار الله تعالى وبايعه، فتبعه أهل الاختيار فبايعوا، وانقادوا لحكمه وطاوعوا، فقابل عقدها بالقبول بمحضر من القضاة والشهود فلزمت، ومضى حكمها على الصحة وانبرمت. ولما تم عقدها، وطلع بصبح اليمن سعدها، التمس المقام الشريف السلطاني الملكي الفلاني المشار إليه أعلى الله شرف سلطانه ورفع محله، وقرن بالتوفيق في كل أمر عقده وحله، أن يناله عهدها الوفي، ويرد منها موردها الصفي: ليرفع بذلك عن أهل الدين حجبا، ويزداد من البيت النبوي قربا، فتعرض لنفحاتها من مقراتها، وتطلب بركاتها من مظناتها، ورغب إلى أمير المؤمنين، وابن عم سيد المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، أن يجدد له بعهد السلطنة الشريفة عقدا، ويأخذ له على أهل البيعة بذلك عهدا، ويستحلفهم على الوفاء لها بما عاهدوا، والوقوف عند ما بايعوا عليه وعاقدوا: ليقترن السعدان فيعم نوءهما، ويجتمع النيران فيبهر ضوءهما، فلباه تلبية راغب، وأجابه إجابة مطلوب وإن كان هو الطالب، وعهد إليه في كل ما تقتضيه أحكام إمامته في الأمة عموما وشيوعا، وفوض له حكم الممالك الإسلامية جميعا، وجعل إليه أمر السلطنة المعظمة بكل

نِطَاق، وألقىٰ إليه مَقاليدَها وصَرَّفه فيها علىٰ الإطْلاق ؛ وأقامه فى الأمة لعَهْد الخلافة وَصِيّا، وجعله للإمامة بتَفْويض الأمْرِ إليه وليّا ؛ ونَشَر عليه لواءَ المُلْك وقلَّده سيْفَه العَضْب ، وألبَســه الخلعةَ السَّوداء فابيَضَّ من سَوادِها وجْهُ الشرقِ والغَرْب ؛ وكتَبَ له بذٰلك عهْـدًا كبَتَ عدُوَّه، وزاد شَرَفه وضاعَفَ سُمُوَّه ؛ وطُولِب أهـلُ البيعة بالتَّوثيق علىٰ البَيْعتيــن بالأيمـانِ فأذعَنُوا ، وٱستُحْلِفُوا علىٰ الوَفَاء فبـالَغُوا فى الأيمـانِ وأمْعَنُوا ؛ وأقسـمُوا باللهِ جَهْد أيمـانهم ، بعـد أن أشْهدُوا اللهَ عليهم فى إسْرارِهم وإعْلانِهـم ؛ وأعطَوُا المواثيـقَ المغَلَّظَةَ المشـدَّده ، وحَلَفوا بالأيمـانِ المُؤكَّدة المعَقَّده، علىٰ أنهم إن أعْرَضُوا عن ذٰلك أو أدْبَرُوا، وبَدَّلوا فيه أو غيَّرُوا ؛ أو عَرَّجُوا عن سبِيله أو حادُوا، أو نَقَصُوا منه أو زادُوا ؛ فكُلٌّ منهم بَرىءٌ من حَوْل الله وقوّتِه إلىٰ حوْلِ نفْسِه وقوّته، وخارجٌ من ذِمَّته الحصينةِ إلىٰ ذِمَّته ؛ وكلُّ ٱمرأةٍ فى نكاحِه أو يتَزوَّجُها فى المستقْبَل فهى طالقٌ ثلاثا بَتاتًا، وكُلَّما راجعها فهى طالِقٌ طلاقا لايقْتضِى إقامة ولا ثَباتًا ؛ وكلُّ ممـلوكٍ فى مِلْكه أو يملِكُه فى المسـتقبل حُرٌّ لاحِقٌ بأحْرار المسـلمين، وكلُّ ما مَلَكه أو يَمْلِكُه من جَمَاد وحيوانٍ صـدقةٌ عليه للفُقَراء والمساكِين ؛ وعليه الحجُّ إلىٰ بيتِ اللهِ الحَرَام، والوقوفُ بعرفَةَ وسائرِ المَشَاعِرِ العِظَام ؛ مُحرِمًا من دُوَيْرَةِ أهـلِه ماشِيا، حاسِرًا عن رأسِه وإن كان به أذًى حافِيا ؛ يأتِى بذٰلك فى ثلاثينَ حَجَّة متتابعةً علىٰ التمام، لاتُجْزِئه واحدةٌ منها عن حَجَّة الإسلام ؛ وإهـداءُ مائةِ بدنةٍ للبيت العَتيق كلَّ سنةٍ علىٰ الدَّوام، وعليه صومُ جميع الدَّهْرِ إلَّا المَنْهِىَّ عنــه من الأيَّام، وأنْ يفُكَّ ألفَ رقبــةٍ مؤمنةٍ من أَسْرِ الكفر فى كلِّ عام ؛ يمينُ كلٍّ منهم فى ذٰلك علىٰ نيَّــةِ أمير المؤمنين ، وسلطانِ المسلمين ، فى سِرِّه وجَهْره وأوّلِه وآخِرِه، لانيَّــةَ للحـالف فى ذلك فى باطنِ الأمرِ ولا فى ظاهِرِه ؛ لا يُورِّى فى ذٰلك ولا يستَثْنِى ، ولا يتأوّلُ ولا يستفْتِى ؛ ولا يَسْعىٰ فى نَقْضها، ولا يخالِفُ فيها

ولا فى بعضها ؛ متى جنح إلى شىءٍ من ذلك كان آثمـا ، وما تقدم من تعقيد الأيمان له لازمًا ؛ لا يقبلُ اللهُ منـه صرفا ولا عدلا ، ولا يجزئه عن ذلك كفّارةٌ أصـلا ؛ كلُّ ذلك على أشدّ المذاهبِ بالتخصيص ، وأبعدها عن التساهل والترخيص ؛ وأمضوها بيعةً ميمونه ، باليمن مبتدأةً بالنُّجح مقرونه ؛ وأشهدوا عليهم بذلك من حضر مجلسَ العقد من الأئمة الأعلام ، والشُّهود والحُكّام ؛ وجعلوا اللهَ تعالى على مايقولون وكيلا ، فاستحقّ عليهم الوفاءُ بقوله عزّت قدرتُه : ﴿ وأوفوا بعهدِ اللهِ إذا عاهـدتُم ولا تنقضُوا الأيمـانَ بعدَ توكيدها وقد جعلتمُ اللهَ عليكم كفيلا ﴾ . وهم يرغبون إلى الله تعالى أن يُضاعِفَ لهم بحُسْن نيّتِهم الأُجور ، ويلجئون إليه أن يجعلَ أئمتَهم ممّن أشار تعـالى إليه بقوله : ﴿ الَّذينَ إنْ مكَّنّاهمْ فى الأرضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأمرُوا بالمعروفِ ونهَوْا عن المُنْكرِ ولله عاقبةُ الأُمور ﴾ . إن شاء الله تعالى .

وهـذه نسخةُ بيعةٍ مرتَّبة على خلْع خليفةٍ ، أنشأتُها على هـذه الطريقةِ أيضا ، وتعرَّضت فيها لذكر السلطان القائم بها ، على ماتقدّم فى البيْعة المرتَّبة على موتِ خليفةٍ ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل بيتَ الخلافة مَثابةً للناس وأمْنا ، وأقام سُورَ الإمامةِ وِقايةً للأنامِ وحِصْنا ، وشدّ لها بالعِصابة القُرشيّة أزْرا وشادَ منها بالعُصْـبة العبّاسيَّة رُكْنا ، وأغاثَ الخلْقَ بإمامِ هُدًى حَسُنَ سِيرةً وصفَا سريرةً فراقَ صُورةً ورَقَّ معْنى ، وجمع قلُوبَهم عليه فلم يستنكِفْ عن الانقيادِ إليه أعلى ولا أدْنى ؛ ونزع جِلبابَها عمّن شُغل بغيرها فلم يُعِرْها نَظَرا ولم يُصْغِ لها أُذُنا ، وصرَف وجْهَها عمّن أساء فيها تصرُّفا فلم يرْفَع بها رأسا ولم يَعْمُر لها مغْنى .

نحمَـدُه علىٰ نِعَم حَلَت للنفُوس حين حَلَّت ، ومِنَنٍ جلَتِ الخُطوبَ حينَ جَلَّت ؛ ومَسارَّ سَرَتْ إلىٰ القُلوب فسَرَّت ، ومَبارَّ أقرّتِ العُيون فقرَّتْ ؛ وعوارِفَ أمَّتِ الخليقةَ فتوالتْ وما وَلَّت ، وقدمِ صِـدْقٍ ثبتَتْ إن شاء الله فى الخلافة فما تزلْزَلَتْ ولا زَلَّتْ .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تكونُ لنـا من دَرَكِ الشُّكُوك كالئَـه ، ولِمهَاوِى الشُّبَه دارِئَه ، ولِلمَقَاصد الجميـلةِ حاوِيه ، ولشُقَّة الزَّيْغ والاْرتيابِ طاوِيه ؛ وأنَّ محمّدًا عبـدُه ورسولُه الذى نَصَح الأمَّة إذ بلَّغ فشفىٰ عَليلَها ، وأورَدَها من مَنَاهِل الرَّشَـد ماأطفأ وَهَجَها و بَرَّد غَليلَها ؛ وأوضَح لهم مَناهِجَ الحقِّ ودعاهُمْ إليها ، وأبانَ لهم سُـبُل الهِدايةِ : ﴿ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فإنَّمـا يَهْتَدِى لِنَفْسِـهِ ومَنْ ضَـلَّ فإنَّمـا يَضِلُّ عليها﴾ صلَّى الله عليه وعلىٰ آلِهِ أئمة الخير وخَيْرِ الأئمَّه ، ورضِى عن أصْحابه أولياءِ العَدْل وعُدُولِ الأُمَّه ؛ صلاةً ورِضْوانا يعُمَّان سائِرهم ، ويشْمَلان أوّلهم وآخرَهُم ؛ سيَّما الصديقِ الفائزِ بأعلىٰ الرُّتبتين صِدْقا وتَصْديقا ، والحائزِ قَصَبَ السبق فى الفضيلتَيْن عِلْما وتحقِيقا ، ومَنْ عدلَ الأنصارُ إليه عن سَعْد بن عُبادةَ بعد ماأجمَعُوا علىٰ تَقْديمه ، وبادَرَ المهاجِرُون إلىٰ بَيْعته ٱعترافا بتَفْضيله وتكْرِيمه . والفارُوقِ الشديدِ فى الله بأْسا واللَّيِّنِ فى الله جانبا ، والمُوفِى للخلافة حَقًّا والمؤدّى للإمامةِ واجِبـا ؛ والقائمِ فى نُصْرة الدِّين حَقَّ القيـام حتّٰى عمَّت فتُوحُه الأمصار مشارقَ ومَغَاربا ، وأطاعتْـه العناصرُ الأربعة : إذْ كان لله طائعاً ومنَ الله خائفاً و إلىٰ الله راغِبا . وذِى النُّورَيْن المعوَّل عليـه من بينِ سائرِ أصحاب الشُّورى تَنْوِيهـا بقَـدْره ، والمخصوص بالاْختيار تفخيماً لأمْرِه ، من ... حُصِر فى بَيْتِـه فلم يمنَعْه ذٰلك عن تِلاوةِ كتاب الله وذِكْره ، وشاهد سُيوفَ قاتليه عِيانا فقابَلَ فَتَكاتِها بجميلِ صَـبْره . وأبى الحسن الذى أعْرَضَ عن الخلافة حينَ سُئِلَها ، وٱستعفىٰ منها بعْدَ ما ٱضْطُرَّ إليها وقَبِلَها ؛ وكُشف له عن حقيقة

الدنيا فما أمَّ قِبْلَتها بقلْبه ولا وَلَّى وجْهَه قِبَلَها، وصرَّح بمقاطعتِها بقوله : « ياصَفْراءُ غُرِّى غَيْرى يابَيضاءُ غُرِّى غيْرى » لَمَّا وصَلَها مَنْ وصَلَها ؛ وسائرِ الخلفاء الراشدين بعدهم، الناهِجِين نَهْجَهم والوارِدِينَ وِرْدَهم .

أما بعدُ، فإنَّ للإمامة شُروطًا يجِبُ آعتبارُها فى الإمام، ولَوازِمَ لايُغْتفر فواتُها فى الآبتداء ولا فى الدَّوَام ، وأوْصافاً يتعيَّن إعمالُها ، وآداباً لايسَعُ إهمالُها ؛ من أهمِّها العَدَالَةُ التى مِلاكُها التَّقْوىٰ ، وأساسُها مراقبةُ الله تعالىٰ فى السِّرِّ والنَّجْوىٰ ؛ وبها تقَعُ الهَيْبَةُ لصاحبها فيُجَلّ ، وتميلُ النُّفُوس إليها فلا تمل ؛ فهى المَلَكةُ الداعيةُ إلىٰ تَرْك الكبائر وآجْتِنابِها ، والزاجِرةُ عن الإصْرار علىٰ الصَّغائر وآرْتِكابِها ؛ والباعثةُ علىٰ مُخالَفة النفْس ونَهْيِها عن الشَّهَوات ، والصارِفةُ عن آنْتِهاك حُرُماتِ الله التى هى أعظَمُ الحُرُمات ؛ والموجبةُ للتعفُّف عن المَحَارِم ، والحاملةُ علىٰ تجنُّب الظُّلامات وردِّ المَظَالم . والشَّجاعةُ التى بها حِمايةُ البَيْضة والذَّبُّ عنها ، والآستظهارُ بالغزْو علىٰ نِكايةِ الطائفة الكافرةِ والغَضِّ منها ؛ والقُوَّةُ بالشوكةِ علىٰ تنفيذِ الأوامِرِ وإمضائِها ، وإقامةِ الحدودِ وآستِيفائِها ، ونَشْرِ كلمة الحق وإعلائِها ، ودَحْضِ كلمةِ الباطل وإخفائِها ، وقطْعِ مادّةِ الفسادِ وحسْم أدوائِها ؛ والرأْىُ المؤدِّى إلىٰ السياسةِ وحُسْن التدبير ، والمُغْنِى فى كثيرٍ من الأماكن عن مَزِيد الجِدّ والتشمير ؛ والمعينُ فى خُدَع الحرب ومَكايده ، والمُسْعِف فى مَصَادر كلِّ أمرٍ ومَوارِدِه .

هذا وقد جعلَنا اللهُ أمّةً وسَطا ، ووعَظَنا بمن سَلَفَ من الأُمَم ممن تمرَّد وعَتا أو تجبَّر وسَطَا ؛ وعصَمَ أُمَّتنا أن تجتمعَ علىٰ الضَّلال ، وصانَ جَمْعنا عن الخَطَل فى الفِعال والمَقَال ؛ وندَبنا إلىٰ الأمْر بالمعرُوف والنَّهْىِ عن المنكر ، وسوّغَ لأئمّتِنا الآجتهادَ فى النَّوازل والأحكام فاجْتِهادُهم لايُنكَر ، خصوصًا فى شأن الإمامةِ التى هى

آكدُ أسباب المَعالم الدينيّة وأقواها ، وأرفعُ المناصبِ الدُّنيويّة وأعلاها ، وأعزُّ الرُّتَب رُتْبةً وأغلاها ، وأحقُّها بالنظر فى أمرِها وأولاها . وكان القائمُ بأمر المسلمين الآنَ فلانُ بنُ فلان الفلانىّ ممَّن حادَ عن الصِّراط المستقِيم ، وسلَكَ غيرَ النَّهج القوِيم ؛ ومالَ عن سَنَن الخُلَفاء الراشدين فأدْرَكه الزَّلَل ، وقارفَ المآثمَ فعادَ بالخَلَل ؛ فعاثَ فى الأرض فَسادا ، وخالفَ الرَّشد عِنادا ، ومالَ إلىٰ الغيِّ آعتمادا ، وأسلَمَ إلىٰ الهوىٰ قِيادا ؛ قد آنتقَلَ عن طَوْر الخلافه ، وعزيزِ الإنافه ؛ إلىٰ طَوْر العامَّة فآتَّصف بصِفَاتهم ، وآتَّسم بسِماتهم ؛ فمُنكَرٌ يجبُ عليه إنكارُه قد باشَره ، وصديقُ سَوْءٍ يتعَيَّن عليه إبعادُه قد وازَرَه وظاهَرَه ؛ إنْ سلك فسبيلَ التُّهمة والآرتياب ، أو قصَدَ أمرا نَحَا فيه غيرَ الصَّواب ؛ منهمِكٌ علىٰ شَهواته ، منعكِفٌ علىٰ لَذَّاته ، متشاغلٌ عن أمر الأمّة بأمرِ بَنِيه وبَنَاته ؛ الجُبْنُ رأسُ ماله ، وعدَمُ الرأى قرينُه فى أفعاله وأقواله ؛ قد قَنِع من الخلافة بآسْمِها ، ورضِىَ من الإمامةِ بوَسْمِها ؛ وظَنَّ أنَّ السُّودَد فى لُبْس السَّواد فمال إلىٰ الحَيْف ، وتوَهَّم أنَّ القاطعَ الغِمْدُ فقطعَ النظَرعن السَّيْف .

ولمَّا آطَّلع الناسُ منه علىٰ هذه المنْكَرات ، وعرَفُوه بهذه السِّمَات ، وتحقَّقُوا فيه هذه الوَصَمات ؛ رغِبُوا فى آستِبْداله ، وأجمعُوا علىٰ خَلْعه وزَوَاله ؛ فلَجَئُوا إلىٰ السلطان الأعظَمِ الملك الفلانى (بالألقاب السلطانية إلىٰ آخرها) نصر الله جُنودَه ، وأسْمىٰ جُدُودَه ، وأرهَف علىٰ عُداةِ الله حُدُودَه ؛ ففوَّضُوا أمْرَهم فى ذلك إلَيْه ، وألقَوْا كَلَّهم عليه ؛ بجمع أهلَ الحلِّ والعَقْد منهم ، ومَنْ تصْدُر إليهم الأمورُ وتَرِدُ عنهم ؛ فآستخارُوا الله تعالىٰ وخلَعُوه من وِلَايته ، وخرجُوا عن بَيْعته ، وآنسلَخُوا عن طاعتِه ؛ وجَرَّدُوه من خِلافتِه ، تجريدَ السَّيْف من القِرَاب ، وطَوَوْا حكم إمامتِه ، كطَىِّ السِّجلِّ للكِتاب . وعند ماتَمَّ هـذا الخَلْع ، وآنطوىٰ حكمُه علىٰ البَتِّ والقَطْع ، آلتمس الناسُ إماما يقُوم بأمور الإمامة فيُوفِيها ، ويجمع شُروطَها ويستَوْفِيها ؛ فلم يجدُوا لهـا أهلا ،

ولا بِهَا أحقَّ وأَوْلىٰ ، وأوفىٰ بها وأَمْلىٰ ، من السـيِّد الأعظم الإمام النبوى سـليلِ الخلافة ، ووليِّ الإمامة أبى فلانٍ فلان العباسىّ الطائع لله « مثلا » أمير المؤمنين . لازال شرفُه باذِخا ، وعِرْنِينُه الشريفُ شامِخا ، وعهْدُ ولايتهِ لعهدِ كلِّ ولايةٍ ناسِخا ، فساموه بيْعَتها فلبّى ، وشامُوا بَرْقَه لولايتها فأجابَ وما تأبّى ؛ عِلْمًـا منه بأنها تعيَّنتْ عليه ، وآنحصرتْ فيـه فلم تَجِدْ أعلىٰ منه فتَعدِلَ إليـه ؛ إذ هو آبْنُ بَجْدتها ، وفارسُ نَجْدتها ، ومُزِيلُ غُمَّتها ، وكاشفُ كُرْبتها ؛ ومُجْلِي غَيَاهِبِها ، ومُحْمِـدُ عواقِبِها ، ومُوَضِّحُ مذاهِبِها ، وحاكمُها المَكين ، بل رشـيدُها الأَمِين ؛ فنهضَ المقامُ الشريف السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ المشارُ إليه : قَرَنَ اللهُ مقاصِـدَه الشريفةَ بالنَّجاح ، وأعمالَه الصالحةَ بالفَـلاح ؛ وبَدَر إلىٰ بيعته فبايَعْ ، وأُتمَّ به مَنْ حَضَر من أهل الحَـلِّ والعَقْد فتابَعْ ، وقابل عَقْـدَها بالقَبُول فمضىٰ ، ولزِم حُكْمُها وآنقضىٰ ؛ وآتَّصـل ذٰلك بسائر الرعيَّـة فآنْقادُوا ، وعلِمُوا صوابَهُ فمَشَوْا علىٰ سَنَنِه وما حادُوا ؛ وشاع خبرُ ذٰلك فى الأمصار ، وطارتْ به مُخَلَّقاتُ البشائر إلىٰ سائر الأَقْطار ؛ فتعرَّفُوا منه اليُمْنَ فسارَعُوا إلىٰ آمتثاله ، وتحقَّقُوا صِحَّتَه وثباتَه بعد آضْطِرابه وآعتِلاله ؛ وآستعاذُوا من نَقْصٍ يُصيبه بعد تمامه لهذا الخليفةِ وكماله ؛ فعندها أبانت الخلافةُ العبَّاسيةُ عن طِيبِ عُنْصُرِها ، وجميـلِ وفائِـها وكريم مَظْهَرِها ؛ وجادَتْ بجزيل الآمْتِنان ، وتلا لسانُ كَرَمِها الوَفِىّ علىٰ وَلِيِّها الصادق : ﴿ هَلْ جزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسان ﴾ فجدّد له بالسَّلْطنة الشريفةِ عَهْدا ، وطوّقَ جِيـدَه بتفويضها إليه عِقْـدا ؛ وجعله وَصِـيَّه فى الدِّين ، وَوليَّـه فى أمر المسلمين ؛ وقلّده أَمْرَ المـمالك الإسلامية وألقىٰ إليه مَقالِيدَها ، وملَّكه أزِمَّتها وحقّق له مَوَاعِيدَها ؛ وعَقَـد له لِواءَها ونَشَر عليـه أعلامَهَـا ، وصَرّفه فيها علىٰ الإطْلاق وفوّضَ إليه أحْكامَها ؛ وألبسه الخِلْعةَ السَّوْداء فكانت لسُؤدده شِعارا ، وأسبغ عليه رداءَها فكان له دثارا ؛ وكتَبَ له العهـدَ فسقىٰ المَعاهدَ صَوْبُ العِهاد ، ولَهِجَ الأنامُ

بذكره فاطمأنّت العِبادُ والبِلاد ، وعِنْد ماتمّ هذا الفَصْل ، وتقرّر هـذا الأَصْل ، وأمْستِ الرَّعايا بما آتاهمُ اللهُ من فضـله فَرِحين ، وبنعمتِـه مستَبْشِرين ، طُولِبَ أهلُ البَيْعة بما يحمِلُهم علىٰ الوَفَاء ، ويمنعُ بَيْعتَهم من التكدّر بعد الصَّفاء : من تَوْثيق عَقْـدها بمؤكّد أيمـانها ، والإقامة علىٰ الطاعة لخليفتها وسُلْطانها ؛ فبادَرُوا إلىٰ ذٰلك مُسْرِعين ، وإلىٰ داعِيـه مُهْطِعين ، وبالغُوا فى المَوَاثيـق وأكّدُوها ، وشـدَّدُوا فى الأَيمـان وعَقَّدُوها ، وأقسمُوا بالله الذى لا إلٰهَ إلّا هو عالمُ الغَيْب والشَّهاده ، عالِمُ خائنةِ الأعْيُن وما تُخْفِى الصُّدور فى البَدْء والإعادَهْ ، علىٰ الوَفَاءِ لها والمُوَالاه ، والنُّصْح والمُصافاه ، والمُوافَقة والمُشايَعه ، والطاعة والمُتابَعَهْ ؛ يُوالُون مَنْ والاهما ، ويُعادُون مَنْ عاداهمـا ، لا يَقْعُدون عن مُناصَرتهما عند إلْمـامِ مُلِمَّه ، ولا يَرْقُبُون فى عدُوّهما إلّا ولا ذِمّه ؛ جارِينَ فى ذٰلك علىٰ سَنَن الدَّوام والاستمرار ، والثُّبوت واللُّزوم والاستِقْرار ؛ علىٰ أنَّ من بدّلَ منهم من ذٰلك شَرْطا أو عَفَّىٰ له رَسْمـا ، أو حادَ عن طريقِـه أو غيّرله حُكما ، أو سَـلَك فى ذٰلك غيرَ سبيل الأمانَه ، أو استحلَّ الغَـدْر وأظهرَ الخِيانه ، مُعْلِنا أو مُسِرًّا فى كلّه أو بَعْضه ، متأوِّلًا أو مُحْتالا لإبْطاله أو نقْضه ؛ فقد بَرِئَ من حولِ اللهِ المتينِ وقُوّته الواقيه ، ورُكْنه الشـديد وذِمّته الوافيه ، إلىٰ حول نَفْسه وقُوّته ، ورُكْنه وذِمّتـه ؛ وكُلُّ امرأةٍ فى عِصْمته الآنَ أو يتزوّجُها مدّةَ حياتِه طالقٌ ثلاثا بصريح لَفْظ لايتوقَّف علىٰ نِيَّه ، ولا يُفْرَقُ فيه بين سُـنَّة ولا بِدْعة ولا رَجْعةَ فيـه ولا مَثْنَوِيَّه ؛ وكلُّ مملوك فى مِلْكه أو يمْلِكه فى بقيَّـة عُمُره من ذكرٍ أو أُنْثىٰ حُرٌّ من أحرار المسلمين ؛ وكلُّ ما هو علىٰ مِلْكه أو يملِكُه فى بقِيَّـة عُمُره إلىٰ آخر أيّامه من عينٍ أو عَرْض صدقةٌ للفُقَراء والمساكين ؛ وعليه الحجُّ إلىٰ بيتِ اللهِ الحرام ثلاثين حَجّةً بثلاثين عُمْرةً راجلًا حافيًا حاسِرا ، لايقبلُ اللهُ منه غيْرَ الوفاء بها باطِنًا ولا ظاهِرا ؛ وإهْداءُ مائةِ بدنةٍ فى كل حَجّـة منها فى عُسْرته ويُسْرته ، لاتُجْزئُه

واحدةٌ منها عن حَجّة الإسلام وعُمْرته ؛ وصومُ الدهر خلَا المنهِىَّ عنه من أيَّام السَّنه ، وصلاةُ ألفِ ركعةٍ فى كل ليلةٍ لا يُباح له دُونَ أدائها غَمْض ولا سِنَه ؛ لا يقبلُ الله منه صَرْفًا ولا عَدْلا ، ولا يُؤْجَرعلىٰ شيءٍ من ذٰلك قَوْلا ولا فِعْلا ؛ متىٰ ورّىٰ فى ذلك أوٱستثْنىٰ ، أو تأوّلَ أوٱستفْتىٰ ، كان الحنثُ عليه عائدا ،وله إلىٰ دار البَوَار قائدَا ، معتمِدًا فى ذٰلك أشدَّ المَذاهب فى سِرِّه وعلانِيتِه ، علىٰ نِيَّة المستحْلِف له دُونَ نِيَّته ؛ وأمضَوْها بيعةً محكمةَ المَبَانى ثابتةَ القَواعد ، كريمةَ المَساعى جميلةَ المقاصِد ؛ طيِّبةَ الجَنَى جليلةَ العَوائد ، قاطعةَ البراهين ظاهرةَ الشَّواهد ؛ وأشهَدُوا علىٰ أنفُسِهم بذٰلك مَنْ حضر مجلِسَ هذا العَقْد من قُضاة الإسلام وعُلَمائه ، وأئمة الدِّين وفُقَهائه ؛ بعد أن أشهَدُوا الله عليهم وكفىٰ باللهِ شهيدا ، وكفىٰ به للخائنين خَصِيما : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِهِ ومَنْ أَوْفىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيه أَجْرًا عَظِيما ﴾ . والله تعالىٰ يجعلُ ٱنتِقالَهم من أدنىٰ إلىٰ أعلىٰ ، ومن يُسْرىٰ إلىٰ يُمْنىٰ ؛ ويحقِّق لهم بمَن ٱستخْلَفه عليهم وَعْدَه الصادقَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى الأَرْضِ كَمَا ٱستَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ٱرْتَضىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنا ﴾ . إن شاء الله تعالىٰ .

المـــــذهب الرابع

(ممـا يُكْتَب فى بَيْعات الخلفاء أن يفْتَتح البيعةَ بلفظ : هذه بيعة ، ويَصِفَها ويذكُر ماينَاسِبُ ، ثم يعزِّى بالخليفة الميِّت ، ويهنِّى بالخليفة المستقرّ ، ويذكر فى حقِّ كلٍّ منهما مايَليق به من الوَصْف علىٰ نحوٍ مما تقدّم)

وهذه نسخةُ بيعةٍ أنشأها المقَرّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله ، علىٰ مارأيته فى "الجواهر المتَقَطة" المجموعةِ من كلامه ، للإمام الحاكم بأمر الله «أبى العبَّاس» (١) «أحمد بن أبى الرَّبيع سُلَيان» [المستكفى بالله] ابنِ الإمام الحاكم بأمر الله ، بعد موتِ أبيه .

وذكر القاضى تقىُّ الدين بن ناظِر الجيش فى "دُسْتُوره" أنه إنمـا عَمِلها تجربةً (٢) لخاطره ، وهى مُرتَّبة علىٰ موتِ خليفة .

ونصها بعد البسملة الشريفة :

﴿ إنَّ الَّذينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّما يُبَايِعُونَ اللّٰهَ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَـا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِمَـا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّٰهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيما ﴾ .

هـذِه بيعةُ رِضْوان وبَيْعةُ إحْسان ، وبيعةُ رِضًا تَشْهَدُها الجمـاعة ويَشْهد عليها الرحْمٰن ؛ بيعــةٌ يلزَمُ طائرُها العُنق ، وتحُوم بشائرُها علىٰ الأُفُق ، وتحمِلُ أنْباءَها البَارِىُّ والبِحارُ مشحونةَ الطُّرُق ؛ بيعةٌ تصلُح لِنسبها الأُمَّه ، وتُمنَح بسَبَبها النِّعمه ، وتُؤلَّف بهــا الأسْباب وتجعل بَيْنَهم مودّةً ورَحْمــه ؛ بيعةٌ تَجْرى بهــا الرِّفاق ، وتتراحَمُ زُمَرُ

---

(١) كذا فى تاريخ أبى الفداء، وابن إياس والعبر أيضا ووقع فى ج ٣ ص ٢٦٥ من هذا المؤلف أن لقبه المستعصم والصواب ماهنا .

(٢) أى امتحانا لفكره .

الكواكبِ علىٰ حَوْض المَجَرَّة للوِفَاق ؛ بيعةٌ سعيدةٌ مَيْمونه ، بَيْعةٌ شريفة بها السلامةُ فى الدِّين والدنيا مضْمُونه ؛ بيعةٌ صحيحةٌ شرعيَّه ، بيعةٌ ملحوظةٌ مرعيَّه ؛ بيعةٌ تُسابق إليها كلُّ نيَّة وتُطاوع كلُّ طوِيَّه ، وتُجْمِع عليها أشتاتُ البَرِيَّه ؛ بيعةٌ يَسْتَهِلُّ بها الغَمَام ، ويتَهَلَّل البَدْر التَّمـام ؛ بيعةٌ متَّفَق علىٰ الإجماع عليْها ، والاَجتماع لِبَسْط الأيْدى إليها ؛ آنعقَدَ عليها الإجماع ، وآنعقدتْ صِحَّتها بمن سَمِـع للهِ وأطاع ، وبذَلَ فى تَمـامها كلُّ آمرئٍ ماآستَطَاع ، وحصــل عليها آتفاقُ الأبصار والأسماع ، ووصل بها الحقُّ إلىٰ مســتَحِقِّه وأقرَّ الخصمُ وآنقطَع النِّزاع ؛ وتضمَّنها كتابٌ كريم يشهَدُه المقرَّبُونَ ، ويتلَقَّاه الأئمة الأقرَبُون .

﴿ الحمْدُ للهِ الَّذِى هَدَانا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أنْ هَدَانَا الله ﴾ : ﴿ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وعَلىٰ النَّاسِ ﴾ . وإلَيْنا ولله الحمْدُ وإلىٰ بَنِى العَبَّاس . أجمعَ علىٰ هذه البيعـةِ أربابُ العَـقْد والحـلّ ، وأصحـابُ الكلام فيما قَلّ وجَلّ ؛ ووُلاةُ الأمور والأحكام ، وأربابُ المَنـاصِبِ والحُكَّام ؛ وحَمَلَةُ العِلْم والأعلام ، وحُماةُ السُّـيُوف والأقْلام ، وأكابِرُ بنِى عَبْـد منَاف ، ومنِ آنخفَض قَدْرُه وأناف ؛ وسَرَواتُ قُرَيْش ووُجُوه بنى هاشم والبقِيَّةُ الطاهِرةُ من بنى العباس ، وخاصَّةُ الأئمةِ وعامَّةُ الناس ؛ بيعةٌ تُرْسىٰ[(١)] بالحرمين خِيامُها ، وتَخْفِق علىٰ المأْزِمَيْنِ أعلامُها ، وتتعَرَّف عرفاتٌ ببركاتِها وتُعَرَّفُ بِمنًى أيَّامُها ؛ ويُؤَمَّن عليها يومَ الحجِّ الأكبر ، وتؤُمُّ مابين الرُّكْن والمقامِ والمِنْبَر ؛ ولا يُبتغىٰ بها إلا وجْهُ الله الكريم ، وفضْـلُه العميم ؛ لم يبق صاحبُ سَنْجَقٍ[(٢)] ولا عَلَم ، ولا ضارِبٌ بسـيْف ولا كاتِبٌ بقَلَم ؛ ولا رَبُّ حُكْم ولا قضاء ، ولا مَنْ يُرْجَع إليـه فى آتفاقٍ ولا إمضاء ؛ ولا إمامُ مسْجِد ولا خَطِيب ، ولا ذُو فُتْيا يُسْأَل

(١) لعله ترى بالحرمين تأمل .

(٢) فى الأصل سيف وهى تصحيف .

فيُجيب، ولا مَنْ بينَ جَنَبَتِي المساجد ولا من تضُمُّهم اجنِحةُ المحَارِيب، ولا مَنْ يجتَهِد فى رأيٍ فيُخطِئُ أو يُصيب؛ ولامتحدِّثٌ بحديث، ولا متكلِّم بقديم وحديث؛ ولا معروفٌ بدينٍ وصَلَاح، ولا فُرسانُ حربٍ وكِفَاح؛ ولا راشقٌ بسِهَام ولا طاعنٌ برِماح، ولا ضاربٌ بصِفَاح، ولا ساعٍ علىٰ قدَم ولا طائرٌ بغيرِ جَنَاح؛ ولا مخالِطٌ للناس ولا قاعدٌ فى عُزْله، ولا جمعُ كَثْرة ولا قِلَّه؛ ولا مَنْ يستقِلُّ بالجَوْزاء لِواُوه، ولا يقِلُّ فوْقَ الفرقد ثَواُوه؛ ولا بادٍ ولا حاضِر، ولا مُقيمٌ ولا سائر؛ ولا أوّلٌ ولا آخِر، ولا مُسِرٌّ فى باطن ولا مُعْلِنٌ فى ظاهر؛ ولا عربٌ ولا عَجَم، ولا راعِى إبل ولا غَنَم؛ ولا صاحبُ أناةٍ ولا إبْدار، ولا ساكنٌ فى حضَر وباديةٍ بِدَار؛ ولا صاحبُ عَمَد ولا جِدَار، ولا ملَجِّجٌ فى البِحار الزاخرةِ والبرَارِىِّ القِفَار؛ ولا من يتوقَّلُ صَهَواتِ الخيل، ولا مَنْ يُسْبِل علىٰ العَجَاجة الذيل، ولا من تطْلُع عليه شمسُ النهار ونُجُوم الليل؛ ولا من تُظِلُّه السماء وتُقِلُّه الأرض، ولا مَنْ تدُلُّ عليه الأسماء علىٰ آختلافها وترتفِعُ درجاتُ بعضِهم علىٰ بعض؛ حتّى آمَنَ بهذه البَيْعة وأمَّنَ عليها، ومَنّ اللهُ عليه وهداه إليها؛ وأقرّ بها وصدّق، وغَضَّ لها بصَره خاشعًا وأطْرق؛ ومدّ إليها يَدَه بالمُبَايَعه، ومُعتقَدَه بالمُتَابعه؛ رضِىَ بها وٱرْتضاها، وأجاز حُكْمَها علىٰ نَفْسه وأمضاها؛ ودخل تحتَ طاعتِها وعَمِل بمقتضاها: ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نصب الحاكم ليَحْكُم بين عِبَاده وهو أحكَمُ الحاكِمين، والحمدُ لله الذى أخَذَ حقَّ آلِ بيتِ نبيِّه من أيْدى الظالمين؛ والحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين، والحمدُ لله رب العالمين .

وإنه لمَّا آستأثر اللهُ بعبْدِه سُليمانَ أبِى الرَّبيع الإمامِ المستكْفِى بالله أميرِ المؤمنين ـ كَرَّم اللهُ مثواه ـ وعَوَّضه عن دارِ السَّلام بدارِ السَّلَام، ونقله فزَكّى بدنَهُ عن

شهادة السَّــلام بشهادة الإسْــلام؛ حيثُ آثَره ربُّه بقُرْبه، ومَهَّد بجنبه وأقْدمه على ماأقدمه مَنْ يرجُوه لعمَله وكَسْــبه ، وخار له فى جِوَاره رَفِيقا، وجعل له على صالح سَــلَفِه طرِيقَا ؛ وأنزله ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقا﴾. اللهُ أكبرُ ليومه لولا مخلَّفه كادَتْ تَضِيقُ الأرضُ بمـا رَحُبَت ، وتُجْزىٰ كلُّ نفس بمـا كَسَبَتْ ؛ وتُنْبئُ كلُّ سريرةٍ بمـا أدَّخرتْ وما خَبَّتْ ؛ لقــد آضْطَرم سعيرٌ، إلا أنَّه فى الجَوَانح ، لقد آضْطربَ منبرٌ وسريرٌ، لولا خَلَفُه الصالح ، لقد آضْطَرب مأمورٌ وأميرٌ، لولا الفكْرُ بعْدَهُ فى عاقِبة المَصَــالح؛ لقد غاضَتِ البِحار ، لقد غابَتِ الأَنْوار، لقــد غالب البُــدُور ما يلْحَقُ الأهِــلَّةَ من المِحَاق ويُدْرِك البَــدْرَ من السِّرار ؛ نُسِفتِ الجبالُ نَسْفا، وخبَتْ مَصابِيحُ النُّجوم وكَادَتْ تُطْفىٰ : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفّا ﴾ . لقــد جَمعتِ الدنيــا أطرافَهَا وأزمَعَتْ علىٰ المَسير، وجُمعت الأمَّةُ لهَوْل المَصِير، وزاغَتْ يومَ موْتِه الأبْصــار : ﴿ إنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمئِذٍ لَخَبِير ﴾ . وبقِيَت الألبابُ حَيارىٰ ، ووقفَتْ تارةً تُصَــدِّق وتارةً تُمارىٰ ؛ لا تَعرِف قرَارا ، ولا علىٰ الأرض آستِقْرارا : ﴿ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعة شَيْءٌ عَظِيم يَوْم تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعةٍ عَمَّا أرضعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذات حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرىٰ النَّاسَ سُكَارىٰ وما هُمْ بِسُكَارىٰ ﴾ .

ولم يكن فى النَّسَب العباسىِّ ولا فى جميع من فى الوُجُود، لا فى البيتِ المستَرْشِدِىِّ ولا فى غيره من بيوت الخلفاء من بَقايَا آباء لهم وجُدُود ، ولا مَنْ تلِدُه أُخْرىٰ الليالى وهى عاقِرٌ غير ولُود ؛ مَن تسَلَّمُ إليه أمَّةُ محمد صلىٰ الله عليه وسلم عَقْدَ نيَّاتها، وسِرَّ طوِيَّاتها ؛ إلا واحدٌ وأين ذلك الواحد ؟ هو والله من آنْحصَر فيه آستحقاقُ ميراث آبائه الأطهار، وتُراثِ أجداده ولا شىءَ هو إلا ما آشتمل عليــه رِداءُ الليل والنَّهار ؛ وهو آبنُ المنتقل إلىٰ ربِّه، وولَدُ الإمام الذاهبِ لصُلْبِــه؛ المجمَعُ علىٰ أنه فى الأَنَام،

فردُ الأيَّام، وواحدٌ وهكذا فى الوُجود الإمام ؛ وأنه الحائزُ لِما زُرِّرَتْ عليه جُيوبُ المَشارِق والمَغارِب، والفائزُ بِملك مابين الشارق والغارب ؛ الراقى فى صَفِيح السماء هذه الذِّرْوةَ المنيفه، الباقى بعدَ الأئمةِ الماضينَ رضى الله عنهم ونِعْم الخَليفه ؛ المجتمعُ فيه شروطُ الإمامه، المتَّضع لله وهو من بيتٍ لا يزال المُلْك فيهم إلىٰ يومِ القيامه ؛ الذى تَصفَّح السَّحابَ نائلُه، والذى لا يغُرّه عاذرُه ولا يُغَيِّره عاذِلُه ؛ والذى :

تعوّدَ بَسْطَ الكفِّ حتّى لو ٱنّه * ثَنَاها لقَبْضٍ لم تُطِعْه أناملُه

والذى :

لا هُوَ فى الدُّنيا مُضِيعٌ نصيبَه * ولا وَرِقُ الدُّنْيا عن الدِّين شاغِلُه

والذى ما ٱرتقىٰ صَهْوة المِنْبَر بحضرة سلطان زمانِه إلّا قال ناصرُه وقام قائمه ؛ ولا قَعَدَ علىٰ سرير الخلافة إلّا وعُرِفَ بأنّه ما خاب مستكْفِيه ولا غاب حاكِمُه ؛ نائبُ الله فى أرضه، والقائمُ بمَقَام رسول الله صلّى الله عليه وسلم وخليفتُه وٱبن عمِّه، وتابِعُ عملِه الصالح ووارِثُ عِلْمه، سيدنا ومولانا عبدُالله ووليُّه «أحمد أبو العَبَّاس» الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين، أيَّدَ الله تعالىٰ ببقائه الدِّين، وطوّق بسَيْفه [رقاب] المُلْحدين، وكبتَ تحتَ لِوائِه المعتَدين ؛ وكتَب له النصرَ إلىٰ يوم الدين ؛ وكَفَّ بجِهاده طوائفَ المُفسدين، وأعاذَ به الأرضَ ممَّن لا يَدِين بِدِين ؛ وأعاد بعَدْله أيامَ آبائه الخلفاءِ الراشدين والأئمة المَهْديين ؛ الذين قضَوْا بالحق وبه كانُوا يَعْدِلون، وعليه كانُوا يعمَلُون ؛ ونَصر أنصارَه، وقدَّر ٱقتِداره ؛ وأسكن فى قلوب الرعيَّة سكِينَتَه ووَقَارَه، ومكَّن له فى الوُجُود وجمعَ له أقْطارَه .

ولمَّا ٱنتقل إلىٰ الله ذٰلك السيدُ ولَحِق بدار الحقِّ أسْلافَه، ونُقِل إلىٰ سرير الجنة عن سَرير الخلَافه ؛ وخَلَا العصْرُ من إمام يُمْسِك ما بقِيَ من نَهاره، وخليفة يُغالب

مُرْبَدَّ الليل بأنواره ، ووارثِ بنى بمثله ومثلِ أبيه ٱستغنىٰ الوجُود بعد ابن عمه خاتَم الأنبياء صلّى الله عليه وسلم عن نبيٍّ مقتَفٍ علىٰ آثارِه؛ ونَسِيَ ولم يَعْهَدْ فلم يبقَ إذ لم يُوجَد النصُّ إلّا الإجماع ، وعليه كانت الخلافةُ بعدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا نِزَاع ، ٱقتضتِ المصلحةُ الجامعةُ عَقْدَ مجلسٍ كلُّ طَرْف به معْقود ، وعَقْدَ بيعةٍ عليها اللهُ والملائكةُ شهُود ، وجُمِع النـاسُ له ﴿ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ له النّاسُ وذٰلِكَ يومٌ مَشْهُود ﴾ . فحَضَرَ من لم يُعبأ بعده بمن تخلَّف، ولم يُرْبَأْ(١) معـه وقد مدّ يدَه طائعا بمن مَدَّها وقد تكلَّف ، وٱجتمعُوا علىٰ رأْيٍ واحدٍ وٱستخارُوا الله تعالىٰ فيه فخَـار ، وناهيكَ بذٰلك من مُخْتار ، وأُخذتْ يمينٌ تُمـدُّ إليها الأَيْمـان ، ويُشَدّ بها الإيمـان ، وتعطىٰ عليها المَوَاثيق ، وتُعرَض أماناتُهـا علىٰ كلِّ فريق ، حتّى تقـلَّد كلُّ من حضر فى عُنُقه هـذه الأمانَةْ ، وحطَّ يدَه علىٰ المصـحف الكريم وحَلَفَ بالله العظيم وأَتَمَّ أيمـانَه ، ولم يَقْطَع ولم يستثْن ولم يتردَّد ، ومن قَطَع من غير قصدٍ أعاد وجَدّد ، وقد نَوىٰ كلُّ مَنْ حلف أنّ النيةَ فى يمينه نيّةُ من عُقِدت هذه البيعةُ له ونيةُ من حَلَفَ له ، وتذمّم بالوفاء فى ذمّته وتكفَّله ، علىٰ عادةِ أيمـان البيعة بشُروطها وأحكامِها المردَّده ، وأقسامِها المؤكَّده ، بأن يبذُل لهذا الإمام المفترضة طاعتُه الطاعه ، ولا يُفارقَ الجمهورَ ولا يُظْهِرَ عن الجماعة ٱنْجِاعَه ، وغير ذٰلك ممـا تضمَّنته نُسَخُ الأيمـان المكتتَبُ فيها أسمـاءُ من حلف عليها ممـا هو مكتوبٌ بخُطوط من يكتُب منهم ، وخطوط العُدُول الثِّقات عمَّن لم يكْتُبْ وأذنوا لمن يكتب عنهم ، حسَبَ مايشهَدُ به بعضُهم علىٰ بعض ، ويتصادقُ عليـه أهلُ السماء والأرض ، بيعةٌ تمّ بمشيئة الله تمـامُها ، وعَمَّ بٱصَوْب الغدَق غَمَامُها ، ﴿ وقالوا الحمدُ لِلّهِ الذى أذْهَبَ عنّا الحَزَن ﴾ . ووهبَ لنا الحسَن ، ثم الحمدُ لله الكافى عبْـدَه ، الوافِى وَعْدَه ، المُوافى لمن يُضاعِفُ علىٰ كل

(١) أى لم يبال به ولم يكترث . انظر اللسان والقاموس .

مَوْهِبة حَمْدَه، ثم الحمدُ لله على نِعمٍ يرغَبُ أميرُ المؤمنين فى ٱزْدِيادها، ويرهَبُ إلَّا أن يقاتِلَ أعداءَ الله بأمْدادها؛ ويرأَبُ بها ماآثرَ فيما أثر ممـاليكه (؟) مابانَ من مُباينةِ أضـــدادِها .

نحمُده والحمد لله، ثم الحمدُ لله كلمةً لا نَمَلُّ من تَرْدادها، ولا نَبْخَل بمـا يُفوِّق السِّهامَ من سَدَادها، ولا نَظلُّ إلَّا علىٰ مايوجب كثرةَ أعْدادِها، وتيسيرِ إقرار علىٰ أورادِها؛ ونشهدُ أنْ لاإلٰه إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتقايسُ دَمُ الشهداء ومَدُّ مِدادها، وتتنافَسُ طُرَرُ الشَّـباب وغُررُ السَّحاب علىٰ ٱستمدادها؛ وتتجانَسُ رُقومُها المدَبَّجـة وما تلبَسه الدولةُ العباسيَّة من شِعَارها، والليالى من دِثَارِها، والأعداءُ من حِدَادها؛ ونشهدُ أنَّ ســيدنا محمدا عبدُه ورسولُه صلَّى الله عليه وسـلم وعلىٰ جماعةِ آلِهِ مَنْ سَفَل من أبنائها ومن سَــلَف من أجدادِها؛ ورضى اللهُ عن الصحابة أجمعين، والتابعين لهم باحسانٍ إلىٰ يوم الدين .

وبعــدُ، فإنَّ أمير المؤمنين لِمَـا أكْسبه الله تعالىٰ من ميراث النُّبوّة ما كان لجَدّه، ووَهَبه من الملك السُّلَيْمانىّ عن أبيه مالا ينْبغِي لأحدٍ من بعده؛ وعَلَّمه مَنْطِقَ الطيرِ بمـا تتحمَّلُه حمائمُ البطائقِ من بَدَائع البيــان، وسَخَّر له من البَرِيد علىٰ مُتُون الخيـل ماسَخَّر من الرِّيح لسليمان؛ وآتاه من خاتَم الأنبيـاء ماأمدّه به أبُوه سـليمان وتَصَرَّف، وأعطاه من الفَخار ماأطاعه به كلُّ مخلوق ولم يتخَلَّف؛ وجعل له من لِبَاس بنى العَبَّاس مايقضِى له سوادُه بسُؤْدَد الأجداد، وينفُضُ علىٰ كُحَل الهُدْب مافضَل عن سُوَيْداء القلب وسَوَاد البصر من السَّوَاد؛ ويَمُدُّ ظلَّه علىٰ الأرض فكلُّ مَكانٍ حَلَّه دارُ مُلْك وكلُّ مدينـةٍ بَغْداد؛ وهو فى لَيْـله السَّجَّاد، وفى نهـاره العَسْكرِىُّ وفى كرمه جَعْفَرُ الجَوَاد ــ يُديم الأبتهالَ إلىٰ الله تعالىٰ فى توفيقِه، والآبتهاجَ بما يُغصُّ كلَّ عدُوٍّ بريقِه؛ ويَبْدَأُ يومَ هذه المُبايعةِ بما هو الأهمُّ من مَصَالح الإسلام، وصالح الأعمال ممـا يَتَحَلَّى

به الإمام، ويُقدِّمُ التقوىٰ أمامَه، ويقْرُن عليها أحكامَه، ويتّبع الشرعَ الشريفَ ويَقف عنده ويُوقِفُ الناس، ومَنْ لايحْمِلُ أمْرَه طائعًا علىٰ العين حملَهُ بالسَّيف غَصْبا علىٰ الرَّأس، ويعجِّلُ أميرُ المؤمنين بما يَشْفِي به النُّفوس، ويُزِيل به كَيْدَ الشيطان إنه يَئُوس، ويأخُذُ بقلوب الرَّعايا وهو غنيٌّ عن هذا ولٰكِنْ يَسُوس؛ وأميرُ المؤمنين يُشْهِد الله وخليقَتَه عليه أنه أقرَّ كلَّ آمْرِئ من وُلاة الأمور الإسلاميَّة علىٰ حاله، وآستَقرّ به فى مَقِيله تحتَ كَنَف ظِلَاله؛ علىٰ آختِلاف طبَقَات وُلَاة الأمور، وتفرُّقِهم فى الممالك والثُّغُور؛ برًّا وبَحْرا، سَهْلا ووَعْرا، وشَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا، وكُلَّ جليلٍ وحَقِير، وقَليلٍ وكثِير؛ وصَغِير وكبِير، ومَلِك ومملُوك وأمِير، وجُنْدِيٍّ يَبْرُق له سيْفٌ شَهِير، ورُمْحٌ طَرِير؛ ومَنْ معَ هٰؤلاء من وُزَراءَ وقضاةٍ وكُتَّاب، ومَنْ له يدٌ تبقىٰ فى إنشاءٍ وتحقيقِ حساب؛ ومَنْ يتحدَّثُ فى بَرِيد وخَرَاج، ومن يُحتاجُ إليه ومن لا يُحْتاج؛ ومَنْ فى الدُّروس والمَدَارس والرُّبُط والزَّوَايا والخَوَانق، ومَنْ له أعظَمُ التعلُّقات وأدْنىٰ العلائق؛ وسائرَ أربابِ المراتب، وأصْحابِ الرَّواتب؛ ومَنْ له فى مال الله رِزْقٌ مقْسوم، وحقٌّ مجهولٌ أو معْلُوم؛ وآستِمْرارَ كلِّ أمْرٍ علىٰ ماهو عليه، حتّىٰ يستخيرَ اللهَ ويتبيَّنَ له مابين يدَيْه؛ فما زاد تأهيلُه، زاد تفضيلُه؛ وإلّا فأميرُ المؤمنين لايُرِيد سِوىٰ وجْهِ الله، ولا يُحابِي أحدًا فى دِين، ولا يُحامى [عن] أحد فى حقّ؛ فإنّ المُحاماةَ فى الحقِّ مداجاةٌ علىٰ المسلمين؛ وكلُّ ما هو مستمِرٌّ إلىٰ الآنَ، مستقِرٌّ علىٰ حُكْم الله مما فَهَّمه الله له وفَهَّمه سليمانَ، لا يغيرُ أميرُ المؤمنين فى ذٰلك ولا فى بعضه، معتبر مستمرٌّ بما شكَرَ اللهَ علىٰ نعمه وهكذا يُجازِئ من شكَر، ولا يكدِّر علىٰ أحدٍ موْرِدا نَزَّهَ اللهُ به نِعمَه الصافيةَ عن الكَدَر، ولا يتأوّلُ فى ذٰلك متأوّلٌ ولا من بَخْر النعمةَ أو كَفَر، ولا يتعلَّل متعلِّل فإنَّ أميرَ المؤمنين يعُوذُ بالله ويُعيذ أيّامه من الغيَر، وأمَرَ أميرُ المؤمنين ـ أعلىٰ اللهُ أمْره ـ

أن يُعْلِنَ الخطبـاءُ بذكرِه وذكرِ سـلطان زمانه علىٰ المَنـابر فى الآفاق، وأن تُضْرَب باسمهما النُّقُودُ المتعامَلُ بها علىٰ الإطْلاق؛ ويُبْتَهج بالدعاء لهما عطْف الليل والنهار، ويُصَرَّحَ منه بمـا يُشرق به وجهُ الدِّرْهم والدِّينار، وتُباهِى به المنابرُ ودورُ الضرب: هاتيك ترفَعُ آسمَهما علىٰ أسرَّة مُهُودها، وهذه علىٰ أساريرِ نقُودها؛ وهذه تقامُ بسببها الصَّلاة، وتلك تُدامُ بها الصِّلات؛ وكِلَاهما تُستمالُ به القلوب، ولا يُلَام علىٰ ماتعيه الآذانُ وتُوعِيه الجُيُوب؛ وما منهما إلَّا من تُحدِّق بجواره الأحْداق، وتميلُ إليه الأعناق؛ وتُبْلَغ به المقاصد، ويقوىٰ بهما المُعاضِد؛ وكلاهمـا أمرُه مطاعٌ، من غير نزاعٍ، وإذا لمعَتْ أزِمَّةُ الخُطَب طار للذَّهَب شُـعَاع؛ ولولاهمـا ما آجتمع جمعٌ ولا آنضمّ، ولا عرفَ الأنَامُ بمَنْ تأْتمّ؛ فالخُطَب والذهبُ معناهمـا واحد، وبهما يذكُر اللهَ قيَّاءُ(١) المساجد؛ ولَوْلا الأعمال، مابُذِلت الأَمْوال، ولوْلا الأموال، ماوُلِّيت الأعمال؛ ولأجْل ما بينهما من هذه النِّسبه، قيل إنَّ الملكَ له السِّكّة والخُطْبه؛ وقد أسمع أميرُ المؤمنين فى هذا الجمع المشْهُود مايتناقَلُه كلُّ خطِيب، ويتداوَلُه كلُّ بعيد وقريب، وإنَّ الله أمر بأوامر ونهىٰ عن نَواهٍ وهو رقيب؛ وتستفْزِعُ الأولياءُ لهـا السَّجايا، وتتضَرَّعُ الخطباءُ فيها بنُعوت الوَصَايا؛ وتكِّمل بها المَزَايا، ويتكلَّم بها الواعظ ويُخْرِج من المشايخ الخَبَايا من الزَّوايا؛ وتَسْـمُرُ بها السُّمّار ويترنَّم الحادِى والمَلّاح، ويروق شَجْوُها فى الليل المُقْمِر ويُرقَمُ علىٰ جَنْب الصَّـباح؛ وتُعَطِّر بها مكةُ بطْحاءَها وتحيا بحديثها قُباه، ويلقنُهاكلُّ أبٍ فَهْم آبنه ويسأل كلَّ آبنٍ أن يُجيب أباه؛ وهو لكم أيُّها الناسُ من أمير المؤمنين رُشْـد وعليكم بيِّنه، وإليكم مادعَاكُمْ به إلىٰ سبيل ربِّه من الحِكْمة والمَوْعظة الحَسَنه؛ ولأمير المؤمنين عليكم الطاعةُ ولولا قيامُ الرَّعايا بها ما قَبِل اللهُ أعمالها، ولا أمسَكَ بها البحر ودحا الأرْض وأرْسىٰ جبالَهَا؛ ولا آتفقت

(١) كذا ضبط فى بعض النسخ ولعل الصواب قيّام، أوقوّام. تأمل.

الآراءُ على من يستحق وجاءتْ إليه الخلافَةُ تجُرّ أذيالَها ، وأخذها دُونَ بنى أبيه ولم تكُنْ تصلُح إلَّا له ولم يكُنْ يصْلح إلَّا لها؛ وقد كَفَاكم أميرُ المؤمنين السُّؤال بما فَتَح لكم من أبواب الأرزاق ، وأسباب الارْتِفاق ؛ وأحسن لكم على وِفَاقكم وعَلَّمكم مَكارِمَ الأخْلاق ، وأجراكم على عوائِدِكم ولم يُمْسِكْ خَشْيةَ الإمْلاق ؛ ولم يَبْقَ على أمير المؤمنين إلَّا أن يسِيرَ فيكم بكتَابِ اللهِ وسنةِ رسوله صلَّى الله عليه وسلم ، ويعمَلَ بما ينتفِعُ به مَنْ يجىء ـ أطال الله بقاء أمير المؤمنين ـ من بعده ، ويَزِيدَ على كل من تقدَّمَ ، ويُقِيمَ فروضَ الحج والجِهاد ، ويُنِيمَ الرعايا بعَدْله الشامل فى مِهَاد ؛ وأمير المؤمنين يُقِيمُ على عباده مَوْسِمَ الحجِّ فى كل عام ، ويشمَلُ سُكَّان الحرمين الشريفين وسَدَنةَ بيتِ الله الحرام ؛ ويجهِّزُ السبيل على عادته ويرجُو أن يَعُودَ إلى حاله الأوّل فى سالف الأيَّام ، ويتدَفَّقَ فى هذين المسْجدين بحرُه الزاخر ويُرسِلَ إلى ثالثهما البيتِ المقدَّس ساكبَ الغمام ؛ ويقُومَ بقَوَمة قُبُور الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ أينَ كانُوا وأكثرُهم فى الشام ؛ والجُمعُ والجماعاتُ هى فيكم على قَدِيم سُنَنِها ، وقَوِيم سَنَنِها ؛ وستَزِيدُ فى أيَّام أمير المؤمنين بمن انضمَّ إليه ، وبما يتسلَّمُه من بلاد الكُفَّار ويُسْلِم على يديه .

وأمَّا الجِهَاد ، فيكْتفِى باجتهاد القائم عن أمير المؤمنين بأُمُوره ، المقلَّدِ عنه جميعَ ماوراء سَرِيرِه ؛ وأمير المؤمنين قد وكَل إليه ـ خلد الله سلطانه ـ عَنَاءَ الأيَّام ، وقلَّده سيفَه الراعب بَوارِقُه ليَسُلَّه واجدُه على الأعداء [وإلَّا] سَلَّ خَيَالُه عليهم فى الأحْلام ؛ ويؤكِّد أمير المؤمنين فى ارتجاع ماغلَب عليه العِدا ، وانتزاع [مابأ]يْدِيهم من بلاد الإسلام فإنَّه حَقُّه وإنْ طال عليه المَدى ؛ وقد قدّم الوصية بأنْ يُوالِى غزْوَ العَدُوّ المخذول بَرًّا وبحرا ، ولا يَكُفَّ عمَّن يَظْفَر به منهم قَتْلا وأسْرا ، ولا يُفكَّ أغْلالا ولا إصْرا ؛ ولا يَنْفَكّ يرسل عليهم فى البحر غِرْبانًا ، وفى البرّ من الخيل عقْبانًا ؛ يحْمل

فيهما كلّ فارسٍ صَقْرا، ويحمِى المـالكَ ممن يحوزُ أطرافها بإقدام، ويَتَخَوَّلُ أكنافَهَا الأقْدام؛ وينظُر فى مصالح القِلَاع والحُصُون والثُّغور، وما يُحتاج إليـه من آلاتِ القتَال، وما تُجْتاح به الأعداءُ ويعجِزُ عنه المُحْتال، وأُمَّهاتِ الممـالك التى هى مَرابِطُ البُنُود، ومَرَابِضُ الأُسُود، والجَنَاحُ الممدود؛ ويتفقَّدُ أحوالَهُمْ بالعَرْض، بمـا لهم من خَيْل تعْقِد [بالعجاج] ما بين السماء والأرض؛ ومالهم من زَرَد مصُون، وبَيْض مَسَّها ذائبُ ذهبٍ فكانتْ كأنَّها بَيْضٌ مكْنون؛ وسيوفٍ قَوَاضِب، ورِماحٍ لكثْرة طعنِها من الدِّماء خَواضِب، وسِهام تُواصِـل القِسِيَّ وتفارقُها فتحِنُّ حنِينَ مفـارِقٍ وتُزجِرُ القوس زجْرةَ مُغاضِب.

وهـذه جملةٌ أرادَ أميرُ المؤمنين بهـا تَطْييبَ قلوبِكم، وإطالةَ ذَيْل التطويلِ علىٰ مطْلوبكم؛ و ماؤكم وأموالُكم وأعراضُكم فى حِمَـايةٍ إلا ماأباح الشرعُ المطَهَّر، ومَزِيدُ الإحسان إليكم علىٰ مِقْدار مايخفىٰ منكم ويَظْهر.

وأما جُزْئِيَّات الأمور، فقد علِمْتم بأنَّ فِيمن تقلَّد عن أمير المؤمنين غِنيً عن مثل هـذه الذِّكْرىٰ، وفتىً حقٍّ لا يَشْـغَل بطلب شيءٍ فكرا؛ وفى وُلَاة الأمور، ورُعاة الجُمْهور؛ ومَنْ هو سدَاد عمله، ومِدَادُ أمـله، ومُرادُ من هو منكم معشر الرعايا من قِبَله؛ وأنتم علىٰ تَفاوُتِ مقاديرِكم وديعةُ أمير المؤمنين ومَنْ خَوَلكم وأنتم وهم فمـا منْكم إلَّا من ٱسـتعرف أمير المؤمنين وتمشى فى مَراضى الله علىٰ خُلُقه، وينظر ما هو عليه ويسير بسـيرته المُثْلىٰ فى طاعة الله فى خلقه؛ وكُلُّكم سواء فى الحق عند أمير المؤمنين وله عليـكم أداءُ النَّصيحه، وإبداء الطاعة بسَريرةٍ صحيحه؛ وقد دخل كلٌّ منكم فى كَنَف أمير المؤمنين وتحت رأفتـه، ولزِمَ حُكْمَ بيعته؛ وأُلْزِم طائِرَه فى عُنُقه، ويستعمل كلٌّ منـكم فى الوفاء ما أصبحَ به عليما: ﴿ومَنْ أَوْفىٰ بمـا عاهَدَ عليهُ اللهَ فسَيُؤْتِيه أجْرا عظيما﴾.

هذا قولُ أميرِ المؤمنين، وعلىٰ هذا عُهِد إليه وبه يَعْهَد، وماسوىٰ هذا فهو بُهُور لا يُشْهَد به عليه ولا يَشْهَد؛ وهو يعملُ فى ذلك كلّه ما تُحمَد عاقبتُه من الأعمال، ويحمِلُ منه ما يصْلُح به الحال والمآل؛ وأميرُ المؤمنين يستغفرُ اللهَ علىٰ كل حال، ويستعيذُ بالله من الإهمال؛ ويَختِمُ أميرُ المؤمنين قولَه بما أمر اللهُ به من العدل والإحسان، ويَحمَدُ الله وهو من الخلق «أحمَد» وقد آتاه اللهُ مُلْكَ سليمان؛ والله تعالىٰ يمتّع أميرَ المؤمنين بما وَهَبه، ويملّكه أقطارَ الأرض ويُورِثه بعد العُمُر الطويل عقِبَه؛ ولا يزال علىٰ أَسِرَّة العَلْياء قُعودُه، ولباسُ الخلافة به أبّهة الجلالة كأنّه مامات منصورُه ولا رَدى مَهْدِيُّه ولا ذهب رَشِيدُه (١).

المقصد السادس

(فيما يكتب فى آخر البَيْعة)

إذا آنتهىٰ إلىٰ آخر البَيْعة، شرع فى كتابة الخَواتم علىٰ ما تقدّم، فيكتُب: "إن شاء الله تعالىٰ" ثم يكتب التاريخ. ثم الذى يقتضيه قياسُ العُهُود أنه يكتب المستَنَد عن الخليفة فيكتب «بالإذنِ العالى المولَوِىّ الإمامىّ النبوىّ المتوكّلىّ — مثلا — أعلاه الله تعالىٰ» وكأنَّ الخليفة الذى عُقدت له البيعةُ هو الذى أذِن فى كتابتها.

قلت: ولو أُسقِط المستَنَد فى البيعات فلا حرج بخلاف العُهُود: لأنها صادرة عن مُوَلٍّ وهو العاهد، فحُسن إضافة المستَنَد إليه، بخلاف البيعة فإنها إنما تصْدُر عن أهل الحَلّ والعَقْد كما تقدّم. ويُكتفىٰ فى المستَنَد عنهم بكتابة خُطوطهم فى آخر

(١) هذه المعاهدة من قلم القاضى الفاضل ليست لابسة حلل بلاغته ولا متسربلة جلابيب فصاحته فهى تجربة لم تنقح ومسودّة لم تصحح كما أشار إليه آبن ناظر الجيوش فليتنبه.

البيعة كما سيأتى ؛ ثم بعـد كتابة المستَنَد ـ إن كُتِب ـ تُكتَب الحمدلةُ والصلاةُ علىٰ النبيّ صلىّ الله عليه وسـلم والحَسْبلة ، علىٰ ماتقـدّم فى الكلام علىٰ الفَوَاتح والخَوَاتم فى مقدّمة الكتاب .

ثم يكْتُب مَنْ بايع من أهل الحلّ والعقْد والشهود علىٰ البَيْعة .

فأما منْ تَولَّى عقْـدَ البيعة من أهل الحلّ والعقْد فيكتب : « بايعتُه علىٰ ذٰلك ، وكتب فلانُ بنُ فلان» ويدعو فى خلال ذٰلك قبل ٱسمه بمـا يناسب : مثل أن يقال « بايعتُـه علىٰ ذٰلك قدّس الله خلافَتَه » أو « زاد الله فى شَرَفه » أو « زاد الله فى ٱعْتِلائه» وما أشبه ذٰلك .

وأما الشهود علىٰ البَيْعة فالواجب أن يكتُب كلٌّ منهـم : «حضَرْتُ جَرَيانَ عقد البَيْعـة المذكورة ، وكتب فلانُ بنُ فلان» كما يكتب الشاهد بجَرَيان عقْـدِ النكاح ونحوه ؛ ولا بأس أن يدعُوَ فى رسم شهادته قبل كتابة ٱسمه بما يناسب : مثل « قَرَنَها اللهُ تعالىٰ باليُمْن أو بالسداد » أو « عَرَّف الله المسلمين بركَتَها » وما أشبه ذٰلك .

المقصـــــد السابع

(فى قَطْع الورق الذى تُكتَب فيه البيعةُ ، والقلمِ الذى تُكتَب به ، وكيفيَّـــةِ كتابتها ، وصورةِ وضْـــعها)

وٱعلم أنَّ البَيْعاتِ لم تكن متَداوَلةَ الاِستعمال لقلَّة وُقُوعها ، فلم يكن لها قَطْع ورق ، ولا تصويرٌ متعارَفٌ فيتبع ؛ ولٰكنه يُؤْخَذ فيها بالقياس وعمومِ الألفاظ .

فأمَّا قَطْع ورَقها ، فقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنيّ فى كتاب "القَلَم والدَّواة" أنّ قطع البغدادىّ الكامل للْخُلَفاء والملُوك . ومقتضىٰ

ذلك أنّ البيعات تُكتب فيه ، وهو قياسُ ماذكره المقرّ الشهابيّ بنُ فضل الله في "التعريف" من أنّ للعهود قطْعَ البغداديّ الكامل على ماسيأتى ذكره .

قلت : لكن سيأتى فى الكلام على عُهود الخلفاء أنها الآنَ قد صارتْ تكتبُ فى قطع الشامى الكامل ، وبينهما فى العَرْض والطُّول بَوْن كبير على ما تقدّم بيانُه فى الكلام على قَطْع الورق ؛ وحينئذٍ فينبَغِى أن تكونَ كتابةُ البَيْعات فى قَطْع الشامىّ مناسبةً لما تُكتبُ فيه عهودُ الخلفاء الآنَ .

وأمّا القلم الذى يُكتب به فبحَسَب الورق الذى يُكتَب فيه : فإن كُتبتِ البيعةُ فى قطع البَغْدادىّ ، كانت الكتابةُ بقلَمِ مختصَر الطُّومار إذْ هو المناسبُ له ؛ وإن كُتِبتْ فى قطع الشامىّ ، كانت الكتابةُ بقلَمِ الثلُث الثقيلِ إذ هو المناسبُ له .

وأما كيفيّة الكتابة وصورةُ وضعها ، فقياسُ ماهو متداوَل فى كتابة العُهُود وغيرها ، أنه يبتدأُ بكتابة الطُّرّة فى أوّل الدَّرْج بالقلم الذى تُكتَب به البيعةُ سُطورا متلاصقةً لا خُلُوَّ بينها ، ممتدّةً فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلى آخره من غير هامشٍ . ثم إن كانت الكتابة فى قطع البغدادىّ الكاملِ ، جرىٰ فيه على القاعدة المتداوَلَة فى عُهُود الملوك عن الخلفاء على ماسيأتى ذكره ؛ ويترُكُ بعد الوصل الذى فيه الطُّرّةُ ستة أوصال بياضًا من غير كتابة : لتصير بوصل الطرّة سبعةَ أوصال ؛ ثم يكتُب البسملة فى أوّل الوصل الثامن بحيث تكون أعالى ألِفاته تكاد تلحقُ الوصل الذى فَوْقه بهامشٍ عريضٍ عن يمينه قدرَ أربعة أصابعَ أو خمسةٍ مطبوقةً ؛ ثم يكتُب تحتَ البسملة سطرا من أوّل البيعة ملاصقًا لها ؛ ثم يخلِّى مكانَ بيت العلامة قدرَ شبر جَرْيا على قاعدة العُهُود وإن لم تكن علامةٌ تُكتب ، كما يخلّى بيتُ العلامة فى بعض المكاتبات ولا يكتَبُ فيه شىء ؛ ثم يكتب السطر الثانى تحت بيت العلامة على

سَمْت السطر الذى تحتَ البسملة فى بقيَّة الوصل الذى فيه البسملةُ ؛ ويحرِص أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى أثناء السطر الأوّل أو الثانى ؛ ثم يسترسل فى كتابة بقيَّة البيعة ويجعل بين كل سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُماش كما سيأتى فى العهود ؛ ويستصْحِب ذٰلك إلىٰ آخر البيعةِ ، فإذا آنتهىٰ إلىٰ آخرها كتب "إن شاء الله تعالىٰ" ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحَمْدلةَ والصلاةَ علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والحَسْبلةَ ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفواتح والخواتم فى مقدّمة الكتاب ؛ ثم يكتُبُ من بايعَ من أهل الحَلِّ والعقد خُطوطَهم ، ثم الشهودُ علىٰ البيعة بعدهم .

وإن كانت الكتابة فى القطع الشامىّ ، فينبغى أن ينقُصَ عددُ أوصال البياض الذى بين الطرَّة والبسملة وصلين فتكون خمسة ، وينقص الهامش فيكون قدْرَ ثلاثة أصابع علىٰ ما يقتضيه قانونُ الكتابة .

وهذه صورة وضعه فى الورق ممثّلا لها بالطرَّة التى أنشأتُها لذٰلك ، والبيعة الثانية من البيعتين اللتين أنشأتُهما

بياض بأعلىٰ الدرج بقدر إصبع

هذه بَيْعةٌ ميمُونه ، باليُمْن مبتَدَاة بالسعد مَقْرونه ؛ لمولانا السيدِ الجليل الإمام النبوىّ المتوكّل علىٰ الله أبى عبدِ الله محمدٍ أمير المؤمنين ، آبن الإمام المعتضِدِ بالله أبى الفتح أبى بَكْر العبَّاسىّ : زاد اللهُ تعالىٰ شرفَه علُوّا ، ونخاره سُمُوّا . قام بعَقْدها السلطانُ السيدُ الأعظم ، والشاهنشاه المعظَّم ، الملكُ الظاهر أبو سعيد برقُوق ، خلَّد الله تعالىٰ سلطانَه ، ونصر جُيُوشَه وأعوانه ؛ بمجمعٍ من أهل الحَلِّ والعَقْد ، والآعتبار والنقد : من القُضَاة والعلماء والأمراء ، ووجوه الناس والوزراء والصُّلَحاء والنُّصَحاء ؛ وإمضائها علىٰ السَّداد ، والنُّجْح والرشاد . علىٰ ماشرح فيه

ابتداء العرض

انتهاء العرض

بياض ستة أوصال

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

هامش الحمـــدُ لله الذى جعلَ بيتَ الخـــلافة مَثَابةً للناس وأمْنـا وأقام

بيت العـــلامة

تقدير شبر

سُـــورَ الإمامـــة وِقَايةً للأنام وحِصْـــنا ، وشـــدّ منها بالعِصَابة

تقـــدير ربع ذراع

القُرشِـــيَّة أزْرا وشـاد منها بالعُصْـــبة العبَّاســـيّة رُكْنا . وأغاث

تقـــدير ربع ذراع

الخلقَ بإمامِ هُدًى حَسُن سِيرةً وصَفَا سريرةً فراقَ صورةً ورقّ معنى .

ثم يأتى علىٰ الكلام إلىٰ آخر البيعة علىٰ هذا النَّمط إلىٰ أن ينتَهِىَ إلىٰ

قوله : والله تعالىٰ يجعَلُ ٱنتقالهم من أدْنىٰ إلىٰ أعلىٰ ومن يُسْرىٰ إلىٰ يمنىٰ ،

ويحقِّق لهم بمن ٱستخلَفَه عليهم وعْدَه الصادقَ بقوله تعالىٰ : ﴿ وعَدَ اللهُ

هامش الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كما آسْتَخْلَفَ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ولَيُمَكِّنَنَّ لهم دِينَهُمُ الَّذِي آرْتَضَى لَهُمْ ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنا) .

إن شاء الله تعـالىٰ

كتب في الثاني من جمادىٰ الأولىٰ مثـــلا

سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة

بالإذْن العالى المَوْلَوِىّ الإمامى النبوىّ المتوكلى مثـــلا

أعـــــلاه الله تعـالى

الحمدُ لله وحدَه ، وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبِه وسلامُه

حسبُنا اللهُ ونِعم الوكيل

صورة خط المبايعين للخليفة من أهل الحل والعقد

بايعته علىٰ ذلك	بايعته علىٰ ذلك	بايعته علىٰ ذلك
قدّس الله تعالىٰ خلافته	زاد الله تعالىٰ فى شرفه	زاد الله تعالىٰ فى آعتلائه
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

صـــورة خط الشـــهود على البيعـــة

حضرت	حضرت	حضرت
جَرَيان عقد	جَرَيان عقد	جَرَيان عقد
البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة
قرنهـــا الله تعالىٰ	قـــرَنَهَا الله تعـالىٰ	عَرَّف اللهُ المسلمين
باليُمْن والبركة	بالسَّـــداد	بركتهَـــا
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

النـــوع الثـانى

(من البَيْعات ، بيعاتُ المـــلوك)

وآعلم أنَّ المقرّ الشِّهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "التعريف" : أنَّ مَنْ قام من الملوك بغير عهد ممن قَبْـله لم تجر العادةُ بأن تُكتَب لهم مبايعةٌ ؛ وكأنَّه يريد آصطلاحَ بلاد المَشْرِقِ والديار المِصْرية ؛ أما بلادُ المغرب فقد جرتْ عادة مصطلَحهم بكتابة البَيْعات لملُوكهم ، وذٰلك أنه ليس عندهم خليفةٌ يَدِينون له ، يتقلَّدون المُلْكَ بالعـهد منه . بل جُلُّهم أو كلُّهم يدَّعى الخلافةَ فهم يكتُبون البيعاتِ لهذا المعنىٰ .

وهذه نسخةُ بيعةٍ من هــذا النوع ، كُتِب بها للســلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان أبى الحَجَّاج بن نَصْربن الأحمر الأنصارىّ ، صاحبِ حمراء غَرْناطةَ من الأندَلُس ، مفتتحةٌ بخُطبة علىٰ قاعدتهم فى بَيْعات الخلفاء علىٰ ماتقدّم ذكره ، وربمـا تكرَّر الحمدُ فيها دلالةً علىٰ عِظَم النعمة . من إنشاء الوزير أبى عبدالله محمدِ بنِ الخطيب صاحب ديوان إنشائه ، علىٰ مارأيتُه فى ديوان ترسُّله ، وهى :

الحمدُ لله الذى جلّ شانا، وعزّ سُلطانا ؛ وأقام علىٰ رُبُوبيّته الواجبة فى كلّ شىء خَلَقه بُرهانا، الواجبِ الوجودِ ضرورةً إذ كان وُجودُ ماسِـواه إمْكانا؛ الحىِّ القيُّوم حياةً أبديّةً سَرْمديّةً منزّهة عن الابتداء والانتهاء [فلا تَعْرِف وقْتا ولا تستَدْعِى زمانا؛ العلـيم الذى يعْـلَمَ السِّرَّ وأخفىٰ] (١) فلا يعزُبُ عن عِلْمه مِثقـالُ ذَرّة فى الأرض ولا فى السماء إلّا أحاط بها عِلْمـا وأدركها عِيَانا؛ القـديرِ الذى ألْقتِ الموجُوداتُ كلُّها إلىٰ عَظَمتـه يَدَ الخُضُوع ٱستِسْلاما له وإذْعانا . المُريدِ الذى بمشـيئته تصريفُ الأقدار، وٱختلافُ الليلِ والنّهار ، فإن منع مَنَع عَدْلا وإن مَنَح مَنَح إحسانا ؛ شَهِد تداوُلُ المُلوك بدَوَام مُلْكه ودلَّ حدُوثُ ماسـواه علىٰ قِدَمه ، وأثنتْ ألْسِـنَةُ الحىّ والجمـادِ علىٰ مَواهبه وقِسَـمه ، وفاضَ علىٰ عَوَالم السماء والأرض بحرُ جُوده العميم النَّوال من قَبْل السؤال وكَرمه ، وإنْ مِنْ شَىْء إلا يُسَبّح بحمده ويُثْنِى علىٰ نِعَمه سرا وإعلانا . فهو اللهُ الذى لاإلٰهَ إلّا هو ليس فى الوجود إلّا فعلُه ، ألَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ وإليه يَرْجِعُ الأَمْرُ كُلُّه، وَسِعَ الأكوانَ علىٰ تباينها فَضْلُه ، وقَدَّر المواهِبَ والمقاسِمَ عدلُه ، مَنْعا ومَنْحا وزيادةً ونُقصانا .

والحمدُ لله الذى بيده الٱختراعُ والإنشاء ، مالكِ الملك يُؤتِى المُلْكَ مَنْ يَشَاء ويَنْزِع الملك ممَّن يَشَاء، سبَقَ فى مكنُون غيبه القَضاء، وخَفِيتْ عن خلقه الأسبابُ وعَمِيتْ عليهم الأنباء، وعجزَتْ عقولُهم أن تُدْرِك منها كُنْهًا أو تَكْشِف منها بَيَانا .

والحمدُ لله الذى رفَعَ قُبّة السماء ما ٱتّخذ لها عِمَادا ، وجعل الأرضَ فِراشًا ومِهَادا ، وخلق الجبالَ الراسِـيَةَ أوْتادا ، ورتّب أوضاعَها أجنـاسا متفاضلة، وأنواعًا متباينةً مُتقابِلة : حَيوَانًا ونباتًا وجمادًا ، وأقام فيها علىٰ حكمة الإبداع دلائلَ باهرةَ الشُّعَاع

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب لأبن الخطيب (ص ٤٨ ج ١) .

وأشهادا ، وجعل الليلَ والنهارَ خِلْفَةً والشمسَ والقَمر حُسْبانا . وقدّر السياسةَ سياجا لعالَمِ الإنسان يضُمُّ منه ما آنتشَر ، ويَطْوِى من تعدِّيه ما نشر ، ويحمِلُه على الآداب التى تُرشِدُه إذا ضَلَّ وتُقِيمه إذا عَثَر ، وتجبُرُه على أن يلتزم السُّنَن ويتَّبع الأَثَر ، لُطْفا منه شَمِلَ البَشَر وحَنَانا .

ولما عَمَر الأرضَ بهذا الجنس الذى فضَّله وشَرَّفه ، ووهَبَ له العقْلَ الذى تفكَّر به فى حكمته حتّى عَرَفه ، وبما يجبُ لرُبُوبيّته الواجبةِ وصَفَه ، جعلهم درجاتٍ بعضُها فوقَ بعض فَقْرا وغِنًى وطاعةً وعِصْيانا . وآختار منهم سَفَرَةَ الوحْى وحمَلةَ الآيات ، وأرسل فيهم الرُّسُل بالمعْجِزات ، وعَرَّفهم بما كَلَّفهم من الأعمال المفْتَرَضات : ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ . يومَ آعتبار الأعمالِ وآعتبار الحَسَنات ، ونَصَب العدْلَ والمجازاةَ فى يوم العَرْض عليه قِسْطاسًا ومِيزَانا .

نَحمَدُه وله الحمدُ فى الأُولى والآخِره ، ونُثْنِى على مَوَاهبه الجَمَّة وآلائِه الوافِره ، ونَمُدّ يدَ الضَّراعة ، فى موْقِف الرَّجاء والطَّاعة ، إلى المَزيد من مِنَنه الهامِيَة الهامِرَهْ ، ونسألُه دَوامَ أَلْطافِه الخافِيَة وعِصَمِه الظاهِره ، وآتِّصالَ نِعمِه التى لا نَزالُ نتعرَّفُها مَثْنَى ووُحْدانَا . ونشهدُ أنّه اللهُ الذى لا إلهَ إلّا هو وحدَه لا شريكَ له . [شهادةً نجِدُها فى المَعاد عُدّةً واقيه ، ووسيلةً للأعمال الصالحة إليه راقِيَه ، وذخيرةً صالحةً باقيه ، ونُورا يَسعَى بين أيْدينا ويكونُ على الرضا والقبول فينا عُنْوانا][1] . ونشهد أنَّ سيدنا ومولانا محمّدًا النبيَّ العربيَّ القرشيَّ الهاشميَّ عبدُه ورسوله الذى آصطفاه وآختاره ، ورَفَع بين النبيِّين والمرسلين مِقْدارَه ، وطهَّر قلبه وقَدَّس أسرارَه ، وبلَّغه

(١) الزيادة من ريحانة الكتّاب ص ٤٩ .

من رِضَاه اختيارَه، وأعطاه لِواءَ الشفاعة يقفُو آدمُ ومَنْ بعده من الأنبياءِ الكِرام آثارَه، وجعله أقربَ الرُّسُل مكانةً وأرفعَهم مكانًا. رسولُ الرحمه، ونُورُ الظُّلْمه، وإمامُ الرُّسُل الأئمَّه، الذى جمع له بين مَزِيَّة السَّبْق ومزية التَّتِمَّه، وجعل طاعته من العذابِ المقِيم أمانًا. صاحبُ الشَّفاعة التى تؤمَّل، والوسيلةِ التى إلى الله بها يُتَوسَّل، والدرجةِ التى لم يُؤْتَها الملَكُ المقرَّب ولا النبىُّ المُرْسَل، والرتبةِ التى لم يُعْطِها اللهُ سواه إنسانًا. انتخَبَه من أشرفِ العَرَب أمًّا وأبًا، وأزكى البريَّة طينةً وأرفعها نسبًا، وابتعثَه إلى كافَّة الخلق عجمًا وعَرَبا، وملأ بنُور دعوتِه البسيطةَ جنُوبا وشَمالا ومَشْرِقا ومَغرِبا، وأنزل عليه كتابَهُ الذى آمنتْ به الجنُّ لمَّا سمِعَتْه وقالوا ﴿إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبا﴾. تمامًا على الذى أحسَنَ وتفصيلًا لكلِّ شيء وتِبْيانا. فصدَعَ صلَّى الله عليه وسلم بأمْرِ من اختار ذاتَهُ الطاهرةَ واصطَفَاها، وأدَّى أمانَةَ الله ووفَّاها، ورأى الخلائقَ على شفى المَتَالف فتلافَاها، وتَتبَّع أدواءَ الضَّلال فشفَاها، ومحا معالِمَ الجهل وعفَّاها، وشادَ للخلقِ فى الحقِّ بُنْيانا. مؤيَّدا بالمُعْجزات التى حُجَجُها تُقْبَل وتُسَلَّم: فمن جذْع لِفراقِه يتألَّم، وجَمَادٍ بِصدْق نُبُوَّتِه يتكلَّم، وجيشٍ شَكَا الظَّمأَ ففجَّر لدَيْه المَعين منه بنَانا. وأىُّ مُعْجزةٍ ككتاب الله الذى لاتنقضِى عجائبُه، فهو اليَمُّ والعُلومُ النافعةُ كلُّها مَذَانِبُه، وأُفُق الحق الذى تَهْدِى فى ظُلُمات البرِّ والبحر كواكِبُه، والحُجَّةُ البالغةُ التى أصبحَتْ بين الحق والباطل فُرْقانا. فأشْرقتِ الأرضُ بنُور ربِّها وآياتِه، وتمَّت كلمةُ الله صِدْقًا وعَدْلا لامُبدِّلَ لكَلِماته، وبلغ مُلْكُ أُمَّته مازُوِى له من أقْطار المعمُور وجِهاتِه، حتَّى عَمَر من أكناف البسيطةِ، وأريافِ البِحار المحيطة، وِهادا وكُثْبانا. ونُقِلَتْ كنوزُ كِسْرى بعزِّ دعوته الغالبه، وظَفِرتْ بفَلْج الخصام أيْدى عزائِمِها المُطالِبه، وأصبح إيوانُ فارسَ مجَرَّ رِماح العَرَب العاربه، وقَذَفَتْ جُنودَ قيصَرَ من ذوابِلِها بالشُّهُب الثاقبه، حتَّى فرّ عن مَدَرتِه الطيِّبة

آئبـا بالصَّفْقة الخائبـه، وخلَصَتْ إلىٰ فُسْطاطِ مصر بكتائبها المُتعاقبه، فلا تسمعُ الآذانُ فى إقامتهِم إلّا إقامةً وأذانا . ولا دليلَ أظهرُ من هـذا القُطرِ الأندلسىّ الغريبِ الذى خلَّصتْ إليه سُيوفُها أثباجَ البِحار، علىٰ بُعْد المَراحل ونُزُوح الدِّيار، وتكاثُفِ العَمالات وآختلافِ الأمْصار، ومُنْقَطَع العِمارة بأقصىٰ الشَّمال ومحطّ السُّفّار، طلَعتْ عليه كلمةُ الله طُلُوعَ النهار، وآستوطنَتْه قبائلُ العرب الأحرار، وأرغَمتْ فيه أُنُوفَ الكُفّار، ضِراباً فى سبيلِ اللهِ وطِعانا .

ولَمّـا آسـتقام الدِّين، وتمّ معالِمَ الإيمـان الرسُولُ الأمِين، وظَهر الحقُّ المُبِـين، وراقَ من وَجه المِـلّة الحنيفيّة السَّـمْحةِ الجَبِين، وأخذ المَسالكَ والمآخذَ الإفصاحُ والتبيين، وتقرّرتِ المسـتَنَداتُ المعتَمَداتُ سُـنّةً وقرآنا ، أشـعره الوحْىُ بالرِّحْلة عن هذه الدار، والآنتقالِ إلىٰ محلّ الكرامة ودارِ القَرار، وخَيَّره المَلَكُ فاختار الرَّفيقَ الأعلىٰ مُوفّقًا إلىٰ كرم الآختيار، [و]وجَدَ صَحْبُه رضى الله عنهم فى الآستِخْلاف بعده والإيثـارِ حُجَجا مُشْرِقَةَ الأنوار، أطلَقتْ بالحـقّ يدًا وأنطقَتْ بالصِّـدْق لسـانا . صـلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحابته ، وأُسْرته الطاهـرةِ وعِصابته ، وأنصارِه وأصهارِه وقَرابتِه ، الذين كانوا فى مُعاضَـدَتِه إخْوانا ، وعلىٰ إعْلاء إمْرة الحقّ أَعْوانا . نُجومِ المِلّة وأقمارِها ، وغُيوثِها الهـامِيةِ وبِحارِها ، وسُيوفِ الله التى لاتنْبُو شِفارُها ، وأعلامِ الهدىٰ التى لاتَبْلىٰ آثارُها ، ودَعائم الدِّين التى رَفعتْ منه علىٰ البِرّ والتقوىٰ أركانا .

وحَيَّا اللهُ وُجوهَ حىّ الأنصار بالنعيم والنَّضْره ، أُولى البأْس عنـد الحَفيظة والعَفْو عند القُدْره ، الراضُون أن يذهَبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ويذْهَبُوا برسولِ الله صلّى الله عليه وسلم فنِعْمَتِ المَنْقَبةُ والأُثْره ، الحائزُون ببيعةِ الرِّضوان فضْلًا من الله ورضوانا . وُزَراؤُه وظُهراؤُه فى كل أمر ، وخالصتُه يومَ أُحُد وبَدْر ، لم يزالوا صـدْرا فى كلّ

قلبٍ وقلبا فى كلِّ صدر، يَصْلَوْن دُونه كلَّ جمر، ويفـدُونه بنُفُوسهم فى كلِّ سِرّ وجهر، ويعملُون فى إعلاء دينِـه بيضًا عِضابًا وسُمْرا لِدانا . صلاةً لا تزالُ سحـائبُها ثَرّه، وتحيةً دائمةً مستمرّه، ما لَهِجت الألسُنُ بثنائهم، ووقفت المَفاخرُ علىٰ عَلْيائهم، وتُعُلِّمت المواهِبُ من آلائِهم، وقَصُرت المحامدُ علىٰ مُسمَّياتهم وأسْمـائهم، وكان حُبُّهم علىٰ الفَوْز بالجنةِ ضَمـانا .

ونسألك اللهم لهـذا الأمْرِ النَّصْرِيِّ الذى سَـبَبُه بسببِهم موْصُول، وهم لفُرُوعه السامية أُصُول، فيالَهَا من نُصُول خلَفَتها نُصُول، أنجزَتْ وعْدَ النصر وهو ممْطُول، وأحيت رُبُوعَ الإيمانِ وهى طُلُول، نَصْرا عزيزًا وفَتْحا مبينا، وتأْييدًا علىٰ أعدائِك وتمكِينا، ومُلْكا يبقىٰ فى الأعقـابِ وأعقابِ الأعقابِ وسُـلطانا . وأعِنَّا اللهمَّ علىٰ ما أوجبْتَ له من مفرُوض الطـاعه، وتأديةِ الحقِّ بجَهْد الاِسـتِطاعه، وٱعْصِمْنا بإيالتِه العادلةِ من الإضَاعه، وٱحمِلْنا من مَرْضاته علىٰ سَنَنِ السُّنَّة والجماعه، وٱجعَلْها كلمةً باقيةً إلىٰ قيام الساعه ﴿ وٱعفُ عنَّا وٱغفِرْ لَنَا وٱرْحَمْنا أنْتَ مَوْلانا ﴾ .

أما بعدَ ما ٱفتُتِح به من تحميدِ الله وتمجيدِه، والثناء الذى تتعطَّرُ الأنْديةُ بتَرْديده؛ فإنَّ من المشهور الذى يعَضِّـده الوجودُ ويؤيِّده، والمعلومِ الذى هو كالشمس ضَلَّ من يُنْكره أو يجْحَدُه، والذائع بكلِّ قُطْر تَرْويه رُواةُ الأنبـاءِ وتُسْنِده؛ ماعليه هـذا المُلْك النَّصْرىُّ الحِمىٰ ، الأنصارىُّ المُنْتمىٰ ؛ الذى يُصيبُ شاكلةَ الحقِّ إذا رمىٰ ، ويَعُمُّ العبـادَ والبلادَ غيثُه مَهْما هَمىٰ : من أَصالةِ الأَعْراق ، وكَرَم الأخْلاق، والفضل الباهرِ الإشْراق، والجهادِ الذى هو سَمَر الرَّكْب وحديثُ الرِّفَاق؛ وأنَّ قَوْمه الملوكَ الكِرام إن فُوخِروا بنسبٍ ذكَرُوا سعدَ بن عُبادةَ ومجْدَه، أو كُوثِرُوا بعددٍ غَلَبوا بالله وحْدَه ، أو ٱستُنْصِروا فرَجُوا كلَّ شدّه ، وٱستظْهَرُوا من [عِزهم](١) الموْهُوب،

(١) من ريحانة الكتّاب .

وصَبْرِهم علىٰ الخطوب، بكلّ عَدد وعُدّه ؛ دارُهم الثغرُ الأقصىٰ ونعمتِ الدّار ، وشِعارُهم «لا غالِبَ إلّا اللهُ» ونِعْم الشّعار ؛ زُهّادٌ إذا ذُكِر الدّين ، أُسُودٌ إذا حَمِيت المَيَادين ؛ جبالٌ إذا زحفَت الصّفوف ، بُدُورٌ إذا أظلَمتِ الزُّحُوف ؛ غيوثٌ إذا مُنِع المعرُوف ، أفرادٌ إذا ذُكِرت الأُلُوف ؛ إنْ بُويِعوا فالملائكةُ وُفُود [وحملةُ العِلْم](١) وحملةُ السّلاح شُهُود ، وإن وَلَدُوا فالسُّيوفُ تمائِمُ والسُّروج مُهُود ، وإن أصْحَرُوا للعدُوّ فالظّلال بُنُود ، وجُنودُ السبع الطِّباقِ جُنُود ، وإن أظلم الليلُ أسهَرُوا جُفُونَهم فى حياطة المسلمين والجُفُونُ رُقُود .

وإنّ هذا القُطرَ الذى آنتهىٰ سَيْلُ الفتح الأوّلِ إلىٰ ناحيته ، وأُجيلتْ قِداحُ الفوز بالدّعوة الحنيفيّة علىٰ الأقطار فأخذ الإسلامُ بناصِيتَه ؛ كان من فَتْحه الأوّل ماقد عُلِم ، حَسَبَ ماسُطِّر ورُسِم ؛ وإنّ موسىٰ بنَ نُصَير وفَتَاه ، حَلَّ من فُرْضَة مَجَازه مَحَلَّ موسىٰ وفَتَاه ؛ وحلَّ الإسلامُ منه دارَ قَرار ، وخِطّةً خليقةً بارْتِيادٍ وآختيار ؛ وبلدًا لايُحصىٰ خَيْره ، ولا يَفْضُلُه بشيءٍ من المزِيّة ماعدا الحَرمين غَيْره ؛ وآمتدّتِ الأيّامُ حتّىٰ تأنّس العدُوّ لرَوْعته ، وخَفّ عليه ما كان من صَرْعته ، وقدَح فأورىٰ ، وأعضل داؤه وآستَشرىٰ ، وصارتِ الصُّغرىٰ التى كانت الكُبرىٰ ؛ فلولا أنّ الله عَمَدَ الدِّين منهم بالعُمْدة الوَثِيقه ، حُماةِ الحقِيقه ، وأئمةِ الخليقَهْ ، وسُلالةِ مفتَتِحى اليمامةِ ومفتَتِحى الحَدِيقه ، لأجهز النصل ، وآجتُثّ من الدِّين الفرْعُ والأصْل ؛ لكنّهم آنتَدبوا إلىٰ إمساكِ الدِّين بها آنتِدابا ، ووصَلُوا للإسلام أسْبابًا ؛ وتناولَها منهم صَقْرُ قَبِيلِ الخَزْرَجْ ، ذُو الحُسام المُضَرَّج ، والثناء المؤرَّج ؛ أبو عبد الله الغالب بالله محمدُ آبن يوسف بن نصر أمير المسلمين ، المنتَدَب لإقامة سنّة سيد المرسلين ، قُدوةُ الملوك المجاهدين : نَضّر الله وجهه وتقبّل جِهاده ، وشَكَر دفاعَه عن حوزة الإسلام

(١) من ريحانة الكتاب .

[وجلاده ، فأقشعت الظلمـه ، وتمـاسكت الأمه ، وكف العـدو وأقصر ، ورأى الإسـلام بمن آستنصر ، وآستبصر فى الطاعة] (١) من آستبصر ، وهبّت بنصر الله العزائم ، وكثرت على العـدو الهـزائم ، وتوارثوا ملكها ولدا عن أب ، مستندين إلى عدل وبذل وبسالة وجلالة وحسب ، تتضح فى أفق الجلال نجوم سيرهم هادية للسائرين ، وتفرق من سطواتهم فى الله أسود العرين ، إلى أن قام بالأمر وسطى سـلكهم ، وبركة ملكهم ، الخليفـة الواجب الطاعة بالحق على الخـلق ، الشهير الجـلالة والبسالة فى الغرب والشرق ، أمير المسلمين بواجب الحق ، ساحب أذيال العفاف والطهاره ، السعيد الإيالة والإماره ، البعيد الغـاره ، من ذعر العدو لبأس حسامه ، وذخر الفتح الهنى لأيامه ، صدر الملوك المجاهدين ، وكبير الخلفاء العادلين ، البعيد المدى فى حماية الدين ، السعيد الشهيد ، أبو الوليد ، آبن المولى الهمام الأوحد ، الرفيـع الممجد ، الطاهر الظاهر الأعلى ، الرئيس الكبير الجليل المقـدس الأرضى ، « أبى سعيد » بن أبى الوليد ، بن نصر . فأحيا رحمه الله معالم الكتاب والسـنة ، وجلى بنور عدله غياهب الدجنه ، وأعز الإسلام وحماه ، ورمى ثغرة الكفر فأصماه ، قدس الله روحه الطيب ، وسقى لحـده من الرحمـة الغمام الصيب ، وأورث الملك الجهادى من ولده خير ملك قبلت منه كف ، وآسـتدار به موكب للجهاد ملتف ، وشمخ بخدمته أنف ، وسما إلى مشاهدته طرف ، وتأرج من ذكره عرف ، وجرى إلى بابه حرف ، مولانا الملك الهمام ، الخليفة الإمام ، من أشرق بنور إيالته الإسلام ، وتشرفت بوجوده الليـالى والأيام ، بدر الملك وشمسه ، وسر الزمان الذى قصر عن يومه أمسـه ، الذى آشتهر عدله ، وبهر فضله ، وظهرت عليه عنـاية ربه ، وكان الخضوع له فى سلمه وحربه ، مولانا أمير المسلمين ، وقدوة الملوك المجاهدين والأئمة

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لآبن الخطيب وهى لازمة لاستقامة الكلام .

العارفين ، السعيدُ ، الشهيدُ ، الطاهرُ ، الظاهر ، الأوحدُ الهُمام ، الخليفة الإمام (أبو الحَجّاج) رفعَ الله درجتَه فى أوليائه ، وحَشَره مع الذين أنْعم عليهم من أنبيائه وشُهَدائه ؛ فوضَحت المَسالكُ وبانَتْ ، وأشرقتِ المعاهدُ وٱزْدانتْ ؛ وشَمِل الصُّنعُ الإلٰهىّ واللُّطف الخفىّ أقطارَ هذه الأمة حيث كانَتْ . ولما ٱختار اللهُ له ماعنده ، و بلغَ الأمدَ الذى قدّره سبحانه لحياته وَحَدَّه ؛ وقَبَضه إليه مستغفِرا لذنبه ، مطمئنًّا فى الحالة التى أقربُ ما يكون العبدُ فيها من رَبِّه ؛ كأنما تأهّب للشهادةِ [فاختار] مكانَها وزمانَها ، وطهّر بالصوم نَفْسه التى كَرَّم اللهُ شانها ، وطيَّب رَوْحها ورَيْحانَها ؛ فوقعت آراءُ أرباب الشُّورىٰ التى تِصحُّ الإمامة باتِّفاقها ، وتنعقدُ بعَقْد ميثاقِها : من أعلام العلم بقاعدة [مُلْكه] غَرناطة حرسها اللهُ تعالىٰ التى غيرُها لها تَبَع ، وحُماةِ الإسلام الذين فى آرائهم للدين والدنيا منْتفَع ؛ وخُلْصانِ الثِّقات ، ووُجُوه الطَّبَقات ، علىٰ مبايعة وارثِ مُلْكه بحقِّه ، الحائزِ فى مَيْدان الكمال وإحراز ما للإمامة من الشروط والخلال خَصْل سَبْقه ؛ كبيرِ وَلَده ، وسابقِ أمَده ؛ ووارثِ مُلْكه ، ووُسْطىٰ سِلْكه ؛ وعِمَادِ فُسْطاطه ، وبَدْرِ الهالة من بِسَاطه ؛ مولانا قمرِ العَلْياء ، ودُرّةِ الخُلَفاء ، وفَرْعِ الشجرة التى أصلُها ثابِتٌ وفَرْعُها فى السماء ؛ الذى ظهرَتْ عليه مخايِلُ المُلْكِ ناشئا ووليدا ، وٱستشْعرتِ الأقطارُ به وهو فى المَهْد أماناً وتمهيدا ؛ وٱستشرف الدِّينُ الحنيفُ فأتلعَ جِيدا ، وٱستأنَفَ شباباً جديدا ؛ ناصرِ الحقِّ ، وغياثِ الخلْق ؛ الذى تميَّز بالسكينة والوَقَار ، والحياءِ المُنْسدِل الأسْتار ، والبَسالةِ المرهُوبةِ الشِّفار ، والجُود المُنْسكب الأمطار ، والعدلِ المُشْرِق الأنوار ؛ وجمعَ الله فيه شُروطَ الملك والاختيار ، مولانا ، وعُمْدة ديننا ودُنْيانا ؛ السلطان الفاضل ، والإمامِ العادل ، والهمامِ الباسل ، الكريم الشمائل ؛ شمسِ الملك وبَدْره ، وعَيْنِ الزمانِ وصَدْره ؛ أميرِ المسلمين ، وقُرّة أعين المؤمنين ، أبو عَبْد الله : وصلَ الله أسبابَ سَعْده ، كما حَلّى أجيادَ

المنابر بالدّعاء لمَجْده، وجعل جُنودَ السماء من جُنْده، ونَصَره بنَصْره العزيز فما النَّصرُ إلا مِن عِنـده، ورأَوْا أنـ قد ظَفِرتْ بالعُروة الوُثْقىٰ أيديهم، وأمِنَ فى ظلّ الله رائحُهم وغاديهم، ودلّت علىٰ حُسْن الخواتم مَبَـادِيهم؛ فتبادَرُوا وآنثالُوا، وتبختَرُوا فى ملابِس الأَمْن وآختـالُوا؛ وهَبُّوا إلىٰ بيْعتِه تطـيرُ بهم أجنحةُ السُّرور، ويُعْلِن آنطلاقُ وُجُوهِهم بانْشِراح الصُّـدور؛ وآجتمع منهم طوائفُ الخـاصّة والجُمْهور: ما بين الشريفِ والمَشْروف، والرُّؤساءِ أُولى المَنْصب المعْروف؛ وحَمَلةِ العـلم وحملةِ السُّـيوف، والأُمَناء ومَنـ لدَيْهم من الأُلُوف، وسائرِ الكافّة أُولِى البِـدَار لمثْلِها والخُفُوف؛ فعقَدُوا له البيعةَ الوثيقةَ الأَسَاس، السعيدةَ بفضلِ اللهِ علىٰ النـاس، البرىءَ عهْدُها من الآرتيابِ والآلْتِباس؛ الحائزةَ شُروطَ الكمال، الماحيةَ بنُور البيان ظُلَمَ الإشْكال؛ الضَّمينةَ حُسن العُقْبىٰ ونُجْحَ المآل، علىٰ ما بُويـع عليه رسولُ الله صلّى الله عليه وسـلم ومَنْ له من الصَّحابة والآل؛ وعلىٰ السَّمْع والطـاعه، ومُلازَمة السنّة والجَمَاعه؛ فأيديهم فى السِّلْم والحَرْب رِدْءٌ ليَده، وطاعتُهم إليه خالصةٌ فى يومِه وغَدِه؛ وأهواؤُهم متّفِقة فى حالَىِ الشِّدّة والرَّخاء، وعقُودهم محفوظةٌ علىٰ تداوُلِ السَّرّاء والضَّرّاء؛ أشهَدُوا عليها الله وكفىٰ باللهِ شهيدا، وأعطَوْا صَفَقات أيمانهم تثْبيتا للوفاء بها وتأْكِيدا، وجعلوا منها فى أعناقهم ميثاقًا وثيقًا وعهدًا شـديدا؛ والله عزّ وجلّ يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمـا ينْكُثُ علىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِمَـا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. ومَنـ أصْدَقُ من اللهِ وَعْدا أو وَعِيـدا. وهم قد بسَطُوا أيديَهـم يستنْزِلُون رحمةَ الله بالإخلاصِ والإنَابه، وصرَفُوا وجُوهَهـم إلىٰ من أمَرَهم بالدعاء ووعدَهم بالإجابَه؛ يسألُونه خيرَ مايقْضِيه، والسيرَ علىٰ مايُرْضِيه.

اللهمَّ بابَكَ عنـد تقلُّب الأحوالِ عرَفْنـا، ومن بحرِ نِعَمك العميمةِ آغْترَفْنـا، وعفُوكَ ستَرَمن عيُوبنا كلَّ ما آجترَحْنا وآقترَفْنا؛ ومن فَضْلك أغنَيْتَنا، وبعينك التى

لاتنامُ حرسْتَنا وحميْتنا [فانصُرْ حَيَّنا وٱرحم ميّتنا](١) وأوْزِعْنا شُكْر ما أوليتنا، وٱجعل لَنَا الخَيْرَ والخِيرَةَ فيما إليه هديْتَنا .

اللهُمَّ إنَّ قطرنا من مادّة الإسلام بعيد، وقد أحدق بنا بحرٌ زاخِرٌ وعدوٌّ شديد، وفينا أيِّم وضعيف وهَرِمٌ ووَليد [وأنتَ مولانا ونحنُ عبيد .

اللهم مَنْ بايَعْنا فى هذا العقد](١) فأسعِدْنا بمبايعتِه وطاعتِه، وكن له حيْثُ لا يكونُ لنفسه بعد ٱستنفادِ جُهْده فى التحفُّظ واستِطاعتِه؛ وكُفَّ عنه كَفَّ عدوّك وعدُوِّه كُلَّما هبَّت به رياح طَاَعتِه؛ يامَن يُفْرِده العبدُ بضراعتِه، ويعُوذُ بحِفْظه من إضاعتِه .

اللهمَّ أدّعنَّا حقَّــه فإنا لانقوىٰ علىٰ ادائِه، وتولَّ عنّـا شكر ماحَمِدناه من سِــيرته وسيرة آبائِه، وٱحمِلْه من توفيقك علىٰ سَوَائِه .

اللهمَّ إنّا إليه ناظِرُون، وعن أمره صادِرُون، ولإنجاز وعدِك فى نصر من يَنْصُرك منتظِرُون؛ فأعِنْه علىٰ ماقلَّدتَه، وأنجز لدينا علىٰ يدَيْه ماوعَدْته؛ فمـا فَقَــد شيئا مَنْ وَجدك، ولا خاب من قَصَدَك، ولا ضَلَّ من ٱعتَمَدك، آمين آمين يارَبَّ العالمين .

وكتب الملأُ المذكورون أسماءَهم بخطوط أيديهم فى هذا الكتاب، شاهدةً عليهم بمـا ٱلتزموه دُنيا ودِينا، وسلَكُوا [منه] سبيلاً مُبينا؛ وذٰلك فى الثـانى والعشرين لشوّال من عامِ خمسٍ وخمسين وسبْعِمائة .

قلت : وقد أخبر آخِرَ هـذه البيعة بأن المبايعين للســلطان تُؤخَذُ خُطُوطُ أيديهم فى كتاب البيعة شاهدة عليهم بمـا بايعوا عليــه . والظاهر أن كتابةَ البيعة عنـدهم كما فى مكاتباتهم فى طُومارٍ واحدٍ كبيرٍ متضايقِ السُّـطور، وأنه ليس له طُرَّة بأعلاه كما فى كتابة المصريين .

---

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لابن الخطيب .

البـاب الثـالث

من المقـالة الخامسة فى العُهُود، وفيه فصلان

الفصـــــل الأوّلُ

(فى معنىٰ العَهْد)

العهْدُ لفظٌ مشتَرَك يقع فى اللغة علىٰ ستة معَانٍ :

أحدها — الأمَانُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾ .

الثـانى — اليَمينُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وأَوْفُوا بِعَهْـدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ﴾ .

الثالث — الحِفَاظ . ومنه قولُه صـلّى الله عليه وسـلم : "حُسْنُ العَـهْدِ مِنَ الإيمـان" .

الرابع — الذِّمّة . ومنه قولُه صـلّى الله عليه وسـلم "لا يُقْتَل مُسْـلِمٌ بكافر ولا ذُو عَهْدٍ فى عَهْده" .

الخامس — الزَّمان . ومنه قولهم : "كان ذٰلك علىٰ عَهْدِ فلان" .

السادس — الوَصِـيَّة . ومنه قوله تعـالىٰ : ﴿ ولَقَدْ عَهِدْنَا إلىٰ آدَمَ مِنْ قَبْـلُ فَنَسِيَ ﴾ وهو المراد هنا .

قال الجَوْهرىّ : ومنه اشْتُقّ العهدُ الذى يُكْتَب للوُلَاة[1] .

---

(١) بهامش الاصل هنا حاشية نصها «ولهم سابع ، وهو قولهم فى الدعاء للملك بعد موته : سقى الله عهده برحمته أى مكانه المدفون فيه يسقى بالرحمة . فصح أن يطلق على الزمان والمكان» .

الفصـــــل الثـانى

(فى بيانِ أنواعِ العُهُـــود ، وهى ثلاثةُ أنواع)

النـــــوعُ الأوّل

(عهودُ الخُلَفاء عن الخُلَفاء ، ويتعلَّق النظرُ به من ثمـانيةِ أوجُه)

الوجـــهُ الأوّل

(فى أصـــل مشروعِيّتهـا)

والأصـلُ فى ذلك ماثبت فى الصحيحين من حديثِ ٱبنِ عمرَ رضى الله عنهما، أنه قيل لِعُمَرَ عِنْدَ موته "ألا تَعْهَدُ؟ فقال: أأتحمَّلُ أمْرَكُمْ حَيًّا وميّتًا؟ إنْ أَستَخْلِفْ فقد ٱستَخْلَفَ مَنْ هو خَيْرٌ مِنِّى،[يعنى أبا بكر](١): وإنْ أتْرُكْ فقد تَرَكَ مَنْ هُو خَيْرٌ مِنِّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم". فأثبتَ ٱستخلافَ أبى بكر رضىَ الله عنه بذلك، مشيرًا إلى ماروِى: "أنَّه لما ٱشْتدَّ بأبى بكر الصدّيقِ رضى الله عنه الوَجَعُ، أرسلَ إلى علىّ وعُثْمانَ ورجالٍ من المهاجِرين والأنصارِ، فقال: قد حَضَر ما تَرَوْن، ولا بُدّ من قائمٍ بأمْرِكم، فإن شِئْتم ٱستَخَرْتُم لأنْفُسكم، وإن شِئْتم ٱستخَرْتُ لكم. قالوا: بل ٱختَرْ لنا، فأمَرَ عثمانَ فكتبَ عهْدَ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه (على ماسيأتى ذكره) ـفقال عمر: لا أُطِيقُ القِيامَ بأمُور الناسـ فقال أبو بكر هاتُوا سَيْفِى! وتهدّدَه فانقاد عمرُ، ثم دخل عليه طلحةُ فعاتَبَه على ٱستخلافِ عُمَرَ. فقال: إنَّ عُمَر واللهِ خيْرٌ لكم وأنتم شَرٌّ له، واللهِ لو ولَّيتُكَ لجعلْتَ أنْفَكَ فى قفَاكَ، ولرفَعْتَ نفْسَك فوقَ قَدْرها حتّى يكونَ اللهُ هو الذى يَضَعُها. أتيتَنِى وقد وكَفَتْ عيْنُك، تريدُ أن تَفْتِنَنى عن دينى

(١) الزيادة من صحيح مسلم (ج ٢ ص ٨٠).

وتَرُدَّنِي عن رأْيِي، قُمْ لاأقامَ اللهُ رِجْلَك، واللهِ لئِن بلَغَنِي أنك غَمَصْـتَه وذكرْتَه بسُوءٍ لأُلْحِقَنَّك بحَمَضات قُنَّةٍ حيثُ كنْتُم تُسْقَوْن ولا تَرْوَوْن، وتَرْعَوْن ولا تَشْبعون، وأنتم بذلك بَجِحُون راضُون، فقام طلحةُ فخرج ".

قال العسكرىّ : الحَمَضات جمع حَمْضة ضَرْبٌ من النَّبْت، والقُنَّة أعلىٰ الجبل .

قال الماوردىّ : وكان ٱستخلافُ أبى بكر رضى الله عنه عُمَرَ بٱتِّفاقٍ من الصحابة من غير نكيرٍ فكان إجماعا .

وقد عهِدَ عمرُ رضى الله عنه إلىٰ ســتةٍ، وهم عثمانُ، وعلىٌّ، وطلحةُ، والزُّبيْرُ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف، وسعدُ بن أبى وَقَّاص؛ وتركها شُورىٰ بينهم، فدخَلُوا فيها وهم أعيانُ العصر وأشرافُ الصَّحابة رِضوانُ الله عليهم .

الوجـــــه الثـانى

(فى معـــنىٰ الآِســـتخلاف)

قال البغَوىّ رحمه الله فى كتابه "التهذيب" فى الفقه : الآســتخْلافُ أن يجعلَه خليفةً فى حيـاته ثم يخْلُفَه بعده . قال : ولو أوصىٰ بالإمامةِ فوجهانِ(١) : لأنَّه يخْرُج بالموت عن الوِلَاية فلا يصِحُّ منه توليــةُ الغير . وٱستشكلَ الرافعىُّ رحمه الله هــذا التوجيهَ بكلّ وصــية؛ وبأنَّ ماذكره من جعله خليفةً بعده : إن أُرِيد به ٱستنابتُه فلا يكون ذلك عَهْدا إليه بالإمامة . وإنــ أُرِيد جعلُه إماما فى الحــال، فهو : إمَّا خلْعُ نفس العاهد، وإمَّا ٱجتماع إمامين فى وقت واحد . وإن أريد جعله خليفة أو إماما بعد موته فهو الوصية من غير فرق .

---

(١) أى وأصحهما عنده عدم الجواز . بدليل التعليل .

قلت : وهـذا جُنوحٌ من الرافعىّ رحمه الله إلىٰ صِحَّة الخلافة بالوصـيَّة أيضا ، كما تصح بالاِستِخْلاف (١) .

الوجـــــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه)

وآعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة العهد باِلخلافة أمُورا :

منهـا — بَراعةُ الاِسـتهلال بذكر مايتَّفِق له : من معنىٰ الخلافة والإمامة وآشتقاقِهما، وحالِ الوِلاية ، ولقبِ العاهِد والمعهُود إليه ، ولقبِ الخلافة ، إلىٰ غير ذٰلك ممـا سبق بيانُه فى الكلام علىٰ البَيْعات .

ومنها — أن يُنبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة ، وعُلُوّ قدرها ، ورِفعة شأنها ، ومَسِيس الحاجةِ إلىٰ الإمام ، ودِعَاية الضرورة إليه ، ونحو ذلك ممـا سبق فى البيعات أيضا .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ آجتماع شروطِ الإمامة فى المعهُود إليـه من حِينِ صـدور العهد بهـا من العاهد ، فقد قال المـاوردىّ : إنه تُعتبَر شروط الإمامة فى المعهُود إليه من وَقْت العهد ، حتّٰى لو كان المعهودُ إليـه صغيراً أو فاسقًا وقْتَ العهد و بالغًا [عَدْلا] عند الموت ، لم تَصِحّ خلافتُـه حتّٰى يسـتأنِفَ أهلُ الآختيارِ بَيْعتَه . قال الرافعىّ رحمه الله : وقد يُتَوقَّف فى هذا . قال النووىّ رحمه الله فى "الروضة" : لاتَوقُّفَ . والصواب ماقاله المـاوردىّ .

ومنها — أن يَنبِّه علىٰ آجتهاد العاهِد وتروِّى نظره فى حقِّيَّة المعهود إليـه : فقد قال الماوردىّ : وإذا أراد الإمامُ أن يَعْهَد بالإمامة ، فعليه أن يُجْهِد رأيَهُ فى الأحَقّ بها ، والأقومِ بشُروطها ؛ فإذا تعيَّن له الآجتهاد فى أحد ، عَهِد إليه .

---

(١) فى الأصول كما لاتصح الخ والظاهر أن « لا » زائدة من الناسخ تأمل .

ومنها — أن يُشِير إلىٰ تقدُّم الاستخارة علىٰ العهْد ، وأنَّ استخارتَه أدتْه إلىٰ المعهود إليه ؛ فإنَّ الاستخارةَ أمرٌ مطلوب فى كل أمر ، خصوصًا أمْرَ المسلمين وعُمومَ الولايةِ عليهم ، فإنَّ اختيارَ الله للخلق خيرٌ من اختيارهم لأنفُسِهم ، والله يقُولُ الحقَّ وهو يَهْدِى السَّبِيل .

ومنها — أن ينَبِّه على أنَّ عهدَه إليه بعد مَشُورة أهل الاختيار ومراجَعتِهم فى ذٰلك ، وتصويبِهم له ، خروجًا من الخلاف . فقد حكىٰ الرافعىُّ رحمه الله وجهين فيما إذا كان المعهودُ إليه أجنبيًّا من العاهد ليس بوَلَد ولا والِدٍ : هل يجوزُ أن ينْفَرِد بعقْد البيعةِ له وتفويضِ العهْدِ إليه ولا يستشِيرَ فيه أحدا ؟ أصحُّهما الجوازُ : لأنَّ العهدَ إلىٰ عمر رضى الله عنه لم يُوقَفْ علىٰ رضا الصحابة رضوان الله عليهم ، ولأنَّ الإمام أحقُّ بها ، فكان اختيارُه فيها أمْضىٰ ، وقولُه فيها أنفَذ .

وحكىٰ المـاوردىّ فى جواز انفراد العاهِد بالبيعة فيما إذا كان المعهودُ إليه والدًا أو ولدا ثلاثةَ مذاهب :

أحدهـا — ما اقتصر الرافعىُّ رحمـه الله علىٰ نسبتِه إلىٰ المـاوردىِّ ، ومقتضىٰ كلامه ترجيحُه : أنه يجوزُ الانفرادُ بعقْدِها للوَلَد والوالد جميعا : لأنه أميرٌ للأمة نافذُ الأمر لهم وعليهم ؛ فغُلِّب حكمُ المَنْصِب علىٰ حكم النسب ؛ ولم يجعلْ للتُّهَمة طريقًا علىٰ أمانته ، ولا سبيلًا إلىٰ معارَضَته .

والثـانى — أنه لايجوزُ انفرادُه بها لوَلَد ولا والد حتّى يُشاوِرَ فيه أهلَ الاختيار فيرَوْنه أهْلا لها ، فيصحُّ منه حينئذ عَقْدُ البيعة : لأن ذٰلك [منه] تزكيةٌ [له] تجرِى مَجْرىٰ الشهادة ، وتقليدُه علىٰ الأمة يجرى مَجْرىٰ الحكم ؛ والشهادةُ والحكمُ ممتنِعان من الولد والوالد للتُّهَمة ، لمـا جُبِل عليه من المَيْل إليهما .

والثالث — أنه يجوز أنْ ينفرد بعقْد البيعة لوالده دُونَ وَلَده : لأنَّ الطبع إلىٰ الوَلَد أميل ؛ فأما عقْدُها لأخيه وغيره من الأقارب والمناسِبين فكعَقْدها للأجانب فى جواز الانفراد بها .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ العلم بحياة المَعْهُود إليــه ووجُوده إن كان غائبا . فقد قال المــاوردىّ : إنه لو عَهِد إلىٰ غائبٍ مجهولِ الحياةِ لم يصِحَّ عهدُه، وإن كان معلومَ الحياة صح، ويكونُ موقُوفا علىٰ قُدُومه .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ أن المَعْهُود إليه منصوصٌ عليه بمُفْرده، أو وقع العهْدُ شُورىٰ فى جماعةٍ وأفضت الخلافةُ إلىٰ واحدٍ منهم بإخراج الباقين أنفُسَهم منهــا ، أو آختيارِ أهل الحَلِّ والعقْد أحدَهُم : إذ يجوز للخليفة أن يَعْهَد إلىٰ آثنين فأكثرَ من غير تقديم البعضِ علىٰ البعض، ويختارُ أهلُ الآختيارِ بعد موته واحدًا ممن عهد إليه : فإنَّ عمرَ آبن الخطاب رضى الله عنه جعلها شُورىٰ فى ســتة، فقال : الأمْرُ إلىٰ علىّ وبإزائه الزُّبيرُ بنُ العوّام؛ وإلىٰ عُثمانَ وبإزائه عبدُ الرحمٰن بنُ عوف ؛ وإلىٰ طَلْحةَ وبإزائه سعدُ بن أبى وَقّاص . فلمــا تُوفِّى عمرُ رضى الله عنه، جعل الزبيرُ أمْرَه إلىٰ علىّ، وجعل طلحةُ أمْرَه إلىٰ عثمانَ، وجعل سعدٌ أمره إلىٰ عبد الرحمن بنِ عَوْف؛ فخرج منها ثلاثةٌ، وبقيت شُورىٰ فى عُثْمان وعلىّ؛ ثم بايَعَ علىٌّ عثمانَ (١) . والمعنىٰ فى الشُّورىٰ انه لايجوز أن تُجعلَ الإمامةُ بعد العاهد فى غير المعهودِ إليهم .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ عَدَد المعهود إليهــم وترتيبهم إن كان قد رَتَّب الخلافةَ فى أكثَرَ من واحد ، إذ يجوز أن يَعْهَد إلىٰ آثنين فأكثَرَ علىٰ الترتيب . فلو رَتَّب

(١) أى بعد أن أخرج عبد الرحمن منها نفسه . وفى كتاب الأحكام السلطانية للـماوردى فصارت الشورى بعد الستة فى هؤلاء الثلاثة وخرج منها أولئك الثلاثة ... ... ثم بعد الثلاثة فى آثنين علىّ وعثمان .

الخلافةَ فى ثلاثة مثلا ـ فقال : الخليفةُ بعدى فلان، فاذا مات، فالخليفةُ بعدَه فلان ؛ [فإذا مات فالخليفة بعده فلان] (١) كانت الخلافة منتقلة إليهم علىٰ مارَتَّبها . ففى صحيح البخارىّ من رواية ٱبنِ عمرَ رضى الله عنهما " أنَّ رسـولَ الله صلّى الله عليه وسـلم ٱستَخْلَفَ علىٰ جَيْشِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بنَ حارثَةَ ـ وقال: إن أُصيبَ فجعفرُ بن أبى طالب، فإن أُصِيبَ فعبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ، فإن أُصِيبَ فلْيَرْتَضِ المسلمون رجُلا، فتقدّم زيدٌ فقُتِل، فأخذَ الرايةَ جعفرٌ وتقدّم فقُتِل، فأخذَ الرايةَ عبدُالله بنُ رَوَاحةَ وتقدّم فَقُتِل، فٱختار المسلمونَ بعـده خالدَ بنَ الوليد " . قال المـاوردىّ : وإذا جاز ذٰلك فى الإمارة جاز مثلُه فى الخلافة . قال : وقد عَمِل بذٰلك فى الدولتين مَنْ لم يُنْكِر عليه أحدٌ من علماء العصر :

فعهد سليمانُ بنُ عبد الملك إلىٰ عمرَ بنِ عبد العزيز ؛ ثم بعـده إلىٰ يَزِيدَ بن عبد الملك، وأقرَّه عليه مَنْ عاصره من الناس، ومَنْ لاتأخذُه فى الله لومةُ لائمٍ .

ورتَّبها الرشـيدُ فى ثلاثةٍ من بَنِيه : الأمينِ، ثم المأمون، ثم المؤتَمَن، من غير (٢) مَشُورةٍ من عاصره من فُضَلاء العلماء .

ولو قال العاهد : عهِدْتُ إلىٰ فلان، فإن مات فلانٌ بعد إفضاء الخلافة إليـه، فالخليفةُ بعده فلان، لم تصحّ خلافةُ الثانى، ولم ينعقِدْ عهْدُه بها : لأنه لم يَعْهَدْ إليه فى الحال، وإنمـا جعله ولىَّ عهده بعد إفضاء الخلافةِ إلىٰ الأوّل، وقد يموت قبل إفضائها إليه فلا يكون عهدُ الثانى بها مُنْبرِما .

ومنها ـــ أن يُنَبِّهَ علىٰ أنَّ صدُورَ العهد فى حال نُفُوذ أمر العاهد وجَوَازِ تصَرُّفه، فإنه لو أراد ولىُّ العهد قبـل موت العـاهد أن يُردَّ ما إليه من وِلَاية العهْدِ إلىٰ غيره

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٠ ويظهر أنها سقطت من قلم الناسخ .

(٢) فى "الأحكام السلطانية" عن مشورة الخ حرر .

لم يُجزْ : لأنَّ الخلافة لا تستقرُّ إلا بعدَ موت المستخْلِف . وكذا لوقال : جعلتُه ولىّ عهدٍ إذا أفضتِ الخلافةُ إلىّ لم يُجْز: لأنه ليس فى الحـال بخليفة، فلم يصحَّ عهْدُه بالخلافة .

ومنهـا — أن يُنَبِّه علىٰ قَبُول المعهود إليه العَهْـدَ، فإنه إذا عَهِد الإمامُ بالخلافة إلىٰ مَنْ يصِحُّ العهدُ إليـه علىٰ الشُّروط المعتَبَرة فيـه، كان العهـدُ موْقُوفا علىٰ قَبُول المعهُودِ إليه : فإن قَبِل صَحَّ العهدُ وإلّا فلا، حتّى لو ٱمتنَع من القبُول بُويِـع غيره . والعبرةُ فى زمَن القَبُول بمـا بين عَهْد العاهـد وموْتِه علىٰ الأصح، لتنتقلَ عنه الإمامةُ إلىٰ المعهُود إليه مستقرّةً بالقَبُولِ المتقدمِ . وقيل : إنمـا يكون القَبُول بعـد موتِ العاهدِ : لأنه الوقتُ الذى يَصِحُّ فيه نظَرُ المعهودِ إليه .

ومنهـا — أنْ يُورِد من وَصايَا العـاهِد للعهود إليه ما يَلِيق به . وقد ذكر المـاوردىُّ أنَّ الذى يلزَمُه من أمور الأمّة عَشَرةُ أشياءَ :

أحدها — حِفْظُ الدِّين علىٰ أصـوله المستقِرّة، وما أجمع عليـه سلَفُ الأمّة، وأنه إن نَجَم مبتَـدِعٌ أو زاغَ ذُو شُبْهة عنـه، أوْضح له الحُجّةَ، وبيّن له الصَّواب، وأخذه بمـا يلزمه من الحُقُوق والحـُدود : ليكون الدِّين محروسًا من الخَلَل، والأمّةُ ممنوعةً من الزَّلَل .

الثـانى — تنفيذُ الأحكام، بين المَتشاجِرين، وقطْعُ الخِصام، بين المتنازعين، حتّى تعمَّ النَّصَفَةُ فلا يتعدّى ظالم ولا يَضْعُف مظلُوم .

الثالث — حمـايةُ البَيْضَة، والذَّبُّ عن الحُرَم : ليتصرَّفَ الناسُ فى المَعَايش، وينتشِرُوا فى الأسْفار آمنين من تغْرير بنفْس أو مال .

الرابـع — إقامةُ الحُـدود لتُصانَ محارِمُ الله تعالىٰ عن الآنْتهاك، وتُحْفَظَ حقُوقُ عباده من الإتْلاف والآستِهْلاك .

الخامس — تحصينُ الثُّغُور بالعُدّة المانِعه، والقُوّة الدافِعه، حتّى لا يظْفَر الأعداءُ بِغِرّة ينتهِكُون بها محْرما، أو يَسْفِكُون فيها لمسلِمٍ أو معاهَدٍ دماً .

السادس — جِهادُ مَنْ عانَدَ الإسلامَ بعد الدَّعوة حتّى يُسْلِم أو يدْخُلَ فى الذِّمّة : ليقام بحقِّ الله تعالىٰ فى إظهارِه علىٰ الدِّين كلِّه .

السـابع — جِبَايةُ الفَىْء(١) والصَّدَقاتِ علىٰ ما أوجبه الشرْعُ نصًّا وآجتهادا من غير حَيْف ولا عَسف .

الثـامن — تقدير العطاء وما يُستَحَقُّ فى بيتِ المـال من غير سَرَف ولا تقْتِير، ودفعُه فى وقت لاتقديمَ فيه ولا تأْخِير .

التـاسع — آستِكفاءُ الأُمَنـاء، وتقليدُ النُّصَحاء، فيما يفَوِّضه [إليهم من الأعمال](٢) ويكلُه إليهم من الأموال : لتكونَ الأعمالُ بالكُفَاةِ مضبُوطة، والأموالُ بالأُمَنَاءِ محفُوظة .

العـاشر — أن يُباشِرَ بنَفْسه مُشَارَفَةَ الأمور وتصَفُّحَ الأحوال : ليَنْهَضَ بسياسة الأُمّة، وحِراسـة المِلَّة ؛ ولا يُعَوِّل علىٰ التفويض تشاغُلًا بلذّةٍ أو عبادة ، فقد يخونُ الأمينُ ويغُشُّ الناصحُ . وقد قال تعـالىٰ : ﴿ يا دَاوُدُ إنَّا جعَلْنَاكَ خَلِيفةً فى الأَرْض فاحْكُمْ بيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِـعِ الهَوىٰ فيُضِلَّكَ عن سَبِيل اللهِ ﴾ . فلم يقتَصِر اللهُ

---

(١) يطلق الفىء على الغنيمة والخراج والمراد هنا الثانى .

(٢) الزيادة من "الأحكام" .

تعالىٰ علىٰ التفويض دُونَ المَبَاشَرة ، بل أَمَرَه بمباشَرةِ الحُكْم بين الخَلق بنَفْسه . وقد قال صلىّ الله عليه وسلم : " كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكم مَسْئُولٌ عن رَعِيَّته " ولله درُّ محمدِ بنِ يَزْدادَ وزيرِ المأمون، حيثُ قال مخاطبا له :

مَنْ كانَ حارِسَ دُنْيـا إنَّهُ قَمِنٌ * أنْ لاينامَ وكُلُّ الناس نُوَّامُ!

وكَيْفَ ترقُدُ عَيْنَـا مَنْ تَضَيِّفه * هَمَّانِ مِن أمْرِه : حَلٌّ وإبْرامُ!

وحينئـذ فيجب علىٰ الكاتب أن يضَمِّن هـذه الأمورَ العشرةَ فى وصايَا المعهُود إليه . وقد ذكر المَقَرّ الشِّهابىُ بنُ فضـل الله فى " التعريف " فى وصيَّة ولىِّ العهد بالخلافة ومَنْ فى معناه من الملوك ووُلاة عهْدِهم هـذه الأمورَ ممتزِجةً بأمور أخرىٰ من مُهِمَّات الملك وحُسْن تدبيره وسياستِه .

قلت : إنما يحسُن إيراد هذا كلِّه فى وصايا وُلَاة العهد إذا كان الأمرُ علىٰ ما كانت الخلافةُ عليه أوّلا من عُموم التصرُّف؛ أما الآنَ فالواجبُ أن يُقْتَصر فى وصاياهم علىٰ حُسْن التأتِّى فى العهد بالسلطنة لمن يقُوم بأعبائها، وأن يكونَ ماتقـدّم مختصًّا بوصايا المُلوك فى العهُود عن الخلفاء .

الوجـــــه الرابع

(فيما يُكتَب فى الطُّرَّة، وهو تلخيصُ مايتضمَّنُه العهدُ)

وهذه نسخة طُرَّة أنشأتُها ليُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى :

هذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُوده ، وزادَ فى الارتِقاء فى العَلْياء صُعُودُه، وفُصِّلت بالجواهرِ قلائدُه ونُظِّمتْ بنفيس الدُّرّ عقُودُه . من عبدِ الله ووليِّه الإمام المتوكِّل

علىّ الله أبى عبد الله محمدِ بن الإمام المعتضـدِ بالله أبى الفتح أبى بكر، بالخلافة المقدَّسة، لولده السيِّد الجليـل ذخيرةِ الدِّين، وولىِّ عهد المسلمين؛ أبى الفضـل العباس: بلَّغه الله فيه غايةَ الأمل، وأقرّ به عينَ الأمة كما أقرّ به عيْنَ أمير المؤمنين وقد فَعَل علىٰ ماشُرِح فيه .

الوجـــــه الخـامس

(فيما يُكتَب لأوليـاءِ العهـد من الألقـاب)

[وهو] كما سيأتى فى الطريقة الثانيـة من المَذْهب الأوّل ممـا يُكتَب فى مَتْن العهد من كلام المقرّ الشهابىّ بن فضـلِ الله فى "التعريف" أنه يقال فيه: الأمير السَّيِّد الجليل، ذخِيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين، أبى فلان فلان. وفى المَذْهب الثالث فيما كتب به للمستوثِق بنِ المستكفى ما يوافِقُه؛ وقد تقـدّم أنه لا يَقَع فى ألقابهم إطنابٌ، ولا تعدُّدُ ألقاب، فليقتَصَرْ علىٰ ذلك أو مايشابهه .

الوجـــــه السـادس

(فيما يكتب فى مَتْن العهـد، وفيه ثلاثة مذاهبَ)

المـــذهب الأوّل

(أن يفتَتَح العهدُ بعد البسملة بلفظ «هذا»)

مثل: «هذا ماعَهِد به فلان لفلان» أو «هذا عهدٌ من فلان لفلان» أو «هذا كتابٌ ٱكتَتَبه فلان لفلان» ونحو ذلك .

وللكُتَّاب فيه طريقتان:

الطريقـــة الأُولىٰ
(طريقـــةُ المتقدِّمين)

وهى أنْ لايأتى بخُطْبة فى أثناءِ العَهْـد ، ولا يتَعَرَّض إلىٰ ذكرِ أوصافِ المعهود إليه والثناءِ عليه ، أو يتعرَّض لذلك باختصار ؛ ثم يأْتِى بالوصايا ؛ ثم يختِمُه بالسلام أو بالدعاءِ أو بغيرِ ذٰلك ممـا يُناسِب . وعلىٰ ذٰلك كانتْ عهودُ السَّلَف من الصَّحابة والتابعين فَمَنْ بعدَهم ، اتِّباعاً للصِّدِّيق رضى الله عنه فيما كَتَب به لِعُمَرَ بنِ الخطَّاب ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الاستشهاد .

ونسختُه فيما رواه البيهقىُّ فى "السُّنَن" واقتصر عليــه الشيخُ شهاب الدِّين محمود الحلبىّ فى "حسن التوسُّل" .

«هذا ماعهِدَ أبو بكر خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم آخِرَعهْده بالدنيا وأوّلَ عهدِه بالآخِرة : إنى استخلفتُ عليكم عمرَ بنَ الخطاب فإنْ بَرَّ وعدَلَ فذٰلك ظنِّى به ، وإن بدّلَ أو غيَّرَ فلا عِلْمَ لى بالغَيْب ، والخيْرَ أردتُ بكم ، ولكلِّ امرِئٍ ما اكتَسَبَ مِنَ الإثْم : ﴿ وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ﴾ » .

وذكر أبو هلال العســكرىّ فى كتابه "الأوائل" عن المدائنىِّ أنه حِينَ دعا عثمانَ ابنَ عفَّانَ رضى الله عنه لكتابة العهْد بالخلافة بعــده قال : اكتُبْ « هذا ماعهِدَ أبو بكرِ بنُ أبى قُحافةَ فى آخرِ عهدِه بالدنيا [نازحا عنها](١) وأوّلِ عهـدِه بالآخرة داخلًا فيهـا حيثُ يتوبُ الفاجِرُ ، ويُؤْمِن الكافر ، ويَصْـدُق الكاذِب ؛ وهو يشْهَدُ أن لاإلٰهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمدًا عبـدُه ورسوله ، وقد استَخْلَفَ» ـ ثم دهَمتْه غَشْيةٌ فكتب عثمان : « عُمرَ بنَ الخطَّاب » . فلمَّـا أفاق ، قال : أ كتبْتَ شيئا ؟ قال نعمْ عُمرَ

(١) الزيادة من كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

ابن الخطاب . قال : « رحِمك اللهُ ، أمَا إنّك لو كتبْتَ نفسَك لكنْتَ أهـلًا لها، ٱكتُبْ قد ٱستخلَف عمرَ بن الخطاب ورضِيه لكم ، فإنْ عَدَل فذلك ظنّي به ورأْيي فيه، وإنْ بدّلَ فلِكُلِّ نفْسٍ ما كسَبَتْ وعليها ما ٱكتسبَتْ ، والخيرَ أردتُ ، ولا أعلَمُ الْغيبَ : ﴿ وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ » .

وعلىٰ هـذه الطريقةِ كُتِب عهدُ عمرَ بنِ عبـد العزيز بالخلافةِ عن سُلَيمانَ بن عبد الملك، ثم مِنْ بعده إلىٰ أخيه يزِيدَ بنِ عبد الملك .

وهذه نسختهُ فيما ذكره ٱبنُ قُتَيبةَ فى تاريخ الخُلَفاء :

هـذا ماعَهِدَ به عبدُ اللهِ سليمانُ بنُ عبد الملك أميرُ المؤمنين وخليفةُ المسلمين . عَهِدَ أنه يَشْهَدُ للهِ عز وجل بالرُّبُوبيَّة والوَحْدانيَّة، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه صلّى الله عليـه وسلم، بعثه إلىٰ مُحْسِنِي عبادِه بَشِـيرا، وإلىٰ مُذْنِبِيهم نَذِيرا . وأنَّ الجنةَ والنارَ مخلوقَتان حَقًّا : خلقَ الجنةَ رحمةً وجزاءً لمن أطاعه، والنارَ نِقْمة وجزاءً لمَنْ عَصَاه، وأوْجبَ العفْوَ جُودًا وكرمًا لمَنْ عَفا عنه . وأنَّ سليمانَ مُقِرٌّ علىٰ نَفْسه بما يعلمُ اللهُ من ذُنُوبه ، وبما تعلمُه نفْسُه من معصيةِ ربِّه، مُوجِبا(١) علىٰ نفسِه ٱستحقاقَ ماخَلَق من النِّقْمة ، راجيا لنفسه ماخَلَق من الرحمة ووَعَد من العفو والمغْفِرة، وأن المقادِيرَ كلَّها خيْرَها وشَرَّها مقـدُورة(٢) بإرادته ، مكَوَّنةٌ بتكْوِينـه، وأنه الهـادِى فلا مُغْوِىَ ولا مُضِلَّ لمن هَدَاه وخلَقَه لرحمتـه، وأنه يُفْتَن الميت فى قَبْره بالسؤال عن دِينِه ونبيِّـه الذى أُرْسِل إلىٰ أمَّتـه ، لامَنْجىٰ لمن خرج من الدنيا إلىٰ الآخرة من هـذه المسألة إلا لمن ٱستثناه عز وجلَّ فى علمـه . وسليمانُ يسألُ اللهَ الكريمَ بواسع فَضْله، وعظيم مَنِّـه ، الثباتَ علىٰ ماأسَرّ وأعلَنَ من معرفة حقّـه وحقِّ نبيه عنـد

(١) كذا فى الأصول بالنصب وكذلك وقع فى كتاب الامامة والسياسة لآبن قتيبة .

(٢) فى كتاب الامام والسياسة لآبن قتيبة «خيرها وشرها من الله وأنه هو الهادى الخ» .

مَسْأَلة رُسُله ، والنَّجاةَ من هَوْل فتنة فَتَّانِيه . ويشْهَدُ أنَّ الميزان يومَ القيامة حقٌّ يقين ، يزِنُ سيئاتِ المسيئِين ، وحسَناتِ المحسنين : ليُرِىَ عبادَه من عظيم قُدْرته ، ماأراده من [الخير] لعباده بمـا لم يكونُوا يحتَسِبُون ، وأنَّ من ثَقُلَتْ موَازِينُه فأولٰئكَ هم المُفْلِحُون ، ومَنْ خَفَّتْ موازِينُه يومَئـذٍ فأولٰئك هم الخـاسِرُون . وأنَّ حوضَ محمدٍ رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم يومَ المَحْشَر والمَوْقِف للعرْض حقٌّ ، وأنَّ عدَدَ آنيتِه كنُجُوم السماء ، من شَرِبَ منه لم يظْمَأْ أبدا ، وسليمان يسألُ الله بواسع رحمتِه أن لا يُردَّه عن حوض نبيِّه عطشان . وأنَّ أبا بكر وعمرَ خيرُ هـذه الأمة بعد نبينا ، والله يعلمُ بعدَهما حيثُ الخيْرُ وفيمن الخَيْرُ من هذه الأمة . وأنَّ هذه الشهادةَ كلَّها المذكورةَ فى عهدهِ هذا يعلمُها الله من سِرّه وإعلانه وعَقْد ضميره ، وأنه بها عبَدَ ربه فى سالفِ أيَّامه وماضِى عُمُره ، وعليها أتَاه يقينُ ربه ، وتوفَّاه أجَلُه ، وعليها يُبْعَث بعد موتِه إن شاء الله . وأن سليمان كانت له بينَ هذه الشهادة بَلَايَا وسيِّئَاتٌ لم يكُنْ له عنها مَحِيـد ولابُدّ ، جرىٰ بها المقـدور من الرَّبِّ النافِذُ إلىٰ إتمـام ماحَدّ ، فإن يعْفُ ويصْفَحْ فذاك ماعُرِف منه قديمـا ونُسِب إليه حَديثا ، وتلك صِـفَتُه التى وَصَف بها نفسه فى كتابه الصادِق ، وكلامِه الناطق ؛ وإنْ يُعاقِبْ وينْتَقِم فبما قدّمتْ يَداه ، وما اللهُ بظَلَّام للعبيد . وأن سليمان يُحَرِّج علىٰ مَنْ قَرأ عهدَه هذا وسمِـعَ ما فيه من حكمة أن ينْتَهِىَ إليـه فى أمْره ونَهْيه ، باللهِ العظيم ، ومحمدٍ رسولِه الكريم ؛ وأن يَدَع الإحَنَ المُضْغَنه ، ويأخُذ بالمكارم المُدْجَنـه ؛ ويرفَعَ يديه إلىٰ الله بالضمير النَّصُوح والدُّعاءِ الصحيح ، والصَّـفْح الصَّريح ؛ يسأله العفْوَ عنِّى ، والمغفرةَ لى ، والنجاةَ من فَزَعِى والمسألةِ فى قَبْرى ، لعلَّ الوَدُودَ ، أن يجعَلَ منكم مُجابَ الدعوة بما منَ اللهِ علَىَّ

(١) فى كتاب الامامة والسـياسة « لم يكن له عنها محيص ولا دونها مقصر بالقـدر السابق والعلم النافذ فى محكم الوحى فان يعف » الخ .

من صَفْحه يعود، إن شاء اللهُ . وأنَّ ولىّ عهدِ سليمان بنِ عبد الملك أميرِ المؤمنين، وصاحبَ أمْره بعد موتِهِ، فى جُنْـده ورعِيَّته وخاصَّته وعامته؛ وكلِّ من ٱستخْلَفنى الله عليه، وٱستَرْعانِى النظرَ فيه، الرجلُ الصالح «عمرُ بن عبد العزيز» بنِ مَرْوان ٱبنُ عمِّى، لما بلَوْتُ من باطن أمْره وظاهِرِه، ورجوتُ الله بذلك [وأردت] رِضاه ورحمتَــه إن شاء الله . ثم من بعده تُســلَّمُ إلىٰ يَزِيدَ بنِ عبد الملك بن مَرْوان إن بقى بعْدَه، فإنِّى مارأيتُ منه إلَّا خيرا ولا ٱطَّلعتُ له علىٰ مكْروه . وصِغار ولَدى وكبارُهم إلىٰ عُمَر، إذ رجوتُ أن لا يألُوَهم رَشَدا وصَلاحا؛ والله خليفتِي عليهم وعلىٰ جماعةِ المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين؛ وٱقرءُوا عهْدى عليكم السلام ورحمة الله. ومن أبىٰ أمْرِى هذا أو خالَف عهْدى هذا ــ وأرجو أن لا يخالفه أحدٌ من أمة محمد ــ فهو ضالٌّ مضِلٌّ يُستعْتَب، فإنْ أعتبَ وإلَّا فإنى لمن صاحب(؟)(١) عهدى فيهم بالسـيف السيف والقتلِ القتل، فانهم مستوجبون لهم، وهم لهيبته ملقحون، والله المستعان، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا بالله القديم الإحسان .

تم ذلك والحمدُ لله وحده، وصلواته علىٰ سيدنا محمد وآله .

وعلىٰ نحوٍ من ذٰلك كتب المأمونُ العباسىُّ عهدَ علىّ بن موسى العَلَوىّ (المعروف بالرِّضىِّ) بالخلافة بعده .

وهذه نسخته فيما ذكر صاحب العِقْد :

هذا كتابٌ كتبه عبدُ الله بن هارونَ الرشيد أميرُ المؤمنين بيده، لعلىّ بنِ موسىٰ بن جعفر ولىِّ عهْده .

(١) فى كتاب الامامة والسياسة « والا فالسيف والله المستعان » وهى واضحة .

أما بعدُ، فإنّ الله عز وجلّ ٱصطفىٰ الإسلامَ دينا، وٱصطفىٰ له من عباده رُسُلا دالِّين عليه، وهادين إليه، يبَشِّر أوّلُهم بآخِرِهم، ويصدِّق تاليِهم ماضِيَهم؛ حتىٰ ٱنتهت نبوّةُالله إلىٰ محمدٍ صلّى الله عليه وسلم علىٰ فَتْرةٍ من الرُّسُل، ودُرُوس من العلم، وٱنقطاعٍ من الوَحْى، وٱقترابٍ من الساعةِ؛ ختم اللهُ به النبيِّين وجعله شاهِدًا لهم، ومُهَيْمنا عليهم؛ وأنزل عليه كتابَهُ العزيز الذى ﴿ لايأْتيهِ الباطِلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفه تَنْزِيلٌ من حَكيمٍ حَميدٍ ﴾. فأحَلَّ وحَرّم، ووعَدَ وأوْعَد؛ وحَذَّر وأنْذَر، وأمَر به ونَهىٰ عنه: لتكونَ له الحجةُ البالغة علىٰ خَلْقه: و(١) ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنةٍ، ويَحْيا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ وإنَّ اللهَ لَسميعٌ عَليم ﴾. فبلَّغَ عن الله رسالَتَه، ودعا إلىٰ سبيله بما أمره به من الحِكْمَة والمَوْعِظة الحَسَنة، والمجادلةِ بالتى هى أحسَن، ثم بالجهاد والغِلْظة حتىٰ قَبَضه اللهُ إليه، وٱختار له ماعِنْده صلّى اللهُ عليه؛ فلمّا ٱنقضتِ النبوّةُ وخَتَمَ الله بمحمد صلّى الله عليه وسلم الوَحْىَ والرسالة، جعلَ قِوَامَ الدين، ونِظامَ أمرِ المسلمين، بالخلافةِ وإتمامِها وعِزِّها، والقيامِ بحق الله فيها بالطاعةِ التى تُقَام بها فرائضُ الله وحُدُوده، وشرائعُ الإسلام وسُنَنُه، ويُجاهَد بها عدُوُّه. فعلىٰ خُلَفاء الله طاعتُه فيما ٱستحْفَظهم وٱستَرْعاهم من دِينه وعبادِه، وعلىٰ المسلمين طاعةُ خُلَفائهم ومُعاونَتُهم علىٰ إقامةِ حقِّ الله وعَدْله، وأَمْنِ السُّبُل وحَقْن الدِّماء، وصلاحِ ذاتِ البَيْن، وجَمْع الألفة؛ وفى إخلال ذلك ٱضطرابُ حَبْل المسلمين وٱختلالهم، وٱختلافُ مِلَّتهم، وقَهْرُ دِينهم، وٱستعلاءُ عدُوِّهم، وتفَرُّقُ الكلمة، وخُسرانُ الدنيا والآخرة. فحَقٌّ علىٰ من ٱستخْلَفَه اللهُ فى أرضه، وأَتْمنه علىٰ خَلْقه [أنْ] يُؤْثِر مافيه رضا اللهِ وطاعتُه ويَعْد [ل] فيما اللهُ واقفُه عليه وسائلُه عنه، ويحْكُمَ بالحق ويعْمَل بالعدل فيما حَمَّله الله وقلَّده؛ فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود عليه السلام:

(١) لعل الجار والمجرور فى المحلين زائد من قلم الناسخ.

﴿يٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الأرض فاحْكُمْ بينَ النَّاسِ بالحقِّ ولا تَتَّبِعِ الهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عنْ سَبِيلِ اللهِ إنَّ الَّذينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عذابٌ شديدٌ بمـا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ﴾ . وقال عز وجل : ﴿فَوربِّكَ لَنَسْئَلَنَّهُمْ أجمعِينَ عمَّا كانُوا يَعْمَلُونَ﴾ . وبلَغنا أنَّ عمـرَ بنَ الخطَّاب قال : « لو ضاعَتْ سَخْلةٌ بجانِبِ الفُراتِ لتخَوَّفتُ أن يسألَنِي اللهُ عنها » . وٱيْمُ اللهِ إنَّ المسئُول عن خاصَّةِ نفْسـه ، الموقُوفَ علىٰ عمله ، فيما بيْنَ الله وبيْنه ، لَمُتعرِّضٌ لأمرٍ كبير ، وعلىٰ خَطَرٍ عظِـيم ، فكيف بالمسئُول عن رعاية الأُمَّة ؛ وبالله الثِّقةُ ، وإليه المَفْزَع والرَّغْبة فى التوفيق مع العِصْمة ، والتَّسْديد والهِـدايةِ إلىٰ مافيه ثُبوتُ الحُجَّة ، والفوزُ من الله بالرِّضوان والرحمـة . وأنظَرُ الأئمة لنفسه ، وأنصَحُهم فى دِينِـهِ وعبادِه وخلافتِه فى أرضه ، مَنْ عمِل بطاعة الله وكتابه وسنَّة نبيه عليه السلام فى مدّة أيَّامه ، وٱجتهَدَ وأجهَدَ رأْيَه ونظَرَه فيمن يُولِّيه عَهْدَه ، ويختارُه لإمامة المسلمين ورعايَتِـهم بعدَه ، ويَنْصِبُه عَلَما لهم ، ومَفْزَعا فى جَمْع أُلْفتِهم ، ولَمِّ شَعَثِهم ، وحَقْن دمائِهم ، والأمْنِ بإذْن الله من فُرْقتِهـم ، وفسادِ ذاتِ بينِهم واختلافِهم ، ورَفْع نَزْغ الشـيطان وكيْده عنهـم ؛ فإن الله عز وجل جعل العهْـدَ بالخلافة من تمام أمرِ الإسلام وكمالِه وعِزِّه وصَلاحِ أهله ؛ وألْهم خلفاءَه من تَوْسيده لمن يختارُونه له من بعدهم ماعظُمتْ به النِّعمة ، وشَمِلَت منه العافيـة ، ونقَضَ اللهُ بذٰلك مَرَّ(١) أهل الشِّقاق والعَداوة والسعْيِ فى الفُرْقة والرَّفْض(٢) للفتنـة ؛ ولم يزَلْ أميرُ المؤمنين منذُ أفضَتْ إليه الخلافةُ فاختَبَر بَشَاعةَ مَذَاقتِها ، وثِقَلَ مَحْمِلها وشدَّةَ مَئُونتِها ؛ وما يجب علىٰ من تقلَّدها من ٱرتباط طاعةِ الله ومراقبتـه فيما حَمَّـلَه منها(٣) ؛ فأنْصَبَ

(١) فى اللسان ج ٧ ص ١٥ « المر بفتح الميم الحبل » .

(٢) أى تركها تسـير فى الناس ؛ ففى اللسان الرفض أن يطرد الرجل غنمه وابله إلى حيث يهوى فاذا بلغت لها عنها وتركها .

(٣) لعله ناظرا فيها بمـا يقتضيه منصبها وما يجب الخ وبه يستقيم الكلام بعد تأمل .

بدَنَه، وأسهر عينَه؛ وأطال فِكْرَه فيما فيه عِزُّ الدين، وقمعُ المشركين؛ وصلاح الأمَّة، ونشْرُ العدل، وإقامةُ الكتاب والسُّنَّة؛ ومَنَعه ذلك من الخَفْض والدَّعة بَهِيِّ العيش: علْما بما اللهُ سائلُه عنه، ومحبَّةً أن يلْقىٰ الله مُنَاصِحًا له فى دِينه وعبادِه، ومختارا لوِلَاية عهْدِه، ورعايةِ الأمَّة من بعده، أفضلَ مَنْ يقدِر عليه فى دِينه ووَرَعه وعِلْمه، وأرجاهم للقيام بأمْرِ الله وحقِّه؛ مناجِيًا لله بالاستخارة فى ذلك، ويسأله إلهامَهُ ما فيه رضاه وطاعتُه فى ليله ونهارِه، ومُعْمِلا فى طلَبه والتماسه من أهل بيتِه من وَلَد عبد الله ابن العباس وعلىّ بن أبى طالب فِكْرَه ونَظَره، ومقتَصِرا فيمن عِلِمَ حالَه ومذْهَبَه منهم علىٰ علمه، وبالغًا فى المسألة عمَّن خَفِىَ عليه أمرُهُ جُهْدَه وطاقتَه، حتّٰى استقْصىٰ أُمُورَهم بمعرفتــه، وابتلىٰ أخْبارَهم مشاهَدَة، وكشَفَ ما عندهم مُسَاءلة؛ فكانت خِيرتُه بعد استخارته لله وإجهاده نفْسَــه فى قضاء حقِّه وبلاده، من البيتين جميعًا «علِيَّ بنَ موسىٰ بن جعفر» بن محمد بن علىّ بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب: لمَـا رأىٰ [من] فضْلِهِ البارع، وعلمِه الناصع؛ وورَعِه الظاهر، وزُهْدِه الخالص، وتَخَلِّيه من الدنيا، وتسَلُّمَه من الناس؛ وقد استبان له مالم تَزَلِ الأخبارُ عليه متَواطِئه، والألسُنُ عليــه متفقةً والكلمةُ فيــه جامعه؛ ولمـا لم يَزَلْ يعرِفُه به من الفضل يافِعًا وناشِئا، وحدَثا ومُكْتَهِلا؛ فعقَد له بالعقْد والخلافة إيثارًا لله والدِّين، ونظَرًا للسلمين، وطلَبًا للسلامة وثباتِ الحجَّة والنجاة فى اليوم الذى يقُومُ الناس فيه لربِّ العالمين.

ودعا أميرُ المؤمنين وَلَده، وأهلَ بيتــه، وخاصَّـــته، وقُوّادَه، وخَدَمَه، فبايَعُوه مُسْرِعين مَسْرُورِين، عالمين بإيثارِ أمير المؤمنين طاعةَ الله علىٰ الهوىٰ فى وَلَده وغيرِهم ممن هو أشْــبَكُ به رَحِمًا وأقرب قرابة، وسَمَّـاه «الرِّضِىَّ» إذ كان رَضيًّا عند أمير المؤمنين.

فبايِعُوا مَعْشَرَ بيتِ أمير المؤمنين ومَنْ بالمدينة المحروسة من قُوَّاده وجُنْده، وعامة المسلمين « الرِّضَى » من بعده، علىٰ آسم اللهِ و بركته وحُسْن قضائِهِ لدينه وعبادِه؛ بيعةً مبسوطةً إليها أيْديكم، منشرِحةً لهـا صدُورُكم، عالمين بمـا أراد أميرُ المؤمنين بها، وآثَرَ طاعةَ الله والنظرَ لنفْسه ولكم فيهـا، شاكرينَ للهِ علىٰ ماألْهَم أميرَ المؤمنين من نَصَاحتِه فى رِعَايتكم، وحِرْصِـه علىٰ رُشْـدِكم وصَلَاحكم، راجينَ عائدَه فى ذلك فى جمع أُلْفتِكم، وحقْن دِمائِكم، ولَمِّ شَعَثِكم، وسـدِّ ثُغُوركم، وقُوّةِ دينكم، ورَغْم عدوّكم، وآستقامةِ أموركم. وسارِعُوا إلىٰ طاعة الله وطاعةِ أميرالمؤمنين، فإنَّه الأمْرُ إن سارعْتُم إليه، وحمِدتُمُ اللهَ عليه؛ عَرَفْتُم الحَظَّ فيه. إنْ شاء الله تعالىٰ.

وعلىٰ هـذه الطريقةِ كتب الوزيرُ أبو حفْص بنُ بُرْد عهْدَ النـاصرلدينَ الله عبـدِ الرحمن بنِ المنصور بنِ أبى عامر العـامرىّ، عن المؤيَّد بالله هشام بن الحكم الأُمَوىّ، الخليفةِ بالأندَلُس. وهذه نسخته:

هذا ماعَهِدَ هشامٌ المؤيَّدُ بالله أميرالمؤمنـين إلىٰ الناس عامَّه، وعاهدَ اللهَ عليـه من نَفْسه خاصَّـة وأعطىٰ به صَفْقةَ يمِينِه بيعةً تامَّه، بعد أنْ أنْعمَ النظرَ وأطال الآستخارةَ وأهمَّه ماجعل اللهُ إليه من الإمامة، وعَصَب بهمن أمرِ المؤمنين، واتَّقىٰ حُلُولَ القَدَر بمـا لايُؤْمَن، وخافَ نُزولَ القضاء بما لايُصْرَف، وخَشِيَ إنْ هَجَم محتومُ ذٰلك عليه، ونزلَ مقْدُورُه به، ولم يرفَعْ لهذه الأُمَّة عَلَما تأْوِى إليه، ومَلْجأ تنْعطِف عليـه، أنْ يكونَ يلقىٰ ربَّه تبارك وتعـالىٰ مفرِّطا ساهياً عن أداء الحق إليها؛ ويُغْمِضَ عنـد ذٰلك من أحيـاء قُرَيش وغيرها من يستَحِقُّ أن يُسْنَدَ هـذا الأمْرُ إليـه، ويُعوَّل فى القيام به عليـه؛ ويسـتوجبُه بدِينه وأمانتِه، وهَدْيه وصيَانتِه؛

بعد ٱطّراح الهوى والتحرّى للحق ، والتزلّف إلى الله جلّ جلاله بما يُرْضيه .
وبعد أنْ قَطَع الأواصِرَ، وأسْخط الأقارِبَ، فلم يجِدْ أحدًا أجْدَرَ أن يولّيه عهْدَه ،
ويفوِّضَ إليه الخلافةَ بعْدَه : لفضلِ نَفْسه ، وكَرَم خِيمه، وشرف مَرْتبته ، وعُلُوّ
مَنْصِبه، مع تُقَاه وعَفَافه ، ومَعْرفته وحَزْمه ونَقَاوته ؛ من المأمُونِ العَيْب، الناصِح
الجَيْب «أبى المطرِّف عبد الرحمن بن المنصور» أبى عامر محمد بن أبى عامر وفَّقه
الله ؛ إذ كان أميرُ المؤمنين ـ أيده الله ـ ٱبْتلاه وٱختبَره، ونظَر فى شأنه وٱعتبَره؛
فرآه مُسارِعا فى الخيْرات، سابقًا فى الحَلَبات؛ مستولِيًا على الغايَات، جامعا للمَأْثُرات؛
ومَنْ كان المنصورُ أباه، والمظَفَّرُ أخاه؛ فلا غَرْوَ أن يبْلُغَ من سبيل البِرّ مدَاه،
ويَحْوِىَ من خِلَال الخير ماحَوَاه؛ مع أنَّ أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ بما طالَعه من
مكنُون العِلم ، ووعَاه من مخْزُون الأثَر، يرى أن يكونَ ولِىُّ عهدِه القَحْطانِىَّ الذى
حدّث عنه عبدُ الله بن عمْرو بن العاص وأبو هريرةَ : أنَّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم
قال : "لاتَقُومُ الساعةُ حتّى يَخْرُجَ رجُلٌ من قَحْطانَ يَسُوقُ النـاسَ بعَصَاه" فلما
ٱستَوى له الاختِيار، وتقابلَتْ عنْدَه فيه الآثار؛ [و]لم يجِدْ عنه مَذْهبا، ولا إلى غيره
مَعْدِلا، صَرَّح إليه فى تدبير الأُمور فى حياتِه، وفوّض إليه الخلافةَ بعد وفَاته؛ طائعا
راضيًا مجتهِدا، وأمضى أميرُ المؤمنين هـذا وأجازه وأنْفذه، ولم يشترط فيه مَثْنوِيَّةً
ولا خِيارا ؛ وأعطى على الوَفَاء به فى سِرّه وجهره وقولِه وفِعْـله عَهْدَ الله وميثاقَه ،
وذِمة نبيه محمد صلّى الله عليه وسلم ، وذِممَ الخلفاء الراشدين من آبائه ؛ وذِمَّةَ نَفْسه :
أن لايُبَـدِّل ، ولا يغَـيِّر، ولا يَحُول ، ولا يزُول ؛ وأشهد الله على ذٰلك والملائكةَ
﴿ وكَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدا ﴾ . وأشهد من أوقَع ٱسْمَه فى هـذا ، وهو جائز الأمر، ماضِى
القولِ والفِعل، بمحْضَرٍ من ولِىِّ عهدِه المأمونِ أبى المطرف عبدالرحمن بن المنصور
وفَّقـه الله، وقبُوله ما قلَّده، وإلزامه نفْسَـه ما ألزمه ؛ وذٰلك فى شهر ربيع الأوّل

سنة ثمـان وتسعين وثلثمائة . وكتَبَ الوزراءُ والقضاةُ وسائر الناس شهاداتِهم بخطوط أيديهـــم بذلك .

الطريقة الثانيـــة
(طريقـــة المتأخّرين من الكُتَّاب)

أن يأتى بالتحميد فى أثناء العَهْد، ويأتِيَ من ألقاب ولىِّ العهد بمـا يناسب علىٰ الآختصار، وعليها آقتصر المَقَرّ الشّهابىّ بنُ فضل الله فى "التعريف" فقال : وآعلم أنَّ عهُودَ الخلفاء عن الخلفاء لم تَجْرِ عادةُ مَنْ سلَف من الكُتَّاب أن يستفْتِحها إلا بمـا يذكر، وهو :

«هـذا ما عَهِد[به] عبدُ الله ووليُّه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىّ أميرُ المؤمنين، عهد إلىٰ ولَده، أو [إلىٰ] أخيـه الأميرِ السيد الجليل، ذَخيرةِ الدِّين، وولىِّ عهد المسلمين أبى فلان فلان، أيَّده الله بالتمكين، وأمدَّه بالنصر المُبين، وأقرّ به عيْنَ أمير المؤمنين» . ثم يُنْفِق كلُّ كاتبٍ بعد هذا علىٰ قَدْر سَعَته، ثم يقول :

« أما بعدُ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يَحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو، ويصلِّى علىٰ نبيه محمدٍ صلّى الله عليه وسـلم » ويخطُبُ فى ذٰلك خُطْبة يُكْثِر فيها التحميدَ ويَنْتَهى فيه إلىٰ سبعة، ثم يأتى بعد ذلك بمـا يُنَاسِب من القول : يصِف فكر الذى يَعْهَـد فيمن بعْـدَه، ويصِفُ المعهودَ إليه بمـا يليق من الصِّفات الجليـلة . ثم يقول : «عهد إليـه وقلَّده بعـدَه جميع ماهو مقلَّده، لمـا رآه من صَلَاح الأمةِ، أو صَلَاح الخلق، بعـدَ أنِ استخارَ اللّهَ تعـالىٰ فى ذٰلك، ومكَثَ مدّةً يتدبَّر ذٰلك ويُرَوِّى فيه فكْره وخاطِرَه، ويستشيرُ أهـلَ الرأْى والنظر، فلم يَرَ أقومَ منه بأمور الأمة ومَصَالح

الدنيا والدِّين» ومن هذا ومثله ؛ ثم يقال : «إنَّ المعهودَ إليه قبلَ ذلك منه» ويأتى فى ذلك بما يليقُ من محاسن العبارة وأحاسِنِ الكلام .

قلت : ولم أظْفَر بنسخة عهدٍ علىٰ هذا الأُسْلوب الذى ذكره المقرُّ الشِّهابىّ ؛ وقد أنشأت عهدًا علىٰ الطريقـةِ التى أشار إليها ، آمتحاناً للخاطر : لأنْ يكونَ عن الإمام المتوكِّل علىٰ الله أبى عبـدِ الله محمدِ بن المعتضِد أبى الفتح أبى بكر ، خليفـةِ العصر ، لوَلَده العباس : ليكون أُنْموذَجا يُنْسَج علىٰ مِنْواله .

ومن غريبِ الآتِفاق أنِّى أنشأْته فى شُهُور سنةِ إحدىٰ وثمـانمائة آمتحانا للخاطر كما تقدّم ، وضَمَّنته هـذا الكتابَ وتمـادىٰ الحالُ علىٰ ذلك إلىٰ أن قبضَ اللهُ تعـالىٰ الإمامَ المتوكِّل ـ قدّس الله تعالىٰ رُوحَه ـ فى سـنة ثمـان وثمانمـائة ؛ فأجمع أهلُ الحلِّ والعَقْد علىٰ مبايعته بالخلافة ؛ فبايَعُوه وحقَّق الله تعالىٰ ما أجراه علىٰ اللِّسان من إنْشاء العهد باسمه فى الزَّمن السابق ؛ ثم دعَتْنِى داعيةٌ إلىٰ التمثُّل بين يديه الشريفتين فى مستَهلِّ شهر ذِى القَعْدة الحرام سـنةَ تسع وثمـانمائة ، فقرأته عليه من أوّله إلىٰ آخره ، وهو مُصْغٍ له مظهرٌ الآبتهاجَ به ؛ وأجاز عليـه الجائزةَ السنية . ثم أنشأتُ له رسالةً وضمنتُه إيَّاها وأُوعِتْ بخِزانته العالية عَمَرها اللهُ بطُول بقائه .

وهـــذه نسخته :

هذا عهدٌ سعيدُ الطالع ميمونُ الطائر ، مبارَكُ الأول جميلُ الأوسط حميدُ الآخِر ؛ تَشْهد به حضَراتُ الأمْلاك ، وترقُمُه كَفُّ الثُّرَيَّا بأقلام القَبُول فى صحائِف الأفْلاك ؛ وتُباهِى به مُلُوكُ الأرض ملائكةَ السما ، وتَسْرِى بنَشْره القَبُولُ إلىٰ الأقطار فتنْشُر له بكلِّ ناحيةٍ علَما ، وتُطْلِـعُ به سعادةُ الجَدِّ من ملُوك العَدْل فى كلِّ أُفُق نَجْما ، وترقُص من فرحها الأنهار فتنَقِّطها شمْسُ النَّهار بذَهَب الأصيل علىٰ صَفَحات المْـا ، عهِدَ به

عبدُ الله ووليُّه أبو عبد الله محمدٌ المتوكِّلُ علىٰ الله أميرُ المؤمنين إلىٰ وَلَده السيد الجليل عُدَّة الدِّين وذَخِيرته ، وصَفِيِّ أمير المؤمنين من وَلَده وخِيرته ، المستعينِ بالله أبي الفضل العَبَّاس بلَّغ الله فيه أميرَ المؤمنـين غايةَ الأمَل ، وأقرّ به عيْنَ الخلافة العبَّاسيَّة كما أقرّ به عينَ أبيه وقد فَعَلْ .

أما بعـدُ، فالحمدُ لله حافِظ نِظام الإسـلام وواصِلِ سَبَبه ، ورافِع بيتِ الخلافة وماذّ طُنُبه ، وناظِم عِقْد الإمامة المعظَّمة فى سِـلْك بَنِي العباس وجاعِلِها كلمةً باقيةً فى عَقِبـــه .

والحمــدُ لله الذى عَدَق أمْرَ الأمة منهم بأعظَمِهم خَطَرا ، وأرفَعِهم قَـدْرا ، وأرجَحِهم عَقْلا وأوسَعِهم صَدْرا ، وأجزلهم رأْيا وأسلَمِهم فِكْرا .

والحمـدُ لله الذى أقرّ عيْنَ أمير المؤمنين بخيْرِ وَلِىّ وأفضَلِ وَلَد، وشدّ أزْرَه بأكرم سـيد وأعزِّ سَنَد ، وصرَفَ آختيارَه إلىٰ مَنْ إذا قام بالأمر بعــدَه قيل هذا الشِّبْلُ من ذاكَ الأسَد .

والحمـــدُ لله الذى جمعَ الآراءَ علىٰ آختيار العاهد فما قَلَوْه ولا رفَضُوه ، وجبَل القلوبَ علىٰ حُبِّ المعهود إليه فلم يَرَوُا العُدُولَ عنه إلىٰ غيره بوجه من الوُجُوه .

والحمـدُ لله الذى جدّدَ للرعيَّة نِعمةً مع بَقاء النِّعمة الأُولىٰ، وأقام لأمْرِ الأمّة من بَنِي عمِّ نبيِّه المصطفىٰ الأَوْلىٰ بذٰلك فالأَوْلى ، وآختار لعهد المسلمين مَنْ سبقَتْ إليه فى الأزَلِ إرادتُه فأصبح فى النُّفُوس معظَّما وفى القلوب مَقْبُولا .

والحمـدُ لله الذى أضحك الخلافةَ العبَّاسية بوجُود عبَّاسها ، وأطاب بذِكْره ريَّاها فتعطَّر الوجودُ بطيبِ أنفاسِهـا ، ورفع قَدْرَه بالعهد إليــه إلىٰ أعلىٰ رُتْبــة مُنِيفه ،

وخَصّه بمشاركةِ جَدّه العبّاسِ فى الاسم والكُنْية ففاز بما لم يَفُزْ به قبْلَه منهم ست وأربعون خَلِيفه (١) .

والحمـــدُ للهِ الذى أوْجبَ علىٰ الكافّةِ طاعةَ أُولِى الأمْرِ من الأئمّـه ، وألزَمَهم الدُّخولَ فى بَيْعــة الإمامِ والانقيادَ إليه ولو كانــ عبْدًا أسْودَ فكَيْف بمن أجْمع علىٰ سُؤْدَده الأمّه ، وأوضَحَ السبيلَ فى التعريف بمَقَام الآلِ والعِتْرة النبويّة ﴿فلا يَكُنْ أمْرُكُم عليكُمْ غُمّه﴾ .

يحمَـدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما مَنَحه من طِيبِ أُرُومةٍ سَمَتْ أصـلا وزَكَتْ فَرْعا ، وحَبَاه من شَرَفِ مَحْتِدٍ راقَ نظَرا وشاق سَمْعا ، ووصله به من نِعَمٍ آثرتْ نَفّاعا وأثّرتْ نَفْعا ؛ ويشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارَثُونها كالخلافة كابِرًا عن كابِر ، ويُوصِّى بها أبدًا الأوّلُ منهم الآخِر ، ويُؤْذِن قيامُهم بنُصْرتها أنّهم مَعْـدن جوهرِها النَّفيسِ ونِظامُ عِقْدِها الفـاخِر ؛ ويشهَدُ أنّ سـيِّدنا محمدًا عبدُه ورسولُه ، الذى خصَّ عمّه العباسَ بكريم الحِبَاء وشريفِ الإنافَهْ ، ونَبَّه علىٰ بَقَاء الأمرِ فى بَنِيه بقولٍ ضَلَّ مَنْ أظهر عِنادَه أو أضمر خِلافَه ؛ حيثُ أسَرَّ إليــه : " ألَا أُبَشِّرُكَ يا عَمِّ بِى خُتِمتِ النبوّةُ وبولَدِك تُخْتَم الخلافه " صلّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تعم بركتُها الوَلَدَ والوالِد ، ويشْمَل معروفُها المعهودَ إليه ويَعْرِف شرَفَها العاهد ، ويعترِف بفضلها المُقِرُّ ولا يَسَــعُ إنكارُها الجاحد ؛ مانُوِّهَ بذكر الخلافة العباسـيّة علىٰ أعواد المَنابِر ، وخَفَقتِ الراياتُ السُّود علىٰ عساكر المَوَاكب ومَوَاكب العساكر ؛ وسـلَّمَ تسليما كثيرا .

(١) ذكّر اسم العدد علىٰ حد ماأنشده الفراء .

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

هـذا وكلُّ راعٍ مسئول عن رعيَّته، وكلُّ ٱمْرِئ محمولٌ علىٰ نِيَّته، مخبِرٌ بظاهره عن جميلِ ما أكنَّه فى صَدْره وما أسَرَّه فى طَوِيَّته؛ والإمامُ منصوبٌ للقِيام بأمر الله تعالىٰ فى عِباده، مأمورٌ بالنصيحة لهم جُهْدَ طاقته وطاقَةَ ٱجْتِهاده، مطلوبٌ بالنظر فى مَصالحهم فى حاضِرِ وقتِهم ومستقبله وبَدْءِ أمرهم ومَعَاده؛ ومِن ثَمَّ ٱختلفَتْ آراءُ الخلفاء الراشدين فى العهد بالخلافة وتباينَتْ مقاصِدُهم، وتنوَّعَتِ ٱختياراتُهم بحسَب الأجتهاد وٱختلفتْ مواردُهم؛ فعهِد الصِّـدِّيقُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه متثبِّتا، وتركَها عمرُ شُورىٰ فى ستَّة وقال: «أتحمَّـل أمرَكُم حَيًّا وميِّتا!» وأتىٰ رضى الله عنه لكلٍّ من المذهبين بما أذْعن له الخَصْمُ وسلَّم، فقال: «إنْ أعهَدْ فقد عَهِد مَنْ هُو خَيْرٌ منِّى أبو بكر، وإنْ أتْرُكْ فقد تَرَكَ مَنْ هو خيْرٌ منِّى رسولُ الله صلَّى الله عليه وسـلم» فأخذ الخلفاءُ فى ذٰلك بسنَّتهما، ومشَوْا فيـه علىٰ طريقتهما؛ فمن راغِبٍ عن العهد وراغبٍ فيه، وعاهِدٍ إلىٰ بعيـدٍ منه وآخَرَ إلىٰ ٱبْنِه أو أخيه؛ كلٌّ منهم بحسَبِ مايؤدِّى إليه ٱجتهادُه، وتَقْوىٰ عليه عزيمتُه ويترجَّحُ لدَيْه ٱعتمادُه.

ولمَّـا كان أميرُ المؤمنين ـ أحسنَ الله مآبه ـ قد نَوَّر اللهُ عيْنَ بصيرتِه، وخَصَّـه بطهارةِ سِرِّه وصفاء سرِيرتِه؛ وآتاهُ الله المُلْك والحِكمه، وأقامه لِمَصالح الرعيَّة وصلاح أمرِ الأُمَّه؛ وعلَّمه ممَّـا يشَاء فكان له من عِلْم الفِراسـة أوْفَرُ قِسْم، وٱصطفاه علىٰ أهلِ عصْره وزاده بَسْطةً فى العِلْم والجِسْم؛ فلا يَعْزِمُ أمْرا إلَّا كان رَشَادا، ولا يعتَمِد فِعْلا إلا ظهَر سَـدَادا؛ ولا يرتئِى رأْيا إلا أُلْفِى صوَابَا، ولا يُشِير بشىْء إلا حُمِدت آثارُه بِدايةً ونِهايةً وٱستِصْحابا؛ ومع ذٰلك فقـد بَلَا الناسَ وخَبَرهم، وعلم بالتجْرِبة حالَهُم وخَبَرَهم، وٱطَّلع بحُسْن النظر علىٰ خَفَايا أمورهم، وما به مصْلحةُ خاصَّتهم وجُمْهورهم؛ وترجَّح عنده جانبُ العهدِ علىٰ جانبِ الإهمال، ورأىٰ المبادرةَ إليه أَوْلىٰ من الإمْهال؛ ولم يزلْ يُروِّى فكرَتَه، ويُعْمل رَوِيَّتَـه؛ فيمن يصْلُح لهـذا الأمر

بعْدَه ، وينْهَض بأعبائه الثقيلةِ وَحْده ؛ ويَتّبِـع فيه سُبُلَه ويسْلُك طرائقه ، ويقتفى فى السِّيرة الحسَـنةِ أثره ويَشِيم فى العـدل بوارِقَه ؛ ويُقْبِل علىٰ الأمْر بكلّيّته ويقْطع النظر عمّـا سواه ، ويتفرّغ له من كلّ شاغلٍ فلا يخلِطُه بمـا عدَاه .

وقد علم أنَّ الأحقَّ بأن يكونَ لهـا حَلِيفًا من كان بها خَلِيقا ، والأَوْلىٰ بأن يكُونَ لها قَرِينا مَنْ كان بوَصْلها حَقِيقا ، والأجدَر أنْ يكُونَ لديها مكِينًا من آتخذ معَها يدًا وإلىٰ مَرْضاتِها طَرِيقا ؛ والألْيَق بمنْصبها الشريـف مَنْ كان بمطْلُوبها مَلِيًّا ، والأَحْرىٰ بمكَانِها الرفيع مَنْ كان بمقصُودها وَفِيًّا ، والأَوْفَق لمقَامها العـالِى مَنْ كان خَيْرا مقَامًا وأحسَنَ نَدِيًّا ؛ وكان ولَدُه السـيدُ الأجلُّ أبو الفضـل المشارُ إليه هو الذى وجّهت الخلافةُ وجْهَها إلىٰ قِبْلته ، وبالغَتْ فى طَلَبه وألَحَّتْ فى خِطْبته ؛ علىٰ أنه قد أُرْضِع بلِبَانِها ورُبِّى فى حِجْرِها ، وآنتسب إليها بالبُنُوَّة فضمَّته إلىٰ صَدْرها ؛ وكيف لا تَتَشَبَّث بحِباله ، وتتعلَّق بأذْياله ؛ وتطمَعُ فى قُرْبه ، وتَتَغالىٰ فى حُبِّه ؛ وتَمِيلُ إلىٰ أُنْسه ، وتُراوِدُه عن نَفْسه ، وهو كُفْؤُها المستجْمِعُ لشرائِطها المتَّصِفُ بِصفاتِها ، ونَسِيبُها السامى إلىٰ أَعَالِيها الراقِى علىٰ شُرُفَاتها ؛ إذ هو شِبْلها الناشِئُ فى آجامها ، بل أَسَدُها الحامى لحِمَاها ومُجِيرُها الوافِى بذِمَامها ؛ وفارِسُها المقـدَّم فى حَلْبة سِبَاقِها ووارِثُها الحائزُ لجميع سهامِها ؛ وحا كِمُها الطائـعُ لأمْرِها ، ورشِيدُها المأمونُ علىٰ سِرِّها ؛ وناصِرُها القـائمُ بواجِبها ، ومَهْدِيُّها الهادى إلىٰ أفضل مَذَاهِبها ؟ قد آلتحفَ من الخلافة بِرِدَائها ، وسَكَن من القُلُوب فى سُوَيْدائِها ، وتوسَّمت الآفاقُ تَفْوِيضَ الأمر إليه بعد أبِيـه فظهَر الخَلُوق فى أَرْجائِها ؛ وآتَّبع سِيرةَ أبيه فى المعرُوف وآقتفىٰ أَثَرَه فى الكَرَم ، وتشبَّه به فى المَفَاخر (ومَنْ يُشَابِهْ أبَهُ فَمَـا ظَلَمْ) وتقبَّل الله دُعاء أبِيه فوهَبَ له من لَدُنْه وليًّا ، وأجاب نِداءَه فيه فمَكَّن له فى الأرض وآتاه الحُكْمَ صَبِيًّا ؛ فاستوجبَ أن يكونَ حينئذٍ للسلمين ولَّى عهْدهم ، واليًا علىٰ أُمورهم فى حَلِّهم وعَقْدهم ؛ متكفِّلا بالأمْر فى قُرْبه وبُعْدِه ،

مُعِينًا لأبيــه فى حياته خليفةً له من بعْـده، وأن يصرِّحَ له بالاستخلافِ ويُوضِّح، ويتلُوَ عليه بلسان التفويض ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ .

وٱقتضتْ شفَقةُ أمير المؤمنين ورأفتُــه، ورِفْقُه بالأمة ورحمتُه؛ أن ينْصِب لهم ولىَّ عهدٍ يكونُ بهذه الصِّفات متَّصِفا، ومن بحْره الكريم مغْترِفا، ومن ثِمَـار معروفِه المعروفِ مقتَطِفا؛ ولمنْهَـله العَذْب وارِدا، وعلىٰ بيتِــه الشريفِ وسائِر الأمَّة بالخير عائِدا؛ فلم يجِدْ من هو مستكمِلٌ لجميعها، مستوعبٌ لأُصُولها وفُروعِها؛ وهو بمطْلُوبها أملىٰ، وعلىٰ قلوب الرعيَّــة أحلىٰ؛ وللغَليل أشْـفىٰ، وبالعهدِ الجميلِ أوْفىٰ؛ من ولده المشارِ إليه . فاستشار فى ذٰلك أهلَ الحَلِّ والعقْد من قُضاتِه وعلمائِه، وأُمرائه ووُزرائه، وخاصَّته وذَويه، وأقاربه وبَنِيه، وأعيانِ أهل العصر وعامَّته، وجُمْهوره وكافَّته؛ فرأَوْه صوابًا، ولم يَعْرهم فيه ظِنَّةٌ ولا مُسْترابًا(١)، ولا وجَدَ أحدٌ منهم إلىٰ باب غيره طريقًا ولا إلىٰ طريقِ غيرِه بابًا؛ فاستخارَ الله تعالىٰ فيه فأقبَلَ خاطرُه الشريفُ عليه، وكرَّر الاستخارَةَ فلم يجِدْ عنه مَحِيدًا إلَّا إليه .

فلمَّـا رأىٰ أنَّ ذٰلك أمرٌ قد ٱنعقد عليه الإجماعُ قوْلا وفِعلا، وعُدِم فيه المخالِفُ بل لم يكُنْ أَصْلا؛ حمِدَ الله تعـالىٰ وأثْنىٰ عليه، وسأله التوفيقَ ورَغِب إليه؛ وجدَّد الاستخارَةَ وعَهِد إليه بأمْر الأمَّة، وقلَّده ما هو متقلِّده من الخلافة المقدَّســة بعْده علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمَه من الخُلَفاء المـاضين، وقاعدةِ مَنْ سلَف من الأئمة المهْديِّين؛ وفوّض إليه ماهو من أحْكامهـا ولَوازِمها، وأُصولهـا ومَعالِمها : من عَهْدٍ ووِصَايه، وعَزْل ووِلَايه؛ وتفويضٍ وتَقْليـد، وٱنتزاعٍ وتَخْليـد؛ وتفْريقٍ وجَمْـع، وإعطاءٍ ومنْع، ووَصْــل وقَطْع؛ وصِلة وإدْرار، وتقْليــلٍ وإكْثار؛ جُزْئِيِّها وكلِّيِّها، وخفيِّها

(١) اضطره السجع إلىٰ نصب المرفوع .

وجَليِّها، ودانيها وقاصيها، وطائعها وعاصيها؛ تفويضًا شرعيًّا، تامًّا مَرْضيًّا؛ جامعًا لأحكامِ الوِلاية جَمْعا يعمُّ كلَّ نِطاق، ويَسْرِى حكمُه فى جميع الآفاق، ويدخلُ تحتَه سائِرُ الأقالِيم والأمصارِ علىٰ الإطْلاق؛ لايغيِّر حكمُه، ولا يُمحىٰ رسْمُه؛ ولا يَطِيشُ سَهْمه، ولا يأفِلُ نَجْمه .

قبِلَ المعهودُ إليه ـ أعلىٰ الله مَقامَه ـ ذلك بمحْضَر من القُضاة والحُكَّام، والعلماء الأعْلام؛ ولزِمَ حكمُه وٱنْبرَمْ، وكُتِب فى سِجِلَّات الأفلاكِ وٱرْتَسَم، وحُملت رسائلُه مع بُرُد السَّحاب فطافَتْ به علىٰ سائرِ الأُمَم؛ وهو ـ أبقاه الله ـ مع ماطُبِعت عليه طِباعُه السليمه، وجُبِلت عليه سَجاياه الشريفةُ وأخلاقُه الكَرِيمه؛ قد تلقّىٰ عن أمير المؤمنين من شريف الآدابِ ماغُذِّى به فى مَهْده، وتلقَّف منه من حُسْن الأَدوات مايَرْوِيه بالسَّنَد عن أبيه وجَدِّه؛ مما ٱنْطَبع فى صَفاء ذِهْنه الصَّقيل وٱنتقَشَ فى فَهْمه، وٱختَلَط من حال طُفُوليَّته بدَمِه ولَحْمه وعَظْمه؛ حتّىٰ صار طبْعا ثانيا، وخُلُقا علىٰ ممَرّ الزمان باقِيا؛ وٱجتمع لدَيْه الغَرِيزىُّ فكان أصْلا ثابِتا، وفَرْعا علىٰ ذٰلك الأصلِ القوىِّ نابِتا؛ لكنْ أميرُ المؤمنين يُوصِيه تبرُّكا، ويشْرَح له مايكونُ به ـ إن شاء الله ـ متمسِّكا؛ والمرءُ إلىٰ الأَمْر بالخير مَنْدُوب، ووصيَّةُ الرجل لبَنِيه مطلوبةٌ فقد قال تعالىٰ : ﴿ ووصَّى بِهَا إبْراهِيمُ بَنِيه ويَعْقُوبُ ﴾ .

فعليكَ بمراقبةِ الله تعالىٰ فَمَنْ راقبَ اللهَ نَجا، و[اجعل] التَّقْوىٰ رأسَ مالك : ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وٱلجأْ إلىٰ الحق فقد فازَ مَنْ إلىٰ الحق لجَا؛ وكتابُ الله هو الحبلُ المتين، والكتابُ المُبين، والمَنْهَج القوِيم، والسبيلُ الواضِحُ والصِّراطُ المستقِيم؛ فتمَسَّكْ منه بالعُروة الوثقىٰ، وٱسْلُكْ طريقتَه المُثْلىٰ وٱهتَدِ بهَدْيِه فلا تَضلّ ولا تَشْقىٰ؛ وسُنَّةَ نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم عليك بالاقتداءِ بأفْعالها الواضِحه، والإصغاءِ لآثار أقوالها الشارِحه؛ عالمًا بأنَّ الكتابَ والسنة أخوَان لا يفْتَرِقان،

ومُتلازِمانِ بحبْل التباُين لا يعتَاقان ؛ والبِلادَ والرَّعايا خُطْهما بنَظَرك ما آستطعْت ، وتثبَّت فى كل قَطْع ووَصْل فأنتَ مسْئُول عن كل ما وصَلْتَ وقطَعْت ؛ والآلَ والعِتْرَةَ النبويَّة فَفِيهِمَا حقَّ القرابة منك ومنْ رسـولِ الله صلَّى الله عليه وسـلم الذى أشرقَتْ به ؛ وآعلم أنك إذا أكرمْتَ أحدا منهم فإنما أكرمتَه بسَببِه ؛ وآتَّبع فى السِّيرة سِـيرةَ آبائك الخلفاء الراشدين لاتَزِغْ عنها ، ولا تعمَلْ إلَّا بها و بمـا هوـ إن آستطعتَـ خيْرٌ منها ؛ وآقْفُ فى المعروف آثارَهم المقدّسَةَ لتحْوِىَ من المآثِرِ ماحَوَوْا ، وآحْذُ حَذْوَهم فى طريقِهم المباركةِ وآبنِ المجدَ كما بنَوْا ؛ وأَحْيِ من العمل سنّةَ سلَفِك المصطفَيْنَ الأخيار ، وآحرِصْ أن تكونَ من الأئمة الذين يُظِلُّهم الله تحتَ عرشه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ يَوْمَ لايَنْفَعُ الظَّالِمينَ مَعْذِرَتُهُمْ ولَهُمُ اللَّعْنَــةُ ولَهُمْ سُوءُ الدَّار ﴾ . وأسْلِف خيرًا تُذْكَرُ به علىٰ مَمرِّ اللَّيالى ، و ينتظِمُ ذِكْرُه فى عُقُود الأيَّام كما تنتَظم فى السِّلْكِ اللَّآلِى ؛ ولْيكُنْ قصْدُك وجهَ الله ليكونَ فى نُصْرتك فإنَّ مَنْ كان الله تعالىٰ فى نُصْرته لايُبالِى ؛ ولْتعْـلَمْ حقَّ اليقينِ أنَّ حسنَةَ الإمام تُضاعَفُ بحسَبِ ما يترتَّب عليهـا من المَصالح أو يتجدّدُ بسببها ، وسيِّئَته كذٰلك فمن سَنَّ سيئةً كان عليه إثمُها وإثمُ مَنْ عمِـلَ بها ؛ ودُرْ مع الحقِّ كيفَ دارَ ومِلْ معـه حيثُ مال ، وآعلَمْ بأنَّ اللهَ لا يُغيِّر مابقَوْم حتَّى يغَيِّروا مابأنفُسِهم و إذا أرادَ اللهُ بقوم سُوءًا فلا مَرَدَّ لَهُ وما لهم مِنْ دُونِه مِن وال ؛ ولا تُخطِرْ ببالك أنَّ هذا الأمْرَ آنتهىٰ إليكَ بقُوّه ، أو يَغُرَّكَ ما قدّمناه من الثناء عليـك فالتأثُّر بالمَدْح يُخِـلُّ بالمُرُوّه ؛ ولا تتَّكِلْ علىٰ نَسبك فَمَنْ أطاعَ اللهَ أدْخلَه الجنةَ ولو كان عبْدا حبشيّا ، ومَنْ عصاه أدخلَهُ النارَ ولو كانَ هاشِميًّا قُرَشيًا ، وآستنْصِر اللهَ ينصُرْك وآستعِنْ به يكُنْ لك عَوْنا وظَهِيرا ، وآستَهْدِه يَهدِكَ ﴿ وَكَفىٰ بِرَبِّكَ هادِيًا ونَصِـيرا ﴾ وكُنْ [من] الله خائفًا ومن مكره من المُشْفقِين ، فإنَّ الأرضَ لِلّٰهِ يُورِثُها من يَشَاءُ من عباده والعاقبةُ للمتَّقين .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، ووصيّته تُملىٰ عليك ؛ ﴿ وذَكِّر فإنَّ الذِّكرىٰ تَنفَع المُؤْمِنين ﴾ والله تعالىٰ يبلِّغُه منك أملاً ، ويحقِّق فيك عِلْما ويزكِّى بك عملا ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطِّ المقدّس الإمامىّ المتوكلىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ ـ أعلاه ، حجةٌ فيه إن شاء الله تعالىٰ .

المـــــذهب الثانى

(أن يَفْتتحَ العهدَ بعد البسملة بلفظ «من فلان إلىٰ فلان» كما يُكْتَب فى المكاتبات ثم يأتِىَ بالبعدية ويأتِىَ بما يُناسِبه مما يقتضيه الحالُ من ذكر الوِلاية ، ووصْف المتولِّى ، وآختيار المُوَلِّى له ونحو ذلك)

ثم قاعدة كُتَّابهم أنهم يأتُون بعد ذلك بالتحميد فى أثناء العَهْد .

وهـذه نسخةُ عهدٍ من ذلك ، كُتِب بها عن الحافظ لدين الله الفاطمىّ ، لولَده حَيْدرةَ بأن يكونَ ولىَّ عهد الخلافة بعده ؛ وليس فيها تعرُّض لتحميد أصلا ، وهو .

مِنْ عبدِ الله ووليّه عبدِ المجيد أبى الميْمُون الحافظِ لدِين الله أمير المؤمنين ، إلىٰ وَلَده ونَجْله ، وسُلالته الطاهرةِ ونَسْله ، والمُجْمَع علىٰ شَرَفه والعامل بمرضاةِ الله فى قوله وفعله ، وعَقْده وحلّه ؛ الأمينِ أبى تُراب حَيْدَرةَ ، ولىّ عهد أمير المؤمنين ، عليه السلامُ .

سلامٌ عليك : فإنَّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو ، ويسألُه أن يصَلِّى علىٰ جَدّه محمدٍ خاتمَ النبيين ، وسيِّد المرسلين ، صلّى الله عليه وعلىٰ آلِه الطاهرين ، الأئمة المهديِّين ؛ وسلَّم تسليما .

أما بعدُ ، فإنَّ اللهَ تعالىٰ لبَديع حِكْمته ، ووَسِيع رحْمته ، استوْدَع خُلفاءه مَنْ خَلَقه وبَرأه ، وآستكفىٰ أُمناءَه مَنْ صوّره وذَرَأه ؛ ورتّبهم مَرْتَبةَ النفُوس من الأجساد ،

ونزّلهم بمنزلة الضّـياء من الأزناد ، وجعلهم مستخدِمين لأفكارهم فى مصالح البريّة التى غدَتْ فى أمَانِهم ، وحصلتْ فى ضَمَانِهم ، فظلّت فى ذِمَامهم ، وسَعِدت فى عِزّ مَقَامِهم وظلّ أيّامهم : لأنّهم نُصِـبوا للنظر فيما جَلّ ودقّ ، وتَعِبُوا لراحة الكافّة تَعَبا صَعْبا وعَظُم وشَقّ ، وكان ذٰلك سِرّا من أسرار الحِكْمه ، وضَرْبا من أفضـل تدْبير الأُمّه ، إذ لو ساوىٰ بينَ الرئيس والمرْءُوس ، والسائس والمَسُوس ، لاختلطَ الخُصُوص بالعُمُوم ، ولم يبقَ فرقٌ بين الإمامِ والمأمُوم .

وقد آستخلص الله أميرَ المؤمنين من أشرَفِ أُسْرة وأكرمِ عِصَابه ، وأيّده فى جميع آرائه بالحَزَامة والجَزَالة والأَصالة والإصابَه ، وقضىٰ لأغراضِه أن يكونَ السعدُ لها خادِما ، وحَتَمَ لمقاصِدِه أن يُصاحِبَهَا التوفيقُ ولا يَنْفَكّ لها مُلازِما ، وجمع له ما تفرّق فى الخليقة من المَفَاخر والمَنَاقِب ، وألهمه النظرَ فى حُسْن الخواتم وحميدِ العَوَاقب .

ولمـا كان ولِىُّ عهْـدِ أمير المؤمنين أكبرَ أبناءِ أميرِ المؤمنـين ، والمنتَهِىَ لأشرف المراتِبِ من تقادُم السِّنين ، وقد آستولىٰ علىٰ الفَخْر باكتِسابه وآنْتِسابه ، وتصدّت له مخطوباتُ الرُّتَبِ ليَحُوزَها باستحقاقه وآستِيجَابه ، وله من فضـيلةِ ذاتِه ما يدُلّ علىٰ النبإ العظِيم ، وعليه من أنوار النبوّة ما يَهْتدِى به السارِى فى الليل البَهِيم ، وحِينَ حوىٰ تالِدَ الفَخْر وطارِفَه ولم يستَغْنِ بالقـديم عن الحديث ولا بالحَديث عن القَدِيم ، والصِّفاتُ إذا آختلفَتْ أربابُهـا لا تقَع إلا دُونَه ، والثوابُ الجزيلُ ممـا أعدّه الله للذين يُخْلِصُون فيه ويتولّوْنه ، وليفخَرْ بأنْ خُصّ من العِناية الملكُوتيّة بالحظّ الأجْزَل ، ولْيتَسَمّحْ علىٰ البَرَايا ليكُونَ ممدُوحًا بالكتاب المنزّل ، ولْيَبْذَخْ فإنّ وصْفَه لا تُبْلَغ غايتُه وإن آستُخْدِمت فيه الفِكَر ، ولْيَبْجَحْ فإن فضله لا يُدْرك حقيقةً إلا إذا تُلِيت السُّوَر ، فأمتعه اللهُ بمَواهبه لديْه وأمتع أميرَ المؤمنين به ، وأجْرىٰ أموره عاجلا وآجلا بسَبَبه .

رأى أميرُ المؤمنين أن(١) يختصّه بولَاية عهد أمير المؤمنين تميزاً له بهـذا النعت الشريف، وسُمُوًّا به إلى مايجب لمجْده الشامخ ومحلِّه المُنيف ، وآقتداءً بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يُشَرِّفُون به أبناءهم الأكْرمين ، وتخصيصًا له بما يبقى فخره على متجدِّد الأزمان ومُتطاوِل السِّـنين . وأمر أمير المؤمنين أن يُتخَيَّر من رجال دوْلته، ووُجُوه أجناده وشِـيعتِه ، طائفةٌ يكونُ إليه آنتمـاؤُها ، وإلى شَرَف هـذا النعتِ آنتسابُها وآعتزاؤُها ، فتُوسَم بالطائفة العَهْديَّه، وتَحْظى إذا أخلصَتْ في الوِلَاية بالسَّعادة الدائمة الأبديَّه، وتظلّ موقُوفةً على خِدْمته، متصرِّفةً على أوامِره وأمْثِلته، منتهيةً في طاعته إلى أغراضـه ومآربِه، ملازمةً لِلَّازم المتَعيِّن من مُلازمة الخِـدْمة في موَاكِبِه ، والله تعالى يجعلُ مارآه أميرُ المؤمنين من ذلك كافِلًا بالخيرات، ضامناً لشُمول المنافِع وعمومِ البركات، إن شاء الله تعالى : والسلامُ على وليِّ عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه .

وهذه نسخةٌ بولايةِ العهد من خليفةٍ لولده بالخلافة على هذه الطريقة، من إنشاء القاضِي الفاضِل، أتى فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاثَ مرَّات، وهي :

من عبـدِ الله ووليِّه فلان أبي فلان الإمام الفلانيّ إلى فلانٍ الفلاني ، والصلاة والسلام على النبيّ صلَّى الله عليه وسلم على نحو ماتقدّم في العهد قبله .

أما بعـدُ ، فالحمدُ للهِ الذي آستحقَّ الحمدَ بفَضْلِه ،وأجرى القَضَاءَ [على ماأراده](٢) ووَسِـعَ الجَرائِمَ بعفْوه وعدْله ، وصرَّف المَراحِمَ بين قوْله وفِعْـله ، وأعلى منارَ الحق

(١) لعل هذا جواب الشرط في أول الفقرة قبـل و يكون العامل في حين بعـده محذوفا دل هذا عليه . تأمل .

(٢) بياض في الأصل والتصحيح من المقام .

وأرشَدَ إلىٰ أهله ؛ واختارَ الإسلامَ دِيناً وعَصَم المعْتلِقِين بحَبْله ، وأوضح سُبُل النَّجاة بمـا أوْضَح لسالِكِيه من سُبْله ؛ وتعالىٰ عُلاه إلىٰ الصِّفات ، فلم يُوصَفْ بمثل قوله : ﴿ لَيْسَ كمِثْلِه ﴾ وتنزَّه عن آشـتراكِ التشبيهات ، فى كلِّ جليل الوصف مستقِلِّه وغيرِ مستَقِلِّه ؛ علِمَ ما آشتملَتْ عليه خَطَراتُ الأَسْرار ، وأشارتْ إليه نَظَراتُ الأبْصار ، وآنفرجَتْ عنـه غَمَراتُ الأخطار ، وأخفَتْه سَتَراتُ الظلمـاء وباحتْ به جَهَراتُ الأنْوار : ﴿ سَـوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَـنْ جَهَرَ به ومَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وسارب بِالنَّهار ﴾ .

والحمدُ لله الذى جعل الدِّينَ عِنْده الإسلام ، فمن آبتغىٰ غيْرَه ضَلَّ المَنْهج ، وأبْعَد المَعْرَج ، وآستَلْقَح المُخْدَج ، وغَلِط المَخْرَج ، وفارقَ النُّورَ الأبْلَجْ ، وركِبَ الطريقَ الأعْوَجْ ، وأتىٰ يومَ القيـامة باللِّسان المُلَجْلَج ؛ ومَنْ أسْـلَمَ وجْهَـه إليه فاز بالسَّعْيِ النَّجِيح ، وحاز المَتْجَرَ الرَّبيح ؛ ووَرد المَوْرِدَ الأحْمَد ، ويَمَّم القَصْد الأقْصَد ، ووجد الجَـدَّ الأسْـعد ، وسلك المَنْهَج الأرْشَـد ؛ فهو العُرْوة الوُثْقىٰ ، والطريقةُ المُثْلىٰ ، والدرَجةُ العُلْيا ؛ وأُمِر به خيْرُ المرسَلين ، المنعوتُ فى سِـيَر الأوَّلين ، المبعُوثُ بالحق المُبِين ، والقائمُ رسولًا فى الأُمِّيين ، والهـادى إلىٰ الحقِّ وإلىٰ طريقٍ مستَقِيم ؛ والداعِي الذى مَنْ أجابه وآمَنَ به غُفِر له ما تقَدَّم من ذَنْبه وأُجِيرَ من عذابٍ ألِـيم ، والمستقِلُّ [بالعِبْء] (١) العظيم ، بفَضْـل مامُنِح من الخُلُق العظيم ، والممدُوحُ بقوله : ﴿ لَقَـدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْـهِ ما عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .

والحمدُ لله الذى وَصَل النبوّةَ بالإمامَهْ ، وجعلَها كلمةً باقيةً فى عَقِبه إلىٰ يومِ القِيامه ، وخصَّها بالخَصَائص التى لاتَنْبغِى إلا لتـامِّ الكَرَامه ، وأجار بها خَلْقَـه من متَالِف

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام . تأمل .

الطامّة وبوادى النّدامه، وهدى بشرف مَقامه إلى دار المُقامه؛ وآستردّ بأنوار تدبيره من ظَلام الباطِلِ الظُّلاّمه، وأحسَنَ بما أجراه من نَظَره النظرَ للخاصّة والعامهْ، ﴿ إنّ هٰذا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِين ﴾ .

يحمَدُه أميرالمؤمنين أنْ رفَعه إلىٰ ذلك المحلّ المُنيف، وآستَعْمَر به المَقامَ الشريف، وأظهرَ كلمةَ الدِّين الحنيف، ونفىٰ عنه تَغالِيَ التعمُّق وتَجْديفَ التحريف، وبيّن بموافَقة تَوْفِيق هَدْيه طريقَ التكليف، وأمدّه بموادٍّ إلٰهيَّةٍ تشتهر فتستغْنِي عن التعريف، وتتَّصِل فتقْطَع موادّ التكْييف .

ويسألُه أن يصلِّيَ علىٰ جدّه محمدٍ الذى نَسَخ بشريعتِه الشرائع، وهذَّب بهِدايته المَشارع، وأيّده بالحُجَج القواطِع، والأنوارِ السّواطع، وجعل من ذُرّيَّته جبالَ اللهِ القَوارع، ومن مِشْكاته نُجومَ الهُدىٰ الطَّوالع، وعُدِقتْ صنائعُه بالله إذا آفتخَرت المُنْعمون بالصَّنائع؛ وعلىٰ أخِيه وأبِينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب المخصوص بأُخوَّته، وأبى الثقَلَيْنِ من عِتْرته، والسابِقِ إلىٰ الإسلام فهو بعْدَه أبو عُذْرتِه؛ وإلى تفريجِ الكَرْب عن وجْهه فى الحَرْب فهو آبنُ بَجْدَتِه . وعلىٰ الأئمةِ من ذرّيتهما مَصابِيح الظُّلُمات، ومَفاتيحِ الشُّكوك المُبْهَمات، والممنوحين من شَرف السِّمات، ماجَلَّ عن المُسامَات، والممدوحينَ بفضْل الجاه فى الأرَضين والسّموات .

وإن الله بحكمته البَديعه، ورحمتِه الوَسِيعه؛ أقام الخلفاء لخلقه قِواما وبحَقّه قُوَّاما، وجعل نارَ الحوادثِ بنُورهم بَرْدا وسَلاما، وجعل لهم الهداية بأمره لِزاما، وآستَصْرَف بهم عن الخَلْق عذابَ جَهَنَّم ﴿ إنَّ عَذابَها كانَ غَراما ﴾؛ فهم أرواحٌ والخلائقُ أجسام، وصَباحٌ والمَسالكُ أظْلام، وثمراتٌ والوجُودُ أكمام، وحُكّام والحقائقُ أحْكام، يَسْهَرُون فى منافع الأنام وهم نِيام، وينفرِدُون بوَصَب النَّصَب

ويُفْرِدُونهم بلذّات الجَمام، ويهتَدُون بِهِدَاياتهم إلىٰ ماتَدِقُّ عنه حوائِطُ الأفْهام، ولا يُدْرَك إلّا بوسائِط إلهام. وقد ٱصطفىٰ اللهُ الأميرَ من تلك الأُسْره، ورَقّاه شرفَ تلكَ المنابِرِ ومُلْك تِلكَ الأسِرَّه، وأنار بمَقامه نُجومَ السعادة المستَسِرَّه، وٱستخْدَم العالَمَ لأغْراضه، وسدّدَ كلَّ سهْمٍ فى رَمْيه إلىٰ أغراضه، وأقرضَ اللهَ قرْضًا حسَنا فهو واثقٌ بحُسْن عواقب إقراضه، وٱفترضَ طاعتَه فى خَلْقه فالسعيدُ من تلقّى طاعة أميرِ المؤمنين بٱفْتِراضه، وأمضىٰ أوامِرَهُ علىٰ الأيّامِ فما يقابِلُها صَرْفٌ من صُروفها باعْتِراضه، وأدار الحقَّ معه حيثُ دار، وكَشَفَ له ماٱستَجَنَّ تحتَ أستارِ الأقْدار، ووقَفَ الخِيرةَ والنُّصْرة علىٰ آرائِه و راياتِهِ فهو المستَشَار والمستَخَار، وألهمه أن يحفَظَ للأمة غَدَها كما حَفِظ لها يومَها، وأن يُجْرِىَ لها مَوارِدَ توفيقِ الٱرتيادِ ولا يُطِيلَ حَوْمَها، وأن يجعل المؤمِنَ علىٰ ثَلَجٍ من الصُّدور، وفَلَجٍ من الظُّهور، ويُودِعَ عندها بَرْدَ اليقينِ بالإشارةِ إلىٰ مستَوْدَع النُّور، ويجعلَها علىٰ شريعةٍ من الأمر فتَتَّبِعها، ويُحِلَّها بمنزلة الخِصْب فترتَبِعها، ويُعلِم نَدىّ خَيْره ليكونَ غايتَها ومَفْزَعها، ويُعرِّفَها من تنتظِرُه فتتَّخذه مآلَها ومَرْجِعها، ويقتَدى فى ذٰلك بسيد المرسَلين فى يومِ الغَدِير، ويُشير إلىٰ مَنْ يقُوم به المشيرُ مقام البشير.

ولمّا كنتَ حافظَ عهد أمير المؤمنين والسيِّدَ الذى لا بُدّ أن يُتَوَّجَ به السَّرير، والنَّجْمَ الذى لابُدّ أن نستطِيلَ إلىٰ أنْواره ونستَطِير، والذَّخيرة التى ادَّخَرها اللهُ لِنَيْل كل خَطَر ودَفْع كلِّ خَطِير، والسَّحابَ الذى فيه الثَّجُّ المَطِير، والنَّجمُ المُنِير، والرَّجْمُ المُبِير، وقد تجلَّتْ لكَ أوجُهُ الكرامات وتبدّتْ، وتبرَّجَتْ لك مخطُوبات المَقَامات وتصدّتْ، وطلبَتْك كُفْئًا لنَيْلِ عَقِيلتها وسُكْنىٰ مَعْقِلها فما تعدّتْ، وأدّت إليك لطائِفُ فَهْمِكَ من أسرار الحقائقِ ما أدّتْ؛ وعرَفْتَ من سِيماكَ هَدْى النبوّه، وٱجتمع لكَ مزِيّةُ الشّرفين من الطَّرَفيْنِ الأُبُوّة والبُنُوّه، وأخذْتَ كتابَ الحكمة

ومَصُون العِصْمة بقُوه ، وأَجْرَتَ القلوبَ التى بعوارض الشَّكِّ مَمْنُوه، وآثرْتَ العقائدَ التى بنواقِض العقْد مملُوه، وغدَتْ وُجُوه الأنام بأيَّامك مجْلُوه، وتوافقت الألْسُنُ علىٰ مَدْحك ولا مِثْــلَ ما مُدِحْتَ من الآيات المتلُوَّه ، وكنتَ بحيثُ تَذْهبُ بالأهوال المسْلُوه ، وتُقْبِــل بالآمالِ المرْجُوه ؛ ولو أنَّ ربَّما ضلَّ لَهَداهُ نورُك فى الليــلِ البَهِيم ، ولو أنَّ ذِكْرَك شذَّ لتبــدَّى فى الآياتِ والذِّكْرِ الحكيم ، ولو أنَّك طلَعْتَ علىٰ الأوّلين لمــا تساءَلُوا ولا آختلَفُوا فى النَّبإ العظيم ، ولوأنَّ قديمًا علَا فوق كلِّ حديثٍ لقام لكَ الحديثُ مَقَامَ القديم ، ولو أنَّ جميعَ الأنام فى صــعيدٍ واحدٍ لصَعِدتَ دُونَهم المقَــامَ الكريم ،ولو أنَّ يدَكَ البيضاء تجَسَّمتْ للناظرين لأعَدْتَ آيةَ موسىٰ الكليم ، ولو أنَّ هِدايتَكَ الغرَّاء تنسَّمتْ للذاكرين لأحْيَيْتَ بهــا العِظامَ وهى رَمِيم ، ولو أنَّ عُلُومَك آنتشرتْ بينَ العلَماء لتلَوْا : ﴿وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾ ولو أنَّ ليلةَ وِلادتِك رصدَتْها البصائرُ، رأت كيف يُفْرَقُ فيها كلُّ أمْرٍ حكِيم ،والصِّفاتُ إذا آحتفل أربابُها وقفَتْ لك عبيــدا ، والأيامُ إذا كانتْ ظُروفًا لفضائلكَ كانَ كلُّ يوم منها للعبيدِ عِيدا ، والأنسابُ إذا عددْتَها كان الجَدُّ سعِيدا ؛ فلْتفخَرْ قبْلَ السيرِ بأن أمليْت عليها السُّوَر ، وأبشِرْ بأن المنتظَر من فضل الله لكَ فوْقَ ما تعَجَّله النظَر ، وآشمَخْ بأنَّ سادةَ القبائل مُضَرُ وأنك بعــد أمير المؤمنين ســيِّدُ مُضَرْ ، وآبذَخْ بأنك عِوَضٌ من كلِّ مَنْ غاب وماعنك عِوضٌ فى كل مَنْ حضَر ، وآبجَحْ بأنك قد أُهِّلْتَ لأمرٍ أبىٰ الله له إلا أُولِى العَزْم والخَطَر ، وآشكُرِ اللهَ علىٰ نعمة خلقَك لها بِقَدَرْ ، ومزِيَّةٍ لا يُوفِّى حقَّها من أضمر فأغْرَقَ أو نطق فشكَر : وقُلِ ﴿ الحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ : ﴿ وقُــلْ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وعَلىٰ وَالِدَيَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاه ﴾ .

فإليك هـذا الأمرُ يَصير، وأنت لَهُ واللهُ لك نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النَّصير؛ وتأهَّبْ له في درجته التي لايَنـالُها باعٌ قَصِير، ولا يمْتَطِيها إلاَّ من ٱختارهُ اللهُ علىٰ عِلْمٍ من أهل الثقلين ولو أنَّ بعضَهم لبعضٍ ظَهير، ولا نرىٰ لها أهلا إلَّا مَنْ أراه الله من آياتِه أنه هو السَّميع البصير، وفاوِضْ أميرَ المؤمنين في مُشْكِلات الأمر ولا يَنَبِّئك مثلُ خَبير، وٱقْتَدِ منه بمن هو [في] أهل دهره وَصِيُّ الوَصِيّ ونظيرُ النَّذير، وٱهتَدِ بنُوره الذي هو بالنُّور البائنِ دُونَ الخلق بشِير، وسِرْ إذا ٱستعْمَلك اللهُ فيهم بما رأيتَ أميرَ المؤمنين به فيهم يَسِير، وٱدْعُ اللهَ بأن يُيَسِّر علىٰ يَدِك مَنَاجِحَهم إنَّ ذٰلك علىٰ الله يَسِير، وٱعْرِف ما آثَرك اللهُ به من أنه لم يجعل لِيَدِك كُفُؤًا إلا ذا الفَقَار ولا لقَدَمك كفُؤًا إلا المِنْبَر والسرير، وتحدّثْ بنعمة الله وإجرائِها فأميرُ المؤمنين اليومَ عليك أميرٌ وأنت غدًا علىٰ المؤمنين أمير: ﴿هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ومَنْ شَكَرَ فَإِنَّما يَشْكُرُ لنفســـه﴾.

وأما العــدْلُ وإفاضَتُه، والجَوْرُ وإغاضَــتُه، والصَّعْبُ ورِياضَــتُه؛ والجَدْب وترويضُه، والخَطْب وتَفْويضه؛ والجهادُ ورَفْع عَلَمه، والذبُّ عن دِينِ الله وحِفْظُ حُرَمه؛ والأمْرُ بالمعروف ونَشْر رِدَائه، والنهيُ عن المنكر وطَيُّ ٱعتِدَائه؛ وإقامةُ الحدّ بالصَّفح والحَــدّ، والمُساواةُ في الحقِّ بين المَوْلىٰ والعَبْد، وبثُّ دعوة الله في كل غَوْر من البلاد ونَجْد، وأمرُ عباد الله إن عباد الله في زمنك الرغد؛ فذٰلك عهدُ الأئمة الراشدين، وهو إليك من أمير المؤمنين، عَهْدٌ مؤكَّد العَقْد: وهو سُنَّة فضل الخلفاء التي لاتَجِـدُ لهـا تَحويلا، ومعنىٰ العـهدِ الذى أمر اللهُ بالوفاء به فقـال: ﴿إنَّ العَهْدَ كان مَسْئُولا﴾.

وهل يُوصىٰ البحرُ بتلاطُم أمْواجه؟ وتَدَافُع أفْواجِه؟ وبتَرَاكُم عَجَاجِه؟ وهل يُحَضُّ البدرُ المنيرُ علىٰ أن يُنِير سِراجُهْ، ويَطْلُعَ ليتَّضح للسالك مِنْهاجُه؟ أو يُنَبَّهُ علىٰ هدايته

إذا تهادَتْه أبراجُه ؟ وعليكَ من سرائرِ أنوار الله مايُغنِيك أن تُوصَى ، ولدَيْكَ من ظواهر لطائفِ اللهِ ماتَميَّزَ به عن الخلقِ إذ أضحَيْتَ به مخصُوصا ، ومن شواهِدِ آختيار الله ماتظاهَرتْ عليك آياتُه نُصُوصا ؛ فبِسَلام الله يُحَيِّيك المؤمنُون ، وبالآعتلاق بعِصْمة ولائِك فى يوم الفَزَعِ الأكبرِ يَأْمَنُون ، واللهُ منجِزٌ لك وعدَه كما أنجزه لمن جعلهم أئمةً لَمَّا صَبَرُوا وكانوا بآياتنا يُوقِنُون ؛ والله سبحانَهُ يُهْدِى إليك تحيةً من عندِهِ مبارَكَةً طيِّبه ، ويُسْدِى إلىٰ مَقام شرَفِك سَحابةَ رحمةٍ غَدِقةً صَيِّبه ؛ ويجعل مارآه أميرُ المؤمنين من وِلايَتِك عهْدَه ، وكَفَالَتِك للأمَّة بعده ، للمَسَرَّات ناظِما ، وللمَساءات حاسِما ؛ وللبركات جامعا ، وللباطل خافِضًا وللحق رافِعا . وأمَرَ أميرُالمؤمنين أن يعيَّن علىٰ رجال من أولياء دَوْلتِه ، ووجوه شِيعتِه ؛ وأنصار سَرِيَّته ، عِدّةٌ يكون إليك آعتزاؤُها وبِكَ آعْتِزازُها ، وببابك العالى إقامتُها وإلىٰ جَنابِك آنْحِيازُها ؛ فتكونُ موْسُومةً بالعبُوديَّه ، ومتعرِّضةً بالوَلَاء للسعادة الأَبَدِيَّه ؛ فتمْتَثِل (١) علىٰ ماتُمَثِّله من المراسم ، وتتصَرَّف علىٰ ماتُصَرِّفُها عليه من العَزائم ؛ وتكونُ أبدًا لما يَنْفُذ عنك من أحكام الهِبَات والمكَارم ، وتقُومُ من ملازمة الخِدْمة فى مَوَاكِبِك بما هو لكل خادِمٍ فرضٌ لازِم ؛ وتُسارِعُ فى مَطَالِبك إلىٰ مايُسارع إليه الحازِم ، وتجُودُ بأسْماءَ الإنْعام بالغَدَق الساجِم . وتُقدّر لها من الواجبات والزِّيادات ماتقتضيه هِمَمُ المَكارم ؛ تبذُل فى الخِدْمة الآجتهاد ، وتُنافِسُ فيما تَسْتَمِدُّ [به] الحُظوةَ بحَضْرته والإحْماد ؛ وعَرِّضْها من الإحسان الجَمِّ للآزْدِياد ، وبَلِّغها المُراد بما تَبْلُغ بها من المُراد : لتَتَشَرَّف بأن تكونَ تحتَ ركابه العالى متصرِّفه ، وتفتخرَ بأن تكون أنسابُها باسمه العالى متَشَرِّفه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله فتتمشّى على .

المـــــذهب الثـــالث

(أن يَفْتَتِح العهدَ بعد البسملة بخطبة مفتتحة بـ«الحمد لله» ثم يأتِيَ بالبعديَّة، ويأتى بما يُناسبُ الحالَ علىٰ نحو ماتقدّم؛ وعليه عمل أهل زماننا مع الاقتصار علىٰ تحميدةٍ واحدةٍ، والاختصارِ فى القول)

وهذه نسخةٌ أوردها علىّ بنُ خلَف من إنشائه فى كتابه "موادّ البيان" لترتيب الكتابة فى زمن الفاطميين، وهى :

الحمد لله مُعزِّ دينه بخُلَفائه الراشدين، ومرتِّبِ حقِّه بأوليائِهِ الهادين؛ الذى اختار دِينَ الإسلام لصَفْوته من بريَّته، وخَصَّ به من استخْلَصَه من أهل طاعتِه؛ وجعله حَبْلَه المَتِين، ودينَه الذى أظهَرَه علىٰ كلِّ دِين؛ وسبيلَه الأفسح، وطريقَه الأَوْضَح؛ وابتعثَ به نبِيَّه محمدًا صلىٰ الله عليه فصدَعَ بأمْره، وأعْلَنَ بذِكْره؛ والناسُ فى فَتْرة الضَّلاله، وغَمْرة الجَهَاله؛ فلما أنجز فى نُصْرة حَقِّه، وتأييده لسُعَداء خَلْقه [قبضه](١) إليه محمودَ الأَثَر، طَيِّبَ الخَبَر [وقام](١) بخلافتِه، مَن انتخَبه من طَهرة عِتْرته؛ وأوْدَعَهم حكمتَه، وكفَّلَهم شريعتَه؛ فاقتفَوْا سبِيلَه، واتبعُوا دلِيلَهْ؛ كُلَّما قَبَضَ منهم سَلَفًا إلىٰ مَقرِّ مَجْده، اصطفىٰ خَلَفًا للإمامة من بَعْدِه .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن أفْضىٰ إليه بتُرَاث الإمامةِ والرِّساله، وهَدىٰ به كما هدىٰ بجَدّه من الزَّيْغ والضَّلَاله؛ واختَصَّه بمِيراث النبُوَّة والخلافه، ونَصَبَه رحمةً للكافهْ؛ وأتمَّ نعمتَه [عليه] كما أتمَّها علىٰ آبائِه، وأجْزَل حظَّه من حُسْن بَلَائه؛ وأعانَهُ علىٰ ما استَرْعاه، ووفَّقه فيما وَلَّاه؛ وأنْهَضَه بإعْزاز الملَّه، وإكرام الأُمَّه؛ وإماتةِ البِدَع، وإبطال

---

(١) بياض بالأصل، والتصحيح مما يقتضيه المقام .

المَذْهَبِ المخترَع ؛ وإحْياءِ السُّنَن ، والاستقامة على لاحِبِ السَّنَن ؛ ووَهَبه من بَنِيه وذُرِّيَّتِه ، مُوَازِرِين على ما حَمَّله من أعباء خِلافَتِه ، ومُظاهِرِين على ما كَلَّفَه من إمعان النظر فى بَرِيَّته .

ويسألُه الصلاةَ على محمدٍ خاتمَ أنبيائه ، والخيرةِ من خُلَصائه ؛ الذى شرَّفه بختام رُسُله ، وإقرار نِيَابته فى أهله ؛ صلَّى الله عليه وعلى أخيه وابنِ عمِّه وباب حِكْمتِه ، علىّ بن أبى طالب وَصِيِّه فى أُمَّته ؛ وعلى الأئمة الطَّهَرة من ذرّيَّته ، مَنَاهِجِ رحمتِه ، وسُرُج هِدايتِه ، وسلَّم تسليما .

وإنَّ الله تعالى جعل الخلافةَ للكافَّةِ عِصْمه ، ولأهْلِ الإيمان رَحْمه ، تجمَعُ كَلِمَتَهم ، وتحفَظُ أُلْفَتَهم ؛ وتُصْلِح عامَّتَهم ، وتُقِيم فرائضَه وسُنَنَه فيهم ، وتَمُدُّ رُواقَ العدل والأَمَنَة عليهم ؛ وتحسِمُ أسبابَ الكُفْر والنِّفاق ، وتقْمَع أهلَ العِناد والشِّقاق ؛ ولذلك وصلَ اللهُ حبْل الإمامه ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِب أوليائه إلى يومِ القيامه .

ولما نظرَ أميرُ المؤمنين بعين اليَقِين ، واقتبَس من الحقيقة قَبَس [الحق] المُبِين ، عَرَف ما بُنِيَتْ عليه الدنيا من سُرْعة الزَّوال ، ووَشْك التحوُّلِ والانْتِقال ؛ وأنَّ ما فَوَّضَ الله إليه من خلافته لا بدّ أن يَنْتَقِلَ عنه إلى أبنائه المَيَامين ، كما انتقل إليه عن آبائِهِ الراشدين ؛ فلم يغتَرَّ بمَوَاعِيدِها المُحَال ، وأضربَ عمَّا تَخْدَع به من الأَمَانِيِّ والآمال ؛ وأشفَقَ على مَنْ كَفَّله الله بسياسَتِه ، وحمَّله رعايَتَه من أهل الإسلام المعتصِمِين بحبل دَعْوَتِه ، المشتملين بظلِّ بَيْعَته ، عند تقَضِّي مُدّتِه ونُزُوعه إلى آخرتِه ، فى الوقت المَعْلُوم ، بالأجل المَحْتُوم : من انتشار الكَلِمه ، وانْبِتَاتِ العِصْمه ، وانشِقَاق العَصَا ، وإراقة الدِّما ، واستِيلاء الفتَن ، وتعطيل الفُرُوض والسُّنَن ؛ فنظر

لهم بما يَنْظِم شَمْلَهم ، ويصِـلُ حَبْلَهم ، ويَزْجُرظَلَمَتَهم ، ويَجْمَع كلِمتهم ، ويؤلّف أفْئِدَتهم ؛ ورأىٰ أن يَعْهَـد إلىٰ فلان ولَدِه : لأنه قرِيعهُ فى عِلْمِـه وفَضْله ، وعقِيبُه فى إنصـافِه وعَدْله ؛ والمَلْمُوح من بعـده ، والمرجُوُّ ليومه وغَدِه ، ولِما جمعَ اللهُ له من شُرُوط الإمامه ، وكمّله له من أدَوَاتِ الخلافه ، وجَبَله عليـه من الرَّحمة والرَّافه ؛ وخَصَّه به من الرَّصَانة والرَّجَاحه ، والشَّجاعة والسَّماحه ؛ وآتاه من فَصْل الخِطَاب ، وجَوامِع الصَّواب ومحاسِنِ الآداب ؛ ووِقايةِ الدِّين ، والغِلْظة علىٰ الظالمين ، واللُّطْف بالمؤمنين ؛ بعْدَ أن قَدَّم آستخارةَ الله تعالىٰ فيه ، وسأله تَوْفِيقَه لما يُرْضيه ؛ ووقَف فِكْرُه علىٰ آختِياره ، ولم يكن بآختياره مع إيثَارِه ؛ ويَلُوح فى شمـائله ، ويَسْـتَوْضِح فى مَخايِله ؛ أنَّه الولىُّ المجتبىٰ ، والخليفةُ المصْـطفىٰ ؛ الذى يحيى اللهُ به ذِمَارَ الحقّ ، ويُعْلِى بسلطانه شِـعَارَ الصِّدْق ؛ وأنه ـ سبحانه ـ قد أفضىٰ إليه بمـا أفْضىٰ به إلىٰ الخُلَفاء من قَبْله ، وأفاضَ عليـه من الكامِنَات ما أفاضَهُ علىٰ أهله ؛ وبعدَ أنْ عاقده وعاهَدَه علىٰ مثل ما عاهَدَه عليـه آباؤُه : من تقوىٰ الله تعالىٰ وطاعتِـه ، وآستشعار خِيفَتِه ومراقبتِه والعملِ بكتابه وسُنَّته ؛ وإقامةِ حُدُود الله التى حدّها ، بفُرُوضه التى وكّدها ، والآقتداءِ بسَلَفه الراشـدين ، فى المُكافَحَة عن الدِّين ، والمسامحةِ عن أوزار المسلمين ؛ وبَسْـط العدْل علىٰ الرعِيَّـه ، والحكم بينهم بالسَّوِيَّه ؛ وإنصافِ المظلومِ من الظَّلُوم ، وكفِّ يَدِ المغتَصِب الغَشُوم ؛ وصَرْف وُلَاة الجَوْر عن أهل الإسلام ، وتخَيُّرِ من ينْظُر بينهم فى المَظالِمِ والأحْكام ؛ وأن لا يُوَلِّيَ عليهم إلَّا من يَثِق بعدَالته ، ويسْكُنُ إلىٰ دِينه وأمانَته ؛ ولا يَفْسَحُ لشريف فى التعدِّى علىٰ مَشْرُوف ، ولا يَقْوىٰ فى التسَـلُّط علىٰ مَضْعوف ؛ وأن يحمِـل الناس فى الحُقُوق علىٰ التَّساوِى ، ويُجْرِيَهم فى دَوْلته علىٰ التَنَاصُف والتَّكافِى ؛ ويأمر حُجَّابه ونُوّابَه بإيصال الخاصَّة والعامّة إليه ، وتمكينِهم من عَرْضِ حوائِجِهم ومظَالمهم عليه : ليعلموا : الوُلاةُ والعُمَّال ، أنَّ رعيته

على ذُكْر منه وبَال ، فيتحاموا التثقيلَ عليهم والإضرار بهم . وأشهد عليه بكلّ ماشرطه وحدّده ، والعملِ بما يحمد إليه فيما تقلّده . على أنه غَنِيّ عن وَصِيَّة وتبصير ، وتنبيه وتذكير ، إلا أنَّ محمدًا سيدَ المرسلين يقول لعلىّ صلّى الله عليهما " أرسِل عاقلًا الا فأوصه "(1) .

فبايِعوا على بركة الله تعالى طائعينَ غيرَ مُكْرَهين ، برَغْبةٍ لا برَهْبه ، وبإخلاصٍ لا بمُدَاهَنه ، بيعةَ رِضًا وآختيار ، وآنقيادٍ وإيثار ، بصحّةٍ من نيّاتكم ، وسلامةٍ من صُدُوركم ، وصفاءٍ من عَقائدِكم ، ووفاءٍ وآستقامةٍ فيما تضَعُون عليه أيْمانَكم : لِيُعَرِّفَكم اللهُ [من] سُبُوغِ النِّعمه ، وشُمولِ الحَبْره ، وحُسْنِ العاقبه ، وآتفاقِ الكلمه ، مايُقِرُّ نواظِرَكم ، ويُبَرِّد ضمائرَكم ، ويُذْهِبُ غِلّ صُدُوركم ويُعِزّ جانبكم ، ويُذِلُّ مُجانِبَكم ، فاعلموا هذا وآعملوا به إن شاء الله .

وقد يُغْنِي هذا الكتابُ الذى ذكرناه مَغْنَى العهد ، فلا يُحتاج إلى عَهْد :

وعلى ذلك كُتِبَ عن الإمام المستكفى بالله أبى الربيع سليمان ، آبن الحاكم بأمر الله أحمد ، عهدُ ولدِه المستوثِقِ بالله « بركة » بالخلافة بعده . وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذى أيّد الخلافةَ العبّاسيَّة بأجَلِّ والدٍ وأبرّ وَلَد ، وجعلها كلمةً باقيةً فى عَقِبه والسَّنَد كالسَّنَد ، وآواهُم من أمْرِهم إلى الكَهْف فالكَهْف وإن تناهى العَدَد ، وزان عِطْفَها بسُؤدَدِ سَوادِ شِعارهم المسجّلةِ أنوارَهم ولا شكَّ أن النُّور فى السَّواد ، وعَدَق(2) بصَوْلتهم النبوىّ مُعْجِزُها كلَّ مُناد .

(١) كذا فى الأصول مضببا عليه وحرر .

(٢) لعله وقدع . أى كفّ . تأمل .

نحمَدُه علىٰ مامنّ به من تمَـام النِّعمة فيهـم، ونُزُول الرحمة بتَوَافِيهم ؛ ونشهدُ انْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مَحْضَـةَ الإخْلاص ، كافلًا مَحْضُها بالفَكَاك من أسْر الشِّرْك والخَلَاص ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بمـا أوضَح سُبُلَ الرَّشاد، وقَمَع أهـلَ العِناد، والشـفيعُ المشَفَّع يوم التَّنادْ ؛ صـلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا آنقضاءَ لهـا ولا نَفَاد، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ فإنَّ أميرَ المؤمنين (ويذكر آسمه) يَعْتَصِم بالله فى كلِّ مايأْتِى ويَذَر ممـا جعل اللهُ [له] من التفويض ، ويُشِير إلىٰ الصَّواب فى كل تَصْرِيح منه وتعريض ؛ وإنه شَدّ اللهُ أزْرَه، وعَظَّم قَدْره، آستخار اللهَ سبحانَه وتعالىٰ فى الوصيَّة بمـا جعله الله له من الخلافة المعظَّمة المَفَخَّمة الموروثةِ عن الآباء والجُدُود ، المُلْقاةِ إليه مقاليدُها كما نَصَّ عليه آبْنُ عمِّه صلّى اللهُ عليه وسلم فى الوالد من قُرَيش والمَوْلُود ؛ لولَدِه السيِّد، الأجلِّ، المعظَّم، المكرَّم، فلانـ ؛ سـليلِ الخلافةِ وشِـبْلِ غابِها، ونُخْبَةِ أحْسابها وأنْسابها؛ أجلَّه اللهُ وشرَّفه ، وجَمَّـل به عِطْفَ الأمانَةِ وفوّفَه : لِمَـا تلمَّحه فيه من النَّجَابة اللائحةِ علىٰ شمائِله ، وظَهَر من مستَوْثِق إبْداءِ سِرِّه فيه بدَلائل بُرْهانه وبُرْهان دلائله ؛ وأشهدَ علىٰ نَفْسه الكريمة ـ صانها الله تعالىٰ ـ مولانا أو سيدُنا أمير المؤمنين، مَنْ حضَر من حُكَّام المسلمين : قُضاة قُضاتهم ، وعلمائهم ، وعُدُولهم، بمجلسـه الشريف، أنه رضِيَ أن يكون الأمْرُ فى الخلافة المعظَّمة ، الذى جعله الله له الآنَ لولده السـيِّد الأجلِّ فلان بعد وفاته، فسَّح الله فى أجَلِه ؛ وعَهِد بذٰلك إليه، وعوّل فى أمرِ الخلافةِ عليـه ؛ وألقىٰ إليه مقاليدَها ، وجعل بيـده زِمامَ مُبْدِيها ومُعِيدها ؛ وصّى له بذٰلك جزئيِّه وكُلِّيِّه، وغامضه وجليِّه ؛ وصيَّةً شرعيـةً بشُروطها اللازمة المعتبره، وقواعِدها المحرَّره؛ أشهَد عليه بذلك فى تاريخ كذا .

الوجـــه السابع

(فيما يكتب فى مستَنَد عهدِ ولىّ الخلافة عن الخليفة ، وما يكْتُبه الخليفة فى بيت العَلاَمة ، وما يُكْتَب فى ذَيْل العـــهد بعد إتمـام نُسْخته من قَبُول المعهود إليه ، وشهادةِ الشُّهود علىٰ العهد)

أما مايكتب فىالمستَنَد ، فينبغى أن يكونَ كما يُكْتَب فى عُهود المُلُوك عنالخلفاء ، علىٰ نحو ماتقدّم فى البَيْعات ، وهو أن يُكْتَب : «بالإذْن العالى ، المولَوِىّ ، الإمامىّ ، النبوىّ ، الفلانىّ (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالىٰ » أو نحو ذٰلك من الدعاء .

وأما مايكتُبُه الخليفة فى بيت العلامة ، فينبغى أن يكْتُب : « عهِدتُ إليه بذٰلك» : لأنه اللفظُ الذى ينعقِدُ به العـهد . ولو كتب : « فوّضْتُ إليه ذٰلك » كما يكتُب الخليفةُ فى عهد السلطان الآنَ علىٰ ماسيأتى ، كفىٰ ذٰلك . والأليَقُ بالمقام الأوّلُ .

وأما مايُكتَبُ فى ذيل العهد بعد إتمـام نُسْخته ، فالمنقولُ فيه عن المتقدّمين ما كَتَبَ به « علىّ الرِّضىّ » تحت عهْد المأمون إليه بالخلافة ، وهو :

الحمـدُ للهِ الفعّالِ لمـا يَشَاء ، لامُعقِّبَ لحُكْمه ، ولا رادَّ لقَضائه ، يعـلَمُ خائنـةَ الأعْيُن وما تُخْفِى الصُّـدور ، وصـلواتُه علىٰ نبيِّـه محمدٍ خاتَمِ النبيين ، وآلِهِ الطيِّبين الطاهرين . أقولُ وأنا علىُّ بنُ موسىٰ بن جعفر : إنّ أميرَ المؤمنين عَضَّـده الله بالسَّداد ، ووفَّقه للرشاد ، عَرَف من حقِّنا ماجهِله غيره : فوَصَلَ أرْحاما قُطِعتْ ، وأمَّنَ أنفُسًا فَزِعتْ ، بل أحياها وقد تَلِفَتْ ، وأغْناها إذ ٱفتقَرت ، مُتَّبعا رِضا ربِّ العالمين ، لايُرِيد جزاءً من غيره وسيَجْزِى اللهُ الشاكِرِين ، ولا يُضِيعُ أجْرَالمُحْسِنِين ،

وإنه جعل إلىّ عَهْدَه، والإمْرَةَ الكُبْرىٰ إن بَقِيتُ بعْـده؛ فمن حَلَّ عُقْدةً أمر اللهُ بشَدّها، أو فَصَم عُروةً أحبَّ الله إيثاقها، فقد أباحَ حَرِيمَه وأحَلَّ محرَّمه؛ إذ كان بذٰلك زارِيًا علىٰ الإمام، منتهكًا حُرْمةَ الإسـلام؛ بذٰلك جرىٰ السالفُ فصـبر منهم علىٰ الفَلَتات، ولم يُعتَرَض بعدَها علىٰ العَزَمات؛ خوفًا علىٰ شَتَاتِ الدِّين، وٱضطِراب حَبْلِ المسلمين؛ ولقُرْب أمرِ الجاهليةِ ورَصْد فُرْصة تُنْتَهَزُ، وباقيةٍ تُبْتَدَر؛ وقد جعلتُ لله تعالىٰ علىٰ نَفْسى إنِ ٱسْتَرْعانى علىٰ المسلمين، وقلَّدنى خِلافتَه، العملَ فيهم عامَّـة وفى بنى العبَّاس بن عبدالمطَّلب خاصَّـة بطاعتِه وبسنَّة رسول الله صلّىٰ الله عليه وسلم وأنْ لا أَسْفِك دمًا حراما، ولا أُبِيحَ فَرْجا ولا مالا؛ إلا ماسفكَتْه حدُودُه، وأباحتْه فرائضُه؛ وأن أتخيَّر الكُفَاة جُهْدى وطاقتِى. جعلتُ بذٰلك علىٰ نَفْسى عهدًا مؤكَّدا يسألُنِى [الله] عنه، فإنه عزَّ وجل يقول: ﴿وأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كان مَسْئُولا﴾. فإن أحدثت أو غيَّرتُ أو بدّلْتُ، كنتُ لِلغيَرِ مستحِقا، ولِلنَّكال متعرِّضا؛ وأعوذُ بالله من سَخَطه، وإليه أرغَبُ فى التوفيق لطاعته، والحولِ بينى وبين معْصيتَه، (فى عامَّة المسلمين؛ والخاصَّة والحضر يد لان على ضدّ ذلك)[(١)]: ﴿وَمَا أَدْرِى مايُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾: ﴿إنِ الْحُكْمُ إلَّا لِلهِ يَقُصُّ الحَقَّ وهُوَ خَيْرُ الفاصِلِينَ﴾. لٰكنّى ٱمتثلْتُ أمْرَ أمير المؤمنـين وآثرْتُ رِضاه، والله يَعْصِـمُنى وإيَّاه؛ وأشهدْتُ الله علىٰ نفسى بذٰلك وكفىٰ بالله شهيدا. وكتبتُ بخطِّى بحضرة أمير المؤمنين ـ أطال اللهُ بقـاءه ـ والفضلِ بن سَهْل، وسهلِ بن الفضل، ويحيىٰ بن أكْثَم، وبِشْرِ بنِ المعتَمر، وحمَّاد ٱبنِ النُّعمان، فى شهر رمضان سنة إحدىٰ ومائتين.

ثم كتب فيه مَنْ حَضَر من هٰؤلاء، وهذه صورة كتابتهم.

فكتب الفضل بنُ سَهْل وزيرُ المأمون ماصورته:

---

(١) ثبتت هذه العبارة فى الاصل وعليها علامة التوقف. ولم نعثر عليها فى غير هذا الكتاب. تأمل.

"رسَمَ أميرُ المؤمنين أطال الله بقاءَه قراءةَ مضمُون هذا المكتوب: ظهرِه وبطنِه، بحَرَم سيدنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم، بين الرّوضة والمِنبر على رُءُوس الأشهاد، ومَرْأًى ومَسْمَع من وجوه بنى هاشِم وسائر الأولياء والأجناد؛ وهو يسألُ الله أن يعرِّف أمير المؤمنين وكافَّةَ المسلمين بركةَ هذا العهدِ والمِيثاق؛ بما أوجب أميرُ المؤمنين الحجةَ به على جميع المسلمين، وأبطَلَ الشُّبْهةَ التى كانتِ اعترضَتْ آراء الجاهلين: ﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ المُؤْمِنِينَ على ما أَنْتُمْ عَلَيْه﴾. وكتب "الفضلُ بن سهل" فى التاريخ المعيَّن فيه".

وكتب عبدُ الله بنُ طاهر ما صورته «أثبتَ شهادتَه فيه بتاريخه عبدُ الله بن طاهرِ بنِ الحسين».

وكتب يحيىٰ بنُ أكثَمَ القاضى ماصُورته: «شهد يحيىٰ بنُ أكثَمَ علىٰ مضمُون هذه الصحيفة ظهرِها وبطنِها، وكتب بخطه بالتاريخ».

وكتب حَمَّاد بن النُّعمان ماصورتُه: «شَهِد حَمَّاد بن النعمان بمضمون ظهره وبطنِه، وكتب بيده بتاريخه».

وكتب بِشرُ بنُ المعتمر ماصورته: «شهد بمثل ذلك بِشْرُ بن المعتمر، وكتب بخطه بالتاريخ».

قلت: وعلىٰ نحو ما تقدّم من كتابة المعهود إليه بالقَبُول وشهادةِ الشُّهود علىٰ العهد ينبغى أن يكونَ العملُ أيضا فى زماننا: ليجتمعَ خطُّ العاهد بالتفويض علىٰ ماتقدّم، وشهادةُ الشهود. ولو اقتصر المعهودُ إليه فى الكتابة علىٰ قوله: «قبِلتُ ذلك» كان كافياً، وإن كان أُمِّيًّا اكتُفِى بشهادة الشهود.

الوجـــــه الثـامن

(فى قطع الورق الذى تُكتَب فيه عهودُ الخلفاء، والقلمِ الذى يُكتَب به، وكيفيَّـــةِ كتابتها وصورةِ وَضْـــعها)

أما قطْعُ الورق فمقتضىٰ قول المقرّ الشِّهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" أنَّ للعهود قَطْعَ البغدادىّ الكامل، وأن عُهودَ الخلفـاء تُكْتَب فى البغدادىّ كما هو مستعْمَل فى عهُود الملوك عن الخلفاء، علىٰ ماسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ. وهو مقتضىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ قَطْع الورق فى مقدّمة الكتاب نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنى فى كتاب "القلم والدواة" أنَّ القطع الكامل للخلفاء.

قلت : وقد أخبرنى من يُوثَقُ به أنه وَقَف علىٰ عهد المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكر، والدِ المتوكل علىٰ الله : أبى عبـدِ الله محمد خليفة العصر، وهو مكتوب فى قطع الشامىّ الكامل؛ وأنه كُتِبَ عهد المتوكِّل علىٰ ظهره بخط الشهود دون كاتبِ إنشاء. وكأنهم لـما تقهقَرتِ الخلافةُ وضَعُف شأنُها، وصار الأمْرُ إلىٰ الملوك المتغلِّبين علىٰ الخلفـاء، تنازلُوا فى كتابةِ عُهُودهم من قطـعِ كامل البغدادى إلىٰ قطع الشامىّ. وهذا هو المناسبُ للحال فى زمانِنا.

وأما القـلم الذى يُكتَب به، فالحكْمُ فيـه ما تقدّم فى البيْعات، وهو إن كُتِب العهدُ فى قطع البغدادىّ، كتِبَ بقلم مختَصَر الطُّومار. وإن كُتِب فى قطع الشامىّ، كتب بقلم الثلثين الثَّقِيل.

وأما كيفيَّة الكتابة وصورةُ وضْعها، فعلىٰ ماتقدّم فى كتابة البيْعات، وهو أن يُبتدأ بكتابة الطُّرّة فى أوّل الدَّرْج بالقلم الذى يُكتَب به العهدُ سُـطورا متلاصقةً ممتـدّةً

فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلىٰ آخره من غير هامش . ثم إن كانتِ الكتّابةُ فى قَطْع البَغْدادىّ الكامل، جرىٰ فيه علىٰ القاعدة المتداوَلة فى عهُودِ الملوك عن الخلفاء؛ فيتْرُكُ بعد الوصل الذى فيــه الطرّة ســتَّةَ أوصال بياضًا من غير كتابة، ثم يكتُبُ البسملة فى أوّل الوصل الثامن بحيثُ يُلْحِق أعالِيَ ألِفَاته بالوصــل الذى فوقه ، بهامش قَدْر أربعة أصابع أو خمسة؛ ثم يكتُب تحتَ البسملة سَطْرا من أوّل العهد ملاصقا لها؛ ثم يخلِّى مكانَ بيت العلامةِ قَدْرَ شبر كما فى عُهُود الملوك؛ ثم يكتُب الســطر الثـانى تحتَ بيت العلامة علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة . ويَحْرِص أن تكونَ نهايةُ السجعةِ الأُولىٰ فى السطر الأوّل أو الثانى؛ ثم يَسْتَرْسِل فى كتابة بقيَّة العهد إلىٰ آخره، ويجعل بين كلِّ سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُمَاش . فإذا انتهىٰ إلىٰ آخر العَهْد، كتب « إن شاء الله تعالىٰ » ثم المستَنَد، ثم الحمدَلةَ، والصــلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وســلم والحَسْبَلَة، علىٰ ماتقــدّم فى الفواتح والخَواتم . ثم يكتب المعهودُ إليــه والشهودُ بعد ذٰلك . وإن كُتِب فى قطع الشامى، فعلىٰ ما تقــدّم فى البَيْعات : من أنه ينبغى أن يُقْتَصر فى أوصال البياض علىٰ خمســة أوصال ، ويكونُ الهامشُ قدْرَ ثلاثة أصابع .

وهــذه صورة وضعه فى الورق، ممثَّلا فيها بالطرَّة التى أنشأتها، علىٰ ماتقدّم ذكره فى العهد الذى أنشأته علىٰ لسان الإمامِ المتوكلِ علىٰ الله خليفةِ العصر لوَلَده العبَّاس . وهو العهد الأخير من المَذْهب الأوّل من عُهُود الخلفَاء عن الخلفاء

بياض بأعلى الدرج تقدير اصبع

هـذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُودُه، وزاد فى الارتقاء فى العَلْيـاء صُعُوده، وفُصِّلتْ بالجواهر قلائدُه ونُظِّمت بنفيس الدُّرِّ عُقُوده؛ من عبدِالله ووليِّه الإمامِ المتوكِّلِ علىٰ الله أبى عَبْد الله محمد ابن الإمام المعتضِد بالله أبى الفتح أبى بكر، بالخلافة المقدّسةِ لولَده السيد الجليل، ذَخيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين، أبى الفَضْل العبَّاس، بلَّغه الله تعالىٰ فيه غايةَ الأمل، وأقَرَّ به عينَ الأمّة كما أقرّ به عينَ أبيه وقد فعَل علىٰ ماشرح فيه

بياض ستة أوصال

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش هـذا عهدٌ سـعيدُ الطالع ميمُون الطائر مباركُ الأوّل

عهدت إليه بذلك

وكتب فلان بن فلان

جميـلُ الأوسَط حميـدُ الآخِر تشهد به حضَراتُ الأمـلاك

وترقُمُـه كفُّ الثُّريّا بأقلام القَبُولُ فى صحائف الأفْلاك وتُباهِي

به ملائكةُ الارض ملائكةَ السما، وتَسرِى بنَشْره القَبُولُ إلىٰ الأقطار

(في الحواشي: بياض العرض — بياض العرض — سطر — صورة خط الخليفة — بيت العلامة قدر شبر — قدر ربع ذراع — والباقي بالنسخ)

هامش فتنْشُر له بكل ناحية عَلَمـا، وتُطْلِـعُ به سـعادةُ الجَدّ من مُلوك العدْل في كلِّ أُفُق نَجْما .

ثم يأتى علىٰ الكلام إلىٰ آخر العهْد علىٰ هذا النَّمَط إلىٰ أن ينتهِىَ إلىٰ قوله فيه «والله تعالىٰ يبلِّغه منك أملا، ويحقق فيك عِلْما ويُزَكِّى بك عملا»

إن شاء الله تعالىٰ

كتِب فى اليوم الأوّل من المحرّم
سنة إحدىٰ وثمانمائة

بالإذن العـالى، المولَوِىّ، الإمامىّ، النبـوىّ، المتـوَكِّلِىّ،

أعـــلاه الله تعـالى

الحمد لله وحْدَه وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصَحْبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

صورة خط المعهود

قبلتُ ذلك
وكتب فلانٌ ولىُّ
عهدِ أمير المؤمنين

صورة خط شهود العهد

شهد علىٰ العاهد والمعهود إليه
فيه زادهما الله شرفا
وكتب فلان بن فلان
وكذا بقيـة الشهـود

النـــــوع الثـانى

(عهودُ الخلفاء للملوك ، ويتعلّق النظر به من سبعةِ أوجُه)

الوجـــه الأوّل

(فى أصـــل مشْـــرُوعيّتهـا)

والأصلُ فيها مارواه ٱبن إسحاق وغيرُه : أنه لمـا رَجَع وفْدُ بنى الحٰرِث بنِ كعب إلىٰ قومهم باليَمَن بعد وُفُود [هم] علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسـلم قبلَ وفاتِه بأربعة أشهر، بعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعدَ أن وَلَّى وَفْدَهم عَمْرو بنَ حَزْم، يُفَقِّهُهم فى الدِّين، ويعلِّمُهم السنّةَ ومَعَالِمَ الإسلام، ويأخُذُ منهم صدَقاتِهم . وكتب له كتاباً عَهِد فيه عَهْدَه ، وأمْرَه فيه أمره ، علىٰ ماسيأتى ذكْرُه فى أوّل نُسَخ العُهُود الواردةِ فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالىٰ . فقد فوّض النبىُّ صلّى الله عليه وسلم أمْرَ ايمن فى حياتِهِ إلىٰ عَمْرو بن حَزْم رضى الله عنه . وذٰلك أصرحُ دليـل وأقومُ شاهدٍ لمـا نحن فيه .

الوجـــه الثـانى

(فى بيانِ [معنىٰ] المُلْك والسَّلْطنة اللتين يقَعُ العهدُ بهما)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ الألقاب نقْلا عن "الفُروق" فى اللغـة للعسكرىّ أن المُلْك أخصُّ من السَّلْطنة : لأن المُلْك لايطلَقُ إلا علىٰ الوِلَاية العامّة، والسَّلطنة تُطْلق علىٰ أنواع الوِلَايات، حتّى إنَّ الفقهاء يعبِّرون عن القاضى ووالى البلد فى أبواب الفقه بالسُّلْطان .

ثم تفويضُ الخليفة الأُمورَ فى البلاد والأقاليم إلىٰ مَنْ يدَبِّرها ويقُوم بأعبائها علىٰ ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل — وهو أعلاها وِزارةُ التفويض، وهو أن يَستوزِرَ الخليفةُ من يفَوِّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وإمضاءَها علىٰ آجتهاده ، وينظُرُ فيها علىٰ العُمُوم . وعلىٰ ذلك كانتِ السلطنةُ فى زَمَن الخلَفاء الفاطميين بمصر علىٰ ماسيأتى ذكره . قال الماوردىّ فى "الأحكام السلطانية" : ولا يمتنِعُ جوازُ مثلِ ذلك : لأنَّ كلَّ ما وُكل إلىٰ الإمام من تدبيرِ [الأمة](1) لايقْدِر علىٰ مباشرة جميعه إلّا بالآستِنابةِ، ونيابةُ الوزيرِ المشاركِ له فى التدبير أصَحُّ فى تنفيذ الأمور، [من تفرّده بها](1) ليستظْهِر به علىٰ نَفْسه ولنَفْسه، فيكُونَ أبعدَ من الزَّلَل ، وأمنَعَ من الخلَل . قال : وتعتبر فى [تقليد](2) هذه الوزارة شروطُ الإمامة إلا النَّسبَ وحده . وقد تقدّم بيانُ شروط الإمامة فى الكلام علىٰ البيعات . ثم قال : وكُلُّ ماصحَّ من الإمام صحَّ من وزير التفويض إلا فى ثلاثة أشياءَ :

أحدها — ولايةُ العهد. فإنَّ لإمام أن يَعْهَدَ إلىٰ مَنْ يرىٰ وليس ذلك للوزير.

الثانى — أنَّ للإمام أن يستَعْفِيَ الأمَّةَ من الإمامة وليس ذلك للوزير.

الثالث — أنّ للإمام أن يعْزِل من قلَّده الوزيرُ وليس للوزير أن يعْزِلَ من قلَّده الإمام .

وتفارق هذه الوزارةُ الخلافةَ فى عموم النظر فيما عدا ذلك من وجهين :

---

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

(٢) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨ .

أحدهما — مختصّ بالإمام وهو أن يتصفّح أفعالَ الوزير وتدبيرَ الأمور : ليُقِرّ منها ماوافق الصّواب ، ويستدرك ماخالَفه : لأنّ تدبير الأمة إليه موكول، وعلى آجتهاده محمُول .

والثاني — مختصّ بالوزير. وهو مطالعةُ الإمام بما أمضاه من تدبيرٍ، وأنفذه من ولايةٍ وتقليدٍ : لئلا يصيرَ بالآستبْداد كالإمام .

أما وِزَارةُ التنفيذ فسيأتي الكلام عليها في تقليد الوزارة إن شاء الله تعالىٰ .

القسم الثاني — إمارة الآستكفاء .

وهي التي تنعقد عن آختيارٍ من الخليفة . وتشتمل علىٰ عملٍ محدودٍ ونظرٍ معهود، بأن يفوِّض الخليفةُ إليه إمارةَ بلدٍ أو إقليم ولايةً علىٰ جميع أهله ؛ ونظرًا في المعهودِ من سائر أعماله ، فيصيرُ عامَّ النظر فيما كان محدُودا من عملٍ ، ومعهُودا من نَظَر . قال الماوردي: فينظر فيما إليه في تدبير الجيش، وترتيبه في النّواحي، وتقديرِ أرزاقهم إن لم يكُنِ الإمامُ قد قدَّرها ، وإدْرارها عليهم إن كان الإمام قدَّرها ؛ وكذٰلك [النظر في] الأحكامِ ، وتقليدِ القُضاة والحُكّام، وجِبايةِ الخَراج، وقَبْض الصَّدَقات والعملِ فيهما ، وتفريق مايستحق منهما، وحمايةِ الحَرِيم ، والذَّبِّ عن البيْضة ، ومراعاةِ الدِّين من تغييرٍ أو تبْديل، وإقامةِ الحُدُود في حقُوق الله تعالىٰ وحُقُوق الآدميين ، والإمامةِ في الجُمَع والجماعات بالقيام بها، والآستِخْلاف عليها؛ وتسييرِ الحَجيج من عَمَله ومَنْ يمُرّ عليه من غيرعَمَله ؛ وجهاد من يَليه من العدُوّ، وقَسْم الغنائم في المقاتِلَة ، وأخْذِ خُمُسها لاهل الخُمُس . وله أن يتّخذ وزيرَتنفيذ لا وزيرَ تفْويض .

وعلىٰ هذا كانتِ الأمراءُ والعُمّال فى الأقاليم والأمصار من ٱبتداء الإسلام إلىٰ أن تغلّب المتغلّبون علىٰ الأمر وٱستُضْعِف جانبُ الخلفاء .

قال الماوردىّ : ويعتبَرُ فى هذه الإمارة ما يُعتَبر فى وِزَارة التفويض من الشروط : إذ ليس بين عُموم الوِلَاية وخُصوصِها فَرْقٌ فى الشروط المعتَبَرة فيها .

القسم الثالث — إمارة الأستيلاء .

وهى أن يقلّده الخليفةُ الإمارةَ علىٰ بلاد ويفوِّض إليه تدبيرَها، فيستَوْلى عليها بالقوّة ، فيكون [الأمير] بٱستيلائه مستبِدًا بالسياسة والتدبير، والخليفةُ بإذنه ينَفِّذ أحكامَ الدين : لتخْرُج عن الفساد إلىٰ الصِّحّة، ومن الحَظْر إلىٰ الإباحة؛ نافذَ التصرُّف فى حقوق الملة وأحكامِ الأُمّة . وهذا ما صار إليه الأمرُ بعد التغلُّب علىٰ الخلفاء، والأستبدادِ بالأمر بالغلَبة والقوّة .[1]

قال الماوردىّ : وهذا وإنْ خرج عن عُرْف التقليد المطْلَق فى شروطِه وأحكامِه ، ففيه [من] حفْظ قوانينِ الشرع وحِراسة الأحكام الدينية مالا يجُوزُ أن يُتْرك مختَلًّا مدْخُولا، ولا فاسدًا معْلولا ؛ فجاز فيه مع الإِستيلاءِ والأضطرار، ما ٱمتَنع فى تقليد الأستِكْفاء والإختيار : لوُقُوع الفَرْق بين شروط المَكِنة[2] والعَجْز. قال : والذى يُتحفَّظ بتقليد المستولِى من قوانين الشريعة سبعةُ أشياء، يشترِك فى التزامها الخليفةُ المولِّى والأميرُ المستَوْلى، ووجُوبُها فى جهة المستولى أغلظُ .

---

(١) عبارة "الأحكام السلطانية" وإمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطراب فهى أن يستولى بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوض إليه الخ وهى أوضح وأصرح .

(٢) فى المصباح . وله مَكِنَةٌ أى قوّة وشدّة .

أحدها — حِفْظ مَنْصِب الإمامة فى خلافة النبوّة، وتدبيرِ أمورِ الأمة : ليكون ما أوجبه الشرعُ من إقامتها محفُوظا، وما تفرّعَ عنها من الحقوق مَحْروسا .

والثـانى — ظهورُ الطاعةِ الدِّينية التى يزُولُ معها حكمُ العِناد فى الدين ، وينتفى بها مأْثَم المُبايَنَةِ له .

والثالث — ٱجتماعُ الكلمةِ علىٰ الأُلْفة والتنَاصُر : ليكونَ المسـلمونَ يدًا علىٰ مَنْ ســـواهم .

والرابع — أن تكونَ عقُود الولايات الدينيَّة جائزة، والأحكامُ والأقضيةُ [فيها] نافذة؛ لا تبطل بفساد عُقُودها، ولا تسقُط بخَلَل عُهُودها .

الخامس — أن يكونَ ٱستيفاءُ الأموال الشرعيَّة بحقٍّ تبرأ به ذمَّةُ مؤدِّيها ، ويستَبِيحه آخِذُها ومُعْطِيها .

السادس — أن تكونَ الحدُودُ مستوفاةً بحقٍّ ، وقائمةً علىٰ مستَحِقّ ؛ فإنَّ جَنْب المؤمِن حِمًى إلَّا من حقُوق الله تعالىٰ وحُدُوده .

السـابع — أن يكون للأُمَّــة فى حِفْظ الدين وازِعٌ عن محارم الله تعالىٰ، يأمُرُ بحقِّــه إن أُطيع ، ويدعُو إلىٰ طاعتــه إن عُصِى . ثم قال : فإن كُمَلت فيــه شُروطُ الٱختيارِ المتقــدّمةُ، كان تقليدُه حتْما ٱســتِدْعاءً لطاعتــه ، ودفْعا لمشاقّته ومخالَفته ؛ وجرىٰ علىٰ مَنِ ٱستَوْزره أو ٱستَنَابه أحكامُ من ٱستَوْزَره الخليفة أو ٱستَنَابه . وإن لم تكْمُل [فيه] شروطُ الٱختيار ، جاز له إظهارُ تقليدِه ٱستدعاءً لطاعته وحَسْما لمخالَفته ومعانَدَته ؛ وكان نفُوذُ تصرُّفاته فى الحقُوق والأحكامِ مَوْقُوفا علىٰ أن يستنيب الخليفةُ

له مَنْ تكاملَتْ فيه الشُّروط . قال : وجاز مثلُ هذا وإن شَذَّ عن الأصول : لأن الضرورةَ تُسْقِط ماأعْوزَ من شُروط المَكِنة .

قلت : ومملكةُ الديار المصرية من حِينِ الفتح الإسلامىّ وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا دائرةٌ بين هذه الأقسام الثلاثة، لاتكادُ تخْرُج عنها : فكانتْ فى بِداية الأمر « إمارة ٱستكفاء» يولِّى عليها الخليفةُ فى كلِّ زمن مَنْ يقُوم بأعبائها، ويتصرَّف فى أمورها، قاصرُ الوِلاية عليها، واقِفٌ عند حَدِّ مايَرِد عليه من الخليفة من الأوامِر والنَّواهى، إلَّا ما كان فى أيام بَنِى طُولُون من الخُرُوج عن طاعةِ الخلَفاء فى بعض الأحيان . فلَمَّا ٱستَوْلىٰ عليها الفاطِميُّون وٱستوْزَرُوا أربابَ السُّيوف فى أواخِرِ دوْلتهم ، وعظُمتْ كلِمتُهم عندهم ، صارتْ سلطَنتُها "وزارةَ تفْويض" . وكان الخليفةُ يحتَجِب والوزير هو المتصَرِّف فى المملكة كالمُلوك الآنَ أو قريبٍ منهم . وكانوا يُلَقَّبون بألقاب المُلوك الآنَ : كالمَلك الأفضل رِضْوان وزيرِ الحافظ ، وهو أوَّل من لُقِّب بالملك منهم فيما ذكره المؤيَّد صاحبُ حماةَ فى تاريخه . والملِك الصالِح طَلائِع بن رُزِّيك وزيرِ الفائز ثم العاضِد . والملِك المنصُور أسدِ الدين شِيركُوه بن شادِى وزيرِ العاضد، وٱبنِ أخيه صلاحِ الدين يُوسفَ بنِ أيُّوب وزيرِ العاضد أيضا ، قبل أن يستقِلَّ بالمُلْك ويخطُبَ بالديار المصرية لبَنِى العَبَّاس ببَغْداد . ولانُكْرَ فى تسمية الوزير مَلِكا، فقد قيل فى قوله تعالىٰ فى قِصَّة يوسفَ عليه السلام : ﴿ وقَالَ المَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسى ﴾ إنَّ المرادَ بالملِك الوزيرُ لا الملِكُ نفْسُه . ولما ٱنتزِعتْ من الفاطميين وصارتْ إلىٰ بنِى أيُّوبَ ، وكانوا يَلُونَها عن خُلَفاء بنى العبَّاس ، صارتْ « إمارةَ ٱستيلاءٍ » لٱستيلائِهِم عليها بالقُوّة ، وٱستبدادِهم بالأمْر والتدبير معَ أصْلِ إذنِ الخليفة وتقْليده . وكان الرشيدُ قد لقَّب « جَعْفر بن يَحْيىٰ البَرْمَكىّ »

فى زمن وِزارته له بالسـلطان ، ولم يأخُذ النـاسُ فى التلقيب به . فلمّـا تغلّب الملوكُ بالشّرْق علىٰ الخلفاء وٱستبَدُّوا عليهم ، صار لقَبُ السلطانِ سِمةً لهم ، مع ما يختصُّهم به الخليفةُ من ألقـاب التشريف : كشَرَف الدَّوْلة ، وعَضُد الدولة ، ورُكْن الدولة ، ومُعِزّ الدولة ، وعِزّ الدولة ، ونحو ذلك . وشاركهم فى لَقَب السلطنة غيْرهم من ملُوك النواحى ، فتلقّب بذٰلك صـلاحُ الدين يوسفُ بنُ أيُّوبَ ، وتلقّب بالملك الناصِر عند ٱستبداده بالمُلْك علىٰ العاضـدِ الفاطمىّ بعدَ وِزارتِه له ، ونَقَـل ما كان من وِزَارة التفويض والعهدِ بها إلىٰ السلطنة ، وصارتِ الوزارةُ عن السلطان معدُوقةً بقَـدْرٍ مخصوصٍ من التصَرُّف . وبقِىَ الأمْرُ علىٰ ما هو عليه من الٱستيلاء والٱستبدادِ بالمُلْك ، مع أصلِ إذْن الخليفة وكِتابةِ العَهْد بالمُلْك ، وهى علىٰ ذلك إلىٰ زماننا ، إلا ما كان فى زمنِ تعطيلِ جِيـد الخلافة من الخُلَفاء ، من حينِ قَتْل التتارِ « المسـتَعْصِمَ » آخرخلفـاء بنى العباس ببغداد إلىٰ حينِ إقامةِ الخليفـة بمصر فى الدولة الظاهرِيَّة بِيبَرْس . علىٰ أنَّ فى السلطنة الآنَ شَبَهًا من وِزارة التفويض ، فإن الخليفةَ يفوّض إليـه فى تقليده تدبِيرَ جميع الممـالكِ الإسلامية بالتفويض العامّ لايَسْتَثْنِى منها شيئاً . وغيرُ هذه المملكة وإن كان خارجًا عن يَده فهو داخل فى عُمومِ وِلَايتـه ، حتّى لو غَلَب علىٰ شىء منها أو فتحه لم يَحْتَجْ فيه إلىٰ توليةٍ جديدةٍ من الخليفة . ولا مانِـعَ لذلك : فسيأتى فى الكلامِ علىٰ المناشير أنه يجوزُ للإمام أن يُقْطِع أرضَ الكُفْر قبل أن تُفْتَح ، وإذا جاز ذٰلك فى الإقطاع ففِى هذا أَوْلىٰ . وحينئذ فتكون سلطنةُ الديار المِصْريّة الآنَ مركَّبة من وزارة التفويض وإمارةِ الٱستيلاء .

الوجـــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فيــه)

وآعلم أنه يجب علىٰ الكاتب مراعاةُ أمور :

منها — براعةُ الأستهلال بمـا يتهيّأُ له من آسمِ السـلطان أو لقَبه الخاصّ : مثل فلان الدين ، أو لقَبِه بالسلطنة : مثل الناصِر، والظاهِر ، ونحوِهما ؛ أو غيرِ ذٰلك ممـا يدُلُّ علىٰ مابعده قبلَ الإتيان به كما تقدّم فى البَيْعات وعُهود الخُلَفاء .

ومنها — التنبيهُ علىٰ شَرَف السَّلْطنة وعُلُوّ رُتْبتها ، ووجُوبِ القيام بأمْر الرعِيَّــة ، وتحمُّل ذٰلك عن الخليفة .

ومنها — الإشارةُ إلىٰ آجتهاد الخليفةِ و إعمـال فِكْره فيمَنْ يقُوم بأمْر الأُمَّــة ، وأنه لم يجِدْ بذٰلك أحقَّ من المعهود إليه ولا أوْلىٰ به منه ، فيَصِفُه بالصِّفات الجميلة ، ويُثْنِي عليه بمـا يلِيقُ بمَقَام المُلْكِ .

ومنها — الإشارةُ إلىٰ جَرَيان لفظٍ تنعقِد به الوِلايةُ من عَهْد أو تقليدٍ أوتفويض ، وقبولِ ذلك ، ووُقُوع الإشهاد علىٰ الخليفة بالعهد .

ومنها — إيرادُ مايليقُ بالمَقَام من الوصيَّة ، بحَسَب مايقْتضيه الحال : من علُوّ رتبة الخلافة وآنْخِفاضها ، مبيِّنا لما يلزَمُه القيامُ به : من حِفْظ الدِّين علىٰ أصولِه المستقرّة ، وما أجمعَ عليه سلف الأئمة ، وتنفيذِ الأحكام ، و إنصافِ المظلومِ من الظالم ، وحِمايةِ البَيْضة ، والذّبِّ عن الحُرَم ، و إقامةِ الحُدُود ، وتحصين الثُّغُور ، وجهاد أعداءِ الله وغَزْوِهِم ، وجبايةِ الفَيْء والصَّدَقات علىٰ ما أوجبه الشرعُ من غير حَيْف ولا عَسْف ،

وتقديرِ العطاء، وصَرْف مايُسْتَحَقُّ فى بيت المـال من غير سَرَف ولا تقْتِير، فى وقْتِ الحـاجة إليـه، وآستِكْفاءِ الأَمَنـاء، وتقليد النُّصَحاء للأعمال والأموال، ومُباشرةِ الأمورِ بنَفْسـه وتَصَفُّح الأحوال ؛ إلىٰ غير ذٰلك من الأمور المتعلِّقة بالإمامة : من إقامة مَوْسِم الحجِّ، وتأمين الحَرَم الشريف وإكرام ضرائح الأنبياء وبيتِ المقْدِس، وتحرير مقادير المُعامَلات، وغير ذٰلك ممـا يقتضيه أمْرُ المملكة .

الوجــــه الرابــــع

(فيما يكتب فى الطـــرّة، وهو نمطان)

النَّمَط الأوّل — ما كان يُكتَب فى وِزارة التفويض فى دَوْلة الفاطميين .

وكان الخليفةُ هو الذى يكتُب بيده . وهذا أمْرٌ وإن كان قد تُرِك فالمعرفةُ به خيْرٌ من الجهل، خصُوصًا وقد أثبتَ المقرُّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله عهدَىْ أسد الدين شـيركوه وآبنِ أخيه السلطانِ صَلاح الدِّين يوسُف بن أيوب بالوزارة عن العاضد، فى جملة عُهُود الملوك علىٰ ما سـيأتى ذِكْرُه . وسنُورِدُهما فى جمـلة عُهُود الملوك عن الخلفاء فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

فمن ذلك ما كتب به العـاضِدُ فى طُرَّة عهدِ أَسَـد الدِّين شـيركوه المتقدّم ذكره، وهو :

«هذا عهْدٌ لا عَهْدَ لوزِيرٍ بمثله، وتقليدُ أمانةٍ رآك اللهُ تعالىٰ وأميرُ المؤمنين أهْلًا لحَمْله، والحجّةُ عليْكَ عندَ الله بما أوضَحه لكَ من مَرَاشد سُبُله ؛ نخُذْ كتابَ أميرِ المؤمنين

بِقُوّه، واسْحب ذَيْلَ الفَخار بأنِ اعتزت خِدمَتُك إلىٰ بُنوّة النُّبوّه ؛ واتخذْ أميرَ المؤمنين للفَوْز سبيلا ﴿ ولا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيكُمْ كَفِيلا ﴾ » .

ومن ذلك ما كتب به العاضدُ أيضا فى طرَّة العهد المكتَتَب عنه بالوِزارة للسلطان صلاحِ الدِّين يُوسفَ بن أيُّوب قبل استِقْلاله بالسلطنة ، وهو :

« هـذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليْك، وحُجَّتُه عند الله تعالىٰ عليْك؛ فأَوْفِ بعَهْـدك ويَمينِك، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بيَمينك ؛ ولِمَنْ مَضىٰ بجـدِّنا رسولِ الله صـلّى الله عليه وسلم أحسَنُ أُسْوه، ولمن بَقِي بقُرْبنا أعظَمُ سَلْوه ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُون عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادا والعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين ﴾ » .

النمط الثـانى — ما يُكْتَب فى طُرّة عهود الملوك الآنَ .

وهو قريب ممـا كان يُكتَب أوّلا مما تقدّم ذِكْره ؛ إلّا أنه يُبدّل فيه لفْظ الوِزارة بالمُلْك والسَّلْطنة ؛ ويكونُ الذى يكتبُه هو الذى يكْتُب العهْدَ دُونَ الخليفةِ . ثم هو بحسَب ما يُؤْثره الكاتبُ ممـا يدُلُّ علىٰ صَدْر العهد علىٰ مايقتضيه الحال .

وهـذه نسخةُ طرّةِ عهدٍ ، كتَب بهـا القاضى محيي الدين بن عبْد الظاهر، فى نسخةِ عهدٍ أنشأه للسـلطان الملكِ الناصرِ محمد بن قلاوُون، فى سـنة سبعَ عشْرةَ وسبعمائة، وهو :

« هـذا عهدٌ شريفٌ تجدّدتْ مَسَرَّاتُ الإسلام بتَجْديده ، وتأكدتْ أسبابُ الإيمـان بتأْكيده؛ ووُجِد النصرُ العزيز والفتحُ المبينُ بوُجُوده، ووَفَد اليُمْنُ والإقبالُ

علىٰ الخليقة بوُفوده، وورد الأنامُ مَوْرِد الأمانِ بوُروده . من عبـدِاللهِ ووليِّه الإمامِ المستكفِي بالله أبي الرَّبيع سليمانَ أميرِ المؤمنـين ، ابنِ الحاكم بأمرِ الله ابي العباس أحمـد . عَهِد به إلىٰ السلطان الملكِ النـاصر أبي الفتح محمّـد ، خلَّد الله سلطانه ، ابن السلطان الملكِ المنصورِ سيفِ الدين قلاوون الصالحِيّ قدّس الله روحه » .

تم الجزء التـاسع . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء العـاشر

واوّله الوجـــه الخامس

(فيما يكتب فى ألقـاب الملوك عن الخلفـاء ، وهو نمطان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الأميرية ٤٧١٥/١٩١٥/٣٠٠٠)

فهـــــرس

الجـــــزء التـاسع

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

القســـــم الثـــانى ـ من مقاصـد المكاتبات الإخوانيات ... ... ،

وهى علىٰ سبعة عشر نوعا ٥

النـــــوع الأوّل ـ التهانى، وهى علىٰ أحد عشر ضربا ٥

الضرب الأوّل ـ التهنئة بالولايات ٦

« الثـــانى ـ « بكرامة السلطان، وأجوبته ٢٥

« الثـــالث ـ « بالعود من الحج... ... ... ٣١

« الرابـــع ـ « بالقدوم من السفر ٣٣

« الخـامس ـ « بالشهور والمواسم والأعياد ٣٩

« الســادس ـ « بالزواج والتسرى ٥٤

« الســابع ـ « بالأولاد ٥٦

« الثـــامن ـ « بالإبلال من المرض والعافية من السقم... ٦٣

« التـــاسع ـ « بقرب المزار ٧٠

« العـــاشر ـ « بنزول المنازل المستجدّة ٧١

« الحادى عشر ـ نوادر التهانى ٧٣

النـــوع الثـــانى ـ من مقاصد المكاتبات التعازى، وهى علىٰ أضرب ٨٠

الضرب الأوّل ـ التعزية بالابن... ... ... ٨٠

« الثـــانى ـ « بالبنت ٨٥

« الثـــالث ـ « بالأب ٨٦

« الرابـــع ـ « بالأم ٨٧

« الخـامس ـ « بالأخ... ... ... ٨٨

« الســادس ـ « بالزوجة ٩٠

« الســابع ـ التعازى المطلقة ٩٢

صفحة

النوع الثالث — من مقاصد المكاتبات التهادى والملاطفة ... ١٠٠
« الرابع — الشفاعات والعنايات ١٢٤
« الخامس — التشوّق ١٤٢
« السادس — فى الآستزارة ١٥٠
« السابع — فى آختطاب المودّة وآفتتاح المكاتبة ١٥٥
« الثامن — فى خِطبة النساء ١٥٩
« التاسع — فى الآسترضاء والآستعطاف والآعتذار ١٦٥
« العاشر — فى الشكوى ١٧٣
« الحادى عشر — فى آستماحة الحوائج ١٧٦
« الثانى عشر — فى الشكر ١٨٣
« الثالث عشر — فى العتاب ١٨٩
« الرابع عشر — فى العيادة والسؤال عن حال المريض ٢٠٣
« الخامس عشر — فى الذم ٢١٧
« السادس عشر — فى الأخبار ٢١٩
« السابع عشر — فى المداعبة ٢٢٥
الفصل الثامن — فى إخفاء مافى الكتب من السر، وهو علىٰ نوعين ٢٢٩
النوع الأوّل — ما يتعلق بالكتابة ، وهو علىٰ ضربين ٢٢٩
الضرب الأوّل — ما يتعلق بالمكتوب به ٢٢٩
« الثانى — ما يتعلق بالخط المكتوب ٢٣٠
النوع الثانى — الرموز والإشارات التى لا تعلق لها بالخط والكتابة ٢٤٩
المقالة الخامسة — فى الولايات، وفيها أربعة أبواب ٢٥٢
الباب الأوّل — فى بيان طبقاتها وما يقع به التفاوت، وفيه
ثلاثة فصول ٢٥٢

صفحة

الفصل الأول — فى بيان طبقات الولايات ٢٥٢

الطبقة الأولىٰ — الخلافة ٢٥٢

« الثانية — السلطنة ٢٥٢

« الثالثة — الولايات عن الخلفاء والملوك وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية فى أقطار المملكة بمصر والشام والحجاز، وهى علىٰ خمسة أنواع ٢٥٢

النوع الأول — ولايات أرباب السيوف ٢٥٣

« الثانى — ولاية أرباب الأقلام ٢٥٥

« الثالث — ولاية أرباب الوظائف الصناعية ٢٥٩

« الرابع — ولايات زعماء أهل الذمة ٢٥٩

« الخامس — ما لا يختص بطائفة ولا يندرج تحت نوع ... ٢٦٠

الفصل الثانى — من الباب الأول من المقالة الخامسة فى بيان ما تجب علىٰ الكاتب مراعاته فى كتابة الولايات علىٰ سبيل الإجمال... ... ... ٢٦١

الفصل الثالث — من الباب الأول من المقالة الخامسة فى بيان ما يقع به التفاوت فى رتب الولايات . وذلك من سبعة أوجه ٢٦٣

الوجه الأول — الألقاب ، وهى علىٰ ثلاثة أنواع ٢٦٣

النوع الأول — ألقاب الخلفاء... ... ... ٢٦٣

« الثانى — « الملوك ٢٦٣

« الثالث — ألقاب ذوى الولايات الصادرات عن السلطان ٢٦٤

الوجه الثانى — ألفاظ إسناد الولايات إلىٰ صاحب الوظيفة... ٢٦٦

« الثالث — الافتتاحات ٢٦٨

« الرابع — تعدّد التحميد فى الخطبة أو فى أثناء الكلام واتحاده... ... ... ٢٦٩

صفحة

الوجـه الخـامس — الدعاء ٢٦٩
« السـادس — طول الكلام وقصره ٢٧٠
« السـابـع — قطع الورق ٢٧١
البـــاب الثـــانى — من المقالة الخامسة فى البيعات، وفيه فصلان ٢٧٣
الفصـــل الأول — فى معناها... ... ... ٢٧٣
« الثـانى — فى ذكر تنويع البيعات، وهى نوعان ٢٧٤
النـــوع الأول — بيعات الخلفاء، وفيها سبعة مقاصد... ... ... ٢٧٤
المقصد الأول — فى أصل مشروعيتها ٢٧٤
« الثـانى — فى بيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية ٢٧٥
« الثـالث — فى بيان ما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة البيعة... ... ... ٢٧٦
« الرابـع — فى بيان مواضع الخلافة التى تستدعى الحال كتابة المبايعات فيها ٢٧٩
« الخامس — فى بيـان صورة ما يكتب فى بيعات الخلفاء، وفيه أربعة مذاهب ٢٨٠
المذهب الأول — أن تفتتح المبايعة بلفظ «تبايع فلانا أمير المؤمنين» خطابا لمن تؤخذ عليه البيعة ٢٨٠
« الثـانى — مما يكتب فى بيعات الخلفاء أن تفتتح المبايعة بلفظ «من عبد الله ووليه فلان أبى فلان الامام الفلانى» إلى أهل دولته ٢٨٦
« الثالث — أن تفتتح البيعة بعد البسملة بخطبة مفتتحة بالحمد لله الخ ٢٩٨
« الرابع — مما يكتب فى بيعات الخلفاء أن تفتتح البيعة بلفظ « هذه بيعة الخ ٣٢٠

صبح الأعشى

الجـــزء العاشر

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبي العباس أحمد القلقشندي

الجـــزء العاشر

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٤ هـ
١٩١٦ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الوجه الخامس

(فيما يُكتَب فى ألقابِ الملُوك عن الخلَفاء ، وهو نمَطان)

النمطُ الأوّل

(ما كان يُكْتَب فى قديم الزمن)

وهو أن يُقْتَصر على مايلَقَّب به الملِكُ أو يُكَنَّى به من ديوان الخلافة ، ثم يقال : « مَوْلَى أمير المؤمنين » ولا يُزادُ على ذلك .

كما كتب أبو إسحاق الصابى فى عهد فَخْر الدولة بن بُوَيْه عن الطائع لله :

« هـذا ماعهِدَ عبدُ الله عبـدُ الكريم الطائعُ لله أميرُالمؤمنين ، إلى فخـر الدَّوْلة أبى عليّ مَوْلَى أمير المؤمنين » .

وإلى هـذا أشار فى " التعريف " بقوله : على أنَّ لهـذا ضابطًا كانَ فى قديم الزمان وهو أنه لايُكتَب للرجل إلَّا ما كان يلَقَّب به من ديوان الخلافة (1) [بالنصِّ] (2) من غير زيادةٍ ولا نقْصٍ .

---

(1) فى " التعريف " ص ٨٧ لملك .

(2) الزيادة من التعريف .

النمــــــط الثـانى
(مايُكْتَب به لمُـــلُوك الزمان)

وقد حكىٰ فى " التعريف " فى ذلك مذهبيْنِ :

الأوّل — أن يُكتَب فيها : السُّلطان، السيِّد، الأجلّ، الملك الفلانىّ، مع بقِيَّة مايُناسِب من الألقاب المفْرَدة والمركَّبة : كما كتب القاضِى الفاضلُ فى عهْد أسَدِ الدِّين شيركوه الآتِى ذكْرُه عن العاضد الفاطِمىّ :

«مِنْ عبدِ اللهِ ووَليِّه أبى محمدٍ الإمام العاضِدِ لدِينِ الله أمير المؤمنين إلىٰ السـيِّد، الأجلِّ، الملِكِ، المنصُورِ، سلطان الجُيُوش، ولىِّ الأُمَّة، فخرِ الدولة، أسَدِ الدِّين، كافلِ قُضاة المسلمين، وهادِى دُعاة المؤمنين، أبى الحٰرِث شِيركوه العاضدىّ» .

وعلىٰ هذه الطريقة بزيادةِ ألقـاب كَتَب آبْنُ القَيْسَرانىّ فى العهد للملِك النـاصر محمدِ بنِ قلاوُون : قدّس الله رُوحَه ونحـو ذٰلك . قال فى " التعريف " : وأنا إلىٰ ذلك أجنَحُ، وعليه أعمَلُ .

الثـانى — أن يُكْتَب : المَقَام الشريف، أو الكَرِيم ، أو العالِى مجرَّدا عنهما . ويُقْتَصر علىٰ المفردة [دون المركبة](1) .

كما كتب به الصاحبُ فخرُ الدين بنُ لُقْمان، فى عهْد الظاهر بِيبَرْس بعد ذكر أوصافِه ومَنَاقبه : ولـما كانت هذه المناقبُ الشريفةُ مختصَّةً بالمَقَام العالى المَوْلوىّ، السلطانىِّ، المَلَكىّ، الظاهِرِىّ، الرُّكْنىّ، شرَّفه الله تعالىٰ وأعلاه .

(١) الزيادة من "التعريف" .

قلت : ورُبَّما أبدل المتقدِّمون « المَقَام » فى هذه الحالة بـ«المَقَرّ» وأتى بالألقاب من نحو ماتقدّم .

وكما كتب به القاضى مُحْيِي الدِّين بنُ عبد الظاهر فى عهْد المنصُور قلاوُون بعد ٱستيفاءِ مَنَاقِبه وأوصافه ، وذكر إعمال الفِكْر والرَّوِيَّة فى ٱختيارِه : «وخرَج أمرُ مولانا أميرِ المؤمنين شرَّفه الله أن يكون للمَقَرّ العالى، المَوْلَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، المنصُورِىّ ، أجلَّه الله ونَصَره ، وأظفره وأقْدره ، وأيّده وأبّده ؛ كلُّ مافوّضه اللهُ لمولانا أميرِ المؤمنين » ونحو ذٰلك .

وبقِيَ مذهبٌ ثالثٌ ــ وهو أن يأتى بنظير ألقابِ المَذْهب الأوّل ، مقتصِرا علىٰ الألقاب المفْرَدة دُونَ المرَكَّبة . وعلىٰ ذٰلك جرىٰ الوزيرُ ضياءُ الدِّين بنُ الأثير فى العهد الذى كَتَب به معارَضَةً لعهْد السلطان صلاح الدِّين يُوسفَ بن أيُّوب الآتى ذكره ــ فقال بعد ذكر مَنَاقبه : «وتِلكَ مَنَاقِبُك أيُّها الملِك، الناصرُ، الأجلُّ، السيدُ، الكبيرُ، العالمُ، العادلُ، صلاحُ الدين أبو المظَفَّر يوسفُ بنُ أيوبَ» . ولم يتعرّض لحكايته فى ”التعريف“ . علىٰ أنَّ ٱبن الأثير إمامُ هذا الفن، وحائزُ قصَب السَّبْق فيه، ومقالتُه ممـا يُحْتَجُّ بها ويعوّلُ عليها .

فإن قيل : لعله فى ”التعريف“ أراد مذاهبَ كُتَّاب زمانه؛ فالجوابُ أنَّ حكاية المذهَب الثانى عن المتأخِّرين تُؤْذِن بأنَّ المراد متقدّمُو الكتاب ومتأخِّروهم .

الوجـــه السادس

(فيما يُكتَب فى متْن العُهود، وفيه ثلاثةُ مذاهِبَ)

المـــــذهبُ الأوّل

(وعليـه عامّة الكُتّاب من المتقدّمين وأكثرِ المتأخّرين)

أن يُفتتح العهدُ بلفظ « هذا » مثل : « هذا ماعَهِد به فلانٌ لفلان » أو « هذا ماأمَرَ به فلانٌ فلانا » أو « هــذا عهدٌ من فلان لفلان » أو « هذا كتابٌ ٱكتَتَبه فلان لفلان » وما أشبه ذٰلك .

وللكُتّاب فيــه طريقتان :

الطريقــــــةُ الأُولىٰ

(طريقــة المتقدّمين)

وهى أن لايأتِىَ بتحميدٍ فى أثناءِ العهْد فى خُطْبة ولا غيرِها، ولا يتعرّضَ إلىٰ ذكر أوصافِ المعهودِ إليه والثناءِ عليه أصْــلا، أو يتعرّضَ إلىٰ ذٰلك باختصار ثم يقول : « فقلّده كذا وكذا » ويذكر ما فوّض إليه، ثم يقول : « وأمَرَه بكذا » حتّى يأتىَ علىٰ آخر الوَصايَا ، ثم يقول فى آخره : « هــذا عهْدُ أمير المؤمنين إليك ، وحُجّتُــه لك وعَلَيْك » ويأتى بمــا يناسبُ ذٰلك، ويختِمُه بقوله : « والســلامُ عليكم ورحمةُ الله وبركاته » أو « والســلام عليك » أو بغيرذٰلك من الألفاظ المناسبة علىٰ ٱختلاف طُرُقهم فى ذٰلك، وتبايُن مقاصدِهم . وعلىٰ هذا النَّهْج وما قاربه كانتْ عهودُ السلف فمَنْ بعدَهم ، تأسّياً بالنبىّ صلّى الله عليه وسلم فيما كتَبَ به لعَمْرو بن حَزْم حِينَ وَجّهه إلىٰ اليمن، كما تقدّمت الأشارةُ إليه فى الاِستشهاد لأصل عُهُود المُلوك عن الخلفاء .

وهذه نسخته بعد البسملة فيما ذكره ابنُ هشام وغيرُه :

« هذا بيَانٌ مِنَ الله ورسُوله : ﴿ يٰأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُود ﴾ »

« عَهْدٌ من [محمدٍ](١) النبيّ رَسُولِ اللهِ لعَمْرِو بْنِ حَزْم [حِينَ بَعَثَه »

« إلىٰ اليَمَنْ](١) أمَرَهُ بتَقْوىٰ اللهِ فى أمْرِهِ كُلِّه ، فَإِنَّ اللهَ مَعَ الَّذينَ اتَّقَوْا »

« وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ . وأمَرَه أن يَأْخُذَ بالحَقّ كمَا أمَرَهُ اللهُ ، وأنْ يُبَشّرَ »

« النّاسَ بِالخَيْر ويأْمُرَهُمْ بِه ، ويُعَلِّمَ النَّاسَ القُرْءَانَ ويُفَقِّهَهُمْ فِيه ، »

« ويَنْهىٰ النَّاسَ فلا يَمَسُّ القُرْءانَ إنْسانٌ إلّا وهو طَاهِرٌ ، ويُخْبِرَ »

« النّاسَ بالّذِى لَهُمْ والّذِى عَلَيْهِمْ ، ويَلِينَ للنَّاسِ فى الحقّ وَيَشْتَدَّ عَلَيْهِمْ »

« فى الظُّلْم ، فَإِنَّ اللهَ كَرِهَ الظُّلْمَ وَنَهىٰ عنه فقال : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلىٰ »

« الظَّالِمِينَ ﴾ ويُبَشّرَ النّاسَ بالجَنَّة وبعَمَلِها ، ويُنْذِرَ النّاسَ النارَ وعَمَلَها ، »

« ويَسْتَأْلِفَ النّاسَ حتّىٰ يَفْقَهُوا فى الدِّين ، ويُعَلِّمَ النّاسَ مَعَالِمَ الحَجّ »

« وسُنَّتَه وفَرِيضَتَه وما أمَرَ اللهُ به ، والحَجُّ الأكْبَرُ الحجُّ الأكْبَر ، »

« والحَجُّ الأصْغَرُ هو العُمْرة ، ويَنْهىٰ النّاسَ أنْ يُصَلِّيَ أحَدٌ فى ثَوْبٍ »

« واحِدٍ صَغيرٍ إلا أن يكُونَ ثَوْبًا يَثْنِي طَرَفَيْه علىٰ عاتِقَيْه ، ويَنْهىٰ »

---

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام (ج ٣ ص ٧٢) .

« [النَاسَ[١]] انْ يَحْتَبِىَ أحدٌ فى ثَوْبٍ واحدٍ يُفْضِى بِفَرْجِه إلىٰ السَّماء ، »
« وَيَنْهىٰ أن لَّا يَعْقِصَ أحدٌ شَعْرَ رأسِه فى قَفَاه ، ويَنْهىٰ إذا كَانَ بَيْنَ »
« الناس هَيْجٌ عن الدُّعاء إلىٰ القَبَائل والعَشَائر ، ولْيَكُنْ دَعواهُمْ إلىٰ اللهِ »
« [عز وجلّ][١] وحْدَه لاشَرِيكَ له [فمَنْ لَمْ يَدْعُ إلىٰ اللهِ ودَعَا إلىٰ »
« القَبَائِلِ والعَشَائر فَلْيُقْطَعُوا بالسيف حتّىٰ تَكُونَ دَعْواهُمْ إلىٰ اللهِ »
« وحدَه لاشَرِيكَ لَه[١]] ويَأْمُرَ الناس بإسْباغ الوُضُوء : وُجُوهِهم ، »
« وأيْدِيهِمْ إلىٰ المَرَافق ، وأرجُلِهِمْ إلىٰ الكَعْبَيْنِ ، ويَمْسَحُون بِرُءُوسِهم »
« كما أمَرَهم اللهُ ، وأمَرَ بالصلاةِ لِوَقْتِها ، وإتْمامِ الرُّكُوع [والسُّجود[١]] »
« والخُشُوع ، ويُغَلِّس بالصُّبْح ، ويُهَجِّر بالظُّهْرِ[٢] حينَ تَمِيلُ الشمسُ ، »
« وصلاةُ العَصْرِ والشَّمْسُ فى الأرض مُدْبِرة ، والمَغْرِبِ حِينَ يُقْبِلُ »
« الليلُ ، لاتُؤَخَّرُ حتّىٰ تَبْدُوَ النُّجومُ فى السماء ، والعِشاءِ أوّلَ اللَّيْل . »
« وأمَرَ بالسَّعْى إلى الجمعة إذا نُودِىَ لها ، والغُسْلِ عِنْدَ الرَّواح إليْها . »
« وأمَرَه أن يَأْخُذَ من المَغَانم خُمُسَ الله ، وما كُتِبَ علىٰ المؤْمِنِين »

---

(١) الزيادة من سيرة ابن هشام ج ٣ ص ٧٢ .

(٢) الذى فى السيرة « بالهاجرة حين تميل » .

« فى الصَّـدَقة من العقَار(١) عُشْرُ ماسَقتِ العَيْنُ وسَقَتِ السَّماءُ ، وعلى »
« ما سَـقَى الغَرْبُ نِصْفُ العُشْر . وفى كلِّ عَشْرٍ من الإبِلِ شاتانِ ، »
« وفى كلِّ عِشْرِين أربعُ شِياهٍ . وفى كلِّ أربعِينَ من البَقَر بَقَرةٌ ، »
« وفى كلِّ ثلاثين من البَقَر تَبِيعٌ جَذَعٌ(٢) أو جَذَعةٌ ، وفى كلِّ أربَعِين »
« من الغَنَم سائمة وحْدَها شاةٌ ، فإنَّها فَرِيضةُ اللهِ تعالى التى ٱفْتَرَضَ »
« على المُؤْمِنِينَ فى الصَّدَقة ، فَمَن زادَ خَيْراً فهو خيرٌ لَهُ . وأنَّه مَنْ »
« أَسْلَمَ من يَهُودِيٍّ أوْ نَصْرانِيٍّ إسْلامًا خالِصًا مِنْ نَفْسه ودَانَ بِدِينِ »
« الإسْلام ، فإنَّه من المُؤْمِنين : لَهُ مِثْلُ مَالَهُمْ وعَلَيْه مِثْلُ مَاعَلَيْهِمْ ، »
« ومَنْ كانَ على نَصْرَانِيَّتِه أوْ يَهُودِيَّتِه ، فإنَّه لا يُرَدُّ عنها وعلى كلِّ حالِمٍ : »
« ذَكَرٍ أوْ أُنْثى ، حُرٍّ أوْ عَبْدٍ دينارٌ وافٍ ، أو عِوَضُه ثِياباً ، فَمَنْ أدَّى »
« ذٰلِكَ فإنَّ لَهُ ذِمَّةَ اللهِ وذِمَّةَ رَسُولِه ، ومَنْ مَنَعَ ذٰلك فإنَّه عَدُوٌّ للهِ »
« ولِرَسُولِه ولِلْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا » .

« صلواتُ اللهِ على محمَّدٍ والسَّلامُ عليه ورحمةُ اللهِ وبركاتُه » .

(١) كذا فى السيرة أيضا بالعين والقاف وفى كتب اللغة العقار [أى كغراب] خيار الكلإ والعقار [أى كسلام] النخل . تأمل .

(٢) فى اللسان ج ٩ ص ٣٩٣ "اذا طلع قرن العجل وقبض عليه فهو عضب ثم هو بعد ذلك جذع"

وعلىٰ نحو ذٰلك كتبَ أميرُ المؤمنين عليٌّ بن أبى طالب كرَّم الله وجهه عَهْدَ مالكِ بنِ الأشْتَرِ النخَعيِّ حِينَ وَلَّاه مِصْرَ . وهو من العُهُود البليغةِ جَمع فيه بيْنَ مَعَالِم التَّقْوىٰ وسياسةِ المُلْك .

وهذه نسختُه فيما ذكره ٱبن حَمْدُونَ فى تذْكِرته :

هٰذا ما أمَرَ [به عبدُ اللهِ] (١) علىٌّ أمير المؤمنين مالكَ بن الحٰرثِ الأشْتَرِ، فى عَهْده إليه، حِينَ ولَّاه مِصْرَ: جبايةَ خَرَاجِها، وجِهادَ عدُوِّها، وٱستِصْلاحَ أهْلِها، وعمارةَ بِلادِها . أمَره بتقْوىٰ الله وإيثارِ طاعتِه، وٱتِّبـاعِ ما أمَرَ به فى كتابه من فَرائِضه؛ وسُنَنه التى لايسْـعَدُ أحدٌ إلا باتِّباعها ، ولا يَشْقىٰ إلا مع جُحُودها وإضاعتِها ؛ وأنْ يَنْصُرَ الله تعـالىٰ بيده وقَلْبـه ولسانِه، فإنَّه جلَّ ٱسْمُـه قد تكفَّل بنَصْرِ مَنْ نَصَره ، وإعزازِ مَنْ أعَزَّه . وأمَره أنْ يَكْسِرَ من نَفْسه عِنْدَ الشَّهوات ، ويَزَعَها عند الجَمَحَات، فإنَّ النفْسَ لأمَّارة بالسُّوء إلَّا مارَحِمَ اللهُ .

ثم ٱعلَمْ يامالكُ أنِّى قد وَجَّهتك إلىٰ بلادٍ قد جَرَتْ عليهـا دُوَلٌ قَبْلَك : مِنْ عَدْل وجَوْر، وأنَّ النـاسَ يَنْظُرُون من أُمورِك [فى مثل] (٢) ما كُنْتَ تَنْظُر فيـه من أمْر الوُلَاة قَبْلَك ، ويقُولُون فيكَ كما كُنْتَ تقُول فيهم . وإنمـا يُستَدَلُّ علىٰ الصالحين بما يُجْرِى اللهُ لهم علىٰ ألْسُنِ عِباده، فلْيَكُنْ أحبُّ الذَّخائر إليك ذَخِيرةَ العمَلَ الصالحَ. فامْلِكْ هَوَاك ، وشُحَّ بِنَفْسك عمَّـا لايحِـلُّ لك ؛ فإنَّ الشُّحَّ بالنفس الإنْتصافُ منها فيما أحبَّتْ وكَرِهَتْ . وأشعِرْ قَلْبك بالرحمةِ للرَّعِيَّة ، والمَحَبَّـة لهم، واللُّطْف بهـم ؛ ولا تكُونَنَّ عليهم سَبُعًا ضارِيًا، تغتَنِمُ أكْلَهم؛ فإنهم صِنْفان : إمَّا أَخٌ لكَ فى الدِّين ،

(١) الزيادة عن " مفتاح الأفكار" (ص ١٠٥) .

(٢) الزيادة من شرح نهج البلاغة لٱبن أبى الحديد .

وإمّا نَظِيرٌ لك فى الخلق : يفرط منهم الزَّلل، وتَعْرِضُ لهم العِلَل، ويُؤْتَى علىٰ أيْديهم فى العَمد والخَطإ : فأعْطِهِم من عَفْوِك وصَفْحِك مثلَ الذى تُحِبُّ أن يُعْطِيَكَ اللهُ من عَفْوه وصَفْحِه : فإنَّك فوقَهم ووالى الأمر عليْكَ فَوْقَك، والله فَوْقَ مَنْ وَلَّاك . وقد آستكْفاكَ أمرَهم، وآبْتلاكَ بِهِم ؛ ولا تَنْصِبَنَّ نفْسَك لحَرْب الله، فإنه لايَدَىْ لك بِنقمتِه، ولا غِنى بك عن عَفْوه ورحمتِه ؛ ولا تَنْدَمَنّ علىٰ عَفْو، ولا تَبَجَّحَن بعقوبة، ولا تُسْرِعَنّ إلىٰ بادِرةٍ وجدت عنها مَنْدُوحة ؛ ولا تقُولَنّ إنى آمرؤ(١) آمُرُ فأُطاع : فإن ذٰلك إدغالٌ فى القَلْب، ومَهْلَكة فى الدِّين، وتَقَرّبٌ من الغِيَر . وإذا أحْدثَ لك ماأنْتَ فيه من سُلْطانك أُبَّهَةً أو مَخِيلةً، فانظُرْ إلىٰ عِظَم مُلْكِ الله تعالىٰ فَوْقَك، وقُدْرته منك علىٰ مالا تَقْدر عليه من نَفْسك ؛ فإنَّ ذلك يُطَامِنُ إليْكَ من طِمَاحك ويكُفُّ عَنْك من غربِك، ويفىءُ إليك بما عَزُب عنك من عَقْلك . وإيَّاكَ ومُساماةَ الله تعالىٰ فى عظَمته، والتَشَبُّهَ به فى جبَرُوته، فإن الله يُذِلُّ كلَّ جبَّار، ويُهِينُ كلَّ مُخْتال .

أنْصِفِ اللهَ وأنْصِف الناسَ من نَفْسك ومن خاصَّةِ أهْلِك ومِمَّن لك فيه هَوىً من رَعِيَّتك : فإنَّك إنَّلا تفعَلْ تَظْلِمْ، ومَنْ ظَلَم عبادَ الله كان اللهُ خَصْمَه دُونَ عِباده، ومن خاصَمه اللهُ، أدْحَضَ حُجَّته وكان للهِ حَرْبا حتّى يَنْزِعَ ويَتُوب . وليس شىءٌ أدعىٰ إلىٰ تغييرِ نِعمةِ الله وتعجيلِ نِقْمته من إقامةٍ علىٰ ظُلْم [فإنَّ الله سَمِيعٌ يسْمَعُ(٢) دَعوةَ المظلومين وهو للظالمين بالمِرْصاد] .

ولْيكُنْ أحَبُّ الأمور إليكَ أَوْسَطَها فى الحَقّ، وأعمَّهَا فى العَدْل، وأجْمعَها لرِضَا الرَّعِيَّة؛ فإنَّ سُخْط العامَّة يُجْحِفُ برضا الخاصَّة، وإنَّ سُخْط الخاصَّة يُغْتَفَر مع رضا

(١) فى "مفتاح الافكار، وشرح نهج البلاغة" «مؤمر» .
(٢) الزيادة من "مفتاح الافكار" وشرح "نهج البلاغة" .

العامَّة ، وليس أحدٌ من الرعيَّة أثقَــلَ علىٰ الوالِي مَئُونةً فى الرَّخاء ، وأقَلَّ معُونةً له فى البَلاء ، وأكْرَه لِلإنصاف ، وأسْأَلَ بالإلْحاف ، وأقَلَّ شكْرًا عند الإعْطاء ، وأبْطأَ عُذْرا عنـد المنع ، وأضْعفَ صَبْرا عند مُلِمَّات الدَّهْر ، من أهـل الخاصَّة ؛ وإنمـا عمودُ الدِّين ، وجِمَاعُ المسلمين ، والعُدَّةُ للأعداء العـامَّةُ من الأمَّة . فليكُنْ صَغْوُك لهم ، ومَيْلُك معَهم ؛ ولْيكُنْ أبعَـدُ رعيَّتِك منك ، وأشْنَؤهم عنْدَك ؛ أطلبَهم لمَعَايِب الناس : فإنَّ فى الناس عُيوبًا الوالى أحقُّ بسَتْرها ؛ فلا تَكْشِفَنَّ عمَّا غاب عنْك منْها ، فإنَّمـا عليك تَطْهيرُ ماظَهر [لك] (١) واللهُ يحكم علىٰ ماغاب عَنْك مِنها . فاسْـتُرِ العَوْرَة ما آستطعْتَ يَسْتُرِ اللهُ ماتُحِبُّ سَتْره من عَيْبك .

أطْلِقْ عن الناس عُقْدَةَ كلِّ حِقْد ، وآقْطعْ عنْهم سبَبَ كلِّ وَتْر ، وتَغابَ عن كلِّ مالا يَضِحُ لك ؛ ولا تَعْجَلَنَّ إلىٰ تصـديقِ ساعٍ : فانَّ السَاعِىَ غاشٌّ وإن تَشَبَّه بالناصِحِين . ولا تُدْخِلَنَّ فى مَشُورتِك بَخيلًا يعْدِلُ بكَ عن الفَضْـل ويَعِدُك الفَقْر ، ولا جَبـانًا يُضْـعِفُك عن الأُمور ، ولا حَرِيصًا يزَيِّن لك الشَّرَه بالجَوْر : فإنَّ البُخْل والجُبْنَ والحِرص غَرائِزُ شَتّىٰ يجمَعُها سُوءُ الظنِّ بِالله .

إنَّ شَرَّ وُزَرائِك مَنْ كان للأشْرار قَبْلَكَ وزِيرا ومَنْ شارَكَهُمْ فى الآثام ، فلا يَكُونَنَّ لك بِطَانة ، فإنَّهم أعوانُ الأثَمَه ، وإخْوانُ الظَّلَمَه ؛ وأنت واجدٌ منهـم خَيْرَ الخَلَف مِمَّن له مِثْلُ آرائِهِم ونَفَاذِهم ، وليس عليه مِثْلُ آصارِهم وأوْزارِهم : مِمَّن لم يُعاوِنْ ظالمًا علىٰ ظُلْمه ، ولا آثِمـا علىٰ إثْمه ؛ أُولئك أخفُّ عليك مَئُونه ، وأحسَنُ لكَ معُونه ؛ وأحْنىٰ عليْكَ عطْفا ، وأقلُّ لغيْرِك إلْفا ؛ فاتَّخِذْ أولئك خاصَّةً لخلَواتك [وحَفَلاتك] (١) . ثم لْيَكُنْ آثرُهم عِندك أقوَلَهم [لك] (١) بمُرِّ الحقّ ، وأقلَّهم مساعدةً فيما يكونُ منك مما

(١) الزيادة من "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة" .

كَرِه اللهُ لأوْليائه، واقعًا ذٰلك من هوَاك حيثُ وَقع. وآلْصق بأهْل الورَع والصِّدْق، ثم رُضْهُم علىٰ أن لا يُطْرُوك ولا يُبَجِّحُوك[(1)] بباطلٍ لم تَفْعَلْه : فإنَّ كثْرَةَ الإطْراءِ تُحْدث الزُّهُوَّ وتُدْنِى من الغِرَّة. ولا يكونَنَّ المحسنُ والمُسِىء عندك بمَنْزِلةٍ واحدة، فإنَّ فى ذٰلك تزهيداً لأهل الإحْسان [فى الإحسان][(2)] وتَدْرِيبًا لأهل الإساءة [علىٰ الإساءة][(2)] :[(3)]

وإنَّك لا تَدْرِى إذا جاءَ سائِلٌ * أأَنْتَ بمـا تُعْطِيه أم هُو أسْعَدُ !

عَسىٰ سائِلٌ ذُو حاجةٍ إن مَنَعْتَهُ * من اليومِ سُؤْلا أن يَكُونَ له غَدُ !

وفى كَثْرَةِ الأيْدى عن الجَهْل زاجِرٌ، * ولَلْحِــلْمُ أبْقىٰ للرِّجال وأعْـوَدُ !

وعلىٰ ذٰلك كتب[(4)] أبو إسحاق الصابى عن الخليفة « الطائع لله » إلىٰ فخر الدولة بن رُكْن الدولة بن بُوَيه، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة ستٍّ وستين وثلثمائة.

وهـــذه نسخته :

هذا ماعَهِد عبدُ الله عبدُالكريم [الإمام][(5)] الطائعُ لله أميرُ المؤمنين [إلىٰ فخر الدَّوْلة أبى الحسن بن رُكْن الدَّوْلة أبى علىّ مولىٰ أمير المؤمنين][(5)] حينَ عرَف غنَاءه وبَلَاءه،

(١) أى لا يفرحوك يقال بجحته تبجيحا فتبجح أى فرحته ففرح أنظر اللسان ج ٣ ص ٢٢٨ .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار، ونهج البلاغة".

(٣) اقتصر فى الأصل على هذا القدر وله بقية طويلة مذكورة فى "نهج البلاغة، ومفتاح الأفكار" فليرجع إليهما من شاء.

(٤) أى كتب العهد عن الخ .

(٥) الزيادة من "رسائل الصابى" والمثل السائر .

وٱستصح دِينَه ويَقِينه ، ورعىٰ قدِيمَه وحديثَه ، وٱستَنْجَب عُودَه ونِجارَه . وأثنىٰ عزُّ الدولةِ أبو مَنْصور بْنُ مُعزِّ الدولة أبي الحُسَيْن مولىٰ أمير المؤمنين [أيّده الله] (١) عليه ، وأشار بالمَزِيد في الصَّنِيعة إليه ، وأعلَمَ أميرَ المؤمنين ٱقتداءَه به في كلِّ مَذْهَب ذهب فيه من الخِدْمة ، وغَرَضٍ رمىٰ إليه من النَّصِيحة ، دُخُولا في زُمْرة الأولياء [المنصُوره ، وخروجًا عن جماعة الأعْداء المدْحُوره] (٢) ، وتصرُّفا علىٰ مُوجِبات البَيْعة التي هي بعِزِّ الدولة أبي منصور مَنُوطه ، وعلىٰ سائر من يتْلُوه ويتْبَعه مأخوذةٌ مشْرُوطه ؛ فقلَّده الصلاةَ وأعمـالَ الحرب ، والمَعاوِنَ ، والأحْداثَ ، والخَراجَ ، والأعشارَ ، والضِّياعَ ، والجَهْبذَة ، والصَّـدقاتِ ، والجَوالِيَ ، وسائر وجُوه الجِبَايات [والعَرْض] (٢) والعطَاء ، والنَّفقةَ في الأولياء [والمَظَالم وأسواقَ الرقيق] (٢) والعِيارَ في دُور الضرب والطُّرُز والحِسْبة بِكُور هَمَـذانَ ، وأَسْتَرَاباذَ ، والدِّينَور ، وقَرْمِيسِينَ ، والإيغارَيْن ، و[أعمـال] (٢) أَذْرَبِيجانَ ، وأرَّانَ ، والسَّحانِين ، ومُوقَانَ . واثقًا منه باستِبْقاء النعمة وٱستِدامتِها ، والإستِزادةِ بالشُّكر منها ، والتجنُّب لغَمْطها وجُحُودها ، والتنكُّب لإيحاشِها وتَنْفيرها ، والتعمُّد لمـا مَكَّن له الحُظْوةَ والزُّلْفىٰ ، وحرَس عليـه الأُثْرةَ والقُـرْبىٰ ؛ بمـا يُظْهِره ويُضْمره من الوَفَاء الصحيح ، والوَلَاءِ الصَّرِيح ، والغَيْب الأَمِين ، والصَّدْر السليم ، والمقاطَعةِ لكل من قاطع العُصْبَه ، وفارق الجُمْله ، والمواصلةِ لكلِّ من حَمىٰ البَيْضة وأخلص النِّيَّة ـ والكونِ تحتَ ظلِّ أمير المؤمنين وذِمَّته ، ومع عزِّ الدولة أبي منصور وفي حَوْزته ؛ والله جلَّ ٱسْمـه يعرِّفُ أميرَ المؤمنـين حُسْن العُقْبىٰ فيما أبرم ونَقَض ، وسَـدَادَ الرأي فيما رفَع وخَفَض ، ويجعل عزائمَه مقرونةً بالسـلامه ، محجوبةً عن موارد النَّدامه ؛ وحَسْبُ أميرِ المؤمنين الله ونعم الوكيلُ .

(١) الزيادة من "رسائل الصابي" المطبوعة "والمثل السائر" .

(٢) الزيادة من "رسائل الصابي" المطبوعة "والمثل السائر" .

أمَرَه بتقوى الله التي هي العِصْمة المَتِينـه، والجُنّـة الحَصِينه، والطَّوْد الأرفَع، والمَعَاذ الأمْنَع، والجانبُ الأعزّ، والمَلْجأ الأحْرَز، وأن يَسْتشْعِرها سِرًّا وجَهْرا، ويستعْمِلَها قَوْلا وفعلا، ويتخذَها رِدْءا دافعا لنوائبِ القَدَر، وكَهْفا حامياً من حوادث الغِـيَر، فإنها أوجَبُ الوسائل، وأقربُ الذّرائع، وأعودُها على العبـد بمَصالحِه، وأدْعاها إلى سُبُل مَنَاجِحه، وأولاها بالاستمرار على هدايتِـه، والنَّجاة من غَوَايته، والسلامةِ في دُنْياه حينَ تُوبِق مُوبِقَاتُهـا، وتُرْدِي مُرْدِيَاتُها، وفي آخرته حينَ تُروِّعُ رائعاتُهـا وتُخِيف مُخيفاتُها. وأن يتأدّب بآدابِ الله في التواضُـع والإخْبات، والسَّكينة والوَقَار، وصِدْق اللَّهْجة إذا نَطَق، وغَضِّ الطَّرْف إذا رَمَق، وكَظْم الغيظ إذا أُحْفِظ، وضَبْط اللسان إذا أُغْضِب، وكَفِّ اليدِ عن المَآثِم، وصَوْن النفس عن المَحَارم. وأن يذْكُر الموتَ الذي هو نازِلٌ به، والمَوْقِفَ الذي هو صائرٌ إليـه، ويعْلَمَ أنه مسئُول عمّا اكتَسَب، مجزِيٌّ بما ترَمَّك[(١)] واحتقَب، ويتزوّدَ من هذا المَمَرّ، لذاك المَقَرّ، ويستكْثِرَ من أعمـال الخير لتنفَعَه، ومن مَساعِي البِرِّ لتُنْقِذَه، ويأتمِرَ بالصالحات قبل أن يأمُرَ بها، ويَزْدَجِر عن السيِّئات قبْلَ أن يزْجُرَ عنهـا، ويبتدئ بإصلاح نَفْسه قبل إصـلاح رعِيَّته: فلا يبعَثُهم على ماياتى ضدَّه، ولا ينهاهُمْ عمّـا يقْترِفُ مثـلَه، ويجعلَ ربَّه رقيباً عليه في خَلَواته، ومُروءتَه مانعـةً له من شَهَواته، فإنّ أحقَّ من غلَب سلطانَ الشَّهْوة، وأوْلى من صَرَع أعداءَ[(٢)] الحَمِيّة، مَنْ ملك أزِمّة الأمور، واقتدَرَ على سِياسة الجُمْهور، وكان مُطاعاً فيما يرى، متَّبعا فيما يَشَاء، يَلِي على النـاس ولا يَلُون عليه، ويقتَصُّ منهـم ولا يقتَصّون منه، فإذا اطَّلع الله منـهُ على نَقَـاءِ جَيْبه، وطهارة ذَيْله، وصِحَّـة سَريرتِه، واستِقامة سِـيرتِه، أعانه على حِفْظ

(١) في "الرسائل، والمثل السائر" «ترمل».

(٢) كذا في الرسائل أيضا. وفي المثل السائر ص ١٣٢ "من ضرع لغذاء الحمية".

ما ٱستحفَظه، وأنهضه بثِقْل ما حمَّله؛ وجعل له مخلَصا من الشُّبْهة ومَخْرجا من الحَيْرة، فقد قال تعالىٰ: ﴿ ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يجعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِب ﴾. وقال عزّ من قائل: ﴿ يأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾. وقال: ﴿ ٱتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ إلىٰ آيٍ كثيرةٍ حضَّنا بها علىٰ أكْرَم الخُلُق، وأسْلَم الطُّرُق؛ فالسعيدُ من نصَبَها إزاءَ ناظِره، والشقيُّ من نبَذَها وراء ظَهْره؛ وأشقىٰ منه من بعَث عليها وهو صادِفٌ عنها، وأهابَ إليها وهو بعِيدٌ منها؛ وله ولأمثاله يقول الله تعالىٰ: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

وأمره أن يتخِذَ كتابَ اللهِ إماماً متَّبعا، وطريقًا مُوقَّعا(١)؛ ويُكْثِر من تلاوتِه إذا خَلَا بفِكْره، ويملأ بتأمُّله أرجاءَ صَدْره؛ فيذْهبَ معه فيما أباحَ وحَظَر، ويقْتدِيَ به إذا نهىٰ وأمَر؛ ويستبِينَ ببيانِه إذا ٱستغْلقَتْ دُونَه المعْضِلات، ويَستضِيءَ بمصابيحه إذا غُمَّ عليه فى المُشْكِلات؛ فإنه عُروةُ الإسلام الوُثْقىٰ، ومَحَجَّتُهُ الوُسْطىٰ، ودليلُه المُقْنِع، وبُرهانُه المُرْشد(٢)؛ والكاشفُ لظُلَمِ الخُطُوب، والشافِي من مَرَض القلوب، والهادى لمن ضَلّ، والمُتلافِي لمَنْ زلّ؛ فمَنْ لَهِج به فقد فاز وسَلِم، ومَنْ لَهِيَ عنه فقد خابَ ونَدِم، قال الله تعالىٰ: ﴿ وإنَّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾.

وأمره أن يُحافِظَ علىٰ الصلَوات، ويدْخُل فيها فى حقائق الأوْقات؛ قائمًا علىٰ حُدودها، متَّبِعا لرُسُومها؛ جامعًا فيما بين نِيَّتِه ولَفْظه، متوقِّيا لمَطَامح سَهْوه ولَحْظه؛

(١) فى الأصول والمثل السائر متوقعا بزيادة التاء وهو تحريف من النساخ، ففى اللسان ج ١٠ ص ٢٨٢ يقال طريق موقع مذلل.

(٢) فى "الرسائل" الأسطع.

منقطعًا إليها عن كلّ قاطع لها، مشغُولا بهـا عن كلّ شاغلٍ عنها؛ متثبّتا فى رُكُوعها وسُجُودها؛ مستَوْفِيا عدَدَ مفْروضها ومسْنُونها؛ مُوَفِّرا عليهـا ذِهْنَه، صارفاً إليها همَّه؛ عالمـًا بأنه واقفٌ بين يدَىْ خالقه ورازِقِه، ومُحْييه ومُميته، ومُثِيبه ومُعاقِبه؛ لاتستَتِرُ دُونَه خائنَةُ الأعيُنِ وما تُخْفِى الصُّـدور (١). فإذا قضَاها علىٰ هـذه السبيلِ مُنْذُ تكبيرةِ الإحرام إلىٰ خاتمةِ التسليم، أتْبعها بدُعاء يرتَفِع بارتِفَاعها، [ويُسْتَمَع بِاسْتِمـاعها] (٢)، ولا يتَعـدّىٰ فيه مسائلَ الأبرار، ورغائبَ الأَخْيار: من آستِصْفاحٍ وآستِغْفَار، وآسـتِقالةٍ وآستِرْحام، وآستِدْعاء لمصالح الدِّين والدنيـا، وعَوائدِ الآخرة والأُولىٰ؛ فقد قال تعالىٰ: ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ علَىٰ المُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً ﴾، وقال تعـالىٰ: ﴿ وأَقِم الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكَرِ ﴾.

وأَمَره بالسَّـعْى فى أيّام الجُمَع إلىٰ المساجد الجامعَـه، وفى الأعياد إلىٰ المُصَلَّيَات الضَّاحِيَه، بعد التقَدُّم فى فَرْشها وكِسْوتها؛ وجَمْع القُوَّام والمؤذِّنين والمكَبِّرين فيها، وآستِسْعاء النـاسِ إليها، وحَضِّهم عليْها؛ آخذينَ الأُهْبَه، متنَظِّفين فى البِزَّه؛ مُؤدِّين لفرائض الطَّهاره، بَالِغِين فى ذٰلك أقْصىٰ الآسـتِطاعه؛ معتَقِدين خَشْيةَ الله وخِيفَتَه، مُدَّرِعِين تَقْواه ومُراقبَته؛ مُكْثِرين من دُعائه ـ عز وجَلَّ ـ وسؤالِه، مصَلِّين علىٰ محمد رسولِه صلّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله؛ بقُلُوبٍ علىٰ اليقين مَوْقُوفه، وهِمَمٍ إلىٰ الدِّين مصْرُوفه؛ وألْسُن بالتسْبِيح والتقْدِيس فَصِيحه، وآمالٍ فى المَغْفِرة والرحمـة فَسِيحه؛ فإنَّ هذه المُصَلَّياتِ والمتَعَبَّدات بيوتُ الله التى فَضَّلها، ومَناسـكُه التى شَرَّفها؛ وفيها يُتْـلىٰ القُرءانُ [ومنها ترتَفِعُ الأعمال؛ وبهـا يلُوذُ اللائذُون (٢)] ويعُوذُ العائذُون؛

(١) كذا فى "المثل السائر" أيضا. وفى "رسائل الصابى" «ومن لايستتر دونه خائنة عينه وخافية صـدره».

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة.

ويتعبّـدُ المتعبِّدُون ، ويتهجّدُ المتهجِّدُون ، وحقيقٌ علىٰ المسلمين أجمعين : من والٍ ومولًّى عليه أن يصُونوها ويعمُرُوها ،ويُواصِلُوها ولا يهْجُروها . وأن يُقِيم الدعوةَ علىٰ مَنابِرِها لأمير المؤمنين ثم لنفسه علىٰ الرَّسْم الجارى فيها ، قال اللهُ تعالىٰ فى هـذه الصلاة : ﴿ يأيُّها الذينَ آمنُوا إذا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعةِ فَٱسْعَوْا إلىٰ ذِكْرِ الله وذَرُوا البَيْع ﴾ . وقال فى عِمَـارة المساجد : ﴿ إنَّمَـا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الْآخِرِ وأقَامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولٰئكَ أنْ يَكُونُوا من المُهْتَدِينَ ﴾ .

وأمره بأن يُرَاعِىَ أحوالَ مَنْ يليه ، مِن طبقَات جُنْد أمير المؤمنين ومَوَاليه ؛ ويُطْلِقَ لهم الأَرْزاق ، فى وقْت الوجُوب والٱستحقاق ، وأن يُحْسِنَ فى معاملتهم ، ويُجْمِل فى ٱستخدامهم ، ويتصَرَّف فىسياسَتِهم : بين رِفْق من غير ضَعْف ، وخُشونَة من غير عُنْف ؛ مُثِيبًا لمحسنهم ما زاد بالإبانة فى حُسن الأثَر ، وسَلِم معها من دَواعِى الأَشَر ، ومتغَمِّدا(١) لمُسيئهم ما كان التغمُّدُ له نافعا ، وفيه ناجعا ؛ فإن تكررت زَلَّاتُه ، وتتابعتْ عَثَرَاتُه ، تنـاوَلَه من عُقُوبته بمـا يكون له مُصْلِحا ، ولغيْره واعِظا . وأن يختَصَّ أكابِرَهم وأماثِلَهم وأهـل الرأْى والخَطَر منهـم بالمُشاورَة فى المُلِمّ ، والإطْلاع علىٰ بعض المُهِمّ ؛ مستخلِصا نَخائلَ قلوبهـم بالبَسْط والإدناء ، ومستَشْحِذًا بصائِرَهم بالإكرام والٱحْتِفَاء : فإنَّ فى مُشاوَرَة هـذه الطبقة ٱستدلالًا علىٰ مَواقِع الصواب ، وتحرُّزا من غَلَط الٱستِبْداد ، وأخذًا بمجامع الحَزامه ، وأَمْنا من مُفارقة الٱسـتِقامه ؛ وقد حضَّ اللهُ تعالىٰ علىٰ الشُّورىٰ حيث قال لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوكَّلْ عَلَىٰ اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتوكِّلِين ﴾ .

(١) أى ساترا لهفواته من قولهم تغمد فلانا ستره .

وأمَره بأنْ يَعْمِدَ(١) لما يتصل بنَواحيه من ثُغُور المسلمين، ورِباطات المُرابِطين، ويَقْسِمَ لها قِسْما وافِرًا من عِنايَتِه، ويَصْرِف إليها طَرَفا بل شَطْرا من رِعايَتِه؛ ويختارَ لها أهلَ الجَلَد والشِّدّه، وذَوِى البأس والنَّجْده: ممن عَجَمتْه الخُطُوب، وعَرَكَتْه الحُروب؛ وٱكتَسَب دُرْبة بخُدَع المُتناوِبين، وتجرِبةً بمكايِد المتقارِعين؛ وأن يستَظْهِر بتكْثيف عَدَدهم، وٱختيار عُدَدِهم؛ وٱنْتخاب خَيلِهم، وٱستِجادة أسْلِحَتِهم؛ غير مُجَمِّرٍ(٢) بَعْثًا إذا بعَثه، ولا مستَكْرِهه إذا وَجَّهه؛ بل يُناوِبُ بين رِجَاله مناوبةً تُرِيحهم ولا تُمِلُّهم، وترَفِّههم ولا تَئُودُهم: فإنَّ فى ذلك من فائدة الإجمام، والعدلِ فى الاستِخْدام؛ وتنافُسِ رجال النُّوب فيما عاد عليهم بعزِّ الظَّفَر والنَّصْر، وبُعْد الصِّيت والذِّكْر، وإحْراز النفع والأَجْر؛ مايحِقُّ على الوُلاة أن يكونُوا به عامِلين، وللناسِ عليه حامِلين. وأنْ يكرِّر على أسْماعهم، ويثبِّت فى قلُوبهم؛ مَواعِيدَ الله لمَنْ صابر ورابَطَ، وسَمَح بالنفس وجاهَد؛ من حيثُ لايُقْدِمُون على تورُّط غِرَّه، ولا يُحْجِمُون عن ٱنتِهاز فُرْصه؛ ولا ينْكُصُون عن تورُّد معرَكه، ولا يُلْقُون بأيْدِيهم إلى التَّهْلُكه؛ فقد أخذَ الله تعالى ذلك على خَلْقه، والمُرامينَ عن دِينه؛ وأن يُزِيحَ العِلَّة فيما يُحتاج إليه من راتبِ نَفَقات هذه الثُّغور وحادِثِها، وبناءِ حُصُونها ومَعَاقلها؛ وٱستطْراقِ طُرُقها ومَسَالِكها، وإفاضةِ الأقْوات والعُلُوفات للمترتِّبين فيها والمتردِّدين إليها والحامِينَ لها. وأن يبْذُل أمانَهُ لمن طلَبه، ويَعْرِضَه على مَنْ لم يطْلُبْه. ويَفِىَ بالعهْد إذا عاهد، وبالعَقْد إذا عاقَد؛ غير مُخْفِرٍ ذِمَّة، ولا جارحٍ أمانة؛ فقد أمر

---

(١) فى "رسائل الصابى" بأن يضم مايتصل الخ.

(٢) فى اللسان ج ٥ ص ٢١٧ «تجمير الجند أن يحبسهم فى أرض العدو ولا يقفلهم من الثغر» وهو المراد هنا. تأمل.

اللهُ تعالىٰ بالوَفاء فقال جلَّ من قائل : ﴿ يٰأيُّها الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالعُقُود ﴾ .
ونَهىٰ عن النَّكْث فقال عزَّ من قائل : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمَا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِهِ ﴾ .

وأمره أن يَعْرِض مَنْ فى حُبُوس عمَله علىٰ جَرَائِرهم [وإنْعامِ النظر فى جِناياتِهم وجرائِمِهم] (١) فمن كان إقرارُه واجباً أقرَّه ومن كان إطلاقُه سائغاً أطْلقَه . وأن ينظُر فى الشُّرْطة والأحداث نَظَر عدْل وإنصاف؛ ويختارَ [لها من الوُلاة] (١) مَنْ يخاف الله تعالىٰ ويَتَّقيه ، ولا يُحابِى ولا يُراقِب فيه؛ ويتقدَّمَ إليهم بقَمْع الجُهَّال ، ورَدْع الضُّلَّال؛ وتَتَبُّع الأشْرار ، وطلَب الدُّعَّار؛ مستدِلِّينَ علىٰ أماكِنهم ، متوَغِّلين إلىٰ مكامِنِهم؛ متوَلِّجين عليهم فى مَظَانِّهم ، متوثِّقِينَ ممن يَجِدُونه منهم ، منفذِين أحكامَ الله تعالىٰ فيهم بحسب الذى يتبيَّنُ من أمْرِهم ، ويَتَّضِحُ من فِعْلهم؛ فى كبيرةٍ آرتكبُوها ، وعظيمةٍ آحتقبُوها؛ ومُهْجةٍ أفاظُوها وآستَهْلكُوها ، وحُرْمةٍ أباحوها وآنتَهكُوها : فمَنِ آستحقَّ حدًّا من حدُود الله المعلومةِ أقامُوه عليه غير مُخَفِّفين منه ، وأحلُّوه به غيرَ مقصِّرين عنه ، بعد أن لا يكونَ عليهم فى الذى يأتونَ به حُجَّة ، ولا يعترِضَهم فى وُجُوبه شُبْهة : فإنَّ الواجب فى الحدُود أن تُقامَ بالبيِّنات ، وأن تُدْرأَ بالشُّبُهات؛ فأَوْلىٰ ما توخَّاه رُعاةُ الرَّعايا فيها أن لايُقْدِموا عليها مع نُقْصان ، ولا يتوقَّفوا عنها مع قيامِ دليلٍ وبُرْهان . ومن وجب عليه القتلُ آحتاط عليه بما يُحْتاط به علىٰ مثله : من الحَبْس الحَصين ، والتوثُّق الشديد؛ وكتَبَ إلىٰ أمير المؤمنين بخَبَره ، وشَرْح جنايَته؛ وثُبوتها بإقرار يكون منه ، أو بشهادةٍ تقَع عليه؛ ولْيَنْتظِرْ من جوابه مايكون عملُه بحَسَبه ، فإنَّ أميرالمؤمنين لايُطْلِق سَفْك دمِ مسلِمٍ أومُعاهَدٍ إلاما أحاط به عِلْماً ، وأتْقَنه فَهْماً ، وكان ما يُمْضِيه فيه عن بصيرة لا يخالِطُها شَكٌّ ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة .

ولا يَشُوبُها رَيْب . ومن أَلَمَّ بصغيرةٍ من الصغائر، ويسيرةٍ من الجرائر، من حيْثُ لم يُعْرَفْ له مِثْلُها، ولم نتقدّم منه أُخْتُها ، وعَظَه وزَجَره، ونهاه وحَذَّره ؛ وآستتابه وأقالَه ، مالم يكن عليه خَصْم فى ذلك يطالِبُ بقِصَاصٍ منـه ، وجزاءٍ له ؛ فإنْ عادَ تَنَاوَلَه [من] التقْوِيم والتهْذِيب، والتعْزِير والتأْدِيب؛ بما يَرىٰ أنْ قد كفىٰ فيما آجترَم، ووفىٰ بمـا قدّم؛ فقد قال تعالىٰ : ﴿ وَمَنْ يتَعدَّ حُدُودَ الله فَأُولٰئِكَ هم الظَّالِمُون ﴾ .

وأمره أنْ يعطِّلَ مافى أعمـاله من الحانَاتِ والمَوَاخِير، ويُطَهِّرَها من القَبائح والمَنَـاكِير؛ ويمنَعَ من تَجَمُّع أهل الخَنَا فيها وتألُّف شَمْلِهم بهـا : فإنه شَمْـل يُصْلِحه التَّشْتيت، وجَمْع يَحْفَظُه التفْريق؛ ومازالتْ هذه المَوَاطنُ الذَّميمة والمَطَارِح الدَّنيئة، داعيـةً لمن يَأْوِى إليها، ويعْكُفُ عليها؛ إلىٰ تَرْك الصلوات، [وإهمالِ المفترَضات](١) ورُكُوب المُنْكَرات ، وآقتراف المَحْظُورات ؛ وهى بُيوتُ الشـيطان التى فى عِمـارتها لله تعالىٰ مَغْضَبَة، وفى إخرابها للخَيْر مَجْلَبـة ؛ والله تعالىٰ يقول لنا معشَرَ المؤمنين : ﴿ كُنْتُم خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ ويقول عزّ من قائل لغـيرنا من المذمومين : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْـدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَآتَّبَعُوا الشَّهوَاتِ فَسَوْفَ يلْقَوْنَ غيّاً ﴾ .

وأمره أن يُولِّى الحِمايةَ فى هذه الأعمال ، أهلَ الكِفَاية والغَنَاء من الرجال ؛ وأن يَضُمَّ إليهم كلَّ مَنْ خَفَّ رِكابُه، وأسْرعَ عند الصَّريخ جَوابُه ؛ مرتِّبا لهم فى المَسَالح، وسادًّا بهـم ثغر المَسَالك؛ وأنـ يُوصِيَهم بالتيقُّظ ، ويأخُذَهم بالتحفُّظ ، ويُزِيح عِلَلَهم فى عُلُوفة خيلهم ؛ والمقرَّر من أزْوادهم ومِيرِهم ؛ حتّى لاتثْقُـلَ لهم علىٰ البلاد وَطْأه، ولا تَدْعُوَهم إلىٰ تَحيُّفهم وثَلْمِهـم حاجه ؛ وأن يَحُوطوا السابلةَ بادِئةً وعائِده،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابي" المطبوعة و "المثل السائر" .

ويتداركوا[1] القوافل صادرةً وواردَه، ويحرسوا الطُّرق ليلا ونهارا، وينفضوها رَواحا وإبكارا، وينصبوا لأهل العيث الأرصاد، ويتمكّنوا لهم بكلّ واد، ويتفرّقوا عليهم حيث يكون التفرّقُ مضيّقا لفضائهم، ومؤدّياً إلى انفضاضهم، ويجتمعوا حيث يكون الاجتماعُ مُطفئًا لجمرتهم، وصادعًا لمروّتهم، وأن لايُخلُوا هذه السُّبُلَ من حُماة لها وسيّارة فيها: يتردّدون فى جواديها[2]، ويتعسّفون فى عَواديها[2]، حتّى تكون الدماءُ محقُونه، والأموالُ مَصُونه، والفتنُ محسُومةً والغاراتُ مأمُونه، ومَن حصَل فى أيديهم من لِصّ خاتل، وصُعْلوك خارب، ومُخيف لسبيل، ومُنتهك لحَريم، امتثل فيه أمْرُ أمير المؤمنين الموافق لقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وأمره بوضع الرَّصَد على من يجتازُ فى أعماله من أُبّاق العَبِيد، والاحتياط عليهم وعلى مايكونُ معهم، والبحث عن الأماكن التى فارقُوها، والطُّرُق التى استطرقُوها، ومَواليهم الذين أَبقُوا منهم، ونشَزُوا عنهم، وأن يَرُدّوهم عليهم قهْرا، ويُعيدوهم إليهم صُغْرا، وأن يُنْشِدُوا الضالّة بما أمْكَنَ أن تُنْشَد، ويحفظُوها على ربّها بما جازَ أن تُحْفَظ، ويتجنّبوا الامتطاءَ لظُهورها والانتفاعَ بأوبارها وألبانها ممّا يُجَزّ ويُحْلَب؛ وأن يُعرِّفُوا اللُّقَطة ويتّبعُوا أثَرها، ويُشيعُوا خَبَرها؛ فإذا حضر صاحبُها وعُلِم أنه مستوجبُها سُلِّمت إليه، ولم يُعْترَض فيها عليه؛ فإنّ الله عزّ وجل يقول: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾. ويقولُ رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم: "ضالّةُ المُؤمنِ حَرَقُ النّار".

---

(١) فى "الرسائل، والمثل السائر" «ويبذرقوا» والبذرقة الخفارة.

(٢) فى "الرسائل" «فى جوادها ... ... فى عواد لها».

وأمره أن يُوصِىَ عُمَّـاله بالشدّ علىٰ أيْدى الحُكَّام ، وتنفيذ ما يَصْـدُر عنهم من الأحكام ، وأن يَحْضُروا مجالِسَهم حُضُورَ الموَقِّرين لها ، الذابِّين عنها ، المقيمين لرُسُوم الهيبــة وحُدُود الطاعة فيها ؛ ومَنْ خرج عن ذلك من ذى عَقْل سَخِيف ، وحِلْم ضَعيف ، نالُوه بمـا يَرْدَعُه ، وأحلُّوا به مايَزَعُه ؛ ومتىٰ تَقاعَس متقاعِسٌ عن حضورٍ مع خَصْم يستَدْعِيه ، وأمْرٍ يوجِّه الحاكمُ إليه فيه ؛ أو التَوىٰ مُلْتوٍ بحقٍّ يحصل عليه ، ودَيْن يستقِرُّ فى ذِمَّتــه ، قادُوه إلىٰ ذلك بأزِمَّة الصَّــغَار ، وخَزَائم الاضْطِرار ؛ وأن يَحْبِسُوا ويُطْلِقُوا بأقوالهم ، ويُثْبِتُوا الأيْدىَ فى الأملاك والفُرُوج ويَنْزِعُوها بقَضَاياهم ؛ فإنَّهم أُمَناءُ الله فى فَصْل مايَفْصِلُون وبَتِّ ما يَبُتُّون ، وعن كتابه وسُـنَّة نبيه صلّى الله عليه وسلم يُورِدُون [ويُصْدِرون](١) وقد قال تعـالىٰ : ﴿ يَٰدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى الْأَرْضِ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِـعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَـدِيدٌ بِمَـا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ . وأن يَتَوخَّى بمثل هــذه المُعاملة عُمَّالَ الخَراج فى آستِيفاء حُقُوق ما آسـتُعمِلُوا عليه ، وآستِنْطاف بَقَاياهم فيــه ، والرِّياضةِ لمن تَسُوءُ طاعتُــه من مُعامِلِيهم ، وإحْضارِهم طائعينَ أو كارِهين بَيْنَ أيديهم ؛ فمن آدابِ الله تعالىٰ للعبد التى يَحِقُّ عليه أن يتخذها [أدبا](١) ويجعلها إلىٰ الرضا عنه سببا ، قوله تعالىٰ : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ البِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَٱتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ .

وأمره أن يجْلِسَ للرعيَّة جُلُوسا عامّا ، وينْظُر فى مَطَالبها نَظَرا تامّا ، ويساوِىَ فى الحق بين خاصِّها وعامِّهـا ، ويُوازِىَ فى المجالس بين عَزِيزها وذَلِيلها ؛ ويُنْصِف المظلومَ من ظالمه ، والمغْصُوب من غاصِبه ، بعد الفَحْص والتأمُّل والبَحْث والتَّبَين ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى المطبوعة ، والمثل السائر" وهى من سقط الناسخ .

حتّى لا يحْـكُمَ إلَّا بعــدل ، ولا ينْطِقَ إلّا بفصْــل ؛ ولا يُثبِّت يدًا إلّا فيما وجب [تَثْبِيتُها فيه، ولا يَقْبِضُها إلا عمّا وَجَب] (١) قَبْضُها عنه؛ وأن يُسهِّل الإذْنَ لجماعتهم، ويرفَعَ الحِجَـابَ بينَهُ وبينهم ؛ ويُولِيَهم من حَصَانة الكَنَف، ولِين المُنْعَطَف؛ والاشْتمال والعِنَـايه ، والصَّوْن والرِّعايه ؛ ما تتَعَادلُ فيــه أقسامُهُم، وتتوازَنُ منـه أقْساطُهُم؛ ولا يَصِلُ المَكِينُ منهم إلىٰ ٱسْتِضامة مَنْ تأخَّر عنه، ولا ذُو السلطان إلىٰ هَضِيمة مَنْ حَلَّ دُونَه . وأن يدْعُوَهم إلىٰ أحسَنِ العـادات [والخلائق] (١) ويُحضَّهم علىٰ أجْمَلِ المَذَاهِبِ والطرائِق؛ ويَحْمِلَ عنهــم كَلَّه، ويَمُـدَّ عليهم ظِلَّه ؛ ولا يَسُومَهم خَسْفا، ولا يُلْحِق بهم حَيْفا؛ ولا يُكلِّفَهم شَطَطا، ولا يُجَشِّمهم مُضْلِعا؛ ولا يَثْلِم لهم مَعِيشه، ولا يُداخِلَهم فى جَرِيمَة (٢) ؛ ولا يأخُذَ بريئًا منهم بسَقِيم، ولا حاضرًا بعَـديم؛ فإنَّ الله جل وعز نَهىٰ أن تَزِرَ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ ، وجعل كُلَّ نفسٍ رَهينةً بمَكْسَبِها بريئةً من مَكاسِبِ غيرها . ويرْفَعَ عن هـذه الرعيَّة ماعسىٰ أن يكون سُنَّ عليها من سُنَّة ظالِمَهْ، وسُلِك بها من مَحَجَّة جائِره ، ويَستَقْرِىَ آثارَ الوُلَاة قَبْلَه عليها، فيما أزْجَوْه من خيرٍ أو شرٍّ إليها : فيُقِرّ من ذٰلك ماطابَ وحَسُن، ويُزِيلَ ماخَبُث وقَبُح : فإنَّ من يَغْرِس الخيرَ يَحْظىٰ بمَعْسُول ثمره ، ومن يَزْرَع الشَّرَّ يَصْـلىٰ بمَمْرُور رَيْعه؛ والله تعالىٰ يقول : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُه بإذْنِ رَبِّه والَّذِى خَبُثَ لايَخْرُجُ إلَّا نَكِدًا كَذٰلِكَ نُصَرِّفُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُون﴾ .

وأمره أن يَصونَ أموالَ الخَـراج وأثمـانَ الغَلَّات، ووجُوهَ الجِبَايات، مُوَفَّرا، ويَزِيد ذلك مُثَمَّرا، بـا يســتعْمِله من الإنصاف لأهْلهـا ، وإجرائهــم علىٰ صَحِيح الرُّسوم فيها: فإنه مالُ اللهِ الذى به قُوَّةُ عباده، وحمايةُ بِلاده، ودُرورُ حَلَبه، وٱتصالُ

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة و"المثل السائر" وهى من سقط الناسخ .

(٢) كذا فى "المثل السائر" أيضا وفى "الرسائل" «فى حرفه» .

مَدَده؛ وبه يُحَاط الحريم، ويُدْفَع العَظِيم؛ ويُحمىٰ الذِّمار، وتُذَاد الأَشْرار. وأن يجعل آفتتاحه إيَّاه بحسَب [إدْراك] (١) أصــنافِه، وعند حُضُور مَواقيتِـه وأحْيـانِه؛ غير مستَسْلِفٍ شيْئا قَبْلها، ولا مؤَخِّرٍ لها عنها؛ وأن يُخُصَّ أهلَ الطاعة والسلامة بالتَّرْفيه لهم، وأهلَ الآسْتِصْعاب والآمْتِناع بالتشدُّد عليهم: لئلا يقَع إرهاقٌ لمُذْعِن، أو إهمالٌ لطامع. وعلىٰ المتولِّي لذٰلك أن يضَعَ كُلًّا من الأمرِيْنِ مَوْضِـعَه، ويُوقِعَه مَوْقعَه؛ متجنِّبا إحلاَل الغِلْظة بمِنْ لايستَحِقُّها، وإعطاءَ الفُسْحة لمن ليس من أهْلِها؛ والله تعالىٰ يقول: ﴿ وأَنْ لَيْسَ للإنْسَانِ إلَّا ما سَعىٰ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمَّ يُجْزَاهُ الجَزَاءَ الأَوْفىٰ ﴾.

وأمره بأن يتخيَّر عُمَّـاله علىٰ الأعشار، والخَرَاج، والضِّـيَاع، والجَهْبَذَة، والصَّدَقات، والجَوَالى، من أهل الظَّلَف والنَّزاهة، والضَّـبْط والصِّيانة، والجَزَالة والشَّهامة؛ وأن يستَظْهِرَ مع ذٰلك عليهم بوصيَّةٍ يُوعِيها أسماعَهُم، وعُهودٍ يقلِّدها أعناقَهم؛ بأن لايُضَيِّعوا حَقّا، ولا يأكُلوا سُحْتا؛ ولا يستعْمِلُوا ظُلْما، ولا يُقارِفُوا غَشْما. وأن يُقيموا العِمارات، ويحتاطُوا [علىٰ الغَلَّات] (٢) ويتحرَّزُوا من تَرْك حقٍّ لازِمٍ أو تعطيلِ رَسْمٍ عادل؛ مؤدِّين فى جميع ذٰلك الأمانه، مجتَنِبين للخيَـانه. وأن يأخُذُوا جَهابِذَتَهُم باسْتِيفاء وَزْن المال علىٰ تَمَامه، وآستِجادةِ نَقْده علىٰ عِيَاره؛ وآستعمال الصِّحَّة فى قَبْض مايَقْبِضُون، وإطْلاقِ مايُطْلِقُون. وأن يُوعِزُوا إلىٰ سُعاة الصَّدَقات بأخْذ الفرائض من سائمة مَواشى المسلمين دُونَ عاملتها، وكذٰلك الواجبُ فيها؛ وأن لايجمَعُوا فيها متفرِّقًا ولا يفرِّقُوا مجتَمِعا، ولا يُدْخِلُوا فيها خارجًا عنها، ولا يُضيفُوا إليها ماليس

---

(١) من "الرسائل، والمثل السائر".

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة.

منهـا : من فَحْـل إبلٍ أو أَكُولة(١) راع ، أو عَقيـلةِ مال ؛ فإذا آجتبَوْها علىٰ حقِّها ، وآستوْفُوها علىٰ رَسْمِها ، أخرجُوها فى سبِيلها ، وقَسَّموها علىٰ أهْلهـا الذين ذكرهم الله تعـالىٰ فى كتابه ، إلَّا المؤلَّفـة قلوبُهم الذين سقط سَهْمُهم ، فإنَّ الله تعـالىٰ يقول : ﴿ إنَّمَـا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَراءِ وَالْمَسَاكِينِ والْعَامِلِينَ علَيْهَا والْمُؤَلَّفَة قُلُوبُهُـمْ وَفِى الرِّقَاب والْغَارِمينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وآبْنِ السَّبِيل فَرِيضَةً مِنَ اللهِ واللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ . وإلىٰ جُباة [جَمَاجِم](٢) أهل الذِّمَّة أن يأخُذُوا منهم الجزْيةَ فى المحرَّم من كل سنة [بحسَبِ](٢) مَنازِلهم فى الأحوال ، وذاتِ أيْديهِـم فى الأموال ؛ وعلىٰ الطَّبَقات المُطَبقة فيها ، والحُـدُود [المحدودة](٢) المعهُودةِ لهـا ؛ وأن لا يأخُذُوها من النساء ، ولا ممن لم يبْلُغ الحُـلُمَ من الرجال ؛ ولا من ذى سِنٍّ عاليه ، ولا ذى عِلَّة باديَه ؛ ولا فقيرٍ مُعْدِم ، ولا مترَهِّب متبَتِّل ؛ وأن يُراعىَ جماعة هٰؤلاء العُمَّال مراعاةً يُسِرُّها ويُظْهِرها ، ويُلاحظُهم مُلاحظةً يُخْفِيها ويُبْديها : لئلَّا يزولُوا عن الحـقِّ الواجب ، أو يعْدِلُوا عن السَّنَن اللَّاحب ؛ فقد قال تعـالىٰ : ﴿ وأَوْفُوا بالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولا ﴾ .

وأمره أن يَنْدُبَ لعَرْض الرجال وإعطائهـم ، وحِفْظ جِراياتهم وأوْقاتِ إطْعامهم ، مَنْ يَعرِفه بالثِّقة فى متَصَرَّفه ، والأمانة فيما يَجْرِى علىٰ يَده ، والبُعْـد عن الإسْفاف إلىٰ الدَّنِيَّه ، والآتِّباع للدناءة ؛ وأن يبعَثَه علىٰ ضبط [حِلَىٰ](٣) الرجال وشِيَاتِ الخيل ، وتجْديد العَرْض بعـد الآستِحْقاق ، وإيقاع الآحتياط فى الإنفاق ؛ فمن صَحَّ عَرْضُه ولم يبْقَ فى نفْسه شىءٌ منه : من شكٍّ يعْرِض له ، أو ريبةٍ يتوهَّمُها ، أطلق أموالَهُم موفُوره ، وجعلها فى أيديهم غير مَثْلُومه ؛ وأن يرُدَّ علىٰ بيت المـال أرزاقَ من

(١) أكولة الراعى مايسمنها للأكل .

(٢) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة .

(٣) الزيادة من "رسائل الصابى" .

سقط بالوفاة والإخلال، ناسبًا ذلك إلىٰ جِهَته، ومُوردا له علىٰ حقيقته. وأن يطالب الرجالَ بإحضار الخيلِ المختاره، والآلاتِ المستكْمَلة المستعْمَلة علىٰ ما تُوجبه مبالغُ أرزاقهم، وحَسَب منَازلهم ومَراتبِهم؛ فإن أخَّر أحدُهم شيئا من ذلك قاصَّه به من رِزْقه، وأغْرَمه مثلَ قيمتهِ؛ فإنَّ المقصِّر فيه خائنٌ لأمير المؤمنين، ومخالفٌ لرب العالمين؛ إذ يقول الله سبحانه: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُمْ﴾.

وأمره أن يعتمِدَ فى أسواقِ الرقيق ودُورِ الضَّرْب والحِسْبة والطُّرُز، علىٰ من تجتمع فيه آلاتُ هذه الوِلايات: من ثقةٍ ودِرَايه، وعِلْمٍ وكِفَايه، ومعْرِفةٍ ودرابة؛ وتَجْربة وحُنْكه، وحَصَافة ومُسْكه؛ فإنها أحوالٌ تُضارع الحُكْمَ وتُناسبُه، وتُدانيه وتقارِبُه. وأن يتقدَّمَ إلىٰ وُلَاة أسواقِ الرقيق بالتحفُّظ فيمن يُطْلِقون بَيْعه، ويُمْضُون أمره؛ والتحرُّز من وُقُوع تَجَوُّزٍ فيه، وإهمالٍ له؛ إذ كان ذلك عائدًا بتحصينِ الفُرُوج، وتطهيرِ الأنْساب. وأن يُبْعِدوا عنه أهلَ الرِّيبه، ويُقرِّبُوا أهلَ العِفَّه؛ ولا يُمْضُوا بيعًا علىٰ شُبْهه، ولا عَقْدا علىٰ تُهَمه. وإلىٰ وُلَاة العِيَار، بتخليص عَيْنِ الدِّرهم والدينار: ليكونَا مَضْروبين علىٰ البَرَاءة من الغِشّ، والنَّزاهة من المَشّ(١)؛ وبحَسَبِ الإمام، المقرَّر بمدينة السَّلام؛ وحِراسةِ السِّكَك من أن تتداوَلَها الأيْدى المُدْغِله، وتتناقَلَها الجِهاتُ الظَّنِينه(٢)؛ وإثباتِ ٱسْمِ أمير المؤمنين علىٰ ما يُضْرَبُ منها ذَهَبا وفِضَّة، وإجراء ذلك علىٰ الرَّسْم والسنَّه. وإلىٰ وُلَاة الطُّرُز بأن يُجْرُوا الٱستعمالَ فى جميع المَنَاسج علىٰ أتمّ النِّيقه(٣)، وأسلم الطَّرِيقه، وأحكَم الصَّنْعه، وأفضلِ الصِّحَّه؛

(١) المش الخلط حتى يذوب. انظر القاموس

(٢) لعله معناه المعادية ففى اللسان ج ١٧ ص ١٤٥ الظنين المعادى لسوء ظنه وسوء الظن به. وفى الأصل «المثبتة» وفى المثل السائر المنبية والتصحيح من رسائل الصابي.

(٣) النيقه الاسم من تنوق فى الأمر إذا تأنق فيه.

وأن يُثبِتُوا ٱسْمَ أمــير المؤمنين علىٰ طُرُز الكُسَا ، والفُرش والأعلام والبُنُود .
وإلىٰ وُلَاة الحِسْبة بتصَفُّح أحوالِ العوامِّ فى حِرفِهم ومَتَاجرهم ، ومجتمَع أسواقِهم ومعاملاتهم ؛ وأن يُعايِرُوا المَوَازِينَ والمَكَايِيل ، ويفْرِزوها علىٰ التعْـدِيل والتكميل ؛ ومن ٱطَّلعُوا منه علىٰ حِيلةٍ أو تلبِيس ، أو غِيلةٍ أو تدْليس ؛ أو بَخْس فيما يُوفِيـه ، أو ٱســتِفْضال فيما يَسْـتَوْفيه ، نالُوه بغلِيظِ العــقُوبة وعَظِيمها ، وخَصُّوه بوَجِيعها وأليمها ؛ واقِفِينَ به فى ذٰلك عند الحدّ الذى يَرَوْنه لذنبه مُجازِيا ، وفى تأديبه كافيًا فقــد قال الله تعــالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا علىٰ النَّـاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴾ .

هــذا عهدُ أمير المؤمنِينَ إليكَ ، وحُجّته عليك ؛ وقد وقَفَك به علىٰ سَوَاء السبيل ، وأرشَــدَك فيه إلىٰ واضِح الدَّليل ؛ وأوسَعَك تعلِيما وتحكِيما ، وأقْنَعك تَعرِيفا [وتفهِيما][1] ولم يَأْلُكَ جُهْـدا فيما عَصَمك وعَصَم علىٰ يَدك ، ولم يَدَّخِرْك مُمكِنا فيما أصْـلَح بك وأصْلَحك ، ولا تَرَك لك عُذْرا فى غَلَطٍ تَغْلَطه ، ولا طريقًا إلىٰ مُتورَّطٍ تتورّطه ؛ بالغا بكَ فى الأوامِر والزَّواجر إلىٰ حيثُ يلزَمُ الائمةَ أن ينْدُبوا الناسَ إليه ، ويَحُثُّوهم عليه ؛ مقيمًا لك علىٰ مُنْجِيَات المسالك ، صارفًا بك عن مُرْدِيَات المَهَالك ؛ مُرِيدًا فيك ما يُسَلِّمك فى دِينِك ودُنْياك ، ويَعُود بالحظّ عليك فى آخرَتك وأُولَاك ؛ فإن ٱعتدَلْتَ وعَدَلْتَ فقــد فُزْت وغنِمْت ، وإن تجانَفْتَ وٱعْوجَجْتَ فقــد خَسِرْت ونَدِمْت ؛ والأَوْلىٰ بك عند أميرالمؤمنين مع مَغْرِسك الزَّاكى ، ومَنْبِتك النامى ، وعُودك الأنْجَب ، وعُنْصُرك الأطيب ، أن تكون لظَنّه بك محقِّقا ، ولمَخِيلته فيك مُصَدّقا ؛ وأن تستزِيد بالأثَرِ الجميل قُرْبًا [من رب العالمين][1] وثوابا يومَ الدين ؛ وزُلْفىٰ عند أميرالمؤمنين ،

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" المطبوعة .

وثناءً حسنا من المسلمين ؛ فخُذْ مانبَذ إليك أميرُ المؤمنين من معَاذيرِه، وأَمْسك بيدك علىٰ ماأعْطىٰ من موَاثيقه، وآجعلْ عهده [هـذا] (١) مثـالًا تحتَذيه ، وإماما تقْتفيه ، وآستعِنْ بالله يُعِنْك ، وآستهْدِه يَهْـدِك ، وأخلص إليه فى طاعتِه ، يُخْلِص لك الحظَّ من مَعُونتـه ؛ ومهما أشـكَلَ عليك من خَطْب ، أو أعضَـل عليك من صَعْب ؛ أو بَهرَك من باهِر ، أو بَهَظك من باهِظ ؛ فاكتُبْ إلىٰ أمير المؤمنـين به مُنْهيـا ، وكن إلىٰ مايرد [من جوابه] (١) عليك مُنْتَهيا ؛ إنْ شاء الله تعالىٰ . والسـلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه .

[وكتب نصير الدولة الناصح أبو طاهر يومَ الأحد لثلاثَ عَشْرةَ ليلةً خلتْ من جُمادىٰ الأولىٰ سنة ست وستين وثلثمائة (١)] .

وعلىٰ هـذا الأُسلوب كتب أمينُ الدين أبو سعيد، العَلاءُ بن وَهْبِ بن مُوصَلَايَا عن القائم بأمر الله عهدَ أمير المسلمين يُوسفَ بن تاشفين، بسلْطنة الأندلُس وبلادِ المغرب، بعد العشرين والأربعمائة، فيما رأيتُه فى ترَسُّل آبن مُوصَلايا المذكور .

وهذه نسختُه بعد البسملة الشريفة :

هـذا ماعَهِد عبدُ الله ووَليُّه ، عبـدُ الله القائمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين ، إلىٰ فلان حينَ آنتهىٰ إليه ماهُو عليه من آدِّراع جلَابِيب الرَّشاد ، فى الإصْـدار والإيراد ؛ وآتِّباع سَنَن من أبدْىٰ وأعاد، فيما يجْمَـع خيْرَ العاجِلَة والمَعَاد ؛ والتخصيص من حَميد الأنْحاء والمَذاهب ، بمـا يستَمِدّ منه أصنافَ الآلاء والمَوَاهب ؛ والتحلِّى من السَّداد

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" .

الكامل ، بما فازَ فيه بآمتطاء الغاربِ من الجَمَال والكاهل ؛ وآتَّضح ماهو متشبِّث به من صِحَّة الدِّين واليَقين ، والمُواظبة من آكتِساب رضا الله تعالىٰ علىٰ ماهو أقوىٰ الظَّهِير والمُعين ؛ فى ضِمْن ماطوَىٰ عليه ضُلوعَه ، وأدام لَهَجَه به ووَلُوعه : من مُوالاةٍ لأمير المؤمنين يَدِينُ الله تعالىٰ بها ، ويرجُو النجاةَ من كل مَخُوف بآستحكام سَعْيِها ؛ ومشايعةٍ لدوْلتــه ساوىٰ فيها بين ماأظْهَر وأَسَرّ ، وأمَّل فى آجتِناء ثمرها كلَّ ما أبْهج وسَرّ ؛ فولَّاه الصَّلاةَ بأعمال المَغْرب ، والمعاونَ ، والأحْداث ، والخرَاج ، والضِّياع ، والأعْشارَ ، والجَهْبذة(١) ، والصَّدقاتِ ، والجَوَالِىَ ، وسائرَ وجُوه الجِبَايات ، والعَرْض ، والعَطاء ، والنَّفقةَ فى الأولياء ، والمَظَالِم ، وأسواقَ الرقيق ، والعِيارَ فى دُور الضَّرْب ، والطُّرُز ، والحِسْبة ، ببلاد كذا وكذا : سكُونًا إلىٰ آستِقلاله بأعْباء ماآستَكْفاه إيَّاه ، وآستقباله النعمةَ عليه فى ذٰلك بكلِّ مايَنْشُر ذكْرَه ويُطيب رَيَّاه ؛ وثِقةً بكونه للصَّنيعة أهلا ، وبأفْياء الطاعةِ الإماميَّــة مستَظِلّا ؛ وتَوْفرةً علىٰ مايزيدُه بحضرة أمير المؤمنين حُظْوة تُردّ باعَ الخطوب عنه قَصِيرا ، وتُمدّ مقاصِدَه من التوفيق بما يَضْحىٰ له فى كلِّ حالةٍ نصــيرا ؛ وعِلْما بما فى آصْطِناعه من مصلحةٍ تَسْتنير أهِلَّتُها ، وتستَثِير من شُــبه الغيّ شواهِدُها وأدلَّتها ؛ والله تعالىٰ يَصِل مَرامِىَ أمير المؤمنين بالإصابَة ، ويُعينه علىٰ ما يُقِرُّ كلَّ آمرئٍ فى حقِّه ويُحِلُّه نِصابه ؛ ويُحْسِن له الخَطْرةَ فى كلِّ ما يَغْـدو له مُمْضِيا ، ولمَطَايا الآجتهادِ فى فعله مُنْضِيا ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلَّا بالله ، عليه يتوكل وإليه يُنِيب .

وأمَرَه بآعتِماد تَقْوىٰ الله تعـالىٰ فى الإعْلان والإسْرار ، وآعتقاد الواجِب من الإذعان بفَضْلها والإقْرار ؛ وأن يَأْوِىَ منها إلىٰ أمْنَع المَعاقِل وأحْصَنها ، ويَلْوِىَ عِنانَ

(١) عبارة عن نقد الذهب والفضة .

الهدىٰ فيهـا إلىٰ أجمَل المَقاصـد وأحسَنِها ؛ ويجعلَها عمدتَه يومَ تُعْـدَم الأنصار ، وتَشْخَص الأبصار : ليجتَنِيَ من ثَمرها مايقيـه مَصارعَ الخَجَل ، ويجتَلِيَ من مَطالعها مايؤَمِّنه من طَوارِق الوَجَل ؛ ويَرِدَ بهـا من رضا الله تعالىٰ أصْفىٰ المَشارب ، ويجد فيها من ضَوالِّ المُنىٰ أنفَسَ المَوَاهب : فإنها أبقى الزّاد ، وأدعىٰ فى كلِّ أمْرٍ إلىٰ وَرْى الزِّناد ؛ وقدخَصَّ الله بها المؤمنين من عباده ، وحضَّ منها علىٰ ماهو أفضل عُدّة المرء وعَتَاده ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّهـا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾ .

وأمره أن يأتمَّ بكتاب الله تعـالىٰ مستضيئًا بمِصْباحه ، مستَضِيماً لسُـلْطان الغيّ بالوُقُوف عند مَحظُوره ومُباحه ؛ ويقْصِدَ الاستبْصار بمَواعظِه وحِكَمِه ، والاسـتِدْرار لصَوْب التوفيق فى الرُّجوع إلىٰ مُتْقَنه ومُحْكَمه ؛ ويجعَلَه أميرًا علىٰ هَواه مُطاعًا ، وسَميرا لايَرىٰ أن يكشِفَ عنه قِنـاعا ؛ ودليلًا إلىٰ النَّجاة من كلِّ مايَخافُ أثامَه ، وسبيلًا إلىٰ الفَوْز فى اليوم الذى يُسْفِر عن فَصْـل الحِساب لِثَامَه ؛ ويتحقَّق موقِعَ الحظِّ فى إدامة دَرْسه ، وصِلَةِ يومِه فى التأمُّل بأمْسه ؛ فإنه يُبْدِى طريقَ الرَّشَد لكل مُبْدِئٍ فى العمل به مُعيد : ﴿ وَإِنَّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لايَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيد ﴾ .

وأمره أن يُحافظَ علىٰ الصَّلَوات قائمًـا بشُروطها وحُدُودها ، وشائما بُروقَ التوفيق فى أداءِ فُروضها وحُقُوقها ؛ ومسارعًا إليها فى أوْقاتها بنِيَّةٍ عائفةٍ مَناهلَ الكَدَر والرَّنْق ، عارفةٍ بِمـا فى إخْلاصِها من نُصْرة الهدىٰ وطاعة الحَقّ ؛ وموَفِّرا عليها من ذِهْنه ، ماالحَظُّ كامن فى طَيِّه وضِمْنه ؛ ومُوَفِّيا لها من الرُّكُوع والسُّجُود ، ماالرَّشادُ فيه صادِقُ الدلائل والشُّهود ؛ متجَنِّبا أن يُلْهيَه عنهـا من هَوَاجِس الأفكار ، ووَساوس القلب

العُونِ منها والأَبْكار، مايَقِف فيه مَوْقِفَ المُقَصِّر الغالط ، ويَنْزِل فيه مَنْزِلَةَ الجاحد للنِّعم الغامِط ؛ وقدأمر اللهُ تعالىٰ بها وفَرَضها علىٰ المؤمنين وأوجبَها وحَثَّ من إقامتها، علىٰ مايُفْضِى إلىٰ صلاح المَقَاصد وٱستقامتِها، فقال عزَّ من قائل: ﴿ فأَقِيمُوا الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلىٰ المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتا ﴾ .

وأمره بالسَّعْى فى أيام الجُمَع إلىٰ المساجد الجامِعـه، وفى الأعْياد إلىٰ المُصَلَّيات الضاحِيه؛ بعْدَ أن يتقدّمَ فى عِمارتها، وإعدادِ الكِسْوة لها؛ بما يؤدِّى إلىٰ كَمال حِلَاها، ويُحْظِى من حُسن الذكر بأعذَبِ الموارد وأحْلَاها؛ ويُوعِز بالآستكثار من المكبِّرين فيها والقُوّام، وترتيبِ المصابيح العائدةِ علىٰ شَمْل جَمَالها بالآتِّساق والآنْتِظام : فإنها بُيوتُ الله تعـالىٰ التى تُتْلىٰ بها آياتُه، وتُعْلىٰ فيهـا أعلامُ الشَّرْع وراياتُه . وأن يُقيم الدعوةَ علىٰ مَنَابرها لأمير المؤمنين، ولوَلِىّ عهْده العُدّة للدِّين؛ أبى القاسِم عبد الله ٱبن محمدٍ ٱبنِ أمير المؤمنين، أدام اللهُ تعالىٰ به الإمتاع، وأحسَن عن ساحَتِه الدِّفاع؛ ثم لنَفْســه جاريا فى ذٰلك علىٰ ماأُلِفَ من مثله، وسالـكًا منه أقومَ مَسالك الآهتداء وسُـبْله؛ وقد بيّن اللهُ تعـالىٰ ما فى عِمارتها من دلائل الْإيمـان، والفوزِ بمـا يُعطِى من سُخْط الله تعالىٰ أوثَقَ الأمان، فى قوله سـبحانه : ﴿ إنّمَـا يَعْمُرُ مَساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقَامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلَّا اللهَ فَعَسىٰ أُولٰئِكَ أنْ يَكُونُوا من المُهْتَدِين ﴾ . وقال فى الحثّ علىٰ السعى إلىٰ الجوامع التى يُذْكَر فيها ٱسْمُه، ويَظْهر عليها مَنَارُ الإسـلام ورَسْمُه : ﴿ يٰأيُّها الذين آمَنُوا إذا نُودِىَ للصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلىٰ ذِكْرِ اللهِ ﴾ .

وأمره أن يعتمدَ فى إخراج الزكاةِ ما أمر اللهُ تعالىٰ به ، وهَدَىٰ منه إلىٰ أرْشَـدِ فعْـلٍ وأصوَبِه؛ ويقومَ بذٰلك القيامَ الذى يُحْظِيـه بجميل الذِّكر، وجَزِيل الأجْر،

ويشهدُ له بزكاء المَغرِس وطيب النَّجْر، ويقصِدَ فى أداء الواجب منه مايصلُ أمْسَه فى التوفيق بيَوْمِه ، ويُطْلِقُ الألسنة بحَمْده ويكُفُّها عن لَوْمه ؛ متجنبًا من إخلالٍ بما نُصَّ عليه فى هذا الباب، أو إهمالٍ فيه لما يَليق بذَوِى الدِّيانة وأُولى الألْباب؛ ومتوخِّيا فى المسارَعة إليه مايتطَهَّر به من الأدْناس، ويتوفَّر به حُسنُ الأُحْدوثة عنه بين الناس ؛ فقد جعل اللهُ تعالىٰ الزكاةَ من الفُروض التى لاسبيلَ إلىٰ المَحيد عنها، ولا دليلَ فى الفَوْز أَوْفىٰ منها ؛ وأمر رسولَه صلّى الله عليه وسلم بأخْذها من أُمَّته ، وأبان عن كَوْنِها مما يُجْتنىٰ كُلُّ مرغوبٍ فيه من ثمرته؛ ووصلَ الأمْرَ له فى ذٰلك بما يوجب فضلَ المسابقة إلىٰ قَبُوله : لما فيه من الحظِّ الكاملِ فى استنارة غُرَره وحُجُوله ، فى قوله سبحانه : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُم وتُزَكِّيهِمْ بِهَا وصَلِّ عَلَيْهِمْ إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيم ﴾ .

وأمره أن يُهَذِّب من الدَّنَس خِلالَه ، ويَصِلَ بأقوالِه فى الخيرِ أفْعالَه ؛ ويمتنِع من تلبيةِ داعِى الهوىٰ المُضلّ، ويَتَّبِعَ سَنَن المتفيِّئ بالهُدىٰ المستظِلّ؛ ويَقْبِضَ يدَه عن كل محرَّم تُوثِقُ أشراكُه وتُوبِقُ غوائلُه ، وتُؤْذِن بسُوء المنقَلَب شواهِدُه ودلائلُه ؛ ويجعَلَ له من نَهاره رقيباً علىٰ نَفْسه يصُونُها عن مَراتع الغَيّ ومَطَارِحه، وأميناً يصُدُّ عن مَسارب الإثم ومَسارِحه ؛ فإنَّها لاتزالُ أمَّارةً بالسُّوء إن لم تُقَدْ إلى جَدَد الرَّشَد ، وتُقَمْ لها سُوقٌ من الوَعْظ يبلغُ فيها أقصىٰ الغاية والأَمَد ؛ فالسعيدُ مَنْ أضحىٰ لها عِنْد سَوْرة الغَضَب وازِعا، وأنحىٰ عليها بلَوْم يغْدُو معه عن كلِّ مايُسْخِطُ اللهَ تعالىٰ نازِعا، وأن يتنزَّه عن النَّهى عمَّا هوله مُرْتَكِب، والأمْرِ بما هوله مجتَنِب : إذ كان ذٰلك بالهُجْنة حاليا ، وبينَ المَرْء وبينَ مقاصد هَدْيه حائلا ، قال الله تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وأمره أن يُضْفِىَ علىٰ مَنْ قِبلَه من أولياء أمير المؤمنين وجُنودِه، أصْناف جَلابِيبِ الإحسان وبُرُوده؛ ويُخصَّهم من جزيل حِبائه بمـا يَصِلُون منه إلىٰ أبْعَـد المَدَىٰ، ويملِكُونَ به نَواصِىَ الآمالِ ويُدْرِكُون قَواصِىَ المُنىٰ؛ ويميِّزَ من أدّىٰ واجِبَه فى الطاعة وفَرْضَه وأبْدَى صَفْحَته فى الغَنَاء بين يديه بمَزِيدٍ من الاشتمال يُرْهِف بصيرَة كلٍّ منهم فى التوفُّر علىٰ ماوافَقَه، ووصَـل بآنِفِه فى التقرُّب إليه سابِقَـه، ويَدْعُو المقصِّرَ إلىٰ الاستِبْصار فى اعتماد مايَلْحق فيه رتْبَةَ من فازت فى الحَظْوةِ قِداحُه، وفاتَتِ الوصفَ غُرَرُه فى الزُّلْفَـة وأوْضـاحُه: ليَمْرَحَ به فى الاغتِذاء بلِبَان النِّعمه، كما انْتَهَج جَدَده فى إحسانِ الخِدْمه. وأن يَرْجِع إلىٰ آراء ذَوِى الحُنْكَة منهم مستَضِيئًا بها مستَرْشِدا، وطالِبًا ضَوالَّ الرأْيِ الثاقِبِ ومُنْشِدا؛ وقد بَيَّن الله فضْلَ المَشُورة التى جعلها للألباب لِقَاحا، وفى حَنادِس الشُّكوكِ مِصْباحا؛ حيثُ أمر رسولَه صلَّى الله عليه وسلم بها، وبعَثه منها علىٰ أسَـدِّ الأفعال وأصْوَبها، فقال تعـالىٰ: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلىٰ اللهِ ﴾.

وأمره أنْ يعدلَ فى الرَّعايا قِبَله، ويُحِلَّهم من الأمْنِ هِضابَه وقُلَله؛ ويَمنَحهُمْ من الاشتمـال، مايَحْمِى به أمُورَهم من الاختِـلال، ويَحْوِى به من طِيبِ الذِّكْر بحسَب مااكتَسَب من رِضَىِّ الأنْحاءِ والخِلَال؛ ويُضْفِىَ علىٰ المُسْلِم منهم والمُعاهَد من ظِلِّ رعايتِه مايُساوى فيه بين القَوِىّ والضَّعيف، ويُلْحِقُ التليدَ منهم بالطَّرِيف: ليكونَ الكُلُّ وادِعِين فى كَنَف الصَّوْن، راجِعين إلىٰ الله تعالىٰ فى إمدادِهم بالتوفيقِ وحُسْن الطاعة والعَوْن. وأن ينظُرَ فى مَظَالمهم نظَرا ينصُرُ الحقَّ فيه، ويَنْشُرَ عَلَم العدل فى مَطَاوِيه؛ ويُنْصِفَ معه بعضَهم من بعض، ويُنْصِبَ(١) به لهم من اهتمامه أسْـنىٰ قِسْمٍ وحَظّ؛ مُلِينًـا لهم فى ذلك جانِبَـه، ومُبِينا مايظَلُّ به كاسِبَ الأجْرِ وجالِبَـه؛

(١) يقال أنصبه جعل له نصيبا. انظر اللسان والقاموس.

ويُزِيل عنهم ماشَرَعه ظَلَمَةُ الغلْمان بتلك الأعمال، ويديل من تِلْكَ الحال باستئناف مايُوطِئُهم كواهِلَ الآمال؛ جامعًا لهم بين العـدْل والإحسان، وجاعلًا أمْرَ الله تعالىٰ فى ذلك مُتلقًّى بالطاعة الواضحة الدليل والبُرْهان؛ قال اللهُ تعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَـدْل والْإحْسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبىٰ ويَنْهىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون ﴾ .

وأمره بأن يكُونَ بالمعْروف آمِرا ، وعن المنكَر زاجِرا، ولله تعـالىٰ فى إحياءِ الحقِّ وإماتةِ الباطل مُتاجِرا . وأنـ يشُدّ من الساعين فى ذلك والدَّاعين إليـه ، ويَعُدَّ القيامَ بهذه الحال من أفضل مايتقرَّب به إلىٰ الله تعالىٰ يوم العَرْض عليـه . ويتقدّمَ بتعطيل ما فى أعمـاله من المواخير ودَحْضها ، وإزالة آثارها ومَحْوِها ؛ فإنها مواطنُ بالمَخازِى آهِـلَهْ، ومن مشارِبِ المَعَاصِى ناهِلَه؛ قد أُسِّسَتْ علىٰ غير التَّقوىٰ مبَانيها ؛ وأُخْلِيتْ من كل ما يُرْضِى اللهَ تعالىٰ مَغَانيها؛ وقد أبانَ اللهُ تعالىٰ عن فضـل الطائفة التى ظَلَّت بالمعروف آمِرَةً وعن المنكَر ناهِيه ، وضَنَّت بمـا تُرىٰ فيه عن مَقَاصد الخير ذاهلةً لاهيَهْ، فقـال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاس تَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عن المُنْكَرِ وتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ﴾ .

وأمره أن يُرتِّب لِحمـاية الطُّرُقات مَنْ يجمع إلىٰ الصَّرامة والشَّهامه، سُـلُوكَ مَحَاجِّ الرَّشاد والاْستِقامه؛ ويجعلُ التعفُّفَ عن ذَمِيم المَراتع شاهدًا بتوفيق الله إيَّاه، وعائدًا عليه بمـا تُحْمَد مَغَبَّته وعُقْباه؛ ويأْمُرَ بحِفْظ السابلَه، واْختِصاصِهم بالحِراسة السابِغة الشامله ؛ وحِمَـاية القَوافل واردةً وصادرَه، واْعتمادِها بمـا تَغْـدُو به إلىٰ السـلامة مُفْضِيةً صائِره : لتُحْرَس الدماءُ مما يُبِيحُها ويُرِيقها، والأموالُ ممـا يقْصَد فيه سبيلُ الإضاعة وطرِيقُها. وأن يخوِّفهُم نتائِجَ التقصير، ويعرِّفَهُم مَنَاهِج التَّبْصير، وأنَّ عليهم

رُقبـاءَ يلاحظُون أمُورَهم ويُوضِّحُونها : ليكون ذٰلك داعيـًا إلىٰ التحَوُّط والتحرُّز، وٱعتمادِ الميل إلىٰ جانب الصِّحَّة والتحيُّز، ويُوجِبَ لهم من بعْدُ مايكْفِي أمثالَهُم مثلَه، ويكفَّ أيديهـم عن الآمتـداد إلىٰ ما تُذَمُّ سـبله ؛ فإنْ أخلّ أحدُهم بما حُدَّ له، أو مَزَج بالسُّوء عمَلَه، جَزَاه بحسَب ذٰلك ومُوجِبِه . قال الله تعالىٰ : ﴿ مَنْ يعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ﴾ .

وأمره أن يتقدّم إلىٰ نُوّابه فى الأعمال بوَضْع الرَّصَـد علىٰ من يجْتَاز بها من العبيد الأُبَّاق، والآستظهارِ عليهم بحسَبِ العَدْل والآستِحْقاق ؛ وٱستِعْلام أماكِنِهم التى فَصَـلُوا عنها، ومواطِنِهم التى بَعُدُوا منها ؛ فإذا وضَحَتْ أحوالُهم وبانَتْ، وٱنحسمَتْ الشُّـكُوكُ فى بابِهـم وزالَتْ، أعادُوهم إلىٰ مَواليهم أبَوْا أم شاءُوا، وأصْـفَوْا نِيّاتِهم فى الرُّجُوع إليهم أم شَابُوا . وأن يقصِدُوا إنشادَ الضَّوالّ، ويجتهدُوا من إظهار أمْرِها بمـا يغْدُو جمالُ الذِّكر به فى الظِّلال ؛ ويتجنَّبُوا أن يَمتطُوا ظهورَها بحال، أو يَمُدُّوا أيدِيَهم إلىٰ منافعِها فى إسرارٍ وإعْلان ؛ حتّٰى إذا حضَرَ أربابُها سُلِّمت إليهم بالنُّعوت والأوصاف ، وأُجْرِىَ الأمرُ فى ذٰلك علىٰ مايَضْحىٰ به علَمُ العـدْل عالِىَ المَنَـارِ حالِىَ الأَعْطاف ؛ فقد أمر اللهُ تعالىٰ بأداء الأمانات إلىٰ أهلها، وهدىٰ من ذٰلك إلىٰ أوْضح محَاجِّ الصِّحَّة وسُبْلها ، فقال : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُـمْ أنْ تُؤدُّوا الأمَانَاتِ إلىٰ أهْلِهَا وَإذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَدْل ﴾ .

وأمره أن يختار للنظَر فى المَعَاوِن والأجْلاب من يَرْجِع إلىٰ دينٍ يحميه من مَهاوى الزَّلَل وصَلَفٍ (١) عن مَدِّ اليدِ إلىٰ أسباب المَطَامع ، وكَلَفٍ بمـا يعُود علىٰ ما كُلِّف إيَّاه بصَلاحٍ مُشْرِق المَطَالع ، ومعرفةٍ بما وُكِل إليه كافيةٍ وافِيه، ولمـا يُوجِبُ الآستزادَةَ (٢) له

(١) لعله بالظاء المشالة بمعنى الكف . تأمل .

(٢) لعله الاستزراء أى الزراية عليه والتهاون به .

ماحيةٍ نافيه؛ ويُوعِزَ إليهم بالتشميرِ فى طلَب الدُّعَّار، من جميع الأماكن والأقْطار، وحَسْمِ موادِّ العـار فى بابِهم والمَضَار. وأن يُمْضُوا فيهم حُكمَ الله بحسب مقاصدهم فى الضَّلال، وتُجرىٰ أمورُهم علىٰ قانون الشرع المُنِـير فى حَنادِس الظلام، ممتنعين أن يُراقِبُوا من لم يُراقِبِ اللهَ تعالىٰ فى فِعْله، ويُجانِبُوا الصوابَ بقَبُول الشَّفاعة فيمن شهِدتْ آثارُه بذَميم سُـبْله؛ وإذا وقَع الظَّفَر بجانٍ قد كَشَف فى الغَىّ قِناَعه، وأظهرتْ مَساعيه إباءَه من إجابةِ داعِى الرَّشَـد وآمتِناعَه؛ أُقِيم حدُّ الله تعـالىٰ فيه من غير تَعَدٍّ للواجِب، ولا تَعَرٍّ من مَلَابس السالكين للجَدَد اللَّاحِب، ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

وأمره أن يُوعِزَ إلىٰ أصحاب المَعَاون بأن يَشُـدّوا من القُضَاة والحُكَّام، ويُجِدُّوا فى إجراء أُمُورهم علىٰ أوْفىٰ شُروط الضَّبْط والإقْدام؛ ويأمُرَهم بحضُور مجالِسهم لتنفيذ أحكامهم وإمضائهـا، والمسارعةِ إلىٰ حَثِّ مطـايَا التشمير فى ذٰلك وإنْضائِهـا؛ والتصَّرُّف علىٰ أمثِلَتهـم فى إحضار الخُصُوم إذا ما آمتنَعُوا، وسَوْقِهم إلىٰ الواجب إذا زاغُوا عنه وآنحرَفُوا. وأن يتقدَّم بإمداد عُمَّال الخَراج بمـا يُؤَدّى إلىٰ قوّة أيْديهم فى آستيفاء مال الفَىْء وآجتبائه، وآعتماد ما يَنْصُر الحقوقَ فى مَطَاويه وأثْنائه؛ إذْ كان فى ذٰلك من الصَّلاح الجامع، وكَفِّ المضارّ وحَسْم المَطَامِع، ما المَعُونة عليه واجبه، وللتوفيق مقارِنةٌ مصاحِبَهْ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ ولا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإثْمِ والعُدْوَانِ وآتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب ﴾.

وأمره بعَرْض من تَضُمُّه الحُبُوس من أهـل الجرائم والجَرائر، وتأمُّل أحوالِهِم فى المَوارِد والمَصَادر؛ والرُّجُوع إلىٰ متولِّى الشُّرْطة فى ذكر صُورة كلٍّ منهم والسبَب فى حَبْسه، والتعْيينِ من ذٰلك علىٰ ما يُعْرَف به صِحّةُ الأمرِ من لَبْسه؛ فمَنْ أُلْفِى منهم

للذُّنوب آلِفا، وعن سَــنَن الصَّواب مُنْحرِفا، تُرِك بحاله، وكُفَّ بإطالة آعتِقَاله، عن مَجَالِه فى مَيادِين ضَلَاله؛ وإن وُجِد منهم مَنْ وجب عليه الحَدّ، أقيم فيه بحسَبِ مايقتضِيه الحقّ؛ ومن آعترَضَتْ فى بابه شُبْهة تُجَوِّز إسقاطَ الحَدّ عنه ودَرْأَه، آعتمد إلحاقَه فى ذٰلك بمن آتَّصل إليه صَوْب الإحسان ودَرُّه؛ ومن لم يكن له جُرْم وتظْهرُ صِحَّةُ شاهِده ودليلِه، قدّم الأمْر فى إطلاقه وتخلِيَة سبيلِه؛ وإنْ غدا لأحَدِهم سعْىٌ فى الفَساد واضِحٌ وبان، وغوىٰ به فى مُحاربة الحقِّ وخَان، قُوبِل بما أمر اللهُ تعالىٰ به فى كتابه حيث يقول: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وأمره باختيار المرَتَّب للعَرْض والعَطاء، والنَّفـقةِ فى الأوْليـاء، من ذَوِى المعْرفة والبَصـيره، والمشهورِينَ فى العِفَّة بتَساوِى العلانيَـة والسَّرِيره؛ وممن تَحلَّى بالأمانَةِ جِيـدُه، وآعتضَد بطَرِيفه فى الرَّشاد تَلِيـدُه؛ وكان بمـا يُسْـنَد إليه قَيِّماً، وفى مقرّ الكِفَاية ثاوِيًا مُخيِّماً. وأن يتقدَّم إليه بضَبْط حِلىٰ الرِّجال وشِيَاتِ الخُيُول، وأن يقْصِد فى كل وقت من تجديد العَرْض ما يشْهَدُ بالآحتياطِ السابِغ الأهدابِ والذُّيول؛ فإذا وضح وجْهُ الإطلاق، وَسلِمَ مالُ الآستِحْقاق، كانت التفرقةُ علىٰ قَدْرِ المنازل فى التقديم والتأخِير، وبحسَبِ الجَـرائد التى تدُلُّ علىٰ الصـغيرِ من ذٰلك والكَبِير؛ ومتىٰ طرَقَ أحدَهم ماهو محتُومٌ علىٰ خَلْقه، أعاد علىٰ بيتِ المـال من رِزْقه بقدر قِسْطه وحَقِّه. وأن يُلْزِمَهم إحضارَ جِياد الخُيول وخِيارِ الشِّكَك، ويأخُذهُم من ذٰلك بأوضح مانَهج المرءُ الطريقَ فيـه وسَلَك؛ فإنْ أخلَّ أحدُهم بمـا يلزَمُه البروزُ فيـه يوم العَرْض، أو قصَّر فى القيام بالواجب عليه الفَرْض، حاسَبَه بذٰلك من الثابتِ باسْمه، والمُطلَق

برسْمه، تنبيها له على تلافي الفارط، وتبصيرًا لغيره في البُعْد عن مَقام المُخْطِئ الغالِط، إذ كان في قُوَّتهم وكمال عُدَّتِهم إرهابٌ للأعداء والأضداد، وإرهافٌ للبصائر فيما يُؤَدِّي إلى المصالح الوافيةِ الأعْداد والأمْداد، قال الله تعالى: ﴿ وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ .

وأمره بِاخْتيار عُمَّال الخَرَاج، والضِّياع، والأعشار، والجَهْبَذَة، والصَّدقات، والجَوَالي؛ وأن يكونوا مُحْتَضِنين من الأمانةِ والكِفَاية بما يَقَع الاشتراكُ في عِلْمه، ومتَقَمِّصِين من مَلَابس العِفَّة والدِّراية ماتُحْمَدُ العواقبُ في ضِمْنه، ومتميِّزين بما يُغْنيهم عن الأفكار بنتائج الاتِّعاظ والاعْتِبار، ويُغْرِيهم بالاسْتِمْرار على السَّنَن المُنْجِي لهم من مَواقِف التنصُّل والاعتِذار. وأن يأمر عُمَّال الخراج بِجبَاية الأموال، على أجمل الوُجُوه والأحوال، سالِكينَ في ذلك جَدَدا وَسَطا، يَحْمِي من مَقَام من ضَعُف في الاستِخْراج أوسَطَا. و[أن يتقدّم] إلى الناظرين في الضِّياع بتوْفِيَة العِمارة حَقَّها والزراعةِ حَدَّها، والتوفير من حِفْظ الغَلَّات الحاصلة على مايُقْتفَى فيه أرشَد المذاهب وأسَدّها؛ متحرّزين من أمرٍ يُنْسَبُون فيه إلى العَجْز والخِيانة، فكلٌّ من الحالين مُجْزٍ في وُضُوح أدلَّة الفساد ومُخْزٍ. وإلى الجهابذة بقَصْد الصحَّة في القَبْض والتقْبيض، وحِفْظ النَّقْد من التدليس والتلْبيس؛ أداءً للأمانة في ذلك، واهْتِداءً فيه إلى أقْوم المَسَالك. وإلى سُعَاةِ الصدقاتِ بأخذ الفرائض من مَوَاشي المسلمين السائمة دُونَ العامله، والجَرْي في ذلك على السُّنَّة الكاسبةِ للحَمْدَة الوافيةِ الكامله؛ متجنِّبين من أخْذ فَحْل الإبل وأَكُولة الراعي، وعقائلِ الأموال المحظُورة على سائرِ الأسباب والدَّواعِي؛ فإذا استُوفِيَتْ على المحدُود من حقِّها، أُخْرِجت في المنْصُوص عليه من وجُوهها وسُبُلها. وإلى جُبَاة جَمَاجِم أهل الذِّمَّة بأخذ الجِزْية منهم في كلِّ سنة، على قدر ذات أيديهم في الضِّيق والسَّعَه، وبحسَب العادة المألُوفة المتَّبَعه؛ ممتنعين من

مُطالبة النِّسْوان، ومَنْ لم يبلُغ الحُلُمَ من الرجال ومنْ علَتْ سِنُّه عن الاكْتِساب وتبتَّل من الرُّهْبان، ومَنْ غدَا فقرُه واضِحَ الدليــل والبُرْهان ؛ وفاءً بالعَهْـد المسْئُول، وتلَقِّيًا لأمْرِ الله تعالىٰ بالقَبُول حيثُ يقول : ﴿وأَوْفُوا بِالعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْئُولًا﴾ .

وأمره أن يَرُدَّ أمرَ المَظَالم وأسواقِ الرقيق ودُورِ الضَّرب والطُّرُز والحِسْبة إلىٰ مَنْ عَضَّد بالظَّلَفِ الوَرَع، وٱنتظَم له شَمْلُ الهدىٰ وٱجتَمع : فكان ذا معْرِفة بمـا يَحْرُم ويَحِل، وبصيرةٍ يتفَيَّأ(١) بها من عَوَارض الشُّبَه ويَستَظِلّ ؛ وأن يكون النظرُ فى ذٰلك مُضاهِيًا لُحكْم ملائِمًا، ولن يقُومَ به إلَّا مَنْ لا يرىٰ عاذلًا له فى فعله لائِمًا. وأنْ يتقدّمَ إلىٰ من يلى المَظَالم بتسهيل الإذْنِ للخُصُوم فى الدُّخُول عليـه، وتمكينِ كلٍّ منهم من ٱستيفاء الحُجَّة بينَ يَدَيْه، والتوَصُّـل إلىٰ فَصْل ما بينَهُم بحسَب مايقُودُ الحقُّ إليـه ؛ وأن يقصِدَ فيما وقَع الخُلْفُ معهم فيه، الكَشْفَ الذى يقُوم به ويَستَوْفِيه ؛ فإنْ وضَح له الحقُّ أنفــذه وقَطَع به، وإلا ردّهم إلىٰ مجالس القَضَاء لإمضاء ذٰلك علىٰ مقْتضىٰ الشَّرْع ومُوجَبه . وإلىٰ المرتَّبين فى أسواق الرقيق بالتحفُّظ فيما يُبتاع ويُبَـاع ، وأن يستعمِلَ فى ذلك الٱقتفاءَ للسَّنَن الجميل والٱتِّباع : ليُؤْمَنَ ٱختِلاطُ الحُرِّ بالعبد، وتُحْرَسَ الأنسابُ من القَدْح والفُروجُ من الغَصْب ؛ فى ضِمْنِ حِفْظ الأموال، والمَنْع من مَزْج الحرام بالحَلال . وإلىٰ وُلاة العيَار بتصْفِيَة عيْنِ الدِّرْهم والدِّينار من الغِشّ والإدْغال ؛ وصَوْنِ السِّكَك من تداوُل الأيْدى الغريبةِ لهـا بحالٍ من الأحْوال ؛ متحذِّرين من الٱغْترار بمـا رُبَّمـا وضَح الفسادُ فيه عِنْـد الٱعتبار ، وما يَعين التُّجَّار المخصوصين بالإيراد ، من كل قولٍ مخالفٍ للإيثـار فى الصحَّة والمُراد ؛ ومعتَمِدين إجراءَ الأمر فيما يُطْبَع علىٰ القانون بمدينة السـلام، من غير خلافٍ لمسـتَقَرّ القاعدة فى ذٰلك ومتَّسق النظام ؛ وأن يثْبَت ذِكْرُ أمير المؤمنين، ووَلِيِّ عهده فى المسلمين ؛

(١) فى اللسان ''فاء الفىء فيأ تحوّل وتفيأ فيه تظلل'' .

علىٰ مايُضْرَب من الصِّنفين معا ، والمُسارعةِ فى ذٰلك إلىٰ أفضل مابادَرَ إليه المَرْءُ وسَعىٰ . وإلىٰ المستَخْدَمين فى الطُّرُز بملاحظة أحوال المَنَاسِج والإشراف عليها ، وأخْذ الصُّنَّاع بالتجويد علىٰ العادةِ التى يجبُ الاِنتهاءُ إليها ، وإثباتِ اسم أمير المؤمنين علىٰ ما يُنْسَج من الكُسا والفُـرُوش والأعلام والبُنُود ، جَرْيا فى ذٰلك علىٰ السَّنَن المرْضِىِّ والمِنْهاج المحمود . وإلىٰ من يُراعِى الحِسْـبةَ الشريفةَ بالكَشْف عن أحوال العَوامّ فى الأسـواق ، والاِنتهـاء فى ذٰلك إلىٰ ما يَنْتهِى به شمَـلُ الصَّلاح إلىٰ الاِنتـظام والاِتِّساق ، وأن يتقدّم [إليهم] بمايجِبُ من تعبير مايختَصُّ بهم من المَكاييل والمَوَازين ، وحمِلها علىٰ قانُون الصِّحَّة الواضحـة الدلائل والبَراهين ، وأن يقْصد تبصيرَهم مواضِعَ الحَظِّ فى الاِستقامه ، ويحذِّرَهم مواقِعَ الاِنتقام الذى لاتُفيد فيه أسبابُ الاستِصْفاح والاِستقاله ، فإنْ عرِفَ من أحد منهم إقداما علىٰ إدْغال فيما يَزِن أو يَكيل ، قُوبِل من التأديب بما هو الطريقُ إلىٰ اَرْتداعه والسَّبيل ، قال الله تعالىٰ : ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إذا اَكْتَالُوا عَلىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون﴾ .

وأمره أن يعرِفَ قَدْر النعمة التى ضفَتْ عليه بُرودُها ، وحلَّت جِيدَه عُقُودُها ، وزُفَّت منه إلىٰ أَوْفىٰ أكفائِهـا ، وحُفَّت بجزيل القِسَم من جميع أكْنافها وأرْجائها ، وأن يُقابِلهـا بإخْلاصٍ فى الطاعة يساوِى فيه بين مايُبْـدِى ويُسِر ، وسَعْيٍ فى الخدمة يُوفِى علىٰ كل مُجازٍ ومُبِرّ ، ويَبْدأَ أمامَ مايتوخَّاه بأخْذ البيعة لأمير المؤمنين ووليِّ عَهْده علىٰ نَفْسـه وولَده ، وكافَّةِ الأجنـاد والرَّعايا فى بَلَده ، عن نيَّةٍ صـفَتْ من الكَدر والقَذىٰ ، ووفَتْ للتوفيق بما ضَمِنَتْ من خِذْلان البغْى ونُصْرة الهُدىٰ ، ويُتْبِـعَ ذٰلك بالحُقُوق فى كل خِدْمة تُرْضِى ، والوقُوف عند الأوامر الإماميَّـة فى كلّ مايُؤدِّى إلىٰ الوِفاق ويُفْضى ، وأن يحمِـلَ إلىٰ حضرة أمير المؤمنين من الفَىْء والغنـائم ما أوْجبَـه

الله تعالىٰ وفَرَضــه ، من غير تأخير لمـا يجب تقـديمه من ذٰلك ولا تَقْصير منــه فيما يقتضى التَّلافِىَ والاّسـتِدْراك : ليأمُرَ أمير المؤمنين بصَرْفه فى سبيله المُشارِ إليهـا ، ووُجوهه المنصوص عليها ، قال الله تعـالىٰ : ﴿ وٱعْلَمُوا أَنَّمـا غَنِمْـتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى القُرْبىٰ واليَتَامىٰ والمَسَا كِينِ وٱبْنِ السَّبِيل ﴾ .

ثم إنَّ أمير المؤمنين آثر أن يُضاعِفَ له من الإحسان ، ما يقْتضــيه مقامه لدَيْه من وَجيه الرتبة والمَكَان ، وشَرَّفه بمـا يَرْفُل من حِلاه فى حُلَل الجمَـال ، وتكفَّل له عُلاه ببلُوغ منْتهىٰ الآمال ؛ وبَوَّأه بمـا أَوْلاه محَلًّا تقْصُر عن الوُصُول إليه الأقْدام ، وتعْجز عن حَلِّ عُراه الأيَّام ؛ ولقَّبــه بكذا ، وأذِنَ له فى تَكْنِيته عن حَضْرته ، وتأهيله من ذٰلك لمـا يَتجاوَزُ قدْرَ أُمنِيَّته ؛ إنافةً به علىٰ مَنْ هو فى مُسَاجلته من الأقْران طالِـع ، وإضافةً للنِّعمة فى ذاك إلىٰ ما ٱقتَرَنَ بها فيما هو لشَمْل الفَخْر عنده جامع ؛ وأنفَـذَ لِواءً يَلْوِى به إلىٰ الطاعة أبِىَّ الأعناق ، ويَحْوِى به من العِزِّ ما أنوارُه وافيـةُ الإشْراق .

فتلَقَّ يافلانُ هذه الصَّنِيعةَ الغَـرَّاء ، والمِنْحةَ التى أكسبَتْ زِنادَك الإيراء ؛ بِالاّستبشارِ التَّام ، والاّعْتراف فيها بسابِـغ الطَّوْل والإنْعام ؛ وأشِعْ ذكرَ ذٰلك عنـد كلِّ أحد ، وٱنتَهِ فى الإبانة عنه إلىٰ أبْعَـد أمد ؛ وٱعتمدْ مكاتَبةَ حضرة أمير المؤمنين متَسَمِّيا ، ومَنْ عَداه متلقبًا متَكَنِّيا ؛ وتوفَّرْ علىٰ شكرٍ تستدِرُّ به صَوْب المَزِيد ، وتستحِقُّ به إلحاقَ الطَّرِيف من الإحسان بالتَّلِيد ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إلَيْك ، والحجَّةُ لكَ وعليْكَ ؛ قد أوْضحَ لك [فيه] الصَّواب ، وأذَلَّ به الجَوامِحَ الصِّعاب ؛ وحَباك منه بموْهِبة كفيلةٍ بخَيْرِى البَدْء والمَعَاد ، وَفيَّةٍ فيها

المُنىٰ بسابِق الضَّمان والميعاد ؛ وضَمَّنه من مَوَاعظه ماهَـدىٰ به إلىٰ كلّ ما الجَنِيُّ ثمرُه، وغَدَا مَحْظِيًّا بمـا تَرُوق أوضاحُه فى المجْد وغُرَرُه؛ ولم يَأْلُك فيه تجمُّلا يُكْسِبك الفَخْرَ النامِى، ويجْعَل ذِكْرَك زِينةَ المَحْفِل والنادِى ؛ وتقديمًـا يُنْبِئُ عمَّا خُصِصْتَ به من المِنَح المُشْرِقة اللَّآلى ، وإكرامًا يَبْقىٰ صيتُه علىٰ تقضِّى الأيَّام واللَّيالى؛ وتبْصِـيرًا يَقِى من فَلَتات القَوْل والعمـل، ويرتَقِى المستـضِىءُ بأنواره إلىٰ ذُرىٰ الأمْن من دَواعى العِثَار والزَّلَل ؛ فأَصْغِ إلىٰ ما حَواه، إصغاءَ الفائز بأوْفَى الحظ، وتدبَّرْ فَحْواه، الناطقَ بفَضْل الحثّ علىٰ الهـدىٰ والحَضّ ؛ وكُنْ لأوامر أمير المؤمنـين فيه محتَذِيا ، ومِنْ تَجَاوُز مَحْدُودِه فى مَطاوِيه مُحتَمِيا ؛ وبمواعِظه الصادقة معتبِرا، وفى العمَل بمـا قارَنَ الحق مستَبْصِرا، تَفُزْ بالغُنْم الأكبر، وبالسلامة فى المَوْرِد والمَصْدَر؛ وإيَّاكَ وٱعتمادَ ما تُذَمُّ فيـه مَكاسِبُك، فإنَّ لك بين يدَى الله تعـالىٰ مَوْقِفا يناقِشُك فيه ويحاسِبُك .

وٱعلم أنَّ أمير المؤمنين قد قَلَّدك جَسِيما، وخَوَّلك جَزِيلا عظيما؛ فلا تَنْسَ نَصيبَك من الله تعـالىٰ غَدَا ، ولا تجعلْ لسُلْطان الهَوىٰ المُضِلّ عليك يدَا ؛ وإنْ خَفِيَ عليك الصوابُ فى بعض ما أنتَ بصَدَدِه، أو ٱعترَضَ فيه من الشُّـبَه ما يحُولُ بينك وبين طريق الرشاد وجَدَدِه ؛ فطالِـعْ حضرةَ أمير المؤمنـين به ، وٱستَنْجِدِ اللهَ فى ذلك بأسَدِّ رأيٍ وأصْوبه؛ يُبَدِّلْك من الشكِّ يقينا، ويُبْدِ لكَ ما يغْدُو لكلّ خير ضَمِينـا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطريقـــة الثـانية

(طريقةُ محقِّق المتأخِّرين ممَّن جرىٰ علىٰ هذا المذهب : كالشيخ شهاب الدين محمود الحلبي، والمقرّ الشهابىّ بن فضل الله ، ومَنْ والاهم)

وهى أن يأتى فى أثناء العَهْد بخُطبة أو تحميدٍ علىٰ عادة المكاتبات ، وأن يذكُر بعدَ صدر العهد حميدَ أوصاف المعهُود إليه ، ويُطنِبَ فيها ويُثْنِيَ عليه بما يليق بمقامه . قال فى " التعريف " : علىٰ نحو ماتقــدّم فى عهُود الخلفاء عن الخلفــاء . قال فى " التثقيف " : وصورته أن يُكْتب :

« هذا ماعَهِد به عبدُ الله ووليُّــه أميرُ المؤمنين المتوكلُ علىٰ الله (مثلا) أبو فلان فلان بن فلان ، إلىٰ السيِّد الأجلِّ الملِكِ العالِم العادل المؤيَّد المظفَّر المنصور المجاهد» ويذكر اللَّقب هنا، مثل الناصر أو الكامل أو غيره « فلانِ الدنيـا والدين، فلان، آبن السلطان السعيد الشهيد الملك الفلانى خلَّد الله تعالىٰ ملكه .

أما بعدُ، فإنَّ أمير المومنين يحمَـدُ إليكَ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ويصلِّى على آبن عمِّه سيدنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم » ويكمل الخطبة بمـا أمكنه . ثم يقال : « عهِد إليه وقلَّده جميعَ ماهو مُقَلَّده من مصالح الأمّة وصَلَاح الخلق ، بعدَ أنِ آستخار اللهَ تعالىٰ فى ذٰلك ، ومَكَث مدّةً يتدبَّر هذا الأمْرَ ويُروّى فِكْره فيه وخاطِرَه، ويستشيرُ أهلَ الرأْيِ والنظر، فلم يَرَ أَوْفَقَ منه لأمور الأمّة ومَصالح الدنيا والدِّين» . ومن هذا وشِبْهه . ثم يقال: «وإن المعهود له قبل ذلك منه» ويأتى فيه بمـا يليقُ من محاسِن العِبارة وأجناس الكلام .

قلت : وقد يُؤتىٰ بعد «أما بعد» بخُطبة ، مثل أن يقال : «أما بعدُ فالحمدُ لله» ونحو ذلك ، ويكمِّل الخطبة بمـا يليق بالمَقَـام . ثم قد يقتصر علىٰ تحميـدة واحدة،

وقد يكرره إلىٰ ثلاث ، وإن شاء بلغ به سبعا . فقد قال فى "التعريف" فى الكلام علىٰ عهود الملوك للملوك : إنه كُلَّما كَثُر التحميد ، كان أدَلَّ علىٰ عِظَم النعمة . وقد يقال فى آخره : « والاَعتمادُ علىٰ الخط الفلانى (بلقب الخلافة) أعلاه حُجَّةٌ بمقتضاه أو « والخطُّ الفلانى أعْلاه حُجَّةٌ فيه » ونحو ذلك .

وعلىٰ هــذه الطريقة كتب الشيخُ شهاب الدين محمودٌ الحلبىّ عهدَ الملك العادل « كتبغا » عن الخليفة الإمام الحـاكم بأمْر الله أبى العباس أحمد، (١) آبن الإمام الذى آستحضره الملكُ الظاهرُ بيبَرْس من بَغدادَ وبايعه ، وهذه نسختُه :

هــذا عَهْدٌ شريف فى كتابٍ مَرْقومٍ يَشْهَدُه المُقَرّبون، ويُفَوِّضُه آلُ رسولِ الله صلّى الله عليه وسـلم الأئمةُ الأقرَبُون . من عبدِ الله ووَلِيّه الإمامِ الحـاكم بأمْر الله أبى العبَّاس أحمدَ أمير المؤمنين، وسليلِ الخُلَفاء الراشدين والأئمة المهديِّين، رضوانُ الله عليهم أجمعين، إلىٰ السلطان الملِكِ العادل زَيْن الدنيا والدين « كُتْبُغا المنصورى » أعزَّ الله سلطانَه .

أما بعــدُ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليكَ اللهَ الذى جعل له مِنْك سُـلْطانا نَصيرا ، وأقام له بمُلْكِكَ علىٰ ما وَلّاه من أمور خَلْقِه عَضُدًا وظَهيرا ؛ وآتاك بمـا نَهَضْتَ به من طاعته نِعَماً ومُلْكا كبيرا، وخَوَّلك بإقامة ماوراءَ سَرِيره من مَصَالح الإسلام بكُلِّ أرضٍ مِنْـبَرا وسَرِيرا ، وجاءَ بك لإعانَتِه علىٰ ما آسـتَخْلَفه اللهُ فيه من أمور عبـاده علىٰ قَدَرٍ وكان ربُّك قَدِيرا ؛ وجَمَع بك الأُمّةَ بعــدَ أنْ كاد يَزِيغُ قلُوبُ فريقٍ منهم ،

(١) لم يذكر نسبه فى الأصل . وفى آبن اياس هو أحمد بن على بن أبى بكر بن الخليفة المسترشد آبن الخليفة المستظهر آبن الخليفة المقتدى آبن محمد الذخيرة العباسى . وكذلك هو فى خطط المقريزى إلا أنه قال أحمد بن أبى على الحسن بن الخ . وأقام فى الخلافة نيفا وأربعين سـنة وتوفى سنة احدى وسبعمائة وهو أوّل خلفاء بنى العباس بمصر . وبمراجعة تاريخ كتبغا ولاجين يعلم أنهما كانا فى زمنه وبالضرورة يكون هو الماهيطها فتنبه .

وعضّدك لإقامة إمامته بأولياء دولتك الذين رضى الله عنهم، وخصّك بأنصار دينه الذين نهضوا بما أمروا به من طاعتك وهم نازهون، وأظهرك على الذين ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون؛ واصطفاك لإقامة الدّين وقد اختلفت الأهواء فى تلك المدّه، ولمّ بك شعث الأمّة بعد الاضطراب فكان موقفك ثمّ موقف الصّدّيق يوم الرّدّه.

ويشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، شهادة حاكم بأمره، مستنزل لك بالإخلاص ملائكة تأييده وأعوان نصره؛ مسترهف بها سيف عزمك على من جاهر بشركه وحاربه بكفره، معتصم بتوفيقه فى تفويضه إليك أمر سرّه الذى استودعه فى الأمّة وجهره؛ ويصلّى على سيدنا محمد رسول الله الذى استخرجه الله من عنصره وذويه، وشرّف به قدر جدّه بقوله فيه: «عمّ الرّجل صنو أبيه» وأسرّ إليه بأنّ هذا الأمر فتح به ويختم ببنيه؛ وعلى آله وصحبه والخلفاء الراشدين من بعده، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون، وجاهدوا أئمة الكفر الذين لا أيمان لهم والذين هم بربهم يعدلون؛ وسلّم تسليما كثيرا.

وإنّ أمير المؤمنين لما آتاه الله من سرّ النبوّه، واستودعه من أحكام الإمامة الموروثة عن شرف الأبوّه، واختصّه من الطاعة المفروضة على الأمم، وفرض عليه من النظر فى الأخصّ من مصالح المسلمين والأعمّ؛ وعصم آراءه ببركة آبائه من الخلل، وجعل سهم اجتهاده هو المصيب أبدا فى القول والعمل؛ وكان السلطان فلان هو الذى جمع الله به كلمة الإسلام وقد كادت، وثبّت به الأرض وقد اضطربت بالأهواء ومادت؛ ورفع به منار الدين بعد أن شمخ الكفر بأنفه، وألّف به شمل المسلمين وقد طمح العدوّ إلى افتراقه وطمع فى خلفه، وحفظ به فى الجهاد حكم

الكتاب الّذى لا يأتيه الباطلُ مِنْ بينِ يدَيْه ولا مِنْ خَلْفِه ؛ وحَمىٰ به المَمالكَ الإسلاميّةَ فما شامَ الكُفْرُ منها بَرْقَ ثَغْرٍ إلّا رُمِىَ من وَبالِه بوابِل ، ولا أطْلق عِنانَ طَرْفه إلىٰ الأطراف إلا وَقَع من سَطَوات جُنوده فى كُفَّة حابِل ؛ ولا ٱطْمَأَنُّوا فى بلادِهم إلا أتتْهم سَرَاياه من حيثُ لم يَرْتقِبوا ، ولا ظنُّوا أنهم ما نِعتُهم حصُونُهم من الله إلّا وأَتَاهُمْ بجُنوده من حيثُ لم يحتَسِبوا ؛ وألَّف جُيوشَ الإسلام فأصبحَتْ علىٰ الأعداء بيُمْنِه يدًا واحده ، وقام بأمُور الأمّة فأمسَتْ عُيونُ الرّعايا باستِيقاظ سُيُوفه فى مِهَاد الأَمْن راقِده ؛ وأقام مَنارَ الشريعة المطهَّرة فهى حاكمةٌ له وعليه ، نافذٌ أمرُها علىٰ أمره فيما وَضَع الله مقاليدَه فى يدَيْه ؛ ونَصَره الله فى مَواطِنَ كثيره ، وأعانَهُ علىٰ مَنْ أضمر له الشّقاق والصَّلاةِ وإنَّها لكَبِيره ؛ وأظهره بمَنْ بغىٰ عليه فى يومه بعد حِلْمه عنه فى أمسِه ، وأيّده علىٰ الذين خانُوا عهدَه ويدُ الله فَوْقَ أيْديهم فَمَنْ نَكَثَ فإنَّما يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه ؛ وتعيَّن لمُلْك الإسلام فلم يكُ يصْلُح إلّا له ، وٱختاره اللهُ لذٰلك فبلغ به الدِّينُ آمالَه ؛ وضعْضَع بمُلْكه عمودَ الشِّرك وأَمالَه ، وأعاد بسلطانه علىٰ المَمالك بهجَتَها وعلىٰ المُلْك رَوْنَقه وجَلالَه ؛ وأخدمه النصْرَ فما أضمر له أحدٌ سُوءًا إلا وزَلْزَل أقدامَه وعجَّل وَبالَه ، وردّه إليه وقد جعل من الرُّعْب قُيودَه ومن الذُّعْرِ أغْلالَه ، وأَوْطأ جَوَادَه هامَ أعدائه وإنْ أنِفَ أن تكونَ نِعالَه .

عهد إليه حينئذٍ مولانا الإمامُ الحاكم بأمْرِ الله أميرُ المؤمنين فى كلِّ ماوراءَ خلافتِه المقدّسه ، وجميع ما ٱقتضَتْه أحكامُ إمامته التى هى علىٰ التَّقْوىٰ مؤسَّسه : من إقامةِ شِعار المُلْك الذى جمع اللهُ الإسلامَ عليه ، وظهُورِ أُبَّهة السلطنة التى ألقىٰ اللهُ وأميرُ المؤمنين مَقالِيدَها إليه ؛ ومن الحُكْم الخاصِّ والعامِّ ، فى سائر مَمالك الإسْلام ، وفى كل ماتقتضيه أحكامُ شريعةِ سيدِنا محمدٍ عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ وفى خَزَائن الأموال وإنْفاقِها ، ومِلْك الرِّقاب وإعتاقها ، وٱعتقالِ الجُناة وإطلاقها ؛ وفى كل

ماهو فى يَدِ المِلّة الإسلامية أو يفتحُه الله بيده عليها ، وفى جميع ماهو من ضَوالِّ الممالك الإسلاميةِ التى سَيَرْجِعُها الله بجهادِه إليها ؛ وفى تقليد المُلوك والوُزَراء ، وتَقْدِمة الجُيُوش وتأمير الأُمَراء ؛ وفى الأمصار يُقِرُّ بها مَنْ شاء من الجُنود ، ويبعثُ إليها ومنها ماشاءَ من البُعُوث والحُشُود ؛ ويحكُم فى أمرِها بما أمر اللهُ من الذَّبِّ عن حَرِيمها ، ويتحكَّم بالعَدْل الذى رَسَم اللهُ به لظاعنها ومُقيمها ؛ وفى تقديم حديثها وآستِحْداثِ قَديمها ، وتَشْييد ثُغورها ، وإمضاء ماعَرَّفه الله به وجَهِلَه سواه من أُمُورها ؛ وإقْرارِ من شاءَ من حُكّامها ، وإمضاء ما شاء من إتقان القَواعد بالعَدْل وإحْكامِها ؛ وفى إقطاع خَواصِّها ، وآقتلاعِ ماآقتضَتْه المصلحةُ من عمائرها وعِمارة ماشاء من قِلاعها ؛ وفى إقامة الجهاد بنَفْسه الشريفةِ وكَتَائبه ، ولِقاء الأعداء كيفَ شاءَ من [تسيير] سَرَاياه وبَعْثِ مواكِبِه ؛ وفى مُضايقةِ العدُوّ وحِصاره ، ومصابرتِه وإنظاره ، وغَزْوه كيفَ أراه اللهُ فى أطراف بِلاده وفى عُقْرِ داره ؛ وفى المَنّ والفِداء والإرْقاق ، وضَرْب الهُدَن التى تسأَلُها العِدَا وهى خاضِعةُ الأعْناق ؛ وأخْذ مُجاوِرى العدُوّ المخذُول بما أراه اللهُ من النِّكاية إذا أمْكَنَ من نَوَاصِيهم ، وحُكْمِ عَفْوه فى طائعهم وبَأْسِه فى عاصِيهم ، وإنزالِ الذين ظاهَرُوهم مِنْ أهْلِ الكِتابِ مِنْ صَياصِيهم .
وفى الجُيُوش التى ألِفَ الأعداءُ فتَكاتِ أُلُوفها ، وعرَفُوا أنَّ أرواحَهم ودائعُ سُيوفِها ؛ وصَبَّحتْهم سَرايَا رُعْبِها المبثوثةُ إليهم ، وتَرَكَهم خَوْفُها كأنَّهم خُشُبٌ مُسَنَّدةٌ يَحْسَبُون كُلَّ صَيْحةٍ عليهم ؛ وهم الذين ضاقَتْ بمواكبهم إلى العدا سَعَةُ الفِجَاج، وقاسَمتْ رِماحُهم الأعداءَ شَرَّ قِسمة ففى أيْدِيهم كُعُوبُها وفى صُدُور أولئك الزِّجاج(١)، وأذهبَتْ عن الثُّغور الإسلاميَّة رِجْسَ الكُفْر وطَهَّرت من ذٰلك ماجاوَرَ العَذْبَ الفُراتَ والمِلْحَ الأُجاجَ ؛ وعُرِفُوا فى الحروب بتَسَرُّع الإقدام ، وثَبَاتِ الأقدام ، وادَّخر اللهُ

(١) جمع زج كرمح و رماح .

لأيّامه الشريفة أن تَرُدَّها(١) بهم دارَ السَّلام إلىٰ مُلْك الإسلام : فيُدِرّ عليهم ماشاءَ من إنعامه الذى يؤكِّدُ طاعتهم، ويجدِّدُ آستطاعتَهم ؛ ويضاعِفُ أعْدادهم، ويجعل بصَفاء النيَّات ملائكةَ الله أمْدادَهم ؛ ويحملُهم علىٰ الثَّبات إذا لَقُوا الذين كفَرُوا زَحْفا، ويجعلُهم فى التعاضُدِ علىٰ اللّقاء كالبُنْيان المرْصُوص فإنّ الله يُحِبُّ الّذينَ يُقاتِلُونَ فى سَبِيلهِ صَفّا. وفى أمْر الشرع وتوليـة قُضاته وحُكّامه، وإمضاء مافَرَض الله عليه وعلىٰ الأمة من الوقُوف عِنْد حُدُوده وا(٢) مع أحْكامه؛ فإنّه لواءُ الله الممْدُودُ فى أرضـه، وحبلُه المَتِينُ الذى لانَقْض لإبْرامه ولا إبْرَام لنَقْضه، وسَنَن نبيِّه الذى لاحَظَّ عندَ الله فى الإسـلام لغير متمسِّك بسُنَّته وفَرْضه ؛ وهو ـ أعزّ الله سلطانه ـ سـيفُ الله المشهورُ علىٰ الذين غَدَوْا وهمْ من أحكامِ الله مارقُون، ويدُه المبسوطةُ فى إمضاء الحكم بما أنزل اللهُ : ﴿ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بمَـا أنْزَلَ اللهُ فأُولٰئِكَ هُمُ الفاسِقُونَ﴾. وفى مَصَالح الحرمين الشريفين وثالِثِهما الذى تُشَدّ أيضا إليه الرِّحال . وإقامةِ سَبِيل الحجيج الذين يَفِدُون علىٰ الله بمـا مَنَحهـم(٣) من بِرِّه وعِنَايتـه فى الإقامة والآرْتحال . وفى عِمَـارة البيُوت التى أَذِنَ اللهُ أنْ تُرْفَع ويُذْكَرَ فيها آسْمُه يُسَبِّح لَهُ فيها بِالغُدُوِّ والآصالِ رِجَال؛ وفى إقامة الخُطَب علىٰ المَنَابر، وآقْتِرانِ آسمه الشريف مع آسمِه بين كلِّ باد وحاضر، والآقتصارِ علىٰ هـذه التثنيَةِ فى أقطار الأرض فإنّ القائلَ بالتثليث كافر؛ وفى سائر ماتشْمَله الممـالكُ الإسلاميَّة ومَنْ تشتَمِل عليه شَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا؛ وبَرًّا وبَحْرا، وشامًا ومِصْرا؛ وحِجازًا ويَمَنا، ومن يستقرُّ بذٰلك إقامةً وظَعْنا. وفوّض إليه ذلك جميعَه وكلَّ ماهو من لوازم خلافتِه لله فى أرْضِه، ماذُكِر ومالم يُذْكَر

(١) النهب من معانيه الغارة أى ترد غاراتهم دار الخ وفى الأصل يردفها بهم . تأمل .

(٢) بياض بالأصل ولعلها «والمشى» مع الخ .

(٣) فى الأصل أوضحهم . تأمل .

تفويضًا لازما، وإمضاءً جازما، وعهـدا محكمًا، وعقدا فى مصالح مُلك الإسـلام محكّما، وتقليدًا مؤبّدا، وتقريرًا على كرّ الجديدين مُجـدّدا؛ وأثبت ذلك وهو الحاكم حقيقةً بما علمه من آستحقاقه والحاكمُ بعلمه، وأشهدَ الله وملائكته على نُفُوذ حكمه بذلك: ﴿والله يحكم لا معقّب لحُكمه﴾. وذلك لمـا صحّ عنده من نُهوض مُلكه بأعباء ماحمّله الله من الخلافه، وأدائه الأمانةَ عنه فيما كتبَ اللهُ عليه من الرحمـة اللّازمةِ والرافهْ؛ وآستقلاله بأمور الجهاد الذى أقام اللهُ به الديـن، وآختصاصه وجنوده بعُمُوم ما أمر اللهُ به الأمة فى قوله تعـالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُـمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُـدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ﴾. وأنّه فى الجهاد سَهْمُه المُصيب وله به أجْرُ الرامى المسـدَّد، وسيفُه الذى جرّده على أعداء الدين وله من فتكاته حظُّ المُرْهَف المجرَّد؛ وظلُّ الله فى الأرض الذى مدّه بُيْمن يمينه، وآيةُ نَصْره الذى آختاره اللهُ لمصالح دُنْياه وصَلاحِ دينه؛ الناهضُ بفرض الجهادِ وهو فى مستقَرّ خلافته وادِع، والراكضُ عنه بخَيْله وخَيَاله إلى العدوّ الذى ليس لفَتَكات سُـيُوفه رادِع؛ والمُؤَدّى عنـه فرضَ النَّفير فى سبيل الله كلّمـا تعيّن، والمنتقِمُ له من أهل الشِّقاق الذيـن يُجادِلُونـ فى الحقِّ بَعْـدَ ما تَبيَّن والقائمُ بأمر الفُتُوح التى تَرُدّ بِيَعَ الكُفْر مساجدَ يُذْكَر فيهـا آسمُ الله وآسْمُه، ويُرْفَع على منابرها شِـعارُه الشريفُ ورَسْمُه؛ وتُمثّل له بإقامة دَعْوته صورةُ الفتح كأنه ينْظُر إليها، والناظرُ عنـه فى عُمُوم مصالح الإسلام وخُصوصِها تعظيماً لقَدْره، وترفيهًا لسِرّه؛ وتفخيما لشَرَفه، وتكريماً لجلالة بيتهِ النبوىّ وسَلَفه؛ وقياما له بمـا عهد إليه، ووَفاءً من أمور الدِّين والدنيا بمـا وَضَع مقاليدَه فى يدَيْه.

ولِيُدَلّ على عِظَم سِيرته المقدّسةِ بكَرَم سَيْره، ويُنَبِّه على كمال سعادتِه إذ قد كُفى به فى أُمور خلْق الله تعالى والسعيدُ من كُفِىَ بغَيْره، لم يجعلْ أميرُ المؤمنين على يَده يدًا

فى ذلك ، ولا فَسَّح لأحد غيرِه فى أقطـار الأرض أن يُدْعىٰ بمَلِك ولا مالك ، بل بسَطَ حُكْمَه وتحكمه فى شَرْق الأرض وغَرْبها ومابينَ ذلك ؛ وقد فرض طاعتَـه علىٰ سائر الأُمَمْ ، وحكَم بوجُوبهـا علىٰ الخاصِّ والعـامِّ ومَنْ ينقُضُ حُكْمَ الحاكِم إذا حكَم ؛ وهو يعـلَمُ أنَّ الله تعـالىٰ قد أودَع مولانا السـلطانَ سِرًّا يُستَضَاء بأنواره ، ويهتدىٰ فى مصالح المُلْك والممالكِ بمَنَاره ، فجعل له أن يفْعلَ فى ذٰلك كلَّ ماهدىٰ الله قلْبَه إليه ، وبعثَه بالتأييدِ الإلٰهِىّ عليه ؛ وٱكتفىٰ عن الوَصَايا بأنَّ الله تعالىٰ تكفَّل له بالتأييد ، وخَصَّه من كلِّ خير بالمَزِيد ؛ وجعــل خُلُقَه التقوىٰ وكُلُّ خير فَرْعٌ عليها ، ونَوَّر بصيرتَه بالهُـدىٰ فما يدُلُّ علىٰ حسنة من أُمورِ الدنيـا والآخرةِ إلَّا وهو السابقُ إليها ؛ والله تعالىٰ يجعلُ أيَّامه مؤرَّخةً بالفُتوح ، ويؤيِّده بالملائكةِ والرُّوح ، علىٰ مَنْ يدَّعِى الأَبَ والاِبنَ والرُّوح ؛ ويجعـلُ أسباب النصر معقُودةً بسَبَبه ، والمُلْكَ كلمـةً باقيةً فى عَقِبه .

ويشْهَد بهذا العهْد الشريفِ مع من شَهِده من الملائكة المقَرَّبين ، كلُّ من حضر تِلاوتَه من سائر الناس أجمعين : لتكونَ حجَّةُ الله علىٰ خلْقه أسبَقْ ، وعهدُ أميرالمؤمنين بثُبوته أوْثَقْ ؛ وطاعةُ سلطان الأرض قد زادها اللهُ علىٰ خلقه بذلك توْكيدا ، وشهدَ [الله] وملائكتُه علىٰ الخلق بذلك وكَفىٰ بالله شَهِيدا . والاعتمادُ علىٰ الخط الحاكمىِّ أعلاه حجَّةٌ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

وعلىٰ نحو ذٰلك كتب الشـيخُ شِهـاب الدين محمودُ الحلبىُّ عهدَ الملِك المنصـور « حُسام الدِّين لاچين » عن الخليفة الحاكم بأمْر الله بن أبى الربيع سليمان (١) المتقدّم ذكره . وهذه نسختُه :

---

(١) الذى فى التواريخ أن الحاكم بأمر الله الذى بايع له الظاهر بيبرس طالت مدته الى أيام حسام الدين لاچين وأما الحاكم بأمر الله بن أبى الربيع فهو ٱبن ابنه تأمل .

هذا عهدٌ شريفٌ تشهَدُبه الأملاكُ لأشْرف الملوك ، وتسلُكُ فيه من قواعد العُهود المقدّسةِ أحسَنَ السُّلُوك ، من عبد الله ووليِّه الإمام الحاكم بأمْر الله أميرِ المؤمنين ، للسـلطان الملك المنصور حُسَام الدنيا والدين ، أبي الفتح لاچين المنصورى ، أعزّ الله سلطانَه .

أما بعدُ ، فالحمـدُ لله مُؤْتِى الملكِ من يَشَاءُ من عِباده ، ومُعْطِى النصرِ من يُجاهد فيه حقَّ جِهادِه ، ومُرهِف حُسامِ آنتقامه علىٰ مَنْ جاهر بعِنَاده ، ومفوِّض أمر هذا الخلق إلىٰ مَنْ أودَعَه سِرَّ رأفته فى محبّته ومُرادَ نِقْمته فى مُرادِه ، وجامِعِ كلمةِ الإيمان بمَنِ آجتباه لإقامةِ دِينِه وآرْتضاه لرفْع عِمَاده ، ومُقِرّ الحقِّ فى يَدِ مَنْ منع سيْفَه المجرّدَ فى سبيل اللهِ أن يَقِرَّ فى أغْمادِه ، وناصرِ مَنْ لم تزَلْ كلمةُ الفُتُوح مستكنَّةً فى صُـدُور سيوفه جاريةً علىٰ ألْسنةِ صِعَادِه ، وجاعلِ مُلْكِ الإسلام من حُقُوق مَنْ إذا عُدَّ أهلُ الأرض علىٰ آجتماعهم كان هو المتعيِّنَ علىٰ آنفراده ، الذى شرَّف أَسِرَّة مُلْك الإسلام باستيلاء حُسَام دِينه عليها ، وزَلْزَل ممـالك أعدائِه بمـا بَعَثَ من سَرايَا رُعْبِه إليها ، وثبّت به أركانَ الأرْض التى ستحْتوى مُلْكَه فى طرَفَيْها ، وضَعْضَع بسلطانه قواعِدَ مُلُوكِ الكُفْر فودَّعتْ ما كان مُودَعا لأيَّامه من مَمَالك الإسلام فى يَدَيْها ، وأقامه وليَّه بأمره فلم يختَلِفْ عليه آثنانِ من خَلْقه ، وقلَّده أمرَ بريّته لمـا أقْدَره عليه من النُّهُوض بحقِّهم وحقِّـه ، وأظهَره علىٰ مَنْ نَصب له الغوائلَ واللهُ غالِبٌ علىٰ أمْرِه ، ونَصَره فى مواطِنَ كثيرةٍ لِمَـا قدّره فى القِـدَم من رِفْعـة شأْنه وآعتِلاءِ قَدْره ، وجعل عَدُوّه وإن أعْرضَ عن طَلَبه بجُيُوش الرُّعْب محصُورًا ، وكَفاه بنَصْره علىٰ الأعداء التوغُّلَ فى سَـفْكِ الدِّماء فلم يُسْرِفْ فى القَتْل إنّه كانَ مَنْصُورا ، ونَقَل إليـه المُلْكَ بسَيْفه والدِّماءُ مَصُونه ، وحَكَّمه فيما كان بيدِ غيْرِه من الأرض والبلادُ آمِنةٌ والفِتَنُ مأمُونه ، فكان أمْرُ مَنْ ذهَب سَحابَةَ صيْف ، أو جَلْسة ضَيْف ، لم تَحُلّ له روْعةٌ فى القلوب ،

ولم يُذْعِرْها ـ وقد ألْبسه اللهُ ما نَزَع عن سِوَاه ـ سالِبٌ ولا مَسْلُوب، إجراءً لهٰذه الأمة علىٰ عَوائدِ فضلِهِ العَمِيم ، وآختصاصًا بمـا آتاه من مُلْكه ﴿ واللهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ من يَشَاءُ واللهُ واسِعٌ عَلِيم ﴾ .

يَحْمَدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما مَنَح فى أيَّامه الدِّينَ من آعتِضاده بحُسَامِه ، والآعتِماد فى مُلْكِ المسلمين علىٰ من يجعَلُ جِبَاهَ ملُوكِ الشِّرْك تحتَ أقْدامه، والآعتِدادِ بمساعى مَنْ حُصُونُهُ فى الجهاد ظُهُورُ جِيَاده وقُصورُه أطرافُ حُسَامه .

ويشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شَهادةَ حاكم بمـا أَرَاه، حامدٍ له فى مُلْكِ الإسلامِ علىٰ تيَسُّر ماوطَّده ورَفْع ماعَرَاه ، معتصِم به فى كلِّ ما أثبتَه بالحق من قَواعد الدِّين فى جهـاد أعداء الدِّين عن سَيْره فى ذٰلك وسُرَاه ؛ وأن محمدًا عبدُه ورســولُه الذى جعله من عَصَبتِه الشريفة وعُصْبَته[(١)]، وشرَّفه بوِرَاثة خلافَته فى أمَّته [ورفع] قدْرَ رُتْبتــه ، وقَصَره علىٰ إقامة من يُرْهِب العِدا بنَشْر دعْوته فى الآفاقِ مع مَوَاقع رَغْبته ؛ ويسألُه أن يصلِّى عليه صلاةً تفتَح له فى الدنيا إلىٰ العِصْمة طَرِيقا ، وتجعَلُه فى الأُخْرىٰ معه ومَعَ الَّذِينَ أنعَمَ اللهُ عليهم من آبائِهِ الشُّهداء والصالِحِينَ وحَسُنَ أُولٰئك رفيقا، وسلَّم تسليما كثيرا .

وإنَّ أميرالمؤمنين لِمَـا آختصَّه الله به من البرِّ المُودَع فى قلبه، والنُّور الذى أصبح فيه علىٰ بَيِّنة من رَبِّه، والتأبيدِ المنتقِل إليه عمَّنْ شَرُف بقُرْبه ، والنصِّ الذى أسَرَّه رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم إلىٰ جدّه العبَّاس من بَقَاء هـذا الأمر فى وِرْثَته دُونَ أقارِبِه وصَحْبه، لم يَزَلْ يرغَبُ إلىٰ اللهِ سبحانَه ويستخيرُه فى إقامةِ من يَنْهَضُ فى مُلْك الإسـلام حقَّ النُّهوض ، ويفوِّضُ إليـه الأمانةَ إلىٰ مَنْ[(٢)] يرىٰ أداء الأمانةِ فيهِمْ من

(١) أى جعل الله الخليفة من عصبة النبي الخ فتنبه .

(٢) لعله ممن يرىٰ . تأمل

آكد الفُروض ، ومَنْ إذا قال النفيرُ ياخَيْلَ اللهِ ٱركَبِي سابقتْ خيْلُه خَيالَه ، وجازَتْ عزائمُه نِصالَه ، وأخذَ عدُوَّ الدِّين من مأْمنه ، وغالبَ سيفُه الأجلَ علىٰ ٱنتزاع رُوحه من بَدَنِه ، وقاتلَ لتكُونَ كلمةُ الله هى العُلْيا ، وجاهدَ لإقامة مَنَار الإسلامِ لا للتَّعرُّض إلىٰ عَرَض الدنيا ، وقدّمتْ له ملُوكُ الدنيا حُصُونَها ، وبذَلَتْ له مع الطاعة مَصُونَها ؛ وأُقيمَ له بكلِّ قُطْر منـبرٌ وسَرِير ، وجَمعَ مُلُوكَ العِـدا فى رِقِّ طاعته وهو علىٰ جَمْعِهم إذا يشَاءُ قدِير ، ومَنْ يُقِيم العــدلَ علىٰ ما شُرِع ، والشَّرْعَ علىٰ ما أُخِذ عن رسول الله صلّى الله عليه وسلم وسُمِـع ؛ ويُمِيت البِدَع بإحياء السُّنَن ، ويعْلَم أنَّ الله جعل لخلْقِه علىٰ لسان نبيِّه محمدٍ صلّى الله عليه وسلم سَنَنا ولا يعدِلُ بهم عن ذلك السَّنَن .

ولمـا كانَ السُّلْطانُ الملكُ المنصُور حُسامُ الدنيـا والدِّين أبو الفَتْح « لاچين المنصورى» ــ خلَّد الله سلطانَه ــ هو الذى جعلَ [الله] صـلَاحَ الأمة علىٰ يدَيْه ، وٱختـاره لإقامة دينِه فساقَ مُلْكَ الإسـلام عَنْوةً إليه ؛ وأنْهضَـه بذلك وقد أمدَّه بجُنُود نصره ، وأنزل سكينَتَه عليـه وجمعَ قلوبَ أهل الإسـلام علىٰ حُبِّـه ؛ وفرّقَ أعداءَ الدِّين خوْفُ حَرْبه ، وجعلَ النصرَ حيثُ توجه من أشياخه وحِزْبه ؛ وعضَّده لنصرة الإسلام بملائكة سَمَـائِه ، وأقام به عُمودَ الدين الذى بالسَّيْف قام ولا غَرْوَ فإنَّ الحُسَام من أسْمائه ؛ وأقبلتْ إليــه طوائفُ جُيوش الإسلام مُذْعِنين ، وأدّى فى كرامتهم حُقُوقَ طاعة الله الذى أيده بنَصْره وبالمؤْمنِـين ، وتلقَّاهم بشـيرُ كرامتِه ونِعَمِـه وقال : ادْخُلُوا مِصْرَ إنْ شاءَ اللهُ آمِنِينَ ؛ فطارتْ مُحَلِّقاتُ البشائر بمُلْكِه فى الآفاق ، وأَغَصَّ العِـدا سلطانُه فما توهَّمُوا فى أمرِ الإسـلامِ الٱختِلافَ حتّى تحقَّقُوا بحمْـدِ الله ويُمْن أيَّامه الوِفَاق ؛ وٱختالتِ المنابرُ الإسلاميَّةُ بذكْرِ أمير المؤمنين وذِكْرِه ، وأعلنت الأمةُ المحمديَّةُ بحمد الله الذى أقرَّ به الحقَّ فى مَرْكَزه وردَّ به شارِدَ

المُلْك إلىٰ وَكْره، وتحقّق أمير المؤمنين أنه المكنُونُ فى طويَّته والمستكنُّ فى صَدْره، والقائمُ فى عِمارة بيتِه النبوىّ وسلامتِه مَقام سَلْمانِه وعَمّاره، فعهِد إليه حينئذ فى كلّ ما تقتضيه أحكامُ إمامتِه فى أمّة نبيِّـه، وجعله فى التصرُّف المطلَقِ عنه قائمًـا مقامَ وَصيِّه فى الملَّة ووليِّـه، وقلَّده أمرَ مُلْك الإسلام تقليدًا عامّا، وفوّض إليـه حُكْمَ السـلطنة الشريفة تفويضًا تامًّا، وألْبَسه من ذلك ماخلَعه عن سِواه، ونَشر عليـه لواء المُلْك الذى زَوىٰ ظِلَّه عن غيره وطَوَاه، وحَكَّمه فى كل ما تقتضيه خلافتُـه المقدّسه، وتُمْضيه إمامتُه التى هى علىٰ التقوىٰ مؤسَّسَه : من إقامة مَنَار الإسـلام، والحُكْم العام فى أمّة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وفى تقليد المُلُوك والوُزَراء، وتقْـدمة الجيوش وتأمير الأُمَراء، وفى تجهيز العساكر والسَّرَايا، وإرسال الطَّلائـع والرعَايا، وتجريد الجُنود الذين ما ندَبهـم إلىٰ الأعداء إلا آبُوا بالنِّهـاب وبالسَّبَايا، وفى غَزْو العدوّ كيف أراه اللهُ إنْ شاء بنَفْسه أو جُنْده، وفى آسترْسال النصر بالثبات والصبْر فإنَّ الله يَجْزِى الصابرين وماالنَّصْر إلا من عِنْده، وفى محاصَرة العدوّ ومُصابَرته، وإنظاره ومُناظَرته، وإنزالهم علىٰ ما شَرَع اللهُ فيهـم من الأحكام، والتوخّى فى ذٰلك ماحَكَم به سـعْدُ بنُ معاذ فى زمن الرسول عليه أفضلُ الصلاة والسلام، وفى ضَرْب الهُدَن وإمضائها، والوفاءِ بالعقُود المشروعةِ إلىٰ آنتهاء مُدَدها وآنقضائها، وفى إرْضاء السُّيوف من نكَث ولم يُتِمَّ عهده إلىٰمدّته فإنَّ إسْخاط الكُفْر فى إرضائها، وفى الأمصار يُقرُّبها مَنْ شاءَ من الجنُود، ويبعثُ إليها من شاء من البُعُوث والحُشُود، وفى سِدَاد الثغور بالرجال الذين تفْتَرُّبهـم عن شَنَب النصر، وتأمَنُ بهـم أعدادُها من غَوائل الحصْر، وتوْفير سِهامِها من سِهام القوّة التى تَرْمِى بشَرَر كالقَصْر، وإمدادِ بَحْرها بالشَّوانى المجرَّبة المجـدَّده، والسُّفُن التى كأنهـا القصُورُ الممهَّدة علىٰ الصُّرُوح الممرَّده، فلا تزال تدبُّ إليهم من ذَوات الأرجُل عقارِبُها، وتَخْطَف غِرْبانَهم الطائرةَ بأجنحة

القُلُوع مخالِبُها ؛ وفى تقْدِمة وتنفيذ السَّرايا التى لاتزالُ أسِنَّتُها إلىٰ نُحُور الأعداء مُقوّمه ، وإنفاقِ ما يَراه فى مصالح الإسلام من القَناطِيرِ المُقَنْطرة من الذهب والفِضّة والخيلِ المُسَوّمه ؛ وفى إعلاء مَنَار الشرع الشريف والاْنقياد إليه ، والمسارعةِ إلىٰ نُفُوذ حُكْمه فيما لَهُ وعليــه ، وتقْويةِ يدِ حُكّامه علىٰ كلِّ أمــيرٍ ومأمور أقرَّ الشرعُ فى يدِه شيئا أو ٱنتزَعَه من يدَيْه ، وتفويضِ الحُكْم إلىٰ كلِّ من يتعيَّن لذٰلك من أئمة الأمّه ، وإقامةِ الشرع الشريف علىٰ قواعِدِه الأربعــة فإن ٱتِّفاق العلمــاء حُجّةٌ وٱختلافُهم رحْمه ؛ وفى مصالح الحرمين الشريفين وثالثِهما الذى تُشَدُّ الرحالُ أيضا إليــه ؛ وفى إقامة سُبُل الحجيج الذين دعاهُم الله فلَبَّوْه وٱستدعاهُمْ فقدِمُوا عليه ؛ وفوّض إليه كلَّ ماهو من لوازم خلافته لله فى أرضه : ماذُكِر وما لم يُذْكر ، تفويضًا لازما ، وتقليدًا جازِما ، وعَقْــدا مُحْكما ، وعَهْدا فى مصالح الإســلام والمسلمين محكَّما ، وٱكتفىٰ عن الوَصايَا بمــا جُبِل عليه خُلُقه الشريف من التقوىٰ ، وهدىٰ نفْسَــه النفيسةَ إليه من التمسُّك بالسَنَد الأقوم والسبَبِ الأقْوىٰ ؛ فمــا يُنَبَّه علىٰ حسنة إلّا وهو أسبَقُ إليها ، ولا يُدَلُّ علىٰ خَلَّة إلا وفِكرُه الشريفُ أسرَعُ من فِكْر الدالِّ عليها ؛ وقد وثِق ببراءة الذِّمّة من حقِّ قوم أضْحَوْا لفضــل مثله راجين ، وتحقّق حلُول النعمة علىٰ أمّة أمسَوْا إلىٰ « لاچينَ » لاجين ؛ وقد ٱستخار أمير المؤمنين اللهَ فى ذلك كثيرا ، ولجَأ إلىٰ اللهَ فى توفيقِه وتوقيفِه علىٰ الصواب ممــا يجِدُه فى الحكم بذٰلك هاديًا ونصــيرا ؛ وسارَعَ إلىٰ التسليم بأمر الله تعــالىٰ فيما فوّض إليــه من أمور عباده إنّه كان بعِبادِه خَبِيرا بصِيرا . وأشهدَ الله وملائكتَه ومن حضَرَه من المؤمنين علىٰ نَفْسه بما تضمَّنه هــذا العهدُ الكريم ، وحكَمَ علىٰ الأمّة بمقتضاه فمَنْ بدَّله بعْدَ ماسَمِعه فإنَّمــا إثْمُهُ علىٰ الذين يُبَدِّلُونه إنَّ اللهَ سَمِيع عليم . والخطُّ الشريف الإماميّ الحاكميّ أعلاه ، حجّةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وعلى قريب منه كتب القاضى شمسُ الدين إبراهيم بن القَيْسرانىّ عهد الملكِ الناصر «محمد بن قلاوون» عن الحاكم بأمْر الله أحمدَ بنِ أبى الربيع سليمان . وهذه نسخته :

هذا عهدٌ يَعْمُر بك للإسلام المَعاهد ، وينصُر منك الاعتزامَ فتَغْنَى عن المُوالى والمُعاضِد ، ويُلْقِى إليك مقاليدَ الأمور : لتجتهِدَ فى مَرَاضِى الله وتُجاهِد ، ويبعثُك على العمل بالكتاب والسنَّة : ليكونا شاهدَيْنِ لكَ عِندَ الله فى أعظَمِ المَشَاهد ؛ فخُذْ كتاب أمير المؤمنين بقُوّة تبرُّكا بأخْذِ يحيى عليه السلام للكتاب ، وحاسِبْ نَفْسَك محاسبَةً تجِدُ نفْعَها يوم يقُومُ الحساب ، واعمَلْ صالحا فالّذين آمنُوا وعمِلُوا الصالحات طُوبى لهم وحُسْنُ مآبٍ .

من عبد الله ووليِّه الإمام الحاكم بأمر الله أبى العبّاس أحمدَ أمير المؤمنين : إلى السلطان الأجلِّ ، العالم ، العادلِ ، المجاهِدِ ، المرابِط ، المظفَّر ، المَلِك ، الناصِر ، ناصر الدنيا والدين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ، سيِّد الملوك والسلاطين ؛ فاتِحِ الأمصار ، مُبِيد الأَرْمن والفَرنْج والتّتار ، وارثِ المُلْك ، سلطان العرَب والعَجَم والترك ؛ خادمِ الحرمين ، صاحبِ القِبْلتين ؛ أبى الفتْح محمدٍ قَسِيم أمير المؤمنين أعز الله سلطانه ، ولدِ السلطان الشهيدِ الملكِ المنصورِ سيف الدين قلاوون ، قدّس الله رُوحَه .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله الذى أقام ناصِرَ الإسلام وأهلَه بخيْرِ ناصِر ، وأحَلَّ فى السلطنة المعظَّمة من آستَحقَّها بذاته الشريفة وشرفِ العَنَاصر ، ووضَع الإصْرَ بمن كَثُرت منه

ومِن سَلَفه الكريم علىٰ الرَّعايا الأَوَاصِر(١)، وعقَد لواءَ المُلْك لمن هو واحدٌ فى الجُود أَلْفٌ فى الوغىٰ ففى حالَيْه تُعقَد عليه الخَناصر؛ وجمعَ كلمةَ الأُمّة بمتفرِّد فى المَعَالى متوحِّد فى المَفاخر، متَّصِف بمَناقِب أَرْبىٰ بها علىٰ أَرْبابها من المُلُوك الأوائِل والأواخر؛ وأقرّ النواظِرَ والخواطِرَ بمن أشْرق عليهما نُورُه البـاهر ، وظهرتْ آثارُ وُجُوده وَجُوده علىٰ البَواطِن والظَّواهر ؛ وأعاد شَبِيبةَ الأيَّام فى ٱقتبال سرِّ السرائر ، وسارتْ بشائرُ مَقْدمه فى الآفاق سَيْرَ المَثَل وماظَنُّك بالمَثَل السائر، وفعلَتْ مَهابَتُه فىالتمهيد والتشْييد فِعْلَ القَنَا المَتَشاجِرْ، وشفَتِ الصُّدورَ بوُجُود الاتِّفاق وعَدَمِ الشِّـقاق بعدَ أن بلَغتِ القُلُوبُ الحنَاجر ؛ وأورثَ البِلادَ والعبادَ صَفْوةَ ذُرِّيةٍ وَرِثُوا السيادةَ كابِراً عن كابِر، وسَرىٰ سِرُّه إذا وُلِد المولودُ منهم تهلَّلتْ له الأرضُ وٱهتزَّتْ إليه المَنَابر .

والحمـدُ للهِ الذى ٱجْتَبىٰ سيدَنا محمدا صلّى الله عليه وسلم من أشرَف بيْتٍ وقَبِيله ، ومنَحَ الأُمَّةَ برسالتِه من خَيْرَىِ الدنيا والآخرة الوَسِيله ، وأوجبَ الشفاعةَ لِمَنْ سأل اللهَ له أعلىٰ دَرجة لاينَالُهـا إلا رجُلٌ واحدٌ وهى الوَسِـيله ؛ وجعل شَمْلَهم بمبايعتِـه ومتابَعته فى الهداية نَظِيما، وحضَّ علىٰ ذٰلك بقوله تعالىٰ : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَك إنَّمـا يُبَايِعُونَ اللهَ يدُ اللهِ فوقَ أيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَـا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِه وَمَنْ أَوْفىٰ بما عاهَدَ عَلَيْـهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيما ﴾ . وبلَّغهم به من السـعادة غايةَ مطْلُوبهم ، وأيده بنَصْره و بالمؤمنين وألَّف بينَ قُلُوبِهم ؛ وزان شريعتَـه المطهَّرةَ بمحَاسِنَ أبهىٰ مَنْظَرا ومَخْـبرَا من العُقُود، وفرَض علىٰ المؤمنين أن يُوفُوا بالعُهُود و بالعُقُود ؛ وأقدَرَهم علىٰ حَمْل الأمانةِ التى أشفقَت السمٰواتُ والأرض والجبـالُ من حَمْلها ، وأنزل فى كتابه العزيز : ﴿ إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أَنْ تُؤدُّوا الأَمَانَاتِ إلىٰ أهْلِهَا ﴾ .

(١) المراد بها المنن انظر القاموس .

والحمـدُ لله الذى ٱختار أميرَ المؤمنين من سُلالة عمّ نبيّه العباس ، وٱصطفىٰ بيته المباركَ من خير أمّةٍ أُخرِجتْ للناس ، وقوىٰ به جأشَ المسلمين وجُيوشَ الموحِّدين علىٰ المُلْحِدين ، وآتاه بسيادةِ جَدّه وسَعادة جَدّه مالم يؤتَ أحدًا من العالَمين ، وحفظ به للمؤمنين ذِمَاما ، وجعله للمتّقين إمَامًا ، وخصّه بمزيد الشرفَيْن : نَسَبِه ومَنْصِبه ، وجعـل مزيّة الرتبتين كلمةً باقِيـةً فى عَقِبه ، وصان به حَوْزَةَ الدين صيـانةَ العَرين بالأُسُود ، وصيَّر الأيْدَى البيضَ مشكُورةً لحامِلِي راياتِه السُّود .

يَحْمَـده أميرُ المؤمنين حمدَ من ٱختـاره من السَّماء فاستخْلَفه فى الأرض ، وجعل إمْرتَه علىٰ المؤمنين فَرْضا لتُقامَ به السُّـنَّة والفَرْض ، ويشهدُ أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له الذى أسْرىٰ بعبده لَيْلا من المَسْجِدِ الحَرَامِ إلىٰ المَسْجِدِ الأقْصىٰ ، ويشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كشَف بمَبْعثِه عن القلوب حُجُب الغَىّ ، وأشرقتْ أنوارُ نُبوّتِه فأضاء لهايومَ دُخُوله المدينةَ كُلُّ شىء ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من أقامه فى الإمامة مُقَامه وأشار إلىٰ الآقتداءِ به من بعْـده ، ومنهم من أعزَّ الله به الإسلامَ فى كلِّ قُطْر مع قُرْبه وبُعْدِه ، ومنهم من كانتِ اليدُ الشريفةُ النبويّةُ فى بَيْعة الرِّضْوان خيرًا له من يَدِه ، ومنهم مَنْ أمر اللهُ تعالىٰ بالمُباهلة(١) بالأبْناء والنُّفُوس فباهل(١) خاتَمُ الأنبياء صلّى الله عليه وسلم به وبزَوْجه ووَلَده ، وعلىٰ بقيّة العشره ، الذين غدَتْ بهم دعوةُ الحقِّ مشتَهِرةً منتَشِرَه ، وعلىٰ عَمَّيْه أسدِ الله وأسـد رسولِه عليه السـلام ، وجدِّ الأئمة المهديِّين أُمَراء المؤمنين وخُلَفاء الإسلام ، وسلم تسليمًا كثيرا .

وإنَّ اللهَ تعالىٰ جعل سَجِيَّـةَ الأيّام الشريفةِ الإماميَّة الحاكميَّة أدام الله إشْراقَها ، وقَسَم بهـا بينَ الأولياءِ والأعداءِ آجالَهَا وأرْزاقَها ، رَدَّ الحُقوق إلىٰ نِصَابها ، وإعادتَها

(١) فى الاصول بالمباهاة ... ... فباهى ، وهو تصحيف من الناسخ .

إلىٰ مستحقِّيها ولو تمادَتِ الأيَّامُ علىٰ ٱغْتِصابها ، وإقْرارَها عِنْـد مَنْ هو دُونَ الورىٰ أوْلىٰ بها : ليحقّق أنَّ نسبَه الشريفَ أظهر علىٰ أوامِرِه دلائلَ الإعْجاز، وحَلّىٰ كلماتِها بالإيجاز وهِبَاتِها بالإنْجاز ؛ وإنَّ الله جعـل الٱسمَ الشريف الحاكميّ فى الحُكْم بأمْره علىٰ خير مسَمّى، وقوّى منـه فى تأييدِ كلِمـة الحقّ جَنَانا وعَزْما ، ولم يُخْـرِج من أحكامه عن ٱتِّباع أمرِ الله قضيَّةً ولا حُكْما ؛ وكنتَ أيُّهـا السيد، العالِمُ، العادلُ، السلطانُ ، الملكُ، الناصرُ، ناصرُ الدنيا والدين، أبو الفتح محمدُ ٱبنُ السلطان الشهيدِ الملك المنْصُور، سـيفِ الدين قلاوُون ـ قدّس الله رُوحَه ـ أولىٰ الأوليـاءِ بالمُلْك الشريف : لمـا لسَلَفك من الحقُوق ، وما أسلَفُوه من فَضْـلٍ لا يحسُن له التناسِى ولا العُقُوق؛ ولِمـا أوجب لكَ علىٰ العساكر الإسـلامية سابقُ الأيْمـان ، وصادقُ الإيمان : ولأنك جمعْتَ فى المجْد بينَ طارِفٍ وتالِد، وفُقْتَ بزكِىِّ نَفْسٍ وأخٍ ووالد؛ وجَلاَلَهْ ، ماورِثتَها عن كَلاَله ؛ وخِلاَل، مالها بالسِّيادة إخْلال؛ ومَفاخِر، تُكاثر البحْرَ الزاخِر؛ ومآثِر، أعْجز وصفُها الناظمَ والناثِر؛ وكان رِكابُك العالى قد سارَ إلىٰ الكَرَك المحروس ، وقعَدَتْ عنك الأجسامُ وسافرَتْ معك النُّفُوس؛ ووثِقَتِ الخواطرُ بأنَّك إلىٰ السلطنة تعُود، وأنَّ الله تعالىٰ يجدّد لك صُعوداً إلىٰ مَراتِب السُّعود؛ وأقمتَ بها وذِكْرُك فى الآفاق سائر، والآمالُ مبَشِّرة بأنك إلىٰ كُرْسىّ مَمْلكتِك صائِر . فلمَّا ٱحتاج المُلْكُ الشريف فى هذه المدّة إلىٰ مَلِك يَسُرُّ سريرَه ، وسلطانٍ تغدُو باستقراره عيونُ الأنامِ والأيَّام قريره : لِمـا للسلمين فى ذٰلك من تيْسيرِ أوطار وتعميرِ أوْطـان ، ولأنهم لا ينْفُذُون فى المَصالح الإسلاميَّةِ إلا بسُلْطان؛ لم يدُرْ فى الأذهان، ولا خَطَر لقاصٍ ولا دان ، إلَّا أنك أحقُّ الناس بالسلطنةِ الشريفه ، وأوْلاهم برُتْبتِها المُنيفه؛ ولا ذَكَر أحدٌ إلا حُقوقَ بيتِك وفَضْلَها، ولا قال عنكم إلَّا بقول الله : ﴿وكانُوا أحَقَّ بِهَـا وأهْلَها﴾ : لأنَّ البلادَ فُتوحاتُ سُيوفكم، ورَعاياها فيما هم فيه من الأمْن والخير

بمنزلة ضُيُوفكم؛ ولأنَّ العساكر الإسلاميَّة آسترقَّهم وَلاؤك، ووالوكْ لانهم أرقَّاؤك؛ فلم يقُلْ أحد : أنَّى له المُلْك علينـا ؟ بل أقرّ كلٌّ منهم لك باليَد وقرّ بوِلايتك عَيْنا؛ وأخلصُوا فى مُوالاتك العقائِد، وآستبْشَرُوا منك بمُبارَك الوجه ماجدٍ جائد؛ ولم يغبْ غائبٌ خليفتَهُ جيشُ أبيه وجدّه الصاعد؛ ورفعتِ الممالكُ يدَ الضَّراعة سائلةً وراغبهْ، وخَطَبَتْك لعقَائلِها ومَعَاقِلهـا والخُطباءُ علىٰ المنـابر لك خاطبـةٌ وبدعائِكَ مُخاطِبـه ؛ وقصدتْ لذٰلك أبوابَكَ التى لا تزال تُقْصَد، ودُعيتَ للعوْد المبارَك وعودُ محمَّد للأمَّة المحمديَّة أحْمَد؛ وفَعلت الجيوشُ المنصورةُ من طاعتك كلَّ ماسَرّ، وأرْبَتْ فى صِدْق النيَّات وبِرِّها علىٰ كل منْ بَرّ :

وَلَوَ آنَّ مُشْتاقًا تكَلَّفَ فَوْقَ مَا * فِى وُسْـعِهِ لسَعىٰ إليكَ المِنْبَرُ!

فما ضَرَّ بحمدِ الله بُعْدُ الدار والآمالُ بساكِنها مُطِيفه ، بل كانَ لكَ الذِّكْرُ فى قلب الخليفة نِعْمَ الخَليفه؛ وكنتَ لديْه ــ وإن غِبْت ــ حاضرًا بجميل الذِّكر، ونأيْتَ دارا فقرّبَكَ إليـه حُسْن التصويرِ فى الفِكْر. وكان أميرُ المؤمنين قد شاهَدَك يافِعا، وشهِدَ خاطِرُه أن ستَصِـيرُ للمسلمين نافِعًا؛ وتأمَّل منك أمائرَ أضْحىٰ لها لترقِّيك آمِلا، وهلالًا دلَّتْه كرامتُه ــولا تُنْكَر الكرامةُــ علىٰ أن سيَكونُ بدْرا كامِلا؛ وبلَغَه عنك من العـدْل والإحسان ، ماأعجز وصْـفُه بلاَغتَيِ القلَمَ واللّسان ؛ فناداك نِداءَه علىٰ بُعْـد المَزار ، ولم يجِدْ لكَ نظيرا فأطالَ وأطابَ لمَقْدَمك السـعيد الآنْتِظار؛ إلىٰ أنْ أقْدمْتَ إقدامَ اللَّيْث ، وقَدِمتَ إلىٰ البـلاد المتعطِّشة إلىٰ نَظَرك الشريف قُـدُومَ الغيْث ؛ فلاحَ بكَ علىٰ الوُجُود دليلُ الفَلاح، وحَمِد الرعايا سُراكَ عند الصَّباح والآستِصْباح ؛ وشاهدُوا منك أسـدًا فاقَ بوَثَبَاتِه وثَبـاتِه الأُوَل، وشخْصا لا يصْلُح إلَّا لإدالة دُوَل ولا تَصْـلُح إلا لمثْـله الدُّوَل؛ وقامتْ باخْتِبـارِكَ علىٰ آختيارِكَ الدَّلائل، وعَرَفك

سريرُ المُلْك وعَرَف فيك من أبيك شَمائل ؛ ورأىٰ أميرُ المؤمنين من نَجابتك فوقَ ما أخبرَتْ به مُساءلةُ الرُّكْبان ، ومن مَهابتك مادَلَّ علىٰ خفض الشانِئ ورَفْع الشان ؛ ومن مَحامدك كلَّ ما صغَّر الخَبَرَعنها الخُبْر ، وأعلنتْ ألسنةُ الأقدار بأنه لم يَبْقَ عن تقليدك الممالكَ الإسلاميَّةَ بحمد الله تعالىٰ عُذْر ؛ فاختارك علىٰ عِلْم علىٰ العالَمين ، وآجتباك للذَّبِّ عن الإسلامِ والمسلمين ؛ وآستخارَ اللهَ تعالىٰ فى ذلك نخَار ، وأفاضَ عليكَ من بَيْعته المباركةِ مع نَخْوك المشتَهِر حُلَل الفَخار ، وعهِد إليكَ فى كلِّ ماآشتملتْ عليه دعوةُ إمامته المعظَّمه ، وأحكامُ خلافته التى لم تزَلْ بها عقُود الممالك فى الطاعة مُنَظَّمه ؛ وفوّضَ إليك سَلطنةَ الممالك الإسلاميَّة بَرًّا وبحرا ، شامًا ومِصْرا ؛ قُرْبا وبُعْدا ، غَوْرا ونَجْدا ؛ وما سيفْتَحُه الله عليك من البِلاد ، وتستنْقذُه من أيْدى ذَوِى الإلحاد ؛ وتقليدَ المُلوك والوُزَراء ، وقضاةِ الحُكْم العزيز وتأميرَ الأمراء ؛ وتجهيزَ العساكر والبُعُوث للجهاد فى سبيل الله ومحاربةَ مَنْ ترىٰ محاربتَهَ من الأعداء ، ومهادنَةَ من ترىٰ مُهادنتَه منهم ؛ وجعل إليك فى ذلك كله العَقْد والحَلّ ، والإبرامَ والنقضَ والوِلايةَ والعَزْل ؛ وقلَّدك ذلك كلَّه تقليدا يقُوم فى تسليم الممالك إليك مَقامَ الإقْليد ، ويَقْضِى لقريبِها وبَعيدِها بمشيئةِ الله تعالىٰ بمزِيدِ التمهيد والتَّشْييد : لتعلم أنَّ الله قد جعلَ الأيامَ الشريفـةَ الحاكمية ـ أدامها اللهُ تعالىٰ ـ فَلَكا أبدىٰ سالفًا من البيت الشريف المنصورى أقْمارا ، وأطْلَع منهم آنِفًا بَدْرا ملأ الخافقيْن أنْوارا ؛ فكُلَّما ظهـرَتْ لسَلَفه مآثِرُبدتْ مآثِرُخلَفـه أظْهر ، ومن شاهَدَهم وشاهدَ شمسَ سعادته المنَزَّهة عن الأُفُول قال هـذا أكْبر ؛ وكلَّما ذُكِر لأحدهم فضـلٌ عـلِم أنه فى أيامه متزَيِّد ، وأنه إنْ مضىٰ منهم سيِّد فى سَبِيله ، فقد قام بأطرافِ الأسِنَّة منهم سَيِّد ؛ وصيرَّ الدولة الشريفةَ الخليفيَّة غاباً إنْ غاب منهم أُسُود ، خَلَفهم شِبْل بشَّرتْ مَخايِلُه أنَّه عليها يَسُود .

فلْيتقَلَّدِ السلطانُ الملك الناصر ما قلّده أمير المؤمنين ، ولْيكُنْ لدعوته الهادِيَة من المُلَبِّين وعليها من المؤمِّنين ؛ ولْيترَقَّ إلىٰ هذه الرُّتبة التى ٱستحَقَّها بحسَبه ، وٱسترَقَّها بنَسَبه ؛ ولْيباشِرْها مستبْشِرا ، ويُظْهِرْ من شكر الله تعالىٰ عليها ما يَغْدُو به مستَظْهِرا ؛ فقد أراد أميرُ المؤمنين القيامَ فى نُصْرة الدين الحنيف فأقامَك أنتَ مُقَامه ، وصرّف بك بين أهل الطاعةِ والعِصْيانِ إكرامَهُ وٱنْتِقامَه ؛ رَعْياً لعهْد سلَفِك الكريم ، ولما ٱستوجَبَتْه نفسُك النفيسةُ من وُفُور التعظيم والتكْرِيم ؛ وعِنايةً بالعساكر المؤيَّدة الذين وجَّهُوا وجُوهَ آمالهم إليْك ، وأبتْ كلمتُهم التى صانها اللهُ عن التفرُّق أن تجتَمِع فى الطاعة والخِدْمة إلّا عليك ولَدَيْك ؛ ومِنَّةً عليهم بسلطانٍ مابرِحُوا من الله تعالىٰ يطلُبُونه ، وملك نَشَـُوا بأبوابه العالية فلهذا يُحِبُّهم ويُحِبُّونه .

فاحمَدِ اللهَ تعالىٰ الذى جعل لكَ فى إعادة المُلْك أُسْوةً بسُلَيْمان عليه السلام ، وردّه إليكَ ردًّا لا ٱنْفِصال لعُرْوته ولا ٱنْفِصام ؛ فأضحيْتَ لأمور عباده سَدَادا ، ولثُغُور بلادِه سِدَادا ؛ وللخليفة عَضُدا فى الخليقه ، وفى الدهر سامِى الحقيقةِ حامِى الحقِيقه ؛ وللمُلْك وارثا ، ورقَّاك رُقِيًّا أصبحتَ به فى السلطنة واحدًا وللخلافة المعظمة ثانيًا وللقمَرين ثالثا .

وبُشْراك ! أنَّ الله أبرم سببَ تأييدك إبْراما لا تَصِل الأيدى إلىٰ نَقْضه ، وأنك سُئِلتَ عن أمرٍ طالما أتعبَ غيْرَك سُؤالُه فى بعضه ؛ وأن الله يُحْسِن لك العونَ وبك الصَّوْن ، فقد قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : "ياعَبْدَ الرَّحْمٰن بنَ سَمُرةَ ! لا تَسْألِ الإمارةَ فإنَّكَ إنْ أُعْطِيتَها عَنْ مَسْألَة وُكِلْتَ إليها ، وإنْ أُعطِيتَها عن غَيْر مَسْألةٍ أُعِنْتَ عليها " .

وبشراك ! أن أمير المؤمنين خَصّك بمزيد الاعتناء، وأقامك مُقامَه فى حُسْن الغَنَاء، وحقّق أنّ السعادة فى أيامه موصولةٌ منكم بالآباء والأبناء؛ وبلّغك بهذا التقليد الشريف الأمانِى، وتوجّهُ بيمينِ قريبةِ عهد باستلام الرُّكْن اليمانى؛ وآصطفاكَ بقَلْب أظهر له الكُشوفَ إشراقُ تلك السُّتور، وغَدَا مَغْمورا بالهداية ببركة البيتِ المعْمُور، ونظرٍ زادَتْه مشاهدةُ الحرم الشريف النبوىّ نُورا على نُور؛ فقابِلْ ذلك بالقيام فى مُهِمّات الإسلام، وتدقيقِ النظرِ فى مَصالح الخاصّ والعام؛ وآجتهِدْ فى صيانَةِ الممالكِ آجتهادًا يَحْرُس منها الأوْساطَ والأطْراف، وتنتظِمُ به أحوالُها أجلَّ آنتظام وتأتلِفُ أجملَ آئتِلاف .

والوَصايَا كثيرةٌ وأولاها تَقْوى الله : فليجعَلْها حِلْيَةً لأوقاته، ويُحافِظْ عليها محافظَةَ من يتّقِيه حقّ تُقاته؛ ويتّخِذْها نَجِىّ فِكره وأنيسَ قلْبِه، ويُعَظِّمْ حُرُمات الله : ﴿ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَه عِنْدَ رَبِّه ﴾ .

والشرعُ الشريفُ فهو لعِقْد الإسلام نِظَام، وللدِّين القيِّم قِوَام؛ فتجْتَهِد فى آقتفاء سَنَنه، والعملِ بمفْرُوضه وسُنَنه؛ وتكريمِ أهلِه وقُضاتِه، والتوسّل بذلك إلى الله فى آبتغاء مَرْضاته .

وأمراءُ دولتك فهم أنصارُ سَلَفك الصالح، وذَوُو النصائح فيما آثَرُوه من المصالح؛ وخُلَصاءُ طاعتهم فى السرِّ والنّجْوى، وأعوانُهم على البِرِّ والتقوى؛ وهم الذين أحَلَّهم والدُك من العِنَاية المحَلَّ الأسْنَى، والذين سبَقَتْ لهم بحُسْن الطاعة من اللهِ الحُسْنَى؛ ولو لم يكن لهم إلّا حُسْنُ الوفاء، لكفَاهم عندَك فى مَزِيد الاعتماد والاسْتِكفاء؛ فإنهم جادَلُوا فى إقامة دولتِك وجالَدُوا، وأَوْفَوْا بالعهد فهم المُوفُون بعهدهم إذا عاهَدُوا؛ وهم للوصايا بخِدْمتك واعُون، وفيما آئتمنْتَهم عليه لأماناتهم وعَهْدهم راعُون؛ قد أصْفَوْا

لك النيّـاتِ بظهر الغيبِ ، وأخلَصوا الطويّات إخلاصا لاشكّ معـه ولا رَيْب ؛ ونابُوا عنك أحسَنَ مَنَاب ، وكَفُّوا كَفَّ العدوّ فما طالَ له لافتِراس ولا آختِلاس ظُفُرٌ ولا نَاب ؛ وآتخَذُوا لهم بذٰلك عنـدَ الله وعِنْدك يدًا ، وأثّلوا لهم به مجْـدا يبقىٰ حديثُه الحسنُ الصحيحُ عنهم مُسْنَدا .

فاستَوْصِ بهم وبسائرِ عساكرِك المنصورةِ خيرا ، وأجمِلْ لهم سريرةً وفيهم سَيْرًا ، وأحمِدْهم عُقْبىٰ هذه الخِدْمه ، وأورِدْهم مَنْهَل إحسانٍ يُضاعِف لهم النّعمة والنَّعْمه : لتؤكّد طاعَتَك علىٰ كل إنسان ، ويثِقُوا بحُسْن المكافأة : و ﴿ هَـلْ جَزَاءُ الإِحْسانِ إلَّا الإحْسان ﴾ . ولتَزْدادَ أوامِرُك ونَواهِيـكَ آمتِثالا ، ولا يجِدُوا عن محبّـة أيّامك الشريفةِ آنتِقالا ، وليُقَال فى حُسْن خِدَمِهم وإحْسانِك : هٰكذا هٰكذا وإلَّا فلالَا .

وأما الغَزْو والجهادُ فى سبيل الله تعالىٰ ، وما أوجبه فيهما قولُه : ﴿ آنْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالا ﴾ ، فأقلّ ما يُجْزِئ فرضَ الكِفَاية منـه مَرَّةٌ فى كل عام ، وأما فرضُ العين فوُجُوبه علىٰ ذَوِى الآسـتِطاعة من المسلمين عامّ ؛ وقد عرفت سَنَن السلطانين الشهيدين : والدِك وأخيك ـ قدّس الله رُوحَهما ـ فى الآعتِناء بجِهَاد الكُفّار ، وغزْوِهم فى عُقْر الدار ؛ وموقِفَ أحدهما فى مَوْطِنٍ زلّت فيه الأقدامُ عن الإقدام ، وآجتمع فيه الكُفْرُ علىٰ الإسلام ؛ وشابَ من هَوْله الوَليد ، ومُصابرتَه تُجاهَ سيْف من سُيُوف الله تعـالىٰ الإمام خالد بنِ الوليـد ؛ وآستِنْقاذًا لآخر البلاد الساحليّة التى أنقذها اللهُ من أيْدى المشْركين علىٰ يَدِ الصَّلاحَيْن ، وفَتَح لهما أبوابَ الجنـة ببركة الآفتتاحَيْن ؛ وأنّ والدَك وأخاكَ سَدَّا علىٰ المشركين الفِجَاج ، وطَهَّرا من أرجاسهم العَذْبَ الفُراتَ والمِلْحَ الأُجَاج ؛ فالكَتائبُ المنصوريّه ، أبادت التّتار بالسُّـيُوف المَشْرفيّه ؛ والممالكُ

الإسـلاميّه، زَهَتْ نِظاما بالفُتُوحات الأشرفِيّـه؛ فاجتَهِدْ فى إعلاء كلمةِ الدين أتَمَّ آجتهاد، وعَزِّزْهما بثالث فى الغَزْو والجِهاد .

وأما الرَّعايا بَعِيدُهم وقريبُهم، ومستَوْطِنُهم وغَرِيبُهـم، فَيُوفِّيهم من الرِّعاية حَظَّهم، ويُجْزِل صِيانَتَهم وحِفْظَهم؛ وكما يَرىٰ الحَقَّ له فَلْيَرَ الحقَّ عليه، ويُحْسِن إلىٰ رَعَاياه كما أحسَنَ اللهُ إليه .

وأما العدلُ فإنّه للبلاد عِمَـاره، وللسَّعادة أَمَاره، وللآخرة مَنْجاةٌ من النَّفْس الأمّاره؛ فلْيكُنْ له شِعَارا ودِثَارا، ولْيُؤَكِّد مَرَاسِمَـه فى الأمر بالمعْروف والنهى عن المنْكَر، والمحافظةِ من ذٰلك علىٰ ما يُذْكَر به عند الله ويُشْكَر .

والحُدود الشرعيَّـــة فلْيُحَلِّ بإقامتهـا لِسانَه وطِرْسَـه، ولا يتَعدّها بنَقْص ولا زيادة ﴿ ومَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَه ﴾ . والله يخلِّد له رُتبةَ المُلْك التى أعلىٰ بهـا مَقَامه، ويُديمه ناصرا للدين الحنيف فأنصارُه لا يزالُون ظاهِرِين إلىٰ يَوْمِ القِيـامه؛ ويجعَلُ سبَبَ هـذا العهد الشريف مَدىٰ الأيّام متينا، ويجدّدُ له فى كلِّ وقْت نَصْرا قرِيبًـا وفَتْحا مُبِينا . والخطُّ الحـاكمىّ أعلاه، حجـةٌ بمقتضاه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الحمدُ للهِ وحده، وصلواتُه علىٰ سيدِنا محمدٍ وآله وسلامُه، حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل.

وعلىٰ نحو من ذٰلك كتب القاضى علاءُ الدين بنُ عبد الظاهر عن المستكْفِى بالله، أبى الرَّبيع سُلَيمان، عهدَ الملك المظَفَّر ركنِ الدين "بيبرس المنصُورى" الجاشنكير. وهذه نسخته :

هذا عهدٌ شريفٌ انتظمتْ به عقُود مصالح المُلْك والممالك، وابتسمتْ ثُغُور الثُّغور ببَيْعته التى شَهِدت بِصحَّتها الكِرامُ الملائك ؛ وتمسَّكتِ النُّفُوس بمُحْكَم عَقْده النَّضيد ومُبْرَم عِقْده النَّظيم، ووثِقَت بميثاقه فتركتِ الألْسُنَ مستفْتِحةً بقول الله الكريم : ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ .

الحمدُ لله الذى جعل المِلَّة الإسلاميَّة تَأْوِى من سلطانها إلىٰ رُكْن شديد ، وتَحْوِى من متابعة مظَفَّرها كلَّ ما كانت ترُومُه من تَأْبيد التأْييد، وتَرْوِى أحاديثَ النصر عن مَلِك لايَملُّ من نُصرة الدِّين الحنيفىِّ و إن مَلَّ الحديدُ من الحَدِيد ؛ مُؤْتِى مُلْكه مَنْ يشاء من عباده، ومُلْقِى مقاليده للوَلِىّ المَلِىّ بقَمْع أهل عِنَاده؛ ومانِحِه مَنْ لم يزَلْ بعزائمه ومَكارمه مَرْهُوبا مَرْغُوبا ، ومُولِيه ومُولِّيه مَنْ غَدا محبوّا من الأنَام بواجب الطاعة محبُوبا، ومُفوِّض أمْرِه ونَهْيه إلىٰ مَنْ طالَمَا صَرف خَطِّيَّه عن حِمىٰ الدين أخْطارا وخُطُوبا .

والحمدُ لله مُجْرِى الأقْدار، ومُظْهِر سرّ المُلْك فيمَن أضْحىٰ عند الإمامة العباسيَّة بحُسْن الاختِبار من المصْطفَيْن الأخيار ؛ جامِع أشتاتِ الفَخَار ، ورافِع لِواء الاستِظْهار ؛ ودافِع لَأْواء الأضْرار ، بجميل الالتجاء إلىٰ رُكْنٍ أمسىٰ بقُوَّة الله تعالىٰ عالِىَ المنار، وافِىَ المبارّ، بادِىَ الآثارِ الجميلةِ والإيثار .

والحمدُ لله علىٰ أنْ قلَّد أمورَ السلطنة الشريفةِ لكافِلِها وكافِيها، وأسنَدَ عَقْدَها وحَلَّها لمن يُدْرِك بكريم فِطْنته وسليم فِطْرته عواقِبَ الأُمُور من مَبَادِيها، وأيَّد الكتَائِبَ الإيمانيَّةَ بمن لم تزَلْ عواليه تُبَلِّغُها من ذُرىٰ الأمانِىّ مَعَالِيها .

يحمدُه أمير المؤمنين علىٰ إعلاء كلِمة الإيمان بأعْيان أعْوانِها، وإعْزازِ نَصْرها بأركان تشييدها وتشْيِيد أركانِها؛ ويشهدُ أنْ لاإلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً

لا تبرح الألسـنةُ تَرْوِيها والقلوبُ تَنْوِيها، والمواهبُ تُجْزِل لقائلها تَنْويلا وتَنْويهـا؛ ويشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه أكملُ نبيّ وأفضلُ مبعُوث، وأشرفُ مُوَرِّث لأجَلِّ مَوْرُوث؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبـه صلاةً تَنْمِى بركاتُها وتَنُمّ(١)، وتَخُصّ حسَنَاتُها وتَعُمّ؛ ورضى الله عن عمِّه العبّاس جدّ أمير المؤمنـين، وعن آبائه الأئمةِ المهديِّين؛ الذين وَرِثُوا الخلافةَ كابرًا عن كابِر، وسَمَتْ ووُسِمتْ بأسمائهم ونُعُوتهم ذُرىٰ المَنَابر .

أما بعدُ، فإن الله عزَّ وجلَّ لمـا عَدَق بمولانا أميرِ المؤمنين مصالحَ الجُمْهور، وعقَدَ له البيعةَ فى أعناق أهلِ الإيمان فزادَهُم نُورًا علىٰ نُور؛ وأورثَهُ عن أسلافه الطاهرين إمامةَ خيرِ أُمَّه ، وكشف بمُصابَرتِه من بأس العِـدَا ظَلَام كلِّ غُمَّه ؛ وأنزل عليـه السكينةَ فى مواطنِ النصر والفَتْح المبِين، وثَبَّته عنـد تَزَلْزُل الأقدام وثبَّت به قلوبَ المؤمنين ؛ وأفاض عليه من مَهَابة الخلافة ومَوَاهِبها ماهو من أهْله ، وأتمَّ نعمتَه عليه كما أتمَّها علىٰ أبوَيْه من قَبْـله - بايَعَ الله تعالىٰ علىٰ أن يختارَ للتَّمليك علىٰ البَرَايا ، والتحكيم فى الممالكِ والرَّعايا ؛ مَنْ أَسَّس بُنْيانَه علىٰ التقوىٰ، وتمسَّك من خشـيةِ الله تعـالىٰ بالسبَبِ الأَقْوىٰ؛ ووقَف عند أوامر الشرع الشريـف فى قَضائِه وحُكْمه ، ونَهَض لأداء فرضِ الجهـاد بمَعَالى عَزْمه وحَزْمه ؛ وكان المقامُ الأشرفُ العـالى ، المولوىُّ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، المظفَّرىّ ، الرُّكنىّ ؛ سـلطان الإسلام والمسلمين ، سيدُ الملوك والسلاطين ؛ ناصرُ المِلَّة المحمديه ، مُحْيِي الدولة العبَّاسيه ؛ أبو الفتح «بيبَرْس» قسيمُ أمير المؤمنين : أعزَّ الله تعالىٰ ببقائه حِمىٰ الخلافة وقد فَعَلْ ، وبلَّغ فى بقاء دولته الأمل - هو المَلِكُ الذى انعقد الإجماعُ علىٰ تفْضيله ، وشهِدت مناقبُه الطاهرةُ باسْتِحقاقه لتَحْويل المُلْك إليـه وتَخْويله ؛ وحكَمَ التوفيقُ والاتِّفاقُ بتَرَقِّيـه

(١) نم الحديث ظهر . ونم الشيء سطعت رائحته .

إلى كرسىّ السلطنة وصُعُوده ، وقضتِ الأقدارُ بأن يُلْقِيَ إليه أميرُ المؤمنين أزِمَّةَ عُهُوده، والذى كم خفقَت قلوبُ الأعادى عند رُؤْية آياتِ نصره، ونطقَتْ ألسنةُ الأقدار بأنْ سيكونُ مليكَ عصْره وعزيزَ مِصْره، وآهتزَّتْ أعطافُ المنابر شَوْقا للافتخار باسْمِه، وآعتزَّتِ الممالكُ بمن زاده الله بَسْطةً فى عِلْمه وجِسْمه ؛ وهو الذى مابَرِح مُذْ نشأَ يجاهد فى الله حقَّ جِهاده، ويساعدُ فى كل معْركة بمُرْهَفات سُيُوفه ومتْلفات صِعَاده، ويُبْدى فى الهَيْجاء صَفْحتَه للصِّفاح فيقيه اللهُ ويُبْقيه : ليجعله ظِلَّه علىٰ عباده وبلاده، فيُرْدِى الأعداءَ فى مواقِف تأييده فكَمْ عفَّر من خدٍّ لملُوك الكُفْر تحتَ سَنابك جِيَاده ؛ ويَشْفِى بصُدُور سُيُوفه صُدُورَ قومٍ مؤمنين، ويَسْقِى ظِماءَ أسِنَّتِه فيَرْوِيها من مَوْرِد وَرِيد المشركين ؛ ويُطْلِع فى سماء الملك من غُرَرِ آرائِه نَيِّراتٍ لاتأفُل ولا تغُور ، ويُظْهِر من مَواهِبه ومَهَابته ما تُحَسَّنُ به الممالكُ وتُحَصَّن الثُّغُور؛ فما من حِصْنٍ آستغْلقه الكفرُ إلا وسيْفُه مِفْتاحه، ولا ليلِ خَطْب دجَا إلا وغُرَّته الميمُونةُ صَباحُه ؛ ولا عَزَّ أملٌ لأهل الإسلام إلا وكان فى رأْيه المسدَّدِ نَجاحُه ، ولا حصَلَ خللٌ فى طَرَفٍ من الممالك إلَّا وكانَ بمشيئةِ الله تعالىٰ وبسَداد تدبيره صَلَاحُه ؛ ولا آتَّفقَ مَشْهَدُ عدوّ إلا والملائكةُ الكِرامُ بمظافَرَته فيه أعدَلُ شُهوده ، ولا تجدَّدَ فتوحٌ للإسلام إلا جادَ فيه بنَفْسه وأجاد ؛ (والجُود بالنَّفْس أقْصىٰ غايةِ الجُودِ) .

كَمْ أسلَفَ فى غَزْو أعداء الدِّين من يومٍ أغَرَّ مُحَجَّل ، وأنفق مالَهُ آبتغاء مَرْضاة الله سبحانه فحاز الفَخْر المعَجَّل والأَجْر المؤَجَّل ؛ وأحْيا من مَعالم العُلوم ودَوارس المدارس كلَّ داثِر، وحَثَّه إيمانُه علىٰ عِمارة بيُوت الله تعالىٰ الجامعةِ لكلِّ تالٍ

.وذاكر : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ﴾ . وهو الذى مازالتِ الأوليـاءُ تَتَخيَّل مَخايِلَ السَّـلْطنة فى أعطافه مَعْنًى وصُوره ، والأعداءُ يرومون إطفاءَ ماأفاضه اللهُ عليه من أشِعَّة أنواره : ﴿وَيَأْبَىٰ اللهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَه﴾ . طالَمَا تطاوَلتْ إليــه أعناقُ المَـالِك فأعْرَض عنها جانبا ، وتطفَّلتْ علىٰ قُرْبه فكان لهـا ـ رعايةً لذِمَّة الوفاء ـ مُجَانِبا ؛ حتّٰى أذِن اللهُ سبحانه لكلمةِ سلطانه أن تُرْفَع ، وحكَم له بالصُّعُود فى دَرَج المُلْك إلىٰ المَحَـلِّ الأعلىٰ والمكانِ الأرْفَع ، وأدّٰى له من المَوَاهب ما هو علىٰ ٱسْمِه فى ذخائر الغُيُوب مستَوْدَع .

فعنـد ذٰلك ٱستخار اللهَ تعالىٰ سـيدُنا ومولانا الإمام المستكْفِى بالله أميرُ المؤمنين أبو الربيع سليمان، ٱبنُ الإمام الحـاكم (وذكر نسبه علىٰ العادة) جعـل الله الخلافةَ كلمة باقيـةً فى عَقِبه ، وأمتعَ الإسـلامَ والمسلمين بشرفَىْ حَسَبِه ونَسَبِه ؛ وعَهِد إلىٰ المقام العالى السلطانى بكلِّ ماوراءَ سرير خلافتِه ، وقلَّده جميعَ ماهو مقلَّده من أحكام إمامتِه ؛ وبسَطَ يدَه فى السلطنة المعظَّمه ، وجعل أوامِرَه هى النافذَةَ وأحكامَه هى المُحَكَّمه ؛ وذٰلك بالديار المِصْرية ، والممالك الشاميَّة ، والفراتيَّة ، والجَبَليَّة ، والساحِلية ، والقِـلَاع والثُّغُور المحروسـة ، والبلاد الحِجازيَّة ، واليمـانية ، وكلِّ ماهو إلىٰ خلافة أمير المؤمنين مَنْسوب ، وفى أقطارِ إمامتهِ مَحْسُوب ؛ وألقىٰ إلىٰ أوامِرِه أزِمَّة البَسْط والقَبْض ، والإبرامِ والنَّقْض ، والرَّفْع والخَفْض ؛ وما جعله اللهُ فى يده من حُكْم الأرض ، ومن إقامةِ سُـنَّة وفَرْض ؛ وفى كلِّ هِبة وتمليك ، وتصرُّف فى ولايةِ أمور الإسـلام من غير شَرِيك ؛ وفى تولية القُضاة والحُكّام ، وفَصْل القضَايَا والأحكام ؛ وفى سائر التحكُّم فى الوجُود ، وعَقْـد الألوية والبُنُود ، وتجنيـد الكتائب والجُنُود ،

وتجهيز الجُيُوش الإسلاميَّة من التأييـد(١) إلىٰ كلِّ مقام محمود ؛ وفى قَهْر الأعداء الذين نَرْجُو بقوة الله تعـالىٰ أن يمكِّنه من نَوَاصِيهم ، ويُحَكِّم قَوَاضِبَه فى ٱستِنْزالهم من صَيَاصِيهم ، وٱستِئْصال شأْفة عاصِيهم ؛ حتّى يمحُوَ إن شاء الله تعـالىٰ بمصابيح سُيُوفه سَوادَ خُطوب الشِّرْك المُدْلَهِمّه ، وتغْـدُوَ سَراياه فى ٱقْتِلاع قِلاع الكفر مُسْتَهِمّه ؛ وتُرْهِبَهم خيْـلُ بُعُوثه وخَيَالُهـا فى اليَقْظةِ والمَنَام ، ويدْخُل فى أيامه أهـلُ الإسلام «مدينةَ السلام» بسلام ـ تفويضًا تامًّا عامّا ، منضَّدا مُنَظَّما مُحكَّما محكما ؛ أقامه مولانا أمير المؤمنين فى ذٰلك مُقام نفْسه الشريفه ، وٱستشهد الكِرامَ الكاتبين فى ثُبُوت هذه البَيْعة المُنِيفه .

فليتقلَّد المقامُ الشريفُ العالى السلطانى ـ أعز الله نصره ـ عِقْدَ هذا العهد الذى لاتَطْمَح لمثله الآمال ، ولْيستمْسِكْ منه بالعُروة الوثقىٰ التى لا ٱنْفِصامَ لها ولا ٱنْفِصال ؛ فقد عوّلَ أميرُالمؤمنين علىٰ يُمْن آرائك التى ما بَرِحت الأمّةُ بها فى المُعْضِلات تَسْتَشْفِى ، وٱستكفىٰ بِكِفَايتِـك وكَفَالتِـك فى حِيـاطة المُلْك فأضحىٰ وهو بذلك المُسْتكْفِى ؛ وهو يقصُّ عليك من أنباء الوَصايَا أحسَنَ القَصَص ، ويُنُصُّ لدَيْك ماأنت آخذٌ منه بالعَزَائم إذا أخَذَ غيرُك فيـه بالرُّخَص ؛ فإن نُبِّهت علىٰ التقوىٰ فطالمَـا تمسَّكْتَ منها بأوثَقِ عُرْوه ، وإن هُـدِيت إلىٰ سبيل الرَّشاد فمـا زِلْتَ تَرْقىٰ منـه أشرفَ ذِرْوه ؛ وإن ٱستَرْهَفْنا عزْمَك المـاضِىَ الغِرار ، وٱستدْعينا حَزْمك الذى أضاء به دَهْرُك وٱستنار ، فى إقامة مَنَار الشرع الشريف ، والوقوف عنـد نَهْيه وأمره فى كل حكم وتَصْريف ، فمـا زِلْتَ ـ خلّد الله سـلطانك ـ قائمـًا بسُنَّته وفَرْضه ، دائبًا فى رِضَا الله تعالىٰ بإصلاحِ عقائدِ عباده فى أرْضه ؛ وما بَرِح سيفُك المظفَّرُ للأحكام الشرعيَّة خادما ، ولموادِّ الباطِل حاسِمـا ، ولأُنُوف ذَوِى البِدَع راغِما ؛ فكلُّ ما نُوصِـيك به

(١) لعله من التلبية . تأمل .

من خير قد جُبِلتْ عليه طِباعُك ، ولم يزَل مشتدًّا فيه ساعِدُك ممتدًّا إليه باعُك ؛ غير أنَّا نُورِد لُمْعَة ٱقتضَاها أمرُ الله تعـالىٰ فى الٱقتداء بالتَّذْكرة فى كتابه المبين، وأوجبها نصُّ قوله تعالىٰ : ﴿ وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ . ويـنْـدرِجُ تحتَ أصُولها فروعٌ يستغْنِى بدقيق ذِهْنه الشريف عن نَصِّها، و بفكره الثاقب عن قَصِّها ؛ فأعظَمُها للّة نَفْعا، وأكثَرُها للباطل دَفْعا، الشرعُ الشريف : فليكُنْ ـ أعز الله نصره ـ عاملًا علىٰ تشييدِ قواعِد إحكامه ، وتنفيـذِ أوامرِ أحْكامه ؛ فالسعيدُ من قَرَن أمْرَه بأمره، ورضِىَ فيه بحُلْو الحق ومُرِّه. والعدلُ فلْينْشُرْ لواءه حتّٰى يأْوِىَ إليه الخائف، وينكَفَّ برَدْعه حيْفُ كلِّ حائف ؛ و يتَساوىٰ فى ظلِّه الغنِىّ والفقير، والمأمورُ والأمير؛ ويُمْسِى الظُّلمُ فى أيَّامك وقد خَمَدتْ ناره، وعفَتْ آثارُه .

وأهَمُّ ما ٱحتفَلَتْ به العَزائم ، وٱشتملَتْ عليـه هِمَم الملوك العظَائم ، وأشْرعتْ له الأسِـنَّة وأُرْهِفَتْ من أجْله الصوارم ؛ أمرُ الجهاد الذى جعله اللهُ تعـالىٰ حِصْنا للإسلام وجُنَّه، وٱشترىٰ فيه أنْفُسَهم وأموالَهُم بأنَّ لهم الجَنَّه ؛ فجَنِّد له الجُنودَ وٱجْمعْ له الكتائب ، وٱقْضِ فى مَواقِفـه علىٰ الأعداء من بأسك بالقَواضِى القواضِب ؛ وٱغْزُهم فى عُقْر الدار، وأرهِفْ سيفَك البَتَّار : لتأخُذ منهم للسلمين بالثَّار . والثُّغور والحصون، فهى سِرّ المُلْك المَصُون، وهى معاقلُ النفوس إذا دارتْ رَحىٰ الحربِ الزَّبُون ؛ فلْيُقَلِّد أمْرَها لكُفَاتها ، ويَخُصّ حمايتَها بحُماتها، و يضاعِفْ لمن بها أسبابَ قوّتها ومادّةَ أقْواتها . وأمراءُ الإسلام وجنودُ الإيمان فهم أولياءُ نَصْرك، وحَفَظة شامِكَ ومِصْرك؛ وحزبُك الغالب، وفريقُك الذين تَفْرَق منهم قلوبُ العِدا فى المشارق والمغارب؛ فليكُن المقامُ العالى السـلطانىّ ـ أعزه الله تعـالىٰ ـ لأحوالهم متفقِّدا، و بَسْط وجهِه لهم متودِّدا؛ حتّٰى تتأكد لمقامه العالى طاعتُهم، وتتجدّدَ لسلطانه العزيز

ضَراعَتَهم . وأما غير ذٰلك من المَصالح، فما بَرِح تدبيرُه الجميل لها ينَفِّذ ورأيُه الأصيل بها يُشِير، فلا يحتاجُ مع علمه بغَوامِضِها إلىٰ إيضـاحها ﴿ ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِير﴾ . والله تعالىٰ يخصُّ دولته من العدل والإحسان بأوْفَر نصيب، ويمنَحُ سلطانه مايرجُوه من النصر المَعجَّل والفتح القرِيب، إن شاء الله تعالىٰ .

المــــــذهب الثـانى

(أن يفتتحَ العهد بلفظ « من فلان » باسم الخليفة وكُنْيته ولقَبِ الخلافة ،
«إلىٰ فلان» باسم السلطان وكُنْيته ولقب السلطنة كما فى المكاتبات،
ثم يأتى بعـــد ذٰلك بلفظ « أما بعـــد »)

ثم تارةً يأتى بعد البعدية بتحميد، مثل أن يقول : «أما بعدُ فالحمد لله» ويتخلص إلىٰ ذكر أمر الولاية وما ينْخرِط فى سِلْكها ؛ وتارةً يأتى بعــد البعدية بخطاب المولىٰ والدعاء له، ويتخلَّص إلىٰ مقاصد العهد : من الوَصايا وغيرها، علىٰ آختلاف مقاصد الكُتَّاب، وعلىٰ ذلك كانت العهود فى دولة الفاطميين بمصر .

قلت : وقد يُستَحْسَن هــذا المذهبُ فيما إذا كان المعهود إليه غائباً عن حضرة الخليفة : لأن العهدَ يصير حينئذ كالرسالة الصريحة إليه، بخلاف ما إذا كان بحضرته فإنه لايكونُ فى معنىٰ الرسالة الصريحة .

وعلىٰ هذا المذْهَب كتب أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله عهدَ شرف الدولة شيرْزيك بن عضُد الدولة بن بُوَيه، وهذه نسخته :

من عبدِ الله « عبدِ الكريم الإمام الطـائع لله » أمير المؤمنين ، إلىٰ شِيرْزيك بن عضد الدولة وتاج الملة أبى شُجَاع مولىٰ أمير المؤمنين :

سلامٌ عليك ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلا هو ، ويسألُه أن يصلِّيَ علىٰ محمدٍ عبده ورسوله صلَّى الله عليه وسلم .

أما بعد ــ أطالَ اللهُ بقاءَك، وأدامَ عِزَّك وتأييدَك، وسعادَتَك ونعمتَك ، وأمتع أميرَ المؤمنين بك وبالمَوْهِبة فيك وعندَك ــ فإنَّ أمير المؤمنين يَرىٰ أن يَحْفَظ علىٰ كل ولىٍّ أَحْمدَ مذاهِبَه ، وأَرْضىٰ ضرائبَه ، وٱنْصرفَ عن الدنيـا متمسِّكا بطاعته ، متديِّنا بمشايعته ، حقُوقَه المتوحِّده ، وحُرُماتِه المتمَهِّده ؛ فيمن يخْلُفه بعده من ولدٍ أمَّل أن يَرِث عنه محلَّه ، ويقُومَ فيه مَقامَه ؛ وفاءً لأهل الوِلايه ، وتَصرُّفا علىٰ أحكام الرِّعايه ؛ وسياقةً للصنيعة من سالفٍ إلىٰ خالف ، وإمضائها من تالدٍ إلىٰ طارِف . هـذا علىٰ الأمْرِ الجامع ، والعُمومِ الشامل ؛ فإذا ٱتَّفق أنَّ مُنتهىٰ وِراثة القُرْب إليه ، والمَنازِل لدَيْه ، إلىٰ النُّجبـاء الأفاضِـل ، والخُصفاء الأماثِل ؛ الذين يَسْـتَحِقُّون ٱستئنافَ الٱصطِناع لهم ، وٱستقبالَ التفويض إليهم بالمَناقب الموجُودة فيهم ؛ لو ٱنفردَتْ عما حازُوه عن آبائِهم وأوْليائِهم ، أَجْرىٰ أميرُ المؤمنين مايُفيضه عليهم من الأيادِى ، ويُرَقِّيهم إليه من هِضَاب المَعالى ، مُجْرىٰ الأمر الواجب الذى كثُرت الدَّواعى إليـه ، وٱتَّفق الرأْى والهوىٰ عليه ؛ وتطابقَ الإيثارُ والٱختبار فيه ، وٱقترنَ الصوابُ والسَّدادُ به ؛ وٱشـترك المسلمُون فى ٱستِثْمار فائدَتِه وعائدَتِه ، والٱنتفاع بتأْدِيَته وعاقبته ؛ والله يَخير لأمير المؤمنـين فيما يُمْضِيه من العزائم ، ويبْنِيه من الدَّعائم ؛ ويعتَمِده مِنْ المصالح ، ويتوَخَّاه من المَنـاجح ؛ إنه علىٰ ذٰلك قدير ، وبه جدير ؛ وهو حسْبُ أمير المؤمنين ونعم الوكيل .

وقد علِمتَ ــ أدام الله عِزَّك وأمتَعَ أمير المؤمنين بك ــ أنَّ شجرةَ بيتك [هى] التى تمكَّنتْ فى الخدمة أُصولُها ، والفضيلةُ منوطةٌ بها ، وأسبابُ التَّمام والدوام مجتمعةٌ فيها ؛

فلذلك سَبَغتِ النعمةُ عليكم، وآمتدّ ظِلُّها إليكم، ونُقِّلت فيها أقداحُكُم، وتوفّرت منها حُظُوظكم؛ فتداولتُموها بينكم كابِراً عن كابر بمَساعِيكم الصالحه، ومَناهِجِكم الواضحه؛ وتعاضُـدكم علىٰ مالَمْ تشعَّثَ الدولةِ الجامعه، وطَرَف عنها الأعيُنَ الحاسـده؛ وكان شيخك عضد الدوله، وتاج المله، أبوشجاع رضوان الله عليه، صاحبَ الرتبة الزُّعمىٰ عند أميرالمؤمنين وهُمَامَها، والممتَطِيَ غارِبَها وسَنَامَها؛ فعاشَ ماعاشَ مشكورا محمُودا؛ ثم آنقلبَ إلىٰ لقاءِ ربه سعيدًا رشـيدا؛ وأوجبَ أميرُ المؤمنين لكَ وله منكَ الحُلولَ بمكانه، وحيازةَ خَطَره وشانِه؛ إذ كنت أظْفَر وَلَده، وأوّلَ المستحِقِّين لِوِرَاثتـه؛ وكانتْ فيك مع ذٰلك الأدَواتُ المقتضِيات لأنْ يفوِّض الأمورَ إليك، ويعتمِدَ فيها عليك: من كِفَايةٍ وغَناء، وآسـتِقْلال ووَفَاء؛ وسِياسةٍ وتَدْبير، وشَهامةٍ وتَشْمير؛ وتصرُّفٍ علىٰ طاعةِ أميرالمؤمنـين، وإشْبَالٍ(١) علىٰ إخْوتك أجمعين؛ وحُسْن أثَرٍ فيما أنفذَ أمْرُك فيـه، وإفاضـةِ أمْن فيمَنْ أُمضيَتْ ولايتُك عليـه؛ وإحاطةٍ بدلائل الحَواله، ومَخايِل الأَصَاله؛ بمثلها تُنال الغاياتُ الأقَاصِي، وتُفْتَرع الذوائبُ والنَّواصي؛ فنوّلَكَ أميرُ المؤمنين تلكَ المَأْثُره، وخَوّلَك تلك المَفْخَره، وجعل أخاك صَمْصامَ الدوله، وشمسَ الملّه؛ أبا كالِيجار - أمتع اللهُ [بكما] أمير المؤمنين - بك تأييـدُه، والمتقدّمَ بعدك علىٰ وَلَدِ أبيك؛ وأجراكما في التطبيق بينكما والتقريرِ لِمَنَازلكما علىٰ مثل ماجرىٰ الأمرُ عليه بين ركْن الدولة أبي عليٍّ ومعِزِّ الدولة أبي الحسين سالفا، ثم بين عضُد الدولة وتاج الملة ابي شجاع ومؤيدِّ الدولة أبي منصور آنفا؛ تولّاهم الله بالرحمه، ونفَعَهم بما قبضَهم عليه من وَثَائِق العصمه؛ وخَصّك أمير المؤمنين بعـد ذٰلك بما يُخَصُّ به ذُو القَدْر الشامخ والقدَم السابقه، والمَحَلّة الساميه؛ فذكَرَك بالتكنيه، ورفعَك عن التسميه؛ ولقّبك لقَبيْن: أحدهما «شرفُ الدولة» لتشْرِيفه بك أولياءه

(١) الإشبال التعطف على الرجل ومعونته . انظر اللسان ج ١٣ ص ٣٧٥ .

الذين أوطأهم عَقِبَك ، وأعلقَهم حبْلَك ، والآخر «زين الملة» لزينة أيَّامه بمَعَاليك ، وتضاعُفِ جَمَالهـا بمَساعِيك ؛ وعقَد لك بيده لواءَيْن يَلْويانِ إليك الأعناقَ بالطوع ممن سَرّاه وأبْهجاه ، والكَرْه ممن راعَاه وأزْعَجاه ؛ وأمر بأن تُقامَ لك الدعوةُ علىٰ مَنَابر مدينــة السـلام وما يجرى معَها من الأعمـال بين الدَّعوة لأمير المؤمنـين وبين الدَّعوة لصَمْصام الدولة وشمس المِلَّة ؛ أمتع اللهُ أميرَ المؤمنـين بكما ، وأحسن الدِّفاعَ له عنكما : إلحاقًا لك وله بأبيكما فيما كان شُرِّف به من هذه الحال التى لم يبْلُغْها غيْرُه ، ولا أُهِّل لهـا أحدٌ قبْـله ، وأن يُثْبَت ذِكْرُك باللقَب والكُنْية فيما يُنْقَش من سِكك العَـيْن والوَرِق فى دُور الضرب باديًا ، وذِكْرُ صَمْصام الدولة ـ كلأَ كما اللهُ ـ تاليا . وحَباكَ أمير المؤمنين مع ذٰلك بخِلَع تامَّة تُفاض عليك ، وفرسَيْن من جِياد خَيْله يُقادان إليك ؛ بمركَبَيْ ذَهب من خاصِّ مَراكبه ، وسيفٍ ماضٍ من خِيار أسْيافه ؛ يُعِزُّ الله مَنْكِبَيْك بنِجَادَيْه ، ويُذِل مناكِبَ أعدائِك بغِرَارَيْه ، وطَوْق وسِوارَيْن . وأن تُجرىٰ فى المكاتبة عنه إلىٰ الغايةِ التى أَجْرىَ أبوكَ رحمه الله إليْها ، وهذا الكتاب ناطقٌ بها ودالٌّ عليها . ونَدَب لإيصال الجميع إليك علىَّ بنَ الحسين الهاشمىّ الزَّيْنىّ ، وأحمدَ بنَ نصر العباسىّ حاجِبَه ووحى خادمه ؛ فتلَقَّ شَرَفَ الدَّولة وزيْنَ الملة وأبا الفوَارس [ذٰلك] ـ أدام الله عزك ـ بما يحِقُّ عليك من تقْوىٰ الله فى سِرِّك وجَهْرِك ، ومراقَبتــه فى قولك وعملك ، وٱبتغاءِ رضاه فى مختَلِج خَطَراتك وفِكْرك ، وٱتباعِ طاعته فى مَخَارج أمرك ونَهْيك ؛ وقابلْ ماأنعَمَ به عليك ، وأحسَنَ فيه إليْك ، بالشكر الذى موْقِعُـه من النعمة موقِعُ القِرىٰ من الضيْف ، فإن وجده لم يَذُم ، وإن فَقَده لم يُقِمْ ؛ وٱمدُدْ علىٰ مَنْ وُلِّيت عليـه من الخاصَّـة والعامَّة ظِلَّك ، ووطِّئْ لهم كَنَفك وٱغْمُرْهم بطَوْلك ؛ وسُسْهم سياسةً يكون بها صَلَاحُهم مضمُونا ، وحريمُهم مَصُونا ؛ وبلادهم معْمُوره ، ومنـافِعُهم موْفُوره ؛ وحَلَبُهم دَارّا ، وعيْشُهم رَغَدا ؛ وثغورُهم

مسدوده ، وأعاديهم مذوده ؛ ومسالكهم محميه ، ومساكنهم مرعيه ؛ ومرهم بالمعروف ، وانههم عن المنكر ، وابعثهم على الحسنات ، واكففهم عن السيئات ؛ وساو فى الحق بين شريفهم ومشروفهم ، وقويهم وضعيفهم ؛ وقريبهم وغريبهم ؛ ومليهم وذميهم ؛ وقوم سفهاءهم وجهالهم ، وانف دعارهم وخرابهم ؛ وأكرم صلحاءهم وعلماءهم ، وشاور فضلاءهم وعقلاءهم ؛ وجالس أدنياءهم وأعلياءهم ؛ وأنلهم مراتبهم ، ونزلهم منازلهم ؛ وأرهم تمسكك بالدين ليقتدوا بك فيه ، ورغبتك فى الخير ليتقربوا إليك به ؛ وخذ الحق وأعطه ، وابسط العدل وقل به ؛ وادرإ الحدود بالشبهات ، وأقمها وأمضها بالبينات : لتكون الرغبة إليك فى رغب ، والرهبة منك فى رهب ؛ وبالجملة فاحمل الناس على كتاب الله ـ جل وعز ـ وآدابه ، وسنة الرسول وما جاء به .

واعلم أن أمير المؤمنين قد جعل كتابه هذا عهدا إليك ، وحجة لك وعليك ؛ وأن الأوامر والنواهى فى العهود تكون كثيرة : وإنما قصر فيه عن استيفائها ، لارتفاع طبقتك عن الحاجة إلى استقصائها ، وللخروج إلى الله من الحق فى تضمينه هذه الجمل منها ؛ فإذا وصل ذلك إليك مع كرامات أمير المؤمنين المقدم ذكرها لك ، فالبس خلعه ، وتقلد سيفه ، وتحل بحلاه ، وابرز لمن يليك على حملانه (١) ، وأظهر لهم ضروب إحسانه وامتنانه ؛ وانصب أمامك اللواءين ، وتكن وتلقب باللقبين ؛ وكاتب من تكاتب من طبقات الناس متلقبا بهما متكنيا ، إلا أمير المؤمنين فإن الأدب أن لاتكاتبه متلقبا بل متسميا ؛ وليس ذلك ناقصا لك فيما أعطيته ، ولا مرتجعا شيئا مما حبيته ؛ ولكنه الأمر بالمعروف ، والرسم المألوف ؛ وصل ما بينك وبين أخيك

(١) فى القاموس مانصه « والحملان بالضم مايحمل عليه من الدواب فى الهبة خاصة » .

صَمصامِ الدولة وشمس الملة ـ أدام اللهُ الإمتاعَ بكما ـ بالمودَّه، كما وصله اللهُ بالأُخُوَّه؛ وكونَا جميعًا يدًا فى طاعة أمير المؤمنين ، وآستقِيما علىٰ كلمةٍ سواءٍ فى رِعاية المسلمين ؛ وآتَّفقا علىٰ مسالمَةِ المسالمِين، وتعاضَـدا فى محـارَبة المحارِبين ؛ فإنَّ ذلك أرْأبُ للصَّـدْع ، وأحتمُ للبشر، وآنظَمُ للشَّمْل، وأليقُ بالأهْل . وأقِمِ الدعوةَ لنَفْسك علىٰ منابرِ الممـالكِ بعـد إقامتها لأمير المؤمنين ؛ وكاتِبْ أميرَ المؤمنين بأخْبارك ، وطالِعْه بآثارك ؛ وآستَدْعِ أمرَه فيما آستَعْجَم من التدبير عليك ، ورأيَه فيما آستَبْهم من الأمور دُونَك ؛ وآسترشِدْه إلىٰ الحظِّ يُرْشِـدْك ، وآستهده فى الخُطُوب يهـدِك ؛ وآستمدّه من المَعُونة يُمْدِدْك ، وآشكُرْ آلاءه يَزِدْك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أطال اللهُ بقاءك وأدام عِزَّك وتأييدك ، وسعادتَك ونعمتَك ؛ وأمتَعَ أمير المؤمنين بك و بالرَّغْبة فيك وعنْدك ؛ والسلامُ عليك ورحمةُ الله و بركاته .

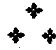

وعلىٰ هـذا النمط كتب القاضى الفاضلُ عهـدَ أسد الدين شِيركوه بالوزارة عن العاضـد الفاطمىِّ ، والوزارةُ يومئـذ قائمةٌ مَقَام السلطنة علىٰ ما تقـدّم ذكره ، وهذه نسخته :

من عبدِ الله ووليِّـه ، عبدِ الله أبى محمدٍ الإمام العاضـد لدين اللهِ أمير المؤمنين ، إلىٰ السيد ، الأجلِّ ، الملك ، المنصور ، سلطانِ الجيوش ، ولىِّ الأمه ، فخرِ الدوله ، أسدِ الدين ، كافل قُضاة المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنـين ؛ أبى الحرث شِيركوه العاضدىّ ، عضَّد الله به الدين ، وأمْتَع بطُول بقائه أميرَ المؤمنـين ؛ وأدام قدرته ، وأعلىٰ كلمتَه .

سلامٌ عليك : فإنَّ أمير المؤمنين يحمدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ويسأله أن يصلّى علىٰ سيدنا محمدٍ خاتمِ النبيين ، وسيدِ المرسلين ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين ، الأئمةِ المهديين ، وسلّمَ تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله القاهرِ فَوْقَ عِبادِه ، الظاهرِ علىٰ مَنْ جاهَرَ بعِناده ؛ القادر الذى يُعجِزُ الخلق عن دَفْع ماأودَع ضمائرَ الغُيوب من مُراده ، القوىِّ علىٰ تقريب ماعزبت الهِمَمُ باستِبْعاده ؛ المَلِىِّ بحُسْن الجزاء لمن جاهدَ فى اللهِ حقَّ جِهادِه ، مُؤْتِى المُلْكِ مَنْ يشاء بمـا أسلَفَه من ذَخائرِ رَشَاده ، ونازِعِه ممَّن يشاء بمـا ٱقْترفَه من كبَائر فَسادِه ؛ منجدِ أميرِ المؤمنين بمَنْ أمضىٰ فى نُصْرته العَزائم ، وٱستقْبله الأعداءُ بوجُوه النَّدم وظُهور الهَزائم ؛ وفعلتْ له المهابةُ مالا تصنعَ الهِمَم ، وخَلعتْ آثارُه علىٰ الدُّنيا ما تخْلَعه الأنوارُ علىٰ الظُّلَم ؛ وعُدِمتْ نظراؤه بمـا وُجِد من محاسنه التى فاق بها ملُوكَ العَرب والعجَم ، وٱنتقَم اللهُ به ممَّن ظلَم نفْسَه وإن ظَنَّ النـاسُ أنه ظلم ؛ وذادَ عن مَوَارد أميرِ المؤمنين مَنْ هو [منه] أَوْلىٰ بها ويَأْبىٰ اللهُ سبحانه إلا إمضاءَ ماحَتَم ، ورامَ إخفاءَ فضائله وهل يشتَهِر طِيبُ المِسْك إلا إذا ٱكْتُتِم ؟ مؤيِّدِ أمير المؤمنينَ بإمامٍ أقرّ اللهُ به عيْنَهم ، وقضىٰ علىٰ يده من نُصْرة الدين دَيْنَهم : ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ .

والحمـدُ لله الذى خصَّ جدّنا محمدًا بشرف الاصطفاء والاجتباء ، وأنهضَـه من الرسالة بأثقلِ الأعْباء ، وذَخرله من شَرَف المقام المحمُود أشرفَ الأنْصباء ؛ وأقام به القِسْطاس ، وطهّر به من الأدْناس ؛ وأيّده بالصابِرِين فى البأْساء والضَّرَّاء وحِينَ البَاس ،

(١) كذا فى الأصول ولعله ماٱعترفت ؛ تأمل .

وألبسَ شريعتَه من مَكارمِ الأفعال والأقْوال أحسَنَ لِباس ، وجعلَ النُّورَ سارِيًا منه في عَقِبه لايَنْقُصُه كثرةُ الاقْتِباس : ﴿ ذٰلِكَ مِن فَضْلِ اللهِ علَيْنَا وعلَىٰ النَّاس ﴾ .

والحمدُ للهِ الذي آختارَ أميرَ المؤمنين لأن يَقُوم في أمَّته مَقامه ، وهدىٰ بمَرَاشِد نُورِه إلىٰ طُرُق دار المُقامه ، وأوضَح به مَنَارَ الحقِّ وأعلامَه ؛ وجعلَه شهِيدَ عصْره ، وحُجَّة أمْرِه ، وبابَ رِزْقه ، وسبيلَ حقِّه ، وشفيعَ أوْليائه ، والمستَجارَ من الخُطُوب بلِوَائه ، والمضمُونةَ لِذَوِيه العُقْبىٰ ، والمسئُولَ له الأجْرُ في القُرْبىٰ ، والمفترَضَ الطاعةِ علىٰ كل مكلَّف ، والغايةَ التي لايُقَصِّر عنهـا بوَلَائه إلا من تأخَّر في مِضْمار النَّجاة وتخلَّف والمشفُوعَ الذكْرِ بالصلاة والتسليم ، والهادِيَ إلىٰ الحقِّ وإلىٰ طريق مستقِيم ؛ لايُقْبَل عمل إلا بخِفَارة ولائِه ، ولايَضِلُّ من آستضاءَ بأنْجُم هدايته اللَّامِعه ، ولا دِينَ إلَّا به ولا دنيا إلَّا معه : ليتَّضِح النهجُ القاصِد ، ولتقُومَ الحجة علىٰ الجاحِد ؛ وليكُونَ لِشيعتِه إلىٰ الجنــة نِعْمَ الشافِعُ والرائد ، وليأتِيَ اللهُ به بُنْيانَ الأعداء من القَوَاعد ، وليبَيِّنَ لهم الذي آختَلفُوا فيه ولِيَعْلَمُوا أنَّمـا هُوَ إلٰهٌ واحِد .

يحمـدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما حَبَاه من التأييـد الذي ظَهَر فبهَر ، وآنتشَر فعَمَّ نَفْعُه البَشَر ؛ والإظهارِ الذي آشتَرَك فيه جُنودُ السماء والأرض ، والإظْفارِ الذي عَقَد اللهُ منــه عَقْدا لاتدْخُل عليه أحكامُ النَّقْض ، والانتصارِ الذي أبانَ اللهُ به معنىٰ قوله : ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْض ﴾ .

ويسألُه أن يصلِّي علىٰ سـيِدنا محمدٍ الأمينِ ، المبعوث رَسُولًا في الأُمِّيِّين ، الهادي إلىٰ دارِ الخُلُود ، المستقِلِّ[1] ببيـانه آستِقْلالَ عَواثِرِ الجُدُود ، والمعْدُودِ أفضلَ نعمة علىٰ أهل الوُجُود ؛ والصافيــةِ بشريعَته مَشارِعُ النعمه ، والواضحةِ به الحَنِيفيَّــةُ البيضاءُ

(١) المستقل . من آستقل الشيءُ إذا ارتفع يريد أن بيانه مرتفع آرتفاع عواثر الجدود .

لِئلّا يكونَ أمْرُ الخلْق عليهم غُمّه ، وعلىٰ أبينا أخيـه وآبنِ عمّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب ناصر شريعتِه وقَسِيمه فى النَّسَب والسَّبَب ، ويدِ الحقِّ التى حُكم لهـا فى كلِّ طَلَب بالغَلَب ، وعلىٰ الأئمةِ من ذرّيتهما وسائطِ الحِكَم ، ومَصابيح الظُّلَم ومَفَاتيح النِّعَم ، والمُخْفِقين دَعْوىٰ من باهَاهُم وفاخَر ، والباذلين جُهْدَهم فى جِهادِ من آتَّخذ مَعَ اللهِ إلهًـا آخَر ، وسَلّم وردّد ، ووالىٰ وجَدّد .

وإن أمير المؤمنين لِمَـا فَوّضه الله تعالىٰ إليه من إيَالةِ الخليقـه ، ومَنَحَه من كَرَم السَّجِية وكَرَم الخَلِيقه ، وبَسَطَه من يده علىٰ أهل الخلاف ، وأنجزه من موعُوده الذى ليس له إخلالٌ ولا إخْلاف ، وأوضَحَه من براهين إمامتِـه للبصائر ، وحفِظ به علىٰ الإسـلام من طَليعةِ المَبَادئ وساقةِ المَصَايِر ، وأورثه من المَقَام الذى لا ينبغى إلّا له فى عصْره ، وآستخْدَم فيـه السُّيوف والصُّروف من تأدية فرائِض نَصْره ، وأظهر له من المُعْجِزات ، التى لا يخلُو منها زمَن ، وظاهر له من الكرامات ، التى زادَتْ علىٰ أُمْنِيَّة كل مُتَمَنّ ، وأْتَمنه عليـه من أسرار النُّبوّة التى رآه اللهُ تعـالىٰ لها أشرَفَ مُودَع وعليها أكرمَ مُؤْتَمَن ، وأجرىٰ عليه دولتَـه من تذليل الصِّعاب وتسهيل الطِّلَاب ، وتفْليـل أحزاب الشِّرْك إذا آجتَمَعُوا كما آجتمع علىٰ جدّه صلّى الله عليه وسلم أهلُ الأحْزاب ـ يواصل شُـكرهذه النِّعَم التَّوامّ ، ويعرِفُ بِعَوارِفها الفرادىٰ والتُّؤام ، ويقَـدّمُ بين يدىْ كلِّ عمل رغبةً إليه فى إيضاح المَرَاشـد ، ونيةً لا تضِلُّ عنهـا الهدايةُ ولا سِيَّما وهو الناشِد ، ويستخِيرُه عالمـًا أنه يقدّم إليه أسبابَ الخَيْر ، ويُناجِيه فيطْلِعُه الإلهامُ علىٰ مايُحَلِّى السِّيَر ويجَلِّى الغِيَر ، ويأخُذ بيدِ الله حقّه إذا آغتُصِبتْ حقُوقه ، ويَستنجِد بالله إذا آستُبيح خلافُه وآستُجيز عقُوقُه ، ويفْزَع إلىٰ الله تعالىٰ إذا قَرَع الضائر ، ويَثِق بوعد الله تعالىٰ إذا آستهْلكتِ الشُّبَهُ البصائر ، فما آعترضَ ليلُ كُرْبَةٍ إلا آنصدع

له عن بَحْـرٍ وَضّاح ، ولا آنتقضَ عقْـدُ غادرٍ إلا عاجلَهُ اللهُ سبحانه بأمْرٍ فَضّاح ؛ ولا آنقطعَتْ سبُلُ نُصْرة إلا وصلها اللهُ تعالىٰ بمن يُرْسِـله ولا آنصدعَتْ عصا أُلْفة إلا تداركَ اللهُ تعالىٰ بمن يجرِّدُه تجريدَ الصِّفاح ؛ و إذا عدّدَ أميرُ المؤمنين هـذه النِّعَم الجَسـيمه ، والمِنَح الكريمه ؛ واللطائفَ العظيمـه ، والعَوَارِفَ العَميمه ؛ والآياتِ المعـلُومه ، والكِفايات المحْتُومة والعـادات المنْظُومه ؛ كنت أيُّها السيد الأجل ـ أدام اللهُ قـدرتَك ، وأعْلىٰ كلمتَـك ـ أعظَمَ نِعَم الله تعـالىٰ أثَرا ، وأعلاها خَطَرا ، وأقْضاها للأُمَّة وطَرا ؛ وأحقَّها بأن تسمَّى نِعْمه ، وأجدَرَها بأن تُعدّ رحْمه ؛ وأسْماها أن تَكْشف غُمَّـه ، وأنْضاها فى سبيلِ الله سـبحانه عَزْمه ؛ وأمْضاها علىٰ الأعداء حَدّا ، وأبْداها فى الجِهـاد جِدّا ؛ وأعداها علىٰ الأعداء يَدًا ، وأحسَـنَها فعـلا لليوم وأرجاها غَدًا ؛ وأفرجَها للأَزْمة وقد كادتِ الأمةُ تصـير سُدىٰ ، وأحقَّ الأوليـاء بأن يدعىٰ للأولياء سيِّدا ، وأبْقاهم فَعلةً لاينصَرِم فِعْلُها الذى بَدَا أبدا .

فَلْيَهنِئْك[(١)] أنَّك حِزْبُ الله الغالب ، وشِهابُ الدين الثاقِب ، وسيفُ الله القاضِب ؛ وظلُّ أميرِ المؤمنين الممـدُود ، ومَوْرِدُ نعمتِه المَوْرُود ، والمقدَّمُ فى نَفسه وما نُؤخِّره إلَّا لأجَل معدود ؛ نَصَرْتَه حين تناصَرَ أهلُ الضَّلال ، وهاجَرْتَ إليـه هاجِرًا بَرْدَ الزُّلال وبَرْد الظِّلال ؛ وخُضتَ بِحارَ الأهوال ، وفى يَدِك أمواجُ النِّصال ؛ وها فى جِيدِك اليوم عِقْدُ جواهِرٍ منِّه ونَظْمُ لآل ، بل قد بلغْتَ السماء وزُيِّنْتْ منك بنجوم نهـار لانُجومِ لَيـال ؛ وكشفْتَ الغَمَّاء وهى مُطْبِقه ، ورفعْتَ نواظِرَ أهـل الإيمـان وهى مُطْرِقه ؛ وعقَصت أعِنَّـة الطُّغيان وهى مُطْلَقـه ، وأعدْتَ بحُنْكَتِك علىٰ الدولة العَلَويَّة بهجَةَ شَـبَابها المُونِقه ؛ وأنقذْتَ الإسلامَ وهو علىٰ شَفىٰ جُرُفٍ هار ، ونفَذْتَ حينَ لاتنْفُذ

(١) فى الأصـل فليهنك . وفى اللسان ج ١ ص ١٨٠ « والعرب تقول ليهنئك الفارس بجزم الهمزة وليهنيك الفارس بياء ساكنة ولا يجوز ليهنك كما تقول العامة » . فتنبه .

السِّهام عن الأَوْتار، وسمِعتَ دَعْوته علىٰ بُعْد الدار، وأبصرْتَ حقَّ الله ببصيرتك وكَمْ من أُناس لايَرَوْنه بأبْصار، وأجليْتَ طاغيةَ الكُفْر وسواكَ آجتَذَبه، وصدَقْتَ الله سبحانه حينَ داهَنَه مَنْ لابصيرةَ له وكَذَبه، وأقْدمتَ علىٰ الصَّليب وجَمراتُه متوقِّده، وقاتلْتَ أوليـاءَ الشيطان وغَمراتُه متمرِّده، وما يَوْمُك فى نُصْرة الدولة بواحد، ولا أمْسُك مَجْحودٌ وإن رَغِمَ أنفُ الجاحد، بل أوجبْتَ الحقَّ بهِجْرة بعـد هِجْره، وأجبْت دَعْوة الدين قائمًـا بها فى غَمْرة بعد غَمْره، وآفترعْتَ صَهْوةَ هذا المحلِّ الذى رَقَّاك إليـه أميرُ المؤمنين باستِحْقاقك، وأماتَ اللهُ العاجزين بمـا فى صُـدُورهم من حَسرات لَحَاقك، وكنتَ البعيدَ القريبَ نُصْحُه، المحجوبَ النافذَ بحجَّته المذعُورةَ أعداءُ أمير المؤمنين [به] إن فُوِّق سَهْمُه أو أُشْرِع رُمْحُه، وما ضَرَّكَ أنْ سَخِطك أعداءُ أمير المؤمنين وأميرُ المؤمنين قد آرْتضَاك، ولا أنْ مَنَعك المُعانِدُ حقَّك وقد قضىٰ لك وآقْتضاك، وما كان فى مُحاجَزَتك عن حظِّك من خدمة أمير المؤمنين الذى أنتَ به منه أَوْلىٰ، ومُدافَعتِك عن حقِّك فى قُرْب مقامه الذى لايستطيع طَوْلا، إلا مغالبَةُ الله فيك واللهُ غالبٌ علىٰ أمره، ومبـاعدَتُك وقد قرّبك اللهُ من سِرّ أمير المؤمنـين وإن بَعُدْتَ من جَهْره، آستشْرفَتْك الصُّـدُور، وتطلَّعت إليك عُيُونُ الجُمْهور، وآستوجَبْتَ عقيلةَ النِّعم بما قدّمتَ من المُهُور، ونصرتَ الإيمـانَ بأهله، وأظهرتَ الدِّينَ بمظاهرتك علىٰ الدِّين كلِّه، وناهضْتَ الكَفَرة بالباع الأشَدِّ والرأْى الأسَدّ، ونادَتْهـم سيوفُك : ـ ولا قَرارَ علىٰ زَأْرٍ مِنَ الأَسَـد ـ وأدال اللهُ بك ممن قَدِم علىٰ ما قَدَّم، ونَدِم فمـا أغنىٰ عنه النَّـدَم، حِينَ لَجَّ فى جَهَالته، وتمـادىٰ فى ضَلالته، وآستمَرّ علىٰ آستِطالته، وتوالتْ منه عَثَراتٌ ما أَتْبعها باستقالته، فكَم آجتاحَ للدَّوْلة رجالا، وضَـيَّق من أرزاقِهِـم مَجالا، وسلَبَ من خزائنها ذَخائرَ وأسلحةً وأمْوالا، ونقَلَها من أيدى أوليائها إلىٰ أعداءِ الله تباركَ وتعالىٰ، وآتَّسعتْ هَفواته عن التعديد،

وما العهدُ منها ببعيد ؛ وقد نسخَ الله تعالىٰ بك حوادثَها فوجب أن تُنْسَخ أحاديثُها، وأبَىٰ الأئمـةَ منك بمن هو وليُّهـا والأُمَّةَ بمن هو مُغيثُها؛ ودعاك إمامُ عَصْرك بقلْبه ولسانه وخَطِّه علىٰ بُعْد الدار، وتحقَّق أنك تتصرّفُ معه حيثُ تصرّفَ وتَدُور معه حيثُ دار، وآختارك علىٰ ثِقةٍ من أنَّ الله تعالىٰ يُحْمِده فيك عواقِبَ الآختيار؛ ورأىٰ لكَ إقدامَك ورقابُ الشرك صاغِره ، وقُدومَك وأفواهُ المَخَـاوف فاغِرَه ، وكَرَّتَك فى طاعته وأبىٰ الله تعالىٰ أن تكونَ خاسِره ؛ وسَطَا بك حين تمـالىٰ بك المشركُون ، وتمثّل لرسُلِهم بقوله سبحانه : ﴿ آخْسَـُوا فِيهَـا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وأنِفَت عِزَّتُه هُجنة الهُدْنه، وقال لأوليائه : ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَاتَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ وآزْدرىٰ بخنازِيرهم آنتظارًا لوصُولك بأُسُود الإسلام، وصَبَر علىٰ علم أنَّك تُلَبِّي نِداءَه بألسنة الأعلامِ قبل ألْسِنة الأقْلام ؛ فكنْتَ حيْثُ رَجَا وأفضَـل ، ووُجِدت بحيثُ رعىٰ وأعْجَل ؛ وقدمتَ فكتب اللهُ لك العُـلُوّ ، وكبَت بك العَـدُوّ ، وجمع علىٰ التوفيق لك طَرَفَيِ الرَّواح والغُدوّ، ولم يلبَس الكافرُ لسهامك جُنَّةً إلا الفِرار ، وكان ﴿ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَـا مِن قَرَارٍ ﴾ فلله دَرُّك حين قاتلتَ بخَـبَرك ، قبلَ عَسْكَرك ، ونُصِرتَ بأثيرك ، قبل عَشِـيرك ؛ وأكْرِمْ بك من قادِم خَطَواتُه مبرُوره، وسَطَواتُه للأعداءِ مُبِيره، وكُلُّ يوم من أيامه يُعَدّ سيره ؛ وإنك لمبعُوثٌ إلىٰ بلاد أمير المؤمنين بَعْثَ السَّحاب المُسَخَّر، ومقدَّمٌ فى النِّية وإن كنتَ فى الزمان المؤَخَّر؛ وطالِـعٌ بِفِئة الإسلام غير بعيد أن يُفِيءَ اللهُ عليها بلادَ الكُفَّار ، ورجالِ جهادٍ عَدَدناهم عندنا من المُصْطَفَيْنَ الأخْيار ، وأبناءِ جِلاد يشْتَرُون الجنةَ بعَزائم كالنـار ، وغُرَرِ نصرٍ سُكُونُ العدوّ بعدَها غُرورٌ ونَوْمُه غِرَار .

ولمـا جرىٰ مَنْ جرىٰ ذِكـرُه علىٰ عادَته فى إيحاشك والإيحاش منك بكَوَاذِب الظُّنُون، ورامَ رجْعتَك عن الحضرة وقد قَرّتْ بكَ الدار وقرّت بك العُيون ؛ وكان

كما قال الله تعالىٰ فى كتابه المكنون : ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا الفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جاءَ الحَقُّ وظَهَرَ أمْرُ اللهِ وهُمْ كارِهُونَ ﴾ هنالك عَصَبَتْ(١) نُفوس الإسلام ففتكَتْ به أيديها ، وكَشَفت له عن غِطاء العواقب التى كانتْ منه مَبادِيها ؛ وأخذه من أخْذه أليمُ شديد، وعَدل فيه من قال ﴿وما رَبُّك بظَلَّامٍ للعَبِيد﴾ : ﴿إنَّ فى ذلٰكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أوْ ألْقىٰ السَّمْعَ وهُو شَهِيد ﴾ .

ولما نَشَرتَ لِواءَ الإسلام وطَواه ، وعضَّدتَ الحقَّ وأضعفَ قُواه ؛ وجنَيْتَ عُقبىٰ مانَوَيْتَ وجَنىٰ عُقْبىٰ مانَوَاه ، وأبيْتَ إلا إمضاءَ العزْم فى الشِّرك وما أمْضاه ؛ ﴿ أفرأيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إلٰهَهَ هَوَاه وأضَلَّهُ الله ﴾ ودفَعْتَ الخَطْبَ الأشقّ، وطلعَتْ أنوارُ النصر مُشْرِقة بك وهل تطْلُع الأنوار إلا من الشَّرْق ؟ وقال لسانُ الحق : ﴿ فأَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقّ ﴾ ، قضىٰ الله تعالىٰ إلىٰ أمير المؤمنين عُدّةً قدّمها ثم ٱقتضاها ، وولَّاه كما ولَّى جدّه صلى الله عليه وسلم قِبْلةً يرْضاها ؛ وٱنتَصرله بك ٱنتصارَه لأهل البيت بسَلْمانه وعَمّاره، وأنطقَ أميرَ المؤمنين باصطِفَائك اليومَ و بالأمس كنْتَ عَقْد إضماره ؛ وقلَّدك أميرُ المؤمنين أمْرَ وِزارته ، وتدبيرَ مملكتِه وحيـاطَةَ ماوراءَ سريرِ خلافتِه ، وصِيانةَ ما ٱشتملتْ عليه دعوةُ إمامتـه ، وكفالةَ قُضاة المسلمين، وهدايةَ دُعاة المؤمنين ؛ وتدبيرَ ماعَدقَه الله بأمير المؤمنين من أُمُور أوليائه أجمعين، وجُنودِه وعساكِره المؤيَّدين ، المُقيمين منهم والقادِمين ؛ وكافّةَ رعايا الحضرة بعيدِها ودانيها، وسائرأعمال الدول بادِيها وخافيها ؛ وما يفتَحه الله تعالىٰ علىٰ يدَيْك من البِلاد، وما تَستعيدُه من حقُوقه التى ٱغتصَبها الأضْداد ؛ وألقىٰ إليك المقاليدَ بهذا التقليد؛ وقرّبَ عليك كلَّ غرض بَعيد ؛ وناطَ بك العَقْد والحَلّ ، والولايةَ والعَزْل ، والمَنْع

(١) فى اللسان "عصبت الابل وعصبت بالكسر اذا اجتمعت" . ولعل هذا مراده ان لم يكن أهمل نقطه وأصله غضبت . تأمل .

الوطأة ما ٱستطعت عنهـم ؛ وبدِّلهم من بعـد خَوْفِهم أمْنا ، وكُفَّ من يعترِضُهم في عَرَض هذا الأدْنىٰ .

والجِهاد فهو سلطانُ الله تعالىٰ علىٰ أهـل العِنَاد، وسطوةُ اللهِ تعالىٰ التى يُمْضِيها فى شَرِّ العبـاد علىٰ يد خَيْرِ العباد، ولك من الغَناء فيـه مِصْرا وشاماً، وثَبَاتِ الجأش كَرًّا وإقداما، والمَصَافِّ التى ضُرِبتْ فكنت ضاربَ كُماتها، والمواقِف التى ٱشتدّتْ فكنتَ فارجَ هَبواتهـا، والتَّـدْريبِ الذى أطلَق جَدَّك، والتجريبِ الذى أوْرىٰ زَنْدك، [ما] يُغْنِي عن تجديد الوَصايا البَسيطه، وتأكيدِ القَضايا المُحيطه، وما زِلْتَ تأخُذ من الكُفَّار باليمين، وتعْظُم فُتوحُك فى بلاد الشِّمال فكيف تكونُ فى بلاد اليمين، فاطلُبْ أعداء الله بَرًّا وبحرا ، وأجلِبْ عليهـم سَهْلا ووَعْرا ، وقَسِّم بينهم الفَتَكاتِ قَتْلا وأَسْرا، وغارةً وحَصْرا ، قال الله تعالىٰ فى كتابه المكنون : ﴿ يٰأَيُّهَا الذين آمنُوا قاتِلوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ من الكُفَّارِ ولْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظةً وٱعْلَمُو أنَّ اللهَ مع المتَّقِين ﴾ .

وتوفيقُ الله تعالىٰ يفتَحُ لك أبوابَ التدبير، وخُبْرتك تَدُلُّك علىٰ مَراشِد الأمْر : ﴿ ولا يُنَبِّئُك مثلُ خَبِير ﴾ فأنت تَبْتدِعُ من المحاسن ما لا تُحيط به الوصَايا ، وتخترِع من المَيَامن ما يَتعرّف بركاته الأولياءُ والرَّعايا ، والله سبحانه وتعالىٰ يحقِّق لأمير المؤمنين فيك أفضلَ المَخايِل ، ويفتَحُ علىٰ يديك مستغْلِقَ البلاد والمَعاقل ، ويصيبُ بسِهامك من الأعداء النُّحورَ والمَقاتل ، ويأخُذ للإسـلام بك ماله عنْـدَ الشرك من الثَّاراتِ والطَّوائل ، ولا يُضيع لك عمَلَك فى خدمة أمير المؤمنين إنه لا يُضيع عمَـلَ عامِل ، ويُجْرِى الأرزاقَ والآجالَ بين سَيْبك الفاضل وحُكْمك الفاصل ، فٱعلَمْ هذا من أمر أمير المؤمنين ورَسْمه ، وٱعمـلْ بمُوجَبه وحُكْمه ، إن شاء الله تعالىٰ ، والسـلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه .

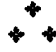

وعلىٰ نحو منه كتب القاضى الفاضـل أيضًا عهدَ الملِك النـاصر، صلاح الدين يوسُفَ بنِ أيُّوبَ بالوِزارة عن العاضد أيضا، وهذه نسخته :

من عبْد الله ووليِّه عبدِ الله أبى محمد الإمام العاضـد لدين الله أمير المؤمنين، إلىٰ السيِّد الأجلّ (علىٰ نحو ماتقدّم فى تقليد عمِّه أسدِ الدِّين شِيرَكوه) .

أما بعدُ، فالحمدُ لله مصرّفِ الأقْدارِ ومشَرِّف الأقْدار، ومُحْصِي الأعمالِ والأعْمار، ومبْتَلِي الأخيار والأبرار، وعالِم سِرّ الليل وجَهْر النهـار؛ وجاعلِ دولةِ أمير المؤمنين فَلَكا تتعاقَبُ فيه أحوالُ الأقْمار : بين ٱنقِضاء سِرَار وٱستقبال إبْدار؛ ورَوْضًا إذا هوَتْ فيـه الدَّوْحات أيْنعت الفُروعُ سابِقةَ النُّوَّار باسِـقةَ الثِّمـار؛ ومُنْجِدِ دعوته بالفُروع الشاهدة بفضل أُصولها، والجواهر المستخْرَجة من أَمْضى نُصُولها، والقائم بنُصْرة دولته فلا تزال حتّٰى يرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها قائمةً علىٰ أُصُولها .

والحمدُ لله الذى ٱختار لأمير المؤمنين ودَلَّه علىٰ مَكان الٱختيار، وأغناه باقتضاب الإلهـام عن رَوِيَّة الٱختبار، وعضَّد به الدينَ الذى ٱرتضاه وعَضَّده بمن ٱرتضاه، وأنجزَ له من وَعْد السـعْد ماقَضاه قبْلَ أن ٱقْتضاه، ورفع محـلَّه عن الخلق فكلُّهم من مُضافٍ إليه غيرمُضَاه؛ وجعل مملكتَه عَرِينًا لٱعتزازها بالأسَد وشِبْله، ونعمَتَه ميراثًا أَوْلىٰ بها ذَوِى الأرحام من بنى الوَلَاء وأهْلِه، وأظهر فى هذه القضيَّة ما أظهره فى كلِّ القضَايَا من فضل أمير المؤمنين وعَدْله؛ فأولياؤُه كالآيات التى تتَّسق دَرارِىُّ أُفُقِها المنير، وتَنْتَسِق دُرَرعِقْدها النظمِ النَّضِير : ﴿ ما نَنْسَخْ من آيةٍ أو نَنْسأْها نَأْتِ بخير مِنْها أو مِثْلِها أَلَمْ تَعْلَمْ أنَّ اللهَ علىٰ كُلِّ شَىْء قَدير﴾ .

والحمـدُ لله الذى أتَمَّ بأمير المؤمنين نعمةَ الإرشاد ، وجعـله أَوْلىٰ مَنْ للخَلْق سادَ وللحَقّ شاد ، وآثره بالمَقَام الذى لاينْبغى إلّا له فى عَصْره ، وأظهـر له من معْجزات نَصْره مالا يستقِلُّ العددُ بحَصْره ، وجمع لمن والاه بينَ رَفْع قَـدْره ووَضْع إصْره ، وجعـل الإمامةَ محفوظةً فى عَقِبه والمعقِّباتِ تحفَظُه بأمْره ، وأودَعَه الحِكَم التى رآه لها أحْوطَ من أوْدعَه ، وأطْلع من أنوار وجْهه الفجرَ الذى جَهِل من ظَنَّ غيرَ نوره مطْلَعَه ، وآتاه مالم يُؤْتِ أحدا ، وأمات به غَيًّا وأحيا رَشَدا ، وأقامه للدِّين عاضدا فأصبَح به معْتضدا ، وحفِظ به مَقامَ جَدّه وإن رَغِم المستكْبِرون ، وأنعَم به علىٰ أُمَّته أمانًا لولاه ما كانوا ينْظُرون ولا يبْصرُون ، و﴿ مَا كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنْتَ فيهِمْ وما كانَ اللهُ مُعذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون ﴾ .

يحمدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ماآتاه من توفيقٍ يُذَلِّل له الصَّعْبَ الجامِح ، ويُدْنِى منه البعيدَ النَّازِح ، ويُخْلِف علىٰ الدِّين من صلاحِه الخلَفَ الصالح ، ويُلْزِم آراءَه جَدَدَ السُّعود الواضح ، ويُرِيه آياتِ الإرشاد فإنَّه نازح (؟) قَدْح القادِح ، ويسألُه أن يصلِّيَ علىٰ جدّه محمدٍ الذى أنجىٰ أهـلَ الإيمـانِ ببعْثِه ، وطهَّر بهَدْيه من رِجس الكُفْر وخبثه ، وأجار باتِّباعه من عَنَتِ الشيطان وعَبَثِه ، وأوضَح جادّةَ التوحيد لكلِّ مشركِ الاعتقاد مثَلِّثه ، وعلىٰ أبينا أمير المؤمنين علىِّ بن أبى طالب الذى جادلَتْ يدُه بلسان ذى الفَقَار ، وقَسَّم ولاؤه وعَداوتُه بين الأتْقياء والأشْقياء الجنَّةَ والنار ، وعلىٰ الأئمة من ذُرّيتهما الذين أذلَّ اللهُ بعِزَّتهم أهل الإلْحاد ، وأصفىٰ بمـا سفَكُوه من دِمائهم موارِدَ الرشاد ، وجرتْ أيديهم وألسِنَتُهم بأقواتِ القلوب وأرزاقِ العباد ، وسلَّم ومجَّد ، ووالىٰ وجدّد .

وإن الله سبحانه ما أخلى قطُّ دولةَ أمير المؤمنين التي هي مَهْبِط الهُدى ومَحَطّ النَّدى، ومورِدُ الحياةِ للولىّ والرَّدى للعِدا، من لُطْف يتلافى الحادثةَ ويَشْعَبها ويرأَبُها، ونعمةٍ تبلغ بها النفوس أربها؛ ومَوْهِبة تَشُدُّ موضِعَ الكَلْم، وتسُدُّ موضع الثَّلْم؛ وتُجَلّي غمائِمَ الغُمَم، وتُحَلّي مَغانم النِّعم؛ وتستوفِى شرائطَ المَناجِح، وتستَدْنِي فَوارِط المَصالح؛ ولم يكُنْ ينسى الحادثةَ في السيد الأجلّ الملكِ المنصور رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجنةَ متقلَّبه ومَثْواه؛ التي كادَتْ لها أواخي(١) المُلْك تترَعْزَع، ومَبانِى التدبير تتضَعْضَع؛ إلّا ما نظر فيه أمير المؤمنين بنُور الله من آصطفائك أيها السيِّدُ الأجل الملك الناصر: ـ أدام الله قدرتَك ـ لأن تقُوم بخدمته بَعْده، وتَسُدَّ في تَقْدِمة جيُوشه مَسَدّه؛ وتَقْفُو في ولائه أثرَه، ولا تفْقدَ منه إلا أَثَره؛ فوَازتِ الفادحةُ فيه النعمةَ فيك، حتّى تستوفى حظَّه من أمير المؤمنين بأجْر لا يُضيعُ اللهُ فيه عمَلَه، فاستوجبَ مقْعَد صِدق بما آعتقَدَه من تأدِية الأمانةِ له وحَمْله؛ وآستحَقَّ أن يُنَضِّر اللهُ وجهَه بما أخْلَقَه اللهُ من جِسمه في مَوَاقف الجهاد وبَذْله؛ ومضى في ذِمَام رضا أمير المؤمنين: وهو الذِّمام الذى لا يَقْطع اللهُ منه ماأمَرَه أن يَصله؛ وأُتْبِع من دعائه بتُحَف أوّل ماتلقاه بالرَّوْح والرَّيْحان، وذَخَرَتْ له من شفاعته ماعليه معوَّلُ أهل الإيمان في الأمان؛ فرَعى الله له قَطْعه البيداءَ إلى أمير المؤمنين وتجشُّمَه الأسفار، ووَطْأَه المَواطِئَ التي تَغيظ الكُفّار؛ وطُلُوعَه على أبواب أمير المؤمنين طُلوعَ أنوارِ النهار، وهِجْرتَه التي جمعتْ له أجْرين: أجر المهاجِرين وأجْرَ الأنصار؛ وشكَرله ذلك المَسْعى الذى بلغ من الشِّرك الثار، وبَلَّغ

(١) الأواخى جمع أخية وهى عود يعرض في الحائط ويدفن طرفاه فيه ويصير وسطه كالعروة تشد إليه الدابة. انظر اللسان ج ١٨ ص ٢٠٤.

الإسلامَ الإيثار . وما لقِىَ ربَّه حتّى تعرَّضَ للشَّهادة بين مُختَلَف الصِّفاح، ومشتَجَر الرِّماح، ومفتَرَق الأجسامِ من الأرْواح ؛ وكانت مشاهدتُه لأمير المؤمنين أجْرًا فوقَ الشَّهاده، ومِنَّةً لله تعالىٰ عليه له بها ما لِلَّذِينَ أحسَنُوا الحُسْنىٰ وزِيادَه ؛ وحتّى رآكَ أيُّها السيدُ الأجلُّ الملك النـاصر ـ أدام الله قدرتَك ـ قد أقررْتَ ناظِرَه، وأرغَمْتَ مُناظِره ؛ وشَدَدْتَ سـلطانَه، وسَـدَدْتَ مكانَه ؛ ورَمىٰ بكَ فأصاب، وسقىٰ بك فصاب ، وجمعْتَ ما فيـه من أُبَّهة المَشِيب إلىٰ ما فيك من مَضَاء الشَّباب؛ ولَقِنتَ ماأفادَتْه التَّجارِبُ جُمْـله ، وأعانَتْك المحاسِنُ التى هى فيك جُلّه ؛ وقَلَّبَ عليكَ إسناد الفَتكات فتقَلَّبت ، وأوْضَح لك مِنْهاجَ البَركات فتقبَّلْت؛ وسَـدَّدَكَ سَهْما، وجَرَّدَكَ شَهْما؛ وآنْتَضاكَ فارْتضـاكَ غَرْبا ، وآثرَكَ علىٰ آثَرِ ولده إمامةً فى التـدبير وحَرْبا ؛ وكُنْتَ فى السـلم لِسانَهُ الآخِذَ بمجامع القُلوب ، وفى الحَرْب سِنانَه النافذَ فى مَضايِق الخُطوب ، وساقَتَـه إذا طَاب ، وطليعتَـه إذا طَلَب ، وقلْبَ جيْشـه إذا ثبَتَ وجناحَهُ إذا وَثَب ؛ ولا عُذْرَ لشِبْل نشأَ فى حَجْر أسـد ، ولا لهلالٍ آستَمْلىٰ النُّورَ من شمسٍ وآستَمَدّ :

هذا ولو لم يكُنْ لك هذا الإسنادُ فى هذا الحديث، وهذا المُسْنَد الجامع من قَديم الفَخْر وحَديث ؛ لأغنَتْك غَرِيزةٌ عزيزة وسَجِيَّة سَجِيَّة وشِيمةٌ وَسِيمه، وخَلائقُ، فيهـا ما تُحِبُّ الخَلائق، ونَحائِز، لم يَحُزْ مثلَها حائِز؛ ومَحَاسِن، ماؤُها غيرُ آسِن، ومآثِر، جَدّ غيرِ عاثِر؛ ومفَاخر، غفَـل عنها الأوَّلُ : ليستأثِرَ بهـا الآخِر؛ وبراعةُ لِسان، يَنْسَجِم قِطارُها ، وشَجـاعة جَنَان ، تَضْطرِم نارُها ؛ وخِلاَلٌ جِلاَلٌ عليكَ شـواهدُ أنوارها تتوضَّح، ومَساعِى مُساعِد لديْكَ كمائِمُ نَوْرها تتفتَّح؛ فكيف وقد جمعْتَ لك فى المجد بين نَفْس وأبٍ وعَمّ ، ووجب أن سألك من آصْطفاء أمير المؤمنين ماذا حَصَل ثُمَّ علىٰ الخلق عَمّ؛ فيومُك واسطةٌ فى المجد بين غَدِك وأمْسِك، وكلُّ نادٍ من أنْدِية الفَخَار

لك أن تقولَ فيــه وعلىٰ غَيْرِكَ ان يُمْسِــك ؛ فبُشْراك أنَّ أَنْعُمَ أميرِ المؤمنين موصُولةٌ منكم بِوالدٍ وولَد ، وأن شَمْس ملكه بكم كالشمسِ أقوىٰ ما كانتْ فى بيْتِ الأسَد .

ولمـا رأىٰ اللهُ تقلُّبَ وجه أميرالمؤمنين فى سَمَائه ولّاه منَ آختِيارِك قبْله ، وقامت حُجَّتُه عندَ الله باستِكْفائِك وزيرًا له ووَزَرا لِلّه ؛ فناجَتْه مَراشِدُ الإلهام ، وأضاءت له مقاصِدُ لاتَعْقِلُها كلُّ الأفهام ؛ وعَزَم له علىٰ أن قَلَّدك تدبيرَ مملكتِه الذى أعْرَقْتَ فى إرْثِه وأغْرَقت فى كَسْبه ، ومهَّد لك أبعدَ غايةٍ فى الفخر بمـا يَسَّرلك من قُرْبه ؛ ولقد سـبَقَ أميرُ المؤمنين إلىٰ آختيارك قبْلَ قولِ لسانِه بضَميرِ قلْبه ، وذكَرَ فيك قول ربه : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ . وقلّدك لأنك سيفٌ من سُيوف الله تعـالىٰ يحقُّ به التقـلُّد وله التَّقْليـد ، وآصطفاك علىٰ عِلْمٍ بأنك واحدٌ منتَظِم فى معْنىٰ العَديد ؛ وأحْيا فى سلطان جُيوشِه سُنَّة جدِّه الإمام المستنصرِ بالله فى أمير جُيُوشــه الأول ، وأقامك بعْده كما أقام بعْده ولَدَه وإنه لَيَرْجُو أن تكون أفْضَلَ من الأفْضَلِ ؛ وخرج أمرُه إليــك بأن يُوعَزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجلّ لك بتقليدك وزارَتَه التى أحلَّتْك رَبْوتَها ، وأحَلَّ لك صَهْوتَها ؛ وحَلّاك نِعمتَها ، و (١) لك نَعْمتَها ؛ فتقلَّدْ وزارةَ أمير المؤمنـــين من رُتْبتها التى تناهَتْ فى الإنَافه ، إلىٰ أنْ لارُتْبَةَ فوْقَها إلّا ماجعله اللهُ تعالىٰ للخلافه ؛ وتبوّأْ منها صَدْرا لاتتطلّع إليــه عُيونُ الصُّدُور ، وآعتَقِلْ منها فى درجةٍ علىٰ مثلها تَدُور البُدُور : ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ : وقُلِ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ . وباشِرْ مستَبْشِرا ، وآستَوْطن متَدَيِّرا ، وآبسُــطْ يدَك فقد فوّضَ إليك أميرُ المؤمنين بَسْــطا وقبْضا ، وآرفَعْ ناظِرَك فقــد أباحَ لك رَفْعا وخَفْضا ؛ وآثبُتْ علىٰ درجات

(١) بياض بالأصول بقدر كلمة .

السعادة فقد جعل لحُكمِك تَثْبِيتا ودَحْضا ، وآعقِدْ حُبىٰ العَزَمات للصالح فقد أطْلَق بأمْرِك عَقْدا ونَقْضا ، وآنفُذْ فيما أهَّلك له فقد أدىٰ بك نافِلةً من السِّياسة وفَرضا ؛ وصَرِّفْ أُمورَ المملكة فإليْـك الصَّرْف والتصْريف ، وثَقِّفْ أَوَدَ الأيام فعليكَ أمانةُ التهذيب والتثْقيف ، وآسْحَبْ ذُيولَ الفَخَار حيثُ لاتَصِل التيِّجان ، وآمْلأْ لحَظًا من نور الله تعالىٰ حيثُ نتَّقِي الأبصارُ لُحَيْنَ الأجْفان ، إنَّ هذا لَهُوَ الفَضْل المُبِين فارْتَبِطْه بالتقوىٰ التي هى عُرْوةُ النَّجاة وذخيرةُ الحياةِ والمَمَات ، وصَفْوةُ ماتلَقَّىٰ آدم من رَبِّه من الكلمات ، وخيرُ ماقدّمَته النفُوس لغَدِها فى أمْسِها ، وجادلَتْ [به] يومَ تجادِلُ كلُّ نفْسٍ عن نَفْسِها ، قال اللهُ سبحانه ومَنْ أصدَقُ من الله قِيلا : ﴿ والآخِرةُ خَيْرٌ لِمَن آتَّقىٰ ولا تُظْلَمُونَ فَتِيلا ﴾ . وآستَتِمَّ بالعدل نِعَمَ الله تعالىٰ عليك ، وأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إليْك ، وأْمُرْ بالمعْروف فإنَّك من أهْله ، وآنْهَ عن المنكَر كما كنت تنزَّهْتَ عن فِعْله . وأوْلياءُ أمير المؤْمنين ، وأنصارُه المَيامين ، ومن يَحُفُّ بمَقامِ مُلْكه من الأمراء المطَوَّقين ، والأعيانِ المعَصَّبين ، والأماثِلِ والأجنادِ أجمعين ؛ فهُم أولياؤُه حقّا ، ومماليكُه رِقّا ، والذين تبوَّءُوا الدارَ والإيمانَ سَبْقا ، وأنصارُه غَرْبًا كما أنَّ عسكرَك أنصارُه شَرْقا ؛ فهُم وهُمْ يدٌ فى الطاعة علىٰ مَنْ نَاواهم ، يَسْعىٰ بذِمَّتهم أدْناهم ؛ وتَحكّم فيهم وأنتَ عنْدَ أمير المؤمنين أعْلاهم .

هذا وقد كان السيدُ الأجلُّ الملكُ المنصور ـ رضى الله عنه ـ آستمْطَر لهم [من] إنعام أمير المؤمنين المساحةَ بعلَقِهم ، ووَاسىٰ (١) فى هذه المَنْقَبة التى آستحَقَّ بها حُسْنَ الذكر بين طوائفِهم وفِرَقِهم ، فصنهم من جائحاتِ الآعتراض ، وآبْذُل لهم صالحاتِ الأغْراض ، وآرفَعْ دُونَهم الحِجاب ، ويَسِّر لهُمُ الأَسْباب ، وآستَوْفِ منهم عنـد

---

(١) لعله وساوىٰ كما لايخفىٰ .

الحُضُور إليـك غاياتِ الخطاب ؛ وصَرِّفْهم فى بِلاد أمير المؤمنين وُلَاةً وحُمَـاه، كما تُصَرِّفُهم فى أوقاتِ الحرب لُمَـاةً وكُمَاه ؛ وعَرِّفهم بركةَ سُلطانِك، وٱقْتـدْ قلوبَهم بزِمَام إحْسانِك .

وأما القُضاة والدُّعاةُ فهـم بين كَفالَتِـك وهَـدْيِك، والتصريف على أمْرِك ونَهْيِك ؛ فاستعمِلْ منهم مَنْ أحسَنَ عَملا ، فأمَّا بالعِنايَات فلا .

والجهاد فأنتَ راضِعُ دَرّه ، وناشِـئةُ حَجْره ؛ وظُهورُ الخيل مَواطِنُك ، وظِلال الجبل مَسَاكِنُك ؛ وفى ظُلُماتِ مَشَاكِله ، تُجْلَى محاسِنُك ، وفى أعقـاب نَوَازله ، تُتْلَى مَيامِنُك ؛ فشَمِّر له عَن ساقٍ من القَنَا ، وخُضْ فيه بَحْرًا من الظُّبَا ؛ وٱحْلُلْ فيه عُقْدَة كلمات الله سبحانه وَثِيقاتِ الحُبَى ؛ وأَسِلِ الوِهادَ بدماء العِـدا وٱرفَعْ برءُوسهم الرُّبا ؛ حتَّى يأتِيَ اللهُ بالفتح الذى يرجُو أمير المؤمنين أن يكونَ مذْخُورا لأيَّامك ، ومشهودًا به يومَ مَقَامك بين يدَيْه من لِسانِ إمامِك .

والأموال فهى زُبْدة حَلَب اللُّطْف لا العُنْف ، وجُمَّةٌ يمتَرِيها الرِّفْق لا العَسْف ، وما برِحَتْ أجدّ ذخائرِ الدُّول للصُّـفُوف ، وأَحَدّ أسْلِحتها التى تَمْضِى وقد تَنْبُـو السُّـيوف ؛ فقدِّمْ للبلادِ الآستِعْمار ، تُقدِّمْ لكَ الآِسْتِثمار ، وقَطْرةٌ من عدْل تَزْخَرُ بها من مالٍ بِحار .

والرَّعايا فهم ودائعُ الله لأمير المؤمنين وودائعُه لدَيْك ، فاقبِضْ عنهم الأيْدِى وٱبْسُطْ بالعدلِ فيهم يدَيْك ؛ وكُنْ بهم رءُوفا ، وعليهم عَطُوفا ؛ وٱجعل الضعيفَ منهم فى الحقِّ قوِيًّا والقَوِىَّ فى الباطل ضَـعِيفا ؛ ووَكِّلْ برعايتهم ناظِرَ ٱجتهادك ، وٱجعلْ ألْسِنَتَهم بالدُّعاء من سـلاحك وقلوبَهم بالمحبَّة من أجْنادِك ؛ ولو جاز أن يستَغْنِيَ عن

الوصيَّة قائمٌ بأمر، أو جالِسٌ فى صَدْر، لاستغنَيْتَ عنها بفِطنتك الزَّكيَّه، وفِطْرتك الذَّكيَّه؛ ولكنَّها من أمير المؤمنين ذِكْرىٰ لك وأنتَ من المؤْمنين، وعَرابةُ بركةٍ فتلَقَّ رايتَها باليمين؛ والله تعالىٰ يؤيِّدك أيُّها السيدُ الأجل ـ أدام الله قُدرتَك ـ بالنصر العَزيز، ويَقْضِى لدولة أمير المؤمنين علىٰ يدَيْك بالفَتْح الوَجيز، ولأهلها فى نَظَرك بالأمر الحريز، ويمتِّع دَسْت الملك بحِلىٰ مَجْدِك الإبريز، ويُقِرُّ عيونَ الأعيانِ بما يَظْهر لك فى مَيْدان السعادة من السَّبْق والتَّبْريز، ويُمَلِّيك من نِحْلة أنعُمِ أمير المؤمنين بما مَلَّكك إيَّاه مِلْك التحْويز، ويُلْحِق بك فى المجْد أوَّلَك، ويُحْمِد فيك العَواقِبَ ولَك، فاْعلَمْ ذلك من أمر أمير المؤمنين ورَسْمه، واْعمَلْ بمُوجبِه وحُكْمه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

المذهب الثالث

(أن يفتتح العهد بخُطْبة)

وهو ماحكاه فى "التعريف" عن الصاحب فخر الدين إبراهيمَ بنِ لُقْمان، فيما كَتَب به للظاهر بِيبَرْس، وذكر أن اْبنَ لُقْمان ليس بحُجَّة. ثم قال: علىٰ أن الفاضل مُحْيي الدين بنَ عبد الظاهر قد تبعه فيما كَتَب به للمنصور قلاوُون.

قلت: ليس اْبنُ لقمانَ هو المبتكرَ لهذا المذْهَب، بل كان موجُودا معمُولا به. استعمله كُتَّاب الإنشاء بديوان الخلافة ببغدادَ قبلَ ذلك بزمَنٍ طويل، وهو مَنْبَع الكتابة الذى عنه يَصْدُر الترتيب، وقاعدتُها التى يُبْنىٰ عليها المصطلَح. وعليه كُتِب عهد العادل أبى بكر بن أيُّوب أخى السلطان صلاح الدين يوسف (١) «من بغداد». وإليه مال اْبنُ الأَثير فى "المثل السائر". وذكر أن الاْفتتاح بـ«هذا ماعُهِد» قد

---

(١) لعله للملك الكامل اْبن الملك العادل الخ كما يفيده ما يأتى فى صلب العهد. تأمل.

آبتُذل بكثرة الآستعمال، وآبنُ لقمانَ تابعٌ لامَتْبُوع . علىٰ أن إنشاءَه يدلُّ علىٰ تقدُّمه فى الكتابة، وهو وإنْ كان ليس بحجة فابنُ الأثير حجةٌ فى هذا الشأن، يُرْجَع إليه ويعمل بقوله ، ويؤيِّده حديثُ : "كُلُّ أَمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبْدَأ فِيه بالحَمْدُ لله فهو أجْذَمُ" . ولذلك مال أهلُ العصر إلىٰ آختياره والعملِ عليه ؛ إلا أنَّ فيه مخالفةً لما وقَع فى عهدِ النبي صلّى الله عليه وسلم لعَمْرو بن حزم وغيرِه من عُهُود الصحابة علىٰ ماتقدّم ذكره .

وبكلِّ حال فأهلُ هذا المذْهَب لايخرُجون فيه عن ضربين : ضرب يعبِّرون عن الأوامر الواردةِ فى العهد عن الخليفة بقوله : « أمَره بكذا وأمره بكذا » وهى طريقة المتقدّمين منهم، وعليها كُتِب عهدُ العادل أبى بكر المشار إليه . وضربٍ يعبِّرون بقولهم « أنْ يفْعل كذا وكذا » وما يجرى هذا المَجْرىٰ، وهى طريقة أهل زمانِنا .

وهذه نسخةُ العهد المكتوبِ به من ديوان الخلافة ببغدادَ علىٰ هذه الطريقة، للعادل(١) أبى بكرِ بنِ أيُّوب أخى(٢) السلطان صلاح الدين « يوسفَ بنِ أيوب » وهى :

الحمدُ لله الذى آطْمأنَّتِ القلوبُ بذِكْره، ووجَبَ علىٰ الخلائق جزيلُ حَمْده وشُكْره؛ ووسِعَتْ كلَّ شىءٍ رحمتُه، وظهرَتْ فى كل أمرٍ حكمتُه؛ ودلَّ علىٰ وَحْدانيّته بعجائبِ ماأحكمه صُنْعا وتَدْبيرا ، وخلَق كلَّ شىء فقَدّره تَقْديرا ؛ مُمِدِّ الشاكرين بنَعمه التى لاتُحصىٰ عَددا ، وعالِمِ الغيبِ الذى لايُظْهِرُ علىٰ غَيْبه أحدًا ؛ لامُعَقِّبَ لحُكْمه فى الإبْرام والنَّقْض، ولا يَئُودُه حِفْظُ السمٰواتِ والأَرْض ؛ تعالىٰ أنْ يُحِيط

(١) تقدّم قبلا التنبيه عليه . تأمل .

(٢) فى الأصول عم السلطان وهو سبق قلم .

بُحْكِمه الضـمير ، وجلَّ أن يبلُغَ وصْـفَه البيانُ والتفسير : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وهو السَّمِيعُ البَصِـــيرُ ﴾ .

والحمدُ لله الذى أرسـلَ محمدًا صلّى الله عليه وسلم بالحقِّ بَشِيرا ونَذِيرا ، وداعيًا إلىٰ الله بإذْنِه وسِراجًا مُنِيرا ؛ وٱبتعَثَه هادِيًا للخلق ، وأوضَح به مَنَاهِجَ الرَّشَد وسُبُلَ الحق ؛ وٱصطفاه من أشْرف الأنسابِ وأعزِّ القبائل ، وٱجْتَباه لإيضَاح البراهينِ والدَّلائل ؛ وجعله لديْه أعظَمَ الشُّـفعاء وأقْربَ الوَسَائل ، فقذَف صلّى الله عليـه وسلم بالحَقِّ علىٰ الباطل ؛ وحملَ الناسَ بشريعتِه الهاديَةِ علىٰ المَحَجَّة البيضاءِ والسَّنَن العادل ، حتّى ٱستقام ٱعْوِجاجُ كلِّ زائِـغ ورجَع إلىٰ الحقِّ كلُّ حائد عنه ومائِل ؛ وسجَدَلله كلُّ شيءٍ تَتَفَيَّأُ ظِلاله عن اليمينِ والشَّمائل ، صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه الكرامِ الأفاضِل ، صـلاةً مستمِرّة بالغُدُوات والأصائِل ؛ خصوصًا علىٰ عمِّه وصِنْو أبيـه العباسِ بن عبد المطلب الذى ٱشـتهرَتْ مَنَاقِبُه فى المَجامع والمحَافِل ؛ ودَرّتْ ببركَةِ الاَسْتِسقاء به أخلافُ السُّحُب الهَواطِل ، وفاز من تنصِـيصِ الرسول علىٰ عَقِبـه فى الخلافة بمـا لم يفُزْ به أحدٌ من الأوائِل .

والحمدُ لله الذى حازَ مواريثَ النبُوّة والإمامه ، ووَفَّر جزيلَ الأقسام من الفَضْـل والكَرامه ؛ لعَبْده وخليفته ، ووارث نبِيّه ومُحْيِى شريعتِه ؛ الذى أحلَّه الله عزّ وجلّ من مَعَارج الشرَف والجَلال فى أرفَعِ ذِرْوه ، وأعلَقَه من حُسْن التوفيق الإلٰهىِّ بأمْتَن عِصْمة وأوثَق عُرْوه ؛ وٱستخرجه من أنْمرف نِجَار وعُنْصَر ، وٱختصَّه بأزكىٰ مِنْحة وأعظَمِ مَفْخَر ؛ ونَصَبه للمؤمنين عَلَمـا ، وٱختاره للسلمين إمامًا وحَكَمًا ؛ وناط به أمْرَ دِينه الحَنِيف ، وجعله قائمـًا بالعدل والإنصاف بين القوىّ والضَّعِيف ؛ إمامِ المسلمين ، وخليفة ربِّ العـالمين ، أبِى جَعْفر المنصورِ المستنصِر بٱلله أميرِ المؤمنين ؛

آبن الإمام السعيد التقيّ، أبي نَصْر محمد الظاهرِ بأمْر الله، آبن الإمام السعيد الوفيّ أبي العبّاس أحمدَ الناصرِ لدين الله، آبن الإمام السعيدِ أبي محمد المستضيءِ بأمْر الله أميرِ المؤمنين، صلواتُ الله عليهم (١) أجمعين، وعلىٰ آبائه الطاهرين، الأئمة المهديين؛ الذين قَضَوْا بالحقّ وبه كانُوا يَعْدِلُون، ولقُوا اللهَ تعالىٰ وهو عنهم راضٍ وهم عنه راضُون.

وبعد، فبحَسَب ماأفاضه اللهُ علىٰ أميرِ المؤمنين ـ صلواتُ الله (١) عليه وسلامُه ـ من خلافَتِه فى الأرض، وفوّضَه إلىٰ نَظَره المقدّس فى الأمور من الإبْرام والنَّقْض، وما آستخْلَصه له من حِياطة بلاده وعبَاده، ووكَلَه إلىٰ شريف نَظَره ومُقدَّس آجتهادِه؛ لايزال ـ صلوات الله (١) عليه ـ يَكْلأُ العِباد بعَيْن الرِّعايه، ويسْلُك بهم فى المصالح العامّةِ والخاصَّة مذَاهِبَ الرَّشَد وسُبُلَ الهِدَايه؛ وينْشُر عليهم جناحَىْ عَدْله وإحسانه، ويُنْعِم لهم النظَرَ فى آرتياد الأُمَنَاء والصُّلَحاء من خُلَصاء أكفائِه وأعوانِه؛ متخيِّرًا للاِسترعاءِ مَن آستحْمَد إليه بمشكُور المساعى، وتعرَّف إليه فى سياسة الرَّعايا بجميل الأسبابِ والدَّواعى؛ وسلك فى مفْتَرَض الطاعة الواجبة علىٰ الخلائق قَصْدَ السبيل، وعُلِم منه حُسْنُ الاضْطِلاع فى مصالح المسلمين بالعِبْءِ الثَّقِيل؛ واللهُ عزّ وجلّ يؤيِّد آراءَ أميرِ المؤمنين ـ صلواتُ الله (١) عليه ـ بالتأييد والتَّسْديد، ويُمِدّه أبدًا من أقسام التوفيق الإلٰهىّ بالمْوفور والمَزِيد؛ ويَقْرُن عزائمَه الشريفةَ باليُمْن والنَّجاح، ويُسَنِّى له فيما يأتِى ويَذَر أسبابَ الخير والصَّلَاح؛ وما توفيقُ أميرِ المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنيب.

(١) لم نقف علىٰ استعمال هذه الصيغ فى عهود غير الفاطميين إلا فى هذا العهد.

ولمـا وفّق الله تعالىٰ نصيرَ الدين (١) محمدَ بْن سيف الدِّين أبى بكر بن أيوب من الطاعة المشهوره ، والخدم المشكوره ، والحُظْوة فى جهاد أعداءِ الدين بالمَسَاعى الصـالحه ، والفَوْزِ من المراضى الشريفة الإماميَّة ـ أجلها الله تعالىٰ ـ بالمَغَانم الجزِيلة والصَّفْقة الرابِحه ؛ لمـا وصَلَ فيه سالفَ شريفِ الاختصاص بآنِفِه ، وشفَع تالدَه فى تحصيل مأثور الاستخلاص بطارِفه ، واستوجَبَ بسُلُوكه فى الطاعة المفرُوضة مَزِيدَ الإكْرام والتفضيل ، وضَرَع فى الإنعام عليـه بمَنْشُور شريف إمامىٍّ يسْـلُك فى اتّباعه هُداه والعملِ بمَراشِده سواءَ الصِّراط وقَصْـدَ السبيل ـ اقتضتِ الآراءُ الشريفةُ المقدّسةُ ـ زادها الله تعالىٰ جلالا متألّقَ الأنوار ، وقُدْسا يَتَساوىٰ فى تعظيمه مَنْ هو مستَخْفٍ بالليـل وسارِبٌ بالنهـار ـ الإيعازَ بإجابته إلىٰ ما وَجَّه أملَه إلىٰ الإنافة فيه به إليه ، والجَذْبَ بضَبْعيْه إلىٰ ذِرْوة الاجتباء الذى تظْهَر أشِـعَّةُ أنواره الباهرةِ عليه ؛ فقلَّده ـ علىٰ خِيرةِ الله تعـالىٰ ـ الزَّعامةَ والغَلَّات ، وأعمالَ الحرب والمَعـاوِنَ والأحْداثَ والخَراجَ والضِّياعَ والصَّدَقات ، والجوالِىَ وسائرَ وجُوه الجِبَايات ؛ والعَرْض والعطاء ، والنَّفقة فى الأولياء ؛ والمظالمَ والحِسبةَ فى بلاده ، وما يفتَتِحه ويستولِى عليه من بلاد الفرَنْج المُلاحِين ، وبلاد من تَبْرُز إليـه الأوامرُ الشريفةُ بقَصْده من الشاذِّين عن الإجماع المنعقد من المسلمين ؛ و[من] يتعدّى حدودَ الله تعالىٰ بمخالفَة من يصل(؟) من الأعمال الصالحات بولائه المفروضِ علىٰ الخلائق مقْبُوله ، وطاعتُه ضاعف الله جلالَه بطاعته وطاعةِ رسول الله صلى الله عليه وسلم موصُوله ؛ حيث قال عز من قائل : ﴿ يٰأَيُّها الَّذِيـنَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ . واعتَمَد ـ صلواتُ الله عليه وسلامه ـ فى ذٰلك علىٰ حُسْن نظَره ومَدَد رِعايتِه ، وألقىٰ مقاليدَ التفويض إلىٰ وُفُور اجتهاده وكمال سِياستِه ؛ وخَصَّه من هـذا الإنعام الجزيل بمـا

(١) المشهور ناصر الدين .

يبقىٰ له علىٰ تعاقُب الدهر وٱستمْراره، ويخلّد له علىٰ ممرّ الزمان حسْنَ ذكره وجزيل نَخَاره، وحباه بتقليد يُوطِّد له قواعدَ الممالك، ويفْتح بإقليده رِتاجَ الأبواب والمَسَالك؛ ويفيد قاعدتَه فى بلاده زيادةَ تقريرٍ وتَمْهيد، ويَطير به صِيتُه فى كلّ قريب وبَعيد؛ ووَسَمه بالملك الأجلّ، السيد، الكامل، المجاهد، المرابط؛ نَصير الدين، ركن الإسلام، أَثِير الأنام، تاج الملُوك والسلاطين، قامع الكَفَرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمرِّدين، غازى بك محمد، بنِ أبى بكر، بن أيوب، معين أمير المؤمنين؛ رعايةً لسَوابق خِدَمه وخِدَم أسلافه وآبائه، عن وُفُور ٱجتِبائه، وكمال ٱزْدلافه؛ وإنافةً من ذِرْوة القُرْب إلىٰ محلٍّ كريم، وٱختصاصًا له بالإحسان الذى لا يُلَقَّاه إلَّا من هو كما قال تعالىٰ: ﴿ ذُو حَظٍّ عَظِيم ﴾. وُثُوقا بصحَّة ديانته التى يسْلُك فيها سَواءَ سبِيله، وٱستنامةً إلىٰ أمانته فى الخدمة التى يَنْصَح فيها لله تعالىٰ ولرسوله؛ ورُكُونًا إلىٰ [كون] الإنعام عليه موضُوعا بحمد الله تعالىٰ فى أحسن مَوْضِع، واقعًا به لديه فى خير مستَقَرّ ومستَوْدَع.

وأمير المؤمنين ـ صلواتُ الله عليه (لا زالتِ الخِيَرَةُ موصولةً بآرائه، والتأييدُ الإلٰهِىُّ مقرونا بإنفاذه وإمضائه) يستمِدّ من الله عز وجلّ حُسْن الإعانةِ فى ٱصطِفائه الذى ٱقتضاه نظرُه الشريفُ وٱعتمادُه، وأدّى إليه ٱرتيادُه المقدَّس الإمامىّ وٱجتهادُه؛ وحسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْم الوكيل.

أمره بتقوىٰ الله تعالىٰ التى هى الجُنَّة الواقيه، والنِّعمةُ الباقيه؛ والمَلْجأ المَنِيع، والعِمَادُ الرفيع؛ والذخيرةُ النافعةُ فى السِّرّ والنَّجْوىٰ، والجَذْوةُ المقتَبَسة من قوله سبحانه: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ ﴾ وأن يدَّرِع بشِعارَها، فى جميع الأقوال والأفعال، ويهتدىَ بأنوارها، فى مشكلات الأُمُور والأحوال؛ وأن يعمل بها سرًّا

وجَهْرا، ويشْرَحَ للقيام بحُدُودها الواجبة صَــدْرا؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللّٰهَ يُكَفِّرْ عنه سَيِّئاتِهِ ويُعْظِمْ لَهُ أجْرا ﴾ .

وأمره بتلاوة كتاب الله متدبِّرا غَوامِضَ عجائبه ، سالكًا سبيلَ الرَّشاد والهِــدايةِ فى العمَلِ به ؛ وأن يجعله مثالًا يَتَّبِعه ويَقْتفيه ، ودليــلًا يهتدى بمَراشِــده الواضحةِ فى أوامره ونوَاهيه ؛ فإنه الثَّقَل الأعْظم ، وسَبَبُ الله المُحْكَم ، والنورُ الذى يهْــدى به إلىٰ التى هى أقْوَم ؛ ضَرَبَ الله تعالىٰ فيــه لعباده جوامِعَ الأمثال ، وبيَّن لهم بهُــداه الرُّشْد والضَّلال ، وفَرَّق بدلائله الواضحةِ بيْنَ الحرام والحَلال ؛ فقال عز من قائل : ﴿ هٰذا بَيَانٌ لِلنَّاس وهُدًى ومَوْعِظَةٌ للمُتَّقِين ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ كِتَابٌ أنْزَلْناهُ إلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِه ولِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألْبَاب ﴾ .

وأمره بالمحافظة علىٰ مَفْرُوض الصلوات ، والدُّخول فيها علىٰ أكمل هيئةٍ من قَوانِين الخُشُوع والإخْبات ؛ وأن يكونَ نظَرُه فى مَوْضِع سجوده من الأرض ، وأن يمثِّل لنَفْسه فى ذٰلك موْقِفَه بينَ يدَيِ الله تعالىٰ يوم العَرْض ؛ قال الله تعــالىٰ : ﴿ قَدْ أفْلَحَ المؤْمِنُون الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خاشعُون ﴾ ، وقال تعالىٰ : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ علىٰ المُؤْمنين كِتَابًا مَوْقُوتا ﴾ . وأن لايشتغِلَ بشاغِل عن أداء فُرُوضها الواجبه ، ولا يَلْهُوَ بسببٍ عن إقامة سُنَنها الراتِبه ؛ فإنها عِمادُ الدين الذى نمَتْ أعاليه ، ومِهادُ الشرع الذى تَمَّت قواعِدُه ومَبانِيه ؛ قال الله تعــالىٰ : ﴿ حَافِظُوا عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الوُسْطىٰ وَقُومُوا للهِ قانِتِين ﴾ ، وقال سبحانه : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عن الفَحْشَاءِ والمُنْكَر ﴾ .

وأمره أن يسعىٰ إلىٰ صلوات الجُمَع والأعياد ، ويقُومَ فى ذٰلك بما فرضه اللهُ تعالىٰ عليه وعلىٰ العباد ؛ وأن يتوجَّه إلىٰ الجَوامع والمساجِد متواضِعا ، ويَبْرُزَ إلىٰ المصَلَّيات الضاحية فى الأعياد خاشِــعا ؛ وأنْ يُحافِظَ فى تشييدِ قواعِدِ الإِســلام علىٰ الواجب

والمَنْدُوب ، ويعَظِّمَ باعتماد ذلك شَعائِرَالله التى هِى مِنْ تَقْوىٰ القُلُوب ؛ وأن يشمَلَ بوافر آهتمامِه وآعتِنـائه ، وكمالِ نَظَره وإرْعائه ؛ بيُوتَ الله التى هى مَحالُّ البركات ، ومواطِنُ العبادات ؛ والمساجدُ التى تأكَّد فى تعظيمها وإجْلالهـا حُكْمُه ، والبيوتُ التى أذِنَ اللهُ أن تُرْفَع ويُذْكَر فيها آسمُه ؛ وأن يرَتِّب لهـا من الخَدَم من يتبَتَّل لإزالة أدْناسها ، ويتصدّىٰ لإذكاء مَصابِيحِها فى الظَّلام وإيناسِها ؛ ويقُومَ لها بمـا تحتاجُ إليه من أسباب الصَّلاح والعِمَارات ، ويُحضرَ إليها مايليق من الفُرُش والكِسْوات .

وأمره بآتِّباع سنة النبيّ صلّىٰ الله عليه وسلم التى أوْضَح جدَدَها ، وثقَّف ـ عليـه السلام ـ أَوَدَها ؛ وأن يعتمِدَ فيها علىٰ الأسانيد التى نَقَلها الثِّقات ، والأحاديثِ التى صحَّت بالطرق السليمةِ والرِّوايات ؛ وأن يقتَدى بمـا جاءت به من مَكارِم الأخلاق التى نَدَب صلّىٰ الله عليه وسلم إلىٰ التمسك بسَببِها ، ورَغَّب أمته فى الأَخْذ بها والعمَل بأدَبِها ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه ومَا نَهَاكُمْ عَنْه فَانْتَهُوا ﴾ . وقال سبحانه وتعالىٰ : ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقَدْ أطَاعَ اللهَ ﴾ .

وأمره بمجالسة أهل العلم والدِّين ، وأُولِى الإخلاص فى طاعة الله تعالىٰ واليَقِين ؛ وآستشارتِهِم فى عَوَارض الشَّكِّ والآلتباس ، والعملِ بآرائِهم فى التمثيل والقِياس ؛ فإن الآستشارةَ لهم عينُ الهـدايه ، وأمْنٌ من الضَّلالة والغَوَايه ؛ وبها تَلْقَح عُقُم الأفهام والألباب ، ويُقْتَدَح زنادُ الرَّشَد والصواب ؛ قال الله تعالىٰ فى الإرشاد إلىٰ فضْلها ، والأمرِ فى التمسك بحبْلها : ﴿ وشَاوِرْهُمْ فى الْأَمْر ﴾ .

وأمره بمراعاةِ أحوال الجُنْد والعسكر فى ثُغُوره ، وأن يَشْمَلهم بحُسْن نظره وجميل تَدْبيره ؛ مستصْلِحا نِيّـاتهم بإدامة التلطُّف والتعهُّد ، مستوضِحًا أحوالَهم بمواصـلة التفحُّص والتفقُّد ؛ وأن يَسُوسَهم سياسةً تبعَثُهم علىٰ سلُوك المَنْهج السليم ، ويَهْديهم

فى ٱنتظامها وٱتّساقها إلىٰ الصِّراط المستقيم، ويحمِلَهم علىٰ القِيام بشرائط الخِدَم، والتمسُّك منها بأقوىٰ الأسباب وأمْتَنِ العِصَم، ويدْعُوَهم إلىٰ مصلحةِ التواصل والٱئْتِلاف، ويصُدَّهم عن مُوجِبات التخاذُل والٱخْتِلاف، وأن يعتَمِد فيهم شرائط الحَزْم فى الإعطاء والمَنْع، وما تقتضيه مصلحةُ أحوالهم من أسباب الخَفْض والرَّفْع؛ وأن يُثيبَ المحسنَ علىٰ إحسانه، ويُسْبِل علىٰ المُسِيء ماوَسِعه العفْوُ وٱحتمله الأمْرُ ذَيلَ صَفْحه وٱمتنانه، وأن يأخُذَ برأْى ذَوِى التَّجارب منهم والحُنْكَه، ويَجْتَنِى بمشاوَرَتهم فى الأمر ثَمَر الشَّركه؛ إذْ فى ذٰلك أمنٌ من خَطإ الٱنْفِراد، وتزحْزُح عن مَقام الزَّيْغ والٱستبداد.

وأمره بالتبتُّل لمـا يَليه من البلاد، ويتَّصل بنواحيه من ثُغُور أُولى الشِّرْك والعِناد؛ وأن يصْرِف مَجامعَ الٱلتفاتِ إليها، ويخُصَّها بوُفُور الٱهتمام بها والتطلُّع عليها؛ وأن يشْمَل مابِلاده من الحُصُون والمَعَاقل بالإحكام والإتْقان، ويتناهَىٰ فى أسبابِ مصالحها إلىٰ غايةِ الوُسْع ونِهَاية الإمْكان؛ وأن يشْحَنها بالمِيرة الكثيرةِ والذَّخائر، ويُمِدَّها من الأسْلحة والآلاتِ بالعَدَد المستَصْلح الوافِر؛ وأن يَتخَيَّر لِحراستها [من يختارُه] من الأُمَناء الثُّقاه، ولسَدِّها من يَنْتَخِبه من الشُّجْعان الكُماه؛ وأن يؤكِّد عليهم فى ٱستعمال أسباب الحِفْظةِ والٱستِظْهار، ويُوقِظَهم لِلاحتِراس من غَوائل الغَفْلة والٱغْتِرار؛ وأن يكونَ المشارُ إليهم ممن رَبَوا فى ممارسة الحُرُوب علىٰ مُكافَحة الشدائد، وتدَرَّبُوا فى نَصْب الحبائل للمشركين والأخذ عليهم بالمَراصد؛ وأن يَعتمِد هذا القبيلَ بمواصلة المَدَد، وكَثْرة العَدَد، والتَّوسِعَة فى النفَقة والعَطاء، والعملِ معهم بمـا يقتضيه حالُهم وتفاوُتُهم فى التقصير والغَنَاء؛ إذْ فى ذٰلك حسمٌ لمادَّة الأطماع فى بلاد الإسلام، وردٌّ لكيد المعانِدِين من عَبَدة الأصنام؛ فمعْلوم أنَّ هذا الغرضَ أوْلىٰ ما وُجِّهت إليه العناياتُ وصُرِفت، وأحقُّ ماقُصِرت عليه الهِمَم

ووُقِفَتْ ؛ فإن الله تعالىٰ جعله من أهَمِّ الفُروض التى كَرَّم فيها القيامَ بحقه، وأكبرِ الواجبات التى كَتَب العملَ بها علىٰ خلقه ؛ فقال سبحانه وتعالىٰ هاديًا فى ذٰلك إلىٰ سبيل الرشاد، ومحرِّضا لعباده علىٰ قيامهم بفُروض الجهاد : ﴿ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولا مَخْمَصَةٌ فى سَبِيلِ اللهِ ولا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ ولا يَنَالُونَ مِن عَدُوٍّ نَيْلا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالِحٌ إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المُحْسِنِينَ ولا يُنْفِقُونَ نَفَقةً صَغِيرةً ولا كَبِيرةً وَلَا يقْطَعُون وادِيًا إلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ ما كانُوا يَعْمَلُون ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ فَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُموهم ﴾ . وقال النبىّ صلّى الله عليه وسلم : "مَنْ نَزَل مَنْزِلا يُخِيفُ فيه المُشْرِكينَ ويُخِيفُونَه، كان له كأجْرِ ساجدٍ لا يرفَعُ رأسَه إلىٰ يوم القيامة، وأجرِ قائمٍ لا يَقْعُد إلىٰ يوم القيامة، وأجرِ صائمٍ لا يُفْطِر" . وقال عليه السلام : "غَدْوةٌ فى سبيلِ اللهِ أو رَوْحةٌ خيرٌ مما طلَعَتْ عليه الشمْسُ" . هذا قوله صلى الله عليه وسلم فى حقِّ من سمِع هذه المقالةَ فوقف لديْها، فكيف بمن كان كما قال عليه السلام : "ألَا أُخْبِرُكم بخَيْرِ الناس : ممسكٌ بعِنان فرَسِه كُلَّما سَمِع هَيْعةً طارَ إليْها" .

وأمره باقتفاءِ أوامرِ الله تعالىٰ فى رَعاياه ، والاهتداءِ إلىٰ رعاية العَدْل والإنصاف والإحسان بمَراشده الواضحة ووَصاياه ؛ وأن يسْلُك فى السياسة [بهم] سُبُل الصَّلاح ، ويشمَلَهم بِلِين الكَنَف وخَفْض الجَناح ؛ ويُمَدَّ ظلَّ رِعايته علىٰ مُسْلمِهم ومُعاهَدِهم ، ويُزَحزِحَ الأقذاءَ والشَّوائبَ عن مَنَاهلهم فى العدل ومَواردِهم ؛ وينظُرَ فى مَصَالحهم نظرا يُساوِى فيه بين الضعيف والقوىّ ، ويُقومَ بأَوَدِهم قيامًا يهتدى به ويهديهم فيه إلىٰ الصِّراط السَّوِىّ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإِحْسانِ و إيتاءِ ذِى القُرْبىٰ ويَنْهىٰ عَنِ الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْيِ يَعِظُكُمْ لعَلَّكم تَذَكَّرُون ﴾ .

وأمره باعتبار أسْبابِ الاِستِظْهار والأَمَنة، وٱستقْصاء الطاعة المستطاعة والقُدْرة المكَنَة، فى المساعدة علىٰ قضاء تَفَثِ حُجَّاج بيتِ الله الحَرَام، وزُوّار نبيّه عليه أفضلُ الصلاة والسـلام؛ وأن يُمِـدّهم بالإعانة فى ذٰلك علىٰ تحقيق الرجاء وبُلُوغ المَرَام، ويحـرُسَهم من التخطُّف والأذىٰ فى حالَتَيِ الظعن والمُقَـام؛ فإنَّ الحجَّ أحدُ أركان الدين المشيَّده، وفُروضِه الواجبـةِ المؤكَّده؛ قال الله تعـالىٰ: ﴿ وَلِلهِ عَلىٰ النَّـاس حِجُّ البيْتِ ﴾.

وأمره بتقْويةِ أيْدى العاملين بحُكْم الشرع فى الرَّعايا، وتنفيـذِ مايصْدُر عنهم من الأحكام والقَضَايا، والعملِ بأقوالهم فيما يثبُتُ لذوِى الاستحقاق، والشدِّ علىٰ أيديهم فيما يَرَوْنه من المنْع والإطلاق؛ وأنه متىٰ تأخَّرَ أحدُ الخَصْمَيْـــن عن إجابةِ داعى الحُكْم، أو تقاعَس فى ذٰلك لـما يلزم من الأداء والعُـدْم، جَذَبه بعِنَان القَسْر إلىٰ مجلس الشَّرْع، وٱضطرّه بقُوّة الإنصاف إلىٰ الأَدَاء بعْـد المنْع. وأن يتوخّى عُمّـالَ الوُقُوف التى تقرِّب المتقرِّبون بهـا، وٱستمسَكُوا فى ثَوابِ الله بمَتِـين حبْلها. وأن يُمِدّهم بجميل المعاوَنةِ والمساعده، وحُسْن المُوَازَرة والمُعاضَده، فى الأسباب التى تُؤْذِن بالعِمارة والاستِثْماء، وتعودُ عليها بالمصلحة والاِستخلاصِ والاِستيفاء؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ وتَعَاوَنُوا عَلىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ ﴾.

وأمره أنْ يتخيَّر من أُولِى الكَفَاءةِ والنَّزاهة مَنْ يَستخْلِصُه للخِـدَم والأعمال، والقيام بالواجبِ: من أداء الأمانةِ والحراسةِ والتمييزِ لبيتِ المال. وأن يكونُوا من ذَوِى الاضْطِلاعِ بشرائط الخِـدَم المعيَّنة وأمورها، والمهتدين إلىٰ مَسَالك صلاحِها وتدبيرِها. وأن يتقدّمَ إليهم بأخْذ الحُقُوق من وُجُوهها المتيَقَّنه، وجِبايَتِها فى أوقاتها المعيَّنه؛ إذْ ذاكَ من لوازم مصالح الجُنْد ووُفُور الاِستظهار، ومُوجِبات قوةِ الشوكة

بكثيرِ الأعْوان والأنْصار، وأسباب الحِفْظَة(١) التى تُحمىٰ بها البلادُ والأمصار؛ ويأمُرَهم بالجَرْى فى الطُّسُوق(٢) والشُّروط علىٰ النَمَط المعتاد؛ والقيامِ فى مصالح الأعمال علىٰ أقدام الجِدِّ والاِجتهاد . وإلىٰ العاملين علىٰ الصَّدَقات بأخْذ الزكَوات علىٰ مشرُوع السُّنَن المَهْيَع ، وقَصْد الصراط المُتَّبَع ؛ من غير عدُول فى ذلك عن المِنْهاج الشرعىّ ، أو تساهلٍ فى تبديل حُكْمِها المفروضِ وقانُونِها المَرْعِىّ ؛ فإذا أُخِذتْ من أربابها ، الذين يُطهَّرون ويُزَكَّوْن بها ، كان العمل فى صَرْفها إلىٰ مستحقها بحكم الشريعة النبوية ومُوجِبها . وإلىٰ جُبَاة الجِزْية من أهل الذِّمَّة بالمطالبة بأدائِها فى أوّل السنه، وٱستيفائِها منهم علىٰ حسَب أحوالهم بحكم العادةِ فى الثَّروة والمَسْكنه؛ إجراءً فى ذلك علىٰ حكم الاستمرار والاِنْتِظام، ومحافظةً علىٰ عظيم شعائِرِ الإسلام .

وأمره أن يتطلع علىٰ أحوال كلِّ من يستعْمِله فى أمْر من الأمور، ويُصرِّفُه فى مصلحةٍ من مصالح الجمهور ، تطَلُّعا يقتضِى الوقوفَ علىٰ حقائق أماناتِهم ، ومُوجَب تهذيبهم فى حركاتهم وسكَنَاتهم؛ ذَهَابا مع النُّصح لله تعالىٰ فى بريَّته، وعملاً فيه بقول النبىّ صلّى الله عليه وسلم : "كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّته" .

وأمره أن يستصلِحَ من ذوى الاضْطِلاع والغَنَاء ، من يرتِّب العَرْضَ والعطاء، والنَفقَةَ فى الأولياء؛ وأن يكونوا من المشهورين بالحَزْم والبصيره، والموسُومين فى المُناصَحة بإخلاصِ الطويَّة وإصفاءِ السريره ؛ حالِين من الأمانة والصَّوْن بما يَزِين، نا كِبِين عن مَظَانِّ الشُّبَه والطمَع الذى يَصِمُ ويَشِين؛ وأن يأمُرَهم باتِّباع عاداتِ أمثالهم فى ضَبْط أسماء الرجال، وتحليةِ الأشخاص والأشْكال؛ وٱعتبار شِيَات

(١) فى القاموس « الحفظة بالكسر والحفيظة الحمية والغضب » .

(٢) الطسوق جمع طسق وهو شبه الخراج له مقدار معلوم وليس بعربى خالص . أنظر اللسان .

الخيول وإثبات أعدادها ، وتحريض الجند على تخيُّرها وآقتناء جيـادها ؛ وبذل الجُهْـد فى قيامهم من الكُرَاع واليَزَك والسِّلاح بمـا يلزمُهم ، والعمل بقوله تعالىٰ : ﴿ وأَعِدُّوا لَهُمْ مَا آسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ . فاذا نطقت جرائد الجند المذكورين بمـا أُثبِت لديهم، وحقّق الاعتبارُ والعِيَانُ قيامَهم بمـا وجب عليهم ؛ أُطلِقت لهم المعـايشُ والأرزاق بحسَبِ إقراراتهـم ، وأُوصِلَتْ إليهـم بمقتضىٰ واجبـاتِهم وآستحقاقاتِهم : فإن هذا الحالَ أصلُ حراسـة البلاد والعباد ، وقيـامِ الأمر بمـا أوجبه الله تعالىٰ من الآستعداد بفَرْض الجهاد ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ والَّذِينَ جاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا وإنَّ اللهَ لَمَعَ المُحْسِنِين ﴾ .

وأمره بتفويض أمر الحِسْبة إلىٰ مَنْ يكون بأمْرِها مُضْطلِعا، وللسُّنَّة النبويَّة فى إقامـةِ حُدودها متَّبِعـا؛ فيعتمد فى الكَشْف عن أحوال العـامَّة فى تصرُّفاتهـا الواجِب ، ويسلُكُ فى التطلع إلىٰ معاملاتهـم السـبِيلَ الواضحَ والسَّـنَنَ اللَّاحِب ؛ (١) فى الأسواقِ لآعتبار المكاييل والموازين . ويُقيـمُه [مقامه] فى مؤاخَذة المطفِّفين وتأديبهم بمـا تقتضيه شريعةُ الدين؛ ويحذِّرُهم فى تعدِّى حُدود الإنصاف شِدّةَ نَكَاله ، ويقابل المستحِقَّ المؤاخذةِ بمـا يرتَدِع به الجمْعُ الكثيرُ من أمثاله ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ أَوْفُوا الكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ المُخْسِرِينَ وَزِنُوا بالقِسْطاسِ المستَقِيم ولا تَبْخَسُوا النَّـاسَ أَشْيَاءَهُمْ ولا تَعْثَوْا فِى الْأَرْضِ مُفْسِدِيـن ﴾ . وقال سبحانه : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إذَا ٱكْتَالُوا عَلىٰ النَّـاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أنَّهُـمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عظيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّـاسُ لِرَبِّ العالَمِين ﴾ .

(١) بياض فى الأصل ولعله «ويطوف فى الأسواق» الخ .

فليتولَّ الملكُ السيدُ، الكاملُ، المجاهدُ، المرابطُ، نصيرُ الدين، ركنُ الإسلام، أثيرُ الأنام، جلالُ الدوله، فخر الملّه، عزُّ الأمة، سندُ الخلافه، تاجُ الملوك والسلاطين، قامعُ الكفَرة والمشركين، قاهرُ الخوارج والمتمردين، أميرُ المجاهدين، غازى بك معين أمير المؤمنين ـ ماقلَّده عبدُ الله وخليفتُه فى أرضه، القائمُ له بحقّه الواجبِ وفرضه، أبو جعفرٍ المنصورُ المستنصرُ بالله أمير المؤمنين، تقليدَ مطمئنٍّ بالإيمان، وينصحْ للهِ ولرسوله وخليفتِه ـ صلواتُ الله عليه ـ فى السرِّ والإعلان، وليشرحْ بما فُوِّض إليه من هذه الأمورِ صدْرا، وليَقُم بالواجب عليه من شُكْر هذا الإنعام الجزيلِ سِرًّا وجهْرا، وليعملْ بهذه الوصايا الشريفةِ الإماميَّه، وليقْفُ آثار مَراشِدها المقدّسةِ النبويَّه، وليُظْهِر من أثَر الجدِّ فى هذا الأمر والاجتهاد، وتحقيق النظر الجميل لله والإرشاد، مايكون دليلًا علىٰ تأييد الرأى الأشرف المقدّس ـ أجله الله تعالىٰ ـ فى اصطناعه واستكفائه، وإصابةِ مواقع النُّجح والرَّشَد فى التفويض إلىٰ حُسْن قيامه وكمالِ اعتنائه؛ فليَقْدُر النعمةَ فى هذه الحال حقَّ قدْرها، وليَمْتَرِ بأداء الواجبِ بما غلَب عليه من جزيل الشكر غزيرَ دَرِّها؛ وليطالِعْ مع الأوقات بما يُشْكِل عليه من الأمور الغَوَامض، وليُنْهِ إلىٰ العلوم الشريفةِ المقدّسة ـ أجلها الله تعالىٰ ـ مايلتبِس عليه من الشكُوك والغَوامض (؟)؛ ليَرِدَ عليه من الأمثلة مايُوضِّح له وجهَ الصواب فى الأمور، ويستمِدَّ من المَرَاشد الشريفةِ التى هى شفاءٌ لما فى الصدور بما يكونُ ورُوده عليه وتتابعُه إليه نُورًا علىٰ نور؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة العهد الذى كتب به الصاحبُ فخرُ الدين : إبراهيم بن لُقْمانَ، للظاهر بِيبرْسَ، التى أنكر عليه القاضى شهابُ الدين بنُ فضل الله فى "التعريف" ابتداءها بخُطْبة، وهى :

الحمدُ لله الذى أضْـفىٰ [علىٰ الإسـلام](1) ملابِسَ الشَّرف ، وأظهر دُرَره وكانتْ خافيةً بمـا آستَحْكَم عليها من الصَّدَف ؛ وشـيَّد ما وهىٰ من عَلاَئه حتى أنسىٰ ذِكْرَ ما سلَف ، وقيَّضَ لنصره ملوكًا آتفقَ علىٰ طاعتهم مَن آختلَف .

أحمده علىٰ نِعَمه التى رتَعتِ الأعينُ منها فى الرَّوْض الأُنُف ، وألطافِه التى وقَفَتِ الشـكْرَ عليها فليس له عنهـا مُنْصَرَف ؛ وأشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً توجب من المَخاوِف أمْنـا ، وتُسَهِّل من الأمور ما كان حَزْنا ؛ وأشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسوله الذى جَبَر من الدِّين وَهْنا ، وصـفيُّه الذى أظهر من المَكَارم فُنُونا لا فنًّا ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين أضحت مناقِبُهم باقيـةً لا تَفْنىٰ ، وأصحابِه الذين أحسنوا فى الدِّين فاستحقُّوا الزيادةَ من الحُسْنىٰ .

وبعد ، فإن أَوْلىٰ الأولياء بتقديم ذِكْره ، وأحقَّهم أن يُصْبِح القلم ساجدًا وراكِعا فى تسطيرِ مَناقبِه وبِرّه ؛ مَنْ سـعىٰ فأضحىٰ بسعيه الجميلِ متقدِّما ، ودَعا إلىٰ طاعته فأجاب مَنْ كان مُنجِدا ومُتْهِما ؛ وما بدتْ يدٌ من المكْرُمات إلَّا كان لهـا زَنْدا ومِعْصَما ، ولا آستباحَ بسيفِه حِمىٰ وَغًى إلا أضرمه نارًا وأجراه دَما .

ولمـا كانت هذه المناقبُ الشريفةُ مختصةً بالمقام العالى ، المولوى ، السلطانى ، المَلَكىّ ، الظاهرى ، الركنىّ ، شرفه الله تعـالىٰ وأعلاه ، ذَكَرهُ الديوانُ العَزيز ، النبوىُّ ، الإمامىّ ، المستنصرىّ ـ أعز الله تعالىٰ سلطانَه ـ تَنْوِيها بشريف قَدْره ، وآعترافا بصـنعه الذى تَنفَد العبارة المُسْهَبة ولا تقوم بشكره ؛ وكيف لا ؟ وقد أقام الدولة العبَّاسـيَّة بعد أن أقْعدَتْها زَمانةُ الزَّمان ، وأذهبَتْ ما كان لها من مَحَاسنَ وإحْسان ؛ وآستعْتَب دهْرَها المسِىءَ فأعْتَب ، وأرضىٰ عنها زمانَها وقد كانَ صالَ

(1) زيادة لاستقامة الكلام .

عليها صَوْلة مُغْضَب ، فأعاده لها سِلْما بعد أن كان عليها حَرْبا ، وصَرَف آهتمامَه فرجع كلُّ مُتضايِقٍ من أُمورها واسِعًا رَحْبا ، ومنَحَ أميرَ المؤمنين عند القُدُوم عليه حُنُوّا وعَطْفا ، وأظهر له من الوَلَاء رَغْبةً فى ثواب الله مالا يَخْفَى ، وأبدى من الاَهتمام بالبَيْعة أمْرًا لو رامَهُ غيره لآمتنَعَ عليه ، ولو تمسَّك بحبله متَمسِّكٌ لآنقَطَع به قبلَ الوُصُول إليه ؛ لٰكِن آلله ادَّخر هذه الحسنةَ لِيُثَقِّلَ بها فى الميزان ثَوابُه ، ويُخَفِّفَ بها يومَ القيامة حسابُه والسعيدُ من خُفِّف حسابُه ؛ فهذه مَنْقَبة أبَى اللهُ إلا أن يَخلِّدها فى صَحِيفة صُنْعه ، وتكرمَةٌ قضتْ لهذا البيتِ الشريف بجَمْعه بعد أن حصَل الإِيَاسُ من جَمْعه ؛ وأمير المؤمنين يشكُر لك هذه الصَّنائع ، ويعرِف أنه لولا آهتمامُك لآتَّسع الخَرْقُ على الراقع ؛ وقد قلَّدك الديارَ المصريَّة والبلاد الشامية ، والدِّيار البَكْرِيَّة والحجازية واليَمنيَّة والفُراتيَّه ؛ وما يتجدّد من الفُتوحات غَوْرا ونَجْدا ، وفوّض أمر جُنْدها ورَعاياها إليك حين أصبحْتَ فى المَكَارم فَرْدا ؛ ولم يجعَلْ منها بلَدا من البلاد ولا حِصْنا من الحصون مُسْتثنَى ، ولا جهةً من الجهات تُعَدُّ فى الأعلى ولا الأدنى .

فلاحِظْ أمورَ الأمّة فقد أصبحْتَ لها حاملا ، وخلِّص نَفْسك من التَّبِعات اليومَ ففى غدٍ تكونُ مَسْئُولا لا سائِلا ؛ ودَعْ الاَغترارَ بالدنيا فما نال احدٌ منها طائلا ، وما رآها أحدٌ بعين الحقِّ إلا رآها خَيالًا زائلا ؛ فالسعيدُ مَنْ قطَع آمالَه الموصُوله ، وقدّم لنفسه زادَ التقوى فتقْدِمةُ غير التقوى مردودةٌ لا مقْبُوله ؛ وآبسُطْ يَدَك بالإحسان والعدْل فقد أمر اللهُ بالعدْل والإحسان فى مواضِعَ من القرءان ، وكَفَّر به عن المَرْء ذُنوبا وآثامًا ، وجعل يومًا واحدًا فيه كعِبادة العابِدِ ستِّين عامًا ؛ وما سلَك أحدٌ سبيلَ العدْل والإحسان ، إلا وآجتُنِيَتْ ثمارُه من أفنان ؛ وتراجَعَ الأمرُ فيه بعد تداعِى أركانه وهو مشَيَّدُ الأركان ، وتَحَصَّن به من حوادِث الزمان ؛ وكانت

أيّامُه فى الأيّام أبهىٰ من الأعيـاد ، وأحسَن فى العيون من الغُرَر فى أوجُه الجياد ، وأَحْلىٰ من العُقود إذا حُلِّى بها عَطَل الأجْياد .

وهـذه الأقاليم المنوطةُ بك تحتاج إلىٰ نُوّابٍ وحُكّام، وأصحابِ رأى من أصحابِ السيوف والأقْلام ؛ فإذا ٱستعنْتَ بأحد منهم فى أمورك فنَقِّب عليه تنقيبا ، وٱجعَلْ عليه فى تصرُّفاته رقيبا ؛ وسَلْ عن أحواله ففى القيامةِ تكُون عنه مسئُولا و بما أجْرَم مطْلُوبا ، ولا تُولِّ منهـم إلّا من تكونُ مَساعِيه حسـناتٍ لك لا ذُنُوبا ؛ وأْمُرْهم بالأَنَاة فى الأمور والرِّفْق ، ومخالفةِ الهوىٰ إذا ظهرَتْ أدلّةُ الحقّ ؛ وأن يقابِلُوا الضعفاء فى حوائجهم بالثَّغْر الباسِمِ والوجْه الطَّلْق ، وأن لا يُعامِلوا أحدًا علىٰ الإحسان والإساءةِ إلّا بمـا يسـتَحِقّ ؛ وأن يكونُوا لمن تحتَ أيديهم من الرعية إخْوانا ، وأن يُوسِعُوهم بِرًّا وإحسانا ؛ وأن لا يسـتَحِلُّوا حُرُماتِهم إذا ٱستحلَّ الزمانُ لهم حِرْمانا ، فالمسلمُ أخُو المسلم ولو كان عليه أميرًا وسلطانا ؛ والسعيدُ من نَسَج وِلَايتَـه فى الخير علىٰ مِنْواله ، وٱستَسَنَّ بسُنَّته فى تصرُّفاته وأحواله ، وتحمَّلَ عنه ماتعجِز قدرتُه عن حَمْل أثقاله .

وممـا يُؤمَرُون به أن يُمْحىٰ ماأُحْدِث من سَيِّءِ السُّنَن ، وجُدِّد من المظالم التى هى من أعظم المِحَن ، وأن يُشْتَرىٰ بإبطالها المحامِدُ رخيصةً بأغْلىٰ ثَمَن ؛ ومهما جُبِي منها من الأموال فإنمـا هى باقيةٌ فى الذِّمَم حاصله ، وأجيادُ الخزائِنِ إن أضْحتْ بها حاليةً فإنمـا هى علىٰ الحقيقةِ منها عاطِلَهْ ؛ وهل أشْقىٰ ممن ٱحتَقَب إثمـا ، وٱكتَسَب بالمَساعى الذميمة ذَمّا ، وجعـل السَّوادَ الأعظم [له] يومَ القيامة خَصْما، وتحمَّلَ ظُلْمَ الناس فيما صدَرَ عنه من أعمـاله ﴿ وقَدْ خابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْما ﴾ .

وحقيق بالمقـام الشريف المَوْلَوىّ، السـلطانِىّ، المَلَكِىّ، الظاهرىّ، الرُّكْنىّ أن تكون ظُلاماتُ الأنامِ مردُودةً بعَدْله ، وطاعتُه تُخَفِّف ثِقْلا لاطاقةَ لهم بحمْـله ؛

فقد أضحىٰ علىٰ الإحسان قادرا ، وصنعتْ له الأيامُ مالم تصْنَعْه لمن تقدّم من الملوكِ وإنْ جاء آخرا ، فاحمَدِ اللهَ علىٰ أنْ وَصَل إلىٰ جنابك إمامُ هُدًى يُوجِب لك مَزِيَّة التقديم ، ويُنَبِّه الخلائقَ علىٰ ما خصَّك الله به من الفضل العظيم ؛ وهذه أمور يجبُ أن تُلاحَظ وتُرْعىٰ ، ويُوالىٰ عليها حمدُ الله فإن الحمد يجِبُ عليها عقلا وشَرْعا ، وقد تبين لك أنَّك صِرْتَ فى الأمور أصْلا وصار غيرُك فرْعا .

ومما يجب أيضا تقديمُ ذكره أمرُ الجهاد الذى أضحىٰ علىٰ الأُمّة فَرْضا ، وهو العمل الذى يَرْجِعُ به مُسْودُّ الصحائف مُبْيَضّا ؛ وقد وعدَ اللهُ المجاهدِين بالأجرِ العظيم ، وأعدّ لهم عِنْده المَقَام الكريم ، وخصَّهم بالجنة التى لالَغْوَ فيها ولا تَأْثِيم ؛ وقد تقدّمتْ لك فى الجِهاد يَدٌ بيضاءُ أسْرعتْ فى سَوَاد الحُسَّاد ، وعرِفَتْ منك عَزْمةً وهى أمضىٰ مما تُجِنُّه ضمائرُ الأغماد ، وآشتهرتْ لك مواقِفُ فى القتال وهى أشهَرُ وأشْهىٰ إلىٰ القلُوب من الأعياد ؛ وبك صانَ اللهُ حِمىٰ الإسلام أن يُبْتَذَل ، وبعزمك حَفِظ علىٰ المسلمين نِظَام هـذه الدُّوَل ؛ وسيفُك أثَّر فى قلوب الكافرين قُرُوحا لاتندَمِل ، وبك يُرجىٰ أن يرجع مقرُّ الخلافة إلىٰ ما كان عليه فى الأيّام الأُوَل ؛ فأيقِظْ لنُصْرة الإسلام جَفْنا ما كان غافِيًا ولا هاجِعا ، وكُنْ فى مُجَاهـدة أعداءِ الله إماما متبُوعًا لا تابِعا ، وأيِّدْ كلمةَ التوحيد فما تجِدُ فى تأييدها إلا مُطِيعا سامعا ؛ ولا تُخْلِ الثُّغُورَ من آهتمامٍ بأمرها تَبْسِم له الثُّغُور ، وآحتفالٍ يبدِّل مادَجَا من ظُلُماتها بالنُّور ؛ فهذه حصونٌ بها يحصُل الآنتفاع ، وعلىٰ العَدُوِّ داعيةُ آفتراقٍ لا آجتماع ، وأَوْلاها بالآهتمام ما كان البحرُ له مُجاورا ، والعدوُّ إليه ملْتفِتا ناظِرا ؛ لاسيَّما ثغورُ الديارِ المصرية فإنَّ العدوّ وَصَل إليها رابِحًا وراح خاسرا ، وآستأْصَلهم اللهُ فيها حتّى ما أقالَ منهم عاثِرا ؛ وكذٰلك الأسطولُ الذى تُرىٰ خيلُه كالأهِلَّة ، وركائبُه سابقةً بغير سائقٍ مستَقِلَّة ؛ وهو أخُو الجيش السُّلَيمانىّ فإنَّ ذاك غدَت الريحُ له حامِله ،

وهــذا تكفَّلتْ بحَمْـله الرِّياح السابله ، وإذا لحَظَها الطَّرْف جارِيةً فى البحر كانت كالأَعْلام، وإذا شَبَّهها قال: هذه ليالٍ تُقْلَـعُ بالأيام؛ وقد سنَّى الله لك من السعادة كلَّ مَطْلَب، وآتاكَ من أصالة الرأْى الذى يُريك المُغَيَّب؛ وبسطَ بعد القبض منك الأمَل، ونَشِط بالسعادة ما كان من كَسَل؛ وهدَاكَ إلىٰ مَنَاهج الحقِّ ومازِلْت مهتدياً إليها، وألزمك المَرَاشِدَ فلا تَحْتاجُ إلىٰ تنبيه عليها؛ والله تعالىٰ يُمِدُّك بأسباب نصره، ويُوزِعُكَ شُكر نِعَمه فإنَّ النعمةَ تَسْتَتِمُّ بشكره؛ إن شاء الله تعالىٰ .

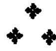

وهذه نسخة عهد كتب بها القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، للسلطان الملك المنصور قلاوون، عن الخليفة الإمام أبى العبَّـاس أحمد الحـاكم بأمر الله المتقدّم ذكره علىٰ هذه الطريقة، وهى :

الحمـدُ لله الذى جعـل آيةَ السـيف ناسخةً لكثيرٍ من الآيات، وفاسخةً لعُـقُود أُولِى الشَّـكِّ والشُّـبُهات ؛ الذى رفع بعض الخَلْق علىٰ بعضٍ دَرَجات ، وأهَّـلَ لأُمور البـلاد والعباد مَنْ جاءت خَوارِقُ تَملُّكه بالذى إنْ لم يكُن من المُعْجِزات فمِن الكَرامات .

ثم الحمدُ لله الذى جعـل الخلافَةَ العبَّاسـية بعد القُطُوب حسَـنَةَ الاِبْتِسـام ، وبعد الشُّحوب جميـلةَ الاِتِّسام ، وبعـد التشريدِ كلُّ دار إسـلام لهـا أعظمُ من دار السَّـــلام .

والحمـدُ لله علىٰ أن أشْهدَها مَصارِعَ أعدائها ، وأحْمَدَ لهـا عَواقِبَ إعادةِ نصرها وإبْدائها ، وردّ تشـتِيتَها بعد أن ظَنَّ كـلُّ أحد أنَّ شِـعارَها الأسودَ ما بَقِىَ منه إلا ماصانَتْه العيونُ فى جُفُونها والقُلوبُ فى سُوَيْدائها. ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحْدَه

لاشريكَ له شهادةً يتلَذَّذ بذكرها اللّسان، ونتعطّر بنَفحاتها الأفواهُ والأَرْدان، وتتلقّاها ملائكةُ القَبُول فترفعُها إلىٰ أعلىٰ مكان . ونصلّي علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أكرمَنا الله به وشَرَّف لنا الأَنْساب ، وأَعَزَّنا به حتّى نزل فينا مُحْكَمُ الكتَاب ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله الذين آنجابَ الدِّينُ منهم عن أَنْجاب ، ورضِيَ الله عن صَحَابته الذين هم خيرُ صِحَاب ؛ صلاةً ورضوانا يُوفّى قائِلُها أجْرَه يومَ الحساب من الكَثْرة بغير حساب (؟) يومَ الحساب .

وبعدَ حمدِ الله علىٰ أن أحمَدَ عواقِبَ الأمور، وأظهر للإسلام سُلطاناً آشتدّتْ به للأمة الظُّهور وشُفيت الصُّدور ؛ وأقام الخلافةَ العبَّاسية فى هذا الزمن بالمنصُور كما أقامها فيما مضىٰ بالمنصُور، وآختار لإعلانِ دَعْوتها مَنْ يُحْيِي معالِمَها بعد العَفَاء ورُسومَها بعد الدُّثور ؛ وجمع لها الآنَ ما كان جَمَع عليها فيما قبلُ من خِلاف كلِّ ناجم ، ومَنَحها ما كانتْ تبشرها به صُحُفُ المَلَاحم (١) ؛ وأنفذ كلمتها فى ممالك الدَّوْلة العلوية بخير سيفٍ مَشْحوذٍ ماضى العزائم ، ومازَجَ بين طاعتِها فى القلُوب وذكرِها فى الألسنة وكيف لا والمنصورُ هو الحاكِم ؟ ؛ وأخرج لحِياطةِ الأُمَّة المحمَّديَّة مَلِكا تُقَسَّم البركاتُ عن يمينه ، وتُقْسِم السعادةُ بنور جبينه ؛ وتُقْهَر الأعداءُ بفَتَكاته ، وتُبْهَر عقائلُ المَعَاقل بأصْغَر راياته ؛ ذو السعد الذى مازال نُوره يَشِفُّ حتّى ظهر، ومُعْجِزُه يَرِفُّ إلىٰ أن بَهَر ؛ وجوهَرُه ينتقل من جَيِّد إلىٰ جَيِّد حتّى علَا الجبين ، وسِرُّه يكْمُنُ فى قلبٍ بعد قلبٍ حتّى عُلِم ـ والحمدُ لله ـ نَبَأُ تمكينه فى الأرض بعْدَ حين ؛ فاختاره اللهُ علىٰ عِلْم ، وآصْطفاه من بين عباده بما جَبَلَه اللهُ عليه من كَرَم وشجاعةٍ وحِلْم ؛ وأتىٰ بِهِ الأمةَ المحمديَّةَ فى وقتِ الآحتياج عَوْنا وفى إبَّان الآستمْطار

(١) فى الأصول « من الملاحم » .

غَيْثا ، وفى حين عَيْث الأشبالِ فى غير الافتراس لَيْثا ؛ فوجَب علىٰ مَنْ له فى أعْناق الأُمَّة المحمديَّة مُبايعةُ رِضوان ، وعند أَيْمانهم مصافحَةُ أيمان ؛ ومَنْ وجبَتْ له البيعةُ باستحقاقه لِميراثِ مَنْصِب النبوّه ، ومَنْ تَصِحُّ به كلُّ وِلايةٍ شرعيَّة يُؤْخَذ كتابُها منه بقوّه ؛ ومَنْ هو خليفةُ الزمان والعَصْر ، ومن بدَعَواته تنزِل بالنصر عليكم معاشرَ الإسلام ملائكةُ النصر ، ومن نَسَبُه بنَسَب نبيكم ـ صلّى الله عليه وسلم ـ مُتَّشِج ، وحَسَبُه بحَسَبِه ممتَزِج ، أن يفوِّضَ مافوّضَه اللهُ إليه من أمْر الخلْق ، إلىٰ مَنْ يقُوم عنه بفرض الجِهاد والعمَل بالحَقّ ؛ وأن يُولِّيَه ولايةً شرعيَّة تَصِحُّ بها الأحكام وتنْضبِط أمورُ الإسلام ، وتأتِى هذه العُصبةُ الإسلاميَّةُ يومَ تأتِى كلُّ أمة بإمامهم من طاعةِ خليفتِهم هذا بخير إمام ؛ وخرج أمْرُ مولانا أميرُ المؤْمنين ـ شرَّفه الله ـ أن يكون للمقرّ العالى ، المَوْلَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، المنصورىّ ، أجلَّه الله ونَصَره ، وأظْفَره وأقْدره ، وأبَّده وأيَّده ، كلُّ مافوّضه اللهُ لمولانا أمير المؤمنين من حُكْم فى الوجود ، وفى التَّهائم والنُّجود ؛ وفى المَدَائن والخزَائن ، وفى الظَّواهر والبوَاطن ؛ وفيما فَتَحه اللهُ وفيما سيفْتَحُه ، وفيما كان فَسَد بالكفر والرَّجاءُ من الله أنه سيُصْلِحه ؛ وفى كل جُود ومَنّ ، وفى كلِّ عطاء ومَنّ[1] ؛ وفى كل هِبَة وتمليك ، وفى كل تفرُّد بالنَّظَر فى أمور المسلمين بغير شَريك ؛ وفى كلِّ تعَاهُد ونَبْذ ، وفى كلِّ عطاءٍ وأَخْذ ؛ وفى كل عَزْل وتَوْلِيه ، وفى كل تسليم وتَخْلِيه ؛ وفى كل إرْفاق و إنْفاق ، وفى كل إنْعام و إطْلاق ؛ وفى كلِّ تجْديد وتعويض ، وفى كل حَمْد وتَقْريض ؛ ولايةً عامةً تامَّة محكمة محكَّمه ، منضدة منظَّمه ؛ لايتعقَّبها نَسْخٌ من خلْفِها ولا من بينِ يديها ، ولا يَعْتَرِيها فسْخٌ يطْرَأُ عليها ؛ يَزِيدها مَرُّ الأيام جِدّةً يُعاقِبها حُسْن شَبَاب ، ولا ينْتهِى علىٰ الأعوامِ والأحْقاب ، نعمْ ينتهى إلىٰ مانصبه اللهُ للإرشاد من سُنَّة وكِتاب ؛

(١) لعل مراده وقطع من منّ الحبل قطعه .

وذلك من شَرْعٍ للهِ أقامه للهداية عَلَما ، وجعله إلىٰ ٱحتياز الثَّواب سُلَّما . فالواجب أن يعمل بجُزْئيَّات أمره وكُلِّيَّاته ، وأنْ لا يَخْرُج أحدٌ عن مقدِّماته ، والعدل فهو الغرْس المُثْمِر ، والسَّحابُ المُمْطِر ، والروضُ المُزْهِر ؛ وبه تَتنزَّل البركات ، وتخلف الهِبَات ، وتُرْبِي الصَّدَقات ؛ وبه عِمَارةُ الأرض ، وبه تُؤدّىٰ السنةُ والفرض ؛ فمن زرَع العدلَ ٱجتنىٰ الخير ، ومن أحسَنَ كُفِيَ الضَّرر والضَّيْر ؛ والظُّلم فعاقِبتُه وَخِيمه ، وما يطولُ عُمُر المُلْك إلا بالمَعْدَلة الرحيمه ؛ والرعية فهُم الوديعة عند أُولى الأمر ، فلا يخصَّص بحُسْن النظر منهم زيدٌ ولا عَمْرو ؛ والأموال فهى ذخائر العاقبةِ والمآل ؛ والواجبُ أن تُؤْخَذ بحقِّها ، وتُنْفَق فى مستَحِقِّها ؛ والجهاد بَرًّا وبحرًا فمن كِنَانةِ الله تُفوَّق سِهامُه ، وتؤرَّخ أيامُه ؛ ويُنْتضىٰ حُسامُه ، وتَجْرِى مُنْشآتُه فى البحر كالأعلامِ وتُنْشَر أعلامُه ؛ وفى عُقْر دار الحرب يُحَطُّ ركابُه ، ويُخَطُّ كتَابُه ، وتُرسَل أرسانُه ، وتَجوسُ خِلالَها فُرْسانُه ؛ فليَلْزَمْ منه دَيْدَنا ، ويستصْحِبْ منه فِعْلا حَسَنا ؛ وجُيُوش الإسلام وكُماتُه ، وأمراؤه وحُماتُه ؛ فهم مَنْ قد علمتَ قِدَمَ هِجْره ، وعِظَم نُصْره ، وشِدّةَ باس ، وقُوّةَ مِراس ؛ وما منهم إلا مَنْ شهِد الفُتوحاتِ والحُرُوب ، وأحسنَ فى المُحاماة عن الدِّين الدُّءُوب ؛ وهم بَقايَا الدُّوَل ، وتَحايَا الملوك الأُوَل ؛ لاسيَّما أُولِى السَّعْى الناجح ، ومن لهم نسبةٌ صالحيَّة إذا فَخَروا بها قيل لهم : نِعْمَ السلفُ الصالِح ؛ فأوْسِعْهم بِرًّا ، وكُنْ بهم بَرًّا ، وهم بما يجِبُ من خِدْمتك أعلَمُ وأنت بما يجب من حُرْمتهم أَدْرىٰ ؛ والثغور والحصون فهم ذخائرُ الشِّدّه ، وخزائنُ العَديد والعُدّه ، ومقاعدُ للقتال ، وكَائنُ الرِّجاء والرِّجال ؛ فأحسِنْ لها التحصين ، وفوّضْ أمْرَها إلىٰ كلِّ قوىٍّ أمين ، وإلىٰ كلِّ [ذى] دينٍ متِين ، وعقْل رَصين ؛ ونوّاب الممالك ونوّاب الأمصار ، فأحْسِنْ لهم الٱختيار ، وأجمِلْ لهم الٱختِبار ، وتفقّدْ لهم الأَخْبار .

وأمّا ماسوىٰ ذٰلك فهو داخلٌ فى حدُود هذه الوَصاياَ النافِعه، ولولا أنّ الله أمرنا بالتذكير، لكانت سَجَـايا المقرّ الأشرف السلطانىّ، الملَكىّ، المنصورىّ، مكتفيـةً بأنوار ألمعيتِـه الساطعه، وزمامُ كلّ صَلَاح يجب أنـ يشغل به جميعَ أوقاته، هو تَقْوىٰ الله قال الله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللّٰهَ حَقَّ تُقَاتِه ﴾ .

فلْيكُنْ ذٰلك نُصْبَ العين، وشغْلَ القلب والشَّفَتيْن، وأعداء الدين من أرمن وفَرَنْج وتَتَـار، فأذِقْهـم وبالَ أمْرِهم فى كلّ إيراد للغزْو وإصْـدار، وثُرْلأن تأخُذ للخلفاء العباسيِّين ولجميع المسلمين منهم الثَّـار، وٱعلَمْ أنّـ الله نَصِيرُك علىٰ ظُلْمهم وما للظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصار .

وأما غيرهم من مُجاوِريهم من المسلمين فأحْسِنْ باستنقاذك منهم العِلَاج، وطُبّهم باستِصْلاحك فبالطِّبّ المَلَكىّ والمنصُورىّ ينْصَلِح المِزَاج، واللهُ الموفِّق بمنّه وكرمه .

وعلىٰ هذه الطريقة مشىٰ المَقرّ الأشرفُ الناصرىّ محمدُ بن البارِزىّ الحمَوىّ صاحب دواوين الإنشاء الشريف بالديار المصرية وسائر الممالك الإسلامية : جمّل الله تعالىٰ الوجودَ بوجُوده، وأنافَ بقَدْره علىٰ كِيوَانَ(١) فى ٱرتقائِه وصُعُوده، وجعله لسـلطانه المؤيَّد رِدْءًا مابدَا سعدُ المُلْك صاعدًا إلا كان له سعْدَ سُعوده .

فكتب علىٰ ذٰلك عهدَ السـلطان الملك المؤيَّد أبى النصر « شِـيخ » خلَّد الله سلطانه، عن الإمام المستعين باللهِ أبى الفضل العبَّاس أمير المؤمنين خليفة العصْر ـ

(١) ٱسم لكوكب زحل وهو ممنوع من الصرف للعلميـة والعجمة لأنه ليس فى كلام العرب ٱسم عينه ياء ولامه واو . انظر اللسان فى مادة خ و ن ج ١٦ .

أيَّد الله تعالىٰ به الدِّين ـ فى شَعبانَ المكَرَّمِ سـنة خمس عشرةَ وثمـانمـائة، بعد خَلْع النـاصر فَرَج؛ فأتىٰ فيـه بمـا أخجل الرَّوْض المنَمْنَم والنجْمَ الزاهر ، وأوجب علىٰ العارف بنَقْد الأمرين أن يقول : كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخِر؛ عدَّد فيه وقائعَه المشهوره، وذكَرَ مناقبَـه التى صارتْ علىٰ صَفَحات الأيام مرقومةً وعلىٰ مَرِّ الليالى مذْكُوره ، وفى بُطُون التواريخ علىٰ توالى الجديدَيْنِ وتعاقُبِ الدُّهور مسطُوره؛ (فكتب علىٰ ذلك عهدَ السلطان الملِك المؤيَّد أبى النصر شَيْخ خلد الله سلطانه)(١)، ونصُّه :

الحمدُ لله الذى جعل الدِّين بنصْره مؤيَّدا ، وٱنْتَضاه لمصالح المُلْك والدِّين فأصْبَح ومن مُرْهَفَات عزمه باديةً بائدةُ العِدا ؛ وفتح علىٰ فَقْر الزمان بشَيْخ مُلْك زُوِيَتْ له عوارِفُ العـدل ومعارِفُ الفضل فاستَغْنىٰ ـ ولله الحمـدُ ـ بسعيد السُّعَدا ، وأصلح فسادَ الأحوال بأحكام رأْيه وإحكام حُكْمه فأصبحتْ مأمونةَ الرَّداء آمنةً من الرَّدىٰ؛ وٱمتَنَّ علىٰ أولياء الدولةِ الشريفة بمن لم يزَل سهمُ تدبيره الشريف فيهم مُسَدَّدا، ومياهُ الظفَر جاريةً من قَنـاة غَوْره الذى بذٰلك تعَوّدا ، وبحرُ إحسانه الكاملُ وإن قَدُم العهدُ المَديدُ مُجدَّدا .

والحمدُ لله الذى جعل وُجُوه هذه الأيامِ بالأمْنِ مُسْفِره ، وليـالىَ جُودها بالعَدْل مُقْمِره ؛ وعَذَبات أوليائهـا بالأفراح مُزْهِره ، وحدائقَ أَخِصَّائهـا بالنجاح مُثْمِره؛ ومنازلَ أعدائها مُقْفِرةً موحشه ، ونوازِلَهم مُذْعِرةً مُدْهِشـه ؛ وأجسادَهم بأمراض قلوبهم مُشَوَّشه، وأكبادَهم بلَوَاعِج زَفَراتهم مُعَطَّشه .

والحمدُ لله الذى جعل هـذه الأيامَ الفاضلةَ الجَلال جليلةَ الفضل، شاملةَ النِّظام ناظمةَ الشَّمْل، هاميةً بالمكْرُمات هائمةً بالعدل؛ دانيةَ القُطوف، معروفةً بالمعْرُوف، مُغيثةَ الملهوف، مُرْهِبَةً للألوف، متصرِّفةً فى الآفاق صارفةَ الصُّروف؛ حمدًا يُبْهِج

(١) تقدمت هذه الجملة بنصها قبل ستة أسطر فلعلها تكررت من قلم الناسخ أو سهو من المؤلف فتنبه .

النفُوس، ويزِيل البُوس، ويدِيم السُّرور، ويُذْهِبُ المحْذُور، و﴿ الحمدُ لله الذّى أذْهَبَ عنّا الحَزَنَ إنَّ ربّنا لغفور شَكُور ﴾ .

نحمَدُه علىٰ هذه النِّعم التى تفيّأتِ الأُمَمُ بِظِلالها، وبلغتْ بها النفوسُ غايةَ آمالِها؛ ورَوِيتْ بعد ظَمَإِ الخوفِ من حِيَاض أَمْنِ زُلَالهـا، وٱستَسَرَّتْ بعد الحَزَن بأفْراح قَبُولها وإقبالها، وٱرتفعَتْ بعد ٱنخفاضِها رُءُوس أبطالِها وأقْيالها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لاشريكَ له شهـادةً تُدِيم النَّعْماء، وتُجْزِل العَطَاء، وتَكْشِف الغَمَّاء، وتَقْهَـر الأعداء؛ ونشهَدُ أنّ محمدًا عبـده ورسولُه الذى قرن طاعةَ أُولى الأمر بطاعتِـه، وأيَّد منِ ٱهتـدىٰ منهم بهِدَايته؛ وأعانَهُ لَمَّا ٱستَعان بعِنَايته، وأظلَّه تحتَ ظلِّ عَرْشه يوم لاظِلَّ إلا ظِلُّه فى دار كرامتِه؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ٱنحازُوا إلىٰ حَوْزته وٱحْتَمَوْا بحمايته، وأثمَرَ لهم غرسُ دِينـهِ فرَعَوْه حقَّ رعايته، وشرّف وكرم .

وبعــدُ، فلمّا كانتْ رحمةُ الله تعالىٰ لغَضَبه سابقه، ورأفتُه بعبـاده متلاحِقَه، وكانت الممـالكُ الشريفة قد ٱختلَّت أُمورُها، وصار إلىٰ الدُّثُور معمورُها، وأشرف علىٰ البَوَار أميرُها ومأمُورُها؛ فالشرائعُ متغـيِّرة شرائعُها، والعوائدُ مفقودةٌ مآثِرُها؛ والمظالِمُ قوىٌّ سلطانُها، كثيرٌ أعوانُها؛ ضعيفٌ مُضادِدُها، قليل مُعانِدُها؛ فلا نائبُ سياســةٍ إلا مشـغُول بالنَّوائب، ولا حاكـمُ شرع إلا وقد سُـدّت عليـه المَذَاهب؛ ولا تاجرٌ إلا وقد خَسِرت تجارتُه فما ربِحَتْ، ولا ذُو قِرَاض إلا ورُءُوس أمواله قد ٱنْقرضَتْ، ولا صاحبُ تُراث إلا وقـــد مُحِيتْ آيةُ ميراثه ونُسِـخَتْ؛ ولا رُكْنُ مملكةٍ إلّا وقد ٱنهَـدَم أساسُه، ولا عضُدُ دولة إلا وقد بطَل إحساسُه ـ أقامَ سبحانه وتعالىٰ لإزالةِ هذه النَّوازل الفادِحه، وإخمادِ نار هذه القبائح القادِحه؛

مَنْ توفَّرتِ الدَّواعِى علىٰ ٱستِحْقاقه السلطنةَ الشريفه ، وأجمعتِ الأمَّةُ علىٰ ٱنحصار ذٰلك فى أوصافه المُنِيفه ، ودلَّتْ أماثِرُ السُّعود علىٰ محلِّه الجليـل ، وجنابِه الذى إذا لاذَ بِه مَنْ خافَ الدهْرَ رجع وطَرْفُ الدَّهْرِ عنه كَليل ، طالمَـا أصْفىٰ مواردَ العدل ، وأضْفىٰ أذيالَ الفَضْل ، وأمَّن الخائِف ، وروَّعَ الحائف ، وأمضىٰ فى الجهاد عَزْمَه ، وأنفــذ فى السَّرايا إليه حُكْمَه ، وسـدَّدَ إلىٰ معَاونه فى غَرَض الكُفَّار سَهْمَه ، وفتح الطريقَ إلىٰ بيتِ الله الحرام بعدَ الإِنْسِداد ، وأنعم علىٰ القانـع والمعترِّ بالراحلة والزَّاد ، وعَمَر المساجد ، وجعلها آهِـلةً بالراكع والساجِد ، وجَلَا عَرُوسَ الأموىِّ فى حُلَل التهليل والتكْبير ، وأعاد عُودَ مِنبرِهِ الذابِل وهو نَضِير . هذا مع شجاعةٍ شاهدَها وشهِدَ بهـا أبطالُ الإســلام ، وسَطْوةٍ تخْشاها الأُسُــودُ فى الآجَام ، ووَقارٍ يُخْضِع بالهيبة رُءوسَ الأعلام ، وبِشْرٍ يطْلُع فجْرُه من طالع جَبْهَته ، ونُورٍ ساطع من جهــة جبهته ، وحياءٍ متطلِّع من طَلْعته ، وحِبَاء متدفِّق من أنملته ، وكنتَ أيُّها الملكُ الجليل المؤيَّد ـ لا زال شَمْلُ الدين بك مجْمُوعا ، وعَلَمُ الإسلام مرفُوعا ، وقلبُ أهل الشِّرك والنِّفاق مَرُوعا ـ أنتَ المتَّصفَ بهذه الصِّفاتِ الحميده ، والكاشفَ لتلك الشدائِد الشَّدِيده ، فلم يَرُعْك خطَرُ الخَطَّاره ، ولا ٱنحلالُ أهل صَرْخَد حيثُ ٱشتهرتْ عزائمُ صَوَارِمك البَتَّـاره ، ولا خَطْرتُك من القَيْسارِيَّة إلىٰ الرَّيْدانيَّــة فى أسرَعَ من غَفْوه ، والشَّيخُ لا تُنْكَر له الخَطْوه ، ولا مشاهدةُ الحِمام فى الحَمَّـام ، ولا زاغ بَصَرُك باللُّجُونِ حينَ أظلمَ القَتَام ، حتّٰى زال المـانِـع ، وهجَع الهاجع ، وأُمِنَت الخُطُوب ، وفُرِّجت الكُرُوب ، وخَلَا دَسْتُ السلطنة ممن نكَثَ الأَيْمـان ، وأصَرَّ علىٰ الإثم والعُدْوان ، وأقررت ٱسمَ الخلافة علىٰ الإنْفِراد ، ليستخيرَ الله فى الأصلَح للعباد والبلاد .

هذا ورأْىُ أهلِ الحَلِّ والعقد من مُلوكِ الإسلام وأُمَرائه ، وقُضاته وعلمـائه ، ومشايخه وصُلَحائه ، وخاصَّته وعامَّتِه ، ورأْىُ مولانا أمير المؤمنين ، أعزَّ الله تعالىٰ به

الدِّين ، وجمع بيُمْنِ بركته شملَ الإسلام والمسلمين؛ مُجْمَعٌ علىٰ تفويض أمر المسلمين وولايةِ عَهْدهم وكفالةِ السلطنة الشريفةِ والإمامة العُظْمىٰ إليك – خلَّد الله سلطانَك، وجعل الدهر خَدِيَك والملائكةَ أعْوانَك؛ فقــدّم أميرُ المؤمنين من الاستخارة أمامَ هــذا التقليد ما يُعْتَبر فى السُّــنَّة الشريفة ويُقَدَّم ، وعلم أنَّ المصلحةَ فيما خاره اللهُ له وللأمّة مِن وِلَايتك أيُّهــا الملكُ المبجَّل والســلطان الأعظَم؛ وأنك أبْرأ للذِّمَّه ، وأبَرُّ بالأمّه؛ وشاهَدَ بإجمــاع الأُمّة علىٰ سلْطنتك من التآلُف والاتِّفاق، ما نفىٰ الخلافَ والشِّقاق؛ وما سَرَّ الجمهور الطائعين من غير دِفاع؛ والجَمَّ الغَفيرَ لبديع آرائك ورفِيع راياتِك مُذْعِنين لحســن الاتِّباع؛ وأهــلَ الحلِّ والعقد لأمرك ونهيك قد خضَعتْ منهــم الرِّقاب، وسارعُوا إلىٰ إجابةِ دعوتِك حين اتضحتْ لهم أدلّةُ الصواب . والزمانَ بإفْضاء الأمر إليــكَ قد طابَ واعتــدَل ،والأرضَ فى مَشارِقها ومغَاربهــا بمَهابتِك قد أمِنَتْ من الوجَلْ ،والنفوسَ الأَبِيَّةَ قد أذعنَتْ لمبايعتك من غير مَهَل ؛ والفتنــةَ وقد ردّ اللهُ بالغيظ مُثيرَها ، والأُلفــةَ وقد بَرَقت من سرائر أهل التوحيــد أساريرُها؛والعساكرَ المنصورةَ قد أحاطتْ به كما أحاطتْ بالبُدُور الهاله ، وقد أنزل اللهُ عليــك نامُوسَ المَهَابة والجــلَاله ؛ وفوّضَ إليكَ ما ولَّاه اللهُ من أمور الإسلام والمســلمين ، وأسنَدَ إليك مافى يده من مَصَالح عبــاده المؤمنين : لتُقِيم علىٰ أساسِ أحكامِكَ دعائمَ الدِّيــن القويم، وتُسَــيِّر الخلائقَ علىٰ مِنْهاجِ طريقِك المســتقيم؛ وتحْسُــنَ – إن شاء اللهُ – برِعَايتك عاقبةُ الرعيَّه، كما أصبحتْ قلوبُهم بك راضِــيَةً مرضِـــيَّه .

وعهِدَ إليك أمير المؤمنين فى كلِّ ماوراءَ سريرِ خِلافتِه، وفى كلِّ ما يَرتَبِط بأحكام إمامته؛ وقلّدك ذلك شَرْقا وغَرْبا ، وبعْــدا وقُرْبا ؛ وبرًّا وبحْرا ، وسَهْلا ووَعْرا ؛ وفى كلِّ ماله من المُلْك والممــالك، وما يفتحُه [الله] علىٰ يدِك بعــد ذلك؛ تفويضًا

شاملًا، وتقليدًا كاملا؛ وعهدًا تامًا، وإسنادًا عامًا؛ وِلَايةً مكمَّلةَ البُنْيان، مؤسَّسةً علىٰ تَقْوىٰ من الله ورِضْوان؛ وسلطنةً آخذةً بالذِّمم، مشتملةً علىٰ جميع الأُمَم؛ يدخُل فى هذا العهد العامِّ والتفويض التامّ، والرأْيِ الذى شهِد له إجماعُ الأئمة بالإحكام؛ [يدخل فى ذلك] (١) مفضُولُ الناس وفاضِلُهم، وعالِمُهم وجاهِلُهم؛ وخاصُّهم وعامُّهم، وناقِصُهم وتامُّهم؛ وشريفُهم ومشروفُهم، وقَوِيُّهم وضعيفُهم؛ وآمِرُهم ومأمورُهم، وقاهِرُهم ومَقْهورُهم؛ والجُمَعُ والجماعات، وبيوتُ العبادةِ والطاعات؛ والقُضاةُ وأحكامُها، والخطباءُ ومَنابِرُها وأعلامُها؛ والجيوشُ والعساكرُ والكتائب، وربُّ سيفٍ وكاتبُ إنشاء وقلمُ حاسِب؛ وطوائفُ الرَّعايا علىٰ اختلاف أَطْوارهم، وتفاوُتِ أرزاقهم وأقدارِهم؛ والعُرْبانُ والعَشَائر، وبيوتُ الأموال والذَّخائر؛ ودانِى الأُمَم وقاصِيها، وطائعُها وعاصِيها؛ والخَراجُ وجباياتُه، والمصروفُ وجهاتُه؛ والصدَقاتُ ومستَحقُّوها، والرِّزَق ومرتَزِقُوها؛ والإقطاعاتُ والأجناد، وما يُستَعَدّ [به] لمَواطن الجهاد؛ والمنعُ والعَطاء، والقبضُ والإمْضاء؛ والخُمُس والزَّكوات، والهُدَنُ والمعاهَدات، والبِيَع والقُمَامات؛ ومايظهَر من أمور الملك وما يَخْفىٰ، وما تستَدْعيه براعتُك فى السرّ والخَفا؛ وشعارُ السلطنة وأُهْبتُها، ونواميسُ المُلْك وحُرْمتُها .

فأجبت ــ رعاك الله ــ دعوةَ أمير المؤمنين ودعْوتَهم لقَبُول ذلك مَسْئُولا، معتمِدًا علىٰ أن الله سيُنْزِل إليك من يُسَدِّدك من الملائك فِعلا وقَوْلا؛ فاجْلِس ــ أيدك الله ــ علىٰ تَخْت مُلْكٍ قد هيَّأه الله لمَواقفك المطَهَّره، وسريرِ سلطنةٍ عُلِّقَتْ سريرَ سعْدك الأمجدِ فتقاعسَتِ الهِمَمُ عنه مُقَصِّره .

فالحمدُ لله ثم الحمدُ لله عن الدَّهر وأبْنائه، ولا مثلَ هذه النعمة بهذا الخَبَر وأنْبائه؛ ﴿ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ علينا وعلىٰ النَّاس ﴾ وهذا ما كان من قضِيَّة الدين علىٰ رَغْم

(١) مابين القوسين فى الأصل وهو من زيادة الناسخ كما لا يخفى .

الوَسْوَاس الخَنَّاس ؛ وهـذا ما كانت الآمالُ تنتظر وُرُودَه ، وجوارى القِدَم ترتقب سُـعُوده :

واللهِ مازادُوكَ مُلْكا إنَّمـا * زادُوا أُكُفَّ الطالِبين نَوالَا !

وأمَّا الوصايا ، فأنتَ بحمد الله طالَمَـا ملأْتَ بها الأسْمـاع ، وكَشَفَتْ عاطفتُك لمن أردتَ ترتيبَه عنها القِنَاع ؛ ولكن عُهِد من تعبُّـداتك السماعُ لشَـدْوها ، والطَّرَبُ لحَدْوها ، فعليكَ بتقوىٰ الله ، فبها تُورِقُ أغصانُ الأرب الذَّوابل ، ويُغَرِّدُ طائرُ عزِّك الميمُونُ بالأسْحـار والأصائِل ؛ فاجعَلْها ربيعَ صَـدْرك ، وأَيْنِـعْ بها حدائقَ فِكْرك ؛ وَرَوِّحْ(١) بعَرْفها الأَرِيج أرجاءَ مُلْكك ، وأجرِ الشرعَ الشريفَ علىٰ ماعَوّدتَه من نصرك ، والعلماءَ علىٰ ماأَلِفُوه من بِرِّك وخَيْرك ؛ فهم ورَثَةُ الأنبياء عليهم السلام ، والدالُّونَ علىٰ الشريعةِ بأسِنَّة أقلامهم ما يكِلُّ عنه حدُّ الحُسَام ؛ وطَهِّرْ مَنْصِبَ الشرع الشريف من الرَّذائل ، وصُنْ أيَّامَ مُلْكك الشريفِ عن الجُهَّال والآكِلين أموالَ النـاس بالباطِل ؛ والعدل ـ ونستغفر الله ـ فإنك مُثَمِّرٌ لغراسه ، رافِعٌ ماآنهدم من أساسه ؛ قد جعلتَـه مجلِسَ محاكاتك ، وأنيسَ خَلَوَاتك ؛ والفضل ـ وبِرُّك أخجلَ الأقلام فلو مرّ بك راجيكَ علىٰ الصَّـفَا لأرتاح للمعروف ، أو شاهد هِباتِك حاتمٌ لرجع طَرْفُه عنها وهو مَطْروف ؛ ولا سرَفَ فى الخير ، ولا ضَرَر ولا ضَيْر ؛ وأْمُرْ بالمعروف وآنْهَ عن المنكَر فأنت المسئُولُ بين يدَيِ الله عن ذلك ، وآنْهَ نفسَك عن الهوىٰ بحيثُ لايَراكَ اللهُ هنالك ؛ وحُدُود الله فلاتتعدّاها ، والرعايا فحُطْها بعين رعايتِك وآرْعاها ؛ وجَنِّـد الجنود برًّا وبحرا ، وأذِلَّ أعداءك قَهْرا وقَسْرا ؛ وراجع النظَرَ فى أمر نُوّاب السـلطنة الشريفة مراجعةَ الناقد البصـير ، وتيقَّظْ لصيانة قِلَاع الممـالك ومَعاقِلها وحُصُونها ، وتخيَّرْ لها مَنْ ليس بمشْكُوك المناصحة ولا مَظْنُونها ؛ وحُطْها مع عِمَـارتها

(١) فى الأصول وريح بالياء المثناة . تأمل .

بالعِدّة والعُدَد، والأقوا تِ لكيْ تطمئنّ النفوسُ بمَدَدها منها إذا طالت المُدَد، وتفقّدْ أحوالَ مَنْ فيهـا من المستخْدَمه ، وٱرعَ حقُوقَ من له بها خِدْمةٌ متقدِّمه ؛ وٱجعلِ الثُّغورَ باسمةً بحَفَظتِها، ولاحِظ الأمورَ بحسن تدبيرِك المألوفِ فىسياستِها. وٱستَوْصِ خيْرًا بأُمرائك الخالصين من الشُّكُوك ، السالكين فى طاعتِك أحسَنَ السُّلُوك ؛ وضاعِفْ لهم الحُرْمه، وٱرْعَ لهم الذِّمَّه؛ لاسيَّما أُولى الفِكر الثاقب، والرأْيِ الصائب؛ فشـاوِرْهم فى مُهِمّات الأمور ، وٱشرحْ بإحسانك منهم الصُّـدور؛ وٱرعَ حقوقَ المهاجرين والأنصار، الذين سلكَتْ معك مَطايَاهم البِطاحَ والقِفَار، وهَجَروا محبُوبَهم من الوطَن والدار؛ وجالَدُوا وجادَلُوا، وآوَوْا فى سبيلك وقاتَلُوا؛ وأنِلْ كلًّا منهم مايرجُوه، وٱشرحْ صدُورَهم بإدراك ماأمَّلُوه؛ وجيوش الإسلام فاغرِس محبتَكَ فى قُلُوبهم بإحْسانك ، وكما سبقْتَهم حِسا فتحبَّبْ إليهم بجزيل ٱمْتِنانك؛ وجيوش البحر فكُنْ لها مُحِيطا، وبجَلِيَّات مشيها مُحِيطا[1] ؛ فإنهـا تُوجَّه للأصقاع، سُلَيمانِيَّـة الإسراع ؛ تَقْـذف بالرُّعْب فى قلوب أعداء الدين ، وتَقْلَع بقلُوعها آثارَ المُلْحدين؛ فواصِلْ تجهيزَ السَّرايا لركوب ثَبَجه، والغوص إلىٰ أعداء الله فى عَمِيق لُجَه . وأجْمِـل النظرَ فى بيتِ الله الحرام، وحرمِ رسولِه عليه أفضل الصلاة والسلام : لتسلُكَ عِينُ الأمن الأباطِح ، وتَقرّ عيونُ حُمُره بالمـائح والماتِحْ ؛ وتتعَرَّفَ بعرْفانك عـرَفات ، وتُرمىٰ مَخـاوِفُ الخَيْف من أيْدى مَهَابتِـك بالجَمَرات ؛ وصِلْ جيرانَهما بصلاتِك : لتُسْهِرَ أعْيُنَهـم بالدعاء لك وأنتَ فى غَفَواتك . والقُـدس الشريفُ الذى هو أحدُ المساجد التى تُشَـدّ إليها الرحالُ فزِدْ تقديسَـه، وٱجعل رُبُوعَ عباداته بالصَّـلوات مأنُوسه . وإقامةُ موسم الحج كلَّ سـنة فأنت بعد حركة تيمور فاتِحُ سبيله ، وكاسى مَحْمِله حُلَل توقيرِه وتَبْجيله .

---

(١) لعل محيطا الأولى البحر والثانية من الإحاطة بمعنى العلم .

هـذه الوصايا تَذْكِرة للخاطر الشريف وحاشاك من النِّسْـيان ، وهذا عهد أمير المؤمنين ومبايعةُ أُولِى الحلّ والعقد قد تقاضَيَا إلىٰ حقّك علىٰ الزمان ، وعندك كتابُ الله وسـنةُ رسوله صـلّى الله عليه وسلم ماضَلَّ من تمسّك بهما ولامانْ، فاتّبعْ أحكامَ الله يُوسِّع اللهُ لك فى مُلْكك ، واجعلْ هَدْيك بهما إمامَ نَهْيك وأمْرِك ؛ وأدّ ماقلَّدك اللهُ من حقوق الإمامة والأمانة إلىٰ خَلْقه أداءً موفورا : ﴿ إنَّ اللهَ يأمرُكُم أنْ تُؤَدُّوا الأَماناتِ إلىٰ أهْلِها و إذا حَكَمْتُم بيْنَ الناسِ أنْ تَحْكُمُوا بالعَـدْلِ إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ به إنَّ الله كانَ سَمِيعًا بَصِيرا ﴾ .

قلت : ولمـا كان هذا العهد قد ٱدّرَعَ جِلْباب العجائبِ فأعْجَب، وٱرتَدىٰ برداء الغرائب فأَغْرَب ، وسُقِيَ غرْسُـه ماء البـلاغة فأنْجَب ، وشنّف الأسماعَ إذ أَسمعَ فأرقص علىٰ السماع وأطرب ، وٱمتطىٰ صهوةَ جِياد البَيان فتنقّل فيها من كُمَيت إلىٰ أشْقَر ومن أحوىٰ إلىٰ أشْهَب ـ أحببتُ أن آ تِيَ له بطُرَّة هى له فى الحقيقة ذَيْل ، ونُغْبةٌ من بحر وقَطرةٌ من سـيْل ؛ لاجَرَم جعلتُها فى الوضـع فى الكتاب له لاحِقه ، وإن جرت العادةُ أن تكون الطُّرَّة للعهد سابِقه ؛ وهو :

هـذا عهدٌ شريفٌ ترقُمُه أقلام أشِـعّة الشمس بذَهَب الأصـيل علىٰ صَفَحات الأيام ،وتُعْجِمه كفُّ الثريَّا بنُقَط النجوم الزواهر و إن كان لاعهدَ للعُهُود بالإعْجام ، وتعترِف ملوكُ الأرض أنَّ صاحبه شـيخُ الملوك والسلاطين فتقدّمُه فى الرأْى وتُجِلُّه فى الرتبـة وتعامِلُه بالإجْلال والإعْظام ؛ من عبـد الله ووليّـه ، وخليفتِه فى أرضه وصـفيّه ، وسليل خلفائه الراشـدين وٱبنِ عم نبيِّه ؛ الإمام الفلانى (إلىٰ السـلطان الاعظم الملك الفلانى إلىٰ آخر الألقاب) .

وهذه نسخةُ عهد علىٰ هـذا المذهب ، كُتِب به عن أمير المؤمنين المستعين بالله أبي الفضل العباس خليفة العصر، للملك العادل شمس الدنيا والدين «مظفَّرشاه» بالسلطنة بالمملكة الهِنْدية، فى شوّال سنة ثلاث عشرة وثمانمائة بِدمشْق المحروسة؛ من إنشاء الشيخ الإمام علّامة العصر، جامع أشـتاتِ الأدَبِ ومالك زِمَامه، تقيّ الدِّين محمد بن حَجَّة، الشاعرِ الحمويّ، ومفتى دار العدل بحماة المحروسة، ممـا كُتِب بخطِّ المولىٰ تاج الدين عبد الرحمن بن التـاج ، أحد كُتَّاب الإنشـاء الشريف بالأبواب الشريفـة ، فى قَطْع البغـداديّ الكامل بخَفِيف الطُّومار، وكانت الطرّة المكتَتَبة فى الوصل الأوّل خمسـةَ أسطر بالقلم المذكور ، وسطرين بخفيف المحقّق ، والطرّة البيضاء خمسة أوصال ، والبياضُ بيـن كلِّ سطرين ثلث ذراع، وبيتُ العلامة الشريفة ضِعفُ ذٰلك ، والهامش رُبُع الورق علىٰ العادة . وصورة الطرّة :

عهدٌ شريفٌ عَهِد به عبدُالله ووليُّه سيدُنا ومولانا الإمام الأعظمُ العبَّاس أبوالفضل المستعينُ بالله أميرُالمؤمنين، وٱبنُ عمِّ سيد المرسلين؛ أعزَّالله به الدين، وأمْتَع ببقائه الإسلامَ والمسلمين؛ إلىٰ المَقامِ الأشرف، العالى، السلطانِيّ، العادليّ، الشمْسِيّ ، أبي المجاهد « مظفَّر شاه » أعزَّ الله تعالىٰ أنصاره . وقلَّده السـلطنة المعظَّمة بحضرة "دِهْلِي" وأعمالهـا ومُضافاتها علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذلك؛ ولايةً عامّةً شاملةً كاملةً جامعه، وازعةً قاطعةً ساطعه؛ شريفةً منيفة : فى سائر الممالك الهنـدية وأقاليمها ، وثُغُورها وبلادِها؛ وعساكرها وأكابرِها وأصاغرِها ، ورعاياها ورُعاتِها، وحُكّامها وقُضاتها؛ وما ٱحتوتْ عليه شرقًا وغَرْبا، بُعْدا وقُرْبا علىٰ ماشُرِح فيه .

الصدر بعد البسملة الشريفة :

الحمـدُ لله الذى وَثّق عهدَ النَّجاح للمستعينِ به ، وثَبَّت أوتادَه : ليفوزَ من تمسَّك من غيرِ فاصلة بسَببِه ، وزَيَّن السماء الدنيـا بمصابيحَ وحِفْظا ، وأفرغ علىٰ أعطافِ الأرضِ حُلَل الخلافة الشريفه ، وعلم أنَّ خَلفَها الشريف زَهْرَةُ الحياةِ الدنيـا فقال عز من قائل : ﴿ إِنِّى جاعِلٌ فى الأرْضِ خَلِيفة ﴾ . وٱخْتارها من بيتٍ براعةُ ٱستِهْلاله فى أوّل بيتٍ وُضِع للناس ، وسبقتْ إرادتُه ـ وله الحمد ـ أن تكونَ هذه النَّهْلةُ من سِقَاية العبَّاس .

فالحمدُ لله علىٰ أن جعلَ هــذه السِّقايةَ عَيْنا يَشْرب بها المُقَرَّبون ، ومن عَلِم شَرَفها تميَّز وتمسَّك بقوله تعالىٰ : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

والحمــدُ لله الذى ٱستخْلف آلَه فى الأرض وفَضَّلهم ، فإنْ تحدّثَ أحدٌ فى شَرَفِ بيتٍ فاللهُ ســبحانه قد جعل البيتَ والحديثَ لهم ؛ فأكْرِم به بَيْتا من أقرّ بعُبوديَّتــه كان له بحمد الله من النار عِتْقا ، وتمتَّع بنعيم بركتِه التى لا يَتجنَّبها إلا الأشْقىٰ ، وهو البيتُ الذى بعثَ اللهُ منه شاهدا ومبَشِّرا ونَذيرا ، وداعيًـا إلىٰ اللهِ بإذْنِه وسِرَاجا مُنِـيرا ، وصَفّى أهلَه من الأدناس وأنزل فى حقِّهم : ﴿ إِنَّمَـا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عنكم الرِّجْسَ أَهْلَ البيتِ ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا ﴾ . وصـيَّر علَمَهم الخليفتىّ (١) علىٰ وَجنــة الدَّهْرِ شامَهْ ، وخَصَّهم بالتقديم فالحمدُلله واللهُ أكبَر لهذهِ الإمامه ؛ وإذا كان النسيب مقدَّما فى المَدْح وهو فى النظْم واسطةُ العُقود ، فهــذا هو النَّسب الذى كأنَّ عليه من شمس الضُّحىٰ نُورا ومن فَلَق الصَّباح عَمُود ، وهــذا هو الركنُ الذى مَنِ ٱستلمه وٱستَنَد إليه قيل له : فُزْت بعُلُوّ سَندك ، فقد رُوِى عن النبىّ صلّى الله عليه وسـلم أنه قال لعَمِّه العباس : " ياعَمِّ أَلَا أُبَشِّرك ؟ قال : بلىٰ يارسولَ الله ـ قال : إنَّ الله فَتَح الأمْرَ بى

(١) نسبة الى الخليفة فالواجب حذف الياء والتاء .

ويختِمُه بولَدِك" . وهذا الحديثُ يرشِد إلىٰ التمسُّك بطِيب العهود العباسيَّة لِتُفيضَ علىٰ المتمسك بها نيلَ الوفاء، وتُعينَ من آستعان بالمستعين وعلم أنَّ النبيّ عليه السلام قال لجدّه : "أنتَ أبوُ الخُلَفاء" . وناهيك أنَّه صلّى الله عليه وسلم قال لأمّ فضل وهى شاكَّة فى الحمل: "اذْهَى بأبى الخُلَفاء" فكان عبدَ الله المنتظمَ به هذا الشَّمْل فأَحبِبْ بها شجرةً زكا غَرْسُها ونَما، وتسامَتْ بها الأرضُ وكيْفَ لا ؟ وأصلُها ثابتٌ وفَرْعُها فى السَّما؛ فسلام علىٰ هذا الخَلَف الذى منه المستعينُ بالله والمتوكلُ عليه والواثقُ به والمعتصِمُ والرشيدُ، ورحمةُ الله و بركاتُه عليكم أهلَ البيتِ إنَّه حميدٌ مجيد .

نحمدُه حمدَ مَنْ عِلم أنَّ آلَ هذا البيتِ الشريف كسفينةِ نُوح وتعلَّق بهم فنجَا ، ونَشْكره شُكْرَ من مالَ إلىٰ الدُّخُول تحتَ العلَم العبَّاسىّ وتنصَّل من الخوارج فوجَدَ له من كلِّ ضِيق مَخْرَجا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً نرجُو أن تكون مقبولةً عند الحاكم وَقْتَ الأدا ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبده ورسولُه الذى حَرَّضَنَا علىٰ التمسك بالعُهُود وأرشدَنا إلىٰ طريق الهُدىٰ ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَفَّوْابالعُهود، وكانوا فى نِظام هذا الدِّين و جمعه فرَائدالعقُود؛ صلاةً يسقِى عهادالرحمة ـ إن شاء الله ـ عهدَها، وينتظِمُ فى سِلْك القَبُول عِقْدُها؛ وسلَّم تسليما .

أما بعدَ حمدِ الله الذى أَلْهَمنا الرَّشَد وجعل منَّا الخلفاء الراشدين ، وهدانا بنَبِيِّه صلّى الله عليه وسلم وخَصَّنا من بيته الشريف بالأئمة المهديِّين ؛ وآصطفىٰ من هذا الخَلَف خلائف الأرض، وسَنَّ مواضِىَ العُقُول التى قطعَتْ أنَّ طاعَتنا فَرْض؛ فإنَّ لعهدنا العبَّاسىّ شَرفا لا يرْفُل فى حُلَله إلَّا من آتَّخذ مع الله عهْدًا وأتاه بقلبٍ سليم ، فقد قال الله تعالىٰ بعدَ أعُوذُ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿إنَّ الَّذينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمانِهِمْ ثَمنًا قَليلاً أُولَئِك لاخَلاقَ لَهُمْ فِى الآخرَةِ ولا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يَنْظُر إليْهِمْ يَوْمَ القيامة ولا يُزَكِّيهِمْ ولَهُمْ عَذابٌ أَلِيم﴾ . ولا يتمسَّك بهذا العهدِ إلَّا مَنْ صَحَا إلىٰ القيام

بواجبِ الطاعةِ وتَركَ أهْلَ الجهل فى سَكْرتِهم يَعْمَهُون، وآنتظَم فى سِـلك من أنزل الله فى حقِّهم : ﴿ والمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إذَا عَاهَدُوا والصَّابِرِينَ فى البَأْساءِ والضَّرَّاء وحِينَ البَأْس أُولٰئِكَ الَّذِين صَدَقُوا وأُولٰئِكَ هُمُ المتَّقُون ﴾ .

فمن نَهَضَ إلىٰ المَشْى فى مِنْهاجه مَشىٰ بعيْن البصيرة فى الطَّريق القَويم، وتَلَا له لسانُ الحال : ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِى مُكِبًّا علىٰ وَجْهه أهْدىٰ أمَّنْ يَمْشى سَوِيًّا علىٰ صراطٍ مُسْتَقِيم ﴾ . وهو قَبْضةٌ من آثارِ البَيْعة النبوِيَّه ، وشِـعَار يتَشرّف به من مَشىٰ تحتَ ألْوِيته العباسيَّه ؛ وما أُرْسل هذا العهدُ النبوىُّ إلىٰ أحد من ملوك الأرض إلا عَمَّه الشرفُ من جميع جِهاته ، و﴿ اللهُ أعْلَمُ حيْثُ يجعَلُ رِسالاتِه ﴾ وشدَتْ أعوادُ مِنْبَره طَرَبا ، وأزهرَتْ رَوْنقًا وأثمرَتْ أدَبا ؛ وآستطالتْ بيد الخلافة لإقامةِ الحَـدّ ، وكيفَ لا ويَدُ الخلافة لا تُطاوِلُهـا يد ؛ وكان المقامُ الأشرفُ (إلىٰ آخر الألقـاب المذكورة فى التعريف وآسمه المكتتب فى الطرّة) هو الذى رَغِب فى التمسُّك بهذا العهدِ الشريف لِيُزِيلَ عن مُلْكه الآلتباس ، وآستَند إليه ليَرْوِىَ بسَنَدِه العالى عن آبن عبَّاس ؛ فإنه الملك الذى ظَفَّره اللهُ بأعداء هذا الدِّين وسَمَّـاه مظَفَّرا ، ولقَّبه بالشمسىّ وآختار له أن يُقارِن من الطَّلْعة المستعينيَّة قَمَرا ؛ أينع زَهْرُ العـدْل من حضرة "دِهْلِىٰ" فعطَّر الآفاق ، وضاع نَشْره بالهند فعاد الشَّمُّ إلىٰ المزْكُوم بالعِراق ؛ وصارتْ دِمَنُ "سُومْنات"(١) عامرةً بقيام الدِّين ، وأيَّده اللهُ فيها بعدَ القتال بالفتح المبين ؛ ولم يَتْرُكْ للعَدُوّ فى بيت بيتَ ليـله ، وأبطل مادَهَّره أهل دِهلىٰ بحُسْن اليَقظة وقُوّة الصَّوْله ؛ وأباد الكَفَرة من أهل دِيوَ ولم يقبل لهم دِيَه ، وفاءُوا إلىٰ غير أمْر الله فأبادهم بسَيْفه الهندىّ فلم تَقُمْ لهم فيَــه ؛ وفَطَّر أكبادَ مَنْ ناوأه بها فلازَمُوا عن رُؤْيتِها الصَّوْم ، ونادىٰ منادِى عَدْله

(١) تقدم فى (ج ٥) من هـذا المطبوع أنها "صومنات" بالصاد المهملة و يقال أيضا بالسين المهملة بدل الصـاد .

بالبلاد الهنـدية : لا ظُلْمَ اليَوْم؛ ودانتْ له تلك الممالكُ برًّا وبحرا، وسَهْلا ووَعْرا؛ ما نظَم الأعداءُ علىٰ البحر المـديدِ بيْتا إلا أبان زِحَافَه وأدار عليـه دوائرَه، فكم نَظَم شَمْل الرعايا بالعـدْل ونَثَر رُءوس الطُّغاة بالسـيف فلا عَدِم الإسـلامُ ناظمَه وناثرَه؛ سُـئلتِ الرُّكبانُ فى البَرّ عن مَناقبه الجميلة وعَمَّ يتَساءَلُون وقد صار لهـا عَظِيم النبا، وصرّح راكبُ البحر بعد التسميةِ باسْمِه ﴿وٱتخذَ سبيلَه فى البحر عَجَبا﴾ فظِلُّه فى البَرّ ظليل، وعدْلُه فى البحر بَسِيط وطَوِيل .

هذا ولم يَبْقَ فى تلك الممـالكِ الهنديَّة بُقْعة إلا ولم يصغر اللهُ (١) بسَـنابك الخيل فيها مَمْشاه، ولا نفسٌ خارجةٌ عن الطاعة إلا وماتَتْ فى رُقْعة الأرض بمظَفَّر شاه؛ فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولوى، السيِّدى، الإمامى، الأعظَمى، النبوى، المستعِينى، سيدِنا ومولانا أميرِ المؤمنين المستعينِ بالله أبى الفضـل العبَّاس (ونسبه إلىٰ الحاكم بأمر الله، والدعاء) بعد أنِ ٱستخار الله تعالىٰ سيدُنا ومولانا أمير المؤمنين كثيرا، وٱتخذه هاديًا ونصيرا، وصلَّى علىٰ ٱبن عمه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسـلم ـ أن يفوّض إلىٰ المقام الأشرف المشار إليه ولايةُ العهد وكفالةُ السـلطنة المعظَّمة، بحضرة دِهْلىٰ وأعمالها كما فى الطرَّة كما هو المعهود : ليهطِلَ جُودُ الرحمة علىٰ تلك البِقاع المباركة إن شاء الله ويَجُود : لمـا رآه من صَلَاح الأمّة ومصالح الخلق، ٱستخلافا تَحَلَّى بذكره الأفواه، وتستنِدُ إليه الرُّواه، وتترنَّم به الحُدَاه؛ وتستبشرُ به كافَّة الأُمَم، ويقْطَع به ويحفَظُه ربُّ كل سيفٍ وقلَم، ويعتمِدُ عليه كلُّ ذى علمْ وعلَم؛ فلا زعيم جيش بها إلَّا وهذا التفويضُ يَسَـعه ويشمَلُه، ولا إقليمَ من أقاليمها إلا ومَنْ به يُقَبِّـله ويقبَله، ويتمثَّل به ويمتثِله، ولا منبْرَ بجوامعها إلا وخطيبُه يتلُو برهانَ هـذا التفويض ويرتِّله .

(١) لعله إلا وصغر الله أو بقعة لم يصغر الخ . تأمل .

وأما الوصايا فعنده ـ إن شاء الله ـ تَهُبُّ نَسَماتُ قَبُولها ، وتُعْرب عن نصْب مفعولها ؛ وهو بحمد الله تعالىٰ لوصَايَا هذا العهد المبارَك نِعم القابل ، ففى الصحيحين عن النبيّ صلّى الله عليه وسلم : "سَبْعةٌ يُظِلُّهم اللهُ فى ظِلِّه منْهم الإمامُ العادِل" والوصيَّة بالرَّعايا واجبة والعدْل فيهم قد حرّض النبيّ صلّى الله عليه وسلم عليه ، وقال : "يَوْمٌ من إمامٍ عادلٍ أفضَلُ من مَطَر أربعينَ صبَاحًا أحوَجَ ما تكون الأرضُ إليه" . وقال ٱبن عمّنا علىّ رضى الله عنه « المُلْك والدِّينُ أخوانِ لاغنًى لأحدهما عن الآخَر، ونَشْرهما فى الرعيَّة ضائع ، فالدِّين أُسٌّ والمُلْك حارس ، فما لم يكُنْ له أُسٌّ فمَهْدُوم ، وما لم يكن له حارسٌ فضائع » ـ فلْيأْمُرْ بالمعروف ويَنْهَ عن المنكر عالمـا أنه ليس يُسْأل غدًا بين يدى الله عز وجل عن ذٰلك سوانا وسواه ، ويَنْهَ نفسَه عن الهوىٰ فلا يحسُن لعُودِ قدِّه أن يَميل مع هواه ـ ولْيترك الثُّغور بعدْله باسِمه ، وقواعدَ المُلْك بفضله قائمه ـ وليجاهِدْ فى الله حقَّ جهاده ، ويَلْطُفْ بالرعايا ويَعْلَمْ أن الله لطيفٌ بعباده ـ وليشرح لهم بالإحسان صدْرا ، ويُجْرِهم إذا وقفَ علىٰ أحوالهم أحسَنَ مُجْرىٰ ؛ وهو بحمد الله غيرُ محتاج إلىٰ التأكيد : لأنه لم يخْلُ له من القيام فى مصالح المسلمين فِكْر ، ولكنه تجديدُ ذِكرٍ علىٰ ذِكْر ؛ والله تعالىٰ يمتِّع بطُول بقائه البلادَ والعباد ، ولا برِحت سيُوفُه الهندية تكلِّم أعدَاء هذا الدين بألسنةٍ حدَاد ؛ وثبّت مُلْكه بالعدل وشيَّد أقوالَه وأفعاله ، وختم بالصالحاتِ أعمالَه ؛ والاعتمادُ علىٰ الخط الإمامىّ المستعينىّ أعْلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : ولم يُعْهد أنه كُتِب عن الخلفاء العباسيين القائمين بالديار المصريّة عهدٌ لملك من غير ملوك الديار المصرية سوىٰ هذا العَهْد .

المـــــــذهب الرابع

([أن يفتتح العهدُ بقوله أما بعدُ] (١) « فالحمدُ لله » أو « أما بعدُ فإنَّ أمير المؤمنين » أو « أما بعدُ فإن كذا » ونحو ذلك)

ويأتى بمـا يُناسِب من بَراعة الاستهلال وحال المتولِّى والمُوَلِّى وما يجْرِى مجْرىٰ ذلك ممـا يسـنَحُ للكاتب ذكرُه مما يناسِبُ الحال ، ويأتى من الوَصايا بمـا يُناسب المَقَـام : إما بلفظ الغَيْبة أو بلفظ الخطاب كما فى غيره من المذاهب السابقة ، وهى طريقة اقترحها الوزِير ضيـاءُ الدين بنُ الأثير فى " المَثَل السائر " أنشأ عليها عهْـدا فى معارَضة المكتُوب للسُّلطان صلاح الدين «يوسُفَ بنِ أيوب» من ديوان الخلافة ببغدادَ الآتى ذكرُه فى المذهب الخامس ، وهذه نسخته :

أما بعـدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين يَبْدَأ بحمْد الله الذى يكونُ لكلِّ خُطْبة قِيادا ، ولكلِّ أمْرٍ مِهَادا ؛ ويستَزِيدُه من نِعَمه التى جعلتِ التَّقْوىٰ له زادا ، وحَمَّلْته عِبْءَ الخلافة فلم يَضْعُف عنه طَوْقا ولم يألُ فيه اجتِهادا ، وصَغَّرتْ لديه أمْرَ الدنيا فما تَسوَّرَتْ له مِحْرابا ولا عَرَضَتْ عليـه جِيادا ؛ وحقَّقت فيه قوله تعـالىٰ : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فى الأرضِ ولا فَسادًا ﴾ . ثم يصَلِّى علىٰ من أُنْزِلت الملائكةُ لنَصْره إمْدادا ، وأُسْرِىَ به إلىٰ السماء حتّى ارتقىٰ سَبْعا شِدَادا ؛ وتجلّى له ربُّه فلم يُزِغْ منه بصرًا ولا أكْذَب فؤادا ؛ ثم من بعـده علىٰ أُسْرته الطاهِرة التى زكَتْ أوراقًا وأعْوادا ، ووَرِثت النُّورَ المبين تِلادا ، ووُصفتْ بأنَّهـا أحدُ الثَّقلين هِـدايةً وإرشادا ؛ وخصوصا عمَّه العباسَ المدعوَّ له بأن يُحْفَظ نَفْسا وأوْلادا ، وأن تَبقىٰ كلمة الخلافة فيهم خالدةً لا تخَاف دَركا ولا تخْشىٰ نَفَادا .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح ممـا يقتضيه المقام .

وإذ آستوفىٰ القلمُ مِدادَه من هـذه الحَمْدَله ، وأسـند القولَ فيها عن فَصاحته المُرْسَله ، فإنّه يأخُذ فى إنشاء هـذا التقليدِ الذى جعله حليفًا لقِرْطاسه ، وآستدامَ سُجودَه علىٰ صَفْحته حتّى لم يَكَدْ يرفَع من راسِه ، وليس ذٰلك إلا لإفاضتِه فى وَصْف المَناقب التى كَثُرت فحَسُن لهـا مَقامُ الإكثار ، وآشتَبَه التطويلُ فيهـا بالآختصار ، وهى التى لا يفتقِرُ واصِـفُها إلىٰ القول المُعـاد ، ولا يستَوْعِر سُلُوكَ أطوادها ومن العَجَب وجُودُ السَّهل فى سُلُوكِ الأطواد ، وتلكَ مناقبُك أيُّها الملك الناصر الأجلّ ، السيدُ، الكبيرُ، العالمُ، العادلُ، المجاهدُ ، المُرابِط ، صلاحُ الدين أبو المظَفَّر يوسف آبن أيوب ، والديوانُ العزيز يتلُوها عليك تحدُّثًا بشُكْرِك ، ويباهِى بك أولياءَه تنويها بذِكْرِك ، ويقول : أنت الذى تُستَكْفىٰ فتكونُ للدولة سهْمَها الصائب ، وشِهابَهـا الثـاقب ، وكَنْزَها الذى تذهَبُ الكنوزُ وليس بذاهب ، وما ضَرَّها وقد حَضَرْتَ فى نُصْرتِهـا إذا كان غيرُك هو الغائب ، فآشكُرْ إذًا مَساعِيَك التى أهّلتْك لمـا أهّلتْك ، وفَضَّلتْك علىٰ الأولياء بمـا فَضّلتْك ، ولَئِن شُورِكْتَ فى الولاءِ بعَقِيدة الإضمـار ، فلم تُشارَكْ فى عَزْمك الذى آنتَصَر للدولة فكان له بسطةُ الآنْتِصار ، وفَرْقٌ بين مَنْ أمدّ بقَلْبه ومَنْ أمدّ بيده فى دَرجات الإمداد ، وما جعلَ اللهُ القاعدين كالذين قالوا "لو أمَرْتَنَا لَضَرَبْنا أكبادَها إلىٰ بَرْك الغِمَاد" . وقد كَفاكَ من المساعى أنك كَفَيْت الخلافَةَ أمْرَ منازِعيها ، فطمَسْتَ علىٰ الدَّعوة الكاذبةِ التى كانتْ تَدَّعيها ، ولقد مضىٰ عليها زمنٌ ومِحرابُ حقِّها محفُوف من الباطل بمحرابَيْن ، ورأتْ مارآه رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم من السِّوارين اللّذيْن أوّلها كذّابين ، فبمصْرَ منهما واحدٌ تاهَ بمجرىٰ أنهارها من تحتِه ، ودعا الناسَ إلىٰ عبادة طاغُوته وجِبْتِه ، ولَعِبَ بالدين حتّى لم يَدْرِ يومَ جُمُعته من [يوم أحدِه ولا](١) يوم سَبْتِه ، وأعانه علىٰ ذلك قومٌ رمىٰ اللهُ بصائرَهم

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ١٤٢ .

بالعمىٰ والصَّمَم ، وآتخذوه صَنَمًا [بينهم](١) ولم تكن الضلالةُ هناك إلا بعجْل أو صَنَم ؛ فقمت أنت فى وَجْه باطله حتّى قعَد ، وجعلتَ فى جِيده حَبْلا من مَسَد ، وقاتَ ليـدِه : تَبَّتْ فأصبح [وهو](١) لايَسْعىٰ [بقَدَم](١) ولا يَبْطش بيـد ؛ وكذٰلك فعلتَ بالآخر الذى نَجمَتْ باليمن ناجِمتُه ، وسامتْ فيه سائمتُـه ؛ فوضع بيتَه موضِعَ الكَعْبة اليمـانيَه ، وقال : هذا ذُو الخَلَصة الثانيـه ؛ فأىُّ مَقَاميْك يعترف الإسلام بسَبْقه ، أم أيّهما يقُوم بأداء حقّه ؛ وهاهنا فليُصْبِح القلم للسيْف من الحُسَّاد ، ولتقْصُرْ مكانتُه عن مكانَتِه وقد كان له من الأنْداد ، ولم يَحْظَ بهذه المَزِيَّة إلا أنَّه أصبح لك صاحبا ، ونَخَر بك حتّى طال نخرا كما عَزَّ جانبا ، وقَضىٰ بوِلايتك فكان بها قاضـيًا لَمَّـا كان حدُّه قاضِـبا .

وقد قلّدك أميرالمؤمنين البـلادَ المصريَّة واليَمنيَّة غَوْرا ونَجْدا ، وما آشتملتْ عليه رَعِيَّةً وجُنْدا ، وما آنتهتْ إليـه أطرافُها بَرًّا وبَحْرا ، وما يُستنقَذُ من مُجَاوِرِيها مسالمَةً وقَهْرا ؛ وأضاف إليها بلادَ الشام وماتحتوِى عليه من المُدُن الممدّنه ، والمراكز المُحَصَّنه ؛ مستثنِيًا منها ما [هو](١) بيد نُور الدِّين إسمـاعيل بن نُور الدين محمود رحمه الله : وهو حلَبُ وأعمـالُها ، فقد مضىٰ أبُوه علىٰ آثار فى الإسـلام تَرْفَع ذكره فى الذاكرين ، وتَخْلُفه فى عَقِبـه فى الغابرين ؛ وولده هـذا قد هَذَّبتْه الفطرةُ فى القول والعمـل ، وليستْ هذه الرَّبوةُ إلا من ذٰلك الجَبَل .

فليكُنْ له منك جارٌ يدنُو منـه وِدادًا كما دَنَا أرضا ، ويُصْـبِح وهو [له](١) كالبُنْيان يَشُدّ بعضُه بعضا ؛ والذى قدّمناه من الثناء عليك رُبَّمـا تَجاوزَ بك درجةَ الاقتِصاد ، وألْفَتَك عن فضيلةِ الازدياد ؛ فإيَّاك أن تنظُرَ إلىٰ سَـعْيك نظرَ الإعجاب ، وتقولَ : هذه بلادٌ أنا آفتتحْتُها بعـد أنْ أضْرَبَ عنهـا كثيرٌ من الأَضْراب ؛ ولٰكِنِ آعلم أنَّ

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ١٤٢ .

الأرض لله ولرسوله ثم لخليفته من بعده ، ولا منّة للعبد بإسلامه بل المنّةُ لله بهداية عَبْده ، وكَمْ سلَف قَبْلك ممَّن لو رام مارُمْتَه لَدَنَا شاسعُه ، وأجاب مانِعُه ؛ لكن ذَخَره الله لك لتَحْظىٰ فى الآخرة بمَفازِه ، وفى الدنيـا برَقْم طِرَازه ؛ فألْقِ بيدك عند هـذا القولِ إلقاءَ التسليم ، وقل : ﴿ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا ماعَلَّمْتنا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾ .

وقد قُرِن تقليدُك هذا بخِلْعة تكونُ لك فى الاسم شعارا ، وفى الرَّسم فَخَارا ، وتُناسب محَلّ قلبِك وبَصَرِك وخيرُ مَلابِس الأولياء مانَاسَبَ قُلُوبا وأبْصارا ؛ ومن جملتها طَوْقٌ يُوضَع فى عُنُقك موضِعَ العهْد والمِيثاق ، ويُشير إليك بأنّ الإنعامَ قد أطافَ بك إطافةَ الأَطْواقِ بالأعنـاق ؛ ثم إنك قد خُوطبْت بالملِك وذلك خطابٌ يقْضِى لصَـدْرك بالانشراح ، ولأَمَلِك بالانْفِساح ، وتُؤمَر معه بمدّ يَدِك إلىٰ العَلْيـاء لا بضَـمِّها إلىٰ الجَنَاح ، وهذه الثلاثةُ المشارُ إليها هى التى تَكمُل بها أقسام السِّياده ، وهى التى لامَزِيدَ عليها فى الإحسان فيقال : إنَّها الحُسْنىٰ وزِياده ؛ فإذا صارتْ إليك فانصِبْ لها يومًا يكونُ فى الأيَّام كريمَ الأنْساب ، واجعلْه لهـا عيدا وقُلْ : هذا عيدُ التقليدِ والخِلْعة والخِطاب ؛ هـذا ولك عنـدَ أمير المؤمنين مكانةٌ تجعلُك لَدَيْه حاضراً وأنت ناءٍ عن الحُضُور ، وتَضِنُّ أن تكون مشتركةً بينَك وبين غَيْرِك والضِّنَّة من شِيَم الغُيُور ؛ وهذه المكانةُ قد عرّفَتْك نفْسَها وما كنت تعرِفُها ، وما نقول إلا أنَّهـا لك صاحبةٌ وأنتَ يوسُفُها ؛ فاحْرُسْها عليك حِراسةً تقضى بتَقْديمها ، واعملْ لها فإنَّ الأعمال بخَوَاتيمها ؛ واعلَمْ أنك قد تقلَّدت أمرا يفْتَن به تَقِيُّ الحُلُوم ، ولاينفَكُّ صاحبُه عن عُهْدة المَلُوم ، وكثيرا ماتُرىٰ حسناتُه يوم القيامة وهى مقتَسَمةٌ بأيْدى الخُصُوم ؛ ولا ينجُو من ذلك إلا من أخذَ أُهْبة الحِذَار ، وأشفق من شهادة الأَسْماع والأبصار ؛ وعلم أنَّ الولايةَ ميزانٌ إحدىٰ كِفَّتيه فى الجنة والأُخْرىٰ فى النار . قال النبيُّ صلَّى الله عليه وسـلم : " ياأبا ذَرٍّ إنِّى أُحِبُّ لَكَ ما أُحِبُّ لنَفْسى لاتَأَمَّرَنَّ علىٰ اثنين ولا تَولَّيَنَّ مالَ يتيم " .

فانظر إلىٰ هـذا القول النبوىّ نَظَر من لم يُخْدَع بحـديث الحِرْص والآمال، ومثِّل الدنيا وقد سِيقتْ [اليك](١) بحذافيرها أليس مَصيرُها إلىٰ زوال ؟ . والسعيدُ مَنْ إذا جاءتْه قضىٰ بهـا أرَبَ الأرواح لاأرَبَ الجُسُوم ، واتخذَ منهـا وهى السُّمّ دواءً وقد تُتَّخذ الأدويةُ من السُّموم؛ وما الاِغتباطُ بمـا يختلِف علىٰ تلاشيه المَسَاء والصَّباح؟ وهو ﴿ كماء أنْزَلْناه من السماءِ فاختَلَط به نَبَاتُ الأرض فأصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوه الرِّياح ﴾ والله تعـالىٰ يعصِمُ أميرَ المؤمنين ووُلاةَ أمره من تَبِعاتها التى لابسَـتْهم ولا بَسُوها ، وأحصاها الله عليهـم ونَسُوها ؛ ولك أنتَ من هـذا الدعاء حظٌّ علىٰ قدر مَحَلِّك من العناية التى جذَبَتْ بضَبْعك [ومحلِّك من الوِلَاية التى بسطَتْ من دِرْعك](١) .

نخُذْ هذا الأمرَ الذى تقلَّدته أخْذَ من لم يتَعَقَّبه بالنسيان، وكُنْ فى رعايته ممن إذا نامَتْ عيناه كان قلْبُه يقْظان .

ومِلاكُ ذٰلك كلِّه فى إسباغ العدل الذى جعـله اللهُ ثالثَ الحديثِ والكتاب ، وأغنىٰ بثوابه وحْدَه عن أعمال الثواب، وقدّرَ يومًامنه بعبادةِ ستِّين عاما فى الحِسَاب؛ ولم يأمُرْ به آمِرٌ إلا زِيدَ قوّةً فى أمره، وتحصَّن به من عدُوّه ومن دَهْره؛ ثم يجاء به يومَ القيامة وفى يديه كتَابًا أمان ، ويجلس علىٰ منـبر من نُور عن يَمِين الرحمٰن؛ ومع هذا فإنَّ مَرْكَبَه صعْبٌ لا يستوِى علىٰظهره إلا مَنْ أمسك عِنانَ نَفْسه قبـل إمساك عِنانه، وغلبَتْ لَمَّةُ مَلَكه علىٰ لَمَّة شَيْطانه،ومن أوْكد فُروضه أن يَمحِى السُّنَنَ السيئة التى طالتْ مُدَد أيَّامها، ويَئِس الرَّعايا من رفع ظُلَاماتهـا فلم يجعَـلُوا أمدًا لانْحِسار ظَلامها؛ وتلك هى المُكُوس التى أنشأتْها الهِمَم الحقِيره، ولا غِنىٰ للأيدى الغنِيَّة إذا كانتْ ذا[تَ] نُفُوس فَقِيره؛ وكُلَّما زِيدتِ الأموالُ الحاصلةُ منها قَدْرا زادها اللهُ مَحْقا،

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ١٤٤ .

وقد آستمرّت عليهـا العوائدُ حتّى ألحقها الظالمُون بالحقُوق الواجبة فسَــمَّوْها حقّا ؛ ولولا أنّ صاحبها أعظَمُ النـاس جُرما لمـا أُغلِظ فى عقابه ، ومُثِّلتْ تَوْبةُ المرأة الغامديَّة بمَتَـابه ؛ وهل أشْــقىٰ ممن يكونُ الســوادُ الأعظمُ له خَصْما ، ويُصْبِح وهو مطالَبٌ منهم بما يَعْلَم وبمـا لم يُحِطْ به عِلْما . وأنت مأمورٌ بأن تأتِىَ هذه الظُّلاماتِ فتُنْحى علىٰ إبطالها ، وتُلْحق أسماءَها فى المَحْو بأفعالها ؛ حتّى لايبقىٰ لها فى العِيان صُوَر منظُوره ، ولا فى الألسنة أحاديثُ مذكُوره ؛ فإذا فعلتَ ذٰلك كنتَ قد أزلْت عن المـاضى سُنَّة سُوء سنَّتْها يَدَاه ، وعن الآتى مُتابعةَ ظُلْم وجدَه طريقًا مسلوكًا يجرىٰ علىٰ مَدَاه .

فبادِرْ إلىٰ ما أُمِرْتَ به مُبادرةَ مَنْ لم يَضِقْ به ذِرَاعا ، ونظَر إلىٰ الحياة الدُّنيا بعينِه فرآها فى الآخِرة متاعَا ؛ وآحمَدِ الله علىٰ أنْ قَيَّض لك إمامَ هُدًى يقِفُ بك علىٰ هُدَاك ، ويأخُذُ بحُجْزتك عن خُطُوات الشيطان الذى هو أعدىٰ عِدَاك ؛ وهـذه البلادُ المَنُوطة بنظرك تشتَمِل علىٰ أطرافٍ متباعِده ، وتفتقِرُ فى سياسَتِها إلىٰ أيدٍ مُساعده ؛ وبهذا تكثُر فيها قُضاةُ الأحكام ، وأولُو تدبيرات السُّيوف والأقْلام ؛ وكُلٌّ من هٰؤلاء ينبغى أن يُفْتَنَ علىٰ نارِ الآختبار ، ويُسَــلَّط عليه شاهِدَا عدل من أمانة الدِّرْهم والدِّينار ؛ فمـا أضـلَّ الناسَ شىءٌ كحُبِّ المـال الذى فُورِقَتْ من أجله الأَدْيان ، وهُجِرتْ بسببه الأولادُ والإخْوان ، وكثيرا ما يُرىٰ الرجلُ الصائمُ القـائمُ وهو عابدٌ له عبادةَ الأوثان ؛ فإذا آسـتعنْتَ بأحد منهم علىٰ شىءٍ من أمْرك فآضرِبْ عليـه بالأَرْصاد ، ولا تَرْضَ بما عرفْتَه من مَبْدإ حاله فإنَّ الأحوال تَتَنقَّل تنقُّل الأجساد ، وإيَّاكَ أن تُخْدَع بصَلَاح الظاهر كما خُدِع عمرُ بن الخطَّاب رضى الله عنـه بالرَّبيع آبن زِيَاد ؛ وكذٰلك فَأْمُرْ هٰؤلاء علىٰ آختلاف طَبَقاتهم أن يأمُرُوا بالمعْروف مُواظِبين ، ويَنْهَوْا عن المنكَر محاسِبين ، ويعلموا أنَّ ذٰلك من دَأْب حِزْب الله الذين جعلهم

الغالبين، ولْيبدَءُوا أوّلا بأنفُسهم فيَعْدِلُوا بها عن هَوَاها ، ويَأْمُرُوها بما يأمُرُون به مَنْ سِواها، ولا يَكُونُوا ممن هَدَىٰ إلىٰ طريق البِرّ وهو عنه حائد، وآنتصَبَ لطَبّ المَرْضىٰ وهو محتاجٌ إلىٰ طبِيب وعائد ؛ فما تنزِلُ بركاتُ السماء إلّا علىٰ من خاف مَقَامَ ربِّه ، وألزم التقوىٰ أعمالَ يدِه ولسانِه وقلْبِه ؛ فإذا صَلَحت الوُلاةُ صلَحت الرعيةُ بصَلَاحهم، وهم لهم بمنزلة المصابِيح ولا يَستضِيءُ كلُّ قومٍ إلا بمِصْباحهم .

ومما يؤمرون به أن يكونُوا لمن تحتَ أيْدِيهم إخوانا فى الآصْطِحاب، وأعوانًا فى توزُّع الحِمْل الذى يثْقُل علىٰ الرِّقاب؛ فالمسلمُ أخُو المسلم وإن كان عليه أمِيرا، وأَوْلىٰ الناس باستعمال الرِّفْق من كان فضلُ الله عليه كبِيرا؛ وليستِ الولايةُ لمن يستجِدُّ بها كثْرةَ اللفيف، ويتولّاها بالوَطْء العنيف؛ ولكنّها لمن يُمال علىٰ جوَانبه، ويُؤْكَل من أطايبِه ؛ ولمن إذا غَضِب لم يُرَ للغضَب عنده أثَر، وإذا أُلْحِف فى سؤاله لم يُلْحِقِ الإلحافَ بخُلُق الضَّجَر؛ وإذا حضر الخُصُوم بين يدَيْه عَدَل بينهم فى قِسْمة القول والنظَر؛ فذٰلك الذى يكون لصاحبه فى أصحاب اليمين ، والذى يُدْعىٰ بالحفِيظ العليم وبالقوىِّ الأمين ؛ ومن سعادة المرْء أن يكونَ وُلاتُه متأدِّبين بآدابه، وجارِين علىٰ نَهْج صَوابِه، وإذا تطايرتِ الكتُب يوم القيامةِ كانت حسناتُه مُثْبَتةً فى كتابِه .

وبعدَ هذه الوصية فإنَّ هاهنا حسنةً هى للحسنات كالأُمِّ الوَلُود، ولَطالَما أغنَتْ عن صاحبها إغناءَ الجُنُود،وتيقّظتْ لنَصْره والعُيُون رُقُود؛ وهى التى تُسْبَغ لها الآلَاء، ولا يتخطّاها البَلَاء ؛ ولأمير المؤمنين بها عنايةٌ تبعَثُها الرحمةُ الموضوعةُ فى قَلْبه ، والرغبةُ فى المَغْفرة لما تقدّمَ وتأخّر من ذنْبِه؛ وتلك هى الصدقةُ التى فضَّل اللهُ بعضَ عباده بمزِيّة إفضالها ، وجعلها سبباً إلىٰ التعويض عنها بعَشْرِ أمثالها . وهو يأمُرُك

أن نتفقّد أحوالَ الفقراء الذين قُدِرتْ عليهم مادّةُ الأرزاق، وألبسهم التعفُّفُ ثوبَ الغنىٰ وهم فى ضِيقٍ من الإملاق ؛ فأولٰئك أولياءُ الله الذين مَسَّتْهم الضَّرّاءُ فصَبَروا ، وكَثُرت الدنيا فى يدِ غيرِهم فما نَظَروا إليها إذْ نظَرُوا ؛ وينبغى أن يُهَيِّئ لهم من أمْرِهم مِرْفَقا ، ويضْرِبَ بينَهم وبين الفقر مَوْبِقا .

وما أطلْنا لك القولَ فى هـــذه الوصية إلا إعلاما بأنهـا من المُهِمّ الذى يُستقْبَل ولا يُستدْبَر، ويستَكْثَر منه ولا يستكثر؛ وهذا يُعَدّ من جِهاد النفس فى بَذْل المـال ، ويتلُوه جهادُ العـدوّ الكافر فى مَواقِف القِتال ؛ وأميرُ المؤمنين يعرّفُك من ثوابه ما تجعل السـيفَ فى ملازمته أخَا ، وتسخُو له بنفْسِكَ إن كان أحدٌ بنفْسه سَخَـا ؛ ومن صفاتِه أنه العملُ المحبُوّ بفضل الكَرامه ، الذى يَنْمِى أجْرُه بعدَ صاحبه إلىٰ يومِ القيامه ؛ وبه تُمتحَنُ طاعةُ الخالق علىٰ المخْلُوق ، وكلُّ الأعمـال عاطلةٌ لاخَلُوقَ لهـا وهو مختَصٌّ دُونَها بزينة الخَلُوق ؛ ولولا فضلُه لـمـا كان محسوباً بشَطْر الإيمان ، ولمَـا جعلَ الله الجنة له ثمنًا وليستْ لغَيْره من الأثمـان ؛ وقد علمتَ أن العدُوّ هو جارُكَ الأدنىٰ ، والذى يبلُغُك وتبلغه عينا وأُذُنا ؛ ولا يكون للإسلام نِعْمِ الجار حتّى تكون له بِئْس الجار ، ولا عُذْرَ لك فى ترك جهاده بنفْسك ومالك إذا قامتْ لغيْرك الأعذار ؛ وأميرُ المؤمنين لا يَرْضىٰ منك بأن تَلْقاه مُكافِحا ، أو تَطْرُقَ أرضَه مماسيا أو مُصابِحا ؛ بل يُريد أن تقصِدَ البلاد التى فى يده قصـدَ المستنقِذ لا قصد المُغير ، وأن تحكُمَ فيها بحُكْم الله الذى قضاه علىٰ لسان سعدٍ فى بَنِى قُرَيظَة والنَّضير ؛ وعلىٰ الخُصوص البيتُ المقدّس فإنه تِلادُ الإسلام القديم ، وأخُو البيت الحرامِ فى شَرَف التعظيم ، والذى توجَّهت إليه الوُجوهُ من قبلُ بالسُّجود والتسلِيم ؛ وقد أصْبح وهو يشكُو طُولَ المدّةِ فى أَسْر رَقَبته ، وأصبحتْ كلمةُ التوحيـد وهى تشكُو طُولَ الوحشةِ فى غُرْبتها عنه

وغربته؛ فانهَضْ إليه نهضَةً تُوغِل فى قَرْحه ، وتُبدِّل صَعْب قِياده بسَمْحه ، وإن كان له عامُ حُدَيْبِيَةَ فأَتْبِعه بعامِ فَتْحه ؛ وهذه الآسترادةُ إنما تكونُ بعدَ سَدَاد مافى اليَـدِ من ثَغْرٍ كان مُهْمَلا فَحَمَيْتَ مَوارِدَه، أو مُسْتَهْدِما فَرَفعت قَواعِدَه؛ ومن أهمِّها ما كان حاضِرَ البحر فإنه عَوْرَةٌ مكشُوفه ، وخطَّـة مَخُوفه؛ والعدوّ قريبٌ منه علىٰ بُعْده، وكثيرا ما يأتيه فَجْأَةً حتّىٰ يسبِقَ بَرْقُه برَعْده ؛ فينبغى أن ترتِّب بهذه الثغور رابطةً تَكْثُر شُجعانُهـا ، وتقلُّ أقرانُها، ويكون قِتالُها لأنْ تكونَ كلمـةُ الله هى العُلْيا لا لأنْ يُرىٰ مَكانُها ؛ وحينئذ يُصْبِح كلٌّ منها وله من الرجال أَسْوار ، ويعلم أهـلُه أن بناءَ السيف أمنعُ من بِناء الأحجار ؛ ومع هـذا لا بُدّ من أصطول يكْثُر عدَدُه ، ويقْوىٰ مدَدُه؛ فإنه العُدَّة التى تستعينُ بهـا فى كَشْف الغَمَّاء، والآستكثارِ من سَبَايا العبيد والإمَاء، وجَيْشُه أخو الجيش السُّلَيمانىّ : فذاك يسيرُ علىٰ مَتْن الريح وهذا علىٰ مَتْن المـاء؛ ومن صفات خيله أنها جمعَتْ بين العَوْم والمَطَار، وتساوتْ أقدارُ خَلْقها علىٰ آختلاف مُـدّة الأعمـار ؛ وإذا أُشْرِعت قيل جبالٌ متلفِّعة بقطَع من الغُيوم، وإذا نُظِر إلىٰ أشكالها قيـل : إنها أهِلَّة غيرَ أنها تهتدى فى مَسيرها بالنُّجوم ؛ ومثلُ هذه الخيلِ ينبغى أن يُغالىٰ فى جِيادها، ويستَكْثَرَ من قِيادها؛ ولْيؤَمَّر عليها أميرٌ يلقىٰ البحْرَ بمثله من سَعَة صَـدْره ، ويسلكُ طُرُقَه سلُوكَ من لم تقتُلْه بجهلها ولٰكن قتلها بخُبْره؛ وكذلك فلْيكُنْ ممن أفنتِ الأيامَ تجارِبُه،وزَحَمتْها مناكِبُه، وممَّن يُذِل الصَّعْب إذا هو ساسَه وإن سِيسَ لانَ جانبُه؛وهذا هو الرجل الذى يرْأَس علىٰ القوم فلا يجد هِزَّةً بالرياسه؛ وإن كان فى الساقةِ ففى السَّاقة أو فى الحراسة ففى الحِراسه؛ ولقـد أفلحَتْ عِصابةٌ آعتصَبَتْ من وَرَائه ، [وأيْقَنت بالنصر من رايته كما أيقنَتْ بالنصر من رائه][1] .

(١) الزياد من ''المثل السائر'' ص ١٤٧ .

وآعلَمْ أنه قد أُخِلَّ من الجهاد برُكْن يقْدَح فى عمله ، وهو تمامُه الذى يأتى فى آخره كما أنَّ صِـدْق النيَّـة يأتِى فى أوّله ؛ وذلك هو قَسْمُ الغنائم فإنَّ الأيدىَ قد تداولَتْـه بالإجحاف، وخلطتْ جِهادَها فيـه بغُلُولها فلم ترجِع بالكَفَاف؛ والله قد جعل الظُّلْمَ فى تعدِّى حدُوده المحدُوده، وجعل الآستئثارَ بالمَغْنَم من أشراط الساعة الموعُودَه ؛ [ونحن نعوذُ به] (١) أن يكونَ زمانُنا هذا شرَّ زمانٍ وناسُه شرّ ناس ، ولم يستخْلِفْنا علىٰ حِفْظ أركان دِينه ثم نُهمِله إهمال مُضَيِّع ولا [إهمال] (١) ناس ؛ والذى نأمُرُك به أن تُجْرِى [هذا] (١) الأمْرَ علىٰ المنصوص من حكمه ، وتُبَرِّئَ ذمَّتك مما يكونُ غيرُك الفائزَ بفوائده وأنت المُطالَبَ بإثمه ؛ وفى أرزاقِ المجاهدين بالديارِ المصرية والشاميَّة مايُغْنِيهم عن هذه الأُكْلة التى تكُون غدًا أَنْكَالا وجَحِيما، وطَعامًا ذا غُصَّةٍ وعذَاباً أَلِيما .

فتصَفَّحْ ماسـطَّرناه لك فى هـذه الأساطير التى هى عزائمُ مُـبْرَمات، بل آياتٌ محكَمَات ، وتحبَّبْ إلىٰ الله وإلىٰ أمير المؤمنـين بآقْتِفاء كتابها ، وآبْنِ لك منهـا مَجْدا يَبْقىٰ فى عَقِبك إذا أُصِيبتِ البيوتُ فى أعقابها ؛ وهذا التقليدُ ينْطِق عليك بأنه لم يأْلُ فى الوصَايَا التى أوصاها، وأنه لم يُغادِرْ صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحْصاها؛ ثم إنه قد خُتِم بدَعَواتٍ دعا بها أميرُ المؤمنين عند ختامه ، وسأل فيها خِيرةَ الله التى تتـنَزَّل من كلِّ أمرٍ بمـنْزِلة نِظامه ؛ ثم قال : اللّهُمَّ إنى أُشْهِدك علىٰ من قلَّدتُه شهادةً تكون عليـه رقِيبَه ، وله حَسِيبَه ؛ فإنِّى لم آمُرْه إلا بأوامرِ الحقِّ التى فيها موعِظةٌ وذِكْرىٰ ، وهى لمن آتَّبعها هدًى ورحمـةٌ وبُشْرىٰ ؛ فإذا أخذ بها فَلَج بحُجَّته يوم يُسْأَل عن الحُجَج ، ولم يُخْتَلَجْ دُونَ رسول الله عن الحوْض فى جملة من يُخْتلَج ، وقيل له : لاحرجَ عليك ولا إثمَ إذ نجوت من وَرَطات الإثم والحَرَج ، والسلام .

---

(١) الزيادة من كتاب "المثل السائر" ص ١٤٧ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

المــــذهب الخامس

(أن يفتتح العهد بـ«إنَّ أولىٰ ما كان كذا » ونحوه)

وهى طريقة غريبةٌ، كُتِب عليها عهدُ السلطان صلاح الدين «يوسُف بن أيوب» بالديار المصرية من ديوان الإنشاء ببغداد . وهو الذى عارضه الوزيرُ ضياءُ الدين بن الأثير فى العهد المتقدّم ذكره فى المذهب [الرابع] (١) . وهذه نسخته :

إنَّ أولىٰ من جادَتْ رِباعَه سُحُبُ الاصْطِناع ، وخُصَّ من الاصْطفاء والاجْتباء بالصَّفَايا والمِرْباع ، مَنْ تَرسَّم انتهاجَ الجَدَد القويم ، والطريقِ الواضح المستَقيم ، واعتَلَق من الوَلَاء بأوْثَق عِصَمِه وحِباله ، والفِنَاء الذى يَهْتدِى بأنواره فى متَصَرَّفاته وأعماله ، والتحلِّى بجميل الذكر فى سيرته ، وخُلُوص الاعتناء بأمُور رعِيَّته ، وكان راغباً فى اقْتِناء حَمِيـدِ الخِلَال ، مجتهدًا فى طاعةِ الله بما يُرْضِـيه من العـدْل الممتدِّ الظِّلال ، عاملًا فيما يُناطُ به بما يتَضوّعُ نَشْرُ خَبَره ، ويُجْتَنىٰ بحُسْن صُـنعه يانِـعُ ثمره ، باذلًا وُسْعَه فى الصلاح ، مُؤْذِنةً مساعِيه بفَوْز القِدَاح .

ولمَّا كان الملكُ الأجلُّ ، السيدُ ، صلاحُ الدين ، ناصرُ الإسـلام ، عمادُ الدولة ، جَمَـالُ المُلْك ، فخْـرُ الملة ، صَفِيّ الخلافة ، تاجُ المُلوك والسلاطين ، قامعُ الكَفَرة والمشركين ، قاهِرُ الخَوارج والمتمرِّدين ، عِزُّ المجاهدين ، أَلْب غازى بك ابن يُوسف ابن أيُّوب ــ أدام الله عُلُوه ــ علىٰ هذه السَّجايا مُقْبِلا ، وبِصفاتِها الكاملة مشتَمِلا ، مُؤْثِرا تضاعُفَ المأْثُرات ، مثابرًا علىٰ ماتزْكُو به الأعمالُ الصالحات ، متَحَلِّيا بالمحَـامد الرائقه ، مُستَبِدًا بالمناقِب التى هى لجميلِ أفعالِه موافِقةٌ مطابِقه ، محَصِّلا من رِضا الله تعالىٰ مايُؤْثِره ويرومُه ، [و] من طاعة الدّار العزيزة ــ لازالتْ مُشَيَّدة البِناء ، سابغةَ

(١) بياض بالأصل والتصحيح مما تقدّم .

النَّعماء ، دائمَةَ الاستبْشار، عزيزَةَ الأَنْصار ـ [و] من استمرار الظَّفر مايستديمُه ، ـ اقتضَتِ الآراءُ الشريفةُ ـ لازال التوفيقُ قرينَها ، والتأييدُ مُظافرَها ومُعينَها ـ إمضاءَ تصرُّفه و إنفاذَ حُكْمه فى بلاد مِصْر وأعمالِهـا ، والصعيدِ الأعلىٰ ، والإسكندرية ، وما يفتَحُه من بلاد الغَرْب والساحل، وبلادِ اليمَن وما افتتحه منها و يستخلصُه بعدُ من ولايتها ؛ والتعويلَ فى هذه الولاياتِ عليــه ، واستنقاذَ ما استولىٰ عليه الكُفَّار من البلاد، و إعزازَ كلِّ مَنْ أذَلُّوه واضْطهدُوه من العباد : لتعودَ الثُّغورُ بيُمْن نَقِيبته ضاحكةَ المَبَاسِم ، وبإصابة رأْيه قائمَةَ المَوَاسِم .

أَمَرَه بادئًا بتقْوىٰ الله التى هى الجُنَّــةُ الواقيَــه ، والذَّخيرةُ الباقيــه، والعِصْمة الكافيَه ، والزادُ إذا أنفضَ وَفْدُ الآخرةِ وأرْمَلُوا ، والعَتادُ النـافعُ إذا وجَدُوا شاهدًا لهم وعليهم ماعمِلُوا : فإنَّها العَلَم المنصوبُ للرَّشَــد ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يأَيُّهـا الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ماقَدَّمَتْ لِغَد ﴾ .

وأمَرَه أنْ يتَّخِذ كتابَ الله سبحانه العَـلَمَ الذى به يَقْتدِى ، وبأنوارِه إلىٰ حُدُود الصواب يَهْتدِى ، ويستَمِعَ لزَوَاجِره ومَواعِظه ، ويعتَبِرَ بتخويفه ومَلَاحِظه ، ويُصْغِيَ إليه بسَـمْعه وقلبِه ، وجَوارِحه ولُبِّـه ، ويعمَلَ بأوامره المُحكَمه ، ويقِفَ عند نَوَاهيه المُبْرَمه ، ويتدَبَّرَ ماحوتْه آياتُه من الوَعْد والوَعيــد ، والزَّجْر والتَّهْـديد ، قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَإنَّه لَكِتابٌ عَزِيزٌ لايَأْتيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِـهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيد ﴾ .

وأمَرَه أن يكونَ علىٰ صَـلَاته محافِظًا ، ولنَفْسه عن الإخلال والتقصــيرِ فى أداء فَرْضها واعِظا ، فيغْتَنِم الاستعدادَ أمامَ أوقاتها للأَداء ، ويحترِز من فَوَاتها والحاجة إلىٰ القَضاء ، مُوَفِّيا حقَّها من الرُّكُوع والسُّجود ، علىٰ الوصْف الواجِب المحدُود ، مُخْلِصا سرَّه عند الدُّخول فيها ، وناهيًا نَفْسَه عمَّـا يَصُدّها بالأفكار ويُلْهيها ؛ مجتهدًا فى نَفْى

الفِكْر والوِسْواس عن قَلْبه، متنصِباً فى إخلاصِ العبادة لربِّه: ليغْدُوَ بوَصْف الأبرارِ منْعُوتا، قال الله تعالىٰ: ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ علىٰ المُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتا ﴾ .

وأمَرَه بقَصْد المساجِد الجامعــةِ فى أيَّام الجُمَع، آمتثالاً لأمْرِ الله المتَّبَع، بعزيمــةٍ فى الخير صادِقَه، ونِيَّة للعبادة مُوافِقه؛ وفى الأعيــادِ إلىٰ المُصَلَّيات المُصْحِرة المجَمَّلة بالمَنَابر الحالِيَهْ، التى هى عن الأدناس مطهَّرةٌ نائِيَــه؛ فإنَّها من مَواضِــع العبادة ومَواطِنِها، ومَظَانِّ تلاوة القُرءان المأمورِ بحفظ آدابِها وسُنَنِها؛ فقدْ وصف اللهُ تعالىٰ مَنْ وفَّقــه لتحميــل مُؤَنِه[(١)] بالعِماره، بمــا أوْضَح فيــه الإشَارَه؛ وشَرَّفه بوضْع سِمَــة الإيمــان عليه بالإكرامِ الفاخِر، فقال: ﴿ إنَّمَــا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليومِ الآخِرِ ﴾: فيُقِيم الدعوةَ الهاديَةَ علىٰ المَنَــابر علىٰ عادةِ مَنْ تَقَــدَّمه، ومُنْتَهِيا فيها إلىٰ أحسَنِ ماعهِدَه وعَلِمَه .

وأمَره بلُزوم نَزَاهة الحُرُمات، وآجتنابِ المُحَرَّمات؛ والتحلِّى من العَفَاف والوَرَع بأجمل القَلَائد الرائِقَه، والتقَمُّص بمَلَابس التقوىٰ التى هى بأمثالِه لائِقَــه؛ وسلوكِ مَنَــاهِج الصَّلاح الذى يَجْمُل به فِعْلُه، ويصْــفُو له عَلُّه ونَهَلُه؛ وأن يمنَعَ نَفْســه من الغَضَب؛ ويرُدَّها عمَّا تأمُرُ به من سُوء المُكْتَسَب؛ ويأخُذَها بآدابِ الله ســبحانه فى نَهْيِها عن الهَوىٰ، وحَمْلِها علىٰ التَّقْوىٰ؛ ورَدْعِها عن التورُّط فى المَهَاوِى والشُّــبَه، وكلِّ أمْرٍ يلتَبِس فيه الحقُّ ويشْتَبِه؛ ويُلْزِمَها الأخْذَ بالعفْو والصَّفْح، والتأمُّلَ لمكان الأعمــال فيــه واللَّمْح؛ قال الله تعــالىٰ: ﴿ خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِيــنَ ﴾ .

وأمَرَه بإحسانِ السِّيرة فى الرعايا بتِلْكَ البِلاد، وآختِصاصِهم بالصَّوْن الرائح الغَاد؛ ونَشْر جَناح الرِّعايةِ علىٰ البَعِيــد منهم والقَرِيب، وإحْلالِ كلٍّ منهم مَحَلَّه علىٰ القاعدة

(١) لعله لتجميل بيوته . تأمل .

والترتيب، وإشاعةِ المَعْـدَلة فيهم، وإسْهامِ دانِيهم مِنْ وافِرِ مُلاحَظَتِه وقاصِيهم؛ وأن يَحْمِيَ سَرْحَهم من كلِّ داعِرٍ، ويَذُودَ عنهم كلَّ مُوارِبٍ بالفَساد ومُظاهِر؛ حتّى تَصْـفُوَ لهم من الأَمْن الشَّرائع، وتَضْفُوَ عليهـم من بركة وِلَايتـه المَدارِع، وتستَنِيرَ بضَوْء العـدْل منهم المَطَالع؛ ويحتَرِمَ أكابِرَهم، ويَحْنُوَ علىٰ أصاغِرِهم؛ ويشْمَلَهم بكَنَفه ودِرْعه، وينْتَهِيَ فى مَصَالحهم إلىٰ غاية وُسْعه؛ ولا يأْلُوهم فى النُّصْح جُهْدا، ولا يُخْلِف لهم فى الخير وَعْدا؛ ويُشاوِرَهم فى أمره فإنَّ المَشُورة داعيـةٌ إلىٰ الفَلَاح، ومِفتاحُ باب الصَّـلاح؛ قال الله تعـالىٰ: ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْـتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ .

وأمَرَه بإظهار العَدْل فى الرعيَّة التى تضُمُّها جميعُ الأكنافِ والأَطْراف، والتحَلِّى من النَّصَفة بأكمل الأَوْصاف؛ وحَمْلِ كافَّتِهم علىٰ أقْوَمِ جَدَد، وعِصْـيانِ الهوىٰ فى تَقْويم كلِّ أَوَد؛ والمساواةِ بين الفاضل والمَفْضُول فى الحقِّ إذا ظهر صِدْقُ دليله، والآشتمالِ عليهم بالأمن الذى يَعْذُب لهم بَرْدُ مَقِيله؛ وكَشْفِ ظُلامة من آنبسطَتْ إلىٰ تَحَيُّفِه الأَيْدى والأطماع، وأعجزَتْه النُّصْرةُ لنفْسه والدِّفاع؛ وتصَفُّحِ أحوالهم بعينٍ لا تَرْنُو الىٰ هَوًى يميلُ بها عن الواجب، وسَمْعٍ لا يَصْغَىٰ إلىٰ مَقالةِ مائنٍ ولا كاذب؛ ولا يَغْفُل عن مصلحةٍ تَعُود إليهم، ويرجعُ نفعُها عليهم؛ ولا عن كَشْف ظُلاماتِ بعضِهم من بعض، وردِّهم إلىٰ الحقِّ فى كلِّ رَفْع من أحوالهم وخَفْض؛ فلا يُرىٰ إلّا بالحق عاملا، وللأُمُور علىٰ سَنَنِ الشريعـة حاملا؛ مجتنبًا إغفالَ مَصَالحهم وإهمالَهَـا، وحارسًا نِظامَها علىٰ تتابُعِ الأيَّام وآتِّصالها: ليكونَ ذلك إلىٰ وُفُور الأجر داعِيـا، وبحسن الأُحْدوثة قاضيا؛ مقتدياً بمـا نطَق به القرءان: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَانِ ﴾ .

وأمَرَه أن يأمُر بالمعروف ويُقِيم مَنَارَه، ويَنْهىٰ عن المنكر ويَمْحُوَ آثارَه ؛ فلا يترُك مُمْكنا من إظهار الحقِّ وإعْلانِه، وقَمْع الباطل وإخْماد نيرانِه ؛ ويعتمِدَ مساعدةَ كل مُرْشِد إلىٰ الطريقِ الأقْصَد، وناهٍ عن التظاهُر بالمحظُور فى كل مَشْهَد ؛ وكلِّ (١) مَنْ تضحىٰ مَعُونتُه مشاركةً فى إحراز المَثُوبة ومساهِمَه ، ومُساوِمةً فى ٱقْتِناء الأجر ومُقاسِمَه ؛ وأن يُوعِزَ بإزالة مَظَانِّ الرَّيْب والفساد فى الدَّانى من الأعمال والقاصِى ، فإنَّها مَواطِنُ الشيطان وأماكِنُ المَعاصِي ؛ وأن يشُدَّ علىٰ أيْدى الآمِرِين بالمعروف والناهِينَ عن المُنْكَر، ويُعِينَهم علىٰ ذٰلك بما يَطِيبُ ذِكرُه فى كل مَشْهَد ومَحْضَر ؛ ويجتَهِدَ فى إزالة كلِّ محظُور ومنكَر، مقدَّمٍ فى الباطل ومؤَخَّر؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ بالمَعْرُوفِ وٱنْهَ عن المُنْكَر ﴾ .

وأَمَرَه أن يُقدِّم الاحتياطَ فى حفظ الثُّغُور ومجاوِرِيها من الكُفَّار، ويستعمِلَ غايةَ التيقُّظ فى ذٰلك والاستظهار : ليأمَن عليها غَوائلَ المَكايِد ، ويفُوزَ من التوفيق لذٰلك بأنواع المَحامِد ؛ ويتجرَّدَ لجهاد أعداءِ الدين، والانتقامِ من الكَفَرة المارقين؛ أخْذا بقول رب العالمين : ﴿ انْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالًا وجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ فى سبيلِ الله ذٰلِكُمْ خيرٌ لَكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون ﴾ . وأن يعملَ فيما يحصُل من الغَنائم عنـد فَلِّ جُمُوعهم، وٱفتتاح بلادِهم ورُبُوعهم ، بقول الله وما أَمَرَ به فى قِسْمتها، وإيفاءِ كلِّ صاحبِ حصته منها؛ سالكًا سُبُلَ مَنْ غدا لآثارِ الصلاح مُقْتفيا ، وللفَرْض فى ذلك مؤدِّيا ، وبِهُدىٰ ذَوِى الرشد مُهْتِديا . قال اللهُ تعالىٰ فى محكم التنزيل : ﴿ وٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْء فَأَنَّ لِلهِ خُمُسَهُ وللرَّسُول ولِذِى القُرْبىٰ واليَتَامىٰ والمَسَاكِين وٱبنِ السَّبِيل ﴾ .

(١) فى الأصل فانه من تضحى الخ تأمل .

وأمَرَه أن يُجيبَ إلىٰ الأمَان مَن طلَبه منه، ويكونُ وفاؤُه مقترِنا بمـا تضَمَّنه؛ غير مُضْمِرٍ خلافَ ما يُعْطِى به صَفْقةَ أمانِه، ويجتَنِبَ الغَدْر وما فيه من العار، وإسْخاط المَلِك الجَبَّار، قال الله عز وجل : ﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذَا عَاهَدْتُمْ ولا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بعْدَ تَوْكِيدِها وقد جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إنَّ اللهَ يَعْلَمُ ماتَفْعَلُون﴾ .

وأمَرَه بأن يأمُرَ أصحابَ المَعاوِن بمساعدة القُضَاة والحُكَّام ، ومَعُونتِهم بمـا يَقْضِى [بلَمِّ] شَمْل الصلاح فى تنفيذِ القضايا والاَنْتِظام، وأخْذ الخُصُوم بإجابةِ الداعى إذا آستُحْضِر[وا] إلىٰ أبوابهم للإنصاف ، والمُسارعةِ إلىٰ الحقِّ الواجبِ عليهم من غيْرِ خلَاف؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وأ كْثَرُهُمْ لِلحَقِّ كارِهُون ﴾ .

وأمَره بالتعويل فى المَظَالم وأسواقِ الرقيق ودُور الضَّرْب والحِسْبة علىٰ مَنْ يَأْوِى إلىٰ عَفَافٍ ودِين، وعِلْمٍ بأحكام الشريعة وصِحَّةِ يَقين؛ لايخفىٰ عليه ماحَرَّمه الله تعالىٰ وأحَلَّه ، ولا يلتبسُ علىٰ عِلْمه ماأوْضَح إلىٰ الحقِّ الواضِح سُبُلَه ؛ وإلىٰ مَنْ يتولَّى المَظالِمَ بإيصال الخُصُوم إليه ، وإنصافِهم كما أوجبه اللهُ تعالىٰ عليـه ؛ وآستماعِ ظُلَاماتهم، وإحسان النظَر فى مُشاجَراتِهم؛ فإنْ أسفَرَ للحق ضِياءٌ تَبِعه، أو آشتَبه الأمرُ ردّه إلىٰ الحُكَّام ورَفَعه . و[إلىٰ] الناظِرِ فى أسواق الرقيق بالاَحْتِراز والاَستِظْهار، وتَعْرِيةِ الأحوال من الشُّبَه فى آمْتِزاج العبِيد بالأحرار : لتضحىٰ الأنسابُ مَصُونةً مرعِيَّه ، والأموالُ عن الثَّلْم محرُوسةً محميَّه . وإلىٰ من ينظُر فى الحِسْبة بتصَفُّح أحوال العامَّة فى مَتَاجِرهم وأمْوالِهم ، وتتَبُّع آثار صِحَّتهـم فى المعاملة وآعْتِلالِهم ؛ وآعتبار المَوَازين والمَكَاييـل ، وإلزام أربابِهـا الصِّحَّةَ والتعـديل ؛ قال الله سـبحانه وتعـالىٰ : ﴿ وَزِنُوا بِالْقِسْطاسِ المُسْتَقِيم ﴾ .

وأن يُعْمل الجفن فى تطهير البِـلاد، من كل مدْخُول الاعتقاد ؛ معروفٍ بالشُّبه فى دِينِه والإلحاد، ومَنْ يسعىٰ منهم فى الفَساد؛ و يأمُرَ المرتَّبين فى المراكز والأطْراف باقْتِناصهم، وكَفِّ فسادِهم و إجْلائهــم عن عِراصِهم؛ وأن يُجْرِىَ عليهم فى السِّياسة ما يجبُ علىٰ أمثالهم من الزَّنادقة والذين تَوْبتُهم لا تُقْبل ، وأمْرُهم علىٰ حُكْم المخاطبِين لايحمل . قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفروُا بَعْدَ إيمَـانِهِمْ ثُمَّ ٱزْدادُوا كُفْرا لن تُقْبَلَ تَوْبتُهم وأُولٰئِكَ هُمُ الضَّآلُّون﴾ .

وأمَرَه أن يتلَقَّ النعمةَ التى أُفْرِغتْ عليه،وٱنساقَتْ إليه؛ بشُكْر يَنْطِق به لسانُه، ويُتَرجم عنه بَيانُه : ليَستديمَ بذٰلك الإكرام، ويقْتَرِن الإحسانُ عنده بالاِلْتئام؛ وأن يُوفِّيها حقَّها من دوامِ الحمــد ، والقَصْد إلىٰ شُكْرها والعــمْد ؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿ ومَنْ شَكَرَ فإنَّمَـا يَشْكُر لنَفْسه ﴾ .

ولْيعلمْ أن أمير المؤمنــين(١) قد بيَّن له من الصــلاح ما ٱتَّضحَتْ أعلامه ، وأُثْبِتتْ فى المَرَامى سِهامُه؛ وأرشَد إلىٰ ماأودَع هذا المنشور من جَدَد الفوز بمرضاة الله تعالىٰ وشُكْرِ عبــاده ، عاملًا فى ذٰلك بمقتضىٰ جِدّه وٱجتهاده : لِيُحْرِز السَّــبْق فى دنيــاه وعُقْباه ، ويَتَوفَّر عنــده ما مُنِح به ممـا أرْهَف عَزْمَه وحَبَاه ؛ وغدا بمكانِه رافِلًا فى ملابِس الفَخْر والبَهاء ، نائلًا منى ما طال به مَناكبَ القُرناء؛ وٱختصَّ بمـا أعلىٰ درجَتَه فتقاعسَتْ عنه آمالُ حاسديه، وتفرّد بالمَكانة عن مَقَام من يُبارِيه ويُناوِيه؛ وأُولِىَ من الإنعام ما أَمَّنَ به سِرْبَ النعمة عنــده ، وأَصْــفىٰ من مَناهل الإحسان وِرْده؛ وأهدىٰ إليه من المواعظ مايجبُ أن يُودِعه واعيةَ الأسماع،ويأخُذَ بالعمل به كُلُّ راعٍ؛ فيَنْهَج ــ أدام الله علوّه ــ مَحاجَّ الولاء، الذى عَهِده من أمثاله من الأولياء؛

(١) فى الأصل ولْيعلم أن الله وهو غير موافق لباقى الكلام كما لايخفى .

متنزِّها عن تقصيرٍ منه فى عامّة الأوقات ، ومراعيًا أفعالَه فى جميع التصرُّفات؛ ويعلم أنَّه مسئُول عن كل ماتلفَّظ به لسانُه ناطقا، ونظَر طَرْفُه إليه رامقا؛ قبْلَ أن يُجانِب هَوَاه ، ويَبْقىٰ رهِينًا بمـا ٱكتسبَتْ يداه ؛ ولا يغـتَّر من الدنيا وزُخْرفِها بغَرَّار ليس الوفاءُ من طبـاعه، ومُعِيرٍ ما أقْصر مدَّةَ ٱرتجاعه ! ؛ وسبيلُ كافَّة القضاة والأعيـان ومقدّمِى العساكر والأجناد ، ورُؤساءِ البلادِ، متابعتُه وموافقتُه ، وطلبُ مصالحهم من جَنابِه ، والتصرفُ علىٰ ٱستصوابه ؛ وقد أُكِّدتْ وَصَاتُه فى الرفق بهم والاشتمالِ عليهم ، والإحسان إليهـم ، وإجْمال السِّيرة فيهم ؛ وكلَّمـا أشكل عليه أمْرٌ من المتجدّدات يطالع به الديوانَ العزيز ــ مجده الله تعـالىٰ ــ ليُنْهِج له السبيل إلىٰ فتح رِتَاجه، وسُلُوكِ مِنْهاجه ؛ والله ولىُّ التوفيق والهـدايه ، وجمع الكلمةِ فى كلِّ إعادةٍ وبِدايه ؛ والمعونةِ علىٰ العِصْـمة من الزَّلَل، والتأييدِ فى القول والعمَل؛ إن شاء الله تعالىٰ، وهو حسبُنا ونِعْم الوكيل .

الوجـــــه السـابع

(فيما يكتب فى مستَنَد عهد السلطان عن الخليفة، ومايكتُبه الخليفةُ فى بيت العلامة، ومايُكْتَب فى نسخة العهد من الشَّهادة أو مايقومُ مَقامَها)

أما مايكتَب فى المستَنَد، فقد جرتِ العادةُ أن يكتَب فيه نحوُ ماتقدّم فى البَيْعات وعُهودِ وُلاة العهد بالخلافة : وهو : « بالإذْن العالىّ ،المولَوىّ ، الإمامىّ ، النَّبوىّ ، الفلانىّ (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالىٰ » .

وأما مايكتُبه الخليفةُ فى بيت العلامة ، فإنه يكتُب علامَته وتحتها : « فوّضْتُ إليه ذٰلك، وكتَب فلانُ بنُ فلان» . ورأيت فى بعض الدساتير نَقْلا عن الحاكم بأمْر الله

أبى العباس [ٱبن الخليفــة] المستكْفِى بالله أبى الربيع سليمان [أنه] كان يكتب : « وكتب أحمد ٱبن عمّ سيدنا محمد صلّى الله عليه وسلم » .

وأما مايُكتَب فى نسخة العهد من الشَّهادة، فقد جرتِ العادةُ أن يكتُب قاضيان فأكثَرُ من قُضاة القضاة الأربعة فى حاشـيَةِ العهد أو فى ذَيْله ماصورتُه : «أشهدَنِى مولانا أميرُ المؤمنين العاهدُ المشارُ إليه فيه ـ أدام الله تعالىٰ أيّامَه ـ بمـا نُسِب إليه فيه من العهد إلىٰ فلانِ بنِ فلان » أو ما فى معنىٰ ذلك .

قلت : والواجب أن يضُمُّوا فى رسم شهادته الشهادةَ علىٰ السلطان بقَبُول العهد، بأن يقال قَبْل علىٰ مانُصّ وشُرِح فيه : « وعلىٰ مولانا السلطانِ المشارِ إليه فيه بقَبُول مافُوِّض إليــه فيه » أو نحو ذلك : لأنه كما يعتبر العهدُ من العاهد يعتــبر القَبُول من المعهود إليه كما تقدّم فى مَوْضِعه .

الوجـــــه الثـامن

(فى قَطْع الورق الذى تُكتَب فيــه عهودُ الملوك عن الخلفاء، والقلم الذى يُكتَب به، وكيفيَّةِ كتابتها، وصورةِ وضْعها فى الورق)

أما قطْعُ الورق فلا نِزاعَ فى أنه يُكتَب فى قَطْع البغــدادىّ الكامل ، علىٰ ماهو مستقِرّ العادة إلىٰ الآنَ . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورق فى المقالة الأُولىٰ (١) من الكتاب أنَّ عَرْضَه ثلاثةُ أشبار وخمسةُ أصابع، وطُول الوصل كذٰلك .

---

(١) كذا فى الأصــل مضببا عليــه ولم يتقدّم فى الأولى وانمــا تقــدم فى المقالة الثالثة الكلام على المقادير وأن عرض البغــدادى الكامل ذراع واحد بذراع القماش المصرى . انظر ج ٦ ص ١٩٠ من هذا المطبوع .

وأما القلم الذى يكتب به، فمختَصَر قلم الطُّومار لمناسبته له علىٰ ماتقدّم فيما يُناسب كل قَطْع من الورق من الأقلام .

وأما كيفيَّة كتابة العهد وصورةُ وضعه فى الورق، فعلىٰ ماتقدّم فى البَيْعات وعُهودِ أوليـاء العهد بالخلافة : وهو أن يَبْـدأ بكتابة الطُّرَّة فى أعلىٰ الدرج من أوّل عَرْض الورق إلىٰ آخره سـطورًا متلاصقةً من غير هامشٍ، وفى أعلاه قدْرُ إصبع بياضًا، ثم يترك سـتةَ أوصالٍ بياضًا من غيْرِ كتابة غير الوصل الذى فيـه الطُّرَّة؛ ثم تكتبُ البسملةُ فى أوّلِ الوصل الثامن بحيثُ تكونُ أعالِى ألفاتِها تكادُ تلْحَق بالوصل الذى فوقه، بهامش عن يمين الدَّرْج قَدْرِ أربعة أصابع مطْبُوقَة أو خمسة؛ ثم يكْتُب سطرا من أوّل العهد تحت البسملة ملاصقا لها بحيثُ تكاد أعالى ألفاته تلْحق بالبسملة، ثم يخَلِّى بيتَ العلامة قدْرَ شبر، ثم يكتب السطر الثانىَ من العهد علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة، ويسترسل فى كتابة بقية العهد .

ثم الذى رأيتـه فى دُسْـتُور معتمد يُنْسَب للمقرّ العلائىِّ بن فضـل الله أنه يكون بين كلِّ سطرين قدر ربع ذراع . وأخبرنى بعضُ فضلاء الكُتَّاب أنه رأىٰ فى بعض الدساتير أنَّ سُـطورَه تكون مُزْدوِجةً علىٰ نظير البسملة والسـطر الأوّل، وبين كل سطرين بعد بيت العلامة تقديرُ خمسةِ أصابع مَطْبوقةٍ .

قلت : ولعل ذلك تفنُّن من الكاتب وتطريزٌ للكتابة، لاعلىٰ سبيل اللُّزوم .

فإن قيـل : لِمَ كان مِقدارُ البياض بين سُطور العهد مع كِبَرِ قَطْع الورق دُونَ بياض ما بين سُطُور التقاليد ونحوها ممـا يكتب عن السلطان علىٰ ما سيأتى ذكره ؟ فالجواب أن العهد كالمكاتبة من العاهد للمعهُود إليـه، كما أنَّ التقليد كالمكاتبـة من المقلِّد للمقلَّد، والأعلىٰ فى حقِّ المكتوب إليه أن تكون السطور متضايقةً علىٰ ماتقدّم

فى الكلام علىٰ المكاتَبات، فناسب أنْ تكونَ سطورُ العهد أكثرَ تقارباً من سطور التقليد وما فى معناه، تعظيما لشأن السلطان فى الحالتين .

فإن قيل : يُنقَض ذٰلك بعظم قَلَم العهد ، ضرورةَ أنه كلَّما غلُظ القلمُ كان أنزل فى رُتْبة المكتوب إليه علىٰ ماتقدّم أيضا ، فالجوابُ : أن غلَظ القلم فى العهد تابِعٌ للورق فى كِبَر قَطْعه، وقاعدةُ ديوان الإنشاء أنه كُلَّما كَبِر قطعُ الورق فى المكاتَبات ، كان تعظيماً للمكتوب إليه، بدليل أنَّ كلَّ من عَظُم مقداره من الملوك كان قَطْع الورق فى مكاتبته أكْبَر، ولو كُتِب العهدُ بقلمٍ دقيق معَ ضِيق السُّطورِ وسَعةِ الورَق لجاء فى غاية القِصَر . ثم قد جرتِ العادةُ أن تكون كتابةُ العهد من أوّله إلىٰ آخره من غير نَقْط ولا شَكْل، وعليه عملُ الكُتَّاب إلىٰ آخرِ وقْت .

قلت : هـذا بناءً علىٰ المذهَب الراجح فى أن المكاتَبـةَ إلىٰ الرئيس تكونُ من غير إعجام ولا ضَبْط : لمـا فى الإعجام والضَّبْط من ٱستجهال المكتوبِ إليه ونِسبَته للغَبَاوة وقِلَّة الفهم، بخلاف من ذَهَب إلىٰ أن الكتابة إلىٰ الرئيس تُقَيَّـد بالإعجـام والضـبطِ كى لايعترِضَه الشكُّ ، ولا يُكلَّف إعمـالَ الفِكر، علىٰ ما تقدّم ذكـره فى أوائل المكاتبات، فإنه يرىٰ نَقْط العهد وشكْلَه .

وإذا ٱنتهىٰ إلىٰ آخر العـهد كتب المشيئةَ ، ثم التاريخ ، ثم المستَنَد ، ثم الحمدلة والصـلاة علىٰ النبىّ صلى الله عليـه وسلم ثم الحسـبلة، علىٰ ما تقدّم فى الكلام علىٰ الفواتح والخواتم فى أوائل المقالة الأولىٰ من الكتاب .

وهـذه صورة وضعه فى الورق، ممثَّلا له بالطرّة التى أنشأها القـاضى علاءُ الدين ٱبن عبـد الظاهر ، والعهد الذى أنشأه القـاضى شمسُ الدين إبراهيمُ بنُ القَيْسرانى للملك الناصر "محمد بن قلاوون" وهو العهد الأخير من المذهب الأوّل .

الطـــرة

هذا عهدٌ شريفٌ تجدّدتْ مَسَرّاتُ الإسلامِ بتجديده، وتأكّدتْ أسبابُ الإيمانِ بتأكيده، ووُجِد النصرُ العزيزُ والفتحُ المبينُ بوُجُوده، ووَفَد اليُمْنُ والإقبالُ على الخَليقة بوُفُوده، وورَدَ الأنامُ مَوْرِدَ الأمانِ بوُرُوده . من عبدالله ووليّه الإمام المستكْفِي بالله أبي الربيع سليمان أمير المؤمنين، ٱبن الحـاكم بأمر الله أبي العباس أحمد، عَهِد به إلى السلطان الملك النـاصر أبي الفتح محمـد خلّد الله سلطانه، ٱبن السـلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحي قدّس الله روحه على ما شرِح فيه .

بســـم الله الرحمن الرحيـــم

الهـامش هــذا عهدٌ شريفٌ يَعْمُر بك للإسـلام المَعَاهد، ويَنْصُر منك الإعتزامَ

بيت العــــلامة

فتَغْنَى عن المُوالى والمُعاضِد، ويُلْقِي إليك مقاليدَ الأمور لتَحْمِيَ فى مَرْضاة

تقــــدير ربع ذراع

الله وتُجاهِد، ويَحُثك على العمل بالكتاب والسُّنّة : ليكونا شاهدين لَكَ

تقــــدير ربع ذراع

عنْدَ الله فى أعظم المَشَاهد ــ إلى أن يأتى إلى قوله فى آخره : والله تعالى

الهامش يخلِّد له رُتبةَ المُلْك التى أعلىٰ بها مَقَامَه، ويُديمُه ناصرًا للدين الحنيف فأنصارُه لايزَالُون ظاهِرِين إلىٰ يَوْمِ القِيامه؛ ويجعل سببَ هـذا العهدِ مَدىٰ الأيام مَتِينا، ويجدِّدُ له فى كل وقت نصْرا قريبًا وفَتْحا مُبِينا؛

والخط الحاكمىُّ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه

إن شاء الله تعالىٰ

كتب فى من شهر كذا

سنة كذا

بالإذْن العالى المَوْلوى الإمامىّ النبَّوىّ الحاكمىّ

أعــــلاه الله تعـالى

الحمد لله وحدَه، وصلواتُه علىٰ سيدِنا محمدٍ وآله وصحبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

النـــــوع الثـالث

(من العُهود عهودُ الملوك لوُلاة العهْد بالمُلْك)

وهو أن يعْهَد الملكُ بالمُلْك بعـده لمن يختاره من أولادِه أو إخْوته أو غيرهِم من الأقارب أو الأجانب .

ويتعلق النظـــرُ به من ســبْعة أوجه :

الوجـــه الأوّل

(فى بيـان صِحّــة ذٰلك)

لمّـا صَحّت إمارةُ الاِستيلاء إخمادًا للفِتَن ،وتنفيذًا للأحكام الشرعيَّة علىٰ ماتقـدّم من كلام المـاوردىّ فى النوع الثـانى من العهود ، ٱقتضتِ المصلحةُ تصحيحَ العهد بالمُلْك لمـا فيـه من المعنىٰ المتقدّم . وقد جَرَتْ عهودٌ من الملوك لأبنائهـم بالديار المصرية وغيرها بحضرة الجمِّ الغفير من العلماء وأهل الحلِّ والعَقْد فأمضَوْا حكم ذٰلك ولم ينكِرُوه ، وذلك منهم دليلُ الجواز .

فإن قيل : قد تقدّم فى النوع الثانى من العُهُود من كلام المـاوردىّ أن وزِيرَ التفويض لايجوز له أن يَعْهَـد بالوِزارة لغيره ، ووزارةُ التفويض فى معنىٰ السلطنة الآنَ أو قريبةٌ منها علىٰ ماتقـدّم هناك ، فالجواب : أنه قد تقدّم أن السلطنةَ الآنَ مُرَكَّبة من وِزَارة التفويض و إمارةِ الاِستيلاء ، بل السلطانُ الآنَ كالمستبدّ بالأمر ، والشوكةُ مصحِّحة لأصل الولاية فلأن تكونَ مصحِّحةً لفرعها أولىٰ .

الوجــــه الثـانى

(فيما يكتب فى الطـرّة)

ينبغى أن يكونَ مايكتَب فيها علىٰ نحو مايكْتَب فى طُرَر عهُود الملوك عن الخلفاء، إلا أنه يُزاد فيها : « عهِدَ إليه بالمُلْك بعده » كما يقال فى عهود الخلفاء عن الخلفاء : « عَهِد إليه بالأمر بعدَه » .

وهذه نسخة طـرّة :

«هذا عهْدٌ شريفٌ جليلٌ قدره ، رفيعٌ ذكره ، علىٌّ نَخْرُه ، متبلّج صُبْحه ضَوِىّ فَجْره . من السلطان الأعظم الملك الفلانىّ فلان الدنيا والدين فلان ، خلَّد الله تعالىٰ سلطانَه ، ونصر جُيوشَه وأعوانه ـ بالسلطنة الشريفة لولده المَقَام العـالى السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ ، بلَّغه الله تعالىٰ فيه غايةَ الآمال ، وحقَّق فيه للرعية مايرجُونه من مَزِيد الإفضال ، علىٰ ما شرح فيه» .

الوجــــه الثـالث

(فى الألقاب التى تُكْتَب فى أثناء العـهد)

وقد ذكر فى "التعريف" أنه يُكتَب له : المَقَام الشريف أو الكريم ، أو العالى مجرّدا عن الشريف والكريم ، ويُقْتَصر فيها علىٰ الألقاب المفْردة دُونَ المركبة .

قلت : وعلىٰ هـذه الطريقة كتب القاضى محيي الدين بن عبـد الظاهر ألقاب الملك الصالح علىّ بن المنصور قلاوون فى عهده بالسلطنة عن والده المذكور ، فقال : « ولمَّـا كان المقامُ العالى الوَلَدىّ السلطانىّ المَلَكىّ الصالحىّ العمادىّ » .

وعلىٰ نحو من ذلك كتب المشارُ إليه ألقابَ الملك السعيد بركةَ بن الظاهر بيبرس فى عهده بالسلطنة عن والده المذكور، فقال : « وخرج أمْرُنا بأن يكتَبَ هـذا التقليدُ لولدنا الملكِ السـعيدِ ناصرِ الدين بَرَكة خاقان محمد » إلا أنه قد خالف ذلك فيما كتب به فى ألقاب الملكِ الأشرفِ خليل بن المنصور قلاوون فى عهده بالسلطنة عن والده بجمع بينَ الألقاب المفْرَدة والمركّبة ، فقال : « هذا عهدُنا للسيِّد الأجل الملكِ الأشرفِ صلاح الدُّنيا والدين، فخرِ المُلوك والسلاطين، خليلِ أمير المؤمنين » ولم يتعرّض فى التعريف لحكاية هـذا المذْهَب، مع كون كلام ٱبن عبـد الظاهر حجةً يُرْجَع إليه فى هذا الفن .

الوجـــــه الرابع

(ما يكـتب فى المســتند)

ويتعين أن يُكْتَب فيــه « حسَبَ المرسُوم الشريف » لصُدُوره عن السلطان كما يُكْتَب فى التقاليد .

الوجـــــه الخامس

(ما يكتب فى مَتْن العـــهد)

وللكُتَّاب فيــه طريقتان :

الطريقةُ الأُولىٰ — أن يفتَتَح العهدُ بعد البسملة بلفظ «هذا» ونحوه علىٰ ماتقدم فى عُهُود الملوك عن الخلفاء .

وعلىٰ هذه الطريقة كتب أبُو بَكْر بنُ القَصِيرة المغربىّ الكاتبُ عن أمير المسلمين «يوسف بن تاشفين» سلطان المَغْرِب بولايةِ عهدِه لٱبنه أبى الحسن علىٰ مابيَده من الغَرْب والأندَلُس، فى ذى الحجة سنة ستٍّ وتسعين وأربعمائة، وهو :

كتابُ توليةٍ عظيمٍ جَسيم ، وتوصيةٍ حَمِيم كريم ؛ مُهِّدت علىٰ الرضا قواعِدُه ، وأُكِّدت بيدِ التقوىٰ مَعاقدُه ، وأبعِدت عن الغَوَاية والهوىٰ مصادِرُه ومَوارِدُه ؛ أنفذه أميرُ المسلمين وناصرُ الدِّين ، أبو يعقوبَ يوسفُ بنُ تاشفين ، أدام الله أمره ، وأعزَّ نصره ، وأطال فيما يُرضِيه ويَرضىٰ به عنه عُمُرَه ؛ غيرَ محابٍ ، ولا تاركٍ في النصيحة لله عز وجلّ ولرسوله موضِعَ ٱرتيابٍ لمُرْتاب – للأمير الأجلِّ أبى الحسن علىّ ٱبنِه المتقبل شِيَمَه وهمَمَه ، المتأثِّل حِلْمَه وتحلُّمه ، الناشئ فى حَجْر تقويمِه وتأْديبه ، المتصرِّف بين يَدَىْ متحديه (١) وتَهْذيبه ؛ أدام الله عِزَّه وتوفيقَه ، وأَنْهج إلىٰ كل صالح من الأعمال طرِيقَه ، وقد تهمَّم بمَنْ تحتَ عَصَاه من المسلمين ، وهذا فيمَنْ يخلُفُه فيهم هُدًى للمتقين ، ولم يرأن يَتْرُكَهم سُدًى غير مَدينين ؛ فٱعْتَام فى النِّصاب الرفيع وٱختار ، وٱستَنْصَح أُولِى الرأْى منهم ومن غيرهم وٱستَشَار ، وٱستضاء بشِهاب ٱستخارةِ الله عزَّ وجلَّ وٱستنار ، فلم يُوقِعِ الله بعد طُول تأَمُّل ، وتراخى مُدَّةٍ وتمهُّل ؛ اختيارَه ولا ٱختيارَ مَنْ فاوضه فى ذٰلك من أُولىٰ التقوىٰ والحكمة والتجربة وٱستَشاره إلَّا عليه ، ولا صارَ به وبهم الاجتهادُ إلَّا إليه ، ولا ٱلتقىٰ وُرَّاد التَّرائى والتشاوُر إلا بينَ يدَيْه ؛ فولَّاه علىٰ ٱستحكامِ بصيرةٍ وبعْدَ طُول مَشُورةٍ عهدَه ، وأفضىٰ إليه بالأمْر والنهيِ والبَسْط والقبض بعْدَه ؛ وجعله خليفتَه فى رَعايَا مَسْنَده وأوْطأَ عقِبَه جَماهيرَ الرجال ، وناطه بمُهِمَّات الأموال والأحوال ؛ وعَهِد إليه أن يتَّقِىَ الله ما ٱستطاع ، ولا يَعْدِلَ عن سَمْت العَدْل وحُكْم الكتاب والسنَّة فى أحد عَصىٰ أو أطاع ، ولا ينامَ به عن حِمايةٍ من أَسْهَره الحَيْف والخَوْف والاضْطِجاع ؛ ولا يتلَهَّى دُونَ معلِن شَكْوىٰ ، ولا يتصَمَّم عن مستصرِخٍ لدفاعِ بَلْوىٰ ؛ وأن يَنْتَظِمَ أقصىٰ بلادِه وأدناها فى سِلْك تدبيرِه ، ولا يكونَ بين القريب والبعيد من رعيَّته بونٌ

(١) كذا فى الأصول ولعله تجريبه . تأمل .

فى إحصائِهِ وتقديره؛ ثم دعَا ـ أدام الله تأييدَه ـ لمبايعَته مَنْ دنَا ونأىٰ من المسلمين، فلبَّوْا مسرِعين وأَتَوْا مُهْطِعين، وأعطَوْا صَفْقة أيمانهم متبرِّعين متطوِّعين؛ وبايعُوه علىٰ السَّمْع والطاعه، والتزامِ سَنَن الجماعه، وبَذْل النصيحه، وإصْفاء النِّيَّات الصحيحه؛ ومُوادّةِ مَنْ صاحبَه، ومحارَبَة من حارَبَه؛ ومكايَدة من كايَدَه، ومعانَدَة مَنْ عانده؛ لا يدّخِرُون فى ذٰلك علىٰ حال المَكْرِه والمَنْشَط مَقْدُره، ولا يحتجُّون فى وقْتِى السُّخْط والرضا بمَعْذِره؛ ثم أمر بمخاطبةِ أهل البلادِ لتُبايِعَه كلُّ طائفة فى بلدها، وتُعطِيَه كما أعطاه مَنْ حضر صَفْقةَ يدها؛ حتّٰى يستوِىَ فى ٱلتزام بَيْعته، القريبُ والبعيد، ويجتمِعَ علىٰ الٱعتصام بحبل دَعْوته، الغائبُ والشهيد؛ وتطْمَئِنَّ من أعلام الناس وخَيْرهم قلُوبٌ كانت من تَراخِى ما ٱنْتجز قَلقه، ولم تزَلْ ببقية التأخُّر أرِقَه؛ ويشملَ الناسَ السرورُ والٱستبْشار، وتتمكَّن لهم الدَّعةُ ويتمهَّد القَرار؛ وتَنْشأ فى الصَّلاح لهم آمال، ويستقْبِلَهم جَدٌّ صاعدٌ وإقبال؛ والله يُبارِك لهم فيها بَيْعَةَ رِضْوان، وصفْقةَ رُجْحان، ودَعوةَ إيمان؛ إنه علىٰ ما يشاء قدير، لا إلٰهَ إلا هو نعم المولىٰ ونعم النصير.

شهد علىٰ أمير المسلمين[1] ناصرِ الدين، أبى يعقوبَ يوسفَ بن تاشفين ـ أدام الله أمره، وأعزّ نصره ـ بكلّ ما ذُكر عنه من ٱلتزام البَيْعة المنصوصة فوق هذا، وأعطىٰ صَفْقة يمينه متبرِّعا بها، وبالله التوفيق. وذلك بحضرة قُرْطبةَ حماها اللهُ تعالىٰ.

الطريقة الثانية ـــ أن يُفْتَتح العهدُ بعد البسملة بخُطْبة مفتَتَحةٍ بالحمد لله، وهى طريقة المِصْريين، وعليها ٱقتصر المقرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله فى "التعريف" وعلىٰ هذه الطريقة كتب القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر عن الظاهر بِيبرْس عهد ولدِه الملك السعيد بَركة، وهذه نسخته:

(١) فى الأصول أمير المؤمنين وهو سهو عما تقدم فتنبه.

الحمدُ لله مُنَمِّى الغُرُوس، ومُبْهِج النُّفُوس، ومُزَيِّن سمـاءِ المملكة بأحسَنِ الأهـلَّةِ وأضْوإ البدُور وأشرقِ الشُّموس؛ الذى شَدّ أَزْر الإسلام، بملوك يتعاقبون مصالحَ الأنام، و يتناوَبُون تدبيرَهم كتَنَاوُب العينين واليدين فى مُهِمَّات الأجساد ومُلمَّـات الأَجْسـام .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى أيقظَتْ جَفْن الشُّكْر المُتغافِى، وأوردَتْ نَهَل الفضل الصافِى، وخَوَّلتِ الآلاءَ حتّٰى تمسَّكت الآمالُ منهـا بالوَعْد الوَفِىّ وأخذَتْ بالوَزْن الوافى ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ كَثَّر الله عَدَده وعُدَده ، وأحْمَد أمسَه و يَوْمَه ويُحْمِدُ ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ غَدَه ؛ ونُصلِّى علىٰ سـيدنا محمد الذى أطْلـعَ اللهُ به نَجْمَ الهـدىٰ ، وألبس المشركين به أرْدِيَةَ الرَّدىٰ ؛ وأوضَح به مَنـاهِجَ الدين وكانتْ طرائِقَ قِدَدا، صـلّٰى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه صـلاةً دائمةً لا تنقضى أبدا .

وبعدُ، فإنا [بمـا] أَلْهَمَنا الله من مصالح الأُمَم ، وخَوّلنَاَ من الحِرْص علىٰ مُهِمَّات العباد الذى قَطَع به شَأْفَةَ الكُفْر وخَتَم ، وأتىٰ به والشركُ قد عَلِم كلُّ أحدٍ اشتعالَ ناره فكان عَلَما بنـارٍ مُضْرَمة لا نارًا علىٰ عَلَمَ ؛ وقَدَّره مِن رفع الكُفْر من جميع الجوانِب، وقفوهم من كل جهة حتّٰى رماهم بالحَتْف الواصـلِ والعذابِ الواصبِ؛ فأصبحَ الشِّركُ من الإبادةِ فى شَرَك، والإســلامُ لا يَخْشىٰ من قَتْـل ولا يخافُ من دَرَك؛ وثُغورُ الإسلام عاليةُ المبتنىٰ ، جانيةٌ ثِمَـارَ الآدِّخار من هُنا ومن هُنا؛ تُزاحِم بُرُوجُها فى السماء البُروج، وتشاهِدُ الأعداءُ منها سماءً قد بُنِيت وزُيِّنَتْ وما لهـا من فُرُوج؛ وعساكر المِلّة المحمديّة فى كلِّ طَرَف من أطراف الممـالك تجُول ، وفى كلِّ وادٍ تهِيمُ حتّٰى تَشْعُر بالنصر ولٰكنَّها تفعل ماتقُول؛ قد دوّخت البلادَ فقتلَت الأعداء

تارةً بالإلْمام وتارة بالإدْهام (١) ، وسلَّت سُيُوفها فراعَتْهم يقظةً بالقِراع ونَوْما بالأحْلام؛ ترىٰ أنا قد لَذَّ لنا هذا الأمرُ ٱلتِذاذَ المُسْتَطِيب، وحَسُن لدينا موقِعُه فعكَفْنا عليه عُكوف المستجِيد ولبَّيناه تلبيةَ المستَجِيب ؛ وجعلْنا فيه جميعَ الآلاتِ والحَوَاس ، وتقَسَّمت مباشَرتُه ومُؤامَرتُه سائرَ الزمَن حتّىٰ غدا أكثرَ تردُّدا إلىٰ النَّفْس من الأنفاس؛ وٱستنْفَدْنا الساعات فى ٱمتطاء المُضَمَّر الشَّمُوس ، وٱدّراع مُحْكَم الدِّلَاص التى كأنها وميضُ برْقٍ أو شُعاعُ شُمُوس ؛ وتجريد المُرهَفات التى جفَتْ لِحاظُها الأجْفان، وجرَتْ فكالمِيَاه وأُضرِمتْ فكالنِّيران ؛ وتَفْوِيق السهام التى غدَتْ قِسِيُّها مرابعا نبالها بان (؟)، وٱعتقالِ السَّمْهَريَّة التى تَقْرَع الأعداءُ سِنَّها نَدَما كُلَّما قَرَعت هى السِّنان ، إلىٰ غير ذلك من كلِّ غارةٍ شَعْواء تُسيءُ للكُفَّار الصَّباح ، وتَصْدِمُ كالجبال وتَسِيرُ كالرِّياح ؛ ومُنازَلاتٍ كم ٱستلبَتْ من مَوْجُود، وكم ٱستنْجزَتْ من نصرٍ موْعُود، وكم مدينةٍ أَضحتْ لها مَدِينةً ولكنْ أخَّرها اللهُ إلىٰ أجل معْدود .

وكانت شجرتُنا المباركةُ قد ٱمتدّ منها فَرْعٌ تفرَّسْنا فيه الزيادةَ والنُّمُوّ، وتوسَّمنا منه حُسْن الجَنىٰ المرجُوّ؛ ورأينا أنَّه الهلالُ الذى قد أخذَ فى ترقِّى منازِل السُّعود إلىٰ الإبدار، وأنه سِرُّنا الذى صادفَ مكانُ الاختبار له مَكانَ الاختيار؛فأردنا أن نَنْصِبه فى مَنْصِب أحلَّنا اللهُ فسيحَ غُرَفه، ونُشَرّفه بما خوّلنا اللهُ من شَرَفه؛ وأن تكون يدُنا ويدُه تلتقِطان من ثَمَره، وجِيدُنا وجِيدُه يتحلَّيان بجوْهَره؛ وأنّا نكون للسلطنةِ الشريفةِ السمعَ والبصر، وللمملكةِ المعظَّمة فى التناوُب بالإضاءة الشمسَ والقمرَ؛ وأن تَصُولَ الأمَّةُ منّا ومنه بحدَّيْن ، ويبْطِشُوا من أمرنا وأمره بيدَيْن، وأن نُرَتِّبه علىٰ حُسْن سياسةٍ تحمَدُ الأمةُ ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ عاقِبتَها عند الكِبَر، وتكُونُ

(١) لعله بالايهام أى تارة بالنزول بهم وتارة بالرعب .

الأخلاقُ الملوكيةُ منتشئة منه ومنْتَشِئةً به من الصِّغَر ، ونجعَلَ سَعْىَ الأَمَّة حميدا ، ونَهَبَ لهم منه سلطانًا نصيرًا ومُلْكا سعيدا ، ونُقَوّى به عَضُد الدين ونَرِيش جَناحَ المملكه ، ونُنْجِح مَطْلَبَ الأمة بإيالتِه وكيف لايَنْجَح مَطْلَب فيه بَرَكه ؟ .

وخرج أمْرُنا لا بَرِح مُسْعِدا ومُسْعِفا ، ولا عَدِمتِ الأمةُ منه خَلَفا مُنْبِلاً(١) ونَوْءًا مُخْلِفا ، بأن يُكتَب هذا التقليد لولَدنا السعيدِ ناصر الدين « بركَةَ خاقان محمد » جعل الله مَطْلَع سعده بالإشراق محْفُوفا ، وأرىٰ الأُمَّة من مَيَامِنه مايَدْفَع للدَّهرِ صَرْفا ويُحْسِن بالتدبير تَصْرِيفا ـ بوِلاية العهد الشريف علىٰ قُرْب البلاد وبُعْدها ، وغَوْرها ونَجْدها ، وقِلاعِها وثُغُورها ، وبُرورِها وبُحورِها ، وولاياتِها وأقطارِها ، ومُدُنها وأمصارِها ، وسَهْلها وجبَلِها ، ومُعطَّلها ومُغْتَلِّها ، وماتَحْوِى أقطارَه الأحلام ، ومايُنْسَب للدولة القاهرة من يَمَنٍ وحِجازٍ ومِصرٍ وغَرْبٍ وسَواحِلَ وشامٍ بعدَ شام ، وما يتداخَلُ ذٰلك من قِفَار ومن بِيدٍ فى سائر هذه الجهات ، وما يتخلَّلُها من نِيل ومِلْح وعَذْبٍ فُرات ، ومَنْ يسكُنُها من حقِير وجَليل ، ومن يَحُلُّها من صاحبِ رُغَاء وثُغَاء وصَلِيل وصَهِيل ، وجعلْنا يدَه فى ذٰلك كلِّه المبْسُوطه ، وطاعتَه المشْروطة ونَواميسَه المضْبُوطه ، ولا تدبيرَ مُلكٍ كُلِّىّ إلا بنا أو بولَدنا يُعْمَل ، ولاسَيْفَ ولا رِزْقَ إلا بأمرِنا هذا يُسَلُّ وهذا يُسْأَل ، ولا دَسْتَ سلطنةٍ إلا بأحدنا يتوضَّح منه الإشْراق ، ولا غُصْنَ قلَم فى روضِ أمْرٍ ونَهْىٍ إلَّا ولدينا ولديه تمتدُّ له الأَوْراق ، ولا منبرَ خطيبٍ إلا باسمنا يميسُ ، ولا وجْهَ دِرْهم ولا دينارٍ إلا بنا يُشْرِق ويكادُ تبرجًا لا بَهْرَجًا يتطلَّع من خلال الكِيس .

فلْيتقلَّد الولدُ ماقلَّدناه من أمور العباد ، ولْيَشْرَكْنا فيما نُباشره من مصالح الثُّغور والقِلاع والبِلاد ، وسنَتعاهد هذا الوَلَد من الوصايا بما سَيَنْشأ معه تَوْءَما ، ويمتزِج

(١) يقال أنبلت الرجل ونبلته اذا ناولته النبل ليرمى والمراد أنه نافع معين تأمل .

بلحمِه ودَمِــه حتّى يكادَ يكُون ذٰلك إلهـاما لاتعَلّمـا ، وفى الولد بحمْد الله من نَفَاذ الذّهن وصِحّة التصوّر ماتَتشكّل فيه الوَصَايا أحسَنَ التشكِيل ، وتظْهر صورةُ الإبانة فى صَفَائه الصّقيل ؛ فلذلك آستغْنينا عن شرْحها هاهُنا مسرُوده ، وفيه ـ بحمد الله ـ من حُسْن الخليقة مايحقّق أنها بشَرَف الإلهـام موجُوده ، والله لايعْدِمنا منه إشفاقاً وبِرّا ، ويجعله أبدًا للأمة سنَدًا وذُخْرا ، إن شاء الله تعالىٰ .

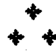

وعلىٰ ذٰلك كتب القاضى محيي الدين بن عبدالظاهر أيضا عن المنصور «قلاوون» عهد ولده الملكِ الأشرفِ صلاح الدين « خليل » وهذه نسخته :

الحمــدُ لله الذى لم يزَلْ له السّمْع والطاعة فيما أمَر ، والرضا والشّــكْرُ فيما هدَم من الأعْمار وما عَمَر ، والتفويضُ فى التعويض إن غابتِ الشمسُ بقِى القمَر .

نحمدُه علىٰ أن جعل سلطانَنا ثابتَ الأركان ، كلُّ روضة من رِيَاضه ذاتُ أفنان ؛ لاتُزَعْزِعه رِيحٌ عقيم ، ولايُخْرجه رُزْء عظيم عن الرّضا والتسليم ؛ ولا يُعْتبط من جملته كريمٌ إلا ويُغْتبَط من أُسْرته بكريم ؛ ونشهد أنْ لاإلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَله شهادةً تَزِيدُ قائلَهـا تَفْويضا وتُجْزِل له تَعْويضا ، وتُحْسِــن له علىٰ الصــبر الجميل فى كلّ خَطْب جليلٍ تحْريضا ؛ ونشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أنْزل عليه فى التسليم : ﴿ وَمَا مُحمَّدٌ إلَّا رَسُــولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُــل ﴾ . والنبيُّ الذى أوضَح به المنَــاهج وبيّن به السُّبُل ، صــلّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه ماتجاوبت المَحَابِر والمَنَــابر فى البُكَر والأُصُل ، وما نُثِرتْ عقُود ونُظِمت ، ونُسِــخت آياتٌ وأُحْكِمتْ ، ونُقِضتْ أمورٌ وأُبْرِمت ، وما عزَمتْ آراءٌ فتوكّلت وتوكّلتْ فعزَمتْ ؛ ورضِى اللهُ عن أصحابه

الذين منهم من كان للخليقــة نِعْمَ الخليفه ، ومنهم مَنْ لم يُدْرِك أحدٌ فى تَسْوِيدِ النفْس الحَصِــيفة ولا فى تَبْيِيض الصَّحِيفة مُدَّه ولا نَصِــيفه ؛ ومنهم من يسَّره الله لتجهيز جَيْش العُسْرة فعرَفَ اللهُ ورسولُه معروفَه ، ومنهم من عمِل صالحًا أرضىٰ ربَّه وأصلَح فى ذُرِّيتِه الشريفه .

وبعدُ ، فإن من ألطافِ الله تعالىٰ بعباده ، وٱكتنافِ عواطفِه ببلاده ؛ أنْ جعلنا كُلَّمــا وهىٰ للُمْلك ركنٌ شديدٌ شيَّدنا رُكْنًا عِوَضه ، وكلمــا ٱعترضَتْ للمقادير جملةٌ بدّلْنا آيةً مكانَ آيةٍ وتناسَيْنا ــ تجلُّدا ــ تلك الجملةَ المعتَرِضه ؛ فلم يُحْوِجِ اليوْمَ لأَمْسه ، وإن كان حميــدا ، ولا الغارسَ لغَرْسه ، وإن كان ثمرُه يانِعًا وظِلُّه مديدا ؛ فأطْلَعْنا فى أُفُق السلطنة كوكبًا سعيدا كان لحُسْن الٱستخلاف مُعَدّا ، ومَنْ لقَبِيل المسلمين خَيْرٌ ثوابا وخَيرٌ مَرَدّا ؛ ومن يبَشِّرُ الله به من الأولياء المتَّقين ويُنْذِرُ من الأعداء قومًا لُدّا ، ولم يبَق [إلا] به أُنْسُنا بعدَ ذَهاب الذين تَحْسَبُهم (كالسيف فَرْدا) ؛ والذى ماأمضىٰ حدّه ضريبةً إلا (قَدَّ البَيْضَ والأبدانَ قَدّا) ؛ ولا جهَّز رايةَ كتيبةٍ إلا أغْنىٰ غَناءَ الذاهبِين وعَدَّ الأعداءَ عدّا ؛ ولا بعَثَه جَزَع فقال : (كم من أخٍ لى صالح) إلَّا لقِيَه ورَعٌ فقال : (وخُلِقْتُ يوم خُلِقْت جَلْدا) ؛ وهو الذى بقَواعد السلطنة أدرىٰ وبقوانِينها الأعْرَف ، وعلىٰ الرَّعايا الأعْطَف وبالرَّعايا الأرْأَف ؛ وهو الذى ما قيل لبِناء مُلْك هذا عَلَيـُّه قدْ وَهىٰ إلَّا وقيــل هذا بناءٌ مثلُه منه أَسْمىٰ ملِكٌ أشْرَف . والذى مابرح النصرُ يتنَسَّم من مَهَابِّ تأميلِه الفَلاح ، ويتَبَسَّم ثغرُه فتتوسَّم الثغورُ من مَبْسَمه النَّجاح ؛ ويُقْسَم نورُه علىٰ البسيطة فلا مِصْرٌ من الأمصار إلَّا وهو يَشْرَئِبُّ إلىٰ مُلاحظةِ جبين عهْدِه الوَضَّاح ، ويتفَتَّق ٱشتقاقُ النُّعوت فيقول التسَلِّى للتملِّى : سواءٌ الصالحُ والصَّلاح ؛ والذى مابَرِح لِشعار السلطنةِ إلىٰ توقُّله وتنَقُّله أتمُّ حَنِين ، وكأنمــا كُوشِفت الإمامة العبَّاسيَّة بشَرَف مسمَّاه فيما تقدّمَ من زمنٍ سلَفَ ومِنْ حِين ؛ فسمَّتْ وسَمَت بٱسمه

أكابرِ الملوك وأخايرَ السلاطين، فخُوطِبَ كلٌّ منهم مجَازا لا كهذهِ الحقيقة «بخليل» أمير المؤمنين؛ والذى [كم] جَلَا ببهىّ جَبِينه من بهِيم، وكَمْ غدَا المُلْك بحُسْن رُوائِه ويُمْن آرائِه يَهِـيم، وكَمْ أبرأَ مَوْرِدُه العذبُ هِيمَ عِطاشٍ ولا يُنْكَر الخليل إذا قيل عَنْه أبراهِيم؛ ومن تَشْخَصُ الأبصارُ لكَمَاله يومَ رُكُوبه حَسِيره، وتُلقِى البَنَانُ سِلاحَها ذَهَلا وهى لاتدْرِى لكثرة الإيمـاء إلىٰ جَلَاله إذا يَبْدُو مَسِيره؛ والذى ألْهم اللهُ الأمةَ بجوده ووُجُوده صَـبْرا جميلا، وآتاهم من نَفَاسة كرمه وحراسةِ سَيْفه وقَلمِه تأمِيناً وتأميلا؛ وعَظُم فى القلوب والعُيُون بمـا من بِرِّه سيكُون فسمَّتْه الأبوّة الشريفةُ وَلَدا وسمَّاه الله «خليـــلا» .

ولمَّـا تحتَّم من تفويض أمْر المُلْك إليـه ما كان لوقْته المعـلوم قد تأَخَّر، وتحَيّنَ حينه فكَمُل زيادةً كزيادة الهِلال حتّٰى بادَرَ تمـامَه فأبْدَر؛ ٱقتضىٰ حُسْنُ المناسـبة لنصائح الجُمْهور، والمراقبةِ لمصالح الأُمُور، والمُصاقَبة لمَنَاجح البلاد والثُّغُور، والمُقَارَبة من فَوَاتِح كلِّ أمْر مَيْسور، أن نُفَوّض إليه ولايةَ العهد الشريف بالسلطنة الشريفة المعظَّمه، المكَّرمة المفخَّمة المنظَّمه؛ وأنْ يَبْسُط يدَه المُنيفةَ لمصافحتها بالعُهُود، وتحكُّمها فى العساكر والجُنُود، وفى البُحُور والثُّغور وفى التَّهائم والنَّجُود؛ وأن يُعْدَق بَبَسْطِها وقَلَمِها كلُّ قَطْع ووَصْل، وكلُّ فرْع وأصل، وكلُّ نَصْر ونَصْل؛ وكلُّ مايَحْمِى سَرْحا، ويَهْـمِى مَنْحا، وفى المُثِـيرات فى الإعْداء علىٰ الأعداء نَقْعا وفى المُغيرات صُـبْحا؛ وفى المَنْع والإطْلاق، وفى الإرْفاد والإرْفاق؛ وفى الخَمِيس إذا ساق، وفى السيوف إذا بلغَتِ التراقِىَ وقيل مَنْ راق، وفى الرِّماح إذا ٱلتفَّتِ السـاقُ بالسَّاق؛ وفى المُعاهَدات والهُدَن، وفى الفداء بمـا عَرَض من عرض وبالبُـدْن بالبَدَن؛ وفيما ظهَر من أُمُور المُلْك وما بطَن، وفى جميع ماتستَدْعيه بواعثُه، فى السِّر والعَلَن، وتسترعيه نوافثُه، من كبْت وكُتب متفرّقَيْن أو فى قرَن؛ عَهْدا مباركًا عُوذُه

وتمـائمُه ، وفواتِحُه وخواتِمُه ؛ ومناسمـه ومَيَاسِمه ، وشروطُه ولوازِمُه ؛ وعلىٰ عاتقِ الملك الأعزّ نِجادُه وفى يَدِ جَبّار السموات قائِمُه ؛ لا رادَّ لحُكْمه ولا ناقِضَ لبرْمه ، ولا داحضَ لمـا أثبتَتْه الأقلامُ من مكنُونِ عِلْمه .

[و] يزيده مَرُّ اللَّيالِى جِدّةً * وتقادُمُ الأيام حُسْنَ شباب

وتُلْزَم السِّنُون والأحقابُ ، آستيداعَه للذرارىّ والأعْقاب ؛ فلا سلطانٌ ذُو قَدَر وقُدْره ، ولا ذُو أَمْر وإمْره ؛ ولا نائبٌ فى مملكة قرُبتْ أو بعُـدتْ ، ولا مقـدَّمُ جيوش أَتْهمَتْ أو أنجدَتْ ، ولا راعٍ ولا رعِيَّه ، ولا ذُو حُكْم فى الأمور الشرعيَّه ؛ ولا قلمُ إنشاءٍ ولا قَلَمُ حساب ، ولا ذَوُو أنساب ولا ذَوُو أسباب ؛ إلا وكلٌّ داخلٌ فى قَبُول هذا العقدالميمُون ، ومتمسِّكٌ بحكم كتابه المكنُون ، والتسليم لنصِّه الذى شهد به من الملائكة الكرامُ الكاتبُون ؛ وأمسَتْ بَيْعتُه بالرِّضوان محفُوفه ، والأعداء يَدْعُونها تضرُّعا وخيفَه ، ولْيشْكُروا الصنيعَ الذى بعد أن كانتِ الخلفاءُ تُسلْطِن الملوكَ قد صار سلطانُهم يقِيمُ من وُلاة العهد خليفةً بعد خليفه .

وأمَّا الوصايا فأنْتَ ياولدنا الملكَ الأشرف ـ أعزَّك الله ـ بهـا الدَّرب ، ولِسَماع شَـدْوها وحَدْوها الطَّرب ، الذى للّغْو لا يضْطَرِب ؛ فعليك بتقوىٰ الله عز وجلَّ فإنها مِلاَك سَدَادك ، وهَلاَك أضْدادِك ؛ وبها يُراشُ جَناحُ نَجَاحك ، ويحسُنُ آقتداءُ آقتداحك ؛ فاجعلهـا دَفِينَ جوانِح تأميلك ووَعْيِك ، ونُصْبَ عينَىْ أَمْرِك ونَهْيك ؛ والشرع الشريف فهو قانُون الحق المتَّبع ، ومأمُون الأمر المستَمَع ؛ وعليه مَدَارُ إيعاء كلِّ إيعاز ، وبه يتَمسَّك من أشار وآمتاز ، وهو جَنَّة والباطلُ نار : ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وأُدْخِلَ الجَنَّـةَ فقَدْ فَازَ﴾ . فلا تخْرُجْ فى كلِّ حال عن لَوَازِمه وشُروطِه ، ولا تَنْكُبْ عن معلَّقه ومَنُوطه . والعدل فهو مُثمِّرُ غُروسَ الأموال ، ومعَمِّر بيوتَ

الرَّجاء والرِّجال، وبه تزكو الأعمـارُ والأعمال ؛ فاجعَـلْه جامعَ أطراف مَرَاسِمك، وأفضلَ أيَّام مَوَاسِمك ؛ وسِمْ به فِعْلَك، وسَمِّ به فرضك ونَفْلك، ولا تُفْرِد به فلانا دُونَ فلان، ولا مكانًا دُونَ مكان، وٱقْرِنْه بالفضل : ﴿ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَـدْلِ والإِحْسان ﴾ . وأحْسِن التخْوِيل، وأجْمِـل التَّنْوِيل ؛ وَكَثِّرْ لمن حَوْلَك التموِينَ والتَّمْوِيل، وضاعِف الخـيرَ فى كلِّ مُضَـاف لمَقَامك، ومُسْتَضِيف بإنعامك ؛ حتّى لاتَعـدَمَ فى كلِّ مكان وكلِّ زمان ضـيافةَ الخليل ؛ والثُّغُور فهى للمالك مَبَاسِمُها، وللَسالك مَنَاسِمها ؛ فاجعل نَواجِذَها تَفْتَرُّ عن حسْن ثَنَايا الصَّوْن ، ومَرَاشِفَها شَنِبَة الشِّـفاه بحُسْن العَوْن ؛ ومُنْها ، بمـا يَحْمِى السَّرْحَ منها ، وأعِنْها ، بمـا يدْفَع المَكاره عنْها ؛ فإنهـا للنصر مَقَاعد ، وبها حِفْظُ البلاد من كلِّ مارٍّ من الأعداء مارد ؛ وأمراءُ الجيوش فهم السُّورُ الواقِى بين يدَىْ كلِّ سُـور ، وما منهم إلا كلُّ بَطَل بالنصر مشهور ، كما سـيْفُه مشهور ؛ وهم ذخائرُ الملُوك، وجَوَاهر السُّلوك، وأخايِرُ الأكابر الذين خَلَصُوا من الشكوك ؛ وما منهم إلا مَنْ له خِدْمات سلَفَت، وحقوقٌ عُرِفت ، ومَوَاتُّ علىٰ ٱسـتلزام الرِّعاية للعُهود وُقِفتْ ؛ فكُنْ لجنودهم متحبِّبا، ولمَرَابعهم مُخْصِبا،ولمَصالحهم مُرَتِّبا، ولآرائهم مستَصْوِبا، ولٱعتضادهم مستَصْحِبا، وفى حَمْدهم مُطْنِبا ، وفى شُكْرهم مُسْهِبا ؛ والأولياءُ المنصوريُّون الذين هم كالأولاد، ولهم سـوابِقُ أمَتُّ من سَوَابق الإيجـاد ؛ وهم مَنْ علِمْتَ ٱسـتكانةً من قُرْبنـا ، ومَكانةً من قلْبنا ؛ وهم المساهِمُون فيما ناب ، وما بَرِحُوا للدولة الظُّفُرَ والناب ؛ فأسْهِم لكلٍّ منهم من ٱحْتِرامك نَصِيبا ، وأدِمْ لهم ٱرتياحَك ، وألِنْ جِمَاحَك، وقوّهم بسلاحِك، تجِدْ منهم ضُرُوبا ؛ وترىٰ كُلًّا منهم فى أعدائك ضَرُوبا .

وكما أنا نُوصيك بجُيُوش الإسلام، كذا نُوصِيك بالجيش الذى له الجَوَارِ المُنْشَآتُ فى البحْر كالأَعْلام؛ فهو جيشُ الأمْواه والأَمْواج ، المضافُ إلىٰ الأفواج من جيش

الفِجَاج ؛ وهو الجيشُ السُّلَيمانىُّ فى إسْراع السـير ، وما سُمِّيت شَوَانيه غِرْبانا إلا ليجتَمِع بها لنا ما اجتمع لسليمانَ صلَّى الله عليه وسلم من تسخِير الريح والطَّيْر؛ وهى من الديار المصرية علىٰ ثَبَج البحر الأَسْوار، فإن قُذِفَت قَذَفَتْ الرعب فى قلُوب الأعداء وإن أُقْلِعت قلعَتْ منهم الآثار؛ فلا تُخْلِه من تجهيز جَيْشه ، وسكِّنْ طيْش البحر بطَيْشه؛ فيُصْبِح لك جيشان كلٌّ منهما ذو كَرٍّ وفَرّ؛ : هذا فى بَرٍّ بحرٌ وهذا بحرٌ برّ؛ وبيوت العبادات فهى التى إلىٰ مصلَّى سميِّك «خليل» الله تنتهى محَارِيبُها ، وبها لنا ولك وللمسلمين سُرىٰ الدَّعَوات وتَأْوِيبُها؛ فوَفِّها نصيبَها المفروضَ غيرمنقُوص، ومُرْ برفْعها وذكْرِ اسم الله تعالىٰ [فيها] للأمر المنصُوص ، وأخَوَاتُها من بُيُوت الأموال الواجِدات الواجبات ، من حيثُ إنها كلَّها بيوتُ الله عز وجل : هذه للصَّلاة وهذه للصِّلَات؛ وهذه كهذه فى رَفْع المَنَار وجمع المَبَار ، وإذا كانتْ تلكَ مما أذِنَ اللهُ أن تُرْفَع ويذْكَرَ فيها اسْمُه فهذه تُرْفَع ويُذْكَرُ فيها اسْمُه حتَّى علىٰ الدِّرهم والدِّينار؛ فاصرِفْ إليها اجتهادَك فيما يعُود بالتثمير، كما يعُود علىٰ تلكَ بالتَّنْوير؛ وعلىٰ هذه بإشحانها(١) بأنواع الصُّروف ، كإشحان(١) تلك باستواء الصُّفُوف ، فإنها إذا أصبحَتْ مَصُونه ، أجملَتْ بحمد الله المَعُونه؛ وكفَلَتْ بالمئُونة وبالزيادة علىٰ المَئُونه، فتُكَمِّل هذه لكل وَلِيّ دُنْياه كما كَمَّلتْ تلك [لكل] وَلِيّ دِينه؛ وحدود الله فلا يَتعدّاها أحد، ولا يرأُف فيها ولَدٌ بوالد ولاوالد بولَد؛ فأقِمْها وقُمْ فى أمرها حتَّى تنْضبِط أتمَّ الضبط، ولا تجعَلْ يدَ الفَتْك مغلولةً إلىٰ عُنقها ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْط؛ فلكلٍّ من الجنايات والقِصَاص شَرْط شرَطه اللهُ وحدٌّ حدَّه فلا يتجاوَزُ أحد ذلك الحَدّ ولا يخرج عن

(١) لعل الصواب بشحنها من شحن الثلاثى يقال شحنه يشحنه ملأه ، وأما الرباعىّ فمعناه الاغماد يقال سيوف مشحنة أى مغمدة وأشحن الرجل اشحانا تهيأ للبكاء وهو غير مناسب هنا تأمل .

ذلك الشرط ؛ والجهاد فهو الدَّيْدن المألُوف من حيث نشأ نشأ ونشأتك (١) وفى ظُهور الخَيْل ، فمِلْ علىٰ الأعداء كُلَّ المَيْـل ؛ وصَبِّحْهم من فَتَكاتك بالوَيْل بعد الوَيْل ، وٱرمِهم بكلِّ شِمِّرِيّ (٢) قد شَمَّر من يده عن الساعِد ومن رُمْحه عن الساقِ ومن جَواده الذَّيْل ؛ وٱذهبْ لهم من كلِّ ذٰلك مَذْهب ، وأَنِرْ بنُجُوم الخِرْصان كلَّ غَيٍّ وغَيْهَب ؛ وتَكَثَّرْ فى غَزْوهم من الليـل بكلِّ أدْهَمَ ومن الشَّفَق بكلِّ أَحمَرَ وأشـقَر ومن الأصِـيل بكلِّ أصْفَر ومن الصـبح بكلِّ أشْهَب ، وٱستنْهِبْ أعمارهم وٱجعلْها آخرَ ما يُسْلَب وأوّلَ ما يُنْهَب ؛ ونرجو أن يكونَ اللهُ قد خَبأَ لك من الفُتُوحات ما يستنْجِزُها لك صادِقُ وَعْدِه ، وأن ينصُرَ بك جُيوشَ الإسـلام ، فى كلِّ إنجاد وإتْهام ، وما النَّصْرُ إلَّا من عِنْده ؛ وبيت اللهِ المحجُوجُ من كلِّ فَجٍّ ، المقصودُ من كلِّ نَهْج ، فسَيِّر سبِيلَه ، ووَسِّعْ [له] الخيرَ وأحْسِن تسبِيلَه ؛ وأوصِلْ من بِرِّك لكلٍّ من الحرمَيْنِ ماهو لَه ، لتُصبِحَ رُبوعُه بذلك مأْهُولَهْ ، وٱحْمِه ممَّن يُرِيدُ فيه بإلحادٍ بظُلْم ، وطَهِّره من مَكْس وغُرْم : ليعُودَ نَفْعُك علىٰ البـادِى والعاكِف ، ويُصْبِح وادِيه ونادِيه مستَغْنِيَين بذلك عن السَّـحاب الواكِف ؛ والرعايا فهم للعَـدْل زُرُوع ، وللاِستِثْمار فُرُوع ، ولاَستلزامِ العِمارة شُرُوع ؛ فمتىٰ جادَهُم غيْثٌ أعجبَ الزُّرّاعَ نَباتُهم ، ونَمَت بالصَّـلاح أقواتُهم ، وصلَحتْ بالنَّمـاء أوقاتُهم ؛ وكَثُرت للجنود مستَغَلَّاتهم ، وتوفَّرت زَكَواتهم وتنوَّرَتْ مِشْكاتُهم ؛ والله يضاعِفُ لَمنْ يَشَاء .

هذا عهدُنا للسيد الأجَلّ ، الملكِ ، الأشرفِ ، صلاح الدنيا والدين ، فخرِ الملوك والسلاطين ، خليـلِ أمير المؤمنـين ، أعزَّ الله تعـالىٰ ببقائه الدِّين ؛ فلْيكُنْ بعُروته متمَسِّكا ، وبنَفْحته متمَسِّكا ؛ ولْيتقلَّد سيفَ هذا التقليد ، ويفْتَحْ مُغْلَق كلِّ فتح منه

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمة صغيرة .

(٢) الشمرىّ بفتح الشين وكسرها مع شد الميم فيهما الماضى فى الأمور المجرب انظر اللسان ج٦ ص٩٦ .

بخيرِ إقْليد؛ وها نحن قد كَثَّرنا لديه جواهِرَه فدُونه مايشاءُ تحليتَـه من تَتْويج مَفْرِقٍ وتختيم أنامِلَ وتسوير زَنْد وتَطْويقِ جِيد، ففى كلِّ ذٰلك تبجيلٌ وتَمْجيد؛ والله تعـالىٰ يجعل آستِخْلافَه هـذا للتقين إماما، وللدِّين قِواما، وللجاهدين آعْتِصاما، وللمعتَدِين آنْفِصاما؛ ويُطْفئُ بمياه سُيُوفه نارَ كلِّ خَطْب حتّٰى يُصْبِح كما أصبحَتْ نارُ سَمِيِّـه صلَّى الله عليه وسلم بَرْدًا وسَلَاما؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وعلىٰ ذٰلك كتب القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، عن المنصور « قلاوون » المتقدّم ذكره، عهدَ ولده الملكِ الصالح «علاءِ الدِّين على» وهذه نسخته :

الحمد لله الذى شَرّفَ سريرَ المُلْك منه بعَلِيِّه، وحاطه منه بوَصِيِّه، وعضَّد منْصُورَه بولاية عهد صالِحِه وأسمىٰ حاتِمَ جُوده بمكارِمَ حازها بسَبْق عَدِيِّه، وأبْهَجَ خيرَ الآباء من خير الأبناء بمن سُمُوّ أبيه منه بشريف الخُلُق وأبِيِّه، وغَذّى روْضَه بمتابعةِ وَسْمِيِّه و بمسارعةِ وَلِيِّه .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى جمعتْ إلىٰ الزَّهْرِ الثَّمَر، ودارکتْ بالبحر و بارکتْ فى النَّهَر؛ وأجملتِ المبتدأَ وأحسنَتِ الخبَر، وجمعتْ فى لَذاذة الأوقات وطِيبها بينَ رَوْنق الآصالِ ورِقَّة البُكَر. ونشهد أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً نُلْبِس الألسنةَ منها فى كلِّ ساعة [ثوبا] جَدِيدا، ونتَفَيَّأ منها ظِلًّا مَدِيدا، ونسـتَقْرِب من الآمال مايَراه سِوَانا بَعِيدا. ونصلِّى علىٰ سيدنا محمد الذى طَهَّر الله به هذه الأُمَّةَ من الأدْناس، وجعلها بهدايته زاكيَةَ الغِرَاس؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من فَهِم حُسْنَ آستخلافه بالأمر له بالصَّـلاة بالنـاس، ومنهم من بنىٰ اللهُ به قواعدَ الدِّين وجعلها مُوطَّدة الإسَاس، ومنهم من جَهَّز جيشَ العُسْرة وواسىٰ بمـالِه حينَ الضَّرَّاء

والْباس ، ومنهم من قال عنه صلّى الله عليه وسلم : "لَأُعْطِينَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّه اللهُ ورسولُه ويُحِبُّ اللهَ ورسولَه" لحُسْنَ الاِلتماسُ بذٰلك والاِقْتباس، وزاد فى شَرَفه بأن طَهَّر أهلَ بيتـه وأذهب عنهم الأَرْجاس، صـلاةً لاتَزال تَتَردَّدُ تردُّدَ الأنفاس، ولا تَبْرح فى الآناءِ حسنةَ الإِيناس .

وبعد ، فإنَّ خير من شُرِّفت مراتِبُ السـلطنة بحُلُوله ، وفُوِّفت مَلابِسُ التحكيم بقَبُوله ،ومَنْ تَزهىٰ مطالِـعُ المُلْك بإشْراقه، وتتبادَرُ الممالكُ مُذْعِنةً لاَستِحْقاقه، ومن يَزْدَهِي مُلْكُ منصورِه ـ نصره الله ـ بوَلَدِه وولىّ عهـده مَكِنةً بانيه، ومن يتشَرَّف إيوانُ عظمةٍ : إنـ غاب والدُه فى مصلحة الإسـلام فهو صدْرُه وإن حضر فهو ثانيه، ومن يتجمَّل غابُ الإيالة منه بخيرِ شِبْل كفَلَ لَيْثا ، ويتكفَّل غوثُ الأمَّة بخير وابِلٍ خلَفَ غَيْثا ، ومن أُلْهِم الأخلاقَ الملوكيَّة وأُوتِيَ حُكْمَها صبِيًّا ، ومن خصَّصتْه الأدعيَةُ الشريفةُ بصالحها ولم يكُن بدُعائها شَقِيًا ، ومن رُعت به هَضْبة المُلْك حتّى أمسىٰ مكانُها عليـا، ومن هو أحَقُّ بأن يُنْجِب الأملَ ويُنْجِح، وأولىٰ بأن يُتْلىٰ له : ﴿ ٱخْلُفْنِي فى قَوْمِي وأَصْلِحْ ﴾ . ومن هو بكلِّ خيرٍ مَلِي، ومَنْ إذا فُوِضت إليه أمورُ المسلمين كان أشرَفَ من لأمورهم يَلِي ؛ ومن يتحقَّق من والدِه الماضى الغِرَار ، ومن ٱسْمِه العالى المَنَار، أنْ لاسيْفَ إلا ذُو الفقار ولا فتىٰ إلا علِي .

ولـمَّا كان المقامُ العـالى، الوَلَدِىّ، السـلطانىّ، المَلَكِىّ، الصالحِىّ، العَلَائىّ ـ عضَّد اللهُ به الدِّيـن ، وجمعَ إذعانَ كلِّ مؤمن علىٰ إيجاب طاعتِـه لمباشرة أمور المسلمين ،حتّى يُصْبِح وهو صالح المؤمنين ـ هو المرجَوَّ لتدبير هذه الأُمُور، والمأمولَ لصَلَاح البلاد والثُّغور، والمدَّخَرَ فى النصر لشِفَاء مافى الصُّدُور، والذى تشهد الفِراسةُ لأبيه وله بالتحكم : أوليس الحاكمُ أبو علىّ هو المنْصُور؟ . فلذلك ٱقتضَتِ الرحمه ،

والشفقةُ علىٰ الأمه ؛ أن يُنْصَب لهم ولىّ عهد يتمسَّكون من الفضل بعُرْوة كرمه ، ويَسْعَوْن بعد الطواف بكَعْبة أبيه لِحَرَمه ؛ ويقتطِفُون أزاهِرَ العدل وثمارَ الجُود من كَلِمه وقَلَمه ، وتَستسْعِدُ الأمةُ منه بالملِك الصالح الذى تُقْسم الأنوارُ لجبينه وتُقَسَّم المبارّ من كراماتِه وكَرَمه .

فلذلك خرج الأمرُ العالى ، المولوىُّ ، السلطانىُّ ، الملَكىّ ، المنصورىُّ ، السيْفىّ - أخْدمه الله القَدَر ، ولا زالتِ الممالكُ تتباهىٰ منه ومن وَلِىّ عهده بالشمس والقمر - أن يُفوَّض إليه ولايةُ العهد وكَفالةُ السلطنة المعظَّمة ، ولايةً تامّةً عامّة شاملةً كامله ؛ شريفةً مُنيفه ، عَطُوفةً رَءُوفه ؛ فى سائر أقاليم الممالكِ وعساكِرِها وجُنْدها ، وعَرَبها وتُرْكُمانها وأكرادِها ونُوّابِها ووُلَاتها ، وأكابِرِها وأصاغِرِها ورَعَاياها ورُعاتِها ، وحُكّامها وقُضاتِها ، وسارِحِها وسانِحِها ؛ بالديار المِصْرية وثُغُورها وأقاليمها وبلادِها ؛ وما ٱحتوَتْ عليه . والمملكةِ الحِجازيَّة ، وما ٱحتوتْ عليه . ومملكةِ النُّوبة ، وما ٱحتوتْ عليه ، والفُتُوحات الصفَدية والفُتُوحات الإسلاميَّة الساحلية وما ٱحتوتْ عليه . والممالكِ الشاميَّة وحُصُونها ، وقِلَاعها ومُدُنها ؛ وأقاليمها وبِلادِها ، والمملكة الحِمْصيَّة ، والمملكة الحِصْنية الأكراديَّة والجبلية وفُتوحاتها ، والمملكة الحَلَبية وثُغُورها وبلادها ، وما ٱحتوت عليه ، والمملكة الفُراتيَّة ، وما ٱحتوتْ عليه ؛ وسائر القِلَاع الإسلامية بَرًّا وبحرا ، وسَهْلا ووَعْرا ؛ شامًا ومصرا ، يمَنًا وحجازا ، شَرْقا وغَرْبا ، بُعْدا وقُرْبا . وأن تُلْقىٰ إليه مَقاليدُ الأمور فى هذه الممالك الشريفه ، وأن تستخلِفَه سلطنةُ والده - خلد الله دولته - لتُشاهِدَ الأمةُ منه فى وقتٍ واحدٍ سلطانا وخليفه ؛ ولايةً وٱستخلافًا تُسنِدُهما الرُّواه ، وتترنَّم بهما الحُدَاه ، وتَعِيهما الأسماعُ وتنْطِق بهما الأفْواه ؛ تفويضًا يُعلَن لكافَّة الأُمَم ، ولكلِّ ربِّ سيفٍ وقَلَم ، ولكل ذى عِلْم وعَلَم ؛ بما قاله صلّى الله عليه وسلم لسميّه رضىَ الله عنه حينَ أولاه من الفَخار ما أولاه :

"مَنْ كُنْتُ مَوْلاه فَعَلِيٌّ مَوْلاه" . فلا مَلِكُ إقليم إلّا وهذا الخطابُ يَصِله ويُوصِّله ، ولا زعيمُ جيشٍ إلا وهـذا التفويضُ يسَعُه ويشْـمَلُه ؛ ولا إقليمٌ إلّا وكلُّ مَنْ به يُقَبِّله ويَقْبَله ، ويَمْثُل بين يديه ويمتثِلُه ، ولا مِنْبرٌ إلّا وخطِيبُه يتلُو فُرقانَ هـذا التقديم ويرتِّلُه .

وأمّا الوَصايا فقد لَقَّنَّا ولَدَنا ووليَّ عهدِنا ما ٱنْطَبع في صفاء ذِهْنه ، وسَرَتْ تغذيته في نَمَـاء غصنه ، ولا بُدّ من لوامِعَ للتبرُّك بها في هذا التقليد الشريف تُنِير ، وجوامِعَ بعـر لحربها(؟)[1] حيث يصير ، ووَدائـعَ يُنَبِّئك عنهـا ولَدُنا ـ أعزنا الله ببقائه ـ ولا ينَبِّئك مثلُ خَبير : فاتَّقِ الله كأنَّك تَراه فإنْ لم تَكُنْ تَراه فإنَّه يَراك ، وٱنصُرِ الشرْعَ فإنَّك إذا نصَرْتَه ينْصُرْك اللهُ علىٰ أعداء الدِّين وعِدَاك ، وٱقْضِ بالعدل مخاطِبا ومكاتِبا حتّٰى يستَبِق إلىٰ الإيعازِ به لسانُكَ ويُمْناك ، وأْمُرْ بالمعْروف وٱنْهَ عن المنْكَر عالمـًا أنه ليس يُخاطَبُ غدًا بينَ يدَيِ الله عن ذٰلك سِوانَا وسِـوَاك ، وٱنْهَ نفْسَـك عن الهوىٰ حتّٰى لا يراك اللهُ حيثُ نَهَـاك ؛ وحُطِ الرعيَّـه ، ومُرِ النُّوّابَ بحملهـم علىٰ القَضَايا الشرعيَّه ، وأقِمِ الحُدُود ، وجَنِّـد الجُنود ، وٱبعَثْها بَرّا وبحرا من الغَزْو إلىٰ كلِّ مقام محْمود ، وٱحفَظِ الثُّغور ، ولاحِظِ الأُمور ، وازْدَدْ بالٱسترشاد بآرائنـا نُورا علىٰ نُور ؛ وأمراء الإسلام الأكابر وزُعَماؤه ، فهم بالجهاد والذَّبِّ عن العباد أصـفِياءُ الله وأحِبَّـاؤه ؛ فضاعِفْ لهم الحُرْمَةَ والإحسان . وٱعلمْ أنَّ الله ٱصـطفانا علىٰ العالمين وإلّا فالقومُ إخْوان ؛ لاسيَّمـا أولُو السـعْيِ الناجح ، والرأْي الراجح ، ومن إذا نَخَرُوا بِنسْبة صالحية قيل لهم : نِعْمَ السَّلَفُ الصالح ؛ فشاوِرْهم في الأمر ، وحاوِرْهم في مهمّات الأمور في كلِّ سِرٍّ وجهْر ؛ وكذلك غيرُهم من أكابر الأُمَراء الذين هم من تحايا

(١) كذا في الأصول ولعله تعتز بجيوشها حيث تسير . تأمل .

الدُّول، وذخائرِ المُلوك الأُوَل؛ أَجْرِهم فى هذا المُجْرَىٰ، وٱشرَحْ لهم بالإحسان صَدْرا؛ وجيوش الإسلام هم البَنَـان والبُنْيان، فَوالِ إليهـم الاِمْتِنان؛ وٱجعل محبَّتك فى قلُوبهم بإحسانك إليهم حسنة المَرْبىٰ، وطاعتَك فى عقائدهم قد شَغَفها حُبّـا: لِيُصْبِحوا بِحُسْن نَظَرِك إليهـم طَوْعا، وليُحصِّل كُلُّ جيش منهم من التقرّب إليك بالمُنَـاصحة نَوْعا؛ والبلاد وأهلها فهُـم عندك الوديعـه، فٱجعل أوامِرَك [لهم] بَصِيرة وسَمِيعه.

وأما غيرُ ذلك من الوصايا، فسنُخَوّلك منها بمـا يَنْشأ معك تَوْءما، ونلَقِّنك من آياتها مُحْكما فُمُحْكَما؛ والله تعالىٰ يُنَمِّى هلالَك حتّى يُوصِّله إلىٰ درجة الإبْدار، ويغَذِّى غُصنَـك حتّى نراه قد أَيْنَع بأحسَن الأزهارِ وأَيْنَع الثِّمـار؛ ويرزُقُك سـعادةَ سلطاننا الذى نُعِتَّ بنَعْته تبرُّكا، ويُلْهِمك الاعتضادَ بشِيعته، والاستِنانَ بسُنَّته، حتّى تُصْبح كتَمَسُّكنا بذٰلك متَمَسِّكا، ويجعل الرعيةَ بك فى أمْن وأمان حتّى لاتخْشىٰ سُوءا ولا تخافُ دَرَكا؛ والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف - أعـلاه الله تعـالىٰ - أعلاه إن شاء الله تعالىٰ.

الوجـــــه السادس

(فيما يُكتَب فى مستَنَد عهدِ ولىِّ العهد بالسلطنة، وما يكتُبه السلطان فى بيت العلامة، وما يُكتَب فى ذَيْل العهد)

أما ما يكتَب فى مستَنَد العهْد وما يكتُبه السـلطانُ فى بيت العلامة، فكغيره من سائرالوِلَايات من التقاليد وغيرِها: وهو أنه يكتب فىالمستند «حَسَب المرسوم الشريف» كما يُكْتب فى المكاتَبَـات التى هى بتَلَقِّ كاتب السر علىٰ ماتقـدّم ذكره فى بابه. ويكتُب السلطانُ فى بيت العلامة ٱسْمَه وٱسمَ أبيه.

وأما مايكتب فى ذيلِ العهد وشهادة الشهود علىٰ السلطان بالعهد ، فمثل أن يكتب : « شهِدتُ علىٰ مولانا السلطانِ الملكِ الفلانىّ العاهدِ المشارِ إليه فيه خلَّد الله مُلْكه ، أوخلَّد الله سلطانه» وماأشبه ذٰلك من الدعاء «بمـا نُسِبَ إليه فيه من العهد بالسلطنة الشريفةِ إلىٰ ولده المَقام الشريف العـالى السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ، وعلىٰ المعهودِ إليه ـ أعزَّ الله أنصارَه ـ بقَبُول العهد المذكور،وكتَب فلانُ بنُ فلان» .

الوجـــــه السابع

(فى قطع ورق هذا العَهْد وقَلَمه الذى يُكتَب به ، وكيفيّة كتابته، وصـــورةِ وضْـــعه فى الورق)

أما قطع ورَقه فمقتضىٰ إطلاق المَقَرّ الشهابىّ بن فضـل الله فى « التعريف» أن للعهود قَطْع البغدادىّ الكامل أنه يكتب فى البغدادِىّ أيضا .

قلت : وهو المناسبُ لعَظَمة السلطنة، وشَماخَة[(١)] قَدْرها . إذ المُلْك إلىٰ ولىّ العهد آئل، وللدُّخول تحتَ أمره صائِر، خصوصًا إذا كان المعهودُ إليـه ولَدا أو أخًا . وحينئذ فيكتب بمختَصر قلَم الطُّومار لمناسبته له ، علىٰ ما تقدّم فى غير مَوْضع .

وأما كيفيـة كتابته وصورةُ وضعها فى الورق ، فهو أن يخلِّى من أعلىٰ الدَّرْج قدْرَ إصبع بياضًا . ثم يكتُب فىوسطه بقَلمٍ دقيق ماصورتُه «الآسْمُ الشريف» كما يكتب فى التقاليد وغيرها علىٰ ماسيأتى . ثم يبتدئ بكتابة الطُّرّة بالقَلَم الذى يُكتَب به العهد من أوّل عَرْض الورق من غير هامش سُطورا متلاصـقة إلىٰ آخر الطُّرّة . ثم يتْرُك ستةَ أوصال بياضًا من غير كتابةٍ غيْرَ الوصل الذى فيـه الطرة . ثم يكتُب البسملة فى أوّل الوصل الثامنِ بحيث تلحقُ أعالى ألفاتِه بالوصـل الذى فوْقَه ، بهامش عن

---

(١) لعل الصواب وشموخ قدرها فإنا لم نقف على هذا المصدرفما بين يدينا من كتب اللغة فليحرر .

يمين الورق قدرَ أربعة أصابعَ أو خمســة مطبُوقة . ثم يكتب تحتَ البسملة سطرا من أوّل العهد ملاصقًا لهـا . ثم يخلِّ بيتَ العلامة قدرَ شِبر كما فى عهُود الملوك عن الخلفاء . ثم يكتبُ الســطر الثانى تحت بيت العلامة علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة ، ويَستَرْسِل فى كتابة بقيَّــة العهد إلىٰ آخره ، ويجعلُ بين كلِّ سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُماش . فإذا انتهىٰ إلىٰ آخر العَهْــد كتب « إنْ شاء الله تعالىٰ » ثم المستَنَد، ثم الحَمْدلة والصلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم والحَسْبَلة، علىٰ ماتقدّم فى الفَوَاتح والخَوَاتم . ثم يكتُب شهودُ العهد بعد ذلك .

وهذه صورة وضْعه فى الورق، ممثّلا له بالطرّة التى أنشأتها لذلك، وبالعهد الذى أنشأه القاضى مُحيي الدّين بن عبد الظاهر عن المنصور «قلاوون» بالعهد بالسلطنة لوَلَده الملِك الصالح « علاءِ الدِّين علىّ » وهى :

هذا عهــدٌ شريفٌ جليلٌ قدْرُه ، رفيعٌ ذِكْره، علىٌّ نَخْره ، مَتَبلّجٌ صُبحُه ضَوِىٌّ فَجْرُه ؛ من الســلطان الأعظم الملِك الظاهر، ركْنِ الدنيا والدِّين «بيبرس» خلّد الله تعالىٰ ســلطانَه ، ونصر جُيوشَــه وأعوانَه ، بالسلطنة الشريفة لولده المَقَام العــالى السلطانىّ، المَلَكىّ، السعيدىّ، بلّغه الله تعــالىٰ فيه غايةَ الآمال، وحقّق فيه للرعية مايرجونه من مَزِيد الإفضال . علىٰ ما شرح فيه

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش الحمــدُ لله الذى شــرَّف سريرَ المــلك منه بعليِّــه ، وحاطه

منه بوَصيّه، وعَضّد منصورَه بولاية عهــد صالحِه، وأسْمىٰ حاتِمَ جُوده

هامش بمكارِمَ حازَها بسَبْق عَدِيِّه، وأَبْهج خيْرَالآباءِ من خَيْر الأبناءِ بمن سُمُوُّ أبيه

منه بشريفِ الخُلُق وأَبِيِّه، وغَذّى روْضَه بمتابعةِ وَسْمِيِّه، و بمسارعة وَلِيِّه.

نحمَدُه على نِعَمه التى جمعتْ إلى الزَّهْر الثمر إلى أن يأتى إلى قوله : ولا يَخافُ

دَرَكا والاعتمادُ على الخَطِّ الشريف ــ أعلاه اللهُ تعالى ــ أعلاه

إن شاء الله تعالى

كتب فى

ســـنة

حسب المرسوم الشريف

الحمدُ لله وحده، وصلواتُه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبنا الله ونعم الوكيل

النـــوع الرابـــع

(من العُهود عُهود الملوك بالسَّلْطنة للملوك المُنْفَرِدين بِصغار البُلْدان)

ويتعلَّق النظرُ به من أربعة أوجه :

الوجـــــه الأوّل

(فى بيانِ أصل ذٰلك وأوّلِ حدُوثه فى هذه المملكة إلىٰ حِينِ زوالِه عنها)

قد تقدّم فى المكاتبات ، فى الكلام علىٰ مكاتَبة صاحب حَماةَ أنَّ ذٰلك ممـا كان فى الدولة الأيُّوبية، ثم فى الدولة التُّرْكيَّـة فى الأيام المنصوريَّة « قلاوون » والأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » ثم بطل ذٰلك . وذٰلك أنَّ السـلطانَ صـلاحَ الدين «يوسفَ بنَ أيوب» حينَ ٱستَوْلىٰ علىٰ البلاد الشاميَّة مع الديار المِصريَّة بعدَ موتِ السلطان نُور الدين «محمود بن زنكى» صاحب الشام، فرّقَ أقارِبَه فى ولاية المـالك الشامية : كدِمَشْق وحَلَبَ وحَماةَ وحِمْص وغيرها وٱستمرّت .

وكان السلطانُ صلاحُ الدين قد ولّى حماةَ لٱبن أخيه تقِىّ الدين عُمَرَ بن شاهِنْشاه ٱبنِ أيُّوب، فبقيَتْ بيده حتّى تُوفِّيَ سنةَ سبع وثمـانين وخمسِمائة . فوَلِيهَا بعده ٱبنُه المنصورُ ناصرُ الدين محمَّدٌ وبقِيَ بها حتّى تُوفِّيَ سنةَ سبعَ عشرةَ وستِّمـائة . فوليها ٱبنُه الناصرُ قَلِيج أرْسَلان فبقِيَ بها إلىٰ أن ٱنتزعها منه أخوه المظفَّر فى سنة ستٍّ وعشرين وستمائة ، وأقام بها إلىٰ أن مات سنة ثلاثٍ وأربعين وستِّمائة . فوليها ٱبنُه المنصُور محمد ، فبقِيَ بهـا إلىٰ أن غلَب هُولاكُو ملكُ التتار علىٰ الشام وقتل مَنْ به من بقَايَا الملوك الأيُّوبية، فهرَب المنصورُ إلىٰ مصر وأقامبها إلىٰ أن سار المظَفَّر قُطُز صاحب مصر إلىٰ الشام، وٱنتزعه من يَدِ التتار، وصار الشامُ مضافًا إلىٰ مملكةالديار المِصْريَّة،

فَردّ المنصورَ إلىٰ حمـاةَ ، فبقى بها حتّى تُوفِّى ســنةَ ثلاث وثمانين وسِتّمـائة . فولّى المنصورُ قلاوون ٱبنَه المظفَّر شادِى مكانَه ، وكتب له بها عَهْدا عنه ، فبقِىَ بها حتّى تُوفِّى سنة ثمان وتسعين وستمائةٍ ، فى الأيام الناصرية « محمد بن قلاوون » فى سلطنته الثانية بعْد « لاچين » . فولّى الملك الناصرُ قَراسُنْقُر أحدَ أمرائه نائبًا ؛ فلما ٱستولىٰ غازانُ ملكُ التتار علىٰ الشام ، كان العادل كُتْبغا بعد خلعه من سلطنة الديار المصرية نائبا بصَرْخَدَ ، فأظهر فى قِتال التتار قُوّةً وجَلَادة ، فولّاه الملكُ الناصر حَماةَ ، وحضر هزيمةَ التتار مع الملِك الناصر ســنةَ ٱثنتين وسَبْعِمائة ورجع إلىٰ حماةَ فمـات بها . فولّى الملكُ الناصرُ مكانَه سيفَ الدين قَبْجَق نائبـا ، ثم نقله إلىٰ حَلَب ، وولّى أستدمر كَرَجى نيابةَ حماةَ مكانه . ولمـا رجع السلطانُ الملكُ الناصر من الكَرَك نقل أســتدمر كَرَجى من حماةَ إلىٰ حلب ، وولّى المؤيَّد عمادَ الدِّين إسماعيلَ بنَ الأفضل علىِّ بنِ المظفَّر عمرَ ، مكانَه بحماةَ سنة ستَّ عشرةَ وســبْعِمائة علىٰ عادة من تقدّمه من الملوك الأيُّوبية ، فبقى بهـا إلىٰ أن تُوفِّى ســنَةَ ثنتين وثلاثين وسبْعِمائة . فولّى الملكُ الناصر ٱبنَه الأفضلَ محمدًا مكانَه ، فبقِىَ بها حتّى مات الملكُ الناصر فى ذى الحِجّة سنة إحدىٰ وأربعين وســبعمائة ؛ وٱستقرّ فى السلطنة بعــده ٱبنُه المنصورُ أبو بكر ، وقام بتدبير دولتــه الأميرُ قُوصُون . فكان أوّلُ ما أحدث عزلَ الأفضلِ بن المؤيَّد عن حماة ، وولّى مكانَه بها الأميرَ قُطُز نائبـا . وسار الأفضلُ إلىٰ دِمَشقَ فأقام بها حتّى تُوفِّى بها سنة ثنتين وأربعين وسبعمائة ، وهو آخِرُ من وليها من بنى أيُّوبَ .

وقد ذكر المقرّ الشِّهابىُّ بنُ فضــل الله فى " مسالك الأبصار " أنَّ سلطانَها كان يســتقلُّ باعطاء الإمْرة والإقطاعات ، وتولِيَــة القُضاة والوُزَراء وكُتَّاب السرّ وكلِّ الوظائف ، وتُكتَبُ المناشير والتواقيعُ من جِهَته . ولٰكنه لايُمْضى أمرًا كبيرًا فى مثل

إعطاء إمْرة أو إعطاءِ وظيفةٍ كبيرة حتّى يُشاوِر صاحبَ مصر، وهو لا يُجيبه إلا أنّ الرأى مايَراه . ومن هـذا ومثله . قال : وإن كان سـلطانًا حاكمًا ومَلِكا متصرّفًا فصاحبُ مصر هو المتصرِّفُ فى توليةٍ وعزلٍ، مَنْ أراد وَلّاه ومَنْ أراد عَزَله .

قلت : وكان للملكة بذٰلك زيادةُ أُبَّهة وجَمَال : لكون صاحبها تحتَ يدِ[ه] من هو متّصف بآسم السلطنة، يتصرَّف فيه بالوِلاية والعَزْل . علىٰ أنَّ هذا القِسم لم يتعرّضْ له المَقَرّ التَّقَوى" بنُ ناظر الجيش فى "التثقيف" لخُلوّ المملكة الآنَ عن مثله؛ وإنما أشار إليه المَقَرّ الشهابىُّ بنُ فضل الله رحمه الله فى "التعريف" حيث قال : وأما مايُكتَب للملوك عن المُلوك، مثـلِ وُلاة العهود والمنفَرِدين بِصغَار البُـلْدان فإنه لاتُستفتَح عهودُهم إلا بالخُطَب . وذلك أنَّ حماةَ كانتْ فى زمنـه بأيْدى بنى أيُّوبَ علىٰ ما تقدّم ذكره، ولذٰلك قال فى "مسالك الأبصار" : ومما فى حُدُود هذه المملكة ممن له آسمُ سلطانٍ حاكمٍ وملكٍ متصرّفٍ صاحبُ حماةَ .

الوجـــــه الثـانى

(فى بيان مايُكتَب فى العهد، وهو علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(مايكتب فى الطرّة، وهو تلخيص مايشتمل عليه العهد)

وهـذه نسخة عهـد كتب بها المَقَرّ الشهابىّ بن فضـل الله عن الملك النـاصر «محمد بن قلاوون» للملك الأفضلِ «محمدِ ابنِ المؤيَّد عمادِ الدين إسمـاعيل» بسلطنة حماةَ أيضا، فى رابع صفر سنة آثنتين وثلاثين وسَبْعمائة . وهو آخِرُ مَن مَلَكها من بنى أيُّوبَ، وهى :

الحمـدُ لله الذى أقرّ بنـا المُلْكَ فى أهِلَّة أهْله ، وتَدارَكَ مُصـابَ مِلكٍ لولا ولَدُه الأفضلُ لم يكن له شَبِيهٌ فى فضْله ، ووهبَ بِنا بيتَ السلطنة مِنْ أبقىٰ البقَايَا مايلْحَق به كلُّ فرع بأصْلِه ، ويظهَرُ به رَوْنَقُ السيفِ فى نَصْله .

نحمَدُه علىٰ ماأفاض بمَواهِبنـا من النِّعَم الغِزار ، وأدخلَ فى طاعتِنا الشريفـةِ من مُلوكِ الأَقْطار ، وزاد عَطايانَا فأضْحتْ وهى ممـالكُ وأقاليمُ وأَمْصـار ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلَّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أفلَح مَنْ مات من ملوكِ الإسلام عليهـا ، وحَرَّض بها فى الجهـاد علىٰ الشَّهادة حتّى وصَل إليها ، ومدّ يَدَه لمُبايعتنا علىٰ إعلائها فسابقَتِ الثُّريَّا ببَسْط يدَيْها ، ونشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى شَرَّف من تسمّى بٱسْمِه أومَتَّ بالقُرْبىٰ إلىٰ نَسَـبه ، وصَرَّف فى الأرض مَنْ تمسَّـك من رعاية الأُمَّة بسبَبِه ، وأكْرَمَ به كرِيمَ كلِّ قومٍ وجعَل كلمةَ الفَخَار كلمـةً باقيةً فى عَقِبه ، صلىّ الله عليه وعلىٰ آله وأصحابِه ماناحَ الحمامُ لحُزْنه ثم غنّى من طَرَبه ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّنا ــ ولله الحمْدُ ــ ممَّن نَحْفَظُ بإحساننا كلَّ وديعه ، ونَتَقَبَّل لمن أقبل من الملوكِ علىٰ سؤال صَـدَقاتنا الشريفةِ كلَّ ذَرِيعـه ، ونتكفَّل لمَنْ ماتَ وهو علىٰ وَلائنا بمـا لوْ رآه فى ولده لسَرَّه ماجَرىٰ ، وعلم أنَّ هـذا الذى كان يتمَنّى أن يَعيش حتّى يُبْصِر هذا اليومَ ويرىٰ ؛ وكان السلطانُ الملكُ المؤيَّد عمَـاد الدين ــ قدّس الله رُوحه ــ هو بقِيَّةَ بيتِه الشريف ، وآخِرَ مَنْ حلَّ من ملوكهم فى ذِرْوة عِزِّه المُنِيف ؛ ولم يزَلْ فى طاعتنا الشريفةِ علىٰ ما كان من الحُسْنىٰ عليـه ، ومن المحَاسن التى لقِيَ الله بها ونُورُ إيمـانِه يَسْعىٰ بين يدَيْه ؛ فوهَبْنا له من المَمْلكة الحَمَوِيَّة المحروسـة ما كان قد طال عليه سالِفُ الأمد ، ورسَمْنا له بها عطِيَّةً باقيةً للوالد والولَد ؛ فلمَّا قارَبَ ٱنقضاءَ أجَله ، وأشرفَ علىٰ ماقدّمه إلىٰ الله و إلينا من صالحِ عَمَلِه ، لم يَشْغَلْه مابه عن مطالعة

أبوابنا الشريفةِ والتّذْكار بوَلَده، وتقاضى صدَقاتِنا العميمةِ بما كان ينتظِرُه قمرُه المنيرُ لفرْقَدِه؛ وورَدَ من جهة وَلَده المقامِ الشريف، العالِى، الوَلَدىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الأَفْضلِىّ، الناصرىّ - أعزّ الله أنصاره - ما أزعَجَ القلوبَ بمُصابه فى أبِيه، وأجرىٰ العُيونَ علىٰ من لانقعُ له علىٰ شَبِيه؛ فوجَدْنا من الحُزْن عليه ماأَبْكىٰ كلَّ سيْفٍ دَمًا، وأنَّ كل رُمْح يَقْرَع سِنَّه نَدَما؛ وتأسَّفْنا علىٰ مَلِك كاد يكُونُ من المَلَائك، وأخٍ كريم أو أعَزَّ من ذٰلك، وسلطانٍ عظيم طالمَا ظهر شَنَبُ بوارقه فى ثُغُور الممالك؛ وقُمْنا من الحُزْن فى مشاركةِ أهله بالمنْدُوب، ثم قُلْنا: لَكُمْ فى وَلَده العِوضُ ولا يُنْكَر لكم الصَّبْرُ يا آل أيُّوب.

فاقتضَتْ مَراسِمُنا المطاعةُ أن نُرَقِّيه إلىٰ مَقامنا العالِى، ونَعْقِدَ له من ألْوِيَةِ المُلْك ماتهتَزُّ به أطرافُ العوَالى؛ ونُرْكِبَه من شعار السلطنة بما تتجمَّل به موَاكِبُه، وتمتدُّ به عصائِبُه، وتمِيسُ من العُجْب وتمتدّ رقابُها بالرَّقَبة السلطانية جَنائِبُه؛ تنزيهاً لخواطِركم الكريمةِ علينا عن قول لَيْت، وتنويهًا بقَدْر بيتِكم الذى رَفَع لكم إسماعيلُ به قواعِدَ البَيْت: لِما نعلَمُه من المَقام العالى المَلَكىّ الأفضلِىّ الناصرىّ - أمتَع اللهُ ببقائه - من المَنَاقب التى ٱستَحقّ بها أن يكونَ له عليكم المُلْك، والعزائِمِ التى قُلِّد بها من الممالك ماتجُولُ به الجِيادُ وتَجْرِى به الفُلْك؛ مع ماله من الكَرَم الذى هو أوْفىٰ من العِهاد بعَهْده، والفضلِ الذى ٱتَّصل به ميراثُ الأفضلِيَّة عن جَدّه؛ والجُود الذى جرىٰ البَحْر معه فاحمرّتْ من الخَجَل صَفْحةُ خَدّه، والوَصْف الذى لم يرضَ بالجَوْزاء واسطةً لعِقْده؛ والعدلِ الذى أشبَهَ فيه أباه فما ظَلَم، والعلم الذى ماخلَا به بابُه من طَلَب: إمَّا لهُدًى وإمَّا لكَرَم؛ ولم يخْرُجْ من كَفَالة والده إلّا إلىٰ كَفَالتنا التى أظلَّتْه بسُحُبها، وحلَّتْ سماءَ مملكته بشُهُبها؛ وخاطبناه كما كُنَّا نُخاطب والِدَه - رحمه الله - بالمَقام الشريف، وأجرَيْناه فى ألقابه مُجْرىٰ الولَد زيادةً له فى التشْريف، وصرّفْنا

أَمْرِه فى كل ما كان لمُلُوكِ أهلِه فيه تَصْرِيف، وسنُرْشِدُه إلىٰ أَوْضَحِ طَرِيقَه، ويقُوم مَقَام أبيه أَو لَيْس «الناصرُ» هو أبوالأفْضَل حقِيقه، ورسَمْنا بطلَبه إلىٰ[ما]بينَ أيدينا الشريفة لنُجدّدَ له من نظَرنا الشريف مايَتَضاعَفُ به سُعودُه، ويزدادُ صُعُوده، ويتَمَاثَل فى هـذا البيت الشاهِنْشاهىّ أبناؤُه وآباؤه وجُدُوده : لتعمل معه صدَقاتُنا الشريفةُ ماهو به جَدير، وترفَعَه إلىٰ أعزِّ مكانٍ من صَهْوة المِنْبَر والسَّرير، وتُكاثِر به كلَّ سلطان وما هو إلَّا جَحْفَلٌ يَسِـير، لتُشيِّد به أركانُ هـذا البيت الكريم، وتُحيا عِظامُه وهى فى اللُّحُود عَظْمٌ رَمِيم ، وتَعْرِفَ الناسُ أن عِنايتَنا الشريفـةَ بهم تَزِيد علىٰ ماعَهِدُوه لجَدِّهم القدِيم من سَمِيِّنا الملِكِ الناصرِ القديم .

فخرجت المَرَاسِيمُ الشريفةُ، العاليةُ، المَوْلويَّة، السلطانية، المَلَكية، الناصِريَّة : لا زالتِ الملوكُ تتقلَّد مِننَها فى أعناقها، ولا بَرِحتِ الممـالكُ من بعض مَوَاهبها وإطْلاقها، أن يُقَلَّد هـذا السلطانُ الملكُ الأفضل ـ أدام الله نصْرَه ـ من المملكة الحَموية وبلادها، وأُمَرائها وأجنـادِها، وعَرَبِها وتُرْكمانها وأكرادِها، وقَضَـاياها وقُضَاتها، ورَعاياها ورُعَاتها، وأهلِ حواضِرها وبَوادِيها، وعُمْرانها وبَرارِيها ـ جميعَ ما كان والدُه ـ رحمه الله ـ يتقلَّده، وبسَـيْفه وقَلَمه يُجْرِيه ويجرِّدُه : من كلِّ قليل وكثير، وجليلٍ وحَقِير، وفى كلِّ مأمورٍ به وأمِير، يتصرّف فى ذلك جميعِه، ويُقْطِع إقطاعاتها بمناشيرِه ويُولِّى وظائفَها بتواقِيعه، وينظُر فيها وفى أهلها بما يَعْلَم أنَّ له ولهم فيه صَلَاحا، ويُقِيم من هَيْبة سلطانه مايُغْنِيه أن يُعْمِل أسنَّةً ويُجرِّدَ صِفَاحا .

ولْيَحْكُمْ فيها وفيمَنْ هو فيها بعَـدْ له ، ويجمَعْ قلوبَ أهلها علىٰ وَلَائه كما كانُوا عليه لأَبِيه من قَبْله، ولْيَكُنْ هو وجنودُه وعساكِرُه أقربَ فى النُّهوض إلىٰ مصالح الإسلام من رَجْع نَفَسه، وأمضىٰ فى العَزائِم ممـا يشتبه (؟) بها من سيفه وقَبَسه .

وأما بقيَّة ما يُملىٰ من الوصايا، أو يُدَلُّ عليه من كَرَم السَّجايا؛ فهو ـ بحمد الله تعالىٰ ـ غريزةٌ فى طِبَاعه، ممتزِجٌ به من زَمان رَضاعه؛ وإنما نُذَكِّره ببعض ما به يُتَبَرَّك، ونحُضُّه علىٰ ٱتِّباع أبيه فإنها الغايةُ التى لاتُدْرَك؛ والشرع الشريف أهَمُّ مايَشْغَل به جميعَ أوقاته، وتقوىٰ الله فما ينتصرُ الملِكُ إلا بتُقَاته؛ والفِكْرة فى مصالح البلاد والرعايا فإنها مادّةُ نَفَقاته، وٱستكثارُ الجنود فإنهم حِصْنُه المنيع فى مُلاقاته، ومبادرةُ كلِّ مهم فى أوّل مِيقاته، وولاياتُ الأعمال لايعتمِد فيها إلَّا علىٰ ثِقَاته، وإقامةُ الحُدود حتّى لايُنصِتَ فى تَرْكها إلىٰ رَقْى رُقَاته؛ ورعايةُ مَنْ له علىٰ سَلَفه خِدمةٌ سابقه، وٱستجلابُ الأدْعية الصالحةِ لنا وله فإنها للسهام مسابقه؛ ولْيمْضِ فى الأُمُور عزمه فإنه مُذَرَّب، ويَبْسُطِ العدلَ والإحسان فإنه بهما إلينا يُتَقَرَّب؛ ولْيأْخُذْ بقلوب الرعايا فإنها تتقلَّب، ولْيُكْرِم وِفادةَ الوُفُود ليقفَ بهم ـ لنجاح مقاصدهم ـ علىٰ بابٍ صحيح مجرّب؛ ولْيجتهِدْ فى الجهاد، ويتيقَّظْ والسَّيْف مكتَحِلُ الجَفْن بالرُّقاد؛ ويهْتَمَّ فإنَّ الهمم العالية تُقَوِّم بها عَوالِى الصِّعاد، ويُقَوِّم البريدَ فإنَّ فى تقويمه بقاءَ المُلْك وعمارةَ البلاد؛ ولْيقِفْ عند مراسِمنا الشريفةِ لتَهْدِيَه إلىٰ سبيل الرَّشاد، ويُحسِنْ سلُوكه ليَطْرَبَ بذكره كلُّ أحد ويترنَّم كلُّ حادٍ؛ وغير هذا من كلِّ ماعهِدنا والِدَه ـ سقىٰ الله عهده ـ له سالِكَا، ولأزِمَّة أُمُوره الجميلة مالِكا؛ ممَّا لايَحتاج ـ ممَّا نَعرِفه من سِيرته المُثْلىٰ ـ إلىٰ شَرْحه، ولا يُدَلُّ نهارُه الساطعُ علىٰ صَبَاحة صُبْحه؛ ولْيُبْشِر بما جُعِل له من فضلنا العَمِيم، ويتَمَسَّكْ بوعْدنا الشريف أن هذه المملكةَ له ولأبنائه وأبناءِ أبنائه ماوُجد كُفْءٌ من نَسَبِهم الصميم؛ والله تعالىٰ يُمِدُّك ـ أيها الملك الأفضل ـ بأفضل مَزِيده، ويحفَظُ بك ماأبقاه لك أبُوك «المؤيَّدُ» من تأييده؛ والٱعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

الوجـــــه الثـالث

(فيما يُكْتب فى المستَنَد عن السلطان فى هذا العهد، وما يكتبه السلطانُ فى بيت العَــلَامة)

والحُكْم فى ذٰلك علىٰ ما مَرَّ فى عهود أوليـاء العهد بالســلطنة : وهو أن يكتب فى مستَنَد العهد «حَسَبَ المرسوم الشريف» كما فى غيره من الولايات، ويكتب السلطان فى بيت العلامة ٱسْمَه من غير زيادة .

قلت : ولا يُكْتَب فيـه شهادةٌ علىٰ السلطان كما يُكْتَب فى عُهُودِ أوليـاء العهد بالسلطنة : لأن العهد بالسلطنة العظمىٰ شبِيهٌ بالبَيْعة، والشهادة فيها مطلوبةٌ للخروج من الخلاف، علىٰ ماتقدّم فى موْضِــعه . والعهدَ بولاية سلطنةِ بعض الأقاليم شبِيهٌ بالتقليـد، والشهادة فى التقاليد غير مطْلُوبة، وذٰلك أن الســلطنة لا تنْتهِى إلىٰ ولىّ العهدِ إلا بعد موتِ العاهد، ورُبَّمـا جَحَد بعضُ الناس العهدَ إليــه؛ ووِلاية بعضِ البُلْدان إنمـا تكون والسلطانُ المولِّى منتصبٌ فلا يؤَثِّرُالجحودُ فيها .

الوجـــــه الرابع

(فى قَطْع ورق هــذا العهد وقلمِه الذى يُكْتَب به، وكيفيَّــةِ الكتابة ، وصورةِ وضــعها فى الورق)

أما قطع الورق فمقتضىٰ عموم قول المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" : إن للعهود قطع البغدادىّ الكامل أنه يُكتَب فى قطع البغدادىّ أيضا .

قلت : والذى يقتضيه القياسُ أن تكون كتابتُه فى الورق البغدادىّ لمعنىٰ السلطنة ، ولكن فى قَطْعٍ دُونَ القطع الكامل : لنُقْصان رُتْبة هذه السلطنة عن السلطنة العظمىٰ ؛ ألا ترىٰ مكاتبةَ صاحب مملكةِ إيران كانتْ فى زمن القان «أبى سعيد» تُكتَب فى قطع البغدادىّ الكامِل كما ذكره فى "التعريف" وغيره ؛ ومكاتبةَ صاحب مملكة بَيْتِ بركةَ المعروفة بمملكة أزْبَك من مملكة تُوران تكتب له فى قطع البغدادىّ بنقْص أربعة أصابع مطْبُوقة كما ذكره فى "التثقيف" لانحطاط رُتْبته عن رتبة القان أبى سعيد، علىٰ ماتقدّم ذكره فى المكاتبات .

وأما قلمه الذى يكتب به، فينبغى إن كُتِب فىقطع البغدادىّ الكامِلِ أنيكون بمختَصر قلَم الطُّومار كما فى غيره من العهود التى تُكتَب فى القطع الكامل . وإن كتب فى دون الكامل، فينبغى أن يكون القلمَ دُونَ ذٰلك بقليل .

وأما صورة وضعه فى الورق ، فعلىٰ مامرَّ فى عهُود أولياء العهد بالسلطنة من غير فَرْق : وهو أن يكتُبَ فى رأس الدرج بقلمٍ دقيقٍ الاسمَ الشريفَ، ثم يبتدئ بكتابة الطرّة فى عَرْض الورق من غير هامش سُطورا متلاصقةً إلىٰ آخر الطرّة، ثم يخلّى ستّةَ أوصال بياضا، ثم يكتُبُ البسملة فى أوّل الوصل الثامن بهامش قدرَ أربعة أصابع أو خمسةٍ مطبوقة، ثم يكتب سطرا من أوّل العهد ملاصقًا للبسملة ، ثم يخلّى بيتَ العلامة قدر شبر علىٰ ما تقدّم ، ويكتُب السطرَ الثانى علىٰ سَمْت السطر الذى تحت البسملة ، ثم يسترسِلُ فى كتابة بقية العهد إلىٰ آخره، ويكون بين كلّ سطرين قدرُ رُبُع ذراع علىٰ قاعدة العهود . فإذا انتهىٰ إلىٰ آخر العهد كتَب «إن شاء الله تعالىٰ» ثم التاريخ ، ثم المستند ، ثم الحمدَ لله والصلاةَ علىٰ النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، ثم الحَسْبلةَ . وتكون كتابتُه من غير نقط ولا شكل كسائر العُهود .

قلت : ولو وُسِّع ما بينَ سُطوره ونُقِطت حروفُه وشُكلت : لمـا فيـه من معنىٰ التقاليد، لكان به أليَق .

وهـذه صورةُ وضـعه فى الورق ، ممثّلا لهـا بالطرّة التى أنشأتُها فى معنىٰ ذٰلك ، والعهد الذى أنشأه المَقَرّ الشِّهابىّ بنُ فضل الله للملك الأفضل «محمد» بن الملك المؤيد «عماد الدين إسماعيل» آخر ملوكِ بنى أيُّوب بها(١) ، وهى :

هذا عهدٌ شريفٌ عَذُبت موارِدُه ، وحَسُنَتْ بحسن النيـة فيه مقاصِـدُه ، وعاد علىٰ البريّة باليُمْن عائدُه . من السلطان الأعظم ناصر الدنيا والدين الملكِ الناصر أبى الفتح محمد ابنِ السلطان الشهيد « قلاوون » خلّد الله تعالىٰ ملكه ، وجعل الأرض بأسرها مِلْكه ـ للمقام الشريف العالى السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الأفضلىّ ، محمدٍ ابن المقام العالى المؤيّدىّ إسماعيل أعزّ الله تعالىٰ أنصاره ، وأحمدَ آثارَه ، بالسلطنة الشريفة بحماةَ المحروسةِ وأعمالها ، علىٰ أكمل العوائد وأتمّها ، وأجمل القواعد وأعمّها ، علىٰ ما شرح فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش الحمدُ لله الذى أقرّ بنا المُلْكَ فى أهِلّة أهـله ، وتدارَكَ مُصابَ مَلِك لولا

ولَدُه الأفضـلُ لم يكن له شبِيه فى فَضْـله ، ووهب بنـا بيتَ السلطنة

(١) أى بحماة ولم يتقدّم لها ذكر فتنبه .

هامش من أبْقىٰ البقَايَا ما يَلْحقُ به كلَّ فرع بأصله ، ويظْهَر به رونَقُ السيفِ في نصله . إلىٰ أن يأتى إلىٰ قوله فى آخره : والله تعالىٰ يُمدُّك أيها الملكُ الأفضلُ بأفضل مَزِيده ، ويحفَظُ بك ما أبْقاه لك أبوكَ المؤيَّد من تأييده ، والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف ـ أعلاه الله تعالىٰ ـ أعلاه

إن شاء الله تعالىٰ

كتب فى

سنة

حسب المرسوم الشريف

الحمدُ لله وحدَه، وصلواتُه علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامُه

حسبنا الله ونعم الوكيل

البـاب الرابع

من المقـالة الخامسـة

(فى الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحـاب السُّيوف والأقلام، وفيـه [ثلاثةُ] (١) فصول)

الفصـــل الأوّل

(فيما كان يُكتَب من ذلك عن الخلفاء، وفيه خمسةُ أطراف)

الطـــرف الأوّل

(فيما كان يُكتَب عن الخلفاء الراشدين من الصحابة رضوانُ الله عليهم)

وكان الرسمُ فى ذٰلك أن يفتَتح العهدُ بلفظ : « هـذا ما عَهِد » أو « هذا عهْدٌ من فلان لفلان » و يؤتىٰ علىٰ المَقْصَد إلىٰ آخره . و يقال فيه : « أَمَره بكذا وأَمَره بكذا » .

والأصـلُ فى ذلك ما كَتَب به أبو بكر الصـدّيقُ رضى اللهُ عنه، لأُمَرائه الذين وجَّهَهم لقتال أهل الرِّدّة، وعليه بَنىٰ من بعده . وهذه نسخته :

هذا عهدٌ من أبى بكر خليفةِ رسول الله صلّى الله عليه وسلم، لفلانٍ حينَ بعثه [فيمَنْ بعثَه] لقتال مَنْ رجَع عن الإسـلام . عهِد إليه أن يتَّقِيَ الله ما ٱسـتَطاعَ فى أمْره : كلّه سرِّه وجَهْره . وأمره بالجِدّ فى أمْر الله، ومُجاهدةِ من تَوَلّى عنه ورجَع عن الإسلام إلىٰ أمانِيِّ الشيطان، بعد أن يُعْذِر إليهم : فيَدْعُوهم بدِعاية الإسلام :

---

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من ج ١ ص ٢٥ من هذا المطبوع .

فإنْ أجابُوه أمْسك عنهم، وإن لم يُجيبُوه شَنَّ غارَتَه عليهم حتّٰى يُقِرُّوا له؛ ثم يُنَبِّئُهم بالذى عليهم والذى لهم، فيأخُذ ماعليهم ويُعْطِيهم الذى لهم؛ لايُنْظِرهم ولا يَرُدّ المسلمين عن قِتَال عَدُوّهم؛ فمن أجاب إلىٰ أمر الله عزّ وجلّ وأقرّ له، قَبِل ذٰلك منه وأعانَهُ عليه بالمعروف، وإنما يُقاتَل مَنْ كَفَر بالله علىٰ الإقْرار بما جاء مِنْ عِنْد الله: فإذا أجابَ الدَّعْوةَ لم يكن له عليه سبِيلٌ، وكان اللهُ حَسِيبَه بعدُ فيما آستَتَرَّ به. ومَنْ لم يُجِبْ إلىٰ داعيةِ الله قتل وقوتل حيثُ كان وحيْثُ بلَغ مَرَاغِمَه، لايقبلُ من أحدٍ شيْئًا أعطاه إلّا الإسلامَ؛ فمن أجابه وأقرّ به قَبِل منه وعَلَّمه؛ ومَنْ أبىٰ قاتله: فإن أظهَرَه اللهُ عزّ وجلّ عليه، قَتَل فيهم كلّ قِتْلة بالسِّلاح والنِّيران، ثم قَسَم ماأفاء اللهُ عليه إلّا الخُمَسَ فإنه مُبَلِّغُناه. وأن يمنَعَ أصحابَه العَجَلةَ والفَساد، وأن لايُدْخِلَ فيهم حَشْوا حتّٰى يَعْرِفَهم ويَعْلَمَ ماهُم: لئلّا يكُونوا عيونا، ولئلا يُؤْتىٰ المسلمون من قِبلَهم؛ وأن يَقْصِد بالمسلمين ويَرْفُق بهم فى السَّيْر والمَنْزِل؛ ويتَفَقَّدَهم ولا يُعْجِلَ بعضَهم عن بعض، ويستَوْصِى بالمسلمين فى حُسْن الصُّحْبة ولِينِ القَوْل.

وهذه نسخة عهد كتَب به أميرُ المومنين عمرُ بن الخطّاب رضى الله عنه، لأبى مُوسىٰ الأشعرىّ رضى الله عنه، حينَ ولّاه القضاءَ:

أما بعدُ، فإنّ القضاءَ فريضةٌ مُحْكَمة، وسُنَّة مُتَّبَعة؛ فافهَمْ إذا أُدْلِيَ إليك، وآنْفُذْ إذا تبيَّنَ لك: فإنه لاينْفَع تكلُّمٌ بحقٍّ لانَفَاذَ له. آسِ بينَ الناس فى وَجْهك وعَدْلك ومَجْلِسك حتّٰى لايَطْمَعَ شريفٌ فى حَيْفك، ولا ييْأَسَ ضعيفٌ من عَوْنك(١). البيِّنةُ علىٰ مَنِ آدّعىٰ، واليمينُ علىٰ من أنْكَر، والصُّلْح جائزٌ بينَ المسلمينَ إلّا صُلْحا أحلَّ حَرَاما

(١) فى العقد الفريد (ج ١، ص ٣٣) "ولا يخاف ضعيف من جورك".

أو حَرّم حَلَالا . لا يمنعنَّك قضاءٌ قضيْتَه بالأمس فراجعْتَ فيـه عَقْلَك وهُدِيتَ فيه لرَشَــدك أن تَرْجع إلىٰ الحقِّ : فإن الحَقَّ قدِيم ، ومُراجعةُ الحق خيرٌ من التمَّــادِي فى الباطـــــل .

الفَهْمَ الفَهْـمَ فيما تلَجْلَج فى صَــدْرك ممـا ليس فى كتابٍ ولا سُــنَّة ، ثم آعْرِف الأَشْباهَ والأمثـال ، وقس الأمورَ عنـد ذٰلك بنَظَائرها ، وآعْمِدْ إلىٰ أقْربها(١) إلىٰ اللهِ وأشْبَهِها بالحقِّ ، وأجعَلْ لمَنِ آدَّعىٰ حقًّا غائبا أو بيِّنةً أمَدًا ينْتهِى إليـه : فإنْ أحْضَر بينةً ، أخذْتَ له بحقِّه وإلا آستحلَلْتَ القضِيَّةَ عليه ؛ فإنَّه أنْفىٰ للشَّكّ ، وأجْلىٰ للعَمىٰ . المسلمُونَ عُدُولٌ بعضُهم علىٰ بعض إلا مَجْلُودًا فى حَدّ ، أو مجرَّبا عليـه شهادةُ زُورٍ ، أو ظَنِينًـا فى وَلَاء أو نَسَب ؛ فإنَّ الله تولّٰى منكم السَّرائرَ ودَرَأ بالبيِّنات والأَيْمـان . وإيَّاكَ والقَلَقَ والضَّجَر ، والتَّأَذِّى بالخُصُوم ، والتنكُّرَ عند الخُصُومات : فإنَّ الحقَّ فى مواطِنِ الحقِّ يُعَظِّمُ اللهُ به الأَجْر ، ويُحْسِن عليــه الذُّخرَ والجَزاء . فمَنْ صَحَّت نيَّته وأقْبل علىٰ نَفْسه ، كفَاه اللهُ ما بيْنَه وبيْنَ الناس ، ومَنْ تخَلَّق للناس بمـا يعلَمُ اللهُ أنه ليس مِنْ نَفْسه شانَهُ اللهُ ؛ فمـا ظَنُّك بثوابِ اللهِ فى عاجل رِزْقه وخزائنِ رحمتِـه ، والســـلام .

قلتُ : هــذا ما ذكره آبنُ عبد رَبِّه فى « العِقد » . ويقع فى بعض المصنَّفات آبتداؤُه : من عمرَ بنِ الخطاب إلىٰ عبْد الله بن قَيْس ــ سلامٌ عليكَ أما بعدُ .

ووقع فى مسْنَد البَزَّار أن أوّله : آعْلم أنَّ القضاءَ فريضةٌ مُحْكَمه ، مع تغييرِ بعض الألفاظ وتقديم بعضٍ وتأخيرِ بعضٍ .

---

(١) يروى إلىٰ الصواب .

الطـــرف الثـانى
(فيما كان يُكتَب عن خُلَفاء بنى أُمَيَّــة)

كتب عبدُ الحميد بن يحيىٰ الكاتب، عن مَرْوانَ بنِ محمد لبعض مَنْ وَلَّاه[1] .

أما بعـدُ ، فإنَّ أميرَ المؤمنيـن ـ عند ما آعتَزم عليه من تَوْجيهك إلىٰ عَدُوّ الله الجِلْف الجافِى الأعْرابِىِّ، المتَسكِّع فى حَيْرة الجَهالة، وظُلَم الفِتْنة، ومَهاوِى الهَلَكة . ورَعَاعِه الذين عاثُوا فى أرض الله فَساداً، وآنتَهكُوا حُرْمَةَ الإسْلام آستِخْفافا، وبَدَّلُوا نِعْمَةَ الله كُفْرا ، وآستَحَلُّوا [دِماءَ أهْلِ[2]] سِــلْمه جَهْلا ـ أحَبَّ أن يَعْهَد إليــك فى لطائِفِ أُمُورك ، وعَوَامِّ شُئُونك ، ودَخائِل أحْوالك، ومُصْطَرَف تَنَقُّلك عَهْـدا يُجَمِّلُك فيه أدَبَه، ويشرَع لك به عِظَتَه، وإن كنتَ بحمــد الله من دِينِ الله وخِلافته بحيثُ آصطنَعك اللهُ لوِلَاية العهــد مختَصًّا لك بذٰلك دُونَ لُحْمَتك وبَنِى أبِيك . ولولا ماأمَرَ الله تعالىٰ به، دالًّا عليه، وتقدّمتْ فيــه الحكماءُ آمِرِينَ به : من تقديم العِظَة، والتَّذْكيرِ لأهل المعْرِفة وإن كانُوا أُولِى سابقــةٍ فى الفضــل وخِصِّيصاءَ فى العِـلْم، لآعتمدَ أميرُ المؤمنين علىٰ آصْطِناع الله إيَّاكـ ، وتفضيلِه لك بما رآكـ أهْلَه فى مَحَلِّك من أميرِ المؤمنين ، وسَبْقِك إلىٰ رغائبِ أخْلاقِه، وآنتزاعِكَ محمودَ شِيَمِه، وآستِيلائك علىٰ مَشَابِه تدْبِيره . ولو كان المُؤَدَّبون أخَذُوا العِلْمَ من عِنْد أنفُسِهم ، أو لُقِّنُوه إلهامًا من تِلْقائهم ولم نُصِبْهم تعلَّمُوا شيْئا من غيرِهم ، لنحَلْناهم عِلْمَ الغيْب ، ووضَعْناهم بمنزلةٍ قَصَّر بها عنهم خالِقُهم المستأثِرُ بعلم الغَيْب عنهم بوَحْدانيَّته فى فَرْدانِيَّته وسابِقِ لاهُوتِيَّتِــه، آحتجاباً منهــم لتعقُّب فى حُكْمه ، وتَثَبُّت فى سلطانه وتنفيذِ إرادته،

---

(١) المولى هو عبد الله بن مروان أرسله لقتال الضحاك بن قيس الشيبانى الخارجى .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" (ص ٢٣٠) وغيره وهى لازمة .

علىٰ سابقِ مشيئته . ولكن العالمُ الموفَّقُ للخيْر، المخصوصُ بالفضـل، المَحْبُوُّ بمزِيَّة العـلم وصَفْوته ، أدْركه معانًا عليه بلُطف بَحْثه ، وإذلال كَنفه ، وصِحَّة فَهْمه ، وهجرِ سَآمتِه .

وقد تقدّمَ أميرُ المؤمنين إليك ، آخِذًا بالحُجَّة عليك ، مُؤَدِّيا حقَّ الله الواجبَ عليه فى إرشادك وقَضاء حَقِّك ، وما ينْظُر به الوالُد المَعْنِيُّ الشَّفيق لوَلَده . وأميرُ المؤمنين يرجو أن يُنَزِّهَك اللهُ عن كل قَبِيح يَهَشُّ له طَمَع ، وأن يعْصِمَك من كلِّ مكروهٍ حاق بأحدٍ ، وأن يُحصِّنَك من كلِّ آفة آستولَتْ علىٰ آمْرِئ فى دِين أو خُلُق ، وأن يُبَلِّغـه فيكَ أحسَنَ ما لم يزَلْ يُعوِّدُه ويُرِيه من آثار نعمةِ الله عليك ، ساميــةً بك إلىٰ ذِرْوة الشرف ، متَبَحْبِحةً بك بَسْطةَ الكرمِ ، لائحةً بكَ فى أزْهَرِ مَعالِى الأدب ، مُورِثةً لك أنفَسَ ذخائر العِزّ ، واللهَ يستَخْلِفُ عليك أميرُ المؤمنين ويسألُ حِيــاطتَك ، وأن يعْصِمَك من زَيْغ الهوىٰ ، ويُحْضِرَك داعِىَ التوفيق ، مُعانًا علىٰ الإرشاد فيـه ، فإنه لا يعينُ علىٰ الخير ولا يُوفِّق له إلَّا هو .

اِعلم أنَّ للحكمة مَسالكَ تُفْضِى مَضايِقُ أوائِلِها بمن أمَّها سالِكا ، وركِبَ أخطارَها قاصــدًا ، إلىٰ سَعَة عاقِبَتِها ، وأَمْن سَرْحها ، وشَرَفِ عِزِّها ؛ وأنهــا لا تُعارُ بسُخْف الخِفَّة ، ولا تُنْشَأ بتفريط الغَفْلة ، ولا يَتعـدّىٰ فيها بامْرِئ حَدّه ؛ وربمــا أظهرتْ بَسْطةُ الغَىّ مستُورَ العيْب . وقد تلقَّتك أخلاقُ الحِكْمة من كلِّ جهةٍ بفَضْلها ، من غير تعَب البحْث فى طَلَبها ، ولا مُتطاوِلٍ لمُناولة ذِرْوتِها ؛ بل تأثَّلتَ منها أكْرَم نبَعاتِهـا ، وآستخلصْتَ [منهـا] (١) أعْتَق جواهِرِها ؛ ثم سَمَوْتَ إلىٰ لُباب مُصاصِها ، وأحرزْتَ مُنْفَس ذخائرها ، فآقتعِدْ ما أحرَزْت ، ونافِسْ فيما أصبْتَ .

---

(١) الزيادة من رسائل البلغاء .

وٱعلم أنَّ ٱحتواءَكَ علىٰ ذلك وسَبْقك إليــه بإخلاص تَقْوىٰ الله فى جميع أُمُورك مُؤْثِرا لهـا، وإضْمارِ طاعتــه مُنْطَوِيًا عليها، وإعْظامِ ماأنعم اللهُ به عليك شاكرًا له، مرتبطًا فيه للَزِيد بحُسْن الحِياطة له والذَّبِّ عنـــه من أن تَدْخُلَك منه سَآمةُ مَلاَل، أو غَفْلَةُ ضَـيَاع، أو سِنَةُ تَهَاوُن، أو جَهالَةُ مَعْرِفة: فإنَّ ذٰلك أحَقُّ مابُدِئ به ونُظر فيــه، معتمِدًا عليــه بالقُوّة والآلةِ والعُــدّة والاْنفراد به من الأصحابِ والحـامّة.
فتمَسَّكْ به لاجِئًا إليه، وٱعتَمِدْ عليه مُؤْثِرًا له، وٱلْتَجِئْ إلىٰ كَنَفه متحَيِّزًا إليه: فإنه أبلَغُ ماطُلِب به رضا الله، وأنْجَحُه مَسْألة، وأجْزَلُه ثوابا، وأعْوَدُه نَفْعا، وأعَمُّـــه صلاحا، أرشَدكَ اللهُ لحظِّك، وفهَّمك سَدَاده، وأخَذ بقَلْبك إلىٰ محْمُودِه. ثم ٱجعَلْ لله فى كل صَبَاح يُنْعِم عليك ببُلُوغه، ويُظْهِر منك السلامةَ فى إشْراقه [من نَفْسك](١) نصيبًا تجعَلُه له شُكْرا علىٰ إبلاغه إيَّاك يَوْمَك ذلك بِصحَّةِ جَوارحَ وعافِيَةِ بَدَن، وسُبُوغ نِعَم، وظُهُور كَرامة. وأن تَقْرأَ فيه من كتاب الله ـ تبارك وتعالىٰ ـ جُزْءا تُرَدِّدُ رأْيَك فى آيه، وتُرتِّل(٢) لفْظك بقراءته، وتُحْضِره عقْلَك ناظرًا فى مُحْكَمه، وتتفَهَّمُــه مفكِّرًا فى مُتَشابِهه: فإنَّ فى القرءان شِفاءَ الصُّدور من أمراضها، وجِلاءَ وَساوِسِ الشيطان وصَعَاصِعِه(٣)، وضِـياءَ مَعَالم النُّور، تبيانًا لكل شيء وهُدًى ورحْمَــةً لقومٍ يُؤْمِنون.
ثم تعهَّدْ نَفْسَـك بمجـاهَدة هَوَاك: فإنَّه مِغْلاق الحسَـنات، ومِفْتاح السَّـيِّئات، وخَصْم العقل.

وٱعلَمْ أنَّ كلَّ أهوائك لكَ عَدُوّ يُحاوِل هَلَكَتَك، ويعترِض غَفْلَتَك: لأنَّها خُدَع إبليس، وخَواتِلُ مَكْره، ومَصايِدُ مَكِيدته، فاحذَرْها مجُانِبًا لها، وتوَقَّها محترِسًا منها،

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره.

(٢) فى مفتاح الأفكار (ص ٢٣٢) وغيره «وتزين» وهى أنسب.

(٣) الصعاصع جمع صعصع وهو طائر أشهب يصيد الجنادب شبه وسوسة الشيطان به وفى بعض المؤلفات وســـفاسفه.

وَٱستَعِذْ بالله عزّ وجلّ من شَرِّها، وجاهِدْها إذا تناصَرتْ عليك بعَزْمٍ صادق لاوَنْيَةَ(١) فيـه، وحَزْمٍ نافذٍ لامَثْنَوِيَّةَ لرأيك بعدَ إصْداره، وصِدْقٍ غالبٍ لامَطْمَعَ فى تكذيبه، ومَضَاءةٍ صارمةٍ لا أَنَاةَ معهـا(٢)، ونِيَّةٍ صحيحةٍ لاخَاْلِجَةَ شـكٍّ فيها : فإنَّ ذٰلك ظِهْرِىٌّ صِدْقٍ لكَ علىٰ رَدْعها عنك، وقَمْعِها دُونَ ما تتطَلَّعُ إليه منك؛ فهى واقِيةٌ لك سُخْطَة ربك، داعيةٌ إليكَ رضَا العامّةِ عنـك، ساترةٌ عليك عيْبَ مَن دُونَك؛ فازدَنْ بهـا متحلِّيا، وأصِبْ بأخلاقِك مواضِعَها الحميدةَ منها، وتَوَقَّ عليها الآفَةَ التى تقتَطِعك عن بُلُوغها، وتُقَصِّر بك دُونَ شَأْوِها : فإنَّ المَئُونَةَ إنمـا ٱشتدّتْ مستَصْعِبة، وفَدَحتْ باهظةً أهـلَ الطَّلَب لأخْلاق أهل الكَرَم المتحلِين سُمُوَّ القَدْر، بجَهَالةِ مواضِعِ ذَمِيم الأخلاق ومحْمُودها، حتّى فَرَّط أهلُ التقصـير فى بعض أُمُورهم، فدخلَتْ عليهـم الآفاتُ من جهاتٍ أَمِنُوها، فنُسِـبُوا إلىٰ التفريط، ورَضُوا بِذُلِّ المنْزِل، فأقامُوا به جاهلينَ بموضع الفضل، عَمِهِين عن دَرَج الشَّرَف، ساقطين دُونَ منْزِلة أهل الحِجا. فحاوِلْ بُلوغَ غاياتِها مُحْرِزًا لها بسَبْق الطلب إلىٰ إصابة المَوْضِع، مُحَصِّنًا أعمـالَك من العُجْب : فإنه رأسُ الهَـوىٰ، وأوّلُ الغَوَاية، ومَقَادُ الهَلَكة؛ حارسًا أخلاقَك من الآفات المتَّصِـلة بمَسَاوِى(٣) الألقاب وذَمِيم تَنابُزِها، من حيثُ أتت الغفلةُ، وٱنتشر الضَّيَاع، ودخَل الوَهْن. فتوَقَّ غُلُوبَ(٤) الآفاتِ علىٰ عقْلك، فإنَّ شواهدَ الحق ستُظْهِرُ بأماراتهـا تصـديقَ آرائك عنـد ذَوِى الحِجا، وحالَ الرأيِ وخَفْضَ النظر. فاجتلِبْ لنَفْسك محمودَ الذِّكر وباقِىَ لسانِ الصِّـدْق بالحَذَر لمـا تقَدَّمَ إليك فيه أمير المؤمنين،

(١) من قولهم افعل ذلك بلا وَنْية أى بلا توان .

(٢) هو من قولهم تأنّى بالأمر ترفق وتنظر . أى لارفق معها .

(٣) فى بعض المؤلفات بمساوى العادات وذميم إيثارها .

(٤) أى غلبة الآفات ولم نقف على هذا المصدر فيما بأيدينا من كتب اللغة .

متحرِّزا من دُخُول الآفاتِ عليك من حيثُ أَمْنُـك وقِلَّةُ ثِقتك بمُحْكَمِها : من ذلك أن تملِكَ أمورَكَ بالقصـد، وتُدارِىَ جُنْدَكَ بالإحْسان، وتَصُونَ سِرَّك بالكِتْمان، وتُداوِىَ حِقْدَكَ بالإنصاف، وتُذَلِّل نفْسك بالعَدْل، وتُحَصِّنَ عُيوبَك بتقويم أَوَدِكَ، وتمنعَ عقْلَك من دُخُول الآفاتِ عليه بالعُجْب المُرْدِى . وأَناتَك فَوَقِّها المَلالَ وفَوْتَ العـمل، ومَضاءَتَك فدَرِّعْها رَوِيَّة النظر وٱكْنُفْها بأَناة الحِـلْم . وخَلْوتَك فٱحْرُسْها من الغَفْلة وٱعتِمادِ الراحة، وصَمْتَك فانْفِ عنه عِيَّ اللَّفْظ، وخَفْ سُوءَ القالَة؛ وٱستِمَـاعَك فأَرْعِه حُسْنَ التفَهُّم، وقَوِّه بإشْهاد الفكر؛ وعَطاءَك فٱمْهَـدْ له بيُوتاتِ الشَّرف وذَوِى الحَسَب، وتحرَّزْ فيه من السَّرَف وٱستطالةِ البَذْخ وٱمْتنانِ الصَّنيعة؛ وحَياءَكَ فٱمنَعْـه من الخَجَل، وبَلادةِ الحَصَر؛ وحِلْمَك فزَعْه عن التَّهاوُن وأَحْضِرْه قُوَّةَ الشَّكيمة؛ وعُقُوبتَك فقَصِّرها عن الإفراط، وتعمَّدْ بها أهلَ الٱستحقاق؛ وعَفْوَك فلا تُدْخِلْه تعطيلَ الحقُوق، وخُذْ به واجبَ المُفْتَرَض، وأَقِمْ به أَوَدَ الدِّين؛ وٱستِئْناسَك فٱمنَعْ منـه البَذاءَ وسُوءَ المُناقَثة (١) . وتَعَهُّدكَ أُمورَك فخُذْه أوقاتاً، وقَدِّرْه ساعاتٍ، لا تَستفْرِغُ قُوَّتك، ولا تسـتَدْعِى سَآمَتَك؛ وعَزَماتِك فٱنْفِ عنها عَجَلةَ الرأْى، ولَجاجةَ الإقدام؛ وفَرَحاتك فٱشْكُمْها عن البَطَر، وقَيِّـدها عن الزَّهْو؛ ورَوْعاتك فحُطْها من دَهَش الرأْى، وٱستِسْلام الخُضُوع؛ وحَذَراتك فامنَعْها من الجُبْن، وٱعمِدْ بها الحَزْم؛ ورَجاءَك فقَيِّده بخَوْف الفائت، وٱمنَعْه من أَمْنِ الطَّلَب .

هذه جَوامِعُ خِلال دَخَّال النقصِ منها واصلٌ إلىٰ العقْل بلَطائف أُبَنه وتصاريف حَوِيله، فأَحْكِمْها عارفًا بها، وتقـدّم فى الحِفْظ لهـا، معتزِما علىٰ الأَخْذ بمَراشِدها والٱنتهاءِ منها إلىٰ حيثُ بلغَتْ بك عِظةُ أمير المؤمنين وأَدَبُه إن شاء الله .

(١) يقال ناقث فلان فلانا بالكلام آذاه انظر القاموس مادة ن ق ث .

ثُمَّ لْتَكُنْ بِطانَتُك وجُلَساؤك فى خَلَواتك، ودُخَلاؤُك فى سِرِّك، أهلَ الفِقْه والوَرَع من خاصَّة أهـلِ بيْتك، وعامَّةُ قُوادِك ممن قد حَنَّكته السِّنُّ بتصارِيف الأُمور، وخَبَطتْه فصالهُا بينَ فَرَاسن البُزَّل منها، وقَلَّبتْه الأمور فى فُنُونها، وركِبَ أطوارَها: عارفًا بمَحَاسن الأُمُور ومواضـع الرَّأْى وعَيْنِ المَشُورة، مأْمُونَ النصيحة، مُنْطوِىَ الضـمير علىٰ الطاعة . ثم أحْضِرْهم من نَفْسـك وَقَارا يستَدْعِى لك منهم الهَيْبة، وآستِئناسًا يَعْطِف إليك منهم المَوَدّة، وإنْصاتًا يقُلُّ إفاضَتَهم له عِنْدك بما تَكْرَه أن يُنْشَر عنك من سَخَافة الرأْى وضَياع الحَزْم . ولا يَغْلِبَنَّ عليك هَواك فيَصْرِفَك عن الرأى، ويقْتَطِعَك دُونَ الفِكْر . وتَعلَّم أنك ـ وإن خلَوتَ بسرّ فألقَيْتَ دُونَه سُتُورَك، وأغلَقْتَ عليه أبوابَك ـ فذلكَ لامحالَةَ مكشُوفٌ للعامّة، ظاهرٌ عنك وإن آستتر[ت] برُبَّما ولعلَّ وما أُرىٰ إذاعة ذٰلك وأعلم (١)، بما يَرَوْن من حالاتِ من يَنْقطِع به فى تلك المواطن . فتقـدّمْ فى إحكام ذٰلك من نَفْسـك، وآسْدُدْ خَلَله عنك: فإنه ليس أحدٌ أسرَعُ إليه سُوءُ القالة ولَغَطُ العامّة بخيْرٍ أو شرٍّ ممن كان فى مثـل حالك ومكانِكَ الذى أصبحْتَ به من دِينِ الله والأمـلِ المرجُوِّ المنتظَرِ فيك . وإيَّاكَ أن يُغْمِزَ فيك أحدٌ من حامَّتك وبِطانَةِ خَدَمتِك بضَعْفةٍ يَجِدُ بها مَساغًا إلىٰ النُّطق عندك بما لايعْتَرِلُك عَيْبُه، ولا تخْلُو من لائمتِه، ولا تأمَنُ سُوءَ الأُحْدُوثة فيه، ولا يرخُص سُوءُ القالةِ به إنْ نجَم ظاهِرا أو عُلِن بادِيا، ولن يَجْترِئُوا علىٰ تلك عنْدَك إلَّا أن يَرَوْا منك إصغاءً إليها، وقبولًا لهـا، وترخيصًا لهم فى الإفاضةِ بها . ثم إيَّاك وأن يُفاضَ عندك بشىْءٍ من الفُكَاهات والحكايا، والمزَاح والمَضاحِك التى يَستَخِفُّ بها أهـلُ البِطاله، ويتَسرَّعُ نحْوَها ذَوُو الجَهَاله؛ ويجِدُ فيها أهلُ الحَسَد مقالًا لعَيْب يُذيعُونه،

(١) كذا فى الأصل ومفتاح الأفكار مع توقف والمراد أنه يحذر من نشره بهذه الألفاظ .

وطَعْنا فى حقٍّ يَجْحَدونه ؛ مع مافى ذٰلك من نَقْص الرأْى ، ودَرَن العِرْض ، وهَـدْم الشرف ، وتأْثِيل الغَفْلة ، وقُوّة طِباعِ السُّوءِ الكامنةِ فى بنى آدمَ كُكُمون النار فى الحَجَر الصَّلْد ، فإذا قُدِح لاح شَرَرُه ، وتلهّبَ وَمِيضُه ، ووَقَدَ تضَرُّمُه . وليسَتْ فى أحد أقوىٰ سَطْوةً ، وأظهَرَ توقُّـدا ، وأعلىٰ كُمُونا ، وأسرَعَ إليـه بالعَيْب وتَطَرُّق الشَّـيْن منها لَمَنْ كان فى مِثْـل سِنّك : من أغْفال الرجال وذَوِى العُنْفُوان فى الحَدَاثة ، الذين لم يقع عليهم سِمَـاتُ الأمور ، ناطقًا عليهم لائحُها ، ظاهرًا فيهم وَسْمُها ، ولم تمَحَضْهم شهامتَها ، مظهِرةً للعامَّة فضلَهم ، مُذيعـةً حسْنَ الذكر عنهم ؛ ولم يبلُغْ بهـم الصِّيتُ فى الحُنْكة مستَمَعا يَدْفعُون به عن أنفُسهم نواطِقَ ألْسُن أهـل البَغْى ، ومَوادَّ أبْصار أهل الحَسَـــد .

ثم تعهَّدْ من نَفْسك لطيفَ عَيْبٍ لا زِمٍ لكثيرٍ من أهل السلطان والقُدْرة : من أبطال الذرع(١) ونَخْوة الشَّرف والتِّيه وعَيْب الصَّلَف ؛ فإنها تُسْرِع بهم إلىٰ فَسَادِ وتهجينِ عقُولهم فى مواطِنَ جمَّـة ، وأنحاء مُضْطَرِفة ، منها قِلّةُ ٱقتدارهم علىٰ ضَـبْط أنفسهم فىمَوا كِبِهم ومسايرتِهِم العامّة : فمن مقَلْقِل شخْصَه بكثْرة الاِلتفات عن يمينه وشِماله ، تَزْدَهِيه الخِفَّة ، ويُبْطِره إجلابُ الرجال حَوْلَه . ومن مُقْبِـل فى مَوْكِبه علىٰ مُداعبَة مُسايِره بالمُفَاكهة له والتَّضاحُك إليه ، والإيجافِ فى السَّيْر مَرَحا ، وتحريك الجَوارِح متَسرِّعا ، يَخَالُ أنَّ ذٰلك أسرَعُ له وأحَثُّ لمَطِيَّتِـه ، فلْتُحَسِّن فى ذلك هَيْئَتَـك ، ولتُجَمِّلْ فيـه دَعتَـك ؛ ولْيَقِلَّ علىٰ مُسايِرِك إقبـالُك إلا وأنْتَ مُطْرِق النظر ، غيرُ ملتفِتٍ إلىٰ محـدِّث ، ولا مقبل عليـه بوجهك فى مَوْكِبك لمحـادَثته ، ولا مُوجِف فى السـير مقَلْقِلٍ لجَوارحك بالتحريك والاِسْتِنْهاض ؛ فإنَّ حُسْنَ مسايَرة الوالِى وٱتِّداعَه فى تلك الحالة دليلٌ علىٰ كثيرٍ من غُيُوب أمره ومستَتَر أحواله .

(١) فى مفتاح الأفكار «من أبطال البدع» وفى غيره «من أقطار الذرع» وفى كليهما علامة التوقف تأمل .

وٱعلم أنّ أقواما يتسرّعون إليكَ بالسِّعاية، ويأتونَك علىٰ وجه النَّصيحة، ويستميلُونَك بإظهار الشَّفَقة، ويستدْعُونك بالإغْراء والشُّبْهَة، ويُوطِئُونك عُشْوة الحَيْرة: ليجعلُوك لهم ذَرِيعةً إلىٰ ٱستِئْكال العامَّة بموضِعهم منك فى القَبُول [منهم] (١) والتصديقِ لهم علىٰ مَنْ قَرفُوه بتُهَمة، أو أسرعُوا بك فى أمره إلىٰ الظِّنَّة؛ فلا يَصلنَّ إلىٰ مُشافَهتِك ساعٍ بشُبْهة، ولا معروفٌ بتُهَمة، ولا منسوبٌ إلىٰ بِدْعة [فيعَرِّضَك] (٢) لإيتَاغِ دِينِك، ويحملَك علىٰ رعيَّتك بما لا حقيقةَ له عندك، ويُلْحِمَك أعراضَ قوم لاعلْمَ لك بدَخْلهم (٣)، إلا بما أقدم [به] عليهم ساعيا وأظهر لك منهم مُنْتَصِحا. ولْيكُنْ صاحبُ شُرْطتك المتولِّى لإنهاء ذٰلك (٤) هو المنصوبَ لأولٰئك، والمستَمِعَ لأَقَاويلهم، والفاحِصَ عن نَصائِحهم؛ ثُمَّ لْيُنْهِ ذٰلك إليكَ علىٰ ما يُرفَع إليه منه لتأمُرَه بأمْرك فيه، وتَقِفَه علىٰ رأْيك من غير أن يَظْهرَ ذلك للعامَّة: فإن كان صوابا نالتك خِيرتُه، وإن كان خَطَأ أقْدَم به عليك جاهلٌ أو فَرْطَةً سعىٰ بها كاذبٌ فنالتِ الساعىَ منهما أو المظلومَ عقوبةٌ، أو بَدَر من وَالِيك إليه عُقُوبةٌ ونَكَال، لم يَعْصِبْ ذٰلك الخطأُ بك ولم تُنْسَب إلىٰ تفريط، وخلَوْتَ من موضع الذَّمِّ فيه: مُحضِرا إليه ذِهنَك وصوابَ رَأْيك. وتقدّمْ إلىٰ مَنْ تُولِّى ذٰلك الأمْرَ وتعتمدُ عليه فيه أن لا يُقْدِم علىٰ شىءٍ ناظرًا فيه، ولا يحاوِلَ أخْذَ أحد طارقًا له، ولا يُعاقِبَ

---

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره.

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" وغيره وهى لازمة. وفى القاموس فى مادة (و ت غ) وأوتغ دينه بالاثم أفسده.

(٣) دخل الرجل بالفتح والكسر نيته ومذهبه.

(٤) الذى فى "مفتاح الأفكار" وغيره «وليكن صاحب شرطتك ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك إليه آنتهاء ذلك وهو المنصوب الخ».

أحدا مُنكِّلا به، ولا يُخَلِّىَ سبيلَ أحد صانحاً عنه : لإصْحارِ(١) براءته، وصحّة طريقته؛ حتّى يرفع إليكَ أمْرَه، ويُنْهِىَ إليك قضيّتَه على جهة الصِّدْق، ومَنْحىٰ الحق، ويَقِين الخبَر؛ فإن رأيتَ عليه سبيلاً لمَحْبَس أو مجازًا لعُقُوبة، أمرتَه بتولّى ذلك من غير إدخالِه عليك، ولا مُشافهةٍ لك منه؛ فكان المتولِّىَ لذلك ولم يَجْرِ على يديْكَ مكروهُ رأى ولاغِلظةُ عقُوبة. وإن وجدْتَ إلى العَفْو [عنه] سبيلا، أو كان مما قُرِف به خَلِيّا؛ كنتَ أنتَ المتولِّىَ للإنعام عليه بتخليَةِ سبيله، والصفح عنه بإطلاق أَسْره؛ فتولّيتَ أجْرَ ذلك وآستحقَقْتَ ذُخْره، وأنطقْتَ لسانَه بشُكْرك، وطوّقْتَ قومَه حمْدَك، وأوجبتَ عليهم حقَّك؛ فقرَنْتَ بين خصلتين، وأحرزْت حُظْوتيْن : ثوابَ الله فى الآخرة، ومحْمُودَ الذِّكْر فى الدُّنيا .

ثم وإيَّاك أن يصلَ إليك أحدٌ من جُنْدك وجُلَسائك وخاصّتك وبِطانَتك بمسألة يَكْشِفُها لك، أو حاجة يَبْدَهُك بطلبها، حتّى يَرْفَعها قبلَ ذلك إلى كاتبك الذى أهدفْتَه لذلك ونصبْتَه له، فيَعْرِضَها عليك مُنْهِيًا لها على جهة الصِّدق عنها، وتكونَ على معرفة من قَدْرها : فإن أردْتَ إسعافَه بها ونجاحَ ماسألَ منها، أذنْتَ له فى طَلَبها، باسطًا له كنَفَك، مُقْبِلا عليه بوجْهك؛ مع ظُهُور سُرورك بما سألك، وفسحة رَأْى وبَسْطة ذَرْع، وطيبِ نَفْس . وإن كرِهْتَ قضاء حاجته، وأحببْتَ ردَّه عن طَلِبته، وثَقُل عليكَ إجابتُه إليها، وإسْعافُه بها، أمرتَ كاتبَك فصفَحه عنها، ومَنَعه من مُواجَهتك بها؛ نخفَّتْ عليكَ فى ذلكَ المُؤونةُ، وحَسُن لك الذِّكر، ولم يُنْشَر عنك تجَهُّم الردِّ، وينَلْك سُوءُ القالة فى المنْع، وحُمِل على كاتبك فى ذلك لائمةٌ أنت منها بَرِىءُ الساحة .

(١) أى لوضوح براءته ففى حديث علىّ فأصحر لعدوك أى كن من أمره على أمر واضح انظر اللسان ج ٦ ص ١١٣ .

وكذلك فليَكُنْ رأيُك وأمرُك فيمَنْ طرأَ عليـك من الوُفُود وأتاك من الرُّسُـل ، فلا يصِلَنَّ إليك أحدٌ منهم إلَّا بعد وصُول علمه إليك ، وعِلْمِ ماقَدِم له عليك ، وجِهةِ ماهو مكلِّمك به ، وقدْرِ ما هو سائلُك إيَّاه إذا هو وصـل إليك ، فأصـدرْتَ رأيك فى حوائجـه ، وأجلْتَ فِكرَك فى أمره ، وآخترْت معـترِما علىٰ إرادتك فى جوابه ، وأنفَذْت مصْدُور رَوِيَّتك فى مَرْجُوع مسألته قبـل دُخُوله عليك ، وعلمِه بوُصول حالِه إليك ، فرفَعْتَ عنك مَئُونةَ البديهـة ، وأرخَيْت عن نفسـك خِناق الرَّوِيَّة ، وأقدمْتَ علىٰ ردّ جَوابه بعـد النَّظَر وإجالة الفِكْر فيـه . فإنْ دخل إليكَ أحدٌ منهم فكلمك بخلافِ ما أنْهىٰ إلىٰ كاتبِك وطوىٰ عنـه حاجته قِبَلك ، دفعْتـه عنك دفعا جميلا ، ومنعتَه جوابَك منْعا وَديعا ، ثم أمرْتَ حاجِبَك بإظهار الجَفْوة له ، والغِلْظة عليه ، ومنْعِه من الوصُول إليك ، فإنَّ ضبْطَك لذٰلك ممـا يُحْكِم لك تلكَ الأسباب ، صارِفًا عنك مَئُونتَها ، ومُسَهِّلا عليك مستَصْعبَها .

اِحذر تضييعَ رأيك وإهمـالَك أدبَكَ فى مسالك الرضا والغضَب وآعْتِوارِهمـا إيَّاك ، فلا يَزْدَهِينَّـك إفراطُ عُجْب تستخِفُّك روائعُـه ، ويَسْتَهْوِيك مَنْظَره ، ولا يَبْدُرَنَّ منك ذٰلك خَطَأً ونَزَق خِفَّـة لمكروه إنْ حَلَّ بك ، أو حادثٍ إنْ طَرَأَ عليك . ولْيكُنْ لك من نَفْسـك ظِهْرىٌّ مَلْجأ تتحرّزُ به من آفاتِ للرَّدىٰ ، وتستعْضِد (١) فى مُوهِم النازل ، وتتعقَّبُ به أُمُورَك فى التدبير . فإن آحتجْتَ إلىٰ مادّة من عَقْلك ، ورَوِيَّة من فِكْرك ، أوآنْبِساط من مَنْطِقك ، كان آنحيازُك إلىٰ ظِهْرِيِّك مُزْدادا ممـا أحببْتَ الآمتياح منـه والآمْتِيار ؛ وإنْ آستدبرتْ (٢) من أُمُورك بوادِرُ جهْل أو مَضىٰ زلل أو معانَدةُ حقٍّ أو خطلُ تدبيرٍ ، كان ماآحتجتَ إليه من رَأْيك عُذْرا لك عند

(١) فى رسائل البلغاء وتستعهده فى مهم نازل .

(٢) كذا فى المفتاح ورسائل البلغاء أيضا ولعله وان آبتدرت الخ . تأمل .

نَفْسك، وظهْرِيًّا قويًّا على ردّ ما كرهتَ، وتخفيفًا لمئُونة الباغين عليك فى القالة وآنْتِشار الذكر، وحِصْنا من غُلُوب الآفاتِ عليك، وآستِعْلائها على أخلاقك .

وآمنَعْ أهْلَ بطانتك وخاصَّةَ خدَمِك من آستِلْحام أعراض الناس عندك بالغِيبَة، والتقرُّبِ إليك بالسِّعاية، والإغراءِ من بعضٍ ببعض؛ أو النَّميمةِ إليك بشىء من أحوالهم المستَترِة عنك، أو التحميل لك على أحد منهم بوَجْه النَّصيحة ومَذْهَب الشَّفقة : فإنَّ ذلك أبلغُ بك سُمُوّا إلى مَنالةِ الشرف، وأعونُ لك على محُمود الذكر، وأطلَقُ لِعنان الفضل فى جَزَالة الرأْى وشَرَف الهِمَّة وقُوّة التدبير .

وآمْلِكْ نفْسَك عن الآنبساط فى الضحك والآنْفِهاق، وعن القُطُوب بإظهار الغَضَب وتَنَحُّله : فإنَّ ذلك ضَعْف عن مِلْك سَوْرة الجَهْل، وخروجٌ من آنتِحال آسِم الفَضْل . ولْيكُنْ ضَحِكُك تبسُّما أو كَشْرا فى أحايينِ ذلك وأوقاته، وعند كلِّ رائع مستَخِفٍّ مُطْرِب؛ وقُطوبُك إطراقًا فى مواضع ذلك وأحواله، بلا عَجَلة إلى السَّطْوة، ولا إسراعٍ إلى الطِّيَرة، دُونَ أن يكْنُفَها روِيَّةُ الحلم؛ وتملِكَ عليها بادِرةَ الجهل .

إذا كنتَ فى مجلس مَلَئِكَ، وحيثُ حضورُ العامّة مجلسَك، فإيَّاك والرمْىَ بنظرك إلى خاصٍّ من قُوّادك، أو ذى أُثْرة عندك من حَشَمك . وليكُنْ نظرُك مقسومًا فى الجميع، وإراعتُك سمْعَك ذا الحديث بِدَعةٍ هادئة، ووَقارٍ حسَن، وحضُورِ فَهْم مجتمِع، وقِلَّةِ تضَجُّر بالمحدِّث . ثم لا يبْرَحُ وجهُك إلى بعض حَرَسك وقُوّادك متوجِّها بنظَرٍ رَكين، وتفَقُّدٍ مَحْض . وإن وَجَّه إليك أحدٌ منهم نَظَرَه مُحدِّقا، أو رمَاكَ ببصره مُلِحًّا، فاخفضْ عنه إطراقًا جميلًا باتِّداع وسُكُون . وإيَّاك

والتَسرُّعَ فى الإطراق ، والخِفّةَ فى تصريف النظَر، والإلحـاحَ علىٰ من قصدَ إليك فى مخاطبته إيَّاك رامقًا بنَظَره .

وٱعلم أنَّ تصَفُّحك وجوهَ جلَسائك وتفقُّدك مجالِسَ قُوادك ، من قُوّة التـدبير ، وشهـامةِ القلب ، وذَكاء الفِطْنة ، وٱنتِباه السِّـنة . فتفقَّد ذٰلك عارفًا بمن حضَرك وغابَ عنك ، عالِمًـا بمواضِعهم من مجْلِسك ، ثم ٱعْدُبهم عن ذٰلك سائلًا لهم عن أشغالهم التى منعَتْهم من حضُور مجْلِسك ، وعاقتْهم بالتخلُّف عنك .

إن كان أحدٌ من حَشَمك وأعوانِك تثِقُ منه بغيبِ ضمير ، وتعرِفُ منـه لِينَ طاعة ، وتُشْرِف منـه علىٰ صِحَّة رأى ، وتأمنُه علىٰ مَشُورتك ، فإيَّاك والإقبالَ عليـه فى كلِّ حادثٍ يرِدُ عليـك ، والتوجُّهَ نحوَه بنظَرك عنـد طَوارِق ذٰلك ، وأن تُرِيه أو أحدا من أهـل مجْلِسك أنَّ بك حاجةً إليه مُوحِشة ، أو أنْ ليس بك عنـه غِنًى فى التدبير ، أو أنك لا تقْضى دُونَهُ رأيا ، إشراكًا منك له فى رَوِيَّتك ، وإدخالًا منك له فى مَشُورتك ، وٱضطرارًا منك إلىٰ رأيه فى الأمر يَعْرُوك : فإنَّ ذٰلك من دخائل العُيوب التى ينتَشِر بهـا سُوءُ القالة عن نُظَرائك فٱنْفِها عن نفْسِـك خائفًا لٱعتلاقها ذِكْرَك ، وٱحْجُبْها عن روِيَّتك قاطعًا لأطماع أوْليائك عن مثْلها عِنْـدك ، أو غُلُوبهم عليها منك .

وٱعلم أنَّ للشُورة موضعَ الخَلْوة وٱنْفرادَ النظر ، ولكلِّ أمرٍ غايةٌ تُحيط بحُـدُوده ، وتجمعُ معالِمَه . فٱبْغِها مُحْرِزا لهـا ، ورُمْها طالبا لنَيْلها ؛ وإيَّاك والقُصورَ عن غايتها أو العجْزَ عن درْكها ، أو التفريطَ فى طلَبها . إن شاء الله تعالىٰ .

إيَّاك والإغرامَ عن حديثٍ مَّا أعجبَك ، أو أمرٍ مَّا ٱزدهاكَ بكثْرة السـؤال ، أو القطْعَ لحديث مَنْ أرادك بحديثـهِ حتّى تنقُضه عليه بالخَوْض فى غيره أو المسألة

عمّا ليس منه : فإنّ ذٰلك عند العامّة منسُوب إلىٰ سُوء الفهم وقِصَر الأدب عن تناوُل محاسِن الأُمُور والمعرفةِ بمساوِيها ، ولٰكن أنْصِت لمحدّثك وأرْعه سمعَك حتّى يعلَمَ أنْ قد فهِمْتَ حديثَه ، وأحطتَ معرِفةً بقوله : فإن أردتَ إجابته فعن معرفةٍ بحاجته وبعْـدَ عِلْم بطَلِبته ؛ وإلا كُنْتَ عند ٱنقضاء كلامه كالمتعَجِّب(١) من حديثِـه بالتبسُّم والإغْضاء ، فأجْزىٰ عنك الجَواب ، وقطع عنك ألْسُن العتْب .

إيَّاكَ وأنْ يظْهَر منك تبَرُّم بطُول مجالِسك ، أو تضَجُّر ممن حَضَرك ؛ وعليك بالتثبُّت عند سَوْرة الغضَب ، وحَمِيَّة الأَنَف ، ومَلاَل الصبر فى الأمر تستعجل به والعمل تأمُر بإنفـاذه ؛ فإنَّ ذٰلك سُخْف شائن ، وخِفَّة مُرْدِيَهْ ، وجَهَـالةٌ بادِيَهْ . وعليكَ بثُبوت المَنْطِق ، ووَقار المجْلِس ، وسُكُونِ الريح ، والرَّفْض لحَشْـو الكلام ، والتَّرْكِ لفضوله . والإغْرام(٢) بالزِّيادات فى منْطِقك والترديدِ للفْظك : من نحو ٱسمع ، وٱفهَمْ عنِّى ، ويا هَنَاه ، وألا ترَىٰ ؛ أو ما يُلْهَج به من هـذه الفضول المقصِّرة بأهل العقل ، الشائنة لذوى الحِجا فى المنْطِق ، المنسوبة إليهم بالعِىِّ ، المُزْرِية لهم بالذِّكر . وخِصالٌ من مَعَـايب المُلوك والسُّـوقةُ عنها غبِيَّـة النظر إلا مَنْ عرَفها من أهـل الأدب ، وقَلَّمـا حاملٌ لها ، مضْطَلِع بها ، صابرٌ علىٰ ثِقْلها ، آخذٌ لنفسه بجوامعها . فانفِها عن نفسك بالتحفُّظ منها ، وٱملكْ عليها ٱعتيادَكَ إيَّاها معتَنِيا بهـا : منها كثْرةُ التنحُّم ، والتبصُّـق ، والتنخُّع ، والتُّؤباء ، والتمطِّى ، والجُشَاء ، وتحريكُ القَـدَم ، وتنقيضُ الأصابع ، والعبثُ بالوجه واللِّحية أو الشاربِ أو المِخْصَرة أو ذُؤابة السيف ، أو الإيماضُ بالنظر ، أو الإشارةُ بالطَّرْف إلىٰ بعض خَدَمك بأمْرٍ إن أردتَه ، أو السِّرار فى مَجْلِسك ، أو الاَستِعْجال فى طَعْمك أو شُرْبك . وليكنْ طَعْمك متَّدِعا ، وشُرْبك

(١) فى المفتاح وغيره كالمتعلل وهى واضحة .

(٢) مراده والترك للاغرام أى الولوع بالزيادات الخ فهو من المنهى عنه بدليل بقية الكلام فتنبه .

أنْفاسا ، وَجَرْعُك مَصًّا . وإيَّاكَ والتسرُّعَ إلىٰ الأيمـان فيما صَغُر أوكَبُر من الأمور، والشَّـتيمةَ بقول يا ٱبنَ الْهَنَـاة ، أو الغميزةَ لأحدٍ من خاصَّـتك بتسويغهم مقارَفة الفُسُوق بحيث مَحْضَرُك أو دارُك وفِنَاؤك : فإنَّ ذلك كلَّه ممـا يقبُحُ ذكره ، ويسُوءُ موقعُ القول فيه، وتحمِلُ عليك مَعايبُه، وينالُك شَينه، وينتشِرعليك سُوءُ النبإ به . فٱعرِفْ ذلك متوقِّيا له ، وٱحذَرْه مجانبًا لِسُوء عاقبته .

ٱستكثِرْ من فوائد الخير : فإنهـا تَنْشُر المَحْمَدة ، وتُقِيل العَثْرة ؛ وٱصبِرْ علىٰ كَظْم الغيظ : فإنه يُورِثُ الراحه ، ويُؤَمِّن الساحه ؛ وتعهَّد العامَّة بمعرفة دَخْلهم ، وتبطُّنِ أحوالهم ، وٱستثارةِ دَفَائنهم ، حتّٰى تكونَ منها علىٰ رأْى عين ، ويقينِ خُبْرة ؛ فتُنْعِش عَديمهم ، وتجْبُرَكَسيرهم ، وتُقِيم أوَدَهم ، وتُعَـلِّم جاهلَهم ، وتستصلح فاسدَهم : فإنَّ ذٰلك من فِعْلك بهم يُورِثُك العِزَّة ، ويقدّمك فى الفضْل ، ويُبْقِى لك لسانَ الصِّدق فى العاقبة ، ويُحْرِز لك ثوابَ الآخرة ، ويرُدُّ عليك عواطفَهم المستنْفِرةَ منك ، وقلوبَهم المتنَحِّيَةَ عنك .

قِسْ بينَ مَنازِل أهل الفضـل فى الدِّين والحِجا والرأْى ، والعقْل والتدْبير ، والصِّيت فى العـامَّة ، وبين منازِل أهـل النَّقْص فى طَبقَات الفضـل وأحوالِه ، والخُمول عندَ مُباهاة النَّسَب ، وٱنظُرْ بصُحْبة أَيِّهم تنالُ من مودّتِه الجميل ، وتستجْمِع لك أقاويلَ العامة علىٰ التفضـيل ، وتبلُغُ درجةَ الشرف فى أحوالك المتصرِّفة بك . فاعتمدْ عليهم مُدْخِلا لهم فى أمْرك ، وآثِرْهم بمجالسـتك لهم مستمِعًا منهـم ؛ وإيَّاك وتضييعَهم مفرّطا ، وإهمالَهم مُضَيِّعا .

هـذه جوامعُ خصال قد نَخَّصها لك أميرُ المؤمنـين مُفَسِّرا ، وجمع لك شَواذَّها مؤَلِّفا ، وأهداها إليكَ مُرْشِدا ؛ فقفْ عنـد أوامِرِها ، وتناهَ عن زواجِرها ، وتثبَّتْ

فى مَجامعها، وخُذْ بوثائِق عُرَاها تَسْلَمْ من مَعَاطب الرَّدىٰ ، وتنَـلْ أنفسَ الحظُوظ ورغِيبَ الشَّرف؛ وأعلىٰ دَرَج الذِّكر، وتأثل سطر العز(؟) والله يسأل لك أميرُ المؤمنين حُسْنَ الإرشاد، وتتابُعَ المزِيد وبلوغَ الأمل، وأن يجعل عاقبـة ذٰلك بك إلىٰ غِبْطة يُسوِّغُك إيَّاها، وعافيـةٍ يُحِلُّك أكنافها ، ونعمة يُلْهِمُك شكْرَها : فإنه الموفِّق للخـير ، والمعينُ علىٰ الإرشاد؛ منه تَمـامُ الصالحات، وهو مُؤْتِى الحسَنات، عنْـده مفاتيح الخير، وبيده المُلْك وهو علىٰ كلِّ شيءٍ قدير .

فإذا أفضيْتَ نحو عدُوِّك ، وآعتزمتَ علىٰ لقائِهم، وأخذْت أُهْبة قتالهم ، فاجعَلْ دِعامَتك التى تلجأ إليهـا ، وثِقتَك التى تأْمُل النجاةَ بها، ورُكْنَك الذى ترتجى مَنـالةَ الظَّفر به، وتكْتَهِف به لمَعَاقل الحذَر تقوىٰ اللهِ مستشعرًا لها بمراقبته ، والآعتصام بطاعتـه متبعًا لأمره ، مجتنبًا لسُخْطه ، محتَذِيا سُنَّته، والتوَقِّى لمعاصيـه فى تعطيل حُدوده، أو تعَـدِّى شرائعه؛ متوكِّلا عليه فيما صَمَدْتَ له ، واثقًا بنصره فيما توجَّهْت نحوه، متبرِّئا من الحول والقُوّة فيما نَالَك من ظَفَر، وتلَقَّاكَ من عِزّ؛ راغبًا فيما أهابَ(١) بك أميرُ المؤمنين إليه من فضل الجهاد ورمىٰ بك إليه، محمودَ الصبر فيه عند الله من قتال عدوّ المسلمين، أكْلَبَهم عليه وأظهرَه عداوةً لهم ، وأفْدَحه ثِقْلا لعامَّتهم، وآخَذَه برِبَقِهم ، وأعلاه عليهم بغيا، وأظهَره عليهم فِسْقا وفُجُورا، وأشـدّه علىٰ فَيْئِهم الذى أصاره اللهُ لهم وفتحَه عليهـم مَئُونةً وكَلًّا . واللهُ المسـتعانُ عليهم ، والمستنصَرُ علىٰ جماعتهم ، عليه يتوكّل أمير المؤمنين ، وإيَّاه يستصْرِخ عليهم ، وإليـه يفوِّض أمْرَه وكفىٰ بالله وليًّـا وناصرا ومُعِينا، وهو القوىُّ العزيز .

(١) هو من قولهم أهاب بالابل إذا دعاها فتنبه .

ثم خُذْ مَنْ معك من تُبَّاعك وجُنْـدك بكَفِّ مَعَرَّتهم ، وردّ مشْـتَعِل جهْلهم ، وإحكام ضَياع عملهم ، وضَمّ منتشِر قَواصِيهم ، ولَمِّ شعَث أطرافهم ، وتقييدِهم عمَّن مرّوا به من أهل ذمَّتِك وملتك بحُسن السيرة ، وعَفاف الطُّعْمة ، ودَعة الوَقار ، وهَدْى الدَّعة ، وجِمام المستجِم ، محْكما ذلك منهـم ، متفقِّدا لهم تفقُّدك إيَّاه من نفســك . ثم آصْمِد لعدُوّك المتسمِّى بالإسلام ، الخارج من جماعة أهله ، المنتحِل ولايةَ الدِّين مســتحلًّا لدماء أوليائه ، طاعنًا عليهم ، راغبا عن سُنَّتهم ، مفارقا لشرائعِهم ؛ يَبْغِيهم الغَوائل ، وينصِبُ لهم المَكايِد ؛ أضرَمُ حِقْدا عليهم ، وأرصدُ عداوةً لهم ، وأطلَبُ لِعَثَرات فُرَصِهم من التُّرْك ، وأُمَم الشرك ، وطواغى الملل ؛ يدْعُو إلىٰ المعصية والفُرْقه ، والمُرُوق من ديـن الله إلىٰ الفِتْنــه ، مخترعا بِهواه للأديان المنتحَلَة والبِـدَع المتفرّقة خَسَارا وتخسيرا ، وضَــلالًا وتضليلا ، بغير هُدًى من الله ولا بيان . ساء ما كسبت له يَدَاه [وما اللّهُ بظَلَّام للعَبِيد] (١) وساءَ ما سوّلتْ له نفْســه الأمَّارةُ بالسُّوء ، واللّهُ من ورائه بالمِرْصاد : ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ .

حَصِّنْ جُنْدك ، وآشكُمْ نَفْسك بطاعة الله فى مجاهَدةِ أعدائه ، وآرجُ نَصْره ، وتَنَجَّز موعُوده ، متقدما فى طلَب ثوابِه علىٰ جهادهم ، معتزِما فى آبتغاء الوسـيلةِ إليه علىٰ لقائهـم : فإنَّ طاعتك إيَّاه فيهم ، ومراقبتَك له ورجاءك نَصْرَه مُسَهِّل لك وُعُورَه ، وعاصِمُك من كل سُـبَّة ، ومُنْجِيك من كلِّ هُوّه ، وناعِشُك من كلِّ صَرْعة ، ومُقِيلُك من كل كَبْوة ، ودارئٌ عنك كلَّ شُـبْهة ، ومُذْهِب عنك لَطْخة كلِّ شك ، ومُقَوِّيك بكلِّ أيد ومكِيده ، ومُعِزُّك فى كل معتَرَكِ قتال ، ومؤيِّدك فى كلِّ مجْمَع لقاء ، وكالِئُك

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٣ .

عند كل فتنة مُغْشِيه(١) ، وحائطك من كل شُبْهة مُرْديه ، والله وليُّك وولىّ أميرالمؤمنين فيك ، والمستخْلَف علىٰ جُنْدك ومَنْ معك .

اِعلم أنَّ الظفر ظَفَران : أحدُهما وهو أعمّ منفعةً ، وأبلغُ فى حُسْن الذكر قالةً ، وأحوطُه سَلَامة ، وأتمُّه عافيةً ، وأحسَنُه فى الأُمُور وأعلاه فى الفضل شرفًا ، وأصحُّه فى الرَّوِيَّة حَزْما ، وأسلَمُه عند العامَّة مَصْدرا ـ مانِيلَ بسلامة الجُنود ، وحُسْن الحِيلة ، ولُطف المَكِيدة [ويُمْن النَّقِيبة](٢) وٱستِنْزال طاعة ذَوِى الصُّدُوف بغير إخْطار الجُيُوش فى وَقْدة جَمْرة الحرب ، ومُبارزةِ الفُرْسان فى معتَرَك الموت ؛ وإن ساعدَتْك طُلُوق الظَّفَر ، ونالَكَ مزيدُ السعادة فى الشرف ؛ ففى مُخاطَرة التَّلَف مكروهُ المصائب ، وعِضَاضُ السيوف وألَمُ الجراح ، وقِصَاص الحروب وسِجالُها بمُغاوَرة أبطالها . علىٰ أنك لاتَدْرِى لأىٍّ يكون الظفَرُ فى البديهة ، ومَنِ المغلوبُ بالدولة ، ولعلك أن تكون المطلوبَ بالتمحيص . فحاوِلْ إصابةَ أبلغِهما فى سلامة جُنْدك ورعيَّتك ، وأشهرِهما صِيتًا فى بُدُوّ تدبيرك ورَأْيك ، وأجمَعِهما لأُلْفة وليِّك وعدُوّك ، وأعوَنِهما علىٰ صلاح رعيَّتك وأهل مِلَّتك ، وأقواهما شكيمةً فى حَزْمك ، وأبْعدِهما من وَصْم عَزْمك ، وأعلَقِهما بزِمَام النجاة فى آخِرَتك ، وأجْزلِها ثوابًا عند ربِّك .

وٱبْدأْ بالإعذار إلىٰ عَدُوّك ، والدُّعاء لهم إلىٰ مراجَعة الطاعه ، وأَمْر الجَماعه ، وعِزّ الأُلْفة ، آخذًا بالحجّة عليهم ، متقدّمًا بالإنْذار لهم ، باسطًا أمانَك لمَنْ لجَأَ إليك منهم ، داعيًا [لهم اليه](٢) بألْيَن لفظك وألطَف حِيَلك ، متعطِّفا برأْفتك عليهم ، مترَفِّقا بهم

---

(١) أى مدلهمة سوداء من قولهم أغشى الليل إذا أظلم . تأمل .

(٢) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٤٤ وغيره .

فى دُعائك ، مُشْفِقا عليهم من غَلَبة الغَوَاية لهم ، و إحاطة الهَلَكة بهم ، منفِّذا رُسُلَك إليهم بعدَ الإنْذار، تَعِدُهم إعطاءَ كلِّ رغبة يَهِشُّ إليها طَمَعُهم فى موافقة الحق ، وبَسْطَ كل أمان سألُوه لأنفسهم ومَنْ معهم ومن تَبِعهم ؛ موطِّناً نفسـك فيما تبْسُط لهم من ذٰلك علىٰ الوفَاء بعهْدك ، والصبْرِ علىٰ ماأعطيْتَهم من وَثائق عَقْدك ؛ قابِلاً توبة نازِعهم عن الضَّـلالة ، ومُراجَعةَ مُسيئهم إلىٰ الطاعة ؛ مُرْصِـدا للْمُنْحاز إلىٰ فِئة المسلمين وجماعتِهم إجابةً إلىٰ مادعوْتَه إليه وبَصَّرته إيَّاه من حقِّك وطاعتك ، بفضل المنْزِلة ، و إكرام المَثْوىٰ ، وتشريفِ الجـاه . ولْيَظْهرْ من أثَرك عليـه ، و إحسانِك [إليه] ما يرغَبُ فى مثـله الصادفُ عنـك ، المُصرُّ علىٰ خلافِك ومعصيتِك ؛ ويَدْعو إلىٰ ٱعتلاق حبْـل النجاة وما هو أمْلَك به فى الاْعتصام عاجِلا ، وأنجىٰ له من العِـقاب آجِلا ، وأحوطُه علىٰ دينه ومُهْجته بَدْءا وعاقِبة ؛ فإنَّ ذلك ممـا يستَدْعى به من الله نصْرَه عليهم ، و يعتضِدُ به فى تقديمه الحجَّة إليهم ، مُعْذِرا أو منْذِرا ، إن شاء الله .

ثم أذْكِ عُيونَكَ علىٰ عَدُوِك متطلِّعا لعِلْمِ أحوالِهم التى يتقَلَّبُون فيهـا ، ومَنازِلهم التى هم بها ، ومَطامِعِهم التى قدمَدُّوا أعناقَهم نحوَها ؛ وأىُّ الأمور أدْعىٰ لهم إلىٰ الصُّلْح ، وأقْوَدُها لرضاهم إلىٰ العافية ، وأسهَلُها لاْستِنْزال طاعتهم ، ومن أىِّ الوُجوه مَأْتاهم : أمِنْ قِبَل الشِّـدّة والمُنافَرة والمَكِيدة والمُباعدة والإرْهاب والإيعاد ، أو التَّرْغيب والإطماع ، متثبتًا فى أمرك ، متخيِّرًا فى رويَّتك ، مستمْكنا من رأيك ، مستشيرًا لذَوى النصيحة الذين قد حنَّكتْهم السِّنّ ، وخبَطتْهم التَّجْرِبة ، ونَجَّذَتْهم الحروب ؛ مُتَشَزِّنًا(١) فى حَرْبك ، آخذًا بالحَزْم فى سُوء الظن ، مُعِدّا للحَذَر ، محترِسا من الغِرَّة ؛ كأنَّك فى مَسِـيرك كلِّه ونُزولِك أجمَـعَ مُواقِفُ لعدوّك رأْىَ عينٍ تنتظِرُ حَمَلاتهم ، وتتخوَّف

(١) هو من قولهم تَشَزَّن للامر تأهب .

كَرَّاتهم، مُعِدًّا أقوىٰ مَكايِدِك، وأرْهَبَ عَتَادِك، وأنْكَأَ جِدِّك، وأجَدَّ تَشْمِيرك؛ معظّما أمْرَ عدُوّك لأعظَمَ مما بلغَك، حذَرا يكاد يُفْرِط : لتُعدّله من الاحْتِراس عظِيما، ومن المَكيدة قوِيًّا؛ من غير أن يَفْثَأَكَ (١) ذلك عن إحكام أُمورك، وتدبير رأْيك، وإصْدار رَوِيَّتك، والتأهُّبِ لما يَحْزُبُك؛ مصغرا له بعد ٱستِشْعار الحذْر، وٱضْطِمار الحزم، وإعمال الرَّوِيَّة، وإعدادِ الأُهبة : فإنْ ألفيْت عدُوّك كَلِيلَ الحدّ، وقْم الحَزم، نَضِيض الوفْر (٢)، لم يَضُرّك ما ٱعتدَدْت له من قُوّة، وأخَذْت له من حَزْم؛ ولم يزِدْك ذلك إلا جُرأةً عليه، وتسرّعا إلىٰ لِقائه . وإن ألفيْتَه متوقِّد الحَرْب، مستكْثِف الجَمع، قَوِيّ التَّبَع، مستَعْلِي سَوْرة الجهل؛ معه من أعْوانِ الفتنة وتَبَع إبليسَ من يُوقِد لهبَ الفتنة مسعّرا، ويتقدّم إلىٰ لِقاء أبطالها متسرِّعا، كنتَ لأخْذك بالحزْم، وٱستِعدادِك بالقوّة؛ غيرَ مُهِين الجند، ولا مُفَرِّط فى الرأْى، ولا متلهِّف علىٰ إضاعة تدبير، ولا مُحتاجٍ إلىٰ الإعداد وعجلةِ التأهُّب مبادرةً تَدْهَشُك، وخوفا يُقْلِقك . ومتىٰ تَغْتَرَّ بترقيق المرقِّقين، وتأخُذْ بالهُوَينىٰ فى أمر عدُوّك لتصغير المصغِّرين، ينتَشِرُ عليك رأْيُك، ويكونُ فيه ٱنتقاضُ أمرك ووهْنُ تدبيرك، وإهمالٌ للحزْم فى جُنْدك، وتضييعٌ له وهو مُمْكِن الإصحار، رَحْب المَطْلَب، قَوِيّ العِصْمة، فسيحُ المضْطرَب؛ مع ما يدْخُل رعيّتك من الٱغترار والغَفْلة عن إحكام أحْرِاسهم، وضَبْط مَراكِزهم؛ لما يروْنَ فيه من ٱستِنامتِك إلىٰ الغِرّة، ورُكُونك إلىٰ الأَمْن، وتهاوُنك بالتدبير؛ فيعودُ ذلك عليك فى ٱنتِشار الأطْراف، وضَياعِ الأحكام، ودخُول الوَهْن بما لا يُستقالُ محذوره، ولا يُدْفَع مَخُوفُه .

---

(١) بالفاء والثاء المثلثة أى يكسرك و يؤخرك عن اخ .

(٢) أى قليل الوفر والمال من قولهم رجل نضيض اللحم قليله .

احفَظْ من عيُونك وجَواسِيسك ما يأتُونَك به من أخبار عدُوّك . وإيَّاكَ ومعاقبةَ أحدٍ منهم على خَبَرٍ إن أتاك به آتَّهمْتَه فيه أو سُؤت به ظنًّا وأتاك غيرُه بخلافه ، أو أن تكَذّبه فيه فترُدَّه عليـه ولعله أن يكونَ قد مَحَضَك النصيحةَ وصدَقَك الخبَرَ ، وكذَبَك الأوّلُ ، أو خَرَج جاسُوسُك الأوّلُ متقدّما قبل وُصُول هذا من عند عَدُوّك ، وقد أبرمُوا لك أمْرا ، وحاوَلُوا لك مَكِيدة ، وأرادوا منـك غِرّة ، فآزدلَفُوا إليك فى الأُهْبـة ثم آنتقضَ بهم رأيُهم ، وآختلف عنه جماعتُهم ، فأرادُوا رَأْيا ، وأحدثُوا مَكِيدة ، وأظهروا قُوَّة ، وضربُوا مَوْعِدا ، وأَمُّوا مَسْلَكا لمَـدَد أتاهم ، أو قوةٍ حدثَت لهم ، أو بصـيرةٍ فى ضلالةٍ شغلَتْهم ، فالأحوال بهـم متنقِّلة فى الساعات ، وطَوارِق الحادثاتَ . ولكن آلْبَسْهم جميعًا على الآنتصاح ، وآرْضَخْ لهم بالمطامع ، فإنَّك لن تستعْبِدَهم بمثلها . وعِدْهُم جَزالة المثاوِب ، فى غير ما آستِنامةٍ منك إلى ترقيقهم أمْرَ عدُوّك ، والآغترارِ إلى ما يأْتُونك به دُونَ أن تُعمِلَ رَوِيَّتك فى الأخذ بالحَزْم ، والإستكثار من العُدّة . وآجعَلْهم أوثَقَ من تقْدِر عليه ، وآمَنَ من تسكُن إلى ناحِيَته : ليكون ما يُبْرِم عدوُّك فى كل يوم وليـلة عنْدَك إن آستطعتَ ذلك ، فتنقُضَ عليهم برأْيك وتدبيرك ما أبرمُوا ، وتأتِيَهم من حيثُ أَمِنُوا ، وتأخُذَ لهم أُهْبة ما عليه أقدَمُوا ، وتستَعِدَّ لهم بمثل ما حَذِرُوا .

وآعلم أنَّ جَواسِيسَك وعُيونَك رُبّمـا صدَقُوك ، وربَّما غَشُّوك ، وربّما كانُوا لك وعليك فنصَحُوا لك وغَشُّوا عدوّك وغشُّوك ونصحوا عدوّك ، وكثيرا ما يَصْدُقُونك ويصْدُقُونه . فلا تَبْدُرَنَّ منك فَرْطةُ عقُوبةٍ إلى أحد منهم ، ولا تعْجَلْ بسُوء الظن إلى من آتَّهمتَه على ذلك ، وآستنْزِل نصائِحَهم بالمِيَاحة والمَنَالة ، وآبسُـطْ من آمالهم فيك من غير أن يرى أحدٌ منهـم أنك أخذْتَ من قوله أخْذَ العامل به والمتَّبِـع له ، أو عمِلت على رأْيه عملَ الصادِر عنـه ، أو رَدَدْتَه عليـه ردّ المكَذِّب به ، المتهِم له ،

المستخِفّ بمـا أَتاك منه، فتُفسِد بذٰلك نِصيحتَه، وتستدْعِى غشَّه، وتجترّ عداوتَه . وٱحذَرْ أن يعرَفُوا فى عسكرك أو يُشارَ إليهم بالأصابع، وليَكُنْ مَنزلُهم علىٰ كاتبِ رسائِلك وأمينِ سِرِّك، ويكونُ هو الموجّهَ لهم، والمُدْخِلَ عليك مَنْ أردْتَ مشافهتَه منهم .

وٱعلَمْ أن لعدوّك فى عَسْكرك عُيوناً راصدة(١)، وجَواسِيسَ متجسِّسة، وأنه لن يقع(٢) رأيهُ عن مَكِيدتك بمثل ماتُكايدُه به، وسيحتالُ لك كٱحْتيالك له، ويُعِدّ لك كإعْدادِك فيما تُزاوِله منه، ويُحاوِلُك كمحاولَتِك إيَّاه فيما تُقارِعه عنه؛ فاحذَرْ أن يُشْهَر رجل من جواسيسك فى عَسْكرك فيبْلُغ ذٰلك عدُوَّك ويَعْرِف موضِـعَه، فيُعِدّ له المَراصد، ويحتال له بالمَكايد . فإن ظَفِر به فأظهَر عقوبتَه، كسر ذٰلك ثِقاتِ عُيُونك، وخَذَلهم عن تطلُّب الأخبار من مَعادِنها، وٱستِقْصائِها من عُيُونِهـا، وٱستِعْذاب ٱجْتنائِها من ينابِيعها، حتّى يصيرُوا إلىٰ أخْذها مما عَرَض من غير الثِّقَة ولا المُعاينة، لَقطًا لها بالأخبار الكاذبة، والأحاديث المُرْجِفة . وٱحذَرْ أن يَعْرِف بعضُ عُيونك بعضا : فإنَّك لاتأْمَن تواطُؤَهم عليك، ومُمـالأتَهم عدُوَّك، وٱجتماعَهم علىٰ غِشِّك، وتطابُقَهم علىٰ كَذبك، وإصفاقهم(٣) علىٰ خِيانَتِك، وأن يُورِّط بعضُهم بعضا عنـد عدُوِّك . فأحْكِم أمْرَهم فإنّهم رأسُ مَكِيدتك، وقِوامُ تدبيرك؛ وعليهم مَدار حَرْبك، وهو أوّل ظَفَرك . فاعمَلْ علىٰ حَسَب ذلك وحيثُ رجاؤك به، تَنَلْ أملَك من عدُوِّك، وقُوّتك علىٰ قتاله، وٱحتيالَك لإصابة غِرَّاته وٱنتهازِ فُرَصه، إن شاء الله .

فإذا أحكمتَ ذٰلك وتقدّمْتَ فى إتقانه، وٱستظهَرت بالله وعَوْنه، فولِّ شُرْطَتَك وأمْرَ عسكرِك أوثَقَ قُوّادِك عنـدك، وأظْهَرَهم نصـيحةً لك، وأنفَذَهم بصـيرةً

(١) فى "مفتاح الأفكار" وغيره « كامنة » .

(٢) كذا فى الأصول . وفى "رسائل البلغاء" «وأن رأيه فى مكيدتك مثل ماتكايده به» . تأمل .

(٣) أى ٱجتماعهم من قولهم أصفقوا على الأمر ٱجتمعوا عليه .

فى طاعتك ، وأقواهم شكيمةً فى أمرك ، وأمضاهم صَرِيمة (١) ، وأصدقهم عفافا ، وأجزأهم غَناء ، وأكفاهم أمانة ، وأصحهم ضميرا ، وأرضاهم فى العامّة دِينا ، وأحمدهم عند الجماعة خُلُقا ، وأعطفهم على كافّتهم رأفة ، وأحسنهم لهم نظرا ، وأشدّهم فى دِين الله وحقّه صَلابة . ثم فوّض إليه مُقَوِّيًا له ، وآبسُطْ من أمَله مُظْهِرًا عنه الرضا ، حامدًا منه الابتلاء . وليكن عالما بمراكز الجنود ، بصيرًا بتقدّم المنازل ، مُجرِّبا ، ذا رأى وتجربةٍ وحزم فى المَكيدة ؛ له نباهةٌ فى الذِّكر ، وصِيتٌ فى الولاية ؛ معروفَ البيت ، مشهورَ الحسَب . وتقدّم إليه فى ضبط مُعَسْكره ، وإذكاء أحراسه فى آناء ليله ونهاره ؛ ثم حذِّره أن يكون منه إذنٌ لجنوده فى الانتشار والاضطراب ، والتقدّم لطلائعك ، فتُصابَ لهم غِرّة يجترئ بها عدوُّك عليك ، ويُسْرِع إقداما إليك ، ويكسر من إياد (٢) جُنْدك ويُوهن من قوتهم : فإنّ الصوت فى إصابة عدوّك الرجلَ الواحدَ من جُنْدك أو عبيدهم مُطْمِعٌ لهم فيك ، مُقَوٍّ لهم على شَحْذ أتباعهم عليك وتصغيرهم أمْرَك ، وتوهينهم تدبيرَك . فحذِّره ذلك وتقدَّمْ إليه فيه . ولا يكوننّ منه إفراطٌ فى التضييق عليهم ، والحَصْر لهم ، فيعُمّهم أَزْلُه ، ويشملهم ضَنْكه ، وتسوء عليهم حالُه ، وتشتدُّ به المُؤونةُ عليهم ، وتخبُث له ظُنُونهم . وليكن موضعُ إنزاله إيّاهم ضامًّا لجماعتهم ، مستديرًا بهم جامعًا لهم ؛ ولا يكون منبسطا منتشرا متبدِّدا ، فيشقّ ذلك على أصحاب الأحراس ، وتكون فيه النُّهزة للعدوّ ، والبُعدُ من المادّة إن طرَق طارق فى فَجَآت الليل وبغَتاته . وأوعِزْ إليه فى أحراسه ، وتقدّمْ إليه فيهم كأشدّ التقدّم وأبلَغ الإيعاز . ومُره فليولِّ عليهم رَجُلا رَكينا مُجرِّبا جَرِىء الإقدام ، ذاكىَ الصَّرامة ،

---

(١) الصريمة العزيمة .

(٢) فى مفتاح الأفكار وغيره « أفئدة » وفى بعض الأصول من ابادة بالباء الموحدة وهاء التأنيث وفى اللسان فى مادة أى د إياد «العسكر الميمنة والميسرة وكل ماتحرز به فهو اياد» . تأمل .

جَلْدَ الجَوَارِح، بصيرًا بمواضِع أحْراسه، غيرَ مُصانِـع ولامشَفِّع للناس فى التنحِّى إلىٰ الرَّفاهِيَة والسَّعة، وتقدُّمِ العسكر والتأخُّر عنه، فإن ذٰلك ممـا يُضعِف الوالىَ ويُوهِنه لاَستنامته إلىٰ مَنْ ولَّاه ذٰلك وأَمْنه به علىٰ جَيْشه .

وآعلَمْ أنَّ مواضعَ الأحراس من مُعَسْكَرِك، ومكانَها من جُندك، بحيثُ الغناءُ عنهم والرَّدُّ عليهم، والحفظُ لهم، والكَلاءَةُ لمن بغتَهم طارِقا، أو أرادهم خاتِلا، ومراصِدُها المُنْسَلَّ منها والآبقَ من أرقائِهِم وأعْبُدهم، وحِفْظُها من العيون والجواسيس من عدوّهم . وآحذر أن تَضْرِب علىٰ يديْه أو تشْكُمَه عن الصَّرامة بمؤامَرتِك فى كلِّ أمرٍ حادثٍ وطارئ إلا فى المُهِمِّ النازل والحَدَث العام : فإنك إذا فعلتَ ذٰلك به، دعوته إلىٰ نُصْحك، وآستوليْتَ علىٰ محصُول ضميره فى طاعتِك، وأجْهَد نفْسَه فى ترتيبك، وأعمَـلَ رأْيَه فى بلُوغ موافَقتك وإعانتِك، وكان ثِقتَك ورِدْأَك وقُوتَك ودِعامتَك، وتفرغْتَ أنت لمُكايدة عدُوّك، مُرِيحًا لنفسك من هَمِّ ذٰلك والعناية به، مُلْقِيا عنك مَـئُونةً باهظة وكُلْفة فادِحة .

وآعلم أنَّ القضاء من الله بمكانٍ ليس به شيءٌ من الأحكام، ولا بمثل محلِّه أحدٌ من الوُلاة : لمـا يَجْرى علىٰ يديه من مَغَاليظ الأحكام ومَجارِى الحدُود . فليكُنْ من تُولِّيه القضاء فى عسكرك [من ذوى] (١) الخير فى القناعة والعَفَاف والنَّزاهة والفَهْم والوقار والعِصْـمة والوَرَع، والبَصَر بوجوه القضـايا ومَواقعِها، قد حنكَتْـه السِّنُّ وأيَّدته التجْربةُ وأحْكمَتْه الأمور، ممن لايتصَنَّع للولاية ويستَعِدُّ للنُّهْزة، ويَجْترِئ علىٰ المُحاباة فى الحكم، والمُداهنةِ فى القضاء، عَدْلَ الأمانة، عَفِيفَ الطُّعْمة، حَسَنَ الإنصاف، فَهِمَ القلب، وَرِعَ الضمير، متخَشِّعَ السَّمْت، بادِى الوَقَار، محتَسِبا للخير . ثم أجر

(١) الزيادة عن مفتاح الأفكار (ص ٢٥٠) وغيره .

عليه مايَكْفِيه ويَسعُه ويُصْلحه ، وفرِّغه لما حَمَّلتــه ، وأعِنْه علىٰ ماولَّيته : فإنك قد عرَّضْــتَه لهلَكة الدنيا وبَوار الآخرة ، أو شَرَف الدنيا وحُظْوة الآجلة ، إن حسُنَت نيتُه ، وصدقَت روِيتُه ، وصحَّتْ سريرتُه وسَلَّط حكمَ الله علىٰ رعيَّته ، مُطلِقا عِنانه ، منفِّذا قضاءَ الله فى خلقه ، عاملاً بسُنَّته فى شرائعه ، آخِذًا بحُدُوده وفرائضه .

واعلم أنه من جُنْـدك بحيثُ ولايتُك (١) ، الجاريةُ أحكامُه عليهم ، النافذةُ أقضيته فيهـم ، فاعْرِف من تُولِّيه ذٰلك وتُسْنِده إليه . ثم تقدّم فى طلائعك فإنهـا أوَّلُ مَكيدتك ، ورأسُ حَرْبك ، ودِعَامةُ أمْرِك ، فانتخِبْ لها من كلِّ قادةٍ وصَحَابةٍ رجالا ذوى نَجْدة وبأس ، وصَرامة وخُبْرة ، حُماةً كُفاة ، قد صَلَوا بالحرب وذاقُوا سِجَالَها ، وشرِبُوا مِرارَ كُئُوسها ، وتجرَّعُوا غُصَص دِرّتِها ، وزبَنَتْهم بتَكْرار عواطِفها ، وحملتْهم علىٰ أصعَبِ مَرَاكبهـا ، وذلَّلتهم بثِقَاف أوَدِها . ثم انتقِهم علىٰ عينِـك ، واعْرِض كُراعَهم بنفسـك ، وتوخَّ فى انتقائك ظُهورَ الجَلَد ، وشَهامةَ الخُلُق ، وكمالَ الآلة . وإيَّاك أن تَقْبل من دوابِّهـم إلا الإناثَ من الخيل المَهْلُوبة ، فإنهُنَّ أسْرَعُ طلَبا ، وأنجىٰ مَهْرَبا ، وألْيَنُ مَعْطَفا ، وأبعَـدُ فى اللُّحُوق غاية ، وأصـبرُ فى معترَك الأبطال إقْداما . وخُذْهم من السِّلاح بأبْدان الدُّرُوع ، ماذيَّةِ الحـديد ، شاكَّة النَّسْج ، متقاربَةِ الحِلَق ، متلاحِمةِ المسامير وأسْـوق الحديد ، مُموَّهة الركب ، مُحْكَمَة الطَّبْع ، خفيفة الصَّوْغ ، وسواعِد طَبْعها هِنْدىّ ، وصَوْغُها فارسىّ ، رقاقُ المَعاطف بأكُفٍّ واقِيَــة وعملٍ محكم . ويَلْمَقُ البَيض مُذْهَبَــة ومُجَرَّدة ، فارســيَّة الصَّوغ ، خالصةُ الجوهر ، سابِغةُ المَلْبَس ، واقيةُ الجُنَن ، مستَديرة الطَّبْع ، مُبْهمة السَّرْد ، وافيةُ الوزن كتَرِيك النَّعام فى الصَّنْعة واستـدارةِ التَّقْبيب ، واستواءِ الصَّوْغ ، مُعْلَمة بأصـناف

(١) فى "مفتاح الأفكار" وغيره بحيث ولايتك وفى الموضع الجارية الخ تأمل .

الحرير وألوان الصِّبغ ؛ فإنَّها أهيبُ لعدُوّهم ، وأفتُّ لأعضاد مَنْ لَقِيهم ، والمُعْلِم مُخْشِيٌّ محذور ، له بَديهةٌ رادِعه ، وهيْبة هائِله ؛ معهم السُّيوف الهِنْديه ، وذُكُور البيض اليمانِيَه ؛ رِقاقُ الشَّفَرات ، مسنونةُ الشَّحْذ ، مُشَطَّبة الضرائب ، معتَدِلةُ الجواهر ، صافِيَة الصَّفائح ؛ لم يَدْخُلْها وَهْن الطبْع ، ولا عابَها أمْتُ الصَّوْغ ، ولا شانَهَا خِفَّة الوزْن ، ولا فَدَح حامِلَها بُهورُ الثِّقل ؛ قد أشرَعُوا لُدْن القَنَا ، طِوال الهوادى ، مُقَوَّمات الأَوَد ، زُرْق الأسِنَّة ، مستَوِية الثَّعالب(١) ؛ وميضُها متوقِّد ، وسِنْخُها(١) متلَهِّب ، مَعاقِص(٢) عُقَدها منْحُوتة ، ووُصُوم أوَدِها مقَوَّمة ، وأجناسُها مختَلِفة ، وكُعُوبها جَعْدة ، وعُقَدُها حبكة ؛ شَطْبة الأسنان ، مُمَوَّهةُ الأطراف ، مستَحِدّة الجَنَبات ، دِقاقُ الأطراف ، ليس فيها الْتِواءُ أَوَد ، ولا أَمْتُ وَصْم ، ولا بها مَسْقَط عيب ، ولا عنها وُقُوع أمنية ؛ مستَحْقِبِي كَنائِنِ النَّبْل وقِسِيّ الشَّوْحط والنَّبْع ؛ أعْرابيَّة التعقيب ، رُومِيَّة النُّصُول ، مسْمُومة الصَّوْغ ؛ ولْتَكُنْ سِهامُها على خمس قَبَضات سِوى النُّصول ، فإنها أبلغُ فى الغاية ، وأنفَذُ فى الدُّرُوع ، وأشَكُّ فى الحديد ؛ سامِطين حقائِبَهم على مُتُون خُيُولهم ، مستخِفِّين من الآلة والأمْتِعة والزاد [إلا مالا غناءَ بهم عنه(٣)] .

واحذَرْ أن تكِلَ مباشرة عَرْضهم وانتخابَهُم إلى أحد من أعْوانك وكُتّابك : فإنّك إن وكَلْته إليهم أضعْتَ مواضِعَ الحَزْم ، وفرّطت حيثُ الرأْيُ ، ووقفت دُونَ عَزْم الرَّوِيَّة ، ودخل عمَلَك ضَياعُ الوَهْن ، وخَلَص إليك عيبُ المحاباة ، ونالَهُ فسادُ

(١) الثعلب طرف الرمح الداخل فى جبة السنان ، وفى "مفتاح الأفكار" وغيره «وشحذها متلهب» .

(٢) فى الأصول والمفتاح بالغين والفاء ولم نقف له على معنى مناسب .

(٣) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٥١ .

المداهنة، وغلب عليـه مَنْ لايصْلُح أن يكونَ طليعة للسلمين ولا عُدّةً ولا حِصْـنا يَدَّرِئُونَ به ، ويكتَهِفُون بموضعه . والطلائعُ حصونُ المسلمين وعُيونُهم ، وهم أوّل مَكيدتك ، وعُروةُ أمرك ، وزِمامُ حربك . فليكن آعتناؤُك بهـم، وآنتِقاؤُك إيَّاهم بحيثُ هم من مُهِمِّ عمـلك، ومَكيدةِ حرْبك ؛ ثم آنتخِبْ للولاية عليهـم رجُلا بعيدَ الصوت، مشهورَ الآِسم ، ظاهرَ الفضل ،نَبيهَ الذِّكر، له فى العَدُو وَقَعات معْرُوفات، وأيّامٌ طِوال وصَوْلات متقدِّمات ؛ قد عُرِفَتْ نِكايَتُه، وحُذِرتْ شوكَته ، وهِيبَ صوتُه ، وتُنُكِّب لقـاؤه ؛ أمينَ السَّريرة ، ناصِحَ الجيْب ؛ قد بلَوْتَ منـه مايُسَكِّنك إلىٰ ناحيته : من لِين الطاعة، وخالِص المودّة، وركَانة الصَّرامه، وغُلُوب الشَّهامه، وآسـتجماعِ القُوّة ، وحَصَافةَ التدبير . ثم تقدّمْ إليـه فى حُسْن سِياستهم، وآستِنْزال طاعتهم، وآجتلابِ موَدّاتهم ،وآستِعْذاب ضمائرهم ؛وأَجْرِ عليهم وعليه أرزاقًا تَسَعُهم، وتُمِدّ من أطماعهم سوىٰ أرزاقِهم فى العـامَّة ، فإنّ ذلك من القوّةِ لك عليهـم ، والآستنامةِ إلىٰ ماقِبلَهم .

وآعلَمْ أنهم فى أهَمِّ الأماكن لك ، وأعظمِها غَناءً عنك وعمَّن معك؛ وأقمعِها كَبْتا لمحادِّك ، وأشجاها غَيْظا لعـدُوّك ؛ ومَنْ يكُنْ فى الثِّقة ، والجلَد، والبأْس، والطاعة، والقوةِ، والنصيحةِ، والعُدّة، والنَّجدة حيثُ وصـفَ لك أميرالمؤمنين وأمَرك به، يضَعْ عنك مَئُونة الهم ، ويُرْخِ من خِناقك روْع الخوف ، وتلْتَجِئْ إلىٰ أمرٍ مَنِيع ، وظهرٍ قوِىّ ، ورأْيٍ حازِم، تأمن به فَجَآتِ عدُوّك ، وغِرَّاتِ بغَتَاتهـم ، وطوارِقَ أحداثهم ؛ ويصيرُ إليك علْم أحوالهم، ومتقدّماتِ خُيُولهم ؛ فانتَخِبْهم رأْىَ عيـن ، وقوِّهم بمـا يُصْلِحهم من المَنَالات والأطماع والأرْزاق ، وآجعلْهم منك بالمنْزل الذى هم به من مَحَارِز علاقتك ، وحَصانةِ كُهوفتك ، وقوّة سَيَّارة عسكرك . وإيَّاك أن تُدخِل فيهـم أحدًا بشفاعة ، أو تحتملَه علىٰ هَوَادة ، أو تقدِّمه لأُثْرة ؛ أو أن يكون

مع احدٍ منهم بغل نَفَل ، أو فضلٌ من الظَّهر ، أو ثَقَل فادح ، فتشتدّ عليهم مئُونة أنفسهم ، ويدخلُهم كَلَالُ السآمة فيما يعالِجُون من أثقالهم ، ويشتغلون به عن عدُوّهم إن دَهَمهمْ منه رائع ، أو فجَأهم منه طليعةٌ . فتفقّدْ ذلك محكمًا له ، وتقدّم فيه آخذا بالحَزْم فى إمضائه ، أرشدك اللّٰه لإصابة الحَظّ ، ووفّقك لِيُمْن التدبير ، وقصَد بك لأسهل الرأى وأعودِه نَفْعا فى العاجل والآجل ، وأكْبَتِه لعدُوّك وأشجاه لهم ، وأردَعِه لعادِيَتِهم .

ولِّ دَرّاجة عسكرِك وإخراجَ أهلِه إلىٰ مَصَافّهم ومراكزِهم رجُلًا من أهل بيوتات الشَّرف ، محمودَ الخُبْرة ، معروفًا بالنَّجْدة ، ذا سِنٍّ وتَجْرِبة ، لَيِّن الطاعة ، قديمَ النَّصيحة ، مأمُونَ السَّريرة ، له بصيرةٌ بالحق نافذةٌ تُقَدّمه ، ونيَّة صادقةٌ عن الإدهان تَحْجُزه . واَضْمم إليه عِدّةَ نفَر من ثِقات جُنْدك وذَوِى أسنانِهم يكونُون شُرْطةً معه ، ثم تقدّمْ إليه فى إخراج المَصافّ ، وإقامة الأَحْراس ، وإذْكاءِ العُيون ، وحِفْظ الأَطراف ، وشِدّة الحَذَر ، ومُرْه فليضَع القُوّادَ بأنفسهم مع أصحابهم فى مَصافّهم ، كلُّ قائدٍ بإزاء مكانِه ، وحيثُ منْزِلُه ، قد سُدّ ما بينه وبيْنَ صاحبِه بالرِّماح شارعةً ، والتِّرسةِ موضُونةً ، والرجالِ راصدةً ، ذاكيةَ الأحراسِ ، وجِلةَ الرَّوْع ، خائفةً طوارِقَ العدوّ وبَيَاتَه . ثم مُرْه فليُخْرِج كلَّ ليلة قائدًا فى أصحابه أو عدّةٍ منهم إن كانوا كثيرًا ، علىٰ غَلْوة أو آثنتين من عَسْكرك ، متبذًا عنك مُحيطا بمنْزِلك ، ذاكيةً أحراسُه ، قَلِقةَ التردُّد ، مُفْرِطةَ الحَذَر ، مُعَدّة للرّوْع ، متأهِّبةً للقتال ، آخذةً علىٰ أطراف المُعَسْكر ونواحيه ، متفرّقين فى آختلافهم كُرْدُوسا كُرْدُوسا ، يستقبل بعضُهم بعضا [فى الآختلاف](١) ويكْسَع تالٍ متقدّمًا فى التردّد ، وآجعلْ ذلك بين قُوّادِك وأهلِ

(١) الزيادة عن "مفتاح الأفكار" ص ٢٥٢ .

عسـكرك نُوَبا معروفة ، وحِصَصا مفْرُوضـــة ، لا تُعرِ منهـا مُزْدَلِفا منك بمودّة ، ولا تتحامَلْ فيه علىٰ أحدٍ بمَوْجِدة ، إن شاء الله تعالىٰ .

فوِّض إلىٰ أُمَراء أجنادك وقُوّاد خَيْلك أمورَ أصحابِهم ، والأخْذَ علىٰ قافيَة أيْديهم ، رياضةً منك لهم علىٰ السَّمْع والطاعة لأُمَرائهم ، والاتِّباع لأمْرِهم ، والوُقُوف عند نَهْيِهم ؛ ونقـدِّمْ إلىٰ أُمَراء الأجناد فى النوائب التى ألزمْتَهم إيَّاها ، والأعمـال التى آستنجدْتَهم لهـا ، والأسلحةِ والكُرَاع التى كتبْتَها عليهم ؛ وآحذَرِ آعتلالَ أحدٍ من قُوّادك عليك بما يَحُول بينك وبينَ تأديب جُنْدك ، وتقويمِهم لطاعتك ، وقَمْعهم عن الإخلال بمَرَاكزهم لشىء ممـا وُكِلوا به من أعمالهم ؛ فإنَّ ذلك مَفْسَدة للجند ، مَفْثأةٌ للقوّاد عن الجِدّ والإيثار للمناصحة ، والتقدّم فى الأحكام .

وآعلم أنَّ فى آستخفافهـم بقوّادهم وتضْييعهم أمْرَ رُؤسائهـم دُخُولا للضَّياع علىٰ أعمالك ، وآستخْفافا بأمْرك الذى يَأْتمرون به ورأْيك الذى تَرْتئى . وأوْعِزْ إلىٰ القُوّاد أن لا يُقْدِم أحدٌ منهم علىٰ عقوبةِ أحدٍ من أصحابه ، إلا عُقوبةَ تأديبٍ فى تقْويم مَيَل ، وتثقيفِ أَوَد ؛ فأما عقوبةٌ تبلُغ تلفَ المُهْجة وإقامةُ حدٍّ فى قطع ، أو إفراطٌ فى ضَرْب أو أخْذُ مال ، أو عقوبةٌ فى شَعَر فلا يلِيَنَّ ذلك من جندك أحدٌ غيْرُك ، أو صاحبُ شُرْطتك بأمرك وعن رَأْيك وإذنك ؛ ومتى لم تُذَلِّل الجنـدَ لقُوّادهم ، وتُضْرِعْهم لأمرائهـم ؛ تُوجبْ لهم عليك الحجـةَ بتضييع ـ إن كان منهم ـ لأمْرك ، أو خَلَل ـ إن تهاونُوا به ـ من عَمَلك ، أو عجز ـ إن فَرَط منهم ـ فى شىءٍ ممـا وكَّلتهـم به أو أسـنَدْته إليهـم ؛ ولا تجِدُ إلىٰ الإقدام عليهـم باللَّوْم وعَضِّ العقوبة عليهم مجَازًا تصـلُ به إلىٰ تعنيفِهم ، بتفريطك فى تذليلِ أصحـابِهم لهم ، وإفسادِك إيَّاهم عليك وعليهم . فانظُرْ فى ذلك نظَرا مُحْكما ، وتقدّمْ فيـه برِفْقك تقـدُّما بليغا ؛ وإيَّاك أن

يدْخُل حَزْمك وَهْن، أو يَشُوبَ عَزمك إيثار، أو يخَلِط رأيَك ضَياع ؛ والله يستوْدِعُ أمير المؤمنين نَفْسك ودينَك .

إذا كنتَ من عدُوّك علىٰ مسافةٍ دانيـة وسَنَن لقاء مختَصَر، وكان من عسكرك مُقْترِبا قد شامَتْ طلائعُك مُقدَّماتِ ضلالته، وحُماةَ فِتْنته ؛ فتأهَّبْ أُهبة المُناجِز، وخُذ ٱعتدادَ الحَذِر، وَكتِّب خُيولَك، وعَبِّ جُنْدك ؛ وإيَّاكَ والمسيرَ إلا في مُقَدَّمة ومَيْمنـة ومَيْسَرة وساقةٍ ؛ قد شَهَرُوا الأسـلِحةَ، ونَشَروا البُنودَ والأعلام ؛ وعَرِّفْ جُنْدَك مراكزَهم سائرينَ تحتَ ألْوِيتهم، قد أخذُوا أُهْبة القتال، وٱستعدُّوا للِّقاء ؛ ملتجئين إلىٰ مَواقِفِهم، عارفينَ بمواضِـعهم في مَسِيرهم ومُعَسْـكَرهم . وليَكُنْ ترَحُّلُهم وتنَزُّلهم علىٰ راياتِهـم وأعلامِهم وفي مراكِزِهم، قد عَرَّف كلُّ قائد منهـم أصحـابَه مواقِفَهم : من المَيْمنة والمَيْسَرة والقلْب والساقةِ والطَّليعـة، لازمينَ لها، غير مُخلِّين بمـا ٱستُنْجِدوا له، ولا مُتهاوِنين بما أُهيب بهم إليه ؛ حتّى تكونَ عساكرُك في مَنْهلٍ تصل إليه ومسافةٍ تَخْتارُها كأنها عسْكرٌ واحد في ٱجتماعها علىٰ العَدُوّ، وأخْذها بالحَزْم، ومَسِيرها علىٰ راياتِها، ونُزُولها في مراكِزِها، ومَعْرِفتها بمواضِعها : إن ضلَّت دابةٌ من موضِـعِها، عَرَف أهـلُ العسكر من أيّ المراكِز هي، ومَنْ صاحِبُهـا، وفي أيّ المحَلِّ حلُولُه منها فرُدّتْ إليه، هدايةً معروفةً بسَمْت صاحبِ قِيادتها ؛ فإنَّ تقـدُّمك في ذلك وإحكامَـك له طارحٌ عن جُندك مئُونة الطَّلَب، وعنـايةَ المعرفة، وٱبتغاءَ الضَّالَّة .

ثم ٱجعَلْ علىٰ ساقتك أوثَقَ أهل عسكرك في نَفْسك صَرامةً ونَفاذا ورِضًا في العامَّة، وإنصافا من نَفْسه للرعيَّة، وأَخْذا بالحق في المَعْدَلة، مستَشْعِرا تقوىٰ الله وطاعتَه ؛ آخذا بهَدْيك وأَدَبك، واقفًا عند أمْرِك ونَهْيك، معتَزِما علىٰ مناصَحتِك وتزيينك، نظيرا

لك فى الحـال، وشَبِيهًا بك فى الشَّرَف، وعَدِيلًا فى الموضـع، ومُقارِبا فى النسب(١)؛ ثم أَكْثِفْ معه الجَمْع، وأيِّده بالقُوة، وقوِّه بالظَّهْر، وأعِنْه بالأموال، وآعْمِدْه بالسلاح، ومُرْه بالتعطُّف علىٰ ذَوِى الضَّعْف من جنـدك ومن أزحفَتْ به دابَّتُه وأصابَتْـه نَكْبـة : من مرض أو رُجْلة أو آفةٍ، من غير أن يأذن لأحدٍ منهم فى التنحِّى عن عسكره، أو التخَلُّف بعد ترحُّله، إلا لمجهودٍ سُقْما، أو لمطروقٍ بآفةٍ جائحةٍ . ثم تقدَّمْ إليه محذِّرا، ومُرْه زاجرا، وآنْهَه مُغْلِظا فى الشدّة علىٰ من مَرَّ به منصَرِفا عن معسكرك من جندك بغير جَوازك، شادًّا لهم أَسْرا، ومُوقِرَهم حديدا، ومُعاقِبَهم مُوجِعا، ومُوجِّهَهم إليـك فتَنْهَكَهم عُقُوبةً، وتجْعَلهم لغيرهم من جندك عِظَة .

وآعلم أنه إن لم يكُنْ بذٰلك الموضِع من تَسْكن إليه واثقًا بنَصيحته قد بلَوْتَ منه أمانة تُسَكِّنك إليـه، وصَرامةً تؤَمِّنُك مهانَتَه، ونَفَاذًا فى أمرك يُرْخِى عنك خِناقَ الخوفِ فى إضاعته ـ لم يأمَنْ أمير المؤمنين تَسلُّلَ الجنـد عنك لِواذًا، ورَفْضَهم مراكزَهم، وإخْلالَهم بمواضِعهم، وتخَلُّفَهم عن أعمالهم، آمِنينَ تغييرَ ذٰلك عليهم والشـدّةَ علىٰ من آجتَرمه منهم، فأوشَك ذٰلك فى وَهْنك، وخَذَل من قُوّتك، وقَلَّل من كَثْرتك .

اِجعَلْ خلفَ ساقتِك رجُلا من وُجُوه قُوّادك، جلِيدًا، ماضيًا، عفيفًا، صارمًا، شَهْم الرأْى، شديدَ الحَذَر، شكيمَ القُوّة، غيرَ مُداهِن فى عُقُوبة، ولا مَهِين فى قُوّة، فى خمسين فارسًا يحشُرُ إليك جُنْـدك، ويُلْحِق بك من تخَلَّف عنك بعْـدَ الإبلاغ فى عُقوبتهم، والنَّهْك لهم والتنكيلِ بهم . وليَكُنْ بعقْوتك فى المنْزِل الذى ترْحَل عنه، والمَنْهَـل الذى تَتقوّض منـه، مُفْرِطا فى النفضِ له، والتتَبُّع لمن تخلَّف عنك به؛

(١) فى مفتاح الأفكار وغيره «فى الصيت» وهى أوضح .

مشتدًّا فى أهل المنْزِل وساكِنه بالتقدّم، مُوعِزا إليهم فى إزعاج الجُنْد عن منازلهم، وإخراجهم عن مَكَامِنهم؛ وإيعادِ العقُوبة المُوجِعة والنَّكَال المُبْسِل فى الأشْعار والأَبْشار، وآستِصْفاءِ الأموال وهَدْم العَقَار لمن آوىٰ منهم أحدًا أو سَتَر موْضعه، أو أخفىٰ محلَّه . وحَذِّرْه عقُوبتَك إيَّاه فى الترخيص لأحدٍ، والمحاباةِ لِذِى قَرَابة، والآختِصاص بذلك لذِى أثْرة وهَوَادة . ولْتَكُنْ فُرسانُه منتَخَبِين فى القوّة، معْرُوفين بالنَّجْدة، عليهم سوابِغُ الدُّروع دُونَها شِعار الحشو وجُبَب الآستِجْنان، متقلِّدين سُيوفَهم، سامِطِين كنائِنَهم، مستَعِدِّين لهَيْج إن بَدَهُهم [أو كَمِين إن يظهر لهم] (١) . وإيَّاك أن تَقْبل منهم فى دَوابِّهم إلا فرسًا قوِيًّا أو بِرْذَوْنا وَثِيجا : فإن ذٰلك من أقوىٰ القُوّة لهم، وأعْون الظِّهرِيّ علىٰ عدُوّهم، إن شاء الله .

ليَكُنْ رَحيلك إبَّانا واحدًا، ووَقْتا معلُوما : لتَخِفَّ المَئُونة بذٰلك علىٰ جُنْدك، ويعلموا أوانَ رَحِيلهم، فيقَدِّموا فيما يُريدُون من معالجة أطْعِمَتهم، وأعلافِ دَوابِّهم، وتَسْكُنَ قلوبهم إلىٰ الوقت الذى وَقَفُوا عليه، ويَطْمئنَّ ذوُو الرأى إلىٰ إبَّان الرحيل، ومتىٰ يكُنْ رَحيلُك مختَلِفا، تعظُمِ المئُونةُ عليك وعلىٰ جُنْدك ولا يزالُ ذَوُو السَّفَه [والنَّزق] (١) يترحَّلُون بالإرجاف وينْزِلُون بالتوهُّم، حتى لا ينتفع ذُو رأى بنوم ولا طُمأْنِينة .

إيَّاكَ أن تُظهِر آستِقْلالا، أو تُنادىَ برحيل من مَنْزل تكونُ فيه، حتّى تأمُر صاحبَ تعبِئَتك بالوقُوف بأصحابه علىٰ مُعَسْكرك آخذا بجَنَبَتَىْ فوهته، بأسْلحَتهم عُدّةً لأمْرٍ إن حضَر، أو مفاجَاةٍ من طَلِيعة للعَدُوّ إن رأتْ منكم نُهزةً، أو لمحَتْ عندكم غِرَّة . ثم مُر النَّاسَ بالرَّحيل وخيْلُك واقفة، وأُهْبتُك مُعَدّة، وجُنَّتك

---

(١) الزيادة عن «مفتاح الأفكار» وغيره .

واقيــة، حتّى إذا آستقللتُمْ من مُعَسْكركم، وتوجّهتم من مَنْزِلكم، سِرتم على تَعبئتكم بسُــكُون ريح، وهُدُوّ حَمْــلة، وحُسْن دَعَة. فإذا آنتهيْتَ إلى مَنْهَل أردتَ نُزوله أو همَمْت بالمُعَسْكر به، فإيّاك ونُزولَه إلا بعدَ العِلم بأهله، والمَعْرِفة بمَرافقــه؛ ومُرْ صاحب طليعتِــك أن يَعْرِف لك أحوالَه، ويستَثِير لك عِلْمَ دَفِينِــه، ويستَبْطِنَ عِلْمَ أُمُوره ثم يُنْهِيها إليك على ماصارتْ إليه: لتعلم كيف آحتمالُه لعَسْكرك، وكيْفَ ماؤُه وأعْلافُه وموضِعُ مُعَسْكَرِك منه، وهل لك ـ إن أردتَ مُقاماً به، أو مطاولةَ عدُوّك أو مكايدَتَه فيه ـ قوّةٌ تحملك ومَدَدٌ يأتيه: فإنّك إن لم تفعَلْ ذلك، لم تأمَنْ أن تَهْجُم على مــنزل يُعجِزك ويُزْعِجك عنــه ضِيقُ مكانه، وقِلّةُ مِيــاهه، وآنقطاعُ موادّه، إن أردتَ بعدُوّك مَكيدة، أو آحتَجْت من أمورهم إلى مُطاوَلة. فإن آرتحلْتَ منه كنتَ غَرَضا لعدوّك، ولم تجِدْ إلى المحارَبة والاخْطار سبيلا؛ وإن أقمتَ به أقمتَ على مشقّة وحَصْر وفى أَزْل وضِيق، فاعرِفْ ذلك وتقدّمْ فيه. فإن أردْت نُزولًا أمرتَ صاحب الخَيْل التى وَكّلت بالناس فوقفتْ خيــلُه متنحّيةً من مُعَسكرك، عُدّةً لأمر إنْ غالَك، ومَفْزَعا لَبديهة إنْ راعَتْك، فقد أمِنتَ بحمـد الله وقوّته لَجَاةَ عدُوّك، وعرَفْت موقِعَها من حِرْزك، حتّى يأخُذَ الناسُ منازلهم، وتُوضَع الأثقالُ مواضِعَها، ويأتِيَك خَبَرُ طلائعك، وتُخْرِجُ دَبّابَتُك من مُعَسْكرك دَرّاجة ودبّابا مُحِيطيْن بعسكرك، وعُدّةً إن آحتجْتَ إليها. ولتكن دَبّاباتُ جندك أهل جَلَد وقُوّة، قائدًا أو آثنَيْن أو ثلاثةً بأصحابهم، فى كلّ ليــلةٍ ويومٍ نُوَبا بينَهُــم؛ فإذا غَرَبت الشمسُ ووجَبَ نُورُها، أخرج إليهم صاحبُ تعبِئَتك أبْدالَهم، عَسَسًا بالليل فى أقْرَب من مواضع دَبّابِي النهارِ، يتعاوَرُ ذلك قُوّادُك جميعًا بلا مُحاباةٍ لأحدٍ فيه ولا إدْهان.

إيّاكَ وأن يكون منزلُك إلا فى خَنْدق وحِصْن تأمَنُ به بَياتَ عَدُوّك وتستَنِيمُ فيه إلى الحَزْم من مكيدتك إذا وُضِــعَت الأثقالُ وحُطّتْ أبنِيَةُ أهل العسكر، لم يُمْدد

طُنُب ، ولم يُرْفَع خِباء ، ولم يُنْصَب بناءٌ حتى تَقْطع لكلّ قائدٍ ذَرْعا معلومًا من الأرض بقدْر أصحابه ، فيحفِروه عليهم خَنْدقا يُطيفونه بعد ذٰلك بخنادق الحَسَك ، طارحينَ لها دُونَ آشْتِجار الرِّماح ، ونَصْب التِّرَسة ، لها بابانِ قد وَكَّلتَ بحِفْظ كل باب منهما رجُلا من قُوّادك فى مِائة رجلٍ من أصحابه ؛ فإذا فُرِغ من الخَنْدَق كان ذانِك الرجلانِ القائدانِ بمَنْ معهما من أصحابهما أهلَ ذٰلك المَرْكز ، وموْضعَ تلك الخيل ، وكانُوا هم البَوّابِينَ والأحراسَ لذَيْنِك الموضعَيْن ، قد كَفَوْهما وضَبطُوهما وأُعْفُوا من أعمال العسكر ومكْرُوهه غيرهما .

وآعلم أنكَ إذا كنتَ فى خَنْدق ، أمِنْتَ بإذْن الله وقُوّته طوارِقَ عدُوّك وبَغَتاتِهم ، فإنْ راموا تلكَ منك ، كنتَ قد أحكمتَ ذٰلك وأخذْتَ بالحزْم فيه ، وتقدّمْتَ فى الإعدادِ له ، ورَتَقْتَ مَخُوفَ الفَتْق منه ؛ وإن تكُنِ العافيةُ آستَحَقَّيْت حمدَ الله عليها ، وآرتبطْتَ شُكْره بها ، ولم يَضْرُرْك أخذُك بالحزم : لأن كل كُلْفة ونَصَب ومَئُونةِ إنفاق ومشَقَّةِ عمل مع السلامة غُنْم وغيرُ خَطَر بالعاقبة ، إن شاء الله . فإن آبْتُليت ببَيَات عدُوّك أو طَرَقك رائعًا فى ليلك ، فليُلْفِكَ حَذِرا مُشَمِّرا عن ساقك ، حاسِرًا عن ذِراعك ، متشَزِّنا لحَرْبك ؛ قد تقدّمَتْ دَرّاجَتُك إلىٰ مواضِعها علىٰ ما وصَفَه لك أمير المؤمنين ، ودَبَّابتُك فى أوقاتها التى قَدَّر لك ، وطلائعُك حيثُ أمرك ، وجُنْدُك علىٰ ما عَبَّأ لك قد خَطَرْتَ عليهم بنَفْسك ، وتقدّمْتَ إلىٰ جُنْدك إن طَرَقَهم طارق ، أو فاجَأَهم عدُوّ ، أن لا يتكلَّم منهم أحدٌ رافعًا صوته بالتكبير مُغْرقا فى الإجلاب ، مُعْلِنا بالإرهاب لأهل الناحية التى يَقَع بها العدوُّ طارقًا ، ولْيُشْرعُوا رِماحَهم ناشبِين بها فى وُجُوههم ، ويَرْشُقُونهم بالنبل مكْتَنِّين بأتْرِسَتِهم[(١)] ، لازِمين لمَرا كزهم ،

(١) فى المفتاح وغيره « ملبدين ترستهم » وفى الأصل أترستهم وقال آبن السكيت لا يقال أترسة وزان أرغفة وإنما جمع الترس ترسة وتروس وتراس وربما قيل أتراس فتنبه .

غير مُزِيلى قَدَم عن موضِعِها ، ولا مُتجاوِزين إلىٰ غير مَرْكَزهم . ولْيُكَبِّروا ثلاثَ تكبيرات متواليات وسائرُ الجند هادُون، لتَعْرِف موضِعَ عدُوّك من مُعَسْكرك، فتُمِدّ أهل تلك الناحية بالرجال من أعْوانك وشُرْطتك ، ومن آنتخبْتَ قبلَ ذلك عُدّةً للشدائد بحَضْرتك، وتَدُسّ إليهم النُّشّاب والرِّماح .

و إيَّاكَ وأن يَشْهَروا سيْفًا يتجالَدُون به . وتقدَّمْ إليهم أن لا يكونَ قتالهم فى تلك المواضع لَمَنْ طَرَقَهم إلا بالرِّماح مُسْنِدين لها إلىٰ صُدُورهم، والنُّشّاب راشقِينَ به وُجُوهَهم؛ قد أَلْبَدُوا بالأَتْرِسة، وآستجَنُّوا بالبَيْض، وألْقَوْا عليهم سَوابِغَ الدُّروع وجِبابَ الحَشْو ؛ فإن صَدّ العدوُّ عنهم حاملينَ علىٰ جهةٍ [أخرىٰ ، كَبَّر](١) أهل تلك الناحية التى يقع فيها كفِعْل الناحيةِ الأُولىٰ ، و بقيّةُ العسكر سكوتٌ والناحيةُ التى صَدّ عنها العدوُّ لازمةٌ مراكِزَهم منتطقةُ الهدوِ ساكنةُ الرِّيح، ثم عمِلتَ فى تقويتهم و إمْدادهم بمثل صَنِيعِك فى إخوانهم .

وإياك أن تُخْمِدَ نارَ رُواقك [واذا وقع العدُوّ فى مُعَسْكرك نأجِّجْها ساعِرًا لها وأوْقدْها حطَبًا جَزْلًا يعرف به أهل العسكر مكانَكَ وموضع رواقك](١) فيَسْكُن نافِرُ قلوبهم ، ويَقْوىٰ واهِى قُوّتهم ، ويشتدُّ منْخَذِل ظُهُورهم، ولا يرجُمُونَ بك الظُّنون، ويجعلونَ لكَ آراء السُّوء ، ويُرْجِفُون بك آناءَ الخوف، وذلك من فِعْلك رادٌّ عدُوّك بغيْظه لم يستَقْلِل منك ظُفُرا،ولم يبلُغْ من نِكَايتك سُرُورا . و إن آنصَرف عنك عدُوُّك ونَكَل عن الإصابة من جُنْدك وكانتْ بخَيْلك قوّةٌ علىٰ طلَبه أو كانت لك من فُرْسانك خيْلٌ مُعدَّة وكتيبةٌ منْتَخَبة،[و]قَدرتَ علىٰ أن تركَبَ بهم أكْساءَهم، وتحمِلَهم علىٰ سَنَنِهم ؛ فأتْبِعْهم جَريدَة خيل عليها الثِّقات من فُرْسانك ، وأُولو النَّجْدة من حُمَاتك ؛ فإنك تَرْهَق عدوّك وقد أَمِن من بَياتك، وشُغِل بكَلَاله عن التحرُّز

(١) الزيادة من مفتاح الافكار وغيره وهى من سقطات الناسخ كما لايخفى .

منك والأخذ بأبواب مُعَسْكره ، والضَّبْط لمحارسه عليك، مُوهَنةً حُماتُهم لغيبة أبطالهم : لما أَلْفَوْكم عليه من التشمير والجِدّ، قد عقر الله فيهم ، وأصاب منهم، وجرح من مقاتِلتهم، وكَسَر من أمانىّ ضُلَّالهم، وردّ من مستَعْلِي جِماحهم .

وتقدَّمْ إلىٰ من تُوجِّهه فى طَلَبهم، وتُتْبِعُه أكساءَهم : فى سُكُون الرِّيح، وقِلَّة الرَّفث، وكَثْرة التسبيح والتهليل، وآستِنْصار الله عزَّ وجل بألسنَتِهم وقلوبِهم سِرًّا وجَهْرا، بلا لَجَبٍ ضَجَّة، ولا آرتفاعِ ضَوْضاءَ، دُونَ أن يردوا علىٰ مطلبهم، وينتهزُوا فُرْصَتهم. ثم لِيَشْهَروا السِّلاح ، وينتضُوا السُّيوفَ، فإنَّ لها هَيْبةً رائعة، وبَديهة مَخُوفة، لايقومُ لها فى بُهْمة الليل وحِنْدِسه إلا البطَلُ المُحارِب ، وذُو البصيرة المُحامِى ، والمستمِيتُ المُقاتل، وقليلٌ ماهم عند تِلكَ الحَمِيَّة وفى ذلك المَوْضع .

لِيَكُنْ أوّلَ مانتقَدَّمُ به فى التهيُّؤ لعدُوّك، والآستعدادِ للقائه، آنتخابُك من فُرْسان عسكرك وحُماة جُنْدك ذَوِى البأْس والحُنْكة والجَلَد والصَّرامة، ممَّن قد آعتاد طِرَاد الكُماة ، وكَشَّر عن ناجذه فى الحَرْب ، وقام علىٰ ساقٍ فى مُنازَلة الأقْران ، ثَقِفَ الفُروسية ، مجتمِعَ القُوّة، مستحْصِدَ المَرِيرة ، صَبُورا علىٰ هَوْل الليل، عارفًا بمُناهَزة الفُرَص، لم تَمْهَنه الحُنْكة ضَعْفا، ولا بَلَغَتْ به السِّنُّ كَلالا، ولا أسْكَرَتْه غِرَّة الحَدَاثة جهلا، ولا أبطرَتْه نَجْدة الأغمار صَلَفا ، جَرِيئًا علىٰ مخاطَرة التلف، مُقْدِما علىٰ آدِّراع الموْت ، مُكابِراً لمَهيب الهول، متقحِّمًا مَخْشِىّ الحُتُوف، خائضًا غَمَرات المَهالك ؛ برأْى يؤيِّده الحزم ، ونيَّة لا يخالِجُها الشَّكّ ، وأهواءٍ مجتمعة ، وقلوبٍ مؤتَلِفة ؛ عارفينَ بفضل الطاعةِ وعزِّها وشرفِها ، وحيثُ محلُّ أهلها من التأييد والظَّفر والتمكين ، ثم آعْرِضْهم رأْىَ عين علىٰ كُراعهم وأسلِحَتهم . ولْتكُنْ دوابُّهم إناثَ عِتاق الخَيل، وأسلحتُهم سوابغَ الدُّروع وكَمالَ آلةِ المُحارب، متقلِّدين

سُيوفَهم المستخْلَصة من جيِّد الجَوْهر وصافى الحديد، المتخيرة من معادِن الأَجْناس، هِنْديَّة الحديد يَمـانِيَة الطَّبع، رِقاق المَضارب، مَسْمُومة الشَّحْذ، مُشطَّبة الضَّريبة؛ مُلْبدِين بالتِّرسة الفارسيّة، صِـينِيَّة التعقيب، مُعْلَمة المَقابِض بحِلَق الحديد، أنحاؤُها مربَّعة، ومَحارِزُها بالتجليد مُضاعَفة، مَحْمِلُها مستَخَف؛ وكَنائِنُ النَّبْل وجِعابُ القِسِيّ قد آستحْقَبُوها، وقِسِىّ الشِّرْيان والنَّبـع أعرابِيَّة الصَّنْعة، مختلِفةُ الأجناس، محكَمةُ العمَلِ، مُقَوَّمة التثقيف؛ ونُصول النَّبْـل مسمُومة، وعملها مَصِّيصِىّ، وتركيبُها عِراقِىّ، وتَرْيِيشُها بَدَوِىّ؛ مختلِفةُ الصَّوْغ فى الطَّبْع، شَـتّى الأعمال فى التشْطيب والتجنيح والآسـتِدارة. ولْتكُن الفارسـية مقلُوبةَ المَقابِض، منبَسِطة السِّـيَة، سَهْلَةَ الآنعطاف، مُقَرَّبة الآنْحناء، مُمْكِنة المَرْمىٰ، واسـعةَ الأَسْهُم؛ فُرَضها سهلةُ الوُرُود، ومَعاطِفُها غير مقتَرِبة المُواتَاة. ثم ولِّ علىٰ كلِّ مائة رجل منهم رجُلا من أهل خاصَّـتك وثِقاتِك ونُصَحائك، له صِيتٌ فى الرِّياسـة، وقَدَم فى السابقة، وأوَّليَّـة فى المشايعة. وتقـدَّمْ إليه فى ضَـبْطهم، وكَفِّ مَعَرَّتهم، وآسـتِنْزال نصائحهم، وآستعداد طاعتهـم، وآستِخلاص ضمائِرِهم، وتعاهُدِ كُراعِهم وأسلِحتِهم: مُعْفِيا لهم من النوائب التى تلزَمُ أهلَ عسكرك وعامَّةَ جنْـدك؛ وآجعلْهم عُدّة لأمرٍ إن حَزَبك أو طارقٍ إن أتاك؛ ومُرْهم أن يكونُوا علىٰ أُهْبة مُعَدّة، وحَذَرِ نافٍ لسِـنَة الغفلة عنهم؛ فإنك لاتَدْرى أىُّ الساعات من ليلك ونهارِك تكونُ إليهم حاجتُك. فلْيَكُونوا كرجلٍ واحدٍ فى التشمير والتَّرادُف وسُرْعةِ الإجابة؛ فإنَّك عَسَيْتَ أن لا تجدَ عنـد جماعة جندك فى مثـل تلك الرَّوْعة والمُباغَتة ـ إن آحتجْتَ إلىٰ ذلك منهم ـ مَعُونةً كافية، ولا أُهْبة مُعَدّة، بل ذلك كذلك. فليكُنْ هؤلاء القومُ الذين تنتخبُ عُدّتَك وقُوتَك، بُعُوثا قد وَظَّفْتها علىٰ القُوّاد الذين ولَّيتهم أُمُورَهم، فسمَّيت أوّلا وثانيا وثالثا ورابعًا وخامسًا وسادسًا؛ فإن آكتفيتَ فيما يطْرُقك ويبْدَهُك ببَعْث واحد، كان

مُعَدًّا لم تحتج إلىٰ آنتخابهم فى ساعتِك تلك فقطِّع البعْثَ عليهم عند مايَرْهَقُك . وإن احتجتَ إلىٰ آثنين أو ثلاثةٍ، وجِّهت منهم إرادتَك أو ماترىٰ قُوّتَك، إن شاء الله .

وَكِّلْ بخزائنِك ودَواوِينك رجلًا ناصحًا أمينًا ، ذا ورَع حاجِز، ودِينٍ فاصِل ، وطاعةٍ خالصةٍ ، وأمانةٍ صادقةٍ، وآجعلْ معه خيْلا يكونُ مَسيرها ومَنْزلها ومَرْحَلُها معَ خِزانتك وحَوْلَها . وتقدّمْ إليه فى حِفْظها ، والتوقِّى عليها، وآتِّهام كلِّ من تُسنِد إليه شيْئا منها علىٰ إضاعتِه والتهاوُن به ، والشِّدّةِ علىٰ مَنْ دنا منها فى مَسِير، أو ضامّها فى منْزِل، أوخالَطَها فى مَنْهل . وليكُنْ عامّةُ الجُنْد والجيش ـ إلا مَنِ آستخلَصْت لِلْمسير معها ـ متنحِّين عنها، مُجانِبِين لها فى المَسِير والمَنْزِل؛ فإنه رُبَّما كانت الجَوْلَةُ وحدثتِ الفَزْعة ، فإن لم يكن لِلْخزائن ممن يوكّل بها أهلُ حِفْظ لها وذَبٍّ عنها ، وحِياطةٍ دُونَها،وقُوّةٍ علىٰ مَن أراد آنتهابَها،أسرَعَ الجندُ إليها وتداعَوْا نحوَها حتّٰى يكاد يَترامىٰ ذٰلك بهم إلىٰ آنتهابِ العَسْكر، وآضطِرابِ الفِتْنة ؛ فإنَّ اهلَ الفِتَن وسُوءِ السِّيرة كثيرٌ، وإنما هِمَّتُهم الشَّر؛ فإيّاك أنْ يكونَ لأحد فى خَزائنك ودَواوِينك [وبيوت أموالك][1] مَطْمع ، أو يجِدَ سبيلا إلىٰ آغتِيالها ومَرْزَأتها .

اِعلم أنَّ أحسنَ مَكِيدتِك أثرًا فى العامّة، وأبعَدَها صِيتاً فى حُسْن القالَة، مانلتَ الظَّفر فيه بحَزْم الرَّوِيَّة، وحُسْن السِّيرة ، ولُطْف الحِيلة . فلتكُنْ روِيَّتُك فى ذٰلك وحِرْصُك علىٰ إصابته بالحِيَل ، لا بالقتال وأخْطارِ التَّلَف ، وآدْسُسْ إلىٰ عدُوِّك ، وكاتِبْ رُؤساءَهم وقادتَهم وعِدْهم المَنَالات ، ومَنِّهم الوِلَايات ، وسَوِّغْهم التُّراث، وضَعْ عنهم الإحَنَ ، وآقطَع أعناقَهُم بالمطامع ، وآستَدْعِهم بالمَثاوب ، وآملأ قُلوبَهم بالترهِيبِ إن أمكنَتْك منهم الدَّوائِر، وأصارَتْهم إليك الرَّواجِع ، وآدْعُهم إلىٰ الوُثوب بصاحِبِهم أو آعتِزالِه إن لم يكن لهم بالوُثُوب عليه طاقةٌ ؛ ولا علَيْك أن تَطْرح إلىٰ

(١) الزائد من رسائل البلغاء .

بعضهم كُتُبا كأنّهـا جوابُ كُتبٍ لهم إليك ، وتكتب علىٰ ألسنتهم كتبا إليك تدفعُها إليهم ، وتحمِلُ بها صاحِبَهم عليهم وتنزلُهم عنده بمنزِلة التُّهَمة ومَحلّ الظِّنّة ؛ فلعلَّ مَكيدتَك فى ذٰلك أن يكونَ فيها ٱفتِراقُ كلمتِهم ، وتشتيتُ جماعتِهـم ، وإحَنُ قلوبِهم ، وسُوءُ الظنِّ مِنْ واليهم بهم ، فيُوحشُهم منه خَوفُهم إيّاه علىٰ أنفُسِهم إذا أيقَنوا بٱتّهامه إيّاهم ؛ فإن بسَط يدَه فقتَلهم ، وأَوْلَغ سيفَه فى دِمائهم ، وأسرَعَ الوثُوبَ بهم ، أشعَرهم جميعاً الخوفَ ، وشمِلهم الرُّعبُ ، ودعاهم إليـك الهرَبُ فتهـافَتُوا نحوَك بالنصيحة وأمُّوك بالطَّلَب . و إن كان متأنِّيـا محتَمِلا رجوتَ أن تستميلَ إليك بعضَهم ، ويستَدْعى الطمعُ ذَوِى الشَّره منهم ، وتنالَ بذٰلك ماتُحِبّ من أخبارهم ، إن شاء الله .

إذا تَدَانىٰ الصَّفّان ، وتواقفَ الجمْعان ، وٱحتضَرت الحربُ ، وعَبَّأْتَ أصحـابَك لقتال عدُوّهم ؛ فأكثِرْ من قول : لاحولَ ولا قُوّةَ إلا بالله ، والتوكُّلِ علىٰ الله عزّ وجلّ والتفويضِ إليـه ، ومَسْألتِه توفيقَك و إرشادَك ، وأن يَعزِم لك علىٰ الرَّشَد المُنْجى ، والعِصْـمة الكالئة ، والحِياطةِ الشاملة . ومُرْ جُندَك بالصَّمْت وقلّةِ التلفُّت عنـد المُصاوَلة ، وكثْرةِ التكبـير فى أنفُسِهم ، والتسبيح بضمائِرِهم ؛ ولا يُظْهِروا تكبـيراً إلا فى الكَرّات والحَمَـلات ، وعند كل زُلْفَةٍ يزدلِفُونها ؛ فأما وهم وقوفٌ فإنَّ ذٰلك من الفَشَل والجُبْن ، وليذْكُروا الله فى أنفُسِهم و يسأَلُوه نَصْرَهم و إعزازَهم ، ولْيُكْثِروا من قول : لا حولَ ولا قوّة إلا بالله العلىّ العظيم ، حسبُنا اللهُ ونعم الوكيلُ ، اللهُمَّ ٱنصُرنا علىٰ عدُوّك وعدُوّنا الباغى ، وٱكفِنا شوكتَه المستَحِدّة ، وأيِّدنا بملائكتِك الغالِبين ، وٱعصِمْنا بعونك من الفَشَل والعَجْز إنك أرحمُ الراحمين .

ولْيكُنْ فى مُعَسـكرِك المكبِّرون فى الليل والنهـار قَبْـل المُواقعة ، وقومٌ موقُوفُون يُحضُّونهم علىٰ القتال و يحرّضُونهم علىٰ عدُوّهم ، و يصِفُون لهم منازلَ الشُّهداء وثوابَهم ،

ويُذَكِّرونهم الجنةَ ودرجاتِها ونعيمَ أهلِها وسُكَّانِها، ويقولون : آذكُروا اللهَ يَذْكُرْكم، وآستنْصِروه ينصُرْكم، وآلتجئُوا إليه يمنَعْكم . وإن آستطعتَ أن تكون أنت المباشِرَ لتعبِئَة جُنْـدك، ووضْعِهم مواضِعَهم من رأيك، ومعك رجالٌ من ثِقـات فُرْسانك ذَوُو سِنٍّ وتجرِبة ونَجْـدة علىٰ التعبئة التى أميرُ المؤمنـين واصفُها لك فى آخر كتابك، فآفعل إن شاء الله تعالىٰ .

أيَّدك اللهُ بالنصر، وغَلَّب لك علىٰ القوّة، وأعانك علىٰ الرَّشَـد، وعصَـمَك من الزَّيْغ، وأوجبَ لمن آستشهَدَ معك ثوابَ الشُّهداء ومَنـازِلَ الأَصْفِياء، والسـلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه .

وكتب سنةَ تسع وعشرين ومائةٍ .

الطـــرف الثـالث

(فيما كان يُكتَب عن خلفاء بنى العبَّاس ببغدادَ إلىٰ حينِ آنقراض الخلافة العبَّاســية من بغداد)

وهو علىٰ أربعـــة أنواع :

النـــوع الأوّل

(ما كان يُكتَب لوُزَراء الخـلافة)

وكان رسمهم فيه أن يفتَتح بلفظ «أما بعـدُ فالحمدُ لله» ويؤتىٰ فيه بثلاث تحميداتٍ، وربمـا آقتُصِر علىٰ تحميدة واحدةٍ . وعلىٰ ذٰلك كانت تقاليدُ وُزَرائهم من أرباب السُّيوف والأقلام .

وهذه نسخةُ تقليدٍ من ذٰلك كتَب بها العلاءُ بن مُوصَلايا ، عن القائم بأمر الله ، للوزير فخر الدولة بن جَهِير ، فى شهور سنة آثنتين وسبعين وأربعمائة ، وهو :

أما بعــدُ ، فالحمدُ لله ذِى الآلاءِ الصافِيَــة الموارِد ، والنَّعماء الصادقةِ الشَّواهد ، والطَّوْل الجامع شَمْلَ أسباب المِنَح الشَّوارد ؛ ذى القُدْرة المصرِّفة علىٰ حُكْمها مجارِى القَدَر ، والمشيئة الحالية بالنَّفاذ فى حالَتَى الوِرْد والصَّدَر ، المُذِلّ بجميل صُنْعه أعنــاقَ المَصَاعب ، المُدِيم(1) بكريم لُطْفه من آمتداد ذوائب النَّوائِب ؛ الذى جلَّ عن إدراك صِفاتِه بعدّ أو حَدّ ، ودلَّ بباهرِ آياتِه علىٰ كونه الفَردَ الولِّى بكل شُكْرٍ وحمد ؛ سبحانه وتعالىٰ عما يصِفُون .

والحمــدُ لله الذى آختصَّ محمدًا صلّى الله عليه وسلـم بالرِّساله واجْتباه ، وحَبَـاه بالكَرامه بمـا أشْرق له مَطْلَعُ الجَلال ، وآختــاره وبعثه لإظهار كلمةِ الحقِّ بعد أن مدّ الضَّلالُ رُواقَه ؛ فلم يزلْ بإعْزاز الشَّرْع قائمـا ، ولساعاتِ زمانِه فى طَلَب رضا الله قاسِما ؛ لا ينْحرِف عن مقاصِدِ الصواب ولا يَمِيل ، ولا يُخْلِى مَطايا جِدِّه فى تقوية الدِّين مما يُتابِـع فيه الرَّسِيمَ والذَّمِيل ، إلىٰ أنْ أزالَ عن القلوب صَدَأَ الشُّكُوك وجَلا ، وأجلىٰ مَسْعاه عن كلِّ ما أودَع نُفُوسَ أحلافِ البـاطل وَجَلا ؛ ومَضىٰ وقد أضاء للإيمـان هلالٌ أُمِنَ سِرَارُه ، وآنتضَىٰ لإبادة الشِّرك حُساماً لا ينْبُو قطُّ غِرارُه ؛ فصلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين ، وأصحابِه المنتخَبِين ؛ صلاةً يتَّصل الأصيلُ فيها بالغُدُوّ ، وترىٰ قيمتُها فى الأجر وافيةَ العُلُوّ والغُلُوّ .

والحمــدُ لله الذى أصار إلىٰ أمير المؤمنين من إرْث النبُوّة ما هو أحقُّ به وأَوْلىٰ ، وأنار له من مَطالع العِزّ ما أسْــدىٰ به كلَّ نعمةٍ وأَوْلىٰ ؛ وأحَلَّه من شرَف الإمامة

(1) كذا فى الأصول المديم بالميم ولعله المديل باللام تأمل .

بحيث عنَتْ لطاعتـه أعناقُ الرِّقاب الصِّعاب ، وأذعنَتْ له القلوبُ بالإنطواءِ علىٰ الوَلَاء الفَسِـيح الرحاب والشِّعاب ؛ وجعل أيَّامه بالنَّضارة آهلةَ المَغَـانى، متقابِلةً أسماؤُها فى الحُسْن بالمَعَانى ؛ فما يجرِى فيهـا إلا ما الصوابُ فى فِعْله كامِن ، والحظُّ بِٱنتِهاج سُبُله كائِن ؛ إبانةً عن ٱقتران الرَّشَد بعزائمه فى حالتى العَقْد والحلّ، وٱقتراب مَرامِ كلِّ مايَحُل من الصَّلاح فى الدهر أفضلَ المحَلّ .

ثم إنه يَرىٰ(١) من إقرار الحُقُوق فى نِصابها، وإمرار حِبـال التوفيقِ فى جانبِهـا من الأطماع الممتدّةِ إلىٰ ٱغتصابها ؛ مايُعرِب عن الإهتداء إلىٰ طُرُق الرَّشَـد ، والإقتداء بمَنْ وجدَ ضالَّة المراد حين نَشَد؛ ويقصِدُ من تجديد العوَارف، عند كلِّ عالم بقَدْرها فى الزمان عارِف ؛ مايحلُو جَنىٰ ثَمَره فى كل أَوَان، ويَحْدُو(٢) ٱنتشارُ خبره علىٰ إعانة كل فكر فى وَصْفه عُنْوان ؛ فيتناقَلُ الرُّواةُ ذكر ذٰلك غَوْرا ونَجْـدا، وتلقىٰ الهممُ العليَّـة ٱدِّخار الجمَالِ به أنفعَ من كلِّ قِنْية وأجدىٰ؛ استمرارًا علىٰ شاكلة تحلَّتْ بالكَرَم، وحلّت من الجَلَال فى القُلَل والقِمَم، وحلَتْ آثارُهافى إيلاء نَفِيس المِنَح وجزيلِ القِسَم .

ولما غدَا مَنْصب الوِزارة موقُوفا علىٰ الَّذين طالمَا جَزُّوا بِهِمَمهم نَواصِىَ الخُطوب، وحازوا بِذِمَمهم المنَالَ فى مَقَاصد ٱستَشْهَدوا بهـا علىٰ إحرازِ كلِّ فضـيلة وٱستدَلُّوا؛ وكَفُّوا بكِفَايتهم أكُفَّ الفساد وردُّوا ، وحازُوا الفَعَال فى كلِّ ماسَعَوْا له وجَدُّوا ؛ وخلا الزمانُ ممَّن ينْهَض بِعبْء هذا الأمر الجسيم، وتُصْبِخ أنباؤُه فيه ذَكيَّة الأَرَج والنسيم ـ لم يبقَ غيرُك ممن يستَحِقُّ التخْييمَ فى عِراصه، والتحكيمَ فى ٱجتِناء الفَخْر منه وٱستخْلاصه ؛ وكان القَدَر سبقَ بانْفِصالك عن الخِدْمة لالضَعْف سرِيرَه ، ولا لقُوّة جَرِيره، ولا لكَدَرِ سـيره ؛ وكيفَ وأنت المتفرِّدُ بالكمال ، والمتجرِّدُ فى كل

(١) لعله فى صيانتها .

(٢) أى يبعث ويسوق ٱنتشار الخ .

مقام سلِم حَدُّ تقرُّبك فيه من حادثِ الكَلَال ؛ ولك فى الدولة الحقُوقُ التى أعتَدَتْ لكَ من وقع الاستزادة مجنًّا ، والمواقِفُ التى آغتذَتْ من دِرّة الإحماد بمـا أيْنَ الظِّئْرُ(١) لها وأنَّا ، والمَقاصدُ التى أُعْدمتْ منك البَدَل ، ولا آنحرفَ لك منها مَسْعًى عن مَناهِج الإصابةِ ولا عَدَل ، وتمكَّنْت فيها من عِنَان التوفيق بمـا لايُجارىٰ سيفُك فيـه قط ، ولا يَحْسُن له حالَ المَسْرىٰ إليه الحطّ ؛ والآثارُ التى أثارَتْ من كوَامن الرضا أفضَلَ مايُذْخَر ويُقتنىٰ ، وأنارَتْ من دلائل الزُّلفىٰ ما يُنْتَجز به وعْدُ المُـنىٰ ويُقتضىٰ ؛ لكن كان ذٰلك مسطُوراً فى الكِتاب ، وليتَبيَّنَ أنه لاعِوضَ عنـك فى الاستِحقاق للأمْرِ والاستِيجاب ؛ لم يُوجَدْ لهٰذه الرُّتْبة كُفُؤًا سِواك ، ولا يُنَزِّهها عن العَطَل غيرُ رائقِ حِلَاك ؛ فرأىٰ أمير المؤمنين تسليمَ مقاليدِها إليكَ إذْ كُنْت أحقَّ بها وأهلَها ، وممَّن يَجمَعُ بعدَ الشَّتات شَمْلَها ؛ فطوَّقك من قلائِدِها ماهو بأعْطافك ألْصَق ، وبتمامِ أوصافكَ ألْيَق : لتدَّرِع من عِزِّ الوِزارة جِلْبـابا لاتُخْلِق الأيامُ له جِدّه ، ولا تزال السُّعودُ بمـا يَئُول إلىٰ دَوام مُدّته ممتدّه ؛ وترتضعَ من لِبَان خِلَاها ما يَقْضِى لك بأن تَقِف نفْسَها عليك ، وتقِفَ آمالُ الأمثال دُونَ ما آنتهتِ الغايةُ فيه إليك ؛ وتعتمِدَ فيما عَدَقه بك منها وناطَه ، ووَفَّاك فيه حقُوقَ النظر وآشْتراطَه ؛ بحكَم توحَّدْتَ فى إحراز أدَواتها التى لايبْلُغ أحدٌ لك منها مَدىٰ ، ولم يَمُدّ طامعٌ إلىٰ مساجَلَتك فيها يدًا ـ ما يُرْضِى الله تعـالىٰ ويُرْضيه ، ويُخصُّ ذكرك بالطيب ويحيطه فتفُوزَ فَوْزا كبيرا ، وتُعيد الساعِيَ فى إدراك شأْوِك ظالِعًا حَسيرا .

ثم إنه شَفَع هذه المِنْحةَ التى قمَّصك مَجاسدَ نَخْرِها بالوُجُوب ، وعوَّضك فيها الدهْرُ بحادِثِ البِشْر عن سابق القُطُوب ـ بإيصالك إلىٰ حَضْرته ، وإدنائك من سُـدّته ؛ ومُنَاجاتِك بمـا يُتيحُ لك آمْتِطاءَ غارِبِ المجد وصَهْوته ، والاحتواءَ علىٰ خالِص السعد

(١) لعل الصواب أوْن يقال شرب الرجل حتى أون أى امتلأ .

وصَفْوته ؛ وحِبائك من صُنُوف التشريفات التى تَرُوق حِلىٰ خِلَالها ، وتتُوق الآمالُ إلىٰ إدْراكها ومَنَالها ؛ وصفتِ الكرامات التى وفَت المُنىٰ بهـا بعد مِطَالها ، ونفَت القَذىٰ عن مُقَل مغْضُوضة بسُوء فِعَـال الأيَّام ومَقَالها ؛ بمـا يُوطِئُ عَقِبَك الرجال ، ويُضَيِّق علىٰ مَنْ يُحاوِل مُجاراتَك المَسْرَح والمَجَال؛ ولم يقتنِـع بذٰلك فى حقِّ النُّعْمىٰ التى أعْداك فيهـا علىٰ الغِيَر، وأغْداكَ منها فى ظِلٍّ من الأمن البـادِى الأوضاحِ والغُرَر؛ حتّٰى ألحق بسِماتِك «تاجَ الوُزَراء» تنويهًا بذِكْرِك فى الزَّمان، وتنبيهًا علىٰ آخْتِصاصك لديْه بوَجَاهة الرُّتبـة والمَكَان؛ فصار مكْرُوه الأمور فى محبُوبِها سبَبا ، وخبَتْ نارُ كلِّ مَنْ سعىٰ فى تضـليل النظام وَجِيفا وخَبَبا ، حتّٰى الآملون أن يجعلوا تحْتَ الخلافة (١) زَمِنا ، وتُصْبِح رِبَاعُه بعد النَّضارة دِمَنا ؛ ليُعْقِبَهم ذاك نَيْلَ ماوصلت إليه الامضاء(؟) لهذا العزم . وبالجملة فالسَّآمةُ واقعةٌ من تَتَابُع هذه الشَّكاوىٰ ، وقد كان الأحَبُّ أن لايُضَمَّن الكتُبَ النافذةَ سِوىٰ تعهُّد الأنباء ، لا زال عَرْفُها أرِجًا من سائر الأرجاء والنَّواحِى . لٰكِن تأتِى مَجارِى الأَقْدار، ودَواعِى الاضطرار، إلىٰ مايُرَنِّقُ (٢) ماءَ الإرادة والإيثار؛ والآنَ فقد بلَغ المـاء ، وجلب من عَدِم الصَّبرِ الحِنَـاء؛ ولم يبق غيرُ هِزَّة دينِيَّةٍ منك تكْشِف بها هـذه المَعَرَّة، وتُتْحِف منها أميرَ المؤمنين بمـا يُتِمُّ لديْه أكملَ المَسَرَّه؛ فقُمْ فى ذٰلك مَقَـام مثْلك ـ وإن كان لا نظيرَ لكَ يُوجَد ـ تحْظَ بمـا يُمْضى لك فيه آستحقاقَ كلِّ الحمد ويُوجِب؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخةُ تقليد من ذٰلك، كتب بها عن المسترْشِد ـ فيما أظُن ـ لبعض وُزَرائه، وهى :

أما بعدُ، فالحمـدُ لله المنفَرِد بكِبْريائه ، المتفضِّـل علىٰ أَوْليائه ؛ مُجْزِل النَّعْماء ، وكاشِف الغَمَّاء؛ ومُسْبِـغ العَطاء، ومُسْبِل الغِطَاء؛ ومُسْنِي الحِبَاء، ومُسْدِى الآلَاء؛

(١) فى الأصل المخافة ولا معنى له .   (٢) لعله بمـا يرنق .

الذى لا يَئُوده الأعبـاء، ولا يَكِيـدُه الأعداء؛ ولا تبلُغه الأَوْهام، ولا تُحيط به الأَفْهام؛ ولا تُدْرِكه الأبصار، ولا تَتخيّـله الأفكار؛ ولا تُهْرِمه الأعوامُ بتَوَاليها، ولا تُعْجِزه الخُطُوبُ إذا ادْلَهَمَّت لياليهـا؛ عالِمِ هوَاجِس الفِـكَر، وخالِقِ كل شىء بقَدَر؛ مصرِّف الأقدار على مَشيئته ومُجْرِيها، ومانحِ مَواهِبه مَنْ أضحىٰ بيَدِ الشُّـكر يَمْتَرِيها؛ حمدًا يَصُوب حَيَاه، ويعْذُب جَنَاه؛ وتتهلَّل أَسِرَّةُ الإخلاص من مَطَاوِيه، ويستَدْعِى المَزِيدَ من آلائه ويقْتَضِيه.

والحمدُ لله الذى استخْلَص محمدًا صلّى الله عليه وسلم من زَكِىّ الأَصْلاب، وانتَخَبه من أشْرَف الأنْساب؛ وبعثه إلى الخلِيقَة رسُولا، وجعله إلى مَنْهَج النجاة دَلِيـلا؛ وهدبو السرك بور لـ لدل وقضاه (؟)[1] وشَهَر عَضْب العِزّ وانتْضاه؛ والأُمَمُ عن طاعةِ الرحمٰن عازِفه، وعلى عبادةِ الأوثانِ عاكِفه؛ فلم يزَل بأمْرِ ربّه صادعا، وعن التمسُّك بعُرا الضَّـلالِ الواهِيةِ وازِعا؛ وإلى رُكُوب محجَّة الهدى داعِيا، وعلى قَدَم الاجتهاد فى إبادة الغَوَاية ساعيا؛ حتّى أصبح وجْهُ الحق مُنِـيرا مُشْرِقا، وعُودُه بعـد الذُّبول أخْضَرَ مُورِقا؛ ومضى الباطلُ مُولِّيا أدباره، ومستَصْحِبا تَتْبِيره وبَوارَه؛ وقضى صلّى الله عليه وسلم بعـدَ أن مَهَّد من الإيمـان قَوَاعِده، وأحكَم آساسَه ووَطائِده؛ وأوضح سُبُل الفَوْز لمن اقْتفاها، ولَحَب طرِيقَها بعد مادَثَرت صُوَاها؛ فصلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وصَحْبه الأكْرَمين؛ صلاةً متَّصِلاً سَحُّ غَمَامها، مُسْفِرا صُبْحُ دَوامِها.

والحمـد لله على أنْ حازَ لأمير المؤمنين من إرْث النُّبوّة ما هو أجدَرُ بحِيازةِ مَجْده، وأولى بفَيْض عِدّه؛ ووطَّأ له من الخلافة المعظَّمة مِهـادًا أحفزَتْه نحوه حوافِزُ ارتياحه، وجذَبَتْه إليـه أزِمَّة راعه والْتِيَاحه؛ إلى أنْ أدرك من ذلك مُنَاه، وألقى الاستِقْرارُ الذى لايَرِيم عَصاه؛ وعَضَّد دولتَه بالتأييـد من سائرِ أنحـائه ومَرامِيه،

(١) كذا فى الأصول على هذه الصورة ولم نهتد إلى تثقيفه.

وأعراضه ومَغازيه؛ حتّى فاقتِ الدُّولَ المتقادِمَة إشراقا، وأعطَتْها الحوادثُ من التغيُّر عهدًا وفِيًّا ومِيثاقا؛ وأضحتْ أيامُه ـ أدامها الله ـ حاليةً بالعـدل أجيادُها، جاليةً فى مَيادِين النَّضارة جِيادُها؛ وراح الظُّلمُ دارسـةً أطلالُه، مقلَّصا سربالُه، قد أَنْجَمَ سَحابُه، وزُمَّت للرِّحْلة رِكابُه؛ فما يستَمِرّ منها أمْرٌ إلا كان صُنْعُ الله سبحانه مُؤيِّدَه، والتوفيقُ مصاحِبَه أنَّى يَمَّمَ ومُسـدِّدَه؛ وهو يستَوْزِعه ـ جلَّت عظمتُه ـ شُكْرَ هـذه النِّعمه، ويستَزِيدُه بالتحدُّث بها من آلائِه الجَمَّه؛ ويستمِدُّ منه المُعونةَ فى كلِّ أرَبٍ قصدَه وأمَّه، وشَحَذ لانتحائِه عَزْمه؛ وما توفيقُه إلَّا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنِيب .

ولـمَّـا كانتِ الوِزارةُ قُطْبَ الأمور الذى عليه مَدَارُها، وإليـه إيرادُها وعنـه إصْدارُها؛ وخلَا منصِبُها من كافٍ يكونُ له أهْلا، وينْظِم من شَمَاله شَمْلا، أجالَ أميرُ المُؤمنين فيمن يَخْتَار [لذ] لك فِكْرَه، وأنْعَم [النظر] لأهل الاصطفاء لهذه المنْزِلة حتّى صرّح مَحْضُ رأيِه عن زُبْدة اختيارِك، وهداه صائبُ تدبيره إلىٰ اقْتِراحك وإيثارِك؛ وألقىٰ إليك بالمَقَاليـد، وعوّلَ فى دَوْلتـه القاهرةِ علىٰ تدبيرِك السَّـديد؛ وناطَ بكَ من أمرِ الوِزَارة مالم يُلْفِ له سِواكَ مستَحِقّا، ولا لنَسـيم اسْتِيجابِه مستَرِقّا؛ علما بمـا تُبْـديه كفايتُك المشهوره، وإيَالَتُك المَخْبُوره؛ من تقويم ما أعجزَ مِيادُه، وإصلاح ما استَشْرىٰ فَسادُه؛ واستقامةِ كلِّ حالٍ وهىٰ عِمادُها، وأصلتَ علىٰ كثْرة الاقتداح زِنادُها؛ وتثَبُّتا لـمـا تبْسِم عنه الأيامُ من آثار نظرِك المُعْرِبةِ عن احتوائك علىٰ دلائل الجَزاله، واستيلائِكَ علىٰ مَخايِل الأَصاله؛ اللذَيْن تُنالُ بهما غاياتُ المَعـالى، وتُفْرَع الذُّرىٰ والأَعَالى .

ثم إنَّ أمير المؤمنين بمقتضىٰ هذه الدَّعاوىٰ اللازمه، وحُرُمات جَدِّك وأبِيك السالفة المتقا مه؛ التى استَحْصَدتْ فى الدار العزيزة قُوىٰ أمْراسِها، وأدْنَتْ منك

الآنَ ثمرة غِراسِها، رأىٰ أن يُشيِّد هــذه العارفةَ التى تأرّجَ لدَيْك نسيمُها ، وبدَتْ علىٰ أعْنـاق نَحْـرك رسُومُها ؛ وجادتْ رِباعَك شآبِيبُها ، وضفَتْ عليك جلابِيبُها ؛ بمـا يَزِيدُ أزْرَكَ آشتِدَادا ، و باعَ أملك طُولا وآمْتِدادا ؛ فأدْناك من شريف حَضْرته مُناجِيا ، ومنَحَك من مَزَايا الأيّام مايُكْسِبُك ذِكْرا فى الأعقاب سارِيًا ، وعلىٰ الأحقاب باقِيًا ؛ وأفاضَ عليك من المَلَابس الفاخرِةِ ما حُزْتَ به أوصافَ الجَمـال ، وجمع لك أبَادِيدَ الآمال ؛ وقلَّدكَ وحصـل (؟)[1] بداوه ، وأمْطاكَ صَهوةَ سابِحٍ يُساوِى الرِّياحَ سَبْقا ، ووَسَمك بكذا وكذا فى ضمن التأهيل للتكنية ، إبانةً عن جميـل معتقَدِه فيك ، ورعايةً لوسائلك المُحْكَمة المرائرِ وأواخِيك .

وأمرك بتقوىٰ الله التى هى أحصَنُ المَعَاقل ، وأعذَبُ المناهل ؛ وأنفعُ الذَّخائر ، يومَ تُبْلىٰ السَّرائر ؛ وأن تستشعِرها فيما تُبْديه وتُخْفيه ، وتَذَرُه وتأْتيه : فإنها أفضلُ الأعمال وأوجَبُها ، وأوضَحُ المســالك إلىٰ الفَوْز برضا اللهِ وأحَبُها ، وأجلبُ الأشـياء للسعادة الباقية ، وأجْناها لقُطُوف الجِنانِ الدانيه ؛ عالمًا بمـا فى ذٰلك من نَفْع تتكامَلُ أقسامه ، وتتفتَّح عن نَوْر الصَّلاح الجامِعِ أكمامُه ؛ قال الله جلَّت آلاؤُه ، وتقدَّستْ أسماؤه : ﴿وسارِعُوا إلىٰ مَغْفِرةٍ مِنْ ربِّكُمْ وجَنَّةٍ عَرْضُها السَّمٰواتُ والأرضُ أُعِدّتْ للمتَّقِين﴾ . وقال تعالىٰ حاضًّا علىٰ تَقْواه ، ومخبِرا عما خَصَّ به متَّقيه وحَباه ؛ وكفىٰ بذٰلك داعيًا إليها ، وباعثًا عليها : ﴿ إنَّ اللهَ يحِبُّ المتَّقين ﴾ .

وأمرَك أن تتوخّى المَقاصِدَ السليمةَ وتأتِيها ، وتَتَوخَّم المواردَ الوخيمةَ وتجتَوِيها ؛ وأن تُتْبِـع بالحزم أفعالَك ، وتجعل كتابَ الله تعالىٰ إمامَك الذى تهتدى به ومِثالَك ؛ وأن تكُفَّ من نفسك عند جِماحِها و إبائِها ، وتصُدَّها عن متابَعةِ أهْوائها ؛ وتثْنِىَ عند آحْتِدام سَوْرة الغضب عِنانَها ، وتُشْعِرَها من حميــد الخلائق مايُوافِق إسرارُها فيه

(١) كذا فى الأصل على هذه الصورة والمراد أنه انعم عليه بخلعة وسيف وجواد . تأمل .

إعلانَها : فإنها لم تزَلْ إلىٰ منزِلة السُّوء المُرْدِيَة داعيَه، وعن سُلُوك مَناَهِج الخير المُنْجِية ناهِيَه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بالسُّوء إلَّا مارَحِمَ رَبِّى إنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَحِيم ﴾ .

وأَمَرك أن تتخيَّر للخِدمة بينَ يدَيْك من بَلَوْتَ أخْبـاره ، وآستَشْفَفْتَ أسْرارَه ؛ فعلمتَه جامعًا أدواتِ الكِفَايه، موْسُوما بالأمانة والدِّرايه؛ قد عرَكتْه رَحا التَّجارِب عَرْكَ الثِّفَال، وحلَبَ الدَّهْرَ أشطُرَه علىٰ تصاريفِ الأحْوال : ليكونَ أمْرُ مايُولَّاه علىٰ مَنْهَج الآستقامةِ جارِيا ، وعن مَلَابِس الخَلَل والآرتيـابِ عارِيا ؛ فلا يَضَعُ فى مَزْلَقةٍ قَدَما ، ولا يأتِى ما يَقْرَع سِنَّه لأجْلِه نَدَما ؛ وأن تَمْنَح رعايَا أميرِ المؤمنين من بِشْرِك ما يعقِل شَوارِدَ الأهواء ، ويَلْوِى إليك بأعناقِ نَوافِرِها اللائى آعتصَمْنَ بالجِمَاح والإبَاء؛ مازجًا ذلك بشِدّةٍ تَستَوْلِى حُمَيًّا رَهْبتها علىٰ القُلوب، وتَفُلُّ مرهَفاتُ بأسها صَرْفَ الخُطُوب، من غير إفراطٍ فى آستدامةِ ذلك يضِيقُ نظامُها به، ويُغْرِيها اتِّصالُه باستِشْعار وَعْر الخطإ وآستِيطاءِ مَرْكَبِه .

وأمرك أن تُعْذِبَ مَوْرِدَ الإحسان لمن أحمَدْتَ بَلاءَه ، وتحقَّقتَ غَنـاءه ؛ وآستحسَنْتَ أثرَه، وآرتضَيْتَ عِيانَه وخَبَرَه ؛ وتُسْدِل أَسْمالَ الهَوان علىٰ من بلَوْتَ فعلَه ذَمِيما، وألفيتَه بعِرَاص الإساءة مُقِيما، و إلىٰ رِباَعها المُوحِشةِ مستأْنِسًا مستَدِيما ؛ كَيْلًا لكلِّ آمْرِئٍ بِصَاعه، وآتِّباعا لما أمر اللهُ باتِّباعه ؛ وتجنُّبا للإهمال الجاعِلِ المُحْسنَ والمسِيءَ سواء، والمُعِيـدِ هما فى مَوْقِف الجزاء أكْفَاء ؛ فإنَّ فى ذلك تزهيـدًا لذوى الحُسْنىٰ فى الإحسان، وتتابُعـا لأهل الإساءة فى العُدْوان؛ ولوْلا مافرضـه اللهُ علىٰ أميرِ المؤمنين من إيجابِ الحُجَّـه، والفَكَاكِ من رِبْقة الآجتهـادِ ببلَاغ المَعْذِره، لثَنىٰ عِنَانَ الإطالة مُقْتَصِرا، وآكتفىٰ ببعض القَوْل مختَصِرا؛ ثقةً بآمتناع سَدَادك ونُهَاك،

أن يَرَاكَ صوابُ الفعل حيثُ نَهاك ؛ وآستِنامةً إلىٰ ماخوّلَكَ اللهُ من الرأْى الثاقب، المُطَّلِع من خصائص البَدِيهة علىٰ محتَجب العَوَاقب . فآرتبِطْ يافلانُ هـذه النُّعْمىٰ التى جادَتْ دِيَمُها مَغَانِيك، وحقَّقتِ الأيَّامُ بمَكَانتهـا أمانِيك ؛ بشُكْرينطِقُ به لسانُ الآعتراف، فيؤَمِّن وحْشِيَّ النِّعم من النِّفار والآنْحراف ؛ وآسلُكْ فى جَمَـال السِّيره، والآقتداء بهذه الأوامر المبَيَّنة المذكوره، جَدَدا يُغْرِى بحمدك الألْسنه، ويُعْرِب عن كونك من الذين يستَمِعُون القَوْلَ فيَتَّبِعُون أحسَنَه ؛ والله يصَدِّق مَخِيلةَ أمير المؤمنين فيك، ويُوزِعُك شكرَ ما أوْلاك ويُولِيـك ؛ ويجعلُ الصَّوابَ غرَضا لنِبَال عزائِمه، ويَذُودُ عن دولتِه القاهرةِ كتَائبَ الخُطوب بصَوَارِم السَّعد ولهَـاذمه ؛ ويصِلُ أيامَه الزاهرةَ بالخُلُود، ويبْسُط علىٰ أقاصِى الأرضِ ظِلَّه الممْدُود ؛ ما آستهَلَّ جَفْنُ الغيث المِدْرار، وآبتسمَتْ ثُغُور النُّوَّار، إن شاء الله تعالىٰ .

النـــوع الثانى

(ممـا كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكْتَب لأرباب الوظائف من أصحاب السُّيوف ، وهو علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(العُهُـــود ، وهى أعلاها رُتْبَـــةً)

وطريقتهم فيهـا أن تُفْتَتح بلفظ : «هـذا ما عهِد عبدُ الله ووليُّه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىُّ إلىٰ فلان الفلانىّ حينَ عرفَ منـه » ويذكُر بعضَ مناقبه، ورُبَّمـا تعرَّض لثناءِ سُلطان دولتِه عليه . ثم يقال : « فقلَّده كذا وكذا » ثم يقال : «وأمَره بكذا » ويأتى بمـا يُناسب من الوصَايَا . ثم يقال : « فتقلَّدْ كذا وكذا » ثم يقال :

«هذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليك، وحُجَّتُه عليك» أو نحو ذلك؛ ولا يُؤْتَىٰ فيه بتحميد فى أوّل العهـد ولا فى أثنائه كما تقدّم فى عهُود الخلفاء للملوك.

عهـــود أربابِ السيوف

(وهى عدّة ولايات)

منها — النظر فى المَظَالم.

وهـذه نسخةُ عهدٍ كتَب به أبو إسحـاقَ الصابِى، عن المُطِيع لله، إلىٰ الحُسَيْن ٱبن مُوسىٰ العَلَوِىّ، بتقليد المَظَالم بمدينة السلام، وهى :

هذا ماعَهِد عبدُ الله الفضلُ الإمامُ المطيع لله أميرُ المؤمنين، إلىٰ الحسين بن مُوسىٰ العَلَوِىّ، حينَ ٱجتمَع فيه شرَفُ الأعْراق، والأَخْلاق؛ وتكامَلَ فيه يُمْنُ النقائب، والضَّرائب؛ وعَرَف أميرُ المؤمنين فيه فضْـلَ الكِفَاية والغَنَاء، ورَشادَ المقاصِـد والأَنْحاء؛ فى سالِف ما ولّاه إيّاه من أعمـاله الثقيلةِ التى لم يزَلْ فيها محُمودَ المَقَام، مستَمِرّا علىٰ النِّظام؛ مُصِيبَ النَّقْض والإبْرام، سَدِيدَ الإسْداء والإلْحام؛ زائداً علىٰ المُزَايِدين، راجِحًـا علىٰ المَوازِين؛ فائتًا للحاذين، مُبِرًّا علىٰ المُبارين؛ فقلَّده النظـرَ فى المظالم بمدينة السـلام وسَوادِها وأعمالِهـا، وما يَجْرِى معَها؛ ثقةً بِعلْمه ودِينه، وٱعتمادًا علىٰ بصيرتِه ويَقِينه؛ وسُكُونًا إلىٰ أنّ الأيام قد زادَتْه تَحْلِيا وتهذيبا، والسِّنّ قد تناهَتْ به تحنيكا وتجْرِيبا؛ وأن صَنِيعةَ أمير المؤمنين مستقِرّةٌ منه عندَ أكرم أكفائِها، وأشرَفِ أوليائِها؛ برَحِمِه المَتَّاءِ(١) الدانِيه، وحُرْمته الشامِخَة العالِيَه، ومعْرِفته الثاقِبَة الدَّاعِيَة إلىٰ التفوِيض إليه، الباعثةِ علىٰ التعويلِ عليه؛ وأميرُ المؤمنين يستمدُّ

---

(١) لعل الصواب الماتّة.

اللهَ فى ذٰلك أحسَنَ ماعوّده من هِدايةٍ وتَسْديد، ومعونةٍ وتأْييد؛ وما توفيقُه إلّا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنيب .

أمره بتقْوىٰ الله التى هى الجُنَّة الحَصينه ، والعِصْمة المَتينه ؛ والسبَبُ المتَّصِــلُ يومَ ٱنقطاع الأسباب ، والزادُ المبلِّغ إلىٰدار الثَّواب ؛ وأن يستَشْعِرَها فيما يُسِرّ ويُعْلِن ، ويعتَمِدَها فيما يُظْهِر ويُبْطِن ؛ ويجعَلَها إمامَــه الذى يَنْحُوه ، ورائدَه الذى يَقْفُوه ؛ إذ هى شيمةُ الأبْرار والأخيار . وكان أولىٰ مَنْ تعلَّق بعَلائقِها ، وتمسَّــك بوَثائقِها ؛ لمَفْخَره الكريم ، ومَنْصِبه الصَّميم ؛ وٱســتظلالِه مع أمير المؤمنين بدَوْحة رسُولِ الله ـ صلّى الله عليه وعلىٰ آله ـ التى يَكْتنَّان فى فِنَائها ، ويأْويَان إلىٰ أفْيائها ؛ وحقيقٌ علىٰ من كان منها مَنْزَعُه ، وإليها مَرْجِعُه ؛ أن يكونَ طيِّبا زكِيّا ، طاهِرا نَقِيّا ؛ عفيفاً فى قوله وفعلِه ، نظيفًا فى سِرّه وجَهْره ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أهلَ البَيْتِ ويُطَهِّركُمْ تَطْهِيرا ﴾ .

وأمره بتلاوةِ القُرْءان ، وتأمُّلِ مافيــه من البُرْهان ، وأن يجعــلَه نُصْبا لناظره ، ومألَفا لخاطره ؛ فيأخُذُ به ويُعْطِى ، ويأتَمِرُله وينْتَهِى ؛ فإنه الحجةُ الواضحه ، والمحجَّة اللائحه ؛ والمُعْجزة الباهرة ، والبيِّنة العادلة ؛ والدليــلُ الذى من ٱتَّبعه سَــلِم ونجَا ، ومن صَدَف عنه هَلَك وهَوىٰ ؛ قال الله عز من قائل : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيم حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره أن يجْلِس للخُصوم جلوسًا عامّا ، ويُقْبِل عليهم إقبالاً تامّا ؛ ويتصَفَّحَ مايُرْفَع إليــه من ظُلاماتِهم ، ويُنْعِمَ النظر فى أسباب مُحاكَماتهم ؛ فما كان طريقُه طريقَ المنازعة المتعلّقــة بنظر القُضاة وشهــاداتِ العُدُول رَدَّه إلىٰ المتولِّى للحُكْم ، وما كان طريقُــه الغُصوبَ المحتاجَ فيها إلىٰ الكَشْف والفحص ، والاستشفاف والبَحْث ؛

نظر فيه نظرَ صاحبِ المَظالم ، وآنتزع الحقّ ممن غَصَب عليه ، وآستخلصه ممن آمتدّتْ له يدُ التعدّى والتغرر إليه ، وأعاده إلىٰ مستحقّه ، وأقرّه عند مستوجبه ؛ غيْرَ مراقِب كبيرًا لكِبَرِه ، ولا خاصًّا لخُصُوصه ، ولا شريفًا لشَرَفه ، ولا متسلّطنا لسُلْطانه ؛ بل يقـدِّمُ أمرَ الله جلَّ ذكره فى كل ما يأْتِى ويَذَر ، ويتوخّى رضاه فيما يُورِد ويُصْدِر ؛ ويكونُ علىٰ الضعيف المُحِقّ حَدِبا رءُوفا حتّى ينْتَصِر وينتصف ، وعلىٰ القوىّ المُبْطِل شديدًا غليظا حتّى ينقادَ ويُذْعِن ؛ قال الله جل وعز : ﴿ يا داوُدُ إنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفةً فى الْأَرْضِ فاحْكُمْ بينَ النَّاسِ بالحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّون عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ بِما نَسُوا يَوْمَ الحِسابِ ﴾ .

وأمره أن يَفْتَح بابَه ، ويُسهل حِجابَه ، ويبْسُط وجْهَه ، ويُلين كَنَفه ؛ ويَصْبِر علىٰ الخُصُوم الناقِصين فى بيانِهم حتّى تَظْهرَ حُجّتُهم ، ويُنْعِمَ النظر فى أقوال أهلِ اللَّسَن والبيانِ منهم حتّى يعلَمَ مُصيبَهم ، فربّما آستَظْهَر العرِيضُ المُبْطِل بفضل بيانه ، علىٰ العاجزِ المُحِقِّ لِعِىّ لسانه ؛ وهنالك يَجب أن يقَعَ التصفُّح علىٰ القَوْلين ، والآستظهارُ للأمرَيْن : ليُؤْمَن أن يزُولَ الحقُّ عن سَنَنِه ، ويَزْوَرَّ الحكمُ عن طريقه ؛ قال الله عز وجل : ﴿ يأَيُّها الَّذِين آمَنُوا إنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بنَبَإٍ فتبيَّنُوا أنْ تُصيبُوا قَوْمًا بِجَهالة فَتُصْبِحُوا علىٰ مافعلْتُمْ نادِمينَ ﴾ .

وأمره بأنْ لايَرُدَّ للقُضاةِ حُكمًا يُمْضُونه ، ولا سِجِلًّا يُنَفِّذُونه ؛ ولا يُعَقِّب ذلك بفَسْخ ، ولا يُطَرِّق عليه النقض ؛ بل يكونُ لهم موافِقًا مُؤازِرا ، ولأحكامهم عاضِدًا ناصرا ؛ إذْ كان الحقُّ واحدًا وإن آختلفتِ المَذاهبُ إليه . فإذا وجَدَ القِصَّةَ قد سِيقَتْ ، والحُكومةَ قد وقعَتْ ؛ فليس هناك شَكٌّ يوقَفُ عنده ، ولا رَيْب يُحتاج

إلى الكَشْف عنـه ، وإذا وجد الأمر مشْتَبِها ، والحقَّ ملتَبِسا ، والتغرُّر مستعْمَلا ، والتغلُّبَ مسْتَجازا ، نظَر فيه نَظَر الناصر لحقِّ المحقين ، الداحِض لبـاطل المُبْطِلين ؛ المُقَوِّى لأيْدى المستضْعَفين ، الآخذ على أيدى المعتَدين ، قال الله عز وجل : ﴿ يأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالدَيْنِ والْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْفَقِيرًا فَاللهُ أَوْلىٰ بِهِمَا فلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وإِنْ تَلْوُا أَو تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَـا تَعْمَلُونَ خَبِيرا ﴾ .

وأمره أن يسـتَظْهِرَ على معْرِفتِه بمُشاوَرة القُضاة والفُقَهاء ، ومُبَـاحثةِ الرَّبَّانِيِّين والعُلَماء ، فإن آشتَبَهَ عليه أمرٌ آسترْشَدَهم ، وإن عَزُب عنه صوابٌ آستدلَّ عليـه بهم ؛ فإنهم أزِمَّة الأحكام ، وإليهم مَرْجِع الحُكَّام ، وإذا آقْتدىٰ بهم فى المُشْكلات ، وعَمِل بأقوالهم فى المُعضِلات ، أمِنَ من زَلَّة العـاثر ، وغَلْطة المسـتَأثِر ، وكان خَليقا بالأَصالةِ فى رأْيه ، والإِصَابةِ فى أبحاثه ، وقد أمر الله ـ تقدّستْ أسماؤه ـ بالمُشاوَرة فعرَّفَ الناسَ فضلَها ، وأسْلَكَهم سُبُلَها ، بقوله لرسوله صلّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوكَّلْ عَلىٰ اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلين ﴾ .

وأمره أن يكتُبَ لمن تَوَجَّب له حَقّ من الحُقوق إلىٰ صاحب الكُوفة بالشَّـدّ على يده والتمكُّن له منه ، وقَبْض الأيْدى عن مُنازعته ، وحَسْم الأطماع فى مُعارضَته ؛ إذ هو مندُوبٌ لتنْفيـذ أحكامه ، ومأمورٌ بإمضاء قَضَاياه ؛ ومتىٰ أخذ أحدٌ من الخصوم إلىٰ مكاذَبةٍ فى حقٍّ قد حُكم عليه به ، أَخَذَ علىٰ يده وكَفَّه عن عُدْوانه ، وردّه إلىٰ حُكْم اللهِ الذى لايُعْدَل عنـه ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَعَـدَّ حُدُودَ اللهِ فأُولئِكَ هُمُ الظالِمُونَ ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجّته عليك ؛ قد أرشدَك وذكّرك ، وهداك وبصّرك ؛ فكُنْ إليه مُنتهيا ، وبه مُقتديا ؛ وآستعِنْ بالله يُعِنْك ، وآستكْفِه يَكْفِك .

وكتب الناصح أبو الطاهر فى تاريخ كذا .

ومنها — نِقابةُ الطالِبيِّين : وهى المعبَّر عنها الآنَ بنِقَابة الأشراف .

وهذه نسخةُ عهد بنِقابة الطالِبيِّين ، كتب به أبو إسحاق الصابى ، عن الطائع لله إلى الشريف أبى الحسن محمّد بن الحُسَيْن العَلَوىّ المُوسَوىّ ، مضافاً إليها النظرُ فى المساجد وعِمارتِها ، وآستخلافِه لوالده الشريف أبى أحمد الحُسَين بنِ موسى على النظر فى المَظَالم والحجِّ بالناس ، فى سنة ثمانين وثلثمائة ، وهى :

هذا ما عَهِد عبدُ الله عبدُ الكريم ، الإمامُ الطائعُ لله أميرُ المؤمنين ، إلى محمّد بن الحسين بن مُوسى العَلَوىّ ، حينَ وصلَته به الأنساب ، وقُرِنت(1) لديه الأسباب ، وظهرت دلائلُ عقله ولَبَابته ، ووضَحت مخايِلُ فضله ونَجابتِه ، ومهَّد له بهاءُ الدولة وضياءُ الملة أبو نَصر بنُ عضُدِ الدولة مامهَّد عند أمير المؤمنين من المَحَلِّ المَكين ، ووصَفَه به من الحِلْم الرَّزين ؛ وأشار به من رَفْع المَنْزلة ، وتقديم الرُّتْبة ؛ والتأهيل لوِلَاية الأعمال ، وتحمُّل الأعْباء والأثْقال ؛ وحيثُ رَغَّبه فيه ، سابقةُ الحسين أبيه ، فى الخِدْمة والنصيحه ، والمُشايعةِ الصَّحيحه ؛ والمواقف المحمُوده ، والمَقَامات المشْهُوده ؛ التى طابتْ بها أخبارُه ، وحسُنَت فيها آثارُه ؛ وكان محمدٌ متخلّقا بخلَائقه ، وذاهِبًا على طرَائقِه : عِلْما ودِيَانه ، ووَرَعا وصِيَانه ؛ وعِفّةً وأمَانه ، وشَهامةً وصَرامه ؛

(1) فى "المثل السائر" ص ١٢٢ « وتأكدت له الاسباب » .

وتَفَرُّدا بالحظ الجَزِيل : من الفضـل الجميل والأدَب الجَزْل ، والتوجُّه فى الأَهْل ؛ والإيفاءِ فى المناقِب علىٰ لِدَاته وأترابه ، والإبْرار علىٰ قُرَنائه وأضْرابه ـ فقلَّده ما كان داخلًا فى أعمـال أبيه من نِقَابة نُقَباء الطالِبِيِّين بمدينة السـلام وسائِر الأعمـال والأمصـار ، شَرْقا وغَرْبا ، وبُعْـدا وقُرْبا ؛ وٱختصَّه بذٰلك جَذْبا بضَبْعه ، وإنافة بقَدْره ، وقضاءً لِحَقِّ رحمه ؛ وتَرْفِيهـا لأبِيه ، وإسعافًا له بإيثارِه فيـه ؛ إلىٰ ما أمَر أميرُ المؤمنين باستخلافِه عليه من النَّظَر فى المَظَالم ، وتسييرِ الحَجِيج فى أَوَان المَوَاسم ؛ والله يُعرِّف أمير المؤمنين الخِيَرَة فيما أَمَر ودَبَّر، وحُسْنَ العاقبـة فيما قَضىٰ وأمضىٰ ؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنيب .

أمره بتقْوىٰ الله التى هى شِعارُ المؤمنين ، وسِيمَا الصالحين ، وعِصْمةُ عبـاد الله أجمعين ؛ وأن يعتقِدَها سِرًّا وجَهْرا ، ويعتمِدَها قَوْلا وفِعْلا ؛ فيأخُذُ بهـا ويُعْطِى ، ويَرِيشُ ويَبْرِى[(١)] ؛ ويأْتِى ويَذَر ، ويُورِدُ ويُصْـدِر ؛ فإنها السببُ المَتِين ، والمَعْقِل الحَصِين ؛ والزادُ النافعُ يومَ الحساب ، والمَسْلَكُ المُفْضِى إلىٰ دار الثَّواب ؛ وقد حَضَّ اللهُ أولياءَه عليها ، وهداهم فى مُحْكَم كتابه إليها ؛ فقال : ﴿ يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولاتَمُوتُنَّ إلَّاوأنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ .

وأمره بتلاوةِ كتاب الله سبحانَه مُواظِبـا ، وتَصَفُّحه مُداوِما مُلازِما ؛ والرُّجوع إلىٰ أحكامه فيما أحَلَّ وحَرّم ، ونَقَض وأبْرم ، وأثابَ وعاقَب [وباعَدَ وقارَب][(٢)] ؛ فقد صَحَّح الله بُرهانَه [وحُجَّته][(٢)] ، وأوضح مِنْهـاجَه ومَحجَّته ؛ وجعله فَجْرا فى الظُّلُمات طالِعا ، ونُورا فى المُشْكِلات ساطِعا ؛ فمن أخَذَ به نجا وسَلِم ، ومن عَدَل عنه هلك وهَوىٰ

(١) فى "المثل السائر" بدله «ويسر وينوى» .

(٢) الزيادة من " المثل السائر " .

[وندم] (١) . قال الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ .

وأمره بتنزيه نَفْسه عما تدْعو إليه الشَّهوات، وتتطلّع إليه النَّزوات ؛ وأن يَضْبِطها ضَبْط الحَكِيم ، ويَكُفَّها كَفَّ الحليم ؛ ويجعلَ عقْلَه سلطاناً عليها ، وتمييزه آمرًا ناهيًا لها ؛ فلا يجْعلْ لها عُذْرا إلىٰ صبْوة ولا هَفوه ، ولا يُطلِقْ منها عنانا عند ثَوْرة ولا فَوْره ؛ فإنَّها أمَّارة بالسُّوء ، مُنْصبَّة إلىٰ الغيّ ؛ فالحازمُ يتَّهمها عند تحرُّك وَطَره وأرَبه ، وٱهْتياجِ غَيْظه وغَضَبه ؛ ولا يَدَع أن يَغُضَّها بالشَّكِيم ، ويَعْرُكَها عَرْك الأديم ؛ ويقُودَها إلىٰ مصالحها بالخَزائم ، ويعتقِلَها عن مُقارَفة المحارم والمآثم ؛ كيما يَعِزَّ بتذليلها وتأديبها ، ويَجِلَّ برياضتها وتَقْويمها ؛ والمُفَرِّطُ فى أمره تطْمَح به إذا طمَحتْ ، ويجمَحُ معها أنَّى جمَحتْ ؛ ولا يلْبَث أن تُورِدَه حيثُ لا صَدَر ، وتُلجِئَه إلىٰ أن يعتذر ؛ وتُقيمَه مُقامَ النادم الواجِم ، وتتنكَّبُ به سَبِيلَ الراشد السالِم ؛ وأحَقُّ من تحلَّى بالمحاسن ، وتصدَّى لٱكتِساب المحامد ؛ مَنْ ضَرَب بمِثْل سَهْمه فى نَسَب أمير المؤمنين الشريف ، ومَنْصِبه المنيف ؛ وٱجتَمع معه فى ذُؤابة العِتْرة الطاهِره ، وٱستظَلّ بأوْراق الدَّوْحة الفاخِره ؛ فذاك الذى تتضاعَفُ له المآثرُ إنْ آثَرَها ، والمثالِب إنْ أسَفَّ إليها ؛ ولا سيَّما من كان مندُوبا لسياسَة غيْره ، ومُرَشَّحا للتقليد علىٰ أهْله ؛ إذ ليس يَفِى بإصلاح مَنْ وُلّى عليه ، مَنْ لا يَفِى بإصلاح ما بين جنْبَيه ؛ وكان من أعظم الهُجْنة أن يأمُرَ ولا يأْتَمِر ، ويَزْجُرَ ولا يَزْدجِر ؛ قال الله عزّ وجلّ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

(١) الزيادة من "المثل السائر" .

وأمره بتصفّح أحوالِ من وُلِّى عليهم وآستِقْراء مذاهِبِهم ، والبحثِ عن بَواطِنهم ودخائِلِهم ؛ وأن يعْرِف لمن تقدّمَتْ قدَمُه منهم وتظاهر فَضْلُه فيهم مَنْزِلتَه ، ويُوفِّيَه حقَّه ورُتْبَته ؛ وينْتهِىَ فى إكرام جماعتهم إلىٰ الحُدُود التى تُوجبها أنسابهم وأقدارُهم ، وتقتضِيها مواقِفُهم وأخْطارُهم : فإنّ ذلك يلزَمُه لشيئين : أحدُهما يخُصُّه وهو النَّسَب الذى بينَه وبينَهم ، والآخَرُ يعُمُّه والمسلمين جميعا ، وهو قولُ الله جلَّ ثناؤه : ﴿ قُلْ لَاأَسْأَلُكُمْ عَلَيْه أجْرًا إلَّا المَوَدّةَ فى القُرْبىٰ ﴾ فالمودّةُ لهم والإعظامُ لأكابِرِهم ، والإشبالُ(١) علىٰ أصاغِرِهم ؛[واجب](٢) متضاعِفُ الوجوب عليه ، ومتأكِّدُ اللزوم له ؛ ومن كان منهم فى دُونِ تلك الطَّبَقة من أحْداثٍ لم يَحْتنِكوا ، أو جِذْعانٍ لم يقْرَحُوا ؛ مُجْرِينَ إلىٰ مايُزْرِى بأنْسابهم ويَغُضّ من أحسابِهِم ، عذَلهم ونبَّههم ، ونَهَاهم ووعَظَهم ؛ فإن نَزَعُوا وأقلَعُوا فذاك المُرادُ بهم ، والمقصُود إليْه فيهم ؛ وإن أصَرُّوا وتتابَعُوا ، أنالهم من العقُوبة بقَدْر مايكُفّ ويرْدَعُ ؛ فإن نفَع وإلا تجاوزه إلىٰ مايُوجع ويلذَع ؛ من غير تطَرُّق لأعْراضِهِم ، ولا آنتهاكٍ لأحْسابهم ؛ فإنَّ الغرض منْه الصِّيانه ، لا الإهَانه ؛ والإدَاله ، لا الإذَاله . وإذا وجبَتْ عليهم الحقُوق ، أو تعلَّقتْ بهم دواعى الخُصُوم ، قادَهُم إلىٰ الإغفاء بما يصح منها ويجب ، والخُروج إلىٰ سَنَن الحق فيما يشْتَبِه ويلتَبِس . ومتىٰ لزِمَتْهم الحدودُ أقامها عليهم بحَسَب ما أمر الله به فيها ، بعد أن تثْبُت الجرائمُ وتَصِح ، وتَبِينَ وتتَّضِح ؛ وتتجرّدَ عن الشكِّ والشُّبهه ، وتتجلّى من الظنّ والتُّهَمه ؛ فإن الذى يُستَحَبُّ فى حدود الله أن تُدْرأ عن عباده مع نُقْصان اليقين والصِّحّة ، وأن تُمْضى عليهم مع قِيام الدليل والبَيِّنة . قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾ .

---

(١) الإشبال العطف وفى "المثل السائر" « والاشتمال » وهو بمعناه .

(٢) الزيادة عن "المثل السائر" .

وأمره بحياطة هذا النّسب الأطهر، والشّرف الأفخر، عن أن يدّعيه الأدعياء، أو يدخل فيه الدّخلاء، ومن انتمى إليه كاذبا، وانتحله باطلا، ولم يوجد له بيت فى الشّجره، ولا مصداق عند النّسّابين المهره، أوقع به من العقوبة مايستحقّه، ووسمه بما يعلم به كذبه وفسقه، وشهره شهرة ينكشف بها غشّه ولبسه، وينزع بها غيره ممن تسوّل له مثل ذلك نفسه. وأن يحصن الفروج عن مناكحة من ليس لها كفؤا، ولا مشاركها فى شرفها وفخرها؛ حتّى لا يطمع فى المرأة الحسيبة النّسيبة إلا من كان مثلا لها مساويا، ونظيرا موازيا؛ فقد قال الله تعالى: ﴿إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا﴾.

وأمره بمراعاة متبتّلى أهله ومتهجّديهم، وصلحائهم ومجاوريهم، وأراملهم وأصاغرهم؛ حتّى يسدّ الخلّة من أحوالهم، ويدرّ الموادّ عليهم، وتتعادل أقساطهم فيما يصل إليه من وجوه أموالهم؛ وأن يزوّج الأيامى، ويربّى اليتامى؛ ويلزمهم المكاتب ليتلقّنوا القرءان، ويعرفوا فرائض الإسلام والإيمان؛ ويتأدّبوا بالآداب، اللائقة بذوى الأحساب: فإنّ شرف الأعراق، محتاج إلى شرف الأخلاق، ولا حمد لمن شرف نسبه، وسخف أدبه؛ إذ كان لم يكسب الفخر الحاصل له بفضل سعى ولا طلب، ولا اجتهاد ولا دأب؛ بل بصنع من الله عز وجلّ له، ومزيد فى المنّة عليه؛ وبحسب ذاك لزوم مايلزمه من شكره سبحانه على هذه العطيّه، والاعتداد بما فيها من المزيّه، وإعمال النّفس فى حيازة الفضائل والمناقب، والترفّع عن الرّذائل والمثالب.

وأمره بإجمال النّيابة عن شيخه الحسين بن موسى فيما أمره أمير المؤمنين باستخلافه عليه من النظر فى المظالم، والأخذ للمظلوم من الظالم، وأن يجلس للترافعين

إليـه جُلُوسا عامّا ، ويتأمّل ظُلاماتِهم تأمُّلا تامّا ؛ فما كان منها متعلّقا بالحاكِم ردّه إليـه ، ليحْمل الخُصومَ عليـه ؛ وما كان طريقُـه طريقَ الغَشْم والظُّلم ، والتغلُّب والغَصب ، قبَض عنه اليَدَ المُبْطله ، وثَبَّت فيه اليدَ المستحِقّه ؛ وتحرّى فى قضَـاياه أن تكُونَ موافقةً للعدْل ، ومجانِبَةً للخَذْل ، فإنّ غايتَي الحاكم وصاحبِ المظَالم واحدة : وهى إقامةُ الحق ونُصْرتُه ، وإبانَتُـه وإنارتُه ، وإنمـا يختلف سبِيلاهما فى النظر : إذ الحـاكِمُ يعـمل علىٰ ما ثبَتَ وظَهَـر ، وصاحبُ المظـالم يفْحَص عمّـا غَمَض وآستَـتَرَ ؛ وليس له مع ذلك أن يَرُدّ لحـاكم حُكُومه ، ولا يُعِلَّ له قَضِـيّه ؛ ولا يتعَقَّب مايُنْفِذه ويُمْضِيه ، ولا يتَتَبَّع مايحْكُم به ويَقْضِيه ؛ والله يَهْدِيه ويُسَدّده ، ويُوفّقه ويُرْشِده .

وأمره أن يسَـيِّر حجيجَ بَيْت الله إلىٰ مَقْصِـدهم ، ويحمِيَهم فى بَدْأتِهم وعَوْدتِهم ؛ ويرَتِّبَهم فى مَسِيرهم ومَسْلِكهم ، ويرعاهُمْ فى ليلهم ونهارِهم ؛ حتّى لا تنالهُم شِـدّه ، ولا تصلُ إليهم مَضرّة ؛ وأن يُرِيحَهم فى المَنَازل ، ويُورِدَهم المَنَاهل ؛ ويُناوِبَ بينهم فى النَّهَل والعَلَل ، ويُمَكِّنَهم من الآرتِواء والآكتفاء ؛ مجتهدًا فى الصِّيانة لهم ، ومُعْذرا فى الذَّبّ عنهـم ؛ ومُتلوما علىٰ متأخِّرهم ومتخَلِّفهم ، ومُنْهِضا لضـعيفهم ومَهِيضهم ؛ فإنهم حُجَّاج بيتِ الله الحرام ، وزُوّارُ قبر الرسول عليه السلام ؛ قد هَجَروا الأَوْطان ، وفارَقُوا الأهلَ والإخْوانَ ، وتجشَّمُوا المَغارِمَ الثِّقال ، وتعَسَّفُوا السُّهُول والجِبال ؛ يُلَبُّون دعاء الله عز آسمُه ، ويُطيعون أمره ويؤدُّون فرضَه ويرجُون ثَوابه ؛ وحقيقٌ علىٰ المسلم المؤمن أن يحْرُسَهم متبَرّعا ، ويَحُوطهـم متطوّعا ؛ فكيْف مَنْ تولىّ ذلك وضَمِنـه ، وتقلّده وآعتنقه ، قال الله : ﴿ وللهِ علىٰ النَّـاسِ حِجُّ البيْتِ مَنِ آسْـتَطاعَ إليه سَبِيلا ﴾ .

وأمره أن يُراعِىَ أمورَ المساجد بمدينــة السلام وأطْرافها ، وأقْطارِها وأكنافها ؛ وأن يَجْبِىَ أموال وُقُوفها ، ويستَقْصِىَ جميعَ حقُوقها ؛ وأن يَلُمَّ شعثَها ، ويَسُدّ خلَلَها ؛ بمــا يتحصَّل من هذه الوُجوه قِبَله ، حتى لايتعَطَّل رسْمٌ جرىٰ فيها ، ولاتُنقض عادةٌ كانتْ لهــا ؛ وأن يُثْبِتَ ٱسمَ أميرِ المؤمنين علىٰ ما يعْمُره منهــا ، ويذْكُرَ ٱسمه بعــده بأنَّ عُمْرانها جرىٰ علىٰ يدَيْه ، وصلاحَها أدّاه قولُ أميرالمؤمنين إلىٰ فِعْله ؛ فقد فَسَّح له أمير المؤمنين بذلك تنويهًا بٱسمه ، و إشادةً بذكره ؛ وأن يُولِّىَ ذٰلك مِنْ قِبَلِه مَنْ حسُنت أمانتُه ، وظهرت عفَّته وصيانَتُــه ؛ فقد قال الله تعالىٰ : ﴿ إنمــا يَعْمُرُ مساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ وأَقَامَ الصَّلاةَ وآتىٰ الزَّكاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسىٰ أُولٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا من المُهْتَدِين ﴾ .

وأمره أن يستَخْلِف علىٰ مايرىٰ الٱستخلاف عليه من هذه الأعمال : فى الأمصارِ الدانِيَــة ، والبِلاد القريبــة والبَعيدة ، مَنْ يَثِق به من صُلَحاء الرجال ، وذَوِى الوَفَاء والٱستِقْلال ؛ وأن يعهَدَ إليهم مثلَ الذى عُهِد إليه ، ويعتمِدَ عليهم فى مثل ما ٱعتُمِد عليه ؛ ويستَقْرِىَ مع ذٰلك آثارَهم ، ويتعرَّف أخبارَهم ؛ فمن وجده محمودًا أقرَّه ولم يُزِلْه ، ومن وجده مذْمُوما صرَفَه ولم يُمْهِله ؛ وٱعتاض منــه مَنْ تُرْجىٰ الأمانةُ عنــده ، وتكونُ الثِّقة معهودةً منه ؛ وأن يختار لكتابته وحِجَبتــه والتصرُّف فيما قَرُب منه وبَعُد عنه ؛ مَنْ يَزِينُه ولايَشِينه ، ويَنْصَح له ولا يَغُشُّه ، ويجمِّله ولايُهَجِّنه ، من الطبقة المعرُوفة بالظَّلَف ، المتصوِّنة عن النَّطَف[(١)] ؛ ويجعَلَ لهم من الأرزاقِ الكافيه ، والأُجْرة الوافِيه ، مايصُدُّهم عن المَكاسب الذميمه ، والمآكلِ الوَخيمه ؛ فليس تجب عليهم الحُجَّةُ إلا مع إعطاء الحاجة ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ماسَعىٰ وأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمَّ يُجْزاهُ الجَزاءَ الأَوْفىٰ ﴾ .

(١) هو بالتحريك العيب .

وأمره بأن يكتُب لمن يقوم ببيِّنتِه عنـده وتنْكشِفُ حجتُـه له ، إلىٰ أصحـاب المَعـانِ بالشَّـدّ علىٰ يدَيْه ، وإيصال حَقِّه إليـه ؛ وحَسْم الطمَع الكاذبِ فيـه ، وقَبْض اليَدِ الظالمة عنه ؛ إذ هم مندُوبُون للتصرُّف بينَ أمْره ونَهْيه ، والوقُوفِ عند رَسْمه وحدّه .

وهذا عهدُ أمير المؤمنين إلَيْك ، وحجَّتُه لك وعلَيْك ؛ قد أنارَ فيه سبِيلَك ، وأوضح دلِيلَك ؛ وهـداك وأرْشَدك ، وجعلك علىٰ بيِّنة من أمرك ؛ فاعمَلْ به ولا تخالِفْه ، وآنْتَهِ إليه ولا تَجاوَزْه ؛ وإن عرض لك أمْرٌ يُعجِزك الوفاءُ به ، ويشْتَبِه عليك وجْهُ الخُـروج منـه ، أنهيتَه إلىٰ أمير المؤمنين مبادِرا ، وكنتَ إلىٰ ما يأمُرُك به صائرا ؛ إن شاء الله تعالىٰ . وكُتِب فى مستهَلِّ شعبان سنة ثمـانين وثلثمائة .

ومنها ـ ولاية الصلاة .

وهذه نسـخةُ عهدٍ كتب بهـا أبو إسحاق الصابى عن الطائع لله ، لأبى الحـٰرث محمـد بن مُوسىٰ العلَوىّ المُوسَوى ، بتقليده الصـلاةَ فى جميع النواحى والأمصار والأطراف ، وتوقَّف عن إظهاره لرَأْى رآه فى ذٰلك ، وهى :

هذا ماعهِـدَ عبدُ الله إلىٰ محمد بن مُوسىٰ العَلَوىّ ، لـمَّا آستكْفاه النظرَ فى نِقَـابة الطالبيين فكفَاه ، وتحمَّل ذٰلك العِبء فأغناه ، وفات النظراءَ فى الآستقلال والوَفَاء ، وبَذَّ الأمثالَ فى الآضْطِلاع والغَنَاء ؛ جامعًا إلىٰ شَرَف الأحساب والأعْراق ، شَرَفَ الآدابِ والأخلاق ؛ وإلىٰ كرائِم المَفاخرِ والمَناقب ، مكارِمَ الطِّباع والضَّرائب ؛ علىٰ الحَدَاثة من سِنِّه ، والغَضَاضة من عُوده ؛ مستولِيًا من البرَاعة والنَّجابه ؛ والفرَاهة واللَّبَـابه ، علىٰ التى لايبلغُها الشِّيبُ المَفارق ، فضـلا عن البالغ المُراهق ؛ وغاياتٍ

تنقَطِع دُونَها أنفاسُ المنافِسين ، وتتضَرَّم عليهـا أحشاءُ الحاسِدين ؛ لاسيَّمـا وقد أطَّت[(١)] بأمير المؤمنين إليـه شواجِنُ الأرحام ، وعطَفَتْه علىٰ آصطناعه عواطِفُ الآباء والأعمام ؛ واقتضَتْ آثارُه المحمُوده ، وطرائقُه الرَّشيده ؛ أن يُناوِبَه علىٰ رُتْبة لم يبلُغْها أحدٌ من ولد أبيه ، ولم يفتَرِع ذُوائِبَها رجلٌ دونه ؛ فقلَّده الصـلاةَ بمدينة السـلام فى خمسة جوامِعِها : فأوّلُها الجـامعُ الداخلُ فى حَرِيم أمير المؤمنين ، وجامعُ الرُّصافة ، وجامع المَنْصُور ، وجامع بُراثىٰ ، وجامع الكَفِّ الذى تولىّٰ أبوه إشادَتَه وعمـارتَه ، وحسُنتْ آثارُه فى إنشائه وإعلائه ؛ وحيثُ سَمَتْ همتُه إليه ، وبذَل المجهودَ فى إنفاق الأموال الدَّثْرة[(٢)] عليه ؛ واستَنْزَل بذٰلك من الله أجزَلَ إثابة المُثـابِين ، وأوْفَر أجْرِ المأْجُورين ؛ وجميعِ المَنابر فى شَرْق الأرض وغَرْبهـا ، وبعيـدِ الأقطار وقرِيبِها ؛ وأميرُ المؤمنين يسألُ اللهَ حُسْن التسـديد فى ذٰلك وسائِرِ مَرَامِيـه ، وجميع مَطالِبه ومَغازِيه ؛ وجَوارِى هِمَمه التى يُمْضِيها ، وسرايا عَزَماته التى يَنْويها ؛ وأن يجعـل النجاحَ قائدَها وسائقَها ، والصلاح أوّلهـا وآخِرها ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلَّا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

أمره بتقوىٰ الله التى هى أحرَزُ المَعَـاقل ، وأحصَنُ الجُنَن عند النَّوازل ؛ وأعظَمُ مَلْجإ يُلْجأ إليه ، وآمَنُ مَوْئِل يُعَوَّلُ عليه ؛ وأن يعتقدَها فى خَلْوته وحَفْلته ، ويعتمدَها فى سرِّه وعلانِيَته ؛ ويجعلها سبَبا يتَّبِعه ، ولباسا يدَّرِعه ؛ فيُنازِع بها مَنْ نازعه ، ويُوادِع بها مَنْ وادَعه : فإنهـا أوْكَدُ الأسباب ، وأوصَلُ القُرَب والأنساب . وأولىٰ الناس بالتمسُّك بحَبْلها ، والاشتمالِ بظِلِّها ، مَنْ كان بأجلِّ المَناسب تعلُّقُه ، وبأشرَف الخلائقِ

(١) فى القاموس « أطت له رحمى رقت وتحركت » فانظره .

(٢) فى اللسان ج ٥ ص ٣٦٢ « الدثر بالفتح المـال الكثير لا يثنى ولا يجمع يقال مال دثر ومالان دثر وأموال دثر » فلعل هاء التأنيث زائدة من قلم الناسخ . تأمل .

تخلّقه، قال الله سبحانه : ﴿ إنّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا ﴾ .

وأمَره بتلاوة القرءان، والمواظبة عليه والإدْمان ، والأئْتمار بما فيه من الأوامر، والأزْدجار عمّا تضمّن من الزّواجر، وأن يجعله الإمامَ المتّبَع فيقفُوَه، والطريق المَهْيَع فيقْصِدَه وينْحُوه : فإنه العَلَمُ المُنْجى من الغَوَايه ، والدليلُ القائدُ إلىٰ الهدايه ؛ والنور الساطعُ للظلام إذا أشكل مُشْكِل ، والحاكم القاضى بالحقّ إذا أعْضَل مُعْضِل، قال الله : ﴿ وإنّه لَكِتابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ من حَكِيم حَمِيد ﴾ .

وأمره بتهذيب لُبّه ، من جوامِح الوَساوِس ، وتطهير قَلْبه ، من مَطَامِح الهوَاجِس ؛ وأن يتوقّى اللحظةَ العارِمه (١) ، ويتجنّبَ اللفظةَ المُؤْلِمه ؛ عاصياً جَوَاذبَ الخَلَاعة ، ومُطيعا أوامرَ النّزاهة ؛ حتّى يستوىَ خافِيه وعالِنُه ، ويتّفق ظاهرُه وباطنُه ؛ فِعالُ من جعله إمامُ المسلمين إمامًا ، وقدّمَتْه الرعيةُ أمَاما ؛ وكانَ إلىٰ الله داعِيا ، وله عن عباده مُناجِيا ؛ و بينهم وبيْنَ خالقِهم وَسِيطا ، وعلىٰ ما قلّده من الصلاة بهم أمينا : لتصِحّ شُروطُ صَلاته ، ويُقْبَل مرفُوع دَعَواته ؛ قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إلىٰ اللهِ وعَمِلَ صالِحًا وقال إنّنِي من المُسْلِمِين ﴾ .

وأمره بالمحافَظَة علىٰ الصلَوات ، وٱنتهازِ فُرَصها من الأوقات ؛ والدخول فيها بالرِّقّة والخُشوع ، والتوفّر بالإخبات والخُضوع ؛ وحقيقٌ علىٰ كل مستشْعِرٍ شعارَ الإسلام ، ومتجَلْبِبٍ جِلْبابَ الإيمان ، أن يفعل ذٰلك مستوفيًا شُروطَه ، ومستقْصيا حُدودَه ورُسومه ، فكيف بمن أقامه أميرُ المؤمنين [مقامه] فى ٱمتِطاء غَوارِب المَنَابر

(١) لعله من قولهم رجل عارم أى خبيث شرير .

وذُراها، ونَصَبه مَنْصِبَه فى أَمِّ الرعيَّة أدْناها وأقصاها . قال الله تعالىٰ : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ . وقال : ﴿ ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ولا تَمُوتُنَّ إِلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وأمره بالسَّعْى فى الجُمَع إلىٰ المساجد الجامِعَة ، وفى الأعياد إلىٰ المُصَلَّيات الضاحية ؛ وأن يَخُصَّ أحدَها بصلاتِه فيه وقَصْدِه له ؛ ويأمُرَ خلفاءَه علىٰ الصلاة بالافتراق فى سائر الجوامِع وباقى المَنابر ؛ بعد الأمر بجَمْع المُؤَذِّنين والمكَبِّرين ، وإحضار القُوَّام والمرتِّبين ، فى أتَمِّ أُهْبةٍ وأجملِ هَيْئة ، بقلوبٍ مستشْعِرة للخشُوع ، متَصَدِّية للدُّموع ؛ وألْسُن بالتسبيح والتقديس مُنْطَلِقة ، وآمالٍ فى حُسْن الجزاء وجزيل الثَّواب منفَسِحة ، حتَّى تعبِّر ألسِنتُهم إذا ٱفترعُوا الخُطَب وٱفتتَحُوا الكَلِم عن مكْنُون ضمائِرهم ، ومضمُون سَرَائِرهم ؛ فتَجِيء المواعِظُ بالغةً ، والزواجر ناجعة ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وأَنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ .

وأمره بمُراعاة المساجِد ، وتعهُّد الجوامع ؛ وسدِّ خَلَلها ، ولَمِّ شَعَثها ؛ فإنها مَقَاوِم(1) عِزِّه ونَحْره ، ومَحاضر صِيته وذِكْره ؛ ومراكزُ أعلام الدِّين الخافقه ، ومطالِعُ شُموس الإسلام الشارِقَه ؛ ومواقِفُ الحق المشْهُوده ، وقواعِدُ الإيمان المَوْطُوده ؛ مما لا يتضَعْضَع أحدها إلا تضَعْضَعَ من أركان الإسلام له رُكْن ، ولا ٱلتاتَ بعضُها إلا ٱلتاتَ من أعضاء الدِّين عضو ؛ قال الله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأقامَ الصَّلاةَ وآتَىٰ الزَّكَاةَ ولَمْ يَخْشَ إِلَّا اللهَ فَعَسَىٰ أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا من المُهْتَدِين ﴾ .

---

(1) جمع مقوم وفى اللسان «المقوم الخشبة التى يمسكها الحراث» ولعله يريد أنها آلات عزه ونحره . . تأمل .

وأمره فى خُطْبتــه بكثرة التحفُّظ ، وعنـد آفتتاحه وآختتامه بطُول التيقُّظ ؛ فإن العُيون به مَنُوطة ، والأعناقَ إليــه ممدُودة ؛ والمَسامعَ فاغرةٌ تتلقَّف ما يقوله ، والقلوبَ فارغةٌ لحفظ ما يُبْـدِئ وما يُعيــد ؛ فقليلُ الزَّلَل ، فى ذلك الموقِف كثير ، وصــغيرُ الخَطَل ، فى ذلك المقام كـبير ؛ والله تعالىٰ يُسَدّده إلىٰ المَحَجَّة الوُسْطىٰ ، ويقِفُ به علىٰ الطريقة المثلىٰ ، بمنه .

وأمره بالسَّكِينة فى آنتصابه للصَّلاة الجامعة ، وتقدُّمه لقضاء الفُروض اللازِمة ؛ وأن يَسْكُن [فى كلّ] حدّ من حدودها فى الرُّكوع والسُّجود ، والقِيـام والقُعود ؛ فإنه عليها مُحاسَب ، وبمـا يَلْحَق من يأتمُّ به فى جميعها مُطالَب ؛ وأن يُفرّغ قلبَــه لمـا يتلُوه من البَيَان ، ويرفع صوْتَه بمـا يمرّ به من قَوارع القُرْءان ؛ مرتِّلا لقراءته ، ومُسْتَرْسِلا فى تلاوته : ليشــترِكَ فى سَمَـاعها الأقربُ والأقْصىٰ ، وينتفِعَ بمَواعِظها الأبعدُ والأَدْنىٰ ، بعــد إخلاصِ سِرِّه وآنتزاعه ، وتسويَته فى الطهور بين باديه وخافِيه ، وغائبه وحاضِره ؛ فليس بالطاهر عنْدَ الله تعالىٰ من يُصيبُ بالمـاء أطرافَه ، وأدْرنَ بالخبائِث شِــغافَه ؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿ يٰأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إذا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَــةِ فَٱسْعَوْا إلىٰ ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ﴾ . وقال : ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ عَلىٰ المُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا ﴾ .

وأمره أن يُقِيم الدَّعوة علىٰ منابر أعمــاله القاصِــيةِ والدانيَة والغائبة والحــاضِرة لأمير المؤمنين ؛ ثم للناهِض عنــه بالأَعْباء ، والقائم دُونَه فى البَأْساء والضَّرَّاء ؛ الذى غُذِّى بِلِبان الطاعة ، وآنقاد بزِمَام المتابَعة : بَهَاء الدولة ؛ ولوُلَاة الأعمال من بعــده الذين يُدْعىٰ لهم علىٰ المَنَابر ، مايكون منهــا علىٰ العادة الجارية فيها ، فإنهـا دعوةٌ تلزمُ إقامتُها ، وكلمةٌ تجِبُ إشادَتُها ؛ إذ كانتْ متعلِّقة بطاعة الله عزّ وجلّ ، وقد أوجبها اللهُ

تبارك وتعالىٰ علىٰ كافَّة المسلمين وجميع المُعاهَدين، إذ يقول [وهو] اصدَقُ القائلين : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ ؛ وعائدتُها تَعُمُّهم، وفائدتُها تشْمَلُهم ؛ إذ كان صلاحُ الرعيَّة مقرُونا بصَلَاح راعِيها، وفَسادُ الأئمة مَنُوطا بفَساد والِيها .

وأمره بٱستِخْلاف من يَرىٰ ٱستِخلافَه علىٰ الصَّلاة فى الأقطار والأطْراف والنواحِى والبُلْدان ، وأنْ يختارَ من الرجال كلَّ حَسَن البَيَان ؛ مِصْقَع اللسان ؛ بَليلَ الرِّيق إذا خَطَب، بليغَ القَوْل إذا وَعَظ .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، وحجَّته لك وعلَيْك ؛ قد أعْذَر فيه وأنْذَر، وهدىٰ من الضَّلالة وبَصَّر ؛ وأعلَقَك زِمامَ رُشْدك وغَيِّك ، وقَلَّدك عِنانَ هُلْكك وفوْزك ؛ وخَيَّرك فى كِلَا الأمْرين، ووقَفَك إزاءَ الطريقَيْن ؛ فإن سلَكْت أهْداهما لم تلْبَثْ أن تَعُود غانِما، وإن وَلَجْتَ أضلَّهما فغيرُ بعيد أن تَتُوب نادِما ؛ وٱستَعِنْ بالله يُعِنْك ، وٱسْتَزِده من الكِفَايَةَ يَزِدْك ؛ وٱستَلْبِسْه الهِداية يُلْبِسك ، وٱستَدْلِلْه علىٰ نجَاح المَطالب يَدْلُلْك، إن شاء الله، والحمدُ لله وحْده .

ومنها — نظرُ الأوقاف .

وهـذه نسخةُ عهـدٍ من ذٰلك ، كتب بها أبو إسحاقَ الصـابى عن الطائع لله ــ للحسين بن مُوسىٰ العَلَوى ، وهى :

هـذا ماعهِدَ عبدُ الله عبدُ الكريم الإمامُ الطائعُ لله أميرُ المؤمنين، إلىٰ الحسين بنِ مُوسىٰ العَلَوىّ ، حينَ طابتْ منـه العَنَاصر، ووصلَتْه بأمير المؤمنين الأَوَاصِر ؛ جَمَع إلىٰ شَرَف الأَعْراق الذى وَرِثه، شَرفَ الخُلُق الذى ٱكتَسَبه ؛ ووضَحتْ آثارُ دينـه

وأمانَتِه ، وبانَتْ أدِلَّة فَضْــله وكِفايتِه ، فى جميع ما أســنَده أميرُ المؤمنين إليه من الأعمــال، وحَمَّله إيَّاه من الأثقال؛ فأضاف إلىٰ ما كانَ ولَّاه من [ذلك] النَّظَرَ فى الوُقُوف التى كانتْ يدُ فلانٍ فيها بالحضرة وسَوَادِها، ثِقَــةً بسَدَاده ، وسُكُونا إلىٰ رَشَاده ؛ وعِلْما بأنه يَعْرِف حقَّ الصَّنِيعه، ويَرْعىٰ مايُستحفَظُه من الوَدِيعه ؛ ويجرى فى المَنْهَل الذى أحمَدَه أميرُ المؤمنين منه ووُكِلَ إليه . والله يُمِدُّ أميرَ المؤمنين بصَواب الرأْى فيما نَحَــاه وتوخَّاه ، ويُؤمِّنــه فى عاقبته النَّــدَمَ فيما قَضَاه وأَمْضاه ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنيب .

أمره بتقْوىٰ الله التى هى عِمَــاد الدين ، وشِعارُ المؤمنين ، وأن يعتَقِدها فى سِرِّه ونَجْواه، ويجعَلَها الذخيرةَ لِأُولاه وأُخراه؛ ويتجنَّبَ المَوَانِــع المُونِيَه، ويتَوَقَّى المَوارِدَ المُرْدِيه ؛ ويَغُضَّ طَرْفَه عن المَطامع المُغْوِيه، ويذْهَبَ بنَفْسه عن المَطَارح المُخْزِيَه؛ فإنه أحق من فَعَل ذاكَ وآثَرَه ، وأَوْلىٰ من آعتمَدَه وآستَشْعَره؛ بنَسَــبه الشريف، ومَفْخَره المُنِيف ، وعادتِه المشْهُوره ، وشاكِلتِه المأْثُوره؛ وتلاوةِ كتاب الله الذى هو وعترة رسول الله الثَّقَلان المَخَلَّفان فى الأمَّة ، وقد جمعْتَه (١) ، وآخَرُهما الأنسابُ وجمعْتَه والثانى عِصْمةُ أُولى الألباب ، وتوجَّهتْ حُجَّةُ الله بما يرجِعُ من هذه الفضائِل إليه ، وأنَّه غُصْنٌ من دَوْحة أميرِ المؤمنين ، التى تحدَّاها اللهُ بالإنْذار قَبْل الخلائق أجمعين ؛ إذ يقولُ لرسوله محمد صــلَّى الله عليه وعلىٰ آله : ﴿ وأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ . وقد حَضَّ تبــارَك وتعــالىٰ علىٰ التَّقْــوىٰ ، ووعَدَ عبادَه عليهــا الزُّلْفىٰ ؛ فقــال : ﴿ يأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقين ﴾ .

وأمره بالآشتمال علىٰ ماأَسْنَده إليه أميرُ المؤمنين من هذه الوُقُوف مستنْفِدا طَوْقَه فى عِمَــارتها ، مستفرِغا وُسْــعَه فى مصْلَحتِها ؛ دائبًا فى آستِغْلالها وتَثْمِيرها ، مجتهِدًا

(١) هذه الجمل هكذا فى الأصول وهى غير مستقيمه .

فى تَدْبِيرها وتَوْفِيرها ؛ وأن يَصْرِف فاضِلَ كلِّ وَقْف منها بعدَ الذى يُخْرَج منه للنَّفقة علىٰ حِفْظ أصلِه ، وآستِدْرار حَلَبه ؛ والمَئُونة الراتبةِ للقُوَّام عليه ، والحَفَظة له ؛ إلىٰ أربابه الذى يعود ذلك عليهم فى وُجُوهها التى سُبِّل لها ، ووُقِف عليها ؛ واضعًا جميعَ ذٰلك مواضِعَه ، مُوقِعا له مَوَاقِعه ؛ خارجًا إلىٰ اللهِ من الحقِّ فيه ، مؤدِّيًا الأمانة إليه ؛ وأن يُشْهِد علىٰ القابضين بما يَقْبِضُونه من وُقُوفهم ، ويَكْتُب البراآتِ عليهم بما يستَوْفُونه من أموالهم ؛ ويستظْهِرَ لنفسه بإعداد الشَّواهد والأدِلَّة علىٰ ماينْفقه من أموال هذه الوُقُوف علىٰ مَصَالحه ، ويَصْرِفه منها إلىٰ أهلها ؛ ويُخْرِجه منها فى حُقُوقها وأبواب بِرِّها ، وسائر سُبُلها ووُجُوهها ؛ سالكًا فى ذٰلك مَذْهَبه المعْروفَ فى أداء الأمانه ، وآستِعْمال الظَّلَف والنَّزاهه ؛ معقِّبا علىٰ من كان ناظرًا فيها من الخَوَنة الذين لم يَرْعَوْا عهدا ، ولم يتصَوَّنُوا عن سُحْت المَطاعم ، وظُلَم المَآثِم .

وأمره باستكتابِ كاتبٍ معروفٍ بالسَّداد ، مشْهورٍ بالرَّشاد ؛ معلومٍ منه نصيحةُ الأصْحاب ، والضَّبطُ للحساب ؛ وتفويضِ دِيوان الوُقُوف وتدبيرِه إليه ، وتوصِيَته بصيانةِ مايشْتَمِل عليه من أُصُول الأعمال وفُرُوعها ، وقليلِ الحُجَج وكثيرِها ؛ وأن يحتاطَ لأربابها فى حِفْظ رُسُومها ومُعاملاتِها ، وحِراسةِ طُسُوقها ومُقَاسَماتها ؛ حتّىٰ لايستمِرَّ عليها حَيْف يَبْقىٰ أثَرُه ، ولايتغَيَّر فيها رسمٌ يُخاف ضَرَرُه ؛ وأن يُنْصِف الأَكَرَة فيها والمُزارِعين ، وسائرَ المُخالِطين والمُعامِلين ؛ ولا يُجَشِّمَهم حَيْفا ، ولايَسُومَهم خَسْفا ؛ ولا يُغْضِيَ لهم عن حق ، ولا يَسْمَح لهم بواجب ، خَلَا ماعادتِ السَّماحةُ به بزيادة عِماراتهم ، وتأليفِ نِيَّاتهم ، وآجتلاب الفائدة منهم والعائدةِ بهم ؛ فإنه مؤتَمَن فى ذلك كلِّه أمانةً ، وعليه أن يُؤدِّيها ويَخْرُج عن الحقِّ فيها .

وأمره بآختيار خازنٍ حَصِيف ، قَئُومٍ أمين ؛ يَخْزُن حُجَجَ هذه الوقوف وسِجِلَّاتها ، وسائرَ دفاتِرِها وحُسْبَاناتها ؛ فإنَّها ودائِعُ أربابها عنده ، وواجبٌ أن يَحْتاطَ عليها

جُهْدَه؛ فمتىٰ شَكَّ فى شرط من الشُّروط، أو حَدٍّ من الحدُود؛ أو عارَضَ مُعارِض، أو شاغَبَ مُشاغِب، فى أيَّام نظرِه وأيَّامِ مَنْ عسىٰ أن تُنْقَلَ ولايةُ هذه الوُقوف إليه، ويُناطَ تدبيرُها به، دفَع مايَحْدُث من ذلك بهٰـذه الحُجَج التى هى مَعارِف البُرْهان، وقواعِدُ البُنْيان؛ وإليها المَرْجِع فى كلِّ بينة تُنْصَر وتُقام؛ وشُبهة تُدْحَض وتُضام .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، ووثيقتُه الحاصلةُ فى يدَيْك؛ فاتَّبِـعْ آثارَ أوامرِه، وٱزدَجِرْ عن نَواهِيـه وزواجِره؛ وٱستمْسِك به تنْجُ وتَسـلَمْ، وٱعملْ عليه تَفُزْ وتغْنَمْ؛ وٱسترشِدِالله يُرْشِدْك، وٱستَهْدِه يَهْدِك؛ وٱستعِنْ به يَنْصُرْك، وفوِّضْ إليه يَعْصِمْك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الضــــرب الثـانى

(ممـا يُكتَب من ديوان الخلافة لأرباب السُّـيوف التقاليدُ . وهى لمن دُونَ ارباب العُهود فى الرُّتبة ، وليس لٱفتتاحها عندهم ضابِطٌ)

وهــذه نسخةُ تقليدٍ بحِمَاية الكُوفة، لأبى طَرِيفِ بن عليـان العُقَيْلى، من إنشاء أبى إسحاق الصابى، وهى :

قد رأَيْنا تقليدَك ـ أطال اللهُ بقاءك ـ الحِمـايةَ بالكُوفة وأعمالِها وما يَجْرى معها ثِقةً بشَهَامتك وغَنَائك ؛ وسُكُونا إلىٰ ٱستِقْلالك ووَفَائك ، وٱعتقادًا لٱصْطِناعك وٱصطِفَائك ؛ وحُسْنَ ظنٍّ بك فى شُكر ما يُسْدىٰ إليك ، ومقابَلتِه بمـا يَحِقُّ عليك ؛ من الأَثَر الجميل فيما تُولَّاه، والمَقامِ الحميد فيما تُسْتَكْفاه ؛ فتولَّ ـ أيدك الله ـ ذلك مقدِّما تقوىٰ الله ومراقَبته، ومستَمِدًا توفيقَه ومَعُونَتَه. وٱحْرُس الرعيَّة فى مَسا كِنها، والسابلَة فى مَسالِكها . وٱدْفَعْ عن عَمَلك ونواحيه أهلَ العَيْث جميعا ، وٱطْلُبْهم طلَبا

شديدا، وٱطْرُقْهم فى مَكامِنهم، وتَوَخَّ عليهم فى مَظَانِّهم؛ ونَكِّل بمن تَظْفَر به منهم نَكالًا تُقِيم به حُكْمَ الله عليهم، وحُدودَه فى أمثالهم؛ وبالِغْ فى ذٰلك مبالغةً تُخِيف الظَّنِين وتُوجِسُه، وتُؤَمِّن السَّليم وتُؤْنِسُه. وراعِ الأَكَرَة والمُزارِعين حتّٰى يَنْبَسِطوا فى معايِشهم، ويتصَرَّفُوا فى مصالِحهم؛ وتتيَسَّر عواملُهم فى عِمَاراتها، ومَواشيهم فى مَسَارِحها؛ ومتىٰ طُرِدتْ لأحدٍ منهم طَرِيدةٌ أو آمتدَّتْ إليهم يَدٌ عاتِيَة، آرتجعْتَ ما أُخِذَ له، ورددْته بعينِه أوقيمةِ مِثْلِه. وخَفِّف عمن وُلِّيت عليه الوَطْأة، وٱرفَعْ عنهم المَؤُونةَ والكُلْفة؛ وخُذْهم بالتناصُف، وٱقْبِضْهم عن التظالُم، وٱمنَعْ قوِيَّهم من تَحَيُّف المضْعُوف، وشريفَهم من ٱستضامةِ المشْرُوف؛ وأَوْلِهم من عدْلك وحُسن سِيرتِك، وٱستِقامة طرِيقتِك، مايتَّصل عليه شُكْرُك، ويَطِيبُ به ذِكْرُك؛ ويقتَضِى لك دَوامَ الوِلايه، وتَضاعُفَ العِنَايه.

وٱعلَمْ بأنك فيما وُلِّيتَه من هذا الأمر متضَمِّن للمال والدَّم، ومأْخُوذ بكل مايَهُمُّك من ذمة ومحْرَم؛ فليكن ٱجتِهادُك فى الضَّبْط والحِمايه، وٱحْتِراسُك من الإهمال والإضاعة، بحَسَب ذٰلك. وٱكتُبْ بأخبارك علىٰ سِياقَتِها، وآثارِك لأَوْقاتها: ليتَّصِلَ لك الاحماد[(١)] عليها، والمجازاةُ عنها؛ إن شاء الله تعالىٰ.

النـــــوع الثـالث

(ممـا كان يُكتَب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغدَادَ ما كان يُكْتَب لأرباب الوظائف ببغدَادَ من أصحاب الأقلام)

وهى علىٰ ضربين:

---

(١) من أَحْمَدَه استبان له أنه مستحق للحمد.

الضـــرب الأوّل

(العُـــهُود)

ورَسْمُها علىٰ نحو ما تقـدّم فى عهُود أرباب السُّـيوف ، تُفْتَتح بـ«هذا ما عَهِد » إلىٰ آخر الترتيب المتقدّم ذكره .

وهذه نسخة عَهْد بولاية قضاءِ حاضرةِ بغدادَ وسائرِ الأعمال؛ كَتَب به المسترشدُ بالله لقاضى القُضاة أبى القاسم علىّ بن الحسين الزينبى، وهى :

هــذا ما عَهِد عبدُ الله أبو منصور الفضلُ، الإمامُ المسترشدُ بالله أميرُ المؤمنين ، إلىٰ قاضى القضاة علىّ بنِ الحسـين الزينَبى : لَمَّـا تأمَّل طريقَتَـه ، وشَحَذ عقِيدتَه؛ وأحمَدَ مذاهبَه، وآرْتضىٰ ضرائبَه؛ وتكاثرتْ دَواعِيه ، وحسُنَتْ مَساعِيه ؛ ووجَدَه عندَ الآختِبَار ، وفى مِضْمار الآعْتبار ، راجِعًا إلىٰ عَقْل رَصين ، ودِينٍ مَتِين؛ وأمانةٍ مشْكُوره، ونَزاهة مَخْبُوره؛ ووَرَع ثَمِر المَشْرَع ، عارٍ من دَنَس المَطْمَع ؛ وعِلْم توَفَّر منه قِسْمُه ، وأصاب فيه سَهْمُه . وحين راعىٰ فيـه موروُثَ شرَفِ النَّسَب ، إلىٰ شَرَف العلم المكتَسَب ، مع ماسلَف لبيته من الحُرُمات المرعية المتأكِّده ، والقُرُبات المرضيَّة المتمَهِّده ؛ والسوابِقِ المُحْكَمِة المَرائِر ، الحميـدةِ المبادئ والمَصايِر ؛ فقلَّده قضاءَ القُضاة بمدينة السلام وسائرِ الأمصار ، فى الآفاقِ والأقْطار ؛ شَرْقا وغَرْبا ، وبُعْدا وقُرْبا ؛ إنافةً به إلىٰ ما أصبَحَ له مسـتَحِقّا ، وآستمرَّ آستيجابُه مسـتَرقّا ؛ وجَذْبا بضَبْعه إلىٰ مايحقّق نُهوضَه بأعْبائه ، وحُسْنَ آستقلاله به وغَنائه ؛ وآقتفاءً لآثارِ الأئمة الراشدين فى إيدَاعِ الودَائع عند مستحِقّها ، وتَفْوِيضِ الأُمور إلىٰ أكفائِها وأهْلِها ؛ لاسِيَّما أولياءُ دولتِهِم ، وأغْذِياء نِعمَتِهِم ، الذين كَشَفَت عن سَجْف خِبْرتهم التَّجارِب ، ووَرَدُوا من الخلال الرشيدةِ أعذَبَ المَشارِب ، وآنتهَجُوا الجَدَد الواضح ، وتقبَّلُوا الخُلُق

الصالح ؛ واللهُ سبحانه يَقْرُن عزائمَ أميرِ المؤمنين بالخيرة فى كلِّ رأْى يرتَئِيه ، وأَمْر يؤُمُّه وينْتحِيه ؛ ويصَدِّق مَخيلتَه فى كلِّ حال يأتيها ، ويُمضِى عَزْمه فيها ؛ وما توفيقُه إلا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنِيب .

أمره بتقْوىٰ الله التى لايَسْعَد أحدٌ إلا بالتمسُّك بسببها ، ولا يَشْقىٰ إلا مع إضاعتها ؛ فإنَّها الجَنَاب المَرِيع ، والمَعْقِل المَنِيـع ؛ والنَّجاةُ يوم الفزَع الأكبر ، والعُـدّة النافعةُ فى المَعَاد والمَحْشَر ؛ والعِصمةُ الحاميَةُ من نَزَغات الشيطان ومَخايِله ، المنقِذةُ من أشْراكه وحَبائِله ؛ وبها تُمَحَّص الأوْزار ، وتُنال الأَوْطار ، وتُدْرَك المَآرِب ، وتُنْجَح المَطالِب ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يأَيُّهَـا الَّذينَ آمَنُوا إنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَـلْ لَكُمْ فُرْقاناً ويُكَفِّرْ عَنْكُم سيِّئَاتِكم ويَغْفِرْ لَكُمْ واللهُ ذُو الفَضْل العَظِيم ﴾ .

وأمره باستِشْعار خشيةِ الله سبحانه فى قوله وفِعْله ، وآختلافِ أطوارِه وأحوالِه ؛ وتذَكُّر ماهو قادِمٌ عليـه ، ووافدٌ إليه : يَوْمَ ﴿ لا يَجْزِى والِدٌ عن وَلَده ولا مَوْلُودٌ هو جازٍ عنْ والِدِهِ شَيْئا ﴾ . فلا يقودُه الهوىٰ إلىٰ آتبِّـاع شَهْوه ، أو إجابةِ داعِى هَفْوة أو صَبْوه ، إلا كان الخوفُ قادعَه ، والحَذَار مانِعَه ؛ وأن يجعلَ التواضُعَ والوَقارَ شيمتَه ، والحِلْم دأْبَه وخَلِيقَته ؛ فيَكْظِمَ غيْظَه عندَ آحتِدام أُوَاره ، وآضْطِرام نارِه ؛ مجتَنِبا عِزَّة الغَضَب الصائرةَ إلىٰ ذلَّة الاعتـذار ، ومتوخِّياً فى كل حالٍ للمَقاصد السـليمة الإيراد والإصْدار . وأن يتأمل أحوالَ غيرِه تأمُّلَ مَنْ جعلها لنَفْسه مِثالا ، وآتَّخذها لنَسْجه مِنْوالا ؛ فما آستَحْسنه منها فيأْتيه ، وما كَرِهه فيجتويه ؛ غيْرَ ناه عمَّا هو من أهلِه ، ولا آمرٍ بمـا هو مُجانِبٌ لفِـعْله ؛ قال الله جلَّت عظمَتُه : ﴿ أتأْمُرُونَ النَّـاسَ بِالبِرِّ وتَنْسَوْنَ أنْفُسَكُمْ وأنْتُمْ تَتْلُونَ الكِتابَ أفَلا تَعْقِلُون ﴾ .

وأمره بتِـلاوةِ كتابِ الله مُواظِبا، والإكثارِ من قراءتِهِ دائِبا ؛ وأن يجعَـلَه إماماً يَقْتفِيه، ودليـلًا يَتَّبِعه فيَهْدِيه ؛ ونُورا يستضِيءُ به فى الظُّلُمات ، وهادياً يسترْشِـده عنـد ٱعْتِراض الشُّبُهات ؛ ومَوْئِلا يستَنِدُ إليـه فى سائِرِ أحكامِه ، وحِصْناً يلْجأ به فى نَقْضِه وإبْرامِه؛ عامِلًا بأوامِرِه ، ومُزْدَجِرا بزَوَاجِره؛ ومُنْعِما نظَرَه فى مُحْكَمِ آياتِه ، وصادِعِ بيِّناته ؛ ومُعْمِلا فِكْرَه فى خَوْض غِمَـاره ، وٱستِخْراج غَوامِض أَسْراره ؛ فإنَّه الحقُّ الذى لا يَجُور متَّبِعُـه، والمَتْجَر الذى لا يَبُور مُبْتَضِعه ؛ والمَنـارُ الذى به يُقْتَدىٰ، والمَنْهَجُ الذى بأعلامه يُهْتَدىٰ؛ والمصـدَرُ الذى تَغْرىٰ به الأُمورُ فى مُلْبِس الإشـكال ، وتَشْرَعُ معه الأحوالُ المستَبْهِمة فى وُرودِ الوُضُوح السَّلْسال ؛ ويَنْبُوع الحِكْمة الذى ضربَ اللهُ فيـه الأَمْثال ؛ وفَرَق فيه بينَ الحرام والحلال ، والهِـدايةِ والضَّلال؛ قال الله سبحانه : ﴿ ونَزَّلْنا عَلَيْكَ الكِتابَ تِبْياناً لِكُلِّ شَيْءٍ وهُدًى ورحْمةً وبُشْرىٰ لِلْمُسْلِمِين ﴾ .

وأمره بدِراسة السُّنَن النَّبوِيَّة صلواتُ الله علىٰ صاحِبِها، والاقتداءِ بمـا جاءتْ به من مَكارم الأخلاقِ التى نَدَب إليها، وحَضَّ عليها؛ وتَتَبُّع مايتداخَلُها من الأخبـار الجَرِيحه، والرِّوايات غيرِ الصَّحِيحه؛ والفَحْصِ عن طُرُقِها وإسنادِها، وتمييزِ قَوِيمها ومَيَّادها؛ والبحثِ عن رُواتِها، منحوزِها وثِقاتِها؛ فما ألفاه بَرِيئًا من الطعْن، آمنا من القَـدْح والوَهْن ؛ عارِيًا من مَلابِس الشَّكِّ والآرتياب ، عاطِلًا عن حلىٰ الشُّبْهة والآعْتِياب ، ٱتَّبعه وٱقتفَاه ، وتمثَّـله وٱحتَذَاه ؛ وكان به حاكِماً ، ولأَدْواء الباطل بٱتِّباعه حاسِما؛ وما كان مترَجِّحا(١) بين كِفَّتى الشكِّ واليقين ، ولم تَبْدُ فيـه مخايِلُ الحق المُبين، جعل الوَقْفَ حُكْمه، ورَدَع عن العمل به عَزْمَه؛ إلىٰ أن يَضِح الحقُّ فيه، فيعتَمِدَ ما يُوجبُه ويقتَضِيه : فإنه ـ عليه السـلام ـ الداعى إلىٰ الهُدىٰ ، والرحمةُ

(١) أى مترددا ومتذبذبا . انظر اللسان والقاموس .

التى عصَم اللهُ بها من عَوادِى الرَّدىٰ، والهـادى الذى لم يفصل بينَ العمل بفرائض كتابه وسُنَنه فى قوله تقدّستْ أسماؤه، وجلّت آلاؤه : ﴿ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نَهَاكُمْ عَنْهُ فَٱنْتَهُوا وٱتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَاب ﴾ .

وأمره بإقامةِ الصَّلَوات الخمسِ المفروضةِ فى أوقاتها ، والمبادرةِ إليها قبْلَ فوَاتِها ؛ والإتْيان بشرائِطها المحدُودةِ وأركانها .

وأمره بمجالسة العُلَماء، ومُباحثةِ الفُقهاء، ومُناقَشة ذَوِى البصيرةِ والفَهْم، والفِطْنة والحَزْم ؛ ومشاوَرَتِهـم فى عَوارض الأُمُور المُشْكِله ، وسوانِح الأحكامِ المستَبْهِمة المُعْضِـله ؛ حتى يُصَرِّح محضُ رأيه وآرائِهـم عن زُبْدة الصَّواب، وتُنْتِج أفكارُهم باستِجْمامها نظَرًا شافيًا بالجواب ، رافعًا عنه مُنْسدِل الحجـاب ؛ وإنَّ فى ذلك ثَلَجا للصُّدور، وٱستظهارًا فى الأمور، وٱحترازًا من دواعى الزَّلَل، وٱستمرارِ الخلَل ؛ وأمْنًا من غَوائلِ الآنفراد، وحَطًّا للتعويل علىٰ الآستِبْداد؛ فلَرُبَّ ثقةٍ أدّتْ إلىٰ خَجَـل، وأَمْن أفْضىٰ إلىٰ وَجَل ؛ وما زالتِ الشُّورىٰ مقْرونةً بالإصـابه ، مُحْكمةً عُرىٰ الحق وأسـبابَه ؛ حارسةً من عواقب النَّدَم، داعيةً إلىٰ السلامة من زَلَّة القدَم؛ وقد أمر الله نبيَّه صلّى الله وسلم عليه،وأزْلَف محلَّه لديه، بالآستظهار بالمُشاوَرة مع عِظَم خَطَره ، وشرف قَدْره ؛ فقـال : ﴿ وشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ فإذَا عَزَمْتَ فتوَكَّلْ علىٰ اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتوَكِّلين ﴾ .

وأمره أن يَختارَ للحُكْم الأماكنَ الفسِيحةَ الأرْجاء، الواسعةَ الفَضاء، ويَنْظُرَ فى أمور المسلمين نظرًا تفْتَرُّ ثُغورُ العدْل فيه، وتلُوحُ خشيةُ الله من مَطَاوِيه؛ فيُوصِّل إليه كافَّةَ الخصوم،ويَبْرُز لهم علىٰ العُمُوم؛غيرَ مشدِّدٍ حِجَابَه،ولا مُرْتِج دُونَ المترافِعِين إليه بابَه؛ وأن يُولِيَ كُلًّا من الإقبال عليه، وحُسْن الإصغاءِ إليه، مايكُونُ بينَهم فيه

مُساوِيا، ولهم فى مَجْمَع المُوازاة حاوِيا؛ ولا يُعطِى من ٱلتفاته [إلىٰ] الشريف لشرَفه، وذى الشارة الحسنة من أجل ثَوْبِه ومِطْرَفه، مايمنَعُه من تَقْحَمُه العيُون، وتترجَّم فى خُموله الظُّنُون: فإنَّ ذٰلك مُطمِع لذى الرُّواء فى دَفْع الحقِّ إذا وجب عليه، وٱلتماس الباطِل وإن ضَعُفتِ الدَّواعى إليه؛ مُؤيِّس لذى الخُمول من الاِنتصار لحقِّه، وإنْ أسفَرَ صبْحُ يقينه ونطقَتْ ألْسنةُ أدلته؛ فالناسُ وإن تَبايَنُوا فى الأقدار والقِيمه، وتفاوَتُوا فى الأرزاق المَقْسُومه، فالإسلام لهم مجتَمَع، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبَع؛ وهم عند خالِقِهم سواءٌ إلا مَنْ ميزَّتْه التقوىٰ، وتمسَّكَ بسببِها الأقوىٰ؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ إنَّ أكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أتْقَاكُمْ ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿ إنْ يَكُنْ غَنِياً أو فَقيرًا فاللهُ أَوْلىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أنْ تَعْدِلُوا وإنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فإنَّ اللهَ كانَ بمَا تعْمَلُون خَبِيرا ﴾.

وأمره أن يتأمَّلَ أحوالَ المُترافِعين إليه، والخُصُوم لَدَيْه؛ ويتطَلَّب ماوقَعَ نِزاعُهم لأجله فى نَصِّ الكِتاب، ويَعْدِل إلىٰ السُّنَّة عند عَدَمه من هذا الباب؛ فإنْ فُقِد من هذين الوجهين، فلْيَرْجِع إلىٰ ماٱختاره السَّلَفُ المهتَدُون، وأجمع عليه الفُقهاءُ المجتَهِدُون؛ فإن لم يُلْفِ فيه قولًا ولا إجْماعا، ولاوجَدَ إليه طريقًا مستطاعا، أعمَلَ رأْيَه وٱجتهادَه، وٱمتطى رِكابَ وُسْعه وجيادَه؛ مستظهرًا بمَشُورة الفقهاء فى هذه الحال، ومستخْلِصا من آرائِهم مايَقَع عليه الاِتِّفاق الآمنُ الاِعتلال: ﴿ وَاللهُ يَقُولُ الحَقَّ وهُوَ يَهْدِى السَّبِيل ﴾.

وأمره باستِعمال الأَناة عند الحُكُومات، وٱستماع الدَّعاوىٰ والبَيِّنات؛ من غير سُرْعةٍ تُحْدِث خَطَلا، ولاإفراطٍ فى التأنِّى يُورِث مَلَلا؛ فإنَّ الحقَّ بينَ ذَيْنك علىٰ شَفَا خَطَر، وظَهْر غَرَر؛ ولا سيَّما إذا كان أحَدُ الخَصْمين منْطِيقا، يُنَمِّق كلامَه تَنْميقا؛

فإنه يَخْلُب ببلاغةِ نُطْقه مستَمعه، ويُغَطِّى وجهَ الباطل بألفاظه المُوَشَّعه؛ فإذا آتَّفق لدَيْه ماهـذا سبيله، شَحَذ له غَرْبَ فِطْنته، وأرْهف غِرَارَ فِكْره وبَصيرتِه؛ ومنح كُلًّا من الإنصاتِ مايَجْتلِي وجْهَ النَّصف مُنِيرا، ويَغْدُو لأشياع الجَوْر مُبِيرا. وإنْ ذُو اللَّسَن رَوّعه، وأوْهَمَه أنَّ الحقَّ معه، بمـا يلفِّقه من كلام يَقْصُر خصمُه عن جوابه، ويَحْصَر عن جِداله وآستيفاء خِطابه؛ مع عَدَم البينة المَشْهُوده، وتَعَذُّر الحجة المَوْجُوده، آستعاد كلامَه وآستنْطَقه، وآستوضَح مَغْزاه وتحقَّقه؛ من غير إظهار إعجابٍ بمـا يَذْكُره، ولا آغترارٍ بمـا يَطْويه ويَنْشُره؛ ولا إصغاءٍ يبـدُو أثَرُ الرَّغائب من فَحْوَاه، ولا آختصاصٍ له بمـا يمنَعُ صاحِبَه شَرْواه[1] : لئلَّا يولِّد ذلك له آشْتِطاطا، ويُحْدِث له آنْطلاقًا فى الخُصُومة وآنْبِساطا؛ حتّى إذا آبْتَسم الحقّ، وآنتَصَر الصِّدق؛ وفَلَج أحدُهما بحُجَّته، ولَحَن ببيِّنَته، أقرّ الواجبَ فى نِصَابه، وأداله من جُنُود الظُّلْم وأحزابِه؛ وأمضَى الحكمَ فيـه بآعتزامٍ صادق، ورأْيٍ مُحَصَّـدِ الوَثَائق؛ غير ملْتَفت إلى مُراجعة الخُصُوم وتَشَاجُرِهم، وشَكْواهم وتنَافُرِهم؛ آعتمادًا للواجب، وآنْتهاجًا لجَدَد العَـدْل اللَّاحب. قال الله تعـالى: ﴿ يَادَاوُدُ إنَّا جَعلْنَاكَ خَلِيفَةً فى الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ ولا تَتَّبِـعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيل اللهِ إنَّالَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَـا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَاب ﴾ .

وأمره إذا آنْتُدِب للقضاء أن يُفَرِّغ بالَه، ويَقْضِيَ أمامَهُ أوْطارَه وأشغالَه؛ ويُخَلِّى من أحوالِ الدنيا سِرَّه، ويَشْرحَ لمـا هو بصَدَده صَدْرَه؛ فلا تَنْزِعُ نفْسُه إلى تحصيل مَأْرَب، ولا تتَطَلَّع إلى دَرْك مَطْلَب؛ فإن القلْبَ إذا آكْتنَفَتْه شُجُونه، وأحاطتْ به شُئُونه، كان عُرْضَـة لتشعُّب أفكاره، وحملِه على مَرْكَب آضطراره الجارى بضِدّ إيثارِه وآختياره؛ حرِيًّا بالتقصير عن الفَهْم والإفهام، والضَّجَر عند مشْتَجَر الخصام.

(١) « شروى الشىء مثله » .

وأمره بالتثبُّت فى الحدُود، والاستظهارِ عنـد إقامتِها بمن يَسْكُن إلىٰ قوله من الشُّهود، والاحتياطِ من عَجَل يُحيل الحكم عن بيَانه، أو رَيْثٍ يرجيه عند وُضُوحه وتبيانه، وأن يتجافىٰ عمَّـا لم يُصَرَّح له بذكره وشَرْحه، ولا يُسْرِعَ إلىٰ تصديقِ ساعٍ وإن تَشَبَّه بالناصحين فى نُصْحه، حتّى يستبينَ له الحقُّ فيُمْضيه، عاملًا بمـا يُوجبه حكْمُ اللهِ فيه . وأن يَدْرأ من الحدُود ماآعترضَتِ الشُّبهةُ دليلَه، وكانتْ شواهدُه مدْخُولَه، ويُقيمَ منها ما قامتْ شُهودُه، ولم يُمْكن إنكارُه وجُحودُه، مكْبِرا لتَجافِيها، ومُعظِّما للتجوُّز فيها : ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ .

وأمره بتصَفُّح أحوال الشُّهود المُعدَّلين، المسموعةِ أقوالُهم فى أمور المسلميـن وأحوال الدِّين، ومواصلةِ البحْث عن طرائِقهم، وآستِشْفاف خلائِقِهم، مستخْدِما فى ذلك سِرَّه وجَهْره، وواصـلًا بعَوانِ دَأْبه فيـه بِكْره ؛ فَمَنْ علِمه سـليما فى فِعْله، غيرَ ظَنِين فى أصْله، مُتَحرِّيا فى كَسْبه، مَرْضيًّا فى مَذْهَبه، حافظًا لكتاب الله سبحانه، مُتَمَسِّكا من علم الشريعة بمـا يَلْوِى عن مَهاوِى الخطإ عِنـانَه، حاليًا بالدِّيانة المُنِـيرةِ المَطالع، حاميًا نفْسَه عن الإسْفاف إلىٰ دَنَايا المَطامِع، حاوِيًا من الظَّلَف والأمانه، والقَدْر والصيانه، والاحتِراس والتحفُّظ، والتحَرُّز والتيقُّظ، ماتميَّز به علىٰ أشـكاله وأتْرابِه، وطال منا كِبَ أمثـاله وأضْرابه، فقد كَمَلَتْ صفاتُه، وآقتضَتْ تقديمَـه أدواتُه، ووجب أن يُمْضىَ كونَه عدْلا، ويجعله لقَبُول الشهادة أهْلا . ومَنْ رآه عن هذه الخِلَال مقصِّرا، وببعضها مستَظْهِرا، وكان موسومًا بديانة مشكوره، ونزاهة مأْثُوره، رضِىَ بذلك منه قانِعا، وحكَم بقوله سامِعا . ومَنْ كان عن هذيْن الفريقين نائيَـا، ولأحوالهم المبيَّنِ ذكرها نافيَـا، ألغىٰ قولَهُ مُطَّرِحا، وردَّ شهادتَه مصرِّحا ؛ فإنَّ هٰؤلاء الشهودَ أعوانُ الحق علىٰ آنتصاره، وحربُ البـاطل علىٰ تَتْبيره وبَوَاره ؛

ومَحجَّة الحاكم إلىٰ قضائه ، ووَزَرُه الذى يستَنِد إليه فى سائرِ أنحائه ؛ فإذا أعْذَر فى آرْتيادِهم ، وآستفرَغ وُسْعه فى آنْتقادِهم ، فقد خرجَ من عُهْدة الآجتهاد ، وآستحقَّ من الله جزاءَ المجتهِد يومَ التَّناد ؛ ومتىٰ غرّر فى ذلك توجَّهت اللائمةُ عليه ، وكان قِمنًا بنِسبة التقصير فى الآحتياط إليه ؛ والله يتولَّى السرائر ، ويَبْلُو خَفيَّات الضمائر ، قال سبحانه : ﴿ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ من الشُّهَداء ﴾ . وقال جل ذكره : ﴿ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُم ويُسْأَلُون ﴾ .

وأمره أن يَكِل أُمورَ اليتامىٰ فى أمْلاكهم وأمْوالهم ، ومراعاةِ شُئُونِهم وأحْوالِهم ؛ إلىٰ الثِّقات الأعفَّاء ، والكُفَاة الأتْقياء ، الذين لاتَسْتَهْوِيهم دواعِى الطَّمَع ، ولا يُورِدُهم الإسفافُ مواردَ الطَّبَع ؛ وأن يتتبَّع أمورَهم ويتصفَّحها ، ويُشارِفَها بنَفْسه ويستَوْضِحها ؛ عالما أنه عمَّا فى أيديهم مسْئُول ، فإنَّ عُذْره فى إهمالٍ يتخلَّلهُ غيرُ مقْبول ؛ وهو سبحانه يقول : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يأْكُلُونَ أَموالَ اليَتامىٰ ظُلْمًا إنَّما يأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نارًا وسَيَصْلَوْنَ سَعيرا ﴾ .

وأن يُوعِزَ إليهم بالإنفاق علىٰ أربابِها بالمعْرُوف : ليَنْتَهِجُوا فيها جَدَد القصد المألُوف ؛ حتَّى إذا بلَغُوا الحُلُم ، وأُونِس منهم الرُّشْد وعُلِم ؛ وساغَ لهم التصرُّفُ فى نُفُوسهم ، ووثِق منهم باستِدْرار معايِشِهم ، دفَع إليهم أموالَهم محْرُوسه ، ووَفَّاهم إيَّاها كاملةً غير منقُوصه ؛ مستظْهِرا بالشَّهادة عليهم ، والبراءةِ منها بتسليمِها إليهم ؛ اتِّباعا لقوله تعالىٰ : ﴿ وآبْتَلُوا اليَتامىٰ حتَّى إذا بَلَغُوا النِّكاحَ فإنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَآدْفَعُوا إليْهِمْ أَمْوالَهُمْ ولا تَأْكُلُوهَا إسْرافًا وبِدارًا أنْ يَكْبَرُوا ومَنْ كانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ومَنْ كانَ فَقِيرًا فَلْيأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فإذَا دَفَعْتُمْ إلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وكَفىٰ بِاللهِ حَسِيبا ﴾ .

وأمره بتزويج الأيامى اللواتى فقدن الأولياء ، وآعتدى عليهن صرف الدهر وأساء ؛ وأضر بهن طول الإرمال ، وبدت عليهن آثار الخلة فى الحال ؛ فينكحهن أكفاءهن من الرجال ، ويتم عقد نكاحهن على مهور الأمثال .

وأمره بتفويض أمر الوقوف الجارية فى نظره إلى من يأمنه ويختاره ، وتقرن بإعلانه فى آرتضائه أسراره : من أهل التجربة والحياء ، ذوى الآضطلاع والغناء ؛ فإنهم أقل إلى المطامع تشوفا ، وأبعد فى عواقب الأمور نظرا وتلطفا ؛ وأن يوسع عليهم فى الأرزاق ، فيوصلها إليهم مهنأة عند الوجوب والآستحقاق ؛ فبذلك يملك المرء نفســه ويستصلحها ، ويتجنب مواقف التهم ويطرحها ؛ وتجب عليه الحجة إن ثلم أمانه ، أو قارف خيانه ؛ مستظهرا بترتيب المشرفين الذين خبر أحوالهم ، وسبر أفعالهم .

وأن يتقدم إلى المستنابين قبله بالإنفاق عليها حسب الحاجة من محصولها ؛ حافظا بما تعمده من ذلك لأصولها ؛ وجباية آرتفاعها من مظانها ؛ وآلتماس حقوقها فى أوانها ؛ وصرفها فى وجوهها التى شرطها واقفوها ، وعين عليها أربابها وأهلوها ؛ غير مخل مع ذلك بالإشراف والتطلع ، ولا مهمل للفحص والتبلغ ؛ فمن ألفاه حميد الأثر ، ورضى العيان والخبر ، عول عليه ، وفوض مستنيبا إليه ؛ ومن وجده قد مد إلى خيانة يده آستبدل به وعزله ، جزاء بما فعله : ﴿ إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما ﴾ .

وأمره أن يستخلف على ما نأى عنه من البلاد من جمع [إلى الوقار] الحلم ، وإلى الدراية الفهم ؛ وإلى التيقظ الآستبصار ، وإلى الورع الآستظهار : ممن لا يضيق بالأمور ذرعا ، ولا تحدث له مراجعة الخصوم ضجرا ولا تبرما ؛ ولا يتمادى

فى أسباب الزَّلَّه، ولا يُقصِّرعن الرجُوع إلىٰ الحقِّ إذا ٱتَّضح له، ولا يكتَفِى بأدْنىٰ مَعْـدَلة عن بُلُوغ أقْصاها، ولا تتهافَتُ نفْسُـه علىٰ طاعةِ هوَاها، ولا يُرْجِئ الأخْذَ بالحجة عِنْدَ ٱنكشافها، ولا يعجِّل بحُكْم مع ٱعتراضِ الشُّبْهة وٱكْتِنافها، ولا يستَميلُه إغْراء، ولا يَزْدَهِيه مَدْح وإطْراء، وأن يَعْهَدَ بمثل ماعَهِد أميرُ المؤمنين إليه، ويُعْذِر فى الإجْهاذ بإيجابِ الحجة عليه: ليبْرأَ من تَبِعةِ بادرةٍ عساه يأْتيها، أو مَزْلَقة تُناديه فَيهُبُّ ملبِّيا لداعِيها، قال الله تعالىٰ: ﴿ وتعاوَنُوا علىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ ولَا تَعاوَنُوا علىٰ الإثْم والعُدْوَانِ وٱتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شَديدُ العِقَاب ﴾.

وأمره أن يُمْضِىَ ماأمضاه الحُكَّام قَبْله ولا يتعقَّب أحكامَهم بتأْويل، مجتنبًا تَتَبُّعَ عَثَراتهم، والبحْثَ عن هَفَواتهم، ومهْما رُفِع إليه من ذٰلك مما الإجماعُ عليه مُوافق، ولسانُ الكِتَاب والسُّنَّة به ناطِق، أمْضاه وحَكَم به، وإن كان مباينًا لمَذْهبه: فإنَّ الحكومات كلَّها ماضيةٌ علىٰ ٱختلافِ جِهاتها، مستمِرّةٌ علىٰ تَنافِى صِفاتها، محميَّة عن التأويلِ والتعْليـل، محروسةٌ من التغيير والتبديل، ما كان لهـا مَخْرَجٌ فى بعض الأقوال، أو وُجِد لهـا عنـد الفُقهاء ٱحتِمال، إلَّا أن يكونَ الإجمـاع منعَقدا علىٰ ضِدّها، آخذا بالغـائها وردِّها، فيستفْرِغ فى إيضاحِها جُهْده، ويُنْفِق فى تلافيها من الٱستطاعة وُجْده، حتّىٰ يُعِيدَها إلىٰ مقرّها من الواجب، ويُمضيَها علىٰ الحقِّ اللَّازِب، قال الله عز وجل: ﴿ ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَـا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾.

وأمره أن يتَّخِـذ كاتبـا بالظَّلَف موْسُوما، وبأدَقِّ مايُناط به قَـُوما، خبيرًا بمـا يَسْـطُره، عالمـًا بمـا يَذْكُره، عارفا بالشُّروط والسِّجلَّات، وما يتوجَّه نحوَها من التأْويلات، ويتداخَلُها من الشُّـبَه والتلبيسات، مطَّلعا علىٰ أسرارها وعلَلها، وتصاريف حيَلها، متحرزًّا فى كل حال، متنزِّها عن مَذْموم الفعال، متَّخذا خشْية

الله شِـعارا ، مُسْبِلا دُونَ عِصْيانه من التُّقىٰ أستارا : فإنها نظاماته التى يرجِعُ إليها ، ويَدُه التى يبطِشُ بها ويعوِّل عليها ؛ ومتىٰ لم يكن له من نَفْسه وازع ، ولا من عَقْله ودِينِه رادِع ؛ لم يُؤْمَنْ أن تدبَّ عَقاربُه ليـلا ، ويَسْحَب علىٰ الغوائل والمُوبِقات ذَيْلا ، فيعُمَّ الضررُ بمكانه ، ويُشْرِع أذاه إلىٰ المسلمين حَدَّ سِـنانه . وأن يتخيَّر حاجبا طاوِيًا كَشْحه دُونَ الأشرار ، جامعًا لأَدَب الأخْيار ، مُدَّرعا جِلْباب الحيَـاء ، طَلْق الوجه عند اللِّقاء ، سَهْل الجانب لَيِّنَه ، مستشعِر الخير متيقِّنه ؛ غير متجَهِّم للناس ، ولا معامِلهم بغير البَشَاشـة والإيناس ؛ فإنه البـابُ إليه ، والمعتَمَد فى لقائه عليه ؛ فلينْتَخبه آنتخابَ من عَلِم أنَّ حُسنَ الثناء خيرُ زاد ، وأنفَسُ ذُخْر وعَتَاد ، ورَأَى طِيِّب المَحْمَدة أجملَ كَسْب مراد ، وحَظٍّ مجسَّد مسـتَفَاد . ومتىٰ كان عن هـذه الخِلال متخَلِّيا ، وبخلافها متحَلِّيا ، آعتاض عنه بمن هو أسلَمُ غيبا ، وآمَنُ ريبا ، وأنقىٰ جَيْبا ، وأقَلُّ عيبا ، قال الله سبحانه : ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدا ﴾ .

وأمره أن يتسَـلَّم ديوانَ القضاء وما فيـه من الحُجَج والسِّجِلَّات ، والوثائق والكَفَالات ، والمَحَاضر والوَكالات ؛ بمحْضَر من العُدُول ليكونُوا له مشاهِدين ، وعليه شاهِدين ؛ وأن يجعل خُزَّانها من يرتَضيه ، بآجتماع أدواتِ الخير فيه ؛ عاملًا فى حِفْظها بمـا تقتضيه الأمانةُ التى أشفَقتِ السمٰواتُ والأرضُ والجبالُ منها ، وأقرَرْنَ بالعجز عنها ؛ متحرّيا من أمْرٍ يبُوء معـه بالأَثَام ، فى دار المُقَام ؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ علىٰ السَّـمٰواتِ والأرْضِ والجِبـالِ فَأَبَيْنَ أنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنْسانُ إنَّهُ كانَ ظَلُومًا جَهُولا ﴾ .

وأمره بمراعاة أمرِ الحِسـبة فإنها أكبَرُ المصـالح وأهمُّها ، وأجمَعُها لنَفْع النـاس وأعَمُّها ، وأَدْعاها إلىٰ تحصينِ أموالهم ، وآنتظامِ أحْوالِهم ؛ وحَسْم موادّ الفَساد ،

وكَفِّ يَدِهِ عن الآمتداد ، وأن يتقدّم إلى المُستناب فيها بمُداومة الآطّلاع على كَمِّيَّة الأسعار ، والفَحْص عن مادّةِ المخلوقات فى الآنقطاع والآستمرار ، ومواصلةِ الجُلُوس فى أماكِنِ الأقْوات ومَظَانِّها : ليكون تَسعيرُها بمقتضى زيادتِها ونُقْصانِها ، غيرَ خارج فى ذلك عن حدِّ الآعتدال ، ولا مائلٍ إلى ما يُجحِف بالفريقين من إكثار وإقلال ؛ وأن يُراعِىَ عِيارَ المكاييل والمَوَازين ، ليميِّزَ ذَوِى الصِّحّة من المطفِّفين ، فيقول لمن حَسُن آعتباره [مَرْ] حى(١) ويقابِلَ مَنْ ساء آختبارُه بما يجعلُه لأمثاله رادعا ، حتّى يَزِنُوا بالقِسْطاس المستقيم ، ويتجنَّبُوا التطفيف بقَلْب من إضمار المُعاوَدة سَليم ؛ قال الله تعالى : ﴿ وَيْلٌ للمطَفِّفِينَ الَّذِينَ إذا آكْتالُوا عَلَى النَّاس يَسْتَوْفُونَ وَإذَا كَالُوهُمْ أوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ أَلَا يَظُنُّ أُولئكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العالَمِين ﴾ .

هذا عهدُ أمير المؤْمنين إليك ، وحجّتُه عند الله تعالى عليك ، وقَفَك [فيه] على مَنْهَج الصَّلاح ، وأعلَقَك منه إن اتَّبعتَه بأسبابِ النَّجاح ، وأدَرَّ به عليك خِلْفَ السَّعادة إن أمْرَيْتَه(٢) بيَدِ القَبُول ، وجمع لك مع آحتذائه بَدائِدَ(٣) المأمُول ، وعطَفَ لديْكَ متى تمثَّلته شَوارِدَ السُّول ، وأوجَدَك ضالَّةَ متاعِك إن أصغَيْت إليه سامِعًا مُطيعا ، وأعاد إن آئتمرت بأوامره شَمْلَ أقوالك جميعا ، وأرادكَ مَرْعى النجاة إن نهضْتَ بأعبائه مَرِيعا ، لم يَدَّخِرْك فيه شفيفا ، ولا حَقَرك إرشادًا وتَعْرِيفا ، خلَع به رِبْقَة الأمانة عن عُنُق آجتهادِه ، وأوضَحَ لك ما يُسأَل غدًا عن فعله وآعتمادِه .

فبادِرْ إلى العمل به مُسْرِعا ، وقُمْ بالمحدود فيه مُضْطَلِعا ، وآعلَمْ أنَّ لكل عالِم هَفْوه ، ولكلِّ جَوَاد كَبْوه ، فاغضُضْ عن مَطامِح الهوى طَرْفَك ، وآثْنِ عن أضاليل الدُّنْيا

(١) مرحى كلمة تقال للرامى إذا أصاب تعجبا من رميه .

(٢) مرى الدم وأمراه آستخرجه .

(٣) لعله مع آختزاله . تأمل

الغَرَارةِ عِطْفَك ، وٱخْشَ مَوْقِفًا تشْخَص فيه الأَبْصار ، وتَعْدَم الأعوانُ والأنصار ؛ يَوْمَ يَنْظُر المَرْءُ ماقَدّمَتْ يَدَاه ، وتنقطع الوسائِلُ إلا ممَّن أطاعَ الله وٱتَّقاه ؛ يَنْعم عَوْفُك[(١)] ، ويأْمَنْ يومَ القيامةِ خَوْفُك ؛ ومهما عَرَض لك من شُبْهة لم تُلْف مَخْرَجا منها ، ولا صَدَرا عنها ، ولا وجدْتَ لسَقْبِها هِنَاء ، ولِدائها شِفاء ، فطالِعْ حضرةَ أمير المؤمنين بِحالهـا مستَعْلِما ، وأَنْهِها إليه مستفْتِحا باستدعاء الجوابِ عما أصبَح لدَيْك مستَغْلِقا مُبْهَما ، يُمْدِدْك منه بما يُرِيك صُبْح الحق منبَلِجا ، وضِيقَ الشّـكِّ مُنْفَرِجا ؛ عن علم عنـده البحر كالقِياس ، إلىٰ أَوْشالِ النـاس ؛ وٱلله تعـالىٰ يعضِّد آراءَ أمير المؤمنين بالصواب ، ويُمِدّه بالتوفيق فى سائر الآراب ؛ ويقُود لمراده أزِمَّةَ جوامِحِها الصِّعاب ، ما أنْجَم سَحَاب ، وأثْجَم رَبَاب ، بمنّه وسَعة فضله .

وهذه نسخةُ عهـدٍ بولاية القضاء بسُرَّ مَنْ رأىٰ ، كتب بها أبو إسحاق الصابى ، عن الطائع لله ، للقاضى أبى الحُسين محمد ٱبن قاضى القُضاة أبى محمد عبيد الله ، ابن أحمـد بن معروف ، حينَ ولَّاه القضاء بسُرَّ مَنْ رأىٰ وغيرها ، وما أُضيف إلىٰ ذلك من أعمال الجزيرة ، وهى :

هـذا ماعهِدَ عبدُ الله عبدُ الكريم ، الإمامُ الطائع لله أمير المؤمنين ، إلىٰ محمد ٱبن قاضى القُضاة عُبيد الله بن أحمد ، حينَ عُرِفت الفضيلةُ فيه ، وتَقَيَّل[(٢)] مَذَاهبَ أبيه ؛ ونَشَأ من حِضْنه فى المَنْشإ الأَمِين ، وتبوّأَ من سَبَبه ونَسَـبه المتَبَوَّأَ المَصُون ؛ ووجده أميرُ المؤمنين مستحِقًّا لأن يُوسَم بالصَّنيعه ، والمنزلة الرَّفيعه ؛ علىٰ الحَداثة من سِنِّه ،

(١) العوف من معانيه البال والحال ومنه يقال فى الدعاء نعم عوفك .

(٢) يقال تقيل فلان أباه [أى بالياء المثناة] تقيلا اذا نزع اليه فى الشبه .

والغَضَاضة من عُودِه ، سامياً به فى ذٰلك إلىٰ مَراتِب أعيـان الرّجال ، التى لا تُدْرَك إلّا مع الكمال والاكْتِهال : لِمَـا آنس من رُشْده ونَجابته ، وآستوْضح من عقْله ولَبَابته ، وآستَرْجَح من وَقَاره وحِلْمه ، وآستغْزَر من دِرَايته وعِلْمه ، وللّذى عليه شيخُه قاضى القُضاة عبيدُ الله بن أحمد من حَصَافة الدِّين ، وخُلوص اليقين ؛ والتقدُّم علىٰ المتحَلِّين بِحلْيته ، والمنتَحلين لِصناعته ؛ والاستبدادِ عليهم بالعِلْم الجَمّ ، والمَعْنَى الفَخْم ؛ والافتنانِ فى المَساعى الصالحةِ التى يَسُودُ أحدُهم بأحدِها ، ويستحقُّ التَّجاوُزَ لهم من آستوعبها بأَسْرها ؛ وبالثِّقة والأمانة ، والعِفَّة والنَّزاهة ؛ التى صار بها عَلَما فَرْدا ، وواحداً فذًّا ؛ حتّٰى تكلَّفها من أجله مَنْ ليسَتْ من طَبْعه ولاسِنْخه ، فهو المحمُود بأفعاله التى آختص بها وبأفعالِ غيرِه ممن حَذاه فيها ، وبما نَفَق من بضائع الخير بعد كَسَادها ، وبالسابقة التى له فى خِدمة المُطيع لله أوّلا ثم خدمة أمير المؤمنين ثانيا ، فإنها [سابقة](١) شائعٌ خبَرُها ، وجميلٌ أثَرُها ، قوِيَّةٌ دَوَاعِيها ، متمكِّنة أوَاخِيها . وللمكانة التى خُصَّ بها من أمير المؤمنين [ومن عزِّ الدولة أبى منصور مولىٰ أمير المؤمنين أيده الله](١) ومن نَصير الدولة الناصِح أبى طاهرٍ رَعاه الله ؛ ومن عُظَماء أهلِ حَوْزتهم ، وأفاريقِ(٢) عوامِّهم ورعِيَّتهم ؛ فلما صَدَق محمد فِراسةَ أمير المؤمنين ومَخايلَه ، وآحتذىٰ سَجايا أبيه وشمائلَه ؛ وحصـل له ما حصـل من الحُرُمات المتأثِّله ، والمَواتِّ المتأصِّـله ، أحرز من الأثَرة علىٰ قُرْب المَدىٰ ، مالا يُحْرِزه غيرُه علىٰ بُعْد المَرْمىٰ ؛ وآستغْنىٰ أميرُ المؤمنين فيه عن طول التَّجْربة والاختِبار ، وتكرُّر الامتحان والاعتبار . فقلَّده الحكْمَ بين أهـلِ سُرَّ مَنْ رأىٰ ، وتِكْرِيتَ ، والطبرهان ، والسِّنِّ ، والبوَازِيج ، ودَقُوقا ، وخَانيجـار ، والبَنْدَنِيجَيْن ، وبوحسابور ، والرَّاذانَيْنِ ، [ومَسْكِن](١) وقُطْربُّل ، ونهربُوق ، والدبين ، وجميع الأعمال

(١) الزيادة من "رسائل الصابى" .

(٣) أفاريق جمع أفراق وأفراق جمع فرقة .

المُضافةِ إلىٰ ذٰلك والمنسوبةِ إليـه ، وشرَّفه بالخلَع والحُمْلان ، وضُروب الإنعام والإحْسان ، وكان فيما أعطاه من هذا الصِّيتِ والمَجْد ، ونحله إيَّاه من المَفْخَر العِدّ ، مبتغيًا ما كَسَـبه من الله الرِّضا والزُّلْفىٰ ، والسـلامةَ فى الفاتحة والعُقْبىٰ ؛ وراعيًـا لمـا يُوجِبـه لقاضى قُضاته عُبَيـدِ الله بن أحمدَ من الحقوق التى أخفىٰ منها أكثَرَ ممـا أبْدىٰ ، وأمسكَ عن أضـعاف ما أحْصىٰ ؛ وذاهبًـا علىٰ آثار الأئمة المهديِّين ، والوُلاة المجتهِدين ، فى إقرار ودائعِهم عند المرَشَّحِين لحِفْظها ، المُضْطَلِعين بحملِها ، من أولادِ أوليائهم ، وذُرِّيَّة نُصَحائهم : إذ كان لا بُدّ للأسلاف أن تَمْضى ، وللأخلاف أن تَنْمى ؛ كالشجر الذى يُغْرَس لَدْنًا فيصيرُ عظيما ، والنباتِ الذى يَنْجُم رَطْبا فيصير هَشِـيما ؛ فالمُصيب من تخيَّر الغَرْس من حيثُ آستَنْجب الشجر ، وآسـتَحْلىٰ الثَّمر ، وتعمَّد بالعُرْف مَنْ طابَ منه الخَبَر ، وحَسُن منه الأَثَر ؛ وأمير المؤمنين يسأَلُ اللهَ تعالىٰ تسديدًا تُحمَد عائدتُه ، وتَدِرُّ عليه مادّتُه ؛ ويتولَّاه فى العزائم التى يَعْزِمها ، والأمور التى يُبْرِمها ، والعقُودِ التى يعْقِدها ، والأغراضِ التى يعتَمِدها ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلَّا بالله عليه يتوكَّل وإليه يُنِيب .

أمره باعتماد التَّقْوىٰ ، فإنَّها شِـعار أهلِ الهُدىٰ ؛ وأن يُراقِبَ اللهَ مراقبَةَ المتحرّز من وَعِيده ، والمتَنَجِّز لمَوَاعيده ؛ ويطَهِّر قلبـه من مُوبِقات الوَساوِس ، ويُهذِّبَه من مُرْدِيات الهَوَاجِس ؛ ويأْخُذَ نفْسَـه بمآخذ أهلِ الدِّين ، ويكلِّفَها كُلَف الأبرار المؤمنين ؛ ويمنَعَها من أباطيل الهَوىٰ ، وأضاليلِ المُنىٰ ؛ فإنها أمَّارةٌ بالسُّوء ، صَبَّةٌ(١) إلىٰ الغَىّ ؛ صادّةٌ عن الخير ، صادِفَة عن الرَّشَـد ؛ لا ترجِعُ عن مَضَارّها إلّا بالشَّكائم ، ولا تنقادُ إلىٰ منافِعها إلا بالخَزائم ؛ فَمَنْ كبَحها وثَنَاها نجَّاها ، ومن أطْلَقها وأمْرَجها(٢)

(١) أى مائلة الى الخ . (٢) فى الأصول والرسائل وأهرجها بالهاء ولعله تصحيف ففى اللسان "وأمرجها [أى الدابة] تركها تذهب حيث شاءت" فتنبه .

أرْداها . وأولىٰ مَنْ جعل تقوىٰ الله دَأْبَه ودَيْدَنه، والخِيفةَ منه منِهاجَه وسَنَنه ؛ مَن ٱرتدىٰ رِداءَ الحُكّام، وأمَر ونَهىٰ فى الأحكام، وتَصدّىٰ لكَفّ الظالم، وردّ المَظَالم، وإيجاب الحُدُود ودَرْئها ، وتحليـلِ الفُروج وحَظْرها ، وأخْذ الحقُوق وإعطائهـا ، وتنفيذِ القضاياَ وإمضائها : إذ ليس له أن يأمُر ولا يأْتَمِر، ويَزْجُر ولا يَزْدَجِر ، ويأتىَ مثل ما يَنْهىٰ عنه، ويَنْهىٰ عمّا يأتى مِثْلَه ؛ بل هو محقُوق بأن يُصْلِح ما بين جَنْبيْه ، قبـلَ أن يُصْلِح ما رُدّ أمرُه إليه ؛ وأن يهذّب من نِيَّته ، ما يحاوِلُ أن يهـذِّبَ من رعيَّته ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إلَّا وأَنْتُمْ مُسْلِمُون ﴾ : ﴿ فاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُها النّاسُ والحِجارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكافِرِين ﴾ .

وأمرهِ بالإكثار من تِلاوة القرءانِ الواضِح سبيلُه ، الراشِد دليلُه ؛ الذى مَنِ ٱستضاء بمَصابِيحه أبْصر ونَجا ، ومن أعْرض عنها زَلّ وغَوىٰ ؛ وأن يتخذَه إماماً يَهتدى بآياته ، ويَقْتدِى ببيِّناته ؛ ومثالًا يحْذُو عليه ، ويرُدُّ الأصولَ والفُروع إليه ؛ فقد جعـله الله حُجَّتـه الثابتةَ الواجبه ، ومَحَجَّته المستبينَةَ اللّاحِبه ؛ ونُورَه الغالبَ الساطع ، وبُرهانَه الباهِرَ الناصـع ؛ وإذا ورد عليه مُعْضِل ، أو غُمّ عليه مُشْكِل ، اعتَصم به عائذا ، وعَطَف عليـه لائذا ؛ فبه يُكْشَف الخَطْب ، ويُذَلّل الصَّعْب ؛ ويُنـال الأَرَب ، ويُدْرَك المَطْلَب ؛ وهو أحدُ الثقلين اللذين خلَّفهما رسولُ الله صلى الله عليه وعلىٰ آله وسلم فينا ، ونصبهُما مَعْلَما بعدَه لنا ، قال الله تعـالىٰ : ﴿ إنَّا أنْزلْنـا إليْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النّاسِ بِمـا أراكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخائِنِينَ خَصِيما ﴾ . وقال تعـالىٰ : ﴿ وإنَّه لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يأْتِيـه الباطِلُ مِنْ بيْنِ يَدَيْهِ وَلَا من خَلْفه تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيـد ﴾ .

وأمره بالمحافظة على الصَّلَوات ، وإقامتها فى حَقائق الأَوْقات ؛ وأن يدْخُل فيها أوانَ حُلُولها بإخْلاص من قَلْبه ، وحُضُور من لُبِّه ؛ وجَمْع بينَ لفظه ونيَّته ، ومطابقةٍ بينَ قوله وعَمَله ؛ مرتِّلا للقراءة فيها ، مُفْصِحا بالإبانة لها ، مُتثبِّتا فى رُكوعها وسُجودها ، مستوْفيا لحُدودها وشُروطها ؛ متجنِّبا فيها جَرائرَ الخطإ والسَّهْو ، وعَوارِضَ الخَطَل واللَّغو : فإنه واقف بين يدَىْ جَبَّار السماء والأرض ، ومالك البَسْط والقبض ، والمطَّلِع على خائنةِ كلِّ عين وخافية كلِّ صَدْر ، الذى لاتحتجبُ دُونَه طَوِيَّه ، ولا تستَعْجِم عليه خَبِيَّه ؛ ولا يُضيع أجرَ مُحْسِن ، ولا يُصْلح عملَ مُفْسِد ؛ وهو القائل عز وجل : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إنَّ الصَّلاةَ تَنْهىٰ عن الفَحْشاءِ والمُنْكَر ﴾ .

وأمره بالجُلُوس للخُصُوم ، وفَتْح بابه لهم على العُمُوم ؛ وأن يُوازِىَ بين الفريقين إذا تقدَّما إليه ، ويُحاذِىَ بينهما فى الجُلوس بين يَدَيْه ؛ ويَقْسِم لهما أقساما مُتماثِلةً من نَظَره ، وأقساطًا متعادلةً من كَلِمه : فإنه مَقامُ توازُنِ الأقدام ، وتكافُؤ الخواصِّ والعوامّ ؛ ولا يُقْبِل على ذى هيْئة لهيْئته ، ولا يُعرِض عن دَمِيم لدَمَامته ؛ ولا يزِيد شريفًا على مشْرُوف ، ولا قويًّا على مضْعُوف ؛ ولا قريبًا على أجنبِىّ ، ولا مُسلِما على ذمِّىّ ، ماجمَعَهما التخاصُم ، وضمَّهما التحاكُم . ومن أَحَسَّ منه بنُقْصان بَيان ، أو عَجْزٍ عن بُرْهان ؛ أو قُصورٍ فى عِلم ، أو تأخُّر فى فَهْم ، صبَر عليه حتّى يستَنْبِط ماعنده ، ويستَشِفَّ ضميرَه ؛ ويَنْقَع بالإقناع غُلَّته ، ويُزِيحَ بالإيضاح عِلَّته . ومَنْ أحسَّ منه بلَسَنٍ وعبارةٍ وفَضْل من بَلاَغه ، أعملَ فيما يَسْمَعه منه فِكْره ، وأحضَره ذِهْنه ، وقابله بسدّ خَلَّة خَصْمه ، والإبانة لكلٍّ منهما عن صاحبه ؛ ثم سَلَّط على أقوالها ودَعاوِيهما تأمُّلَه ، وأوقَع على بيِّناتهما وحُجَجهما تدبُّره ؛ وأنفذَ حينئذ الحُكومةَ إنفاذًا يَعْلَمانِ به أنَّ الحقّ مستقِرّ مَقَرّه ، وأن الحُكم موضُوع مَوْضِعَه ؛ فلا يبقىٰ للمحْكُوم عليه آستِرابة ولا للمحْكُوم له آستِزادة ؛ وأن يأخُذ نفْسَه مع ذلك بأطْهر

الخلائق وأحْمَدِها ، وأهدىٰ السَّجايا وأرْشَدِها ؛ وأن يقصِد فى مَشْيه ، ويُغضّ من صَوْته ، ويَحْذف الفُضُول من [لفظه و](١) لَحْظه ، ويخفِّف من حَرَكاته ولَفَتاته ، ويتوقَّر من سائر جَنَباته [وجهاته](١) ، ويتجنَّب الخُرْق والحِدّة ، ويتوقّى الفَظاظة والشِّدّه ؛ ويُلِين كَنَفه من غير مَهانة ، ويُرَبِّ هيبَتَه فى غير غِلْظة ؛ ويتوخّى فى ذلك وُقُوفا بين غايتَيْه ، وتوسُّطا بين طَرَفيه ؛ فإنه يخاطِبُ أخْلَاطا من الناس مختلِفين ، وضُروبًا غير متَّفقين ؛ ولا يخلو فيهم من الجاهل الأَهْوج ، والمظْلوم المُحْرَج ؛ والشيخ الهِمّ ، والناشئِ الغرّ ؛ والمرأة الرَّكيكه ، والرجل الضعيف النَّحيزة ؛ وواجبٌ عليه أن يغْمُرَهم بعقْله ، ويشْمَلَهم بعدْله ؛ ويُقِيمَهم علىٰ الاستقامة بسياسته ، ويَعْطِف عليهم بحِلْمه ورِياسَته . وأن يجْلِس وقد نالَ من المَطْعَم والمَشْرَب طَرَفا يقِف به عند أوّل الكِفَايه ، ولا يبلُغ منه إلىٰ آخرِ النِّهايه ؛ وأن يَعْرِض نَفْسه علىٰ أسباب الحاجة كُلِّها ؛ وعوارِض البَشَرِيّة بأَسْرها : لئلا يُلِمّ به من ذٰلك مُلِمٌّ أو يَطِيفَ به طائفٌ فيُحيلانه عن جَلَده ، ويُحُولان بينه وبين سَدَده . ولْيكُنْ همُّه إلىٰ مايقول ويُقال له مَصْروفا ، وخاطِرُه علىٰ مايَرِد عليه ويَصْدُر عنه موقُوفا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ يَادَاوُدُ إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَاب ﴾ .

وأمره إذا ثبَت عنده حقٌّ من الحقُوق لأحدٍ من الخُصُوم . أن يكتُبَ له متىٰ آلتمس ذٰلك إلىٰ صاحب المَعُونة فى عمله بأن يمكِّنه منه ، ويَحْسِم المعارَضات فيه عنه ، ويقبِضَ كلَّ يدٍ تمتدّ إلىٰ مُنازَعته ، أو تتعدّى إلىٰ مجاذَبته ؛ فقد نَدَب الله

(١) الزيادة عن " رسائل الصابى " .

النـاسَ إلىٰ مُعاونةِ المُحق علىٰ المُبْطِل، والمظلومِ علىٰ الظـالم؛ إذ يقولُ عزّ وجلّ : ﴿ وتَعَاوَنُوا عَلىٰ البِرِّ والتَّقوىٰ ولا تَعاوَنُوا علىٰ الإثْمِ والعُدْوان ﴾ .

وأمره أن يستصْحِب كاتبًا دَربا بالمحاضر والسِّجلّات؛ ماهرا فى القضايا وا لُحكومات؛ عالمًـا بالشُّروط والحدُود؛ عارفًا بمـا يجُوز ومالايجُوز؛ غيرَ مقَصِّر عن القُضاة المستُورِين ، والشُّهود المقْبُولين ، فى طهارةِ ذَيْله ، ونَقاءِ جَيْبه ، وتصَوُّنه عن خُبْث المـآكل والمَطاعِم ، ومُقارفة الرِّيَب والتُّهم؛ فإن الكاتب زمامُ الحاكم الذى إليه مَرْجِعُه ، وعليه مُعَوَّله؛ وبه يحترِس من دَواهِى الحِيَل ، وكَوامِنِ الغِيَل . وحاجبًا سديدًا رشيدا ، أديبًا لبيبـا؛ لايُسِفُّ إلىٰ دَنِيّة ولا يُلِم بمنكَرة؛ ولا يقْبَـل رِشْوه ، ولا يلتمِسُ جَعَالةً؛ ولا يحجُب عنـه أحدًا يحُاوِل لقاءه فى وَقْته ، والوصولَ إليـه فى حينِه . وخُلفاءَ يردُّ إليهم مابعُدَ من العمل عن مَقَرّه ، وأعجزه أن يتولَّى النظَرَ فيه بنفسه؛ ينتخِبُهم من الأماثل ، ويتخيَّرهم من الأفاضل؛ ويعْهَد إليهم فى كلِّ ماعُهِد فيه إليـه ، ويأخُذُهم بمثل ماأُخِذ به؛ ويجعَلُ لكلٍّ من هذه الطوائف رِزْقا يكُفُّه ويكْفِيه ، وقُوتا يحْجُزُه ويُغْنِيه؛ فليس تلزمُهم الحُجَّـــةُ إلا مع إعطائِهم الحـاجة ، ولا تُؤخَذُ عليهـم الوثيقةُ إلا مع إزاحة العِلّة؛ فقد قال الله تعـالىٰ : ﴿ وأَنْ لَيْسَ للإنْسانِ إلّا ماسَعىٰ وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرىٰ ثُمَّ يُجْزاهُ الجَزاءَ الأَوْفىٰ ﴾ .

وأمره بإقرار الشهود الموسومين بالعَدَالة علىٰ تَعْديلهم ، وإمضاءِ القضاءِ بأقْوالهم؛ وحلِهم علىٰ ظاهِرِ السَّلامه ، وشِعار الاْستِقامه ؛ وأن يعتمِدَ مع هـذا البحْثَ عن أديانهم ، والفَحْصَ عن أماناتِهم ، والإصـغاءَ إلىٰ الأحاديث عنهم : من ثناءٍ يتكرر ، أو قَدْح يتردّد؛ فإذا تواتر عنـده أحدُ الأمرين ، ركن إلىٰ المزكِّى الأمين ، ونبا عن المتَّهم الظَّنين : فإنه إذا فعل ذٰلك اْغتبط أهلُ الأمانة بأماناتِهم ، ونزَعَ أهلُ الخيانةِ

عن خياناتهم ؛ وتقرّبُوا إليه بما تَنْفَق سُوقُه ، ويُستحَقّ به التوجُّه عنده ، وٱستمرّ شُهودُه وأمناؤه ، وأتباعُه وخلفاؤه ، علىٰ المَنْهج الأَوْضح ، والمَسْلك الأنْجح ؛ وتحصّنت الأموالُ والحقُوق ، وصِينت الحُرُمات والفُروج ؛ ومتىٰ وَقَف لأحدٍ منهم علىٰ هَفْوة لاتُغْفر ، وعثرةٍ لاتُقال ، أسقطه من عَدَدهم ، وأخرجه عن جُمْلتهم ؛ وٱعتاض منه من يَحمُد دينَه ، ويرتضى أمانتَه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وإمَّا تَخافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيانَةً فانْبِذْ إلَيْهِمْ علىٰ سَواءٍ إنَّ اللهَ لايُحِبُّ الخائِنينَ ﴾ . وقال فى الشهادة : ﴿وأقِيمُوا الشَّهادَةَ للهِ﴾ .

وأمره بالضَّبْط لما يجرى فى عَمَله من الوقُوف الثابتة فى ديوان حُكْمه ؛ والتعويلِ فيها علىٰ الأُمَناء الثِّقات ، والحُصَفاء الكُفَاة ، المعروفين بالظَّلَف والوَرَع ، المتنزِّهين عن النَّطَف(١) والجَشَع ؛ والتقدُّمِ إليهم فى حِفْظ أصولها ، وتوفيرِ فُروعِها ؛ وتثميرِ غلّاتها وٱرتفاعِها ؛ وصَرْفِها إلىٰ أهلها ومستحِقّيها وفى وُجوهها وسُبُلها ؛ ومطالبتِهم بحساب مايجْرِى علىٰ أيديهم ، والاستِقْراء لآثارهم فيه وأفعالِهم ؛ وأن يَحْمَد منهم من كَفىٰ وكَفَّ ، ويَذُم من أضاعَ وأسَفَّ ؛ ويُنْزِل كُلّا منهم منزِلَته التى ٱستحقَّها بعمَله ، وٱستوجبها بأثَره ، قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ يأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأَمَانات إلىٰ أهْلِها وإذَا حَكَمْتُمْ بيْنَ النَّاس أنْ تحْكُمُوا بالعَدْل إنَّ اللهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إنَّ اللهَ كانَ سَمِيعًا بَصِيرا ﴾ .

وأمره بالاحتياطِ علىٰ أموال الأيْتام ، وإسنادِها إلىٰ أعفِّ وأوثَق القُوّام ؛ والتقدّمِ إلىٰ كل طائفة بأن يجريهم مُجْرىٰ ولده ، ويقيمهم مُقَام سُلَالته ، فى الشفقة عليهم ، والإصلاح لشُئونهم ، والإشرافِ علىٰ تأديبِهم ؛ وتلْقينهم مالا يَسَع المسلم جهْلُه من الفرائض المفْتَرَضة ، والسُّنَن المؤكّدة ؛ وتخْرِيجهم فى أبواب معَايشهم ،

(١) هو بالتحريك العيب والريب .

وأسباب مَصالِحهم، والإنفاقِ عليهم من عَرْض أموالهم بالمعروف الذى لاشَطَط فيه ولا تَبْذير، ولا تَضْييق ولا تقْتير، فإذا بلغُوا مَبَالِـغَ كمالِهم، وأُونِس منهم الرُّشْـد فى متصَرَّفاتهم، أطلَق لهم أموالهم، وأشهد بذلك عليهم؛ فقد جعله الله بمـا تقلَّده من الحُكم، خلَفًا من الآباء لذَوى اليُتْم؛ وصار بهذه الولايةِ عليهم مسئُولا عنهم، ومجْزِيًّا عمـا سار به فيهم، وأوصـلَه من خير أو شرٍّ إليهم؛ قال الله تعـالىٰ: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدا إنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُون أموالَ اليَتَـامىٰ ظُلْمًا إنَّمَـا يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نارا وسَيَصْلَوْنَ سَعيرا ﴾ .

وأمره بحفظ مافى دِيوانه من الوثائقِ والسِّجلَّات، والحُجَج والبيِّنات، والوَصايَا والإقْرارات: فإنها ودائعُ الرعيَّة عِنـده، وواجبٌ أن يَحْرُسَها جُهده؛ وأن يَكِلَها إلىٰ الخُزَّان المأمُونين، والحَفَظة المتيقِّظين؛ ويوعزَ إليهم بأن لايُخْرِجوا شيئا منها عن موضِـعه ولا يُضيفوا إليها مالم يكن بعلْمِه؛ وأن يتَّخذ لهـا بيتًا يحصُرها به؛ ويجعله بحيث يأْمَنُ عليه: ليرجع متىٰ آحتاجَ الرجُوعَ إليه؛ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وعَهْدِهِمْ راعُون ﴾ .

وأمره إن ورد عليه أمْرٌ يُعْيِيه فصلُه، ويشتبِه عليه وجْهُ الحكم فيه، أن يرُدّه إلىٰ كتاب الله، ويطلُبَ به سبيلَ المَخْلَص منه، فإن وجده وإلا ففى الأثَرعن رسول الله صلّى الله عليه وسـلم، فإن أدركه وإلا آستفْتىٰ فيه مَنْ يليه من ذَوِى الفِقْه والفهم، والهدايةِ(١) والعِلم؛ فما زالت الأئمةُ والحُكَّام من السَّلَف الصالح، وطُرّاق السُّنَن الواضح؛ يستفتى واحدٌ منهم واحدا، ويسترشدُ بعضٌ بعضا؛ لزُوما للاجتهاد، وطلباً للصواب؛

(١) فى رسائل الصابى «وأهل الدراية» .

وتحرُّزا من الغلط ، وتوقِّياً من العِثار ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ فإنْ تنازعْتُمْ في شيْءٍ فرُدُّوهُ إلىٰ اللهِ والرَّسُول ﴾ .

وأمره أنْ لاينقُضَ حكما حكم به مَنْ كان قبله ولا يفْسَخه ، وأن يعمَل عليه ولا يَعْدِل عنه ، ما كان داخلاً فى إجماع المسلمين ، وسائغًا فى أوضاع الدِّين ؛ فإنْ خرج عن الإجماع ، أوضَحَ الحال فيه لمن بحَضْرته من الفقهاء والعلَماء حتّى يصيرُوا مثله فى إنكاره ، ويجتمعُوا معه علىٰ إيجاب ردِّه ، ثم ينقُضه حينئذ نقْضا يَشِيع ويَذِيع ، ويعُود به الأمر إلىٰ واجبه ، ويستقِرّ معه الحقُّ فى نِصابه ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ ومَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الفاسِقُون ﴾ .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحُجّتُه عليك ؛ قد شرح به صدْرَك ، وأوضح به سُبُلك وأقام أعلامَ الهداية لك ، ولم يألُك تبصيرا وتذكيرا ، ولم يدَّخرْك تعريفًا وتوقيفا ؛ ولم يجعلْك فى شيءٍ من أمرك علىٰ شُبْهة تعترِضك ، ولا حَيرة تعتاقُك ؛ والله شاهدٌ له بخُروجه من الحق فيما وَصّى وعَهِد ، وعليك بقَبُولك ماقبِلْتَ مما ولّى وقلّد ؛ فإن عدلت وآعتدلْت ــ وذلك خليقٌ بك ــ فقد فاز وفُزْتَ معه ، وإن تجانَفْت وزَلَلْت ــ وذلك بعيدٌ منك ــ فقد رَبِح وخسِرتَ دُونه ؛ فلْتكُنِ التقوىٰ زادَك ، والآحتراسُ شِعارَك ؛ وآستعِنْ بالله يُعِنْك ، وآستَهْدِه يَهْدِك ، وآعتضِدْ به يُعَضِّدك ، وآستمِدّ من توفيقه يُمْدِدْك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

[وكتب نصيرُ الدولة الناصحُ أبو طاهر يومَ كذا من رجب سنة ست وستين وثلثمائة] (١) .

(١) الزيادة عن "رسائل الصابى" .

وهذه نسخة عهد بقضاء القُضاة شَرْقا وغَرْبا ، كُتِب به عن الإمام الناصر لدين الله أحمد، للقاضى محيي الدين أبى عبد الله محمد بن فَضْلان ؛ من إنشاء أستاد الدار عضد الدين بن الضحَّاك، وهى :

هـذا ماعهِدَ عبدُ الله وخليفته فى العالَمِين، المفترَضُ الطاعة علىٰ الخلق أجمعين ، أبو العبَّاس أحمدُ النـاصرُ لدين الله أميرُ المؤمنين ؛ إلىٰ محمد بن يحيىٰ بنِ فَضْـلان : حين سَـبَرَ خِلاله وآستَقْراها ، وآعتَبَر طرائقَه وآستَبْراها ؛ فألفاه رشيدًا فى مَذَاهبه ، سدِيدًا فى أفعاله وضَرائِبه ، موْسُوما بالرَّصانه ، حاليًا بالوَرَع والدِّيانه ، مبرِّزا من العلوم فى فُنُونها ، عالمـا بمفْرُوض الشريعة المطَهَّرة ومسْـنُونها ؛ مُدَرِعا ملابِسَ العَفَاف ، قد أناف علىٰ أمثـاله فى بوَارِع الأَوْصاف ؛ فقَلَّده قضاءَ القُضاة فى مدينة السـلام وجميع البِلاد والأعمال، والنواحِى والأمْصار : شَرْقا وغَرْبا ، وبُعْدا وقُرْبا ؛ سُكُونًا إلىٰ ماعلِم من حاله ، وآضْطِلاعه بالنهضة المُنوطة به وآستِقْلالِه ، وركُونًا إلىٰ قيـامه بالواجب فيما أُسْنِد إليه ، ونُهوضه بعِبْء ماعُوِّل فى حفظ قوانِينِه عليـه ؛ وآستنامةً إلىٰ حلُول الآصطِناع عنـــده ، ومصادَفتِه منـه مكانا تبَوّأه بالآستِحقاق وحْده ؛ والله تعالىٰ يعضِّد آراءَ أميرِ المؤمنين بمزيد التوفيق فى جميع الأُمور ، ويُحْسِن له الخِيَرَةَ فيما يؤُمُّه من مَنَاظم الدِّين وصَـلاح الجُمْهور ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلَّا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

أمره بتقوىٰ الله تعـالىٰ فى إعلانه وإسْراره ، وتقَمُّص شِعارها فى إظهار أمره وإضْمـارِه ؛ فإنها العُروة الوُثْقىٰ ، والذُّخر الأَبْقىٰ ، والسعادةُ التى مادُونَها فوزٌ ولا فوقَها مَرْقىٰ ؛ وهى حلْية الأبرار ، وسِيَما الأخْيار ، والمَنْهج الواضح ، والمَتْجر الرابح ؛ والسبيلُ

المؤدّى إلىٰ النجاة والخلاص ، يومَ لاوَزَرَ ولاتَ حِينَ مَناص ؛ وأنفعُ العُدَد والذّخائر، وخيرُ العَتَاد يوم تُنْشَر الصُّحُف وتُبْلىٰ السَّرائر؛ يومَ تَشْخَص الأبصار ، وتَعدَم الأنصار : ﴿ وَتَرىٰ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴾ . ولا ينجُو من عذاب الله يومئذٍ إلا مَنْ كان زادُه التقوىٰ، وتمسّك منها بالسبب الأقوىٰ ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ وَاتَّقُونِ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾.

وأمره أن يجعل كتابَ الله إماماً يَهْتَدِى بمَنَاره، ويستَصْبِح ببَواهر أنْواره؛ ويستَضِيءُ فى ظُلَم المشكلات بمُنير مصْباحه ، ويقفُ عند حُدُود محظُوره ومُباحه؛ ويتّخذُه مثالا يحتَذِيه، ودليلًا يتّبع أثَرَه فيهْدِيه ؛ ويعمَلُ به فى قضاياه وأحكامه ، ويقتَدِى بأوامره فى نَقْضه وإبْرامه : فإنه دليلُ الهدىٰ ورائدُه ، وسائقُ النُّجْح وقائدُه ؛ ومعدِنُ العلم ومَنبَعُه، ومَنْجَم الرَّشاد ومَطْلَعه؛ وأحدُ الثقلين اللذين خلَّفهما رسول الله صلّى الله عليه وسلم فى الأمّه ، والذِّكْرُ الذى جعله الله تعالىٰ تبْيانا لكل شيءٍ وهدًى ورحمه، فقال عزّ من قائل : ﴿ وَنَزَّلْنا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ .

وأمره بانْتِزاع[1] الآثارِ النبوية صلوات الله علىٰ صاحبها وسلامه ، والاهتداءِ بشُمُوسها التى تَنْجلى بها دُجُنَّة كلِّ مشْكِل وظَلامُه؛ والاقتداءِ بسُنَّة الشريعة المتبُوعه، وتصَفُّح الأخبار المسمُوعه ؛ والعملِ منها بما قامتْ أدلّة صِحّته من جميع جِهاتِه ، واستَحكمت الثِّقة بنَقَلتِه عنه ــ عليه السلام ــ ورُواتِه ؛ وسلِمتْ أسانيدُه من قَدْح، ورجالُه من ظِنَّة وجَرْح ، فإنها التاليةُ للقرءان المجيد فى وُجوب العمل بأوامره ،

(١) فى اللسان ج ١٠ ص ٢٢٩ « انتزع بالآية والشعر تمثل و يقال للرجل إذا استنبط معنى آية من كتاب الله قد انتزع معنى جيدا » .

والانتهاءِ بَروادعه وزواجِره؛ وهو عليه الصلاة والسلامُ الصادقُ الأمينُ الذى ماضلَّ وما غَوىٰ، وما يَنْطِق عن الهَوَىٰ؛ وقد قرَنَ الله سبحانه طاعتَـه بطاعتِه، والعملَ بكتابه والأخْذَ بسُنَّته؛ فقال عز من قائل: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ ﴾ .

وأمره بمجالسة العلمـاء، ومُباحثـة الفُقَهاء؛ ومشاركتِهم فى الأُمور المشْـكِله، وعَوارِض الحكوماتِ المُعْضِله: لتستبِينَ سبيلُ الصواب، ويَعْرىٰ الحُكْمُ من مَلَابس الشُّبَه والارتياب؛ ويَخْلُصَ من خطإ الانفراد، وغوائِلِ الاستبداد؛ فالمَشُورة باليُمْن مقرونه، والسلامةُ فى مَطَاويها مضْمُونه؛ وقد أمر الله تعالىٰ بها نبِيَّه صلّى الله عليه وسلم مع شَرَف منزلِته وكمالِ عِصْمته، وتأييده بوَحْيه وملائكته؛ فقال سبحانه: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَىٰ اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِين ﴾ .

وأمره بفتْح بابه، ورَفْع حِجَابه؛ وأن يجلس للخُصُوم جلُوسا عامّا، وينْظُر فى أمورهم نَظَرا حسَنًا تامّا؛ مساوِيًا بينَهم فى نَظَره ولَحْظه، وإصغائه ولَفْظه؛ محترِزا من ذى اللَّسَن وجُرْأَة جَنانه، متأنِّيًا بذى الحَصَر عنـد إقامة بُرْهانه، فرُبَّمـا كان أحدُ الخصمين ألْحَنَ بحُجَّتـه، والآخَرُ ضعيفا عن مُقاوَمتِـه؛ هذا مَقـامُ الفحص والاستفهام، والتثبُّت وإمضاءِ الأحكام: ليسْلَم من خديعـةِ مُحْتال، وكَيْد مُغْتال؛ مائلًا فى جميع ذٰلك مع الواجب، سالـكًا طريقَ العَدْل اللَّاحِب؛ غيرَ فارِق فى إمضاء الحكم بين القَوِىّ والضعيف، والمَشْروف والشريف؛ والمـالك والمملُوك، والغَنِىّ والصُّعلوك، قال الله تعـالىٰ: ﴿ إِنْ يَكُنْ غَنِيـًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوىٰ أَنْ تَعْدِلُوا ﴾ . وقال سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَـا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُون ﴾ .

وأمره أن يتصفّح أحوالَ الشهود، المسموعةِ أقوالهُم فى الحقُوق والحُدُود، المرجُوعِ إلىٰ أماناتِهم، المعمُول بشَهادتِهم؛ الذين بهم تُقام الحُجَج وتُدْحَض، وتُبْرَم الأحكامُ وتُنْقَض؛ وتُثْبَت الدّعاوىٰ وتُبْطَل، وتُمضىٰ القضايا وتُسجَّل؛ مجتهدًا فى البحْث عن طرائِقهم وأحوالهم، وآنْتقادِ تصاريفهم وأفْعالهم، وآستِشْفاف سَجَاياهم، وعِرْفان مزَاياهم؛ مخصِّصا بالتميز مَنْ كان حميدَ الخِلال، مرْضِىَّ الفِعال، راجعًا إلىٰ وَرَع ودِين، متمسِّكا من الأمانة والنَّزاهة بالسبب المَتين، قال الله تعالىٰ: ﴿ وأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ ﴾ .

وأمره بالنظر فى أمور اليَتامىٰ وأمْوالهم، ومراعاةِ شُئُونهم وأحوالِهم؛ وأن يرَتِّب بسبب آتِّساق مصالحهم الثِّقاتِ الأعِفّاء، والأُمَناءَ الأتْقياء؛ ممن ظهرَتْ دِيانتُه، وحسُنَت سَريرتُه؛ وآشتَهر بالظَّلَف والعَفاف، والتنزُّه عن الطمَع والإسْفاف؛ ويأمُرَهم بحفظها من خَلَل يتخلَّلها، ويدٍ خائنةٍ تَدْخُلها؛ وليْكنْ عليهم حَدِبا، وفى فَرْط الحُنُوِّ أبا؛ وخَلَفا من آبائهم فى الإشْفاق عليهم، وحُسْن الآلتفاتِ إليهم: فإنَّه عنهم مسْئُول، والعُذْرُ عند الله تعالىٰ فى إهمالهم غيرُ مقبُول؛ وأن يأْذَن لهم فى الإنْفاق عليهم بالمعْروف من غيرِ إسرافٍ ولا تقْتِير، ولا تضْيِيقٍ ولا تبْذِير؛ فإذا بلغ أحَدُهم النِّكاح، وآنَس منه أماراتِ الرُّشْد والصَّلاح، دفع مالَه إليه، وأشهد بقَبْضه عليه؛ علىٰ الوجْه المنصُوص، غيرَ منْقُوص ولامَنْغُوص؛ ممتثِلا أمرَ الله تعالىٰ فى قوله سبحانه: ﴿ فَإذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وكَفىٰ بِاللهِ حَسِيبا ﴾ .

وأمره بتزويج الأيامَى اللّوَاتى لاأولِياءَ لهنّ من أكفائِهِنّ، بمُهورِ أمثالهِنّ؛ وأن يشْمَل ذوات الغِنىٰ والفَقْر منهنّ بعدْله، ويتحرّىٰ لهنّ المصلحةَ فى عقْده وحلِّه .

وأمره ان يستنيبَ فيما بَعُد عنه من البِلاد ودَنَا، وقَرُب منه ونأىٰ، كلَّ ذِى علم وٱستِبْصار، وتيقُّظ فى الحــكم وٱســتِظْهار، ونزاهةٍ شائعــه، وأوصافٍ لأدوات الاستحقاق جامِعَةْ، ممن يتحقق نُهوضَــه بذلك وٱضْطلاعَه، ويأمن ٱستزْلالَه وٱنْخداعَه، وأن يَعْهَد إليهم فى ذٰلك بمثل ماعُهِد إليه ولا يألُوَهم تنبيها وتذْكيرا، وإرشادًا وتبصيرا، قال الله تعالىٰ: ﴿ وتَعاوَنُوا علَىٰ البِرِّ والتَّقْوىٰ ولا تَعاوَنُوا علىٰ الْإثْم والعُدْوانِ ﴾.

وأمره بإمضاء ما أمضاه قبْـله الحُكَّام، من القضـايا والأَحْكام، غير متعقِّب أحكامَهُم بنقْض ولا تبْـدِيل، ولا تغيِـير ولا تَأْوِيل، إذا كانتْ جائزةً فى بعض الأقْوال، مُمْضاةً علىٰ وجهٍ من وُجُوه الآحْتمال، غيرَ خارقةٍ للإجمـاع، عاريةً من مَلَابِس الآبْتداع، وإن كان ذٰلك منافيًا لمذْهَبه، فقد سبَقَ حكمُ الحاكِم به، قال الله تعالىٰ: ﴿ ومَنْ لَمْ يحْكُمْ بِمـا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولٰئِكَ هُمُ الظّالِمُون ﴾.

وأمره أن يتخذ كاتبًـا قيِّما بشُروط القضايا والسِّجِلَّات، عارفًا بمـا يَتطرّق نحْوَها من الشُّبَه والتأْوِيلات، ويتَداخَلُها من النَّقْص والتلبيسات، متحَرِّزا فى كلّ حال، متنَزِّها عن ذَمِيم الأفعال. وأن يتخَـيَّر حاجبًا نَقِيّ الجَيْب، مأمونَ المَشْهَد والغَيْب، مستشْعرًا للتقوىٰ، فى السِّر والنجوىٰ، سالكًا للطريقة المثلىٰ، غير متَجَهِّم للناس، ولا معتمدٍ مايُنافِى بَسْط الوجه لهم والإينـاس: فإنه وُصْلتهُم إليه، ووجْهُه المشهودُ قبلَ الدخول عليه، فلينتَخِبْه من بين أصحابه، وممن يرتَضِيه من أمثاله وأضْرابه.

وأمره بتَســلُّم ديوان القضاءِ والحُكْم، والآستظهار علىٰ ما فى خَزائنــه بالإثبات والخَتْم، والآحتياط علىٰ مابه من المـال والسِّجلَّات، والحُجَج والمحاضر والوَكالات،

والقُبُوض والوثائق والأثْبات والكَفالات ، بمَحْضَر من العُـدُول الأُمناء الثِّقات ؛ وأن يرتِّب لذلك خازنا يُؤدّى الأمانةَ فيه ، ويتوخّى ماتُوجبه الديانة وتقتضيه .

وأمره بمراعاة أمر الحِسْبة : فإنهـا من أكْبَر المصالح وأهمِّها ، وأجمعِها لمنـافِع الخَلْق وأعمِّها ، وأدْعاها إلىٰ تحصينِ أمْوالهم ، وٱنتظامِ أحْوالهم ؛ وأن يأمُر المستنابَ فيها باعتبار سائرِ المَبِيعات فيها : من الأقوات وغيرها فى عامّة الأَوْقات ؛ وتحقيق أسباب الزيادة والنُّقْصان فى الأسعار ، والتصدّى لذلك علىٰ الدَّوام والاستِمْرار ؛ وأن يُجْرِى الأمرَ فيها بحسَب ماتقتضِيه الحالُ الحاضِره ، والموجباتُ الشائعةُ الظاهِره ؛ وٱعتبارِ المَوازينِ والمَكاييل ، وإعادة الزائِد والناقِص منها إلىٰ التَّسْوية والتعـديل ؛ فإنِ ٱطَّلَع لأحد من المتعاملين علىٰ خيانةٍ فى ذلك وفِعْلٍ ذَميم ، أو تطفيف عَدَل فيه عن الوزن بالقِسْطاس المستَقِيم ، أنالَهُ من التأْديب ، وأسـباب التَّهْذيب ، ما يكونُ له رادِعا ، ولغيره زاجِرًا وازِعا ؛ قال الله تعـالىٰ : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إذَا ٱكْتَالُوا عَلىٰ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإذَا كَالُوهُمْ أوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون ألا يَظُنُّ أُولٰئِكَ أنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العالَمِين ﴾ .

وهـذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليك ، وحُجَّتُه عندَ الله تعـالىٰ عليك ؛ قَدْ أولاكَ من صُنُوف النِّعم والآلاء ، وجزِيلِ الكَرَم والحِباء ، ما يُوجب عليك الاعترافَ بقَـدْره ، وٱستِيزاعَ شُـكره ؛ ووقف بك علىٰ مَحَجَّة الرَّشاد ، وهـداكَ إلىٰ مَنْهَج الحقِّ وسَنَن السَّداد ؛ ولم يأْلُكَ تَثْقيفا وتَبْصـيرا ، وتَنْبِيها وتذكيرا . فتأَمَّلْ ذٰلك متدبِّرا ، وقِفْ عنـد حُدُود أوامره ونَواهِيه مستَبْصِرا ؛ وٱعمَلْ به فى كلِّ ما تأْتيه وتَذَرُه ، وتُورِده وتُصْـدِرُه ؛ وكُنْ للمَخِيلة فى ٱرْتيادكَ محققا ، وللمعتَقَد فيك مُصَـدِّقا ؛ تفُزْ من خير الدارين بمُعلّى القِداح ، وإحمـادِ السُّرىٰ عند الصَّباح ؛ وحسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعم الوكيلُ .

الضـــرب الثـانى

(ممـا كان يكتب بِدِيوان الخلافة ببغْدادَ لأرباب الوظائف من أصحاب الأقـــلام التواقيعُ)

وطريقتُهم فيها أن يفتتح التوقيعُ بلفظ «أحَقّ» أو «أَوْلى» أو «أقمَنُ مَنْ أُفيضت عليه النِّعم » أو « مَنْ فُوّض إليه كذا » أو « مَنْ نُوّه بذكره » ونحو ذلك «مَنْ كان بصفة كذا وكذا » ثم يقال : « ولمـا كان فلانٌ بصفة كذا وكذا، فُوّض إليه كذا وكذا » أو « أُسْنِد إليه كذا وكذا » ونحو ذٰلك .

وهــذه نسخة توقيع بتدريس، كُتِب به عن الإمام الناصر لدين الله، للقـاضى محيي الدين «محمد بن فَضْلان » بتدريس المَدْرسة النِّظامية ببغْداد، فى ســنة أربعَ عشرةَ وستِّمائة، وهى :

أَحَقُّ مَنْ أُفيضَتْ عليه مَجَاسِدُ(١) النِّعَمْ ، وجُذِب بضَبْعه إلىٰ مَقام التنويه وتَقَدُّم القَدَم، مَنْ أســفَر فى أفضيــة الفَضائل صبَـاحُه ، وٱنتَشر فى العـالَم عِلمُه وأَزْهر مِصْـــباحُه .

ولـمَّا كانَ الأجَلُّ الأوحَدُ ، العـالم، مُحْيِي الدين، حُجَّة الإسـلام ، رئيس الأصحابِ ، مُفْتِى الفريقين، مُفِيد العُلُوم، أبوعبد الله « محمد بن يحيىٰ بن فَضْلان » أدام الله رفعته ، ممن نَظَم فرائدَ المَحامد عِقْدُه النَّضِـيد ، وأَوَىٰ من العلم والعَمَل إلىٰ رُكْن شَديد، وثَبَتَتْ قدمُه من الديانة علىٰ مستَثْبَت راسخ وقَرارٍ مَهيد ـ رُؤِى التعويل فى تفويض التدريس بالمَدْرسة النِّظاميَّة إليه : ثقةً بٱضْطِلاعه وٱستِقْلاله ، وتبْريزه

(١) المجاسد جمع مجسد بالضم والكسر الثياب التى تلى الجسد وقد تكون مصبوغة بالجسد وهو الزعفران .

فى حلَبات الاستباق علىٰ نُظَرائه وأمثاله ، وتراجُع المُساجلين له عن فَوْت غايَته وبُعْد مَناله ؛ وأُسْند إليه ــ أدام الله رفعتَه ــ النظرُ فى أوقاف المدْرسة المذكُورة بأجمعها، وٱعتمادِ ما شرطه الواقفُ فى مَصارفها وسُبُلها ؛ سُكُونا إلىٰ كفايتـه، ورُكُونا إلىٰ سَدادِه وأمانتِه .

ورُسِم له تقـديمُ تقْوىٰ الله تعـالىٰ التى ما زال منْتَهجا لطرائقِها، متمسِّكا بعِصَمِها ووثائِقها؛ وأن يشْرَح صَدْرَه للتعلمين، ولا تأخُذَه ضُجْرة(١) من المستفيدِين، ولا تَعْدُوَ عيناه عن جُهَلاء الطالبين؛ ولا يتبرَّمَ بالمبالغة فى تَفْهِيم المبتدِى، ولا يَغْفُلَ عن تذكير المنْتَهِى : فإنه إذا ٱحتَمَل هذه المشَقَّه، وأعطىٰ كلَّ تِلْميذ حقَّه، كان الله تعالىٰ كفيلاً بمعُونتـه ، بحسَب ما يعْلَم من حِرْصه عليهم وإخلاص نِيَّته . ولْيكُنْ بسائر المتفقِّهة معتَنيًا رَفِيقا ، وعليهم حَدِبا شَـفِيقا ؛ يُفَرِّعُ لهم من الفِقْه ماوَضَح وتسَهَّل، ويبَيِّن لهم ما ٱلتبَس من غَوامِضه وأشْكل ؛ حتّى تستَنير قلوبهُـم بأضْواء عُلُوم الدين، وتَنْطِق ألسِنَتُهم فيها باللفظ الفَصِيح المُبِين، وتظْهَر آثارُ بركاته فى مَراشِده وتَبِين؛ ولْتَتَوَفَّرْ هِمَّتُه فى عِمارة الوُقُوف وٱستِنْمائِها، والتوفُّر علىٰ كلِّ ماعاد بتزايُدِها وزكائِها؛ بحيثُ يتَّضح مكانُ نظَره فيها، ويبْلُغ الغايةَ المُوفِيةَ علىٰ من تقدّمَهُ ويُوفِيها؛ ولا يستَعِينُ إلَّا بمن يُؤَدِّى الأمانةَ ويُوفِّيها ، ويقومُ بشرائط الٱستحفاظِ ويَكْفيها ؛ وهو ــ أدام الله رفعته ــ يَجْرى من عوائد المدرِّسين والمتولِّين قَبْله علىٰ أوفىٰ معْهود، ويُسامى به إلىٰ أبعَدِ مُرتَقًى ومقامٍ محْمُود ؛ وأذِنَ له فى تنـاوُل إيجاب التدريس ونظر الوقُوف المذكورة، أُسْوةَ من تقـدّمه فى التدريس والنظَر فى الوُقُوف، علىٰ ماشرط الواقفُ فى كل وِرْد وصَدَر، وٱعتمادِ كل ماحَدّه فى ذلك ومَثَّله من غير تجاوُز .

---

(١) هى بالضم التبرم والتضجر . انظر القاموس .

النـــوع الرابـــع

(ممـا كان يُكْتَب من ديوان الخلافة ببغداد ما كان يُكْتَب لزُعَماء أهل الذِّمَّة)

وطريقُهم فيه أن يُفتَتَح بلفظ : « هذا كتابٌ أمَر بكَتْبه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىّ أميرُ المؤمنين لفلان » ثم يقال : « أما بعدُ فالحمدُ لله » ويؤتىٰ فيه بتحميدة أو ثلاث تحميداتٍ إن قُصِد المبالغة فى قهر أهل الذمَّة بدُخُولهم تحت ذِمة الإسلام وآنقيادِهم إليه . ثم يذكر نظَر الخليفة فى مصالح الرعِيَّة حتّٰى أهلِ الذمة، وأنه أُنْهِىَ إليه حالُ فلان وسُئِل فى توليته علىٰ طائفته فَولَّاه عليهم للميزَةِ علىٰ غيره من أبناء طائفته ونحو ذٰلك؛ ثم يُوصِيه بمـا يناسبُه من الوصايا .

وهــذه نسخةٌ من ذلك، كُتِب بها عن القائم بأمر الله، لعَبْـد يَشُوعَ الْجَاثَلِيق، من إنشاء العلاء بن مُوصَلَايا، وهى :

هذا كتابٌ أمر بكَتْبه عبـدُ الله أبو جعفرٍ عبـد الله الإمامُ القـائم بأمر الله أميرُ المؤمنين، لعَبْد يَشُوعَ الجَاثَلِيق الفَطْرَك .

أما بعـدُ، فالحمدُ لله الواحدِ بغَيْر ثان، القديمِ لاعَنْ وُجُودِ زَمَان؛ الذى قَصُرت صنيعة الأوهام، عن إدراكه وحارَتْ؛ وضَلَّتْ صـنيعة الأفهام، عن بُلُوغ مَدىٰ صِـفاتِه وحالَتْ؛ المتنَزِّه عن الوَلَد والصاحبه، العاجزةِ عن إحاطة العـلم به دلائلُ العقُول الصافِيَةِ الصائبـه؛ ذِى المَشِيئة الحالِيَـة بالمَضاء، والقُدْرة الجـارِيَة عليها تصاريفُ القَـدَر والقضاء؛ والعظمةِ الغَنِيَّـة عن العَوْن والظَّهير، المتعالى بها عن الكُفْء والنظِير؛ والعِزَّة المكتَفِية عن العَضُـد والنصـير، ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وهُوَ السَّمِيعُ البَصِير ﴾ .

والحمدُ لله الذى آختارَ الإسلامَ دِينا وآرْتضاه، وشامَ(١) به عَضْبَ الحقِّ على الباطل وآنْتضاه، وأرسل محمدًا ـ صلّى الله عليه ـ مُنْقِذا من أشْراك الضِّلَّه، وكاشفًا عن الإيمان ماغَمَره من الإشراك وأظَلَّه، وبعثه ماحيًا أثَرَ الكُفْر من القلوب والأسْماع، وناحيًا فى آتِّباع أوامرِه ماجَدّ فى البِدار إليه والإسْراع، وأدّى(٢) ماحُمِّله أحسنَ الأداء، وداوى بمُعجِز النبوّة من النفوس مُعْضِل الداء، ولم يزَلْ لأعلام الهدى مُبِينا، ولحبَائل الغَىّ حاسمًا مُبِينا، إلى أن خلَص الحقُّ وَصَفا، وغدا الدِّينُ من أضداده متَصِفا، وآتَّضح للحائر سَنَنُ الرَّشَد، وآنقاد الأبِىُّ باللِّين والأَشَد، فصلّى الله عليه وعلى آله الطاهرين، وأصحابه المنتخَبِين، وخُلفائه الأئمةِ الراشدين، وسلَّم تسليما .

والحمد لله الذى آستخلَصَ أميرَ المؤمنين من أزكى الدَّوْحة والأَرُومه، وأحَلَّه من عزِّ الإمامةِ ذِرْوةً للمجْد غيرَ مَرُومه، وأصار إليه من تُرَاث النبوّة ماحوَاه بالآستحقاق والوُجُوب، وأصاب به من مَرامِى الصَّلاح ماحُميت شُموسُه من الأُفُول والوجُوب، وأوْلاه من شَرَف الخلافة ماآستَقْدَم به الفخْرَ فلبّى، وآستخْدَم معه الدَّهرَ فما تأبّى، ومنح أيّامه من ظهُور العـدْل فيها وآنْتِشاره، ولَقَاح حَوامِلِ الإنصاف فيها ووَضْع عِشَاره، مافَضَـل به العُصُور الخالِيَـه، وظلَّت السيَرُ متضمِّنةً من ذكرها ماكانت من مثلِه عارِيَةً خالِيَـهْ، وهو يستَديمُـه ـ سبحانه ـ المَعُونَةَ على ما يُقَرِّب لدَيْه ويُزْلِف عنده، ويستمدُّه التوفيقَ الذى يغْدُو لعزائمه الميمُونةِ أوفى العَضُد والعُدّه، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنِيب .

(١) شام السيف شيما سله .

(٢) فى الأصول وأدلى ... ... الادلاء . وهو تصحيف كما لايخفى .

وأميرُ المؤمنين مع ماأوجب الله تعـالىٰ عليه من ٱختصاص رَعَاياه [بالمَوَاهب] التى يَمُدّ عليهم رِواقَها، ويَرُدّ بها إلىٰ أغصان صَلاحِهم أوْراقَها ؛ ويُلْقِي علىٰ أجْيادهم عُقُودها ، ويَقِي رياحَ ٱئْتلافِهم رُكُودَها ، يرىٰ أنْ يُولِيَ أُولِي الآسـتقامة من أهل ذِمّته ضُروبَ الرأفة وصُنوفَها، وأقسامَ العاطفة الدافعةِ عنهم حوادِثَ الغِيَر وصُروفَها؛ بمقتضىٰ عُهُودِهم القويّة القُوىٰ، وأذِمَّتِهـم(1) التى يلزمُ أنـ يحافِظَ عليها أهلُ العدل والتقوىٰ؛ ويغتمِدَهم من الضَّرر الغـامر ، والإجمام المُضاهِى الآنِفُ منـه الغابِر؛ بمـا يَقْبِض يدَ الضَّيْم وكَفَّه، وأن يحبُوَهم من الحِياطة بما يحرُس رُسومَهم المستمرّة من أسباب الآختلال ، ويُجْرِيهم فيها علىٰ ماسنّه السلَفُ معهم من مألُوف السَّجَايَا والخِلَال .

ولمـا أُنْهِى إلىٰ حضرة أمير المؤمنين تمييزُك عن نُظَرائك ، وتَحَلِّيك من السَّـداد بمـا يستَوْجِبُ معه أمثالُك المبالغةَ فى وصْفِك وإطرائك ؛ وتخَصُّصُك بالأنحاء التى فُتَّ فيها شَأْوَ أقرانِك، وأفدْتَ بها ماقصّر معه مُساجِلُك من أبناء جِنْسك أن يعْدِلَك فى مِيزانِك ؛ وما عليه أهْلُ نِحْلتك مِنـ حاجتهم إلىٰ جاثَليق كافِلٍ بأُمُورهم، كاف فى سياسة جُمْهورهم؛ مستقِلٍّ بما يلزمه القِيامُ به، غيرِ مُقِلٍّ بمـا يتعيَّن مثلُه فى أدوات مَنْصبه؛ وأنَّ كُلًّا ممن يُرْجَع إليه منهم لَمَّـا تصفَّح أحوالَ متقدِّمِى دينِهم وٱستَشَفّ، وأعمل الفِكْرَ فى ٱختيار الأرجَح منهم والأشَـفّ ؛ وٱتفقُوا من بعدُ علىٰ إجالة الرأْى الذى أفاضُوا بينَهـم قِدَاحَه، وراضُوا به زَنْد الآجتهاد إلىٰ أن أوْرىٰ حينـ رامُوا ٱقتِدَاحَه ؛ فلم يُصادِفُوا مَنْ هو بالرياسـة عليهم أحقُّ وأحْرىٰ، وللشُّروط الموجبة التقديمَ فيهم أجمعُ وأَحْوىٰ ؛ وعن أموالِ وُقُوفهم أعفُّ وأوْرَع ، ومن نَفْسه لداعى التحرّى فيها أطْوعُ وأتْبَع ، منك . اختارُوكَ لهم راعِيًا ، ولِمَـا شَدّ نِظامَهم ملاحظا

(1) جمع ذمام بالذال المعجمة وفى اللسان الذمام والمذمة الحق والحرمة .

مُراعِيا، وسألُوا إمضاء نَصِّهم عليك والإذْنَ فيه ، وإجراءَ الأمر فيما يَخُصُّــك أَسَدَّ مَجارِيه ؛ وترتِيبَك فيما أُهِّلْت له وحُمِّلْتَ ثِقْــله ، وآختصاصَك علىٰ من تقدَّمَك من الأضراب ، بمزيدٍ من الإرْعاء والإيجاب ؛ وحمْلَك وأهلَ نِحْلتك علىٰ الشُّروط المعتاده ، والرسومِ التى إمضاءُ الشريعةِ لهــا أَوْفىٰ الشَّهاده ــ رأىٰ أميرُ المؤمنــين الإجابةَ إلىٰ ماوُجِّهتْ إليه فيه الرَّغْبــه ، وآستخارة الله تعالىٰ فى كل عَزْم يُطْلِق شَــباه ويُمْضِى غَرْبه ؛ مقتَدِيا فيما أَسْداه إلَيْك ، وأَسْناه من أَنْعُمه لَدَيْك ؛ بأفعال الأئمة الماضين ، والخلفاء الراشدين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، مع أمثالك من الجَثالِقَة الذين سَبَقُوا ، وفى مقامك آتَّسَقُوا ؛ وأوْعز بترتيبك جاثَلِيقًا لنُسْطور النَّصارىٰ بمدينة السلام وسائر البِلاد والأصْقاع ، وزعِيمًا لهم وللُّروم واليَعاقِبة طُرًّا ، ولكلِّ من تَحْوِيه ديارُ الإسلام من هاتين الطائفتيْن مِمَّن بها يستقِرّ و إليها يَطْرا ؛ وجعل أمرَك فيهم ممتَثَلا ، وموضعَك من الرِّياسة عليهم متأثِّلا ، وأن تنفرد بالتقدُّم علىٰ هذه الطوائف أجْمَع : ليكونَ قولُك فيما يُجِيزه الشرعُ فيهم يُقْبَــل و إليك فى أحوالهم يُرْجَع ؛ وأنْ تميز بأُهْبة الزَّعامة ، فى مجامع النصارىٰ ومُصَلَّياتهم عامّةً ، من غيرِ أن يَشْرَكَك فيها أو يشاكِلُك فى النِّسبة الدالة عليها مَطْرانٌ أو أُسْــقُفٌّ للروم أو اليَعاقِبة : لتَغْدُوَ شواهدُ ولايتك بالأوامر الإمامية باديةً للسامع والناظر ، وآثارُ قُصورهم عن هذه الرُّتْبــة التى لم يبلُغُوها كافَّةً للمُجادِل منهم والمُناظِر ؛ ومُنِعُوا بأَسْرهم عن مساواتك فى كلِّ أمرٍ هو من شُروط الزَّعامة ورُسُومها ، والتَّرَيِّى بمــا هو من علاماتها ووُسُومها ؛ إذ لاسبيلَ لأحدِهم أن يَمُــدّ فى مُباراتك باعه ، ولا أن يخْرُج عن المُوجَب عليه من الطاعة لك والتِّباعه ؛ وحَمَلك فى ذاكَ علىٰ مايدُلُّ عليــه المنشورُ المنشَأُ لمن تقدَّمك ، المُمْضىٰ لكَ ولكلِّ من يأتى بعْــدَك ؛ المُجَدِّدُ بمــا حواه ذِكْرَ ما نطقَتْ به المناشــيرُ المقرَّرةُ فى أيام الخلفاء الراشدين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، لمن تقدَّمَك فى مَقَامك ، وأحرزَ سبْقَ مَغْزاك

ومرامك : من كون المنصوبِ فى الخِلْقَة إليه الزَّعامةُ علىٰ ماتضُمُّه ديارُ الإسلام من هذه الفِرق جَمْعا ، والمنصوصُ عليه فى التقدّم الذى ليس لغيره من رياضه مَرْعىٰ ؛ وتقدّمَ أميرُ المؤمنين بحِياطتك وأهل نِحْلتك فى نُفوسِـكم وأموالكم وبِيَعِكم، ودِياركم ومَقارِّ صلواتكم وحِراسةِ أموالكم ، وٱعتمادِكم بأقْسام الكَلاءة علىٰ أجمل الرَّسْم معكم ؛ وأن تُحْمَوْا من نَقْض سُـنَّة رضِيَّة قُرِرتْ لكم ، ودَحْض وتيرةٍ حميدةٍ ٱستُعْمِلت فى فَرْضكم ؛ وأن تُقبَض الجزيةُ من رجالكم ذَوِى القُدرة علىٰ أدائها بحسَبِ ماجرت به عاداتُكُم دون النساء ومن لم يبْلُغ الحُلُمَ دَفْعـة واحدةً فى الســنه ، وتُجْرَوْا فى ذلك علىٰ السجيَّة التى تناقلَها الرُّواة وتداولتها الألْسِنه ، من غير تَثْنِية ولا تكرير ، ولا تَرْنِيق لَمنْهَل المعْدَلة عندكم ولا تَكْدير ؛ وأن تُحْبىٰ بالشَّدّ دائمـا وتقوِيةِ يدِك علىٰ من نصَبْته فى أمورهم ناظرًا ولشَمْلهم ناظما ؛ ويُفْسَـح لك فى فصْـل ما يَشْجُرُ بينهم علىٰ سبيل الوَساطه : لتقصِـد فى ذاكَ ما يَحْسِمُ دواعِىَ الخُلْف ويَطْوِى بِساطَه ؛ وأن تُمْضى تثْقِيفَك لهم وأمْرَك فيهم ، أسوةَ ماجَرىٰ عليه الأمْرُ مع مَنْ كان قبلك يَليهم ؛ لتُحْسِن معه السيرةَ العادلةَ(١) عليهـم بحِفْظ السُّوام ، المطابقَةَ للشروط السائغةِ فى دِين الإســلام .

وأمر بإنشاء هذا الكتاب مشتمِلا علىٰ ماخَصَّك به ، وأمضىٰ أن تُعامَلَ بموجَبِه ؛ فقابِلْ نعمةَ أمير المؤمنين عندَك بمـا تستوجِبُه من شـكرٍ تبْلُغ فيه المَدىٰ الأقْصىٰ ، وبِشْرٍ لا يُوجد التصـفُّحُ له عندك قُصورا ولا نَقْصا ؛ وواظِبْ علىٰ الٱعتراف بمـا أُولِيتَه من كلِّ ما جَمَّلك ، وصدَّق ظَنَّك وأمَلَك ؛ وٱستزد الإنعامَ بطاعةٍ تَطوِى عليها الجَوانح ، وأدعيةٍ لأيامه تُتبِـع الغادِىَ منها بالرائح ؛ وتجنَّبِ التقصيرَ فيما بك عُدِق ، وإليك وُكِلَ وعليك عُلِّق ؛ وٱحتفظ بهذا الكتاب جُنَّة تمنعُ عنك ريْبَ الدَّهر وغيْرَه ،

(١) لعله العائده . تأمل .

وحجّةً تحمل فيها على ما يحْمِى مأمُنِحْته من كل ماشِعْته (؟) وغَيْره ؛ وليَعْمل بهذا المثال كافَّةُ المَطَارنةِ والأساقِفة والقِسِّيسِين، والنصارى أجمعين ؛ وليَعتَمِدُوا من التِّباعة لك مايستحقُّه تقديمُك على الجماعه ، وليَثِقُوا بما يَغْمُرهم من العاطفة الحامِيَة سِرْبَهم من التفريق والإضَاعه ؛ إن شاء الله تعالى .

وكتب فى شهر ربيع الأوّل سنة سبع وستين وأربعمائة .

الطــــرف الرابـــــع
(فيما كان يكتب عن مدَّعى الخلافة ببلاد المغرب والأندلُس)

وكانوا يعبِّرون عمَّا يُكتَب من ذلك بالظَّهائر والصُّكوك : فالظهائرُ جمع ظهِير ، وهو المُعِين ، سمِّى مرسومُ الخليفة أو السلطان ظهيرًا لما يَقَع به من المُعاونة لمن كُتِب له . والصُّكُوك جمع صَكٍّ وهو الكتاب ، قال الجوهرىّ : وهو فارسىّ معرَّبٌ والجمع أَصُكٌّ وصِكَاك وصُكُوك ؛ ثم تحامى المتأخِّرون منهم لَفْظ الصَّكّ ، لما جرى به عُرْف العامّة من غَلَبة ٱستعماله فى أحد مَعْنَيَى الأشتراك فيه وهو الصَّفْع ؛ وٱقتصَرُوا على ٱستعمال لفظ الظَّهِير .

ولذلك حالتان :

الحـــالة الأولى
(ما كان الأمرُ عليـــه فى الزمن القـــديم)

وٱعلَمْ أنه لم يكن لهم مصْطلَح يَقِفُون عنـد حدِّه فى الأبْتـداءات ، بل بحسَبِ ماتقتضيه قريحةُ الكُتَّاب ؛ فتارةً يبتدأُ بلفظ : «من فلان إلى فلان » أو « من فلان إلى أهل فلانة » أو « إلى الأشياخ بفُلانةَ » أو « يَصِلُكم فلانٌ بهذا الكتاب » .

وتارة يبْتَدأ بـ«أما بعدَ حمد الله» . وتارةً يبتدأ بلفظ « تقدَّمَ فلان بكذا » . وتارة يبتدأ بلفظ « مكتوبُنا هذا » وغير ذلك ممـا لاينْحِصر .

فمن الظَّهائر المكتَتَبة لأرباب السُّيوف عندهم ،ما كُتِب به بولاية ناحيةٍ، وهى:

من فلانٍ إلىٰ أهل فلانةَ أدام الله لهم من الكرامة أتمَّها ومن الرِّعاية أوْفَاها ؛ وأسبَغَ عليهم بُرودَ نِعَمِه الجزيلةِ وأضْفاها .

أما بعدَ حمدِ الله ميَسِّر أسباب النَّجاح ،ومُسَنِّي مَرامِ الرَّشاد والصَّلاح ؛ والصلاة علىٰ سيدنا محمدٍ رسوله نبيِّ الرحمة والرِّفْق والإسْجَاح (١)، وعلىٰ آله وصحبه المتَّصفين بالقوّة فى ذات الله تارةً وتارةً بخَفْض الجَناح ؛ والرِّضا عن الخليفة أميرِ المؤمنين ذِى الشَّرف الذى لم يزَلْ بالهُدىٰ النبوِىّ متوَقِّد المِصْباح ، والدعاءِ للقام الإمارِىِّ بالنصر الذى يُؤْتِى مَقاليدَ الاْفْتِتاح ، والتأييدِ الماضى حَدُّ رُعْبِه حيثُ لايَمْضِى غِرَارُ المهَنَّد وشَبَا الرِّماح ـ فإنَّا كتبناه إليكم ـ كتَب الله لكم سُكونَ الأرجاء وهُدوَّها ، وأجرىٰ لكم بالصَّلاح رَواحَ الأيَّام وغُدوَّها «من فلانة» وللدَّوْلة العليَّة بركاتٌ تُكاثِرُ السُّحُب فى آنْسِكابها وآنْسِجامها ؛ وتقُودُ الخيراتِ والمسَرَّات فى كل أَوْبٍ بزِمَامها ، والحمدُ لله حمدا يقْضى بوُفُور جزيلات النِّعم وجِسَامها .

وإنَّ الاْهتِمامَ بكم لمستَدِقٌ علىٰ كل غرضٍ جميـل ، ومقدَّمٌ فيما يُحْظِيكم بكلِّ بُغْية وتأميل ؛ وبحسَبِ هـذا لايزَالُ يختارُ لكم من الوُلاَة كلَّ مختار منْتَخَب ، ولا يُقدِّم عليكم إلَّا مَنْ ينتهِى إلىٰ أثِيل حسَبٍ وكريمِ مُنْتَسَب ، ولا يزال يُدَاوِل موضِعكم بين كل طريقةٍ تتَّصل من حُسْن السِّيَر وسَـدَاد النظر بأمْتَن سبَب ؛ وعلىٰ هذا الأصل آستَخَرْنا اللهَ وهو المستَخار ، والذى يقْضِى مايشاءُ ويَخْتار ، فى أن قدَّمنا عليكم ،

(١) الإسجاح حسن العفو .

ووَلَّينا للنظَر فيما لدَيكم، مَنْ له التقدّم فى الإقْدام، والاْضْـطِلاعُ الثـابتُ الأَقْدام، وذلك فلان . وآثَرْنا كم به اعتِناءً بجانِبكم واهتِبـالا(١)، وخصَصْنا كم منـه بمن يُفْسِح فى كل أَثَرحميدٍ مجَالا، والمعتقَدُ فيه أن يعمَل علىٰ شاكلتِه بنَبَاهة مَكانه، وأن يبذُل فى الانتهاض والاكتفاء غايةَ وُسْـعِه وإمْكانه، وعليـه أن يُلازِمَ تقْوىٰ الله العظيم فى سِرّه وعَلَنه، ويجْرِىَ علىٰ سبيل العَدْل وسَنَنِه، ويُشَمِّر عن ساعده فى الدِّفَاع عن أحْوازِكم كُلَّ التشْمير، ويأخُذَ علىٰ أيدى أهلِ التعدِّى أخْذًا يقْضِى علىٰ الفسَاد وأهلِه بالتَّتْبِير، ويَقْصِدَ بكم سدِيدَ السَّعْىِ ورَشيدَ الرأْى فى الدقِيق والجليل والصغِير والكبِير، ويُسَوِّىَ فى الحق بين الحافِل والتافِهِ والغنِىّ والفقير، وعليكم أن تسْمَعُوا وتُطِيعوا، ولا تُهْمِلوا حقَّ الامتثال والائتمـار ولا تُضِيـعُوا، وأن تكونُوا يدَه التى تَبْطِش، وأعوانَه فيما يُحاوِل من مستَوْفِى المساعِى المرضِيَّة ومستوعِبِها، وأن تتعاوَنُوا علىٰ التقوىٰ والبِرّ، وتقِفُوا له عنـد النهْىِ والأَمْر، وتجتهدُوا معـه فى مَصَالحكم كلَّ الاجتهاد، وتعتَمِدُوا علىٰ مارَسَمْنـاه لكم أتَمَّ الاعتماد، وستَجِدُون من مُوَاليكم - إن شاء الله - مايوافِقُ الظَّنَّ به، ويلائِمُ العملَ بحسَبِ حَسَبه، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

ومنها ما كُتِب به فى ولايةِ ناحيةٍ أيضا، وهى :

من فلان إلىٰ أهـل فلانةَ أدام الله تعـالىٰ كرامتهم بتَقْواه، وعرَّفهم أحقَّ النظر بمصالِحهم وأَحْراه .

وبعدُ، فإنَّا كتَبْناه لكم - كتب الله لكم أحْوالاً متَّصِلةَ الصَّلاح، حميدةَ الاختِتام والافتِتاح - من فلانة ونِعَمُ الله سـبحانه موفُورةُ الأقسام، صَيِّبةُ الغَمام، وقد اقتضىٰ

---

(١) أى اشتغالا بشأنكم من قولهم اهتبل هبلك أى اشتغل بشأنك انظر اللسان ج ١٤ ص ٢١٢ .

ما نتوخّاه من الاحتيـاط علىٰ جوانبكم ، ونعتمِدُه من الإيثـارِ لكُم والاعتناء بِكم ؛ أن نتخيّر للتقديم عليكم مَنْ نعلَمُ منه الأحوالَ المرضيّة حقيقه ، ونَحْمد سيْره فيما يُحاوِله وطريقَــه .

ولـمّـا كان فلان ممن حُمِدتْ مقاصدُه ، وشُكِرت فى المُحاوَلات الاجتهاديّة عوائدُه ؛ وحَسُنتْ فيما نُصرِّفه فيــه مصادِرُه وموارِدُه ، رأينا والله القاضى فيما نَذَره ونأْتِيــه ، بالتوفيق الذى يكُون به انقيـادُ النُّجْح وتأَتِّيــه ، أن نقدِّمَه لحفظ جِهَاتكم ، وتأمينِ أرجائِكُم وجَنَباتكم ؛ ووَصَّيناه أن يجتهِدَ فيما قلَّدناه من ذٰلك كلَّ الاجتهاد ، ويَنْتَهِض فى إذهاب الشَّرِّ وإرهاب أهـلِ الفَساد ؛ وبأن يسْلُك فيما يتولَّاه من الأحكام سَنَنَ الحق ، ويَجْرِىَ علىٰ سبيل العَدْل والرِّفْق ؛ ويدْفَع أسباب المظالم ، ويُنْصِفَ المظلومَ من الظالم ؛ فإذا وافاكم فتلَقَّوْه بنفُوس منبَسِطه ، وعقائدَ علىٰ العمل الصالح مرتَبِطه ؛ وكونُوا معه علىٰ تمْشِية الحق يدًا واحده ، وفئةً فى ذاتِ الله متعاونةً متعاضدَه ؛ بحول الله سبحانه .

ومنها ما كُتِب به بإعادة وال إلىٰ ناحيةٍ ، وهى :

وإنا كتَبْناه إليكم ــ كتبكم اللهُ من المتعاونين علىٰ البر والتقوىٰ ، وأعْلَقكم من طاعته بالحبل الأمتَنِ الأقوىٰ ــ من فلانة : والذى نُوصِــيكم به تَقْوىٰ الله تعالىٰ والعملُ بطاعته ، والاستعانةُ به والتوكُّل عليه ؛ وقد صَرَفنا إليكم فلانا بعد أن أقام هُنا شاهدًا مَشاهدَ للتعلم نافعــه ، مباشرًا من المُذاكرة فى الكتاب والسُّــنَّة مجالِسَ ضامنةً لخيرِ الدنيـا والآخرة جامعَه ؛ مُطَالِعًا لأحوال الموحِّدين أعزَّهم الله فى مآخذهم الدينيَّه ، ومقاصِدِهم المُحْيِيَة لـمـا دَرَس من المِلَّة الحنيفيَّه ؛ فنال بذلك كلِّه خيرًا كثيرا ، وأحرز به

حظًّا من السعادة كبِيرا، وظفِر منه بمـا يكونُ له فى كل ماينْظُر فيه سراجًا مُنِـيرا، وقد أعدْناه إلىٰ الشُّـغُل الذى كان يتولَّاه لِجهَتكم حرسها الله، و وصَّيْناه بتقوىٰ الله تعالىٰ الذى لا يَطَّلِـع علىٰ السَّرائرِ سِـوَاه، وأن يكونَ بمـا شاهدَه ممـا تقدّم ذِكْره مقْتدِيا، وبأنوارِه الساطعةِ التى لايَضِلُّ من آهتدىٰ بها مُهْتدِيا، ولا يستنِدُ فى شيءٍ من أحكامه إلىٰ من لايقُوم علىٰ عصْمته دليـل، ولا جُعِل إليه تحريمٌ ولا تحليل، فأعينُوه - وفقكم الله - علىٰ تمشيـةِ هذه المقاصِـد الكريمةِ أكْرَمَ إعانه، وآسْلُكُوا من مُظَاهَرته علىٰ الحق ومُوَازَرَته علىٰ المَسَالكِ التى تستبِينُ هنالِكُم أتمَّ آستِبانه، إن شاء الله تعالىٰ.

ومن الظهائر المكتتَبة بالوظائف الدينيَّة ماكُتِب به فى ولاية قاض، وهو:

أما بعدَ حمدِ الله رافِع عَلَم الحقّ لمن آهتـدىٰ، وواضِع مِيزانِ القِسْط بالشريعة المحمدِيَّة الآخذةِ بالحُجَز عن مَهاوِى الرَّدىٰ، ومؤيِّد الدِّين الحنيفىِّ بمن آرتضىٰ لتحديد حُدُوده وتجديد عهُوده وهدىٰ. والصلاةِ علىٰ سيدِنا محمدٍ نبيِّه الكريم الذى أرسلَهُ إلىٰ النـاس كافَّة غيرَ مستَثْنٍ عليه من الخَلْق أحدَا، وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين سلَكُوا فى نَصْره و إظْهار أمْرِه جَدَدا. والرضا عن الخليفة أمير المؤمنين العبَّاسىّ الأطْيب عُنْصُرا ومَحْتِدا، فإنا كتبناه إليكم - كتبكم اللهُ ممن آعتزَّ بطاعتهِ وتَقْواه، وآعتصَمَ من حَبْله المتينِ بأوْثقِه وأقْواه - من فلانة وفضلُ الله سبحانه مديدُ الظِّلال، وتوكُّلُنـا عليه - عز وجهُه - ظهيرُنا المعتَمَدُ به فى كلّ حال، وعِمادُنا الذى نقـدِّمه فيما نُدَبِّره من الأعمال، وإنَّكم من عنايتنا، وموصُول رعايَتِنا، لَبِالمحَلِّ الأدْنىٰ، ومن خاصِّ

نظرنا وآهتمامنا لمَنْ نكَاف بشأنه كلّه ونُعْنىٰ ، ونعتمـدُ من ذلك بالأحْسَن فالأحسنِ بجزاءُ الذين أحسَنُوا الحُسْنىٰ .

وقد علمتُم ـ وصـل الله كرامتكم ـ أنّ الأحكامَ الشرعيّة هى مِلَاك الأمور ونِظامُها ، وعليها مَدَار الأعمال الدينيّة وبها تَمامُها ؛ وأنه لايصْلُح لهـا إلا مَنْ تجرَّد عن هواه ، وآثَر الحقَّ علىٰ ماسِواه ؛ وآتّبَع حكَمَ نبيِّه ـ عليه السلام ـ فى كلِّ ماعمِله ونَواه ، وتجمَّل بالدِّراية وحَمْل الرِّواية فكانتا أظْهَر حِلاه ؛ وآتّسَم بالعدْل والآعتدال فيما ولِيَه من ذلك أو تولَّاه ، وكان ممن أطْلَق الحقُّ لسانَه وقيَّد الورَعُ يُمْناه ؛ وقد أمعَنَّا النظر فيمَنْ له من هـذه الأوصاف أوْفىٰ نصيب ، ومَنْ إن رَمىٰ عن قَوْس نظـره الموفَّق كان سهمُه المسـدّدُ مصيب : لنخصَّكم به قاضيا فى هذه الأحكام ، ونقدِّمه للفصل بينكم فى القضَايا الشرعية حَكَما من صالِحِى الحُكَّام ؛ فرأينا أهلًا لذلكم ومحلًّا من آختُبِرت علىٰ [النَّهْج] القويم أحوالُه ، وآرتُضِيت فيما نِيطَ به من ذلك أعمـالُه وأقوالُه ؛ وشهِد له الآختبارُ بالآنكفاف عن كل سابق وغائب(١) ، وعن آرتِكابِ الثَّنِيَّات إلىٰ السَّنَن اللاحب ؛ وذٰلكم « فلان » أدام الله كرامتَه وتوفيقَه ، ويسَّر إلىٰ مَسَالك النَّجاة مَسْلَكه وطريقَه ؛ فأنفـذناه إليكم حَكَمًا مَرْضِىَّ السِّـيَر ، وافِرَ الحظِّ من المَعارِف المُصوَّرة للحقِّ فى أجمَلِ الصُّوَر ؛ مكتفيًا بمـا لدَيْه من آستِقامة الأحوال عن الوَصايَا ماخَلَا التذكيرَ والتنْبِيه ، والوصية بتقوىٰ الله فهى التى تَعصِم العاملَ بها وتُنْجيه ؛ فقد وَصَّى بها اللهُ مَنِ آختاره من خلقه لإقامة حقِّه وآرتضاه ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وإيَّاكُمْ أَنِ آتَّقُوا اللهَ ﴾ . فتلَقَّوْه ـ أدام الله كرامتكُم ـ بنُفُوس منبَسِطه ، وقلوبٍ مبتَهِجة مغتَبِطه ، وأهواءٍ علىٰ التظَافُر

(١) لعله عن كل شائن وعائب . تأمل .

والتناصُرِ فى الحق مجتمعةٍ مرتبِطه؛ وتعاونُوا فى ذاتِ الله علىٰ الطاعه، وكُونُوا فى سبيل الله يدًا واحدةً فيدُ الله مع الجَمَاعه؛ وٱستعينُوه سبحانَه علىٰ الخير يُعنكْم، وٱشكُرُوا الله يُؤْتِكم خيْرًا مما أُخِذَ منكم؛ وهو سبحانه يتوَلَّاكم بالحِفْظ الشامل، ويستعْمِلُكم من طاعته وسُلُوك سبيل مَرْضاتِه بأنْجىٰ ما ٱستُعمِل به عامل؛ والسلام.

ومنها ما كتب به أبو الحسن الرُّعَيْنى فى ولايةِ قاضٍ، وهى:

من فلانٍ إلىٰ الأشياخ بفلانةَ أدام الله كرامَتهم بتقواه، وٱستعْمَلهم فيما يُحِبُّه ويرضاه.

أما بعدُ، فإنا كتبْناه إليكم ـ كتب الله لكم حُسْناه، وأوْزَعكم شُكْرَ ما خوَّلكم من نُعْماه ورُحْماه؛ ومن مقاصِد هذا الأمر العزيز ـ أدامه الله ـ ما يُعْلِي يدَ الحقِّ ويُسْمِيها، ويسَدّد سهامَ العدل إلىٰ أغراضها ومَراميها، ويتكفَّلُ بالجزاء لمَنْ لاذَ بأكناف الطاعةِ ونَواحِيها، والحمدُ لله علىٰ نِعَمه التى لا نَحْصُرها ولا نُحْصِيها.

وإلىٰ ذٰلكم فإنَّ فلانا لَمَّا تمكنت الثِّقةُ بجميل صِفَته، وٱستنامَت البصيرةُ إلىٰ ٱستحكام سِنِّه ومعْرِفته؛ وقد كان تقدّم له من خِدْمة الأمر وأوليائه ما نَجَّده(1) مع الأيَّام ونَجَّده؛ وخصَّصه من كريم الٱستعمال بما ٱستَدْناه إلىٰ مَراقى الذَّكاء وٱستَدْرَجه؛ رأينا ـ والله المستعانُ ـ أن نقدِّمه للنظر فى قضاياكم الدِّينيَّه، وأحكامكم الشرعيَّه؛ بعد أن وَصَّيناه بتقوىٰ الله فقدَّمَها، وعرَضْنا عليه ما يعلَمُه ويلزمُه من شُرُوط الحكومة فالتزمها. فلْيَنْهَض إلىٰ ما قدّمْناه علىٰ بركةِ الله تعالىٰ

(1) فى الأصل أنجده بالهمز وهو غير مناسب.

مشمّرا عن ساعد الحَزْم، آخذًا فى كافّة أُموره بما يأخُذه أُولُو العزْم، جاريًا على السَّنَن الواضح المعروف، مسوّيًا فى الحق بين النَّبيه والخاملِ والشريف والمشْرُوف، محتسبا على إقامة فُروض الدِّين أكرَم آحتِساب، مكتَسبا من الأجرفى رَدْع الظُّلْم والباطل أفضَلَ آكتِساب، راجيًا فى تمشيةِ العدْل على رَغْم من أباه ما يَرْجو المؤمنُ المحقّق من زُلْفى وحُسْنِ مآب؛ ولدينا من عَقْده على ذلك ما يُحسِّن مقْصَده، ويمكِّن فى بَسْطة الحقِّ مقْعَده؛ فإذا وافاكُم فآستبْشِروا بمُوافاته، وقِفُوا عند ما يُمْضِيه من لوازِم الشَّرْع ومُوجِباته، وتعاوَنُوا على الخير تعاوُنًا يُجْزِلُ حَظَّكم من فضل الله وبركاته؛ فهو المؤمّل فى ذلك لاربَّ سواه.

ومن الظهائر المكتَتَبة بالوظائف الدِّيوانيـة ما كَتَب به أبو المطَرِّف بن عميرة بولاية وِزارةٍ، وهو:

مكتُوبُنا هـذا بيدِ فلان أدام الله عَلاءَه، وحفِظ عنايتَه وغناءه؛ يجِد به مكانَ العِزّة مَكِينا، ومورِدَ الكرامة عَذْبا مَعِينا، وسبيلَ الحُرْمة المتأكدة واضحا مستَبِينا؛ ويتَقلّد وزارتَنا تقلُّد تفويضٍ وإطْلاق، ويلْبَس ما خُلِع عليه منها لِبْسةَ تمكُّن وآستِحْقاق، وينْزِل من رُتْبتها العُلْيا مَنْزِلةً شرَفُها ثابتٌ وحماها باق؛ ويُسَوَّغ الدارَ المَخْزَنية التى يسْكُنها بفلانة تَسْوِيغا يُمَلِّكه إيَّاها أصحَّ تمليك، ويُفْرَد فيها من غير تَشْريك؛ إن شاء الله تعالى والسلام.

ومنها ما كتب به أبو عبد الله بنُ الأَبَّار فى مشارَفة ناحيةٍ، وهو:

عن إذْن فلان، يتقدّم فلان للنَّظَر فى الأشغال المَخْزَنية بفلانة، مُوَفِّيا مايجِبُ عليه من الآجتهاد والتَّشْمير، والجِدّ الذى ٱرتَسَم فى الإنمـاء والتَّثْمير، مصدِّقا ماقُدِّر فيه من الآنتهاض والآستِقْلال، وقُرِّر عنه من الأمانةِ التى رَشَّحته وأهَّلَتْه لأَنْبَه الأعمال، جاريًا فى ضَبْط الأمور المَخْزَنِيَّة والرِّفْق بجانب الرعيـة علىٰ المَقَاصد الجليلة والمَذَاهب المرضيَّة فى عامَّة الشُّئُون والأحوال، عاملاً بما تقدّمت به الوصيَّة إليه، وتأكَّدتْ الإشارةُ [به] عليه، من تَقوى الله فى السرِّ والعَلَن، عالمـا أنَّ المرءَ بمـا قدّمته يداه مُرْتَهَن.

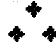

ومنها ما كتب به المذكور بإعادة مشارفٍ إلىٰ ناحيةٍ، وهو :

يُعادُ بهذا المكتوب فلانٌ إلىٰ خُطَّة الإشراف بفُلانة : رافلًا من ملابس التَّكْرِمة والحُظْوة فى شُفُوفها، مُخَلًّى بينَه وبينَ النظر فى ضروب الأشغال المَخْزَنية وصُنُوفها؛ فهو المعروفُ بالكِفاية والآجتهاد، الموصوفُ بحُسْن الإصدار والإيراد، وأَوْلىٰ الناس بالتزام النَّصيحه، والآزدياد من بَضائع الأعمال الرَّبِيحه، مَنْ كَثُرت النِّعَمُ السلطانيَّة لديه، ودُفِع إلىٰ الخُطَط ودُفعتْ إليـه . فليتقلّد هـذه الخُطَّة بحقِّها من الآنتهاض والتشمير، وتأدِيَة الأمانةِ بالإنمـاء والتَّثْمير، ولْيتَزوّدْ تقْوىٰ الله تعـالىٰ ليومٍ يُسْأَل عن النَّقِير والقِطْمير، جاريًا فى أموره كلِّها علىٰ الطريقة السَّوِيَّه، جامعًا بينَ الآحتياط للمَخْزَن (١) والرِّفْق بالرعيَّـه، غيرَ عادلٍ فى حالٍ من الأحوال وفَنٍّ من فُنون الأعمال عن مقتَضىٰ هذه الوصيَّه، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) المخزن بفتح الزاى مايخزن فيه الشىء .

الطـــرف الخـامس

(فيما كان عليه الأمرُ فى الدولة الفاطمية بالديار المِصريَّة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة أنه كان بها من وظائف أرباب السُّيُوف الوِزَارةُ إذا كان الوزيرُ صاحبَ سـيْف ؛ والنظرُ فى المَظَالم ، وزَمُّ الأقارب ، ونِقابةُ العَلَويِّين ، وزَمُّ الرجال والطوائِف : كالأُمَوية ، والحافِظيَّـة ، والأَفْضلية ، وغيرِهم ممَّن تقـدّم ذكُره فى ترتيب دَوْلتهم ؛ ووِلايةُ الشُّرْطة ، وولايةُ المَعَاون والأحْداث ، وولايةُ الحِمَـاية ، وولايةِ حِفْظ الثُّغور ، والإمارةُ علىٰ الحجِّ ، والإمارةُ علىٰ الجهاد ، وولايةُ الأعمال ، وغيرِ ذلك . ومن الوظائف قضاءُ القُضاة(١) ، والدعوةُ إلىٰ مذْهبهم ، والنظرُ فى الأوقاف والأَحْباس ، والنظرُ فى المساجد وأمْرِ الصـلاة ، وغير ذلك .

وكانتْ كتابةُ مايُكْتب لدَيْهم لأرباب الوِلايات علىٰ نوعين :

النـــــوع الأوّل

(ماكان يكتَبُ به عن الخليفة نفسِــه)

وكان من شأنِهم أنهم يتعرّضُون فى أثناء الوِلاية لإشارة الوزير بتوليَةِ المُولّى وثنائِه عليه ، ورُبّمـا أهملُوا ذلك . وكانوا يُسَمُّون جميعَ مايكتَب من ديوان الإنشاء سِجِلّات ، ورُبّمـا سَمّوه عهُودا ؛ وعليـه يدُلّ ما كتبه العاضدُ آخرُ خلفائهم فى طُرّة سِجِلّ السلطان صلاح الدِّين بالوِزارة : « هذا عهْدٌ لاعَهْدَ لوزيرٍ بمثله » علىٰ ماتقدّم ذكره فى الكلام علىٰ عُهُود الملوك .

ولهم فيهـا أربعة مذاهب :

---

(١) لعله «ومن وظائف أرباب الأقلام قضاء» الخ فتنبه .

المـــذهب الأوّل

(أن يفتَتَح مايُكتَب فى الولاية بالتَّصْــدير)

وهو «من عبدِ الله ووليِّه فلانٍ أبى فلان الإمام الفلانىّ أمير المؤمنين، إلىٰ فلان ابن فلان» بالألقاب المنعوتِ بها من دِيوان الخلافة، ويُدْعىٰ له بدعوتين أو ثلاثٍ؛ ثم يقال : «سلامٌ عليك فإنَّ أميرَ المؤمنين يحَمَدُ إليك اللهَ الذى لاإلٰهَ إلا هو، ويسْألُه أن يصَلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ صلّى الله عليه وسلم وعلىٰ أخِيهِ وٱبنِ عمِّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب » ويُؤْتىٰ من وَصْف الخليفةِ ومَدْحه بمـا يُناسِب المَقَام .

ثم هو بعدَ ذٰلك علىٰ ثلاثِ مراتبَ :

المرتبـــة الأُولىٰ

(أن يقال بعد التصدير المقدَّم «أما بعدُ فالحمدُ لله»)

ويؤتىٰ من التحميد بمـا يُناسبُ تلك الولايةَ ، ثم يؤتىٰ بتحميدةٍ ثانيــةٍ وثالثة، وتكونُ الثالثةُ متعلِّقةً بالنِّعم الشاملةِ لأمير المؤمنين؛ ثم يقال : « وإنَّ أميرَ المؤمنين لِمَـا ٱختصَّه اللهُ به من كذا وكذا» ويذكر ماسَنَح من أوصاف الخليفة، ويذْكُر أنه تصَــفَّح الناسَ وسَبَرهم فلم يجِدْ من يصْلُح لتلك الولَايةِ إلَّا هو، ويذْكُر من صــفته ماٱتّفَق ذكْرُه، ثم يذكر تفويضَ الوِلايةِ إليه ، ويوُصِيه بما يُنَاسِب، ويخْتِمُ بالدعاء ثم بالســلام مع التفنُّن فى العبارة، وٱختلافِ المعانِى والألفاظ، والتقـديم والتأخير بحسبِ ماتقتضيه حالُ المُنْشِئ، وتؤَدى إليه قريحتُه .

وهى علىٰ ضربيـن :

الضـــرب الأوّل

(سِجِـــلّات أرباب الســـيوف)(١)

وعلىٰ ذلك كَتْبُ سِجِلّات وُزَرائهم أصحابِ السـيوف القائمين مَقام السـلاطين الآنَ، من لَدُنْ وزارة أمير الجيوش بَدْرٍ الجَمَـالىّ وزير المستنصِر : خامسِ خلفائهم وإلىٰ ٱنقراض دولتهم . وقد تقدّم منها ذكر عهْدَيِ المنصور : أسد الدين شِيركُوه ٱبن شادِى ، ثم ٱبنِ أخيه الناصر صلاح الديـن يوسفَ بن أيُّوب بالوزارة عن العاضـد فى جملة عُهُود الخلفاء والملوك ، حيث أشار فى "التعريف" إلىٰ عدّهمـا من جملة عهود الملوك .

ومن أحسَنِها وصْفا، وأبْهَجِها لفظا، وأدقِّها معنى، ما كتب به الموَفَّق بنُ الخَلَّال صاحبُ ديوان الإنشاء عن العاضد المتقدّم ذكره، بالوِزارة لشَاوَر السَّعْدىّ، بعد أن غلبه ضِرْغام عليهـا ثم كانت له الكَرَّة عليه . وهذه نسخته :

من عبد الله ووليِّــه عبد الله أبى محمد العاضِد لدين الله أمير المؤمنين ، إلىٰ السيِّد الأجلّ، سلطانِ الجُيُوش، ناصرِ الإسلام، سـيفِ الإمام، شرَفِ الأنام، عُمْـدةِ الدِّين، أبى فلان فلان .

سـلامٌ عليك : فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو، ويسألُه أن يَصلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ خاتَم النَّبيين، وإمام المرْسَلين، صلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين الأئمة المهديِّين، وسلَّم تسليما .

أما بعـدُ ، فالحمدُ لله مانحِ الرغائبِ، ومُنيلِها ، وكاشِـفِ المَصاعِب ، ومُزِيلها ؛ ومُذِلِّ كل عُصْبة كَلِفَتْ بالغَدْر والشِّقاق ومُذِيلها . ناصِرِ من بُغِىَ عليـه، وعاكس

(١) لم يترجم فيما يأتى للضرب الثانى وهو سجلات أرباب الأقلام وإن كان قد ذكرها ضمن المراتب الثلاث الآتية فتنبه .

كَيْد الكائِد إذا فَوّق سَهْمَه إليــه؛ ورادِّ الحقوق إلىٰ أربابِها، ومرتَجِـع المراتب إلىٰ مَنْ هو أجْدَر بُرقِيِّها وأولىٰ بها؛ ومُسَــنِّى الخير بتيْسِير أسبابه، ومسهِّل الرَّتَب(١) بتمهيد طُرُقه وفَتْح أبوابه، ومُدْنِى نابِى الحظّ بعد نُفُوره وآغْتِرابه؛ ومُطْلِـع الشمْس بعد المَغيب، ومُتدارِك الخَطْب إذا أعضَـلَ بالفَرَج القريب؛ مُبْدِع ما كانَ ويكُون، ومسبِّب الحَرَكة والسُّكون؛ مُحْسِن التـدبير، ومسهِّل التعْسِير: ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مالكَ المُلْك تُؤْتِى المُلْكَ مَنْ تَشاءُ وتَـنْزِعُ المُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وتُعِزُّ مَنْ تَشاءُ وتُذِلُّ مَنْ تَشاءُ بيَدِكَ الخَيْرُ إنَّكَ علىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدير ﴾ .

والحمدُ للهِ الذى آختَصَّ أولياءَ أميرالمؤمنين الأَبْرار بالآستعلاء والظُّهور، وذَلَّل لهم جَوامِحَ الخُطوب ومَصاعِبَ الأُمور، وآتاهُم من التأييد كلَّ بديع مستَغْرَب، وأنالَهُم من كل غَرِيبٍ إذا أُورِد قَصَصُــه أطْرَب؛ ومكّنهم من نَواصِى الأعداء، وشَمِلَهم بعناياته فى الإعادةِ والإبْداء؛ وضَمِن لهم أحْمَـدَ العَواقب، وأرشَدَهُم إلىٰ الأفعال التى ثَبَّتَتْ لهم فى صحائِف الأيَّام أفضَلَ المَناقب؛ وهداهُمْ بأميرالمؤمنين إلىٰ ماراق زُلاَلُهُ، وتَمَّ غايةَ التَّمام كما أنه كان لرضا الله سبحانَه وحُسْن ثوابِه مآلُه(٢)؛ ويُمِدّهم فى المجاهدة عن دَوْلته بالتأييدِ والتمكين، ويُحْظِيهم من أنوار اليقين، بما يَجْلُو عن أفئدتهم دُجىٰ الشَّكِّ البَهِيم؛ ويُظْهِر لأفهامِهم خصائِص الإمامة فى حُلَل التفخِيم والتعظِيم، ويُرِيهم أنَّ خلوص الطاعة مَنْجاةٌ فى المَعاد بتقدير العزيزِ العليم .

والحمدُ للهِ الذى آستَثْمَر من دَوْحة النبوّة الأئمةَ الهادِين، وأقامَهم أعلاما مُرْشِدَةً فى مَحجَّة الدين؛ وبيّن بتَبْصِــيرهم الحقَائقَ وورّث أميرَ المؤمنين شَرفَ مَقاماتِهِــم،

(١) مراده الصعب . والرتَب بالتحريك من معانيه الشدّة والغلظة يقال ما فى هذا الأمر رتب ولا عتب أى عناء وشدّة .

(٢) لم يتقدم ما يعطف عليه وهو من متعلقات أمير المؤمنين كما لا يخفىٰ .

وجعـله مُحْرِزَ غاياتِهم، وجامعَ مُعجزاتهم وآياتهم ؛ وقضىٰ لمن ٱلتَحَف بظِلِّ فِنائه ، وٱشتمل بسابِـغِ نِعمه وآلائه، وتمسَّك بطاعتِـه وٱعتصم بولَائه؛ بالخُلُود فى النعـيم المُقيم، والحُلولِ فى مَقامِ رِضْوانٍ كريم : ﴿ ذٰلكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ واللهُ ذُو الفَضْل العَظِيم ﴾ .

يحمَـدُه أميرُ المؤمنين علىٰ نِعَمه التى جعلَتْـه للبشر إماما، وأمضَتْ له فى المَشَارق والمَغَارب أوامِرَ وأحكاما ؛ وجَرّد من عَزْمه فى حياطةِ دِيـنِ الله عَضْبا مُرْهَفا حُسَاما، وٱستخْلَص لإنجاد دولته من أوليائهـا أكْمَلهم شجاعةً وإقْداما ؛ وأحسَنَهم فى تدبير أُمُورها قانُونًا ونِظَاما ؛ وأتمَّهم لمصـالِح أجنادِها ورَعاياها تفقُّـدا وٱهتِماما ، وأَوْلاهم بأن لا يُوجِّه عليـه أحدٌ فى حقٍّ من حقُوق الله مَلَاما ، وأجْدَرهم بأنْ يُحَلَّ من جميـلِ رأْى أمير المؤمنين دارَ سـلام يَلْقىٰ فيها تحيّةً وسَلَاما ؛ ويسألُه أن يصلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ خاتمَ النبيين الذى أَعلَنَ بالتوحيد وجَهر، وغلبَ بالتأييد وقَهَر؛ وأظهر المُعْجزَ البديعَ وٱستطال إعجازُه وبَهَر، وأطلع نُورَ الإسـلام وٱشتهر فى المَشَارق والمغارب إشراقه وظَهَر؛ وعلىٰ أخيـه وٱبنِ عمِّه أبينا علىّ بنِ أبى طالب سيف الله الذى شَهَره علىٰ الكفر وسلَّه ، وكَفَّله إعزازَ الدِّين فأعظمه بجهاده وأجلَّه ؛ وقرَع بعزه صَـفَاةَ الإلحادِ فأعانه (؟) بعزه وأذلَّه ، وقصَّد الأصنام وأرْغَم مَـنِ ٱستَغْواه الشيطانُ بٱتِّباعها وأضَلَّه ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرّيتهما أعلامِ الدِّين ، وهُداة المتقين ؛ ومُوَضِّحى سبِيل الحقِّ لأهل اليقين ؛ ومُوَصِّلى الأنوار الدينيـة إلىٰ بصائر المؤمنين ؛ صلاةً تتكرّر وتتردّد، وتدُوم مَدَىٰ الأيام وتتجدّد .

وإن أمير المؤمنين لِـمَا ٱختصَّه الله به من المَنْصِب الشريف، وسَمَـا به إليه من المحلِّ الشامخ المُنِيف، وفوّضَه إليه من تدبيرِ خَلْقه، وأفرده به من ٱتِّباع أمره والقيام

بحقِّه، وناطه به من المحاماة عن المِلَّة الحنيفيَّه، والآجتهادِ فى أن يشْمَل أهلَها بالحالة السنِيَّة والعِيشة الهنِيَّـه؛ وإعانته فى إظهار شِـعَارها، وتأييده فى إظهار عُلُوّها علىٰ المُلْك وٱقتدارها ــ يبْذُل جُهْده فى الآستعانة بمَن تقوم به حُجَّتُه عندَ الله بالآعتماد عليه، ويتوثَّق لنفْســه فى آختيار من يَقوم برضا الله فى إسناد الأُمورِ إليــه؛ ويَحْرِص علىٰ التفويض لمن يَكْفِى فى التدبير، وتُحِيط غايةُ نظَره بالصغير من رجال الدولة والكبير؛ تقــرُّبا إلىٰ الله بالعمل فيما وَلَّاه بمــا يُرْضِــيه، وآزْدِلافا بآتِّباع أمره فى كل ما يُنْفذه ويُمْضيه . وقد كان أمير المؤمنين تصفَّح أولياءَ دوْلته، وعظماءَ مملكته وأكابرَ شيعته وأنصارَ دَعْوته؛ فوجدك أيُّها السيد الأجلُّ أكملَهم فضــلا، وأقلَّهم مثْلا؛ وأتمَّهم فى التدبير والسياسة إنصافًا وعَدْلا، وأحقَّهم بأن تكون لكلِّ رياسةٍ وسيادةٍ أهلا؛ ففوّض إليــكَ فى أمور وِزَارته، وعوّلَ عليــك فى تدبير مملَكتِه وجمع لك النظَرَ فيما وراءَ سرير خلافتِــه؛ فجَرَتِ الأمورُ بمقاصدك الســعيدة علىٰ إيثار أمير المؤمنيـــن وإرادتِه، وآستمرّ أمرُ المملكة بمباشَرتك علىٰ أحســن قانُونه وعادتِه، وشَمِلت المَيامنُ والسُّعود أتمَّ آشتمالٍ علىٰ تفصيله وجُمْلتــه؛ وآنْحسمتِ الأَدْواء، وذَلَّتْ بسطوتك الأعْداء، وزالت فى أيَّامك المَظالِمُ والآعتداء؛ وحسُنتْ بأفعالك الأُمور، وظَهر بك الصَّلاحُ وكان قبْلَ وِزَارتك قليلَ الظُّهور؛ فانبسطتِ الآمال، وآتَّسقتِ الأعمال؛ وأُقْمِع الضَّلال، وأُمِنَت الأهوال؛ وخَلَصتْ من الرأْى السَّــقيم، وحظِيتْ بالمُلْك العقِيم، وغدا جُنْدُها ورعاياها ببركة رأْيك فى النَّعيم المُقِيم .

فلمَّا رمقَتْك عينُ الكمال، وألْهبَ قلوبَ حَســدتِك ما أُوتيتَه من تَمــام الخِلال، تكاثَر من يَحُوك المَكايد، وتظافَر عليــك المُنافِسُ والمُعاند؛ ورنَتْ إليك إساءةُ مَنْ عاملْتَه بالإحسان، وعدَتْ عليك خيانةُ من آئْتَمَنْته أتمَّ آئْتمان؛ وتَمَّ له(١) المرادُ بوَفَاتك

(١) لعله "لك" بكاف الخطاب . تأمل .

وغَدْره، وسـلامةِ صَدْرك ومَكْره ، وآتّفاقِ ظاهِرك و باطِنك ومبايَنة سِرّه لجهره؛ فكان ماهَوَّنه فى نفسه سلامةُ النَّفْس وأكبرِ الوَلَد، ومنح فى اسداده نِعمًا لا تنحصر بعَدَد ؛ وأفْظَع ما كان فيه ماأُصِيبَ به ولَدُك الأكبرُ رضى الله عنـه الذى أُصِيب وهو مظْلوم، ولو لم يُصَبْ لم يمتنِـع من الأجَل المحتُوم ؛ فربِحْت بِمـا نالَكَ ثوابا ، وآسـتفتحَ لك الحظُّ من النصْر علىٰ الباغِى بابًا ؛ وآغتَصَب الغـادِرُ مالا يستَحِق ، ورآه أمير المؤمنين بصورة المُبْطِل ورآك بصُورة المُحِقّ ؛ وهدَتْك السعادةُ إلىٰ العمل بسِيرة الأنبياء، فى الآنْحِيازِ عن الأعداء، والتباعُد عن أهل الغَيّ والآعْتِداء؛ فانْسلَلْت من الغُواة آنْسـلالَ الصارم من غِمْده، وتوارَيْتَ من العُتَاة توارِىَ النـار فى زَنْده؛ وقطعْتَ المَفـاوِزَ مصاحِباً للعُفْر والعِين ، حتّٰى حللْتَ بَرَبْوةٍ ذاتِ قَرارٍ ومَعِين؛ وإنَّ أمير المؤمنين يُمِدّك فى ذٰلك بدُعائه، ويُعِدّك لتدبير دولتِه وقَمْع أعدائه؛ ورآك وإنْ آبعـدَتْك الضَّروراتُ عن بابه ، وأنْأتك الحادثاتُ عن جَنـابه ، أنَّك وزيرُه المَكِين ، وخالِصتُه القوىُّ الأَمين؛ الذى لايَنْزِع عنـه شمسَ وزَارته ، ولا يُؤْثِر له غيرَ سلطانه ومملكتِه .

ولمـا وُجِّهتَ إلىٰ أعمالِ أميرالمؤمنين بمن آستصْحَبْته راجيًا من عدُوّك الآنتصار، قاصدا إدْراكَ الثار، وحلَلْت بعَقْوته(١)، وخيَّمتَ فى جِهَته؛ فاتَّصلتْ بينكُم الحُروب، وعزَّ علىٰ كلٍّ منكما نيلُ المطْلُوب ــ أنجدك أميرُ المؤمنين عنـد عِلْمه ببلوغ الكِتاب أجلَه ، وآستيفاءِ الوَقْت المحدود مَهَله ، بإظهار ميلْه إليك ومَيْله عن ضِـدّك، وأنَّ قصْـدَه مُبايِنٌ لقصْـد المذكور موافِقٌ لقَصْـدك ؛ فسبَّبَ ذا نصْرَك وخِذْلانَه ، وتقويتَك وإيهانَه؛ ولأمير المؤمنين فى حاله عناية تُسْعِدك، ورعايةٌ تؤيِّدُك .

(١) أى بساحته يقال ما بعقوة هذه الدار مثل فلان .

فحين عُدْتَ إلىٰ بابه عَوْدَ الشُّـموس إلىٰ مَشارقِها قَبِلك أحسنَ قبُول، وتلقَّـاك بتبليغ السُّول، وكشفَ الغِطاءَ عمَّا كان يُسِرُّه إليك ويُضْمِره، ويُرِيده بك ويُؤْثِره، وجدّدَ لك ما كنتَ تنْظُر فيه من الوِزَاره، ومباشرةَ ما كان مرْدُودا إليك من السِّفَارة والظِّهاره: لأنَّك أوحدُ ملوكِ العصر كمالا، وأوسَعُهم فى حسن التدبير مجَالا، وأشرَفُهم شِيَمًا بديعةً وخِلالا، وأصلَحُهم آثارًا وأعمالا، وأتَمُّهم سـعادةً وإقبالا، وأكثَرُهم تقيَّـةً لله تعالىٰ، وما زِلْتَ للمَفَاخر جامعا، ولراية المجْد رافعا، ولذُرىٰ العَلَاء والسَّـناء فارِعًا، تزْدانُ العصُور بعَصْرك، وتتجمَّل الدنيـا ببقاء نَهْيك وأمْرك، وتتعَجَّب الأفلاكُ العليَّةُ من سَعَة صَدْرك، وتتضاءَلُ الأقدارُ الساميةُ لعظيم قَدْرك، وكم لك من مَنْقَبـةٍ تجِلُّ أن يكيِّفَها بديعُ الأقوال، وتعظُم أن يتمنَّاها بديعُ الأقوال(١)، فالدولة العَلَويَّة بتدبيرك مختالَةٌ زاهيَهْ، وأركانُ أعدائها وأضدادِها بحَزْمك وعَزْمك واهِيه، وسَـعاداتُ من تضُمُّه وتشتمِلُ عليـه متضاعفةٌ غيرُ منقطعةٍ ولا متنَاهيه، ولم تزَلْ للإسـلام سَيْفا قاطعًا ماضيا، وعلىٰ الإلحاد سيفًا مرْهَفا قاضِيا، تذُودُ الشرْكَ عن التوحيد، وتَصُدّ الكفرَ عن الإيمان فيحِيدُ مُرْغَما ويَبِيد. وكم لكَ فى خِدْمة أئمـةِ الهـدىٰ من مأْثُرَة تُؤْثَر فتبْهِج، ويوردُ ذكرُها فيُغْرِى بالثناء عليكَ ويُلْهِج، وتبْـذُل فى طاعتهم النفْسَ والوَلد، وتنتهِى فى مناصَحتهم إلىٰ الأمدِ الذى ليس بعدَه أمَـد، فلذلك فُزْتَ بدعواتهم التى أعقبَتْك حُسنَ العواقب، وأحلَّتْك المحَـلَّ الذى لاتسْمُو إلىٰ رُقِيِّه النجومُ الثَّواقب، فإذا رفعَكَ أميرُ المؤمنـين إلىٰ منزلةٍ سامية، وجد مَحَلَّك لديه عنها يَجِلُّ ويسْمُو، وإذا خصَّك بفضيلةٍ مّا، صادفَ ٱستِحقاقَك عنها يرتفِـع ويعْلُو، وإذا ٱستَشَفَّ خصائِصَك، وجدها بديعةَ الكمالْ، يمتنِـعُ أن يُدْرَكَ مثلُها

(١) الأقوال جمع قَيْل (وأصـله من ذوات الواو) وهم ملوك حمير ويجمـع أيضا علىٰ أقيـال علىٰ لفظ واحده .

بِحِرْصِ ساعٍ أو يُنَال ؛ وقد توافقَتِ الخواطرُ علىٰ أنك أوحدُ وُزَراء الدولة العلَويَّة ظَفَرا ونَظَرا ، وأحسَنُهم فى طاعتها ومخالَصتِها أثرا ، وأفضلُهم خُبْرا وأطيبُهم خبَرًا ؛ وقد جدّد لك أميرُ المؤمنـين اصطفاءَكَ لوزارته ، واجتباءَكَ لتدبير مملكته ، وجعلك الفَرْدَ المشار لك فى دوْلته .

فتقلَّدْ ماقلَّدكَ أميرُ المؤمنين من هذه المهِمَّات الجِسام ، وتَسنَّمْ ماوطَّده لك من هذه الرُّتَب العِظام ؛ وتلَقَّ آلاءَه بما يُثْبِتك فى جرائِد الأبرار ، ويمنَحُك مصاحبةَ التوفيق فى الإيرادِ والإصْدار ؛ وباشِرْ ماناط إليك من كبيرِ الأُمُور وصغيرِها ، وجليلِ الأحوالِ وحقيرِها ؛ وابْسُط يدَكَ فى تدبير دَوْلته ، وأنفِذْ أوامِرَكَ فى أرجاء مملكَتِه ؛ واعْنَ بما جعله لك من تدبير جُيُوشه المَيَامين وأوليائه المتَّقين ، وكفالةِ قُضاة المسلمين وهدايةِ دُعَاة المؤمنين ، ورَبِّ أحوالِ جنُودِه ورعاياه أجمعين ؛ واعمَـلْ فى ذلك بتقْوىٰ الله الذى مابرِحتْ لك دَأبًا وطرِيقَه ، وشِيمةً وخليقَه ؛ وبها النجاةُ من النار ، والسَّلامةُ فى دار القَرار ؛ والفوْزُ بمعنىٰ الخَلَاص ، فى يوم المُناقشةِ والقِصَاص . فالعارفُ من مَهَّد بها مَقامَه فى الآخرة تمْهيدا ، وأحْرَزَ بها من الثواب فى الآخرة مَزِيدا ؛ بقول الله فى الكتاب الذى جعلـه فى الإعجاز فَرِيدا : ﴿ يأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدا ﴾ .

وراقِبِ اللهَ فيما ألقـاه إليكَ فقد فوّضَ إليك مَقاليـدَ البَسْـط والقَبْض ، والرفْع والخَفْض ، والوِلاية والعَزْل ، والقَطْع والوصْل ، والتوليَـة والتصريِف والصَّرْف ، والإمضاءِ والوَقْف ، والغَضّ والتَّنْبِيـه ، والإخْمال والتَّنْويه ، والإعْزاز والإذْلال ، والإساءة والإجْمـال ، والإبْداء والإعاده ، والنقْص والزِّياده ، والإنْعـام والإرْغام ،

وكل ما تُحْدِثه تصاريفُ الأيام، وتقتضِيه مطالبُ الأنام ؛ فهو إليك مَرْدُود، وفيما عُدِق بنظَرك معْدُود .

وأما العدلُ ومدُّ رُواقه، و إقامةُ مَوَاسِمه وأسْواقِه، والإنصافُ واتبـاعُ مَحَجَّته، والاعتمادُ علىٰ أحكامه وأقضِيَته ؛ وكفُّ عوادِى الجَوْر والمَظالم، وحَمْـلُ الأمر علىٰ قصْدِ التصاحُب والتَّسالُم ؛ وإظهارُ شِعار الدِّين ، فى إنصاف المُتداعين إلىٰ الشرع المتحاكمين؛ والدعوةُ الهاديةُ وفتحُ أبوابها للمستجيبين، وإعزازُ من يتَمَسَّـك بها من كافَّة المؤمنين؛ والأموالُ والنظرُ فيها، والأعمالُ أقاصِيها وأدانِيها ـ فكلُّ ذلك محرَّرٌ فى تقليد وِزارتِك الأوْل، وأنت أَوْلىٰ مَنْ حافَظ علىٰ العمَلِ به وأكمل .

وأمَّا أُمراء الدولةِ الأكابِر، وصُـدُورها الأماثِل ؛ وأُمَراؤُها الأعيان، وأولياؤُها الذين بسُـيُوفهم تُقام دعائمُ الإيمـان ـ فأنت شفِيعُهم فى كلِّ مكان، ومُعِينُهم الذى يبْذُل جُهدَه بغاية الإمكان ؛ والجاهِـدُ لهم فى النَّفْع والصَّلاح ، والحريصُ علىٰ دَفْع مايُلِمُّ بكلٍّ منهم من الضَّرر والاجْتِياح؛ ومازلتَ لهم فى الأغراض بحَضْرة أمير المؤمنين مساعِدا، وعلىٰ مايُبَلِّغهم الآرابَ حريصًا جاهِدًا؛ وتَخُصُّهم دائمًـا بعِنايتك، وتُمِدّهم برِعايَتك ، وتُعْمِل لهم فى الحاجات صائبَ رأْيك ؛ فأَجْرِهم علىٰ ماأَلِفوه من الاعتناء والإجمال، وبَلِّغهم من محافَظتك نهاياتِ الآمال؛ فهم أبناءُ المَلاحِم، ومُصْطلُو لَهَب الجمر الجاحِم؛ ومصالحُو الصِّفاح، المُرْهَفة الظُّروب، وملاعِبُو الرِّماح، العاسلةِ ذاتِ الكُعُوب؛ ومُعمِلو العِتاق الأَعْوجِيَّة، ومُرْسلو السِّهام المَريشة المَبْريَّه .

وأميرُ المؤمنين يعلَمُ أنك بفضـل فِطْرتك، وثاقبِ فِطْنتك، وما مَيَّزك الله به من قديم حُنْكتِك وتجْربتك؛ تَغْنىٰ عن الوصايا ، وتُنَزَّه عن توسِيع الشَّرْح فى القَضايا؛ وإنمـا أورَدَ لك هذا النَّزْر منها علىٰ جهة التيمُّن بأوامر الأئمه، والتبرُّك بمَراسيم هُداة

الأمه ؛ والله يحقّق لأمير المؤمنين فيكَ الأَمَل ، ويوَفّقك فى خدمته للقول والعَمَل ؛ ويُعينـك علىٰ إصلاح دوْلتِـه ، وآغْتِنـام فُرَص طاعتـه ؛ وبَذْل الجُهْـد والطاقة فى مناصَحتِه ، والآجتهادِ فى رَفْع مَنَار دَعْوته ؛ ويؤيّدك علىٰ أعداء مملَكتِه ، ويُرشدُك إلىٰ العمل بمـا يُسْبِـغ عليـك لباس نعمتِه ؛ فاعلَمْ هذا من أمير المؤمنـين ورَسْمه ، وانتَهِ إلىٰ مُوجَبه وحكمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، والتحميـــد .

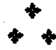

وعلىٰ ذلك كتب المَوَفّق بنُ الخلّال أيضا عن العاضد بوِلاية آبن شاوَر السَّعْدىّ نيابةَ الوزارةِ عن أبيه ، وتفويضَ الأمور إليه ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليه (بألقاب الخلافة) إلىٰ فلان (بالنُّعوت اللائقةِ به) .

سلامٌ عليك (إلىٰ آخر الصـلاة علىٰ النبيّ صـلّى الله عليه وسلم علىٰ نحو ما تقدّم فى سِجِلّ الوزارة لأبيه) .

أما بعدُ ، فالحمدُ لله مؤيّدِ الحقائقِ بأفضل الأنصار ، ومُعِزِّ المَمَالك بأكمل ذَوِى النَّفَاذ والآستِبْصار ، وجاعِلِ الولَدِ البـارّ لوالدِه رُكْنا وسَـنَدا ، والنَّجْل المختارِ لناجِلِه نَجْدَةً ومَدَدا ؛ مرتِّبِ الممالك علىٰ أفضل نِظامها ، ومُرَقِّى الدُّول إلىٰ المُؤْثَرِ من إجلالها وإعْظامها : ليتَّضِح للتأملين فضلُ تأكد الأواصِر ، ويستَبِينَ للناظرين فَصْل تبايُنِ العَنَاصر ؛ إبرامًا منه ــ جل وعَزّ ــ لأسبـا ، الحِكْمه ، وتوسيعًا لسبِيل الحَنَان والرحمه ؛ وشُمولًا لمـا يتتابَعُ به إحسانُه من المَنّ الجَسيم ﴿ فَضْلًا مِنَ اللهِ ونِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

والحمدُ لله مُعْلِي الدَّرجات ورافِعِها، ومُفيد الأمَم ونافِعِها؛ ومزُيل البَأْساء ودافِعِها، ومُجيب الدَّعَوات وسامِعِها، ومُضاعِف المَصالح وجامِعِها؛ الذى وَقَف على الدولة العَلَوِيَّة أحسَنَ السِّيَر، وخَصَّها فيمن تُؤْثِرُ آصطفاءَه بمساعدة القَدَر، ويسَّر لها رائقَ التدبير بعد ملابَسة الرَّنْق والكَدَر، وآدَّخَرَ لها من الأصفياء مَنْ تُشْرِق الدنيا بأنْواره، وتتزيَّن الدُّهورُ بمَحاسِنِ آثاره، وتسمُو المفاخِرُ بمَفاخِره، ويتوالى الثناءُ على ما آبْتكره من المَكارم فى أوّل نَشْئِه وآخِرِه، ويَتَتابَع الإحمادُ لمن يختارُه ويجتبَيه، وتتضاءلُ أقدارُ الملوك إذا ذُكِر فضلُه وفضلُ أبِيه؛ وتسكُنُ النفوسُ إلى تمام وَرَعه ودينه، ويَنطِق لسان الإجماع بصِحَّة معتقَده ويقِينه.

والحمدُ لله الذى شَمِل البرايا فَضْلُه، وعمّ الخلائقَ عدْلُه؛ وأقرّتِ العقُول بأنَّ إليه يَرْجِعُ الأمْرُ كلُّه.

يحمَدُه أميرُ المؤمنين على نِعَمه الظاهرةِ التى أحْظت دولتَه الظاهرةَ، بمُؤازرةِ البيت الجليل الشَّاوَرِىّ، وأيدَتْ مملكتَه القاهرةَ، بمحاماته عن حَوْزتها بالعَضْب المُرْهَف والسَّمْهَرِىّ؛ ويشْكُره على مِننه التى آستخلَصَتْ له منه أنصارا يُرْهِفُون فى طاعته العزائم، ويُحَقِّرُون فى إرادتِه العَظائم، فيذُبُّون عن حَوْزته ولا يخافُونَ فى ذاتِ الله لَوْمةَ لائِم؛ ويسألُه أن يصلِّى على جدّه محمدٍ الداعى إلى الهُدى، والمبعوثِ إلى الخلائق وهُم إذْ ذاكَ سُدىً؛ والمُناضِلِ فى نُصْرة الإسلام بالأُسْرة والآل، والمُطَّرِح عاجِلِ الدنيا الفانية لآجِلِ المَآل؛ وعلى أبيه أمير المؤمنين علىّ بن ابى طالب الذى اقام من دِينِ الله منكَر الأَوَد، وقام لنبىّ اللهِ مَقام النَّجْل المرتَضى والوَلَد، وقطَّ من طواغِيت الكفر شامِخَ الْهام، وأوضح غامضَ التنزيل بما أفرده الله به من مَزَايا

الإلْهام، وعلىٰ الأئمة من ذُرّيتهما أبناءِ الرِّسالة والإمامه، والمختصّين بإرْث بيتِه المُحْبوّ بتظْلِيل الغَمامه، والقائمين بنُصْرة الدِّين، والمتفرّدينَ بإمْرة المؤمنين .

وإنَّ أمير المؤْمنين لِمَا أقامه اللهُ له من تمكينِ قَواعدِ الدِّين، وٱختاره لإيضاحِه من إرْشاد فِرَق المسْلمين؛ وأفضىٰ به إليه من سِرّ الإمامة المكْنُون، وألقاه إليه من خَفَايا الإلْهام الذى تُستَنْبَط من أنوارها علَّةُ ما كانَ ويكُون؛ وأمَدَّه [به] من التأييد الذى يستأصل طواغيتَ النِّفاق بقَوارع المَهَالك، ويسْلُك بمَرَدة أهل العِناد أوْعَرَ السُّــبُل والمَسَالك؛ وأنجدَه فى كلِّ الحالات بالألطاف الخفيَّة التى تتكفَّل بإعلاء كلمتِه، وتتضمَّن نَصْر أعلامه ونَشْر دَعْوتِه؛ وآتاه جوامعَ المَعَارف والحِكَم، وفرضَ طاعتَــه علىٰ مَنْ دان بالتوحيــد منْ جميع الأُمَم؛ وألزم مقاصِــدَه وأنحاءه التوفيق، وأوجب لهــا السعادةَ فى كلِّ جليلٍ ودقِيق - يفوّضُ أمْرَه إلىٰ الخالق، ويُفيض جُودَه وبِرَّه فى الخلائق؛ فلا يزالُ لأحوال دوْلتــه مُراقِبـا، ولا ينْفَكُّ يُفيد كلَّ مايتعلَّق بها نظَرا ثاقِبا؛ فإذا لاحتْ له لائحةُ صَلاح، أو بدَتْ لنظَره مَخِيلةُ نَجاح، ٱجتهَد فى توسيع مَجالِها، وحرَّض علىٰ حَثِّها وقَصْد إعجالها؛ وٱلتمس للدَّولة ٱجتلابَها، وفَتَح إلىٰ ٱستِدعاء النَّفْع بابهَا : ليَنْمِى الخيرُ العميمُ، فى دولتــه، ويتضاعفَ النفعُ الجسيمُ، لرعيَّته؛ وتكونَ كافَّةُ الخلق فيهــا بالأَمَنة والسُّكون مغمُورين، وبحُسْنِ صنيع الله بهم فَرِحين مسْرُورِين .

ولمَّـا تصفَّح أميرُ المؤمنين أحوالَ دولته، وتأمَّلها تأمُّلَ من يُؤْثِر أن يَفْقَه الفحصَ فى كل مهم علىٰ حقيقَته، رأىٰ أن الله جل وعَلا قد منَح أميرَ المؤمنين من خالصته وصفيِّه، ووزيره وكافيه ووليِّه؛ السيد الأجلّ (بالنعوت والدعاء) الذى قام بنُصْرته، وكفَلَ أهوالَ الحُروب بنَفْســه وأولاده وأُسْرته؛ وحالف التغرُّبَ والأسـفَار،

واستبدلَ من لِين العَيْش بملاقاة السِّهام واللَّهاذِم والشِّفَار، واتخذ ظُهورَ الجياد عِوضًا من الحَشَايا، ومُنازلةَ الأبطال دأْبا فى الحَنَادس والبُكَر والعَشَايا، وآثَر علىٰ لُبْس الغَضِّ المُونِق الجـديد، لباسَ اليَلَب ولأْماتِ الحـديد، ولازَمَ فى ذاتِ الله قَرْع أبوابِ الحُتُوف، والتهجُّمَ علىٰ كل مَخْشِىّ مَخُوف، حتّى ذَلَّل الأعداء، وقَمَع الاعتِـداء، وحَسَم الأدْواء، وألزم الدَّهْر بعد خطئِهِ الاستِـهْواء، وأفاد دولةَ أمير المؤمنين باجتهادِه عِزّا، وادّخَرلهـا عندَ الله من الأجْر والمَثُوبة كَنْزا، وسيَّر عنها فى الآفاق أحسَنَ الأحادِيث، وبيَّن فضْلَها علىٰ غيْرها فى القديم من الدَّهْر والحَدِيث، وأخلَص لأمير المؤمنين فى الطاعةِ حتّى استخْدَم المُوَالِىَ الموافِق، والمُبايِنَ المنافق، وكَمَّل فضائلَه التى لاتُحَدّ، ومحاسِـنَه التى لا تَنْحصر ولا تُعَدّ، بفَضِـيلةٍ تفُوت الفضائل، ومَنْقَبة تفُوق بفخرها المناقِبَ الجلائل: وهى ماوجَّهه الله [له] من بُنُوّة الأجلِّ فلان الذى لم يزَلْ للدولة عِزًّا حاضرا، ووليًّا ناصرا، وعَوْنا قاهِرا، ومَجْدا ظاهِرا، وجَمَـالا باهِرًا. ومابَرِح لله ـ جلَّ وعلا ـ مُراقِبـا، ولِرِضاه وغُفْرانه طالبا، قد جمعَ إلىٰ كَمال الدِّين وصِحّة اليقين، المخالصةَ فى طاعةِ أمير المؤمنين، لا يَفْتُر منذُ مدّة الطُّفُوليَّة [عن] درْس القرءان، ولا يبارِى بغير الأمور الدينية نُجباءَ الأقران، إن تصَفَّحتَ محاسِنَه الدنيويَّة عُدَّ مَلِكا مُهذَّبا، وإن تأملَّتَ مناقبَه الدينيَّة حُسِب مَلَكا مقرَّبا، وكم له من مَنْقَبة تستنقِصُ الغُيوث، وشجاعة تستَجْبِن اللُّيوث، ومهابةٍ تردّ أحاديثُها الجيوشَ علىٰ الأعقاب، وتُغْريها بموالاة الحَـذَر والارْتِقاب، إذا أسهبتِ الخُطوب أوجَز تدبيرُه، وإذا استطالت الحوادثُ قَصَّر طُولَها فأعجبَ تقريرُه، فالدولةُ العلَويَّة من ذَبِّه فى الحَرَم الآمن، والخلافةُ العاضِديَّة من ملاحَظاته فى تدبيرٍ يجمَعُ أشـتَاتَ المَيامن، فاجتماعُ المـآثِرِ قد وحَّده، بشَهادة الإجماع، وتَوَالى المَحَامد قد أفردَه، بمـا شاع منه فى الممالك وذَاع، تحاسَدُ عليه غُرُّ الأخلاق، وتتنافَسُ فيه المَكارمُ منافَسة

ذواتِ الإشْراق؛ فلا تُوجَد خَلَّة فضـلٍ بارعٍ إلا وقد جَمَّعها، ولا مَكِنَةُ جَبْر قارع إلا وهو الذى مَهَّد مَحَجَّتها ووَسَّعها؛ ومَقاماتُه فى الجِهـاد والجِلاد مقاماتٌ أوضحتِ الحقائقَ للأفهام، وثَبَّتتِ الدقائقَ تَثْبيتا يبقىٰ علىٰ غابِر الأيَّام؛ وأعزَّت دعوةَ الدولة العَـلَوية وأيَّدتْها، ونصرَتْ أعلامَها ونشَرتْها؛ وأكتنفَتْ بالتفضـيل والإحسان رجالَها، وأزالتْ بالجِدّ والتشمير أَوْجالها؛ ومحَتْ آثارَ عُدَاتها بالسُّيوف، وألفتهم (١) عن النِّكايات المُجْحِفة بوَزْع المَنَايا والحُتُوف.

والحُروبُ قَـرْباه فى مُهُودها، ومَنْشاه بينَ أُسُودها، ورُعاتُها وقْفٌ علىٰ إضرامها وإخمادِ وَقُودها؛ فإذا تورّدَها توزَدَها باسِمًـا متهلِّلا، وإذا آقتحم مَضايِقَها تصرَّفَ فيها متوقِّفا متمِّهلا؛ لايَحْفِـل بأهْوالها، ولا يُرىٰ لقارعةٍ من عظائم قَوارِعها والِهـا؛ وحَسْـبُك فَتَكاتُه فى طُغاة الكُفَّار، وقصْـدُ أولياء الدولة بالإظهار: فإنَّ الكُفَّار حينَ نَهَـدُوا للنِّفاق، وآجتلبُوا أشباهَهم من بعيدِ الآفاق؛ وتَهَجَّموا علىٰ الأعمـال فجاَهم بعَزْمة من عَزَماته أقامتْ رايةَ الدين، وجعلتْهم حَصِـيدا خامدين؛ وأفْنتْ منهـم الصَّناديد، وآصْطَلَمتْهم ببلايا تَزيد علىٰ التعـديد؛ وآجتحَفَتْهم بالقَتْل والأَسْر والتفريق، ورمتْهم بدَواهٍ لايقـدرُ بَشَرىٌّ علىٰ دِفَاعها ولا يُطيق؛ ولمَّـا آلتجأَ طاغيةُ الكُفْر إلىٰ الحِيرَة وركَد، ورامَ الآعتصامَ بعُرْوتها وآجتَهد، وآغترَّ بمـا معه من الجمع وكَثْرة العدَد؛ نَهَد إليه فى الأبطال الأَنْجاد، ونهَض نَحْوه ثابتًا للقِراع والجِلاد؛ فأزاله عن مَجْثَمه، وذَعَره ذُعْرًا شرَّده عن مَعْلَمه؛ ورماه بالحَراك بعد السُّكُون، والتَّعب الذى قَدّر بآغترارِه أنَّ مثـلَه لايكُون؛ وكَمْ له فَتْكةٌ فى أهل العَمُود ذلَّلتْ جِماحَهُم، وآستلبَتْ أرواحَهم، وأعادتْ ليلًا بالنَّقْع صَباحَهم.

---

(١) لعـــله وألهتهم.

وعند تمادى عُتاة الكُفّار فى الإصرار، وجَوْسِهم خِلالَ الدِّيار، ونَفْثِهم فى وُجُوه الأذىٰ والإضْرار، وطَمَعِهم فى اجتياح أهلِ الأعمالِ والأقطار - عوّلَ أميرُ المؤمنين فى استئصالهم علىٰ عَزْمه، واعتضَد بذَبِّه وحَسْمه ؛ وجعل إليه التدبيرَ بالقاهرة المحروسةِ التى هى عُمْدةُ الإيمانِ والإسلام، ودارُ هِجْرة الإمام، ومَعْقِل الخلافة مُنْذُ غابرِ الأيّام؛ وأطلق يَدَه فى رَبِّ جميع الأعمال، وتأمينِها من بَوائق الأوْجال ؛ فبثَّ بالحضرةِ وبالأعمال من مَهابتِه ماشَرَّد الأوغار ، وسَهَّل الأمصار، ومَحَق الضُّلّال، وأذاقَهم النَّكال؛ فعَمَّ السُّكون والأَمَنه ، واستولَتْ علىٰ الأعمال السياسةُ المستَحْسَنه ؛ فجادتْ بنَضرة الأيام وصَلاح الوُجُود، واغتَبطُوا من تدْبيره بصُعُود الجُدُود، ورتَعُوا من عِنايتِه فى عيْشٍ يُضاهِى عيْشَ جِنانِ الخُلُود؛ فالبَلَاغات بأَسْرها لاتقُوم بمَدْح ماأُوتِىَ من الفضائل، ولا يُوازى مجموعُها مَنْقبةً من مَناقبِه التى أَرْبىٰ بها علىٰ الملوك الأواخرِ والأَوائل؛ والخَصائصُ الملوكيةُ بُجمْلتها فيه جِبِلّة وفِطْره، وإذا قِيستْ نادرةٌ من نوادر فضله بما تفرّقَ فى جميع المُلُوك كانتْ فضائلُه بمنْزِلة البحر ومجموعُ فضائلِ المُلُوك بمنْزِلة القَطْره؛ وقدطَرَّز فضائلَه البديعه، وخِلالَه الساميةَ الرَّفيعه، من مُوالاة أميرِ المؤمنين ومناصحةِ دولتِه بما تكفَّل بسعادة الدنْيا والآخره ، ونِهاياتِ مَغانِم الثوابِ الشريفةِ الفاخره؛ فليْلُه ونهارُه مصْروفانِ إلىٰ المجاهَدة عن دولة أمير المؤمنين التى هى دولةُ التَّوْحيد، والمُخْلِص فيها مُعرَّض لكلِّ مقامٍ سعيد؛ فمحاسِنُه ترتفع عن قَدْر التقريظ والمَدِيح، ولا تُقابَل إلا بموالاة التسبيح .

ولما أحمَدَ أميرالمؤمنين أثرَهُما فى خِدْمته، وشكَرَ قَصْدَهما فى دولته؛ وكان السيدُ الأجلُّ قد بلَغ إرْبَه فى الخِلال، وحلَّ المحلَّ الذى لاتتعاطاه جوارحُ الآمال؛ وقَدْرُه يَشْرُف عن كلِّ تكريم ، وموضِعُه يتميَّز عن كلِّ مَنْ جَسِيم ، ومنزلتُه تسمُو عن كلِّ تعظيم - فأوصىٰ أميرُ المؤمنين السيدَ الأجل أنْ يُقرّر له جميعَ خِدَمه ، ويُسْبِغ عليه

فى المستأنَف أضْفىٰ نِعَمه : فإن محلَّه يرتفع عن محلّ الخَدَم الجليله ، ويسمُو عن كل تصرُّف يسِمُه فى الدولة بسِمَة جميله ؛ ورأىٰ أميرُ المؤمنين والسيدُ الأجل أن يُعْلَن بإسـناد النيابة عن والدِه فى أُمور المملكةِ إليـه ، ويُشْهَر أنَّ ذلك معوَّلٌ فيه عليه : ليخفِّف عن السيد الأجلّ أمير الجيوش أمْرَ أثقالها ، ويَتحمَّل عنه تكليفَه بعضَ أحوالها ؛ ترفيهًا للسـيد الأجل عن التَّعَب ، وتخفيفًا من كَثْرة النَّصَب ؛ علىٰ أنَّ عُلُوَّ قدره الأجلّ لم يُخْلِه فى وَقْتٍ من الأوقات من مشاركةٍ فى التدبير ، ولا صَـدَّه عن ممازجةٍ فى مُهِمٍّ كبير ؛ بل ما بَرِحتْ يدُه فى جميع أحوالِ الدولة جائِله ، وجَلالةُ منْصِبه تقضى بأن تكونَ تصريفاتُه لجميـع الأمور شامـلَهْ ؛ وتوقيعاتُه ماضـيةً فى الأموال والرجال ، والجِهات والأعمـال ؛ وأميرُ المؤمنين والسيد الأجل يستَسْعِدان بأداته ، ويَتَتَبَّعان فى كل السياسات ماهو موافِقٌ لإراداته : لمـا خصَّه الله [به] من المَرَامى الصائِبه ، وللمقاصِد التى السعادةُ علىٰ مايَرِد منهـا مُواظِبه ، وجَبَلَه عليه من المحافظةِ علىٰ حُسْن المَرْجِع وحميدِ العاقِبه ـ خرجَ أمْرُ أمير المؤمنين إلىٰ السيد الأجل بالإيعاز إلىٰ دِيوان الإنشاء بكَتْب هـذا السِّجلّ لك : فتقَلَّدْ ما قُلِّدته من النيابة عن والدك فيما إليه من أمور مملكتِه ، وأحوال دَوْلتِه ؛ معتمِدًا علىٰ تقوىٰ الله التى بها نجاةُ أهل اليقين ، وفوزُ سُعداء المتقين ؛ لقول الله عز من قائل : ﴿يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين﴾ . وٱحمِلْ عن السـيد الأجل والدِك مايُؤْثِر أن تحمِلَه عنه من الأثقال ، وتكفَّلْ مايُكَلِّفُك إيَّاه من الأشغال ؛ ونَفِّذ مايختارُ أن تُنَفِّذَه ، وأَنجِزْ مايُؤْثِر أن تُنْجِزه ؛ وأمضِ ما يُشِـير إليك بإمضـائه(١) من أساليب التوقيعات ، وفُنُونِ المُهِمَّات ؛ وقُمْ فى كل من أمور نيابَتِك المقامَ الذى يُرْضِيه ، ويوجِبه بِرُّك ويقتضيه ؛

(١) فى الأصل «اليك الى امضـائه» ولا يخفى ضعفه أو بطلانه .

وقد جعلك الله ميمُونَ النَّقِيبــه ، مسْعُودَ الضريبــه ، مُكمَّل الأَدَوات ، مؤَهَّلا لترقِّي الغايات ؛ لا تكْبَر عن مباشرتِك كبيره ، ولا تَشِفُّ(١) عن رُتْبتك رتبــةٌ خطيره ؛ وآجْرِ علىٰ عادةِ والدك فى حسن السياسةِ والتدبير ، والإجمالِ للأولياء لكما فى كل صــغيرٍ من الأُمُور وكبير .

والوصايا متَّسِــعةُ الفنون ، كثيرةُ الشُّــجُون ؛ ولك من مَزِيَّة الكمال ، وفضــيلة الجَلَال ، ومساعدةِ الإقبال ، والخِبْرة بالجهاتِ والأعمال ، وطوائِفِ الأولياءِ والرجال ؛ ما يُعينُك علىٰ آستنباط دقائقها ، والعمل بحقائقها ، وسُلوك أحسَن طرائقها .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، وحجتُه عليك ؛ فاعمَلْ بأحكامه ، وأجْرِ أمورَك علىٰ نِظامه ؛ و بالِــغْ أيها السيدُ الأجل أميرُ الجيوش فى شُكْر نعمةِ الله التى ألهمَت الملوكَ إشاعةَ فَضْلك ، ورتَّبت السُّعود علىٰ آكتناف عَقْدِك وحَلِّك ، ومنَحَتْكَ آيةَ كليم الله فجعلت لك وزيرًا من أهلك ؛ فاعْلَم هذا وآعمَلْ به إن شاء الله تعالىٰ ، والسلام عليك ورحمة الله و بركاته .

وعلىٰ ذلك كتب بعضُ كُتَّابهم عن العاضد ، لرُزِّيك بن الصالح طلائع بن رُزِّيك ، بولاية المظالم وتقدِمةِ العسكر فى وزارةِ أبيه ، وهذه نسخته :

من عبد الله ووليِّه فلانٍ أبى فلان الإمام الفلانى (بلقب الخلافة) أمير المؤمنين ، إلىٰ فلان (بلقبه وكنيته) .

سـلامٌ عليك ، فإنَّ أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لا إلٰهَ إلا هو ، ويسألُه أن يُصلِّيَ علىٰ جدّه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم خاتَم النبيين ، وسيدِ المرسلين ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهِرِين ، الأئمةِ المهدِيِّين ؛ وسَلَّم تسليما كثيرا .

(١) فى القاموس "شف يشف شفا زاد ونقص" .

أما بعدُ، فالحمدُ لله الغامرِ بالطَّوْل والفضل، الآمرِ بالإحسان والعَدْل؛ مُوسِّـع سُبُل الصَّلاح لبريَّته، ومسبِّب أسبابِ النَّجاح لدينِه الحنيف وملَّته؛ وجاعلِ أبرارِ أوليائه ذَخائرَ مُعدّةً لنفعْ الخلق، ومُصطفِى سعداءِ أحِبَّائه لإعلاء مَنَار الشرع و إقامة قِسْطاس الحق؛ ومُيسِّرِهم للنُّهوض بالأعباء التي تتكَفَّل بعَضْد الدولة العلوية وتَقُوم، ومجتَبِيهم للفصل بمَرْضاته فيما يقضى بإغاثة الملْهُوف و إنصافِ المظْلُوم؛ الذى تنقاد بمشيئته الأمور، وتتصرف بإرادته الدُّهُور، و يعْلَم خائنَةَ الأعيُنِ وماتُخْفِى الصُّدُور؛ و يغْدُو فضــلُه علىٰ عباده جَسِيما، و﴿ لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرّةٍ و إنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها ويُؤْتِ من لَدُنْه أجرًا عظيما ﴾ .

والحمد لله الذى أوضح بأنبيــائه سُبُلَ الهــدىٰ للأَنَام، وأنقَذَ بإرشادهم من عِبادةِ الأوثانِ والأصْــنام؛ وأقامَ باجتهادِهم أحكامَ ماشَرَعه من المِلَل والأديان، وأذهب بأنوارِهم ماغَمَر الأُمَم من غَيَاهِبِ الظُّلْم والعُدْوان؛ وقَفَّى علىٰ آثارهم بمن لانُبوّةَ بعْــدَ نُبوّتِهِ، ولاحُجَّةَ أقْطَعُ من حُجَّته؛ ولا وُصْلَةَ أفضَلُ من وُصْلةٍ ذَخَرها لأمَّته، ولاذُرِّيّةَ أقْوَمُ بحقِّ الله فى حِفظ نظامِ الإيمانِ من عِتْرته وذُرِّيَّته .

يحمَدُه أمير المؤمنــين علىٰ أنْ مكَّنَ له فى الأرْض، وذخَرَ شفاعتَه لذَوِى الوَلَاء فى يوم النُّشور والعَرْض؛ وأورثه خَصائِصَ من مضىٰ من أئمَّة الهُدىٰ آبائه، وأفرده بمُعجز التأييــد الذى أضاءتِ الآفاقُ بمُشْرِق أنبــائه؛ و يشكُره علىٰ أن أنجدَ دولتَــه بكفيلٍ جدَّد جِلْبابَها، وظهيرٍ أحْكَمَ أسبابَهَا، ونصيرٍ بَلَّغ بها فى الوَلىِّ والعَدُوِّ مطالِبَها وآرابَهَــا؛ وآستَنْجَب له من نَجْله خليــلا يتلُوه فى الفضائل البارِعه، وناصرًا يُحاوِل فى الذَّبِّ عن حَوْزَته عَزْما أمْضىٰ من السُّيوف القاطعه؛ وعَضُــدا يقُومُ له بإرضاءِ الخالق والمخْلُوق، ومُسْــعدا لا يألُو جُهْدا فى إيصال المستحقِّين إلىٰ ما جعله الله لهم

من الحُقُوق . ويسأله أن يصَلِّى علىٰ جدّه محمدٍ سـيدِ من بَلَّغ عن الله رسالةً وأمْرا ، وأفضَلِ من دَعا إلىٰ توحيد بارِئه سِرًّا وجهْرا ، وأكملِ منْ جاهد عن دِينِـه حتّى ظهرَتْ بعـدَ الدُّروس جِدّتُه، وقهَرتْ إثْرَ الخُضُوع عِزَّتُه، وآنتشرتْ فى المشارِق والمَغارِب كلمتُه ودعْوتُه، صلّى الله عليه وعلىٰ أخيه وآبنِ عمِّه أبينا علىّ بنِ أبِى طالب قسيمِه فى الشَّرَف والأُبُوّه، وصِدّيقِه الأكبرِ فيما جاء به من النُّبوّه، والمكمَّل بالنصِّ علىٰ إمامته الدِّين، وخامسِ الخمسةِ الذين سادِسُهُم الرُّوح الأمين ، وأبى الأئمـةِ الأبْرار، والهـازم بمُفْرَده كلَّ جيْش جَرّار ، وعلىٰ الأئمـة من ذُرّيتهما أعلامِ مَحجَّة الهُدىٰ، وأنوارِ سُبُل الإيمـان التى بأنوارها يُسْتَبْصر ويُقْتدىٰ ، وأدلّةِ منْهاج النجاه ، وكاشِفِى غُمَمِ الشَّكِّ إذا الظُّلْم دَجاه، وسَلَّم ومجَّد، وتابع وردّد .

وإنَّ أمير المؤمنين لِمـا آصطفاه اللهُ له من إرْث سِرّ الإمامة المَصُون المكْنُون ، وحَقِّ بَيانِه العظيم الذى بالخُشُوع لجَلاله أفلح المُؤمنون، وآختاره [له] من نَشْر لواء الحقِّ ونصْره ، وتأكيدِ أحكامِ الإنصاف ليَحْظىٰ بعائدَتِها كافَّةُ أهل زَمنه وعصْره ، وألبسه إيَّاه من تاج خلافَتِه الذى أشْرقَ لبصائر العارفين نُورُهُ الساطع ، وتجلَّى لأفهام المُوقنين بُرهانُه الصادعُ ودليلُه القاطع ، وأُودِعه من خَفَايا الحكَم التى عَذُب سَلْسبيلُها، وبلغ إلىٰ النعيم الخالد دليلُها وسبِيلُها، وكَّله لأيَّامه من الإقبـال الذى جعلَها مواسِمَ زاهيـةً بَهجَةَ النصر المبين ، وأعيـادَ ظَفَرٍ تروقُ بتَوالى إبادةِ العـادلين عن الطاعة النَّاكبين ، وأوقاتًا سـعيدةً تُفيد الدينَ وأولياءَه عِزًّا وآعْتِلاء ، وتُوجب للإيمـان وأنصاره آقتدارًا وآسْتِيلاء ، وتُسْبِـغ عليهم كيفما تصرّفتْ بهـم الأحوالُ مِننًا ضافيةً وآلاء، ويَسَّره لعِلْمه من الإحاطة بكل مُغَيَّب مسـتُور، وأوجبه لأغْراضه فى كل مايرومُه من مُظاهَرةِ المقْدُور، ومَهَّـده لحُلُوله من أشْمَخ منازِل التطهير والتقديس ، وشَرَّف به شيَمَه من كل خُلُق نَبَوىّ بارعٍ نَفيس، وفضَّله به من الكرم الذى لاتزالُ

سُحُبه تجُودُ الأُمَم سَرَفا، ولا تنفَكُّ غيوثُه تجُدُّ لمن مُطِر به عَلاءً وشَرَفا؛ ولا بَرِح وابلُه يعُمُّ بالنِّعَم الغُرِّ الجِسام، ولا تكُفُّ سيُوبُه عن إفاضة المِنَن التى علَتْ وغلَتْ فلا تُسامىٰ ولا تُسام؛ وخُصَّ به إحسانه من المُثابرة علىٰ إعظام المَنائح للستوجِبِين، والمحافظةِ علىٰ إجزال المَواهب للمزدَلِفين إليه بالأعمال الصالحةِ المتقرّبين - يُجْهد آراءه فى آرتياد من تتضاعَفُ للبريَّة بالآستعانة بكماله أسبابُ المَصالح، وتتأكَّدُ للأمّة بالتعويل علىٰ بارِع فضلِه أحكامُ النُّجْح والمَناجِح؛ وتقُوم الحجةُ عندَ الله بالآعتضاد به فيما يَقْضِى بنَفْع [العباد]، ويسْهل الآعتماد علىٰ ديانتِه بالنُّصْح لله فى الحاضر من بريَّته والباد؛ وينْطِق شرَفُ خلائقه بتوفُّره علىٰ إحراز مَغانِم البِرِّ والتقوىٰ، وتُعْرب طرائقُه عن السَّعْى الذى لايقِفُ فى مَرْضاة ربِّه دُونَ بلُوغ الغايةِ القُصْوىٰ؛ وتدلُّ أحوالُه علىٰ رعاية حُقُوق الله سبحانَه فى كلِّ مايفعل ويقول، وتُوضِّح أخبارُه حُسْنَ تأتِّيه فى مصالح الأُمَم لما يَعْجز عن آستنباطِه رَواجِحُ العقُول؛ ويقتَدِحُ نظَرُه أنوارًا يُستضاء بها فى طُرُق السِّياسات الفاضله، ويفْتتِح فكْرُه أبوابا تَضْحىٰ بها الخليقةُ إلىٰ الخيرات الكاملةِ واصله؛ ويبعثُه حُسْنُ جِبِلَّته علىٰ أن يحتَقر فى إعانة البَرايَا، عظائمَ المَشاقّ، ويدْعُوه كرمُ سَجِيَّته إلىٰ أن يحْنُو علىٰ الرعايا، حُنُوَّ مَنْ يتوخَّاهم بالرحمةِ والإشْفاق؛ ويقْوىٰ بإعانته المستضْعَفُ قوّةً تُحَصِّنه من عَدْوىٰ الآهتضام، ويَعِزُّ بملاحظتِه المستذِلُّ عِزَّةً تُخْرِجه عن صُورة المقهُور المُسْتَضَام؛ ويقتَفِى الآثارَ الصالحيَّةَ فى عَدْل الطِّباع وحُسْن الشِّيَم، ويتَّبع السُّنَن الغِياثيَّة فى الإحسان إلىٰ جميع الأُمَم، ويَقْصِد فى اللُّطْف بالصغير والكبير قَصْدَها، وينتحِى نواجِمَ الباطل فيعتَمِدُ آجتثاثَها وحَصْدَها؛ ويكون تفويضُ أمير المؤمنين إليه تَوَثُّقًا عند خالقه وبارِيه، وآحتياطًا لنفسه فى آستنادِ المهمَّات منه إلىٰ من لا يُدانِيه مُدانٍ ولا يُبارِيه؛ وتتيمَّن الدولةُ العلَويَّةُ بمباشرته للأحوال تيمُّنا يُؤذِنُ لها بإدْراك كلِّ مَطْلَب بعيد، وتستَسْعد بحُسْن

سِيرته ٱستِسْعادا يقْضى للنَـاجح بتمكينٍ تُبْدى فيه وتُعيد ؛ وتَختالُ الأيَّامُ بما ٱجتلتَه من جَواهرِ مَفَاخِره ، وتَزْدان الأزمانُ بمـا توَشَّحتْه من مَناقبــه التى حَقَّرت المُلوكَ فى أوّل الدَّهْرِ وآخِره .

وقد ٱكتنفَتْــك أيُّها الأجلُّ عناياتُ الله سبحانه وٱشتملَتْ عليــك ، وتتابعَتْ موادُّ ٱصطِفائه وٱجتبائِه إليك ؛ وأنالتْكَ من كلِّ فضــل بارِعٍ ، غايتَه ، وأظهرتْ فيك لـكلِّ كمال رائع ، آيَتَــه ؛ وجمعتْ لك من مُعْجِزات المَحاسن مالولا مُشاهدتُك لوجب ٱســتحالةُ جَمْعه ، ولأنْكَر كلُّ متدبِّرٍ صدَر حديثُه عن صَدَرِ صدْره أو وُرُود سْمعه ؛ ويَسَّر لك تمـامُ السَّعد والإقبال ، الترقِّيَ إلىٰ ذِروة العُلىٰ التى يَهابُ النجمُ أن تَمُرّ ملاحظَتُها منه ببال ؛ وتأنَّقت الحظوظُ فى إعظام ماخوّلتَكْ من الفضائل الباهرة فبـالَغتْ وتناهت ، وأغرقَتْ فيما أتحفَتْــك به من المحاسن النادرة فشرفتْ بك وتباهَتْ ؛ حتّى غدَا جسِيمُ ماقُدّم شرحُه من الثناء وذِكْرُه ، وعظيمُ ماوجب منه نشرُه فتضوّعَ أَرَجُه ونَشْره ، نُغْبةً من بِحارها الزاخره ، وشَذْرةً من عُقُودها الفاخره ، وقليلًا من كثيرها الجسيم ، وضَئيلًا من جزيلها الذى ٱستكملَ خصائِصَ التعظيم .

واستثمر فأنت الجـامع لمفترِق الفضائل المُلْكيه ، والفارِعُ ذُرَى الجَلال الذى أفردَتْك به المواهبُ المُلوكيَّه ؛ والممنوحُ أعلىٰ رُتَب السيادة الساريةِ إليــك من أكرم الأُصُول ، والمْمُوح بارتقاء هِضَاب المَجْد التى عَجَز ملُوكُ الآفاقِ عن [الٱنْتهاء] إليها والوُصُول ؛ والأوحدُ الذى بَذَّ العظماءَ فعظُم خَطَرا وقدْرا ، والأرْوعُ الذى ٱنقادتْ له الصِّعابُ فرَحُب باعًا وصَدْرا ، والعالمُ بالأمُور الذى أصبح أعلَمَ ملوكِ الأرض بأحسنِ التَّدبير وأدرىٰ ؛ والمُذْكِى بأنوار ذكَائه فى عاتِمِ النُّوب سِراجا وهَّاجا ، والمشمِّرُ فى ذات الله فلا يُوجَد له علىٰ غيرِ ما أرضاه معَاجَا ، والمبتكِرُ من غرائب السِّياسات مالا تَزالُ محاسـنُه علىٰ مَفْرِق الزمن تاجا ؛ والممَجَّد اللَّهِجُ بتمجيده كلُّ مقْول ولسان ، والمُعْجز

كلَّ متعاطٍ وإن كان بليغًا بديعَ الإحسان ، والممنوحُ المُعرِق فى السـيادة والملكه ، والمبتدِعُ المكارمِ أبْكارا تجِلُّ عن أن يُشابِهَه أحدٌ فيهـا أو يَشْرَكه ، فآياتُ مَجْـدك ظاهرةٌ باهره ، وغُرُّ خلائقك فى آختراع المآثِرِ وآفْتراعها ماهِره ، وإليك إيمـاءُ السعادة وإشاراتُها ، والدُّسوتُ باعتلائك مَناكِبَها تُسـامى السماءَ أرجاؤها ، ويتحقق فى البحر الأعظمِ بتصَدُّرك فيها رجاؤُها ، فلا كمالَ إلّا ماأصبَح إليك يُنْسَب ، ولا جلَال إلا مايُعَـدّ من خصائصِك ويُحْسَب ، ولم تزل لربِّك خاضعا ، ولشَرَفك متواضِعا ، وأنوارُ الألمعيَّـة تُوضِّح لك من طُرُق الأمانة ما يَعْجِز عن إدراكه قوىٌّ التجريب ، وتُحْكِم لك من أحكام السياسةِ ماتَقْصُر عن أقلِّه فِطَنُ الحكماء الشِّيب ، وتُبْدى لك أسرارَ الأزمنة المتطاوِلة فى إقبالِ سِنِّك ، وتُلين بتلطفاتٍ صَلابةَ الخطوب مع نَضَارة غُصْنك ، وما بَرِح ذكْرُ أخبار صَوْلتك ، وحديثُ ما أعظمه الله من فُرُوسيَّتك وشَجـاعتِك ، يُوفِّر حُلوم الأبطال فى المَلاحم إذا أطارَها الذُّعْرُ فطاشَتْ ، ويُسَكِّن نفوسَ الأنجاد فى المَلاحم إذا أطارها الذُّعر فجاشتْ ، ويُحْدث للجبناء جُرْأةً وإقداما ، ويجعلُ الكَهَامَ فى الحروب مُذَلَّقًا حُسَاما ، فخُيَلاء الأَعْوجيَّة زهو مما تَرْقبه من شَرَف آمْتطائك ، وصليلُ المَشْرَفيَّة ترنُّمٌ بمُطْرِب قَصَصك وأنبائك ، وآهتزازُ السَّمْهَريَّة جَذَل بما كَفَّلتها من إشادةِ عَلائك ، وضَمَّنتها من إبادة أعدائك ، وليس بغريبٍ أن تفْضُل الأملاك ، وتطأَ أخامِصُك السِّماك ، وتختالَ فى وَشْى الوصف البَديع ، وتُشْرِقَ أسرَّةُ محاسنك فتُخْجِلَ ضوءَ الصُّبح الصَّديع ، وقد أكرمك الله مع فضلِ الخليقة والفِطْره ، وكمالِ الخصـائِص التى غدَا كلٌّ منها فى بديع المُعْجزات نَدْره ، ببُنوّة مُغيث الأنامِ ، ومُصْلِح الأيَّام ، وكفيلِ أمير المؤمنين وكافِيه ، ومُبْرِئ مُلْكه من أسقام الحوادث وشافِيه ، السـيد الأجلِّ الملك (وتَتمـة النعوت والدعاء) الذى آنتضاه اللهُ لكَشْف الغُمَم ، وآرتضاه لتدبير الأُمَم ، وفَضَّله علىٰ ملوك العرَب والعَجَم ، وشَمَخ علاؤُه فتطامَنَ

له كلُّ عليٍّ ودان، وسمتْ مواطئُ أقدامه فتمنّت منالها مواطئُ التيجان، وحاز بالمساعى الفضلَ الباهرَ أجمع، وآستولىٰ علىٰ بواهر الحِكَم بالنظر الثاقب والقلب الأصمع (١)، وأُفرِد بكمالٍ عزَّ أن تُدرِكه الآمال، أو يكونَ لاشتطاطها فيه مَطْمع أو مجال؛ وغدا النصرُ المُبين تابعًا لعَذَب ألويته، وحُسنُ إقباله فى كلِّ موطن كفيلٌ بإدبار العدوّ وتوليته؛ وأجاب داعىَ الله إذ آستنصرَ لآل بيت النبوّة وآستصْرخ، ولبّى دعاءه تلبيةً تُسطَّر أخبارها علىٰ ممرّ الزمان وتُؤرَّخ؛ وأجلىٰ شياطين الضَّلال وقد تبِعتْ فى زعيمها الجاحد وثَنا، وصدّها بالعزم المُرْهَف عما أصرّتْ عليه من مُنْكَر الإلحاد وثنىٰ؛ وبدّلت سطاه جبابرةَ الطُّغاة من الأوطان بُعْدا وسُحقا، وأمتعتْهم فتكاتُه من الأعداء الوافرة إفْناءً وسَحْقا، وأذاقتْهم حَملاتُ جُيوشِه وَبالَ أمرِ من عاضَدَ باطلا وعاندَ حَقّا؛ وجعلتْهم شِفارُ سيوفِه الباترةِ فى التّنائف حصيدا، ورمتْ بالإرْغام والإضْراع معاطِسَهم وخُدودَهم بعد أن عَمَّروا شُمّا وصيدا؛ وقصّد بمواضيها أشلاءَهم ودماءَهم فألجم غُروبَها وسَقىٰ، وكشف بلوامعها عن الدولة الفاطمية من مَعرّتهم جُنْحا عاتمًا وغَسَقا؛ وكَفَل أمورَهم فأحسن الإيالةَ والكَفاله، وأعادها إلىٰ أفضلِ ماتقدّمَ لها من القوّة والفَخامة والجَلاله؛ ونظر أحوالَها فقوّم كلَّ مُعْوَجٍّ وعدّل كلَّ مائل، وحَباها مَلْبَس جمالٍ تقْبُح عند بهْجته ملابِسُ الخمائل.

ولمّا أباد عُصَب العِناد، عطف علىٰ الآجتهاد فى الجِهاد؛ فجابتْ جحافلُه متقاذفَ الأقطار، ونالتْ من الفتك بالكَفَرة فى أقصىٰ بلادها نهايةَ الأوطار، وآنتزعتْ منهم الحُصون، وآستباحتِ المُمنَّع المَصون؛ حتّى أصارت جَلَدهم المشهورَ فَشَلا، وفيْض إقدامِهم المذكورِ وَشَلا؛ وشمِل الأمة بسِيرةٍ عُرِفت بالعدْل والإحْسان، وأحظتِ

(١) أى الذكى المتيقظ .

الخلائقَ بالأمْن المَدِيدِ الظلال، وأرضتْهم بالعيش الرائقِ الزُّلَال، وأنالتْهم من المَطالِب ما ٱتَّسعت لإدراكه خُطَا الآمال، وجادَ ففَضَح الغَمائم، ومَنَّ علىٰ ذَوِى الذُّنوب حتّٰى كاد يُتقرّب إليــه بالجَرائم، وأقال عَثَراتٍ كَبُرتْ فلولا كَرَم سجيّتــه لم يَرُم الإقالةَ من خَطَرها رائمٍ، وأمدّه الله من معْجِزات البَلَاغة والبَيَان، وغرائبِ الحِكَم البديعةِ الأفتنان، مايستَخِفُّ الأحلامَ بفَرْط الطَّرَب والإفْتان، ولم يزل منذُ كان يحْمِى سَرْحَ الدين، ويضُمُّ نَشَر المؤمنين، ويبذُل نفْسَــه الشريفــةَ فى نُصرة الدولة العلَوِيّة بَذْلَ أكمل ناصرٍ وأفضل مُعين، وتكبُرُ عظائمُ الخُطوب فيكونُ عزمُه أعظَمَ وأكْبَرَ، وتُزْهىٰ الأيام بغُرّ مَحاسنه وهو لايُزْهىٰ ولا يتكبّر، فقدعزّ جانبُ كماله، عن أن يُناهِضَه جُهْدُ المديح، وارتفع محلُّ جَلاله، فلا يُنال تكييفُه بإشارةٍ ولا تصريح، وعَظُم قدرُ مفاخره فلم يقابَلْ إلا بموالاة التمجيد لخالقِه والتسبيح، ووجب علىٰ متصَفِّح خصائِصه الموالاةُ فى التعظيم، ولزومُ مَنْهَج ٱستيداعٍ لايبْرَح عنه ولا يَرِيم، ومبالغةُ قوله تعالىٰ: ﴿ ماهٰذَا بَشَرًا إنْ هٰذَا إلَّا مَلَكٌ كَرِيم ﴾ .

فبَلَّغ الله أميرَ المؤمنيــن فى إطالة مدّتِه الآمال، وأبقىٰ لمُدّتِه باستمرار نظرِه الحظَّ والجَمَال، وفتَح له المَشارقَ والمَغاربَ بِهِمَمه العالية وعزائِمه، وجعل نوَاجِمَ الإلحاد حَصائدَ شِــفَار صَوارمه، فانْخَرْ أيُّهــا الرجلُ بأصْلك وفَرْعك كيفَ شِيت، وٱبْجَح بما مُنِحتَ منه وأُوتِيت، ووالِ شكرَ خالقِك علىٰ ما خُوِّلتَ وأُوليت، فمــا نَخَرَ بمثل نَخْرِك ملِكٌ سَمَيْدَع، ولا تباهىٰ الدَّهْرُ لأحد بمثل ماتَباهىٰ فى حقّك ولا أبْدَع .

ولمــا تكاملَ لك أيُّها الأجل بلُوغُ هــذا الفضلِ الجَسِيم، وتَمّ مامُنِحته من المجد الحــادثِ والقديم، جدّد أميرُ المؤمنين لك شِعارَ التعظيم، وكَمَّل لديك المفاخرَ تكْميلَ العِقْد النظيم، وجعــل الخيرَ فى إمْرته لك عِيــانا، وأقامك للدولة الفائزيّة والمملكةِ

الصالحيّة بُرْهانا، وجعلك لكافّة المسلمين فى أقطار الأرض سُلطانا؛ وطابق بين ماخصَّك به من السِّمات السنيَّه، وبين مامكَّنه لك من المراتب العليه؛ فآتّخذك لدولته ناصِرًا وعضُدا، وآنتخبك للإسلام مجْدا وسَندا، وأحيا بمُرافَدتك أنصارَ الدين، وشفىٰ بنظرك صُدورَ المؤمنين؛ وآستخْلَصك لنفسه النفيسةِ حميًا وخليلا، وبلَغ بك إلىٰ الغاية القُصوىٰ إعلاءً وتبجيلا؛ وشرَّفك بخِلَع بديعةٍ من أخصِّ ملابِس الخلافة ترُوقُ محاسنُها كلَّ النواظر، وتفُوق بدائعُها مادبَّجه زَهَر الروض الناضر؛ وقلَّدك سيفا يُؤْذِن بالتقليد، ويبَشِّر بالنصر الدائم المَزِيد؛ تتنافَسُ فى مَتْنه وفِرِنده الجواهر، ويستَوْلِى ناصعُها علىٰ الباطن منه والظاهر؛ وعَزَّزها بالتشريفات التى آكتنفَتْها البَهْجة والبهاء، وبلَّغتها فى العُلىٰ إلىٰ الغاية التى ليس بعدها آنْتهاء؛ وآثر أن تُبْسَط يدُك فى التدبير، ويُعْدَق بك ماهو عنده بالمَحلِّ الكبير؛ ويُجْمَع لك من أشتاتِ دولتِه مالم يُعرف لجمع مثله فى سالف الزَّمن نظِير، ويسْنَد إلىٰ كمالك مايعودُ النفعُ بصَلاحه علىٰ المأمور من الأنامِ والأمير .

ففاوَضَ أيُّها السيد الأجلُّ الملكَ الصالحَ والدَك أدام الله قُدرَته، وأعلىٰ كلمتَه، فى ذلك مُفاوضةً أفضتْ إلىٰ وُقُوع الإجماع علىٰ أنك أكمَل مُلوك دهرِك دِينا، وأصحُّهم يقينا؛ وأشرَفُهم نَفْسا وأخلاقا، وأكرَمُهم أُصُولا وأعراقا؛ وأمثلُهم طريقةً وأحسَنُهم سيره، وأنْقاهم صدْرا وأطهَرُهم سريره؛ وأشَفُّهم جوْهرا وأزْكاهم ضريبة وأتْقاهم لله سِرًّا وعلَنا، وأولاهم بأن لايصْدُر عنه من الأفعال إلَّا جميلا حسَنا؛ وأنك أفضلُ مَنْ عَدَق أميرُ المؤمنين بنظره أمْر الدنيا والدين، وأسْنَد إلىٰ ملاحظته أحوالَ أُمَراء الدولة ورجالها أجمعين، وفوّض مصالحَ المسلمين منه إلىٰ التَّقِىِّ الأَمين؛ وأنَّ السيدَ الأجلَّ الملكَ الصالح أدام الله قدرتَه لمَّا أخلَص محلَّه عند أمير المؤمنين بتَتابُع الإشاده، وتفرّدَ باستِمرار المضاعفة بإذن الله تعالىٰ والزِّياده؛

وٱستولىٰ علىٰ الأمدِ الأقصىٰ فىالسموّ لدَيْه والتعالى، وٱنخفضَتْ عن ثَراه ذُرىٰ أشْمَخ المَعالِى، كان عندَ أمير المؤمنين الأوّلَ فى الجَلَال وأنتَ ثانيـه، والسابقَ فى الفَخَار وأنتَ تاليه؛ ودَلَّ بفضْلك علىٰ فضله دِلالةَ الصبح علىٰ النهار، والنَّمَـاء علىٰ الإبدار، والثَّمرِ الطيب علىٰ فضيلةِ الأصْل والنِّجار؛ فتبارك مُولِى المِنَن لأوليائه وحِزْبه، القائل فى محكم كتابه : ﴿ والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بإذْنِ رَبِّه ﴾ .

وقرّر لك أمير المؤمنين ٱستِشْفافَ أُمُور المَظَالم، وإنصافَ المظلُوم من الظـالم؛ والنظَرَ فى ٱسفَهْسَلارِيَّة العساكر المؤيَّدة المنصورة إيثارًا من أمير المؤمنين لأن يجعلَ لك خيرَ الدنيا والآخرة ميَسَّرا، ويُثْبِتَ لك فى كلٍّ من أمور العاجلة والآجلة حديثًا حسنًا وأثرا، ورتَّب ذلك لكَ ترتيبا يصْحَبه التوفيق ويلزَمُه، ويكمِّله السعدُ ويتِّمه؛ ويُحيطُ به اليُمْنُ والنَّجاح، ويشتمل عليه الحظُّ والفَلَاح . فتقلَّدْ ماقلَّدك أميرُالمؤمنين شاكرًا لأنْعُمه، متَمسِّكا بأسباب وَلائه وعِصَمه؛ جاريًا علىٰ أحسَن عاداتِك فى مراقبة الله وخِيفتِه، مستمِرًّا علىٰ أفضل حالاتِك فى خَشْيته؛ متَّبِعا أوامره فىالعمل بتَقْواه، وزَاجرا للنفس عما تُؤْثِره وتَهْواه؛ بقول الله فى كتابه المبين : ﴿ إنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْـبِرْ فَإنَّ اللهَ لَايُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنين ﴾ .

وٱعلَم أن المظالم(١) كَنْزٌ من كُنوز الرحمه، وبابٌ يُتوصَّـل منه إلىٰ مصلحة الأُمّه، ووسيلةٌ يتوسَّل بهـا السُّعداء إلىٰ خالقهم فى ٱستبقاء ما أسبَغَ عليهـم من النِّعمه؛ فاجلِسْ لهـا جلُوسا عامًّا ترفَعُ فيه الحِجاب، وتُيَسِّر للوصُول إليك عنده الأسْباب؛ وتأمر بتقريب المتظلِّمين، وتُوعِز بإدنائهم لتسْمَع كلامَ الشاكين؛ وتوفَّرُ علىٰ الأخذ بيد المستضْعَف القَرِيع(٢)، والحُرْمة التى لاتجِدُ سبيلًا للإنصاف ولا تَسْتطيع؛ وتتقدّمُ

(١) يريد ولاية المظالم . (٢) من معانى القريع المغلوب وهو المناسب هنا .

بأن تُحْضِر بينَ يديك النائبَ فى الحُكْم العزيز الذى علىٰ فُتْياه مَدارُ أحكامِ الدين ، ومَنْ تحتاجُه من الموقِّعين والدَّواوين؛ وتأمر بإحضار القِصَص وعَرْضها، وتتأمَّل دَعاوَى المتظلِّمين فى إبْرامها ونقْضهـا ؛ وتوقعُ علىٰ كلٍّ منها بمـا يقتضـيه الشرعُ وأحكامه، ويوجبه العدلُ ونِظامُه .

وآنظر فى مُشْكِل القِصَص نظرا يُزِيل إشكالَها، ويجعلُ إلىٰ لَوازم الشرعِ والحقِّ مآلَهـا ؛ وراعِ أمرَ المنازَعات حتّٰى تنتهىَ إلىٰ الأواخِر، ولا يبـقىٰ فيها تأمُّل لمتأمِّل ولا نظرٌ لناظر؛ وتُخْرِج أوامرك بإيصال كلِّ ذى حقٍّ إلىٰ حقِّه، وكفِّ كلِّ متعدّ عن سُلوك سبيل العُدْوان وطَرْقه. ولْيكن الضعيفُ أقوىٰ الأقوياءِ عندَك إلىٰ أن يصلَ إلىٰ حقِّه موفَّرا، والقوىُّ أضعفَ الضُّعَفاء حتى يخرُجَ مما عليه طائعا أو مُجْبَرا؛ والشرعُ والعدلُ فهما قِسْطاسَا الله فى أرضه، ومُعِينا [ن علىٰ] الحق من أراد العمَل بواجب الحقِّ وفرْضـه؛ فخُذْ بهما وأعطِ بينَ العِباد، وأثبِتْ أحكامهما فيما قَرُب وبعُد من البِلاد؛ وساوِ بهما فى الحُقُوق بين الأنام ، وصَرِّف النصَـفةَ بحكمهما بين الخواصِّ والعَوام، حتّٰى ينتَصِفَ المشروفُ من الشريف، والضعيفُ من ذى القُوّة العَنِيف؛ والمغْمور من الشهير، والمأمورُ من الأمير، والصغيرُ من الكبير؛ وآستكثِرْ بإغاثة عباد الله ذخائرَ الرِّضوان، وآستفْتِح بقيامك بحُقوق الله فيهم أبوابَ الجنان؛ وآعْمُم بسعيد نظرك وتامِّ تفقُّدك وملاحظاتِك جميعَ صُـدُور أوليـاء الدولة وكُبرائها ، ومُقَدَّميها المطَوّقين وأُمَرائها؛ وميِّزْها الأعيان، ورجالَها الظاهرةَ نجدَتُهم للعِيان؛ وتوخَّ الوجوهَ منهـم بالإجلال والإكبار ، وتبليغِ الأغراض والأَوْطار ؛ والتمييزِ الذى يحْفَظ نظام رُتَبهم، ويُنيلهم من حراسة المنازِل غايةَ أَرَبِهم؛ وآلْقَهم مستبْشِرا كعادتك الحُسْنىٰ، وآجْرِ معهم فى كَرَم الأخلاق علىٰ مَذْهبك الأَسْـنىٰ ؛ وعَرِّفْهم بإقبالك علىٰ مصالح أمورهم، وآتِّجاهك لصالح شُـئُونهم ، بركةَ آشتمـالهم بفضْـلك، وآلتحافهم بظلِّك؛

وٱقصد مَنْ يَليهم بما يبْسُط آمالهم، ويُوسع فى التكرمة مجالَهم؛ ويُكْسِبهم عِزَّة الإدناء والتقريب، ويُخُصّهم من إحفائك بأوفر سَهْم ونصِيب؛ وكافَّةَ الرجال فاحفَظ نِظامهم بحُسْن التدبير، وأَثِّر فيهم بجميل النظر أحسَنَ التأثير؛ وتوَخَّهم بما يشُدّ باهتمامك أزْرَهم، ويُصْلِح بتفَقُّدك أمْرَهم، ويقِفُ على الطاعة سِرَّهم وجهْرَهم؛ ويُيَسِّر لهم أسبابَ المصالح ويُسَهِّلها، ويتِمّ لمطالبهم أحكامَ المَيامن ويُكَمِّلها؛ وأصْفِ لجميع ذكرهم(١) من سابق فى التَّقْدِمة وتال، ومُخْلِص فى المشايَعة ومُوَال، مَناهِلَ إحسان أمير المؤمنين الطامية الجِمام، المتعرِّضةَ مواردُها العـذبةُ لأَدْواء كافَّة الأنام؛ فهم أنصارُ الدولة وأعوانُها، وأبناءُ الدعوة وخُلصاؤها وشُجْعان المملكة وفُرْسانها؛ ونَجْدة خلاصها(٢) عند ٱعتِراض الكُروب، وسيُوفُها المذَرّبةُ القاطعةُ الغُروب؛ وأسِنَّتها المتوغِّلة من الأعداء فى سُوَيداء القلوب، وحِزْبُها الذى أذِنَ الله بأنه الغالب غيرُ المغْلوب؛ ولكلٍّ منهم منزِلُه من التقديم، وموضِعُه من الٱشتمال بظلّ الطَّوْل العمِيم، ومحلُّه من الغَناء ومكانُه من الكِفاية الذى بلغ إليه فسَدَّه . فرتِّبْ كلًّا من المقدَّمين فى الموضع الجـديرِ به اللائق، وأوضِحْ للموفَّقين أنوارَ مَراشِدك ليَلْحَق بتهذيبك السُّكَيتُ منهم بالسابِق .

والوصايا متسِعةُ النِّطاق، متشَعِّبة الٱشتِقاق؛ ولم يَستوعِبْ لك أميرُ المؤمنين أقسامَها، ولا حاوَلَ إتمامَها : للاستغناء بما لك من المعْرِفة التى غدَتْ فى ٱستِنْباط حِكَم السياساتِ أكبرَ مُعين، والفطرةِ النفيسةِ التى تُمدّك من كل فضيلة بأغْزَرِ مَعِين؛ ولا يزالُ يُضِىء لبصيرتك من أنوار السيدِ الأجلِّ الملكِ الصالح ـ أدام الله قدرتَه ـ

(١) لعله وأصف لجميع من ذكرتهم من سابق الخ . تأمل .

(٢) فى الأصل "ٱختلافها" . تأمل .

التى لاتبرح للبصائر لامِعَـه، ولمحاسِنِ الأفعال وغُرَرها جامعـه؛ ماتستعين (١) بأضوائها علىٰ الغرض المطلُوب من الإصابة وأكثر .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، و إنعامُه عليك؛ فتلقَّه من الشُّكْر بمـا يكون للَمزِيد سبَبًا مؤكّدًا ، و يغدُو الإحسان معـه مُردّدا مُجدَّدا ؛ وآبذُلْ جُهدَك فيما أرضىٰ الله وأرضىٰ إمامَ العصر، وثابِرعلىٰ الأعمال التى تُناسبُ فضائلك المتجاوزةَ حدّ الحَصْر؛ واللهُ يعضّدك بالتوفيق ، و يُمهِّد لك إلىٰ السعادة أسهلَ طريق ؛ و يُرْهِف فى الحرب عزائِمَك، و يُمْضِى فى الأعداء صَوارِمَك ؛ و يضاعِفُ لك موادَّ النصروالتأييد، ويُخُصُّ بناء مَجْدِك بالإعلاء والتشييد؛ إن شاء الله . والسلامُ عليك ورحمةُ الله و بركاته .

قلت : والذى يظهر أن ممـا كان يكتب فى دولتهم علىٰ هـذه الطريقة سِجِلَّاتِ كِبار نِيَاباتهم، حالَ آستفحال الدولة فى مبادئ أمْرِها ، قبل خُرُوج البلادِ الشاسعة عنهـا واستِقْلاعها من أيديهم : كدِمَشْق ومُضافاتها من البلاد الشامية قبلَ خُرُوجها عنهـم لبنى أُرْتُق فى زمن المستنصر أحد خلَفائهم ؛ وكأفريقِيَةَ وما معها من بلاد الغرب قبلَ تغَلُّب المعزِّ بن بادِيس نائِب المستنصِر المتقدّم ذكْرُه بهـا وقَطْع الخُطبة له ؛ وبجزيرة صِقِلِّيَّةَ من جزائرالبحر الرُّومى قبلَ تغَلُّب رُجَّار أحد ملوك الفَرَنْج عليها وآنتزاعِها من أيديهم فى زمن المستنصر المذكور أيضا ؛ فإنَّ دِمَشقَ وأفرِيقِيَةَ وصِقِلِّيَّةَ كانت من أعظم نِياباتِهم، وأجلِّ ولاياتهم ؛ فلا يبعُدُ أن تكونَ فى كتابة السِّجِلَّات عندهم من هذه الطبقة .

---

(١) فى الأصل "فاستمد" . تأمل .

المرتبـــة الثانيـــة

(من المذهب الأول من سِجِلّات ولايات الفاطميين أن يُفْتَتح السِّجِلّ بالتصدير، فيقال : « من عبد الله ووليِّه » إلىٰ آخر التصلية، ثم يُؤتىٰ بالتحميد مرةً واحدةً ويُؤتىٰ فى الباقى بنسبة ماتقدّم، إلا أنه يكونُ أخصَرَ ممـا يؤتىٰ به مع التحميدات الثلاث)

ثم هى إما لأرباب السُّـيوف أو لأربابِ الأقلام من أرباب الوظائِف الدِّينية والوظائف الدِّيوانية .

فأما السِّجِلّات المكتَتَبة لأرباب السُّيُوف، فمن ذلك نسخةُ سِجِلٍّ بولاية القاهرة من هذه الرتبة : لِرفْعة قدر متولِّيها حينئذٍ، وهى :

من عبد الله ووليِّه (إلىٰ آخره) .

أما بعدُ، فالحمدُ لله رافِعِ الدَّرجات ومُعْليها، ومُولِى الآلاء ومُوَاليها؛ ومُحْسن الجزاء لِمَنْ أحسن عَملا، ومُضاعف الحِبَاء للذين لايَبْغُون عن طاعته حِوَلا؛ ومنيلِ أفضل المَوَاهب ومُخوِّلها، ومتِّمِ النعمةِ علىٰ القائم بشُكْرها ومُكمِّلها؛ مُتْبعِ المِنَـــن السالفة بنظائرها وأشـكالها ، والمُجازِى علىٰ الحسَـنة بعَشْرِ أمثالِها ؛ وصلّىٰ الله علىٰ جدّنا محمدٍ رسولِه الذى أقام عِمادَ الدين الحَنِيف ورفَعَه، وخفض بجهاده مَنارَ الإلحاد ووَضَعَه؛ وأرغَمَ عَبَدة الصَّلِيب والأوْثان ، ونَشَر فى أقطار المملكةِ كلمةَ الإسـلام والإيمـان؛ وكـشَفَ غَياهِبَ الضَّـلال بأنوار الهُدىٰ اللّامِعه ، وهتَكَ حِجابَ الكفْر ببراهينِ التوحيد الصادعةِ وسيوف النصر القاطِعَه ؛ صلّىٰ الله عليه وعلىٰ أخيه وابْنِ عمِّه أبينا أمير المؤمنين علىِّ بن أبى طالب، سيف الحقِّ الماضى المَضارِب ، وبَحْر العلم الطامى

الُّلجج والعَوارِب[1] ؛ ومَعِينِ الحكمةِ العَذْبِ المَشارع ؛ والمخصُوصِ بكلِّ شرَفٍ باسق وفضلٍ بارِع ؛ وعلىٰ آلِها سادة الأَنَام، وحُماةِ سَرْح الإسلام ؛ ومُوَضِّحى حقائقِ الدِّين، وقاهِرِى أحزابِ المُلْحِدين ؛ وسلَّم ومجَّد، وضاعفَ وجدّد .

وإنَّ أميرَ المؤمنين لِمَا آتاه اللهُ من شَرَف المَحْتِد والنِّجار، وتَوَّجه به من تِيجانِ الإمامةِ المُشْرقة الأَنْوار ، وألقاهُ إليه من مقاليدِ الإبْرام والنَّقْض، وأنالَهُ إيَّاه من الخلافة فى الأرْض ، والشَّفاعةِ فى يوْمِ العَرْض؛ وعَدَقه به من إيضاحِ سُبُل الهُدىٰ اللَّامعه ، وهَتْكِ حِجاب الكُفْر ببراهينِ التوحيد الصادِعةِ وسُيوف النصر القاطِعَه؛ إلىٰ الأَنَام[2]، وأطْلَعه عليه من أسرار الحِكْمَة بمُناجاة الإلهام؛ وأقامه له من إعلاء مَنَار المِلَّة وتقْويم عِمَاد الحق، وأمدَّ به آراءَه من العنايات الرَّبَّانيَّة فيما جلَّ ودَقّ؛ وأمضاه له فى الأقطار من الأوامرِ والنَّواهِى ، وأفردَه به من الخَصائص الشريفةِ التى يَقْصُر عن تَعْديدها إسهابُ الواصف المُتناهِى ؛ ويَسَّره لإرادته من ٱقْتيادِ كلِّ أبِيٍّ جامح ، وحبَّبه إليه من ٱستعمال السِّيرة المستَدْنِية من المصالح كلَّ بعيدٍ نازِح ـ يُضاعِفُ بَهاءَ أيَّامه بٱصطِفاء ذَوِى الصَّفاء، ويزِيدُ فى بَهجة زمانِه بٱستِكْفاء أُولِى الوَفَاء؛ ورَفْع منازلِ المُعْرِقين فى الوَلَاء إلىٰ غاياتِ السَّناء، ويُنِيل المخلصين من الحِبَاء، مايدُل علىٰ مواضِعِهم الخَطيرةِ من الٱجْتِباء ؛ ويُسْنِد مَعَالِىَ الأمور ، إلىٰ الأعيانِ الصُّدُور ؛ ويَعْدِق الولاياتِ الخَطِيره ، بمن حسُنَت منه الآثارُ والسِّيره، وأظهر تَغايُرُ الأمور ماهو عليه من خُلُوص النِّية ونَقاءِ السَّرِيره؛ وٱستَوْلىٰ علىٰ جوامع الفضْل وغاياته ، وقَصُرتْ هِمَمُ الأكفاء عن مماثَلته فى الغَناء ومُساواتِه؛ وألقَتْ إليه المناقبُ قِيادَ المستَسْلِم المُسَلِّم ،

(١) جمع عارب أو عاربة . يقال ماء عرب كثير ونهر عرب و بئر عربة كثيرة الماء والفعل من كل ذلك عرب عربا فهو عارب وعاربة . انظر اللسان ج ٢ ص ٨١ .

(٢) متعلق بإيضاح سبل الهدىٰ فتنبه .

وأعجز تعديدُ محاسِنه البارعةِ كلَّ ناطقٍ ومتكلِّم ، وسمَتْ همَّته إلىٰ آكتساب الفَخَار ، وآستكمل فُنونَ المحامدِ فحَصلتْ لديه حصُولَ الاقْتِناء والادِّخار ، وفاز من كلِّ مأثُرة بالنصيب الوافِرِ المُعلّىٰ ، وتشوّفتْ إليــه الرُّتَب السنيةُ تشوّفَ [من] رأتْه لهـا دُونَ الأكفاء أهْلا ، وكفىٰ المُهِمَّاتِ بجَنَان ثابتٍ وصَــدْر واسِع ، وقرّبَتْ عليــه أفعالُهُ المرضيَّةُ من المَيَامِن كلَّ بعيدٍ شاسِع ، ووَسَم جَلائلَ التصرُّفات بمـا خَلَّفه بهـا من مستَحْسَن الآثار ، وخلَصَت مشايعتُــه من الأكدار فَحَلَّ فى أمْيَزِ محلٍّ من الإيثار ، وجارىٰ المُبرِّزين من أرباب الرِّياسات فسـبَق وأبرّ ، وأحرَزَ جميلَ رأيِ ولِيِّ نِعمتِه فيما ساءَ وسَرّ .

ولـمَّـا كنتَ أيها الأمير المغْنِيَّ بهذا الوصفِ الرفيع ، المخصوصَ من مَفَاخِره بكلِّ رائع بديع ، الحالَّ من الاصطفاء فى أقرب محلٍّ وأدْناه ، المرتِقىَ من الرياســة أشمَخَ مكانٍ وأسْناه ، الأوحَدَ فى كل فضيلةٍ ومَنْقَبه ، الكاملَ الذى أوجبَ له الكمالُ صُعودَ الجَدِّ وسُموَّ المَرْتَبه ، المُصلِحَ مايُرَدّ إلىٰ نظره بالتدبير الفائِق ، الشاملَ مايُعْدَق به بحَزْمه الذى لاتُخْشىٰ معه البَوائِق ، المُجمَعَ علىٰ شكر خصائِصه وخِلَاله ، الفائتَ جُهْد الأعيان الأفاضِــل بعَفْو آستِقْلاله ، المعتَصِمَ من المُشايعة بالسببَ المَتِين ، المتميِّزَ علىٰ الأكفاء بمآثِرِه المأْثُورة وفضــله المُبِين ، وما زالتْ مَساعِيكَ فى طاعة أمير المؤمنــين تُوجِب لك منــه المَزِيد ، وتســتدْعِى لمنْزلتــك من جميل رأْيه مُضاعفةَ التشْيِيد ، وتخُصُّــك من الاجتباء بالنصيبِ الوافِرِ الجزِيل ، وتبلِّغُك من تتابُع النِّعم مايُوفى علىٰ الرجاء والتأْميل .

وقد باشْرتَ جلائلَ الولايات ، وعُدِق بك أفخَمُ المهِمَّات ، فآستعملْتَ السِّــيرة العادله ، وسُسْت السياســةَ الفاضِله ، وجمعْتَ علىٰ محبَّتك القُلوب ، وبلَّغْت الرعيةَ

من إفاضة الإنصاف كلَّ مُؤْثَر ومطْلُوب، وإذا برقتْ بارقةُ نِفاق، ونَجَم ناجِم من مَرَدة المُرَّاق، كنتَ الولِيَّ الوَفِيّ، والمخلِص الصَّفِيّ، والمُدافِع عن الحوْزة بجِهَاده، والمحامِيَ عنها بماضِي عَزْمه وصادِق جِلَاده، والباذلَ مُهْجَتَه دُون ولِيّ نعمته، والجاهِدَ فيما يُحْظيه بنائِل مَوَاتّه وتأكُّد أذِمَّته، ومُجلِيَ ظلامِ الخَطْبِ الدامِس بحُسَامه، ومُزِيلَ الخَطْب الكارِث برأيه وٱعْتِزامه، ومواقِفُك فى الحروب، تكشف الكُرُوب، وتُرْوِى من دِمَاء الأبطال ظامِئات الغُرُوب، وتُورِد سِنانَ اللَّدْن العاسِل، وَرِيدَ الكَمِيّ الباسل، وتُحكِّم ظُبَا المَناصِل، فى الهَامات والمَفاصِل، وتستَبِيحُ من مُهَج الأقران كلَّ مَصُون، وتَرْمِيهم من قوارع الدَّمار بضُروب متَّسعة الفنون، فآثارُك فى كل الحالات محْموده، وشرائطُ الاصطِفاء فيك فاضِلةٌ موجُوده. وحضَر بحضْرة أمير المؤمنين فتَاهُ ووزيره، وكافِلُ مُلْكه وظهِيرُه، السيدُ الأجل الملك الذى (١)
فأثنىٰ عليك ثناءً وسَّع فيه المجَال، وخصَّك من شُكْره وإحماده بما أفاضَ عليك حُلَل الفَخْر والجَمَال، وقرر لك الخدمةَ فى ولاية القاهرةِ المحروسة. فتقلَّد ماقلَّدك أميرُ المؤمنين من ذلك: عاملا بتقْوىٰ اللهِ الذى تصِيرُ إليه الأمور، ويَعْلم خائِنةَ الأعْيُن وما تُخْفِى الصُّدور، قال الله فى كتابه المبين: ﴿ يٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾.

وٱعلم أنَّ هذه المدينةَ هى التى أُسِّس علىٰ التقْوىٰ بُنْيانُها، ولها الفضيلةُ التى ظهَر دليلُها ووَضَح برهانُها: لأنها خُصَّت بفخرٍ لايُدْرَك شأْوُه ولا تُدْرَك آمادُه، وذلك أنَّ منابِرَها لم يُذْكَر عليها إلا أئمةُ الهدىٰ آباءُ أمير المؤمنين وأجدادُه، ثم إنَّها الحرَمُ الذى أضحىٰ تقديسُه أمْرا حتْما، وظَلَّ ساكِنُه لايَخَافُ ظُلْما ولا هَضْما، وغدَت

(١) بياض فى الاصول بقدر كلمة ولعله ذكرك فأثنى الخ.

النعمةُ به متمَّمةً مكمَّله ، والأدعيةُ فى بيوتِ العبادات به مَرْفُوعةً متقبَّله : للقُرْب من أمير المؤمنين بابِ الرحمة ومَعْدِن الجَلاَله ، وثمرةِ النبوّة وسُلالة الرساله ؛ فاشْمَلْ كافَّةَ الرعايا بها بالصِّيانة والعِنَايه ، وعُمَّهم بتـامِّ الحِفْظ والرِّعايه ؛ وٱبْسُطْ عليهم ظلَّ العـدل والأَمَنه ، وسِرْفيهم بالسِّـيرة العادلة الحسَنَه ؛ وساوِ فى الحقِّ بينَ الضعيف والقَوِىّ ، والرَّشِـيد والغَوِىّ ؛ والمِـلِّىّ والذِّمىّ ، والفَقِير والغَنِىّ ؛ وٱعتمدْ مَنْ فيهـا من الأمراء والمميَّزِين ، والأعيانِ المقدَّمين والشُّهود المعدَّلين ؛ والأماثِل من الأجناد ، وأرباب الخدَم من القُوّاد ـ بالإعْزاز والإكْرام ، وبلِّغهم نهـايةَ المُراد والمَرَام ؛ وأقمْ حدُودَ الله علىٰ مَنْ وجبتْ عليه بمقتضىٰ الكتاب الكَرِيم ، وسنَّة محمدٍ عليه أفضـلُ الصلاة والتسليم ؛ وتفقَّدْ أمورَ المتعيِّشين ، وٱمنَعْ من البخْس فى المكاييل والمَوَازين ؛ وحَذِّر من فسادٍ مُدْخَل علىٰ المَطاعم والمَشَارب ، وٱنْتهِج فى ذلك سبيلَ الحق وطريقَ الواجِب ؛ وٱحْظُرْ أن يخْلُوَ رجلٌ بٱمرأة ليسَتْ له بمَحْرَم ، وٱفعَلْ فى تنظيف الجوامع والمساجد وتنْزِيهِها عن الآبتذال بما تُعَزُّ به وتكْرَم ؛ وٱشْدُدْ من أعوان الحُكْم فى قَوْد أُباةِ الخصوم ، وٱعتمِدْ من نُصْرة الحق ما تبقىٰ به النعمةُ عليك وتَدُوم ؛ وأوْعِز إلىٰ المستخْدَمين بحفظ الشارع والحارات ، وحراستِها فى جميع الأزْمنةِ والأوقات ؛ وواصِلِ التَّطْواف فى كل ليلة بنفْسك فى أوفىٰ عِدّه ، وأظهر عُدّه ؛ وٱنتَـهِ فى ذٰلك وفيما يُجاريه إلىٰ مايشْهَدُ باجْتهادك ، ويزيدُ فى شكْرك وإحْمادك ؛ والله تعالىٰ يوفِّقك ويُرْشِـدك ، ويسدِّدك فى خدمة أمير المؤمنين ويُسْعدك ؛ فاعلَمْ ذٰلك وٱعمـلْ به ، وطالِـعْ مجلس النظر الأجلىّ المَلَكىّ بمـا تحتاج إلىٰ علمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وعلىٰ هذا النَّمط كان يُكْتَب سِجِلُّ ولاية الشرقية من أعمال الديار المصرية دُونَ غيرها من سائر الولايات ، إذ كانت هى خاصَّ الخليفة كالجيزيَّة والمَنْفَلُوطيَّـة الآنَ ، وكان واليها هو أكْبَر الوُلاة عندهم لذٰلك .

وأما الوظائف الدينية .

فمنها — ما كتَب به القاضى الفاضلُ عن العاضد بولاية قاضٍ :

من عبْد الله ووليِّـه عبد الله أبى محمد الإمامِ العاضد لدين الله أميرِ المؤمنين، إلىٰ القاضى المؤْتَمن الأمين، علَم الدين، خالصـةِ أمير المؤمنين ؛ وفّقه الله لمـا يُرضيه، وسدّده فيما يَذَرُه ويأتيه، وأعانه علىٰ ماعُدِق به ووُلِّيه .

سلامٌ عليك فإن أمير المؤمنين يحمَدُ إليك اللهَ الذى لاإلٰهَ إلّا هو، ويسأله أن يصَلِّى علىٰ جدّه سـيِّد ولَد آدمَ، وعالِمِ كل عالَم، ومُبْقِى كلمةِ المتقين علىٰ اليقين، ومُعْلِى منَارِ الموحِّدين علىٰ المُلْحِدين ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله الطاهرين، وعلىٰ أُمَراء المؤمنين، صلاةً تتصِلُ فى كلِّ بُكْرة وأَصِيل، ويُعِدّها أهل الفضل وأهـلُ التحصيل ؛ ووالىٰ وجدّد، وعظَّم ومجّد، وكَرَّر وردّد .

وإن أمير المؤمنين لمَـا آتاه الله إيَّاه من نَفَاذ حُكْمه ومَضاء حِكْمته ، وفوّضَه إليـه من إمامة أمّته، وأفاضه عليه من أنوارٍ كشفَتْ غَمامة كلِّ غُمَّــه ، وشرَّدتْ بعَـدْله من بَسْـطةِ ظُلْم وسَطْوة ظُلْمه ؛ وأظهره له من حقٍّ نصَب للنصْر عَلَمــه وللهداية عِلْمَه، وأيَّده به من كلِّ عَزْمة فتكَتْ بكل أَزْمه، ووكَّل به هِمَمه من إتمـام نِعْمة وآبْتـداء نِعْمه، وأطلق به يَدَه من مَعْروف روَّضَ الآمالَ صَوْبُ مِدْراره، وبدَتْ علىٰ الأحوال آثارُ إيثارِه، وأخذ به الخِصبُ من المَحْل ثارَه وآسـتقالَ به الرخاءُ من وَهَـدات عِثَاره ؛ وعضَّد به أفعـالَه من أمور التوفيق آتِّباعا وآقْتِضابا ، وألهمه من مُوالاة الآلاءِ التى لاتَذْهَب عهودُ عِهَادها آنقضاءً ولا آنْتِضابا ؛ ويَسَّر له عزيمةً من الآراء التى لا تُكْسِب إلا حمدا أو ثوابا ـ يختَصُّ بإحسانه من ينُصُّ الآختبـار علىٰ أنه أهـلٌ للآختيار ؛ وتُفِيض الأحوال من حوالَىْ أوصـافه ما يُدِيمُ المَطَار

فى الأوطار، ويُنْعِم على النعمة بإهدائها إلى ذوى الآستيجاب، ويَصْطنِـعُ الصَّنيعة بإقرارها فى مَغَارس الآستطابةِ والاستِنْجاب؛ ويرشِّح لخدَمه من عُرِف ذِكْرُه بأنه فائح، وعَرْفُ عُرْفه ناصعٌ ناصح؛ ويبوّئ جِنَانَ إنعامه مَنْ أحسن عَملا، وآستحقَّتْ منزلتُه من الكفاية أن تكونَ له بَدَلا، ولم تَبْغ تصرُّفاتُه فى كل الأحوال عنها حِوَلا؛ ودرّجَتْه خصائصُه العليةُ فاقتَعدَ صَهوات الدَّرجات الْعُلىٰ، وآستحَقَّ بفضل تفضيلِه أن يُولىٰ الجميلَ جُمَلا؛ وعُرِضتْ خِلالُه علىٰ تعيينِ الآنتقاد فاقتضاها ولا يتضاها، وزُوِيَتْ مسالكُ الغَنَاء بصَدْره فَضَاها فَضَاها .

ولمـا كنتَ أيُّها القاضى المشتملَ علىٰ هذه الخِلال آشتمالَ الرَّوْض علىٰ الأزاهر، والأُفُق علىٰ النُّجوم الزَّواهر؛ والعقودِ علىٰ فاخر الجواهر، والخواطِر علىٰ خَطَراتها الخواطر، والنَّواظِر علىٰ ماتُصافِحُ من الأنوار وتُباشِر؛ المُثْرَى من كل وَصْفٍ حَسَن، المتبوعَ الأثَر بِمـا فَرَض من المحَاسن وسَنّ؛ الكالِئَ ماتُستحْفَظ بعينِ كفايةٍ لايُصافِحُ أجفانَها وَسَن؛ الأمينَ الذى تُرِيه أمانتُه متاعَ الدنيا قليلا، وتُصْحِبه ناظرا عن نَضَارتها كَليلا؛ المؤْثِردينَه علىٰ دنياه؛ المطيعَ الذى لايسْلُو العصبة عن هَواه، المخلِصَ النية فى الوَلَاء و "لِكُلِّ آمرئ مانَواه" الناصحَ الذى يُنَزِّه مايُلابسه عن لباس الرَّيْب، البعيدَ عن مَظانِّ الظُّنون فلا تتطَلَّع الأوهامُ منه علىٰ عَيْبِ غَيْب؛ النقِيَّ الساحة أن يَغْرِس بهـا وَصْمه، التقِيَّ الذى لاتُخْدَع يدُه عن التمسُّك ما آستطاعَ بحبل عِصمَه؛ المحتُومَ الحقُوق بأن يُستودَع دهْرَ الوفاء، المتوسِّلَ بمواتَّ تُوجِب له الإيفاءَ علىٰ الأكفاء؛ المستقيمَ علىٰ مثلِ الظّهيرة كَهْلا ويافِعا، الشافِـعَ بنَفْسه لنَفْسه وكفىٰ بالآســتحقاق شافعا؛ وحسْـبُك أنك حَملتَ الأمانةَ وهى حِفظ الكتاب، وأطلق اللهُ به لِسانَك فشفَيْت القلوب من الأَوْصاب، ووصَـلَ به سبَبَك إلىٰ رحمتـه يوم

تنقطع الأسباب ، وأصبحَ محلُّك فى الدارين آهِلا أثِيرا ، وكنتَ ممن قال الله فيه : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقَدْ أُوتِىَ خيْرا كثِيرا ﴾ .

وقد خالطْتَ فى مَوَاكب أمير المؤمنين المعقِّباتِ التى من بيْنِ يدَيْه ومنْ خلفه ، وقَرُبْت من مجالسه المشتملةِ منه علىٰ عُنْوان عِناية الله بالبرِيَّة ولُطْفه ، ونُورِه الذى كلَّتِ العُيونُ عن كَشْفه والحِيلُ عن كَسْفه ، وتقدّمْتَ بخدمة الخلَفاء الراشدين ، أمراءِ المؤمنين ، إلىٰ سوابِق سبقْتَ بها فى كل مِضْمار ، وجمعتَ فى المخالصة فيها بينَ الإعلان والإضْمار ، وسَبَر التجريبُ حالتَيْك بصحائف خِبْره ، وآستمرّتْ بك الحال فى القُرب منهم وفى تقَلُّب الأحوال عِبْره ، وتدرّجْتَ فى حُجُب القُصور ، وبدَتْ لك الغاياتُ فما كنتَ عنها ذا قُصُور ، فكانتِ التَّقَدمةُ لك مظنونةً وبك مضْمُونه ، وسريرتُك علىٰ الأسرار المَصُونة مأمُونه ، وما آعوجَّت معالِمُ إلا وكان تقويمُها بتقْوِيمك ، ولا آستيقَظتْ حِيلةٌ تخاف الحقُّ سبيلَ غيِّها بتهويمك[1] ، وإنَّ كل قائلٍ لايملك من إصغاء أمير المؤمنين ماتملِكُ بتلاوة الذِّكر الحكيم ، ولايسْلُك من قَلْبه ماتسْلُك بمُعْجز جَدّه العظيم ، فأنت تخْدُم أمير المؤمنين بقَلْبك مُواليا ، وبلسانك تاليا ، وبنَظَرك مؤتمنا ، وبيَدِك مُخْتَزِنا ، لاجرم أنك حصَدْت مازرَعْت طيِّبا ، وسقاك ما آستَمْطَرت صَيِّبا ، وزُفَّت لك الأيادى بِكْرا وثَيِّبا ، وحَلَلْت يَفَاعَ المنازِل مستأْنِسا إذا حلَّ غيرُك وهَدَاتِها متهيبا .

فأمّا حُرمتك التى بَوَّأَتك من الآختصاص حَرَما ، وجعلَتْك بين الخواصّ علَما ، وتوالِى يَدك بلمس ماحظِى من الملابس بصحبة جسده الطاهر ، وآشتَمَل علىٰ زَهْر النُّضَار وزَهْر الجواهر ، فذلك جارٍ مجْرىٰ السِّكة والدَّعْوة فى أنهما أمانةٌ تعُم العِباد والبلاد ، وهذه أمانة تخُصّ النفُوس والأجساد ، ولكَ مما فى خزائنه وكالة التخيير

(١) التهويم النوم الخفيف . يريد أنه لاينام عن ابطال كل حيلة .

والتعيير، وعن أغراضه الشريفةِ سفارةُ الإفراج والتغيير؛ وهذه مواتُّ تجعل سَماء السَّماح لك دائمةَ الدِّيَم، وتُسْكِن آمالك فى حَرَم الكَرم؛ وتعقد بينَك وبينَ السعادة أوكَدَ الذِّمم، وتتقاضىٰ لك جُدودَ الجدّ بقِدم الخدم.

وحضر بحضْرة أمير المؤمنين فَتاه، الذى زُهِى الزمان به فَتاه؛ ووزيرُه، الذى عَزَّ به مِنْبره وسريرُه، السيدُ الأجل أفضل الملوك قَدْرا، وأكثرُهم قُدْرة، وأعظمُهم صَبْرا، وأدربُهم نُصْرة، وأفيَضُهم جُودا غَمْرا، وأكشَفُهم لغَمْرة، وأمضاهم علىٰ الهول صَدْرا، وأردُّهم لكَرَّه، وأثبَتُهم جاشا وصليلُ السيوف يَخْطُب والمَقَاتل تَسْمَع، وأوضَحُهم فى ٱستحقاق المجد حُجَّة شَرَعتْها الرّماح الشُّرَّع؛ وأركَبُهم فى طاعة أمير المؤمنين لمَشَــقه، وأشدُّهم وطأةً علىٰ من جَحَد نُورَه وعَقّ حقَّه؛ فالدنيا مبتسمةٌ به عن ثُغور السُّرور، والمُلْك بكَفَالته بينَ ولىٍّ منصور وعدوّ محصُور؛ فأسفرتْ سفارتُه عن أنك من أمْثلِ ودائع الصَّنائع وأكفاء الآستكفاء، وأعيان من يحقِّق اختيارَهم وفضلَهم العيان، وأفاضل من هو أهل لإسداء الفواضل؛ وأن الصنيعة ثوب عرك (؟) داره، وجارٌ قد عقَد بينَ شكرك وبينه جِوارُه؛ وقرّر لك تقدِمةً فى الحضرة لأنك فارسهم ٱسمـا وفعلا، وأوّلهم حين تتلو وحين تتلىٰ؛ والنظرَ علىٰ المؤذّنين بالقُصور الزاهرة، والمساجد الجامِعه، وبالمشاهد الشريفةِ : لأنــ الأذان مقدّمةٌ بين يَدي القرءان، وأمارةٌ علىٰ معالم الإيمان؛ والنظرَ فى تقويم ما يرِدُ إلىٰ الخزانة العالية الخاصَّة والعامّة من الملابس علىٰ ٱختلاف أصـنافها، والأمتعة علىٰ ٱئتـلاف أوصـافها؛ ومشارفةَ خِزانة الفُروش ليكمل لك النظرُ فى الكِسْوات التى تصانُ للملبوس، والكسواتِ التى تُبتَـذَل للجلوس؛ وخَزْنَ بيتِ المـال الخاص ليكمل لك النظـرُ فى الذهب مَصُوغا ومرْقُوما، وخَزْنا وتقويمـا؛ وٱستصوبَ أمير المؤمنين مارآه، وأمضىٰ ما أمضاه؛ وخرج أمره إلىٰ ديوان الإنشاء أن يكتب هذا السجلّ لك بذٰلك .

فاعْرِف قدْرَ ما عُدِق بك من أمور دِينٍ ودنيا ، وخِدَمٍ لاتَقْوىٰ عليها إلا بلباس التقوىٰ ؛ وأنك قد أصبحتَ لجنَّاتِ أنعُم أمير المؤمنين رِضْوانا ، ويدُكَ للَفْظ إحسانِه لِسانا ؛ وباشِرْ ذٰلك مستشعراً خشيةَ الله فى سِرِّك وجهْرك ، متحقِّقا أنه غالبٌ علىٰ أمرك ؛ مدّخِرًا من الأعمال الصالحة ما يبقىٰ عند فَنَاء ذخرك ، مستديماً للنعمة بما يقيِّدها من شكرك ، وما يصُونُها أن تُبتذل من بِشْرك ؛ عالمًا أن التَّقيَّة حِلْية الإيمان ، وضَمانُ الامان ، وزادُ أهل الِجنان إلىٰ الِجنان ، بقول الله سبحانه فى كتابه العزيز : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ ﴾ .

وأخْلِص نيَّتَك فى خدمة أمير المؤمنين فمع الإخْلاص الخَلَاص ، وأدِّ له الأمانة فإنَّ أداءَها أطيبُ القَصَص يوم القصاص ؛ وقُمْ فى خدمته المَقامَ المحمُود ، وٱستدِمْ بها صُعُودَ رِكَاب السُّعُود ؛ فقد عرّفكَ الله بركةَ النصيحة وعَوائدَها ، وأنجزَتْ لك الآمالُ المنبسطةُ مَواعِدَها ؛ وٱستَشرِفْ أحوالَ القرّاء فهم أحقُّ قومٍ بالتهذيب ، ولُزومِ أساليبِ التأديب ؛ فمن كان للآيات مرتِّلا ، وللدِّراسة متبَتِّلا ؛ وبأثواب الصلاح متقمِّصا ، وبخصائِص الدّين متخصِّصا ؛ ولما فى صدْرِه بقلْبه لا بِلِسانه حافِظا ، وعلىٰ آداب ماحَفِظ مُحافِظا ؛ فذلك الذى تُشافِهُ تلاوتُه القلوب ، وتروض بأنواء المدامع جُدُوب الذُّنوب ؛ ومن كان دائمَ الإطالة فى سَفَر البَطَاله ، ساتراً لأنوار المعرفة بظُلَم الجَهَاله ؛ فحقٌّ عليكَ أن تصرِفَه وتُبعِده ، وتجعلَ التوبةَ للعود موْعده ؛ وكذلك المؤذِّنون فهم أُمَناء الأوقات ، ومتقاضُون دُيونَ الصلوات ؛ ولا يصلُح للتأذين إلا من كملت أوصافُ عَدَالته ، وأُمنت أوصامُ جهالته .

وأما الأمانةُ فى الأموال التى وُكِلت إلىٰ خَزْنك وخَتْمك ، والأمتعةُ التى وُكلت إلىٰ تقويمك وحُكْمك ؛ فأن تؤدِّى بسُلُوك أخلاقِك وهى الأمانه ، وٱتِّباعِ طِباعك

وهى الإباء للخيانه؛ وأن تستمرّ علىٰ وتيرتك، ومشكور سيرتك؛ ومشهور سريرتك، ومُنير بصيرتك؛ وأن لاتُؤتىٰ من هوًى تتّبعه، ولاحَيْف تبتدعه، ولاقوىٍّ تنخدع له، ولا ضـعيف تخْدَعه؛ ولا من محاباةٍ وإن أحببْت، ولا من مُداجاة كيفما تقلّبت؛ وآذكر مايُتْلىٰ من آياتِ الله فى مثلها: ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إلَىٰ أهْلِها﴾ والله يتولّىٰ توفيقَك وتوقيفَك، ويُديم [علىٰ] مايُحِبُّ تصريفَك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ـ ما كتب به القاضى الفاضل أيضا، وهى :

من عبد الله ووليِّه (إلىٰ آخره) .

أما بعدُ، فإنّ رُتَب الولايات متفاوِتةُ الأقدار، متباينةُ الأخْطار، وكلُّ شيءٍ منها عند أمير المؤمنين بمقْدار؛ ولها رجال مشرَّفُو الأقْدار، ومحالُّها بحضرته مقدّرةٌ تقدير مَنازِل الأقمـار؛ ومَحَالُّ الأولياء بمَقَامه محالُّ الأهلة تتنقَّلُ بين أول النمَّـاء إلىٰ آنتهاء الإبدار؛ ومِنْ أميَزها قدرا، وأحقِّها بأن يكونَ صدرا، وأن يَشْرح لمن حلّه صَدْرا، وأن يَسُوق إليه الخاطبُ من آستحقاقه مَهْرا؛ ولايةُ مدينة مصر: لأنها المجاورةُ لمحلّ الخلافه، وكلُّ مصْرٍ بالنِّسبة إليها معها بالإضافه؛ وهى خِطَّة النِّيل، وفُرضة المنيل(١)؛ وبهـا إذا هجمت الخُطوب المُنيـل، ومنها من عثَرات الأيام المَقيل؛ ومنها تُؤنَس أنوارُ الإمامة علىٰ أنهـا نتوضَّحُ بغير التأْميل وبَدْء التأميل، ولا يؤهَّل لِولَايتها إلا كل حاملٍ لعِبْئها الثقيل؛ ولا تسنَدُ الخدمةُ فيها إلا لكل مُثْرٍ من ذخائر السياسة غيرِ فقِير ولا مُقِل، ولا يتوقَّل رُتْبتها إلا من تكونُ به الرتب مُنيرة ومحاسنُه لا تَملُّ ممـا يُمِل؛ ولا يمتطِى صَهْوتَها إلا من لايطَأْطِئ للأطماع عزّةَ نزاهتِه ولا يُذِل، ولا يرتقِى درجتَها إلا من يهتـدِى بأعلام الديانة التى لا تُضِـل، ولا يُقرأ سِجِلُّها إلا لمن يَطْوِى مَظالِمَ الرعية طَىَّ الكتابِ للسِّجِلّ .

(١) المنيل بفتح الميم الشىء المعطى .

ولما كنتَ أيها الأمير ممن توقَّدت هذه الأوصافُ فيه توقُّد النار فى ذُرى علَمِها، وأوجد معانِىَ مَعاليها وأنقذها من إسار عَدَمِها ؛ وٱرتقىٰ إلىٰ هَضَبات الرياسة المَنيعة بمـا جعل خِلَاله المسـلَّم فضْلُها مثل سَلَمِها ، وناولَتْه الدِّرايةُ عِنانَىْ سيْفِها وقلَمِها ؛ وشهدت الأيام بتقـدُّم قَدمِه فى مراتِبها وقِدَمِها ، وأمِنَت الصواب أن يُتبعَ أفعالَه إذا أمضاها بعيب (؟) بذمِّها ؛ وكتبَتْ أقلامُ رماحه سطُورَ الطعن فى صُدُور العِدا مستمدّة من دَمِّها ؛ وتجشَّم مشقَّاتِ المعالى فآثرتْه تعفى راحة بجسمها ؛ وٱجتمعت فيه صـفاتُ المَحاسِن المتفرّقة فقضىٰ عليهـا بتجسيمها ؛ وتَصـدَّر الدرجات المحصنةَ من مطالع الحاضر لحظِّه من رقتها ونسيمها ؛ وتعرّضتْ ذخائرُ المحامد لمـا فى طبْعه من ٱقتناصِها ونَعيمها ؛ وقرّتْ عينُ المنازل فمـا زوَتْ وجهَ إقبالها ولا بسطَتْ راحةَ تظَلُّمها ، وٱنثنَتْ إليه عقائلُها المصونةُ فمـا ثَنَتْ دُون ديانتِـه عِنانَ تلَوُّمها ؛ وأثَرُك فى كل ولاية مشـكُور ، وسـعْيُك فى كل غاية غيرُ مقصور ؛ وغَناؤك فى المُهِـمَّات مُعَدّ مذْخُور ، ومُساجِلُك عن أيسَرِ ما وصلْتَ إليه مدفُوع مدْحُور ؛ وليـلُ شَبابك بالكوكب الدُّرىّ من صولَتِك منْحُور ، وأفعالُك أفعالُ مَنْ لا يحوُز غيرَ مُحرِز كَسْب الأجور ، وخلالُك خلالُ من ٱنتظم فى سِلْك الذين يرجُون تجارةً لن تبُور .

وقد سلفَتْ لك خدَم تصرّفْت فيها وتدرّجْت ، وعُرِّفْتَ بطُهْر الذكر من رعيّتها وتأرَّجْت ؛ وتحوّبْتَ من الأوزار علىٰ ما يوقع ذنْبَك وتحرَّجْت ؛ وجريتَ علىٰ أجمل عاده ، وٱقتضيْتَ عند ٱنقضاء شأْو الإبداء ٱسـتئنافَ شَأْو الإعاده . ومَثَـلَ بحضرة أميرالمؤمنين لسانُ أمره ، وسيفُ زجْره ، السـيدُ الأجلُّ الذى قام بمـا ٱستكفاه فأحسَنَ وحسَّن ، وصان حِمىٰ الملك فأحصَن وحَصَّن ؛ وجاد بنَفسـه فى سبيل الله فما ضَنّ ، وكان مكانَ ما أُمِّل عند ٱصطفائه وفوقَ ما ظُنّ ؛ وسدّد قُصودَه ، فمرقتْ سهامُها وما مرقَت عن طاعته ، وأطلع سُعودَه ، فأنارت نُجوما لأوليائه ورُجُوما لأهل

خلافِ خلافتِــه ، وأطلقَتْ أحكامَ عدل الله فى خلْق الله أحكامُ مراماتِه وسيفُ إخافتــه ؛ فالدنيا بيمن ايالتــه عن ماخذ السراء ، وطُلَقاء الجُود بمـا عملته يدُه من قيود الإحســان فى عِدَاد الأَسَراء ؛ ورضا أميرالمؤمنين عنــه كافلٌ له بأن يُرضِىَ الله فى الأعداء، وملوكُ الأرض إن فدتِ السماء(؟) طَيِّبةٌ أنفسُها له بالفِداء؛ والدنيا متأرِّجة بطِيبِ خَبَره ، والعلياء متبرِّجة بحُسْن نظَره ؛ وبِحارُ التــدبير لا تُفارق زَبَدَ أمواجِها إلا بفاخرِ جَوْهَرِه ، وقوانينُ السِّياسة لا تُوجَد مسنَدَة إلا عن ٱتِّباع أَثَره ؛ ولاحظَّ لمحاربه إلا سِــلْمه بعِثَاره وتثَلُّمه بعِثْيره ، فأثنىٰ عليك بحضْرته واصِــفا ، وثَنىٰ إليك عِنانَ عنايتــه عاطِفا ، ورأىٰ تقليــدَك ولايتَها مُعْربا بٱستحقاقك عارِفا ـ خرج أمر أمير المؤمنين إليــه بأن يُوعِزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هــذا السجِلِّ لك بتقليدِك ولايةَ المَعُونة والحِسْــبة بمدينة مصر والجِيزة والقَرَافة ، إنافةً بك عن النُّظراء ، وإبانةً عمَّالك من جميــل الآراء ؛ وتَطرِيةً لحظك بمـا حصَــل به من الإطراء ، ورعايةً لمـا لكَ من الأنتهاء إلىٰ أقصىٰ غايات الإحسان والإجراء ، وإيجابًا لمـا تتوسل به من العَناء ، وذخائر الغَنَاء والإثراء ، وإشادةً لقدْرك الذى أشاده ما أنت عليــه من الإيواء إلىٰ ظلِّ النزاهة والأستيناء .

فتقلَّدْ ما قُلِّدته من هذه الخدمه ، وٱرفُلْ بمـا ضَفَا عليك من ملابس هذه النعمة وبمـا صفا لدَيْك من مواردِ هــذه الجُمَّه ؛ وقدّم تقوىٰ الله أمامَك ، وٱتَّبِــعْ وصيَّتَها التى ٱستعمل الله بها إمامك ؛ فبها النجاةُ مضمونه ، والرحمةُ متيقَّنة لا مظْنُونه ؛ قال الله ســبحانه فى كتابه المكنون : ﴿ ويُنَجِّى اللهُ الَّذِين ٱتَّقَوْا بمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ ولا هُمْ يَحزَنُون﴾ .

وٱعتمد المساواةَ بيــنَ الناس فيما هو حُكْم ، والنظرَ بالعدل فى كلِّ ما هو ظُلْم ؛ ولا تجعَلْ بين الغنىّ والفقير فى الحق فَرْقا ، وٱسلُكْ فيهــم طريقًا واحدًا فقد ضَــلَّ

مَنْ سلك فيهم طُرُقا، وآشمَلْ أهلَ المدينة بطُمَأنينة تُنيم الأخيار وتُوقظ الأشرار، وأمنةٍ تساوى فيها بيْنَ ظلام الليلِ ونُور النهار: لتكونَ ولايتُك لهم مَوْسِما، ومَوْرِدها لثُغُور الأمر مَبْسِما؛ وأنصف المظلوم وآقْمَع الظالم، وكُنْ لنفسك زعيمًا بنجاتها فالزعيم لهـا غارِم؛ وآنْهَ عما نهىٰ الله عنـه من الفَحْشاء والمُنْكَر، وأْمر بالمعروف وحَسْبُك أن تُعرفَ به وتُذْكَر؛ وخُذْ فى الحدود بالاعتراف أو الشَّهاده، ولاتتعدَّ حدَّها بنقص ولا زياده؛ وكما تُقيمها بالبينات، فكذلك تدرؤُها بالشُّبُهات . وفى هـذه المدينة من أعيان الدولة ووُجُوهها، وكلِّ سامى الأقدار نبيهِها؛ وأربابِ السيوف والأقلام، والمعدودين فى العلماء والأعلام، والمعدَّلين الذين هم مَقاطِع الأحكام، والتجار الذين هم عينُ الحلال والحرام، والرعيةِ الذين بهم قِوام العيْش فى الأيام؛ مَنْ يلزمك أن تكونَ لهم مُكْرِما، ولإيالتهم مُحْكِما، ومن ظلمهم متحرّجًا متأثِّمـا، ولسانُهم فى الشكر عن لسانك متكلّما، وإلىٰ قلوبهم بجميل السِّيرة متحبِّبا، ولمَساخطهم ـ مالم تُسْخِط الله ـ متجَنِّبا . وآشدُدْ من المستخدَمين بباب الحكم فى إشخاص مَنْ يتقاعد عن الحضور مع خَصْمه، ويتَّبِـع حكمَ جهله فيخْرُج عن قضيَّة الشرع وحُكْمه؛ وأوعِزْ إلىٰ أصحاب الأرباع بإطلاعك علىٰ الخَفَايا، وإبانةِ كل مستُور من القضايا؛ وأن يتيقَّظوا لسَكَنات الليل وغَفَلات النهار، وخُذْهم فى الليل بمـا آلتزموه من الحَرَس من مَكَايد اللُّصوص والدُّوَّار، وأيقِظْهم لأنْ يتيقَّظوا فرُبَّمـا آجتنىٰ ثَمَرَ الأمْن من غَرْس الحِذار؛ وإذا ظفِرْت بجان قد أوبَقَه عملُهُ، وطَمَح إلىٰ الفساد أَمَلُهُ، فآجْمَـعْ له بين التنكيل والتوكيل، أوذى ريبـة إن زاد ريبـةً بالحبْس الطويل، وإلا فطالع بأمره إنْ كان من غير هذا القَبِيل . وواصِل التَّطوافَ فى العَدَد الوافر، والسِّلاحِ الظاهر، فى أرجاء المدينة وأطرافِها، وعمِّر بسِرِّك سائرَ أرجائها وأكنافِها . وآنظر فى الحِسْبة نظَرَ من يحتسب ما عنـد الله خيرٌ وأبقىٰ ومن يرغَبُ فى الأجر

ويُعْرِض عن شِعار لباس التمويه واللَّبْس . وآمنعْ أن يخْلُو رجل بامرأة ليستْ بذات مَحْــرَم : لتكُون قد سلَّمْتَ وسلِمت من شُبْهَتِي المَطْمَع والمَطْعَم . وآستوضِحْ آلاتِ المعاملات ، وغيرها فيها تخِفُّ المَوَازين أو ترْجَح ﴿ يَوْمَ تُبَــدَّلُ الأرضُ غَيْرَ الأرضِ والسَّمٰوات ﴾ . وآعتمِدْ فى تهذيبها وتصويبها ماتُحْسِن فيــه للسِيء والمُحْسِن ، لأنك تُكفُّ أحدهما عن عمل المتهافِت وعن المَهُوب المعن .

وتقدّم بنَفْض الأذىٰ عن جادَّة الطريق ، وآنْهَ أن تحمَّلَ دابةٌ أكثَرَ ممـا تُطِيق ؛ وتفقَّد الجوامعَ والمساجدَ بالتنظيف إبانةً لجمَالهـا ، وصيانَةً من آبْتذالهـا ؛ ولا تمَكِّنْ أحدا أن يحْضُرها إلا مؤدِّيا للفَرْض أو منتظرا أو متطوعا ، أو عالمـا أو متعلما أو مستَمعا ؛ فإنها أسواقُ الآخره ، ومنازل التَّقْوىٰ العامِره ؛ وأجْرِ الأمورَ علىٰ عاداتها ، وآسترشِدْ فى طارئاتها ومُشْكلاتها ؛ فآعلَمْ هذا وآعملْ به . إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة سِجِلٍّ بولاية قاضٍ بثغر الإسكندرية ، من إنشاء القاضى الفاضل ، من هذه الرتبة ، وهى :

من عبد الله ووليِّه (إلىٰ آخره) .

أما بعدُ ، فالحمــد لله الذى نشَر رايةَ التوحيد وأعزَّ مِلَّة الإسلام ، وهدىٰ بكَرَمه مَنِ آتَّبع رِضْوانَه سُــبُلَ السَّلام ؛ رافعِ منَــار الشرع وحافِظ نِظامه ، ومُجْزِل الثواب لمن عمِل بأمْره فى تحليلِ حلالِه وتحْرِيم حرامِه ؛ وسِعَ كلَّ شىء رحمةً وعِلما ، وساوىٰ بين الخليقة فيما كانَ حُكْما ، وقال جلَّ من قائل فى كتابه العزيز : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وهُوَ مُؤْمِنٌ فلا يَخافُ ظُلْمًا ولا هَضْما ﴾ . سبحانه من خالق لم يزَلْ رءُوفا ببَرِيَّتــه ، عادلًا فى أقضِيَته ، مُضاعِفا أجرَ من خشِيَه وعمِــل بخِيفته ، موفِّرا ذلك له يوم يَوَدُّ المُجْرِمُ لو يفْتدِى من عذابِ يَوْمِئذ ببَنِيه وصاحبته وأخِيه وفَصِيلته .

يحمده أميرُ المؤمنين أنْ أفاض عليه أنواراً إلٰهيّـه، وتعبّد البريّةَ بأن جعلها بطاعته مأمورةً وعن مخالَفته مَنْهِيّه؛ وآستخلَف منه على الخليقة القوىَّ الأمين، وآتاه مالم يُؤتِ أحدًا من العالَمين؛ ويسألُه أن يصلِّى علىٰ جدّه الذى عمَّ إرسالهُ بالرحمه، وكشَف بمَبْعثه كلَّ غُمَّه، وجعل شرعه خيرَ شرع وأُمّتَه خيرَ أمه؛ فأحيا من الإيمان ما كان رَميما، وهدىٰ بالإسلام صِراطًا مستقيما، وخاطبه اللهُ فيما أنزل عليه بقوله: ﴿ إنَّا أنْزلْنَـا إلَيْكَ الكتَابَ بالحقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللهُ وَلَا تَكُنْ لِلخَائِنِينَ خَصِيما ﴾ وعلىٰ أبينا أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب الذى وفَّر الله نصيبَه من العلم والحِكْمه، وجعل خلافَتَه فى أرضه لاتخرُج عن ذرّيته الهُداة الأئمَّه؛ وعلىٰ آلهما الأطهار، وعِتْرتهما السادةِ الأبرار، الذين وَلاؤُهم يُحظِى بالجنة ومحبَّتُهم تنجِّى من النار؛ وسلَّم عليهم أجمعين [سلاما] باقياً إلىٰ يوم الدين.

وإن أميرالمؤمنين لِمَا أفرده الله به من المآثر، وتوحّده به من المَناقب والمَفاخر، وخصَّه بشرفه من الإحسان إلىٰ أوليائه بالإنعام إليهم فى الدنيا والشفاعةِ لهم فى اليوم الآخِر ـ يرتادُ لجلائل الخِدَم مَنْ يُشَار إليه ويُومىٰ، ويختار لتولِّيها مَنْ يكون بأثقالها ناهضًا وبأعبائها قَئُوما؛ ويُسْنِد أمرها إلىٰ من لا يُتمارىٰ فى سُؤْدَده ولا يختلَف فى فضله، ويَعْدِق شُئُونها بمن عُدِقت الرياسةُ به وبأسلافه من قَبْله؛ فيكون إذا شُرِّف بها عَرَف منزلتَها ومحلَّها، ووقع الآتفاقُ علىٰ التمثل بقوله: ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بها وأَهْلَها ﴾.

ولما كنتَ أيُّها القاضى المكينُ من البيت الذى آشتهر قَدْرُه، وآرتفع ذِكْرُه، وحلَتْ رتبتُه، بأوصافِ كلٍّ من أهله فى قوله وفعله؛ وتردّدت رياستُه، فى عددٍ كثير لاعهدَ للرياسة بالتردُّد فى مثْله؛ وكانتْ لك ولمن مضىٰ من أسلافك آثارٌ فى الخِدَم خلَّدتْ لكم مجْدا يبقىٰ، وأقرتْ من الحديث به مالا يسمُو إليه النِّسيانُ ولا يَرْقىٰ؛

فكل مانتولَّوْنه متجمِّل بكم ولا يُريد معكم زياده، وكلُّ مايُعْتَمَد فيـه عليكم قد نال مطلوبَه وبلغ البِغْيـة والإراده ؛ والذى يخرُج عن نَظَركم يتلهَّف عليكم حنيناً إليكم وآشتياقًا، وإن رُدَّ إليكم لم يألُ تَشَبُّثاً بكم وتمسُّكا وآعتِلاقا.

هذا إلىٰ مالكم من الحُرُمات المرعيه، والمَواتِّ التى ليست بمَنْسِيه. والسيد الأجلُّ الأفضل الذى حسْبُه من المفاخر قيامُه بحق الله لمَـَّا غَفَل الملوك عنه وقَعَدوا، وآستيقاظُه بمُفرده حينَ ناموا دُونَ آستخلاصه ممـا عَرَاه ورقَدُوا؛ وإن آنتصابَه آيةٌ أظهرها الله للّٰه، وحسَمَ بهـا فى رَفْع مَنار الدّين كلَّ عِلَّه ؛ فإذا أُنفِقَت الأعمـار فى [بيان] أوصافه كانت جديرةً بذٰلك حريَّه ، وإذا ذُكِرت آثارُه فى الإسلام كان العِلم بكرمها لاحقًا بالعلوم الضَّروريه ؛ فمـا يُنْسَب المتوسِّع فى التقريظ له إلىٰ تَغَال، ولا تَضْييع وقت يُقْضىٰ فى آهتمام بالثناء علىٰ مَناقبه وآشتِغال ـ يُواصلُ الثناء عليك والشكْر لك ، ويتـابعُ من ذٰلك ما إذا ذُكر اليسير منـه شرَّفك وجمَّلك ؛ ويصف ما كان لأخيـك القاضى المكين ـ رحمـه الله ـ من الآجتهاد فى المُناصحات، ومن الأفعال الحَسَـنة والأعمال الصالحات، ومن الوَجَاهة التى أحلَّته مكانًا متجاوِزا غايةَ الآمال الطامحات ، مارفَعـه عن طبقاتِ كثير من سادات الناس، وجعل حاسِديه فى راحةٍ لمـا شَمِلهم من دَعَة الياس. وإنك أيُّها القاضى المَكين، الأشرفُ الأمين؛ قد بلغْتَ مَداه فى الجَلَاله ، ووَرِثت مجْـدَه لا عن كَلَاله ؛ وحوَيْت فضله ونَخْره ، وقفَوْت أثَره وأحييتَ ذكْرَه ؛ وحُزْت خِلاله الجميـلةَ وأفعاله الرضـيَّه ، وحصَّلت الفضيلتين الذاتيَّة والعَرضيَّه ؛ ولذٰلك تقرّرت نُعوتُك « القاضى المكين» لآستيجابك فيما تقضى به جزيلَ الثواب ، ولتمكُّن أفعـالك فى محـل الصَّواب ؛ و « الأشرفُ الأمين » لشرف نفْسـك ، وكونِ أمانتك فى حاضِر يومِـك علىٰ ما كانت فى ماضى أمْسك ؛ و « تاجُ الأحكام » لأن مايصدُر منها سامى المنْهاج ، وقد آرتفع محلُّه كما

آرتفع محلُّ التاج؛ و « جمالُ الحُكَّام » لأنك لمـا وَلِيتَ ماوُلُّوا، جمَّلتهم إذ فعلتَ من الواجب فوق مافعَلُوا ؛ و « عُمدةُ الدين » لأنَّ من كان مثلك ركَنَ إليــه الدينُ وآستند ، وتوكَّأ علىٰ جانبه وآعتَمد ؛ و«عمدةُ أمير المؤمنين » لأنك ذخيرةٌ لدولته ، ونِعْم البقيةُ الصالحةُ لمملكتِه .

ومعلوم أن ثغر الإسكندرية ـ حماه الله تعالىٰ ـ الثغرُ الرفيــعُ المقدار، الذى هو قُرّة العين للإسلام وقَذًى فى عيون الكُفَّار ؛ ومحلُّه ممـا تتطامن له معاقلُ التوحيد وحصُونُه ، وهو مشتملٌ من الفقهاء والصلحاءِ والمرابطين وأهلِ الدِّين علىٰ مَنْ لم يزَلْ يحفظه ويصُونه ؛ وإليه تَتَنَاثَل(١) السُّفَّار ، وتَتردّدُ التُّجَّار ؛ وهو المقصود من الأقطار القصيَّة النائيه، ومن البلاد القريبةِ الدانيــه ؛ وما زالتْ أحوالُه جارِيةً بنظَرِك علىٰ أحسَن الأوضاع وأفْضلها، وأوفىٰ القضايا وأكملها ؛ وما كان آستخدامُ غيرِك فيــه إلا ليَظْهَر إشراقُ شَمْسك، وليَزُولَ الشكُّ فى تَبْريزك علىٰ جِنْســك، وليتبيَّن فضــلُ مباشَرتك وتَولِّيك علىٰ أن ذلك لم يكُنْ مكتما، وليتحقَّق أنَّ عقدَ صَلاحه لا يكون بتولِّى غيرك متَّسِقًا ولا منتَظِما .

وقد رأىٰ أميرُ المؤمنين إمضاءَ مارآه السيدُ الأجلُّ الأفضل من إقرارك علىٰ الحكم والقضاء : لاطِّلاعك من ذٰلك علىٰ سِرّه ، ونَفاذِك فى جميع أمرِه ؛ ولِخُبْرتك به ودُرْبتك ، ولآستقلالِك ومضائِك ومعْرفتك ؛ وإنك إذا آستَمْررت علىٰ عادتك ، غَنِيتَ عن تجـديد وصيَّتك ؛ فتَمادَ علىٰ سُنَّتك ، ولا تخرُجْ عن سبيلك ومَحجَّتك ؛ وأنت تعلم أنَّ الشُّهود بهم يُعْطِى الحُكَّام ويمنعون ، وبأقوالهم يفْصِلون ويقْطَعُون ؛ وبشهاداتهم تثبتُ الظُّلامات وتبْطُل، وعليهـا يعتَمَد فى آنتزاع الحقُوق ممن يُدافِع ويَمطُــل ؛ فواجبٌ أن يكونُوا من أتقيــاء الورىٰ، وممن لا يتَّبع الهوىٰ؛ فآستَشِفَّ

(١) أى تنصب وترد عليه كثيرا انظر اللسان والقاموس .

أحوالَهم، وٱستَوْضِحْ أمورَهم وأفعالَهم؛ فمن كان بهذه الصفة فأجْرِه علىٰ عادته فى ٱستماع مَقالتِـه ، ومَنْ كان بخلافه فقِفِ الأمْرَ علىٰ عدالته ، وٱحْسِم مادّةَ الضرر فى قبول شهادته؛ وقد جعل لك ذٰلك من غير ٱستئْذان عليه ، ولا ٱعتراضٍ لك فيه؛ ولاتُقرّبْ أحدًا من رُتْبة العَداله ، وٱرْفَعها بإزالة الأطماع فيها عن الإهانة والإذاله ؛ وٱغضُضْ من أبصار المتطلّعين إليهـا ، والمتوثّبين عليهـا ، بالتطَارُح علىٰ الجهات ، وٱلتمـاسها بالعِنايات التى هى من أقوىٰ الشُّبُهات ؛ وإن ورد إليـك توقيعٌ وتزكيةٌ من البـاب فأصدره [فى] مُطالعتك ليُحيط العلمُ به ، ويخرُجَ إليك من الأمر ماتفعَلُ علىٰ حسَبِه ؛ وٱفعلْ فى دار الضَّرب وأحوال المستخْدَمين والمتصرّفين علىٰ ما أنتَ به العالمُ البصير، والعارفُ الخبير .

وقد جُعل لك إضافةً إلىٰ ذٰلك النظرُ فى أمرِ جميع هـذا الثَّغْر المحروس وأُسْـند إليـك ووُكل إلىٰ صائ ـب تدبيرك، وإلىٰ حُسْن تهذيبك ؛ وإلىٰ بركةِ سـياستِك، وإلىٰ عملك فيه بمقتضىٰ ديانتِك ؛ وصار جميع المستخدَمين به من قبلَك متصرّفين ، ولأوامرِك متوكّفين ، وعنـدَ ما تَحُدّه واقفين ، ولمَرَاسمك متابِعين غيْرَ مخالِفين ؛ فمن أحْمدتَه منهـم وعلمتَ نَهْضته فأجره علىٰ عادتِه ورَسْمه ، ومَنْ كان بخلاف ذلك فاستبْدِل به وٱمْحُ من الخدمة ذكْرَ ٱسمه ؛ فلا يَدَ مع يَدِك ، ولاعُدُولَ عن مقْصدك ؛ والآستخدامُ فى هـذا الأمرِ قد أُسْنِد إليك ورُدّ ، وكونهُ من جهة غيرك أُغْلق بابه وسُدّ ؛ فلا تَصرُّفَ فيه إلا لمن صَرّفته ، ولا خِدمةَ إلا لمن ٱستخدَمْتَه .

وتأكيدُ القول عليك لايزيدُك حِرْصا ، والمعرفةُ بهِمّتك وخُبْرتك تُغْنيك عن أن توصىٰ ؛ والذى تقدّم ذكره فى هذا السجِلّ إرهاف لِحَدّك ، وإعلاءٌ لِجَدّك ، وإطْلاع لكوكب سَعْدك ؛ والله يتولّى تأييدَك وتوفيقَك ، ويُوضح إلىٰ الخير سبيلك وطريقَك ؛

فاعلم هذا وٱعملْ به، وطالِـع مجلسَ النظر بأمُور خِدْمتك ، وما تَحتـاجُ إلىٰ عمله فى جهتك . إن شاء الله عز وجل .

وأما السِّجلَّات المكتتَبَة بالوظائف الدِّيوانيـة ، فكما كتب به بعضُ كُتَّابهـم بولاية ديوان المُرْتجَع :

لسَنِيّ الدولة وجَلَالِها، ذى الرياستين، أبى المنجى سليمان بن سَهْل بن عِمْران .

أما بعـــدُ، فإنَّه من حسُنتْ آثارُه فى مناصحات الأئمـــة الخلَفاء، وٱرتفع محلُّه فى طاعتهـم عن الأنظار(١) والأمثـال والأَكْفاء ، وظهَرتْ بركاتُ أفعاله فيما يتولَّاه ظهورَ الشـمس ليس بهـا من خَفَاء، وباهَىٰ بتدبيره كلَّ مايباشرُه من أمرٍ خطير قدرُه، وٱستدعَتْ من الثناء والإطراء مايتأرَّجُ نَشْره ويتضوّع ذِكرُه، وتساوىٰ عنده القولُ والعملُ ونافَسَ فيه الخُبْرُ الخبرَ، ورتَّبه مرتِّبه مقدَّما علىٰ مَنْ مضىٰ من طبَقته وغَبَر، ووَسَم الأعمال بسِمات فى العمائر تُضاف إليه وتُنْسَب، وغدَت الخِدَم تُزْهىٰ به وتُعْجَب،وهولايُزْهىٰ ولاينظُر ولايُعْجَب ـ كان ردُّ المهِمَّات إليه حُسنَ نظرٍ لهـا، وإذا حُظِرت جلالةُ توليِّها علىٰ غيره أضحىٰ نفاذُه منتهِجا له مَحلَّها، وكان التنويهُ به حقًّا من حقوقه وواجبًّا من واجباته، والمبالغةُ فى تكريمه وتفخيمه ممـا يتعيَّنُ الانتهاء فيه إلىٰ أقصىٰ آمادِه وأبعدِ غاياتِه .

ولـمَّا كنتَ فى متولِّى الدواوينِ، مشهورَ الشأن والقَدْر، وحالًّا من مَراتب الكُفَاة المقدَّمين، فى حقيقةِ الصَّدْر، إن ٱنتظمُوا عِقْدا كنتَ فيــه الواسِطَه، وإن قَسَط غيرُك علىٰ مُعَامَل لم تكن أفعالُك قاسطه، ولك السـياسةُ التى ظلَّتْ ساحاتُها رِحابا،

(١) جمع نظر بوزن نِدّ بمعنى النظير حكاه أبو عبيدة . انظر اللسان ج ٧ ص ٧٦ .

والرياسة التى من وَصَفَك بها فما تملّق ولا داجىٰ ولا حابىٰ ؛ والصِّناعةُ البـارعة التى تشهَدُ بها الطُّروس واليَرَاع ؛ والأمانةُ الوافيــةُ التى آرتفع فيها الخلافُ ووقَع عليهـا الإجْماع ؛ والتصرّفُ فى أنواع الكتابة علىٰ تبايُن ضُروبها ؛ والآستيلاءُ علىٰ ظاهرها ومستُورها وواضِحِها ومكتُومها ، والأخذُ لهـا عن أهـلِ بيتِك الذين لم يَزالُوا فيها عَرِيقين ، ولم ينفكُّوا فى مَدَاها سابقينَ غيرَ ملْحُوقين ؛ وقد زِدت عليهم بمـا حُزْتَه بهِمَّتك ، ونِلْتَه بقَرِيحتك ؛ حتّىٰ بلغْتَ منهـا ذِرْوةً شامخةً عليَّه ، وحصَّلت فضيلتين فَضِــيلةً ذاتيَّة وفضــيلةً عَرَضِيَّه ؛ وأمِنْت مَنْ يُبارِيك ويساجِلُك ، وكُفِيت مَنْ ينـاوِئك ويُطاوِلك ؛ وكان الديوان المُرْتجَع عن بَهْرامَ وغيره من أجلِّ الدواوين وأوْفاها ، وأحقِّها بالتقـديم وأوْلاها : لأنه يشتَمِل علىٰ نواحٍ مختاره ، ويحتَوِى علىٰ ضِـياعٍ مكنُوفة بالعماره ؛ وقد زاده مِيزةً علىٰ غيره كونُك ناظرًا فيــه ، وأنك مـدبِّر أمرِه ومستَوْفيه .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فَتاهُ ووزيرُه السيدُ الأجلُّ الأفضلُ الذى عزَّ بحُسْن سـيرته المُلْكُ وتضاعفَ بهـاؤُه ، وضَمِنتْ مصالِحَ الأمور تدبيراتُه وآراؤُه ؛ وظلَّتْ شُئُون الدولة بمـا يقرّره منتظمةً مستقيمه ، وغدَتِ المَيامنُ والسُّعودُ مخيِّمةً فى داره مُقِيمه ؛ وآتَّفقتْ علىٰ الثناء عليــه مختَلِفاتُ الأقوال ، وقضَتْ مَهَابَتُه بحِماية النُّفُوس وصيانةِ الأموال . وفاوضه فى أمرهذا الدِّيوان فأفاضَ فى وَصْفك وشُكْرك ، وأطنبَ فى تَقْرِيظك وإجمال ذِكْرك ؛ ونبَّه علىٰ الحظ فى تولِّيك إيَّاه ، وواصلَ من مَدْحك بمـا يتضوّع عَرْفُه ويَطِيب ريَّاه ؛ وقرّرَ لك من تولِّيه مايصِلُ سببَ الخيرات بسببِه ، وميَّزك بمـا لم يَطْمَع أحد من كافَّة متولى الدّواوينِ به ؛ فلم يجعَلْ فيــه يدًا مع يَدِك ، ولانظرا إلالك بمفْرَدِك ؛ فلايرفَعُ [أحد] شيئا إلىٰ غير ديوانك من حساب مايَجْرِى فى أعمالِه ، ولا مُعاملةَ لبيت المـال إلَّا معك فيما يَحِلُّ من أمواله . فأمضىٰ

أمير المؤمنين ذٰلك وأمر به ، وخرج أمرُه إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هـذا السجلّ بتقليدِكَ الدّيوانَ المرتجَع المذكور : ثِقةً بأنك تأتِى فيـه علىٰ الإراده ، وتتأتّى لبُلُوغ الغَرَض وزياده .

فٱستَخِرِ اللّهَ تعالىٰ وباشِرْ أموره بجِدّكَ المعهود ، وشمِّر عن ساق عَزْمك المشْهود وسَعْيك المحمود ، وٱجْرِ علىٰ رَسْمك فى العمل بمـا يحفَظ أوضاعَه ، ويُزْجِى ٱرتفاعَه ، ويُزِيح عِلَّتـه ، ويُغْزِر مادَّته ، فٱعتقدْ مواصـلةَ الليل والنهـار فى مصالحه فَرْضًا إذا ٱعتقَدها غيرُكَ نَفْلا ، وٱجعلِ ٱجتهادَكَ لٱستخراج أمواله وكُنْ عليها إلىٰ أن تَصـل إلىٰ بيت المـال قُفْـلا ، وٱستَنْظِفْ ما فيـه من تقَـاوٍ وباَق ، وٱفعَـلْ فى تدبيره مايُجْرِى أموره علىٰ الوِفَاق ، وٱستخدِمْ من الكُتَّاب مـن تحمَدُه وترتضيه ، ونُصَّهم إلىٰ الأفعال التى تستدعِى شكْرَكَ لهم وتقتضيه ، ولا تُسوّغ لضامنٍ ولاعاملٍ أن يُقَصِّر فى العماره ، وٱعتمِدْ من ذلك مايكونُ علىٰ كِفايَتِك أوضَحَ دِلالة وأصَحَّ أَمَاره .

وقد أمر أمير المؤمنين أن تجُرِىَ الحالَ علىٰ ما كانتْ عليه من دُخول ذٰلك وبَيْعه بغير مَكْس فى جميع الأعمـال ، وأزاحَ مع ذٰلك عِلَّتك ببَسْـط يدِك وإنفاذِ أمرِك وإمضـاء قولك ، وإفرادِك بالنظر مِن غير أنْ يكونَ لأحدٍ من متولِّى الدواوين علىٰ ٱختلافهم نظرٌ معك ، فتَمادَ فى حُسْن تدبيره علىٰ سُنَّتك ، ولا تَخْرُجْ عن مذْهبك وطريقتك ، والله يوفِّقك ويُسْـعِدك ، ويُعينك ويعضِّدك ، فٱعلَمْ هـذا وٱعملْ به إن شاء الله عز وجل .

المرتبـــة الثـالثـــة

(من المذهب الأوّل من سجلات ولايات الفاطميين أن تفتتح
بالتّصـديرأيضا ، وهو « من عبـد الله ووليه » إلىٰ آخر التصلية علىٰ
النبي صلى الله عليه وسلم وأميرِ المؤمنين علىّ رضى الله عنه؛ ثم يُؤتىٰ بالبعْدية،
لكن من غير تحْميد، بل يقال : «أما بعدُ فإنَّ أوْلى» أو «إنَّ أحق»
ونحو ذلك ؛ ويذكر مناقب المُوَلّىٰ ثم يأتِى بالوصايا)

وآعلم أنَّ هذه المرتبةَ من السِّجلَّات يشترك فيها أربابُ السيوف وأربابُ الأقلام من أصحاب الوظائف الدينيَّة والوظائف الدِّيوانية .

فأما سجِلَّاتُ أرباب السُّـيوف فكأصحاب زُمُوم طوائف الرِّجال، يعنى التَّقْدمة عليهم والولايات ونحو ذلك، علىٰ ماسيأتى ذكره إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخُ ولاياتٍ لأرباب السيوف بالحَضْرة من هذه المرتبة .

نسخة سِجِلّ بزَمّ طائفة، من إنشاء القاضى الفاضل، وهى :

من عبد الله ووليِّه (إلىٰ آخره) .

أما بعدُ، فإنَّ أميرالمؤمنين يصْطَنع مَنْ يرتضيه لتأليف عَبِيده وضَمِّهم، ويستَوْقفُه للنظرِ فى تقديم رجال مملكته وزَمِّهم ، ويختار مَنْ يَجْتبيه لإحراز مَدْحهم بالبُعْد من مُوجبات ذَمِّهم؛ ولا يُؤَهِّل لذٰلك إلا مَنْ توسَّل بالغَنَاء وتَقرّب، وآستَقَلّ بالأعْباء وتَدَرَّب ؛ وأطلَقَ حَدَّه التوفيقُ فمضٰى وتَدَرَّب ، وأُودِع الإحسانَ فما زايَل مَحَلَّه ولا تَغرّب ، ولابَس الأمورَ ملابسَــةَ من فَطُن وجَرّب ؛ وقد أيَّد الله دولتَه بفتـاه وأمينه ، وعِقْده وثَمينه ؛ السـيدِ الأجلِّ الذى غدَتْ آراؤُه للصالح كَوافِل ، وأذْكىٰ للتدبير عُيُونَ حَزْم غير ملتفِتاتٍ عنه ولا غَوَافِل؛ وأطْلع من السَّعد نجُوما غيرَ غَوارِبَ

ولا أَوافِل، وقام بفَرائِض النَّصائح قِيامَ من لم يُجوّز فيها رُخَصَ النَّوافل، وتحدّثتْ بأفعاله رِماحُه فى المَحافِل فما راعت الجَحافل .

ولمّا مَثَل بحضرة أمير المؤمنين أجمَلَ ذِكرك واطابَه ، وقصَدَ بك غَرَضَ الاصطناع فأصابه ، واستَمْطر لك الإنعامَ الغَدَق السَّحابِ فأجابَه ، ووصَفَ ما أنت عليه من شَهامةٍ شُهِدت وشُهِرت ، وصرامةٍ تظاهَرتْ وظهَرت ، وكِفَايةٍ برَعتْ وفَرَعت ، ونزاهةٍ استُودِعت الأمانَةَ فرَعَتْ ، ومُناصحةٍ انفردَتْ بوَصْفها ، وتحلَّت واسطةَ عِقْد صَفِّها ، وجهادٍ لم يزَلْ به القُرْءانُ مُغْرِيا ، والصَّعبُ المَقَادِ مُذْعنا والخَطْب عابيا (؟) فى قيادها مدعيا ، وقرَر لكَ الاستخدام فى زمِّ الطائفة فأمضٰى تقريرَه ، واستصابَ تدبيرَه ، وخرج أمرُه إليه بأنْ يُوعِز إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجلّ وإيداعه ماتهتَدى به ، وتعمَلُ بتأْديبه .

فتقلَّد ماقُلِّدته من ذٰلك عاملا بالتَّقيَّة فإنها الجنّةُ والمَحجَّة ، والجُنَّة والجَنّه ، والمَدد السليم ، والمَرْبحَ القويم ، والنعمةُ والنَّعيم ، بقول الله سبحانه فى كتابه الحكيم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ .

فانهضْ بشُروط هذا الزَّمّ نُهوضا يُؤدِّى عنك من النُّصح مفروضا ، ويجعلُ لك كلَّ يوم كتابَ شكر مفْضُوضا ، وسُسْ هذه الطائفةَ بما يُوليها دواعىَ الوِفَاق ، ويَحْميها من عَوادِى الافتراق ، واجهَدْ فى منافعها مجْتَلِبا ، ولأخْلاف دَرِّها مُحْتلبا ، وانتصبْ لاستشفاف أحوالهم وتعهُّدها ، وملاحظة أفعالهم وتفقُّدها ، فمن ألفيتَه إلىٰ فرائض الخِدْمة مُسْرعا ، وبنوافلها متطَوّعا ، وبكَرَمه عمَّا يَشينه مترَفِّعا ، شحَذْت بَصيرته بالتَّكرِمه ، ورشَّحتَ هِمَّته للتَّقدمه ، ومن وجَدْته لتلك الصفات الزائنة مُخالفا ، وللصفاتِ الشائنة مُؤالفا ، ولنفسه عمّا يرفَعُها صارِفا ، قوّمتَ أودَه وثقَّفته ، وأشرفت به علىٰ مَنْهَج الصِّراط ووَقَّفته ، فاعلَمْ هذا واعمل به ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهـــذه نسخةُ سِجِلٍّ بولاية الفُسْطاط المعبَّر عنهـا بمصر علىٰ نحو ماتقدّم فى ولاية القاهرة، وهى :

أما بعـدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين لِمَـا خصَّ الله به آراءَه من التأييد الذى يُسَدّد سِهامَهـا ، ويُجْزل من التوفيق سِهَامهـا ؛ وأطلَق به يَدَه من أيادٍ تسبِقُ آمادَ الآمال وتُكاثِرُ أوْهامَها ، وألبس الدِّينَ ببقائه من مهابةٍ تَصيِّر قلوبَ أعدائه مَهامِها ؛ وميَّز به عَصْره من خصائص نَصْر لاتُطيـل الأيام آستِفْهامَها ولا تخْشىٰ آستِبْهامَهَا ، ويَسَّره من نَبإٍ دعوتِه التى طَبَّقتْ أنجادَ الأرض وتِهامَها ، ورَقَّاه من محـلِّ أمانةِ الإمامة التى لا يظهر أرباب الألبـاب علىٰ أسرار الله ولا آتهامَهَا ؛ وناطه بتـدبيره من إيَالةِ البريَّة والآعتناءِ بمَصَالحها ، وأصابه من مَرَاشِد اليقين التى تستضيءُ العقول بمَصابِحِها ؛ وأتىٰ به الأنفُسَ الصالحة من تَقْواها ، وصَرَف بمـا صَرَّفه علىٰ لسانه من الحُكْم عنها مَضارَّ الشُّبَه وطَوَاها ، وألبسه من هَدْى النبوّة التى قرَّبَ اللهُ إسنادَ من رآها وفَضْلَ مَنْ روَاها ـ يستغزر مَوادّ التوفيق من خالِقِه بنُصْحه فى الخلائق ، ويقدِّم الآستخارةَ بين يدَىْ أفعاله فهى به أمْلَكُ الخـلال وأخصُّ الخَلاَئق ؛ ويَعْتام للقيام بتكاليف الآستنهاض ، ويختارُ لتقوِيم المَيَّاد من آشتهر بالتدبير وجَبْرِ المُنْهاض ؛ ويُقدّم لكِبار الولَايات وعَوَاليهـا ، وخصائص الرُّتَب وغَوَاليها ، مَنْ تكافأَتْ فى آستيعابِ المحاسنِ خِلالُه ، وخطبَ الخِـدَم المتكثِّرة لأُولى الحظوظ آسـتِقلالُه ، وعُلِم آستبدادُه بِطيب الذكر وأُمِن آنفِصالُه ، وأوىٰ إلىٰ جَنَّة مَرِيعـة وجُنَّة مَنِيعة من الوَلَاء وألحفَتْـه ظِلالُه ، وآستقام علىٰ مَحَجَّة واضحة من المخالصة ولم يُخَفْ زيغُه ولا ضَلَالُه ، ومضتْ ضرائبُه فى المُهِمَّات مَضـاءَ الحُسَام الذى لا ينْبُو حدُّه ولا يَثْبُت آنفِلالُه ، وصَحَّ بِصـيرَةً

فى المناصحة فما سَرَّ الأعداء شَكُّه ولا آعتِلالُه ، وأعطىٰ الخِدَم حقُوقَها من إقامة القوانين ، ونَهض بأعبائها المثقَّلةِ نهضةَ المشمِّرين غيرِ الوانِين ، وآشتدّتْ وطأةُ تبادُره علىٰ المُفْسِدين والجانين ، وتظاهرَتْ شواهدُ ميزتِه بما يُكَثِّر له الحُسَّاد ويُرْغِم الشانِين ، وآقتنىٰ من نفائس المحامد ما يَعُدّه أهلُ النظر قُنْيَةَ القانِين ، وآستبْقىٰ من جميل الأُحْدوثة ما يبقىٰ ذِكْرُه بعد فنَاء الفانِين ، ووفَّقَتْ فى الخِدْمة مصادِرهُ ومَوارِدُه ، وآنتظمتْ دُرَر الذكر بحسن ذكره فأْتلفتْ فَوَارِدُه ، ونُشِدتْ ضوالُّ الغَناء فآلتقتْ عنده غرائِبُه وشَوارِدُه ، وآختصَّت مَسَاعيه بالإبْرار علىٰ الأنظار ، وصحَّتْ خِلالُه علىٰ عَيْب النَّقْد كما صَحَّح النَارَ نُورَ الأبصار ، ونظَر لمن أُسْنِد إليه أمرُه نظراً يُعْفيه من تطرُّقِ الأكدار والمَضارّ ، ورعىٰ له ما هو متوسِّل به من آثارٍ حقيقةٍ بالإيثار ، وكفايةٍ تأخُذ للخِدَم من الفَخْر بالثار .

ولمّا كنتَ أيها الأميرُ المرادَ بهذا الإيراد ، المُطَّردَ إليه هذا الآستِطْراد ، المعدُودَ فى أمراء الدولة العَلَويَّة من الأعيان الأَفْراد ، المُحَلَّىٰ سيفُه بينَ المساعِى الجميلة ينتقى منها ما آختارَ ويصْطفِي ماأراد ، المُهادىٰ الصِّفاتِ الحسَنةِ فلا جاحِدَ من عُداتِه ولاراد ، المُضْطلِعَ بما يُعْيي حملُه الحازِمَ المُطِيق ، المستنْفِدَ فى أفعاله المشكورةِ أقوالَ الواصِفِ المِنْطيق ، الواصلَ بمَحْمود مساعيه إلىٰ غايات السابِقِين فى مَهَل ، الجامعَ فى تدبير المِهمَّات بين رَأْيِ آحتَنَك وحَزْمِ آكتَهَل ، المنظُورَ بعينِ الحَزْم بآيات دَواعِيه ، المترقِّىَ إلىٰ أمانيِّه فى دَرَج مَساعِيه ، المُجِيبَ دعوةَ العزْم إذا قام فلم يسْمَع المقصِّرون داعِيه ، المجتهدَ فى تشييد أركان التدبير إذا آرتُقِب آضطِرابُه وخِيف تَداعِيه ، المُمتثِلَ وصَايَا الأدب الصالِح فهو بقَلْبه راعِيه وبسَمْعِه واعِيه ، الشَّهمَ الذى ينفُذُ فى الأمور نَفاذَ السَّهم ، الألمعِيَّ الذى علَا أن يُماثَل بما أُوتِىَ من بَسْطة الفَهْم ، المتبوِّئَ من النعمة منزلةَ شكرٍ لا يرُومُ ضيفُها أن يَرِيمَه ، ومَرْبَعَ حَمْد لا يسُوم نازِلُها غيرَ

أن يُسِيمه ؛ المباشِرَ من مأثُور السياسة ما آستفاض ذكْرُه فلم تتطرّق عليـه أسبابُ المجـد ، البالغَ بسُموّ المساعى ماقصّر الأكفاءُ عنه ولم يُقَصّرُوا عن الجَهْد ؛ الحـالَّ من التقدِمة فى هِضَابها إذا نزل الأكفاءُ منها فى الوَهْـد ، الحامِلَ من أعباء المُشايَعة ماغدَا به من المُوفِين علىٰ الأنظـار المُوَفّين بالعَهْد ؛ المحقوقَ من الوسائل بأن يَجُودَها النجاحُ بأغْزَر دِيمة وأسـقىٰ عَهْد ؛ المؤدِّى فيما يُسْنَد إليـه فُروضَ التفويض ، المَلِىَّ بأن لا تنوب فرصةُ حَزْم إلا كان مليًّا بالَّلحاق والتعويض ؛ المكتفِى من وصَايا الحزم بمـا يقُوم له مَقامَ التصْريح من التعريض ، المستوجِبَ أن تُجْدىٰ إلىٰ آسـتحقاقه وتُهْدىٰ سحائبُ الطَّوْل الطويلِ العَرِيض ؛ المسـتوعبَ شرائطَ الرياسـة بالاِستيلاء علىٰ أدَوَاتها ، المتتَبِّع مظانَّ الخطوب بمُفاجأة الغَرَض فى مُدَاواتها ؛ المبرِّز علىٰ القُرَناء بخلال لاتَطْمَع الهممُ فى مُساماتها ولا مُساواتِهـا ، الآخذَ من كل شيء بأحسنه فأىُّ حسنة لم يُؤْتَهـا ولم ياتها ، النافذَ الآراء إذا المشْكلات لم يتّضح لأرباب الألبـاب مُصْمَت بيَانِها ، المُصيبَ شواكلَ الضَّرائب فسهامُ آرائه مدْلولةٌ علىٰ شَوَاتها ، المتبرِّجَ المقاصد لعيان الحمد إذا تخفَّزت الأفعالُ ووارَتْ سَوْآتها ، المعروفَ بثُبوت الجَنَان ، حينَ يلتبسُ الشُّجاعُ بالجَبَان ، المشـكورَ فى مواقفِ الحَـرْب بأفواه الجِراح ولِسان السِّنان ، المقـدمَ حيثُ الأعضاءُ تتزيَّل والأقدامُ تتزلْزَل ، المقتحِمَ غمَـراتِ الهَيْجاء والأرواحُ عن وِلاياتِ الأجسامِ تُعْزَل . وقد وُلِّيت الولاياتِ فآستقلْلتَ بها أحسَنَ آسـتِقلال ، ورُفع لك منارُ العدل فاستدلَلْت منه بأوْضَح آستِدْلال ؛ وجعلتها علىٰ مَنْ تُؤْويه حَرَما ، وعلىٰ مَنْ يطْرُقها حِمىٰ ؛ وكنتَ لجُمْهور زمانك فى المصالح والنَّصائح مُقَسِّما ، ولحكم التقوىٰ ولو ضَفَتْ مشَقّاتُها دُونَ حكم الهوىٰ محكِّما .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فَتـاهُ ووزيرُه السـيدُ الأجلُّ الذى حلَّ المشكلات من رأْيه وراياته بالشمسِ وضُحَاها ، وتعرَّضت له آيةُ الليل من العـدا فجَلَّاها بسُيوفه

ومَحَاها ، وثبَّت نِصابَ المُلْك الفـاطمىّ حينَ أدارت الحـربُ علىٰ فَتَكاته رَحَاها ، وٱقتادَ الأعداءَ إلىٰ مَصارِعها بخزائِمَ من العزائم وأعْجَلَها وأوْحَاها ؛ وقام بنَصْر أئمـة الهدىٰ حينَ قَعَد النـاس ، وزعىٰ اللهُ عزيمتَه الصابرةَ فى البأساء والضَّرَّاء وحينَ البـاس ، وخاطر فى حفظ الدِّين بنفْسٍ تجرِى محبَّتُها مع الأنْفاس ، وحلَّ من ملوك الأرض مَحَلَّ العـين من الراس بل الراسِ من الحوَاسّ ؛ وأتعبَت الأجسامَ هِمَمُـه الجِسام ، وأعدىٰ الزَّمانَ فتبَسَّم جَذَلا بعَدْله البَسَّام ، وقسَّمت المطامعُ أموالَه لحمىٰ المجدَ الموفَّر عليه من الآنقِسام .

فطالَعَ أميرَ المؤمنين بأخبارك بعد ٱخْتبارك ، وتوسُّلك إلىٰ التقدمة بَمْرضِىّ آثارِك ، وما أظهره الآمتحانُ من نَقَـاء سريرتِك وأسرارِك ، وٱستقامتِك علىٰ مُثلىٰ الطريقـة وٱستبْصارِك ؛ وأن ولايةَ مصرَ من أنفَس الولايات مَحَلّا ، وأثبتِها علىٰ غيرها فَضْلا ؛ بمجاوَرتها للمَقامِ الكريم ، وحُصُولها من ٱستقلال الرِّكاب الشريفِ إليهـا علىٰ الشَّرَف العظيم ، وٱختِصاصها من مَجَال الخلافة بمـا جَمَع لها بين الفخْرَيْن الحادث والقديم ؛ وأوجبَ لها علىٰ غيرها من البلاد مزيَّةً ظاهرةَ التكريم والتقْديم ، وما يَمُتُّ به أهلُها من شَرَف الجِوار الذى لآمالهم به التخييرُ فى الإحسانِ والتحْكِيم .

وما رأىٰ من إسناد ولايتِها إليك عِلْمـا أنَّك ممن تزْكُو لديه الصَّنِيعه ، وتروقُ فى جِيد كفايته فَرائدُ المِنَن البضيعه ، وتتطامَنُ لآستحقاقه ذِرْوَةُ كلِّ مرتبة رفيعه ـ خرجَ أمرُ أميرِ المؤمنين إليه ، بأن يُوعِز إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجلِّ لك بالولاية المذكورة . فتقلَّدْ ماقلَّدك منها مقدِّما تقوىٰ الله علىٰ كل فِعْل وقول ، متبرِّئًا إليه من طَوْل الحَوْل ، مُعِدّا ذخيرتَها النافعةَ ليوم الهَوْل ؛ قال الله فى مُحْكَم الكتاب : ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزاد التَّقْوىٰ وٱتَّقُون يَاأُولى الأَلْباب ﴾ .

وٱنظُرْ فى هــذه الولاية حاكِمًا بالقِسْطاس ، وساوِ فى الحق بين طَبَقات الناس ؛ ولا تميِّزْ فيه رفِيعًا علىٰ حقِير ، ولا غنيًّا علىٰ فقير ؛ وأقِم الحدُودَ علىٰ من وجبت عليه إقامةٌ يرتَدِع بها المغْرُور ، وتستقِيمُ بها الشُّـُون وتنتظِمُ الأمور ؛ وراعِ مَنْ بهذه المدينة المحروسةِ من شُهُودها ، ومتَميِّزِى أهلها ، ففيها الفُقَهاء والأتقياء ، والقُرَّاء والعلمـاء ؛ والمتميِّزُون الأعيانُ الوُجوه ، وأهلُ السلامة الذين يستوجِبُ كلٌّ منهم نَيْلَ مايأْمُله وبلُوغَ مايرجُوه ؛ فٱعتمِدْ إعزازَهم ، وتوَخَّ تكرِمتَهم ؛ ووَفِّهم مايجب لهم من الحق ، وٱلْقَهُم بالوجه المُسْفِرِ الطَّلْق ؛ وأْمُر بالمعروف ونُصَّ إليــه ، وٱنْهَ عن المنكر وعاقِبْ عليــه ؛ وتفقَّد أحوالَ المَطاعِم والمَشارب ، وحافِظْ علىٰ إجرائها علىٰ أحكامِ الصواب وقضَايا الواجب ؛ وٱحظُرْ فى المكاييل والموازِين البَخْس والتَّطفِيف ، وقدِّم الإنذارَ فى ذٰلك والتحذِيرَ والتَّخويف ؛ وأوْعِزْ بتنظِيف المَسالك والساحات ، وٱمنَـعْ من تَوْعِير السُّبُل والطُّرُقات ؛ وٱعتمِدْ كلَّ ليلة مواصَلةَ التَّطْواف علىٰ أرجاء هذه المدينة وأكْنافها ، ومُتابعةَ الإطْلال علىٰ نَواحيها وأطْرافها ؛ وٱعمَلْ فيمَنْ تظْفَرُ به من عابِث وعَاد ، ومُنتهِج طريقَ الفَساد ، مايَرْتَدِع به سِواه ، ويجعَـلُه مَوْعِظةً لمن يَعْدِل عن الصَّواب ويتَّبِـعُ هواه ؛ وٱشْدُدْ من المتصرِّفين علىٰ بابِ الحُكْم العزيز فى قَوْد أُبَاة الخُصُوم ، لِيُنْظَر بينهــم فيما ينتصِف به المَظْلوم من الظَّلُوم ؛ وتقدَّمْ بتوقِير الجَوامع وصِيانَتِها ، وحافِظْ علىٰ ماعاد ببَهْجتها ونظَافَتِهــا ؛ وخُذ المستخْدَمين فى الأرْباع بأن يتيَقَّظ كلٌّ منهم لمــا يجْرِى فى عَمَله ، وأن يكون كلُّ مايحدُث ويُنْهىٰ إليك من قِبلَه ؛ وٱنظُرْ فى الصِّناعة المحروسة ، وفى عَمائر الأساطِيلِ المظفَّرة المنصُوره ؛ وتوَفَّرْ علىٰ تدبير أمورها والاهتمام بشُـُونها ؛ وحِفْظ مافيها من الأخشاب ، والحَدِيد والعُدَد والآلاتِ والأسْباب ؛ وٱبعَثِ المستخْدَمين علىٰ المناصحة فيها ، وبَذْل الجُهْد فى قصد مصالحها وتوَخِّيها ؛ وأجْرِ أمرَ هــذه الولاية علىٰ مايَشْهَد بحُسْن أثَرِك ، وجميلِ ذِكْرِك وطيِّب

خَبَرك ؛ فاعلَمْ هذا وآعملْ به ، وطالِعْ مجلسَ النظر السيدىّ الأجَلّىّ بأمور خدْمتك ، وما يَحْتاج إليه من جِهَتك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة سِجِلّ بولاية الأعمال القُوصيَّة ، وهى بعد التصدير :

أما بعدُ ، فإنَّ أميرَ المؤمنين لمَوْضِعه من خلافةِ اللهِ التى أعْمَره إيَّاها ، وأنار بنَظَره مُحيَّاها ، والإمامةِ التى أفْرَعه ذُرَاها ، وناطَ به عُرَاها ؛ وما وَكَلَه إليه من القِيام ، بحِفْظ الإسلام ، الذى رضيه دِينا ، وألبسه بعدله تَحْسينا وبِذَبِّه عنه تَحْصينا ؛ وما آستَوْدَعه إيَّاه من جَوامع الحِكم ، وعدَقَه بكَفالتِه من رعايةِ الأُمَم ، وعضَّد به آراءَه من التأييدِ والتوفيق ، وأوْجَبه من فَرْض طاعتِه علىٰ كلِّ مُطيق ــ يَصْطفى لمَعُونته علىٰ النُّهوض بما حَمَّله الله من أعْباء الأمَانه ، والشُّكْرِ علىٰ ما آختصَّه به من الوَجَاهة عنْده والمَكانه ؛ ويَستكْفى فيما أُمر به من إحسان الإيَالةِ فى برِيَّته ، ويَنْتخِب لتفويضِ أُمُورهم والسُّلوكِ بهم مَسالكَ رأْفتِه فى سِيرته ــ مَنْ يكون آصطفاؤُه لرِضا الله عنه مُطابِقا ، وآجْتِباؤُه لشرائط المُراد والاِقْتراح مُوافِقا ؛ وآنتصابُه للمهمَّات أفضَلَ مابُدِئ به وقُدِّم آعتمادُه ، وإسنادُ الأمرِ الجسيم إليه أوْفىٰ ماعَظُم بتدَبُّره شأنُه ورُفِع بنظَره عِمادُه ؛ وإنْ وُلِّى وِلايةً ، جعلها بمهابته حَرَما آمنًا علىٰ أهلها من المَخاوِف ، وغَدا حُسْنُ سيرته بُرهانا علىٰ فَضْله يضْطَّر إلىٰ التصديقِ به المُؤالفُ والمُخالف ؛ وأعاد حميدُ أثَره مَحْلَها ربيعًا مُمْرِعا ، وقرّبَ حسنُ ثنائه من المطالب ما كان بعيدًا ممتنِعا ؛ وإنْ نُدب للجُلَّى ، عاد مظَفَّر المَقاصد ، محفُوفًا بالمَيَامن والمَسَاعد ، ساحبًا ذيْلَ الفَخْر ، حائزًا لِكُنوز الأجْر ، مستعِينًا بتوحيده علىٰ العَدَد الجَمّ ، والعَسْكر الدَّهْم(١) .

(١) الدهم بفتح الدال الكثير أنظر اللسان ج ١٥ ص ١٠١ .

و إنّ هذه الأوصافَ قد أصبحَتْ لك أيُّها الأميرُ أَسامِيَ لم تَزِدْك معْرِفه، وخواصّ المهِمّات إلىٰ ملابَسـتِك إيّاها متطلِّعةٌ متشوِّفه ؛ وأفعالُك الحميدة قد بنَتْ لك بكلّ رِيع منَـارا ، وجعلتْ لك فى كل مَكْرُمة سِمَاتٍ وآثارا ؛ وجميلَ رأْى أمير المؤمنين فيك ، قد زادَ توفيقَ مَساعِيك؛ وضاعفَ آرتقـاءَ معالِيك ، وجعـل الخِيَرةَ مقترنةً بمَقَاصدِك ومَرَاميك ؛ وسَمَا بك إلىٰ رُتبة من الوَجَاهة تتذَبْذَبُ دُونَها مَطارِحُ الهِمَم ، وأحلَّكَ من الثِّقة بك منْزِلةً لاتُفْضِى إليها خواطِرُ الظِّنَن والتُّهَم ؛ وتحقَّقَ من يَقِينك ومَضاءِ عَزِيمتك، وعدْل سِيرتك وصفاءِ سَرِيرتك، ماجَعل حظَّك عنده زائدَ النَّمَـاء، وذِكْرَك بحضرته مكنوفًا بالشكر والثّناء، ووسائِلَك إليه متقبَّلة؛ وقد أدْركْتَ فى رَيِّق الشَّباب حَزامةَ الكُهُول، وآستنْجحْت فى مَقاصدك بضميرٍ من الوَلَاء مأْهُول؛ ولك البيتُ الذى كَثُر فيــه الأمجادُ والأفاضل ، وأحلَّك فى دَعَة الناس من يخافهم المُبارِى والمُناضل؛ وتساوَتْ فى آعتقاد تفضيلهم حالَتَا السِّرّ والجهر، وأُصْلِح بعَزائمهم ماظهر من الفَساد فى البرّ والبحر؛ وفُتَّ المَطامعَ بفضيلة هـذا النَّسَب وفضـيلة النفْس ، ودلت مآثِرُك علىٰ ما ظَهَر من خصائصك دِلالةَ الفَجْر علىٰ الشَّمْس .

ولـما رآك أمير المؤمنين أهْلًا للعَوْن علىٰ آستيجابه لُطْفا لله عنده ، وآلتماسِ عوائد صُنْعه الجميل فيمن فارقَ سعْيَه ونَبذ عَهْده ـ آنتضىٰ منك حُساما حاسِـا للأَدواء، معينا فى اللأْواء، طَبًّا بتأليف الأهْواء؛ لاينبو غِـرارُه، ولا يُخشىٰ آغترارُه؛ ولا يُفَلُّ حَدُّه، ولا يُؤْويه غِمـدُه؛ فانحقنتِ الدِّماء، وسكَنتِ الدَّهْماء؛ وعَمّ الأَمْن، وعَظُم من الله تعالىٰ الطَّوْلُ والمَنّ؛ وأصبحَ مكانُ القول فيك ذا سَعَةٍ فَسِيحا، ولسانُ الإحماد لأفعالك مُنطلِقًا فَصيحا؛ وحصلْتَ من الوجاهة عند أمير المؤمنين بحيث [لاتأباك] (١) رُتبةٌ خَطِيره ، ولا تنْأىٰ عنك بجانبها [منزلة] رفيعةٌ أثيره ؛ بل غَدَتْ خواصُّها فيك

(١) فى الأصول بحيث قدرك رتبة الخ . تأمل .

لاستجزال حظِّها من الجمال بك راغِبَه، وممتنِعاتُها لاستكرام الأكفاء طالبةً للإفضال بل خاطِبَهْ؛ إذ كان مايعْدَم التَّتِمَّة بك لايعْـدَم شَعَثا واختِلالا، وما حظِىَ منها بمقاربتك يَتِيـه زُهُوًّا بك واختيالا؛ فإذا أراد أميرُ المؤمنين أن ينظُرَ إلىٰ عمـل من أعمال مملكته ويرفَعَ من محلِّه، ويُفِيضَ عليه من سحائبِ رأفتِه ما يكون ماحيًا لآثارِ جَدْبه ومَحْله، ويعُمَّ بالبركات أقطارَه، ويبلِّغَ كلًّا من أهـله مآربَه من العدل وأوْطارَه ـ استنَدَ منك إلىٰ القوىّ الأمين، والكاملِ الذى لايُخْدَع الظنُّ فيه ولا يَمِين؛ إذا استُكْفِىَ أمرًا حمىٰ حماه بالمـاضيَيْنِ : حُسامِه واعتزامه، وتمسَّـك فى حفظ نظامه بالحُسْنَيَيْن : طاعةِ الله وطاعةِ إمامه .

ولـما كانتْ مدينةُ قُوصَ وأعمالها أمْدَىٰ أعمالِ المملَكة مَسافَه، وأبعدَها من دار الخلافه؛ وتشتمِلُ علىٰ كثيرٍ من أجناس الناس، وأخلاطٍ يُحتاج فيهم إلىٰ إحسان السِّياسةِ والإيناس؛ وعليـه معَاجُ المسافرين من كلِّ فَجٍّ عميق، وإليه يَقْصد الحُجّاج إلىٰ بيتِ اللهِ العتيق ـ رأىٰ أميرُ المؤمنـين وبالله توفيقُه أن يَرُدّ ولايةَ الحَرْب بهـا إليك، ويُعوِّلَ فى تقويم مائدها وضَمِّ نَشَرها عليك؛ وأن يَحْسِمَ بك داءَها؛ ويُحَسِّنَ بنظَرك رُواءَها؛ ويعُمَّ أهلَهـا بك رأْفةً ومَنًّا، فخرج أمرُه إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجلِّ [لك] بالولاية المذكورة .

فتقلَّدْ ماقلَّدك أميرُ المؤمنين واعتمِدْ علىٰ تقوىٰ الله التى جعلها شرْطا فى الإيمـان، وأمَرَ باعتمادِها فى السِّرّ والإعلان؛ فقال فى كتابه المبين : ﴿ واتَّقُوا اللهَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين ﴾ .

وأْمُرْ بالمعْرُوف وانْهَ عن المنكَر، وابسُطْ عدلَ أميرِالمؤمنين علىٰ البادين والحُضَّر، وأقِم الحُدُودَ علىٰ من وجبت عليـه بمقتضىٰ الكتاب والسُّنَّه، وقُمْ بمـا أمر الله به

من ذلك بأنفذِ عَزْمٍ وأقوىٰ مُنَّـه ؛ وساوِ فى الحقِّ بين الضعيف والقَوِىّ ، وآسِ بينَ العدُوّ والولِىّ [والذمى] والمِلِّىّ ؛ وآجعـل من تضُمُّه هـذه الولايةُ ساكنين فى كَنَف الوِقَايه ، مشمُولين بالصَّون والحِمَايه ؛ ولْيكُنْ أرَبُهم فى الصلاح من أرَبِك ، فكلٌّ منهـم شاكرٌ لله علىٰ النعمة بِك ؛ وبُثَّ فى أقطارها ما يحجُزُ النفوسَ العـادِيَة عن التظالُم ، ويُعيد شِيمَتَهم بعْـدَ العُدْوان مُخْلِدة إلىٰ التوادُع والتَّسالُم ؛ ومَنْ أقْدَم علىٰ كبائر الإجْرام ، ولم يتحرّجْ عن الدَّمِ الحرام ؛ فآمتثِلْ فيه ما أمر الله به فى قوله : ﴿إنَّمـا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ ورَسُـولَه ويَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أنْ يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أوْ تُقَطَّعَ أيْدِيهِمْ وأرْجُلُهُمْ من خِلَافٍ أو يُنْفَوْا منَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فى الدُّنْيَا ولَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾ .

واعتمد المستـخْدَم فى الحكم العزيز والدّعوة الهـادِيَّة ـ ثبتهما الله ـ بمـا يُقَوِّى عزْمَه ، ويَنَفِّذ حُكْمَه ؛ وأجزِلْ حظَّه من إعزاز الجانِب ، وتيسير المَطالِب ؛ وأحسِنْ إليـه العَوْنَ علىٰ صَوْن المؤمنين ، وآجتلابِ المستَخْبِثين . والمستخْدَمون فى الأموال من مُشَارِفٍ وعامل وغيرهمـا فآنْدُبهم فى عِمَارة الأعمـال ، وبلِّغهم فى المُرافدةِ كُنْهَ الآمال ؛ وآشدُدْ منهـم فى صَوْنِ الآرتفاع ، وحِفْظه من الإفراط والضَّياع ؛ وضافِرْهم علىٰ آستِخْراج الخَرَاج ، وخُذْهم بحمْل المُعامَلِين علىٰ أعدَل مِنْهاج . والرجالُ العسـكرِيَّة المركزِية المستخْدَمون معك فآستخْدِمْهم فى الخِدَم السانِحه ، وصَرِّفهـم فى المُهِمَّات القريبـة والنازحه ؛ فمنِ آسـتقامَ علىٰ طريق الصواب ، أجريْت أمورَه علىٰ الآنتظامِ والآستتباب ؛ ومَنْ كان للإخلال آلِفـا ، وللواجب مُخالِفا ، قوَّمْتَ بالتأديب أَوَدَه ، وحَلَّأْته عن مَوْرِد الفساد الذى تَورَّده .

هذه دُرَرٌ من الوصايا فآبعث (؟)(١) علىٰ إحضارِه الثقة بهدايتك إلىٰ كلِّ صَواب ،

(١) لعله بعث على اختصارها الثقة الخ تأمل .

وٱعْتلاقك من الديانة والأمانة بأوْثَق الأسباب؛ وإحاطةِ علم أميرالمؤمنين بٱستِغنائك بذاتِك، وكمالِ أدَوَاتك، عن الإيقاظِ والتنبيه، والإرشاد فيما تَنْظُر فيه؛ والله يوفّقك إلىٰ ما يُرْضِيه، ويجعل الخِيرةَ مكتنِفةً لما تروِيه وتُمضِيه؛ فٱعلَمْ هذا وٱعمل به إن شاء الله تعالىٰ .

* * *

وهذه نسخةُ سِجلّ بولاية الأعمال الغربِيَّة، وهي :

أما بعدُ، فإن أميرالمؤمنين لما فضَّله الله به من إمامة البَشَر وشرّفه، وأناله إيّاه من الخلافة التي نَظَم بها عِقدَ الدين الحَنِيف وألَّفه؛ وأمضاه اللهُ له في أقطار البَسِيطةِ من الأوامر، ونَقَله إليه من الخصائص النبوِيَّة التي تجمَّلَتْ بذكرها فُروقُ المَنابر؛ ومكَّنه له من السلطان الذي تخْضَع له الجبابرةُ وتَدِين، وعضَّده به من التأييد الذي أرْغَم المشركين وخَفَض مَنارَ المُلْحدين؛ وآثره به من مَزايا التقديس والتمجيد، وألْهمه إيَّاه من ٱستكمال السِّيرةِ التي أصبحَ الزمَنُ بجمالها حالِيَ الجِيد؛ وأنْجد به مُلْكَه من مُوالاة النصر ومُتابعة الإظفار، وحازه له من مَواريث النبوّة المنتقِلة إليه عن آبائه الأطهار؛ وٱصطفاه له من إيضاح سُبُل الهدىٰ المعتاد، وألهمه إيَّاه من إسباغ مَلَابس الرحمة علىٰ الحاضر من الأُمَم والْباد؛ ووَفَّر عليه ٱجتهادَه من ٱستِدْناء المصالح وٱجتِلابها، وصَرَف إليه هِمَمَه من تمهيد مسالك الأَمَنة وفَتْح أبوابها ـ يتصَفَّح أمور دولته تصَفُّح العانِي بتهذيبِ أحوالها، ويتفَقَّد أعمال مملكته تفقُّدا يُزِيل شَعَثها ويُؤَمِّن من ٱختلالها؛ ويَعْدِق المهمَّاتِ الخطيرةَ بالصدُور الأفاضل من أصفيائه، ويَزِيدُ في رفْع منازل أوليائه إلىٰ الغاية التي تشهد بجَلَالة مواضعهم من جميل آرائه؛ ويُفِيضُ عليهم من أنوار سعادتِه مايظهر سناه للأبصار، ويمنَحُهم من ٱصطفائه مالايَزالُ دائمَ الثَّبات والٱستقرار؛ ويُعوِّل في صيانة الرعايا من المَضارّ، وحراسةِ الأعمال المتميِّزة من عَيْث المفْسدين والدُّعَّار، علىٰ من تَرُوع مَهابتُه ضواريَ

الآساد، وتكْفُل عزائمُه بقطع دابِر الفَساد؛ ويُبْدِع فى السياسة الفاضلةِ ويُغْرب، وتُعْجب أنباؤُه فى حسن التـدبير وتُطْرِب؛ ويعُمُّ الرعايا بضُروب الدَّعَة والسُّكون، ويشْمَلُهم من الأَمَنة والطُّمأنينة بأنواعٍ وفُنُون؛ وتقومُ كفايتُه بسَـدّ الخلَل وتقويم الأَوَد، ويبلُغُ فى تيمُّنـه فى آكتساب المَحامد إلىٰ أقصىٰ غايةٍ وأبعـدِ أمَد؛ ويُعْنىٰ بحفظ النَّواميس وإقامةِ القَوانين، ويَدْأبُ فى آسـتعمال السيرةِ الشاهدةِ له باستكمال الفضل المُبِين؛ ولايألُو جُهْدا فى تقريب الصَّلاح وآستِدْنائه، ويقْصِد من الأفعال الجميلة ماتلْهَج به الألْسُن بإطابة ثَنائه.

ولـمَّـا كنتَ أيُّها الأميرُ نَجْمـا من نجوم الدين المُضيئة المشْرِقه، وثمرةً من ثَمرات دَوْحة العَلاء الزَّكيَّة المُورِقه؛ وفَذًّا فى الفضائل البديعه، وفَرْدا فى المَحاسن التى لم تَفُزْ بنظير ذِكْرها أُذُنٌ سميعه؛ وسيفًا يحْسِم داءَ الفساد حَدّاه، وكافيًا لايتجاوَزُه الآقتراح ولا يَتَعدّاه؛ وماجدًا حازَ المَفاخِرَ عن أهل بيته كابِرا عن كابِر، وعَلَما فى المـآثر يهتَدى به الأعيانُ الأكابِر؛ وهُمامًا تملأ مهابَتُه القلوب، وماضِـيًا تلوذُ بمَضَائه الأعمـالُ الخطيرة وتئُوب؛ وصَدْرا تُقِرّ له الرؤَساءُ بارتفاع المنْزِله، ومُهذَّبا أغْرَتْه شِيَمُه الرضيَّة ببَثِّ الإنصاف وبَسْط المَعْدِله؛ وحازِمًا لايُخْشىٰ آختِداعُه وآغتِرارُه، وعازمًا لايَكْهَم عزمُه ولا يَكلُّ غِرارُه . وقد ألقَتْ إليكَ المناقِبُ قِيادَها مُطيعه، وأحلّتْك الرياسةُ فى أشْمَخ ذِرْوة رَفيعه؛ وتألّفتْ عندك الفضائلُ تألُّفَ الجواهِر فى العُقُود، وتكفَّلتْ لك مساعيكَ المحمودةُ بتضاعُف المَيَامن وترادُف السُّـعود؛ وتكاملتْ فيك الخِلالُ المطابِقـة لكَرَم أعراقِك، وآسـتُعملت الأفعالُ الشاهدةُ بمبالغتك فى وَلاء أئمَّتـك وإغْراقِك؛ وحصـل لك من الآنتِمـاء إلىٰ البيتِ الصالحى الكريم ماكَسَبك فخرا لايبْرَح ولايَرِيم؛ وخصَّك فى كلِّ زمن بمُضاعفة التفْخيم والتقدِيم؛ وأنالكَ من الإقبال غايةَ الرَّجاء، وجعل وَجاهتَك فسيحة الفناء، وسيعةَ الأرجاء . ولك المهابةُ التى تُغْنِى

غَناء الجُيوش المتكاثرةِ العَـدَد ، والشجاعة التى تُسَـلِّط قوارِعَ الدَّمار علىٰ منْ كفر وعنَد ، والعزمُ الذى ٱستمدّتِ السيوفُ الباترةُ من مَضَائه ، وعَزَّ جانبُ التوحيد بٱنْتِضائِه لجهاد أعداءِ الله وٱرْتِضائه ، والإقدامُ الذى تلُوذُ منه أُسُودُ الوقائع بالفِرار ، والبأْس الذى لايعْصِم منه الهربُ ولا يُنَجِّى من بَوادره الحِذَار .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاه ووزيرُه ، وصائنُ مُلْكه وظهيرُه ، السيدُ الأجلُّ الذى (١) فأثنىٰ عليك ثَناءً طالَ وطاب ، وحَرَّر فى ذِكْر مَناقبك ومَحاسِـنك القولَ والخطاب ، وذكَر مالك [من الأعمـال] فى الأعمال الغَرْبيه ، التى أعادتِ الأَمَنةَ علىٰ الرعيه ، وما ٱستعمَلْت فيهم من السِّيرة العادله ، والسياساتِ الفاضـله ، وقرَّر لك الخدمةَ فى ولايةِ أعمال الغربيَّة ، ـ فخرج أمر أمير المؤمنين إليه بأن يُوعِز إلىٰ ديوان الإنشاء بكتب هذا السجلِّ لك بالولاية المذكورة .

فتقلَّد ما قُلِّدته عاملًا بتقوىٰ الله سبحانه الذى إليـه تَصِيرُ الأمور ، ويعلَم خائنـةَ الأعيُن وما تُخْفِى الصُّدور ، وقال الله جلَّ من قائل فى كتابه المكنون : ﴿ إنَّ ٱللهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَٱلَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ فاعْمُمْ بالعدل مَنْ تشتمِل عليه هذه الوِلايه ، وٱنْتَهِ فى حِياطتهم وكَلاءتِهم إلىٰ الغايه ، وصُنْهم من كلِّ أذًى يُلِمُّ بساحتِهم ، وتوفَّرْ علىٰ ماعاد باستِتْباب مصلَحَتِهم ، وٱخْصُص أهلَ السترِ والسلامة بمـا يُصْلِح أحوالَهم ، ويَشْرح صدُورَهم ويبْسُط آمالَهم ، وقابِلِ الأشرارَ منهم بمـا يُدَوِّخ شِرَّتهم ، ويكُفُّ عن ذوى الخير مَضَرَّتَهم ، وٱشْـدُدْ وطْأَتك علىٰ الدُّعَّار وأهل العِنَـاد ، وتطَلَّبْهم حيثُ كانُوا من البلاد ، وٱقصِدْ حمايةَ السُّـبُل والطُّرُقات ، وصُنْها من غوائل المُفْسِدين علىٰ ممَرّ الأوْقات ، ومَنْ ظفِرتَ به من المُجْرمين فاجعَـلْه مُزْدَجرا لأمثـاله ، وموعظةً لمن يسلك مَسْلكَ ضَلالِه ، والمُقْدِمون علىٰ سَفْك الدَّمِ الحرام ، والمرتكِبُون لكبائر الذُّنوب

(١) بياض بالاصول .

والإجرام، فامتثِلْ فيهم ماأمر اللهُ تعالىٰ به فى كتابه الكريم، إذ يقول : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِى الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِى الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ .

وأجْزِلْ حظَّ التُّوّاب فى الحُكْم العزيزِ من عِنايتك ، واجعَلْ لهم نصـيبًا وافرًا من ٱهتمامك ورِعايَتك؛ وعاضِدْهم علىٰ إقامة مَنَـار الشرع، وأجْرِ أحوالَهم علىٰ أجمل قضيَّة وأحسَنِ وضْع . والمستخدَمُون فى الأموال، تُشَدّ منهم شَدًا يبَلِّغُهم الآمال ، ويقْضِى بترجيـة الآرتفاع وتثمير الآستِغْلال؛ وعاضدْهم علىٰ عمـارة البِلاد، ووَازِرْهم علىٰ ماتكونُ به أحوالُها جارِيةً علىٰ الآطِّراد . والرجالُ المركزِيَّةُ والمُجرَّدون فاستنهضهم فى المهِمَّات القريبـةِ والبَعيده ، وخُذْهم بلزوم المَنَاهج المستقيمةِ السَّـديده ؛ وقابل الناهضَ منهم بمـا يستوجِبه لنَهْضَته ، وقَوِّم المقصِّر بمـا يُوزِع من يَسْـلُك مَسْلَكه ويقتفى طريقتَه؛ فاعلَمْ هذا وٱعمَلْ به وطالع؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهــذه نسخةُ سجِلٍّ بولاية ثغر الإسكندرية، كُتِب به لآبن مَصَّال، من إنشاء القاضى الفاضل، وهى :

أما بعـدُ ، فإنَّ أمير المؤمنين لمـا أكرمهُ الله به من شَرَف المَنْصِب والنِّصاب ، وأجارَ العبادَ بآبائه الطاهرين من عِبـادة الأوثانِ والأَنْصاب ؛ وأوْرَدَهم من مَوارِد حِكَمِه التى كلُّ صادرٍ عن رِيِّ قلبه منها صَاد ، وسَخَّره بأمره من رِياح الصواب التى تَجْرِى بأمْرِه رُخَاءً حَيْثُ أصاب؛ وأصْمىٰ بسهام عَزائِمه، من مَقَاتل الباطِل، وحَلّٰى بأنوارِ مكارِمه، من أجيادِ الأمانِيِّ العَوَاطل، وأنجزه علىٰ يَدِ أياديه من وُعُود سُعودٍ تظَلُّ السُّحُب المَواطِرُ بمثلهـا هَوَاطل؛ وتوحَّده به من الإمامـةِ التى أعزَّ بها

أحزابَ التوحيد، وأجْراه من بَركاته التى لاتقول الآمالُ لهـا هَلْ من مَزِيد، وأَوْراه من فتَكاته التى لاتقول لهـا الآجالُ هلْ من مَحِيد، وأجدّبه من إرادته لأَزْمة الأيام فهى بينَ إنعامه و إسقامه تُفيد وتُبيد ؛ وأحدَثه له من مُعْجِزات التأييـد التى تملك أحاديثها رِقَّ التأبيد، وشرّف به قَدْره فى ملكُوت السمٰواتِ والأرض والملائكةُ له أنصـارٌ والملوكُ له عبيـد ؛ وألهمه من إيداع جَلىّ صـنائعه حيثُ لا يُنْكِرُ المقلِّد ولا يُستَغْرب التقليـد ، وأنطقَ به لسانَ كرمه من بدائع إحسان تَرُوقُ بين التَّرديد والتوليد ـ ينظُر بنُور الله فيمن ينظُر به للجمهور، ويجْلُو عقائلَ المَكارم علىٰ مَنْ هو ماهِرٌ فى تَقْدِمة المُهُور، ويُرْبِح الذين يرجُون بوَلاَئه تجارةً لن تَبُور ، ويقتَدِح الأنوارَ المُودَعة فى سَواد الشَّباب كما يُودَع فى سَواد العين بياضُ النُّور، ويرْفَع رُتَب الأعيان حتّٰى إذا تَعَـاطاها سِواهم ضُرِبَ بينـه وبينها بِسُور ، وتَعُود أياديه إلىٰ بيوت النِّعَم فكلُّ بيتٍ تَوَلّاه كالبيت المَعْمور ؛ ويُهْـدِى السرُورَ بهـم إلىٰ صُـدُور الثُّغور ، والابتِسامَ إلىٰ ثُغور الصُّدور؛ ويرىٰ أنهم يستوْجِبُون فواضِلَه ميراثا ، وإذا سُلِّمت إليهم أعِنَّةُ الوِلايات كانتْ لهم تُرَاثا ، وإذا تبوَّءُوا الرُّتب العلية كانت الرياسـةُ لهم دارا والسِّياسة أثَاثا ؛ لا سِيَّما الصدرُ الذى عرفته السعادةُ لدولة أمير المؤمنين واحدا يجمعُ فضْلَ سَلَفه ، ونَدْبا ماعُرِضتْ عليه جَواهرُ الدّنيا فضْـلا عن أعْراضِها إلّا ولّاها عِطْفَ نَزاهته وظَلَفه ؛ وألْمعِيًّا تتناثَرُ معانِى المَعالِى من شمائله كما تَنْتثِر من غُصْن القلَم ثِمـارُ أحْرُفه، وكُفْأً للصُّـدور من أنهضَـه بها بنَصِّ تكلُّفه أنهضه بها فضْلُ كَلَفه ؛ وقوّامًا بالأمور يَمْضِى عليهـا مَضاءَ النَّجْم فى بَحْرِ حِنْدِسـه لا السَّهْمِ فى نَحْر هَـدَفه ، ومَلّاكا للثُّغور إذا حلَّ منها فى إسْكَنْدَرِيَّتها فهو علىٰ الحقيقـة نَجْمٌ حلَّ بُرْجَ شَرَفه ؛ وطَوْدا للوَقَار يعترِى الحلمُ منـه إلىٰ أقْومه لا إلىٰ أحْنَفه ، وشَرْطا للاختيار ، يكتفى مُصطَفيه منَّـةَ مُعرّفه ومَئُونة معنّفه ؛ ومعنًى للفَخار ، لم ينتِصـفْ فيـه من لسان

واصـفه، مَسْمَعُ مستوْصِفه ، وعلَمـا للأنظار ، يبدُو لهم مَنارُ إشراقه ويخفَىٰ عليهـم منـالُ شَرَفه .

ولـمَّـا كنتَ أيُّها الأمير واسطةَ عِقْد هـذه الأوصاف الحُسْنىٰ ، ومُنْجِدَ ٱلفاظهـا من الحقيقةِ بالمعْنىٰ الأسْنىٰ ؛ المتوحِّدَ من الرياسة باسمٍ لا يجمَعُ بعـده ولا يُثَنّىٰ ، الجارِيَ إلىٰ غايةٍ من المجد لا يُرَدّ عنهـا عِنانُه ولا يثْنىٰ ؛ الجديرَ إذا وُلِّيَ أن يُسْـكِن الرعيَّةَ اليومَ عَدْلا لا تَسْكنُه فى غدٍ عَدْنا ؛ ويُنْجِز فيهـم وعدَ الله الصادقَ فى قوله : ﴿ولَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنا﴾ . المستبِدَّ بالحمد حتّٰى ٱستقرّ فيما يفْعَل وٱستقرىٰ فيما يُكْنىٰ ؛ الثَّبْتَ الذى لا تقرَعُ الأهوالُ صَـفاتَه ، النَّدْبَ الذى لا تبلُغ الأقوالُ صِفاتِه ، الولىَّ الذى لا تكدِّر الأحوالُ مُصافاتَه ؛ الجامعَ بينَ فضل السوابِق وفَضْل اللواحق ، المتجلِّيَ فى سماءِ الرِّياسة نَيِّرا لا تهتَضِمه صُروفُ الليالى المَواحِق ؛ المشكورَ الفَعَال لا بألْسِـنة الحقائبِ بل بألْسِـنة الحقائق ، المسـتبِدَّ بالهِمَم الجلائلِ المدلولةِ علىٰ المَحَاسن الدقائق ؛ المسـتمدَّ صَوْبَ الصواب من خاطرٍ غيرِ خاطل ، المستجِدَّ ثَوْبَ الثواب بِسَعْيٍ ينْصُر الحقَّ علىٰ الباطل ؛ المستعدَّ لعُقَب الأيام بأقْرانٍ من الحزم تَثْنيها علىٰ الأعقاب ، المستردَّ بمَساعيه فَوارِطَ محاسِنَ كانتْ مَطْويَّة فى ضمائر الأَحْقاب ؛ السامِيَ بهِمَّته ، إلىٰ حيثُ تتقاصَرُ النواظِرُ السَّوامى ، المُقَرْطِس بعزيمته ، حيثُ لا تبلغ الأيْدى الرَّوامِى ؛ المسـتقِلَّ بقَطِّ نَواجِم الخطوب وحَسْمِها ، المستقرَّ فى النفوس أنه يقُومُ فى ظُلَمِها مَقـام نَجْمِها ؛ المُطْلَقَ وجْهُا فلا غَرْوَ أن تُجْلىٰ به الجُلّٰى ، المطلقَ وصْفا حسنًا فلا يعرض له لوْلا ولا إلّا ؛ المؤيَّدَ العَزَمات ، فى صونِ ما يفوَّضُ إليه ويَليه ، المتَّقىٰ الوثَبَات ، ممَّنْ يُجاوِرُه من الأعداء ويَليه ؛ المُحْيِيَ بمساعاه ماشاده أوَّلوه ، والمتوضِّحة فيه نصوصُ المجـد الذى كانوا تأوَّلوه ؛ والآوِيَ إلىٰ بيتٍ تناسقَتْ فى عُقُوده الرؤساءُ الجِلَّه ، والطالعَ منه فى سماءٍ إذا غـرَبَتْ منها البُدورُ أشرقَتْ فيها الأهِلَّه .

ولقد زِدْتَ عليهم وما قَصَّروا زيادةَ أبيضِ الفجْرِ علىٰ أزْرقِه ، وكنتَ شاهدَ من يَرْوِى مناقِبَهم البديعه ، ودليلَ منِ ٱدَّعىٰ أن المَكَارم لكم مَلْكَةٌ وعند سِواكم وَدِيعه ؛ وقبِلتَ وصاياهم فى المعالِى فكأنما كانتْ لديْكم شَرِيعه ، ونَصَرتم الدولة العلويَّة فكنتم لهـا أمثَـلَ أولياءَ وأخصَّ شيعه ؛ وتجمَّلتْ أنسابكُم باصطناعها وكفا كم إن عُدِدتم لصنائع اللهِ صَنِيعه ، وأباحتْكُم من ٱصطفائها كلَّ درجةٍ علىٰ تعاطى الأطماع عليَّةٍ مَنِيعه ؛ وقدّمتْكُم جيشَ برِّها وبحْرِها ، وكان منكم سـيفُ جِهادها ونجْمُ ليلها وفارسُ كَرِّها ؛ وصالتْ بكم علىٰ أعدائها كلَّ مَصَـال ، وأغْربتْ منْ يليهـا إلا إذا ٱسـتقرّتْ فى داركم إلىٰ مَصَّال ؛ وحينَ خرجْتَ منها خائفًا تترقَّب ، وأبقيتَ فيها حائفا يتعقَّب ؛ كنتَ الذهبَ المشهور ، الذى ما بَهْرجه الرَّغام ، والحَـرْفَ المجْهُور ، الذى ما أدْرجه الإدغام ؛ وكنتَ وإنْ كنت بينَ الكُفَّار ، عنهـم شديدَ النِّفار ، وحللْتَ فيهـم محلَّ مؤمنِ آل فِرْعونَ يدْعُوهم إلىٰ النجاة وإن دعَوْه إلىٰ النـار ؛ وعُدْتَ إلىٰ باب أمير المؤمنين عوْدَ الغائبِ إلىٰ رَحْله ، والآئِب إلىٰ أهلِه ؛ وٱستقرَرْتَ به ٱسـتقرارَ الجوهر فى فَصْله ، والفَرْع فى أصْـلِه ؛ وأبان الٱستشفافُ عن جوهرك الشَّفَّاف ، وخرجتَ من تلك الهَفوات خروجَ الرياح لاخُرُوج الكَفاف ؛ وأعربتِ السـعادةُ إذ حيَّتْك بمِشيبٍ أسْـوَد ، وتبِـعَ الأماجدُ غُبارَك الذى يُرْفَع من طريق السُّودَد ؛ وٱعتلقْتَ بعُروة الجِدّ ، فلسْتَ من دَدٍ ولا منْك دَدْ ، وصَبرّت قلبَ العيشِ الأصفىٰ بعـدَ العيْش الأنكد ؛ لاجرم أن أميرَ المؤمنين أنساك سيئةَ أمْسِـك بحسنةِ يومك ، وسَما بك إلىٰ أعلىٰ رُتَب الأولياء وأغناك عن تعرُّضِ سَوْمك ، وأنعَمَ بك علىٰ قومٍ ماعرَفُوا إلا رياسةَ قوْمك .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين أمينُ مملَكته ، ويمينُ فَتْكتِه ؛ السيدُ الأجل الذى أتىٰ اللهُ به سَهْما إلىٰ مصْرَ وهى كنانَتُه ؛ وأفرده بمزيَّة السـبْق فلا حظَّ لُمساجله إلا أن

تَدْمىٰ بَنَانَتُه ، ورعىٰ الرعيَّةَ منه ناظرٌ لاتُلِمُّ بناظره مَراوِدُ الهُجُود ، وقام بالملك منه قائمٌ لايزالُ يُورِدُه مَوارِدَ الجُود ؛ وأغْنَتْه يدُ الغِلَاب عن لسان الخِلَاب، ونال نادرةَ الأمَلِ فى نادرَةِ الطِّلَاب ؛ وجَمَّت فتكاتُه من الهَرَمين إلىٰ الحَرَمين ، وصَرَّف الرُّمحَ تصريفَ القَـلَمِ وكأنه يصُولُ ويَصِلُّ بقلمين ؛ وردّ اللهُ به العدُوَّ منخَذِلا ، وطالمَـا لَقِيـه فأقام مُنْجَدلا ؛ وأضحىٰ به ذيلُ النعمة منسَحبا وسِـتْرُ الأَمَنة منْسَدِلا ، ودَبَّرَ الأمورَ فأمسكها حازمًا وعَقلَها متوكِّلاـ فأَنْهىٰ مالسلَفِك عند الأئمة الخلفاء من مزِيَّةِ الآصطفاء، وما لَكَ فى نفسِك من الحسَنات التى مابَرِحت بارحةَ الخَفاء؛ وما ٱطَّلَع عليـه من خِلالك التى ماأخلَّتْ بمَنْقَبـه ، وأفعالك التى ماتغايرَتْ فى يومٍ ذى نِعْمة ولا يومٍ ذى مَسْـغَبه؛ وما لَكَ من وثائق العُقُود، وما فيك من الأوصاف المؤكِّدة لعَلَائق السُّـعود؛ وقرَّرَ لك الخدمةَ فى كذا وكذا ـ خرج أمرُ أمير المؤمنين إليه بأن يُوعِزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بكتْب هذا السجلّ لك بالخِدَم المذكورة وهى التى فُرِّقت لسَـلَفك وجُمِعتْ لديك، كما أن محاسِنَهم المفترقةَ منتظمةُ العقُود عليـك: ليُكَمِّل لك ولايَتَي الثغر والسيادةِ فى حال ، وليسُدَّ بك ثَغْرَ الجهاد وثغرَ الإمحال، ولتقومَ [فى هذا] مقامَ الجَحْفَـلِ الجرَّار وفى ذلك مَقامَ الحَيَا الهَطَّال . ولتكون فرائدُ الإنعام عنـدك تُؤاما (١)، وليجعل ٱبتداءَ تصرُّفك لغيرك تَماما، وليختصرَ لك طريقَ الكمال، وليَجْرِى بك فى مَيْدان الشكر طلِيقَ الآمال .

فتقلَّد ماقُلِّدته منهما عاملا بتقوىٰ الله التى هى مصالحُ الأعمال، ومَيدانُ الإنجاح والإجمال، وسبَبُ النجاة فى الآبتداء وعندَ المآل؛ قال الله سبحانه فى كتابه الذى لم يَجْعَلْ له عِوَجا : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ له مَخْرَجا ﴾ .

(١) جمع توأم . قال الأزهرى ومثـله غنم رباب وإبل ظؤار وهو من الجمع العزيز . انظر اللسان ج ١٤ ص ٣٣٨ .

وٱبسُط العدلَ علىٰ من يَحْوِيه هذا الثغرُ الذى هو ثغرُ الثُّغور الباسم، وأَوْلاها بأن تكون أيامُه بأوامر الله وأمر أمير المؤمنين موَاسِم؛ ففيه من صُدُور المحافل، وقلُوب الجَحافل؛ وعُيون المَدَارس، وأعيانِ الفَوَارس؛ وتُجّار الدنيا والآخره، وأخيارِ الأمة المقيمةِ والمسافِره؛ ووُفُور مكارمِ عدلِ أمير المؤمنين التى هى بالرَّجاء واردة وبالرضا صادره، منْ يؤثر أن يكونَ فضلُ السُّكون لهم شاملا، ورداءُ الأَمْن عليهم سابِلا؛ وسَحابُ الإنعام عليهم هاطِلا، وحالُهم فى الآتِّساق لا متغيرًا ولا حائِلا. وساوِ فى الحق بينَ أبْعدهم وأقرَبِهم، ومقيمِهم ومتغرِّبهم؛ وٱعتمِدْ منهم منْ تقدّم ذكُره بما يُرْهِف فى الطاعة خاطِرَه ويُشْحِذه، ويصُونُه من تحيُّف الأيدى الجائرة ويُنْقِذُه؛ وٱخصُص العلماءَ بكرامة تُعينهم علىٰ التعليم، والأعْيانَ بمزيَّة توضِّح لهم مالهم من مَزِيَّة التقديم؛ وٱكفُفْ عوادِىَ أهل الشَّرَه والشرّ، وٱقْمَع غُلَواء من ٱعتزَّ بغير الله وٱغترّ؛ وتوخَّهم بإقامة المَهَابة وبَسْطها، وكفِّ الشوكة وقطِّها؛ وأْمُر بالمعروف وٱنْهَ عن المنكر، وأقِم الحدُودَ إقامةَ من يُثابُ عليها ويُؤْجَر، وتفقَّدْها علىٰ حدِّها غيرَ داخل فى الأقلِّ ولا خارجٍ إلىٰ الأكثر؛ وأذْكِ العيونَ علىٰ منْ يُلِمُّ بسواحل الثغر من أُسْطول العدوّ اللعين ومراكبِه، وٱحجُزْ باليقظة بينَه وبينَ تلْصيص مَطَالِبه، وأْمُرْ أهلَه بٱتخاذ الأسلحة التى يُعِزُّ الله بها جانبَه، ويُذِلُّ مجانبَه؛ وتُبلَغ العدوَّ اللعينَ من ذكرها ما يُعمِلها وهى فى أيديهم موفَّره، ويَبْذُلها فى مَقَاتلهم وبيوتُهم بها معمَّره؛ قال الله سبحانه فى آياته المتلوّه : ﴿ وأعِدُّوا لَهُمْ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوّه ﴾ .

وٱعتمِدْ للأعمال البحريّة مثل ماتقدّم شرحُه من تأمين الأخيارِ وترْويع الأشرار، وتتبعِ كل مُرِيب مستخْفٍ بالليل وساربٍ بالنَّهار؛ ومن ظفِرتَ به قد حاربَ الله فى أرضه، وصار قتْلُه من فرْضه، فنفِّذ حُكمَ الله فيه فى آية السيف وأمضِه؛ وٱدْعُ إلىٰ عمارة بلادها وتخفُّرها، وتفقُّد المصالح بها وتكثُّرها؛ وإطابة أنفُس المزارعين

بمـا تخفِّفه عنهم من وَطْأة كانتْ ثقيله، وتقلّله عنهم من مَغارِمَ لم تكُن قليله؛ فمـا عَمرت البلاد بمثل النزاهة التى هى شِيمتُك المعتاده، والمعْدَلة التى هى من خِلالك مستَفاده؛ واعتمِدْ كُلًّا من النـائب فى الحكم العزيز والناظرِ فى الدعوة الهـادِيَّة والمُشارف بالثغر والعُمَّال برعاية تحفَظ مَراتِبَهم، وتلْحَظ مَطالِبَهم؛ وتُنفِّذ الأحكام، وتَبْلُغ بمـا ينظُرون فيه من المصالح غاياتِ التَّمام، وتُعِزُّ طائفة الإيمان، وتُظهر عليهم أثَرَ الإحسان؛ وتستدرُّ حَلَب الأموال، وتستديمُ عمارةَ الأعمال؛ وتقْضى بمواصـلة الحمول وتحصيل الغِلَال، وتعودُ بها عليك عوائدُ الأجْر والجَمَال؛ ومثلُك آشتهارًا أيُّها الأميرُ مَنْ وُلِّى فلم تُطَل له الوصايَا التى يَحتاجُ إلىٰ إطالتها سِواه؛ ويُوثَق بما يُذكيه من عُيون حزمٍ غيرِ غَوَافِلَ ولاسَـوَاه؛ ويحقِّق أن تقواه رقيبُ سِرِّه ونَجْواه، وأن أميرَ وَرَعه يحكم علىٰ أسيرِ هَواه؛ والله سبحانه يجعل نعمةَ أمير المؤمنين لدَيْك مأمولةَ الدَّوام موصولةَ الحبل، ويُتِمُّها عليك كما أتمَّها علىٰ أبوَيْك من قَبْل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وعلىٰ هـذا النمط كانت سجلَّات سائر ولايات أعمـال الديار المصرية ، فكانت تُكتَب علىٰ نظير ذٰلك فى الوجه القبـلىّ ولايةُ الجيزيَّة، وولايةُ الإطْفِيحيَّة، وولاية البَهْنَساويَّة، وولاية البُوصـيريّة، وولاية الأُشْمُونين والطَّحاوِيَّة، وولاية السُّـيُوطية ، وولاية الإخْميميَّـة ، وولاية الفَيُّوم، وولاية واحِ البَهْنَسا ، وولاية الواحِ الداخلة ، وولاية الواحِ الخارجةِ . ومن الوجه البحرىّ ولايةُ القَلْيُوبيـة ، وولاية مُنْيـة تردى وهى مُنْية غَمْر، ووِلَاية المُرْتاحية، وولاية الدَّقَهْليـة ، وولاية مدينة تِنِّيس ــ وبها كانتْ دار الطِّراز ــ وولاية المَنُوفيَّـة ، وولاية جزيرة بنى نَصْر وربمـا أضيفَتْ إلىٰ المَنُوفية وعُبِّر عنهما بالمَنُوفيَّتين، وولاية جزيرة قُوْسينيًّا ، وولاية البُحَيرة ، وولاية ثَغر رشـيدِ المحروس، وولاية ثغر نَسْتَراوه ، وولاية ثَغر دِمْيـاط ، وولاية الفَرما، بساحل الشامى فيما دُونَ العَرِيش .

وأما البلاد الشاميَّة فقد تقدّم أنهــا كانتْ خرجتْ عنهم وتملَّكت الفَرَنْج غالبَ سواحل الشام، ولم يبقَ معهم إلا ساحلُ عَسْقلان وماقاربَه وكان مقرُّ الولاية بهــا فى عَسْقلان .

وهذه نسخة سجل بولايتها، وهى :

أما بعــدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ ما وَفَّر أميرُ المؤمنين حظَّه من العنــاية والاشتمال ، واعتقد العُكُوفَ علىٰ مَصالحه من أشْرَف القُرُبات وأفضل الأعْمال ؛ وأسندَ أمرَه إلىٰ من يستَظْهِر علىٰ الأسباب المُعْيِية بحُسْن صَبْره، وعَدَقَ النظر فيه بمن لا يُشْكِل عليه أمْرٌ لمَضائه ونَفَاذه ومعرِفتــه وخُبْره، ما كان حِرْزا للمُرابطين ومَعْقِلا ، وملتَحَدا للمجاهدين ومَوْئِلا ، ومُوجِبا لكلّ مجتهِد أن يكون لدَرَجات الثواب مرتقياً متوقِّلا ؛ عَمَلا بالحَوْطة للإسلام الذى جعله الله فى كَفَــالته وضَمَانه، وتَمــادياً علىٰ سياستِه التى أقرّ بفضلها إقرارَ الضرورة كافَّةُ مُلوكِ زمانه؛ وحِرْصا علىٰ الأفعال التى لم يزَلْ مقصودا فيهــا بألطاف الله تعــالىٰ وتوفيقِه، وتبَتُّلا للأمور التى أرشده اللهُ سبحانه فى تدبيرها إلىٰ مَنْهَــج الصواب وطريقِــه ، ومضاعفَةً من الحسنات عند أوليــائه أهل الحق وحِزْبه وفريقِه .

ولمــا كانت مدينةُ عَسْقلان ــ حماها الله تعالىٰ ــ غُرَّةً فى بَهيم الضَّلال والكُفْر، وحَرَما يمتــازُ عن البلاد التى كَلَّمها الشِّرْك بالنابِ والظُّفْر؛ وهو من أشرَف الثُّغور والحُصون، وأهلُه أنصارُ الدّين القيِّم المحفوظ المَصُون؛ وكنتَ أيُّها الأمير من أعيان أُمَراء الدولة وكُبَرائهم، ووُجوهِ أفاضلهم ورُؤَسائهم؛ ولك فى الطاعة استرْسالُ الأَمْن فى مَواطِن المَخَاوف ، وفى الذَّبِّ عنهــا وحمايتِها مواقفُ كريمةٌ لا تُوازىٰ بالمَواقف ؛ وقد وصلْتَ فى وَلاَئهــا القديمَ بالحديث والتــالدَ بالطريف ؛ وحينَ وُلِّيتَ مهمَّاتٍ

آستُنْجِد فيها بعَزْمك، وآستُعين عليها بحَزْمك؛ تهيَّب الأعداء فيها ذِكْرَ آسمك، وكان من آثارِك فيهـا ماشُهِر غُفْلُها[1] بوَسْمك؛ فلا يُباريك مُبارٍ إلا أربَيْت عليـه وزِدْت، ولا يُناويك مُناوٍ إلا أنسيتَ ذِكْرَه أو كِدْت؛ فكم لك من مقـامٍ محمودٍ يَسِير ثناؤُه ووصفُه، وكم لك من ذكرٍ جميـل يفُوح أرَجُه ويتضوّع عَرْفُه، وكم لك من مَجَالٍ فى المشايَعةِ لا يقصُر أمدُه ولا يكبُو طِرْفُه؛ والسـيد الأجلُّ الأفضلُ الذى عظَّم الله قدرَه ورفع مجْدَه، وجعله فى الغَضَب لتوحيده دُونَ جميع البريَّة أُمَّةً وحدَه؛ وألهمه التجرُّد لنُصرة الإيمـان فقام بحقِّ الله لمَّـا غفَل الملوكُ وقعَدُوا، وأمدّه بموادّ السعدِ فآستيْقظ بمُفْرده حين نامُوا عن آستخلاصِه ممـا عَرَاه ورقَدُوا؛ وأضحىٰ آنتصابُه آيةً أظهرها الله للّه، وغدا آنتصارُه مُعْجِزةً حسَم بها فى رفع مَنَار الدِّين كُلَّ عِلة؛ فهِمَّته مصروفةٌ علىٰ ما يُعِزُّ الشريعـة الحنيفيه، وعَزْمته موقوفةٌ علىٰ الدّفع عنهـا بأطراف الذَّوابل وحدّ المَشْرَفيّــه؛ فبلَّغه الله فى كلّ ما يحاوله ما يُضاعف فَخْرَه، وأعانه علىٰ مايقدّمه لمَعَاده ويجعله فى الآخرة ذُخْره؛ بحوله ومَنّه، وطَوْله وفضله .

فلا يزال هذا السيدُ الأجل يُثْنى عليك ثناءً يخلِّد لك ولعَقِبك مَجْدًا باقيا، ويحبُوك من الوصف والإطراءِ بمـا يجعَلُك فى مراتب الوَجاهة والنَّباهة ساميًا راقِيا؛ ويُرشِّحك من الخِدَم لأجلِّها قَدْرا، ويُطْلِـع منك فى آفاق سمائِها بَدْرا، ويجعلُ لك بما يؤهِّلك له صِيتًا ويُسَيِّر لك ذِكْرا؛ وحين جدّد شُكْرك، وأوصل علىٰ عادته ما يُشَيِّد أمْرك؛ قرّر لك ولايةَ «ثغر عَسْـقلان» ـ حماه الله تعـالىٰ ـ الذى هو ثَغْر الدِّين، وكِنَانةُ الموحِّدين؛ ووَزَرُ الأتقياء المجاهِدين، وشجًى فى صـدُور الكَفَرة المعانِدين؛ فأمضىٰ أمير المؤمنين ماراٰه من هذا التقرير، وعلِمَ أن البركة مضمونةٌ فيما يتكلَّفه من التدبير؛

(١) الغُفل بالضم مالا علامة فيه من القداح والطرق وغيرها ومالاسمة عليه من الدواب . انظر القاموس .

وخرج أمرُه إلىٰ ديوان الإنشاء بكتْب هـذا السجل بتقليدك ولايةَ هـذا الثغر المحروس وعمَلِه ، وما هو منتظم معه من سَهْله وجَبَله .

فاعْرِف قدْرَ هذه النعمة التى رفعَتْك علىٰ جميع الأمَراء، وأغناك فيها حُسْن رأى أمير المؤمنين ووزيرِه السيدِ الأجلِّ الأفضلِ عن الوسائط والسُّفَراء ؛ وأحلَّتْك أعلىٰ مراتبِ الرِّفعة والسُّمُوّ، وأحْظَتْك مع بُعْد الدّار بمزِيَّة القُرْب من قَلْبيْهما والدُّنُوّ .

فتقلَّدْ ما قلَّدك أمير المؤمنين من هـذه الوِلاية الشامخةِ المحَلّ ، التى غدَا محظُورُها علىٰ غيرك من المُبَاح لك المُحَلّ ؛ وتلَقَّها من الشكر بما يجعلُها إليك آوِيَه ، ولدَيْك مقيمةً ثاوِيَه ؛ وآعمَلْ فيها بتقْوىٰ الله التى إذا أظلمتِ الخطوبُ طلعَتْ فى ليلها فجرا، قال الله عز من قائل : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرا﴾ .

وآشمَلْ أهلَ هذه الولاية بالمُماثلة بينهم فيما كان حَقّا، ولا تجعَلْ بين الشريف والمشروفِ فى الواجب فَرْقا ؛ وأْمُر بالمعروف وآبعثْ عليه، وآنْهَ عن المُنْكَر وآمْنَع من الإجْراء إليه ؛ وأقِم الحدود مستَمِرّا فى إقامتها علىٰ العاده، ومتوَقِّيا من نقص مايُؤْمَر به منها أو زِياده؛ وآصرِف النصيبَ الأجْزَل، الأوفرَ الأكمل، إلىٰ الآستيقاظ للعَدُوّ المخذُول المجاورِ لك والبحثِ عن أخبـاره وعَمَل المَكايِد له ، ومواصلته بما يُديم مخافَتَه ووَجَلَه ؛ وآغْزُه فى عُقْر داره ، وآقصِدْه بما يقضى بخَفْض مَنَاره ؛ ولاتُهمِل تسييرَ السَّرايا إليه ، وإطْلاعَ الطلائع بالمَكارِه عليه ؛ وآعتمِدْه بما يُشَرِّد عنه لَذيذَ مَنامه، وآزْرَعْ فى قلبه خوْفا يهابُك به فى يقَظَته وفى أحلامه . وآفعَلْ فى أمر من يجرّدُ إليك من عسكر البدَل المنصورِ فى تقرير نُوَب المَناسر، ولتتخيَّرْ لها كلَّ متوَثِّب علىٰ الإقدام مُتجاسِر، ماتقتضيه الحالُ مما أنتَ [أ]قوم لمعرفته ، وأهدىٰ النـاس فى سبيله ومَحجَّتـه . ووفِّر حظَّ القاضى المَكينِ متولِّى الحكْم والمشارفة من

إعْزازِك وإكرامِك ، وٱشتمـالِك وٱهتمامِك ، ورعايتِك ومعاضـدَتِك ، والعـمل فى ذلك بمـا هو معروفٌ من سياستِك ، ومشهورٌ من رِياستك ؛ وكذلك المسـتخْدَم فى الدَّعوة الهاديَّة ثبتها الله تعـالىٰ ، فاعتمِدْه بمـا يُعِزُّ أمره ، ويبسُط أملَه ويشْرَح صدْرَه . وضافِرْ علىٰ أمرِ المال ، ووُفور الاستِغْلال ، والعملِ من ذٰلك بمـا فيه أكبرُ حظٍّ للديوان . وٱجْرِ علىٰ ماهو مشهورٌ عنك فى وِلَايتك من حُسْن السياسة ، والعملِ بقَضَايا المصلحة ، والتبتُّل لما تستقيمُ به أمورُ الخَدَمة ، وحفظ أهلِ السلامة وأربابِ الدين ، وإعمال السيف فى مستوجِبيه من المفسِدين والمتمرّدين ، ممـا أنت أنفَـذُ الوُلاة فيه ، وأعلمُهم بما يوجِبُه الصوابُ ويقتضِيه ؛ فاعلَمْ هذا وٱعمَلْ به ، وطالِـعْ مجلس النظر بمـا تجب المطالعةُ بمثله ؛ إن شاء الله تعالىٰ . (١)

المـــــذهب الثـانى (٢)

(أن يفتَتَح مايُكْتب فى الولاية بلفظ « هــذا ماعَهِد عبدُ الله ووليُّه فلان أبو فلان ، الإمامُ الفلانىُّ أميرالمؤمنين ، لفلان الفلانىِّ حينَ وَلَّاه كَيْتَ وكَيْتَ » من غير تعرّضٍ لتحميد فى أوّل مايُكْتَب ولا فى أثنـائه ؛ ثم يقال : « أمره بكذا وأمره بكذا » علىٰ قاعدة ما كان يكتَب فى العهود بديوان الخلافة ببغداد ، وهو قليل الاِستعمالِ عندهم للغاية القُصْوىٰ ، ولم أظْفَر منه بغير هذا العهد)

وهذه نسخةُ عهْد علىٰ هذه الطريقة ، كُتِب به عن الحاكم بأمر الله الفاطمىّ ، للحسـين بن علىّ بن النُّعمان ، بقضاء الديار المصرية وأجنادِ الشام وبلادِ المَغْرِب ، مضافًا إلىٰ ذلك النظرُ فى دُور الضرب والعِيار وأمْرُ الجوامع والمساجد ، وهو :

(١) فى بعض النسخ هنا زيادة نصها «وأما الوظائف الدينية فنها» ثم ترك بياضا بقدر نصف صفحة .
(٢) وقع فى الأصول الضرب الثانى وهو سهو من الناسخ .

هذا ما عهد عبدُالله ووليُّه المنصورُ أبو علىّ الحاكمُ بأمر الله أميرُ المؤمنين، للقاضى حُسَين بن علىّ بن النُّعمان حينَ وَلّاه الحكْمَ بالمُعِزِّيَّة القاهرة ومصرَ، والإسكندرية وأعمالها، والحرمَيْن حرسهما الله تعالىٰ، وأجنادِ الشام، وأعمال المَغْرِب، وإعلاء المَنَابر، وأئمّة المساجد الجامعة، والقَوَمة عليها والمؤذِّنين بها، وسائرَ المتصرِّفين فيها وفى غيرها من المساجد، والنظرَ فى مصالحها جميعا، ومشارفَةَ دار الضَّرْب وعِيارِ الذهب والفِضَّة، مع ما آعتمده أميرُ المؤمنين وآنتحاه، وقصده وتوخّاه: من آقتفائه لآثارِه، وآنتهائه إلىٰ إيثارِه، فى كلِّ عِلّيَة للدولة يَنْشُرها ويُحْيِيها، ودنيّةٍ من أهل القبلة يَدْثُرها ويُعَفِّيها؛ وما التوفيقُ إلا بالله ولىّ أمير المؤمنين عليه توكُّله فى الخيرةِ له ولسائر المسلمين فيما قلّده إيّاه، من أمورهم وولّاه.

أمره أن يتَّقِيَ الله عزّ وجلّ حقَّ التقوىٰ، فى السِّر والجهر والنَّجْوىٰ؛ ويعتصمَ بالثَّبات واليقين والنُّهىٰ، وينْفَصِم من الشُّبُهات والشكوك والهَوىٰ: فإنَّ تقوىٰ الله تبارك وتعالىٰ مَوْئِلٌ لمن وَأَلَ إليها حصين، ومَعْقِل لمن آقتفاها أمِين، ومُعوَّل لمن عوَّل عليها مَكِين؛ ووَصيَّةُ الله التى أشاد بفضلها، وزاد فى سَناها بما عهد أنه من أهْلِها، فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿ يٰأيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين ﴾.

وأمره أنْ لا يُنْزِل ماولّاه أميرُ المؤمنين [إيّاه] من الأحكام فى الدِّماء والأشعار والأبشار، والفُروج والأمْوال، [عن] منْزِلته العظمىٰ من حُقُوق الله المحرّمه، وحُرُماته المعظَّمه، وبيّناته المبيَّنة فى آياته المُحْكَمه؛ وأن يجعل كتابَ الله عزّ وجلّ وسنَّةَ جدّنا محمدٍ خاتَمِ الأنبياء، والمأثُورَ عن أبينا علىّ سيدِ الأوصياء، وآبائنا الأئمة النُّجَباء ـ صلّى الله علىٰ رسوله وعليهم ـ قِبلةً لوَجْهه إليها يتوجّه، وعليها يكون المتّجه(١). فيحكم

(١) فى الأصل « إلينا يتوجه وعليها لا يكون متجه » وهو غير مستقيم. تأمل.

بالحق ويقضى بالقسْط ، ولا يُحكِّم الهَوىٰ علىٰ العقْل ، ولا القَسْط علىٰ العَدْل ، إيثارًا لأمر الله عز وجلَّ حيثُ يقولُ : ﴿ فَٱحْكُمْ بَيْنَ النَّـاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِـعِ الْهَوىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَـبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَـا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ ﴾ : ﴿ ولَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ علىٰ أَنْ لَاتَعْدِلُوا ٱعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوىٰ وٱتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَـا تَعْمَلُون ﴾ .

وأمره أن يُقابِل مارَسَمه أميرُ المؤمنين وحدّه لفَتَاه برْجَوان ، من إعْزازه والشَّـدّ علىٰ يدهِ ، وتنفيذِ أحكامه وأقضيتِه ، والقَصْر من عِنَـان كلِّ متطاولٍ علىٰ الحُكْم ، والقَبْض من شكَائِمه ، بالحق المفترَض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه : من تَرْك المجاملة فيه ، والمُحاباة لِذِى رَحِم وقُرْبىٰ ، ووَلِيٍّ للدولة أو مَوْلىٰ ؛ فالحُكْم لله ولخليفته فى أرضه ، والمستكينُ له لحكم الله وحكم وَلِيِّـه يستكين ، والمتطاولُ عليه ، والمباين للإجابة إليه ، حقيقٌ بالإذالة والنُّهوض ؛ فليتق الله أن يستَحْيِيَ من أحد فى حق له : ﴿ وَاللهُ لايَسْتَحْيِي مِنَ الحَقِّ ﴾ .

وأمره أن يجعلَ جلوسَه للحكم فى المواضع الضاحِيَة للمتحاكمين ويَرْفَع عنهم حِجَابه ، ويفتَح لهم أبوابه ، ويُحْسِن لهم ٱنْتصابَه ؛ ويَقْسِمَ بينهم لحظَه ولفظَه قِسمةً لا يُحابِى فيها قوِيًّا لقُوّته ، ولا يُرْدِى فيها ضعيفًا لضَعْفه ؛ بل يميلُ مع الحقِّ ويجنَح إلىٰ جهته ، ولايكونُ إلا معَ الحقِّ وفى كَفَّته ؛ ويذكُرُ بموقف الخصوم ومحاباتهم بينَ يديه موْقفَه ومحاباته بين يدى الحَكَم العدل الدّيان : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَاعَمِلَتْ من خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَه ﴾ .

وأمره أن يُنْعِم النظرَ فى الشُّهود الذين إليهـم يَرْجع وبهم يَقْطَع فى مَنافذ القَضايا ومَقَـاطع الأحكام ، ويستشِفَّ أحوالهم ٱستِشْـفافا شافيا ، ويتعرَّف دخائلَهـم

تعرُّفا كافِيـا ؛ ويسألَ عن مذَاهبهـم وتقلُّبِهـم فى سرهم وجهرِهم ، والجلّيّ والخفيّ من أمورهم ؛ فمن وجده منهـم فى العَدَالة والأمانه ، والنّزاهة والصِّـيانه ؛ وتحرِّى الصِّـدق ، والشهـادةِ بالحق ، علىٰ الشِّيمة الحُسْنىٰ ، والطريقـة المُثلىٰ ، [أبقاه] وإلا كان بالإسقاط للشهادة أَوْلىٰ . وأن يُطالِـعَ حضرة أمير المؤمنـين بمـا يبدُو له فيمن يعـدّله أو يردُّ شهادتَه ولا يقْبَله : ليكونَ فى الأمرين علىٰ مايُحَدّ له ويمثّـلُه ، ويأْمَن فيما هذه سبيلُه كلَّ خَلَل يدخُله ؛ إذ كانت الشهادةُ أُسّ الأحكام ، وإليهـا يرجع الحُكَّام ، والنظرُ فيمن يؤهَّل لها أحقُّ شىء بالإحكام ؛ قال الله تقدّست أسمـاؤه : ﴿ يٰأَيُّهـا الَّذينَ آمَنُوا كُونُوا قوَّامينَ بِالقِسْـطِ شُهَداءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلىٰ أَنْفُسِكُمْ أوِ الْوَالِدَيْنِ والْأَقْرَبِين ﴾ . وقال تعـالىٰ : ﴿ وَالَّذينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإذا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ .

وأمره أن يعمَل بأمْثِلة أمير المؤمنين له فيمن يَلِى أموالَ الأيتـامِ والوَصايَا وأُولِى الخَـلَل فى عقُولهم ، والعجْزِ عن القيام بأموالهم ؛ حتى يحوز أمْرُها علىٰ مايَرْضَى الله ووليُّه : من حِياطتها وصِيانتها من الأُمَناء عليها ، وحفْظهم لهـا ، ولَفْظهم لمـا يحرم ولايحِلُّ أكْلُه منها ؛ فيتَبوَّأ عنـدَ الله بُعْـدا ومَقْتا ، آكِلُ الحرامِ والمُوكِلُ له سُحْتا ؛ قال الله تعالىٰ : ﴿ إنَّ الَّذينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ اليَتامىٰ ظُلْمًـا إنَّمَـا يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرا ﴾ .

وأمره أن يُشارِفَ أئمـةَ المساجد والقَومةَ عليها ، والخُطبـاءَ بها والمؤَذّنين فيها ، وسائرَ المتصرِّفين فى مَصالحها ، مشارَفةً لايدخُل معها خَلَلٌ فى شىء يلزم مثلهُ : من تطهير ساحتِها وأفنيتِها ، والاستبدالِ بمـا تبَدَّل من حُصُرها فى أحيانها ، وعِمارتِها (١) بالمصابيح

(١) الأولىٰ " وإضاءتها " كما لايخفىٰ .

فى أوقاتها، والإنذارِ بالصَّلوات فى ساعاتِها، وإقامتِها لأوقاتها، وتوفِيَتها حقَّ رُكوعها وسُجودها، مع المحافظة علىٰ رُسُومها وحدُودها، من غير آختِراع ولا آختِلاع لشيءٍ منها: ﴿ إنَّ الصَّلاةَ كانَتْ علىٰ المُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتا ﴾ .

وأمره أن يَرْعىٰ دارَ الضَّرب وعِيارَ الذهب والفِضَّة بثقات يحتاطُون عليهما من كل لَبْس، ولا يمكِّنون المتصرِّفين فيهما من سبَبٍ يُدْخِل علىٰ المُعاملَين بهما شَيْئا من الوَكْس، إذْ كان بالعَيْن والوَرِق تُتَناول الرِّباع، والضِّياع والمَتَاع، ويُبْتاع الرقيق، وتنعقِدُ المناكح وتُتَقاضىٰ الحُقوق، فدُخُول الغِش والدَّخَل فيما هــذه سبيلُه جُرحةٌ للدِّين، وضررٌ علىٰ المسلمين، يَتبرَّأ إلىٰ الله منهما أميرُ المؤمنين .

وأمره أنْ يســتعينَ علىٰ أعمال الأمصار التى لا يُمكِنه أن يشاهِدَها بأفضلِ وأعلم وأرشــد وأعمَدِ من تُمْكنه الاستعانةُ به علىٰ ما طَوَّقه أميرُ المؤمنين فى آستعماله . قال الله عزَّ وجل : ﴿ إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلىٰ السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وحَمَلَهَا الإنْسَانُ إنَّهُ كانَ ظَلُوماً جهُولا ﴾ .

هذا ماعهِد أميرُ المؤمنين فأَوْفِ بعَهْده، تَهْتدِ بهَدْيه، وتَرْشُدْ برُشْده، وهذا أوّلُ إمرة أمَّرها لك فاعمَلْ بها، وحاسِبْ نفسَك قَبْــل حسابِها، ولا تدَعْ من عاجل النظَر لهــا أن تَنْظُر لِمَآبها : ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجادِلُ عَنْ نَفْسِها وتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْس ماعَمِلتْ وَهُمْ لايُظْلَمُون ﴾ .

وكتب فى يوم الأحد لسبع ليال بَقِين من صفر سنة ٣٨٩ .

———

المـــــذهب الثـالث

من مذاهب كُتَّاب الدولة الفاطميـّـــة

(أن يُفْتَتح ما يُكتَب فى الولايات بخطبة مبتدَأةٍ بالحمدُ لله كما يكتب فى أعْلىٰ الولايات فى زماننا، ويقال: « يحَمدُه أمير المؤمنين علىٰ كذا وكذا، ويسأله أن يصلِّى علىٰ محمد وآله، وعلىٰ جدّه علىّ بن أبى طالب» ثم يقال : «وإنَّ أمير المؤمنين لم يزل يَنْظُر فيمَنْ يصلُح لهذه الولاية، وإنه لم يجِدْ من هو كُفُؤٌ لها غير المولّٰى، وإنه ولَّاه تلك الوظيفة» ثم يُوصّٰى بما يليق به من الوصية؛ ثم يقال: «هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، وحجّتُه عليك، فاعمل به» أو نحو ذلك ممـا يُعطِى هـذا المعنىٰ)

وقد أورد علىّ بن خَلَف من إنشائه فى كتابه "موادّ البيان" المؤلَّف فى ترتيب الكتابة للدولة الفاطمية عِدّةَ تقاليدَ لأرباب السُّيوف .

منها — تقليد فى رسم مايُكتَب للوزير، [وهو] :

الحمـدُ لله المنفردِ بالملَكُوت والسـلطان، المستغْنِى عن الوُزَراء والأَعْوان ، خالقِ الخَلْق بلا ظَهِير، ومُصوِّرِهم فى أحسَنِ تَصْوير ، الذى دَبَّر فأتقَن التدبير، وعَلَا عن المُكَلِّف والمُشِير، المانِّ علىٰ عباده بأن جعلهم بالتوَازُر إخْوانا، وبالتظافُر أعْوانا ، وأفقر بعضَهم إلىٰ بعض فى ٱنتظامِ أُمورهم، وصلاحِ جُمْهورِهم .

يحمَدُه أمير المؤمنين أنِ ٱستخْلفه فى الأرض ، وناطَ به أسـبابَ البرْم والنقض ، وٱسترعاه علىٰ بَرِيّته، وٱستخلصه لخِلافته ، وقيّضه لإعْزاز الإسلام، وحياطةِ الأنَام، وإقامةِ الحُدُود وتنفيذِ الأحكام ؛ ويسألُه الصلاةَ علىٰ سـيدنا محمد خاتَم الأنبيـاء ، وخِيرةِ الأصفِياء ، المؤيَّدِ بأفضـــل الظُّهَراء، وأكمل الوُزَراء : علىِّ بنِ أبى طالب المتكفِّل فى حياته ، بنَصْره وإظهار شريعتِه ، والقائم بعد وَفَاته ، مَقـامَه فى أُمَّته ؛

صلّى الله عليهما، وعلى الأئمة من ذرّيتهما، مفاتيح الحقائق، ومصابيح الخلائق؛ وسلّم، وشرّف وكرّم .

وإنّ الله تعالى نظر لخلقه بعين رحمتـه، وخصّ كُلًّا منهـم بضَرْب من ضُروب نِعمته، وأقْدرَهم بالتعاضُد، على انتظام أُمورهم الوُجودِيه، وأوْجدهم السُّبُل بالترافُد، إلى استقامة شُئُونِهم الدُّنْيويه : لتنْبجِسَ عيونُ المَعَاوِن بتوازُرِهم، وتَدِرّ أخلافُ المَرافِق بتظافُرِهم .

وأَوْلى النـاس باتّخاذ الوُزَراء، واســتخلاصِ الظُّهَراء، مَن جعله اللهُ تعالى إلى حقّه داعيا، ولخلْقِه راعِيا؛ ولدار الإسلامِ حاميا، وعن حِماه مُراميًا؛ واستخلفه على الدّنيا وكلَّفه سياسةَ المسلمين والمُعاهَدين، ولذلك سأل موسى عليه السلامُ وهو القَوِيّ الأمين، فى استخلاصِ أخيه هارُونَ لوزَارته، وشدّ أَزْره بمُوازَرتِه، فقال : ﴿ واْجعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هارُونَ أَخِي اشْدُدْ به أَزْرِى﴾. واستوزر محمدٌ صلى الله عليه وسلم وهو المؤيَّد المعصومُ الذى لاينْطِق عن الهوى ابنَ عمه عليًّا سيدَ الأوصياء؛ بدليل قوله له : « أنْتَ منّى كهارُونَ من مُوسى إلّا أنّه لا نَبِيَّ بعْـدِى » لأن الإمام لو تولّى كلَّ ماقرُب وبعُد بنفسه، وعوّل فى حِيطَتِه على حواسّه؛ لنصَّ ذلك بتطرّق الخَلَل، ودخول الوَهْن والشَّـلَل؛ وإنمـا تسـتعينُ الأئمـةُ على ما كفَّلها الله بكُفَاة الأعوان، وأهلِ النُّصْرة فى الأديان؛ وذَوِى الاسـتقلالِ والتشمير، والمعرفةِ بوجُوه السياسة والتدبِير، والخِبْرة بمَجَارى الأعمال، وأبواب الأَمْوال، ومَصالح الرجال .

وإنَّ أمير المؤمنين لم يزل يرتادُ لوِزارته حقيقًا بها مسـتحقًّا نعْتَها؛ جامعًا بين الكِفَاية والغَنـاء، والمناصَحةِ والولاء، والأُبوَّة والاختصاص، والطاعةِ والإخلاص؛ والنُّصْرة والعزْم، وأصالةِ الرأْى والحَزْم؛ ونَفاسة السياسةِ والتدبير، والنَّظَر بالمصلحة فى الصـغير والكبير؛ والاحتيال والتأْديب، وملابَسة الأيّام والتجريب؛ والانتمـاء

إلى كريم المَناجب، بضمير المَناصب، ويكرِّر فى الاختيار تقليدَه(١)، ويُجيل فى الانتقاء تأمُّله وتدبُّره. وكلَّما عرَضت له مَخِيلةٌ قَمِن تُوافق إيثارَه، أخلَفَ نَوْءُها، وكلما لاحتْ له بارقةٌ تُطابقُ اختيارَه، خَبا ضَوْءُها؛ حتى انتهت رَوِيَّتُه إليك، وأوقفه ارتيادُه عليك؛ فرآك لها من بيْنِهم أهْلا، وبتقَمُّص سِرْبالها أوْلى؛ وبالاستبداد بإمْرتِها أحقّ وأحْرى: لاشتمالك على أعيان الخصائص التى كان زِيادُ[لها] جامعا، وحُلُولك فى أعيان المَناقِب التى لم تزل ترومها متحلِّيا بفرائدها، وماشُهِرت به من إفاضة العدْل والإقْساط، وإغاضة الجَوْر والإشْطاط؛ وإنالة الحقّ والإنصاف، وإزالة الظُّلم والإجْحاف؛ ومراعاة النُّصْح بانسانك شاهدا، ومناجاتِه بجَنانك جاهِدا؛ ولنُهُوضك بالخَطْب إذا ألَمَّ وأشكل، والحادِث إذا أهَمَّ وأعضل؛ وتفَرُّدِك بالمَساعى الصالحه، والآثار الواضحه؛ والطرائقِ الحميده، والمذاهِب السَّديده؛ والتحلِّى بالنَّزاهة والظَّلَف، والعَطَل من الطَّبَع والنَّطَف؛ وفضلِ السِّيرة، وصِدْق السَّريره؛ ومحبة الخاصَّة والعامّه، والمعْرِفة بقدر الأمانه؛ والاضطلاع بالصَّنيعه، والحفظ للوديعه.

فرأى أميرُ المؤمنين برأيه فيما يُريه، ويقضى له بالصلاح فيما يعزم عليه ويُمضيه ويسدِّد مَرامِيَه ومساعيه؛ ويتعَهَّدُه فى جميع مقاصده بلُطف تحلُو ثِمارُه، وتحسُنُ عليه وعلى الكافَّة آثارُه؛ أن قد وَلَّاك النظرَ فى مملكته، وأعمال دولتِه: بَرِّها وبحرِها، وسَهْلها ووَعْرها، وبَدْوها وحَضَرها؛ وردّ إليك سياسةَ رجالها وأجنادِها، وكُتَّابها وعُرَفائها، ورعيَّتِها ودواوينها، وارتفاعِها ووجُوه جباياتِها وأموالها؛ وعَدَق بك البَسْطَ والقبْض، والبَرْم والنَّقْض؛ والحطَّ والرفْع، والعطاء والمَنْع، والإنعام والوَدْع، والتصريفَ والصَّرْف؛ ثقةً بأن الصواب مَنُوط بما تُسْدِى وتُلحِم، وتُفِيض وتنظِم، وتَنْقُض وتُبرِم؛ وتُصدر وتُورد، وتُقرّر وتأتى وتَذَر.

(١) لعله «تخيُّره» تأمل.

فَلْتَهْنَأْ هذه النعمة متمّليا بملبسها، ساريًا فى قبسها، وتلقّها من الشكر بما يَسْتَرْهنها ويُخَلّدها، ويقرّها عليك ويؤبّدها؛ وآعرِف ماأهّلك له أمير المؤمنين من هذا المقام الأثير، والمحلّ الخطير، فإنّما ذلك فضْلُ الله يُؤْتيه مَنْ يشاء والله ذُو الفضل العظيم .

وأنتَ وإن كنْتَ مكتفيًا بفضل حَصَافتك، وثَقَابة فِطْنتك، وحُسْن ديانَتِك، ووَثاقة تَجْرِبتك ـ عن التبصير، مستغْنيا عن التنبيه والتذْكير؛ فإن أمير المؤمنين لايمتنِع أن يزيدَك من مَرَاشده، مايَقِفُك علىٰ سَنَن الصواب ومَقَاصده؛ وهو يأمُرُك بتقوىٰ الله تعالىٰ فى سِرّك وجَهْرك، وآستشعارِ خَشْيته ومراقَبته؛ والله قد جعل لمن آتّقاه مَخْرَجا من ضِيق أمره وحَرَجه، ونصبَ له أعلامًا علىٰ مَنَاهج فَرَجه .

وأن تستعملَ الإنصافَ والعدل، وتُسْبِغ الإحسانوالفَضْل؛ وتُلين كَنَفك، وتُظهر لَطَفك؛ وتُحسن سَيْرك، وتُفيضَ بِرّك؛ وتصْفَح وتَحْلُم، وتعفُوَ وتَكْرُم؛ وتُبَصّرَ من ترجُو صلاحَه وتفَهّمَه، وتُنْصِفَ من أفرطَ جِماحُه وتُقوّمَه؛ وتأخذَ بوثائق الحَزْم، وجَوامعِ العَزْم، والغلظةِ والشدّةِ علىٰ مَنْ طغىٰ ولَجَّ فى غَيِّه وعتا؛ وبارزَ الله وأميرَ المؤمنين بالخلاف والشِّقاق، والآنحرافِ والنِّفاق؛ مستعملًا فاضلَ التدبير عند المُوادَعه، وفاصلَ المُكافحةِ عند المُقارَعَه؛ مُصْلِحا للفاسد، مشتِّتا للشارِد؛ مكثِّرا لأولياء الدولة وخُلَصائِها، وحاصدًا لبُغَاتها وأعدائِها؛ واعظًا مذكِّرا للغافِل، مؤَمّنا للظلوم الخائف، مخيفًا للظالم الحائف؛ مستَصْلِحا للسيئين، مذكِّرا بإحسان المحسِنين؛ متنَجِّزا لهم الجزاءَ علىٰ بَلَائِهم فى الطاعة وآثارِهم فى الخدْمه . وأن تنظُرَ فى رجال الدولة علىٰ آختلافهم نظرا يَسْلُك بهم سبيلَ السَّداد، ويُجْرِى أمورَهم علىٰ أفضل العُرْف المعتاد .

فأما الأماثلُ والأُمَراء، والأعيان والرؤساء، فتحفَظُ علىٰ من أُحْمِدت طريقتُه، وعُرِف إخلاصه وطاعتُه، شِعارَ رياستِه، وتزيدُ فى تكرمتِه، وتنتهِى به إلىٰ ماتتراءىٰ إليه مَواضِى هِمَّته .

وأمّا طوائفُ الأجناد فتُقِرُّهم علىٰ مَراتبهم فى ديوان الجيْش المنصُور ، وتخُصُّهم من عِنايتِك بالنصيب المْوفُور ، وتستخدِمُهم فى سَدّ الثُّغور وتسْديد الأُمُور ؛ وتُراعى وُصُولَ أطماعِهم إليهم ، أوقَات الاْستحقاقِ إليهم ؛ وانفاقهم نصاب الوجوب منهم (١) .

وأما الكُتَّاب المستخْدَمون منهم فى آستخراج الأموال ، وعِمارةِ الأعمال ، فتخُصُّ كُفاتَهم بمـا تقتضيه كِفايَتُهم ، وأُمناءَهم بمـا تُوجِبه أماناتهـم ؛ وتَستبدلُ بالعـاجز الخبيثِ الطُّعْمه ، والطَّبِع المستشعرِ شِـعارَ المذَمَّه : ليتحفظ النَّزِه المأمونُ بنزاهتـه وأمانته ، ويُقْلِـع الدَّنِسُ الخَـُون عن دَنَسه وخيانته ؛ وتأْمُر من تختارُه لخدمة أمير المؤمنين منهم أن يَسِـيروا بالسِّيَر الفاضله ، ويعمَلُوا علىٰ الرُّسُوم العادله ؛ فلا يضَيِّعوا حقًّا لبيتِ مال المسلمين ، ولايُخيفوا أحدًا من المعامَلِين .

وأما الرعيَّة ، فيأمُرك أن تحكُم بينها بالسَّوِيه ، وتعتمِدَها بعَدْل القضـيه ؛ وترفَع عنها نَيْر الجَوْر ، وتحمِيَها من وُلَاة الظلم ؛ وتَسُوسَها بالفضل والرأفة متىٰ آستقامَتْ علىٰ الطاعه ، وتأدّبتْ فى التِّباعه ؛ وتُقَوِّمها متىٰ أَجْرَتْ إلىٰ المنازح والاْفتِتان ، وأصرّت علىٰ مَغْضَبة السلطان .

وأما الأموالُ وهى العُدّة التى تُرْهِف عزائمَ الأولياء ، وتَغُض من نَواظِر الأعداء ؛ فتستَخْرِجها من مَحِقِّها ، وتضَعُها فى مستحِقِّها ؛ وتجتهِدُ فى وُفُورها ، وتتوفَّر علىٰ ماعاد بدُرُورها ؛ وأن تُطالِـعَ أمير المؤمنين بذَرّه وجِلّه ، وعَقْد أمرِك وحَلِّه ؛ وتُنْهِىَ إليه كل ماتعزِمُ علىٰ إنهائه ، وترجعَ فيـه إلىٰ رائه : ليُكْرِمك من موادّ تبصيره وتعريفه ، ويزِيدَك من هدايته وتوقيفه ؛ بمـا يُفْضى بك إلىٰ جادّة الخير وسبيله ، ويوضِّح لك عَلَم النَّجاح ودليله .

(١) المراد قيامهم بمـا يجب عليهم من استجادة الخيل والسلاح .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك : وقد أوْدَعه من تلويح الإشاره ، ما يُكتفىٰ به عن تصريح العِبَاره ؛ ثقــةً بأنك الأريبُ الألْمِعِىّ ، والفَطِنُ اللَّوْذَعىّ ، الذى تنتهى به مُتونُ التذكير إلىٰ أطرافِه وحواشِيه ، وتفْضى به هوادى القول إلىٰ أَعجازه وتَوَاليه .

فتقلَّد ما قلدكَ أميرُ المؤمنين ، وكُنْ عنــد حُسْن ظَنّه فى فضلك ، وصَدِّقْ مَخِيلتَه فى كمالك ، والله تعالىٰ يعرّف أمير المؤمنين وجه الخيرة فى تصيير أمرِه إليك ، وتَعْويلِه فى مهماته عليك ، ويوفقك لشُكْرِ المَوْهِبة فى آستِخْلاصــك ، والمِنْحة فى آجْتِبائك ، ويُنْهِضك بمــا حَمَّلك من أعبــاءِ مُظاهَرتِه ، وجَشَّمك من أثقال دَوْلتِه ، ويُسَدّدك إلىٰ مايُدِرُّ عليك أخلافَ [نعمته] ، والسلامُ عليك ورحمة الله وبركاتُه .

ومنها ــ ماأورده فى رَسْم تقليد زَمِّ الأقارب : وهو التقدمة علىٰ أقارب الخليفة ، وهذه نسخته :

الحمــدُ لله الذى آبتــدأ بنِعْمته آبتــداءً وآقْتِضابا ، وأعادَها جزاءً وثواباً ؛ ومَيَّز من آختصَّه بهدايةِ خلْقه ، وآستخْلصه لإظهــار حَقِّه ، بأَضْفاها عِطافا ، وأَصْفاهَا نِطَافا ؛ وأحسَنِها شــعارا ، وأجملها آثارا ؛ وآستَخْرجهم من أطيب البريَّة أعْراقا ، وأطْهرِها شِيَما وأخْلاقا ؛ وأقْدمِها سُؤْدَدا ومجْدا ، وأكْرمِها أباً وجَدّا ؛ وتوَحَّد بأفضل ذلك وأعْلاه ، وأكمله وأسْــناه ، محمدًا صفْوتَه من خُلَصائه ، وخِيرتَه مِن أنبيائه ؛ فأظهره من المَنْجَب الكريم ، والمَنْجَم الصَّميم ، والدَّوْحة الطاهرِ عُنْصُرها ، الشريف جوهَرُها ، الحُــلْوِ ثَمرُها ؛ ورَشَّح من آختاره من عتْرته لسياسة برِيَّتــه ، والدعاءِ إلىٰ توحيده وطاعتِه .

يحمدُه أمير المؤمنين أنْ شرّفه بميراث النبوّه، وفضّله بأكرم الولادة والأبوّه، وأحلَّه فى الذّروة العاليـة من الخلافه، وناط به أمورَ الكافه، ويسألُه الصلاةَ علىٰ جدّه محمد وعلىّ أبيه، صلّى الله عليهما.

وإن أمير المؤمنين يرىٰ أنَّ من أشرف نعم الله عليه موْقعا، وألطف مواهبه لديْه موْضعا، توفيقَه للمحافظة علىٰ مَنْ يُواشجُه فى كريم نَسَبه، ويمازجُه فى صميم حَسَبه، ويُدانيه فى طاهرِ موْلِده، ويُقَارِبه فى طِيب محْتِده، وتنزيل كلّ ذى تميُّز منهم فى دين وعِلم، ودراية وفهم، وإحلاله بالمنزلة التى يستوجبُها بفاضل نسَبِه، وفضلِ مكتَسَبه، ويبعثُ أنظاره علىٰ التحلّى بخصاله، والتزيُّن بخلاله: ليحصُل لهم من فضْل الخلائق والآداب، مايُضاهى الحاصلَ لهم من عَراقة المناجب والأنساب، ولذلك لا يزالُ ينُوطُ أمورَهم، ويكِلُ تدبيرَهم، إلىٰ أعيانِ دولتِه، وأماثِل خاصّته، الذين يعْتادُون حضرته ويراوحُونها، ويطالِعُونه بحقائق أحوالِهم ويُنْهونَها، ويستخرجُون أمْرَه فى مصالحهم بما يُذَلّل لهم قُطوفَ إحسانه وطَوْله، ويُعْذِب لهم مَشارعَ بِرّه وفضله، وما توفيقُ أمير المؤمنين إلا بالله عليه يتوكّلُ وإليه يُنيب.

فإن كان العهد إلىٰ خادم، قال:

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين معْدُودا فى أُولى النَّباهه، المترشِّحين للاستقلال بأعباء دولتِه وذَوِى الوجاهه، المُستخْلَصين لآستكفاء جَلائل مملكته: لِما آجتمع فيكَ من إِبَاء النفس وعِزّتها، ووَثاقةِ الدِّيانة وحَصَافتها، وسَدادِ السِّيرة وآستقامتها، ونَقاء السريرةِ وطهارتها، وتقيُّلك مَنْهَج أمير المؤمنين ومذْهَبَه، وتمثُّلك بهَدْيه وأدبِه، ونشْئِك فى قُصُور خلافته، وآرتضاعك دَرّ طاعتِه ـ رأىٰ ـ والله تعالىٰ يعزِم له علىٰ الخير فى آرائه، ويوَفّقه لصالح القولِ والعمل فى آنحائه ـ أنْ قلّدك زَمَّ بنى عمّه

الأشراف الإسماعيليين ثقةً بسياستك وحميدِ طريقتك ، وإنافةً لمنزلتك وإعرابا عن أثيرِ مكانتك .

وإن كان العهد إلىٰ شريف قيل بدَلًا من هذا الفصل :

ولمّا كنتَ بحضرة أمير المؤمنين ممن زَيَّن شريفَ مَحْتِده ، بمُنيف سُؤْدَده ، وطاهرَ مَوْلِدِه ، بظاهرِ مَحْتِده ، وكريمُ تالدِه بنفيس طارفِه ، وجليلَ سالفِه ، بنَبِيلِ آنِفِه ، مقتفياً سَنَن أوّلِيَّتك ، مفرّعا علىٰ أُصُول دَوْحتِك ، ضاربًا بالسّهم المُعَلّىٰ في الدين والعِلْم ، حائزًا خَصْل السّبْق في الرّجاحة والفَهْم ـ رأىٰ أمير المؤمنين أنْ قلّدك نِقابةَ بني عمِّه الأشرافِ الفلانيين : ثِقةً بأنك تَعْرِف مايجمعُهم وإيّاك من الأرحام الواشِجه ، والأَواصِر المُتمازِجه ، وتُحْسِن السِّيرة بهم ، والتعهُّدَ لهم والتوفُّر عليهم .

ثم يوصل الكلام بأىّ الخطابين قُدّم فيقال :

فتقلّد ما قلّدك أمير المؤمنين مستشعِرًا تقوىٰ الله وطاعَته ، معتقدًا خِيفَته ومراقَبَته ، سائرًا فيمَنْ وَلّاك أمير المؤمنين بسيرته ، مسْتَنًّا بسُنَّته ، متأدِّبا بآدابه ، مقتفيا مَناهِج صَوابِه ، وإكْرام هذه الأُسْرة [التى] خَصَّها الله تعالىٰ بكرامتِه ، وفَرَض مودّتَها علىٰ أهل طاعته ، ونَزَّهها عن الأدناس ، وطَهَّرها من الأرْجاس ، فقال جل قائلًا : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ .

وٱعْرِف لهم حَقَّ مراتِبِهم الدانيةِ من أمير المؤمنين ، ونَزِّلهم بحيثُ نَزَّلهم اللهُ من الدُّنيا والدِّين ، وٱعتمِدْ تعظيمَ مشايِخهم وتوْقِيرَهم ، وسِياسةَ شُبّانِهم وتَدْبِيرَهم ، وتَقْوِيم أخلاقهم وتثقيفَهم ، وخُذْهم بلُزُوم الطرائق الحميده ، والمَذاهِب السَّدِيده ، التى تليقُ بأُصُولهم الطاهره ، وفُروعِهم المُثْمِره ، ومَناحِتهم الصَّمِيمه ، ومَناجِبهم الكريمه ؛ وتفَقّد مَنْشاهم ومَرْباهم ، وخُلَطاهم وقُرْباهم ؛ فمن تناكَرَتْ أعراقُه ، وأخلاقُه ،

وأنسابُه، وآدابُه، بالغْتَ فى تنبيهه وتعْرِيفه، فإن نَجَع ذلك فيه وإلا بسَطْتَ يدَك إلىٰ تهذيبِـه، وإصلاحِه وتأديبِـه : ليَستيقِظَ من مَنامةِ غِرَّته، ويرجع إلىٰ اللائق بشَرَف ولادته؛ وآنظُر فيما أُوقِف عليهم من الأملاك والمستَغَلَّات، والضِّياع والإقطاعات، والرُّسُوم والصِّلات؛ وآنْدُبْ لتولِّى ذلك مَنْ تسكُن إلىٰ ثِقَته وأمانتِه من الكُتَّاب؛ وراعِ سيرتَه فى عِمَارته، وطريقتَه فى تَثْمِير مالِه وزيادتِه؛ فإن ألفيْتَه كافيًا أمينا أقررتَه، وإن وجدْتَه عاجزا خَـُونا صرَفْتـه؛ وآستبدلْت به من يُحْسِن خَبَرَك، ويُطِيب أثرَك؛ وأجرِ الأمْرَ فى قسمته بين ذُكورهم وإناثِهـم علىٰ الرسوم التى يشهَدُ بهـا دِيوانُهم؛ وآكتُبِ الرِّقاع عنهـم إلىٰ الحضرة فى آقتضاء رُسُومهم، ومايَعْرِض من مهِمَّات أمورِهم، وتنتجز كلَّ مايتعلقُ بهم وتنوبُ عنهم فيه: لتستقيم شُئُونهم بسياستك، وتنتظِمَ أحوالهم بحُسْن سَيْرتِك .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فاعملْ به وآنتَهِ إلىٰ متضمَّنه، إن شاء الله تعالىٰ :

ومنها — ماأورده فى رَسْم تقليدٍ بنِقابة العَلَوِيِّين، وهو :

الحمدُ لله الذى آنتجبَ من أسْرار عبـاده قادَةً جعلهم لمَصَالحهم نِظاما، وآنتخب من أخْيار خليقَتِه سادةً صيرَّهم لأُمورهم قِوَاما؛ وعَدَق بهم هدايةَ مَنْ ضلّ، وتقويمَ من ذَلّ؛ وتعليمَ من جَهِل، وتذكيرَ من غَفَل؛ ونصَبَهم أعلامًا علىٰ طُرُق الرَّشاد، وأدلةً علىٰ سُبُل السَّداد .

يحمدُه أميرُ المؤمنـين أنِ آختصَّه بأُثْرةِ الخلافةِ والإمامه، وميَّزه بمزيَّة الولايةِ علىٰ الأُمَّة والزَّعامه؛ وأنهضه بمـا كَلَّفه من سياسة برِيَّته وتنزيلِهم منازِلَهم من آختصاصِه وإيثاره، وإحْلالهم فى محَالِّهم من آستخلاصه وآختياره؛ ويسأله الصلاةَ علىٰ أشرف

الأُمم نِجَارا وأطيبِهم عُنْصُرا، وأعظمهم مَفْخَرا، سيدنا محمدٍ صلّى الله عليه وعلىٰ أخيه وٱبن عمّه، وبابِ حِكْمته وعِلْمه، أمير المؤمنـين علىّ بنِ أبى طالب الراسخ فى نَسَبه، المُدانِى [له] فى حَسَبه، سيفِه الباتر، ومُعْجِزه الباهر، ومكاتِفه المُظاهِر، وعلىٰ الأئمة من ذرّيتهما المهْديّين، وسلم تسليما .

وإنَّ أمير المؤمنين بمـا خَصَّه الله تعالىٰ من شَرَف المَنْجَم والمَوْلِد، وكَرَم المَحْتِـد، وخوّله من مَناصب الخلفاء والأئمه، وناط به من إمامة الأُمَّه - يرىٰ أنَّ من نِعَم الله التى يجبُ التحدّثُ بشُكْرها، وتَحِقُّ الإفاضـةُ فى نَشْرها، توفيقَـه للنظر فى أحوال ذَوِى لُحْمتـه، وأُولى مُناسَبته، المُواشِجين له فى أَرُومته، المعتَزين إلىٰ كرم وِلادته، وتوخّيهم بمـا يُرْفِلُهم فى مَلَابس الجمـال، ويُوقِّلُهـم فى هَضَبات الجَلال، ويُرتِّبُهم فى الرُّتَب التى يستوجبونها [ويراها] أَوْلىٰ بمَغَارسهم وأنسابِهم، وماسًّا بأنفسهم وآدابهم؛ ولذلك يصْرِف ٱهتمامَه إلىٰ مايجمع لهم بينَ شَرَف الأعراق، وكَرَم الأخلاق، وطهارةِ العناصِر والأواصِر، وحيازةِ المناقب والمآثر .

ولمـا كنتَ بحضرة أمير المؤمنـين من جِلّتهم العُلَمـاء، وطَهَرتهـم الأزْكياء، وأبرارِهم الصُّلَحاء، وخيارِهم الفُضَـلاء، الذين تضارعَتْ أخلاقُهـم وأعراقُهم، وتقارَعتْ أنسابُهم وآدابُهـم، وتشاكَهَتْ مواردُهم ومصادِرُهم، وتشابَهتْ أوائِلُهم وأواخِرُهم، وٱتفقت جيُوبُهـم ودخائِلهم، وتوضَّحت عن الدين والخير مخايِلُهـم . هـذا مع مايرعاه أميرُ المؤمنين من كريم مَساعِيك فى خدْمتـه، وإصابة مَراميك فى طاعتِه، وٱعتصامِك بحبْل متابَعتِه، ونُهوضك بحقوقِ ما أسبغَه عليك من نِعْمته - رأىٰ أمير المؤمنين - والله تعـالىٰ يَقضى له فى آرائه بحُسْن الٱختيار، ويُمِدّه بالعون والتأييد فى مَجارِى الأقدار- أنْ قلّدك النِّقابةَ علىٰ الأشراف الطالبيِّين أجمعين، المقيمين

با لحضرة وسائر أعمـال المملكة شَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا؛ ثِقةً بأنّك تصدِّق مَخِيلته فيك وآعتقادَه، وتستَدْعى بكفايةِ ما آستكفاك شُكْرَه و إحمادَه؛ وتستدرُّ بالآستقلال والغَنَاء أخلافَ إحسانه وفضلِه، وتمترى بالآضطلاع بمُضْلِـع الأثقال فائضَ آمتنانه وطَـــوْله .

فتقلَّد ما قلَّدك أمير المؤمنين عاملًا بتقوىٰ الله وطاعتِـه، مستشْعِرا لخِيفتِـه ومراقبتِه؛ وأحسِنْ رعايةَ من عَدَق بك رعايتَه، وسياسةَ من وكَلَ إليك سياستَه .

وآعلم أنَّ أمير المؤمنـين قد ميَّزك علىٰ كافَّة أهـــل نَسَبك، وجميع من يُواشِجُك فى حَسَبك؛ وجعلك عليهم رئِيسا ولهم سائِسا؛ فاعْرِف لهم حقَّ القرابة والمشابكه، وتَشاجُر الأنساب والمُشاركه؛ فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْـهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِى الْقُرْبىٰ ﴾ . وعُمَّهم جميعا بالتوقير والإكرام، والتفقُّد والآهتمام؛ وآتَّخِذْ شيْخَهم أبا، وكَهْلَهم أخا، وطِفْلَهم ولدا؛ وآفرِض لهم من الحنَان، والإشفاق والفَضْل والإحسان، ماتقتضيه الرَّحِم الدانيـه، والأواصِرُ المُتقارِبه؛ وكُنْ مع ذٰلك متفقِّدا لأحوالهم، مطالِعالسيَرِهم وأفعالهم؛ فمن ألفيْته سالكًا لأقْصَد الطرائق، متخلِّقا بأجمل الخلائق؛ حارسًا لشَرَفه، متشبِّها بسَلفه، فزِدْه فى الأُثْرة زيادةً تُرغِّب أمثالَه فى آقتفاء مَذْهبِه، وتبعَثُه علىٰ التأدُّب بأدَبه؛ ومن وجدْته مستحسِنًا مالا يليق بصَريح عِرْقه، را كبًا ما ليس من طُرُقه، فأيْقظه بنافِع الوَعْظ، وذكِّره بناجِع اللَّفْظ؛ فإن آســتقامَ علىٰ الطريقة المُثْلىٰ، ورجع إلىٰ الأجْدر والأَوْلىٰ، عرفْتَ ذلك من فِعله، وفرضتَ له ماتَفْرِضُه لصُلَحاء أهله : فإن الله تعالىٰ قد فتَح باب التوبه، ووعَدَ بإقالة أهل الإنابة؛ ومَنِ آنحرفَ عن التذكير، وآنصرفَ عن التبصير؛ وأصَرَّ وتمـادىٰ، وآرتكب ما يُوجب حدًّا؛ آمتثلتَ أمرَ الله تعالىٰ فيه، وأقمتَ الحدّ عليه؛ غير مُصْغ

إلىٰ شَـفَاعه، ولا مُوجب لحقّ ذَرِيعه : فإن أمير المؤمنين يصل من ذَوِى أنسابه، من وَكَّدها بأسبابِه ؛ ويقطَع من أوجب الحقُّ قطيعتَه، ولا يراعى رَحِمَه وقرابَتَـه . ووَكِّلْ بهم من يَرْوِى إليك أخبـارَهم ، ويكشِفُ لك آثارَهم : ليعلموا أنهـم ببال من مطالَعتك ، وبعينٍ من آهتمامك ومشارفَتِك ؛ فيكبَحُ ذلك جامِحَهم عن العِثَار والسَّقَط ، ويمنع طامِحَهم من الزَّلَل والغَلَط . وتوَخَّهم فى خطابك بالإكرام، وميِّزهم عن محاوَرةِ العَوام؛ ولا تقابِلْ أحدا منهم ببَذَاء ولا سَبّ، ولاقَدْح فى أمٍّ ولا أب؛ فإنهم فروعُ دوحةِ أميرالمؤمنين وعِترتُه الذين طهَّرهم الله من الأرجاس، وفَرضَ قِراهم علىٰ النـاس . ووَفِّر آهتمامَك علىٰ صِيانةِ النَّسَب من الوَكْس ، وحياطته من اللَّبْس؛ فإنه نَسَبُ الرسول صلّى الله عليـه وسلم الذى يتصل يومَ آنقطاع الأنْساب ، وسبَبُه الذى يتشج يومَ آنفِراط الأسباب؛ وأثبِتْ أسمـاءَ كافَّةِ من يَعْتَرِى إلىٰ هذا البيت منسوبةً إلىٰ أُصولها : لتأمن من دَخيل مُلصَقٍ يتزوّر عليهـا ، ومختَلِق مُلْحَق ينضم إليها . وإن عرف مدَّعٍ نسبًا لاحجة له فيه، ولا بينةَ عندَه عليه؛ فغلِّظ له العقاب، وآشْهَره شُهرة تحجُزُه عن معـاودة الكذَاب ؛ وآحتَطْ فى أمرِ المَنَاكِح وصُنهـا عن العَوامّ، ووَفِّر كرائمَ أهل البيتِ عن مُلابسة اللِّئام ؛ وإن آدّعىٰ أحدٌ من الرعيَّة حقًّا علىٰ شريف فاحمِلْهـا علىٰ السويَّة وعِده بإنصاف خصمِه، وآمنَعْه من ظُلْمه؛ وإن ثَبَت أيضا فى مجلس الحُكْم حقٌّ علىٰ أحد من الأشراف فانزِعْه منـه [ووَل](١) علىٰ من فى البلاد ، أهـل السَّداد منهم والرَّشاد؛ ومُرْهم بتقيُّل مذهبك، ونَقْل أدبك؛ وآصرِف آهتمامَك إلىٰ حِفْظ أوقافهـم وأملاكهم ومستَغَلَّاتهم فى سائر الأعمـال، وحُطْها من العَفَاء والآضمِحلال ؛ وتوَفَّر علىٰ تثمـير آرتفاعها، وتزجيـة مالهـا ؛

(١) الزيادة ليستقيم الكلام .

وٱستخدِمْ لضبط حاصِلها ، وجهات مُنْفَقها ، من تسْكُن إلىٰ ثقته ، وتثِق بنهْضتِه ؛ ووَزِّع مايرتفع من ٱستغلالها بينَهم علىٰ رُتَبِهم التى يشهد بها ديوانهم .

هـذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليك فٱنتهِ إليـه منتهجا لتمثيله ، معتمِدا بدليله ؛ وطالِعْ أميرالمؤمنين بمـا ٱلتبَس عليك وأبْهم ، وأشكَلَ وٱستَعْجم : ليَقِفك علىٰ واضِح السَّنَن ، ويُرشِدك إلىٰ أحسن السُّنَن ؛ وٱستعِنْ بالله يَهدِك لمعونته ، وٱستهْدِه يؤيدْك بهدايته ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها — ماأورده فى رسمِ تقليدِ بزِمّ طوائف الرجال .

الحمدُ لله البديع تقديرُه ، الحكيم تدبيرُه ، الذى أتْقن ماصَنَع وأحْكمه ، وكَمَّل ماأبدع وتَمَّمه ؛ وأعطىٰ كلَّ مصلحة من مصالح عِباده نِظاما ، وكُلَّ مَرْفَق من مرافق خلقه قِوَاما ؛ فلا يُقارَب فيما خَلَق وصوّر ، ولا يُشاكَل فيما قدّر ودبَّر ؛ ورأَبَ ثَلْم بريَّته بمن ٱستخلصه من خاصَّتها ، لسياسة عامَّتها ؛ وٱنتخبه من أشْرافها ، لتسديد أطْرافها ؛ وإقامة من سادَها لإصلاح فاسِدها ، وتقويم مائِدها ؛ وتوقيفِها علىٰ سَنَن الصواب ، وتعريفها بمَحاسِن الآداب .

يحمده أميرالمؤمنين أن أحلَّه فى المنْزِلة العليَّة : من ٱصطِفائه وٱستخلاصه ، والذِّروة السنيَّة : من ٱجتبائه وٱختصاصِه ؛ وفوّض إليـه تنزيلَ الرتب وتَحْويلها ، وإقرارَ المنازل وتحويلَها ؛ وناط به البَرْم والنقض ، والرَّفْع والخَفْض ؛ والرِّيْش والحصّ ، والزيادةَ والنَّقْص ؛ وسوّغه الشُّكرَ علىٰ مواهبه السابغ عِطافُها ، الفسيحةِ أكنافُها ، البعيدةِ أطرافُها ؛ و[يسأله] أن يصلى علىٰ نبىِّ الرحمه ، ومُفيد الحكمه ، سيدنا محمد خاتَم

الرُّسُل ، ومُوضِّحِ السُّبُل ؛ صلى الله عليــه وعلىٰ أخيه وآبنِ عمِّه ، وخليفته علىٰ أُمَّتــه وقومه : علىّ بن أبى طالب أميرالمؤمنين ، ومَوْلىٰ المسلمين ؛ وعلىٰ الأئمة من ذُرِّيتهما الطاهرين .

وإنَّ أمير المؤمنين بمـا فوّضَهُ الله تعالىٰ إليــه من حِمَاية الأَنَام ، والمُرَاماةِ عن دار الإسلام ؛ وكَفَّله من غَضِّ نواظر أهــل العِناد ، وتنكِيسِ رُءُوس رؤساء الإلحاد ؛ لايزال ينظُر فى مصالح عبِيده ، وتَوَفُّر سياسة رجال دولتِه وجنودِه ؛ الذين هم حِزْبُ الله الغــالبُون ، وجنــدُه المنصورُون ؛ ويرُدُّ النظرَ فى أمورهم ، والتقدّمَ عليهم ؛ وزَمَّ طوائفهم ، إلىٰ خواصّ دولته ، وأعيان مملكتِه ، الذين بَلَاطرائقَهم ، وحَمِدَ خلائقَهم : من الغَناءِ والكِفاية ، والسَّداد وحُسْنِ السياســة ؛ ونَقَّلهم فى الخِدم فاستقلُّوا بأعبائها وأثقالها ، ونهضُوا بناهضِ أعمالها ؛ ومضتْ عزائمُهم فى حِياطة البيضة ، وآشتدّت صرائمهم فى تحصين الحَوْزة ، وصدَقتْ نيَّاتهم فى المُراماة عن الملَّه ، والمحاماة عن الدعوة والدَّوْله .

ولـمَّا كنتَ بحضرة أميرالمؤمنين مُعَدّا لمهِمَّاته ، معدودًا فى أماثِل كُفَاته ؛ مشهورًا بحسن السياسة لـما تُورِده وتُصدِرُه ، معروفًا بفضــل السِّيرة فيما تأتيــه وتَذَره ـ رأىٰ أمير المؤمنين ـ والله يُرشده لأعْوَدِ الآراء بالصلاح والإصــلاح ، وأدْناها من الخير والنجاح ـ أنْ قلَّدك زَمَامَّ طائفة الرجال الفلانيين (ويوصفون بمـا تقتضيه مكانتهم من الدولة وحسن سيرهم فى الخدمة) إنافةً بقَدْرك ، وإبانةً عن خَطَرك ، وتنويهًـا بذكْرك ، وتفخيمًا لأمرك .

وهو يأمُرُك بتقوىٰ الله تعــالىٰ وطاعتِه ، وآستشعارِ مراقبتِه ؛ ورياضةِ خلائقك علىٰ محبّة العَدْل ، وإيثار الفَضْل ؛ وآتِّبــاع اللُّطْف ، وآجتناب العَســف ؛ وتوخِّى

الإنصاف، وبَسْط الهيبةِ من غير إجحاف؛ وأن تخُصّ هـذه الطائفةَ من النظر في أمورها، وتعهُّد صغيرها وكبيرِها ، بمـا يُسَدّد أحوالَهَا، ويحقِّقُ آمالَهَا؛ وتأخُذَها بأحسَن الآداب اللائقة بأمثالِها، وسُلوكِ الطريقةِ المعهودة من أعيانهـا وأماثِلِها؛ وتُشْعِرها من أمير المؤمنين بمـا يشرَحُ صَدْرَها في خدمتـه، ويُقِرّ عينَها في طاعتِه؛ والمسارعةِ إلىٰ مكافحة أعدائِه، والتميُّزِ في نُصْرة أوليـائه؛ وتُطالِعَ بحال من يستحقُّ الاحترام، ويستوجبُ إفاضةَ الإنعام؛ وتكتبَ الرِّقاع عنهـا (مستدْعِيا للرِّباطات، في الأطماع والعاجزين شاملا في التعويد والتأمير والتلقيب والولايات قاصـدا في ذلك مايُفَسِّح آمالها في الآجال، ويُوثِّقُها بدُرُو ر الأمثال)[1]؛ فإنهم أمراءُ الحُروب، وكُفَاة الخطوب ، الذين يجاهِدُون عن الحَوْزة ، ويُرامُون عن الدولة ؛ وٱفْرِض لهم من الإكرام، وتامِّ الاهتمام؛ ماتقتضيه مكانَتُهم في الدوله، ومَوْضعهم من الخِدْمه؛ وتكفَّلْ أوساطَهم بالرِّعايه، وٱصْرِفْ إليهم شَطْرا موفورا من العِنايه؛ وألْحِق من بَرَّز منهم وتقدّم ، ونَهَض وخَدَم ، بنظرائه وأمثاله، وساوِ بينـه وبينَ أشكاله؛ وتعهَّد أطرافهم بملاحَظتك، وتفقَّدْهم بسياستِك؛ وخُذْهم بلُزُوم السِّيَرِ الحميده، والمذاهب السَّدِيده؛ والتوفُّر علىٰ مايُرْهِف عزائِمَهم، ويؤيِّد أيديَهم؛ ولا تُفَسِّح لأحد من هذه المذاهب في مخـالطة العَوَام ولا مشاركةِ التُّجّار والاحتراف، ووَكِّلْ بهم من النُّقباء من يَبْتلِي سِـيَرَهم، ويُنْهِي إليك أخبارَهم؛ فمن علمته قد ٱجترأ إلىٰ نَسْخ المَذْهب، فتناوَلْه بأليم الأَدَب؛ وٱحْضُضْهم علىٰ الإدْمان في نَقْل السلاح، والضَّرْب بالسيف، والمطاعنـة بالرمح، والإرْماء عن القَوْس؛ وميِّز من مَهَر وٱستقل، وقَصِّر بمن ضَجَّع وأخَلّ؛ فهم كالجَوَارح التي ينفَعُها التعليم والإجراء، ويضُرُّها الإهمـالُ والإبْقاء؛ وفي صرفِك الاهتمامَ إليهـم مايزيدُ في رَغْبـةِ ذي الهمّة العليَّـه، ويبعَثُ المعروفَ

(١) كذا في النسخ ولم نهتد الى المراد منها .

فى النفس الدَّنيَّـه، وأن تُطالبَهم بالاستعداد، وارتباط الخُيُول الجياد، والاستكثار من السِّـلاح الشاك والجُنَن . وليَكُنْ ماتُطالبهـم بإعداده من هـذه الأصناف علىٰ حَسَب الفُروض من العَطَاء، ولا تُرَخِّص لأحد فى الاقْتناع بمـا لايليق بمنْزلتـه، والرضا بمـا يقع دُون مايعتَدُّه أماثِلُ طبَقتِه . ومَنْ مات من هـذه الطائفة وخلَّف ولدا يتيما فضُمّه إلىٰ أمثاله، وانظُرْ فى حاله، ووكِّل به من يفَقِّهه فى دينه، ويعلِّمه مالا غِنىٰ به عن تَعْليمه من كتاب الله وسُنَّته، ومَنْ يهذبه فى الخدمة ويعلِّمه العملَ بآلاتها، والتنقُّلَ فى حالاتها، ويطْلَقُ له من إنعام أمير المؤمنين مايقُوم بكُلْفتها ولوازمِها، وخُذْ كلَّ من تُقَدِّمهم بخدمها والجَرْى علىٰ عادتها فى النُّهوض بما يُسْتَنْهض به، ولا يُفَسَّح لها فى التَّثاقُل عنـه، وسوِّ بينَهم فى الاستخدام، ولا تَخُصَّ قومًا دون قوم بالترفيـه والإجمام، فإنّ فى ذلك إرهاقًا لعزائمهم، وتقويةً لِمُنَنِهم، وإفاضةَ العدل عليهم .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، قد وَكَّد به الحجةَ عليك، فتأمَّلْه ناظرا، وراجِعْه متدَبِّرا، وانتَهِ إلىٰ مَصَايرِه ومَراشِـده، واعملْ علىٰ رُسُـومه وحدُوده، يُوفِّق الله مقاصِدَك، ويُسْعِد مَصالِحك ويتولَّاك، إن شاء الله تعالىٰ .

ورُسوم هـذه العهود يتفاضَلُ الخطابُ فيها بحسب تَفاضُل الطوائف ومَن يولَّى عليها . وهذا الأُنْموذَج متوسِّط تُمْكن الزيادةُ عليه والنقصُ منه .

ومنها — ما أورده فى رسم تقليد بإمارة الحج، وهذه نسخته :

الحمدُ لله الذى طهَّر بيته من الأَرْجاس، وجعلَهُ مَثَـابةً للنـاس، وآمَنَ مَنْ حلَّه ونَزَله، وأَوْجبَ أجرَ من هاجر إليه ووصَلَه .

يحمَدُه أمير المؤمنين أن خَصَّه بحيازة البيتِ الأعظَم ، والحِجْر المكَرَّم ، والحَطِيم وزَمْزَم ؛ وأفضىٰ إليـه مِيراثَ النبوّة والإمامه ، وتُراثَ الخـلافة والزَّعامه ؛ وجعله لفَرْضه موفَيا ، ولحقوقه مؤدِّيا ؛ ولحُدُوده حافظا ، ولشَرائعه ملاحِظا ؛ ويسألُه أن يصَلِّيَ علىٰ مَنْ أمره بالتأذينِ فى النـاسِ بالحَجّ إلىٰ بيتـه الحرام لشهادةِ مَنافِعِهم ، وتأْدِيةِ مناسكهم ؛ وقَضاءِ تَفَثِهم ، ووَفَاء نَذْرهم ، وذِكْر خالِقِهـم ؛ والطوافِ بحَرَمه ، والشكر علىٰ نِعَمه : سـيدنا محمدٍ رسولِه صلىٰ الله عليه وعلىٰ وصـيه وخليفتِه ، وباب مدينة علمِه وحكمتِه : علىِّ بن أبى طالب سـيد الوَصيِّين ، وعلىٰ الأئمـةِ من ذرِّيتهما الطاهرين .

وإنَّ أولىٰ ماصَرَف أمير المؤمنين إليـه هِمَّته ، ووَفَّر عليـه رِعايَتَه ؛ مُثابرا عليـه ، وناهضًا لحق الله تعالىٰ فيه ؛ النظرُ فى أمر رُفَق الحجيج الشاخصةِ إلىٰ بيتِ الله الحرام ، وزيارةِ قَبْر نبيه عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ وردُّه إلىٰ من حلَّ محلَّك من الدين ، وتميز بما تميَّز به صُلَحاء المسلمين : من العلم ، ورَجَاحة الحِلْم ؛ ونَفَاذِ البصيره ، وحُسْن السريره ، وعَدْل السِّيره ؛ ولذلك رأىٰ أمير المؤمنين أن قلَّدك أمر رُفَق الحَجِيج المتوجِّهةِ من موضع كذا إلىٰ الحرمين المحروسين ، ووَلَّاك الحرب والأحْداثَ بها : واثقًا بٱستقلالك وغَنَائك ، وسَـدَادك وإصابة آرائك ؛ فتقلَّد ماقلَّدك أميرُ المؤمنين بعَزمٍ ثاقب ، ورأيٍ صائب ، وهِمَّة ماضيه ، ونَفْس ساميه ؛ وشَمِّر فيه تشميراً يُعْرِب عن مَحلِّك من الاضْطِلاع ، ويدُلُّ علىٰ ٱستقلالك بحقِّ الاصْطِناع ؛ وخُصَّ الحُجَّاج بأَتمِّ الأَحُظّ ، وكُنْ من أمرهم علىٰ تَيقُّظ ؛ وٱعتمِـدْ ترَقُّبهم فى المَسـير ، وسوِّ فى رعايتهم بين الصغير والكبير ؛ فإنهم جميعًا إلىٰ الله متوجِّهون ، وإلىٰ بيتِـه الحرام قاصِدُون ، وعلىٰ رسولِه صلى الله عليـه وسلم وافِدُون ؛ قد ٱستقرَبُوا بَعيدَ الشُّـقَّه ،

وٱستَدْمثُوا خَشِن المَشَقّه ، رغبةً فى ثواب الله وعَفْوه ، والنجاةِ من عِقابه وسَطْوه ؛ وتقرُّبا إليه بِارتسام أمْرِه وطاعتِه ، وإيجابا للحرمة بالحُلول فى عِرَاص بيتِه وأفْنيته ؛ فُرافدَتُهم واجبـه ، ومساعدَتُهم لازِبه ؛ حتّى يصلُوا إلىٰ بُغْيَتهم وقد شَمِلتهم السلامةُ فى الأنفس والأموال، والأمنةُ فى الخيْل والرجال : متوجِّهين وقارّين وقافلين، بعد أن يشْهَدُوا منافِعَهم، ويُؤدُّوا مَناسِكهم، ويعملُوا بمـا حُدّ لهم . ورُدَّهم فى سَيْرهم عن الآزدحام ، ورتّبهـم علىٰ الآنتظام؛ وراعِهـم فى وُرُود المَنَـاهل ، وآمنَعْهم من التحادُثِ عليهـا والتكاثُر فيها ؛ حتّى لا ينفصِلُوا منهـا إلّا بعدَ الآرتواء، ووُقوع التَّساوِى والآكتفاء ؛ وقَدِّم أمامَهُـم من يمنَعُهـم من التسرُّع ، وأخِّرْ وراءَهم من يحفظهم من التقطُّع ؛ ورتّب ساقَتَهم، ولا تُخِلّ بحفظهم من جميع جهاتِهم؛ وطالِـعْ أمير المؤمنين فى كل منْزِل تنزِلُه ومحـلٍّ تحُلُّه بحقيقـة أمرِك ليقِفَ عليها، ويُمـدَّك بمـا يُنْهِضك فيها .

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فتدبَّره عاملًا عليـه؛ متبصِّرا بمـا فيه، عاملًا بمـا يحسُن موقِعُه لك، ويزيدك من رضا الله وثوابه، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها — ماأورده فى رسم تقليد الإمارة علىٰ الجهاد ، وهذه نسخته :

الحمد لله الصادقِ وعْدُه ، الغالب جُنْـدُه ؛ ناصر الحق ومُديله ، وخاذل الباطل ومُذيلِه ؛ مُحِلّ النَّكْب بمن آنصرف عن سبيله، ومُنْزِل العقاب بمن تحرَّف عن دليله ؛ الذى آختـار دينَ الإسـلام فأعلىٰ مَنارَه، ووَضَّح أنواره؛ وآسـتخلَص له من أوليائه أعضادا لاتأخُذُهم فى الحق لومةُ لائِم، ولايُغْمِضون عن المكافَحة دُونَه جَفْنَ حالم؛

وجَزَاهم علىٰ سعْيِهم فى نُصْرته جزاءً فيه يتنافَسُ المتنافِسُون ، وإلىٰ غاياتِه يَرْتمى بالهِمَم المُجِدّون؛ قصدًا من الله تعالىٰ فى إعزاز دينه ، وإنجازِ ماوعَد به خُلفاءَه من إظهاره وتمكينِه؛ وقَطًّا لشَوْكة أهــل العِناد ، وتَعْفيةً لآثار ذَوِى الفساد ؛ وتوفيرًا لأَحَاظى من بَذْل الاِجتهاد، من سُعَداء عبادِه فى الجِهاد .

يحمَدُه أميرالمؤمنين أنِ ٱختصَّه بلطيف الصُّنْع فيما ٱستَرْعاه، ووفَّقه للعمل بما يُرْضيه فيما وَلَّاه ؛ وأعانه علىٰ المُراماة عن دارِ المسلمين، والمحاماةِ عن ذِمَار الدِّين؛ ومجاهدةِ [مَنْ] ندَّعنهما صادفا،ونَكَب عن سبيلهما مُنْصرِفا؛وإبادةِ من عَنَد عن طاعته وٱتَّخذ معه إلهــا آخَر لاإلٰهَ إلا هو سبحانه وتعالىٰ عما يقُول المُشْركون عُلُوّا كبيرا؛ وٱستنزالهم من صَيَاصِيهم قَهْــرا وٱقْتِسارا ، وإخراجِهم عن بُيوتِهــم عِزًّا وٱقتِدرا ؛ وإذاقتِهــم وَبَالَ أمرِهم [و] عاقبةَ كُفْرهم، ٱتِّباعا لقول الله تعالىٰ إذ يقول : ﴿ يأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وٱعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مع المُتَّقِينَ ﴾ .

ويسأله أن يصَــلِّىَ علىٰ أشهر الخلْق نُورا وفضــلا ، وأطْهر البريَّة فَرْعا وأصلا ؛ وأرشَــد الأنبيــاء دَليلا ، وأقصَــد الرُّسُل سبيلا : محمدٍ رسولِه الذى ٱبتعثــه وقد توعَّر طريقُ الحق عافِيا، وتَغَوّر نُورُ الهدىٰ خافِيا؛ والنــاسُ يتَسَكَّعُون فى حَنَادِس الغَمَرات ، ويتورّطُون فى مَهاوِى الهَلَكات ؛ لايعْرِفُون أنهم ضُــلَّال فيستَهْدُون ، ولا عُمْى فيستَبْصِرون؛ فأيَّده وعضَّــده ، ووفَّقه وسَــدّده؛ ونَصَره وأظهَره، وأعانه وآزَرَه؛ وٱنتخب له من صَفْوة خلْقِه،أوْلياءَ كاتَفُوه علىٰ ظُهور حقِّه، سَمَحُوا بالأنفس العَزِيزه ، والأموال الحَرِيزة ؛ وجاهدُوا معه بأيدٍ باســطةٍ ماضيه، وعزائِمَ متكافيةٍ متوافيه؛ وقلوبٍ علىٰ الكفار قَسِيَّة قاسيه ؛ وعلىٰ المؤمنين رَءُوفة حانيَهْ . فلمَّا صدَقُوا ماعاهَدُوا الله عليه، وٱرتسمُوا أمْره وٱنتَهوْا إليه، شَرَكهم معه فى الوصْف والثناء ،

وأضافهم إليه فى المَدْح والإطراء؛ فقال جل قائلا : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ . صلّى الله عليه وعلىٰ أخيه وٱبن عمّه أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب سيف الله الفاصِل، وسِنانه العامل؛ ومُعْجِز رسُوله الباهِر، ووزيرِه المُظاهِر؛ مُبِيد الشُّجْعان، ومُبِير الأقران؛ ومُقَطِّر الفُرْسان، ومُكَسِّر الصلبان؛ ومنكِّس الأوْثان، ومُعِزّ الإيمان، الذى سبَق الناسَ إلىٰ الإسلام، وتقدّمَهم فى الصَّلاة والصِّيام؛ وعلىٰ الأئمةِ من ذرّيتِهما المَيَامين، البَرَرة الطاهِرين، وسلَّم تسليما .

وإنَّ أمير المؤمنين بمـا كلَّفه الله تعـالىٰ من [أمر] دِينـه، ووَعَده من إظهاره وتمكينه؛ يرىٰ أنّ أفضـل مارَنَا إليه ببصَر بَصِـيرته، ورمىٰ نَحْوه بطامِح همَّته، ماشَمِلت الدينَ والدنيا بركتُه، وعمَّت الإسلامَ والمسلمين عائدتُه؛ وحلَّ محلّ الغيث إذا تدفَّق وهَمَع، والنهارِ إذا تألَّق ولَمَع. ولا شيءَ أعودُ علىٰ الأمه، وأَدْعىٰ إلىٰ سُبُوغ النِّعمه، من عُلُوّكلمتِهم، وٱرتفاع رايتِهِـم؛ وتحصِين حَوْزتِهم، وإيمـان مَنَصَّتِهم؛ وتأديةِ الفريضـة فى مجاهدةِ أعدائهـم، وصَرْفهم عن غُلَوائهم؛ وٱقتيادِهم بالإذلال والصَّـغَار، وكَبْحهم بشَكائِم الإهوان والاقْتِسار؛ ومواصلتِهم بغَزْو الديار، وتَعْفية الآثار؛ وإيداع الرُّعْب فى صُدُورهم، وتكذيبِ أمانِىِّ غُرُورهم؛ ووَعْظِهم بألسِنة القواضب، ومكاتَبتِهم علىٰ أيدى الكَتائب : لمـا فى ذلك من ذُلّ الشِّرك وثُبُوره، وعِزّ التوحيد وظُهوره؛ ووُضُوح حجّة أولياء الله تعالىٰ علىٰ أعدائِه بما يُنْزِله عليهم من نَصْره ومَعُونتِه، ويؤيِّدهم به من تأييده وعِنَايته؛ لا جَرَمَ أن أمير المؤمنين مصْرُوف العَزْمه، موقُوف الهِمّه، علىٰ تنفيذ البُعُوث والسَّرايا، والمواصلةِ بالجُيُوش والعَرَايا؛ وتجهيزِ المرتزِقة من أولياء الدوله، وحَضِّ المُطّوِّعة من أهْـل المله، علىٰ ما أمر الله تعالىٰ به من غَزْو المشركين، وجهاد المُلْحدين؛ نافذًا فى ذٰلك بنفسه، وباذلا فيه

عزيزَ مُهْجته ، عند تسهُّل السبُل إلىٰ البِعْثة ، ووجُود الفُسْحة ؛ ومعوّلا فيه عند التعذُّر علىٰ أهل الشّجاعة والرَّجاحة من أعيان أهل الإسلام الذين أيْقَنَتْ ضمائرهم ، وخلَصتْ بصائرهم ؛ ورغِبُوا فى عاجل الذكر الجميل ، وآجل الأَجْر الجزيل ؛ وأميرُ المؤمنين يسأل الله تعالىٰ أن يُجْرِيه فيما يُصْدِر ويُورِد ، علىٰ أفضل مالم يزَلْ يُولىٰ ويُعَوّد : من التوفيق فى رأْيه وعَزْمه ، والتسديد فى تدبيره وحَزْمه ؛ ويؤتيه من ذٰلك أفضَلَ ماآتاه ولِيًّا ٱستخْلَفه ، وأميناً كَفَّله عبادَه وكَلَّفه ؛ وما توفيقُ أمير المؤمنين إلّا بالله عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

ولما كنتَ بحضرة أمير المؤمنين ممن يُعدّه لجلائل مهمَّاته ، ويَعُدُّه من أعيان كُفَاته ؛ ورآه سِدَادا للخَلَل ، وعِمادًا فى الحادثِ الجَلَل ؛ وسَهْما فى كِنَانته صائبا ، وشِهابا فى سماءِ دولته ثاقِبا ؛ وسيْفا بيَد الدين قاطِعا ، ومِجَنًّا عن الحَوْزة دافعا ـ رأىٰ ـ وبالله التوفيق ـ أن يُقدِّمك علىٰ جُيُوش المسلمين ، وبُعوثِهم الشاخصة إلىٰ جهاد المشركين ؛ فقلَّدك الحرْبَ والأحْداث بها ، وعقَد لك لواءً بيده يَلْوِى إليك الأعناق ، ويُنَكِّس لك رُءوسَ أهل الشِّقاق ؛ وشرّفك بفاخِرِ مَلابِسه وحُمْلانه ، وضاعفَ لديْك مَوَادَّ إحسانه ؛ وحَباك بطوْقٍ من التِّبْر ، مرصَّع بفاخر الدُّرّ ؛ عادقًا هذه الخدمةَ منك بالنِّصيح المأمون ، والنَّجيح الميْمُون ؛ الذى تتوضَّح فيه أنوار اللَّبابه ، وتلُوحُ عليه آثارُ النَّجابه ؛ واثقًا بما تَنْطوى عليه من الإخلاص والوِلَايه ، وتتحلَّى به من الغَناء والكِفَايه ؛ وتفترِضه من الاستمرار علىٰ سَنَن الطاعه ، والاستقامةِ علىٰ سَمْتِ الانقياد والتِّباعه ؛ وتُوجِبُه من مناصحة المسلمين ، والتشميرِ فى نُصْرة الدين .

فتقلَّدْ ماقلَّدك أميرُ المؤمنين مستشعرًا تقوىٰ الله وطاعتَه فى الإسرارِ والإعلان ، معتقِدًا خِيفتَه ومراقَبته فى الإظْهار والإبْطان ؛ مخلِصَ القلب ، رابطَ اللُّبّ ، واثقا

بنصْر الله الذى يُسْبِغه علىٰ خُلَصائه ، ويُفْرِغه علىٰ أوليـائه ؛ آخذًا بوَثائق الحزْم، متمسِّكا بعلائق العَزْم؛ ناظرًا من وراء العَواقب، متفرسا فى وُجُوه التجارب؛ مقلِّصا سُجُوف الآراء بإضْفَاء غِيَـار التدبير، مُمِـرًّا مرائر التقرير؛ مُوغِلا فى المخَاتل والمكايد، حارسًا للطالع والمَرَاصد؛ يَقْظَانَ النفْس والناظر، متحرِّزًا فى موقف الوانى والمُخَاطِر. وأن تتوجه علىٰ بركة اللهِ وعونْهِ وحسن توفيقه، ويُمْن تأييده؛ بعـد أن تتسلَّم من الجُيُوش المنصورة جرائدَ بعِدّةِ رجال أمير المؤمنين السائرين تحتَ رايتك ، المُنُوطِين بسِياسـتِك؛ وتَعْرِضُهم عليها ، فتتخَيَّرُ من شُهِرت بسَالتُـه وكِفَاحه ، وعَتَقَ جَوادُه وكَمُل سِلاحه ؛ وعُرِف بِصدْق العزيمة فى مُقارَعة الأعداء ، وحُسْن الطويّة فى الإخلاصِ والوَلَاء ؛ وتستَبْدِلُ بالوَرَعَ الجَبـان ، والرِّعديدِ الضـعيف الجَنَان ؛ الناقصِ العُـدّه ، المقَصِّر النَّجْده ، المدخُولِ النِّيَّـه ، النَّغلِ الطَّوِيَّه(١) ؛ فإذا كمَلت العدّة من أهـل الجَلَد والشَّهامه ، وأُولِى الحَمَـاسة والصَّرامه ؛ آسـتدعَيْت من بيت المـال ما يُنْفَق فيهم من مستَحَق أطماعهم ، ومَعُونة طريقهم ؛ وأجريتَ النفقةَ فيهم علىٰ أيدى عارِضيهم وكُتَّابهم ؛ فإذا أزحْتَ عِلَلهم فاستصْحِبْ من العُدَد والسِّـلاح والخِـيَم والأزواد والأموال ما يُرْهِبُ الأعداء ، ويُنْهِض الأوْلياء ؛ وأَذِّنْ فى مُطَّوِعة المسلمين، بجِهاد المُشْركين، فى [كل] بَلْدةٍ تنْزِلهـا ، ومَحَلّة تحُلُّها ؛ وآبذُلْ لهم الظَّهْر والمِـيرة والمَعُونة بالسـلاح وما يسـتَدْعونه ؛ وأرْهِفْ عزائمهم فى غَزْو الكُفَّار ، وإجلائِهم عن الأوطانِ والدِّيار ؛ وآسْلُك الطريقَ القاصِد، ولا تُفارِقْ أهلَ المَنَاهل والمَوَارد ؛ ولا تُغـذِّ السـيرَ إغْذاذا تنقطِعُ له الرجال وتتأَخَّرُ به الأَزْواد ، ولا تتلوّمْ فى المَنَازل تلوُّما تتصَرَّم فيـه الآماد ؛ ويُوجدُ المشركين مُهْلة للاِحتيال والاْستعْداد؛ وراعِ جَيْشَك عند الحَلِّ والتَّرْحال، ولاتُباعِدْ بين مَضارِبهِـم إذا نزَلُوا، ولا تمكِّنْهم

(١) فى الأصول المهروق الطوية ولم نجد هذه المـادة .

من التفرُّد إذا ٱرتحَلُوا ؛ وخُذْهم بالاجتماع والالتئام ، والتآلُف والانتظام ؛ ولاسيَّما إذا حصَلُوا فى أرض العدُوّ فإنَّهم ربَّما ٱهْتبَلُوا(١) الفُرْصة فى المَسير المتسرِّع ، والمَبِيت المتفرِّد ، ونالوا منه ماتُتَوسَّم به الهضيمةُ علىٰ أهل الإسلام ، والعياذ بالله .

وإذادانيتَ القومَ فأعطِ الحَزَامَةَ حقَّها ، مستعمِلا تارةً للدَّهاء والخَداع ، وأخرىٰ للِّقاء والقِراع ؛ فربما أغنَت المُساتَره ، عن المُكاشَره ؛ ونابتْ مَخايِل التَّلَطُّف ، عن مَداخل التعسُّف ؛ وكفتْ غوائِلُ المخادَعه ، عن مَواقِف المماصَعه ؛ وقدقال إمامُ الحرب ، وزعيمُ الطَّعْن والضَّرب : "الحَرْبُ خَدْعة" .

وإذا عزمتَ علىٰ المَصاع والمُناخه ، والإيقاع والمُكافحه ، فبُثَّ من سَرَعَان الفُرْسان الذين لاتشُكُّ فى محض نُصْحهم ، ولا ترتابُ بِصدْق نِيَّاتهم ، طلائعَ تُطْلِعك علىٰ الأخبار ، وعيونًا تَكْشف لك حقائقَ الآثار ، وتَغُضُّ الطَّرْف عن مجاورى الديار ؛ ومُرْ مَنْ تقدّمه عليهم بأن لا يقْتحم خَطَرا ، ولا يركَب غَرَرا ؛ وليكُنْ مَنْ تُنْفِذه فى ذلك [من] أهل الخِبْرة بالطُّرُق والساحات ، والدخلات والأودية والفَجَوات ؛ حتىٰ لايتِمَّ للعدُوّ فيهم حِيله ، ولا ينالهم منه غِيله ؛ فإذا أتوْك بالخبَر اليقين ، وأقبَسُوك قَبَس النُّور المبين ؛ بدأتَ الحرب مستخيرًا لله تعالىٰ ، مقدِّمًا أمامَكَ الاستِنْجاح به ؛ وٱستنزالَ النصرِمن عنده ، مرتِّبا للكتائب ، معبيًا للصُّفوف والمَقانب ؛ زاحفًا بالراجل محَصَّنا بالفارس والرامى مجْتنًّا بالتارس ؛ وٱشحَن القلبَ والجناحين بالشُّجعان المستبقين ، والأبطال الحلاسين ؛ وأنزِل إلىٰ رحىٰ الحَرْب مَنْ خفَّ ركابُه من الأنجادِ الراغبين فى عُلُوّ الصِّيت والذكر ، الطالبينَ الفوزَ بالثواب والأجْر ؛ وٱجعل وراءهم رِدْءا ، وأعدّلهم مَددا يُوازرونهم إن يجئْهم مالا يطيقونه ويحِين(؟) ، ويُطايرونهم علىٰ

(١) أى ٱغتنموا الفرصة الخ .

ما خلص إليهـم وادعين؛ وقِفْ من التأخير والإقدام ، والنُّفُوذ والإحجام ، موقفًا تُعْطِى الحَزامةَ فيه حَظَّها، والرويَّةَ قِسْطها؛ مصمِّمًا ما كان التصميم أدْنىٰ لانتهاز الفُرْصه، واهتِبال الغِرّه؛ متلوِّما ما كان التلومُ أحمدَ للعاقبة، وأسلم للَغَبَّة .

واعلم أنَّ ريح النصر قد تهُبُّ للكافرين علىٰ المسلمين، فلايكُنْ ذٰلك قادحًا منك فى الدِّين . فإن الله تعـالىٰ يستَدْرِج بسُنَّة الباطل لابسُنَّة الإظفار، ويُريهم الإقْدار فى مَخَايِل الأقدار؛ حتّٰى إذا فَرِحُوا بما أُوتُوا أوردتْهم كَواذبُ أمانِيِّهم مواردَ الهلَكَه ، وأُخِذُوا بَغْتــة ، ودالتْ دولةُ الحق لأوليائها مرفوعةَ الأعلام، آخذةً بنَواصِى العُدَاة والأقدام ، وتحقَّقْ أنَّ الأمورَ بخواتِيمها، والأعمال بتَمامِها، وأنه ولىُّ [المؤمنين] . ماجمَعَ موقِفُ فِئتَىْ شــكٍّ ويَقِين ، وكُفْر ودِين؛ إلّا كان الفَلَج والنصْر لأهل التُّقىٰ والدّين، والخسارةُ والبوارُ علىٰ الشاكِّين الكافرين، تصديقًا لوعده تعالىٰ إذ يقولُ : ﴿ولَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمتُنَا لِعِبادِنَا المُرْسَلِينَ إنَّهُمْ لَهُمُ المَنْصُورُون وإنَّ جُنْدنا لَهُمُ الغالِبُون﴾ .

وتحفظ بنَفْسك ولا تُلقِها فى المَهَـالك متهوّرا ، ولا تَرْم بهـا فى المَتالِف مُخاطِرا؛ ولا تُساعدْها علىٰ مطاوعة الحميَّة والنَّخْوه، وتحرّز قَبْل السَّقْطة والهَفْوه؛ فإنك ـ وإن كنتَ واحدا من الجيش ـ أوحَدُهم الذين يتبادَرُون إليــه، ويعتمِدُون فى السياسة عليــه؛ ومادمتَ محفوظًا ملحوظا فالهيبة عاليَه، والعين ساميه؛ وإن ألَمَّ بك ـ والله يعصمُك ـ خَطْب، أو نالَك ـ والله يكْفِيك ـ رَيْب، توجَّه الخَلَل، وأَرْهف حدُّ الوَهْن والشَّـلَل . وإن دعتْك نفسُك إلىٰ الجهـاد ، وحملك تصرّفُك علىٰ الكِفَاح والجلاد ؛ فليكُنْ ذٰلك عنـدَ الإحجام ، وتَزَلْزُل الأقدام : فإنَّ ذلك يَشْـحَذ عزائمَ المسلمين، ويقوّى شَكائم المتأخِّرين؛ غيرَ مضيِّع للحَذَر، فى الوِرْد والصَّدَر؛ وكذٰلك فاحْرُس أماثِلَ القُوّاد، ووجُوه الأجناد، الذين تُشْفىٰ صــدُورُ الكفَّار بمصارِعهم ،

وتُنْقَع غُلَلهم بمَضايعهم ؛ وحامِ عنهم حِمايةَ الجُفُون عن المُقَل ، وصُنْهم صيانةَ الصَّوارِم من الخَلَل ؛ ودافِعْ عن كافة [جند] المسلمين المرتزِقين والمتطوّعين ، فإنَّ الله تعالىٰ قد كافَىٰ بينَ دِمائِهم ، وسوّى بين ضُعفائِهم وأقويائِهم ؛ علىٰ أنه سبحانه قد وعدَهم عن بَذْل الأنفس فى مجاهدة المُلْحدين ، وإبادة المشْرِكين ، الجزاءَ الجسيم ، والنعيمَ المقيم ، والبقاءَ الذى لايعتَوره فَناء ، والجَذَل الذى لايعترضُه آنقضاء .

وقدِّمْ علىٰ الأساطيل والمَراكِب الحربيَّة وأعمالها ورجال البَحْر من تختاره لذلك من أماثل الأمَراء المشهورين بالشِّدّة والنَّجْدة ، والبَصارة والمَهارة والخبْرة بشُقَّة البحر والقِتال فيه ؛ ومُرْه بالتَّسحيل وملازَمةِ السِّيف والإرساء من الشُّطوط بحيثُ يتأمَّلُ مَضارِبَك ، ليكون ماحُمِل عليها من مِيرةٍ وعُدّة قريبًا منك ؛ فإنْ نازلتَ ثَغْرا من ثغور الساحل فاملأْه بالخيل من بَرِّه ، وبالسفائن من بَحْره ؛ وآستخْدم لحفظ مافيها من الأزْواد والأسْلِحة والعُدَد والنِّفْط ودُهْن البَلَسان والحِبَال والعَرَّادات وغيرها من الآلات مَنْ تَثِق بأمانته ومعرِفته . وتقدّمْ إليهم بالحَوْطة علىٰ مايخرجونه من العَوارى وآسترجاعه بعد الغِنىٰ عنه ؛ وآستظهِرْ بذٰلك آستظهارا يُحمَدُ موقعُه لك ، ويعرِّفُ به رَصينُ رأْيك ، وسديدُ مذْهَبك . وآستخلِصْ لمجالستك من أهل الأصالة والحَزْم ، والرَّجاحة والفَهْم ، والدِّراية والعِلْم ، والتجارِب فى ممارسة الحرُوب ، وملابسة الخُطوب ، من ترجع إلىٰ رأيه فيما أشْكل ، وتعتمدُ علىٰ تجربته فيما أعْضَل ؛ ولا تستبدّ برأيك فإنَّ الآستبدادَ يُعَمِّى المَراشِد ، ويُبْهِم المَقاصد .

ولـمَّا كانت الشُّورىٰ لِقاحَ الأفهام ، والكاشِفةَ لغَواشى الإبْهام ، أمر الله تعالىٰ بها نبيِّه عليه السلام فقال : ﴿ وشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ فإذا عَزَمْتَ فتوكَّلْ علىٰ اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتوكِّلين ﴾ .

ولا تُشاوِرْ جبانا ولامثبِّطا عن انتهاز الفرصة الممكنة، ولا متهوِّرا يحملك على الغرة المُهْلكة؛ وتأنّ في الآراء فإنّ التأنِّي يُجِمّ الألباب، ويجْلو وجهَ الصواب، ويقلِّص سُجُوف الارتياب؛ واضرِبْ بعضَ الآراء ببعضٍ وسَجِّلْها، وأجِلْ فكرَك فيها وتأمّلْها؛ فإذا صرَّحَتْ عن زُبْدتها، وانشقّتْ أكمامها عن ثَمرتها، فأمضِ صحيحَها، واعتمد نَجِيحها؛ وإذا استوىٰ بك وبالعدوّ مَرْحىٰ[1] الحَرْب فخرِّقْهم بنار الطّعْن، وأذِقْهم وبالَ أمْرِهم، وعاقبةَ كُفْرهم؛ ولا تَرِقَّ لهم؛ واتَّبِع ماأمر الله تعالىٰ به فى الغِلْظة عليهم، فإنه يقول: ﴿ يٰأيُّها الّذِينَ آمَنُوا قاتِلُوا الّذِينَ يَلُونَكُم مِنَ الكُفّارِ ولْيَجِدُوا فِيكُم غِلْظَةً واعْلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المُتَّقِينَ ﴾. فإن جنَحُوا للسَّلْم والمُوادَعة مصانِعين، فقابل بالقبول، فإن الله تعالىٰ يقول: ﴿ وَإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فاجْنَحْ لَهَا وتوَكَّلْ عَلىٰ اللهِ إنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾.

وابْذُلِ الأمانَ لمن طَلَبه، واعْرِضْه علىٰ من لم يَطْلُبه، وفِ لمن تُعاهده بعَهْده، واثبُتْ لمن تُعاقِده علىٰ عَقْده؛ ولا تجعل ما تُفْرِطه من ذلك ذَرِيعةً، إلىٰ الخديعه، ولا وَسيلة، إلىٰ الغِيلة: فإن الله سبحانه وتعالىٰ يقول: ﴿ يٰأَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بالعُقُود ﴾. ورسولُه صلى الله عليه وسلم يقول: "النّاسُ عِندَ شُروطِهِم" وإذا أعانك اللهُ علىٰ افتتاح مَعْقِل من مَعاقِل المشركين، واستضافتِه إلىٰ مابأيدى المسلمين، فارْفَعِ السيفَ عن قاطِنيه، واعتمِد اللُّطْف بالمقيمين فيه؛ وادْعُهم إلىٰ الإسلام، واتْلُ عليهم ماوعد اللهُ به أهلَه من كريم المَقَام؛ فمَنْ أجابك إلىٰ استشْعار ظِلِّه، والاعتصامِ بحبله؛ فافْرِض له ما تَفْرِضه لإخوانك فى الدّين، واضْمُمْ إليهم من علماء المسلمين من يُبصِّرهم ويُرْشِدهم، ويُثقِّفهم ويسدِّدُهم؛ وخَيِّرْ مَنْ آثرَ المُقَام علىٰ دينه بين تأديَة الجزية، والاستعبادِ والمَمْلَكة؛ فإن أدَّوا الجزيةَ فأجْرِهم مُجْرىٰ أهل الذمَّة

(١) أى المكان الذى تدور عليه رحى الحرب.

المعاهَدِين، وخُصَّهم من الرِّعاية بمـا أُمِر به فى الدين؛ و إن أبَوْا ذلك فإن الله تعالىٰ قد أباح دماءَ رِجالهم، وٱستعِبادَ ذراريِّهم ونِسائهم؛ وٱبتَنِ بالمَعْقِل مسجِدا جامعاً يجمِّع فيه بالمسلمين، و يُخطَب علىٰ مِنبره لأمير المؤمنين؛ وٱرفَعْ منارتَه حتّٰى تعلُو علىٰ كنائس المشركين؛ وٱنصِبْ فيـه إمامًا يؤدِّى الصلاةَ فى أوقاتهـا، وخطيبًا مِصْقَعا يخطُب النّاسَ و يعِظُهم، ومكبِّرين يَدْعُون إلىٰ الصلوات، و ينَبِّهُون علىٰ حقائقِ الأوقات؛ وقُوّاما وخُدّاما يتولَّوْن تنو يرَ مَصابيحه، وتعهُّد تنظيفه وفُرُشه؛ وأطلِقْ لهم من الأرزاق والجِرايات ما يبعَثُهم علىٰ ملازمتـه و يُعينهم علىٰ خدمته؛ وٱحتَطْ علىٰ من يحصُـل فى يدِك من أسْرىٰ المشركين، لتَفْدِىَ بهم مَن فى قبضتِهم من أُسَراء المسلمين؛ و إذا عرَضُوا عليك الفِداءَ فاحذَرْ من خديعةٍ تتِمُّ فيه، أو حيلة تتوجَّه فى ٱفتكاك معروفٍ منهـم بمجهولٍ من أهل الإسلام؛ و إن كان الله تعالىٰ قد فضَّل أدْنياءَ المسلمين علىٰ عُظَماء المُلْحِدين، ولم يسوِّ بينهم فى دُنْيا ولا آخرةٍ ولا دِين؛ إلا أنَّ هذا مما يوجب الحزْمُ الحَوْطةَ فيـه . و إن ظفِرتَ بنَسيب لطاغِيَتهم المتملِّك عليهم أو خَصيص (١) به فاحمِلْه إلىٰ حضرة أمير المؤمنين، لِيُقَرِّبهـا رهينةً علىٰ مَنْ قِبَلهـم من المأْسُورين، وسبيلا إلىٰ ٱنْتزاع ما يبـذُلُونه فى فِدايتـه من المَعاقل والحُصُون . وقد أمضىٰ لك أمير المؤمنين أن تعقِدَ الهُدْنة معهـم إذا رَغِبُوا فيها علىٰ الشرائط التى تعُود بعُلُوّ كلمة اللّٰه، وتجمعُ الخواطِرَ والاسْتظهارَ للدوله؛ فعاقِدْهم محتاطا، وٱشترط عليهم مُشِطّا؛ وتحرَّزْ فى العقـد ممَّا يُوجب تأوُّلا، ويدخِل وَهْنا، و يطرِّق وَهْيا . وتحفَّظْ بجَوَالى المُعاهَدين والأموال المقْبُوضَـة فى فِداء الغَلّات والغنائم وسَبْى المشركين حتى يُحْمل ذلك إلىٰ بيت مالِ المسلمين؛ فينظُرَ أميرالمؤمنين فى تفريقه علىٰ مستحقِّه، و إيصاله

(١) اشتهر هـذا البناء على الألسنة و فى رسائل الأفاضل ولكن لم نجده فى كتب اللغة و إنمـا الذى فيها بهذا المعنى «فلان مُخِص بفلان أى خاص به وله به خصية» فتأمل .

إلىٰ مستوْجِبه؛ وٱفحَصْ عن أحوال المستأمِنين إليـك تفحُّصا يكشِف ضمـائرَهم، ويبلُو سرائرَهم؛ وتحرزْ منهـم تحرُّزا يؤمِّنُك مكايِدَهم وحِيَلَهم، وخدائِعَهم وغِيلَهم؛ وإذا نازلتَ حِصْنا من حصُون الكفار، فكن علىٰ يقَظة من مَخاتِلهم فى الليـل والنهـار؛ وانصِبِ الحَرَس والأرْصاد، وٱحذَرِ الغِرّة ولاتُهمِل الاعتداد: لتعرّف أعداءَ الله أن طَرْفك ساهِد، وجَنانَك راصِـد؛ وتفقَّدْ أمر الجيش وأزِحْ علّة من ترقُبُه فى الأطماع والمواكَدات، ومُطَّوِّعته فى المَعَاون والجِرايات؛ ولا تغْفُلْ عنهـم غفـلةً تضـطَرُّهم إلىٰ الانِفلال، وتدعُوهم إلىٰ الانفِصال؛ وأحسِنْ إلىٰ من حَسُن فى الكفاح أثرُه، وطابَ فى الإبلاء خَبَرُه؛ وعِدْه عن أمير المؤمنين بالحِبَاء الجزيل، والعَطاء والتّنْويل؛ فإنّ ذٰلك قادِحٌ لعزائم الأوْلياء، باعثٌ لهم علىٰ التصميم فى اللِّقاء؛ فإذا أنتَ ـ بمشيئة الله ـ شفيْتَ الصُّدور، وٱحتذيْت المأمُور، وأعزَزْت الدين، وذلّلْت الملْحِدين؛ ودوّختَ البلاد، ونكّست رءُوس أهل العناد، فٱنقلِبْ بعساكر أمير المؤمنين، ومُطَّوِّعة المسـلمين، إلىٰ حضرته واثقًا بجميل جَزائه، وجليل حِبَائه؛ وطالِـعْ فى مَوْرِدك ومَصْـدَرك، بمـا يجـدّدُه الله لك ويفتَحُه علىٰ يدك؛ وٱذكُرْ ما أشـكل عليك ليُمِدّك أميرُ المؤمنيـن بالتبصير والتوقيف، والتعليم والتعْريف؛ وٱستعِنْ بالله فهو خيرُ معين، وتوكّلْ علىٰ الله فإنه نعم الوكيل.

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك، فٱعمَلْ به وٱنتهِ إليه يسدِّد الله مَساعيَك، ويصوّب مَراميَك؛ إن شاء الله تعالىٰ.

قلت: وأورد فى خِلال ذلك من تقاليـد أرباب السـيوف جملةً أسـقَط من صدرها التحميدات.

ماأوردَه فى رسم تقليد الإمارة علىٰ قتال أهل البغى أن يُقال بعد التحميد مامثالُه:

وإنّ الله تعالىٰ أوجبَ طاعةَ أُولى الأمْر علىٰ كافَّة المؤمنين، وأكّد فرضَها علىٰ جميع المسلمين، فقال جل قائلًا: ﴿ يٰأَيُّها الَّذِين آمنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِى الأَمْرِ مِنْكُم ﴾. علمًا منه تعالىٰ بأنّ الطاعة مِلاكُ الأمر ونِظامُه، ومَساكُ الجُمْهور وقِوامُه، وأنه لاتِتمُّ سياسةٌ مع الشِّقاق والانحراف. وأمر سبحانه باستِتابة من ألقىٰ العِصْمة من يَده، ونبَذَ الطاعةَ وراء ظَهْره، بشافى المَوَاعظ والتبصير، ونافع التنبيه والتذكير، فإنْ أقلَع وتاب، ورجَع وأناب، وإلا جُوهِد وقُوتِل، وقُوبِل بالرَّدْع حتّى يُقْبِل ويعتصمَ بالطاعه، وينتظِمَ فى سِلْك الجماعه، فقال تعالىٰ: ﴿ وإنْ طائفتَانِ مِنَ المُؤْمِنِينَ اقتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بيْنَهُما ﴾. وقال: ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِى تَبْغِى حَتّىٰ تَفِيءَ إلىٰ أمْر الله ﴾. وإنَّ الغُلاة (١) فارقُوا اجتماعَ المسلمين، وانسلخُوا من طاعة أمير المؤمنين، نابِذين لبَيْعته، شائين بُطْل دعوته، وشقُّوا عصا الإسلام، واستخَفُّوا محمل الحرام، واستوطَئُوا مَرْكَب السيئات والآثام، وعرَّجوا عن قَويم السَّنَن، وسَمَّوْا بأراذل البِدَع أفاضلَ السُّنَن، وسعَوا فى الأرض بالفَساد، وجاهَروا بالعِصْيان والعِناد، وكاتَبهم أميرُ المؤمنين مبصِّرا، ومُعْذِرا مُنْذِرا ومخوِّفًا محذِّرا، ودعاهُم إلىٰ التى هى أصلَحُ فى الأُولىٰ والأُخْرىٰ، وأربح فى البَدْء والعُقْبىٰ، وأعلمهم أنَّ الله تعالىٰ لا يقبل صلاتَهم ولا صِيامَهم، ولا حَجَّهم ولا زكاتَهم، ولا يُمْضى قضاياهم ولا حُكوماتِهم، ولا عقودَهم ومُناكحاتِهم، ما دامُوا علىٰ معصيةِ إمامهم، ومُفَارقة ولىِّ أمْرِهم، الذى أوجبَ عليهم طاعتَه، وفرض فى أعناقهم تِباعتَه، وتابَعَ فى ذلك مواصلا، ووالاه مُكاتِبا ومُراسِلا، فأصَرُّوا علىٰ العقُوق، واستمرُّوا علىٰ اطِّراح الحُقُوق، ودعَوْا إلىٰ الأسْوَإ لها من إقْدام الجُيُوش عليهم، ونَقْل العساكر إليهم، ومقابلتِهم بما يقوِّم أوَدَهم، ويُصْلِح فاسدهم، ويزَع جاهلهم، ويُوقظ غافلَهم.

(١) فى الأصل الغلاب وليس بواضح المعنى والمراد البغاة.

و إنَّ أمير المؤمنين تخيَّرك للتقدّم علىٰ الجيش الهاتِف نَحْوَهم : لما يعلمه من شَهامتِك وصَرَامتِك ، وسَـدادِك وسِياستِك ، و إخلاصك ووفائِك ، وكِفايتك وغَنـائِك ، (و يوصف بما تقتضيه منزلته ، والأمر الذى هو أهْل له) .

وهو يأمُرُك أن تقدم النفوذ إليهـم ، مستنْجِحا دعاءَ أمير المؤمنين ، مستنْزِلا لصُرُوف الغالبين ؛ مستشعِرًا لبـاسَ التقوىٰ ، فى الإعلان والنَّجْوىٰ ، فإذا نازلْتهـم فى عُقْر دارهم ، فأذِقْهم بالمضايقة و بالَ أمْرِهم ؛ وٱسْلُكْ بهم سبيلَ أمير المؤمنين وٱفتَتِحْهم بالإرشاد ، وحُضَّهم علىٰ ما يقضى بصَلَاح الدنيا والمَعَـاد ؛ فإن ٱستقاموا وتنصَّـلُوا وراجعُوا ورجعُوا فأعطِهِم الأمان ، وأفِضْ عليهـم ظِلَّ الإحسان ؛ و إن أصَرُّوا وتمرَّدُوا ، وجاهدُوا وٱعتدَوا ، فشمِّرْ لمنازلتهم ، وصَمِّم فى مقاتَلتهم ؛ واثقًا بأن الله تعالىٰ قد قضىٰ بالنصر لأولياء أمير المؤمنـين وأهل طاعتِه ، والخِـذْلان لأعدائه وأهل مَعْصيتِه ؛ إبانةً بذٰلك عن تأييده لمن ٱعتَصَم بحبله ، ودفْعه لمن ٱنسلخ من ظِلّه ؛ وحُجَّةً بالغـةً لمن تمسَّك بطاعته ، وموعظةً شافيةً لمن ٱستخَفَّ بحَمْـل معصيته ؛ فإن مَلَّكك الله تعالىٰ البلاد ، وطَهَّرها من أهـل الفساد ؛ وشَرِّد عنها الدُّعَّار والأشرار ، إلىٰ أقاصِى الدِّيار ؛ فٱجْبُبْ نَواعِقَ الفِتنة والضَّلاله ، وعَفِّ آثارَ ذَوى الغىّ والجَهَاله ؛ وأسْبِـغ الأَمْن علىٰ أهـل السَّلامه ، وأفرِغ العدلَ علىٰ مَنْ سلك سبيلَ الٱستقامه ؛ وأجْرِ الأمْرَ فى الخُطْبة لأمير المؤمنـين علىٰ الرَّسْم المحدُود ، والمَنْهَج المعهود ؛ وطالِعْه بمـا ٱنتهيتَ إليه ، ليكاتِبَك بمـا تعتمدُ عليه .

و يضمَّن هذا العهد مايقع فيه من شروط العهد المتقدّم ، و يُؤْمَر أن لايستصحب من الجُند إلّا من يثِق بإخلاصه وصفائه ، ويَسْكُن إلىٰ أمانته ووَفَائه ؛ وأن يرْفُض المدخولَ النِّيه ، النَّغِل الطويَّه ، فإنه لاشىءَ أضَرُّ علىٰ المحاربة من لقـاء عدوّ بجَيْش

مُخامِرين، وجند مُماكِرين ؛ وقد يكون فى العساكر مَنْ يُداهِن ويظهِر الخدمة وهو فى مثل العَدُو : إما لأنّ بينهما سالِفَ وِداد وولاية قد تأصّلتْ بإطماع وإفساد ، أو يكون لسلطانه قليلَ الإحماد . وهذا الذى أوردناه ليس بمثال جامع وإنما هو الذى يتميز به هذا العهدُ عما تقدّمه، والكاتبُ إذا آحتاج إلىٰ آستعماله رتّبه وقدّم مايجب تقديمه ،وأخر مايجب تأخيره و [أضاف اليه ماتجب] إضافته ، إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه نسخة سجلّ بولاية مصر، وهى :

الحمدُ لله، الموفِّقِ إلىٰ دواعى رضاه، المحسِنِ العونَ علىٰ ماأوجب المزيد من إفضاله وآقتضاه ؛ المثيبِ علىٰ ماهدىٰ إليه من طاعتِه ، القابلِ عملَ مَن آستنفَدَ فى الشكر أقصىٰ طاقتِه ؛ المتكفِّلِ بمصالح عبادِه، المُولِى من مواهبه ماتعْجِز الخواطرُ والألسنةُ عن تَعْداده ؛ وصلّى الله علىٰ جدّنا محمدٍ الذى جعل آتّباعَه سبيلًا إلىٰ سَكَنِ جَنَّات الخُلُود ، وآلَتْ بهداه نارُ الكفر إلىٰ الهُمُود والخُمُود ؛ وأنقَذَ من مَهاوِى الضَّلال ، ووَسَم مَنْ حادَّه وحادَ عن سبيله بالصَّغار والإذْلال ؛ وخلَّف فى أُمَّته الثقلين كتابَ الله وعِترتَه ، وأبقى بهما فيهم آيتَه وهدايَتَه ؛ وعلىٰ أخيه وآبن عمِّه أبينا أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب مُبْرِم أسباب الشريعة ومُحكِمِها ، ومُطْلِق سيوفه فى نُفُوس أعداء الملة ومُحَكِّمِها ، وبابِ مدينة علم النُّبوّة التى لايُدْخَل إليها إلّا منه ، وسيدِ من عَنَاهم الله بقوله : ﴿ رَضِىَ اللهُ عَنْهُمْ ورَضُوا عَنْه ﴾ وعلىٰ آلهما الأئمة الهُداة قُوَّامِ الإسلام ، وساسةِ الأنام ؛ وخُلَفاء الله فى أرضه ، والمُوفِين بعهده والآمرين بأداء سُنَّته وفَرْضه ؛ ورُكْنِ العصمة الذى مَنْ لجأ إليه نجا ، والحِصنِ الذى ماخابَ من أمَّه فَرَجًا منه فَرَجا ؛ وسلَّم وعظَّم ، ووالىٰ وكَرَّم .

وإنَّ أمير المؤمنين لِـما أَوْدَعه الله إِيَّاه من أسرار الحكمـه، وآجْتباه له من إمامة الأُمَّه، وآختاره له من كَلاءة الخليقة وإِيَالتِها، وحفْظ حَوْزتها من المَخاوف ورِعايتِها، وما خصَّه به من بُنُوة النبوة والرِّساله، وأفردَ به رأْيَه من الجَزالة والأصاله، وآكتنفَ به أنحاءَه من التوفيق الذى لايَصْدِف عن غرض الإصابةِ ولا يَحِيد، وعضَّده به من التأييد القاضى لعَزائمه ببلُوغ الغَرض فى نُصْرة التوحيد، وآستوْدَعه إيَّاه من الإقبال الذى يجعل المستحيل لمُراده إمْكانا، والتأييدِ الذى أوضح به لإمامتِه بُرْهانا، وتوحَّده به من العِصْمة التى تُصِيب بها مَراميــه مواقِعَ الرَّشاد، وتضْمَن الخِيَرَة لمـا يُعانيه من الأُمور ممـا سَـدّ وساد ـ يُعْمِل خواطِرَه فيما يكْفُل للنفوس بِرِضاها، ويُجْزِل للدِّين والدنيا به حِظَاها، وتتظاهَرُ به ضروبُ الصــلاح علىٰ الأمه، وتحيا به سُنَن الخيرات وتتِمُّ النعمه، وينظُر لمن آسـتوْدَعه الله إيَّاهم من بريَّته نظَرَ المؤَدِّى الأمانةِ إلىٰ مؤتَمِنه، المستَوْدع فيما يَتقَرّب به إليه من البرِّ شُكْرَ سوابِـغِ مَنائِحه ومِنَنه، ويُقَرِّب علىٰ الأمة مَنالَ الخير بآصــطفائِه مَنْ يكون لأفاضل الشِّــيَم مستكمِلا، وإلىٰ ماأزْلفه إلىٰ الله سبحانه من طاعةِ أمير المؤمنين متوصِّلا، ولِشَوَاذِّ الثناء بفاضل سِيرته متحلِّيا، وللتسَمُّح فى قوانين السِّياسة مجتنبا، ولمـا علم [رَغْبَةَ] الرعية فيه منتصبا، وفيما بلَّغهم أقصىٰ الآمالِ متسبِّبا، وبمراقبة الله فيما يأتِى ويذَر متديِّنا، وبحُسْن الجزاء علىٰ العمل بمَرْضاته متيقِّنا : ليكون أمير المؤمنين قد قضى [ماأوجبــه عليه] مستخلِفُه بآجتبائِه وآصطفائِه، وآستَحْمَد إليه بإسناد جلائلِ الخِدَم إليه وآســتِكْفائِه؛ وأتىٰ ماتكون السلامةُ مضمونةً فى مَباديه وعواقِبه، وأَحْظىٰ بنيل المُراد فى جميع جهاتِه وجَوانبه؛ مستديمًــا نِعَمَ الله التى أسداها إليه وأَوْلاها، مُواصِــلا حمدَه علىٰ مِنَنه التى ظاهرها عليه ووَالَاها؛ ويستعينُه علىٰ لَوَازم عوارِفِه التى من أجَلِّها خَطَرا، وأحمدها فى البريَّة أثرا، وأجمَعِها لمَنافع الخــاص والعام، وأعْودها بحماية حَوْزةِ الإســلام، وأشهَدها

ببراهين الأئمه، وأدلّها على عناية الله بهذه الأمّه، مامُنِحه أميرُ المؤمنين من مُوازرة فَتاه ووزيرِه، ومعينِه على المصالح وظهيرِه؛ السيدِ الأجل العادل أميرِ الجُيوش أبي الحسنِ عليّ الظافرى" - والدعاء - الذى أظهر الله به لأمير المؤمنين آياتِ حُقُوقه، وآستأصل ببأْسه شأفةَ من تَتابَعَ فى مُرُوقه وبالغ فى عُقُوقه؛ وكسا الدهْرَ بإيَالتِه مَلابِسَ الجَمَال، وفسّح بفاضل سِيرته مَجالَ الآمال؛ وبذَلَ من الجهاد غاية الآجتهاد، ووَالى من عِمارة البلاد ماأنْطق بحمده الجَماد؛ وآستخْلَص نخائلَ الصُّدور بلُطْف سياستِه ووُسْع عدله، ورغِبتْ غرائبُ الآمال فى الإيواءِ إلى سابغِ فضلِه؛ وتبارَتِ الليالى والأيامُ فى خِدْمة أغراضِه فى أعاديه، وآسترَقَّ قلوبَ الأولياء بما يُواليه من بِيضِ أيادِيه؛ ووضَع الأشياءَ فى مواضِعها غيرَ مُحابٍ ولا مرخِّص، ولم يَحْظَ بأيامه النيِّرةِ غيرُ الطائع المخْلِص؛ ولم ينْفُق للباطل سُوق، وأتت سيرتُه بما يُرضِى الخالقَ والمخْلُوق؛ فاللهُ تعالى يجعل مدّتَه غيرَ متناهيةٍ إلى مدى، والنصرَ والتوفيقَ لآرائه مَددا؛ ويخَلِّدُ أبدا سعْدَه، ويُنْجِز لأمير المؤمنين على يدهِ وَعْدَه.

ولما كانتْ منزلتُه عند أمير المؤمنين المنزلةَ التى تتطامَنُ دُونَها المنازِلُ والرُّتَب، وجلَّتْ أن ينالَها أحدٌ ممن بَعُد أو قَرُب؛ وأفعالُه قُدوةً يُهتدَى بأمثالها فى الشُّكوك، وسِيرتُه قد عظُمتْ عن أن تَتعاطَى مماثلَتَها هِمَمُ الملوك؛ ومحلُّه عندَه من الكمال بحيثُ تَسْتحكِم الثِّقةُ بآختياره، ويُرجَع فى عقد الأمور وحَلّها إلى آتّباع آثاره ومُوافقة إيثاره؛ وكانتْ مَراتبُ الأولياء عندَ أمير المؤمنين بحسَبِ مَراتِبهم من قُرْبه، وموضِعُهم من رضاه مُضاهِياً لموْضِعهم من قَلْبه؛ ومكانُهم من الحُظْوة لديه مُناسِبا لمكانِهم من الزُّلْفة عنده، وأحقُّهم بسَناء الرُّتَب من أقبسه زَنْدَه وكساه مجدَه، ولاسيَّما مَنْ لم يَخرُجْ منه عن حُكْم الولد، وحلَّ منه محلَّ القلْب من الكَبِد؛ ونشأَ فى دَوْحته غُصْنا نضيرا، وطلَع فى سماءِ جلالِه قمرا مُنيرا؛ وآعتلَى بجدِّه، وقطَع بحدّه، وتظاهرتْ

شواهدُ سعْدِه فى مَهْده ؛ وكنتَ أيها الأميرُ الحاوِىَ لهـذا الفضل المبين ، المعتَلِقَ من ولاءِ أمير المؤمنين بالحبْل المَتِين ؛ الذى نشأ متوقِّلا فى دَرَج المَعَالى ، وغدا متقيِّلا فى ظِلال الصَّوارم والعَوالى ؛ وأخذتَ بمَرَاشد السيدالأجلِّ العادِل فزِدْتَ عن الظُّنون وأوْفيْت ، ووعدَتْ عنك فصَدّقْتَ ضَمانَها ووَفَّيت ؛ ومازِلت بعيْن الإجلال والتعظيم مَلْمُوحا ، و بأفضلِ خِلال الرُّؤساء ممنُوحا ؛ و لجَلائِل المراتب مُؤهَّلا ، و بلسان الإجماع مفَضَّلا ؛ ولِمَا أعيا من أدواء النِّفاق حاسما ، وفى مَوَاقف المَخاوف رابطَ الجأش حازِما ؛ ولما يُعَدّ الأماجِدُ له مذْخُورَ المَضاء ، وفيما تُعانيه وتلابِسُه مُوفَّق الآراء ؛ وقد آكتنَفَك من آتِّباعك هَدْىَ السيدِ الأجل العادل ــ أدام الله قدرتَه وولاءَه ــ ناصر الدين ، الأجل المظفَّر المقدّمِ الأمين ؛ سيفِ الإمام ، ركنِ الإسلام ، شرفِ الأنام ؛ فخرِ الملُوك ، مقدّمِ الجيوش ، ذى الفضائلِ ، خليل أميرالمؤمنين ؛ أبى الفضائل عبَّاس الظافرىّ العادلىّ ، أدام الله به الإمتاع ، وعضّده وأحسَنَ عنه الدِّفاع ، الذى هو فخرُ الملُوك ونجْلُهم ، وأثْراهم من المفاخر وأجَلُّهم ؛ وأقدَمُهم فى الرياسة قَدَما وأعرَقُهم ، وأطيَبُهم أرجَ ثناءٍ وأعبَقُهم ــ ماجعلك أعلىٰ الأعيان مَفْخَرا ، وأكرَمَ الجواهِرِ عُنْصُرا ؛ وأولاهم بآلاءِ أمير المؤمنين وعَطائِه ، وأسبَقَهم فى مِضْمار آختياره وآجتبائِه ؛ وأثبَتَهم عندَه مكانَه ، وأحراهم فى خِدَمه بتأدية الأَمانَه ؛ وقد عَرَف من مَوَاقفك المشْهُوده ، ومَقاماتك المحمُوده ؛ ما كان منك فى نَوْبة آبن مَصَّال وجُمُوع ضَلاَله ، وما آستفاضَ من كَوْنك سببَ آنهزامِه وآنفِلاله ؛ وآنقلابِ تدبيرِه عليه وآنعكاسه ، والتفريق بين جسَدِه وراسِه ؛ وحصل لك بذلك من إحماد أمير المؤمنين ما لايبلُغُ الوصفُ مَدَاه ، إذ كان قد جرّد سَيْفَ نصرِ والدك الأجل المظَفَّر وأنت حَدّاه ــ رأىٰ أمير المؤمنين ــ وبالله توفيقُه ــ أن لا يُضيِّع مافيك من جَوْهرٍ مكنُون ، ولا يرجِعَ فى أمرِ نَباهتِك إلىٰ ماتَدُل عليه السِّنُون ؛ إذ كنتَ للكمال مع فَتَاءِ السِّنِّ

حائزا ، وبمزيّة ٱصطناع أمير المؤمنين وٱختياره إيّاك فائزا ، وفاوض السيدُ الأجلّ العادل ـ أدام الله قدرته ـ فى تشريفك بولايةٍ يكشِف بها شُفُوفَ جوهرك ، ويُوضّح لكافّة البريّة بمباشرتك إيّاها ما ٱستقرّ عنده من جميل مُختبَرك ، ووقَع التعيينُ علىٰ تقليدك ولايةَ مصر وما مع ذٰلك من الصِّناعتين وغيرهما من حُقُوقهما . فأمضىٰ أميرُ المؤمنين ذٰلك لما لهذه الولايةِ من الحُظْوة بالقُرْب والدُّنو ، وليوفِّر علىٰ الإيثار علىٰ أن يبلِّغَ نظرَك إلىٰ غاياتِ العُلوّ والسموّ ، وخرج أمرُه إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هـذا السجل بتقليدك الخدمةَ المذكورة : عِلْما بٱنتظام شُئُونها بإيالتك ، وحِياطةِ حَوْزتها بسطَاك ومَهابتِك ، وتحقُّقًا أنَّ بسِياستك تعُمُّها المصالح ، وتتظاهَرُ عليها المَيامِنُ والمَناجح ، وتظهر لها الحجةُ فى الٱفتخار ، علىٰ سائر الأمْصار ، وتستأنف بمُقارنَتك من المِيزة ما لم تَحْظَ به فيما سلَف من الأعصار ، ويتَّضح بك البرهانُ لمن بالغ فى تفضِيلها ، وتنَال من فائض العدل بسيرتِك ما تكاد تَغْنىٰ به عن نِيلها .

فتقلَّد ما قلدك أميرُ المؤمنين من ذٰلك : معتمدًا علىٰ تقوىٰ الله الذى إليه تصيرُ الأمور ، ويَعْلَمُ خائنةَ الأَعْيُن وما تُخْفِى الصُّدُور ، قال الله تعالىٰ فى محكم كتابه المبين : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين﴾ . وٱجعَلْ من تحويه هذه المدينةُ بالعدل مشمولين ، وعلىٰ أجمل السِّيرةِ والرسوم محُمولين ، وساوِ فى الحكم بين الشريف والدَّنىّ ، وآسِ فى المقدار بين المِلّىّ والذِّمّىّ ، وأقِم الحدودَ علىٰ من تجِب عليه بمقتضىٰ الكتاب وصحيحِ الآثار ، ولا تتعَدَّها بإقلالٍ ولا إكثار . وفى هـذه المدينة من ذَوِى الأنساب ، وأعيانِ الأجنادِ ومتميِّزِى الكُتَّاب ، وأماثل الشهود : فٱعتمِدْ تمييزهم والٱحتفاءَ بهم ، ومعونتَهُم علىٰ مَطالبهم ومحابِّهم ، وكذلك مَنْ تضمَّنت هـذه الولايةُ من التُّجّار والرعية . وتوَخَّهم بما يُسكِّن جاشهم ، ويُزِيل ٱستيحاشَهم ، ويَفْسَح لهم فى الرجاء والأمل ، ويُعِينُهم علىٰ صالح العمَل . وتقدّم بحفظ الجامع العتيقِ وصَوْنه

وتوفيره ، علىٰ مايليقُ به وتوْقِيره؛ وآمنَعْ من آبتذاله فى غير ماجُعِل له ، ونُصب له ، من الإعلان بذكره فيــه وأهله ؛ ووفِّر تامَّ العِنايه ، وشاملَ الرِّعايه ؛ علىٰ مَنْ به من الفُقَهاء والعلماء ، والمتصدِّرين والقُرّاء ؛ وحُضَّهم بالتكرمة علىٰ المبالَغةِ فى طلب العُلُوم ، والتزوّدِ من صالح الأعمال ليومِ الوقتِ المعلوم ؛ وخُذْ جميع المســتخْدَمين معك بلزوم الطرائق الحميده ، والمقاصد المستَوْفقة السدِيده ؛ فمن آستمَرّ علىٰ ماترضاه من آجتهاده ، وتستوفقُه من صواب آعتمادِه ، أجريتَه علىٰ رَسْمه فى الرعايه ، وتوخَّيتَه بالصون والحِمَايه ؛ ومَنْ كان بالخدم مُخِلّا ، وسلوكُه عما يلزمه ضالًّا مضِلّا ، فأوعِزْ بتأديبِه ، وما يقضى بتقويمِه وتهذيبِــه ؛ والثِّقــة بوُفُور حظِّك من الصواب ، وإجرائك علىٰ مايُناط بك علىٰ الآستِتْباب ، أغنىٰ عن الإطالةِ لك فى الوصَايَا والإسهاب ؛ والله تعالىٰ يقْرُنُ الخير بمـا تنظُر فيــه ، ويجعل التوفيقَ مضمُونا فيما تَذَره وتأْتِيه ؛ ويُنِيلك من رُتَب السعادة ما أنتَ له أهْل ، ويُتِمُّ نِعمتَه علَيْكَ كما أتمَّها علىٰ أبَوَيْك من قبْل ؛ فاعلَمْ هذا وآعملْ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن السجِلّات بالوظائف الدينيَّة علىٰ هذه الطريقة ماكُتب به القاضى الفاضل عن العاضد بولاية بعض القُضاة ، وهو :

الحمدُ لله الواسـعةِ عَطاَياه ، الوازِعةِ قضَاياه ؛ المشتملةِ علىٰ أقسام الخلْق قِسَمُه ، المبرُورِ فى سُؤالهم يومَ فصلِ القضاء قَسَــمُه ؛ المسطورِ فى كتابه الذى مافَرّط فيه من شىء مُحَلَّلُ الشرع ومُحَرَّمُه ؛ المتمثَّلِ فيه لمن مَثَلُه مُطاعُ الأمر ومسَلَّمه ؛ الكريمِ الذى لايُضِيع ثوابَ العاملين ، ولايقْطَع أسبابَ الآملين ، ولايمنعُ طِلَابَ السائلين ؛ العدلِ الذى قامتْ حجّتُــه علىٰ الناكبين والعـادِلين ، والحقِّ الذى يقْضى بالحقِّ وهو خيرُ

الفاصلين، مُصَفِّى مشارع الشريعةِ من أعراض الكَدَر، وحامِى مَعاقل المِلَّة من آنتقاض المَدَر، ومنزِّه أوليائه من مَحاسنها فى رياضِ الفِكَر، ومعترِفِهم بما عرض عليهم من إنافتها لآرتياضِ النظر، وآرتكاضِ الفِطَن والفِطَر، جاعل الحُكْم سلطانَه الذى يأوِى اللهِيفُ إلىٰ ظِلِّه، وحِماه الذى يلْجأ الضعيف إلىٰ عَدْله، ومَفْزَعَ الرائِع(١) الذى يقِفُ المشروفُ والشريفُ عند فصْله، وشفاءَ العِلل الذى يَذْهب بكل [ما فى] صَدْر من عِلَّه، ومَشْرَعَ الإنصافِ الذى يُفْضِى إلىٰ الظَّمَإِ فيضُ سَجْله، ومَوعِدَ الخلائق يوم تُطْوىٰ السماءُ كطَىِّ السِجِلِّ، ومُظْهِره لِيُظْهَر به هذا الدينُ علىٰ الدِّين كُلِّه، والآمِر فيما أشكل منه بالتعريج إلىٰ مستَنْبِطه من أهله، وجاعِلِ الأئمة الهادين الحُجَج علىٰ مَنْ رجَع إلىٰ قياس عقلِه أوتقليد جَهْله، وأحدَ الثقلين الذى يخفِّف عن كُلِّ غارب كل ثِقْله، وأخوه الكتابُ فلن يفترِقا حتّىٰ يردَا الحوضَ يومَ نَهْله وعَلِّه، وصراطَه المستقيمَ الذى من أتىٰ اليومَ فيها بزَلَّةِ رأيه أتىٰ غدا بزلة فِعْله، ومَنارَ الأنوار المضروبَ علىٰ طُرُق السارى فى ليل الضَّلال وسُبْله، وسبَبَ العصمة التى أشار فيها إلىٰ الآعتصام بحَبْله؛ وصلَّى الله علىٰ جدّنا محمد الذى عَظُم به جَدُّنا، وآعتلَق بسببِه مَجْدُنا؛ ووجبَ به علىٰ كل من وَادّ الله ورسولَه وُدُّنا، وأوْرثنا من علمه ماحاز لنا شَرفَى الدين والدُّنا؛ وحلم به نجير من ضاقَتْ به المذاهبُ فرجا فرَجًا، وحكَّمه المشركُون فيما شَجَر بينهم فلم يجِدُوا فى أنفُسِهم بما قضىٰ حَرَجا؛ وعلىٰ أخيه وآبن عمِّه، القائم مَقامه بفصْل حكمه وفَضْل عِلْمه؛ أميرِ المؤمنين علىّ بن أبى طالب الذى حُرز له من المكْرمات لُبابُها، وطابت بغُبار حلمه إقامةُ الألباب و إلبابُها، وميَّزه علىٰ الكافَّة بقوله: "أنا مَدينةُ العِلْم وعلِىٌّ بابُها" وشهِد طورًا بأنه

---

(١) أى الخائف.

أفتاهم، فعلِم أنه أقربُهم به شَبَها وفى مَدىٰ الفضل أقْصاهم؛ وعلىٰ الأئمة من ذرّيتهما الذين أنعَمُوا فأجزَلُوا، وحكَمُوا فعـدَلُوا؛ وحُمِّلُوا ثِقْـلَ الأمانة فحَمَلُوا، وجاهَدُوا فى سبيل الله فعلَوْا بمـا فعلُوا؛ وآستوجبُوا الحمدَ بمـا أوْلَوْا والأجرَ بمـا وُلُّوا؛ صلاةً مأمونةً من الشُبُهات، متوضّحة الشِّيات .

ولمـا كان حُكْمُ الصواب فى الحُكْم بين النـاس أن يُختارَ مَنْ بانَ صوابُه وآتّضَح، وبان عنـه حكْمُ الهوىٰ الذى فَضَح؛ وأصغىٰ ضميرَه إلىٰ لسان الحـقّ الذى فَصح، وعُرِض جوهرُه علىٰ محَكِّ النَّقْد فصَحّ؛ ومُيِّز بينه وبينَ الرجال فثقُل وَزْنا ورَجَح، وآحتجَّ به الإسلامُ علىٰ من نَوىٰ مُناواتَه فنَجَح؛ ووَلِىَ الأحكامَ بين المسلمين فأصْلح وصَلَح، وتسَمَّح إذا كان الحقُّ له وإذا ما كانَ فيه فمـا أسْمَح(١) ولا سَمَح؛ وجدّد جِدُّه من مَعَالم العلوم ماصَحَّ رسمُه وأمّح(٢)، وأطلعتْه علىٰ خَفَايا المشـكلاتِ بَديهةُ فِكْره لَمَّـا لَمح؛ وملكَ عِنانَ هواه رأيُه فجَنَح إلىٰ هواه وما جَمح، وشرَح صـدرَ الآختيار بمـا ملأ الأخيارَ من محاسنه وشَرح، وتعالىٰ الآقتراحُ لهذه المرتبةِ فكان وَفْقَ ما أراد وفوقَ ما آقترَح؛ وتشبَّث بعينِ الأعمـال الصالحةِ وتمسَّـك، وتنَزَّه عن داءٍ يلازِمُها وأعراضٍ تَشينُها وتنَسَّك؛ وكَثُر الخوضُ فى الباطل فإما صَدَع بالحق وإمَّا أمْسَك، وأعدىٰ فَصْلَه وفَضْلَه علىٰ من شَكا أو شَكّ؛ وغضَّ عينَيْه عمَّا أُعْطِى سِواه ومُتِّع به، وآشترىٰ طُولَ راحتِه بتَصيبه الآنَ من نَصَبِه، وحسره (؟) النعمة من تَعبِه؛ وأيِس الظالِمُ من مُمَـالاتِه ومُبالاتِه، وطمِع المظلومُ بقُرْب إعاناتِه وبُعْد إعْناتِه؛ ومرَّ مُرُّ الدهرِ وحَلاَ حُلْوُه فلم يشهَدْ باستِمَـالاتِه عن حالاتِه، ولم يرْضَ أحدبه حُكْمَ صَرفِ دهرٍ يجرِى بأذاته؛ ولا كشفَتْ منـه التجارِبُ إلا عن البَصائرالتى تَرُوق السُّمَّاع

(١) أى فا آنقاد ولان ولا سمح أى جاد وسخا .

(٢) أى درس وعفا . انظر اللسان .

والنُّظّار، والحسناتِ التى قضَتْ بصائرُها بقضاءِ مناظَرة الأنظار، والديانةِ التى عَمرت المحارِيبَ فى الليل وأطرافِ النهار، والأمانةِ التى آستمسك عَقْدُها فما خِيف عليه أن يَتداعىٰ ولا أن ينْهار، والصيانةِ التى آستوىٰ فَوْقَ مَرْكَبها فحَلَّت بجنَّاتِ عَدْن تجرى من تحتِها الأَنْهار .

ولمَّا كنت أيُّها القاضى ملتقىٰ هذه الأوصاف وطَيِّعَها، ومَشْرِقَ نحرها ومَطْلَعَها، ومَلْقىٰ عصا آرتيادِها ومَنْجَعَها ، ومَوْرِدَ فَرَط تلك الأموالِ ومَشْرَعَها، ومُرادَ هـذه السِّمات التى تقَعُ منك موقِعَها، وتألَفُ عندَك مَوْضِعَها، وأصلَ هذه المحامِد التى إن آستَغْلَقت بسِواه فمنه فَرَّعها، وقارِعَ صَفاةِ هذه الذِّروة التى ما كان لغيره أن يَقْرَعَها، ومن تَعُدّه الخناصرُ أتقىٰ كُفاةِ الرتب وأوْرعَها، وأبلجَ أُباة الرَّيْب وأرْدَعَها، وأشدَّها قياماً ومَقاماً فى ذاتِ الله وإن كان له أطوعَها، وأمضاها حدًّا إذا كَفَّ الباطلَ الغُرُوب ، وأشرَقَها شمساً لاتتوارىٰ بحِجاب الغُرُوب، وأقْواها سَلَّةً فى تنفيذِ حكمِ حقٍّ إذا ضَعُف الطالبُ والمطْلُوب ، وأنقاها صحيفةً بما أَوْدَعها من نُور العمل المكتُوب، وأبْداها زُهْدا فى دنياه إذا أنموْا بوعْدها الكاذبِ أمَلَ إيتائها المكْذوب، وأدومَها مصاحبةً لشكرٍ لايستقِلُّ به رفيقُها المصحُوب، وأقْوَمها طريقةً فى الحَسناتِ فما طريقُه إلىٰ الحُوب بمَلْحُوب، وأقْواها طُمأْنينةَ قلب إلىٰ ذِكْر الذى تطْمَئنُّ به القلوب، وأنهضَها عَزْما بما أعيا الهِمَم من تكاليف الطاعة وآد بسمع وبصَر وفؤاد، وأقْدرَها علىٰ مجاهدة الشهَواتِ أشدَّ الجِهاد ، وأنظَرَها لنفسه فى تحصيل عمل يشهد له يومَ قِيامِ الأشهاد، وأمهَدَها لجَنْبه وذخائرُ التقوىٰ نِعْمَ المِهاد .

وإلىٰ اليقـينِ(١) الذى ظهـرتْ شواهدُه ، والعملِ الذى جُمعتْ إليك شوارِدُه ، والدِّين الذى صفَتْ إليك موارِدُه، والعِلْم الذى هبَّتْ بمذاكَرتك رواكِدُه، والفَهْم

(١) مراده وكل ذلك مضاف إلى اليقين الخ .

الذى تظاهرَتْ بمناظرتِك مَراشِـدُه، والنظر الذى ألقىٰ فُرْسَانَ الجدَال بالجَدَالَهْ، والأثر الذى يُقْضىٰ به عليك بالعَدَالَه، والمحاماةِ عن الحقِّ بمـا يقْضِى لمخالِفِه بالإذالةِ ولمؤالفه بالإدَالَهْ، والإرشادِ الذى ما بدا لفَهْم الشاكِّ إلا بَدَا له، والفُتْيَا التى ضربَتْ ثَبَج الباطلِ بسُيوفِها، وحلَّتْ مَسامعَ المستفيدينَ بشُنُوفِها، والجلالةِ التى لا يُملُّ مسمُوعُ أوصافِها، والعدالةِ التى لا يُمَلُّ (؟) مشْرُوعُ إنصافِها، وكم ليلةٍ أغمدْتَ ظلامَها فى نُور التهجُّد والناس هُجُود، وسكَّنْتَ جُفونَ مناقبها بيَقَظات السُّجُود، وأنشأتِ الخشْـيةُ غَمامَها فاطفأْت بمـاء الدمع النـارَ ذاتَ الوَقُود، وبلغتَ رياضةَ الجوارحِ التى تُرِيد ورياضَ القلب التى تَرُود، فأسفر الصبحُ منك عن سارٍ واقِف، وآستسرّ لك القَبُول عن أُنْس خائف، وتأرَّجتْ أنفاسُ الأسحـار باسـتِغفارِك، وتَمَّ عُنوانُ السُّجود بأسرارك، وآبيضَّتْ شِيَةُ الليلِ بحِلىٰ آثارِك، وآكتنفَتْك الطَّهارةُ حتّى كأنَّك مُصْحَف، وأرهَفَتْـك الديانةُ حتّى كأنك مُرْهَف، وحالَفَتْك الرَّكانةُ وكأنك مع سـلامة الخَلْق أحنَف، وثقَّفتك السِّنُّ فأبقَتْ منك ماأبقتْ من سِـنان المثقَّف، وعرَفَتْكَ الأحكامُ بأنك ماضٍ علىٰ الحقائق عند الشُّـبَه تتوقَّف، وألِفتْـك النزاهةُ فشهِد عدولٌ أن نكرَةَ المطامِع عندَك لاتتعرَّف، وصرَفَتْك النزاهةُ عن دُنْيا إن كانتْ عرائِسُها تُزَفُّ فغدًا مواردُها تُنْزَف، وآستشرفَتْك المنازلُ التى لاتَزالُ بأعناق الأشرافِ تُسْتَشْرَف، وما رأَسْت، حتى درَسْت، ولا تنبَّهت، حتى تفقَّهت، ولا أَفْنيت حتى أفْنيت المحابِر، ولا تصـدّرتَ حتّى تصـبَّرت علىٰ كُلَفٍ تغلِب الصابر، فما حاباكَ من حَباك، ولا قدّمك حتّى علِم أن سِوَاك ماساواك، فرِياستُك لم تكن فَلْته، وآستشرافُ وجه الرياسة لك لم يكُنْ لَفْته، بل تنقَّلتَ متدرِّجا، وأثنىٰ عليك لسانُ حقيقةٍ ما كان متلجلِجا، ولو أقعَـدَك حسَـبُك أو أباك، لقبِلك المجدُ وما أباك،

فكيف ولك نفس بنَتْ لك الشرَفَ الخـالد ، وجمعت الطريفَ منـه إلىٰ التالد ، ولم تقْنَع بمـا وِرثْتَ من تُراثِ رياسةِ الوالِد .

والسـيد الأجلُّ الذى أعادَ إلىٰ الدولة رَوْنَق نَضارتِها ، بعـد رَوْنق إضارتهـا ، وأفاضتْ عليه حَيَا إشارتها ، وأضافت إليـه نَصَّ إشارتِها ، وأعطَتْه السعادةُ أفضلَ إمارتها ، بمـا أعطَتْه من فضل وِزارتِها ، وآشتملتْ معـانِى النَّجاح من صَفْحةِ بِشْره التى عَجَّلتاكَ الآمالَ ببشارتهـا ، وأقرّت حركاتُه الخلافةَ فى دارِها والأنوارَ فى دارتها ، وقصَّرتْ مهابتُه أيدِىَ الأعداء بعـد آستطالتِها ، وأخمدتْ نارَهُم بعد آسـتِطارتها ، وذلَّلت رياضتُه الأُسودَ فلم تَرُع الأسماعَ بزأرِها ولا العُيونَ بزيارتِها ــ يَعُدّك للصُّدور صَـدْرا ، ويَعِدك بمـا يرفَع ذَوِى الأقدار قَـدْرا ، ويذكُرك بمـا تَطِيب به نَشْرا ، ويحسُنُ ملبوسُـه بِشرا ، ويراكَ أوْلىٰ من أقام الحقَّ لازمًا جَوادّه ، وأقعدَ الباطلَ حاسِمًـا مَوَادّه ، ويصِـفُك بالعدْل الذى يتألَّم عليـه الأضـداد ، والسَّـداد الذى لايُضْرَبُ بينـك وبينَه بالأَسْـداد ، والنزاهةِ المنزَّهة عن التصنُّع بالرياء ، والسريرة الطيِّبة النَّشر والسيرة الحسنةِ الرُّواء .

ولمـا قرّر لك النيابةَ عنـه فى الصـلاة والخَطابة والقضـاء والمَظالم والإشراف علىٰ الجوامع والمساجِد ودارِ ضَرْب العين والورِق والسِّـكَّة بالحَضْرة وسائر أعمـال المملكة ، أمضىٰ أميرُ المؤمنين ماقرّر ، وتخيَّر لهذه العطية من تخيَّر ، سكُونا إلىٰ أمانتِك التى حملت نوقَها ، ورُكُونا إلىٰ ديانتِك التى أوجبَتْ تطلُّعَ هـذه الرتبة إليك وسَوْقَها ، وعلمـا أنك فارسُها الذى آتَّسع مِيدَانُه ، وواحدُها الذى رَجَح مِيزانُه ، وكُفْؤُهَا الذى تمكّن مكانُه .

فتقلَّد ما قلِّدت من ذلك عامـلا بتقوىٰ الله التى يفوز العامل بها فى مواقف الإسخاط ، ويجوزُ بها السالكُ مَتالِفَ الصراط ، ويحوزُ بها الآملُ معارفَ الآحتياط ،

قال الله فى فُرْقانه الذى نزله علىٰ عبده ليكون للعالمين نذيرا : ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِين آمَنُوا ٱتَّقُوا اللهَ وآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِه وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورا﴾ .

والحكم فهو عقد اللباس دُنْيا ودِينا ، وسبيلُ الحق الذى يسْلُكه مَنْ جَرىٰ شِمالا وسلَك يمينـا ، وبه كفَّ الله الأيدىَ المتعدّيه ، وأنقذَ من النـار النفوسَ المتردِّيه ؛ وأقام حدُودَ كلِّ من ٱستحقَّها ولم يتوقَّها ، وأوجب قِصاصَ الدماء علىٰ من أراقهـا وٱستَباحَ رِقَّها ؛ وبه يقف القوىُّ والضعيفُ مَوْقِفا واحدا ، وَيَظْهَرُ أولو عدلِ الله لمن كان بعين قلبه مُشاهِدا ؛ وبه تتبيَّن مواقعُ التحليل والتحريم ، وفيه تتعيَّن مقاطِعُ الحُكْم بالتحكيم ؛ ولمجالِسه الوقارُ فهى جَنَّة لا لَغْوَ فيهـا ولا تأْثِيم ، والظالمُ فيــه وإن ظفر فإنما ظفِر بما يُقْطع له من نار الجحيم . ولا تجعل بين المتحاكِمين إليك من فَرْق ، وساوِ فى الحكم بين كافَّة الخلْق ؛ ولاتَحْكُم بحُجَّة أحد الخصمين وإن كان لها السَّبْق : ﴿فَٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَـا أَنْزَلَ اللهُ ولا تَتَّبِـعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقّ﴾ . ولا تقْطَعْ بعلْمك وإن كنتَ عليما ، ولا تُبالِ فى الله أن تُغْضِب ظالما وتُرْضِىَ مظْلوما ؛ وٱجعل لنفسك من نَظَرِك وإصغائك بين المترافعين إليك مقسوما ، فلا تحقر خطأ الحكم وتجنب منه بينهما ماتجده [عند] الله عظيما : وٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَـا أَنْزَلَ اللهُ ولَا تَكُنْ للخـائِنِينَ خَصِيما . وتَجلْبَبْ بالوَقار الذى يبيِّن فضـلَ المِله ، ويشهد للكُفْر بالذِّلَّه ، ويُلْبِسُك فخرَالسَّراة الحِلَّه ؛ ولا يمنَعْك مذمومُ التكبُّر عن محمود التدبُّر ؛ ولا جَبْرَ لكَسْر التجبُّر ، ولا خير فيمن لايُمْهِل رويَّة التحير فالعجلةُ تضيِّق مَيْدان التخيُّر ؛ وإذا أُوضِح الملتبسُ لفَهْمك ، وعزَّ القطعُ بفصْل حُكْمك ، فأفهم الظالِمَ ماتوجَّه عليـه لخَصْمه ، فرُبَّمـا أُوتِى من سُوء فهمه لامن طريقِ ظُلْمه ؛ ولعله لا يجمَعُ عليه بين فَوْتِ مرادِه وبقاءِ إثمه ؛ وذاكِر المُقْدِمين علىٰ اليمين ، بمـا علىٰ مَنْ يَمِين ؛ وأن كاذبَها يَدَع الديارَ

بَلَاقِع ، وأن خَرْق الجُرْأة علىٰ الله ماله من راقع ، وصَرْعةَ الفاجر مالها من مزيل ولا رافع ؛ ومَنْ قطعه الحَصَر عن الإفصاح ، وصرفه العِيُّ عن الإيضاح ، فآستعمِلْ معه أناةً تُوضِّح مايختلِجُ فى صدْره ، ورِفقا يُفْصِح ما يختلج فى فكره ؛ فإنَّ رسـول الله صـلى الله عليه وسلم يقول : " إنَّكُم لَتَخْتَصِمُون إلىّ ولعَلَّ أحَدَكم أنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بحجَّته من الآخَر فأَقْضِىَ له علىٰ نَحو ماأَسْمَع " ولدُخول المجالس دَهْشة تُورِث اللسان عُقْلَه ، ولمفاجأة المَحَافل حَيْرة تُعقِب البيان مُهْله ؛ فواجب عليك ممن تدلَّه أن تَدُلَّه ، وممن يُشْدَه أن تَشُـدّه : لتقْضِىَ بمـا تقضِى ، وتُمضِى الحكمَ بحقيقـة تَمضِى ؛ وإن تَجَزَّتْ قضِـيَّة قد فَرَطت ، وتدبَّرت نَو بةً قد أفرطت ؛ فبـادرْ بآستِدْرا كِها ، قبل وُقُوعك فى أدْرا كها ، وتعذرك عن إدرا كها ؛ ولستَ معصوما من المَغَالط ، ولاموصوماً بالخطإ الفارِط ، ولا مَلُوما [إلا] إذا أقمتَ علىٰ ما الله منه ساخِط ؛ فقد ذَمَّ الله من آتَّقىٰ الخلائقَ ولم يتَّقِ الخلَّاق ؛ فقال تعالىٰ : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ ولا يَسْتَخْفُونَ من اللهِ وهو مَعَهُمْ ﴾ .

وكتابُ الله وسـنةُ رسوله السِّراجان اللذان ما ضَلَّ هُداهما ، والمِهـادانِ اللذان ماأوضَحَهما إليه وأبداهما ؛ وقد أغنتْ نصوصُهما عن الأقْيِسه ، وأوضح خُصوصُهما عامَّةَ الأمور المُلْتَبِسه ؛ قال الله سبحانه : ﴿ ما فَرَّطْنَا فى الكتابِ مِنْ شَىْء ﴾ . وقال تعـالىٰ : ﴿ وَمَا آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوه ومَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَآنْتَهُوا ﴾ وإن أشكلتْ نازلةٌ غير مسطُوره ، وأعضَلَتْ واقعةٌ غيرُ محصُوره ؛ فاستَرْشد أميرَ المؤمنين فى أمْرِها ، وقِفْ علىٰ بحارِ علمِه فلن تَعْدَمَ سَيْحَ دَرِّها ؛ فأميرُ المؤمنين الذى أمر الله عنـد التنازع بأن نردّ [إليه](١) ماأعْضَل ، وأَتَمّ أخذك للاستنباط [الامن](١) الذين حكَم الله أن يُردّ عليهم ما أَشْـكل .

(١) زدنا هاتين الكلمتين على ما فى الاصل لأن الكلام بدون زيادتهما لا يفهم . تأمل .

والشهادةُ فلقد أمر اللهُ بإقامتها وكفىٰ بالله شهيدا ، وكفىٰ بذلك جَلَالة وتمجيدا ؛ ولا تتَّخذ إلا العُـدول المَقَانع ، ولا تسمَعْ منهـم إلا لمن هو لأمر الله سامِع ؛ فهـم الأعوانُ التى تُدْفَع بها نارُ جهـنم ، والجُنَن التى يتَّقِى بها الحاكم سهام الآثامِ فيما حَلَّل وحَرَّم ، وإلىٰ علمهم ٱنتهتْ مقاطِعُ الحقوق التى اللهُ بها أعلم ؛ وما سرىٰ حكمٌ إلا بعد أن تجِدَ أقوالَه دليـلا ، ولك السـمْعُ ولهم البصر وكلُّ أُولئك كان عنـه مَسْئُولا ؛ وٱستشِفَّ أمورهم فمن ألفيته آلفا لمحَجَّة الصواب ، عائفا لمَضَلَّة الٱرتياب ، لايُخاف بالإغْضاب ، ولا يُخاف بالإرهاب ، ولا يحسِبُ حسابا إلا ليوم الحِساب ، فاسمع مَقالتَـه ، وأقِرّ عدالَتَـه . ومن كان عن السبيل ناكِبًا ، وللهَوىٰ راكِبا ، فأرجِلْه عن ظَهْر العَداله ، وتتَبَّع زَلَله بالإزاله ؛ وواصِلْ فيهم ألسِـنةَ حكمك ، وأوْجُه علمك ؛ فلا تستَنِب إلا من تعلم أن خطأه عليك وصوابَه لك ، ولا تعوّل إلّا علىٰ من لايُخْجِل نفسك ولا يُذَمُّ تَعْويلك .

وكاتبُك فقلمُه لسانك ، ولسانه ترجُمانك ؛ إن وَقَّع فإليك تُنْسَب مواقع توقيعِـه ، وإن وصـل حكما بسطُوره فِمقدارُك مسطورٌ من مسمُوعه ؛ فلا ترضَ بالدُّون فما يدوّن ، ولا تعوّل إلا علىٰ كل من تصوّر وتصوّن .

وحاجِبُك فهو عينُك وإن سُمِّى حاجبا ، ووجْهُك الذى تلقىٰ به إذا كنْتَ غائبا ؛ فاختَرْ من يكون متخيرًا فى المَقَال ، متحلّيا بحُسْن الفِعال ، مجرَّبا فى جميع الأحوال ؛ لايلتفتُ إلىٰ دنيـا دينُـه ، ولا يخونك أمانَتَـه ولا تمتدّ يمينُـه ، ولا يقول عنـك ولا عن نفسه إلا مايَزِينُك ويزِينُه ، ولا يخِفُّ إلىٰ ماتخِفُّ به موازينُه .

والخطباءُ فُرْسان المنابر ، وألسنةُ المحاضر ، وتراجِمُ الشعائر ، وأئمةُ المَجامع ، وسُفَراء القلوب بوَساطة المسامع لمَقامها الرافع ، ومُبِرُّها الفارعُ من القلوب علىٰ دائها ، وتدحر

حربُه شياطينَ الأمم عنـد ٱعتدائها، ويُعرب عن الهداية ويبالغ بلاغتَه فى إهدائها، ويتقِنُ مخارجَ الحروف مُحْسِنا فى أدائِها وإبدائها، وتَحُلُّ موعظتُه عن العيون الجامدة عُقَدَ وكائِها، وينادى القلوبَ الصَّدِيَةَ فيكون صَدَاه صوبَ بكائها، ويستشعِرُ أرْدِيةَ الوَقَار فتشهد المنابرله بارتدائِهـا، وتغذى النفوسَ مواعظُه إذا قصدتْه بٱستنصارها علىٰ القلوب وٱستِعْدائها .

والأيتـام فأنتَ لهم والد، وأجْرُ نفَقَتك عليهم فى الصحيفةِ وارِد، وهم ودائعُ الله لديْك، وذخائرُ الآباء [إ]لَّا أنهم فى يديْك، فأحْسِن بهم السياسة بالشَّفَقه، وأحسن لهم التدبيرَ بالنَّفَقه، ومن آنسْتَ رُشْدَه، فٱدفع مالَهُ إليه، ومن لم تسترْشِدْ قَصْدَه، فأنفق منه عليه، قال الله تنبيهًا وتحذيرًا : ﴿ ولَا تأْكُلُوا أمْوالَهُمْ إلىٰ أمْوالِكُمْ إنَّه كانَ حُوبًا كَبِيرا ﴾ .

والمساجد بيوت الله التى يُسَبَّح له فيها بالغُدُوّ والآصال، ومَظانُّ العبادة التى يعمُرها أهل الٱعتلاقِ بمعْروفه والإفضال، ومصاعِدُ الكَلِم الطيب والعملِ الصالح، وأسواقُ الآخرة التى يُوجب فيها المشتَرُون صَفْقة البَيْع الرابح، فعَبِّد الطريقَ إلىٰ زيارتِها، وٱشْرَحْ قلوبَ المتطهِّرين بطهارتها، وآنِس القائمينَ بالليل والمستغفِرين بالأسحارِ بإنارتها .

والمضْروبُ بدار الضرب فهو عينُ ما تجب عليه الزَّكَوات، ونفس ما تُحازُ [به] المستَمْلَكات، ومدارُ ماتشتمِلُ عليه المُعامَلات، وقِيَمُ ماتُحقَن به الدماء فى الدِّيات، ومنتهىٰ ما تُوفَّىٰ به الصَّـدُقات، وتُوصى به الصـدقات، فتولَّ أخذَ عِيـاره، ومباشرةَ تصفية دِرْهمه ودِينـاره، وأخْلِصْه لتنْجُوَ من النـار بلَفَحات نارِه، وٱحفَظْ شكله الذى ينقش خاتَم جَوازِه، والأسمـاءُ المسطَّرة عليـه وسيلةُ ٱمتيـازه علىٰ بقية الأحجار وإعْزازه .

والوكالة علىٰ باب الحكم فهى كِفَاح المتناضِلين، وسِلَاح المتناصِلين؛ ومن ينتفع بها لا يُعْزَل من الخطاب، كما لا ينصَّب بها من يَفْتَح له الباطلُ الأبواب؛ فلا تُوعِها إلا لمن حسمته الدُّربه، فى السرعة من القُرْبه، وتدبر قول الله : ﴿ وإنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّـه ﴾ ممن يُؤْمَن علىٰ النساء والرجال، ولا يُعْجِبه إرسالُ لسانه فى الحَلَال، ولا يُبطِلُ الحق إذا أطلق لسانه فى سَعة المَجَال .

والمتصرّفون الذين هم أيدى الشريعة التى تُشْخِص الخُصوم، ويُستعانُ بهم علىٰ قَمْع الظَّلوم ونَفْع المظلوم؛ فتخيَّرْ أن يكون أكبرهم من أهل طبقته، وأمدّهم تحسينا لسُمْعته وتحصينا لأمانته .

هذا عهدُ أمير المؤمنين إليك فاهتَدِ بهَدْيه، وقُمْ بفرض رَعْيه وحقِّ وَعْيه؛ وكريم سعى الآخرة أحسَنَ سَعْيه، وتصرَّفْ بين أمر الحقِّ ونهيه؛ والله سبحانه يبلِّغُك من مناجح أمْرِك، مالا تبلُغـه بمَطامِح فِكرك؛ وييسر لك من بديهة الإرشاد، ماتعجِز عنه روِيَّة الآرتياد؛ فاعلمْ هـذا من أمير المؤمنـين ورَسْمه، وآعمل بموجَبِه وحُكْمه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذٰلك ماأورده علىُّ بن خلف الكاتب فى كتابه "موادّ البيـان" فى سجـلٍّ بالدعوة للدولة والمشايعة لهـا، والموافقة علىٰ مذْهَبِها، وهو :

الحمدُ لله خالِق ماوقَع تحت القيـاس(١) والحَوَاس، والمتعالى عن أن تُدْرِكه البصائرُ بالآستدلال والأبصارُ بالإيناس؛ الذى آختار الإسلامَ فأظهره وعظَّمه، وآستخلص الإيمـانَ فأعزَّه وأكْرَمه؛ وأوجب بهما الحجةَ علىٰ الخلائِق، وهداهم بأنوارِهما إلىٰ أقْصَد الطرائق، وحاطَهُما بأوليائه الراشدين شُموسِ الحقائق؛ الذين نَصَبهم فى أرضه

(١) يريد بالقياس المعقول .

أعلاما، وجعلهم بين عِباده حُكّاما، فقال تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ .

يحمَدُه أمير المؤمنين أنِ ٱصْطفاه لخلافتِه، وخصَّه بلطائف حِكْمَته، وأقامه دليلًا علىٰ مَنَاهِج هِدايته، وداعيًا إلىٰ سبيل رحمتِه؛ ويسألُه الصلاةَ علىٰ سيدنا محمد نبيِّه الذى ٱبتعَثَه رحمةً للعالمين، فأوضح مَعالِمَ الدين، وشَرَع ظواهره للسلمين، وأودع بَواطِنَه لوصيِّه سيد الوصيين: علىّ بن أبى طالب أمير المؤمنين، وفوّض إليه هدايةَ المستجِيبين، والتأليفَ بين قلُوب المؤمنين، ففجَّر ينابِيعَ الرَّشاد، وغوَّر ضَلالاتِ الإلْحاد، وقاتل علىٰ التأويل كما قاتل علىٰ الرسل، حتى أنار وأوضَح السُّبُل، وحسَر نِقابَ البيان، وأطْلع شمْسَ البرهان، صلَّى الله عليهما، وعلىٰ الأئمة من ذرِّيَّتهما، مصابيحِ الأديان، وأعلام الإيمان، وخُلَفاء الرحمن، وسلَّم عليهم ما تعاقب المَلَوان، وترادَف الجديدان .

وإنَّ أمير المؤمنين بما منحه الله تعالىٰ من شَرَف الحِكْمَه، وأورثه من مَنْصب الإمامة والأئمّه، وفوّض إليه من التوقيف علىٰ حُدود الدين، وتبصيرِ من ٱعتصَم بحبله من المؤمنين، وتنويرِ بصائرِ من ٱستمسك بعُرْوته من المستجيبين - يُعْلن بإقامة الدعوة الهادِيَّة بين أوليائه، وسُبُوغ ظلِّها علىٰ أشياعه وخُلَصائه، وتغذِيَة أفهامِهم بلِبانها، وإرهافِ عقُولهم ببَيانها، وتهذيبِ أفكارهم بلطائفها، وإنقاذِهم من حَيْرة الشُّكُوك بمَعارفها، وتوقيفِهم من عُلُومها علىٰ ما يَلْحَب لهم سبُلَ الرِّضوان، ويُفْضى بهم إلىٰ رَوْح الجِنان وريح الحَنَان، والخلودِ السرمدىّ فى جوار الجَوَاد المنَّان - ما يزالُ نظرُه مصروفًا إلىٰ نَوْطِها بناشِئٍ فى حِجْرها، مغتذٍ بدَرِّها سارٍ فى نُورها، عالِمٍ بسرائرِها المَدْفُونه، وغَوامِضها المكْنُونه، موفِّرا علىٰ ذلك ٱختيارَه، وقاصِيةَ ٱنتقاده وٱختبارَه، حتّى أدّاه الاَجْتهادُ إليك، ووقَفه الاَرْتيادُ عليك، فأسندَها منكَ إلىٰ

كفئها وكافيها ، ومدْرَهها المبرِّز فيها ؛ ولسانها المترجم عن حقائقها الخفيَّه ، ودقائقها المَطْويَّه ؛ ثقةً بوثاقة دينك ، وصحَّةِ يقينك ؛ وشهودِ هَدْيك وهُداك ، وفضل سيرتك فى كل ماولَّاك ؛ ومحض إخلاصك ، وقديم آختصاصك ؛ وأجراك علىٰ رَسْم هـذه الخدْمة فى التشريف والحُمْلان ، والتنويه ومُضاعفة الإحسان .

فتقلَّدْ ما قلَّدك أمير المؤمنين مستشْعِرا للتقوىٰ ، عادلا عن الهَوىٰ ، سالكًا سبيلَ الهُدىٰ ؛ فإنَّ التقوىٰ أحصَنُ الجُنَن ، وأزينُ الزِّين ، و ﴿ آدْعُ إلىٰ سبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِىَ أَحْسَن ﴾ . فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَد أُوتِىَ خَيْرا كَثِيرا ﴾ . وحَضّ علىٰ ذٰلك فقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَىٰ اللهِ وعَمِلَ صَالِحًا وقَالَ إِنَّنِي مِنَ المُسْلِمِينَ ﴾ .

وخُذِ العهدَ علىٰ كل مستجيبٍ راغب ، وشُدّ العقْدَ علىٰ كل مُنْقادٍ ظاهِر ، ممن يَظْهر لك إخلاصُه ويقينُه ، ويصِحُّ عندك عَفَافه ودِينُه ؛ وحُضَّهم علىٰ الوفاء بمـا تُعاهِدُهم عليه ، فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إنَّ العَهْدَ كانَ مَسْـُٔولا ﴾ . ويقول جل من قائل : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِه ﴾ . و [كفّ] كافَّةَ أهل الخلاف والعِناد ، وجادِلْهم باللُّطْف والسَّداد ، وآقبَلْ منهم مَنْ أقبلَ إليكَ بالطَّوْع والآنقياد ؛ ولا تُكْرِه أحدا علىٰ متابَعتك والدخول فى بَيْعتك ، وإن حمَلَتْك علىٰ ذلك الشفقةُ والرأفةُ والحنان والعاطفة : فإنَّ الله تعالىٰ يقول لمن بعثه داعيًا إليه بإذنه : محمدٍ صلّى الله عليه وسلم : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِين ﴾ .

ولا تُلْقِ الوديعةَ إلا لحُفَّاظ الوَدَائع ، ولا تُلْق الحَبَّ إلا فى مَزْرَعة لاتُكْدى علىٰ الزارع ؛ وتوخَّ لغَرْسك أجلَّ المَغَارس ، وتُورِدُهُم مشارع ماءِ الحياة المَعين ،

وتُقرّبهم بقُرْبان المخلِصين ؛ وتخرِجُهم من ظُلَم الشكوك والشُّبُهات، إلىٰ نُور البراهينِ والآيات ؛ واتْلُ مجالس الحِكَم التى تخرج إليك فى الحضرة علىٰ المؤمنين والمؤمنات؛ والمستجيبين والمستَجيبات ، فى قُصُور الخلافةِ الزاهره ، والمسجِدِ الجامع بالمُعِزِّيَّة القاهره؛ وصُنْ أسرارَ الحِكَم إلا عن أهلِها، ولا تَبْذُلْها إلا لمستحِقِّها؛ ولا تكشِفْ للمستضْعَفين ما يَعْجِزون عن تحمُّله ، ولا تستقِلُّ أفهامُهم بتقبُّله ؛ وآجمعْ من التبصُّر بين أدلَّة الشرائع والعقُول ، ودُلَّ علىٰ آتصال المتل بالممنون؛ فإن الظواهِر أجسامٌ والبواطِنَ أشباحُها، والبَواطنَ أنفسٌ والظواهِرَ أرواحُها ؛ وإنه لا قِوامَ للأشباح إلا بالأرْواح، ولاقِوامَ للأرواح فى هذه الدار إلا بالأَشْباح، ولو آفترقا لفَسَد النِّظام، وآنتسخَ الإيجادُ بالإعدام . وآقتصِرْ من البيان، علىٰ مايحرُس فى النفوس صُورَ الإيمان، ويصونُ المستضعَفِين من الاِفتِتَان؛ وآنهَهُم عن الإثم ظاهِره وباطِنه، وكامِنه وعالِنه؛ فإن الله تعالىٰ يقول : ﴿ وذَرُوا ظاهِرَ الإثْم وباطِنَه ﴾ .

وآتَّخِذْ كتاب الله مِصباحًا تقتَبِس أنوارَه، ودليلا تقْتَفِى آثارَه؛ وآتلُهُ متبصِّرا ، وردِّدْه متذكِّرا ، وتأمَّلْه متفكرا؛ وتدَبَّر غوامضَ معانيه، وآنشُرْ ماطُوِىَ من الحِكَم فيه؛ وتصرّفْ مع ماحلَّله وحَرَّمه، ونقَضَه وأبرمه، فقد فَصَّله الله وأحْكمه؛ وآجعل شَرْعه القويمَ الذى خَصَّ به ذَوِى الألباب، وأوْدَعه جوامعَ الصلوات ومحاسِنَ الآداب، سببا تَتَّبع جادَّته ، وتبلُغ فى الآحتجاج مَحَجَّته ، وتمسَّكْ بظاهِره وتأويلِه ومُثُله ، ولاتعْدِل عن مَنْهجه وسُبُله ؛ وآضْمُم نَشَر المؤمنين، وآجمع شَمْل المستجيبين، وأرشِدْهم إلىٰ طاعة أمير المؤمنين ؛ وسوِّ بينَهم فى الوَعْظ والإرشاد ، والله تعالىٰ يقول فى بيته الحرام : ﴿ سَواءً الْعَاكِفُ فِيهِ والْبَاد ﴾ . وزِدْهم من الفوائد والموادِّ علىٰ حسَب قُوَاهم من القَبُول ، وما يظْهَر لك من جَوْدة المحصُول ؛ ودَرِّجهم بالعلم ووَفِّ المؤمنَ حقَّه من الآحترام ، ولا تُعْدِم الجاهلَ عندك قوْلًا سلَاما كما علَّم ربُّ

السلام . وتوخَّ رعاية المؤمنين، وحمايةَ المعاهَدين، وميِّزهم من العامّة بمـا ميَّزهم الله من فضل الإيمـان والدين ؛ وألِنْ لهم جانبَك وٱحْنُ عليهـم وٱلطُف ، وٱبسُطْ لهم وجهَك وأقبِلْ إليهـم وٱعْطِف ؛ فقد سمعتَ قولَ الله تعـالىٰ لسيد المرسلين : ﴿ وٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ ﴾ . ولا تُفَسِّح لأحد منهم فى التطاوُل بالدين، ولا الإضرارِ بأحد من المعاهَدين والذِّمِّيين، وَمَيِّزهم بالتواضُع الذى هو حِلْيةُ المؤمنين؛ و إذا ألْبَس عليك أمرٌ وأشْكَل، وصَعُب لديْكَ مَرامٌ وأعْضل، فأَنْهِه إلىٰ حضرة الإمامةِ متّبعا قول الله تعالىٰ : ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُون ﴾ . وقوله : ﴿ فَإنْ تَنَازَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إلىٰ اللهِ والرَّسُولِ إنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ وأَحْسَنُ تَأْوِيلا ﴾ : ليخرجَ إليـك من بصائرِ توقيفِها، ومَراشد تعريفِها، مايَقِفُك علىٰ مَنَاهج الحقيقه، ويَذْهَبُ [بك] فى لاحِبِ الطَّرِيقه؛ وٱقبِضْ مايحمِلُه المؤمنون لك من الزكاة والجِزَىٰ (١) والأخْماس والقُرُبات ومايجرى هذا المجرىٰ؛ وتتقـدّمُ إلىٰ كاتب الدعوة بإثبات أسمـاءِ أربابه ، وٱحمِلْه إلىٰ أمير المؤمنين لينتفع مخرجُوه بتنقيله له ووُصُوله إليه، وتبرأَ ذِمَمُهم عند الله منه . وٱستنِبْ عنك فى أعمال الدعوة من شُيُوخ علم الحِكْمة ومَنْ تَثِق بدِيانتِـه ، وتسكُنُ فيـه إلىٰ وُفُورِ صِناعته ؛ وٱعْهَد إليهم كما عُهِـد إليك ، وخُذْ عليهم كما أُخِذ عليك ؛ وٱستطْلِقْ لهم من فضـل أمير المؤمنين مايُعِينهم علىٰ خِدْمته ، ويحمِلُ ثِقْلَهم عن أهل دَعْوته ؛ وٱستخْدِم كاتبا دَيِّنـا أمينا مُؤْمِنـا بصيـرًا عارفا ، حقيقًا بالاّطلاع علىٰ أسرار الحِكْمة التى أمر الله بصيانتِها وكِتْمانها عن غيرأهلِها، نقيـا حَصيفا لطيفا، يُنْزِلهم فى مجلسك بحسَبِ مراتِبِهم من العلم والدين والفضل .

(١) جمع جزية وهى خراج الارض وما يؤخذ من الذمىّ .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدبَّره متبصِّرا، وراجِعْه متدبِّرا، و به الوَصايَا تَهْدِى وتُسَدِّد، وتوفِّق وتُرْشِد، وآستعِنْ بالله يُمِدَّك بمعُونتِه، ويُدِم حظَّك من هدايتِه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وعلىٰ هذا سائرُ السجلات من هذا النوع . وقد أورد فى "موادّ البيان" سجِلَّات غيرَ هذه حذف منها التحميدَ وآقتصر علىٰ مَقاصدها، وفيما ذُكِر من ذلك مَقْنَع .

المــــــذهب الرابع

(ممـا كان يكتب لأرباب الولايات بالدّولة الفاطميــة مرتبةُ الأصاغر من أرباب السُّيوف والأقلام)

وليس لهذه الرتبة صِيغٌ محصورةٌ فى الآِفتتاح، بل تُفْتَتح بلفظ : «إنَّ أمير المؤمنين لمـا آتاه الله [من] كذا يفعل كذا وكذا ولمَّـا كنتَ بصفة كذا ، وحضَر بحضرة أمير المؤمنين فتاهُ ووزيرُه فلان وأشار بكذا ، فتركَ أميرُ المؤمنين فى كذا » أو يقال : «إن أولىٰ» أو «إنَّ أحَقَّ» أو «إنَّ أجدَر» أو «أقْمَن» أو « مَنْ حسُنَتْ طريقتُه» أو « مَنْ كان متَّصفا بكذا كان خليقًا بكذا» أو «ولمَّـا كان كذا» أو «منشور تقدّم بكَتْبه فلان » ونحو ذلك .

فمن المكتَتَب عن الخليفة من هذه المرتبة لأرباب السيوف نسخةُ سِجِلِّ بزَمٍّ .

إنَّ أمير المؤمنين لِمـا آتاه الله من المَحَلِّ الأرْفَع ، وجعله اليومَ الآمِرَ المطاعَ وغدًا الشـفيعَ المشفَّع؛ يتعهَّد عبيدَه بِعِهَاد كَرَمه ، ويُجِير من هَجْر[1] النوائب من يُحاوِل ظِلَّ

---

(١) الهجير والهجيرة والهجر والهاجرة نصف النهار عند زوال الشمس الى العصر وقيل فى كل ذلك انه شدّة الحر . انظر اللسان ج ٧ ص ١١٥ .

حَرَمه ؛ ويقبَلُ وسـيلةَ من كانت النجابةُ أقوىٰ وسائِله وذِمَمه ، ويؤمِّنه من إلحاف حوادثِ الدهرِ به ولَمِّه ؛ فلا زال بأُمُورهم عانيا ، وبمكارم شِيمتِه عن رَفْع مسائِلهم غانِيا ؛ لاسيَّما من حسُن فى الخدمة أثرًا وطاب خبَرا ، ونُشرتْ أوصافُه فى أيدى الثَّناء فكانتْ بُرودا وحِبرًا ، ونَمِن له الإحسانُ فى كل زمانٍ أن يأتِىَ مستحْمِدا لامعتَذِرا ، وعُدِقت به بِحارُ المحاماة فما أخرجَتْ منه إلا جَوْهرا ، وغَرس مقدّماتِ المخالصةِ وكان لسانِحِ الإنعام مسْتَثْمرا ، وصقَل التجريبُ صفِيحةَ طبْعه وكان لضرِيبةِ الحَزْم مستأْمِرا ، وآستبدّ بمُوجِبات المحامد مؤثرا لها ومُسْتأثِرا ، وجُعلتْ لديْه أسبابُ الآستقلال التى قلَّتْ عندَ سِواه فظَلَّ منها مهدا (؟) متكثرا .

ولما كنتَ أيُّها الأمير ممن قام له هذا الوصفُ مَقامَ الاسم [من] المسمّٰى ، وتوضَّحتْ مَخايِلُه به فلم يكُنْ من اللُّغز المُعَمّٰى ؛ وقام يقرر من الخدمة مشتَمِلا ، وآستقل بشرائط التعويلِ مستكْمِلا ، وأدرك غاياتِ المحاسنِ عجِلًا متَمَهِّلا[(١)] ، وضمنتْ له الشبيبةُ أن يعلُو كاهِلَ الرياسة متكَهِّلا ، وآشتهر بالتقدُّم فلم تَعرف به أوضاحُ الصنائع غُفْلا ولا مَجْهَلا ، وآستوجبَ أن لا يزال فى أُفُق الإنعام مُنْهَلًّا عليه يُغادِر لديه غدِيرًا ومَنْهلا ، وآستحقَّ أن يملأ يديه من (٢) ناظرِه متأمِّلا ، وأدّىٰ فريضةَ النصيحة كافِلًا متكفِّلا ومُعْمِلا لامتَعَمِّلا ، ونهض بتكاليف الخدمةِ متحمِّلا فيها مالم يزل متحمِّلا .

وحضر بحضرة أمير المؤمنين فتاهُ الذى أفتاه التوفيقُ باستبْرارِه ، ووليُّه الذى جَمَّ به موردُ السعد بعد آستِنْزارِه : السيدُ الأجلُّ سيفُ نَصْره المهنَّد باسه ،

(١) التمهل التقدّم وتمهل فى الأمر تقدّم فيه . انظر اللسان .

(٢) بياض بقدر كلمة .

وليْثُ حَرْبه والسِّنان نَاب ، وسحابُ الرحمة إلىٰ الإسلام بها حصل ربحى خضر الجَنَـاب ، ومتعب الرائح فى غيِّـه حتّىٰ عَزُب فى سُـهوب الإسهاب بأطنـاب الإطْناب ، ومستحقُّ المدائح التى يُعَطَّر بهـا الجَنَاب ، ويُعطِّل بها الرِّكاب ، والملكُ الذى خدمه الملوكُ لالرتبة الغَنَاء عنه بل لرُتْبة المَنَاب ، فذكَرك بمـا جَمَّلك ، وآستمطرَ لك من الإحسان ماجَمَّ لك ، وآسـتوفَق فى مُناصحة الدولة عَمَلك ، وقَرَّبَتْ عليـك بسِفَارتِه بحضرة أمير المؤمنـين أمَلَك ، وقرّر لك الخدمةَ بالزِّمِّ الفـلانى إخلادًا إلىٰ ماتنْطَوِى عليه جُمْلتُك ، وآعتماداً علىٰ ماتعزبه كلمَتُك ، فأجابه أميرُ المؤمنين إلىٰ ماأجابَكَ إليه ، وتقـدّم أمرُه باستخدامك فيما عُيِّن عليـه ، وخرج أمره إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجل بتقليدك ذٰلك .

فتقلَّد ماقُلِّدته مستشعِرا لباس التقوىٰ ، ناهيًا للنفْس عن الهَوىٰ ، سالكًا الطريقةَ المُثْلىٰ ، قال الله سبحانه : ﴿ والعاقبَةُ لِلتَّقوىٰ ﴾ . وهـذه الخدمةُ من أمراء قبائل العَرَب ، وهى المَنْبَع وسِواها الغَرَب(١) ، وما فيها من يُدْعىٰ إلىٰ خدمة إلا طَبَّق المِفْصل وأتىٰ علىٰ الأرَب ، فخُذْها بالمرسُوم لمـا تُنْدب له من المِهمَّات السانحةِ والعوارض ، والخُفُوف إليها بالأسْلِحة الرَّوائِـع والخُيُول النَّواهِض ، وألْزِم رجالَهـا أن تحفَظَ من الطُّرُقات مايُصاقِبُها ، وأن تَسُوقَ كلَّ نفس بجنـايتها إلىٰ من يعفُو عنها أو يُعاقِبُها ، وقدّم العَرْض الذى يُسـتَدلُّ به علىٰ مَنْ كان بالوفاء ساقِطا ، وعن أعمـال المملكةِ ساخِطا ، ليسترجِعَ الدّيوانُ ما كان بيـده ، ويفتضحَ من كانت الخِيـانةُ سريرةَ مقْصَده ، فاعلَمْ هذا وآعمَلْ به .

---

(١) الغرب بالتحريك من معانيه المـاء يقطر من الدلو بين الحوض والبئر أنظر القاموس .

ومن ذلك نسخة سجل بولاية ثغر، وهى :

إنَّ أَوْلىٰ من رَقَّاه إنعامُ أميرِ المؤمنــين إلىٰ المحلِّ اليَفَـاع، وشفَعتْ فيــه وسائِلُ فضائله فغَنِى عن الاِستِشْفاع ؛ وعَظُم له النفْع لمـا به من عظيم الاِنْتِفاع، وجرَّدَتْه يدُ الاختيار سيْفًا من سُيُوف الذَّبِّ عن الملَّة والدِّفاع ؛ واستقرَّ فى الرُّتب التى لاتُنْقَل إلا إلىٰ الزِّيادة ولا تُغيَّر إلا إلىٰ الارتفاع ، وجُلِّيت عليــه وجوهُ النعماء واضحةَ اللِّثام واضِعةَ اللِّفَاع ، ونِيطتْ منــه وصايَا الحَزْم بحافظٍ لهَـا واعٍ، وتوفَّرت عليه بواعثُ الصنائع ودعتْ إليه دَوَاعٍ ـ مَنْ ترشَّح بالاِستحقاق للرتب السنِّية وتأهَّـل ، وسبَق المجارين فى حَلْبة الإخلاص علىٰ أنهـم جَهَدوا وتمهَّـل ؛ واستوجبَ امتطاء كاهِل الرياسة بالفتك الذى شَبَّ والرأْى الذى تكَهَّل ، وثبتَ جأشُه فى المَقَامات التى يُراعُ لهـا كلُّ رُوع ويَذْهَل ؛ ومَنَعَتْ مهابتُه العدوَّ أن يجْهَل عليــه وأبتْ له حَصافتُه أن يَجْهَل ، وغَرِيتْ همتُه بالمَطْلَب الأصعبِ من العَلَاء وأَنِفت من المَطْلَب الأَسْهل ؛ وولِىَ الولاياتِ الجليلةَ فظلَّتِ الرعايا تَعُلُّ من موارِدِ عَدْله وتَنْهَل ، ونشأتْ لهم سُحُب الرِّكاب التى بَرْقُها يتهَلَّل وعارضُها يَنْهلّ .

ولمَّـا كنتَ أيُّها الأميرُ الناهِضَ بحقوق هذه السِّمات ، البعيدَ القَدْر من المُساواة والمُسامات ؛ المتنقِّلَ فى درجات التَّقْـدِمة والكَرَامات ، المنفرِجةَ عن أنوار فَتَكاته ظُلُماتُ المَقَامات ؛ المُعَدّ النَّجْدةِ لمَوَاقف البأساء والضراء والرادَّ علىٰ أعقابِها الأبطالَ المُعْلِمةَ بالفَتكات المُعْلَمات ، الدائمَ الغَرَام بمَقاماتِ الرِّياسة وإن كانتْ عظيمةَ المُؤَن جسيمةَ الغَرامات ، القائمَ بمـا تُوجِبه عليــه صنائعُ أميرِ المؤمنين من حقُوق المُدافَعة عن الحَوْزة وفُروض المُرامات ، المتظاهِرةَ فيــه شواهدُ الفضائِل بأصــدق الأعذار

وأوضَح العلامات، المشهورَ المقَامات، إذا جرتْ من مُتُون الصِّفاح جداوِلُ وٱهتزَّت من غُصُون الرِّماح قامَات، الآخِذَ بالأرصاد علىٰ العِـدا بسُيوفٍ تَرقُب الرِّقاب وتهيمُ فى الهامات، الكافِىَ الذى تنقَّل فى الِخدَم فكان من الشُّـكر مُثْرِىَ الأَثَر، وٱنتُدب فى المهِمَّات فكان مَثابَ التَّواءِ مُسْفِر السَّـفَر، المعروفَ فى تصرُّفاته بانتهـازِ النُّجْح وقَصْر البجح، والمعوّلَ علىٰ أن تصفَه أفعاله بشرحٍ لصَدْر الٱختيار به شَرْح، المعدودَ يوم الرَّوْع من كُفاة الخَطْب وحُماة السَّرْح، المـاضِىَ الحدِّ إذا كان السـيفُ لعدم الضارب مشتَبِهَ الحَدّ بالصَّفْح، وقدَّم فعلَ الٱستقلال، وأخَّر سُؤال الٱسـتِغْلال، وأسكنه من المُخالصـة إلىٰ دارٍ ببُلوغ الآمالِ مِحْلال، وٱرتفعتَ كاهل المجد بسعْى لمحْظُورها به ٱسـتِحْلال، وسَهَّلت إلىٰ الطاعة كلَّ مُعْتاص من المَطَالب، وغدَا الٱستحقاقُ بمُرادِك نِعْم الكفيلُ وبأملك نِعْم الطالب، وٱشـتهرتَ بخلالٍ ٱقتضت الرَّغبةَ فيما ٱقتضَتْه إليك من الرغائب، وعَظُم النفعُ بك حتّى لا نَفْع مع غيْبتك بحاضر ولا ضَررَ مع حُضُورك بغائب . ومثَل بحضرة أمير المؤمنين فَتاه ووليُّه وأمينُه السيدُ الأجل، الذى سارتْ أوصافُه مَسِير الشمس وأنارَتْ إنارَتها، وسقَتْ مَكارمُه سَقْىَ الغُيُوث وأمارَتْ إمارَتهـا، وسرَتْ خيولُه مَسْرىٰ طَيْف الخَيـال وإن كَرِه الأعداءُ زِيارَتَها، وقامتْ مهابَتُه مَقامها فى البلاد وأغارَتْ علىٰ القلوب إغارَتَها، ونازعَ الأقمارَ بعُلُوِّ القـدر دارَها وما حسِبُوا الدَّسْت له دارَتَهـا، وأشارتْ له السـعادةُ العلَوية وأمضىٰ التلطُّفُ إشارتَها وأحسَن به شارَتَها، وطالَعَ بمـا أنت عليه من طاعةٍ تَبذُل فيهـا الطَّاقة، وكفايةٍ إذا تَعاطاها الوصفُ المتَّسع ضَيَّق عنها النُّطْقُ نِطاقَه، وعَدَّك فى سَرَعان الأولياء إذا رتَّب سواك فى الساقه، وٱحتَسَب بما لَكَ من حسنات نَظْمها نَظْم السِّياقه . وبما قرّره لك من الخِدْمة إلىٰ ولاية كذا ـ خرج أمر أمير المؤمنين بأن يُوعَز إلىٰ ديوان الانشاء بكتْب هـذا السجل لك بالخِدمة المذكورة، سكُونا إلىٰ

مُناصحتِك التى سكنَتْ ضميرَك، وركُونًا إلىٰ موالاتك التى حقَّقت أملك وتقْـدِيرَك، وإيرادًا لك إلىٰ المَوَارد التى تُوجِب تقديمَك وتصْديرَك .

فتقلَّد ما قُلِّدته منهـا بادِئا بتقوىٰ الله التى إن جعَلْتها جُنَّتك كانتْ جَنَّتك ، و إن ٱستشْعَرتها عُمدتَك أنجزَتْ فى الدارين من السعادتين عِدَتَك ؛ قال الله تعالىٰ فى كتابه المكْنون : ﴿ إنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُون ﴾ . وقال تعـالىٰ : ﴿ وَيُنَجِّى اللهُ الَّذِينَ ٱتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُون ﴾ . وٱبدأْ فى هذا الثغر الجليـل قدرُه ، المصاقِبِ لمـا به محلُّ السـعد ومقرُّه ، الميَسَّر به لكلِّ عاملٍ ثوابُه وأجْرُه ، المحضوض علىٰ رِبَاطه لمن توفَّر حظُّه من ذخائرِ الآخرةِ فأحْسـن ذُخْرِه ـ بعدل القَضَايا ، وصَوْن الرَّعايا ، وبثِّ السَّرايا ، وترويع العدوِّ من جميع المَطَالع والثَّنايا ، وإهداءِ المَنَايا إليـه فى الغُدُوات والعشَايا ، والتطَلُّع علىٰ مايُجِنُّه من المَكايِد والخَفَايا ، وكفايةِ أوساط الصِّفَاح مصافَحَةَ أطراف الرِّماح تَحَايا ، ولا تخليه أن تُجهِّز فى كل يومٍ إليـه رايةً أو تُنَفِّذ فيـه رايا ، وأن تسترزق الله أموالَهُ مَغـانِمَ وحريمَه سـبَايَا ، وتُطْلِـع عليهم فى عُقْر دارِهم طَوالِـعَ المنايا وقَوارِعَ الرَّزايا ؛ حتى لا تلوحَ فُرْجةٌ إلا ٱقتحَمْتها ، ولا تعِنَّ فُرصةٌ إلا ٱغتنمْتَهَا ؛ وٱمدُدْ علىٰ مَنْ بهـذا الثغر جَنَاح الرِّعاية والذَّبّ ، ومَهِّـد لهم جانبَ العدل ليتبوَّءُوا فيـه آمِنِى السِّرِّ والسِّرْب ؛ وصُنْهم صـيانةً ترفَع عنهـم عَوادِىَ المضارّ ، وتُوطد لهم أكنَافَ السكونِ والاسـتقْرار ؛ وٱعتمِدْ من الأمر بالمعْروف والنهْيِ عن المنكر ما يطلقُ فيكَ ألسِـنةَ المادحين ، وينْظمُك فى سِـلك من نَحاه الله بقوله : ﴿ يأْمُرُون بالمَعْرُوف ويَنْهَوْن عن المُنْكَر وأُولٰئكَ من الصَّالِحِين ﴾ .

وأقِم الحدّ علىٰ مَنْ وجب عليه إقامةً لاتتعدّىٰ فيها الواجِب، ولاتُفارِقُ بها مَنْهَج الحقّ اللّاحِب؛ وتوَخَّ متولّى الحكم بإعزاز ينَفِّذ حُكْمَه، وإكرام يَشُدّ فى الحق عَزْمَه، ويردَعُ الظالمَ ويمنَعُ ظُلْمه؛ وكذلك المستخْدَمُ فى الدعوة الهادِيَّة عامِلْه بما يَشُدّ أزره، ويشرَحُ فى دعاء المستجيبين صدْره؛ وبالِغْ فى عَضْد المستخدَمين مبالغةً تُدِرّ بها الأموال، وتُوجِد بها السبيلَ إلىٰ توفير عطِيّات الرجال، وتُوسِّع عليهم فيها المجَال؛ وآمنَعْ من يتعرّض لكَسْب الضرائب، والإخلالِ بإلزام الواجِب؛ وشرور الاقلاب، وقَصْد سرح المال بالتَّبَاب؛ وأقِمْ للسُّور شطْرا من آهتمامِك تعمُر أبراجَه وأبدانَه، وتستخدِمُ حُرّاسه وأعوانَه؛ وترتِّب عليه الوَقُودَ فى الليالى المُظْلِمه، وتُعْجِز [عن] مناله المطامِعَ الميسورةَ والأيدى المتسَنِّمه؛ وواصِلْ من عمائره مايَتلافىٰ الخلَل قبلَ آنفِراجه، ويُعيد مَبْدأ الغارة علىٰ أدْراجه؛ فالقليلُ بالغَفْلة يستدعِى كثْرةَ الآهتمام، وربّما لم تُصب فيه المرمىٰ ولم يَنْجَع المَرَام.

ومراكِبُ الأسطول المنصورة فولِّها مَنْ ترتضِى نُهوضَه، ومن يقُوم بشرائط الجهادِ المفرُوضه؛ وإذا آنس فرصةً لم يعترِضْها التفويت، وإذا نَزل به القِرْنُ ناداه بعزْم المستَميت، وإذا عَرَا المجتمع عرَّض جمْعَه للتشتيت؛ وآحتَطْ علىٰ حواصل هذه المراكِب فبها قوّةُ الإسلام علىٰ عدُوّه، ومدَدُ آستظهارِه وعُلُوّه؛ وأقِمْ من الرؤساء من له حِيلةٌ فى الأسفار، وخِبْرة بمكايد الغارات والحِصار، ومُثابرةٌ يقتدر بها علىٰ فتح أبواب المنافع وسدّ أبواب المَضَارّ؛ ولكَ من البصيرة الجامعه، والألمَعِيَّة اللّامعه، ماأنتَ به جديرٌ أن تكونَ لك الذّكرى نافِعه؛ فاعلَمْ هذا وآعمَلْ به، إن شاء الله تعالىٰ.

النـــــوع الثـانى

(ممـا كانـ يكتب فى الدولة الفاطمية بالديار المصرية ما كان يكتب عن الوزير)

وقد علمتَ فى الكلام على "المسالك والممالك" أنَّ الوزير إذ ذاك كان فى منزلة السلطان الآنَ، وكان الشأنُ فيما يكتب فيه أن يفتَتَح بمـا يفتتح به المذهبُ الثالث (١) ممـا كانـ يكتَب عن الخليفة . وهو أن يفتَتَح مايكتب بلفظ : « إنَّ أوْلى » أو « إنَّ أحقَّ » أو « إنَّ أجْدر » أو « إنَّ أقْمَن » أو « من حسُنَتْ طريقتُـه » أو «مَنْ كان متَّصفا بكذا كان خلِيقًا بكذا» و « بلَمَّـا كان فلان» أو «لَمَّـا كنت» على نحو ماتقدّم .

ثم ما يُكتب عن الوزير : تارةً يكتَب بأمر الخليفة ، وتارةً يصْـدُر عن الوزير آستِقْلالا ، فيبَيِّنه الكاتبُ فى كتابته . وهى : إما لصاحب سيف، أو قلم .

فمِنـ المكتتب عن الوزير فى الدولة الفاطمية لأصحاب السُّيوف نسخةُ سِجل بولاية الاسكندرية من إنشاء القاضى الفاضل رحمه الله، وهى :

مَنْ عُدّ من الأولياء الأَماثِل، ووُجِد عندَ الانتقادِ قليلَ المُماثِل، وتوسَّل بالحَسَنات التى يُقْبل عنـده منها تشفِيع الوَسَائل، وتُقْبل السفارةُ له الشاملةُ الاستحقاقِ الذى يُغْنِى عن المَسائِل، ولطُف فكرُه لاقتناء الشِّيَمَ الموجبةِ لارتقاء الدرجات الجَلاَئل، وألقتِ الرُّتَب قِناعَها له عِنْـدَ الكُفْء الذى يُقـدِّم لهـا أفضـلَ مُهُور الحَلاَئل، وأسفرت مواقِفُ الغَناء منه عن الهِزَبْر الشهم واللَّوذَعِىِّ الحُلاَحل، وأفْرج له الكُفَاة

(١) لعل الصواب « المذهب الرابع » .

عن صدور المنازل الرفيعة فلم يكن بينه وبينها حائل ، وآستقلّ بعظيم مايُفَوَّض إليه فلم تحمل الأقوامُ ماهو حامل ، وآتّسع مجال كفايته فى كلّ أمرٍ يضيق بالمُباشر ضيقَ كفّة الحابل ، وتتبّع آثار الخلل بعزماته تتبُّع الغيث آثار الدّيار المَواحل ـ كانت الولاياتُ الجليلاتُ له من المُعَدّ المدَّخر ، وقرّبتْ عليه منازلَ الآثار التى يُتجمَّل بها ويُفْتَخَر .

ولما كان الأميرُ جامعًا لما أُفيض فيه من هذه الصِّفه ، وموصُوفا بها من كلّ لسانٍ صادقٍ ونيةٍ منصِفه ، جاريةً علىٰ غيره مَجْرىٰ النكرة ومستنِدةً إليه آستِنادَ المعْرفه ، مشتملًا علىٰ خِلال كغرائبِ المكارمِ مستوفيةٍ متألّفه ، كلِفًا بالشِّيَم الحميدةِ إذا آفتضَحتْ بها الشِّيمُ المتكلَّفه ، قمِنًا أن يُوفِّى فيُقرِض سعْيَه إذا آقترضت المَساعى المتَسلِّفه ، نهّاضا بالمَصاعب عند ماتختلِف فى إعطائها العزائمُ المتخلِّفه ، آوِيًا من رَجاحته إلىٰ المَعْقِل الحَريزِ والحِصْن الحصين ، حاويًا لفضائلَ حسنةٍ منها الفَتْك الجَرىُّ والرأىُ الرَّصين ، مُقْدِما علىٰ الأهوال إذا تَغلَّقت وُجُوهها غبرا ، مُصِرًّا علىٰ الخَطَرات حتى يظُنَّه الغُمْرُ غُمْرا ، مصافحًا للرماح ، إذا بدَتْ أناملُ الأسِنَّه ، مباشرا للصِّفاح ، إذا ذُعِرتْ لها النفسُ المطمئِنَّه ، جديرًا أن يرُدّ الخيلَ المُغيرةَ تَدْمىٰ نحورُها ، وتمدَحك وتذُمها الجِراح التى آشتمَلت عليها ظهُورُها ، وسمَا للأعداء سيوفُك فعندك غُمودُها وفيهم صدُورُها ـ رأينا بما آتاه الله من رأْى لايستأخِرُ أن يَستخير ، ونظرٍ يستمرُّ أن يمْتاحَ من موارد الرَّشاد ويستَنير ، ما خرجَ به أمرُنا من ولايتك لثغر الإسكندرية بعد أن طالعْنا مولانا صلواتُ الله عليه بما رأيْنا ، وآسترشَدْنا بيَامن إمضائه ماأمضَيْنا ، وفاوَضْناه فيما فوّضْناه إليك وأفضَيْنا ، وقضَيْنا حقَّ الخدمة فيما آستَمْطَرْنا من صَوْب وآقتضينا ، إذ كان الله قد خَصّ خِلالَه بمُواتاة الأقدار ، ووَقف المَيامنَ علىٰ ما يُمْضيه ويُوقفه من أعنّة الإيراد والإصدار ، وجعل الخِيَرَةَ فيما

يختار، والحقّ دائرًا حيثُ دار، وأخْلَص للأولياء المستَشْعِرين بولائِه بخالصةٍ ذِكْرَىٰ الدار، وجعـل رأيَه قُطْبا فى سمـاء الخلافة عليـه فى مصـالح خلق الله المَـدار؛ فصَحَّح ماعرضـناه علىٰ مقام خلافتِه وصوّبه، وناجَتْـه بديهةُ الإلهـام بمـا أغنتْه عمّـا صعَّد فيه المستشيرُ وصوّبه؛ وخرج الينا بأن يمضىٰ لك هذا الأمر، ويُفوّض إليك هذا الثغر.

فلْتقـابِلْ هـذه النعمةَ بشكرٍ يوجب ٱستيفَاءَ باقِيها، وٱعتِـدادٍ يمهِّـد درجاتِ مَراقِيها، متنَجِّزا وعدَ الله لمستوفيه بإيلاء المزيد، الجديرِ باحالته من حالة التقليد إلىٰ حالة التَّخْليد؛ جاعلا تقْوىٰ الله حجتَه فيما يقطَعُه ويَصله، وعمدتَه فيما يمنعُه ويبذُله. قال الله سبحانه فى كتابه الذى فضله علىٰ كل كتاب: ﴿ وتَزَوّدُوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ وٱتَّقُونِ يٰأُولِى الأَلْبـاب ﴾. ولا تجعَـلْ فى حُكْمك بين الخُصَماء فرْقا وإن عدل أحدهمـا؛ وليكن علىٰ الحق الذى لا مُفاضَـلةَ فيه مَقْعدُهمـا عندك ومَوْرِدُهما؛ وٱنتصِف للمظلومِ من الظالم، وٱعمَلْ فى ذٰلك عملَ من لا تأخُذه فى الله لومةُ لائِم؛ وأقِمِ الحُدود متحرِّيا، وأمْضِها إمضاءَ من لا يزالُ بعين طاعةِ الله متحلِّيا؛ ونَفِّـذْها غيرَ مُكْثِرٍ ولا مُقِلّ، فإن المُكْثِرَ متعدٍّ والمُقِلَّ مُخِلّ.

وقد علمتَ ما للقاضى من التَّقْدِمة الشهيره، والرُّتبـة الأَثِيره؛ والمَسَاعى التى هى بألسنةِ الحمدِ مأْثوره، والأقوال التى هى فى صحائفِ حُسْن الذكر مسْطُوره؛ والحُرمات التى شهِدتْ بها الأيامُ والليالِى، والمَوَاتِّ التى ٱنتظمت فى سُلوك التصرُّفاتِ ٱنتظامَ اللّآلى؛ والصِّـفات التى زهَتْ بها أجيادُ المحامِد الحَوالى؛ وله الخُبْرة بقوانِين هذا الثغر وأحكامِه، والعادةُ التى لا خلافَ أنهـا لمصالح مايُباشِره وإحكامـه، وأنتَ مقدَّم أرباب السـيوف فى الثَّغْر وهو مقـدّمُ أرباب أقلامه؛ فٱعرِف له منزِلتَـه

فى الخدَم المَنُوطةِ بكَفَالته ، والأمور المَحُوطة بإيالتـه ؛ ووَفِّه من أثر الإكبار حَقَّه ، ويَسِّر فيما آشتدّ عليه من مَعُونتك طُرُقَه ؛ وأعِنِ الداعِىَ علىٰ ماهو بسبيله من الإرشاد ، وقُمْ فى إعلاء مَنارِه قيامَ المُغْرَم الشاد .

والأموالُ أولىٰ ما صرَفْت إليهـا همَّك ، ووقَفْت عليهـا عَزْمَـك ؛ فاستَنْهِض المستخْدَمين فيما يُسْتادىٰ ، ولا تمكِّنْهم أن يُحدِثوا رسْمـا ولا يُسقِطوا مُعتادا ؛ ولا بدّ من المُقام بظاهر البحر مدّةَ آنْفِتاحه ، وتفقُّد الأسطول المقيم بالميناء تَفَقُّدا يستوعِبُ أسـبابَ إصلاحه ؛ وأذْكِ العُيون علىٰ سواحله فلم يَخْلُ أمر العدوّ من طارقِ ليـل وخاطف نهـار ، وذُدْهم عن بَغَتات هُجُومهـم بمـا يبْلُغُهم عنـك من دوام التيقُّظ والآستِظهار ؛ وآستنهِض الرجالَ فى نوائب الخِدَم وحوادِثها ، وصرِّفْهم علىٰ موجِبات المتجدِّدات وبواعثها .

وهـذا الثغرُ ففيه من أرباب الزَّوايا العاكفين علىٰ العبادات ، والعلمـاءِ الداعين الناسَ إلىٰ الإفادات ، من لايُدَّخر الإكرام إلا لأن يؤدِّى إلىٰ آستحقاقهم ، ولايُصانُ المـال إلا لأنْ يُبْذَل لآستحقاقهم(١) ؛ فأوصِلْ إليهـم ماهو مقرّر لهم إيصالا هنِيًّا ، وأعْفِهم من مئُونة الهَزِّ وساقطْ عليهم رُطَبا جَنِيًّا ؛ وآستنهِضْ لنا دعَواتِهم فإنها أسْهُمُ الأسحار ، وآستخلص لنا نيَّاتِهم فهم لنا جُنْد الليل وغيرهم لنا جُنْدُ النهار ؛ والسلام .

ومن ذلك نسخةُ سجِلٍّ بحماية الرِّباع ، وهى :

مَنْ كان فيما يتولّاه مشكورَ السعْيِ محمودَ الأثَر ، مستعملا من النصح وبَذْل الجُهْد ما يزيدُ الخُبْر فيه علىٰ طَيِّب الخبَر ، معتمدا ما يدُلُّ علىٰ درايةٍ وخُبْرة ودُرْبه ، متوخِّيا

(١) لعـــله لاستيجابهم .

ما يجعـل الخدَم إذا ماردّدت إليـه لم تحُلّ فى دار غُرْبه ـ آستحق أن يُورَىٰ زنده، ويُرهَف حدُّه، وتُقوَى مُنَّته، وتُشْحَذ قريحتُه .

ولمـا كنتَ أيُّهـا الأميرُ ممن عُرِف نَفاذُه وأُحْمِدت خِلالُه ، وشُكِرتْ طرائقُـه وآرتُضيت أفعالُه، وظهر فيما يباشره غَناؤُه وآستقلالُه، وجمع إلىٰ الكِفاية نَزَاهه ، وإلىٰ الأمانة نَبَاهه، وإلىٰ اليَقظة عَفَافا وسَدادا، وإلىٰ النهضة حَزامةً لايجِدُ الطالب عليها مستَزَادا ـ تقدّم فتىٰ مولانا وسيدنا باستِخْدامك فى حماية الرِّباع السلطانية بالمعِزِّيَّة القاهرة المحروسـة : سكونا إلىٰ جِدّك وتشْـميرك، وتعويلًا علىٰ تأتِّيك وتدْبيرك؛ فاستَخِرِ الله وباشِرْ ماردّ إليك من هذه الحِماية بعَزْم لا يُمازِجه فُتُور، وحَزْم لايصاحِبُه قُصُور، وآكشِفْ أحوالَ هذه الرِّباع كشْفا يُعرَف به حالُها، ويُعْلم منه آستقامتُها وآختلالُها، وآنتصبْ لآستخراج مالهـا من السُّكّان، وآستعمل فى آستيدائِه غايةَ الآستطاعة والإمكان .

ومِلاكُ الأمر فيها أن تتعهَّدها بالطّواف فيهـا ، وأن تحافِظ علىٰ حِراسة غَيْرها ، وتناوُلِ أجرِها، ورَمِّ مالعله يستَرِمُّ منهاو يتشعَّث، والعكوفِ علىٰ ذلك بحيث لايتوقَّف فيـه أمرٌ ولا يتريَّث، وحمِلِ مالِ آرتفاعها إلىٰ بيت المـال المعمُور بعـد مايُصْرف فى مصالحها، ويُطلق فيما يتثبَّت به عليها، ولك من الأمير مَنْ يُعِينك ويُنْجِدك، ويلبِّى دعوتَك ويعضِّدُك، ويظافِرُك علىٰ آنتظام شُئُونك ومقْصَدك: من الآشتمال بمـا يزيد علىٰ تأميلك، فآجعل عليه آعتمادَك، وبه فى الحَلِّ والعقْد آسترْشادَك، فاعلم هذا وآعملْ به، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن الوظائف المكتَتَبة عن الوزير لأرباب الوظائف الدينيـة نسخة سِجِل بالحكم بقُوص ومشارفةِ أعمال الصعيد، وهى :

من تقدّمَتْ لأسلافه خِدَم ومُناصَحَات، وكانوا مشهورِين بأنّ طرائقَهم فى السَّداد مستقيماتٌ واضحات، وعُرِف جميعُهم بالصِّيانة والدِّيانه، والثِّقة والأمانه، والمحافظة علىٰ مايُحْظِيهم عند وَلىّ نِعمتهم، والعملِ بمـا يقْضِى بِطيب ذكرهم وحُسْن سُمعتِهم، كان ذلك ذريعةً له ووسيله، ومادّةً ينَال بها المَواهبَ الجزِيله .

ولمـا كنت أيها القاضى علىٰ القضيَّة المرضيَّة من ولاء الدولة وطاعتِها، والحرص علىٰ الإخلاص لهـا ومشايَعتِها، والتحلِّى بالعلم والتمييز فى أربابه ، والتعلُّق بفعل الخير والتمسُّك بأسبابه ، والعمل بما ينفَعُك فى عاجلتِك وآجلتِك، والآجتهادِ فيما يبعثُ علىٰ وُفُور حظِّك من الإنعام وزيادتِك ، وكانت لك دُرْبة فيما تُعانيـه ودِرايه ، وصولَة فى حُسْن التأتِّى إلىٰ أمدٍ بعيدٍ وغايه ،وقد تقدّمتْ لأخيك القاضى الرشيد ـ رحمه الله ـ خدمةٌ أبانتْ عن حرصه ومناصحتِه، وأعربَتْ عن وُفُور نصيبِه من النُّهىٰ ورَجَاحته، فأدّىٰ ذٰلك إلىٰ بلُوغه من رُتَب أمثـاله أقصاها ، وإلىٰ أنِ آستقرّتْ خِدَمه عليـه وألقتْ عنـده عَصَاها ، وهـذه نصيبك إذا آقتفَيْتَها فقد عرَفْت مَفْضاها ، وإذا عكفْت عليها نالك من الإحسان علىٰ حَسَبها ومقتَضَاها ـ تقدّم فتىٰ مولانا وسـيدنا باستِخْدامك فى النِّيـابة فى الحكم بمدينة قُوص والمشارفةِ بأعمـال الصعيد الأعلىٰ : تنويهـًا بك وتكريمـًا لك ، وتمهيدًا لمكان الآصطِناع الذى رَتَّبك فيـه وأحلَّك ؛ فاعْرِف قدرَ هـذه النعمه ، وقابِلْها ببَـذْل الطاقة فى النُّصْح فى الخِـدمه ، وبالغ فى الشكر الذى يُثبِّتها عنـدك ويُديمها لك ، وآحرص علىٰ القيام بحقِّها حرصا تَبُذُّ به

نظراءك وأمثالك، وآعمل فى ذلك بما تضمنه التقليد المكتتب لك من مجلس القاضى الأعز الماجد أدامَ الله تمكينه، وما أُودِعه من وصايا مُرْشدَه، وهدايات إلىٰ الصواب مُقرِّبةٌ وعن الخطإ مُبْعِدَه، وآفعل فى أمر المشارفة ما آشتملت عليه التذْكِرة المعمولةُ من الدّيوان فإنه يُوضِّح لك مَنْهج الصَّلاح، ويأتيك منه بما يَزِيد علىٰ البغية والاقتراح، وآنتصب للعِمارة والآستكثار من الزراعة بالمعْدَلة علىٰ المُعامَلين، والآستخراج لحقُوق بيت المال علىٰ أحسنِ القَوانين، وواصل من الحُمُول، ما يكون محقّقا للظْنون فيك والمأمُول، فآعلَمْ هذا وآعمل به، إن شاء الله عز وجل.

ومن ذٰلك نسخة سجل بالنيابة فى الحكم والأحباس والحَوالى بثغر دِمْياط، وهى:

أحقُّ من كانتِ المواهبُ عنده مُخَلَّده، والمنائحُ إليه متواصلةً متجدِّده، والعوارفُ تَفِدُ عليه فتُخَيِّم فى مَغْناه وتُقيم، والفواضلُ تأْتِى نحوه فتستقرّ فى مَثْواه ولا تَريم، والنِّعمُ الشَّتى لا تشْكُو فى مَواطِنه آستيحاشا ولا آغترابا، والمِنَنُ إذا حُبِيَ بها كان نَيْلُه لها آستحقاقًا منه لها وآستِيجابا ـ من كَرُمتْ أعراقُه ومَحاتِدُه، وشُهِرت أوصافُه ومحامِدُه، وصفَتْ فى المُخالصة مصادِرُه ومواردُه، وكثُرت فى تقريظه غرائبُ الثَّناء وشوارِدُه، وشيَّد مَنار أسلافِه بالتخلُّق بخلائِقهم، وأبقىٰ الحديثَ عنهم بانتهاج سُبُلهم وطرائِقهم، وأحسن بِرَّهم، فى الآقتفاء لأثَرِهم والآقتداء بهَدْيِهم، وإحياء ذكْرِهم، بالعمل بما كانُوا عليه فى عَوْدهم وبَدْئِهم.

ولما كنتَ أيُّها القاضى لهذه الخِلال جامعا، وإلىٰ المَراشد مُصْغيا سامعا، ولبُلُوغ مانالَه أسلافُك بالمناصحَات راجيًا طامعا، ولك فيما يُسنَد إليك نظرٌ يدُل

علىٰ صــوابِ آرائك ؛ وفيما يُرَدُّ إلىٰ تولِّيك كفايةٌ تميِّزك علىٰ نُظرائك ؛ ولَمَّـا نُدبت للأحكام الشرعية، أبنْتَ عن الديانة والألمعيَّه ؛ وحينَ باشرتَ الأعمالَ الدِّيوانيَّه، نَصَحْت وآجتهدْتَ وأخلصْتَ النِّيه ؛ والذى بيَدِك يتمسَّك بك، ويتعلَّق بسبَبِك ؛ لأنك لمـا آستُكْفِيتَه نهضتَ وأحسنْتَ، فلذلك يأبىٰ أنْ يُكَلَّفَـه غيرُك وأن لايتكفَّله إلا أنت ــ تقدّم فتى مولانا وسيدِنا بكتب هذا المنشور بتجديد نَظَرِك فيما هو بيَدِك من النيابة فى الحكم العزيز بثغر دِمْياط ــ حماه الله تعـالىٰ ــ والمشارفة علىٰ الأحبـاس به، وعلىٰ مستخْرَج الجَوَالى فيــه، تقويةً لعَزْمك، وإمضاءً لحُكْمك، وشــدًّا لأَزْرك، وتأكيدًا لأمْرك، وإنفاذًا لقولك، وبَسْـطا ليَدك، وإيضـاحًا لمِيزَتِك، وإظهارا لتكْرِمتك، وإبانةً عن حسن النيِّة وإعرابًا عن جميل الرأى فيك ؛ فاجرِ علىٰ رَسْمك وعادتك، وآستغنِ بمـا أُودعتْه تقاليــدُك من الوصايا، وآستمرَّ علىٰ نَهْجك الذى أفضىٰ بك إلىٰ أحمد الأفعال وأجمل القضَايا ؛ وآرتبِط النعمة عنـدك بتَمَادِيك علىٰ عادتك، وتوسَّــل بمشكور السعْيِ إلىٰ نموّ حظِّك ووُفُور زيادتِك ؛ فاعلمْ هذا وآعملْ به، إن شاء الله عز وجل .

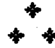

ومن ذلك نسخة سجل بالحكم بالأعمال الغربية، وهى :

مَنْ كان بالعلوم الدينيَّة قَـيُوما، وفى الأمور الشرعيَّة ممَّن يشار إليه ويُومىٰ، وظَلَّ مَنْ يُجَاريه من طبقته قليلًا إذا لم يكُنْ معدُوما ؛ وعُلِم نفاذُه الذى سَلِم من المناقَضة فيــه والآختلاف، وعُرِف آعتمادُه الواجبُ من غير مَيْل عنه ولا آنْحِراف ؛ وكان لشَمْل الديانة والأمانةِ مؤلِّفا جامعا ، وغدَا الوصفُ بجميل الخِلال وحميدِ الأفعـال عنــه مسمُوعًا ذائعا ؛ وآثارُه فى كل ما يتوَلَّاه مُدّاحُه وخُطباؤُه، وسفراؤُه فى الرُّتب

الجليلة نزاهتُـه وظَلَفُ نفســه وإباؤُه ـ صارت الأحكام بنظره مَزْهُوّه، وأضحت الخدَم الخطيرةُ تتوقَّع بإسنادها إليــه آستِظْهارًا وقُوّه؛ فهى تتشوّف إلىٰ أن يُولِيها حظًّا من محاسِنِه يُكْسِبها نَضْرة وبهاء، وتتصدّى من نظره فيها لما يضْمَن لها إدرا كا للإرادة وبلوغًا إليها وآنتِهاء .

ولما كنتَ أيُّها القاضى حائزًا لهـذه الصِّفات، محيطًا بما آشتملتْ عليه من الأَدَوات؛ سالكًا أعدلَ طريقٍ فى الأمور إذا أشكَلَتْ، عاملًا بقضايا الواجبِ إذا آعتمدتِ الإقبالَ عليك وآتّكلتْ؛ ولك الخِدْمة السنيه، التى لاتطْمَح إليها كل أُمْنيّه، والرتبُ الرفيعةُ التى لا ينالهُا إلّا مَنْ كان عمله موافقا لصادق النيّــه؛ وكلُّ ما تباشره يغتبِط بك ويأْسىٰ علىٰ فِراقك، وكلُّ ما حُظِر علىٰ غيرك مباحٌ لك لاَستيجابِك له وآستحقاقِك؛ فمن العدل أن تكونَ كفايَتُك علىٰ الأعمـال مقسّمه، وأن تكونَ آثارُك فى كل ماتُعانيه من أمور المملكة علامةً لك عليهـا وسِمَه؛ وكانت الخدمةُ فى الحكم بالغربية من التصرّفات الوافيــةِ المِقْدار، الساميةِ الأخطار؛ التى لايسمُو كلُّ آملٍ إليهـا، ولايحدّثُ كلُّ أحد نفْسَــه بتولّيها؛ وقد آشتهرت خُبْرتُك بالأحكام، وحفْظُك فيها للنِّظام؛ وبتُّك للقصَص المشكِله، ورفْعُك للنُّوَب المُعْضِله ـ فرأينا آستخدامَك نائبًا عن القاضى الأعزِّ المـاجدِ فى الصَّلاة والخَطَابة والقضاء بالأعمال الغربية المقدّم ذكرُها : إذ كنت تعْدِل فى أحكامِك، ولا تخرُج عن قضايا الصواب فى نَقْضــك وإبْرامِك؛ ولا تُحـابِى فى الحق ذا منْزِله، ولا تنفكُّ معتمِدًا مايقضِى لك بالميزةِ المتأكِّدة والرتبــة المتأثّله؛ وأمرنا بكَتْب هـذا المسطور شَـدًّا لأزْرِك، وتشييدًا لأَمْرِك؛ وإيراءً لزَنْدك وتقويةً لعزْمك؛ وضمّنّـاه ما تقـدّم ذكره من وصــفِك وشُكْرِك، وتقريظِك وإجمال ذِكْرِك؛ والثناءِ علىٰ علمك، والإبانةِ عن قضيّتك فى قضائك وحُكْمك .

فاعملْ بمـا اشتمل عليه التقليدُ المكتتَب لك من مجلس الحكم العزيز وٱنْتـهِ إلىٰ ما أُودِع من فُصُوله ، وكنْ عاملاً بمضمونه متَّبِعا لدليله ؛ والله يوَفِّقك ويُرشِـدُك ، ويعينُك ويُسدِّدُك ؛ فاعلم هذا وٱعمَلْ به ، إن شاء الله عز وجل .

ومن ذلك نسخة سجل بالحكم والمشارفةِ بثغر عَسْقلانَ من سواحل الشام ، وهى :

الذى منَحنا الله من المفـاخر الدالَّةِ علىٰ محلِّنا عنده ، والمآ ثِرِ التى أوصلَتـا بها من الشرف إلىٰ أمدٍ لاغايةَ بعـدَه ؛ والقضايا العادلةِ التى أبانَتْ عمـا أجراه الله لنـا من اللطائف ، والسـياسةِ الفاضلةِ التى تشهدُ لنا ببياض الصحائف ، قد ضاعَفَ حظَّنا من التأييد فيما نَراه ونُمْضيه ، وضمن لنا الهدايةَ فى حق الله تعالىٰ إلىٰ ما يُرْضيه ؛ وأجزل قِسْطَنا من التوفيق فى ٱجتباء من نَجْتبيه ، وحبَّب لنا إسْناءَ المواهب لمن كان قليلَ النظير والشَّبيه ؛ ووقَفَ ٱهتمامنا علىٰ التنبيهِ(؟) علىٰ كلِّ مشكور المساعى ، وصَرَف ٱعْتزامنا إلىٰ التفقُّد للقاصد التى هى علىٰ الاصطفاء من أقوىٰ الدَّواعى ؛ ووفَّر ٱلتفاتَنا إلىٰ تأمُّل الإخلاص الذى صفَتْ مواردُه ، وصحّت سرائره ، وأُحْكِمت معاقده ، وأُحْصدت مرائرُه ؛ وتوكَّل لصاحبه فى بلوغ المطالب البعيدةِ المَطارح ، وتبَتَّل لمن وُفِّق له فى سُبُوغ العَوارف المُخْصبةِ المَسارح ؛ وجعلنا لا نغْفُل عمن بذَل فى الطاعة مُهْجتَه ، وأظهر بدُءُوبه وٱنتصابه دليلَه علىٰ الولاء المَحْض وحُجَّته ؛ وأبان عن تقْواه وحُسْن إيمـانه ، وتقرّب باستِفراغ وُسْعه إلىٰ الله تعـالىٰ وإلىٰ سلطانه ؛ وعمل فيما ٱؤْتُمِن عليه ما ٱستوجَبَ به جزيلَ الأجر ، وكان له من رأيه فى أعداء المِـلَّة مايقُوم مَقامَ العسكر الجَرّ ؛ وعلم أنَّ تجارته فى المخالصة نافقةٌ مُرْبِحه ، وأن مراميَه فى المناصحة صائبةٌ مُنْجِحه ؛ وتيقَّن أنا بحمد الله لانُخَيِّب أملا ، ولانُضيع أجْرَ مَنْ أحْسَنَ عمَلا .

ولما كنت أيها القاضى المَكين المرتَضىٰ ثقةُ الإمام جلالُ الملك وعمادُه ذو المعالى صفىُّ أمير المؤمنين، مستوليًا علىٰ هذه الخِلال، التى تكفَّلتْ لك بإعلاء القَدْر، ومحتويًا علىٰ هذه الخِصال، التى رتَّبتك علىٰ نظرائك فى الصَّدْر؛ ولك من الحرمات سوابقُ لايُطمَع فيها بلَحَاقك، ومن المواتِّ شوافعُ تجعل جَسائِمَ النعم وَقْفا لآستحقاقك؛ وقد عُرِفت بالجِدّ والتشمير، وآشتهرْتَ بصادق العَزْم وصائبِ التدبير؛ وجُعلْتَ مؤهَّلا لكل أمر خطير ومُهِمٍّ كبير، واستقرّ أنك إذا آستُكْفِيت جسيما فقد وُكِلَ منك إلىٰ الأمين الخبير: لأنَّ لك الرياسةَ التى لا تُجارىٰ فيها ولا تُبارىٰ، والكِفايةَ التى لايُختلَف فيها ولا يُمَارىٰ، والفضائلَ التى تشهد بها أعداؤُك وحُسَّادُك آضطِرارا، وما زالتْ أفعالكَ فى كل مانتوَلَّاه من الخِدَم الجليلة دالةً علىٰ كَرَم طِباعِك، وآثارُك معربةً عن سَعة ذَرْعك فى الخير وآمتدادِ باعِك، وأخبارُك ناطقةً بإبائك عن الباطل وآقتفائك للحقِّ وآتّباعِك؛ ولما نظرتَ فى القضاء تهلَّل بنظَرك وجهُ الشرع، وأبنْتَ عن اضطلاعك من علمه بالأصل والفَرْع؛ وعدَلْت فى أحكامك، ولم تعْدِل عن الواجب فى نَقْضك وإبرامِك؛ وفعلتَ ما أقرّ عينَ المِلَّه، وأربَيْت علىٰ مَنْ تقدّمَك من القُضاة الجِلَّه، وآعتمدتَ من الإنصاف مابرَّدْت به الغُلَّة وأزَحْت به كلَّ عِلَّه؛ ووَفَّيت هذه الخدمةَ جميعَ شروطها، وفسَّحْت فى تولِّيك أمانِيَّ المظلومين بعد ضيقِها وقُنُوطها؛ وقمتَ فى ذلك المقامَ الذى يقضِى بثُبوت النعمةِ عندك وخلُودِها، وبالغتَ فى آرتباطها بالشُّكْر لعلمك أن شُرودَها بكُنُودها. فأما الإشراف فإنك أتيتَ فيه مادلَّ علىٰ حُسْن المعرفه، وآستقبلْتَ فى وجْهه كل صفه؛ وأوضح أنَّ كلَّ مَنْ باشَره لم يبْلُغْ مَدَاك، ولا جرىٰ مَجْراك؛ ولاوصلَ إلىٰ غايتِك، بل ماطَمِع بمُداناتك ولامُقاربَتِك؛ وكلُّ ماعُدِق بكفايتك فقد أتيتَ بحمد الله فيه علىٰ الأغراض، لاجَرَم أنه مستدْعٍ لزيادتك ومطالبٌ ومتقاض؛

فحين اجتمعت لك هذه الأسبابُ استوجبْتَ من إنعامنا مايتنزّه كرمُنا عن تعويقه، ومن جزيل إحساننا مايكون تعجيلُه حقًّا من حقُوقه؛ فشرّفْناك بتجديد ماهو بيدك من الحكم العزيز والمشارفةِ بثغر عسْقلانَ حماه الله تعالىٰ، وجعَلْنا النيابةَ فى الحكم عنا تَنْويهًا بك ورفعًا لشانك، وتبيينًا لموضعِك عندنا ومكينِ مكَانِك .

فاعمل بتقوىٰ الله التى أمَرَ بها فى كتابه الذى به يهتـدى المؤمنُون فقال عزّ من قائل : ﴿ يٰأيُّها الّذينَ آمنُوا اتقُوا اللهَ ولتنظُرْ نفْسٌ مَا قدّمتْ لغَدٍ واتّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ خبيرٌ بمـا تعْمَلُون ﴾ . واجرِ علىٰ عادتِك فيما حَسَّن أثرَك ، وأطابَ خبَرَك؛ معتمـدا علىٰ ماتضمَّنته عهودُك، واشتملتْ عليه تقاليدُك : من المساواة بين القَوِىّ والضعيف فى الحقّ ، وإجراء الشريفِ والمشروفِ فى المحاكمة مُجرًى واحدا من غير فرْق؛ والنظرِ فيمن قِبَلك من الشُّهود ، وحمْلِهـم علىٰ القانون المألُوف المعْهُود : من إقرار مَنْ ترتضـيه، والمطالعةِ بحالِ من تَأْباه لمـا تُوجبه طريقتُـه وتقتضـيه؛ والمحافظةِ علىٰ أن لايتعلّق بشىء من أمور الحُكْم إلا مَنْ أُحْمِد فعـله، وحصل له من التزكيةِ مايُزَكّى به مثْـلُه؛ إلىٰ غير ذلك ممـا أُودِع فيها، وأحاطَتْ بها الوصايا التى لم يزل يستوعِبُها ويستوفِيها .

واستقِمْ علىٰ سبيلك فى ضَبْط المـال وحِفْظه وصَوْنه ، واستعِنْ علىٰ بلوغ المرادِ فى ذلك بتأييـد الله وتوفيقـه وعَوْنه؛ وتمـادَ علىٰ سُنَّتك فى النظر فى أحوال الثغر المحروس والانتصابِ لمصالحه ، والتوفُّر علىٰ منافِعه، والاجتهاد فى الجِهَاد بآرائك ، والاستمْرار فى ذلك علىٰ سَدِيد أنْحائك، والله ولىُّ عونِك وإرشادِك ، والمانُّ بتبليغك فيما أنتَ فيه أقصىٰ مُرادِك؛ فاعلم هذا واعملْ به؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك نسخة سجل بتدريس، وهي :

أميرُ المؤمنين لمـا مَنَحه الله من الخصائِص التي جعلَتْه لدينــه حافِظا ، ولمصالِح أمور المسلمين مُلاحِظا ؛ ولِمَـا عادَ بشُمُول المنافع لهم مواتِرا ، وبمـا أحْظَاهم عنده تبارك وتعالىٰ مُعِينا وعليه مُثابِرا؛ لايزال يُولِيهم إحسانا وفَضْلا ومَنًّا، ويُسْبِغ عليهم إنعاما لم يزل تسم (؟) هممهم إلىٰ أن تُمنَّى ؛ وقد يسَّر الله تعالىٰ لخلافته ودولتِــه ، ووهَبَ لإمامته ومملكتِه ؛ من السيد الأجل الأفضــل، أكرَمَ ولىّ ضاعف تقْواه وإيمانَه، وأكملَ صفى وقفَ ٱهتمامَه وٱعتزامَه علىٰ مايُرْضِــيه سبحانه؛ وأعدلَ وزير لم يرْضَ فى تدبير الكافَّة بدُون الرتبة العُلْيــا ، وأفضــلَ ظهيرٍ ٱبتغىٰ فيما آتاه اللهُ الدارَ الآخرةَ ولم يَنْس نَصيبَه من الدُّنْيا ؛ فهو يُظافِرُ أميرَ المؤمنــين علىٰ ماعمّ صلاحُه عمومَ الهواء، ويفاوِضُ حضرتَه فيما يستخلص الضمائرَ بمـا يرفَع فيه من صالح الدعاء .

ولمَّـا ٱنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين مِيزةُ ثغر الإسكندرية ـ حماه الله تعالىٰ ـ علىٰ غيره من الثُّغُور، فإنه خليقٌ بعنايةٍ تامةٍ لاتزال تُنْجِد عنده وتَغُور: لأنه من أوْقىٰ الحصُون والمَعاقل، والحديثُ عن فضله وخطير محلّه لاتهمة فيه للراوى والناقِل؛ وهو يشتمِل علىٰ القُرّاء والفقَهاء، والمرابطين والصُّلَحاء؛ وأن طالِبى العلم من أهله ومن الوارِدِين إليه، والطارئِين عليه، متشتِّتو الشَّمْل، متفرّقُو الجمع ـ أبىٰ أميرالمؤمنين أن يكونُوا حائرين متلدِّدين، ولم يرضَ لهم أن يَبْقَوْا مذَبْذَبِين متبدّدين؛ وخرجتْ أوامرُه بإنشاء المدرسة الحافظيَّة بهذا الثغر المحروس بشارع المَحَجَّة منًّا عليهم وإنعاما؛ ومستَقَرّا لهم ومُقَاما ؛ ومثوًى لجميعهم ووطَنَـا ، ومحلًّا لكافَّتهم وسَكَنا ؛ فجدّد السـيد الأجل الأفضل أدام الله قدرتَه الرغبةَ إلىٰ أمير المؤمنين فى أن يكونَ مايَنْصَرِف إلىٰ مئُونة

كل منهم والقيامِ بأَوَدِه، وإعانتِه على ماهو بسبيله و بصَددِه: من عينٍ وغلة، مطْلَقا من ديوانه، وآستَرفَدَ أمير المؤمنين المثوبةَ فى ذٰلك فأجابه جَرْيا علىٰ عادة إحسانه؛ وآستقرّت التقدِمةُ فى هذه المدرسةِ لك أيها الفقيهُ الرشيد جمالُ الفقهاء أبوالطاهر: لنَفاذك وآطلاعك، وقُوّتك فى الفقه وآستِضْلاعِك، ولأنك الصدرُ فى علوم الشريعه، والحالُّ منها فى المنزِلة الرفيعه؛ والمشتغِلُ الذى آجتمع له الأصولُ والفُروع، ومن إذا آختُلِف فى المسائل والنوازِل كان إليه فيها الرُّجُوع؛ هذا مع ماأنتَ عليه من الوَرَع والتُّقىٰ، وأنَّ مُجارِيَك لايكون إلا ناكصًا علىٰ عَقِبه مُخْفِقا؛ وأمر أمير المؤمنين أن تدَرِّس علومَ الشريعة للراغبين، وتعلِّم ماعلَّمك الله إيَّاه لمن يُريد ذلك من المؤثِرين والطالبين؛ وخرج أمره بكتب هذا المنشور بذلك شَدًّا لأزْرك، وتقويةً لأمرك ورَفْعا لذكرك.

فأخلِصْ فى طاعة الله سرًّا وجَهْرا، فإنه تعالىٰ يقول فى كتابه: ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئاتِه ويُعْظِمْ لَهُ أجْرا﴾. وآعتمدْ توزيعَ المطْلَق عليهم، وتقسيمَه فيهم علىٰ حَسَب مايؤدّى آجتهادُك إليه، ويُوقِفُك نظرُك عليه؛ وقرّبْ من آرتضيتَ طريقتَه، وأبْعِد من أنكرت قضيَّته؛ فقد وُكِل ذٰلك إليك، وعُدِق بك من غير آعتراضٍ فيه عليك؛ فمَنْ قرأه أو قُرِئَ عليه من الأمير المظَفَّر والقاضى المكين ـ أدام الله تأييدهما ـ وكافَّةِ الحماةِ والمتصرفين، والعُمَّال والمستخدمين؛ فليعتمدْ رعايةَ المدرسة المذكورة ومن آحتوتْ عليه من الطلبة وإعزازَهم، والاشتمالَ عليهم، والاهتمامَ بمصالحهم، والتوخى علىٰ منافعهم؛ وليتْلَ هذا المنشورُ علىٰ الكافّة بالمسجد الجامع، ولْيُخَلَّد بهذه المدرسة حجَّةً بما تضمَّنه، إن شاء الله عزّ وجلّ.

ومن ذلك سجل بولاية الحِسْبة من إنشاء القاضى الفاضل، وهى :

مَنْ شُكرت خلائقُه ، وتهـذّبت طرائقُه ، وأُمِنَتْ فيما يتولاه بوائِقُـه ؛ ونيطت بعُرىٰ الصواب علائقُه، وفُرِجت بسَدَاده مسالكُ الإشكال ومَضايقُه ؛ وآستحْوىٰ من الأمانة قرينًا فى التصرّفات يُرافقُه ولا يُفارِقه، ونهض إلىٰ الآستحْقاقِ ولم تَعُقْه دونه عوائقُه ، وأثنىٰ عليه لسانُ الآختبار وهو صحيح القول صادقُه ـ استوجبَ أن يُخَصَّ من كل قول بأجملِه ، وأن يُعانَ علىٰ نَيْـل رجائه وبلوغِ أَمَلِه ؛ وأن يُقْتَدح زَنْدُ نيّته ليُرىٰ نُورُ عمـله ، وتُيَسَّر إلىٰ النجاح متوعِّرات طُرُقه ومشكلاتُ سُـبُله ؛ وأن يقابل جَرَيانُه فى الولاية قِبَـله فيظهرَ عليه أثرُ الإحسان فيكون الشكرُ من قِبَل الإحسان لامن قِبَله ؛ ويُورَدَ من موارد النجح مايتكفّل له بالرىّ من غُلّله ، ويُوسَمَ من مَيَاسِم الآصطناع مايكون حليةَ أوصالِه ويشْفَعُ سَداد خِلاله فى سَدّ خَلَله .

ولمـا كنت أيها الشيخُ المشتملَ علىٰ ما تقدّم ذكره، المستكملَ من الوصف مايجبُ شكرُه ؛ الآوىَ إلىٰ حِرْز من الصيانة حَرِيز، المستغنِيَ بغَنَائه عن الآسـتظهار بعِزْوة العزيز[1]، المستوجبَ إلىٰ أن يُعَدّ من أهل التمييز لأنه من أهل التمييز، المستوعِبَ من الخلال الجميلةِ مالايقتضيه القولُ الوجيز ؛ المخرَجَ من قضايا الدَّنَايا فمـا يستبيحُ محرَّمها ولايستجِيز، الممَدَّح فى خدَمٍ كلُّها أخلصته خَلَاص الذهب الإِبْرِيز، وكانت له مضمارًا تشهَدُ له أفعاله [فيهـا] بالسبق والتبريز، المتوسلَ بأمانة عزَّبهـا جنابُه عن الشُّبهة ووِجْدانُها فى الناس عزيز ـ تقدّم فتىٰ مولانا السيد الأجل باستخدامك علىٰ

(١) العزوة بالكسر الاعتزاء . أى انه غنىّ بنفعه عن الاستظهار بالاعتزاء الى أحد . وفى الأصل بعروة بالاهمال . تأمل .

الحِسْبة بمدينة كذا : فباشر أمْرها مباشرةَ من يبْذُل فى التقوىٰ جُهْدا، فلا يرىٰ غيرها علىٰ ظَمَإٍ ورْدا؛ ولا يراه الله حيثُ نهاه، ولا يأمُره أبدا ويَنْهاه إلا نُهَاه، ولا يرىٰ ما كشَفَته إلا وهو عالمٌ أنَّ الله يراه؛ وآنتَهِ فيها إلىٰ ماينتهِى إليه من بذَلَ غايةَ وُسْعه، ومن لايرتدُّ عن جركيــه من عموم نَفْعه؛ ومن يدُلُّ بتهذيبِ طباعِ الناس علىٰ طهارة طبْعه، ومن يستَجْزِل حسْنَ صنيعِ الله لدَيْه بحُسْن صُنْعه، ومن يستَدْعِى منه بذْلَ فضلِه بحَظْر ماأُمِر بحَظْره ومَنْعه. وآسلُكْ فيما تستعمله من أمرها المَذْهَب القَصْد والمَنْهَج الأقْوم، وآجتهِدْ فيها آجتهادَ معتصِمٍ بحبــل التقوىٰ المتيــن وسببِها المُبْرَم . وآمنعْ أن يخْلوَ رجل بامرأة ليستْ بذات مَحْــرَم . وآستوْضِحْ أحوالَ المَطَاعِم والمشارِب، وقوِّمْ كلَّ من يخرُج فى شيءٍ منهــا عن السَّنَن الواجب . وعيِّرِ المكاييلَ والموازينَ فهى آلاتُ معامَلَات النــاس، واجتهِدْ فى سلامتِك من الآثامِ بسَلَامتها من الإلباس والأدناس؛ وحَذِّرْ أن تحمَّــل دابةٌ مالاتُطيق حَمْله ، وأدِّبْ من يجْرِى إلىٰ ذٰلك يتوخَّى فعْلَه؛ وأوعِزْ بتنظيف الجوامع والمساجد لتُنيرَ بالنَّظافة مسالكَها، كما تُنِير بالإضاءة حَوالِكَها؛ ففى ذٰلك إظهارٌ لبهجتِها وجَمالها ، وإيثارٌ لصيانتِها عن إخْلاق نَضْرتِها وآبتذالِهــا؛ ولا تمكِّنْ أحدا أن يحضُرَها إلا لصلاةٍ أو ذِكْر، قاطعا للسان الخِصَام ومُوقِظا لعَيْن الفِكْر؛ فأما من يجعلها سُوقًا للتِّجاره، فقد حصَلَ بهذه الخَسارة علىٰ الخَساره؛ فهى ميادينُ الضُّمر، وموازين الرُّجح فى الظاهر من أعمالهم والمُضْــمَر؛ وما أحقَّ لياليَها أن تقوم بها الهُجَّد لا السُّــمَّر، وهل أذِنَ الله أن تُرْفَع لغير آسمه أو تُعَمَّر ؛ وآحظُرْ أن يَحْضُر الطُّرُقات ما يمنَعُ السلوكَ أو يُوعِرُه، وآفعــل فى هذا الأمر مايَرْدَع العابثَ ويزْجرُه. وخُذ النصارىٰ واليهودَ والمخالفين بلُبْس الغِيار وشَدِّ الزُّنَّار، ففى ذلك إظهار لمــا فى الإسلام من العِزَّة وفى المخالفة من الصَّغار؛ وإبانةٌ بالشدّ للتأهُّب للمســير إلىٰ النار، وتفريق بين المؤمنــين والكُفَّار؛ وأدِّبْ من يَكِيلُ

مطفِّفا، أو يزن متحيِّفا ، أدبًا يكون لمعاملته مزيِّفا ، وله من معاودة على فعله زاجرًا ومخوِّفا، فاعلمْ هذا وآعملْ به، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن المكتتَب عن الوزير لأرباب الوظائف الديوانيــة سجـلٌّ بمشارفة الجَوَالى بالصعيد الأدنىٰ والأُشْمُونين، وهى :

مَنْ حسُنَت آثارُه فيما يتولّاه ، وآستعمَل من الاجتهاد مايدُلُّ علىٰ معرفتِـه بقدر ماتولّاه، كان آعتمادُه بمـا يؤكّد سَبَبه ويُنْجِح قصـدَه ويبسُط يده، ويُرهِف حدّه فيما يضْمَن مصالح خِدْمته، وينظِم أمرَها فى سِلْك إيثاره وبُغْيته .

ولمـا كنتَ (١) لمـَّا نُدبتَ إلىٰ مشارفة الجَوالى بالصعيد الأدْنىٰ والأُشْمُونين قد أبَنْت عن الخُـبْرة والدِّرايه ، والأمانةِ والكِفايه ، والاِنتصابِ للاستِخْراج والجِبَايه ، والاجتهـاد فى الوَفاء بمـا كتبتَ به خَطَّك ، والحرصِ علىٰ مايُجْزِل نصيبَك من جميـل الرأْى وقِسْطَك ـ تقدّم فتىٰ مولانا وسيدنا بكتب هذا المنشورِ مضمّنا شكرَك وإحمادَك، ومُودَعا مايبلّغُـك فى الخـدمة بُغْيتك ومرادَك؛ وتجـديدَ نظَرك وتقويةَ يدِك ، وإعزازَ جانبك ؛ وتوخِّيك بمـا يشرَح صـدرَك، ويشُـدّ أزْرَك ، ويرفع موضعَك ويُزِيح عِلَلَك ؛ ويقيم هيبتك ويُفْسِـح مجالَك ، ويبلّغك آمالك .

فاجرِ علىٰ رَسْمك فى هـذه المشارفة وآستمِرّ علىٰ عادة دُءُوبك ، وآجعـل التقرّب بالنصيحة غايةَ مطلُوبك ؛ وواصـل الانتصابَ لاِسـتخراج مالِ هــذه الجَوَالى

(١) بياض بالأصل . ومراده "أيها الأمير" أونحوه .

واستِنْضاضه وآستيفائه وآستنظافِه، وتمـادَ فى ذلك علىٰ سُنَّتك الحميده، وطريقتِك السَّديده؛ وثِق بأن ذلك يُسْفِر لك عن بلُوغ أراجيك، ويضاعف سَهْمَك من حسن الرأى فيك؛ فليعتمدِ الأميران معاضـدَة المذكور ومؤازرتَه، وإعانتـه ومظافرَته؛ وإجابةَ نِدائه، وتلبيةَ دعائه؛ والشدَّ منه فى آستخراج البواقِى مع المـال الحاضر: ليجدَ السبيلَ إلىٰ الوفاء بمـا شَرَطه علىٰ نفسه، وكتب خَطَّه به؛ والمبالغةُ فى ذلك مبالغـةٌ يعودُ نفعهـا علىٰ الديوان، ويشهدُ لهما ببذل الطاقة والإمكان؛ فلْيَعلم ذلك وليعمل به، إن شاء الله عز وجل.

ومن ذلك سجلٌّ باستيفاء الأعمال القبلية، وهو:

من كَرُم أصلُه ومَحتِده، وحسُن فى الولاء ظاهرُه ومعتَقَده، ولُقِّن المخالصةَ عن المـاضين من أسلافه، ولَزِم فى المناصحة مَنْهجا لم يَعدِل عنه إلىٰ خلافه، وتَنَقَّل فى جلائل الخدم بكثرة الثنـاء عليه والتعديد لأوصافه؛ وكان فى كلِّ مايباشره علىٰ قضيةٍ تشهد بفضله، وتَدُلُّ من محاسن الخلال علىٰ مالايجتمع إلا فى مثله؛ علىٰ أنه قليلُ النظَراء والأكْفاء، كَلِفٌ بالآقتـداء بمَكارم الأفعال والآتباعِ لهـا والآقتفاء ـ آستوجب أن يُرفَع مكانهُ ومحلُّه، وآستحق أن يحمَّل من أعباء المهمَّات مالاينهض به [إلا] مثلُه؛ وصلَح أن يجعل لمـا يراعِى أمرَه سهْما من نظره فيه، وأن يبرز من توليته إيَّاه فى مَلْبَس جمال يُسْبِغه حسنُ التدبير عليه ويُضْفِيه.

ولمـا كنت أيها الشريفُ، تاجُ الخلافة، عضـدُ الملك، صنيعةُ أمير المؤمنين، من جِلَّة آل أبى طالب، والموفُورى الحظِّ من المآثِر والمَنَـاقِب؛ ولك مع نَسَـبك الشريف ميزةُ بَيْتك فى الدولة العلوية ـ خلد الله ملكَها ـ وتقدُّمه، وآسـتقرارُك

بَنَجْوة من السناء لايضايقُه أحدٌ من طبقتك فيها ولايَزْحَمُه؛ وقد توليتَ أمورا جليلةً فكنتَ عليها القويَّ الأمين، وأُهِّلت لمنازل سنيَّة فأوضحتْ لك الأثرَ الحسنَ وأظهرت منك الجوهر الثمين؛ ولم تَنْتَقِل قطُّ من شيء تتولّاه، إلىٰ غيره ممـا تُستحفَظُه وتُستكْفاه، إلا كان الأوّل عليك يتلهَّف، والثـانى إليك يتطلّع ونحوك يتشوّف؛ وما برِحْتَ ملتَمَسا من الرتب الخطيرة مخْطُوبا: لأن الأسـباب التى غدَتْ فى غيرك متشتِّتة متفرّقه، قد أُلْفِيت عنـدك مجتمعةً متألِّفة متَّسِقه؛ فلك النزاهةُ السابقةُ بك كلَّ من يجاريك، والوجاهةُ الرافعة قدرَك علىٰ من يُناويك؛ والأمانةُ التى يشهد لك بها من لايُحابِيك، والديانةُ التى حُزْتَها عن الشريف عضُدِ الدولة أبيك ـ تقدّم فتىٰ مولانا وسيدنا بالتعويل عليك فى تولِّى ديوان الاستيفاء علىٰ الأعمال القبلية وما جُمِع إليه، الذى هو من أجلِّ الدّواوين قدرا، وأنبهِها ذكرا، وأرفعِها شانا، وأشمخها مكانا؛ وخرج أمرُه بكَتْب هـذا التقليد لك؛ فباشرْ ذلك متقياً لله تعالىٰ فيـه، جاريا علىٰ مراقبةِ عادتك التى تُزْلِفُ فاعلَها وتُحْظِيه؛ فالله تعـالىٰ يقول إرشادا لعباده وتفهيما: ﴿ يٰأَيُّهَـا الَّذِين آمنُوا اتَّقُوا اللهَ وقُولُوا قَوْلًا سَـدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـالَكُمْ وَيغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ ورَسُولَهُ فقَدْ فَازَ فَوْزًا عظِيما ﴾.

وتبتَّـل إلىٰ عمـارة الأعمال، وتَزْجِيـة الارتفاع واستخراج الأموال؛ واعتمد مواصلةَ الجِدّ والتشمير، واعكُف علىٰ الاجتهاد الذى يشهدُ لك بقلّة الشبيه وعدم النظير؛ واستنْظِف البواقىَ من كل الجهات والأمَاكن، وكُنْ علىٰ ضبط ماتَستخرِج وصونِه أحفَظَ له من الخزائن؛ وانظر فى أمر الكُتَّاب نظر من يكْشِف عن جميع أسبابهم، ويعلم أنه المخاطَبُ علىٰ خطئِهم وصوابِهم؛ وخُذْهم بملازَمة الأشغال، والمواظَبـة علىٰ التنفيـذ وعلىٰ استيفاء الأعمـال؛ ولا تُسـوّغ لضامن ولا عامل أن يُضَجِّع فى العمارة، ولا أن يمـاطل بها من ساعة إلىٰ ساعة فإن فائت ذٰلك لايُلْحَق،

وفارطه لايُدْرك ؛ وقد أُزيحت علّتُك ببسط يدك و إنفاذ قولك و إمضاء حكمك ؛ فتماد علىٰ سُنّتك وٱستمرّ علىٰ رَسْمك ؛ وٱعلم هذا وٱعمل به ، وطالع بما تحتاج إلىٰ المطالعة بمثله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

سجل بمباشرة الأغنام والمطابخ .

لما كانت الأمانةُ كافلةً بالتنويه لأربابها ، والكفايةُ سافرةً فى التمييز لمن يتعلق بأسبابها ، والخبرةُ خَلّةً لايليق التصرُّف ولا يحسن إلا بها ؛ وكنتَ أيها القاضى مشهورَ النَّفاذِ والمعرفه ، خليقاً إذا ذكر المرَشَّحون للهمات بأجمل صِفَه ؛ وقد عُلمتْ نباهتُك ، وٱستقرّتْ نَزاهتُك ، وحسُن فيما نتولاه أثرُك ، وطاب فيما تباشِرُه خَبَرُك . وحين عُدِقت بك الخِدَم فيما يستدعىٰ ويُبْتاعُ من الأغنام برسم المَطَابخ السعيدة وما يُنْفق ويُطْلَق منها ، متصرّفاً فى ذلك بين يدَىِ المخلِص السديد صفىِّ الملك مأمونِ الدولة أبى الحسن : فرجٍ الحافظى أدام الله تأييده ؛ فشكر سعْيَك ، وأحمد قصدَك ، ورضِىَ ٱجتهادَك ، وٱستوفَقَ ٱعتمادك ـ تقدّم فتىٰ مولانا وسيدنا فلان بكتب هذا المنشور لك ، مضمَّنا مايقضى بشدّ أَزْرك ، وشرح صدْرِك ، وتقوية مُنَّتك ، و إرهاف عَزْمك فى خدمتك ؛ وٱعتمادِك بما يؤدِّى إلىٰ ٱستقامة الأمرِ فيما عُدِق بك ، ومساعدتِك ومعاضدتِك ومعونتِك فى أسبابك ؛ وتبليغك أقصىٰ طِلَابك ، والأميران يعتمدان رعايتك ، والشدَّ منك و إعانتَك ، والمحافظةَ علىٰ مصالح أمرك والتلبيةَ لدعوتك ، وتوفيرَ حظك من الملاحظة لشُئُونك . فلتعلم هذا ولتعمل به ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك نسـخة منشور بمشارفة المواريث الحشرية ، والفروض الحُكْميـة ، وهى :

منشورٌ تقدّم بكتبه فتىٰ مولانا وسيدنا السـيدُ الأجل الأفضـل لك أيها القاضى الرشـيد ، سَدِيد الدولة ، أبو الفُتوح محمد بن القاضى السـعيد عين الدولة أبى محمد عبد الله بن أبى عقيل ــ أدام الله عزك ــ لـمـا ٱشتهرتْ كفايتُك ٱشتهارَ الشمس ، وأَمِنتْ أمانتُـك دخولَ الشـبهة واللبس ، وسلكْتَ مذهبَ أسـلافك فى العَفَاف والنزاهة وظَلَف النفس ، وظلّت آثارُك فيما تتولاه شاهـدة بديانتك ، وأفعالك فيما تُسْتكفاه معربةً عن نباهتِك ، وسِـيرتُك فيما تتكلَّفه منتهيـةً بك إلىٰ أقصى أمد الٱحتياط مُفْضِـية ، وقد أضحىٰ سبيل تقديمك مُعبَّدا مذلَّلا ، وغدوتَ لـمـا يُناسِب كريم بَيْتك مرشَّحا مؤهَّلا ، وإنمـا إبقاؤك علىٰ مابيدك لتكمِّل إصـلاحَه وتهذيبَه ، وتُتمِّم تثقيفه وترتيبَه ، ولذلك كتب هــذا المنشورُ مقصورًا علىٰ إقرارك علىٰ ما أنت متولِّيه من الخدمة فى مشارفة المواريث الحَشْريه ، وتقرير الفروض الحُكْميه .

فاجرِ علىٰ رَسْمك وعادتك ، وٱستمِرّ علىٰ مَنْهَجك فى بَذْل ٱستطاعتك ، وٱلزم المعهودَ منك فإنه مُغْنٍ عن الٱستزاده ، وتمادَ علىٰ ماأتيتَ فيه علىٰ البُغْية والإراده ، وٱكتفِ بمـا تضمَّنته التذكرة الديوانيـة المعمولةُ لهذه الخدمه ، وحافظ من الٱجتهاد علىٰ ما يجدّدُ لك كلَّ وقت ملبَس نعمه ، فاعلَمْ هــذا وٱعملْ به ، ولْيُنْسَخ هــذا المنشور بحيث يُنْسَخ مثله ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك نسخة منشور بعُمَالة، وهى :

عندَ ماوُصفتَ به من ٱجتهادٍ ومنــاصحه، وأمانةٍ ليس فيها مساهلةٌ ولا مسامَحه؛ ومخالصــةٍ ٱستمررت فيها القضيةَ المستقيمةَ الواضحه، وكفايةٍ تمسَّكتَ منها بالسبب الوثيق وحصَلْت علىٰ الصَّفْقة الرابحه؛ ومعاملةٍ تحرَّيت فيهـا نَهْج من حُبِّب إليــه الأعمالُ الصالحه، وكِفايةٍ إذا باشرت الدُّهْمة الكالحةَ أبدلتْها بالغُرّة الواضحه، وسُمْعةٍ مابرِحت الألسُن لذخائرثنائها مبيحةً ولسرائرأسبابها بائحه؛ وإنك إذا أُهِّلت لخدمة جعلتَها لشُكْرك لسانا، ولكِتاب كفايتك عُنْوانا؛ ومَن كان بهــا ملما (؟) إذا رأتك دواه كان مستعارا بك أحيانا .

فٱعتمدْ فى هــذه الخدمة ما يحقِّق بك ظنا، ويقيمُ لك وَزْنا، ويشُــدّ بك رُكْنا ويضاعِفُ لدَيْك مَنّــا، ويُنيلك من الإحسان ماتَمَنَّى، ويُسْنِى لك من الزيادة والحسنىٰ، ويتوكَّل فى ٱقتضاء الحظِّ الجزيلِ الأسنىٰ؛ وٱستَرْفِع (؟) الحُسْبانات التى مايلزم رَفْعُهــا، ويُحفَظ به شرطُ الكِفاية ووضْعُها؛ وٱكشِفْ ولا تُبقِ ممكنا حتى تكشِفَه ثم ٱستنطقه، وحاصل به أصله ثم تجمله؛ وحاقِق الجَهابِذَ علىٰ ماخرجتْ به البراآت، ورُفِعت به الختمات؛ ولاتُخْــلِ وُصولا، من أن تكون بخطِّك موصولا؛ وٱســتخرج حقُوقَ الديوان علىٰ ما مضَتْ به مواضى سُــنَنه، وخذْ من كل شىء فى خدمتِك بأحسَــنِه، وأنزل نفْسَك من شئــون السنة بأمنع ظل وأحصنهِ؛ وٱحمل التُّجّار والسُّفّار علىٰ عوائد العــدل وشرائطه، وقضاياَ الصوِن وحوائِطه؛ وشواهدِ الدِّيوان وضرائبــه، ولا تتعــدّ فيهم مألُوفَ مَطالِبه؛ وٱنظُرْ فى الأملاك

السـلطانية نظرا يُصلح معتلَّها، ويصَحِّح مخْتَلَّهـا، ويُوفِّر أجرَها، ويُزْجِى غيْرها؛ وكذلك الأحبـاسُ والأحكارُ والمواريث: تحافظ علىٰ حِفْظ آسـتغلالها، وكُفَّ كَفَّ من يُرىٰ باستباحةِ أمرِ الحرمةِ وآستحلالِها؛ وقد وردتْ لك من الديوان تذكرة فاهتَدِ بمنظومها، وآقتد بمرسُومها؛ ولك من الآراء ما يَشْحَذ عزمك، وينفِّذ حكمك، ويُسْنى موردَك، ويعْلى يدَك، ويمثِّل الرعايةَ فيـك، ويقيم علىٰ أن تكْفى الديوان بمـا يكْفيك؛ والسلام .

تم الجزء العاشر . يتلوه إن شاء الله تعـالىٰ الجزء الحادى عشر

وأوله الفصـــل الثـالث

(من البـاب الرابع من المقـالة الخامســـة)

والحمد لله ربِّ العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خَاتَم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـــه والتـابعين، وسلامُه

وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل

(المطبعة الأميرية، ٥٦٩٤/١٩١٦/٣٠٠٠)

فهـــــرس

الجـــــزء العـاشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

الوجـــه الخامس — فيما يكتب فى ألقـاب المـلوك عن الخلفاء ، وهو نمطان ٥

النمـــط الأول — ما كان يكتب فى قديم الزمن ٥

« الثـــانى — مايكتب به لملوك الزمان ٦

الوجـــه السادس — فيما يكتب فى متن العهود، وفيــه ثلاثة (خمســة) مذاهب... ... ... ٨

المذهب الأول — أن يفتتح العهد بلفظ «هذا» ، وللكُتَّاب فيه طريقتان

الطريقة الأولى — أن لا يأتى بتحميد فى أثناء العهد فى خطبة ولا غيرها الخ ٨

« الثانية — أن يأتى فى أثناء العهد بخطبة أو تحميد ٤٦

المذهب الثانى — أن يفتتح العهـد بلفظ « من فلان » باسم الخليفة وكنيته ولقب الخلافة « إلىٰ فلان» بٱسم السلطان وكنيته ولقب السلطنة ٧٥

« الثالث — أن يفتتح العهد بخطبـة ٩٨

« الرابع — « « بقوله « أما بعد فالحمـــد لله » أو «أما بعد فإن أمير المؤمنين» أو «أما بعد فإن كذا» ١٣٥

« الخامس — أن يفتتح العهد بـ«إن أولى ما كان كذا» ونحوه... ١٤٥

الوجـــه السـابع — فيما يكتب فى مستند عهد السـلطان عن الخليفة، وما يكتبه الخليفة فى بيت العـلامة، وما يكتب فى نسخة العهد من الشهادة أو ما يقوم مقامها ... ١٥٢

« الثـامن — فى قطع الورق الذى تكتب فيــه عهود الملوك عن الخلفاء ، والقلم الذى يكتب به ، وكيفية كتابتها ، وصورة وضعها فى الورق ١٥٣

صفحة

النـــوع الثـالث — من العهود — عهود الملوك لولاة العهد بالملك ، وفيه
سبعة أوجه ١٥٨
الوجـــه الأوّل — فى بيان صحة ذلك ١٥٨
« الثـــانى — فيما يكتب فى الطرّة ١٥٩
« الثـالث — فى الألقاب التى تكتب فى أثناء العهد ١٥٩
« الرابـــع — مايكتب فى المستند ١٦٠
« الخامس — ما يكتب فى متن العهد ١٦٠
« السادس — فيما يكتب فى مستند عهـد ولىّ العهد بالسلطنة ،
وما يكتبه السلطان فى بيت العلامة ، وما يكتب
فى ذيل العهد ١٧٧
« السـابع — فى قطع ورق هذا العهد، وقلمه الذى يكتب به،
وكيفية كتابته، وصورة وضعه فى الورق ، ١٧٨
النـــوع الرابـــع — من العهود — عهود الملوك بالسلطنة للملوك المنفردين
بصغار البلدان؛ وفيه أربعة أوجه ١٨١
الوجـــه الأوّل — فى بيان أصـل ذلك وأوّل حدوثه فى هذه المملكة
إلىٰ حين زواله عنها ١٨١
« الثـــانى — فى بيان ما يكتب فى العهد، وهو علىٰ ضربين ... ١٨٣
الضرب الأوّل — ما يكتب فى الطرّة، وهو تلخيص ما يشتمل عليه
العهد (ولم يذكر الضرب الثانى) ١٨٣
الوجـــه الثـالث — فيما يكتب فى المستند عن السلطان فى هذا العهد،
وما يكتبه السلطان فى بيت العلامة ١٨٨

صفحة

الوجـــه الرابــع — فى قطع ورق هذا العهد، وقلمه الذى يكتب به، وكيفية الكتابة، وصورة وضعها فى الورق ١٨٨

البـــاب الرابــع — من المقالة الخامسة فى الولايات الصادرة عن الخلفاء لأرباب المناصب من أصحاب السيوف والأقلام، وفيه ثلاثة فصول... ... ... ١٩٢

الفصــل الأول — فيما كان يكتب من ذلك عن الخلفاء، وفيه خمسة أطراف ١٩٢

الطـرف الأول — فيما كان يكتب عن الخلفاء الراشدين ١٩٢

« الثانى — « « عن خلفاء بنى أمية ١٩٥

« الثالث — « « « بنى العباس ببغـداد إلىٰ حين آنقراض الخلافة العباســية من بغداد، وهو علىٰ أربعة أنواع... ... ... ٢٣٣

النوع الأول — ما كان يكتب لوزراء الخلافة... ... ... ٢٣٣

« الثانى — ممـا كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد — ما كان يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف، وهو علىٰ ضربين ٢٤٢

الضرب الأول — العهود ٢٤٢

« الثانى — ممـا يكتب من ديوان الخــلافة لأرباب السيوف — التقاليد... ... ... ٢٦٢

النوع الثالث — ممـا كان يكتب لأرباب الوظائف من ديوان الخلافة ببغداد — ما كان يكتب لأرباب الوظائف ببغداد من أصحاب الأقلام، وهى علىٰ ضربين ... ٢٦٣

صفحة

الضرب الأول ــ العهـــود... ... ... ٢٦٤

« الثانى ــ ممـا كان يكتب بديوان الخلافة ببغداد لأرباب الوظائف من أصحاب الأقلام ــ التواقيع ٢٩٢

النوع الرابع ــ ممـا كان يكتب من ديوان الخلافة ببـغداد ــ ما كان يكتب لزعماء أهل الذمة ٢٩٤

الطـــرف الرابـع ــ فيما كان يكتب عن مدّعى الخـلافة ببلاد المغرب والأندلس، ولذلك حالتـان ٢٩٩

الحـالة الأولىٰ ــ ما كان الأمر عليـه فى الزمن القديم (ولم يذكر الحالة الثانيـــة) ٢٩٩

الطـــرف الخامس ــ فيما كان عليـه الأمر فى الدولة الفاطميـة بالديار المصرية، وهو علىٰ نوعين ٣٠٨

النـــوع الأول ــ ما كان يكتب به عن الخليفة نفســه، ولهم فيها أربعة مذاهب ٣٠٨

المذهب الأول ــ أن يفتتح مايكتب فى الولاية بالتصدير، وهو علىٰ ثلاث مراتب ٣٠٩

المرتبة الأولى ــ أن يقال بعد التصدير المقدّم « أما بعد فالحمد لله » وهى علىٰ ضربين ٣٠٩

الضرب الأول ــ سجـلات أرباب السـيوف (ولم يترجم للضرب الثانى) ٣١٠

المرتبة الثانية ــ أن يفتتح السجل بالتصدير إلىٰ آخر التصلية ثم يؤتى بالتحميد مرة واحدة... ... ... ٣٣٠

صفحة

المرتبة الثالثة — أن يفتتح بالتصدير أيضا إلى آخر التصلية ثم يؤتى بالبعدية من غير تحميد ٣٦٠

المذهب الثانى — أن يفتتح ما يكتب فى الولاية بلفظ «هذا ما عهد عبد الله ووليه الخ» ٣٨٤

« الثالث — أن يفتتح ما يكتب فى الولايات بخطبة مبتدأة بـ«الحمد لله» ٣٨٩

« الرابع — مرتبة الأصاغر من أرباب السيوف والأقلام ... ٤٣٩

النـــوع الثانى — ما كان يكتب عن الوزير... ... ... ٤٤٦

(تم فهرس الجـــزء العـاشر من كتاب صبح الأعشى)

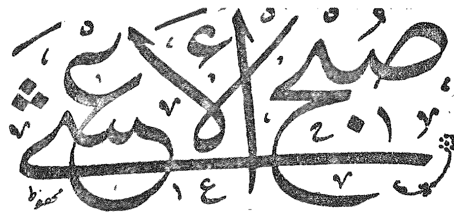

الجـــزء الحادى عشر

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجزء الحادى عشر

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٥ هـ
١٩١٧ م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الثانى(1)

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فيما يُكْتَب من الوِلَايات عن الملوك ، وفيه [ثلاثة] أطراف)

الطَّرَف الأوّل

(فى مصطلَح كُتَّاب الشرق)

قد تقدّم فى الكلام علىٰ ما كان يُكْتَب عن الخلفاء أنَّ الوِلَايات فى الخلافة العبَّاسيَّة ببَغْداد كانت تَصْدُر عن الخُلَفاء دُونَ الملوك المُساهمين لهم فى الأمر، لا يُشارِكونَهم فى شىء من الوِلَايات أصلا . وقد تقدّم ذكر ما كان يكتب عن خلفائهم من الوِلَايات هناك .

والمقصود هنا ما كان يُكتَب عن ملوك بنى جَنْكِزخان من البيت الهُولاكوهى فمَنْ بعدَهم . ولم أقِفْ علىٰ شىء من مصطَلَحهم فى ذٰلك فأُورِدَه هنا .

---

(1) وقع سهوا فى آخر الجزء العاشر أن أوّل الجزء الحادى عشر "الفصل الثالث" وصوابه "الثانى"

الطـــرف الثـانى

(فى مصطلح كُتّاب الغَرْب والأَنْدلُس فيما يكتَب من الوِلايات عن الملوك)

واعلم أنهم يعبِّرون عما يُكتَب فى جميع ولاياتهم بالظَّهائر: جمع ظَهِير(١)، يفتتحونه بلفظ «هذا ظهير» كما تقدّم بيانُه فى الكلام علىٰ ما كان يكتب عن خُلَفاء المغْرِب .

ثم هى علىٰ ثلاثة أضرب :

الضـــرب الأوّل

(ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السُّيوف)

وهـذه نسـخةُ ظَهِيرٍ بنِيابة السـلطنة بالحضرة من إنشاء أبى عبـد الله بن الخطيب، وهى :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ، منْزِلتُه فى الظهائر منزلةُ المعتَمد به من الظُّهَراء، ومحـلُّه من الصُّكُوك، الصادرةِ عن أعاظم المُلُوك، محَلُّ أُولِى الرايات، الخافقةِ العَذَبات، والآراء . فتَحَ علىٰ الإسـلام، من بعد الإبهام، أبوابَ السَّرَّاء، وراقَ طِرازًا مُذْهَبا علىٰ عاتِق الدَّولة الغَرَّاء ؛ وأعملَ عوامل الجهاد فى طاعة ربِّ العباد، شارعة لأهل الكفر والعِناد، من باب الإعمال والإغراء .

أمر به فلان لصَدْر صدُور أوِدّائه ، وحُسَامه المشهورِ علىٰ أعْدائه ، ووليِّه الذى خَبَرصِدْقَ وفائه ، وجَلَّى فى مِضْمار الخُلُوص له مُغَبِّرًا فى وُجُوه أكفائه . شيخِ شُيُوخ المجاهدين، وقائدِ كتائبه المنصورةِ لغَزْو الكافرين والمعْتدين؛ وعُدَّتِه التى يُدافِع بها عن الدِّين، وسائِقِ وِرْدِه المبَرِّز فى الميادين؛ الشيخ الأجلّ الأعزّ الأسنىٰ، الأمجد،

(١) فى اللسان وغيره "الظهير العون يستوى فيه الواحد والجمع" . وقد جمعه الفرّاء علىٰ ظهراء . وفى شرح الأشمونى عن بعض النحو يين أنه يشترط فى جمع فعيل علىٰ فعائل أن يكون علما لمؤنث . تأمل .

الأسْعد ، الأصْعد ، الأغنىٰ ، الأَحْمىٰ ، الأَحَب ، الأَوصل ، الأفضل ، المجاهد ، الأقضىٰ ، الأرضىٰ ، الأمضىٰ ، الشهيد ، المقدّس ، المرحومِ أبى عبد الله بدرِ الدين آبن شيخ الشُّيوخ وعلَمِ الأعلام ، المدافِع عن حَوْزة الإسلام ، البعيدِ الغارةِ فى تُخُوم عَبَدة الأصنام ، الشيخ الكبير ، الجليلِ الخطيرِ ، الرفيع ، الصَّدْر ، المعَظَّم ، الموَقَّر ، صاحب الجهاد الأرضىٰ ، والعزْم الأمضىٰ ، المقدّس ، المرحومِ أبى عِمْران (موسىٰ) آبن أبى زيد رحو بن محيو بن عبدالحق بن محيو ، وصلَ الله سعدَه ، وحَرَس مجدَه ، وبلّغه من مظاهَرة دولتِه ومُوازَرة خلافته قَصْدَه . رَفَع قُبَّة العناية والآختيار علىٰ عِماد ، وأشادَ بدَعْوة التعظيم [مُسْمِعاً][1] كلَّ حىٍّ وجَماد ، وقابل السعْىَ الكريمَ بإحْماد ، وأورد من البِرِّ غيرَ ثِماد ، وآستظهَرَ بالوفاء الذى لم تستَتِرْ نارُه برَماد ، ولا قَصَّرت جِيادُه عن بُلُوغ آماد ، وقلّد سيفَ الجهاد عاتِقَ الحَسَب اللُّبَاب ، وأعْلَقَ يدَىْ الآستظهار بأوْثَق الأسباب ، وآستغلَظَ على الأعداء بأحبِّ الأحباب . لمَّا قامتْ له البراهينُ الصادقةُ علىٰ كَرَم شِيَمه ، ورُسُوخ قَدَمه ، وجَنَىٰ منه عند الشِّدّة وآلتمحيص ثَمَرَةَ ماأَوْلاه من نِعَمه ، قابل بالرَّعْى كرائمَ ذِمَمه ، وعظائمَ خِدَمه ؛ وشدّ اليَدَ علىٰ عهده الذى عرفه حينَ آنتكثت العُقَد وأَخْلَق المعتَقَد ، وآستأْسد النَّقَد[2] ، وتنكَّر الصديق ، وفَرِق الفَرِيق ، وسُدّت علىٰ النَّظرة الطَّريق ، وتميز المغرق والغَريق ؛ فأثقلَ له مِيزانَ المُكافات ، وسجّل له رَسْمَ المُصافات ؛ وجعله يمينَ المُلْك الذى به يُناضِل ، ويُقاطِع ويُواصِل ؛ وسيفَ الجهاد ، الذى يحمى بمَضَائه حَوْزَةَ البلاد ، ومِرْآة النُّصْح التى تَتَجَلَّى بها وجوهُ الرَّشاد . فقدّمه ـ أعلىٰ الله قَدَمَه ، وشكر

(١) الزيادة عن "ريحانة الكتّاب" لابن الخطيب .

(٢) النقد بالتحريك السفل من الناس ، وضرب من الغنم قصار الأرجل قباح الوجوه يقال هو أذلّ من النقد . أنظر اللسان .

نِعمَه، وأسعده فيما يمَّمه، ونَشَر بالنصر علَمَه - شيخَ الغُزاة بحضرته العليَّه، وسائر بلادِه النصريه : ترجعُ القبائلُ والأشياخ إلىٰ نظره فى السَّكَنات، وتَستدرّ علىٰ يده من مقامه الكريم غُيومَ البركات؛ وتُقرّر وسائلَها بوَسَاطة حُظْوته، وتقصّر خُطاها اعترافا بحقِّه الواجب عن خُطْوته. فعليه تدورُ أفلاكُ جماعاتهم كُلَّما اجتمعُوا وأْتَلفُوا، وبحجة فضله يزولُ إشكالُهم مهما اختلَفُوا؛ وبلسانه المُبين يقرّر لهم ماأسلَفُوا، وفى كَنَف رَعْيِه ينشأ من أعقبوا من النَّشأة وخلَّفُوا؛ وبإقدامه تنهَضُ أقدامهم مهما توقَّفُوا. فهو يَعْسُوب كتائبهم الملتفَّه، وفِرْزانُ قِطَعهم المصْطَفَّه؛ وشَهْمُ جوارِحهم الفارِهه، وعيْنُ عيونهم النَّابِهه، وتأويلُ أمورِهم المتشابهه؛ عن نظره يَرِدُون ويَصدرون، وبإشارته يَرِيشُون ويَبْرُون وآثارَه يقتفُون، وبتَلْعَة دوّاره المَرِينىّ فى خدمة مقامه النصرىّ يَقِفُون. فهو الذى لا تأنَفُ أشرافُ القبائل من اقتفاء آثارِه، ولا تجهل رِفعةَ مِقداره؛ فلبيته المَزِيَّةُ بالحق، المستوجبةُ للفخر بسابقةِ السعادة لعبد الحَقّ؛ ولذاته قَصَبُ السبق، ولوَفَائه الشُّهرة فى الغرب والشَّرْق.

فليتولَّ ذٰلك - تولَّاه الله - منْشرحا بالعز صدْرُه، مستمدّا[1] من شمس سعادته بدْرُه، معروفا حقُّه معظَّما قدرُه؛ فهى خُطَّة قومه، وفريسةُ حَوْمه، وطِيَّة أمسِه ويَوْمه؛ وكُفْءُ خِطْبته، ومَرْمىٰ رُتْبته؛ وحَلْيُ جِيده، ومَظْهَرُ توفيقه وتسديده. مُطْلِقا من عِنان الثناء، علىٰ أهل الغَناء، معامِلا بصادق الإطراء، لذوى الآراء؛ متغَمِّدا بالإغضاء، هَفَواتِ أهل المَضَاء؛ معرِّفا بالقبائل، والعشائر والفصائل؛ كُلَّما وفدُوا من الآفاق للاستلحاق؛ منبِّها علىٰ مَظَانِّ الاستحقاق، مُطبِّقًا للطباق، مميِّزا لجيادها يومَ السِّباق؛ حريصا علىٰ إنماء الأعداد، مطبِّقا مَفاصِلَ السَّداد؛ محتاطًا علىٰ الأموال التى تمترِى

(١) فى ريحانة الكتاب «مشرقا».

بهـا أَكُفُّ الجباية ضُروعَ العباد، واضعًا مالَ الله حيثُ وضـعه الحق من الوَرَع والاستداد، [لا] سيَّما فى هذه البلاد، حتىٰ تعظُم المَزَايا والمَزَاين، وتتوفَّر الكَتائبُ والخزائن و يبتهجَ السامعُ ويُسرَّ المُعاين، و يظهر الفضلُ علىٰ من تقدّم، وأنَّ الظُّهَراء كَمْ غادرت من متردِّم، و يتحسَّرَ من قصَّرو يتندَّم، وعند الله يَجِدُ كلٌّ ماقدَّم. فهى قلادةُ الله التى يُضيع مَنْ أضاعها(١)، ويَرْضىٰ عمن أعمل فيها أوامرَه وأطاعها. وهو، ـ وصلَ الله سعادتَه! وحرس مجادَتَه! ـ أَوْلىٰ مَن لاحظ ضرائرها، واستطلع من ثنايَا التوكل علىٰ الله بشائرها: نَسـبًا وحسَبا، وجدًّا وأبا، وحَدًّا وشَـبا، ونَجْدة وصَحتْ مَذْهبا.

وعلىٰ الغُزاة ـ وفَّر الله جموعَهم! وأنجدَ تابعهم ومتبوعَهم! ـ أن يعرفوا قدْرَ هذا التعظيم الذى خفَقتْ أعلامُه، ووضَحَتْ أحكامُه، والاختصاص الذى لَطُف محلُّه، والاعتناء الكريم الذى ضَـفَا ظِلُّه، فيكونوا من إيجـاب حقِّه حيثُ حَدّ ورَسَم، وميَّز ووَسَم، لايتخلَّف أحد منهم [فى خدمتـه](٢) أيده الله عن إشـارته الموفَّقه، ولا يَشِذُّ عن رياسته المطلقه، بحول الله تعالىٰ وقُوّته.

وهذه نسخة ظَهير بنيابة السلطنة ببعض الأعمال، وهى:

هذا ظهيرٌ كريمٌ، مضمَّنه استجلاءٌ لأمور الرَّعايَا واستِطْلاع، ورعايةٌ كَرُمت منها أجناسٌ وأنواع، وعدلٌ بهرمنه شُعاع، ووصايَا يجب لها إهْطاع.

أصدَرْناه للفقيه أبى فلان. لمَّـا تقرّر لدَيْنا دينُـه وعدله وفضـله رأينا أنّه أحقُّ مَن نُقلِّده المُهمَّ الأكيد، ونرمى [به](٢) من أغراض البِرِّ الغرَضَ البعيد، ونَستكْشف به

(١) فى "ريحانة الكتّاب" التى لايضيع من أضاعها، و يوفى صاعها.
(٢) الزيادة من "ريحانة الكتّاب".

أحوالَ الرَّعايا حتىٰ لا يغيب عنا شىءٌ من أحوالها، ولا يتطرَّقَ إليها طارقٌ من إهمالها، ويُنهِى إلينا الحوادثَ التى تنشأُ فيها إنهاءً يتكفل بحياطـة أبشارها وأموالهـا . وأمرناه أن يتوجه إلىٰ جهة كذا ـ حاطها الله ـ فيجمَعَ الناس فى مساجدهم، ويندُبَهُم من مَشاهدهم . ويبـدأ بتقرير غرضنا فى صـلاح أحوالهم، وإحساب آمالِهم (١)، ومكابدتنا المشـقّةَ فى مُداراة عدوّهم الذى يعلم من أحوالهم ماغاب عنهم ـ دفعه الله بقدرته، ووَقَىٰ نفوسَهم وحريمهم من مَعَرّته ـ وبمـا رأينا من آنْبِتات الأسبابِ التى فيك تُؤمَّل، وعَجْزِ الحِيَلِ التى كانتْ تُعْمَل . ويستدْعِى إنجادَهم بالدعاء، وإخلاصَهُم فيه إلىٰ ربِّ السماء . ويسأل عن سـيرة القُوّاد، ووُلاة الأحكام بالبلاد : فمن نالَتْهُ مَظْلِمة فليرفَعْها إليه، ويقُصَّها عليه : ليبلِّغها إلينا، ويُوفِدَها مقرَّرةَ المُوجَبات علينا . ويختبِرُ ما آفتُرِض صَدقةً للجبـل، وما فَضَـل عن كريم ذٰلك العَمَل : ليعيِّن لبنـاء الحصن بجبـل قارة يَسَّر الله لهم فى إتمـامه، وجعل صـدَقتَهم تلك مِسْكَ ختامه، وغيْرَه ممـا آفتُرِض إعانةً للمسافرين، وإنجـادًا لجهاد الكافرين؛ فيعـلَم مقـدارَه، ويتولَّى اختبـارَه؛ حتىٰ لا يُجْعـلَ منـه شىءٌ علىٰ ضعيف، ولا يُعدلَ به لمشروف عن شريف، ولا تقعَ فيه مضايقةُ ذى الجـاه، ولا مخادعةُ غيرِ المراقِب لله . ومتىٰ تحقَّق أن غنيًّا قُصِّر به فيه عن حقه، أو ضعيفا كُلِّف منه فوق طَوْقه، فيُجبِر الفقيرَ من الغنِىِّ، ويَجْرِى من العَـدْل علىٰ السَّنَن السوىّ ـ ويُعلِم الناس أن هـذه المَعُونةَ وإن كانت بالنسبة إلىٰ محـلّ ضرُورتها يسيره، وأن الله يضاعفها لهم أضعافا كثيره؛ ليست ممـا يَلْزم، ولا من المَعَاون التى بتكريرها يُجْزَم ـ وينظر فى عهود المتوفين فيصرفُها فى مَصارفها المتعينه، وطُرُقها الواضحة البيِّنه ـ ويتفقّد المساجد تفقُّدا يكسو

(١) فى القاموس «أحسبه أرضاه» .

عارِيَها ، ويُتَمّم منهـا المآربَ [تتميا] يُرضى بارِيَهـا ـ ويندُبُ النـاس إلىٰ تعليم القرءان لصبْيانهم ، فذٰلك أصـلُ أديانهم . ويحـذِّرهم المغيب عن كل شيء من أعشارهم فالزكاةُ أختُ الصلاة وهما من قواعد الإسلام ،وقد آخترنا لهم بأقصىٰ الجدّ والآعتزام، ورفعْنا عنهم رسمَ التعريف نظراً إليهم بعين الآهتمام، وقدّمنا الثّقات لهـذه الأحكام، وجعلنـا الخَرْص شرعياً فى هـذا العام ، وفيما بعـده إن شاء الله من الأعوام .

ومن أهمّ ما أسـندناه إليه ، وعوّلْنا فيه عليـه ، البحثُ بتلك الأحْواز عن أهل البِدَع والأهواء ، والسائرينَ من السبيل علىٰ غير السَّواء ، ومَنْ يُنبَزُ بفساد العَـقْد ، وتحريف القصْـد ، والتلبُّس بالصوفيَّة وهو فى الباطن من أهل الفساد ، والذاهبينَ إلىٰ الإباحة وتأويل المَعَـاد ، والمؤلِّفين بين النساء والرجال ، والمتتبِّعين لمذَاهب الضَّلال . فمهما عثر علىٰ مُطَوّق بالتهمه ، منبَّز بشيء من ذٰلك من هذه الأُمَّه ، فليشُدّ وَثاقه شَـدّا ، وليسُدّ عليه سبيلَ الخَلَاص سـدّا ، ويستَرْعِ فى شأنه المُوجَبـات ، ويستَوْعِبِ الشهادات ، حتّىٰ ننظر فى حَسْم دائه ، ونُعالِـجَ المرَضَ بدوائه ،

فليتولَّ ماذكرنا نائبا بأحسن المَنَاب ،ويقصِدْ وجهَ الله راجيا منه جزيلَ الثواب ، ويعمَلْ عملَ مَنْ لا يخـاف فى اللهِ لومة لائم ليجدَ ذٰلك فى مواقف الحساب ،

وعلىٰ من يقف عليه من القوّاد والأشياخ والحُكّام أن يكونوا معه يدًا واحدة علىٰ ماقرّرناه فىهذه الفصول : من العمل المقبُول والعدْل المبذول . ومن قصَّر عن غاية من غاياته ، أو خالف مقتضًى من مقتَضَـياته ، فعقابه عقـابُ من عصىٰ أمر الله وأمرنا فلا يلومَنَّ إلا نفسه التى غرّتْه ، وإلىٰ مَصْرَع النكير جَرَّته ، وآلله المستعان .

وهذه نسخة ظهير بالإمرة على الجهاد ، وهى :

هـذا ظهيرٌ كريمٌ بلغ فيه الاختيار، الذى عضّده الاختبار(١)، الى أقصى الغايه؛ وجمع له الوفاقُ، الذى خدمه البختُ والاتفاق، والأهليَّة التى شهدت بها الآفاق، بين نُجْح الرأى ونَصْر الرايه؛ وأنتجتْ به مقدّماتُ الوَلاء نتيجةَ هـذه الرتبة السامية العَلَاء والوِلايه. وآستظهر من المعتمد به، علىٰ قصده الكريم فى سبيل الله ومذهبِه، بلَيْث من لُيُوث أوليائه شديدِ الوطْأة علىٰ أعدائه والنِّكايه، وفرعٍ من فروع المُلْك الأصيل معروفِ الأُبُوّة والإبايه؛ لتتضح حجةُ النصر العزيز والفتح المبين ذى القوّة المتين محكمةَ الآيه، وتدل بدايةُ هـذه الدولة الرافعة لمَعَالم الدين، المؤيَّدة فى الأقوال والأفعال بمَدَد الرُّوح الأمين، علىٰ شرَف النِّهايه .

أصـدرحِكمَتَه وأبرزَ حُكْمَه، وقرّر حدّه المـاضىَ ورسْمَه، عبـدُ الله، الغنيُّ بالله [محمدُ ابن مولانا أميرالمسلمين أبى الوليد بن نصر](٢) ـ عَضَّد الله كتائبه وشدّ عَضْده، ويَسَّر فى الظهور علىٰ أعداء الله قَصْده ـ لوليِّه المستولِى علىٰ مَيادين حُظوته وإيثاره، الفـائز بالقِدْح المُعلّى من إجلاله وإكباره، ظهيرِ آستنصارِه، وسيفِ جهاده المُعَـدّ لِصدق ضريبته ويوم آفتخاره، ويَعْسُوبِ قبائل الغُزاة بأصقاعه الجهاديّة وأقطاره، الأميرِ أبى عبد الرحمن، آبن الأمير أبى علىّ، آبن السلطان أمير المسلمين أبى سعيد، ابن أمير المسلمين أبى يوسفَ يعقوبَ بن عبدالحق ـ وصل الله له أسباب سعده، وأنجز للمسـلمين بمظاهَرتِه إيّاه علىٰ الكافرين سابِقَ وعده، لمّـا وفد علىٰ بابه الكريم

(١) فى ريحانة الكتاب « بلغ فيه الاختيارالنهايه والاختبار الى » الخ .

(٢) الزيادة "من الريحانة".

مؤثرا على ما كان بسبيله عن جِوَاره(١)، ملقيا بمَحَلّة الجهاد عصا تَسْياره، مفضّلا ما عند الله علىٰ رحْب أوطانه وأقطاره؛ شيمةُ من أسرع إلىٰ خير الآخرة بِبِدَاره، قبل اكتمال هلالِه وإبْداره، وعلىٰ انبعاث أمله وترامى همه واستقامة مَداره ــ قابل أيده الله وِفَادتَه بالقَبُول الممدوح، والصَّدْر المشروح، والعنايةِ العاليـةِ المَظَاهر والصُّرُوح؛ وجعل له الشِّرْب المُهَنَّى فى مَنَاهل الصنائع التى صنَعَ اللهُ لمُلْكه والفُتُوح؛ ولم يَدَّخِر عنه تقريبًا يَقف الأولياءُ دُون مَدَاه، وترفيعًا تشهد به محافِلُ المُلْك ومنتدَاه؛ إلىٰ أن ظَفِرت بحقيقة الموالاةِ الكريمةِ يَدَاه، ثم استظهر به على أعداء الله وعِداه، فوَفَّى النُّصـح لله وأدّاه، وأضمَـره وأبْداه، وتحلَّى بالبسالة والجَـلالة والطَّهارة، اللائقـة بمَنْصب الإمارة، فى رَوَاحه ومَغْـداه؛ حتَّىٰ اتفقت الأهواءُ علىٰ فضـله وعَفَافه، وكمال أوصافه وظهرتْ عليـه مَخايِلُ أسلافه. ثم رأىٰ الآن ــ سدّد الله رأيَه، وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه ــ أن يُوفِد ركائبَ الاعتقاد الجميل علىٰ جَنَابه، ويُفَسِّح مَيْدانَ الاستظهار بحُسْن مَنَابه، ويصِلَ أسبابَه بأسبابه؛ ويُضاعِفَ بولائه الصادقِ اهتمامه، ويُقيمَه فى قَوْد عسا كره لجهاد البَرِّ مقامه؛ فأضـفَىٰ ملابس وُدِّه عليه، وجعله فاتحَ أبوابِ الجنـة بفضل الله بينَ يدَيْه؛ وأجراه مُجْرىٰ عضُده الذى تصْدُق عنــه الضريبةُ فى المَجَـال، وسيفِه الذى يُفَرِّج به مضايِقَ الأهوال؛ ونَصَبه للقبائل الجهادية قِبْلة فى مناصحة اللهِ ومناصحةِ مَشْرُوعه، ورايةً سـعيدةً فى مظاهرة متْبُوعه؛ وعقد له الولايةَ الجهاديَّة التى لاتُعْدَل بولايه، ولا تُوازَنُ عنايةُ المعتمَد بها بعِنايه؛ يشهد بصَراحة نسبها الدين، وتتحلَّى بحِلَى غُرَّتها المَيَادين. فالجهاد فى سبيل اللهِ نِحْلةُ نبيِّ الأُمَّه، ومَنْ بعده من الأئمه؛ لاسيَّمَا فى هـذا القطر المتأكِّد فيه ذٰلك لأُولِى الدِّين والهِمَّه.

(١) لعله "مؤثرا له علىٰ ما كان يشغله عن جواره" تأمل.

فليتولَّ ذٰلك توَلّيَ مثله و إن قلَّ وجودُ مثله ، جاريًا علىٰ سَنَن مَجْده وفضله ، سائرا من رضا الله علىٰ أوْضَح سُبُله ، معتمدا عليه فى الأمر كلِّه .

ولْيَعْلَم أن الذى يخلق ما يشاء ويختار قد هَيَّأ له من أمره رشَدا ، وسلَك به طريقًا سَدَدا(١) ، واستعمله اليومَ فيما يُحْظِيه غدا ، وجعل حَظَّه الذى عوّضَه نُورًا وهُدى ، وأبعد له فى الصالحات مَدَى — ولينظرْ فيما لديه من القبائل الموفُوره ، والجموع المؤيَّدة المنصوره ؛ نظرًا يُزيح العِلل ، ويبلِّغ الأمل ، ويَرْعىٰ الهَمَل(٢) ، ويُحْسِن القول ويُنْجِح العمل ؛ مَنَبِّها علىٰ أهل الغَنَاء والاستحقاق ، مستدِرّا للعوائد والأرزاق ، معرِّفا بالغرباء الواردين من الآفاق ، مُطبقًا منهم للطباق ، متَغَمِّدًا للهَفَوات بحسن الأخلاق ، مستجيدًا للأسلحة والكُرَاع(٣) ، مبادِرًا هَيْعاتِ الصَّريخ بالإسْراع ، مسترعيا للشُورة التى يقَع الحكُمُ فيها عن حصول الإجماع ، رفيقا بمن ضَعُف عن طُول الباع ، محتاطًا علىٰ الإسلام فى مواقف الدِّفاع ، مُقْدِما عند اتّجاه الأطماع ، صابرًا فى المَضايق علىٰ القِرَاع ، متقدِّما للأبطال بالاصطناع ، مقابلا نصائحَ أُولى الخِبْرة بحُسْن الاستماع ، مستعْمِلا فى الحروب ما أجازه الشرعُ من وُجوه الخِدَاع ؛ حتّىٰ يكون عملُه وَفْقَ شُهْرته البعيدةِ المَطَار ، وسيرتُه فيما أُسْنِد إليه مَثَلًا فى الأقطار ، واستقامةُ التدبير علىٰ يديه ذريعةً إلىٰ إرغام أُنوف الكُفَّار ؛ بقوّة الله وحوله ، وعزّته وطَوْله .

وعلىٰ الغُزاة بالحضرة العليه ، وسائر البلاد النَّصْريه ؛ من بنى مَرِينٍ ، وسائر القبائل المجاهدين ، أن يعْرِفوا قدْرَه ، و يمتثلُوا فى مرضاتنا أمْرَه ؛ ويكونُوا معه رُوحا ويَدًا

(١) السدد القصد والاستقامة والسدد أيضا مقصور من السداد . انظر اللسان .

(٢) الهمل اسم جمع لهامل لأن فاعلا لا يكسر على فعل ونظيره رائح وروح . انظر اللسان .

(٣) الكراع كغراب جماعة الخيل . والهيعة الصوت تفزع منه وتخافه من عدو . انظر القاموس .

وجَسَدا، وساعدا وعضُدا؛ فبذٰلك يشملُه من الله ومن مَقَامنا الرضا والقَبُول، والعزُّ الموصـول؛ ويُمْضِى فى عدُوّ الله النُّصُول، ويتأتّى علىٰ خيرِ الدنيا والآخرةِ الحُصُول، إن شاء الله . ومَنْ وقف عليه، فليعرِفْ مالديه؛ بحول اللهِ تعالىٰ .

وهذه نسخة ظهير بالتّقْدِمة علىٰ الطبقة الأولىٰ من المجاهدين، لولد السلطان، وهى :

هذا ظهيرٌ كـريمٌ، فاتِحٌ بنشر الألوية والبُنُود، وقَوْد العساكر والجنود؛ وأجالَ فى مَيْدان الوجود، جِيادَ البأس والجُود؛ وأضْفىٰ سِتْرَ الحِمَاية والوقاية بالتّهائم والنُّجود، علىٰ الطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود ـ عقَد للمعتَمد به عَقْد التشريف والقـدر المُنيف زاكِىَ الشُّهود؛ وأوجب المنافَسةَ بين مجالِس السُّروج ومَضَاجع المُهُود، وبَشَّر السـيوفَ فى الغُمُود، وأنشأ رِيحَ النصر آمنـةً من الخُمُود ـ أمضىٰ أحكامه، وأنهد العزَّ أمامَه، وفَتَّح عن زهرِ السُّرور والحبور أكمامه، أميرُ المسلمين عبد الله محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبى الحجاج يوسف ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد فرج بن نصر ـ أيد الله أمره، وخلَّد ذكره ـ لكبير ولده، وسابق أمده، ورَيْحانة خَلَده، وياقوتة الملك علىٰ يده؛ الأميرِ الكبيرِ، الطاهرِ الظاهرِ، الأعلىٰ، واسطةِ السلك، وهلال سمـاء المُلْك، ومِصْباح الظُّلَمِ الحُلْك، ومَظِنَّةِ العناية الإلهيَّة من مدَبِّر الفَلَك ومُجْرِى الفُلْك؛ عُنْوانِ سـعدِه، وحُسامِ نصره وعَضُـده؛ وسَمِيِّ جدِّه، وسلالةِ فضله ومجده؛ السعيدِ، المظفَّرِ، الهُمَام، الأعلىٰ، الأمضىٰ، العالِم، العادل، العامل، الأرضىٰ، المجاهد، المؤمَّل، المعظم، أبى الحجاج يوسف ـ ألبسه الله من رضاه عنـه حُلَلا لا تُخْلِق جِدّتَهـا الأيام، ولا تبلغُ كُنْهَها الأفهام؛ وبلغه فى خدَمه المبـالغَ التى يُسَرُّ بها الإسلام، وتسبَح فى بِحَار صنائعها الأقلام، وحرس

معالِيَه الباهرةَ بعينه التى لا تنام، وكنَفَه برُكْنه الذى لا يُضام ـ فهو الفرع الذى جرىٰ بخَصْله علىٰ أصْله، وآرتسم نَصْرُه فى نَصْله، واشتمل جِدُّه علىٰ فضله، وشَهِدت ألْسُن خِلاله، برِفعة جَلاله، وظهرت دلائل سعادَته، فى بَدْء كل أمر وإعادته.

ولمَّا صرَف وجْهَه إلىٰ ترشيحه لأفتراع هِضاب المجْد البعيد المَدىٰ، وتوشيحه بالصَّبر والحِلْم والبأس والنَّدىٰ، وأرهفَ منه سيْفا من سيوف الله لضَرْب هام العِدَا، وأطلعه فى سماء المُلْك بدْرَ هدىٰ، لمن راح وغَدَا، وأخَذَه بالآداب التى تُقيم من النفوس أَوَدا، وتُبْذَر فى اليوم فتُجْنَى غدا، ورَقَّاه فى رُتَب المَعالى طَوْرا فطَوْرا، ترقِّىَ النبات ورَقًا ونَوْرا، ليجدَه بحول الله يدًا باطشةً علىٰ أعدائه، ولسانا مجيبا عند نِدَائه، وطرازًا علىٰ حُلَّة عَلْيائه، وغَمامًا من غمائم آلائه، وكوْكبًا وهَّاجا بسمائه. وعقد له لواءَ الجهاد علىٰ الكتيبة الأَنْدَلُسية من جُنْده، قَبْل أن ينتقل من مَهْده، وظَلَّله بجَنَاح رايته، وهو علىٰ كَتَد[(١)] دايته، واستركَبَ جيشَ الإسلام ترحيبًا بوِفادته، وتنويهًا بمَجَادته، وأثبتَ فى غَرَض الإمارة النصرية سَهْم سعادَته ـ رأىٰ أن يزيده من عنايته ضُروبا واجناسا، ويُتْبِع أثَرَه ناسًا فناسا، قد اختلَفُوا لسانا ولباسا، وآتفقُوا آبتغاءً لمرضاة الله وآلتماسا، ممَّن كَرُم آنتماؤُه، وآزَّينت بالحَسَب الغر[(٢)] سماؤُه، وعُرِف غَنَاؤه، وتأسَّس علىٰ المَجَادة بِناؤه، حتَّى لا يدع من العناية فنًّا إلا جلَبَه إليه، ولا مقادَةَ فخر إلا جعلها فى يدَيْه، ولا حُلَّةَ عز إلا أضفىٰ ملابسها عليه.

وكان جيشُ الإسلام فى هذه البلاد الأندَلُسية ـ أَمَّن الله خِلالَها، وسكَّن زِلْزالَها، وصَدَّق فى رحمة الله التى وسعت كل شىء آمالَها ـ كلَف هِمَّته، ومَرْعىٰ

(١) الكتد بفتح التاء وكسرها أعلى الكتف والداية الظئر، أنظر اللسان.

(٢) لعله الاغر وفى ريحانة الكتاب «الخالص».

أذِمَّته ، ومَيْـدَان جيـاده ، ومتعلَّق أمد جهاده ، ومِعْرَاج إرادته ، إلى تحصـيل سـعادته ، وسبيلَ خِلاله ، إلى بلُوغ كماله ، فلم يدَعْ له علَّة إلا أزاحها ، ولا طَلِبـةً إلا أجال قِداحَها ، ولا عزيمة إلا أَوْرى ٱقتداحها ، ولا رَغْبـة إلا فَسَّح ساحَها ، آخذا مُروءتَه بالتهـذيب ، ومَصَافَّه بالترتيب ، وآمالَهُ بالتقريب ، وتأنيس المُريب ، مستنجزًا له وبه وعدَ النصر العزيز والفتح القريب ، ورفع عنه لهـذا العهد نظرَ من حكَّم الأغراضَ في حُمَاته ، وٱستشعر عُروقَ الحَسَائف لشريف كُمَاته ، واشـتغل عن حُسْن الوَسَاطة لهم بمصلحة ذاته ، وجَلْب جُبَاته ، وتثمـير ماله وتوفير أقواته ، ذاهبًا أقصى مذاهبِ التعمير بأمَد حياته ، فٱنفرج الضِّيق ، وخَلَص إلى حسن نظره الطريق ، وساغَ الرِّيق ، ورضِي الفريق .

رأى ــ والله الكفيل بنُجْح رأيه ، وشُكْر سعيه ، وصلة حفظه ورعيه ــ أن يُحْمِـد لهم ٱختيارَه ، ويُحْسن لديهم آثارَه ، ويستنيبَ فيما بينه وبينَ سيُوف جهاده ، وأبطال جِلَاده ، وحُماةِ أحوازه ، وآلات ٱعتزازه ، مَنْ يجرى مَجْرى نفســه النفيسة في كل معنى ، ومن يكون له لفظُ الولاية وله ــ أيده الله ــ المعنى ، فقدَّمه على الجماعة الأُولى كُبرى الكتائب ، ومَقاد الجَنائب ، وأجَمَة الأبطال ، ومُزْنة الوَدْق الهَطَّال ، المشتملة من الغُزاة على مَشْـيخة آل يعقوبَ نُسَباء الملوك الكِرام ، وأعلام الإسـلام ، وسائر قبـائل بنى مَرِين ، لُيوثِ العَرِين ، وغيرهم من أصناف القبائل ، وأُولى الوسائل ، ليَحُوط جمـاعتَهم ، ويرفع بتفقُّده إضاعتَهم ، ويستخلصَ لله ولأبيه ــ أيده الله ــ طاعتَهم ، ويُشَرِّف بإمارته مواكِبَهم ، ويزيِّن بهلاله الناهض إلى الإبرار ، على فَلَك سـعادة الأقدار ، كَوَاكبهم ، تقديمًـا أشرق له وجه الدِّين الحنيف وتهلَّل ، وأحسَّ باقتراب ما أمَّل ، فللخَيْل ٱختيال ومِرَاح ، وللأَسَل السُّمْر ٱهتزازٌ وٱرتياح ، وللصُّدُور انشراح ، وللآمل مَغْدًى في فضل الله ومَرَاح .

فليتولَّ ذلك - أسعده الله - تَولِّىَ مثله ممن أُسرَّة الملك أسرَّتُه، وأُسْرة النبى صلى الله عليه وسلم أُسْرته، والمَلِكُ الكريم أصلٌ لفرعه، والنسبُ العربىُّ مَفْخر لِطيب[1] طبعه، آخذًا أشرافَهم بترفيع المجالس بنسبةِ أقدارِهم، مقرِّبا حُسْن اللقاء بإيثارهم، شاكرا غَنَاءهم، مستديما ثناءَهم، مستدرًّا لأرزاقِهم، موجبا للمزيَّة بحسب آستحقاقِهم، شافعا لديه فى رَغبَاتهم المؤمَّله، ووسائلهم المتحَمَّله، مسهلا الإذنَ لوُفُودهم المتلاحقه، مُنَفِّقا لبضائعهم النافقه، مُؤْنسا لغُرَبائهم، مستجليًا أحوالَ أهليهم وآبائهم، مميزا بيْنَ أغفالهم ونُبَهائهم.

وعلىٰ جماعتهم - رعىٰ الله جِهادهم، ووَفَّر أعدادهم - أن يطيعُوه فى طاعة الله وطاعةِ أبيه، ويكونوا يدًا واحدةً علىٰ دِفَاع أعادى الله وأعاديه، ويَشُدّوا فى المواقف الكريهة أَزْرَه، ويمتثلوا نَهْيَه وأمره، حتّٰى يعظُمَ الآنتفاع، ويُثْمِر الدِّفاع، ويخلُصَ القَصْدُ لله والمُطَاع، فلو وجد - أيده الله - غايةً فى تشريفهم لَبَلَّغها، أو مَوْهبةً لسوَّغها، لكن مابعدَ ولده العزيز عليه مَذْهَب، ولا وراء مباشرتِهم بنفسه مَرْغَب، والله مُنْجِح الأعمال، ومبلِّغ الآمال، والكفيل بسعادة المآل.

فَمَن وقَف علىٰ هذا الظَّهِير الكريم فلْيعلَمْ مقدارَ ما تضمَّنه من أمرٍ مُطاع، وفخر مستنِد إلىٰ إجماع، ووجوبِ آتِّباع، وليكن خيرَ مَرْعِىٍّ لخير راع، بحول الله.

وأقطعه - أيده الله - ليكونَ بعضَ المَدَد لأزواد سَفْره، وسِمَاط قَفْره، فى جملة ما أَوْلاه من نعمه، وسوّغَه من مَوادّ كرمه - جميعَ القرية المنسوبة إلىٰ عَرَب غَسَّان: وهى المَحَلة الأثيره، والمنزلةُ الشهيره، تنطلق عليها أيدى خُدَّامه ورجاله،

(١) فى الريحانة «منجد لطيب» الخ.

جاريةً مَجْرىٰ صالح ماله ، محــرّرةً من كل وظِيف لآستغلاله ، إن شاء الله فهو المستعانُ سبحانَه ، وكتب فى كذا .

وهذه نسخةُ ظَهِير لمشيخة الغُزاة بمدينة مالَقةَ ، وهو :

هــذا ظهيرٌ كريمٌ أطلع الرِّضا والقَبُولَ صَــباحا ، وأنشأ للعناية فى جَوّ الوجود ، من بعد الرُّكود ، رِيَاحا ، وأوسع العيونَ قُرّةً [وإبصارا][1] والصُّدورَ آنشراحا ، وهيّأ للعتَمِد به مَغْدًى فى السعادة ومَرَاحا ، وهزَّ منه سـيْفا عتيقًا يفوق اختيارا ويروقُ آلتمــاحا ، وولّاه رياســةَ الجهاد فى القطر الذى تقدّمتِ الولايةُ فيــه لسَلَفه فنــال عزًّا شهيرا وآزداد فخرا صُرَاحا ، وكان [له][1] ذٰلك إلىٰ أبواب السعادة مِفْتاحا .

أمَرَ به وأمضاه ، وأوجب العملَ بحَسَبِه ومقتضاه ، الأميرُ عبدُالله محمد آبن مولانا أمير المسلمين ، والمجاهِد فى سبيل رب العــالمين ، أبى الحجّاج [يوسف][1] آبن مولانا أمير المســلمين ، أبى الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر - أيد الله أمره وأعز نصرَه ، وأسعد زمانه وعصره - لوليه فى الله الذى كَسَاه مولاه من جميل آعتقاده حُلَلا ، وأورده من عَذْب رضــاه مَنْهلا ، وعرَّفه عوارفَ قَبوله مفَصَّلا خطابُها ومجمَــلا ، الشيخ أبى العلا ، إدريس ، آبن الشيخ أبى سعيد عثمان ، بن أبى العلا وصل الله أسباب سعادته ، وحرس عَلِيَّ[2] مجَادته ، وأجراه من ترفيع المكانة لديه علىٰ [أحمد عادة سلَفِه][1] وعادته .

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

(٢) فى ريحانة الكتّاب «أكناف» .

ولمّا كان له القَدْر الجليل، والمجدُ الأثيل، والذكرُ الجميل، والفضائلُ التى كَرُم منها الإجمال والتفصيل، وأحرزَ قصبَ السَّبْق بذاته وسلَفه إذا ذُكر المجدُ العريض الطويل، وكان قد أعملَ الرِّحْلة إليه يَحْدوه إلىٰ خدمته التأميل، ويَهوى به الحُبُّ الذى وَضَح منه السبيل، وعاق عنه الواقعُ الذى تبيَّن فيه عُذْرُه الجميل، ثم خلَّصه الله من مَلَكَة الكفر الخلاصَ الذى قام به علىٰ عنايته الدليل — قابله بالقَبُول والإقبال، وفَسَّح له مَيدانَ الرضا رَحْبَ المَجال، وصرَف إليه وجهَ الاعتداد بمضائه رائقَ الجمال، سافرًا عن بلوغ الآمال، وآواه من خدمته إلىٰ رَبْوة متَّسعة الأرجاء وارفة الظِّلال، وقطَع عنه الأطماعَ بمقتضىٰ همته البعيدةِ المَنَال. ثم رأى — والله يُنْجِح رأيه، ويشكر فى سبيل الله عن الجهاد سعْيَه — أن يستظهرَ بمَضائه، ويرسل عليه عَوارِفَ آلائه، ويَعْمُر به رُتَبَ آبائه. فقدّمه — أعلى الله قدَمه، وشكر [آلاءه](1) ونِعَمه — شيخَ الغُزاة والمجاهدين، وكبيرَ أُولى الدِّفاع عن الدين، بمدينة (مالَقَة) حَرَسها الله أختِ حضرة [دار](1) ملكه، وثانيةِ الدُّرّة الثمينة من سِلْكه، ودارِ سلَفه وقَرارة مَجْده، والأفقِ الذى تألَّق منه نُور سعده، راجعًا إليه نظرَ القواعد الغربية رُنْدَةَ وركوان (؟) وما إليه رجوعُ الاستغلال والاستيراد، والعزِّ الفسيحِ المَجال البعيدِ الآماد، يقودُ جميعَها إلىٰ الجهاد، عاملًا علىٰ شاكلة مَجْده فى الإصْدار والإيراد، حتّى يظهر علىٰ تلك الجهاتِ المباركة آثارُ الحِماية والبَسَاله، ويعودَ لها عهدُ المَجادَة والجَلاله، وتتزيَّنَ مَلَابسَ الإياله. وهو يعمل فى ذٰلك الأعمالَ التى تليق بالمَجْد الكريم، والحَسَب الصميم، حتّى ينمُوَ عددُ الحُماه، ويكُفَّ البأسَ أكُفَّ الغُزاة ويعظُم أثرُ الأبطال الكُماه، وتظهر ثمرة الاختيار، ويشمل الأمنُ جميعَ الأقطار، وتنحسمَ عنه أطماعُ الكفّار.

(١) الزيادة من "الريحانة".

وعلى من يقف عليه من الفُرْسان ـ وفّر الله أعدادهم، وأعزّ جهادهم ـ أن يكونوا ممتثلين فى الجهاد لأمره، عارفين بقَدْره، مُمْضِين فيما ذُكِر لحكمه، واقفين عند حدّه ورسمه. وعلى مَنْ سواهم من الرعايا والخُدّام، والوُلاة والحُكّام، أن يعرفوا قدرَ هذا الاعتناء الواضح الأحكام، والبرّ المشرِق القَسَام، فيُعاملوه بمقتضى الإجلال والإكرام، والترفيع والإعظام. على هذا يُعتمَد، وبحَسَبه يعمل، بحول الله وقوّته.

الضرب الثانى

(من ظهائر بلاد المغرب ما يُكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقلام)

وهذه نسخةُ ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة، وهو:

هذا ظهيرٌ كريم أنتج مطلوبَ الاختيار قياسُه، ودلّ على ما يُرضى الله عز وجل التماسُه، وأطلع نورَ العناية يجلو الظلامَ نِبْراسُه، واعتَمَد بمثابة العَدْل من عُرِف بافتراع هَضْبتها باسُه، وألقى بيد المعتَمد به زِمامَ الاعتقاد الجميل تَرُوق أنواعُه وأجناسُه، وشيّد مَبْنى العز الرفيع فى قُنّة الحَسَب المنيع وكيف لا والله بانيه والمجدُ أساسُه.

أمر به، وأمضى العملَ بمقتضاه وحَسَبه، أمير المسلمين أبو الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبى الوليد بن نصر ـ أيد الله أمره، وخلد فخره ـ لقاضى حضرته العليه، وخطيبِ حَمْرائه السنيَّه، المخصوص لديه بترفيع المزيَّه، المصروف إليه خطابُ القضاة بإيالته النَّصريه، قاضى الجماعه، ومصرّف الأحكام الشرعية المُطاعه، الشيخ أبى الحسن ابن الشيخ أبى محمد بن الحسن وصل الله سعادتَه،

وحَرس مَجادَته، وسنَّى من فضـله إرادتَه . عَصَّب منه جبينَ المجد بتـاج الولايه، وأجال قِداحَ الآختيار حتّى بلغ الغـايةَ وتجاوَزَ النهايه، فألقى منه بيمين عَرَابةَ الرايه، وأحلَّه منه مَحلَّ اللفظ من المعنى والإعجاز من الآيه، وحَشَر إلى مراعاة ترفيعه وجُوهَ البِرِّ وأعيانَ العنايه، وأنطق بتبجيله، ألْسُنَ أهل جِيله، بينَ الإفصاح والكِنايه .

ولـما كان له الحَسَب الذى شهِدتْ به وَرَقات الدَّواوين، والأصالةُ التى قامتْ عليها صِحـاحُ البراهين، والآباءُ الذين آعتزَّ بمضاء قُضاتهـم الدِّين، وطَبَّق[1] مَفاصِـلَ الحكم بسيوفهم الحقُّ المبين، وآزدان بمجالسة وُزَرائهم السلاطين : فمِن فارس حُكْم أو حكِيم تدبير، أو قاضٍ فى الأمور الشرعية ووَزير، أو جامعٍ بينهـما جمعَ سلامةٍ لاجمعَ تكسير؛ تَعـدّدَ ذلك وآطَّرد، ووجد مَشْرَع المجـد عَذْبا فَوَرد، وقَصَّرت النظراءُ عن مَدَاه فآنفرد، وفَرى الفرى فى يد الشَّرْع فأشبَه السـيفَ الفرنْد؛ وجاء فى أعقابهم مُحْيِيا لمـا دَرَس، بمـا حقَّق ودَرَس، جانيًا لمـا بَذَر السلفُ المبـاركُ وآغترس؛ طاهِرَ النَّشْأة وَقُورَها، محمودَ السَّـجِيَّة مَشْكُورَها؛ متحلِّيـا بالسَّكينه، حالًّا من النَّزاهـة بالمكانة المَكِينه؛ ساحبًـا أذيالَ الصَّون، بعيـدًا عن الآتصاف بالفساد من لَدُن الكَوْن، فخطبَتْـه الخُطَط العليَّـه، وآغتبطَتْ به المَجَادةُ الأوَّليَّه؛ وآستعملتْه دولتُـه التى ترتاد أهـلَ الفضائل للرُّتَب، وتستظهر على المناصب بأبناء التُّقَى والحَسَب، والفضـلِ والمجدِ والأدَب، ممن يجمعُ بين الطارف والتالد والإرث والمكتَسَب؛ فكان معدُودا من عُدُول قُضاتها وصدُور نُبَهائها، وأعيان وُزرائها، وأولى آرائهـا .

فلمَّا زانـ الله خلافتـه بالتمحيص، المتجَلِّى عن التخصيص، وخَلَصَ مُلْكه الأصـيل كالذهب الإبريز من بعـد التخليص، كان ممن صَحِب ركابَه الطالبَ للحق

(١) يقال طبَّق السيف اذا أصاب المَفصِل فأبان العضو . انظر اللسان .

بسَيْف الحق ، وسلك فى مظاهرته أوْضح الطُّرُق ، وجادل مَنْ حادّه بأمضىٰ من الحِداد الذُّلُق ، وآشتهر خبرُ وَفَائه بالغرب والشَّرْق ، وصلّىٰ به صلاة السفَر والحضَر ، والأَمْن والحـذَر ، وخطب به فى الأماكن التى بَعُـد بذكر الله عهْـدُها ، وخاطب عنه ـ أيده الله ـ المخاطَبَاتِ التى حُمِد قصدُها ، حتّىٰ آسـتقلَّ مُلْكُه فوق سريره ، وآبتهج منه الإسـلام بأميرِه وآبنِ أميره ، ونزل السِّـتر علىٰ العبادِ والبلاد ببركة إيالتِه ويُمْن تدبيره ، وكان الجليسَ المقرَّب المحـل ، والحَظِىَّ المشاوَرَ فى العَقْد والحَـل ، والرسولَ المؤتَمَن علىٰ الأسرار ، والأمينَ علىٰ الوظـائف الكِبار ، مزيِّنَ المجلس السلطانىِّ بالوَقَار ، ومتحِفَ المَلِك بغريب الأخبار ، وخطيبَ منبره العالى فى الجُمُعات ، وقارئَ الحديث لَدَيْه فى المجتمَعَات .

ثم رأىٰ ـ أيده الله ـ أن يُشْرِك رعيتَـه فى نَفْعه ، ويَصرِف عواملَ الحُظْوة إلىٰ مزيد رفعه ، ويُجْلسه مجلِسَ الشارع صلواتُ الله وسلامه عليه لإيضاح شِرْعه ، وأصله الوثيقِ وفرعه ، وقدَّمه ـ أعلىٰ الله قدمه ، وشكر آلاءه ونِعَمه ـ قاضياً فى الأمور الشرعيه ، وفاصـلا فى القضايا الدينيَّه ، بحضرة غَرْناطة [العلية] حرسها الله تقـديمَ الآختيار والآنتقاء ، وأبقىٰ له فخرَ السَّلَف علىٰ الخَلَف والله يمتِّعه بطول البقاء .

فليتولَّ ذلك عادلا فى الحُكْم ، مُهتَدِياً بنور العِـلم ، مسوِّياً بين الخصوم حتَّى فى لحظه وآلتفاته ، متصفًا من الحلم بأفضل صِفاته ، مهيباً بالدِّين ، رءُوفاً بالمؤمنين ، مسَـجِّلا للحقوق ، غير مُبـالٍ فى رضا الخالق بسُخْط المخلوق ، جَزْلا فى الأحكام ، مجتهدا فى الفصْـل بأمضىٰ حُسَام ، مراقبـاً لله عزَّ وجلَّ فى النَّقْض والإبرام ، بارًّا بمَشْيخة أهل التوثيق ، عادلًا إلىٰ سَعَة الأقوال عنـد المَضـيق ، سائرًا من مشهور المذهب علىٰ أهـدَىٰ طريق ـ وأوصاه بالمَشُورة التى تقْـدَح زِنادَ التوفيق ، والتثبت

حتّى ينْبلج قياسُ التحقيق؛ وصيّةً أصدرها له مَصْدَرَ الذّكرىٰ التى تنفع، ويُعْلِى الله بها الدرَجاتِ ويرفَع، وإلا فهو عن الوَصاة غَنِىّ، وقصدُه قصدٌ سَنِىّ؛ والله عز وجل ولىُّ إعانته، والكفيلُ بحِفْظه من الشُّبُهات وصِيَانته.

[وأمره ـ أيده الله ـ أن ينظُر فى الأحباس علىٰ ٱختلافها، والأوقاف علىٰ شتّى أصنافها] (١) واليتامىٰ التى ٱنسدلتْ كَفالةُ القُضاة علىٰ ضِعافِها. فيذُودُ عنها طوارقَ الخَلَل، ويُجْرِى أمورَها بما يتكفَّل لها بالأَمَل.

ولْيعلَمْ أن الله عز وجل يَراه، وأن فَلَتاتِ الحكم تُعاوِدُه المراجعةَ فى أُخْراه، فيدَّرِع جُنَّة تقواه، فسبحان من يقول: ﴿ إنَّ ٱلْهُدىٰ هُدَىٰ ٱللَّهِ ﴾.

فعلىٰ مَنْ يقِف عليه أن يعرف حقَّ هذا الإجلال، صائنًا منصبَه عن الإخلال، مبادِرًا أمرَه الواجبَ بالٱمتثال؛ بحول الله.

وكتب فى الثالث من شهر الله المحرَّم فاتِح عامِ أربعةٍ وستين وسبعمائة، عَرَّف الله فيه هذا المَقامَ العلىَّ عوارفَ النصر المبين والفتح القريب، بمَنّه وكرمه، فهو المستعان لا رب غيره.

وهذه نسخة ظهير بقضاء الجماعة بالحضرة أيضا، وهو:

هذا ظهيرٌ كريمٌ أعلىٰ رتبةَ الٱحتفاء [والٱحتفال] (١) ٱختيارا وٱختبارا، وأظهرَ معانِىَ الكرامة والتخصيص انتقاءً وٱصطفاءً وإيثارا، ورفع لواءَ الجَلَالة علىٰ مَنِ ٱشتمل عليها حقيقةً وٱعتبارا، ورقَّىٰ فى درجات العز من طاولَها علاءً بهر أنوارا، ودِيناً كَرُم فى الصالحاتِ آثارًا وزكَا فى الأَصالة نِجَارا، وخُلُوصا إلىٰ هذا المَقام العلىِّ السعيد

(١) الزيادة عن ريحانة الكتّاب، ونفح الطيب ص٧٣ ج ٣.

راق إظهاراً و إضمارا . أمَر به وأمْضاه ، وأنفذ العمل بحكمه ومقْتضاه ، فلان للشيخ القاضى ، العَدْل ، الأرْضَى ، قاضى الجماعة وخطيب الحضرة العليه ، المخصوص لدىٰ المقـام العلىّ بالحُظْوة السنيَّة والمكانة الحَفيّـه ؛ الفاضلِ ، الحافلِ ، الكامل ، الموَقَّر ، المبْرُور أبى الحسن ٱبن الشيخ الفقيه ، الوزير ، الأجل ، الأعزِّ ، المـاجدِ ، الأسنىٰ ، المرَفَّع ، الأحْفَل ، الأصلَح ، المبارَك ، الأكمل ، الموَقَّر ، المبرور ، المرحوم أبى محمد بن الحسن ـ وصـلَ الله عزَّته ، ووالىٰ رفعتَه ومبَرَّته ، ووهب له من صلة العناية الربَّانية أملَه وبُغْيته ـ لَمَّـا أصبح فى صُدور القُضاة العلماء مُشارا إلىٰ جلَاله ، مستَنَدا إلىٰ معارفه المخصوصة بكماله ، مطرِّزا علىٰ الإفادة العلمية والأدبيَّة بمحاسـنه البديعـةِ وخِصاله ، محفوفاً مقعدُ الحكم النبوىّ ببركة عَدالته وفضلِ جلَاله ؛ وحلَّ فى هذه الحضرة العلية المحلَّ الذى لا يرقاه إلَّا عيْنُ الأعيان ، ولا يتبوّء مهادَه إلا مثلُه من أبناء المَجْد الثابتِ الأركان ، ومَوالى العلم الواضح البرهان ، والمبرّزين بالمآثر العليّة فى الحُسْن والإحسان . وتصـدّرَ لقضاء الجمـاعة فصدَرت عنـه الأحكام الراجحةُ الميزان ، والأنظارُ الحسنَةُ الأثَرِ والعيَان ، والمقاصدُ التى وفَتْ بالغاية التى لا تُستطاعُ فى هذا المَيْدان ؛ فكم من قضيَّة جَلَا بمعـارفه مشكِلَها ، ونازلةٍ مبْهَمة فتح بإدراكه مُقْفَلها ، ومسألة مُهْمَلة عرَّف نـكِرَتَها وقرّر مهمَلَها ؛ حتّى قرّتْ بعدالتـه وجَزَالته العُيون ، وصدَقت فيه الآمال النـاجحةُ والظُّنون ، وكان فى تصـديره لهذه الولايةِ العُظْمىٰ من الخَـيْر والخِيرة ماعسىٰ أن يكون ـ كان أحقَّ بالتشفيع لولاياته وأَوْلىٰ ، وأجدرَ بمضاعفة النِّعم التى لا تزال تترادَف علىٰ قَدْره الأعلىٰ .

فلذلك أصدر له ـ أيده الله ـ هذا الظهيرَ الكريمَ مشيراً بالترفيع والتنويه ، ومؤكِّدا للاحتفاء الوجيه ؛ وقدّمه ـ أعلىٰ الله قَدَمه ، وشكر نِعَمه ـ خطيبـاً بالجامع الأعظم

[من حضرته](١) ـ عَمَرَه الله بذكره ـ من عِلْية الخطباء، وكِبار العلماء، وخِيار الفقهاء الصُّلَحاء؛ فليتولَّ ذٰلك فى جُمُعَاته، مظهرا فى الخُطْبة أثَرَ بركته وحسناته، عاملًا علىٰ مايقرّبُه عند الله من مرضاته، ويُظفِرُه بجزيل مَثُوباته؛ بحول الله وقوّته .

الضـــرب الثـالث

(ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية)

وهذه نسخة ظهير بالقلم الأعلىٰ المعبَّر عنه فى بلادنا بكِتَابة السر؛ وهى :

هذا ظهير كريم نصب للمعتَمد به الإنافة الكبرىٰ(٢) ببابه فرَفَعه، وأفردَ له متْلُوَّ العز جمعَه ووتْره وشفعه، وقرّبه فى بِساط المُلْك تقريبا [أرْغَمَ به أنفَ عِداه ووضعه](٣)، وفتح له بابَ السعادة وشَرَعه، وأعطاه لواءَ القلم الأعلىٰ فوجب علىٰ مَنْ دونَ رتبته، من أُولى صنعته، أن يتَّبعه؛ ورَعىٰ له وسيلتَه السابقةَ عند آستخلاص المُلْك لَمَّا آبتَزّه الله من يَدِ الغاصب وآنتزعه، وحَسْبُك من ذِمَام لايحتاج إلىٰ شىءٍ معه .

أمر به الأميرُ فلان لفلان ـ وصل اللهُ سعادتَه، وحَرَس مَجادَته ـ أطْلع له وجْهَ العناية أبهىٰ من الصبح الوَسيم، وأقطعه جَنَاب الإنعام الجَميم، وأنْشَقه أرَجَ الحُظْوة عاطِرَ النسـيم، ونَقَـله من كُرْسيّ التـدريس والتعليم، إلىٰ مَرْقىٰ التَّنْويه والتكريم، والرتبـة الَّتى لا يُلَقَّاها إلا ذُو حظٍّ عظيم؛ وجعل أقلامه جِيادًا لإجالة أمره العلىّ، وخِطابِه السنىّ، فى مَيَادين الأقاليم؛ ووضع فى يده أمانَةَ القـلَم الأعْلىٰ، جاريًا من

(١) الزيادة من "ريحانة الكتّاب" .

(٢) فى الريحانة «نصب المعتمد به للأمانة» الخ وهو أنسب بالمقام .

(٣) من "ريحانة الكتّاب" .

الطريقة المُثلىٰ، علىٰ النَّهْج القويم، وآختصه بمزِيَّة الشُّفوف علىٰ كُتَّاب بابه الكريم . لَمَّا كان ناهضَ الوَكْر فى طلبة حضرتِهِ من البِدايه ، ولم يزل تظهَر عليه لأُولى آلتميز مَخايِلُ هذه آلعِنايه : فإن حضَر حِلَق العلم جَلَّى فى حَلْبة الحُفَّاظ إلىٰ الغايه، وإن نَظَم أو نَثر أتىٰ بالقصائد المصقوله ، والمخاطَبات المنقُوله ؛ فاشتهر فى بلدِه وغيرِ بلدِه ، وصارت أزِمَّة العناية طَوْعَ يده ، بما أوجب له المزِيَّةَ فى يومِه وغَدِه .

وحينَ ردّ اللهُ عليه مُلْكَه الذى جَبَر به جَناحَ الإسلام ، وزيَّن وُجُوهَ الليالى والأيَّام ، وأدال الضِّياءَ من الظلام ؛ وكان ممَّن وَسَمه الوفاءُ وشَهَره ، وعَجَم الملكُ عُودَ خُلُوصه وخَبَره ؛ فحمِد أثَرَه ، وشكر ظاهرَه ومضمَرَه ؛ وآستصحب علىٰ رِكابه الذى صحبَ اليمنُ سَفَره ، وأخلصت الحقيقةُ نَفَره ، وكَفَل الله وِرْدَه وصَدَره ؛ ميمونَ النَّقيبه ، حَسَنَ الضَّريبه ؛ خالصًا فى الأحوال المُريبه ، ناطقًا عن مقامه بالمخاطَبات العجيبه ؛ واصلًا إلىٰ المَعانى البعيدةِ بالعبارات القريبه ، مبرِّزا بالخِدَم الغريبه ، حتَّى آستقام العِماد ، ونطق بصِدْق الطاعة الحىُّ والجَماد ، ودخلتْ فى دين الله أفواجا العبادُ والبِلاد ، لله الحمدُ علىٰ نِعَمه الثَّرَّة العِهَاد ، وآلائِه المتواليةِ التَّرداد - رعىٰ له - أيَّده الله - هذه الوسائل وهو أحقُّ مَنْ يَرْعاها ، وشكر له الخِدَم المشكورَ مَسْعاها ؛ فقصر عليه الرُّتبةَ الشَّمَّاء التى خَطَبها بوَفَائه ، وألبسه أثوابَ آعتنائه ، وفَسَّح له مَجالَ آلائه ؛ وقدّمه - أعلىٰ الله قدَمَه ، وشكر نعمَه - كاتبَ السِّرِّ ، وأميرَ النهى والأمْر ؛ تقديمَ الآختبار ، والآغتباط بخدمته الحسنة الآثار ، والتيمُّن باستخْدامه قبلَ الحُلول بدار المُلْك والآستقرار ، وغيرِ ذٰلك من مُوجِبات الإيثار .

فليتولَّ ذٰلك عارفًا بمقداره ، مقتَفِيًا لآثاره ، مستعينًا بالكَتْم لأسراره ، والآضْطِلاع بعظام أُموره وكِباره ، متَّصِفا بما يَجْمُل من أمانته وعَفَافه ووَقَاره ، معطِيًا هذا الرسم

حقَّه من الرِّياسه، عارفًا بأنه أكبرُ أركانِ السِّياسه؛ حتّى يتأكَّدَ الاغتباطُ بتقريبه وإدنائه، وتتوفَّرَ أسبابُ الزِّيادة فى إعلائه؛ وهو - إن شاء الله - غنىٌّ عن الوَصاة فَهْمًا ثاقبا، وأدبًا لعُيون الكمال مُراقِبا؛ فهو يعمَلُ فى ذلك أقصَى العمَل، المتكفِّل ببلوغ الأَمَل .

وعلى مَنْ يقِف عليه : من حَمَلة الأقلام، والكُتَّاب الأعلام، وغيرهم من الكافَّة والخُدَّام، أن يعرِفُوا قدرَ هذه العناية الواضحةِ الأحكام؛ والتقديم الراسخ الأقدام، ويوجبُوا ما أوجب من البِرِّ والإكرام، والإجلال والإعظام؛ بحول الله وقُوَّته، وكتب فى كذا .

الطـــــرف الثـالث

(فى مصطَلَح كُتَّاب الديار المصرية فيما قَبْل الخلفاء الفاطميين وفيما بعدهم إلى زماننا)

وفيه أربعُ حالات :

الحـالة الأولى — ما كان عليه أمر نُوّاب الخُلَفاء بهـذه المملكة إلى ابتـداء الدولة الطُّولونيَّة .

ولم يكن لديوان الإنشاء بالديار المصرية فى هذه المُدّة صَرْف عناية، تقاصُرًا عن التشبُّه بديوان الخلافة، إذ كانت الخلافةُ يومئـذ فى غاية العِزّ ورِفْعة السلطان؛ ونيابةُ مصرَ بل سائرُ النيابات مضمَحِلّةٌ فى جانبها، والولاياتُ الصادرةُ عن النوّاب فى نياباتهم متصاغرةً متضائلةً بالنسبة إلى مايصْدُر من أبواب الخلافة من الولايات، فلذلك لم يقَعْ ممـا كتب منها ماتتوفَّر الدواعى على نقـله ولاتنصرف الهِمَم لتدوينـه مع تطاوُل الأيام وتوَالِى اللَّيالى .

الحـالة الثانية — ما كان عليـه أمرُ الدولة الطُّولونيَّة من حين قيـام دولتهم إلىٰ ٱنقراض الدولة الأخْشيديَّة .

وقد تقدّم أن أحمدَ بنَ طُولون أوّلُ من أخذ فى ترتيب المُلك و إقامة شِـعار السلطنة بالديار المِصْرية . ولما شَمَخ سلطانُه ، وٱرتفع بها شانُه ، أخذ فى ترتيب دِيوان الإنشاء لمـا يَحتاج إليـه فى المكاتبَات والولايات ، فاستكتبَ ٱبنَ عبد كان ، فأقامَ مَنار ديوان الإنشاء ورَفَعَ مِقْداره ؛ وكان يفتَتِح ما يكتُبه عنـه فى الولايات بلفظ « إنَّ أوْلىٰ كذا » أو « إن أحقَّ كذا » وما أشبه ذٰلك .

وهـذه نسخة عهد كَتَب به ٱبنُ عبدكان عن أحمدَ بنِ طُولون بقضاء بَرْقَة تُرشِد إلىٰ ما عداها من ذٰلك وهى :

إنَّ أحَقَّ مَنْ آثَرَ الحقَّ وعمِـل به ، وراقبَ اللهَ فى سِرِّ أمره وجَهْره ، وٱحترس من الزَّيغ والزَّلَل فى قوله وفعله ، وعمِـل لمَعَاده ورجْعتِـه ، إلىٰ دار فاقَتِـه وفَقْره ومسكنته ، مَنْ جُعِل بين المسلمين حاكما ، وفى أمورهم ناظرا : [فأراق](1) الدماءَ وحَقَنها ، وأحَلَّ الفروجَ وحَرَّمها ، وأعطى الحُقوقَ وأخَذَها ؛ ومَنْ علم أنَّ الله تبارك وتعـالىٰ سائلُه عن مِثْقال الذَّرَّة من عمله ، وأنه إنمـا يتقلَّب فى قَبْضته ، أيام مُدّته ، ثم يخرج من دُنياه كخروجه من بطن أُمِّه ، إما سعيدًا بعَمَله و إما شقيًّا بسعيِه .

و إنَّا لمَـا وَقَفْنا عليه من سَديد مذْهَبك وقويم طَريقتك ، وجميل هَدْيك وحُسْن سِيرتك ، ورجَوْناه فيك ، وقرّرناه عندك : من سُلُوك الطريقة المُثلىٰ ، وٱقتفاء آثار أئمة الهُدىٰ ، والعملِ بالحق لا بالهَوىٰ — رأينا تقليدَك القضاءَ بينَ أهل ثَغْر بَرْقَةَ ، وأمرناك بتقوىٰ الله الذى لا يُعجِزُه من طَلَب ، ولا يفُوته من هَرَب — و بطاعته التى مَنْ آثَرَها

(1) بياض فى الاصل والتصحيح من المقام .

سعد، ومن عمل بها حُمِد، ومن لزمها نجا، ومن فارقها هوىٰ ـ وأن تُواصل الجلوسَ لمن بحَضْرتك من الخُصوم : صابرا بنفْسك علىٰ تنازُعهم فى الحقوق، وتدافُعِهم فى الأمور، غيرَ برِمٍ بالمراجَعات ، ولا ضَجِر بالمُحاكمات : فإنَّ من حاوَلَ إصابةَ فصلِ القضاء ، وموافقةَ حقيقةِ الحكم بغير مادَّة من حِلْم ، ولا معونةٍ من صبرٍ ، ولا سُهْمة من كَظْم ، لم يكُن خليقًا بالظَّفر بهما ، ولا حقيقًا بالدَّرْك لهما ـ وأن تَقْسِم بينَ الخَصْمين إذا تقدّما إليك ، وجلَسا بينَ يديْك ، فى لَحْظك ولَفْظك ، وتُوَفِّيَ كلَّ واحد منهما قِسْمه من إنصافك وعَدْلك ، حتّى ييْأس القوىُّ من مَيْلك ، ويأمَنَ الضعيفُ من حَيْفك : فإنَّ فى إقبالك بنَظَرك وإصغائك بسمعك إلىٰ أحد الخصمين دُونَ صاحبِه ما أضلَّ الآخَرعن حُجَّته ، وأدخل الحَيرَةَ علىٰ فكره ورَوِيَّته ـ وأن تُحضر مجلسَ قضائك من يُستظْهَر برأيه ، ومَنْ يَرْجِع إلىٰ دينٍ وحِجًا وتُقَى : فإن أصبْتَ أيَّدك ، وإن نَسيت ذَكَّرك ـ وأن تقتدىَ فى كلِّ ما تُعْمل فيه رَوِيَّتك ، وتُمضى عليه حكْمَك وقضيَّتك ، بكتاب الله الذى جعله صِراطا مستقيما ، ونُورا مستبينا ، فشَرعَ فيه أحكامَه ، وبيَّن حلالَه وحرامَه ، وأوضح به مشكلاتِ الأُمور ، فهو شفاءٌ لما فى الصُّدور . وما لم يكن فى كتاب الله جل وعز نصُّه فإنَّ فيما يُؤْثَرعن النبىّ صلى الله عليه وسلم حُكْمَه ، وما لم يكن فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ٱقتفيْتَ فيه سبيلَ السَّلَف الصالح من أئمة الهُدىٰ رضى الله عنهم الذين لم يألُوا الناس ٱختبارا ، ولا ٱدَّخَروهم نصيحةً وٱجتهادا ، عالما أنك أسعدُ بالعدل ممن تَعْدِل عليه ، وأحظَىٰ بإصابة الحق ممن تُصيبه فيه : لما تتعجَّلُه من جميل أُحدوثته وذِكْره ، ويُدَّخَر لك من عظيم ثوابِه وأجره ، ويُصْرَف عنك من حُوب ما تتقلَّده ووِزْره ـ وأن يكون الذين تحكم بشهادتهم [من] أهلِ الثِّقة فى أديانهم ، والمعروفينَ بالأمانة فى مُعامَلاتهم ، والموسُومين بالصدق فى مَقالاتهم ، والمشهورِين

بالتقدّم فى عَدَالاتهم : فإنك جاعلُهم بينَ الله و بينَك فى [كل] كلامٍ تُصْدِره ، وحكم تُبْرِمه ؛ وحقيقٌ بأن لا ترضَىٰ لنفسك منهم إلا بمـا يُرضىٰ منك ، وتَعلَمُ أن ذلك هو الصدقُ ، وأنك قد أبليتَ عُذرَك فى تخَيُّرهم ، فإنه بعلم أن ذلك هو الصِّدقُ من نِيَّتك ، والصِّحة من يقينك ، تحسُن عليه معونَتُك ، و يحضُرك التوفيقُ فى جميع أقضيتك ـ وأن يكونَ من تستعينُ به علىٰ المسألة عن أحوال هؤلاء الشهودِ ومذاهِبِهـم ، وما يُعرَفون به و ينسَبُون إليه فى رحالهم ومَسا كِنهم أهلَ الوَرَع والأمانه ، والصِّدق والصيانه ـ وأن تجدِّد المسألة عنهم فى كل مرّة ، وتفحَص عن خبرَهم فى كل قضيه ؛ ثم لا يمنَعُك وُقوفُك علىٰ سُقُوط عَدالةِ من تقـدْمتَ بتعديله من آستقبال الواجبِ فى مثله ، وآستعمال الحقِّ فى أمْره ـ وأن تُشرف علىٰ أعوانك وأصحابك ، ومن تجرى أمورُك علىٰ يديه من خلفائك وأسبابك ؛ إشرافا يمنَعُهم من الظلم للرعيَّـه ، و يقبضُ أيديَهم عن المآكل الرَّديّه ؛ ويدعُوهُم إلىٰ تقويم أَوَدِهم ، و إصلاح فاسدهم ، و يزيدُ فى بصـيرة ذوى الثِّقة والأمانة منهم ؛ فمن وقفتَ منـه علىٰ آمتثالٍ لمذهبك ، وقبولٍ لأَدَبك ، وآقتصارٍ فيما يتقلّده لك ، أقررتَه وأحسنْت مكافأتَه ومَثُو بته ، ومن شَمِمت منه حَيْفا فى حكمه ، وتعـدِّيا فى سـيرته ، و بَسْطا ليده إلىٰ ما لا يجب له ، تقدّمت فى صَرْفه ، وألزمته فى ذلك ما يلزَمُه ـ وأن تختار لكتَابتك من تَعرِف سَدَاد مذهَبه ، وآستقلاله بمـا يتقلَّده ، و إيثارا لدرس (؟)(١) من صحته ، ومَنْ تقـدِّر عنده تقديمـا(٢) فى نصيحتك فيما يجرى علىٰ يديْه ، وتوخِّيا لصدقك فيما يحضُره وتَغيب عن مشاهدته ؛ فإنك تأمَنُه من أمر حكمك علىٰ ما لا يؤتمن علىٰ مثـله إلا الأمين ، وتُفَوّض إليـه من حُجَج الخصوم المرفوعين إليك ما لايفوَّض إلا لذى العَفَاف والدِّين ـ وأن تتفقد

(١) لعله «و إيثاره للتأكد من صحته» . تأمل .

(٢) لعله « تحريا » تأمل .

مع ذلك أمره، ونتصفّح عمله، وتُشرف على ماتحت يديه بما يؤدّيك إلى إحكامه وضبطه، ويُؤمّنك من وقوع خلل فيه ـ وأن تختار لمجابَتك من لا يتجهّم الخُصُوم، ولا يختصّ بعضَها دونَ بعض بالوُصول، وتُوعز إليه فى بَسْط الوجه، ولِين الكَنَف، وحُسْن اللفظ، ورفْع المئونة، وكفّ الأذىٰ .

فتقلّدْ ماقلّدناك من ذلك عاملا بما يحقّ عليك لله جلّ وعزّ ذكره، ومستعيناً به فى أمرك كلّه : فإنّا قلّدناك جسيما، وحمّلْناك عظيما، وتبرّأْنا إليك من وِزْره وإصْره، واعتمدْنا عليك فى توخّى الحقّ وإصابته، وبسْط العدل وإفاضته؛ واقبِضْ لأرزاقك وأرزاق كُتّابك وأعوانك ومن يحجُبُك ولثَمن قراطيسك وسائر مُؤَنك فى كل شهرٍ أربعين دينارا؛ فقد كتبْنا إلى عامل الخَرَاج بازاحة ذلك، أوقات استحقاقك إيّاه ووجوبه لك، وإلى عامل المدينة بالشّدّ على يَدك، والتقوية لأمْرك، وضَمّ العِدّة التى كانت تُضَم إلى القضاة من الأولياء إليك، وهما فاعلان ذلك إن شاء الله تعالىٰ .

الحالة الثالثة — ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيُّوب .

وكانوا يسمُّون ما يكتَب عن ملوكهم من الولايات لأرباب السيوف والأقلام «تقاليدَ» و «تواقيعَ» و «مراسيمَ» وربّما عبّروا عن بعضها با «لمَنَاشير»

وهى فى الافتتاحات على ثلاث مراتب :

المرتبة الأولىٰ — أن تفتتح الولايةُ بخطبةٍ مبتدأةٍ بالحمدُ لله تعالىٰ ثم يؤتىٰ بالبعديّة، ويذكَرُما سنَحَ من حال الولاية والمولّى، ويُوصّى المولّى بما يليقُ بولايته، ثم يقال : «وسبيل كلّ واقفٍ عليه من النوّاب العملُ به» أو نحو ذلك .

وهى على ثلاثة أصناف :

الصنف الأوّل — أرباب السيوف من هذه المرتبة

وهذه نسخة توقيع بولاية ناحيةٍ وإقطاع بلادِها لمتوليها ، وهى :

الحمدُ لله علىٰ عوائده الجميلةِ وعَواطِفه ، وفوائده الجزيلة وعَوارِفه ؛ ناصبِ الحقّ وناصره ، وقاصِم الباطِل وقاصِره ؛ ومُنيرِ الدين ومُديله ، ومُبيرِ الكُفْر ومُذيله ؛ وشادِّ أَزْر أوليائه وسادِّ ثغرهم ، وناصر مُعِزِّهم ومُعِزِّ نصْرِهم ؛ الذى أضفىٰ علينا مَدارِعَ نِعَمه ، وأصفىٰ لدينا مَشارِع كَرَمه ؛ وأعلَقَ أيدِيَنا من العدل بأَوْكد الأسباب والأمْراس ، وصَرَف بنا صَرْفَ العَسْف وكفَّ بكفايتنا كَفَّ البُؤْس عن الرعيَّة والْبَاس ؛ وجَلَب إلىٰ آستجلاب الشكر من الناس هِمَّتنا ، وطَوىٰ علىٰ حُبِّ البِرِّ وإبرار المُحِب طويَّتنا ؛ وحَسَم بما أَوْلاناه من أَيْدٍ مادّةَ كلِّ يدٍ تمتدّ إلىٰ محظور ، ويسَّرنا بِبساط العدل المطوىّ لِمَا طَوىٰ بعدلنا بِساطَ الظُّلم المنشور ؛ وأبىٰ لنا أن نكفُر نِعْمَة أو نَهَبَها لكافر ، أو نَدَعَ شُكْرَ مِنَّة أو نُودِعَها عند غير شاكر .

ولمَّا كان الأمير فلان مِمَّن سبقَتْ لجدّه ولأبيه ـ تعاهد الله بالعِهاد مَثْواهما ، وخص بثَّار الرحمة ثَرَاهما ـ الحُرَم الأكيده ، والخِدَمُ الطريفةُ والتَّليده ؛ ولم يزالا مجتهدَيْن فى تعمير هذا البيتِ وتشييد أُسِّه ، ملازمَيِ الإدآب فى إنمائه وتَشْديد غرسه ، مُفْضِيَيْن بالموالاة إلىٰ مُوَاليه ، مفْصِحين بالمعاداة لمُعَاديه ؛ رأينا ـ لا زال الإقبال لآرائنا مقابِلا ومُرافقا ، والسعدُ مساعدًا والتوفيقُ موافقا ؛ ـ أن نُلحِقَه بدرَجة أوَّليه ، ونُورِدَه من كرمنا مَوْرِدَ جدّه وأبيه ؛ ونَثْنِيَ إليه عِنانَ عِنايتنا ، ونَرْعاه بعين رعايتنا ؛ ونُلحِقَه جَناحَ لُطْفنا ، ونبوِّئه مَقْعَد شرف تحتَ ظِلِّنا ؛ ونحْرُس حَدّه من الفُلول ، وجَدّه من الخُمُول ؛ وعُودَه من الخَوَر ، ووِرْدَه من الكَدَر ؛ وأن نقرِّره

علىٰ ما بوّأنا فيه والِدَه من الهِبات والإنعام والإفْضال والإحسان، وجميع ما دخل تحت آسمه من المَعاقل والبُلْدان، وسيُوضَّح ذلك بقلم الدِّيوان .

فلْيقابِلْ هذا الإنعامَ من الشكر بمِثْله، ويُوازِ هذا الإفضالَ من حُسْن القَبُول بِعدْله؛ ولْيرتبِطْ نِعمَ الله عنده بالشُّكر الوافِى الوافِر، فالسعيدُ مَن آطَّرح خَلَّة الشاكى وآدَّرع حُلَّة الشاكر؛ ولْيُدْمِنِ التحدّثَ بها فالتحدّثُ بالنِّعَم من الشكر، ويستجذب موادّها بإيضاح سُبُل البِر؛ ويجعَلِ التقوىٰ شِعاره ودِثارَه، ويُخْلِص الطاعةَ لله إيرادَه وإصدارَه .

وليكُنِ العدلُ رَبيئتَه ورائدَه، والأمرُ بالمعروف دليلَه وقائدَه؛ وليَقُم فيما نِيطَ به حقَّ القيام، ويتشَمَّرْ فى حِفْظ ما آسترعَيْناه عن ساقِ الآهتمام؛ ويعلَمْ أن منزِلتَه عندنا أسنىٰ المَنازل وأعلاها، ومرتبتَه لدينْا أبهجُ المراتب وأبْهاها؛ ومحلَّه عندنا السامى الذى لايُضاهيه سامى، ومكانَه المكانُ الذى ليس له فى الممكن أن يفْترِع عَلَمَه سامى؛ فسبيلُه علمُ ذلك وتحقيقُه، وتَيقُّنُه وتصديقُه؛ وسبيل كلِّ واقِفٍ علىٰ هذا المثال، [أن] يقابله بالآمتثال، من سائر العُمَّال، وأرباب الوِلايات والأعمال . والآعتمادُ علىٰ العَلامة الشريفة فى أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى — أرباب الوظائف الدينية

وهذه نسخة توقيع بتدريس مدرسةٍ والنظرِ عليها، والتحدّثِ علىٰ أوقافها وسائر تعلُّقاتها، وهى :

الحمد لله الظاهِرِ إحسانُه، الباهرِ بُرهانُه؛ القاهرِ سلطانُه، المتظاهِرِ آمتنانُه؛ نحمدُه علىٰ إنعامه حمدًا يدُوم به من حلب غزارته وحلى نضارته ازديادُه وازْديَانُه،

ونسأله أن يصلّي علىٰ سيدنا محمد نبيّه الشارع الشارح بيانُه ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم أعضاد شَرْعه وأركانُه .

أما بعد ، فإنّا لما نَراه من تشييد بُيُوت ذَوِى البُيوتات ، وإمضاء حُكْم المُرُوءة فى أهل المُرُوءات ، وإرعاء مَوَاتِّ ذَوِى الحقوق الحقيقة بالمراعاة وإحياء المَوَات ، وموالاةِ النِّعم الشامل عمومُها لأَولى الخُصوص والخُلُوص فى الموالات ، ما نزال نُلْحق درَجاتِ الأخلاف منهم فى الآختصاص بالآستخلاص بالأسلاف ، فنُوردُهم من مَشارع دولتنا ومَشَارب نعمتِنا فى الآصطفاء والآصطناع أعذبَ النِّطاف ، ونُجْنيهم من مَغَارس الرجاء ، ومَجَارى النَّمَاء ، فى الإدناء والآجتباء ، ثمراتِ النِّعم الدانيةَ القِطاف ؛ ونُفِيض عليهم من مَدَارع البَهْجة والبَهاء ، وحُلَل الثَّناء والسَّناء ، فى الاكرام ، بالآحترام ، ما يضفُو علىٰ الأعْطاف .

ولما كان الشيخُ فلان متوحِّدا بالنسب الأثير الأثيل ، والحسب الجَلِيّ الجليل ، والمَحْتِد الأكيد الأصيل ؛ والفضل المَوْرُوث والمكتسَب ، والزَّكاءِ فى المنتمىٰ والمنتَسَب ؛ والذَّكاء الذى أنارتْ فى أُفُق التوفيق ذُكَاؤه ؛ والولاءِ الذى بان فى شِرْعة الإخلاص صَفاؤُه ؛ والدِّينِ الذى علا سَنَاسنَّه ، فى مَنَار التحميد ، والخُلوص الذى حَلَا جَنَىٰ جنّته ، فى مَذَاق التوحيد ؛ والرِّياسة التى تَضَوَّع رَيَّا رياضِها المُونِقه ، والسماحةِ التى تَنَوَّح حَيَا حِيَاضها المُغْدِقه ؛ والأمانة التى نهضَتْ بها فضائِلُه ، والموالاةِ التى نَجحتْ بها عندنا وسائِلُه — رأينا إجراءَه علىٰ عادة والده فى تولّى المدرسة المعمُورة التى أنشأها جدُّه للشافعيــة بحَلَب ، وأوقافِها ، وأسبابها ، وتدريسها ، وإعادتها ، وآستنابةِ مَنْ يراه ويختارُه فى ذلك كله ، والنظرِ فى جميع ما يتعلّق بها كُثْرِه وقُلِّه ؛ وترتيب الفقهاءِ فيها ، وتقرير مشاهَراتهم علىٰ ما يراه من تفضيلٍ وتقديم ، وتفصيل

وتقسيم ، وتخصيص وتعميم ، ونقص وتكميل وتتميم ؛ وحفظ الوقوف بالاحتياط فى مصارفها ، والعمل فيها ، بشروط مُحبّسيها وإطلاقها بقيود واقفيها ، بالابتداء بالعمارات ، التى تؤذن بتوفير الارتفاعات ، وتكثير المغلّات ، وتنمية الثمرات ؛ مستشعرا تقوى الله التى هى حلية الأعمال الصالحات ، والعصمة الباقية والجُنّة الواقية عند النائبات . وفوّضنا ذلك إلى أمانته ، وبعده إلى من يقوم مقامه من إخوته ، تشييدًا لبيتهم الكريم ، وتجديدًا لمجدهم القديم ؛ ورفعا لمكانتهم المكينه ، وحفظا لمرتبتهم المصونه . وأمرنا بإعفاء جميع أوقاف المدرسة وسائر أوقافهم ، وأملاكه وأملاك إخوته وحمايتهم من جميع المظالم والمطالب ، والنوائب والشوائب ، والعوارض والعراض واللوازم والكلف ، والمؤن والسخر ، والتبن والحطب ، والأطباق والأنزال ، وسائر التوزيعات والتقسيطات والأنفال ؛ وإعفاء فلّاحيها ومزارعيها من جميع ذلك ؛ وإطلاق كلّ ما يصل من مغلّات الأوقاف والأملاك المذكورة إلى مدينة حلب من جميع المؤن على الإطلاق ، وكذلك جميع ما لهم من البضاعات والبياعات والتجارات معفاةً مطلقةً لا اعتراض عليها لأحد ، ولا تُمدّ إلى شيء منها يدُ ذى يد . وليتولّ ذلك على عادته المشكوره ، وأمانته المشهوره ، بنظرٍ كافٍ شافٍ ، وكرمٍ وافرٍ وافٍ ؛ وورعٍ من الشوائب صافٍ ، وعزوفٍ عن الدنيّات بالدينيّات متجافٍ ؛ وسداد لركن المصالح شائد ، وتذكر لترقى مواد المناجح رائد ؛ ورأيٍ فى ذمّة الصواب راجح ، وسعى برتبة الرشاد ناجح ؛ وهمّةٍ عاليةٍ فى نشر العلم بالمدرسة وإعلاء مناره ، وإلزام الفقهاء والطلبة بتدريسه وإعادته وحفظه وتكراره ؛ ومروءةٍ تامة فى الاشتمال على إخوته ومخلّفى أبيه بما يصل به الرحم ، ويظهر به الكرم ، ويحيى من مفاخر آبائه الرمم ، ويقوّى لهم من معاقد مكارمه العصم . وسبيل الولاة والنوّاب وكل واقفٍ على هذا المثال إمضاء ذلك كلّه على سبيل الاستمرار ،

وتصرُّم الأعمـار ، وتصرّف الأعْصار ، وتقلُّب الأحوال والأدوار ؛ وحفظُه فيهم وفى أعقابهم علىٰ العُصور والأحْقاب ، ووصل أسـبابه عند انقطاع الأسـباب ، من فَسْخ ينقُض مُبرَم معاقِده ، أو نَسْخ يقوّض مُحْكَم مَقاعِده ؛ أو تبديل يكدّر صافىَ موارده ومَشَارعه ، أو تحويل يقلّص ضافىَ مَلابسه ومَدَارعه . وليبْذُلْ لهم المساعَدةَ فى كلِّ ما يعود له ولجماعته بصَلاح الحال ، وفراغ البال ونجاح الآمال ، وإقامة الجاه فى جميع الأحوال . والعملُ بالأمر العالى وبمقتضاه ، والاعتمادُ علىٰ التوقيع الأشرف به إن شاء الله تعالى .

الصنف الثـالث — أربابُ الوظائف الديوانية

وهذه نسخة توقيع بوِزارة ، من إنشاء بعض بَنِى الأثير ، وهى :

الحمدُ لله الذى فضَّـلنَا علىٰ كثيرٍ من عبـاده ، وأغنانا بمَزيد عطائِه عن ازْديادِه ، وجعَلَنا ممن استَخْلَفه فى الأرض فشَكَر عواقِبَ إصداره ومبادِئَ إيرادِه .

نحمدُه ولسان أنعُمه أفصَحُ مقالًا وأفسح مجالا ، وإذا اختلفَتْ خَواطِرُ الحامدين رَوِيَّةً كاثَرَها ارتجالا ؛ ونسأله أن يوَفِّقنا لتلقِّى أوامِرِه ونَواهيه بالاتباع ، وأن يُصْغِىَ بقُلوبنا إلىٰ إجابة داعِى العَـدْل الذى هو خيرُ داع ، ويُنقِذَنا من تَبِعات ما استرعاناه يوم يُسْأَل عن رعيَّته كلُّ راع .

أما بعدُ ، فإن الله قَرَن استخارتَه برَشَده ، وجعلها نُورا يُهْتدىٰ به فى سُلُوك جَدَده ، ويُستمدّ من يُمْن صَوابه مايُغْنِى عن الرأى ومَدَده . ومن شأْننا أن نتأدّبَ بآداب الله فى جليل الأمر ودقيقه ، وإذا دَلَّ التوفيق امْرءًا علىٰ عمـله دَلَّ عملُنا علىٰ توفيقه ؛ فمن عُنْوان ذٰلك أنَّا اصطفينا لوزارتنا مَنْ تحمَـدُنا الأيام من أَجْله ، وتحسُدُنا الملوكُ علىٰ مثله ، ويعلَمُ من أتىٰ فى عصره أنه فاتَ السابقين من قَبْله ، وهو الوزيرُ الأجل

السيدُ الصدرُ الكبير، جلالُ الدين، شرفُ الإسلام، مجتبىٰ الإمام فخرُ الأنام؛ وليست هـذه النعوت ممـا تزيد مكانَه عُرْفا، ولا تستوفى من أوصافه وَصْفا؛ وإن عدّها قومٌ جُلَّ ما يدّخرونَه من الأحساب، ومعْظَمَ ما يخلِّفونه من التُّراث للأعقاب؛ ولا يَفْخَر بذٰلك إلا مَنْ أَعدَم من ثَرْوة شرفه، ورضِىَ من الجوهر بصَدَفه؛ وأنتَ فغير فاخرٍ به ولا بما وَرِثتَه من مَجْد أبيك الذى أضحَتِ الأيَّام به شُهودا، والجُدُود له جُدُودا، وغَدا وكأنّ عليه من شمس الضُّحى نُورا ومن الصَّباح عمودا؛ وقد علمتَ أنه كان إلٰه نَسَبُ المكارم وسيِّمها، وكان مابلغه منها أعظَمَ ما بلغه من دنياه علىٰ عِظَمِها؛ لكنَّك خلَّفت لنفسك مَجْدا منك ميلادُه، وعنك إيجادُه؛ واذا ٱقترن سعْىُ الفتىٰ بسَعْى أبيه فذٰلك هو الحسَبُ الذى تقابل شَرَفاه، وتلاقىٰ طَرَفاه، وغَضَّ الزمان عنه طَرْفَه كما فتح بمَدْحه فاه؛ وإذا ٱستطرفَتْ سادةُ قوم بنيتَ بالسُّؤدَد الطريفِ التَّليد، ولقد صدّق اللهُ لهجةَ المُثْنى عليك إذ يقول: إنّك الرجلُ الذى تُضْرَب به الأمثال، والمهذَّب الذى لا يقال معه: أىُّ الرجال؛ وإذا وازَرْتَ مملكةً فقد حظِيَتْ منك بشَدّ أزْرها، وسَدّ ثَغْرها، وأصبحَتْ وأنتَ صدرٌ لقَلْبها وقَلْب لصَدْرها؛ فهى مزدانةٌ منك بالفضل المُبين، معانةٌ بالقوىّ الأمين؛ فلا تبيتُ إلا مستخدمًا ضميرَك فى وَلَائها، ولا تغدُو إلا مستجديًا كفايَتَك فى تمهيدها وإعلائها.

ومن صفاتك أنك الواحدُ فى عَدَم النظير، والمعدُود بألف فى صوابِ التدبير، والمؤازرُ عند ذُكْر الخَيْر علىٰ الإعانة وعند نِسيانه علىٰ التذكير؛ ولم ترقَ إلىٰ هذه الدرجة حتَّى نَكَحتَ عَقَبات المَعَالى فقضيْتَ أجلَها، وآنسْتَ من طُور السعادة نارًا فهُديتَ لها؛ ولم تبلغْ من العُمْر أَشُدّه، ولا نزعَ عنك الشبابُ بُرْدَه؛ بل أنت فى رَيْعان عُمْرك المتجملُ برَيْعان سُؤْدَده، المتقمِّصُ من سيما الخلال ما أبرزَ وَقَارَ

المَشيب فى أَسْوده . وهذا المنصبُ الذى أُهِّلت له وإن كان ثانِىَ المُلك محلّا، وتِلْوَه عَقْدا وحَلّا ؛ فقد علَا بك قَدْرُه ، وتأبَّل بك أمره ؛ وأصبَح وشخصُك فى أرجائه مَنَار، ورأيُك وفضلُك من حوله سُورٌ وسِوَار ؛ وله من قلَمك خطيبٌ يجادل عن أحساب الدولة فينفَحُها فخرا، وسيفٌ يُجالد عن حَوْزتها فيمنَحُها نَصْرا؛ ولقد كان من قَبْلك وقبل أبيك مُكْرَها علىٰ إجابة خاطبه، والنُّزوِ إليه عن مَرَاتبه؛ فلَمَّا جئتماه آستقرّ فى مكانه، ورضِىَ بعُلُو شأنكما لعلوّ شانه؛ وقد علم الآنَ بأنكَ نزلْته نُزولَ الليث فى أَجَمه، وآستقلَلْتَ به آستقلالَ الرُّمح باحدمه (؟) ؛ وما زالتِ المعالى تَسْفِر بينك وبينه وأنت مشتغِل بالسعى للسيادة وآدابها ، عن السعى للسَّعادة وطِلَابها . فخُذ ما وصلت إليه باستحقاق فضلك ومَناقبه، لا بآتفاق طالعك وكواكبِه .

وآعلم أنَّ هذه النعمةَ وإن جاءتْك فى حَفْلها ، وأناخَتْ بك بصاحبها وأهلِها ؛ فلا يُؤْنِسُها بك إلا الشكرُ الذى يجعل دارَها لك دارا، ووُدَّها مستمْلَكا لك لامُعَارا؛ وقد قيل : إنَّ الشكر والنعمةَ توءَمان ، وإنه لا يتم إلا بآجتماع سِرِّ القلب وحديث اللسان؛ فاجعَلْه معروفَها الذى تُمْسِكها بإحسانه ، وتقيِّدها بأشْطانه .

وقد أفردْنا لك من بيت المال ما تستعينُ به علىٰ فرائض خِدَمك(١) ونوافله ، وتُرِدّ فضلَه علىٰ آبتناء مجدك وفضائله ؛ وذلك شىءٌ عائدٌ علىٰ الدولة طِيبُ سُمْعته ، فلها محمودُ ذِكره ومنك مَوارِدُ شِرْعته ؛ وإذا حُمِدت مَناهل الغُدُر كان الفضل للسحاب الذى أغْدَرها . والمفرَد باسمك من بيت المال كذا وكذا .

وكلُّ ما تضمَّنه تقليدُ غيرك من الوصايا التى قُرِعتْ له عصاها ، ونُبِذَتْ له حَصَاها ، فأنت مستغْنٍ عن آستماعِها ، مكتفٍ بآطّلاع فكرك عن آطّلاعها ؛ غير أنا نسأَلُك كما سأل رسولُ الله صلّى الله عليه وسلم مُعَاذا ، ونسألُ اللهَ أن يجعلَ لك

(١) لعله «منصبك» . تأمل .

من أمرك يُسْرا ومن عَزْمك نَفَاذا ؛ وقد أجابنا لسانُ حالك بأنك تأخذ بتقوى الله التى ضَمِنَ لها العاقبه، وجعل شيعتَها الغالبه؛ وأنك تجعلُها بينك وبينه سببا ممدودا، وبينك وبين الناس خُلُقا معْهودا؛ حتّى تُصْبح وقد أمِنْتَ من دهرك عِثَارا، ومن أبنائه أسماعا وأبصارا — ومن شرائطها أن يكونَ الرجلُ المسلم الذى سلم الناسُ من يَده ولسانه، وفى هذين كفاية عن غيرهما من الشِّيَم، التى تُحفَظ بها سياساتُ الأمم: فإنَّ العدل هو المِيزان الذى جعله الله ثانِيَ الكتاب، والإحسان الذى هو الطينةُ التى شارَكَتْها القلوبُ فى جِبِلَّتِها مشاركةَ الأحباب.

وأمّا ماسوىٰ ذلك من سياسة الملك فى تقرير أُصُوله، وتدبير محصُوله؛ كالبلاد وآستعمارها، والأموال وآستثْمارها؛ وولاةِ الأعمال وآختبارها، وتجنيد الجنود وآختيارها؛ فكلُّ ذلك لا يصدر تدبيرُه إلا عن نَظَرك، ولا يُمْشَى فيه إلا علىٰ أثرك؛ وأنت فيه الفقيهُ آبنُ الفقيه الذى سرىٰ إليك عِلْمُه نفسا ودَرْسا، وثمرةً وغرسا؛ فهذا كتابُ عهدنا إليك: فخذه بقوّةِ الأمانة التى أبتِ السموات والأرض حملَها، وما أطاقَتْ ثِقْلَها؛ والله يسلُك بك سَدَدا، ويتحرّى بك رَشَدا، ويلزمك التوفيقَ قلْبا ولسانًا ويَدا، إن شاء الله تعالىٰ.

ومن ذلك نسخةُ توقيع باعادة النظر بثَغْر الإسكندرية لآبن بصَّاصةَ فى شهور سنة ثمان وسبعين وستمائة، وهى:

الحمدُ لله الذى أضحَكَ الثُّغور بعد عُبُوسها، وردَّ لها جَمالَها وأنار أُفُقَها بطُلُوع شُموسها، وأحْيا مَعَالم الخير فيها وقد كادَتْ أن تُشْرِف علىٰ دُرُوسها؛ وأقامَ لمَصالح الأمة من يُشْرِق وجْهُ الحق ببَيَاض آرائه، وتلتذُّ الأسماعُ بتلاوةِ أوصافه

الجميـلة وأنبائه ؛ حَمْدَ من أُسْبِغتْ عليـه النَّعماء ، وتهادَتْ إليـه الآلاء ، وخطَبَتْه لنفسها العَلْيـاء .

وبعـدُ ، فأحَقُّ مَن ماسَ فى أندية الرِّياسة عِطْفا ، وٱستجْلىٰ وُجوهَ السعادة من حُجُب عِزِّها فأبدَتْ له جَمالا ولُطْفا ، وٱصـطفَتْه الدولةُ القاهرة لمِهـمَّاتها لمَّـا رأته خيرَ كافل ، وتنَقَّل فى مراتبها السنيةِ تنَقُّل النَّيِّرات فى المَنازل (١) .

ولمـا كان المجلسُ السامى القاضى ، الأجلُّ ، الصدرُ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، الأوحدُ ، الكاملُ ، المجتبىٰ ، المرتضىٰ ، الفاضلُ ، الرشيدُ ، جمـالُ الدين ، فخرُ الأنام ، شرفُ الأكابر ، جمالُ الصُّدور ، قدوةُ الأُمَنـاء ، ذُخْر الدولة ، رضِىُّ المُلُوك والسلاطين ، الحسينُ ٱبن القاضى زكىِّ الدين أبى القاسم ـ أدام الله رِفْعتـه ـ ممن أشارتْ إليـه المناقبُ الجليله ، وصارتْ له إلىٰ كل سُؤْل نِعْمَ الوَسـيله ـ رُسِم بالأمر العـالى ، المَوْلَوِىِّ ، السلطانىِّ ، المَلَـكىِّ ، العادلىِّ ، البَدْرىِّ ، ـ ضاعفَ الله عَلاءَه ونَفَاذه ـ أن يُفَوَّض إليه نظرُ ثَغْر الإسكندريَّة المحروس ونظرُ مَتـاجره ، ونظر زكَوَاته ونظرُ صادره ، ونظرُ فُوَّة والمُزَاحمتين ، فيقدِّم خِيرةَ الله تعالىٰ ويباشرُ هذا المنصبَ المبارَك ، بعَزَماته الماضيه ، وهِمَمه العاليه ، برأْى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك ، ليُصبِح هذا الثغرُ بمباشَرته باسمًا حاليا ، وتعودَ بهجتُه له بجميل نظَره ثانيا . ويتنصبُ لتدبير أحواله علىٰ عادته ، ويقرّرُ قواعدَه بعالى همَّتـه ، ويجتهدُ فى تحصـيل أمواله وتحصينِ ذخائره ، وٱستخراج زكاته وتنميـة مَتَاجره ، ومعاملةِ التِّجَار الواردين إليـه بالعَدْل الذى كانُوا ألِفُوه منـه ، والرِّفْق الذى نَقَلُوا أخبارَه السارَّةَ عنه ؛ فإنهـم هَدَايا البُحُور ، ودَوَالبة

---

(١) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ وأصله « من اشتهر بمحاسن الخلال ، ومحامد الخصال ، وساس الأمور برأيه الراجح ، ودبرها بسعيه الناجح ، ولما » الخ أو نحو ذلك فتنبه .

الثُّغُور، ومن ألسِنَتهم يُطَّلَع علىٰ ما تُجِنُّه الصُّدور، وإذا بَذَر لهم حَبَّ الإحسان نَشَرُوا له أجنحةَ مراكِبِهم وحاموا عليه كالطُّيور. وليعتَمِدْ معهم ما تضمَّنته المراسيمُ الكريمةُ المستقِرّة الحكم إلىٰ آخِرِ وَقْت، ولا يسْلُكْ بهم حالةً تُوجب لهم القَلَق والتظَلُّم والمَقْت؛ وليُواصِل بالحُمُول إلىٰ بيتِ المال المعمُور، ويملأ الخزائنَ السلطانيَّة من مستعْمَلات الثغر وأمتعتِه وأصنافه بكل ما يُستغنىٰ به عن الواصل فى البُرور والبُحور؛ وليَصرِفْ هِمَّته العاليةَ إلىٰ تدبير أحوالِ المَتَاجر بهذا الثغر بحيثُ ترتفع رُءُوس أموالها وتَنْمى، وتجودُ سحائبُ فوائدِها وتَهْمى؛ وليَراعِ أحوال المستخْدَمين فى مباشَرَاتهم، ويكْشف عن باطن سَيْرهم فى جهاتهم؛ ليتحقَّقوا أنّه مهَيْمنٌ عليهم، وناظرٌ بعينِ الرأفة إليهم؛ فتنكَفَّ يدُ الخائنِ منهم عن الخِيانه، وتتحَلّى أناملُ الأمين بمَحاسن الصِّيانه؛ وليتفق فيما يأتيه ويَذَره، ويقدّمه من المُهِمّات ويؤخِّرُه، مع المجلس السامى، الأمير، الأجلِّ، الكبير، المجاهد، المقدَّم، الأوحد، النصير، شمس الدين، متولِّى الثغر المحروس - أدام الله نعمتَه - فإنه نِعم المُعين علىٰ تدبير المهمّات، ونعمت الشمسُ المشرقةُ فى ظُلَم المشكلات. وليُطالِعْ بالمتجدِّدات فى الثغر المحروس، ليَرِدَ الجوابُ عليه عنها بما يشْرَح الصدور ويُطَيِّب النفوس؛ وليتناولْ من الجامكية والجِراية عن ذٰلك فى غرّة كلِّ شهر من ٱستقبال مباشرته ما يشْهَد به الديوان المعمورُ لمن تقدّمه من النُّظّار بهذه الجهات، وهى نظرُ الثغر وما أضيف إليه علىٰ ما شرح أعلاه.

المرتبـــــة الثـانية

(أن تفتتح الولايةُ بلفظ « أما بعـدَ حمد الله » أو « أما بعـدُ فإن كذا »
ويؤتىٰ بمـا يناسب من ذكر الولاية والمُولّى، ثم يذكر ما سنح
من الوصايا، ثم يقال «وسبيل كل واقف عليه»)

فمن المكتتب لأرباب السُّيوف من هذه المرتبة ما كان يُكْتَب لبعض الُولاة .

وهذه نسخة بولاية الشرقية، وهى :

أما بعدُ، فإنَّا لمَـا منَحَنا الله إيَّاه من معجزات النصر المستنطِق الألسنةَ بالتسبيح، وآتاناه من نَظَرٍ حمىٰ ناضرَ عَيش الأمّـة من التَّصْويح ، وألبَسَناه من ثياب العَظَمة المخصوصة بأحسَنِ التوشِيع والتوشيح ، ووفَّقَنا له منَ ٱصطفاء من نُقْبِل عليه بوجه التأهيـلِ للمهمّات والترشيح؛ وقوّاه من عزائمنا التى تُرَجُّ بها أرضُ الكفر وتُدَوّخ ، ووسَّعه لنا من الفُتُوح التى أنباؤُها خيرُ ما تُصدَّر به السِّيَر وتؤرّخ ـ لا نزال نبالِـغ فيما صان الحَوْزة وحاطَها ، ومدّ رُواقَ الأمنة ومَهَّد بِساطَها ؛ وقرب نوازِحَ المصـالح وجمعَ أشتاتَها، وأوجبَ ٱنصرامَ حِبال ٱختلال الأمُور وٱقتضَى ٱنْبِتاتَها .

ولما كانتِ الأعمالُ الشرقيةُ جديرةً بمتابعة الاعتناء ومُوالاته، وإعراقِ كَرَم التعهُّد فيما يحفَظُ نظامها بمُغالاته ، وأحقَّها بأن تُصرفَ إلىٰ صَوْنهـا وجُوهُ الهِمَم الطَّوامح ، ويُوقَف عليها حُسْن الاحتفال الجامع دواعِيَ تَذْليل الجامح ؛ إذ كانت أجدَرَ الأعمال بِكلاءَة الفُروع من أوضاعها والأُصُول ، والبـابَ الذى لا يجب أن يدخُلَه إلّا من أُذن له فى القـدوم إليها والوُصُول ؛ ويتعيـنَّ التحرُّز علىٰ الطُّرقات التى منهـا إليها الإفضاء ، ويُوكَّل بمـا دونها من المياه عُيونٌ حفظةٌ لا يلزمُها النومُ والإغضاء،

— وكنتَ أيُّها الأميرُ أشــدَّ الأمراء باسا، وأوْفاهم لحسن الذكر الجميل لِباسا، وأكثَرهم لمُهَج الأعداء آخْتِلاسا، وأجمَعَهم للحاسن المختلفة ضُرُوبا وأجناسا، وقد تناصَرتْ علىٰ قُصُودِك الحسنةِ واضحاتُ الدلائل، وتحلَّت أجيادُ خِلالك من جواهر المَفاخر بقَلائدَ غيرِ قلائل، وآستطارَ لك أجملُ سُمْعه، وفَطَمتْ سُيوفُك أبْناءَ الكُفْر عن آرتضاعها من المِلَّة الإسلامية ثَدْىَ طَمْعه، ولا آستبهمتْ طُرُق السياسة إلا هُديت إلىٰ مَجاهلها، ولا حَلَّأَ التقصيرُ سِواكَ عن شَرائع النِّعم إلا غَدْوتَ بِكِفَايتك وارِدَ مَناهِلها، وكَمْ شهِدْتَ مَقامَ جِلَاد، ومَوْقِفَ جِهاد، فمزَّقْت ثوبَ مارقِقه نَسْجا، وأدلت فى ليل قَسْطَله عَوادِىَ صَوارِمك سُرْجا، وقُمْت فيما وُكل إليك من أمور الفاقُوسيَّة وقلعَتىْ صَدرٍ وأيْلَةَ حرسهما الله تعالىٰ قياما أحظاك بالثناء والثواب، وآستنبْت فى كلٍّ منها من أجرىٰ أمورَها علىٰ الصواب — خرجَ أمرُ الملك الناصرِ بكَتْب هذا السجلِّ بتقليدك ولايةَ الأعمال الشرقية المقدَّم ذكرُها .

فاعتمِدْ مباشرتَها عاملًا بتقوى الله التى مَغْنَمُها خيرُ ما آقتاده مستَشْعِروها لأنفسهم وآستاقُوه . قال الله تعالى : ﴿ وقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وآتَّقُوا آللَّهَ وآعلَمُوا أنَّكُمْ مُلاقُوه ﴾ وآبسُط العدلَ علىٰ أهل هــذه الوِلَايه ، وآخصُص أهل السَّلامة بما يُسْبِل عليهم سِتْرَ الحِياطة والحِمَايه ، وتطَلَّبِ المفسدين أتمَّ تطَلُّب ، وآحظُرْ عليهم التنَقُّلَ فى هذه البلاد والتقَلُّب ، ومَنْ ظَفِرت به منهم فقابِلْه بما يُوجبه حكم جَرِيرته ، ويقتضيه مَوْقعُ جريمته ، ويَجعله مُزْدَجَرا لسالكِى طريقته . وشُدّ من المستخْلَف علىٰ الحكم العزيز شــدّا ينْصُر جانبَ الشرع ويُعِزُّه ، ويَكْثِر به علىٰ الباطل تَرويعُ الحق وأَزُّه ، وأعِنِ المستخْدَمين فى المــال علىٰ آستيفائه من وُجُوهه عند وُجُوبه ، وبلِّغ كُلًّا منهم من الإعانة علىٰ تحصيله أقصىٰ مطْلُوبه ، وقو أيديهم فى تخضير البِلاد وتعميرها ،

وآبعثِ المُزارِعين علىٰ مباشَرة أحوال الزِّراعة وتقرير أمورها، وفيما يُستَرْعَوْنه من مَصَالح الأعمال، ويعُود عليهم فى موجبات الرجاء بمَنَاجِح الآمال. وراعِ أمرَ السُّبُل والطُّرُقات، وآجعلِ آحتِراسك عليها الآنَ مُوفيا علىٰ المتقدّم من سالف الأوقات؛ ولا تَنِ فى إنفاذ المتخبِّرين إلىٰ بلاد العدوّ، وتحدّيهم فى الرَّواح والغُدُوّ، بما يمنعهم من الهُدوّ؛ وكَشْفِ أخبارهم، وتَتَبُّع آثارهم، وتسْيير الجواسيس إلىٰ دِيارهم؛ حتّىٰ لا تخفىٰ عنك من شؤونهم خافيه، ولا يجِدُوا سبيلَ غِرّةٍ يهتبِلُونها ـ والعياذ بالله ـ بالجُمْلة الكافيه. وطالع بما يتجدّدُ لك وما يَرِد من الأنباء عليك، وغير ذٰلك مما يُحتاج إلىٰ علمه من جِهَتك، وما تجرى عليه أحكام خِدْمتك، فاعلم هذا وآعملْ به إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه نسخة بوِلاية الغربية من هذه المَرْتبة، وهى :

أما بعدُ، فإنّا لمّا آتانا اللهُ من سَعادةٍ لِطُرق الإرادات فيها تَعْبيد، وأسبَغه بنا من نِعَمٍ لا يَعُدّها التحديد، ولا يَحُدّها التعديد؛ وأبْهَجنا به من آكتناف المَطالبِ بنجاحٍ لا يُعقِّبه تعسير ولا يعَسِّره تعقيد؛ وأمضاه من عزائمنا التى ما فَتَكت قَطُّ بالأعداء فَقِيدَ منهم فَقِيد؛ ولقّاه الأَمنة بنظرنا من نَضْرة عيشٍ جَانَبَ الجَفافُ دَوْحه المُخْضَلّ، وأهداه بتبصيرنا من أَنْوار الهدَى المتقدّمة كلَّ ذى جهل ظَلّ ممن ضَلّ ـ لا نزال نستوضِحُ أمورَ أمراءِ دولتنا متصفّحين، ونبلو أخبارَ المؤهّلين منهم لسياسة الرعيّة المرشَّحين، ونكشِف شؤونهم غير متجوّزين ولا متسمّحين؛ ونُظهِر فى أحوالهم آثارَ الإيثار لرفع درَجاتِهم، وأماراتِ الرفع منهم مقابلةً علىٰ حياطة أمواهِ مَنْ نكونُ عليه وصون منْحاتهم، ونبوّئهم مُبَوّأ صدق من تصديق آمالِهم وتحقيقها؛ ونَزُفّ إليهم

عقائلَ المِنَح المانِعَ شُكرُهم من تسيُّب سَيْبِها وتطرُّق تطليقِها ، ونحمل لكلٍّ منهم ما يؤمِّله من آجتهاده ويُؤْثِره ، ولا نُلْغى الآهتمامَ بما يُوطِّئ لهم مِهادَ الطَّوْل الجزيل ويُوَثِّره ، عملًا بآداب الله سبحانه فى إجزال حُظُوظ المحسنين من إحسان المجازاه ، وإيلائهم المزيدَ الحاكمَ بنقص آعتدادهم عن المُوازَنَة له والمُوازاه ، كما قال سبحانه وقوله هدًى ونورٌ وشفاءٌ لما فى الصدور : ﴿ وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ .

ولما كان الأمير (والنعوت والدعاء) من أنجحهم فالا ، وأرْجَحهم مَصَالا ، وأصلَحهم أعمالا ، وأوضَحهم كمالا ، ومازالتْ أغصانُ نُهَاه متتابِعةً فى بُسُوقها ، وضرائبُه نافقةً أعلاقُ المحامد بِسُوقها ، وعزائمُه فى إذلال الفِرَق المبالِغة فى فُسُوقها ، مشمِّرةً عن سُوقِها ، وما بَرِح فى شَوْط الفَخْر راكِضا ، ولعُقُود مكروهِ الأُمُور التى تُزِيغُ الأمانةَ رافضا ، وبأعباء القِيام بفرائض الآلاءِ ناهِضا ، وما آنفكَّتْ مناقِبُه تُعْيِي بيانَ الواصف وبَنَان العادّ ، ومساعيه مُدرِكةٌ وهى وادعةٌ مايَعْجِزُ عن أقلِّه جِدُّ الجادّ ، ورأيُه [يرتق] كلَّ متفتِّق ومنبثق من الأمور المهمَّة بِسَداد الراتق السادّ ، وجميلُ ذِكْره يَفُوح بما يفوق المِسْكَ فيثُوب إليه من الثَّواب بالنائى النادّ ، وما فَتِئ دأبُ شِيَمَته الإعراض ، عن المُوبِق من الأَغْراض ، واختيارَ الرِّفق ، والإغراقَ فيما يُديمه إلىٰ فَكِّ أعناقِ أسْرىٰ المسلمين من سرى العتق ــ خرج أمرُ الملكِ الناصر بكتْب هذا السجِلّ له بتقليده ولايةَ الأعمال الغربية .

فليتقلَّدْ ما قُلِّده معتمدًا علىٰ تقوى الله التى صَرَف عن معتمدها شِربَ التكدير ، ومَنَحه من المكارم عندَه مايُوفِى علىٰ التقدير ، وليَجْرِ علىٰ عادته فى بَسْط ظل المَعْدَلة ومدّ رُواقها ، وصون مَسَاحى الرَّعايا عن إملاقها منها وإخْفاقها ، والمساواة بها بين

الأقوىٰ والأضعف، والأدنىٰ والأشرف؛ والبادِى والحُضّار، والمُناوِئين والأنصار؛ والخاصّ والعام، والأجنبىّ وربّ الحُرْمة والذِّمام : لينام المستُورون علىٰ مِهَاد الأمن، ويسلم جانِبُ سلامة أموالهم وأرواحِهم من الوَهْن . ولْيعامل المستخْلَف علىٰ الحكم العزيز بمـا يستوجبه مثلُه من نُصْرة الأحكام «ووكل إليــه أمر الأمراء لمن آثرها (١) والإحكام» والإكرام الشامل لقَدْره، والآهتمام الشارح لصَدْره . ولْيتوخَّ المستخْدَمين فى الأموال بمـا يكون لعِلّلهم مُزيحا، ليصــل إليهم ما يرومونه نجيحا . ويُلْزِم من جَرَتْ عادتُه بلزوم الحدود وآجتناب تعدّيها، والتوفُّر علىٰ حِفْظ مسالكها والمتردِّدين فيها؛ وليطالع بما يتجدّد قِبَله من الأحوال الطاريه، وما لم تزل الرُّسومُ بإنهاء مثلها جارِيه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبـــــة الثـالثة

(أن تفتَتح الولايةُ بلفظ «رُسم» ثم يذكر أمرُ الولاية والمولّىٰ ويوضح ،
ثم يقال «وسبيل كلِّ واقفٍ عليه»)

فمن المكتَتَب لأرباب السيوف من هذه المرتبة نسخة مرسوم بشدّ ناحيةٍ، وهى :

رُسم ـ أعلىٰ الله المراسيمَ وأدام نَفَاذها ـ بالإنعام علىٰ الأمير فلان بمـا يُفيض عليه مَلابِسَ الآصطفاءِ ويُضْفِيها، ويُسْمِى لقدمه فى الثبات مَدَارج الآرتقاء ويُسْنِيها؛ ويُعْرِب عن آختصاصه بالمنْزِلة التى يفْضُل بها علىٰ مُبَاريه، وآستخلاصه للرتَبة التى يفوتُ بها شأْوَ مُجَاريه؛ ويؤهِّله لثغرِ حارِمٍ المحروس وشَدِّه، وتولِّيه أمورَه بكفايته ونَهْضته وحَزَامته وجِدّه؛ وقد أمَرْنا بتسـليم قلعةِ حارِمٍ وأعما لهـا وسائرِ مايختص بها ويُضافُ إليها من ضِيَاعها ومواضِعها إليه، والتعويلِ فى وِلَايتها وتعميرِها وتَثْميرها

---

(١) كذا فى غير نسخة ولا معنى له وقد تقدّم لهذا المقام أمثال ونظائر يفهم منها المقصود .

عليه ، بموجَب ما يُفَصَّل من الديوان علىٰ ما كان جاريًا فى الإقطاع المحروس للحال ، وسبيلُ أهـلِ الديوان ـ أيدهم الله ـ العملُ بالأمر العالى و بمقتضاه ، والاعتمادُ علىٰ التوقيع الأشرف به ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك نسخة مرسوم بشَدّ وقف ، وهى :

رُسم ـ أعلى اللهُ المراسيمَ وأدام نَفَاذَها ـ بالتعويل علىٰ الأمير فلان فى تولية الوقوف بالجـامع المعمور بحَلَبَ المحروسـةِ ، والبِيمارَسْتَان ، والمساجدِ ، والمشاهـد بالأماكن والمواضع ، وظاهرِها و باطِنها وأعمالهـا ، وتفويضها إليه ، والاعتمادِ فى جميعها عليه ، سُكونًا إلىٰ نَهْضته وكِفَايته ، ووُثُوقا بخِبْرته ومعرفته وعلما بنزاهتِه وسَدَاده وأمانَتِه ، وذلك لاستقبال سنة سبع وثمـانين وخَمسمائة .

فليتولَّ ذٰلك بِكفاية كافيه ، ونهضةٍ وافيه ، وهِمَّة لأدواء الأحوالِ شافِيَه ، ونظر تامّ ، لشَـمْل المصالح ضامّ ، وتدبيرٍ جميل فى كل خاصٍّ من أسـباب عمله وعامّ ، وتقوًى لله عزَّ وجل تَقْوىٰ بها يَدُه ، ويَضِحُ بالاسـتقامة علىٰ سَنَنها جَدَدُه ، ناظرا فى الوُقُوف ومصارِفِها ، وتتَبُّع شُروط واقِفِها ، بكل مايعُود بتعمير أعمالهـا ، وتثمير أموالها ، وتدبيرِ أحوالها ، مطالِبًا بحساب مَنْ تقدّمه وتحقيق مبالِغه تكميلًا و إضافة ، واحتسابًا وسياقه ، ولْيطلُب شواهده ، ولْيَبْنِ علىٰ الصحة قواعِدَه ، وليلتمس مايَصح من بواقيه من جهاتها ، وليكْشِفْ بما يوضِّحه من سبُل الأمانة وجوهَ شُبُهاتها ، وقد أذِن له فى استخدام من يراه من النُّوّاب والمتصرفين والمشارفين ، والوكلاء والمستخْدَمين ، علىٰ ماجرتْ به العاده ، من غير زياده . وسبيل النوّاب ـ أيدهم الله ـ العملُ بالأمر العالى و بمقتضاه ، والاعتمادُ علىٰ العلامة الشريفة ، إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبة الرابعـــــــة

(أن يفتتح بلفظ : «إن أحق» أو «إن أولى» أو «من كانت صـــفته كذا» وما أشـــبه ذلك)

فمن ذلك نسخة منشور بنقابة الأشراف، وهى :

مَنْ كانتْ أوصافُه شائعةً بين الأنام، وصُحُف فضائله منشورةً لدى الخاصّ والعام، مع شرفِ نَسَبٍ شامخ الأعلام، وتُقًى فَخَر به على الأنام، وعِلْمٍ يُجْلى به صَدَأُ الأفهام، وعِفَّةٍ مرائرُها محكمةُ الإبرام - كان جَديرا بإفاضةِ سِجَال النِّعم عليـه، وقَمِينا بإرسال سَيْل المَوَاهب إليه .

ولما كان الشيخ فلان متصفًا بهذه الصفات الجميله، ومتخَصِّصا بمزاياها الجليله؛ وضاربًا فيها بالسَّهْم المُعَلَّى، ونازلًا منها فى الشَّرف الأعلى، ومتقَمِّصا ثوبَ الإخلاص والصَّـفاء، ومتَّشِحا بوِشَاح العِفَّة والوَلاء - آختصصناه بزيادةِ التقـديم والآجتباء، وحَبَوْناه بوُفور الكرامة والآصطفاء، وأجريْناه على مستمرِّ رَسْمه بالرِّعاية على ذُرِّيَّة أهل العَبـاء، حسَبَ عادتِه المستقرة إلى آخر عهدِ مَنْ كانت الإيالَةُ إليـه وإلى رحمة الله مضى : لِيَسيرَ فيهم بكتاب الله العظيم وسنَّة رسوله، ويسلُكَ جَدَدَ الحق الذى يُوصِّله من الزُّلْفى إلى أقصى مُنَاه وسُوله، ويحُضَّهم على تلاوة القُرءان، ومعرفةِ مايصْـلُح للأديان . وليسوِّ فى الحكم بين الضعيف فيهم والقَوِىّ، ويَعُمَّ بالإنصاف الفقيرَ والغنىّ . ولْيُحْسِنْ إلى مُحسِنهم، ولْيَجْرِ على فضْله لمُسيئهم؛ بعد أن يقدّم إليه زَجْرا ووَعيـدا، ويُوسِعَه إنذارا وتهـديدا؛ فإن وَعى وآرْعَوى وإلا سلَّط عليه أسـبابَ الأذى، وتَولَّاه بمـا يستـحِقُّه من الجزا؛ ويعيـدُه إلى حالة الآستقامة والآستوا، ويكُفُّه عن دواعى الهوى . ومَنْ وجبَ عليه حدّ أقامه فيه، وبادَرَ إلى آعتماده وتوخِّيه، حسَبَ مايوجِبُهُ حكم الشرع ويقتضيه .

وليكن رَءُوفًا بهم ما آستقامُوا، ومنتقِمًا منهــم ما آعْوَجُّوا ومالوا؛ وإن وجب على أحدهم حَقٌّ لمَلِيٍّ أو دنِيٍّ، آستخلصه منه ولم يمنعه تعلُّقه بنسبٍ شريف علِيٍّ؛ وإن آفترى منهم مفــترٍ على أحد من المِلَل، قابله عليه بمــا يزْجُره عن قَبِيح العمَل: فإنَّ النــاسَ فى دار الإســلام ومَنْ هو تحتَ الذِّمام سَواسِيَة وأقربُهم إلى الله تعالى من كانتْ سيرتُه فى الإسلام رضيَّه، وطوِيَّتُه فى الإيمــان خالصةً نقيَّه؛ ومَنْ حكَمَ عليه حاكِمٌ من الحُكَّام، بحقٍّ ثبَت عنــده بالبيِّنة العادلةِ أو الإعلام، آنتزَعه منه أو سجنه عليه، إلى أن يُرْضِى خصمَه أو يردَّ أمرَه إلى الحــاكم ويفوّضه إليه.

ولْيَحْرُس أنسابهم بإثبات أُصُولها، وتحقيق فُروعِها؛ ومَن رام دُخولا فيه بدَعْوى يُبْطِل فيهــا نَقَّب عن كَشْف حاله، وإظهار مِحَالِه؛ وجازاه بمــا يســتحقُّه أمثالُه، ويرتدِعُ فيما بعْدُ مِثالُه: ليخلُصَ هذا النسبُ الكريم، من دَعْوى المجهول، وآندماجه فى أُسْرة الرسول؛ عليــه أفضلُ الصلاة والتسليم. ويمنَعُ من آتصال أَيِّم من الأُسْرة إلى عامِّيٍّ، ولا يُفَسِّح أن يُعْقَد عليها عَقْد إلا لِكُفــءٍ مَلِيٍّ: ليبرأَ هذا المجدُ الشريفُ من التكدير، ولا تُزَيِّفَه شوائبُ التغيير.

ولينظُرْ فى الوقوف على المَشَاهد والذُّرِّيَّه، نظرا يحمَدُه عليه مَنْ يعْلَمُه من البَرِيَّه، ويُحْظيه بالثواب عند مالكِ المَشِيَّه. ويبتدئ بعمارة أُصُولها وآستكمال فرُوعها، وقسمة مَغَلِّها على ما تضمنه شرط الواقفين لهــا. ولْيحتَطْ على النُّذور، وينفقْها على عادتها فى المصالح والجُمْهور؛ عالمــاً أنّ الله تعالى سائلُه عَمَّــا توَخَّاه فى جميع الأمور، وأنه لا يخفى عليه كلُّ خفيٍّ مستور. قال الله سبحانه: ﴿يَوْمَ هُمْ بارِزُون لا يَخْفَى عَلَى الله مِنْهُم شَيْءٌ لمَن المُلْكُ آليَوْمَ للهِ الْوَاحد القَهَّار﴾.

وأَذِنَّا له أن يستنيبَ عنــه فى حال حَيَاته ، وبعدَ وفَاته ـ فَسَّح الله له فى المُهَل ، وخَوّله صالحَ العَمَل ـ الأرشدَ من بَنِيه ، ومَنْ يختاره لهذا الأمر وله يَرتَضِيه . وقد أنعمنا عليه بإجراء ما كان باسمه مســتمرا إلىٰ الآن ، وأضفْنا إليه ما يُعينه على النظر فى مصالح الأسرة أدام الله له عُلُوّ الشان ؛ من تمليكٍ وإدْرارٍ وتيسـير ، وجعلناه له مستَمِرّا ، وعليه مستقِرّا ؛ ولمن بعده من نَسْله والأعقاب ، علىٰ توالى الأزمان والأحقاب ؛ وحظَرْنا تغييرَه وفسْخَه ، وتبديله ونَسْخه : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْــدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَـا إِثْمُـهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ وهو معــيَّن من ديوان الاستيفاءِ المعمور ، بهذا المنشور المسْطُور ، بالأمر العالى أعلاه الله وأمضاه ، عَمّا كان قديما ، وما أُنْعِم عليــه به آخرا ، وهو القديمُ الذى كان له وشهد به الديوان المعــمُور ، وهو الإقطاع من ناحيــةِ كذا ، ويُجرىٰ علىٰ عادته فى إطلاق ما قُرِّر له من ناحيــة كذا بشهادة الديوان الفلانى ، والمجدَّد الذى أُنْعِم به عليه لاستقبال سنة سبع وسبعين وما بعدها . وسبيلُ كافّة الأُسْرة الطالبيِّين بمدينة كذا الانقيادُ إلىٰ تبَاعته ، والامتثال لإشارَته ، والتوفُّر على إجلاله وكرامتــه ؛ فإنه زعيمُهم ، ومقدَّمُهم ورئيسُهم ؛ ومن خالفه منهــم قابلناه ، وبأليم العِقاب جازَيْناه ، والاعتمادُ فى ذٰلك أجمعَ علىٰ التوقيــع الأشرف العالى أعلاه الله ، والعَلائم الديوانيَّة فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نُسخة بولاية الشرقية ، وهى :

لَمَّـا كانتِ الأعمالُ الشرقيَّةُ أجدَرَ البلادِ بأكيد الاهتمام وأخْلَق ، وأَوْلاها بإضْفاء سِرْبال الاهتبال الذى لا يُخْلِقُ إذا رَثَّ سِوَاه وأخْلَقْ ؛ وأقْمَنَهـا بحُسن نظرٍ يُرسَــل لرســولٍ علىٰ الرسم الأعنَّــة فى إدامة نَضْرة العمارة عليها ويُطْلق ، وأحَقَّها بأن يُبْرَم لها

سَبَبُ تفقّد لا يلتصق به رَهْن ولا يَغْلَق ، وأَحْراها باعتناءٍ يقضى لأمرها بالاطّراد ، وأَوْلاها بتعهُّد يجعل مصالح الشُّئون آلفةً للثَّواء بها والمُقَام عائفةً للنشوز عنها والشِّراد ، : لأنها بابُ الشام ، وإليها تَرِدُ القوافلُ المترددةُ منه علىٰ مَرّ الأيّام ، ومنها يستَكْشِف الأخبار ويستنهض الطوالع والمتخبّرين ، وبمواصلة التفقّد تعْلَم الأحوالُ الطارئة فى كل وقْت وحين ، فتجب المبالغةُ فى حفظ طُرُقاتها ومياهها ، وأن تصرف الهِممُ إلىٰ ضبط أحوالها ، وعامة أنقابها وآتّجاهها ، ويوضع بناء الحزم فى صون أطرافها علىٰ أثبت قاعدة ويُؤسَّس ، ويبالَغَ فى إذكاء العيون علىٰ كل طارق يتخبَّرُ للعدوّ الملعون ويتجسَّس ، وكنت أيُّها الأمير من المشهورين بالشجاعة والإقدام ، وذَوِى الكفاية المُوفِى تَراؤُهم فيها [علىٰ] عارض الإعدام ، وما زلْتَ معدودًا من خاص الأتراك الأعيان لسهم(؟) ، المقصّر مجاروهم إلىٰ غاية البَسَالة عن اللَّحَاق بهم والإدراك وقد تقدّمت ولايتُك هـذه الأعمالَ فقصَدْت منها قصدًا سَديدا ، وأَلحَفْت الرعايا ظِلاًّ من الأَمَنة مديدا — خرج الأمر بإيداع هذا المنشور ما أُنْعِم به عليك من إعادتك إلىٰ وِلَايتها ، فبالغ فى آستيضاح الأنباء وكشْفِها ، ورفع الْوَنْيَة فى ذٰلك وصَرْفها ، ووَكِّل به عَزْمة لا تُلِمُّ سِنَةٌ بطَرْفها ، وآنته فيه إلىٰ غايةٍ تَضيق سَعةُ القول بوَصْفها ، وتابع فى تسيير الطلائع ونَدْبها ، وعوِّل من كلِّ قبيلة من العُرْبان المستنهَضين علىٰ شَهْمها ونَدْبها ، وآجتهد فى حفظ الطُّرُقات والمَناهل ، وآستنهض للتحرُّز عليها من هو عالِمٌ بها غيرُ جاهل ، وتحفَّظ من خَلَل يتطرّق — والعياذ بالله — علىٰ البلاد وخَلَل يتخَلَّلها ، وآنتض لهـذه المهمات بصارم حدٍّ تَسْلم مَضارِبُه من عَجْز يفلُّها ، ولا تُبْقِ ممكنا فى إنفاذ المتخَبِّرين ، وإرسال من يُغير علىٰ بلاد العدُوّ من الخَبِيرين ، بما [أنّ] هـذه سبيلُ المتدرِّبين ، وألْزِم أربابَ الحدود من جميع الأقطار حِراسةَ حُدُودهم ، وخُذْهم باستنفاد وُسْعهم فى الاحتياط وآستفْراغ مجهُودهم ، وطالِعْ

بمـا يُورَد قِبَلك، وأنّه ما يُزيح بسُرْعة إجابتك عنـه فى الخِدْمة عِلَلك؛ فاعلم هـذا وٱعمل به، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة بولاية المُرتاحية، وهى :

خرج الأمر بكَتْب هذا المنشور وتضمينه : إنـ مَنْ أظهر خُلاصة جَوْهره السَّـبْك، وٱرتفع فى إشكائه بالإنصاف عن كل شائكِ الشّكّ، وحصل عنده [من] الخلال الزكيَّة نظْمٌ لا يَنْحَلُّ وعَقْد لا ينْفَكّ، وأَوفىٰ علىٰ التقدير والظنّ فى التدبير المفَرِّج به عن الرعيَّة الضَّنْك ـ ٱستوجب أن تُسنَد إليه حمايتُهم، وتجعَل إليه كِلاءتُهم .

ولمَّـا كنتَ أيها الأميرُ ممن أُحْمِد عند نَحْز عزْمه، وتجريب نصـلِ حَزْمه، وٱعتبارِ فَصْل مَقالته، وٱختبار أصلِ أَصالته، وشُكرٱستمرارُه علىٰ الآتصاف بمَحْض الولاء، وٱستِدْرارُه أخلافَ غُرَرِ الآلاء، وٱستثمارُه أصنافَ جَنَى الثَّناء، وٱستقرارُه أكناف وهْيِ الآعتناء؛ ولم تزلْ فى رِفْعتك وَجيها، وما بَرِح جميلُ الرأى يُديم بَعْثًا لتُحَف الإحسان نحوَك وتوجيهـا؛ وما ٱنفكّتْ مجاهَدتُك مجاهـدةً فى مهامّ إقدام تنْويها، وشجاعتُك ملاقيـةً علىٰ الكفّار كُلَّ كِفاح يلْقَوْن منه كَلًّا ثقيلا ويومًا كريها؛ ـ أُودِع هذا المنشور ما رُسِم من ٱستخدامك فى ولاية الأعمال المُرتاحيَّة .

فباشرْها معتمدا علىٰ تقوىٰ الله سـبحانَه التى تَقْوىٰ بهـا أسبابُ توفيقك وتنالُه، وتسـلَمُ أمورُ مباشرتك من خَلَل يكدّر ٱستبشارَك وينكّد . وٱعتمِد العـدلَ علىٰ من تشتمل عليه هذه الولايةُ وتَحْويه، وبالِـغْ فيما يزيل عنهم الحَيْفَ ويَزْويه؛ وٱقْصِدْ ما يَقْضِى لسِرْبهم بالتأمين، ويبلِّغهم من تحصينِ أوطانهـم غايةَ التأميل . وٱجعَلْ أيدى المفسِـدين مكفوفةً عن كافَّتهم، ووجُوهَ المعتدين مصروفةً عن إخافتهم؛

وتطلَّب الأشرار ، وتَتبَّع الدُّعّار ، ومَنْ ظَفِرت به منهم فلا تَكُن عن التنكيل به ناكلا ، ولا تُقَصِّر فى الحَوْطة عليه والمطالعة به عاجلا . وعامل النائبَ فى الحُكْم العزيز بإنهاضه ، وصَوْنِ مَدِيد باعه فى تنفيذ الأحكام عن آنقباضه ، وآعْضُدْه فى إنفاذ قضاياه ، وآختصاصه بإكرام يُقْبِل عليه مُطْلَقُ مُحيَّاه . وشُدَّ من الضامن فى آستيداء حقُوق الديوان وآستِنْطافها علىٰ أحسَن حال من غير خُروج عن الضرائب المستقِرّه ، وعوائد العَدْل المستَمِرّه . وتحرّزْ أن يكونَ لُمناهَضَة العدُوّ طُروقٌ إلىٰ ناحيتك أو آنْتِياب ، وشَمِّر للتحَفُّظ من مكايِدِهم تشميرًا يزُول عن حقيقته عارضُ الآرْتياب ، ولا تُبْقِ شيئا يمكِّن لأهل وِلَايتك قواعِدَ الأمَنَة منهم ، وتبَتَّلْ لِوِقايتهم أذاهم تَبتُّلَ من لا ينامُ عنهم . وطالِعْ بما يُحْتاجُ إلىٰ علمه من جهتك إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة بولاية السَّمنُّوديَّة ، وهى :

إنَّ أوْلىٰ مَن وَلِىَ الأعمال ، وتعلَّقت بكفايَتِه الآمال ، وعُدِقَت به المُهِمَّات ، وأُسْنِدت إليه الوِلَايات ، مَنْ نَطَقت بمَعْدَلَته الألْسنه ، وآنتفَتْ عن عيْن خِبْرته السِّنَه ، وكان حسَنَ السياسة لرعيَّته ، كثيرَ العِمارَة مدّة توليَته ، شَهْما فى آستِخْراج الحقُوق من جِهاتها ، صارمًا فى رَدْع المجرمين عن زَلّات النفْس وهَفَواتها ، حَسَنَةً سيرتُه ، خالصة مناصَحتُه وسَريرتُه .

ولَمَّا كنتَ أيها الأمير فلان ـ أدام الله تأييدَك وتسديدَك ، وحراستَك وتمهيدَك ـ أنتَ المتوَشِّحَ بهذه الصِّفات الحِسان ، المتَّصفَ بما تقدّم من الشَّرْح والبَيَان ، الذى نطقَتْ شمائلُك بشَهامَتِك ، وشهِدَت مخايِلُك بنَباهتك ـ خرج الأمر الفلانى بأن تتولّى مدينةَ سَمَنُّود وضواحيها ، وما هو معروفٌ بها ومنسُوبٌ إليها ، بشرط بَسْط

العدْل ونَشْره، وإعباق عَرْف الحق ونَشْره؛ وأن تُخَفِّف الوطأة عنهم وتفْعلَ ما هو أَوْلىٰ، وتعْلمَ أنك تُسْأل من الله تعالىٰ فى الأخرىٰ ومنّا فى الأُولىٰ؛ وأن تَصونَ الرعايا وتجتَلِبَ لنا أدْعيتَهم، وتعاملَهم بما يُطيِّب نُفوسَهم ويُبلِّغهم بُغْيتَهم؛ حتّى يتساوىٰ فى الحق ضعيفُهم وقَويُّهم، ورشيدُهم وغَويُّهم، ومَليُّهم ودَنيُّهم؛ وأن لا تُقيم الحدود علىٰ مَنْ وجبتْ عليه إلا بمقتضىٰ الشرع الشريف، والعدْلِ المُنيف؛ وأن تَشُدّ من نُوّاب الحكم العزيز، وتفْعل فى ذٰلك فِعلَ المهذَّب ذى التمييز؛ وأن تَحْسُر عن ساعد الاجتهاد فى الجمع بينَ استخراج جميع الحقوق الديوانية والعِمَاره، وتجعلَ تقوى الله هى البِطانةُ لك والظِّهاره؛ وأن تبذُل النهضة فى استخراج الأموال، وتحصيلِ الغِلال علىٰ التَّمام والكَمال؛ بحيثُ لايتأخَّر منها الدِّرْهم الفَرْد ولا القَدح الواحد، وتفْعلَ فى ذٰلك فعلَ المُشْفِق المشمِّر الجاهد؛ وأن تُديم مباشَرتك للأقْصاب فى حال بَرْشها وزراعتها وتربيتها وحملها، واعتصارها وطَبْخها، وتزكيةِ أثمارها؛ بحيث لاتكل الأمرَ فى شيءٍ من ذٰلك إلىٰ غير ذى ذِمَّة بمُفْرده، ولا إلىٰ من ليس بذى خِبْرة لايعلم مُشْقِ التصرُّف من مُسْعِده. وقد جعلنا لك النظرَ علىٰ جميع النَّواحى الجارِيَة فى ديواننا بالوجه البحرىّ خاصةً لتنظُر فى أمرها، وتزجُر أهلَ الجنايات بها؛ وتفعل فيها كلَّ مايحمَدُ به الأثرَ، ويَطيب بسَماعه الخَبَر.

فتقلَّدْ ماقُلِّدت، وقُمْ حقَّ القيام بما إليه نُدبت؛ واعملْ فيه بتقوَى الله فى سِرِّك وَجَهْرك، وقدِّم الخوفَ من الله علىٰ جميع ما تأتيه أو تَذَرُه من أمرك؛ وتَسلَّمه شاكرا لما أسدَيْناه إليك، متمسِّكا بما أوجَبْناه عليك؛ فإنَّ الشكر يُوجب مزيدك، ويُكثِّر عَديدَك .

وهذه نسخة بولاية النَّسْتراويَّة، وهى :

من عادتنا فى التدبير وشيمتنا، وسُنَّتنا فى السياسة وسيرتنا، إسباغُ المَوَاهب والنِّعم، وتنقيلُ عبيدنا فى مَراتب الخدَم، آسترشادا بأسلافنا المُلوك وآقتداء، وآستضاءةً بأنوارهم المشرقة وآهتداء .

ولمَّا كنتَ أيها الأمير ممن عُرِفَتْ بسالتُه، وآشتهرت شجاعتُه وصرامتُه، وآستحقَّ أن يُلْحَظ بعين الرِّعايه، وأن يشرَّف بالآرتضاء للتعويل عليه فى ولايه، — رأينا — وبالله توفيقُنا — آستخدامَك فى ولاية الأعمال النَّسْتراويَّة، وخرج أمرُنا إلىٰ ديوان الإنشاء بكتب هذا السِّجلّ بتقليدك ذٰلك، وتضمينه ماتعتَمد عليه، وتنتهى إلىٰ المَثَّل لك فيه .

فتقلَّدْ ماقُلِّدتَه عاملا بتقوىٰ الله فيما تُسِرُّه وتُعْلِنُه، معتمدًا فيها غايةَ مايستطيعه المكلَّف ونهايةَ ما يمكنُه، فالله تعالىٰ يقول إرشادًا للمُؤمنين وتفهيما : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيما ﴾ . وساوِ بيْنَ القَوىّ من هذه الولاية والضعيف، وَلَا تَجْعَلْ فى الحقِّ فرقًا بين المشروف والشريف، وآمدُدْ علىٰ كافَّتهم رُواقَ السُّكون والأَمنه، وأجْرِهم فى المَعْدَلة علىٰ العادة الجميلة الحَسَنه، وآفعلْ فى إقامة الحُدود علىٰ من تجب عليه ما يُوجِبه كتابُ الله الكريم، وتقْضى به سنَّةُ نبيه محمد عليه أفضلُ الصلاة والتسليم، وآدأَب فى حِفْظ السُّبُل والمَسالك، وآجتهدْ فى ذٰلك الآجتهادَ الذى يجب علىٰ أنْظارك وأمثالك، ومتىٰ ظفِرْت بمن يُؤذى مسافرا، أو يخيف واردًا أو صادرا، فطالِعْ بحاله ليُمثَّل لك فى التمثيل بما تعتمده، وتُؤمَر فى شأنه بما تنتهى

إليه وتقْصِده . وراعِ المستخْدَمين علىٰ الحكم والدعوة فهما يتولّيَان ما بإعزازه يقومُ مَنَارُ الإســلام ، وتجرى أمورُ الشريعــة علىٰ أجمل وَضْع وأحسَن نِظام . وخُذ المستخْدَمين فى الأموال الدِّيوانية بالآجتهاد فى العِمارة ، وحمْلِ المعاملين علىٰ ما تُوجبه المَعْـدَلة والحرصُ علىٰ ماوَفَّر الآرتفاع ، وحَمَاه من أســباب التفريط والضَّــياع ؛ واستنْهِض الرجال المستخْدَمين معك فيما ترى نَدْبَهم إليــه ، واستنهاضَهم فيــه ؛ فاعلَمْ هذا وآعملْ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة بولاية الإسكندرية ، وهى :

آهتمامُنا بمـا حاطَ ثغْرَ الإسكندرية ـ حماه اللهُ تعالىٰ وحصَّنَه ، ومنحه أتَمَّ حظ التفقُّد وأكمَلَه وأجمَل وضْع التعهُّد وأحسَنَه ؛ وقَوَّىٰ سببَ آستقامة شئُونه وآتِّساقِ أمورِه ومَكَّنه ، ومدّ ظِلَّ الدَّعَة والسكون علىٰ كافَّة من تَديَّره وســكَنَه ؛ وحَفظ عليــه نِظام النَّضَارة ، وأماط عنــه مَكْروهَ الأحوال الضاره ، وأنامَ أهْلَه علىٰ مَضْجَع الأَمْنِ ومِهــادِه ، وحَكَم بإحلالهم نُجودَ الآتحاد علىٰ المَصَــالح وإجلالهم عن وِهَاده ؛ وحَمىٰ سَــوامَ أموالهم من مَشْروبِ وِرْدٍ أُجاجٍ ومَرْعىٰ نبتٍ وخيم ، وحَبَاهم من رُسوم الإحسان وعوائدِه مالا ينطِقُ لسانٌ علىٰ زوائده بترْخيم ؛ ومَلا آمالَ الأعداء عن التطرُّق إليه إخفاقًا ، ورَدَّ نُصولَ سِهام مكايدِهم عنه علىٰ ما عُهِد من فضل الله سبحانه أفواقا ـ إذْ كان من أجَلِّ الثغور الإســلامية أوزارًا ، وأسبقها إلىٰ غاية التفضــيل آبتدارا ، وأكثرِها بمن حَوَاه من صــدور الدِّين وأئمة المسلمين آفتخارا ، وأفضلِها مَحَلًّا ولم يزل مَفْزَع السُّفَّار من كل جهةٍ رُسُلا وتجارا ـ أوجب أن نُســنِد ولايتَه ، ونَرُدَّ كلَاءتَهُ ، إلىٰ مَنْ يجرى فى التدبير علىٰ حكم سياســته المعلوم ؛ الحَسَنِّ

الأخذ بيَد المظلوم ، ويقُومُ بحسن التفويض والإئتمان ، ويعطى بَدَل السَّلامة من حقوق ٱنتقامه عهدةَ الأمان ؛ ويسلكُ فيما يُعدَق به طريقَ السَّـداد ويلزم نَهْجه ، ولا يمكنُ أن يكونَ له علىٰ غير الصـواب مَعَاجٌ ولا عَرْجه ؛ ويأخذُ فى كل أحواله بوَثائِق الحَزْم ، وتُحِلُّ له أعمالُه الصالحةُ من مَثْوىٰ المنازل الرفيعة ما هو علىٰ غيره من الحرام الجَزْم .

ولمـا كان الأميرُ المعنىَّ بهذا الوصفِ الواضح البيان ، المتكافئةَ فى ذِكر مَناقبه شهادةُ السَّماعَ والعِيان ؛ الكالئَ مايُناطُ به بقَلْبٍ ألمعِيٍّ وطَرْفٍ يَقْظان ، الحـالَّ من الوَرَع فى أسمىٰ مكان وأعلىٰ مَظَان ؛ الجامعَ فى إقامة شرع الإخلاص بينَ الفرائض والسُّنَن ، الموفيةَ عزائمُه علىٰ مَضارِب المُهَنَّدة التى لا تَقِى منها ما نعاتُ الجُنَن ؛ الفائحَ من نبئِه ما تُؤْثَر صِحَاحُ الأنباء عن عَليـل نَسيمه ، الجديرَ بمـا يُزَفُّ إليـه من عقائل جزيل الإنعام وجَسيمه ؛ وقد أبان فى ولايتـه بمطابقته بينَ شِـدّته ولِينِه ، وإقامة مَنَـار الإنصاف المُعرِب عن ٱمتدادِ باعه فى الحرب وٱنقباضِ يَمِينه ؛ وإروائه كافَّةَ أهلها من نَمِير العون علىٰ ٱستتبابِ الأمورِ ومَعِينه ــ خرج أمرُ الملك العادل بتقليده ولايةَ ثغر الإسكندرية حماه الله تعالىٰ والبحيرة .

فلْيتقلَّدْ ماقلَّده إيَّاه ، ويباشِرْه منشرحا صدرُه متهلِّلا مُحَيَّاه ؛ ولْيعتمدْ علىٰ تقوىٰ الله التى هى خيرَ عَتَاد ، وأفضلُ ما ٱعتُمد عليه فى الحياة الدُّنيا ويومَ يَقُومُ الأَشْهاد ؛ وهى نجاةُ أهل اليقين ، وفوزُ المتقين ، قال الله تعالىٰ : ﴿ يٰأَيُّها الَّذِين آمَنُوا ٱتَّقُوا اللّهَ وكُونُوا مَعَ الصَّادِقِين ﴾ .

ولْيبالِـغْ فى نَشْر رايةِ العدل ومَدِّ جَنَاحه ، وتعْفِيَة أذَىٰ الجَوْر وٱجْتياحه ؛ ولْيشْمَلِ الصغيرَ والكبيرَ من أهـل هذه الولايةِ بِردَاء النَّصَفه ، ويعاملْهم بالجميـل المُوفى علىٰ

الصِّفَه ، ويُقِم الحدُودَ علىٰ مستوجبيها ، وينته إلىٰ الغاية فى تجنُّب إضاعتها وتوقِّيها ؛ وليدُلَّ علىٰ المفسدين عينَ من يتتبَّع وُقُوعَهم فى قبضته ويتطلَّب ، ويقابلْ كلًّا منهم بما يرىٰ متعقِّبا بإيماض بَرْق المُعاقبة غير خُلَّب ؛ ولا يُبْقِ مُمْكِنا فى التنقيب علىٰ مرتكبى الآثام ، والمرتكنين علىٰ سَفْك الدم الحرام ؛ ومَنْ ظفر به منهم فلْيُحكِّمْ فيه شَبَا ظُفُر الآنتقام ونابه ، ويقابِلْه من الرَّدْع بما يُؤَمِّن من معاودَة عادات التعدِّى علىٰ كل حَقِيرونابِه . ولْيجْرِ علىٰ عادته فيما يَسِّير عنه أحسَنَ السُّمْعه ، ويشهَدُ له بالتنزُّه عن خَبِيث الطُّعْمة وقبيح الطَّمْعه . ويشدّ من القاضى متولِّى الحكم فيما يُصْدِره ويُورِده ، ويَحُلُّه ويعْقده ، ويُمضيه من الأحكام الشرعيه ، ويعتمده فى القضايا بما لَدَيْه من الألمعيَّه . ويعاضِد المستخْدَمين فى الأموال معاضدة تُثَمِّره ، وتَنمِّى الآرتفاعَ وتُوَفِّره ، وتَعُودُ علىٰ الديوان بالحظّ الوافى ، وتُعْرِب عن كَوْنه بمثل هذه الولاية نِعْمَ الكُفْءُ الكافى . ويعامِلِ التُّجّار علىٰ تبايُنِ بُلْدانهم ، وآختلاف ألسنتهم وألوانِهم ، معاملةً يجْمُل أثرُها ويحْسُن ، ويتلقَّهم ببِشْر وطلاقةٍ تَنْطِق بشُكْر آستبْشارِهم بها الألْسُن ؛ ويحفَظْهم فى أنفسهم وبضائعهم ، ويستنفِدِ الوُسْع فى دَفْع مَضَارِّهم وروائعهم . ويعتمِدْ بَعْث رجاله علىٰ الآستعداد للجهاد ، والتأهب لِقِراع الأضْداد . وينْته إلىٰ الغاية فيما يُزِيل منهم آعتذارًا ويُزِيح آعتلالا ، ويوجِبُ لهم الآقتدارَ علىٰ مكافَحَة عَدُوٍّ إن طرق الثَّغْرَ والعياذُ بالله تعالىٰ .

وهذه نسخة بولاية بَرْقَة ، وهى :

من حقِّ الأطراف المتناهية فى بُعْد أقطارِها ، والبلادِ الشاسعةِ عن ثَوَاء المَمْلكة ومَحَلِّ آستقرارها ، التى آنتظمَتْ فى سِلْك أعمال المملكة الناصريَّة وآنخرطَتْ ،

وآستدركَتْ مُعِدّاتُها لمن حوَته فوائتَ الفوائد التى سلَفتْ وفَرطتْ ـ أن يُديم أكِيدُ الآهتمام لها التحصينَ والتحْسين، ولا يُغبَّ أهلَها مايغشاهم من الملاحَظات مصْبِحين ومُمْسين؛ وتُزْجِىَ لهـا سحائبُ كَرَم التعهُّد عِهادَه غَدَقا، ويُعْمِلَ الأولياءُ فى حيَاطتها من الغُمود ألسِـنةً ويُذْكُون دُونَها من القَنَا حَدَقا؛ ويفوّض أمورَهم إلىٰ مَنْ تخِفُّ علىٰ يده كُلْفَتهم، وتجتمع بحُسْن سِيرته أُلْفَتُهم؛ ويشتَمِل من عِنايته عليهم آشتمالَ الصدَفة علىٰ القُلُوب، وتنيلُهم مهابتُه من كَفِّ عَدْوىٰ العِدا كلَّ مؤْثَرٍ مطلوب .

ولمـا كنتَ أيُّهـا الأمير من أمْيَز سالِكى هذه الطرائق، وأمثلِ فُرْسان الحُرُوب وحُمَاة الحقائق، وأشجَعِ المجاهدين فى الله حَقَّ جِهاده، وأجْسَرِهم علىٰ إصلاء الشِّرك ضِرامَ فتكٍ لايُخْشىٰ إصلادُ زِنَاده، ولك السياسةُ التى تُرتِّب بينَ الأُسُود والظِّباءِ آصطحابا، والمخالَصـةُ التى لاتُناجىٰ إذا وُصِفَتْ بالتغالى فيها ولا تُحابىٰ ـ خرج أمر الملك العادلِ بكَتْب هـذا المنشورِ لك بمـا أنعَمَ عليك بولايته وإقطاعه : وهو بَرْقةُ بجميع أعمالها وحُقُوقها : من العقَبة الصُّغرىٰ وإلىٰ آخر حدُودها، وبمـا أَمَر به كافَّةَ العُرْبان المقيمين بهذه البلاد، وجميعَ أهلها من حاضرٍ وباد : من الإعلان لك بشِعار الطاعه، وصَوْنِ ما يلزَمُهم أداؤه إليك من فروض النُّصْح عن الإضاعه؛ وأن يبذُلُوا فى موافقتك غايةَ الآجتهاد، ويعتمِدُوا من آمتثال مراسِيمك أحسَنَ آعتماد؛ ويحذَرُوا من العدول عن أمرك، ويجتنبوا مخالفة نَهْيِك وزَجْرك .

فاستمسِكْ بحبل التقوىٰ الفائزِ من يعتصِمُ به ويتعلَّق، وآستشْعِرْ من خيفة الله ما يُشْرِق لأجله عليـك نُورُ الرِّضـوان ويتألَّق، قال الله تعـالىٰ فى كتابه المكنون : ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ . وعامِلْ أهلَ هذه الولايةِ بالإنصاف، وإيَّاك ومكْروهَ العُـدُول عن مَحجَّة العدل والآنحراف؛ وتوقَّ العَسْف بهم والحَيْف

عليهم ، وٱجتنب الترخيصَ لأصحابك فى مدّ يد أحدٍ منهم بعُدْوانٍ إليْهم ؛ وسِرْ فيهم سَيْرةً ترؤُف بهم وترفُق ، وجانِبْ سبيلَ من تقوم عنـده أسواقُ ٱختلاق المتخرّصين وتَنْفُق ؛ ولا تخرُجْ فى تدبير الأمور عن قانون الشّريعه ، ولا تجعلْ لك إلىٰ فَوْز الآخرةِ عن تقديم العمَل الصالح من ذَريعه . وغُلَّ عنهم أيدىَ حاضرى المفسدين و باديهم ، وأَبِنْهـم بالمهابةِ عن إصرارهم علىٰ المنـكرات وتمـاديهم ؛ وكلْ بهم عَزْما رادعًا لهم وازِعًا ، ونكِّل بمن ظَفِرت به منهم تنكيلا يَزْجُر مَنْ يظَلُّ بحر الضّلال نازعا . وشُـدّ من خُلَفاء الحـكم العزيز فى تنفيذ قضاياه ، وخُصَّهم من الكرامة بمـا تقتضيه إقامةُ مَنَـاره و إنارةُ مَزَاياه . وٱعتمدْ مايُعيـد الحقائقَ بوجُوه ناضره ، ويردّ الأباطيـلَ بصَفْقةٍ خاسره . وراعِ أمورَ التُّجّار والحُجّاج مراعاةً تشـمَلُهم فى السفَر والإقامه ، وتحميهم من تطرّقِ ٱستهانةٍ إلىٰ أحد منهم وٱستِضامَه ؛ وطالِـع بما يتجدّدُ من أحوال خدمتك ، وما يُحتاج إلىٰ علمه من جِهَتك ؛ إن شاء الله عز وجلّ .

وهذه نسخة بولاية الْفَرَما ، وهى :

نحنُ لمـا ضاعفَهُ الله لدَيْنا من إحسانه وأجْزَلَه ، وعَدَقه بنا من تدبير أمور الخلْق وأسنده إلينا وَوَكلَه ، نعتمد عبيدَنا بتوفير الرِّعاية لهم والإكرام ، ونُحافظ علىٰ مايغْمُرهم من شامل الإفضال وسابغ الإنعام ؛ فنقدِّم للخِدَم من خَطَبها بخلوص طاعتِه ، ونؤهِّل للرُّتَب من أبانت شِيَمُه عن خبرته ومناصحتِه .

ولَمَّـا كنتَ أيُّها الأمير ممن ظهرَتْ مشايعتُه ومُوالاته ، وحسُنت فى مكافَحة الأعداء مشاهدُه ومَقاماتُه ، ووضحتْ فى أفعاله دلائلُ النُّصح وبانتْ عليـه سِمَـاتُه ؛ ولك مَسَـاعٍ مشكُوره ، ومواقِفُ مشهوره ، ومقاصـدُ هى من مآثرك معـدودةٌ

وفى فضائلك مذكوره، رأينا ـ وبالله توفيقُنا ـ آستخدامَك فى ولاية الفَرَمَا والجِفَار (١) : سكونًا إلىٰ رضا مذهَبِك ، وثقةً بانتظام الحال فيما يُردُّ إليك ويُناطُ بك ؛ وخرج أمرُنا إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السجلّ بتقليدك الولايةَ المذكورة وتضمينه مانأمُر به ونَرسُمُه، مما يَهْديك إلىٰ الصواب فتَتَمسَّك به وتعكُف عليه وتلْزمُه .

فتقلَّدْ ما قُلِّدْته شاكرا علىٰ هذه النُّعمىٰ، عاملا بطاعة الله تعالىٰ ومراقبته فى السر والنجوىٰ، وآعتدَّها زادا إلىٰ الآخرة تطمئن به القلوبُ وتَقْوىٰ، قال الله عز من قائل فى كتابه : ﴿ وتَزَوَّدُوا فإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوىٰ ﴾ . وآعتمِدْ فى أهل هذه الولاية نَصَفَةً تعُمُّهم ومَعْدِله ، وسُمْهم سياسةً تكون لسنَّة الخير مؤكِّدة ولسُنَّة الجوْر مبدِّله . وماثِلْ فى الحق بين قَوِيِّهم وضعيفِهم، ولا تجعل مزيَّةً فى الواجب لشريفِهم علىٰ مشروفِهم ؛ وآنتصِفْ للظلوم من المتعدّى الظالم، وآعمَلْ بالكتاب والسنَّة فى الحدود التى تُقيمها علىٰ ذَوِى الجرائر والجرائم ؛ وآنتصِبْ لحفظ الطُّرُقات، وصَوْنِ الصادرين والوارِدِين فى جميع الأوقات ؛ ونكِّل بمن تظفَرُ به من المفسدين ، وآجعله عِظَةً لأمثاله من الظالمين والمعتدين ؛ وعاضِد النائبَ فى الحكم العزيز معاضدةً تقضى بإعزاز الجانب، وساعِده مساعدةً تنفُذ بها أحكامُه علىٰ قَضيَّة الواجب ؛ وكذٰلك مُتولِّى الدَّعوة الهاديَّة فهى مِصْباح الزمان، وبإشادة ذِكره تَقْوىٰ دعائمُ الإيمان ؛ فاجتهِدْ فى تمييز متولِّيها وإكرامه ، وبلِّغْه فى ذٰلك غايةَ مطلوبه ومَرامه . وتوفَّر علىٰ الشدّ من المستخْدَمين فى الأموال ، وراعِ [ما يحسن] لدينا فيما تنظُر فيه من الأعمال ؛ وآحرِصْ علىٰ ماعاد بوُفُور ارتفاعها ،وأجْرِ أحوالَها علىٰ أفضل رُسُومها وأوضاعها ؛ بحيثُ يكونُ العدلُ منبسطا منبَثًّا ، والحَيْفُ منحسما مستأصَلا مجتثًّا ؛ وأجْمِل صحبةَ الرجال المستخْدَمين معك ، وأحسِنْ معاشرتهم مع مطالبتهم بملازمة

(١) كانت عدّة قرى ومن مدنها العريش والورّادة ورَفَح وقطية وقس والزعقا . انظر معجم البلدان .

الخدمه، وآستنهاضهم فى الأمور الشاقّة المهمّه؛ فاعلَمْ هذا وآعمل به، وطالِع بما تحتاج إلىٰ المطالعة به؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة بولاية عَسْقلان، وهى :

من شِيَمِنا التى غدَتْ للصالح ضَوامن، وعلَتْ فكُلُّ متطاولٍ عنـدها مُتطامِن؛ وهِمَمنا الكافلة [للرعيَّة] بما يُقِرُّ عيونَها، والقاضية للخاصَّة والعامَّة بما يوجب طُمَأْنينَتَها وسكونَها؛ أنعَمْنا النظرَ فيما نَزَعاها به ونسُوسُها، وأعملنا الفِكْرَ فيما يستقيم به أمرُها ويزولُ معه بُؤسُها؛ فيقف [بنا] الآجتهادُ فى ذٰلك علىٰ مَحَجَّة الصواب التى لاضَلالَ فى سُلُوكِها، ويُفْضِى منا الحرصُ إلىٰ غايةٍ لم يبلُغْها أحدٌ من مدبِّرى الدول ومُلُوكِها؛ فننتخِب لخطير الخِدَم من كان قئُوما بها مستقِلًّا بآصارها، ونَنْتَجِب لجليل الرُّتَب الأعيانَ من أمراء دولتنا وأنصارِها؛ حِفْظا لما آستُحفِظْناه من أمور العِباد والبِلاد، ورَفْعا لعِماد الصَّلاح وحَسْما لموادِّ الفساد .

ولَمَّا كنتَ أيها الأميرُ من الأولياء الذين صفَتْ فى المخالصة ضَمائِرُهم، وحسُنَتْ فى الطاعة عقائدُهم وسرائِرُهم؛ ونالُوا من نَبيه الحظِّ ماأطنبَ الواصفُ فيما يذكره منه ويَرْويه، وأحمَدُوا المناصحةَ فيما رَقَوْا فيه من دَرَج التنويه؛ وقد آستُكْفِيت مهمَّاتٍ من الخِـدَم فكَفَيْت هَمَّها وخفَّفت ثِقْلَها، وأُهِّلت لولايات سَـنِيَّة فحَمَلْت كَلَّها، وكنت مستحِقًّا لها وأهلَها؛ فلك مَواتُّ حميدةٌ من حَسَن المقاصد ومشكور المَساعى، وحُرُمات أكيدةٌ ظلَّتْ علىٰ آصطفائك من أوْفَى البواعث وأقْوىٰ الدَّواعى؛ وكانت مدينـةُ عَسْقلانَ ــ حماها الله تعالىٰ ــ ثغرَ الإسلام الذى لا ثغرَ له فى الشام سواه، والرِّباطَ الذى مَنْ كان به فقـد نال الثوابَ الجزيلَ وأحرَزَه وحَواه؛ وهو فى عُيون الكفار ــ خذَلهم الله ــ نُكْتَه، وأسبابُ طَمَعهم فيه منقطعةٌ بمحاماته منبَتّه؛ ونحن

نُوفِّر آهتمامَنا عليه رعايةً لمكانه المكين ، ونَنتصِى الكُفاةَ لتوليه (١) توصُّلا إلى النِّكاية فى المشركين ؛ وهو مَعْقِلٌ للسلمين المجاهدين وردٌ ، ومُجاوِروه قوم لُدٌّ ، وأمرُهم أمْرٌ إدٌّ ؛ فيجب أن يُرتادَ لضبطه النَّدْبُ الذى لا تُهْتَبَل غِرّتُه ، ويُسامَ لحفظه العَضْبُ الذى لا تُتَّقَى ضرْبَتُه ، ويُختار لصونه الشهمُ الذى تقِف على المصالح هِمَّته ، وتنفُذ فيها عَزْمَته ؛

وحين كانتْ هذه الصفاتُ فيك موجُوده ، وظلَّت محسوبةً من خلالك معدوده ؛ رأينا ـ وبالله توفيقُنا ـ ماخرج به أمرُنا إلى ديوان الانشاء من كَتْب هذا السجِلِّ بتقليدك ولايةَ هذا الثغر وضواحِيه ، وعمله ونواحِيه ؛ ثقةً بمشهور مَضَائك ، وعلمًا بإبرارك على نُظَرائك .

فتقلَّد هذه الخدمةَ عارفًا قدْرَ ماخُوِّلت منها ، وعاملا بتقوى الله وخِيفَته فى جميع ماتأمُر به وتَنْهى ؛ فإن تقواه الجُنّة الواقيه ، وإن خِيفَته الذّخيرةُ الباقيه ؛ وقد وعد اللهُ المتقين بتيسير الأمور ، وتكفيرِ السيآت وإعظام الأُجُور ؛ قال الله عز من قائل : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرا ﴾ . ثم قال : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرا ﴾ . واستعمِل العدلَ فى جميع من يشتمِلُ عليه عَمَلُك ، ويجرِى عليه تولِّيك ونظرُك ؛ وساوِ فى الحق بين الضعيف والقوىّ ، وماثِل فى الحكم بين القريب والقَصِىّ ؛ وإذا ثبت على شريفٍ حقٌّ فلا تُحابِه لرُتْبتِه ، وإذا ثبَت لوضيع فخذه ممَّن لزِمه وآستقرّ فى جِهَته .

وآعتمد من الأمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر ما يَستَنْطِق بالثناء عليك ألْسنةَ المادحين ، وينظِمُك فيمن عَنَاهم الله تعالى بقوله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ

(١) فى القاموس وغيره «آنتصيت» أى بالصاد المهملة «الرجل آخترته» فتنبه .

ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾ .

وأقم الحدود على من لزمته بما أمر الله به إقامة [تجرى بها] مجراها ، وتوق الزيادة فيها والنقص توقي من يتمثل المجازاة كأنه يراها . وهذا الثغر لمحله وسمو مقداره ، وقرب العدو منه ودنو داره ؛ لا يقنع له بمركزيته ، ولا يكتفى في حقه بمرابطيته وقراريته ؛ فنحن نسير إليه العساكر المظفرة دفعتين في كل سنة على حكم البدل : فيرده عسكر جديد مزاح العلة ، كثيف العدة ، وافر العدد ؛ يؤثر أن يظهر أثره ، ويحافظ على ما يطيب به ذكره وخبره ، فبث السرايا وشن الغارات ، وضيق على العدو فسيح النواحي والجهات ؛ وجهز إليه من يخيفه في مآمنه ، وابعث عليه من يطرقه في أحرز أماكنه ؛ واندب من يطالعك بخفي أخباره ، ويظهر لك باطن أموره ومستور أسراره : لتنتهز فيه الفرصة إذا لاحت مخايلها ، وتبادر الغفلة منه إذا ظهرت دلائلها . واجعل للمتطوعين من الكنانيين نصيبا من ثواب الجهاد ، واحملهم على استفراغ الوسع بغاية الحرص والاجتهاد ؛ وافعل في هذا الباب ما تتضاعف به مواد الأجر ، وتنتسخ به الأوزار كما ينتسخ الظلام بضياء الفجر ؛ واعضد متولي الحكم العزيز عضدا يعلي أمره ، ويشد أزره ؛ ويحرس نظامه ، وينفذ قضاياه وأحكامه ؛ وكذلك متولي الدعوة الهادية ـ ثبتها الله تعالى ـ فاعتمده بما يشرح صدره فيما يوضحه للمؤمنين ، ويهدى به المستجيبين والمتدينين ؛ ووفر موفر اهتمامك على مرافدة من يتولى أمر المال وما يجرى في الخاص لتدر أخلافه ، ويزكو ارتفاعه ، وتغزر مادته ، ويتوفر مستخرجه ؛ ويحتمى من خيانة وتحيف ، ويسلم استيداؤه من تريث وتوقف . واستنهض الرجال المستخدمين في الأمور السوانح ، وصرفهم فيما ترى تصريفهم عليه من أسباب المنافع والمصالح ؛ واستمطر

الإحسانَ لمن أحمدْتَ طريقتَه ، وقوِّم بالتأديب من ذَممت فعله وكرِهتَ سَيرْتَه ؛ فاعلم هذا وآعملْ به ، وطالع بما يُحتاج إلىٰ المطالعة بمثله ؛ إن شاء الله عز وجل .

ومن المكتَتَب بالوظائف الديوانيـة من هذه المَرْتبـة نسخةُ توقيع بنظر الدَّواوين ، وهى :

أحقُّ الأعمال بأن يُنْعَمَ فيها النظرُ الشافى ، ويُنْدَبَ لحمل عِبْئها الأمينُ الكافى ، ويُجَالَ النظرُ فى تقليدها للقَيِّم بأمرها ، ويُعمَلَ الرأىُ لآرتيادِ القوىّ علىٰ ضبطها وحَصْرِها ، ماكان منها جامعًا لمَصَالح الدولة ، حائزًا لمَهامّ المملكة : وهى أعمال الدِّيوان ، والنظرُ فى حفظ وُجُوه الأموال وما يُعين علىٰ آستِنْمائها ، ويعودُ بالزيادة فى أصول أبوابها ؛ إذ كان ذٰلكَ مِلاكَ الأمور ، وزِمامَ التدبير فى حِفْظ الجُمْهور ، والمَعُونةَ العُظمىٰ علىٰ الآستكثار من الرجال الذين بهم يتمُّ حفظُ البلاد وحمايةُ الثُّغُور .

ولَمَّا سَلَّطْنا البحثَ علىٰ آستصلاح من نؤهِّله لهذه المنزلة ، وآستخلاصِ من نُحِلُّه بهذه المرتبة ، أدّانا الآختبارُ والآنتقاد ، وآنتهىٰ بنا الآعتيامُ والآرتياد ؛ إلىٰ آختيار الشيخ فلان : حينَ سَفَرَتْ له النَّباهةُ فى الكِفايَه ، والوَجَاهةُ فى الخِبْرة والدِّرايه ؛ وجب ... ...(1) علىٰ آختصاصه بالفَضْل الذى تحلَّىٰ بأدَبه ، والعَفَاف الذى آشتَهر من مذهبِه ؛ من الخصال الحميده ، والخِلال الرَّشيده ؛ والفضائلِ الموروُثة والمكتَسَبه ، والخلائقِ المُنْتقاة المهذَّبه ؛ ورأيناه أهلا لإحْلال هـذه المَكانه ، وعَدْلا قَيِّما باحتمال هـذه الأمانَه ؛ وعلِمْنا أن الصنيعةَ عنـده زاكيةُ المَغَارس ، والنعمةَ المُفاضةَ عليه ضافيـةُ المَلابس ؛ فقلَّدناه أمر الديوان بحَلَبَ وما معها من البلاد المضافةِ إليها

(1) بياض بالأصل بقدر كلمة .

والداخلةِ فى حكمها : قاصى ذلك ودانيه ، وأَوَاسطه وحَوَاشيه ، مقدِّمين الاستخارةَ فيما نُبْديه من قول ، ونعزم عليه من فعل .

وأمرناه أن يَستشعر تقوىٰ الله سبحانه فإنَّها الجُنَّة الواقيه ، والذخيرة النافعةُ الباقيه ؛ و يعتلق أسبابَها فإنها المُنجِّية من المهالك ، الهاديَةُ إلىٰ السُّبُل الواضحة إذا آشتبَهت المَسَالك ؛ محقِّقا ماتوسَّمناه فيه من مَخايِل الأصاله ، ودلائل الجزاله ؛ مصدِّقًا ما آستلمحناه من كِفايَته وغَنَائه ، وآستوضَحْناه من آستِقْلاله وآستِقصائه . وأن يبدأ فيرتِّبَ فى كل مُعاملة أمينًا من الثِّقات الكُفَاة ، مشهوداً له بالنَّهْضة والأمانة المستَوْفاه . وأن يَزُمَّ الأعمالَ القاصيةَ والدانيه ، والبلاد القريبةَ والنائيه ؛ بالضبط المستقْصى ، والحفظ المستوفى ؛ و بمن يرتِّبه عليها من الكُتَّاب الأُمَناء ، و يستصلحُه لها من الحَفَظة النُّصحاء . و يتتبَّع حال مَنْ بها من النُّوَّاب : فمن شهدت له التجربةُ بالكفاية ، ودلَّ الآختبارُ منه علىٰ العفَّة والأمانة ، آستدامه فى خدَمه المَنُوطة به ، وطالَعَ من حاله بما يَقْضِى له حُسْنُ النظر بحسبه ؛ ومَنْ ألفاه متنكِّبًا سبيلَ الأمانه ، مقارفًا طريقَ العَجْز والخيانه ، بادرَ إلىٰ الآستبدال به ، وعَجَّل قطْعَ ما بينه من الخدمة و بين سببه . وأن يستَرْفِعَ البواقىَ من الأموال ، فى سائر الجهات والأعمال ، إلىٰ آخر التاريخ الذى تليه مباشَرتُه ، و يتصلُ بآخره مبدأُ نظره وفاتحتُه ؛ موشَّحةً أوراقُ ذلك بخطوط الأمناء ، مفصلةً جهاتُه بأسماء المعامَلين والضُّمَناء ؛ حتّى إذا حُملت إليه ، وصارتْ حُجَّة علىٰ رافعِها فى يديْه ؛ طالبه بموافقة مَنْ هو فى ذمَّته ، وتقدّم بعدَ تصديقه علىٰ ذلك بمضايَقته بعد المطالعة بجلىّ الحال وحقيقته . ثم يَسْترفع من مستوفى الديوان وعُمَّاله شروطَ الضُّمَّان و رسومَهُم ، وقواعدَهم فى الضمان وعوائدَهم : ليكون علمُ ذلك عنده مبيَّنا ، ووقْتَ مَسَاس(١) الحاجة إليه حاضرا . و يطالب بجرائد الضِّيَاع خاصِّها ومُقْطَعِها المشتملة علىٰ ذكر رُسُومها وحُقُوقها ؛ وعدد فُدُنها

(١) الأولى بل الصواب مسيس الحاجة .

ومَقَاسِها . وجرائِد الخَـرَاج اللازِم لأرباب الأملاك علىٰ أملاكهم، وتحقيق المصفُوح عنه والمسامَح به والباقى علىٰ الأداء فى جهتـه . وجرائِد الجزية مفصَّـلةً فى نواحيها، وأسمـاء أربابها إلىٰ حينِ رفْعها ـ وأن يطالب نوّابَ الجزية فى كل شهر بختمة تتضمّن ذكرَ مَصَارف مايُحوّل إليهم، وإقامة وُجُوه المال الذى جُمِع عليهم؛ مفصَّلة مميِّزة الاَّبتياعات عن الإطلاقات، والضِّيافاتِ عن السُّفرات والإصطبلات؛ وكذٰلك نوّابُ الأهراء يسترفع منهـم مايدُلُّ علىٰ مثل ذٰلك، وسائرُ المتولين فى سائر الخِدَم يطالبهم بهذه المطالبه، ويضيِّق عليهم فى مثل ذٰلك سبيل المغالطة والموارَبَه؛ ويجعل مؤاخَذَتهم بذٰلك من الأمور الراتبَه، والوظائِف اللازمةِ الواجبه؛ حتّٰى يتبيَّن له الكافى من العاجز، والأمين من الخائن .

ولْيتأمّـلْ وجوهَ الإخراجات ، ومبلغَ الإطلاقات والإدْرارات ؛ ويستَرْفِعْه من مظانِّه مفصَّلا بجهاته ، منسوبًا إلىٰ أربابه ؛ ويتقدّم بكتْب مؤامرةٍ جامعة لذٰلك التفصيل ، دالة على المقـدار المطلق فى كل سـنة محكِّم النظر الدقيق دونَ الجليل؛ وليعتمِدْ فى إطلاق ما يُطْلَق منها علىٰ سبيل ما يوقع به عند ذٰلك ، وليكن هـذا من الأمور الجارية علىٰ العادة والرسم ، ويلزمه كلٌّ من نُوّاب الديوان .

ومن المكتتب منها بالوظائف الدينية نسخةُ تقليدٍ بولاية الحِسْبة، من إنشاء الوزير ضياء الدين بن الأثير، وهى :

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ .

هذا أمْرٌ يشتمِلُ علىٰ معْنىٰ الخُصوص دونَ العُمُوم ، ولا يختصُّ به إلا ذَوُو الأوامر المُطاعة أو ذوُو العُلُوم ، وقد منَحَنا اللهُ هذين الوصفين كِلَيْهما ، وجعَلَنا من المستخْلَفِين عليهما .

فلْنَبدأْ أوَّلا بحمده الذى هو سبب للمَزيد ، ثم لنأخُذْ فى القيام بأمره الذى هو علىٰ كلِّ نفس منه رقيبٌ عَتيد ، ولا ريب أن إصلاحَ العِباد يسْرِى إلىٰ الأرض حتَّى تزكُوَ بطُونُها ، وتَنْمُوَ عُيونُها ، ويَشترِكَ فى بركات السماء ساكنُها ومسكونُها ، والأمرُ بذٰلك حِمْلٌ إن لم تتوزَّعْه الأكُفُّ ثقُل علىٰ الرقاب ، وإذا آنتشرتْ أطرافُ البلاد فإنها تفتقرُ إلىٰ مساعَدةٍ من مستنيب ومستَنَاب ، وقد آخترنا لمدينة كذا رجلا لم نأل فى آختياره جُهْدا ، وقدّمنا فيه خِيرةَ الله التى إذا صدقتْ نِيَّتُها صادفَتْ رُشْدا ، وهو أنت أيها الشيخ فلان .

فابسُطْ يدَكَ [بقوّة][1] إلىٰ أخذ هذا الكتاب ، وكُنْ حسنةً من حسَناتنا التى ثَمَّ يرجَح بها ميزانُ الثواب ، وحقِّق نظرَنا فيك فإنه من نُور الله الذى ليس دُونَه من حجاب .

وآعلَمْ أنَّ أمر الشريعة مبنيٌّ علىٰ التيسير لا علىٰ التعسير ، ولا يضَعُ اللسانَ موضعَ السوطِ إلا من أُوتِى زيادةً فى التفسير ، وفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم منْدُوحةٌ لمن لزِمها ، وهى هدًى لمن عمِل بها ونورٌ لمن علِمها ، ويكفى من ذٰلك قصةُ الأعرابىّ الذى أتىٰ حاجتَه فى المسجد فسارع الناسُ إليه ، فنهاهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إنَّما بُعِثْتُم ميسِّرين ولم تُبعَثوا معسِّرين ، ثم دعا بذَنُوب من ماء فصبَّه عليه وقال : ياأخَا العرَب إنَّ المساجدَ لم تُوضَعْ لشَيْء من هٰذا وإنما وُضِعَتْ للصَّلاة وقِراءةِ القُرْءان » .

(١) الزيادة من "المثل السائر" ص ٤١٦ .

فانظرْ إلىٰ هذا الرِّفق النبوىّ الذى شَفىٰ وكَفىٰ ، وعَفَّىٰ علىٰ أثر المعصية لَمَّا عَفَا ؛ ولو عاد ذٰلك الأعرابىّ لمثلها لَنُقِل عن لين التهذيب ، إلىٰ شدّة التأديب ؛ وكذٰلك فكن أنت فى الرفق الذى حُدِّثْتَ عنه ، ومَنْ عادَ فَيَنْتَقِمُ اللهُ منه .

ونحن نأمُرك أن تحتسب أوّلًا بلين القول لا بالأَنَف [و] النكير ، وأن تترفَّق فى الموعظة التى هى طريق إلىٰ الخشية والتذْكير ، وأن لا تكون باحْتِسابك مُدِلًّا بأنّك علىٰ الصراط المستقيم ، وأن الناس بيْنَ يديك علىٰ سَنَن التثقيف والتقويم ؛ فإن من أكبر الذنوب ذنبَ الإعجاب ، والأَوْلىٰ لك حينئذٍ أن تعودَ علىٰ نفسك بالاحتِساب (١) ؛ ومن أَدَبك وأَدَب أمثالك أن يقف فى أَمْرِه بالمعروف مع التقْوىٰ لامع هَوَاه ، وأن لا يُفَرِّق فى إزالة المعصية أن تكون بيده أو بيد أحدٍ سواه ؛ وإذا كنت كذٰلك قَرَنك الله بمَنْ أنزل السكينةَ علىٰ لسانه ويده ، وقوّم له أَوَدَ الناس لتقويم أَوَدِه ، والله ينظُر إلىٰ قَلْب ٱبنِ آدم لا إلىٰ عَمَله ولا إلىٰ جَسَده . وعليكَ بالمجاهدين الذين سُلِب عنهم ثوبُ العافيه ، ومَن ٱختفىٰ منك بالٱستِتار فلا تكْشِفْ عن حاله الخافيَه . وأما ذَوُو الهيئات فإنّ عثَراتِهم تُقال ، وأعراضَهم لاتُذَال ، ولرُبَّما كان التجاوُزُ عنهم داعيا إلىٰ الٱنتقال ؛ وفى قصة أبى مِحْجَنٍ وسعْد ماينبِّئُك أنّ الحياء أغنىٰ فى الٱزْدِجار ، وفى الناس أذنابٌ لا قَدْر لها تَذُبُّ عنه ورُءوسٌ تَذُبُّ عمّا لها من الأقدار . وهاهنا من ضَروريّات الوصايا ما يُؤْتىٰ فى مثله بتوكيد الأقوال ، وأكثَرُ ذٰلك يدُور فى المعاملات التى ألِفَها قومٌ دون قوم ، وٱستمَرُّوا عليها يومًا دُونَ يوم ؛ وقد أتىٰ منها ما ٱتّفق علىٰ العمل به كلُّ فريق ، وأيسرُ ذلك إزالةُ النُّخَامة من المسجد وإماطةُ الأذىٰ عن الطريق .

---

(١) فى القاموس ٱحتسب عليه أنكر ومنه المحتسب .

وهذه الوصايا كلُّها لا تفتقر فيها إلىٰ التوقيف ، وأنت عالمٌ بوضع كلمها فى مواضعه وغيرُك الذى يتعدَّى إلىٰ التحريف ؛ فامضِ علىٰ السَّنَن ، وأْتِ بالحسَن ؛ وسوِّ بين حالتَيْك فى السِّرِّ والعَلَن ، وكنْ من خوف الله ورجائه بين رِحْلةِ سفَر وقَرارةِ وطَن . وهذا عهدُنا إليك تتقمَّص اليومَ منه رِداء جميلا ، وستَحْمِل غدًا منه عِبْئًا ثقيلا ؛ وقد فرَضْنا لك عن حقِّ سعيك فريضةً تجدُ بها كَفَافا ، وتمنعُك أن تمدّ عينيْك إلىٰ غيرها ٱستِشْرافا ، فإنَّ العملَ الذى تولَّيته يستغرق أوقاتَكَ أن تكون للدنيا كاسِبَه ، وتشغَل نفْسَك بالعمل والنَّصَب لا أن تكون عاملةً ناصِبه . وإذا نظرت إلىٰ ما نيطَ بك وجدْتَه قد ٱستحصىٰ الزَّمن أو كاد ، وأنت فيه بمنزلة البانِى وقواعده : « وكلُّ بِنَاء علىٰ قدْر بانيه وما شاد » . ونحن نأمُر وُلَاتنا علىٰ ٱختلاف مراتبهم أن يرفعوا من قَدْرك ، ويَسدِّدُوا من أمرِك ، وإذا ٱستَوْعَرَ عليك أمرٌ من الجوانب سَهَّلوا من وَعْرك ؛ والله قد أمر أهلَ طاعته بأن يكون بعضُهم لبعض من الأعوان ، فقال جل وتعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَىٰ ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ولا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الْإِثْمِ وَٱلعُدْوَانِ ﴾ .

الحالة الرابعة

(مما يكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ماعليه مصطلح كتّاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يكتب عن السلطان لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم من التقاليد والمراسيم والتفاويض والتواقيع ، على ما سيأتى بيانه ، وفيه [ثلاثة][1] مقاصد)

المقصد الأوّل

(فى مقدّمات هذه الولايات ، وفيه مَهْيَعان)

المهيع الأوّل

(فى بيان رجوع هذه الولايات إلى الطريق الشرعى)

قد تقدّم فى أوّل الكلام على العهود أنّ السلطنة فى زماننا دائرةٌ بينَ إمارة الآستيلاء : وهى أن يقلّده الخليفةُ الإمارةَ على بلاد ويُفوِّض إليه تدبيرَها فيستَوْلى عليها بالقوة ، وبينَ وزارة التفويض : وهى أن يستوزر الخليفةُ من يُفوّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وفصْلَها على آجتهاده ، وأنها بإمارة الآستيلاء أشبه ، على ماتقدّم بيانُه هناك . وقد صرح الماوَرْدىُّ فى "الأحكام السلطانية" أنه إذا كَمَل فى المستولى على الأمر بالقوة بعد تولية الخليفة له مع آشتماله على الصفات المعتبَرة فى المولّى فى الولاية الصادرة عن آختيار الخليفة الإسلامُ ، والحرِّيّة ، والأمانةُ ، وصِدْق اللّهجة ، وقِلّة الطمع ، والسلامةُ من الميل مع الهوى ، والبراءةُ من الشَّحْناء ، والذّكاءُ ، والفِطْنة — جاز له ما يجوزُ للخليفة من تولية وزارة التفويض وغيرها من سائر النّيابات ، وجرى على من آستوزره أو آستنابه أحكامُ من آستوزره الخليفةُ

(١) بياض بالأصل والتصحيح من الآتى .

أو آستنابه ، وان لم يستكمل الصِّفَاتِ المعتبرةَ فى الولاية الصادرةِ عن آختيار الخليفة ، آستنابَ له الخليفةُ لكل وِلاية من تتكاملُ فيه شروطُها .

قلت : وقد كانت ملوكُ بنى بُوَيْه و بنى سَلْجُوق مع غَلَبتهم علىٰ أمر الخلفاء ببغداد وآستيلائِهم يقتصرون فى تصرُّفهم علىٰ متعلَّقات المُلْك فى الجهاد والتصرّف فى الأموال ، و يكلُون أمر الولايات إلىٰ الخليفة يُباشرها بنفسه ، وتكتَبُ عنه العهودُ والتقاليدُ علىٰ ما تشهد به نُسَخُها الموجودةُ من إنشاء الصابى وغيره ــ وكذٰلك الخلفاء الفاطميُّون بمصر عند غَلَبة وُزَرائهم علىٰ الأمر من لَدُنْ خلافة المستنْصِر و إلىٰ آنقراض خلافتهم من الديار المصرية ، كالصالح طَلَائع بنِ رُزِّيك(1) فى وزارته للفائز والعاضد ، ونحو ذٰلك : فإنَّ الخليفة هو الذى كانت الولاياتُ تصْدُر عنه تارةً بإشارة الوزير ، وتارةً بغير إشارته ، علىٰ ما تشهد به نسخُ السِّجلّات المكتتبة فى دَوْلتهم ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفصل الأوّل من هذا الباب . علىٰ أنَّ أصحابَنا الشافعيةَ وغيْرَهم من أئمة الفقهاء ــ رحمهم الله ــ قد صَحَّحوا الإمامةَ بغلبة الشوكة والآستيلاءِ علىٰ الأمْرِ بالقهر دُونَ آستكمال شروط الإمامة ، تصحيحًا للأحكام الشرعية الصادرة عن المستَوْلِى بالشوكة : من العُقُود والفُسوخ وإقامة الحُدود وغيرها ، علىٰ ماهو مذكور فى باب الإمامة . وحينئذ فتكون جميعُ الولايات الصادرة عن السلطان صحيحةً شرعا و إن لم يستَنِبْه عنه الخليفةُ ، وكذٰلك ما يترتَّب عليها ، علىٰ ما الأمر جارٍ عليه الآنَ .

---

(1) ضبطه المجد فى قاموسه فقال « كقبيط » . ونُقِل عن الحافظ آبن حجر ضبطه بكسر الزاى وصو به شارح القاموس و به ضبطه آبن خلكان فى تاريخه .

المَهْيَـــع الثـانى

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات)

وآعلم أنه يجب على الكاتب فى ذلك مراعاةُ أمور .

الأمر الأوّل — براعةُ الآستهلال بذكر آسم المولّى أونعته أو لقبه أو الوظيفة، أوحالِ الولاية ، مع آستِصْحاب براعة الاستهلال إلى آخر الخُطْبة ونحوها من الآفتتاحات ، كما أشار إليه الشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبىُّ رحمه الله فى كتابه "حُسْن التوسل" كما تقدّم ذكره فى الكلام على البَيْعات والعُهود .

الأمر الثانى — مراعاة قَطْع الورق فى الجملة لكلِّ مايُكتَب من ديوان الإنشاء من المكاتباتِ والولايات وغيرِها . والذى يختص بهـذا المكان ذكْرُ مقاديرِ قَطْع الورق فيما يتعلّق بهذه الولايات خاصَّة ، وهى خمسة مَقادِيرَ : — أحدُها قَطْع الثلثين ، ويختصُّ فى الولايات بكبَار التقاليد دُونَ غيرها — وثانيها قَطْع النِّصف ، وفيه تُكتَب صغارُ التقاليد ، والمَراسِيمُ المُكبَّرة ، والتفاوِيضُ ، وكِبارُ التواقيع — وثالثهـا قَطْع الثلُث ، وفيه تُكْتَب صغارُ المراسـيم المكبَّرة ، والتواقيعُ المتوسطةُ — ورابعها قَطْع العادة المنصورىّ ، وفيه تُكتَب صغارُ التواقيع والمراسيمُ التى لأصحابهـا بعضُ مِيزةٍ لا تنتهى بهـم إلى رُتْبة قَطْع الثُّلُث — وخامسها قَطْع العادة الصغيرُ ، وفيه تُكتَب صغارُ التواقيع والمراسيمُ التى هى فى الرتبة الأخيرة .

الأمر الثالث — معرفةُ ما يناسِب كلَّ قطع من هـذه المقادير من الأقلام . وقد تقدّم فى المقالة الثالثة نقلا عن "التعريف" مالكلِّ مِقْدار من الأقلام . والمتعلِّق بهذا الموضع من ذلك أنَّ لِقطع الثُّلثين قَلَمَ الثلث الثقيل ، ولقطع النصف قَلَمَ الثلث الخفيف ، ولقَطْع الثلث قَلَمَ التوقيعات ، ولقطع العادة مُطْلقا قَلَمَ الرِّقاع .

الأمر الرابع — معرفةُ اللّقب المطابقِ لرتبـة كلِّ ولايةٍ وصاحبها من الألقاب الأصولِ المتقدّمِ ذكرُها فى الكلام علىٰ الألقاب من المقـالة الثالثـة . وهى المَقرّ، والجَناب، والمجلسُ، ومجلِسُ كذا علىٰ الإضافة؛ وما يُنـاسِب كلَّ لقب من هـذه الألقاب من الفروع المرتَّبة عليها، كوصف المَقرّ بالـكريم العالى، ووصف الجناب تارةً بالـكريم العالى، وتارة بالعالى مجرَّدا عن الكريم، ووصفِ المجلس تارةً بالعالى، وتارة بالسامى، وإضافة مجلس فى حق أرباب السـيوف إلىٰ الأمير فيقال : مجلس الأمير، وفى حقِّ أرباب الأقلام من العُلَماء وأصحاب الدواوين إلىٰ القاضى فيقال : مجْلِس القاضى ، وفى حقِّ الصُّلَحاء إلىٰ الشيخ فيقال مجلِسُ الشـيخ؛ وانَّ لِمَنْ دُونَ هؤلاء الصَّـدْر ويُوصَف بالأجل فيقال الصَّدْر الأجلُّ ؛ وأن لكل أصل من هذه الأصول فروعا شتّٰى تترتَّب عليه . وتقـدّم أيضا فى المقالة الرابعـة فى الكلام علىٰ المكاتباتِ الصادرةِ عن الأبواب السلطانية بالدِّيار المصرية فى زماننا إلىٰ أهل المملكة مكاتبـةُ كل واحدٍ ممَّن جرتِ العادةُ بالمكاتبـة إليه، وما يختصُّ به من الألقـاب الأصُولِ والفُروع .

وٱعلم أنَّ الولاياتِ أعَمُّ من المكاتَبَات : فقد يكون للشخص ولايةٌ من الأبواب السلطانية وليس له مُكاتَبَة، إذ المكاتَبَات إنمـا تكون لقومٍ مخصوصين من أرباب الولايات . إذا عُلِم ذلك فكلُّ من له مكاتَبـة عن الأبواب السـلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام ممن تقـدّم ذكره فى الكلام علىٰ المكاتَبـات إذا كُتِبتْ له ولايةٌ نُعت بألقابه ونُعُوته التى بها يُكاتَب عن الأبواب السلطانية، إلا أنَّ الدعاء المصدَّر به المكاتبةُ يجعل فى الآخِر دُونَ الأوّل : فاذا كانت المكاتَبَةُ إلىٰ أحدٍ «أعزَّ اللهُ تعالىٰ انصارَ المَقرّ الكريم» قيـل فى ألقابه فى الولاية «المَقرّ الكريم» إلىٰ آخر ما يقتضيه الحال، ثم يقال : فلان أعز الله تعالىٰ أنصاره؛ وكذلك فى البواقى . أمّا من لم تجر

العادة بمكاتبةٍ إليـه عن الأبواب السلطانية ممن يُولَّى عنها فإن لكل طبقةٍ ألقاباً تخصهم . ونحن نذكر الألقابَ الأصولَ وما يتفرَّع عليها لكلّ طبقةٍ من كل طائفةٍ على الوضع الذى تقتضيه الوِلاياتُ دُونَ المكاتبات، ليُجْرَى كلٌّ من أرباب الولايات على ما يُناسبه من الألقاب .

وقد علمتَ فيما تقـدّم فى الكلام على الألقاب فى المقالة الثالثة أن الألقاب على خمسةِ(١) أنواع :

النوع الأوّل — ألقـاب أرباب السيوف

والمستعمل منها بديوان الإنشاء تِسعُ مراتبَ :

المرتبة الأولى — المقرُّ الكريمُ مع الدعاء بعِزّ الأنصـار، وهى : المَقَرُّ الكريمُ، العالى، الأميرىُّ ، الكبيرىّ، العـالِمىّ، العادِلىّ ، المؤيِّدىّ، الزعيمىّ ، العَوْنىّ، الغِياثىّ ، المُثاغرىّ، المُرابطىّ ، المُمهِّدىّ ، المشـيِّدىّ ، الظَّهيرىّ ، العابِدىّ ، الناسِكىّ ، الأَتابَكِىّ ، الكفيلىّ، الفـلانىّ، معزُّ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ أمراء العـالَمين، ناصرُ الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحِّدين ، مُمهِّد الدُّوَل ، مشـيِّد الممَـالك، عِماد المِلَّة، عونُ الأمة ، ظهيرُ الملُوك والسلاطين، عَضُد أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى لقب السلطان) أعزَّ الله تعالى أنصارَه .

المرتبة الثانية — الجنابُ الكريمُ مع الدعاء بعِزّ النُّصْرة، وهى : الجنابُ الكريم، العالى، الأميرىُّ الكبيرِىّ العالِمىّ، العادِلىّ، المؤيِّدىّ، الزعيمىّ، العَونىّ، الغِياثىّ، المُثاغرىّ، المُرابِطىّ، المُمهِّـدىّ، المشـيِّدىّ، الظَّهيرىّ، الكافِلىّ، الفلانىّ، عزُّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأمراء فى العالَمين، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين، زعيمُ جُيوش

(١) المعدود ستة فتنبه .

الموحّدين ، مقدّم العساكر ، ممهّد الدّول ، مشيّدُ الممالك ، عمادُ الملّة ، عونُ الأمة ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى لقب السلطان) أعزّ الله تعالى نُصْرتَه .

المرتبة الثالثة — الجنابُ العالى مع الدعاء بمُضاعفة النّعمة ، وهى : الجنابُ العالى ، الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، المؤيّدىّ ، العونىّ ، الزعيمىّ ، الممهّدىّ ، المشيّدىّ ، الظّهيرىّ ، الكافلىّ ، الفلانىّ ، عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرة الغُزاة والمجاهدين ، زعيمُ جُيوش الموحّدين ، ممهّد الدّوَل ، مشيّد الممالك ، عمادُ الملّة ، عون الأُمّة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، سيفُ أمير المؤمنين ، فلان (باسمه) الفلانى (بلقب الإضافة إلى السلطان) ضاعَفَ الله تعالى نِعمتَه .

المرتبة الرابعة — الجنابُ العالى مع الدعاء بدَوَام النعمة ، وهى : الجنابُ العالى الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىُّ ، المؤيّدىّ ، الأوْحَدىّ ، النّصيرىُّ ، العَوْنىّ ، الهُمَامىّ ، المقدّمىّ ، الظّهيرىّ ، الفلانى ، عزّ الإسلام والمسلمين ، سيّدُ الأمراء فى العالمين ، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدّمُ العساكر ، كَهْفُ الملّة ، ذُخْر الدّوْلة ، عِمادُ المملكة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسامُ أمير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالى نِعمَتَه .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى والدعاء بدَوَام النعمة ، وهى : المجلس العالى الأميرىُّ ، الكبيرىُّ ، العالمىّ ، المجاهدىّ ، المؤيّدىّ ، العَوْنىّ ، الأَوْحدىّ ، النّصيرىّ ، الهُمَامىّ ، المقدّمىّ ، الظهيرىّ ، الفلانىّ ، عزّ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ الأمراء فى العالَمين ، نُصْرةُ الغُزاة والمجاهدين ، مقدّمُ العساكر ، كهفُ الملّة ، ذُخْرُ الدولة ، ظهيرُ الملوك والسلاطين ، حُسَام امير المؤمنين ، فلان الفلانى ، أدام الله تعالى نعمته .

المرتبة السادسةُ — المجلس السامىُّ بالياء، والدعاءُ بدوام التأييد ونحوه، وهى : المجلس السامىُّ ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الذُّخرىّ ، النَّصيرىّ ، الأوحدىّ ، المؤيَّدىّ، الفلانىّ ، مجدُ الإسلام، بهاءُ الأنام، شرَفُ الأمراء ، ذُخْر المجاهدين ، عضُدُ الملوك والسلاطين، فلان الفلانى، أدام الله تأييدَه .

المرتبة السابعة — السامى بغير ياء، والدعاءُ أدام اللهُ رِفْعته ونحو ذلك، وهى : المجلس السامى ، الأميرُ، الأجلُّ ، الكبيرُ، الغازى ، المجاهدُ ، المؤيَّد ، الأوحدُ ، المرتضى ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام، فخرُ الأمراء، زينُ المجاهدين، عمدةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله رفعتَه .

المرتبة الثامنة — مجلسُ الأمير ، والدعاءُ أدام الله سعدَه ونحوه، وهى : مجلس الأمير، الأجلّ ، الكبير ، الغازى، المجاهد ، المؤيَّد، الأوحَد ، المرتضىٰ ، فلان الدين ، مجدُ الأمراء ، زينُ المجاهدين ، عُدّةُ الملوك والسلاطين ، فلان الفلانى، أدام الله سعْدَه .

المرتبة التاسعة — الأمير مجردا عن المضاف إليه، وهى : الأميرُ، الأجلُّ ، وربّما زيد فيه فقيل الكبير، المحتَرَم، ونحو ذلك .

النـــوع الثـانى

(ألقابُ أرباب الوظائف الديوانية ، وهى على ستِّ مراتبَ)

المرتبة الأولى — الجناب العالى مع الدعاء بمضاعَفَة النِّعمة . وفيها أسلوبان :

الأُسلوب الأوّل — ألقاب الوزير وهى : الجناب العالى ، الصاحبىُّ، الكبيرىُّ، العالمىّ، العادلىّ، الأوْحَدىّ، الأكملىّ، القوَامىّ، النِّظامىّ، الأَثيرىّ،

البَليغى، المنفِّذى ، المسدِّدى، المتصرِّف، الممهِّدى، العونى، المُدبِّرى، المُشيرى، الوزيرى ، الفلانى ، صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ الوزراء فى العالَمين ، رئيسُ الكبراء، كبيرُ الرؤساء، أوحدُ الأصحاب، مَلاذُ الكُتّاب، قِوام الدُّول، نظامُ المُلْك، مُفيد المَنَاجح ، معتَمَد المصالح ، مُرَتِّب الجيوش ، عِمادُ المِلة ، عونُ الأمّة، مُشير المُلوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه .

الأسلوب الثانى — ألقاب كاتب السرّ، عند ما آستقرّ ما يكتب له تقليدا فى قَطْع الثلثين ، وهى : الجنابُ العالى، القاضَوِى، الكبيرىُّ، العالمى، العادلى، العَلّامى، الأفضلى، الأكملى، البليغى، المسدَّدى، المنفِّذى، المشيِّدى، العونى، المُشيرى ، اليَمينى ، السَّفيرى ، الأَصيلى ، العَريقى، الفلانى ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين ، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، قدوةُ العلماء العاملين ، جمالُ البُلَغاء ، أوحدُ الفضلاء ، جلالُ الأصحاب ، كَهْف الكُتّاب ، يمينُ المملكة، لسانُ السَّلْطنة، سفيرُ الأُمّة، سَليلُ الأكابر، مُشير الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، ضاعف الله تعالىٰ نِعمته .

قلت : وقد كان رتبتُه : المجلس العالى عند ما كان يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النِّصف .

المرتبة الثانية — المجلس العالى مع الدُّعاء بدَوَام النعمة؛ وفيها أربعة أساليبَ .

الأسلوب الأوّل — ألقابُ كاتب السرّ علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى كتابة توقيع فى قَطْع النصف ، ويُدْعىٰ له : أدام الله نعمتَه، وهى : المجلسُ، العالى، بالألقاب المتقدّمةِ له مع الجناب العالى، علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ .

الأسلوب الثانى — ألقاب ناظر الخاص، وهى: المجلس العالى القاضوىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأَوْحدىّ، الأكملى، الرَّئيسىّ، البليغىّ، البارعىّ، القِوَامىّ، النِّظامىّ، الماجِدىّ، الأَثيرىّ، المنفِّذىّ، المسدَّدىّ، المتصرِّفى، الفلانىّ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الرؤساء فى العالَمين، قِوامُ المصالح، نِظام المَنَاجِح، جَلَال الأكابر، قُدوةُ الكُتّاب، رئيسُ الأصحاب، عمادُ الملة، صَفْوة الدولة، خالصةُ الملوك والسلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالىٰ نعمتــه.

الأسلوب الثالث — ألقاب وزير دِمَشْق إذا صُرِّح له بالوِزارة، وهى: المجلس العالى، الصاحِبىُّ، الوزيرىّ، الأَجَلِّىّ، الكبيرىُّ، العالِمىّ، العادِلىّ، المؤيَّدىّ، الأَوْحدىّ، القِوامىّ، النِّظامىّ، الماجِدىّ، الأَثيرىّ، المُشيرىّ، الفلانىّ؛ صلاحُ الإسلام والمسلمين، سيدُ الوزراء فى العالمين، رئيسُ الكبراء، كبيرُ الرؤساء، بقية الأصحاب، مَلَاذُ الكُتّاب، عِمادُ المِلة، خالِصة الدولة، مشير الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالىٰ نعمتَه.

الأسلوب الرابع — ألقاب ناظر النُّظَّار بالشام، إذا لم يكن وزيرا، وهى: المجلس العالى، القَضَائِىّ، الكبِيرىّ، العالِمىّ، العامِلىّ، الأَوْحدىّ، الرَّئيسىّ، الأَثيرىّ، القِوامىّ، النِّظامىّ، المنفِّذىّ، المتصرِّفىّ، الفلانىّ: مجدُ الإسلام والمسلمين، شَرَفُ الرؤساء فى العالَمين، أوحدُ الفُضَلاء، جلالُ الكُبَراء، حُجَّة الكُتّاب، صَفْوة الملوك والسلاطين، خالصةُ أمير المؤمنين، فلان الفلانى، أدام الله تعالىٰ نِعمتَه.

المرتبة الثالثة — المجلس الساميّ بالياء مع الدعاء بدوام الرفعة وما فى معناها ، وهى : المجلس الساميُّ ، القَضَائىّ ، الأَجَلىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، الفاضِلىّ ، الكاملىّ، الرئيسىّ، الأَوْحدىّ ، الأَصِيلىّ ، الأَثيرىّ، البَليغىّ ، الفلانىّ؛ مجدُ الإسلام، شرفُ الرؤساء فى الأَنام؛ زَيْن البلغاء، جمالُ الفُضَلاء؛ أوحدُ الكُتَّاب، فخر الحُسَّاب؛ صفوةُ الملوك والسلاطين ، أدام الله تعالىٰ رِفعتَه .

فإن كان من كتّاب الإنشاء، أسقط منه « فخرُ الحُسَّاب » .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء، مع الدعاء بدَوام الرِّفعة ونحوه أيضا، وهى : المجلس السامى ، القاضى ، الأجَلُّ ، الكبيرُ، الصَّدْر، الرئيسُ، الأَوْحَد ، البارعُ ، الكاملُ ، الأَصِيلُ، الفاضِلُ ، فلان الدين؛ جمالُ الإسلام، بهاءُ الأَنَام؛ شرفُ الأكابر، زَيْن الرؤساء، أوحدُ الفُضلاء؛ زَيْنُ الكُتَّاب، صفوةُ الملوك والسلاطين، أدام الله تعالىٰ رِفعتَه .

المرتبة الخامسة — مجلِسُ القاضى، وهى : مجلس القاضى، الأجَلّ، الكبير، الفاضِل، الأَوْحد، الأَثير، الرَّئيس، البليغ، العرِيق، الأَصيل ، فلان الدين؛ مجدُ الإسلام، بهاءُ الأنام؛ شرفُ الرؤساء، زَيْن الكتّاب، مُرْتضىٰ الملوك والسلاطين ، أدام الله رِفعتَه .

المرتبة السادسة — القاضى، وهى : القاضِى الأجَلُّ . ورُبَّما زيد فى التعظيم الصَّدْر، الرئيسُ، الكبيرُ، ونحوُ ذٰلك .

النـــوع الثالث

(ألقابُ أرباب الوظائف الدِّينية ـ وهى أيضا على ستِّ مراتبَ)

المرتبة الأولى — الجنابُ العالى ـ وهى لمَن آستقرّ له كتابةُ تقليدٍ فى قَطْع الثلثين من قُضاة القُضاة بالدِّيار المِصْرية وهو الشافعىّ؛ وهى : الجنابُ العالى ، القاضَوىّ ، الشَّيْخىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأفضلىّ ، الأكملىّ ، الأَوْحدىّ ، البَليغىّ ، الفَريدىّ ، المُفيدىّ ، النَّجيدىّ ، القُدْوىّ ، الحُجِّىّ ، المحقِّقىّ ، الوَرَعىّ ، الخاشعىّ ، الناسكىّ ، الإمامىّ ، العَلّامىّ ، الأصيلىّ ، العَريقىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، شرفُ العلماء العاملين ، أوحَدُ الفضلاء المُفيدين ، قُدْوة البلغاء ، حُجَّة الأُمَّة ، عمدةُ المحقِّقين ، فخرُ المدرّسين ، مفتى المسلمين ، جلالُ الحُكَّام بركَةُ الدولة ، صَدْر مصرَ والشام ، مُعزُّ السنَّة ، مؤيِّد الملة ، شمسُ الشريعة ، رئيسُ الأصحاب ، لسانُ المتكلمين ، حَكَم الملوكِ والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ؛ فلان (بنسبه) أعز اللهُ تعالى أحكامَه .

وكذلك قاضى القُضاة الحنفىُّ بالديار المصرية عند ما آستقرّ المكتوبُ له تقليدًا .

المرتبة الثانية — المجلس العالى ؛ وبها كان يُكتب لقاضى القُضاة الشافعىّ قبل أن يستقِرّ ما يكتَبُ له تقليدا ، بالألقاب والنُّعوت السابقة له مع الجناب ؛ وكذلك الثلاثةُ الباقون باختصارٍ فى الألقاب والنُّعوت ؛ وهى : المجلس العالى ، القاضَوىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، العاملىّ ، الأفضَلىّ ، الأكملىّ ، الأَوْحدى ، البليغىّ ، الفَريدىّ ، المُفيدىّ ، النَّجيدى ، القُدْوىّ ، الحُجِّىّ ، المحقِّقىّ ، الإمامىّ ، الأصيلىّ ، العَريقىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ؛ جمالُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء المُفيدين ، قُدْوة البُلَغاء ، حجةُ الأمَّة ، عمدَةُ المحدّثين ، فخرُ المدرّسين ،

مفتِي المسلمين، جلالُ الحُكَّام، حَكَم الملوك والسلاطين، فلان الفلانى (بنَسَبه) أعزَّ الله تعالىٰ أحكامه .

المرتبة الثالثة — المجلس السامىّ بالياء، وهى : المجلس السامىُّ، القضائىّ، الكبيرىُّ، العالمىُّ، الفاضلىُّ، الأَوْحَدىّ، الرئيسىّ، المُفيدىّ، البَليغىّ، القُدْوِىّ، الأَثيرِىّ، مجدُ الإسلام والمسلمين، جمالُ العلماء العاملين، أوحدُ الفضلاء، صَدْر المدرّسين، عُمـدةُ المُفتِين، خالصةُ المـلوك والسلاطين، فلان الفلانىّ : أدام الله تعالىٰ تأييدَه .

المرتبة الرابعة — السامى بغير ياء، وهى : المجلسُ السامى، القاضى، الأجَلُّ، الكبيرُ، الصَّدْرُ، الرئيسُ، العالم، الفاضلُ، الكاملُ، فلان الدين، مجدُ الصُّدور، زَيْنُ الأعيان، مرتَضىٰ المُلوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ رِفعتَه .

المرتبة الخامسة — مرتبةُ مجلس القاضى، وهى : مجلس القاضى، الأجلّ، الكبيرِ، العالِمِ، الفاضلِ، الأوحدِ، الصدرِ، الرئيس، مجدِ الإسلام، بهاء الأنام، زينِ الأعيان، فخرِ الصُّدُور، مرتَضىٰ الملوك والسلاطين، فلان : أعزَّه الله تعالىٰ .

المرتبة السادسة — مرتبة القاضى، وهى : القاضى، الأجَلُّ . وربمـا زيد فى التعظيم نحو الكبير، الصدر، الرئيس، ونحو ذٰلك .

النـــــــوع الرابع

(ألقابُ مشايخ الصُّوفية — وهى علىٰ خَمس مراتبَ)

المرتبة الأولىٰ — المجلسُ العالى، وبها يُكتَب لشيخ الشُّيوخ بالديار المِصْرية، وهى : المَجلس العالى، الشيخىُّ، الكبيرىُّ العالِمىّ، العامِلىّ، السالِكىّ، الأوحَدىّ،

الزاهدىّ، العابدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ، المُفيدىّ، القُدْوىّ، الإمامىّ، النِّظامىّ، المَلاذىّ؛ جلالُ الإسلام والمسلمين، شرَفُ الصُّلَحاء فى العالَمين، شيخُ شُيوخ الإسلام، أوحدُ العلماء فى الأنام، قدوةُ السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين، فلان، أعاد الله تعالىٰ من بَرَكاته .

المرتبة الثانية — المجلس السامىّ بالياء، وهى : المجلس السامىُّ، الشيخىّ، الكبيرىُّ، الأوْحَدىّ، الأكملىّ، العابدىّ، الخاشعىّ، الناسكىّ؛ جمالُ الإسلام، زينُ الأنام، صَفْوةُ الصُّلَحاء، فخرُ العُبَّاد، بركةُ الملوك والسلاطين : أعاد الله تعالىٰ من بركَته .

المرتبة الثالثة — المجلسُ السامى بغير ياء، وهى : المجلس السامى، الشيخُ، الصالحُ، الزاهدُ، العابدُ، الوَرِع، الخاشعُ، الناسكُ، السالكُ، فلان الدِّين؛ مجدُ الصلحاء، زينُ المشايخ، قُدْوة السالكين، بركةُ الملوك والسلاطين : نَفَع الله تعالىٰ ببركته .

المرتبة الرابعة — مجلسُ الشَّيخ، وهى : مجلسُ الشيخ، الصالح، الزاهد، العابد، الناسك، السالك، فلان الدين، مجد الصُّلحاء، زين المشايخ، بركة الملوك والسلاطين : أدام الله تعالىٰ بركَته .

المرتبة الخامسة — مرتبة الشيخ، وهى : الشيخُ، الصالحُ، الوَرِع، الزاهد، ونحو ذٰلك : نفع الله تعالىٰ به .

النـــوع الخـامس

(ألقابُ مَنْ قد يُكْتب له بولاية من رؤساء العامّة من التُّجّار وغيرهم)

وفيهـا أربع مراتب :

المرتبة الأولى — المجلس السامىُّ بالياء ، وهى : المجلس السامىّ ، الصدرىُّ ، الأجَلىُّ ، الكبيرىُّ ، الرئيسىّ ، الفلانىّ .

المرتبة الثانية — المجلس السامى بغير ياء ، وهى : المجلس السامِى ، الصـدْرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الرئيسُ ، المحتَرَم .

المرتبـة الثالثة — مجلسُ الصَّدْر ، وهى : مجلسُ الصـدر ، الأجلِّ ، الكبيرِ ، المحتَرَمِ ، المؤتَمَن ، فلان الدين . و يقال فى ألقاب المِهتاريَّة ونحوِهم : الحاجُّ فلان .

المرتبة الرابعة — مرتبة الصَّدْر ، وهى : الصَّدْر ، الأجلُّ . فإنْ زِيد فى تكريمه قيل بعد ذلك : الكبير ، المحتَرَم .

النـــوع السادس

(ألقابُ زعمـاء أهل الذِّمَّة ، وهم ثلاثة)

الأوّل ـ بَطْرَك النصارى اليَعَاقِبة ، وهى : الحضرةُ الساميـة ، الشيخُ ، الرئيسُ ، المبجَّل ، المكَرَّم ، الكافِى ، المعَزَّز ، المُفَخَّر ، القِدِّيس ، شمس الرياسـة ، عمـاد بَنِى المَعمودِية ، كنزُ الطائفة الصليبيَّة .

الثـانى ـ بَطْرَك المَلِكانيَّة ، وتُختصَر ألقابُه عمَّا يُكتب به لبَطْرك اليَعاقِبة بعضَ الاختصـار .

الثالث ـ رئيسُ اليهود، وهى : الرئيسُ الأوحدُ، الأجَلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكبيرُ، شرفُ الداوُديِّين، فلان أبو فلان : سدّده اللهُ فى أقواله، وثبّته فى أفعاله .

قلت : ومما يجبُ التنبُّه له أن ما تقدّم من الألقاب والنُّعوت المفرَّعة على الألقاب الأُصول ليستْ مما يُوقَف عند حدّ، بل محتمِلةٌ للزيادة والنقص بحسب ما تَقتضيه الحال، ويحتمِله المَقَال . بل ربَّما وُلِّى بعضَ المناصب مَنْ فيه صِفاتٌ تستحق ألقابا ونعوتا خاصَّةً، فيكتَبُ له بذلك مراعاةً لما يَقتضيه حالُه، ويستوجِبُه مَقَامه، ثم يلى ذلك المنصبَ بعده مَنْ لايستحق الوصفَ بالألقاب والنُّعوت التى تَخُصُّ المتقدّم، فيؤتى بها للثانى : كما اتّفق فيما كُتِب به فى نيابة الشام حين وَلِيهَا الأمير بِيدُمُر الخُوَارَزْمىّ رحمه الله، وكان من الدِّيانة على ما لا يُوجَد فى غيره . فكتب فى ألقابه حينئذ : العابِدىّ، الناسكىُّ، الخاشِعِىّ . فلزِمتْ فيمن بعْده وصارت مما يكتَبُ به إلى الآنَ، سواء اتصف نائبُها بِدينٍ أم لا ـ وكما اتفق فى الصاحب عَلَم الدِّين بن زُنْبور حين اجتمع له الوِزارةُ ونظرُ الخاصِّ والجيش، فكُتِب له بألقابٍ ونُعوتٍ جامعةٍ لألقاب تلك الوظائف ونُعوتِها، فاستمرَّ ذلك فيما يُكتَب به لكلِّ مَنْ وَلِىَ الوزارة بعدَه إلى الآنَ ؛ حتّى إنه يكتب فى ألقاب الوزير الآن « مرتِّب الجيوش » وهو من الألقاب الخاصَّة بناظر الجيش استطرادًا لما كُتِب به لابن زُنْبور : لانضمام نظر الجيش إليه على ماتقدّم ـ وكما اتّفق فيما كُتِب به للشيخ تقىّ الدين السُّبْكى من الألقاب الجليلةِ المقدار، الرفيعةِ المكانةِ، فى قضاء الشام لرِفْعة مقامه، واتِّساع باعِه فى العلم، وعُلُوِّ مكانته فى الخاصَّة والعامّة فلزم كتابة ذلك لقاضى قُضاة الشافعيةِ بالديار المصْرية، من حيثُ إنه لا يليق بالحال

أن يكون قاضى الشام أعلىٰ رتبـةً من قاضى الدِّيار المصرية . ثم سَرىٰ ذٰلك فى كل من وَلِى المنصب بعد ذٰلك ، وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا .

ومما يلتحق بذٰلك أنه قد جرت العادةُ فى الزمن المتقدّم وهَلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننا أنه كان يكتب فى الطرَّة لأرباب السيوف بعد الأميرى « الكبيرىّ الفلانى » بلقب الإضافة إلىٰ لقب السلطان كالناصرىّ ونحوه ، بخلاف أرباب الأقلام فإنه لم تَجْر العادةُ بأن يكتب لهم ذٰلك فى شىءٍ من طرَّة تقاليدهم ولا تَواقيعهم، إلىٰ أن لبِس القاضى سعدُ الدين بنُ غُرَابٍ الكَلُّوتة ، وآستقر إستادارا فى الدولة الناصرية فرج آبن برقوق، ثم آستقرَّ مشيرا وكتب له تقليدٌ بالإشارة كتب له فى طرَّة تقليده بعد الكبيرى « الناصرى » لجمعه بين السيف والقَلَم . ثم جرىٰ بعض الكُتَّاب علىٰ مثل ذٰلك فى غيره من أرباب الأقلام الأكابر : كالوزير، وكاتب السر، وناظر الخاصِّ، وناظر الجَيْش، ومن فى معناهم من أرباب الوَظَائف الديوانية . والحجةُ فيه ظاهرةٌ من حيثُ إن كلًّا من المذكورين إذا كُتِب عنه كتاب ، كُتِب فى أعلاه تحت البسملة « المَلَكىّ الناصرىّ » وإذا كتب عنه قِصَّة ، كتب فيها تحت البسملة « المَلَكىّ الفلانىّ » . ومقتضىٰ ذٰلك أن يكتب لقب الإضافة إلىٰ لقب السلطنة فى تقليده أو توقيعه علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه من فعل بعض الكُتَّاب .

الأمر الخامس — مما يجب علىٰ الكاتب مراعاته معرفةُ الوصف اللائق بصاحب الوظيفة .

فيجب عليه مراعاةُ ماينابسبه من الأوصاف التى يَقَع بها تقريظه ومَدْحُه :

فإن كان نائبَ سلطنة وصَفَه بالشجاعة، والنَّجْدة، وقُوّة العَزْم، والشَّهامة، وشدّة الشَّكيمة، ونُصْرة الدِّين، وكَفِّ [الأيدى] العادِيَة، وإرهابِ العدوّ، وقَمْع المفسدين، وإرغامِ أهْلِ العُدْوان، وحِمايةِ الثُّغور ـ إن كان فى ثغر ـ ووُفُور الهَيْبة، وبُعْدِ الصِّيت، وطَيرانِ السُّمْعة، مع بَسْط المَعْدَلة والرِّفْق بالرعيَّة، والرأْفة بخلق الله تعالىٰ، والشَّفقةِ عليهم، والإحسانِ إلىٰ الكافَّة، والأخْذ بقلوبهم، والوقوفِ مع أحكام الشريعة، وبَذْل الطاعة، والمناصَحة، والمخالَصة، وقِدَم هجرته فى الدولة ـ إن كان قديم هجرة ـ ومُرور الدُّوَل عليه ـ إن كان قد مَرَّت عليه دول ـ، وأنه نَشْءُ الدولة ـ إن كان ابتداء أمره فيها ـ، ونحو ذٰلك .

وإن كان نائبَ قلعة وصفه بالحِذْق، واليَقَظة، وقوّة الحَزْم، وشدّة التحرُّز، والمعرفةِ بأحوال الحِصَار وضُروب القِتال وطُرُق التحصين والمُدافعة، ونحو ذٰلك .

وإن كان وزيرا وصفه بحُسْن التدبير، وجَزَالة الرأْى، والاحتياط فى الأمور، والقِيام بمَصَالِح الإسلام، وعِمارةِ البِلاد، والنُّهوض فى المهمَّات، وكَفِّ الأيدى العادِيَة، والأخْذِ علىٰ يد المتعدِّى، وتنمِيَة الأموال وتَثْميرها، وتسهيل مايجرى من الأرزاق علىٰ يَده، وبَذْل المجهُود فى معاضَدة الشريعة، وشِبْه ذٰلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ .

وإن كان كاتبَ سِرٍّ وصفَه بالفَصاحة والبَلَاغة، وقيامِ أقْلامه فى التأثير فى العدُوّ مَقامَ السُّيوف والرِّماح، وكُتبِه فى تفريق الكتائب مَقامَ الجيوش والعساكر، وسَدادِ الرأى، وكَتْم الأسرار، وحمايةِ الممالك بنتائج أفكاره، وما شاكل ذٰلك .

وإن كان ناظِرَ جيش وصفه بالمعْرِفة بأمور الجيوش وترتيبها ، وأصناف الأمراء، والجُنْد، والمستخْدَمين، وترتيب مَقَاماتهم، وما يَنخَرِط فى هذا السِّلْك .

وإن كان ناظر الخاص وصفه بالمعرفة بأمور الحِسَاب، والنهضةِ فى المهمَّات، والمعرفة بأحوال ديوان الخاصِّ وجِهَاته ، والقُدرةِ علىٰ تحصيل الأموال وزيادتها، ومعرفة ما يُحتاجُ إليه من أصناف الأقْمِشة والطُّرُز وغيرها ، مع الأمانة والعِفَّة ، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وإن كان مستوفِىَ الصُّحْبة وصفه بالمعرفة بفُنُون الكتابة ، ونَظْم الحُسْبانات ، والاحتياطِ فى ٱسْتِرْفاعها ، مع الضبط والاحترازِ والأمانة والعِفَّة وما هو من هذا القَبِيل .

وإن كان ناظرَ خِزَانة الخاصّ وصفه بالأمانة، والعفَّة ، والمعرفةِ بأصناف الخِزَانة : من الأقمشةِ، والتَّشاريف، والطُّرُز، ومعرفة مراتبِ أربابها،وما يُناسب كلَّ واحدٍ منهم من أنواع التشاريف من عاليها وهابطِها، وما يطابِق ذٰلك .

وإن كان قاضيا وصفه بغَزَارة العِلم، وسَعَة الفضل ، ونُصْرة السُّنَّة، وقَمْع البِدْعَة، والعَدْل فى الأحكام ، وإنصافِ المظلومِ من الظالم، والأخْذِ للضعيف من القَوِىّ، والنزاهةِ عن المَطَاعم الوَخيمة، والمطامع الرديَّة، والبُعْدِ عن الأهواءِ فى الحكم، وما يَنخَرِط فى هذا السِّلك .

وإن كان محتَسِبا وصفه بعد وصْفه بالفضل بالعِفَّة، والأمانة، وعُلُوِّ الهِمَّة، وقُوَّة العزم، والصَّرامة، ووُفُور الهيبة، والنُّهوض بالأمر بالمعروف والنهيِ عن المنكَر، والنظَرِ فى مصالح المسلمين ، وعدمِ مُحاباة أهلِ الدُّنيا وأربابِ الجاه ، وأنه لا يفرِّق فى الحق بين الجليل والحقير، وما فى معنىٰ ذٰلك .

وإن كان وكيل بيت المال وصفه بعد العلم والديانة بالوقوف مع الحق، والتثبت فيه، ومراعاته المصلحة العامة فى كل مايتعلق به، والمعرفة بشروط الاعذار ومواقع ابداء الدافع ونفيه، وأنه يقدم مصالح المسلمين على مصالح نفسه، وما يقارب ذلك .

وإن كان مدرسا وصفه بسعة العلم، والتضلع بالفنون، والأخذ من كل منها بحظ وافر، وطول الباع فى البحث والمناظرة، والوقوف مع الحق فيها، وعدم الجدال فى الباطل، وتربية الطلبة، وتأديبهم، والتقريب على من عسر على فهمه شىء من المسائل، وعدم الترفع عليهم، وتنزيلهم منازلهم فى الفضل، وتقديم من برع منهم .

وإن كان خطيبا وصفه بالفصاحة، والبلاغة، وقوة اللسن، وشدة الشكيمة فى الكلام، وتأثير وعظه فى القلوب، وانسكاب الدموع من وقع عظاته، وما أشبه ذلك .

وإن كان شيخ خانقاه وصفه بالورع، والزهد، والنسك، وقطع العلائق من الدنيا، وتربية المريدين وتسليكهم، والوقوف مع طريق السلف الصالح .

وإن كان رئيس الأطباء وصفه بالحذق فى الطب، والمهارة فيه، وتقدمه على غيره فى الفن، والمعرفة بالعقاقير وما فيها من نفع وضر، والمعرفة بالأمراض والعلل وطرق العلاج، وما يجرى مجرى ذلك .

وإن كان رئيس الكحالين وصفه بالمعرفة فى صنعة الكحل، والتقدم على أبناء صنعته فيه، والمعرفة بحال العين وأمراضها، وأصناف الأكحال، وما يوافق كل علة من ذلك، وما ينخرط فى هذا السلك .

وإن كان رئيسَ اليهود او بَطْركا من بَطَاركة النصارىٰ، وصفه بالمعرفةِ بأمور مِلَّته، والوقوفِ مع قوانينِ شِرْعته، ومعاطاةِ العدل فى جماعتِه، والتزام شُروط الذمة، والوقوف عند حدِّها، والدخولِ تحت الطاعة، والوقوفِ عند ما حُدّ له، ونحو ذلك .

الأمر السادس — مما يجب علىٰ الكاتب مراعاته وصيةُ ربِّ كل ولاية من الولايات المعتبَرة بما يناسِبُها .

وآعلم أن كل ما حَسُن وصيةُ المولّىٰ به، حَسُن وصفُه به . والوَصَايا مختلفة باختلاف موضُوعاتها، إلا أنَّ الجميع يشترِك فى الوصيَّة بتقوى الله، فهى الأُسُّ الذى ينبىٰ عليه، والركنُ الذى يُستَنَد إليه . وهذا البابُ هو الذى يطولُ فيه سَبْح الكاتب، ويَحتاج فيه إلىٰ سَعَة الباع؛ فإنه ما لم يكن الكاتبُ حاذقًا بما يلزم ربَّ كل وِلاية ليُوَفِّيها فى الوصية حقَّها، وإلا ضلَّ عن الطريق، وحادَ عن جادّة الصَّنْعة . ولذلك يقال للكاتب : « القَلَم الأكبر » : لأنه بصَدَد أن يُعَلِّم كلَّ واحد من أرباب الولايات ما يلزمُه فى وِلَايته .

وحينئذ فإن كان المتولِّى « نائبَ سلطنة » وُصِّى بتفقُّد العساكر، وعَرْض الجيوش، وإنهاضِها للخِدمة ... ...(١) للوظائف مَنْ يليق بها، وتنفيذ الأحكام الشرعيَّة، ومعاضَدة حُكَّام الشرع الشريف، وإجراء الأوقافِ علىٰ شُروط واقِفيها، وملاحظةِ البلاد وعِمَارتها، وإطابةِ قلوب أهلِها، والشَّدّ من مباشِرى الأموال، وتقويةِ أيديهم، ومُلازمةِ العَدْل، وعدَمِ الآنفكاك عنه، وتحصينِ ما لديه من القِلاع، وآستطلاعِ الأخبار والمطالعةِ بها، والعملِ بما يرِدُ عليه من المراسيم

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله «وآنتقائه» للوظائف الخ .

السلطانية، وأنَّ ما أَشْكل عليه يستضِيءُ فيه بالآراء الشريفة، والإحسان إلىٰ الجند، وتعيين إقطاع مَنْ مات منهم لولده إن كان صالحا، ونحو ذلك .

وإن كان « نائب قلعة » وُصِّى بحفظ تلك القلعةِ، وعمارة ما دعَت الحاجةُ إلىٰ عمَارته منها، والأخذ بقُلوب من فيها، وجمعِهم علىٰ الطاعة، وأخذ قلوبهم بالإحسان إليهم، وتحصينها بآلات الحِصَار، وادّخار آلاتِ الحرب : من المجانيق والقِسِيّ وسائر الآلات : من السِّهام، واللَّبُوس، والسَّتائر، وغير ذلك . وكذلك آلاتُ أرباب الصنائع، كآلات الحدّادين، وصُنَّاع القِسِىّ ومَنْ فى معناهم مما يُحْتاج إلىٰ عمله فى آلات القلعة، والاعتناء بغَلْق(١) أبواب القلعة وفَتْحها، وتفقُّد متجدّدات أحوالها فى كل مَسَاء وصَبَاح، وإقامةِ الحَرَس، وإدامة العَسَس، وتعرُّف أخبار المجاورين لها من الأعداء، وإقامةِ نُوَب الحَمَام بها، والمطالعةِ بكل ما يتجدّد لدَيْه من الأخبار .

وإن كان «وزيرا» وُصِّى بالعدل وزيادةِ الأموال وتثْميرها، والإقبال علىٰ تحصيلها من جهات الحِلّ، واختيار الكُفَاة الأمناء، وتجنُّب الخَوَنة، وتطهير بابِه، وتسهيل حجابِه، والنظر فى المصالح، وأنه لا يستَبْدِل إلا بمَنْ ظهر لديه عجزُه أو خيانتُه، والنظرِ فى أمر الرواتب وإجرائها علىٰ أربابها .

وإن كان «كاتبَ سِرّ» وُصِّى بالاهتمام بتلقى أخبارِ الممالك وعَرْضِها علىٰ المواقف الشريفة، والإجابةِ عنها بما تبرُزُ به المراسيمُ الشريفةُ، وتعريف النوّاب فى الوَصَايا التى تُكتَب فى تقاليدهم عن المَواقِف الشريفة ماأَبْهَم عليهم، ويبيّنُ لهم ما يقفُون

(١) جرى علىٰ اللغة القليلة والكثير الشائع إغلاق فتنبه .

عند حدّه ، والنظرِ فى تجهيز البَريد والنَّجَّابَة (١) ، وما يُبعَث فيه من المصالح وينفَّذ فيه من المهمَّات والقُصَّاد، ومعرفةِ حقُوق ذَوِى الخدمة والنَّصيحة، وإجرائِهم فى رُسُوم الرواتب وعوائد البر والإحسان علىٰ أتمّ العوائد ، وتأليف قلوبهم ، والأخذِ بخواطِرهم ؛ والنظرِ فى أمر الكَشَّافة والدَّيادب والنظّارة والمَناوِر والمُحرِقات وأبراج الحَمَام ؛ وصرفِ نظره إلىٰ رسل المُلُوك الواردة ، ومعاملتِهم بالإكرام ، والأخذ فى صَوْن سرّ المَلِك وكِتمانه حتّى عن نَفْسه ، وضبطِ ألواح البريد ، والاحترازِ فيما تؤخَذ عليه العلامةُ الشريفة ؛ ومراعاةِ كُتَّاب ديوان الإنشاء، والإحسانِ إليهم ، وأن لا يَستكتبَ فى ديوانه إلا مَنْ علم صلاحَه لذٰلك وكفايتَه، ووثِقَ منه بكِتْمان السرّ كما يَثِق به من نَفْسه .

وإن كان « ناظر جيش » وُصِّى بالاحتياط فى أمر دِيوانه ، والوقوفِ علىٰ معالم هذه المباشَرة ، وجرائِد الجند ، والإقطاعات ، وتحرير الكُشُوف والمحاسَبات ، واستيضاح أمر من يَموت من أرباب الإقطاعات من ديوان المواريث أو من المقدَّمين والنُّقَباء، والاحترازِ فى أمر المربَّعات وجهاتِ الإقطاعات وما يترتَّب عليها من المناشير، والنظرِ فى أمر المُقْطَعين : من الجُنْد، والعَرب، والتُّركُمان، والأكراد، ومن عليه تقْدِمةٌ أو دَرَك بلاد أو غير ذٰلك .

وإن كان «ناظر خاص» وُصِّى بالاحتياط لِديوانه، والأخذِ فى تحصيل أموال جِهاتِه وتَنْميتها وتثميرها، وزيادتِها وتوفيرها ؛ والتحرُّز فيما يُرْفَع من حُسْباناتِها ، والاهتمامِ بأمر التَّشاريف والخِلَع ، وما يختصُّ بكل وِلاية وغيرها من التَّشاريف ،

(١) جارى العامة فى هذا الاستعمال .

وما جرتْ به العــادةُ من الهـدَايا المُحضَّرة إلىٰ ملُوك الأقطار ، والأخْذ فى ذٰلك كلِّه بالحظِّ الأوفىٰ للديوان السلطانىِّ ، وما يجرى مَجرىٰ ذلك .

وإن كان «مستَوْفِىَ صُحْبة» وُصِّى بإلزام الكُتَّاب بما يلزمهم من الأعمال وتحريرها ، وعمل المكلَّفات وتقدير المِساحات ، وتمييزِ ما بينَ تسجيل الفُدُن فى كل بلدٍ بحسَب ما يصلُح لها من الزِّراعة ، وتمييزِ قِيَم بعضها علىٰ بعضٍ ، ومستجِدِّ الجرائد ، وما يقابَلُ عليه من ديوان الإقطاعات والأحْباس وغير ذٰلك .

وإن كان «ناظرًا لخزانة الخاص» وُصِّى بتحصيل مايُحتاج إليه لتفصيل الخاصِّ وتشاريف أربابِ الســيوف والأقلام : العَربِ ، والتُّرْكُمَان ، والأكرادِ ، وغيرهم ؛ وهَدايا المُـلوك وما يجرى مَجْرىٰ ذلك : من العَتَّابىِّ والأطْلَس ، والمُشَرْبَش ، والمُقَنْدَس والمَتَمَّر ، والطِّرازات علىٰ اختلافِها : من الزَّرْكش ، والباهِى ، وأنواع المستعملات ، وما يحمَلُ من دارِ الطِّراز ، وما يُبتاع للخزانة العاليــة ، وما هو مُرْصَد لهـا من الجهات التى يحمَـل إليها متحصِّلُها : ليُنفَق فى أثمـان المَبيعات ومصروفِ المستعْمَلات ، والاحترازِ فيما يُنْفق من الأثمـان وقيمة المُبْتاع ، وشهاداتِ الرسائل المكتتبة إليه بالمحمول وما يكتب بها من الرَّجَعَات ، وأن يحصِّل كلَّ شيء هو بصَدَد الحاجة إليه قبلَ الاحتياج .

وإن كان « قاضيا » وُصِّى بالتروِّى فى أحكامه قبل إمضائها ، وأن يراجعَ الأمرَ مرَّةً بعد أُخْرىٰ ، واستشارةِ أهل العلم ، والرُّجُوع إليهم فيما أَشْكل عليه ، واستخارةِ اللهِ تعالىٰ قبل الإقدام علىٰ الحكْم ، والقضاءِ بحقِّ الخصم بعــد وُضُوحه ، والتسجيل له به ، والإشهادِ علىٰ نَفْسه بذٰلك ، والتسويةِ بين الخُصوم حتَّى فى تقسيم النظَر إلىٰ الخصمين ، والتحرِّى فى استيداء الشهادات ، وأن لايقبل من الشهود الا من عُرِف

بالعَدَالة : من رَبِّ قلم أو سيفٍ ، والتنقيب عما يصدر من العُقُود ، ولا يعوّل من شهود القيمة إلا علىٰ كل عارف بالقِيَم خبيرٍ بها ، والنظرِ فى أمر الرُّسُل والوُكَلاء ، والنظرِ فى أمور أهل مَذْهَبه ، والآعتناءِ بشأنهم .

ويزاد «الشافعىّ» التوصيةَ بالنظر فى دعاوىٰ بيتِ المال ومُحاكَماته ، والآحتراز فى قضاياها ولا يُقبلُ فيها بينةٌ لوكيل بيت المال فيها مَدْفَع ، ولا يُعمَل فيها بمسألة ضعيفةٍ ، والنظرِ فى أمر أموال الأيتام وأمر المتحدِّثين فيها بالإحسانِ إليهم ، وكذلك أموالُ الصدَقات الجارية تحتَ نظرِه ، والتيقُّظِ لإجرائها علىٰ السَّداد فى صَرْفها فى وجوه آستحقاقها ، وأن لايَعمل فى مسألة تفرَّد بها مذهَبُه إلا بما نَصَّ عليه إمامُه أو كان عليه أكثرُ أصحابه ، ولا يَعْتمِد فى ذٰلك مرجُوحا ولا ما تَفرّد به قائلُه ، وأن لايولى فى البَرِّنائبا الا مَنْ عُرِف استحقاقه وأهليته لما يتولّاه .

ويُزاد «الحنفىّ» الوصيةَ بالعمل بما آقتضاه مذهَبُه من الأمور التى فيها صَلاحٌ لكثير من الناس : كتَزويج المُعْصِرات ، وشُفْعة الجِوَار ، ونَفَقة المعتدَّة البائن ، وعدَم سَماع بيِّنة الإعسار الّا بعد مُضىّ المدّة المعتبرة فى مَذْهبه ، والإحسانِ إلىٰ مَنْ ضَمّه نِطاق ولايته ممن نَزَح إليه من أهل الشَّرْق وأقاصى الشِّمال .

ويُزاد «المالكىّ» الوصيةَ بالتحرّى فى بيِّنات الدِّماء ، والإعذار إلىٰ الخَصْم ليُبدِىَ مالدَيْه من دافِع ، والعملِ بما تفرّد به مذْهَبُه مما فيه فُسْحة للناس : كالثُّبوت بالشهادة علىٰ الخط ، وولايةِ الأوصياء ، وإسقاط الرَّيْع فى الوقف المستَرَدّ بعد البيع ، والإحسانِ إلىٰ مَنْ لديْه من غُرَباء أهل مَذْهَبه ، لاسيَّما مَنْ أتاه من بلاد المغرب .

ويزاد «الحنبلىّ» الوصيةَ بالآحتياط فى بيع مادَثَر من الأوقاف والآستبدال بها ، ورعايةِ المصلحة فى ذٰلك لأهل الوقف بما أمكن ، والفَسْخ علىٰ من غاب عن زوجته

الغَيْبَةَ المستوجبة للفسخ عندهم ، ووقْف الإنسان علىٰ نفســه ، وأمرِ الحوائج التى يحصل بها التخفيف عن ضُعَفاء الناس ، والمُعامَل علىٰ الزرع بالحرث ونحوه ، وغير ذلك ممـا يجرِى هـذا المَجْرىٰ ، والوصيةِ بأهل مذهبه الذين هم أقلُّ المذاهب عِدَّةً وأنزَرُهم وظائفَ وأوقافا ، ومعاملتِهم بالإحسان .

و إن كان « قاضِىَ عســكر » وُصِّى بنحو ما يوصَّى به [القاضى] وأن يتخذ معــه كاتبًـا يكتب للناس ، وأن يقبل من الجُنْد من كان ظاهرُه العدالَةَ ، فإنَّ الشُّهود المُعَــدّين لتحمُّل الشهادة يعِزُّ وجودُهــم فى العسكر ، وأن يكون له مــنزلٌ معروف يُقْصَد فيه إذا نُصِبت الخِيام ، وأحسن ما يكون ذٰلك عن يمينِ الأَعْلَام السلطانية ؛ وأن يكون مســتَعِدّا للأحكام التى يكْثُر فصْــلُها فى العسكر : كالغنائم ، والشَّركة ، والقِسْمة ، والمَبِيعات ، والردّ بالعَيْب ؛ وأن يُسْرِع فى فصل القضاء بين الخُصوم : لئــلا يكون فى ذٰلك تشاغُل عن مَوَاقع الحرب ومقَــدِّماته ، وغير ذٰلك ممـا يجرى هــــذا المجرىٰ .

و إن كان « محتَســبا » وُصِّى بالنظر فى أمر المَكاييل والمَوازين وسائر المَقَـادير ، والتحذيرِ من الغِش فى الطعام والشَّراب ، وأن يتعرَّف الأســعار ، و يستعلم الأخبار فى كل سُوق من غير علم أهــله ؛ وأن يقيم على الأسواق وأرباب المَعَايش من ينُوب عنــه فى النظر فى أمورهم من الأُمنــاء المأمونين ؛ وأن لا يمكن أحدًا من العَطَّارين من بيع غرائبِ العَقَاقير إلا ممَّن لا يُســتَراب به بخط متطبب لمريض ؛ وأن يمنع المتحيلين علىٰ أكل أموال الناس بالباطل : مــن الطُّرُقيَّة (١) وأهــل النِّجامة وسائرِ الطوائف المنســوبة إلىٰ بنى ساسانَ من تعــاطِى ما يتعاطَوْنه من ذٰلك ، و يقمَعَهم و يَحْسِمَ مادَّتهم ، والتصــدِّى للأمر بالمعْروف والنهى عن المنكر ، والمنعِ من الغِش

(١) أى المنجمين الذين يدّعون معرفة المغيبات بمقتضى النظر فى النجوم .

وإخبار المشترِى بأزيدَ ممـا آشترىٰ به ، والنظر فى أمر فُقَهاء المكاتب والعالمـات من النساء، ولا يمكن منهم أحدا [أن] يتعاطى ذلك إلا من عُرِفت أمانَتُه، وأُثِرت صيانَتُـه ، وأن لا يستنيبَ إلا أهـلَ العِفَّة والأمانة والنَّزاهة ممن بَعُد عن الطمَع، ونأىٰ عن مَطاعِم السُّوء .

وإن كان «وكِيلَ بيتِ المال» وُصِّى بالعمل بالشرع الشريف فى جميع أحكامه، وأنَّ مَن مات وله ورثة تَستوعبُ ميراثَه لا يكلِّفُهم ثُبُوتا فيه تعنُّتٌ ومدافَعةٌ عن حقهم؛ والتَّشديدِ فى أمر من كانت قِصَّته منكَرة؛ والتحرُّزِ من شهود الزُّور فى مثل ذلك، وأن يرجِعَ فى كل ما يُبَـاع ويؤجَّر إلىٰ العوائد ، وأن يَتحرّز فى شهادة شُهود القِيمة، ولا يَرجِعَ فيها إلا لمن يُوثَقُ به ممن يكون عنده معرفةٌ بقِيَم الأشياء ، وينَبَّه علىٰ أنَّ له أن يدَّعِىَ بحق المسلمين حيث شاءَ عند من يشاء من أصحاب المَذاهب ، وأنَّ الدعوىٰ عليـه لا تكون إلا فى مجلس الحكم العزيز الشـافِعِىّ، علىٰ ما جرتْ به العادةُ القـديمة ، والآحتياطِ فى حقِّ بيت المـال، ولْيَختَرْ للآستنابة فى الأعمـال من يصلُح لذلك .

وإن كان «مدرّسا» وُصِّىَ بأن يُقْبِل علىٰ جماعة درسه بطَلَاقة وجْه، وأن يستميلَهم إليه جُهْد آستطاعته، ويُربِّيَهم كما يرَبِّى الوالدُ ولدَه، ويستحسنَ نتائج أفكارهم التى يأتونَ بها فى درسه، ويقدّمَ منهم من يجب تقديمُه، ويُنْزِل كلَّ واحد منهم منزلَتَه، ليهُزَّهم ذلك إلىٰ الإكباب علىٰ الآشتغال والآزدياد فى التحصيل . ثم يأتى [فى] كل مدرّس بمـا يناسبه من أمور العلم الذى يدرّس فيه إن كان يدرّس فى علمٍ خاصٍّ .

وإن كان « خطيبا » وُصِّىَ برعاية حقِّ رُتبـة الخَطابة والقيـام بحق ازدواجها ، وأن يأتى من المواعظ بمـا يَقْرَعُ الأسماع بالوعد والوعيد ، ويُلِينُ القلوبَ القاسية ،

وأن يُعِدّ لكل مَقامٍ يقومه مقالًا يقوله، وأن يخفِّف الخُطبة، ويأتىَ بها بليغةً مفهومة، إلىٰ غير ذٰلك من متعلِّقات الخَطابة .

وإن كان «شيخَ خانقاه» وُصِّى بالاجتهاد فى العبادة، والمشىِ علىٰ طريق السَّلَف: من الزُّهد، والورَع، والعَفَاف؛ وأن يأخذ جماعتَه بمَآخذه فى الأمور؛ وأن يعرِفَ لجماعة مكانِه حقُوقَهم الواجبةَ لهم ويُنزِلهم منازِلَهم خصوصًا أُولى السابقةِ منهم، ويأخُذَ فى الرفق بهم ومُداراتهم، مع ترتيب من ٱستَجَدّ منهم، وإجرائهم علىٰ طرائِق الصُّوفيَّة، وتعريفِهم الطريقَ إلىٰ الله تعالىٰ، وتدريج المُريدين علىٰ قَدْر ما تحتمله أفهامُهم، دونَ أن يهْجُم عليهم من أحوال الطريق بما لاتحتمله عُقُولهم . و[اتباع] سبيل الكتاب والسُّنَّة اللَّذيْن من حاد عنهما ضَلَّ، ومن خرج عن جادّتهما زَلّ، وكَفِّهم عن ٱرتكاب البِدَع والجَرْى علىٰ مِنهاجها؛ ومن أتىٰ ذنبا أخَذَه بالتوبة والٱستغفار؛ والإنكار علىٰ من أخَذ فى الشَّطَحات، والخروج عن قانون ظاهر الشريعة، ومَنْع من نحا هذا النحوَ أو جرىٰ علىٰ هذه الجادّة، والإحسان إلىٰ من يَقْدَم عليه من الآفاق، وحُسْن التلَقِّى له، وإكرام نُزُله بعد أن يعَجِّل له بالإذن، والأمر بأخذ عُكَّازة، وفَرْش سَجَّادة، وما ينخرِط فى سِلك ذٰلك .

وإن كان «رئيسَ الأطباء» وُصِّى بالنظر فى أمر طائفتِه، ومعرفةِ أحوالهم، ويأمُر المعالج أن يعرف أوّلا حقيقةَ المرض وأسبابَه وعلاماته، ثم ينظر إلىٰ السِّن والفَصْل والبلد، وحينئذ يشْرَع فى تخفيف الحاصل، وقَطْع الواصل، مع حِفْظ القوّة، وأن لايُهاجِم الداء، ولايستغرب الدواء، ولا يُقْدِم علىٰ الأبدان إلا مايُلائمها، ولا يخرُج عن عادة الأطباء ولو غلب علىٰ ظَنّه الإصابةُ حتَّى يتبصَّر فيه برأى أمثاله؛ ويتجنبُ الدَّواء، ما أمكنَتْه المعالجة بالغذاء، والمركَّبَ ما أمكنته المعالجةُ بالمفرد؛

ويتجنب القياس إلا ماصَحَّ بتجريب غيره فى مثل من أخذ فى علاجه، وما عرض له، وسِنّه، وفصلِه، وبلده، ودَرجة الدواء، وأن يحذر التجربةَ فإنها خَطَر، مع الاحتراز فى المقادير والكيفيات، وفى الاستعمال والأوقات، وما يتقدّم ذٰلك الدواء أو يتأخّر عنه، ولا يأمر باستعمال دواء ولا مايُستغرب من غذاء حتّٰى يحقّق حقيقتَه، ويعرف جديدَه من عتيقه، ليَعرِف مقدار قُوّته فى الفعل .

وإن كان «رئيس الكحّالين» وُصّى بالنظر فى حال جماعتِه أيضا، ومعرفةِ أحوالهم، وأن لايُصَرِّف منهم إلا من عُرِف بحُسْن المُداراة والملازمةِ فى العِلاج، ويأمر كلًّا منهم أن لا يُقْـدِم علىٰ مداواة عينٍ حتّٰى يعرف حقيقـةَ المرض، وأن يُلاطفَها بما يناسِبُها من الغذاء، وأن يتخيّر من الكُحْل ما فيه شفاءُ العين وجلاءُ البصر، وأن يستشيرَ الأطباءَ الطبائعيّةَ فيما أهَمَّ، ممـا لايُستغنىٰ عن رأى مثلِهم فيه، من تخفيف المادَّة بالاستفراغ أو نَقْص دمٍ أو غير ذٰلك .

وإن كان «رئيس اليهُود» وُصّى بضَمِّ جماعته، ولَمِّ شَمْلهم، والحكمِ فيهم بقواعِد مِلّته، والنظرِ فى أمور الأنكِحة عندهم، وما يعتبَر عندهم فيها علىٰ الإطلاق، وما يَفْتقِر إلىٰ الرضا من الجـانبين فى العَقْـد والطَّلاق، والنظر فيمن أوجبَ حكمُ دِينه عليـه التحريم، والتوجُّه فى صلاتهم تِلقاءَ بيت المَقْدِس إلىٰ جهـة قِبْلتهم، وإقامةِ حدود التوراة علىٰ ما أنزل اللهُ تعـالىٰ من غير تحريفٍ ولا تبديلٍ للكلمة بتأويلٍ ولا غيره، واتباع ماأُعطَوْا عليه العهدَ مع إلزامه لهم [ما التزموه] من حكم أمثالهم من أهل الذمة الذين أُقِرُّوا فى دار الإسلام علىٰ الصَّغَار والإذعان لأهل الإسلام، وعدَمِ مضايَقتِهم للمسلمين فى الطُّرُق، وتميزِهم بشِعارهم فى الحَمَّام، كى لايحصُل اللَّبْس بالمسلمين، وحمل شِعار الذمة علىٰ رُءُوسهم: وهى العمائم الصُّفْر، ويأخذهم بتجديد صَبْغه فى كل حين، وعدم التظاهر بما يقتضى المناقضة: من ذكر الله تعالىٰ أو رسوله صلى الله عليه وسلم

بسُوء، أو إظهار الخمر أو معتقَدِهم فى العُزَيْر عليه السلام . وله أن يرتِّب طبقاتِهم على ماتقتضيه مراتبُهم عنـده، وكذلك له التحدُّث فى كنائس اليهود المستمرَّة إلى الآنَ بأيديهم، من حينِ عَقْـد الذمَّة، من غير تجديد متخرِّبٍ، ولا فِعل مالم تُعقَد عليـه الذمَّة ويقرّهم عليه السلَفُ الأوّل .

وإن كان «بَطْرَك النصارى المَلِكانيَّة» وُصِّى بما عليه بِناءُ شِرْعته من المسامحة والاحتمالِ والصَّبْر على الأذى، وعدمِ الاكتراث به، وأخْذ نفسه بهـذه الآدابِ؛ وأنه يُقَدِّم المصالحةَ بين المتحاكمِين إليه قبل فَصْلها على البَتِّ فإنه قاعدةُ دِينـه المَسيحىِّ، ولم تُخالف فيه الملةُ الإسـلاميَّة، وأنه ينَقِّ صـدُورَ إخوانه من الغلّ، ويتخلَّق بكل خُلُق جميل، ولا يستكْثِرُ من الدنيا، ويتنَزَّه عن أموال جماعتِه والتوسُّلِ إلى أخذها، وأنَّ إليه أمْرَ الكنائس والبِيَع، وعليه أن يتفَقَّدها فى كلِّ وقت، ويرفع مافيها من الشُّبُهات، ويحذِّر رُهْبان الدِّيارات من جعلها مَصْيدةً للمـال؛ وأن يتجَنَّبوا فيها الخَلْوَةَ بالنساء، ولا يُؤوِى إليه أحدا من الغُرَباء القادمين عليه يكون فيه ريبةٌ، ولا يكْتُمَ ما اطلع عليه من ذلك عن المسامع الشريفة السلطانية، ولا يُخْفى كتابا يَرِد عليه من أحدٍ من الملوك، أو يكتُب له جوابا؛ ويتجنَّبُ البحر وما يَرِد منه من مَظانِّ الرِّيَب .

وإن كان «بَطْرَك اليَعاقبة» قيل فى وصيته نحوماتقدّم فى وصيّة بطرك المَلِكانيِّين، إلا أنه لا يقال : واعلَمْ أنَّك فى المَدْخل إلى شريعتـك طريقُ الباب، بل يقال : واعلم أنك فى المَدْخَل إلى شريعتك قَسِيمُ الباب، ومساوٍ له فى الأمر والنهى والتحليل والتحريم . ويقـال بدل قوله «وليتجَنَّب البحر» : «وليتوقَّ ما يأتيه سرًّا من تِلْقاء الحَبَشة» .

قلت : وهذه الوصايا مَدْخَل إلىٰ ما يرضىٰ به أصحابُ الولايات ممَّن تقدّم ذكره والأمر فى الزيادة والنقص فى ذلك بحسَب المناسبة راجعٌ إلىٰ نظر الكاتب . علىٰ أن المقرّ الشهابىّ آبنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" عِدَّة وَصايا ليست مما يُكْتَب الآنَ، فأضربنا عن ذكرِ مَقَاصدها هنا : لتُوردَ برُمَّتها فى الكلام علىٰ ما يكتب فى متن التقاليد والتواقيع ونحوها، مع النسخ التى تُورَد هناك علىٰ صورة ما أوردها، ليُنْسَج علىٰ مِنوالها إن أُمِر بكتابة شىءٍ منها .

المقصد الثانى

(فى بيان مَقاصِد ما يُكتب فى الوِلايات، وفيه جملتان)

الجملة الأولىٰ

(فى بيان الرُّسوم فى ذلك، ومقادير قَطْع الورَق لكلِّ صِنْف منها علىٰ سبيل الإجمال)

وهى علىٰ أربعة أنواع :

النوع الأوّل

(التَّقَاليد)

جمع تَقْليد . يقال : قلَّدته أمرَ كذا إذا ولَّيته إيَّاه . قال الجوهرى : وهو مأخُوذ من القلادة فى العُنُق ، يقال قلَّدتُ المرأة فتقلدت ، قال : ومنه التقْليد فى الدِّين أيضا .

ثم التقاليد تشتمل علىٰ طُرّة ومَتْن ، فأما الطرّة فقد أشار اليها فى "التعريف" بقوله : وعُنْوانُها «تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» . وأوضح ذلك فى "التثقيف" فقال :

وصورتُه : ان يكتَب : تقليد شريفٌ بأن يفوَّض إلىٰ المَقرّ الكريم، أو إلىٰ الجناب الكريم ، أو إلىٰ الجنـاب العالى الأميرىِّ الكبيرىِّ، الكافلىِّ، الفـلانىّ، أعزَّ الله تعـالىٰ أنصاره ، أو نُصرتَه ، أو ضاعفَ الله تعـالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس، أو بحَلَبَ المحروسة، أو بطرابُلُس المحروسة، أو نحوها، علىٰ أجمل العوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد علىٰ ما شُرِح فيه .

قلت : وتفصيل هذا الإجمال : إن كان المكتوبُ له التقليدُ هو النائبَ الكافلَ، كُتِب فى طرّة تقليده : تقليدٌ شريفٌ بأن يفَوَّض إلىٰ المَقرّ الكريم العالى، الأميرىِّ ، الكبيرىِّ، الكَفيلىّ، الفلانىّ، فلان الفلانىّ، بلقب الإضافة إلىٰ لَقَب السلطان، كالناصرىّ مثلا ، كَفالةُ السـلطنة الشريفةِ بالممـالك الإسلاميَّة ، أعلاها الله تعالىٰ علىٰ أجمَل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليدُ بكفالة السَّلْطنة بالشام ، كُتِب : تقليـدٌ شريفٌ بأن يفَوَّض إلىٰ المَقَرّ الكريم العـالى ، الأمـيرىّ، الكبيرىّ ، الكَفيلىّ ، فلانٍ النـاصرىّ ، مثلا كَفَالةُ السـلطنة بالشام المحروس علىٰ أتمِّ العوائد فى ذٰلك وأجمل القواعد، علىٰ ما شُرح فيـــه .

وإن كان التقليد بنيابة السـلطنة بحَلَبَ، كُتِب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجَناب الكريم العالى، الأميرىّ، الكبيرىِّ، الكافلىّ، الفلانىّ ، فلانٍ الناصرىّ، أعز الله تعالىٰ نُصْرتَه ، نيابَةُ السلطنة الشريفـة بحَلَبَ المحروسة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بنيابة طَرَابُلُس، كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، الأميرىّ ، الكبيرى ، الكافلىّ، الفـلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعفَ الله

تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفةِ بطرَابُلُسَ المحروسة، علىٰ أجمل العَوائد فى ذلك وأكمل القواعد، علىٰ ما شُرح فيه .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بحَماةَ، أُبْدِل لفظ طَرابُلُس بحماةَ .

وإن كان بنيابة السلطنة بصَفَدَ ، أُبْدِل لفظ طَرابُلُس وحَماةَ بصَفَدَ، والباقى علىٰ ما ذُكر فى طرابلس .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بغَزَّةَ ـ حيثُ جُعلت نيابةً ـ كتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى، الأميرىّ، الكبيرى، الكافلىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمَتَه، نيابَةُ السلطنة الشريفة بغَزَّةَ المحروسةِ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ماشُرِح فيه .

فإن كان مُقدّم العَسْكر كما هو الآنَ ، أبدل لفظُ نِيابة السلطنة الشريفةِ بلفظ « تَقْدِمة العسكر المنصُور » والباقى علىٰ ما ذُكر .

وإن كان التقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك، كُتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ ، فلانٍ الناصرىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَه، نيابةُ السلطنة الشريفةِ بالكَرَك المحروس، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القَواعد، علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كان التقليد بالوِزَارة، كتب : تقليدٌ شريف بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى الصاحِبِىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه، الوزارةُ الشريفةُ بالممالك الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ ، علىٰ أجمل العَوائد، وأكمل القواعد، بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمورُ ، علىٰ ما شُرح فيه .

و إن كان التقليــد بكتابة السرّ، كُتب : تقليدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ الجناب العــالى، القاضَوِىّ، الكبيرى، اليمينِىّ، الفلانىّ، فلانٍ الناصرىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَــه ، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريفة بالممــالك الإســلامية ، أعلاها الله تعالىٰ ، علىٰ أجمل العَوائد ، وأ كمل القَواعد ، بالمعلوم الشاهد به الدّيوان المعمور ، علىٰ ما شُرِح فيه .

و إن كان التقليد بقضاء قُضاة الشافعيَّة بالديار المصريّة ، كُتب : تقليدٌ شريف بأن يفوّض إلىٰ الجناب العالى ، القاضَوِىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ ، فلان : أعزّ الله تعالىٰ أحكامَه ، قَضاءُ قُضاة الشافعيــة بالديار المصرية، علىٰ أجمل العَوائد، وأ كمل القواعد، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمور، على ما شُرح فيه .

و إن كان التقليد بقضاء قُضاة الحنفيَّة، كتب كذٰلك، إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بلفظ الحنَفيَّة .

و إن كان التقليــد لأمير مكّةَ ، كتب : تقليــدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى، الأميرىّ، الكبيرىّ، الشريفىّ، فلانٍ الفــلانىّ : أدام الله تعالىٰ نعمتَــه إمْرةُ مكّةَ المشرّفةِ، علىٰ أجمل العَوائد، وأ كمل القَواعد، على ما شُرح فيه .

و إن كان بإمرة المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، والتحية والإكرام، كتب كذٰلك إلا أنه يُبْدَل لفظُ مكّةَ المشرّفة بلفظ المدينة الشّريفة .

و إن كان بإمرة آل فَضْــل ، كتب : تقليــدٌ شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ المجلس العالى ، الأميرىّ، الكبيرىّ، الفــلانىّ : أدام الله تعالى نعمتَه إمرةُ آل فَضْل، على أجمل العوائد، وأ كمل القواعد، على ما شُرح فيه .

هـذه جملة ما عُهِدتْ كتابتُـه من التقاليد المكتّتَبة من ديوان الانشاء بالأبواب الشريفـة ، فإن حَدَث كتابةُ ما يستحقُّ أن يكْتَب له تقليـدٌ ، كالأتابَكيَّة ونحوها ، كتب بالألقاب اللائقة بصاحبه .

ثم وراءَ ذلك أمران : أحدهما ــ أنه قد تقدّم نقلا عن "التعريف" أنه يكتَب فى العُنوان الذى هو الطرّة : « تقليدٌ شريفٌ لفلان بكذا» فإن كتب تقليدٌ بكَفَالة السلطنة مثلا ، كتب : «تقليدٌ شريفٌ للمقرّ الكريم ، العالى ، الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ ، بكَفَالة السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية ، علىٰ أجمل العَوائد ، وأكمل القَواعد ، على ما شُرِح فيه» .

الثانى ــ أنه اقتَصَر فى "التثقيف" علىٰ قوله فى آخر الطرّة ، علىٰ أجمل العَوائد فى ذٰلك وأكمل القواعد ، وليس الأمر منحصرًا فى ذٰلك ، بل لو عُكِس بأن قيـل : تقليـد شريفٌ بأن يفوّض إلىٰ فلان كذا ، أو تقليدٌ شريف لفلان بكذا علىٰ أكمل القواعد وأجمل العوائد على ماشُرح فيه ، لكان سائغًا .

فإن كان صاحبُ التقليـد علِيَّ الرتبة : كالنائب الكافل ، ونائب الشام ، ونائب حلَبَ ، والوزيرِ ، وكاتب السرّ ، ونحوهم ، كُتِب علىٰ أجمـل العوائد وأتمّها ، وأكمل القَواعد وأعمّها ، أو بالعكس : بأن يكتب علىٰ أجمل العوائدِ وأعمّها ، وأكمل القَواعد وأتمّها ، على ما شُرِح فيه .

وأما مَتْن التقليد ، فقد قال فى "التعريف" إن التَّقاليدَ كلَّها لا تُفتتح إلا بالحمدُلله وليس إلا ، ثم يقال بعدها : أما بعْدُ ، ثم يذكر ماسَنَح من حال الولاية وحال المُوَلّى ، وحُسْن الفكر فيمن يصْلُح ، وأنه لم يرَ أحقَّ من ذٰلك المولّى ويسَمَّى ؛ ثم يُقال مايُفْهم أنه

هو المقدّم الوصف أو المتقدّم إليه بالإشارة؛ ثم يقال: رُسِم بالأمر الشريف العالى، المَوْلَوِىِّ، السلطانىِّ، المَلَكىِّ، الفلانىّ (ويدعىٰ له) أن يقلّد كذا، أو أن يفوّض إليه كذا، والأوّل أجلُّ؛ ثم يُوصىٰ بما يناسب تلك الولاية ممـا لا بدّ منه تارةً جُمْليًّا وتارة تفصيليًّا، وينبّه فيه علىٰ تقوىٰ الله تعالىٰ؛ ثم يختَمُ بالدعاء للولّى، ثم يقال: وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ به بعد الخَطِّ الشريف أعلاه .

قال: ولفُضلاء الكُتَّاب فى هذا أساليب، وتفنُّن كثيرُ الأعاجيب، وكلُّ مألوف غريب، ومَن طالع كلامهم فى هذا وجد ما قُلْناه، وتجلّى له ما أبهمْناه .

وذكره فى "التثقيف" بأوْضَح معنًى وأبْيَن، فقال: ويُكتَب بعد الصَّدْر بخُطْبة مناسبة أوّلها الحمدُ لله إلىٰ آخرها، ثم أما بعدُ، ويَذْكُر ما يرىٰ ذِكرَه من حال الولاية والمولَّى، ويذكر ٱسمه، وهو أن يقال: ولمـا كان المَقرّ، أو الجنابُ، وألقابه ونعوته إلىٰ آخرها، ويُدْعىٰ له: أعزّ الله أنصارَه أو نُصرتَه، أو نحوه، علىٰ ماجرتْ به عادتُه، ولا يُزاد علىٰ دَعْوةٍ واحدة؛ ثم يقال ما يُفْهِم أنه المرادُ بهـذه الأوصاف، أو المعنىّ بهـذه الإشـارة أو نحو ذٰلك؛ ثم يقـال: ٱقتضىٰ حُسْن رأينا الشريفِ، ويذكر ما يقتضى تكريمَـه وتعظيمَه؛ ثم يقـال: فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العـالى، المولوىِّ، السلطانى، المَلَكىّ، الفلانى (ويُدْعىٰ له بما يناسب الحال ثلاثَ دَعوات أو أربعـا) أن يُفوّضَ إلىٰ المشار إليـه كذا؛ ثم يقال: فليتقَلَّدْ ذٰلك، أو فليتَلَقَّ هـذا التفويض، أو نحو هذا؛ ثم يُوصّى بمـا يناسب تلك الولايةَ ممـا لا بدّ منه، ويحرص أن ينَبِّه فيه علىٰ العمل بالتقوىٰ؛ ثم يُختم بالدعاء للولّى بالإعانة والتأييـد ونحو ذٰلك ثلاثَ دعوات، وأكثرها أربع، وأقلُّها ٱثنتـان؛ ثم يقال: بعـد الخط الشريف شرفه الله تعـالىٰ وأعلاه أعلاه إن شاء الله تعالىٰ؛ ثم التاريخ

والمستَنَد، والحمدلَةُ، والحسْبَلةُ على العادة . ولم يَقُل فيه : وسبيلُ كل واقف عليه، كما قال فى "التعريف" .

وآعلم أنَّ التقاليد على آختلافها لاتخْرُج فى مقادير قَطْع الورَق عن مِقدارَيْن :

الأوَّل — قطعُ الثلثين بقَلم الثُّلُث الثقيل . وفيه يُكتَب لنُوّاب السلطنة بمصر والشام مطلقا، وكذلك الوزيرُ، والمشيرُ، وكاتبُ السر، وقاضى قُضاة الشافعية والحنفيَّة بالديار المصرية .

الثانى — قَطْع النصف بقلم الثُّلث الخفيف . وفيه يُكتَب لذَوى التقاليد من أُمَراء العرب : وهم أميرُ مكةَ المشرَّفة، وأميرُ المدينة الشريفة، وأميرآل فَضْل من عَرَب الشام على ما تقدّم ذكره . ولا يُكتَب من التقاليد شىءٌ فيما دُونَ هذا المِقدار من قَطع الوَرق بحال . وسيأتى الكلام على نُسَخ التقاليد فيما بعدُ، إن شاء اللهُ تعالى .

النوع الثانى

(مما يُكتَب فى الولايات السلطانية المراسيمُ)

جمع مَرْسوم، أخذًا من قولهم : رسَمْت له كذا فارتَسمه إذا آمتثله، أو من قولهم : رسم علىّ كذا إذا كتب، ويحتمل أن يكون منهما جميعا .

وهى على ضربين :

الضرب الأوّل

(المراسيم المكبَّرة)

ولم يتعرّض لها المَقَرّ الشِّهابىّ آبن فضل الله فى "التعريف" لأنها لم تكن مستعملةً فى زمنه وإنما حدَثت بعده .

قال فى " التثقيف " : وهى علىٰ نَمَط التقاليد ليس بينهما آختلافٌ إلا فى أمرين : أحدهما ــ أنه لا يكتب شىءٌ من المراسيم فى قَطْع الثلثين بل فى قَطْع النصف أو الثلث . الثانى ــ أنه لا يقال فيها « تقليدٌ شريفٌ » بل «مرسومٌ شريف» .

قلت : ويفترقان من أربعة وجوه . أحدها ــ أنه يقتصر فى طُرَّة المرسوم علىٰ «الأميرى» دُونَ «الكبيرى» بخلاف التقاليد فإنه يقال فيها «الأميرىّ الكبيرىّ» . الثانى ــ أنه يقال فى المرسوم : « أن يستقِرّ» ولا يقال : « أن يفَوَّض» ولا : « أن يُقلَّد » . الثالث ــ أنه لا يقال : «علىٰ أجمل العَوائد وأتمِّ القَواعد» بل يقال : « علىٰ عادة مَنْ تَقدّمه وقاعدتِه » . الرابع ــ أنه لا يقال فى الصَّدْر : « أما بعد » بل « وبَعْد » .

قال : وهى تختص بنُوّاب القِلاع المنصورة بالممالك الإسلامية، وأمراءِ العُرْبان أو مَنْ(١) بالشام وحلَبَ، وشادّى مراكز البريد وغيرهم .

ثم هى علىٰ طبقتين :

الطبقة الأُولىٰ ــ ما يُكتَب فى قَطْع النصف بقلم خفيف الثلث . وذٰلك للنوّاب بالقلاع : من مقدَّمى الأُلوف والطَّبْلَخانات : كنائب حِمْص، والرَّحْبَة، والبِيرة، وقلعة المسلمين، ومَلَطْيةَ، وطَرَسُوس، وأَذَنةَ، وبَهَسْنىٰ، والفُتوحات الجاهانيَّة وغيرها ممن يكتَب له المجلسُ العالى والسامىّ بالياء أو بغير ياء علىٰ ما تقدّم بيانُه فى المكاتَبات إليهم . وكذٰلك بعضُ أمراء العُرْبان وهم أميرُ آل عَلِىّ، وأمير آل مِرا، وأمير بنى عُقْبة . قال فى " التثقيف " : وصورة ما يكتَب فى الطرّة أن يكتب :

(١) لعله ممن بالشام الخ . تأمل .

« مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى أو السامىّ الأميرىّ ، الفلانىّ ، فلان (ويدعَىٰ له بما يناسبه) فى النيابة فى الجهة الفلانية علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه علىٰ ما شُرِح فيه » .

فإن كانت النيابة تقْدِمةَ ألف : كنيابة الرَّحْبة ونحوها ، كُتِب فى طرّة مرسومِ نائبها : « مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ العالى الأميرىُّ الفلانىّ فلان ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه ، فى المكان الفلانىّ علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه » .

وإن كانت النيابة طَبْلخاناه كتب : «مرسومٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامِى الأمير فلان ، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكانِ كذا ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته » ، أو كتب : «مرسوم شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامى الأمير فلان الدين فلان ، أدام الله تعالى تأييدَه فى النيابة بمكانِ كذا ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه » .

وإن كانت نيابةَ قلعة دِمَشْقَ ، كتب : «مرسومٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ العالى ، الأميرىُّ ، فلانٌ ، أدام الله تعالىٰ نعمتَه فى النيابة بالقلعة المنصورةِ بدِمشْق المحروسة ، علىٰ عادةِ من تقدَّمه فى ذٰلك وقاعدتِه ، علىٰ ماشُرِح فيه » . وكذلك كلُّ قلعة بحسب ألقاب نائبها التى يُكاتَب بها .

ثم يُكتَب فى الصَّدْر بعد البسملة خُطبةٌ مفتَتحة بالحمدُ لله ، ثم يقال : وبعدُ ، ويأتى بنحو ما تقدّم ذكرُه فى التقاليد ، ثم يقال : ولما كان المجلسُ العالى أو السامىّ إلىٰ آخر ألقابه ، ثم يقال : فلان ، ويدعَىٰ له بما جرتْ به عادتُه ، ويقال مايُفْهَم منه أنه المقصودُ بما تقدّم ذكره من المدح والأوصاف السابقة ، ثم يقال : فلذٰلك رُسم

بالأمر الشريف إلىٰ آخره أن يَستقرّ المشارُ إليه فى كذا علىٰ عادةِ من تَقَدّمه فى ذٰلك وقاعدته، فلْيَتَلَقَّ ذٰلك ونحوه . ثم يُوصىٰ بما يناسب وظيفتَه التى تولّاها، ويختم بنظير ماتقدّم ذكره فى ختم التقاليد .

الطبقة الثانية — من المراسيم المكبّرة مايُكتَب فى قطع الثلث بقلم التوقيعات . قال فى "التثقيف" : وصورتُه فى الطرّة والصدْر علىٰ ما تقدّم فى الطبقة الأُولىٰ، إلا أن خُطبته تفتَتَح بأمّا بعدَ حمد الله، وتختَتَم بما تقدّم ذكره . قال : وقد تكتب لنوّاب القِلاع من أمراء العَشَرات : مثل نائب بَغْراسَ، ونائب الدَّرْبسَاك، ونائب كَرْكَر، ونائب الكَخْتَا، ونحوها . قال : وكذلك أربابُ الوظائف غير النِّيابات، مثل شادِّ الدَّواوين بالشام وحَلَب، وشادّ مراكز البَرِيد بهما، ونحو ذٰلك؛ وبعض أُمَراء العرب : كأمير بنى مَهْدِىّ، ومقدّم عَرَب جَرْم، ومقدّم عَرَب زَبِيد علىٰ نُدْرة فيه . فإن كان المرسوم بنيابة من النيابات المذكورة وغيرها، كتب : «مرسومٌ كريمٌ بأن يستقرّ المجلس السامى، الأمير فلان الدين أعزه الله تعالىٰ، فى النيابة ببَغْراسَ، أو بالدَّرْبسَاك، أو بكَرْكَر، وما أشبه ذٰلك علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بشدِّ بالشام أو بحلَبَ، كتب : «مرسومٌ كريمٌ أن يستقرّ المجلس السامى، الأمير، فلان الدين : أعزه الله تعالىٰ فى شَدّ الدواوين بالمكان الفلانى، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته علىٰ ماشُرِح فيه» . وإن كان بشَدِّ مراكز البَرِيد، أُبْدل لفظ «شَدّ الدواوين» بلفظ «شَدّ مراكز البَرِيد بالمكان الفلانى» . وإن كان بإمرة بنى مَهْدِى، كتب : «فى إمرة بَنِى مهدىٍّ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بتَقْدمة عرب جَرْم، كتب : «فى تقدمة عرب جَرْم، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» . وإن كان بتقدمة عرب زَبِيد، أبدل لفظ جَرْم بزَبِيد، وعلىٰ ذٰلك .

الضـــرب الثـانى

(من المَراسيم التى تكتب بالولايات المَراسيم المصغَّرة)

وهى مايُكتب فى قَطْع العادة، وبها يُكتب لأرباب السيوف بالولايات الصغيرة مثل نظرِ الأوقاف ونحوِه . وهى صنفان :

الصنف الأوّل — ما يُتْرك فيـه أوصالُ بيـاضٍ بين الطُّرّة والبسملة، وهى أعلاها، ويُكتَب بالسامى بغيرياء أو مجلس الأمير :

وصـورتها أن يكتب فى الطرّة : « مرسومٌ شريفٌ أن يَسـتقرّ المجلسُ السامى الأمير فلان الدين ، أو مجلس الأمير فلان فى كذا وكذا بمـا لذٰلك من المعـلوم الشاهِد به ديوانُ الوقف، أو نحو ذٰلك، علىٰ ماشُرِح فيه» ثم يكتب فى الصَّدْر بعد البسملة ماصورته : «رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولوىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ» (باللقب الخاصّ ولقبِ السلطنة) ويُدْعىٰ له بمـا فيه براعةُ الاسـتهلال بذكْرِ الوظيفـة أو آسمِ صاحبها أو لَقَبـه ونحو ذٰلك ، وأقلُّها ثلاثُ فِقَرات فما زاد «أن يستَقِرّ المجلسُ السامى، الأميرُ، الأجل» (إلىٰ آخر ألقابه)، أو أن يستقرّ مجلِسُ الأميرِ، الأجلِّ (إلىٰ آخر الألقاب) لمـا له من كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدْح بمـا يُناسب المقام) ثم يقـال : فليُباشِرْ ذٰلك، أو فليَتـلَقَّ ذلك، أو فليُقابل صدَقاتنا الشريفةَ بكذا ونحو ذٰلك . ثم يُوصَّى بمـا يليق به ، ويدْعىٰ له بدعوتين فقط ؛ ثم يقال : بعد الخط الشريف العالى أعْلاه الله تعالىٰ» .

قلت : وهـذا الصِّنف إن رُوعِى صاحبُـه، كتب فى قَطْع العادة المنصورىّ، وإلا ففى قطع العادة الصغيرِ . قال فى "التثقيف" : ومما ينَبَّـه عليه أنه لا يُكتَب

مرسومٌ شريفٌ فى قطع العادة إلا بمثل نِيابة الشَّقِيف بصَفَد[1] وصَرْخد وعَجْلُون والصُّبَيْبة ، فإنه لا يُولّٰى فيها إلا مقدَّمُ حَلْقة او جنـدىٌّ ، ومثل هذا لا يكتب عن المواقف الشريفة إلا نادرا ، فإنَّ كُفَّال الممالك يستَبِدّون بالتولية فى ذٰلك .

الصنف الثـانى — ما يُكتب فى هيئـة ورقـة الطريق ، ويكونُ فى ثلاثة أوصال ، وصـورته أن يكتب فى الطرّة ماصورتُه : «مرسومٌ شريف أن يسـتقرّ فلان ، أو أن يرتَّب فلان فى كذا وكذا ، علىٰ ماشُرِح فيه» ويكون ذٰلك فى سطرين ، ولا يكتب فى أعلاه الآسمُ الشريفُ كما يُكتب فى غيره : لأنـ من المعـلوم أنه لا يُكتب فى هذا إلا الآسم الشريف فيستغْنىٰ عن ذكره ؛ ثم يكتبُ فى آخرذٰلك الوصل : «رُسِم بالأمر الشريف» علىٰ نحو ماتقدّم ، إلا أنه لا يُحتاج فى الدعاء إلىٰ مايكون فيه براعةُ آستهلال ، بل يكْفِى «أعلاه الله وشرفه ، وأنفَذَه فى الآفاق وصرَّفه» ونحو ذٰلك «أن يَستقرّ فلان فى كذا أو يرَتَّب فى كذا ، فليُعتَمَدْ ذٰلك ويعمَلْ بحسَـبِه ومقتضاه ، بعد الخط الشريف أعْلاه الله تعالىٰ أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ» .

النـــوع الثـالث
(ممـا يُكتب فى الولايات السلطانية التفاويضُ)

جمع تَفْويض ، وهو مصـدر فوّض الأمْرَ إلىٰ زيد إذا ردّه إليـه ، ومنـه قوله تعالىٰ : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَىٰ اللهِ ﴾ أى أَرُدّه إليـه . قال فى "التعريف" : وبه يُكتب لعامَّة القُضاة ، يعنى ممن دُون أرباب التقاليـد ، وهى من نَمَط التقاليد ، غير أنها يقال فى تعريفها « تفويضٌ شريفٌ لفلان بكذا » . ومقتضىٰ ماذكره أنه إذا

---

(١) لعله وصفد بواو العطف . تأمل .

كتب « تفويضُ شريفٌ بقضاء قُضاة الديار المصرية مثلا » يكتب فى الطُّرّة : « تفويضُ شريفٌ للمجلس العالى ، القاضوىّ ، الكبيرىّ ، بقضاء قُضاة المالكيَّة بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، بالمعلومِ الشاهدِ به الديوانُ المعمور علىٰ ما شُرح فيه » ثم يأتى بنحو ما تقدّم ترتيبُه فى التقاليد ، إلا أنه يكون أخصَرَ .

قلت : ولم أقِفْ علىٰ نسخةِ تفويض غيرَ نسخةٍ واحدةٍ من إنشاء المقرّ الشهابىّ ٱبن فضل الله لبعض قُضاة دِمَشْقَ . وقد أنشأتُ أنا تفويضًا بقضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية لقاضى القُضاة جمالِ الدين يُوسف البِساطىّ ، حين وُلِّىَ علىٰ أثَر ولاية قاضِى القُضاة جلالِ الدين البُلْقِينِىّ (1) قضاءَ قُضاة الشافعيَّة ، ٱفتتحتُه بلفظ : «الحمدُ لله الذى شَفَع جَلال الإسلام بجَماله » وكتبت له به ، وكتبت فى طرّته : «تفويضُ شريف للمجلس العالى ، القاضوىّ ، الجَمَالىّ ، يوسُفَ البِساطىّ المالكىّ ، أعز الله تعالىٰ أحكامَه بقضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العَوائد ، وأكمل القَواعد ، علىٰ ما شُرح فيه » . وقرأته بالمجلس العامّ بالمدرسة المنصورية . وسيأتى ذكر نسختِه فى الكلام علىٰ النُّسَخ فى المقْصِد الثانى من هذا الطَّرَف ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(1) بُلْقِينة بضم الباء وسكون اللام وكسر القاف كما فى المعجم والقاموس .

النـــوع الرابع
(التواقيــعُ ، جمعُ توقيــع)

قد تقدّم فى مقدّمة الكتاب عن ٱبن حاجب النُّعمان فى ذخيرة الكُتَّاب : أنَّ التوقيع معناه فى اللغة التأثيرُ الخفيف ، ومنه قولهم : ناقةٌ موقَّعــةُ الجَنبَة(١) اذا أثَّر فيها الرَّحْلُ تأثيراً خفيفًا ، وأنه يحتملُ غيرَ ذٰلك . وفى ٱصطلاح الأقدمين من الكُتَّاب أنه ٱسم لمـا يُكتَب فى حواشى القِصَص بخطِّ الخليفة أو الوزيرِ فى الزمن المتقدّم ، وخط كاتبِ السِّرّ الآنَ ؛ ثم غَلَب حتَّى صار عَلَما علىٰ نوعٍ خاصٍّ ممـا يُكتَب فىالولايات وغيرها . قال فى "التعريف" : وهى علىٰ أُنْموذَج التفاويض . قال : وقد يقال : أن يرتَّب ، وأن يقــدّم ، ثم قال : وعُنوانها « توقيعٌ شريفٌ لفلان بكذا » ولا يقال فيها علىٰ ٱختلافها : «وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه» كما فى التقاليد ، بل يقال : «فلْيُعتَمَدْ ما رُسِم به فيه بعد الخطِّ الشريف أعلاه» . وقد ذكر فى "التعريف" أنها تكون لعامَّــة أرباب الوظائف جليلها وحقــيرها ، وكبيرها وصغيرها ، حتَّى الطبلخانات اللاحقين بشَأو الكِبار فَمَن دُونَهم . وقال فى "التثقيف" : إنها مختَصَّــة بالمتعمِّمين مــن أرباب الوظائف الدينيَّة والدِّيوانيــة ، ولا يُكتَب لأرباب السيوف منها إلا القليل : مثل نظر البِيمارَسْتان ، ونظر الجامع الجديد ، ونظر الحَرَمين الشريفين ، يعنى حَرَم القُدُس وحَرَم الخليل عليه السلام .

قلت : والجامع بينَ كلامَيْهما أنه فىزمن صاحب "التعريف" كانتِ التواقيعُ تُكتَب بالوظائف لأرباب السُّــيُوف من النِّيابات وغيرها قبــل أن تُحدَثَ المراسيمُ المكَبَّرة المقدّمة الذكر ؛ ثم خُصَّت التواقيعُ بعــد ذلك بالمتعمِّمين دُونَ أرباب

(١) الجنب والجانب والجنبة محركة شق الانسان . قاموس .

السيوف . ومضىٰ الأمرُ علىٰ ذٰلك فى زمن صاحب "التثقيف" يجرىٰ علىٰ حكمه ولم يبقَ ممن يكتب له توقيعٌ من أرباب السيوف سِوىٰ نُظَّار الجهات الثلاث المتقدّمة الذِّكر : من البيمارَسْتان المنصورى، والجامع الجديد الناصرىّ بمصر، ونظر الحرمَيْن : حرمِ القُدُس الشريف، وحَرَمِ الخليل عليه السلام . والحكمُ باق علىٰ ذٰلك إلىٰ الآنَ .

ثم التواقيع علىٰ ٱختلافها لا تخرُج عن أربع طبقات :

الطبقة الأولىٰ

(ما يفتتح بخُطْبة مفتَتَحة بالحمد لله، وفيها مرتبتان)

المرتبة الأولىٰ — ما يكتَب فى قَطْع النصف بقلم خفيف الثُّلُث . قال فى "التثقيف" : وصورتُه يعنِي مايكتَبُ به لأرباب الأقلام أن يكتَب فى الطرّة : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوّضَ إلىٰ المجلس العالى، القاضَوِىّ، الكبيرىّ، الفلانىّ (ويُدْعىٰ له دعوةً واحدة) بما[1] جرت به عادتُه، علىٰ أجمل العوائد، وأكملِ القواعدِ، بالمعلوم الشاهِد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخروقتٍ على ماشُرِح فيه» .

قال : فإن كان حاكمًا، كُتب له بعد الكبيرىّ، الحاكمىّ . وإن كان كاتب السرّ، كتب له بعد الكبيرىّ، اليَمينى، لاغير . ثم يكتب فى الصدر خُطْبة مفتَتَحة بالحمد لله ثم يقال : أما بعدُ، والتَّتمة على نظير ما ذُكر فى التقاليد إلا فيما يليق بالوظيفة والمتولِّى لها مما يناسِبُ الحال . وقد ذكر فى "التثقيف" أنه كان يكتب بذٰلك للقُضاة الأربعة بالديار المصرية، والقُضاة الأربعة بالشام، وكاتبِ السرّ بمصر

(١) لم يذكر المفوّض به إليه للعلم به من نظائره والأصل أن يفوض الى المجلس ... ... نظر الجامع الجديد الناصرى مثلا بما جرت به الخ فتنبه .

والشــام ، وناظرِ الجيش بهــما ، وناظر الدواوين المعمورةِ والصُّحْبة الشريفــة ، وهو ناظرُ الدولة .

وحينئذ فإن كتب بذٰلك لقاضى القُضاة الشافعيَّة بالديار المصرية علىٰ ما كان الأمرُ عليــه أوّلا ، كتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرَّ المجلس العالى ، القاضوىُّ ، الكبيرىُّ ، الفلانىّ ، فلان : أعزّ الله تعالىٰ أحكامَه ، فى قضاء قُضاة الشافعيَّة بالديار المصرية ، علىٰ أجمل العوائِد وأتمِّها ، وأكمل القواعِد وأعمِّها ، بمــا لذٰلك من المعلوم الشاهد به الديوانُ المعمور ، علىٰ ما شُرِح فيه » .

وإن كتب به لقاضى القُضاة الحنفيَّة ، علىٰ ما كان الأمرُ عليه أوّلا أيضا ، كتب له نظير قاضى القُضاة الشافعية إلا أنه يُبْدَل لفظ الشافعية بـ«الحَنَفِيَّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة المــالكية ، علىٰ ما الأمر مستقرٌّ عليه الآنَ ، كتب له كذٰلك ، وأبدل لفظ الشافعية والحنفية بـ«المــالِكيَّة» .

وإن كُتب لقاضى القُضاة الحنابلة فكذٰلك ، ويقال فيه «الحَنَابلة» .

وإن كتب به لأحدٍ من القُضاة الأربعــة بالشام ، فكذٰلك ، إلا أنه يقال قضاء قُضاة الشافعيَّة أوالحنفية أوالمــالكية أوالحنابلة بالشّام المحروس .

وإن كتب به لكاتبِ السرّ علىٰ ما كان الأمرُ عليه أوّلا ، كتب : « توقيع شريفٌ بأن يُفَوّض إلىٰ المجلس العــالى ، القاضَوىّ ، الكبيرى ، اليمينىِّ فلان ، ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَــه ، صحابةُ دواوين الإنشاء الشريف بالممــالك الإســلامية أعلاها الله تعالىٰ ، علىٰ أجمل العوائِد ، وأكمل القواعِد ، بالمعلوم الشاهــد به الديوانُ المعمورُ ، علىٰ ماشُرح فيه » .

وإن كُتب به لكاتبِ السرّ بالشام، أُبْدل لفظُ الممالكِ الإسلامية بـ«الشأم المحروس» .

وإن كتب به لناظر الجيش بالديار المِصريّة ، كتب : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوَّض إلىٰ المجلس العالى ، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ : ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ، نظَرُ الجيوش المنصورةِ بالممالك الإسلاميّة ، أعلاها الله تعالىٰ علىٰ ما شُرِح فيه » .

وإن كتب به لناظرِ الجيش بالشام ، أبدِل لفظُ الممالك الإسلامية بـ«الشام المحروس» .

وإن كتب به لناظر الدولة، كُتِب : « توقيعٌ شريفٌ بأن يفوَّض إلىٰ المجلس العالى، القاضَوِىّ ، الكبيرىّ، الفلانىّ، فلان، ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ، نظَرُ الدواوين المعمورةِ والصُّحبةُ الشريفةُ ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القَواعد ، بالمعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمورُ علىٰ ماشُرِح فيه» .

وإن كتب به لناظر البيمارَسْتان لصاحب سيفٍ[(١)]، كتب : «توقيعٌ شريفٌ أن يفوَّض إلىٰ المقرِّ الكريم، أو الجنابِ الكريم، أو العالى (علىٰ قدر رُتبتِه) الأميرىِّ ، الكبيرىِّ ، الفلانىّ ، فلان الناصرىِّ مثلا : أعزَّ الله أنصاره ، أو نُصرتَه ؛ أو ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه (بحسَب ما يليق به) نظرُ البيمارَسْتان المعمور المنصورىّ، علىٰ أجمل العوائد، وأكملِ القواعد، بما لذٰلك من المعلوم الشاهدِ به الديوان المعمور علىٰ ما شُرِح فيه» . وكذلك نظرُ الجامع الجديدِ ونظرُ الحرميْن الشريفين كلٌّ بما يناسب الألقاب . وعلىٰ ذٰلك .

(١) لعله وكان صاحب سيف .

المرتبة الثانية من التواقيع — مايكتَب فى قَطْع الثلث بقلم التوقيعات، وهو لمن مرتَبَتُه السامىّ بالياء . قال فى "التثقيف" : وصورتُه فى الطُّرَّة والصدْر على ما تقدّم شرحُه لكن بأخْصَر ممّا تقدّم . قال : وبذٰلك يُكتب لنقيب الأشْراف ولقُضاة القُضاة بحلب وطرابُلس وحماةَ وصَفَد والكَرَك ، وكذٰلك لقضاة العسكر بالممالك المذكورة والمُفْتِين بدار العَدْل بها، ووكلاء بيت المال بها، والمحتَسِبين، ونُظّار الجيش بها ، وكُتّاب الدَّسْت بمصر والشام ، وناظِر البيوتِ بالديار المصرية . وكذٰلك ناظرُ خزائن السِّلاح، ومستوفِى الصُّحْبة، وناظرُ بيت المال، وناظرُ الخزانة الكبرىٰ وخزانةِ الخاصّ ، وناظرِ الأحباس ، ومشايخُ الخوانق الكِبار : كسَعيد السعداء ، وبيبَرْس بالقاهرة ، والشُّمَيْصاتيّة بدِمَشْق . وكذلك تقدمةُ التُّرْكُمان بالشام ، وتقدمةُ الأكراد به ، ومشيخةُ العائد .

فإن كُتب بذٰلك لنقيب الأشراف، كتب «توقيعٌ شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىُّ، الأميرىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالىٰ عُلُوّه، فى نِقابة الأشراف بالديار المصرية، علىٰ عادة من تقدمه وقاعدتِه، علىٰ ما شُرِح فيه» .

وإن كتب لقاضى قُضاة الشافعية بحَلَب ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أيّد الله تعالىٰ أحكامه، فى قضاء قُضاة الشافعية بحَلَب المحروسة، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته علىٰ ما شُرِح فيه .

وإن كتب للحنفىّ بها كُتب كذٰلك ، وأبدل لفظُ الشافعية بـ«الحنفيّة» وكذا فى المالكية والحنابلة .

وإن كتب لأحدِ قُضاة القضاة بغيرها : كطرابُلُس، وحماةَ، وصَفَد، والكَرَك، أبدل لفظُ حلَبَ بلفظ تلك المدينة، والباقى علىٰ حُكمه .

وإن كتب لأحدٍ من قُضاة العسكر بالممالك المذكورة، كُتب «توقيعٌ شريف بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، فلان الشافعىّ، مثلا أو نحو ذٰلك: أيّد الله تعالىٰ أحكامه، فى قضاء العسكر المنصور بالمكان الفلانىّ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته».

وإن كتب بإفتاء دار العَدْل بشىءٍ من هذه الممالك، أبدل لفظ «قضاء العسكر» بلفظ «إفْتاء دارِ العدل» والباقى علىٰ حُكمه.

وإن كتب لأحدٍ من وكلاء بيت المال بها، كتب «توقيع شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ، فلانٌ: أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى وَكالة بيتِ المال المعمور بالمكان الفلانىّ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته».

وإن كتب لأحدٍ من المحتسِبين بهذه الممالك، كتب «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامى، القضائىّ، الفلانىّ، فلان: أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى نظر الحِسْبة الشريفة بالمكان الفلانى علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه».

وإن كُتب لأحد من وُكلاء بيتِ المال بها، كتب «توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلس السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ، فلان: أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى وكالة بيتِ المال المعمور بالمكان الفلانى، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه».

وإن كتب لأحدٍ من نُظّار الجيش بها، كتب «توقيع شريف بأن يَستقرّ المجلس السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ، فلان: أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى نظَر الجُيوش المنصورة بالمملكة الفلانية، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه».

وإن كتب لأحدٍ من كُتَّاب الدَّسْت بالديار المصرية، كتب «توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىُّ، الفلانىّ، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه، فى كتابة الدَّسْت الشريف بالأبواب الشريفة» . ثم إن كان عن وفاةٍ عَيَّنه أو بنُزول عَيَّنه .

وإن كان بالشام، أُبْدل لفظ «بالأبواب الشريفة» بلفظ «بالشام المحروس» .

وإن كتب بذٰلك فى نظر البيوت بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريف أن يستقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر البيوت المعمورة » .

وإن كُتِب لأحدٍ بنظر خزائنِ السِّلاح بالديار المصرية ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه، فى خزائن السِّلاح المنصورة، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب باستيفاء الصُّحْبة، كتب «توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ، الفـلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى آستيفاء الصُّحْبة الشريفـة ، على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته » .

وإن كتب بنظر بيت المـال ، كتب « توقيع شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىُّ، القضائىّ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَه ، فى نظر بيت المـال المعمور ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدته» .

وإن كتب بنظر الخزانة الكُبْرىٰ ، كتب « توقيعٌ شريف أن يسـتقرّ المجلسُ السامىّ ، القضائىّ ، الفلانىّ : أدام الله رفعتَـه، فى نظر الخزانة العالية الكُبْرىٰ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته» .

وإن كتب بنظر خزانة الخاصّ ، أُبْدل لفظ الخزانة العالية الكبرىٰ بلفظ خزانة الخاصّ الشريف ، والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كُتب بنظر الأحباس، كُتب « توقيعٌ شريفٌ ان يستقرّ المجلسُ السامىّ، القضائىّ ، الفلانىّ ، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ رفعتَه ، فى نظر الأحباس المبرورةِ ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدتِه » .

وإن كتب بمَشْيَخة الخانقاه الصَّلَاحية (سعيدِ السعداء) كتب « توقيعٌ شريفٌ أن يستقرّ المجلسُ السامىّ، الشَّيخىّ، الفلانىّ : أعاد الله تعالىٰ من بركاته، فى مَشْيخة الخانقَاه الصَّلَاحيَّة، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه وقاعدته » .

وإن كتب بمَشْيخة خانقاه بِيبَرْس ، أبدل لفظ « الخانقاه الصَّلَاحيَّة » بلفظ «الخانقاه الرُّكْنيَّة بيبرس» والباقى علىٰ ما تقدّم .

وإن كتب بمشيخة الشُّمَيصاتية بدمشق، أبدل ذٰلك بلفظ «الخانقاه الشُّمَيصاتيَّة بالشام المحروسِ» .

وإن كتب بتَقْدِمة التُّرْكُمان بالشام، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىّ ، الفلانىّ : أعزّه الله تعالىٰ، فى تَقْدِمة التُّرْكُمان بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه » .

وإن كتب بتَقْدِمة الأكراد ، أبدل لفظ «التُّرْكمان» بلفظ «الأكراد» .

وإن كتب بمشيخة العائد ، كتب « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامىّ الفلانىّ : أعزّه الله تعالىٰ ، فى مَشْيخة العائد ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدتِه » . وعلىٰ ذٰلك .

الطبقـــة الثـانية

(من التواقيع ما يُفْتتح بلفظ « أما بعـد حمد الله » وهو لمن رُتْبته السامى بغـير ياء ، وهى على مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ — ما يُكتَب فى قَطْع الثلث ، وهو الاصلُ فيما يُكتب فى الثلث ثم تُرُقِّىَ عنـه إلىٰ رُتْبـة الافتتاح بالحمد . ألا ترىٰ أن المَناشـيرَ التى تُكتَب فى قَطْع الثُّلُث بقلم التوقيعات تفْتَتح كلُّها بلفظ « أما بعـدُ » علىٰ ما سـيأتى بيانُه فى المقالة السادسة ، فى الكلام علىٰ المَنَاشير ، إن شاء الله تعالىٰ .

وصورته أن يكتب فى الطرّة « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السـامى ، القَضائىّ ، فلانُ الدين أو الشيخُ فلان الدين فى كذا ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه ، علىٰ ماشُرِح فيه » ثم يَكتب فى الصدر « أما بعدَ حمدِ الله » ويصلِّى علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم يقول : « فإنَّ أَوْلَى الأمور بكذا مَنْ هو بصفة كذا » أو « إنَّ أَوْلَى الناس بالتقديم من هو متّصِف بكذا » ونحو ذٰلك ، ثم يقال : « ولمـا كان المجلس » ويؤتىٰ بنحو ماتقدّم فى المفْتَتح بالحمدُ لله .

قلت : وقد قَلَّ آسـتعمال هذا الضَّربِ بديوان الإنشـاء الشريفِ وإن كان هو الأصلَ فيما يكتب فى هذا القَطْع ، حتّى لايكاد يُكتَب به إلا فى النـادر ، تغَاليـا فى رِفْعة المكتوب لهم ، مع المسامحة لهم فى مثل ذٰلك .

المرتبة الثـانية — ما يُكتَب فى قَطْع العادة المنصورىّ .

والأمرُ فيه علىٰ ماتقـدّم فيما يُكتب من هذه الطبقـة فى قطع الثلث . قال فى " التثقيف " : وهو قليـلٌ جدّا لا يكون إلا فى تدريسٍ كبـير ، أو نظرِ وقفٍ

كبير، أو مشيخة الحرم الشريف بالقُدُس الشريف، إن لم يكن فى قطع الثلث؛ أو لرجلٍ كبيرٍ قديم الهِجْرة فى الخدْمة الشريفةِ، إلا أنَّ الوظيفة صغيرةٌ لاتقتضى أن تكون فى قطع الثلث .

الطبقــــة الثــالثة

(من التواقيع ما يفتتَح بلفظ «رُسِم بالأمر الشريف» وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ — ما يُكتب فى قَطْع العادة المنصورى بقَلَم الرِّقاع ، وهو لمن رُتبته السـامِى بغير ياء ممن لم تبلغ رتبتُه قطعَ الثلث . قال فى "التثقيف" : وصورته أن يكتب فى الطرّة «توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ المجلس السامِى القاضى فلان الدين : أعزه الله تعـالىٰ فى كذا ، أو أن يُرتَّب ، أو أن يُقَـدّم » ويذكر ما تضَمَّنه الشاهدُ من قصةٍ أو قائمةٍ من ديوان الوِزارة أو الخاصّ أو غير ذٰلك «علىٰ ماشُرِح فيه» . قال : ثم يكتب فى الصــدر بعد البســملة « رُسِم بالأمر الشريف العــالى ، المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ ، الفــلانىّ ، باللقب الخــاص ، ولقب السلطنة » : مِثــل الناصرىّ ، الزَّيْنِىّ ، ونحو ذٰلك (ويُدْعىٰ للسلطان بأدعية تُناسِب الوظيفــةَ والمتولِّىَ لهــا ، وأقلُّها ثلاث فِقَرات فما زاد) «أن يستقرّ المجلسُ السامى ، القاضى ، فلانُ الدين فلان ، أو مجلسُ القاضى فلان الدين فلان : أعزَّه الله تعــالىٰ فى كذا ، لمـا له من صِــفاتٍ هى كذا وكذا (ويأتى من صفات المَدْح بمـا يُناسب المَقام) ثم يقال : فلْيباشِرْ ذٰلك ، أو فليتَلَقَّ هذا الإحسان ، أو فليقابِلْ صدَقاتنا الشريفةَ» ونحو ذٰلك ؛ ثم يُوصَىٰ بما يليق بتلك الرتبة ، ويدعىٰ له بسجعتَين فقط . ثم يقال : «بعدَ الخطِّ الشريفِ أعلاه» . ثم قال : وبذٰلك يكتب لكُتَّاب الدَّرْج ، ومستَوفى

الدولة ، وناظرِ الأَهْراء ، وناظر المَطَابخ ، ومشايِخ الخَوانِق الصِّغار ، والتَّدارِيس الصِّغار ، وأنظارِ الأوقافِ الصِّغار ، ونحو ذٰلك ممـا لا يأخُذه حَصْر .

وحينئـذ فإن كُتِب بذٰلك لكاتب دَرْج ، كتب فى الطـرّة « توقيع شريفٌ أن يسـتقرّ مجلسُ القاضى فلانِ الدين فلان : أعزَّه الله تعالىٰ فى كتابة الدَّرْج الشريف » .

وإن كتب به لمستوفٍ من مستوفِى الدولة ، كُتب «أن يستقرَّ المجلس السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله نعمتَه ، فى ٱستيفاء الدولة الشريفةِ علىٰ عادة من تقدّمه » .

وإن كُتب لناظر الأهراء ، كُتب « أن يستقر المجلسُ السامى ، القاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله رفعتَه ، فى نظر الأهراء السعيدةِ » .

وإن كتب بنَظَر مَطَابخ السُّكَّر ، كتب « أن يستقرَّ المجلس السامى ، القـاضى ، فلان الدين فلان : أدام الله تعالىٰ رفعتَه ، فى نظَر المَطَابخ السعيدة» .

وإن كتب بَمشْيخة خانقاه صغيرة ، كتب «أن يستقر المجلس السامى ، الشَّيْخىّ ، فلان الدين فلان ، أو مجلسُ الشيخ فلان الدين فلان : نَفَع الله تعالىٰ ببركته ، فى مَشْيخة الخانقاه الفلانية ، علىٰ عادةِ من تقدّمه فى ذٰلك وقاعدتِه» .

وإن كُتِب بتدْريسٍ صغير ، كتب «أن يستقرّ فى تَدْريس المدرسـة الفلانية ، علىٰ عادةِ من تقدّمه وقاعدتِه» .

وإن كتب بنظَر وقْف ، كتب « أن يسـتقرّ فى نظر الوقْف الفـلانىّ » ونحو ذٰلك .

ثم إن كان لشيءٍ من ذٰلك معلوم يشهَد به الديوانُ السلطانىُّ ككتابة الدَّرْج وٱستيفاءِ الدولة ، كُتِب بعد قوله وقاعدته : « بما لذٰلك من المعلوم الشاهدِ به الديوانُ المعمور » .

وإن كان الشاهدُ بالمعلوم كتّابَ وقف ، كتب « بما لذٰلك من المعلومِ الشاهدِ به كتّابُ الوقف المبْرور » . ويقول فى آخر طُرّة كل ولاية من التقاليد ، والتفاويض ، والمَرَاسِيم ، والتواقيع علىٰ آختلافها : « علىٰ ما شُرِح فيه » .

الطبقة الرابعة

(التواقيع الصِّغار ، وهى لأصغر ما يكونُ من الولايات :
من نَظَر وقْفٍ صغيرٍ ونحو ذٰلك ، وتكون فى ثلاثة أوصال ونحوها)

وهى علىٰ ضربين

الضرب الأوّل — ما يُكتب علىٰ مِثال أوراق الطَّرِيق .

وصورتُها أن يُكتب فى أعلىٰ الدَّرْج : « توقيعٌ شريفٌ بأن يستقرّ فلان فى كذا ، علىٰ ما شُرِح فيه » . ويكونُ ذٰلك فى سطرين ، ثم يُكتب فى آخر ذٰلك الوصل : « رُسِم بالأمر الشريف العالى المولَوِىّ السلطانىّ » إلىٰ آخر ما تقدّم فى الطبقة الثالثة . ويقال فى الدعاء : « أعلاه اللهُ وشَرَّفه ، وأنفذه وصرّفه » ونحو ذٰلك . ثم يقال : « أن يستقر فلانٌ فى كذا » ويشرح ما تضمَّنه الجواب فى هامش القِصَّة . ثمّ يقال : « فليَعتَمِدْ هـذا المرسومَ الشريفَ كلُّ واقفٍ عليه ، ويعمَلْ بحسَبه ومقتضاه ، من غير عُدُول عنه ولا خروج عن مَعْناه ، بعْدَ الخط الشريفِ أعلاه » .

الضرب الثانى — ما يُكتَب علىٰ ظُهور القِصَص .

وكيفيَّته أن تُلصَق القِصَّة التى شَمِلها جوابُ كاتب السرّ أو غيره علىٰ وَصْلين من وَرَق العادة الصغير . قال فى "التثقيف" : وصورتُها أن يُكتب فى ظاهر القصَّة بغير بَسْمَلة قبل الوصل الذى وصله بنحو أربعة أصابع ما صورته : « رُسِم بالأمر الشريف العالى المولَوىّ السلطانىّ » علىٰ نحو ما تقدّم . ويُدْعىٰ له : « أعلاه الله وشرّفه ، وأنفذه وصرّفه » علىٰ ما تقدّم فى الضرب الأوّل . ثم يقال : «أن يُتأمَّل ما أنهاه رافعُها باطنا ، وليُتقدّم بكذا وكذا » ويشرح ماتضمَّنه الجوابُ فى هامش القِصَّة . ثم يقال : « فليعتَمِد هذا المرسومَ الشريفَ كلُّ واقف عليه ، ويعمَلْ بحسَبِه ومقتضاه ، بعد الخطِّ الشريف أعلاه» . قال : وإن كان رافعُ القصَّة ممن هو متميِّز بعضَ التميُّز قيل : «مترجِمُها» بدل «رافعُها» . فإن زِيدَ فى قدره ، قيل : « ما ذكره مجلسُ القاضى أو المجلسُ السامى القاضى » إن كان من هذه الرتبة ، وتُذكر بعضُ ألقابه . ثم يقال : « أدام الله عُلوَّه » أو « أعزه الله ، فليتقدّم » ويكملُ إلىٰ آخره .

وآعلم أنَّ المقرّ الشِّهابىّ آبنَ فضل الله رحمه الله قد ذكر فى "التعريف" آفتتاحاتٍ أخرىٰ للتواقيع بين رُتْبة «أما بعد حمد الله» ورتبة «رُسِم بالأمر الشريف» فقال : بعد الآفتتاح بأما بعدَ حمد الله : وقد تستفتح بقول : «أما بعدُ فإنَّ أوْلىٰ ما كان كذا» أو ما هذا معناه ، وقد تستفْتَح بقول : « من حسُنَت طرائقُه ، وحُمدت خلائقُه» أو ما هذا معناه ، وجعلها رُتبةً بعد رتبةٍ .

قلت : وهذه الآفتتاحات كانتْ مستعملةً فى الدولة العباسية ببغْدادَ ، وفى الدولة الفاطميَّة بالديار المصريَّة والبلاد الشاميَّة ، ثم فى الدولة التُّركيَّة إلىٰ زمن المَقرّ الشِّهابىّ

المشار إليه فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، ثم رُفِضتْ بعد ذلك، وتُرِك آستعمالُها بالديار المصرية البتّة، فلم يكن أحدٌ من كُتّاب ديوان الإنشاء يستعْمل شيئًا منها .

المقْصِد الثالث

(فى بيان كيفيّة وضع ما يُكتب فى هذه الولايات فى الوَرَق ،
ويتعلّق به عشَرةُ أمور)

الأمر الأوّل — الطُّرّة، وهى فى آصطلاحهم عبارةٌ عن طَرَف الدَّرْج من أعلاه، ثم أطلقوه على ما يُكتَب فى رأس الدَّرْج مجازا، تسميةً للشىء باسم مَحَلِّه .

قلت : وليس صحيحًا من حيثُ اللغة، فإنّه فى الأصل مأخوذٌ من طُرّة الثوب. وقد ذكر الجوهرىّ وغيره أن طُرّة الثوب هى طَرَفُه الذى لاهُدْب فيه، والذى لاهُدْبَ فيه من الثوب هو حاشيَتاه، بخلاف أعلاه وأسفلِه . نعم يجوز أن تكون مأخوذةً من الطَّرّ بمعنى القَطْع ، لأن الطُّرّة مقتطَعةٌ عن كتابة المتْن، يفْصِل بينهما بياضٌ ، ومنه سمّى الشَّعْر المرسَل على الصُّدغ طُرّة . وقد جرتِ العادةُ فى كل مايكتَبُ له طرّةٌ أن يكتب فى أعلىٰ الدَّرْج فى الوَسَط بقَلَم الرِّقاع بكل حالٍ ماصورتُه «الآسم الشريف» ثم تكتَبُ الطرّة تِلْوَ ذلك من أوّل عَرْض الدَّرْج إلىٰ آخره ، دون هامشٍ عن يمينٍ ولا شِمال : بحيث تكون أطرافُ المنتصبات من أوّل السطر الأوّل ملاصقةً لأسفل ما كُتِب فى أعلىٰ الدَّرْج ممّا تقدّم ذكره . ويأتى بالطرّة المناسبة : من تقليدٍ ، أو مرسومٍ، أو تفويضٍ، او توقيع، بالقلم المناسِب لمقدار قَطْع ذلك الورق علىٰ ما تقدّم بيانهُ، ويأتى علىٰ ما يُكتب فى الطرّة علىٰ ماتقتضيه

الحال، علىٰ ماسبق ذكره إلىٰ أن ينتهىَ إلىٰ آخره . فإن آنتهىٰ فى أثناء سطرٍ، تَركَ باقِيَه بياضا، وكتب فى آخره «علىٰ ماشُرِح فيه» بحيث يُوافِق آخرُ ذٰلك آخرَ السطر . و إن آنتهى ما يُكتَب فى الطرّة فى آخر السطر، كتب تحتَ ذٰلك السطر علىٰ حيال آخره «علىٰ ما شُرِح فيه» كما تقدّم، لايختلف الحالُ فى ذٰلك فى مكتوب ولاية، إلا فيما يُكتَب علىٰ ظهور القِصَص : فإنّ العادة جرتْ فيه أن لايكون له طُرّة، ولا يُكتب فى أعلاه الآسمُ الشريف : لأنه قد علم أنه لا يُكتب فيه إلا الآسمُ الشريف، فلم يحتج إلىٰ تنبيهٍ علىٰ ذٰلك .

الأمر الثانى — البسملةُ الشريفة . ومن شأنها أن تُكتب فى أوّل كلّ وِلاية لها شأنٌ، عملًا بقوله صلى الله عليه وسلم : «كُلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبْدَأ فيه بحَمْدِ اللهِ فهُوَ أجْذَمُ» يعنى ناقصَ البركة . ومحلُّها من كُتُب الولايات فى أوّل الوصل الرابع بعد أوصال البيَاض . أما مالا بالَ له من كُتُب الولايات : كالتواقيع التى علىٰ ظُهُور القِصَص وما هو منها علىٰ صورةِ أوراق الطريق، فقد جرىٰ الآصطلاحُ علىٰ أنه لا يُكتَب فى أوّلها بسملةٌ أصلا، بل تفتتح بـ«رُسِم بالأمر الشريف» .

قلت : وقد كان القاضى علاءُ الدين علىٌّ الكَرَكىّ حينَ وُلّىَ كتابة السرّ الشريف بالديار المِصرية فى أوّل سلطنة الظاهر برقوقٍ الثانية أمر أن تُكتب فى أوّل هذه التواقيع بسملةٌ لطيفةُ المقدار، طلبًا للتبرك؛ ثم تُرِك ذٰلك بعد موته وآنتقالِ الوظيفة إلىٰ غيره . ولايخفىٰ أنّ ماعليه الآصطلاحُ هو الوجه : فإنّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قد قَيَّد مايُبْدَأ بالبسملة بما يكون له بالٌ من الأمور، ومقتضاه أنّ مالا بالَ له لايُبْدأ فيه ببسملة . علىٰ أنه قد كان أمر أن تُجعل البسملةُ قبل قوله «رُسِم بالأمر

الشريف» ومقتضى ذلك أن تقع العلامةُ فوقَ البسملة، وفيه مالا يخفى . بخلاف غيره من الولايات الكِبار فإنَّ العلامة تكونُ فيها تحتَ السطر الثانى من البسملة ، على ما سيأتى بيانُه .

الأمر الثالث — الافتتاحُ الذى يلى البسملةَ . وقد علمتَ مما تقدّم أنَّ الذى استقرّ عليه افتتاحُ كُتُب الولايات على اختلافها من أعلى وأدنى لا يخرُج عن ثلاثة أصناف :

أحدها — الافتتاحُ بالحمدُ لله، وهو أعلاها . ثم تختلف رتبتُه بعد ذلك باختلاف ما يُكتب فيه من مقادير قَطْع الورق : إذ هو تارةً تُفتتح به التقاليدُ ، وتارة تفتتَح به المراسيمُ المكبَّرة ، وتارة تفتتَح به التفاويضُ ، وتارة تفتتَح به كبارُ التواقيع .

الثانى — الافتتاحُ بأما بعدَ حمدِ الله . وهو المرتبةُ الثانيةُ من المراسيم المكبَّرة ، والتواقيعِ الكِبار . وتكون فى قَطْع الثلث تارةً ، وفى قطع العادة المنصورىّ أخرى .

الثالث — الافتتاحُ برُسِم بالأمر الشريف . وهو المرتبة الثالثةُ من المراسيم والتواقيع ، وهى أدنى رُتَبِها . وتكون فى قطع العادة الصغيرِ ، وربما كُتِب بها فى قطع العادة المنصورىّ .

الأمر الرابع — البعديةُ فيما يفتتح فيه بالحمدُ لله، وهو على ضربين .

الأول — أن يقال بعد التحميدِ والتشهُّد والصلاةِ على النبىّ صلى الله عليه وسلم : أما بعدُ، وهو الأعلى . وتكون فى التقاليد خاصّةً .

الثانى — وبعدُ، وهى دُونَ اما بعد . وتكون فى التفاويض وكِبَار المراسيم والتواقيع . وقد مرّ القولُ على ذلك مستوفًى فى الكلام على الفَواتح فى المقالة الثالثة .

الأمر الخامس — وصفُ المتولِّى بما يُناسب مَقامه ومَقامَ الولاية من المَدْح والتقريظ . وقد مرّ القولُ علىٰ ذٰلك فى المقْصِد الأوّل من هذا الطَّرَف، فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السادس — الألقابُ المختصَّة بصاحب الولاية . قد تقدّم أنه يذكر فى الطُّرّة بعضُ الألقاب التابعةِ للَّقب الأصلىّ : من المقرّ والجناب وغيرهما، مع التصريح باسم المولَّى والدعاء له بما يُنَاسبه، على ماتقدّم بيانُه هناك . أما فى أثناء الولاية، فإنه يُستوعب جميعُ ألقابه ويعاد ذكْرُ الآسم والدعاء المذكور فى الطُّرّة . وقد تقدّم ذكْرُ الألقاب مستوفىً فى المقْصِد الأوّل من هذا الفصل فى الكلام علىٰ مقدّمات الولايات .

الأمر السابع — وصيَّة صاحبِ الولاية بما يُناسب ولايتَه . وقد تقدّم التنبيهُ علىٰ ذٰلك فى الكلام علىٰ مقدّمات الولاياتِ أيضا .

الأمر الثامن — الدعاءُ لصاحب الولاية بما يناسبُه إذا كان مستحقًّا لذٰلك . وقد ذكر فى "التعريف" أن من آستُصْغِر من المُوَلَّيْن لايُدعىٰ له فى أوّل ولاية ولا آخرِها، وربما قيل بدَل الدعاء أو بعده : « والخيرُ يكون » .

الأمر التاسع — الخواتم : من كتابة « إن شاء اللهُ تعالىٰ » والتاريخ، والمستنَد، والحمدلة، والتصليةِ، علىٰ نحو ماتقدّم فى المكاتَبات .

فأما المشيئة، فإنه يكتب فى آخرِ مكتوبِ كلِّ ولاية : « إن شاء الله تعالىٰ » فى سطرٍ منفردٍ .

وأما التاريخ، فإنه يُكتَب فى سطرين كما تقدّم فى المكاتبات، فيكتب «كُتِب فى يوم كذا من شهر كذا» فى سطر، ويكتَب «سنة كذا وكذا» فى سطر تحته .

وأما المستنَد، فإنَّه يكتب تحتَ التاريخ، كما تقدّم فى المكاتَبات . فإن كان بتلَقِّى كاتبِ السرّ ، كُتِب فى سطرٍ واحد « حسَبَ المرسومِ الشريف » . وإن كان برسالة الدَّوَادار ، كتب « حسَبَ المرسوم الشريف » فى سطر ، ثم كتب فى سطر تحته « برسالةِ الجناب العالى الأميرىّ ، الكبيرىّ ، الفلانىّ الدَّوَادار ، الناصرىّ » مثلا . وإن كان بخط السلطان، كتب «حسَبَ الخَطِّ الشريف» . وإن كان بإشارة النائب الكافل، كتب «بالإشارة العاليةِ الأميريَّة الكبيريَّة الفلانية» فى سطر، وكتب «كافلِ الممالك الشريفةِ الإسلاميَّة أعلاها الله تعالىٰ» فى سطر تحته . وإن كان بإشارة الوزير، كتب «بالإشارة العاليةِ الصاحبِيَّة الوزيريَّة الفلانية » فى سطر ، ثم كتب فى السطر الثانى « مدَبِّر الممالك الشريفة الإسلامية أعلاها الله تعالىٰ» . وإن كان الوزيرُ صاحبَ سيف، أسقط منها «الصاحبِيَّة» . أللهم إلا أن يكون مرسومًا صغيرا أو توقيعًا صغيرا مما كُتِب فى هيئة ورقة الطريق أو علىٰ ظهر القِصَّة ، فإنه إن كان بتلقِّى كاتب السرّ، كُتِب المستَنَد علىٰ حاشية التوقيع علىٰ سَمْت ما بين السطر الأوّل والثانى . وإن كان بإشارة النائب الكافل كُتِب هناك « بالإشارة العالية» سطرين، علىٰ نحو ما تقدّم فيما يُكتَب تحت التاريخ . وإن كان بإشارة الوزير، فالأمر كذٰلك . وإن كان برسالة الدَّوَادار، كتب علىٰ الحاشية هناك « حسَبَ المرسوم الشريف » ، ثم كُتِب تحتَ التاريخ « برسالة الجناب العالى » إلىٰ آخر المستَنَد .

وأما الحَمْدلةُ والصلاة على النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم ، ففى سطر تحت المستَنَد ، كما فى المكاتبات، يكتب فيها «الحمد لله وحده» ثم يخلِّى بياضا، ثم يكتب «وصلَواتُه علىٰ سيدِنا محمد وآله وصحبه وسلامُه» .

وأما الحَسْبلةُ ، ففى سطر تحتَ ذٰلك يكتب فيه « حَسْبُنا الله ونعم الوكيلُ » علىٰ ما تقدّم فى المكاتَبَات .

الأمر العــاشر — البياض الواقعُ فى كُتُب الولايات، وله سِتَّةُ مواضع :

الأوّل — فيما بين الطُّرّة والبسملة ، وهى ثلاثةُ أوصال بالوصل الذى فيه الطرّة ، لا يتجاوزُ ذٰلك فى مقــدار قطع كبيرولا صغير . إلا أنه ربمــا ٱقتُصِر علىٰ وصلين فيما ٱستُصغر شأنُه من الرتبة الثالثة من التواقيع .

الثــانى — الحاشيةُ فيما علىٰ يمين البسملة وما بعدها . وأهلُ زماننا يعبِّرون عن ذٰلك بالهامش ، ولم أجدْ له أصلا فى اللغة . وقد تقدّم القولُ عليها فى المقالة الثالثة ، فى الكلام علىٰ متعلَّقات قَطْع الورق وما ينخرط فى سِلْكه . أما آخرالأســطر فإنه لا بيــاضَ فيــه ؛ علىٰ أنَّ مُلوك الروم يجعلون لكُتُبهم حاشــيةً من أوّل الأســطر وحاشــيةً من آخرها ، علىٰ ما تقــدّم القولُ عليهــا فى الكُتُب الواردة عن صاحب القُسْطنطِينيَّة .

الثالث — بيتُ العلامة ، وهو فيما بينَ السطر الأوّل : وهو الذى يلى البسملةَ ، وبين السطر الثانى : وهو الذى يكونُ فى آخر وصل البسملة . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ مقاديرِ الورق فى المقــالة الثــالثة أن مقــدارَه فى الزمن القديم كان قَدْرَ شِبر ، وقد شاهدْناه دونَ ذٰلك بقليــل فيما كُتِب به فىالدولة الناصرية "محمد بن قلاوون" علىٰ مايشهَد به الموجودُ من تواقيعِهم ؛ ثم تَناقَص قليلا . فلمَّــا غَلَا الورقُ وقُصِّرت الأوصالُ نقص مقدارُه حتّىٰ صار نحوَ شِــبر(١) ، وهو علىٰ ذٰلك إلىٰ الآن . ويزيد ذٰلك وينقصُ باعتبار قَطْع الورق فإنه فى القَطْع الكبير يكون الوصــلُ أطولَ منــه فى القطع الصغير .

(١) لعله نحو "نصف شبر" كما لايخفى .

الرابـع — ما بين الأسطر فى مَتْن الولاية . وهو علىٰ مقـدار النِّصف من بيت العـلامةِ فى القطع الكبير والقطع الصـغير ، لا يكاد ذٰلك يختلِف إلا فى التَّواقيـع والمَرَاسـيم التى هى علىٰ هيئة أوراق الطريق ، والتى علىٰ ظُهور القِصَص فإنَّ ما بين السطرين منها يكون متضايقًا حتّٰى يكونَ بقدر ثلاثةِ أصابعَ مطبوقةٍ .

الخامس — مابين أسطُر اللَّواحِق فيما بعدَ «إن شاء الله تعالىٰ» فإنه يكون مابين كلِّ سـطرين من ذٰلك قدرُ نصف مابين السطرين فى مَتْن الولاية ، إلا فى المستَنَد إذا كان سطرين ، مثـل أن يكون برسالة الدَّوادار ونحوها ، فإنَّ السطرين يكونان متلاصقيـن .

السادس — ما بعدَ اللَّواحق فى آخر الكتاب ، وهو قدرٌ يسيرٌ يكون قدر إصبعين مطبوقين أو ثلاثةِ أصابعَ مطبوقاتٍ وما قارَبَ ذٰلك .

المَهْيَــــع الثـانى

(فى ذكر نُسَخ مـا يُكتب فى متْن الولايات من التقاليد والمَراسيم المكَبَّرة والتفـاوِيض والتَّواقِيــع)

قلت : وقد كنتُ هَمَمْتُ أن أجعلَ ٱبتدا آتِ التقاليد ، والتفاويض ، والمَراسيم ، والتواقيـع : من الٱفتتاح بـ«الحمـدُ لله» أو بـ«أما بعد حمد الله» أو بـ« رُسِم بالأمر الشريف» فى فصلٍ مستقلٍّ ، ومقاصدَها المتعلقةَ بالوظيفة (١) ... ... الكاتب الذى لا يحسن الانشاء ما أحب من الٱبتدا آت المنـاسبةِ للاسم أو اللَّقب ونحوهما ثم يبيِّن القصدَ المتعلق بالوصف . ثم أضربت عن ذٰلك وأتيت بالنسخ علىٰ صُورتها لأمور : منهـا ـ أن فى تضيع النسـخة إفسادًا لصُورتها وضَياعَ فضـيلة المنشئين

---

(١) بياض بالأصل فى غير نسخة ولعله «فى فصل علىٰ حدة ليختار الكاتب الذى لا يحسن الإنشاء ما أحب الخ» .

وإشاعة ذكرهم . ومنها - أن يعرف أنّ الصورة التى تُورَد مما كُتِب به فى الزمن السابق ، وأنها مصطَلَح قد آصطَلَح عليه أهلُ ذٰلك الزمان . ومنها - أن يَعرِف المنشئ ترتيبَ من تقدّمَ لينسُجَ علىٰ مِنْواله . وإذا أراد من لادُرْبَةَ له بالإنشاء أخذَ تحميدة من تقليدٍ أو توقيع وغيرهما ونقلها إلىٰ مَقْصِد من مقاصد الولاية لم يُعْجِزه ذٰلك .

ثم قسمته علىٰ ثلاثة أقسام .

القسم الأوّل

(ولاياتُ وظائف الديار المِصرية ، وهى علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(الولاياتُ بالحضرة ، وهى علىٰ ستة أضرب)

الضرب الأوّل

(ولايات ارباب السيوف ، وهى علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ

(ذواتُ التقاليد ، وهى ثلاثُ وظائفَ)

الوظيفة الأولىٰ

(الكَفَالة ، وهى نِيَابة السلطنة بالحضرة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائِف المملكة فى المقالة الثانية أن الكَفَالة هى أعلىٰ رُتَب نيابة السلطنة ، وأنّ النائبَ الكافلَ يحكُم فى كل مايحْكُم فيه السلطانُ ، ويُعَلِّم فى التقاليد والتواقيع والمَنَاشير وغير ذٰلك ؛ بخلاف غيره من النوّاب فإنّ كل نائبٍ لا يعَلِّم إلا علىٰ ما يختصّ بخاصّةِ نيابته . وقد تقدّم فى مقدّمة الولايات أنّ لقبه «المَقَرّ الكريم» علىٰ ما آستقرّ عليه الحال .

وهذه نسخةُ تقليد بكَفَالة السلطنة، كُتِب بها من إنشاء الشِّهاب محمودٍ الحلَبيّ رحمه الله، وهي :

الحمدُ لله الذي جعل رُكْنَ الدولة في دولتنا القاهرةِ ثابتَ القواعد، علىٰ فَرْقَد الفَرَاقد، راقيًا في رُتَب العُلوّ الآخذةِ من أُفُق التأييد بالمَطَالع ومن نُطُق العزّ بالمَعَاقد، حاليًا بعُقُود المَهابة التي لا تزالُ لرُعْبِها علىٰ الأعداء طلائعَ خيلٍ في المَرَاقب وروائعَ خَيَال في المَرَاقد، حاويًا من أنواع المفاخر ما لو كاثرَتْه الدَّرارىُّ غدَتْ وهي لمجموعه فَرَاقد، أو فاخرَتْه الدُّرَر ثقَّبتها الأفكارُ النواقد، مقلَّدًا من سُيوف الظَّفَر مالا تنْبُو في نُصْرة الإسلام مَضَاربُه وكيف تَنْبُو وأوامرُنا لعقُود حمائلِها علىٰ عَوَاتق مَجْده عَوَاقد .

نحمده علىٰ نِعَمه التي عقَدتْ أمورَ دولتنا بمن يَرْفَع بأسُه منارَها، وعقَدتْ قواعدَ مملكتنا بمن يُوالي فضلُه أنوارَها، وعضَدتْ هِممَ أوليائنا بمن إذا تخيَّلتْ أعداءُ الدين مواقِعَ صَوارِمه كان أمنعُ صونِها إسَارَها وأنفعُ سِلاحِها فِرارَها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُشْرِق الهِمَمُ، بلوَامعها، وتَشْرُفُ الكَلِمُ، بجَوامعِها، وتزكُو الأُمَم، بما تنقُل الألسنةُ منها عن القلوب إلىٰ مَسَامعِها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذي أقامنَا اللهُ لنَصْر دينه، وألهمَنا تفويضَ مصالحِ أمّتِه إلىٰ كلِّ وليّ ما رُفِعَتْ رايةُ نَصْرٍ إلا تلقَّاها عَرَابةُ مجده بيَمينه، وعضَّدَنا في جهاد أعدائه بأعزّ صفيٍّ ينُوب بأسُه للجيش عن طليعته ويقوم رأيه في الحرب مَقَامَ كَمينه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آختارهم لصُحْبته وآرْتضاهم، وأرْهَفَهُم لإقامة ملَّته وآنتضاهم ؛ فمنهم من فازَ بمَزِيَّتَيْ سَبْقِه وتصديقِه، ومنهم من كان الشيطانُ يُنكِّب عن طريقِه ؛ ومنهم من آختار الشهادةَ علىٰ الآنتصار بفريقه

ورَفيقه، ومنهم مَنْ أقامه بشَرَف الأُخُوَّة معــه مُقامَ شَقيقه، صلاةً يَبْلُغه إخلاصُ مُقيمها، ويُعرَضُ عليه إيمــانُ مُديمها، وسلم .

أما بعــدُ، فإنا من حينَ أورَثنا الله مُلْكَ الإسلام لاعن كَلَاله، وألبَسنا فى مَواقف الذَّبِّ عن دينه حُلَل العزِّ المُعْلَمةَ بالجَلَالة، ومكَّن لنـا فى أرضه، وأنهضَنا بمسْنُون الجهاد وفَرْضه، ونَشَر دعوةَ مُلْكنا فى طُول الوجُود وعَرْضه ـ لم نزَلْ نرتادُ لكَفَالة الممـالك الإسلاميَّة من تأْوِى منه إلىٰ رُكْنٍ شديد، ورأيٍ سديد، وحَزْمٍ يقَرِّب من مَواهِب النصر كلَّ بعيد، وعَزْم إذا أرهفَ صوارِمَه من أدْنىٰ الصعيد، وجفَ لهَوْل مواقِعها بابُ الحديد، فهو المطوىّ فى أثناء ضمائرنا وإن تقلدنا قبْلَه سواه، والمنْوىّ فى أحناء سرائرنا وإنَّمـا لامرِئٍ مانَواه، قد حلَبَ قِدمُ هِجْرته، الدَّهْرَ أشْطُرَه، وكتب حُسْنُ خِبْرته، من عُنْوان السِّــيَر أسطُره، وتمثَّلتْ مرْآة الزمان لفِكْرِه فاجتلىٰ صُوَر الوقائع فى صَــفَائها، وتردّدَتْ تجاربُ الأمم علىٰ سَمْعِه فعَــلِم ما يأتى وما يَذَر فى تَرْكها وآقتِفائها، وآستقبل دولَةَ أسلافنا الشريفةَ من فواتحها : فكان لسانَ مَحاسنِها، وبَنَان مَيامنِها، وخِزانةَ سرِّها، وكِنانةَ نَهْيها وأمرِها، وطليعةَ تأييدها، وذَريعةَ أوليائِها إلىٰ عوارفِها وجُودِها، وعنْوانَ أخبارِها، وعِنَان سَوابقِها التى لا تُدْرِك مآثِرُ من سـلَف شَقَّ غُبارِها، ويمينَ قَبْضــتِها المصَرِّفة بين البأس والنَّــدىٰ، وأمينَ آرائها المؤيَّدة بالتوفيق اللَّدُنِىّ علىٰ العِـدا ، ورُكْنَها المُشَــيَّد بالأَسَل وهو ما تُبْنىٰ عليه الممــالك، وحِصْنَها المصَفَّح بالصِّفاح فلا تستطيعُ الأهواءُ أن تتَوَقَّل إليه تلكَ المَسَالك، وزعيمَ جيوشِها التى آجتنَتْ من قَصَب قَوَاضِبه ثمر النَّصْر غيرَ مَرَّه، ومقدَّمَ عساكرها التى آجتلَتْ به وجُوهَ الظَّفَرِ الحلوةَ فى أيَّام الكريهة المُرّة .

ولما كان المَقَرّ الكريمُ (الفلانىّ) هو معنىٰ هـذه الصفات المُبْهَمه، ومَبْنىٰ هذه القواعد المُحْكَمه، وطرازَ حُلَل هذه الأحوال المُعْلَمه، وسرَّ المقاصد الظاهره، وسِلْك هذه [النجوم] الزاهِيَة بل فَلَك هذه الدَّرارِىّ الزاهـره، تُحلِّق صَوادِحُ البراعة، فتقع دُونَ أوصافه بمراحل، وتغوصُ سوابحُ اليَرَاعة، فيُلقيها العجْزُ عن آستخراج دُرَر نُعُوته بالسَّواحل، فأوصافُه تُذْكَر علىٰ وجْه الإجمال لضيق نِطَاق الفَصاحة عن تفصيلها، ومناقبُه تُشْـكَر بلسان الإجماع لعجز أَلْسِـنة الأقلامِ عن بُلُوغها إلىٰ غايتها ووُصُولها، فلذٰلك آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُفْسِح مَجالَ الهدىٰ، بتفويض إيَالة الممالكِ إليه، وأن نَقْطَع آمالَ العِدا، بالآعتماد فى زَعامة الجيوش الإسلاميَّة عليه، وأن نُقِرّ عيونَ الرَّعايا بإلقاء مَقاليد العَـدْل والإحسان إلىٰ يدَيْه، وأن نصُونَ عقائلَ المـمالك من مَهَابته بمـا يغدو سُورا لعَوَاصمها، وسوارًا لمَعَاصِمها، وشَنَباً تفتَرُّ ثُغُورُها عن بُرُوقه، أو لَهَبا يقْطَع طَريق أملِ العِـدَا عن تخيُّل خَيَالهـا فى طُروقه، : ليعتضِدَ الدِّين منه برُكْنه، ويتغلَّب [علىٰ] الشِّرْك فى حالتَىْ حَرْبه ووَهْنه، ويتقلَّب كلٌّ من رعايانا بين وِهَادِ يُمْنِه ومِهادِ أَمْنِه ـ رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال مُلْكه علىٰ الأركان، راقيًا من أُفُق النصر إلىٰ أعلىٰ مَكانةٍ وأرفع مكان ـ أن تُفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفةِ بالديار المصريه، والممالك الإسلاميه، علىٰ أكملِ العَوائد، وأجمل القَواعد، تفويضًا تَمضِى أحكامُه فى المـمالك الإسلامية شرْقا وغَرْبا، وبُعْـدا وقُربا، فلا يخرج منها شىءٌ عن أوامره وأحكامِه، ولا يُعْدَل فى سِلْمها وحَرْبها عن حُكْمَىْ سُيوفه وأقلامِه .

فليَستقِرّ فى هـذه الرُّتْبة العالية آسـتقرارَ الأركان المَوَاكث، والأَطْوادِ اللَّوابث، والأُصُـول الثَّوابت، والنجوم الثوابت، مؤثِّلا قواعدَها برأيه السـديد ورايته، معوِّذًا كمالَهَـا بسيف النصر وآيتِـه، مبتدئاً فى إعلاء مَنَارها من العدل بأقْصاه

ومن الإحسان بغايتـه ، مكثِّرا أعدادَ الجيوش الإسـلامية برأيه السـعيد ، مقرّبا من مَطَامح النَّصر النائية كلَّ بعيـد ، مُوكِّلا بحركات العَـدُوّ وسَكَناته جَفْنًا لا يألَفُ الغِرار (١) ، وسيْفًا لا يعرف القَرار ، وعَزْما لا يَرضىٰ من عدوّه دُونَ اصْطلامه الفِرار ، فلا تزال جيوشُ الإسلام بجميل تَعاهُده مُزَاحة العوائق ، مُزَالةَ العلائق ، لامانعَ لها عن الركوب ، ولا قاطِعَ عن الوُثوب ، قد أعدّتْها عزائمُه ، فكلُّ زمانها بالتأهُّب للّقاء وقتُ إمكانه ، وأمدَّتْ بأسَها صوارمُه ، فهى لاتسأل عن عَدَد عدُوّها بل عن مَكانه ، مقيمًا منارَ العدل الذى هو أساسُ المُلك ودِعامَتُـه ، ورأسُ الحكم بأمر الله فى خَلْقه وهامَتُه ، ونَوْرُ الخِصْب الكافل بمصالح العباد والبلاد وعامَتُه (٢) ، ناشرًا له [فى] أقْطار الممالك ، ماحيًا بنُورِ إقامته آيةَ ليلِ الظُّلْم الحالك ، معاضدًا أحكامَ الشريعة المطهَّرة بالآنقياد إليها ، والآعتمادِ فى الحَلِّ والعَقْد عليها ، والآحتفالِ برَفْع منارها : فإنَّ ذٰلك من أفضل ما قدّمتْه الدولُ الصالحةُ بين يدَيْها ، مقدّمًا عمـارةَ البِلاد علىٰ كلِّ مهمٍّ : فإنها الأصل الذى تتفرّعُ عنه المصالح علىٰ آفتراقِها ، والمـادّةُ التى تستَطِيل الجيوش الإسلاميَّة علىٰ العِـدا بتوسعها فى إنفادِها وإنفاقِها ، والأسبابُ التى تُعِينُ الغيوثَ علىٰ نمـاء ما بَسَـط الله لعباده من أرزاقِها ، وآكَـدُ مصالحها الرِّفْق الذى ما كان فى شىءٍ إلا زانَه ، والعدل الذى ما آتَّصف به مُلْكٌ إلا حَفِظه وصانَه ، فقد جعلْنـا أمره فى ذٰلك جميعه من أمرنا المُطَاع ، وآقتصرْنا عن ذكرِ الوصايا بمـا فى خصائصه الكريمةِ من حُسْن الآضْطِلاع وجميل الآطِّلاع ، وآكتفَيْنا بمـا فى خلائقه الجميلةِ من محاسنَ لو تخيَّر نفْسَـه لم يزِدْها علىٰ ما فيه مِنْ كَرَم الطِّباع ، والله تعالىٰ يؤيِّده وقد فَعَل ، ويجعل رُكْنَه من أثبتِ قواعد الدِّين وقد جعَلْ ، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) الغِرار النوم القليل أو القليل من كل شىء . انظر اللسان ج ٦ .

(٢) العامة قُبَض الحَصَد إذا آجتمعت بعد حصدها وجمعها عام . كذا يؤخذ من اللسان .

وهذه نسخةُ تقليد بكَفَالة السلطنة أيضا، وهى :

الحمدُ لله الذى زانَ دولتَنا القاهرةَ من حُسامِها بتقْليـده ، وصانَ حِمىٰ ممـالِكنا الشريفةِ من أوليائنا بمن تَغْدُو مواقِعُ سيوفه من كل عدُوّ قلائدَ جِيده، وزاد جَلالةَ الملك بمَنْ إذا ركب فى مَواكب نيابَتِه أوردَ جِيـادَ رُعْبه من كل مُتَوَّج من ملوك العدا مَنـاهِلَ وَرِيده ، وفوّضَ تقْدِمة جُيوشنا المنصورةِ إلىٰ مَن تُضاعِف مهابَتُـه فى عُيون العِـدا عدَدَ جنُوده، وتغزُوه سرايا خَيْله فى يَقظتِه وتَطْلُع عليه طلائعُ خَيَاله فى هُجُوده، وإذا صَلَّتْ سيوفُه فى مَوْقِف وغًى أغرتْ رأسَ كلّ مستكبِرٍ لم يعْرِف اللهَ قبلَ رُكوعه بسُجُوده، مُشَرِّف أقدار أوليائنا من المَرَاتب بما تَشْرُف به أقدارُ المراتب فى نفسها ، ومفَضِّـل أيام دَوْلتنا علىٰ الدُّوَل بمـا ألِفتْه من جلالة مُلْكنا فى أمْسِها ، ومُجَمِّل سِـيَرِ أصفيائنا من المَعْدَلة بمـا إذا غرسَتْه فى قلوب الرعايا كان الدعاءُ الصالحُ ثمرةَ غَرْسِها ، ومقلِّد خواصِّنا من إيالة المُلْك ما إذا خطَبتْ به الأقلامُ علىٰ منابِرِ الأنامل نَقلت البلاغةَ فى تلك الأوصاف عن قُسِّها ، ومُفيض حُلَل الأنباء المرقومةَ بأسْنىٰ الرُّتَب علىٰ منْ إذا زانَتْ حِبَرُها اللابسَ زانهـا بلُبْسها ، وإذا أشرقتْ به هالةُ المواكبِ لوغًى سقطَتْ فوارسُ ملُوك العدا عن مَراكبها وآضطربَت الأسِرَّةُ بملوك فُرْسها، وإذا كتمتْه الأعداءُ أنباءَها نطقَت ألسنةُ رياحه بأسرار أهل الشرك ولا يُرىٰ أسْمَعُ من صُمِّها ولا أفصَحُ من خُرْسِها ، وإذا تطاولتْ أبطالُ الوقائع للقـائه آفترَّتْ ثغورُ سُيوفه عن شَنَب النصر لإلْفِها بمعانَقةِ الأعناقِ وأُنْسِها .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى أعادتْ شرفَ أسمائنا إلىٰ أسمـاع المنابر، وأنطقت بمضاعفة الأنباء لأوليائنا ألسِـنةَ الأقلام فى أفواه المحابر، وأعادتْ بسيف النصر حقُوقَ مُلْكنا الذى تلقَّيناه مع الأوّلية والأولوية من أسلافنا الكرام كابرًا عن كابِر .

ونشهد أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لاتزال سيوفُنا بإعلاء مَنَارها ناهِضَه، وجِيادُ جِهادنا لنَشْر دَعْوتها فى الآفاق راكِضَه، وموادُّ نِعَمنا ونِقَمنا لآمال حامليها باسطةً ولأرواح جاحِديها قابِضه؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى ايده الله تعالىٰ بنَصْره، وآتاه من معجزاته مايَحُولُ البصر دُونَ حَصْره، وجعله أمامَ الأنبياءِ وإمامَهُم مع تأخُّر عَصْره، ونَصَره بالرُّعْب الذى زحْزَح كلَّ مَلِكٍ عن سريره وأنزل كلَّ متوَّج من قَصْره؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين هَجَروا فى نصرته مأْلُوفَ الأوطان والأوطار، وركِبُوا فى إقامة مِلَّته، مَخُوفَ الأهوال والأخطار، وفَتَحُوا بيُمْن دَعْوته، ما اشتملتْ عليه المَشارقُ والمغاربُ من الأرجاء الممتدّة والأقْطار؛ صلاةً لا يزال سيفُ جِهادِنا لدوامِها مُقِيما، وحكْمُ جِلادِنا لإقامتها مُدِيما؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا.

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من سَمَت التقاليدُ بأوصافه، وصُرِّفتْ أمورُ الممالك بينَ بأسه وإنصافه؛ وحُلِّيت مواقفُ الخدمة الشريفةِ من جواهر مَهَابته، بما هو جديرٌ بحلْيِ السيف، وزُيِّنت مجالسُ العدل من إيالته، بما هو مبرأٌ من المَيْل والهَوىٰ منزَّه عن الظلم والحَيْف؛ ومُلِئت القلوبُ من مَخَافته، بما يمنع ذا القُوّة فى الباطل من توهُّم البطش وذا الصَّبْوة فى الهَوىٰ من استزاره (؟) ويُحَسِّن لها الفِرار، ويهوّنُ عليها فى جَنْب ما نتوقَّعُه من مواقع سُيوفه السَّبْيَ والإسار، وعُلِق به من مصالح الأقاليم ما يصرِّفه بيمينٍ دأْبها اليُمْنُ ويَسار شأنُها اليَسار؛ وفُوِّضَتْ زعامةُ الجيوش منه إلىٰهُمَام يقوم بأمرها علىٰ ما يجب، وليْثٍ لو لم ينهَضْ بألُوفها المؤلَّفة فى الوقائع لكان من نَفْسه وحْدَها فى جَحْفل لجَب؛ ومِقْدام آلافُ العدا فى شجاعته آحاد، وضِرْغام قَسْور أهلِ الكفر بين يدَىْ وَثَباته وثباته وأُسُودُهم نُقاد؛ من لم نَزَل نَعُدّه فى أركان البيت الشريف المنصوريّ بالخناصر، ونُعدّه للمواقف التى ليس للدين فيها غير تأييد

اللهِ وحدَّ السيفِ ناصِر؛ ونَدّخِرُه من معَادن أوليائنا الذين تمسَّكُوا من الانتمـاء إلينا بأمْكَن الأسباب وأقوىٰ الأَوَاصِر، ونقلّدَ أعطافَ الأواصر منه سيفًا يُرمىٰ منه بَيْتُ العِـدا ومعـاقلُهم بأفتك حاصدٍ وأفلّل حاصِر؛ فكَمْ من مواقفَ شَـفَع فيها الشجاعةَ بالخضُوع لربِّه، ومواطنَ لبِس فيها قَلْبَه علىٰ الدِّرع إذا لَبِس غيرُه الدِّرعَ علىٰ قَلْبِه؛ ومسالِكَ سلَكها فى طاعة الله وطاعتِنا والسيُوفُ تنفِر من قُرُبهـا، ومشاهدَ شهِدها فى طاعة الله وطاعتنا والقلوب تفرّ من حُجُبها، ولَيـالٍ قطعها فى خدمتِنا لم يصْحَبْ غيرَ ألسنة أسنَّتِه وأعيُنِ شُهُبها؛ ومقاصد للدّين بلَغها والسِّهامُ لاتحملُها من الفَرَق قوادِمُ النُّسُور، وسَرايَا وقفَ بينها و بين العِـدا فضُرِبَ بينهم من شجاعته بِسُور، وبحـارِ حَرْبٍ لم تتجـاسَر السوابحُ علىٰ قطْعها حتّى مدّ عليها من مُعْوَجّات سـيوفه قناطِرَ ومن مُقَوَّمات ذَوابلِه جُسُور؛ وكم أنامَ الرعايا فى مِهادِ عَدْلِه فلم يطْرُقْهم طَيْفُ ظالم فى الكَرا، ولا رَوَّع سِرْبَهـم خيالُ مُغِير أوهَمَّهُم السُّرىٰ؛ بل كانوا محفوظين بمهابته محفُوفِين بمواهبـه، وادعِين فى ظلّه الذى مادَجَا عليهم ليلُ خَطْبٍ إلا أطلع لهم بُدورَ الأمن فى غَياهِبِه .

ولمـا كان (فلان) هو الذى سار بذِكْرِ مَهَابته المَثَل، وصار له فى قلُوب الأعداء من الرُّعب ماتَشَابه فيه القاتِلانِ الوَجَل والخَجَل، وجمع محاسنَ الصفات فمـا أخذ عنه أو نُطق به أو نُظِر إليـه إلا وُجِد (مِلْءَ المَسَامع والأفْواه والمُقَل)؛ ولا جَرَّد علىٰ العِـدا سـيفا إلا وودّعَتْ أرواحُهـم الأجساد، ولا أرْهَفَ فى مجالس العَـدْل والإحسان قلَمـا إلا وضمِنتْ له الآجامُ التى نشَأَ بها(كَرَم السُّيُول وسَطْوةَ الآساد)؛ ولا طلَع فى أُفُق مواكِبَ إلا وهالتِ العِـدا هالةُ بَدْره، ودلّت علىٰ عِظَم سلطاننـا رِفعـةُ قَدْره، وشهِدت له بحُسن طاعتنا طاعةُ أُمَرائنا لأمره؛ وأسلَفَ من خدْمة والدنا السـلطان الشهيد ما لم تزَلْ له به عنـدنا حقوقٌ مرعيَّه، وسوابقُ مرضيَّه،

ورتبةُ تقديم سنيَّه، ومزيةُ تقريبٍ جعلته مُشاهَدا بالعِيان مقدّما فى النيَّه ــ آقتضتْ آراؤنا الشريفةُ أن نُرَوِّع العِـدا بسـيفه، ونُرِيَهم من تقْدِمتِـه علىٰ الجيوش يقظةً ما كانوا يرَوْنه حُلُمـا من طَيْفه؛ وليعلْمَ الأعداء معاجلةَ أخذهم بالعُنْف والحيْف، وأننا لا تأخُذُنا فى الله لومةُ لائم فليس بيننَا وبينَ أعداء الله ورسُوله (صلى الله عليه وسلم) إلا السَّيْف .

فلذٰلك رُسم بالأمرِ الشريف ــ لا زالتْ ممـالكُ الإسلام به مُفْتَرَّة المَبَاسم، عالية مدى المَهَابة إذا طَرَقتها عواصفُ رِياح العِـدا وقفَتْ دُونَ بُلُوغها داميـةَ المَنَاسم ــ أنْ تُفوَّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالممـالك الإسلامية علىٰ العادة فى ذٰلك والقـاعدة تفويضًا يُفِيض علىٰ الممـالك حُلَل المَهَابه، ويَسْـلُب أعداءَ الدين رداءَ الأمن فلا ينفَعُهم الخضُوع ولا الإنابه، ويُضاعِفُ لنا أدعيةَ الرعايا الصالحةَ بإجرائهم علىٰ ما ألِفُوه من العدل والإحسان فمنهم الدعاءُ الصالحُ ومن كَرَم الله الإجابَهْ .

فليتقلّد هذه الرُّتبة الدالَّةَ علىٰ آرتفاع قدره لدينْا، الشاهدةَ له باحتفالنا بمـا أوجبه إخلاصُه من حقوق الطاعة والولاء علَيْنا؛ المنبِّهةَ علىٰ أنه سيفُنا الذى نَصونُ الممالك بحـدِّه، ونَصُولُ علىٰ العِـدا بمَضَائه الذى تَهَلَّلُ وُجوهُ النصر كلَّمـا أسفرَ من غِمْده؛ وليسـتقرَّ فى ذٰلك نافذًا فى المصالح الإسـلامية أمْرُه، مُغـيرا علىٰ جُيوش الأعداء ذِكْرُه، معمَلةً فى حمـاية الدِّين بِيضُه المُرْهَفَة وسُمْره، مجمِّلةً بإشراق طلعته مطالِعُ المَوَاكب، مسـيِّرةً نجُوم أسِنَّته إلى قلوب أعداء الدِّين مَسـيرَ الكواكب، مُخْفِقةً بخُفُوق رايته مَساعِى الكفر الصادرةِ عن آمالهم الكَوَاذب، : ليعْلَمَ عدوّ الله أنه أشدُّ طَلَبًا له من أجَله، وألزمُ لعنقه من عَمَله؛ وأسبقُ إليه من رَجْع صوتِه، وأنزل عليه من مُفَاجأة مَوْته. وليُجْمِل النظرَ فى مصالح الجيوش الإسلامية بما يُضاعِفُ عِدّتها،

ويُبْقى علىٰ توالى الأحقـاب حِدّتَها وجِدّتَها، ويأخُذُهم بإدامـة التمرّن فى الحُروب، وإطالة عِنان التأهّب للُّركوب، ويُعين كلًّا منهم بملاحظة حاله علىٰ آسْتِدامه قُوّته وإمكانه، ويجعلُهم بالاقتباس من شجاعته من القوم الذين لايَسْألُون عن عدد عدُوِّهم بل عن مَكَانه. ولْيكُنْ لكلمة الشريعةِ الشريفةِ رافعا، ولشُبَه من يمتنع عن الانقياد إلى الأحكام دافعا، وعلىٰ يدِ من يتطرَّق إلىٰ الخُروج عن أحكامه آخِذا، ولمن لم يسْلُك الأدبَ بين يَدَىْ حُكّامه بمـا يقتضيه تعظيمُ الحكمِ العزيز مؤاخِذا. وليأمُرِ النوّاب بإقامة منَار العـدل الذى يومٌ منه خيرٌ للأرض من أن تُمْطَرَ أربعين يوما، ويَصْرِفْ إلىٰ مَصالح الثُّغور الإسـلامية وحمايتها فِكْرا لم يختَرْ دَعةً ونظرا يأْنفُ أن يألَفَ نَوْما، وملاكُ الوصايا تقوىٰ الله وهى من خَصائص نفْسـه الكريمه، وراحةُ رُوحه التى هى للفِكْر فى مصالح الإسلام مُديمه، فلْيجتهِدْ فى المحافظة عليها ما آستطاع، ويُمْضِ بها فى مصالح الإسلام أمْرَه الذى جعَلْناه من أمرنا مُطاع.

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السـلطنة أيضا، كُتِب به عن السلطان الملكِ أبى بكرِ آبن النـاصر محمد بن قلاوون للأمير طُقُزْدُمُر أمير مجلس، فى سـنة آثنتين وأربعين وسبعمائة، بعد أن بطلَتِ النيابةُ فى دولة أبيه الملِك الناصر عِدّةَ سِنين، وهى :

الحمـدُ لله الذى آصطفىٰ لسلطاننـا المنصورِ مَنْ ينُوب عنّـا فى رعاية الجمهور أحسَنَ منَـاب، وأضْفىٰ علىٰ مُلْكنا المعمور من رياسته أسَرّ سربال ومن حراسـته أجَلَّ جِلْباب، وكفىٰ دولتَنا الشريفةَ بسياسته مُهِمّاتِ الأمور فلتأْييدها بقيامه دَوَام ولتشييدها باهتمامه آستِصْحاب، وشفَىٰ الصُّدور بصُـدُور إشارته المباركة التى لهـا بأوامرنا العالية آقترانٌ ومن ضمـائرنا الصافية آقْتِراب، وأوفىٰ له من بِرِّنا العميم بحقه

الذى [له] بعهْده آستحقاقٌ للتقـديم و إيجاب ، وسبْقِه القديم الذى له من سَعيد المصاهرة أكرمُ آتّشاج ومن حميد المُظاهرة ألزمُ آنتساب .

نحمدُه على أن بصَّر آراءَنا بطُرُق الوِفاق وسُـبُل الصواب ، ونشكره علىٰ أن نَضَّر راياتنا فى الآفاق : فلقُلوبِ العِـدا من خَوْفها إرهاق و إرهاب .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحده لاشريكَ له شهادةً منزَّهة عن الشَّكِّ والآرتياب ، موجَّهةً إلىٰ قِبْلتها التى ترضاها الألباب ، ونشهَد أنَّ سـيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظفر عَزْمَه بالثَّبات وقهَر خصمَه بالتَّباب ، ووَفَّر قِسْـمه من الإنجـاد ويَسَّر حِزْبه للإنجاب ، وأظهر آسمَه بعد آسمِه فخلا فى الأفواه ذِكْرُه وطاب . صلى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين سلَكُوا من بعده فى رعاية عهده أحسَنَ الآداب ، صلاةً متصلةَ الأسـباب ، موصِّلةً إلىٰ خيرِ مآلٍ متكفِّلةً بنِعَم باب (؟) لا يزال لسُحُب جُودها فى الوُجُود آنْصِباب ، ولمقْتَرِب وُفُودها وُرُود إلىٰ مَظَانِّ الرِّضوان من غير إغْباب ، ما جَرَّد آنتقامُنا علىٰ الأعداء سـيفَ سطًا يقُدّ الرِّقاب ، وأوردَ إنعامُنا الأوليـاءَ بحرَ نَدًى زاخِرَ العُبَاب ، وجدّد قيـامُنا بعلم هُـدًى مرّتْ عليـه الأعوامُ وما لُمِح له أثَرٌ ولا فُتِح له باب ، وآعتمَد مَقامُنا الشريفُ ، فى الجمع للقـلوب والتأليف ، علىٰ أعلىٰ ولىّ وأعلىٰ جَنَاب ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من آعتمَدْنا فى الإنجاب والإنجاح علىٰ دِيَانته ، وآنتجدنا فيما أردْنا من الآستصحاب للصَّلاح بإعانته ، وآعتضَدْنا فى تقطِين الممـالك وتأمِين المسالك بصِيالَته وصيانَته ، ورعينا عنـدَ والدنا الشهيد ـ سـقَى اللهُ عَهْده صوبَ الرِّضوان ـ علىٰ عُلُوّ مكانه ودُنُوّ مَكانَتـه ، فا كتفيْنا فى كَفَالة الأُمَّة وإيَالةِ النِّعمـة بخشيتِه من ربِّه واستكانَته ـ من حُمِدت سَجَاياه ، وتعدّدَتْ مَزَاياه ، واستَنَدت

إلىٰ ما أمر اللهُ تعالىٰ به من العَـدْل والإحسان فى الأحكام قَضَاياه ، ووجَدَتْ منه الزُّهدَ والرِّفْق رُعاةُ الإسلام ورَعايَاه ؛ فهو الممدوحُ فضلُه ، من جميع الألسنه ، الممنوحُ فضلُه ، فى سائر الأزمنه ، الملموحُ عليـه آثارُ القَبُول الظاهرِ من عناية الله لمـا نَوَاه من الخير لخلق الله وأبطَنَه ؛ فهو عاضِدُ السلطنة الذى حَلَّ من العَلْياء مَوْطِنَه ، وكافِلُ المملكه ، الذى سبَقَ إلىٰ كلِّ مجد فأدركه ؛ وسـيفُ الدوله ، الحامى الحَوْزة البادى الصَّوْله ؛ ومَنْ له ٱشتمالٌ علىٰ العَلْيا ، ومن يقارِنُ التحقيقُ له رأيًا ، ولا يباين التوفيقُ له سَـعْيا ، ويُعاون الهـدىٰ والنهىٰ علىٰ طُول المَدىٰ له أمرا ونَهْيا ، ويُعايِن الورىٰ لسلطاننا المنصور منه مَهْدِيًّا يُجْمِل لدولتنا حِفْظا ويُحْسِن لُمْلكنا رَعْيا .

وكان فلان هو الذى لم يَزَلْ متعيِّن المحاسن ، متبيِّن المَيَامن ، متمكِّن الرِّياسة فى كل الأماكن ؛ فحِلْمُه إذا اضطَربت الجبالُ الرَّواسى ثابتٌ ساكن ، وعِلْمه الزائدُ بأوضاع السِّياسـة وأنواعِ النَّفَاسة للوُجود من بَهْجته زائنٌ ، ورأيُه الصائبُ للبلاد والعبـاد صائن ، ورَعْيهُ للخلق بالحق : القويُّ منه خائفٌ والضعيفُ إليه راكن ، وبِشْره هادٍ للرائى وبادٍ للمعاين ، وذكْره الجميـلُ سائرٌ فى الآفاق والأقطار والمَدَائن ؛ حتّى أظهر الله تعالىٰ بإمداد نَيِّرنا الأعظمِ من إشراق بَدْره الكامل ما هو فى سِرِّ الغيب كامِن ، وشَهر سيفَه الذى يغدو الإيمـانُ من مَهَابته فى كَنَفٍ منيعٍ وحَرَم آمِن .

ولمـا مضَتْ علىٰ مَنْصب النيابة الشريفـة فى أيَّام والدنا الشهيد بِضْعُ سِـنين ، وٱنقضَت الأيامُ والليالى والدهرُ بَمَوْهِبَتها ضَنين ؛ ولا وُطِيتْ لها رَبْوه ، ولا ٱمتُطيت لهـا صَهْوه ؛ وكانتْ فى سِلْك مُلْكه مندرِجه ، وبصَفْو سلطَنته ممتَزِجه ؛ إلىٰ أنْ قضىٰ عليه الرِّضْوانُ النَّحْب ، وأفضىٰ من الجَنَان إلىٰ المَحَلِّ الرَّحْب ، رأينا بعـدَه بمَنْ كان يتحقَّق وُدَّه أنْ نَسـتأنِس ، وأمضينا وصيَّتَه المبـاركة فى ٱختيار ثمرةِ الإخلاص بمن

كان له الاختصاص يَغْرس ، وأفضينا إليه بالمَنَاب عنّا لما كان من أنوار والدنا الشهيد فى كل تسديد يقْتَبِس ، ومن الاستئثار بمجالسته يفوز فيحوز حكم الحَكَم لأنه كان أميرَ ذلك المجلس ، وقضينا باعتماد أمره الكريم بعد أمرنا الشريف : لأنه الخبير الذى لا يَنْبَهم عليه شىءٌ من خَفَايا القضايا ولا يَلْتَبِس - اقتضىٰ حُسْنُ الرأى الشريف إلقاءَ ما فى أيْدينا من مقاليد الممالك إلىٰ يَده ، وإبقاءَ وديعةِ هذا الأمرِ العظيمِ إلىٰ صَوْنِه وعَونه وتشَدُّده ، وإيفاء جَنَابه إلىٰ حميدِ هذه الغايةِ التى هى للمناسَبة مناسبةٌ لسُؤدَده .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف - لازال يجمَعُ شَمْلَ الإسلام بتعيُّنه وتفرّده ، ويرجعُ أمرُ الأنام منه إلىٰ مأمُون الرأى رشيدِه سَفَّاح السَّيْف مهنّده ، منصورِ العزم مؤيَّده ، ويُوسِع الخليقةَ إذا وليَهم بالرأفة والرحمةِ ومَنْ أولىٰ من أبى بكر بأن يَخُصّ أصحابَ محمد عند الخلافة بإعذاب مَنْهَل الجُود ومَوْرده - أنْ تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالممالك الإسلامية - أعلاها اللهُ تعالىٰ - نيابةً شاملةً مُحيطه ، كاملةً بَسيطه ، تعنِي كلَّ أمير ومأمور ، وتُدْنِي أمرَها الذى يعامَل بالإجلال ويقابَل بالسُّرور ، برًّا وبَحْرا ، وسَهْلا ووعْرا ، غَوْرًا ونَجْدا ، بُعْدا وقُرْبا ، شرْقا وغرْبا ، وما منحه اللهُ تعالىٰ لوالدِنا الناصر من الممالك ويُدَّخر لسلطاننا المنصورِ ويُحْبَىٰ : تستوعِبُ أمرَ ما نأىٰ من هذه الأقاليم ودَنَا ، وتجب طاعتُه فيها علىٰ كلِّ من كان مؤمنًا ، ويمتثَل فى ذلك كلّه أمرُه ، وتعمَل فيه الرويّة فيجْمُل فكرُه ، ويُؤمَّل فيه فتحُه ونصرُه ، وينقل به مدْحُه وشُكرُه ، ولا ينفصل منحُه وبرُّه ، ناظرا فى هذه النيابة الشريفة بفكره التامّ ، سائرا فيها السيرَ الجميلَ من الدُّرْبة والإلهام ، ناشرًا ظلالَ المَعْدَلة علىٰ مَنْ سار أو أقام ، مظاهرًا بجنابه منا أجلَّ مَقام . ونحن وإن كنا نتحقّق من خلاله الحُسْنىٰ ، كلَّ وَصْف يُسْنىٰ ، ونثِق منه بذى الصدر السليم الذى هو علىٰ

المقاصد يُعان و بالمحامد يُعْنىٰ ، فلسنا نُخلّ بالوصية التى نَعْلم أنّ له عنها آستِغْنا ؛ ولكننا لا نَتْرك بها التبرُّكَ ولا نَدَع ماسنّ الله تعالىٰ منها وشرع ، ولا نُغْفل ، مايجب به أن يحتَفَل ؛ فقد وصَّى رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه ، وأمضىٰ أمره المسموعَ كلَّ ذى رجُوع إلىٰ الله تعالىٰ منهم و إنابَهْ ؛ فقد أولاه الله تعالىٰ كلَّ جميل قبل أن وَلّاه ، وحَلّاه بالسِّمات والمَكْرُمات قبل أن رَفَع عُلاه ، وأعطاه ما أرْهَب العِدا من سَطَاه ، وهداه إلىٰ كلّ رُشْد تأتَمُّ به الهُداه .

فأهَمُّ ذٰلك تقوىٰ الله تعالىٰ وهو عليها مجبُول ، وأمرُها عنده متَلَقًّى بالقَبُول . والعدْل فهو منه مأمُول ، والآتصافُ بالإنصاف فهو دأبُه فيما يفْعَل و يقُول ؛ والجهادُ : فعزائمه فى مَيْدانه تجُول ، وصوارِمُه بها من قِرَاع فُرْسانه فُلُول . والزُّعماءُ والأكابر فلهم من محافظته اعتناءٌ و بملاحظَته شُمُول . والعساكرُ الإسلاميّة فبتأبيده تَبْطِش أيديهم بالعِدا وتَصُول . وزعماءُ البلادِ فلهم إلىٰ ظلّ رحمته إيواءٌ وبكَنَف نعمته ظُلُول . وممالكُ الإسلام فما منها إلامعمورٌ بما أوَتْه كَفالتُه مأهول ، وثُغُوره فكلُّها بَسَّام بفَتَكاته التى ألقىٰ رُعْبَها فى البحر فهو بيْن كلّ فاجر و بينَ البحر يَحُول ، وماهو بذٰلك من حَميد المسالك موصُول ، ومحلُّه المقدّم لأنه أهَمُّ الأصول : من إكرام الحُكّام ، و إبرامِ الأحكام ، وآستيفاءِ الحُدُود ، وآقتفاء السَّنَن المعهُود : من إنجاز الوُعُود ، و إحراز السُّعود ، والإجهاز علىٰ كلّ كَفُور وجَحُود ، والآحترازِ من فَظاظة الناس بإفاضة الجُود ؛ فكلُّ ذلك علىٰ خاطره مسْرُود ، ولما آثره مَوْرُود ؛ وفى ذخائره موجُود ، ومن خِبْرته معلومٌ معهود ، وعن فكرته مشهورٌ ومن فِطرته مَشْهود ، فلْيَسَعْ أمرُنا هذا جميعَ الأمراء والجنُود ، وليرجعْ إليه كلُّ من هو من جملة المِلّة معدود ؛ وليُقابِلْ مرسُومَنا بالسمع والطاعة ، أهلُ السنة والجماعة ؛ ساعةَ الوقوف عليه وحالةَ الوُرُود ؛ والله تعالىٰ يُصْلِح ببقائه الوُجُود ، ويَمْنح باهتمامه المقصُود ، ويفتَح المعاقِلَ

باعتزامه الذى ليس بمردود عن مراده ولا مصدود ، بل يصبح الكفر من خوفه محصورا ويمسى وهو بسيفه محصود ؛ والعلامة الشريفة أعلاه ، حجة بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه وصية لنائب سلطنة ، أوردها فى "التعريف" قال :

يوصى بتقوىٰ الله تعالىٰ وتنفيذ الأحكام الشرعية ، ومعاضدة حكامها ، وآستخدام السيوف لمساعدة أقلامها ؛ وتفقد العساكر المنصورة وعرضها ، وإنهاضهم لنوافل الخدمة وفرضها ؛ والتخير للوظائف ، وإجراء الأوقاف علىٰ شرط كل واقف ؛ والملاحظة الحسنىٰ للبلاد وعمارة أوطانها ، وإطابة قلوب سكانها ، ومعاضدة مباشرى الأموال مع عدم الخروج عما ألف من عدل هذه الأيام الشريفة وإحسانها ؛ وتحصين مالديه ، وتحسين كل ما أمره إليه ؛ وآستطلاع الأخبار والمطالعة بها ، والعمل بما يرد عليه من المراسيم المطاعة والتمسك بسببها ؛ وأنه مهما أشكل عليه يستضىء فيه ، بنور آرائنا العالية فهو يكفيه ، ومن قتل من الجند أو مات وخلف ولدا يصلح لإقطاعه يعين له ليقوم بمخلفيه ، ويقال من هذا مايقوم بتمام الغرض ويوفيه .

الوظيفة الثانيـــة
(الوزارة لصاحب سيف)

وآعلم أن أول من أطلق عليه لقب الوزارة فى الإسلام "أبو حفص الخلال" وزير أبى العباس السفاح أول خلفائهم (١) كما ذكره القضاعى فى "عيون المعارف فى أخبار الخلائف" ثم صارت الوزارة بعد ذلك للخلفاء والملوك دائرة بين أرباب السيوف

(١) أى خلفاء العباسين .

والأقلام ، تارةً يليها صاحبُ سـيف وتارةً يليها صاحبُ قلم ، إلا أنها فى أرباب الأقلام أكثر. وعلىٰ ذٰلك جرىٰ عُرْف الديار المصرية من ٱبتداء الأمر و إلى الآنَ .

ومما يَنَبَّه عليه أنَّ الوزير اذا كان صاحبَ سَيْف ، كان فى مجلس السلطان قائماً فى جملة الأمراء القائمين . و إذا كان صاحبَ قلم ، كان جالسًا كما يجلس أرباب الأقلام : من كاتب السرّ وغيره .

وهذه نسخة تقليد بالوزارة ، كُتب به للأمير سَيْف الدين بُكْتُمر . وهى :

الحمد لله الذى شدّ أزْرَ دولتِنا القاهرة ، من أوليائنا بأمضىٰ سيف ، وعضّد أيامنا الزاهرةَ ، من أصفيائنا بأعدل وَلِىّ لا يوجَدُ فى حكمه حَيْف ، وعَدَق تدبيرَ أمورِ ممالكِنا الشريفة بمن تَحْجُبُ مهابتُه ذوى الأطماع الطامحةِ عمَّا لايُحب فلا يُلِم بهم فيها خاطر [ولا] يطرُقُهم بها طَيْف ؛ جاعلِ التأييد لآرائنا مصاحِبا ، والتوفيقِ موافِقا لأوامرنا التى لا تُهْمِل من مصالح الإسلام مندُوبا ولا تدَعُ من مهمَّات المُلْك واجِبا ؛ والإقبالِ تاليًا لمراسيمنا فى ٱرتياد من يغْدُو قلبُ المُحِقّ من حَيْفه ساكنًا وقلب المبطل من خَوْفه واجبا ، واليُمْنِ تابعا لآستخارَتنا فى ٱنتخاب من لم يَزَل فى خدمتنا الشريفة للأدعية الصالحة جاليا ، ولمنافع الإسلامِ والمُلْك طالبا ، ولمضارّهما حاجبا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى عضَّدت أيامَنا بمن جمعَتْ أدواتُه ، رتبَتِى السيف والقلَم ، وعَدقَت تدبير ممالكنا بمن أحرزت [صفاته] ، مزيَّتَى العِلْمِ والعَلَم ، وشدّ أزْرَ دولتنا بمن يُبَيِّضُ بمَعْدِلَته من صحائف أيَّامنا ما هو أحبُّ إليها من حُمْرِ النَّعَم .

ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادة نُعِدّها للقائه ، ونتيمَّن بها فى افتقاد من نعتضِدُ به فى مصالح أهلها وٱنتقائه ، ونقدّمُها أمامَ كل أمر نَدَّخره لآعتلاء ولِيِّنا بالتقىٰ وٱرتقائه ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى أرسله إلىٰ الأمَم

طُرّا، وخصّه بالأمّة التى جعَل أمارةَ سبقها إلىٰ الخيرات أنْ غدَتْ محجّلةً غُرّا ، وأيّده بنصره و بالمؤمنين الذين ما منهم إلا مَنْ أعرضَ عن زُخْرُف الدنيا و إن كان حُلْوا وقال الحَقّ و إن كان مُرّا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَلَوْا أمته فعدَلُوا ، والذين تمسّكوا بسَنَن سُنّته فما حادُوا عنها ولا عدَلُوا ؛ صلاةً لا تزالُ الألسُن لإقامتها مُديمه ، والقلوبُ لإدامتها مُقيمه ؛ وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإن أولىٰ من أبرزت الضمائرُ ، فى الاعتضاد به مكنُونَ طَويّتها ، واعتمدت الخواطر ، فى تصريح عَلَانيتها بأولويّته لمصالح الإسلام علىٰ نيّتها ، وتشوّفت البلاغةُ لرَقْم مَفَاخره ، وتنافست المعانى فى تخليد مآثره ، وهنّأت المَعْدَلة نفسَها ، برافع لوائها ، وأبدت الدولةُ أُنسَها ، بناشر برّها فى الأقطار وآلائها ، وافترّت ثغورُ الاقاليم المحروسة بمن تَلْهَج بمصالحها ألسنةُ أقلامه ، واخضَرّت رُبىٰ آمال الأولياء بما يُسْفِر عنه من تهلّل بهاء غُرَر أيامه ، مَنْ هزَزْنا منه لمصالح الإسلام سيْفا يصلُ ما أمر اللهُ به أن يُوصَل ، ويَفْصِل من مهمّات الممالك مايقتضى الحقُّ أن يُفْصَل ؛ ويُبْرِز من معادن العَدْل والإحسان ماهو فى سرّ خلائقه كامن ، ويُنْزِل من استقامت سيرتُه فى الحمىٰ المُخْصِب والحرَم الآمن ؛ ويصُون الأموالَ بمَهَابته فلا تمتدّ إليها هَوَاجسُ الأطماع ، ولا تتجاسَرُ أبصارُ غير الأمناءِ أن تقُصّ نبأَ رُؤْيتها علىٰ الأسماع ؛ ويُضاعفُها بخبرته التى تَهْديها الأمانةُ إلىٰ مَعَادنها ، وتدُلّها النزاهةُ علىٰ مواطنها ، وتُبْدِى لها ظواهرُ الأعمال أسرارَ بواطِنها ، ويُعمّر بيوتَ الأموال بعمارة البلاد ، ويثمّر فروعَ الطّوارف من مصالحها بحفْظ أصولِ التّلاد ، ويكُفّ أكُفَّ الظلم عن الرعايا فلا يخْشىٰ مُحِقٌّ علىٰ حقه ، ولا يخاف مستقيمٌ علىٰ ما قُسِم له من رزْقه ؛ ولا يطمح قويٌّ إلىٰ من يستضْعف جانبَه ، ولا يطمَعُ باغ فى الحيف علىٰ أحدٍ مخالطَه فى نَسَب كان أو مُجانبَه .

ولما كان الجَناب العالى (الفلانى) هو الذى أشير إلىٰ مَناقِبه ، وآعتُضِد منه بمطيع لله فى السرّ والعَلَن ومراقِبه ؛ وفُوِّض تدبيرُ الممالك منه إلىٰ مَنْ لا تأخُذه فى الحق لومةُ لائم ، وآعتمدَتْ أيامُنا الزاهرةُ منه علىٰ مَنْ طالمَا سَرىٰ فى مصالحها علىٰ جِياد العزائم ؛ وشدّ أزْرَ الملك من موازرته بمن يكْسُو دَسْتَ الوزارة أُبَّهــةً وجلالا ، ويُلبِسُ منصبها سنًا لو ملكَتْه الشمسُ مارامتْ عن بُروج شَرَفها آنتقالا ؛ ويَمُدّ علىٰ الرعايا لواءَ عدل لا يُقلِّص له هَجيرُ الظلم كما تتقلَّص الظلالُ ظِلالا ؛ وتطْلُع به شموسُ الأرزاق علىٰ أولياءِ دولتنا لكن لا تَرْهَب كالشُّموس غرُوبا ولا زوالا ؛ مع مَهابة تُخيف الأُسْد فى آجامها ، ومعدَلة تُعين الغيوث علىٰ رَفْع مُحُول البلاد ودَفْع أَزَماتها ؛ وديانةٍ زانها التُّقىٰ ، وخِبرةٍ صانها الورَعُ وهما أفضل مابه يُرْتقىٰ .

وكانت الوزارةُ الشريفةُ نظامَ المملكة وقِوامَها ، وذِرْوةَ الدولة وسَنامَها ؛ وتاجَ المراتِب وإكْليلَها ، وعَتادَ الخزائن الجامعَ دَقيقَ المصالح الإسلامية وجليلَها ــ آقتضَتْ آراؤنا الشريفةُ أن تُزيِّن هذه الرتبةُ بجوهر فِرِنده ، وأن يصْدُر منصبُها عن مناقبَ لا تصدر إلا عن جهته ومفاخرَ لاتَرِد إلا من عنده ؛ وأن يطلقَ فى مصالحها قَلَمه ، ويمضِىَ فى قواعدِها إشاراتِهِ وكلِمَه ؛ ويُطلِعَ فى أُفُقها شمسَ تدبيره ، ويُعْـدَق به ما يراه فى أمورها من صغير الأمر وكبيره ؛ وأن نجعل مسامعَ الأقاليم علىٰ سَعَتها إلىٰ أوامره ونواهيه مُصْغِيه ، وأن نَصُدّ بسُمْعته عمن بَعُد عوارضَ الإمهال الملهيةِ ومواقعَ الإهمال المُطْغِيه .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف ــ لازالت سحائبُ بِرِّه مستَهِلّة ، وركائبُ المحامد إلىٰ حرم نِعَمه مُهِلّه ــ أن تفوّض إليه الوزارةُ الشريفةُ بالممالك الإسلامية علىٰ أكمل القواعد ، وأجمل العوائد ؛ تفويضًا يُعْلى مَرامه ، ويُمْضى مضاءَ ألسنة الأسنةِ أقلامَه ،

ويبسُط فى مصالح الأقاليم المحروسة يَدَه ولسانَه ، ويلقى إليـه من مهمَّات كلِّ قُطْر أزِمَّته ليصَرِّف علىٰ ما يَرَاه من المصالح عِنانَه .

فليستقرّ فى هذه الرُّتْبة السنية آستقرارَ الدُّرَر فى أسلاكها ، والدَّرارِىّ فى أفلاكها ؛ نافذَ الأمر فى مصالح شَرْقِها وغرْبِها ، مُطاعَ القول فى بُعْـد أماكنها منـه وقُرْبِها ؛ ناشرًا كلمةَ العـدل فى أرجائها ، محققا بالإحسان آمالَ أُمَمٍ قَصَرت علىٰ كَرَمنـا ممدُودَ رَجائها ؛ مُعْليا مَنارَ الشرع الشريف بمعاضدة حُكَّامه ، والوقوف عند أوامره المُطاعة وأحكامه ؛ حافظًا أقـدارَ الرُّتَب بأكْفائها ، معتمِدًا علىٰ ذَوِى البُيوت المحافظين على آتِّبـاع سِيَرِ أسلافهم وآقتفائها ؛ معوّلا علىٰ ذَوِى الخِـبْرة التامة مع الدِّيانه ، مُراعيًا مع ظُهور المعرفة جانبَ العِفَّة والنَّزاهة والصِّيانه ؛ مُوكِّـلا بمصالح بُيوت الأموال والخزائن المعمورة مَوادَّ الأموال ومَعِينَها ، صارفًا إلىٰ عِمارة البلاد جميلَ تدبيرٍ تعتضد البحارُ والسُّحُب منه بمُساعدها علىٰ رِىّ الأرض ومُعِينها ؛ ميَسِّرا موادَّ أرزاق خَدَم دولتنا القاهرة وأوليائها بجميل بِشْره وحُسْن رُوائه ، مسَهِّلا مطالِبَ أرباب الرواتب والصَّـدَقات بطَلَاقة وَجْهٍ لو تأمله آمْرُؤ صادِى الجوانـح لآرتَوىٰ من مائه ؛ ليتوفَّر أهلُ الوظائف علىٰ خِدَمهم بقلوب منْبَسِطة الآمال ، ويُناضِلَ عنها الفقراءُ بسِهـام الليـل (١) التى لا تَطِيش إذا طاشَتِ النِّبال ؛ فقد جعلنا أمْرَه فى ذٰلك جميعه من أمرنا فلْيَكْتُبْ يمْتَثَلْ ، وليقُـلْ فى مصالحنا بمـا يراه يَسْرِ كلامُه سُرِىَّ الرياح ويَسِرْ قولُه سَيْرَ المَثَل ؛ ولا يُمْضَ عقدٌ ولا حَلّ ، ولا ولايةٌ ولا عزل ؛ ولا رَفْع ولا خَفْض ، ولا إبرام ولا نَقْض ؛ إلا عن رأيه وإشارته ، وبنَصِّ خَطِّه وعبارته .

وفى سِيرته السَّرِيَّه ، وديانته التى هى من أسباب الهوىٰ عَرِيَّه ، ما يُغْنِى عن وصايا تُمْلىٰ علىٰ فـكره ، وقواعد تُجْـلىٰ علىٰ ذِكْره ؛ وملاكُها تقوىٰ الله : وهى من أخَصِّ

(١) المراد دعوات السَّحَر كما لا يخفىٰ .

اوصافه ، ونشرُ العـدل والإحسان وهُما من نتائج إنصاته لأمور الرعايا و إنصافه ؛ لكن علىٰ سبيل الذِّكرىٰ التى تنفع المؤمنين ، وترفَع درجاتِ المتقين ؛ فليجعَلْها نجيّ خاطره، وقِبْلة ناظره ؛ والله تعالىٰ يُعْلِي قدره وقد فَعَل، ويجعله من عباده المتقين وقد جَعَل؛ بمنّه وكرمه . والأعتماد [علىٰ الخط الشريف أعلاه] إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة الثـالثة

(الإشارةُ، وهى وظيفة قد حدَثت كتابتُها ولم يُعْهَد بها كتابةٌ فى الزمن القديم)

وهـذه نسخةُ تقليد أنشأته بالإشارة للأمير جمالِ الدين يوسف البشاسى إستادار فى الدولة الناصرية فرج ، حين فُوِّضت إليه الإشارة مضافةً إلىٰ الإستَدَاريّة ، وكَتَب له به المقرُّ الشمسىّ العُمَرىّ كاتبُ الدَّسْتِ الشريف ، فى شعبان سنة تسع وثمـانمـائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جدّد للديار المصريّة بالمحاسن اليُوسُفيّة رَوْنَق جَمَالها، وأعزّ جانبَها بأجلّ عزيزٍ ملأتْ هيبتُه الوافرةُ فَسِيحَ مجَالها، وأسعدَ جَدّها بأسعدِ مُشيرٍ أدارتْ آراؤُه الصائبـةُ مُتقاعِسَ الأمور مابين يمينِها وشمالِهـا، وأكرَمَ مآبَها بأمثل كاف عاد حسنُ تدبيره بضُروبٍ من المصالح أنامَ الخلقَ فى ظِلالهـا ، وأجاب سُؤْلَهـا بأ كملَ لم تَعْدل عن خِطْبتها له و إن أطال فى مِطَالهـا .

نحمـدُه علىٰ أنْ أغاثَ الدولةَ القاهرةَ بمن أَخصَب به بعد الإمحال رَبْعُها، وطال بطَوْله بعد القُصور فَرْعُها ، وحَسُن فى المَنَاظر بحُسن تأتّيه لذى التأمّل يَنْعُها .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له الذى شَرَع المَشُورة وحثّ عليها ، وعدَق أمورَ السيف والقَلَم بها فردّهما عندَ آختلافِ الرأى إليها ؛شهادةً ترفع قائلَها إلىٰ أسنىٰ المراتب وتُعْليه ، وتقرِّب المخلَص فى آنتحالهـا من مَقَام الآستخلاص وتُدْنيه .

ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى ورَد واردُ الأمة من مَنْهَل شِرْعته المطهَّرة ماعَذُب مَشْرَعُه وِرْدا وصَدَرا ، وٱلتقطتِ السَّيَّارَةُ أحاديثَ فضله فَصَيَّرتْها للرِّفاق سَمَرا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تقيَّلوا مَساحِبَ أذياله فى العدل فعدَلُوا ، ولَزِموا مَنْهج سُنَنه الواضحَ فما حادُوا عن سَواءِ السبيل ولا عدَلُوا ، صلاةً تفوق العَدّ حَصْرا ، وترفَع بركاتُها عن الأمة حَصْرا وتبدِّل العُسْر يُسْرا ، فتُعيد عِجَاف الزمان سِمَانا وسُنْبلاتِ الوقت بعد اليُبْس خُضْرا ، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّ للملكة قواعِدَ تُبنىٰ عليها ، وأركانا تستَنِد إليها ، ودعائمَ يُشَدّ بالٱعتضاد بها بُنيانُها ، وعَمَدا يعتمِد عليها فى المهمَّات سلطانُها ، وهذه المَبَانى وإن ٱتَّسع نطاقُها ، وٱمتدّ بامتدادِ المملكة رُواقُها ، فإنَّ بالسيف والقلم قِوامَها ، وبالتعلُّق بحبالها بقاءَها ودوامَها ، إذ كانا قُطبين عليهما مَدَار فَلَكها ، ونقطتين عنهما ينشأ الخطُّ المستقيمُ فى تدبير مُلكها ، وزعيمين يُترافَعُ إليهما عند التخاصُم ، وحكَمَين يُرْجَع إلىٰ حُكْمهما عند التَّحاكُم ، إلا أنهما لايستقِلَّان بأنفُسهما عند التحالُف ، ولا يقوم أحدُهما برأسه لدىٰ التَّخالف ، بل لهما إمامٌ يَرْجِعان إليه ، ويعوِّلان عند ٱضطراب الأمورِ عليه ، وهو الرأى الذى لا يُقْطَع أمرٌ دون حكمه ، ولا يهتَدى سارٍ فى مَهامِه المهِمَّات إلا بنَجْمه ، إذْ كان علىٰ الشجاعة مُقَدَّما ، ودليلُه من المعقُول والمنقُول مسلَّما ، والمُتَّسم به لايزال عند المُلوك مبَجَّلا معظَّما ، لايقدِّمون عليه ولدا ولا والدا ، ولا يُؤْثِرون علىٰ مُعاضَدته عضُدا ولا ساعِدا ، إن أشار برأى تمسك الملكُ منه بالحبل المَتِين ، أو محَضَه كلامَ نصح قال : ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِين﴾ .

ولما كان الجناب العالى ، الاميرىّ ، الكبيرىّ (إلىٰ آخر ألقابه) يُوسفُ الناصرىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه ، هو الذى حنَّكته التَّجارِب و «حَلَب الدَّهْرَ

أشْطُرَه» ، وَعرف بتقليب الأمور علىٰ ممرّ الزمان مَخْبَره ؛ مع ما ٱشتمل عليه من الرأى الصائب ، والفِكْر الذى اذا أبدتْ قريحتُه فى الارتياء عَجَباً أتتْ فطرتُه السليمةُ بالعجائب .

هذا وقد عَلَا فى الدولة القاهرة مَقامُه ، ورشَقَتْ أغراضَ مقاصدها بانقضاء الآجال فى الوقائع سِهامُه ؛ وساس العساكرَ فأحسن فى سياستها التدبير ، وبذَل فى نَفَقاتها الأموالَ فمال فيها إلىٰ الإسراف دُون التقْتير ؛ وٱستجلب الخواطرَ فأخذ منها بمجامع القُلوب ، وٱقتاد النفُوسَ الأبِيَّة قهرا فأطاعه مَنْ بينَ الشَّمال والجَنُوب ؛ وقام من المهِمَّات الشريفة بما لم يَسبِقْه إليه سابق ، وأتىٰ من خَوارِق العادات فى التنفيذ بما لم يَلْحَقْه فيه لاحِق ، وبادر إلى ترتيب المصالح فرَتَّبها ولم يَعُقْه فى ٱنتهاز الفُرْصة عن دَفْع المفاسد عائِق ؛ وأخذ فى حَطِّ الأسعار فورد مَنْهَلا من المعروف صافيا ، وأمر بإبطال المُعامَلين فكان له عمَلا علىٰ تَوالِى الأزمان باقيا ؛ ولازمَ بعدَ رضا الله تعالىٰ رِضَا مَلِكه ففاز بأشرف المآثر فى الحديث والقديم ، وتأسَّىٰ فى تعريفه بنَفْسه بيوسف عليه السلام فقال : ﴿ٱجْعَلْنِى علىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عليم﴾ — ٱقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف تنويهًا بذكره ، وتقديمَه علىٰ غيره ممن رام هذه الرتبةَ فحُجِب دُونَها ﴿والله غالبٌ علىٰ أمره﴾ .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزينى — لا زال يجمع لأوليائه شَمْلَ المَعالى ، ويُرَقِّى أصفياءَه فى درجات العز علىٰ ممرّ الأيَّام والليالى — أن تُفوّض إلىٰ المشار إليه الإشارةُ الشريفة التى هى أسنىٰ المقامات وأعلاها ، وأقْصىٰ المرامات لدَيْنا وأغْياها ؛ مع ما ٱنضَمَّ إلىٰ ذلك من النظر فى الوزارة الشريفة التى جلّ قدرُها ، وعلا فى المناصب ذكْرُها ؛ والخاصّ الذى ٱختص بمهمّاتنا

الشريفة، والديوان المفرد الذى عَمَر من ممالكنا السعيدة ذا الوظيفة وغيرَ ذى الوظيفه، وتعلقات المملكة شرقًا وغربا، ولوازمِها المفترقة بُعْدا وقُرْبا .

فليتلَقّ مافُوّض إليه بيمينه التى طالما رَبحت فى الطاعة صَفْقتُها، ويقابِلْه بالقَبول الذى محلُّه من القلوب مُهجَتُها، مقدّمًا تقوىٰ الله تعالىٰ فيما خَفِيَ من مقاصده وظَهَر، مُؤْثِرا رضاه فى كل ما يأتِى ويَذَر، معتمِدا فى المصالح آعتمادَ ذى اليَقَظة الساهر، آتيا من غرائب الرَّغائب بما يحقِّق قول القائل : «كَمْ تَرَكَ الأوّلُ للآخر» .

والوصايا كثيرة ومن بَحْره تُستخرَج دُرَرها، ومن سوابق آرائه تُستَوْضَح أوضاحُها وغُرَرُها، والله تعالىٰ يُديم عليه نِعَمَ إقبالنا الباطنةَ والظاهره، ويتولَّاه من العناية بما يحقِّق له دائم قوله : ﴿ أَنتَ وَلِيِّى فى الدُّنْيا والآخِرَه ﴾ . والآعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

الطَبقة الثانيـــــة

(ممن يكتب له من أرباب السيوف ذواتُ التواقيع، وفيها وظائفُ)

الوظيفـــــة الأولىٰ

(نظر البيمارستان لصاحب سيف)
(١)

الحمد لله رافِع قَدْرِ من كان فى خِدمتِنا الشريفةِ كريمَ الخلال، ومُعْلِي درجةِ من أضفىٰ عليه الإخلاصُ فى طاعتنا العلية مَديدَ الظِّلال، ومجدّدِ نِعَمِ من لم يَخُصَّه اعتناؤُنا بغاية إلا رقَّتْه هِممُه فيها إلىٰ أسنىٰ رُتَب الكمال، ومفوِّض النظرِ فى قُرَب

(١) فى بعض نسخ الأصل بياض ولعله كان متروكا لنسبة القول الى منشئه كما يأتى فى نظيره بعد .

الملوك السـالفةِ إلىٰ مَنْ لم يلاحِظْ من خواصّـنا أمرا إلا سَرَّنا ما نُشاهِـد فيه من الأحوال الحَوَال .

نحمده علىٰ نِعَمه التى لا تزال تَسْرى إلىٰ الأوليـاء عَوارِفُها ، ومناهِلِه التى لا تبْرَح تشـتمل علىٰ الأصفيـاء عواطِفُها ، وآلائه التى تُسـدِّد آراءنا فى تفو يض القُرَب إلىٰ مَنْ إذا باشَرها سُرّ بسيرته السرِ يّة مستحِقُّها وواقِفُها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفَع الإخلاصُ لِواءَها ، وأفاض الإيمـانُ علىٰ وُجوه حَمَلتها إشراقَها وضياءَها ، ووالىٰ الايقانُ إعادةَ أدائهـا بمواقف الحق وإبداءَها .

ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بعُموم الشـفاعة العُظْمىٰ ، المَقْصُوص فى السُّـنَّة ذِكْرُ حوضه الذى من شَرِب منه شَرْبةً فإنَّه بعْدَها لا يَظْمَا ، المنصوصُ علىٰ نُبوّته فى الصُّحُف المنزَّلة وبشَّرت به الهواتِفُ نَثْرا ونَظْما ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته ، بالرُّتب الفاخره ، وحازُوا بالإخلاصِ فى محبته ، سعادةَ الدنيـا والآخره ، وأقبلُوا علىٰ حظُوظهم من رضا الله ورِضاه فلم يُلْوُوا علىٰ خِدَع الدنيـا الساحِره ، صلاةً دائمـةَ الاتّصال ، آمنـةً شمسُ دولتها من الغُروب والزَّوال ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أولىٰ الأمور بالنظر فى مَصالِحها ، وأحقَّها بتوفيرالفِكْرعلى آعتبادِ مَناهجها وآعتماد مناجِحِها ، أمرُ جِهَات البِرِّ التى تقرَّب بهـا السـلطانُ الشهيد الملكُ المنصور (قدّس الله رُوحَه) إلىٰ من أفاض نِعمَه عليه ، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسَنَ اللهُ إليه ، ورَغِبَ بها فيما عندَ الله : لعلمه أنَّ ذٰلك من أنْفَس الذخائر التى أعدّها بيْنَ يدَيْه ، وحلَّ منها فى أكرم بُقْعة نقَله الله بها عن سريره إلىٰ مَقْعَد صدْق عند ربِّه ،

وعَمَر بها مواطِنَ العبادة فى يوم سِلْمِه بعد أن عَفَّى بها مَعاقِلَ الكفر فى يومِ حَرْبه ؛ وأقام بها مَنارَ العلوم فعَلا مَنَالُها، وأعدّ للضُّعَفاء بها من موادِّ البِرّ والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قَصُرت عن التطاوُلِ إليه أموالُها ؛ وأن نرتادَ لها مَنْ اذا فوّضْنا إليه أمرا تحقّقْنا صَلَاحَه ، وتيقَّنَّا نَجَاحه ، وآعتقدْنا تنميَةَ أمواله ، وآعتمدْنا فى مضاعفة آرتفاعه وآنتفاعه علىٰ أقوالِه وأفعاله ، وعلِمنا من ذٰلك ما لا نحتاجُ فيه إلىٰ آختبار ولا آعتبار، ولا يُحتاج فى بيان الخِيرَة فيه إلىٰ دليلٍ إلا إذا آحتاجَ إليه النّهار ، لنكونَ فى ذٰلك بمَثابة من ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابها ، أو جدّد لها وقْفًا : لكونه أتىٰ بيوتَ الإحسان فى آرتياد أكفاء النَّظَر لها من أبوابها .

ولما كان فلان هو الذى نبَّهتْ أوصافُه علىٰ أنه ماوَلِيَ أمرا إلا وكان فوقَ ذٰلك قَدْرا ، ولا آعتُمِد عليه فيما تَضيق عنه هِمَمُ الأولياء إلا رَحُبَ به صَدْرا ، ولا طلع فى أُفُق رُتْبة هلالا إلا وتأمّلَتْه العيون لأجَلِّ رُتَب الكمال بَدْرا ، يدرك مانأىٰ من مصالح ما يليه بأدْنىٰ نظر ، ويسبِقُ فى سَدَاد ما يباشره علىٰ ما يجبُ سَدادَ الآراء ومواقِعَ الفِكَر . ونحن نزدادُ غبطةً بتدبيره ، ونتحقّق أنَّ كل ما عدَقْنا به إليه من أمرٍ جليل فقد أسندناه إلىٰ عارفِه وفوّضناه إلىٰ خبيرِه ــ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نَعْدق بجميل نظره هذا المُهِمَّ المقدَّم لدينا ، وأن نُفوّضَ إليه نظرَ هذه الأوقافِ التى النظَر فى مصالحها من آكد الأُمور المتعيِّنة علينا .

فرُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال فضلُهُ عميماً ، وبِرُّه يقَدِّم فى الرُّتَب من كان من خواصِّ الأولياء كريما ــ أن يُفوّض إليه كَيتَ وكَيْتَ .

فلْيلِ هــذه الرتبةَ التى أُريد بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهَمّ ، وقُصِد بها النفعُ المتعدّى إلىٰ العُلَماء والفُقَراء والضُّعفَاء ومراعاةُ ذٰلك من أخصِّ المصالح وأعَمّ .

ولينظُرْ فى عموم مصالحها وخُصُوصها نظرًا يَسُدّ خَلَلها ، ويُزيح عِلَلها ، ويعَمِّر أصولَها ، ويثَمِّر محصولَها ، ويحفَظ فى أماكنها أموالَها ، ويقيم بها معالِمَ العلوم فى أرجائها ، ويستنزل بها موادَّ الرحمة لساكنها بألْسنة قُرّائها ، ويستعيدُ صحةَ مَن بها من الضعفاء بإعداد الذَّخائر لملاطَفة أسقامها ومعالجة أدْوائها ، ويحافظ علىٰ شُروط الواقف فى إقامة وظائفها ، وٱعتبار مَصارفها ، وتقديم ما قدّمه مع مَلاءة تدبيره باستكمال ذٰلك علىٰ أكمل ما يجب ، وتمييز حواصلها بما يستَدْعى إليها من الأصناف التى يعِزُّ وجودها ويجتَلِب ، وضَبْط تلك الحواصل التى لا خزائنَ لها أوثقُ ، من أيدى أمنائه وثِقَاته ، ولا مُودَع لها أوفق ، من أمانة من يتّقِى اللهَ حَقَّ تُقَاته ؛ فلذٰلك وَكَلْناه فى الوَصَايا إلىٰ حُسْن معرفته وٱطّلاعه ، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا وٱضْطلاعه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الثانية

(نظر الجامع الطولونى)

من إنشاء المَقَرّ البَدْرىّ ٱبن المَقرّ العَلائى بن فضل الله صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف ، فى الدولة الظاهرية برْقُوق ، كتب به المَقرّ الشمسىّ العمرىّ كاتبُ الدَّسْت الشريف لأبى يزيد الدَّوَادار ، وهى :

الحمدُ لله الذى أقامَ من أوليائنا خيرَ ناظر ، يَقرّ به كل ناظر ، وأدام بنا بِناءَ المعروف الزاهِر وحُسْنِه الباهر ، وأنام الأنامَ فى مِهَاد الأمن بانتقاءِ وَلِىٍّ لسانُ الكون حامدٌ له ومادحٌ وشاكِر ، وفتح أبوابَ السعادة باصطفاء صَفِىٍّ طاب بسفارته كلُّ خاطرٍ من مُقِيم وخاطر ، ومنحَ أسباب السيادة بأوفىٰ وَفِىٍّ عَمَر بوجُوده

الوجودَ وغَمَر بجُوده كلَّ باد وحاضِر، وأبْصَرَ بالدين المتين والفضل المبين فأقمناه للنظَر علىٰ بُيوت الله تعالىٰ لأوْلويّته بذٰلك : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَومِ الآخِرِ﴾ .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى ظهرَتْ(١) بالمَزِيد فسَرَّتِ السرائر، وظهرَتْ بنُور الرُّشْد المَديد فأشرقَ بها الباطنُ والظاهِر . ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له العزيزُ القادِر، شهادةً صدَقتْ فى الإخلاص بها الألْسنةُ والضمائر . ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه مَعْدِنُ الأسرار، وبحرُ الجُود الزاخر، ومنبَعُ الأنوار، صاحبُ الآيات الظاهِرةِ والمُعْجزات الباهرةِ والمَفَاخر، الذى يَبْعثُه اللهُ مَقاما محمودًا يحمَدُه الأوائلُ والأواخر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه النُّجومِ الزَّواهر، الذين جاهدُوا فى الله حقَّ جهاده فكان كُلٌّ منهم للدِّين الحنيفِ أعظمَ مجتهِد ومؤيِّد وناصِر، وسَلَّم تسليما كثيرًا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ من أُلقِيتْ إليه مقاليدُ الأمور، وصَرَّفناه فى جميع مَصَالح الجُمهور، وفوّضْنا إليه النظرَ فى بُيوتِ الله تعالىٰ ليعْمُرَها بنظره السعيد وتُضاعَفَ له الأُجور، ومكَّنَّا له فى دولتنا الشريفةِ حتّى صار قُطْبَ فَلَكِها عليه تدور، وبسَطْنا يدَه ولسانَه فهو يَنْطِق عنَّا ويأمر بالقضاء والقَدَر فى الوُرُود والصُّدُور، وقيَّدنا الأرزاقَ بقَلَمه، والمهمَّاتِ بكَلِمه، فلا فضْلَ إلا من فَيْضه المنشور — مَنِ امتاز علىٰ غيره بفضيلتَىِ السَّيف والقَلَم، وتقدّم فى الطاعة الشريفةِ بأثْبَتِ قَدَم، كان بها من السابقين الأوّلينَ من القِدَم، واتّصف بالشَّجاعة والشَّهامة والمَعْرفة التامّة والحِلْم والعَدْل والحِكَم، فهو التَّرْجُمان عنَّا الناطقُ بفَصْل الخطاب فى السِّرِّ للتُّرْك والعَرب والعَجَم، وعُرِف بالرأْى السديد، والنظَر السعيد، والتدبير الحَميد، والقول المُفِيد،

(١) ظهرت بالمزيد قويت به، وظهرت بنور الرشد وضحت وبانت .

والجُود والكَرَم ، وطُبِـع علىٰ الخير الجَزِيل ، والدِّين الجميـل ، عُمْره فى الحقّ قائم ، لا تأخُذه فى الحقِّ لومةُ لائم ، طالمَـا أحيا بحُسْن السِّفارة من العَدَم .

هو واحدٌ فى الفَضْل والنظرِ السعيد لأبى سعيد .

فمن الذى يَحْكيه فى الشَّرَف العَتيد بطَل الوَغىٰ أبو يزيد .

قــد تفرّد فى العِــفَّة والدِّيانه ، والثِّقة والأمانه ، وٱلْتحف بالصَّفا ، وتردّىٰ بالوفا ، وشفىٰ بالخير والجبر مَنْ كان بالفَقْر علىٰ شَفَا فحَصَل له الشِّفا ، ووفىٰ بالعهود والمواثيق وذلك أمر ماخَفىٰ(١) ، ولحِق فى الجُود والدِّين بسَمِيِّه أبى يزِيدَ البِسْطامىّ الولىّ :

قالوا : الْولىُّ أبو يَزِيدٍ قَدْ مَضىٰ * وهو الفَرِيدُ بفَضْـلِه والصادِقُ !

قلْتُ : الأميرُ أبو يزيدٍ مِثْـلهُ * هٰذاك سابِقُـه وهــذا الّلاحِقُ !

ولمـا كان فلان هو المشار إليـه بهذه الصِّفات الحَسَـنه ، والمناقِب التى تنوّعَتْ فى مدائحها الألسِنَه ، وعُرِف بالجُود فملَك حُبَّه الأفئدةَ فارتفعَتِ الأصواتُ بالدعاء له مُعْلِنه ، طالمَـا أنالَ النِّعم ، وأزال النِّقم ، وجَبَرَ القُلوب ، وكَشَفَ الكُرُوب ، وجَلَا ظَلام الخُطُوب ، ونَشَر المعروف ، وأغاثَ الملْهُوف ، وأنقَذَ من المَهَالك ، وعَمَر بتـدبيره المَمَـالك ، ووصَـل الأرزاق ، وأجرىٰ الأطلاقَ علىٰ الإطلاق ـ ٱقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نعتَمِد فى جميع الأشياءِ عليـه ، ونُلقِىَ مقاليدَ الأمور إليه ، ونَنُوط به المهِمَّاتِ وغيْرَها : ليكون العِلمُ بالكُلِّيات والجزئيَّات لديْه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يتحِف بالمَزِيد من كَرَمه ، ويُسْبغ جلابِيبَ نِعَمه ، ويجرى بحرُ فضلِه الواسـع ، ويعُمُّ بنظَره المقرّبين من أوليائه كلَّ جامع للخير جامع ، أن يستقرّ(٢) ... ...

(١) جرى على لغة طيء نظر اللسجع فتنبه .

(٢) بياض بالأصل والمراد "فى نظر الجامع الطولونى" الخ وكثيرا ما يفعل ذلك فى مثل هذه المواضع .

فلْيتلقَّ هذا التفويضَ الجليلَ بقَبُوله ، ويبلِّغ الجامعَ المذكورَ ما يرتقبُه من عِمارته التى هى غايةُ مأمُوله . ومنه تؤخَذ الوصايا لأنه لسانُنا الناطق ، وسفيرُ مملكتِنا العالمُ بالحقائق والدَّقائق ، فلا يَحتاج أنْ يُوصىٰ ولا أن نفْتَح معه فى الوصية بابًا ، ومايصْلُح ان يقال لغيره لا يجوز أن يكونَ له خِطابا :

ومِثْلُك لا يُدَلُّ علىٰ صَـوابٍ * وأنْت تُعَـلِّم النـاسَ الصَّوَابا!

والله تعالىٰ يؤيده فى القول والعَمَل ، ويعُمُّ بوجُوده وَجُوده الوُجود وقد فعَـل ؛ ويُبْقيـه مَدىٰ الدهر ، ويستخْدِم لسُعُوده الساعةَ واليومَ والجمعةَ والشَّهْر ؛ ويجعلُ بابه الطاهرَ مفتوحا للقاصدين علىٰ الدَّوام ، ويُقيمُه واسطةَ عِقْـد المُلْك فإنه مُبارَك أينما كان ورحمةٌ للأنَام ؛ والاعتمادُ علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه حجـةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـة الثـالثـة

(نِقَـابةُ الأشراف)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الدِّيار المصرية فى المقالة الثانية أنَّ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ الأشراف ، وهم أولادُ أمير المؤمنين علىّ بنِ أبى طالب رضى الله عنه ، من فاطمةَ بنتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قلت : وقد جرتِ العادةُ أنَّ الذى يتولّىٰ هـذه الوظيفةَ يكون من رُءُوس الأشراف ، وأن يكون من أرباب الأقلام ، وإنمـا أوردْتُه مع أرباب السُّـيوف لأن المقرَّ الشِّهابىَّ بنَ فضـل الله قد ذكر فى بعض دَسَـاتيره الشاميَّـة أنه يُكْتَب لنَقيب الأشراف « الأميرىّ» ولا يكتَب له « القَضَائىّ » ولو كان صاحبَ قلَم .

وقد رأيتُ له عدّةَ تواقيعَ علىٰ ذٰلك مكتَتبةً من الأبواب السلطانية وعن نائبَى الشام وحلب وغيرهما، معبّرا عنه فيها بـ«الأميرىّ» وتوقيعُه فى قطع الثُّلُث مفتتحٌ بخُطْبة مفتتحة بـ«الحمدُ لله» .

وهذه نسخةُ [توقيع](١) بنِقابة الأشراف، وهى :

الحمدُ للهِ مشرِّفِ الأنْساب، ومُوفِى الأحساب، حقوقَ ملاحظَتِهم بغيرِ حساب ، وجاعِلِ أيّامِنا الشريفةِ تحمَد الاكتساب .

نحمده بمحامدَ حسنةِ الإيجاد والإيجاب . ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا شكَّ فى مَقالها ولا ٱرْتياب . ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه ونبيُّه الذى أَنْزلَ عليه الكتاب، وشرّف به الذّرارىَّ من شجرته المباركةِ الأعْقاب ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا تتوارىٰ شمُسها بحِجاب .

وبعدُ، فإنَّ خيرَ ما صُرفت الهِممُ إلىٰ تشييد مبَانيه ، وتقْييد مُهْمَل رَوَاعيه وملاحظةِ قاصيه ودانيه ، المحافظةُ علىٰ كلِّ ما يرْفَع قدرَ الآل ويُعْليه ، ويُردُّ إليهم عِنانَ الاعتناء ويَثْنيه .

ولمّا كانتِ العترةُ الطاهرةُ النبويةُ وُرّاثَ الوحى الذين آلَ إليهم مِيرَاثُه، وأهلَ البيت الذين حصَل لهم من السُّؤْدَد آياتُه، وقد سأل اللهُ وهو المسئُول لهم القُرْبىٰ، وخصَّهم بمزايَا حقيقٌ بمثلِ متصَرِّفهم أنه بها يُحْبىٰ وأنها لهم تُجْبىٰ : لما فى ذٰلك من بركاتٍ تُرْضى سيدَ المرسلين وتُعجِبه، ويُسَطِّر الله [الأجر] لفاعله ويكْتُبه، وكان لابدَّ لهم من رئيس يُنَضِّد سِلْكهم ويَنَظِّمه، ويعظِّم فخرهم ويفَخِّمه، ويحفظ أنسابَهم،

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

ويصْقُل بمكارمه أحسابَهم ، ويَنْمِى بتدبيره رَيْعَهم ، ويُتابع تحتَ ظِلِّ هذه الشجرةِ الزكيَّةِ ما زكَّى يَنْعَهم ، ويحفَظُهم فى ودائع النَّسْل ، ويَصُدّ عن شَرَف أَرُومتِهم من الأدْعياء المدّعين بكل بَسْل(١) ، ويَحْرُس نِظامهم ، ويُوالى إكرامَهم ، ويأخُذُهم بمكارم الأخلاق ، ويَمُدُّهم بأنواع الإرْفاد والإرفَاق ، ويتولَّى رَدْع جانيهم إذا لم يَسْمَع ، ويتدبَّرُ فيه قولَه : « أنْفُك منْكَ وإنْ كانَ أجْدَع » .

ولَمَّا كان فلان هو المشارُ إليه من بنى هذه السُّلالة ، وله من بينهم مِيزَةٌ باطنةٌ وظاهِرةٌ وإن كانُوا كُلُّهم شيئًا واحدا فى الإجلال والإعظام ، فقد تميَّزتْ من بين الأنامل السَّبَّابةُ علىٰ الخِنْصر والبِنْصِر والوُسْطىٰ والإبهام ، وكَمْ ثَمرٍ جَنِيٍّ فُضِّل بعضُه علىٰ بعض فى الأُكُل وهو يُسْقىٰ بماءٍ واحد ، وقد ٱمتاز علىٰ بنى هاشمٍ سيدُ المرسلين عليه أفضل الصلاة والسلام ــ ٱقتضىٰ حُسْنُ الرأى المُنِيف ، أنْ رُسِم بالأمر الشريف ــ لا برِح يختَارُ وينتق ، ويجتبِى من يخشىٰ اللهَ ويتَّقِى ــ أن تُفوِّضَ إليه نِقابةُ الأشراف الطالبيِّين علىٰ عادةِ من تقدّمَه من النُّقباء السادة .

فلْيجمَعْ لهم من الخير مايُبْهِج الزهراءَ البَتُول فعلُه ، ويفعَلْ مع أهله وقَرابته منهم ماهو أهْلُه ، ولْيحفَظْ مواليدَهم ، ويُحَرِّرْ أسانيدَهم ، ويَضْبِطْ أوقافَهم ، ويعتَمِدْ إنصافَهم ، ويُثمِّر متَحصَّلاتِهم ، ويكثِّر بالتدبير غَلَّاتِهم ، ويأخُذ نَفْسَه بمُساواتِهم ، فى جميع حالاتِهم ، ولْيأخُذْهم بالتجمّع عن كل مايَشِين ، والعمل بما يَزين ، حتّى يُضيفوا إلىٰ السُّؤدَد حُسْنَ الشِّيَم ، وإلىٰ المَفاخر فاخِرَ القِيَم ، وكلُّ مايفعله معهم من خير أو غيره هو له وعليه ، ومنْه وإليه ، والله يحفظُه من خَلْفه ومن بين يدَيْه ، بمنّه وكرمه ! .

(١) البسل الشدّة كما فى اللسان . ووقع فى الاصل «نسك» بالنون والكاف وهو تصحيف .

وهذه نسخة وصية لنقيب الأشراف أوردها فى "التعريف" فقال :

ونحن نُجِلُّك عن الوَصايا إلا ما نَتَبرَّك بذِكْره ، ويسُرُّك إذا آشتملتَ علىٰ سِرِّه ؛ فأهْلَك [أهْلَك ، راقب](١) اللهَ ورسوله جدَّك صلّى الله عليه وسلم فيما أنت عنه من أمورهم مسئُول ، وآرفُقْ بهم فهم أولادُ أمِّك وأبيك حَيْدَرَةَ والبَتُول ، وكُفَّ يدَ من علمتَ أنه [قد](١) آستطال بشَرَفه فمدّ إلىٰ العِناد يَدَا ، وآعلم أنَّ الشريفَ والمشروفَ سواءٌ فى الإسلام إلا من آعتدىٰ ، وأنَّ الأعمال محفوظةٌ ثم معروضةٌ بين يدَي الله فقدِّمْ فى اليوم ما تَفْرَح به غَدَا ؛ وأزِل البِدَع التى يُنْسَب إليها أهلُ الغُلُوّ فى وَلَائهم ، والعُلُوّ فيما يُوجِب الطعنَ علىٰ آبائهم ؛ : لأنّه يُعلم أنَّ السلفَ الصالح رضى الله عنهم كانوا متَنَزِّهين عما يَدَّعيه خَلْفُ السَّوْء من آفتراق ذات بينِهم ، ويتَعرَّضُ منهم أقوام إلىٰ ما يجُرّهم إلىٰ مَصارِع حَيْنِهم ؛ فللشِّيعة عثَرَاتٌ لا تُقال ، من أقوال ثِقال ؛ فسُدَّ هذا البابَ سَدّ لَبيب ، وآعمَلْ فى حَسْم موادِّهم عَمَلَ أرِيب ؛ وقُمْ فى نَهْيهم والسيفُ فى يَدِك قيامَ خَطيب ، وخوِّفْهم من قَوارِعك [مَوَاقِع](١) كلِّ سَهْم مُصيب ؛ فما دُعِى « بحيَّ علىٰ خير العَمَل » إلىٰ خَيرٍ من الكتاب والسنَّة والإجماع [فآنْظُم فى نادى قومك عليها عقُودَ الآجتماع](١) . ومَنِ آعتَزىٰ إلىٰ آعتزال ، أو مالَ إلىٰ الزَّيْديَّة فى زيادة مَقَال ، أو آدَّعىٰ فى الأئمة الماضين ما لم يَدَّعُوه ، أو آقتفىٰ فى طُرُق الإماميَّة بعضَ ما آبتدَعُوه ، أو كَذَب فى قول على صادقِهم ، أو تكلَّم بما أرادَ علىٰ لسان ناطقهم ، أو قال : إنه تلقَّ عنهم سِرًّا ضَنُّوا علىٰ الأمَّة ببلاغه ، وذَادُوهم عن لَذَّة [مَساغه](١) ، أو رَوىٰ عن يوم السَّقيفة والجَمل غيرَ ماورد أخبارا ، [أو تمثَّل بقول من يقول : عبد شمسٍ قد أوْقدَتْ لبنِى هاشم نارا](١) أو تمسَّك من عقائد الباطن بظاهر ، أو قال

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٠ وهى لازمة لآستقامة الكلام .

إنّ الذاتَ القائمةَ بالمعنىٰ تختلف فى مَظَاهِر؛ أو تعلّق له بأئمة السّتْر رجاء، أو ٱنتظر مُقيما برَضْوىٰ عنده عَسَلٌ وماء، أو ربَط علىٰ السِّرْداب فرَسَه لمن يقُودُ الخيل يَقْدَمُها اللِّواء؛ أو تلفّتَ بوجهه يظُنّ عليًّا كرّم الله وجهــه فى الغَمَام، أو تفلّت من عِقال العقلِ فى ٱشْتراط العِصمة فى الإمام . فعرِّفْهم أجمعين أنّ هذا من فساد أذهانِهم، وسُوء عقائِد أدْيانِهــم؛ فإنّهم عدَلُوا فى التقرّب بأهْلِ هذا البيت الشريف عن مَطْلُوبهم ، وإن قال قائل إنهم طَلَبوا فقل له : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلىٰ قُلُوبِهِم﴾ .

وٱنظُرْ فى أمور أنسابِهم نظَرا لا يَدَع مجَالا للرِّيَب ، ولا يستطيعُ معــه أحدٌ أن يدخُل فيهم بغــير نَسَب ، ولا يَخْرُج منهم بغير سَبَب ، وساوِقِ المتصرِّفين فى أموالهم فى كلِّ حِساب وٱحفَظْ لهم كلَّ حَسَب . وأنتَ أَوْلىٰ من أحسَن لمن طعَن فى أسانيد هذا الحديث الشريف أو تأوّل فيه علىٰ غير مُرادِ قائِلِه صلى الله عليه وسلم تأديبًا ، وأراهُمْ ممــا يوصِّلهم إلىٰ الله تعالىٰ وإلىٰ رسوله طريقًا قريبــا . ونكِّل بمن علمتَ أنه قد مالأَ على الحق أو مالَ إلىٰ فريق الباطل فَرَقا، وطوىٰ صَدْرَه علىٰ الغِلِّ وغَلَب من أجله علىٰ ما سبَق فى علْم الله تعــالىٰ من تقديم مَنْ تَقَــدَّم حَنَقا؛ [وجارَ وقد](١) أوضَحْتَ لهم الطريقةَ المُثْلىٰ طُرُقا؛ وٱردَعْهم إن تعرّضوا فى القَدْح إلىٰ نضال نصال، وٱمنَعْهم فإن فِرَقهم كلَّها وإن كَثُرت خابطةٌ فى ظلامِ ضَلال؛ وقدِّمْ تقوى اللهِ فى كل عَقْد وحَلّ، وٱعملْ بالشريعة الشريفة فإنها النَّسَب الموصُول الحَبْل .

وٱعلم أنّ المقرَّ الشهابىّ بنَ فضــل الله قد ذكَر فى "التعريف" عِدّةَ وصايا لجماعة من أرباب السُّيوف ، لم يُكْتَب لأحد منهم فى زماننا، بل رُفِض ٱستعمالُها وأُهْمِل . ونحن نذْكُرها حِفْظا لذِكْرها، وٱحتياطًا أن يقتضِيَ الحالُ فى زمنٍ كتابةَ شيءٍ منها .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف ص ١٣٢ .

إحداها — وصية أتابك المجاهدين

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب وظائف الدّيار المصرية أنّ أصله أطابك[1] بالطاء المهملة ومعناه الأبُ الأمير ، وأنّ أوّل من لُقّب بذلك زنكى أطابك صاحب المَوْصل ، ثم غَلَبت فيه التاءُ المثناةُ بدَلَ الطاء ، وهى :

وأنت ٱبنُ ذلك الأب حَقيقه ، وولَدُ ذلك الوالِد الذى لم تُعْمَل له إلا من دِماء الأعداء عَقيقه ؛ وقد عُرِفْتَ مثلَه بثَبَات الجَنَان ، وصُلْتَ بيدك ووَصَلْتَ إلى مالم يَصِلْ إليه رُمْحٌ ولا قدَر عليه سِنَان ؛ ولم يُزاحِمْك عدُوّ إلا قال له : أيُّها البادى المَقاتِل كيفَ تُزاحِم الحديد ، ولا سُمّى ٱسمُك لجَبَّار إلا قال له : ﴿وجاءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بِالحَقّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾. وأنتَ أَوْلى من قام بهذه الوظيفه ، وألَّف قلوبَ هذه الطائفة التى ما حَلَم بها حالِمٌ إلا و باتَ يُرْعِدُ خِيفَه ؛ فلْيأخُذْ هذا الأمرَ بزِمامه ، وليعمَلْ لله ولإمامه ؛ وليَرْمِ فى حُبّ البَقاء الدائم بنَفْسه على المنيَّه ، وليُنادِمْ على مُعاقرة الدِّماء زُهورَ سَكاكينه الجَنيَّه ، وٱطبَعْ منهم زُبرا تُطاوِل السيوفَ بسَكاكينها ، وتأخُذ بها الأُسُودَ فى عَرِينها ؛ وتمتدّ كأنّها آمالٌ ، لما تُريد ، وتُرْسَل كأنّها آجالٌ ، ولهذا هى إلى كلّ عدوّ أقربُ من حَبْل الوَريد ؛ وأذْكِ منهم شُعَلا إذا دعيتْ بأحسابها لا تجِد إلّا متحاميا ، وٱرم منهم سهاما إذا دعيَتْ (؟) بأنسابها الاسماعيلية فقد جاء أن إسماعيل كان راميا ؛ وفَرِّج بهم عن الإسلام كلّ مَضيق ، وٱقلَعْ عن المسلمين من العَوانيَة كلّ حجَر فى الطريق ؛ وصَرِّف رجالَك المَيامين ، وتصيَّدْ بهم فإنَّهم صُقُور ومَناسِرُهم السَّكاكين ، وٱخطَفْ بهم الأبصارَ فبأيْمانهم كلُّ سِكّينة كأنَّها البرْقُ الخاطف ، وٱقْطِف الرءُوسَ فإنها ثَمراتٌ أينعَتْ لِقاطِف ؛ وٱعرِفْ لهم حقَّهم وضاعِفْ لهم

---

(١) هو بفتح الباء الموحدة كما ضبطه ابن بطوطة فى رحلته ص ٢٥٨ ج ٢ .

تكريمـا، وأدِمْ لهم بِنا بِرًّا عميما ، وقدِّم أهلَ النفع منهم فقد قدَّمهم الله ﴿ وفَضَّل اللهُ المُجاهِدِينَ عَلَىٰ الْقاعِدِينَ أجْرًا عَظِيما ﴾ .

وٱعلَمْ أنهم مثلُ الوُحوش فزِدْ فى تأْنِيسِهم ، وٱشكُرْ إقدامَهم فطالمَـا ٱقتحَمُوا علىٰ الملوك وما هابُوا يقَظةَ حرسِهم ، وٱرفعْ بعضَهم علىٰ بعضٍ درجاتٍ فى نَفَقات تَسافِيرهم وقُعود مَجالِسِهم ، ولا تُسَوِّ بينَهم فمـا هُم سَواءٌ و﴿ لَا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللهِ بِأَمْوالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ ﴾ . وأصلُ هذه الدعوة ما زالتْ تَنْتقِل بالمَواريث حتَّى ٱنتهتْ إلينا حقُوقُها ، وأوْمضتْ بنـا حيثُ خلعتْ هَيَا كِلَها بجَرْعاء الحِمَىٰ بُرُوقُها ، والله تعالىٰ يوفِّقه ويُرْشِده ، ويُطوِّل باعَه لمـا قصُرت عنه سَواعِدُ الرِّماح ووصَلَت إليه يدُه .

الثانية — وصِيَّة أستاد الدار .

ولْيتفقَّدْ أحوالَ الحـاشيَةِ علىٰ ٱختـلافِ طَوائفِها ، وأنواعِ وظائفها ، ولْيرتِّبْهـا فى الخِـدْمة علىٰ مايجِب ، وينظُر فى أمورهم نظَرًا لايَخفىٰ معـه شيءٌ ممـاهم عليه ولا يحتَجِب ، ولْيبدَأْ بمُهِمِّ السِّماط المقدّمِ الذى يُقدّم ، وما يتنوّعُ فيه من كل مَطْعَم ، وما يُمَدّ منه فى كل يوم بُكْرةً والعَصْر ، وما يُسـتدعىٰ معه من الطَّوارئ التى لايَحُدّها الحـدّ ولا يحصُرها الحصر ، وأحوالِ المَطْبَخ الكريم الذى منـه ظهور تلك المَخافى ، ووفاءُ ذٰلك الكرمِ الوافِى ، والتقدّمِ إلىٰ الأمناء والمشرفين فيه بأمانة الإنفاق ، وصيانةِ المآكل مما يُعاب علىٰ الإطلاق . ثم أمرِ المشروب وما تُغْلَق عليه أبواب الشراب خاناه السـعيدة من لطائف مأكولٍ ومشروب ، وشيءٍ عزيزٍ لا يوجد إلا فيهـا إذا

عزّ المطلوب ؛ ومراجعة الأطباء فيما تجرى عليه قوانينها ، وتُشَبُّ لطبخه من حُمْر اليواقيت كوانينها ؛ وإفراز ماهو للخاص الشريف منها وما هو للتفرقه ، وما لا يصرف إلا بخط الطبيب ولا يسَلَّم إلا إلىٰ ثِقه . ثم الطشت خاناه السعيدة التى هى خزانة اللِّباس ، وموضعُ ماتَبرُزُ به من الزِّينة للناس ؛ وما يُحتاجُ إليه من آلاتِ التطبيب ، وما يُعَيَّن لها من الصابُون وماءِ الوَرْد والطِّيب ، وغير ذٰلك من بقيَّة ما هى مستَقَرّه ، ويُؤخَذ منها مُسْتَدَرُّه ؛ ومن يُسْتَخْدَم بها ممن بَرِئ من الرِّيَب ، وعُرِف بالعفَاف والأدب ؛ وعُلِم أنه من أهل الصِّيانه ، وعلىٰ ماسُلِّم إليه ومَنْ خالطهُ الأمانه . ثم الفِراش خاناه وما يُنْصَبُ فيها من الخيام ، وما يكونُ فيها من فَرْش سَفَر ومُقَام ، وشَمَع يُفَضِّض كافُورُ كافوريَّتِه آبَنُوسَ الظَّلام . ثم غِلْمان الإصْطَبْل السعيد والنَّجَّابة وإن كان إلىٰ سواه استخدامُهُم ، ولدىٰ غيره مستَقَرّهم ومُقامُهم ، لكنَّهم مااخرَجُوا من عَديده ، ولا يَرُوقُهم ويَرُوعُهم إلا حَسَنُ وعْده وخَشِنُ وَعيده . ثم المُناخَات السُّلطانيةُ وما بها من جِمَال ، وما يَسْرَح فيها من مالٍ وجَمال ؛ ومن يُستخدَم فيها من سيروان ومِهْمَرْد ، وما فيها من قِطَار مُزْدَوج وفَرْد ؛ فيوفِّرُ لهذه الجهة نصيبًا من النظر يشاهد أُمورَها وقد غابتْ فى الأقطار ، وتفرّقتْ كالسُّحُب يلزمُها القِطَار القَطَّار ؛ ولْيكُونوا علىٰ بالِه فإنهم يسْرِقُون الذَّرّة(١) من العَيْن ومعَهم الذَّهَب العَيْنُ محمَّلا بالقِنْطار ؛ فلْيُحْسِن منهم الارْتِياد ، وليتخيَّر أرَقَّهم أفئدةً فإنَّهم بكَثْرة ملازمتهم للإبل مثلُها حتّى فى غِلَظ الأكباد . وطَوائف المُعامَلِين ، والأبقار ومَنْ عليها من العامِلين ، وزَرائبِ الغنم وخَوَلها ورِعائها ، وأصناف البيوت الكريمة وما تطْلُبه فى آستدعائها ؛ ونفقات الأمراء المماليك السلطانيَّة فى إهلالِ كلِّ هِلال ، وما يُصْرف فى كُساهم

---

(١) فى "التعريف" « ذرّة الكحل » .

علىٰ جارى عادتِهم أو إذا دعَتْ إليه ضرورةُ الحال ؛ وما يؤخَذ عليه خطُّه من وصولات تُكتَب ، وآستدعاآت تُحْسَب من لوازمه وهى للكَثْرة لا تُحْسَب ؛ فلْيكُنْ لهذا كلِّه مراعيا ، ولأُمورِه واعِيا ، ولما يجب فيه دُونَ ما لا يجب مستَدْعِياً وإليه داعِيا ؛ وهو كبيرُ البيتِ وإليه يرجع أمر كلِّ مملوك ومستخْدَم ، وبأمره يؤخَّر من يؤخَّر ويقدَّم من يُقدَّم ، ومثلُه يُتَعَلَّم منه ولا يُعَلَّم ؛ وعَصاه علىٰ الكلِّ محمولة علىٰ الرِّقاب ، مبسوطةٌ فى العَفْو والعِقاب ، ومكانُه بين يدَيْنا حيثُ نراه ويرانا ولدَيْنا قابَ قوسَيْن أو أدْنىٰ مِن قَاب .

وعليه بتقْوىٰ الله فبها تمامُ الوصايا وكمالُ الشرُوط ، والأمرِ بها فعصَاه محكمة وأمره مبْسوط ، وكلُّ مايُناط بنا : من خاصَّة أمورنا فى بيتنا — عَمَره الله ببقائنا وزاد تَعْميرَه — بتدبيره مَنُوط .

الثالثة — وصِيَّة أميراخور .

وقد تقدّم فى الكلام على الألقابِ فى المَقَالة الثالثةِ أنَّه مركَّبٌ من لفظين : عَربِىّ وهو أمير ومعناه مَعْروف ، وأخُور فارسىّ ومعناه العَلَف ، والمعنىٰ أميرُالعلَف . وكأنه فى الأصل كان هو المتولِّى لعلُوفة الخيل ، ثم آرتفعَتْ وظيفتُه حتّٰى صار صاحبُها من أكابر الأُمَراء المقدَّمين ، وهو يتحدّثُ فى الإصْطَبْلات السلطانيَّة وما حوَتْه من خَيْل وبِغال ودَوابَّ وجِمالٍ وأثَاثٍ ، وغيرذٰلك .

وهذه نسخة وصيته :

ولْيكُنْ علىٰ أكمل مايكونُ من إزاحةِ الأَعْذار ، والتأهُّب لحركاتِنا الشريفة فى لَيْلٍ كانَ أونَهار ، مقدِّمًا الأهَمَّ فالأهمّ من الأمور ، والأبْدأَ فالأبْدأَ من [تقديم][1] مَراكبنا

(١) الزيادة عن "التعريف" وهى لازمة كما لا يخفى .

السعيدة وتهيئة مَوْكبنا المنصور، وترتيب ذٰلك كلّه علىٰ ماجرتْ به العَوائد، وتحصيل ماتدْعُو الحاجةُ إليه علىٰ قَدْر الكِفَاية والزّوائد، والنَّظر فى جميع إصْطَبْلاتنا الشريفة، والحشارات السعيدة، وخيْل البَريد، والرّكائب المُعدّة لقطْع كلّ مدًى بعيد، وما يجتمِع فى ذٰلك وينقسِم، وما يُركَب منها ويُجْنَب ممّا يَسِم الأرضَ بالبُدور والأهِلّة من كلّ حافِر ومَنْسِم، وما هو بِرَسْم الإطلاق، وما يُعَدّ لمماليك الطِّباق، وخَيْل التِّلاد، وما يُجْلَب من قَوْد(١) كلّ قبيلة من القبائل ويجيء من كلّ بلدٍ من البلاد، والمشترىٰ مما يُباع من المواريث ويُستعْرَض من الأسواق، وما يُعَدّ للمواكب وللسّباق، وليُجِلْ رأيَه فى ترتيب ذٰلك كلّه فى مراتبه علىٰ ما تقتضيه المُهِمّات، والاحتراز فى التِّلاد مما لعَلّه يُبدَّل ويقال هو هذا أو يؤخَذ بحجة أنه مات، وليجتَهِد فى تحقيق ما نَفَق، [وليُحرِّره علىٰ حُكم ما يتحقّق عنده لا علىٰ ما اتّفق(٢)،] وكذٰلك فليكُنْ فحصُه عمّن يستخْدمُ عنده من الغِلْمان، ولا يهمِلُ أمورَهم مع معاملتِهم بالإحسان، ولا يستخْدِم إلا من تُشْكر سيْرَته فى أحْواله، وتُعرَف خِبرتُه فيما يُراد من أمثاله، وكذٰلك الرّكّابة الذين تملك أيديهم أعِنّةَ هذه الكرائم، والتحرُّزُ فى أمرهم ممن لعلّه يأْوِى إليهم من أرباب الجَرائم، والأوشاقيّةُ الذين هم مثلُ مماليكه وهم فى الحقيقة إخوانُه، وجماعةُ المباشرين الذين هم فى مباشرة الإصْطَبلات السعيدة ديوانُه، وكلّ هؤلاء يُلزِمهم بما يلزم أمثالَهم من السُّلوك، ويُعْلِمهم بما يجب عليهم أن يتعلّموه من خِدْمة الملوك، ولا يَسْمَح لأحدٍ منهم فى أمر يُفْضِى إلىٰ إخلال، ولا يقتضِى فَرْطَ إدْلال، وليُقِمْ أوَدَهم بالأدَب فإن الأدب مافيه إذْلال، وكلُّ هؤلاء الطوائف ممن يتجنّب العامةُ مخالطَتَهم لما طارَ فى أيّام من تقدّم عن أمثالهم من سُوء السُّمْعه،

(١) فى اللسان من معانى "القود الخيل" وهو المناسب هنا .

(٢) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٠٠) وهى لازمة كما لا يخفى .

ويُتخوّف منهم الشَّرْعه ؛ فليكُنْ لهم منك أعظَمُ زاجر، ومَنْ شُكِىَ إليك منهم فسارعْ إلىٰ التنكيل به وبادِرْ ؛ واشْهر من فعلك بهم ما يُوجب منهم الطُّمأنينه ، ولا يعود أحدٌ بعده يُكَذِّب يقينَه ؛ وأمراء أخوريه الذين هم أتباعُك، وبهم يمتدّ باعُك ، هم بحَسَب ما تجعلهم بصَدَده ، وما منهم إلا من يقْدِر [أن] يتعدّىٰ حدّه فى مقام قَدَمه وبَسْط يده ؛ فاجعلْ لكلٍّ منهم مَقاما معلوما ، وشيْئًا تجعل له فيه تحكيما . وتثمين الخيول المشتراة والتَّقادِم قَوِّمها بأهل الخِبْرة تقويمَ عَدْل ، وقُلِ الحقَّ ولا يأخُذْك فيه لومٌ ولا عَذْل ؛ وما يُصْرَف من العليق برَسْم الخيول السلطانية ومَنْ له من صدَقَاتنا الشريفة عَليق ، مُرْ بصرفه عند الاستحقاق واضْبِطه بالتعليق ؛ وتصرّفْ فى ذٰلك كلّه ولا تتصرَّفْ إلا تصرُّف شَفيق ، وصُنْه بأقلام جماعةِ الدّيوان ولا تقنع فى غير أوقات الضرورة برفيقٍ عن رفيق ؛ وكذٰلك البراسيمُ السلطانية أصْلا وزياده ، ولا تَصْرِفْ إلا مانأمُر به وإلا فلا تخْرُجْ فيه عن العاده ؛ ونُزلاؤك من أمراء العُرْبان عامِلْهم بالجميل ، وزِدْ فى أخذِ خواطرهم ولو ببَسْط بِساط الأُنْس لهم فما هو قليل ، : لتَتضاعفَ رغْبَتُهم فى كلّ عام ، وليستدِلُّوا ببَشَاشةِ وجهك لهم علىٰ مابعدَه من الإنعام ؛ وبِغالَ الكؤوسات السعيدةِ والأعلامِ المنصوره ، وأثقال الخزانة العالية المعموره ؛ اجعلها من المهمّات المقدَّمه ، والمقدّمات لنتائج أيام النصْر المُعْلَمه ؛ ورتّبْها فى مَواقِفِها ، وأتِمَّها أتمّ ما يكون من وظائفِها ؛ فبها تثبتُ مواقفُ العسكر المنصور ، وإليها يَأْوِى كلُّ مستظِلٍّ ورَحَىٰ الحرب تَدُور ؛ وغيرِ ذٰلك من قُماش الإصْطَبْلات السعيدة من الذَّهب والفِضَّة والحرير ، وكلّ قليل وكثير ؛ باشِرْه مباشرةَ من لا يتخَلّى ، وأحصِه خَرْجا ودَخْلا ؛ وإيَّاك والأخذَ بالرُّخَص ، او إهمالَ الفُرَص ، أو طلَبَ فائتٍ جُرْم أهملتَه حتَّى نكَص .

الرابعة — وصية مُقدَّم المماليك .

وقد تقدّم فى الكلام على أرباب الوظائف أنه يَتحدّث فى أمر المماليك السُّلطانية والحُكم بينهم، ويركَبُ خلفَهم إذا ركب السلطانُ كأنَّه يحفظهم . والوصية هى :

وليُحْسِن إليهم، وليَعْلَمْ أنَّه واحد منهم ولكنه مقدَّمٌ عليهم ، وليأخُذْ بقُلوبهم مع إقامة المَهَابة التى يُخيِّل إليهم بها أنه مَعَهم وخَلْفَهم و بين يدَيْهم، وليُلْزِم مقدَّم كلِّ طَبَقة بما يلزَمه عند تَقسيم صَدَقاتنا الجارية عليهم : من ترتيب الطِّباق، وإجراء ساقيةٍ جارية من إحساننا إليهم ولا يَنْسَ السَّوّاق؛ وليكُنْ لأحوالهم متعهِّدا، ولأمورهم متفَقِّدا؛ وليستَعْلِم أخبارَهم حتَّى لا يزالَ منها على بَصيره، وليْعرِفْ ماهم عليه مما لا يخفى عليه فإنهم وإن لم يكونوا له أهلًا فإنهم جيره؛ وليأمُرْ كلًّا منهم ومن مقدَّميهم والسَّوّاقين لهم بما يلزَمُهم من الخِدْمه، وليُرتِّبْهم على حُكم مكانَتِهم منَّا فإن تساوَوْا فليقدّم من له قُدْمه؛ وليَعدِل فى كل تَفْرِقه، وليُحسِنْ فى كل عَرْض ونَفَقه، وليفرِّقْ فيهم مالهم من الكَساوى ويُسْبِلْ عليهم رِداءَ الشَّفَقه؛ وليُعِدّ منهم لغابنا المَحْمِىِّ سِبَاعا تفترس العاديَه، وليُجمِل النظرَ فى أمر الصِّغار منهم والكِبار أصحاب الطَّبَقات العاليه؛ وليأخُذْهم بالرُّكوب فى الأيَّام المعتاده، والدُّخُول إلى مَكان الخِدْمة الشريفة والخروج على العاده، وليُسدِرْهم فى أوقات البياكير والأسفار نِطاقًا دائرَ الدِّهْليز المنصور، وليأمُرْهم أمرا عامًّا بأن لا يركبَ أحدٌ منهم إلا بدُسْتُور ولا ينزِلَ إلا بدُسْتُور؛ وليحترِزْ عليهم من طوائف الغِلْمان، ولا يستخْدِم منهم إلا معروفا بالخير ويُقيمُ عليهم الضُّمَّان؛ وليُحَرِّرْ على مَنْ دخَل عليهم وخَرَج، ولا يفتَحُ لأحدٍ منهم إلا من عُلِم أنه ليس فى مثله حَرَج؛ ولا يَدَع للرِّيبة بينهم مجَالا للاضْطراب، وليُوص مقدّميهم بتفقُّد مايُدْخَل إليهم فإن الغِشَّ أكثَرُه من الطَّعام والشَّراب؛ وليُدِمْ مراجعَتَنا فى أمرهم فإنَّ بها يَعرِفُ الصواب، وليعمَلْ بما نأمره به ولا يجِدُ جَوًى فى جواب .

الضـــــرب الثـانى

(ممّن يُكتب له بالوِلايات بالديار المِصرية أربابُ الوظائف الدينية، وهو علىٰ طبقتيـــن)

الطبقـــــــة الأولىٰ

(أصحابُ التقاليد ممّن يُكتَب له بالجناب العالى)

وتشتمل علىٰ عدّة وظائف

الوظيفــــــةُ الأولىٰ

(القضــاء)

قد تقــدّمَ فى المقالة الثانيــةِ فى الكلام علىٰ ترتيبِ الوظائف أنَّ الديارَ المصرية كان يليها قاضٍ واحدٌ ، إلىٰ أنْ كانت الدولةُ الظاهريةُ «بِيبَرس» فى أوائل الدّولة التُّركيــة ، وقاضِى القضاة يومئذ القاضِى تاجُ الدين عبــدُ الوهاب ابن بنتِ الأعَزِّ الشافعىّ ، فاضطَرب الأمرُ لاختلاف المذاهب ، فاقتضىٰ رأىُ السلطان تقريرَ أربعة قُضاة من كل مَذْهب قاض ، وقُرِّر القــاضِى تاجُ الدين ابن بنت الأعزّ فى قَضاء قُضاة الشافعية علىٰ حاله ، وكُتِب لكلٍّ منهم تقليــدٌ بذلك ؛ ثم خُصَّ قاضى القضاة الشافعيــة بالتولِيَة فى بلاد الريف دُونَ غيره من القُضــاة الثلاثة ، واستمرَّ الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ الآنَ . إلا أنه لمـا حدثَ بديوان الإنشاء تنويعُ مايُكتب لأرباب الأقلامِ إلىٰ تقاليد ، فى قطع الثلثين ، وتَفاوِيضَ ، وتَواقِيعَ ، فى قطع النصف ، تقرّرَ الحالُ علىٰ أن يُكتَب للقُضاة الأربعة تواقيعُ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العــالى» ، ولم يزَلِ الأمرُ علىٰ ذلك إلىٰ أن وَلِىَ القاضى عمادُ الدين أحمدُ الكَرَكِىّ الأزرقِىّ قَضاء قُضاة

الشافعية فى أوّل سلْطَنة الظاهر « بَرْقُوق » الثانية ، وأخُوه القاضى علاءُ الدين علىّ كاتبُ السرّ ، فعُنِى بأخيه عمـادِ الدين المذكور ، فكَتَب له تقليدا فى قطع الثلثين بـ«الجناب العـالى » . وبَقِى الثلاثةُ علىٰ ما كانوا عليه من كِتابة التواقيع إلىٰ أن وَلِىَ القاضى جمالُ الدِّين محمودًا الحلبىّ القَيْسَرِىّ المعروفُ بالعَجَمىّ رحمه الله قَضاء قُضاة الحنفيَّة فى الدولة الظاهريَّة أيضا، مضافًا إلىٰ نَظَر الجيش، فكُتِب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بالجناب العالى أيضا، وبقِى المـالكىّ والحنبلىّ علىٰ ما كانا عليـه من كِتابة التواقيع فى قَطْع النِّصف . ولم يزل الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن وَلِىَ قاضى القُضاة جمالُ الدين يوسفُ البِسَاطىّ قَضاءَ قُضاة المـالكية فى الدولة الناصرية «فَرَج بن الظاهر برقوق» فأنشأتُ له تفويضًـا وكتبت له به ، ولم يكُن أحدٌ ممن عاصَرْناه كُتِب له تفويض غَيْره . ثم لمـا وَلِى الشيخُ جمال الدين عبدُ الله الأقْفَهْسِىّ قضاءَ المـالكية ، كتب له توقيعٌ فى قطع النصف ، إلا أنه كُتِب له بـ«الجناب العـالى » كما يُكتَب لأصحاب التقاليد ، وجرىٰ الأمرُ فيمَن بعـدَه علىٰ ذٰلك . ولم يبقَ من هو علىٰ النَّمَط الأوّل سِوىٰ قاضى القُضاة الحنابلة ، ويُوشِك أن يُكتَب لكلٍّ من المالكىّ والحنبلِىّ أيضا تقليـدٌ : لمساواتهم بغيرهم من الأربعة . وقد ذكرتُ ما يكتَب لهم من تقاليد وتواقيع هنا جمعا للمُفْتَرِق وتقريبًا للمَأْخذ .

وهـٰأنا أذكر ما يكتب للأربعة علىٰ الترتيب .

الأوّل (قضاء القُضاة الشافعية)

وهذه نسخةُ تقليـدٍ بقضاء القُضاة الشافعية ، كُتِب به لقاضى القُضاة تاج الدين ابن بنتِ الأعزّ رحمه الله ، حينَ ٱستقرّ أحدَ القُضاة الأربعة بعد انفراده بالوظيفةِ علىٰ ما تقدّم ، وهى من إنشاء القاضى محيى الدين بن عبدِالظاهر رحمه الله تعالىٰ ، وهى :

الحمدُ لله مجرِّد سيفِ الحقِّ علىٰ من آعتدىٰ، ومُوسِّع مَجَالِه لمن راحَ إليه وآغتدَىٰ، ومُوضِّح طريقه لمن آقتادَ وآقتدىٰ، ومزيِّن سمائِه بنُجوم تستمِدُّ الأنوارَ من شمس الهُدىٰ؛ الذى أعْذَب لِشرْعة الشريعة المحمَّدية يَنْبُوعا، وأقامَها أصْلًا مَدّ بثِمار الرُّشْد فُروعا.

نحمده علىٰ نِعَمه التى ألزمَتْنا لتشييد مَبانيها شرُوعا، ونشهَدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَعْمُر بها من القلوب والأفْواه رُبُوعا. ونصَلِّى علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أرسله الله إلىٰ الخلائق جميعا، وقام بعِبْء الأمر يصنَعُ حَسَنا ويُحْسِن صَنِيعا، صلى الله عليه وعلىٰ آله صلاةً لا يبْرَح برقُها ملمُوعا، ولا ينفَكُّ وِتْرُها بالتسليم مشْفُوعا.

وبعدُ، فإنَّ أحقَّ من جُدِّد له شَرَفُ التقريض، وخُلِّد له إرضاءُ الأحكام وإمضاءُ التفويض، ورِيشَ جناحُه وإن لم يَكُن المَهِيض، وفُسِّح مجالُه وإن كان الطويلَ العَرِيض؛ ورُفِع قدْرُه علىٰ الأقدار، وتقسَّمتْ من سحائبه الأنواءُ ومن أشِعَّته الأنوار، من غَزُر مدُّه فجَرَتْ منه فى رِيَاض الحقِّ الأنهار، وغدا تخْشَع لتقْواه القلُوبُ وتُنصِت لقوله الأسماع وتَرْنُو لُمحَيَّاه الأبصار؛ قد أوفَد من إرشاده للأمة لُطْفًا فلُطْفا، وأوقَد من علمه جَذْوةً لاتخبُو وقَبَسا بالهوىٰ لا يُطْفىٰ، وفاتَ النُّظَراء والنُّظَّار فلا يُرسل أحدٌ معه طرْفا ولا يَمُدّ إليه من حَيائه طَرْفا، وآحتوىٰ من عُلُوم الشريعة علىٰ ماتفرّق فى غَيْره، وغدا خيْرَ دليلٍ إلىٰ الحقِّ فلا يُقتَدَىٰ فى المُشْكلات إلا برأْى آجتهادِه ولا يُهتَدىٰ فى المذاهب إلا بِسَيْره؛ وكان لفلَكِ الشريعة المحمَّدية قُطْبا، ولجُثْمانها قَلْبا ولسِوارها قُلْبا؛ ولدليلها بُرهانا، ولإنسانها عيْنا ولعينها إنْسانا؛ فكم أرضىٰ بَنِى الأنام عن الأيَّام، وكم أغْضىٰ حياءً مع قدرته علىٰ الآنْتِقام؛ وكم أمضَىٰ لله حُكمًا لا آنفصالَ لعُرْوته ولا آنْفِصام، وكم قَضىٰ بالجَوْر فى ماله وبالعَدْل فى الأيتام؛

فلو آستعداهُ الليلُ على النهار لأنصفَه من تعدّيه، ولم يُداجه لما ستَرَه عليه من تَعدِّيه فى دَيَاجيه؛ فهو الصادعُ بما أمر اللهُ به ولو على نفْسه، والمستردُّ الحقوقَ الذاهبةَ من غير محاباةٍ حتّى لنِده من يومه وليومه من أمْسه .

ولما كان قاضى القُضاة تاجُ الدين عبدُ الوهّاب ممن هو فى أحْسَن هذه السِّمات قد تَصوّر، وكادَتْ نجومُ السماء بأنواره تتكثّر، وتجَوْهَر بالعلوم فأصبح حقيقةً هو التاجَ المُجَوْهَر؛ وله مزايا السُّؤدَد التى لايُشَكّ فيها ولا يُرْتاب، وسجايا الفضلِ التى إذا دخل [إليه] غيرُه من باب واحد دخل هو إليه من عِدّة أبْواب؛ وهو شجرةُ الأحكام، ومَصْعَدُ كَلِم الحُكّام، ومَطْلَع أنجُم شرائع الإسلام، ومَهْبِط وَحْى المُقَدَّمات والآرتسام، ومجتَمع رِفَاق القضايا فى الحلال والحَرَام ــ خرج الأمرُ الشريفُ بتجديد هذا التقليد الشريف له بقضاء القُضاة بالديار المصرية : فليستصْحِبْ من الحق ما هو مَلِيٌّ باستصحابه، وليستمرَّ على إقامة مَنَار الحق الذى هو موثِّق عُرَاه ومؤكِّد أسبابه، وليحتَلِبْ من أخْلاف الإنْصاف ما حَفَّله آجتهادُه ليد احتلابه؛ عالمًا بأنّ كل إضاءة إنارتُها من قَبَسه، وإن آستضاء بها فى دياجى المُنى، وكلَّ ثمرةٍ من مغترَسه، وإن مَدّ إليها يَدَ الاجتنا؛ وكلّ جدْوٍ هو من بَحْره وإن بَسَط إليه راحةَ الآعتراف، وكلّ مَنْهَج هو من جادّته وإن ثَنَى إلى سُلوكه عِنَان الآنصراف لا الآنحراف؛ وهو بحمد الله المجتهدُ المُصيب، والمادّةُ للعناصر وإن كان نصيبُه منها أوفرَ نصيب؛ وسجاياهُ يتَعَلَّم منها، كيْف يُوصِّى ويُعلِّم، ومزاياه تُقوِّم الأَوَد، كيف يُقَوِّم؛ والله الموفِّق بمنّه وكرمه! .

الثانى ــ قاضى قُضاة الحنفيَّة على ما آستقرّ عليه الحالُ من لَدُن القاضى جمالِ الدين محمودِ القَيْسَرِىّ وإلى آخر وقت . وموضوعُها النظرُ فى الأحكام

الشرعيَّــة علىٰ مــذهب الإمام أبى حنيفــةَ رضى الله عنــه ، ويختصُّ نظره بمصر والقاهرة خاصَّةً .

وهذه نسخة تقليد بقضاء قضاة الحنفية كُتِب به لمن لَقَبه شمسُ الدين، وهى :

الحمدُ لله الذى أطْلَع فى أُفُق الدِّين الحنيف شمسا مُنيرَهْ ، ورفَع درجةَ من جعله من العلم علىٰ شريعةٍ ومن الحكم علىٰ بصيرَهْ ، وقلَّد أمورَ الأمة لمن يَعْلم أنَّ بين يديه كتابًا لا يُغادر صغيرةً ولا كبيره ، ووَفَّق لفصل القضاء مَنْ مشىٰ علىٰ قَدَمِ أقْدم الأئمة فسار فى مَذْهبه المُذْهَب أحسَنَ سِيره ، الذى ادَّخر للحكم فى أيَّامنا الشريفة من نفائس العلمــاء أفضلَ ذخيره ، وقضىٰ بإرجاء أمْرِه لنختارَ له من تحلَّى به بعد العَطَل وكُلُّ قضاءٍ خيره ، وأيقظ عنايَتَنا لمن رَقَد الدهرُ عن فضله فباتَتْ عينُ الآستحقاق بآستقرار رتبته قَرِيره .

نحمَــدُه حمدَ مَنْ توافَتْ إليه النِّعم الغَزِيره ، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرةُ فى المُدَد اليسيره ، وأخصَبَت فى أيامه رياضُ الفضائل فهى بكلِّ عالم عدِمَ النظيرِ نَضِــيره ، وآفتتح دولتَه برَفْع مَنَار العدل فآمالُ أهل الظلم عن تعَاطيه قاصرةٌ وأيْدى أهل الباطل عن الآمتداد إليه قَصِيره ، وخصَّ المناصبَ فى ممــالكه بالأكْفاء فإذا تلبَّستْ بهــا هِممُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو آمتدّتْ إليها أبصارُ مَن دُونَهم رجعتْ حَسِيره .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُصْافِح العَلَنَ والسريره ، وتُصْبِح بها القلوبُ موقنةً والألسُنُ ناطقةً والأصابعُ مُشِيره ، ونشهد أنَّ محمدًا عبــده ورســوله الذى بعثَ الله به الرسُــل مُخْبِرةً وأنزل الكُتُب بمبعثه بَشِــيره ، وآجتباه فى خير أُمَّة من أكرمِ أَرُومة وأشرفِ عَشِيره ، وأظهر أنوارَ مِلَّتــه إلا لمن أعمىٰ الغىُّ بصيرتَه وهل ينفَع العُمْىَ شمسُ الظَّهِيره ، وخصَّه بالأئمة الذين وفَّقهم للاستعانةِ بالصبر

والصلاةِ وإنّها لكَبِيره، وجعل علماءَهم وَرَثةَ الأنبياء فلو ٱدُّعِيتْ لأحكامهم العصمةُ لكانت بذٰلك جَدِيره؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً نتقرّبُ بدَوَامها إلىٰ الله فيُضاعفها لنا أضعافًا كثيره، وسلّمَ تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أولىٰ الأمور بأن تُشاد قواعِدُه، وتُتعهّد معاهِدُه؛ ويُعلىٰ مَنارُه، وتُفاضَ بطُلوع شمسه أنوارُه؛ ويحَلّى به بعد العَطَل جِيدُه، ويُنظَم فى سِلك عُقود الأمة فَرِيدُه؛ وتكَمَّلَ به قُوىٰ الدين تكملةَ الأجساد بقُوىٰ الطبائع الأربع، وتُعمَّر به رُبُوعُ الملة التى ليس بعـدها من مَصِيف لملّة ولا مَرْبَـع، وتُثَبَّت به قوائمُ الشرع التى ما للباطل فى إمالة بعضها من مَطْمَع؛ وتُجْلىٰ به عمَّن ضاق عليه المَجَالُ فى بعض المذاهب الغُمَّه، ويستقرّ به عدَدُ الحُكّام علىٰ عدَدِ الأئمـة المستقرّ علىٰ عددِ الخلفاء الراشـدين من خُلَفاء الأمّه؛ ويُمَـدّ به علىٰ الخلق جناحُ الرحمة وافرَ القَوادِم وارفَ الظِّلال، ويجمَعَ به عليهم ماجمع اللهُ فى أقوال أئمتِهـم من الحق وما ذَا بَعْدَ الحَقِّ إلَّا الضَّلَال، ــ أمرُ القضاء علىٰ مذْهب الإمام أبى حنيفةَ النُّعمان بن ثابت رضى الله عنه الذى ٱشتَقّ الله له من المِلّة الحنيفيَّة نِسبَةً سَرتْ فى الآفاق، وأفاضَ عليه من موادّ القياس الجلىّ كُنوزا نَمَت علىٰ الإنْفَاق، وعضَّد أيّامه بولِيَّىْ عهدٍ قولُهُما حجة فيما تفرّدا به من الخِلاف أو ٱجتمعا عليه من الوِفَاق؛ وعُدّ من التابعين لقِدَم عَهْده، وسمِّى «سراجَ الأمة» لإضاءة نُوره بهما من بعده .

ولما خَلَا بانتقال مباشِره إلىٰ الله تَعالىٰ، توقّف مـدّةً علىٰ ٱرتياد الأَكْفاء، وٱرْتياءِ من هو أهلُ الاصـطفاء؛ وٱختيارِ من تكمُلُ به رفعةُ قَدْره، ويعيـد لدَسْته بتصَـدُّره علىٰ بِساط سليمانه بهجةَ صَدْره؛ ويغدُو لسِرّ إمامه بعد إماتة هـذه الفَتْرة باعثًا، ويُصْبِح وإن كان واحدَ عصْره لأبى يوسفَ ثانيًـا ولمحمد بن الحسن ثالثا؛

ويُشَبَّه به البَلْخِىُّ زُهْدا وعِلْما ، والطَّحاوِىُّ تمسُّكا بالسُّنَّة وفَهْما ؛ ويغترِفُ القُدُورِىُّ من بحره ، ويعترف الحُصَرِىّ بالحَصَر عن إحْصاء فضله وحَصْره ؛ ويقف من مذهبِ ابن ثابت ، علىٰ أثبتِ قَدَم وينتمى من فِقْـه النُّعمان إلىٰ فَرْع زاكٍ وأصـل ثابِت ، وينشُر من أحكامه ما إنْ وافق الأئمةَ فهو حجّـة قاطِعة ومَحَجَّة ساطعـه ؛ أو خالفهم بمَذْهبه فهو رحمةٌ واسعه ، ونعمةٌ [و] إن كانت بين الطُّرق فارقةً فإنَّها علىٰ الحق جامِعَه .

ولمـا كان فلانٌ هو المنتظَر لهذه الرتبة ٱنتظارَ الشمس بعـد الغَسَق ، والمرتَقَب لبلُوغ هذه المنزلة التى تقدّمتْ إليها بوادرُ ٱستحقاقه فى السَّبق ، والمعطُوفَ علىٰ من وُصف من الأئمة وإن تأخَّر عن زمانه عطفَ النَّسَق ؛ وهو الذى مادامَ يعـدِلُ دمَ الشهداء مدادُ أقلامِه ، وتضع الملائكةُ أجنحتَها رضًا بمـا يصنَع من نقل خَطَواته فى طلب العلم وسَعْيِ أقدامِه ؛ ودخلَ من خشيةِ الله تعالىٰ فى زُمْرة من حُصِر بإنَّما[1] ، وهَجر المضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العِلْم فلو عُدَّت هَجَعاته لقَلَّمـا ؛ وهَجَّر فى إحراز الفضائل فقَيَّـد أوابِدَها ، وأحرَزَ شَـوارِدَها ؛ ولَجَّج فى بِحار المَعَـانى فغَاص علىٰ جواهرِها ؛ ونظر نظرَةً فى نُجوم العُـلوم فاحتَوىٰ علىٰ زُهْرِها وراد َخمائِلَ الفضائل فاستولىٰ علىٰ أزاهِرِها ؛ وٱنتهىٰ إليه علمُ مذهبِه فبرَّز علىٰ من سَلَف ، وجارىٰ علمـاء عصْره فوقفَتْ أبصارُهم عن رؤية غُبَـاره وما وقَفْ ، ونَحَا نحوَ إمامه فلو قابله يعقوبُ مع معرفتِه فى بحثٍ لأنصرَف ؛ وتعينَّ عليـه القضاءُ وإن كان فرضَ كفاية لا فرضَ عَيْن ، وقدّمَـه الترجيحُ الذى جعل رُتبتَه همزةَ ٱستفهامٍ ورتبـة غيرِه بَيْنَ بَيْن ــ ٱقتضىٰ رأيُنا الشريفُ ٱختصاصَه بهذا التمييز ، والتنبيهَ علىٰ فضله البسيط بهذا اللفظ الوجيز .

---

(١) يريد الاشارة الى قوله تعالىٰ : « إنمـا يخشى الله من عباده العلماء » .

فلذلك رُسِم أن يفوّض إليــه كيت وكيت . فليتولَّ هذه الرتبةَ التى أصبَح فيهـا عن رسول الله صــلّى الله عليه وسلم نائبا و بشَرْعِهِ قائمـا، و يتقلّدْها تقلُّدَ من يعْلَم أنه قد أصبح على حكم الله مُقَــدّما وعلى الله قادِما، و يتَثَبّتْ تثبُّتَ مَن يعتصِمُ بالله فى حُكْمه فإنَّ أحدَ الخَصْمين قد يكونُ ألْحَنَ بحجّته و إن كان ظالمـا ، و يلْبَس لهذا المَنْصب حُلَّةً تمنَع المُبْطِل من الإقدامِ عليه، وتدفَعُ الظالم عن التطاوُل إلى أمرٍ نَزَعه الشرعُ من يَدَيْه ، وتُؤَمِّن الحقَّ من آمتــدادِ يَدِى الجَوْر والحَيْف إليه ؛ ولْيُسوِّ بين الخصمين فى مَجْلسه ولَحْظه ، و يَعْــدِلْ بينهما فى إنصاتِه ولفظه ؛ ليعلَمَ ذُو الجاه أنه مساوٍ فى الحق لخَصْمه، مكفوفٌ باستمــاع حجّته عن الطمَع فى ظُلْمه؛ ولا ينقُض حكما لم يخالِفْ نَصًّا ولا سُنَّةً ولا إجماعا، ولْيشارِكْ فيما لايجهله من القضايا غيْرَه من العلمــاء ليتزيَّد بذلك مع آطّلاعه آطلاعا، ولْيغتنِم فى ذلك الآستعانةَ بآرائهم فإنَّ الله تعالى لاينتزِع هذا العلم انتزاعا، وليسُدّ مَسالِكَ الهَوىٰ عن فِكره، ويَصْرِفْ دواعِىَ الغضَب لغيرِ الله عن المُرور بذُكْره[1]، وليجعَلِ العمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه، وليحْكُمْ بمـا أراه اللهُ ﴿والله يحكُم لا مُعَقِّبَ لحُكْمه﴾، إن شاء الله تعالى .

الثالث — قاضى قضاة المـالكية :

وهــذه نسخة تقليدٍ بقضاء قُضاة المـالكيــة ، لقاضى القُضاة جمـالِ الدين يوسُــفَ البِساطِىِّ المُقَــدّم ذكْرُه ، فى العَشْر الأخير من رَجَب الفَرْد ســنةَ أربــع وثمــانمــائة، وهو :

الحمــدُ لله الذى شَفَع جَلالَ الإســلام بجَماله ، وناطَ أحكامَه الشرعيَّةَ بمن آقترَن بحميــد مَقاله جميــلُ فِعاله ، وخصَّ مذهبَ عالمِ المدينةِ بخيرِ حاكمٍ ما جَرىٰ حديثُه

(١) الذكر والذكر أى بالضم والكسر التذكر .

الحَسَنُ يومًا إلا وكان معْدُودا من رجَاله ، وعَدَق النظرَ فى أحكامه بأجَلِّ عالم لو طُلِب له فى الفضل مِثْلٌ لعجَز الزمانُ أن يأتىَ بمِثاله .

نحمدُه علىٰ أن أخْلَف من النَّبعة الزكيَّة صِنْوًا زاكيا ، وأدالَ من الأخ الصالح أخًا للعُلوم شافيا ، ولمَنْصبه العلىّ ولله الحمدُ وافيَا . ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحده لا شريكَ له مجرّدُ سيف الحق علىٰ كلِّ مبطِل معاند ، ومرهِفُ حدِّه القاضبِ لكل مُلْحِدٍ عن سَوَاء السبيل حائد ، وأنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبىّ فاق الأنامَ بفضله وعَمَّ البريَّة بعَدْله ، وسُدّ بابُ التوبة علىٰ متنقِّصه فلم تكن لُتقبَلَ توبةُ مثلِه ، وكان إلىٰ مالكٍ مصيرُه فلا جرمَ قَضىٰ بإهدار دَمه وتحتُّم قتلِه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين ذَبُّوا عن حِمىٰ الدين وذادُوا ، وسلكوا سبيلَ المَعْدَلة إذ حكَمُوا فما ضَلُّوا عن سَنَن الطريق ولا حادُوا ، صلاةً تبقىٰ ببقاء الدُّهور ، ولا تزولُ بهجةُ جمالها بتوالى الأعوامِ والشُّهور ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ ماقُصِر عليه النظَر ، واستَغرقتْ فيه الفكر وعَرَا العيونَ فيه السهَر ، وصُرِفت إليه الهِمَم ، ورَغِبت فى البراءة من تخلُّفه الذِّمم ـ النظرُ فى أمر منْصب الشرع الشريف الذى يَأْوِى الملهوفُ إلىٰ ظلِّه ، ويلجأ المستجيرُ إلىٰ عَدْله ، ويتعلَّق العُفَاة بوثيق عُرْوته ومَتِين حَبْله ، وبرَهْبته يكُفُّ الظالم عن ظُلْمه ، وينتصفُ الخصمُ من خَصْمه ، ويُذْعِن العاصى إلىٰ طاعته وينقادُ الأَبِىّ إلىٰ حُكْمه ، ويأْتَمُّ به الحائرُ فى دُجىٰ الجهل فيستضىءُ بنُوره ويهتدى بنَجْمه ؛ لاسيما مذهَبُ مالكٍ الذى لم يزَلْ للدِّين من أهل الإلحاد مُثَّئِرا ، وللقصاص من أهل العناد مبتَدِرا ، وبسَلِّ سَيف الحقِّ علىٰ الطُّغَاة المتمرّدين مشتَهِرا ، ففاز من سَطَوات الإرْهاب بأرْفَع المراتب ، وعلا رقابَ المُلحدين بأرْهفِ القواضب ، وخُصَّ من

سَفْك دماء المُبْطلين على البَتّ بما لم يشاركه فيه غيره من المذاهب ؛ فوجب أن يُختارَ له من ينُصّ الاختبار على انه أهل للاختيار ، ويقطع المنافسُ أنه الراجحُ وَزْنا عند الاعتبار ، وتأخذ مناقبُه البسيطةُ فى البَسْط فلا تنفَدُ إذا نَفِدَت مناقبُ غيره المركّبةُ عند الاختصار ؛ ويشهَدُ له ضِدُّه بالتقدّم فى الفضل وإن لم تتقدَّمْ منه دَعْوى ، ويعترفُ له بالاستحقاق خصمُه فيتمسَّك من عدم الدافع فيه بالسَّبب الأقوى ، ويحْكُم له بعلوّ الرُّتبة مُناوِئُه فيرتفع الخلافُ وتنقطع النَّجْوى ، ويسَجِّل له حاسدُه بثُبوت المفاخر المحكوم بصحَّتها فلا ينقضُها حاكم وإن بلغ من تدقيق النظر الغايةَ القُصْوى ، وتنفذ أحكامُه فى البريَّة فلا يُوجَد لها مخالف ، وتَحذَر شيعةُ الباطل سَطْوتَه فلا يرى لباطل مُخالف ، ويشْتَهِر عنه من نُصْرة الحق ما يأْمَن معه المستضْعَف الخائف ، ويَتحقّق فيه من قيام العَدْل ما يرتَدِع به الظالم الحائف ؛ ويَستوِى عنده فى لزوم الحق القويُّ والضعيف ، ولا يُفَرِّق فى لازمه بين المشْروف والشريف ، ولا يميّز فى حَمْل الأعباءِ الشرعيَّة بين الشّاق وغيره ولا بينَ الثقيل والخفيف ، ولا يُحابِى قريبًا لقَرابته ، ولا جليلا لجلالته ، ولا ظالمًا خوفَ ظلمه ولاذا ٱستطالةٍ لٱستطالته ، ولا يستَزِلُّه ذُولَسَن لِلَسَنِه ولا بليغٌ لبَلاغته ، ولا يُخالِف بين الصديق الملاطِف وغيرِه إلا فى مَنْع قَبُول شهادته .

ولما كان المجلس العالى القاضوِىّ ، الكبيرِىّ ، الإمامِىّ ، العالمِىّ ، الصَّدْرِىّ ، الرئيسِىّ ، الأوحَدِىّ ، العَلَّامِىّ ، الكاملِىّ ، الفاضِلِىّ ، المُفيدِىّ ، الفَريدِىّ ، المُحَقِّقِىّ ، القُدْوِىّ ، الخاشِعِىّ الناسكِىّ ، الحاكمِىّ ، الجَمَالِىّ ؛ جَمالُ الإسلام ، شرَفُ الأنام ، حاكمُ الحُكّام ، أوحدُ الأئمه ، مُفيد الأمّه ، مؤيِّد المِلّه ، مُعِزُّ السنّه ، شمسُ الشريعه ، سيفُ المناظرين ، لسانُ المتكلمين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، خالصةُ أميرِ المؤمنين ،

أبو المَحَاسن «يوسفُ البِساطىُّ» المالكى ـ أدام الله تعالى نعمتَه ـ هو المرادُ من هذه الصِّفات، التى وقعَتْ من محلِّه الكريم موقعَها، والمقصودُ من هـذه السِّمات، التى أَلِفتْ من سِيرته الفاضلةِ موضِعَها؛ وقارعُ صَفاة هذه الذِّرْوة التى ما كان ينبغى لغيره أن يَقْرَعها؛ وشمسُ الفضل الحقيقىِّ بمثلها أن لا يتوارىٰ جمالُها بحِجاب الغُروب، وفاصِـلُ مشْكِلات القضَايَا إذا آشـتدّ إشكالُهـا وعظُمت فى فَصْلها الخُطُوب، ومتَعيِّن الوِلاية التى إذا كانتْ فى حقِّ غيره علىٰ الإباحة كانتْ فى حَقِّه علىٰ الوُجُوب؛ وقد دَرَّب الأحكامَ وخَبرها، وعَرَف علىٰ التحقيق حالَها وخَبرَها، ووردَ من مَشارِبها الرائقة أصفىٰ المنـاهِل فأحسَن وِرْدَها وصَدَرها؛ ونَفُست جواهر فوائده ففاقَت جواهرَ المعادن، وغطَّت محاسنُ فضله فضائلَ غيره ولا تُنْـكَر المحاسنُ لـ«يوسُفَ» وهو «أبو المَحاسن»، فعلُومه المدَوَّنة بالبيان والتحصيل كافِله، ومُقَـدّمات تنبيهاته بنتائج النَّوادر الحسنةِ متواصِـلَه؛ وتهذيبُ ألفاظه المنقَّحة تُؤْذِن بالتحرير، وعيونُ مسائله المتواردةِ لا تدخُل تحت حَصْر ولا تقْدير؛ فلو رآه «مالك» لقال: ما أعظَمَ هـذه الهِمَّه، أو أدركه «آبنُ القاسم» لوَفَّر من الثناء عليه قِسْمَه، أو عاصره «آبنُ عبدالحَكَم» لحكَم له بأنَّ سهْمه قد أصاب الغَرض وغيرَه أطاشَ الريحُ سَهْمَه؛ أو عاينه «أشهبُ» لقال قد ركِب هذا الشَّهباءَ أنَّى يُلْحَق، أو سمع «آبنُ وهْب» كلامه لقطع بأنه هِبـةٌ ربَّانيَّة وبمثله لم يُسْبَق؛ أو بلغ «آبنَ حبيب» خبرُه لأحَبَّ لقاءه، أو بَصُر به «سُحْنون» لتحقَّق أنه عالم المذْهَب ما وَرَاءه؛ أو آستشعر بقُدومه «آبنُ سيرين» لبَشَّر به، أو جاوره «آبنُ عَوْف» لعـاف مجاورةَ غيره أو مجـاوزةَ طُنُبه؛ أو جالسه «آبن يُونُس» لتأنَّس بمجالسته، أو حاضره «أبو الحسنِ بنُ القَصَّار» لأشْجىٰ قلبه بحُسن محاضَرته؛ أو جاراه «القاضى عبدُ الوَّهاب» لقضىٰ بعُلوّ مكانته، أو آتَّصل ذكره «بالمـازَرىّ» لزَرىٰ علىٰ «مازَر» لبُعْدها عن دار إقامتِه؛ أو آطَّلع

«القاضي عياضُ» علىٰ تحقيقاته لآستحسَنَ تلك المَدارك، أوناظره «آبنُ عبدالسلام» لسَلَّم أنه ليس له فى المناظرة نظيرٌ ولا فى تدقيق البحث مُشارك؛ أو مَرَّ به «آبن الجلَّاب» لجلَب فوائدَه إلىٰ بلاده، أو حضَره «آبنُ الحاجب» لتحقَّق أنه جامعُ الأُمَّهات علىٰ آنفراده .

هـذا وقد حُفَّ بجَلَال لا عهْدَ لأحدٍ بمثله ، ولا طاقةَ لفاضل بمُقاومة فَضْله ، ولا يَسْمَح الزمان بنظيره من بعده كما لم يَسْمَح به من قَبْله ؛ فاجتمع من جَمال الجَلَال، وجَلال الجَمال، ما لم يكن ليدخُل تحتَ الإمكان، وعُزِّز عددُهما من أعلام الأئمة بثالثٍ ورابع نقام بنـاءُ الدِّين من المذاهب الأربعة علىٰ أربعةِ أركان ؛ ولا عِبرةَ بما يذْهَب إليه الذاهبون من كراهة التربيع تبَعا للمنجِّمين فى آعتقادهم الفاسد ، فقد ورد أنَّ زَوايا الحوض علىٰ التربيع وذٰلك فيه أعظمُ دليل وأقومُ شاهد .

وكان مـذْهَب مالك رحمـه الله هو المُراد من هـذه الوِلاية بالتخصيص ، والمجْلِسُ الجَمَالىّ المشارُ اليه هو المقصودُ بهذا التفويض بالتنصيص ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُوَفِّى مرتبتَه السنيَّةَ حقَّها، ونُبَوِّئَ النِّعم مستحِقَّها، ونملِّك رقابَ المعالى مسترِقَّها ، ونقدِّم علىٰ طائفة المالكيَّة من أضحىٰ لهم جَمَالا ، ونُتحِفَهم بمن أمسىٰ لعِزِّهم كمالا ، ونفوِّض قضاءَ مذْهَبهم إلىٰ من إذا جرىٰ فى مَيْدان حُكْمه قالت محاسنُ قضاياه : (هكذا هكذَا وإلا فَلَالا) . ونُسنِدَ الأحكامَ الشرعيةَ إلىٰ من هو بها أعرَف ، ونَقِفَها علىٰ من عُرِف أنه علىٰ الحقائق ماضٍ وعند السُّنَّة يتوقَّف ، ونُعدِق أمرها بمن ألِفَ النزاهةَ فنكِرَةُ المَطامع عنده لا تَتعرَّف ؛ ونَكِلَ النظرَ فيها إلىٰ مَنْ أمسىٰ لشُروط الآستيجاب جامعا ، ونُقدِّم فى ولاية هذا المنْصِب من شَفَع له آستحقاقُه وكفىٰ بالآستحقاق شافِعا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لازال يَبْسُط لأوليائه من بساط الأُنْس ما كان مَطْوِيّا ، ويُنيلهم من رغائب الآمال ما كان عنهم فى سالف الأزمان مَزْوِيّا ـ أن يُفوَّض إليه قضاءُ قُضاة مذهب عالم المدينة ، وإمام دار الهجرة ، مالك بن أنس الأصبحىّ : قدَّس الله تعالىٰ رُوحَه . فليتلقَّ مافُوِّض إليه بأفضل تلقٍّ يليق بمثْله ، ويتقبَّلْه تقبُّلا يناسب رفعة محلِّه ، ويبتهجْ بأجلِّ تفويض لم يُسمَحْ بتمنِّيه لآخر من قبله .

ومن أهمِّ ما نُوصيه به ، ونوجِّه القول إليه بسببه ؛ تَقْوى الله تعالىٰ التى هى مِلَاك الأمر كلِّه ، وقِوَام الدين من أصله ؛ والاشتمالُ عليها فى سِرِّه وجهره والعملُ بها فى قوله وفعله ، ثم بِرُّ الخلق والإحسانُ إليهم ، والتجاوُزُ عنهم إلا فيما أوجبه الشرعُ من الحقوق عليهم ؛ ففى التقوىٰ رضا الله وفى البِرّ رضا الخلق وناهيك بجمعهما من رُتْبة فاخره ، إذ لا شكَّ أنَّ من حصَّل رضا الله ورضا الخلق فقد حصَل علىٰ خير الدنيا والآخره ؛ ووراءَ ذلك قاعدةٌ فى الوصايا جامعه ، وتَذْكِرة لذَوى الذِّكرىٰ نافعه ؛ وهى أن يتأمَّل أحوال غيره تأمُّل من جعلها لنفسه مِثالا ، ولنَسْجه مِنْوالا ؛ فما آستحسنه منها أتىٰ مثْلَه ، وما آستقبحه تجنَّب فعلَه ؛ واقفًا فى ذلك عند ما وردَتْ به الشريعة المطهَّرة بنص صريح أو تأويل صحيح ، مُعْرِضا عن العقْليَّات المحضة فلا مجالَ للعقْل فى تحسينٍ ولا تقْبيح .

وأما أدَبُ القضاء الجارى ذكْرُ مثله فى العُهُود ، والنظرُ فى أمر النُّوّاب وكُتَّاب الحكم والشُّهود ؛ فهو به أدرَبُ وأدرَىٰ ، وبمعرفة ذلك لهم وعليهم أحقُّ وأحرىٰ ؛ غير أنَّا نُوصيه بالتثبت فى أمر الدِّماء وعَلاقتها ، وتحقُّق حكمها قبلَ الحُكم بإراقتها ؛ فإنَّ ذلك لمادّة القَلَق فيها أحْسَم ، ومن تَبِعاتها فى الدارين أسْلَم ؛ والوصايا كثيرةٌ

ولكنّها منــه تُستفاد، وعنــه تؤخَذُ وإليــه تُعاد؛ والله تعالىٰ يتولّاه، ويحُوطه فيما وَلّاه، ويُديم عليه هذه النعمةَ فما فوق مَنْصِبه منصِبٌ يتمنّاه؛ والآعتمادُ (١) ... ... إن شاء الله تعـالىٰ .

وكُتِب لستٍّ إن بَقِين من شهر رجب الفردِ عامَ أربع وثمـانمـائة، حسَبَ المرسوم الشريف، بمقتضىٰ الخط الشريف .

وهذه نسخة توقيع بقضاء القُضاة الحنفيَّة بدِمَشْق، من إنشاء القاضى ناصر الدين آبن النَّشَائى، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل مَنَـارَ الشَّرع الشريف مستمِرًّا علىٰ الدَّوام، وشَمَلَ مَنْصِب الحكم العزيز للعالِمِ بعد العالِمِ علىٰ مَمَرِّ الأيام؛ وأجمَلَ آنتخابَ من يقُوم بأعباء القضايا، ومن تدُوم به مَزَايا السَّجايا، فيتخيَّر لذٰلك الإمام بعد الإمام؛ وأقبل بوجْه آجتبائِه علىٰ ولىٍّ تتأكَّد بإنصاته وإنصافه إحكامَ الأحكام، وعدَل بآعتنـائه إلىٰ تعيينِ من ترتفِع به فى العلوم أعلامُ الإعلام، ومن يتأيَّد به الحقُّ فى كل نقضٍ وإبْرام .

نحمده علىٰ نِعَمه الوافرة الأقْسام، السافرةِ [اللثـام] عن وجُوه الزيادة الوِسَام، ونشكره علىٰ مِننه الجِسام، ومَوَاهِبـه التى لا تَبْرَحُ ثغُورُ إحسانهـا لذَوى الآستحقاق واضِحةَ الآبْتِسام .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً كفيلةً بالمَرام، مُنيلةً للإكرام، جميلةَ التلفُّظ والآلتئام، جزيلةَ الكَنَف والآعتِصام؛ ونشهَد أنّ محمدًا عبدُه ورسوله الذى أقام اللهُ به شعائرَ الإسلام، وأظهر شرائعَ الدين الحنيف بحُسَامِ نصره الحَسَّام،

(١) أى إلىٰ آخر ما يكتب فى مثله، وحذفه من باب الآختصار .

وأورثَ مَنْ أهَّله من أُمَّته كُنوزَ العلوم التى لاتنفَـدُ فوائدُها مع كَثْرة الإنفاق مدَى السنِينَ والأعْوام، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هَدَوُا المؤمنين بإلْهام الكَلَام، وعَدَوْا علىٰ المشركين بسِهَام الكِلَام، وأبدَوْا من إرشادهم إلىٰ خَفَايا القضايا ما يظْهَر بتهذيبهم ظُهورَ بَدْر التَّمـام، صلاةً دائمةً باقية تُجْزِل لقائلها الأجْر التامّ، وتُرْسل إليـه سحائبَ المواهب هاطلةَ الغَمَام، وسلَّم تسليما كثيرا .

و بعد، فإنَّ أوْلىٰ من تذَهَّب به مذْهَبُه، وتحلَّى به محلُّ الشرع الشريف ومَنْصبُه، وأنار بنُور إرشاده ليلُ الشك وغيهَبُه، وسَهُل بتقريبه علىٰ فَهْم الطالب مطْلَبُه، وهمىٰ به وابِلُ العلم وصيِّبُه، وأُتيح به لمستفيد كنْزُ الفوائد التى يَدْنُو بهـا أرَبُه، وشِيمَ من برق شِيَمِه بالشام ماوُجِد فى الجَوْد صادقُه وفُقِـد خُلَّبُه ـ مَنْ علا فى العلوم نسَـبُه، وتأكَّد فى الدين سَبَبُه، وشَـيَّد مبنيَّ المَعَالى مُعْرَبُه، وصقَل مَرَايا الأفهام مُهَذَّبُه، وزاحمَ منكبَ الجَوْزاءِ فى ٱرتفاع القَدْر منْكِبُه، و جمَّل موَاكب المباحث فى الأَصول والفروع مَوْكِبُـه، وسحَّتْ بدقائقِ الحقائق سُحُبه، وٱشـتاق إلىٰ قُرْبه موطنُ الحكم العزيز فمـا زالَ يرتقبُـه، وٱرتاحَ الزمانُ إلىٰ عَفَافه و إنصافه فأرشـد حيثُ نختارُه لذلك وننتخبه .

ولمـا كان المجلس العالى ... ... (١) أيَّد الله أحكامَه هو الذى أرشَدَ الطالبِين فى البِـدايه (٢) ، وأفاد المنتهِين درجَاتِ النِّهايه ، وأفهَمَ المستفِيدينَ صوابَ الهِـدايه ، وغدا سابقًا [فى] حَلْبة العُلَماء إلى أقصىٰ غايه . كَمْ قَرَّب إلىٰ الأذهان غامضَ المُشْكل وأوضحَ مفهُومه ، وكَمْ أشاع فرائد فوائده التى طَبَّق الأرض بها عُلُومَه ، وكم أباحَ لَقْطَ ألفاظه المشحونة بالحِكَم فتحَلَّى الناس بدُرَرها المنثورة والمنظُومه ، مع ماله من دِينٍ

(١) بياض بالأصل متروك لتكملة الألقاب المعلومة كالأميرى الكبيرى الخ .

(٢) فى المصباح مانصه : "والبداية بالياء مكان الهمز عامىّ نص عليه ٱبن برّى وجماعة" .

متـين ، وٱستحقاق للتقدّم مبين ، وصلاحٍ بلغ به درجاتِ المتّقين المرتقين ، وٱتباعٍ لسُنَن الحق فى الحُكْم بين الخَلْق عن يقين ـ ٱقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن يُقْرَن منصِبُ القضاء بجماله ، وأن يُعوَّض عن إمامه المفقود بإمامه الموجود ليستمرَّ الأمرُ علىٰ حاله .

فلذٰلك رُسِم ... ... ـ لا زالت أئمةُ العلم الشريف فى أيامه يخلُف بعضُهم بعضا ، وأقدارهم تدُوم رِفعتُها مدىٰ المُدَد فلا تجد نَقْصا ولا نقضًا ـ أن يُفوَّض ... ...[1]

فليُباشِرْ ذٰلك بعلمه المأثور ، وحُكْمه المشْهور ، وإنصافه الذى يَعْدِل فيه ، وٱتصافه بالحق الذى ما بَرِح يُوفِيه ؛ قاضيًا بينَ الخصوم بما أمر اللهُ عز وجل ، مراقبًا لخشية الله علىٰ عادته ، مُذيعًا لِلْمِلَّة الحنيفيَّة أنواعَ إفادته ؛ قاطعا بنَصْل نَصِّه مُشْكِل الإلباس ، جامعًا فى أحكامه المستَدة بمقتضىٰ مَذْهبه بين الكتاب والسُّنَّة والقياس .

والوصايا كثيرةٌ وملاكها التقوىٰ وهى مادّتُه ، وطريقُه المستقيمُ وجادّتُه ؛ وما زالتْ عُمْدَتَه التى يعتمِدُ عليها ، وعدّته التى يستند فى إسناد أمْرِه إليها ؛ والله تعالىٰ يجمِّل الأيام بأحكامه ، ويبلِّغه من خير الدنيا والآخرة غايةَ مُراده ومَرامه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضاة المالكيَّة أيضا ، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين البساطىّ المذكور عند عَوْده إلىٰ الوظيفة ، لأربعٍ بَقِين من ذى القَعدة سنة سبع وثمانمائة . وقد وافق عودُه عودَ شيخ الإسلام جلالِ الدين عبدالرحمن البُلْقينىّ إلىٰ قضاء قُضاة الشافعيَّة أيضا ، وهى :

---

(١) بياض فى الاصل والمراد واضح مما تقدّم .

الحمدُ لله الذى أعاد لرُتْبة القضاء رَوْنَق « جَمالِها » وأسعدَ جَدَّها بأسعدِ قِرانٍ ظهرَتْ آثارُ يُمْنِه بما آثرَتْه من ظُهور «جَلالها» ، وأجاب سُؤْلها بأجَلِّ حاكمٍ لم تَعدِل عنه يوما فى سُؤالها ، وأسعَدَ طَلِبتَها بأكمل كُفْءٍ لم تَنْفكَّ عن خِطْبته وإنْ أطال فى مِطَالها ، وأكرم مآبَها بأكْرمِ كافٍ ما فاتَها مَنَالُ ماضٍ إلا أدركَتْه به فى مآلِها .

نحمدُه علىٰ أنْ أُعطِيَت القوسُ باريها ، وأُعيدت مياهُ الاستحقاقِ إلىٰ مَجاريها ، ورُدّتِ الشاردةُ إلىٰ مالكٍ أَلِفَت منه بالآخرةِ ماأَلِفتْ من خيره فى مَبَادِيها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَخْفِق بالإخلاص مَنَاطُها ، ويزدادُ مع طول الأمَد نَشَاطُها ، ولا ينْطَوِى علىٰ ممَرّ الأيامِ ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ بِساطُها . ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أفضلُ نبىّ رَفَع قواعدَ الدين وشَاد ، وقامَ فى الله حقَّ القيام فحَسَم بسَيف الشرع مادّةَ الفَساد ، وأحكم بسَدِّ الذّرائع سَدادَ الأمور فجرت أحكامُ شريعته المطهَّرة علىٰ السَّدَاد ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين استُنْشِق من مَعْدَلتهم أطيبُ عَرْف ، وخُصُّوا من صفات الكمال بأحْسَن حِلْية وأكمل وَصْف ؛ صلاةً تُوهِى عُرا الإلحاد ، وتفْصِمُها ، وتَبُكُّ أعناقَ أهل العِناد ، وتَقْصِمُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فلاخفَاءَ فى أنَّ الأبصار تتشوَّفُ لرؤية الهلال مع قُرْب الغَيْبة للأخذ منه بنصيبها ، والشمسَ يُترقَّب طلُوعها فى كلِّ يومٍ وإن قرُبَ زمانُ مَغيبها ، والمسافِرَ يُسرُّ بإيابه وإنْ تكرر قُدُومه من بَعيد المسافة وقَريبها ، والسَّهرانَ يتطلَّع من ليلته الطويلةِ إلىٰ طُلُوع فَجْرها ، والمَنَاصبَ السنيَّة تأرِز إلىٰ مستحقِّها كما تأرِزُ الحيَّة إلىٰ جُحْرها .

ولما كان المجلسُ العالى، القاضوىّ، (إلىٰ آخر ألقابه) أعزّ الله تعالىٰ أحكامه هو الذى حُمِدت فى القضاء آثارُه، وسارتْ بحُسْن السِّيرة فى الآفاق أخْبارُه، وحَسُن بحُسْن تأتّيه فى الوِرْد والصَّدَر إيرادُه وإصْدارُه، وتنافَس فى جميل وَصْفه الطِّرْس والقَلَم، وظهرَتْ فضائلُه (ظهورَ نار القرىٰ لَيْلا علىٰ عَلَم)، ونشرَتِ الأيّام من عُلُومه ما تُطْوىٰ إليه المَرَاحل، وجادَتْ مَواطرُ فِكْره بما يُخْصِب به جَنابُ المَرْبَع الماحل، وعَمَرتْ من منْصب القضاء بولايته مَعاهِدُه، وجرتْ بقضايا الخير فى البَدْء والعَوْد عوائدُه، ونفذَتْ بنَفَاذ أوامره فى الوجود أحكامُه، ورُقِم فى صحائف الأيّام علىٰ توالى الدُّهور نقضُه وإبرامُه، وسُجِّل بثُبوت أحقِّيّته فانقطعَتْ دُونَ بلوغ شَأْوِه الأطماع، وحُكِم بمُوجَب فضله فانعقَد علىٰ صحّة تقدُّمه الإجماع، ففرائدُ فوائده المُدَوّنة تُؤْذن بالبَيان والتحصيل، ومُقَدِّمات تنبيهاته المحقِّقة، تكفِى نتائجُ إفضالها عن الإجمالِ والتفصيل، وجواهرُ ألفاظه الرائقة، نعم الذخيرةُ التى تُقْتنىٰ، ومَداركُ مَعانيه الفائقة، حَسْبُك من ثَمَرة فكر تُجْتنىٰ، وتهذيبُ إراداته الواضحة تُغْنى فى إدراكها عن الوَسائل، وتحقيقُ مسائله الدقيقة تُحقِّق فيها أنها عُيونُ المسائل ــ وكانتْ وظيفةُ قضاء قُضاة المالكية بالديار المصرية فى رفيع رتبتها، ووافر حُرْمتها، قد ألقَتْ إليه مقاليدَها، ورفعَتْ بالانْتماء إلىٰ مجلسه العالى أسانيدَها، وعرَفَتْ محلّه الرفيعَ فتعلّقتْ منه بأعزّ مَنَال، وحظِيَتْ بجماله اليُوسُفِىّ المرّةَ بعد الأُخْرىٰ فقالتْ: لا بَرَاحَ لى عن هذا الجَمَال، وعجمَتْ بتكَرُّر العَوْد عُودَه فأعرضتْ عن السِّوىٰ، وقرّتْ بالإيابِ إليه عَيْناً «فألْقتْ عَصَاها وٱستقرّ بها النَّوىٰ» ــ ٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُعِيد الوظيفةَ المذكورةَ إليه، ونُعوّل فى ٱستكشاف مُشْكِلاتِ الأحكام علىٰ ما لديْه، إقرارًا للأمر فى نِصَابه، وردًّا له بعد الشِّرَاد إلىٰ مَثَابِه، وإسعافًا للمَنْصب بطَلِبَته وإن أتعبَ غيرُه نفْسَه فى طلَابِه.

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُبْدِئ المعروفَ ويُعيده ، ويُوفِّر نصيبَ الأولياء ويَزِيدُه ـ أن يفوَّضَ إلى المجلس العالى المشار إليه قضاءُ القُضاة بمَذْهب عالم المدينة وإمام دار الهجرة «مَالِك بن أَنَسٍ الأَصْبَحِىّ» رضى الله عنه ، على جارى عادته المتقدِّمة فى ذلك . وأن يُضافَ إليه تدريسُ قُبَّة الصالح والأنظارُ الشاهد بها توقيعُه الشريف ، وأن لا يُقرِّر أحدٌ فى دروس المالكية من مدَرِّس ومُعِيد إلا بتعيينه ، على أتم العوائد وأجملها ، وأعمِّ القواعد وأكملها .

فلْيُمْدَد إلى رُتْبته السنِيَّة برفيع قَدْره وعليِّ هِمَّته ، ويقابِلْ إحسانَنا بالشكر نُتْحِفْه بمزيد الإقبال إذ لا زيادةَ فى العُلو على رُتْبته . ثم أوَّل ما نُوصيه به ، ونؤكِّد القولَ عليه بسبَبِه ، تقوى الله التى هى مِلَاك الأمور كلِّها ، وأُولَى المفترَضات فى عَقْد الأمور وحلِّها ؛ فهى العِصْمة التى مَنْ لجأ إليها نجَا ، والوقايةُ التى ليس لِمَنْ حاد عنها من لَحَاق قَوَارِع الله مُلْتَجا . ونُتْبِعُ ذلك بالتلويح إلى الاحتياط فى المسائل التى تفرّد بها مذهَبُه الشريف ضِيقا وسَعَة ، واختَصَّ بها إمامُه الأصبَحِىّ دُون غيرِه من الأئمة الأربعَة ؛ وهى مسائلُ قليله ، آثارُها فى الورى كثيرةٌ جليله ؛ منها سَفْكُ دمِ المنتقِص والسابّ ، وتحتُّم قتله على البَتِّ وإن تابْ ؛ فعليه أن يأخُذ فى ذلك بالاهتمام ، ولا يُعْطِىَ رُخْصة فى حقِّ أحدٍ من الأنبياء والملائكة عليهم السلام ، ليكون ذلك وسيلةً إلى الخُلوص عن القَذَى ، وذريعةً إلى سلامة الشَّرَف الرفيع من الأذَى ؛ إلا أنَّا نُوصِيه بالتثبُّت فى الثُّبوت ، وأن لا يعجَلَ بالحكم بإراقة الدم فإنه لا يُمكِنُ تداركُه بعد أن يفُوت . ومنها : الشهادةُ على الخط وإحياءُ ماماتَ من كُتُب الأوقاف والأملاك ، وتقريبُ ما شَطَّ فلا يَقْبَل فيه إلا اليقظَ الواقفَ مع تحقُّقه دُونَ حَدْسه ، ولا يطلِق عنان الشُّهود فإنَّ الكاتب ربما اشْتَبَه عليه خَطُّ

نَفْسه ـ ومنها : ثُبوتُ الولاية للأوصياء، فيُجْرِيها علىٰ اعتقاده، ولكن إذا ظهرت المصلحةُ فى ذٰلك علىٰ وَفْق مُراده ـ ومنها : إسقاطُ غَلَّة الوقف إذا استُرِدّ بعد بيعه مدّةَ بقائه فى يَد المشترى ، تحذيرا من الإقدام علىٰ بَيْع الوقف وعقوبةً رادعةً لبائعه المجترِى . إلىٰ غير ذٰلك من مسائل الانفراد، وما شاركه فيه غيرُه من المذاهب لمُوافقــة الاعتقاد، فيُمضى الحكمَ فيه بأقْوى العزائم، ويُلْزِم فيها بمـا استبانَ له من الحقّ ولا تأخُذه فى الله لَوْمةُ لائم .

وأما غيرُ ذٰلك من الوصايا الراجعــةِ إلىٰ أدَب القضاء فلدَيْه منها الخُبْر والخَـبَر ، ومنه تُستملىٰ فوصيَّته بها كنَقْل التَّمْر إلىٰ هَجَر،والله تعالىٰ يعاملُه بلُطْفه الجميل، ويَحُفُّه بالعناية الشاملةِ فى المُقَام والرَّحيل، إن شاء الله تعالىٰ، والاعتماد ... ...

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الحنابلة ، وهى :

الحمــدُ لله الذى أطلع فى أفُق الدِّين(١) القَيِّم شمسًا مُنيره ، ورفع درجةَ مَنْ جعله من العلم علىٰ شريعةٍ ومن الحُكْم علىٰ بَصيره ، وقلّد أمورَ الأمّة بمن يَعْلَم أنّ بين يدَيْه كتابا لا يُغادِر صغيرةً ولا كبيره، ووَفّق لفصل القَضاء مَنْ مَشىٰ علىٰ قَدَم إمامه الذى ادّخر منه للحكم فى أيّامنا الشريفة من نفائس العلماء أفضَــلَ ذَخيره ، وقضىٰ بإرجاء أمْرِه لنختارَ له من تَحَلّىٰ به بعــد العَطَل وكلُّ قَضاءٍ خيره ، وأيقظ عاينَنا لمن رقد الدهْرُ عن فضله فباتتْ عينُ الاستحقاق باستقرار رُتْبته قريره .

نحمده حمدَ من توافَتْ إليــه النِّعم الغزيره ، وتوالتْ عليه المِنَن الكثيرة فى المُـدَد اليســيره ، وأخصبَتْ فى أيّامه رياضُ الفضائل فهى بكلِّ عالِم عدِمَ النظيرَ نَضيره ،

(١) تقدّمت فى تقليد حنفى بأطول من هذا وببعض تغيير .

وٱفتتح دولَتَه برفع منَار العدل فآمالُ أهلِ الظلم عن تَعاطِيه قاصرةٌ وأيْدى أهل الباطِل عن الآمتداد إليه قَصِيره ، وخَصَّ المَناصبَ فى ممالكه بالأكْفاء فإذا تلبَّستْ بها هِمَمُ غيرهم عادتْ خاسئةً أو ٱمتدّتْ إليها أبصارُ مَنْ دُونَهم رجعتْ حَسِيره .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُصْلِحُ العَلَن والسَّريره ، وتُصْبِح بها القلوبُ مُوقِنةً والألسُن ناطقةً والأصابعُ مُشِيره . ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى بعث اللهُ به الرسلَ مخبِرةً وأنزل الكُتُب بمَبْعثه بَشِيره، وٱجتباه فى خير أُمّةٍ من أكرم أَرُومةٍ وأشرفِ عَشِيره ، وأظهر أنوارَ مِلّته إلا لمن أعمى الغيُّ بصيرتَه وهل تنفَع العُمْىَ شمسُ الظَّهِيره ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً نَتقرّبُ بدوامها إلى الله فيضاعِفُها لنا أضعافا كَثِيره ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلى الأمور بأن تُشادَ قواعِدُه ، وتُتَعهَّد معاهِدُه ، ويُعلىٰ مَنارُه ، وتُفاضَ بطلوع شَمْسِه أنوارُه ، وتُكَمَّل به قُوى الدين تكملةَ الأجساد بقُوىٰ الطبائع الأربَع ، وتُعمَّرَ به ربوعُ الملة التى ليس بعدَها من مَصِيف لِملَّة ولا مَرْبَع ، وتُثَبَّت به قوائمُ الشرع التى ما للباطل فى إمالةِ بعضِها من مَطْمَع ، أمرُ القضاء علىٰ مذْهَب الإمام الرَّبَّانىّ « أحمد بن حنبل » رضى الله عنه ، وكان قد خَلَا بانتقال مباشره إلىٰ الله تعالىٰ ، وتوقَّف مدّة علىٰ ٱرتياد الأكْفاء ، والإرشاد إلىٰ من هو أهل الاصطفاء ، وٱختيار من تكمُل به رِفعةُ قَدْره ، ويُعيد لدَسْتِه علىٰ بِساط سُليمانِه بهجَةَ صَدْره .

ولما كان فلانٌ هو المنتظَر لهذه الرُّتْبة ٱنتظارَ الشمس بعدَ الغَسَق ، والمرتَقَب لبُلوغ هذه المنْزِلة التى تقدّمت إليها بَوادرُ ٱستحقاقه فى السَّبَق ، والمعطوفَ علىٰ الأئمة من أصحاب إمامه ـ وإن تأخر زمانه ـ عطْفَ النَّسَق ، وهو الذى ما زالَ

يعدِلُ دَمَ الشهداء مِدادُ أقلامه ، وتضَعُ الملائكةُ أجنحتَها رضًا بما يَصْنَع من نَقْل خُطُواته فى طلب العلم وسَعْى أقدامه ، ودخل من خَشْية الله تعالىٰ فى زُمْرة من حُصِر بإنَّما ، وهجر المَضاجعَ فى طاعة الله لتحصيل العِلْم فلو عُدّتْ هَجَعاتُه لقَلَّما ؛ وهَجَّر فى إحراز الفضائل فقَيَّد أوابِدَها ، وأحرَزَ شوارِدَها ؛ ولَجَّج فى بِحار المعانى فغاص علىٰ جواهِرِها ، ونَظَر نظْرةً فى نُجوم العلوم فاحتَوىٰ علىٰ زُهْرِها وزار خمائِلَ الفضائل [فاستوى] علىٰ أزاهِرِها ؛ وآنتهىٰ إليه علمُ مذهبه فبَرَّز علىٰ مَنْ سلف ، وجارىٰ علماء عصره فوقفَتْ أبصارُهم عن رؤية غُبارِه وما وَقَف ؛ وتعيَّن عليه القضاء وإن كان فرضَ كفايةٍ لافرضَ عيْن ، وقدّمه الترجيحُ الذى جعل رتبتَه همزةَ آستفهام ورُتْبة غيره بيْنَ بين ـ آقتضى رأيُنا الشريف آختصاصَه بهذا التمييز ، والتنبيهَ علىٰ فضله البسيط بهذا اللفظِ الوجيز .

فلذٰلك رُسِم أن يفوّضَ إليه كَيْت وكَيْت . فليتولَّ هذه الرتبةَ التى أصبح فيها عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نائبًا وبشَرْعه قائمًا ، ويتقلّدْها تقلُّد من يعلم أنه قد أصبح علىٰ حُكم الله تعالىٰ مقدِّما وعلىٰ الله قادِما ، ويتثبتْ تثُّبت من يعتصِم بحبل الله فى حكمه فإنَّ أحدَ الخَصْمين قد يكون ألحنَ بحجَّته وإن كان ظالمًا ، ويلبَسْ لهذا المنصِبِ حُلَّةً تمنَعُ المبطِل من الإقْدامِ عليه ، وتدفعُ الظالم عن التطَاوُل إلىٰ أمرٍ نزعه الشرعُ الشريفُ من يديه ، ويُؤَمِّن الحقَّ من آمتداد يَدِ الجَوْر والحَيْف إليه ؛ وليُسَوِّ بين الخصمين فى مجلسه ولحظِه ، ويعدِلْ بيْنَهما فى إنصاته ولَفْظِه : ليعلَمَ ذُو الجاه أنَّه مساوٍ فى الحقّ لخصمه ، مكفُوف باستماع حجَّته عن الطمع فى ظُلْمِه ، ولا ينقُضْ حكما لم يخالِف نصًّا ولا سنّة ولا إجماعا ، وليشارِكْ فيما لا يجهَلُه من القضايا غيْرَه من العلماء ليتزيَّد بذٰلك مع آطلاعه آطِّلاعا ، وليغتنِمْ فى ذٰلك الآستعانة

بآرائهم : فإنَّ الله تعالى لاينتزع هذا العِلْمَ انتزاعا، وليسُدَّ مسالك الهوى عن فكره، ويصْرِفْ دواعىَ الغَضَب لغير الله عن المُرور بذكره، وليجعل العَمَلَ لوجه الله نتيجةَ علمه، وليحكم بما أراه الله ﴿ واللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِه ﴾ .

وهذه نسخة وَصِية أوردها فى "التعريف" تشمَل القُضاةَ الأربعةَ ، قال : وصيةٌ جامعةٌ [لقاضٍ](1) من أىِّ مذْهبٍ كان ، وهى :

وهذه الرُّتْبة التى جعل اللهُ إليها منتهى القَضَايا ، وإنهاءَ الشَّكايا ، ولا يكون صاحبها إلا من العُلَماء ، الذين هُم ورثةُ الأنبياء ، ومتولِّى الأحكام الشرعيَّة بها كما ورث عن نَبِىّ الله صلى الله عليه وسلم علمَه ، كذلك وَرِث حُكْمَه ، وقدأصبح بِيده زِمامُ الأحكام ، وفَصْلُ القضاء الذى يُعرَض [بعضه](1) بعدَه على غيره من الحُكَّام ، وما منهم إلا مَنْ ينقُدُ نقْدَ الصيْرَفِىّ ، وينفُذُ حكمُه نفاذَ المَشْرَفِىّ ، فليتروَّ فى أحكامه [قبل إمضائها ، وفى المحاكمات اليه](1) قبلَ فَصْل قضائها ، وليراجع الأمرَ مرَّةً بعد مرَّةٍ حتى يزُولَ عنه الاِلتِباس ، ويُعاوِدْ فيه بعد التأمُّل كتابَ الله وسنَّةَ رسوله صلى الله عليه وسلم والإجماعَ والقِياس ، وما أشكل عليه بعد ذلك فليُجَلِّ ظُلَمه بالاِستخاره ، وليحُلَّ مُشْكِله بالاِستِشاره ، ولا يرَ نَقْصا عليه إذا استشار فقد أمر اللهُ رسولَه صلى الله عليه وسلم بالشُّورى ، ومِن أوّل السَّلَف مَنْ جعلها بينَه وبينَ خطَإ الاِجتهادِ سُورا ، فقد يَسْنَح للمرء ما أعيا غيرَه وقد أكثَر فيه الدَّأب ، ويتفطَّن الصغيرُ لما لم يَفطَنْ إليه الكبيرُ كما فَطِن ابنُ عمر رضى الله عنهما للنخْلة [و] مامَنَعه أن يتكلَّم إلا صغرُ سِنّه ولُزُومًا مع من هو أكبَرُ منه للأدب ، ثم إذا وضَح له الحقُّ

---

(١) الزائد من "التعريف" ص ١١٦ .

قضىٰ به لمستحقّه ، وسجّل له به وأشهد علىٰ نفسه بثبوت حقّه ؛ وحكم له به حكما يسرُّه يوم القيامة أنْ يراه ، وإذا كتب له به ، ذُكِر بخَيْر إذا بَلِيَ وبَقّ الدهرُ ما كتبتْ يداه . وليسوّ بين الخصوم حتّى فى تقسيم النظَر ، وليجْعل كلّ عمله علىٰ الحَقّ فيما أباحَ وما حظَر ؛ وليُجِد النظرَ فى أمرِ الشهود حتّى لا يدخُلَ عليه زَيْف ، وليتحرَّ فى آستيداءِ الشهاداتِ فرُبَّ قاضٍ ذُبِح بغير سِكّين وشاهدٍ قُتِل بغير سَيْف ؛ ولا يقْبلُ منهم إلا مَن عُرِف بالعَداله ، وأُلِف منه أن يَرىٰ أوامرَ النفس أشَدَّ العِدَا له ـ وغيرُ هؤلاء ممن لم تَجْرِ له بالشهادة عاده ، ولا تَصدّىٰ للآرتزاق بسُحْتِها ومات وهو حَيٌّ علىٰ الشَّهاده ، فليَقبلْ منهم من لا يكونُ فى قَبُول مثله مَلَامه ، فرُبَّ عدلٍ بين منطقةٍ وسَيْف وفاسقٍ فى فَرَجِيّة وعِمَامه ـ ولينقّب علىٰ ما يصدُر من العُقود التى يؤسَّس أكثرُها علىٰ شَفَا جُرُف هار ، ويُوقِع فى مثل السِّفَاح إلا أنَّ الحُدودَ تُدْرأ بالشُّبُهات ويبقىٰ العار ـ وشهودُ القِيمة الذين يَقْطَع بقولهم فى حقّ كلّ مستحقٍّ ومالِ كلّ يتيم ، ويُقلّد شهاداتهم علىٰ كل أمرٍ عظيم ؛ فلا يُعوِّل منهم إلا علىٰ كلّ رَبّ مالٍ عارفٍ لاتخفىٰ عليه القِيَم ، ولا يُخاف معه خَطأ الحَدْس وقد صقَل التجريبُ مِرْآةَ فهمه علىٰ طُول القِدَم . ولينأَّ فى ذٰلك كلّه أناةً لا تَقْضى بإضاعة الحقّ ، ولا إلىٰ المُطاوَلة التى تُفْضى إلىٰ مَلَلِ من آستحقّ . وليمهّدْ لرَمْسه ، ولا يتعلّل بأنَّ القاضىَ أسيرُ الشهود وهو كذٰلك وإنما يَسْعىٰ لخَلَاص نفسه ـ والوكلاءُ هم البَلاءُ المُبْرَم ، والشياطينُ المسوِّلُون لمن توكَّلُوا له الباطلَ ليُقضىٰ لهم به وإنما تقطع لهم قِطعةً من جهنّم ، فليكُفّ بمهابته وَساوِسَ أفكارهم ، ومَساوِىَ فُجَّارهم ؛ ولا يدع لمُجْنىٰ أحدٍ منهم ثمرةً إلا ممنوعه ، ولا يدَ آعتداء تمتدُّ إلا مغلولةً إلىٰ عُنقه أومقْطُوعه . وليطهِّر بابَهُ من دَنَس الرسل الذين يمشُون علىٰ غير الطريق ، وإذا رأىٰ واحدٌ منهم درْهما ودَّ لو حصل فى يَده ووَقَع فى نار الحريق ؛ وغير هذا مما لا يَحتاج به مثلُه أن يُوصَىٰ ،

ولا أن يُحصىٰ عليه منه أفرادُ عمَلَه وهو لا يُحْصىٰ ، ومنها النظر فى أمور أوقاف أهل مذهبه نظَرَ العُموم ، فليعْمُرْها بجميل نظره فرُبَّ نظرةٍ أنفَعُ من مواقع الغُيُوم ، وليأخُذْ بقلوب طائفته الذين خُصَّ من بينهم بالتقديم ، وتفاوتَ بُعـدُ ما بينه و بينهم حتّى صار يُزِيلُ عارضَ الرجُل منهم النظرةُ [منه] و يأسُو جِراحَه منه التكْليم . وهذه الوصايا إنمـا ذُكرت علىٰ سبيل الذِّكْرى ، وفيه ـ بحمد الله ـ أضعافُها ولهذا ولّيناه والحمدُ لله شُكْرا ، وقد جعلنا له أنْ يستنيبَ مَنْ يكون بمثل أوصافه أو قريبًا من هذه المَثابه ، ومن يرضى له أن يحمل عنه الكَلَّ و يقاسمَه ثوابه ؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ هى جِماعُ الخير ولا سيَّمـا لصاحب هذه الوظيفه ، ولمنْ وليها أصْلا وفرْعًا لا يستغنِى عنها ربُّ حُكْم مطلقُ التصرُّف ولا خليفه .

ويُزاد الشـافعىّ :

وليعلَمْ أنه صدرُ المَجْلِس ، وأنه أدنىٰ القوم و إن كانوا أشباهَه منا حيثُ نجْلس ، وأنه ذُو الطَّيْلَسَان(١) الذى يخضَع له ربُّ كلّ سيف و يبْلس ، ولْيتحقَّقْ أنه إنمـا رفعه علمُه وتُقاه ، وأنَّ سبَب دِينه لادُنْياه هو الذى رَقّاه ، فليقدُرْ حقَّ هذه النِّعم ، ولْيقف عند حدّ منصِبه الذى يَوَدّ لو ٱشترىٰ سَوادَ مِداده بحُمْر النَّعمْ .

ويقال فى وصيته : وأمرُ دَعاوىٰ بيتِ المـال المعمُور ، ومحاكَماته التى فيها حقُّ كل فردٍ فردٍ من الجمهور ، فليحترِزْ فى قَضاياها غايةَ الاحتراز ، وليعمَلْ بمـا يقتضيه لهـا الحقُّ من الصِّيانة والإحْراز ، ولا يقبَلْ فيها كلَّ بينةٍ للوكيل عن المسلمين فيهـا مَدْفَع ، ولا يعمَلْ فيها بمسألة ضعيفة يظن أنهـا ما تَضُرُّ عند الله فإنها ما تنْفَع ؛ وله حقوق فلا يجِدُ من يَسْعىٰ فى تملُّك شيءٍ منها بالباطل منه إلا الياس ، ولا يلتفت إلىٰ مَن رَخَّص لنفسه وقال : (هو مالُ السلطان) فإنَّه مالنا فيه إلا ما لِواحدٍ من الناس .

(١) ذكر فى "القاموس" أن لام الطيلسان مثلثة .

وأموال الأيتام الذين حَذَّر اللهُ من أكل مالهم إلا بالمعْروف لا بالشُّبُهات، وقد مات آباؤُهم ومنهم صغارٌ لايهتَدُون إلىٰ غير الثدْى للرَّضاع ومنهم حملٌ فى بطُون الأُمَّهات؛ فليأمُرِ المتحدّثين لهم بالإحسانِ إليهم، وليعرِّفْهم بأنهم سيُجْزَوْن فى بَنِيهم بمثل ما يعمَلون معهم إذا ماتُوا وترَكُوا ما فى يدَيْهم، وليُحَذِّرْ منهم من لاولد له: ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عليْهِم ﴾. وليقُصَّ عليهم فى مثل ذٰلك أنباءَ من سَلَف تذْكيرا، وليتْلُ عليهم القرآنَ ويُذَكِّرْهم بقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ اليَتامَى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ ناراً وسَيَصْلَوْنَ سَعِيرا﴾. والصدقاتُ الموكولة إلىٰ تصريف قلَمه، المأكولةُ بعَدَم أمانةِ المباشرين وهى فى ذِمَّه، يتيقَّظ لإجرائها علىٰ السَّداد فى صَرْفها فى وجوه آستحقاقِها، والعملِ بما لا يجِب سِواه فى أخذها و إنفاقها. والمسائلُ التى تفرَّد بها مذهَبُه وترَجَّح عنده بها العَمَل، وأعدَّ عنها الجوابَ لله إذا سأل، لايعمَلُ فيها بمرجوح إلا إذا كان نصَّ مذهب إمامه أوعليه أكثرُ الأصحاب، ورآه قد حكَم به أهلُ العلم ممن تقدّمه لرُجْحانه عنده وللاستصحاب. وثوابُ البِرِّ لا يقلِّد منهم إلا من تحقَّق استحقاقَه، فإنه إنما يولِّيه علىٰ مسلمين لا عِلْمَ لأكثرِهم فهم إلىٰ ذى العلم أشدُّ فاقه؛ هذا إلىٰ ما يتعرّف من دِياناتِهم ومن عَفَافِهم الذى يتجرّع المرءُ منهم به مَرارةَ الصبر من الفاقةِ وهو به يتحلّى، ثم لايزال له عينٌ عليهم فإنَّ الرجال كالصناديق المُقْفَلة لايُعرف الرجلُ ما هو حتّى يتولّى.

ويزاد الحنفىّ:

وليعلَمْ أن إمامه أوّلُ من دوّن الفقْه وجَمعه، وتقدّم وأسبَقُ العلماء من تَبِعه؛ وفى مَذْهبه ومذاهب أصحابِه أقوال فى المذْهَب، ومسائلُ ما لحِقه فيها مالك وهو أوّلُ

مَنْ جاء بعدَه وممَّن يُعَدّ من سوابقه أشهَب ؛ ومن أهمها تزويجُ الصَّغائر، وتحصينُهنّ بالأكفاء من الأزواج خوفاً عليهن من الكبَائر ؛ وشُفْعةُ الجوَار التى لو لم تكُنْ من رأيهم لما أُمِنَ جارُ السُّوء علىٰ رَغْم الأُنُوف، ولأقام الرجلُ الدَّهْرَ ساكناً فى داره بينَ أهله وهو يتوقَّع المَخُوف ؛ وكذلك نفقةُ المعتدّة التى هى فى أَسْر من طلّقها وإن بُتَّتْ من حِباله، وبقِيَت لا هو بالذى يُنفِق عليها ولا هى بالتى تستطيعُ أن تتزوّجَ من رجل يُنفِق عليها من ماله ؛ ومن آستدانَ مالاً فأ كله وآدّعَىٰ الإعسار، ولفَّق له بينةً أراد أن تُسْمع له ولم يدخُل الحَبس ولا أرْهق من أمره الأعسار، وأهل مذهبه علىٰ أنه يُسجَن ويمكُثُ مُدَّة، ثم إذا آدَّعىٰ أنَّ له بينةً أُحْضرت ثم هل تُقْبل أولا . فهذا وأمثاله مما فيه عمومُ صلاح، وعظيمُ نفعٍ ما فيه جُناح ؛ فليقض فى هذا كلِّه إذا رآه بمقتضىٰ مذْهَبه، وليهتَدِ فى هذه الآراء وسواها بقمَر إمامه الطالع أبى حنيفة وشُهُبه ؛ وليُحْسِن إلىٰ فُقَهاء أهل مذهبه الذين أدْنى إليه أكثَرَهم الاْغتراب، وحلَّق بهم إليه طائرُ النهار حيثُ لايحلّق البازى وجناحُ الليل حيث لايَطير الغُراب ؛ وقد تركوا وراءَهم من البلاد الشاسِعه، والأمداد الواسِعه ؛ ما يُراعَىٰ لهم حقُّه إذا عُدّت الحقوق، ويجمعه وإيَّاهم به أبُوه أبو حنيفةَ وما مثله من يُنْسَب إلىٰ العُقُوق .

ويزاد المالكىّ :

ومذهَبُه له السيْفُ المُصْلَت علىٰ مَنْ كفر، والمُذْهِب بدَمِ من طُلَّ دمُه وحصل به الظَّفَر ؛ ومَن عَدَا قدْرَه الوضيع، وتعرّضَ إلىٰ أنبياء الله صلواتُ الله عليهم بالقول الشَّنيع ؛ فإنه إنما يُقتَل بسيفِه المجرَّد، ويُراق دمُه تعزيرا بقوله الذى به تفَرّد ؛ ولم يزلْ سيفُ مذهبه لهم بارِزَ الصَّفْحه، مسلِّما لهم إلىٰ مالكٍ خازن النار من مذهب مالكٍ الذى مافيه فُسْحه ؛ وفى هذا مايُصَرح غُدُر الدِّين من القَذىٰ، ومالم تُطَلَّ دماءُ

هؤلاء (لا يسلَمُ الشرفُ الرفيعُ من الأذىٰ)؛ وإنما نُوصيه بالتحرِّى فى الثُّبوت، [والبينة التى لا يستدرك بها ما يفوت،] (١) وإنما هو رجلٌ يَحْيا أو يمُوت، فليتمهَّل قبل بَتِّ القضاء، وليُعْذِر إليهم لاحتمال ثبوتِ تفسيق الشهود أو بَغْضاء؛ حتّىٰ لا يُعجِّل تلافًا، ولا يَعْجَل بما لا يُتلافىٰ؛ فكما أننا نُوصيه أن لاينقُضَ فى شَدّ الوَثاق عليهم إبْراما، فهكذا نُوصيه أن لا يُصيب بغير حقِّه دمًا حراما؛ وكذلك قبول الشهادة على الخَطّ، وإحياءِ ماماتَ من الكُتُب وإدناء ما شَطّ؛ فهذا مما فيه فُسْحة للناس، وراحةٌ مافيها باس؛ إلا أنه يكون الثبوتُ بهذه البيِّنة للاتصال، لالنَزْع يدٍ ولا إلزامٍ بمجرَّدها بمال؛ وهكذا مايراه من ولاية الأوصياء وهو مما تفرّد به هو دون البقيه، وفيه مصلَحة وإلا فما معنَى الوصيَّه؛ وهو زيادةُ احتراز ما تضُرُّ مراعاة مثلها فى الأُمور الشرعيَّه؛ وسوى هذا مثل إسقاط الرَّيْع فى وقف ٱستُرِدّ وقد بِيع، وعُطْل المشترى من التكسُّب بذلك المال مدةً لا يشترِى ولا يَبِيع؛ وهذا مما يَبُتُّ قضاءه فى مثله، ويجعلُ عقابَ من أقْدم علىٰ بَيْع الوقف إحرامَه مدّةَ البيع من مَغَلّه؛ وسوىٰ ذٰلك مما عليه العمَل، ومما إذا قال فيه قال بحقٍّ وإذا حكم عدَل. وفُقهاء مذهبه فى هذه البلاد قليلٌ ماهم، وهم غُرَباءُ فليُحْسِن مَأْواهُم، وليكرم بكرمه مَثْواهم؛ وليْستقرّ بهم النَّوىٰ فى كنَفه فقد مَلُّوا طُول الدَّرْب، ومعاناة السفر الذى هو أشدُّ الحَرْب، وليُنْسهم أوطانَهم ببِرِّه ولا يَدَعْ فى مآقيهم دَمْعا يَفيض علىٰ الغَرْب.

ويُزاد الحَنبلىّ:

والمُهِمّ المقدَّم ـ وهو يعلم ما حَدَث علىٰ أهل مَذْهبه من الشَّناعه، وما رُمُوا به من الاقوال التى نتْركها لما فيها من البَشاعه؛ ونكتفى به فى تعْفية آثارها، وإماطة

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٢١.

أَذَاها عن طريق مَذْهَبه لتأمنَ السالكةُ عليــه من عِثَـارها ؛ فتعالىٰ الله أن يُعْرف بكَيْف ، أو يُجاوَبَ السائلُ عنه بهذا إلا بالسيف ؛ والانضمامُ إلىٰ الجماعة والحذَرُ من الانفراد ، و إقرارُ آياتِ الصِّفات علىٰ ما جاءت عليه من الاعتقاد ، وأنَّ الظاهرَ غيرُ المراد ، والخُروج بهم إلىٰ النُّور من الظَّلْماء ، وتأويل مالا بُدّ من تأويله مثلُ حديث الأمَةِ التى سُئِلت عن رَبِّها : أينَ هو فقالت فى السَّماء ؛ و إلا ففى البليَّة بإثبات الجهة مافيها من الكَوَارث ، و يلزم منها الحدوثُ والله سـبحانه وتعالىٰ قديمٌ ليس بحادثٍ ولا محَلًّا للحوادث ؛ وكذٰلك القولُ فى القرءان ونحن نُحذِّر مَنْ تكلَّم فيه بصَوْت أو حَرْف ، فمـا جزاء من قال بالصوت إلا سوطٌ و بالحرف إلا حَتْف ؛ ثم بعد هذا الذى يَزَعُ به الجُهَّال ، ويَرُدّ دُونَ غايته الفِكْرَ الجَوّال ، ينظُر فى أمور مذْهَبه و يعمل بكل ما صَحَّ نقلُه عن إمامه وأصحابه : من كان منهم فى زمانه ومن تخلف عن أيامه ؛ فقد كان رحمه الله إمامَ حقٍّ نهضَ وقد قعد الناسُ تلكَ المُدَّه ، وقام نَوبةَ المِحْنة مَقَام سـيد تَيْم ــ رضى الله عنــه ــ نَوْبةَ الرِّدّه ؛ ولم تَهُبَّ به زُعازِعُ المُرَيْسىّ وقد هبَّتْ مَرِيسا ، ولا ابنُ أبى دُوَاد وقد جمـع له كلَّ ذَوْد وساقَ إليــه من كلِّ قُطْرٍ عيسًا ؛ ولا نكَثَ عُهدةَ ما قدّم له المأمونُ فى وصيَّة أخيه من المَوَاثِق . [ولا روَّعه سوطُ المعتصِم وقد صبَّ عليه عذابَه ولا سيفُ الواثِق] (١) .

فلْيقَفِّ علىٰ أثرِه ، وليقِفْ بمسنَده [علىٰ مذهبه] (١) كلِّه أو أكثَرِه ، ولْيقضِ بمفرداته وما اختــاره أصحابُه الأخيار ، ولْيقَلِّدْهم إذا لم تختلِفْ عليه الأخبار ؛ وليحترِز لدينه فى بيع ما دَثَر من الأوقاف وصَرْف ثمنه فى مثله ، والاستبدالِ بمـا فيه المصلحةُ لأهلِه ؛ والفَسْخ علىٰ من غاب مدّةً يسُوغ فى مثلها الفَسْخ ، وتركَ زوجةً لم يترك لها

(١) الزيادة من «التعريف» (ص ١٢٢) .

نَفقة وخلَّاها وهى مع بقائها فى زوجيّتـه كالمعلّقه ، و إطلاقِ سَرَاحها لتتزوّج بعـد ثُبوتِ الفَسْخ بشُروطه التى يبقىٰ حكمُها به حكْمَ المطلَّقه ، وفيما يمنع مُضارَّة الجـار ، وما يتفرّع علىٰ قوله صلى الله عليه وسلم : «لا ضَرَر ولاضِرَار» ، وأمرِ وقف الإنسان علىٰ نفْسه و إن رآه سِـوىٰ أهل مذْهبه ، وطلَعَتْ به أهلّةُ علمـاءَ لولاهم لمـا جَلا الزمانُ جُنْحَ غَيْهَبه ، وكذلك الجوائح التى يخفَّف بها عن الضُّعَفاء و إن كان لا يَرىٰ بها الإلزام ، ولا تجرى لدَيْه إلا مَجْرىٰ المصالحة بدليل الآلتزام ، وكذلك المعاملةُ التى لولا الرُّخصةُ عندهم فيها لمـا أ كل أ كثرُ الناس إلا الحرامَ المَحْض ، ولا أُخذَ قِسْم الغِـلال والمعامِلُ هو الذى يزْرَع البُذُور و يحرُث الأرض ، وغير ذٰلك ممـا هو من مفردَاته التى هى للرِّفق جامعـه ، وللرَّعايا فى أ كثر معايشهم وأسـبابهم نافعه ، فإذا آستقرّت الفُروع كانت الأصولُ لها جامعَه (١) . وفقهاءُ مذهبِه هم الفُقراء لقلَّة المحصول وضَعْف الأوقاف ، وهم علىٰ الرِّقَّة كالرِّماح المعَـدّة للثِّقاف ، فخـذْ بخواطِرهم ، ومُدّ آمالَهُم فى غائب وَقْتِهم وحاضِرهم ، وآشمَلْهم بالإحسان الذى يُرَغِّبهم ، و يقِل به طَلَبهم لوجوه الغنىٰ و يكْثُر طُلّبهم .

---

(١) عبارة "التعريف" « واذا استقرت الاصول كانت الفروع لها تابعه » .

الطبقـــة الثـانية

(من أرباب الوظائف الدِّينية أصحابُ التواقيع ، وتشتمل علىٰ مَراتِبَ)

المرتبـــة الأُولىٰ

(ما كان يكتَب فى النصف بـ«المجلس العالى» كما كان يكتب للقضاة الأربعة أوّلا ، وقد تقــدّم)

المرتبـــة الثـانية

(ما يكتب فى قطع الثلث بـ«السامىّ» بالياء)

وٱعلم أنّ الأصل فيما يُكْتب من التواقيع أنْ يفتتح بـ«أما بعــدُ» إلا أن الكُتَّاب تسامحُوا فيــه فافتتحُوا لمن علَتْ رتبتُــه حيث ٱقتضىٰ الحــالُ الكتابةَ له فى الثلث بـ «الحمدُ لله» ، وأبقَوْا من ٱنحطَّت رتبته عن ذلك علىٰ ما كان عليه من الآفتتاح بـ«أما بعد» وهــأنا أُورِد ماسنح من ذٰلك مما أنشأه الكُتَّاب فى ذٰلك من الآفتتاحَيْن جميعا . ويشتمل على وظائفَ .

الوظيفـــة الأُولىٰ

(قضاء العسكر)

وقد تقدّم فى المقالة الثانيةِ أنّ موضُوعها التحدّثُ فى الأحكام فى الأســفار السلطانيَّة وأنّ له مجلِسًا يحضُره بدار العَدْل فى الحَضَر . وقد جرت العادةُ أن يكون قُضاة العسكر أربعةً : من كلّ مذهَب قاضٍ .

وهذه نسخةُ توقيع شريفٍ بقضاء العسكر المنصور بالحضْرة السلطانية ، وهى :

الحمدُ الذى رفَع للعِلْم الشريف فى أيّامنا الزاهرة مَنَارا ، وزاد بإعلاء رُتَب أهله دولتَنا القاهرةَ رِفْعةً ونخَارا، وزان أحكامَه الشريفة بحُكّامه الذين طلَعُوا فى غَياهب مُشكلاته بُدُورًا وتدفّقوا فى إفاضته فى الأحكام الشرعيّة بحارا .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى حَلّتْ فحَلّتْ، ومِنَنه التى أهلّت الجود فاستَهلّت .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تكون لقائلها ذُخرا ، وتُعْلى للتمسِّك بها فى الملإ الأعلىٰ ذِكْرا ، ونشهدُ أنّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى هو أسبَقُ الأنبياء رُتْبةً وإن كان آخِرَهم عَصْرا ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أضْحَوْا للمقتدين بهم شُموسًا منيرة وللمهتدين بعلُومهم نُجوما زُهْرا ، صلاةً لا تزال الألسُن تُقيمها، والأسماعُ تستديمُها، وسلّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولىٰ من نَوَّهنا بذِكره، ونبّهنا علىٰ رِفعة قدْره، وأطلَقْنا ألسِنَةَ الأقلام فى وصف مَفاخره وشُكْره، وأثّلنا قواعدَ مجده التى لو رام بَنانُ البَيان استقصاءَها حال الحَصْرُ دُون حَصْره، ونفّذْنا كلِمَ حُكْمه ورفَعْنا فى أندية الفضائل ألويةَ فُنُونه وأعلامَ نَصْره، من لم يزل دَمُ الشهداء يعدِلُ مِدادَ أقلامه، وتُقيمُ مَنَارَ الهدىٰ أدلةُ فضائله وشواهدُ أحكامه، وتُوَضِّح الحقَّ حتى يكاد المتأمِّل يلحظ الحُكْم لوضوحه ويُبْصره، وينصُر الشرع بأمداد عِلْمه ولَيَنصُرَنَّ اللهُ من يَنْصُره؛ وشيَّد مذْهبَ إمامه الإمام الفلانىّ فأصبح فسيحَ الأرجاء وإن لم يكن فيه فُسْحه، وجدّد قواعدَ العدْل فى قضايا عساكرنا المنصورة فهو مُشاهَد من كَلِمه ومن نظره فى لَمْحه ملْحه .

ولما كان فلان هو الذى نعتْنا بما تقدّم من الخطاب خلائقَه الحُسْنىٰ، وأثنَيْنا علىٰ ماهو عليه من الإقبال علىٰ جَوْهر العلم دُونَ التعرّض إلىٰ العَرَض الأدْنىٰ؛ مع ما حواه من موادِّ فضائلَ تزكُو علىٰ كثرة الإنْفاق ، وفرائد فوائدَ تُجْلبَ علىٰ أيدى

الطَّلَبة إلىٰ الآفاق ، وقُوّةٍ فى الحق ، الذى لا تأخُذه فيــه لومةُ لائم ، وعدْلِ أحكام فى الخَلْق ، ألَذَّ من سِنَةِ الكَرىٰ فى جَفْن نائم ــ ٱقتضى حُسنُ الرأىِ الشريف أن نوطِّد فى عساكرنا المنصورةِ قواعدَ أحكامه ، ونُوطِّن كلًّا منهم علىٰ أنه تحتَ ما يُمْضِيه فى أقضيته النافذة من نقضه و إبرامه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف أن يفوِّض إليــه قضاءُ العساكر المنصورة الشريفة : علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، وأن تُبْسط كلمتُه فى كلِّ ما يتعلق بذٰلك من أحكام الشرع الشريف . فليحكُمْ فى ذٰلك كلّه بما أراه الله من عِلْمه ، وآتاه من حِكَمه وحُكْمه ، وبيّن له من سُبُل الهدىٰ ، وعيَّنه لبصيرته من سُنَن نبيه صلى الله عليه وسلم التى من حادَ عنها فقد جار وٱعتدىٰ ؛ ولْيقِفْ من الأحكام عند ماقرَّرتْه الشريعةُ المطهَّرة من أحكام الله التى لا يعقِلُها إلا العالِمُون ، ويأمُرْ كلًّا من المتقاضِين بالوقوف عند ماحُدّ له : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ الله فَأُولٰئِكَ هم الظالِمُون ﴾ . والوصايا و إن كثُرت فمن مثله تُفَاد ، وإن جَلَّت فسمْعُه فى غِنًى عما يُبْدأُ له منها ويُعاد ، ومِلاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ التى هى شِعار أُنْسِه ، وحِليةُ يومه وأمسه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى القول والعمَل ، ويوفِّقه لما يرضاه ويصُونُه من الخَطَإ والخطَل .

وهذه وصيةٌ لقاضى العسكر، أوردها فى "التعريف" وهى أن يُقال :

وهو الحاكم حيثُ لا تنفُذ إلا أقضيَةُ السيوف ، ولا تَزْدحِمُ الغرماء الا فى مواقِف الصُّفُوف ، والماضى قلمُــه وكلُّ خَطِّىّ يُمَدّ بالدِّماء ، والممضىٰ سجِلُّه وقد طَوَى العَجَاجُ كالكتاب سِجِلّ السماء ، وأكثَرُ ما يُتَحَاكم إليه فى الغنائم التى لم تَحِلّ لأحدٍ قبل هذه الأمّه ، وفى الشَّركة وما تُطلب فيه القسْمه ، وفى المبيعات وما يُرَدّ منها بعَيْب ،

وفى الديون المؤجَّلة وما يُحْكَم فيها بغَيْب ، وكلُّ هذا مما لايحتمل طُولَ الأناة فى القضاء ، وآشتغالَ الجند المنصور عن مواقف الجهاد بالتردُّد إليه بالإمضاء ، فليكن مستحضرا لهذه المسائل ليَبُتَّ الحكم فى وقته ، ويُسارع السيفَ المُصْلَتَ فى ذلك الموقف ببَتِّه ، ولْيعلمْ أن العسكر المنصورَ هم فى ذٰلك الموطن أهلُ الشهاده ، وفيهم من يكون جُرْحه تعديلًا له وزياده ، فليقْبَلْ منهم من لاتخفىٰ عليه سِيما القَبُول ، ولا يردّ منهم من لايضرُّه أن يردّه هو وهو عند الله مَقْبول ، وليجعَلْ له مستقَرّا معروفا فى المُعَسكر يُقْصَد فيه إذا نُصبت الخِيام ، وموضعًا يمشى فيه ليقضى فيه وهو سائر وأشهر ما كان علىٰ يمين الأعلام ، وليلزمْ ذٰلك طُولَ سفره وفى مُدَد المُقَام ، ولا يخالِفْه ليُبْهِمَ علىٰ ذوى الحوائج فما هو بالصالحيَّة بمِصْرَ ولا بالعادليَّة بالشام ، ولْيتَّخِذْ معه كُتَّابا تكتُب للناس وإلا فمن أين يوجد مركز الشهود ، ولْيسجِّل لذى الحق بحقه وإلا فما آنسدّ بابُ الجحود ، وتقوىٰ الله هى التى بها تُنْصَر الجنود ، وما لم تكن أعلىٰ ما يكُون علىٰ أعلام الحَرْب والا فما الحاجةُ إلىٰ نَشْر البُنود .

الوظيفة الثانية

(إفتاءُ دار العَدْل)

وموضوعُها الجلوس بدار العدل حيثُ يجلِس السلطانُ لفصل الحُكُومات ، والإفتاءُ فيما لعلّه يطرَأ من الأحكام بدار العدل . وهى وظيفةٌ جليلة ، لصاحبها مجلسٌ بدار العدل يجلسُه مع القُضاة الأربعة ومَنْ فى معناهم .

وهذه نسخة توقيع لمن لقبُه «جمال الدين» يُنْسَج علىٰ مِنْوالها ، وهى :

الحمدُ لله جاعلِ العِلْم للدِّين جَمالا ، وللدنيا عِصمةً وثِمَالا ، ولأسباب النَّجاة والنَّجاح شارةً إذا تحلّى بها ذُو التمييز كان أحسنَ ذَوى المراتب حالا ، وأجلَّهم

فى الدارين مَبْـدَأ ومآلا ، وأحقَّهم برتبة التفضيل التى ضَرَبت لهـا السنَّةُ المطهَّرة فضلَ البَدْر علىٰ الكواكب مِثَالا .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى خصَّت دارَ عدْلنا الشريف من العلماء بأكْفائها، وٱصطفَتْ لِمـا قَرُب من مجلسنا المعظَّم مَنْ دلَّ علىٰ أنَّ التأييد قرينُ ٱصطفائها .

ونشهد أن لا إلٰه الا الله وحدَه لا شريك له شهادةً يفترُّ عن شَنَب الصواب ، ثَغْرُها ، ويتفتَّح عن فَصْل الخطاب، زَهْرها ؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه المخصوصُ بمحكم التـنزيل ، المنصوصُ فى الصُّـحُف المنزَّلة علىٰ ذكر أُمَّتــه الذين علمـاؤُهم كأنبياء بنى إسراءيل ؛ صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم كالنُّجوم المُشْرِقة، من اقتدىٰ بهم آهتــدىٰ ، وكالرُّجُوم المحرِقة، من آعتدىٰ وجَدَ منها شهابا رَصَدا ؛ وســلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ ما آرتَدْنا له من رياض العلم مَنْ سَمَا فيه فَرْعُه ،ورَحُب بتلَقِّى أنواع العُلوم ذَرْعُه ؛ وبَسَـقَتْ فى فُنون الفضائل أفنانُه ، ونَسقَتْ فرائدَ الفوائد فى سلْك الطُّروس بَنانُه ـ فُتْيا دار عدلِنا الشريف التى أحكامُنا لهـا تابِعه ، وأغصانُ العدل بثمار فَتاوِيهـا مُورِقَةٌ يانِعه، وأعيُنُنا إلىٰ أفواه مُفْتِيها رامقةٌ وآذانُنا لمقالاتهم سامِعَه .

ولما كان فلان هو ثمرةُ هذا الآرتياد، ونُخبةُ هذا الآنتقاد؛ المعقودُ عليه فى آختيار العلماء بالخَنَاصر، والعريقُ فى أَصالة العلوم بأَصَالةٍ ثابتةِ الأَواصِر؛ والذى إذا أجاب تدفَّقتْ أنواءُ الفوائد ، وتألَّقت أضـواءُ الفَرائد ، وٱتُّخِذتْ مسـائِلُ فِقْهــه قَواعِدَ تترتَّب الأحكام الشرعيــة عليها ومصادرُ وحيــه مَوَارِد ـ اقتضت آراؤنا الشريفــةُ أن نُزَيِّن بَهْجةَ هذه الوظيفة بجَماله ،ونُنَزِّه إشراقَها بنُور فضائله التى لو قابلَها بدرُالأُفُق نازعتْه حُلَّةَ كَماله .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف – لا زالتْ أحكامُه مع أوامر الشرع الشريف واقفه ، ومعـدَلتُه الشريفةُ باقتفاء آثار الحق لمُشْتَكَيَات الظُّلْم كاشِفه – أن يفوّض إليـه كذا : فليُباشِرْ هذه الوظيفـةَ السنيَّة مفَجِّرا ينـابيعَ العلوم فى أرْجائها ، محقِّقا للفتاوىٰ بتسهيل مواردِها وتقْريب أوحائها ؛ موضِّحا طُرُقها بإقامة براهينـه وأدلَّته ، مُبْدِيا دقائقَها التى يُشْرِق بها أفُقُ الفكر إشراقَ السماء بنُجُومها والأُفُق بأهلَّتـه ؛ مُظْهِرا من غوامضـها ما يُقَرِّب علىٰ الأفهام منَـالَهُ ، ويُفَسِّح لجياد القرائح مجَـالَه ، ويَنَقِّح لكل ذى تروٍّ رويَّتَـه ولكل مرتجِل بديهتَـه وآرتجـالَه ؛ فإنه الكاملُ الذى قطع إلىٰ بلوغ الغايةِ مَسَالكَ اللَّيالى ، والإمامُ الذى غاص فِكْرُه من كل بحر لُجَجَ المعانِى فاستخرج منهـا مكنُونَ اللآلى ؛ مع أن علمه المهَـذَّبَ غنىٌّ عن تنبيـه الوَصايَا ، مَلِيٌّ بمـا يلزم هـذه الوظيفـةَ من الخصائص والمَزايا ؛ فإنَّ البحرَ يأبىٰ إلا تدفُّقا ، والبدرَ إلا تألُّقا ؛ والله تعالىٰ يزيدُه من فضـله ، ويُزَيِّن به أُفُقَ العلم ويَزِيد مِنَّا دُنُوًا قُرْبَ محـلِّه .

الوظيفـــة الثـالثة

(الحِسْـبة)

وقد تقدّم أنَّ موضُوعَها التحدّثُ علىٰ أرباب المَعَايش والصَّنائع ، والأخذُ علىٰ يد الخارج عن طريق الصَّلاح فى مَعيشتِه وصِناعته . وحاضرةُ الديار المِصريَّة تشتمل علىٰ حِسْبتين :

الأولىٰ – حِسبةُ القاهرة (١) : وهى أعلاهمـا قَدْرا ، وأنْخَمُهما رُتْبة ؛ ولصاحبها مجلسٌ بدار العَدْل مع القُضاة الأربعة وقُضاة العسكر ومُفْتِى دار العدل وغيرِهم . وهو يتحدّث فى الوجْه البحرىّ من الديار المِصرية فى ولاية النُّوّاب وعَزْلهم .

---

(١) أى والثانية حسبة الفسطاط التى سيأتى لهـا توقيع بعد صفحات .

قلت : ولم تزل الحِسبةُ تُولَّى للمتعمِّمين وأرباب الأقلام إلىٰ الدولة المؤيَّدية شيخ ، فولَّاها للأمير سيف الدِّين منكلى بغا الفقيه أمير حاجب مضافة إلىٰ الحُجُوبيَّـة . علىٰ أنَّ فى سجِلَّات الفاطميِّين مايشهد لهـا فى الزمن المتقدّم . وربَّمـا أُسنِدتْ حسـبةُ القاهرة إلىٰ والى القاهِرة ، وحِسْبةُ مصر إلىٰ والى مِصْر .

وهذه نسخة توقيع من ذٰلك ، وهى :

الحمدُ لله مجدّدِ عوائدِ الإحسان ، ومُجْرِى أولياء دولتنا القاهرة ، فى أيَّامنا الزاهرة ، علىٰ ماألِفُوه من الرُّتَب الحِسان ، ومضـاعِفِ نِعَمنا علىٰ من آجتنىٰ لنا بحُسْن سِـيرته الدعاءَ الصالحَ من كل لسان .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى لاتُحصىٰ بِعدّها ، ولاتُحصَر بحَدِّها ، ولا تُستزادُ بغير شُكْرِ آلاءِ المنعِم وحَمْـــدِها .

ونشهَد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نُقيمها فى كُلِّ حُكْم ، وتحاولُ سيوفُنا جاحِديها فتنْهَض فتَنْطِقُ بالحجة عليهم وهم بُكْم ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من آئْتمر بالعدل والإحسان ، وأعدلُ آمرٍ أمتَه بالوَزْن بالقِسط وأنْ لايُخْسِرُوا المِيزان ؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آحتَسبُوا فى سبيل الله جُلَّ عَتَادِهم ، وآحتَبسُوا أنفُسَهم فى مقاطعة أهل الكُفْر وجِهَادهم ؛ فلا تُنْتَهَب جَنائِبُها فى الوُجُود ، وتَسْرِى نَجائِبُها فى التَّهائِم والنُّجود ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ مَنْ دعاه إحسانُنا لرَفْع قَدْره ، وإنارة بَدْره ، وإعلاءِ رُتْبَتـه ، وإدناء منزلتـه ، وإعلامِ مُخْلِص الأولياء بمضاعَفَة الإحسان إليه أنَّ اللهَ لايُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحسَنَ عمَلا ، وأنَّ كرمنا لا يُخَيِّب لِمَنْ أسلف سَوابِقَ طاعته فى أيَّامنا الشريفة أمَلا ؛ مَنْ لم تزَلْ خِدَمُه السابقـةُ إلىٰ الله مقَرِّبه ، وعن طُرُق الهوىٰ مُنَكِّبه ، وبالله

مُذَكِّرِه، وعلىٰ الباقياتِ الصالحات من الأعمال موفّره؛ مع ماأضافه إلىٰ ذٰلك من أمرٍ بمعروف، و إغاثةِ ملهُوف؛ ونهْيٍ عن منكر، وٱحتسابٍ فى الحق أتىٰ فيه بكلِّ ماتُحمَد خلائقُه وتُشْكر، وٱجتنابٍ لأعراض الدنيا الدَّنيَّه، وٱجتهادٍ لما يُرضِى الله ويرضينا من ٱتِّباع سيرتِنا السَّريَّه ؛ وشِدّةٍ فى الحق حتَّى يُقال به ويُقَام، ورِفْق بالخلق إلا فى بِدَعٍ تُنْتَهك بها حرمةُ الإسلام ، أوغِشٍّ إن لم يَخُصَّ ضررُه الخاصَّ فإنَّ ذٰلك يعُمُّ العـام .

ولـمَّا كان فلان هو الذى ٱختصَّ من خِدْمتنا، بما رفَعه لدَيْنا، وأسلَف من طاعتنا ، ما ٱقتضىٰ تقريبَه منَّا وٱستدعاءَه إلينا ، ونهض فيما عدَقْنـاه به من مصالح الرعايا وكان مشكُورَ المساعى فى كل ماعُرِض من أعماله فى ذٰلك علينا ـ ٱقتضىٰ رأينا الشريف أن يفوّض إليـه كذا، فليستقرّ فى ذٰلك مجتهِدا فى كلّ ما يعُمُّ البَرَايا نفعُه، ويجْمُل لديهم وَقْعُـه ؛ ويمنَع من يتعرّض باليَسَار، إلىٰ ما لهم بغير حَقّ ، أو يضَيِّق بالٱحتكار، علىٰ ضعفائهم مابسَط الله لهم من رِزْق؛ ويذُبُّ عنهم بإقامة الحُدود شُبَه تعطيلها ، ويعرِّفهم بالمحافظة علىٰ الحق فى المعاملات قواعِدَ تحريمِها وتحليلها؛ ويُرِيهم بالإنصاف مَنـارَ القسطاس المستقيم لعلهم يُبْصِرون ، ويؤدِّبُ من يجِدُ فيهم من المطَفِّفين : ﴿ٱلَّذِين إذا ٱكْتَالُوا علىٰ النَّاس يَسْتَوْفُون وإذا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهم يُخْسِرون﴾ ويأمُرُ أهلَ الاسواق بإقامة الجماعاتِ والجُمَع، ويقابل من تخَلَّف عن ذٰلك بالتأديب الذى يَرْدَع من أصرَّ فيه علىٰ المخالَفة ويَزَع؛ ويُلزِم ذَوِى الهيئات بالصِّيانة التى تُناسِب مناصِبَهم، وتُوافِق مراتِبَهم ، وتنَزِّه عن الأدْناس مَكاسِبَهم ، وتصُون عن الشوائب شاهِدَهم وغائِبَهـم ؛ ولا يمكِّن ذَوِى البيوع أن يَغْبِنُوا ضُعَفاءَ الرعايا وأغنِياءَهم ، ولا يُفَسِّح لهم أن يرْفَعوا علىٰ الحق أسعارهم ويَبْخَسُوا الناسَ أشْياءَهم .

وليحمِلْ كلًّا منهم علىٰ المعامَلات الصحيحه ، والعقُود التى غدَتْ لهـا الشريعةُ الشريفةَ مُبيحه ، ويجنّبْهم العقُودَ الفاسده ، والحِيَلَ التى تَغُرّ بتدليس السِّلَع الكاسده ، وهو أخبر بالبيوع المنصوص علىٰ فسادِها فى الشرع الشريف ، وأدْرىٰ بما فى عدَم تحريرِهم المكاييـلَ والموازينَ من الإخسار والتطفيف ، فلْيفعلْ ذٰلك فى كل مايجِب ، ويَحتَسِب فيه مايدَّخِره عند الله ويحتَسِب ، ولْتكن كلمتُه فى ذٰلك مبْسوطه ، ويدُ تصرُّفه فى جميع ذٰلك مُحيطة وبمـا يستَنَد إليه من أوامره محُوطه ، ولْيُوص نُوّابه بمثـل ذٰلك ، ويوضِّحْ لهم بإنارة طريقتِه كلَّ حالٍ حالك ، ويقدّمْ تقوىٰ الله علىٰ كلِّ أمر ، ويتَّبِـعْ فيه رضا الله تعـالىٰ لارضا زيد وعمرو ، والخطُّ الشريفُ أعلاه .

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك بحِسْـبة الفُسْطاط المعبَّر عنه الآنَ بمصر عَوْدا إليهـا ، وهى :

الحمدُ للهِ الآمرِ بالمعروفِ والناهى عن المنكر ، الشاهدِ بالعَدْل الذى تقوىٰ به كلمةُ الإيمـان وتُنْصَر ، والغامرِ بالجُود الذى لا يُحصىٰ والفَضْـل الذى لا يُحْصَر ، العامرِ ربوعَ ذَوِى البيوت بتقديم من آنعقدت الخناصرُ علىٰ فَضْله الذى لايُجْحَد ولاينكَر .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى لا تزال ألسنةُ الأقـلام ترْقُم لهـا فى صُحُف الإنعـام ذِكْرا ، وتجدّد لهـا بإصابة مواقع الإحسان العامِّ شُكرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تصْـدَع بنُورها ليلَ الشرك فيئُول فَجْرا ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى قمعَ اللهُ به من آغترَّ بالمعَاصى وغَرّر ، وأقام بشريعتِه لواءَ الحق الأظْهر ومَنارَ العـدل الأظهر ، وعلىٰ آله وصَحْبه

الذين سلكوا من الهداية بإرشاده مَنْهَجَ الحق الأنور ، وٱحتبسوا نفوسهم فى نُصرته ففازُوا من رضـاه بالحظ الأَوْفىٰ والنصيب الأوفر .

وبعـدُ ، فإن الله تعالىٰ لما جعل كلمتنا المبسوطةَ علىٰ العدل والإحسان مقصُورَه ، وأوامرَنا الشريفـةَ بإقامـة مَنار المعروف مؤيَّدةً منصُـوره ، وأحكامَنـا المشهورةَ بالإنصاف فى صحائف الدَّهْر بالمحاسن مَسْطُوره ، وألهمنا من ٱتِّباع الشرع الشريف ما غدَتْ به قلوبُ الرعايا آمنـةً مسرُوره ــ قصدنا أن نختارَ لمراتب الدِّيانة والعفَاف مَنْ لم يزل بيتُه بالصَّدارة عليًّا ، ووصفُه بأنواع المحامد والمَمَـادح مَليًّا .

ولمـا كان فلان هو الَّذى ورِثَ السِّـيادةَ ، عن سلَفٍ طاهر ، وتلقَّ السعادةَ ، عن بَيْتٍ فُروعه التقوىٰ فأزْرتْ بالروض الزَّاهى الزَّاهر ، وسرَتْ سرائرُه بحسن سيرته وسَـيْره ، وأبطن من الدِّيانة ماأظهرتْه أدلَّة خَيْره ، وتنَقَّل فى المَراتب الدِّينيَّـة فأرْبىٰ فى حُسْن السلوك علىٰ غيْره ، وسلَكَ من الأمانة الطريق المُثْـلىٰ ، وٱعتمَد ماعَدِمَ به مُضاهيا ومِثْـلا ، وجنىٰ ما نطَق بإنصافه فَضْـلُ الكيل والميزان ، ورجَاه من أهل الخير كلُّ ذى إحسان وخشِيَه أهـلُ الزَّيْغ والبُهْتان ، وكانت الحِسبةُ المباركة بمصر المحروسـة قد أَلِفَتْ قضاياه وأحكامَه ، وعرَفَت بالخُـبْر معروفَه وشـكَرت نقْضَـه وإبرامه ، وفارَقَها علىٰ رَغْمها منـه ٱختيارا ، وعادَتْ له خاطبةً عَقيـلةَ نَزاهته التى لا تُجـارىٰ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف العـالى أن يفوّض إليـه كذا . فليُقَـدِّم خِيرةَ الله فى مباشرة هذه الوظيفه ، وليُقِمْ مَنارَها بإقامة حدُودها الشريفه ، ولْينظُرْ فى الكيل والميزان اللَّذين همـا لسانُ الحق الناطق ، ولينْشُرْ لواء العَـدْل الذى طالمـا خفَقَتْ بُنُودُه فى أيَّامنـا حتَّى غدا قلْبُ المجرم وهو خافق ، وليُحسِنِ النظرَ فى المَطَـاعم

والمَشَارب ، وليَرْدَع أهلَ البِدَع ممن هو مستخْفٍ بالّليل وسارِب ؛ وفيه ــ بحمد الله تعالىٰ ــ من حُسْن الألْمعيَّة ما يُغْنِي عن الإسهاب فى الوَصَايا ، ويُعين علىٰ السَّداد فى نَفَاذ الأحكام وفَصْل القَضَايا ؛ وكيف لا وهو الخَبِير بما يأتى ويَذَر ، والصَّدْر الذى لايَعْدُو الصَّوابَ إن وَرَد أوصَدَر ؛ والله تعالىٰ يَعْمُر به للعَدْل مَعْلَما ، ويكسُوه بالإقبال فى أيامنا الشريفة ثوبًا بالثَّواب مُعْلَما ، والخطُّ الشريف أعلاه ، حجة بمقتضاه .

وهذه وصية محتَسِب أوردها فى "التعريف" وهى :

وقد وَلِىَ أمرَ هذه الرُّتبه ، ووُكل بعَيْنه النظرُ فى مصالح المسلمين لله حِسْبه ؛ فلينظُرْ فى الدَّقيق والجليل ، والكثير والقَليل ؛ وما يُحْصَر بالمقادير وما لا يُحْصَر ، وما يُؤمَر فيه بمعروفٍ أو يُنْهىٰ عن مُنْكر ؛ وما يُشْترَىٰ ويُبَاع ، وما يُقرِّب بتحريره إلىٰ الجنَّة ويُبْعِد من النار ولو لم يَكُنْ قد بقِىَ بيْنَه وبينها إلا قَدْرُ باعٍ أو ذِراع ؛ وكل ما يُعْمَل من المعايِش فى نهارٍ أو ليل ، وما لا يُعرَف قَدْرُه إلا إذا نَطَق لسانُ المِيزان أو تكلَّم فَمُ الكيل . وليعمَلْ لديه معدّلا لكلِّ عمَل ، وعيارًا إذا عُرِضتْ عليه المعايِيرُ يُعرفُ مَنْ جار ومَنْ عدَل ؛ وليتفقَّدْ أكثرَ هذه الأسباب ، ويحذِّر من الغِشّ فإنَّ الداء أكثرُه من الطَّعام أو الشَّراب ؛ وليتعرَّف الأسعار ويستعْلِم الأخبار ، فى كل سوق من غير إعلام لأهله ولا إشعار ، وليُقِمْ عليهم من الأُمَناء من ينوب عنه فى النَّظَر ، ويطمئنُّ به وإن غابَ إذا حضَر ؛ ويأمُره بإعلامه بما أعضَل ، ومراجعته مهما أمكن فإنَّ رأى مثله أفضَل . ودار الضَّرب والنُّقودُ التى منها تَنْبَثّ ، وقد يكونُ فيها من الزَّيْف مالا يَظْهَر إلا بعد طُول اللُّبْث ؛ فليتصَدّ لمهمَّاتها بصَدْره الذى لا يَحْرَج ،

وليَعْرِض منها علىٰ المِحَكِّ من رأْيه مالا يَجُوز عليــه بَهْرَج ؛ وما يُعلَّق من الذهب المكسور ويُروبص من الفضَّة ويُخْرَج ، وما أَكلتِ النارُ كلَّ لِحامه أو بعضه فليُقِم عليه من جِهتِه الرقباء ، ولْيُقِم علىٰ شمسِ ذَهَبه مَنْ يرقُب منه ما تَرْقُب من الشمس الحِرْباء ؛ وليُقِمِ الضُّمّان علىٰ العَطّارين والطُّرُقيَّــة من بَيْــع غرائب العقاقِير إلا ممَّن لايستَراب فيه وهو معْرُوف ، وبخَطِّ متطبِّب ماهِرٍ لمرِيضٍ معيَّنٍ فى دواء موصوف . والطُّرُقيَّــة وأهلُ النِّجامة وسائر الطوائف المنْسوبة إلىٰ ساسَان ، ومن يأْخُذ أموال الرجال بالحيلة ويأكُلهم باللسان ، وكل إنسان سَوْء من هــذا القَبِيل هو فى الحقيقة شــيطانٌ لا إنسان ؛ امنَعْهم كلَّ المنع ، وٱصــدَعْهم مثلَ الزُّجَاج حتّٰى لا ينْجَــبِرَ لهم صَدْع ، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلا فمــا يُجْــدِى فى تأديبهم ذاتُ التأديب والصَّفْع ؛ وٱحْسِم كلَّ هذه الموادِّ الخبيثه ، وٱقطَعْ ما يُجَدِّدُ ضعفاءُ الناس من هــذه الأسباب الرَّثيثه ؛ ومَنْ وجدْتَه قد غَشَّ مسلمــا ، أو أكل بباطلٍ دِرْهما ؛ أو أخبر مشْــتَرِيًا بزائد ، أو خرجَ عن معهُود العَوائد ؛ أَشْهِرْه فى البلد ، وأرْكِب تلك الآلةَ قَفاه حتَّى يضْعُف منه الجَــلَد ؛ وغيرُ هؤلاء من فُقَهاء المكاتب وعالمــاتِ النِّساء وغيرهما من الأنواع ممن يُخافُ من ذِئْبه العائثِ فى سِرْب الظِّباء والجآذر ، ومن يُقْدِم علىٰ ذٰلك ومثلِه وما يُحــاذِر ، ٱرشُقْهم بسِهامك ، وزَلْزِلْ أقدامَهم بإقْدامك ؛ ولا تَدَعْ منهم إلا من ٱختَبرْت أمانَتَه ، وٱخترت صِيانَتَه . والنُّوَّاب لا ترضَ منهم إلا من يُحْسِن نَفَاذا ، ويُحْسَب لك أجْرُ استنابتِه إذا قيــل لك من ٱستَنَبْت فقلْت هــذا ؛ وتقوىٰ الله هى نعم المَسَــالك ، وما لك فى كلِّ ما ذكَرْناه بل أكثره إلا إذا عملْت فيــه بمذهَبِ مالك .

الوظيفـــة الرابعـــة

(وَكالةُ بيتِ المـال)

وهى وظيفةٌ عظيمةُ الشان رفيعةُ المقدار ، وقد تقدّم أن موضُوعَها التحدّثُ فيما يتعلّق بمَبيعات بيتِ المـال ومُشْتَرَواته (١) : من أرضٍ وآدُر وغير ذٰلك ممـا يجرى هذا المَجْرىٰ ، وأنّ متولّيَها لا يكون إلا من أهل العلم والدِّيانة ، وأنّ له مجلِسًا بدار العدل : تارةً يكونُ دون مجلِس المحتَسِب ، وتارة فوقَ مجْلِسه ، بحسَب رِفْعـة قدْر كل منهما فى نَفْسه . وقد أُضيف إليها فى المباشرة نظرُ كسْوة الكَعْبة الشريفة وصارا كالوظيفة الواحدة .

وهذه نسخة توقيع بوكالة بيت المـال :

الحمدُ لله جامعِ المَناصب الدينيّة ، لمن خطَبتْه لهـا رتبتان : العِلْمُ والعمَل ، ومكمِّلِ الرُّتب السَّنيّة ، لمن وُجِدت فيه أهبتان : الورَعُ والتُّقىٰ وعُدِمت منه خلّتان : الحِرْصُ والأمَل ، جاعلِ آختصاصِ الرُّتب بأكفائها حِلْيَة الدُّول ، والنظرِ فى مصالحها الخاصّة والعامّة زينةَ أيامنا التى نتلفّت إلىٰ محاسنها أجيادُ الأيّام الأُوَل .

نحمَـده علىٰ نِعَمِه التى عصمَتْ آراءنا من آعتراضِ الخَلَل ، وأمضَتْ أوامِرَنا من مصالح الأمة بمـا تَسْرى به المحامدُ سُرىَّ النجوم ويَسِير به الشُّكْرُ سَيْرَ المَثَل .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لم نزلْ نستنْطِق بها فى الجهاد ، أَلْسِنةَ الأَسَل ، ونُوقِظ لإقامتها عُيونَ جلاد ، لهـا الغُمُود جفُون والسهام أهدابٌ والسُّـيوف مُقَل ، ونشهد أنّ محمدًا عبـده ورسوله الذى أظهر اللهُ دينَه علىٰ الأديان وشرَّف مِلّته علىٰ المِلل ، وأسْرىٰ به من المسجد الحرام إلىٰ المَسْجد الأقصىٰ إلىٰ سِدْرة

(١) جرىٰ على اللغة العامية وإلا فصواب العربية مشترياته بالياء .

المنتهىٰ وعاد ولم يَكْمُل الليْلُ بينَ السَّيْرِ والقَفل ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هَجُروا فى المُهاجَرِ إليه الأحياءَ والحِلَل ، وشَفَوْا بأسنة سنته العِلل والغُلَل ، وتفرَّدوا بكمال المَفَاخر فإذا خَلعتِ الأقلامُ علىٰ أوصافهم حُللا غدَتْ منها فى أبهى من الحُلَل ، صلاةً تتوالىٰ بالعَشِىّ والإبكار وتتواتَرُ فى الإشراق والطَّفَل ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنَّ أوْلَى الرُّتب بإنعام النظر فى ٱرتياد أكْفَائها ، وٱنتقادِ فرائدِ الأعيان لها وٱنتقَائِها ، وٱستخارةِ الله تعالىٰ فى ٱختيار من يكون أمرُ دينه هو المُهِمّ المقدّم لديه ، وٱستنارةِ التوفيق فى ٱصطفاء من يكون مهمُّ آخرتِه هو المرئىّ المصوَّر بين عينَيْه ، مع ما ٱتصفَ به من محاسِنِ سَجَايَا جُبِلت عليها طِباعُه ، وخُصَّ به من سوابِقِ مزايا رَحُبَ بها فى تلَقِّ المصالح الدينيَّة صَدْرُه وباعُه ، رتبتان يَعُم نفعُهما ويَخُصّ ، ويحسُن وقْعُهما بما يُبْديه من أوصافه ويَقُصّ ، ويتعلَّق كلٌّ منهما بجماعة الأمَّة فَرْدا فَرْدا ، ويشتَمِلان علىٰ منافِعِهم علىٰ ٱختلافِها بَدْأً وإعادةً وعَكْسا وطَرْدا ، ويكون المتصدِّى لها مناقِشًا علىٰ حقُوقهم وهم ساهُون ، ومفتِّشا عن مصالحهم وهم عنها لاهُون ، ومناضِلاً عنهم وهم غافِلُون ، ومشمِّرا للسعى فى مَصالِحِهم وهم فى حِبَرِ الدَّعَة رافِلُون ، ومتكَلِّفا لٱستماع الدَّعوىٰ عنهم جَوْبَ فلَوات الجَوَاب ، ومتكفِّلا بالتحرّى فى المحاوَرَة عنهم وإصابةِ شاكِلةِ الصَّواب ، ومؤدِّياً فى نصحهم جُهْدَه تقرُّبا إلىٰ مَرَاضينا وله عندنا الرِّضا وٱبتغاءَ ثوابِ الله : ﴿واللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَاب﴾ وهُما وَكالةُ بيت المال المعمور والحِسْبةُ الشريفةُ بالقاهرة المحروسة : فإنَّ منافع وكالةِ بيتِ مال المسلمين عائدةٌ عليهم ، آئلة بأحكام الشريعة المطَهَّرة إليهم ، راجعةٌ إلىٰ مايعمُّهم مَساره ، مُعَدَّةٌ لما تُدْفَع به عنهم من حيثُ لا يشعُرون مَضارُّه ، صائنةٌ حقوقَهم من تعدّى الأيدى الغاصبه ، حافظةٌ بيوتَ أموالهم من ٱعتراض الآمال

العاملةِ الناصبه ؛ وكذلك نظَرُ الحِسْبة : فإنه من أخصّ مصالح الخَلْق وأعمِّها ، وآكدِ الوظائف العامّة وأكملها ٱستقصائيَّة لمصالح الدينيّة والدُّنيويّة وأتمِّها ، يحفَظ علىٰ ذَوى الهيئات أقدارَهم ؛ ويبيّن بتجنُّب الهَنَات فى الصَّدْر مِقْدارَهم ، ويَصُون بتَوَقِّى الشُّبُهات إيرادَهم وإصـدارَهم ؛ وينزّه معامَلاتِهم عن فسادٍ يعارِضها ، أو شُبَه تُنافِى كمالَ الصحة وتُناقِضُها ؛ ويحفَظ أقواتَهـم من غِشٍّ مُتْلِف ، أو غُلُوٍّ مُجْحِف ؛ إلىٰ غير ذلك من أدْوِيةٍ لا بدّ من الوقوف علىٰ صحةِ تَرْتيبِها وتركيبِها ، وتتبُّع الأقوال التى تجرى بها الثِّقةُ إلىٰ غاية تجريبها ؛ ولذٰلك لا تُجْمعان إلا لمن أوقفَه علمُه علىٰ جادَّة العـمَل ، وٱقتصَر به ورَعُه علىٰ مادَّة الحـق فليس له فى التعرُّض إلىٰ غيره أمَل ؛ وسَمَتْ به أوصـافُه إلىٰ مَعالم الأمور فوجد التُّقىٰ أفضـلَ ما يُرْتَقىٰ ، وعَرَضتْ عليه أدَواتُه جوهَرَ الذخائر فوجد العـملَ الصالحَ أكمَل ما يُنتقَد منها وما يُنْتَقى ؛ وتحـلَّىٰ بالأمانة ، فصارتْ له خُلُقا وسَجِيَّه ، وأنِسَ بالنَّزاهة ، فكانتْ له فى سائر الأحوال للنَّجاة نَجِيَّه ؛ وأرتْه فضائلُه الحقَّ حيثُ هو فتمَسَّك بأسبابه ، وتشبَّث بأهدابِه ، وٱتَّصف به فى سـائر أحوالِه فإن أخَذَ أخذَ بحُكْمه وإن أَعطَىٰ أعطىٰ به ؛ وٱحترز لدينه فهو به ضَنِين ، وٱستوثَق لأمانته وإن لم يكن فيهـا بحمد الله متَّهمًا ولا عليها بظَنِين ، وٱجتنىٰ ثِمـارَ المَحامد الحُلوةَ من كمام الأمانَةِ المُرَّه ، وعلِم أنَّ رضا الله تعالىٰ فى الوقوف مع الحقِّ فوقفَ معه فى كلِّ ماساءَه للخلق وسَرَّه .

ولمَّـا كان فلان هو الذى أمسكَتِ الفضائلُ بمـا كَمَّها من آداب نَفْسه ونَفاسـة آدابِه ، وتجاذبَتْه الرُّتَب للتحلِّى بمكانته فلم تكُن هذه الرتبةُ بأحقَّ به من مجالِس العلم ولا أوْلَىٰ به ؛ وشهِدت له فضائلُه معنًى بمـا شهِدت له به الأئمةُ الأعلامُ لفْظـا ، ونوّهتْ بذِكره العـلومُ الدينيَّة التى أتقنها بحْثا وأكْمَلها دِرايةً وأثبتَها حِفْظا ؛ فأوصافُه كالأعلام المشتَقَّة من طبـاعه ، الدالّة بدوامها علىٰ ٱنحصار سبَب الاستحقاقِ فيـه

وآجتماعِه ؛ المنبِّهة علىٰ أنه هو المقصودُ بهـذه الإشارات التى وراءها كلُّ مايحمَد من آضـطلاعه بقواعد هـذه الرُّتَب وآطِّلاعه ؛ فهو سِرُّ ما ذُكِر من نعوتٍ وأوصاف، ومعنَى ماشُهِر من مَعْدَلة وإنصاف ، ورُقُومُ ماحُبِّر من حُلَل أُفيضتْ منه علىٰ أجمل أعْطـاف ـ رُسِم (١) أن يفوّض (١) تفويضًا يقع به الأمر فى أحسن مواقِعِه، ونَضَع به الحُكْم فى أحمد مواضِعِه؛ ويُحَلُّ من أجياد هذه المنـاصب محَلَّ الفرائد من القلائد ، ويقع من رياض هذه المراتِب وُقُوعَ الحَيَا الذى سَـعِد به رأْى الرائد .

فليباشِرْ هاتين الوظيفتين مُرْهفا فى مصالحهما هِمَّةً غيرَهِمَّه(٢)، مجتهدا من قواعدهما فيما تبرأ به عنـد الله منّا ومنـه الذِّمَّه ، محاقِقا علىٰ حقُوق بيت المـال حيثُ كانتْ محاقَقةَ من يعلم أنه مطلوبٌ بذٰلك من جميع الأُمَّه؛ متحرِّيا للحق فلا يغدُو لمـا يجبُ له مُهْملا ، ولا لمـا يجب عليه مُمـاطِلا، واقفًا مع حكم الله تعالى الجَـلِىّ فى الأخذ والعطاء فإنَّه سِيَّانِ من تَرَك حقًّا أو أخذ باطِلا؛ مُجْرِيًا عوائِد الحِسْبة علىٰ ماأُلِف من تدبيره ، وعُرِف من إتقـانه وتحريره ، وشُهِر من آعتماده للواجب فى سائرأموره ؛ مكتفِيًا بمـا آطَّلع عليـه قديمـا من مصالحها ، منتهيًا إلىٰ ماسـبقَتْ معرفتُه به من أسـبابها ومناجحها ؛ والله تعالىٰ يوفِّقـه فى آجتهاده ، ويُعينـه علىٰ مايدَّخره لمَعَاده، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه وصيةُ وكيل بيت المـال أوردها فى "التعريف" :

وهو الوكيلُ فى جميع حقُوق المسلمين وماله معهم إلاحقُّ رجلٍ واحد، والمكلَّفُ بالمخاصمة عنهم حتَّى يُقِرَّ الجاحد؛ وهو القائمُ للدَّعْوىٰ لهم وعليهم ، والمطلوب من الله

(١) بياض فى الموضعين والغرض منه الآختصار والمبيض له مفهوم مما تقدّم مرارا . (٢) أى غير ضعيفه .

ومنّا بما يُؤخَذ لهم أو يُؤْخَذ من يدَيْهم ؛ والمُعَدّ لتصحيح العقُود ، وترجيح جهة بيت المال فى العقَار المبيع والثمن المَنْقود ؛ والمتكلّمُ بكتابِ الوكالة الشرعية الثابته ، والثابتُ القدَم والأقدامُ غيرُ ثابتـه ؛ والمفْسوح المجَال فى مجالس الحُكّام ، والمجادِلُ بلسان الحـقّ فى الأحْكام ؛ والموقوفةُ كلُّ دعوى لم تُسْـمع فى وجْهـه أو فى وجه من أَذِن له فى سَماعها ، والمرجوعُ إليه فى إماتةِ كلّ مخاصَمة حصل الضجَر من طُول نِزَاعها ، و إبداءِ الدّوافع ، مالم يجِـدْ بُدّا من الإشهاد عليه بعَـدَم الدافع ، والانتهاءِ إلىٰ الحق كان له أوعليه ولا يَقِف عند تثْقِيل مثَقّلٍ ولاشفاعةِ شافع ، وبوقوفه تُحدّد الحدود [وتُمتَحن الشهود][(1)] ويُمْشَى علىٰ الطُّرُق المستقيمه ، وتُحفظ لأصحابها الحقوقُ القـديمه ؛ وبه يتم عَقْد كل بيع وإيجـارٍ إذا كانت المصلحةُ فيها لعـامّة المسلمين ظاهره ، ولهم فيما يُوكّل عنهم فيه الحظُّ والغِبْطة بحَسَب الأوقات الحاضره .

ونحن نُوصيه فى ذٰلك كلّه بالعمَل بما عَلِم ، والانتهاء فى مقتضىٰ قولنا إلىٰ مافَهِم ، وتقديمِ تقوى الله فإنه متىٰ قدّمها بين يديه سَلِم ، والوُقُوف مع رضا الله تعالىٰ فإنه متىٰ وقَف معه غَنِم ؛ والعملِ بالشرع الشريف كيفَمَا توجَّهت به أحكامُه ، والحذَر من الوقوف فى طريقه إذا نفذَتْ سِهَامُه ؛ ومَنْ مات وله ورَثة معروفةٌ تستكمل بحقّها ميراثَه ، وتحوزُ بحظّها تُراثه ؛ لا يكلفُهم ثبوتًا يكون من باب العنَتْ ، والمدافعة بحقّ لايحتـاج [مستَحِقّه][(1)] إلىٰ زيادة ثَبَت ؛ وإنما أنْتَ ومن كانت قضيته مُنْكَره ، والمعروفُ من مستحِقّ ميراثِه نَـكِره ؛ فأُولٰئك شـدِّدْ فى أمرهم ، وأَوْطِ شُهداءَهم فى الاستِفْسار منهم علىٰ جَمْرِهم ؛ وتتَبّع باطن الحـال لعله عنك لا يَتَسَتَّر ، ولا يُمْشى عليك فيـه الباطلُ ويمشى شاهـدُ الزُّور بكُمّيه ويتَبَخْتَر ؛ فإن تحقّقتَ صحةَ شهاداتهم

(1) الزيادة من "التعريف" ص ١٣٢ .

وإلا فأشْهِرهم فى الدنيا ودَعْهم فى الآخرة لا يُخَفَّف عنْهم العـذَابُ ولا يفتَّر، وكلُّ مايُباع أو يؤجَّر آرجع فيـه إلىٰ العوائد، وتقلَّد أمرَ الصغير، وجدِّدْ لك أمرًا منّـا فى الكبير، وذٰلك بعد مراعاة ماتجبُ مراعاتُه، والتأنّى كلَّ التأنّى حتَّى يثبتُ ماينْبغى إثباتُه؛ وشهودُ القيمة عليهم المَدَار، وبشهادتهم يُقَدَّر المِقْدار، وما لم يكونُوا من ذوى الأقدار، ومن أهل الخِبْرة بالبَزِّ والجِدار، وممن آشترىٰ العَقَار وآستغلَّه وبنىٰ الدار، وإلا فاعلم أنَّ مثله لايُرجَع إليه، ولا يُعَوَّل ولا سيَّما فى حقِّ بيت المال عليْه(١)؛ فاتَّفِقْ مع وُلاة الأمُور من أهل الأحْكام، علىٰ تعيينِ من تَعيَّن لتقليدِ مثلِ هذه الشهاده، وتعرَّف منهم مَنْ له كلُّ الخبْرة حتَّى تعرِفَ أنه من أهـل الزَّهَاده؛ ولك أن تدّعىَ بحق المسلمين حيثُ شئْت ممن ترىٰ أن حقَّه عنده يترجَّح، وأن بيِّنتَهم تكون عنده أوضح؛ فأمَّا الدَّعْوىٰ عليك فمن عادتها أن لا تُسْمَع إلا فى مجالس الحكم العزيز الشافعىِّ ـ أجلَّه الله تعـالىٰ ـ ونحن لانغيِّر العوائد، ولا ننقضُ مابنَتِ الدولُ السالفةُ عليـه القواعد؛ فليكُنْ فى ذٰلك المجلس سماعُها إذا تعيَّنَت، وإقامةُ البينات عليها إذا تبيَّنتْ؛ واللهَ اللهَ فى حقِّ بيت المـال، ثم اللهَ اللهَ فى الوقتِ الحاضرِ والمآل؛ ومَنْ تستنيبهُم عنك بالأعمال لا تُقِرّ منهم إلا من تَقرّ به عينُك، ويُوفَّى به عند الله لا بمـا تُحَصِّـله من الدنيا دَيْنُك؛ ومَنْ كان لعمله مُصْلِحا، ولأَمَله مُنْجِحا، لا تغيِّر عليه فيما هو فيـه، ودَعْه حتَّى يتبينَ لك خافيه؛ ولتستَقْصِ فى كلِّ وقتٍ عنهم الأخبار، ولتستـعْلِمْ حقائق ماهم عليه بمن تستصحبه من الأخيار، ولا تزال منهم علىٰ يقين، وعملٍ بمـا فيه خلاصُ دنيا ودِين .

---

(١) كذا فى التعريف أيضا والمراد أن المقوّمين يشـترط فيهم أن يكونوا بتلك الصفات والا فلا يؤخذ بتقويمهم ولا يعوّل على كلامهم .

الوظيفـــة الخـامسة

(الخَـــطَابة)

وهى من أجلِّ الوظائف وأعلاها رتبةً فى نفْس الأمر . وموضوعُها معروفٌ . وتختصُّ هذه الطبقة من التواقيع بخَطَابة الجوامع .

وهذه نسخةُ توقيع بخَطَابة الجامع بقلعة الجبل المحروسة، حيث مُصَلَّى السلطان، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلَبىّ :

الحمـدُ لله الذى أنار بالذِّكْر قلُوبَ أوليـائه ، وكشَفَ بالذِّكْرىٰ بصائرَ أصْفيائه ، وأنال أهلَ العـلم بالإبلاغ عنـه إلىٰ خلْقه وِراثةَ أنبيائه، وآختار لإذْكارنا بآلاء الله من فُرْسان المَنَابر مَنْ يُجاهد الأعداءَ بدُعائِه، ويُجاهِر الأوِدّاء من مواعظِه بمـا يعلَم كلٌّ منهم أنَّ فى مُؤْلِمِ صَوَادِعه دواءَ دائِه، فإذا آفتتَح بحمد الله أثنىٰ عليـه بوادّ علمه حقَّ ثَنائه، ونزّهه بمـا ينبغى لسُبُحات وجْهِه وجلالِ قُدْسه وتقدُّس أسمائِه، وأثنىٰ كما يجبُ علىٰ نبيِّه صلَّى الله عليه وسلم الذى آدمُ ومَنْ بعـدَه من الرُّسلِ تحتَ لِوائه، وإذا تُليتْ علىٰ خيلِ الله خُطبتُه تشوّقَتْ بلقاءِ أعداء الله إلىٰ لقائِه، وخَطبتِ الجِنانَ من بذْل نفُوسها ونفائسِها بمـا أقْنَتْه فى سبيل الله لآتِّقائه .

نَحمُده علىٰ أن جعَلَنا لذِكره مستَمعين، ولأمره ونَهْيه متّبِعين ، وعلىٰ حَمْده فى كل ملإٍ من الأولياءِ مجتَمعين .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لا تزال تختالُ بذكرها أعطافُ المَنَابر، وتتعَطَّر ألسِـنةُ الأقلام بمـا تنْقُله منها عن أفْواه المَحَـابر، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى هَدى اللهُ مَنْ تقـدّم من الأمة بخُبْره ومن تأخَّر بخَبَره ، وجعل روضةً من رياض الجنة بين قَبْره ومِنْبَرِه، صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم

أوّل من عُقِدتْ بهم من الجُمَع صلواتُها، وأكرمُ مَن زُهِيت به من الجهاد والمَنَابر صَهواتُها؛ صلاةً لا نزال نُقيمها عند كلّ مسْجد، ونُديمها فى كلّ مُتْهِم فى الآفاق ومُنْجِد، وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولىٰ المنابر أن يُرتادَ له من أئمة العلماء علّامةُ عَصْره، ورُحلةُ مِصْره، وإمامُ وقْته الذى يَصْدَع بالحق وإن صَدَع، وعالمُ زمانه الذى يقوم فى كل مَقَام بما يُناسبه مما يأخُذ فى الموعظةِ الحسنةِ وما يَدَع، منبرٌ نُذكّر بآلاء الله علىٰ أعواده وإن لم نَزَلْ لها من الذّاكرين، ونُنبّه فيه علىٰ شُكر الله بالرأفة علىٰ خَلْقه وإن لم نبرَح لها بذلك وغيره من الشاكرين، ونُشَوّقُ عليه إلىٰ الجهاد فى سبيل الله بما أعدّ اللهُ لنا علىٰ ذلك من النصْر والأجْرِ وإنْ كُنّا علىٰ الأبَد إليه مُبادِرين، وإلىٰ إقامةِ دَعْوة الحق به مُبَاكرين .

ولما كان فلان هو الذى تعيّن لرُقِيّ هذه الرتبة بخُطَب خَطَابتها، وتبيّن أنه كُفْؤُهَا الذى تتشوّقُ النّفوس إلىٰ مواعظه فترْغَبُ فى إطالتها لإطابَتها ـ اقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نحلّيَ بفضائله أعطافَ هذا المِنْبر الكريم، وأن نختَصّ نحن وأولياؤُنا بسَمَاعِ مواعظِه التى تُرغّب فيما عندَ الله بجهادِ أعداء الله ﴿ واللهُ عِندَهُ أجرٌ عظيم ﴾ .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُطْلِعُ فى أُفُق المنابر من الأولياء شمسًا مُنيره، ويُقيم شعائرَ الدين من الأئمة الأعلام بكُلّ مُشْرِق العَلَانيَة طاهِرِ السَّريره ـ أن يفوّضَ إليه كذا : فلْيَحُلّ هذه الرتبةَ التى لم تُقَرّب لغيره جيادُها، ويُحَلّ هذه العقيلةَ التى لا تُزَان بسوى العلم والعمل أجيادُها، ويَرْقَ هذه الهَضْبةَ التى يطُول إلّا علىٰ مِثْله صُعُودُها، ويَلْقَ تلك العصبة التى تجتمع للأولياء به (؟) حُشودها . وهو يعلم أنّه فى موْقف الإبلاغ عن الله لعِباده، والإعلام بما أعدّ اللهُ فى دار كرامته لمَنْ

جاهـد فى الله حقّ جهاده ، والإنذارِ لمن قَصَّر فى إعْدادِ الأهْبـة ليوم مَعَاده ؛ وهو بمَحْضَر من حُمَاة الإسلام ، ومَشْهَدٍ ممن قلَّدْناه أمرَ أمّة سيدنا محمد عليه أفضلُ الصلاة والسـلام ؛ فلْيَقْصُر خُطَـبه علىٰ طاعةٍ لله يحُضُّ عليها ، وعَزْمةٍ فى سبيل الله يُشَوِّق إليها ، ومعْدَلة يصِفُ ماأعدّ اللهُ لوُلَاة أمرٍ قدَّمتْها بين يدَيْها ؛ وتوبةٍ يبعَثُ الهِمَم ، علىٰ تعجيلها ، وأوقاتِ مَكْرُمة ينَبِّه الأمم ، علىٰ آحترامها بتَقْوىٰ الله وتبجيلها ؛ ودُنْيا يُنْذِر من خدَاعها ، ويبيِّن للمُغْتَرِّ بها ماعُرِف من خلائقها المذمومةِ وأُلِف من طِبَاعها ؛ وأُخرىٰ يوضِّح للمُعْرِض عنها وَشْك قُدُومها ، ويحذِّر المقصِّرَ فى طِلَابها من عذَابها ويبَشِّر المشَمِّر لهـا بنَعيمها . وليعْلَمْ أنَّ الموعظة إذا خرجَتْ من الألسِـنَة لم تَعْـدُ الأسمـاع ، ولم يُحصَـلْ منها علىٰ غير تعَقُّل القرائن والأسْجاع ؛ وإذا خرجَتْ من القـلوب وقعت فى مِثْلها ، وأثمرت فى الحال بالمحافظة علىٰ فَرْض الطاعة ونفْلها ؛ وسكَّنَتْ فى السرائر طِباعَ طاعةٍ تأبىٰ علىٰ مُحاولٍ نَقْلها ، وقدحَتْ(١) فى البصائر من أنواع المعْرِفة ما لم يُعْهَد من قَبْلِها . وليجعَلْ خُطَبه فى كل وقتٍ مناسِـبةً لأحوال مستَمعيها ، متناسبةً فى وضُوح المقاصد بينَ إدْراك مَنْ يَعِى غوامِضَ الكلام ومَنْ لا يَعِيها ؛ فخيرُ الكلام ما قَلَّ ودَلّ ، وإذا كان قِصَرُ خطبةِ الرجُل وطُول صلاتِه منبئين عن فقهه فما قَصَّر مَنْ حافظَ علىٰ ذٰلك ولا أخَلّ ؛ وليُوشِّح خُطَبه من الدعاء لنـا وللمسـلمين بمـا يُرجىٰ أن يوافِقَ سـاعةَ الإجابه ، وإذا توخَّى الغرضَ بدعائه لعُمُوم الأمة فقـد تعيَّنتْ ـ إن شاء الله ـ الإصابَه ؛ وهـذه الوصايَا علىٰ سبيل الذِّكْرى التى تنفَع المؤمنين ، وترفَعُ المحسنين ، واللهتعـالىٰ يجعله ـ وقد فعل ـ من أوليائه المتقين ؛ بمنّه وكرمه ! ، إنْ شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله وقذفت .

وهذه وصية خطيب أوردها فى "التعريف" :

ولْيَرْقَ هـذه الرُّتْبة التى رُفعتْ له ذُرا أعوادِها ، وَقُدِّمتْ له من المنابر مُقرَّباتُ جِيادِها ؛ وليصْعَدْ منها علىٰ أعلىٰ دَرَجه ، وليَسْعدْ منها بصَهْوةٍ كأنما كانتْ له من بُكْرة يومِه المُشْرِق مُسْرَجه ؛ ولْـيَرْعَ حقَّ هـذه الرتبةِ الشريفـه ، والذِّروة التى ماأُعِدّت إلّا لإمامٍ فردٍ مثلِه أو خليفه ؛ وليقِفْ حيثُ تخْفُقُ علىٰ رأسـه الأعلامُ ، ويتكلَّم فتخرَس الألسـنة وتَجِفُّ فى فَمِ الذُّرَا الأقلام ، ولْيَقرعِ المسـامعَ بالوعْـد والوعيـد ، ويُذَكِّر بأيام الله مَنْ ﴿كان له قَلْبٌ أوْ ألْقَ السَّـمْعَ وهُو شَـهِيد﴾ . ويُلَيِّن القلوبَ القاسيةَ وإن كان منها ما هو أشدُّ قَسْوةً من الحِجارة والحديد ؛ ولْيَكُنْ قد قدَّم لنَفْسه قبل أن يتقدّم ، وليُسْـبِلْ عليه دِرْعَ التوبة قبل أن يتكلَّم ، وليجعلْ لكل مَقامٍ مَقالا يقُوم به علىٰ رءُوس الأشهاد ، ويفَوِّقُ منه سَهْما لايُخْطِئ موقعُه كلَّ فؤاد ؛ وليَقُمْ فى المِحراب مَقام من يخشىٰ ربَّه ، ويخافُ أن يَخْطَف الوجَلُ قلْبَـه ؛ وليعلم أنَّ صدَفةَ ذٰلك المحراب ما ٱنفلقَتْ عن مثل دُرّته المكْنُونه ، وصناديقَ الصُّـدُور ما أُطْبِقَتْ علىٰ مثل جوْهَرته المخزُونه ؛ وليؤمَّ بذٰلك الجَمِّ الغَفِير ، وليتقدّم بين أيديهم فإنَّه السَّـفِير ؛ وليؤدِّ هذه الفريضَـةَ التى هى من أعظَم الأركان ، وأوّلِ الأعمـال التى تُوضَع فى المِيزان ، وأقربِ القُرَب التى يَجْمَـع إليها داعى كلِّ أذان ؛ وليقُمْ بالصلاة فى أوقاتِها ، وليُرِحْ بها الناسَ فى أوّل مِيقاتِها ؛ وليخَفِّف مع الإتمام ، وليتحَمَّل عمَّن وراءَه فإنه هو الإمام ؛ وعليـه بالتقْوىٰ فى عَقْد كل نيَّه ، وأمامَ كلِّ قضيَّه ؛ والله تعالىٰ يجعَله ممن ينقَلِبُ إلىٰ أهله وهو مسْرُور ، ويُنَصِّبُ له مع الأئمة المُقْسطين يوم القيامة عن يمين الرحمن منابِرُ من نُور ؛ بمنِّه وكرمه .

الوظيفـــة السادسة

(الإمامة بالجوامع، والمساجد، والمدارس الكبار التى تصـدر التولية عن السـلطان فى مثلهـا)

وهـذه نسخة توقيـع بالإمامة :

أما بعدَ حمد الله علىٰ نِعَمه التى جعلت أيَّامنا الشريفةَ تزيدُ أهلَ الفضائل إكراما، وتخُص بالسيادة والتقديم من أنشأه الله تعالىٰ قُرَّةَ أعيُنٍ وجعـله للمتَّقين إماما، وقدّمه علىٰ أهل الطاعة الذين يَبِيتُون لربِّهم سُجَّدا وقِياما .

والشَّهادة له بالوحدانيَّة التى تكسُو مُخْلِصَها جَلَالا وسَّاما ؛ والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذى أمَّ النـاسَ وعلَّمهم الصلاةَ وأظهر فى إقامة الدِّين مقالا محمُودا ومقامَا ، وعلىٰ آله وصحبـه الذين تمسَّكوا بسُنَّته توثُّقـا واعتصاما ــ فإنَّ خير الرتَب فى هذا العصر وفيما تقدّم، رُتبةُ الإمامة حيثُ تقدّم سيدُ البَشَر فى محْرابها علىٰ الأمة وأمّ؛ فاختارها من ٱتَّبع الطريقَ المحمديَّة وشَرْعها، وعلم سَنَاءَها ورَفْعها؛ فزاد بذٰلك سُمُوّا إلىٰ سموّه، وحصل علىٰ تَضاعُف الأجر ونُمُوّ؛ وهو فلان .

رسم ــ لا زالت أيامه الشريفةُ تَشْمَل ذَوِى الأصالة والصَّدارة بجزيل فَضْلِها ، وعوائدُ إنعامه تجرى بإتمـام المعروف فتُبقِى الرتَبَ الدينيَّةَ بيد مسـتحِقِّها وتسارع إلىٰ تخليد النعم عند أهلها ــ أن يستمرَّ فلان فى كذا جاريًا فيه علىٰ أجمل العادَات ، إعانةً له علىٰ ٱكتسابِ الأجُور بمـا يعتمده من تأهيـل مَعْهَـد العِبادات ؛ ورعايةً لتكثير المَبَارّ ، وترجيحًا لمـا ٱشتمل عليـه من حُسْن النظر فى كل إيراد وإصْـدار ، وتوفيرًا للمَنَاجح التى عُرفت من بيته الذى كَمْ أُلِفَ منه فعلٌ جميل وعَمَلٌ بارّ ، ووُثوقًا

بأنه يعتَمِد فى عمـارة مساجِد الله سـبحانه وتعالىٰ أنه تَشْهَد به الملائكةُ المتعاقِبُون بالليل والنهار، والله تعالىٰ يجعل النِّعم عنده مؤبَّدة الآستقرار، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفـــة السابعة

(التدريس ، وموضُوعه إلقاءُ المسائل العلمية للطَّلبَة)

وهـذه نسخة توقيـع بتدريس كُتِب به للقـاضى عزِّ الدين آبن قاضى القُضاة بَدْرِ الدِّين بن جَماعةَ ، عوضًا عن والده ، فى جُمادىٰ الآخرة سـنةَ ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله مُتِمِّ فَضْله علىٰ كلِّ أحد ، ومُقِرِّ النِّعمة علىٰ كلِّ والد ووَلَد ، الذى خَصَّ أولياءَنا ببُلُوغ الغايات فى أقْرَب المُدَد ، وآستصحابِ المعروف فما يُنْزَع منهم خاتَمٌ من يَدٍ إلَّا لِيَد .

نحمدُه بأفضل ما يَحمَدُه به مَنْ حَمِد ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً باقِيـةً علىٰ الأَبد ، ونُصلى علىٰ سـيدنا محمد نبيِّه الذى جعـل شريعتَه واضحةَ الجَدَد ، قائمةً بأعلام العلمـاء قِيامَ الأَمَد ، صلىّ الله عليـه وعلىٰ آله وأصحابِه الذين شَبَّهم فى الهُدى بالنُّجوم وهُمْ مثلُها فى كَثْرة العَدَد ، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ ، فإنَّ نِعَمَنا الشريفةَ لا تَحَوّل ، ومواهِبَنَا الجزيلة ... ... (1) تَتخَوَّل ، وكرمَنا يُمهِّد منـازِلَ السُّعود لكل بَدْر يتَنَقَّل ، وشِيَمَنا الشريفةَ ترعىٰ الذِّمَمَ لكلِّ من أنفق عُمْرَه فى ولائِها ، وتحفَظ مالَهـا من المآثر القديمة بإبقائها فى نُجَباء أبنائها ، مع ما نُلاحِظُه فى آستحقاقِ التقديم ، وآنتخاب مَنْ ترقَّىٰ منهم بين العِلْم والتعليم ، وحَصَّل

---

(١) بياض بالأصل ولعله لا تزال لأوليائنا تَتخَوّل . وفى اللسان "التخول التعهد وحسن الرعاية" .

فى الزمن القليل العِلمَ الكثير، واستمدّ من نُور والده وهو البَـدْر المُنير، وعُلِم بأنَّه فى الفضائل سرُّ أبيه الذى شاع، وخليفتُه الذى لو لم يَنُصَّ عليه لما آنعقد [إلا] عليه الإجماع، والواحدُ الذى ساد فى رُتْبة ابيـه وما خلَتْ من مثله ــ لا أخْلىٰ اللهُ منه البِقَـاع!.

وكان المجلس السامىّ، القضائىّ، الفـلانىّ، هو المرادَ بما قدّمنا من صـفاته الجميـلة، وتوسَّمْنا أنه لَمْعَةُ البَـدْر وهى لاتخفىٰ لأنها لا تَرُدُّ العُيونَ كَليله؛ ورأىٰ والدُه المشارُ إليه من آستحقاقه ما آقتضىٰ أن يُنَوِّه بذكره، ويُنَبِّـه علىٰ المعرفة بحقِّ قَدْره، فآثَر النُّزُول له عمَّا باسمه من تدريس الزاوية بجامع مصرَ المحروسـة ليقُوم مَقامَـه، ويُقَرِّر فوائدَه ويَنْشُر أعلامَه، ويَعْـلم أنه قد حلَّق فى العليـاء حتَّى لَحِق البَـدْرَ وبلغ تَمَـامه؛ فعلِمْنا أنَّ البركةَ فيما اشار، وأنَّ اليُمْنَ بحمـد الله فيما رجَّحـه من الآختيـار.

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريفـ زاد الله فى شَرَفه، وجعل أقطارَ الأرض فى تصَرُّفه ـ أن يُرتَّب فى هـذا التدريس عوضًا عن والده، أطال الله بقـاءَه علىٰ عادته وقاعدته إلىٰ آخر وقتٍ لأنه أحقُّ من آستحق قدْرُه الرفيعُ التميـيز، وأولىٰ بمِصْرَ ممن سـواه لما عرَفَت به مصر من العزيز ثم من عَبْد العزيز.

ونحن نُوصيك أيُّها العالِم ــ وفَّقك الله ــ بالمُدَاومة علىٰ ما أنت بصَدَده، والمذاكرة للعلم فإنَّك لاتُكاثِرُ العُلَماء إلا بمَدَده؛ والعملِ بتقوىٰ الله تعالىٰ فى كل قَصْد وتَصْدير، وتَقْريب وتقرير، وتأثيلٍ وتأثير، وتقليل وتكثير، ونصٍّ وتأويل، وترتيبٍ وترْتيل؛ وفى كل ماتَزْدادُ به رفعتُـك، وتطيرُ به سُمْعتُك؛ ويحسُنُ به الثناءُ علىٰ دينك المتين، ويقومُ به الدليلُ علىٰ ما وضح من فَضْلك المبين.

واعلم بأنك قد أدركتَ بحمد الله تعالىٰ وبكرمنا وبأبيك وباستحقاقك ما ارتدّ به كثيرٌ عن مَقامك ، ووصلتَ فى البداية إلى المَشيخة فى زاويةِ إمامك ؛ فاعمل فى إفادةِ الطَّلَبَة بما يرفَعُ الرافعىُّ لك به الرايه ، ويأتمُّ بك إمامُ الحرمين فى النِّهايه ؛ فقد أمسيتَ جارَ البحر فاستخرِج جُمَانَه ، واجتهد لتُصيب فى فَتاويك فإنّ أوَّلِيك سِهام رميُها من كِنَانه ؛ وسبيلُ كل واقفٍ عليه العملُ بمقتضاه والاعتماد (١) .

وهذه نسخة توقيع بتدريس زاوية الشافعىّ بالجامع العتيق أيضا ، من إنشاء المولىٰ زَيْن الدين بن الخَضِر مُوَقِّع الدَّسْت ، كُتِب به لتاج الدين محمد الإخنائى شاهد خِزَانة الخاص ، بالنِّيابة عن عمّه قاضى القضاة تقىِّ الدين المالكىّ فى أيام حياته ، مستقِلًّا بعدَ وَفاته ، وهى :

أما بعدَ حمْدا لله علىٰ أنْ زانَ مجالسَ المَدَارس فى أيَّامنا الشريفة بتاجها ، وأقرّبها من ذَوِى الإنابة من يستَحِقُّ النيابةَ عن تقِىّ قَوَّى الأحكام بإحكامها وإنتاجها ، ورفع قدرَ بيتٍ مباركٍ طالما اشتَهر علَمُ عِلْمه وصدَر عن صَدْرٍ فكان مادّةَ مَسَرّة النفس وابتهاجها ، وجعل عوارِفَنا ترعىٰ الذُّرِّيَّة الصالحة فى عَقِبها وتُولّى كلَّ رُتْبة مَنْ أضحىٰ لأهلها بوَجَاهته مُواجِها ؛ والشهادة له بالوَحْدانيَّة التى تَنْفى شِرْك الطائفة الكافرة ومَعْلُولَ احتجاجها ؛ والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد الذى استقامتْ به أمورُ هذه الأمة بعد اعْوِجَاجها ، وتشرَّفتْ به علماؤُها حتَّى صارتْ كأنبياء بنى إسراءيلَ بحُسْن استنباطِها للجُمَل وجميلِ استخراجها ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين علِمُوا وعَمِلوا وأوضحُوا لهذه المِلَّة قويمَ مِنْهاجِها ـ فإنَّ أوْلَى الأولياء ببُلوغ الأمَل ، وتعاهُد

(١) أى الى آخر ما يقال فى مثله .

مدارس العِـلم بصالح العَمَل ، و إظهار سِرِّ الفوائد للطالِبين ، وحَلّ عقُود مُشْكِلها بجميل الاطِّلاع وحُسْن اليقين ، من حَوىٰ معرفةَ الفُروع والأُصول ، وحاز من مَذْهبه المُذْهَب خيرَ محْصُول ، ونشأ فى حِجْر الفضائل ، واقتدىٰ بحُكّام بيته الذين لهم فى العُلُوم بمصرَ والشامِ أوضحُ البراهين وأقوى الدّلائل ، وله فى الآباءِ والأُبُوَّة ، الديانةُ التى بلغ بها من الإقبال مَرْجُوّه ، طالَمَا سارتْ أحكامُ عمِّه ــ أجله الله ــ فى الأقطار ، وحكَمَ فأبدىٰ الحُكْم بين أيدينا أوفى الأمصار ، وله العَفَاف والتُّقىٰ والمآثرُ الجميلةُ وجميلُ الآثار ، والفَتاوَىٰ التى أوضح بها مُشْكِلا ، وفَتَح مُقْفَلا ، والفصلُ بين الخصوم بالحقّ المُجْتَلىٰ ، والبَركةُ التى لدولتنا الشريفة منهـا نصيبٌ وافر ، والتصميمُ الذى اقترن بغَزارة العـلم والوَقَار الظاهر ، فهو ــ أعز الله أحكامَه ــ من العُلمـاء العاملين ، وله البُشْرىٰ بمـا قاله أصدقُ القائلين ، فى النبإ الذى تتمُّ به الزيادةُ والنماء : ﴿ إنَّمَـا يَخْشَىٰ اللّهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَمَاء ﴾ .

ولمـا كان المجلس السامى هو الذى استوجبَ التصديرَ لإلقاء الدروس ، وأضحىٰ مالكًا مالكًا أزمَّة الفضائل حائزًا من أثوابها أفخـر مَلْبُوس ، وله بخِزانة خاصّنا الشريف و إصْطبلاته السـعيدة الشهادةُ البيِّنـه ، والكِتابةُ التى هى العِزُّ الحـاضر فلا يُحتـاج معها إلىٰ إقامة بَيِّنـه ، والكَفَالةُ التى نطقَتْ بها الأفواه مُسِرّة ومُعْلِنه ، والأمانةُ التى حذَا فيها حذْوَ أبيه واتّبع سَنَنه .

فلذلك رُسِم ــ لا زال يُديم النِّعَمَ لأهلهـا ، ويُبْقِى المراتبَ الدينيَّة لمن أضحىٰ محلُّه مناسبا لمَحَلِّها ، أن يستقر ... ...[1] فلينُبْ عن عمِّه فى هذا التدريس ، وليَقْفُ ما يَسُر النفوسَ من أثره النفيس ، وليُفِد الطلبةَ علىٰ عادته ، وليُبْـدِ لهم من

(١) بياض بالأصل ومراده فى تدريس زاوية الشافعى الخ .

النُّقول مايُظْهِر غزيرَمادَّته ، وليستنبطِ المسائِل ، وليُجِبْ بالأدلَّة المُسائل ، وليرَجِّح المَباحث ، وليكن لوالده ـ رحمه الله ـ أحَقَّ وارث ، وليستقِلَّ بهذه الوظيفة المباركة بعد وفاة عمه أبقاه الله تعالىٰ ، وليتزيَّد من العلوم ليبْلُغ من صدَقَاتنا الشريفة آمالًا ، والله تعالىٰ يسدِّدُ له بالتقوىٰ أقوالًا وأفعالا ، بمنّه وكرمه .

وهـذه نسخةُ توقيع بتدريس المدرسـةِ الصَّلَاحيَّة المجاورةِ لتُرْبة الإمام الشافعىّ رضى الله عنـه ، كُتِب به لقاضى القُضاة تقِيِّ الدين ، آبنِ قاضى القُضاة تاج الدِّين آبن بِنْت الأعزّ . من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر ، وهى :

الحمدُ لله شافِى عِىّ البَحْث بخيرِ إمامٍ شافِعِىّ ، والآتى منه فى الزَّمَن الأخير بمن لو كان فى الصَّدْر الأول لأثْنىٰ علىٰ وَرَعه ودينِه كلُّ صحابِىّ وتابِعِىّ ، ومُفيد الأسماع من وَجِيزِ قولِه المحرَّر ما لولا السبقُ لمـا عَدَل إلىٰ شرح وجيزٍ سواه الرافِعىّ .

نحمده علىٰ نِعَمٍ ألهَمَتْ وضْعَ الأشـياء فى محلِّها ، وآستيداعَها عند أهلِها ، وتأتِّيها بمـا يزيل الإشكال بانجذابِ مَنْ شـكْلُه مناسبٌ لشَكْلها .

ونشهد أن لاإلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتزيَّن بها المَقَال ، ويتبيَّن بهـا الحقُّ من الضَّـلال ، ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسوله ونبيُّـه موَضِّحُ الطُّرُق إلىٰ الحق المبين ، وناهِجُها إلىٰ حيث مجتَمَعُ الهدىٰ ومرتَبَع الدِّين ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَهْدِى إلىٰ صراط الَّذين ، ورضى الله عن أصحابِه الذين منهم مَنْ جاءَ بالصِّدْق وصَدَّق به فقوِىَ سبب الدين المتين ، ومنهم من فَرَق بين الحق والباطل وكان إمامَ المتقين وسُمِّىَ أميرَ المؤمنين ، ومنهم من جَهَّز جيشَ العُسْرة فثَبَّت جأْشَ المسلمين ،

ومنهم من أعطاه صلّى الله عليه وسلم الراية فأخذها منه باليمين ، ورضى الله عن بقيّة الصحابة أجمعين .

وبعدُ، فلما كان مذهب الإمام الشافعى «محمد بن إدريس» رضى الله عنه هو شُهْدة المتلفظ، وكفايةُ المتحفِّظ، وبَهْجةُ المتلحِّظ ، وطرازُ مَلْبَس الهدى، وميدانُ الاجتهاد الذى لاتقفُ أعنّـة جِياده عن إدراك المَـدَى، وقد تجملتْ ديارُ مصر من بركة صاحبه بمن تُشَـدّ إليه الرِّحال، وتَفْخَرُ جَبَّانة هو فيها حالّ ، وجيدٌ هو بجواهر عُلُومه حالٍ ، ومن يَحْسُن إلى ضريحه المُنِيف الاستناد ، وإذا قُرِئتْ كُتُبه لدَيْه قيل ما أبعَدَ هذا المَرْمى الأسنى! وما أقْربَ هذا الإسْناد! وما أسْعدَ حَلْقةً تُجْمع بين يدىْ جَدَثه يتصدَّر فيها أجلُّ حَبْر، ويتصدَّى لنَشْر العلوم بها من عُرِف بحُسْن السِّيرة عند السَّبْر، ومَنْ لولا خَرْقُ العوائد لأجاب بالشُّكر والثناء عليه صاحبُ ذلك القَبْر كما قال : «قال صاحب هذا القبر» ــ حَسُن بهذه المناسبة أن لاينتصِبَ فى هذا المَنْصب إلا من يَحْمَـدُ هذا السيدُ الإمامُ جِوَاره ، ومَن يُرْضِيه منه ــ رضى الله عنه ــ حُسْنُ العِباره، ومن يستحِقُّ أن يتصدّر بين نُجوم العلماء بِدارة تلك الخِطَّة فيقال قد جمَّل الله به دارةَ هذا البدر وعَمَّر به من هذا المدرِّس دارَه ، الذى يفتقِر إلى تنويل نِعَمه ، وتنويه قَلَمـه ، من الأئمة كلُّ غنِى ، ويُعجَب ببلاغة خُطَبه ، وصِـيَاغة كُتُبه ، من يَجْتَـلِي ومن يجتَنِي ، ومن يَهْنَا المستفيدُون من عذُوبة ألفاظه وصفاءِ معانيه بالمَوْرد الهنِى ، ومَنْ إذا سَحَّ سَحابهُ الهَطَّالُ اعترفَ له بالهُمُوّ والهمُول المزنى ، والذى لسَـعْد جَدّه من أبيه ليث أكرِم به من لَيْث وأكرم ببَنِيه من أشبال! ، وأعزِزْ به من فاتِح أبوابِ إشكالاتٍ تَعجَز عن فَتْحها القَفَّال! ، ومن إذا قال سكتَ الناس ، ومن إذا قام قَعَد كلُّ ذى شِمَاس ، وإذا أخذ بالنصِّ ذَهَب الاقْتِياس ، وإذا قاس قيل هذا بحرُ المَذْهب المشارُ إليـه بالأصابـع فى مِصْره جلالةً ولا يُنْـكَر لبحر المِصْر الإشارةُ

بالأصابع ولا القِياس ، ومن يزهُو بتقىٰ قلبِه و رُقىٰ جوَابه لسانُ التعويل ولسان التعويذ ، كما يَميس بإحاطته وحِياطتِه قلمُ الفتوىٰ وقلَم التنفيذ ، ومن يَفْخَر [به] كلُّ عالم مفيدٍ إذا قال : أنا بينَ يدَيْه طالبٌ وأنا له تِلْميذ ، ومَنْ حيثُما ٱلتفَتَّ وجدتَ له سُؤدَدا جَمّا ، وكيْفَما نظرتَ رأيتَ له من هُنا وِزارةً ، ومن هُنا خَطابةً ، ومن هُنا مشيخةً ، ومن هنا تدرِيسا ، ومن هُنا حُكْما ! ! ! ! ، فهو الأصلُ ومَنْ سِواه فُرُوع ، وهم الأثمادُ وهو اليَنْبُوع ، وهو مجْمُوع السياده ، المختارُ منه الإفاده ، فما أحسَنَه من ٱختيار وما أتَمَّه من مجموع ، وكان قاضى القُضاة ، سيِّد العلماء ، رئيسُ الأصحاب ، مقتَدَى الفِرَق ، قُدوةُ الطوائف ، الصاحب تقِىّ الدين «عبد الرحمن» ولد الصاحب قاضى القُضاة تاج الدين بن [بنت] الأعز أدام الله شَرَفه ، ورَحم سلَفَه ، هو منتهىٰ رغبةِ الراغب ، ومُشْتهىٰ مُنْية الطالب ، ومَنْ إذا أضاءت ليالِى النُّفُوس بأقمار فَتاوِيه قيل (بياضُ العَطَايا فى سَوَاد المَطَالب) ، ومن نتَّفق الآراء علىٰ أنه لِسِنِّ الكُهُولة شيخُ المَذَاهب ، ومَنْ عليه يَحْسُن الاتفاق ، وبه يجْمُل الوِفَاق ، وإذا وَلِىَ هذا المنصِبَ ٱبتهج بولَايتِه إيَّاه مالك فى المدينةِ وأبو حنيفةَ وأحمدُ رضى الله عنهم فى العِراق ، وٱهتزَّتْ به وبمجاورة فوائدِه من ضرِيح إمامِه جوانبُ ذلك القبْر طَرَبا ، وقالت "الأُمُّ" لقد أبهجتَ ـ رحم الله سلفَك ـ بجدِّك وإبائك جدًّا وأبا ، ولقد ٱستحقَّيْت أن يقول لك منصبُ سلَفِك رضى الله عنهم : أهْلًا وسَهْلا ومَرْحَبا ، وهذه نَسَماتُ صَبًا ، كانتِ الإفادة هُنالك تَعرِفُها منك من الصِّبا .

فالحمد لله علىٰ أن أعطىٰ قَوْسَ ذلك المحراب بارِيها ، وخصَّ بشَقِّ سهامِها من لا يزال سعده مُبارِيها ، وجمَّل مطلَع تلك السماء ببدرِكم باتتْ [عليه] الدُّرر تحسُد دَرارِيها ، وألهمَ حسنَ الاختيار أن يجرى القلمُ بما يحسُن بالتوقيع الشريف موقعُه ، ويجمُلُ فى أثناء الطروس وضعُه وموضِعُه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ : ــ أجْراه الله بالصواب ، وكشف بارْتِيَائِه كلَّ آرْتِياب ، ولا زال يختارُ وينتقِي للمناصب الدِّينيَّة كلَّ عالِمٍ بأحكام السُّنَّة والكتاب ــ أن يفوّض إليه تدريسُ المدرسة الصلاحيَّة الناصريَّة المجاورة لضريح الإمام الشافعىّ بالقرافة رضى الله عنه . فليُخَوِّل وليُنوِّل كلَّ ذى استفاده ، وليجمِّلْ منه بذلك العِقْد الثمين من علماء الدِّين بأنجُمٍ واسطةٍ تَفْخَرُ بها تلك القِلاده ، وليذْكُر من الدروس ما يُبْهِجِ الأسماع ، ويُرْضِى الآنتجاع ، ويُجادُ به الآنتِفاع ، ويَحْتَلِبُه من أخلاف الفوائد آرتِضاءُ الآرتِضاع ، ويتناقل الرُّواةُ فوائدَه إلى علماء كل أُفُق من البِقَاع ، ولْيَقُلْ فإنَّ الأسماعَ لفوائده مُنْصِته ، والأصواتَ لمَبَاحثه خاشِعةٌ والقلوبَ لمَهابته مُخْبِته ، ولْيُنْهِض قوىَّ المسائل بما يحصِّل لها أعظَمَ انتعاش ، ولْيُمِتْ ماأماته إمامُه من البِدَع فيُقال به له : هذا محمدُ آبنُ إدريسَ مُذْ قُمْتَ أنتَ عاش ، ولْيُسْمِع بعلومه مَنْ به من الجهل صَمَم ، وليستَنْطِق مَنْ به من الفَهَاهة بَكَم ، وليُحقِّق عند الناس بتَعَصُّبه لهذا الإمام أنه قد قام بالتنويه به الآنَ الحاكمُ آبنُ الحاكم أخُو الحاكم كما قام به فيما سلف بنو عَبْد الحَكَم .

وأما غيرُ ذلك من الوصايا فهو بحمد الله صاحبُ إلهامِها ، وجالِبُ أقْسامِها ، وجُهَينة أخبارِها ، ومَطْلَع أنوارِها ، فلا يُعاد، عليه ما منه يُستفاد ، ولا يُنْثَر عليه دُرّ هو منظِّمُه فى الأجياد ، والله تعالى يُعَمِّر بسيادته معالمَ الدين وأكنافَه ، ويزيِّن بفضله المتينِ أوساطَ كلِّ مصر وأطرافَه ، ويُضيف إليه من المستفيدين مَنْ بإرفاقه وإشفاقه يكون عيشُه خَفْضا بتلك الإضافَهْ ، ويجعله لا يُخصِّص حُنوّه بمَعْهَد دُونَ مَعْهَد ولا بمسافةٍ دُون مَسافَه ، ويُبْقِيه ومنفعتَه إلى سارِيةٍ سارِيةِ الإطافة واللَّطافه ، وألطافَه بهذه الولاية تقول لكلِّ طالبٍ فى القَرافة التى رَافه .

قلت : ولما تُوفِّىَ قاضى القضاة بدرُ الدين بنُ أبى البقاء ـ تغمده الله تعالىٰ برحمته ـ وكان من جملة وظائفه تدريسُ هذه المدرسة ، كان السلطان قد سافر إلىٰ الشام فى بعض الحَرَكات ، فسافر ٱبنُه أقضىٰ القضاة جلالُ الدين حتّٰى ادرك السلطانَ بالطريق ، علىٰ القُرب من غَزَّة ، فولّاه الوظيفةَ المذكورةَ مكانَ أبيه ؛ وكان القاضى نورُ الدين بنُ هلال الدولة الدِّمَشقىّ حاضرًا هُناك ، فأشار إليه القاضى فتحُ الدين فَتْح الله كاتبُ السر الشريف ـ عامله الله بلطفه الخفىّ ـ بإنشاء صدر لتوقيعه ، يسطر به للعلامة الشريفة السلطانية ، فأنشأ له سَجْعتين ، هما :

الحمدُ لله الذى أظهَر جلالَ العلماء الشافعية بحضْرةِ إمامهم ، وأقام ساداتِ الأبناء مقَامَ آبائهم فى بثِّ علومهم وصلاتِهم وصِيامِهم . ولم يجاوز ذلك إلىٰ غيره ، فسُطِّر التوقيع بهاتين السجعتين ، وعُلِّم عليه العلامة السلطانية .

وكان من قول نُور الدين بن هلال الدولة للقاضى جلال الدِّين المذكور : إنَّ هذا التوقيعَ يبقىٰ أبيضَ : فإنه ليس بالديار المصرية من ينهض بتكملتِه علىٰ هذا الأُسلوب . فسمع القاضى كاتبُ السرّ كلامَه ، فكتبَ لِى بتكملتـه علىٰ ظَهْره ، وعاد به القاضى جلال الدين فأعطانيه ، وأخبرنى بكلامِ ٱبن هلالِ الدولة وما كان من قوله ، فتلكَّأْت عن ذٰلك ، ثم لم أجِدْ بُدًا من إكماله وإن لم أكُنْ من فُرْسان هذا المَيْدان ، فأنشأْت له علىٰ تينك السجعتين ما أكملته به ، فجاء منه تِلْوَ السجعتين السابقتين اللتين أنشأهما ٱبن هلال الدولة :

وخصَّ برياسة العلم أهلَ بيتٍ رأتْ كُهولَهُم فى اليَقظة ما يتمنّٰى شُيوخُ العلماء أن لو رأَوْه فى مَنامهم .

وجاء من وسطه :

ٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُنَوِّه بذكره، ونقدّمه علىٰ غيره ممّن رام هـذا المَقامَ فحُجِب دُونَه (والله غالِبُ علىٰ أمْرِه) .

وجاء فى آخره :

والله تعالىٰ يرقّيه إلىٰ أرفع الذُّرا، وهـذه الرتبةُ و إن كانت بِدايتَه فهى نهايةُ غيره (وإنَّا لنَرجو فوقَ ذٰلِكَ مَظْهرا) .

وقد أعوَزَنى وِجْدانُ النسخة عند إرادة إثباتها فى هذا التأليف لضَيَاع مُسْودّتها ولم يحضُرْنى منها غيرُ ماذكرتُه . وفيما تقدّم من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبدالظاهر من توقيع القاضى تقىّ الدين ابن بنت الأعز مالا ينظَر مع وُجوده إلىٰ غيره .

وهـذه نسخة توقيع بتدريس المدرسة الصلاحية بمصر، المختصَّة بالمالكية، المعروفة بالقَمْحية، بمصر المحروسة، أنشأتُه لقاضى القُضاة جمال الدين الأَقْفَهسىّ، وهى :

الحمدُ لله الذى زيَّن معالمَ المدارس من أعلام العُلماء بجَمالها، وميَّز مراتبَ الكَمَلة بإجراء سَوابِق الأفكارِ فى مَيادين الدُّروس وفَسِيح مَجَالها، وعَمَّر معاهدَ العلم بأجلِّ عالم إذا ذُكِرت وقائعُ المناظَرة كان رأسَ فُرْسانها ورَيِّس رجالها، وناط مقاصدَ صَلَاح الدين بأكمل حَبْر إذا أَورِدتْ مناقِبهُ المأثورةُ تمسَّك أهلُ الدِّيانة منها بوَثِيق حِبَالها .

نحمَدُه على ٱختيار الجوهر والإعراض عن العَـرَض ، والتوفيق لإدراك المَرَامى وإصابة الغَرَض .

ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له الذى خصَّ أهلَ العلم بكريم حِبائه، وشرَّف مَقامَهُم فى الخليقة فجعلهم فى حَمْل الشريعة ورَثَةَ أنبيائه؛ شهادةً تُعْذِبُ لقائلها بحُسْن الإيراد وِرْدا، وتُجدِّد لمنتحِلِها بمواطنِ الذِّكر عَهْدا فيتَّخذ بها عند الرحمٰن عَهْدا؛ ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نبيٍّ عَلِم وعلَّم، وأكرمُ رسولٍ فصَّل الأحكامَ إذ شَرَع ونَدَب وأوجبَ وحلَّل وحرَّم؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عُنُوا بتفسير كتاب الله تعالىٰ فأدركُوا دقيقَ معانيه، وآهتمُّوا بالحديث رِوايةً ودِرايةً ففازُوا بتأسيس فِقْه الدِّين وإقامة مَبانيه؛ صلاةً تُحيط من بِحار العلم بزاخِرِها، وتأخُذ من الدُّروس بطرَفَيها فتقارِنُ الحمدَ فى أوّلها وتَصْحَب الدعاء فى آخرها؛ ما تُتُبِّع بالمنقول مواقِعَ الأثَر، وعُوِّل فى المعْقُول علىٰ إجالة الفكْر وإجادةِ النَّظَر، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنَّ أَوْلىٰ ماصَرفت النفوسُ إليه هِمَمَها، وأخلصتْ فيه نيَّتَها وخلَّصتْ من تَبِعاته ذِمَمَها، وتَبِعتْ فيه آثارَ من سلَف من الملوك الكِرام، وأعارَتْه كُلِّيَّ نظرِها وقامتْ بواجبه حقَّ القِيام ــ أمرُ المدارس التى هى مَسْقَط حجَر الاشتغال بالعِلم ومستَقَرّ قاعدته، وقُطْب فلَك تَطْلابه ومُحِيط دائرته؛ ومَيْدان فُرْسان المشايخ ومَدار رجالها، ومَوْرِد ظِمَاءِ الطَّلَبة ومحطُّ رحالها؛ لا سيَّما المدارسُ الأيُّوبية التى أُسِّس علىٰ الخير بِناؤُها، وكان عن صَلاح الدين منْشؤُها فتألَّق برقُها وآستطار ضياؤُها .

ومن أثبتِها وَثيقه، وأمثلِها فى الترتيب طَريقه؛ المدرسةُ القَمْحية بالفُسْطاط الآخذةُ من وجوه الخير بنِطاقِها، والمخصوصُ بالسادة المالكيَّة آمتِدادُ رُواقِها؛ إن آعتُبِرتْ رعايةُ المذاهب قالت : مالكٌ وما مَالك، وإن عُمِلَتْ حِسْبة المدارس فى البُرِّ، كانتْ لها فَذَالك؛ قد رُتِّب بها أربعةُ دُروس فكانتْ لها كالأركان الأربعه، وجُعلت صدَقتُها الجارية بُرّا فكانت أعظم بِرًّا وأعمّ منفعه .

ولما كان المجلسُ العالى، القاضوىّ، الشيخىُّ، الكبيرىُّ، العالىّ، العاملىّ، الأفضلىُّ، الاكملىُّ، الأوحدىُّ، البليغىّ، الفريدىّ، المُفيدىّ، النَّجيدىّ، القُدْوِىّ، الحُجِّىّ، المحقِّقىّ، الإمامىّ، الجمالىّ : جمالُ الإسلام والمسلمين ، شرَفُ العلماء العاملين ، أوحدُ الفضلاء المُفيدين ؛ قدوةُ البلغاء زينُ الأمه ، أوحدُ الأئمَّه ؛ رُحْلة الطالبين ، فخرُ المدرّسين ؛ مفتى الفِرَق لسانُ المتكلمين ، حجّة المناظرين ؛ خالصةُ الملوك والسلاطين ، وَلىُّ أمير المؤمنين ؛ أبو محمد « عبدُ الله الأَقْفَهْسىّ » المالكىّ ــ ضاعفَ الله تعالىٰ نعمتَه ــ هو عيْنُ أعيان الزمان ، والمحدَّثُ بفضله فى الآفاق وليس الخبرُ كالعيان ؛ ماولِىَ منصبا من المناصب إلا كان له أهْلا ، ولاأراد الانصرافَ من مجلس علم إلا قال له مَهْلا ؛ ولا رَمىٰ إلىٰ غاية إلا أدْرَكها ، ولا أحاط به مِنْطَقةُ طلَبةٍ إلا هزَّها بدقيق نظَره للبحث وحرَّكها ؛ إن أطال فى مجلسه أطاب ، وإن أوجز قصَّر محاورُه عن الإطالة وأنَاب ؛ وإن أورد سُؤالا عجَز مناوئُه عن جوابه ، أو فتح باباً فى المناظرة أحجم مُناظِرُه عن سَدِّ بابه ؛ وإن ألَمَّ ببحث أربىٰ فيه وأنَاف ، وإن أفتىٰ بحُكْم اندفع عنه المُعارض وارتفَع فيه الخلاف ؛ فنوادره المدوّنة فيها البيانُ والتحصيل ، ومقدّماته المبسوطةُ إجمالُها يُغْنِى عن التفصيل ؛ ومشارقُه النيِّرة لا يأفُلُ طالِعُها ، ومداركه الحسنةُ لايَسْأم سامِعُها ؛ وتهذيبُه المهذَّب جامعُ الأمَّهات ، وجواهره الثمينةُ لاتُقاوَم فى القيمة ولا تُضاهىٰ فى الصِّفات ــ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُنوّه بذكره ، ونُقدِّمه علىٰ غيره ، ممن حاول ذلك فامتنَع عليه ﴿ واللهُ غالبٌ علىٰ أمْرِه ﴾ .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى، المولَوِىّ، السُّلطانىّ، الملَكىّ، الناصرىّ، الزينىّ ــ لا زالت مقاصِدُه الشريفةُ فى مذاهب السَّداد ذاهبَه ، ولأغراض الحقِّ والاستحقاق صائبه ــ أن يستقرّ المجلسُ العالى المشارُ إليه فى تدريس المدْرَسة

الصَّلاحِيَّة بمصر المحروسة المعروفة بالقَمْحية عِوضًا عن فلان الفلانى، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه .

فليتلَقَّ ذٰلك بالقَبُول ، ويَبْسُطْ فى مجالس العلم لسانَه فمن كانَ بمثابته فى الفضل حقَّ له أن يقُول ويَطُول ؛ ومِلاكُ الأمر تقوىٰ الله تعالىٰ فهى خيرُ زاد ، والوصايا كثيرة وعنه تُؤخَذ ومنه تُستفاد ؛ والله تعالىٰ يبلِّغه من مقاصده الجميلة غايةَ الأمل ، ويرقِّيه من هِضَاب المعالى إلىٰ أعلىٰ مَراتِب الكمال وقد فَعَلْ ؛ والأعتماد علىٰ الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع أيضا بتدريس المَدْرسة الصلاحيَّة المذكورة، أنشأتهُ للقاضى شمس الدين محمد ٱبن المرحومِ شهاب الدين أحمد الدِّفْرى" المالكى"، فى شعبان سنة خمس وثمانمائة، وهو :

الحمدُ لله مُطْلِع شمس الفضائل فى سماء مَعاليها، ومبلِّغ دَرارِى" الدَّرارىِّ النبيهةِ الذِّكر بسعادة الجَدّ غايةَ غيرِها فى مَبادِيها ؛ وجاعِلِ صَلاح الدِّين أفضلَ قصدٍ فوَّقت العنايةُ سِهامَها بإصابةِ غَرَضه فى مَراميها ، ومجدّدِ مَعالِم المدارس الدارسةِ بخَيْر نظر يقضى بتشييد قواعِدها وإحكام مَبانيها .

نحَمَدُه علىٰ أنْ صرَف إلىٰ القيام بنَشْر العلم الشريف ٱهتمامَنا، وجعل بخِيرته العائدةِ إلى التوفيق فى حُسْن الأختيار ٱعتصامَنا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له مُفيضُ نتائج الأفكار من وافرِ إمداده ، ومخصِّصُ أهلِ التحقيق بدقيق النَّظر تخصيصَ العامِّ بقَصْره علىٰ بعض أفْراده ؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله أوفَرُ البرية فى الفضل سَهْما، والقائلُ

تنويهًا بفضيلة العلم : « لا بُورِكَ لِى فى صَبِيحةِ يَوْمٍ لا أزْدادُ فيه عِلْما » صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حُلُّوا من الفضل جواهِرَه الثمينه، والتابعين وتابعِى التابعين الذين ضُرِبتْ آباطُ الإبل منهم إلىٰ عالِمِ المدينه .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ ما صُرِفت إليه الهِمَم، وبَرِئَت بتأدية حقِّه الذِّمم، وغدَت النفوس بالنظر فى مصالحه مشتغِله ، والفكرُ لشرف محلِّه منه إلىٰ غيره منْتقله ، النظرُ فى أمر المدارس التى جُعِلت للاشتغال بالعلم سبَبا موصولا ، ولطَلَبته رَبْعا لا يزال بمجالس الذكر مأهُولا؛ لاسيَّما المدارس التى قد قَدُم فى الإسلام عهدُها ، وعَذُب باستمرار المعروفِ علىٰ توالى الأيَّام وِرْدُها .

ولما كانت المدرسة الصَّلاحية بفُسْطاط مصر المحروسة قد أُسِّس علىٰ التقوىٰ بُنْيانها ، ومُهِّدت علىٰ الخير قواعِدُها وأركانُها ، وآختصَّت طائفةُ المالكية منها بالخِصِّيصة التى أغْنىٰ عن باطن الأمر عُنوانُها ؛ وكان المجلسُ السامىّ هو الذى خطَبتْه الرُّتَب الجليلة لنَفْسها ، وعيَّنته لهذه الوظيفةِ فضائلُه التى قد آنَ ولله الحمدُ بُزُوغُ شمْسها، وعَهِدت منه المعاهدُ الجليلةُ حسنَ النظر فتاقَتْ فى يَومِها إلىٰ ما ألِفت منه فى أمْسِها ــ آقتضىٰ حُسْن الرأى الشريف أن نُفرده بهذه الوظيفةِ التى يقوم إفرادُه فيها مَقام الجمع، ونجمعَ له من طرفَيْها مايتَّفِق علىٰ حُسْنه البصَرُ ويقضى بطيب خَبَره السَّمْع .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف، العالى، المولَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الناصرىّ، الزَّيْنىّ : ــ لا زال يُقيم للدِّين شِعارا ، ويرفَعُ لأهل العلم الشريف مِقْدارا ــ أن يستقرّ فى الوظيفة المذكورة لما آشتهَر من علمه ودِيَانته، وبانَ من عفَّته المشهورة ونَزَاهتِه؛ واتَّصفَ به من الإفاده، وعُرِف [عنه] من نَشْر العلوم فى الإبْداء

والإعاده ؛ وشاع من طريقتِـه المعروفةِ فى إيضاحه وبيانه ، وذاعَ من فوائده التى قدّمَتْه علىٰ أبناء زمانِه ، ورفَعَتْه إلىٰ هذه المرتبة باستحقاقه علىٰ أقرانه .

فلْيُباشِرْ تدريسَها مُظْهِرا من فوائده الجليلةِ ما هو فى طَىِّ ضميره ، مضْمِرا من حُسْن بيَـانه ما يُستغنىٰ بقليله عن كثيره ؛ مقرّبا إلىٰ أذهان الطلبة بتهذيب ألفاظِه الرائقة ما يُفيـد ، مُورِدا من علومه المدوّنةِ ما يجمع له بين نَوادِر المقدّمات ومَدَارك التمهيد ؛ مُوَفِّيا نظرَها بحسن التدبير حقَّ النظر ، موفِّرا رِزْقها بمـا يُصَدِّق الخُبْرُ فيه الخَبَر ؛ قاصـدًا بذلك وجهَ الله الذى لايُخَيِّب لراجٍ أمَلا ، معامِلا فيه اللهَ معاملةَ من يَعْلم أنه لا يُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحسَنَ عملا . ومِلاكُ الوصايا تقوى الله تعـالىٰ فليجعلْها إمامَه ، و يتخيَّلْها فى كل الأحوال أَمامَه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، و يبلِّغه من رضاه نهايةَ سؤله وغاية أملِه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسـخة توقيع بالتدريس بقُبَّة الصالح ، أنشأتُه لقاضى القضاة جَمال الدين «يوسُفَ البِساطىّ» بعـد أن كُتِب له بهـا مع قَضاء القُضاة المـالكية ، فى العَشْر الأخير من شعبان سنة أربع وثمـانمـائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل للعلم جَمَالا تتهافَتُ علىٰ دَرْكه محاسنُ الفضائل ، وتتوارَدُ علىٰ ثبوت محامِده المتوارِدةِ قواطِعُ الدلائل ، وتُحقِّق شواهدُ الحـال من فضله ما يُتَلمَّح فيه من لوائح المَخَايل .

نحمـدُه علىٰ نِعَمه التى ما ٱستهلّتْ علىٰ وَلِىّ فأقلَعَ عنه غَمَامُها ، ولا ٱسـتقرّتْ بيد صفِىّ فٱنتُزِعتْ من يَدِه حيثُ تَصرّف زِمَامُها ؛ ونشهد أنـ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُزْهِر بمعالم الدِّين غُروسُها ، وتَيْنَـع بثمار الفوائد المتتابِعة دُروسُها ؛

وأن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسوله أشرفُ الأنبياء قَدْرا ، وأوّلُهم فى عُلُوِّ المرتبة مكاناً وإن كان آخرَهم فى الوجود عَصْرا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الحائزين بقُرْبه أنفَس المناقب ، والفائزينَ من دَرَجة الفضل بأرفَع المراتب ؛ صلاةً تكون لِحلَق الذِّكر نِظاما ، ولأوّلها ٱفْتِتاحا ولآخرها خِتَاما ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ من شِيَمنا الشريفه ، وسجَايانا الزاكيَةِ المُنِيفه ؛ أنا إذا منَحْنا مَنْحا لا نَستَعيده ، وإذا أعطينا عَطاءً لا ننقُصُه بل نَزِيدُه ؛ وإذا قرّبنا وليًّا لا نُقْصيه ، وإذا أنعمنا علىٰ صَفِيّ إنعاما لا نَعُدّه عليه ولا نُحْصيه .

ولمَّا كان تدريسُ المدرسة المالكية بقُبَّة الصالح من أعلىٰ دُرُوسهم قَدْرا ، وأرفَعها لدىٰ التحقيق ذكرا ، وأعظمها إذا ذُكرت الدروس فَخْرا ؛ إذ بمجال جِدَاله تنفَطر المَرائر ، وبمَيْدان مَباحثه تشتهر البُلْقُ من مُضْمَرات الضمائر ؛ وبسُوق مُنَاظرته يتميَّز النُّضَار عن الشَّبَه ، وبمحَكِّ مُطارحته تتبيَّن الحقائقُ من الشُّبَه ؛ وبمَظانِّ مجالسه يُعرَف العالى والسافِل ، وبمَعْركة فُرْسانه يُعرَف مَن المفضُولُ والفاضل ؛ ومن ثَمَّ لا يَليه من علمائهم إلا الفُحُول ، ولا يتصدَّىٰ لتدريسه إلا مَنْ أمسىٰ بحُسَام لسانه علىٰ الأقْران يَصُول ؛ ولم يزَلْ فى جملة الوظائف المضافة لقضاء القُضاة فى الأوّل والآخر ، تابعًا لمنْصب الحكم فى الوِلاية كلَّ زمن إلا فى القليل النادر ؛ وكان المجلس العالى ، القَاضوِىّ ، الكبيرىّ (إلىٰ آخر ألقابه) أدام الله تعالىٰ نعمتَه قد ٱشتمَلَتْ ولايتُه عليه لٱبتداء الأمر ٱستحقاقا ، وحَفِظَه كَرَمُنا عليه فلم يجِد الغيرُ إليه ٱستِطْراقا ــ ٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نُتْبِع ذٰلك بولاية ثانيةٍ تُؤَكد حُكمَ الولاية الأُولىٰ ، ونُردِفَه بتوقيع يجمع له شرفَ القُدْمة والجمع ولو بوجه أَوْلىٰ .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى ، المْولَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ، الزَّيْنىّ – لا زال يعتمِد فى مَشاهد الملوك أتمَّ المصالح ، ويُخُصّ الصالحَ منهم بمَزِيد النَّظر حتَّى يقال ما أحسَنَ نظرَ الناصر فى مَصَالح الصَّالح ! – أن يستمرّ المجلسُ العالى المشارُ إليه علىٰ ما بِيَدِه من الولاية الشريفة بالتدريس بقُبَّة الصالح المذكورة ، ومَنْع المُعارض وإبطال ما كُتِب به وما سيُكْتَب ما دام ذٰلك فى يده ؛ علىٰ أتمّ العوائد وأكملها ، وأحسَنِ القواعد وأجملها .

فليتلقَّ ما فُوّض إليه بكِلْتا يدَيْه ، ويشْكُرْ إحساننا الشريفَ علىٰ هذه المِنْحة فإنَّها نعمةٌ جديدةٌ توجبُ مزيدَ الشكر عليه ؛ وليتصدّرْ بهذا الدرس الذى لم تزل القلوبُ تتقطّع علىٰ إدراكه حَسَرات ، ويتصدَّ لإلقاء فوائده التى إذا سمعها السامع قال : هُنا تُسْكَبُ العبَرات ، ويبرُزْ لفُرْسان الطَّلَبة من ... ... [1] صدْره من كَمِينه ، ويُفِضْ علىٰ جَدَاولهم الجافَّة ماسَحَّ به فكره من يَنَابيع مَعِينه ؛ مستخرجًا لهم من قامُوس قريحته دُرَر ذٰلك البَحْر الزاخر ، مُظْهِرا من مكنُونِ علمه مالا يُعلم لِمَدّه أوّلٌ ولا يُدرك لَمَدَاه آخر ؛ ويُنفِقْ من ذخائر فضلِه ما هو بإنفاقه مَلِىّ ، متفقّدا بفضل غَنَائه من هو عن فرائده المُرْبِحة غيرُ غَنِىّ ؛ مقرّرًا للبحْث تقريرًا يزول معه الاْلتباس ، مسْنِدا فروعَه النامية إلىٰ أثبتِ الأصول من الكتاب والسنَّة والإجماع والقِياس ؛ معتمِدا لمـا عليه جادَّةُ مذهَبِـه فى الترجيح ، جاريًا علىٰ ما ذهب إليه جَهابذةُ محقِّقيه من التصحيح ؛ مُقْبِلا بطَلَاقة وجهه فى دَرْسِه علىٰ جماعتِه ، باذلًا فى اْستمالتهم طاقةَ جُهدِه محسنا إليهم جُهـدَ طاقته ؛ مربّيًا لهم كما يُربِّى الوالدُ الولد ، مُوفِّيا من حقوقهم [فى] التعليم ما يبقىٰ له ذِكْرُه علىٰ الأبد ؛ منمّيًا ناشئتهم بالتـدريب الحَسَن تنميةَ الغُروس ، جاهدًا فى ترقِّيهِـم بالتـدريج حتّى يؤهَّل من لم يكن تُظَنُّ فيه أهليةُ الطلب لأنْ يتصـدّىٰ

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة .

للفتاوىٰ وإلقاء الدروس ؛ سالكا من مناهج التقوىٰ أحسنَ المسالك ، مُوردا من تحقيقات مذهبه ما إذا لَحَه اللامحُ لم يشُكَّ أنه لِزمام المذْهب مالك ؛ والله تعالىٰ يُجْريه علىٰ ما ألِفه من مَوارد إنعامه ، ويمتّع [هذه الرتبة] السنيَّة : تارةً بمجالس دُرُوسه وتارة بمجالس أحكامه ؛ والاعتماد ... ...

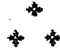

وهذه نسخة توقيع بتدريس الحديث بالجامع الحاكمىّ ، من إنشاء الشّهاب «محمودٍ الحلبىّ» للشيخ قُطْب الدين «عبد الكريم» وهى :

الحمدُ لله الذى أطلَع فى أُفُق السنّة الشريفة من أعلام علمائها قُطْبا ، وأظهر فى مَطالعها من أعيان أئمّتها نُجوما أضاءَ بهم الوجودُ شَرْقا وغَرْبا ؛ وأقام لحِفْظها من أئمة أعلامها أعلامًا أحسَنُوا عن سَنَدها دفاعا وأجملوا عن مُتُونها ذَبّا ، وشرَّف بها أهلَها فكلّما بَعُدتْ راحلتُهم فى طلبها آزدادُوا من الله قُرْبا ؛ وآختار لحَمْلها أُمناءَ شَغَفَتْ محاسنُهم قلوبَ أهل الفِرَق علىٰ آختلافها حُبّا ، وسلَكُوا باتباعها سَنَن السُّنَن فأمنُوا أن تُروِّع لهم الشُّبَهُ سِرْبا ؛ وألهَمنا من تعظيم هذه الطائفةِ ما مهَّد لهم فى ظِل تقرُّبنا إليه مَقَاما كريمًا ومَنْزِلا رَحْبا ، وعصَم آراءَنا فى الآرتيادِ له من الخَلَل فلا نَختار له إلا من تُسَرُّ باختياره طَلَبة وتُغْبَط بتعيينه أئمةٌ ونُرضِى بآرتيادِه رَبّا .

نحمده علىٰ نِعَمه التى صانَتْ هذه الرتبةَ السنيَّة بأكْفائها ، وزانَتْ هذه المرتبةَ الشريفةَ بمن لم تَمِل عينُه فى تأثيل قَواعدها إلىٰ إغْفائها ، وجعلتْ هذه الدرجةَ العليَّة فَلَكا تُشْرق فيه لأئمّة الحديث أنوارُ علوم تَفْنىٰ الدُّهورُ دُونَ إطفائها .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُجادل عن سُنَّته الشريفةِ بألِسنة أسنَّته ، مجالدٍ عن كلمتها العاليةِ بقَبْض مَعاقِد سُيُوفه وإطلاق أعِنَّته ، باعث

بالجهاد دعْوَتها إلىٰ كلّ قلْب كان عن قَبُولها فى حُجُب أكنَّته . ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أُوتِىَ جوامعَ الكَلِم ، ولوامعَ السُّنَّة التى من ٱعتصَم بها عُصِم ومَنْ سَلَّم بهــا سَلِم؛ فهى مع كتابِ الله أصلُ شَرْعه القويم ، وحبلُ حكمِه الذى لا تُمَكَّنُ يدُ الباطل من [حل] عِقْده النظيم ، وكنوزُ دِينه التى لا يُلَقَّاها إلا ذُو حظٍّ عظِيم؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَضُّوا علىٰ سُنَّته بالنَّواجذ ، وذَبُّوا عن شريعته بسُيُوف الجِلاد القواطع وسِهَام الجِدَال النوافذ؛ صلاةً لا يزال يُقام فرضُها ، ويُمْلأ بها طُولُ البسيطة وعَرْضُها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن أَوْلىٰ ما توجَّهت الهِمَمُ إلىٰ ٱرتياد أئمَّته ، وتوفَّرت الدَّواعى علىٰ التقرُّب إلىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم بتفويض مَناصبه إلىٰ البَرَرة الكِرام من أُمَّته ــ علمُ الحديث النبوىّ صلواتُ الله وسلامُه علىٰ قائله ، وحفظُه بدرُوسه التى جَعلَتْ أواخرَ زمَنه فى صِحَّة نَقْله ومعرفةِ أسْراره كأوائِله ؛ وأن(١) نختار لذلك من نَشَأ فى طَلَبه حتَّى ٱكتَهل ، وسَرىٰ فى تحصيله سُرَىٰ الأهلَّة حتَّى ٱكتمَل ؛ وغُذِّى بلِبان التبحُّر فيه حتى ٱمتزَج بأديمه ، وجَدَّ فى تحصيله وٱجتهد حتَّى ساوىٰ [فى] الطلَب بين حديثِ عُمْره وقديمه ؛ وحَفِظ من مُتُونه ، ما بمثله يستَحِقُّ أن يُدعىٰ حافظا ، وغلَب علىٰ فُنونه ، حتّى قلَّ أن يُرى [بغير] علومه والنظرِ فى أحكامه لافِظا ؛ فإنَّه بعد كتاب الله العزيز مادّةُ هذا الدِّين الذى يُحْكَم بنُصوصه ، وتتفاوت رُتَبُ العلمــاء فى حُسْن العمل بمطلَقه ومقيَّــده وعُمومه وخُصوصــه ؛ وعنهما تفرّعت أحكامُ المِلَّة فملأت عُلُومُها جميعَ الآفاق ، وزكَتْ أحكامُها الشرعيةُ علىٰ كَثْرة الإنفاق ؛ وسرىٰ الناس منها علىٰ المَحجَّة التى ٱستوىٰ فى الإشراق ليلُها ونهارُها ، وعَلَا علىٰ المِلَل بالبراهين القــاطعةِ نُورُها ومَنارُها ؛ وكفىٰ أهلَها شرفًا أنهم يذُبُّون عن سنَّة نبيهم ذَبَّ اللُّيوث ، ويجُودُون

(١) لم يتقدّم ما يعطف عليه ولعل الأصل «فوجب أن نهتم به أجل اهتمام ، وأن نختار الخ» .

علىٰ الأسماع بما ينفَع الناسَ فى أمر دينهم ودُنْياهم منها جَوْدَ الغُيوث ، ويُحافظون علىٰ ألفاظها محافظةَ من سمِعها منه صلى الله وسلم عليه ، ويعظِّمُون مجالسَ إيرادها ونَقْلِها حتّى كأنهم لحسن الأدَب جلوس بين يدَيْه ، ويُغالُون فى العُلق طلبا للقُرْب منه وذٰلك من أسْنَى المَطالب ، ويَرْحَلُون لضَمِّ شَوارده من الآفاق فيأقْرَبَ المَشارق عندهم من المَغَارب ! .

ولما كان المجلسُ السامىّ الفلانىّ : هو الذى عُنِى بكلِّ ما ذُكر من وصفٍ كريم ، وحديثِ وَرَع قديم ، وقِدَم هِجْرة فى علم الحديث ٱقتضَتْ له حُسنَ أوْلَوِيَّة ووجُوبَ تقديم ؛ وتلقّ هذا العلم كما وُصف عن أئمّته حتّى صار من أعيانهم ، ولقِىَ منهم عُلَماءَ أضحى باقتفائهم كما كانوا رُحْلَةَ زمانهم ؛ ونظر فى عُلُومه فأتقنَها فكأنه ينطِقُ فيها بلسان ٱبنِ الصَّلاح ، وأحرزَ غاياتِ الكمال ، فى أسماء الرِّجال ، فإلىٰ ٱطّلاعه يُرجَع فى تجريح المجرَّح وتعديل الصِّحاح ؛ وكان منصبُ تدريس الحديث الشريف النبوىّ الذى أنشأناه بالجامع الحاكمىّ تكثيراً لنشر أحاديث مَنْ لاينطق عن الهوىٰ ، ونوَيْناه لٱرتواء الرُّواة من بحر هذا العلم الشريف بالإعانة علىٰ ذلك وإنَّما لكُلِّ ٱمرىءٍ ما نوىٰ ، قد ٱستُغْرِقَتْ أوقاتُ مباشره بتفويضنا الحكم العزيز علىٰ مذهبه إليه ، وتوفير زمانه على (١) ... ...

قلت : وتختلِف أحوالُ التواقيع التى تُكتَب بالتداريس باختلاف موضُوعاتها : من تدريس التفسير ، والحديث ، والفِقه ، واللُّغة ، والنحْو ، وغيرذلك ، فى براعة الٱستهلال والوصايا ، وهو فى الوصايا آكَدُ .

(١) ترك هنا بياضا للبقية ولعله لم يكمله اتكالا على ماهو معروف ومشهور فى مثله .

وهذه نُسَخ وصايا أوردها فى التعريف :

وصية مدرّس — وليَطْلُع فى محرابه كالبَدْر وحولَهُ هالةُ تلكَ الحَلَقه[1]، وقد وقَتْ أهدابُ ذلك السوادِ منه أعظمَ اسْوِدادًا من الحَدَقه ؛ وليرْقَ سَجّادتَه التى هى لِبْدة جَوادِه إذا استَنَّ الجدال فى المِضْمار، وليُخْفِ [أضواءَ] أولئك العلماءِ الذين هم كالنُّجوم كما تتضاءَلُ الكواكبُ فى مَطالِع الأقْمار، وليَبْرُزْ لهم من وراء المحراب كَمِينَه ، وليُفِضْ علىٰ جَداوِلِهم الجافَّة مَعِينَه ؛ وليَقْذِف لهم من جَنَبات مابين جَنْبيه دُرَر ذٰلك البحر العَجَّاج ، وليُرِهِمْ من غُرَر جِياده ما يُعْلَم به أنَّ سوابِقَه لا يَهُولُها قَطْع الفِجَاج ؛ ولْيُظْهِرْ لهم من مكنُون علمه ما كان يُخْفِيه الوَقَار ، ولْيَهَبْ من مَمْنُون فضله مايَهَبُ منه عن ظهْر غِنًى أهلَ الافتقار ؛ وليُقرِّرْ تلك البُحُوث ويبيِّنْ ما يرِدُ عليها ، وما يُرَدُّ به من مَنْعها وتطرّق بالنقْض إليها ؛ حتَّى لا تنفصل الجماعةُ إلا بعد ظُهور الترجيح ، والإجماعِ علىٰ كلمةٍ واحدةٍ علىٰ الصحيح ؛ وليُقْبِلْ فى الدروس طَلْقَ الوجه علىٰ جَمَاعته ، وليستَمِلْهم إليه بجُهْد استطاعته ؛ ولْيُرَبِّهم كما يُرَبِّى الوالدُ الولَد ، وليستَحْسِنْ ما تجيءُ به أفكارهم وإلا فكم رَجلٍ بالجَبْه لِبِنْتِ فِكْرٍ وَأَد ؛ هذا إلىٰ أخذِهم بالاشتغال ، وقَدْح أذهانِهم للاشتعال ؛ وليُنَشِّئ الطلبة حتَّى يُنَمِّيَ منهم الغُروس ، ويؤهِّلَ منهم مَنْ كانَ لا يُظَنُّ منه أنه يتعلَّم لأن يُعَلِّمَ ويُلْقِيَ الدُّروس .

وصية مقرئ :

ولْيَدُمْ علىٰ ماهو عليه من تلاوة القرءان فإنه مِصْباحُ قلبه ، وصَلاحُ قُرْبه ، وصَباح القَبُول المُؤْذِنِ له برضا ربه ؛ وليجعَلْ سُوَره له أسْوارا ، وآياته تُظْهِر بين عينيه

---

(١) جرى فى تحريك لام الحلقة على ما رواه يونس عن أبى عمرو بن العلاء من كونه لغة فى السكون أنظر "المصباح" .

أنوارا ؛ وليتْلُ القُرءان بحُروفه وإذا قرأ آستعاذ ، وليجمَعْ طُرُقه وهى التى عليها الجمهور ويَتْرُك الشَّوَاذّ ، ولا يرتَدّ دونَ غايةٍ لإقْصار ، ولا يقِفْ فبعد أن أتَمّ لم يبْقَ بحمد الله إحصار ، وليتوسَّعْ فى مذاهِبِه ولا يخْرُجْ عن قراءة القُرّاء السبعة أئمة الأمصار ، وليبذُلْ للطَّلَبة الرِّغَاب ، وليُشْبِع فإنّ ذَوِى النَّهْمة سِغَاب ، وليُرِ الناسَ ما وَهبه الله من الآقتدار فإنه آحتضَنَ السَّبْع ودخَل الغاب ؛ وليُتِمّ مبانِىَ ما أتم « آبنُ عامر » و« أبو عمرو » له التعْمير ، ولَقَّه « الكسَائى » فى كسائه ولم يقل جَدِّى « آبنُ كثير » ؛ وحُمّ به « لحمزةَ » أن يعُودَ ذاهبُ الزمان ، وعُلِم أنه لا « عاصِمَ » من أمر الله يُلْجأ معه إليه وهو الطُّوفان ؛ وطَفِق يتفجّر علما وقد وقفَت السُّيول الدَّوافع ، وضَرأ كثرُ قرّاء الزمان لعدم تفهيمهم وهو « نافع » ؛ وليُقْبِل علىٰ ذَوِى الإقبال علىٰ الطَّلَب ، وليأْخُذْهم بالتربية فما منهم إلا من هو إليه قد آنتَسَب ؛ وهو يعلم ما مَنّ الله عليه بحفظ كتابه العزيز من النَّعماء ، ووصل سبَبَه منه بحبل الله الممتدّ من الأرض إلىٰ السماء ؛ فليَقْدُر حقَّ هذه النعمة بحسن إقباله علىٰ التعليم ، والإنصاف إذا سُئِل فعِلْمُ الله ما يتَناهَىٰ ﴿ وفَوْقَ كلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم ﴾ .

وصية محدّث :

وقد أصبح بالسنّة النبَوِيّة مضْطلِعا ، وعلىٰ ما جمعتْه طرُقُ أهل الحديث مُطَّلِعا ؛ وصَحّ [فى] الصحيح أنّ حديثَه الحسَن ، وأنّ المرسَلَ منه فى الطلَب مقْطُوع عنه كُلّ ذى لَسَن ؛ وأنّ سنَدَه هو المأخوذُ عن العَوَالى ، وسَماعه هو المرَقّص منه طُولَ الليالى ؛ وأنّ مثله لا يُوجَد فى نَسَبه المُعْرِق ، ولا يُعرَف مثلُه للحافظيْن « آبنِ عبد البَرّ » بالمَغْرِب و « خَطيبِ بَغْدَادَ » بالمَشْرِق ؛ وهو يعلم مِقدارَ طاب الطالب فإنه طالمَا شَدّ له النِّطاق ، وسعىٰ له سَعْيه وتجشَّمَ المَشَاقّ ؛ وآرتحل له يشتدّ به حرصُه والمَطَايا

مُرزِمه ، و ينبهه له طلبُه والجفون مُقفلة والعيون مهوّمه ؛ ووقف على الأبواب لا يُضجره طولُ الوقوف حتى يُؤذَن له فى وُلوجها ، وقعَد القُرفُصاءَ فى المجالس لا تَضيق به على قِصَر فُروجها .

فليُعامل الطلبةَ إذا أتَوْه للفائدة معاملةَ من جَرَّب ، وليُنشِّط الأقرباءَ منهم ويُؤنس الغرباء فما هو إلا ممن طاب آونةً من قريب وآونةً تَغَرَّب ؛ وليُسفِرْ لهم صَباحُ قصده عن النَّجاح ، وليَنتقِ لهم من عُقوده الصِّحاح ، وليوَضِّح لهم الحديث ، وليُرِحْ خواطرَهم بتقريبه ما كان يُسار إليه السَّيْرَ الحثيث ؛ وليُؤتهم مما وسَّع الله عليه فيه المجَال ، ويعلّمهم ما يجب تعليمُه من المُتون والرجال ؛ ويبصّرهم بمواقع الجَرْح والتعديل ، والتوجيه والتعليل ، والصحيح والمعتلّ الذى تتناثرُ أعضاؤه سُقْما كالعليل ؛ وغير ذٰلك مما لرجال هذا الشان به عِنَايه ، وما يُنقَّب فيه عن دراية أو يُقْنَع فيه بمجرّد روَايه ؛ ومثله ما يُزاد حلما ، ولا يُعرَف بمن رخَّص فى حديثٍ موضوعٍ أو كَتم عِلْما .

وصية نحوىّ :

وهو زيدُ الزَّمان ، الذى يُضرَب به المَثَل ، وعَمْرو الأوان ، وقد كَثُر من سيبويه المَلَل ، وما زِنِىّ الوقت ولكنه الذى لم تُستَبَح منه الإبل ؛ وكسائىّ الدَّهر الذى لو تقدّم لما آختار غيْرَه الرشيدُ للأمون ، وذُو السؤدَد ، لا أبو الأسود ، مع أنه ذُو السابقة والأجر الممْنون ؛ وهو ذو البِرِّ المأثور ، والقدر المرفوع ولواؤه المنصوبُ وذَيْل نخاره المجرور ؛ والمعروفُ بما لا يُنْكر لمثله من الحَزْم ، والذاهب عملُه الصالحُ بكل العوامل التى لم يُبْقِ منها لحَسُوده إلا الجَزْم ؛ وهو ذُو الأبنيَة التى لا يُفْصِح عن مثلِها الإعراب ، ولا يُعرَف أفْصَحُ منها فيما أُخذَ عن الأعراب ؛

والذى أصبحت أهدابُه فوقَ عمائم الغمائم تُلاث ، ولم يزلْ طُولَ الدهر يُشْكَر منه أمسُه ويومُه وغَدُه وإنما الكلماتُ ثلاث . فلْيتصدَّ للإفاده ، وليعلِّمْهم مثلَ ما ذُكر فيه من علم النحو نحوَ هذا وزياده ؛ وليكن للطلبة نَجْما به يهْتدىٰ ، وليرفع بتعليمه قَدْرَ كل خَبَرٍ يكون خبرًا له وهو المبتدا ؛ وليقدِّمْ منهم كلَّ من صَلَح للتبريز ، وٱستحقَّ أن يُنصَب إمامًا بالتمييز ؛ وليُوردْ من موارده أعذَبَ النِّطاف ، وليجرّ إليه كلَّ مضاف إليه ومُضاف ؛ وليُوقِفْهم علىٰ حقائق الأسماء ، ويُعرِّفْهم دقائقَ البحوث حتَّى ٱشتقاقَ الاسم هل هو من السُّموّ أو من السماء ؛ وليبيِّن لهم الأسماءَ الأعجميَّة المنقولةَ والعربيةَ الخالصه ، وليدُلَّهم علىٰ أحسن الأفعال لا ما يُشْتَبه فيه بصفات كان وأخواتها من الأفعال الناقصه ؛ وليحَفِّظْهم المُثُل وكلماتِ الشُّعراء ، ولينصِب نفْسَه لحَدّ أذهان بعضهم ببعض نصبَ الإغراء ؛ وليعاملْ جماعة المستفيدين منه بالعَطْف ، ومع هذا كلِّه فليرفُقْ بهم فما بلغ أحدٌ علما بقوّة ولا غايةً بعَسْف .

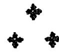

وهذه وصية لغوىّ أوردها فى التعريف[1] .

(١) بياض بأصله ، ولم تذكر هذه الوصية فى نسخة "التعريف" التى بيدنا .

الوظيفة الثامنة

(التصدير)

وموضوعه الجلوس بصَدْر المجالس بجامع أونحوه . ويجلس متكلِّم أمامَه علىٰ كُرْسيّ كأنه يقرأ عليه ، يفتتح بالتفسير ثم بالرَّقائق والوَعْظِيَّات ، فإذا ٱنتهىٰ كلامُه وسكت ، أخذ المتصدّر فى الكلام علىٰ ما هو فى معنىٰ تفسير الآية التى يقع الكلامُ عليها ، ويستدرج من ذٰلك إلىٰ ماسنَح له من الكلام . وربما أُفْرِد التصديرُ عن المتكلم علىٰ الكرسىّ .

وهذه نسخةُ توقيع بتصديرٍ أنشأتُه للشيخ شهاب الدين « أحمدَ الأنصارىّ » الشهير بـ«الشابّ التائب» بالجامع الأزهر، وهى :

رسم ... ...[1] لا زالتْ صدَقاتُه الشريفةُ تخُصُّ المجالسَ بمَنْ إذا جلس صدْرَ مجلس كان لرتبته أجملَ صَدْرٍ يجتبىٰ من علَماء التفسير، ومن إذا دقَّق لم يفهم ... ...[2] عنه وإذا سلك سبيل الإيضاح كان كلامُه فى الحقيقة تفْسيرَ تفسير، وتَصطفى من سَراة الأماثل مَنْ دارَ نعتُه بين « الشابِّ التائب » و « الشيخِ الصالح » فكان له أكرمُ نعتٍ علىٰ كلِّ تقدير ـ أن يستمرَّ المجلس السامىّ أدام ـ الله تعالىٰ رفعته ـ فى كذا وكذا ، لأنَّه الإمامُ الذى لاتُسامىٰ علومُه ولا تُسام، والعلَّامة الذى لاتُدْرَك مَدارِكه ولا تُرام، والحَبْرُ الذى تنعقدُ علىٰ فضله الخَناصر، وفارسُ الحَلْبة الذى يَعْتَرف بالقُصور عن مجاراةِ جِيَاده المُناظِر، وآيةُ التفسير التى لاتُنْسَخ، وعَقْد حقيقتهِ الذى لا يُفْسَخ، والماهرُ الذى ٱستحقَّ بمَهارته التصدير، والجامعُ لفُنونه المتنوعة

(١) أى بالامر الشريف الخ .

(٢) بياض بالأصل ولعله «لم يفهم شرحه إلا عنه» أو نحو ذلك .

جمعَ سلامةٍ لا جمعَ تكسير ، وتَرْجمانُ معانيه الآتى من غرائب تأويله بالعَجَب العُجَاب ، والعارفُ بهَدْى طريقه الذى إذا قال قال الّذِى عِنْدَه عِلْمٌ من الكِتَاب ، وزاهدُ الوقت الذى زيَّن بالعلم العمَل ، وناسكُ الدهر الذى قصَّر عن مَبْلَغ مَدَاه الأمل .

فليتلَقَّ ما أُلقِىَ إليه بالقَبول ، وليَسْتنِدْ إلىٰ صدْرِ مجلس يقُول فيه ويطُول ، وليبيِّنْ من معانى كتاب الله ما أجمَلَ ، ويوضِّحْ من خفِىِّ مقاصده ما أَشْكَل ، وليَسْلُكْ فى تفسيره أقومَ سَنَن ، ويُعْلِنْ بأسراره الخفيَّة فسرُّ كتاب الله أجْدَرُ أن يكون عن عَلَن ، وليَجْرِ فيه علىٰ ما أُلِف من تحقيقاته فإنه إذا لم يحقِّق المناظرةَ فَمَنْ ؟ ، وليأخُذْ مشايخَ أهل مجلسه بالإحسان ، كما أحسَن الله إليه فهل جَزَاءُ الإحْسان إلا الإحْسَان ، ويُحضَّ شَبابَهم علىٰ التوبة ليُحبَّهم الله فيتَّصل فى المحبة سَنَدُهم فإن « الشابَّ التائبَ » حبيبُ الرحمن ؛ والله تعالىٰ يرقِّيه إلىٰ أرفَع الذُّرا ، ويرفَع مجلِسَه السامى علىٰ محل الثُّريّا (وإنا لنرجُو فَوْقَ ذٰلِكَ مَظْهَرا) . إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة التاسعة

(النظر)

وموضُوعه التحدُّث فى أمورٍ خاصَّة بإباحة ضَروراتها ، وعمَل مَصالحها ، وٱستخراج متحصِّل جهاتها ، وصَرْفه علىٰ الوجه المعتَبر ، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وتشتمِل علىٰ عِدّة أنظار :

منها ـ نظر الأَحْباس : جمع حُبْس[1] وهو الوَقْف : فقد تقدّم فى المقالة الثانية أنه كان أصلُ وَضْعه أراضِىَ ٱشتراها (الإمامُ الليثُ بن سعد رضى الله عنه)

---

(١) فى المختار «والحبس كالقفل ماوقف» وهو المراد هنا .

ووقفها علىٰ جهاتِ برٍّ، ثم تبعه الناسُ فى إضافة الأوقاف إلىٰ ذٰلك ، إلىٰ أن كانتْ وزارة الصاحبِ بهاءِ الدين ٱبن حنَّا فى سلطنة الظاهرِ بيبرس البُنْدُقْدارى ، فأفردَ للجوامع والمساجد والرُّبُط والزَّوايا ونحو ذٰلك رِزَقا ، وقصر تحدُّثَ ناظرِ الأحباس ومباشِريه عليها ، وأُفردت الأوقافُ بناظرٍ ومباشِرين كما سيأتى :

وهذه نسخة توقيع بتدريس الطب بالبِيمارَسْتان المنصورى(١) ، كُتِب بها «لمهذَّب الدين» وهى :

الحمــدُ لله الذى دَبَّر بحكمته الوجُود ، وعمَّ برحمته كلَّ موجود ، وحال بنَفْع الدواء بين ضُرِّ الداء كما حالتْ عطاياه دُونَ الوُعود ؛ نحمَده ونشكره وهو المشكور المحمُود ، ونُثنى عليه خيرَ الثناء قيامًا وقُعودًا وعلىٰ الجُنُوب وفى السجُود ، ونستزيدُه من فضله فإنه أهلُ الفضل والجُود .

ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً اللهُ بها والملائكةُ وأولُو العــلم شُهود ؛ ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبشِّر لأمته بالجَنَّات والخلُود ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة دائمةً إلىٰ يوم الوُعُود .

وبعــد ، فإنَّا لمــا أقام الله بنا شَعائرَ الإيمــان ، وأصبح دينُه بحمد الله منصوراً بنا علىٰ سائرِ الأدْيان ، وجاهدْنا فى الله حقَّ الجهاد باليَد والقلب واللِّسان ، وشيَّدنا لعلومه وشرائِعه كلَّ بديع الإتقان ، ورتَّبنا فيه من العلماء الأعيان كلَّ رفيع الشان ، وٱخترْنا له الأخيار من أهل العلم بالطِّب والفِقه والحديث والقُرءان ؛ ورأينا كل من تقدّمَنا من الملوك ، وإن سلك فى سياسة الرعية أحسنَ سُلُوك ، قد ٱهتمَّ بعلمِ الأديان وأهمل

(١) حق هذا التوقيع أن يذكر فى تواقيع الوظيفة السابعة الخاصة بالتداريس .

علمَ الأبدان، وأنشأ كلٌّ منهم مدرسةً ولم يحْفِل بِبِيمارَسْتان، وغفَل عن قوله صلى الله عليه وسلم : «العِلْم علْمان»، ولم يأخُذ أحدا من رَعيته بالآشتغال بعلم الطِّب المُضْطَّرِ إليه، ولا وقف وقفا علىٰ طلَبة هـذا العلم المنصوص عليه، ولا أعدّ له مكانًا يحضُر مَنْ يشتغل بهذا الفن فيه، ولا نصَب له شخصا يتمَّثل هذا المشتغل لديه ـ علمنا نحن بحمد الله تعـالىٰ من ذٰلك ما جهلُوه، وذكّرْنا من هذه القُرْبة ما أهملُوه، ووصَلْنا من هذه الأسباب الدِّينية والدُّنيوية ما فَصَلوه، وأنشأنا بمارَسْتانا يبْهَر العيونَ بَهْجه، ويفُوق الأبنيةَ بالدليل والحجَّة، ويحفَظ الصحةَ والعافيةَ علىٰ كل مُهْجه؛ لو حلَّه من أشْفىٰ لَعُوجِل بالشِّـفا، أو جاءه من أكْمَده السُّقْم لاشْتفى، أو أشرف عليـه العُمُر بلا شِفاء لعاد عنه بشِفَا، ووقفْنا عليه من الأوقاف المبرورة مايملأ العينين، ويُطْرِف سمـاعُ جملته الأُذُنين، ويعيدُ عنه مَنْ أمَّه مملوء اليدين، وأبحنا التَّداوىَ فيـه لكل شريفٍ ومشروفٍ ومأمورٍ وأمير، وساويْنا فى الآنتفاع به بينَ كل صغيرٍ وكبير، وعلمنا أن لانظير لنا فى مُلْكنا ولانظيرَ له فى إبقائه فلم نجعل لوقْفه وشرطه من نظير، وجعلنا فيه مكاناً للآشتغال بعِلْم الطب الذى كاد أن يُجهَل، وشرَعنا للناس إلىٰ وِرْد بحره أعذَبَ مَنْهَل، وسهَّلنا عليهـم من أمره ما كان الحُـلْم به من اليقَظة أسهَل؛ وآرتدْنا له من علماء الطِّب من يصْلُح لإلقاء الدروس، وينتفِع به الرئيسُ من أهل الصِّناعة والمرءوس، ويؤتَمَن علىٰ صحة الأبدان وحِفْظ النفوس؛ فلم نجِد غيرَ رئيس هذه الطائفة أهلاً لهذه المرتبه، ولم نَرْض لها مَنْ لم تكن له هذه المَنْقَبه، وعلمنا أنه متىٰ وليَها أمسىٰ بها مُعْجَبا وأضحتْ به مُعْجَبه .

ولـما كان المجلس السامى « مهـذَّب الدين » هو الرئيس المشارُ إليه، والوحيدُ الذى تُعقَد الخناصِرُ عليه؛ وكان هو الحكيم « بقراط »، بل الجليـل « سقراط »؛ بل الفاضل « جالينوس »، بل الأفضـل « ديسقُوريدُوس » ـ آقتضت الآراء

الشريفةُ أن تُزاد جَلالتُه بتولية هـذا المنصب الجليل جَلالَه ، وأن تُزَفَّ إليـه تجرُّ أذيالَه ، وأن يقال : (لم يَكُ يَصْلُح إلا لَهَـا ولم تَكُ تَصْلُح إلّا له) .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال للدّين ناصِرا ، ولأعلامِ العُـلوم ناشِرا ـ أن يفوّضَ إليـه تدريسُ الطب بالبيمارَسْتان المبـارك المنصوريّ ، المستجدّ الإنشاء بالقاهرة المحروسة ، علمًا بأنه المتمَهِّر فى هذا الفنّ ، وأنه عند الفِراسة فيه والظّنّ ، وأنه سقراطُ الإقليم إذا كان غيرُه سِقْراط الدّنّ ؛ وثقةً بأنا للجَوْهَر قد ٱلتَقَطْنا ، وبالخيْر قد ٱغتَبَطْنا ، وعلى الخبير قد سقَطْنا .

فلْيتَلَقَّ هـذه النعمةَ بالشكر الجليـل ، والحمدِ الجزيل ، والثناءِ الذى هو بالنَّمَـاء والزيادة كَفيـل ؛ ولينتصِبْ لهـذا العِلم المباركِ ٱنتصابَ من يقوم بالفَرْض منـه والسنَّه ، ويُعْرَفُ له فيه الفضلُ ويُتقلَّد له فيه المِنَّه ، ويُثْنَى على آثاره الجميلة فيه وتُثْنَى إليه الأعِنَّه ؛ وليُبْطِل بتقويمه الصحّةَ ما ألَّفه ٱبنُ «بطْلان» ، وليُرِنا بتدبيره جِبِلّةَ البر فإنه «جالينُوس» الزمان ، وليبذل النَّجاة من الأمراض والشفاءَ من الأسـقام فإنه «ٱبن سِينا» الأَوان ؛ وليجمع عنده شَملَ الطلبه ، وليُعْطِ كلَّ طالبٍ منهم ماطلبه ، وليبلِّغْ كلَّ متمنٍّ من الاشتغال أرَبَه ؛ وليشرَحْ لهم صدرَه ، وليبذُلْ لهم من عمره شطْرَه ، وليكْشِفْ لهم من هذا العلم المكنون سِرّه ، وليُرِهم ماخفِيَ عنهم منه جَهْره ؛ وليجعلْ منهم جماعة طَبائعيه ، وطائفةً كحّالين وجرائحيّه ؛ وقوما مُجَبِّرين ، وبالحديد عامِلين ، وأُخرى بأسماء الحَشائش وقُوَى الأدْوية وأوصافها عالمين ؛ وليأمُرْ كُلًّا منهم بحفظ مايجب حفظُه ، ومعرفةِ مايزيد به حَظُّه ، وليأخُذْه بما يُصلِح به لسانَه ولفظَه ، ولا يفْتُرْ عنهم فى الاشتغال لحَظَهْ ؛ وليُفْرِدْ لكل علم من العلوم طائفَـه ، ولكل فن من فنونه جماعةً بمحاسـنه عارفَهْ ؛ وليَصرفْ إليهم من وجوه فضائله كلَّ عارفه ،

وليَكْشِفْ لهم ما أشكل عليهم من غوامِضه فليس لها من دُون إيضاحه كاشِفَه ؛ لِيُنْشَرَ فى هذا المكان المبارَك من أرباب هذه العلوم قومٌ بعدَ قوم ، ويظهَرَ منهم فى الغد ــ إن شاء الله ــ أضعافُ ماهو ظاهرٌ منهم اليوْم ؛ وليُقال لكلٍّ من طَلَبته إذا شُرِع فى إجازته وتزكيته : لقد أحْسنَ شيخُه الذى عليه تأدَّب ، وإنَّ مَن خرَّج هذا «المهذَّب» ، عاملًا فى ذٰلك بشروط الواقف أعزَّ الله نصرَه ، واقفًا عند أمره أمضىٰ اللهُ أمرَه ؛ والخيرُ يكون . إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع بنظَر الأحباس مفتتَحة بـ«أما بعد» وهى :

أما بعدَ حمدِ الله الذى أَذِن أن تُرْفَع بيوتُه ويُذْكَر فيها ٱسْمُه ، ويُكَثَّر فيها قَسْم ثوابه ويُجزل قِسْمه ، والصلاة علىٰ سيدنا محمدٍ الذى عَظُم به قطعُ دابر الكُفْر وكَثُر حَسْمُه ــ فإنَّ خيرَ مَنْ عُوِّل عليه فى تأسيس بيوتِ الله وعِمارة رُبُوعها ، ولَمِّ شَعَثها وشَعْب صَدُوعها ، والقيامِ بوظائفها ، وتسهيل لطائفها ، وتأهيل نواحيها ، لهُبُوط الملائكة لتلقِّ المصَلِّين فيها ، مَنْ كان ذا عَزْم لاتأخُذه فى الله لومةُ لائم ، وحَزْم لايُلِمُّ بأفعاله لَمَم المآثم ؛ ونظرٍ ثاقب ، ورغبةٍ فى ٱختيار جميل المآثر والمَناقِب ، ومباشرةٍ تْرعَىٰ قوانينَ الأمور وتكتنِفُها ٱكتناف مُراقِب .

ولما كان فلانٌ ممَّن هذه الأوصافُ شِعَارُه ، وإلىٰ هذه الأمور بِدَارُه ؛ وكم كَتَب الله به للدّولة أجرَ راكِع وساجِد ، وكم شكرتْه وذكرتْه ألسِنةُ أعلام الجوامع وأفواهُ مَحَاريب المساجد ــ ٱقتضىٰ مُنِيف الملاحظةِ والمحافظةِ علىٰ كل قريبٍ من بيوتِ الله وشاهد ، أنْ خرج الأمر الشريفُ ــ لا بَرِح يكشِف الأوْجال ، ويدعُو له فى الغُدُوِّ والآصال رِجَال ــ أنْ يفوَّض لفلان نظرُ ديوان الأحباس والجوامِع والمساجد المعمورة بذكر الله تعالىٰ .

فلْيباشِرْها مباشرةَ من يُراقب الله [إنْ] وقَّع أو توقَّع ، وإن أطاعَ أو تَطَوّع ؛ وإن عزَل أو ولَّى ، وإنَّ أدَّب مَنْ نَهىٰ عبدا إذا صَلَّى ؛ وليجتهِدْ كلَّ الآجتهاد فى [صَرْف] رَيْع المساجد والجوامع فى مَصارفها الشرعيَّة ، وجهاتها المرعيَّة ؛ وليأخُذْ أهلَها بالملازمة فى أحيانها وأوقاتها ، وعِمَارتها بمصابيحها وآلاتها ؛ وحفْظ مايُحفظون به لأجْلها ، ومعاملتهم بالكرامة التى ينبغِى أن يُعامَلَ مثلُهم بمثلِها ؛ وليحترِزْ فى إخراج الحـالات إذا نُجِّزت وأُخْرِجتْ ، وفى مستحَقَّات الأجائِر إذا آستُحقَّت وإذا عُجِّلت ؛ وفى التواقيع إذا أُنْزلت وإذا نُزِّلت ، وفى الآستئْمارات التى أُهْمِلت وكان ينبغِى لو أُهِّلتْ ؛ وإذا باشر [و] ظهرله بالمباشرة خَفَايا هـذا الدِّيوان ، وفَهِم ما تحتويه جرائدُ الإحسان ، فليكُنْ إلىٰ مصالحـه أوّلَ مُبَـادر ، ويكفيه تدبرُ قوله تعالىٰ : ﴿ إنَّمَـا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ والْيَوْمِ الآخِرِ ﴾ .

قلت : وقد كنت أنشأت توقيعا بنظر الأحباس ، للقاضى « بدْر الدين حَسَن » الشهير بابن الدَّاية ، مفتَتَحا بالحمـدُ لله ، جاء فَرْدا فى بابه . إلا أن مسوَّدته غُيِّبت عنّى ، فلم أجدْها لأثبِتَها هاهنـا كما أثبتُّ غيرها ممـا أنشأتُه : من البَيْعاتِ والعُهود والتواقيع والرسائل وغير ذلك .

ومنها ــ نظرُ الأوقاف بمصر والقاهرة المحروستيْن ، ويدخُلُ فيه أوقافُ الحَرَمين وغـــيرهما .

وهذه نسخةُ توقيع بنظرها ، وهى :

الحمدُ لله الذى حفِظ مَعالِمَ البرّ من الدُّثور ، وأحيَا آثارَ المعروف والأُجور ، وصانَ الأوقافَ المحبَّسة من تبْديل الشروط علىٰ تَوالِى الأيَّام والشُّهور .

نحمَدُه علىٰ فضله الموفُور ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لها فى القُـلوب نورٌ علىٰ نُور ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه المؤيَّد المنصور ، الطالعُ البُدور، المبعوثُ بالفُرْقان والنُّور ، المنعوتُ فى التوراة والإنجيل والزَّبُور ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما كَرَّتِ الدُّهور ، وطلعَتْ كواكبُ ثم تَغُور .

وبعـدُ ، فإنَّ أهل الخير من المؤمنين تقرّبُوا إلىٰ الله سبحانَه وتعـالىٰ من طَيِّبات أموالهم بأوقافٍ وقَفُوها علىٰ وجوه البرّ وعَرَّفوها ، وجعلُوا لهـا شروطا ووصَفُوها ؛ فتقبَّل الله لهم ذٰلك ، ثم ماتُوا فمـا انقطع عملُهم بها وهم فى بَرْزَخ المَهَالك ؛ ووَلِيَهـا بعدَهم الأمناءُ من النُّظَّار ، فقاموا بحقُوقها وحِفْظ الآثار ؛ وأجْرَوْا بِرَّهـا الدارَّ فى كلِّ دارْ ، وصانُوا معالِمَها من الأغيـار ، وشاركُوا واقِفِيها فى الصدقة لأنهم خُزَّانٌ أُمناءُ أخيار .

ولمـا كان فلان هو الذى لا يتدَنَّس عِرْضُه بشائبه ، ولا تُمْسى المصالحُ وهى عن فكره غائبَـه ، ولا تبرَحُ نجومُ السُّعود طالعةً عليه غيرَ غائبه ؛ وهو أهـلٌ أن يُنَاط به التحدُّثُ فى جهات البرّ الموقُوفه ، وأموالِ الخير المصْرُوفه ، لأنه نزَّه نفسَه عما ليس له فلو كانتْ أموال غيره غنَمًا ما اختصَّ منها بصُوفَه ؛ فلذٰلك رُسِم ... ... [(١)] .

فليباشِرْ هـذه الوظيفةَ مباشَرةً حسَنة التأْثير ، جميـلةَ التَّثْمير ، مأمُونَةَ التغيـير ، مخصوصـةً بالتعبير ؛ ولينظر فى هـذه الأوقافِ علىٰ اختلافها من رُبوع ومبَـانى ، ومساكِنَ ومَغَانى ؛ وخاناتٍ مسـبَّله ، وحوانيتَ مكمَّله ؛ ومُسـقَّفات معمُوره ، وساحاتٍ مأْجورةٍ غيرِ مهجُورَهْ . وليبـدأ بالعمارة فإنَّهـا تحفظ العينْ وتكفِى البناءَ دُثُورَه ، وليتَّبع شروط الواقفين ولايعدلْ عنها فإنَّ فى ذلك سُرورَه ؛ ويندَرِج فى هذه

(١) بيض له فى الأصل لعله من أمثاله السابقة .

الأوقافِ ماهو علىٰ المساجد ومَوَاطِن الذِّكر : فليُقِمْ شِعارَها ، وليحْفَظْ آثارَها ، وليرفعْ مَنَـارَها ؛ والوصايا كثيرةٌ والتقوىٰ ظِلُّها المخطُوب ، ومراقبـة الله أصلُها المطلُوب ووصلُها المحبوب ، والله تعالىٰ يجمع علىٰ محبَّته القُلوب ، بمنِّه وكرمه ! .

ومنها ــ نظر البيمارَسْتان المنصوريّ بين القَصْرين لأرباب الأقـلام ، وهو من أجلِّ الأنظارِ وأرفعِها قَدْرا ، ما زال يتولَّاه الوزراءُ وكُتَّاب السرّ ومَنْ فى معناهم . [وهذه نسخة توقيع] من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمودٍ الحلَبىّ (١) ، وهى :

الحمـدُ لله رافِع قدرِ من كان فى خدمتِنا الشريفة كريمَ الخِلال ، ومُعْلِى درجةِ من أضْفىٰ عليـه الإخلاصُ فى طاعتنا العليَّة مديدَ الظِّلال ، ومجدِّدِ نِعَمٍ من لم يخُصَّه آعتناؤنا بغاية إلا ورَقَّتْه همَّتُه فيهـا إلىٰ أسنىٰ رُتَب الكمال ، ومفوّض النظر فى قُرَب سـلَفِنا الطاهر إلىٰ من لم يلاحِظْ من خواصِّـنا امرا إلا سَرَّنا ما نُشـاهِدُ فيه من الأحوال الحَوَال .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى لا تزال تَسْرى إلىٰ الأولياء عوارِفُها ، ومِنَنِه التى لا تبرَحُ تشمل الأصفياءَ عواطِفُها ، وآلائه التى تُسَـدّد آراءَنا فى تفويض قُرَبِنا إلىٰ مَنْ إذا باشرها [سُرَّ] بسيرتِه السَّريَّة مستحِقُّها وواقِفُها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة رَفَع الإخلاصُ لواءَها ، وأفاض الإيمـانُ علىٰ وُجُوه حَمَلتِها إشراقَها وضِـياءَها ، ووالى الإيقانُ إعادةَ أدائِها بمواقِف الحقِّ وإبْداءِها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله المخصوصُ بعُموم الشفاعة العُظْمىٰ ، المقصوصُ فى السـنة ذِكْرُ حوضِه الذى من شَرِب منه شَربةً فإنه بعدَها لا يَظْما ، المنصوصُ علىٰ نُبوّته فى الصُّحُف المنَزَّلة وبشَّرتْ به الهواتِفُ نَثْرا ونظْما ، صـلَّى الله

(١) تقدمت فى وظائف الطبقة الثانية من ذوات التواقيع ببعض تغيير وآختصار .

عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين فازُوا من طاعته، بالرُّتب الفاخره، وحازُوا بالإخلاص فى محبَّته، سعادةَ الدنيا والآخره، وأقبلُوا علىٰ حظهـم من رضا الله ورضاه فلم يُلْوُا علىٰ خِدَع الدنيا الساحره؛ صلاةً دائمةَ الاتصال، آمنـةً شمسُ دَوْلتها من الغُروب والزَّوال؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـد، فإنَّ أَوْلى الأمور بإنعـام النظَر فى مَصالحها، وأحقَّها بتوفير الفِكْر علىٰ اعتبار مَنَاهجها واعتماد مَنَاجِحها ـ أمرُ جِهات البر التى تقرِّب والدُنا السلطان الشهيد ـ قدّس الله رُوحَه ـ بهـا إلىٰ مَنْ أفاض نِعَمه عليـه، وتنوّعَ فى إنشائها فأحسَن فيها كما أحسَنَ اللهُ إليـه، ورَغِب بها فيما عندَ الله لعِلْمه أنَّ ذٰلك من أنفَس الذخائر التى أعدّها بينَ يديْه؛ وحلَّ منها فى أكرم بُقْعة نقـلَه اللهُ بها عن سريره إلىٰ مَقْعَد صدق عنـد ربِّه، وعَمَر بها مواطِنَ العبادة فى يومِ سـِلْمه بعد أنْ عفَّى علىٰ مَعَاقل الكفر فى يوم حرْبِه؛ وأقام بها مَنـارَ العلوم فعلا مَنالُهـا، وأعدّ للضُّعفاء بها من مَوادّ البِر والإلطاف مالو تعاطَتْه الأغنياءُ قَصُرت عن التطاوُل إليه أموالُهـا؛ وأن نرتادَ لهـا مَنْ إذا فوّضنا إليـه أمرا تحقَّقنا صَلَاحه، وتيقَّنَّا نجاحَه؛ واعتقدْنا تنميةَ أمواله، واعتمدْنا فى مضاعفة ارتفـاعه وانتفاعه علىٰ أقواله وأفعاله؛ وعلمنا من ذٰلك مالا نحتاجُ فيه إلىٰ إخبار ولا اخْتِبار، ولا يحتاج فى بيان الخيرة فيه إلىٰ دليلٍ إلَّا إذا احتاجَ إليه النَّهار؛ لنكونَ فى هـذا بمَثابة مَنْ ضاعفَ لهذه القُرَب أسبابَ ثوابِها، أو جدّدَ لها وَقْفا لكونه أتىٰ بيوتَ الإحسان فى ارتياد الأكفاءِ لها من أبوابها .

ولذٰلك لمـا كان فلانٌ هو الذى صانَ أموالَ خواصِّـنا، وأبانَ عن يُمْن الآراء فى استِئْثارنا به لمَصالحنا الخاصَّة واختصاصنا؛ واعتدَدْنا بجميل نظره فى أسباب التدبير التى تملا الخَزائن، وتدُلُّ علىٰ أنَّ من الأولياء من هو أوقَعُ على المقاصـد من سهام

الكائن ، وتُحقق أنه كما فى العناصر الأربعة معادنُ فكذلك فى الرجال معَادن ؛ ونبّهت أوصافُه علىٰ أنه ما ولِىَ أمرًا إلا وكان فوق ذلك قَدْرا ، ولا آعتُمِد عليه فيما تَضيق عنه هِمَمُ الأولياء إلا رَحُب به صَدْرا ، ولا طَلَع فى أُفُق رتبةٍ هلالا إلا وتأمّلته العيون فى أجَلِّ دَرَج الكمال بَدْرا ؛ يُدْرِك ما نأىٰ من مصالح ما يليه بأدْنىٰ نظر ، ويَسْبِق فى سَدَاد ما يباشره علىٰ ما يجب سَدَاد الآراء ومواقِعَ الفِكر ؛ فنحن نَزْداد كل يومٍ غبطةً بتدبيره ، ونتحقّق أن كل ماعدقنا به إليه : من أمرٍ جليلٍ فقد أسندناه إلىٰ عارفه وفوّضْناه إلىٰ خَبِيره ــ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُعْدق بجميل نظره أمر هذا المُهِمِّ المقدّم لدَيْنا ، وأن نفوّض إليه نظر هذه الأوقاف التى النظرُ فى مَصَالِحها من آكد الأمور المتعيِّنة علينا .

فرسم بالأمر الشريف ــ لا زال فضلُه عمِيما ، وبِرّه يقدِّم فى الرتب مَنْ كان من الأولياء كريما ــ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت .

فلْيَلِ هذه الرتبةَ التى أُرِيدَ بها وجهُ الله وما كان لله فهو أهَمّ ، وقُصِد بها النفعُ المتعدّى إلىٰ العُلماء ، والفُقراء ، والضُّعفاء ومراعاةُ ذٰلك من أخصِّ المصالح وأعَمّ ؛ ولينظُرْ فى عموم مصالحها وخصوصِها نظرا يَسُدّ خَلَلَها ، ويزيح عِلَلَها ، ويُعَمِّر أصولها ، ويثَمِّر محصولها ، ويحفظ فى أماكنها أموالَها ، ويُقيم معالم العلوم فى أرجائها ، ويستنزل بها موادَّ الرحمة لساكنها بألسنة قُرّائها ؛ ويستعيد صِحّة مَنْ بها من الضعفاء بإعداد الذّخائر لملاطَفة أسقامها ومعالجة أدْوائها ؛ ويحافِظ علىٰ شُروط الواقف ــ قدّس الله رُوحَه ــ فى إقامة وظائفها ، وآعتبار مَصارِفها ؛ وتقديم ما قدّمه مع مَلاءَة تدبيره باستكمال ذٰلك علىٰ أكمل ما يجب ، وتمييز حواصِلها بما يستدعى إليها من الأصناف التى يعِزُّ وجودُها ويُجْتلب ؛ وضبط تلك الحواصل التى لا خزائن لها أوثقُ من أيدى

أمنائه وثِقاته، ولا مُودَع لها أوفقُ من أمانة من يتقِي الله حقَّ تُقاته؛ وليفعل فى ذٰلك جميعه ماعرَفْناه من تدبيره الجميل خُبْرا وخبرا، وحَمِدناه فى كل مايليه وِرْدا فى المصالح وصَــدَرا؛ فإنه ــ بحمد الله ــ الميمونُ نظرًا وتصرُّفا، المأمونُ نزاهة وتعفُّفا؛ الكريمُ سجيَّةً وطِباعا، الرحيبُ فى تلقِّى المهمات الجليلة صَدْرا و باعا؛ فلذٰلك وكَلْناه فى الوصايا إلىٰ حُسْن معرفته وٱطِّلاعه، ويُمْن نُهوضه بمصالحنا وٱضْطِلاعه؛ والله تعالىٰ يُسَدِّده فى قوله وعمــله، ويحقِّق بالوقُوف مع مَرَاضِى الله تعــالىٰ ومَرَاضِينا غايَةَ أمله؛ إن شاء الله تعالىٰ .

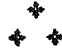

ومنها ــ نظر الجامع الناصرىّ بقلعة الجَبَل .

وهــذه نسخةُ توقيع بنظره، كُتِب به للقاضى جلالِ الدين القَزْوِينِيِّ وهو يومئذ قاضى قُضاة الشافعيَّة بالديار المِصريَّة، وهى :

الحمدُ لله الذى زادَ بِنــا الدين رِفْعةً وجَلَالا، وجعل لنا علىٰ إعلاء مَنَار الإســلام إقْبالا، وأحسن لنظَرِنا الشريف فى كلِّ ٱختيــارٍ مآلا، ووَفَّق مَرامِى مَرَامِنا لمن أخلَصْنا عليه ٱتِّكالا .

نحمدُه حمدا يتواتَرُ ويتوالىٰ، ويُقَرِّب من المُنىٰ مَنَالا، وتُنِير به معاهدُ نِعَمه عندنا وتَتَلالَا، ونُديمه إدامةً لا نَبْغِى عنها حِوَلًا ولا ٱنتِقالا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نصدِّقها نيَّة ومَقَالا، ونرجُو بالتَّغالى فيها القَبولَ منــه تعالىٰ، ويتراسَلُ عليها القلبُ واللسانُ فلا يعترِى ذاك سهْوٌ ولا يخاف هذا كَلَالا؛ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله الذى كَرُم صَحابةً وآلا، ودَلَّهم علىٰ الرُّشــد فوَرَّثُوه من علماء الأمّة رجالا، صلَّى الله عليه وعليهم صلاةً نَسترعى عليها

من الحَفَظة أكْفاءً أَكْفالا ، ونستمدّ رُقُمها المُذْهَبات بُكَرا وآصالا ، وتسمُو إليه الأنفاسُ سُمُوَّ حَبَاب الماء حالًا فحَالا ، ما مدّت الليالى علىٰ أيَّامها ظِلَالا ، وما بلغ سوادُ شَبابها من بياضِ صُبْح اكْتِهالَا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ من بَنىٰ حقَّ عليه أن يُشيد(١) ، ومن أراد[أن]سنَّته الحُسْنىٰ تبقىٰ فليتخذ مُعينا علىٰ ما يُريد ، ومن أنشأ بِرًّا فلا بُدّ من مباشِرٍ عنه يضْمَن له التجديد ، ويُظَنُّ به مع تأثيره التَّخْليد ، ومَنْ تاجَرَالله بمعروف فما يَسْخُو بالمُشاركة فيه إلا لمن يَقُوم مَقام نَفْسه أو يَزيد ، ومن بَدأ جميلا فشَرْطُ صَلاحه أن يُسْنِده إلىٰ مَنْ له بالمراقبة تَقْييد ، فيما يُبْدئُ ويُعيد ، وأىُّ إشادةٍ أقوىٰ ، من التأسيس علىٰ التقوىٰ ؛ أو معين أجلُّ من حاكم آستخلصناه لنا ولإخْوانِنا المسلمين ، أو مباشر أنفعُ ، من سيدٍ آرتدىٰ بالمَجْد وتلَفَّع ، وتروَّى بالعلوم وتضَلَّع ؛ أو مشاركٍ فى الخير أوْلىٰ من وَلِىٍّ قلَّدناه دِيننا قبل الدُّنْيا ، وأعلَيْناه بالمنصِبَيْن : الحُكْمِ والخَطَابة فتصرَّف منهما بينَ الكلمة العالية والدَّرجة العُلْيا ؛ أو أحسَنُ مراقبةً من حَبْر يعبدُ اللهَ كأنَّه يراه ، وإمامٍ يدعُو إليه دُعاءَ أوّابٍ أوّاه ؛ قد آنفردَ بمجمُوع المحَاسن يَقينا ، وأصبح قدْرُه الجلىّ الجليل يَعْنِينا وعن المدائح يُغْنِينا ؛ فحسبُنا الوصفُ إيضاحًا وتبيينا ، ولكن نُصَرِّح باسمه تَنْويها وتعيينا ، وتحسينا لسيرة أيَّامنا الشريفة بعالِمِ زمانِها وتزيينا ، لا عُذْرَ لفِكْرٍ لم يُنَضِّد مناقبَه وقد تمثلتْ مَعَاليه جَواهِر ، وقلمٍ لم يُوَشِّ الطُّروسَ بمَعانيه بعدَ ما زانَ من فنُونها أنواعَ الأزاهِر ، هو المجلسُ العالى القضائِىّ ، الإمامِىّ ، العالِمىّ ، العامِلىّ ، العَلَّامىّ ، الكامِلىّ ، الفاضِلىّ ، القُدْوىّ ، المُفيدىّ ، الخاشِعىّ ، الناسِكىّ ، الوَرَعىّ ، الحاكِمىّ ، الجَلَالىّ : حجةُ الإسلام والمسلمين ، قُدوةُ العلماء العامِلين فى العالَمين ؛ بركةُ الأمه ،

(١) مأخوذ من أشاد بنيانه اذا طوّله . أنظر اللسان فى مادة ش و د — ج ٤ — .

عَلَّامة الأئمه ، عِزُّ السنَّه ، مؤيِّد الدَّوله ، سيفُ الشريعه ، شمسُ النظر ، مُفْتى الغُرَر ، خَطيبُ الخُطَباء ، إمامُ البُلَغاء ، لسانُ المتكلِّمين ، حَكَمَ الملوك والسلاطين ، ولىُّ أمير المؤمنين ، أبو المَعَالى محمدُ آبنُ قاضى القضاة سعدِ الدين أبى القاسم عبدالرحمن بن عُمَر بن أحمد القَزْوينى قاضى القُضاة الشافعية : أدام الله عِزَّةَ الشرع الشريف بأحكامه ، وتَرْفِيهَ سُيوفِ الجلاد وأسَله بلسان جِدَاله وأقلامه ، قاضٍ يُفَرِّق بين المهترجين[1] برأيٍ لا يَطيش حِلْمُه ولا يَزِلُّ حُكْمُه ، ويتَّقِي الشُّبُهات بوَرَعٍ يَتْبَعه عملُه ويَهْديه عِلْمُه ؛ ما لَحَظَ جهةً إلا حَظِيَتْ ببركة دارّة مُزْنُها ، سارية مَناحِجُها سارٍّ يُمْنُها ؛ ولا أقبلَ علىٰ بيتٍ من بيوتِ الله إلا حَنَّ منه إلىٰ سُبُحَات الجلال ، ولا تكلَّم فى وَقْفٍ إلا أجْراه فى صالح الأعمال علىٰ أقْومِ مِثَال ؛ ونحنُ لهذه المَزَايا نَرُدُّ إلىٰ نظره الكريم ما أهَمَّنا من عِمارةِ مسجدٍ وجامع ، ونُقَلِّده من أوقافنا ما يَخْلُفُنا فيه خيرًا فإنَّ الأوقافَ ودائع .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ــ لا زال يُصيب الصَّواب ، ولا يَعْدُو أُولى الألباب ــ أن يفوَّض إليه نظرُ الجامع الناصرىّ المعمُورِ بذكر الله تعالىٰ ، بقَلْعة الجبل المحروسة ، وأوقافِه ، والنظرُ علىٰ التربة والمدرسة الأشرفِيَّيْن وأوقافِهما .

ومنها ــ نظرُ مَشْهد الإمام الحسين رضى الله عنه بالقاهرة المحروسة .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ خِطَط القاهرة فى المقالة الثانية أنَّ الصالحَ طلائعَ آبنَ رُزِّيكَ حين قصد نقلَ رأسِ الإمام الحُسَين إلىٰ القاهرة ، بَنىٰ لذٰلك جامعه

(١) يريد المتخاصمين ولكنا لم نعثر على هذا البناء فيا بأيدينا من كتب اللغة .

خارجَ بابِ زُوَيلة[1]، فبلغ ذٰلك الخليفةَ فأفردَ لها هذه القاعةَ من قاعات القَصْر وأمر بنَقْلها إليها .

وهذه نسخة توقيع بنظره، من إنشاء الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبيّ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل مَواطنَ الشَّرف فى أيّامنا الزاهرة، محصُورةً فى أكفائها، ومَشاهِدَ السيادة فى دولتنا القاهرة، مقصورةً علىٰ من حَبَتْه أوامِرُنا باعتنائها، وخصَّتْه آلاؤنا باصطفائها؛ الذى أجرىٰ حُسنَ النظر فى مَظَانِّ الآباء الطاهرة علىٰ يَدِ مَنْ طلع فى أُفُق العَلْياء من أبنائها، وعَمَر معاهِدَ القُرُبات بتدبير مَنْ بدأ بقواعد دِينِه وأجاد إحكامَ تشييدِها وإتقانَ بِنائها .

نحمده علىٰ ما خُصَّت به أيامُنا من رَفْع أقدار ذَوِى السِّيادة والشَّرف، واتَّصف به إنعامُنا من مَزِيد بِرٍّ عُلِم بحُسن ظهُوره علىٰ الأولياء أنَّ الخيرَ فى السَّرف .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُعَرِّف بها من اعترف، ويُشَرِّف قدرُ من له بالمحافَظة عليها شَغَف؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى طهَّر الله بَضْعتَه الزهراءَ وبَنِيها، وخصَّهم بمزيَّة القُربىٰ التى نزَّهه أن يسأل علىٰ الهِدايةِ أجْرا إلا المَوَدّة فيها؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين هم أجدَرُ بالكَرَم، وأحقُّ بمحاسن الشِّيَم، وما منهم إلا مَنْ (تَعرِف البَطْحاءُ وطْأتَه * والبَيْتُ يَعرِفُه والحِلُّ والحَرَم)؛ وعلىٰ آله وأصحابه الذين أنعم الله به عليهم، واتَّبعوه فى ساعةِ العُسْرة فمنهم الذين أُخرِجُوا من دِيارهم والذين يُحِبُّون مَنْ هاجَرَ إليهم؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ مَن زُيِّنت به مواطِنُ الشَّرف، وعُدِقت به العِنايةُ بخِدْمة من دَرَج من بَيت النبوّة وسَلَف، وعُمِرت به مشاهِدُ آثارِهم التى هى فى الحقيقة لهم غُرَف،

(١) كجهينة وسفينة . انظر شرح القاموس فى مادة زول .

[ونالَتْ الدولةُ] منْ تدبيره الجميل بعض حظِّها ، وخصَّت بُقعته المباركة من نظره بمـا ينُوب فى خِدمةِ محلِّه الشريف عن مواقع لَحْظِها ؛ وجَعَلتْ به لآبنِ رسول الله من خِدمة أبيه معها نَصيبا ، وفعلَتْ ذلك إذ خبرَتْ خدمتـه أجنبيّا علمـا أنها تتضاعف له إذا كان نَسِيبا ، وحكمتْ بمـا قام عنـدها مَقام الثُّبوت ، وأمرتْه أن يبدأَ بخدمة أهلِ البيت [فإن] لازمَها لديْها مقدّمٌ علىٰ البيوت ــ مَن طَلَع شِهابُ فضلِه من الشَّرَف السَّنِىِّ فى أكرم أُفُق ، وأحاطتْ به أسـبابُ السُّؤْدَد من سـائر الوجُوه إحاطةَ الطَّوْق بالعُنُق ؛ وزانَ الشَّرفَ بالسُّؤدَد والعـلمَ بالعمَل ، والرياسـةَ باللطف فاختارتْه المناصِبُ وآختالتْ به الدُّوَل ، وتقـدّم بنَفْسه ونَفَاسـةِ أصله فكان شَوْطُ من تقدّمَه وراء خَطْوه وهو يمشِى علىٰ مَهَل ؛ وآصـطفتْه الدولةُ القاهرةُ لنَفْسـها فتمسَّك من المُوالاة بأوْثَقِ أسبابها ، وآعتمدَتْ عليه فى بَثِّ نِعَمها ، وبَعْث كَرَمها ، فعرّف فى ذٰلك الأمورَ من وجهها وأتَى البيوتَ من أبوابها ؛ وحَمِدَتْ وفُودُ أبوابنـا العاليةِ لحسن سَيْرته فى إكرامهم السُّرَىٰ ، وآكتفَتْ [حتى] مع تَرْك الكرامة إليهم بَبَشاشةِ وجهه التى هى خَيْرٌ من القِرَىٰ ؛ وصان البُيوتَ عن الإقواء بتدبيره الذى هو من موادِّ الأرزاق ، وزاد الحواصلَ بتثميره مع كَثْرة الكُلَف التى لو حاكَتْهـا الغمائمُ لأمْسكَتْ خَشْيةَ الإنفاق .

ولمـا كان فلان هو الذى تُلِيت مناقِبُ بيته الطاهر ، وجُلِيت مفـاخِرُ أصـله الزاهر ،وتجملت بشَرَف خِلاله خِلالُ الشَّرف التى تركها الأوّلُ للآخر، وكان مشْهَد الإمام السيد الحسين آبن أميرالمؤمنين علىّ بن أبى طالب عليهما السلام بالقاهرة المحروسة بُقْعةً هى منْتَجَع الرحمه ، ومَظِنَّةُ إجابة الأُمَّه ، وروضةُ من شُرِّفت بانتقاله إليهـا ، وتربةُ شهيدِ الزهراء صلوات الله علىٰ أبيها وعليها ؛ وبه الآنَ [من] رواتبِ القُرُبات ووظائف العلوم وجهات الخير ما يَحتاج إلىٰ آختيار من يُجْمِل النظرَ فيه ،

ويسلُك نَهْج سلَفه فى الإعراض عن عَرَض الدنيا ويَقْتفيه ـ رأينا أن نختار لذٰلك من ٱخترناه لأنفُسنا فكان الكُفْءَ الكريم ، وٱختبَرْناه لمصالحنا فخَبَرْنا منه الحفيظَ العليم ، وأن نُقـدّم مُهِمَّ ذلك البيتِ علىٰ مُهِمِّ بيوتنا فإنَّ حقوق آل بيتِ رسول الله صلى الله عليه وسلم أَحَقُّ بالتعظيم .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ مكارمُه بتقريب ذَوِى القُرْبىٰ جَديره ، ومراسيمه علىٰ إقدار ذَوِى الرُّتب علىٰ مايجب قَديره ، ـ أن يفوّضَ إليه النظرُ علىٰ مشهد الإمام الحسين ٱبن أمير المؤمنـين علىّ بن أبى طالب عليهما السـلام بالقاهرة المحروسة ، علىٰ قاعدة من تقدّمه فى ذٰلك ، بالمعلوم الشاهد به ديوانُ الوقف : لمـا قدّمْناه من أسبابٍ رجَّحته لذلك ، وبيّنّاه من أمور أوضحَتْ فى ٱختيارنا له المَسالك ؛ ومَنْ أولىٰ منـه بهذه الرتبة التى شهِدَتْ له باستحقاقها مناصِـبهُ ومَنَاسِبُه ، أو أقدَرُ منه علىٰ أمثـال هذه الوظيفة وقد أقرّتْ بكماله وكرمِ خِلاله مراتبُ الباب الشريف ورَواتِبُـــه .

فليُمْعن النظرَ فى مباشَرة أوقاف هـذه البُقعةِ المباركةِ مُظهِرا ثمرة تفويضها إليه ، مبيِّنـا نتيجةَ تعرُّضها له وعَرْضها عليـه ، منبِّها علىٰ سِرّ التوفيق فيما وضَع أمرُنا من مقاليد أمرِها فى يدَيْه ؛ مجتهدًا فى تمييز أموال الوقْف من كل كاتب[حديث] ، موضِّحًا من شفقة الولد [على] ماتُسِب إلىٰ الوالد ما شهِدَتْ به فى حقّها الأحاديث ، سالكا من خدمة ذٰلك المشهدِ ما يشهَد له به غدا عند جَدِّه ، ناشرا من ... ...(١) لواءَ فضلٍ رفْعُه فى الحقيقة رفعٌ لمجده ؛ وليلْحَظْ تلك المصالحَ بنظره الذى يَزِيد أموالَهـا تثميرا ، ورِباعَها تعميرا ، وحواصلَها تمييزا وتوفيرا ، وٱرجُ أيُّها السـيد الشريف

(١) بياض بالأصل ولعله "من عنايته به لواء الخ" .

عندَ الله تعالىٰ بذلك عن كل حسـنةٍ عشرا إن ذلك [كان] علىٰ الله يسيرا . وصُنْ مابيدك عن شوائب الأدناس : ﴿إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْت ويُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرا﴾ . وقد خبَرْنا من سيرتك وسريرتك مالا نَحتاج أن نَزْداد به خُبْرا، ولا أنْ نبلُوَه بعد ماسَلَف مرَّةً أخرىٰ؛ ولكن نُذَكِّرك بتقوىٰ الله التى أنت بها متَّصف، وبوُجودِها فيك معروفٌ وبوُجوبها عليك تعترِف؛ فقدِّمْها بين يدَيْك، وٱجعَلْها العُمْدة فيما ٱعتمَدْنا فيه عليك؛ إن شاء الله تعالىٰ .

المرتبة الثالثـــة

(من الوظائف الدينية ما يُكتب فى قطع العادة الصغير، مفتتحا بـ«رُسِم بالأمر الشريف »)

وهو لمن كانت رتبتُـه مجلس القاضى، ورُبَّمـا كُتِب فيـه بالسامى بغـير ياء لمن قُصِد تعظيمُه وهو قليـلٌ، وبه يُكتَب لأرباب الوظائف الصِّغَار من الخُطَبـاء، والمدرِّسين، ونُظَّار الأوقاف، وغيرِهم ممن لاينحصِرُ كثرةً .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر البِيمارَسْتَان العتِيق الذى رَتَّبه السلطانُ صَلاحُ الدين «يوسُف بن أيُّوب» فى بعض قاعات قَصْر الفاطميِّين، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالَت أيَّامهُ تُفيد عَلاَء، وتستخدِم أكْفاء، وتُضْفِى ملابِسَ النَّعماء علىٰ كلِّ علىٍّ فتكْسُوه بَهْجَةً وبَهاء ــ أن يستقِرّ فلان فى نَظَر البيمارَسْتان الصَّلاحىّ بالقاهرة المحروسـة، بالمعلوم الشاهـد به الدِّيوان المعمورُ إلىٰ آخر وَقْت، لكَفاءته التى ٱشتهر ذكْرُها، وأمانته التى صدَّق خَبَرَها خُبْرُها؛ ونزاهتِه التى أضحىٰ بها

عليَّ النفس فغدا بكل ثناء مليًّا ، ورياستِه التى أحلّت قدرَه أسمى رتبةٍ فلا غروَ أن يكون «عليًّا» .

فليباشِر نظر البيمارستان المذكور مباشرةً يظهر بها انتفاعُه ، وتتميَّز بها أوضاعُه ، ويضحى عامرَ الأرجاء والنَّواحى ، ويقول لسان حاله عند حُسْن نظره وجميل تصرُّفه : الآنَ كما بدا صلاحى ؛ وليجعلْ هِمَّته مصروفةً إلى ضبط مقبوضه ومصروفه ، ويُظهِرْ نهضته المعروفةَ بتثمير ريْعه حتى تتضاعَفَ موادُّ معروفه ؛ ويلاحِظْ أحوالَ مَنْ فيه ملاحظةً تُذْهِب عنهم الباس ، ويراعِ مصالحَ حالِه فى تنميته وتزكيته حتَّى لا يزالَ منه شرابٌ مختلفٌ ألوانُه فيه شِفَاء للناس ؛ وليتناول المعلومَ الشاهدَ به الدِّيوانُ المعمور من استقبال تاريخه بعد الخط الشريف أعلاه .

واعلم أنَّ من تواقيع أرباب الوظائف الدينية مايكتب فى هيئة أوراق الطريق ، أو على ظهور القِصص ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة توقيع بالتحدّث فى وقف :

رُسِمَ بالأمر الشريف العالى المولوىّ السلطانىّ الملكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالى وشرَّفه ، وأنفذه وصرَّفه ـ أن يستقرّ القاضى فلانُ الدين فلان فى التحدُّث فى الوقف الفلانىّ ، بما لذلك من المعلوم الشاهدِ به كتابُ الوقف . فليعتمِدْ هذا المرسوم الشريف كلُّ واقف عليه ، ويعمَلْ بحسَبِه وبمقتضاه ، بعد الخط الشريف ، إن شاء الله تعالى .

الضـــــرب الثـالث

(من الولايات بالحضرة السلطانية بالديار المصرية ــ الوظائفُ الديوانية)

وهى على طبقتين :

الطبقــــة الأولى

(أربابُ التقاليد، فى قطع الثلثين ممن يُكتب له «الجنابُ العالى»
وفيهـا وظيفتان)

الوظيفـــــة الأولى

(الوزارة، إذا كان متولِّيها من أرباب الأقلام، كما هو الغالِبُ)

وقد تقـدّم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية نَقْـلا عن "مَسَـالك الأبصار" أن رتبتها ثانى السلطان لو أُنصف وعُرِف حقُّه، إلا أنها لمـا حدَثَتْ عليها النيابة، تأخّرتْ وقعَد بها مكانُها حتَّى صار المتحدِّثُ فيها كناظر المـال، لايتعـدَّى الحديثَ فيـه ولا يتّسع له فى التصرُّف مجَال، ولا تمتدّ يدُه فى الولاية والعَزْل لتطلُّع السـلطان إلى الإحاطة بجَرَيان الأحوال فى الولاية والعزل . وقد تقدّم ذكر ألقابه مستوفاةً فى الكلام على مقدّمة الولايات فى الطَّرَف الأوّل من هذا الفصل، والكلامُ على طرّة تقليده فى الكلام على التقاليد .

وهذه نسخة تقليـدٍ بالوزارة، كُتِب بها للصاحب «بهاءِ الدين بن حَنّا» . من إنشاء القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله الذى وهَبَ لهذه الدولة القاهرةِ من لدنْه وليًّا، وجعل مكانَ سرِّها وشَدِّ أزْرها عليًّا، ورضِيَ لهـا من لم يزل عند ربِّه مَرْضيّا .

نحمدُه على لُطْفه الذى أمسى بِنا حَفِيّا، ونشكُره على أن جعل دولتَنا جنَّةً أورَث تدبيرَها من عبادِه مَنْ كان تَقِيًّا ؛ ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُسَبِّح بهـا بُكْرة وعشيّا ، ونصلّى على سيدنا محمدٍ الذى آتاه اللهُ الكتابَ وجعله نبيّا ، صلى الله عليه وعلى آله وصَحْبه صلاةً نتَّبِع بها صراطًا سويّا .

وبعـدُ، فإنَّ أولى ما تنغّمتْ ألسنةُ الأقلام بتلاوة سُوَره، وتنعّمتْ أفواهُ المحابِر بالاستمداد لتسطيرِ سِيَرِه، وتناجَتِ الكِرامُ الكاتبونَ بشُكْر مجمَله ومفصَّله ، وتناشَدتِ الرُّواة بحُسْن لَسَـنِه وترنَّمت الحُداةُ بطِيبِ غزَله ؛ وتهـادتِ الأقاليمُ تُحَفَ معجَّله ومؤجَّله، وعنَتْ وجوهُ المَهارق لصُعودكَلِمه الطيِّب ورَفْع صالح عَمَله ـ ما كان فيه شكرٌ لنعمةٍ تمُنُّها على الدولة سعادةُ جُدُودِها وحُظُوظِها، وإفادةُ مَصُونِها ومحفُوظِها، وإرادةُ مرمُوقِها بحُسْن الاستيداع وملْحُوظِها؛ وحمدٌ لِمنْحةٍ أفاءَتْها بركاتٌ أحسنَتْ للمْلكة الشريفـةِ مآلا ، وقرّبتْ لهـا مَنالا ، وأصلحَتْ لهـا أحْوالا ، وكاثَرتْ مَـدَدَ البحر فكلَّما أجرى ذاكَ ماءً أجرت هى مالَا ؛ وإن ضَنَّت السُّحُب أنشأتْ هى سُحُبا، وإن قيل ـ بشُحّ سَيْحِنا ـ : رَوْنَقُ الأرض ذهَبَ، عوّضتْ عنه ذَهَبا، كَمْ لها فى الوجود من كَرَم وكرامَه، وفى الوجوه من وُسوم ووَسَامه؛ كم أحيَتْ مُهَجا، وكم جعلَتْ للدولة من أمْرِها مخْرَجا ؛ وكم وسَّعتْ أملا ، وكم تركَتْ صدْرَ الحَزْن سَهْلا، وكم تركت صَـدْر الخزائنِ ضَيِّقا حَرَجا؛ كم استخدَمتْ جَيش تَهجُّد فى بَطْن الليل، وجيشَ جِهادٍ على ظُهور الخيل؛ وكم أنفقَتْ فى واقفٍ فى قَلْبٍ بين صفُوف الحروب، وفى واقفٍ فى صفُوف المساجد من أصحاب القُلوب ؛ كم سبيلٍ يَسَّرت، وسُـعودٍ كَثَّرت ؛ وكم مخاوِفَ أدبرتْ حين درّت ، وكم آثارٍ فى البلاد والعباد آثرَتْ وأثرَّت ، وكم وافتْ ووَفَّت؛ وكم كفَتْ وكَفَّت ، وكم أعفَتْ وعَفَت وعَفَّت، وكم بهـا موازِينُ للأولياءِ ثقُلت وموازينُ للأعداء خَفَّت ؛ كم أَجْرتْ من ـــ وقُوف ،

وكم عُرِفَتْ بمعروف، كم بيوتِ عبادةٍ صاحبُ هذه البركات هو محرابُها، وسماءِ جُودٍ هو سَحابُها ومدينــةِ علم هو بابُها ؛ تُثْنِى الليالى علىٰ تغليسه إلىٰ المساجد فى الحَنَادِس، والأيامُ علىٰ تهجيره لعِيَادة الفُقَراء وحُضور الجنائز و زيارة القُبو رالدَّوارس ؛ يَكتَنُّ تحت جَناح عدْله الظاعنُ والمُقِيم، وتَشــكُر مَبارَّه يثربُ و زمزَمُ ومكّةُ والحَطِيم ؛ كم عمَّتْ سُنَن تفقُّداته ونوافِلُه، وكم مرَّتْ صــدَقاتُه بالوادى ــ فَسَّح الله فى مُدّته ــ فأثنَتْ عليه رِمَالُه و بالنادى فأثنت عليه أرامِلُه ؛ ما زار الشامَ إلا أغناه عن مِنَّة المطر، ولا صَحِب سلطانَه فى سفر إلا قال : نِعْم الصاحبُ فى السَّفَر والحضَر .

ولمــا كان المنفرِدُ بهــذه البركاتِ هو واحدُ الوجُود، ومَنْ لا يُشــاركه فى المَزَايا شريكٌ و إنَّ الليــالىَ بإيجاد مثْـله غيرُ وَلُود، وهو الذى لو لم نُسَمِّه قال سامع هذه المناقب : هذا الموصُوف، عنْد الله وعند خلقِه معْروف، وهذا الممدُوح، بأكثرَ من هذه الممادح والمحامد من ربه ممدُوح ومَمْنُوح ؛ وهذا المنعوتُ بذٰلك، قد نعتَتْه بأكثر من هذه النُّعوت الملائك، و إنمــا نذكُر نعوتَه ٱلتذاذا، فلا يعتقد خاطِبٌ ولا كاتب أنه وفَّى جلالتَه بعضَ حقِّها فإنه أشرف من هذا، و إذا كان ولا بدّ للمَادح أن تجول، وللقلم أن يقُول ؛ فتلك بركاتُ المجلس العــالى، الصاحبىّ، الســيِّدىّ، الوَرَعىّ، الزاهــدىّ، العــابِدىّ، الوالِدىّ، الذُّخْرىّ، الكَفِيلىّ، المُمهِّدىّ، المشــيِّدىّ، العونىّ، القِوَامىّ، النِّظامىّ، الأفضَلىّ، الأشرفىّ، العالِمىّ، العادِلىّ، البهائىّ، سيد الوُزَراء فى العالمين، كهف العابِدين، ملجأ الصالحين، شرف الأولياء المتَّقين، مدبِّر الدول، سدَاد الثُّغور، صلاح الممالك، قُدوة الملوك والسلاطين، يمينِ أمير المؤمنين، علىّ بن محمد : أدام الله جلاله . من تَشْرُف الأقاليمُ بحياطة قَلَمه المبارك، والتقاليدُ بتجديد تنفيذه الذى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك ؛ فمــا جُدّد منها إنمــا هو بمَثابة آياتٍ

فتُردّد، أو بمنزلة سجلات فى كل حين بها يُحكم وفيها يُشْهَد؛ حتى تتناقل ثبوتَه الأيامُ والليالى، ولا يخلو جيدُ دولة من أنه يكون الحالى بما لَهُ من فاخر اللآلى.

فلذلك خرج الأمرُ العالى ـ لا برِح يكْسِب بهاءَ الدين المحمدىّ أتمَّ الأنوار، ولا برِحت مراسِمُه تزهُو من قلم منفِّذه بذِى الفِقَر وذى الفَقَار ـ أن يضَمَّنَ هـذا التقليـدُ الشريف بالوزارة التامة، العامّة، الشاملة، الكاملة: من المآثر الشريفة الصاحبية، البهائية، أحسنَ التضمين، وأن يُنْشر منها ما يتلقّ رايتَه كلُّ ربِّ سيف وقلَم باليمين، وأن يُعْلم كافَّةُ الناس ومن تضُمُّه طاعةُ هـذه الدولة ومُلكُها وسِلْكُها من مَلك وأمير، وكلّ مدينـةٍ ذاتِ منْبر وسرير، وكلّ من جمَعَتْه الأقاليمُ من نُوّاب سلطنه، وذى طاعةٍ مُذْعِنـه، وأصحابِ عقْد وحَلِّ، وظَعْنٍ وحَلّ، وذى جُنُود وحُشُود، ورافعِى أعلامٍ وبُنُود، وكلِّ راعٍ ورعيه، وكل من ينظر فى الأمور الشرعيه، وكلِّ صاحب علم وتدْريس، وتهليـلٍ وتقديس، وكلِّ من يدخُل فى حكم هذه الدولة الغالبة من شُمُوسها المضيئة، وبُدُورها المُنيرة وشُهُبها الثاقبة، فى الممالك المصريَّة، والنُّوبيَّـة، والساحليَّة، والكَرَكيَّة، والشَّوْبَكيَّة، والشاميَّـة، والحَلَبية، وما يتداخَلُ بينَ ذٰلك، من ثُغُور وحُصُون وممالك ـ أنَّ القلَم المبارَك الصاحِبِىّ البَهَائىّ فى جميع هذه الممالك مَبْسوط، وأمْرَ تدبيرها به منُوط، ورِعايةَ شفقَته لها تَحُوط، وله النظرُ فى أحوالها، وأموالها، وإليه أمرُ قَوانينها، ودواوينها، وكُتَّابها، وحُسَّابها، ومرَاتبها، ورَوَاتبها، وتصريفها، ومَصْروفها، وإليه التولية والصَّرْف، وإلىٰ تقدُّمه البدلُ والنعتُ والتوكيـدُ والعَطْف، فهو صاحبُ الرُّتبـة التى لا يَحُلُّها سواه وسِوىٰ من هو مرتَضـيه، من السادة الوزراء بَنِيـه، وما سمَّينا غيْرَه وغيْرَهم

بالصُّحُوبيـة(١) فليحذر من يُخاطِبُ غيْرَه [و] غيرهم بها أو يُسمِّيه ؛ فكما كان والدُنا الشهيدُ رحمه الله يخاطبه بالوالد قد خاطَبْناه بذلك وخَطَبْناه ، وما عدَلْنا عن ذلك بل عَدَلْنا لأنه ما ظَلَم مَنْ أشـبَهَ أباه ؛ فمنزلتُه لاتُسامىٰ ولا تُسام ، ومكانَتُه لا تُرامىٰ ولا تُرام ؛ فمن قَدَح فى سيادته من حُسَّاده زِنادَ قَدْحٍ أُحْرِقَ بشَرَرِ شَرِّه ، ومَنْ ركب إلىٰ جَلَالته ،ثَبَجَ سُوء أُغْرِق فى بَحْره ، ومن فَتَل لسعادته ، حَبْلَ كيدٍ فإنما فتَلَه مُبْرِمُه لنَحْره ؛ فلتلْزَمِ الألسـنةُ والأقلامُ والأقدامُ فى خِدْمته أحسنَ الآداب ، وليقُل المتردّدون : حِطَّةٌ إذا دخلُوا الباب ؛ ولا يغرّنهم فرطُ تواضُعه لدينه وتَقْواه ، فمن تأدّب معه تأدّب مَعَنا ومن تأدّب مَعَنا تأدَّبَ مع الله . ولْيُتْلَ هـذا التقليدُ علىٰ رءُوس الأشهاد ، وتُنْسَخ نُسْخَتُه حتَّى تتناقلها الأمصارُ والبلاد ؛ فهو حجّتنا علىٰ من سمَّيناه خصُوصا ومن يدْخُل فى ذٰلك بطريق العُمُوم ، فليعملُوا فيه بالنص والقياس والاستنباط والمفهوم ؛ والله يَزِيد المجلس الصاحِبيَّ الوزيريّ البهائيَّ سـيدَ الوزراء من فضله ، ويبْقيه لغاب هذه الدولةِ يصُونُه لشِبْله كما صانه لأسَده من قَبْله ، ويمتِّع بنيتـه الصالحة التى يحسُنُ بها ــ إن شاء الله ــ نَمـاءُ الفرع كما حَسُن نمـاءُ أصلِه ، بمنّه وكرمه! .

وهذه نسـخة تقليد بالوزارة ، كُتِب به للصاحب تاج الدين محمد بنِ فخر الدين ابن الصاحبِ بهاءِ الدين علىِّ بن حَنَّا ، فى ربيع الأوّل سنَةَ ثلاث وتسعين وستّمائة ، من إنشاء المولىٰ شِهاب الدين محمودٍ الحلَبىّ ، تغمده الله برحمته ، وهى :

---

(١) فى التعبير بالصحوبية تسامح فى العربية .

الحمـد لله مكمِّل شرفِ الوِزارة بطَلْعة تاجِها ، ومشرِّف قَدْرِهـا بمَنْ تُشْرِق عليها أشعَّة سعدِه إشراقَ الكواكب علىٰ أبراجِها ، ورافع لواءِ مجدِها بمن تلقَّتْه بعد الجَفَاء فى حُلَل سُرورِها وحُلِيِّ ٱبتِهاجِها ، وتحلَّتْ بعدَ العَطَل من جواهرِ مَفاخرِه بمـا تتزيَّنُ عقُود السُّعود بازْدواجِها ، وترفُل من ٱنتِسابِها إلىٰ أُبَّهة بَهائه بمـا يَودُّ ذهَبُ الأصيل لوٱمتزَج بسُلُوكِ ٱنْتِساجِها ؛ الذى شيَّد قواعدَ هذه المرتَبة السنيَّة فى أيَّامنا وجدَّدَها ، وبعثَ لهـا علىٰ فَتْرة من الأكْفاء مَنْ حَسَم الأدْواءَ فكان مَسِيحَها وشَرَعَ المَعْدَلةَ فكان محمَّدَها ، وردَّها بحكم الاَستحقاقِ إلىٰ من لا يُخْتَلَف فى أنه صاحِبُها ، ورجَعَها إلىٰ من خطَبَتْه لنفسِها بعد أن أحجَم لشَرَف قَدْرها خاطِبُها .

نحمدُه علىٰ أن شَـدّ أَزْرَ مُلْكنا بأكْرمِ وزِير ، وأيمَنِ مشير ، وأجلِّ مَنْ ينتهى إلىٰ بيتٍ كريم ، وحسَبٍ صَمِيم ، ومن إذا قال لسان مُلْكِنا : ﴿ ٱئْتُونِى به أستَخْلِصْهُ لِنَفْسى ﴾ قالت كفايتُه : ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إنِّى حَفِيظٌ عَلِيم ﴾ .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُقرّ بها سِرًّا وعَلَنا ، ونُقرُّبها هذه العقيلةَ الجليلةَ عند من يكْسُوها مَجْدُه رفعةً وسَـنا ، ويُلْبِس جَفْنَ الدَّهرِ عنها وسَنَا ؛ ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسوله المخصوصُ بكل صاحبٍ شهد الكتابُ والسنَّةُ بفضله ، وقام بعضُهم بحُسن مُؤازَرته مَقامَ من شدّ اللهُ [به] عضدَ مَن سَألَه وزيرًا من أهْله ؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه صـلاةً لا تَغْرُب شمسها ، ولا يعزُب أُنْسُها ، ولا يَتفاوتُ فى المحافظة عليها غَدُها وأمْسُها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من خَطَبَت بحمده الأقلام ، وٱنتَحت به الدولةُ التى ابْتَسمت بنسيمها ثُغُورُ الأيام ؛ وودَّت مسكةُ الليل لو مازَجَتْ أنفاسَـه ، وأمَّل بياضُ النهار لوأخذ من غير سمة عوضَ ورق الوَرق قِرطاسَه ؛ وتحاشدت النجوم لتنْتَسق فى سلك

معانيه وطارتْ بذكره فى الآفاق أنْباء السُّعود، وحكَمتِ الجُدُود بأنه فى ٱقتبال إقباله نهايةُ الآباءِ وغايةُ الجُدُود، وٱفتَرّت به ثغور الممالك عن أحسَن الدُّرِّ النَّضيد، وسَرَتْ بذكره رِفاقُ الآفاقِ ففى كلِّ نادٍ مُنادٍ وفى كلِّ بَرٍّ بَريد، وٱختالتْ به أعطافُ الدولة القاهرةِ فأوتْ من الرأى السَّديد إلىٰ كلِّ ركنٍ شديد، ونطق به العدلُ والحقُّ فخَرِس الظُّلم وما يُبدئُ الباطلُ وما يُعيد، وجرتْ به أقدارُ ذوى الرُّتَب علىٰ أجمل مَناهجِها فأمَّا أهل العدل فيُقَرَّبون نجيًّا وأما أهل الظُّلم فأُولٰئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيد، وبدَتْ به وجوهُ المصالح سافرةً بعد الحِجَاب، بارزةً بعد طُول الٱنتقال إلىٰ الٱنتِقاب، داخلةً بوفُود المحامد من كلِّ باب، إلا الظُّلمَ فإنه بحمد الله قد سُدّ ذٰلك الباب. وأقرّ منصبُ الوزارة الشريفة أنّا أعَدْنا به الحقَّ إلىٰ نِصابه، ورَدَدْناه إلىٰ من هو أَوْلىٰ به بعد ٱغتصابِه، وألبَسْناه من بَهْجة أيَّامنا تاجًا رَدَّ عليه عِزًّا لاتطْمَع يَدُ الذَّهَب فى ٱنتزاعه عنه ولا ٱستلابِه، وتقليدَه لمن يودُّ الفرقَدُ لو عُقِد به إكليلُه، ويتمنَّى الطَّرْفُ لو أدرَكَ غاية مَجْده وإن رجع وهو حسيرُ البصر كَليلُه، وتفويضَ ذٰلك إلىٰ من كان له وهو فى يَدِ غيره، ومَنْ به وببيته تمهَّدت قواعدُه فما كان فيه من خيرٍ فهو من سَيرتِهم وما كان من شَرٍّ فمن قِبَل المُقَصِّر من عِثَارهم فى سَيْره، وما أُحدِث فيه من ظُلْمٍ فهو منه بُرَاء إذْ إثْم ذٰلك علىٰ من ٱجترَأَ عليه، وما أُجْرِى به من معروف فإلىٰ طريقهم منسوبٌ وإن تَلَبَّس منه بما لم يُعْطَ مَنْ نُسِب إليه، وما خلا منهم هذا الدَّستُ الكريم إلا وهم بالأولَوِيَّة فى صَدْره الجلوس، ولا تصدَّىٰ غيرُهم لتعاطِيه إلا وأقبلَتْ عليه فى أيَّامه الجُسوم وعلْية النُّفُوس.

ولذٰلك لمَّا كانتْ هذه الدولةُ القاهرة مفتَتَحة بالبركات أيَّامُها، ماضيةً بكَفِّ الظلم ونَشْر العدل سُيُوفها وأقلامُها، مستَهِلَّةً بالأرزاق سُحُبُ فضلها التى لايُقْلِع

غمامُها ـ اقتضتِ الآراءُ الشريفة اختيارَ خيرِ صاحبٍ يُعين على الحق بآرائه، ويجمِّل الدَّستَ ببهجته ورُوَائه، ويُجْرِى الأرزاقَ بوجْهٍ لو تأمَّله امْرُؤ ظامئُ الجوانح لارتوى من مائه؛ وكان المجلسُ العالى، الصاحبىُّ، الوزيرىُّ، التاجىّ: أدام الله تعالى نِعمتَه، ورحِم سلَفَه، هو المخطوبَ لفضله، والمطلوبَ لهذا الدَّسْت الذى تعين له دونَ الأكفاء وإن لم يكنْ غيْرُ أهْله من أهلِه؛ ومازال يتشوّفُ إليه تشوُّف البُروج إلى نُجُوم السُّعود، ويتطلَّع إلى مُحيَّاه الذى هو كنُور الشمس فى الدُّنُو وكمَحلِّها فى الصُّعُود؛ وما زالتِ الأدعيةُ الصالحةُ ترتفع فى أيامه لمالكِ عَصْره، والآراءُ تُقام منها جُنودٌ لتأييده وحُشُود لنَصْره، والأموالُ تُحملُ منها إلى خزائنه بأشْبَهَ بموج البحر فى الحُضْر دُونَ حَصْره.

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ ضاعفَ الله مواهبَه العَميمه، وكمَّل جَلالَ دولته بتفويض أُمورِها إلى ذَوِى الأصول العريقة والبُيوتِ القديمه ـ أن تُحَلَّى منه هذه الرتبةُ العلية بما حَلَّى به الدِّين، وتُعقَدَ له رايةُ فضلِها المَتين؛ ليتلقَّاها شرْقًا وغَرْبا، وبُعْدًا وقربا؛ وبَرًّا وبحرا، وشامًا ومِصْرا، ويُحَلِّى حِلاه عِلْمٌ وعَلَمٌ، وسيْفٌ وقلَم؛ ومِنبرٌ وسرير، ومأمورٌ وأمير.

فليتلَقَّ أمرَه بالطاعة كلُّ مؤتمِرٍ بأمْرِنا الشريف، جارٍ فى طاعتنا المفروضة بينَ بيَانِ التقليد وعِنَانِ التصريف؛ وليُبادِرْ إلى تدبيرِ أمورِ الأقاليم بأقلامه المباركه، ويمضِ القواعدَ على ماتَراه آراؤُه المنزَّهة عن المنازعة فى الأمْرِ والمشاركه؛ ولينْشُرْ كلمة العدل التى أمر اللهُ بإضافة الإحسانِ إليها، ويُمِتْ بِدَعَ الظلم فإنَّ الله يشْكُره على تلك الإماتة ويحمَدُه عليها؛ ويسهِّلْ رِزْقَ الصدقات، ووظائفَ القُرُبات، فإن ذلك من أجَلِّ ما قدَّمته [الطائفة] الصالحةُ بين يَدَيْها، ولْيكْثِر بذلك جنودَ الليل فإنها لاتَطيش سهامُها، ويتوقَّ من مُحارَبتها بظُلْم فإنَّه لا يُداوى بالرُّقى سِمامُها، وليعوِّذ بمَائم التيسير

مواهَبنا فإنَّ تمام النعمة تمـائمُها ، وليطلق قلمَه فى البَسْط والقبض وليُعدْ بتدبيره على هـذا المنصب الشريف بهجَتَه ، ويتدارَكْ بآرائه ذَمَاءه وبدوائه مُهْجتَه ، ويَصُنْ عن شوائب الظُّلم حرمتَـه ، ويخلِّص ذمَّتنا من المآثم وذِمَّته ؛ وليعلَمْ أنَّ أمور المملكة الشريفة مَنُوطةٌ بآرائِه وأحكامه ، مضـبوطةٌ بأقواله وأقلامه ؛ فليجعلْ فِكْرَه مِرْآةً تَجْلُو عليه صُوَرَها ، ويُقِمْ آراءَه صُحُفا تَتْلو لدَيْه سُوَرَها ؛ ويأمُرِ النوّاب بمـا يَراه من مصالحنا ليُلَبُّوه سامعِين ، ويُسْهِر جَفْنه فى مصالح البِلاد والعِباد لترْقُد الرَّعايا فى مِهَاد الأَمْن وا عين ؛ ويعضِّـد الشريعـةَ المطهَّرة بتنفيذ أحكامِها ، وإعلاء أعلامِها ، وإظهارِ أنوارها ، وإقامةِ مارفعه الله من مَنَارِها ؛ ولا يَعْدِل فىأمور مباشرتِها بالممالك الشريفة عن آرائِه ، ولا يُمْضِى فيها عَزْلا ولا وِلايةً إلا بعد تَتَبُّعه الواجبَ فى ذٰلك وآستقرائِه ، وهو أعلم بمـا يجب لهذه الرُّتبـة من قواعدَ إليـه يُرْجَع فى أوضاعها ، وعليـه يُعوّل فى آصطلاحها لآنفرادِها فيه وآجتماعِها ؛ فليفعَلْ فى ذٰلك ما هو عليـه بحُسْنِ الثناء جدير ، وليعتصِمْ بالله فى أموره فإنَّه نِعْمَ المولىٰ ونِعْم النصير ؛ إن شاء الله تعـالىٰ .

وهـذه نسخة تقليد بالوزارة ، كُتِب به للصاحب ضياءِ الديـن بالاستمرار على الوزارة ، . من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

الحمد لله الذى شَدَّ أَزْر مُلْكنا الشريف ، بمن أضاء فى أُفُق الدِّين علْمُه ، وشـيَّد قواعدَ عدْلِنا المُنِيف ، بمن أعْلَتْ منارَ الحق آياتُه فى أحكام الممـالك وحِلْمُه ، ووطَّد أركانَ دولتنا القـاهرة بمن يفْعل فى نِكَاية أعداء الله فِعْلَ الحربِ العَوَان سِـلْمُه ،

وأجرىٰ الأرزاقَ فى أيّامنا الزاهرةِ علىٰ يَدِ من كَفّت أقلامُهُ كَفَّ الحوادث فلا عُدْوانَ تغشَىٰ ظُلَمُه ولا عادٍ يُخْشىٰ ظُلْمُه ، وصانَ ممالكنا المحروسةَ بآراء مَنْ إن صَرَف إلىٰ نكاية أعداء الله حَدّ يراعِه لم يَنْبُ موقعُــه ولم يَعْفُ كَلْمُه ، وإن صرفه فى حمـاية ثغــر لم يُشَمْ برقُه ولم يَدِقْ بالوهم ظُلْمُــه ، وإن حمىٰ جانبَ إقليم عزَّ على الأيام ثَلُّ عُروشِ ما حَمَاه وَشَمُّه ، وإن أرهفَه لذَبٍّ عن دين الله راعتْ عدوَّ الدين منه يقظتُه وسلَّه عليه حُلْمُه .

نحمده علىٰ نِعَمه التى زانتْ أسنىٰ مناصبِ الدنيا فى أيّامنا الزاهرةِ بضياءِ الدِّين ، وأعلَتْ أقدارَ الرُّتَب العُلْيا بتصرُّفها بآراء من أصبح عِلْمُــه عَلَما للتقــين وعَمَلُه سَنَنا للمقتدين ، وبُجِّرت ينابيعُ الأرزاق فى دولتنا القاهرةِ بيَدِ من أغْنىٰ بيدنا المعتَفِين وقَمَعَ بمهابتِنا المعتدين .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أعاد يُمْنُها علىٰ سَمْع المنابر من نُعوتنـا ما فَقَــد ، وأطفأ إعلانُها عن حَمَلتِها لَهَبَ العِناد وقد وَقَد ، وفوّضَ آعتناؤُنا بمصالح أهلِها أمورَهم إلىٰ أكمل من آنتقىٰ لنـا التأييدُ من ذخائر العلمـاء وأفضــل من آنتقَد ، ونشهد أن محمدا عبــدُه ورسولُه الذى أقامنا الله للذَّبِّ عن أمّته ، وجلا بنُور جهادِنا لأعدائه عن قَلْب كل مؤمن ما أظَلَّه من غَمِّــه ورانَ عليه من غُمَّته ، وعضّدنا من أئمــة مِلّته بمن أردْنا مصالحَ العباد والبلادِ فى إلقاء كلِّ أمر إليــه بأزمَّتِه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من فاز بسَبْقِه ، وحاز بتصديقِه قدمَ صِــدْقه ، وآختصّــه الله بمؤازرةِ نبيِّــه دُونَ مَنِ آجتباه من خَلْقه ، ومنهم مَن كان الشــيطان يُنَكِّب عن طُرْقه ، ونَطقَ من الصواب بمـا نزل الذِّكْرُ الحكيمُ علىٰ وَفْقِــه ، وسُمِّى الفـارُوقَ لتمييزه بين الحقِّ والباطل وفَرْقِه ، ومنهم من قابَلَ المعتَدين

برِفْقِه وقُتِل شهيدًا علىٰ حَقِّـه ، وكانت ملائكةُ الرحمن تستَحْيِي من خُلُقِـه الكريم وكرم خُلُقِه ؛ ومنهم من طلَع [لا]معُ نُورِ الإيمان من أُفُقِه ، وكان سيْفُه من كل مُلْحِد فى دين الله بمثـابة قِلَادةِ عُنُقِه ، وطلَّق الدنيا تورُّعا عنها وبيده مفاتيحُ ما بَسَـط الله للأمَّة من رِزْقِه ؛ صلاةً يُقيم الإيمانُ ، فرضَها ، ويملأ بها الإيقانُ ، طُولَ البسيطة وعَرْضَها ، وتُزَيِّن كواكبُ ذِكرها ومواكبُ نَصْرِها سماءَ الدنيا وأرضَها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعـدُ ، فإنَّ أولىٰ من رُقِمت لأعطافِ فَضْله حُلَل الكلام ، ونُظِمت لأجياد ذِكره فرائدُ المَعانى المسـتخرجةُ من بحار الفكْر علىٰ ألْسِنة الأقلام ؛ ووُشِّحت التقاليد من مناقبه بما هو أحسنُ من ٱتِّساق الدَّرارىِّ علىٰ هالاتِ البُدور ، وجُلِّى علىٰ المَسَامع مفاخرُه بمـا هو أبهىٰ من النُّور فى العيون ! وأحلىٰ من الأمن فى القُلُوب ! وأوقعُ من الشِّفاء فى الصُّدُور ، وأُطلعَ فى أُفُقِ الطروس من أوصافه شمسٌ أسفَر بأنواع العلوم ضِـياؤُها ، وأُنْشِئت فى أثناء السـطور من نعْت مآثره سُحُبٌ إذا قابلتْها وجُوه الحَيَا سترها بحُمْرة البَرْق حَياؤُها ؛ وأودعتِ المَهارِق من ذِكْرِ خلاله لُطْفا يَوَدُّ ذهبُ الأصيل لو ناب عن أنْفاسِها ، ومُنِحت صدُورُ المعانى من معاليه طُرَفًا تمنَّى الرياضُ العواطرُ لو تَلَقَّتْ عن أنفاسِها — من سَمَت الوزارةُ بٱستقرارها منه فى مَعْدِن الفضائل ، وٱتَّسمت منـه بالصاحبِ الذى أعادَتْ أيَّامُه ما فُقِـد من محَاسن السِّـيَرِ الأوائل ؛ وٱبتَسمتْ من علومه بالعَلَّامة الذى تتفرّعُ من أحكامه أحكامُ الفروع وتتفَجَّر من تواقيعـه عُيون المسائل ، وٱتَّصفت من مَعْـدَلته بالمُنْصِف الذى هَجَر فى أيَّامه هجيرَ الحَيْف والظُّلْم فالأوقاتُ فى أيامه المباركة كلُّها أسحارٌ وأصائل ؛ وٱبتهجَتْ من إنْصافه بالعادل الذى سَهَّل علىٰ ذَوِى المطالِب حِجـابَ بابه فلا يحتاجُ أن يُطْرَق بالشَّفاعات ولا أن يُستفْتَح بالوسائل ، وأشرقتْ من مفـاخره بالكامل الذى حسُنتْ به حُلَل

الثناء فكأنها ٱبتسامُ ثُغور النَّوْر فى أثناء الخمائل ؛ فالعدْل فى أيّامه كالإحسان شامل ، والمعروف بأقلامه كالسُّحُب المتكفِّلة بريّ الأرض الهـامل ، والظلمُ والإنصاف مفترقان منه بين العَدَم والوجود فلا يُرى بهذا آمرا ولا يُردُّ عن هذا آمل ؛ قد أعطىٰ دَسْتَ الوزارة الشريفة حَقَّه : فالأَقْدار بآياته مَرْفُوعه ، والمضارُّ بمعْدَلته مَدْفُوعه ، وكلمةُ المظلوم بإنصاف إنصاته مسمُوعه ، وأسبابُ الخيرات بحُسْن نيّته لنيَّته الحسنة مجْمُوعه ؛ والأقاليمُ بِكَلاءة أقلامه مَحُوطـه ، وأحوال الممـلكة بآرائه المشـتملة علىٰ مصالحها مَنُوطه ؛ والثُّغُور بحُسْن تفقُّده مفتَّرَةُ المَبـاسِم ، مصُونة بإزاحة الأعذار عن مَرِّ الرِّياح النَّواسم ، آهلةُ النَّواحى بموالاة الحُمُول التى لا تَزَال عِيسُها بإدامة السُّرىٰ دامِيَةَ المَنـاسِم ؛ والبلادُ بمـا نشَرتْ أقلامُه من العَـدْل معمُوره ، والرَّعايا بمـا بسطَتْ [يدُ] إحسانه من الإحسان مَغْمُوره ، وأربابُ التصرُّف بمـا تقتضيه أقلامُه عن الحَيْف منهِيَّـةٌ وبالرِّفْق مأموره ، والأيدى بالأدْعِيَـة الصالحة لأيَّامنـا الزاهرة مرتفعه ، والرعِيَّـةُ لتقلُّبها فى مِهاد الأمْن والدَّعَة بالعَيْش منتفعه ؛ وبيوتُ الأموال آهلةٌ ، علىٰ كَثْرة الإنفاق ، والغِلَال متواصلَة ، مع التوَفُّر علىٰ عِمَارة البلاد ، والحُمولُ متواليةٌ مع أَمْن من صدَرتْ عنهم علىٰ ما فى أيْديهم من الطَّوارِف والتِّلاد ؛ والأمورُ بالتيقُّظ لهـا علىٰ سَعة الممـالك مضْبُوطه ، والنُّفوس بالأمْن علىٰ ما هِيَ عليه من التمـلِّى بالنِّعَم مغْبُوطه ؛ والمنـاصِبُ مَصُونة بأكفائها ، والمراتبُ آهلةٌ بالأعيان الذين تنبَّهت لهم فى أيَّامه عيُونُ الحظّ بعد إغْفائها ؛ ومجالِسُ المعْدَلة حاليةٌ ، بأحكام سِـيرته المُنْصِفه ، ومواطِنُ العـلم عاليةٌ ، بمـا يُملىٰ فيها من فوائده التى أتعَبَ ألسِـنة الأقلام ما فيها من صِفَه .

ولمـا كان الجنابُ العـالى ، الصاحبِىّ ، الوزيرىّ ، الضِّيائىّ ، وزيرالممـالك الشريفة ، هو الذى كَرُمت به مناسِبُها ، وعظُمَت بالانتمـاء إليه مَناصِبُها ، وتحلَّت

بعلمه معاطفُها ، ونزلَتْ علىٰ حُكم حِلمه عوارِفُ بِرِّها العميمةُ وعَوَاطفُها ؛ و زهَتْ بجواهرِ فضائله أجيادُها ، وآستَوتْ فى مَلَابِس حُلل المَسَرَّة به أيامُها الزاهيةُ وأعيادُها ؛ وأنارتْ بمعْدَلته لياليها ، وأشرقَتْ بالأنتظام فى سِخَاب(١) إيالته لآليها ؛ فكَمْ من أقاليمَ صان قلَمُه أموالَها ، وممالكَ حَلَّى عدْلُه أحوالَها ، وبلادٍ أعان تدبيرُه السُّحُبَ علىٰ رَيِّها ، وأعمال أبانَ عن آستغنائها بتأثيره عن مِنَّة الحَيَا حسنُ مسمُوعها ومرئيِّها ؛ وأرزاقٍ أدرّها ، ورِزَق أجراها علىٰ قواعدِ الإحسان وأقرَّها ؛ وجهاتِ برٍّ أعان واقفيها عليها ، وأسبابِ خيرٍ جعل أيَّامنا بإدامة فتْحِها السابقةَ إليها ؛ وقَدَم سِعايةٍ أزالها وأزلَّها ، وكلمةِ حادثةٍ أذَالَها وأذَلَّها ، ووُجوهِ مَضرَّة ردَّها بيد المعْدَلة وصدَّها ، وأبوابِ ظُلم لا طاقةَ للرعيَّة بسُلوكها أغلقَها بيُمنىٰ يُمنه وسَدَّها ؛ فدأْبُه أن يُسَدِّد إلىٰ مقاتِل العدا باتخاذ اليَدِ عند الفقراء سِهامَ الليل التى لا تَصُدُّها الدُّروع ، وأن يجدِّدَ لأوليائنا من عوارِفِ آلائنا أخْلاف بِرّ تَرْوِى الآمالَ وهى حافلةُ الضروع — آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُزيِّن بجيده غُرَر التقاليد ، ونجدِّدَ إليه فى أمور وزارتنا الشريفةِ إلقاء المَقاليد ؛ وأن نُوشِّى الطروسَ من أوصافه بما يجدّد علىٰ أعطافها الحِبَرَ ، ونردّدَ علىٰ ألسنة الأقاليم من نُعوته مالا تَمَلُّ المسامعُ إيرادَ الخَبَر منه بعد الخَبَر.

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَولوىّ ، السُّلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفلانىّ — لازال الدِّين فى أيامه الشريفةِ مُشْرِقا ضياؤُه ، آهلةً باعتلائه مَرابِعُ الوُجُود وأحياؤُه ، ممدُودةً علىٰ الامّة ظِلالُه الوارفةُ وأفياؤُه — أن يُجدَّد هذا التقليد باستقراره تجديداً لا يُبلِي الدهرُ حُلَلَه ، ولا تقوِّض الأيام حِلَلَه(٢) ؛ بل يُشْرِق فى أُفُق الممالك إشراقَ

(١) السخاب بكسر السين المهملة وبالخاء المعجمة قلادة من مسك وقرنفل ومحلب بلا جوهر جمعه ككتب .

(٢) جمع حلة بالكسر بمعنى البيوت وهى مائة فما فوقها انظر المصباح .

النجوم الثَّوابت ، ويتفرّعُ فى مصالح المُلْك تفرّع الأفنان الناشئة فى الأُصول الثَّوابت ؛ وتختالُ به مناصبُ الدولة القاهرة فى أسنىٰ ملابسها ، وتُضىء به مواطنُ العلوم إضاءةَ صَباحةِ المِصباح فى يَدِ قابِسِها ؛ وتَستْرْبِعُ لنا به الأدعيةُ الصالحة من كلِّ لسان ، وتُجتلىٰ به لأيامنا الزاهرة من كل أُفُق وجوهُ الشُّكْر الحِسان .

فلتَجْر أقلامُه فى مَصالح دولتنا الشريفة علىٰ أفضل عادَتِها ، ويُرسِلْها فى نَشْر العدْل علىٰ سجيَّتها وفى إجراء الجُود علىٰ جادّتها ، ويَكُفَّ بهـا أَكُفَّ الحوادث فإنما تُزال أسبابُ الظلم بحَسْم مادّتها ؛ وليُنْطِقها فى مَصالح الأموال بما تظَلُّ له مسامِعُ الحُمول مُصْغيه ، ويُطْلِقْها فى عِمارة البِلاد بما تغْدُو له ألسِنةُ الخِصْب حافظةً ولما عَداه مُلْغِيه ؛ وكذٰلك الخزائن التى هى معاقلُ الإسلام وحُصونُه ، وحِمَاه الذى لا يُبْتذَلُ بغير أمرنا الشريف فى مصالح المُلْك والمِلَّة مَصُونُه ؛ فليجعلها بتدبيره كالبِحار التى لا تَنْقُص بكثْرة الوُرّاد جِمامُها ، ولا تَنْزحُها السُّحُب لكثرة ما تحمِلُ الى الآفاق غَمامُها ؛ ولتكُنْ كلمةُ العدل من أهمِّ ما تُفتَتح به مجالِسُه ، وآكَدِ ما يُؤمَرُ به مُحاضِرُه من الأولياء ومُجالِسُه ؛ وأزكىٰ ما يَستجيدُ [به] لاستثمار الدعاء الصالح مَغارِسَه ، وأوثَقِ ما يحُوط به حِمىٰ الملك الذى إذ اغفَا جَفْنُ عينه كان حارِسَه . وأوّل ما ينبغى أن يُنافِس عليه حاضِر دَسْته وغائبُه ، وأولىٰ ما يُعِدّ علىٰ إهماله نَكالَه ويَعُدّ علىٰ إقامته رغائبَه .

ولْيلاحظْ من مَصالح كلِّ إقليم ما كأنَّه ينظر إليه بعين قلبه ، ويمثِّلْ صورتَه فى مِرْآة لُبّه ؛ فيُقِرّ كلَّ أمر علىٰ ما يَراه من سَداده ، ويُقَرِّر حال كلِّ ثغر علىٰ ما يحصُل به المراد فى سِداده ؛ فيغدُو لأعذاره بموالاة الحُمُول إليه مُزِيحا ، ويُمسى بسَدّ خَلَله لخواطر أهل الكفر مُتْعِباً ولخواطرنا الشريفة مُرِيحا ؛ وينظر فى أحوال

من به من الجُنْد والرجال بما يؤكّد الطاعةَ عليهم ، ويجدّد الاستطاعةَ لديهم ؛ ويُزيل أعذارَهم واعتذارَهم [بوصول حقوقهم اليهم ، ويُوفِّرهم على إعداد الأهبة للأعداءِ] (١) إذا أَتَوْهم من فَوْرِهم ، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاق عليهم عن اعتدائِهم على الرعايا وجَوْرِهم ؛ ويتفقّد من أحوال مباشريها وولاة الحكم والتحكُّم فيها ما يعلمون به أنه مناقِشُهم على الأمور اليَسيره ، والهَفَوات التى يرَوْنها قليلة وهى بالنسبة إلى كثرة الرَّعايا كثيره ؛ ويتعاهدُ أمور الرتب الدينيَّة فلا تؤخَذُ مناصبُها بالمَناسب ، ولا تَغْدُو أوقافُها المُعَدّة لاكتساب العلوم فى المَكَاسب ؛ بل يتعين أن يرتادَ لها العلماءَ الأعيان حيثُ حَلُّوا ، ويُقرِّر فى رتبِها الأَئمّةَ الأكفاءَ وإلا اتخذ الناسُ رُءوسا جُهّالا فضَلُّوا وأضَلُّوا . ولتكنْ أقلامُه على كلِّ ما جرتْ به العوائدُ فى ذلك محتَوِيه ، وأيامُه على أكمل القواعد فى ذلك وغيره منطَوِيه ، فما ثَمَّ شيءٌ من قواعد الوزارة الشريفة خارجٌ عن حكمه فلْيكتُبْ يُمتَثل ، وليقُلْ فى مصالح دولتنا القاهرة يكُن قولُه أمضَى من الظُّبَا وأسرىٰ من الصَّبا وأسيَرَ من المَثَل ؛ فلا تُمضىٰ فى ذلك ولايةٌ ولا عَزْل ، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقْد [ولا] حل ؛ إلا وهو معدُوق بآرائه ، متوقِّف على تنفيذه وإمضائه ، متلقٍّ ما يقرّر فيه من تِلْقائه ، وفى الاكتفاء بسيرته ما يُغنى عن إطرائه ؛ إن شاء الله تعالى .

وهذه نُسخة تقليد بالوزارة :

الحمد لله الذى شَدَّ لدولتنا القاهرة باصطفاء أشرف الوزراء أزْرا ، وخصَّ أيَّامَنا الزاهرةَ باجتباء مَنْ حماها عدْلُه أن تَضَع أو تحمِل وِزْرا ، وأفاض إنعامَنا على مَنْ طلع

(١) الزيادة من التقليد الآتى بعد .

فى أُفُق خدمتنا هلالًا وٱستقلَّ بحسن السَّيْر والسِّيرة بَدْرا ، وضاعفَ إحسانَنا لمن [لا] نرفَعُه إلىٰ رتبة شرف إلا وكان أجلَّ الأكفاء علىٰ ذٰلك قُدْرةً وقَدْرا ، وجمَّل مُلْكنا بمن إذا ٱفتخرت الدُّول ببعض مناقبه كَفَاها ذٰلك جَلَالا وفَخْرا ، وإذا ٱدَّخرت تدبيره وبذلَتْ ما عداه فحَسْبُها ما أبقَتْــه وقايةً للملك وذُخْرا ، وبسط عدْلَنا فى الأقاليم بيــد مَنْ حينَ أمرْنا القلمَ بتقليده ذٰلك سَجَد فى الطِّرس شُكْرا ، وٱفتتح بحمد الله يُذَكِّر النعمةَ به علىٰ آلائه إنَّ فى ذٰلك لَذِكْرىٰ ، وأخذ فى وصف دُرَرِ مَفَاخِره التى تمثَّلت له فنَضَّدها دُون أن يستدعِىَ رَوِيَّة أو يُعْمِل فِكْرا .

نحمــده حَمْدَ من والىٰ إلىٰ أوليائه ، مَوادَّ النِّعم ، وأضفىٰ علىٰ أصــفيائه ، ملابِسَ الكَرَم ، وحفِظ لمن أخلَص فى طاعته مَعارفَ معروفِه التى هى فى أهل النُّهىٰ ذِمَم ، ونَبَّه لمصالح رعاياه مَنْ عَمّ عدْلُه وإن لم يَغْفُ عن ملاحظة أمورهم ولم يَنَمْ .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً نُعلِنُها ونُعْليها ، ونُرْخِص أرواحَ جاحديها ونُغْليها ، ونُوالى النِّعَمَ علىٰ المتمسِّك بها ونُوليها ، ونقَرِّب بيُمْنها رُتَبَ الأولياء من إحساننا ونُدْنيها ، ونجدِّد لهم بتأييدها ملابِسَ المِنَن نُظْهِرُ عليهم آثارَ النِّعم السنية فيها ، ونرفَعُهم بحسن عنايتنا إلىٰ أشرف غايةٍ كانوا يُسِرُّون أهليَّتهم لها والله يُبْديها ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أقامنا لنصر دينــه فقمْنا به كما أَمَرْ ، وأبقىٰ علىٰ أيَّامنا حكْمَ أيَّامه فاستمرّ الحالُ علىٰ ماسبقَتْ به دعوتُه من تأييد الدين بعُمَر ، وخَصَّنا ممن ينتمى إلىٰ أصحابه بأجلِّ صاحبٍ ينُوب عن شمس عَدْلنا فى محو ظُلْمة الظُّلْم مَنابَ القَمَر ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الزُّهْر الغُرَر ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعــد ، فإنَّ أوْلىٰ من ٱختيرت جواهرُ الكلام لوَصْف مفاخره ، وٱنتُخِبت غُرَرُ المعانى لوَصْف آثاره فى مصالح الإسلامِ ومآثِره ، وقامتْ خطباءُ الاقلام علىٰ مَنابِر

الأنامل بشيرةً بيُمْن أيّامه ، وتطلّعت مُقَل الكواكب مشيرةً إلىٰ ما أقبل علىٰ الأقاليم من إقباله وسَحَّت سُحُبُ أقلامه ؛ وتبرّجت زُهْر النجوم لينتظِم فى عُقُود مناقبه سعودُها ، وتأرّجت أرجاءُ المَهَارق إذ تبلّج من ليلٍ عن فجرٍ عمودُها ؛ وسارت به أنباءُ السُّعود والقلَم الناطق بذكره وهو المحلِّق الميمون طائره، والطِّرس الموشَّع بشُكْره وهو المخلق الذى تملأ الدنيا بَشائره ــ من استخلصَتْه الدولةُ القاهرة لنفسها فتملّاها عينا وسُرَّ بها قلبا ، وآختصَّتْه بخواصها الشريفة فرَحُب بها صَدْرا ولبّاها لُبّا ، وكَلِف بمؤازرتها ذاتها حتَّى قيل : هــذه «تُراوِدُ فَتَاها عن نَفْسه قد شَغَفَها حُبًّا» ؛ وأحلّته من وزارتها الشريفة بالمكان الأسنىٰ والحرَم الحريز، وأثنَتْ علىٰ فضله الأسمىٰ بلسان الكَرَم البسيط الوجيز، واعتمدَتْ فى أمور رعاياها علىٰ ما فيه من عَدْل ووَرَع لا يُنْكَر وُجودُهما من مثله وهو فى الحقيقة عُمَرُ بنُ عبد العزيز؛ وأدنَتْــه عنايتُنا منّا لمــا فيه من فضــلٍ عميم، وحسَبٍ صميم، ونَسَبٍ حديثُ مَجْده قديم، وأصالة إذا آفتخرت يوما تميمٌ بقومها قالت أين تميمُك من جدّه صاحب رسول الله صــلى الله عليه وسلم تَميم ؛ وغرســتْه لنفسها وطال ذٰلك الغــرسُ وطابَ الثَّمر ، وآعتضــدَتْ بتــدبيره فكان له عنــد أطرافِ العوَالى فى مكانه الأعزّ أظْرَف سَمَر، ووثِقَتْ بمــا فيه من عَدْل ومعرفة لا يُنْكَرُ من نحا الصوابَ آجتماعَهما فى عُمَر ؛ وآشتقَّت له بإحساننا من نسبته وَصْفا جميلا ونعتا جَليــلا ، وخصَّته لمزيّة ذٰلك الآشتقاق بمزيد قُرْبنا فأمسىٰ فى خدمتنا جَليلا وأصــبح خَليلا ؛ ورعَتْ له ما قد تَمّ من تدبير أتىٰ عليه بنفســه ، وسَــدَادٍ ظهرَتْ مزيّةُ كل يومٍ منه علىٰ أمْســه ؛ وسعْيٍ جميلٍ مابرح فى مصــالح الإسلام رائحا وغاديا ، واجتهادٍ فى أمور أهل الجهاد مابرح يَدْأبُ فيه علْما بمــا أعدّ اللهُ لمن جهَّز غازيا ؛ ودانَ له من حُسْــن ملاحظته الأمورَ ما ليس للوصف به من

قبل، وتأملت ما يُكشف له علىٰ البُعد من المصالح التى يأمر بالصواب فيها وكيف لا وعُمرُ الذى شاهد السَّرِيَّة علىٰ البُعْد من سارِية الجبل؛ وأيقنتْ ببَسْط العدل فى الرَّعايا إذ هو مؤتَمِر والعادل آمر، وتحقَّقت عمارة البلاد علىٰ يديْه لأنَّ عُمر بحُكم العَدْل عند الحقيقة عامِر.

ولذلك لما كان المجلس العالى الفَخْرىّ ـ ضاعف الله نعمته ـ هو الذى قَرَّبتْه طاعتُنا نجيًّا، ورفعتْه ولايتُنا مكانًا عليًّا، وحقَّق له اجتهادُه فى مصالح الإسلام الأَمَلَ من رِضانا وكان عندَ ربِّه مَرْضيًّا، وأخلص فى خدمة دولتنا الشريفة فاتَّخذتْه لخاصِّ الأمور وعامَّتها صفيًّا، وأظهَر مابطَن من جميل اجتهاده بجعلته لمصالح المُلْك وزيرا وصاحِبًا ووَلِيًّا؛ وأنجزتْ منه لتدبير أمور الممالك بما كان الزَّمنُ به ماطِلا، وأجرتْ علىٰ يده التى هى مليَّة بتصريف الأرزاق ما لا يَبْرَح غمامُه هاطِلا، وقلَّدته رعايةَ الأمور وأُمورَ الرعايا علمًا أنه لا يترْك لله حقًّا ولا يأخذُ باطِلا، وقلَّدتْ جِيدَه بأسنىٰ حِلَىٰ هذه الرتبة الجليلة وإن لم يكن منها بحُكْم قُربه منا عاطِلا، ورفعتْ له لواء عدل ما زال له بالمُنىٰ فى أيَّامنا الشريفة حامِلا، وكمَّلتْ له ببلوغ الغاية من أُفُق العُلُوّ رفعةَ قدره وما زال المُؤَهَّلُ للكمال باعتبار ما يَئُول إليه كامِلا، ونوَّهتْ بذِكره وما كان لظهور مَخايِلِ هذا المنصِب الجليل عليه فى وقتٍ خامِلا، ونظرت الرعايَا فما عدلتْ بهم عن بَرٍّ رفيق، وصاحبٍ شفيق، ووزيرٍ عُمَرىّ السيرة ماسلكَ طريقا إلا وعدلَ شيطانُ الظلم عن ذٰلك الطريق؛ وكان هـذا المنصِب الجليل غايةً مدارُ الممالك عليها، وقبلةً تَوَجَّهُ وجوهُ أهل الطاعة فيما يُفاض عليهم من نِعَمنا إليها؛ وهو الذى يتدرَّع صاحبُه من أنواع الطاعات لَبُوسا، ويعالِجُ من أدواء المَهامّ ما بغير عزائمه لا يُوسىٰ، ويتردَّد فى المخالَصة والمناصَحة من مالكِ أمره بمنزلة هارُون من مُوسىٰ ـ اقتضت آراؤُنا الشريفة ان نُفَوِّض ذٰلك إلىٰ مَنْ نهض فى طاعتنا

الشريفة بما يجب ، وعلمنا تحرّزه لدينه ولنا فيما يأتى ويجتنب ؛ ومن تُزاد به مع نخره أيّامُنا الشريفة نخرا ، ويُصبح له مع ماله من الجلالة فى نفسه رُتَبُ جلالةٍ أُخرىٰ .

ولهذا رسم بالأمر الشريف العالى المولوىّ ، السلطانىّ ، الملكىّ ، الفلانى : ــ لا زال يُصرّف الأقدار بيمين أيّامه ، ويُشرّف الأقدارَ ببرّه وإنعامه ، ويُدرّ علىٰ الأولياء وابلَ جُوده الذى تخجل الدِّيَمُ من دوامه ــ أن تفوّض إليه الوزارةُ الشريفة الكاملةُ علىٰ جميع الممالك الإسلامية : شرقا وغربا ، وبُعْدا وقربا ؛ وبرًّا وبحْرا ، وشاما ومصْرا ، علىٰ أجمل القواعد فى ذلك وأكملها ، وأسنىٰ الفوائد وأفضلها ، وأتمّ الأحوالِ التى يُستغْنىٰ بمجملها عن مفصّلها .

فليُعْط هذه الرتبةَ من جلالته حظًّا كانتْ من إبطائه علىٰ وجل ، وليُجارِ الغمائمَ بوابِل إنعامنا الذى يُعْلَم به أن حُمْرة البرْق فى أثنائه خجل ؛ ويُطلقْ قلمه فى مصالح الدولة القاهرة بسْطا وقبْضا ، وإبراما ونقْضا ، وتدبيرًا يُعين النّيلَ والغمام علىٰ تتبّع المحْل ماوجد كلٌّ منهما أرْضا ، ويُعمِلْ آراءه المباركةَ تدبيرا للمناجح وتدْريبا ، وتقريرًا للقواعد وتقْريبا ، ونظرًا يجعل لكلّ عملٍ من ملاحظته نصيبا ، وفكرا يحاسبُ به علىٰ حقوق الله وحقوق خلْقه فإنّ الله هو المناقِشُ علىٰ ذلك ﴿وكفىٰ بالله حسيبا﴾ .

ويبدأُ بالعدْل الذى رسم الله به وبالإحسان فى مُلْكنا الشريف ، ويخفّفُ ــ مع الجمع بين المصالح ــ عن خلْق الله الوطأةَ فإنّ الإنسانَ ضعيف ، ويُنْجزُ لأولياء دولتنا موادَّ الارزاق فإنّ سيْفَ المنْع الذى نُحاشى أيّامنا عن تجريده أقلُّ نكايةً من التسويف ، ويمنعُ الوُلاة من ظُلم الرعايا باعتبار أحوالهم دُونَ أقوالهم فإنّ منهم من يدّعى العدل ويجُور ويُظْهر الرِّفق ويحيف ؛ وليتتبّعْ أدواءَ المحْل تتبّعَ طبيبٍ خبير ،

ويُصرّف الأمورَ بجميل تدبيره فإنّ البركة معْدوقةٌ بحُسْن التدبير، ويستقبلْ رَيَّ البلاد ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ بسَدَاد حَزْم يُغْتفر به هـذا القليـل لذٰلك الكثير، ويستَخلِف بالرِّفق والعدْل أضعافَ مافاتَ فى أمْسه فإنَّ ذٰلك على الله يَسير. وليهتمّ ببُيوت الأموال فيُوالى إتيانَ الحُمول إليها من أبوابها، ويضاعِفُ بها الحواصلَ التى لايُطَّلَع بغير حُسْن التدبير علىٰ أسبابها، فإنّها مَعادِنُ الذخائر ومَوارِدُ الرجال، وإذا أعدّ منها جِبالًا شوامِخَ تَلا إنفاقُنا فى سبيل الله: ﴿ ويَسْأَلُونَكَ عَنِ الجِبَالِ ﴾.

وكذٰلك الخزائنُ التى هى مَعاقِلُ الإسـلام وحُصُونُه، وحِمَاهُ الذى لا يُبْتذل بغير أمرِنا الشريف فى مَصَالح الملك والملة مَصُونُه، فيجعلها بتدبيره الجميلِ كالبِحار التى لاتنقُص بكَثْرة الوُرّاد جِمامُها، ولا تَنْزَحها السُّـحُب علىٰ كثرة ماتحمِـل إلىٰ الآفاق غَمامُها؛ وليُـلاحِظْ من مصالح كلِّ إقليم بمـا تُمثِّله له على البُعْـد أفكارُه، ويأمر فى أحوال مَنْ به من الجند بمايُؤكِّد الطاعةَ عليهم، ويجدِّد الاستطاعة لدَيْهم، ويُزِيح أعذارَهم واعتِذارَهم بوصُول حقُوقهم إليهم؛ ويُوفِّرُهم علىٰ إعداد الأُهْبة للأعداء إذا أتَوْهم من فَوْرهم، ويكُفُّهم بإدرار الأرزاق عليهم عن اعتدائِهم على الرعايا وجَوْرهم؛ ويجعلُ ثغورَ كل جانبٍ ـ بتيسير محصُولها، وتثميرِ ذخائرِها التى هى من مَوارِد رجالِهاـ مُصَفَّحة بالصِّفاح، مُشْرقةً بأسنَّة الرِّماح، مسـدُودةً من جهـة العدُوّ عنها مسالكُ الرياح؛ ويتفقّد من أحوال مباشِريه، ووُلاةِ الحكم والتحكُّم فيه، مايعلمُون به أنه مناقِشُهم على الأمور اليسـيره، والهفَواتِ التى يرَوْنَهـا قليلةً وهى بالنسبة إلىٰ كثرة الرعايا كَثيره، والأحوالِ التى إذا عدَّدها الكتّاب عليهـم قالوا: ﴿ يا وَيْلَتَنا ما لِهـٰذا الكِتابِ لايُغادِرُ صغيرةً ولا كَبيره ﴾، ويتعاهدُ أمورَ الرُّتب الدينية فلا تؤخذ مناصبها بالمَنَاسب، ولا تُعَدّ رِزَقُها المعدّةُ لاكتساب العِلم فى المكاسب؛ بل يتعيَّن أن يَرْتادَ

لذلك العلماءَ الأعلام حيث حلّوا ، ويقرّر فى مراتبها الأكفاءَ وإلا ٱتخذ الناس رُءوسا جُهّالا فضَلّوا وأضَلّوا ؛ وقد جعلنا [أمره] فى ذلك جميعه من أمرنا ، فليقُلْ يُمتَثلْ ، ويَنْشُر كلمة عدلِنا التى يَسير بطريقتها المُثْلىٰ المَثَل ؛ ولا تمضى ولايةٌ ولاعَزْل ، ولا مَنْع ولا بَذْل ، ولا عقْد ولا حَلّ ؛ الا وهو معدُوق بآرائه ، متلَقًّى من تِلْقائه ، متوقِّفٌ علىٰ تنفيذه وإمضائه ؛ وقد ٱختصرنَا الوصايَا ، ٱكتفاءً بما فيه من حُسْن الشِّيَم ، وٱقتصَرْنا علىٰ ذكر بعض المَزَايَا ، إذ مثلُه لايُدَلُّ علىٰ صواب ولا يُزاد مافيه من كَرَم ؛ لكنّ تقْوى الله أوْلىٰ ما ذُكِّر به من لم يزَلْ لربّه ذاكِرا ، وأحقُّ ماشكِر علىٰ التوفيق مَنْ لم يبْرَح له به شاكِرا ؛ والله يَزِيد قَدْره ٱعتِلاء ، ويضاعِفُ للدولة الشريفة احتفالا بشُكْره واعتِناء .

وهذه نسخة تقليد بالوزارة .

الحمدُ لله الذى شدّ أَزْر المَلِك من الوزراء بالمَكِين الأمين ، وأشْرك فى أمْر مُلْكه من هو علىٰ صَلَاح الجمهور خيرُ مُعِين ؛ وألقىٰ مقاليدَ حُسْن تدبيره لمن دَلّت عليه بركةُ الٱستِخاره ، وصوّب أمرَ دَقِيقه وجليلِه لمن هو لجميل الثناء المعْنىٰ وإليه ببَنَان الأجتباء الإشارَهْ ، وناولَ كِتَابها لمن هو أحقُّ بتحمل أعبائه ، ورقّى منصِبَها لمن لاشُبْهة بأنه الحقيقُ باستِعلائه ؛ وناوَلَ قلَمَ إعطائها ومنْعِها لواضع الإشارة فى محلّها ، وعدَق تثمير أموالِها بمن لا يأخُذُها بمقتضًى يُبْديه إلا مِن حِلّها .

نحمدُه علىٰ حُسْن إلهامِه ، وشريف إفهامه ؛ ونشهد أن لا إلٰه الا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ عبدٍ مخلِصٍ فى أدائها ، محقٍّ فى إعادتها وإبْدائها ؛ ونشهد أن محمدا

عبده ورسوله خيرُ مَنْ هو بالحق مبْعُوث وبالصـدق منْعُوت ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لاتزال مستمرّةً فى كل وقت موْقُوت، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ يدَ الوزارة هى اليدُ الباسطةُ فيما قَلَّ وجلّ، والمتحكِّمة فيما عُدِق بالمَلك من كلِّ عَقْد وحَلّ، والموقوفُ عند إشارةِ بَنَانها وإليها التحكُّم فى كل إعطاء ومَنْع، وتفريقٍ وجمْـع، وعزْلٍ ووِلَايه، ونهايةُ كل نَهْى وأمْر وما لهـا من غايه، ورَبُّها من المَلِك كالرُّوح الباصرةِ من العيْن، واللسانِ المعبِّر عن كلِّ زيْن وشَيْن، وحَسْبُه أنه فى المحلِّ من ذاتِ اليمين، ومن مكانَة التمكُّن فى الحِرْز الحَصين، ولهذا لا يؤهَّل لها إلا من ٱنْعقد علىٰ سُؤْدَده الإجماع، وٱنقطعتْ دُون لحَاق شَرَفه الأطماع، وتأصَّل فى نجَـارها وتفرّع، وقام بفُروض كِفـايةِ كَفَالتها وتَطوّع، وسار حديثُ مناقبـه فى الآفاق، وجاءَ بالٱختيار والٱختبار بالوِفَاق، وحَسُن صورةً ومعنىٰ، وتعـدّدَتْ مناقبُـه فدلَّت علىٰ أنه الفرْد إذا ٱتَّسقَت عقُوده مَثْنىٰ مثنىٰ . وكان المجلس العـالى الفلانىّ رَبَّ حَوْزتها وسريرها، ورُوحَ بصرمرتَمِق هـذه المحامد وإليه [أمر] مَصـيرها، والذى حكَمتْ له السيادةُ بمَنَالها وحَكَّمتـه، وأوضَحتْ بأصالتها وَجْه الصواب فى ٱختياره لهـا وأحكَمَتـه، وقد حازَ من متفرِّق لوازمهـا ما تفرَّقَ فيمن سِوَاه، وحَوىٰ من أدواتها [مادل] علىٰ أنَّ الله خلقـه فسَوّاه، إن قال فالصوابُ موَكَّل بمَنْطِقـه، أو صَمَت فعِظَمُ مَهابته قائم مقامه بجميل الخُلُق لا تَخَلُّقه، قد جمـع إلىٰ التواضُع فرطَ المَهَـابه، وإلىٰ الٱبتـداء بالمعروف حُسْنَ الإجابه، إن ذُكِرت الصَّـدارة فهو مالكُ زِمَامها، أو الرِّياسة فهو غُرَّة لِثَامها، أو الكَفالة فهو مُصَرِّف عِنانهـا، أو الوِزارةُ فهو عَيْن أعيانها، لم تزَلْ رتبتُهـا متشوّقةً لحلوله، ممهّـدة لشريف تأهيله .

ولما تحلَّىٰ منها بهـذه الحلىٰ ، وسار حديثُ مَلاءَته بتخويلها فى المَلَا ، وتلا لسانُ القلم سُوَرَ هذه المحاسن وتَلَا الثانى بالأوّل منها إذا تلَا ؛ رُسِم بالأمر العالى ــ أمتعه الله بما وُهِبه من حُسْن مؤازرته ، وشدّ عَضُدَ مملكته بالإمتاع بربْح حُسْن معاملته لله وله ولمُتَاجرته ــ أن تُفوّض الوزارةُ المفخّمه ، المكرّمة المبجّلة المعظّمه ، للمشار إليه : تفويضًا عامًّا للقريب من مصالحها والبَعيد ، والطارِف والتليد ، والمُقيم والنازح ، والغادى والرائح ، والسانح والبارح ، والباغم والصادح .

فلْيباشِرْ ما فُوّض إليه منها مباشرةَ مثلِه لمثلها ، ولْيُعْطِها من نَيْله مُناسب نَيْلها ، وليأخذْ أمرها بكلْتا يدَيْه ، ولْيُعِرْها جانبًا من ٱحتفاله ليَظْهَر عليها آثارُ سُؤدده كما ظهر شريفُ تَخْويلها عليه ، ولْيُطْلِقْ فيها لسان نَهْيه وأمرِه ، ولْيُعْمِلْ فى مصالحها صالحَ فِكرِه ، فقـد عُدِقت به مَهامُّها : جليلُها وحقـيرُها ، وقليلُها وكثيرُها ، وأميرُها ومأمورُها ، وخليلُها وضريرُها ، وناعقُها وناعِبُها ، وكاسيها وكاسِبُها ، ودانيها وقاصيها ، وطائعُها وعاصِيها ، ومستقبلُها وحالُها وماضِيها ، وواليها وقاضيها ، ثقةً بتمام تدبيره ، وحميدِ تأثيرِه ، وأنَّه إن حَكَم فصَل ، وإن قطَع أو وصَل كان الحزْم فيما قَطع ووصَل ؛ إذ هو الوزيرُ الذى قد صُرِف عن عمـل الأوزار وسار ، إلا أنه فى كل مَنْهج سارْ ، تقْطُر السيادةُ من معاطِفه ، وتَجْنِى ثمرَ المُنىٰ من أغصان قلمه يدُ قاطفه ، لاشىءَ يخرُج عن حُكْمه ، ولا مصلحةَ تعزُب عن عِلْمه ؛ فولايةُ الحُكَّام معدوقةٌ بإشارته ، موقوفةٌ علىٰ مايُثْبِته ببليغ عِبارتِه . ومع جَلالة قدْره لايَحتاج إلىٰ التأكيد فى الأموال وٱستدْرار أخلافِها ، والرَّعايَا والٱستدامة بالإحسان وُدَّ أحْلافها ، وبيوتِ الأموال وٱستيداء حقوقها ، ومُراعاة جانبها إذ هى الأمُّ الحَنُونة بَتَجنُّب عقُوقها . والخزائنِ فهو أدرىٰ بما يجب من تضييق صَدْرها بالمناقيص عن الٱنْشراح ، والٱهتمامِ بحواصل تشريفها المستجلبة إفاضةُ ملابسها قلبَ مَنْ غدَا وراح ، وثَمّ دقائقُ ، هو أدرىٰ بما لَهَا من

طرائِق ؛ وحقائقُ ، هو أعرَفُ إذ كان فيها الفاتِقَ الراتِق ؛ فهو ـ أجلَّه الله ـ غنيّ عن تفصِيلها ، وذهنُــه أشرفُ عن الوصايا المنــدوبة لتوصيلها ؛ والله تعالىٰ يقدّر له وبه الخَــيْر ، ويمتّع بحسن تدبيره المقرونِ بجميــل السريرة والسَّيْر ؛ والخطُّ الشريف أعلاه ، حُجَّةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه وصية وزير أوردها فى " التعريف " وهى :

يُوصىٰ بتقوىٰ الله فإنَّه عليــه رقيب ، وإليــه أقربُ من كلِّ قريب ؛ فليجعَلْه أمامَه ، وليطْلُبْ منه لكل ماشرَع فيه تمَــامَه ؛ وليُجِلْ رأيَه فى كلِّ ماتَشُدّ به الدولةُ أَزْرها ، وتُسنِد إليه ظهْرَها ؛ وليجعلِ العدْلَ أصلا يبْنِى علىٰ أُسِّه ، والعملَ فى أموره كلِّها لسلطانه لا لنَفْسه ؛ وليَــدَعْ منه الغرضَ جانبا ، وحظَّ النفس الذى لا يبْــدُو إلا من العَــدُوّ ليُصْدِق من دَعَاه صاحِبا ؛ وليُبصِرْ كيف يُثَمِّر الأموالَ من جهاتِهــا ، وكيف يخلِّص بيوت الأموال بالاقتصار على الدّراهم الحلال من شُبُهاتها ؛ ولينَزِّه مطاعِمَ العساكر المنصورة عن أكل الحَرَام فإنه لايُسْــمِن ولا يُغْنِى من جُوع ، ولا يُرىٰ به من العيْن إلا مايُحرِّم الهُجُوع ؛ وليحذَرْ من هذا فإن المُفاجئَ به كالمخاتِل ، وليَتجَنَّب إطعام الجُنْد منه فإن [آكل] الدرهمِ الحرام مايُقاتِل ؛ وليُحْسِنْ كيف يُولِّى ويَعْزِل ، ويُسَمِّن ويَهْزِل ؛ وعليه بالكُفَاة الأُمَناء ، وتجنُّب الخَوَنة وإن كانوا ذَوِى غَناء ؛ وإيَّاه والعاجِزَ ، ومن لو رأىٰ المصلحةَ بين عينَيْه ألفىٰ بينه وبينها ألف حاجِز ؛ وليطَهِّرْ بابه ، ويُسَهِّل حجابَه ؛ ويفكِّرْ فيما بَعُدَ أكثَرَ ممــا قَرُب : مقدّمًا للأهَمِّ فالأهمِّ من المصالح ، وينظر إلىٰ ماغابَ عنــه وحضَر نظرَ المُمــاسِى والمُصابِح ؛ ولا يستَبْدِل إلا بمن ظهر لديه عجزُه أو ثبتت عنده خيانتُه ، ولا يدَعْ من جميل نظره مَنْ صحَّت لديه كفايتُه ،

أو تحقَّقتْ عنده أمانَتُه؛ وليسلُكْ أقصدَ الطُّرُق فى أمر الرواتب التى هى من صدَقَاتنا الشريفة وصَـدَقات مَن تقـدّمَ من الملوك؛ وهى إمَّا لمن وجب له حقٌّ وإن كان غنيًّا أو عُرِف صلاحُه وهو صُعْلوك؛ وكذلك ما هو لأيتامِ الجُنْـد الذين ماتُوا علىٰ الطاعه، وأمثالِهم ممن خَدَم دولتنا القاهرة بمـا ٱستطاعَهْ؛ فإن غالبَ مَن مات منهم لم يُخلِّف لهم إلا مانَسمَح لهم به من معروف، ونُجْريه لهم من جارٍ هو أنفع من كثير مما يخلِّفه الآباء للأبناءِ مِن المـال المتملَّك والوقْف الموقُوف؛ وليصْرِف ٱهتمامَه إلىٰ ٱستخلاص مالِ الله الذى نحن أُمَناؤه، وبه يَشْغَل أوقاتَه وتَمتلئ كالإناء آناؤُه؛ فلايدَعْ شيئا يجب لبيت المـال المعمور من مستحقه، ولا يتسمَّح فى تخلية شيءٍ منه كما أننا نُوصِيه أنه لا يأخذُ شيئا إلا بحقِّـه؛ ولْيُبْق لأيَّامنـا الزاهرةِ بتواقيعه ذِكْرا لايَفْنىٰ، وبِرّا لايزال ثمرُه الطيِّب من قلمه يُجْنىٰ؛ ليكُونَ من رياح دولتنا التى تغتنم ما يُثيره من سَحَابها المَطِير، وحسَناتِ أيَّامنا التى ماذُكرنا وذُكِر معنا إلا وقيـل : نِعْمَ الملك ونِعْمَ الوزير .

الوظيفـــــة الثـانية

(كتابةُ السِّرّ، ويُقال لصاحبها "صاحبُ دَواوين الإنشاء")

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ الوظائف أنَّ موضُوعها قراءةُ الكتُبِ الواردةِ على السلطان، وكتابةُ أجْوبتِها، وأخذُ خَطِّ السـلطان عليهـا وتسفيرُها، وتصريفُ المراسيم وُرُودا وصُـدُورا، والجلوسُ لقراءة القَصَص بدار العدل، وأنَّه صار يُوقِّع فيما كان يُوقَّع فيه بقَلم الوزارة .

قلت : وقد كان فيما تقدّم يُكتَب له توقيعٌ فى قطع النصف بلقب «المجلس العالى» ثم آستقرّ أن يُكتَب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بلقب «الجناب العالى» . وقد تقدّم الكلامُ على تقليده فى الكلام على التقاليد .

وهذه نسخةُ تقليدٍ بكتابة السرّ ، كُتِب بها للمَقَر المُحْيَوِىّ «مُحيى الدين بن فضل الله» عند عَوْده إلىٰ كتابة السِّر بالديار المصرية ، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة ثلاث ... ...(١) من إنشاء السيد الشريف شهاب الدين ، أحد كُتَّاب الدَّرْج الشريف ، وهى :

الحمدُ لله المانِّ بفَضْله ، المستعانِ به فى الأمر كلِّه ، الذى رفَع أوّل الأولياء من العَلْياء إلىٰ محلِّه ، ووضَع النِّعَم عند من يَنُصُّ الآستحقاقُ علىٰ تقديمه بمنصبه ويَحُلُّ مافُوّض إليه من أَجْله ، وأبدَعَ نظام السُّؤدَد بأجمل حالٍ ما دام يَحْيىٰ جامعَ شَمْله ، وأودَع سِرَّ مُلْكنا الشريف عند الحفيظَيْن منه ومن نَجْله ؛ وأرجعَ الرياسةَ إلىٰ من سَما ثَبَاتا ، ونما نباتًا ، وعَلَا عَزْما ، ووَفىٰ حَزْما ؛ فبِيُمْن آثاره تُضْرَب الأمثالُ ولا تَجد فى يُمْن سَجَاياه كمِثْله .

نحمده علىٰ أن أعاد بنا الحقَّ إلىٰ أهلِه ، ونشكُره علىٰ أن جادَ روضَ الآمال بواكِف سَحاب كَرَمِنا ووَبْله ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةَ مَن وُفِّق للصواب فى قوله وفِعْله ، وتُحقِّق منه جميلُ الإخلاص فى جميع مذاهبه وسُبْله ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المُؤْوِى يومَ الجزاء إلىٰ سابِغ ظِلِّه ، والمُرْوِى يوم العطَش الأكبر بسائغ نَهْله ، والنبيُّ الذى بعثه خاتِمَ رُسْله ، وآتاه من الكَرامة مالم يؤْتِ أحدًا من الأنبياء من قَبْله ، والمجتبِى من علماء صَحابته من أهَّله لإيداع سِرِّه وصَوْنه وإبلاغِ أَمْره وحَمْله ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين سبَقُوا إلىٰ غايات الفَخَار

(١) بياض بالأصل .

وخُصُّوا بَخَصْلِه ، ورضى الله عن أصحابه المجاهدين فى حُبِّه المعتصمين بحَبْله ، خُصوصًا الصِّدِّيق الذى أحسنَ الخلافةَ من بعده وقاتل مَنِ ٱرتَدَّ بقَتْلِه ، ومَنْ فَرَق بين الحق والباطل بحُسْن سيرته ومَحْض عَدْله ، ومن تلقَّ عنه آيات الكتاب فا ... ...(١) فى ترتيبه وجَمْعـه وأدائه ونَقْله ، ومَنْ كان فارسَ حَرْبه ، وحارسَ سَرْبه ، وكاتبَ وحْيِه وخاطِبَ كِفْله ، وعن بقية المهاجرين والأنصار الذين ٱنفردُوا بأكمل الفضل وأجَلِّه ، صلاةً ورِضْوانا وضَح بهما نورُ الهدىٰ لمستدلِّه ، ماشفىٰ كرُمُنا الصُّدورَ بصُدور إقباله إلىٰ مَنْ قام بفرض وَلَائه ونَفْله ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعـد ، فنِعَمُنا لاتزال للعُهود حافِظه ، وبالجُود متْحِفةً وبالسُّعود ملاحِظَه ، وعلى المعهود من كَرَم شِيَمِها محافِظَه ، وللخِدَم مكافيه ، وللقِسَم مُوفِية وبالنِّعم مُوافِيَه ، وبمألُوف الكَرَم مُلافِيه ، ٱتِّبـاعا لسبيل الصَّواب ، وإيداعًا للِنْحة عند من لِحَقِّه فى ٱستِحقاقها إيجـاب ، فلمَحَلِّه ٱقترانٌ بالآقتراب ، ولفِـعله إنجازٌ لوعُود الصُّعود وإنجاب ، ولِفَيض الله تعالىٰ عليه من القَبُول أبهىٰ جِلْباب ، وله سَـبْق ولاء لمُلْكِنا بعد جفاء فيه السنين والأَحْقاب ، وصِـدْقُ وُدٍّ ماضاع لدينا ولا خَاب ، وقِدَمُ هِجْرة كَمْ لهـا فى تأييد الدِّين ٱنتِصار وٱنْتِصاب ، وتعـدُّدُ مناقِبَ هى فى الإشراق والرِّفعة كالنُّجوم وفى الكَثْرة عَدَد الرمل والحَصىٰ والتُّراب ، فما دَعاه سلطانُنا إلا ٱستجاب ، ولا ٱستَوْعاه سِرَّه إلا غَدَا به يُصان ولا يُصاب ، ولا ٱستنطَقْنا قلَمه إلا كفىٰ الخَطْب بأمْلَح خِطاب ، ولا ٱسـتَثَرْنا رأيَه إلا حضر الرُّشْدُ وما غاب ، فكَمْ فرَق للأعداءِ من كتيبة بكِتاب ، وقَرَّب من ظَفَرٍ والسيفُ فى القِرَاب ، فبدَعَواته يُسْـتَنْزَل من النَّعماء أهْمَرُ سَحَاب ، وببركاته جاء نصرُ الله والفتحُ وكان كيدُ الكافرين فى تَبَاب ، وبأقلامه إنعامنا يَهَبُ وٱنتِقامنا يُهَاب ، فهى على الممـالك أمنعُ سِيَاج ، ولهـا فى مَسَالك الخيرْ

(١) بياض بالأصل ولعله فأحسن فى ترتيبه الخ .

أبدَعُ منْهـاج، وللدولة به و بولده استغْناء و إليهما آحْتياج، فكم ضَمَّنَا دُرَر كلامِهما الأدراج، وأطْلعا زُهْر أقلامِهما من المَهَارِق فى أبْراج، وكم واصلَتْ فى ليل النِّقْس السُّرَىٰ والإدْلاج، حتى أبدَتْ صَـبَاح النجاح ذا آبْتِلاج، فلا عَجَب أن كان للنِّعم إليهما مَعادٌ ومَعَاج، ولِضيق الخطب عند باعِهما الرَّحْبِ فُسحةٌ وآنْفراج .

ولمـا كان المجلس العـالى المُحْيَوِىّ هو أَسْرىٰ من تُلْقىٰ إليه الأسرار، وتَبْـقىٰ منه عند أحْرىٰ الأحرار، فكم لها صانَ أينَ صار، وكم لخواطرنا الشريفة من أفعاله سارّ حيثُ سار، وكم له من كَرَمنا دارٌ فى كل دار، فمِنّا لقُرْبه إيثار، ولأثنيتنا عليه إكْبار، ولنـا بفضائله إقْرار، يُوجب للنِّعم عندَه الإقرار ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُعيد إليه مَنْصِبَه، ونَزِيد لديْه المَوْهِبه، ونجعلَ وُجودَ تفضيله لدولتنا أعظمَ مَزيَّةٍ ومنْقَبـه، ونَراه أجلَّ كُفْء لآسـتجلاء عقائِل الأسرار المحجَّبه، و إن كان لنزاهتِه لايَخْطُبها فهى لوَجاهتِه ترغَبُ أن تخْطُبَه .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف العالى، المولَوِىّ، السـلطانىّ، المَلَكىّ الفلانىّ ــ لا بَرِح بفضل الله يحيي الدِّين، وبتأييده يَبِين أنَّه الحقُّ المبين، و بتسْدِيده يُصيب عينَ الصواب فى التعيين ــ أن نفوّض للمشار إليه صحَابةَ دِيوان الإنشاء الشريف بالأبواب الشريفة شرَّفها الله وعظَّمها : علىٰ أجمل عوائدِه، وأكمل قواعدِه، وأحسن حالاته فى حُسْن مقاصِـده، ونُفوذ ما يُبَلِّغـه من رسائل عَدْلنا فى مصادِر كل أمر ومواردِه؛ وليستقرَّ بآسمِه من المعلوم كذا وكذا .

فلْيتلَقَّ منصبَه المباركَ بأمَل فى كَرَمنا مبْسوط، ورتبتَه التى يَحمى حِمَاهـا ويَحُوط؛ مُمْضيًا للمهـمَّات والمَراسم، مبْقِيا من يُمْن آثاره ما تَضْـحىٰ به ثغور الثُّغور بوَاسم، مُ يدا لمن عنده من كُتَّابنا أوقاتَ الأُنْس فأيَّامُهم [به] كلُّها مَوا سم، و بها لهم من الخيْرات

أجزلَ المَقَاسم ؛ وقد وَفَّروا دواعِيَهم إلى الخدمة إذ وَفَّر علىٰ نفقتِهم دَواعِيَه ، وهو لسانُ الدولة وهم أُذُنُ صونٍ لما يُلْقِيه إليهم واعِيَه ، فحَقَّ لهم إلىٰ وِدَاده أن يجنَحُوا ، وبإسعاده أن يَنْجَحُوا ، وعن وَلَائه لن يبْرَحُوا : ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وبِرَحْمتِه فَبِذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ ، فلِسَرِير المُلْك به سُرور ، وللدولةِ من أشِعَّة إيَابِه وطَلعة شِهابِه نُورٌ علىٰ نور ، وبهما عمادُ الشرف الأعلىٰ مرفوعٌ وبيتُ الفضل الأوفىٰ معْمُور ، وهو وَبْل هـذا الغيث الغَمْر وشِبْل هذا الليث الهَصُور ؛ طالما هَزَم الصُّفوفَ من كُتُبنا بالسُّطور ، وجَهَّز بُرُدًا سِرُّها بالصون مكتوم وعَلَمُها بالنصر مَنْشور ، وهو كنز الفضائلِ وكَتَابُهُ الذّهب شُذُور ، ومن هذه الأُسْرة العُمَرية بأُفُق العلياء نجومٌ وأهِلَّة وبُدُور ، وللنَّيِّر الأكبَرِ إشراقٌ وأئتلاقٌ وسُفُور ، وغيرُه بالوصايا المأمُور ، وسواه نُبَيِّن له قصدَ السبيل حتّى لا يَضِلَّ ولا يجُور ، ولانحتاجُ أن نُذَكِّره بما هو من عِلْمه مَذْكور ، وفى صحائفه مسْطُور ، ولا نعلِّمه سَدَادا إذ هو عليه مجبُول ومفْطُور ، بل الهُدىٰ منه ملتَمَسٌ ، ومقتفًى ومقتَبَس ، ومأْثُور ؛ وبحمد الله مافى حَزْمه قُصُور ، ولا فى عَزْمه فُتُور ، وهو بحرُ العِلْمِ المحيطُ وثَبِيرُ الحِلْم الموفُور ، وليس التقديمُ له بمستغرَب بل فضله المعروفُ المشهُور ، والله تعالىٰ يَرْعىٰ له فى خدمتنا عَهْدا قديما ، ويُبْقِيه للدعاء مُواصِلا ومُدِيما ، ويوزِعُه شكْرَ فضل اللهِ علىٰ ذلك ﴿وكانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيما﴾ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخةُ تقليد بكتابة السِّر، كُتِب بها للقاضى شهاب الدِّين بن فضل الله ، وهى :

الحمدُ للهِ علىٰ عنايةٍ حَفِظت مُلْكَنا الشريف بمعَقِّباتها ، وصانَتْه بصاحب تصريف تَقُوم كُتُبه وآراؤُه مَقامَ الكتائبِ ورَاياتِها ، وسَنَّتْ لنا الخِيَرَةَ لمنْ نجتنى بقلمه النصرَ

من ثمراتها ، وبينت الحُسنىٰ في طريقته المُثلىٰ حتّى آنقسم الصُّبح من قَسَماتِها ، واقتُسِم النُّجح من عاداتِها ، وآتَّسم فكرُهُ بالنُّصح وقد ضلّت الأفكارُ عن إصاباتِها فظلّتْ في غفلاتِها .

نحمدُه حمدًا يَهُبُّ مع الأنفاس في هَبّاتها ، ويَهَبُ من اللطائف الحِسَان أفضلَ هِباتِها ، ويُنَبِّه القلوبَ لتقييد شَوارِد النِّعم بِصدْق نِيَّاتها ، ويُنافِس الكرامَ الكاتبين علىٰ نفائس الثّناء في تسبيح لُغاتها بصَفيح سَمَٰواتِها .

ونشْهد أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تملأ الصُّحفَ بحَسناتها ، وتُمَلِّي الوُجوهَ بالأنوار في توجُّهاتها ، وتلُوح من سِماتها سيمياءُ لا تَشُقُّ على الأبصار في تَوسُّماتها ، وتفْخَر برَقْمها الأقلامُ بأنه لا طَعْن في آعتدال حَرَكاتها ، على الرِّماح في آعتِدال قاماتِها ، ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أدّى الرسالةَ بما تحمَّله من أماناتِها ، ورَعَى العهودَ لمن أخلَص في مُراعاتِها ، ودعَا الأُمّةَ بإذْن الله إلىٰ سبِيل نجَاتها ، وآستأْمَن على الوَحْى كُتّاباً سبقُوا في السَّعادة إلىٰ غاياتِها ، وبلّغُوا عنه السُّنّة بإباناتها والسُّورَ وآياتِها ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابِه فُرْسان البلاغةِ ورُواتِها ، وحفظةِ الأسْرار وثِقاتِها ، وصاغةِ المَعَاني في الألفاظ الغُرِّ بنَفَثاتها ، وأُولى الأحلام التى لا تُطيشُها وقائعُ الدهر بِرَوْعاتِها ، ولا تُذْهِلُها عن الأَوْراد في أوقاتِها ، وتلَقِّى الوفُود بأقْواتِها ، والأخلاقِ التى آتَّسع نِطاقُها في تصرُّفاتها ، وآمتنع حِجابُها أن تتخَطّاه الخِدَعُ بهَفَواتِها ، صلاةً تَزِيدُ الأعمارَ بزَكاتِها ، وتُزَيِّنُ الأعمالَ ببركاتِها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنَّ المُلْك عمودٌ بناؤُه بِسرِّه ، وآرتفاعُه بالتأسيس لمستَقَرِّه ، وآمتناعُه بعد العساكر المنصورة بكاتبٍ يُخاتِل العدُوّ في مَكْره قبل مَكَرِّه ، ويقاتل في الحَرْب

والسِّـلم بنَفَّاذ رأْيِهِ ونَفَّاث سِحْره ، ويقابل كلَّ حال بمـا يحسُن موقعُه من صَــدْمِه بصَدْره أو صَدِّه بصَبْره ، وينظُر فى العواقِب نظَر البصـير بأمْرِه ، الواعى لآحتيال عُذْره قبـل آختيالِ الباغى فى غَدْره ؛ إذا جادلَ فبالحُجَّة البالغه ، وإذا جاوبَ أبطل الأهوالَ الزَّائغه ، وإذا أمرْنا بالعــدل والإحسان ســيَّرهُما عنَّا كالشمس البازِغَه ، وملأ بهما حُبًّا لنا القلُوبَ الفارغَه ؛ وقد جرَّبْنا علىٰ طُول المَدىٰ كُتَّابا ، وآنتخبْنا منهم كثيراً آرتضَيْناهم أصحابا ، ومارَسْنا جماعةً آزدَدْنا بهم إعجابا ، ورأينا طوائِفَ فيهــم مَنْ إنْ أجاد آجتناءً لزَهَرات القول حادَ عن الجادَّة آجتنابا ، وإن كلَّف نفْسه مذاهِبَ الكُتَّاب أخلَّ بمقاصد الملُوك إن كتَب عنهم كتابا .

ولم نظْفَر بمن تمَّت فيــه الشروطُ المشرُوطه ، ومَتَّ بالدائرة المحيطةِ إلى الفضائل المبْسوطَه ، وآمتاز بفَهم لايُقْبِـل على الفساد ولا يَقْبَـل الأُغْلوطه ؛ إن أملَيْناه إملاءً ذَكَره ، وإن حُمْنا حولَ معنًى لا تُؤدِّى إليه العبارة فَسرَه(١) ، وإن سرَدْنا عليه فصْــلا مُطوّلا خَبَره ، وربما رأى المصلحةَ فى آختصاره فآختَصَره ، وإن أوْدعْناه سِرًّا ستَرَه ، وصانه بمحوِ غيَّب أثَرَه ، وكتمه إمَّا بخَطِّه عن قلبــه فلم يُدْرِكْه أو بقَلْبــه عن لحْظه فلم يَرَه ، وإن خَلَّينا بينه وبينَ غرَض من أغراضنا الشريفةِ آستخرجَه كما فى خواطِرنا وأظهرَه ــ كالمجلِس العــالى ، القضائِىّ ، الأجلِّىّ ، الكبيرِىّ ، العــالمِىّ ، العادلِىّ ، العَوْنِىّ ، العلّامىّ ، القوامىّ ، النِّظامِىّ ، المدبِّرِىّ ، المشِيرِىّ ، الفاضلِىّ ، الكامِلِىّ ، الأوْحدِىّ ، المُفَوَّهِىّ ، الخــاشِعِىّ ، الســفِيرِىّ ، الشِّهابِىّ : صــلاح الإســلام والمسلمين ، ســيِّد الرؤساء فى العالَمين ، قُدوة العلمــاء العاملين ، إمام الفضلاء والمتكلِّمين ، رئِيس الأصحــاب ، مَلاذ الكُتَّاب ، ســفيرِ الأمّة ، عمــادِ الملّة ، لسان السلطنة ، مدبِّر الدُّوَل ، مشيِّد الممــالك ، مُشِير الملوك والسلاطين ، ولِىّ أمير المؤمنين

(١) فى المصباح فسره من باب ضرب أوضحه وبينه والتثقيل مبالغة .

«أحمدَ بن فضلِ الله» ضاعف الله نعمتَه . فإنَّا خطَبْناه لهذه الوظيفه، وآستخلَصْناه علىٰ كثرة المتعيِّنين لأنفُسنا الشريفه، وآمتحنَّاه فى الأمور الجليلةِ واللطيفه، وحمَّلْناه الأعباءَ الثقيـلةَ والخفيفَـه، وأوقفْناه مرَّة وأخرىٰ أطلقنا تَصْريفه، وأنعمْنا النظرَ فى حاله حتى تحقَّقنا تثقيفَه؛ وكتَب وآستُكْتِب عنـا سِرًّا وجهْرا فملأ قلْبا وسَمْعا، وباشَر مراسِمَنا العاليةَ مِصرًا وشامًا وصْلا وقطعا فعزَّ رفعةً وعَمَّ نَفْعا؛ وأنشأ التقاليدَ وقلَّدها، ونَفَّذ المُهِمَّاتِ وسَـدَّدها، ووَقَّع التواقيعَ وأطلق بها وقد قيَّدها، ومَشَّى المصالحَ باحترازٍ ما بَدَّدها وآحتراسٍ ما عَقَّدها، وجهَّز البُرُدَ بهِمَّة ما قيَّدها طلبُ الراحة ولا أقعَدَها . وهو كاتبُ مُلُوك، وصانِـعُ سُلوك، وشارعُ سُلُوك، وصائغُ ذهبٍ مسْبُوك، وناسِجُ وَشْى محُوك، وجامعُ صفاتٍ ماسِواها هو المتْروك؛ لا يَعْدُو بالكلمة محلَّها، ولا يُؤاخى بالقرينة إلا شَكْلَها، ولا يسمَح بمخـاطبةٍ إلا لمن تعيَّن لهـا، ولا يعامِلُ بالغِلْظة إلا من آستوجبَها ولا يخُصُّ بالحُسنىٰ إلا أهْلَها؛ نأمُره بالتَّهويل فيُزَلْزِل قواعدَ العَـدُوّ، ونُشير إليه بالتهوين فيُفيد مع بقاء المَهابة الهُدُوّ؛ وقد رَضيناه حقَّ الرضا، وأضْرَبْنا به عمَّن بقِىَ من أكابِر الكُتَّاب ونَسِينا من مضىٰ، وتعيَّن علينا أن نحكمَ له بهذا الآعتبار ونَحمِلَه علىٰ هذا المقْتضَىٰ، وأن نُطْلِعه فى سَماء دَسْتِنا الشريف شِهابًا أضا؛ وأن نقلِّده مُهِمًّا مازال هو القائمَ بتنفيذ أشـغالِه، والساعِىَ بين أيدينا الشريفة فى تدبيرِ مقاصِـدِه وجملةِ أحواله؛ إلىٰ مالَهُ من بَيْتٍ أثَّلُوا مَجْده، وأثَّروا سعْدَه، وأرَّثُوا عنـدنا وُدَّه؛ وبَنىٰ كما بنَوْا، وآجتنَىٰ من السُّؤدَد ما آجتنَوْا، ورَمَىٰ فى خدمة الدُّوَل إلىٰ مارَمَوْا، إلا أنَّ مذْهبَه فى البيان أحْلىٰ، وأُسلُوبَه أجْلىٰ، وقيمةَ كلامِه أغْلىٰ، وقِدْحَه فى الكمال هو المُعَـلَّى، وأدبَهُ بحمد الله قد لحَظَتْه سـعادةُ أيَّامِنا الزاهرةِ فمـا فيه لَوٌّ ولا لَوْلا؛ سوىٰ أنه آتَّفق مُعارِضٌ آعترَض بين السَّهم والهَدَف، وسَفِه نفْسَه فوقَف فى مَواقف التَّلَف، ودَقَّ عنه شأنُ كاتبِ السر فسَقَط من حيثُ

طمِعَ فى السُّقُوط وما عَرَف ، ورام الدُّخولَ بيْنَ الملك و بين يَده ، و بينَ اللّسان وما يُحَدّثه به الضميرُ من حقيقة معتَقَده ، والاطّلاعَ علىٰ ما لو لم يكن للإنسان لما أداره فى خَلَده ، والتعدّىَ بما ليس له من لَفْظه متوقع ، وسرىٰ فى مَسْرًى لو طَمَح إليه طَرْف السُّهَا لتقطَّع ، وما علم أنَّ كاتب السر هو مستَوْدَع الخَبَايا ، ومستَطْلَع الخَفَايا ، وقلَمه (ٱبْنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنايَا) ، وفى ٱستِمْداده يُعْرَف بالمُنَى ويُرْعَف بالمَنَايا ، وله الكتابةُ والتوقيع ، والتصرّفُ فيها للتنفيذ من التحسين والتَّنْويع ، وغيرذلك من التفريق والتجْميع ، والتأصيل والتفْريع ، والترغيب والترهيب والتأْمين والتَّرويع .

ولما دَلَّ ذلك المعتَرِض بإكْباره ، وأطالَ المَطَارَ فى غير مَطَاره ، وقال الناس إنَّ أبوابَنا العالية جَنَّة حُفَّت من سُوء أخلاقه بالمكَاره ، رمَيْنا به من شاهِق ، وأبعدْناه لآخرته أزهَدَ ما هَدَر من تلك الشقاشق ، وتقدّمْنا بإنشاء هذا التوقيع الشريف تقويةً لكاتب سِرِّنا الشريف فى تَصْريفه ، وبيَّنَّا أنه لا يُقاس به أحدٌ فإنّه لسان السلطان ويَدُه وكفىٰ بذلك دلالةً علىٰ تشريفه .

فرُسِم بالأمر الشريف العالى ، المولَوِىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ ــ لازال إذا عَزَم صَمَّم ، وإذا بَدَأ المعروف تَمَّم ، وإذا ٱستخار اللهَ فى شىء رَضِى بخِيَرَته وسَلَّم ــ أن يستقِلَّ المجلس العالى ، القَضَائىّ ، الشِّهابىّ « أحمدُ بنُ فضل الله » المشارُ إليه بصَحَابة دَواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلاميَّة المحروسة : رفيقًا لأبيه المجلس العالى ، القضائىّ ، المُحْيَوِىّ : ضاعف الله تعالىٰ نعمتَه و بركتَه فى المباشَره ، وشريكًا بل منفَرِدا ليقوم معه ودُونَه بما قام به من كتابةٍ باطنة وظاهِرَه ، ٱستقَلَّ كلٌّ منهما بها فيما بَعُد وقَرُب مما يضُمُّه نطاقُ الدولة القاهِرَه ، مع ما هو مستقرٌّ فيه من كتابة

السر الشريف ، والتصرّف فى المهمّات الشريفة والتصريف ؛ وهو المنفَرِد بتقديم البريدِ وعَرْضِه ، ومباشرةِ خَتْمه وفَضِّه ، وقراءتِه بين أيدينا ؛ وآستخراج مراسِمنا الشريفة فى كل مَنَاب ، ومُشافَهة وخِطَاب ، وآبتداءٍ وجَواب ؛ ومَلطَّف ومكبَّر ، ومقدَّم ومؤخَّر ، ومكمَّل ومشطَّر ؛ وإليه أمرُ البَرِيد والقُصَّاد والنَّجَّابه ، ومن آشتَمل من الدُّجىٰ جِلْبابَه ، أو ألقته إلىٰ مُلَاءة الصَّباح المنشورةِ يَدُ ليلةٍ مُنْجابه ؛ وتعيينُ مَنْ يَرىٰ تعيينه منهم فى المهمّات الشريفة السلطانيَّه ، والمصالحِ المقدّسةِ الإسلاميَّه ؛ وإليه الحمامُ الرسائلِيّ وتزجيته ، وزَجَالتُه ومَدْرجتُه ؛ ومن يصل من رُسُل الملوك إلىٰ أبوابِنا العاليـة ، وجميعُ من يُكاتِب الدولةَ الشريفة من كل منتَسِب وغريب ، وبعيد وقريب ؛ وقراءةُ القِصَص لدينا ، والكتابةُ علىٰ ما يسُوغ كتابةُ مثله ، وأخذُ العلامة الشريفةِ من يَدِه .

وأما من نَستكتِبُهم عنّا فى ممالكنا الشريفة فهو المقلَّد لأعبائهم ، والمخلَّى بينه وبين ما يراه فى آجتِبائهم ؛ يستكتِبُ كلَّ أحد فيما يراه ، ويرفَعُ بعضَهم فوق بعض درجاتٍ منهم مستيقِظٌ ومنهم نائم فى غَمَرات كَرَاه ؛ كلُّ هذا من غير معارَضَةٍ له فيه ، ولا آعتراض عليه فى شيءٍ منه ؛ يبلِّغنا مهمَّاتِنا الشريفةَ ويتلقّ عنا ، ومنه إلينا وإليه مِنّا .

وأما ما يَرِد عليه من الرسائل عنّا بما يُكتَب به فيمَشِّى منه مالا يمكن وقوفه ، ويراجعنا فيما لا يكون إلا بعد مراجَعتِنا تصريفُه ؛ فلْيَمْشِ علىٰ هذه القاعده ، وليستقِلَّ بهذه الوظيفة آستقلالا هو كالخبر محَلُّ الفائده ، ولينشُرْ من إقبالنا الشريف عليه بالصِّلات العائده ؛ ونحن نختَصِر [له] الوصايا لانّه الذى يُمْليها ، ونقتَصِر منها علىٰ التقوى فإنها الذخيرة النافعة لمن يُعانيها ، والباقيةُ الصالحة خيرٌ لمن يقتَفيها ؛

والله تعالىٰ يقوّى أسبابَه ، ويُنير شِهابَه ، ويَزِيد من المعالى آكتِسابه ، ويُغْنِينا بقلمه عن سِنانٍ يتقدّم عامِلَهُ ، وبلسانه عن سيفٍ يُفارِق قرابَه ؛ والآعتماد على الخط الشريف أعلاه .

وهذه نسخة تقليد بعوْد القاضى شِهاب الدِّين بن فضل الله إلىٰ كتابة السر . من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء الشريف ، وهى :

الحمدُ لله الذى أحمَدَ العُقْبىٰ بفضله ، وأكّد النُّعمىٰ بوَصْله ، وأودَع سِرَّ مُلْكِنا الشريف عند أهْله ، وأطْلع شِهابَ الدين من أُفُق العلياء فى محلِّ شرفه وشَرَف محلِّه ، ورفع قَدْره فى سَيْره إلىٰ بُروج السُّعود وحُلُوله بدرجات الصُّعود ونَقْله ، وأرجَع المَوْهِبةَ منه إلىٰ مَنْ يشكُرها بقوله وفِعْله ، وأينع الفَرْعَ الزاكى الذى يَحْيَا أصلُه بوا كِفِ سَحاب كَرَمِنا ووَبْله ، وأتمَّ النِّعمة عليه كما أتمّها علىٰ أبَوَيْه من قبْله ، وضَمَّ له أطرافَ الرياسة وجمع شَمْلَها بشَمْله ، وعمَّ بفضلِه وفضلِنا أهلَ هذا البيت الذين فُطِروا على السُّؤدَد وبَصُروا من رِضانا باتِّباع سُبْله .

نحمده علىٰ إضفاء ظِلِّه ، ونشكُره علىٰ إصْفَاء نَهَله ؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً أشرق نورُ هُداها ، بمستَدلِّه ، وأغدَقَ نَوْءُ نَداها ، بمستَهِلِّه ، ونشهد أن سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه أرسله خاتَم رُسْله ، وجعَل له الفضلَ على الخلق كُلِّه ، وألهم به سُبُل هديه وسَنَن عَدْله ، وأرشَدَه إلىٰ فَرْض دينه ونَفْله ، وأوْدَعه السِّرَّ الذى لم يُودَعْه سواه وحمَّله من أعباءِ الرِّسالة ما لم يَنْهَض غيرُه بحَمْله ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله أغصانِ الشجرة الزَّهْراء التي هى بَضْعةٌ منه ونَبْعة من أصْله ، ورضى الله

عن أصحابه الذين أجَلَّهم من أجْله ، خصوصا مَنْ بادر إلىٰ الإيمان فخُصَّ من السَّبْق بخَصْله ، ومَنْ أيَّد به الدينَ وفَرَّ الشيطانُ من ظِلِّه ، ومَنْ جهَّز جيشَ العُسْرَة حتَّى غَزَا العدا بخَيْله ورَجْله ، ومَن كان بابَ مدينةِ العلم ومانحَ جَزْله وفاتحَ قُفْله ؛ وعن بقيَّة المهاجرين والأنصارِ الذين ما منهم إلا مَنْ جاهد حتَّى قام الدينُ بنَصْره ونَصْله ، صلاةً دائمةً يجعلها اللسان أهمَّ شُغْله ، ويَتلقَّ قادمُها فى مواطن القَبُول بأكْرم نُزُله ، ما رَمىٰ قوسُ العزم بصائبِ نَبْله ، وحَمىٰ حِمىٰ الملك بلَيْثه وشِبْله ، وفوّض أجَلَّ المناصب إلىٰ فاضل العصر وأجَلِّه .

أما بعدُ ، فإنَّ آراءنا لا تزالُ للصالح مُراعِيَه ، ولا تبرحُ بالإسعاد إلى الأولياء ساعِيه ، فتدعُو إلىٰ مَقامها من وَفَّر على الإخلاص دواعِيَه ، وتُدْنِي من مُلْكها مَنْ له بالخَفَايا أعظَمُ بصيرةٍ وفى جميل القضَايا أجملُ طواعِيه ، وتُلْقِي أسرارَها إلىٰ مَنْ له لسانُ حقٍّ ناطقٌ وأُذُنُ خيرٍ واعِيَه ، وتُقدِّمُ مَنْ له قَدَمُ صِدْق ثابتةٌ ويدٌ بيضاءُ طُولىٰ فى المهمَّات عالِيه ، لتغدُوَ سِهام أقلامِه إلىٰ الأغراض رامِيه ، وصوائبُ أفكارِه عن حِمىٰ المُلْك محامِيَه ، وتكونَ عبارتُه للمقاصد مُوفِيةً وإشارتُه لمَوْعد اليُمْن مُوافِيه ، وتُضْحِى دِيَمُ نِعَمنا الواكفةُ لسوابق خِدَمه مُكافِيه ؛ لما يتَّصل بذٰلك من المَصالح ، وتُناجِى خواطِرُنا الشريفةُ به المَنَاجِح ؛ ويقْبِل عليه وجهُ الإقبال ، فى كل حال ، ويَغْدو إليه طَرْفُ الإجلال ، وهو طامح ؛ فنجَمِّل به ممالكَنا مِصْرا وشاما ، ونُسَدِّد به مَرْمًى ونُصيب مَرَاما ، ونحفَظ له ولأبيه فى خدمتنا حقًّا وذِمَاما ، ونكونُ له فى الحالتين بِرًّا وإكْراما ، ونُعلى محلَّه إعلانا بعُلُوِّ مكانه وإعلاما ؛ فيؤلِّف للرياسة نِظاما ، ويُضاعِف للرُّتبة إعظاما ، ويُعْمِل يَرَاعًا بل حُسَاما ، ويجلو وجْهَ المُنىٰ طَلْقا ويبدو بعدَ البِشر بَسَّاما ، ويُحْسِن بأعباء المهمَّات قِياما ؛ وحيث نقلَتْه أوطانُه هِضابَ المجدوقَلَّتْه ، وأينَ وجَّهتْه أعلتْ قدْره ونوّهَتْه ؛ وكلما أوفدَتْه أفاضَتْ عليه مَلْبَس

العزِّ وجدّدتْه ، وٱختصَّته بالتصرف وأفردَتْه ، وٱنتضت ماضىَ ٱجتهاده وجرّدَتْه ، وأجرَتْه من إجراء فضلها علىٰ ما عوّدَتْه ، وٱستقلَّت له منائحها من كثير المواهب ماخوّلَتْه ، ومن كبير المناصب ماقلَّدتْه .

ولما كان فلان هو الذى أُودِع الأسرارَ فحفظها ، وٱطَّلع على الدقائق فرعاها ببصيرته ولحَظَها ، وباشر مهمَّاتنا فأمْضاها ، وسَرّ خواطرَنا وأرضاها ، وظهرتْ منه بين أيدينا كفايةٌ لا تُضاهىٰ ، وقلَّد أجيادَ أوليائنا من تقاليده عُقُودا ، وأدنىٰ من المقاصد بلُطْف عبارته بَعيدا ، وأغنىٰ الدولةَ أن تجهِّز جيشا وجهَّز بَريدا ، وأبان بمقاله عمَّا فى أنفُسنا فلم يُبْقِ مزِيدا ، وصان الأسرارَ فجعلَ لها فى خَلَده خُلُودا ، وجمع أشتاتَ المحَاسن فأضحىٰ فريدًا ؛ كم لعَمّه فى خدمتنا من هجرةٍ قديمه ، ولأبيه من موالاةٍ هى للمُخالَصة مواصِلةٌ ومُديمه ، وكم لهما أسبابٌ فى الرياسة قويَّة وطرائق فى الهداية قَويمه ، وكم كاتبٍ يسَّر الله بهُداهما تعليمَه وتفهيمَه ، وقدَّر علىٰ يديهما وصُولَه إلىٰ رُتَب العَلْياء وتقديمَه ، فنفعتُهما عميمَه ، ونَبْعتهما صَميمه ، ولهما فى الشام ومصر أجملُ شِيمه ، وكم له هو أيضا من تقدُّمات ٱقتضتْ تكريمَه ، وكفايةٍ عند علومنا الشريفة معلُومه ، وكتابةٍ حُلَلُ المَهارق بوَشْيها مرقُومه ، فلو قابله الفاضلُ «عبدُ الرحيم» لبادَر إلىٰ فضله إقرارَه وتسليمَه ، أو «عبدُ الحميد» لكانت مَناهجهُ الحميدةُ بالنسبة إلىٰ مذاهبه ذَميمه ، أو سمع «عبدُ الرحمن» مقاله لضَمَّن ألفاظَه معانيَه العَقيمه ، أو أدركه «قُدامةُ» لعرَف تقديمَه ، وٱقتدىٰ بسُبْله المستقيمه ، أو حوىٰ «الجوهَرىّ» فرائد ألفاظه لعرَفَ أنَّ صِحاحه إذا قُرِنت بها سَقيمه ، أو رأىٰ «ٱبنُ العَديم» خَطَّه لٱستغْنَت منه بسَلاسل الذَّهب نفْسُه العَديمه ، أو «الوَلِىّ» لٱستجْدىٰ من صَوْب إجادَته أغزَرَ ديمه ، أو نظره «ٱبنُ مُقلةَ» لوجدَتْ مُقلتُه نُضرةَ خطِّه ونعيمه ،

أو «آبنُ البوّاب» لكان خَدِينَ بابه وخديمَه؛ فهم صدُورُ صُدُورهم سليمه، وأماثِلُ معدودةٌ وأمثالهم معْدُومه .

آقتضىٰ حسنُ رأينا الشريف أن نُلقِيَ إليه منصِباً هو أَوْلىٰ به، ونُقِرّ عينَه بدُنُوّه منّا وآقْتِرابه؛ ونمتّع البصر والسمع بخَطِّه وخِطابه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف، العالى، المولَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ - لا بَرِح يُعِيد نِعمَه كما بَدَأها أوّلَ مرّه، ويَسُرُّ القلوبَ بكافٍ أوْدَعه سِرّه؛ ويحمَد لأحمَدِ الأولياءِ عوْدَه ومستقرّه - (١) .

فلْيتلقَّ هذه النِّعمة بشُكْرِها وليترقَّ منصِبا رفيعا يناسِب رِفْعة قدْره، وليبْسُط قلمه فى تنفيذ مُهِمِّ الممالك من نَهْيه وأمره، وليحفَظْ ماأُودِعَهُ من خَفِىّ سِرِّه، وليُلاحِظْ المهِمَّاتِ بفكره، وليحافِظ علىٰ مايعْرِفه من رضانا طُولَ دَهْره؛ ونحن نعلَمُ من صوابِ أفعاله وتسديدِها، ما لا نحتاجُ معه إلىٰ تكثير الوصايا وتعْديدها، ولا إلىٰ تكريرها وترديدِها؛ لاسيّمـا وقد سلفَتْ له بهـا خِبْرة لا نَفتقِر إلى آستيعابِ ذِكراها ولا إلىٰ تَجْديدها، وتقـدّمتْ له مباشرةٌ آستبشَرْنا بيمُونها وأثنينـا علىٰ حميدِها، وآستدْنَيْنا سَنَاها وآستغنينا عن سِواها بوجُودها؛ وله بحمـد الله توَفُّر التوفيق، وهو الحقيق بمـا فوّضنا إليـه على التحقيق، وفضْـلُه من الشوائنِ عرِىٌّ وفى المجُـانبين عريق، وقدْره بتجديد النِّعم جدير وبخلال الكَرَم خليق، والله تعالىٰ يُوضِّح به من الخير أبينَ طريق، ويسُرّ بمَقْدمه الولىَّ والصـديق، ويفْرُق به بينَ الحقِّ والباطل بجَدِّه الفاروقُ وهو من أكرم فَرِيق؛ بمحمد وآله ! .

(١) حذف المرسـوم به اختصارا فى الكتابة واتكالا على فهمه من نظائره المتقـدّمة فهو ملحوظ له ومراد .

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمدُ لله الذى أظهر لتدبير دولتنا شِهَابا يعلُو علىٰ فَرْقَد الفَراقِد، وكمَّل به عقُودَ المَمالك فسَمَتْ جواهرُ فرائدِها علىٰ الدَّرارىّ إذ كان واسطةَ تلك الفَرائد؛ ومُعيد إحساننا إلىٰ خَيْرِ ولىٍّ أغنىٰ تدبيرُه عمَّن سواه فكان بالألْف ذٰلك الواحد، ومُخوِّل موادِّ كرمنا لمن هو صدر أسرارنا و يمينُ مملكتنا فى كلِّ صادرٍ عنها ووارِد؛ ومنَقِّل الأكفاء إلىٰ مراتب سعودهم فتُصبِح ألويةُ محامدهم فى معاقل العزِّ أنفَرَ مَعاقد، ومُحلِّى مُلكِنا الشريف بأكمل كافٍ ما أمَّ مصرا إلا تلقَّته بالهناء ولا فارقَ شاما إلا أسِفَتْ عليه تلك الربوعُ والمعاهِد .

نحمده علىٰ نِعَمٍ أقرّتْ عُيونَ الأولياء لمَّا أقرّتْهم من موادّ جُودنا علىٰ أكمل القَواعد، ونشكره علىٰ ما بلَّغَنا من جميل المآربِ و بلُوغ المقاصِد؛ ونشهد أن لا إلٰه إلا الله وحدَه لاشريك له شهادة تُنجِّى قائلَها من جميع الشدائد، ونشهد أنَّ سيد[نا محمدا سيد] البَشَر عبده ورسولُه الذى جاد بهدايته فكان أكرمَ جائد؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحابته خصوصًا علىٰ أوّل الخلَفاء أبى بكر الصدّيق الذى لا فخْرَ كفَخَاره، وعلىٰ أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطّاب حاملِ أسرارِه وفاتح أمصارِه، وعلىٰ أمير المؤمنين عثمانَ بن عفّانَ مُبَدِّل عُسْره بيَسَاره، وعلىٰ ٱبن عمِّه علىّ بن أبى طالب أعزِّ نُسَبائه وأخصِّ أصهاره، وعلىٰ بقيَّة مهاجِريه وأنصاره، صلاةً سَهْلةَ المَشَارع عَذْبةَ المَوارد .

وبعد فإنَّ من سجيَّتنا إذا تيمَّنَّا بولىّ لا نَزال نلْحظُه، ونَرْعىٰ حقُوق خدَمه فى القُرْب والبُعْد ونَحفظُه؛ ونُقابل ماأسلفه لدينا بنفائس النِّعم، ونُفيض عليه مَلابِس الجُود والكرم؛ لا سيَّما من لم يزل يُظْهِر لنا كل يوم تعبُّدا جديدا، ومن أصبح

فى الفَصاحة والبَلاَغة وَحيدا ، ومن جمع أطرافَ السؤدَد والرياسة فلم يَبْرَح بهما فريدا ؛ ومن تَحْسُن النعم بإفاضتها عليه ، وتكْمُلُ المِنَنُ بإضافة محاسنها إليه ؛ وتزهو فرائدُ البلاغة بانتظامها فى سِلْك مَجْده ، وتُشْرق كواكبُ البَرَاعة فى ٱتِّساقها فى فَلَك سَعْده ؛ وكان لِلبَابَتِه فى الاختصاص بنا اليدُ الطُّولىٰ ، وتَلاَ عليه لسانُ ٱعتنائنا فى الحالين : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولىٰ ﴾ .

ولمَّا كنتَ أيُّها الصدرُ «شهابُ الدين» أحقَّ الناس بهذا المنْصِب لما لِوالدِك ـ أبقاه الله تعالىٰ ـ ولعَمِّك ـ رحمه الله تعالىٰ ـ من الحقُوق ، ولما أسلفاه من الخِدَم التى لا يحسُن التناسى لها ولا العُقُوق ؛ ولأنك جمعتَ فى المجد بيْن طارف وتالد ، وفُقْت بأزكىٰ نَفَر وعَمٍّ وإخوةٍ ووالد ؛ وجلالَهْ ، ما وَرِثتَها عن كَلاَله ؛ وخِلال ، مالها فى السِّيادة من إخْلال ؛ ومَفَاخر ، تُكاثر البحرَ الزَّاخر ؛ ومآثر ، يَعْجِزُ عن وصفها الناظمُ والناثر ؛ ولما نعلَمه من فضائلك التى لاتُجْحَد ، رعيناك فى عَوْدك لوظيفتك وعودُ « أحمدَ » أحْمَد .

ولما كان فلانٌ[1] هو الذى تقْطُر الفَصاحةُ من أعطاف قَلَمه ، وتَخْطِر البلاغةُ فى أثواب حكَمه ؛ وتنزل المعانى الممتنعةُ من مَعَاقل القَرائح علىٰ حُكْمه ، وتقف جِيادُ البَداهة المتَسرِّعة حَيْرىٰ قبل التوسُّط فى علْمه ؛ إن وَشَّى الطِّرْس فرِيَاض ، أو أجرىٰ النِّقْس فحِياض ؛ أو نَظَم فقَلائد ، أو نَثَر ففَرائد . لا يتجاسَرُ المعنىٰ المطرُوقُ أن يُلِمَّ بفِكره ، ولا يُقْدِم المعنىٰ المتخيَّلُ المسبوقُ للرُور بذِكْره ؛ ولا يجوزُ زَيْف الكلام علىٰ ذِهْنه المتَّقِد ، ولا يَثْبُت غُثَاء الكلام لدىٰ خاطره المنتَقِد ؛ فـ«عبدُ الحميد»

(١) هذه عبارة أخرى تكتب بدل الأولى ولا يجمع بينهما أى فالكاتب مخير فى تصدير مقاله باحداهما كما لا يخفى .

كـ«عَبْد الرحيم» فى العَجْز عن لَحَاق علُومه التى يجد « الراغبُ » علىٰ نُورها هُـدىٰ ، والأصمعىُّ لو أدركه لتـلَا عايه : ﴿ هَـلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أن تُعَلِّمَنِ مِمَّـا عُلِّمْت رُشْدا ﴾ «والطُّغرائىّ» لو عاصره لزاد نظْمَه وآزداد علىٰ نُوره هدىٰ ، و«الحريرىّ» لو رافقه لأمِن فى "مَقاماته" من التجْريح والرَّدىٰ ؛ قد قَصَّرتْ عن غاية كماله جيادُ القَرائح ، وعَجَزت عن وصْف صفاته جميع المَدَائح ؛ وشَرُف منصبُه بآنتسابه إليه ، ورُفِع قدرُه بمثُوله لديْه ؛ مع ما تميَّز به من نَزاهةٍ صَرَف بها عن الدنيا طَرْفه ، وزَهادةٍ زانَتْ بالسَّعْد صَدْرَه ومَلاءةٍ ملأَتْ بالعِفَّة كَفَّه ؛ فهو واحدُ زمانِه ، وأوحدُ أوانِه ؛ والبحرُ الذى يُحدَّث عن فضـله ولا حَرَج ، والروضُ الذى يُنْقَل عن فضله إلى الأسْمـاع أطيَبُ الأرَج ؛ وكان قد مال عن منصِـبه وهو يذْكُره ؛ وفارقَه وهو يَشْكُره ، ونادىٰ غيره وبقوله يلَبِّى ، وشُـغل بغيره وهو يقول حَسْـبِى « شهابُ الدين » حَسْـبِى : ﴿ فَلَمَّـا رءَاه مستَقِرًّا عنْدَهُ قال هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى ﴾ . فلما حَصَل له الآستئناس ، وزال عنـه القلَق والآلتباس ، قال : ﴿ ذَلكَ مِنْ فَضْـلِ الله علَينَا وعَلىٰ النَّاس ﴾ — آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نخُصَّـه بآستقرار رُتْبَته لديْه ، وأن نستمرّ به علىٰ وظيفته السنيةِ آستمرارَ السُّعود المقبلِ عليه .

فرُسِم بالأمر الشريف — لا زال شِهابُ سـعده لامِعا ، وسَحابُ كرمه هامعا ، ومُطاعُ أمره لمصالح الدِّين والدنيا جامِعًا ؛ — لمَنَاقبه(١) التى وَفَرت مَيامنها ، وأسفَرت بوصْف آثاره الحسنةِ كوامنُها ؛ وأن يُعادَ إليها كما يُعادُ السِّوارُ إلىٰ الزَّنْد ، أوكما يعُود نسيمُ الصَّـبا إلىٰ الرَّنْد . فليُؤنِسْ منصِبًا كان إليه مشتاقًا ، ومجلِسًا كانَ منتظرًا أن يَزُرَّ من ملابس جلاله علىٰ عُنقه أطْواقا ؛ وليَجَمِّل هالةً كانت متشوِّقةً إلىٰ عقُود دُرَره . فلْحَمد الله علىٰ ما خصَصْناك به من مَزِيد الآعتناء ، وأن السـعادةَ فى أيَّامنا الشريفة

(١) المراد أن يستقر فى كذا لمناقبه ... ... وأن يعاد .

متصلةٌ فتشمَل الآباءَ والأبناء ، ويَكْفِيك بهـذا التوقيع الشريف إذ بلغْتَ به جميعَ الأمانِي ، وتوّجْناه بيمينِنا الشريفَة لقرب عَهْدها بمصافحَةِ الرُّكن اليمانِي ، وٱصطفيناك بقلمٍ عَظُم شأناً بتلك السُّتُور ، وغدا معْموراً بالهداية ببركة البيت المعْمُور ، وٱزداد بمشافَهـة الحرم الشريف نُوراً علىٰ نُور . فليُحْسِـن نظرَه المبـارَكَ فى ذٰلك كلِّه ، وليُبْدِ ما يحْسُنُ فى هـذه الوظيفة من مِثْله ، وفى تقـدُّم مباشرتِه فى هذه الوظيفـة وعِلْمِه ما يُغْـنِي عن كثْرة الوصايا ، ومِلاكُها تقوى الله تعـالىٰ وهى أكمل المَـزَايا ، وليُحْمِـدْ أفعالَه ويصِـلْ أسـبابَ ٱعتمادِه بسببها ، والله تعـالىٰ يُجَمِّـل له مواهِبَ تَخْوِيله ، ويجعل له الخيْرَ فى تنقُّله وتَحْوِيله ، والخطُّ الشريف أعلاه ، حجّةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكتابة السرّ :

الحمـد لله الذى جعل خَواطرَ أوليائِنا بإقرار نِعَمِنا مستقِرّه ، ومَواطِرَ آلائنا علىٰ ذَوِى الإخلاص فى ولائنا دائمةَ الدِّيَم مستمِرّه ، وبشائرَ رضانا تجدِّد لكلٍّ من ذَوِى الآختصاص ٱبتهاجَه وبِشْرَه ، وسـوافِرَ أوجه إقبالنا لأُولى الآصطفاء والوفاءِ مُشْرِقة الأوضاح متهَلِّلةَ الأسِرَّه ، مُودِعِ أسرار مُلْكنا الشريفِ من آل «فَضْـل الله» عند أكرم أُسْرَه ، ومُمتِّع دولتنا بخير كافٍ دَقّق فى مصالحنا فِكرَه ، وأنفق فى مناجحنا عمرَه ، ومُجْمِـعِ آرائنا علىٰ أعلىٰ علىٍّ حلَّ من بُهْر بيته بمعرِفه وبَهَرَ خَيْرَه ، ومُطْلِـع أنجمُهم بأفُقِ تقريبنا مرَّةً بعـد مرَّه ، فنجني نيرهم الأكبر وقد شيَّدنا بإرتقائهم بيتَه وشدَدْنا بعَلائهم أزْرَه .

نحمده علىٰ أنْ جَبَل سَجايانَا ، علىٰ الإحسان والمَبرَّه ، ونشكُره علىٰ أنْ أجزل عَطايانَا ، لمن لم يَزل يَعرِف حقَّه ويَألف خَيْره ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له

شهادةً تشْرَح لمُؤْمِنها صدْره ، وتُصلِح لمُوقِنها أمْرَه ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى أسمىٰ علىٰ الخلائق قَدْرَه ، وتَولّى فى المَضايِق نَصْره ، وأعلىٰ فى المَشارق والمَغارِب ذِكْره ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله أعزِّ عِتْره ، ورضى الله عن أصحابه الذين أسْدَوُا المِنَّة وسَدُّوا الثُّغره ، صلاةً ورضوانا متواصلَيْن فى كلِّ أصيل ومكرَّرين فى كلِّ بُكْره ، ما وُهِب فضلُ الله مستحِقًّا فسَرَّ بالعواطف والعَوارف سِرَّه ، وعقَّب فى سماء الإسعاد كوكَبٌ كوكبًا فحَلَّ محلَّه وقرّ مَقَرّه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ فشِيَمُنا ترعىٰ لأوليائها حُقُوقا ، ونِعمُنا الغامرةُ تُسْنِى صدَقاتها لمن لم يَزَلْ فى وَلَائها صَدُوقا ، وتَزِيد هِباتها توفيرًا لمن عَهِدتْ منه لمَرَاضيها توفيقا ، وتُجدِّد بتعاهدها معْهَد الفضل فلا يُمسى خليًّا بل يُضْحِى بإكرامها خليقا ، وتُشيِّد بإحسانها بيتا أُسِّس علىٰ تقوىٰ الله وطاعةِ سلطانها فغدَا بالحِفْظ حقيقا ، وتحمِى باعتنائها جوانبَه من الغِيَر فلا يَرهَب حِماه لها طُرُوقا ، ولا تجدُ بفضل الله لها عليه طَريقا ، وتُطلِعُ فى بروج سُعودها زُهْرا تَرُوق شُروقا ، وتَجْمَع علىٰ مُهِمَّاتها مَن عَظُموا فَضْلا وكَرُموا فريقَا ، وتُودِع أسرارَها عند سَرَاتهم رُكُونًا إليهم وسُكونا ورِضًا بهم ووُثُوقا ، وتشفَعُ منائحَها بمنائحَ تزيدُ آمالَهم نَجاحا وتُفيد أمانِيَّهم تحقيقا ، وترفَعُ مكانًا عليًّا إلىٰ حيث اتّسع السِّرار من مُلْكِها من كان بالمَيَامن مَلِيًّا وفى المحاسن عَرِيقا ، ويَخْلُف فى خِدَمها شقيق منهم شَقِيقا ، ويُصَرِّف أوامرَها ونواهيَها من أعيانهم من تأْمَن المصالحُ مع اجتهاده تفويتًا وتخافُ الأعداءُ لسداده تعويقا ، طالمَا ائتَمنّاهم علىٰ إيداع أسرارنا فحلَّت من سرائرهم مستَوْدَعا وثيقا ، وعُيِّنوا للمعالى فصادفَتْ طويّتُنا من يقَظتِهم ونهضتِهم تَصْديقا ، فهمْ أولىٰ أن نجعل لأجيادهم بعُقُود جُودنا تطْويقا ، وأحقُّ أن نرفع بنِعَمنا محلَّهم ، ونجمعَ فى خِدْمتنا شَمْلَهم ، فلا يخشَوْن نقْضًا ولا تفْريقا .

ولما كان المجلس العالى الفلانىّ هو الذى لحظَتْه عنايتُنا ، فَعَلا فِعْلا ، وأيقظتْه إشارتُنا ، فَغَدا فى الحكم كَهْلا ، وحفِظتْه رعايتُنا ، فعَمَرت بيتَه العمرىّ الذى مازال بالعوارِف ملمُوحًا وللقبول أهْلا ، وأحْظتْه سعادتُنا ، فى إقامته مُقام أبيه فى حِفْظ أسرارنا التى هو أحقُّ بإيداعِها وأوْلىٰ ـ اقتضى حُسْن الرأى الشريف أن نُجْرى بمراسِمنا أقلامَه ، ونوفِّر من إنعامنا أقسامَه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا بَرِحتْ سحائبُه عامّه ، ومواهبه لها مزيد وإدامَهْ ، ورعايتُه إذا ابتدأتْ فضلا رأتْ إتمامَه ، وكواكبُه تَسير فى منازل عِزِّها ولنَيِّرها الأكبرِ الإرشادُ والإمامَهْ ـ أن يُفوّض إليه كذا وكذا ، علىٰ أجمل العوائد ، وأكمل القواعد ، نظير ما كان مستقِرّا لأخيه .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ التى لها به وبأهله أعظمُ فَخَار ، وليحُلَّ هذه الرتبةَ التى ما منهم إلا مَنْ لها يُجتَبىٰ ويُستخار ، وليُجمِّل هذا المنصبَ الذى إليهم مصيرُه فى جميع الأمصار ، وليُحلِّ المَهَارق بانشاآته التى شانَ مُطاوِلَها عن شأْوِها الإقْصار ، وليتَوقَّل هذه الهضبةَ التى لها علىٰ عَلْيائهم اقتِصار ، وفى آبائهم وأبنائهم لها تعيينٌ وانحصار ، وليـدَبِّج الطُّروس من خَطِّه بالوَشْى الرقيم ، وليُبهِج النفُوسَ من خِطابه بالدُّرِّ النظيم ، وليُسْرج الشُّموس من أوضاع كتابتِه التى تَبْرُز من إبريز كُنُوزها «ابنَ العَديم» ، وليُجهِّز البُرُد التى تَقدَمُها مهابَتُنا فلم يكْبِتْها من كتائب الأعداء هَزيم ، وليُزيِّن مقاصِدَها التى قُرِن بها الفتحُ القريب والنصرُ العزيزُ والفضلُ العظيم ؛ وهو بحمد الله غنىٌّ عن الإرشاد بالوصايا والتفهيم ، علىُّ القَدْر لا يَحتاج مع ألمعيتّه إلىٰ تنبيه ولا إلىٰ تعليم ؛ وهم أئمةُ هذه الصناعة ولهم الفضل القديم ، وسبيلُهم السَّوىّ وصراطُهم القويم ؛ والله تعالىٰ يُوفِّر لهم فضلَنا العميم ، ويُظْفِر أقدارَهم من لَدُنَّا

بتكرير التكريم، ويُسْنِى أمرَهم فى آفاق العلياء يُسعِدُ ويُقْعِد ويُقِيم، ويديمُ لكلٍّ منهم فى ظلّ نعمنا المزيدَ والتأكيدَ والتقديم؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه وصيةٌ لكاتب السرّ، أوردها فى "التعريف" وهى :

وليأْمُرْ عنّا بما يُقابَل بالامتثال، ويقال به : السيوفُ لأقلامه مِثَال؛ ويَبْلُغ [من] ملوك العِدا مالاتبلغه الأسنّه، ولاتصل إليه المراكبُ المُشْرَعة القلوع والخيولُ المطلَقةُ الأعنّه؛ وليُوقِّعْ عنّا بما تَذْهَب الأيامُ ويَبْقىٰ، ويُخلِّدْ من الحسنات ما يُلْقَىٰ آخرةً ويُلْقىٰ؛ ويُمْلِ من لَدُنْه من غُرَر الإنشاء مايُطرِّز كلَّ تقليد، وتُلْقىٰ إليه المَقاليد؛ ولينفِّذْ من المهمّات ماتُحجَب دُونَه الرِّماح، وتُحْجِم عن مجاراة خَيل البريد بِهِ الرِّيَاح؛ وليتلَقَّ مايَرِد إلينا من أخبار الممالك علىٰ اتّساع أطرافها، وما تضُمُّه مُلاءة النّهار مِلْءَ أطرافِها؛ وليُحْسِن لدَيْنا عَرْضَها، وليؤدِّ بأدائها واجبَ الخدمة وليُتِمَّ فَرْضَها؛ وليُجِبْ عنّا بما استخْرجَ فيه مراسِمَنا المُطاعه، وبما وُكِل إلىٰ رأْيه فسمِع له الصوابُ وأطاعَهْ؛ وليُمْضِ ما يَصْدُر عنّا مما يجُوبُ الآفاق، ويزكُو على الإنْفاق، ويَجُول ما بينَ مِصْر والعِراق، ويطيرُ به الحمام الرسائليُّ وتجرى الخيلُ العِتَاق؛ ولْيُرِ النوّابَ ما أَبْهم عليهم بما يُرِيهم من ضَوْء آرائنا، وليؤكِّد عندهم أسبابَ الوَلاء بما يُوالِي إليهم من عَمِيم آلائنا؛ وليأْمُرِ الوُلاةَ بما يقِف به كلٌّ منهم عنـدَ حَدِّه ولا يتجاوَزُه فى عمله، ولا يَقِف بعده علىٰ سواه بأَمَله؛ وليتولَّ تجهيزَ البَرِيد، واستطْلاعَ كلِّ خبرٍ قريبٍ وبعيد؛ والنّجّابة وما تَسِير فيه من المصالح، وتأخُذ منه بأطراف الأحاديث إذا سالتْ منه بأعناق المَطيّ الأباطِح؛ وأمورَ النُّصحاء والقُصّاد،

ومن يَظَلُّ سرُّهم عنده إلى صَخْرة أعيا الرجالَ انصداعُها وهُمْ شَتَّى فى البِلَاد ، ولْيعرِفْ حقوقَ ذوى الخِدْمة منهم ، وأهلِ النصيحةِ الذين رضى الله عنهم ، ولا يَنْس عوائدَهم من رُسوم إحساننا الموظَّف ، وكرمنا الذى يَسْتَميلُ به القلوبَ ويتألَّف ؛ وليصُنِ السرَّ بجُهْده وهيهات أن يختفى ، وليحجُبْه حتّى عن مِسْمَعَيْه فسرُّ الثلاثة غير الخفى ، والكَشَّافةَ الذين هم ربيئة النظر ، وجَلَّابة كل خَبَر ، ومن هم أسرَعُ طُروقا من الطيف ، وأدخَلُ فى نُحور الأعداء من ذُبابِ السَّيْف ، وهم أهلُ الرِّباط للخيل ، وما منهم إلا من هو مُقْبِل ومُدْرِك كالَّليل ، والدَّيادِبُ والنُّظَّاره ، ومن يَعلمُ به العِلْمَ اليقينَ إذا رفَع دُخَانه أو نارَه ، وهم فى جنَبات حيثُ لا يخفى لأحد منهم مَنَار ، ولا يزال كلُّ نبأٍ بتنويرهم كأنه جَبَل فى رأسه نَار ، والحمامَ الرسائلىَّ وما يحمل من بَطائق ، ويتحمَّل من الأنباء ما ليس سواه [له] بِطائق ، ويخوضُ من قطع الأنهار ، ويقطع إلينا ما بَعُد مسافةَ شهرٍ وأكثر منه فى ساعةٍ من نَهار ، ويَعزِم السُّرى لا يُلْوِى على الرِّباع ، ويعلم أنها من ملائكةِ النصر لأنها رُسُل ولها أجنحةٌ مَثْنىٰ وثُلاثَ ورُباع ، وغير هذا مما هو به مَعْذوق ، وإليه تُحْدىٰ به النُّوق ، من رُسُل الملوك الوارده ، وطوائف المستأمَنين الوافده ، وكلُّ هؤلاء [هو لا] ماالهم المترجِم ، والمصَرِّح عن حالهم المُحَمْجِم ، فليعامِلْهم بالكرامه ، وليُوسِعْ لهم من راتب المُضَيِّف ما يحبِّب إليهم فى أبوابنا العالية الإقامَه ؛ وليعلَمْ أنه هو لدَيْنا المستشارُ المؤتَمَن ، والسفيرُ الذى كلُّ أحدٍ بسفارته مرتهِن ، وهو إذا كتب بَنانُنا ، وإذا نطق لسانُنا ، وإذا خاطب مَلِكا بعيدَ المَدىٰ عُنْوانُنا ، وإذا سدّد رأْيه فى نُحور الأعداء سهمُنا المرسَلُ وسِنانُنا ؛ فليُنْزِل نفسَه مكانها ، ولينظر لدَيْنا رتبتَه العليَّة إذا رأى مثل النجوم عِيانَها .

فلْيراقِب اللهَ فى هذه الرتبه ، وليتوقَّ لِدِينِه فإنَّ الله لا يَضِيع عنده مثقالُ حَبَّه ، وليخَفْ سُوءَ الحساب وليتقِ اللهَ رَبَّه ، وجماعة الكُتَّاب بديوان الإنشاء بالممالك

الإسلامية هم على الحقيقة رعيّتُه ، وهداهم بما تُمِدّهم به من الآلاء ألمَعيتُه ؛ فلا تستكتِبْ إلا من لا تجِدُ عليه عاتِبا ، ولا يجِدُ إلا إذا قعَد بينَ يدَيْه كاتِبا ، والوصايا منه تُسْتملَىٰ .

الطبقة الثانية

(من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية أصحابُ التواقيع ، وهم علىٰ ثلاث درجات)

الدرجة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«ـالمجلس العالى» وكلُّها مفتتَحة بـ«ـالحمدُ لله»)

وتشتمل علىٰ ثلاثِ وظائف سوىٰ ماتقدّم أنه نقل إلىٰ رتبة التقاليد ، وهو كتابة السرّ

الوظيفة الأولىٰ

(نظرُ الخاصّ)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ ترتيب وظائف الديار المصرية أنّها وظيفة محدَثةٌ ، أحدثها السلطانُ الملك الناصر «محمدُ بن قلاوون» حينَ أبطل الوِزارةَ ؛ وأنّ أصل موضوعها التحدّثُ فيما هو خاصٌّ بمال السلطان ؛ وأنّ صاحبها صار كالوزير لقُرْبه من السلطان وتصرُّفه فى تدبيرِ جُملةِ الأمور ، وتعيينِ المباشِرين ، إلا أنَّه لا يقدر علىٰ الاستقلال بأمر ، بل لابدّ له من مراجَعة السلطان . وقد تقدّم ذكرُ ألقابه فى الكلام علىٰ مقدّمة الولايات من هذا الفصل ، وعلىٰ طُرّة توقيعه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاصّ ، كُتِب به للقاضى شمسِ الدين مُوسىٰ بن عبد الوهّاب فى الأيام الناصرية «محمد بن قلاوون» وهى :

الحمدُ لله الذى جعـل كلَّ جُرْح بنـا يُوسىٰ ، وعجَّل كلَّ نعمة تُبدِّل بُوسا ، وتغيِّر بالسُّرور من المَساءة لَبُوسا .

نحمَدُه حمْـدا يشْرَح صدُورا ويسرّ نفُوسا ، ونشهد أنــ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً ترفَع لقائلِها رُءُوسا ، وتُطلِـع فى آفاق ممالِكنا الشريفة شُمُوسا ، وتُنْشِئ فى أيَّامنا الزاهرة غُرُوسا ؛ ونشهد أن محمَّدا عبدُه ورسوله الذى بَشَّر به مُوسىٰ ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه صلاةً تملأ طُرُوسا ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإن العمل بالسنَّة أَوْلىٰ ما يتَمسك به المتمَسِّك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «ٱبْدَأْ بنَفْسِك» ؛ وكانت الخواصُّ الشريفةُ هى المصلحةُ الخاصَّةُ بنا ، المتعلِّقةُ دُونَ كل شيء بأنفُسنا ؛ لأن من خزائنها العالية تتفرقُ مَواهبُنا الشريفةُ فى الوجُود ، وتتحلَّى مَعاطِف الأمراء والجُنُود ؛ وكان فيها مَن لم يزَلْ هو وبَنُوه قائمين بها أحسَن قيام ، [و]فيها من ممـالكنا الشريفةِ مايُضاهى بمَدَده الغَمام ؛ مَنْ حضَر منهم لايتَفَقَّد معه مَنْ غاب ، ومن كتب منهم فى شيءٍ من مصالحها قال الذى عِنْده عِلْمٌ من الكتاب ؛ كم أجرتْ صدَقاتُنا الشريفةُ بأقلامهم من إنعام ، وتقَسَّموا فى مصالحنا الشريفة هذا فى الخاص وهذا فى العَامّ ؛ طالمـا ٱنقطع والدُهم رحمه الله تعالىٰ بعُذْر فمَشَّوا الأمور علىٰ أكمل سَـدَاد ، وأجملِ ٱعتِياد ، وأتمّ مالو حضَر أبُوهم وكان هو المتولِّيَ لمـا زاد ؛ فمـا خلَتْ فى وقتٍ منه ، أو من أحد منهم لَمَّـا غاب مَنْ بقِيَ يسُـدّ عنه ؛ فلم يزل منهم ربعُها مأنُوسا ، ولا سُئِل فيها عن قصَّة إلا وأنبأت بها صُحُفُ إبراهيم ومُوسىٰ .

وكان المجلس العالى فلان هو الذى تفرّد آخرًا بهذه الوظيفه ، وٱستقَلَّ فيهـا بين أيْدينا الشريفه ؛ وسافر فيهـا إلىٰ ثَغْر الإسكندرية ــ حرسها الله تعالىٰ ــ فٱفترّ بيُمْن تصرُّفه ، وحسن تعفُّفه ، وعَدم فيها المضاهيَ لأنه لاشيءَ يُضاهى الشمسَ إذا حلَّ

سِرُّها فى منازل شرفه ، كم كفت له كفايه ، وبدت بدايه ، وكم بلغ من غايه ، كم له من هِمَم ، وكم تقدّمت له قدم ، وكم اعترف السيفُ ببزّ القلم ، كم له فى خدمة المقامات العالية أولادنا أثر جميل ، وفعل جَلِىّ جليل ، وسلوك فلا يحتاج فى الشمس إلىٰ دليل ، كم أحسن فى مرّه ، كم رددناه إلىٰ الكرك كرّه ، كم غلب علىٰ السحاب فرقىٰ إليها ، وبلغ النجومَ وله قُدوم عليها ، فلما انتقل والده القاضى تاج الدين عبدُ الوهاب إلىٰ رحمة الله تعالىٰ ، احتاج إلىٰ توقيع شريف بالاستقلال فى وظيفة نظر الخاصّ الشريف التى خلت عن أبيه ، ليعلم كلُّ متطاول إليها أنه لا يَصِل إليها مع وُجود بَنِيه ، فما عادَ إلا وعادَ بعين العناية محروسا ، ولا أقبل علىٰ كرمنا إلا قالَ ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسَىٰ ﴾ .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف — زاد الله شرفه ، ومكّن فى الأرض تصرُّفَه — أن يفوّض إليه نظرُ الخاصّ الشريف بالممالك الإسلامية المحروسة ، علىٰ عادة والده رحمه الله فى هذه الوظيفه ، وقاعدته فى رُتْبتها المُنيفه ، ليقضىَ ما كانَ فى خاطر أبيه من الوطر ، ولأنه فى أمثاله عينُ الأعيان والعينُ أَوْلىٰ بالنظر .

فليُباشر ماأنعمتْ به صدقاتُنا العميمةُ عليه علىٰ ماعُهِد [منه] بالأمس ، وعُرِف به من حُسْن السلوك كمن يَمْشِى فى ضَوء الشمس ، وليقدّم تقْوى الله والأمانةَ فهما أفضلُ ما يُقدّم ، وأجملُ ما يَعمَل به من تقدّم ، والنهضةَ فإنها هى التى تقُوم بها المصالح ، والتصدّىَ لما هو بصَدده فإن به يتمُّ كلُّ عمل صالح ، وليْحتفظْ علىٰ الخزائن العالية ، وليكُنْ فيها كواحد من رُفْقته عملا بالعادة [فيها] ، وإلا فنحن نعلمَ من كفايته [أنه] يكفيها ، وليْثمّر الجهات التى إليه مرجعُها ، والأموالَ التى يدُوم إليه من العين تطلُّعها ، وليستجْلِبْ خواطرَ التُّجّار بإيصال حقُوقهم إليهم ، والقائمين فى خدْمة

أبوابنا الشريفة بتعجيل ما تُنعِم به صدقاتُنا الشريفةُ عليهم ؛ وليكُنْ إلىٰ ما تبرُز به مراسمنا الشريفة مُسارِعا ، ولها فى كلّ ما أشكَل عليه من الأمور مُراجِعا ؛ وبقيَّة هذا من كلّ ما يحتاجُ أن نُوصِيَه بتعلُّمه فقد عُلِم ممـا جرتْ به عادتُنا الشريفةُ بأن نقولَهُ فى مثله ، ولهذا نختصِر فى الوصايا التى تُشْرَح اكتفاءً بمـا آتاه الله بنا من فضله ؛ والله تعالىٰ يأْخُذ به إلىٰ النَّجاح ، ويفتَح له بنا أحسَن الآفتِتاح ؛ والآعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع بنظر الخاص :

الحمدُ لله الذى جعل خَواصَّ النِّعَم لمُلْكنا الشريف لأجَلِّها ، ونفائِسَ الذخائِرِ من دولتنا القاهرة بمحلِّها ، وأخايِرَ المَفاخِر مبسوطا فى أيَّامنا ظِلُّها .

نحمَـدُه بمحامِدِه التى لا نَمَلُّهـا ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريك له شهادةً أشرَق مستَهَلُّها ، ونشهد أن محمدا عبـدُه ورسولُه الذى خُتِمت به أنبياؤُها ورُسُلُها ، وبعثه الله للأرحام يَبُلُّها ، وللأوليـاءِ يُجِلُّها ، وللأعداء يُذِلُّهـا ، ولسُيوف النصر من الغُمُود يَسُلُّها ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ماشُدّ علىٰ مطِيَّة رَحْلُها ، ووَلِىَ المراتبَ أهلُها ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ خزائن مُلْكنا الشريف مستَوْدَعُ كلِّ ثَمِين ، وممالكنا المعظَّمةَ لاتُعْدَق إلّا بالثِّقة الأمين ، ومتاجِرَ خواصِّنا الشريفة لا يُثَمِّرها إلا مَنْ رأيُه يعضِّد قلَمه فى اليمين ، والمَتْجَر المحروس لا يقوم بنَمـاءِ محصُوله إلا مَنْ له حَزْمٌ سـديدٌ وعَزْم متين ، ونَظَر الخواصِّ هو الذِّروة العالية فمُرْتَقيها علىٰ كل ما يعترِضه مُعِين .

ولما كان فلان هو المختارَ على يقين، والمخطوبَ لهذا المنْصِب ليزيده فى التحسين والتَّحصِين، والذى إن نَظَر فى القليل عاد كثيرا بالألوف والمئِين، فإنْ دبَّر تدبيرا حُفظ وحُرِس وصِين، وضَبط فى حُسْن الاعتماد بَلَغ إلى الصِّين، وإن توجّه إلى الثغر المحروس تفجَّر له عن أمواله الجَمَّه، وأخرج له من فاخر الحُلَل ما حَسّن راقمُه رَقْمَه، وصدر عنه إلى أبوابنا الشريفة بالتُّحَف المُثْمَنه، والحُمُول التى أوقرت السُّفُن فى النِّيل، والإبلَ فى السبيل، فأزال الغُمَّه، وأنار الأمورَ المُدْلَهِمَّه، ونشرَ ما طواه لدَيْنا فشكَرْنا له ما تقدّم به مما أتَمَّه.

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ... ... فلْيُباشِرْ هذا المنصبَ الكريمَ بتدبيرٍ يُصْلِح الفاسد، ويُنَفِّق الكاسد، ويَكْبِت الحاسد، ويُكَثِّر الأموال، ويُسْعِد الأحوال، ويُثمِّر الذَّخائر، ويَسُرّ السَّرائر، ويُوَفِّر حاصلَ الجواهر، ويُكَثِّر التُّحَف من كل صِنْف فاخر، ويُوفِى المهِمّاتِ الشريفةَ حقَّها فى الأوّل والآخر، ويَنْشُر التشاريفَ كالأَزاهر. ولْيخْتَرِ الأُمناءَ الثِّقات، ولْيُحَرِّر كلُّ منهم الميقَات، ولْيَبِعْ لخاصِّنا الشريف ويَشْتَرِ بالأرْباح فى سائر الأوْقات؛ ولْيتلَقَّ تجارَ الكارم الواردين من عَدَن، باستجلاب الخواطر وبَسْط المِنَن، ونَشْر المَعْدَلة عليهم ليَجِدُوا من اليُمْن ما لم يجِدُوه فى اليَمَن؛ وكذلك تجَار الجهة الغربيَّة الواردين إلى الثغر المحروس من أصناف المسلمين والفرَنْج: فلْيُحْسِنْ لهم الوِفَاده، ولْيُعامِلْهم بالمعدلة المستفَاده، فإنَّ مكاسبَ الثغر منهم ومنَ الله الحُسْنىٰ وزياده. والوصايا كثيرةٌ وهو غَنِيٌّ عن الإعادَه، و [ملاكها] تقوى الله فلْيَقْتَفِ رَشادَه، ولْيُصْلِح مآبَه ومَعادَه، ولا يتدَنَّس بأقذار هذه الدنيا فإنها جَمْرة وَقَّادَه، والله تعالىٰ يحرُس إرفاقَه وإرفادَه، بمَنِّه وكرمه! : بعد الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

الوظيفة الثانية

(نظر الجَيْش)

وقد تقدّمَ فى الكلام علىٰ ترتيب وظائفِ الديار المصرية أنّ موضُوعَها التحدّثُ فى الإقطاعات بمِصْرَ والشام، والكتابةُ بالكَشْف عنها، ومشاوَرةُ السلطان عليها، وأخْذُ خطِّه . وقد تقدّم ذكرُ ألقابه فى جملة الألقاب فى الكلام علىٰ مقدّمات الوِلايات من هذا الفصل، وتقدّم ذكرُ مايُكتَب فى طرّة تقليده فى الكلام علىٰ التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمدُ لله الذى عَدَق[1] بالأَكْفاء مصالحَ الجُنود، وصرَّف أقلامَهم فيما نُقْطِعه من الجُود، واجتبىٰ لمراتِب السيادة من تحْمَدُه الأقلامُ فى العطايا البيضِ والسُّيوفُ فى الخُطوب السُّود .

نحمدُه وهو المحمُود، ونشكُره شكرا مُشْرِقَ الميَامِن والسُّعود، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَذْبَةَ الوُرُود، يجِدُ المخلِصُ بركتَها يومَ العرْض ﴿ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وذٰلِكَ يَوْمٌ مَشْهُود﴾ ونشهد أنّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أضحَتْ به جيوشُ الإسلام منشُورةَ الألْويةِ والبُنُود، منصورةَ السَّرايا فى التَّهائِم والنُّجود، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أورَقَ عُود، وأُولِجَ نَهارُ السيوف فى لَيْل الغُمُود، وسلَّم تسليما .

وبعد، فإنّ أجلّ رُتَب هذه الدولة الشريفةِ مُرْتقىً، وأجملَها منْتقىً، وأكرَمها هاديًا حَلَّىٰ بعِقْد السِّيادة مَفْرِقا، رتبةٌ حكّمنا مرتقِيَها فى أرزاق الجُيوش الذين هم حُماةُ الدين وأنصارُه، ولهم رَواحُ الظَّفَر وابتِكارُه، ولهذا لايَحْظىٰ بتسنُّمها إلا من عَلَا مِقْدارا، وشكرتِ الدولةُ الشريفةُ له آثارا، وجبِّبَتْ عليه السعادةُ أثوابَها،

---

(١) (عدق) جَمَع .

وأوكفَتْ عليــه سَحابَها، وأنزلتْــه ساحاتِها ورِحابَها؛ وغدَتْ لأحاديثِ عَلْيائه تَرْوِى، وحمدِه الميسورِ والمَنْشورِ والمَطْوِى .

ولمـا كان فلان هو الذى نَمَتْ مآثِرُه، وكَرُمت مفاخِرُه، وآســتوَتْ على العَلْيــاء مَظاهِرُه؛ وشُكِرَ آستبصارُه وحِياطتُه، وكَمُل سلوكُه منهَجَ الفَخَار وجادّته؛ وأحْصىٰ الجُنود عدَدا، وإن كاثَرُوا النجُومَ مدَدا؛ وأحَاط بالأرض المُقْطَعه، فلم تكنْ نواحِيها عنه ممتَنِعه؛ ولم يُغادِرْ منها شيئا إلا أحصاه، وآتَّبع سببَ مَراضِينا حتَّى بلَغ أقصاه؛ فالعلم يُثْنِى عليــه والعَلَمَ، والحربُ والسِّلْم يشكرانِه لمناســبة نظرِه القرطاسَ والقلَمَ ــ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نرقِّيــه هَضْبةً ساميَــةَ العُلىٰ، فاخرةَ الحِلىٰ؛ ومنبَعَ أرزاق أئمة الفضل وأبطالِهــا، ورتبةً شهِد منالُهــا بعدَم مِثالهــا .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه ... ...

فليباشر هــذه الوظيفةَ المبــاركه، ولْيحُلَّ ذَرَاها الأسْمىٰ، وليجمل آطِّلاعَه علىٰ الجيوش المنصورة حتَّى لا يُغادِرَ منها آسما؛ لتغْدُوَ مصالحُها ورِيقةَ الغِراس باسقه، وعقُودُها نفيسةَ الفرائد متناسِقَه؛ وليُجْرِ نظرَه المبارك فيما صَرَّفناه فيــه، آخذاً بيُمْنِ السَّداد من فعله وحُسْنِ التنفيذ مِنْ فيه؛ مُلْزِما مَنْ تحت نظَرِه بإتقان ماهمْ بصدَدِه من العُروض والأمثله، حتَّى تغدُوَ لديه ممثَّــله؛ مُحَرِّرا للإقطاعات وعِلْمِ خَفَاياها فيما نَهَبُــه ونُقْطِعه، ونصله ونَقْطَعُه؛ والمقايَضاتِ وإن آختلفت، والإفراجات وإن آكتنفَتْ، والمَغَلَّات الآتية والأُخْرىٰ التى سلَفَتْ؛ وما يخصُّ المتَّصل، من فعل المنفصِل؛ والمتحصل والعِبْرَه، والخاص والعُدّة لذوى الإمرَه؛ ومنها مصرىّ لاغنَى عن تحريرِه، وشامىّ يفْتقِر إلىٰ الإتقان فى قليــله وكثيرِه؛ ولينظُرْ فيمن له جامكيَّة أو إقطاع مُجْزَل، وكلاهما فى دولتنا سِمَــاك : هذا رامِحٌ وهذا أعْزَل .

هذه وصايا جَمَّه ، وأنت غنيٌّ عن أن يستقْصِيَ القلمُ ذكرَها أو يُتِمَّه ، والله تعالى يجمِّل به رُتبَه ، ويبلِّغه أرَبَه ، ويرفَع عليه لواءَ المجد وعَذَبه ، بعد العلامة الشريفة أعلاها الله تعالى أعلاه ، إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخة توقيع بنظر الجيش :

الحمدُ لله الذى أعزَّ الجيوشَ المنصوره ، وجَزَّ أعناقَ العدَا بالسُّيوف المشْهُوره ، وهَزَّ ألويةَ التأييدِ المنشُوره ، وجعل الجَحافِل مُشْرِفةً وأجنِحَتها خافقةً وساقتَها مُحدِقةً وقلوبَها مسْروره .

نحمده بمَحَامده المذكوره ، ونشهَد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مأثوره ، موصولةً غيرَ مهْجُوره ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أبطل من الشيطانِ غُرُورَه ، وصان للإسلام حَوْزتَه وثُغُوره ، وسنَّ لأمّته الآستخارةَ والمَشُوره ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً نورت من الليل دَيْجُوره ، وكَثَّرتْ لقائلها أُجُورَه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أحوال جُيوشِنا يتعيَّن حُسْنُ النظر فى أمْرِها ، والقيامُ بموادّ نَصْرِها ، وإسعافُها بناظر يحرّر جهات أرزاقِها ، ويضبِطُها مخافةَ آفتراقِها ، ويأمُر بنَظْم جرائد أسمائهم وآتفاقِها ، ويُتقِن الحلىٰ ، ويبيِّن يومَ العَرْض محلَّه فى آرتقاء العُلىٰ ، ويصُون المحاسَباتِ لكل منفَصِل ومتَّصِل من الخُلَل ، ويُسْرِع فى الدخول والخُرُوج ما يَصِل به لكلٍّ حقُّه عند آستحقاقِ الأجَل .

ولما كان فلان هو الممدُوحَ بألسِنة الأقلام ، والرئيسَ بينَ الأنام ، والمشكورَ بين أربابِ السُّيوف وذَوِى الأقلام ، والمأمونَ فيما يُعْدَق به من مَهامّ ، والعزيزَ المثَال ،

والسائرَ بمَجْده الأمثال ؛ والمنشورَ فضلهُ فى كل منشُور ، والظاهرَ أثَره تجريده(١) فى الديوان المعمور ، والذى شكرْته المملكةُ الشريفة فهو من صُدُورها فى الصُّدُور .

فلذلك رسم ... ...(٢) فليباشِرْ نظرَ هذا المَنْصب السعيد بأمانةٍ تحفَظُ أرزاقَ العساكِر ، وتجلُو الظَّلامَ العاكر ، ولْيُحرّر جرائدَ التجريد ، وليصُنِ العُدّةَ الكاملةَ من التَّبْديد ، ولتكن أوراقُ البياكر نُصْبَ عينيه حتَّى إذا طُلبت منه أحضَرها محرَّره ، وإذا وقع فيهم حركة كانت أقلامُه غير مقصِّره ؛ وليرغِّب فى آقتناء الثناء حتَّى يُصْبح عنده منه جملةٌ من الأُلوف ، وليكن للأمانةِ والنُّصْح نِعم الأَلُوف ؛ وليتَّقِ الله معَ أصحاب السُّـيوف ، وليستجْلِب خواطِرَ أرباب الصُّفوف ، وليجعـلْ له براً فى كل أرض يطوف ؛ وتقوى الله فهى السبيلُ المعروف ، فلينْعَمْ بجنّتها الدانيةِ القُطوف ، وليلْبَسْ بُرْدَتَها الضافيةَ السُّجوف ، والله تعالىٰ يُنَجِّيه من المَخُوف ، بمنِّه وكرمه ! .

وهذه وصية ناظر جيش أوردها فى "التعريف" قال :

وليأخُذْ أمرَ هذا الديوان بكُلِّيته ، ويستحضِرْ كلَّ مسمًّى فيه إذا دُعى باسمه وقُوبِل عليه بحِلْيته ؛ وليَقُمْ [فيه] قياما بغَيْره لم يُرَضْ ، وليُقدِّم من يجب تقديمهُ فى العَرَض ، ولْيقِفْ علىٰ معالم هذه المُباشره ، وجرائد جُنودِنا وما تضحى له من الأعلام ناشِرَه ، وليقتصِدْ فى كل مُحاسَـبه ، ويحرِّرْها علىٰ ما يجب أو ما قارَبَه وناسَـبه ، وليستصحَّ أمرَ كلِّ ميت تأتِى إليه من ديوان المَواريث الحَشْرِيَّة ورقَةُ وفاته ، أو يخبره به مقدَّمه أو نقيبُه إذا مات معه فى البِيكار عند مُوافاته ؛ وليحرِّر ما تضمنته الكشُوف ،

(١) لعله والظاهر أثره وتحريره الخ .

(٢) بياض بالاصل ومراده بالأمر الشريف الخ .

ويحقّق ما يقابل به من إخراج كلّ حال على ما هو معروف، حتى إذا سُئِل عن أمر كان عنه لم يَخْف ، و إذا كَشَف على كَشْف أظهر ما هو عليه ولا يُنكَر هذا لأهل الكَشْف، وليحترِزْ فى أمر كل مَرْبَعه، وما فيها من الجهات المُقْطَعه، وكلّ منشور يُكتب، ومثالٍ عليه جميعُ الأمر يترتَّب، وما يَثْبُت عنده وينزِل فى تعليقِه، ويُرجَع فيه إلى تحقيقِــه ، وليعلم أنَّ وراءَه من ديوان الآستيفاء من يُساوِقه فى تحــرير كل إقطاع ، وفى كل زيادة وأقطاع ، وفى كل ما يُنْسَب إليــه و إن كان إنمــا فعله بأمرنا المُطاع ، فليتبصَّرْ بمن وَراءَه ، وليتوقَّ آختلاق كلّ مبطل وآفتراءَه، وليتحقّق أنه هو المشار إليه دُون رُفْقته والمُوكَل به النظر ، والمحقّق به جمــلةُ جندنا المنصــور من البَدْو والحضَر . و إليه مَدارج الأمراء فيما تَنْزِل ، وأمرُ كلّ جندىّ له ممّن فارق أو نُزِّل ، وكذلك مُساوَقات الحساب ومن يأخذ بتاريخ المنشورِ أو على السِّــياقه ، ومن هو فى العساكر المنصورة فى الطَّليعة أو فى السَّاقه . وطوائف العَرَب والتُّركمان والأكراد، ومَنْ عليهم تقدمةٌ أو يلزمهم رَوك بلاد، أوغير ذلك مما لا يفوت إحصاؤُه القلم، وأقْصاه أو أدْناه تحتَ كل لواءٍ يُنْشَر أو عَلَم، فلا يزال لهــذا كله مستحضِرا، وعلى خاطره مُحْضَرا، لتكون لَفَتات نظرنا إليه دُونَ رُفْقتِه فى السؤال راجعه ، وحافظتُه الحاضرةُ غنيةً عن التذْكار والمُراجَعه .

الوظيفــــة الثــالثة

(نظرُ الدواوين المعبَّرُ عنهــا بنظر الدَّوْلة)

وقد تقدّم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنَّ موضوعَها التحدّثُ فى كل ما يَتحدّثُ فيــه الوزيرُ، وأن كلَّ ما كتَب فيه الوزيرُ « يُكْشَف » مثلا ، كَتَب فيــه « يُكْشَف عمّــا رُسِم به » ونحو ذلك . وتقــدّم ذكرُ ألقابه فى الكلام

على مقدّمات الولايات من هـذا الفصل ، وتقدّم ذكرُ ما يُكتب فى طُرّة توقيعـه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخة توقيع بنظر الدواوين ، كُتِب به لتاج الدِّين بنِ سعيد الدولة ، وهى :

الحمـدُ لله الذى خصَّ من أخلَص فى الطاعة من آلائنـا بحُسْن النظر ، وأجنىٰ من غَرَس فى قَلْبه أصلَ الإيمـان من عَوَارف أيّامنا الزاهرةِ يانِـعَ الثَّمَر ، ورفَع مَن آستضاءَ فى دولتنا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من حُجُول الرُّتَب إلىٰ مَكان الغُرَر ، وأظهر لَوَامعَ السعادة من نِعَمِنا علىٰ مَنْ أضاء له الرَّشَدُ فرآه بعين البَصيرة قبْل البَصَر .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أرفَـعُ ما يقتنىٰ وأنفَـعُ ما يُدَّخر ، وأفضـلُ ما نجَتْ به الفِرقة الموحِّدة وهلكَتْ به الفِرق الأُخَر ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ البشَر ، وأرأفُ البَدْو والحَضَر ، والمبعوثُ إلىٰ الأُمم كافّةً لمـا قضاه الله تعالىٰ من سعادةِ من آمَنَ وشَقاوةِ مَنْ كفَر ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه المَيامِين الغُرَر ، صلاةً دائمـةَ الوِرْد والصَّدَر ، باقيةَ العيْن والأَثَر ، وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ من خصَّه بِرُّنا بالنظر الحسَن ، وشَمِله كرَمُنا من الرُّتَب بما يَهْجَر فى بلوغ مثله الوَسَن ، وآشتمل عليه معروفُنا بمـا يجعل يَراعَه فى مصالح الدولة القاهرة جميلَ العِبارة حسَنَ اللَّسَن ، مَنْ سَمَتْ به نفْسُه إلىٰ سعادة الآخرة فأتَتْه سعادةُ الدنيا تابعـه ، وسلَك فى مَرَاضى الدولة القـاهرةِ طريقَ الإخلاص فغـدَتْ لكلِّ خيرٍ حاويةً ولكُلِّ يُمْن جامعَه ، مع كفاءةٍ جاءتِ المناصبَ علىٰ قَدَر ، ومعرفةٍ ما لحَظتِ المَصالحَ بأقْربِ نَظَر ، إلا نَمَّت الأموالَ وبدَرَت البِـدَر ، وخِبرةٍ ما آعتُـبِرت فيهـا محاسنُ سَـيرتِه فى كل ما يباشرُه إلا صَغَّر خُبْرُها الخـبَرْ ، ونزاهةٍ سلكَتْ به فى كل

ما يليه أحسنَ المَسالك، وعِفَّةٍ رفعَتْه من الرتب الديوانيَّة إلىٰ مَفَارِقِها ولا رُتْبَةَ للتَّاج إلا ذلك .

ولمَّا كان فلان هو الذى ٱجتَنىٰ من إحسان الدولةِ القاهرةِ بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ، وفاز من عوارفِها العميمةِ بجميل المُخالَصة مازاد علىٰ المُنىٰ، وٱنتمىٰ من أدوات نفسه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفَّة وهما أنفَرُ ما يُدَّخر للرُّتَب الجليلة وأنفَسُ ما يُقْتَنىٰ، وعُنِى من أسباب ٱستحقاقِه المناصبَ بما ٱقْتَضىٰ إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعتَنىٰ .

فلذٰلك رُسِم أن يفوّض إليه نظرُ الدواوين المعمُورة : فليُباشِرْ ذٰلك محلِّيًا هذه الرتبةَ بعقُود تصَرُّفه الجميل، ومجلِّيا فى هذه الحَلْبة بسبق معرفتِه الذى لا يَحتاجُ إلىٰ دليل، ومبيِّنا من نتائج قلَمِه ما يُبَرْهِن علىٰ أنه موضِعُ الٱختيار، ومن كوامِن ٱطِّلاعه ما لا يَحتاجُ إلىٰ بُرهانٍ إلا إذا ٱحتاجَ إليه النَّهار؛ فلا يزالُ فرعُ يَراعِه فى روض المصالح مُثْمِرا، وليلُ نِقْسِه فى ليل الأعمال مُقْمِرا؛ وحُسن نظَرِه إلىٰ ماقرُب ونأىٰ من المصالح مُحْدِقا، ولسانُ قلمه لما دَقَّ من أمور الأقاليم محقِّقا؛ ورسمُ خطِّه لما يستقرّ فى الدواوين المعمُورةِ مُثْبِتا، ووَسْم تحريره لما يُجتنىٰ من غُروس المصالح مُنْبِتا؛ ولدَرّ أخلافِ الأعمالِ بحُسْن الٱطِّلاع محتَلِبا، ولوجُوه الأموال، بإنفاق التوجه إلىٰ تثميرها إن أقبلت مجتَلِيا وإن أعرضَتْ مختَلِبا؛ فإنَّ الأمور معادنُ يستثيرُها التصَرّفُ الجميل، ومنابتُ يُنَمِّيها النظر الجليّ والإتقانُ الجليل؛ ومِلاكُ كلِّ أمر تقوى الله تعالىٰ فليجعَلْها إمامَه، ويتخيَّلْها فى كلِّ حالٍ أمَامه؛ والله تعالىٰ يوفِّقه بمنه وكرمه ! .

قلت : ورُبَّما أضيف إلىٰ نظر الدواوين المعمُورةِ نظرُ الصُّحبة الشريفة الآتى ذكْرُها، وكُتِب بهما جميعا لشخص واحد .

وهـذه نسخة توقيع بهما جميعاً(١)، كُتِب بها لتاج الدِّين بن سـعيد الدولة علىٰ أَثَر إسلامه، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى، وهى :

الحمدُ لله الذى خصَّ مَنْ أخلصَ فى الطاعة من آلائنا بحُسْن النظر، وأجنىٰ من غَرَس فى قلبه أصلَ الإيمانِ من عَوارف أيَّامنا الزاهرة يانِعَ الثمر، ورفَع من ٱستضاء فى دولتنا القاهرة بأنوار الهُـدىٰ من مَجْهُول الرُّتب إلىٰ مكان الغُرَر، وأظهر لوامعَ السعادة من نِعَمِنا علىٰ من أضاء له الرَّشَد فرآه بعين البصيرة قبْل البَصر .

نحمَدُه علىٰ إحسانِه الذى غَمَر، وٱمتِنانه الذى بَهَر، وفضلِه الذى عَمَّ كلَّ من ظَهَر له الهُدىٰ فلم يُعارِض الحقَّ إذا ظهَر .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أرفَـعُ ما يقتَنىٰ وأنفَـع ما يُدَّخر، وأوضَحُ ما نجَتْ به الفِرقةُ الموحِّدة وهَلَكت به الفِرقُ الأُخَر، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ البشر، وأرأفُ البَدْو والحضَرْ، والمبعوثُ إلىٰ الأمم كافَّة لمـا قضاه الله من سَعادةِ من آمنَ وشَقاوةِ من كفر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الميامينِ الغُرَر، صلاةً دائمةَ الوِرْد والصدَر، باقيةَ العيْن والأثَر، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ من خصَّه بِرُّنا بالنظر الحسَن، وشمِله كَرَمُنا من الرُّتَب بمـا يُهْجَر فى بلوغ مثـلِه الوَسَن، وٱشتمل عليـه معرُوفُنا بمـا يجعل يَراعه فى مَصـالح الدولة القاهرةِ جميـلَ العبارة حَسَن اللَّسَن، مَن سمَتْ به نفْسـه إلىٰ سعادة الآخرة فأتتْه [سعادة] الدنيا تابِعه، وسلك فى مَراضِى الدولة القاهرةِ طريقَ الإخلاص فغدَتْ لكل خيْرٍ حاويةً ولكل يُمْن جامِعَه، مع كفاءةٍ جاءتِ المناصبَ علىٰ قدَر، ومعرفةٍ مالَحَظتِ المصالح بأقرَبِ نظرٍ إلا نَمَّت الأموالَ وبدَرتِ البِدَر، وخِبْرةٍ ما ٱعتُبِرت فيها

(١) هى عين سابقتها خلا أن فيها ضم الصحبة مع تغيير يسير، فتنبه .

محاسنُ سَيْرته فى مباشرةٍ إلا صَغَّر خُبْرُها الخبَر، ونزاهةٍ سلكَتْ به فى كل مايليه أحسَنَ المَسالِك، وعفّةٍ رفَعتْه من الرتب الديوانية إلىٰ غُرَرها ولا رُتْبةَ للتّاج إلا ذٰلك.

ولما كان فلان هو الذى ٱجتَنىٰ من إحسان الدولة القاهرة بالطاعة أفضَلَ الجَنىٰ، وفازَ من عَوارِفها العميمةِ بجميل المخالَصة مازادَ علىٰ المُنىٰ، وٱنتمىٰ من أدوات نفسه إلىٰ كمالِ المعرفةِ والعِفّة وهما أنفَرُ ما يُدّخَر للرتب الجليلةِ وأنفَسُ ما يُقتنىٰ، وعُنِى من أسباب ٱستحقاقِه المناصبَ والرتبَ بما ٱقتضى إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعْتَنىٰ - فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف أن يفوَّض إليه نظر الدواوين المعمورة ونَظَر الصُّحبة الشريفةِ.

فليباشِرْ ذٰلك محلّيًا هذه الرتبةَ بعقُود تصرُّفه الجميل، ومجلّيًا فى هذه الحَلْبة بسَبْق معرفته التى لاتحتاج إلىٰ دَليل، ومبيِّنا من نتائج قلمه مايُبرهِن علىٰ أنه موضِعُ الٱختيار، ومن كَوامِن ٱطّلاعه ما لايحتاج إلىٰ بُرْهان إلا إذا ٱحتاجَ إليه النّهار، فلا يزالُ فرعُ يراعه فى روض المصالح مُثمِرا، وليلُ نِقْسه فى ليل الأعمال مُقْمِرا، وحُسنُ نظَره إلىٰ ماقَرُب ونأىٰ من المصالح مُحْدِقا، ولسانُ قَلَمه لما دَقَّ وجلَّ من أمور الأقاليم محقِّقا، ورسمُ خطّه لما يستقِرُّ فى الدواوين المعمورة مُثْبِتا، ووَسْم تحريره لما يجتنىٰ من غُروس المَصالح مُنْبِتا، ولدَرِّ أخلافِ الأعمال، بحُسْن الٱطّلاع محتَلِبا، ولوجوه الأموال، بإنفاق التوجُّه إلىٰ تثميرها إن أقبلتْ مجتليًا وإن أعرضَتْ مُختلِبا، فإنَّ الأمور معادنُ يَسْتَثيرُها التصرفُ الجميل، ومنابِتُ يُنَمّيها النظرُ الجلِيّ والإتقانُ الجليل، ومِلاكُ كلِّ أمر تقوى الله تعالىٰ فلْيجعلْها إمامَه، ويتخيَّلْها فى كل وقتٍ أمامَه، والله تعالىٰ يوفِّقه بمنّه وكرمه! . والخطُّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه .

الوظيفة الرابعـــــة
(نظر الصُّحبة (١))

[وهــذه نسخة توقيع بنظر الصحبة] كُتِب به للشريف شهــاب الدين ناظر الصُّحْبة، من إنشاء الشهاب محمودٍ الحَلبىّ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل الشرَفَ حيثُ حلَّ ركابُنا مُصاحِبا، وأطلَع للفضل فى أُفُق خِدْمتِنا من أولياء دولتِنا شِهاباً ثاقبا، وعَدَق النظرَ فى صُحْبتنا بمَنْ لم يزَلْ لمصالحنا ملاحِظًا ولأوامرِنا مُراقِبا، وفوّض أمورَ مباشرةِ حالِ من ٱجتهد أو قصَّر فى خدمتنا إلىٰ مَنْ لم يزَلْ بنفسه فى واجبِ الطاعةِ مُنافسا وعلىٰ فرضِ المُوالاةِ مُحاسِبا .

نحمَــدُه حمدَ مَنْ أجملَ فى أوليائنــا نَظَرا، وخَصَّ بالنظر فى صُحْبتنا من ٱختُبِرتْ خدمتُــه فتساوَتْ فى الطاعة والمناصحةِ سَفَرا وحضَرا، وٱعتَمد فى ملاحظة مباشِرى مايمرّ عليه من ممالِكه علىٰ مَنْ لايُهْمِل له حقًّا ولا يُحْدِث له ضَرَرا .

ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لاتزال جيوشُنا لإعلاء مَنارِها مُجهَّزه، وسَراياناَ إلىٰ مَقاتِل جاحِديها البارزةِ مبرَّزه، ووُعودُ النصرِ علىٰ مَنْ ألحَدَ فيها لنــا معَجَّلةً وعلىٰ أيدينا منجَّزه، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أنهضَنا الله من جهاد أعداءِ دينه بمــا فَرَض، وأيقظَنا لرفع أقدارِ أهل بيتِه فلم يُقَصِّر بأحد منهم فى أيّامنا أملٌ ولا بَعُد عليه غَرَض، وخَصَّنا منهم بمَن تمسَّك بجوهره الأعْلىٰ فلم

(١) يظهر قياسا على ماسبق فى نظائره أن هنا ســقطا، هو « وموضوعها أن صاحبها يتحدّث مع الوزير فى كل مايتحدّث ويشاركه فى الكتابة فى كل مايكتب فيــه ويوقع فى كل مايكتب فيه الوزير تبعا له » . انظر صفحة ٢٩ ج ٤ من هذا المطبوع .

يتعرّضْ من هذا الأدْنىٰ إلىٰ عَرَض ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَن (يكادُ يُمْسِكُه عِرْفانَ راحته)، وإلَّا المؤْثِرُ طاعةَ الله ورسوله وأُولي الأمر علىٰ راحته ؛ صلاةً دائمـةَ الاتّصال، آمنـةً شمسُ خُلودها من الغُروب والزَّوال ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من اخترْنَاه لصُحْبتنا الشريفةِ علىٰ عِلْم، وأعدَدْناه لمهمَّاتنا الكريمةِ لمـا فيه من تسرُّع إدراك وتثبُّتٍ فى حُكْم ؛ وبسَطْنا له فيما عدَقْناه به من ذٰلك لسانًا ويَدا، وحفِظْنا به الأحوالَ من [وصول] مسترِقِ السَّمْع إليها ﴿فمَنْ يَستمِعِ الآنَ يَجِدْ له شِهابًا رَصَـدا﴾ وادَّخرْنا أقلامَه لمصالح كلِّ إقليم يمرّ ركابُنا الشريفُ عليه، وفوّضـنا مناقشةَ مباشِريه علىٰ ما أهملُوه من حقوق الله تعـالىٰ وحقُوق الرَّعايا إليـه ؛ وأقمناه لتصفُّح ذٰلك بنفْسه، وتلمُّح زيادةِ كلِّ يومٍ علىٰ أمْسه ؛ وانتزاعِ الحقِّ ممن مدّ يَدَه إلىٰ ظُلْم بكفِّ كفِّه عنه ورفْع يَده، وارتجاع الواجبِ ممَّن أقدم عليه بالباطل فى يومه واطِّرح المؤاخذةَ به فى غَده ؛ وغيرِ ذٰلك مما أحصاه الله ونَسُوه ، واعتمدُوا فيه علىٰ المصلحة فاجتنَوْا ثمرةَ ماغرَسُوه ـ مَنْ كان له فى المناصحـةِ قَدمُ صدقٍ عنـد ربِّه ، وفى خدمـة الدولةِ القاهرة قِدَمُ هجـرة تقتضِى مَزِيدَ قُرْبه ؛ فكان أبدا بمرأًى من عنايتنا ومَسْمَع ، ومن إحساننا بالمكانِ الذى ليس لأحدٍ من الأكفاءِ فى بلوغ غايته أملٌ ولا مَطْمَع ، وتفرّد باجتماع الدِّين والمنْصِب والأصالةِ والعِـلْم والكرم وهـذه خِلَال الشرف أجمَع .

ولـمَّـا كان فلان هو الذى اجْتنىٰ من إحسانِ الدولةِ القاهرة بالطاعة أفضلَ الجَنىٰ، وفازَ من عوارفها العميمة بجميل المخالَصةِ مازاد علىٰ المُنَىٰ ؛ وانتمىٰ من أدَوات نفسه ونَسَـبِه إلىٰ كمال المعرفةِ والعِفَّة وهمـا أنخـرُ ما يُدَّخَر للرُّتب الجليلة وأنفَسُ

ما يُقتنى ، وعُنِى من أسباب ٱستحقاقه المناصبَ والرتب بما ٱقتضى إحسانُ الدولة القاهرة أن يُحتفَل بتقديمه وأن يُعْتَنى . فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوّض إليه نظر الدواوين(١) المعمورة .

فليباشر ذلك محلّيًا هذه الرتبةَ بعقود تصرّفه الجميل ، ومجلّيًا فى هذه الحلبة بسَبْق معرفته التى لاتحتاجُ إلى دليل ، ومبيّنا من نتائج قلمه مايُبَرْهِن على أنه موضعُ الاختيار ، ومن كوامِن ٱطّلاعه مالا يحتاج إلى برهان إلا إذا ٱحتاجَ إليه النّهار ؛ فلا يزالُ فرعُ يَراعه فى روض المصالح مُثْمِرا ، وليل نِقْسه فى ليل الأعمال مُقْمِرا ؛ وحُسنُ نظره إلى ما قَرُب ونأى من المصالح مُحْدِقا ، ولسانُ قلَمِه لما دَقَّ وجلَّ من أمور الأقاليم محقّقا ؛ ورسمُ خطّه لما يستقرّ فى الدواوين المعمورة مثْبِتا ، ووسم تحريره لما يجتنى من غُروس المصالح مُنْبِتا ؛ ولدَرّ أخلاف الأعمال بحُسن الاطلاع محتلبا ، ولوجُوه الأموال بإنفاق التوجّه إلى تثميرها إن أقبلَتْ مجتليا وإن أعرضَتْ مختَلِبا ؛ فإنّ الأمور معادِنُ يَستثيرُها التصرُّفُ الجميل ، ومنابتُ يُنَمّيها النظرُ الجلىّ والاتقانُ الجليل ؛ ومِلاكُ كل أمرٍ تقوى الله تعالى فليجعلها إمامَه ، ويتخيَّلْها فى كل حال أمامَه ؛ والله تعالى يسدّده ويوفّقه بمنّه وكرمه ! ؛ إن شاء الله تعالى .

قلت : وربّما أُضيف إلى نظر الصُّحبة نظرُ الدواوين الشريفة ، وحينئذ فيَحتاج الكاتبُ أن يأتِى فى براعة الاستهلال بما يقتضِى الجمعَ بينهما ، ويوردَ من الوصايا ما يختصُّ بكل منهما . والكاتبُ البليغ يتصرّف فى ذلك على وَفْق ما يحدُث له من المعانى ويسنَحُ له من الألفاظ .

---

(١) الصواب نظر الصحبة .

الدرجـــــــة الثـانية

(من تواقيـع أرباب الوظائف الدِّيوانية بالحَضْرة بالديار المصرية ما يُكتَب في قطع الثلث بـ«المجلس السامىّ» بالياء، مفتتَحا بـ«الحمدُ لله» إن قُصِد تعظيمُ المكتوب له على ما هو الأكثرُ، أو بـ«أما بعدَ حمد الله» جَرْيا على الأصل لما يُكتَب فى قطع الثلث، على ماتقف عليه فى النُّسَخ)

وتشتمل على وظائف :

الوظيفـــــــة الاولى
(كتابة الدَّسْت)

والمراد دَسْت السلطنة . وقد تقدّم الكلامُ عليها فى مقدّمة الكِتَاب فى الكلام على ديوان الإنشاء، وتقدّم فى الكلام على ترتيب وظائف الديار المصرية أنَّ موضُوعَها أن يجلِس أصحابُها بدار العدل أيّامَ المواكب خَلْف كاتبِ السرّ، ويقرءُون القِصصَ على السلطان بعد قراءةِ كاتبِ السرّ، ويكتُبون عليها بما تقتضيه الحالُ، بعدَ إشارة السلطان بالكتابة؛ ثم يحمِلُ ما يكتُبون عليه من القِصَص إلى كاتب السرّ فيُعيِّنُها . وأنَّ هذه الوظيفة كانتْ من أجَلِّ الوظائف وأرفعِها قَدْرا، منحصرةً فى عددٍ قليل نحو الثلاثة فما حولَها؛ ثم وقع التساهُل فى أمرها، ودخَل فيها العددُ الكثير حتَّى جاوز عدَدُهم العشرين، وبقيت الرياسةُ فيهم لعَدَد مخصوصٍ منهم، وقَنِع الباقون بالاسم . وقد تقدّم ذكر طرّة توقيعه فى الكلام على التواقيع .

وهذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّسْت، وهى :

الحمدُ لله الذى فَضَّل الكِرامَ الكاتبين، وأحيا بفضائل الآخِرين الأوّلين الذاهبين، وأنزل فى القَصَص : ﴿لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمينَ﴾ .

نحمده وهو المحمودُ المُعين ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةَ قومٍ مخلصين ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله خاتَمُ النبيين ، ورسولُ ربِّ العالمين ، والشافعُ فى المُذْنبين من المؤمنين ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً باقيةً إلىٰ يوم الدِّين ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ العدْل الشريفَ دارٌ جُدْرانُها الأمرُ المُطاع ، وأبوابُها الخيرُ الذى لا يُضَاع ، وسَقْفُها الرحمةُ والاتِّضاع ، وصدْرُها الإحسانُ المديدُ الباع ، وصَحْنُها الأمنُ والسُّرور فلا يُخافُ أحدٌ فيه ولا يُرَاع ، وجلساؤُها الكاتبُون عارِضُو الرِّقاع ، هم مَعْدِن الصَّداره ، ومَوْطِن الكِتابة والكِناية والإشاره ، وأقلامُهم تأتى بحُسْن التشبيه والاستِعاره ، وتُطرِّز حواشِىَ الرِّقاع بوَشْىٍ بادِى الإناره ، ما اختِيرَ أحدُهم للجلوس فى دَسْته إلا وقد أرضَىٰ مَنِ اختاره ، وتميَّز بحُسن السَّمْت والوَفاء والوَقار والشَّاره .

ولما كان فلان هو الذى له فى السُّؤدَد أصلٌ عريق ، وفى الفضائل له قَلَمٌ مُطيق ، وفى البلاغة له لسانٌ مِنْطِيق ، وإذا دبَّج قرطاسَه فهو للروض شَقِيق ، ونباتُه الجوهرُ لا الآسُ والشَّقِيق ، وأصبح للجُلوس فى الدَّسْت الشريف أهلًا على التحقيق .

فلذٰلك رُسم أن يستقر ... ... فلْيحُلَّ هذا الدَّسْتَ الشريف مُبْهِجا ببيانه ، مُثْلِجا للصُّدور بعِرْفانه ، متبلِّجا بنُور يده ولسانه ، قارئا من قِصَص الناس وظُلاماتهم فى إيوانِه كلَّ شىْءٍ فى أَوانَه ، لا يكتُمُ ظُلامةً مكتوبةً فى رُقْعه ، بل يُعرِّف مَلِكه بها ويبلِّغُها سَمْعَه ، فإنه فى هذا المحلِّ أمينٌ والأمينُ محلُّ النُّصح والخيرِ والرِّفْعه ، وإذا وقَّع فهو مأمُور ، فلْيأْتِ بما يُبْهِج الصُّدُور ، ويَشْفِى غليلَ الشاكِى ، بلفظه الزاكِى ، والوصايا كثيرة لكن السليم لبعضِها الحاكى(١) ، وتقْوىٰ الله فهى تاجُها المجَوْهَر ،

(١) لعله لكن سُلَّم ببعضها الحاكى ، وهو تقوى الخ . تأمل .

وبدرُها المنوَّر، وكوكبُها الأزْهَر، والله تعالىٰ يمتِّعه بالفضل الذى لا يُحوَل ولا يتغيَّر، بمنِّه وكَرَمه! إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك أيضا، وهى :

الحمدُ لله الذى أَفَاض على الأولياءِ من فضْله، وأهْمىٰ عليهم من مَواهبه ما يقْصُر عنــه الغَمامُ فى وَبْله وطَلّه؛ ومنَح دَسْتَ المُلْك الشريف من الألفاظ المَجيده، والفضائل المُفيده.

نحمــده علىٰ نِعَمه التى أجزلَتْ إحسانَها، وأجملتِ آمتنانَهــا، و بزغَتْ مُزْهِرةً فقدّمَتْ من الدولة أعيانَهَا؛ ونشكُره علىٰ عَوارفه التى أَلْقى لأهل الثناء عِنانَهــا، ورَحُب لذَوِى البيوت صدْرُها وفُضَّ عُنوانُها.

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً تشهَد القلوبُ إيمــانَها ويدَّخِر القائلُ لها ليوم المَخاف أمانَهــا؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر الله به الشريعة المطهَّرة وأبانَها، وشرَّف [به] هذهالأمَّةَ ورفع علىٰجميع الأمم شانَها، وبعثه رحمــةً إلىٰ كافَّة الخلق فأقام بمُعْجِزاته دليلَ الهــداية و بُرهانَها، وأطفأ بنُور إرشاده شرَرَ الضَّلالة ونيرانَها؛ صلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهــم إلا من نَزَّه نفْسَــه النفيسةَ وصانَها، وسلَكَ فى خِدْمته وصُحْبته الطريقــةَ المُثْلىٰ فأحسنَ إسرارَ أموره وإعلانَهَا، صلاةً دائمةً باقيةً تُجمِّل بالأجور آقترانَهَا؛ وسلَّم تسليما كثيرا.

وبعــدُ، فانه لمــَّا كانتْ وظيفةُ توقيــع الدَّسْت الشريف من أجلِّ الوظائف وأسْــناها، وأنفَسِها وأعْلاها، وأجملِها وأبْهاها؛ القائمُ بهــا ســفيرُ الرعيَّة إلىٰ المَلِك

فى حاجتهم ، وتَرجُمانٌ مُعرِب عن شِكايتهم ، وكاشفٌ أحسنُ ناشر عن ظُلامتهم ؛ جالسٌ علىٰ بِساط الأُنْس بقُرْب الحضره ، منفِّذٌ نَهْىَ مليكه وأمْرَه ، مبلِّغ ذا الحاجة من إنعامه جُودَه وبِرَّه ـ تعين أن يُندَب رئيسٌ وٱبنُ رئيس ، وجوْهرٌ بحرٍ نَفِيس ؛ ذو أصْل فى السُّؤدد عَرِيق ، ولسانٍ فى الفضائل طَليق ، وقَلَمٍ حَلَّى الطُّروس بما يفُوق زَهَر الرياض وهو لهـا شَقِيق ، وفاضلٌ لا يُقاس بغيره لأنه الفاضلُ على التحقيق ؛ وكان المقرُّ العـالى الفلانىّ هو المشارَ إليه بهـذه الأَوْلويَّه ، والمرادَ من سطور هـذه المحـامد اللُّؤلُؤيَّة . فلذٰلك رُسِم بالأمر العالى أن يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة توقيع الدَّسْت الشريف عِوضًا عن فلان بحُكْم وَفَاته .

فلْيباشِرْ ذٰلك مباشرةً تُشْـكَر مدى الزمان ، وتُحمَـد فى كلِّ وقتٍ وأَوَان ؛ ولْيدَبِّج المَهارِقَ بوَشْى يفُوق قلائدَ العِقْيان ، وليَمْـلَأْ بالأجُور لنـا صُحُفا بمـا يوحيه عنا من خيراتٍ حِسان . ونحن فلا نُطيل له الوصَايَا ، ولا نُحَلِّيه بها فهى له سَجَايا ؛ مع ما أدّبه به علْمُـه الجَمّ ، وعمَلُه الذى ما ٱنصرفَ إلىٰ شىء إلا تَمّ ؛ ويجمعُها تقوىٰ الله تعالىٰ وهى عَقْد ضميره ، ومِلاك أُمُوره ؛ ومابَرِح هو وبيتُه الكريم مصابيحَ أُفُقِها ومفاتيحَ مُغْلَقِها ، ولهم جُدُد ملابِسها وللناس فواضلُ مُخْلَقِها ؛ والله تعالىٰ يزيدُه من إحسانه الجزيل ، ونِعَمِه التى يرتَدِى منها كلَّ رداءٍ جميل ، ويمتِّعه بإمارته التى ما شُكِر بها إلا قال أدبًا : حسْبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ؛ والأعتمادُ فى مَسْعاه ، على الخط الكريم أعْلاه .

الوظيفـــة الثـا نيـــة

(نظر الخزانة الكُبرىٰ)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ وظائف الديار المصرية أنَّ هذه الوظيفةَ كانتْ كبيرةَ الموضِع من حيثُ إنها مستوْدَع أموال المملكة ، إلىٰ أن حدثَتْ عليها خزانةُ

الخاصّ فانحطّت رتبتُها حينئذ، وسمِّيت الخزانةُ الكُبرىٰ باسمٍ هو أعلىٰ منها ، وأنه لم يبقَ فيها سوىٰ خِلَع تُخْلَع وتُصرف أوّلًا فأوّلا . وقد تقدّم ما يكتب فى طُرة توقيع ناظرها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الخزانة :

الحمدُ لله الذى جعل الخزائنَ لذخائرنا كُهُوفا ، وملابِس إقبالِنا شُنوفا ، ومَواهِبَنا تُجْزل عطاءً ومعْروفا ، و إقبالَنا علىٰ مُحسِن التدبير ومجمِل التأثير عَطُوفا ، وأيادِيَنا فى إسكان جَنّتِها قُطُوفا .

نحمَدُه حمدًا مألوفا ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً أوضحَتْ معرُوفا، ونشهد أنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى أزال مَخُوفا، وأقام الصلاةَ والجهادَ صُفُوفا، وشهَر علىٰ العِدا عند تأييد الهُدَىٰ سُيُوفا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما سدَل الليلُ سُجُوفا، وسلّم تسليما .

وبعد، فإنّ المُلْك الشريف له تُحَف مَصُونه، وذخائرُ مكْنونه، وأصنافٌ حِسانٌ فى خزائننا مخزُونَه ، وجواهِرُ عالية القِيمة ثمينة [لا يقوم عليها إلا من] لا يمُدُّ عينَ عَفافه إلىٰ المال وإن كثُرتْ آلافُه ، ووَلَج لُجَّة هذه الذخائر ولم تَلُمّ بالبَلَل أطرافُه ، وهو فلان : العريقُ فى انتسابِه ، الوثيقُ انتماؤه إلىٰ فضل اللهِ وجَنابِه ، النقِيّ ثوبُ عِرْضه ، التّقِيّ بتمسُّكه بسُنّته وفَرْضه ، الوفِيّ نظره بغضِّه ، المستمسك بجميع الخيْر دُون بعضه ، من بيتِ السيادة ومَنْ هو من بَيتِ السِّيادة فالسُّؤدَد نجمُ سَمائه وطَودُ أرضه . فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف أن يستقرّ . ...

فلْيباشِر هذه الوظيفة بعمَلٍ ونيّه ، متسلّما ذخائر هذه الخزانة العليّه ، وأمورَها وأحوالَها ، وتفصيلَها وإجمالَها ، وحمُولَها وأحمالَها ، وحُلَلَها المرقُومه ، وذَخائرَها

المعْلومه، وجواهِرَها المنظُومه ، وأكياسَها المختُومه، وصناديقَها المرْكُومه ؛ ما عَنْ علمه فيها شيءٌ خاف ، وصونُه لها كاف، وأمْرُ الله بينَ النُّونِ والكاف .

ولْيَعْلَمْ أن خزائنَنا تُصَبُّ فيها سحائبُ التُّحَف والأموال والأصناف، من سائر الممالك والمُدُن والثُّغور والأطْراف ؛ ومنها يُخْرج بجهاز مواهِبِنا وإنعامنا للأولياء الأشْراف، وإنما هى لمصالح المسلمين فى الجَمْع والإئْتِلاف ، وتَقْوية أهلِ الطاعة علىٰ أهل الإخْتِلاف، فلْيَضْبِطْ ما تُطلِقُه وإن كانتِ الأقلامُ لا تستطيع ذٰلك لكَثْرة الإسْعاف؛ ولْتكُنِ التشاريفُ المثمنة الكامله، حاصلةً بمَناطقِها المجوْهَرَة الهائله، وطُرُزِها الطائلَهْ، وتَعابيها الفاضِلَهْ ، حتّى إذا أنعَمْنا منها علىٰ أحدٍ بشيءٍ يأْتى بحُمُوله وقد حَمِد فاعِلَه . والوَصايَا كثيرةٌ وتقْوى الله نِظام عِقْدها ، وغَمَام رِفْدها ، وزِمام مَجْدِها، وتَمامُ سَعْدها؛ فلْيكُنْ متلفِّعًا ببُرْدِها، متضوِّعا بنَدِّها ، وهو غنىٌّ عن الوصايا ومَدِّها، والله تعالىٰ يؤيِّد حركاتِه فى قصْدِها، والخطُّ الشريفُ أعلاه، حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه وصية لناظر الخزانة ، أوردها فى "التعريف" :

ولْيَملأْ بنظَره صُدُور الخزائن، وليجمَعْ فيها أشتاتَ المحاسن، وليُعِدَّ فيها كلَّ ما يُدَّخر للإنفاق، ويحتَفِظْ به للإطْلاق، ويحصِّلْ ما يُضاهِى البحرَ بالتفريع والتأْصيل، والجُمَل والتَّفاصيل ، وما لا يُوزَن إلا بالقناطير، ولا يُحْصِى مَنَّه مَلْءُ الأساطير ؛ وما يُهيَّأُ من التشاريف الشريفة التى تُباهِى أشعَّةَ الشُّموس بلَمْعها، وتُحاسِن وشائِعَ الروض بخِلَعها، وما فيها من مُخَلَّقات ألْوانٍ لا تُماثَل بتصوير، ولا يظُنُّها الأولياءُ إلا الجنةَ ولِباسُهم فيها حَرير، وما تحتَوِى عليه من عَتَّابىٍّ وأطلس، ومُشَرْبَش ومُقَنْدس ؛ وكلِّ طِراز مُذْهب وباهى، وما هو من ذهَب أوْله يُضَاهِى ؛ وكُلّ

ما يتشرّف به صاحبُ سيف وقلم ، ويُعطىٰ إنعاما أو عند أوّل آستخدامٍ فى خِدَم ، وماهو مع هذا من أنواع المستعْمَلات ، والنواقص والمُكَمّلات ، ومايُحمل من دار الطِّراز ، ويحمد ممـا يأتِى من المُبتاع من بَزٍّ وبزاز ، وما هو مُرْصَدٌ للخزانة العالية من الجهات ، التى يحمَلُ إليها متحصِّلها : لينفق فى أثمانِ المَبيعات ، وما يُستعمل ، وما يُعَلَّم منه بالطُّرْز ويُعْمَل ، وبقية ما يُدَّخر فى حواصلها من مال بيت المـال الذى يُحمَـل ، وذٰلك كلُّه فهو الناظرُ عليه ، والمناظِرُ عنه ممـا خرج من عِنده ووصل إليه ، والمحاجِجُ عنه بالمراسيم التى تُشَك للحِفْظ وتُنْزَل لديه ، فلْيراعِ ذٰلك جميعَه حقَّ المراعاة ، وليحرّرْ قدر ما يُنفَق من الأثمـان وقِيمةِ المَبيعات ، وليحترِز فيما يُزَكِّى بعضُه بعضا من شهادة الرسائل المكتتبة إليه بالحُمول وما يُكتَب بها من الرَّجعَات ، ولْيُعِر المعامَلين من نظره مالا يجِدُون معه سبيلا ، ولا يقدِرُون معه علىٰ أن يأخذُوا فوقَ قَدْر آستحقاقِهم كثيرا ولا قليلا ، وليُقدِّم تحصيلَ كل شيءٍ قبل الآحتياج إليه ويَدَعْه لوقته ، ولا يمثل لديه إلا سرعة الطلب الذى متىٰ تأخَّر أُخِّر لوقْتِه(؟) ، والأمانةَ الأمانَه ، والعَفاف العفافَ فمـا كان منهما واحدٌ رداءَ آمرِئٍ إلَّا زانَه ، ولولاهما لمـا قال له الملك إنَّك اليوْمَ لَدَيْنا مكين أمين وسَلَّم إليه الخِزانَهْ .

الوظيفـــة الثالثـــة

(نظر خزانةِ الخـاصّ)

وهى الخِزانة التى آسـتُحدِثَتْ فى الدولة النـاصرية «محمـد بن قلاوون» عنـد آستِحْداث وظيفةِ « نَظَر الخـاصّ » وقد آنتَقَل ما كان يحمل إلى الخِزانة الكُبْرىٰ ويُصْرف منها إلىٰ هذه الخِزانة ، سوى الخِلَع ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى الكلام علىٰ توقيع ناظر الخزانة الكُبْرىٰ .

وهـذه نسخة توقيع بنظر خزانة الخاص ، كُتِب به للقاضى شرف الدين محمد ٱبن علاء الدين الجَوْجَرِىّ(١) ، فى مستَهَلِّ شهر رجب الفَرْد ، سنةَ تِسع وثلاثين وسَبْعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى زاد بنظرِنا الشريفِ شَرفَ مَنْ لَمحَه من أوليائنا [و] لَحَظَه ، وأفاد المستأنَفَ من بِرِّنا مَنْ عَهِدْنا له الفِطرةَ السليمةَ وتيقَّنَّا منه الفِكْرة واليقَظَه . وأعاد للخَلَف الكريم ، من المشايخ ما كان للسَّلَف القديم الصالح من التقديم ، الذى شَمِلهم بالتكريم ، وجعلَهم علىٰ خزائنِ جُودِنا العمِيم : لأنهم العلماءُ الحفَظَه . وجاد بالطَّرَف من خاصِّ إنعامنا العامِّ لِمَنْ لقلمه عند الإِدْناء من سَرِير المُلْك إنجازُ عِدَة ولِلسانه عند ٱرتقاء مِنْبر النُّسْك إبرازُ عِظَه .

نحمَدُه علىٰ أن أجزَلَ لمن عَوّل علىٰ شامِلِ كَرَمِنا جزاءَه وعِوضَه ، ونشكُره علىٰ أن تطوّل بنَوافِلِ نِعَمِنا لمن قام بعدَ أبيه بلوازم خدْمتِنا المفتَرضَه ، وعكف أعمالنا علىٰ بيتٍ مبارَكٍ مامنهم إلا من شُمِل من إحساننا بالمَنْح لما بذَلَ لسلطاننا من النُّصْح ومَحَضَه .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يُودَع مَصُونُها فى الأرائك المتعلِّية ويَقطَع يقينُها الشكوكَ المعتَرِضه ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسوله الذى عظُمتْ عطايا بَذْله ، فالبحار المرتفِعةُ عنها منخَفِضه ، وكرُمتْ سجَايا فضله ، فليست بمنتقِلة وأُبْرِمت قضايا عدله ، فليست بمنتَقِضه ، وعَمَّتْ البرايا يَدُه البيضاءُ التى هى بالأرزاقِ فى الآفاقِ مُنبسِطةٌ وليسَتْ عن الإنفاق خشيةَ الإملاقِ منقبِضَه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا من أقرضَ الله قَرْضا حسناً فضَاعفَ له ما أقرضَه ، صلاةً تُدْنِى لقائلها فى الأُولىٰ من النِّعمة والأمانِ أملَه وتُؤْتِيه فى الأُخْرىٰ من الرحمة والرضوان غَرَضَه ، وسلم تسليما كثيرا .

---

(١) نسبة الى «جوجر» بفتح الجيمين و راء بليدة بالقرب من دمياط انظر ياقوت ج ٢ .

وبعــد، فإن أوْلىٰ مَنْ رُفع بإكرامنا إلىٰ رُتْبة عَلائه، وٱنتَفَع من مقامنا الشريف باختصاص خِدْمته وإخلاص وَلائه - مَنْ شفَع مزاياه بجَمْع أشتات العُلوم فى أبكاره وآنائه، وٱستُودِع ذَخائرَ مُلْكنا المصونةَ فكان حفيظًا عليما عند ٱقترابه منّا وإدنائه، وصَدَع القلوب بإبْداع وَعْظه وإبْدائه، وٱتبعَ سبيلَ والده القويم، فى الشّدّة فى الحق والتّصميم، وسلك طريقته التى هــداه الله إليها بتوفيقه فأدْرك غايتَه فى ٱبتــدائه، وقنِــع بمــا آتاه اللهُ تعالىٰ فآثرتْ مكارمُنا رِفعةَ محلّه وتَوْسعةَ حِبائه، وبَرَع فى إتقانِ الفضائلِ التى آذنَتْ باصطفائه وٱجتبائه، ووقَع عليه ٱختيارُنا الذى نستخير اللهَ تعالىٰ له فى إبْرام كلّ أمرٍ وإمضائه، وأجمعَ عليه رأيُنا الذى كم أصابَ الصوابَ فى تعيين العُلَمــاء الأنْجاب فنَصَّ عليه الٱستحقاقُ بإيجابِ الترجيح وٱقتضائه .

وكان المجلس السامى الشّرَفىّ هــو الذى قدّمْناه بعد أبيه لشهادة خَزائننا الشريفة فشاهَدْنا من حُسْن سَيْره ماأبْهج، ونظَمْناه فى سِلك أولياء المُلْك فسَلك من الخيْر أقومَ مَنْهج، ثم أردْنا الآنَ أنّ هلالَه يَنتقل إلىٰ رُتْبة الكمال لَمّا تدرّبَ وتدرّج، وأعَدْنا له تامَّ الإقبال حيثُ شَرفُ دولتِنا الأعلىٰ - زاد الله تعالىٰ تأييدَه - بذكره لدينا وبشُكْره عندنا يُلْهَج - فٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أنّ هــذا النظرَ الجميلَ عنه لا يُخْرَج، وهذا الوِقْرَ الجليل لا يُعــدَل به عن فرعٍ مُنْجِب لأصلٍ طيِّب أثْمــرَ الوَلاءَ والدُّعاءَ لأيّامنا الشريفة وأنْتَج .

فلذٰلك رُسم ... ... لا زالتِ الصدُور بصُدُور أحكامه تَثْلَج، والأمورُ بمرُور إنعامه تفْضُل علىٰ الحقّ الأبْلج - أن يستقرّ ... ... فليُنْطِق لسانَ كَلِمــه بالإخلاص فى حمــد الخاصّ والعامّ من هــذا الإكرام الذى بمَطارفه تَسَرْبل وبعَوارفه تتوّج، وليُطلِق سنانَ قلَمه فى تبييض المَصاحف بذكر إنعام المَقام الذى هو كالبَحر ويُفْصِح

عن حَمْده فهو بحمد الله لا يتلجْلَج ؛ وليُحقِّق ببَيان حُكْمه ضبطَ الأصل والخَصْم والواصِلِ والحاصِلِ والمُحضَر والمُخْرَج ، ولْيُنفِق فى أوليائنا من عَوائد صِلاتِ نَعْمائنا التى تَقْبِضُها أيدى ملوك المَدائن ببَسْطٍ ومن بَعْضِها صُدُور الخزائن تحْرَج ؛ ولْيسْلُك سُنَن أبيه التى بها يستظْهِر ويفتخِر ويستدِلُّ ويحتجّ ، ويَستمْسِك بسببه الأقْوىٰ من الدِّيانة التى بابُها من النجاة فى الدارين غير مُرْتَج ؛ ونترك له تفصيلَ الوصايا لأنه قرينُ كفيلٍ مُلْكنا القوىّ الأمين ذِى الإرشاد والسَّداد فمع مرافقَتِه فى الإصدار والإيراد والتَّكرار والتَّعداد لم يَحتَجْ ، والله تعالىٰ يجعل الطُّروس بذِكْر تقديمه تحبَّر وتُدبَّج ، والدروس تنْشَر وعلومه تَعطَّرُ وتتأرَّج ؛ بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الرابعة

(نظر البيوت والحاشية)

وقد تقدّمَ أنَّ موضُوعَها التحدّث فى كل ما يتحدّث فيه أستاد الدار، وتقدّم الكلامُ علىٰ ما يُكتَب فى طرّة تقليدِ ناظرها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر البيُوت والحاشيةِ :

الحمدُ لله الذى عَمَّر البيوتَ بنَوَاله ، وكَثَّر فيها أصنافَ النِّعم بإفْضاله ، وجعلَ فيها الخَيرَ يتضاعفُ مع كلِّ يوم بتَجدُّدِه ومع كلِّ شهرٍ بإقْباله .

نحمَده علىٰ مَديد ظِلاله ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ صادق فى مَقَاله ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولهُ الذى رَحِم الله العالَمِين بإرْساله ، وسقىٰ الجيْشَ من كَفِّه بنَبْع زُلاله ؛ وأَوَىٰ إلىٰ المدينة دار هجرتِه وانتقالِه ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الناصِرين لهذا الدين فى كل حاله ، وسلَّم تسليما .

وبعد ، فإنَّ طراز المُلْك الشريف البيوتُ الكريمة : فمنها يتفجّر ينْبُوع الرِّزق الجارى ، ومنها يُضِيء سَقْط الزَّنْد الوارى ؛ ومنها تُبْسَط الخِوَانات ، وتُمَدّ الأسْمِطة فى المهِمّات ؛ ومنها يقومُ للسعد نُصْبات وأىّ نُصْبات[1] ، ومنها تُقَسّم ألوانُ الطيِّبات علىٰ مُقْتَرَح الشهوات ؛ وعمادُ أمْرِها علىٰ ناظر يقُوم بتأصيلها وتفْريعها ، وتجنيسها وتنويعها ؛ وتكثير حاصلِها ، وٱستِدْعاءِ واصِلِها ؛ وجمْع كلِّ مافيه مرْغُوب ، وٱدّخار كلِّ ماهو محْبوب ؛ وتأليف القلوبِ علىٰ شكره وجُلُّ مافيها عملُ القُلُوب .

ولمَّا كان فلان هو الرشيدَ فى فِعله ، المأمونَ فى فضْله ؛ الأمينَ فى عَقْده وحَلِّه ، المسدَّدَ فى الحال كلِّه ، المُعطِىَ المباشرةِ حقَّها علىٰ ما ينبغى فى الشهر من مستَهَلِّه .

فلذٰلك رُسم بالأمر الشريف أن يستقر ... ... فليباشر هذه الوظيفةَ الكريمة مستجْلِبا المَنَافع ، مشنِّفا بحُسْن سِيرته المسامِع ، طالعًا من العَفَاف فى أبهىٰ المَطَالِع ؛ مستَدْعِيًا ما جرتِ العادةُ بٱستِدعائه من أصناف المَتْجَر[2] السعيد من أصنافٍ متعدِّدة ، وأنواعٍ منَضَّدَه . وليُزِحْ أعْذار المصالح السعيدةِ من كلِّ صِنْف علىٰ حِدَه ، وليستجْلِبْ خواطر المُعامَلين بوفائهم وإنجازهم كلَّ عِدَه ؛ والرواتبَ اليوميّةَ ليَصْرِفْها لمستِحقِّها ، والبُيوتات فليسدّ خَلَلَها حتَّى لا يظهر نقصٌ فيها ، ومرتَّبات الأدْر[3] الشريفة فلتكُنْ نُصْبَ عينيه علىٰ مايُرضِيها ؛ وما ٱخترْناه لهذه الوظيفة إلا أنَّه أنسبُ من يليها ، والوصايا كثيرةٌ وتقوىٰ الله فلتكُنْ أطيبَ ثمراتٍ يجتَنِيها ، وأحسَنَ منِحاتٍ يجتَلِيها ، وأزينَ زينةٍ يحْتَليها ، وهو غنىٌّ عما تُشافِهُه [به] الأقلام منْ فِيها ، والله تعالىٰ يَصُون هِمَمَه ويُعْليها ؛ بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى القاموس النصبة بالضم السارية ولعله المراد .
(٢) لعل هذا اللفظ زائد من قلم الناسخ . (٣) جمع دار على القلب .

وهذه نسخةُ توقيع بنَظَر البيوت :

الحمــدُ لله الذى جدَّد لأَوْليائنا مَلابِسَ السُّعود، وشَــيَّد لهم مَبانِىَ العِزِّ وضاعَفَ لِقَدْرهم الترَقِّىَ والصُّعُود، ووالَىٰ إلىٰ أوليائِهِم سَحائِبَ الفضل المستهِلَّةَ بالكَرَم والجُود.(١)

نحمده علىٰ نِعَمِه الضافية البُرُود، ومِنَنه الصافيةِ الوُرُود؛ ونشهَدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُرْغِمُ بهــا أنْفَ الجَحُود، ونشهد أنَّ محمدا عبــدُه ورسوله صاحبُ الحوضِ المَوْرُود واللِّواء المعقُود؛ صــلَّى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين جادَ كُلٌّ منهم بمــالهِ ونَفْسه فى رضــاه والجُودُ بٱلنَّفِيسَيْنِ أقْصىٰ غايَةِ الجودُ؛ صلاةً دائمةَ الإقامة فى التهائِمِ والنُّجُود، مستمِرَّةَ الإدامةِ ماتعاقب السَّحابُ روْضًا بجود؛ وسلَّم تسليما كثيرا

وبعــدُ، فإن أوْلىٰ من غدَتِ البيوتُ آهلةً بوُفُود نَظَره، عامِرةً بسَــدادِه وجميلِ فِكْرِه، مشيَّدةً بمــا يُبْديه من أوْضاح التقرير وغُرَره ــ مَن سَمَــا هِمَّةً وحَسُن سَمْتا، وسلكَ فى الأمانة طريقًا لا عِوَج فيها ولا أَمْتَا؛ وحَلَّ فى الرُّتب فحَلَّاها، وتَنقَّل فيها فمــا قالتْ له إيهِ إلا وقال الذى فارَقَها آهَا؛ وكان فلان هو الذى ٱستحَقَّ بكفايَته حُسنَ التنقُّل، وٱستوجبَ الصِّلَةَ والعائدَ لمــا فيه من جميل التأَتِّى والتوصُّل ـ ٱقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن نَنْقُله إلىٰ رُتَب السعاده، وأن نَخُصَّه كلَّ حينٍ من نِعَمِنا بالحُسنىٰ وزِيادَه. فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن يستقرّ ...

فلْيضْبِط أُصُولَها وفُروعَها، ومُفْرَدَها ومجموعَها، وليُؤْنِس بحياطةِ ٱجتهاده رُبُوعَها؛ وليَكْفُلْها بأمانةٍ تضُمُّ أطرافَها، ونزاهةٍ تُحَلِّى أعطافَها، وكتابةٍ تحصُر جليلَها ودقيقَها،

(١) لعل الصواب ووالى إليهم سحائب . تأمل .

ونَباهةٍ تُوفِّى شُروطَها وحُقوقَها ، وليحرِّرْ واردَها ومصْروفَها ، ليغدُوَ مشكورَ الهِمَم موصُوفَها ، وليلاحِظْ جرائدَ حِسابها ، ويحفَظْ من الزيغ قَلَمَ كُتّابها ، حتّى يَنْمِىَ تصرُّفه فيها علىٰ الأوائِل ، ويُشْكَرَ تعرُّفه وتعطُّفه علىٰ كل عامِل ومُعامل ، والله تعالىٰ يبلِّغه من الخير ما هو آمِل ، بمنّه وكرمه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الخامسة

(نظرُ خزائنِ السِّلاح)

وقد تقدّم أنَّ موضوعَها التحدُّث فيما يستعمَل ويُبْتاع من أنواع السِّلاح الذى يحمل للزَّرَدْخاناه السلطانية . وقد جَرتِ العادة أن يحمَلَ ما يتحصَّل من ذٰلك فى كل سنةٍ إلىٰ الزَّرَدْخاناه مرّةً واحدة . وقد تقدّم ما يُكتب فى طرة توقيع ناظِرِها .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر خزائن السلاح من إنشاء المَوْلى «شمس الدين بن القَيْسَرانِىّ» كُتب به «لفخر الدين» أخى جمالِ الدين ناظر الخاصّ ، وهى :

أما بعدَ حمد الله تعالىٰ الذى ضاعفَ فخرَ المناصب ، بمتولِّيها ، ورَفَع قدرَ المراتب ، بمن يُكَبِّرها بقدْره العلى ويُعْليها ، وأمدَّ المَقانِب(١) ، بنظر ذى المَناقب الذى يُزَيِّن بمرهَفِ حَزْمه أسلحتَهم ويُحلِّيها ، ويُمضِى بماضى عَزْمه كلَّ فِرِنْدٍ فريدٍ ليُسَعِّر نارَ صليله بنظره السعيد ويجلِّيها ؛ جاعلِ أيّامنا الشريفةِ تُقدِّم لخِدَمها كلَّ سَرِىّ تسرى به هِمَمه إلىٰ العلياء ، وتَنتخِبُ لحُسن نظرها من يعْلُو بكَرَم الذاتِ وجَمال الإخاء ، وتُولِّى من الأولياء من يُعِدّ للأعداء خزائنَ سلاح تُبِيدهم بها جيوشُنا المؤيَّدةُ فى فَيافِى البَيْداء ، إذا دارَتْ رحىٰ الحرب الزَّبُونِ وثارتْ وَغىٰ الغارة الشَّعْواء . والشهادةِ له بالوحْدانيَّة

---

(١) جمع مقنب "كمنبر" وهم جماعة الخيل والفرسان .

التى اتّسق بدرُها، فى سماء الإخلاص، وأشرق فجرُها، بضياء القُرْب والاختصاص، وسما فخرُها، بجلال الجمال فأصبح بحمد الله آخذًا فى المَزيد آمنًا من الانتقاص، وعلا ذكرُها، بما دَرَّعَنا به من دُروع التوحيد وأسبغ علينا منه كلَّ سابغةٍ دِلَاص. والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى خصَّه الله بالتكريم والتعظيم، وختم به الرسُل الكرام بما منَحه من الاصطفاء والتقديم، وأوحىٰ إليه فى الكتاب الحكيم: ﴿أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾. وعلىٰ آله وصَحْبه الذين هم أشدَّاءُ علىٰ الكُفَّار رُحَماءُ بينهم، وقرَّب قُرْبهم لديْه صلى الله عليه وأذهَبَ بيْنَهم — فإنَّ من شِيَم أيَّامنا الشريفة أن تُبلِّغ أولياءَها مَراما، وترعىٰ لأصفيائها ذِماما، وتصطفيَ لولاية الرُّتَب من أضحىٰ ثغْرُ وَلائه بَسَّاما، وتُجرِّدَ لحسن النظر من يُجرِّد بهَمه حُسَاما حَسَّاما؛ لا سِيَّما من اقتفىٰ سَنَن أخيه — أجلَّه الله — فيما يأتى ويذَر، واهتدىٰ بهَدْيه فى كلِّ وِرْد وصَدَر، وحذا حَذْوه السديدَ الأثَر، السعيدَ النظر، واتَّبع رُشْدَه الساطعَ البَلَج اللامعَ الغُرَر، وسار سيْرَه الذى تتأرَّجُ به أرجاءُ الممالك فحيثُ سارَ سَرّ؛ إذ هو جمالُ الجُود، جلَال الوجُود، مُقيل عِثار الملهُوف والمجهُود، موئِلُ التَّهائم والنُّجُود، مستجْلب الدعاء لنا من الطائفين والعاكفين والرُّكَّع السُّجود؛ ذُو المآثر التى ذِكْرُها أعطَرُ من الروض المجُود المَوْجُود، والمناقب التى يُساوى فيها الكواكبَ ويسامتُها فى السُّعود والصُّعُود.

ولما كان المجلسُ العالى الفخْرىّ قد أصبح نَجْرُه بأخُوّته ناميا، وقدْرُه بأبُوّته ساميا؛ وأصبحتْ مَفاخِره به خالدَه، وجمع مزَايا وسَجايا جَمعتْ له طارفَ السَّعد وتالِدَه — اقتضىٰ رأينا الشريف أن نُشدِّدَ له بأخيه[(١)] أزْرا، ونُجدِّدَ له فى إصلاح السلاح نظَرا؛ ليكون لأخيه — أعزه الله تعالىٰ — النظرُ علىٰ الخاصّ والعام، وبيده مقاليدُ خِزانتِنا التى يشْمَل منها البرايا بصُنوف الإنعام؛ وتدبيرُ خواصِّنا الشريفة وجُيوشنا

(١) لعله «أن نشدّد به لأخيه».

المؤيَّده، وله النظرُ علىٰ اعمال لَبُوس، تقي من الجيوش البُوس : البَيْض [ذَات] القَوانِس ، واليَلَب المُدار والسُّمْرِ المَدَاعِسِ، والبِيض المُهَنَّده .

فلذٰلك رُسِم ... ... لا زال يجمع لأوليائه علىٰ آلائه شَمْلا، ويرفَع أقدارَ أهلِ الكَرَم باستقرار النِّعَم إذْ كانُوا لها أهْلا وبها أَوْلىٰ - أن يستقِرَّ فلان فى نظر خزائن السِّلاح المنصورة علىٰ عادةِ من تقدَّمه وقاعدته، وبمعلومه الشاهد به الدِّيوانُ المعمورُ لهذه المآثر التى بثَّها القَلَم، والمَفاخِر التى آشتهرت كالنار على العَلَم؛ فلْيكْشِفْ ما بهذه الخزائن من عُدّة الحرب ، والآلات المُعَدّة فى الهيجاء للطَّعْن والضَّرْب؛ ويشمِّرْ فى تكثيرها عن ساعد آجتهادِه ، ويعزِّزْ موادَّ الإمداد بها بحُسن نظره ويُمْن آعتمادِه ؛ ويستعْمِلْ برَسْم جهاد الأعداء كلَّ نصلٍ صقيل، وصَمْصامٍ له فى الهامِ صَليل؛ وصفيحةٍ بيضاءَ تبيَضُّ بها بين أيدينا الصَّحيفه، ولبوسٍ تُرهِبُ عدوّ الله وتُضاعفُ تخويفَه؛ وزاعِبيٍّ يُرْعب، وسَمْهَرِيٍّ يُزهِق بلسان سِنانه النُّفوسَ ويُذْهِب؛ وخِرْصانٍ تكلِّم الأبطالَ بأَسَلِ ألسِنَتها فى الحروب ، وقواصِلَ لها فى سماء العَجاج شُروق وفى تَحَلِّىءِ[1] الكفّار غروب؛ وبَدنٍ يقُدّ الأبدان، ولأمةٍ لم تُبارَ فى تحصينها وتخييرها ولم تُدان؛ وفَضْفاضةٍ علىٰ جُنود الإسلام تُفاض، وسابغةٍ تُسْبَغ علىٰ كل راجلٍ من أهل الإيمان ليَقْضِيَ من أهل الشرك ما هو قاض .

وليحفَظْ ما يُنْفَق علىٰ هذا العَدَد من الضَّياع ، ويأتِ بما تأتى به الصِّياع علىٰ أحسن الوجُوه وأجمل الأوضاع؛ وليَضْبِطْ ما يُصرفُ عليها من الأموال، ويعتمِدْ فى نظرها ما تُحمَد عاقبةُ أمره فى سائر الأحْوال؛ ويتيمَّنْ فى سائر أفعاله بميامن كماله ، ويسترشِدْ بمَراشِده فى أموره باليُمْن والرشْد من خِلال جَماله؛ ويسْلُك بحُسْن نظره لهذه الخزائن ما يُنتظَر به أن يفُوقَ أنظار الأنظار ويرتَقِبْ ، ويعلَمْ أنَّ هذا أوّلُ

(١) التحلىء الشعر أو سواده .

إقبالنا عليه (وأوّلُ الغيثِ قَطْرٌ ثم يَنْسَكِب) ؛ والله تعالىٰ يجعل خزائنَ الإسلام بجمال نحره آهلَه ، ويُورِدُها مواردَ العزّ الدائم ويُصَفّى من أكدار الأقذار لها مَناهلَه ؛ والعلامةُ الشريفة أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الوظيفــــة السـادسة

(ٱستيفاء الصُّحْبة)

وصاحبها يَتحدّثُ فى كل ما يَتحدّثُ فيه ناظرُ الصُّحْبة المقدّم ذكرُه .

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك ، من إنشاء القاضى «ناصرِ الدّين بن النَّشائى» وهى :

الحمدُ لله الذى زادَ نخارَ أوْليائنا رفعةَ المِقدار ، وأفاد الصُّحبةَ الشريفةَ خيرَ كافٍ ٱستوجب منّا بجميل خِدْمته جزيلَ الإيثار ، وجاد بالجُود وٱبتدأ السعود لمن حسُن فيه الٱختيار وحُمِد الٱختبار ، وٱرتاد للمناصب العليّة كلَّ "مستوفٍ" للمحاسن له حقُوقُ وفاءٍ لا تُضاع وقدَمُ ولاء أجملَ فيه الإيرادَ والإصْدار .

نحمده علىٰ نِعمٍ أجزلت الآثار ، ونشكُره علىٰ مِنَن أجملت المَسارّ ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِص يترشّف ساحَ ثوابِها الدارَ فى تلكَ الدار ؛ ونشهد أنّ سـيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى أيّد الله به المؤمنين وأخمدَ نارَ الكُفّار ، وبعثه رحمةً للعالمين فأقام بناءَ الإسلام بعدَ ما كاد يَنْهار ، وأسرىٰ به إلىٰ السَّبْع الطِّبـاق فطبّق نبأُ معجزاته الأرضَ وملأَ الأقطار ، صـلاةً باقيةً لا تزال أغصـانُ أجُورها دانيةَ القُطوف زاكيةَ الثِّمـار ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فإنَّ أجلَّ النِّعم ما علَتْ ملابِسُها ، وأجملَ المِنَن ما غلَتْ نفائسُها ، وأكمَلَ المِنَح ما زكَتْ فى رياض الإقبال غرائسُها ، وأجزَلَ العطايا ما جُلِّيتْ فى حُلَل الفخَار

عرائسُها ، وأوْلى الأولياءِ بتحويل ذٰلك لديْه ، وتخويلِ هـذه المواهب إليـه ، وإسباغِ أثواب الآمتنانِ عليه ، وآجتبائه لُرتَب علتْ محَلّاً ، وآختياره لمنْصب يُصْبِح به جِيدُه من عقُود العناية مُحَلًّى ـ من شُكِرت أوصافُه ، وآشتهر عَفَافُه ، وحَسُن منّا إسعادُه و إسعافُه ، وحُمدت خلالُه ومآثِرُه ، وحاز فخَـر نَعْتِه ونخْر ذَاتِه فلا غَرْوَ أن تعدّدت مفاخِرُه ، وأسلَفنا من خِدْمتـه ما آستوجَبَ أن يجْنِيَ به ثِمـارَ الإحسان ، وقدّم بيْن أيدينَا الشريفةِ من يُمْن تصرُّفه ما أَنْتج له مضاعفةَ الآلاءِ الحِسان .

ولـمـا كان فلان هو الذى تحلّىٰ من هـذه الأوصاف بعُقُودها ، وتجلّىٰ فى مَطارِف بُرُودِها ، وأثنَتْ علىٰ خِصاله ألسـنةُ الأقلام ، وأثبتَتْ جميـلَ خِلالِه فى صُحُف أوراقها وصحائِف الأيّام ، وحازَ من الأمانة والنّزاهـة كلَّ ما يُشْكَر به على الدّوام ، وآمتاز بحُسْن الكتابة التى تُقِرّ النواظر وتَسُرُّ الخواطر وتُزْرى بالروض البَسّام . ما باشَرَ رُتْبـة إلا وَفَى بها ، وحفِظ أموالَهـا وغلالَها وضَـبط أمورها وكَفَى بهـا ـ آقتضىٰ رأيُنا الشريفُ أن نَنْقُـله إلىٰ درجات السـعاده ، ونمْنَحه من إقبالنا الشريف زيادةَ الحُسـنىٰ وحُسْن الزّياده ، ونخُصّـه بوظيفةٍ تُدْنيه منّا قُرْبا لنكون قد أجمَلْنا له الآبتداءَ والإعادَهْ .

ولذٰلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لا زالَ نخْرُ أوليـائِه بمَزيد آلائِه ساميا ، وقـدْرُ أصفيائه بمديد عطائِه ناميًا ـ أن يستقرّ فى كذا .

فلْيتلَقَّ هذا الإحسانَ ، بيدِ الآستحقاق ، وليتقلَّدْ عقُودَ الآمتنان ، الذى طالمَـا قلّد جُودُهُ الأعناق ، ولْيباشرْ ذٰلك مباشَرةً يَسُرُّ خَبرُها ، ويسير خَبَرُها ، ويشنِّف الأسماعَ تأثيرُها وأثَرُها ، وليَسلُكْ فيها من السَّداد ، مايؤكّد حمْدَه ، ومن حُسن الآعتماد ، مايؤيّد سَعْدَه ، وليعتَمِدْ فيها من الأمانة ما هو المشهورُ من آعتمادِه ، ومن العَفاف ماصَحّ عنه نقلُ إسناده ، وليدَبِّج المراسيمَ الشريفةَ بقلَمه السعيد ، وليوَشِّها بكتابتِه التى بها الحسن

مبدئ ومُعيد، ولْيضبِطْ جميعَ أموال الديوان المعمُور وغِلالِه ، وسائرَ أموره وأحواله ، ولْيستوْفِ بقلمه علىٰ مُباشِريه وعُمّاله ، ولْيُحِطْ عِلْما بخَراج بِلاده وأعماله ، ولْيسترفع الحساب شامًا ومصرا ، وليتصفَّح الرِّقاع بالممالك الشريفة المحروسة ليَحْوِيَ بجميعها خُبْرا ، وليتعيَّنْ جُمَلَها وتفصيلَها ليكون بمُخْرَجها أدربَ وبمردُودها أدْرىٰ ، ولْيحصُرْ متحصِّلَها ومصْرُوفها ، ومعجَّلَها وموقُوفَها ، حتّى لا يخرُجَ شيءٌ عن علمه ، ولتكُنْ جُملةُ هـذا الأمر محرّرة فى ذهْنـه ليجيب عنها عنـد السؤال بتحقُّق فهمه ، والوصايا كثيرة وهو بهـا خبـير عليم ، حائزٌ منها أوفىٰ وأوفر تقسيم ، ومِلاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ فليجعلْها عُمدتَه ، ولْيتّخذْها فى كل الأمور ذخيرتَه ، والله تعـالىٰ يُضاعف له من لَدُنّا إحسانا ، ويرفَع له قدرًا وشانا ، والاعتمادُ على الخطّ أعلاه .

وهذه وصية لمستوفِى الصحبة أورَدَها فى "التعريف" وهى :

فهو المُهَيْمِن على الأقلام ، والمؤتَمن علىٰ مصرَ والشام ، والمؤمَّل لما يكْتُب بخطِّه من كل ترتيبٍ وإنعام ، والملازِمُ لصُحْبة سلطانه فى كل سَفَرٍ ومُقام ، وهو مستوفى الصُّحْبة ، والمستولِى بالهِمَم علىٰ كل رُتْبة ، والمعوّلُ علىٰ تحريره ، والمعمُولُ بتقريره ، والمرجوعُ فى كل الأمور إلىٰ تقـديره ، به يتحرَّرُ كُلُّ كشف ، ويَكُفُّ كُلَّ كَفّ ، وبتنزيله وإلّا ما يكْمُل استخدامٌ ولا صَرْف ، وهو المتصفِّح عنّـا لكلِّ حساب ، والمتطلِّع لكلّ ما حضَر وغاب ، والمناقِشُ لأقـلام الكُتّاب ، والمحقِّق الذى إذا قال قال الَّذِى عِنْـدَهُ عِلْمٌ من الْكِتاب ، والمُظْهِر للخبـايا ، والمُطْلِع للخفايا ، والمتَّفق علىٰ صِحّـة ماعنده إذا حصـل الخلاف ، ووصـل الأمرُ فيه إلى التَّلاف ، ولْيُلْزِمِ الكُتّاب بمـا يلزَمُهم مِن الأعمال ، ويحررها بمستقرّ إطلاقه وضرائب رءُوس

المال ؛ وعَمَلِ المكافات وأن يكلّفوا عملَها ، وتقديرِ المساخات وليتتبّع خَلَلَها ؛ وليُلزِمهم بتمييز قِيَمِها بعض عن بعض ، وتفاوتِ ما بين [تسجيل] (١) الفُدُن فى كل بلد بحسَب ما تصلُح له زراعةُ كلِّ أرض ؛ وبمستَجِدّ الجرائد وما يقابل عليه ديوانُ الإقطاع والأحباس ، وغير ذلك مما لا يحصل فيه ٱلتباس .

ومثلُك لا يُزَوَّد بالتعليم ، ولا يُنازَع فكلُّ شىء يؤخَذُ منه بالتسليم ؛ وما ثَمَّ ما يُوصىٰ به رَبُّ وظيفةٍ إلا وعنده يتزّل علمُه ، وفيه يتزّه فهمُه ؛ وملاك الكل تقوى الله والأمانة فهما الجُنَّتان الواقيتان ، والجَنَّتان الباقيتان ؛ وقد عُرِف منهما بما يُفاض منه عليه أسبغُ جلباب ، وأسبلُ سترٍ يُصان به هو ومن يتخذهم من مُعينين ونُوّاب ؛ والله تعالىٰ يبلّغه من الرتب أقصاها ، ويُجرِى قلمَه الذى لا يَدَع فى مال ممالكنا الشريفة صغيرةً ولا كبيرةً إلا أحصاها .

الدرجة الثالثـــة

(من تواقيع أرباب الوظائف الديوانية بالديار المصرية
ما يُكْتَب فى قطع العادة : إما فى المنصورىّ ، مفتتَحا بـ«أما بعد حمد الله»
أو علىٰ قَدْر المكتوب له فى القطع الصغير ، مفتتَحا بـ «رسم بالأمر الشريف »
إن ٱنحط قَدْره عن ذلك)

وفيها وظائف :

منها ــ كتابةُ الدَّرج بديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة .

وهذه نسخةُ توقيع بكتابة الدَّرْج الشريف ، كُتِب به للقاضى تاج الدين عبد الرحيم بن الصاحب فخر الدين بن أبى شاكر ، وهى :

---

(١) الزيادة من التعريف ص ١١٥ .

رُسم ... ... ـ لا زالت صدقاتُه الشريفةُ تشمَل نُجباءَ الأبنا، ومبرّاتهُ الجسيمةُ تُجْزِل للولَد البارِّ حُسْن الزيادة وزيادةَ الحُسنىٰ ، وهباتُه الكريمةُ تُقْبل بوجْه الإحسان علىٰ فَرْع الأصل الأسمىٰ وتُرصِّع تاجَه بجوهر فخره الأسنىٰ ، وسماتُه الوسيمةُ، تجمِّل شَدَّ أزر الوزارة الفخيمة، بأكْفَإ نجل ثَنىٰ الزمانُ عنانَ الرياسة إليه وعليه أثنىٰ ـ أن يستقرّ فلان فى كذا وكذا : لأنه رُبِّى فى حَجْر الرياسه، وآجتنىٰ من الروض المجدَ الذى أعلىٰ السعدُ غراسَه ؛ ونَشأ من محلّ السُّؤْدَد والفَخار ، وبزَغ من بيتٍ حقَّت له رفعةُ الأقدار ، وبَسَق غُصنُ فرعه من أصلٍ ثابت ، وسَما بدَوْح عِزٍّ فى مواطن المَعالى نابتْ ، وهمىٰ ندىٰ قلمه بانتسابه إلىٰ سَرَاة الكُتَّاب فناهيك من كاتبٍ لأبى الخَلَل كابتْ ، تَعترفُ الدولةُ لسَلَفه بسالف العُهُود ، وتغْترف من مَنْهَل تدبيرهم المَوْرُود ، وتتحلَّىٰ من تاجهم بأسْنىٰ العقود ، وتسمُو من فخر وزارتهم ووزارة فخرهم بما يملأ الوُجُود بالجُود، وتختال من تصريف أقلامهم وأقلام تصريفهم فى روض التنفيذ المَجُود فإنْ ذُكرت مآثرُ جَدِّه قصَّرتْ عن إدراكها الجُدُود ، وإن شُكرت مناقبُ والده ـ أجله الله ـ ففَخْرها الباذخُ مشهُود، وهو بلسان العامِّ والخاصّ مَمْدُوح محمُود ، وإلىٰ مَعانى خَطِّه تنتهى درجاتُ الصُّعود والسُّعود، فلا غَرْوَ لهذا الفَرْع الناجبِ أن يَتْبع أصْلَه ، وأن يَسْلُك فضائلَه وفَضْلَه ، وأن يقْفُوَ مَنْهَجَه ، ويحْذُوَ فى الكتابة طريقتَه المُبْهِجه ، ويأتِيَ من البَراعة بسَنَنِها القَويم ، ويُبْرِز من اليراعة وَشْيَ خَطِّه الرقيم ، وأن يُحَلِّيَ أجيادَ المَهارق بجوهر تاجه النَّضيد النَّظِيم ، وأن تحلُوَ ألفاظُه فى الإنشاء حينَ تمُرّ علىٰ الأسماع مُرورَ النسيم ؛ [لا] سيَّما وقد ظَهرتْ عليه من مَخايل الرآسة دَلائل ، وشُرِعتْ له مناهِلُ الأدَب والفضائل ، وحازَ من حُسْن النشأة ما سار بُشكره المَثَل ، وحصَّل من الآشتغال علىٰ كَنْز المعرفة وآشتمل ، وغدا جديرًا بكلِّ مرتبةٍ سنِيَّه ، وكل رِفْعة هى بأعدائها مبنيه .

فليباشرْ ذٰلك مباشرةً يجعلُها لباب المعالى مفتتَحا ، وللزيادة من كلّ خير سببا كُلَّما أبْدىٰ الدهرُ مَساءً وضُحىٰ ؛ ولينقُلْ فى آتباع مَهْيَع المجد عن والده وجدّه أبقاهما الله تعالىٰ ، وليدأَبْ للتحلّى بأخلاقهما الحسَنة أقوالًا وأفعالا ؛ وليُبْهِج الطُّروسَ بوَشْيِ قلمه ، وليَنمّق المكاتباتِ ببَلاغة كَلِمه ؛ وليَتخِذ الصَّوْنَ شِعارَه ، والعَفافَ دِثارَه ؛ والأمانةَ معتمَدَه ، والنزاهــةَ مستَنَده ؛ وضَبْطَ القولِ مادّتَه ، وحفظَ اليــد واللسانِ جادّتَه ؛ والوصايا كثيرة وملاكها التقوىٰ وهى حِلْيَتُه الحقيقيَّــه ، وعقيــدَتُه العقْلِيَّة والمَنْطِقيَّه ؛ فليَجْعلْها دأبَه ، وليُرْضِ فى إعلانه لها ربَّه ؛ والله تعالىٰ يُعْلِى قدْرَه وجَدّه ، ويحفظُه وأباه وجَدّه .

وهذه نسخةُ توقيع شريف بكتابة دَرْج تجدِيدًا ، وهى :

رُسِم ... ... ـ لا زال يمنَحُ الأولياءَ ، بتجديد النِّعم إحسانًا ، ويُولِى البُلَغاء ، فضْلًا يُعْلِى لهم رُتْبةً وشَانا ، ويُبْــدى لهم فى ديوان إنشائه الشريف فضائلَ جَمَّةً وبيانًا ـ أن يجدَّد هــذا التوقيعُ الشريفُ باسم فلان تجــديدًا لِأنوارِ الإحسانِ إليه ، وتأكيدًا لمَزايا الآمتنان لدَيْه ، وتسديدًا لمستَنَده الذى ألقاه وجْهُ الإقبال إليه ؛ لِمــا حازَه من فضــيلةٍ تامَّة ، وبلاغةٍ ملأَتْ ببديع المَعانِى ومَعانِى البــديع ألفاظَه وكلامَه ، وكتابةٍ أجْرتْ فى حواشِى الطروس بمحقّق التوقيعــاتِ أقلامَه ، وأمانةٍ بنَتْ علىٰ الصِّــدق والعَفاف أقسامَه ؛ ورياسةٍ تأثَّل مجدُها ، فبلغ مَرامَه ، وآتّصــل سعدُها ، فلا يَخْشىٰ آنفصامَه ، وبَعُد شأوُها فهى الساميةُ إلىٰ رفع المنازل من غير سَآمه . قد آتَّصف من البَراعة بجميل الأوْصاف ، وظهر آستحقاقُه فهو بادٍ غيرُ خاف ؛ وترَوّىٰ من بحرِ البلاغة

حيثُ وَرَد منْهَلَهــا الصَّاف، وسلَك طُرُقَ الخير فتضاعفَ له الإسْعاد والإسْعاف، وآمتازَ بمزايَا التجمُّل فى أمورِه والعَفَاف؛ وآستحقَّ بذٰلك أن نُجَدِّد له فضلَ الأُلفه، ونُؤَكِّد له بكرمنا نَيْلا آعتادَه وعَرَفه .

فليستَمِرّ فى ذٰلك آستمرارًا به أسبابُ الخير مؤتَلِفه، ووجُوه الفضائل عن صُنُوف الكِتَابةِ غيرُ منصرفه؛ ولْيُبدِ من البَـلاغة بيانَها البديع، ويُجَمِّل منْزِل العليـاءِ الرفيع؛ ويَسْلكْ مَسْلَكه فى الأمانه، ويتَّقِ الله تعالىٰ بملازمة المُراقبـةِ والدِّيانه؛ والله تعالىٰ يُعلِى مكانَه، ويزيدُ فى آقتناء الفضائل إمكانَه؛ والآعتمادُ على العلامة الشريفة أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت ورُبَّمـا كُتِب التوقيع لكاتب الدَّرْج بزيادةِ معلوم، فيَحتاجُ الكاتبُ إلىٰ أن يأتىَ بعبارةٍ تجمع إلىٰ ما تقــدّم من براعة الآستهلال ما يَليها من موجب الآستحقاق، وسببِ الزيادة وترادُفِ الإحسان .

وهذه نسخة توقيع بشهادة الخزانة، كُتِب به لابن عُبادة، وهى :

أما بعدَ حمدِالله الذى أفاضَ على الأولياء من خزائن فَضْله، وأفاءَ لهم أوفرَ نصيبٍ من إحسانه المشكورِ فيه عَدْلُ قَسْمه وقَسْم عَدْله، وأهمىٰ عليهــم من سُحُب مواهبِه ما يَقْصُر عنه الغَمَام فى وَبْله وطَلِّه، وأسبغَ عليهم من جُودِه العميم ما يصْفُو لديهم المَرَحُ فى وارِف ظلِّه؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ نبيه ورسولِه أشرفِ رُسْله، وخاتم مَنْ جاء من الأنبياء منْ قبْــله، والهــادِى ببعثته الشريفةِ إلىٰ طُرُق الحق وسُــبْله؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تابعُوه فى قوله وفعْله، وبايَعُوه على المظاهرةِ فى نُصرةِ الدين

الحَنيف وأهْله ، وجمعُوا هِمَمَهم على ٱلْتئام كلمة الإيمـان وجمْع شَمْله ، وأرهفَ كلَّ منهم فى نَصْره ماضِىَ عزْمه ونَصْله — فإنَّ أوْلىٰ من رُعِيت له حقوقُ ذِمَامه ، ومُنِح أجزلَ العطاء الذى تَقْضِى الأقدارُ بدوامه ، ولُوحظ بعين الإقبال ما أسْلفه من حُسْن الطاعة لله ولرسوله ولإمامه — مَنْ جَدّ فى الخدمة فأضحىٰ الجَدّ له خادما ، وداوَمَ علىٰ المناصحة فغَدَا سعدُه دائمـا ، وأخذَ من كلِّ فضلٍ بزِمامه ، ومَتَّ بمـالَهُ علىٰ الدولة الشريفة من حُرْمته وذِمَامه ، وسلك فى أداء الأمانة السَّنَنَ القويم ، وجُعِل علىٰ خزائن الأرض بمـا تَلَا لسانُ فضله : ﴿إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ ، وتمسَّكَ من الإخلاص بأقْوىٰ الأسباب ، وجَعَلتْ له التقوىٰ مَحَلًّا يُدْخِل عليه ملائكةَ القبول من كلِّ باب ، وزَيَّن سمـاءَ المعالى بكواكب مجده فمـا تشوَّف إليها طَرْفُ متطاولٍ إلا وأتْبَعه شِهاب .

ولمـا كان فلانـــ هو الذى غَدَا حسنُ مناقبه إلىٰ شكره مُرشِدا ، وإلىٰ ذكره بالجميل مُسْعِدا ، وألهجَ لسانَ القلم فى وصفه مُنشِدا ، وٱختصَّ من هذه المحامد بأوْفَرها قِسْما ، وطلع فى أُفُق هذا الثناء الجميلِ نَجْما ، فلذلك رسم ... ...

ومنها — ٱستيفاء الدولة .

وموضوعُها التحدّثُ فى كل ما يتحدّث فيه الوزيرُ وناظرُ الدولة ، وضبطُ الأموال الديوانيـة ، وكتابةُ الحُسْبانات ، وكلُّ ما يجرى مَجْرىٰ ذلك . وقد جرتِ العادةُ أن يكون فيها مستوفيان .

وهذه نسخة توقيع باستيفاء الدولة :

أما بعـدَ حمد الله الذى صانـــ الأموالَ بالأقلام المحرَّره ، والدفاترِ المُسطَّره ، والحُسْبانات المصدَّره ، والجوامعِ المسيَّره ، والتيقُّظ الذى ٱستخرجَ البواقىَ المنكسره ،

والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد الذى أزال ظَلام الظُّلْم ونَوّرَه، ومَحا الجَورَ وغيَّره، وأيَّد الحق وأظهرَهْ، وعلىٰ آله البرَرَه، وصَحْبه خصوصا العَشرةَ المبَشَّره ــ فإنَّ للدولة الشريفة من الأقلام ضابِطا، ولها من الحِساب نِظامًا أصبح عليها سِيَاجًا وحائطا، يصون الأموال أن تكونَ بأيدى الخائنين نُهْبىٰ، ويُحرِزُ المطلَقاتِ بُعْدا وقُرْبا؛ وقَلَمُ الاَستيفاءِ هو الذى إذا طاشَتْ أقلامُ الكُتَّاب كان فى رأْسِها لِجَاما، وإذا خَصَم المباشرون بالمَصْروف قَبِل السائغَ الصحيحَ وردَّ ما كان سقيما وخَرَّج ما لم يكن تَمَاما.

ولما كان فلان هو الذى فى الرآسة كبيرٌ معْروف، وفى السعادةِ حميدٌ موصُوف، وفى قلمه تصحيحُ كلِّ مصروف، وله فى الدولة آثارٌ مرضيَّة تشْكُرها الأقلام والسُّيوف؛ ما نظر فى حِساب، إلا أزال عنه ما به يُعَاب؛ ولا رأى فَذَالِك، إلا وأوضَحَ فيها المَسَالك؛ ولا عُرِض باقٍ، إلا آستَخْرج ما يتعيَّن آستخراجُه بقلمه الراقى، وفَهْمِه الواقى؛ فلذٰلك رسم أن يستقر... ... ...

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ بتحريره وتحبيره، وتمييزه وتَثْميره، وتوفيره وتكثيره، وإيراده وتصديره، وتسهيله وتَيْسيره، وإزالة تعسيره؛ وإذا أَمْسك دفاترَه، أظهر مآثرَه، وإذا نُسيت الجُمَلُ أبدىٰ تَذاكِرَه، والعمْدةُ علىٰ شَطْبه فى الحُسْبانات الحاضره، فلا يخرُج من عنده شىءٌ بغير ثبوت فإنَّ التواقيع الشريفة والمراسِيمَ الشريفة هى كالأمثال سائِرَهْ؛ ولا يتَّخِذ المُعين، إلَّا الأمين، ولا يستعين، إلا بمن هو مأمونُ اليمين؛ والوصايا كثيرةٌ وهو غنِيٌّ عن التبيين، فلْيتَّق الله ربَّ العالمين، ولْيستجْلِب لنا الأدعيَةَ من الفقراء الصالحين؛ فإنَّ صدقَاتِنا الشريفةَ تُنْعِم عليهم بمرتَّبات وأرزاق، ونِعَم وأطْلاق، فليُسَهِّلْ عليهم الصَّعْب فى كلِّ بابٍ وإطلاق، والله تعالىٰ يُمِدُّه بالإرفاق؛ بمنِّه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ.

قلت : وقد يكتب لوظيفة آستيفاء الدولة مفتتحا بـ«رسم» .

وهـذه نسخة توقيع من ذلك باستيفاء الدولة، كُتِب به لعَلَم الدين بن ريشـة، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لابَرِحتْ أيّامه الشريفةُ تَرْفَع لذوى الكفاءة مِنْ إحسانها عَلَما، وتُرجِع مصالحَ الدولة إلىٰ مَنْ أحسَن فيهـا خِطاباً وأعمَلَ فى مُهِمَّاتها قلمـا، وتختارُ مَنْ دأَب فى تكميل أدَواتِه حتَّى صار علىٰ أنظاره متقدِّما ـ أن يرتَّب فلان عِلْما بكفايته التى وضَحَت، ودِرايتِه التى فاقَتْ مُناظِرَها ورجَحتْ، وأمانتِه التى حصَّلتِ النماء وأربَحتْ، وهمَّتِه التى ميَّزت الأموال بإحرازها فعلَى السَّداد خُتِمت وبالتحرِّى آفتُتِحتْ .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ التى تحتاج إليه باحتراز مثلِه، والرُّتبةَ التى يتعيَّن علىٰ مُباشرها إيصالُ كلِّ حقٍّ إلىٰ أهـله، فقد أرجعْنا ضبطَها وتحريرَها إليه، وآعتمدْنا فى تيسير أموالهـا وسدِّ أحوالهـا عليه؛ فهو جديرٌ ببلوغ القصـد فيما قرَّرناه لديْه، وحرَّرناه بقلمه ويدَيْه .

فليبسُطْ فى مصالح الدِّيوان المعمُورِ وأموالِه قلَمَه، وليَعْمَلْ بمـا هو عالم من تبيين حقائقِ آحوال وظِيفته ويُخْلِصْ فيه قولَه وكَلِمَه؛ وليُصِنِ الأموال، ويتفَقَّدْ ما يلزم العُمَّال، ويَحُثَّ علىٰ حمول بيتِ المال؛ وليسترفع الحُسْبانات من جهاتها على العاده، وليستَودِعْ دفاترَها وجرائدَها من يتحقَّق تحرّزَه وسَدادَه، وليَتخذْ مُعينيـه من أرباب الحِذْق والدِّراية والآطِّلاع علىٰ كل نقْص وزيادَه، وإبداءٍ وإعاده؛ وله من نَفْسه مالا يَحتاج معـه إلىٰ زيادةِ الوصايا وتكْثيرها، ومن ألْمَعيّته ما يُدْرِك به الفضْلَ فى جليـل الأمور وحَقيرها؛ فإنّه قد تخَلَّق بأخلاق أهل الأدَب، وشارك فى جليل

الخَطْب وسدَّ ما إليه عزمَه ٱنتدَب؛ والله تعالىٰ يبلِّغه من الجُود غايةَ الأرَب، ويُعينُه علىٰ صالح العمَل وٱنتهازِ القُرَب، والاعتماد ...

ومنها ــ ٱستيفاءُ الخاصّ . وصاحبُها فى الخاصّ كمستوفى الدولة فى ديوان الوزارة .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بٱستيفاء الخاصّ لمن لقبُه «أمينُ الدين» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالتْ أيامُه الشريفةُ تُقْدِم بمهمَّاتها أمينا، وتقدِّم فى خدمتها من أضحىٰ معلِّى شمالا و يمينا؛ وتُولِّى الرتب السنيَّةَ مَنْ جعل التحرّز لقلَمه مصاحِبا ولكَلِمه مُعينا ــ أن يستقرّ فلان فى كذا : لِمَا عُرِف من رآسته التى ميّزته، وأمانته التى جمعتِ الرَّفْع فأحرزَته؛ وضبْطه الذى ترقَّى به فى المراتب وتنقَّل، وإدراكه الذى يَصُونُ به غوامِضَ المصالح ويَعقِل؛ ولِمَا سلَف له من خدمةِ ملكٍ فيها السَّداد، ومباشرةٍ عُلِم بها ماهو متَّصِف به من حُسْن الاعتماد .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ التى وُلِّيها، ولْيُشْهِر من همَّته فيها ما يرفَع مكانتَه ويُعْليها؛ ولْيُدِمِ المراقبةَ لمصالح ديوان الخاصّ الشريف فى كلِّ قولٍ وعمل، ولْيسارعْ إلىٰ مايُفيد المَناجِحَ ويبلِّغُ من الضبْط والتحرُّز غايةَ الأمل؛ ولْيصُنِ الأموال من ضَياعها، ويحافِظْ علىٰ سلوك طرائقِ الحقِّ وٱتِّباعِها؛ وليسترفِع الحُسْبانات من أربابها، ويتفَقَّد محرَّراتِها التى هو أعلَمُ وأدرىٰ بها؛ ويَتَّخِذْ من مُعينيه من أضحت معرفتُه للدقائق جامعه، ويحتفِلْ بمتحصِّلات أموال الخاصّ بعَزْمته التى أضحت لمكانَته رافعه، لا سيَّما ثغرُ الإسكندرية التى قد أصبحَتْ جهاتُها لطلَب أقلامه مُتابعةً طائعه؛ ولْيُلزِمْ كلَّ عامل بتحرير مايجب عليه وما تنبغى فيه المراجَعه؛ فإنا قد أقمناه لذلك مستَوْفيا، وليتصفَّح أمورَه الجليلةَ والحقيرةَ مستوضِحا مستقْصِيا؛ ولْيتَّقِ ٱلله

الذى يبلّغه من زيادة مَنْحنا الأمل ، ويعينه علىٰ صالح العَمَل ، والله تعالىٰ يمنَحُه من الخير ما يُنْجِح مَسْعاه ويتزّهه عن الزّيْغ والزَّلَل ؛ والآعتماد ... ...

وهذه نسخة توقيع فى المغنىٰ لمن لقبه «بدر الدين» وهى :

رُسم بالامر الشريف ـ لازال يُطلِع لذَوِى الكِفاية من إحسانه فى سَماء الإقبال بَدْرا ، ويرفعُ لمن أمَّ الأبوابَ لأوليائه[1] من ذَوِى الرآسة قَدْرا ، ويشْفَع لمن شُكِرَتْ معرفتُه بنُجْح القصد فآنشرح له بالمِنَن الجمّة صَدْرا ـ أن يستقرّ فلان فى كذا : لِكفايته التى خُطِب بسببها إلىٰ مَقَرّه ، ودرايته التى آستوْجَب بها أنْ نطقَ لسانُ القَلَم بذِكْره ، ونزاهتِه التى أجمعت بها أمثالُه علىٰ شُكْره ، وأمانتِه التى تستدْعِى الحقَّ فى حُلْو الأمر ومُرِّه ، وديانتِه التى هى أصلٌ فى كل أمره ، وصيانتِه التى يعتمِدُها فى سِرِّه وجهره ، ومشارفتِه المصالح بعينِ يقظتِه التى يلُوح لها وجهُ الصواب فيقِف عند حدِّه وقَدْره .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى أسلفها حُسنَ الآعتماد ، وليوَفِّها من معهود يقظته يُمْنَ الآجتهاد ، وليحقِّق حسنَ ظنِّ المباشَرين فى رغْبَتِهم[2] فيه فى الإنصاف فى الإرْفاق والإرْفاد ، ولْيعمُر جهاتِ الأموال بجميل الآقتِصاد ، ويُنْجِز الأحوالَ علىٰ سبيل السَّداد ، ولْيتَّبع منهاجَ الخير فى كل ما يأْتيه من إصدارٍ وإيراد ؛ فقد رجَع ضَبْطُ هذه الجهةِ إليه ، وآعتُمِد فى تحريرها علَيْه ؛ فلْيصُنِ الأموال ، ويتفقَّد ما تَحْسُن به العُقْبىٰ والمآل ؛ ولْيَتَحَرَّ فى جميع ماهو لازمٌ له أن يكونَ على الحق الواضح ، والسَّنَن القويم فإنه المَتْجر الرابحُ والمآبُ الناجح ؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ فهى عمدةُ كل عبدٍ صالح ،

(١) لعله من أوليائه ذوى الخ .

(٢) لعله «ورغبتهم فيه من الانصاف» الخ تأمل .

والوصايا كثيرةٌ مبيَّنة تُغْنِى عن إفصاح الشارح؛ والله تعالىٰ يُلْهمه الطريقَ السديدةَ ويُرْشِده، ويُعِينه بالتوفيق ويُنْجِده، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ـ ٱستيفاء البُيوت والحاشية .

وهذه نسخة توقيع بذٰلك ، كُتِب بها لعَلَم الدين «شاكر» عوضًا عن تاج الدين ابن الغزولى فى الأيام الأشرفية «شعبان بن حسين» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ صدَقاتُه الشريفةُ تَمنَحُ الأكفاءَ من إحسانها نِعَما، وتُضاعِف لهم من عَطائها كَرَما ، وأيَّامُه الشريفة تَعُمُّ البُيوتَ الكريمةَ بكافٍ قد نَشَرت له الأمانةُ فى دولتِه الأشرفيَّةِ علَما، ومَواهِبُه تقدّم للوظائف مَنْ أضْحىٰ شاكِرًا لله تعالىٰ وتبسُطُ له فى دواوين أعزّ الأنصار قَلَما ـ أن يستقرّ المجلسُ السامى القاضى، فلانُ الدين فى كذا وكذا : لأمانته المَوْفُوره ، ومعرفته المشهُوره، ومحاسِنه المذكُوره ، وسيرته المشْكُوره، وكتابته التى أضحَتْ فى صَفَحات الحُسْبانات مسْطُوره، وديانتِه التى جدّدَتْ بهجَتَه وسُرورَه، وخِبْرته بمنازل البُيوت المعمُوره ؛ وقِدَمِ هِجرته فى الوظائف التى أوجبت نُقلتَه إلىٰ أجلِّها، وصَدَارته التى رفعَتْه إلىٰ أرفَع محالِّها؛ كم له فى دَواوين أعزِّ الأنصار من أقلام منَفَّذه، وآراءٍ مُسدَّده؛ ونظَرٍ أصلح به كلَّ فاسد، وكَبَتَ به كلَّ حاسد؛ وضَبْطٍ لأصول الأموال، وتَتَبُّعٍ للمصالح فى البُكَر والآصال .

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ التى هو أخبَرُ بمباشَرتِها، وأعلَمُ بأحوال البُيوت الكريمة وعمارَتِها؛ ولْيُظْهِرْ فى الحاشية السعيدةِ مآثِرَه الحسنَه، ونزاهتَه التى نطَقَت بشكرها الألْسنَه، ولْيُبْدِ فى مباشرتِه من كل شىءٍ أحسَنَه ؛ ولْيَسْلُك طرائقَ الأمانه، ولْيَقْفُ آثارَ ذوى العَفَاف والصِّيانه ؛ ولْيلازمْ مباشرةَ أعزِّ ولىٍّ فى المَسَاء والصَّباح،

ولا يشْغَله شاغلٌ عن مصالح ممهِّد الدول مَنْ [هو] لسلطاننا الأشرف أميرُسلاح ، واللهُ تعالىٰ يفتَح له من الخير أبوابَ النَّجاح . والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وممَّا ينخرط فى سلك تواقيع أرباب الوظائف السلطانية وظائفُ دواوين الأُمَراء الخاصكيَّة ، فإنه ربما كُتِب عن السلطان التوقيعُ لبعض أرباب وظائف دواوينهم كما يُكتَب فى الوظائف السلطانية .

وهذه نسخةُ توقيع كريمٍ بنظر دواوينِ بعض الأمراء ، وهى :

أمَّا بعد حمدِ الله الذى هدىٰ إلىٰ الملَّة المحمَّدية مَنْ أسرَّ الإيمانَ فى قلبه ونَواه ، وضَمَّ إلىٰ الأُمَّة [الاسلامية] من أضمر الإخلاصَ فأظهره اللهُ فى متقلَّبه ومَثْواه ، وجمَع لولِىِّ الدولة ومُخْلِصها الفرجَ والفرَحَ لأنه مَن توكَّل عليه كَفَاه ، والشهادة بالوَحْدانية التى تُبَلِّغ قائلَها من رضاه مُنَاه ، وتجعل جنَّاته لمن أسَرَّها جَنَانُه مستقرَّه ومأْواه ، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى قَصَم عِدَاه ، وفَصَم عُرا مَنْ عاداه من أهل الشرك وعَدَاه . وعلىٰ آله وصَحْبه الذين آهتدَوْا بهُدَاه ، وآستجْدَوْا جَدَاه ، ولَبَّوْا نداه ، وأَمُّوا نَداه ، صلاةً تُجزِل لمصلِّيها ثوابَه ، وتُجْمِل مآبَه ، وتُحْمِد عُقْباه ــ فإنَّ أوْلىٰ من رفَع له الكرمُ مَحَلًّا ، وقلَّدته النِّعم عِقْدا مُحَلًّى ، وأُعيد إلىٰ رتبة الاصطفاء ، وفُوِّض إليه ديوانُ أعزِّ الأخصَّاء ، وصُرِّف قلمُه فى مَهامِّه ، وحصلتْ هِمَمُه علىٰ جميع أقسامِه ، وعُدِقتْ مصالحهُ بتدْبيره ، ومناجِحُه بتأثيله وتأثيرِه ، ومتحصِّلاتُه بتمييزِه وتَثْميرِه ، وأحوالُه وأموالُه : هذه بحُسْن تصرُّفه وهذه بِيُمْن تَقْريره ــ مَنْ دخل فى دين الله القَويم ، وآجتَباه وهدَاه إلى الصِّراط المستقيم ، وكَسَاه الإسلامُ حلَّةَ شرَفه ، وبوَّأه الإيمانُ

مَبانِىَ غُرَفِه، ونوىٰ الآستقامةَ فى إقامتِه ومُنْصَرَفِه ، وآلتحفَ بجِلْباب الإسلام وآرتَدَىٰ، وتَلَبَّس بالإيمان فصَدّ عنه الأذَىٰ وردّ الرَّدىٰ، وغَدَا من أصحاب الصِّراط السَّوِىِّ ومَنِ آهْتدىٰ ؛ مع كفايةٍ أوجبَتْ له التقريبَ والتقديم، وجدّدَتْ له مَلابِس التكبيرِ والتكْرِيم ؛ وكتابةٍ فاقَ بها أمثالَه ، وعلا مِثالَه ، وبلَّغتْه من العَلْياء مَرامَه ومَنَالَه ؛ ومعرفةٍ بفنُون الحِسَاب ، وخِبْرة آعترَف له بها الكُتَّاب والحُسَّاب، وأوجبَتْ له من الإقبال مالم يكُنْ فى حساب .

ولما كان مجلس القاضى فلان : هو الذى أخَذ القلَمُ فى مدْحِه، والكَرَمُ فى مَنْحِه ، آقتضىٰ رأيُنا الشريف أن نُقْبِل على إقبالِه علىٰ الدين بوجْه الإقبال ، وأن نبَلِّغه فى أيَّامنا الشريفة ما كان يرجُوه من الآمال . فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يرْفَع مَن كان للدّولة ولِيًّا، ويضَع الشيءَ محلَّه بتقديم مَنْ أضحىٰ عِرفانُه جَلِيًّا[(١)] .

فلْيباشِرْ ذٰلك مباشرةً تبلِّغه أمَلًا من الآعتِلاء، وتُنوِّلُه مَرامًا من الآعتِناء، وتُؤمِّنه من طوارِق الزَّمن وحوادِثِ الآعتِداء، عالمًا بأنَّ دولتنا الفلانية المنصورةَ تُجازِى عن الحسنةِ بأمثالِها ، وأنَّ أيَّامنا الفلانيةَ المشهورةَ المشكورةَ تبلِّغ أولياءها غايةَ آمالِها ؛ وأنَّنا أجزَلْنا بِرّه ، وأجملْنا ذِكْرَه ، وأجرَيْنا علىٰ لسان القَلَم حَمْدَه وشُكْرَه ؛ فليعتَمِدْ فى مباشرته الأمانةَ المُبِرَّة، والنزاهةَ التى رَفَعت ماساءَه ووضَعَتْ ماسَرَّه ؛ وليشَمِّرْ فى مصالح هذا الديوان السعيدِ عن ساعِدِ آجتهادِه، ويعتَمِد فى أموره ماأُلِفَ من سَدَادِه، ويَتَحَرَّ من السعادة ما كان قبل القول من سُعَادِه؛ وليتَّقِ الله حقَّ تُقاتِه ، ويجعَلِ التقوىٰ حِليةً لأوْقاتِه ، وحُلَّة علىٰ سائرِ تصَرُّفاتِه ؛ ويَسِرْ بتقواه سَيْرًا خَبَرًا وخُبْرًا، ويَذَرْ جورا وجَبْرا ، ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يجعَلْ لَهُ مِن أَمْرِه يُسْرا ﴾ .

(١) أن يستقر فى ديوان كذا الخ وحذفه اختصارا للكتابة وكثيرا ما يفعل مثل ذلك .

قلت : وغالب مايُعتنىٰ به فى تواقيع أرباب الأقلام المفتتحة بـ«رُسم» الدعاءُ المصدَّرُ به التواقيع [و] آشتمالُه علىٰ بَراعةِ الاستهلال .

وهذه جملةُ أدعيةٍ من ذٰلك يُنْسَج علىٰ مِنْوالها :

أثير الدّين — لازال فَلَك فضله أثيرا، وطالعُ سَعْده مُنيرا، وهُبُوب ريح مَبَرّاته للخيرات مُثيرا .

أمين الدّين — لازال يَبْتغى للخِدَم الشريفةِ خَيْرَ أمين، ويصْطفى للقيام بالمصالح أنهَضَ مُعين، ويجتبِى لأهمِّ المُهِمَّات من هو غير متَّهَم فى المناصحة وغيرُ ظَنين .

بدر الدين — لازال يُولِّى المناصبَ الدِّينيَّةَ من سَلَك فى النزاهة مَسْلَكا جميلا، ويُولِى الفضل الجزيل مَنْ أضحىٰ إشراقُ بدْره علىٰ آثار حظِّه دليلا .

برهان الدين — لازالَتْ أوامرُه الشريفةُ ترفَع للعلماء شانا، وتُقيم على آستحقاقِهم دَليلا واضحا وبُرْهانا .

تاج الدين — لازالَتْ صدقاتُه الشريفةُ ترفَع تاجَ الفضائل على الرُّءُوس، وبِرُّه الشاملُ يُذَكِّى النفوس ويُزكِّى الغُروس، وتَواردُ إفضاله يُوشِّى المَهارِقَ ويدبِّج الطُّروس .

تقيّ الدين — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تقدِّم كلَّ تقيّ، وتُرَجِّح ميزانَ مَنْ هو بالفضائل أمْلىٰ مَلِيّ، وترفَع قدْرَ من إذا سُئِل عن محلِّه فى الرياسة قيل عَلِيّ .

جمال الدين — لازال جمالُ جميله للنُّفوس رائقا، وإفضالُه المتوافر لكل إفضالٍ سابِقا .

جلال الدين — لازالَتْ صدقاتُه الشريفة تَزِيد جلال ذَوى الفضل جَلالا ، وإحسانُه المتواتِرُ يُوَسِّع فى البِرّ لأُولى الاستحقاقِ مجَالا ، وبِرُّه المتتابِعُ تَقصُر عنه خُطا كلِّ بِرّ فيُنادىٰ : هكذا هكذا وإلا فلا لا .

رضىّ الدين — لازال رضِىَّ السَّجَايا ، ظاهرَ المزَايا ، مسترْسِلَ دِيَم العطَايا .

زينُ الدين — لازال نَوالُه الشريفُ زيناً لنائله ، وسؤالُه المحقَّق إجابتُه شرفًا لسائله ، وقاصدُ بابه الشريفِ يُوَمَّ بالخير فى عاجِلِ الأمرِ وآجِلِه .

سراج الدين — لازالَتْ عنايتُه الشريفةُ تَخُصُّ أولياءَها بجزيل المَواهب ، وتُبَلِّغهم من صدَقَاتها العامَّةِ غايةَ الآمال وأقْصى المَطالب ، وتُوقِد لهم من أنوار سَعادتِها سراجًا يَغْلِب علىٰ نُور الكواكب .

سرىّ الدين — لازالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تَصْطفى من أرباب الكتابةِ من يُجِيد المعانِىَ فلا يضَع لفظا إلا جعَل تحتَه معنًى سَرِيًّا ، وترتضى من فُرْسان البَراعة فى مَيْدان اليَراعة مَنْ يرتقِى ببلاغتِه مكاناً عليًّا ، وتجتَبِى من أهل الإجادة من تميَّز بالإفادة فلا يزال كلامُه لأجياد الطُّروس حُليًّا .

شرف الدين — لازالت صدَقاتُه الشريفةُ تضَع الشىءَ فى محلِّه ، وتُرجِع الفضلَ إلىٰ مستحقِّه وأهلِه ، وتختارُ للمناصب من ظَهَر شرفُه بين قولِه وفِعْلِه .

شمس الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفةُ تُطْلع فى سماء المَعَالِى من ذَوى الرياسة شَمْسا ، ونِعَمُه الجسيمةُ تُنْبِت فى روض الإحسان غَرْسا ، ومراسمُه العاليةُ تَنْقُل إلىٰ رُتَب الرياسة من شَدّت كفُّه علىٰ عدد الأمانِىّ خَمْسا .

شهاب الدين — لا زالتْ صدقاتهُ الشريفةُ تُطْلِع فى أُفُقِها شِهابا ، وتُهْمِل من جزيل المَواهب للأمانِىِّ سَحَابا ، وتضَع الشيءَ فى محله وتَزيدُ الأمورَ ٱنتظاما والدعاءَ ٱستجلابا .

صدر الدين — لا زالتْ آراؤه الشريفةُ تستجيدُ من ذَوِى الفضائل مَنْ جاوَزَ الجَوْزاء نَظْما وفاق النَّثْرة نَثْرا ، وتستفيدُ(١) به المناصب من الأماثل مَنْ تقْصُر عن مجده الكواكبُ رِفْعة وقَدْرا ، وتستزيد منه المراتب من فاق سَحْبانَ وائلٍ وسادَ الأوائل فأضحىٰ فى مجالس العلياء صَدْرا .

صلاح الدين — لازال أمرُه الشريفُ يقدّم من يُفِيد ويُجِيد ، فيكون لكلِّ أمرٍ صلَاحا ، وكرَمُه الطويلُ المَديد ، يشمَلُ مِن ذوِى الفضائل مَنْ فاق "سَحْبانَ" وائلٍ فصاحةً وفاق "حاتِمَ" الأوائلِ سَماحا ، ورأيُه الرشيدُ السديدُ ، يختارُ مَنْ إذا ٱنتضىٰ اليراعةَ غلَب رأْيُه سيُوفا وطال قَلَمُه رِمَاحا .

ضياء الدين — لا زالتْ آراؤه الجميلةُ ، تختار من ذَوِى الفضائل الجليلةِ من تَزْداد به المناصب ضياءً ، ونِعمُه الجزيلة ، تعُمُّ كلَّ بارع إذا ٱدلهمَّت الخُطوب كان فُوه لها جِلاء ، وعوارفهُ المستطيلةُ ، تشمَل كلَّ فاضل بذَلَ فى الخدمة جُهْده وتَكْسُوه هيبة وبَهاء .

علم الدين — لا زال جزيلُ إحسانه ، أَوضَحَ من نارٍ علىٰ عَلَم ، ومزيدُ ٱمتِنانِه ، يشملُ أربابَ السيف والقلَم ، وسُحُب بَنانِه تَسُحُّ فلا تَشُحُّ بجزيل الكَرَم .

علاء الدين — لا زال عَلاءُ دولتِه يصطفِى ذَوِى الفضائل ، ويختارُ من الفُصَحاء من يفُوتُ الأواخرَ كما أضحىٰ يفُوت الأوائِل ، ويقدّمُ مَنْ هو فى تدبير البَراعة كعلىِّ بن هِلَال وفى حُسْن البَراعة كسَحْبانِ وائِل .

---

(١) لعله « وتستعيد للمناصب ... ... وتستزيد فى المراتب الخ » . تأمل .

عِــزّ الديـن — لا زالتْ صدقاتُه الشريفة تَزِيد ذَوِي الأقلام، من جزيل الإنعام، فتُنيلُهم عِزّا ، وتستجيدُ من كُتّابها الأعلام، من خُصّ بجواهر الكلام، فكلُّ حُسْن إلىٰ كلامه يُعْزىٰ، وتستفيدُ من نُجَباء الأيّام، كلَّ بارع كأنَّ كلامَه زَهْر الكِمام، فلو خاطب سَحْبان لأورثه قُصُورا وعَجْزا .

عِمَاد الديـن — لا زالَتْ آراؤُه الشريفةُ تتَّخِذ من نُجَباء الكُتَّاب، عِمادا، وتختارُ من ذَوِي الفضائل فى الخطاب، مَنْ تجِدُ لكلامه حُسْنا وسَدَادا، وتُقدِّم من أهل الفضل فى السؤال والجوابِ، مَنْ لا تَعْدَم فى كلِّ مقاصده رَشَادا .

عضد الديـن — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تجعل من إنعامها، لخدّامها، عضُدا، وتلحَظُ بعين إكرامها، وحسن آحترامِها، مَنْ طال فى الفضل مَدىٰ، وتزيِّن مطالعَ أيامها، بشُموس أعلامِها، فلا ترىٰ مثلَهم أحدا .

غَرْس الديـن — لازالَتْ صـدقاتُه الشريفةُ تُنْبِت فى روض الإحسان، من أرباب البيَـان ، غَرْسا ، وتجتنِي من كِمام اللِّسان ، أزاهِرَ النُّكَت الحِسان ، وتزيِّنُ بها طِرْسا ، وتُفيض من مَواهب البَنَـان ، ما يشهَد لهـا بجزيل الآمْتِنان ، فَيطِيب كلُّ آملٍ نَفْسا .

غياث الديـن — لا زالَتْ صدقاتُه الشريفةُ تُبْـدِى لكلِّ آملٍ غِياثَهـا ، وتُضفِى ظِلَّها علىٰ من آستجار بها وآستَغاثَها، وتنْطِق ألسُنُ أقلامها، بمواهب إنعامِها، فتبذُل طريفَها وتُراثَها .

فتـح الديـن — لا زالتْ صـدَقاتُه الشريفةُ تتخيَّر من ذَوِى الأقلام، مَنْ يفتح أبواب الكلام، فتحا، وتَهَب جزيلَ الإنعام، لمن يستحقه من الكُتّاب الأعلام،

فينالُ بذلك ثناءً وربْحا، وتُقرِب بيَدِ العِناية والإكرامِ، من ذَوى الرياسةِ والاحترام، مَنْ هزَّ على البلغاء قِدْحا .

فخـر الديـن — لا زالَتْ آراؤُه الشريفةُ تُنَصِّب فى المَناصب، من يَزِيد بحُسْن مباشَرتِه فخْـرُها، وتُمْطِى ظُهورَ المراتب، من إذا أظْلَمت الأيامُ لعدم فاضل ظهرَ بفضيلتِه فجْـرُها .

قُطْب الديـن — لازالتْ صـدقاتُه الشريفةُ تُدِير علىٰ قُطْب البـلاغة من أرباب البَرَاعة نُجُوما، وتُشيرُ بعنايتها إلىٰ مَنْ حاز من الفضل فُنُونا وأحيا من الآداب رُسوما، وتُنير بدُورَ سعدها لمن لم يزل قلمُه لأسرار المُلْك كَتُوما .

كريم الديـن — لازالتْ صـدقاتُه الشريفة تشـمَل من ذَوِى الفضائل مَنْ عُدّ فى فضْـلِه وأصلِه كريمـا، فتُقدّم مَنْ لا له فى البَلاغه مـاثِلٌ فلا يَزالُ بكل فَنٍّ عليما، وتُنَصِّب فى المَنَـاصب مَنْ فات قَيْسَ الأوائل رأْيا وفاقَ قُسًّا بحـديث بَلاغته قَديمـا .

كمال الديـن — لا زالتْ سعادتهُ الباهره، تُطْلِـعُ فى سماء العَلْياء مَنْ فاق البُدورَ كمالا، وأوامِرُه القاهره، تُقدّم أسْنىٰ البُلَغاء جَلالا، وأسْمىٰ صدَقاتِه الوافيه، تعُمُّ من ذَوِى الفضائل مَنْ زاد المَناصبَ بحُسن مباشرتِه مَهابةً وجَمالا .

مجد الديـن — لا زالت صدَقاتُه الشريفةُ تملّك أعنّةَ الأقلام، من تراه لها مَجْدا، وتُودِع بجيد الأيّام، من جواهر الفضلاء عقْدا، وتشمل بأياديها الكرام، مَن اذا جُمِـع البُلَغاء كان بينهم فردا .

محيي الدين — لازالت أوامرُه الشريفةُ تشمَل من البُلَغاء من شُهِر بفصْل الخطاب، وإذا ماتت الفضائلُ يُحيِيها، وغيثُ جُوده الهامى[1] يُفيض فيضَ السَّحاب، فيُبادِرُ العُفَاة ويُحَيِّيها، وعنايتُه تعم ذَوِى الألباب، فتمَهِّد رُتَبَ العِزِّ وتُهَيِّيها .

موفَّق الدين — لازالتْ صدقاتُه الشريفةُ تُطْلِع كلَّ هلال مَن آهتدَىٰ به كان موفَّقا، وتُملِّك اليراعَ مَنْ يُزْرِى بابن هِلال أنَّى كتَب: رِقَاعا ومحقَّقا، وتُفِيض لراجيها أفضلَ نَوالٍ مَنْ شبهَّه بالغيث كان مُحَقِّقا .

ناصر الدين — لا زال يُقرِّب مَنْ أضحىٰ لأهـل الكلام، بمُرْهَفات الأقلام، ناصِرا، ويَهَب طويلَ الإنعام، لمن باعُه مديدٌ فى النَّثْر والنِّظام، فما بَرِح فضلُه وافِرا، وينتخب مَنْ غَدَا شَرِيعا لعادات الكرام، مُضارِعا لِصِفات الكُتَّاب الأعلام، وأصبح فى البَيان نادِرًا .

نجم الدين — لازالت أوامره الشريفةُ تُطلِع فى أفُق السعاده، من ذوى السياده، نَجْما، وتعمُّ بجزيل الإفادَه، مَن عُرِف بالفضل وبالإجادَه، وفاق أقرانه نثرا ونَظْما، وتَسْمح من عنايتها بالإراده، لمن هو أهلُ الحسنىٰ وزياده، فتُجْزِل له من كَرَمها قِسْما .

نُور الدين — لا زالتْ صدقاتُه الشريفةُ تعمُّ بالنَّوال، مَنْ هو فى البَرَاعة متَّسِعُ المَجال، فيزيدُ الكلامَ نُورا، وحسَناتُه تشمَل ذَوِى الآمال، بما يُحْمَد فى البَدْء والمآل، فتمْلأ القلوبَ سُرورا، ومَبرّاتُه تَصِل أُولِى الكمال، وتنتخِبُ أخيارَ العُمَّال، فلا بَرِح أنفَذَ الملوك أُمُورا .

---

(١) فى الاصل «الوهام» ويظهر أنه تحريف .

نظام الدين — لازال يتخيرُ مَنْ كان فى الناس مَجيدا ، وفى البيان مُجيدا ، فَحَسُن لفظُه نِظاما ، ويَهَبُ من برّه مَزِيدا ، لمن كان فى الخِدمة مُرِيدا ، فلا ينقُض للنصيحة ذِماما ، ويبذُل كَرَمًا مُفيدا ، لمن يراه فى الفضل مُبْدِئا ومُعيدا ، فحاز فَخَارًا وطابَ كَلاما .

هُمام الدين — لا زال يرتَضِى مَنْ هو فى فُرْسان البَراعةِ أنهضُ هُمَام ، ويقتضِى وعْدَ كرمه لمن نهضَ فى الرياسة نُهوضَ آهتِمام ، وينتضِى عَضُد(١) ذهنه فيصيب مَفْصِل كلِّ كَلَام .

وَلِىّ الدين — لازال يُحلِّى أجيادَ المناصب منذَوِى البلاغه ، بمن يُحسِن فى الكلام الصِّياغة ، فينظِمه حُليًّا ، ويُجلِّى كُرَب المراتب من فُرْسان البراعه ، بمن راحَ فضلُه ولفظُه جَلِيًّا ، ويُولِّى المناصبَ من غدا فى البيان وافر البضاعه ، فاتخذَتْه الأقلامُ وليًّا .

---

(١) لعل الصواب معضد كمنبر : تأمل .

الضــــرب الرابـــع

(من الوظائف التى يُكتب فيها بالديار المصرية مَشْيخةُ الخَوانق، وكلُّها يُكتب بها تواقيعُ)

وهى على طبقات :

الطبقـــة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلس العالى» مفتتحا بـ«الحمد لله» وهو مَشْيخة الشـيوخ خاصّـة)

وٱعلَمْ أنَّ مشيخةَ الشُّيوخ كانت فيما تقدّمَ تُطلَق على مشيخة الخانقاه الصَّلاحيَّة، «سعيد السعداء» فيكتَبُ فيها بذلك . ولم يزل الأمرُ على ذلك إلى أن بَنى السلطان الملك الناصرُ «محمدُ بن قلاوون» الخانقاه الناصريَّةَ بسِرياقَوْس، ٱستقرّتْ مشيخةُ الشيوخ على من يكون شيخًا بها، والأمرُ على ذلك إلى الآنَ .

وهـذه نسخةُ توقيع بمَشْيخة الشُّـيوخ بالخانقاه الصَّلاحية «سـعيد السُّعداء» بالقاهرة المحروسةِ باسم الشيخ شمس الدِّين بن النَّخْجُوانىّ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ ٱبن فضل الله العمرىّ، وهى :

الحمدُ لله مُرقِّى أوليائه، ومُوَقِّى أصـفيائه، ومُلَقِّى كلمةِ الإخلاص لمن تلقَّى سرَّها المصُونَ عن أنبيائه .

نحمدُه على مُصافاةِ أهـل صَفائه، ومُوافاة نِعَمِنا لمن تمسَّك بعُهود وَفائه، وتَسلّك فأصبحتْ رجالٌ كالجواهر لا تنتظِم فى سِلْكه ولا تُعَدّ من أكْفائه، وطَلَع للدِّين شمسًا يُباهِى الشمسَ بضيائه، ويُباهِلُ البدرَ التَّمـامَ فيتغيَّرُ تارةً من خَجَله وتارةً من حَيائه .

ونشهد أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُعِـدُّها ذُخْرا للقائِه ، وفخرا باقِيًا ببقائِه ، راقيًا فى الدرَجات العُلىٰ بارتِقائِه .

ونشهد أنَّ سـيدَنا محمدا عبدُه ورسـولُه مبلِّغُ أنبائِه ، ومسوِّغُ الزُّلفىٰ لأحِبَّائه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه والتابعين لهم بإحسانٍ من أهل وَلائه ، ومَنْ عَرَف به اللهَ لمَّـا تفكَّر فى آلائه ، صـلاةً يُؤمَّل دوامُها من نَعْمائه ، ويؤمِّن عليها سُـكَّانُ أرضه وسَمـائِه ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإن أوْلىٰ ما ٱستقامَ به [الشخص على] الطريقَه ، وٱستدامَ به الرجوعَ إلى الحقيقه ، وٱسْتَامَ به يطمئن إلىٰ خالقه لا إلى الخليقه ؛ وحفِظ أُفُقه بنيِّرٍ تستضىء به النيِّرات ، ونَوْءٍ تتقَسَّم به الغمائمُ المُطرات ــ طائفـةُ أهل الصَّـلاح ، ومن معهم من إخْوان أهلِ الصـفاء الصُّوفيَّة داعِى الفَلَاح ؛ ومن تَضُمُّهم من الواردين إليهم إلىٰ جَنَاح ، والصادِرِين عنهم بنَجاح ؛ ومن تُفْتَح له فيهم أبوابُ السماء ، وتُمنَح بنَفَسهم عامةُ الخلق مَلَابِسَ النعماء ؛ ومن يُكشَف بتهجُّدهم جُنْحُ كلِّ ظَلام ، ويُكسَفُ بتوجُّههم عارضةُ كلِّ بدْر تمـام ؛ ويُستشفىٰ ببركاتِهم من داء كل سَقَام ، ويُستَسْقىٰ بدعائِهم إذا قَصَّر النِّيلُ وقَصَّ جناحَه الغَمَام . وهم أولياء الله وأحِبَّاؤه ، وبهـم يتعلَّل كل لبيبٍ هم سَقَامه وهُم أطبَّاؤه ؛ أنحلَهُم الحبُّ حتّىٰ عادوا كالأرْواح ، وأشغلهم الحبُّ بصوتِ كلِّ حَمام شجاهُم لمَّـا غنَّىٰ وبرّح بهم لمَّـا ناح ؛ وأطربَهـم كلُّ سَمْع فوجدُوا بكل شىء شَجَنا ، وعذَّبهم الهوىٰ فاستعذَبُوا أن لا يلائُموا وَسَنا ؛ ومثَّل فرطُ الكَلَف لهم الأحباب فمـا رأَوْا لهم حالًا إلا حَسَنا ، وأثقـلَ تكرارُ الذِّكْرىٰ قلوبَهم فمـا عدُّوا غُرْبةً غُرْبةً ولا وطَنًا وطَنَا ؛ قرَّبت المحبةُ لهم فى ذات الله كلَّ مُتباعِد ، وألَّفَتْ أَشتاتَهم فاختلفَت الأسمـاءُ والمعنىٰ واحد .

والخانقاه الصلاحيَّةُ بالقاهرة المحروسة المعروفةُ بـ«سعيد السعداء» ـ قدّس الله رُوح واقفها ـ هى قُطْب نُجومهم السائره، ومركزُ أفلاكهم الدَّائره، وإليها تحطُّ رُحَّالُ سُفَّارهم، وعليها تُحَطُّ رِحَال أسْفارهم؛ تضْطرب فِرَقُهم فى البلاد وإليها مَرْجِعُهم، وعليها مجتمَعُهم، وفيها مواضعُ خلَوَاتهم، ومطَالِع جَلَواتهم، ومكانُ صَلاَتِهم، وإمكانُ صِلاَتهم؛ ومَشْرِق شُموسهم، ومُؤْنِق غُرُوسهم؛ ومنهاجُ طريقتهم، ومعراجُ حقيقتهم؛ مأْوىٰ هذه الطائفةِ الطائفةِ فى شَرْق البلاد وغَرْبها، وبُعْدها وقُرْبها، وعَجَمها وعُرْبها، ومَنْ رفع سُجوفَها أو هو محجوبٌ بحُجُبها؛ والمؤهَّلة والعراب، وأهل الاغتراب؛ هى فَسيحُهم الرَّحيب، وصَفيحُهم القريب؛ ومثالُهم إذا اجتمَعُوا فى الملإ الأعلىٰ زُمَرا، واخترقُوا المَهامِهَ وما جازوا بيداءَ ولا جابُوا مُقْفِرا؛ وبلغُوا الغايةَ وما أزعَج رِكابَهم حادٍ فى ليلِ سُرىٰ، ووصلُوا وما فارقُوا فُرُشَهم المهَّدة إلىٰ ما وراءَ الورَىٰ؛ شرطُ كلِّ خانقاه أن لا تُغْلِق فى وجه من ينْزِل فيها بابًا، ولا تُطيلَ جهاتُها الْمُمنَّعةُ له حِجَابا، ولا تُعْجِلَ مقاماتُها المرفعة له قبل (١) ... ...

وهذه نسخة توقيع بمَشْيخة الشيوخ، وهى مَشْيخة الخانقاه الناصريَّة بسرياقَوْس، مما كُتِب بذٰلك للشيخ نِظام الدين الأَصْفهانى، من إنشاء السيد الشريف شمس الدين :

الطرّة

توقيعٌ شريفٌ بأن يفوّض إلى المجلس العالى، الشيخىّ، النِّظامىّ، إسحق ابن الشيخ المرحوم جلال الدين عاصم، ابن الشيخ المرحوم سعد الدين محمدٍ الأصفهانىِّ

(١) بياض فى الأصل وبه علامة التوقف .

القُرشىِّ الشافعىّ ـ أدام الله النفْع ببركته ـ مشيخةُ الخانقاه السعيدةِ الناصريَّة بسرياقَوْس ـ قدّس الله رُوح واقفها ـ ومشيخةُ الشيوخ بالديار المصريَّة والبِلاد الشاميَّة والحلبيَّة ، والفُتوحات الساحليَّة ، وسائر المَمالكِ الإسلاميَّة المحروسة ، علىٰ عادَته فى ذٰلك وقاعدَته ومعلُومه؛ وأن يكون ما يخصُّ بيتَ المال من مِيراث كلِّ من يُتَوفَّى من الصوفيَّة بالخانقاه بسرياقَوْس للشيخ نِظام الدين المشارِ إليه ، بحيث لا يكونُ لأَمين الحكم ولا لِديوان المَواريث معه فى ذٰلك حديثٌ ، وتكونُ أمورُ الخانقاه المذكورةِ فيما يتعلّق بالمَشْيخة وأحوالِ الصوفيَّة راجعةً للشيخ نِظام الدين المشارِ إليه ، ولا يكونُ لأحدٍ من الحُكّام ولا من جِهة الحِسْبة ولا القُضاة فى ذٰلك حديثٌ معه ، ولا يشْهدُ أحدٌ من الصوفيَّة ولا ينْتَسب إلا بإذنه ، علىٰ جارى عادتِه فى ذٰلك علىٰ ما شُرِح فيه ، وأوّله :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمه التى ألَّفتْ للصالحين من عباده نِظَاما ، وٱستأنفَتْ للصّائحين إلىٰ مُرادِه إحراما ، وصرَّفتْ أوامرَنا بالعدْل والإحسانِ لمن فَوّض أُمُورَه إلىٰ ربِّه فأنجح له من مَزِيد التأييد مُرادًا ومَراما ، وعطَفتْ بأوجُه إقبالها الحِسانِ علىٰ من هو متنزِّه عن دُنْياه ، متوجِّهٌ إلىٰ أُخراه ، يُمضى نهارَه صِيامًا وليْلَه قِياما .

نحمده علىٰ أنْ جعلَنا نَرْعىٰ للأولياء ذِمَاما ، ونَسْعىٰ بالنَّعماء إليهم ابتداءً وإتْماما ؛ ونشهد أنْ لا إِلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ترفَع للمخْلصين فى علِّيِّينَ مَقاما ، وتدْفَع بأعمال الصِّدْق عن المتوكِّلين عليه بَأْسا وأسْقَاما ؛ ونشهد أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جعله للمتَّقين إمامًا ، وفضَّله على النبيِّين إجلالًا وإعْظاما ، وكمّله بالسِّمات المُكَرَّمات ، والصِّفات المشَرَّفات ، مما لا يُضاهىٰ ولا يُسامىٰ ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين شَرُفُوا إضافةً إلىٰ نسبه الشريف وٱنْضماما ؛ ورضى اللهُ عن أصحابه

الذين عرفوا الحقّ فبذلوا فى إقامته ٱجتهادًا وٱهتمامًا، صلاةً تُجمِّل ٱفتتاحا وٱختتامًا، وتُجْزِل إرباحًا وإنعامًا، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فشيمُنا العدلُ والإنصاف، لمن له بيُمنِ الأعْراق ٱتصالٌ وبحُسْنِ الأخلاقِ ٱتِّصاف، ومن كرَمنا الفضلُ والإسْعاف، لمن لاخفاءَ فى تعيُّنه لتصدير التقديم وتكريرِ التكريم ولا خِلَاف، ومن سَجاياناَ الجميلةِ أن لا تُضاع حقوقُ مَنْ هو فى الزَّهادة والعُبُوديَّة إمامٌ، لألسنة الأيَّام، بحِلَاه الحسنة إقرارٌ وٱعتراف، ولمزايانا جميلُ المحافظةِ، وجليلُ الملاحظةِ، لمن توكَّل على الله حقَّ التوكُّل فله ٱنتصارٌ بالله تعالىٰ وٱنتصاف: لأنَّه العريقُ الأسْلاف، الرَّفيق بالضِّعاف، الحقيقُ بتوفيرِ التوفيق الذى له ببركاته المباركةِ ٱكْتِناف، المُطيقُ النُّهوض بأعباءِ الرِّياسة: لأنَّ للقلوب علىٰ محبَّتِه ٱئتلاف، السَّبُوقُ إلىٰ غايات الفَلَوات الذى تَحُفُّ به فى بُلوغ آماد الإسعادِ من الله تعالىٰ ألْطاف، والصَّدوقُ النيَّةِ مع الله تعالىٰ فكَمْ والىٰ لنعمائِه الزيادةَ والٱستِئْناف .

وكان المجلسُ العالى الشيخىُّ، الإمامىُّ، الكبيرىُّ، العالِمىُّ، العاملىُّ، الأوحَدىُّ، القُدْوىُّ، الوَرَعىُّ، الزاهدىُّ، الناسكىُّ، الخاشعىُّ، السالكىُّ، الأصيلىُّ، العَريقىُّ، القَوامىُّ، العلَّامىُّ، النِّظامىُّ : جمالُ الإسلام والمسلمين، شرفُ العلماء فى العالَمين، أوحدُ الفضلاء، قُدوة المشايخ، مربِّى السالكين، كنزُ الطالبين، موضِّح الطريقه، مبيِّن الحقيقه، شيخُ شيوخ العارفين، بركَةُ الملوك والسَّلاطين، ولىُّ أمير المؤمنين، إسحٰق ٱبن الشيخ المرحوم فلان ـــ أدام الله النفْعَ ببركاته ـــ هو المفوِّض أموره إلىٰ ربِّه، المُعْرِض عن الدنيا بباطنه وقلْبِه، المتعوِّض بما عندَ الله من فضله فما زال الإيثارُ من شأْنه ودأْبه، إلىٰ إخْوانه وصَحْبه، فهو من الذين يُطْعمون الطعامَ علىٰ

حُبِّه ، ويُلْهَمُون من العمل المبْرُور إلىٰ أقربِه من الله وأحبِّه ، ويقُومون الظَّلامَ مع أولياء الله المخلِصين وحِزْبه ، ويستديمونَ الإنعام من الله تعالىٰ بالإحسان إلىٰ عبادِه ففرْعُهم لأصلِهم فى صُنْعِهم مُشْبِه ، ويستسْلِمُون لأحكامِ الله تعالىٰ وكلُّهم شاكر لربِّه ، علىٰ حُلْو القضاء ومُرِّه صابِرٌ علىٰ سَهْل الأمر وصَعْبِه ، سائرٌ بالصِّدق فى شَرْق الوجُود وغَرْبِه ، مثابِرٌ على الحق فى عَجَم الخلق وعُرْبِه .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال يُوصِّل الحقُوقَ إلىٰ مستحِقِّيها ، ويُجمِلُ الوثُوقَ بمن تتجمَّل المراتبُ الدينيةُ منه بترقِّيها ــ أن يفوّض إلى المُشار إليه مشيخَةُ الخانقاه السعيدة الناصرية بسِرْيَاقَوْس ــ قدّس الله رُوح واقفِها ــ ومشيخةُ الشيوخ بالديار المصريَّة ، والبلاد الشاميَّة والحلبية ، والفُتوحات الساحليَّة ، وسائر الممالِك الإسلاميَّة المحروسة ، علىٰ عادَتِه فى ذٰلك وقاعدتِه ومعْلُومه ، وأن يكون ما يُخَصُّ بيتَ المال المعمُور مِن ميراث كلِّ من يُتوفَّى من الصُّوفية بالخانقاه المذكورة للمشارِ إليه ، بحيث لا يكونُ لأمين الحكم ولا لدِيوان المَوارِيث معه فى ذٰلك حديث ، وتكُون أمورُ الخانقاه المذكورةِ فيما يتعلَّق بالمَشْيخة وأحوال الصوفيَّة راجعةً إليه ، ولا يكُون لأحدٍ من الحكَّام ولا من جهة الحِسْبة ولا القُضاة فى ذٰلك حديثٌ معه ، ولا يشْهَد أحدٌ من الصُّوفية ولا ينْتَسب إلا بإذنه على العادةِ فى ذٰلك ، ويكون ذٰلك معدُوقًا بنظره .

فلْيعُدْ إليها عَوْدا حميدا ، وليُفِدْ من الإصلاح مالم يزَلْ مُفيدا ، وليعتَصِمْ بالله تعالىٰ مَوْلاه فيما تولَّاه وقد آتاه اللهُ تثْبِيتا وتسْديدا ، وليُشْهِد بها من القوم المباركين مَنْ [كان] عَوْدُه قبل الصوم عيدا ، وهو أعزَّه الله تعالىٰ المسعودُ المباشَره ، المحمودُ

المُعاشَره، المشهودُ منه اعتمادُ الاجتهادِ فى الدنيا والآخره، المعهودُ منه النَّفْع التـامّ ، فى فُقَراء مصْرَ والشام ، فكم أثّر الخير وآثَره، وكَثَّر البِرّ وواتَره ، ويَسَّر السـيرَ الحَسَن الذى لم يبْرح لسانُ الإجماع شاكِرَه .

ونحن نُوصيه عملًا بما أمر الله تعالىٰ به رسولَه صلى الله عليه وسلم فى كتابه المُبين، بقوله وهو أصـدقُ القائلين : ﴿ وذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنِين ﴾ وإن كنا نتحقَّق ما هو عليه من العلم والدِّين ، والحُكْمِ الرَّصين، والزُّهد والورَع اللذين نحن منهما علىٰ بيِّنة ويقين، باتِّباع شرُوطِ الواقفين، والإمتاع بالعوَارف أولياءَ الله العارِفين : فإنَّه ما زال حيثُ حلَّ فى جميع الآفاق ، واصلًا للأرْزاق، مُواصلا بالأشْواق ، شاملًا بالإرْفَاق ، عاملًا بالحـقّ فى إيصال الحقُوق لذَوِى الاستحقاق . ونأمُرُهم أن يكونَ لهم علىٰ تكريمه اتِّفاق ، وفى مُتابعتِه اجتماع واتِّساق ؛ فإنَّه شيخُ الطَّوائف ، وإمامٌ تُقْتَبَس منه اللَّطائف، وتُلتمَس منه الهدايةُ فى المَواطِن والمَواقف ؛ واللهُ تعالىٰ يمتِّع ببركاتِه الأُمّه ، ويَسْمَع منـه فى الخَلَوات لنا الدَّعواتِ التى تكونُ لأورادِه المقبولةِ مفتَتِحةً ومُتِمَّه ، ويصِـلُه بعنايتِه التى تقيِّد الهَمَّ وتؤيِّد الهمَّه ، ويجعـله حيثُ كانَ للفقراء نعمةً وبيْنَ الناس رَحْمَه؛ والعلامةُ الشريفةُ أعلاه، حجةٌ بمقتضاه .

الضـــربُ الخـامس

(من أرباب الوظائف بالدِّيار المصريَّة بالحضرة ـ أربابُ الوظائف العاديَّة، وكلُّها تواقيعُ)

وهى علىٰ طبقات :

الطبقـــة الأُولىٰ

(مَنْ يُكتَب له فى قَطْع النصف بالمجلس العالِى، وهو رئيسُ الأطبَّاء المتحدّثُ عليهم فى الإذن فى التطبُّب والعلاج والمنْع من ذٰلك وما يجرِى هــذا المَجْرىٰ)

وهذه نسخة توقيع برياسة الطِّبّ ، وهى :

الحمــدُ لله مُؤْتِى الحكمةِ مَنْ يشاءُ من عباده، ومُعْطِى أمانةِ الأرواح مَنْ ترقَّى فى حفظها إلىٰ رُتْبة آجتهاده، وجاعلِ عِلم الأبْدان أحدَ قِسْمَي العلِم المُطْلَق فى حالَي آجتماعه وآنْفِراده، وموفِّق من جعل نُصْح خلقِ الله فيــه سببًا لسعادة دُنْياه وذَخيرةً صالحةً ليوم مَعادِه، ومُبلِّغ(١) مَنْ كان[دائبًا] فى إعانة البريَّة علىٰ طاعةِ ربِّها بدَوامِ الصِّحَّة غايةَ مَرامه وأقْصىٰ مُراده ، ورافِع رتْبــةِ من دَلَّ آختيارُه وآختبارُه علىٰ وُفُور علْمِه ونُجْح علاجِه وإصابةِ رأْيه وسَدادِه .

نحمــده علىٰ نِعَمه التى خصَّتْ بنِعَمِنا من كَمُل فى نَوْعه وفضْــله وحَسُن فى علْمــه وعمَلِه قولُه وفِعلُه ، وجمعَ من أمانةِ وظيفتِه ومعْرِفتها ما إذا جَلَس فى أسْنَى مناصبها قيل : هذا أَهْلُه .

(١) فى الأصل ‘‘ومقلب ... ... يداوم الصحة‘‘ الخ تأمل .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُشْرِق البصائرَ بأضْوائها، وتُفْرِق الضمائرَ [1] باخلاصها من أدْوائها، وتُغْدِق بيُمْنها أنواءُ التوفيق فتتأرَّج رياضُ الإيمان بَيْنَ رُوائها وإرْوائها. ونشهدُ أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أنارتْ ملَّتُه، فلم تخْفَ علىٰ ذى نَظَر، وعلَتْ أدلَّتُه، فلم ينَلْها مَنْ فى باع رَوِيَّته قِصَر، وبهرتْ مُعجزاتُه فلو حاولت الأنفاسُ حصْرَها أفناها العِىُّ والحَصَر؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانُوا لأَدْواء القلوب عِلاجًا، ولسَلْسبيل الإيمان مِزاجا، وللبَصائر السائرةِ فى دُجىٰ الشُّبهات سِراجا؛ صلاةً دائمةَ الإقامه، متصلةَ الدَّوام إلىٰ يوم القِيامه؛ وسلَّم تسليما كثيرا.

وبعد: فإنَّ صِناعة الطِّبّ علم موضوعُها حفظُ الأبدان النَّفيسه، ومقصُودُها إعانةُ الطبيعة علىٰ حِمَاية الأعضاءِ الرَّئيسه؛ ومَدارُها الأعمّ، علىٰ معْرفة العَوارض وأسبابها، ومَدْرَكُها الأتمّ، الوقُوعُ على الصواب فى معرفةِ الجُسوم وأوْصابها؛ وحينئذٍ تتفاوتُ رُتَبُ أهلها عند تشَعُّب مَدارِكها، وٱختلافِ مَسالِكها؛ وتَشابُه عِلَلها، وٱلتباس صَوابها بخَلَلها؛ إذ لا يميِّز ذٰلك حقَّ تمييزِه إلا مَنْ طال فى العلم تبحُّره، وحَسُن فى رُتَب هذا الفنّ تصدُّره؛ وطابَق بين نَقْله وعلاجِه، وعَرَف حقيقةَ كل مركَّب من الأدوية ومُفْرَدٍ بعيْنه وٱسمِه وصفتِه ومِزاجه؛ وتكرَّرتْ عليه الوقائعُ فعرَفَها دُرْبة وأحكمَها نَقْلا، ولُقِّب بشِرْعة التقوىٰ إذ كان الإقدامُ على النُفوس قبل تحقُّق الداء والدَّواء مذمُومًا شرعًا وعقْلا؛ ولذٰلك تحتاجُ إلىٰ رئيس يُنْعِم فى مَصالحها نَظَرَه، ويُجْمِل فى منافعها وِرْدَه وصَدَره؛ ويعتبر أحوالَ أهلِها بمِعْيار فضلِه، ويُلْزِم الداخلَ فيها ببُلوغ الحَدّ الذى لا بُدّ منه بينَ أرباب هذا الشأن

(١) من أفرق المريض والمحموم برأ.

وأهلِه ؛ ويَعْرِف لأكابر هذا الفنّ قدرَ ما منَحَهم الله من عِلْم وعَمَل ، ويَبْسُط رجاءَ المبتدئ إذا كَمَّل نفسه حتَّى لا يكون له فيها بغير كمال الآستحقاق طَمَعٌ ولا أمَل .

ولما كان المجلسُ السامي ، القاضي ، الأجلُّ ، الحكيم ، فلانُ الدين : هو الذى بلَغ من العلم غايةَ مُراده ، وآحتوىٰ من هذا الشان علىٰ ما جمَع به رُتَب الفاضلين فيه على آنفراده ؛ فلو عاصَره «الرئيسُ» لآعتمَد عليه فى كُلِّيَّات قانونه ، أو «الرازىُّ» لعلم أن «حاوِيَه» من بعض فنونه ؛ قد حَلَب هذا العِلْمَ أشْطُرَه ، وأكمل قراءةَ هذا الفنّ رُموزَه وأسطُره ؛ وحلَّ أسرارَه الغامضه ، وآرتَوىٰ من سُحُب رُموزِه بأنْواءٍ لم يَشِم غيرُ فكرِه بُروقَها الوامِضه ؛ وأسلَف من خِدْمة أبوابنا العالية سفَرا وحضَرا ما آقتضَىٰ له مزِيَّةَ شُكْره ، وتقاضَىٰ له مزيدَ التنبيه علىٰ قَدْره والتنويه بذِكْره ؛ وحُمِد فيه الفَرِيدان : صحةُ نقْلِه وإصابةُ فِكْره ، وعُلِم أنه جامعُ علوم هذه الصِّناعة فلا يشِذُّ منها شيءٌ عن خاطره ولا يَغيب منها نَقْل عن ذُكْره .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال شِهابُ فضله لامِعا ، وسَحاب بِرّه هامِعا ـ أن يكونَ فلان متولِّيَ رياسة الأطباء بالديار المصرية علىٰ عادة مَن تقدَّمه .

فلْيباشرْ هذه الرياسةَ ناظرا فى مَصالحها ، مُطْلِعا من شِهاب فضله مايَزِين أُفُقَها زينةَ السماء بمصابيحها ، متفقِّدا أحوالَ مباشِريها ، متلَمِّحا أحوال المستقِلّ بأعبائها والداخلِ فيها ؛ سالكًا فى ذٰلك سبيلَ مَن تقدّمَه من رُؤسائها ، حاكمًا فى أُمورها بما جَرَتْ به العادةُ المستقِرّةُ بينَ أكابِرِها وعلمائها ؛ مُطارِحا مَن قَدُمت هجرتُه فيها بما يقتضِى له مراجعةَ أُصوله ، مُلْزِما من ظهَر قصُورُه فيها بالتدرُّب إلىٰ حدٍّ لايُقْنَع منه بدُون حصُوله ؛ مجيبًا فى الإذن لمن أظهرَ الآستحقاقُ صدقَ ما آدّعاه ، قابلًا فى الثُّبوت من مشايخ هذه الصِّناعة من لايَشْهد إلا بما علمه ولا يُخْبِر من التدرُّب

إلا بما رآه ووعاه، متحرّيًا فى الثّبوت لدينه، آذنًا بعد ذٰلك فى التصرّف إن ترقّى علمه باستحقاقه إلىٰ رتبة تعيينه؛ وليُعْطِ هذه الوظيفةَ حقَّها من تقديم المبرِّزين فى علمها، وتكريم مَنْ منحه الله درجتَىْ نقلها وفهمها، وتعليم مَن ليس عليه من أدَواتها المعتبَرة غيرُ وَسْمها وٱسْمها؛ ومَنْع من يتطرّق من الطُّرُقية إلىٰ معالجَةٍ وهو عارٍ من ردائها، وكَفِّ يَدِ من يتهجّم على النفوس فيما غَمُض من أدوائها قبل تحقُّق دَوائها؛ وٱعتبارِ التقوىٰ فيمن يتصدّىٰ لهذه الوظيفة فإنَّها أحدُ أركانها، وٱختيارِ الأمانة فيمن يصْلُح للاطلاع على الأعضاء التى لَوْلا الضرورةُ المبيحةُ حَرُم الوقوفُ علىٰ مكانها؛ وليكُنْ فى ذٰلك جميعِه مجانبًا للهَوىٰ، ناويًا نَفْع الناس فإنما لِامْرِئٍ مانوىٰ؛ والله تعالىٰ يحقّق له الأمَل، ويسَدِّده فى القول والعمَل؛ بمَنّه وكرمه! .

قلت : وربّما ٱفتتح توقيعها بـ«أما بعدَ حمد الله» .

وهذه نسخةُ توقيع برياسة الطِّب، من إنشاء الشيخ شهابِ الدين محمودٍ الحلبىّ، كُتِب بها لـ«شِهاب الدين الحكيم» فى المحرّم سنة تِسْع وسبعمائة، وهى :

أمّا بعدَ حمدِ الله حاسم أَدْواء القلوب بلطائف حِكْمتِه، وقاسِم أنواعِ العُلوم بينَ مَنْ كُمل ٱستعدادُهم لقَبُول ما ٱقتضَتْه حِكمةُ قسمتِه؛ وجاعِلِ لباس العافيةِ من نِعَمه التى هى بعدَ الإيمان أفضلُ ما أفاضَ على العبد من بِرِّه وأسبغَ عليه من نِعمتِه، والمنَزِّلِ من القُرءان ماهو شِفاءٌ ورحمةٌ للؤمنين قُلْ بفضْلِ اللهِ وبرحمَتِه؛ ومقَرِّبِ ما نأىٰ من الفضائل علىٰ مَنْ أسْرىٰ إليها علىٰ مَطايَا عزْمه وسَرىٰ لتحصيلها علىٰ جِياد هِمَّتِه، ومُلْهِم آرائنا بتفويض أمانةِ الأرواح إلىٰ من أنفَق فى خدمةِ الطبيعة أيّامَ عُمْره فكان بلوغُ الغاية فى علمِها نَتيجةَ خِدْمته؛ والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ الذى شرحَ اللهُ بالهدىٰ صدُورَ أمّتِه، وخصَّه منهم بأعلامِ كلِّ علمٍ وأئمتِه، وجلَا

بيقينِ مِلَّته عن كلِّ قلبٍ مارانَ عليه من الشَّك وغُمَّته، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حَمَاهم من الزَّيْغ والزَّلَل ما بَجَّر الهُـدىٰ لهم من جَوامِـع الكَلِم وأفاضَ التُّقىٰ عليهم من أنوار عِصْمته ـ فإنَّ أوْلىٰ الأمور أن يُعتَمد فيها علىٰ طبيبِها الخبير، ويُصانَ جوْهَرُها عن عَرض العَرْض علىٰ غير ناقِدِها البصير، وتُحْمىٰ مَوارِدُها عمن لم يعرِف كيف يجتَنب مَواقِـعَ التكدير، وتُرفَع كوا كِبُهـا عمَّن لم تُدرِك أفكارُه دقائقَ الحوادِث وحقائِقَ التأثير ـ أمْر صِناعة الطِّب التى موضُوعها الأبدانُ القائمة بالعِباده، والأجسامُ القائمة بمـا يتعاقَبُ عليها من الحوادث والزِّياده؛ والنُّفوس التى ما عنْها إنْ حصَل فيها التفريطُ بدَلٌ ولا عِوَض، والأرواحُ التى إنْ عَرَض الفَناءُ لجوْهَرِها فلا بَقاءَ بعدَه للعَرَض؛ والطبيعةُ التى إن خُدِمت علىٰ ما يُحَب نَهَضت علىٰ ما يَجِب بالصِّحَّة حقَّ النُّهوض، والأمْزِجةُ التى إن نفرَتْ لعدم التأنِّى فى سياستِها أعجزَتْ مَنْ يَرُوض.

ولذلك تفْتقِر علىٰ كَثْرة أربابِها، وتحتاجُ مع غَزارة المتمَسِّكين بأسبابِها؛ وتُضْطَّر وإن اندفعت الضروراتُ بكَثْرة مُتْقِنيها، وتتشوَّفُ وإن وُجِد الجَمُّ الغَفير من المتلَبِّسين بأدَواتِها والمُتَبحِّرين فيها ـ إلىٰ رئيس يُنْعِم فى اعتبارِ أكفائِها النَّظَر، ويَدْفَع عن رُتْبتِها بتطَرُّقِ غير أهلِها الغِيَرْ، ويَعْرِف من أحوالِ مُباشِريهـا ما لا يَكْفِى فى خُبْرِها الخَبَر؛ فلا يَقْبَل إلا مَنْ عَلِم مِقدارَ عِلْمه، ووَثِق مع الحِفْظ بصِحَّة فَهْمه؛ ورضِىَ عن خُبْره فى الطِّبِّ واجتِهاده، واعتَبر منـه كل نوع تحتَ أجناسه المتعدِّدة علىٰ حِدَتِه وانفرادِه؛ وجاراه فى كُلِّيَّات الفنِّ فرآه فى كلِّ حَلْبـةٍ راكِضا، وطارَحه فى فُصول العلم فوجدَه بحَمْل أعباءِ ما تفرَّع منها ناهِضا؛ واختَبر دُرْبَتَه فوجدَها موافقة لتحصيله، مطابِقةً لِمـا حَوَاه من إجمالِ كلِّ فنٍّ وتفصيلِه؛ وتتبَّع مواقِعَ دِينه فوجدَها مَتِينه، ومواضعَ أمانتِـه فألْفاها مَكِينه، وأسـبابَ شفقَتِه ونُصْحِه فعرَف أنها علىٰ ما جَمَع من الأدوات الكاملةِ مُعِينه؛ ويتعَيَّن أن يكونَ هـذا «الرئيس» فى أوانِه،

و «الرازىّ» فى زمانه ، و «الفارابىّ» فى كونه أصلا تتفرّعُ فنونُ الحِكَم من أفنانه ؛ عِلاجُه شفاءٌ حاضر ، وكلامُه نجاةٌ[1] من كل خَطَر مُخامِر ؛ وتدبيرُه للصحّة تقويم ، وتصفّحه تثقيفٌ لعلماء الصّناعة وتسليم ، ودُروسُه ذخائرُ يُنفق من جواهرِ حِكَمِها كلُّ حكيم .

ولما كان المجلس العالى الصّدْرىّ ، الشّهابىّ : هو المرادَ بالتعيُّن لهذه الوظيفه ، والمقصودَ بما أُشيرَ إليه فى آستحقاق هذه الرتبة من عبارةٍ صريحةٍ أو كنايةٍ لطيفه ؛ وأنّه جمع من أدَوات هـذا الفن ما آفترَق ، وآحتوىٰ علىٰ أُصُوله وفُروعه فاجتمعَتْ علىٰ أولَويّته الطوائفُ وآتّفقتْ علىٰ تفضيله الفِرَق ؛ فلو عاصَره «أبقراط» لقَضىٰ له فى شَرْح فُصوله بالتّقْدِمه ، ولو أدْرَك «جالينوس» لاَقتدىٰ فى العِلاج بما عَلّمه ؛ مع مباشرةٍ أَلّفت بين الصحّة والنُّفوس ، وملاطفةٍ أشرقَت مواقعُ البُرء بها فى الأجساد إشراقَ الشُّموس ؛ وآطّلاع يعْرِف به مبْلغَ ما عنـد كلِّ متصَـدٍّ لهذه الصناعة من العـلم ، وتَبَحُّرٍ فى الفنون لا يُسـلِّم به لأحدٍ دَعْوى الأهلية إلا بعد حرب جدالٍ هو فى الحقيقة عيْنُ السِّلْم — فرُسِم بالأمر العالى أن يستقرّ فلانٌ فى رياسة الأطبّاء الطبائعيّـة بالديار المصرية والشام المحروس ، علىٰ عادتِه وعادةِ مَنْ تقدّمه فى ذٰلك ، ويكون مستقِلًّا فيها بمفرده .

فلْينظُرْ فى أمر هذه الطائفة نظَراً تبرَأ به الذمّه ، ويحصُـل به علىٰ رضا الله تعالىٰ ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم فى الشّفَقة على الأُمّه ؛ ويُعطى به الصناعة حقَّها ، ويُطْلِق من يدِ مَنْ تطاوَلَ إليهـا بغير أهليّةٍ رِقَّها ؛ ويصُون النفوسَ من إقْدامِ من تقدّمَ بغير خِبْرة كاملةٍ عليهـا ، ويذُبُّ عن الأرواح تطرُّقَ من يتطرّق بغير معْرفة وافرةٍ إليهـا ؛ فإنّ فارطَ التفريط فى النفُوس قلّ أن يُسـتدْرَك ، ومن لم تجتَمِع فيه

(١) لعل الأنسب "وكلاءته" .

أدواتُ المعرفة التامة والدِّين فما ينبغى له أن يدخُل فى المعالجة قَبْل الكمال وإن دخَل فلا يُتْرَك ؛ فإنَّ من لازم صَلاح الأرواح صَلاحَ الأجساد ، وإنَّ الداءَ الذى لا دَواءَ له أن تكونَ العلّةُ فى وادٍ والمعالجةُ فى واد؛ فلا يَقْبَل فى التزكيَة إلا مَن يثق بدِينه كوُثوقه بعِلْمه، ولا يُصرِّف أحدًا فى هذه الصناعة إلا الذين زَكَتْ أعمالُهم قبل التزكيه ؛ وليَشْفَعها بالآمتحانات التى تُسْفِر[1] وجُوه الوُثوق بالأهلية عن ألم دقائقها المُنْكيه ، فإنَّ العِيان شاهد لنفْسه ، ومن لم تنفَعْه شهادةُ فعلِه فى يومه لم ينْفَعه غيرُه فى أمسه؛ ولا يُمضِ فيها حُكْمًا قبل آستكمال نِصابِ الشَّهاده، وقبل التثبُّت بعد كمالها: فانَّ المعالجةَ محاربةٌ للداء والموتُ بجَهَالة المحارب له شَهاده؛ وليأْمُرْ من أُلْجئَ إلىٰ معالجة مرض لا يعرِفُه بمتابعة مَنْ هو أوفَقُ منه بالتقديم، ومراجعة من هو أعلم منه به : فانَّ الحوادث قد تختلِف ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾. وملاكُ الأمور تقوى الله فليجعلها حجّته فيما بين الله وبينَه، والآفتقارُ إلىٰ توفيقه فليَصْرِفْ إلىٰ ذٰلك قلْبَه وعيْنَه؛ والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه وصيةُ متطبِّب طبائعى، أوردها فى "التعريف" قال :

ولْيتعرّفْ أوّلًا حقيقةَ المرض بأسبابه وعَلاماته ، ويَستقص أعراضَ المريض قبل مُداواته ، ثم ينظُرْ إلى السِّنّ والفَصْل والبلد ؛ ثم إذا عرفَ حقيقةَ المرض ، وقدْرَ ما يحتَمله المزاجُ من الدواء لما عَرَض؛ يشْرَع فى تخفيف الحاصل، وقَطْع الواصل، مع حِفْظ القُوىٰ . ولا يهاجِم الداء، ولا يستَغْرِب الدَّواء؛ ولا يَقْدَم عَلى الأبدان إلا بما يُلائِمها، ولا يبعد الشبه ، ولا يخرُج عن جادّة الأطبّاء ولو ظنَّ

(١) لعله تسفرعن وجوه الوثوق بالأهلية لثام دقائقها الخ . تأمل .

الإصابة حتّى يقوى لدَيْه الظنّ و يتبصّر فيه برأى أمثاله . وليتجنَّب الدَّواء، ما أمكنه المعالجـةُ بالغِذاء ، والمركّبَ ، ما أمكنه المعالجـةُ بالمفْرد ؛ و إيَّاه والقياسَ إلّا ماصَحَّ بتجريبِ غيره فى مثْل مِزاجِ من أخذ فى عِلاجه ، وماعَرَض له ، وسِنّه ، وفَصْله ، و بلدِه ، ودرجة الدَّواء . وليحذَرْ من التجْرِبة ، فقد قال أبقراط وهو رأسُ القَوْم : إنهـا خطَر . ثم إذا اْضطُرَّ إلىٰ وصفِ دواءٍ صالحٍ للعلَّة نظَر إلىٰ ما فيـه من المُنافاة و إن قلَّتْ ، وتحيَّل لإصلاحه بوصف يصْلُح معـه ، مع الاْحتراز فى وصْف المَقادير والكِّميات والكيفيَّات ، فى الاْستعمال والأوقات ، وما يتقـدّم ذٰلك الدواءَ أو يتأخَّر عنه . ولا يأمر باسـتعمالِ دواء ، ولا مايُسـتغْرب من غذاء ، حتّى يحقّق حقيقتَه ، و يعرف جديدَه من عتيقِه : ليعرِف مِقدارَ قوّته فى الفِـعل . وليْعلَمْ أنَّ الانسان هو بِنْيةُ الله وملعُونٌ من هَدَمها ، وأن الطبيعةَ مكافية و بُؤْسىٰ لمن ظلَمها ، وقد سلَّم الأرواح وهى وديعةُ الله فى هـذه الأجسام ، [فليحفَظْها وليتقِ اللهَ ففى ذٰلك جميعُ الأقسام][(1)] وإيَّاه ثم إيَّاه أن يصِفَ دواءً ثم [يكون هو الذى][(1)] يأتِى به ، أو يكون هو الذى يدُلُّ عليه ، أو المتولِّى لمنـاولته للمريض ليستعمِله بين يَدَيْه ، وفى هـذا كلِّه لله المنّة ولنا إذ هدَيْناه له وأرشدْناه إليه .

وهذه نسخة توقيع بِرياسة الكَحَّالين[(2)] .

(١) الزيادة عن "التعريف" ص ١٣٩ .

(٢) بيـاض بالأصل .

الضـــرب السادس
(مـن أرباب الوظائف بالديار المصـــرية)

زعمـاء أهل الذمة

ويُكتب لجميعهم تواقيعُ فى قَطْع الثلُث بألقـابهم السابقـةِ مفتَتحةً بـ«أما بعـد حمد الله» .

ويشتمل هذا الضربُ علىٰ ثلاث وظائف :

الوظيفـــــة الأُولىٰ
(رآســةُ اليهود)

وموضوعُها التحدّثُ علىٰ جماعة اليهود والحُكْمُ عليهم، والقضاءُ بينهم علىٰ مقتضىٰ دينهم وغيرُ ذٰلك .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ النِّحل والمِلَل أنَّ الموجودين من اليهود ثلاثُ طوائفَ : وهم الرَّبّانيُّون، والقَرّاءُون، والسامِرة . وقد جرتِ العادةُ أن يكون الرئيسُ من طائفةِ الرَّبّانيِّين دونَ غيرهم، وهو يحكم على الطوائف الثلاثِ .

وهذه نسخةُ توقيع برآسة اليهودِ، من إنشاء القاضى مُحيي الدين بنِ عبْدِ الظاهر، وهى :

أما بعـدَ حمد الله الذى جعـل ألْطافَ هذه الدولة القاهرةِ تَصْطفِى لِذمّتها من اليهود رئيسًا فرئيسا، وتختـارُ لقومها كما آختار من قَوْمه مُوسىٰ، وتُبْهج لهم نُفُوسـا كُلَّمـا قدّمتْ عليهم نَفيسا؛ والصلاة والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ النبىِّ الأمىِّ، والرسولِ الذى أجملَ الوصيَّةَ بالملّىِّ والذِّمّىِّ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما هَطَل وَبْلِىٌّ،

وما نزل وَسْمِىّ ــ فإنّ مَعْدَلة هذه الدولة تكتنف المِلَل والنِّحَل بالاحتياط، وتعمّهم من إنصافها وإسعافها بأوفر الأنصباء وأوفى الأقساط، وتلمّهم من حادث الزمن إذا اشتطّ ومن صَرْفه إذا شاط، وتضمّهم كما ضمّت البُنوّة إلى جناح النبوّة الأسباط، لا تزال ترقُب الإلّ والذِّمه، فى المسلمين وأهل الذِّمّه، وتقضى لهم بحُسْن الخِيَرة ورعاية الحُرْمه، وتُبيحهم من أمر دينهم ما عليه عُوهِدُوا، وتمنحهم من ذلك ما عليه عُوقِدُوا، وتحفظ نواميسهم بأحبارٍ تُحمَدُ موادُّهم إذا شُوفِهوا وتحسن مرآهم إذا شُوهِدُوا : من كل إسرائيلىّ أجملَ للتوراة الدِّراسه، وأحسن لأسفار أنبيائه اقتباسَه وأجملَ التماسَه، ومن نَبَّهَتْه نباهتُه للتقدمة فما طَعِم اجتهادَه يومًا حتّى صار وجْهَ الوَجاهة فى قومه ورأسَ الرِّآسه، فأصبح معدُومَ النظير، معدودًا منهم بكثير، وموصُوفا بأنه فى شَرْح أسفارٍ عِبرانية حَسَنُ التفسير، واستحقّ من بين شيعته أن يكون رأسَ الكَهَنه، وأن تُصْبِح القلوبُ فى مجامعهم بحُسْن منطقه مرتَهَنَه، وبان للجَهالة بتثقيفه لشيعته تحجُبُ عقائدهم عن أن تغْدُوَ ممتهَنَه .

ولما كان فلان هو لمحاسن هذا التقريظ بَهْجَه، ولجسد هذا التفويض مُهْجَه، ولمادح هذا الثناء العريض لَهْجَه، ولعينِ هذا التعيين غُمْضَها، وليد هذه الأيادى بَسْطَها وقَبْضَها، ولأبكار أفكارِ هذه الأوصاف متقاضيَها ومُقْتَضَّها، ومَنْ أُدْنِيَتْ قِطافُ النعماء ليد تَقْدِمتِه «علىٰ غيظ مَن غُصّ منها» واجتنىٰ غَضَّها ــ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يميّز علىٰ أبناء جنسه حقّ التمييز، وأن يُجازَله من التنويه والتنويل أجلُّ ما جِيز .

ورُسِم بالأمر الشريف ــ لازال يَختارُ فيُجْمِل الاختيار، ويغْدُو كالغيْث الذى يعُمُّ بنفعه الرُّبَا والوهادَ والأثمارَ والأشجار ــ أن تُفوّض إليه رآسةُ اليهود علىٰ

آختلافهم : من الرَّبَّانيين ، والقَرَّائين ، والسامرة بالديار المصريَّة حَماها الله وكَلأها .
فلْيجعَلْ أسبابهم بالتَّقْوىٰ تَقْوىٰ ، وغُروسَهم بالتدبير لاتَذْوىٰ ، ومقاصِدَهم لايُمازِجُها شكٌّ ولا شَكْوىٰ ، وليُنْزِل عليهم مِنًّا مَنًّا يسليهم صنعا حتّٰى لا يُفارِقُوا المَنّ والسَّلْوىٰ ، وليَتق الله فيما يَذَرُه ويأْتِيـه ، ويُحسِنْ فى آجتلابِ القُلوب وآختلابِها تأَتِّيه ، وإيَّاه والتِّيهَ حتّٰى لايقال : كأنَّه بعدُ لم يَخْرُجْ من التِّيه .

وجماعةُ الرَّبانيِّين فهم الشَّـعْب الأَكْبَر ، والحِـزْب الأَكْثَر ، فعامِلْهـم بالرِّفق الأَجْدىٰ والسِّرّ الأَجدَر ، ولكَونك منهـم لا تَمِلْ معهم علىٰ غيرِهم فيما به من النفس الأَمَّارة تُؤمَر .

وجماعةُ القَرَّائين فهم المعروفُون فى هذه المِلَّه ، بملازَمة الأدِلَّه ، والآحتراز فى أَمْر الأَهِلَّه ، فانصِبْ لأمرهم من لم يَتَولَّهْ حين يتَولَّه ، ومَنْ كان منهم له معتقَدٌ فلا يُخْرَج عن ذٰلك ولا يُحْرَج ، ولا يُلْجَم منهم بلِجامٍ من نار إنكار من فى ليلة سَبْتِه [بيته] عليه لايُسْرج .

والسامرةُ فهـم الشَّعب الذين آذَن التنظيف أهلَه بحُروبِه ، ولم يكُ أحدُهـم لَمطْعمِ لـكم ولا مَشْرَب بأ كُوله ولا شَرُوبِه ، فمن قدَرْت علىٰ ردّه بدليـلٍ من مذهبِك فى شُروق كل بحثٍ وغُرُوبه ، فاردُدْه من مَنْهَج تحيُّده عن ذٰلك وهُرُوبه ، وإلا فقل له : ياسامِرِىُّ بَصُرتُ بمـا لم تَبْصُروا به . ولتكُنْ تستكمِلُ فيهم بالبتّ ، وآرفُق بهـم فإن "المُنْبَتّ لا أرضًا قطَع ولا ظَهْرا أبقىٰ" فإيَّاك أن تكونَ ذٰلك المُنبَتّ ، ومُرْهم بملازمة قوانينِهم كَيْلا يَعْدُوَ أحدٌ منهـم فى السَّبْت ، وآجعلْ أمورَ عقُودِهم مستَتِبَّه ، وأحسِن التحرِّىَ والتحريرَلهم فى إتقان كل كِتْبـه ، ولا تَخْتَرْ إلا الأعيـان ، من كل حَزّان ودَيَّان ، ومن كان له من داوُدَ عليه السلام لُحْمَـةُ نَسَب ،

وله به حُرمةُ نِسَب ، فَآرْعَ له حَقَّه ، وأصْحِبْه من الرِّفق أكرَمَ رُفْقه . والجزيةُ فهى لدمائكم وأولادِكم عِصْمه ، وعلىٰ دِفَاعها لا دافعها وَصْمه ، ولأجلها ورَدَ : «مَنْ آذَىٰ ذِمِّيًّا كُنْتُ خَصْمَه» ، وهى أَلَمُّ من السيف إجارَه ، وهى أجرةُ سُكنىٰ دار الإسلام كما هى لآستحقاقِ المنفعةِ بها إجارَه ، فأَدُّوها ، وبها نفُوسَكم فادُوها ، ﴿ وإن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لا تُحْصُوها ﴾ ، فعُدُّوا ألطافَ الله بها ولا تَعْدُوها ، وداوِمْ علىٰ مَهْ ، زجْرا لتارك عَلامه ، ومن قَصد منها خَلاصه ، فقل له فى الملإ : ماذَا خَلاصَهْ ، ومَنْ رَكَن فى أمرها إلى الإخْلاد والإخْلال ، وسكَن إلى الإهْمَـال ، ولم يرضَ بأنَّ رايةَ الذِّلَّة الصفراءَ علىٰ رأسه تُشَال ، فأوْسِعْه إنكارا ، وألزمه منها شِعَارا ، وإن قامَ بنصْره منهم مَعْشَرٌ خَشِن فأرهم بعـد العَلَامة خُشْكارا ، وخُذْهم بتجنُّب الغِشِّ الذى هو للعهد مَغيِّر ومَغيِّب ، واكْفُفْ من هو بما يُنافيه معيَّر ومعيَّب ، وأما من هو مجيبٌ لذٰلك فهو لقصده محبَّب ، وانقلْ طِباعَهم عن ذٰلك وإن أبتْ عن التناقل فأنت ما تتلو : ﴿ قُلْ لا يَسْتوِى الخَبِيثُ والطَّيِّب ﴾ . وقد عُلِم أن الذى تتعاطَوْنه من نفْخ فى البُوق إنمـا هو كما قلتم للتَّذْكار ، فاجتهـدُوا أن لا يكونَ لتـذْكار العِجْل الحنيـذ الذى له خُوار ، هذه وصايَانَا لك ولهم فقُلْ لَهم : هذه مَوْهِبَة الدولة وإحسانُها إليكم ، ولُطْفها بكم وعاطِفَتُها عليكم ، وبَصِّرهم بذٰلك كلَّمَا تلا إحسانُنا إليهم : ﴿ يَا بَنِى إسْراءِيلَ آذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أنعمْتُ عَلَيْكُم ﴾ .

وهذه نسخةُ توقيع برآسةِ اليهودِ أيضا :

أمَّا بعدَ حمدِ الله علىٰ أنْ جعل مُلاحظةَ هذه الدولة القاهرةِ لجميع المِلل ناظره ، وإحسانَها لا يُغْفِلُ مصلحةً لأُولِى الأديان غائبـةً ولا حاضِرَهْ ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمد الذى جعل ذمَّتَه وعهدَه وَفِيَّيْنِ لكل نَسمة مؤمنةٍ وكافره ـ فإنَّ الله تعالىٰ لـما مَدّ

رُواق عدلِ هذه الأيام الشريفة على كل مُعاهِد: من متقرّبٍ ومُتباعِد، وساوى بينهم في النظر الذى صدَق الرأى وصدَّق الرائد ـ اقتضى جميلُها أن يُسْهَم لكلٍّ من أهل الذمة أوفرُ نصيب، وأن لا يُقال لأحدٍ منهم من الإجحاف ما يُرِيب، وأنْ لا تكونَ أمورُهم مُضاعَه، ولا تَعبُّداتُهم مُراعَه، ولا شرائعُهم غير مَصُونه، ولا أحكامُهم عارية [عن] حُسْن مَعُونه؛ وكانتْ جماعةُ اليهود وإن كانُوا أُولِى غَىٍّ، وصَدَق النصارى فيهم وصدَقُوا فى النصارى من أنَّهم ليْسُوا على شَىٍّ؛ لا بدَّ لهم من مباشرٍ يأخذُهم بالأمْر الأحْوَط، والناموس الأضْبَط، والمَراسيم التى عليهم تُشْرَط؛ وكان الذى يُخْتار لذلك ينبغى أن لا يكونَ إلا من أكْبَر الكَهَنة وأعْلَم الأحبار، وممن عَرَف من دينهم ما لأَجْلِه يُصْطفَى ولِمثْله يُخْتار؛ ومِمَّن فيه سياسةٌ تحجُزه عن المضارّ، وتحجُبُه عن الاستِنْفار؛ وكان فلانٌ الرئيس هو المتميِّز بهذه الأوصاف على أبناء جنْسه، وله وازِعٌ من نفسه، ورادِعٌ من حُسْن حَدْسه، وخدمةٌ فى مهمَّات الدولة يستحقُّ بها الزيادةَ فى أُنْسه؛ وهو من بين جماعته مشهورٌ بالوَجَاهه، موصوفٌ بالنَّباهه؛ ذو عِبْرانيَّةٍ حسنةِ التعبير، ودِراسةٍ لكُتُب أهل ملَّته على مافيها من التغْيير ـ اقتضَى جميلُ الاختصاص المُنيف، أن يُرْسَم بالأمر الشريف ـ لا بَرِح يرقُب الإلَّ والذِّمَّه، ويَرْعَى للمعاهَدين الحُرْمه ـ أن تُفوِّض إليه رآسةُ اليهودِ الرَّبَّانيين والقَرَّائين والسامره، على عادةِ من تقدَّمه.

فليباشرْ ذلك مستوعِباً أمورَهم كلَّها، مستودَعا دِقَّها وجِلَّها، مباشِراً من أحوالهم ما جرَتْ عادةُ مثله من الرُّؤساء أن يباشرَ مِثْلَها؛ غيرَ مفرِّط فى ضبْط ناموسٍ من نَواميس المملكه، ولا مُغْفل الإنكارَ على من[1] يتجاوَزُ ذلك إلى مَوارد الهلَكه؛ ومَنْ فعل مايقضى بنقْض عهْده، فعليه وعلى مستَحسِنه له من المقاتلَة ما يتَّعظ به كلُّ مَنْ يفعلُ

(١) فى الأصل من . تأمل .

ذلك من بعده ؛ بحيث لا يخرج أحدٌ منهم فى كنيسته ولا فى يهوديّته ولا فى منع جزيته عن واجبٍ معهود ، ومن خالف فوراءَ ذلك من الادب ماتقشعرُّ منه الجلود ؛ وما جعلهم الله ذمّةً للسلمين إلا حقناً لدمائهم ، فلا يمحُها أحدٌ منهم فتجتمع له شماتةُ أهل الأديان من أعدائهم بأعدائهم — والوصايا كثيرةٌ وإنما هذه نُخبتُها الملخّصه ، وفيها من حساب الإحسان إليهم ماتغدو به أيّام الإمهال لهم ممحّصه ؛ والله يوفّقه فى كل تصرُّف مرغوب ، وتأفف من مثله مطلوب ؛ بمنه وكرمه ! .

وهذه وصية لرئيس اليهود أوردها فى "التعريف" وهى :

وعليه بضمّ جماعته ، ولمّ شملهم باستطاعته ؛ والحُكم فيهم على قواعد ملّته ، وعوائد أئمته ، فى الحكم إذا وضح له بأدلّته ؛ وعقود الأنكحة وخواصّ مايعتبر عندهم فيها على الإطلاق ، وما يفتقر فيها إلى الرضا من الجانبين فى العقد والطّلاق ؛ وفيمن أوجب عنده حكم دينه عليه التّحريم ، وأوجبَ عليه الآنقيادَ إلى التحكيم ؛ وما آدّعوا فيه التواتُرَ من الأخبار ، والتظافُر على العمل به مما لم يُوجد فيه نصّ وأجمعتْ عليه الأحبار ؛ والتوجُّه تلقاءَ بيت المقدس إلى جهة قبلتهم ، ومكان تعبّد أهل ملّتهم ؛ والعمل فى هذا جميعه [بما شرعه موسى الكليم ، والوقوف معه] (١) إذا ثبت أنه فعل ذلك النبيّ الكريم ؛ وإقامة حدود التّوراة على ما أنزل اللهُ من غير تحريف ، ولا تبديل كلمةٍ بتأويلٍ ولا تصريف ؛ وآتباع ما أعطوا عليه العهد ، وشدّوا عليه العقد ، وأبقوا فيه ذماءهم ، ووقوا به دماءهم ؛ وما كانت تحكم به الأنبياءُ والرّبّانيّون ، ويُسلّم إليه الإسلاميّون منهم ويعبّر عنه العبرانيّون ؛ كلُّ هذا مع إلزامه لهم بما يلزمهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٣ وهى لازمة لاستقامة الكلام.

من حُكْم أمثالهم أهلِ الذمَّة الذين أُقِرّوا فى هـذه الدِّيار، ووقايةِ أنفُسهم بالخضُوع والصَّغَار، ومدِّ رءوسهم بالإذعان لأهل مِلَّة الإسـلام، وعدمِ مضايقتهم فى الطُّرُق وحيثُ يحصُـل الالتباس بهم فى الحَمَّام، وحملِ شـعار الذمَّة الذى جُعِل لهم حِلْيَةَ العَمائم، وعُقِد علىٰ رءُوسِهم لحِفْظِهم عَقْدَ التَّمـائم، وليَعْلَمْ أنَّ شِعَارَهم الأصفر، مُوجَب لئلا يُرَاق دمُهم الأحمر، وأنّهم تحتَ عَلَم علامتِه آمنُون، وفى دَعَة أصائله ساكنُون، وليأخُذْهم بتجديد صَبْغه فى كلِّ حين، وليأمُرْهم بملازمته ملازمةً لا تزال علائمُها علىٰ رءُوسهم تَبِين، وعدمِ التظاهُر بمـا يقتضِى المناقضه، أو يُفْهَم منه المُعارضه، أو يدع فيه غير السَّيْف وهو إذا كَلَّم شديدُ العارضه، وله ترتيبُ طبقات أهل ملَّته من الأحبار فمَنْ دُونهم علىٰ قدر آسـتحقاقهم، وعلىٰ مالا تخْرُج عنه كلمةُ آتِّفاقهم، وكذٰلك له الحديثُ فى جميع كنائس اليهودِ المستَمِرّة إلى الآن، المسـتقرّة بأيديهـم من حِينِ عقـد عهْد الذمة ثم ما تأكَّد بعدَه لطُول الزمان، من غير تجديد متجدِّد، ولا إحداث قدرٍ متزيِّد، ولا فعلِ شيءٍ مما لم تُعقَد عليـه الذمه، ويُقِرّ عليهم سلَفَهم الأوّلَ سلفُ هـذه الأمه، وفى هذا كفايةٌ وتقوىٰ الله وخوفُ بأسنا رأسُ هذه الأمور المهمّه .

[وصـيـة رئيس السـامرة](١) :

ولا يَعْجِز عن لَمِّ شَعَث طائفته مع قِلّتهم، وتأمينِ سَرْبهم الذى لو لم يُؤَمَّنوا فيه لأكلهم الذئبُ لذِلَّتهم، وليصُنْ بحسن السُّلوك دِماءَهم التى كأنمـا صُبِغتْ عمـائمُهم الحمرُ منها بما طُلّ، وأُوقِد لهم منها النارُ الحمراءُ فلم يتّقُوها إلا بالذُّل، وليعْلَمْ أنّهم شُعبةٌ من اليهود لا يخالِفُونَهم فى أصـل المعتقَد، ولا فى شيء يخرُج عن قواعد دينِهم لمن

(١) لم يعنون فى الأصل وزدناه من "التعريف" ص ١٤٤ .

آنتقد؛ ولولا هذا لما عُدُّوا فى أهل الكتاب، ولا قُنِـع منهم إلا بالإسلام أو ضَرْب الرِّقاب؛ فليَبْنِ على هـذا الأساس، [ولْيُنْبِئْ قومَه أنَّهم منهم وانمـا الناس أجناس](١) وليلتزِم من فُروع دِينه مالا يخالِفُ فيه إلا بأن يقول لا مِساس؛ وإذا كان كما يقول: إنه كهرُون عليه السلام فليلتزِم الجَدَد، ولْيَقُمْ من شَرْط الذمّة بما يُقيمُ به طُولَ المُدَد؛ وليَتمسَّك بالمُوسويّة من غير تبديل، ولا تحريفٍ فى كَلِمٍ ولا تأويل؛ وليُحْصِ عملَه فإنه عليه مَسْطور، ولْيقِف عند حدِّه ولا يتعدَّ طَوْره فى الطُّور؛ وليحْكُمْ فى طائفته وفى أنكحتِهم ومواريثِهم وكنائسِهم القديمـةِ المعقُودِ عليها بما هو فى عقد دينـه، وسببٌ لتوطيد قواعده فى هذه الرتبة التى بلَغها وتوطينه .

الوظيفةُ الثـانيـــــة

(بَطْرِكيَّة النَّصارىٰ المَلَكيَّة، وهم أقدمُ من اليَعاقِبَة)

وقد تقـدّم فى الكلام على النِّحل والمِلَل أنهم أتْباع ملكا الذى ظهر قديمًا ببلاد الرُّوم، وأنَّ الروم والفرَنج كلَّهم أتباعُه، وبالديار المِصريَّة منهـم النَّزْر اليسير، ولهم بَطْرَك يخصُّهم .

وهذه نسخة توقيع لبَطرك المَلَكية :

أمَّا بعد حمد الله مُنوِّع الإحْسان، لأولِى الأدْيان، ومؤصِّله ومفرِّعه لكلِّ طائفةٍ ولكل إنْسان، والصلاةِ علىٰ سـيدنا محمدٍ الذى أبادَ اللهُ به مَنْ أبادَ وأبانَ من عهده وذِمَّته من أبان ـ فإنَّ الطائفةَ المَلَكيَّة من النصارىٰ لمَّا كانتْ لهم السابقةُ فى دِينهم، ولهم أصلُ الرآسـة والنَّفاسة فى تعيينهم؛ وما برِحَتْ لهم فى الكلاءَة والحِفْظ قَدَمُ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٤ .

السابقه، ورُتبةٌ بملوكهم الرُّومانيَّة سامِقَه، وما زالَتْ لهم خِدَمُ الدول إلىٰ أغْراضها مُتساوِقةً ومُتسابِقه، ولهم جِوارٌ مشْكور، وتبتُّلٌ مَشْهور، وعليهــم وَصايَا من المُلُوك فى كل وُرُود وصُــدُور، ولهم من نُفُوسهم مَزَايا تستوجِبُ آحترامَهم، وتستَدْعى إكرامَهم، وكان لا بُدّ لهم من بَطْريك يُلاحظ أحوالَهم أتمَّ المُلاحظه، ويسـتدْعى لهم من الدَّوْلة أعظَمَ محافَظه، ويحفَظ نَواميسَ قِبَلِهم، ويُحْسِن دِراسةَ أَناجيلهم، ويعرِّفُهم قواعدَ معْتَقَدَاتهم، ويأخذُهم بالدُّعاء لهذه الدولةِ القاهرة فى جميع صَلَواتِهم، ويجمَعُهم علىٰ سَدَاد، ويفرِّقُهم علىٰ مُراد. وكان البَطْريك فلان هو المتَّفَق بين طائفته علىٰ تعيينه، والمُجمَعَ علىٰ إظهار آستحقاقِه وتَبْيينه، والذى له مَزَايَا لو كان فيه واحدةٌ منها لكَفَتْه فى التأهيل، ولرفَعَتْه إلىٰ مَنْصبه الجليل. فلذلك رُسِم... ... — لا بَرِح يُعْطِى كلَّ أحد قِسْطه، ويدْخُل كلٌّ لأبوابِه ساجدًا وقائلًا حِطَّه — أن يباشِرَ بَطْرِكيَّة النصارىٰ المَلَكية علىٰ عادةِ مَنْ تقدّمه من البَطارِكة السالفةِ بهذه الدولة.

فلْيَحُط أُمورَها الجزئيَّة والكليَّه، والظاهِرةَ والخفيَّه، ولْيأخُذْهم بما يلزَمهُم من قوانينِ شِرْعتِهم، وكلِّ مايُريدون من حُسْــن سُمْعتِهم، وأما الدِّيَرة والبِيَع والكنائس التى للمَلَكية فمَرجعها إلىٰ صَونه، وأمرُها مردُودٌ إلىٰ جميل إعانتِه وعَوْنه، والأساقفةُ والرُّهْبان فهم سَوادُ عيْن معتَقَده، وخُلاصةُ منتقَده، فلا يُخْلِهم من تبْجِيل، وحُسْن تأهيل، وتَتَقدّم إلىٰ مَنْ بالثغور من جماعتك بأنْ لا يدْخُل أحدٌ منهم فى أمرٍ مُوبِق، ولا فى مُشْكِل موثِق، ولا يَميلون كلَّ الميل إلىٰ غريبٍ من جنسهم، وليكُن الحذَرُ لِغَدِهم من يومِهم وليَوْمِهم من أمْسِهم، ولا يُشاكلونَ رسولًا يرِد، ولا قاصدًا يَفِد، وطريقُ السلامة أوْلىٰ ماسُلِك، ومن تركَ الدخولَ فيما لايَعْنيه تُرِك، هذه جملةٌ من الوصية لامعةٌ أفلح وآهتدىٰ مَنْ بها آسْتَنار، ورَشِد من لها استشار، والله يوفّقك فى كل مَقْصِد تَرُوم، ويجعلُك بهذه الوصايا تقُول وتقُوم.

وهذه وصية لبَطْرَك المَلَكية أوردها فى "التعريف" وهى :

وهو كبيرُ أهلِ ملّته، والحاكمُ عليهم ما امتدَّ فى مُدّته؛ وإليه مَرجِعُهم فى التحريم والتحليل، وفى الحُكْم بينهم بما أُنزِلَ فى التوراة ولم يُنْسَخ فى الإنجيل؛ وشريعتُه مبنيّة على المُسامحة والاحتمال، والصبرِ على الأذى وعدمِ الاكتراث به والاحتفال؛ فخُذْ نفسَك فى الأوّل بهذه الآداب، واعلَمْ بأنك فى المَدْخَل إلى شريعتك طريقٌ إلى الباب؛ فتخَلَّقْ من الأخلاق بكلّ جميل، ولا تستكْثِرْ من متاع الدنيا فإنّه قليل؛ وليُقدِّم المصالحةَ بين المتحاكمَيْن إليه قبل الفصل البَتّ فإنّ الصلح كما يقال سيِّد الأحكام، وهو قاعدةُ دينِه المَسيحىّ ولم تخالِف فيه المحمّديّةُ الغراءُ دينُ الإسلام، ولينظِّفْ صدُورَ إخوانه من الغِلّ ولا يقْنَعْ بما ينظِّفُه ماءُ المعمُوديّة من الأجسام؛ وإليه أمرُ الكنائس والبِيَع، وهو رأسُ جماعتِه والكلُّ له تَبَع؛ فإيّاه أن يتخذَها له تجارةً مُربِحه، أو يقتطِعَ بها مالَ نصرانىٍّ يقرِّبُه فإنه ما يكونُ قد قرّبَه إلى المَذْبَح وإنما ذَبَحه؛ وكذٰلك الدِّياراتُ وكل عُمْر[1]، والقَلالىُّ فيتعيّن عليه أن يتفقّد فيها كلَّ أمر؛ وليجتَهِدْ فى إجراء أُمورها على ما فيه رَفْع الشُّبُهات، وليعلَمْ أنهم إنما اعتزلُوا فيها للتعبُّد فلا يَدَعُها تُتّخذ متنزَّهات؛ فهُم إنما أحدَثُوا هذه الرَّهبانيّةَ للتقلُّل فى هذه الدنيا والتعفُّف عن الفُروج، وحبَسُوا فيها أنفُسَهم حتّى إنّ أكثرهم إذا دخَل فيها ما يعُودُ يبقَى له خُرُوج؛ فلْيحَذِّرْهم من عَملِها مَصْيدةً للمال، أو خَلوةً له ولٰكن بالنساء حرامًا ويكون إنما تنَزّه عن الحَلال؛ وإيّاه ثم إيّاه أن يُؤْوِىَ إليها من الغُرباء القادمين عليه مَنْ يُرِيب، أو يكْتُمَ عن الإنهاء إلينا مشكِلَ أمرٍ ورَد عليه من

(١) هو بالضم المسجد والبيعة "قاموس".

بعيد أو قريب ، [ثم الحَذَرَ الحَذَرَ من إخفاء كتابٍ يرِد عليه من أحدٍ من الملوك ،](١) ثم الحذَر الحذَر من الكتابة إليهم أو المَشْى على مثل هذا السُّلوك ، ولْيتجنَّب البحرَ و إيَّاه من اقتحامه فإنه يَغْرق ، أو تَلَقِّ ما يُلقيه إليه جَناحُ غرابٍ منه فإنه بالبَيْن يَنْعَق ؛ والتقوى مأمورٌ بها أهلُ كلِّ مِلَّه ، وكلُّ موافِق ومخالِف فى القبْله ؛ فليكُنْ عملُه بها وفى الكِنَايةِ ما يُغْنِى عن التَّصْريح ، وفيها رضا اللهِ تعالى وبها أَمْرَ المَسيح .

الوظيفـــة الثـالثة

(بَطْرِكيَّـة اليَعاقِبَــة)

وقد تقــدّم فى الكلام على النِّحل والمِلَل الخُلْف فى نِسْبتِهم : فقيل إنهم أتْباع ديسقرس ، وانه كان ٱسمه فى الغِلْمـانيَّة يَعْقُوب ، وقيل أتباع يعْقُوب البَرْذعانى ، وقيل غيرُ ذٰلك ، والأصحّ عند المؤرّخين الأوّل . و بَطْرَكُهم يحكم على طائفةِ اليَعاقِبة ، وجميعُ نَصارى الحبشــة أتباعُه ، وفى طاعتِه ملكُ الحبشــةِ الأكبر ، وعنه تصْـدُر ولايتُــه .

وهذه نسخة توقيع لبطرك النصارى اليعاقِبة :

أما بعدَ حمد الله الذى أظهرَ دِينَ الإسلام على الدِّين كلِّه ، وأصدَرَ أمورَ الشرائع عن عقْد شَرْعِه وحَلِّه ، وصيّر حكمَ كلِّ ملةٍ راجعًا إلى حُكم عَدْله ؛ والشهادةِ له بالوحدانيَّة التى تدُلُّ على أنه الواحدُ الأحدُ الذى لم يَلِدْ ولم يُولَدْ وليس شىءٌ كمثله ، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا محمدٍ أعظَمِ أنبيائِه وأكرمِ رُسْلِه ، وأشرف ولَد آدم ونَسْلِه ، المصطفى فى عِلْم الله من قَبْله ، ووسيلتِه فى التوراة من غرور الشيطان وخَذْله ، والذى أطفأ اللهُ ببركتِه نارَ نُمروذَ عن إبراهيم وجعلها بَرْدا وسلاما وأَجَلَّه من أَجْله ،

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٥ .

وبَشَّر به عيسى بنُ مريمَ عبدُ الله وٱبنُ أَمَتِه وأقرّ مُوسىٰ بنُ عِمرانَ كليمُ الله بفضْلِه ؛ وعلىٰ آله الطيِّبين الطاهرين من فُروعِ أصله، وأصحابِه سامعى قوله، وتابِعِى سُبْله — فإنَّ الله تعالىٰ لما ٱرتضَى الإسلامَ دينا، وأفضىٰ بالمُلْك إلينا وقضىٰ لنا فى البَسيطة بَسْطةً وتمكينا، وأمضىٰ أوامِرَنا المطاعةَ بشُمول اليُمْن شمالًا ويمينا — لم نزل نُولِى رَعَايانَا الإحسانَ رِعايةً وتوطِينا، ونُديم لأهل الذمَّة منَّا ذِمَّةً وتأمينا ؛ وكانتْ طائفةُ النَّصارىٰ اليَعاقِبة بالديار المصرية لهم من حِينِ الفتح عَهْدٌ وذِمَام، ووصيَّةٌ سابقةٌ من سيدِنا رسولِ الله عليه أفضلُ الصلاة والسلام ؛ ولا بُدَّ من بَطْريرك يرجعُون إليه فى الأحكام، ويجتمِعُون عليه فى كلِّ نَقْض وإبْرام .

ولما كانت الحضرةُ الساميةُ الشيخُ الرئيسُ، المبجَّل، المكَرَّم، الكافى، المعزَّز، المفخَّر، القِدِّيس، شمسُ الرِّآسة، عِمادُ بَنِى المعْمُودية، كنْزُ الطائفة الصَّليبيَّه، ٱختيار الملوك والسلاطين، فلان : وفَّقه الله،هو الذى تجرّدَ وترَهَّب، وأجهَدَ رُوحَه وأتْعَب، وصامَ عن المَأْكل والمَشْرَب، وساحَ فأبْعَد، ومَنَع جَفْنه لذيذَ المَرْقَد، ونهض فى خِدْمة طائفتِه وجَدّ، وخفَضَ لهم الجَناحَ وبَسَط الخَدّ، وكفَّ عنهم اليَدَ، وٱستحَقَّ فيهم التبجيلَ لما تميَّز به عليهم من مَعْرفة أحكام الإنجيل وتفرّد — ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُلْقِىَ إليه أمرَ هذه الفِرْقة ونُفَوِّض، ونُبَدِّلهم عن بطريكهم المتوفَّى ونُعوِّض .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشريف — لابرِحت مراسمُه مُطاعه، ومَراحِمُه لإنزال أهل كرمها بيعتُها مرعيَّةٌ غيرُمراعه(١) — أن يقدَّم الشيخُ شمسُ الرِّآسة المذكور على المِلَّة النصرانية اليَعْقُوبيَّة، ويكونَ بَطْريركا عليها، علىٰ عادة مَن تقدّمَه وقاعدته بالديار المصرية، والثُّغور المحروسة، والجهات التى عادتُه بها إلىٰ آخرِ وقت .

(١) أى غير مفزعة ولم يذكر القاموس ولا اللسان أراعه وانما الفعل راعه وروّعه أى أفزعه .

فليسلُك سبيلَ السَّوا ، ولا يملّكْ نفسَه الهوىٰ ، وليتمسَّك بخوف الله تعالىٰ إن فعَل أو نوىٰ ، أو أخبر عن الحوارِيِّين أو روىٰ ؛ فالعليمُ مراقِب ، والعظيم مُعاقِب ؛ والحكيم أمرَ أُولِي العقُول بالفكرَة فى العواقب ، والحاكم غدًا بحقُوق الخلق غدًا يُطالِب ؛ والظُّلْم فى كلِّ ملّة حرامٌ والعدلُ واجِب ، فليستوفِ الإنصاف بين القوىّ والضعيف والحاضر والغائب ؛ وليقصِد مصلحتَهم وليعتمِدْ نصيحتَهم ، وليُمْضِ علىٰ ما يدينُون به بيوعَهم وفُسوخهم ومواريثهم وأنكحتَهم ؛ وليقْمَع غاوِيَهم ، وليَسْمع دعاوِيَهم ؛ وليُلْزِمْهم من دينهم بما وجدُوه ، فظنُّوه واعتقدُوه ؛ وليَتَّبِع سبيلَ المعْدَلة فلا يعدو [ها] عائدةٌ إليه أمورُ القِسِّيسين والرُّهبان ، فى جميع الدِّيرَة والكنائس بسائر البُلْدان ، ولا يُعترَض عليه فيما هو راجعٌ إليه من هذا الشان . ولا يقدَّم منهم إلىٰ رُتبة إلا من استصْلَحه ، ولا يرَجح إلىٰ منزلةٍ إلا من رشَّحه إليها ورَجَّحه ، متَّبعا فى ذٰلك ما بيَّنه له العدلُ وأوضَحه ، مرتجِعَ الرتبة ممن لم تكن الصدُور لتقْدمته منْشَرِحه ، مجمعا لغيره فى الإيرادِ والإصْدار علىٰ اعتماد المَصْلحه ؛ وقد أوضحنا له ولهم سبيلَ النجاة فليقتفُوه ، وعرَّفناهم بالصواب والخيرَة لهم إن عرَفُوه ، وليسألِ اللهَ ربَّه السلامةَ فيما له يفْعل وبه يَفُوه ؛ والعلامة الشريفة أعلاه .

وهذه نسخة توقيع لبَطْرك النصارىٰ اليعاقِبة ، كُتِب به للشيخ المؤتَمَن ، فى شهور سنة أربع وستين وسبعمائة ، وهى :

أما بعدَ حمد الله علىٰ نِعَمه التى نَشَرتْ لواء دولتِنا فى الآفاق ، فأوَىٰ كلُّ أحد إلىٰ ظِلِّه ، وبسطَتْ معدلَتنا فى البلاد على الإطلاق ، فمنحَت الخاصَّ والعامَّ من بِرِّنا بوابله وطَلِّه ، واصطنعَتْ بذمَامها ملوكَ المِلَل وحُكَّامَ الطوائف فنطقُوا عن أمرِنا

فى عَقْد كلِّ امر وحَلِّه ؛ والشهادةِ بوحدانيّتِه التى تُنْجِح أملَ المخلص فى قوله وفعْله ، وتفتَح لمن تمسَّك بعُرْوتها أبوابَ النجاة فيُصبِح فى أمانٍ فى شأنه كلِّه ؛ والصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبده ورسوله أشرفِ الأنبياء قدراً فى مُحْكَم الذكر ونَقْله ، المبعوثِ رحمةً للعالمين زيادةً فى رِفْعة مقامه وتقريراً لفَضْلِه ، المنعُوتِ بالرأْفة والرحمة فى محكم كتابه الذى لايأتيه الباطلُ من بيْنِ يدَيْه ولا من خَلْفه ولم يستَطِعْ أحدٌ أن يأتِيَ بسُورةٍ من مِثْله ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين اتّبعُوا طريقتَه المُثْلىٰ وسلَكُوا مَناهجَ سُبْله ، وعقَدُوا الذِّمم لأهل المِلَل واستوْصَوْا بهم خيراً لما عرَفُوه من سَعةِ حِلْمه وبَذْلِه ـ فإنّه لما كانت الطائفةُ المَسيحيَّة ، والفِرقة اليعقُوبيَّة ، ممن أوتْ تحتَ ظلّنا الذى عمَّ الوجُود ، وسكنَتْ فى حَرَم ذِمامِنا الذى سار نبَؤُه فى التَّهائم والنُّجُود ، وتمسّكتْ من طاعتِنا واتّباع أوامِرِنا بما سلَف لها من العُهَد والعُهود ؛ وكانتْ أحكامُهم مما يحتاجُ إلىٰ من يدُور عليه أمرُها فى كلِّ حال ، وتنتظِمُ به مصالحُ شملِها ليبلُغُوا بها الآمال ، ويأمنوا فى معتقدهم فيها من الإخْلال ؛ وأنه إذا مات بَطْريرك لهم لا بُدّ أن نَرسُمَ لهم بغيره ، ليعتمِدوا فى ذٰلك ما يتقدَّمُ به إليهم فى نَهْيه وأمْرِه ؛ ويسْلُكَ بهم فى أحكامهم ما يَجِب ، ويعرِّفَ كُلّا منهم ما يأتى ويذَر ويفعَلُ ويجتَنِب ؛ ويفصِلَ بينهم بمقتضىٰ ما يعتقدُونه فى إنجيلهم ، ويُمشِّى أحوالَهم علىٰ مُوجَبِه فى تحريمهم وتحليلِهم ؛ ويزجُرَ من خَرج عن طريقه ، ليرجعَ إلىٰ ما يجبُ عليه أُسْوَة رفِيقه ؛ ويقضى بينهم بما يعتقدُونه من الأحكام ، ويبيِّن لهم قواعدَ دِينهم فى كل نقْض وإبرام ؛ فلما هلَك الآنَ بَطرِيكُهم مع مَنْ هلَك ، رَسمْنا لهم أن ينتخِبُوا لهم من يكونُ لطريقتِه قد سَلَك ؛ وأن يختاروا لهم من يسُوس أمورَهم علىٰ أكمل الوُجُوه ، لنرسُم بتقديمه عليهم [فيقوم] بما يؤمِّلُونه منه ويرتجُوه[1] .

(١) حذف نون الرفع رعاية للسجع .

وكان الحضرة السامية ، القدّيس ، المبجّل ، الجليلُ ، المكرّم ، الموقّر ، الكبير ، الدَّيَّان ، الرئيس ، الرُّوحانى ، الفاضل ، الكافى ، المؤتَمَن ، جرجس بن القسّ مفضَّل اليعقوبى ، عمادُ بنى المعموديَّه ، كنزُ الأمّة المسيحيَّه ، منتخَب الملة الصليبيَّه ، ركن الطائفة النصرانيَّه ؛ آختيارُ الملوك والسلاطين : أطال الله تعالىٰ بهجتَه ، وأعلىٰ علىٰ أهل طائفته درجتَه ، قد حازَ من فضائل ملّته أسْماها ، وصَعِد من درجات الترقّى علىٰ أبناء جنْسه أعلاها ؛ فنزّه نفسَه عن مشاركة الناس ، وتقشّف بين أهله فى المأكل واللِّباس ، وتركَ الزواج والنِّكاح ، وآشتغل بعبادته التى لازمَ عليها فى المَساء والصَّباح ، وألقىٰ نفْسه إلى الغاية فى الأطِّراح ، وساحَ بخاطره فى الفكرة وإن لم يكن بجسَده قد ساح ، وآرتاضَ بترْك الشَّهوات مدّةَ زمانه ، وآطَّرح المَلاذَّ لتعلو درجتُه بين أهله برِفْعة مكانه ؛ وآشتمل من علوم طائفته على الجانبِ الوافر ، وعرَف من أوامرهم ونَواهيهم ما تَقَرّ به منهم العينُ والناظر ؛ وطلَب من الربِّ الرءوف الرحيم القوّةَ علىٰ أعماله ، وسأل الإلٰهَ أن يزيِّن لأهل ملّته مايأتى به من أقواله وأفعاله ؛ فوقع آختيارُهم عليه ، وسألوا صدقاتنا الشريفةَ إلقاء أمْرِهم إليه .

فرُسِم بالأمر الشريف — لازال إحسانُه إلىٰ سائر العالَم واصلا ، وجُودُه لكل طائفةٍ بارتياد أكفائها شامِلَا — أن يقدّم حضرةُ القِدّيس المؤتَمن جرجس المشار إليه على الطائفة اليعقُوبية ، من الملة النصرانية ، بالديار المحروسة والجهاتِ الجارى بها العادة ؛ ويكون بَطْريركا عليهم علىٰ عادة من تقدّم فى ذٰلك ومستقَرّ قاعدته إلىٰ آخر وقت ، قائمًا بما يجب عليه من أمور هذه المِلّه ، باذلًا جهْدَه فى سلوك ماينبغى مما يَنْظِم عليه أمرَه كلّه ؛ فاصلًا بينهم بما يعتقدُونه من الأحكام ، متصرفاً علىٰ كل أُسْقُفٍّ وقَسٍّ ومِطْران فى كل نقْض وإبرام ، مالكًا من أمور القِسِّيسين والرُّهبان والشَّمامسة الزِّمام ؛ مانعًا مَنْ يرومُ أمرا لا يُسوّغه وَضْع ولا تقرير ، جاعلا نظرَه عليه

متقدا بالتحرز فى التخيير، زاجرا من يخرج منهم عن اتّباع طريق الشريعة المطهَّرة التى يَصح بها عقدُ الذمّه، ملزما بسُلوكها فى كل ملمة فإن ذلك من الأمور المهمَّه؛ آمرا مَنْ فى الدِّيَرة من الرُّهبان بمعاملة المارّين بهم والنازلين عليهم بمَزِيد الإحسان ومَدِيد الإكرام، والقيامِ بالضِّيافة المشروطة من الشَّراب والطَّعام .

ولْيتحدّث فى قِسمة مَوَاريثهم إذا ترافعُوا إليه، وليجعَلْ فصلَ أمورِ أهلِ طائفته من المهمَّات لديه؛ ولْيُشْفِقْ على الكبير والصغير، وليتنزَّهْ عن قليل مَتاعِ الدنيا والكثير، وليزهَدْ فى الجليل قبل الحَقير. وفى اطّلاعه على أحكام دينه ما يكْفِيه فى الوصيَّه، وما يرفعُه بين أبناء جنسه فى الحياة الدنيويَّه؛ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه الله أعلاه .

وهذ نسخة توقيع لبَطْرك اليَعاقِبة، وهى :

أما بعدَ حمد الله على أنْ جعل من إحسانِ هذه الدولة لكلِّ مِلِّىّ وذمّىّ نَصيبا، وفوّقَ إلى أهداف الرِّعايةِ سهْما فسَهْما مامنها إلا ماشُوهِد مُصيبا، والصلاةِ على سيدنا محمد الذى أحْمدَ اللهُ له سُرًى فى صَلاح الخلائق وتأْويبا — فإنه لمَّا كان من سجايا الدولة القاهرةِ النظرُ فى الجزئيَّات والكلِّيَّات من أمور الأمَّه، وتجاوَزَ ذلك إلى رعايةَ [أهل] الذمّه؛ لاسيَّما مَن سبقَتْ وصيةُ سيد المرسلين عليهم من القِبْط الذين شرّفهم رسولُ الله — صلى الله عليه وسلم — بوُصْلته منهم بأمِّ إبراهيم ولده عليه السلام، وقَبولِ هديَّتهم التى أبقَتْ لهم مزيَّةً على ممَرّ الأيَّام، وكانوا لابُدّ لهم من بِطْرِيك يحفظ سَوَامَهم، ويَضْبِط خواصَّهم وعَوامَّهم؛ ويجمعُ شَمْل رُهْبانهم، ويُراعى مصالحَ أديانِهم؛ ويحرِّرُ أمورَ أعيادِهم ومَواسِمهم فى كل كَنِيس، ويدعُو للدولة القاهرة فى كل تقْدِيس؛ وتُجعَل [له] الخِيرَةُ فى ضَبْط أمور البِيَع والدِّيَرة واختيار الأساقفة

والكُهَّان ، وحِفْظ النواميس المسيحيَّة فى كل قُرْبان ؛ ولا يصلُح لذٰلك إلا من هو بَتُول ، وكلُّ خاشع عاملٍ ناصبٍ يستحقُّ بذٰلك أنَّ هذا الأمرَ إليه يئُول .

ولما كان البطْريرك فلان هو المجمَع علىٰ صلاحيته للبَطْركية علىٰ شَعْبه ، والتقْدمة علىٰ أبناء المعمُوديَّة من شيعته وصَحْبِه ، لما له من عِلْم فى دينِه ، ومعرفةٍ بقوانينه ، وضَبْطٍ لأفانينِه ، وعقْلٍ يمنعُه عن التظاهر بما يُنافى العهُود ، ويُلافى الأمرَ المعهُود ـ آقتضىٰ جميلُ الآختيار أنه رُسِم بالأمر الشريف ـ لا بَرِح يضَع كلَّ شيء فى موضعه من الآستحقاق ، ويُبالغُ فى الإرفاد لأهل المِلَل والإرْفاق ـ أن يباشِرَ بَطْركيَّةَ جماعة اليَعَاقِبة بالديار المِصريَّة ، علىٰ عادةِ من تقدّمَه فى هذه الرتبه ، ومن آرتقىٰ قبْلَه إلىٰ هذه الهَضْبه .

فلْيباشِرْ أمرَ هذه الطائفه ، وليجعل مَعونَته بهم طائفَه ؛ وليَضْبِط أمورَهم أحسَنَ ضبْط وأجملَه ، وأتمَّه وأكمَلَه ؛ ولْيأْخُذْهم بما يلْزَمهم من القيام بالوظائف المعْرُوفه ، والعُهود المألُوفه ؛ وليُلزِمْهم بما يَلزَمُهم شرعا من كَفٍّ عن تظاهرٍ ممنُوع ، أو تعاطى محذور منكورِ الشرور والشرُوع ؛ أو تنكُّبٍ عن طريق الآستقامه ، وكما أنَّهم عدلُوا عن الإسلام لا يَعْدِلُون عن السَّلامه .

وأمَّا أمورُ الدِّيَرة والكنائس فأمرُها إليكَ مردُود ، فاجْرِ فيها على المعْهُود ؛ وأقِم فيها عنك من يُحْسِن النِّيابه ، ومن يُجْمِل الإنابَه ؛ ومن يستجْلِب الدعاءَ لهذه الدولة القاهِرة فى كل قُدَّاس ، ويُعدِّد التقدّس والأنْفاس ؛ وعلىٰ رُهْبان الأَدْيِرة للمساجد والجوامع وظائفُ لا تُمنَعُ ولا تؤخَّر ، ولا تُحوجُ أحدًا منهم أنَّه بها يُذَكَّر ؛ ولْيشْرُطْ علىٰ أهلها أنهم لا يَأْوُون طليعةَ الكُفَّار ، ولا من يحصُل منه إلا خيرٌ وإلا يحصُل الإضرار ؛ وليأمُرْهم بحُسن الجِوار ، والقيامِ بما هو موظَّف عليهم للمسلمين السُّفَّار

وغير السُّفّار، هـذه نُبْذة من الوصايا مُقْنِعه، ولو وُسِّع القولُ لكان ذا سَعَه، وفى البطْريرك من النَّباهة ما يُلْهِمه الصَّواب، والله يجعل حسنَ الظنِّ به لا ٱرتياءَ فيه ولا ٱرتياب، بمنّه وكرمه! ، والآعتماد ... ...

وهذه نسخةُ توقيع لبطْرك اليعاقبة، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله الذى خصَّ كلَّ ملَّةٍ منَّا بمِنَّه، وأقامَ بأوامرِنا علىٰ كلِّ طائفةٍ مَنْ نرضاه فنُحقِّق بإحساننا ظَنَّه، وجعل من شِيَمنا الشريفةِ الوصيةَ بأهل الكتاب عملاً بالسـنَّه. والشهادةِ بوحدانيَّته التى نتَّخذ بينها وبينَ الشَّكِّ والشركِ من قُوَّة الإيمـان جُنَّه، وندّخر أُجورَها فنسمُو بها يومَ العَرْض إلىٰ أعلىٰ غُرَف الجنَّه. والصلاةِ والسلام علىٰ نبيِّه محمدٍ أكرم من أرسَلَه إلىٰ الأُمم فأنال كُلًّا من البرايا يُمنَه، وأعظم من بعثَه فشَرَع الدينَ الحنيف وسَنَّه، وعلىٰ آله وأصحابه الذين لم تزلْ قلوبُ المؤمنين بهم مطمئنَّه ـــ فإنَّ لدولتنا القـاهرة العوارفَ الحِسان، والشِّيَم الكريمةَ والعطايَا والإحسان، والفواضِـلَ التى للآمال [منها] ما يُرْبِى عليهـا ويَزيد، والمآثِرَ التى بَحْرُ بِرِّها الوافرُ المديد، ولكل ملَّةٍ من نِعمها نوالٌ جزيل، ولكلِّ فِرْقة من مَواهبها جانبٌ يقتضى التخْويل ولا يَقْضِى بالتحويل، ولكلِّ طائفـة من يُمْنها ومَنِّها منائحُ طائفـةٌ بمزيد التنويل، ولكل أُنَاس من معْدَلتها نصيبٌ يشمَل المِلَل، وعادةٌ معروفٍ تواترَتْ مع أنهـا خالصةٌ من السَّآمة والمَلَل، سجيَّةٌ سَخِية بنا شَرُفت، ومَزِيَّة مرْوِيَّة منَّا أُلِفت، وإنَّ من أهل الكتاب لَطائفةً كثُرت بأبوابنا الشريفة عَدَدا، وٱستصْفَتْ من مَناهل جُودِنا مَوْرِدا، وٱنتظَمَتْ فى سِلْك رعايانا فأضحىٰ سبَبُ فضلنا لهـا مؤكَّدا، وكانت المِلَّة المَسيحيه، والفِرْقة اليعْقوبيّـه، لا بُدّ لها بعد موتِ بِطْرِيكها من إقامة غيره،

وتقديم من يُرتَضىٰ بفعْله وقولِه وسَيْره، لتقتدِىَ به فى عَقْد أمورِها وحلّها، وتحريمها وتحليلها ووَصْلها وفصلها، وتهتدِىَ به فى معتقَدِها، وتَرْكَن إلىٰ مايذكُره من مجموع أحكام الإنجيل ومفْردها، وينتصبَ للفَصْل بين خصومها بما يقتضيه عِرْفانُه، ويَظهَر لأهل ملّته بيانُه، حتّىٰ لا تجدَ فى أمر دِينها إلا ما تُريده، وبما نُديمه لها من استمرار الهُدْنة تُبْدِى دُعاءَها وتُعيده، فإنَّ سيدنا محمدا — صلى الله عليه وسلم — أمَرَنا أن نستَوْصِىَ بأهل الكتاب خيْرا، ونحن نسْلُك من اتِّباع شريعته المطهَّرة مانُحْسِن فيه — إن شاء الله — سِيرةً يسيرةً وسيرا .

ولما كانت الحضرةُ الساميةُ، الشيخُ، الرئيسُ، المبَجّل، المكرّم، الفاضلُ، الكافِى، الثِّقَة، عمادُ بنى المعموديّه، كنزُ الطائفة الصليبيّه، اختيارُ الملوك والسلاطين، فلان — أطال الله بقاءَه، وأدام علىٰ أهل طائفته ارْتقاءَه — ممَّن اتفق علىٰ شُكْره أبناءُ جنْسه، واستوجب أن يرقىٰ إلىٰ هذه الرُّتْبة بنَفْسه، واشتهر بمعرفةِ أحوال فِرَقِه، وهجرَ الأهلَ والوطنَ فى تهذيب خُلُقه، وحرَّم فى مدّة عُمُره النكاح، وسار فى المَهامِه والقِفَار وساح، وأضحىٰ خميصَ البطن خاوِىَ الوِفَاض، قد ترك الطِّيِّباتِ وهجر التنعُّم وارتاض، واعتمد فى قوله علىٰ الإلٰه، وسأل الرَّبَّ أن يبلِّغه فى أهل ملّته ما تمنَّاه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف — لا زال يجمع الفِرَقَ على الدعاء لأيَّامه الشريفه، ويُديم للأقربين موادَّ مواهبِه المألُوفه — أن يقدَّم الشيخُ فلان على المِلَّة النصرانية اليعقُوبيَّة، ويكونَ بطْريركا عليها علىٰ عادة من تقدَّمه، ومستقرّ قاعدته، بالديار المصريَّة والثُّغور المحروسة، والجهات التى عادَتُه بها، إلىٰ آخر وقت، [فليتولَّ ذَلك] سالكًا من طُرُق النزاهة مايجب، فاصلًا بين النصارىٰ بأحكام دينه التى لاتخْفىٰ عنه

ولا تحتجب، مالكًا أزمّة كل أُسْقُفّ وقِمص ومِطْران، مرجّحا بين القدّيس والقِسّيس والشّمّاس والرُّهْبان؛ لتُصبح أحكامُ كبيرهم وصغيرهم به مَنُوطه، ومواريثُهم مقسومةً بشرْعته التى هى لديْهم مبْسُوطه؛ ويقف كلٌّ منهم عند تحريمه وتحليله، ولا يخرُجَ فى شِرْعتهم عن فِعله وقوله ولا يقدِّم منهم إلا من رضىَ بتأهيله؛ وليأمُرْ كلَّ قاصٍ منهم ودان، ومن يتعبّد بالدّيْرة والصّوامع من الرجال والنّسْوان، برَفْع الأدعيةِ بدوام دولتِنا القاهرةِ التى أسْدَتْ لهم هذا الإحْسان؛ ويُلْزِمْ كلًّا منهم بأن لا يُحدث حادِثا، ويكْرِمَ نُزُل من قَدِم عليه راحِلًا أو لابِثا؛ فإن هذه الولاية قد آلتْ إليه، وهو أدرَبُ بما تنطوى شروطُها عليْه؛ والله تعالىٰ يجعل البهجة [لديه] مُقيمه [والنعمة عليه مستديمه]؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حجةٌ بموجَبه وبمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه وصية لبَطْرك اليعاقِبة أوردَها فى "التعريف" قال:

ويُقال فى وصيّة بَطْرك اليعاقبة مثلُ مافى وصيّة بَطْرك المَلكيّة، إلا فيما يُنَبَّه عليه. ويسقط منه قولنا: «واَعلَمْ بأنّك فى المَدْخَل إلىٰ شريعتك طريقٌ إلى الْباب» إذ كان لايَدِين بطاعةِ الْباب الذى هو رأْس المَلكانيِّين، وإنما هو رأسُ اليَعاقبة نظيرُه للمَلكانيين، ويقال مكان هذه الكلمة «واَعلَمْ بأنك فى المَدْخَل إلىٰ شريعتِك قَسِيم البـاب وأنتما سواءٌ فى الأتْباع، ومتساوِيانِ فإنّه لا يزدادُ مِصْراع علىٰ مِصْراع». ويسقط منه قولنا: «وليتجَنّب البحر وإيّاه من اقتحامه فانّه يغْرَق» وثانيةَ هذه الكلمة إذا كان مُلْكُ اليعاقِبة مُغَلْغِلا [فى الجنوب][(1)] ولا بَحْر، ويبْدَل بقولنا: «وليتجَنّبْ ما لعلّه ينُوب، وليتوقّ ما يأتيه سِرًّا من تِلْقاء الحَبَشة حتّىٰ إذا قَدَر فلا

(1) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٦.

يَشَمُّ أنفاسَ الجَنُوب، وليعلم أنَّ تلك المــادَّة وإن كثُرت مقصِّره، ولا يحفِلْ بسُؤدد السُّودان فإنَّ الله جعل آيةَ الليلِ مُظْلمةً وآيةَ النهارِ مُبْصِره» ثم يُخْتم بالوصية بالتقوىٰ كما تقدَّم، ونحو هذا والله أعلم .

النــــوع الثــانى

(ما هو خارجٌ عن حاضرتَىْ مصر والقــاهرة : من وظائف الديار المصريَّة مـمـا يُكْتَب لأربابها . وهى ثلاث جهات)

الجهــــةُ الأُولىٰ

(ثغرُ الإسكَنْدريَّة ، والوظائفُ فيها علىٰ ثلاثةِ أصناف) .

الصــــنفُ الأوّلُ

(وظائفُ أربابِ السُّـــيوف وبهـا وظيفةٌ واحدة وهى النِّيابة)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيبِ وظائفِ الديار المصرية أنَّها كانتْ أوّلًا ولايةً، إلىٰ أنْ طرَقَها الفرَنْج فى ســنةِ سَبْع وستّين وسبْعمِائة ، فاستقرَّتْ من حينئِذ نيابةً، يُكتَب لنائبها تقليد فى قطع الثلثين بـ«الجَناب العالى» مع الدُّعاء بمضاعَفَة النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليدٍ بنيابة ثَغْر الإسكنْدرِيَّة :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمٍ باسمة الثَّغْر، مُسْفِرة الفَجْر، رافعة القَدْر .

نحمدُه حمدًا يشْرَح الصَّدْر، ويطْلِع طلوعَ البَدْر، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُحالِف من يُحالِفُها، وتُخالِف من يُخالِفُها، ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه

ورسولُه أفضلُ نبيٍّ رابَطَ فى سبيل الله وجاهَدَ، وكابَدَ فى الجهاد أعداءَ الدِّين وكايَدْ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين خاضُوا فى غَمَرات الدُّجىٰ كلَّ غَمْر، ونُدِبوا لحماية الدِّين ... ... كَرِيهةٍ وسِدَاد ثَغْر (١).

أمَّا بعدُ، فإنَّ الاهتمام بالثُّغور هو أَوْلىٰ ما إليه حُمِد، وعلىٰ مصالحها اعتُمِد؛ وكان ثغرُ الإسكندريَّة المحروسُ هو المفترَّ عن أحسَنِ الثَّنايا، والمخصُوصَ من الحِياطة بأتمِّ المَزايا؛ والذى كم شَفَتْ (٢) شِفاهُه من سُقْم عند ارتشاف، والذى المُثاغِرُ به والمرابِطُ كَمْ له بالحسَنات من ائْتِلاف؛ وكانتِ المصلحةُ تقتَضِى أن لا يُختارَ له إلا كُلُّ كامِلِ الأوْصاف، كافلٍ بما تستدْعِيه مصلحةُ أهلِه من إنْصاف؛ ذُو عَزْم يمضِى والسِّهامُ مستوْدَعة فى الكنائن، ويقْضِى بالعدل المُزِيل للشَّوائب والشَّوائن، ومن له حزم يسُدّ ثغر المَعايب دُونَ كلِّ ملاحِظ ومُعايِن؛ وله سِياسةٌ تُحفَظ بمثلها الثُّغور، وتُصان الأمُور، وله بشاشةٌ تستجلِب النُّفُور، وتُوفِّق ما بين الألسِنة من أولى الوُدِّ والصُّدور، وله حياطةٌ بينا يقال: هذا جانبُه دَمِثٌ إذ يُقال: هذا جانبُه صَعْب ممتَنِع، وبينما يُقال ليقَظته للمصلحة: هذا سحابٌ يتجهم (٣) إذْ يُقال هذا سيلٌ مندَفِع.

ولما كان فلانٌ هو مستوعبَ هذه الصِّفات، ومستَوْدَع هذه الأسماءِ والسِّمات؛ وإليه بهذه المَناقِب يُشار، وهو ساحِبُ أذيالِ هذا الفَخَار ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى

(١) بياض بالأصل ولعله فكانوا ليوم الخ.

(٢) فى الأصل «كتفت» وهو تصحيف من الناسخ.

(٣) لعله سحاب جهام. أى لا ماء فيه. تأمل.

الشريف أن تُفوِّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بثَغْر الإسكندرية المحرُوس ، تفويضًا يُمْضى فى مصالحه لسانَه وقلَمَه ، ويُصرِّف بين الأوامر والنَّواهى إشاراتِه وكلِمَه ، ويزيِّن مواكبَه بطلْعته ، ويزيد مهابتَه ببُعْد صيته واشتهار سُمْعته .

فليباشر هذه الوظيفة مُجَمِّلا مواكبَها ، مكمِّلا مراتبَها ، موثِّلا(١) بقواعد الأمْن أرجاءَها وجوانبَها ؛ ناشرًا لواءَ العدل علىٰ عوالمها ، قابضًا بالإنصاف لمظلوم رعيَّتها علىٰ يد ظالمها ؛ مُعْليا منارَ الشرع الشريف بمعاضدَة حُكَّامه والانقياد إلىٰ أحكامه ، والوقوف فى كل أمر مع نَقْضه وإبرامه ؛ ولْيَحْرُس جوانبَ هذا الثغر ويحميها ، وليصُنْ عوارضَه وما فيها ومَنْ فيها ؛ وليَكلَأْه برًّا وبحرا ، وليُرْخ عليه من ذَبِّه سِترًا فسترًا ؛ وليُنْجِح لِسافرته(٢) طَلَبا ، وليبلِّغْهم من العدل والإحسان أرَبًا ؛ ويُجْمِل معاملةَ من وجد منهم فى سَفَره نَصَبا ، واتخذ سبيلَه فى البحْر عَجَبا . والرعيَّة فهم طِرازُ الممالك ، وعُنوان العِمارة الذى مَن شاهده فى هذا الثغر عَلِم ما وراءَ ذٰلك ؛ وأحسِنْ إليهم وارأفْ بهم ، وبلِّغْهم من عَدْل هذه الدولة غايةَ أرَبهم ؛ وأمورُ الخُمُس والديوان فلها قواعِدُ مستقِرّة ، وقوانين مستمِرّة ؛ فاسْلُكْ منها جَدَدا واضحا ، وابتَغ لها عَلَما لائحا ؛ وغيرُ ذٰلك فلا يكادُ علىٰ فَهْمك يخفىٰ ، من تقوىٰ الله التى بها تُكَفُّ عينُ المَضارِّ وتُكْفىٰ ؛ والله تعالىٰ يُلْهِمك صَوابا ، ولا يجعل بينَ حِجَاك وبينَ المَصالح حِجَابا ، بمنِّه وكرمه ! .

---

(١) موثلا ممكنا . من وثل الشئ أصله ومكنه .

(٢) (لسافرته) هم المسافرون .

الصـــنف الثـانى

(من الوظائف التى يكتب بهـا بثغر الإسكندرية ـ الوظائف الدينية، وكلهـا تواقيع، وفيها مرتبتان)

المرتبـــة الأولى (١)

(ما يكتب منها فى قَطع الثلُث بـ«ـالسامىّ» بالياء، وفيها وظائف)

الوظيفـــة الأولى

(القضـاء)

وهو الآنَ مختصٌّ بالمـالكيَّة، وقاضيها يَتحـدّثُ فى نفس المدينـة وظاهِرِها، ليس له ولايةٌ فيما هو خارجٌ عنها .

وهذه نسخةُ توقيع بقضاءِ ثَغْر الإسكندريَّة لمالِكىٍّ، كُتِب به للشيخ «وجيه الدين محمد بن عبد المُعْطى الإسكَنْدرىّ المـالكىّ» وهى :

الحمدُ لله رافعِ قدْر من نَوّهَ العلمُ بذِكْره، ونَوَّر التُّقىٰ مواقِعَ فِكْره، ونَبَّه الورَعُ علىٰ رِفْعة قَدْره، وأشرَقَ به مَنْصِبُ الحكم العزيز إشراقَ الأُفُق بطلوع بَدْره، وأضاءتْ بنُور أحكامه غوامِضُ القضايَا الشرعيَّـةِ إضاءةَ الدُّجىٰ بغُرّة فَجْره، وقضىٰ له دوامُ الإصابة فى الاجتهاد بإحراز أجْرَيْه إذا كان أحدُ قِسمَىْ الاجتهاد مقتضِـياً لأَجْره، ومُلِئَ صـدْرُه بأنواع العلوم الدينيَّة فوسَّع له الشرعُ الشريفُ صدرَ مجلِسـه وأعدّ له مجْلِس صَدْره، وزَخَر من خاطره بحرُ العلم فآرتوَتْ رياضُ الخواطر بأنوار فرائد دُرّه،

(١) لم يذكر الثـانية فيما يأتى .

وأسفَر وجهُ الدين بنُور علمه وعَمله : فقام هذا مَقامَ السُّرور فى أساريره وناب هذا مَنابَ الشَّنَب فى ثغْره .

نحمدُه حمدًا يزيدُ قدْرَ النِّعم تنويها، ويُسوِّغ فى المحامد تعظيمًا لُمسْدِى المِنَّة وتنزيها، ويَنهَض بشكر التوفيق فى ٱختصاص مَنْصب الحكم بمن كانَ عند الله وَجيها .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادة تفتَرُّ ثغورُ الإسلام بإدامتِها ، وتُبنَىٰ قواعدُ الإيمان علىٰ إقامتِها ، وتَشيمُ بَوارقَ النصر علىٰ جاحدِها من أثناء غمامَتِها؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أنارتِ الآفاقُ بملَّتـه ، ودارَتْ أداةُ التشبيه بين أنبياء بنى إسراءيل وعلماءِ أُمَّته، وضاهىٰ شرعُه شمسَ الظهيرة فى وُضُوح أحكامِه وظهور أدلَّته ؛ صلى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين عملُوا بما علمُوا ، وجاهدُوا أعداءَ الله فما ضعُفوا لذٰلك ولا أَلُموا، وقضَوْا بالحق بينَ أمّته فلا المَقْضىُّ لهم أثموا ولا المَقْضىُّ عليهم ظُلموا ؛ صلاةً لا تزالُ لها الأرض مسجدا، ولا يبرَح ذِكرُها مُتْهِما فى الآفاق ومنْجِدا؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ من قُلِّد الحكم وإن نأَىٰ به الورَعُ عن توقُّعه، وخُطب للقضاء وإن أعْرَض به الزُّهدُ عن طِلَابه وتتبُّعه ، ودُعىَ إليـه إذِ الإجابةُ عليـه متعيِّنه ، ووُضِعَتْ مقاليدُه بحكم الاستحقاق [فى يديْه] إذْ أولَويَّته البيِّنةُ لا تحتاجُ إلىٰ بَيِّنه ــ من عُقِدت علىٰ تعيُّنه لهذا المَنْصب الجليـل الخَناصِر، ودَعَت إلى ٱستدعائه إليه فضائلُه الثابتةُ القواعد وزَهادتُه الزاكيةُ الأواصر؛ ودلَّت عليه علومُه دَلالةَ الأضواء، علىٰ لَوامع الشُّهُب، ونبَّهتْ عليه فنُونُه تنبيهَ الأنواء، علىٰ مَواقِع السُّحُب؛ وشهِدَ بورَعه المتين، تفقُّهـه وٱعتزَاله ، وأنبأ عن نُهوضه بنُصرة الدين، قوّةُ جداله الذى هو جلادُ مثـله ونِزالُه ؛ وتَبحَّر فى أنواع العلوم حتّى جاوَرَ البحرَ بمثله ولكنَّه

العذب الزُّلال ، وشَغَل نفسَه بالتنوع فى الفُنون فكان التحلِّى بعبادة الله ثمرةَ ذلك الاشتغال ، ومشىٰ علىٰ قَدَم الأئمة العلماء من أسلافه فلم يُشَقَّ فى ذلك المضمارِ غُبارُه ، ونشأ علىٰ طريقةِ العلم والعمل : فنهارُه بالانقطاع إليه ليلُه وليلُه بالاشتغال بهما نهارُه .

ولما كان فلان هو الذى خطبَتْه هذه الرتبةُ السنيَّة لنفسها ، وتشوّقتْ إلى الإضاءة بطُلُوعه فى أُفُقها تشوّقَ المَطَالِع إلى الإضاءة بطُلُوع شمسها ؛ وأثنىٰ لسانُ القلم علىٰ فضائله وهو يعتذر من الاختصار ، واقتصرت البلاغةُ على اليسير من التعريض بوَصْفه وطالبُ مالا يُحصَر معذورٌ فى الاقتصاد والاقتصار ؛ وعُيِّن لما تعيَّن عليه من مصالح الأمّةِ وذلك يقضى لمثله من أهل الورَع أن يُجيب ، وطُلِب لعموم مصالح الإسلام التى ما ينبغى لمثله من أنصار السُّنَّة أن يتأخَّر عن مثْلها أو يَغيب ؛ وكان ثغْرُ الإسكندرية المحروسُ من المَعاقِل التى يفْترّ عن شَنَب النصر ثَغْرُها ، ومن أركانِ الدين التى يَغَصُّ بأبطالها بحرُها ؛ وهى مأوىٰ صُلَحاء[1] الجهاد الذين سهامُ ليلهم أسبَقُ إلى العِدَا من سهامهم ، ومَوْطنُ العلماء من أهل الاجتهاد الذين يَعدِل دمَ الشهداء مِدادُ أقلامهم ؛ وهى دارُه التى تَزهىٰ به نواحيها ، ومَوْطنُ رِباطه الذى يومٌ وليلةٌ منه فى سبيلِ الله خيرٌ من الدنيا وما فيها ـ اقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نخُصَّ منصبَ حكمِها بعالِمِ أُفُقِها المُنير ، وزاهد ثغْرها الذى ماشَام برقَه بصرُ عدوٍّ إلا وانقلب إليه خاسئًا وهو حَسِير ، أن[2] نُفوّضَ إليه منصبَ القضاء والحكم العزيز بثغر الإسكَنْدريَّة المحروس ، علىٰ قاعدةِ من تقدّمه فيه ، نظرًا فى عُمُوم ذلك الثغر المحروس به (؟) إلىٰ من انعقد إجماع أئمةِ عصْره ومِصره علىٰ سَعَة علمه ووُفُور وَرَعه وكمال فضله .

---

(١) مرادهُ أنها مأوى صلحاء المتعبدين الذين الخ .

(٢) يظهر أن فى هذه العبارة سقطا وحرر .

فلْيباشر هــذا المنصبَ الذى مِلاكُ أمرِه العــلمُ والتُّقىٰ ، ونِظامُ حكمه العــدْلُ والورَعُ وهمــا أكمَلُ مابه يُرْتَقىٰ ؛ وليَحكُمْ بمــا أراه الله من قواعد مذهَبِــه المُحْكَمه ، وأحكام إمامِه التى هى بمصالح الدِّين والدنيا محكَّمه ؛ وليَقْضِ بأقوال إمامِ دار الهِجْرة التى منها صدرَت السنَّة إلى الآفاق ، وعنها أُخذتْ ذخائرُ العــلم التى تزكُو علىٰ كثْرة الإنفاق ؛ وبها حِمىٰ الأحكامِ الدينية موطَّأُ الأكناف ، وفيها آستقام عمودُ الملّة ممدُود الطَّرَف علىٰ سائر الأطراف ؛ فلْيَــلِ من ذٰلك وغيره جميعَ ما كان يليــه مَنْ تقدّمه ، وتقتضِيه قواعدُ ولايته التى أمضينا فيه لسانَه وقلَمَه .

فأمَّا ما يدخُل تحتَ هذا الإجمال من آداب القضاء وقواعِدِه ، وأدَواته وعوائِده : من تخصيص الحُكْم بأوقاته ، ومُساواته بين الخصمين فى إنصافه و إنصاته ؛ وآجتناب الحُكْم فى الأوقاتِ المقتضِيَة لِتَرْكه ، وتوَقِّى نقْض الأحكام التى نَظَمَها عَدَمُ مخالفة النص والإجْماع فى سِلْكه ؛ فإنه مكتَفٍ بالإجمال عن تفصيلها ، مكتف عن ذكر كثيرِها بالإيمــاء إلىٰ قليلها ؛ إذ هو أدرىٰ بأوضاعِها شَرْعا وعُرْفا ، وأدرَبُ بمــا قد يشِذُّ منها عن ألمعيَّته أو يخفىٰ ؛ وملاكُ الوصايا تقوَى الله تعــالىٰ وهى من خصائص نفْسه ، وفواتِــح ما آبتدأ الورَعُ بإتقان دَرْســه ؛ والله تعالىٰ يؤيد حُكْمه ، ويُعْلِى عَلَمه ؛ بمنّه وكرمه ! والآعتاد ... ... إن شاء الله تعالىٰ .

وآعلم أنه كان فيما تقدّم قد وليها قاضٍ شافعىٌّ .

وهذه نسخةُ توقيع بقضائها ، كُتِب به للقاضى «علَمَ الدين الإخنائى» الشافعى ، فى ثامنِ شعبانَ سنةَ ثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله الذى رَفَع لنا فى كل ثَغْر عَلَما، وأجْرىٰ لنا فى جِوار كلِّ بحر مايضاهيه كَرَما، وجعل من حُكَّام دولتنا الشريفةِ من يُعْرَف بنسبه الإسنائى بل السَّنائى أنه يمحُو من الظُّلْم ظُلَما .

نحمَدُه علىٰ أن زادَنا نِعَما، ووفَّر للأحكام الشرعيَّة بِناقِسَما، وأغْلىٰ قِيمًا، [فأضحت] تُنافِسُ الدُّرَّ الثمين قِيَما ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُجرِّد لإقامتها سيْفا وقَلَما، ونشهد أن محمَّدا عبده ورسوله الذى جعل اللهُ له شريعةً ماذيَّةً(١) ودِيناً قِيَما، ونصَب من أئمة أتْباعه كلَّ علَم يهدِى أُمَما، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة باقيةً مابقِيَت الأرضُ والسَّما ؛ وسلَّم تسليما .

وبعد ، فإنَّ أوْلى الثُّغور بأن لايَزالَ به عَلَمٌ مرفُوع ، وعِلْم مصونٌ حجابُه الممنُوع ، وعملٌ يمشِى به أئمةُ الأمة علىٰ طريقه المشروع ، ثغرُ الإسكندرية ـ حماها الله تعالىٰ ـ فإنها من دار الملك فى أعَزِّ مَقام، ومن مُجاورة البحر فى مَوْطِن جهاد تَخْفُق به الأعلام ؛ وغالبُ مَن فيها إما فقيهٌ يتمسَّك بالشريعة الشريفة فى عُلُوّ علومه ، أو ربُّ مالٍ له وقوف بمجلس الحكم العزيز ينتصِفُ من خِصام خُصُومه ؛ ولم تزَلْ وظيفةُ القضاء بها آهِلةَ الصدور ، كاملةَ البدُور ، متهلِّلةً بما لايفوتُ الشَّنَب كبارق الجَزْع إذا حكىٰ إيماضَ الثُّغور ؛ وكان لها مدَّةٌ قد خلَتْ ونحن نفكِّر فيمن يكون سَدادا لثغرها، وكافيًا فيما يُهِمُّ فىالأحكام الشرعية من أمْرِها ؛ وكافلًا من الحق الذى أمر اللهُ به بما يقِى النفوس، وقائما فى مَدارسها بما يَزيد معالِمَها إشادةً فىالدروس ؛ حتَّى أجمعت آراؤُنا الشريفةُ علىٰ من يحسُن عليه الإجماع ، وتُحسَم به دواعِى النِّزاع ، ويحسُد علمَه علمُ الشمس لِمَا علا عنها من كُرَة الارتفاع ؛ ومن يتضوَّعُ بنَشْر العدل

(١) أى سهلة بيضاء .

فى يُمنىٰ كفه القلَم ، وإذا وقفَتْ به الركائبُ قالت : ياسارى القصدَ هذا البانُ والعلَم ؛ وكان المجلس السامىّ القضائىّ العَلَمِى الإسنائى الشافعى ، أدام الله علُوّه هو العَلَم المنشُور ، والعِلْم المشهُور ، والمرادَ بما تقدّم من وصْف مشكُور ؛ فاقتضت مراسمُنا المُطاعة أن تُناط به من الأحكام الشرعيــة القضايا ، وأن يبْسِم هــذا الثغر بحكمه عن واضِح الثَّنايا .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ، العالى ، المولَوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الناصرىّ : زاده الله شرَفا ، وضاعف له تصرُّفا — أن يفوّض إليه القضاءُ بمدينة إسكندرية — حماها الله تعالىٰ — علىٰ عادةِ من تقدّمه وقاعدتِه المستقرّة إلىٰ آخر وقت ، علىٰ أنه يَستنيبُ عنه فى تحمُّله وفيما شاء منه من هو موصوفٌ بصفته ، موثوقٌ بدينه وعلْمه ومعرفته ؛ ولْينتصِبْ فى مجلس الحكم العزيز لمن يتنصف ، ولْيعمل بما يُرضينا من مراضِى الله تعالىٰ فإنَّ للعيون أن تنظُر وللألْسنة أن تَصِف ؛ ولينظُرْ فى أمر الشهود فإنَّ الأحكام الشرعيــةَ علىٰ شهادتهم تُبْنىٰ ، وليحترِزْ من الوكلاء فإنَّ منهم من يجعل الظنّ يقينًا واليقينَ ظنّا ، ولينظر فى أمور الأيتام ويتصرّفْ فى أموالهم بالحُسْنىٰ ؛ وليُقِم الحدودَ ، علىٰ مقتضىٰ مَذْهَبِه ، وليعوّل فى العقُود ، علىٰ من لايخافُ معه امرؤ علىٰ إلحاقٍ فى نسبه ؛ وغير هذا مما إليه مرجعُه ، وإليه ينتهى مفترَقه ومجتمعُه وبحكمه يفصَلُ أمرُه أجمَعُه ؛ ولْيتخذِ الله تعالىٰ عليه رَقيبا ، وليعلَمْ أنه سيَرىٰ كلَّ ما يعملُه عند الله قَريبا ؛ وتقْوىٰ الله هى التى تتخذ معه عليها عَهْدا مسئُولا ، ورجاءً مأمولا ، وقولا عند الله وملائكته وأنبيائه مقْبُولا ، ونقلِّده منها علىٰ كل مخالِفٍ سيفًا مسلُولا ؛ ونحن نرغَبُ إلىٰ الله أن يوفّقه فى حكمه ، ويُعينَه علىٰ كل ما يُمْلَىٰ من الوصايا بما هو مليٌّ به من عَمَله وعلْمه ؛ والخط الشريف أعلاه ، حجةٌ فيه .

قلت : وكان قد آستُحِدث بالإسكندرية قاضٍ حنفىّ فى الدولة الأشرفية « شعبان بن حسين » يُولّى من الأبواب السلطانية رفيقًا للقاضى المالكىّ بها، يتحدّثُ فى الأحكام فى القضايا المتعلّقة بمذْهَبه خاصّة ، وأمرُ مُودَع الأيتام ونظرُ الأوقاف ، وغيرُ ذٰلك من متعلّقات قضاء القضاة مختصٌّ بالمالكى ؛ ثم صارت بعد ذلك تارةً يولّى بها حنفىّ كذٰلك ، وتارة تَشْغَر منه . فإنْ وليها حنفىّ ، كتب له فى قطع الثُّلُث كما يكتب للقاضى المالكىّ ، وليس بها الآن شافعىّ إلا نائبا عن المالكىّ ، ولا حنبلىّ بها أصلا .

الوظيفة الثانية

(الحِسْبة بثغر الإسكندرية)

ومحتَسِبها يُمضِى تحدُّثَه فيما يختص به قاضِيها ، وليس له نُوّاب فيما هو خارج عن ذٰلك من البلاد .

وهذه نسخة توقيع بالحِسْبة بثغر الإسكندرية .

الحمدُ لله الذى جعل المناصِبَ فى أيّامنا الزاهرةِ محفوظةً فى أكفائها ، مضمونةً لمن تقاضت[له] من الإقبال ر[دَّ]جَفَائها ، معدوقةً فى مآلها إلىٰ مَنْ زانها بمعرفته الحسنة بحسن... ... ... (١) بمن دلَّتْ كَفاءَتُه وكِفايَتُه علىٰ أنه أولىٰ بتقرُّبها وأحقُّ باصطِفائها .

أحمدُه علىٰ نِعَمِه التى لم تُخَيِّب فى إحساننا أملاً ، ولم تُضَيِّع سعْىَ من أحسن [العملَ] فى مصالح دولتنا إنَّ الله لا يُضِيع أجْرَ من أحسَنَ عَمَلا ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً هى أشرفُ مافاهَ به اللّسان ، وأفضلُ ما تُعُبِّد به

(١) بياض بالأصل . ولعله "بمعرفته الحسنة وحسن بهائها ، مخصوصة بمن الخ" .

الإنسان ، وأرفعُ ما مُلكت به فى الدنيا والآخرة عِظامُ الرُّتَب الحِسان ، ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذى أحلَّ الطيِّبات وأباحها ، وأزال الشُّبهات وأزاحها ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تمسَّكوا بأحكامه ، ووقفوا مع ما شَرَع لهم من حلال دينه وحرامه ، وحافظُوا على العمل بسُنَّته بعدَه محافظَتَهم عليها فى أيَّامه ، صلاةً يتوقَّد سراجُها ، ويتأكَّد بها آنتساقُ السنَّة وآنتساجُها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ مَن رجع فيه حقُّ منصبه إلىٰ نِصابه ، ورُدَّ به واجبُ رُتْبته إلىٰ من جعلَتْه سوابقُ سيرته أَوْلَىٰ به ، وتقاضتْ له سيرتُه عواطفَ كرمِنا ، ونهضَتْ نزاهتُه باستِطْلاع ما غابَ عنه من عوارِفنا ونِعَمِنا ، وأغنَتْه أوصافُه عن تجديد ثناء يُستعادُ به بِرُّنا القديم ، ويستَدام له به فضلُنا العميم ، وتستدرّ به أخلافُ كرمنا الذى تَساوَىٰ فى عمومه الظاعنُ والمُقيم — مَن زانَ التقىٰ أوصافَه ، وكمَّلت العِفَّةُ معرفته وإنصافه ، وتولَّت الديانة نظَره فيما عُدِق [به] من مصالح الرعايا خُصوصًا وعمومًا ، وتكفلت الخبرة من آعتباره لأمور الأقوات بأن جعَلَ لكل منها فى الجَوْدة حدًّا معلوما ، وباشر ما فُوِّض إليه فجمع بينَ رِضا الله تعالىٰ ورضا خلْقه ، وعُوِّل عليه فى حِسْبة أعزِّ الثغور لدينا فتصبح الرعايا فيما بَسَط لهم من رِزْقه .

ولما كان فلان هو الذى أضاءت أوصافُه وهل تُنْكَر الإضاءةُ للسِّراج ، وتَشوَّفت إليه رتبتُه فلم يكنْ لها إلَّا إليه مَلَاذٌ وإلا عليه مَعَاج ، فسلَكَ من السِّيَر أرضاها لربِّه ، ومن الأحوال أجمعَها لأمْن عاقبتِه وسلامةِ غِبِّه ، ومن الآجتهاد فى مصالح الرعايا ما يُضاعَف شكرُه على آحتسابه ، ومن الخيرة ما يُعرِّف كلا منهم كيف يكونُ آكتساء البرية فى آكتسابه — رُسِم أن يستقرّ (١) ... ...

(١) بياض بالأصل وهو معلوم مما تقدم وحذفه اختصارا فى الكتابة .

فلْيستمرّ فى ذلك علىٰ عادته التى ناضلَتْ عنــه فأصابَتْ ، وقاعدته التى دعَتْ له عواطفَ نِعمَنا فأجابَتْ ، ولْيَزِدْ فى التحذير والتحقيق ما آستطاع ، ويُنـاقِشْ حتى يستقِرَّ على الصحة فيما يُباع أو يُبتاع ، ويقابِلْ على الغِشّ بمـا يردَع متعاطِيه ، ويزجُر صانعَ الأعمال الفاسدة عن آستِدامتِها ومَن يُوافقه علىٰ ذلك ويُواطيه ، ويُثَمِّرْ أموالَ الأحباس بملاحظة أُصُولها ، والمحافظـة علىٰ رَيْعها ومحصُولهـا ، وإمضاء مَصارفِها علىٰ شروط واقفِيها إن علمت ومزية (؟) ماقدّم من شكْره والثناء عليه ، وملاكُ ذلك جميعِه تقْوىٰ الله تعـالىٰ وهى أخصُّ ماقُدّم من أوصافه ، والرِّفْقُ بالرَّعايا وإنّه من أحسنِ حِلىٰ معرفَتِه وإنصافِه ، والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفــــة الثـالثة

(نظَرُ الصـادر)

وموضُوعها التحدُّث فى قَدْر مقرَّر يؤخَذ من تُجّار الفَرَنج الواردين إلى الإسكندرية ، وعليه مرتّبات لناسٍ مخصوصِين من أهل العِلم والصلاح ، يُنفَق عليهم بمقاديرَ معلومة من متحصِّل هذه الجِهة .

وهــذه نسخةُ توقيع بنظر الصـادر والوارد ، أنشأته عن السلطان الملِك الناصر «فرج بن الظاهر برقوق» للقاضى ناصر الدين «محمد الطَّنَاحى» إمام المقام الشريف السلطانىّ ، فى منتصف شهر صفر سنةَ أربع وثمـانمـائة ، وهى :

الحمد لله الذى جعل من سُلطاننا الناصر لأخَصّ ولِىٍّ أعزَّ ناصر ، وخصَّـه من فائض كَرَمِنا المتتابع ومَنّنا المترادِف بأكرم وارد وأبرِّ صادِر ، وبوّأه من فضْلِنا المُنيف أفضل مبوَّإ : فتارة تأتمُّ به الملُوك وتارة يخطُب الكافّةَ علىٰ رءُوس المَنابر .

نحمـدُه علىٰ أنْ جعلنا نَتَّبع فى الوِلايات نَهْجَ الصَّواب ونقتَفيــه ، وآثَرنا من أَثَرة الأبوة بِأعْلىٰ مواقع الآجتبـاء والولدُ سِرُّ أبيه ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريكَ له الذى أذلَّ طُغاةَ الكفر بقَمْع آنافِ كُبَرائِهـم ، وألزمَهم الصَّغار بمـالٍ يؤخَذ من أقوياءِ أغنيائِهم فيفرَّق فى ضُعفاء المسلمين وفُقَرائهم ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله الذى نَدَب إلىٰ مَبرَّة أهل الفضــل وذَويه ، ورغَّب فى رِعاية المودَّة للآباء بقوله : «إنَّ مِنْ أبَرِّ البِرِّ بِرَّ الرجُل أهْلَ وُدِّ أبيــه» صلى الله عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عُدِقت بهم مهمَّاتٌ ، فقاموا بحقِّها ، ووُكِلت إليهم جلائلُ الولايات ، فأحرزُوا بجميل التأثير قَصَب سَبْقِها ؛ صلاةً يبقىٰ علىٰ مدَى الأيام حكْمُها ، ولا يتغيرَّ علىٰ مرّ الزمان رَسْمُها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإن من كَرِيم سجايانَا التى جُبِلنا عليها ، وشريف شِيَمنا التى يجْذِبُنـا طيبُ العُنْصُر إليها ، أن نُخُصَّ أخصَّ الأولياء بأسْـنىٰ الوِلايات ، ونُتْحِفَ أصفَى الأصْفياء بنهايةِ غَيْرِهِ فى البِدايَات ؛ ونرفَعَ قدْرَ من لم يزَلْ ظهرُه للملُوك مِحْرابا ، ونُنَوِّهَ بذكر من رَغِبت فيه الوظائفُ فعدَلَتْ إليه عن سِوَاه إضرابا .

وكان المجلس السامىّ ، القاضَوِىّ ، العــالمِىّ ، العامِلىّ ، الفاضِــلىّ ، الكاملىّ ، البارِعىّ ، البليغىّ ، الماجدىّ ، الأوْحدىّ ، الأثيرِىّ ، الأثِّيلىّ ، العَرِيقىّ ، الأصِيلىّ ، الخَطِيبىّ ، الناصِرىّ ؛ مجدُ الإســلام ، بهاءُ الأنام ؛ شرفُ الرؤساء ، أوحدُ الكبراء ؛ صدْرُ الأعيان ، جمال الخُطَباء ، جَلَال النُّظَّار ، صَفوةُ الملوك والسلاطين ، أبُو عبد الله محمد ، آبن المجلس السامىّ ، الجمالىّ ، المرحوم عبدالله الطَّنَاحى ، إمام المقام الشريف : أدام الله تعالىٰ رفعته ــ قد طالَتْ فى المخالصــة قُدْمته ، ووفُرَت من صِـدْق المُوالاة قِسمَتُه ؛ فرُفِع علىٰ الآبتداء خبَرُه ، ونصب علىٰ ... ...[1] تقدّمه فحُمِد فى الآختيار

(١) بياض بالأصل ، ولعله "المدح أو التعظيم" .

أثَرُه، وكانت وظيفتَا نظرِ الصادر وخَطَابة الجامع الغَرْبىّ بثغر الإسكندرية المحروس ـ حرسه الله تعالىٰ وحماه، وصانَ من طُروق العدوّ المخذُول حِماه ـ من أرفع الوظائف قَدْرا ، وأميَزِها رُتْبة وأعْلاها ذِكْرا ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نُسند وِلايتَهما إليه ، ونعتَمِد فى القيام بمصالحهما عليه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ آراؤُه مسَدَّده، ونِعَمُه على الأولياء فى كلّ حينٍ مُجَدّده ـ أن يَستقِرّ المشارُ إليه فى الوظيفتين المذكورتَين عوضًا عمن كانتا بيده ، بما لَهما من المعلوم، ويُفْسَح له فى الاستنابة علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك : استنادًا إلىٰ أمانتِه التى بلغَتْ به من العِفَّة مُنتهاها ، وكفايته التى عَجَز المتكلِّفون عن الوُصول إلىٰ مَدَاها، وفصاحتِه التى أعجزَتْ ببراعتها الخُطباءَ الأماثل، وبلاغتِه التى قضَتْ بالعِىّ علىٰ قُسّ إيادٍ وحكَمَتْ بالفَهَاهة علىٰ سَحْبانِ وائل .

فليتلقّ ماأسند إليه بيَدِه الطُّولىٰ وباعِه المَديد، وليُقابِلْ هذه النعمةَ الجليلةَ بالشُّكر فإنَّ الشكر مستلزِمٌ للمزيد، عالما أنَّ نظَر الصادر يقدّمه أهلُ الثغر علىٰ عامَّة الوظائف مادَقَّ منها وما جَلّ، ويتبرَّكُ المرتَّبون عليه بما يأخُذونه من راتِبه وإن قلّ ، فليُحسِنِ النظرَ فيه وِرْدا وصَدَرا، ويميِّزْ رَيْعه بحُسن النظر فيه حتَّى يقول المعانِدُ : ما أحْسَنَ هذا نَظرا ! .

والجامعُ الغربىّ فهو أجلُّ جوامع الثغر الإسكندرىِّ قَدْرا، وأعظمُها فى الأقطار صِيتًا وأسْيَرُها فى الآفاق ذِكْرا ، يحضُر الجُمعَةَ فيه أهلُ الشَّرق والغَرْب، ويُلِمُّ بخُطبته سُكَّان الوِهَادِ والهَضب ، فلْيرقَ منبره رُقِىّ مَن خَطبه المِنْبر لخُطبته ، وعلِم عُلُوَّ مقامه فقابله بعلُوّ رُتْبته ، ويشَنّف الأسماعَ بوعْظه ، ويَشْجِ القلوبَ بلفْظه ، ويُحْيِ العُقُول بتذْكيره ، ويُبْكِ العيونَ بتحْذيره ، ولْيُعِدْ للجامع ما تعوّدَه من الإسعاد ،

ويجدِّد مادَرَس من معالم خَطَابته حتَّى يقال : هذا ٱبنُ المُنَيِّر قد عاد، وعِمادُ الوصايا تقوى الله فهى مِلاكُ الأمور كلِّها، وعليها مدارُ أحوال الدُّنيا والآخرة فى عقْدها وحَلِّها؛ وهاتان مُقـدِّمتا خيرٍ فليكُن لنتيجتهما يرتَقِب، ولا يَقْطع بالوقُوف معهما رجاءه «فأوَّلُ الغيث قَطْر ثم يَنْسَكِب»؛ والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعْلاه، حجَّةٌ فيه بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ.

الصـــــنف الثـالث

(من الوظائف التى يُكتَب بها بثغر الإسكندريَّة المحروس، الوظائفُ الدِّيوانيةُ، وهى علىٰ طبقتين)

الطبقـــــة الأولىٰ

(مَنْ يكتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السـامىّ» بالياء وهو ناظر المباشَرة بها، وعنه يعبَّر بناظر الإسكندرية، دون ناظِر الأصْل[1] المقدَّم ذكره فى جملة الوظائف الديوانية بالحضرة)

وموضوعُ هذه الوظيفة التحدّثُ فى الأموال السلطانية بالإسكندريَّة ممـا يتحصَّل من المأخوذ من تِجَـار الفَرَنج، وسائر المَتَاجر الواصلة بَرًّا وبحرًا بالقَبْض والصَّرف والحملِ إلى الأبوابِ السلطانية.

وهذه نسخةُ توقيع بنظر ثَغْر الإسكندرية، كُتِب به للقاضى «جمالِ الدين ٱبن بَصَّاصة» وهى :

---

(١) وهو ناظر الخاص المتحدّث فى الأموال السلطانية كما تقدّم.

الحمدُ لله الذى أضحكَ الثُّغُور(١) بعد عُبُوسها ، وردّ إليها جَمالَهـا وأنار أُفُقَها بطلوع شُمُوسها ، وأحيَا معالمَ الخَـيْر فيها وقد كادت أن تُشرفَ علىٰ دُرُوسها ، وأقام لمصالح الأئمة مَن يُشرِق وجهُ الحق ببيَاض آرائه ، وتلتذُّ الأسمـاع بتلاوةِ أوصافِه الجميـلةِ وأنبـائه .

نحمدُه حمدَ من أُسبغت عليه النَّعماء ، وتهادتْ إليه الآلاء ، وخَطَبتْه لنفسها العَلْياء ، ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً ترفع قـدْرَ قائلها وتُعْليـه ، وتُعزُّ جانب منتَحِلها وتُدْنيـه ، وأن محمدًا عبـده ورسوله أفضلُ نبيٍّ رابَطَ وجاهَد ، وأكرمُ رسول جنَحَ للسِّـلْم بأمر ربِّه فهادَنَ وعاهد ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ، وأشياعه وحِزْبه .

وبعـدُ ، فأحقُّ مَن ماسَ فى أرْدية الرياسة عِطْفا ، وآستَجْلىٰ وجُوهَ السعادة من حُجُب عزِّها فأبدَتْ له جمالا ولُطْفا ، وآصـطفَتْه الدولةُ القاهرة لمهمَّاتها لمَّـا رأتْه خيرَ كافل ، وتنَقَّل فى مَراتبها السنيَّة تنقُّل النيِّرَيْنِ فى المَنازل(٢) .

ولمـا كان فلان أدام الله رفعته ممن أشارت إليه هذه المناقب الجليله ، وصارت له إلىٰ كل سؤل نعم الوسـيله ، رسم بالأمر الشريف ـ لا زال ... ... أن يستقرّ فى نظر ثغر الإسكندرية المحروس ويباشرَ هذا المنصبَ المبارَك بعَزَماته المـاضيه ، وهِمَمه العاليه ، برأْى لا يُساهَم فيه ولا يُشارَك : ليُصْبِح هـذا الثغرُ بمباشَرته باسمـًا حاليا ، وتَعُودَ بهجَتُه له بجميلِ نظرِه ثانيا ، وينتصبَ لتدبير أحواله علىٰ عادته ، ويقرّرَ قواعِدَه بعالِى همَّته ، ويجتهِدَ فى تحصيل أموالِه وتحصينِ ذخائِره ، وآستخراج زكاته

(١) تقدّمت فى صفحة ٤٠ و ٤١ من هذا الجزء ببعض زيادة وتغيير وآختصار .

(٢) لم يذكر خبر المبتدا ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل أحق من ماس ... ... من كان لحلل العفاف لابسا ، ومن نور الايقان قابسا ، الى غير ذلك من الأوصاف .

وتمية مَتاجره ، ومعاملة التجّار الواردين إليــه بالعدل الذى كانوا ألِفُوه منه ، والرِّفق الذى نقلُوا أخبارَه السارَّةَ عنه ، فإنهم هدَايا البُحُور ، ودوالبةُ الثغُور ، ومن ألسنتِهم يُطَّلَع علىٰ ماتُجِنّهُ الصدور ، وإذا بَذَر لهم حَبَّ الإحسان نشَروا له أجنحةَ مراكبِهم كالطُّيور ، وليعتمدْ معهم ماتضمَّنته المراسيمُ الشريفةُ المستمرّةُ الحكم إلىٰ آخروقْت ، ولا يسْلُكْ معهم حالةً تُوجب لهم القلقَ والتَّظَلُّمَ والمَقْت ، وليواصِلْ بالحمول إلىٰ بيت المـال المعمُور ، وليملأ الخزائن السـلطانية من مستَعْمَلات الثغر وأمتعتِه وأصْنافه بكل ماتَستغنى به عن الواصل فى البُرور والبُحُور ، وليصرف همَّته العاليـة إلىٰ تدبير أحوال [المَتاجر بهذا الثغر بحيثُ ترتفع رءوسُ أموالها وتنمى ، وتجود سحائب فوائدها وتهمى ، وليراع أحوال] (١) المستخْدَمين فى مباشراتهم ، ويكشِفْ عن باطن سَـيْرهم فى جهاتهم ، ليتحقّقوا أنه مهَيْمن عليهم ، وناظر بعيْن الرأفة إليهم ، فتنكفُّ يدُ الخائن منهم عن الخيانه ، وتُحلَّ أنامل الأمين بمحاسن الصِّيانه ، وليطالع بالمتجدّدات فى الثغر المحروس ، ليرد الجواب عليه منا بما يشرح الصُّدور [ويُطيِّب النفوس] (١) وليتناول من المعـلوم علىٰ ذلك فى غرّة كل شهر ما يشهَدُ به الديوانُ المعـمور ، والله تعالىٰ يتولَّاه ويُعضِّده ، ويؤيده ويسدِّدُه ، بمنّه وكرمه ! .

قلت : وربمـا كُتِب لناظرها توقيعٌ مفتتَح بـ«أما بعد حمد الله» فى قطع الثلُث .

وهذه نسخة توقيع بنظر ثغر الإسكندرية ، وهى :

أما بعـدَ حمد الله مفيضِ حُلَل إنعامنا علىٰ من أخلَصَ فى طاعتنا الشريفة قَلْبــه ولسانه ، ومُولِى فضـل آلائنا العميمةِ علىٰ من أرهَفَ فى مصالحنا عزْمَه وبنانَه ،

(١) الزيادة ممـا تقدّم فى صفحة ٤١ من هذا الجزء .

ومُحَلِّى رتب عليائنا الشريفة بمن أشرق فى سماء المعالى بدْرُه و إنسانُه ، وأينعتْ فى غصون الأمانىّ قطوفُه وأفنانُه ، ومُبلِّغ أقصىٰ غايةِ المجد فى أيامنا الزاهرةِ بمن تبتسم بجميل نَظَره الثغور ، وتعتَصِم بحميد خبَرِه وخِبرْته الأمور ، وتُشْرِق من جميل تدبيره البدُور ، وتعتمد علىٰ هِمَمه الأيامُ والدهور . والصلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمد الهادى إلىٰ الحق و إلىٰ طريقٍ مستقيم ، والناشِرِ لواءَ العدل بسَنَنِه الواضح وشرعِه القويم ، والمُنْجزِ لمن آقتفىٰ سُبُلَه أوفىٰ تكريم ، وأوفرُ حظٍّ عظيم ، وعلىٰ آله وأصحابه ما آهتدىٰ بهديهم ذَوُو البصائر والأبصار ، وآرتدَىٰ بأرديَتِهم المُعْلَمة مقتَفِى الآثار ـ فإنَّ أَوْلىٰ من أستَنْدنا إلىٰ نظره الجميل رُتْبةَ عزٍّ مازالت طيورُ الآمال عليها تحُوم ، وعدَقْنا بتدبيره الجليلِ منصبَ سِيادة مابَرِحت الأمانىُّ له تروم ، وآعتمدنا علىٰ هِمَّتِه العالية فصدَّق الخُبْرُ الخبَرَ ، وركَنَّا إلىٰ حميد رأْيه فشَهِد السمعُ وأدَّى النظر (١) .

ولما كان فلانٌ هو الذى آتَّسق فى ذِرْوة هذه المعالى ، وآنتظم به عِقْد هذه اللآلى ، وحَوىٰ بفضيلة اللسان والبيان مالم تُدرِكه المُرهَفات والعَوالى ، فما حل ذِروةَ عزٍّ إلا وحلَّاها بنظره الجليل ، ولا رَقِىَ رتبةَ سيادةٍ إلا وأسفَر فى ذروتها وجهُ صُبْحه الجميل ، ولا عُدِق بنظره كفايةُ رتبةٍ إلا وكان لها خيرَ كَفِيل .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال ينتصِى (٢) للرتب العليةِ خَيْرَ مُنْجد ومُمِير ، ويمتطِى للمناصب السنيَّة نِعم المَوْلىٰ ونعم النصير ـ أن يستقرّ ... ... فإنه القوىُّ الأمين ، والمتمسِّك من تقوىٰ الله تعالىٰ ومراقبته بالسبب المتين ، والمستنِدُ بجميل كِفايته ، وحميد ديانته ، إلىٰ حِصْن حصين ، والمستذْرِى بأَصالته و إصابته إلىٰ الجُنَّة الواقيةِ والحَرَم الأمين ، فليقدِّم خيرةَ الله تعالىٰ فى مباشرة الوظيفةِ المذكورة بعزم

(١) لم يذكر خبرا لإنّ وهو معلوم من نظائره السابقة أى من كانت صفته كذا وكذا الخ .
(٢) بالصاد المهملة أى يختار و ينتقى .

لا ينبُو، وهمّــة لا تخبُو ، وتدبير يتضاعفُ علىٰ ممرّ الأيام ويرْبُو ، ونظرٍ لا يعزُب عن مباشرته فيه مثقالُ ذرّة إلا وهى من خاطره فى قرار مكين ، وضَبْطٍ لا تمتدّ معه يدُ لامس (١) [اليهـا] إلا ويجد من مرهَفِه مايكُفُّ كفَّها عن الخيانة بالحقّ المبين ؛ ولْيضاعِفْ همّتــه فى مصالح هذه الجهة التى عدَقْناها بنظره السعيد ، وليوفّر عزْمته فإن الحازم من ألقى السمْعَ وهو شهيد ؛ والوصايا كثيرةٌ ومثلـه لا يُدَلُّ عليها ، والتنبيهات واضحةٌ وهو ـ وفقه الله ـ أهدىٰ أن يُرشَـدَ إليها ؛ والله تعالىٰ يوفّقــه فى القول والعمَل ، ويُصْلِـح بجميل تدبيره وحميد تأتّيه كلَّ خلل ؛ بمنّه وكرمه ! .

الطبقـــــة الثـانية

(مَنْ يُكتب له فى قَطْع الثلث بـ«ـالمجلس السامى » بغـــير ياء
أو «مجلس القاضى» وفيها وظيفتان)

الوظيفــــــــة الأُولىٰ

(كتابة الدَّرج)

وصاحبُها هو الذى يقومُ بالإسكندرية مَقـامَ كاتب السرّ بالأبواب السـلطانية فى قراءةِ المُكاتبة علىٰ النائبِ ، وكتابةِ الأجوبةِ وما يجرِى مَجْرىٰ ذٰلك .

وهذه نسخةُ توقيع من ذٰلك :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال شاملًا فضـلُه ، كاملًا عدلُه ، هاملًا بالإحسان وبْلُه ، متّصِلا بالجميل حَبْلُه ، ملاحظًا بعين العنايةِ للبيتِ الزاكِى فَرعُه الطيِّب أصلُه ، معليا نَجمه إلىٰ أسنىٰ المراتب التى لا ينبغِى أن يكون محلّها إلا محلُّه ـ أن يستقرّ فلان

---

(١) فى الأصل ملتمس الا اخ .

فى كتابة الدَّرْج بثغر الإسكندرية المحروس على عادة من تقدّمه فى ذلك وقاعدته ، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلى آخر وقت : لأصالته المُعْرِقه ، وغُصون نَسبه المُورقه ، وآدابه الجَمَّه ، وفضيلته التى أبدى بها عِلْمَه ، وكتابتــه التى حلَّت المَهارق ، وأبدَتْ من الجواهر ماتَمَنَّى لمسه المَفارق ، وتَذْوِى لنضارته أزاهرُ الروض النَّضير ، وتنفرَّد فى الحسن فلا تجِد [لها] من نظير ، وتبرُزُ كالعقُود فى أجياد الترائب ، وتُنْشِئُ كُتُبا تغنِى عن الكتائب ، مع ماله من رآسة أثبتَت مَعاليَه ، ونفاسةٍ أضحتْ بجواهرها الأوصافُ حاليَهْ ، وصَــدَارةٍ توالتْ منه فاستوجب بهـا مزيدَ الحسنى المتواليــه ، قد خُوِّل فى كرم الأصل فلا غَرْوَ أن أمسى نجيبا ، ودعا بديعَ اللفظ ولطيفَ المعنى فغدا كُلٌّ منهما لأمره طائعًا وبالإذعان مُجيبا ، وعلا كوكبُه فأضحى فى الرِّفعة بعيــدا وإن كان فى مَرْأَى العين قريبا ، وزكا من أكابره إلى كل فريدٍ فى سُؤْدَده ، واحدٍ فى عُلاه يَفُوق الجمعَ فى عدَده ، فهو إنسانُ عينِ زمانه ، ومالكُ زِمام الإنشاء ومُصَرِّف عِنَان بنانه ، ومُبْرِز الحسنات بسفارته المقبولة وإطلاقِ بَيانه ، فلا غروَ أن آستوجبَ منَّـا مايقْضى له بالمَزيد ، وآستحقَّ بأتِّباع أصــله العالِم التقىّ إدراكَ مايُريد ، وتحلَّى بمناقبه ومآثره ، ونقل عن عَفَافه ومَفاخره .

فليستمرَّ فى ذلك على أجمــل عوائده ، وأجزل فوائده ، سالكًا فى ذلك طرائقَــه الحميــدَه ، ومناهجَه ومناهجَ أسلافه السَّديده ، مُبْرِزا من خَطِّه مايُخْجِل به الطُّروس ، ويَسُرّ بمزاياه النفُوس ، ويُنْظِم كالعقُود ، ويلوح للأبصار حسنُ رونقه [المشهود] ، والله تعالى يجعل إحسانَنا لدى بيته الكريم مستمرّا ، وآمتِنانَنا العميمَ عنده مستقِرّا ، وثغرُ العِناية به مفترًّا ، بمنّه وكرمه ! إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثانيـــــة

(نظرُ دار الطِّراز بثغر الإسكندرِيَّة)

وهذه نسخةُ توقيع بذلك ، كُتِب بها لصلاح الدين بن علاء الدِّين علىّ بن البرهان، سنةَ إحدىٰ وأربعين وسبعمائة ، من إنشاء الشريف شهابِ الدين كاتب الإنشاء، وهى :

رسم بالأمر الشريف ـ لا زالَ إيثارُه، يُكْرِم منْ غدا صلاحُه لحُلَّة العُلىٰ طِرازا، وٱختيارُه، يقدِّم للمناصب الجليلة من ورِثَ من أبيـه نهضةً وٱحترازا ـ أن يستقر فلان فى كذا : لكفايتـه المعروفة المحقَّقه ، ودرايتِه المألُوفة بركاتها الموفَّرةُ وحركاتُها الموفَّقه، وديانته التى منها الأكابرُ علىٰ ثِقَه ، وأمانتِـه التى تعتمِدُ الحقَّ مستَدْعِيةً ومنْفِقه، وصيانتِه التى هى للواصل حافظةٌ وعلى الحاصل مُشْفِقه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى كانت فى سالفِ الزمان إلى الحُكَّام تُضَاف، وللعلمـاء الأعلام عليها نظرٌ وإشراف ؛ ومنها يُسْدَل علىٰ أوليائنا لباسُ الإنعام وترسَلُ أجناس الإتحاف، وتُسربَلُ الكعبةُ البيتُ الحرامُ فى كلِّ عام بجِلْبابهـا المحكم النَّسْج المُعْـلَم الأطراف، وليصُنْ ذَهَبها عند صَرْفه وقَبْضه ، وليَزِنْ خَزَّها بتقريبِ مَشْو به وتحرير مَحْضه ، ولْيُبِين عن حسن التدبير فى إبرامِ حريرِها ونقْضِـه، وليستَجْلِب رجالَهـا وصُنَّاعها ، ولْيُجنِّبْ أحوالَها ضَيَاعها ، ولْيستجِدْ أصنافَها وأنواعَها، وليتفقَّد أكفافها وبِقَاعها، حتَّى يُظْهِر فى أعمالها آثارَ الصلاح، وتُشكَر مباشرتُه التى هى محمودةُ الآنتهاء مسعودةُ الآفْتتاح ، والله يَقْرُن رجاءه بالإرباح ، ويُؤذِن له حيثُ سلَك بإصابة الصواب والفلاح، بمنه وكرمه ! .

قلت : ودارُ الطِّراز هذه هى التى تُعمَل فيها المستعملاتُ السلطانية : ممـا يُحمَل إلىٰ خزانة الخاصّ الشريف من الأقْمِشـة المختلفةِ الصِّفات : من الحرير والمقترح المخوَّص بالذهب، والتَّفاصيل المنقُوشة بضروب النقوش المختلفـة، وغير ذٰلك من رقيق الكَتَّان وغيره ممـا لايُوجد مثلُه فى قُطْر من أقطار الأرض؛ ومنه[1] تُتَّخذ الأقمِشةُ التى يلْبَسها السلطان وأهل دُورِه ؛ ومنه تعمَلُ الخِلَع والتشاريفُ التى يَلْبَسُها أكابر الأمراء وأعيانُ الدولة وسائرُ أهل المملكةِ ؛ ومنه تُبْعَثُ الهدايا والتُّحف إلىٰ ملُوك الأقطار . وقد كان يُكتب لناظر هذه الدار توقيعٌ عن الأبواب السلطانية خارج عن توقيع ناظر الإسكندرية علىٰ ما تقـدّم ذكره . أما الآن فقـد صار ذٰلك تحتَ نظر ناظر الإسكندرية يتحدّثُ فيـه كما يتحدّثُ فى سائر أمورِها ، ومرجع الكلّ إلىٰ ناظر الخاصّ بالأبواب السلطانية .

الجهـــة الثانيـــة

(ممـا هو خارج عن حاضرتَىْ مصر والقاهرة بالديار المصرية ـ بلادُ الرِّيف)

والمراد بالرِّيف فى أصل اللغة موضعُ المِيـاه والزَّرْع .

وقد تقدّم أنّ رِيفَ الديار المِصريَّة وجهان :

الوجـــه الأوّل

(الوجه القِبْـلى ، وهو المعبَّر عنه بالصَّعيد)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية فى الكلام على المسالك والممالك أنه ينقَسم إلىٰ صعيدٍ أعلىٰ، وصعيدٍ أسفَل . وقد كانت ولايتُه العامَّةُ فى الزمن المتقـدّم يعبَّر عن صاحبها

---

(١) الضمير عائد على ماتقدم من الحرير والكتّان .

بـ«والى الوُلَاة بالوجه القبلىّ» ثم آستقرّتْ نيابةَ سلطنة علىٰ حدِّ تَقْدِمة العسكر بغَزَّة فى رُتْبة المكاتبة، فى الأيّام الظاهرية «برقوق» وهى علىٰ ذٰلك إلى الآنَ . ونائبُها يكتب له تقليدٌ بنيابة السلطنة بها فى قطع النصف .

وهذه نسخة تقليدٍ شريفٍ من ذلك ، من إنشاء الشريف «شهاب الدين» كاتبِ الإنشاء ، وهى :

الحمدُ لله الذى رَحِم بتعاهُدِ نظرِنا البلادَ والعِباد ، وحَسَم بموارِدِ زواجِرِنا موادَّ الفَساد ، وأحمدَ فى هذا الوجهِ لنا الآثارَ ووطَّأ بنا المِهاد ، وأفردَ آراءَنا بجميع المصالح على الجَمْع والإفراد ، وأوْلَىٰ بنا الرعيةَ الخيرَ فى آسترعاء مَنْ يبذُل فى صيانتهم الآجتهاد ، وأعْلىٰ بنا كلمةَ العدل فهى تُنشَر وتُذَاع وأوهىٰ بنا كلمةَ الظُّلم فهى تُقْهر وتُذَاد ، وأجلى بانتقامِنا فِئةَ الضلال فلها عن مُلكِنا الشريف آنْدفاع وآنْطِراد[1] .

نحمده علىٰ أنْ قرَن بآرائنا السَّداد، ونشكره علىٰ أنْ ضَمَّن آصطفاءنا حُسنَ الآرتياد؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادة تَقُوم حُجَّتُها، يوم يقُوم الأشهاد، وتَدُوم بهْجَتُها، علَماً للإرشاد؛ ونشهد أنَّ سيد البشر محمداً عبدُه ورسولُه الذى فَضَل العالَم وساد، وأجزل المكارمَ وجاد، وهَدىٰ بشَرْعه مَن حَادْ، وأردىٰ بَرْدعه من حادّ، وأجرى بجُوده النفْع حيثُ كان وأبدىٰ ببأْسِه القَمْع لمن كاد، وأخمدَ بأسيافه الباطلَ فبَادْ، وجعل لِأَنْف مخالفه الإرغامَ ولجيش مجانفه الإرعاد؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الأنْجاب الأنْجاد، صلاةً لها تضاعفُ وتَعداد، وبفتَكاتهم (؟) للنوائب إنْحماد، وسلَّم تسليما كثيرا .

---

(١) دعته مراعاة السجع الى استعمال الانفعال من طرد ونص أهل اللغة على أنها لغة رديئة . فتنبه .

وبعد فإنّ الله تعالى لما أعلى هِمَمنا وأصعدَها، ووَفّى عزائمنا من النصر موْعِدَها، وأسعَف بمُلْكِنا الرعيةَ وأسعدَها، وضاعفَ بنا لديهم النّعمة وجدّدَها، وأوضح بنا سُبُل المعْدَلة وجَدّدَها، وأنجحَ بسُلْطاننا آمالَ الخليقة وأنجدها — لم نُخْل من ملاحظتنا أدنى الأقطار ولا أبعدَها، ولم نُغْفِل من ممالكنا ناحيةً إلا نَحَاها فضْلُنا وقصدَها فأقرّبها الصالحاتِ وخلّدها، وأثّرَبها المسامحات وأبّدها، ونصر الشريعةَ وأيّدها، وسدَّ الذّريعةَ بأفعال حزْمٍ سدّدها، ووطّن أهلها ووطّدَها، وأوردَ مَنْ بها موارد الأمن لما وردَها .

ولما واجه إقبالُنا فى هذه الأيّام الوجْهَ القِبْلىّ، وصعد إلى الصعيد الأعلى ركابُنا العلىّ، لَمحْنا بلادَه وتعدُّدَها، وتعيّنَ ملاحظتِه وتأكُّدَها، وكثرةَ السُّلّاك لسُبُله، والمُلّاك لحَوَله، والوُرّاد لنَهَله، والوُفّاد من قِبَله، وهو مَنْهج التّجار فى التوجه من أبوابنا الشريفة والجواز، وبابُ اليَمَن والحجاز، وفى الحقيقة هذا المجازُ يتعين له الحِفْظُ وفيه الاحتراز، وبه كَراسِىُّ منها السّيارة تمتارُ وعلى سواها من البلاد تَمْتاز، وبه مراكزُ وُلاة ينفرِد كلٌّ منها عن الآخَر ويَنْحاز، وهى : إطْفِيحُ، والبَهْنَسى، والأُشْمُونين، ومَنْفَلُوط، وسَيُوط، وإخْمِيمُ، وقُوص . وهذه الأقاليم مجتمعةٌ متفرّقه، وحدودُ بعضِها ببعضٍ متعلّقه، وبها إقطاعاتُ مقدّمى الألوف والطّبلخاناه والمماليك والحَلْقه، وإليها تَرَدّدُ الرّكّاضة والمرتزِقه، وربّما أخاف المفسدُون من بعضها سُبُلَه وقطَع طُرُقه، فاتُّهِم البَرِىّ، وسَلِم الجَرِىّ، ولُبِّس على من هو عن الخيانة عَرِىّ ؛ فرأينا أنْ ننْصِب بهذه الأقاليم والِىَ وُلاة يجُوس بنَفْسه خلالَها، ويدُوسُ بخَيْله سَهْلَها وجبالَها، ويَفْجَأ مُفْسِدها، ويَبْعَثُ بعثَه بها(١)، ويخْمِد نِفاقَها، ويُخْمِد وفاقَها، ويُنصِف ضِعافَها، ويُذْهِب خلافَها، ويُزيل شَكْواها، ويَكُفُّ عَدْواها، ويُصْلِح

(١) فيه تصحيف ولعله «ويفجأ مفسديها، ويبغت معتديها» .

فسادَها ، ويُوضِّح سَـدَادها ، ويوصِّل حقُوقَها ، ويستأْصِل عُقُوقَها ، ويُواصِـل طُرِوقَها ، ويقابِل بالعِقاب فُسوقَها ، ويمنَع بِاهتمامِه أهواءَها ، ويَشْفِي بحُسامِه أدْواءَها .

ولما كان المجلس السامىّ ، الأميرىّ ، الحُسَامىّ هو الذى عَرَف أحوالها وخبَرَها ، ووَلِىَ من أقاليمها ما علِم به مصالِحَها وآعتبَرَها ، وعُهِدت منـه الأمانةُ والكِفايه ، وتُحُقِّقتْ نهضتُه فى كل عمل ويقظَتُه فى كل وِلَايه ـ آقتضىٰ حُسنُ الرأى الشريف أن تُفوّض إليـه نيابةُ السلطنة الشريفة بهذه الأعمـال المذكورة والأقاليم كُلِّهـا ، وأن يَنْتضِى فيها حُسامَه الذى ينبغى أن يُرتضَىٰ ويُنْتضَىٰ لمثلها ، وأنْ يُحُلَّ محَـلَّه إذ آختَرْناه لأعلىٰ رُتَب الوُلاة وأجلِّها ، وأن نصِلَ أسبابَ النعمة لديه بهذه النعم التى كلُّ ولايةٍ فرْعٌ لأصْلها .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أيامه الشريفـة تخُصُّ الرتبَ العليـة بأهلها ، وتشْمَل ذَوِى الآهتمام بإحسانها وفضْلها ـ أن يُفوّض إلىٰ المشار إليه ولايةُ الوُلَاة بالوجْه القبلىّ . فلْيباشِرْ ذٰلك بهمّة تَمْضِى فى البلاد عزائمُها ، ونهضـةٍ تسير إلىٰ دانيها وقاصيها صوارِمُها ، وشهامةٍ يُدْهِش المتمرّدين قادِمُها ، ويَفْقِدُ موادّ الفساد من حُسَامها حاسِمُها .

ونحن نَرسُمُ له بأمور يُلازمهـا ، ونُوصِـيه بوصايَا يُداوِمُها ، أن يكون بتقْوىٰ الله تعالىٰ عاملا ، وللنُّصْح باذِلا ، وللشريعة معَظِّما ، ولمراقبةِ الله تعالىٰ مقَـدِّما ، وللحقِّ متَّبِعا ، وإلىٰ الخير مُسْرِعا ، وللمؤمنين مؤَمِّنا ، وللمنافقين مُوَهِّنا ، وللرَّعايا موطِّنا ، وللنَّزاهة مُظْهِرا ومُبْطِنا ، وعن الأَبْرِياء كافًّا ، وعن الأتقياء عافًّا ، وعن الأموال متزِّها ، وإلىٰ ما يُصلِح الأعمـالَ من صالح الأعمـال(١) موَجِّها . وليَغْـدُ فى الأمور متثبِّتا ، ولذوى

(١) فيه شبه استخدام فالأول بمعنى الجهات والثانى بمعنى الفعل . فتنبه .

الفجور مشتّتا، ولسَماع حُجَج الخُصوم منصتا، ولا يجعلْ لحُلوله الأقاليمَ حينًا مؤقّتا، بل يدخُل المدينةَ علىٰ حينِ غفلةٍ من أهلها، وليَبْغَتْ بحُلُوله هذه النواحىَ ليَعْلَمَ ما هم عليه من ترك الفواحش أو فعْلها، ولْيُقِمْ بكل جهةٍ مَنْ يُعْلمه بما يحتاجُ إلىٰ علْمه، ويُبَكّر له بما يفتَقر أهلُ البلاد إلىٰ السَّتْر عنه وكَتْمه، وليَلْحظ المحارسَ والأَدْراك، وليجعَلْ لكل شاردٍ من بَطْشه أسرَعَ إدْراك ـ وقد رسَمْنا لوُلاة الأعمال المذكورة ومَنْ فيها من نوّاب الأُمَراء والمشايخ بهذه الصورة وأنْ لا يُجِيرُوا مفسدا ولا يُئْوُوه، ولا يُنْزِلوا خائنًا ولا يَحْوُوه، ولا يستُرُوا مختفيا ولا يَخْبُوه، ولا يُحِلُّوا نازحًا ولا يُوطّنوه، بل يحضُروه ولا يؤخّروه، ويُمسكوه ولا يَتْركُوه، ويُسْلموه ولا يَحْمُوه، ومَنْ خالف هذا المرسومَ، أو آعتمد غير هذه الرُّسوم، فهو لنفسه ظَلُوم، وقد برِئَت منه الذّمه، وزالتْ عنه الحُرْمه، وزلّتْ قَدَمُه، وذهبَ مالُه ودَمُه، وقُرِئَت مراسيمُنا بذٰلك هنالك علىٰ منابر الجوامع، وسمعها كلُّ سامع، وهُم لك علىٰ آمتثالِ أوامرِنا مساعدُون، وعلىٰ آجتنابِ نَواهينا معاضدُون، وللإصلاح ما آستطاعُوا مُريدونَ وقاصدُون، فلا تمكِّنْ أحدا من العُرْبان ولا من الفلّاحين أن يركبَ فَرسا، فإنما يُعِدّها للخيانة مختَلسا، ولا يكونُ لها مرتَبِطا ولا محتَبِسا، وكُنْ لهم مُلاقيا مُراقِبا، فمن فعل ذٰلك فانتقِمْ منه بما رسَمْنا معاقِبا، ولا تمكِّنْهم من حمل السلاح ولا آبتياعه، ولا آستعارته ولا آستيداعه، وتفقَّدْ مَنْ بالأقاليم من تُجّاره وصُنّاعه، فخُذْ بالقيمة ما عند التُّجّار، وآقمَعْ بذٰلك نفسَ الفُجّار، وأضْرِم نارَ العذاب علىٰ من أضرَمَ لعمل ذٰلك النار، وأْمُر كلَّ فئتين متعاديتين بالمصالحه، وآكفُفْ بذٰلك يَدَ المكافحه، وحلِّف بعضهم لبعضٍ بعد تحليف أكابرهم لنا على السِّيرة الحميدة والنيّة الصالحه، وخُذْهم فى الجنايات بالْعَدل والمشامحه، وفى المطالبات بالرِّفْق إن لم تكنْ مُسامَحه، وآحملْهم علىٰ مَحجّة الحق الأبلَجِ والشريعة الواضحه . وإذا رُفعت إليك شكوىٰ فأَزِلْها، أو سُئلتَ إقالةَ

عثرة لذى هيئة فأقلها ، أو وجب حدٌّ فأقمه لحينه ، أو آرتبْتَ فى أمر فتروَّ حتىٰ تهتدىَ ليقينه ، ولا تعتقلْ إلا من أجْرَمَ جُرْما يُوجب الاعتقالَ والحَبْس ، ولا تُسرعْ إلىٰ ما تَخْشىٰ فيه اللَّبْس ، وآعملْ علىٰ براءة الذِّمّه ، وآجهَدْ أن لايكون أمرُك عليك غُمَّه ، ولا تُرجِّح للهَوىٰ علىٰ خَصْم خَصْمَه ، ولا تَظْلمه فانَّ الظُّلم ظُلْمه ، وخَفْ نقمةَ الله فهى أعظمُ نِقْمه ، ولا تأخُذْك علىٰ البرىء غِلظةٌ ولا قَسْوةٌ كما لاينبغى أن تأخُذَك فى الجرىء رأفةٌ ولا رحمه ، والله تعالىٰ يرفعُ لك بالطاعة رُتَبا ، ويُنجِح لك بالخدْمة طلبا ، ويبلِّغ بك فى الإصلاح أرَبا ، ويردُّ بك أمرَ كل مفْسِد مخيَّبا ، ويُوضح لك من الهداية مُحَجَّا مُغَيَّبا ، ويُنْزل بك من الخيرات صَيِّبا ، والخطُّ الشريف أعلاه ، حجةٌ بمقتضاه . إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالوجه القِبْلىّ أيضا ، من إنشاء الشريف شهاب الدين ، كُتب به «لعلاء الدين المُرادى» وهى :

الحمدُ لله الذى جعلَ إقبالَنا مُسْفِر الوجُوه ، ونَوالَنا مبلِّغا كلًّا من الأولياء ما يؤمِّلُه من القُرْب من أبوابنا الشريفة ويَرْجُوه ، وإفضالَنا يوفِّر أقسامَ النِّعم لمن وَفَّر دواعيَه علىٰ طاعتنا فلا يزال آستحقاقه يُعيِّنه ويدْعوه ، وإجمالَنا يُنْجِز وعود التقديم لمن تعدّدتْ خدَمُه فلا يتجاوزُه التكريم ولا يعدُوه .

نحمَدُه علىٰ أنْ جعل إنعامَنا يهَبُ الجزيل ويحْبُوه ، ونشكره علىٰ أن أقامَنا نُحِقُّ الحق فنرفَعُه فيدمغُ الباطلَ ويعلُوه .

ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً هى خيرُ ما ينطِق به الإنسان ويَفُوه ، لا يبرحُ اللسانُ يكرِّر إخلاصَها ويتلُوه ، ونشهد أنَّ سيدنا محمدا عبده ورسوله

الذى رفع الله ببعثته عن هذه الأمّة كلّ مكروه، وحمىٰ بشرعته الدينَ الحنيفَ فلا يُلم به التبديلُ ولا يَعْرُوه ، وأفاضَ ببركاته فى كل وجهٍ ما يُوسِع الخيرَ ويُدِرّه ويمنع الشّر ويَدْرُوه ، صلى الله عليه وعلىٰ آله الذين هم عِترتُه وأقربُوه ، وصَحْبه الذين آستمعُوا قولَه وآتّبعوه، صلاةً لا يزال وافدُها يَتْبع سبيلَ الإجابة ويَقْفُوه، ويصلُ إلىٰ محل القَبُول ولا يَجْفُوه ، وسلَّم تسليما كثيرا .

أما بعد، فإنَّ الله تعالىٰ لما قَرَن آراءَنا بالسَّداد ، وأحسَن بنا النظرَ فى صَلاح البلادِ ومَصالح العِباد، لم نزَلْ نرفَع أقدار المخلصين بمزيّة الآختيار والآرتياد، ونجمعُهم فى صعيد الإحسانِ ونُحِلُّهم رُتَب الإصْعاد ، ونُدْنِى منهم من له تامُّ آهتمام وشادُّ اجتهاد ، ونميز منهم من حَسُن حالًا بالجمع والإفراد .

والولايةُ علىٰ الوُلاة بالوجه القبلىِّ من أهم ما يُلْمَح ، وأعمِّ ما يختار له مَنْ للحق يَنْصُر وللخلق ينصَح ؛ إذ بهذا الوَجْه عُيون البُلْدان ، ووجُوه العُرْبان ، وكراسىُّ الأقاليم الحِسان ، ومراكزُ الوِلايات التى تُحِلُّ دائرةَ السَّوْء بأهل العُدْوان ، وإقطاعاتُ الجند والأمَراء ، والخواصُّ الشريفةُ التى علىٰ عمارتها إجماعُ الآراء ، وعليه تتردّدُ التُّجَّار ، وإليه بالمِيرة يُشَار ، ومنه تتعدّدُ المنافعُ فيتعيَّن أن ندفَع عنه المَضارّ ، ونُلقِىَ أمورَه لمن يُنتقىٰ حزمُه وعزْمُه ويُختار .

ولمَّا كان فلان هو الذى له وِلاياتٌ آقتضتْ تقديمَه ، وسبقَتْ منه سوابقُ خِدَم أجزلَتْ تكريمَه ، وما زالَ فى الشامِ علىّ الهِمَّة حسنَ الشِّيمه ، وطهَّر البَرّ من كل فاجر ، ورأىٰ أن التَّقوىٰ أربحُ المتاجر ، وأعذبَ للرعية من المَعْدَلَة الموارِدَ فصدَر من أبوابنا إلىٰ أحمدِ المصادر - آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نجعلَ له من إقبالنا النصيبَ الوافر . فلذٰلك رسم بالأمر الشريف - لابَرِح يزيد الأقدارَ علاء ويُظْهرها

من تكريمه فى أحسنِ المَظَاهر ـ أن تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالوجه القِبلىّ وجميع نواحيه، على عادةِ من تقدّمه فى ذلك ومستقرّ قاعدتِه إلى آخرِ وقت .

فليتلقّ هذه الولايةَ المباركة بقَبُولٍ حسَن، وليُوقِظْ جَفْن سَيْفِه الذى لم يَعْرِف الوسَن؛ وليتّق الله ربَّه فى السّرّ والعلَن، وليَحكم بما شَرَع الله وسنّ؛ وليجتهِد فى إخماد العواقِب وإخماد الفِتَن، لِيَسْكُن من تردّد إليها أو سَكَن . وليلاحظ هذه الأقاليمَ بعزائمه السَّيَّاره، وليحافِظْ على سلوكِ سِيرته السّاره؛ وليستَطْلِع من كل بلد أخبارَه، ويتتبَّعْ من كل والٍ آثارَه؛ وإن رأى منكرًا أزالَه، أو وجد مُبْطِلا أذاله أو حقًّا أدالَه؛ ولْيعظِّم أحكام الشرع وحُكّامه، وليجعَلْه إمامَه ليَسْعى نورُه أمامَه؛ وليُطالِعْنا بما نتعيّن فيه المطالَعه، ويراجِعْ أوامرَنا فيما تجب فيه المراجَعه؛ وليستجلِبْ لأيامنا الأدعيةَ النافعه، وليباشِرْ بنفسه الأمورَ التى هى له راجعه؛ وليُراعِ فى القضايا المصلحةَ الجامعه، ولتكُن حمايتُه للمؤمنين واقية وفَتْكتُه بالمجرمين واقعه؛ وليَسَع الرعايا بالمَعْدَلة الواسعه، ويمنع المجترئين بالأخْذة الرابية والهَيْبة الرادعه؛ ولا يمكّنْ أحدًا من العُرْبان بجميع الوجه القبلىّ أن يركَبَ فرَسا ولا يقتَنيَه، ويكف بذلك الأيدىَ المعتدِيةَ فإنّ المصلحة لَمنْعهم من رُكوبها مقتضِيَه؛ وليُقِم الحُرمةَ والمَهابه، وليُدِم قيامَه فى الخِدمة وانتصابَه، وليُرهِفْ حدّ عَزْمه ويُمضيه، ويجرّدْ سيفَ الانتقام على المُفْسِدين وينتَضِيه؛ ومن وجده من العُرْبان خالفَ المرسوم الشريفَ من منْعه من ركوب الخيل كائنًا من كان ضرب عُنُقه، وأرهقَه من البطش بما أرهقَه : ليرتدعَ به أمثالُه، ولا يتّسِع لأحدٍ فى الشرّ مجالُه .

وقد كتبْنا إلى سائرِ وُلاة الأقاليم بمساعدته، وأمرْناهم بمعاونَتِه ومعاضدتِه، وأكّدْنا عليهم فى المبادَرة إلى مايراه من جميع الأمور، من غيرِ تهاونٍ ولا تقصيرٍ

ولا فُتُور، حتّى لا تفوتَ مصلحةٌ عن وقتها، ولا تزال جموعُ المعتدين معاجلة بكَبْتها، وقد حذَّرنا العُربان من مخالفة مارسمْنا بالتعرّض لما يوجب هلاك نفُوسهم، وقطْعَ رءُوسهم .

وليُقْرأ هذا المرسومُ الشريفُ على المنابر بجميع نواحي الوجه القبلى لتمتَثَلَ مراسِمُه، ويتلَقَّ بالقبول قادمُه، وليقفوا عنده، ويَقْفُوا رُشْده، ويرهبُوا من الشرّ وعيده ويستَنْجزوا من الخير وَعْدَه، وهو ـ بحمد الله ـ ما برح مهذَّبا، وبأكمل الآداب مؤدَّبا، وبما يفعله إلى رضا الله تعالى ورضانا مقرّبا، والله تعالى يجعلُه مختارا مجتَبى، ويُوزِعُه شكرَ مَنْحنا الذى أجزل له الحِبا، وخصَّ به هذا العملَ الجليلَ فضاعف خِصْبَه واهتزّ ورَبَا، ويُطلِعه مباركا ميمونًا حيثُ حلَّ قيل له : مَرْحبا، ويَصْعَدُ به هذه الرتبةَ ويَهَبُه توفيقًا مستصْحَبا، ويمهّد به الطرُقَ للسالكين حتّى يتلُوَ عليه لسان التأمين : ﴿ فَتيمَّمُوا صَعيدًا طَيِّبا ﴾، والخطُّ الشريف أعلاه، حجةٌ بمقتضاه، إن شاء الله تعالى .

وهذه نسخة تقليد شريف بنيابته أيضا، من إنشاء المَقَرّ الشهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله مطلِق التصرّف فيما كان ممنُوعا، ومُنطِق المتصَرِّف ليكون قولُه الصوابُ مسموعا، ومُوسِّع نطاقِ المَصْرف فى جميع ما تعيَّن أن يكونَ له مجموعا .

نحمدُه حمدًا يعذُب ينْبُوعا، ويُنبِت بمزيد الشكر زُرُوعا، ويُدِرّ ضُروعا، ونشهد أنْ لا إلَهَ إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً تتفرّعُ فُروعا، وتسَكِّن جُموعا وتسكِّتُ جُمُوعا، ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسولُه الذى أقوى لأهل الطُّغْيان رُبُوعا، وأجرى

لعيُون الزَّرَد عليهم دُمُوعا ، وأغْرىٰ القِسِيّ بالحَنِين إليهم وُرُوعا ، وأسقط علىٰ لَبَّاتهم طُيورَ السِّهام وُقُوعا ، ومهَّد البلاد بقتْلاهم فآمَن مَنْ خاف وأطعَم من تشَكَّى جُوعا ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تعُمُّ دِرْع الفجْر بشفَقِها المخَلّق صُدُوعا ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإنَّه لايستقيم نجَاحُ الأمور ، ويُستدامُ صَلاحُ الجمهور ، إلا بتفقّد أحوال وُلَاتِهم ، وتعهُّد سُلوكِ الرعايا مع رُعاتِهم ، وردُّ مجْمُوع كلّ عمل إلىٰ من لا يبِيتُ طَرْفُه فى مصالحهم مملوءًا من الوسَن ، ولا يَقِرّ له فى التنقُّل فى مُهِمَّاتهم جَوَادٌ فى رَسَن ، ولا تهْدأ سيوفُه فى الأغماد ما بَرَقت بارقةُ فِتَن ، ولا يَشْربُ الماءَ إلا ممزوجًا بدمٍ ولا يبيتُ [إلا] علىٰ دِمَن ، وكانتِ الديارُ المصريةُ المحروسة أحوجَ شيء إلىٰ هذا الموصُوف ، وأكثَرَ اضْطرارا إلىٰ ما تُشامُ له فى صَلَاح رعاياها لوامعُ سُيوف ، والوجهُ القبلىّ بها هو الجامعُ ما يَزِيد على السَّبعة الأقالِيم ، الحائزُ من أهل الحضَر والبادية لكلِّ ظاعنٍ ومُقيم ، قد امتدَّ حتَّى كاد لاينتهى إلىٰ آخر ، ولا يلْتَهى بما يكْنُفه من بَرٍّ مُقْفر وبحرٍ زاخر ، قد جاوَرَ بالأوْدِية العميقة الحُوتَ فى الماء وجاوَره فى السماء برفعة الجبال ، وتَطاولَ حتَّى اتَّصل طرَفَاه الجنوبىُّ بالجَنُوب والشَّمالىّ بالشَّمال ، وحوَتْ مَجَاريه من النيل المبارَك [ما]مَدّ الرِّزْق الممتد ، وأمدّ المَدّ المبيَضّ علىٰ عَنْبرةِ ثَراها المُسْودّ ، وهو الوجْهُ الذى تُعْرَف فى كوْثَر نِيله نَضرةُ النَّعِيم ، ويبْهَر حُسْنا من أوّل قَطْرةٍ تقع من مَرْآه الجميل علىٰ وَسِيم ، قد حالَ فيه الماءُ محمرًّا كأنما يَشْربُ ندىٰ وَرْد الخدُود ، وحَلَا كأنما ضُرِبَ الضَّرَبُ فى لَمَىٰ رِيقِه المورُود ، وكان لا ينهَض بأعبائه ، ويرُدّ بالغَيْظ متقرِّحةً عيونَ رُقَبائه ، ويمنع كلَّ منْسَر مُنْسَرٍ يحُذَر أن ينتهب وذِيلَ[1] خِبَائه ، إلا مَن تقدّمت له دُرَبٌ يتعلّم فى جليل الخُطُوب من مَضائها السَّيف

(١) فى الأصل «أن ينته وديل» .

المُذَرّب ، و يقتدى فى دقيق التلطّف بسياستها القلمُ المجرَّب ، وكان فلانٌ هو الذى تتهادىٰ كفايتُه الأعمال ، و يتعادىٰ نفعُه والسُّحبُ فلا يُدْرَىٰ لمن منهما التروِّى ولمن الآرتجال ، وقد ولِىَ الأعمالَ البَهْنساويّةَ وهى فى هذا الوجهِ الجميل أبهجُ صُوره ، وأبهىٰ فيما تكْثُر منافعُه المشهوره ، فأضحىٰ المَغَلُّ فى بَيادِره يتبادر ، والإقبال يتكاثرُ إقبالُه والمَحْل يتنازَر ، ومُزْدرَعاتها تُعرف سيماها فى وجُوهها من أثر سجود الليل كزرْع أخرَجَ شطْأه فاستازَر ، فاقتضىٰ حسنُ رأينا الشريف أن نُطلِق تصرّفه فيما جاوره من الأعمال ، وأن نَشْغَل له يمينًا باليمين وشمالا بالشِّمال .

فخرج الأمر الشريفُ العالى ـ لا زال يؤيِّد عزَّ الدين ظُهورا ، ويُتِمُّ له فى أعماله نُورا ـ أن يكون فلان كاشفًا ووالِىَ الوُلاة بالوجه القبلىّ بأجمعه : معطَّله ومزْدرَعه ، وبَرِّه وبحره ، وعامره وقَفْره ، وأهلِ حضَره و باديته ، وأصحاب زَرْعه وماشيته ، علىٰ عادَة من تقدّمه وقاعدَته فى ذٰلك ، ليأمَنَ المقيمُ والسالك ، و يجمَعَ على الطاعة مَنْ قِبلَه هُنالك ، و ينتظِمَ عقْدُ عقائدهم المُتهالِك ، و يقوىَ الله أجْره ، والشرعُ الشريفُ يكون نهيَه وأمْره ، والحُكّام والأحكامُ هما ماهما فليحفَظْ زِمامَهما ، وليَنفِّذْ إلى الأغراض سهامَهما ، وليُوصِّلِ الحقوقَ إلىٰ أربابها ، و يسهّل المطالبَ علىٰ طُلّابها ، ولْيُنصِف إنصافا لا يُشتكىٰ معه حَيْف ، ولْيُقِم المهابةَ حتّى لا يَقْدِر علىٰ التعدّى طارقُ طَيْف ، وليَجرِّد عزائمَه فإنّ من العزائم ماهو أمضىٰ من السَّيْف ، وليُحسِنْ قِرَى النِّيل القادمِ فى كل قرية فإنّه ضَيْف .

فعليْك بما نأْمُرك به من تعْبِئة صُفُوف الجُسور لأمْداده ، والآستعداد لجَرّ عَوالى صَواريه ومَجْرىٰ جِياده ، وتفقّدْ قبلَ قُدومه طريقَه ، وآتركْ عن رَىِّ البلاد تعويقَه ، وأقِم الجُسور ، فهى قِيَام الجَسُور ، وآحْفِر التِّراع (١) فإنها تُراعىٰ ، وأسْفِرْ له

(١) لم نعثر على هذا الجمع فى كتب اللغة و إنما الترعة كغرفة إفرادا وجمعا .

عن عرائس قُرَاها المجلُوّة وُجُوها كُلَّما قِسْنَ له إصْبَعا يَقِيسُ ذِرَاعا؛ وٱقطَعْ بإيصال حقِّ كلِّ ناحيةٍ إليها من الماء مُنازَعةَ الخُصُوم، ونَبِّهْهُم أنَّ الماءَ قِسْمةٌ بينَهم لكلٍّ منهم شِرْبُ يومٍ مَعْلُوم، ولا تدَعْ [به أحدا] من أهل المَفَاسد، ومن جرَتْ لهم بسوابق الفتَن عوائد؛ ومَنْ يتعزَّز بربِّ جاه، ومن لا(١) يكونُ له إلىٰ حِمايةٍ ٱتِّجاه؛ ومَنْ نخرج بوجهه للشرِّ مُصَرِّحا، أو لبابِ عقابٍ مستَفْتِحَا؛ أو وقَف علىٰ دَرْب أو قَطع طريق، أو توعَّدَ أهلَ رِفاقٍ أو أهلَ فَريق؛ أو أقدَمَ علىٰ ضررِ أحدٍ فى نفس أو مال، أو خُشيت له عاقبةٌ فى بِدَايةٍ أو مَآل؛ أو نزَلَ فى بلدٍ أميرٍ ليتغطَّىٰ بجناحه، أو ترامَىٰ إلىٰ عُصْبة يحمِلُ منهم حَدّ سِلَاحه؛ فسُلَّ عليهم سيْفَكَ الماضى، وأحسنْ إلىٰ الناس إذا خَشيتَ أن تُسىءَ إليهم التقاضى؛ ومَنْ أمسكتَه منهم فأمْضِ حكمَ الله فيهم، وأقمِ الحدُودَ علىٰ متعدّيهم، وطَهِّر الأرضَ بماء السُّيوف من أنجاسهم، وعَلِّق منهم أُناسًا بحبْل الوريد إلىٰ مَدَارج أنفاسهم؛ وٱصْلُبْ منهم على الجُذُوع من تناوَحُ الرياحُ بسَعَفهم، وأوْثِقْ منهم بالسَّلاسل والأغلال من لاتقتَضِى جرائمُهم إيصالَهم فى المقابلة إلىٰ حدّ تلفِهم. وأكرِمْ قُدومَ من يَرِدُ عليك من الكارِم، وقرِّر بحُسن تلَقّيك أنك أوّلُ ما قدَّمْناه لهم من المَكارم؛ فهم سُمَّارُ كلِّ نادى، ورفاقُ كلِّ مَلَّاح وحادى؛ ولا بُدّ أن يتحدّث السُّمَّار، وتُتَداوَلَ بينَهم الأسْمار؛ فاجعلْ شُكرَنَا دأبَ ألسِنَتِهم، ومِنَنَنَا حِلْية أعناقِهم، ومِنَحنا سبَبًا لٱستجلاب رِفاقِهم؛ فهم من موادِّ الإرفاق، وجَوادِّ ما يُحمَل من طُرَف الآفاق؛ وقد بِقِىَ من بقايا أهل العقائد الفاسده، والمَعاقد البائده؛ مَن يتعيَّن إقعادُ قائمهم، والتيقُّظُ لمتيقِّظِهم والنومُ عن نائمهم. ونحن نُنَبِّهك علىٰ هـذه الدّقائق، ونُوقِفك علىٰ أطرافها ولك رأْيُك إذا حَقَّتْ الحقائق؛ وطالِعْ أبوابَنا العاليةَ بما أشْكل عليك، تتنزَّلْ أنوارُ هُدانا أقربَ من رَجْع نَفَسك إليْك؛

(١) لعل حرف النفى زيادة من قلم الناسخ.

*

واقْدُر حقَّ هذه النِّعمة فإنَّا أولَيْناك منها ما لا يُضاهىٰ ، ووَلَّيناك من بلادنا قِبْلةً تَرْضاها ، وتولَّيناك حيثُ وجَّهتَ وجْهك شَطْر المسجد الحرام ، ونُوِّعت لك أرواحُ الحجاز وأنتَ فى مصرَ وريفِها العامّ ؛ والله تعالى يديم منك سَيْفًا يَرُوع مَهَزُّه ، ويؤيِّد بك الدِّين فإنه بك يقوم جاهه ويدُومُ عِزُّه ؛ والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه . إن شاء الله تعالىٰ .

الوجــــه الثـانى

(من وجهى الديار المصرية البحرىُّ ، وهو الشَّمالىّ)

وكانُوا فى الزمن القديم يخصُّونه بآسم الرِّيف ، مثل آختِصاص الوجْه القبلىّ بالصعيد . وأربابُ الولايات فيه علىٰ ضربين (١) :

الضــــرب الأوّل

(أرباب السيوف)

وتختَصُّ الكتابةُ منهم الآنَ عن الأبواب السُّلطانيــة بنائب السلطنة بالوجْه البحرىّ ، ومَقَرُّه مدينةُ دَمَنْهُور من البُحَيرة . وكان فى الزمن المتقدّم يكتفىٰ فى البُحيرة بواليها ، وكذٰلك فى كلٍّ من سائر الأعمال بالوَجْه البحرىّ ، وفوقَ الكلِّ ولايةٌ عامَّة ، يعبَّر عن صاحبها بوالِى الوُلاة ، وربما [زيدَ] بالوجه البحرىّ ، ورُبَّما عُبِّر عنه بالكاشف . ثم آستقرَّتْ نيابةً فى رُتْبة تقْدِمة العسكر بغَزَّةَ فى أيام الظاهر بَرْقُوق ، علىٰ ماتقدّم ذكره فى المَسالك والممالك فى المقالة الثانية .

وهذه نسخةُ تقليد تصلُح لنائب الوجه البحرىّ ، مما كان كَتَب به المقرُّ الشهابىّ ابنُ فضل الله لوالى الولاة بها ، وهى :

---

(١) لم يذكر الثانى . فتنبه .

الحمدُ لله الذى أقام بنا كاشفًا لكلّ شكْوَىٰ ، كاسفًا بَالَ كُلِّ عَدْوىٰ ، عارفاً بنهاية كلِّ دَعْوىٰ، عاطفًا بعَدْلنا إلىٰ إزاحة كل لَأْوىٰ، و إزالةِ كلِّ بَلْوىٰ .

نحمدُه وهو أهلُ الحمد والتَّقْوىٰ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادة نأمَنُ بها الدانيةَ والقُصْوىٰ، ونُؤْمِن بها على السِّرِّ والنَّجْوىٰ، ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه و رسولُه أشرفُ من مَهَّد له جَنَّـةَ المأْوىٰ ، وأشرَفَ به علىٰ شَرَف المَثْوىٰ ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابِه الذين فَطَمَ بشريعته نُفُوسَهم عمَّا تَهْوىٰ، وفَطَر فِطَنَهم عليها حتَّى لا تَضِلَّ ولا تَغْوىٰ ، صلاةً ترتَوِى بفائِضها السُّحُبُ ما تَرْوىٰ ، وسلَّم تسليما كثيرا .

و بعـدُ فإن من سَجَايا أيَّامنا أن نكشفَ كلَّ كَرْب ، ونُحْسِنَ إلىٰ رعايَا بلادِنا إحساناً يُنَوِّعُ فى كلِّ ضَرْب ، ونُديمَ الأمنَ حتَّى لا نَدَعَ سِـوىٰ النِّيل قاطِعَ طريقٍ أو خارجًا علىٰ دَرْب، ونجرِّدَ من المَهابة سيفًا يُخْشَىٰ من قُرْبه ، وطَيفًا يَبِيتُ به طيرُ الكَرا متَمَلْمِلا علىٰ جَنْبِـه ، وخَوْفًا لُبابُه من الخصائص المحمَّدية أنه يتقدَّمُ إلىٰ قلوب الأعداء مَسيرةَ شهرٍ [جيشُ] رُعْبِه، وكانت الديارُ المصريهُ المحروسةُ هى التى لا يُحمَدُ سِوَاها ذُو وَجْهيْن، ولا يُوجَد لها فى جانبَيْها مماثل فى شيئين، والوجهُ البحرىُّ أوسعُهُما عَرْضا، وأقربُهما من الرِّيِّ أرضًا ، وأصدَقُهما للبـارِق المُمْطرِ وَمْضا ، وأجمعُهُما للذَّهَب مَذَاهبَ وللفضَّـة إفْضا ، وأثبتُهما وطأةً لمجرىٰ النيل إذا أقبَـلَ فى تيَّـاره يتدافَعُ وآشـتدّت خيلُه رَكْضا ، وهو الوجهُ المتهلِّل بِشْرا ، المتضوِّعُ بِطيب رِيَاحه نَشْرا، المتزيِّن بمدائنه أكْثَرَ ممـا زيَّنه فى مَقاصيره قيصَرُ و فى مدائنه كِسْرىٰ، المُتَثَنِّى بعروسِ كلِّ قريةٍ زُفَّ بهـا النِّيلُ فى مَسْرىٰ ، و به الثغور التى لا تُشام لهـا بُروق ، والمحَـارِس التى ما لعاديَةٍ إليها طُروق، وله من البَحْرَيْن حاجِزان، ومن الجـانبَيْن بَرٌّ مُقْفِر وريفٌ مُقْمر متبارزان ، وفيـه من الشُّعوب والقبائل فى الحَضَر والباديَة من

لا يُؤْمَن منه باتِرُه، ولا يُحْمَد بغير ما يُراق من دَمِ مُفْسِدِيهم ثائرُه . وكان لا يقُوم بها[1] كلَّ القيام، ويجمعُ فرائدَها المشذَّرةَ فى أكمل نِظام، إلا من تقلَّبت الأمورُ بقَلْبه كلَّ التقليب، وجَرَّدت النُّوَب عَزْمه فى النوائب فجرَّدتْ سيفا يُحمَدُ فى التجريب؛ ولم يَزَلْ منذُ بلغَ الحُلُمَ أميراً مُطاعا، ومنْدُوبا لا يفْرَق فى المهمَّات إذا طارَتْ نفوس الأنظار شَعَاعا، وأوْقَدت الأسِنَّة سُوَاعا، وهُمَامًا لو أومض البرقُ ساعةَ بُؤْسه لارتعدَتْ فرائصُه زَمَعا[2] لا إزْمَاعا، أو قابلَه الرِّيح المعتدلُ عند أحكامه لأطبقَت الأممُ علىٰ أنه لا يُماثلُه فى العدل قَطْعا وأجمعَتْ علىٰ تفَرُّده إجْماعا .

وكان فلان هو العلىَّ هِمَما، الجَزْلَ مداومةَ الجزيل دِيَمَا، المَلىَّ بما لا يَقْدِر علىٰ مثل دفْعه البحرُ متدفِّقا وهَمْىُ الغَمَام منْسجما، وقد حَمِدْنا له فى كلِّ ما باشرَه أثرًا، وأحْمَدْنا بجميل ملاحظته كلَّ برّ ضرا، فباشر الوجه القبلىَّ فملأ عيْنَ الناظر المتوسِّم، وعمّ سرُورُه حتّى غامرَه جارُه الوجهُ البحرىُّ ببنانه المخضَّب وضاحَكه بثَغْره المتبسِّم؛ فلما تنقَّل فيهما استقرار(؟) الوجهين وما وَالاهُما، وعُرِف فى وَجْهه نَضْرةُ النعيم بما أولاهما، وأخصَب جانِبَاهما، وجَدَّ بهذا كلّه ثم جدَّ بهذا فطاب الواديان كِلَاهما؛ فاقتضى حسن الرأى الشريف أن لا يخْلُوَ الوجهان معًا من نظره الجلىّ الجميل، وأن يَجْلُو عليه محاسنَهما الكاملةَ ليُفارِقَ علىٰ وجه جميلٍ ويواصلَ علىٰ وجهٍ جميل .

فخرج الأمر الشريف - لازال يختارُ عليًّا، ويختالُ كلَّ غمامٍ يرتَضى له وليًّا - أن يكون والِىَ الوُلاة بالوجه البحرىّ جميعه، متفرّدا بأفْراده ومجُوعه، ومحكّما فى قبائله وجُموعه، وبعيده وقريبه، وبديعه وغريبه، وكلُّ ما هو داخل فيه، عائدٌ إلىٰ أعماله وراجع إلىٰ متوليه، علىٰ عادة مَنْ تقدّم وقاعدته فيما يَلِيه؛ وهى ما يُذْكَر من الأعمال:

(١) لم يتقدّم ما يعود اليه الضمير وان كان الغرض واضحا .

(٢) خوفا ودهشا .

الغربيّـة ، الشّرْقية ، البُحَيْرة ، المَنُوفيَّة ، إبْيـار ، أَشْمون ، قَلْيوب . ولا أَمْرَ ولا نَهْىَ إلّا إليـه راجع ، وله فى متجدِّداتِ الأُمور مَرَاجع ؛ ولا أربابَ تصريفٍ إلا وله عليهم تَصَرُّف ، ولا صاحبَ جِدٍّ ولا حَدٍّ إلّا فيه يَمْضِى ويتوقّف ؛ وتقوىٰ الله تعالىٰ أوّلُ مانُوصيه بسببها ، ونُوصّله إلىٰ رُتَبها ؛ وإقامةُ الشرع الشريف وإدامةُ مبارّه وإعلاء مَناره ، ومعاضـدةُ حكْمِه وحكّامه وأعوانه وأنصـاره ؛ والوقوفُ معه فى إيرادِه وإصداره ، وإعلانه وإسراره ، والعملُ به فإنه مايَضِلُّ من مَشىٰ فى ضوء نهارِه ؛ وعمـارةُ البلاد ، بادامة العدل وتكميل الرِّىّ وتوْطين السُّكّان وقَمع الفساد ؛ وٱعتمادُ حكمِ التذاكر الشريفة لأمر الجراريف التى تُعْمل ، والتُّرَع التى تُراعىٰ والجسور التى لايُقْدِم جَسُور علىٰ أنها تُهْمَل ، فهما قانونُ الرِّىّ الكامل ، والضامنُ لخصْب البَرّ السابِل ؛ وإذا أجرى اللهُ النيـلَ علىٰ عاداته الجميـلة لا يَدَعُ للمَحْل عينًا حتّى يوارِىَ بالرِّىّ سَوْءَته ، ويخفِّف بتيسير وُصوبِ حقِّ كلِّ مكانٍ إليه وَطْأَته ؛ ولا يَدَع عاليـا إلا مستفلا ، ولامعطَّلا إلّا معتملا ؛ ولا طَوْقَ بحر إلا تمتدُّ يدُ النيل إلىٰ زَرِّجُيوبه ، ولا طـائفَ رَمْل إلا يطوف طائف شِرب(١) علىٰ جَرْعائه وكَثيبه ، حتّى يعُمَّ الجميع ، ويَعْمُر ربُوعَها بمـا ينسجُهُ لهـا من ملابس حُلَل الربيع . وعليـه بالإنصاف بينَ المساكين ، والإنصات إلىٰ الباكِينَ منهم والمُتَباكين ؛ ووَصْـلِ أمورِهم علىٰ الحق الذى نَشَر اللهُ فى أيّامنا الزاهرةِ عَلَمَه ، ومقتضَى الشرع الشريف فإنه ما خاب من أدامَ عليه حُكْمَه وأدار إليه عَمَـله . وأما أهلُ الفساد والاشتباه ، ومن يحتمِى بصاحب شوكةٍ أو يتمسّك بربِّ جاه ؛ أو ينْزِل بلَدَ أميرٍ كبيرٍ مستظِلًّا بذَرَاه ، أو ملتجئا من خوفٍ أو مستطعِما من قِرىٰ قُرَاه ؛ فجميعُ هؤلاء تتبَّعْ فِرقَهـم ورِفاقَهم ، وطهِّر الأرض منهم وٱمسَحْ بالسُّيوف أعناقهم ؛ وأسجِم(٢) فى قتْلاهم ، وأثقِل بالقُيود أسْراهم ؛

(١) فى الأصل شريب . (٢) لعله وأثخن .

وشدِّد وَثَاقهم وكذلك مَنْ حَمَاهم ووالاهم ، أو ٱستحسَنَ أو مَنَّ عليهم أو مانَعَ عنهم ، أو قالَ ماهُو منهم وهو منْهـم ، وكلَّ أجْرِهم فى الحـكم مُجراهم ، وأطل تحتَ أطباقِ الثَّرىٰ ثَوَاهم ، ونَبِّه منهم أُناسا علىٰ رُءوس الجذُوع وأنِمْ آخرين نومةً لاينتبهون بها من كَرَاهم ، حتّىٰ يتأدّبَ بهم كلُّ مَنْ أعرض ، ويتداوىٰ بمداواته كلُّ مَنْ فى قلبه مَرَض . وما أشكَلَ عليك فاسترشِدْ فيه بمطالعة أبوابنا الشريفة : لتجدَ هدى واضحا ، وحقًّا لائحا ، والله تعالىٰ يجعلك من المهِّدين لأرضه ، القائمين فى أنواعِ الجهاد بفَرْضـه ، والاعتمادُ على الخط الشريف أعلاه .

الجهـــــة الثـالثـــــة

(درب الحجاز الشريف)

وقد تقــدّمَ أنه كان فى الزمن المتقدّم يُكْتَب عن السلطان تقليــدٌ لأمير الرَّكْب فى الدولة الفاطمية وما تلاها . أما الآنَ فقد تُرِك ذلك ورُفِض كما رُفض غيرُه من الكتابة لأرباب السُّـيوف بالحَضْرة السلطانيــة ، ولم يَبْقَ الآنَ من يُكتب له من ديوان الإنشـاء شىءٌ سوىٰ قاضِى الرَّكْب . وقد جرت العادةُ أن يُكتَب له توقيعٌ فى قطع العادة مفتتَحا بـ«رُسِم» .

وهــذه نسخة توقيع من ذلك ، كُتِب به للشيخ « تَقِىِّ الدين السبكى » رحمه الله فى مبدإ أمره ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُعِينُ على البرّ والتَّقْوىٰ ، ويرتادُ لوفْد الله مَن يتمسَّك فى نَشْر الأحكام الشرعية بينَهُمْ بالسبيل الأقومِ والسببِ الأقْوىٰ ـ أن يستقر فلانٌ فى كذا : لمـا ٱختُصَّ به من غَزَارة علومه ، وإفاضة فضائله المتنوّعة إلىٰ قُوَّته

فى الحق وتصميمه ؛ فإنَّ مثله مَن يُختار لهذه الوظيفةِ الجاريةِ بينَ وفدِ الله الذين هم أحقُّ ببَراءة الذِّمَم ، وأَوْلىٰ بمعرفة حكم الله تعالىٰ فيما يجبُ على المتلبِّس بالإحرام والداخلِ إلى الحَرَم ، وأَحْوجُ إلىٰ الأطلاع علىٰ جَزاءِ الصيد فيما جزاءُ المتعرِّض إليه مثلُ ماقتلَ من النَّعَم ؛ إلىٰ غير ذٰلك من ثُبوت الأهلَّة التى تترتَّبُ أحكامُ الحجِّ عليها ، والحكْم فى محظورات الإحرامِ وما يجبُ على المتعرِّض إليها ؛ فليُباشِر هذه الوظيفةَ فى الوقتِ المشارِ إليه علىٰ عادةِ من تقدّمَه فيها ، مجتهدًا فى قواعدها التى هو أَوْلىٰ من نَهَض بها وأحقُّ من يُوفِّيها .

قلت : أمَّا شهودُ السبيل المعبَّر عنهم بشهود المَحْمَل ، فإنما تكتب لهم مربَّعات شريفةٌ من ديوان الوزارة .

تم الجزء الحادى عشر . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الثانى عشر

وأوّله القسم الثانى

(مما يُكتَب من الولايات عن الأبواب السلطانية ـ أربابُ الوظائف بالممالك الشامية)

والحمد لله رَبِّ العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خَاتَمِ الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه والتابعين ، وسلامُه

وحَسْبُنا الله ونِعْمَ الوكيل

(المطبعة الأميرية ٥٠٧٠/١٩١٧/٣٠٠٠)

فهـــــرس

الجـــزء الحـادى عشر

من كتاب صبح الأعشى للقلقشندى

صفحة

الفصل الثانى — من الباب الرابع من المقالة الخامسة فيما يكتب من الولايات عن الملوك، وفيه ثلاثة أطراف ٥

الطرف الأوّل — فى مصطلح كتّاب الشرق... ... ... ٥

الطرف الثانى — فى مصطلح كتّاب الغرب والأندلس فيما يكتب من الولايات عن الملوك، وفيه ثلاثة أضرب ٦

الضرب الأوّل — ما يكتب لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف ... ٦

الضرب الثانى — مايكتب لأرباب الوظائف الدينية من أصحاب الأقلام ٢١

الضرب الثالث — ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية... ... ... ٢٦

الطرف الثالث — فى مصطلح كتّاب الديار المصرية فيما قبل الخلفاء الفاطميين وفيما بعدهم ... ... ، وفيه أربع حالات ٢٨

الحالة الأولى — ما كان عليه أمر نوّاب الخلفاء بهذه المملكة إلى ٱبتداء الدولة الطولونية ٢٨

الحالة الثانية — ما كان عليه أمر الدولة الطولونية من حين قيام دولتهم إلى ٱنقراض الدولة الأخشيدية... ... ... ٢٩

الحالة الثالثة — ما كان عليه الأمر فى زمن بنى أيوب ٣٢

الحالة الرابعة — مما يكتب عن ملوك الديار المصرية من الولايات ما عليه مصطلح كتّاب الزمان بديوان الإنشاء بالديار المصرية مما يكتب عن السلطان لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم : من التقاليد والمراسيم، والتفاويض، والتواقيع ، وفيه ثلاثة مقاصد ٧٢

صفحة

المقصـــد الأوّل — فى مقدّمات هـذه الولايات، وفيه مهيعان ٧٢

المهيـع الأوّل — فى بيان رجوع هذه الولايات الى الطريق الشرعى ٧٢

المهيع الثـانى — فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة هذه الولايات ٧٤

المقصـــد الثـانى — فى بيان مقاصد ما يكتب فى الولايات، وفيه جملتان ١٠١

الجمـلة الأولىٰ — فى بيان الرسوم فى ذلك [ولم يذكر فى الأصل غيرها]، وهى على أربعة أنواع... ... ... ١٠١

النوع الأوّل — التقاليد... ... ... ١٠١

النوع الثـانى — المراسيم، وفيه ضربان ١٠٧

الضرب الأوّل — المراسيم المكبرة ١٠٧

الضرب الثانى — المراسيم المصغرة ١١١

النوع الثالث — التفاويض ١١٢

النوع الرابع — التواقيع، وهى على أربع طبقات ١١٤

المقصـد الثالث — فى بيان كيفية وضع مايكتب فى هذه الولايات فى الورق ١٢٧

فى ذكر نسخ مما يكتب فى متن الولايات من التقاليد والمراسيم المكبرة والتفاويض والتواقيع، وهى على ثلاثة أقسام... ... ... ١٣٣

القســم الأوّل — ولايات وظائف الديار المصرية، وهى على نوعين... ... ١٣٤

النـوع الأوّل — الولايات بالحضرة، وهى على ستة أضرب ١٣٤

الضرب الأوّل — ولايات أرباب السيوف، وهى على طبقتين... ... ... ١٣٤

الطبقة الأولىٰ — ذوات التقاليد، وهى ثلاث وظائف ١٣٤

صفحة

الوظيفة الأولى — الكفالة، وهى نيابة السلطنة بالحضرة ١٣٤

الوظيفة الثانية — الوزارة لصاحب سيف... ... ... ١٤٨

الوظيفة الثالثة — الإشارة، وهى وظيفة قد حدثت كتابتها ولم يعهد بها
كتابة فى الزمن القديم ١٥٣

الطبقة الثانية — ممن يكتب له من أرباب السيوف ذوات التواقيع،
وفيها وظائف... ... ... ١٥٦

الوظيفة الأولى — نظر البيمارستان لصاحب سيف... ... ... ١٥٦

الوظيفة الثانية — نظر الجامع الطولونى ١٥٩

الوظيفة الثالثة — نقابة الأشراف... ... ... ١٦٣

الضرب الثانى — ممن يكتب له بالولايات بالديار المصرية أرباب
الوظائف الدينية، وهو على طبقتين ١٧٤

الطبقة الأولى — أصحاب التقاليد ممن يكتب له بالجناب العالى ١٧٤

الطبقة الثانية — من أرباب الوظائف الدينية أصحاب التواقيع،
وتشتمل على مراتب ٢٠٤

المرتبة الأولى — ما كان يكتب فى النصف ٢٠٤

المرتبة الثانية — ما يكتب فى قطع الثلث، وتشتمل على وظائف ٢٠٤

المرتبة الثالثة — من الوظائف الدينية ما يكتب فى قطع العادة الصغير
مفتتحا بـ«رُسم بالأمر الشريف» ٢٦٨

صفحة

الضرب الثـالث — من الولايات بالحضرة السـلطانية بالديار المصرية الوظائف الديوانيـة، وهى على طبقتين ٢٧٠

الطبقـة الأولى — أرباب التقاليد ممن يكتب له الجناب العالى، وفيها وظيفتـان ٢٧٠

الطبقـة الثانية — من أرباب الوظائف الديوانية بالحضرة السلطانية أصحاب التواقيع، وهم على ثلاث درجات ٣١٦

الدرجة الأولى — ما يكتب فى قطع النصف، وتشتمل على ثلاث وظائف ٣١٦

الدرجة الثانية — ما يكتب فى قطع الثلث، وتشتمل على وظائف ٣٣٣

الدرجة الثالثة — ما يكتب فى قطع العادة، وفيها وظائف ٣٥١

الضرب الرابـع — من الوظائف التى يكتب فيها بالديار المصرية مشيخة الخوانق، وكلها يكتب بها تواقيع ٣٧٠

الضرب الخامس — من أرباب الوظائف بالديار المصرية بالحضرة أرباب الوظائف العادية، وكلها تواقيع ٣٧٧

الضرب السادس — من أرباب الوظـائف بالديار المصرية زعمـاء أهل الذمـــة ٣٨٥

النـــوع الثـانى — ماهو خارج عن حاضرتى مصر والقاهرة من وظائف الديار المصرية ممـا يكتب لأربابهـا، وهى ثلاث جهـات ٤٠٥

صفحة

الجهـة الأولى — ثغر الإسكندرية ، والوظائف فيها على ثلاثة أصناف ... ٤٠٥

الصنف الأوّل — وظائف أرباب السـيوف ٤٠٥

الصنف الثانى — الوظائف الدينية... ... ... ٤٠٨

الصنف الثالث — الوظائف الديوانيـة ، وهى على طبقتين ٤١٩

الطبقة الأولى — من يكتب له فى قطع الثلث بالمجلس السامىّ باليـاء ٤١٩

الطبقة الثانية — من يكتب له فى قطع الثلث بالمجلس السامى بغير ياء

أو مجلس القاضى ٤٢٣

الجهـة الثانية — ممـا هو خارج عن حاضرتى مصر والقاهرة بالديار

المصرية بلاد الريف، وهى وجهان ٤٢٦

الوجه الأوّل — الوجه القبلى ، وهو المعبر عنه بالصعيد ٤٢٦

الوجه الثانى — من وجهى الديار المصرية البحرى، وهو الشمالى ... ٤٣٨

الجهـة الثالثة — درب الحجاز الشريف ٤٤٢

(تم فهرس الجـــزء الحادى عشر من كتاب صبح الأعشى)

دار الكتب السلطانية

كتاب
صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجزء الثانى عشر

طبع
بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٦ هـ
١٩١٨ م

الجـــزء الثـانى عشر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

وصلى الله وسلم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

(مما يُكتَب من الولايات عن الأبواب السلطانية - [مايكتب لأ] رباب الوظائف بالممالك الشامية)

واعلم أنَّ نُوّاب السلطنة فى التولية علىٰ ضربين :

الضربُ الأوّل

(مَنْ لا تصدُر عنه منهم توليةٌ فى عمل نيابته)

وهم نُوّاب الديار المصرية : من النائبِ الكافل ، ونائبِ الإسكندرية ، ونائبِ الوجه البحرى ، ونائبِ الوجه القِبْلى ، فليس لأحد منهم تصرُّف فى ولايةٍ ولا عَزْل لنائبٍ ، ولا كاشفٍ ، ولا والِى حرْبٍ . إنما النائبُ الكافلُ يكتُب فى بعض الأمور علىٰ القِصَص ، والسلطانُ هو الذى يباشر الكتابةَ على الوِلايات بنَفْسه ، والنائبُ الكافل يكتُب بالاعتماد علىٰ ما يكتُبُ عليه السلطان ، كما تقدّمت الإشارةُ إليه فى موضعه .

الضـــــرب الثـانى

(من تصدُر عنه التوليةُ والعزلُ فى عمل نيابتـــه)

وهم نُوّابُ السلطنة بالممالك الشاميةِ السبعةِ المقدّمِ ذكرُها : من النِّيابات الصِّغار، والوظائفِ الدِّيوانية، والوظائفِ الدِّينيَّة، ووظائفِ مَشايخ التصوُّف ، والوظائفِ العادِيَّة : كرِيَاسة الطِّبِّ ونحوها، ووظائف زُعَماء أهلِ الذِّمَّة : من رِيَاسة اليهودِ، وبَطْرَكِيَّة النصارىٰ، وغيرِ ذٰلك .

فأمّا النياباتُ الصِّغار التى فى أعمـال النِّيابات العِظَام : فمـا كانت نيابتُه إمْرةَ عَشَرة فأكثَر يولِّى فيه النوّابُ ، وربمـا وَلَّى فيه السلطانُ . وما كانت نيابتُه إمرةَ طبلخاناه فأكثر : يولِّى فيه السلطانُ، ورُبَّمـا وَلَّى فيه النوّابُ . وما كانت نيـابتُه تقدِمةَ ألف، فولايته مختصَّة بالسلطان دُونَ النوّاب .

وأما الوظائفُ الديوانيَّـــةُ، فمـا كان منها صغيرا ككتابة الدَّرْج وما فى معناها ، فأكثَرُ ما يوليها النُّوّاب . وما كان منهـا جليلًا : ككتابه السِّرّ وما فى معناها، ونظَرِ الجيش، ونظَرِ المـال ، فتوليتُه مختصَّـة بالسلطان . وما كانَــ منها متوسِّطا بين الطَّرفين : ككتابة الدَّسْت ونحوها : ففى دِمَشْقَ تارةً يولِّى فيها السلطانُ، وتارةً يولِّى فيهـا النائبُ . وفيما دُونَهـا من النيابات غالبُ من يولِّى فيها النُّوّابُ، وقد يولِّى فيها السلطانُـــ .

وأما الوظائف الدينيَّة، فمـا كان منها صغيرًا : كالتداريس الصِّغار، والخَطَابات بالجوامع الصِّغار ، وأنظار المَـدَارس والجوامع الصِّغار ، ونحو ذٰلك، فإنه يولِّى فيها

النوّابُ ولا يولّى فيها السلطانُ إلا نادرًا . وما كان منهـا جليلًا : كقضاء القُضاة ، فإنّ توليتَه مختصّة بالسلطان . وما كان منها متوسّطا بينَ الرتبتين : كقضاء العسكر ، و إفتاءِ دار العَدْل ، والحِسْبة ، ووكالةِ بيت المال ، ومَشْيَخة الشيوخ ، ونحو ذٰلك : فتارةً يولّى فيها السلطانُ ، وتارةً يولّى فيها النُّوّاب . إلا أنَّ توليةَ السلطان فيها فى النيابات الكِبَار كالشام أكثَرُ ، وتوليةَ النوّاب فيها فيما دُونَ ذٰلك أكثَرُ .

وأما مشيخةُ الخَوانق فقد يُولّى فيها السلطانُ ، وقد يُولّى فيها النوّابُ : إلا أن توليةَ السلطان فى مَشْيَخة الشيوخ بالشام أكثَرُ، وتوليةَ النوّاب فى غير مشْيَخةِ الشيوخ بِدَمَشْقَ وفى غيرها من وظائف الصُّوفية فى غيرِ دمَشْقَ أكثَرُ .

وأما الوظائف العاديَّة : كرِيَاسة الطب ونحوها ، ففى جميع النيابات تَوْلِيَتُها من النوّاب أكثَرُ ، و ربَّما ولَّى فيها السلطان .

وأما وظائفُ زعماء أهل الذمَّة : كرِياسة اليهود ، وبَطْرَكيَّة النصارىٰ ، فيستبدّ بها النوّابُ دُونَ السلطان : لزيادة حَقَارتها فى الوظيفةِ والبُعْدِ عن حضرة السلطان .

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب الممالك بالبلاد الشامية أنه كان بها سبع ممالك عظامٍ آستقرّتْ سبع نِيابات :

النيابة الأولىٰ

(نيابةُ دِمَشْق و يعبَّر عنها بكَفَالة السلطنة بالشام)

و وظائفُها علىٰ نوعين :

النـــــوع الأوّل

(ما هو بحاضرة دِمشْــقَ ، ويشتمِلُ ما يُكتَب به من وظائفها
عن الأبواب السلطانية علىٰ أربعة أصناف)

الصـــنف الأوّل

(أربابُ الســيوف ، وهـــمْ علىٰ طبقات)

الطبقـــة الأُولىٰ

(مَنْ يكتب له تقليدٌ فى قطع الثلثين بـ«المَقرّ العـالى» مع الدعاء
بـ«عزّ الأنصار» : وهو نائب السلطنة بها)

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كُتِب به عن السلطان الملكِ العادل «كُتبُغا» للأمير «سَيف الدين غرلو العـادِلى» من إنشاء الشـيخ شهاب الدين محمودٍ الحلبىّ، وهو :

الحمدُ لله الذى جعل لسيفِ دولتِنا علىٰ عاتِقِ المُلْك الأعَزّ نِجادًا، وآدّخر لكَفَالة مملكتِنا من الأولياء مَن تَناسبَ وصْفاه آجتهادًا فى مصَالح الإسلام وجِهادًا ؛ وعَدَق أمورَ رعايانا بمن أيْقظَ لها سيْفَه وجَفْنَه فآمتلأَتْ عيونُهم بمـا وَهَب وسَلَب من نومه ونَوْمِ العِـدا رُقَادا، ورفَع ألويَةَ إحساننا علىٰ مَنْ زادَ برفعها ظِلُّ عدْلِه آنبِساطًا على الرعية وآمتِـدادا ، ووطّد قواعدَ ممـالِكنا بمن أجَلْنا الفِكْرَ فى حُسن آختياره آنتقاءً لمصالح الإسـلام وآنتِقَادا ، وأدّى لشُـكْرِ نعِم الله التى لا يؤدَّى شـكرُ بعضها ولو أنَّ ما فى الأرضِ من شجرةٍ أقلامٌ أو كان البحرُ مدَادا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلَتْ عزائمَنا على الأبد منْصُورَه، ومقاصِـدَنا علىٰ مصالح المسلمين مقْصُوره، وآراءَنا تفوّض زَعَامَة[1] الجيوش إلىٰ من تُصْبِح فِرَقُ الأعداء بِفَرَقِه مغزوّةً وممالِكُهم بمهابته محصُوره .

ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً لانَزال نَنْشُر دَعوتَها فى الآفاق، ونُرْهِف لإقامتها فى ممالِكِنا سَيْفا يَصِلُ ما أمرَ اللهُ بقَطْعه ويَقْطَعُ إلّا الأرزاق، ونُرهِبُ من ألحَدَ فيها بكل ولىٍّ لرُعْبِه فى القلوب رَكْض ولرايته فى الجوانح خَفْق ولأسنَّته فى الصُّدور إشْراق؛ ونشهد أنَّ محمدا عبده ورسوله أشرفُ من فَوّضَ حُكْما فى أيّامه إلىٰ من ٱعتَمَد عليه، وأرأَفُ من ٱستخْلَف علىٰ من بَعُدَ عنه من أُمَّته مَنْ يعلم أنَّ صلاحهم فى يدَيْه، وألطَفُ من عَدَق شيْئا من أمور أهل ملّته بمَن أعانَه الله وسدّدَه فى دَفْع عدوّهم وصلاح ما يرْفَع من أحوالهم إليه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين وُلُّوا على الأمَّة فعدَلُوا، وأُمِروا بما جبلَه الله عليه من الرأْفة والنِّعمة والرحمة فامتثَلُوا، وعلِمُوا أنَّ الحق فيما نَهَج لهم من طُرُق طريقته المُثْلىٰ فما مالُوا عن ذٰلك ولا عدلُوا؛ صلاةً لاتَغْرُب شمسُها، ولا يَعزُب أُنْسُها، ولا تُعْتَبر أوقاتُ إقامتها إلا ويُقَصِّر عن يومِها فى الكثْرة أمسُها؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإن أوْلىٰ ما أعملْنا إليه ركائب الآراء المؤيَّده، وصرَّفْنا إليه أزِمَّة نجائب الأفكار المسدَّده؛ وأجَلْنا فيه طِرْفَ النظر الذى لايُشَقُّ فى بلوغ الغاية غُبارُه ولا يُدْرَك، وأحَلْنا الأمرَ فيه علىٰ التأييد الذى هو عمدتُنا فيما يؤخَذُ من ثَواقب الآراء وما يُتْرك؛ وقدّمْنا فيه مُهِمَّ الاستخارة الذى يتلُوه التوفيق، وعلِمْنا أنَّ ألذَّ أسبابِ الاهتداء إليه سلوكُ طريقِ النُّصح لله ولرسوله وللإسلام فسلَكْنا إليه من ذٰلك

---

(١) فى الأصل «بفرض عامة» وهو تصحيف .

الطريق ؛ وقصَرْنا النيَّة فيه علىٰ مصالح الأمة التى هى فرضُ العيْن بل عَيْن الفرض ، وأطلْنا الإرتيادَ فيه لتعيُّن من نرجُو له ممَّن عناهم الله بقوله : ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ . وندَبْنا له سيفًا لم يزَل فى صدُور الأعداء صَدْرُه وفى يَد جَبَّار السموات قائِمُه ، وأردْنا لتقدمة الجيوش فيه زعيمًا طالمَا مَلَّ ضوءُ الصبح مما يُغَيِّره وملَّ سوادُ الليل مما يزاحِمُه ؛ وقدّمْنا له من نَشَأ فى حَجْر وَلائِنا ، وغُذِّى بلبان بِرِّنا وآلائِنا ؛ وشهِدَ الوقائعَ بين يدَيْنا ، وخَبَرْنا من سيرته النُّهُوضَ فى الرعايا بما كتَبَ الله لهم من الرأفَة والرحمة علينا — أمرُ نيابةِ سلطنتنا الشريفة بالممالك الشاميَّةِ التى نابَتْ فيها مهابَتُنا ، عن الإقامة فيها ، وجعلَتْها عنايتُنا ، من أشرف ممالِكنا التى نَخُصُّها على البُعْد بدوام الملاحظة ونُصْفِيها ؛ وهى واسطةُ عِقْد ممالِكنا ، ومَحطُّ رحال طُرُقنا إلىٰ جهادِ الأعداء ومَسالِكنا ، وهالةُ أهِلَّة سَرَّىٰ القصد إلىٰ لحظها فى أَديم الأرض مواقِعُ سَنابِكنا ؛ ومواطنُ القُرُبات التى نصَّت الآثارُ الصحيحةُ عليها ، ومظانُّ العبادات التى طالمَا نَصَّتْ ركائبُ العِبَاد العُبَّاد إليها ؛ ومقامُ الأبدال الذين هم أهلُ دارِ المُقامه ، ومستقرُّ طائفة الدِّينِ الذينَ لا يزالون ظاهرين علىٰ أعدائهم لا يَضُرُّهم من خَذَلهم إلىٰ يوم القيامه ؛ وفَلَكُ الثغورِ الذى تُشْرِقُ منه كواكبُ سعودها ، وتتصرَّف من نوئه إلىٰ مَنْ جاورها من العدا خاطفاتُ بروقِها وقاصفاتُ رُعُودِها ؛ فكَمْ ذى جنودٍ أمَّها فهَلَك وما ملك ، وسلك إليها بجيوشه فزَلَّت وتزلزلت قدمه حيثُ سلَكْ ؛ ولجَيْشها البأسُ الذى وجُودُ الأعداء به عدم ، والحدُّ الذى يعرفه أهلُ السِّياق و[ان] أنكرتْه أعناقهم «فما بالعَهْد من قِدَم» .

وأن نفوّض [أمرها] إلىٰ من ينْشُرُ بها على الأمة لواءَ عدلنا ، ويبسُطُ فيها بالرأْفَة والرَّحْمَة رِداءَ فَضْلنا ، ويُحْيِي بها سُنَنَ الإحسان التى مَبْدَأُ أيامها غايةُ من سَلَف من قبلنا ؛

ويقيم مَنَـار المُلْك من بَأْسه علىٰ أرفع عِمَاد ، ويُنيم الرعايا من عَدْله فى أَوْطَإ مِهَاد ؛ ويَكُفُّ أَكُفّ الظُّلم إلىٰ ما يتجاسر[1] إلىٰ إعادة يده إليهـا عادٍ ومَنْ عاد ، ويُجَرِّدُ إلىٰ العِـدَا من خَيَاله وخَيْله سرايَا تَطرُدُ عن موارد جفونهم بقوائِمِها الرُّقَاد ؛ وتَسْـتَعيد عَوَارِىَ أرواحهـم مِن مُسْتَوْدَعَات أجسادِهم فهى بحكم العارِيَّة غيرُ مُسْـتَقِرَّةٍ فى الأجساد ، ويَصُونُ الرُّتَبَ عن تَطَرُّقِ مَنْ يُفْسِد أحوالها لعدم أهليته : فإنَّه ماسَلَك أَحَدٌ فى أيامنا طُرُقَ الفَسَاد فَسَاد ؛ ويُعْلَم به أَنَّا جَرَّدْنا علىٰ العِدَا سـيفًا يَسْبِق إليهـم العَذَل ، ويزاحِمُ علىٰ قَبْض نفوسِهم الأَجَل ، وتَتَحَلَّىٰ بتقليده الدُّوَل ، ويُتحقَّق بفتكه أنَّه لاحاكِمَ بيننا وبينهم إلَّا السَّيْفُ الذى إن جَارَ فيهم فقد عَدَل .

ولذٰلك لمـا كان المجلسُ العالى الفلانىّ : هو الذى ٱخْتَرْناه لذٰلك علىٰ عِلْم ، وقَلَّدْناه أمور الممالك : لمـا فيه من حِدَّة بأْسٍ وآيةِ حِلْم ؛ وعَجَمْنا عُودَه فكان لَيِّنًا على الأولياء فَظًّا على العِـدَا ، وبَلَوْنا أوْصَافَه فعلمنا منه السَّدَادَ الذى لايَضَعُ به النَّدَىٰ فى مَوْضع السَّيفِ ولا السَّيْفَ فى مَوْضع النَّدىٰ ، وعرضنا سَدَادَه علىٰ حُسْن ٱعتبارنا للأَكفاء فكان سميرًا (وحُمِلَ ، فزَيَّنَ معْرُوضًا وراعَ مُسَدَّدا) ؛ وهَزَزْناه فكان سَيْفًا يُنَصِّل حَدُّه الخَطْبَ إذ أَعْضَل ، وأعطيناه أمر الجُيُوش فلم يختلف أَحَدٌ فى أنَّه أفضـلُ من الأفضل .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لازال يَصْطَفِى من الأوليـاء كلَّ كُفْءٍ كريم ـ أن تفوّض إليه نيابةُ السَّلْطنة الشريفة بالممالك الشامية : تَفْويضًا يُعْلِى قَدْرَه ، ويبسُط فى مصالح الملك والممالك أمْرَه ؛ ويُطْلِقُ فى مصالح الدولة القاهرة سَيْفَه وكَلِمَـه ، ويُدِرُّ علىٰ الأولياء إحسانَنَا الذى إذا جَارَى الغَيْثَ أخْجَل دَوَامُه دِيَمَه ؛ ويرفعُ بالعدل

(١) الصواب «حتى لايتجاسر» الخ .

مَنَارَ دوامِ مُلْكِنَا الذى قرنه الله للأمة بجُودِنا ، ويضيف باسترفاع الأدْعِيَـة الصالحةِ لدولتنا من كل لسان جُنُودَ اللَّيل إلىٰ جنودنا ؛ وينظرُ فى أمور المـالك الشامية نَظَرًا عامّا ، ويُعْمِلُ فى سِدَادِ ثغورها وسَدَادِ أمورها رَأْيًا ثَاقِبًا وفِكْرا تامّا ؛ ويأمر النُّوّاب من سـدّ خَلَلِها بمـا كِفَايَتُه أدرَىٰ به منهم ، وينبّهُهُم من مصالحها علىٰ ماظهر لفكره المُصيبِ وخَفِيَ عنهم ؛ ويُلَاحظُ أموال ما بَعُـدَ من البلاد كَمُلَاحَظَتِه أموالَ مادَنَا ، وينظرُ فى تَفَاصِيل أمورها : فإنَّها وإن كانت على السَّدَاد فليس بها عن حُسْنِ نَظَرِه غِنَىٰ ؛ ويَسْلُكُ بالرعايا سُنَنَ إنصافه التى وَكَلَتْه معرفَتُنَا به إليها ، ويُجْرِيهم علىٰ عوائد الإحسان التى كانت من خُلُقِه سَجِيَّةً وزدناه تَحْرِيضًا عليها .

وهو يعلم أن الله تعالىٰ قد أقامنا من الجهـاد فى أعدائه بسُنَّته وفَرْضِـه ، ومَكَّنَ لنا فى الأرض : لإقامة دعوته وإعلاء كلمته وتطهير أرْضِه ؛ وعَضَّدَنا بتأييده لنُصْرة الإسـلام ، وأمدّنا من عُدَدِ نصره بكلِّ سَـيْفٍ تروِّع الأعداء به اليَقَظَةُ وتَسُـلُّه عليهـم الأحلام ، وبثَّ سرايا جيوشـنا برّا وبحرا : فهى إمَّا سَوَارٍ فى البرّ تمـرّ مَرَّ السَّحَاب أو جَوَارٍ مُنْشَآتٌ فى البَحْر كالأعلام ؛ ويتعاهد أحوال الجيوش الشامية كُلَّ يوم بنفســه ، ويعِدُهم فى غَدِه باعادة ما آعتبره من عرضهم فى أمْسِه ؛ ويرتب أمْرَ كلِّ إقليم وحَالَه ، وَيتَفَقَّدُ مَنْ يباشر بالتقدمة تقدّمه إلى الأطراف وآرتحـاله ؛ ويأمُرهم كل يوم بالتأهُّب للعَرْض الذى يباشره غدا بين يدَيْنا ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كتب به للأمير « جمال الدين أقُوش الأشرفىّ » فى جمادىٰ الأولىٰ ، سنة إحدىٰ عَشْرَةَ وسبعمائة ، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ رحمه الله تعالىٰ ، وهى :

الحمــدُ لله الذى جعلَ الدِّينَ فى أيامنا الزَّاهرةِ زَاهِيًا بجمَــاله ، سَامِيًّا بتقــديم مَنْ إذا أَرْهَقَ فى الذَّبِّ عنه بسيفِ عَزْمِه غَدَتِ الجنَّة تحتَ ظِلاَله ، حَالِيًّا بتفويض زَعَامَةِ جُيُوشــه إلىٰ مَنْ لو فَاخَرَبه البُدُورَ تَعَجَّبتْ من نُقْصانها وكماله ، عاليا بإيالة من تتولَّد معانى النصر والظفر بين الكَامِلَيْن : من رَوِيَّةِ رَأْيِه وٱرتجَاله ، راقِيًا علىٰ هَامِ الكُفْر بعزائم من لا يزال تُصَبِّحُ مَهَابَتُه العِدَا بطلائع خَيْلِه وتُبَيِّتُهُم بطوارق خَيَاله ، ناميا بإسناد الحكم فيه إلىٰ من يقطع إنْصَافُه بين المُبْطِل ورَجَائِه و يَصِلُ العَدْلُ[منه] بين المُحِقِّ و بين آمَالِه .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى أنَامَتِ الرَّعايا من مَعْدِلَتِنا فى أَوْطَإِ مِهَاد ، وأدامتِ الدُّعَاءَ الصالحَ لأيامنا بإعلاء كَلِمَتَى العَدْلِ والجِهَاد ، وأقامت الإيالة فى أَسْنَىٰ ممالِكِنا بمَنْ هو أَجْرَىٰ من الغُيُوث ، وأجْرَأُ من اللُّيُوثِ ، فى مصالح البلاد والعباد .

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً لا تزالُ الألْسُنُ لإقامتها مُدِيمه ، والضمائرُ علىٰ إدامتها مُقِيمه ، والقلوبُ تَعْقِدُ من كَلِمَة إخلاصها و إخلاص كلمتها فى جِيدِ الإيمان تَمِيمَه ، والتوحيــدُ يُظْهِر أنوارَهَا فى الوُجُوه الوســيمه ، بمأْمَنِ مطالع القلوب السليمه .

ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه الذى جَبَلَه علىٰ خُلُقٍ عَظِيم ، وجعله و إنْ تأخَّرَ عَصْرُه من مَقَام النبوّة فى أعلىٰ رُتَب التقــديم ، ومَنَّ على الأمّة بإرساله إليهــم من أنفسهم وأنه بالمؤمنين رَءُوفٌ رحيم ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين دُعُوا إلىٰ طاعته وأجابوا ، وحَكَمُوا بسنته وأصابوا ، وجَاهَدُوا المُعْرِضين عن مِلَّته حَتَّى رجعوا إلى الهدىٰ وأنابوا ، صــلاة لا تَغيبُ أَنْواؤُها ، ولا يُفَارِقُ وجوهَ أهلهــا وقلوبهــم رُوَاؤُها وإرواؤُها ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإنه ـ لما أجرانا اللهُ عليه من عوائد نَصْره، وأغرانا به من حَصْد الشِّرْك وحَصْرِه؛ ومنحنا من بَسْطَة ملك زُيِّنَتْ بها أسَارِيرُ البسيطة وأَسِرَّتُها، ووهبنا من فواتح فتوحٍ عَلَت علىٰ وجوه الكفر مَسَاءَتُها وبَدَتْ علىٰ وجوه الإسلام مَسَرَّتُها ـ لم نَزَلْ نُؤَدِّى شكر نعم الله بالإحسان إلىٰ عباده، ونَسْتَزِيد منها بتفويض أمورهم إلىٰ من يقومُ فى الذَّبِّ عنهم مقامَ الجَيْش على انفراده؛ فلا نقدّم على الرأفة بِخَلْقِ اللهِ أمرا، ولا نُحَابِى فى بَسْطِ المَعْدِلَة عليهم زَيْدًا ولا عَمْرا؛ ولا نعدِلُ بهم عمَّنْ إذا رَكِبَ فى مَوْكِب نيابتنا زَانَهُ وجَمَّلَه، وإذا جلس علىٰ بِساط عَدْلِنا زَاده وكَمَّلَه؛ وإذا رَسَم بأمرنا أصْغَتِ السُّيُوفُ إلىٰ مَرَاسِمِه، وإذا نظر بعَيْنِ عنايتنا ثَغْرًا أهدَىٰ الشَّنَبَ إلىٰ مَبَاسِمِه؛ وإذا رام فى مصالح الإسلام أمْرًا قَرُب علىٰ رَأْيِه بَعِيدُه، وإذا رمىٰ فى حماية الممالك عدوّا سَبَقَ إلىٰ مقاتله قَبلَ السيوفِ وَعِيدُه؛ وإذا جرّدَ جيشا إلىٰ أعداء الإسلام جَرَّتْ قبل اللِّقاء ذُيُولَ هزائِمِها، ورأتِ الفِرَارَ أمْنَعَ لها من صَوَارِمِها، ونَثَلَتْ مافى كَنَائِنِها من سِهَامٍ ضَعُفَتْ عن الطَّيَرَان قُوَىٰ قَوادِمِها .

ولما كان الجناب العالى الفلانى" هو معنىٰ هذه الفرائد، وسرّ هذه الأوصاف التى للشِّرْك منها مَصَائِبُ هى عند الإسلام فوائد، وفارسَ هذه الحَلْبَة، التى أحرز [قصَبَ] سبقها، وكُفْءَ هذه الرُّتبة، التى أخَذَها دون الأكفاء بِحَقِّها؛ لاتأخذُه فى الحَقِّ لَوْمَةُ لَائِم، ولا يأخذ أمر الجهاد إلا بجِدِّه «وما ليل المُجِدِّ بنائم» يَسْرِى إلىٰ قلوب الأعداء رُعْبُه وهو فى مَكَانه، وتُؤَدّى مهابَتُه فى نكاية الكُفْر فَرْضَ الجهاد قبل إمكانه؛ ويَشْفَعُ العَدْلَ فى الرعايا بالإحسان إليهم، ويجمع بين إرهاب المعْتَدِينَ وشِدّة الوَطْأة عليهم؛ ويقِف فى أحكامه مع الشريعة التى أعلى اللهُ تعالى مَنَارَها، ويَسْتَضِىءُ بأحكامها التى هى لابصار النُّظَّار تُعِير انوارَها .

وكانت المملكة الشامية المحروسة من الممالك الإسلامية بمنزلة القُوّة فى اليمين ، والواسطةِ فى العِقْدِ الثمين ؛ والإدراكِ فى الصُّدور ، والإشراقِ فى البُدُور ؛ وبها الأرضُ المقدّسه ، والحُصُونُ التى هى علىٰ نكاية الأعداء مؤسَّسه ؛ ولها الجيوش التى أَلِفَتْ فى الجهاد السُّرَىٰ ، وأنِفَت لسيوفها فى الجُفُون الكَرَىٰ ؛ ومَرَّتْ علىٰ مَقَاتِلِ العِدَا أسنَّتُها ، وصُرِّفَتْ فى مَسَالك الحربِ أَعِنَّتُها ؛ وراعَتْ مُلُوكَ أهْلِ الكُفر سُمْعَةُ أمرائها ، وحاطَتْها أمدادُ النَّصر فى حروبها من بين يدَيْها ومن ورائها ؛ وفيها من الأئمة العلماءِ الأعيانِ من يعدِلُ دَمَ الشهداءِ مِدَادُ أقلامهم ، ومن الأتْقِياءِ الصُّلَحاءِ مَنْ لا تَطِيش دونَ مقاتل أهل الكفر مواقِعُ سِهامِهم ـ آقتضت آراؤنا الشريفة أن نُمَتِّع هذه الرتبة السنيَّة بجمالها ، وأن نُبَلِّغ هذه الدرجة السريَّة بمن حوىٰ هذه الأوصافَ الفاخرةَ غايةَ آمالها ؛ ليُصْبِحَ بها لِوَاءُ عدلِنا ، مَرْفُوعَ الذوائب ، ومَنْهَلُ فَضْلِنا ، مَدْفُوعَ الشوائب ؛ وكلمةُ جهادنا ، نافذةً فى المشارق والمغارب ، وقبضةُ بَأْسِنا ، آخذةً من أعداء الدين بالذُّرَا والغَوَارِب ، وطليعةُ كتائبنا مؤتَمَّةً بمن تُوقِنُ الطَّيرُ أنَّ فَرِيقَه إذا ما آلتقى الجمعَانِ أوّلُ غالب .

فلذٰلكَ رسم بالأمر الشريف ـ لازالتْ صوارمُه للشِّرك قامِعَه ، ومراسمُه لمصالح الدين والدنيا جامعه ـ أن تفوّضَ إليه تفويضًا يرفع عَلَمَه ، ويُمْضِى فى مصالح الإسلام سَيْفَه وقَلَمَه ؛ ويَنْشُرُ فى آفاق الممالك الشامية عَدْلَه ، ويبسُطُ علىٰ رعَايا تلك الأقاليم المحروسةِ فَضْلَهُ وظِلَّه ؛ فيَطْلُع فى أُفُقِ المواكب هَالَةَ أهلّتها ، وطِرَازَ حُلَّتِها ؛ وطَلْعة لوائها ، وواسطةَ عقودِ مقدّمِها وآرائها ؛ وزينةَ تسييرها ووقوفها ، وحِلْيَةَ طلائعها وصُفُوفها ؛ ويَجْلِسُ فى مواطن الجلوس صَادِعًا بالحق فى حكمه ، آمِرًا بإدامة التأنيب للعدوّ فى أيام سِلْمِه ؛ مُعْطِيا مَنْصِبَ النيابةِ الشريفة حَقَّه من الجلاله ، مُوفِيًا رُتْبَتَها المنيفةَ مايجب لها من أُبَّهَةِ المهابة وكفاءة الكَفَالَه ؛ ولا يزالُ

لمصالح الجيوش المنصورة مُلاحِظًا، وعلىٰ إزَاحةِ أعذارهم مُحَافِظا؛ و إلىٰ حركات عُدَوّ الإسلام وسَكَنَاته مُتطلّعا، و إلىٰ مايتعين من إبطال مكايده متسرّعا؛ ولِبَواطِن أحوالهم بحسن الآطلاع مُحَقِّقا، وبجموعهم بيمن الآجتماع للقائهم مُفَرِّقا؛ فلا يُضمِرُونَ مَكِيدةً إلّا وعلْمُها عنده قبل ظهورها لديهــم ، ولا يُسِرُّون غارة إلا و رَايتَا خَيْــلِهِ المُغيرَةِ أسبقُ منها إليهم .

ولْيَكُن لمَنَار الشَّرع الشريف مُعْلِيا، ولأقدار أربابه مُغْلِيا؛ ولرُتَب العلماء رافعا، ولأقوالهم فى الأحكام الشرعية سَامعا؛ ولِذَوِى البيوت القديمة مُكْرِما، ولأهل الوَرَعِ والصَّلاح مُعَظِّما؛ وعلىٰ يَد الظالم ضَارِبا، وفى آقتناء الأدعِية الصّالحة لدولتنا القاهرة رَاغِبا؛ وبجميل النَّظَر فى عِمَارة البلاد مُدِيمــا، وبحُسْن الفِكر فى أمور الأموال مُعْمِلًا رَأْيًا بمصالحها عليما؛ ولجهات البِرّ بجليل العناية والإعانة عامرا، وعن كُلّ مالا يَجِبُ آعتمادُه ناهيا وبكل مايتعين فعلهُ آمرا . وفى كَمَال خِلَالِه، وأَدَوَات جَماله، مايُغْنِي عن الوصــايا إلّا علىٰ سبيل الذِّكْرىٰ التى تنفع المؤمنين ، وتَرْفَع المتقين؛ ومِلَاكُها تقوى الله تعالىٰ وهى من خصائص نَفْسِه الكريمه ، وعوائد سِيرَتِه الحديثة والقديمه ؛ والله تعالىٰ يُسَدِّدُه فى القولِ والعَمَلِ، ويُؤَيِّده وقد فعل؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكَفَالة السلطنة بالشام ، كتب بها للأمير «سيف الدين تنكز الناصرى» فى ربيع الأول سنة آثْنَتَىْ عَشْرَةَ وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبى، وهى :

الحمد لله مُفَوِّض أسْنَى المَمــالك فى أيامنا الزاهرة إلىٰ مَنْ تَزْهُو بتقليده، ومُشَــيِّد قواعد أسْمَى الاقاليم فى دولتنا القاهرة بمَنْ يعلو بإيالتــه ما يُلْقِىْ إليه مَعَاقِدُ مَقَالِيده؛

ومُسَدِّدِ الآراء فى تصريف أَعِنَّة جيوشنا المنصورة بتقديم مَنْ تَغْدُو سيوفُه من عنق كُلِّ مُتَوَّج من العِـدا قِلَادَةَ جِيده ، ونَاشِرِ لِوَاءِ العَدْل فى رعايانا وإن بَعُـدُوا بمن تُنيم كُلًّا منهم فى مَهْـد الأمْنِ والدَّعَةِ يَدُ مَهَابَتِه وتمهيـده ، ومُعْلِي مَنَـارِ الجهاد فى سبيله بمَنْ إذا جرّد سَيْفَه فى وغًى تَهَلَّلَتْ نَوَاجِذُ أفواه المنايا الضواحِك بين تَجْرِيبِه وتجـــريده .

نحمده علىٰ نِعَـمِه التى أيَّدَت آراءَنَا بوضْعِ كُلِّ شَيْءٍ فى مُسْتَحِقِّه ، وقَلَّدت سَيْفَ النَّصر من أوليائنا مَنْ يأخذه فى مصالح الإسلام بِحَقِّه ، وجدّدت آلاءنا لمن إذا جارت الحُتُوفُ سُيُوفَه إلىٰ مقاتل العِدا فاتها وفاقها بمَزِيَّتَيْ كِفَايَتِه وسَبْقِه .

ونشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لاشريك له شهـادةً لا تَزَالُ ألْسِنَتُنا تَرفع مَنَارَها ، وسُيُوفُنا تصلى من جَحَدها قبلُ نَارَها ، وآراؤُنا تُفَوِّض مصالِحَ جُمْلَتِها إلىٰ مَنْ إذا رَجَتْه لنُصْرَةٍ أنالهـا وإذا أَسْدَىٰ مَعْدِلَةً أَنَارَها .

ونشهد أنَّ محمدا عبـده ورسوله الذى أيَّده الله بنَصْرِه ، وجعله سابق مَنْ تقـدّم من الرُّسُل علىٰ عَصْرِه ، وآتاه من الفضائل ما يَضِـيقُ النُّطقُ عن إحصائه ومن المعجزات مايَحُولُ الحَصَرُ دون حَصْرِه ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين تَمَسَّكُوا بهُـدَاه ، وهجروا فى طاعته مَنْ عاداه ، ونَهَضُوا فى رضا الله تعـالىٰ ورضاه إلىٰ مظَانِّ الجهاد وإن بَعُـدَ مَدَاه ، صلاة يشْفَعُها التسليم ، ونَبْتَغِى إقامتَها عنـد اللهِ واللهُ عنده أجْرٌ عظيم ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعـد ، فإنَّ أولىٰ ما أعْمَلْنا فى مَصَالِحِه الفِكَر ، وتَدَبَّرنا أحواله بكل رَأْيٍ يُسَدِّدُه الحَزْم المُرَوَّىٰ ويؤيده الإلْهَـامُ المُبْتَكَر ، وقَدّمنا فيه الاْستِخارةَ علىٰ ماجَزَم اليَقِينُ بأنّ الخِيرَةَ للإسلام والمسلمين فى اْعتِماده ، وتَمَسَّكْنا فيه بحَبْلِ التوفيق الَّذى مازال نَتَكَفَّل

لنا فى كُلِّ أمْرٍ بسَدَادِه وفى كُلِّ ثَغْرٍ بسِدَادِه ـ أمرُ الممالك الشامية التى هى وَاسِطَةُ عِقْد الممالك، ومُجْتمع مايُفْضِى إلىٰ مواطن النَّصْر من المسالك؛ ومَرْكَزُ فَلَكِ الأقاليم الذى تَنْتَظِمُ عليه بُرُوجُ ثُغُورِها ، ونُقْطةُ دائرة الحُصُون التى منها مادّتُها وعليها مَدارُ أمورِها ؛ وغِيلُ لُيُوثِ الحرب التى كم أَنْشَبت أظفارَ أسِنَّتِها فى طُرّةِ ظَفَر، ومَوَاطِنُ فُرْسان الوَغَى التى كَمْ أسفَرَ عن إطلاقِ أَعِنَّتِها إلىٰ غايات النَّصْر وجْهُ سَفَر؛ وأن نَرْتَادَ لكَفَالة أمورها، وكِفَاية جُمْهُورِها، وحمايةِ مَعَاقلها المَصُونَة وثُغُورها؛ وزَعَامة جُيُوشِها ، وإرْغام طَارِقِى أطرافها من أعداء الدين وَثَلِّ عُرُوشِها، مَنْ جَرَّده الدِّينُ فكان سَيْفًا علىٰ أعدائه ، وٱنتقاه حُسْنُ نَظَرِنا للمسلمين فكان التوفيقُ الإلٰهىُّ مُتَوَلِّىَ جميل ٱنتقاده وٱنتقائه؛ وعَجَمْنَا عُودَ أوصافه فوجدْناه قَوِيًّا فى دِينه، مُتَمَكِّنًا فى طاعته بإخلاص تَقْوَاه وصِحَّةِ يَقِينِه؛ متيقِّظا لمصالح الإسلام والمسلمين فى حالَتَىْ حَرَكَتِه وسُكُونِه ، آخذًا عِنَانَ الحَزْم بيُسْرِ يُسْرَاه وسِنَانَ العَزْم بيُمْنِ يَمِينِه؛ وَاقِفًا مع الحق لذاته، مقدّما مَشَاقَّ الجهاد علىٰ سائرمآربه ولَذَّاتِه؛ مَاضِيًا كَسَيْفِه إلَّا أنه [لا] يألف كالسيف الجُفُون، رَاضِيًا فى رَاحة الآخرة بمتاعِبِ الدُّنيا ومصاعبها فلايَرْعىٰ فى مَوَاطِن الجهاد إذا حَلَّها أكْنَافَ الهُوَيْنا ولا رَوْضَ الهُدُون؛ مَانِعًا حِمَى الإسلام لا "حِمَى الوَقَىٰ بِضَرْبٍ" يُفَرِّقُ بين أسباب الحياة و "* يُؤَلِّف بين أشْتَاتِ المَنُون*" .

ولما كان فلان هو الذى تشوفت هذه الرتبة إلىٰ أن تَتَجَمَّل به مواكِبُها، وتتكمل به مَرَاتِبُها، وتَنْتَظِم علىٰ دَسْتِه هَالَةُ أمرائها كما تنتظم علىٰ هالة بَدْرِ السماء كَوَاكِبُها ؛ فإذا طلع فى أُفُقِ مَوْكِبٍ أعْشَت الأعداءَ جَلَالَتُه ، وأعْدَت الأولياءَ بَسَالَتُه؛ وسَرىٰ إلىٰ قُلُوب أهل الكُفر رُعْبُه، وفعل فيهم سِلْمُه مايفعلُ من غيره حَرْبُه ؛ وإذا جلس علىٰ بِسَاطِ عَدْلٍ خَرِسَ الباطل، وأنجز مافى ذِمَّته المَاطِل؛ وتكَلَّم الحقُّ بمِلْءِ فيه، وتبرأ الباطل حتّٰى مِمَّن يُسِرُّه ويُخْفِيه ؛ وإن نَظَر فى مصالح البلاد أعان الغَيْثَ علىٰ

رَبِّها بِرِفْقه ، وأعاد رَوْنَق عمـارتها بكَفِّ أكُفِّ الظلم ووصول كلِّ ذِى حَقٍّ إلىٰ حَقِّه ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أن نَجْعلَ فُنُون أفْنَانه بِيُمْـنِ إيالَته دَانِيةَ القُطُوف ، وأن نُصَيِّرَ جَنَّتَها تحت ظِلَال سَيْفه : فإن «الجنة تَحْتَ ظِلَال السُّيوف» .

فلذلك رُسِم بالأمرِ الشريف ـ لازال زَمَنُ عَصْره ، مؤرَّخًا بالفُتُوح ، وسَيْفُ نَصْره ، علىٰ من كفَر دَعْوَةَ نُوح ـ أن تفوّض إليه نيابةُ السلطنة الشريفة بالشام المحروس : تَفْويضًا يُحْسنُ به المَنَـابَ فى تلك الممـالك عنَّا ، ويَنْشُرُ فيها من العَدْل والإحسان مايُلقَّاه منَّا ، ويُلْبِسُها من حُلَلِ المَهَابة مايُضَاعِفُ به أَمْنَ سِرْبِها ، وتُصْبِحُ به السُّيوف المجرَّدةُ أَحْفَظ لها من قُرْبِها ، ويطلُعُ فى أفُقِ مواكبها الجليلة طُلُوعَ الشَّمس التى يَعُمُّ نَفْعُها ، ويُعْشِى النَّواظِرَ لَمْعُها ، ويجلسُ فى دَسْتِ نيابَتِنا حاكما فيهـا بأمرنا ، جَازمًا بحُكْمِ الشرع الشريف الذى قد عَلِمَ أنه حِلْيَـةُ سِرِّنا وجَهْرِنا ، نَاشرًا من مَهَابَة المُلْك ماتَرْجُفُ له القلوب من العِدا ، وتُصَبِّحُهم به سَرَايَا رُعْبِه علىٰ بُعْدِ المَدَى ، مُلْزِمًا مَنْ قِبَـلَه من الجيوش المنصورة بمُضَاعَفَة إعْداد القُوَّه ، وإدامة التَّأَهُّبِ الذى لا تبرح بسُمْعَتِه بِلَادُ أهلِ الكُفْر مَغْزُوَّه ، مُطَّلِعا علىٰ أحوال العدا بلُطْف مقاصده ، ونِكَاية مَكَايِده ، وحُسْن مصادره فى التدبير ومَوَارِده ، فلا يُبْرِمُون أمْرًا إلا وقد سَبَقَهم إلىٰ نَقْضِ مُبْرَمِه ، ولا يقدّمون رِجْلًا إلا وقد أخَّرها بوَثَبَاتِ إقْدَامه وثَبَاتِ قَدَمه . ولْيعظِّم مَنَـارَ الشرعِ الشريف بتكريم حُكَّامه ، والوُقُوف مع أحكامه ، ويرفَعْ أقدارَ حَمَلَة العلم بترفِيهِ أسرارهم ، وتسهيلِ مَآرِبِهِـم وأوطارِهم ، ولْيَعُمَّ الرعايا بعَـدْله وإنْصافه ، ويسترفِعْ لنا أدْعيَـةَ الأولياء والصُّلَحَاء بإسْعاده وإسْعَافه . وفى خصائص أوصافه الكريمه ، وسَجَايَاهُ التى هى لمصالح الإسلام مُسْـتَديمَه ، ما يُغْنِى عن تَشَدُّدٍ فى القول والعمل ، والله تعـالىٰ يؤيده وقد فعل ، ويجعله مِن أوليائه المتقين وقد جعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام، كتب به للأمير «يلبغا الكاملى» بعد نيابته بحَلَب وحَمَاة، من إنشاء المقرّ الشّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمد لله مُجْرِى الأقدار، برِفْعَةِ الأقدار، ومُثْرِى آمالِ مَنْ حَسُنَتْ له فى خدمتنا الآثار، بمَوَاهِبِ العطايا والإيثار، ومُمْرِى غُرُوسِ نِعَم أوليائنا التى رَعَى عَهْدَها عِهَادُ سُحُبِ جُودِنَا الغِزار، جَاعِلِ أصفياء مملكتنا الشريفة كُلَّ حين فى ٱزدياد، ومانِحِ المخلصين فى خدمتنا مَزِيدَ الإسعاف والإسعاد، وفاتِح أبواب التأييد بسيوف أنصارنا التى لا تَهْجَعُ فى الأغْماد .

نحمَده على مواهب نَصْره، ونشكُره على إدراك المآرب من جُوده الذى يَعْجِزُ لسانُ القَلَم عن حَصْره؛ ونشهد أن لا إلٰهَ إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤيد قائلَها فى مَوَاقِفِه، وتجمعُ له من خَيْرِ الدُّنيا بين تَالِدِه وطَارِفِه؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى هَدَى اللهُ به هذه الأمةَ من الضَّلَال، وفَضَّل به المجاهدين حيثُ جعل الجَنَّةَ تحت ما لِسُيُوفهم من ظِلَال . صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاةً لا ٱنفصامَ لعُرْوَتِها ولا ٱنفصال، ولا ٱنقضاءَ لأسبابها ولا زَوَال؛ وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد، فإن أوْلَى مَن ٱنْتُدِبَ لحِفْظِ ممالك الإسلام، وأُتُمِنَ على صَوْنِها بعَزْمِه الذى لا يُسَامَى ولا يُسَام؛ وأُسْنِد إليه من أمور الرعايا بأجَلِّ الممالك ما يَقْضِى بمَزِيد التكريم، وٱعْتُمِد على صِيَانته ودِيَانَتِه لَمَّا شَهِد الٱختبارُ بأنه أهْلٌ للتقديم؛ وجَرَّبَتِ الدول مُخَالَصَتَه، وتُحُقِّقَ ٱهتمامُه الذى بَلَّغَه من العِزِّ غَايَتَه؛ وأَثْنَتْ على حُسْن سِيرَتِه وسَرِيرَتِه سوابقُ خِدَمِه، وشُكِرَ ٱهتمامُه فى المخالصة التى أعربَت عن عزمه؛ ففاق أشْبَاهًا وأنْظَارا، وكَفَلَ الممالك الشريفة الحَلَبِيَّةَ والحَمَوِيَّةَ فأيدها أعوانا وأنصارا؛

وبسط فيها من العَدْل والإنصاف ما أعلىٰ له شأناً ورَفَعَ له مِقْدارا ، وسلك فيها مَسْلَكًا شَنَّفَ أسماعا وشَرَّفَ أبصارا .

ولما كان المقر الكريم (إلىٰ آخره) هو صَاحبَ هذه المناقب ، وفارِسَ هذه المَقَانِبْ ، ونَيِّرَ هذه الكواكب ، كم أبهج النفوس بمَالَهُ من عَزْمٍ مشكور ، وحزم مأثور ، ووَصْفٍ بالجميل مَوْفُور .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لازال لسيف أوليائه مُرْهِفًا ، ولا بَرِحَ لأخصائه مُسْعِدًا ومُسْعِفا ــ أن تفوّض إلى المشار إليه نِيَابَةُ السَّلطنة الشريفة بالشام المحروس ، علىٰ أجمل عوائد من تقدّمه فى ذٰلك وأكمل قواعده . فليتناولْ هذا التقليد الشريف بيدٍ لم يَزَلْ لها فى الوَلَاءِ البَاعُ المديدُ الطويل ، ويتلَقَّ هذا الإحسانَ بالشُّكْر الذى هو بدوام النعمة خَيْرُ كَفِيل ؛ ويضاعفْ ماهو عليه من آهتمامٍ لم يزل منه مألوفا ، وآعتزامٍ إذا لَاقىٰ غَيْرُه مُهِمًّا واحدًا لَاقىٰ هو أُلُوفا ؛ ويُمْعِن النظرَ فى مصالح هذه المملكة الشامية المحروسه ، ويعتمدْ من حُسن تدبيره ما تغدو رُبُوعُها بحسن ملاحظته عَامِرَةً مأنوسه . وهو يعلم أن العَدْلَ من شِيَم دولتنا الشريفه ، وسَجِيَّة أيامِنَا التى هِىَ علىٰ هَامِ الجَوْزَاء مُنِيفَه ؛ فليسلك سَنَنَه ، ويتبع فَرْضَه وسُنَنَه ؛ ويعلمْ أنَّ عدل سَنَةٍ خيرٌ من عبادة ستين سَنَه ، ولينشُرْ على الرعايا مَلَابِسَه الحَسَنَه ؛ ويعظِمِ الشَّرعَ الشريفَ وحُكَّامه ، ويُعَيِّنِ الإقطاعات لمن يستحقها من الأيتام أو يوجبُ الآستحقاق إكْرَامَه ؛ والله تعالىٰ يجعل السَّعْد خَلْفه وأمامه ، ويؤيِّدُه تَأْيِيدًا يُبَلِّغُه مُرَادَه من النَّصْر ومَرَامَه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة تقليد بكفالة السلطنة بالشام :

الحمد لله الذى طَهَّرَ الشَّامَ وقَدَّسَه ، وصَانَه وحَرَسَه ، وجعل لسلطاننا فيه قواعِدَ بالنَّصْر مُؤَسَّسه ، وأنوارا للهُدىٰ مقتَبَسه ، وكَفَلَه بمن إذا صَفَّ له العدوُّ ٱفترسه ، وأذَلَّه وأرْكَسَه ، وأرغم مَعْطِسَه ، وقَطَف بسيْفه أرْؤُسَه ، ومَنْ يُعْطَى النَّصْرَ إذا ٱمْتَطَىٰ فَرَسَه ، ومن كَرَّم الله نَفْسَه ، وكَثَّر أُنْسَه ، وعَطَّر نَفَسَه ، ومن يُنْصِفُ المظلومَ من ظالمه ويبلِّغ السائلَ مُلْتَمَسَه ، ومن لَبِس ثوبَ العفاف والتُّقَىٰ فكان خيرَ ثَوْبٍ لَبِسَه .

نحمده علىٰ أَصْلِ جُودٍ غَرَسَه ، وعارِض سَوْءٍ حَبَسَه ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً أزالت الشِّرْكَ ومَحَتْ نَجَسَه ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى أنبع الله من أصابعه عيْنًا مُنْبَجِسَه ، وٱخْضَرَّ العُودُ اليابسُ لَمَّا لَمَسَه ، وأضعف الوساوِس المُخْتَلَسه ، وٱنتزع الحَقَّ ممن بَخَسَه ، وحماه الله من الشيطان لما وُلِدَ فما نَخَسَه ، ونَوَّرَ القَلْبَ الذى خيم عليه الضلالُ وطَمَسَه ، وكان الشِّرْكُ قد ٱنْبَثَّ فى الأرض فطواه دينُه وكَبَسَه ، ومحاه ودَرَسَه ، وجاء بالقرءان فطُوبىٰ لمن تلاه ودَرَسه ، وأنزل عليه : ﴿ وٱعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَه ﴾ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما أولَجَ اللهُ اللَّيْلَ فى النهار وغَمَسَه ، وميَّز بنصف العدد من الثلث سُدُسَه ، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعد ، فإن الشَّامَ هو عِقْدُ النِّظَام ، وأجَلُّ ممالك الإسلام ، ومَعْدِنُ النَّصْرِ الذى بُرُوقه تُشَام ، ومُسْتَقَرّ البركات الوِسَامِ ؛ وعَسْكَرُه أفضلُ عَسْكَرٍ فى حسن الٱعتزاء والٱعتزام ، لا يَرْهَبُون الحِمَام ، ويخوضون لُجَجَ المَنُون بالحُسَام ؛ ونيابةُ السلطنة الشريفة به من أجَلِّ النيابات مقْدَارا ، وأكْرَمِها آثارا ، وأعَزِّها أنصارا ،

إذ هو تِلْقَاء أوامرنا الشريفة المنطويةِ عليها أسرارُ البَريد، ومن عِنْده تتفرّع المهمات للقريب والبعيد، وعنه يَصْدُرُ البريد، وإليه يَرِدُ بكل ثناء جديد، ومنه يأتى إلىٰ مسامعنا الشريفة بما نُريد، فلا يَحُلُّ دارَ سعادتها إلا من هو منصورٌ سعيد، وذُو رَأْيٍ سديد، وحزمٍ حديد، وقد آخترنا لها بحمد الله كُفْأَها المعيد .

ولما كان فلان هو الضَّارِيَ علىٰ العدا، والغَيْثَ المتوالِيَ النَّدىٰ، والهمامَ الذى جَرَّد سيفَ عَزْمِه أبدا فلا يُرىٰ مُغْمَدا، وآتَّصَفَ بحسن الصفات فما سَادَ سُدىٰ؛ قد تجملت الممالك بآرائه ورَاياتِه، وثَبَاتِه ووَثَبَاته، ورَوْض تَدْبِيره وطِيبِ نَبَاته، وحُسْنِ آعتماده فى خدمة مُلْكنا الشريف ومهمَّاته؛ إن ذُكِرَت المُوَالاة الصادقة كان رَاوِيَ مُسْنَدِها، وحَاوِيَ جَيِّدها، والآوِيَ إلىٰ ظِلِّها المَديد وطيبِ مَوْرِدها؛ وإن ذُكِرَت الشجاعةُ كان زعيمَ كتائبها، ومَظْهَرَ عجائبها، ولَيْثَ مَضارِبِها، ومُجَرِّدَ قَوَاضِبِها، وفارسَ جَنَائِبها، ومُطْلِبَ أطلابها ومُنْجِحَ مَطَالِبها، ومُجَلِّيَ غَيَاهِبِها — آقتضى حُسْنُ الرأيِ الشريف أن يُعقَد عليه لواء الآحتشام، فى الشام؛ وأن يُخَصَّ بالبركات، المُخَلِّصَة من الدَّرَكات .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته، وأن يكونَ داخلا فى نيابته الشريفة ما هو مضافٌ إلى الشام المحروس : من مَمَالِكَ وقِلَاع، ومُدُنٍ وضِياع، وثُغُورٍ ومَوَانِى، وسَوَاحِلَ فى أَقَاصٍ وأدانى؛ تفويضا آتَّسَقَتْ دُرَرُه، وأشرقت غُرَرُه، وتُلِيَتْ آياتُه وسُوَرُه .

فلْيُمَهِّد بالعدل أكْنَافَ البلاد، ولْينظرْ بعين الرعاية والسَّدَاد؛ ولْيَنْشُرْ لواء الإنصاف، لتكون الأمّة تحت ظلّه الضَّافِى وإليه الحَقُّ مضاف. ولْيُدِرّ الأرزاق

من الأخلاف ، وليأمُرْ بإقامة الحدود علىٰ شارب السُّلَاف ، وعلى السارقين بالقطع من خِلَاف ؛ وليَسْـتَرْهِف عزائمَ العسَاكِر المنصورة فى القتَال والجهاد ، وليأخُذْهم بحسن الاستعداد ، وليَعْرِف للأمراء منـازلهم : فإنهم أركانٌ وأعضاد ، وأنصارٌ وأمْجاد، وأوليـاءُ دَوْلَتِنا الشريفـة المَـاحُونَ للفَسَاد، وممَّن تتجمَّلُ بهـم المَوَاكِب وتتفَطَّر بهـم للعِدا الأكبَاد ؛ واللهَ اللهَ فى الشَّرع الشريف و إقامة مَنَارِه ، وتنفيـذ كَلِمَة أحكامِه و إزالَةِ أعذاره؛ والتَّقْوىٰ فهى أفضل شعَارِه، وقُرَّةُ أبصاره؛ والوصايا فمنه يُشْرِقُ هِلَالهُـا إلىٰ أن يَتِمَّ فى إبداره، ويتكمَّل بأنواره ، وهو غَنِيٌّ عن إكثاره . نخذْ تقليدَنا هذا باليمين ، والْبَسْ من هذا التفويض المَلْبَس الأسْنَى الثمين ؛ وأخْبَارَ البريد المنصور فلا تَقْطَعْها عنا، فمنه إلينا تَرِدُ أخبارُ البريد و إليه تَرِدُ المهماتُ مِنَّا، واللهُ تعالىٰ يخوّله كُلَّ يومٍ من إحساننا فى الزيادة والحُسنىٰ؛ والخط الشريف أعلاه.

الطبقة الثـانيــــة

(مَـن يُكتب له تقليدٌ شريفٌ فى قَطْع النصف بـ«المجلس العالى»
وهو الوزير من أرباب السيوف، وهو بالمملكة الشامية
علىٰ حدّ الوزير بالديار المصرية)

وهذه نسخة مرسوم من ذلك :

الحمد لله مُسَدِّدِ سهام الاختيار، ومُسَيِّرِ الأولياء إلىٰ منازل العَلْياء مَسِيرَ الأهِلَّة إلىٰ منازل الإبْدَار، الذى جدّدَ نِعَما ، وعدّد كَرَما ، وعَلِم مَوَاقِـعَ الاضطرار، إلىٰ مَوَاقِـعِ الأوزار، فأَرسل إليها مَنْ تستهلُّ آراؤه دِيَمـا .

نحمـده حمدا كثيرا ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له لم يتَّخِذْ صاحبًا ولا وزيرا ؛ ونصلِّي علىٰ سيدنا محمد الذى عَمَّر الله به البلاد تَعْميرا، وأحسن بالعَـدْل

تقريرا ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين ظَاهَرُوه بالسيوف والأقلام كاتبا وأميرا ، صلاةً لا ينقطع تَوَاليها ، ولا تزال الآفاق تَتَنَاقَلُها وتَسْتَهْدِيها .

وبعد ، فانَّ أولىٰ من عَظُم شانُه ، وكَرُم مكانُه ، وثبت إمكانُه ، وأُنْبِتَ فى مَنَابِت الرماح قلمُه الذى هو ترجمانه ، وبُسِطَتْ فى تشييد الممالك يَدُه وأُطْلِق لِسَانُه ـ من كان علَامة العِلْم ، وغَدَا بالنشاط فى كِبَرِه فَتِيَّ السِّنّ كَهْلَ الحِلْم ؛ الذى فاق جلالةً ونَسَبا ، وآستعلىٰ هِمَّةً وأدبا ، وعُرِفَ بالديانة التى طار صيتُها فى الآفاق شرقا ومغربا ، والهِمَّةِ التى سواء عليها أَحَمَلت قلمًا أم آنتضت قُضُبا .

ولما كنتَ أيُّها المجلس الفلانى ـ أدام الله تأييدَك ، وتسديدَك وتمهيدَك ، وكَبَتَ حَسُودَك ، وضاعف صُعُودَك ـ أنتَ المَعْنِيَّ بهذه المآثر ، المُنَضَّدَةَ عليك هذه الجواهر ، الدالةَ علىٰ مناقبك هذه المَفَاخِر ، الذى وجَدْناك علىٰ الآنتقاد تزيد آستخلاصا ، وتَعْدُو على السَّبْك خَلَاصَا .

فلذٰلك خرج الأمر الشريف أن تُوَزِّر ، وتُحْمَىٰ مواردُ آرائك لتُسْتَغْزَر ، ويكونَ لك الحكم فى المملكة الشامية عموما ، وتَتَصَرَّفَ فى معاملاتها مجهولا ومعلوما ، علىٰ أكمل قواعد الوزراء وأتمها ، وأجملها وأعَمِّها ، متصرّفًا فى الكثير والقليل ، والحقير والجليل ، تَعْزِل وتُوَلِّي مَنْ شيت ، وتَكْفِي وتَسْتَكْفِي من آرتضيت . ونحن نُوصيك بالرِّفْقِ الذى هو أخْلَق ، والعدلِ الذى تُسْتَدَرُّ به سُحُب الأموال وتُسْتَغْدَق ، والحَقِّ فإن كل القضايا به تتعلَّق ، ويُمْنِ السياسة فإن الرِّياسةَ بها تكمل وتُعْدَق ، وإيَّاك والغرضَ الذى هو يَهْوِى بصاحبه ، ويُرْدِيه فى عواقبه ، وآتَّقِ اللهَ الذى لا تتم الصالحات إلا بتقواه ، وآحذر أن تكون مع من ضلَّ سبيلَه وآتبع هواه ، واللهُ تعالىٰ يُنْجِحُ رجاءَك ويُوَضِّح منهجك ، ويُعْلِي دَرَجك ، ويلقِّنُك إذا خاصمت وآختصمت حُجَجَك ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثالثـــــــة
(من يُكْتَبُ له مرسومٌ شريف، وهى على مرتبتين)

المرتبـــــــة الأولى
(من يُكْتَبُ له فى قطع النصف وهو نائب قَلْعة دِمَشْق)

إن كان مقدّم ألفٍ كما كان أوّلا ، كتب له بـ «المجلس العـالى» . أو طبلخاناه كما هو الآن ، كتب له بـ «السـامى» بغير ياء . وبالجمـلة فإنه يكتب له مفتتحا بـ «الحمد لله» .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بنيابة قَلْعة دِمَشْقَ المحروسة، من إنشاء المقرّ الشِّهَابِىّ ابن فضل الله رحمه الله، وهى :

الحمد لله مُشَرِّف القِلاع ، ومُصَرِّف رجالهـا فى الآمتناع ، ومُعَرِّف من جَادَلَهـا أنَّ الشَّمْسَ عاليةُ الآرتفاع .

نحمـدُه حمْدًا يُشَنِّف الأسماع ، ويُشَرِّف الإجمـاع، وتُحَلِّقُ فى صُعُودِه الملائكةُ أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاع ؛ ونشهـد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً نرجو بها لِمَـا بَقِى من قِلَاعِ الكُفْرِ الآقْتِلاع ، وآسْتِعَادَةَ ما قَرَّ معهم من قُرًى وضَاعَ من ضِيَاع ؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه و رسولُه الذى حَمىٰ به دِرَّة الإسلام من الآرْتِضَاع ، وصَانَ به حَوْزَةَ الحق أن تُضَاع ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه صلاةً دائمةً ما أُسْبِلَ لِلَّيلِ ذَيْلٌ وآمْتَدَّ للشَّمس شُعَاع ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فإن للحُصُونِ حواضِرَ كما للبِـلَاد، وحَوَاضِنَ تَضُمُّ بقاياها ضَمَّ الأُمَّهَاتِ للأولاد ؛ ومَعَاقِلَ يُرْجَعُ إليهـا إذا نَابَتِ النُّوَبُ الشِّدَاد ، ومَعَاقِد يعتصم من منَعَتِها بجِبال ويتمسك بأطواد؛ وقلعةُ دِمَشْق المحروسةِ هى التى تفتخر بقايا البِقَاعِ (١) بالآتصال

(١) لعله القلاع .

بسَبَبِها، والتَّمَسُّك فى الشدائد بذَيْل حَسَبِها، لا يُهتَدىٰ فى السِّلْم والحَرْب إلا بمَنارها، ولا يُقْتَدىٰ فى التسليم والامتناع إلا بآثارِها، ولا يُسْتقىٰ إلا بما يَفيضُ علىٰ السُّحُب من فَيْض أمْطارها، قد تَرَجَّلَتْ لتُبَارِز، وتَقَدَّمَتْ لتُناهِز، ودَلَّتْ بقُوَاها فما ٱحْتَجَبَتْ من سُجُوف الجَبَل بحِجَاب ولا ٱحْتَجَزَت من الغَمام بحَاجِز، بل ألْقَتْ إلىٰ قَرَارِ الماء حِجْلَها، وأثبتت فى مستَنقَع الموت رجلها، وكَشَفَتْ للحَرْب العوان قِنَاعها، وأشعلت أبْنِيَتُها من الذهب شُعَاعها، وأشغلت أفنيتُها البروقَ أن تُطَاوِلَ باعَها، أو تُحَاوِلَ ٱرتفاعَها، قد جاورت قُبَّتُها الزَّرْقَاءُ أخْتَهَا السَّماء، وجَاوَزَتْ بُرُوجها مِنْطَقَةَ البُروج ٱعْتِلَاء، وهى مَعْقِلُ الإسلام يَومَ فَزَعِهِم، وأَمْنُ قُلُوبهم أعاذها الله من جَزَعِهِم، وقد نزل العَدُوّ عليها ونَازَلها زمانا بجُمُوعه وأعَانَهُ عليه قَوْمٌ آخرون، وأقْدَمُوا وتقدّموا وهم مُتَأخِّرون، وطَاوَلُوها فكانت حَسْرَةً عليهم، ونَكَالًا لما خَلْفَهم وما بين يَدَيْهِم، وثَبَّتَ اللهُ بها أقدامَ بقيَّةِ القلاع، وقَوَّى بعزَائمها إقْدَامَ من فيها علىٰ الامتناع، وقَلْعةُ الجَبَلِ المحروسةُ وإيَّاها كالأخْتَيْنِ، وهى لها ثانيةُ ٱثْنَيْن، وكِلْتَاهُما لكُرْسيِّ مُلْكنا الشريف منزلٌ سعيد، ومتَنَزَّه يودُّ صَفِيحُ الأفلاك لو تَرَامَى إليه من مكان بعيد.

فلمَّا رسمنا بنقل من كان فى النيابة الشريفة بها فى مَنَازلها من مكان إلىٰ مكان، وقَدَّمْنَاه أمَامَها كما يهتزّ فى قَادمَة الرمح السِّنَان، واتَّخَذْنا من بُرُوق عَزَائمه لبعض ثُغُورِها الضاحكةِ شَنَبا، ومن هِمَمِه المُتَّصلة المَدَدِ بها ما نَمُدّ منها إلىٰ سَمائِها سَبَبا ــ ٱقتضىٰ رَأْيُنا الشريفُ أن نُعَوِّل فى أمرها المُهِم، وبَرِّها الذى به مصالحُ كثيرٍ من ممالكنا الشريفة تَتِم، ونُحَلِّيَ مَشَارِفَها بمن تُضَاحِكُ البروقَ سُيُوفُه فى لَيْلِ كُلِّ نَقْعٍ مُدْلَهِمّ، ونَحْمِيَ حِمَاها برجل تَمْنع مَهَابَتُه حَتّٰى عن نَقْل الأسنة (؟) طَارِقَ الطَّيْف أن يُلِم، وهو الذى لا تزعزَعُ له ذُرَا، ولا يُناخ لبادرة سيْله فى ذَرَا، ولا يَقْدِرُ معه

الأسَــدُ أن يَبِيتَ حول غَابِهِ مُصْحِرًا، ولا الطَّيرُ أن يُحَلِّقَ إليه إلا مَاسِحًا بجنَاحِه على الثَّرىٰ، ولا أدْلَجَتْ إليه زُمَرُ الكواكب إلا تَقَاعسَت فلا تَسْتَطِيعُ السُّرىٰ .

وكان فلانٌ هو حَامِىَ هذا الحِمَىٰ، ومَانِـعَ ما يَحْلُو فى الثُّغُور من مَوَارِدِ اللَّمَىٰ، وغَيُورَ الحَىِّ فلا تبرُزُ له إلا من عَقَائِلِ المَعَاقِلِ قاصرَاتُ الطَّرْف كالدُّمَىٰ، وحَافِظَ ما ٱسْتُودِعَ من مَصُون، وٱسْتُجْمِع من حُصُون، وٱستجهرَ من مَوَارِد تَرِدُها من زَرَدِ الدروع عيون، ويُفَرِّق منها المجانيقَ سَحَائِبَ مُمْطِرَةً بالمَنُون؛ فصَمَّمَ رأيُنا الشريفُ على ٱختياره لِيُوَقِّلَ(١) صَهْوَةَ هــذا الجواد، ويُوَفِّيَ ما يجب لهــذه العقيلة من مرتمق لحظ ومرتمىٰ فؤاد، ويبحث من الشغف بها عن أمل آمل أو مراد مراد، ويُعجَب من عقيلتها المصونة أن أبراجها نَتَبرَّج وما لنُعْمَاهَا إنعامٌ ولا لسُعَادِهَا إسْعَاد .

فرسم بالأمر الشريف العالى المَوْلَوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكىّ، الفلانىّ ــ أعلاه الله وشرَّفه، وأدام فى الأرض ومَنْ عَلَيها تَصَرُّفَه ــ أن تفوّض إليــه النيابة بقَلْعة دِمَشْقَ المحروسة : علىٰ عادة من تقدّمه وقَاعِدَتِه، ومُقَارَبته ومُبَاعَدَتِه، وتَخَايُلِه ومساعدته؛ وكل ما جرت به العوائدُ فى رجائها ورجالها، ومالها ومآلها؛ وهــذه نِيَابَةٌ شريفه، وسَحَابَة مُطِيفَه؛ ونعمةٌ تُقَابَلُ برعايتها، وتُكْتَمَ نوافِحُها بإذاعَتِها؛ وتَقوىٰ الله حلْيَــة عنقها، وحُلَّة أُفقها، ومَجْرَى المَجَرَّة إجلالا فى طُرُقها .

فعليك بحفظها لَيْلا ونهارا، وتَفَقُّدِ أحوال مَن فيها سِرًّا وجِهَارا؛ وفَتْح بابها وغلقها مع الشمس، وتَصَفُّحِ ما بها من لِبْس، وتَتَبُّعِ أسبابها كما فى النفس؛ والتَّصَدِّى لملازمة الخدمة الشريفة فى أبوابنا العالية ببابهــا، والأخْذِ فى أدَوات حِفْظها بمجامع أطرافها دون التمسك بأهدابها؛ والتَّجَسُّسِ علىٰ مَن يُلِمُّ فيها جَفْنُه بكَرًى وما أثقله مناما،

(١) ليوقل ليصعد .

وإلْزَامِ كُلِّ واحدٍ بما يلزمه من الوظائف فى ليله ونَهارِه، وإدْلَاجه وابتكاره، ومن عليه فى هـذا المعقِل إشراف من شُرُفَاتِه أو تَسَوُّر علىٰ أسواره؛ وإظهار الرَّهَج والصِّيتِ والسُّمْعة بالاهتمام فى كُلِّ ليلة بِزِفَافِ عَرُوسِها، وضَرْب الحَرَس لنواقيسها، والإعلانِ لصَبَاحِ الخَيْر لنا فى صُبُحَاتِها والدعاءِ الصَّالحِ فى تَغْليسِها؛ وصيانةِ ما فيها من حَوَاصِل، أو يصلُ إليها من وَاصِل؛ وما فيها من ذخائر، وما فى خَزَائِنِها العالية من مَدَدِ البَحْرِ الزَّاخِر؛ وما تشتملُ عليه دَارُ الضَّربِ من أموالٍ تُضْرَبُ للهِبَات بِرَسْمِنا، وأموالِ الناس [التى] حُمِلتْ إليها لتُشَرَّفَ تقودُها باسمنا؛ وخزائن السلاح المنصورة وما يُسْتَكْثَر فيها من عَدد، وما يُسْتَغْزَر من مَدَد، والمَجَانيقُ التى تخْطِرُ منها كُلُّ خَطَّارَة كالفَنِيق، وتصْعَد ومرماها إلى السماء كأنَّما تخْطَفُه الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فى مكان سَحِيق؛ شَائِلَةَ عقَارِبِها، آفلة بالأعمَار كَوَاكِبُها؛ والحدُوج والقِسىّ والرايات وغير ذٰلك من سِلَاح، أو دُرُوع تَرُدُّ السِّهامَ علىٰ أعقابها وتَحْنِى قَامَاتِ العَوَالِى وتُضَيِّقُ صُدُورَ الصِّفَاح. والبحريَّةُ وغيرهم من رجال هذه القلعة المحروسة من نجوم آفاقِها، وغُيُومِ إرْعَادِها وإبْرَاقِها، ودِيَمِها إذا أسبلت المسالمةُ ذيولَها وأعوانها إذا شَمَّرَتِ الحَرْبُ عن سَاقِها. وبقيَّةُ المستخْدَمين وأرباب الصنائع الذين هم عمارة أوطانها، وأمارةُ العنايةِ بها من سلطانها؛ فكل ذلك مذخورٌ لمنافع الإسلام، وما رِيشَ السَّهْمُ لأنَّه فى كل ساعة يُرْمَىٰ ولا طُبِعَ السَّيْفُ لأنه فى كل بَارِقَة يُشَام؛ فاحفظْ لأوقاتها تلك المَوَادَّ المذخوره، والْحَظْ هؤلاء الرجالَ فإنهم ظَهْرُ العساكر المنصوره؛ وخُذْ بقلوبهم وأَوْصِلْ إليهم حُقُوقَهم، واَجْمَعْ علىٰ طاعتِنا الشريفةِ مُتفرِّقَهم وأَكْرِمْ فَرِيقَهم؛ ومنهم المماليكُ السلطانيةُ وهم إخْوَانُك فى ولائنا، والذين تَشْرَكُهم فى آلائنا؛ وبَالِغْ فى حفْظ المعتَقَلين فى سُجُونها، ولفظِ المعتقدين خلافا فى مكنونها؛ ونَحْنُ نُعيذُها بالله ان تقول: تَفَقَّدْها بالترميم والإصلاح، ولٰكِنَّا نأمُرُك

أن نتعهّدها بمـا نتعهده من الزّيَنِ المِلَاح ؛ ولك مِنْ معاضدة مَنْ فى ذلك الإقليم ، مَنْ لَكَ برأيهِ طريقٌ مستقيم ؛ ومَنْ تُرَاجِعُه فيما أشكل عليك من الأمور ، وتَجِدُ به فى طاعتِنا الشريفةِ نورًا علىٰ نُور ، واتبعْ مَرَاسِمَنا المُطَاعةَ فهى شِفَاءٌ لِمَا فى الصُّدُور ؛ والوصايا كثيره ، والله تعالىٰ يجعلك علىٰ بَصِيره ، ويتولّاك بمـا فيه حُسْنُ السِّـيره ، وصَلَاحُ السريره ؛ والاعتماد ... ...

وهـذه نسخة مرسوم شريف بنيابة قلعة دِمَشْقَ المحروسة ، كُتِب بهـا لِحُسَام الدين «لاچين الإبراهيمىّ» من إنشاء الشريف شِهَابِ الدين ، رحمه الله ، وهى :

الحمد للهِ الذى صان الحُصُون بانْتِضَاء الحُسَام ، وزَانَ المُلْكَ بارتضاء ذَوِى اليَقَظَةِ من الأوليـاء والاهتمام ، وأبَانَ سـبيلَ السّعادة لمن أحْسَنَ بفروض الطاعة وأجْمَلَ القيام .

نحمده علىٰ أن جعل نِعَمَنا لأصفيائنا وَافِرةَ الأقسام ، ونَشكره علىٰ أن أقبـل عليهم بأوْجُه إقبالنـا الوِسَام ، ونشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له شهـادةً لعُقُود إخلاصها انتظام ، ولسعود اختصاصها التئام ، ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه الذى مَنَحَه الإجْلَالَ والإعظام ، ومَدَحَه بالإفضالِ والإكرام ، ورَجَّحه بمزايا الفضل علىٰ جميع الأنام ، صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه بُدُورِ التمـام ، ورَضِىَ عن أصحابه الذين لهم صِدْقُ الاعتزام ، صلاةً ورضْوانًا لها تجديدٌ ومزيدٌ وتأييدٌ ودوام ؛ وسـلم تسليما كثيرا .

وبعـد : فإن آلاءَنَا لا تزال تَخْتَـارُ الأكفاء ، وآرَاءَنا لا تَبْرَحُ تمنحُ ذَوِى المناصحة الإصفاء ، ونَعْاءَنا تُدِيمُ لملابِسِ إجلالها علىٰ أُولى الخِـدَم الإفاضةَ والإضْفَاء ، وتَفِى بوُعُود جودها لمن أدام لمناهج المُخَالصة الاقتفاء .

ولما كان فلانٌ هو الذى عُرِفَتْ له فى مُهِمَّاتنا خِدَمٌ سالفه، وأُلِفَتْ منه هِمَّــةٌ عَلِيَّــةٌ خَصَّتْه بكلِّ عَارِفَه، وخَوَّلْناه نِعَمَنا الوَاكِفه، وأهَّلْناه لٱســتحفاظ الحصون فساعده تَوَفُّرُ التوفيق وسَاعَفَه، ونقَّلْناه فى الممالك فسار سِيرةً حميدةً ٱقتضت لمَوَاهِبِنا لَدَيْه المضاعفه ـ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن نَرْفَعَ محلَّه بأعزِّ القِلَاع، ونُطْلِعه بأفُقِ سعدها أيْمَن إطلاع، ونندُبَه لضَبْطها فيَحْسُنُ له فيها الٱستقرارُ ويُحْمَدُ منها له الٱستيداع .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالت صدقاتُه تُحَقِّقُ الأطماع، وهِبَاتُه تُفِيضُ ملابِسَها التى ليس لها ٱنْتِزاع ـ أن يستقرَّ فى نيابة قلعة دمَشْق ... .

فليباشر النيابة بالقلعة المذكورة بَاذِلًا الٱجتهاد، مُوَاصِلًا للعَزْم والسَّــدَاد، عامِلًا بالحَزْم فى كلِّ إصْــدَارٍ وإيراد، كَافِلًا منهــا بحسن الٱعتماد، حافظًا حَوَاصِلَها من الضَّياع، مقرِّرا أحوالَها علىٰ أجمل الأوضاع، ولْيَأْخُذْ رجالَها بالٱئتلاف على الخدمة والٱجتماع، ولْيُحَرِّضْهم على المبادرة إلى المراســيم والإسراع، ولْيُطالِــعْ من أمورها بمــا يتعين عليه لأبوابنا العالية فيه المطالعة ويَجِبُ لعلومنا الشريفة عليه الٱطِّلاع، وليراجعْ كافل الممالك الشامية بمــا جعَلْنا لآرائه فيه الإرجاع، وليكنْ له إلىٰ إشارته إصْغاءٌ وٱستمــاع، وإلىٰ سبيل هَدْيه ٱقْتِفَاءٌ وٱتِّبَاع، ولْيَقِفْ عنــد ما يَتَقَدَّمُ به إليه فبذٰلك يحصل له الرُّشْد والٱنتفاع، والله تعالىٰ يجدّدُ عليه سَوَابِــغَ نِعَمِنا التى جادت بأجْناسٍ وأنواع، ويجرّدُ فى نُصْرَتِنا حُسَامَه الذى من بأسه الأعداءُ تَرْهَبُ وتَرْتَاع، ويديمُ له ولجميع الأولياء من صَــدَقَات دَوْلَتِنا الشريفَــة الإمتاع، والخط الشريف أعلاه، حجة بمقتضاه، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه وصية نائب قلعة أوردها فى "التعريف" :

وعليه بحفظ هذه القلعة التى زُفَّتْ إليه عقيلتها المُمنَّعه ، وجليَتْ عليه سافرة ودُونَها السماء بالسُّحُب مُقَنَّعه ، وسُلِّمت إليه مَفَاتيحُها ، وخواتيم الثُّريَّا أقفال ، وأُوقدَتْ له مَصَابِيحُها ، وفَتَائِل(١) البروق لا تُشَبُّ لقَفَّال . فليبدأ بعمارة ما دَعَتِ الحاجة إليه من تجـديدِ أبنيتها ، وتشييدِ أقْبِيَتِها ، وشدّ عقُودها ، وعدِّ مالا يحصىٰ [فى الذخائر](٢) من نُقُودها ، [وتنبيه أعينِ رجالها والكواكبُ قد هَمَّتْ بِرُقُودها](٢) ، والأخذ بقلوب من فيها ، وتَدَارُكِ بقية ذَمائهـم وتَلَافيها ، وجَمْعِهِم على الطاعه ، وبَذْرِ الإحسان فيهم إذا عَرَفَ أرضًا تزكو فيها الزراعه ، والتَّمادِى لهم : فَرُبَّ رجال تجزىٰ عن عِدّةِ سنين فى سَاعَه ، وتَحْصِينِ هذا الحِصْن المنيع بمـا يُدَّخَر فى حواصله ، ويُسْتَمَدُّ بعمارة البلاد المختصـة به من وَاصِلِه ، وما يكون به من المجانيق التى لا تُرْقَىٰ عقَارِبُها ، ولا تُوقىٰ منها أقاربها ، ولا تُرَدُّ لهـا مَضَارِب ، ولا يُكَفُّ من زُبَانَى زَبَانِيَتِها كلُّ ضَارب ، ولايُخْطِئُ سَهْمُها ، ولا يَخْفىٰ بين النجوم نَجْمُها ، ولا يُعْرَفُ مافى صُنْدوقها [المقفل] ، من البلاء المُرْسَل ، ولا ما فى نِفَذِها المُشَمِّرِ السَّاقِ من النشاط الذى لا يكْسَـل ، وغيرها من الرايات التى فى غيرها لا تُشَـدّ ، ولسوَى خَيْرِها لا تُعْقَد ، وما يُرْمىٰ فيها من السهام التى تَشُقُّ قلبَ الصَّخْر ، وتُبْكِى خَنْسَاءَ كلِّ فاقدة علىٰ صخر ، وكذلك قِسىُّ اليد التى لا يَدَ بها ولا قِبَل ، وكَنَائِـنُ السِّهام التى كم أصـبح رَجُلٌ وبه منها مِثْلُ الجبل ، وما يُصَان من اللَّبوس(٣) ، ويعـدّ للنعيم والبُوسِ ، وما يمـدّ من الستائر التى

(١) الذى فى "التعريف" «وقناديل» .

(٢) الزيادة من "التعريف" (ص ٩٥) .

(٣) فى "التعريف" «من العدد والعدد واللبوس» .

هى أَسوارُ الأسوار ، ولمعَاصِم عقائِل المَعاقِل منها حِلىً سِوى كلِّ سِوار ؛ وهى التى تُلَاثُ لُثُمها علىٰ مَبَاسِم الشُّرُفَات ، وتُضْرَبُ حُجُبُها علىٰ أعالى الغُرُفات ؛ وسوىٰ هـذا مما تعتصِم به شوامخُ القِلال ، ويُتَبوّأ به مَقَاعِد للقتال ؛ فكُلَّ هذا حَصِّلْه وحَصِّنْه ، وٱحْسبه وحَسِّنْه ؛ وأَعِدَّ منه فى الأمْنِ لأوقات الشدائد ، وٱجْرِ فيه علىٰ شَأْوِ مَنْ تقدّم وزِدْ فى العَوَائِد ؛ وهكذا مايُدَّخَرُ من عُدَد أرباب الصنائع ، ومَدَد التحصين المعروف بكثرة التَّجَارِبِ فى الوقائع ، والأزواد والأقوات ، وما لا يُزال يُفَكَّرُ فى تحصيله لأجل بعض الأوقات ؛ وكُنْ من هـذا مُسْتَكْثِرا ، وله علىٰ ما سواه مُؤْثِرًا ؛ حتَّى لا تزالَ رِجَالُك مُطْمَئِنَّةَ الخَوَاطِر ، طيِّبة القلوب ماعليها إلا السُّحُب المَوَاطِر ؛ وٱعمل بعادة القِلَاع فى غَلْق أبْوَابِ هذه القلعة وفَتْحِها ، وتَفَقُّد متجدّدات أحوالهـا فى مَسَاءِ كُلِّ ليلة وصُبْحِها ؛ وإقامة الحَرَس ، وإدامة العَسَس ، والحِذَارَ ممَّن لعلَّه يكونُ قد تَسَوَّر أو ٱخْتَلَس ؛ وتَعَرَّفْ أخبارَ مَن جاورك من الأعداء حتى لاتزال علىٰ بصـيره ، ولا تبرح تُعِدُّ لكلِّ أمرٍ مَصيرَه ؛ وأَقِم نُوَبَ الحَمَام التى قد لاتَجِد فى بَعْض الأوقات سواه رَسُولا ، ولاتَجِدُ غيرَه مخبرًا ولاسِواه مسْئُولا ؛ وطالِـعْ أبوابنا العالية بالأخبار ، وسَارِعْ إلىٰ ما يَرِدُ عليك منها من ٱبْتِدَاءٍ وجَوَاب ؛ وصُبَّ فِكْرَك كُلَّه إليها وإلىٰ ماتَتَضَـمَّنُه من الصواب .

المرتبة الثـانيـــة

(من المراسيم التى تكتب بحاضرة دمشق لأرباب السيوف ـ ما يكتب فى قطع الثلث ، وفيها وظيفتان)

الأولىٰ — شَـدُّ الدواوين بِدِمَشْق . وصاحبُـها يتحدّث فيما يتحدّث فيه شادّ الدواوين بالديار المصرية ، وقد تقدّم .

وهذه نسخة مرسوم شريف بشدّ الدّواوين بدِمَشْق :

الحمـد لله الذى أرْهَفَ لمصالح دولتنا القاهرةِ من الأولياء ، سَيْفًا مَاضيا ، وجَرَّد لمهمّات خِدْمَتِنا الشريفة من الأصفياء ، عَضْبًا يَغْدُو المُلْكُ عن تَصَرُّفه الجميل رَاضيا ، وجدّد السُّعود فى أيامنا الزاهرة لمن لا تحتاج هِمَمُه فى عمارة البلاد المحروسـة مُتَقَاضِيا .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى تستغرقُ المحامد ، وتستوجبُ الشُّكْرَ المستأنَفَ علىٰ الحامد ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ لَه شهادةَ مُجاهِدٍ لأعدائها ، مُجَاهِرٍ لإعلائها ؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ الأنبياء قَدْرا ، وأوّلُهم فى الرتبة مكانةً وإن كان آخرَهُم عَصْرا ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين نَهَضُوا بما أُمِرُوا ، وعَمَرُوا الدِّينَ قبل الدنيا فلم تمكن الأيَّامُ من [نقض] ما عَمَرُوا ؛ صَـلَاةً يتأرّج نَشْرُها ، ويتبلَّج بِشْرُها ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فإن أولىٰ من عُدِقَ به من مهماتنا الشريفة أعَمُّهَا نَفْعا ، وأحْسَنُها فى عِمارة البلاد وَقْعا ، وأكْثَرُها لخزائن الأموال تَحْصيلًا وجَمْعا ؛ وأجمعُها لمصالح الأعمـال ، وأضـبطُها لحواصل الممـالك التى إذا أعدّ منها جِبَالًا تَلَا عليها لِسَانُ الإنفاق : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَـالِ ﴾ مَنْ زانت عَزْمَه نَزَاهَتُه ، وكَمَّلَتْ قُوَّتَه فى الحَقِّ خِبْرَتُه ونباهته ؛ وكان من أولياء دولتنا المُعَدِّين لشدّ أركانهـا ، وإشادةِ بُنْيانها ؛ والنُّهُوض بمصالحها المتنوعه ، ونَشْرِ كلمةِ عدلها التى تَغْدُو بالأدعية الصالحة مبسوطةً وبالأثْنِيَةِ العاطرة مُتَضَوِّعَه .

ولمـا كان فلان هو الذى أُشِيرَ إلىٰ مَحَاسِـنه ، ونُبِّهَ عَلَىٰ إبريزِ فَضْـله المُظْهَرِ من معادنه ؛ مع صَرَامَةٍ تُخِيفُ اللُّيُوث ، ونَزَاهَةٍ تُعِين علىٰ عمَارَةِ البلاد الغُيُوث ؛ وخِبْرَةٍ بإظهار المصالح الخفية وَفِيَّـه ، وبإبراز معادن الأموال من وجوهها الجليَّة مَلِيَّـه ؛

ومَعْرِفَةٍ تَعُمُّ البلادَ بين الرغبة والرهبه، وتجعل مَثَل ما يُودَعُ فيها بالبركة والنماء مَثَل حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّة ـ آقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نُنَبِّه علىٰ حسن آعتنائنا بأمره، وآعتمادنا بما قدّمه من أسباب إسناء رُتبته ورفعة قَدْره؛ فلذلك رسم ـ زاد الله فى علائه ـ أن يفوّض إليه ... ...

فليباشِرْ ذلك مُظْهِرًا من مصالح الدولة القاهرة ما كان فى ضَمير كفَايَته مَكْنُونا، مُبْرِزًا من تثمير الأموال وتَعْمير الأعمال مايُحَقِّقُ به : من خِصْبِ البلاد بمشيئة الله تعالىٰ ما كان مظنونا؛ مُوَالِيًا إلى الخزائن المعمورة من حُمُول تدبيره مايُمْسِي به طَائِرُ تَصَرُّفه ميمونا، وسبَبُ توقفه مأمونا . ولْيَكُنِ النَّظَرُ فى عِمَارَةِ البلاد هو المهمَّ المقدّمَ لَدَيْه، والأمْرَ الذى يتعيَّنُ تَوَفُّرُ آهتمامه عَلَيْه، فَلْيَجْتَهِدْ فى ذلك آجتهادًا يَظْهَرُ أَثَرُه، ويُجْتَنىٰ ثَمَرُه، ويُحْمَدُ وِرْدُه وصَدَرُه؛ وتتفرّعُ عنه أنواعُ المصالح، وتَتَرَتَّبُ عليه أسبابُ المَنَاجِح؛ ومِلَاكُ ذٰلك بَسْطُ المَعْدَلَة التى هى خيرٌ للبلاد من أن تُمْطَرَ أربعينَ يوما، وآعتمادُ الرِّفْقِ الذى لايَضُرُّ معه البأسُ قوما، ولا يجلُبُ علىٰ فاعله مع الحزم لَوْما، ولا يَطْرُد عمنْ أَنَامَه العَدْلُ فى مِهَادِ الدَّعَة نَوْما؛ ولْيَصْرِفْ إلى آسْتِجْلَابِ الأموال ومُوَالَاة حَمْلها هِمَّةً ناهِضَه، وعَزْمَةً إلىٰ ماقرُب ونَأَىٰ من المصالح رَاكِضَه، وقُوَّةً بأسباب الحَزْم آخِذَةً وعلىٰ أَعِنَّةِ التدبير قَابِضَه؛ وفيما خَبَرْنَاهُ من عزائمه المشكوره، وسيرتِه التى ما بَرِحَتْ بين أولياء دولتنا القاهرة مَشْهُوره؛ ما يُكْتَفَىٰ به عن الوصايا المُؤَكَّدَه، ويُوثَقُ به فيما عُدِقَ به من الأمور المسدّده؛ لَكِنْ تقوى الله تعالىٰ أَوْلَى الوَصايا وأوّلُها، وأحقُّ ما تُلِيَتْ عليه تَفَاصيلُها وجُمَلُها؛ فَلْيقدِّمْ تقوى الله بين يديه، ويجعلْها العُمْدَةَ فيما آعتُمِد فيه عليه؛ بعد الخط الشريف أَعلاه الله تعالىٰ أَعلاه .

الوظيفة الثانية — شدّ المهمّات . وصاحبها يتحدّث فيما يُطْلَبُ للأبواب السلطانية من المستعملات وغيرها . وقد ذكر فى "التثقيف" أنّ عادته أن يكون مقدّم ألْفٍ .

وهذه نسخة توقيع بشدّ المهمات بدمشق ، وهى :

الحمد لله الذى شَدّ عُرَا المَصَالِح من الأولياء بكل ذى أَيْد ، وكُلِّ مَنْ هو فى المهمات أبطَشُ بعَمْرٍو من زَيْد ، ومن له تدبيرٌ كَمْ أغنىٰ باقتناصه لشَوارد الأمور عن حِبالَةِ صَيْد .

[وبعد][1] فإن أحق من ٱسْتُخْلِص لٱستخلاص الأموال ، وٱخْتِيرَ لصَوْنها من الٱختزال وحِفْظِها من الٱختلال ، وأُهِّلَ قَلَمُه وكَلِمُه : هذا للتمثيل وهذا للامتثال ؛ وفُوِّضَ إليه التَّصَرّف فى الترغيب والترهيب ، والٱجتهادُ فى التَّمييز والتَّحرير والتَّوْفير إذ كُلُّ مجتهدٍ مُصِيب ــ من ٱشتهر بأنه ذُو حَزْم لا يَنِى ، وعَزْمٍ عن المصالح لا يَنْثَنِى ، وٱحتفالٍ بالأحوال التى منها نُكْرٌ لمن يَجْنِى وشُكْرٌ لمن يَجْتَنِى ؛ وله نَبَاهَةٌ يدرِكُ بها كُلَّ إيهامٍ وكلَّ إبهام ، ويطَّلِع [بها] علىٰ فَلَتَاتِ ألْسِنَةِ الأقلام ، ويفهمُ بها مقاصدَ كُلِّ من هو من الجِنَّة فى كل وَادٍ يَهِيم ، ولايخفىٰ عليه جَرَائِرُ الجَرَائد ولامَخَازِى المَخَازِيم ؛ وفيه رحْمةٌ كم أصْبَح بها وهو الأتقىٰ ، ولم يأْتِ قَسَاوةً يكون بها هو المُنْبَتَّ الذى لا أَرْضًا قَطَعَ ولا ظَهْرًا أبقىٰ ؛ وكم ساسَ الأمورَ ودَبَّرها فأحسنَ فيها السياسةَ وأجْمَلَ التدبير ، وٱستخرج [الشَّىْءَ الكثير] بالتخويف اليسير ؛ حتَّى جمع حُسْنَ تَدْبيرٍ وٱسْتِرْعا ، وصنع حَسَنًا وأحْسَنَ صُنْعا .

---

(١) زدنا هذه اللفظة للزومها واستقامة الكلام بها . فتنبه .

ولما كان فلان هو لهذا الأمرِ الجَليلِ الْمُسْتَرْعَىٰ، وٱسْمُه فى أوّل مَدَارِج التَّنْوِيهِ والتَّنْوِيل خَيْرُ مُسْتَدْعَىٰ؛ وفيه من جميل الأوصاف ما يُرْضِى حسن الاقتراح وقد خَبَرَ أمور الكَتَبَه، وقد عَلِمَ من أحوالهم ما هو أحْرَىٰ لهم بالتَّجْرِبه؛ وعَرَفَ خَفَايا المعاملات معرفةً تامَّه، وأحاط بجزئيات الجهات وكُلِّيَّاتها إحَاطَةً خاصَّة وعامَّه ـ ٱقتضىٰ حُسْنُ الرَّأْيِ المُنِيف، أن رسم بالأمر الشريف ـ لا بَرِحَ يَشُدُّ عَضُدَ كلِّ مُهِتَمٍّ من الأولياء بِأَخِى كل عَزْم، ويجعلُ له سلطاناً لا يَكِلُ مصلحةً إلىٰ حزمِ ذى حزم ـ أن يفوّض إليه شدّ المهمات بالشامِ المحروس .

فلْيَضْبِطِ الأمورَ ضَبْطًا مُسْتَوْعِبا، ولْيَنْتَصِبْ لذلك ٱنْتِصَاباً مُتَرَتِّبا؛ ولْيَحْتَرِزْ مُنَفِّذًا ومُصَرِّفا، ومُسْرِعا ومُسْتَوْقِفا؛ ومتىٰ ظهر حَقٌّ يتمسكُ به تَمَسُّكَ الغَرِيم، ولا يُحَابِ فيه ذَا بَأْسٍ قَوِيٍّ ولا ذَا مَنْهَجٍ إلى المَنْع والدَّفْعِ غيرِ قَوِيم؛ وما مِنْ جِهَة إلا ولها شروطُ صَوْبَ الصَّوَاب، ولا يعتمدْ علىٰ غَيْرِ الحقِّ منكّبًا عن تَرْوِيج الكُتَّاب؛ ولْتَكُنِ الحمولُ مُسَيَّره، والمتخرّجات مُتَوَفِّره؛ وجهات الخاصّ مقرّره، إذ الضُّمَّانُ لا يُنْتَظَرُ لهم نَظِرَةٌ إلىٰ مَيْسَرَه؛ فإنهم سُوسُ المعاملات، وكَوَاسِرُ الجهات؛ ومنهم يُحْفظ أو يُضَاع، وبهم يَتَرَقّى أو يَنْحَطُّ الاْرتفاع؛ وجِهَاتُ المُقْطَعِينَ الواجبُ له أن يجعل عليها وَاقِيَةً بَاقِيَه، ولْتُحْمَ لهم حَتَّى لا يتطاول إلىٰ ذِرْوَتِها ٱمتدادُ الأيدى المُخْتَزِلَة ولا خُطَا العُدْوان الرَّاقِيَه؛ ولْيَصْرِفْ وجْهَهُ بحفظه إلىٰ مراقبة من فى باب الشَّدِّ من مُقَدَّمين ومن رُسُلٍ يأكلون أموال الناس بالبَاطِل، ويبيعُون الآجِلَ بالعَاجِل؛ ويُخِيفُونَ العامَّ والخاص، وكل منهم يروم الغِنَاءَ وهو رَقَّاص .

هذه زُبْدَةٌ من الوصايا مُقْنِعَه، وعَزَمَاتٌ غَنِيَّة عن تكثيرٍ فى القَوْل أو تَوْسعَه؛ والله تعالىٰ يكونُ له ويُعينُه، بمنه وكرمه، إن شاء الله تعالىٰ .

الصـــــنف الثـانى

(من الوظائف بدمشق الوظائف الدينيـة ، وجميع ما يكتب فيهـا تواقيـعُ ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبـــــــة الأولىٰ

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«المجلِس العَالِيّ باليَاء» مفتتحا بـ«الحمد لله»)

وبذٰلك يُكتَب للقضاة الأربعة بحاضرة دِمَشْق .

وهـذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الشافعيـة بدمَشْقَ المحروسة، كُتِبَ به لقاضى القضاة «بهاء الدين أبى البقاء السُّبكى» وهى :

الحمد لله الذى أَقَرَّ أحكام الشَّرع الشريف، فى أيامنا الزاهرة علىٰ أكمل القَوَاعِد ، وأَمَرَّ مَدَارَ الحُكم المنيف، فى دولتنا القاهرة علىٰ أجمـل العوائد؛ وأمضىٰ فَصْـلَ القَضَاءِ فى مَمَـالِكنا الشامية بيَـد إمَامٍ غَنِيَتْ فَضَائلُه عن الشواهد ، وَأَمَّتْه الأَئِمَّـةُ لاْقتباس الفوائد؛ وعُدِقَتْ أحكامُ المِلَّة منه بمُجَاهِرٍ فى الحق مجاهد، مُسَدَّدٍ فى الدِّين سَهْمَ ٱجْتِهَادٍ رَمىٰ به شَاكِلَةَ الصَّواب عن أثبت يَدٍ وأشدّ سَاعِد .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى حَلَّتْ مَنَاصِبَ الدين فى ممـالكنا الشريفة بأَكْفَائِها، وعَلَّتْ رُتَبَ العـلْم فى دَولتنا القاهرة باسـتقرار من جَعَاتَه فَضَـائِلُه غَايَةَ ٱختيارها ونِهَايَةَ ٱصْـطِفَائِها ، ودَلَّتْ على ٱعتنائنا بتنفيذ أحكام مَنْ أَتْعَبَتْ سِيرَتُه الجَمِيلَةُ مَن سَهِد فى ٱتباعها وجَهَد فى ٱقتفائهـا ؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شَريكَ له شهادةً لا تزال أعلامُنا بهـا تَنْتَصِر ، وأيَّامُنا على الجهـاد لتكُونَ كَلِمَتُها هِىَ العُلْيا تقتصر ، وأقلامُنَا لنَشْرِ دَعْوَتِها فى الآفاق تُسْهِبُ ولا تُوجِزُ وتُطْنِبُ ولا تَخْتَصِر؛ ونشهد أن محمدا عبدُه ورسولُه أشرفُ من قَضَتْ أُمَّتُه بالحقِّ فعَدَلَت، وتَلَقَّتْ عنه أحْكَامَ مِلَّتِه

فَفَاقَتْ بذلك الأُمَمَ وفَضَلَتْ ، وحَكَمَتْ بمـا أَرَاهَا اللهُ من شِرْعَتِـه فمـا مَالَتْ عن سَنَنِه القويم ولا عَدَلَتْ ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين أَسْلَمُوا لله فَسَلِمُوا ، وعَمِلُوا فى دينِ اللهِ بمـا عَلِمُوا ، وبَذَلُوا النفوس فى طاعته فمـا ٱستكانُوا لمـا أَصَابَهُم فى سَبِيلِ اللهِ ولا أَلِمُوا ؛ صلاةً نؤدّى بها من أمرِ الله المُفْتَرَض ، ونُرْغِمُ بإقامتها الذين فى قلوبهم مَرَض ؛ وسَلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإن أَوْلىٰ من تَنَقَّل فى رُتَبِـهِ السَّنِيَّه ، ووُطِّدَتْ له بمِصْرِ والشَّامِ قواعدُ سيرته السَّرِيَّه ؛ وأَطْلَقَتْ جِيَادُ البَرَاعَةِ فى إمضاء حكمه فى المملكتين مَثَـانِىَ أَعِنَّتِها ، وأنطقتْ صِعَادُ البَرَاعَةِ فى إعلاء بهائه فيهما [ألسنةَ] أَسِنَّتِها ؛ وأَرَدْنَا أن نَرُدَّه إلىٰ أعزِّ الممالك علينا لِنُقِرَّ عَيْنَها ، وقصدْنَا أن نُعيدَه إلىٰ رُتْبَتِه بها لِنُوَفِّى باستعادته دَيْنَها ؛ وٱخترنا أن نجدّد لهذه الوظيفة سَالِفَ عَهْده ، وأن نُرِيَه ٱعتناءنا بأمرِ مَنْصِـبِه الذى لم يَلِهِ مثلُه من الأئمّـةِ من بعده ؛ وعلمنا أنَّ الديارَ المِصْرِيةَ قد ٱختصت بفضائله زمنـًا طويلا ، وأَنّ البلادَ الشَّامِيَّةَ قد أَلِفت من أحكامه ما لم تُرِدْ به بَدِيلا ــ من ظَهَرَتْ فضـائلُه ظُهُورَ نَعْتِه ، وتَهَـادَتْ فَوَائِدَه رِفَاقُ الآفَاقِ : من علماء زمانه وأَئمة وقته ، وعُلِمَتْ أوصافُ الصُّدُورِ الأُوَلِ من علْمه ووَرَعه وسَمْته ؛ ونَشَرَت الأيامُ من عُلُومه ما لم يُطْوَ بل تُطْوَى إليـه المراحل ، ونَقَلَت الأقلامُ من فُنُونِه ما يُرْوَى نَيْرُوَى به السَّمْعُ الظَّامى ويَخْصَبُ به الفِكْرُ المَاحِل ؛ وأَلِفَتِ الأقاليمُ من حُكْمِه ما غَدَتْ به بين مسرورٍ بإشْرَاقِه ، ومُرَوَّعٍ بفِرَاقِه ، فمِنْ أَقْضِيَةٍ مُسَدَّدَه ، وأحكامٍ مُؤَيَّدَه ؛ وأقوالٍ مُنَزَّهَةٍ عن الهَوَىٰ ، وأحوالٍ صادرةٍ عنْ زَهَادَةٍ مُحْكَمَةِ القواعدِ ونزاهةٍ مُجْتَمِعَةِ القُوَىٰ ؛ وإصَابَةٍ دالَّةٍ علىٰ ما وراءها من عِلْمٍ ووَرَع ، وإجابةٍ فى الحقِّ تَحْيَا بها السُّنَنُ وتموتُ البِدَع ، وشِدَّةٍ فى الدِّينِ تَصْدَعُ فى كل حُكْمٍ بالحقِّ وإن صَدَع ؛ وعَدْلٍ لا يُستَـلاَنُ

جَانبُه، وحَزمٍ لايُستَزَلُّ صاحبُه، ولايُستَنزَلُ راكِبُه؛ وقُوّةٍ فى الحقّ تمنع المُبْطلَ من الإقدام عليه، ولِينٍ فى الله يُفْسِحُ للحقِّ مَجَالَ القَوْلِ بين يديه؛ ومَجالسَ غَدَتْ بالعِلْمِ طَيِّبَةَ الأَرَج، وفَضَائِلَ يُحَدَّثُ فيها عن موادّ فكره عَن البَحْرِ ولَا حَرَج؛ وبَدائِع تُضْرَبُ إلىٰ ٱستماعها أَكْبَادُ الإِبِل، وبَدَائِه تَهْرَمُ الأيامُ وعُمْر شَبَابِها مُقْتَبِل .

ولما كان المجلس العالىُّ ــ أدام الله نِعْمَتَه ــ هو الذى وَرَدَ علىٰ أبوابِنَا العالية ونُورُ وَلَائِهِ يسعىٰ بين يَدَيْه، وصَدَرَ الآنَ عَنْها وحُلَلُ آلَائِنَا تَضْفُو عَلَيْه؛ وأقام فى خِدْمتنا الشريفةِ مَعْدُودًا فى أكرمِ مَنْ بها قَطَن، وعَادَ إلىٰ الشَّامِ مجموعًا له بين مُضَاعَفَةِ النِّعَم والعَوْدِ إلىٰ الوَطَن . وهو الذى تختال به المَنَاقِب، وتَخْتَار فَضْلَه العواقب؛ ويُشْرِقُ قلمُه بالفَتَاوىٰ إشراق النَّهار، وتُغْدِقُ مَنَافعُه إِغْدَاقَ السُّحُب بالأَمْطَار، وتُحْدِقُ الطَّلَبَةُ به إحداق الكِمَامَة بالثَّمَرِ والهَالَات بالأَقْمَار؛ وهو شَافِى عِىِّ كُلِّ شَافِعِىّ، ودوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِىّ؛ طَالَمَا جَانَبَ جَنْبُه المَضَاجعَ سُهادا، وقَطَعَ اللَّيلَ ثم ٱستمدّه لمَدَدِ فتَاوِيهِ مِدَادا؛ وجمع بين المَذْهَبَيْنِ نظرا وتقليدا، والمُذْهَبَيْن من القَوْلَيْن قديما وجديدا؛ وسَلكَ جميعَ الطُّرُقِ إلىٰ مَذْهَبِ إمَامِه، ومَلَكَ حِسانَها فأَسْفَر له كُلُّ وَجْهٍ تَغَطَّى منْ أوراق الكُتُب بِلِثَامِه؛ وٱنْفَتَحت بفَهْمه للتصانيف أبوابٌ شَغَلَت «القَفَّالَ» أقْفَالُها، ونَفَحَتْ [له] نَفَحَاتٌ ما «للمَاوَرْدِىّ» مِثَالُها، ومَنَحَت حُلَلا يَفْخَرُ «الغَزَالِىّ» إذا نُسِجَ علىٰ مِنْوَالِهِ سِرْبَالُها؛ فلو أدركه «الرَّافِعِىُّ» لشَرَح "الوَجيز" من لفظه، وأَمْلىٰ أحكامَ المَذَاهب من حِفْظه؛ وصَدَّرَ المسائل بأقواله، وأَعَدَّ لكُلِّ سُؤَالٍ وَارِدٍ حُجَّةً من بَحْثِه وبُرْهانًا من جِدَاله؛ فلَه فى العِلْمِ المُرْتَقَى الَّذى لايُدْرَك، والمنتَهىٰ الذى لايُنَازَعُ فى تَفَرُّدِه ولا يُشْرَك، والغايَةُ التى أحرزها دون غيره فلولا المشقةُ لم تُتْرَك؛ وهو الذى ما زال بهذه الرُّتبة مَلِيًّا، وبما عُدِقَ بذِمَّتِه من أحكامها

وَفِيّا، وبكلّ ما يُرْضِي الخَلِيقَةَ عنه من أحوالها قائما وكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا، وبأعْبَائِها مُسْتَقِلًّا من حينَ منحه الله العلم نَاشِئًا وآتَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا . وما بَرِحَ تدعوه التَّقْوَىٰ فَيُجِيبُهَا، ويترك ما لا يُرِيبُ نفسه تنزيها عمّا يُرِيبُها، فكَمْ تَجَرَّ بالبِلَادِ الشَّامية من عِلْمه عُيُونا ، وغَرَسَ بها من أفْنَانِ فَضْله فُنُونا ؛ وكان لها خَيْرَ جَارٍ ترك لها ما سواها ، وأكْرَمَ نَزِيل نَوَىٰ بالوصول إليها مَصْلَحَةَ دينه فلم يُضَيِّعِ اللهُ له نِيَّتَه التى نَوَاهَا ؛ وأَلِفَ قَوَاعِدَ أهلِهَا وعَوَائِدَهم ، وعَرَفَ بحُسْنِ آطلاعه ما جبل الله عليه غَائِبَهم وشَاهِدَهُم ؛ وعَدُّوهُ من النِّعَمِ المقبلة عليهم ، وآقْتَدَوْا فى مَحَبَّتِهِ بالذين تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ؛ ثم قَدِمَ إلى الدِّيار المصرية وما كان قُدُومُه إلا علينا ، ووَفَدَ إليها بحُسْنِ مَوَدَّته ومحبته اللَّتَيْن ما وفد بهما إلا إلينا ؛ فرأينا منه إمَامًا لا يُحَكِّمُ فى توليته الحكمَ بالهوىٰ ، ولا يُنْوَى فى تقليده القضاءَ غيرُ مصلحةِ المسلمينَ « ولِكُلِّ آمْرِئٍ مَا نَوَى » ؛ وهو ـ بحمد الله ـ لم يَزَلْ بقواعد هذا المَنْصِبِ خَبِيرا ، وبعوائد هذه الرتبة بَصِيرًا ، وبإجرائها عَلَىٰ أكمل السُّنَنِ وأوضح السَّنَنِ جَدِيرا ، وبإمضاء حُكْمِ الله الذى يُحَقِّقُ إيجادُ الحَقِّ فيه للأمة أَنَّه من عند الله ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ آخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ ؛ مع ما تكملت به فضائلُه من الوقوف مع الحَقِّ المُبِين ، والتَّحَلِّي بالوَرَعِ المَتِين ، والتَّخَلِّي للعبادة التى أصبح مَنِ آتصف بها مع النَّبِيِّين والصِّدِّيقِينَ والشُّهَداء والصَّالِحِين .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف الأشْرَفِيّ النَّاصِرِيّ ـ لا زال عَلَمُ العِلْمِ فى أيامه مرفوعا ، وألَمُ الجَهْلِ بما خص الله به دولته من الأئمة الأعلام مدفوعا ـ أَنْ يفوّض إلىٰ المشار إليه قَضَاءُ القضاة الشافعيَّة ، ونظرُ الأوقاف بدمشق المحروسة وأعمالها بالبلاد الشامية ، وما هو مضاف إلىٰ ذلك من الصدقات والتَّدَارِيس والتصدير وغير ذلك ، علىٰ عادة مَنْ تقدّمه فى ذلك وقَاعِدَتِه ومعلومه .

فليُقَابِلْ هذاالتقليدَ السعيدَ بيَدٍ زِيدَ فىالحَقِّ تمكّنُها، وعلَى الخير تَمرّنُها، وفى العَدْل انْبِسَاطُها، وفى احكام الله تعالىٰ بحسن المعاضدة على الحَقِّ قُوَّتُها واحتياطُها، وليَمْض علىٰ ما أُلِفَ من سِيرَتِه التى زان العِلْمُ أوصافَها، وزان الورَعُ اتِّصافَهَا، وحَلَّى العَدْلُ مَفَاخِرَها، وأحْيَا التُّقَىٰ مآثرَها، وتناقلت رِفَاقُ الآفاق أحْكَامَها، واستَصْحَبتْ من هدايا هُدَاهَا ماتُتْحِفُ به حُكَّامها، وفيما نُعِتَ من مَحَاسِنِه مايُغْنِى عن الوصايا المجدّده، والإشارات المردَّده؛ لكن الذكرىٰ بتقوى الله تنفع المؤمنين، وتَرْفَعُ المُتَّقين، وتجمع مصالح الدنيا والدين، فَلْيَجْعَلْها خُلُقَه ما استطاع، ولْيَرَ حُكْمَها هو الحُكْمَ المتبعَ وأمْرَها هو الأمْرَ المُطَاع؛ والاعتماد ... ... رابع عشر المحرم سنة خمس وسبعين وسبعمائة .

قلتُ : ولم أقف علىٰ تفويض لقَاضٍ من كتابة من تقدّم سوىٰ تفويض واحد، من إنشاء المقر الشِّهابىّ بن فضل الله، كتبه لقاضى القضاة «شهاب الدين بن المجد عبد الله» بالشام المحروس، علىٰ مذهب الإمام الشافعىّ. وهذه نسخته :

الحمد لله على التَّمَسُّكِ بشرائعه، والتَّنَسُّكِ بذَرَائِعه، والتَّوَسُّلِ إلى الله بتأييد أحكام شارعه، والتوصل به إلىٰ دِينٍ يُقطَع به من الباطل أعْنَاقُ مَطَامِعه .

نحمده حمدًا يأخذ من الخَيْر بمَجَامِعِه، ويُضَاهِي الغَمَامَ فى عموم مَنَافِعِه، ويُبَاهِي السيف بقلم الشرع فى قَهْرِ عاصِيه وحماية طَائِعِه . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تؤدّى للإيمان أمَانَةَ وَدَائِعِه، وتَهْدِى إلىٰ صِيَانَةِ مَشَارِعِه، وتقيمُ من العلماء كُلَّ شِهَابٍ تُقْسِم الأنوارُ بلَوَامِعِه، وتُقْسِم الأبصارُ ببَدَائِعه، وتَجُولُ الفَتَاوَىٰ فى صدره الفسيح وتَتَجَوَّلُ فى شوارعه، وتُرْهِف منهم للحكم العزيز كل قَلَمٍ يَدُلُّ السهمَ علىٰ مَوَاقِعِه، ويُنَبِّه الرُّمح من مَقَاتِل الأعداء علىٰ مَوَاضِعِه، ويَسْرى

غَمَـامُه إلى الأعداء بصواعقه وإلىٰ الأولياء بهوَامعِه ؛ ونشهد أن سـيدنا محمدا عبده ورسوله الذى أسعد الأمّة بطَالِعه، وأصْعَدَ الأئمة فى مَطَالِعه، وأسْعَفَ المِلَّةَ بمـا أبقى الله فيها من حسن صـنائعه ويُمْنِ طلائعه، ومن شَرِيعته التى أَمِنَ حَبْلُها الممدودُ من جذب قاطعه، وكُفِيَ شَرَّ قَاطِعِه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه صلاة [تتوالىٰ إليه توالِيَ] العذب إلىٰ مَنَابِعه ؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فإن الله لَمَّـا أقامنا لحماية شَرْعِه الشريف أَنْ يُسْتَبَاحَ حِمَاه، أو يُبَاحَ لأحد من حُكَّامِه أن يركَب هواه، أو يَتَعَدَّى حُدُودَه فى سُخْطِه أو رِضَاه، أو يُحْدِث فى أمره ما ليس منه إلا أن يكون رَدًّا علىٰ سِوَاه ـ [جعلنا] نُجِدُّ علىٰ إقامة مناره أن يُطْمَس ؛ وإدامة مبَارّه أن يُقْلَعَ مَنارُها أو يُبْخَس ؛ آستدامةً لتأبيس حُكَّامِه، وتأييد أحكامه ؛ لأنَّه سَحائِبُ أنْوَاءٍ يَعُمُّ الربيعَ رُبُوعُهَا ، ومِشْكَاةُ أنوارٍ يُكَاثِرُ الصَّبَاحَ لُمُوعُها، وأَفَاوِيقُ وِفَاقٍ تُنِيم به الأمّةَ ضروعُها، وشجرة مباركة إسلامية زَكَتْ أُصُولُـها ونَمَتْ فُرُوعُها ؛ شُكْرًا لله علىٰ ما خَصَّنا به : من تَحْصِينِ ممالك الإسلام، وتَحْسِينِ مَسَالِك دَار السلام ؛ لِنَمْنَعَ المِحَنَ أن تُسَام، وبُرُوقَ الفِتَنِ أن تُشَام، ووُجُوهَ الفَتْوَىٰ أن تَتَزَيَّنَ إلَّا بِشَامَةِ الشَّام؛ غِبْطَةً بأن الله جعل للإسلام منها ما هو خَيْرٌ وأَبْقىٰ ، وأشْرَفُ وأَتْقىٰ ، وَأعْظَم بَلَدٍ تَتشعَّبُ بالمذاهب طُرُقا ، وتَوَدُّ المَجَرَّةُ لو وقَفَتْ بهـا عَلىٰ الشريعة نَسَقا. تَتَزَاحَمُ فى مركزها الأعلام، وتَتَضَافَرُ على الجهاد فى الله بالجِـلاد والجِـدال تَارةً بالسـيوف وتَارَةً بالأقـلام . ودِمَشْقُ حرسهـا الله هى أمّ ذلك الإقليم ، ومَدَدُه الذى يَحْنُو علىٰ مشارعها حُنُوَّ الوالِدةِ على الفَطِيم ، وتنبت بها فوائدُ لا تأمن معها الغوانى حَتَّى تَلْمُسَ «جانب العِقْدِ النَّظِيم» ؛ وهى دَارُ العلْم ، ومَدَارُ الحُكْم ، ومَوْطِنُ علماءَ تتعاقب

فيهــا كواكبهم ، وتَتَنَاوَبُ سَحَائِبُهم ؛ وتتناهىٰ إلىٰ حكمها العزيز الشكوىٰ ، وتنفصل بحكم حاكمها الدعوىٰ ، ويَمْتَدُّ جَنَاحُ طَيْلَسَانه علىٰ رَضْوىٰ ، ويُحَلِّقُ البَرْقُ وراء فَهْمه ولا يبلغ غايته القُصْوىٰ ، ويَطُولُ قَلَمُه على السيف المُشَهَّر ، ويُرَفْرِفُ سِجِلُّه على الشرع المُطَهَّر ؛ كَمْ حَلَّتْ فى صُدوره صُدُور ، وكم طلعَتْ منهم شُمُوسٌ وبُدُور ، وكَمْ حُمِدَتْ منهم أمورُ عاقبةٍ ولله عاقبةُ الأمور ؛ كَمْ أَدَاء دَرْسٍ بهم ذُكِر ، وكَمْ أَدَب نَفْسٍ شُكِر ؛ كَمْ بِهِم مَجْدٌ رَسَخ ، وجَدٌّ لملّة ممالأةٍ نَسَخ ؛ كَمْ أَقْضِيَةٍ لهم بالحق وَصَلَتْ ، وقضيَّةٍ للحقِّ فَصَلَت ، ومهنة من غَلَبِهم اللاحق حصَلَت ؛ كم سِجِلّ صـاحبُ هذا المنصب حاملُ عَلَمِهِ المنشور ، ومصـباح دِيَمِهِ الحافلة علىٰ ممرّ الدُّهور ؛ بشرف مُدَرِّس عِلْمٍ يطْلُع من محرابه ، ونَسَّاك حلم يبدو بَدْرُه التَّمَـامُ خلف سحابه ؛ ومَجْلِسِ إِفادةٍ ، ٱنعقد عليه فيه الإجماع ، ومَحْفِلِ سَادَةٍ ، كان فيهم وَاسِطَةَ عِقْدِ الآجتماع .

[ولمـا] تزلزلت قَدَمُ مَنَابِره ، وٱنْتُهِكَ حِجَابُ ضَمَائِره ، وٱستزلَّه الشيطانُ بكيده المتين ، وأضله علىٰ علمه المبين ، وسَبَقَ القَلَمُ الشَّرْعِيُّ ، بما هو كائن ، ومَضَى الحكمُ القَطْعِيُّ ، بما هو من تصرُّفه بائن ــ تردّد الآختيار الشريف فيمن نُحَلِّي جيدَهُ بتقليدها ، ونُؤَهِّلُ يَرَاعَهُ لتسليم مقاليدها ، وصَوَّبنا صَواب النَّظَر فيها مِصْرًا وشَاما ، وٱستشرفنا أعلاما ، وتَيَقَّنا لأقوىٰ ما يكون [لهـا] قواما ، وٱبتكرنا أنه لا يصلُح إلا من كان لِحُلَّةِ المَجْد طِرَازا ، ويزيدُ الْعَمَلَ إليه ٱعتزاء والعِلْمَ به ٱعتزازا ، إلىٰ أن أَجْمَعَ رأْيُنَا العالى علىٰ من لا يُنْكِر ذُو قِدَم ولَا قَدَم ولا قَلَم ، أنه السابق ؛ ولا يَجْحَدُ رَبُّ عِلْمٍ ولا عمـل ولا عَلَم ، أنه الباسق . ولا يُشَكُّ أنَّ مِنْ فوائده يُسْتَمَدُّ المَطَر ومن توقُّد ذهنه يُقْدَحُ زِنَادُ البَارِق ، ولَا يَرْتَاب البحر أن فرائده ما يُطَوِّقُ العُنَق ويُشَنِّفُ الأُذُنَ ويُتَوِّجُ المَفَارِق ؛ ولا يُمَارَىٰ فى فَضْله الذى لو طُلِبَ له مَثِيلٌ لم يُصَبْ ، ولو ٱدَّعَىٰ الكَوْكَبُ السَّارى أَنَّه له شَبِيهٌ لَمَسَّهُ النَّصَبُ ، أو تَلَفَّتَتْ أعناق القنَا إلىٰ قلَمه لأَيْقَنَتْ أنهـا كَلٌّ على القُضُبْ ؛

وهو الذى أفنىٰ عُمْرَه فى تحصيل العلم ٱشتغالا ، وجدّ فى الطَّلَب لصالح العَمَلِ و إن تَغَالَىٰ ؛ وبَقِيَ فَقِيهَ قَوْمٍ ما جَدَّ منهم مِثْله مَاجِد ، ولا جَادَتْ يَدُ كَرِيمٍ منهم تمتدّ بما هو جَائِدْ ؛ ودَرَجَ أقْرَانُه إلى الله وخُلِّيَ دونهم شَرْعًا لا يردّ واردا ، وخُلِّفَ بعدهم سَهْمًا فى الكنانة وَاحِدًا .

وكان المجلس العالى ــ أدام الله تأْيِيدَه ــ هو الذى تَخْتَالُ به المَنَاقِب ، وتَخْتَار فَضَائِلَه العواقب ، وتُشْرِقُ بقَلَمِه الفَتَاوَىٰ إشراق النَّهار ، وتُغْدِق مَنَافِعُه إغداق السُّحُب بالأمطار ، وتُحْدِقُ به الطَّلَبَةُ إحداق الكِمَامَة بالثَّمَر والهَالَاتِ بالأقمار ؛ وهو شَافِي عِيِّ كُلِّ شَافِعِيّ ، ودَوَاءُ أَلَمِ كُلِّ أَلْمَعِيّ ؛ طالما جَانَبَ جَنْبُه المضَاجِعَ سُهادا ، وقَطَعَ الليلَ ثم ٱستمدّه لمدد فتاويه مِدَادًا ؛ وجَمَع بين المذهبين نَظَرًا وتقليدا ، والمُذْهَبَيْنِ من القولين قَدِيمًا وجديدا ؛ وسلك جَميعَ الطرق إلىٰ مذهب إمامه ، وملك حِسَانها فأسفر له [كل] وجه تَغَطَّى من أوراق الكتب بلِثَامِه ؛ وٱنْفَتَحَتْ [بفهمه] للتصانيف أبواب شَغَلَت « القَفَّالَ » أَقْفَالُهَا ، ونَفَحَتْ له نَفَحَاتُ ما « للمَاوَرْدِيّ » مِثَالُهَا ، وسفحت دِيَمٌ غِزَارٌ يسق «المزنى» سجالُها ، ومنحتْ حللا يَفْخَر «الغزَالِي» إذا نُسِج علىٰ مِنْواله سربالُهَا .

فرسم بالأمر الشريف ــ لا زال يجدّد مَلَابِسَ فَضْلِه ، و يقلّد كُلَّ عَمَلٍ لصالح أَهله ــ أن يفوّض إليه قضاءُ قضاة الشافعية بدمشق المحروسة وأعمالها وجُنْدها وضَوَاحِيها ، وسَائِر الممالك الشامية المُضَافَةِ إليها والمَنْسُوبةِ لها والمحسوبَةِ فيها ؛ يُوَلَّى ذلك ولايةً صحيحةً شَرْعيه ؛ علىٰ عادة من تقدّمه وقَاعِدَته المَرْعِيَّه ؛ مع ماهو مضاف إلىٰ من كان قبله من تدريس المدارس ، تَفْوِيضًا لا يُنَافِسُه فيه مُنَافِس ، ولا يجالسه فى درسه إلا من ارتضىٰ من النجوم ان يجالس ؛ وأَذَنًا له أن يَسْتَنِيبَ عنه من

لا يَخْجَلُ عند الله ولا عِنْدَنا باسْتِنَابَتِه، ولا يُدَاخِلُه ظَنٌّ فى خَلَاص ذمته بإنابته إلىٰ الله فى نيابته؛ علىٰ أنَّه يتفقدُ أعْمَالَهم، ويتَصَفَّحُ أحْوَالَهم: فمن نَقَلَ إليه ثِقَاتُه أنه علىٰ طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ أقرّه، وإلا صَرَفَه ثم لايكون لَهُ إلىٰ عَمَلِه كَرَّه؛ وهو القائم بحُجَّةِ الشرع الشريف وحجةُ الله عليه قائمه، وعليه إن قَصَّرَ ـ والعياذ بالله ـ فى أموره تَعُودُ اللائمه؛ وأنت تعلم أنَّا ما كُنَّا نعرفك عِيَانا، وإنَّما وُصِفْتَ لنا حتى كأنَّا نَرَاكَ وسَمِعْتَ بما نحن عليه حتىٰ كأنَّك تَرَانا؛ فَشَيِّدْ لمن شَيَّدَ لك شُكْرُهم أركانا، وأعْلِ ذِكْرُهم لِمَجْدِك بنيانا، وجَعَلَ لك قَدْرُهم الجميلُ مِنَّا سلطانا؛ وأَقِمْ بحُسْنِ سُلُوكِكَ علىٰ ماقالوا فيك بُرْهَانا؛ وٱعْرِفْ لهم حَقَّ معروفهم وجَازِهِمْ عن حُسْنِ ظَنِّهم بالحسنات إِحسانا.

ونحن نُوصيك بِوَصَايَا تشهد لنا يوم القيامة عَلَيك ببَلَاغِها، ويَعْتَرِضُ منها فى الحُلُوقِ شَجًا: فَأَىُّ الرجالِ يَقْدِر علىٰ مَسَاغِها؛ فإن قُمْتَ بها كَانَ لَنَا ولك فى الأجر آشتراك، وإنْ أَضَعْتَ حقوقَها فالله يَعْلَمَ أننا أخرجنا هذه الأَمَانَةَ من عُنُقِنَا وقَلَّدْنَاكَ، وَاللَّهُ وملائِكَتُه بيننا وبينك شهود علىٰ ماأوليناك وما وَلَّيناك؛ فعليك بتَقْوى الله فى السِّرِّ والإعلان، والعَمَلِ بما تعلمه سَوَاءٌ رَضِىَ فُلَانٌ أو سَخِطَ فُلَان؛ والآنتهاءِ إلىٰ ما يقتضيه عُمُومُ المصالح، وإمْضاء كل أمْرٍ علىٰ ماأمر الله به رسولَه صلَّى اللهُ عليه وسَلَّم وكان عليه السَّلَفُ الصَّالح؛ وإقَامَةِ حُدُودِ الله ولا تَتَعَدَّ حدودَه، وقَمْعِ البِدَعِ لإظهار الحق لا لإثارة فِتْنَةٍ مَقْصُودَه؛ فقد عَلِمْتَ ما أنكرتَه أنْتَ وأمْثَالُك من الأئمة العلماء علىٰ من تَقَدَّمَك من تَسَرُّعِه فى مِثْل ذَلك، وتَطَلُّعه إلىٰ مَطَالِبَ سقط دُونَها فى مَهَاوِى المَهَالِك؛ فَإيَّاكَ إيَّاكَ أن تَتَّبِعَ فى هذا النَّحْوِ سُبُلَه، أو «تَنْهَ عن خُلُقٍ وتَأْتِىَ مِثْلَه».

والصدقات الحكمية على مادّة المساكين، وجادّة الشاكين؛ ففرّقها على أهلها، واْجمع لك الحسنات عند الله بتبديد شملها؛ ولا تُبْقِ منْها بقيةً تَبْقى معرّضةً لأكلها، فلو أراد واقفوها ـ رحمهم الله ـ أنها تَبْقى مخزونةً، لما سمحوا ببذلها؛ وبقيّة الأوقاف شارِفْ في أمورها، وشارِك الواقفين ـ رحمهم اللهُ ـ في أجورها؛ وخُصَّ الأسارى ـ أحسنَ اللهُ خلاصَهم ـ بما يصل به إحسانُك إليهم، ويَضَعُ عنهم إصْرَهُمْ والأغلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِم .

والأيتام ـ جبرهُم اللهُ ـ : منهم الطِّفْل والمميِّز والمراهِقُ ومَنْ لم يملك رُشْدَه، أومن يحتاج أن يبلُغ فى جواز التصرّف أَشُدَّه؛ وكُلُّ هؤلاء فيهم من لا يعلم من يضرّه ممن ينفعه، ولكن الله يعرّفه وفى أعماله يرفعُه؛ فاجتهد أن تكون فيهم أباً برّا، وأن تتَّخذ فيهم عند الله أجرا، وأنْ تُعامِلَ فى بَنِيك بمثل ماعاملتهم إذا انقلبت إلى الدّار الأخرى، واْحفظْ أموالهم أن تنهكها أجْرةُ العُمّال، وترجع فى قِراضها إلى مايُجْحِف برءوس الأموال؛ ومثِّلْ أعمالَكَ [المعروضة] على الله فى صحائفها المعروضه، واْحذرْ من المعاملة لهم إلا بفائدةٍ ظاهرة ورُهُنٍ مَقْبُوضَه .

والجِهَاتُ الدِّينيَّةُ هى بِضَاعَةُ حِفْظك، ووَدَاعَة لحْظك، فلاتُولِّ كُلَّ جِهَةٍ إلا مَن هو جامعٌ لشرطها، قائمٌ بموازين قِسْطِها .

والشهود هم شهداءُ الحَقّ، وأُمناءُ الخلق؛ وعلى شَهَادَاتِهم تُبْنَى الأحكام، فإيَّاك والبِنَاءَ على غير أَسَاسٍ ثابِتٍ فإنّه سريعُ الانهدام؛ ومنهم من يشهدُ فى قِيمَةِ المِثْل ويتعين أن يكون من أَهْلِ البَلَدِ الأمْثَل، لأنه لايَعْرِفُ القيمةَ إلَّا مَن هو ذُوسَعَةٍ مموَّل؛ ومنهم مَنْ أُذِنَ له فى العُقُود فامنع منهم من تسهل بسَبَبٍ من الأسباب، وما تمهَّل إشْفَاقا لاختلاط الأنسال والانساب؛ يقبل بالتعريف مايخلو من الموانع

الشرعية مَنْ كان، ولا يُحْسِن فى تزويجه يُمْسك إمْسَاكًا بمَعْرُوفٍ ولا يُسَرِّحُ تَسْرِيحًا بإحسان؛ وهؤلاء مَفَاسِدُهم أكثرُ من أن تُحْصَىٰ، والبلاء بهم أكبر من أن يُسْتَقْصَر أو يُسْتَقْصَىٰ؛ فاعْتَبِرْ أحوالَهُمْ آعتبارا جليًّا، وفكِّرْ فى آستدراك فَارِطِهم فِكْرًا مَليًّا؛ ومَنْ لم يكنْ له من العِلْمِ والدِّينِ ما يُوضِّحُ له المُشْتَبِهات، فإيَّاكَ وتَرْكَه فَرُبَّ مُعْتَقِدٍ[1] أنه يَطَأ وطأً حَلالا وقد أوقعه هـذا ومِثْلُه فى وَطْءِ الشُّبُهات؛ ومنهم من يعمدُ إلىٰ التَّحْلِيل، ويرتكِبُ منه مَحْذُورًا غيرَ قليل؛ وهو بعَيْنِه نِكَاحُ المُتْعَةِ الذى كان آخرَ الأمرين من رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم النَّهْىُ عنه، وقام أمير المؤمنين عُمَرُ آبن الخطاب رضى الله عنه مُحَذِّرًا منه؛ فاحْسِمْ هذه المادّة الرَّدِيَّةَ التى تُؤْلِمُ عضوا فيسرى إلىٰ سائر الأعضاء أَلَمُهَا، ويَبْقَىٰ فى كثير من الذَّرَارِىِّ المولودة من هذه الأنكحة الفاسدة ثَلْمُها.

والرُّسلُ والوكلاءُ بمجلس الحكم العزيز ومَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقَات، وما نزل فى أُمورٍ ما يريدون بها تقليدَ حكمك بل ما يقضون به الأوقات؛ فلا تَدَعْ ممن تريد منهم إلا كلَّ مَشْكُورِ الطريق، مشْهُورِ القصة بين الخصوم بطلب التوفيق.

والمَكَاتِيبُ هى سهامك النَّافِذَه، وأحكامك المؤاخذه؛ فسَدِّدْ مَرَاميها، ولا تُرْدفها ماعرض عليك من الأحكام حتى لا يسرع الدخول فيها؛ والمَحَاضِرُ هى محل التقوِّى، فاجتهد فيها آجتهادا لا تَذَرُ معه ولا تُبْقِى.

وأما قضايا المتحاكمين إليك فى شَكَاوِيهم، والمُحَاكَمِين فى دَعَاوِيهم، فأنْتَ بهم خَبِير، ولهم نَاقِدٌ بصير؛ فإذا أَتَوْكَ لتَكْشِف بحكمهم لَأْوَاءَهُم، فاحْكُمْ بينهم بما أَرَاكَ اللهُ ولا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ؛ وقد فَقَّهَكَ الله فى دِينِه، وأوردك من مَوَارِدِ يَقِينِه، ماجعله لك

(١) فى الاصل : منفعة وهو خطأ .

نُورًا ، وجَلَاه لك سُـفُورًا ، وأقامَه عليك سُورًا ، وعَلَّمَك مالم تَكُنْ تعلمُ منه أمُورًا ، فإن أشْكَلَ عليك أمْرٌ فرُدَّهُ إلىٰ كتاب الله وسُنَّة رسوله صلَّى الله عليه وسلم و إجْمَاع أصْحَابِه فإن لم تَجِدْ فعِنْدك من العلماء من تَجْعلُ الأمر بينهم شُورَىٰ ؛ ولأمير المؤمنين عمرَ بنِ الخَطَّاب رضى الله عنـه كتابٌ كَتَبه إلىٰ بعض القُضَاه ، فاْعْمَـلْ بمقتضاه ، وٱعلم بأنَّ الله تعالىٰ قد ٱرتضاك لخلْقِه فاعمل علىٰ رِضَاه .

والأئمة العلمـاء هم إخوانك فى الدِّين ، وأعوانُك علىٰ رَدْعِ المُبْتَدِعين ، ولِسَانُك فى المَحْفِلِ وجَنَاحُك إذا جلسوا ذَاتَ الشمال وذَاتَ اليَمِينِ ، فَنَزِّلْهم منازلهم التى أحلهم الله فى شُرُفَاتِهـا ، وبَوِّأْهُم رفيـع غُرُفاتِها ، وتَأَلَّفْ خَوَاطِرَهم فإنَّك تنظر إلىٰ كثـير من الأمور فى صَفَاءِ مُصَافاتِها .

ومن نُسِب إلىٰ خِرْقة الفـقر وأهل الصـلاح هم أولياء الله المقَرَّبُون ، وأحِبَّاؤُه الأقربون ، فعَظِّمْ حَيَاتَهم ، وجَانِبْ محاباتَهم ، فما منهم و إن ٱختلفت أحوالهم إلا من هو علىٰ هُدًى مُبِين ، وٱحْرِص أن تكون لهم حِبًّا يملأ قلوبهـم(١) فإنَّ الله ينظر إلىٰ قَوْم من قُلُوب قَوْمٍ آخَرِين .

وٱنْتَصِبْ للدروس التى تَقَدَّمْتَ بها علىٰ وافد الطلبة فإنَّ الكرم لا يمحقه الآلتماس ، والمصباحَ لا يُفْنِي مُقلَه كثرةُ الآقتباس ، والغمام لا يَنْقُصه تَوَالِى المَطَر ولا يَزِيدُه طُولُ الآحتباس ، والبحر لا يتَغَيَّرُ عن حاله وهو لا يخلو عن الوُرَّادِ فى عَدَد الأنفاس .

والوَصَايا كثيرة و إنَّمـا هذه نُبْذَةٌ جامعه ، و بارِقَةٌ لامعه ، ومنك يُسْـتَفَاد بَسَاطُ القَوْل ، وٱنبساط الطَّوْل ، ولهذا يُكْتَفَىٰ بمـا فِيك ، والله تعـالىٰ يَكْفِيك ، ويُحْصِى حِسَابَ أعمالك الصَّالِحة ليوفيك ، حَتَّى تَجِدَّ فلا يتخلَّفُ بك السير ، وتَسْتَعِدّ ليُخْتَم لك بخاتمة الخَيْر ، والآعتماد على الخط الشريف .

(١) فى الأصل «حبلا يملا فى قلوبهم» فتأمل .

قلت : وهذه نسخة توقيع بقضاء، أنشأته بدمشق للقاضى «شرف الدين مسعود» وهى :

الحمد لله الذى شيد أحكام الشرع الشريف وزاد حكامه فى أيامنا شرفا، ورفع منار العلم على كل منار وبوأ أهله من جنات إحساننا غرفا؛ وأباح دم من ألحد فيه عنادا أو وجه إليه طعنا، وأوجب الانقياد إليه بقوله تعالى : ﴿ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴾؛ وألهم الصواب فى اختيار من لم يزل لهذه الرتبة معدا ومن رجالها معدودا، وصرف وجه إقبالنا إلى من ارتضيناه للسلمين حاكما فأصبح بنظرنا مسعودا .

نحمده حمد من اعتنى بالقيام بشرائع الإسلام وتعظيم شعائره، ونصح للرعية فيمن ولاه عليهم وأعطى منصب الشرع حقه بتقديم أكابره. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له شهادة يقضى لصاحبها بالنجاة من النار، ويسجل لقائلها بالثبوت فى ديوان الأبرار؛ وأن محمدا عبده ورسوله الذى شرط الإيمان بالرضا بحكمه وأوجب طاعته أمرا ونهيا واستجابة وتحكيما، فقال تعالى : ﴿ فلا وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لايجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما ﴾ . صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين نحن بسيرهم مهتدون، وبآثارهم مقتدون، وعلى آله وصحبه الغر الكرام الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون؛ صلاة لا يختلف فى فضلها اثنان، ولا يتنازع فى قبولها خصمان؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعد، فلما كانت مرتبة الشرع الشريف هى أعلى المراتب، ومنصب حكامه فى الورى أرفع المناصب؛ إليه تنتهى المخاصمات فيفصلها ثم لاتعدوه، ويحكم فيه على

الخصم فيُذْعِنُ لِحُكْمِه ثم لا يَشْنُوه ؛ بل يتفرق الخَصْمَانِ وكُلٌّ منهما بما قُضِيَ له وعَلَيْه رَاضٍ، ويقولُ المُتَمَرِّدُ الجَائِرُ لحاكمه : قد رَضِيتُ بحُكْمِكَ فاقْضِ فِيَّ مَا أَنْتَ قَاضٍ؛ ونَاهِيكَ بِرُتْبَةٍ كان النبيّ صلَّى الله عليه وسلم هو المتصدّى للقيَام بواجبها، والخلفاءُ الراشدون - رِضْوَانُ الله عَلَيهم - محافظين علىٰ أَدَاءِ رَوَاتِبِها ؛ ثم ٱختصَّ بها العلماءُ الذين هم وَرَثَةُ الأنبياء من الخليقه ، وٱسْتَأْثَرُوا بها دون غيرهم من سائر الناس فهم أهلها على الحقيقه؛ إذ لا يُؤَهَّل لهذه الرتبة إلا من ٱرْتَقَىٰ إلىٰ درجات الكمال، وٱتَّصَفَ بأَحْسَنِ الأوصاف وٱحْتَوَىٰ علىٰ أَنْفَسِ الخصال؛ وتَضَلَّع من العلم الشريف بما يُرْوِيه ، وفاق فى العقل والنقل بما يبحثه ويَرْوِيه .

ولما كان المجلس الفلانىّ : هو عَيْنَ هذه القِلَادَة وَوَاسِطَةَ عِقْدِها ؛ وقُطْبَ دائرتها ومَلَاكَ حَلِّها وعَقْدِها؛ إذ هو «شُرَيْحٌ» الزمان ذكرا، و «أَبُو حَامِد» سِيرَةً و«أبو الطَّيِّب» نَشْرا؛ لاجَرَمَ أَلْبَسَتْهُ أَيَّامُنا الزاهرةُ من الحُكْمِ ثَوْباً جَدِيدًا، وأفاض عليه إِنْعَامُنا نِحْلَةً نُعْقِبُها - إن شاء الله تعالىٰ - مزيدا .

فلذلك رسم بالأمر الشريف - لازالت الشريعة المُطَهَّرة بمناصرته فى أَعَزِّ صِوَان، وحُكَّامُها بمَعَاضَدَتِه فى أعلىٰ درجة وأَرْفَعِ مكان - أن يفوّض إليه ... ...

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة مِثْلِه لِمثْلِها ، ولْيَعْمَلْ بما يعلمه من أحكامها فهو ٱبن بَجْدَتِها والخبيرُ بمسالك وَعْرِهَا وسَهْلِها؛ فهو الحَاكِمُ الذى لايُسَاوَىٰ، والإمامُ الذى يقتدىٰ به فى الأحكام والفَتَاوَىٰ؛ فَعَلَيْه بالتأنِّى فى الأحكام، والتَّثَبُّت فيما يصدُر عنه من النَّقْضِ والإبرام؛ ولْيَنْظُر فى الأمر قبل الحكم المَرَّةَ ثم الأخرىٰ، ويُكَرِّرِ النَّظَرَ فى ذلك ولو أَقَامَ شَهْرا ؛ ويُرَاجِعْ أَهلَ العلم فيما وقف عليه ويُشَاوِرْهم فما نَدِم من ٱستشار، ويُقَدِّمِ ٱستخارة الله تعالىٰ فى سائر أموره فما خَابَ من ٱسْتَخَار ؛ ولْيَدْر

مع الحقِّ كيف دَار ، ويَتّبع الصَّـوَابَ أَنَّى توجّه ويَقْتَفِى أَثَره حَيْثُ سار ؛ وإذا ظهر له الحقُّ قَضَىٰ به ولو علىٰ آبْنِه وأَبِيه ، وأَعَزِّ أَصْدِقَائِه وأَخَصِّ ذَوِيه ؛ غيرَ مُفَرِّقٍ فى فَصْلِ القضاء بين القَوِىّ والضَّعِيف ، والوَضِيع والشَّرِيف ؛ ولا مُمَيِّزٍ فى تنفيـذ الحكم بين الغَنِىّ والفَقِير ، والسُّوقَةِ والأَمِير ؛ ولْيُسَوِّ بين الخصوم حتَّىٰ فى تقسيم النظر إليهم ، كما فى موقف الحكم وسَمَاع الدَّعْوَىٰ وردِّ الأجوبة فيما لهم وعليهم ؛ ولْيَسْتَخْلِفْ من النوّاب من حَسُنَتْ لديه سِيرَتُه ، وحُمِدَت عنده طَرِيقَتُـه ؛ ويُوصِ كُلًّا منهم بمـا نوصِـيه به ويُبَالِـغْ فى تأْكِيد وصيته ، ويَسْتَحْضِرِ السرَّ فى قوله صلى الله عليـه وسلم : « أَلَا كُلُّكُمْ راعٍ وكلكم مسئول عن رَعِيَّتِه » . ولْيُمْعِنِ النَّظرَ فى أمر الشهود الذين تترتب علىٰ شهادتهم أمور الدنيا والفُرُوج والأموال ، ويَتَفَقَّدْ أَمْرَهم فى كل وقت ولا يغْفُل عنهـم فى حال من الأحوال ؛ ويحمِلهـم من الطرائق علىٰ أحسن وجهها ، وأَحَقُّهم بإمعان النظر شهودُ القِيمَةِ والعَمَائِر ، الذين يُقْطَع بقولهم فى أَملاك الأَيتام والأَوقاف ممـا تنفِر عنه القلوب وتَنْبُو عنه الضَّمَائِر .

والوكلاء والمُتَصَرِّفُون فهم قوم فَضَـلَ عنهم الشرُّ فباعُوه ، وآسْتُحْفِظُوا الوُدَّ فلم يرعَوْا حقـه وأَضَاعُوه ؛ فهـم آفةُ أبواب القضاة بلا نِزاع ، كيف وهم الضِّـبَاعُ الضَّارِيَة والذِّئَابُ الجِيَـاع . وما تَحْتَ نظره من أوقاف المـدارس والأَسْرىٰ والصَّدَقات ، وغيرها ممـا يَقْصِدُ به وَاقِفُوه وجهَ البر وسبيل القُرُبَات ؛ يُحْسِنُ النظر فى وجوه مَصَارِفها ، مع حفظ أَجوالهـا الذى هو أَغْيَا مرادِ واقفها .

وأهل العـلم أَبْنَاءُ جِنْسِه الذين فيهم نَشَأَ ومنهم نَجَم ، وجُنْـدُه الذين يقصِـدونه بالفَتَاوىٰ فيما قَضَى وَحَكم ؛ فلْيُوَفِّرْ لهم الإحسان ، ويَصْنَعْ معهم من المعروف ما يبقىٰ ذكره علىٰ ممرّ الأزمان ؛ ومِثْـلُهُ لايحتاج إلىٰ كثرة الوصايا ، وثوقًا بمـا عنده من العِلْمِ

بالأحكام والمَعْرِفَة بالقضايا ؛ لَـكِنْ عليه بتقوى الله ومراقبته يكن له ممـا يَتَبَوَّءُه ظهيرا ، ويَسْتَرْشده فى سائر أموره يجعـلْ له من لَدُنْه هادِيا ونصِـيرا ؛ والله تعالىٰ يبلغ وَاثِقَ أَمَلِه من كَرَمِنا مَرَاما ، ويُوَطِّئُ له المِهَادَ ببلدٍ حَسُنَتْ مسـتقَرّا ومُقاما . إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع بقضاء قُضَاة المـالكية بالشام، من إِنْشَاء الشيخ شِهَاب الدّين محمود الحلبيّ تَغَمَّده الله برحمته، وهى :

الحمد لله جاعل المَذَاهِبِ الشَّرعيَّـة فى أيامنا الشريفة زَاهِيَةً بأركانهـا الأربَعَه ، مستقرّةً على النِّظامِ الذى غدتْ به قواعدُ الحُجَّة محكمةً ومَوَاقِعُ الرحمة مُتَّسِعه ، فإذا خلا رُكْنٌ من مُبَاشَرَةٍ أَقَمْنَا من تكون القلوب علىٰ أَولَوِيَّتِه مُجْتَمِعَه ، وٱنتقينا له من الأتقياء من تَغْدُو به الأُمّةُ حيث كانت مُنْتَفِعَه ، وٱستدعينا إليه من تَغْدُو الأدعية الصالحة لنـا بتفويض الحكم إليـه مُرْتَفِعَه ؛ الَّذى خَصَّ مذهبَ « إمام دار الهجرة » بكل إمام هَجَرَ فى التَّبَحُّرِ فيه دواعى السُّكُون وبَوَاعِثَ الدَّعَه ، وجَمَّلَ مَنْصِبَ حُكْمِه بمن كَمُلَ بعلوم الدين فَخْرُه فإذا حكم غَدَت الأَقْضِيَةُ لحكمه مُنَفِّذَةً وإذا قَضَىٰ أَضْحَتِ الأحكام لأقضيته متَّبِعه .

نحمَـده علىٰ نِعَمه التى جَعَلَت مُهِمَّ الشَّرع الشريف لَدَيْنَـا كالآسـتفهام الذى له صدر الكلام ، وبمَثَابَةِ النِّيَّة المقدّمة حتّى [علىٰ] تكبيرة الإحرام ؛ ونشهد أن لا إِلٰه إلا الله وحده لا شريك له شهادة أَثْبَتَ الإخلاصُ حُكْمَها ، وأَحْكَمَ الإيمـانُ عِلْمَها ، وأَبْقَى اليقـينُ علىٰ صَفَحَاتِ الوُجُوهِ والوُجُودِ وَسْمَها المُشْرِقَ وٱسْمَها ؛ ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى أَخَذَ الله ميثاق النَّبِيِّـينَ فى الإقرار بِفَضْلِه ، وأرسله ﴿بالهدىٰ

وبِنِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾، وخَصَّه بالكتاب الذى أخرس الأمم عن مُجَارَاته فلو ﴿آجتمعت الإنْسُ والجنُّ علىٰ أن يأتوا بمثل هذا القرءان لايأتون بمثله﴾؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين تمسكوا بسَنَنِه وسُنَّته، وأوضحوا شرعه الشريف لمن تلقّاه بعدهم من أئمة أمته؛ صلاة لا تزال بِقَاعُ الإيمـان لأحكامها منْبِتة، وأنواء الإيقان لأُوَامها مُقْلِته(١)؛ وسلم تسليما كثيرا .

وبعـد ، فإنه لمـا كانت الأحكامُ الشرعيةُ تتوقفُ علىٰ ملاحظة قَضَاء قُضَاتها فى غالب الأمور، وتستند إلىٰ مُرَاجَعَةِ أُصُول حُكَّامها فى أكثر مصـالح الجمهور ، لم يكن بُدٌّ من مُرَاعَاةِ أُصُولهـا التى إنمـا تَنُوبُ الفروعُ عنها، وتَدَبُّرِ أحوال أحكام حُكَّامِها التى تَنْشَأُ أَقْضية النوّاب منها؛ ولذلك لـمَّا أصبح منصب قضاء القضاة علىٰ مذهب الإمام «مَالِك بن أَنَس» رضى الله عنه بالشَّام المحروس لضَعْف مباشره المتـدّ ، فى حكم الحـالى، وتعطل بعجزه المشتدّ، ممـا أُلِف به قديمـا حال حكمه الحالى؛ وتمـادى ذلك إلىٰ أن ترَقَّى الناسُ منه إلىٰ دَرَجة اليَقين؛ وتنَاهَى الحكمُ فيه إلىٰ أن يعين أن يُرْتَادَ من يَتَعَيَّنُ لمثله من الأَئمَّة المُتَّقِين ؛ لِئَلَّا يخْلُوَ هذا المذهبُ من قاضى قضاة يُقِيمُ مَنَارَه ، ويُدِيمُ أنوارَه ، ويرفع شِعَارَه ، ويُحْيى مآثِرَ إمَامِه وآثارَه، ويُؤَمِّنُ كَمَالَ أفقه أن يُعَاوِدَ سِرَارَه ؛ وكان المجلس السامى ، القاضوىّ ، الفخرىّ ، هو الذى لا يَعْدُوهُ الآرْتِيَاد، ولا يَقِفُ دونَه الآنْتِقاءُ والآنْتِقاد، ولا تجاوَزُه الإصابة فى الآجتهاد : لمَـا عليه من عِلْمٍ جعله مخطوبا للمناصب ، وعَمَلٍ تركه مَطْلوباً للمراتب التى لا تُذْعِنُ لكلِّ طالب ؛ وتُقىً أعاده مُرْتَقِياً لكلِّ أُفُقٍ لا يصـلح له كلُّ شارق ، ووَرَعٍ فتح له أبواب التَّلَقِّ بالآسـتدعاء وإن لم تُفْتح لكلِّ طارق ؛ وقد هَجَرَ الكَرا فى تحصـيل مذهب «إمام دار الهجرة» إلىٰ أن وَصَل إلىٰ ما وَصَـل، وأنْفَقَ مُدَّة

(١) الأوام شدّة العطش ومقلته مهلكه .

عُمْره فى ٱقتناء فوائده إلىٰ أن حَصَل من الثَّرْوَة بها علىٰ ما حَصَل ؛ فسارت فتَاويه فى الآفاق ، ونَمَتْ بَرَكَات فوَائده التى أَنفقها على الطَّلَبَـة فزَكَتْ على الإنفـاق ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أَن نُبْقِى نخْرَ هذا المنصب الجليل بفَخْره ، وأن نخُصَّ هذا المَذْهَبَ النبيل بذخره ، وأَنْ نُحَلِّيَ جِيدَهُ بمن نَقَلْنا إلىٰ وشَام الوسام ما كان من حُسْن شَنَبِ العلم مُخْتَصًّا بثَغْرِه .

فرسم بالأمر الشريف ـ لا زالَ لأحكَامِ الشرع مُقِيما ، وللنظر الشريف فى عموم مصالح الإسـلام وخصوصها مُدِيمَـا ؛ أن يفوّض إليـه ... ... لمـا تَقَدَّم من تَعَيُّنِه لذلك ، وتَبَـيَّنَ من أَنَّه لحكم الأولوية بهـذه الرتبة فى مذهب الإمام مالك مالك .

فَلْيَلِ هـذه الوظيفةَ حَاكِمًا بمـا أَراه الله من مَذْهَبِه ، مُرَاعِيًا فى مباشرتها حقَّ الله فى الحكم بين عباده وحَقَّ مَنْصِبِه ؛ مجتهدا فيما تَبْرَأُ به الذمةُ من الوقوف مع حكم الله فى حَالَتَىْ رضاه وغَضَـبِه ، وَاقِفًا فى صِفَةِ القَضَاء علىٰ ما نُصَّ فيه من شروطه وأُوضِحَ من قواعده وشُرِحَ من أَدَبِه ؛ مُمْضِياً حقوقَ رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فيما يقتضيه رَأْىُ إِمَامِه ، مُتَوِّجًا الحكمَ بنصوصه المجمع عليها من أَئِمَّة مذهبه فى نَقْضِ كُلِّ أَمْرٍ وإِبْرامِه ؛ جَارِيًا فى ذلك علىٰ قواعد أَحْكام هذا المَذْهَب الذى كان مُشْرِقا فى ذلك الأُفُق بجماله وزَيْنه ، وَاقِفًا فى ذلك جميعه مع رضا الله تعالىٰ فإنَّه فى كُلِّ مايأْتى ويَذَر بَعَيْنه ؛ والله تعالىٰ يسدّده فى قوله وعمله ، ويبلِّغه من رضاه نِهَايَةَ سُولِه وغَايَةَ أَمَلِه ؛ بمنِّه وكَرَمِه ! إن شاء الله تعالىٰ .

وهـذه نسخة توقيع بقضاء قضاة الحنـابلة ، كُتِبَ بها للقاضى عَلاءِ الدِّين «منجى التنوخى» وهى :

الحمد لله الذى رفع بعَلَاءِ الدِّينِ قَضَاءَ قُضَاتِه، وأَوْضَح الهُـدَىٰ فى القيام فى توليتهم بمفترضاته، وأعلىٰ مَنَـارَ الشَّرع بمـا أَوْقَفَهم عليه من أَحْكامه ووَفَّقَهُـم له من مَرْضَـاتِه .

نحمده حمدا نَسْتَعِيدُ من بَرَكَاتِه، ونَسْتَعِيذُ به أَن نَضِلَّ فى ضَوْءِ مِشْكَاتِه، ونستعين عليه برَبِّ كل حُكْمٍ يُمِدُّنَا قَلْبُه بسُكُونِه وقَلَمُه بحَرَكَاتِه، ويُثْبِتُ من جميل مَحْضَرِه لدينا ما يرفع مَسَّ شَـكَاتِه؛ ونشهدُ أَنْ لَا إِلٰه إلا الله وحْدَه لا شريك له شَهَادَةً يَسْتَودِعُ إِخْلاصها فى قلوب تُقَاتِه، وتُفَوِّضُ أحكامُها إلىٰ ثِقَـاتِه، ويُحْمَىٰ سَرْحُها من أَبْطَالِ الجِلَاد والجِدَال بكل مُشْـتَاقٍ إلىٰ مُلَاقَاتِه؛ ونشهد أَنَّ محمدًا عبده ورسوله أَفضَـلُ من حكم بمـا أَنزل اللهُ من آياته، وجَاهَـدَ فى الله برَأْيِه ورَايَاتِه، وشَرَع من الدِّينِ مايُنَجِّى المتمسكَ به من غَوَايَاتِه؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين أَقام شَرْعَه منهم بكُمَاتِه، وجعل حُكْمَهم دَائِمَ النُّفُوذ أَبدا بأَقلام علمـائه وسيوفِ حُمَاتِه؛ وسَلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعد، فمَنْصِبُ الحكم الذى به تُفْصَلُ الأُمور، وتَنْفَرِجُ له الصُّدُور، وتتسَدَّدُ أَقْلام حُكَّامه سِهَاما، وتُفِيضُ غَمَـاما؛ وتَتَعَلَّمُ منه الأُسُودُ زَئِيرا، ويطول السَّيْفُ صَـلِيلًا والرمْحُ صَرِيرا؛ وتَنْتَصِب بين يَدَىْ حُكَّامه الأَقْدَام، وتنتصف علىٰ أَحْكامه الخِصَـام[1]؛ وتُنَكِّس الرُّءوس لَهَيْبَتِه إطراقا، وتُغَضُّ المُقَلُ فمـا تُدِيرُ جُفُونا ولا تُقَلِّبُ أَحْدَاقا؛ ويَجْرِى بتصْرِيفه قَلَمُ القَضَاء، ويُجَارِى مُرْهَفُه البُروقَ فتُقِرُّ له بالمَضَـاء؛ وقد شَـيَّدَ اللهُ مَبَانِيَهُ فى ممـالكنا الشريفة مِصْرًا وشَامًا علىٰ أَرْبعـة أَرْكان، وجمع فى قضائه الأَئِمَّةَ الأربعـةَ لتكمل بهم فُصُولُ الزمان؛ ومَذْهَبُ الإمام أَبِى عبـد الله «أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ» رضى الله عنه هو بالسُّــنَّة النبوية الطِّرَازُ المُذْهَب، وطريقة

(١) الخصام جمع خصم كبحر وبحار. انظر المصباح .

السلف الصالح فى كُلِّ مَذْهب؛ وقد تَجَنَّبَ من سَلَف من علمائه التَّأْويلَ فى كَثِير، ووَقَفَ مع الكِتَاب والسُّنَّة وكلٌّ منهما هو المصباح المنير.

وكانت دِمَشْقُ المحروسـةُ هى مَدَارَ قُطْبِهِم، ومَطْلَع شُمُوسِهِم ونُجُومِهم وشُهُبِهِم؛ وأَهْلها كثيراً مَّا يحتاجون إلىٰ حاكم هـذا المذهب فى غالب عقد كل بيع وإيجـار، ومُزَارَعَةٍ فى غِلَالٍ ومُسَاقَاةٍ فى ثِمَـار، ومُصَالحَـةٍ فى جوائِحَ سمـاويَّةٍ لا ضَرَر فيها ولا ضِرَار، وتَزْوِيج كلِّ مَمْلُوكٍ أَذِنَ له سَـيِّدُه بحُرَّةٍ كَرِيمَه، وٱشـتراطٍ فى عَقْدٍ بأن تكون الآمْرَأَةُ فى بلدها مُقِيمه؛ وفَسْخ إن غاب زوجُها ولم يترك لهـا نفقةً ولا أَطْلَقَ سَرَاحَها، وبَيْع أَوْقَافٍ دَاثِرَةٍ لا يجـد أَربابُ الوَقْفِ نَفْعًا بها ولا يستطيعون إِصْـلَاحَها.

فلمـا ٱستأْثَرَ اللهُ بِمَنْ كان قد تَكَمَّلَ هذا المَنْصِبُ الشريفُ بشرَفِه، وتَجَمَّـلَ منه بَقِيَّةَ سَلَفِه؛ حصلَ الفِكْرُ الشريفُ فيمَن نقلده هذه الأَمَانَةَ فى عُنُقِه، ونُهِيِّئُ هذا المنصب بطلوع هلاله فى أُفُقِه؛ إلىٰ أن ترجح فى آرائنا العالية المُرَجَّحُ المُرَجَّى، وتَعَيَّنَ واحدا لمَّـا ٱبْتُلِيَ الناس بالقضاء كان المُنَجَّى ٱبنَ المُنَجَّى؛ طالمـا تطرّزَتْ له الفَتَاوىٰ بالأقلام، وٱلْتَفَّتْ به حَلْقَةُ إِمَام، وخاف فى طَلَبِ العِلْمِ من مُضَايَقَةِ اللَّيالى فمـا نام ــ ٱقتضىٰ حُسْنُ الرأى الشريف أن يفوّض إليـه قضاء القضاة بالشام المحروسة علىٰ مذهب الإمام الربانىّ «أَحْمَدَ بنِ حَنْبَل» الشيبانىّ، رضى الله عنه.

فلْيَحْكُم فى ذلك بمـا أَرَاه الله من عِلْمِـه، وآتاه من حُكْمِه؛ وبَيَّنَه له من سُـبُلِ الهُدَىٰ، وعَيَّنَه لبصيرته من سُنَنِ نَبِيِّه صلَّى الله عليـه وسلم التى مَن حادَ عنها فقد جار وٱعتَـدىٰ؛ ولْيَنْظُر فى أُمور مَذْهبِـه ويَعْمَلْ بكل ما صَحَّ نقْلُه عن إمامه، وأَصْحَـابِه من كان منهـم فى زَمَانِه ومن تَخَلَّف عن أَيَّامِه؛ وقد كان ــ رحمـه الله ــ إمَامَ حَقٍّ

نَهَضَ وقَدْ قَعَدَ الناسُ تِلْكَ الْمُدَّه، وقام نَوْبَةَ المِحْنَة وقام «سَيِّدُ تَيْمٍ»(١) رضى الله عنه نَوْبَةَ الرِّدَّه، ولم تَهُبَّ به زُعَازِعُ «المَرِّيسِىِّ» وقد هَبَّتْ مَرِيسًا، ولا «ٱبْنُ أَبِى دُوادٍ» وقد جَمَع كلَّ ذَوْدٍ وسَاقَ له من كُلِّ قُطْرٍ عِيسًا، ولا نَكَثَ عهدَ ماقدَّم إليه «المأمونُ» فى وَصِيَّةِ أَخيهِ من المَوَاثِق، ولا روّعه صوتُ «المعتصِم» وقد صَبَّ عليه عذابَه ولا سَيْفُ «الواثق»؛ فلْيُقَفِّ علىٰ أَثَرِه، ولْيَقِفْ بمسنده علىٰ مذهبه كله أَوْ أَكْثَرِه، ولْيَقْضِ بمُفْرَدَاتِه وما ٱختاره أصحابُه الأخيار، ولْيُقَلِّدْهم إذا لم تختلف عليه الأخبار، ولْيَحْتَرِزْ لدينه فى بَيْع مادَثَر من الأوقاف وصَرْفِ ثَمَنِه فى مِثْله، والٱستبدال بما فيه المصلحة لِأَهْـلِه؛ والفَسْخ علىٰ مَن غَابَ مـدّةً يَسُوغُ فى مِثْلِها الفَسْخُ وتَرَكَ زَوْجَةً لم يترك لهـا نَفَقَه، وخَلَّاهَا وهى مع بقائهـا فى زَوْجِيَّتِه كَالْمُعَلَّقه، وإِطْلَاقِ سَرَاحِها لِتَتَزَوَّجَ بعد ثبوت الفَسْخ بشروطه التى يبقىٰ حكمها به حكمَ المُطَلَّقَه؛ وفيما يمنع مُضَارَّةَ الجار، وما تَفَرّع علىٰ قوله صلَّى الله عليه وسلَّم : «لَاضَرَرَ ولَاضِرَار» . وأَمْرِ وَقْفِ الإنسان علىٰ نَفْسه وإن رآه سِوَىٰ أَهْـلِ مَذْهَبِـه، وطلعت به أَهِلَّة عُلَمَـاءَ لولاهم لمـا جَلَا الزمانُ جُنْحَ غَيْهَبِه . وكذلك الجوائح التى يخفَّف بها عن الضعفاء وإن كان لا يرىٰ بها الإلزام، ولاتَجْرِى إلا مَجْرَى المصالحة دَلِيلَ الٱلتزام . وكذلك المُعَامَلَةُ التى لولا الرُّخْصَـة عندهم فيها لَمَـا أَكَلَ أَكثرُ الناس إلا الحرام المحض، ولا أُخذَ قسم الغـلال والمُعَامَلُ هو الذى يزرعُ البذر ويَحْرُثُ الأرض؛ وغير ذلك مما هو [محيط] بمفرداته التى هى للرفق جامعـه، وللرعايا فى أكثر مَعَايِشِهِم وأَسْبَابِهم نَافعَه، وإذا ٱسـتقرّت الأُصُولُ كانت الفُرُوع لهـا تَابِعَـه؛ والخط الشريف أَعلاه، إن شـاء الله تعالىٰ .

---

(١) سيد تيم هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه .

المرتبــــة الثـانية [1]

(من تواقيع الوظائف الدينيـة بدمشـق ، ما يُكتب فى قطع الثلث مفتتحا بـ«الحمـد لله» إن علَتْ رُتْبَـةُ المُتَوَلِّى أو بـ«أمَّا بعد حَمْـدِ الله» إن ٱنحطت رُتْبَتُه عن ذلك بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولى — قَضَاءُ العَسْكر . وبها أربعة قضاة من المذاهب الأربعة ، كما بالديار المصرية .

الوظيفة الثـانية — إِفْتَاءُ دار العدل بِدِمَشْقَ . وبها أربعة : من كل مذهبٍ واحدٌ ، كما بالديار المصرية .

الوظفية الثـالثة — الحسـبة .

وهذه نسخة توقيع بالحسبة الشريفة :

الحمد لله مُجَدِّدِ النِّعَمِ فى دَوْلَتِنا الشريفـةِ لِمَن ضَفَتْ عليـه مَلَابِسُها ، ومُضَاعِفِ المِنَنِ فى أيامنا الزاهرة لمن سَمَتْ به نَفَائِسُها ، ومُولِى الآلاءِ لِمَن بَسَقَ غَرْسُها لَدَيْه فزهت بجماله ثَمَرَاتُها وزَكَتْ مَغَارِسُها .

نحمده علىٰ نِعَمِه التى تُؤْنِسُ بالشكر أَوَانِسُها ، وتُؤَسَّسُ علىٰ التَّقْوىٰ مَجَالِسُها ؛ ونشهد أَنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً ٱستضاء بنور الإيمان قَابِسُها ، وٱجْتَنَىٰ ثَمَرَ الهُدَىٰ غَارِسُها ؛ ونَشْهَدُ أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أَشْرفُ من أَشْرَقَتْ به معالمُ التوحيد فعَمَرَ دَارِسُها ، وَأَشْرَقَ دَامِسُها ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين قلوبهم مَشَاهِدُ الذِّكْرِ وأَلسِنَتُهم مَدَارِسُها ، وسَلَّمَ تسليمًا كثيرا .

(١) فى الأصل الطبقة الثانية .

وبعـد ، فإنَّ أَوْلىٰ من أُمْضِىَ له ما كان به أَمْرٌ ورُسِم ، وجُدِّدَ له من المَنَاصِب الدِّينية ماعُرِف به من قَبْـلُ ووُسِم ، وأُثْبِتَ لتَرَقِّيه ماحُتِم له به من المراتب السنية بمقتضىٰ الآستحقاق وحُكِم ـ من رَقَمَتْ أَوَامِرُنا له حُلَّةَ مَنْصِبٍ يجدّدها الإحسان ، وأَمَرَتْ له مَرَاسِمُنا بوظيفة تُؤَكِّد عَوَارِفَنا الحِسَان ، وأَثَّلَتْ[له] نِعَمُنا مَنْصِبًا أَعَدَّ له من كَمَالِ الأَهْلِيَّة أَكْمَلَ ما يُعِدُّه لذلك الإنْسَانُ .

ولما كان فلان هو الذى تحلَّىٰ من إِحْسَانِنَا بما يأمن [معه] سعيد رتبته [من] العَطَل ، وآتَّسَم من بِرِّنَا وآمْتِنَانِنا بمـا هو فى حكم المسـتقِر له وإن ألوىٰ به الدَّهْرُ ومَطَل ـ آقتضىٰ إِحْسَانُنا أَنْ نُجَدِّدَ له مَوَاقِـعَ النِّعَم ، ونُشَيِّدَ من رجائه مَوَاضِعَ ما شَمِلَه من البِرِّ والكَرَم ، ونُرِىَ من عَدَق بِنَا رَجَاءَ أَمَله أَنَّنَا نَتَعَاهَدُ سُقْيَا آمَالِ الأَوْلِياءِ والخَدَم .

فلذلك رسم ... ـ لازال بِرُّه شامِلًا ، وبَدْرُه فى أُفُقِ الإحسان كامِلًا ـ أن يُفَوَّضَ إليه نظر الحِسْبَة ويَسْتَمِرَّ فى ذلك علىٰ حكم التوقيع الشريف الذى بيَده : لِمَـا سبق من آختياره لذلك وآصْطِفَائِه ، وآدِّخَاره لهذا المَنْصِبِ من كُفَاة أَعْيَانه وأَعْيَان أَكْفَائِه ؛ ولِمَـا تَحَلَّىٰ [به] من رِيَاسَـةٍ زانته عُقُودُها ، وتَكَمَّلَ له من أَصَالَةٍ ضَفَتْ عليه حِبَرُها وسَمَتْ به بُرُودُها ؛ وتَجَمَّلَ به من نَزَاهَـةٍ أَشْرَقت فى أُفُقِ صُعُودِها إلى الرتبة الجَلِيلة سُعُودُها ، وآتَّصَفَ به من كَمَال مَعْرِفَةٍ نُجِّزَتْ له به من مَطَالِبِ المَنَاصِب وُعُودُها .

فَلْيُبَاشِر ذلك مُعْطِيًا هـٰذه الوظيفةَ من حُسْنِ النَّظَرِ حَقَّها ، مُحَقِّقًا بجميـل تَصَرُّفه تَقَـدُّمَ أَوْلَوِيَّتِه وسَـبْقَها ؛ ولْيَكُنْ لأَمْرِ الأقوات مُلَاحِظا ، وعلىٰ مَنْع ذَوِى الغَـدْرِ من الآحتكار المُضَيِّقِ على الضُّعَفَاء مُحَافِظا ؛ وعلى الغِشِّ فى الأَقْوَاتِ مُؤَدِّبًا ؛ ولإجراء المَوَازِين علىٰ حُكْمِ القِسْط مُرَتِّبًا ؛ ولمن يَرْفَعُ الأسعارَ لغيرِ سَبَبٍ رَادِعا ، ولمن لا يَزَعُه الكلام من المُطَفِّفِينَ بالتَّأْديب وَازِعا ؛ ولِقِيَم الأشـياء مُحَرِّرًا ، ولقانونـِ الجَوْدَة

فى المَزْرُوع والمَوْزُونِ مُقَرِّرا ؛ ولِذَوِى الهيئات بلزوم شرائط المُرُوءَة آخذا ، وعلىٰ تَرْك الجُمَعِ والجَمَاعَاتِ لعامة الناس مُؤَاخِذا ؛ ولتَقْوَى الله تعالىٰ فى كُلِّ أَمْرٍ مُقَدِّما ، و بما يُخَلِّصُه من اللهِ تعـالىٰ لكل ما تقع به المعاملات بين الناس مُقَوِّما ؛ وفى خَصَائِص نَفْسه مايُغْنيه عن تَأْكِيد الوَصَايا ، وتَكْرَارِ الحَثِّ علىٰ تقوى الله تعالى التى هى أَشْرَفُ المزايا ؛ فلْيَجْعَلْها شِعَارَ نَفْسِه ، ونَجِيَّ أُنْسِه ، ومُسَدِّدَ أَحْوَالِه التى تظْهَر بها مَزِيَّةُ يومِه علىٰ أَمْسِه ؛ والخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أَعلاه ، حُجَّةٌ بمقتضاه .

وهذه نسخة توقيع بنظر الحِسْبَة الشريفة ، من إنشاء المَقَرِّ الشِّهابى بن فضل الله ، مضافا إلىٰ نظر أَوقاف المُلُوك ، وهى :

الحمد لله مُثِيبِ من ٱحْتَسَب ، ومُجِيب المُنِيب فيما ٱكتسب .

نحمده حمدا رسب الأدب صرب الطَّرب (١) ، (؟) ونشهد أَنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ظَاهِرَةَ الحَسَب ، طاهرة النسب ؛ ونشهد أَن سيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أَفْضَلُ مَن ٱنتدىٰ وٱنتدب ، وأَدَّبَ أُمَّتَه فَأَحْسَنَ الأَدَب ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبِه صَـلاةً يُكْتَتَمُ أَجْرُها فيكتتب ، ويستتم بها كل صـلاح [ويغتنم بها كل فلاح] ؛ وسَلَّم تَسْلِيماً كثيرا .

وبعـد ، فانَّ الحِسْـبَةَ الشَّريفَـةَ هى قَانُونُ جَوَادِّ الأوضاع ، ومَضْمُون مَوَادِّ الإجماع ، تَجْمع إلى الشريعة الشريفة سِيَاسَةً يُرْهَبُ جِدُّها ، ويُرْهَفُ حَدُّها ؛ وتخشى الرعايا سطواتِ مباشِرِها ، وتَتَنَحَّىٰ عمـا تصُبُّه سيول بوادرها ؛ وأَصحابها الآلة التى هى أُخْتُ السَّـيْفِ فى التَّأْثير ، ولكُلٍّ منهما سَطْوَةٌ تُخَافُ لافرق بينهـما إلَّا ما بَيْنَ

(١) كذا فى غير نسخة بالاهمال ولم نهتد الى تثقيفه .

التَّأنيث والتَّذكير، وله التَّصرُّفُ المُطْلَق ، والتَّعرُّفُ الذى يَفْتَحُ من الحَوَانِيتِ علىٰ أَرْبَابِها كُلَّ بَابٍ مُغْلَق ؛ ولرُكُوبِه فى المدينة زِينَةٌ يُحْشَر لها النَّاسُ ضُحىً ، ورَهْبَةٌ يَغْدُو بها كُلُّ أَمينٍ لشَأْنِه مُصْلِحا؛ وإليه الرجوعُ فى كلِّ تَقْوِيم، وهو المَرْجُوُّ فى كلِّ أَمْرٍ عظيم؛ وهى بدمَشْق ـ حَرَسَها اللهُ تعالىٰ ـ من أَجَلِّ المناصب التى تَتَعَلَّق [عو]اليها بيَد مُتَوَلِّيها وتُؤمل منَازِلَ البُدور ، وإنَّ رَبَّها تَرْجع إلىٰ تَصْرِيفِه أَزِمَّة الأُمور ، ويَنْتَجِعُ سَحَابَه الهَطِلَ غَمَامةُ الجمهور؛ وتَحْيَا به سُنَّةٌ عُمَرِيَّةٌ لولاها لَضَاقَتْ رِحَاب المعاملات ، وضَاعَتْ بالغِشِّ المَعَايِشُ المتداخلات ؛ وظَهَر الغَبْنُ فى غالب مايُشْرى ويُبَاع ، وانتشر التطفيف [الذى] يُزِيل راجحة الميزان ونو الزِّرَاع ؛ ولَكَمْ نَابَ بحُسْنِ تَدْبِيره عن الغَمَام ، ونَظَر فى الدَّقِيقِ والجَلِيل للخاصِّ والعَام ؛ طَالَما ٱنْحطَّ به سِعْرٌ غَلَا أَنْ يُقَوَّم ، ووُجِدَ من الأقوات صِنْفٌ لا يُوجَد واو بُذِل من الشمس دِينَارٌ والبَدْرِ دِرْهَم .

وكان المجلس السَّامِىّ، القَضَائىّ، الأجَلِّىّ، الكَبِيرِىّ، الصَّدْرِىّ، الرَّئِيسِىُّ، العَالِمِىّ، الكَافِلِىّ، الفَاضِلِىّ، الأَوْحَدِىّ، الأَثِيرِىّ، المَاجِدِىّ، الأَصِيلِىّ، العِمَادِىّ؛ مَجْدُ الإسلام، شَرَف الرؤساء، بَهَاءُ الأَنَام، جَمَال الصُّدُور، فَخْرُ الأَعيان، خَالِصَة الدَّوْلة، صَفْوَة الملوك والسَّلاطين : أَدَام اللهُ عُلوَّه، هو الذى رَبَّتْه السِّيَادَة علىٰ وِسَادِها ، ولَبَّتْه السَّعادة إلىٰ مُرَادِها ؛ وبَنَت العَلْيَاء قَوَاعِدَها علىٰ عِمَادِه، وثَنَت المراتبُ أَعْنَاقَها مُتَشَوِّفَةً إلىٰ حُسْن ٱعْتِمَاده؛ وبَاشَر الجَامِعَ المَعْمُور خصوصا والأوقافَ الشَّامِيَّةَ عموما فعَمَرَها، وكَثَّر أعدادها وأَنْمىٰ من بركات نَظَره متحصلاتها وثَمَرَها؛وشيد فى كلٍّ منها مَوَاطِنَ عِبَادَه، ومُلْتَقىٰ حَلْقَة ومَدَارَ سُبْحَة ومَفْرَش سَجَّادَه، وأَبَى اللهُ أَنْ يُقَاس به أَحَدٌ والجَامِعُ الفَارُوق ولِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَه ؛ فَأَوجب له جميلُ نظرنا أن نُضَاعفَ له الأجرَ فى كلِّ عَمَلٍ إليه يَنْتَسِبْ ، ونَزِيدَه

فى رِزْقه سَعَةً : من حَيْثُ يَحْتَسِبُ ومن حَيْثُ لايَحْتَسِبُ؛ فرَأَيْنا أَنَّه أحَقُّ أَنْ يُقلَّد من أمور الحِسْبَة الشريفة حُكْمها المُصرَّف، وحَكَمها المُعرَّف؛ ويقام فيها بهَدْى من تَقَدَّمه فى تقرير أُمُورها علىٰ أَثْبَتِ القواعد، وتَقْدير مصالحها علىٰ أَجْمَل ما جرت به العوائد؛ ويُطَهِّر أقْوَاتَها من الدَّنَس فيما يحضر على الموائد، وإخافة الأعناق من مضاربه التى تقطع ماعفَا السيف عنه من مَنَاط القلائد.

فرُسِمَ بالأمر الشَّريف العالى ـ لا زالت بَمرَاسِمِه تَتَلقّىٰ كُلُّ رُتْبَه، وتُتَوَقَّى الدنايا بمن يقوم بالحِسْبَه ـ أَنْ يفوّض إليه النَّظَرُ على الحِسْبَة الشَّريفة بدِمَشْقَ وما معها من الممالك الشامية المضافة إليها، بالمعلوم المستقرّ، الشاهد به الديوانُ المعمور إلىٰ آخر وقت: مضافا إلىٰ ما هو بيده: من نظر الأوقاف المَبْرُورَة بالشَّام، وأَوْقَاف الملوك. خَلاَ نَظَر الجامع المَعْمُور إلىٰ آخر وقت بحكم إفراده لمن عين له، تَفْويضًا يَضُمُّه إلىٰ رَبَائِب كَنَفِه، ويَعُمُّه بمَوَاهِبِ شَرَفِه، ويُحِلُّه فى أَعْلىٰ غُرَفِه، ويُحَلِّيه بما يَحْسُدُ الدُّرُّ مارَمىٰ من صَدَفِه.

فَاتَّقِ اللهَ فى أحْوَالك، وٱنْتَقِ من يُجْمَع عليه من النُّوّاب فى أَعْمَالك، وَأْمُرْ بالمعروف وَٱنْهَ عن المُنْكَر، فمِنْك المُنْكَرُ لا يُعرَفُ والمَعْرُوف منك لا يُنْكَر؛ وٱعْتَبِرْ أَحْوَال أَرْباب المَعَايِش ٱعْتِبَارًا يُصْلِحُ للناس أَقْوَاتَهم، ويُرْغِدُ أَوْقَاتَهم؛ ولا تَدَعْ صَاحِبَ سِلْعَةٍ يتعدَّىٰ إلىٰ غيرِ ماأَحَلَّه اللهُ له من المَكَاسِب، ولا صَاحِبَ مَعِيشَةٍ [يقدم] علىٰ تَخَلُّل خَلَلٍ فى المآكل والمَشَارِب؛ وٱقْصِدِ التَّسْوِيَةَ بالحَقِّ فإنه سواء فيه البائعُ والمشترى، ولا فَرْق بين الرَّخِيص والثمين؛ وأَقِمِ المَوَازِين بالقِسْطِ حَتَّى لا تُمكن كِفَّاتها أن تتحامل ولا تتحمل، ولا يستطيع قَلْبُها أن يَمِيلَ مع من يَتَمَوَّل، ولا يَقْدِرُ لِسَانُها أَنْ يَكْتُمَ الشهادة بالحَقِّ وإنْ كَانَ مثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ؛ وٱجعلْ لك علىٰ

أَهْـل المبَايَعات حَفَظَةً لِتَظَلَّ أَعْمَـالُهم لك تُنْسَخ . وتَفَقّد الأسواق ممـا يَتَوَلَّد فيها من المفاسد فإنَّ الشَّيْطَان رُبَّمـا بَاضَ فى الأسواق وفَرَّخ. وأَربابُ الصنائع فيهم من يُدَلِّس، وفُقَهاءُ المَكَاتِب منهم مَن لعِرْضه يُدَنِّس، والقُصَّاصُ غَالِبُهم يتعمَّدُ الكَذِب فى قَصَصِه، وأَهْـلُ النَّجَامَةِ كَمْ منهم من لَعِبَ مَرَّةً بعَقْل امْرَأةٍ وأَمَات رَجُلا بغُصَصِه؛ وآخرون ممن تَضِـلُّ بهم العُقُول، وتَظَلُّ حَائِرَةً فيهـم النُّقُول؛ وكثيرٌ ممن سوَىٰ هؤلاء يَدُكَ مبسوطةٌ عليهـم، وأَحْكَامُك مُحِيطة بهم من خَلْفِهم وبَيْنِ يَدَيْهِم؛ فقَوِّمْ منهم مَن مَال، وقَلِّدْ مَالِكًا رضى الله عنه فيما رآه من المعاقبة تَارَةً بإنهاك الجسد وتارَةً بإفساد المـال؛ فرُبَّمـا أَطْغَى الغِـنَىٰ والمصـباحُ فربمـا قَطَّب (١) ... ... وثَمَّ من لا يستقيم حتَّى يُؤَدَّب، ومن لَا يُلَمُّ علىٰ شَعَثٍ وَأَىُّ الرِّجَالِ المُهَذَّب؛ وفيك من الألمعية نورٌ باهر، وكَوْكَبٌ زاهر؛ فلا حاجة إلىٰ أَن تُلْقِىَ الوَصَايَا أَقْلَامَها أَيُّها يَكْفُلُك، ولا تنَبِّهك علىٰ زينة العفاف فيها وهو حُلَلُك؛ والله تعالىٰ يُوَفِّق اعتمادك، ويُوَفِّر من التَّقْوىٰ زَادَك؛ والاعتماد على الخط الشريف أَعلاه الله تعالىٰ أعلاه، حجة بمقتضاه . إن شاء الله تعالىٰ .

الوظيفة الرابعة — وكالة بيت المـال المعمور .

وهذه نسخة توقيع بوَكَالَة بَيْتِ المال، من إنشاء القاضى تاج الدين البارنبارىّ، للقاضى نجم الدين أبِى الطَّيِّب .

الحمد لله الذى جَعَل الطَّيِّباتِ للطَّيِّبين، وهَدَىٰ بالنَّجْمِ المُنِيرِ السَّبيلَ المُبِين، وعَدَق بأئمة الدِّين مصالحَ المسلمين، وآتانا بتَفْوِيضنا إليه، وتوكُّلنا عليه، شَرَفًا فى الشَّأْن وقُوَّةً فى اليقيـن .

---

(١) بياض بالأصل .

نحمده علىٰ أَنْ أَعَان بخـيره وهو خير مُعين ، ونَشْكره علىٰ أَنْ بصَّرنا فى الإرادات ، بالملائكة المُقَرَّبين ، ونَصَرنا فى الولايات ، بالقَوِىّ الأمين ؛ ونشهد أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحده لا شريك له شهادةً أَنوَارُهـا فى القلب مُشْرِقَةٌ على الصَّفَحَات والجَبين ، وأَذْكَارُها على اللِّسَان جَعلَت الإنسان من صَالِح المؤمنين ؛ ونشهد أَنَّ سـيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه هَادِى المهتدين ، ومُوَضِّحُ شِرْعة الإحسان للمحسنين ، و « أَبُو الطَّيِّب » و « أَبُو القاسِم » كُنِّىَ بأولاده المُطَهَّرِين ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الذين منهم من كان من السَّابِقين الأوَّلين ، ومنهم من كان مَهِيبًا للكُفْرِيِّين ، ومنهم من تَزَوَّج بابْنَتَىِ الرسولِ ولم يتَّفِقْ ذلك لغيره فى سَالِف السـنين ، ومنهم من كان الخـيرُ مِلْءَ يَدَيْه : فشُمُولُ البَرَكة بشِمَالِه وذو الفَقَارِ فى اليمين ؛ وسَلَّم تسليماً كثيرا .

وبعـد ، فأَكْرَمُ التفويض ما صادف مَحَلًّا ، وأَبْرَكُ الوِلَايَاتِ ماوَجَد قَدْرًا مُعَلًّى ، وأَحْسَنُ الإحسان ماأَصْبَح به الحال مُحلًّى ، وأَسْنَى الأَنْجُمِ ما أَشْرَق فى مَطْلَعِه وتَجَلَّىٰ ، وأَحَقُّ [الولاة] بإعلاء مَنْصِـبِه مَن أَقْبَلَت عليه وجوهُ الإقبـال حين تَوَلَّى ؛ وأَوْلَىٰ [الولايات] بإجْمَال النَّظر وإِمعانه ، فى تشييد شانه ، وتَمْكِين مَكَانَتِه ومكَانِه ، وحِفْظ حَوْزَتِه من سائرِ أَرْكَانِه ـ وَكَالَةُ بيْت المال المعمور التى بها تُصَان الأرض المقِيسَه ، ومنها تُسْتَبْصَر الآراء الرئيسه ؛ وبها يُؤْمَنُ الاْستيلاء على المَحَالِّ والأَبْنِيَة من كُلِّ جَائِر ، وبها تُزَادُ قِيَمُ المَبِيعَاتِ ممـا هو لبيْتِ المـال ما بين عَامِرٍ ودَاثِر ؛ وإلىٰ مُتَوَلِّيها تَأْتِى الرَّغَباتُ ممن يَبْتَاعُ أَرْضا ، وبه تُمْضَى المصالح وتُقْضَىٰ ، وبه يَظْهَر التميـيزُ فى الثَّمَن الأَرْضَىٰ ؛ وهى فى الشَّام نَخِيمَةُ المِقْدار ، كَرِيمَة الآثار ، مَرْضِيَّة بالربح فى كل أَرْض بَيِّنَـةُ المصالح فى كلِّ بِنَاء دائرةٌ بالنجح فى كل دار ؛ فلا يَشِيمُ بَرْقَها ، ويُتَوِّجُ فَرْقَها ، ويُوَفِّيها حَقَّها ، إلَّا مَن له عِـلْمٌ وتَبْصِرَه ، وعِرْفَانٌ أَوْضَحَ الطريق وأَظْهَرَه ، وحُسْنُ رَأْىٍ فيها آثَرَه وأَثَّرَه ، وصَدَارَةٌ ورد بها مَنْهَلَ الكرَام البَرَرَه .

وكان فُلَانٌ هو ذُو السُّؤْدُد العَرِيق ، والبَاسِقُ فى الدَّوْحِ الوَرِيق ، والمُنْتَسِبُ إلىٰ أَعَزِّ فريق ، والطَّيِّبُ أَصْلًا وفَرْعًا على التَّحْقِيق ، والإِمَامُ فى عُلُومه التى أَصَّلَت التَّفْرِيعَ ووَصَّلَتِ التَّفْرِيق ، والمُوَفَّقُ فيما يَأْتِى ويَذَرُ واللهُ وَلِىُّ التَّوْفِيق ؛ قد أَشْرَق بِدِمَشْق نَجْمُهُ نُورا ، وٱبْتَسَم البرقُ الشَّامِىُّ به سُرُورًا ، وتَصَدَّر بمَحَافِلِها فشَرَح صُدُورا ، وٱبْتَنَىٰ له سُؤْدُدا وجعَل مكَارِمَ الأخلاق عَلَيه سُورًا ؛ تُلْقىٰ بمَحْضَره المسائلُ فَتَلْقىٰ منه وليًّا مُرْشِدا ، وتُذْكَر لَدَيْه المَبَاحِثُ فتَجِدُ علىٰ ذِهْنِه المُتَوَقِّد هُدَىٰ ، وإذا ٱضْطَرَب قَوْلُ مُشْكِلٍ سَكَن بإبانَتِه وهَدَا ؛ إنْ تَأَوَّلَ أَصَاب فى تَأْوِيلِه ، وإن نَظَر فى مَصْلَحَةٍ كانَ رَأْيُه فى السَّداد مُوافِقًا لِقِيلِه ، وقد ٱستخرنا الله تعالىٰ ـ وهو نِعْمَ الوكِيل ـ فى تَوْكِيلِه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه ... ...

فَلْيأْتِ هذا المَنْصِبَ المُنْصَبَّ وَبْلُ بَرَكَتِه من بَابِه ، ولْيُخَيِّمْ فى فسيح رحابه ، ولْينعمْ بجنَّاتِه فى جَنَابِه ؛ ولْيُحَرِّرْ ما يباع من أَمْلَاك بيت المال بشروطه ولَوَازِمه المسطورة فى كِتابه ، ولْيَرْدَعْ من ٱستَوْلىٰ علىٰ أَرْضٍ باغتصابه ، فليس لِعرْقِ ظَالِمٍ حَقٌّ : وهو إما بِنَاءٌ بإِنْشَائِه وإِمَّا غِرَاسٌ بإنْشَابِه ؛ وما يرْتَجِعُ إلىٰ بَيْت المال المعمور من أَرْض وعَقَار ، وروضاتٍ ذَاتِ غِرَاسٍ وأَنْهار ، وقُرًى وما يُضاف إلىٰ ذلك من آثار ؛ فلْيُحَرِّرْ مجموعَه ، ولْيَسْلُكْ فى ذلك الطريقَةَ المَشْرُوعه . ولْيُشْفِقْ إشْفَاقَ المتَّقِينَ الماهدين لمآلهم ، ولْيَنْصَحْ لَنَا وللمسلمينَ فهو وَكِيلُ بيْتِ مَالهم . ومن مَاتَ ولا وَارِثَ له من عَصَبَةٍ أو كَلَالَه ، فإنَّ لبيتِ المَال أَرْضَه ودَارَه ومَالَه .

وقد وَكَلْنا إليك هذا التقليد وقلَّدناك هذه الوَكَالَه ، ووَالِدُك ـ رحمه الله ـ كانت مُفَوَّضَةً إليه قديما فلذلك أَحْيَيْنَا بك تلك الأَصاله .

وٱعْلَم ـ أَعَزَّكَ الله ـ أَنَّ الوَصَايا إِنْ طالت فقـد طاب سَبْحها ، وإن أُوجِزَتْ فقـد كَفَىٰ لَمْعُها ولَمْحُها ، وعَلَى الأَمْرَيْنِ فقد أَنَارَها هنـا بالتوفيق صُبْحُها ، وحَسُنَ بالتصديق شَرْحُها ، وأَطْرَبَ من حَمَـامِ أَقْلامها صَـدْحُها ، والتَّقْوَىٰ فهى أَوَّلُهـا وآخِرُها وخَتْمُها وفَتْحُها ، واللهُ تعالىٰ يَسْقِى بك كُلَّ قَضْبَةٍ [ذَوَى] صَيِّحُها[(١)] ، والخير يكون إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع شريف بوكَالة بيْتِ المَـالِ بالشَّأْمِ أَيْضا :

الحمد لله كَافِى مَنْ تَوَكَّلَ عليْهْ ، ومُحْسِنِ مَآلِ مَن فَوَّضَ أَمْرَه إِليه ، ومُجَمِّلِ مآبِ مَن قَدَّم رَجَاءَنا عند الهِجْرَة إلىٰ أبوابنا بين يديه ، ومُقَرِّعِيْن من أَسْهر فى آستمطار عَوَارِفنا بكمال الأَدواتِ نَاظِرَيْه .

نحمده علىٰ نِعَمه التى جعلت سَعْىَ مَنْ أَمَّ كَرَمنا ، مَشْكُورا ، وسَعْدَ من قَصَد حَرَمنا ، مَشْهُورا ، وإِقْبَالَ مَن أَقْبَل إلىٰ أَبوابنا العالية مُحَقَّقا يتقلَّب فى نِعَمنا مَحْبُورا ، ويَنْقَلِبُ إلىٰ أَهْلِه مَسْرُورا ، ونشهد أَنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شَهَادَةً نَعْتَضِـدُ فيها بالإخلاص ونَعْتَصِم ، ونَتَمسَّك فى الدُّنيا والآخرة بعُرْوَتها ، التى لاتَنْفَصِم ، ونُوَكِّلُ فى إقامة دعوتها ، سُيُوفَنا التى لاتزال هى وأَعْنَاقُ جَاحِدِيها تَخْتَصِم ، ونشهد أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أَضَاءتْ شريعته ، فلم تَخْفَ علىٰ ذى نَظَر ، وأَنَارَتْ مِلَّتُه ، فأَبْصرها القلب قبل البَصَر ، وعَمَّتْ دعوتُه ، فاستوىٰ فى وجوب إِجَابَتِها البَشَر ، وٱخْتَصَّت أُمَّتُه ، بعلماء يُبَصِّرُون من فى طَرْفِه عَمًى ويُظْهِرُون حَقَّ مَن فى بَاعِه قِصَر ، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله الذين عَمِلُوا بمـا عَلِمُوا ، وعَدَلوا فِيما حَكَمُوا ، وحَفِظُوا بالحَقِّ بيوتَ أَمْوال الأُمَّة

(١) القضبة الرطبة من النبات وذوى يبس والصيح فى الأصل خروج العنقود من كامه .

فاشترك أهل الملة فيما غنموا، صلاةً توكّل الإخلاص بإقامتها، وتكفّل الإيمان بإدامتها، وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعد : فإن أهمّ ماصرفت إليه الهمم، وأعمّ مانوجب فى اختيار الأكفاء له براءة الذمم، وأخصّ مااتّخذنا الاستخارة فيه دليلا، وأحقّ ما أقمنا عنّا فيه من أعيان الأمّة وكيلا، لا يدعُ حقّا للأمّة ما وجد إليه سبيلا ـ أمرُ بيت مال المسلمين الذى هو مادّةُ جهادهم، وجادّةُ جلادهم، وسببُ استطاعتهم، وطريقُ إخلاصهم فى طاعتهم، وسدادُ ثغورهم، وصلاح جمهورهم، وجماعُ مافيه إتقان أحوالهم واستقرارُ أمورهم، ومن آكد مصالحه وأهمّها، وأخصّ قواعده وأعمّها، وأكمل أسباب وفوره وأتمّها، الوكالةُ التى تصون حقوقه أن تضاع، وتمنعُ خواصّه أن تشاع، وتحسنُ عن الأمّة فى حفظ أموالها المناب، وتتولّى لكلّ من المسلمين فيما فرض الله لهم الدعوى والجواب، ولذلك لم نزل نتخيّر لها من ذخائر العلماء من زان الورعُ سجاياه، وكمّل العلمُ مزاياه، وانعقد الإجماعُ على كماله، وقصرت الأطماع عن التحلّى بجمال علمه : وهل يبارى من كان علمه من جماله .

ولما كان المجلس السامىّ، الشيخىّ، الفلانىّ، هو الذى ظهرت فضائله وعلومه، ودلّ على بلوغ الغاية منطوق نعته ومفهومه، وحلّى علمه بالورع الذى هو كمال الدين على الحقيقة، وسلك طريقة أبيه فى التفرّد بالفضائل فكان بحكم الإرث من غير خلافٍ صاحبَ تلك الطريقه، مع نسب لنسيب مامرّ حلاله، وتقىّ ما ورثه من أبيه عن كلاله، وثباتٍ فى ثبوت الحقّ لاتستفزّه الأغراض، وأناة فى قبول الحكم لا تحيل جواهره الأعراض، ووقوفٍ مع الحقّ لا يبعده إلى ما [لا] يجب، وبسطةٍ فى العلم بها يقبل مايقبل ويجتنب مايجتنب، وتحقيقٍ تجرى الدعاوى الشرعيّة على محجّته، وإنصافٍ لا يضرّ خصمه معه كونه ألحن منه بحجّته، مع وفادة إلى

أبوابنا العالية تقاضت له كرمنا الجم ، وفضلنا الذى خص وعم ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أن يرجع إلىٰ وطنه مشمولا بالنعم ، مخصوصا من هذه الرتبة بالغاية التى يكبو دونها جواد الهمم ؛ منصوصا علىٰ رفعة قدره التى جاءت هذه الوظيفة علىٰ قدر ، مداوما [لشكر أبوابنا][(١)] علىٰ اختياره لها بعد إمعان الاختبار و إنعام النظر .

فرسم بالأمر الشريف أن تفوض إليه وكالة بيت المال المعمور بالشام المحروس .

فليرق هذه الرتبة التى هى من أجل مايرتقىٰ ، و يتلق هذه الوكالة التى مدار أمرها على التقىٰ وهو خير ماينتقىٰ ، و يباشر هذه الوظيفة التى مناط حكمها فى الورى الذى لاتستخف صاحبه الأهواء ولا تستفزه الرقىٰ ؛ ولينهض بأعبائها مستقلا بمصالحها ؛ متصديا لمجالس حكمها العزيز لتحرير حقوق بيت المال وتحقيقها ، متلقيا مايرد من أمر الدعاوى الشرعية التى يبت مثلها فى وجهه بطريقها ؛ منقبا عن دوافع ما يثبت له وعليه ، محسنا عن بيت المال الوكالة فيما جره الإرث الشرعى إليه ؛ مستظهرا فى المعاقدة بما جرت به العادة من وجوه الاحتراز ، مجانبا جانب الحيف فى الأخذ والعطاء بأبواب الرخص وأسباب الجواز ؛ متنكبا فى تشدده عن طريق الظلم الذى من تحلىٰ به كان عاطلا ، سالكا فى أموره جادة العدل فإنه سيان من ترك حقه وأخذ باطلا ؛ مجتهدا فى تحقيق ما وضح من الحقوق الشرعية وكمن ، متتبعا ماغالت الأيام فى إخفائه فإن الحق لايضيع بقدم العهد ولا يبطل بطول الزمن .

وفى أوصافه الحسنه ، وسجاياه التى غدت بها أقلام أيامنا لسنه ، وعلومه التى أسرت إليها أفكاره والعيون وسنه ، مايغنى عن وصايا يطلق عنان البراعة فى تحديدها ، أو قضايا ينطق لسان البراعة فى توكيدها ؛ ملاكها تقوى الله وهى سجية نفسه ،

(١) فى الأصل « مداوما لها على اخ » .

وَنَجِيَّةُ أُنْسِه، وحِلْيَةَ خَلَالِه المعروفة فى يَوْمه وأَمْسِه؛ فلْيقدِّمْها فى كُلِّ أَمْرٍ، ويَقِفْ عِنْد رضا الله فيها لارِضَا زَيْد ولا عَمْرو؛ واللهُ الموفق بمنّه وكَرَمه :

[الوظيفة الخامسة — الخَطَابه (١)] .

وهـذه نسخة توقيع بالخَطَابة بالجامع الأُمَوِىّ، كُتِب بها لزَيْن الدِّين الفارقىّ، من إنشاء الشيخ شِهَاب الدِّين مَحْمُود الحَلَبِىّ :

الحمد للهِ رافِع الَّذِين أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَات، وجَاعِلِ أَرْجَاءِ المَنَابِرِ بفضائل أَئِمَّة الأُمَّة أَرِجَات، وشَارِح الصُّدُور بذِكْرِه بعد أَنْ كانت من قَبْـل المواعظ حَرِجَات؛ الَّذى زان الدِّينَ من العلمـاء بمن سُلِّمت له فيه الإمَامَه، وصَانَ العِـلْمَ من الأئمة المتقين بمن أَصْحَبَ (٢) له جَامِحُ الفَضْـل يُصَرِّفُ كَيْفَ شَاءَ زِمَامَه؛ ووَطَّدَ ذِرْوَةَ المِنْبَرِ الكَرِيم لمن يحفَظ فى هـداية الأمّة حَقَّـه ويَرْعَىٰ فى البِدَايَة بنَفْسِـه ذِمَامَه، ووَطَّأَ صَـدْرَ المحراب المنير لمَن إِذَا أَمَّ الأُمَّة أَرَتْه خَشْيَةُ اللهِ أَنَّ وجْهَ اللهِ الكَرِيم أَمَامَه .

نَحْمَـده علىٰ ما مَنَحنا من صَوْنِ صَهوَاتِ المَنَابِرِ إلا عن فُرْسَانِها، وحِفْظِ دَرَجَات العِلْم إلا عَمَّن ينظر بإنْسَانِ السُّـنَّة ويَنْطِقُ بلِسَانِها . ونشهد أَنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً لاتزال أَفْوَاهُ المَحَابِر، تُثْبِتُ طُرُوسَها، وأَنْوَاءُ المَنَابِرِ، تُنْبِتُ غُرُوسَها، وأَلْسِنَةُ الإخلاص تُلْقِى على المَسَامع من صُحُفِ الضَّمَائر دُرُوسَها . ونشهد أَنَّ محمدًا عبدُه ورَسولُه الذى شُرِّفتِ المَنَابِرُ أوّلًا برُقِيِّه إليها، وآخرًا بذِكْرِ ٱسْمِه الكَرِيم عَلَيْها؛ فهى الرُّتبـةُ التى يَزِيدُ تَبْصِرَةً علىٰ مَمَرِّ الدُّهورِ بَقَاؤُها، والدَّرَجَة التى يطول إلا علىٰ وَرثَة عِلْمِه ٱرْتِقَاؤُها؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِـه الَّذِين ذَكَّرهم بأَيَّامِ اللهِ فذَكَرُوها،

(١) أضفنا هذه الزيادة لاقتضاء الكلام لهـا .

(٢) أى ذلّ وانقاد بعد صعوبة .

وبصَّرهم بآلاءِ اللهِ فشكَرُوها، وعرَّفهم بمواقِع وحْدانِيّته فجادلوا بسُنّته وأسنَّته الّذين أنْكَروها، صلاةً لا تبرَحُ لها الأرض مَسْجدا، ولا يزالُ ذِكْرُها مُغيرًا فى الآفاق ومُنْجدا، وسلّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنّه لمّا كانت الخَطَابَة من أشْهر شعائر الإسلام، وأظْهر شعَار ملّة سيّدنا محمدٍ عليه أفْضل الصلاة والسلام، شرعَها اللهُ تعالىٰ لإذكار خَلْقه بنِعَمه، وتحْذير عِبَاده من نِقَمِه، وإعْلام بَريَّته بما أعَدّ لمن أطَاعه فى دَارِ كرَامَته من أنْواع كَرَمه، وجعلها من وَظَائف الأمة العامّه، ومن قَوَاعد وِرَاثَة النُّبوّة التامّه، يَقفُ المتلبِّس بها مَوْقف الإبْلاغ عن اللهِ لعِبَادِه، ويقُومُ النَّاهِض بفَرْضِها مَقام المُؤدِّى عن رسول الله ــ صلّى الله عليه وسلم ــ إلىٰ أُمَّته عن مُرَادِ اللهِ ورسولِه دون مُرَادِه، ويُقيمُها فى فروض الكفايات علىٰ سنن سُبْله (١)، ويستنزلُ بها مَوادَّ الرحمة إذا ضنّ الغيثُ على الأرض بوَبْله، وكان المسجدُ الجامع بدِمَشْق المحروسة هو الذى سَارَتْ بذكْره الأمْثال، وقيلَ هَذا من أفْرَاد الدَّهْر التى وُضِعَتْ علىٰ غَيْر مثَال، قد تَعيّن أنْ نَرْتَاد له بحكم خُلُوِّه من الأئمة مَن هو مِثْلُه فَرْدُ الآفاق، وواحدُ العَصْر عند الإطلاق، وإمَامُ علماء زَمَانه غير مُدَافَع عن ذلك، وعلّامَةُ أئِمّة أوَانه الذى يُضِيءُ بنُورِ فَتَاوِيه لَيْلَ الشّكِّ الحَالِك، ونَاصِرُ السُّنَّة الذى تَذُبُّ علُومُه عنها، وحَاوِى ذَخَائِر الفضائلِ التى تَنْمى علىٰ كَثْرة إنْفَاقِه على الطَّلَبَة منها، وشَيْخُ الدُّنيا الذى يُعْقَدُ علىٰ فَضْله بالخَنَاصر، ورُحْلَة الأقطار الذى غَدَتْ نِسْبتُه إلىٰ أنْوَاع العلوم زَاكية الأَحْسَاب طَاهِرَة الأَوَاصِر، وزَاهِدُ الوَقْت الذى زان العِلْمَ بالعَمَل، ونَاسكُ الدَّهْر الذى صَانَ الوَرَعَ بامتداد الفضائل وقِصَرِ الأَمَل، والعَابِدُ الذى أَصْبح حُجَّة

(١) فى الأصل "نبيه" .

العَارِف وقُدْوَة السَّالِك ، والصَّادِعُ بالحقِّ الذى لا يُبَالِى من أَغْضَب إذا رَضِىَ اللهُ ورَسُولُه بذٰلك .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى خَطَبَتْه لهـذه الخَطَابة علومُه التى لا تُسَامَىٰ ولا تُسَام، وعَيَّنَتْه لهـذه الإمَامَة فَضَائِلُه التى حَسُنَت بها وجُوهُ العِلْم الوِسَامُ، حتّىٰ كأنَّها فى فَمِ الزمن ٱبْتِسَام؛ وأَلْقَىٰ إليه مَقَاليدَها كمَالُه الذى صَدَّ عنها الخُطَّاب، وسَدَّ دونَها أبوابَ الخِطَاب ، وقيـل : هذا الإمام الشافعىّ أَوْلَىٰ بهذا المِنْبَر وأَحْرَىٰ بهذا المِحْرَاب ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أَنْ نُحَلِّىَ أعطَاف هذا المِنْبَر بفَضْلِه الذى يُعِيدُ عُودَه رَطيبا ، ويُضَمِّخُ طِيباً منه مَاضَمَّ خَطِيبا ؛ وأَنْ نصَدِّرَ بهذا المِحْرَابِ مَن نعلم أنَّه لَدَى الأمَّة مُنَاجٍ لرَبِّه ، واقِفٌ بين يَدَىْ مَن يَحُولُ بين المَرْءِ وقَلْبِه .

فلذلك رُسِم ... ... ـ لا زال يُوَلِّى الرُّتَب الحسان ، ويَجْرِى بمـا أَمَر اللهُ به من العَدْل والإحْسان ـ أَنْ تفوّض إليـه الخَطَابة والإمامة بجامع دِمَشْق المحروس علىٰ عادة من تقدّمه .

فَلْيَرْقَ هذه الرُّتْبَةَ التى أَمْطَاه اللهُ ذِرْوَتَها ، وأَعْطَاه الفَضْلُ صَهْوَتَها ؛ وعَيَّنَه تَفَرُّدُه بالفضائل لإذْكَار الأمَّة عليهـا ، ورَجَّحَه لها ٱنعقادُ الإجْمَاع علىٰ فَضْلِه حتّىٰ كادت للشَّوْقِ أَن تَسْعىٰ إليه لَوْ لَمْ يَسْعَ إليها ؛ حتّىٰ تَخْتَالَ منه بإِمَامٍ لا تَعْدُو مَوَاعِظُه حَبَّاتِ القلوب، لأنها تَخْرُجُ من مِثْلها ، ولا تَدَعُ خُطَبُه أَثَراً للذُّنُوب ، لأَنَّها تُوَكِّلُ مَاءَ العُيُون بَغَسْلِها؛ ولا تُبْقِى نَصائحُه للدُّنيا عند المُغْتَرِّ بها قَدْرًا : لأَنَّها تبَصِّره بخِدَاعِها ، ولا تترك بَلاغَتُه لِلمُقَصِّرِ عن التَّوبَة عُذْرًا : فإِنَّهَا تُحَذِّره من سُرْعَة زوال الحياة وٱنْقِطَاعِها ؛ ولا تجعل فَوَائِدُه لذَوِى النَّجْدَة والبَأْس ٱلْتِفَاتاً إلىٰ أَهْل ولا وَلَدٍ لأَنَّها تُبَشِّرُه بمـا أعدَّ اللهُ

لمن خَرَج فى سَبِيلهِ، ولا تُمكِّنُ زَواجِرُه مَنْ نَشَر الظلم أَنْ يَمُدَّ إليه يَدًا لأَنَّها تُخْبِره بما فى الإقدام علىٰ ذلك من إغضاب الله و رسوله .

فَلْيُطِلْ ـ مع قِصَرِ الخُطْبَة ـ للظَّالِمِ مَجَالَ زَجْرِه ، ولْيُطِبْ قَلْبَ العالم العامل بوصف ما أَعَدَّ اللهُ له من أَجْرِه ؛ ولْيَجْعَلْ خُطَبه كلَّ وَقْتٍ مَقْصورةً علىٰ حكمه ، مقصودةً فى وُضُوح المقاصد بين من يَنْهَضُ بسُرْعَة إدْرَاكه أَوْ يَقْعُدُ به بُطْءُ فَهَمه ؛ فخيرُ الكلامِ مادَلَّ ببَلاَغَتِه و إنْ قَلّ ، و إذا كَانَ قِصَرُ خُطْبَةِ الرجلِ وطُولُ صَلاَته مَئِنَّةً من فِقْهِهِ فَمَا قَصَّرَ مَن حَافَظَ علىٰ حُكْمِ السُّنَّة فيهما ولا أَخَلّ .

[وهذه] نسخة توقيع بالخطابة بالجامع الأُمَوىّ ، كُتِبَ به للقَاضِى «تَقِىّ الدِّين السبكى» .

الحمد لله الذى جعل دَرَجَاتِ العلماء آخذَةً فى مَزِيدِ الرُّقِى ، وخَصَّ برفيع الدرجات من الأئمة الأعلام كُلَّ تَقِى ، وأَلْقَىٰ مَقَالِيدَ الإمَامَةِ لمن يصون نَفْسَه النَّفِيسَةَ بالوَرَعِ ويَقِى ، وأَعَاد إلىٰ مَعَارِجِ الجَلاَل ، مَن لم يَزَلْ يختار حميد الخِلاَل ، ويَنْتَقِى ، وأَسْدَلَ جِلْبَابَ السُّؤْدَدِ علىٰ من أَعَدَّ للصَّلاَة والصِّلات من قَلْبه وثَوْبِه كلَّ طاهرٍ نَقِى .

نحمده علىٰ أَنْ أَعْلىٰ عَلَمَ الشَّرْعِ الشَّرِيف وأَقَامَه ، وجعل كَلمةَ التَّقْوىٰ بَاقيةً فى أَهْل العِلْمِ إلىٰ يَوْم القِيَامَه ، ونشهد أَنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عَدْلٍ (١) قَيَّد الفَضْلَ بالشكر وأَدَامَه ، وأَيَّد النِّعْمة بمزيد الحَمْد فلا غَرْوَ أَنْ جَمَع بين الإمامة

(١) فى الأصل «شهادة عدل فيها قيد الخ» وضبب علىٰ لفظة «فيها» .

والزَّعَامَه ، ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أَعْلَى اللهُ به عقيرة مُرَتِّل الأَذَانِ ومُدْرِج الاقامه ، وأَغْلَى بِبَرَكَتِه قِيمَةَ مَن تَمَسَّك بسَبِيلِ الهُدَى ولَازَمَ طَرِيق الاستقامه ، صلَّى الله عليه وعلى آله الذين عَقَدُوا عُهُودَ هذا الدِّين وحَفِظُوا نِظَامَه ، وعلى أَصْحابه الذين مامنهم إلا مَن اقْتَدَى بطَرِيقِه فاهْتَدَى إلى طُرُق الكَرامه ، صلاةً لاتزال بَرَكَاتُها تُؤَيِّد عَقْد اليَقِينِ وتُدِيمُ ذِمَامَه ، وسلَّم تسليماً كثيرا .

أَمَّا بعدُ ، فإنَّ من شِيَم دَوْلَتِنا الشريفةِ أن تَرْفَعَ كُلَّ عَالِى المِقْدَارِ مَكَانًا عَلِيًّا ، وتجعَلَ له من اسْمِه وصِفَتِه قَوْلًا مسموعًا وفِعلًا مَرْضِيًّا ، وتُوَطِّدَ له رُتَبَ المعالى وتَزِيدَ قَدْرَه فيها رُقِيًّا ، وتَكْسُوَهم من جِلْبَابِ السُّؤْدُدِ مِطْرَفًا مباركا وَطِيًّا ، وتُطْلِقَ لِسَان إمَامه بالمواعظ الّتى إذَا تَعَقَّلَها أُولُو الأَلْبَاب خَرُّوا لِطَاعَةِ رَبِّهم سُجَّدًا وَبُكِيًّا .

ولما كان المجلسُ العالِى هو الذى أَعَزَّ أَحْكام الشريعةِ الشَّرِيفة وشَادَها ، وأَبْدَى من أَلْفاظه المباركةِ المَوَاعِظَ الرَّبَّانِيَّةَ وأَعَادها ، وأَذَاعَ فيها أَسْرارَ اليَقِينِ وزَادَها ، وأَصْلَح فسادها ، وقوّم مُنْآدَها ، وكَيْفَ لَا وقد جَمَع من العُلُوم أَشْتَاتا ، وأَحْيَا من مَعَالِمِ التُّقَى رُفَاتا ، وأَوْضَح من صفات العلماء العاملين بِهَدْيِه وسَمْتِه هَدْيًا وسِمَاتا ، فلذلك خرج الأمر الشريف الصالحىّ العمادى ... ...

قلتُ : وهذه نسخة توقيع بخَطَابته أيضا ، أَنْشَأْتُه للشَّيخ « شِهَاب الدين ابن حَاجِى » :

الحمد لله الذى أَطْلع شِهَابَ الفَضَائِل فى سَمَاءِ مَعَالِيها ، وزَيَّن صَهَواتِ المَنَابِر بمن قَرَّتْ عُيُونُها من وِلَايَتِه المباركة بتَوَالِيها ، وجَمَّلَ أَعْوَادَها بأَجَلِّ حَبْرٍ لو تَسْتَطِيع فوق

قدرتها لَسَعَتْ إليه وفارَقَتْ ـ خَرْقًا للعَادَة ـ مَبَانِيها ، وشَرَّف دَرَجَها بأَكْمَلِ عَالِم ماوَضَعَ بأَسَافِلِها قَدَمًا إلا وحَسَدَتْها على السَّبْقِ إلىٰ مَسِّ قَدَمِه أَعَالِيها .

نحمده علىٰ أَنْ خَصَّ مَصَاقِعَ الخُطَبَاء من فَضْل اللَّسَنِ بالبَاعِ المَدِيد ، وقَصَر الجَامِعَ الأُمَوِيَّ علىٰ أَبْلَغِ خَطِيبٍ يَشِيبُ فى تَطَلُّبِ مِثْلِه الوَلِيد ، وأَفْرَد فَرِيدَ الدَّهْرِ باعتبار الآستحقاق بِرُقِيِّ دَرَجِ مِنْبَرِه السَّعِيد . ونشهد أَنْ لَا إِله إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شَهَادةً تَخْفُقُ علىٰ مَوَاكِب الصُّفُوف أَعْلامُها ، وتَتَوَفَّر من تذكير آلاء الله تعالىٰ أَقْسَامُها ، ولا تُقَصِّر عن تَبْلِيغ المَوَاعِظ حَبَّاتِ القُلُوب أَفْهَامُها ؛ ونَشهد أَنَّ سيدَنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه أَفْضلُ نَبِيٍّ نَبَّهَ القُلُوب الغافلة من سِنَاتِها ، وأَيْقَظ الخَوَاطرَ النَّائمة من سُبَاتِها ، وأَحْيا رَمِيمَ الأَفْئِدَة بقَوارِع المَوَاعِظ بعد مَمَاتِها ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين عَلَا مَقَامُهم ، ففَاتَت أَعْقَابُهم الرُّءُوس ، ورُفِعَت فى المَجَامِع رُتَبُهم ، فكانت منزلتُهم منزلةَ الرَّئِيس من المَرْءُوس ؛ صلاةً لا تزالُ الأرضُ لها مَسْجِدا ، ولا يَبْرَح مُفْتَرَقُ المَنَابِر باخْتراق الآفاق لآجتماعها مَوْرِدا .

وبعد ، فإنَّ أَوْلىٰ ماصُرِفَت العناية إليه ، ووَقَع الآقتصار من أَهَمِّ المُهِمَّات عليه ـ أَمْرُ المَسَاجد التى أُقِيمَ بها للدِّين الحَنِيف رَسْمُه ، وبُيُوتِ العبادات التى أَمَرَ اللهُ تعالىٰ أَنْ تُرْفَعَ ويُذْكَرَ فيها آسْمُه ؛ لا سِيَّما الجوامعُ التى هى منها بمنزلة المُلُوك من الرَّعِيَّه ، وأَمَاثِلِ الأَعْيَانِ من بين سَائِر البَرِيَّه ؛ ومن أَعْظَمِها خَطَرا ، وأَبْيَنِها فى المَحَاسن أَثَرا ، وأَسْيَرِها فى الآفَاق النَّائِيَة خَبَرا ؛ بَعْدَ المَسَاجِد الثلاثة التى تُشَدُّ الرِّحَالُ إليها ، ويُعَوَّلُ فى قَصْد الزيارة عليها ـ جامعُ دِمَشْقَ الذى رَسَت فى الفَخْر قَوَاعِدُه ، وقَامَتْ عَلىٰ مَرِّ الأيام شَوَاهِدُه ، وقاوَم الجَمَّ الغَفِيرَ من الجَوَامع وَاحِدُه ؛ ولم تَزَلِ الملوكُ تَصْرِفُ العناية إلىٰ إقَامَة شَعَائر وَظَائِفِه ، وتَقْتَصِر من أَهْلِ كُلِّ فَنٍّ علىٰ رئيس ذلك الفَنِّ وعَارِفِه ؛

فما شَعَرَتْ به وَظيفَةٌ إلا آختاروا لها الأَعْلىٰ والأَرْفَع ، ولا وَقَع التَّرَدُّدُ فيها بين آثنين إلَّا تَقَيَّلُوا منهما الأَعْلَمَ والأَوْرَع ؛ خصوصًا وظيفةَ الخَطَابَة التى كان النبىُّ صلَّى الله عليه وسلَّم للقيامِ بها مُتَصَدِّيا ، وعَلِم الخلفاءُ مَقَامَ شَرَفِها بعدُ فباشروها بأنفسهم تَأَسِّيا .

ولما كان المجلس العالى ، القَاضِوِىّ ، الشَّيْخِىّ ، الكَبِيرِىّ ، العَالِمىّ ، الفَاضِلىّ ، الأَوْحَدِىّ ، الأَكْمَلِىّ ، الرَّئِيسىّ ، المُفَوَّهِىّ ، البَلِيغِىّ ، الفَرِيدىّ ، المُفِيدِىّ ، النَّجِيدِىّ ، القُدْوِىّ ، الحُجِّىّ ، المُحَقِّقِىّ ، الوَرَعِىّ ، الخَاشِعِىّ ، النَّاسِكِىّ ، الإمَامِىّ ، العَلَّامِىّ ، الأَثِيلِىّ ، العَرِيقِىّ ، الأَصِيلِىّ ، الحَاكِمِىّ ، الخَطِيبِىّ ، الشِّهَابِىّ : جَمَال الإسلام والمسلمين ، شَرَف العُلماء العَامِلين ، أَوْحَد الفُضَلاء المُفِيدين ، قُدْوَة البُلَغَاء المجتهدين ، حُجَّة الأُمَّة ، عُمْدَة المُحَدِّثين ، فَخْر المُدَرِّسين ، مُفْتِي المسلمين ، مُعِزّ السنة ، قَامِع البِدْعَة ، مُؤَيِّد المِلَّة ، شَمْس الشَّرِيعة ، حُجَّة المتَكَلِّمين ، لِسَانُ المُنَاظِرِين ، بَرَكَة الدَّوْلة ، خَطِيبُ الخُطَبَاء ، مُذَكِّر القُلُوب ، مُنَبِّه الخَوَاطِر ، قُدْوَة الملوك والسَّلَاطِين ، وَلِىُّ أَمِير المُؤْمنين « أَبُو العَبَّاس أَحْمد » أَدَام اللهُ تعالىٰ نِعْمَتَه : هو الذى خَطَبَتْه هذه الخَطَابَة لنَفْسها ، وعَلِمَت أَنَّه الكُفْءُ الكَامِلُ فنَسِيَت به فى يَوْمها ما كان من مَصَاقِعِ الخطباء فى أَمْسِها ؛ إذْ هو الإمَامُ ، الذى لا تُسَامىٰ عُلُومُه ولا تُسَام ، والعلَّامة الذى لا تُدْرَك مَدَارِكُه ولا تُرَام ؛ والحَبْرُ الذى تُعْقَد علىٰ فَضْله الخَنَاصر ، والعَالِم الذى يعترفُ بالقُصُور عن مُجَارَاةِ جِيَادِه المُنَاظِر ، والحَافِظُ الذى قَاوَمَ عُلَماء زَمَانه بلا مُنَازِع ، وعَلَّامَةُ أَئِمة أَوَانه من غير مُدَافِع ؛ ونَاصِرُ السُّنَّة الذى يَذُبُّ بعلومه عنها ، وجَامِعُ أَشْتَاتِ الفُنُون التى يَقْتَبِس أَمَاثِلُ العُلَمَاء منها ، وزَاهِدُ الوَقْتِ الذى زَانَ العِلْمَ بالعَمَل ، ونَاسِكُ الدَّهْر الذى قَصَّر عن مَبْلَغ مَدَاهُ الأَمَل ؛ ورُحْلَةُ الأَقْطار الذى تُشَدُّ إليه الرِّحَال ، وعَالِمُ الآفَاق الذى لم يَسْمَح الدَّهْرُ له بمِثَال ــ آقتضىٰ

حسن الرأى الشريف أن نَرْفَعَه من المنابر علىٰ علىّ دَرَجِها ، ونَقْطَع ببَرَاهِينه من دَلَائِلِ الإلبـاس المُلَبِّسَة دَاحِضَ حُجَجِها ؛ ونُقَدِّمَه علىٰ غيره ممن رَامَ إِبْرَامَ البَاطل فنقض، وحَاوَل رَفْعَ نَفْسِه بغير أَدَاةِ الرَّفع نخفض .

فلذٰلك رسم بالأَمْرِ الشَّريف العَالِى، المَوْلَوِىّ، السلطانىّ، المَلَكِىّ، المَنْصُورىّ، المُعِزِّىّ ـ لا زال يَرْفَع لأَهْل العِـلْم رَاسا ، ويُحَقِّق لذَوِى الجهْـلِ من بلوغ المَرَاتِب السَّنِيَّة يَاسا ـ أن يفوّض إلى المجلس العالى المشار إليه خَطَابَة الجَـامِـع المذكور بانفراده، علىٰ أَتَمِّ القواعد وأَكْمَلِها، وأَحْسَن العوائد وأَجْملها .

فلْيَرْقَ مِنْبَرَه الذى عَاقَب فيـه رَامِحُهُ الطَّالِـعُ أَعْزَلَ غَيرِه الغَارِب،ولْيَتَبَوَّأْ ذِرْوَةَ سَنَامِه الأَرْفع من غير شريك له ولا حَاجِب؛ ولْيَقْصِـد بمَوَاعِظه حَبَّاتِ القُلُوب، ويَرْشُقْ شِهابَ قَرَاطِيسِها المـانعة فإنَّهَا الغَرَضُ المطلوب؛ ولْيَأْتِ من زَوَاجِرِ وَعْظِه بمـا يَذْهَبُ مَذْهَبَ الأَمْثَـال السائره، ويُرْسِـلْهَا من صَمِيم قَلْبِـه العَامِرِ فإنَّ الوَعْظَ لا يَظْهر أَثَرُه إلَّا من القـلوب العَامِرَه؛ ويُقَابِلْ كلَّ قَوْم من التـذكير بمـا يناسب أَحْوَالهم علىٰ أَكْمَل سَـنَن، ويخصَّ كُلًّا من أَزْمَان السَّـنَةِ بمـا يوافق ذلك الزَّمَن ؛ والوَصَايَا كثيرةٌ وإنَّمـا تَهْذِيبُ العِلْمِ يُغْنِي عنها، وتأْدِيبُ الشريعـة يَكْفِي مع القَـدْر اليسـير منها؛ وتَقْوَى الله تَعالىٰ مِلَاكُ الأمور وعنـده منها القَدْر الكَافِى، والحَاصِل الوافى ؛ والله تعالىٰ يُرَقِّيه إلىٰ أَرْفَع الذُّرَىٰ، ويرفعُ علىٰ الجوزاءِ مَجْلِسَه العالى : «وإنَّا لنَرْجُو فَوْقَ ذَلكَ مَظْهَرا» .

الوظيفة السادسة — التَّدَاريسُ الكِبَار بدِمَشْقَ المحروسة .

وهـذه نسخة تَوْقيـع بتَدْريس المدرسـة الرَّيْحانية ، كُتِب به لقـاضى القضاة «عماد الدين الطَّرَسُوسىّ» الحَنَفِىّ، عوضا عن جَلَال الدِّين الرَّازىّ . كُتِبَ بسؤال بعض كُتَّاب الإنشاء، وهى :

الحمد لله الذى جعل عِمَادَ الدِّين عَلِيّا ، وأَحْكَم مَبَانِىَ مَن حَكَم فلم يُدْعَ عَصِـيّا ، وقَضَىٰ فى سَابِق قَضَائِه لإِمْضَاء قَضَائِه أَنْ لا يُبْقِىَ عَتِيًّا .

نحمده علىٰ ما وهب به من أَوْقات الذِّكْر بُكْرَةً وعَشِـيّا ، ونشهد أَنْ لا إِلٰه إِلَّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُنَبِّـه بالعِلْم بوَحْدَانِيَّتِـه من كان غَبِيًّا، وتَكْبِتُ لمَقَـاتِل سيوف العلمـاء مَنْ كان غَوِيًّا، ونشهدُ أَنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كان عند رَبِّه رَضِيّا ، وعلىٰ ذَبِّه عمَّـا شَرَع من الدين مَرْضِيّا، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً لايزال فَضْلُ قَدِيمِها مِثْلَ حَدِيثِها مَرْوِيًّا، وسلَّمَ تَسليماً كثيرا .

وبعـد، فلمَّا كانت رُتَبُ العِلْمِ هى التى يُتَنَافَسُ عليها، ويُتَطَاوَلُ إِلى التَّنَقُّل إِليها، ويُخْتارُ منهـا ما كُسِىَ بمباشرة المتقدِّم مَلَابِسَ الجَلَال ، وآنَ له أَنْ ينتقل إليه البَدْر بعد الهلال ، وكانت المدرسة الرَّيْحانيَّة بمحروسة دِمَشْقَ هى رَيْحَانَةَ المَجَالِس، ورَوْضَةَ العِلْمِ الزَّاكِيَةُ المَغَارِس، وبَحْرُ الفَوَائِد الذى يُخْرِجُ الفرائد، ومَسْرَحُ العلمـاء الذى قد آن أَنْ يظْفَر به منهم من الأَلْفِ زائد .

ولمَّـا تُوُفِّىَ من آلت إليه، وعَالَت مَسْأَلَتُها إِلَّا عَلَيْه، وكان ممَّن قَد وَلِىَ الأَحكام اسْتِقْلَالا ، وكان لبَصَر الدُّنْيَـا جلَاءً وللدِّين جَلَالا ، لم تَكُن إِلَّا لمن يُنْسَىٰ به ذلك

الذَّاهبُ ، و ينسب إليه عِلمُ مذْهَبِه كلّه و إن كان لا يقتصر به علىٰ بَعْض المذاهب ؛ و يعْرَفُ مَن هُوَ و إن لم يُصَرّح باسْمِه ، و يعرفُ مَن(١) هُوَ و إن لم يُذْكر بعَلَاءِ قَدْرِه العَلِيّ وعِلْمِه ؛ ولَا يُمْتَرَىٰ أَنَّه خَلَف «أَبَا حَنِيفَةَ» فيمن خلف ، وحَصَل علىٰ مِثْل ماحَصَل عليـه القَاضِي «أَبُو يُوسُف» وذهب ذلك فى السَّلَف الأَوّل مع من سَلَف ؛ وأَعْلَمَ بجِدَاله أَنَّ «محمدَ بنَ الحَسَن» ليس من أَقْرَان أَبِي الحَسَن ، وأَنَّ «زُفَر» لم يُرْزَق طِيبَ أَنْفَاسِـه فى بَرَاعة اللَّسَـنِ ؛ وأَنَّ «الطَّحَاوِيّ» ما طَحَا به «قَلْبٌ إِلَى الحِسَانِ طَرُوب» و «القَاضِي خَان» لَدَيْه منه الأُنْبُوب ؛ وتَلَقَّب «شَمْسَ الأئمة» لمـا طلع عِلْمَ أَنَّهُ قد حَانَ من شَمْسِ النَّهَـار غُرُوب ، و «الرَّازِى» لمـا جاء تَيقَّنَ أَنَّه يروزه(٢) عن علم الجيوب ، و «المَرْغِينَانِيّ» مُسَّ ولم يُرْغَنْ لَهُ(٣) فى مطلوب ؛ و «الثَّلْجِيّ» ما بَرَّد لطَالِبٍ غُلَّه ، و «الخَبَّازِيُّ» لم يُوجَدْ عنده لطَعَامٍ فَضْلَه ، و «الهُنْدُوَانِيُّ» ما أَجْدَىٰ فى جِلَاد الجِدَالِ ولَا هَزَّ نَصْـلَه ؛ ولم يَزَلْ يُشَار إليـه والتَّقْلِيدُ الشريف لَه بالحكم المُطْلَق بمـا تَضَمَّنَه من مَحَاسِنِ أَوْصَافه شَاهِد ، ودَسْتُ الحُكْم علىٰ عُلَىٰ كيوَانَ شائد ؛ ومدارس العلم تُسِرّ من حُبِّه ، ما حُنِيت عليه من محاريبها الأَضَالع ، ومَجَالِسُ القضاء تُظْهِرُ بقُربِه ، مالم يكن تُدَانىٰ إليه المواضع .

وكان الجناب الكريم ، العالى ، القَضَائِيّ ، الأَجَلِيّ ، الإماميّ ، الصَّدْرِيّ ، العَالمِيّ ، العَامِلِيّ ، العَلَّاميّ ، الكَامِلِيّ ، الفَاضِلِيّ ، الأَوْحدِيّ ، المُفِيدِيّ ، الوَرَعِيّ ، الحَاكِمِيّ ، العِمَادِيّ ؛ ضِيَاءُ الإسلام ، شَرَف الأَنام ، صَدْر الشَّام ، أَثِير الإِمَام ، سيد العلمـاء والحكَّام ؛ رَئِيسُ الأَصْحاب ، مُعِزُّ السُّـنَّة ، مُؤَيِّد المِلَّة ، جَلَال الأَئِمَّة ؛ حَكَم الملوك والسلاطين ، خالِصة أَمِيرِ المؤْمنين ، أَبُو الحسن علىّ بن الطَّرَسوسيّ الحَنَفِيّ ، قَاضِي

(١) كذا فى الأصل ولعله من زيادة قلم الناسخ .
(٢) يروزه يسأله و يختبره . يريد يسأله عن علم الجيوب الفلكية .
(٣) من أرغن له فى كذا . أطاعه فيه .

القُضَاة بالشَّام ـ نشر مُلَاءَةَ مَذْهَبِه، وحَلَّى بجلوسه للحكم طَرَفَى النهار إضاءَةَ مُفَضَّضه وتوشيع مُذْهَبِه، طَالَمَا سَاسَ الرَّعِيَّةَ بحُكْمِه، وسَاد نُظَرَاءَه فى معرفة العلوم الشَّرْعِيَّة بعِلْمه وحِكَمِه؛ وسَار مَثَلُ فَضْلِه فى الأقطار وضَوْءُ الشَّمس مَرَدُّ شُعَاعِه، فطَالَ إلى السَّماء وقَصُر الأُفق الممتدّ علىٰ طُول بَاعِه، وفَاضَ فَيْضَ الغمام وما آكْتَال البَحْرُ بكَيْلِه ولا صَار مِثْلَ صَاعِه؛ وعُرِضَت عليه هذه المدرسة التى لم يكن لغيره أَنْ يحيىٰ ريحانَتَهَا، ولا أَنْ تؤدّى إلىٰ يَدِ سِوَاه فيُودَعَ أَمَانَتَهَا؛ فآثَرَها علىٰ أَنَّه ترك المدرسة المُقَدَّمِيَّة المتقدّمَ له دَرْسُها، المُعَظَّم به فى كُلِّ حِينٍ غَرْسُها؛ لِيُوَسِّعَ بها على الطالب مَذْهَبَه، ويَفْرُغَ لها سَاعَةً من أَوْقَاتِه المُنْتَهَبَة، ويَهَب [لها] من حَقِّه الذى هو فى يده مالو شاء ما وَهَبَه.

فرُسِم بالأمر الشريف ـ لا زَالَ يُقَرِّبُ الآماد، ويُرْضِى القَوْم وأَقْضَاهُم عَلِيٌّ وأَثْبَتَهم طَوْدًا العماد ـ أن يفوّض إليه تَدْرِيسُ المدرسة الرَّيْحَانية المعيَّنة أَعْلاه، علىٰ عادة من تَقَدَّمه وقاعدَتِه إلىٰ آخر وقت؛ بحكم تَرْكه للمقدَّمية ليَهُبَّ عليه رَوْحها وتهب له السَّعادةُ رِيحها؛ ولها من البُشْرىٰ بعلْمِه ما تَمِيسُ به رَيْحَانَةُ رِيحِها سُرُورا، وتَمِيدُ وقد أَكَنَّتْ جَبَلًا من العِلْمِ وَقُورا؛ وتمتدّ وقد نَافَحَت فى مِسْكَةِ اللَّيل عَبِيرا، وفى أُقْحُوَانَةِ الصَّباح كَافُورا؛ وما نُوصِى مِثْلَه ـ أَجَلَّ اللهُ قَدْرَه ـ بوصية إلا وهو يَعْلَمُها، ويُلَقِّنُها من حِفْظِه ويُعَلِّمُها؛ ومن فصل قَضَائه تُؤْخَذُ الآداب، وتُنْفَذُ سِهَامُ الآراء والآرَاب. وتَقْوَى اللهِ بها بَاطِنُه مَعْمُور، وكلُّ أَحَدٍ بها مَأْمور؛ وما نُذَكِّرُه بها إلا علىٰ سبيل التَّبَرُّك بذِكْرِها، والتَّمَسُّك بأَمْرِها. والفُقَهاء والمُتَفَقِّهَة هم جُنْدُه، وبهم يَجِدُّ جِدُّه، [فليجعلهم له فى المشكلات عُدَّه، وليصرف فى] الإحسان إليهم جُهْدَه؛ والله تعالىٰ يُعِينُه علىٰ مَا وَلِى، ويُعَيِّنُه لكلِّ عَلْيَاءَ لا يصلح أَنْ يَحُلَّها إلَّا عَلِي. وسبيلُ كلِّ وَاقِفٍ عليه العملُ به بعد الخطِّ الشريف أَعْلاه.

الوظيفة السابعة — التصادير بدمَشْق المحروسة .

وهـذه نسخة توقيع أنشأتُه لقاضي القضاة «بَدْر الدِّين محمد» آبن قاضي القضاة بَهاء الدِّين أَبِي البَقَاء، وولده جَلَال الدِّين محمد، بإعادة تصديرين كانا باسمهما، بالجامع الأموىّ بِدِمَشْقَ : أَحَدُهما آنْتَقل إليهما عن سَلَفِهما، والثانى بنُزُول، وخرج عنهما عند آستيلاء «تنم» نائب الشَّام على الشَّام فى سنة آثنتين وثمـانمـائة، ثم أعيدَ إليهما فى شوّال من السنة المذكورة، فى قَطْعِ الثُّلُث، وهى :

الحمد لله الذى جعل بَدْرَ الدِّين فى أَيَّامنا الزاهِرةِ مُتَوَاصِـلَ رُتَبِ الكمال، مُتَرَدِّدًا فى فَلَكِ المَعَـالِي بأَكْرَم مَسَاغٍ بين بَهاءٍ وجَلَال؛ مُنَزَّها عن شَوَائِب النَّقْص فى جميع حالاته : فإما مُرْتَقَب الظهور فى سِرَارِه، أَو مُتَّسِمٌ بالتَّمـام فى إِبْدَارِه، أَو آخِـذٌ فى الآزدياد وهو هِلَال .

نحمده علىٰ أَنْ أَقَرَّ الحقوقَ فى أَهْلِهـا، وآنتزع من الأَيدى الغَاصِـبَة ما آقتطعته الأيامُ الجائرةُ بجَهْلِها؛ ونشهدُ أَنْ لا إِلٰه إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَحْمِى قَائِلَها من شَوَائِب التَّكْدير، وتَصُونُ مُنْتَحِلَها من عَوَارِض الإصدار إِذَا وَرَدَ أَصْفَىٰ مَنَاهِل التصـدير؛ ونشهدُ أَنَّ محمَّدا عبـدُه ورسولُه أَفْضَلُ نبِيٍّ آقتفت أُمَّتُهُ آثارَه وآتَّبَعَتْ سَنَنَه، وأَكْرَمُ رَسـولٍ دَعَا إلىٰ سبيل رَبِّه بالحِكْمَةِ والمَوْعِظَةِ الحَسَنه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أَئِمَّةِ الحَقِّ وأَعْلَامِ الهُدَىٰ، وحُمَاةِ الدِّين وكُمَاةِ الرَّدَىٰ؛ صَلاةً يبقىٰ علىٰ مَدَىٰ الأَيَّام حُكْمُها، ولا يَنْدَرِسُ علىٰ مَمَرِّ اللَّيالى رَسْمُها؛ وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من رُعِيتْ له الحقوقُ القَدِيمَه، وحُفِظَتْ له مَسَاعيه الكَرِيمَه، وخُلِّدَتْ عليـه النِّعَمِ التى حقّ لهـا أَنْ تكونَ بأَهْلِها مُقِيمَه؛ من كَرُمَ أَصْلاً وطَابَ

فَرْعا ، وزَكَا مَنْبَعًا وعَذُبَ نَبْعا ، ووقع الإِجْمَاعُ علىٰ فَضْلِه المتَواتِر فأُعْدِقَ الحُكْمُ بتَفْضِيلِه قَطْعا ، ومن إذا تكَلَّم فَاقَ بفضْلِه نَثْرَ اللآلِى ، وإذا قُدِرَ قَدْرَه ٱنْحَطَّت عن بلوغ غايته المَعَالِى ، وإذا طَلَعَ بَدْرُه المُضِىءُ من أُفُقِ مجلسه الموروث عن أَبِيه وأَعْمَامه قال : لَيْتَ أَشْيَاخِى شَهِدُوا هٰذا المجْلِسَ العَالِى ؛ ومَن إذا جَلَس بحَلْقَتِه البَهِيَّةِ غَشِيَتْهُ من الهَيْبَة جَلاَلُه ، وإذا أَطَافَتْ به هَالَةُ الطَّلَبَةِ والمُسْتَفِيدِين قِيل : ما أَحْسَنَ هذا البَدْرَ فى هَذِه الهَالَه ! ، ومَن تَتِيهُ طَلَبَتُه علىٰ أَكابر العلماء بالآنتماء إليه ، وتَشْمَخُ نُفُوسُ تَلاَمذَتِه علىٰ غيره من المتصدّرين بالجلوس بين يَدَيْه ؛ ومَن إذا أَقَام بِمِصْرَ طلع بالشّام بَدْرُه ، ولو أَقَام بالشَّامِ بَقِيَ بِمِصْرَ على الدَّوامِ ذِكْرُه .

وكان المجلس العالى ، القَاضَوِىّ ، الكَبِيرِىّ ، العَالِمِىّ ، العَامِلِىّ ، الأَفْضَلِىّ ، الأَكْمَلِىّ ، الأَوْحَدِى ، البَلِيغِىّ ، الفَرِيدِىّ ، المُفِيدِىّ ، النَّجِيدِىّ ، القُدْوِىّ ، الحُجِّىّ ، المُحَقِّقِىّ ، الإمَامِىّ ، الأَصِيلِىّ ، البَدْرِىّ ، جَمَال الإسلام والمسلمين ، شَرَف العلماء العاملين ، أَوْحَدُ الفُضَلاء المُفِيدِين ، قُدْوَةُ البُلَغَاء ، حُجَّةُ الأَدَب ، عُمْدَةُ المحَدِّثِين ، فَخْرُ المدرّسين ، مُفْتِي الفِرَق ، أَوْحَد الأَئِمَّة ، زَيْنُ الأُمَّة ، خَالِصَةُ المُلُوك والسلاطين ، ولِيُّ أَمِيرِ المؤْمنين ، أَبُو عبد الله ، محمد ٱبن المجلس العالى ، القَاضَوِىّ ، الكَبِيرِىّ ، المرْحُومِىّ ، البَهَائِىّ ، أَبِي البَقَاء الشَّافِعِىّ ، السُّبْكِىّ ، ضَاعَفَ اللهُ تعالىٰ نِعْمَتَه : هو عَيْن أَعْيان الزّمان ، والمحَدَّثُ بفَضْله علىٰ مَمَرِّ اللّيالى ولَيْس الخبرُ كالعِيَان ؛ ماوَلِيَ مَنْصِبًا من المَنَاصب الدِّينِيَّة إلّا كان له أَهْلا ، ولا أَرَادَ الآنصرافَ من مَجْلِس عِلْمٍ إلّا قَالَ له مَهْلا ؛ ولا ٱستُبدِلَ به فى وَظِيفَة إلّا نُسِبَ مُسْتَبْدِلُه إلى الحَيْف ، ولا صُرِفَ عن وِلاَيَةٍ إلّا قَالَ ٱستحقاقُه : كَيْفَ سَاغَ ذَلك لمُتَعَاطِيه فكَيْفَ وكَيْفَ ؟ .

وكان ولدُه المجلسُ السَّامىّ، القَضائىّ، الكَبِيرِىّ، العَالِىُّ، الفَاضِلىّ، الكَامِلىّ، البَارِعىّ، الأَصِيلىّ، العَرِيقىّ، الجَلَالىّ، ضِياءُ الإسلام، فخر الأَنَام، زَيْن الصدور، جَمال الأَعْيان، نَجْلُ الأَفاضل، سَلِيلُ العُلَماء، صَفْوَةُ الملوك والسلاطين، خالصة أَمير المؤمنين، أبو (١) محمد بلَّغ الله تعالىٰ فيه [عارفيه] غَايَةَ الأَمَل، وأَقَرّ به عَيْنَ الزَّمان كما أَقَرّ بِه عَيْنَ أَبِيهِ وقَدْ فَعَل؛ قد أُرْضِعَ لِبَانَ العِلْمِ ورُبِّىَ فى حِجْرِه، ونَشَأَ فى بَيْتِه ودَرَج من وَكْرِه؛ وكَمُل له سُؤْدُدُ الطَّرَفَيْنِ : أَبًا وأُمًّا، وحصل علىٰ شَرَف المَحْتِدَيْنِ : خَالًا وعَمًّا؛ لم يَقَعْ عليه بَصَرُ مُتَبَصِّرٍ إلّا قال : نِعْمَ الوَلَد، ولا تَأَمَّلَه صَحِيح النَّظَرِ إلّا قال : هذا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأَسَد؛ ولا رَمىٰ والدُه إلىٰ غَايَةٍ إلّا أَدْرَكَها، ولا أَحَاط به مِنْطَقَةُ طَلَبَةٍ إلا هَزَّها للبحث وحَرَّكَها؛ ولا ٱقْتَفىٰ أَثَرَ أَبِيهِ وجَدِّه فى مَهْيَعِ فَضْلٍ إلّا قَال قَائلُه : أَكْرِمْ بِهَا من ذُرِّيَّةٍ مَا أَبْرَكَها ! .

وٱتَّفَق أَنْ خرج عنهما ما كان باسمهما من وَظِيفَتَى التَّصدير بالجَامِع الأُمَوىّ المعمور بذكر الله تعالىٰ بدَمَشْق المحروسةِ : المُنْتَقِلَة إحْدَاهما إليهما عن سَلَفِهما الصَّالح قِدَما، والصَّائِرَة الأخرىٰ إليهما بطريقٍ شَرْعىّ مُعْتَبَرٍ وَضْعًا وثَابِتٍ حُكْمًا ـ ٱقتضى حسن الرَّأْى الشريف أَنْ يحفظ لهما سَالِفُ الخِدْمه، ويُرْعَىٰ لهما قَدِيمُ الوَلَاءِ فالعِبْرة فى التَّقْديم عند الملوك بالقُدْمَه .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زال لِذَوِى البُيُوت حَافِظا، وعلى الإحسان لأَهْلِ العِلْم الشَّريف علىٰ مَمَرِّ الزمان مُحَافِظَا ـ أَن يُعَادَ ذلك إليهما، ويُوَالىٰ مَزِيدُ الإحسان عليهما؛ فلْيَتَلَقَّيَا ذلك بالقَبُول، ويَبْسُطَا بالقَوْل أَلْسِنَتَهُما فَمَن شَمِلَه إنْعَامُنَا الشريفُ حقّ لَه أَنْ يَقُولَ ويَطُول؛ ومِلَاك أَمْرِهما التَّقوىٰ فهى خَيْرُ زَاد، والوَصَايا

(١) بياض بالأصل .

وإن كَثُرَتْ فعنهما تؤخذ ومنهما تُسْتَفَاد؛ والله تعالى يُقِرّ لهما بهذا الاستقرار عَيْنا، ويُبْهِجُ خَواطِرَهما بهذه الوِلاية إِبْهاجَ من وَجَدَ ضالَّته فقال : ﴿هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنا﴾ . والاعتماد فى ذلك على الخطّ الشّريف أعلاه الله تعالى أعْلاه، حُجَّة بمُقْتضاه؛ إن شاء الله تعالى .

الوظيفة الثامنة — النَّظَـــر .

وهذه نسخة تَوْقيع بنظر البيمارَسْتان النُّورىّ، كُتِب بها لمن لَقَبُه «شِهابُ الدّين» وهى :

رُسِمَ ... ... ـ لا زالَ يُطْلِـعُ فى سماء المناصب السَّنِيَّة من ذَوِى الأَصالَة والكفاية شِهابا، ويُوزِعُ المُسْتَحِقّين بجِهات البِرّ شُكْرَه إِذ اختار لهم من أهْل النَّهْضة من ارتدى العَفَاف جِلْبَابا، ويُودِعُ صحائفَ الأيّام ذِكْرَه الجميلَ حين أَحْيا قُرُبَاتِ المُلُوك السَّالفين بانْتِخاب مَن يُجَدِّد لهم بحسْنِ المُباشَرَة ثوابا ـ أَنْ يُحْمَل «مَجْلِس الأمير» فُلَان : أَعَزَّه الله تعالى فيما هو بيده من نظر البيمارَسْتان النُّورِىّ بدِمَشْقَ المحروسة، علىٰ حُكْمِ التَّوْقيع الكريم والوِلاية الشَّرْعية اللَّذَيْن بيَدِه، واستقراره فى ذلك بمُقْتَضاهما استقرارا يَبْسُط فى هذا المَنْصِبِ يَدَه ولِسَانَه، ويُظْهِرُ شِهابَ عَدْلِه الذى يُحْرِقُ من الجَوْرِ شَيْطانَه؛ ويُبْرِزُ من مُباشَرَتِه ما عُرِفَ جَوْهَرُه بحُسْنِ الانتِقاء وإبْرِيزُه بحسْن الانتقاد، ومن تأثيره ماتَبْلُغ به الأنفُسُ المُرادَ بأوسع مَراد؛ ويُبْدِى من تدبيره ما يُنْتِج تمييز الوقف وتَثْميره .

فَلْيُباشِرْ ذلك علىٰ عادة مُباشَرَتِه الحَسَنَه، ولْيَسْلُكْ فيها ماعُهِدَ من طَرِيقتِه المُسْتَحْسَنه؛ مُحَصِّلًا من المفردات مايصرفها لمُسْتَحِقّها وقت الحاجة إليها، مُثابِرًا

علىٰ حُسْن مُعَالَجَة المَضْرُور الذى لا تَقْدِرُ يَدُه من العَجْزِ عليها ؛ مُوَاصِلًا فِعْلَ الخَيْرِ بٱستمرار صدقات الواقف لِيُشَارِكَه فى الأَجْرِ والثَّوَاب ، مُسْتَجْلِبًا له من الدعاء ولنا بمُشَارَكَته فى الأَمْر بالعَمَل بسُنَّته إلىٰ يَوْم المَآب ، ضَابِطًا أَمْوال هـذه الجهة بتحرير الأُصُول والمطلق والحِسَاب والحُسَّاب ، متقدّما إلى الخُدَّام والقَوَمَة بحسن الخِدْمة للعَاجِز والضَّعيف ، مُؤَكِّدا عليهم فى أَخْذِهم بالقَوْل اللَّيِّن دُونَ الكلام العَنِيف ؛ مُلْزِمًا لهم بجَوْدَةِ الخدمة لَيْلًا ونَهَارا ، مُؤَاخِذًا لهم بما يُخِلُّونَ به من ذلك إهْمَالا وإِقْصَارًا ، مُتَقَدِّمًا إلىٰ أَرْباب وَظَائِف المعالجة ببَذْلِ النَّصِيحه ، وٱستدراك الأَدْواءِ المُسْقِمَة بإتقان الأَدْوِيَة الصَّحِيحَه ، ولْيَتَفَقَّد الأَحْوال بنَفْسِه : ليَعْلَم أَهْلُ المكان أَنَّ وَرَاءَهم من يقابلهم على التَّقْصِير ، ولْيَبْذُلْ فى ذلك جُهْدَه فإنَّ الآجتهادَ القَلِيلَ يُؤَثِّر الخَيْرَ الكَثِير . والوَصَايَا كَثِيرَةٌ وعنده من التَّأَدُّب بالعِلْم وحُسْنِ المُبَاشَرة ما فيه كِفَايَه ، وفى أَخْلَاقه من جَمِيل المَآثِر وما حَازَه فى البِدَايَة ما يَنْفَعه فى النِّهَايَه ؛ ولكنْ تَقْوَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ هى السَّبَبُ الأَقْوَىٰ ، والمَنْهَلُ الذى مَن وَرَدَه يَرْوَىٰ ؛ فلْيَجْعَلْها له ذَخِيرَةً لِيَوْم المَعَاد ، ومَعْقِلًا عند الخُطُوب الشِّدَاد ، واللهُ تعالىٰ يُبَلِّغُه من التوفيق الأَمَلَ والمُرَاد ؛ بمنّه وكَرَمه ! ، والآعتماد ... ... إنْ شاء اللهُ تعالىٰ .

الصـــنف الثـالث

(من تواقيع أرباب الوظائف بحاضرة دِمَشْقَ - تَوَاقِيعُ أَرْباب الوظائف الدِّيوَانِيَّة ، وفيها مرتبتَان)

المرتبــة الأولى

(ما يكتب فى قطع النصف بـ«ـالمجلس العالى» وهى على ضربين)

الضـــرب الأوّل(١)

(تواقيع الوزارة بالمملكة الشَّامِيَّة على ما آستقرّ عليه الحال)

فقد ذكر فى «التعريف» أَنَّه يكتب بالشَّام للصاحب [عِز](٢) الدين أَبِى يَعْلَى «حَمْزَة بن القَلَانِسىّ» رحمه الله بـ«ـالجناب العالى» لجَلَالَة قَدْره ، وسَابِقَة خدَمه، وعناية من كَتَب له بذلك . لٰكنَّه لم يُبَيِّن مقْدار قَطْع الورق لذلك . ولا يخفى أنه كُتِب به فى قَطْع الثُّلُثَيْن، على القاعدة فى أَنَّه يُكْتَب للجَنَاب فى قَطْع الثلثين. وقد ذكر بعد ذلك أَنَّ الذى آستقرّ عليه الحال أَنَّه يكتب للوزير بالشَّام «المجلس العالى» بالدعاء، كما كُتِب للصَّاحب أَمينِ الدِّين أَمِينِ المُلْك .

[وفيه وظائف :

الوظيفة الأولى - ولاية تدبير الممالك الشامية](٣) .

وهذه نسخة تَوْقيع للصاحب «أَمِينِ المُلْك» المذكور بتدبير الممالك الشَّامِيَّة والخَوَاصِّ الشريفة والأَوْقاف المَبْرُورة، من إنشاء الصَّلَاح الصَّفَدىّ، وهى :

---

(١) لم يذكر الثانى .

(٢) بياض بالأصل والتصحيح من «التعريف» (ص ٧٥) .

(٣) زدنا ما بين القوسين لاقتضاء المقام وتميم الكلام .

الحمد لله الذى جعل وَلِىَّ أَيَّامنا الزَّاهِرة، أَمينا، وأَحَلَّه من ضَمَائِرنا الطاهِرة، مَكَاناً أَيْمَا تَوَجَّه وجَدَه مَكِيناً، وخَصَّه بالإخلاص لدَوْلَتِنا القَاهِرَة، فهو يَقِيناً يَقِيناً، وعَضَد بتَدْبِيره مَمَالِكنا الشَّرِيفةَ فكان علىٰ نَيْلِ الأَمَل الذى لا يَمِين يَمِينا، وزَيَّن بِه آفَاقَ المَعَالِى فما دَجَا أَمْرٌ إِلَّا كان فِكْره فيه صَحِيحًا مُبِينا، وجَمَّل به الرُّتَبَ الفَاخِرَةَ فكَمْ قَلَّدَ جِيدَها عِقْدًا نَفِيسًا ورَصَّع تَاجَها دُرًّا ثَمِينَا، وأَعَانَه علىٰ ما يَتَوَلَّاه فهو الأَسَد الأَسَدُّ الذى آتخذ الأَقْلَام عَرِينَا.

نَحْمَده علىٰ نِعَمِه التى خَصَّتْنَا بولِىٍّ تَتَجَمَّل به الدُّوَل، وتَغْنَى المَمَالِكُ بتَدْبِيره عن الأَنْصَار والخَوَل، وتَحْسُدُ أَيَّامَنا الشَّرِيفَةَ [عليه] أَيَّامُ من مَضىٰ من الدُّوَلِ الأُوَل.
ونشهدُ أَنْ لا إِلٰه إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَسْتَمْطِر بها صَوْبَ الصَّوَاب، ونَرْفُلُ منها فى ثَوْب الثَّوَاب، ونَعْتَدُّ بِرَّهَا وَاصِلًا ليوم الفَصل والمَآب؛ ونَشْهدُ أَنَّ محمدًا عبدُه الصَّادِقُ الأَمين، ورَسُولُه الذى لم يكن على الغَيْب بضَنِين، وحَبِيبُه الذى فَضَلَ المَلَائِكَةَ المُقَرَّبِين، ونَجِيُّه الذى أَسْرَى به من المَسْجِد الحَرَام إلى المَسْجِدِ الأَقْصَىٰ حُجَّةً علىٰ المُلْحِدِين؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين صَحِبوا ووَزَرُوا، وأَيَّدُوا حِزْبَه ونَصَرُوا، وعَدَلُوا فيما نَهَوْا وأَمَرُوا، صلاةً تكونُ لهم هُدًى إذا حُشِرُوا، وتُضَوِّعُ لهم عَرْفَهُم فى العُرْف وتُطَيِّب نَشْرَهم إذا نُشِرُوا؛ وسَلَّمَ تَسْلِيما كثيرا إلىٰ يَوْم الدِّين.

وبعد، فإنَّ أَشْرَف الكَواكِب أَبْعَدُهَا دَارَا، وأَجَلُّهَا سُرًى وأَقَلُّهَا سِرَارًا، وأَعْلاها مَنَارا؛ وأَطْيَبَ الجَنَّاتِ جَنَاباً ما طاب أَرَجًا وثِمَارا، وجُرِّرَ خِلَالَه كُلُّ نَهْرٍ «يروعُ حَصَاه حَالِيَةَ العَذَارىٰ»، ورَنَّحَتْ مَعَاطِفَ غُصُونِه سُلَافُ النَّسِيم فتَرَاها سُكَارَىٰ، ومدَّت ظِلَالَ الغُصُونِ فتخال أَنَّهَا علىٰ وَجَنَاتِ الأَنْهار تدبُّ عِذَارا.

وكانت دِمَشْقُ المحروسةُ لها هذه الصِّفات ، وعلىٰ صَفَاها تَهُبُّ نَسَمات هَذه السِّمَات ، لم يتَّصِفْ غيرُها بهذه الصِّفَه ، ولا اتَّفَق أُولُوا الألْباب إلّا علىٰ مَحاسِنها المُخْتَلِفَه؛ فهى البُقْعَة التى يَطْرَبُ لأَوْصَافِ جَمَالِها الجَمَاد، والبَلَد الذى ذَهَب بعضُ المُفَسِّرينَ إلىٰ أَنَّها إِرَمُ ذَاتُ العِمَاد؛ وهى فى الدُّنيا أُنْمُوذَجُ الجَنَّة الَّتى وُعِدَ المُتَّقُون، ومِثَالُ النَّعِيم لِلَّذين عندَ ربِّهم يُرْزَقُون؛ وهى زَهْرَة مُلْكِنَا، ودُرَّةُ سِلْكِنَا؛ وقد خَلَتْ هَـذهِ المدّةَ ممَّن يُرَاعِى تَدْبِيرَهَا ويَحْمِى حَوْزَتَهَـا ويُحَاشِـيها من التَّدْمِير ويَمْلأُ خَزَائِنَهَا خَيْرا يُجْلَىٰ، إِذَا مَلأْنا سَاحَتَها خَيْلاً ورَجْلا ـ تَعيَّن أَنْ نَنْتَدِبَ لهـا من جَرَّبْنَاه بُعْـدا وقُرْبا، وهَزَزْنَاهُ مُثَقَّفًا وسَلَلْنَاه عَضْبا، وخَبَأْنَاه فى خَزَائِنِ فِكْرِنا فكان أَشْرَفَ مايُدَّخَر وأَعزَّ مايُخْبَىٰ؛ كَمْ نَهَىٰ فى الأَيَّام وأَمَر، وكَمْ شَدَّ أَزْرًا لمَّا وَزَر، وكم غَنِيَتْ به أَيَّامُنا عن الشَّمْس ولَيَالِينا عن القَمَر، وكَمْ رفَعْنا رَايَةَ مَجْدٍ تَلَقَّاها عَرَابَةُ فَضْلِه بيَمِينِ الظَّفَر، وكَمْ عَلَا ذُرَا رُتَبٍ تعزُّ علىٰ الكَوَاكِب الثَّابِتَـةِ فَضْلًا عمن يَتَنَقَّل فى المبـاشرات من البَشَر، وكَمْ كانتِ الأَمْوالُ جُمَادىٰ وأَعَادَها ربيعا غَرَّدَ به طَائِرُ الإقبال وصَفَر .

و[لمـا] كان [الصاحب أمين الملك](١) هو مَعْنى هذه الإشَارَه، وشَمْسُ هذه الهَالَة وبَدْرُ هذه الدَّارَه؛ نَزَل من العَلْيَاء فى الصَّمِيم، وتَخَيَّرْنَا بأَقْلَامه الَّتى هى سُمْرُ الرِّمَاحِ كما تَخَيَّرَتْ بقَوْسِها تَمِيم؛ وحُفِظَت الأَمْوال فى دَفَاتِره التى يُوَشِّـيها فَأَوَتْ إِلَى الكَهْف والرَّقِيم، وقَالَ لِسَانُ قَلَمِـه : ﴿ اجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيم ﴾ وعَقِمَ الزَّمَانُ أَن يَجِيءَ بمثْـله «إِنَّ الزمانَ بِمِثْلِه لَعَقِيم» وتَشَبَّه به أَقْوامٌ فبَانُوا وبَادُوا، وقام منهم عُبَّاد العِبَاد فلمَّـا قام عَبْدُ الله كَادُوا ـ أَرَدْنا أَنْ تَنَال الشَّامُ فَضْلَه كما نَالَتْه مصْرُ فمـا تَسَاهَم فيه سوَاهُما، ولا يقولُ لِسَانُ المُلْكِ لغيْره :

حَلَلْتَ بهـذا حَلَّةً ثُم حَلَّةً * بهٰذَا فطَابَ الوَادِيَانِ كِلَاهُما

---

(١) بيـاض بالأصل والتصحيح ممـا تقدم .

فلذلك رسم بالأمر الشريف أن يفوض إليه تدبير الممالك الشريفة، ونظر الخواص الشريفة والأوقاف المبرورة على عادة من تقدمه فى ذلك .

فليتلق هذه الولاية بالعزم الذى نعهده، والحزم الذى شاهدناه ونشهده، والتدبير الذى يعترف الصواب له ولا يجحده؛ حتى يثمر الأموال فى أوراق الحساب، وتزيد نموا وسموا فتفوق الأمواج فى البحار وتفوت القطر من السحاب؛ مع رفق يكون فى شدته، ولين يزيد مضاء حدته، وعدل يصون مهلة مدته؛ والعدل يعمر، والغدر يدمر، ولا يثمر؛ بحيث إن الحقوق تصل إلى أربابها، والمعالم تطلع بدور بدرها كاملة كل هلال على أصحابها؛ والرسوم لا تزداد على الطاقة فى بابها، والرعايا يجنون ثمر العدل فى أيامه متشابها؛ وإذا أنعمنا على بعض أوليائنا بنحل فلا يكدر وردها بأن تؤخر، وإذا استدعينا لأبوابنا بمهم فليكن الإسراع إليه يخجل البرق المتألق فى السحاب المسخر؛ فما أردناك إلا لأنك سهم خرج من كنانه، وشهم لا ينثنى إلى الباطل عيانه وعنانه؛ فاشكر هذه النعمة على منائحها، وشنف الأسماع بمدائحها؛ متحققا أن فى النقل، بلوغ العز والأمل، وأنه لو كان فى شرف المأوى بلوغ منى «لم تبرح الشمس يوما دارة الحمل»؛ فاستصحب الفرح والجذل، بدل الفكر والجدل .

الوظيفة الثانية — كتابة السر بالشام .

ويعبر عنها بصحابة ديوان الإنشاء الشريف بدمشق . وشأنه هناك شأن كاتب السر بالأبواب السلطانية .

وهذه نسخة توقيع بصحابة ديوان الإنشاء بالشام، كتب بها لفتح الدين بن الشهيد، من إنشاء القاضى ناصر الدين بن النشائى، فى مستهل ذى القعدة سنة أربع وستين وسبعمائة، وهى :

الحمدُ للهِ مُجْزِلِ المَنِّ والمَنْح، ومُرْسِل سَحائِبِ العَطاء السَّمْح، ومُعْمِلِ فِكْرِنا الشَّريف فى ٱنْتِخَاب مَن أَوْرَىٰ زَنْدَ الخَيْر بالقَدْح، ومُنَقِّلِ السِّرِّ بينَ الأَفاضل من صَدْرٍ إِلىٰ صَدْرٍ بِحِمًى يصونُ له السَّرْح، ويُغْنِي مَشْهُورُ أَلْفاظه عن الشَّرْح؛ ومُجَمِّلِ بِنَاءِ الدِّينِ، بمـا سَكن به مِن صَميم الفَضْل المُبِين، وما ٱقْتَرَنَ بأبوابه من حَرَكَةِ الفَتْح.

نحمَـده علىٰ نِعَمٍ عَاطِرَةِ النَّفْح، ونَشْكُره علىٰ مِنَنٍ عَالِيَـةِ السَّفْح. ونَشهدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ لهُ شهادةً تُنَجِّى قَائِلَهـا من حَرِّ الجَحِيم وتَقِيـهِ شَرَّ شَرَرِ ذَلكَ اللَّفْح، وتَخْطُبُ بها أَلْسِـنَةُ الأَقْلام علىٰ مَنَابِرِ الأَنَامِلِ فَتُنْشِئُ عنـدها من مُطْرِبات الوُرْقِ علىٰ غُصُون الأَوْراق هَدِيلَ الصَّدْح. ونشهدُ أَنَّ محمَّدًا عَبدُه ورسولُه الذى بَلَّغَ الرِّسالةَ وأَدَّى الأَمَانَةَ وعَامَلَ الأُمَّةَ بالنُّصْح، وأَزَالَ عنهم التَّرَحَ وأَمِنَه اللهُ علىٰ أَسْرَار وَحْيِهِ فكانَ أَشْرَفَ أَمِينٍ خَصَّـه اللهُ فى مُحْكَمِ آياتِه بالمَدْح، وجعلَه أَعْظَمَ من أَمَرَ بالمعروف ونَهىٰ عن المُنْكَرِ فلم تَأْخُذْه فى اللهِ لَوْمَةُ لَائِمٍ ممَّن لَحَا وممَّن لم يَلْحِ؛ صَلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأَصْحَابه أَهْلِ الوَفَاء والصَّفَاءِ والصِّفَاحِ والصَّفْح، والَّذين جَاهَدُوا فى اللهِ حَقَّ جِهَـادِه بالنَّفْسِ والمَـالِ والكَدِّ والكَدْح؛ ورَفَعوا أَعْلامَهم المُظَلَّلَه، ونَصَـبُوا أَقْلامَهم المُعَدَّلَه، فكَمْ لَهم فى المُشْرِكين من جِرَاحٍ لا تَعرِف الجَرْح؛ وذَادُوا عن حَوْزَةِ الدِّين، بإِرَاقَة دَمِ الكُفَّار المُتَمَرِّدِين، فحُسْن منهـم الذَّبُّ والذَّبْح؛ وكانُوا فُرْسَـانَ الكَلَام، وأُسُودَ الإِقْدَام، الَّذين طَالَمَـا خَسَأَتْ بهم كِلَابُ الشِّرْكِ فلم تُطِقِ النَّبْح؛ صلاةً دائمةً باقيةَ الصَّرْح، ما ٱقْتَرَن النَّظَرُ باللَّمْح، وما هَطَل السَّحَابُ بالسَّح؛ وسـلَّمَ تسليمًا كثيرًا.

وبعـد، فإِنَّ أَوْلىٰ من خَطَبَتِ المَنَاصِبُ العَلِيَّه، مَحَاسِنَه الجَلِيلةَ الجَلِيَّه، ورَغِبَت المَرَاتِبُ التى هى بالخَيْر حَرِيَّه، فى جَمِيل حَالَتِه التى هى بعُقُود المَفَاخِر حَالِيَّه، وسَحَبَت

سَحَائِبُ الإِقْبَالِ الوَابِلِيَّه ، ذُيُولَ فَضَائِلِه الفَاضِلِيَّه ، وٱكْتَسَب العُلومَ الفَرْعِيَّة والأَصْلِيَّه ، من مَجَامِيعِ فُنُونِه التى تُعْرِب عن أَنْوَاعِ الفَوَائِد الجُمْلِيَّة والتَّفْصِيلِيَّه ـ من شَهِدَت المَفَاخِرُ بأَنَّه لم يَزَل الشَّهِيدَ لهـا وٱبْنَ الشَّهِيد ، وحُمِـدَت المآثِر التى هو الشَّهِيرُ بها فما عليها فى جميل الأدوات من مَزِيد ؛ وتَشَـيَّدت مَبَانِى مَعَالِيه التى ٱقترن بَابُ خَيْرِها منـه بالفَتْح المُبِـين ، وتَمَهَّدَت مَعَانِى أَمَالِيـه بالتَّخَيُّل اللَّطِيف واللَّفْظ المَتِين ؛ وتَعَدَّدَت أَوْصاف شِيَمِه فهى لمَحَـاسِن الدَّهْر تَزِيدُ وتَزِين ، وغَدَا من الكَاتِبِين الكِرَامِ والكِرَامِ الكَاتِبِين ؛ الذين تَضِحُ بٱطِّلاعِهِم مَرَاصِدُ المَقَاصد وتَبِين . طالمَـا ٱتَّسَقَ عِقْدُ نَظْمِه المَتِين ، وبَسَقَ غُصْنُ قَلَمِه المُثْمِرِ بالدِّين ، وأَضَاف إلى أَدَبِ الكُتَّاب حِلْيَةَ العُلَمَـاء المُتْقِنِين ، وٱرْتَقَبَ أَفْعالَ الجَمِيلِ التى ٱسْتَوجب بها حُسْنَ التَّرَقِّى إلى أَعْلىٰ دَرَجات المُتَّقِين ، وقَلَّدَ أَجْيَادَ الطُّرُوس جَوَاهِرَ أَلْفَاظِه التى تَفُوقُ الجَوْهَرَ عن يَقِين ؛ فهى بنُضَارِ خَطِّه مَصُوغَةٌ أَبْهَجَ صِيَاغَه ، وفى طَرِيق الإِنْشَاءِ سَالِكَةٌ نَهْجَ البَلَاغَه ، وكذا بِحَارُ الفَضَائل وَارِدَةٌ مَنَاهِلَها المُسَاغَه ؛ كم أَعْرَبَ كَلِمُهُ الطَّيِّب ، عن سَحِّ سَحَابِ الصَّوَاب الصَّيِّب ؛ وكَمْ أَغْنَى فى المُهِمَّات بكُتُبِه ، عن جَيْشِ الكَتَائِب وقُضُبِه ؛ وكَمْ هَزَأَتْ صَحَائِفُه بالصَّفَائِح ، وكَمْ أَغْنَت رَاشِقَات فِكْرِه الثابتة العِلْم عن سَهْو السَّهْم الرَّائِح ؛ وكَمْ تَشَاجَرت أَقْلَامُه البِيضُ الفِعَالِ هى وسُمْرُ الرِّمَاح فكان نَصْرُها اللَّائِح ، وكَمْ تَعَارَض نَشْرُ وَصْفِه وشَذَا الطِّيب فأُلْفِىَ الزَّمانُ ثَنَاءَه هو الفَائِح ، وكَمْ ٱشْتَمَلَ على أَنْوَاعٍ من النَّفَاسَة فاستوجَبَ مِنَّا مَنًّا يَقْضِى له بأَجْزَلِ المُنَىٰ والمَنَائِح .

ولمـا كان المجلسُ العالى ، القَاضَوِىّ ، الأَجَلِّىّ ، الكَبِيرِىّ ، العَالِمِىّ ، الفَاضِلِىّ ، الكَامِلِىّ ، الأَوْحَدِىّ ، الأَثِيرِىّ ، الرَّئِيسِىّ ، البَلِيغِىّ ، المُفِيدِىّ ، المُجِيدِىّ ، الأَصِيلِىّ ، العَرِيقِىّ ، العَابِدِىّ ، الزَّاهِدِىّ ، المُؤْتَمَنِىّ ، الفَتْحِىّ ؛ جَمَـالُ المُلوك والسَّلاطين ، وَلِىّ

أَمير المؤْمنين ، محمد بنُ الشَّهيد ؛ أَدام الله نِعْمَته : هو الذى أَعْرب القَلَمُ عن صِفَاتِه ، وأَطْرب المَسَامِعَ ما أَدّاه اليَرَاعُ عن أَدَوَاتِه ؛ وَرامَ البَنانُ أَنْ يَسْتَوْعِبَ بيانَ شُكْرِه فلم يُدْرِك شَأْوَ غاياته ، وتَسَارَعَتْ بَدَائِعُ البَدَائِهِ من أَفْكاره فسابَقَت جَرَيانَ يَرَاعِه فى أبياتِه ؛ ورَاقَتْ أَمَاليه ، لنَاقِلِى أَلْفاظه ومعَانيه ، فشَكَر السَّمْعُ والفَهْمُ بها هَبَّاتِ هِبَاتِه ؛ فآدَابُه مَشْهُوره ، وعُلُومُه مَذْكُوره ؛ وتَحَلِّيه بمذَاهِب الصُّوفية ٱرتاضت به نَفْسُه الخَيِّرةُ الخَبِيرَه ، وإِخْلاصُه فى عِبَادة الله تعالى حَسُنَتْ به منه السِّيرَة والسَّريرَه ؛ وصِيَانَتُه للأَسْرار الشَّريفة ٱستحق بها إِسْنادَ أَمْرِها إليه ، وإِيدَاعَ غَوَامِضها لَدَيْه ، والتَّعْوِيلَ فى حِفْظِها وفى لَفْظه للفظها عليه ـ ٱقتضىٰ حسْنُ الرَّأْىِ الشَّريف أَنْ نَجْتَبِيَه لِمَا تَحَقَّقْنا منه من ذلك ، ونَخُصَّه بصَحَابَة دِيوانِ الإِنْشاء الشَّريف فى أَجَلِّ الممالك ، ونَجْعَلَ قَدَمه ثابتَةَ الرُّسوخ ، والصُّعُودِ فى مَشْيَخَة الشُّيُوخ ، ليَسْلُكَ فيها أَحْسن المَسَالك .

فلذلك رسم بالأمر الشريف (١) الأَشْرفىّ ، النَّاصِرىّ ـ لا زَالَ لأَبْوابه الشريفة فَتْحٌ فى الخَيْر يَقْدُمُه النَّصْر ، ولسَحَابِه مَنْحٌ ما يعْرِف مَدَدُ أمدادِه القَصْرـ أَنْ تفوَّضَ إليه صَحَابة دِيوَانِ الإنشاء الشَّرِيف ، ومشيخةُ الشيوخ بالشام المحروس ، علىٰ عَادَة من تَقَدَّمه وقَاعِدَتِه ومَعْلومِه الشاهِد به الدِّيوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وَقْت .

فَلْيُباشِرْ ذٰلك بوَافر عفَافِه ، وَوافى إنْصافه ؛ ومَشْهُور أَمَانَتِه ، ومَشْكُور صِيَانَتِه ؛ كَاتِمًا للأَسْرار ، كَاتبًا للْبَارّ ، ليكُونَ من الأَبْرار ؛ عَالِمًا مَصَالِحَ الأَنَام بإرْشاد رأْيِه وصَوَابِه ضَابِطًا أَحْوال دِيوَانه ، مُتَحَرِّيًا فى كَثِير الأُمور وقَلِيلِها : فإن الكِتَابَ يَظْهَر من عُنْوَانِه ؛ مُحَرِّرًا لِمَا يُمْلِى مُعْتَبِرًا لِمَا يَكْتُب ، مُجَمِّلًا للمُطَالَعات الكريمة بفِكْرِه المُتَسَرِّع

(١) بياض بالأصل ولعله "العالى" .

وتصوّره الأرْتَب ، حافِظًا أَزِمَّةَ ما يصــدُر من مِثَال وما يَرِدُ فى المُهِــمَّات الشَّريفة فهو أدرَىٰ وأَدْرَبُ بمـا علَىٰ ذلك يَترَتَّب ؛ مُحافِظًا كعادَتِه علىٰ دِينِه ، لازِمًا لصِــدْق يَقِينِه ؛ خافِضًا لأَهْلِ الخَيْر جَناحَه ، مانِحًا لهم نَجَاحَه ؛ مُعامِلًا للفقراء بكَرَم نَفْس بالله غَنِيَّه ، مُلاحِظًا لأَحْوالهم بالقَوْل والفِعْل والعَمَل والنِيَّه ؛ مُحْتَرِمًا لكَبِيرِهم ، حانِيًا علىٰ صــغيرهم ؛ مُفكِّرًا فيما يعودُ نَفْعُه عليهم ، راكِنًا فى الباطِنِ والظَّاهِر إليهـم ؛ مُعْنِيًا لهم بالاشْــتِغَال بالعِبَاده ، مُسَلِّكًا لهم الطَّرِيق إلَى اللهِ فإنَّهـا الطريقُ الجادَّه ؛ مُسْــتَجْلِبًا لدَعَواتهم الصَّالِحــه ، مُسْتَفِيدًا من مَتَاجِر بَرَكَاتِهــم الرَّابِحَه . والوَصَايا كثيرةٌ ومن نُورِ إفَادَتِه تُقْتَبَس ، ومن مَشْهُورِ مادَّتِه تُلْتَمَس ؛ ومِلاكُها التَّقْوىٰ وهى أَوَّلُ كُلِّ أَمْرٍ وآخِرُه ، وبمُلازَمَتِها تَتِمُّ له مَفَــاخِرُه ؛ واللهُ تعالىٰ يَحْرُسُــه فى السِّرِّ والنَّجْوىٰ ، ويُظْهِر بإرشاده للمعانِى والبَيَان كُلَّ نَجْوَىٰ ؛ بمنّه وكَرَمه ! إنْ شاء اللهُ تعالىٰ .

وهــذه نسخةُ توقيع بكِتَابة السِّرِّ بالشَّام ، كُتِبَ به للقَاضِى « شَرَف الدِّين عبــد الوَهَّاب » بن فَضْــل الله ، عنــد مارُسِم بنَقْله من القَــاهِرَة إلىٰ دِمَشْــق ، فى ذِى الحِجَّة سنة إحْدَىٰ عشرة وسَبْعِمائة ، من إنْشاء الشَّيخ شِهَاب الدِّين « محمود الحَلَبِىّ » وهى :

الحمد لله الذى خَصَّ دَوْلَتَنا الشَّرِيفــة بِرِعَاية الذِّمَم ، وحِفْظِ ما أَسْلَفَ الأَوْلِيــاءُ من الطَّاعات والخِدَم ، وإدَامَة ما أَسْدَتْه إلىٰ خَدَم أَيَّامِنا الزَّاهِرة من الآلاءِ والنِّعَم ؛ وإفَاضَة حُلَل اعْتِنائها ، التى هى أَحَبُّ إلىٰ مَن شَرُفَ بوَلائها ، من حُمْر النَّعَم ؛ وأبقَىٰ عَوارِفَها علىٰ مَن لم يَزَلْ مَعْرُوفًا فى صَوْنِ أَسْرَارِها بسَعَة الصَّــدْر وفى تَدْبِير مَصَالِحِها بصِحَّة الرَّأْى وفى تَنْفِيذ مَرَاسِمِها بطاعة اللِّسَان والقَلَم .

نَحمده على نِعَمه التى ما ٱستَهلّتْ على وَلِىّ فأَقْلَع عنه غَمامُها، ولا ٱستَقرّت بيَدِ صَفِىّ فانْتُزِعَ من يَده حَيثُ تَصرَّفُ زِمامُها، ونَشْهدُ أَنْ لا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا نَزَالُ نَعْتَصم بحبْلِهَا المَتِين، ويَتلَقّى عَرَابَةُ إِخْلاصِنا رَايَةَ فَضْلِها باليَمين؛ ونشهدُ أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أَكْرَمُ مَبْعُوثٍ إلى الأُمَم، بالإِحْسَان والكَرَم؛ صلّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِه الّذِينَ كَرُمت أَنْسَابُهم، وأَضَاءَت لَهم وُجُوهُهم وأَحْسَابُهم؛ فَرَفَلُوا فى حُلَلِ ما ٱكْتَسَوْه من سُنَنِه، وٱكْتَسَبُوه من سَنَنِه، فحَسُنَ منها ٱكْتِساؤُهم وٱكْتِسَابُهم؛ صلاةً لا تزال لها الأَرْض مَسْجِدا، ولا يَبْرَحُ ذِكْرُهَا مُغيرًا فى الآفاق ومُنجدا؛ وسلّمَ تسليمًا كثيرا.

وبعد، فإنَّ أَوْلى من خَوّلَتْه مَكَارِمُنا الإقامةَ حيثُ يَهْوَىٰ من وَطَنِه، وبَوّأَتْه نِعَمُنا الجَمْعَ بين ذِمَامِ بِرِّنا وبين ما فَارَقَهُ من سَكَنِه؛ ومَلّكَتْه عَوَاطِفُنَا، زِمَامَ التّصرّف حَيْثُمَا أَمكن من خِدْمتنا الشريفه، وعَرَّفَتْه عَوارِفُنا، أَنَّ مَكَانَتَه عندنا على حالها حيثُ أَدَّىٰ ما عُدِق به من وَظِيفَه — مَن لَمْ يَزَلْ قَلَمُه لِسَانَ مَرَاسِمِنا، وعِنَانَ ما نُجْرِيه فى الآفاق من سَوَابِق مَكَارِمِنا، وتَرْجُمَانَ أَوَامِرِنا، وخَطيبَ آلائِنا التى غَدَتْ بها أَعْطَافُ التَّقاليد من جُمْلَةِ مَنَابِرِنا.

ولمّا كان المجلس العالى: هو الذى لم يَبْرَحْ صَدْرُه خِزَانَةَ أَسْرَارِنا، وفِكْرُه كَنَانَةَ إعْلَانِنا فى المَصَالح وإِسْرَارِنا، وخَاطِرُه مِرْآةَ آرائِنا، ويَرَاعُه مِشْكَاةَ ما يُشْرِقُ: من أَنْوار تَدْبِيرنا، أَو يَبْرُق: من أَنْوَاءِ آلائِنا؛ يَنْطِق قَلَمُه فى الأَقَاليم عن أَلْسِنَةِ أَوامرِنا المُطَاعه، ويَنْفُذُ كَلِمُه عن مَرَاسِمِنا فى دِيوانِ الإِنْشَاء بما تُقَابِلُه أَقْلَام الجَمَاعة بالسَّمْع والطَّاعه؛ وكانت سِنُّه قد عَلَتْ فى خِدْمَتِنا إلى أَنْ رَأَيْنَا تَوْفيرَ خاطِره على البَرَكات، عن كثير ممّا يَتْبَع رِكَابَنا الشّريفَ من لَوَازم الحَرَكَات؛ وأَنْ نُعْفِيَه ممّا يُلْزِم الإقامةَ بأَبْوَابنا

الشريفـةِ من كَثْرة المُثُول بين يَدَيْنا، وأَنْ تقْتَصِر به عَلىٰ أخَفِّ الوَظيفَتَيْن إذْ لا فَرْقَ فى رُتْبَة السِّرِّ بين ما يَصْدُر عنَّا أَوْ ما يَرِدُ إلَينا .

فرُسم بالأَمْر الشَّريف، العَالى، المَوْلوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكىّ، الفُلانِىّ، الفلانى، أَنْ يكونَ فلانٌ صاحبَ دِيوانِ الإنْشاء الشَّريف بالشَّام المَحْرُوس، بمَعْلومه الشَّاهد له به الديوان المعمور بالأَبْواب العَالية، عِوَضًا عن أَخيه المجلس السامىّ، القضائىّ، المُحْيوىّ «يَحْيي بن فَضْـل اللهِ» ويستـمرّ أَخُوه القاضى «مُحْيِي الدِّين» المـذكور مع جُمْـلة الكُتَّاب بدِيوانِ الإنشاء الشَّريف بالشَّام المحروس، بالمعـلومِ الشَّاهد به الدِّيوانُ المَعْمُور .

فلْيُباشِرْ هذه الرُّتْبَةَ التى تَأَثَّلَتْ به قوَاعِدُها وعن تَقْرِيره وتَحْرِيره أَخَذَ كُلّ مَن كَانَ بأَنْواعها وَأَوْضَاعِها عليما؛ فإنّه لم يخرج عن أَخِيه شَىْءٌ وَصَل إلَيْه، ولا فُوِّضَ له إلّا ما هو بحكم عموم الأَوْلَوِيَّة والأَوّلِيَّة فى يَدَيْه؛ وأَمَّا ما يتعلَّقُ بذلك من وَصَايا تُبْسَط، وقَواعِدَ تُشْرَط؛ فإنَّها منه آستفادها من رَقَّمها، وعَنْه آرْتَوىٰ بها ورَوَاها من تَعَلَّمَها؛ ونَحْنُ نعلَمُ من ذلك ما لا يحتاجُ إلىٰ أَنْ يزدَادَ فيه يَقِينًا، ولا أَنْ نَزِيدَه بذِكْرِه مَعْرِفَةً وتَمْكينًا؛ والاعتماد ... ...

قلتُ : ومن غَرِيب ما وقع : أَنَّه كتب لَلمَقرِّ الشِّهَابِىّ بن فَضْـل اللهِ بكِتَابَةِ السِّرِّ بالشَّام، حين وَلِيَها بعد آنفصاله من الديار المصرية تَوْقِيعٌ مُفْتَتَح بـ«أَمَّا بعدَ حَمْدِ اللهِ» من إنشاء المَوْلَى «تاج الدِّين بن البارنبارى» وكَأَنَّه إنَّما كتب بذلك عند تَغَيُّر السلطان الملكِ النَّاصِر «محمدِ بن قَلاوُون» عليه، علىٰ ما هو مذكور فى الكلام علىٰ كُتَّاب السِّرِّ فى مُقَدِّمة الكِتَاب .

وهذه نسخة تَوْقيع بكِتَابة السِّر بالشَّام المَحْروس :

أَمَّا بعدَ حَمْدِ اللهِ مُنَقِّلِ الشُّهُبِ فى أَحَبِّ مَطَالِعِها ، ومُعْلِى الأَقْدار بتصريف الأَقْدَارِ ورافِعِها ، ومُبْهِجِ النُّفوس بمَعَادِها إلىٰ أَوْطَانِها ومَوَاضِعِها ، ومُمْضِى مشيئته فى خَلِيقَتِه بالخِيَرَة فيما يشاء لطَالِعِها ؛ والشَّهادَةِ له بالوَحْدانيَّة الآخذة من القُلُوب بمَجَامِعِها ، والصَّلاةِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى بصَّر الأُمَّةَ بِهَدْيِها ومَنَافِعِها ، وصَانَ شِرْعَته الشريفة تِلْوَ المِلَلِ بنَسْخِ شَرَائِعِها ، وعلىٰ آله وصَحْبِه الَّذين ٱسْتُودِعُوا أَسْرار المِلَّة فحَفِظُوا نَفِيسَ وَدَائِعِها ـ فإنَّ مَمَالِكَنَا الشريفةَ هى سَوَاءٌ لَدَيْنا فى التَّعْظِيم ، وأَوْلِياءَ دَوْلَتِنا الشريفة يتَنَقَّلُون فيها فى مَنَازِلِ التَّكْرِيم ؛ وعِنْدنا من « فَضْلِ اللهِ » رِعَايَةٌ للعهد القديم ، وتأْكِيدٌ لأَسباب التَّقْدِيم ؛ فلا غَضَاضَةَ لمن نَقَلْناه من أَبْوَابِنا إليها ، ولا وَهَنَ يَطْرأ علىٰ عُلُوِّ المَرَاتب ويَعْتَرِيها ؛ حَيْثُ صَدَقَاتُنا دَائِمَه ، وثُغُورُ إِقْبالنا بَاسِمَه ، ومَرَاسِمُنا لمساعدة الأَقْدار فى الأَيَّام حَاكِمَه ؛ و «الشِّهَابُ» لَوْ لَمْ يَسِرْ فى سَمَائِه ، لَمَا ٱهتدىٰ الناظرون بضِيَائِه ؛ والدُّرَّةُ لو مَكَثَتْ فى صَدَفِها ، لما حَظِيَتْ فى العُقُود بشَرَفِها .

وكان المجلسُ العالى ، القَضَائِىّ ، الشِّهابِىّ ، قد أَقام فى خِدْمَتِنا الشريفة بالأَبْوَاب العالية حَافِظًا للأَسْرار ، قَائِمًا بما نُحِبُّ ونَخْتَار ؛ ثم لَمَّا أَخَذَ حَظَّه من القُرْب من أَيْدِينا الشَّريفة : رَأَيْنا أَنَّ عَوْدَه إلىٰ أَوْطَانِه ، وأَهْلِه من تَمَام إِيمَانِه ؛ وأَنَّ مَرْجِعه إِلىٰ مَحَلِّه ، من نِعَمِ اللهِ عليه وفَضْلِه ؛ وما سَارَ إِلَّا والإِقْبَال يُزَوِّدُه ، والٱستقبال به وأَهْل بَيْتِه يُسْعِدُه ويُصْعِدُه .

فلذٰلك رُسِمَ بالأَمْر الشَّريف أَنْ يُنْقَلَ إلىٰ كِتَابَةِ الإِنشاء الشَّريف بدمَشْق المحروسة ، وأَنْ يكونَ مُتَحَدِّثًا عن وَالِده ، علىٰ ما كان عليه بالديار المصرية ، ولْيُقَرَّرْ له من المعلوم كذا وكذا .

فَلْيَسِرْ إلى دارِ كَرَامَتِه، ولْيَسْتَقِرَّ فى مَوْطِن إقَامَتِه، قَرِيرَ العَيْن، مَمْلُوءَ اليَدَيْن، مَسْرُورًا برفْعِ المَحَلِّ فى المَمْلَكَتَيْن؛ ولْيَكُنْ لوَالِده - أعَزَّه اللهُ تعالى - عَضُدًا، ولْيُصْبِحْ له فى مهماتنا الشريفة سَاعِدًا ويَدا، ولْيُضْحِ به اليومَ بَرًّا ليَجِدَ رِضَا الله غَدًا؛ فإنَّ والِدَه بركةُ المَمالك، وله قَدِيمُ هِجْرَة، وسَالِفُ خِدْمَة، وحُسْنُ طَوِيَّة، فنحن نَرْعَاه لذلك، والمُهِمَّاتُ الشريفةُ يَتَلَقَّاهَا بنَفْسه، وليُصْدِرْ فُصُول المطالعة مُدَبَّجة على عَادَتِه فى تَدْبِيج طِرْسِه؛ وليَسْتَعِنْ بالله فهو وَلِيُّ الإعَانَه، ولْيَعْتَمِدْ على الرِّفْق فى أمْرِه فما كان الرِّفْقُ فى شَيْءٍ إلَّا زَانَه؛ وما بَعُدَ عنّا، مَن كان بَعِيدًا بالصورة قَرِيبًا بالمَعْنَى، واللهُ تعالى يزيده مِنَّا مَنّا!؛ والخط الشريف أعْلاه حُجَّة فيه؛ إن شاء الله تعالى.

الوظيفة الثالثة — نَظَر الجيوش بالشَّام.

وشَأْن صَاحِبِها كِتَابة المُرَبَّعَات التى تُنْشَأُ من الشَّام، وتنْزِيلُ المَنَاشِير الشريفة التى تصدر إليه.

وهذه نسخة تَوْقِيع شريفٍ من ذلك، كُتِبَ به «لموسى بن عبد الوهاب» من إنْشَاء السيِّد الشريف شِهَاب الدِّين، وهى:

الحمدُ لله الذى جعل إحْسَانَنَا عَائِدًا بِصِلَاتِه، وفَضْلَنا يجمع شَمْلَ الإسْعاد بَعْد شَتَاتِه، وعَوَاطِفَنا تُنَبِّه جَفْنَ الإقْبال من إغْفَائِه وسِنَاتِه.

نحمدُه على أنْ نَصَر بِنَا جَيْشَ الإسلام فى أرْجاء مُلْكِنا الشَّرِيف وجِهَاتِه، وجعل البَرَكَة واليُمْنَ بِأمْرِنا فى حَالَتَيْ مَحْوِه و إثْبَاتِه؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريك له شهادةً زادت فى جَزَاء المُخْلِص وحَسَنَاتِه، وأضْحتْ نُورًا يَسْعَى بين يديه إلى رحمة رَبِّه وإلى جَنَّاتِه؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه و رسُوله الذى أظْهَر اللهُ به وَاضِحَ آياتِه،

وأصبح النَّشر عابقًا من نَشر راياته، ومحا الفترة بهديه وسرّ سرائر أوليائه وأكمد قُلوب عُداته، صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه ماتأرّج النّسيم فى هبّاته، وأبهج العطاء بجزيل هِباته، وسلّم تسليمًا .

وبعد، فإنّ من النِّعم ما إذا عادتْ أقرّت العُيون، وحقّقت الآمالَ والظُّنون، ورفعتِ الأقدار وإنْ لم يزل رفيعًا محلُّها، وجمعت المسارَّ الممتدّ على الأفئدة ظِلُّها، وعمرت رُبُوعَ الإحسان، وغمرتْ بمنائحها الحِسان، كهذه النِّعمة التى تلقّت الإقبال من حافل غَمامه، وجمعتْ شَمل التّقديم مشفُوعا بإكرامه، وأعادت سماءَ التّكريم هاديةً بقُطبها، مُشرقةَ الأرجاء بنُور ربِّها، وسفرتْ بدُورُها بمن هو أولى باجتلائها، وتهيّأت رُتبُها لمن هو جديرٌ باعتلائها، وحقيقٌ بأنْ تعودَ المواهبُ بعد فترتها، وأنْ تُقبلَ عليه وُجوه المنائح بعد لَفتتها، لتُصبح كواكبُ الإسعاد كأنّها ما أفلَتْ، وعطايا التّخويل كأنّها ما انتقلتْ، ويعودَ عليه اليومُ كأمسه، ويرجع أُفُقُ العوارِف الجسامِ مُشرقًا ببدْرِ الاجتباء وشمسه .

ولمّا كان فلانٌ هو الذى حسُنتْ فى الخدَم الشّريفة آثاره، وحُمِدَ إيرادُه فى المُهمّات الشريفةِ وإصدارُه، وشكره شامُه ومِصْرُه، وسما فى كُلِّ جهةٍ حلّها محلّه وقدْرُه، وتُحقّقتْ منه رآسةٌ قضت له بإبداء النِّعم وإعادتها، وأنْ تجرى له الدّولةُ من الإكرام على أجمَلِ عادتها، وأن تُرْعى له حُقُوقُ ألِفها حديثًا وقديما، وتُنْشر عليه ظِلالُ الفَضل حتّى لايفقِدَ منها على طُولِ المَدى تكريما .

فلذلك رُسِم بالأمْر الشّريف ... ... لازال ... ... أن يستقر... ... تجديدًا لملابِس سعْده، وتأكيدًا لقواعد مجْده، وترديدًا للفَضْل الذى حلا منْهلُ وِرْده، ورعايةً لخدَمه التى أكبّتْ عليها السيوفُ والأقلام، وشكرت تأثيرها جُنُودُنا ـ نصرها اللهُ

تعالى - بمِصْرَ والشّام ؛ ولما له من حُسْنِ سَمْتٍ زَادَه وقَارُه ، وأصْلٍ صَالِحٍ طَابَتْ منه ثِمَارُه .

فلْيَسْتَقِرّ فى هذه الوظيفة المباركة : عَالِمًا أنّ لِسَانَ القَلَمِ أمْسَك عن الوصايا لأنّه خَبَرَ هٰذه الوظيفةَ فَرْعاً وأصْلا ، وألِفَتْ منه نَاظِرًا عَلَا قَدْرًا وكَرُم مَحْتِدًا وفَصْلا ؛ وهو بحمد اللّهِ أدرى بسُلُوكِ مِنْهَاجِهَا القَوِيم ، وأدْرَبُ باقتفاء سَنَنِها المُسْتَقِيم ؛ والخير يكون ، والاعتماد فى ذلك على الخَطِّ الشّرِيف إن شاء الله تعالى أعْلاه ، حُجّة بمقتضاه .

المرتبة الثانية

(من مَرَاتب أرْباب التّواقيع الديوانية بدِمَشْق - مَن يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء مفتتحا بـ«الحمد لله» إن عَلَت رُتْبته وإلا بـ«أما بعدُ» ، وتشتملُ على وظائفَ)

منها - نَظَر الخِزَانَة العالية ، وشأنها هناك نظير الخِزَانَة الكُبرى بالديار المصرية فى القديم ، ونَظِيرُ خِزانة الخاصّ الآن .

وهذه نسخة تَوْقيع بنَظَر الخِزَانة العَالية :

أمّا بعدَ حمدِ الله على نِعَمِه التى خَصّت المَنَاصبَ السنيةَ فى أيّامنا الزّاهرة بكُلِّ كُفْءٍ كريم ، وجعلت على خَزَائن الأرْض من أوْلياء دَوْلَتنا القاهرة كلّ حَفِيظٍ عَلِيم ؛ وأفَاضت ظِلّ إنْعامنا على من إذا أُنْعِمَ النّظَر فى حقِّ ذَوِى البُيُوت القديمة كان أحَقّ بالتّقْديم ؛ والصّلاةِ على سيدنا محمد أفْضل من حَبَاه بفَضْله العَمِيم ، واجْتَباه لهِدَاية خَلْقِه إلى السَّنَنِ القَوِيم ، وجعل سلامةَ الصّلاة المقبولة من النقص مقرونةً بالصلاة عليه والتّسْليم - فإنّ أوْلى من رجّحه لِخدْمَتِنا الاخْتيار ، وقدّمه فى دَوْلَتنا الاخْتبار ؛

وأخلَصَه حسنُ نَظرنا الشَّريف رُتْبَةَ أبيه من قَبْل ، وأغْدق له سَحَابُ بِرِّنا صَوْبَ إِحْسانٍ فلم يُصِبْه طَلٌّ بَلْ وَبْل - من حُمِدَ سَيْره وسِيَره ، وشُكِر فى طَاعَتِنا وِرْدُه وصَدَرُه ، وزَانَ الأصالةَ بالنَّبَاهَه ، والرِّآسَةَ بالوَجَاهه ، والمعرفةَ بالنَّزَاهَه ، وجمع بين الصَّلَف والاطِّلاع ، والتَّضَلُّع من العِفَّة والاضْطِلاع ، والصِّفات التى لو تَخَيَّرها لنَفْسه لم يَزِدْها علىٰ مافيه من كَرَم الطِّبَاع .

ولما كان نَظَرُ الخزانة العالية بدِمَشْق المحروسة رُتْبَةً لا يَرْقَىٰ إليها من الأكْفَاء إلا مَنْ ومَنْ ، ولا يُقَدَّم لها من الأولياء إلا مَن تَعَيَّن من رُؤَساء العَصْر وفُضَلاءِ الزَّمَن ؛ وكان فلانٌ هو الذى عَيَّنه لها ارْتيادُ الأكْفاء ، واصْطُفِى هو من أهْل الصَّفَاء ، وتَقَدَّم من وَصْف مَحَاسِنه ما لا يرَوّع تَمَامُ بَدْره وظُهُورُه بالنَّقْص والاخْتِفَاء .

فلذلك رسم بالأمْر الشَّريف أنْ يفوّض إليه نَظَرُ الخزانة المذكورة .

فلْيُبَاشِرْ ذلك مباشرةَ من يحقِّقُ فى كِفَايَته وفَضِيلَته التَّأْميل ، ويُظْهِرُ حسنَ نَظَرِه الذى هو كالنهار لا يحتاجُ إلىٰ دَلِيل ؛ ولْيَجْرِ علىٰ جميل عادته فى النهوض فى خِدْمَتِنا بالسُّنَّة والفَرْض ، ويُضَاعِف اجْتِهَادَه الذى بمثله جُعِل مَنِ اخْتِيرَ علىٰ خَزَائِن الأرْض ؛ وهو يعلم أنّ هذه الرتبةَ مآلُ الأمْوال ، وذَخَائِرِ الإسلام التى هى مَادَّة الجُيوش ومَوَارِدُ الإفْضَال ؛ فلْيُعْمِلْ فى مَصَالِحِها فِكْرَه ودَأْبَه ، وإذا كان حسنُ نَظَرِنا الشريف قدجعله المُؤْتَمَنَ عليها: ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أمَانَتَه ولْيَتَّقِ اللهَ رَبَّه﴾ . وفى سيرَتِه التى عُرِّفت ، وصِفَاتِه التى إنْ وُصِفَت فما أُنْصِفَت ؛ مايُغْنِى عن تَفَاصِيل الوَصَايا وجُمَلِها ، وإعَادَة مزايا التأكيد : قَوْلِها وعَمَلِها ؛ لكِنْ مِلاكُها الصِّيَانَة التى هو بها مَوْصوف ، والتَّقْوى التى هو بها مَعْروف ؛ والاعْتماد علىٰ الخط الشَّريف أعْلاه .

ومنهـا ـ صَحَابة دِيوانِ النَّظر، وصَحَابة دِيوانِ الجَيْش ونحو ذلك من الوظـائف الديوانية بِدمَشْق .

قلتُ : هـٰذا إن كتب من الابْواب الشَّريفة السُّلطانية ، و إلَّا فالغالبُ كِتَابة ذلك عن نائب السَّلطنة بدمَشْق .

الصـــــنف الرابع

(من الوظائف بِدمَشْـــق وظائفُ المُتَصَوِّفة ومَشَايخ الخَـوَانِق، وفيهـا مَرْتبتان)

المرتبـــــــة الأولىٰ

(ما يكتب فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السَّامى» بالياء، مفتتحا بـ«ـالحمدُ لله» . وبذلك يُكْتَب لشَيْخ الشُّيوخ بالشَّام، وهو شَيْخ الخَانِقاه الصَّلاحية، المسماة بالشميصاتية)

وهذه نسخة تَوْقِيع بذٰلك ، وهى :

الحمدُ لله الذى اختار لعِمَارَة بُيُوته أوْلِياءَ يُحِبُّونَه ويُحِبُّهم ، وأَصْـفِيَاءَ حَفَّهُم بِرَحْمته فاجْتَهدوا فى طَاعَتِه فازداد قُرْبُهم ، وأتْقِياءَ زَهِدُوا فى الدُّنيا وابْدلوا الفَانِىَ بالبَـاقى وطَابَ فى مَوْرِدِ الصَّفَاءِ شِرْبُهم .

نحمدُه حَمْدَ من جعل حُبَّ الله دِثَارَه ، ومَلَابِس التَّقْوىٰ شعَارَه ، ونَشْكُره والشُّكْرُ لمَزِيدِ النِّعم أمَارَه، وللقُلُوب الدَّائِرَة عِمَارَه، ونشهدُ أنْ لَاإله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِصٍ فى التَّوحيد، يَتَبَوَّأ بهـا جِنَانَ الخُلْدِ ويَخْلُص من سَمَاعِ قَوْل جَهَنَّم :

هَلْ مِنْ مَزِيد ؛ ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أسْرَىٰ به إلىٰ حَضْرَة أُنْسِه ، وحَظِيرَة قُدْسِه ؛ صلّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَن سَبَق الأُمّةَ بشَىْءٍ وقَرَّ فى صَدْره ، ومنهم من دَلّت وَاقِعَةُ سَارِيَةَ علىٰ عُلُوّ شَأْنه ورِفْعة قَدْره ؛ صلاةً لاتزالُ الأرْضُ لها مَسْجِدا ، ولَا يبرَحُ ذِكْرُها مُغيراً فى الآفاق ومُنْجِدًا ؛ وسَلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعد ، فإنَّ أحَقَّ مَن عُومِل بالتّقديم ، وأجْدَرَ مَن يُخَصّ بالتّكْرِيم ؛ مَن كَان قَدْرُه فى الأولياء عَظِيما ، وذِكْرُه فى الآفاق بين أهْل المَعْرفة قَدِيمـا ؛ وتَجْرِيدُه عن الدنيا مَشْهورا ، وسَعْيُه علىٰ قَدَم الطاعة مَشْكورا ؛ وشُهُوده لمَقَام الكَمَال مُسْتَجْليا ، وٱسْتِجْلَاؤُه لموادّ الأُنْس مُسْتَمْلِيا ؛ فهو فى هذه الطائفةِ الجليلةِ سَرِىُّ المِقْدار ، مَعْرُوفُ الصفة فى حلْيَة الأَوْلياء ومَنَاقِب الأبْرَار ، والمُتَقَدّم من الإمامة فى مجمع الأخْيار .

ولما كان المجلسُ السامىّ ، الشَّيْخىّ ، الكَبِيرىّ ، العَالِمىّ ، العَامِلىّ ، الأوْحَدىّ ، الزَّاهدىّ ، الوَرَعىّ ، الأصِيلىّ ، الفُلانِىّ ؛ جَلَال الإسلام والمسلمين ، وشَرَف الصُّلَحاء فى العالَمين ، شيخُ الشُّيوخ ، قُدْوَة السَّالكين ، مُعْتَقَد الملوكِ والسَّلَاطين ، أعاد الله تعالىٰ من بَرَكاته : هو المقصودَ من هٰذه العِبَاره ، والمَلْحُوظَ بهذه الإشَاره ـ ٱقتضىٰ حسنُ الرّأْى الشريف أنْ يُخَصَّ فى الدنيا بالتّعظيم ، ويُمَيَّزَ فى هذه الأُمّة بالتّكْرِيم .

فلذلك رُسِم بالأمْرِ الشّريف ـ لا زالَ له مِن جُنُود اللّيل جيْشٌ لا تَطِيشُ سِهَامه ، ومن فُرْسان المَحَارِيب مَدَدٌ لا تَزِلُّ فى مُلَاقاة الرِّجال أقْدَامهُ ـ أنْ يستقرّ فى كذا .

فلْيُقَابِلْ هٰذه النعمةَ بالسُّرور ، وليتأثّلْ هٰذه الفَضِيلة بحَمْد اللهِ الشَّكُور ، ولْيُوَاظِبْ علىٰ وظيفة الدعاء بدَوَام أيَّامنا الزّاهِره ، وليَسْتَمْطِرْ جَزِيل الفَضْل من سَحَائب جُودنا

المَاطِرَه؛ ولْيَبْسُطْ يدَه فى عَمَل المَصَالح، ولْيَسْتَمِرَّ على السَّعْيِ الحَسَنِ والعَمَل الصَّالح؛ فإنّ هٰــذه البُقْعَةَ مَأْوَى القَادِمِ والقَاطِن، وتَسْمُو علىٰ أمْثالهــا من المَوَاطن؛ ولْيَكُنْ لأسْرَارِهم مُوَقِّرا، ولِأقْوَاتِهــم المُعِينَةِ على الطَّاعَة مُيَسِّرًا؛ واللهُ تعالىٰ يجعــل خَلَوَاتِه مَعْمُوره، وأفْعَالَه مَبْرُورَه؛ والاعتماد فى ذلك علىٰ الخطِّ الشَّريف .

قلتُ : هٰذا إن وليهــا شَيْخٌ من مَشَايخ الصُّوفية، علىٰ عَادَة الخَوَانق . وقد يَليها كاتبُ السِّرّ بالشَّام، فيُكْتَب تقليده بكِتَابة السِّرّ فى قَطْع النِّصف «بالمجلس العَالى» علىٰ عادة كُتَّاب السِّرّ، ويُشَارُ فى تَقْليده إلىٰ بَعْض الألْفاظ الجامعة بين المقامين، ويُضَاف إلىٰ ألْقَاب كِتَابة السِّرّ بعضُ ألْقَــاب الصُّوفية المُنَاسِــبةِ لهذا المقام . علىٰ أنَّه رُبَّمــا كُتِبَ بولَايَتِها عن نائب السَّلطنة بالشَّام لكَاتِب السِّرّ أو غيره .

المرتبــــة الثــانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة مفتتحا بـ«رُسم»)

وهذه نسخة تَوْقيع من ذلك، وهى :

رُسِمَ بالأمْر الشَّريف ـ لا زالت أوَامِرُه تُحِل القُرُبات مَحَلَّها، ومَرَاسِمُه تُسْــنِد الرُّتَبَ الدِّينيةَ لمَن إذا خُصُّوا بمَوَاقِعها كانوا أحَقَّ بهــا وأهْلَها ـ أنْ يُرَتَّب فلانٌ فى كذا : إذ هو أوْلَى من خُصَّ بمَوَاطِن العِبَاده، ونَصَّ بتَرْفيــه الأسْرار على التَّحلِّى بافَاضَــةِ الإفاده؛ ووَفَّر كَدَّه علىٰ اجتلاء وجوه المعارف من أفق المراقبــه، وجَمَع خَاطِرَه لاجتناء ثَمَرة الأُنْس من أفْنان الطَّاعات النَّابِتَة فى رِيَاض المُحَاسَبَه؛ مع تَمَسُّكه بعُلُوم الشريعة الذى [خلص] معرفته من الشَّوَائِب، وأحْيَا الدُّجَىٰ من اقتبال شَبِيبَة

ظَلَامه إلىٰ أن تَشِيبَ منه الذَّوَائب ؛ ونَفْعٍ متعَدٍّ إلىٰ كلّ طَالِب فَضْلٍ وملتمس ، ودين باهر من مصباح مِشْكَاة العِلْمِ والعَمَل لكُلّ بَاغِى نُورٍ ومُقْتَبِس .

فليَسْتَقِرّ شَيْخًا بالمكان الفُلَانىّ : لتعمُرَ أرجاؤه بتَهَجُّده، وتُشْرِق خَلَوَاتُه بتَعَبُّده ؛ وتَعْذُبَ مَوَارِدُه بأَوْرَادِه، وتُطْلِعَ مَجَالِسُه نُجُومَ مَعْرفته البَازِغَة من أُفُق إيرادِه ؛ [و]لتغْدُوَ هـذه البُقْعَة رَوْضَةَ أفكار، وقِبْلَةَ أذْكَار ؛ ومَرَاقِىَ دَعَوات، ومَرَافِعَ بَرَكَات ، تُستنْزَل بين صَلَوات مَقْبولة وخَلَوات ؛ ولْيَتَنَاوَلِ المعلومَ المستقرَّ له تَرْفِيهًا لِسِرِّه، وتَنْزيهًا لفِكْرِه ؛ وإعَانَةً علىٰ الآنقطاع بهـذه البقعة التى تتصل به أسْبابُ السَّعادة فى أرْجَائِها ، وتَخْصيصًا لها منه بإمَامٍ تَقِىّ لو كان لبُقْعةٍ أنْ تَجْتَنِىَ بَرَكَتَه لكان مُنْتَهىٰ رَجَائِها ؛ ولْيَرْفَعْ من الأدْعِية الصالحة لأيَّامنا المباركة مالا تَزَال مَوَاطِنُ القَبول لنَفَحَاته المترقَّبَة مُتَلَقِّيه، وما لا تَبْرَحُ النفوسُ لخَشْيَتِه المَانِعَةِ مُتَوَقِّيه ؛ والآعتماد علىٰ الخطّ الشَّريف أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

قلتُ : هٰذا إن كُتب عن الأبواب السُّلطانية . وإلَّا فالغالبُ كتَابة ذلك عن نائب السلطنة بالشَّام .

النــــوع الثـانى

(من وظائف دِمَشْق ماهو خارج عن حاضرَتها)

وقد تقدّم فى المقالة الثانية : انَّ لدِمَشْق أرْبعَ صَفَقات ، وهى : الغَرْبية ، والشَّرْقية ، والقِبْلية ، والشَّمَالية .

فأمَّا الصَّفْقة الغَرْبية : وهى المعبَّر عنها بالسَّاحِلِيَّة والجَبَلِيَّة ، على ماتقدّم فيها ، ففيها من وظائف أرْباب السيوف عدّةُ وظَائِف ، وتُوَلِّى فيها الأبْوابُ السُّلْطانية .

منها ــ نِيَابَة القُدْسِ . وقد تقــدّم أنَّها كانت فى الزَّمن المتقدّم وِلَايَةً صغيرةً يَلِيها جُنْدِىٌّ، ثم آستقرّت نيابةَ طَبْلَخَاناه، فى سنة سبع وسبعين وسبعمائة، وأنَّ العادةَ جرت أنْ يُضَاف إليها نَظَر الحَرَمَيْن : حَرَمِ الخَلِيل عليه الســلام، وحَرَمِ القُدْس . والذى يكتب له مرسومٌ فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالسَّامِىّ» بالياء .

ومنها ــ نيابة قلعة الصُّبَيْبَة . وقد تقدّم أنَّها من أجَلِّ القِلَاع وأمْنَعِها، وأنَّه كان يَلِيها نَائِبٌ مُفْرَد من أجْنَاد الحَلْقَــة أو مُقَدَّمِيها عن نائب دِمَشْــقَ ، ثم أُضِيفت إلىٰ وَالِى بَانِيَــاسَ . ثم آستقرّت فى ســنة أَرْبعَ عَشْرَةَ وثمــانمــائة فى الدولة الناصرية « فرج » نِيَابَةً .

ومنها ــ نيابة قَلْعة عَجْلُونَ . وقد تقــدّم أنَّها علىٰ صِغَرِها حِصْنٌ حَصِينٌ، مَبْنِيَّــةٌ علىٰ جَبَل عوف،(١) بناها أُسَامَة بن مُنْقِذ، أحَدُ أُمَرَاءِ السُّلطان صَلَاحِ الدِّين «يوسف ابن أيُّوب» فى سَــلْطَنة العادل أبِى بَكْر، وأنَّه كان مَكَانَها رَاهِبٌ آسمه عَجْلُون، فسُمِّيت به . ثم آستقرّت فى الدولة الناصرية « فَرَج » فى سنة أرْبعَ عَشْرَةَ وثمانمائة إمْرَةَ طَبْلَخَاناه .

وقد تقدّم أوّلَ هذا القِسْم ما يُكْتَب للمقدّمين، وما يكتب للطَّبْلَخَاناه، وما يكتب للعَشَرات .

أمَّا أرْباب الوظائف الدِّينيَّة .

فمنهــا ــ مَشْيَخَة الخَانقَاهِ الصَّلَاحية بالقُدْس . وتَوْقيعُها يُكْتب فى قَطْع الثلث مفتتحا بـ«ـالحمــد لله» .

(١) فى تقويم البلدان ص ٢٢٨ أن جبــل عوف كان أهله عصاة فبنىٰ عليهم أسامة حصن عجلون وهو معقل حصين مشرف على الغور .

ومنها ـ خَطَابَة القُدْس ، وتوقيعها كذٰلك .

ومنها ـ مَشْيخة حَرَم الخليل، وتَوْقِيعُها فى العَادَةِ يكتب مفتتحا بـ«رُسِم» .

وأمَّا الصَّفْقة القِبْلِيَّة ، فالّتى يولّى بها من الأبْواب السُّلطانية نِيَابةُ صَرْخَد . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشَّاميَّة أنَّه قد يجعل فيها من يَقْرُب من رُتَبِ السَّلْطنة ، وحينئذٍ : فإن وَلِيَها مُقَدَّم ألْفٍ ، كان مَرْسُومُه فى قَطْع النِّصف بـ«ـالمجلس العالى» . وإنْ وَلِيَها أميرُ طَبْلَخَاناه، كان مَرْسُومه فى قَطْع النِّصف أيْضا، بـ«ـالسَّامىِّ» بالياء .

وأما الصَّفْقة الشَّرْقية فالنِّيابات بها على طَبَقَتَيْن :

الطبقـــة الأولىٰ

(ما يُكْتَب به مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع النِّصف، وهو ما يَلِيه مُقَدَّمُ ألْفٍ أو طبلخاناه ، وفيها نيابات)

النيـابة الأولىٰ ـــ نيـابة حِمْص .

وقد تقدّم أنَّها كانت نِيَابَةً جليلةً، كان يَلِيها فى الدَّولة النَّاصرية «محمد بن قلاوون» مقدّمُ ألفٍ ، وأنه ذكر فى "التَّثقيف" أنَّها صارت الآن طَبْلَخَاناه . وحينئـذ : فإن كان بها مُقَدَّمُ ألْفٍ، كان مَرْسومُه فى قَطْع النِّصف بـ«ـالمجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه، كان مَرْسومُه فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السامىّ» بالياء .

وهذه نسخة مرسومٍ شريفٍ بنيابة السلطنة بحِمْص :

الحمد لله مُقَدِّرِ كلِّ أجلٍ إلىٰ حِين، ومُقَرِّرِ أمُورِ الممالك فى عبَاده الصَّالحين؛ الذى جعل بِنَا أَوْلِيَاءَنا من الرَّابِحين، وحَفِظَ ما ٱسْتَرْعَانا من أُمُور عِبَاده بولَايَةِ النَّاصحين .

نحمده على ٱختيارٍ لا يصلُ إليه قَدْحُ القادحين ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحده لا شريكَ له شهادةً نكونُ بها فى غَمَرات الحُروب على السَّوابح سابحين ، ونشهدُ أنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه أكرم المانحين ، وأعظم الفاتحين ، وأشرَفُ من ولّى الأعمال الكُفاةَ الوُفاةَ المُكافحين ، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً لا تزال فيها الحَفَظةُ على أعمالنا مُماسين ومُصابحين ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ مَراسيمنا الشَّريفةَ وإنْ تأخَّر وقتُها إلى أجلٍ معْدُود ، وأمَدٍ ممْدُود ، ومَضَتْ أيّامٌ وليَالٍ ولها بابٌ مَسْدود ، وعَمَلٌ سببُه غيرُ مشْدُود ــ فإنّا كالسَّيْف يتلاهَى ثُم إذَا صَمَّم لا يرْجِع ، وكالغَمام تتَمادَى مُددُ مَدِّه ثم يجُود فلا يُقلِع ، ولم نَزَلْ منذ فوّض اللهُ أُمُورَ بِلادِه إلينا ، وصرَّف أُمُور جُمْهور عباده بيَدَيْنا ، نَرَى أنْ نحْمِىَ غَاباتِها بأشَدِّ الأُسُود ، ونَرْمِىَ غاياتِها بمَن هو لأمرٍ مّا يَسُود ، ونَحُوطَ جَنَباتِها بمَن لا يَسْتَبِيحُ حَرَمَه إلا الوُفُود ، ونَحُطَّ رَكائبَ رعَايَاها منه على من هو المقْصود ، ونُنِيبَ إلى ما يَترجّح من مَصالحهم لَدَيْنا ، ونَسْتَنِيبَ لِمَن يترجّى الحُسْنَى إذا عُرِضَتْ مُتجدّداتُ أُمورهم عَلَيْنا ، وإذَا ٱنفَرد بحُكْمٍ لا يَظُنُّ إلّا أنّه بمَسْمَع من أُذُنَيْنا ، ومَرْأًى من عَيْنينا ، لأنَّ نُوّابَ الممالك الشريفة فُرُوع عَدْلِنا الشَّريف ونحن أصْلُها ، وأسْبابُ إحْسَانٍ بأوامرِنا المُطاعة قَطْعها ووَصْلُها .

وكانت حِمْصُ المَحْروسةُ من أكبر المَمالك القَديمه ، والمُدُن العَظيمه ، تَغْرَقُ الأقَاليمُ فى مَدِّها ، وتمْتَدُّ عساكرُها فتُعَدُّ حُماةُ حَماةَ من جُنْدها ، وهى من الشَّام المحروس فى مُلْتَقَى مواكبه ، ومَجَرِّ عَواليه ومجْرَى سوابقه ومجْمَع كتائبه ، طالما كان بها الحَرْب سِجالا ، وطالما سابقَتْ بها الرِّجالُ آجالا ، وكان لنا بها فى الحَرْب يَوْمَان عَوَّضنا الله أدْنَاهما بما حفظت المعارك ، وضاقت الأرْض بدماء القتْلَى ففاض إلى

السماء ما التقى بالشفق من [تلك المسالك] (١)، واتصلت بالبرّ والبحر من جانبيها؛ واتصفت بأنها مهبّ الرياح، ومركز الرماح؛ لما يهب لنا من بشرى النصر ويخفق من عصائبنا المنصورة عليها .

فلما تطاول الأمد على خلوّها ممن ينوب عن السلطنة الشريفة فى أحكامها، ويثوب إلى تسديد مرامى سهامها؛ لم تزل آراؤنا العالية تجول فيمن يصلح أن يقدّم قدمه إلى رتبتها العليه، ويجرّد منها عزائمه المشرفيه؛ ويجمع بها على طاعتنا الشريفة من فيها من العساكر المنصوره، والقبائل المشهوره، والطوائف المذكوره، ويبسط بساط العدل فى كافّة جنودها ورعاياها فإنها بهؤلاء محروسة وبهؤلاء معموره - فرأينا أنّ أولى من حكم فى عاصيها والمطيع، واتخذ لسوريا السور المنيع؛ من هو الموثوق بما أمضت السيوف من هممه، وأرضت التجارب من سوابق خدمه؛ وطارت سمعة شكره فى الآفاق، وطابت أثنيته فجاءت بما يعرف من الطرب لإسحاق (٢)؛ وكان قد تقدّمت له فى عينتاب، نيابة كم أصابه فيها رجل بالعين ثم إنّه من العين تاب؛ وقام بين أيدى كفلاء ممالكنا الشريفة حاجبا، وفهم من أحكامهم التى تلقّوها منّا ما اصبح لها صاحبا؛ فما للنيابة إحكام أحكام إلّا وهو به عالم، ولا تولية حكم إلا وقد استحقّها لقرب ما بين الحاجب والحاكم .

وكان فلانٌ هو المرتضى للبس هذه المفاخر، والمنتظر الذى كم ترك الأوّل فيه للآخر - فاقتضت مراسيمنا المطاعة أن يزان جيده بهذا التقليد، وتلقى إليه المقاليد؛ وتمدّ يد هذه الرتبة لتلقّيه، وتخضع عنق هذه المرتبة لترقّيه؛ وتحوّل اليه هذه النعمة

---

(١) بياض بالأصل .

(٢) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلى مغنّى الخلفاء المشهور .

التى ألْحَقَت قَدْرَه بالأكْفَاء، وأهَّلت هِمَمَه للاكْتِفَاء، وشَرَّفَتْ مكَانَه بما أجْمَعت عليه آراؤُنا الشريفةُ له من الاصْطفَاء، وأحْسنَتْ به الظَّنّ لمَّا رَأتْ نِيَّتَه الجميلةَ مُمَثّلةً من خاطره فى مِرْآة الصَّفَاء .

فرُسِم بالأمْر الشَّريف - لَا زالَ مرفوعًا به كلُّ عَلَم، مَمْنُوعًا به حِمَىٰ كُلّ حَرَم - أنْ تُفَوَّضَ إليه نيابةُ السَّلْطنة الشَّريفةِ بحِمْصَ المحروسةِ وأعْمَالها، وجُنْدِها وعُمَّالها، وعَسَاكرها وعَشَائرِها، وعَامرِها وغَامِرِها، وأوَّلِها وآخِرِها، ودَانِيها، وقَاصِيها، وكُلِّ ما فى حدودها الأرْبعه، وداَخِلٍ فى جهاتها المُمَنَّعه، علىٰ أكْمَل ماجَرَت به عوائدُ مَن تَقَدَّمه، واسْتَقَرَّت عليه القَوَاعِدُ المُتَقَدِّمه .

فاتَّقِ اللَّهَ فى أمُورِك، واجْعَلِ الشَّرْعَ الشَّريفَ مِشْكَاةَ نُورك، وعَظِّم حُكَّامَه، ونَفِّذْ أحْكَامَه، فهُمْ أمْنعُ سُورِك . واعْدِلْ فهو قَرَار خَوَاطِرِ جُمْهورك، وتَيَقَّظْ لسَدَادِ سِدَادِ ثُغُورِك، وارْفُق لتطاق به نُطْق نطاق شُكُورِك . وأقِمِ الحُدُودَ فإنَّها زيادةٌ فى أُجورِك . وأمَّا العساكرُ المنصورةُ، فجَمِّلْ بهم فى خِدْمَتِنا الشريفةِ مَوَاكِبَك، وكَلِّلْ بعَزائِمهم مَضَارِبَك، ولا تَسْتَخْدِمْ منهم إلا مَن يَسُرُّك أنْ تراه فى يَوْم العَرْض، وتَعْقِدُ هَوَادِى جِيَادِه السماء بالأرْض، واحْمِ أطْرَافَ بِلادك من عَادِيَة الرِّجال، واحفظْ جَانِبَيْها من تَخَطُّفِ الغارات فسر قيامها [لايدفعه] غير احتيال، واهْتَمَّ بالجهاد تحْتَ صَناجِقِنا المنصورة لأعْداء اللَّه متىٰ أجْمَعوا، وضَرِّسْهُمْ بأنْيَابِ أسِنَّتِكَ فأنْت صاحبُ العصا وهى تَتَلَقَّفُ ماصَنَعُوا، وعَمِّرْ بلادَها بمُلَاحَظَتِك الجميله، ونَمِّ أُمُورَها فهى قِوَامُ الجُنُود وهم إلىٰ الثقة فى النَّصْر الوَسِيله، وسَارِعْ إلىٰ ما تَرِدُ به مَرَاسِمُنا الشَّرِيفَةُ عليك لتَهْدِيَك إلىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقيم، وعَجِّلِ البَرِيدَ فإنَّك تعلم به مالَسْت بعَلِيم،

وبَقِيَّةُ الوصايا لاحَاجَة إليها لما تعرفه من قديم، واللهُ تعالىٰ يُمَتِّعك بكلِّ خُلُق كريم؛ والخطُّ الشريفُ أعلاه ... .

النيابة الثانية — نيابة الرَّحْبة .

وهذه نسخةٌ بنيابتها :

الحمدُ لله الذى أمدَّنا بنَصْره، وشمِل بجُود سلطاننا أهلَ عَصْره، وأيَّده بجنودٍ أوّلُها متَّصلٌ بأوّل عِراقه وآخرُها بآخرِ مِصْره، وفرّق بسهامِهِ الأعداءَ فى حَواصل الطير بين حِضْنه وخَصْره .

نحمَدُه حمدًا يقومُ بشكره، ويحافِظُ علىٰ حُسْن ذكره، ويُستعاذ به إلَّا ممّا يُدَمِّر على العِدَا من عواقب مكره؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تُرْغِم مَن جَادَلَه بكُفْره، وتُمَزِّقه بين كل نَابِ سيف وظُفْرِه؛ ونشهد أن سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أرسله مُقِيًا لأمره، ومُدِيمًا فى الجهاد لإعمال بِيضه وسُمْره، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه حَمَلة سِرِّه، ونَقَلَة هَدْيِه بأسْره؛ صلاةً باقيةً فى الوجود بقاء دَهْره، راقيةً ٱرتقاءَ زُهْرِه .

وبعدُ، فإنّ الثغورَ بسِدَادِها، والبُحُور بِأمدادِها، والنُّحُور لا تحلَّى بأحسنَ من حلْية نِجَادِها؛ والممالكَ المحروسةَ لا تُحْرَس إلا بشُهُب خُرْصَانها، ولا تُسْقىٰ بأنقع مما تُطلُّه من الدِّماء سُحُبُ فُرْسَانِها؛ والفُرات لا تُحْمىٰ مواردُها إلا بأمثال سيوفها القَواضِب، ولا تمنعُ مخَاوِضها(١) إلَّا بِدَمٍ خاضب، والحصُونَ لا يَرضىٰ بها كلُّ مَنْجَنِيق غضبانَ إلا بوِصَال مُغَاضِب، والقِلَاع لا تتطلّع عيونُ دِيَادِبها إلا لمن ماءُ الكَرىٰ

(١) فى الأصل مخالصها .

فى جُفُونه نَاضِب ، والمَعَاقِلَ لا تَسْـمَح بعقَائِلها إلّا لمن هو علىٰ خِطْبَتِها مُوَاظِب ؛ وكانت الرَّحْبة ـ حَرَسها الله تعالىٰ ـ هى أوسَعُ مكانٍ رِحَابا ، وأدْنىٰ إلىٰ مطرٍ سحابا ؛ وأوْثَق ماأغْلَق على البـلاد بَابا ، وأقـرب ما سَمِـع حُرَّاسُها فى السماء دُعَاءً مُجَـابا ؛ قد مُلِئَت سَمـاؤُها حَرَسًا شَـديدا وشُهبا ، ومَدّتْ كواكِبَ الدلو واسْتَقتْ من الغَمام قُلُبـا ، وعَدَّت ماوراء المَجَرَّة فعُمِّيَت دونهـا المَسَالِك ، وحُسِبَت لملك ونُسِبَت إلىٰ مالك ، ومالكٌ ـ لا أعنِى إلّا آبن طَوْقٍ ـ خَازِنُهـا ، ومَنْزِلُ أمْنٍ وفى غَاب الأُسْـد مَسَاكنُها ، قد وقَفَت لبَغْدادَ فى فَمِ المَضيق ، وهَمَّت بلادُ العِدا أن تَخُوضَ الفُرَاتَ إليها فقالت : مالَكِ إلىَّ طَرِيق ؛ قد آفْتَرّ فى وَجْهِ العسا كرِ المنصورةِ ثَغْرُها الضَّاحك ، ورَدّ قَرْنَ الشمس فَرْعُها المُتَمَاسِك .

فلمـا أُغْمِد حُسَامها المسْلُول ، وأقْلع غَمَامُها وكلُّ هُدْبٍ بالبكاء عليـه مَبْلُول ـ آقتضىٰ رأيُنا الشريفُ أن نجـدّد لعَرُوسها زِفَافا ، ولبيوتها أفْوافا ؛ ولسُيُوفها جلاء ، ولسقوفها إعْلاء ، ونُوَلِّيَها لمن تكون هِمَّتُه فيها جَدِيدةَ الشَّباب ، أكيدةَ الأسْـباب ؛ ليكون أدْعىٰ لمصالحها ، وأرْعىٰ لمَنَاجِحها ، وأوْعىٰ لمـا يجْمعه سَمْعه من مَصَالِحهـا ، وأسْـعىٰ فى حِمَاية مَمَاسِيها ومصَابِحها ؛ وكان فلانٌ هو أصْلَبَ مَن فى كَنَائننا الشريفة عُودا ، وأنْجَزَ وُعُودا ، وأصْدقَ رُعُودا ، وأيْمَن إذا طلع نَجْمه فى أُفُقٍ سُعُودا .

فرسم بالأمر الشريف أنتفوَّض إليه نيابةُ الرَّحْبة المحروسة ، علىٰ عادة من تَقَدّمه وقاعِدَته ؛ [فليتول ذلك] مقدّمًا تقْوَى الله والعملَ بما شَرَع ، وآتباعَ مَرَاسمنا الشريفة فمِثْلُه مَن آتّبع ؛ وحِمَايةَ أطْرافها ، من كل طَارِق إلا طَارِقًا يَطْرُقُ بخَيْر ، وصِيانَةَ أكْنَافها ، من كل عِصَابة مُحَلِّقةٍ إلىٰ جَوِّها كالطَّيْر ، وحِفْظَها من عَادِيَة كلِّ أفَّاك وسَفَّاك ، وبَادية أعْراب وأتْراك ، وكلِّ فارس فَرَس وراكب بَعير ، وكلِّ وقفة محاصِرٍ وحَقْطة مُغِير ؛

وجَانِبَىْ بَرٍّ وبَحْرٍ : فى أحَدِهما المسالكُ تَعْمَىٰ والآخر لا يُعَام ، وصاحِبَىْ سِرٍّ وجَهْر : هذا تخشىٰ له عاقبة كَلَامٍ وهذا مُعَاقبة كَلَام .

وليتَخَطَّفْ من الأخبار ما تَلْمَع لَدَيْنا بوارِقُه ، ويتَقَطَّفْ من الأقوالِ ثَمَرَاتِها ولا يَدَعْ كلَّ ما تجمَعُه حَدَائِقُه ، وليجعلْ له من المناصِحين طلائعَ ما منهم إلَّا مَن هو فى ٱنْتِهاب الأخبار أبُو الغَارَات ، ومَن إذا أَلْجَمه الخوْفُ كان له فى لَمْعِ البُرُوق إشارات ، وليتَّخِذْ من الكَشَّافَة من يَسْبِقُ قبلَ أن يَرْتَدَّ إليه طَرْفُه ، ومن الخَيَّالة من لا يرتدّ عن وَقْدِ الرِّماحِ طِرْفُه ، ومن القُصَّاد مَن لا يَطْوِى عنه خَبَرا ، ومن الدَّيَادِب من يُعِيرُه وقلَّ أن تُعَار العيونُ نَظَرا ، ولْيَحْفَظ التُّجَّار فى مذاهبِهم غُدُوًّا ورَوَاحا ، ومَسَاءً وصَبَاحا ، وليَسْتَوْصِ بهم خيرًا فإنَّهم طالمَا ٱزْدَانَتْ بهم صدُورُ الخَزَائِنِ على ٱمْتِلَائِها ٱنْشِراحا ، وليأْخُذْ منهم مالبَيْتِ المَالِ فكَمْ وجَدُوا بعطائه أرْبَاحا ، وليُوَصِّلْ إلىٰ أرْبابِ القَرَارات ما لهم من مُقَرَّرٍ معلوم ، وليُعْطِهِم ما تَصَدَّقْنا به عليهم وهو مَشْكُورٌ وإلَّا أعْطَاهم وهو مَذْموم ، وليُعَمِّر البِلادَ بتَوْطِين أهْلِ القُرىٰ ، وإنَامَتِها بالعَدْلِ مَلْآنَةَ الجُفُونِ من الكَرىٰ ، وليَكُنْ للفُرَاتِ متيَقِّظا لئَلَّا يطْغىٰ بها التَّيَّار ، ويغلبَ بمدِّها المُخَمِّر علىٰ سَكْرِها من السُّكْر الخُمَار ، ويقْوَىٰ علىٰ سَدِّها قبل أن لا يَقْدِرَ علىٰ مُقَاواة البِحَار ، ويتَفَقَّد مَبَانِيَها فإنَّها من أَسْنىٰ ما تتفقَّدُه الأبصار ، وليغلق زُروعها لتكون : ﴿كَمَثَلِ زَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ وليَعِفَّ فإنَّ العَفَافَ هو الغِنىٰ ، وليُؤَمِّنْ من يَلِيه فإنَّ الأمانَ هو المُنَىٰ ، وليُقِرَّ ما ٱسْتَقَرّ بيننا وبين القَوْم من صُلْح أُكِّدَتْ أَوَاخِيه ، وأصْبَحَ كلٌّ من أهلِ الجَانِبَين لا يَفِرُّ من أخيه ، ولا يرخِّصْ لأحَدٍ فيما ينْقُضُه لا فى عَاجل أمْرٍ ولا فى تَرَاخيه ، حتَّىٰ إذا كَشَفَت الحربُ عن سَاقها ، وشدَّتْ عَقْدَ نِطَاقها ، فليكُنْ بحسب مَرَاسمنا الشريفة ٱعتمادُه فى شَنِّ كلِّ غَارَه ، وسَنِّ كلِّ مَاض

مُرْهِفًا غِرَارَه ، وجَوْس خِلَال دِيَارِ العِدا وآخْتِطَاف كلِّ قَمَرٍ من دَارَه ؛ والمُحْرِقَات التى لا تُحْرِقُ نَبَاتا حتَّى تَشِبَّ فى ضلوعهم ، والعَيَّارة فهى الزَّلازل التى تَتَسَاقَطُ منها مَبَانِى رُبُوعِهم ، ومُوَالاة البُعُوث : فإنَّ كلَّ بَعْثٍ يتكفَّل بشَتَاتِ جُمُوعِهم ؛ والعمل بكلِّ ما تَرِدُ به مَرَاسِمُنا العاليه ، والمُواصَلة بكُتُبِه التى تَرْفُضُ ما سوىٰ أخْبارها المُتَواليه ، وإرسال كل بريد وحمام تُحَلِّقُ بهما : إمَّا رِيحٌ ظاهرة وإمَّا رِيحٌ عَادِيَه ، والله تعالىٰ يقرب له الغايات المنادية ، بمنه وكرمه ! .

النيابة الثالثة — نيابة مِصْيافَ .

وهذه نسخة مَرْسوم بنِيَابتها :

الحمدُ لله الذى صرّف ممالِكَنا الشَّريفَةَ فى المَمَالك ، وشَرَّف بنا كلَّ حصْن لا تَعْرِضُ له المَجَرَّةُ فى المسالك ، وعَرَّف بالتَّرْبِيَة فى خِدْمة أبْوابنا العاليَةِ إلىٰ أيْن يَنْتهى السَّالك .

نحمده علىٰ نِعَمه التى نعتَدُّ بها الحمد من ذلك ، ونَرْغب أن نَلْقَ الله علىٰ أداء الأمانة فيها كذلك ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له فيما هو مَالك ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى أضاء به كلَّ حَالٍ حَالك ، وأنْجىٰ به من مَهَاوِى المَهَالِك ، وجَمَع به من الأُمَّة ما وَهَىٰ وهْىَ كالعِقْد المتهالك ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة يَجِدُ بها قَائِلُها فى الدار الآخرة كُلَّ هَنَاءٍ هُنالِك ، وسلَّمَ تسليما كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ النظرَ فى أُمُور المَمالك هو أوّلُ مايقدّمه الملك ، وأولىٰ مايتقدّم إليه مَن سَلَك ؛ ومملكة بَيْتِ الدَّعْوَة هى من أجَلِّ ماتفَرَّدت به مَمَالِكُنا الشَّريفَه ، وامتدّت به فى الأمَاكِن المُخِيفَه ؛ وأرْسَلت من قِلَاعِها من يَقْتَلِعُ العِدا بوُثُوبِه ، ويُسَابِق السَّهْم إلىٰ مَطْلُوبه ؛ ويَتَعَبَّد بمُوَالاتِنا التى وَرِثَها عن سَلَفِه فى طَاعَة أَئِمَّتِهم ،

وعَلِمُوا بهـا أن الدَّوْلة العلويةَ ما انقضت حتَّى آنتقلت إلينا الوِلَايةُ علىٰ شِيعَتِهم ؛ وأن المُلْك الإسْماعِيلىّ فينا قد آنحصر مِيرَاثُه ، وأن كلَّ مَن مات من الخلفاء الفَاطِميِّين ـ رحمهم الله ـ نحن وُرَّاثُه ؛ فهمْ بهذا يبْذُلون نفُوسَهم فى الطاعة الشَّريفةِ التى يَرَوْنها فرضًا عليهـم ، ويَبْلُغون بنـا أعلىٰ مَراتبِ الإيمـان : لأنهم إذا رَأَوْا مُنْكرا أزالُوه بيَدَيْهم ؛ كَمْ هجمُوا علىٰ عدوّ من أعْداء اللهِ هَجْمة طَيْف ! ، وكَم آستَطالُوا بسِكِّينٍ لا يتطاوَلُ إلىٰ مُبارَاتِهـا سَيْف ! ، وكَمْ أوْقَدوا لهم بَارِقةَ عَزْمٍ فقيل : هذه سحابة صيف ! ، وكم ورَدُوا بالدِّماءِ خَدًّا غدَا ينَادِى : يا كرام الوِرْدِ ضَيْف ! . وكانت مَصْياف ـ حرسها الله تعـالىٰ ـ هى كُرْسِىَّ هـذه المَمْلكه ، وقَلْعتُها هى التى بذَوَائِب الجَوْزاءِ مُتَمسِّكه ؛ وآقتضتْ مَرَاسِمُنا المُطاعةُ نقْلَ النائب بها إلىٰ مارسَمْنا به الآن ، فخلتْ ممَّن يترقَّىٰ فيها إلىٰ أعزِّ مكان ، واحتاجَتْ إلىٰ مَن تَغْنَىٰ به عمـا يقال : من آعْتِقَال رُمْحٍ وتَجْرِيدِ سِنَان .

فحَصَل الفِكْرُ الشريفُ فيمَن نُقَلِّده هٰذه النِّيـابَه ، ويتقلد أمْرَ هَـذه العِصَابَه ؛ ويَتَصَرَّف فى أُمُورها بمُقْتضَىٰ ما تَرِد به مَرَاسِمُنا المُطاعَه ، ويُعـلم أنَّه من شِيعَتِنا : لأنَّه دَاعِينَا فى هَذِه الجَماعَه ؛ فرأيْنا أنَّ أحَقَّ [الناس بها] من قدّمه ولَاؤُه ، وعظَّمه آنْتِمـاؤُه ؛ ونَبَّهَ عليه آهْتِمَامُ هِممه التى لا تُشابِهُها الكَواكِبُ فى سَيْرِها ، وعَزائِمه التى طَالَمـا كان بها فى خِدمَتِنا الشريفةِ «يَظَلُّ بمَوْمَاةٍ ويُمسِى بغَيْرها» ؛ ولم تَزَلْ به مَساعِيه حتَّىٰ وصل إلىٰ المَزِيد ، وأسْرعَ له الشَّيبُ فى طاعتنا الشَّرِيفَة : لأنَّه فى كلِّ وقْتٍ [كان] يسمعُ قَعْقَعةَ لجامِ البَرِيد ؛ وكان فلانٌ هو الذى أشار إليـه القَوْل بوَصْفِه ، ودلَّ عليه تَنَاؤُه بعَرْفِه .

فرسم أن تفَوّضَ إليه النيابةُ بمِصْيَافَ وأعْمالِهـا ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته . فليَقدِّم تقْوى الله تعالىٰ فيما وُلِّيه ، ولْيَنْشُرْ جَناحَ عَدْلِنا الشريف علىٰ من يليه ، ولْيَعْمَلْ

بالأحكام الشَّرعيـةِ فى كل ما يَقْضِـيه ، وليَسْلُك فى أهلها أوْضَح المَرَاشِـد ، وليُبيِّن لهم أنَّه يدعوهم إلىٰ سبيل الرشاد إلا ما ٱدعاه راشـد ، وليُوصِّلْ إلى المجاهدين أرْزاقَهم التى هى أثْمـانُ نفوسهم ، وثِمَـار مادَنَّى القِطَاف من رُءُوسِهم . وأهـلُ من مات أو يموتُ منهـم علىٰ طاعتنا الشَّريفــة فكُنْ عليهـم متَعَطِّفا ، ومَن طلب منك الإنْصَافَ فكُنْ له مُنْصِفا ، وٱفعـلْ معهم أحْسنَ الأُسْوَه ، وقلْ لهم عَنَّا : إنَّ الصَّدَقاتِ الشَّريفةَ قد ٱسْتَجابَتْ لكم يا أهلَ الدَّعْوه ، وخُذْ بقُلُوبِهـم ، لتزْدادَ من حُبِّهِم ، وقل للمُجاهِدين : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَـاءٌ عِنْدَ رَبِّهِـمْ ﴾ . والأَمْوال فصُنْها من الضَّيَاع ، وعِمَـارة البِلاد عَلَيْك بها فإنَّ القَلْعة لا تكون إلا بالمْدِينَة والمدِينةَ لا تكونُ إلا بالضِّيَاع ، وٱمْتِثال مَرَاسِمنا الشَّريفةِ وكُلُّ ما يُرْسَم به سَارِعْ إلىٰ اعتماده ، وطائفة المُجاهِدِين لا تَدَعْ منهـم إلا مَن هو معتـدّ لجهاده ، والكِتْمانَ الكِتْمانَ ! فبه تُنـالُ المَطالِب ، وتُدْرَكُ المآرِب ، وعَلَيْك بقَمْع المُفْسدِين ، ورَدْع المُعْتدِين ، وإقامةِ الحدُودِ : فإنَّ بها أقام اللهُ هـذا الدِّين ، ونحن نَغْتَنِى بمـا فيـك من المَعْرفه ، وبمـا انت عليـه ــ بحَمْد الله تعـالى ــ من كمالِ كُلِّ صفَه ، عن ٱستيعاب الوصايا التى لم تَبْرحْ سَجاياك بها متَّصـفَه ، والله تعالىٰ يزيدُك من كلِّ نَوْعٍ أشرفه ، والخط الشريف أعلاه .... .

وأما الصَّفْقة الشَّمالية ، فالذى يولَّى بهـذه الصَّفْقة عن الأبواب السلطانية ، نِيابَةُ بَعْلَبَكَّ فقط . وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشَّامية أنَّهـا كانت أوّلًا إمْرةَ عشرة ، ثم صارت طبلخاناه ، وأن نائبَ الشَّام يولِّى بها ، وربمـا ولِّيتْ من الأبواب الشَّريفَةِ السُّلْطانية . وحينئذ فيكون مَرْسومُ نائبها فى قَطْع الثُّلث بـ«ـالمجلس السامىّ » بالياء .

وهذه نسخة مَرْسوم بنيابة بعلَبكّ :

أما بعـد حمدِ الله علىٰ أملٍ حقّق مُناه ، وصدّق غَناه ، وفرّق عليه سُحُبَ ٱعْتناءٍ أوْرَق به عُودُه وطاب جَنَاه ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ نَبِيِّه سيدنا محمدٍ الذى كَمَّل بناه ، وعلىٰ آله وصحبه ما شَيّد مَعْقِلُ فَخَارَ مَبْناه ـ فإنَّ من أعْظم مُدُن الشَّام القَديمه ، ودُورِ المُلك التى ذهب مَن يَحُلُّها من الملوك وبَقِيَت آثارُه مُقيمَه ، مدينةَ بَعْلَبَكَّ وهى التى تَحصَّن الإسلامُ بقَلْعَتِها ، وتَحصَّلَ الرعْبُ فى قُلوب الأعداء [بمَنَعتها] (١) بنيت علىٰ عهد سُلَيان بن داود عليهما السلام وأَتْقَن بَنَّاؤُها ، وهَالَت أسْوارُها حتَّى نُسِب إلىٰ صَنْعة الجنِّ بِناؤُها ، ودَعَمتِ السَّماءَ عَمَدُها ، فطالت شُرَفُها حتَّى كادت تُخَضْخِض فى سَجْلِ السحاب يَدُها ، وجَمعتْ مَحاسِنَ فى سـواها لا تُوجَد ، وتقَرّر بمُلْكها من الملوك : تارةً سـعيدا وتارة أَمْجد ، وما خلَتْ من علماء عظيمى الشان ، وصلحاء يلُمُّهم الجَبـلان : سِيسُ ولُبْنان ، وهى بابُ دِمَشْق المَفْتوح ، وسحابُ الأنواءِ المَسْفُوحُ بالسُّفُوح ، وباب البُروقِ التى آلَتْ أنَّها بأَسْرارها لا تَبُوح ، ومآبُ السِّفارَةِ التى تَغْدُو مُحَمَّلةً أوْقارَ ركائبها وتَرُوح ؛ ولهـا العين المُسبَّلة الرَّوَاتِب ، والجبال الرَّاسِـية الوَقَارِ لمَفْرِقها الشَّائب ، العالية الذُّرىٰ ... ... (٢) من قِطَعِ السَّحائب ، و[لما] كان مَن فيها الآنَ ممَّن لا تَسْـتغنِى الدولةُ القاهرةُ عن قُرْبِه ، ولا تَسْتَثْنِى أحدًا معه فى تَجْريده سَيْفَه المشهورَ من قُرُبِه ، أجَلْنا الرَّأْىَ فى كُفْءٍ لعَرُوسها ، ومُمـاثل لمركز تأَوُّد غروسها ، فلم نَجِدْ أدْرىٰ بأحوالها ، وأدْربَ بما يُؤَلِّف علىٰ الطَّاعة قُلوبَ رجالها ، كمن ٱستقرّ به فيها مع أبيه المـاضى ـ رحمه الله ـ الوطن [ونالا منه الوطر] ، ومرت [عليهم فيه]

(١) بيـاض بالأصل والتصحيح من المقام .

(٢) « « ولعله : التى كأنهـا متلفعة من الخ .

سنون وأيامٌ هتف بها دَاعِى قصر ؛ ولا غِنًى [عنه] مع مالَهُ من وِلَايات صَحِب فيها الناسَ وفَارَقهم علىٰ وَجْهٍ جَميل ، ورَافَقَهم ثم ٱنْصرفَ وٱنصرفوا عنه وما ذَمَّهُ فى النَّازِلِين نَزِيل ؛ وكان فلانٌ هو المَتوقِّدَ الشِّهاب ، المُتَوقِّل فى تلك الهِضَاب ؛ المشْكورَ قولًا ودِينا ، المشهورَ بوَضْع كلِّ شَىْءٍ فى مَوْضعه شِدَّةً ولِينا .

فلذلك رسم ... ... ــ لا زال إحسانه أحمــد وٱختياره مُقَدَّما ــ أن يُرتَّبَ فى نيابة بَعْلَبَكَّ علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، مُبْتَدِئًا حُسْن النظر فى الأمور العامه ، لا يَدَعُ ظُلامَه ، ولا يَدُعُّ سالكَ طريقٍ إلىٰ سلامه ، ولا يُعِدُّ سَمعًا إلا لسَماع شُكرٍ لا مَلامَه ؛ ولْيَنْظُرْ فى المظالم نظرًا ينجلِى به سَدَفها ، وليشكر العشِير توطيأ يوطأ به هدَفُها ؛ ولْيلَاحِظِ الأمورَ الديوانية بما يُنَمِّى به أَمْوالَها ، ويُنَدِّى بسحابه المُتَدَفِّق أحْوالَها . والأوقاف فلْيشارِكْ واقِفِيها فى إحسانهم ، وليُجْرِ حَسَنَاتِها علىٰ ما كانت عليه فى زَمانِهم ؛ وليكن لهـا نعم الكفيلُ فى دوام المحافظـة ولْيَتَفَقَّدْ ما فيها من الحواصـل والزَّرَدْخاناه ممـا يُذْخَر لوقته ، ويُؤَخَّر لفَرْط الشَّغَف به لا لمَقْتِه . ومن أَهَمِّ ما يُحْتَفَظُ به قلوبُ الرجال ، وعِمَـارَةُ الأَسْوار فإنهـا للفُرسان المُقَاتِلَة مجَال ، وعليهـا تُنْصب المجانيق وتُتَخَطَّف الآجال . وأمَّا الشَّريعــةُ المطَهَّرة : فإنَّ من تعدَّى غَرِق أو أوْشـك أنْ يَغْرَق ، وٱتِّبَاع أَوَامِرِها : وإلَّا ففِيمَ يُعَـذَّبُ من يعـذَّبُ ويُحْرق من يُحْـرق ؛ وتقوى الله تعالىٰ هى الوَصِيَّة الجامعه ، والتَّذْكِرة التى تَرْتَدُّ بهـا الأبصارُ خَاشعه ؛ ولْيفْهَم هَـذه الوَصَايا ولا يُخْرِجْ شيئا منها من قَلْبه ، ولْيَتَبَيَّنْ معانِيَها ليكونَ بها علىٰ بَيِّنَــةٍ من رَبِّه ؛ والله تعالىٰ يَكْشف عنـه غِطَاءَ حُجَّتِـه ، ويَزَعُه عمـا يأْخُذُه ويؤاخذه من نِيَّتِـه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثانى (١)

(ممّن [هم] خارجَ دِمَشْق : ممّن يُوَلَّى عن الأبواب السلطانية ـ أمراءُ العُرْبان ، وهم علىٰ طبقتين :)

الطبقـــة الأولىٰ

(من يُكْتَبُ له منهم تقليدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«المجلس العالى» وهو أمير آل فَضْل خَاصَّةً : سواءٌ كان مستقلًّا بالإمارة أو شريكًا لغيره فيها)

وقد تقدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة الشاميــة نقلا عن "مسالك الأبصار" أنّ ديارَهم من حِمْصَ، إلىٰ قلعة جَعْبَر، إلىٰ الرَّحْبَة، آخذين علىٰ شِقِّ الفُرات وأطراف العِـــرَاق .

وهذه نسخةُ تقليــدٍ بإمْرة آل فَضْل : كُتِبَ به للأمير شجاع الدين « فضل بن عيسىٰ » عوضًا عن أخيه مُهنًّا ، عنــد ما خرج أخوه المذكور مع قَرا سنقر الأفرم ومن معهما من المتسحبين، وأقام [هو] بأطْراف البلاد ولم يُفَارق الخِدْمة، فى شهور سنة آثنتى عَشْرة وسَبْعِمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحَلَبىّ، وهو :

الحمد لله الذى مَنَح آل فَضْل فى أيّامنا الزاهرةِ بحُسْنِ الطاعة فَضْلا، وقَدّم عليهم بقــديمِ الإخلاص فى الوَلاءِ من أنْفُسِهم شُجَاعًا يجمعُ لهم علىٰ الخــدْمة أُلْفَةً ويَنْظِم لهم على المخالصة شَمْلا ؛ وحَفِظ عليهم من إعْزَازِ مكان بيتهم لَدَيْنا مكانَةً لا تَنْقُضُ لهـا الأيامُ حُكْمًا ولا تنقُص لهـا الحوادثُ ظِلًّا .

(١) لم يتقدم تقسيمه الى أصنــاف ولعل مراده أن ما تقدّم من التولية فى الصفقات صنف أول وهذا صنف ثان . فليتنبه .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى شَمِلَت بِرِّنا، الحَضَر والبَدْو، وألهجَتْ بشُكرنا، أَلْسِنَةَ العَجَم فى الشَّـدْو والعَرَبِ فى الحَدْو، وأعْمَلَتْ فى الجهاد بين يدينا من اليَعْمَلاتِ ما يُبَارِى بالنَّصِّ والعَنَقِ الصَّافِنَاتِ فى الخَبَبِ والعَـدْو؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً نَدْرأُ بها الأمورَ العظام، ونُقَلِّد يُمْنَها ماأَهَمَّ من مصالح الإسلام لِمَن يَجْرِى بتَدْبيره علىٰ أحسن نِظَام؛ ونشهد أن محمدًا عبـدُه ورسولُه المبعوثُ من أعلىٰ ذَوائِب العَرَب وأشْرَفِهـا، المرجُوُّ الشَّـفاعةِ العُظْمىٰ يوم طُولِ عَرْضِ الأُمَمِ وهَوْلِ مَوْقِفها؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين كَرُمت بالوَفَاء أنسابُهم، وأضاءَت بتَقْوَى الله وجوهُهُـم وأَحْسابُهم؛ صلاةً لا تَزال الألْسُنُ تُقِيم نِدَاءَها، والأقلامُ تَرْقُمُ رِدَاءَها؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أَوْلىٰ من أَجْنَته الطاعةُ ثمرةَ إخْلاصِه، ورَفَعته المخالصـةُ إلىٰ أسْنىٰ رُتَبِ تَقْريبه وٱخْتِصاصه؛ وألَّفَ بمُبَادَرته إلىٰ الخِدْمة الشريفة قلوبَ القَبَائِل وجمعَ شَمْلها، وقَلَّده حسْنُ الوَفاء من أمْر قومه وإمْرتِهم ما يُسْتَشْهَدُ فيه بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ﴾ — من ٱرْتَقىٰ إلىٰ أسْنىٰ رُتَب دنياه بحِفْظ دِينِـه، ودَلَّ تمسُّكُه بأيمـانه علىٰ صِحَّة إيمـانه وقُوَّة يَقينه؛ ولاحَظَتْه عيونُ السَّعادَة فكان فى حِزبِ الله الغالِب وهو حِزْبُنا، وقابلَتْـه وجُوهُ الإقبال فأرَتْه أنَّ المغبُونَ من فاته تَقْرِيبُنـا وقُرْبُنا؛ ورأىٰ إحْسانَنَا إليه بعين لم يَطْرِفْها الجُحود، ولم يَطْرُقْها إعراضُ السُّعود؛ فسَلَكَ جَادَّة الوَفاءِ وهى من أيمن الطُّرُق طَرِيقًا، وٱقْتَدىٰ فى الطاعة والولاء بمن قال فيهم بمثل قوله : ﴿ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ .

ولمّـا كان المجلسُ العالِى ... هوالذى حَازَ من سعادَةِ الدُّنيا والآخرة بحُسْن الطَّاعة ما حَازَ، وفَازَ من بِرِّنا وشُكْرنا بجميل المُبَادَرة إلى الخِدْمة بمَـا فَازَ؛ وعلِم موَاقِع إحْسانِنا

إلَيه فعَمِل على آستدامة وَبْلِها ، وآستِزَادَة فَضْلِها ؛ والآرتِواء من مَعْروفِها الذى بَاءَ بالحِرمانِ [منه] من خَرج عن ظِلّها ؛ مع ما أضاف إلىٰ ذلك : من شَجاعَةٍ تَبِيتُ منها أعداءُ الدِّين علىٰ وَجَل ، ومَهَابَةٍ تَسْرى إلىٰ قلوب من بَعُدَ من أهْل الكُفْر سُرَىٰ ما قَرُب من الأجَل ـ آقتضتْ آراؤنا الشريفة أن نمدّ علىٰ أطْراف الممالك المحروسة منه سُورًا مصَفَّحًا بِصفَاحِه ، مشَرَّفا بأسِنَّةِ رِمَاحِه .

فرُسم بالأمر الشريف العالى ـ لا زال يقلد وَلِيَّه فَضْلا ، ويَمْلَأُ ممالكَه إحسانا وعَدْلا ـ أن يفوّض إليه كَيْت وكَيْت : لِمَا تقدّم من أسْباب تَقْديمه ، وأُومِئَ إليه من عِنَايَتنا بهذا البيت الذى هو سِرُّ حَدِيثه وقَدِيمه ؛ ولِعِلْمِنا بأوْلَوِيَّتِه التى قُطْبُها الشَّجاعَه ، وفَلَكُها الطَّاعه ، ومادَّتُها الدِّيانةُ والتُّقىٰ ، وجادَّتُها الأمانةُ التى لا تستزِلُّها الأهواء ولا تَسْتَفِزُّها الرُّقىٰ .

وليكُنْ لأخبار العَدُوِّ مُطَالِعا ، ولنَجْوَىٰ حَركاتِهم وسَكَناتِهم علىٰ البُعْد سَامِعا ، ولديارِهِم كلَّ وَقْت مُصَبِّحًا حتَّىٰ يظنونه من كل ثَنِيَّةٍ عليهم طَالِعا ؛ ولْيُدِم التَّأَهُّبَ حتَّىٰ لا تفُوتُه من العَدُوِّ غارةٌ ولا غِرَّه ، ويُلْزِمْ أصحابَه بالتيقُّظ لإدامة الجهادِ الذى جَرَّب الأعداءُ [منه] مَوَاقِعَ سيوفهم غيرَ مَرَّه ؛ وقد خَبَرْنا من شَجَاعَتِه و إقْدَامِه ، وسياسته فى نَقْضِ كلِّ أمْرٍ وإبْرامِه ؛ ما يُغْنِى عن الوصايا التى مِلاكُها تقوى الله تعالىٰ وهى من سَجاياه التى وُصِفَت ، وخَصَائِصِه التى أُلِفَت وعُرِفَت ؛ فلْيَجْعَلْها مِرْآة ذِكْرِه ، وفاتِحَةَ فِكْرِه ، والله تعالىٰ يؤَيِّدُه فى سِرِّه وجَهْرِه ؛ بمنه وكرمه ! : إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ بإمْرة آل فَضْل ، كُتب بها للأمير حُسام الدين «مُهَنَّا بن عيسى» من إنشاء الشيخ شهَاب الدِّين محمود الحلبىّ ، وهى :

الحمــد لله الذى أرْهَف حُسَام الدِّينِ فى طاعتنا بيَدِ من يُمْضِى مَضَارِبَه بيَدَيْه ، وأعادَ أمْرَ القبَائل وإمْرَتَهُم إلىٰ من لا يَصْلُح أمْرُ العَرَب إلَّا عَلَيْـه ؛ وحَفظ رُتْبَةَ آلِ عيسىٰ باستِقْرارِها لمن لايزالُ الوَفاءُ والشَّجاعةُ والطَّاعةُ فى سائر الأحوال منْسُوباتٍ إلَيْه ، وجعلَ حُسْنَ العُقْبىٰ بعنايتنا لمن لم يَتَطَرّق الْعَدُوُّ إلىٰ أطْراف البِلاد المحروسة إلَّا وردّه الله تعالىٰ بنَصْرِنا وشَجَاعَتِه علىٰ عَقِبَيْه .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى ما زالت مُسْتَحَقَّة لمن لم يَزَل المقدَّمَ فى ضَمِيرِنا ، المعوّلَ عليــه فى أُمُورِ الإسلام وأُمُورِنا ، المُعَيَّنَ فيما تنطَوِى عليــه أثْنَاءُ سَرَائِرنا ومَطَاوِى صُدُورِنا ؛ ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُوجِبُ علىٰ قائِلها حُسْنَ التَّمَسُّك بأسْبابِها ، وتَقْتضِى للخلِص فيها بَذْلَ النُّفوس والنَّفائس فى المحافظة علىٰ مَصَالِح أرْبابِها ، وتكونُ للحافظ عليها ذَخِيرَةً يوم تتقدّمُ النُّفوسُ بطَاعتِها وإيمَانِها وأنْسابِها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ من أشْرف ذَوَائِب العرب أصْلا وفَرْعا ، المفروضَــةُ طاعَتُــه علىٰ سائر الأمَم دِينًا وشَرْعا ، المخصوصُ بالأئمَّة الذين بَثُّوا دَعْوتَه فى الآفاق علىٰ سَعَتِها ولم يَضِيقُوا لجهاد أعْداء الله وأعْدائه ذَرْعا ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حازُوا بصُحْبَتِه الرُّتَبَ الفاخِرَه ، وحَصَلُوا بطاعة الله وطَاعَتِه علىٰ سعادة الدنيا والآخره ، وعَلِمُوا أنَّ الجنة تحت ظلالِ السُّيُوف فلم يُزَحْزِحْهم عن ظِلِّها الرُّكونُ إلى الدُّنيا السَّاحِره ؛ صلاةً تقطعُ الفَلَواتِ ركائِبُها ، وتَسْرِى بسالِكِى طُرُقِ النَّجَاة نجائِبُها ، وتَنْتَصِر بإقامتها كتائبُ الإسلام ومَوَاكِبُها ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أما بعــدُ ، فإن أوْلىٰ من تَلَقَّتْه رُتْبَتُــه ، التى توَهَّم إعْرَاضَها بأيْمَن وَجْهِ الرِّضَا ، وٱستقبلته مكانَتُه ، التى تَخَيَّل صُدُودَها بأحْسَنِ مواقع القَبُول التى تَضَمَّنت الٱعتداد من الحسنات بكل ما سلف والإغْضَاءَ من الهَفَوات عَمَّا مَضىٰ ، وآلَتْ إليه إمْرَتُه

التى خافت العطل منه وهى به حاليه، وعادت منزلته إلى ما ألفته لدينا : من مكانة مكينة وعرفته عندنا : من رتبة عاليه - من أمنت، شمس سعادته فى أيامنا من الغروب والزوال، ووثقت أسباب نعمه بأن لا يروع سربها فى دولتنا بالانتقاض ولا ظلالها بالانتقال؛ وأغنته سوابق طاعته المحفوظة لدينا عن توسط الوسائل، واحتجت له مواقع خدمه التى لا تجحد مواقفها فى نكاية الأعداء ولا تنكر شهرتها فى القبائل؛ وكفل له حسن رأينا فيه بما حقق مطالبه، وأحمد عواقبه، وحفظ له وعليه مكانته ومراتبه؛ فما توهم الاعداء أن برقه، خبا حتى لمع، ولا ظنوا أن ودقه، أقلع حتى همى وهمع، ولا تخيلوا أن حسامه نبا، حتى أرهفته عنايتنا فحيثما حل من أوصالهم قطع؛ وكيف يضاع مثله ؟ وهو من أركان الإسلام التى لا تنزل الأهواء ولا ترتقى الأطماع متونها، ولا تستقر(؟)(1) الأعداء عند جهادها واجتهادها فى مصالح الإسلام حسبها ودينها .

ولما كان المجلس العالى ... هو الذى لا يحول اعتقادنا فى ولائه، ولا يزول اعتمادنا على نفاذه فى مصالحنا ومضائه؛ ولا يتغير وثوقنا به عما فى خواطرنا من كمال دينه وصحة يقينه، وأنه ما رفعت بين يدينا راية جهاد إلا تلقاها عرابة عزمه بيمينه؛ فهو الولى الذى حسنت عليه آثار نعمنا، والصفى الذى نشأ فى خدمة أسلافنا ونشأ بنوه فى خدمنا، والتقى الذى يأبى دينه إلا حفظ جانب الله فى الجهاد بين يدى عزمتنا وأمام هممنا - اقتضت آراؤنا الشريفة أن نصرح له من الإحسان بما هو فى مكنون سرائرنا، ومضمون ضمائرنا؛ ونعلن بأن رتبته عندنا بمكان لا تتطاول إليه يد الحوادث، ونبين أن أعظم أسباب التقدم ما كان عليه من عنايتنا وامتناننا أكرم بواعث .

(1) لعله "ولا تستقل" .

فلذلك رُسم أنْ يعادَ إلى الإمرة علىٰ أُمراء آل فَضْـل ، ومشايخهم ومقدّميهم ، وسائر عُرْبانهم ، ومَن هو مضافٌ لهم ومنسوبٌ إليهم ، علىٰ عادته وقاعدته .

فليَجْرِ فى ذٰلك علىٰ عادته التى لا مَزِيدَ علىٰ كمالها ، ولا مَحِيدَ عن مَبْدَئِها فى مصالح الإسـلام ومآلهـا ؛ آخذًا للجهاد أُهْبَتَــه من جَمْع الكلمة وآتّحـادها ، وآتّخاذِ القُوَّة وإعدادها ، وتَضَافُر الهمَم التى ما زال الظَّفَـر من مَوَادّها والنَّصْرُ من أَمْـدَادِها ؛ وإلزامِ أُمَراءِ العُرْبان بتكميل أصْحابهم ، وحِفْظ مراكزهم التى لا تُسَدّ أبوابُها إلّا بهم ؛ والتَّيقُّظِ لمَكايِد عدُوِّهم ، والتَّنَبُّهِ لكَشْف أحوالهم فى رَوَاحهـم وغُدُوِّهم ؛ وحفظ الأطراف التى هم سُورُها من أنْ تَسَوَّرَها مَكايِد العِـدا ، وتَخَطُّفِ من يَتَطَّرق إلى الثغور من قبـلِ أنْ يرفعَ إلىٰ أُفُقِها طَرْفًا أو يمدّ على البعـد إلىٰ جِهَتها المَصُونَة يَدا ؛ ولْيَبُثَّ فى الأعداء من مَكَايِد مَهَابَتِـه ما يمنعهم القَرَار ، ويُحَسِّنُ لهم الفِرَار ، ويَحُولُ بينهم وبين الكَرىٰ لآشتراك آسم النَّوْمِ وحَدِّ سَيْفِهِ فى مُسمَّى الغِرَار .

وأما ما يتعلقُ بهَـذه الرتبةِ من وصايا قد أُلِفَت من خِلَالِه ، وعُرِفَت من كماله ، فهو آبن بَجْدَتِها ، وفَارِسُ نَجْدَتِها ، وجُهَيْنة أخْبارها ، وحَلْبَة غايتها ومِضْمارها ، فَيفْعلُ فى ذلك كلّه ماشُكِرمن سيرته ، وحُمِد من إعلانِه وسَرِيرَته ؛ وقد جعلنا فى ذلك وغَيرِه من مصالح إمْرَتِه أمْرَه من أمرِنا : فيعتَمدُ فيه ما يُرضى اللهَ تعالىٰ ورسوله ، ويُبَلِّغُه به من جهاد الأعداء أمَلَه وسُولَه ؛ والله الموفق بمنه وكرمه ! والآعتماد ... .

الطبقة الثانيـــــة

(من عرب الشام ـ من يكتب له مرسومٌ شريفٌ)

وهم على مرتبتين :

المرتبة الأولى — من يُكْتب له فى قَطْع النِّصف، وهم ثلاثة :

الأوّل — أمير آل عَلِيّ، ورتبته «السامىّ» بالياء . وقد تقدّم أن منازلهم مَرْجُ دِمَشْق وغُوطَتُها، بين إخوانهم آلِ فَضْل وبَنِي عَمِّهم آلِ مِراء، ومنتهاهم إلى الحَوْف والجبابنة، إلى السكة، إلى تَيْمـاء، إلى البرادع . وأنه ذكر فى "التعريف" : أنهم إنمـا نزلوا غُوطَةَ دِمَشْق حيث صارت الإِمْرَة إلى مُهَنا بن عيسى .

وهــذه نسخةُ مرســوم شريف بإمْرة آل عَلِيّ ، كُتبَ به للأمير عِزِّ الدِّين « جماز » بعد وفاة والده محمد بن أبى بكر ، من إنشاء المقر الشِّهابىّ بن فضل الله ، وهى :

الحمد لله الذى أَنْجَح بنا كلَّ وَسِـيلَه ، وأَحْسن بنا الخَلَفَ عمَّن قَضَى فى طاعتنا الشريفة سَبِيلَه ، ومَضَى وخَلَّى ولَده رَسِيلَه ، وأَمْسك به دَمْعَةَ السُّيوف فى خُدُودِها الأَسِيلَه ، وأَمْضى به كلَّ سيفٍ لا يُرَدُّ مَضَاءُ مَضَاربِه بِحِيلَه ، وأَرْضى بتقليده كلَّ عُنُقٍ وجَمَّل كلَّ جَمِيلَه .

نحمده على كلِّ نعمةٍ جزيله ، ومَوْهِبَةٍ جميله ، ونشهد أن لا إله إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُرْشِدُ من آتخـذ فيها نُجوم الأَسِنَّة دليلَه ، وتجعلُ أعداءَ اللهِ بعِزِّ الدِّين ذَلِيــلَه ، وأنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الذى أكْرم قَبِيلَه ، وشَرَّف به كُلَّ قَبِيلَه ، وأظهر به العَرَبَ على العَجَمِ وأَخْمد من نَارِهم كلَّ فَتِيلَه ، صــلَّى الله عليــه وعلى آله وصَحْبِه صلاةً بكلِّ خَيرٍ كَفِيلَه ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ، فإنَّ دولتَنا الشريفــةَ لمَّـا خفَق علىٰ المَشْرِق والمَغْرب جَناحُها، وشَمِلَ البَــدْوَ والحَضَر سَمــاحُها؛ ودخَل فى طاعَتِها الشريفةِ كُلُّ راحِلٍ ومُقيمٍ فى الأقطار، وكُلُّ ساكِنٍ خَيْمَةٍ وجِدَار ـ تَرْعَى النِّعَم بإبقائها فى أهْلِهـا ، وإلْقائها فى مَحَلِّها ؛ مع ما تقدّم من رِعايَةٍ تُوجِب التَّقديم ، وتُودَعُ بها الصَّنائـعُ فى بَيْتٍ قَديم ؛ وتُزَيَّن بها المَواكِبُ إذا تعارضت جَحافِلُها، وتَعارَفَتْ شُعُوبُها وقَبائلُها؛ وآسْتَوْلَتْ جِيادُها على الأمَـدِ وقد سـبقت أصائلُها ، وتَداعَتْ فُرْسانُها وقد آشتبهت مَناسِبُها ومَناصِبُها ومَناصِلُها ؛ وكانتْ قبائلُ العُرْبانِ ممَّن تعُمُّهم دَعْوتُنا الشَّريفَـه ، وتَضُمُّهم طاعتُنا التى هى لهم أكْمَلُ وَظِيفَه؛ ولهم النَّجْدَةُ فى كلِّ بادِيَةٍ وحَضَر ، وإقامةٍ وسَفَر؛ وشَامٍ وحِجاز، وإنْجادٍ وإنْجاز؛ ولم يَزَلْ (لآلِ عَلِيٍّ) فيهم أعْلىٰ مَكانَه، وما منهم إلا من تَوَسَّد سَيْفَه وآفترش حِصَانَه؛ وهم من دِمَشْق المحروسةِ رَدِيفُ أسْوَارِها، وفَرِيدُ سِوارِها؛ والنَّازلون من أرْضِها فى أقْرب مكان، والنَّازِحُون ولهم إلى الدار بها أقْطار وأوْطان؛ قد أحْسَنُوا حَوْل البلاد الشامية مُقامَهم ، وآسْتَغْنَوْا عن المُقارَعَة على الضِّيفَانِ لمـا نصــبوا بقَارِعَةِ الطريق خِيَامَهُــم ؛ وباهَوْا كُلَّ قبيلةٍ بقَوْمٍ كاثَرَ النُّجومَ عَدِيدُهم ، وأوْقَدوا لهم فى اليَفَاعِ نارًا إذا هَمَى القَطْر شَبَّتْها عَبِيدُهم ؛ وهم مِن آلِ فَضْلٍ حيث كان عَلِيًّا ، وحديثُــه فى المسامع حُلِيًّا ؛ فلمـا آنتهت الإمْرَة إلىٰ الأمــير المرحوم شمس الدين ، محمد بن أبى بكر رحمــه الله ــ جمعهم علىٰ دَوْلتنا القاهره ، وأقام فيهم يبْتَغِى بطاعتِنا الشريفةِ رِضا اللهِ والدَّارَ الآخره ؛ ثم أمدّه الله من ولده بمن ألْقَىٰ إليه هَمَّه، وأمْضىٰ به عَزْمَه، ونَفَّذ به حُكْمَه، ونَفَّل قَسْمَه .

وكان الذى يتحمل دُونَه مشقَّاتِ أمورهم ، ويتلقَّىٰ شكاوىٰ آمرِهم ومأمورهم ؛ ويردُ إلىٰ أبوابنا العاليــة مستمطرا لهــم سحائِبِ نِعمنا التى أخصب بهـا مَرادُهم،

وساروا فى الآفاقِ ومن جَدْوَاها رَاحِلَتُهم وزَادُهم ؛ وتفرّد بمـا جَمَعه من أُبُوّته و إبائه ، ورَكَز فى كلّ أرْض مُناخ مَطيِّه ومَرْسَىٰ خِبـائِه ؛ وضَاهىٰ فى المُهاجَرَةِ إلىٰ أبوابنـا الشريفةِ النُّجومَ فى السُّرىٰ ، وحافظ علىٰ مَرَاضِينا الشَّريفةِ فمـا ٱنْفَكَّ من نار الحَرْب إلا إلىٰ نار القِرَىٰ ؛ ووَرَد عليـه مَرْسُومنا الشريفُ فكان أسْرعَ من السَّهْم فى مَضَائِه . كَمْ له من مَنَاقِبَ لا يُغطِّى عليها ذهَبُ الأَصِيل تَمْوِيهَا ! ، وكَم تَنَقَّل من كُورٍ إلىٰ سَرْجٍ ومن سَرْج إلىٰ كُورٍ فتمنَّى الهِلالُ أنْ يكونَ لهما شَبِيها ! ؛ كم أجْمل فى قَوْمه سِيرَه ! ، وكم جَمَّل سَرِيرَه ! ؛ كَمْ أثْمر لهـا أملا ! ، كم أحْسن عَمَلا ! ؛ كَم سَدَّ خَلَلا ! ، كَمْ جمع فى مُهِمَّاتِنا الشريفةِ كلَّ مَن ٱمْتطىٰ فرسا ورَكب جَمَلا ! ؛ كَمْ صفُوف به تقدّمتْ ، وسيوفٍ أقدمت ، وحُتُوفٍ حمائمُ الحِمَام بها على الأعداء ترنَّمتْ ! ! .

وكان المجلسُ السامىّ الأميرىُّ ، الأجَلىّ ، الكبيرِىّ ، المُجاهِدىّ ، المؤيَّدىّ ، العَضُـدى ، النصيرىّ ، الأوْحدىّ ، المقدَّمىّ ، الذُّخْرىّ ، الظَّهيرِىّ ، الأصِيلىّ : مجْدُ الإسـلام والمسلمين ، شَرَفُ الأمراء فى العالَمين ، هُمـامُ الدَّوله ، حُسام المِلَّه ؛ رُكْنُ القبائِل ، ذُخْر العشائِر ، نُصْرةُ الأُمراء والمجاهدين ، عضـدُ الملوك والسلاطين « جمـاز بن محمد » أدام الله نعمته ـ : هو المُرادَ بمـا تقدّم ، والأحَقّ بأنْ يتقدّم ، والذى لَوْ أنَّ الصباحَ صَوارِمُ والظَّلامَ جَحافِلُ لتقَدَّم ؛ فلمَّا مات والدُه رحمه الله نحَا إلىٰ أبْوابنا العالية ، ونُورُ وَلائِه يَسْعىٰ بين يَدَيْه ، ووقف بهـا : وصدَقَاتُنا الشريفةُ تُرَفْرِفُ عليـه ؛ فرأينا أنَّه بقيةُ قَومه الذين سَلَفُوا ، وخَلَفُ آبائه الذين عن زَجْر الخيل ماعَزَفُوا ؛ وكبيرُهم الذى يعْتَرِفُ له والِدُهم ووليدُهم ، وأمِيرُهم الذى به تُرْعىٰ عُهودُهم ؛ وشَجرتهم التى تَلْتَفُّ عليه من أنسابهم فُروعُها ، وفَرِيدُهم الذى تجتمع عليه من جَحافِلِهم جُموعُها .

فرسم بالأمْر الشَّريف أنْ تفوّض إليـه إمْرة آل عَليٍّ : تامَّةً عامَّة ، كاملةً شاملة ، يتصرّف فى أُمورهم ، وآمِرِهم ومأْمورِهم ، قُرْبًا وبعْـدا ، وغَوْرًا ونَجْدا ، وظَعْنًا و إقامَـه ، وعِرَاقًا وتِهَامَه ، وفى كلِّ حَقِيرٍ وجَلِيـل ، وفى كلِّ صاحب رُغَاءٍ وثُغَـاء وصَرِير وصَـلِيل ، علىٰ أكمل عوائد أُمَراء كلِّ قبيـله ، وفى كلِّ أُمُورهـم الكثيرة والقَليله .

ونحنُ نأْمرك بتقوى اللهِ فيها صـلاحُ كلِّ فريق ، وإصلاحُ كلِّ رَفيق ، ونَجاحُ كلِّ سالكٍ فى طريق . والحكمُ : فليكُنْ بما يوافق الشَّرعَ الشَّريف . والحقوقُ : نخلِّصْها علىٰ وجه الحق من القَوِيِّ والضَّعيف . والرِّفْقُ بمن وَلِيتَه من هذا الجَمِّ الغَفير، والجمعِ الكَبير ، وإلزامُ قَوْمك بمـا يلزمهم من طاعتنا الشَّريفةِ التى هى من الفُروض اللازمةِ عليهـم ، والقيامُ فى مُهِمَّاتِنا الشريفةِ التى تَبْرُزُ بهـا مَراسِمُنا المطاعةُ إليـك وإليهم ، وحفظُ أطْراف البلاد والذَّبُّ عن الرَّعايا من كلِّ طارق يَطْرُقهم إلا بخيْر، والمسارعةُ إلىٰ ما يُرسَم لهم به ما دامت الأسفار فى عَصَاها سَـيْر ، والإفْراج لعَرَبك لاتسمحْ به إلا لمَن له حقيقةُ وُجُود ، وله فى الخِدْمة الشريفةِ أَثَرٌ موجود ، ومَنْعُهم : فلا يكونُ إلا إذا تَوَجَّه منعهم ، أو تَوَانَتْ عزائِمُهم وقَلَّ نَفْعُهم ، والمَهابَةُ : فانْشُرْها كسُمْعتِك فى الآفاق ، ودَعْ بَوارِقَ سيوفها تُشَام بالشَّامِ ودِيَمَها تُراقُ بالعِرَاق ، وخيولَ التَّقادم : فارتَدْ منها كلَّ سابقٍ وسَابِقة تَقِفُ دونهما الرِّياح ، ويحسُـدُهما الطَّير إذا طَارَا بغَير جَنَاح ، ولا تَتَّخِذْ دونَنا لك بِطَانَةً ولا وَلِيجَه ، ولا تقطعْ عنَّا أخْبـارَك البَهِيجَه ، ولْيَعْرِفْ قَومُه له حَقَّه ، ويُوفُوه من التعظيم مُسْتَحَقَّه ، فإنه أميرهم وأمْره من أمْرِنا المُطاع ، فمن نَازَع فقدْ خَالَفَ النَّص والإجماع ، والله تعـالىٰ يُوفِّقه ما اسْتطاع ، بمنه وكرمه ! والخط الشريف ... ...

[الثانى – أمير آلِ فضل] (١) .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ بالتَّقدِمة علىٰ عَرَبَىْ آل فَضْلٍ وآل عَلِيّ، كتب به للأمير فَخْر الدين « عثمان بن هبة » وهو :

الحمدُ للهِ الذى خصَّ مَن وَالَىٰ هَـذه الدَّولةَ بالتَّقْدمة والفَخْر، ورَمىٰ من عَاداها بالمَذَلَّة والقَهْر، ومدّ فى عُمْـر أيَّامِها حتَّى يُسْتَنفَد الدَّهْر، وحتَّى تُوصَف أيَّامها – وإن قصرت – بالمسارّ : كلُّ شَهْرٍ يمرّ منها كالعام واليومُ كالشَّهر .

نحمدُه علىٰ مامَنَحنا : من تأْيِيد وظَفر، وطَوىٰ دَعْوة من عَانَدَنا بعد النَّشْر، ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً إن دَخَلتْ شَواهِدُها تحت الإحصاء فلا تدخلُ فَوَائدُها تحت الحَصْر، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جعل اللهُ به الهِدَايةَ فى المَبْدَإ والشَّفاعةَ فى المَعَاد يَوْم الحَشْر، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تُسْعِدُ بعد الشَّقاء وتَجْبُرُ بعد الكَسْر .

وبعـدُ، فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالىٰ لمـا مَكَّن لنا فى الأرْض، وجعل بيدنا البَسْطَ والقَبْض، وأرَانا كَيْف نَصْنَعُ الجميلَ ونُجمِّلُ الصُّنْع، وكيْفَ نَجْبُرُ قَلْبَ من جُعِـل فى أيامنا جَبْره بعد الصَّـدْع، وكيف تُصْبِحُ أنْجُمُ ذَوِى الأقـدار فى سمـاء مملكتنا نَيِّرَةَ المَطالِع، وكيْفَ نُلَقِّ الخيرَ فى عِرَاصِها من رَامَهُ إذا كان على الخَيْر فى غَيْر أيَّامنا مَانِع؛ وكيف نُحِلُّ التقدمةَ فيمَن إذا عَقَل فى حُلَلِها قيل : هـذا هو أحَقُّ بها ممَّن كان، وهذا الذى ما بَرِحَتِ التقدمةُ فى بَيْتِه فى صَدْرِ الزَّمان، وهَذا الذى إذا ذُكِر آلُ فَضْـل وآلُ عَلِيّ كانت له مرتبـةُ الشَّرَف ولا غَرْوَ أنْ تكون مرتبة الشَّرَف

(١) الزيادة من المقام .

لعثمان، وأنّنا لا نُمطى صَهْوَةَ العزِّ إلّا لأهلها، ولا نَنْسَخُ الآيةَ لمن تَقَدَّمَ فى التَّقدمة إلا بخَيْرٍ منها أو مِثْلِها، ولا نُسَلِّم رايَتَها، إلا لمن تُعْقَد عليه الخَناصِر، ولَا يَتَسَنَّمُ ذِرْوتَهَا، إلا من هو أحَقُّ بها وأهْلها فى الأوّلِ والآخِر .

ولما كان المجلسُ السّامىّ ، الأميرىّ ، فخرُ الدين، عثمان بن مانع بن هبة : هو المُرادَ بهذا القَوْل الحَسَن ، والمَمْدُوحَ بحَشْدِ هذا المَدْح الذى يَسُرُّ السِّرَّ والعَلَن ، والحَقِيقَ من الإحسان بكُلِّما والخير بِأن؛ والخصيصَ من سَوَالِف الخِدَم بما والمُفَضَّلَ علىٰ سائر النُّظَراءِ ولو قِيسَ بمَن ــ آقتضىٰ حسنُ الرَّأْيِ الشَّريف، أن رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال ذُو القَدْر فى أيَّامه يَرْتَفِع، وذُو الفَضْل فى دَوْلَتِه لا يَعِزُّ عليه مَطْلَبٌ ولا يَمْتَنِع، وذُو الأصَالةِ التى يجتمعُ له فيها من النَّعْماءِ ما لا يَلْتَئِم له فى غَيْرِها ولا يَجْتمع ــ أن تُفوّضَ إليه التقدمةُ على العُرْبان بالشَّام المحروس ، وهم من يأتى ذكره، علىٰ ما آستقرّ عليه الحالُ فى تَرْتِيبِهم؛ وأنَّ مَنازِلَه الدَّارُوم: بُعْدًا وقُرْبا، حَضَرا وبَدْوا، عَامِرًا وغَامِرا، رَائحًا وغَادِيا، من الرَّسْتَن إلى المَلُّوحة . والعَرَبُ: آل فَضْل وآلُ عَلِىّ حيثُ ساروا نزلوا منزلة المذكور، أو بمنزلة الأمير شمس الدين محمد بن أبى بَكْر، والخدمةُ واحدَه، والكَلمةُ علىٰ آتِّفاقِ المصالح مُتعاضِدَه .

فليكن لِلقُوىٰ جسدَ رُوحِها لا بَلْ رُوحَ جَسَدِها، ومجموعِ القبائل أوْحدَ عُدَدها إذا صح الأوّل من عَدَدها؛ وقُطْبَ فَلَكِها الذى علىٰ تدبيره مَدَارُها ، وعلىٰ تقريره آقْتِصَارُها ؛ وعلىٰ تَقْدِمَتِه تَعْوِيلُها ، وإلىٰ نسبة إمارته جُمْلَتُها وتَفْصِيلُها؛ ولْيَجْمَعْهم على الطَّاعة فإن الطَّاعةَ مِلَاكُ الأمْرِ للآمر ، وأُسُّ الخير للبادى والحاضر؛ وليعلم أن لِكُلٍّ منهم نِقَابَةً تُعْرف، وعَلَمِيَّةَ أصَالَةٍ بها يُعَرَّف ؛ ومَنزلةً يرِثُها الوَلَد عن الوالد، ومَشْيَخةً ترجع من ذلك البَيْت إلىٰ ذلك الواحد، فلْيَحْفَظْ لهم الأنْساب، ولْيَرْعَ لهم

الأسباب، وإذا أُمِرُوا بأمرٍ من مَهامِّ الدَّوْلَة يتْلُو عليهم : ﴿ ٱدْخُلُوا الْبَابَ ﴾ . والألزام له ولهم مَخَاوِض تحفظ ، ومَفَاوِز تُلْحَظ ، ومَطَارِحُ لا تُلْفَظ ؛ ومَشَاتٍ ومَصَايِف ، ونفائض ومَصَارف، ومَرَابِع ، ومَرَاتِع ، ودُنُوٌّ وٱقْتِراب ، وتَوَطُّن وٱغْتِراب، وإغَارَةٌ ونَهِيض ، وبَرْقٌ ووَمِيض .

فلْيُرَتِّبْ ذلك أجْمل تَرْتيب ، ولْيَسْلُكْ فيه خَيْرَ مَذْهب وتَهْذيب ، وليَدُعَّ العَادِى ، ويُلَاحِظِ الرَّائِحَ والغَادِى ، وليُؤَمِّن ذلك الجانب فأمْنُنا تُطْرِب أبْيَاتَه المَحْدُوَّ والحَادِى ، وعليهم عداد مقرّر ، وقَانُونٌ مُحَرَّر ، ولْيَكُن علىٰ يَدِ شَادّه شَادًّا ، ولسَبب تَأْيِيدِهِم مَادًّا ؛ ويعلم أنَّه وإن كان قد أغْمِضَ من جُفُونه فيما مَضىٰ ، وأعْرِض عنه فى الزَّمن الأوّل الذى ٱنْقضىٰ ، وقُدِّمَ عليه من كان دُونَه ، فقد ردّ الله له أبْكَارَ الأمْر وعُونَه ، فلا يجعَلْ لقائلٍ عليه طَرِيقا ، ولا يَدْخُلْ فى أمْرٍ يقال عنه فيه : كان غَيْرُه به حَقِيقا ؛ بل يَفُوقُ مَن تَقَدّم فى الخِدْمة والهِمَّه ، والصَّرامَة والعَزْمه ، والله يُوزِعُه شكرَ هذه النِّعمه ، والخط الشريف ... ... :

الثالث — أمير آل مراء ، ورتبته «السامىّ» بالياء .

وقد تقدّم أنَّ منازلهم حَوْرَانُ . وعن "مسالك الأبصار" أنَّ دِيارَهُم بين بلاد الجيدور والجولان ، إلى الزرقاء ، إلىٰ آخر بُصْرىٰ . ومشَرِّقا إلىٰ حَرَّة كشت ، علىٰ القرب من مَكّة المشرّفة ، زادها الله شرفا .

وهذه نسخةُ مَرْسُومٍ شريف بإمْرَة آل مِراء ، كتب بها للأمير بدر الدين « شطى بن عمر » وهى :

الحمد لله الذى زَيَّنَ آفاقَ المَعَالِى بالبَدْر ، ورفع بأيّامنا الشريفة خَيْرَ وَلِىٍّ أضْحىٰ بين القبائِل جليلَ القَدْر ، ومنَحَ من أخْلص فى خِدَم دَوْلَتِنا الشريفة مَزِيدَ الكَرَم

فأصْبح بإخلاصِه شديدَ الأزْر، وأجزل بِرّه لأصَائل العَرَب العَرْبَاءِ فوفّر لهم الأقْسام، وأسْبغ ظلالَ كَرَمه علىٰ من يَرْعَى الجارَ ويحفَظُ الذِّمام .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمٍ هطَل سَحابُها ، ومنَنٍ تفتَّحَتْ بالمسارّ أبْوابُها ؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُقَرِّبُ صاحِبَها يوم الفَزَع الأكبر، من المحَلِّ الآمِن ، وتُورِدُه نَهْر الكَوْثَر، الذى ماؤُه غيرُ آسن ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثـه اللهُ من أشْرف القَبـائِل ، وأوْضح بنُورِ رسالتِـه الدَّلائِل ؛ فأنقذ الله به هذه الأمّةَ من ضَلالِهـا ، وبوّأها من قُصُور الجنَانِ أعلىٰ غُرَفِها وأشْرَف ظِلَالِهـا ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أوْضَحُوا مناهِجَ الإيمـان ، وشيَّدُوا قواعِدَ الدِّين إلىٰ أن عَلَتْ كلمتُـه فى كلِّ مكان ، [فكان] عَصْرُهم أجْمَلَ عَصْر وقَرْنُهم خيرَ أوَان ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من أدْنَيْنا من بِسَاطِ الاصْطِفاء مَحلَّه ، وارْتَشف من سَحاب مَعْروفِنا طَلَّه فوَبْلَه ؛ ونَالَ من عواطِفِنا منزلةَ القُرْبِ علىٰ بُعْد الدار، وحكم له حسنُ نَظَرِنا الشريفِ بتوالى غَزِير كَرَمنا المِدْرار (١) .

ولمـا كان المجلس الفلانىّ : هو المشارُ إليـه بهذا النَّعْت الحَسَن ، والمَوْصوفَ بالشَّجاعة فى السِّرّ والعَلَن ـ رسم بالأمر الشريف ـ لا زال بَدْرُه ، ساطعَ الأنْوَار ، وبِرُّه ، هامِعَ القِطَار ، وخيرُه يشمَلُ الأولياءَ بجَزِيل الإيثَارِ وجميلِ الآثَار ـ أن يستقرّ المشارُ إليـه فى كَيْت وكَيْت : لأنَّه البَطَل الشَّـديد ، والفَارس الصِّـنْديد ؛ وليْثُ الحرب المذكور، ومَن هو عندنا بعَيْن العِنايَة مَنْظُور .

(١) لم يذكر خبرا لإن ولعله سقط من قلم الناسخ والأصل « من كرم أصلا ومحتدا ، وسل سيف عزيمته حتى خضعت له رقاب العدا » أو نحو ذلك .

ولْيَثِقْ من صَدَقاتنا الشَّريفة بما يُؤَمِّل ويَعْهَد ، ولْيَتَحقَّق قُرْبَه من مَقامِنا الشَّريف والعَوْدُ أحْمد ، ولْيَتلَق هذا الإحسان بقَلْب مُنْشَرِح ، وأمَل مُنْفَسِح ؛ وليجتهدْ فى أمْر عُرْبانِه الذين فى البلاد ، فإنَّا جعلنا عليه فى أُمورهم الاعْتِماد ، وقد أقَمْناه أميرا علىٰ عَرَب آلِ مِراء ؛ فلْيُشَمِّرْ عن ساعد الاجتهاد فى مصالح دولتنا الشَّريفة بغير زُورٍ ولا مِرَاء ؛ وليَقْمَع المُفْسدَ من عُرْبانِه ويقابلْه بالنَّكال ، والصَّالحُ الخيِّرُ منهم يُجْزلُ له النَّوَال ، والوصايا كثيرةٌ ولِمثْله لاتُقال ؛ والخط الشريف أعلاه حجة فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريف بِنصْف إمْرَة آل مِراء ، كُتِب به لقناة بن نجاد ، فى العشر الأخَر من شهر رمضان سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة . من إنشاء المقرّ الشِّهابِيّ بن فَضْل الله ، وهى :

الحمدُ لله الذى استخدَم لنَصْرنا كلَّ سَيْف وقَنَاه ، وكلَّ سُرْعةٍ وأنَاه ، وكُلَّ مُثَقَّف تُسْلِي(١) جناياتُه ويعْذُب جنَاه ، وكُلَّ ماضٍ لا يعُوقُه عن مَقاصِده الصالحةِ يَعُوقُ وهو عَبْد مَنَاه .

نحمدُه حَمْدَ من أغناه ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَستمِدّ من قَبلِها فَلَقُ الصَّباح سَناه ، ويُفَكُّ منها من قَبْضةِ السُّيوف عُنَاه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى [بَوَّأه منازل الشرف] وبِناه ، وأحلَّه من العَرَب فى مكان يَخْضَع له رَأسُ كلِّ جبَّار ويَخْشَعُ بصَرُه وتستَمِعُ لما يُوحَىٰ أُذُناه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَخُصُّهم من كل شَرَف بأسْماه وأسْناه ، وسلم تسليما .

(١) سلى جناياته ــ تترك فلا يقتص منه .

وبعــد، فإنَّ لكلِّ ثاكلةٍ قَرَارا، ولكلِّ هاجرةٍ مَزَارا، ولكلِّ مِعْصَمٍ سوارا لايليق إلا بزَنْدِه، ولكلِّ عُنُقٍ دُرًّا لا يصلُح إلا لعِقْدِه، ولكلِّ سَيْفٍ طال هُجوعُه فى غِمْدِه آنسلالا، ولكلِّ قَنَــاةٍ لم تُعْتَقَل مُدَّةً آعتِقالا؛ وكانت إمْرةُ آلِ مِراء قد ثُبِّتَت من البَيْت الأحْمدِىِّ بأوْثق أوْتادها، ووصلت منه فى الرِّفْعة إلىٰ نِجَادِها؛ ولم تزلْ تنتقلُ فى آفاقِها بُدُورُهم الطَّالعه، وتُضِىءُ عليها من صِفاحهم برُوقُهم اللَّامعه؛ وتَجُولُ فيها من سوابقهم السُّحُبُ الهَــامِعه، وتُغْنِى فى حروبها عزائِمُهــم إذا وقَعَت الواقِعه؛ وتقدَّمَتْ للمجلس السامىّ، الأميرىّ، الفُلانِىّ، بركابنا الشَّريف صُحْبَـةٌ حَمِدَ فيهــا السُّرىٰ، وخِدْمةٌ أوقــدَتْ له نَارَ القِرىٰ؛ وهاجَر إلينا فى وَقْتٍ دلَّ علىٰ وفَائِه، وسَهِر إلىٰ قصدنا اللَّيْــلَ وله النجم محيط المُقَلِ بإغْفائه؛ وآنقطعَ إلينا بأمَلِه، ولازم من عهدنا الشريف صَالِحَ عَمَلِه؛ وآســتحق تَعْجِيلَ نِعَمنا الشريفةِ وإن تأخرت لأجل مَوْقوت، وأمل نَجاحُه لا يَفُوت.

فلما آن أن تُفاضَ عليه ثِيابُها، ويُضافَ إليه ثَوابُها؛ ويُصَرَّفَ فى قَوْمه أمْرُه، ويشرَّفَ بينهم قَدْرُه؛ ويَعْرِفَ من لم يَعْرف المِسْــكَ أنَّه عندنا ذِكْرُه، ومَنْ جهل البِرَّ: أنه علىٰ مايُحمَد عليه شُكْره، ومن أنْكر أنَّ شيئًا أصْعَبُ من المَوْت: أنَّه فى مجال الموت صَــبْرُه، ومن خالف فيما هو أمْضىٰ من القَضَاء: أنَّه فى البيعة صَدْره، ومن آدَّعى أنَّه لا تصيبه البِيضُ والسُّمْر: أنَّها مُثقَّفَته وبُتْرُه؛ وزال من هذا البَيْتِ العَرِيق الطَّوْدُ وهو ثَابِت، ونُزِعَ منــه السِّنان لولا أنَّه فى قَنَاته نابت؛ و[لولاه] لهــاجت هذه القبيلة إلىٰ من يُقْبِل على نباتها، ويَقِيلُ بها: تارة يُنْجِدُ فى نجدها وأُخْرىٰ يَجُول فى جَوْلَاتِها ـ رسم بالأمْر الشريف أن يُقلَّد من إمْرة آلِ مِراء ما كان الأمير «ثابتُ ابن عَسَّاف» رحمه الله يتقلده إلىٰ آخر وقْت، ويُرْفَعَ فيها إلىٰ كلِّ مُسَامَتَةٍ وسَمْت؛ ليُكَمِّل ما نَقَصَ من التَّمــام وَصْفُه، ويعلَم أنَّه حلَّق إليه حتَّىٰ أتىٰ دون نِصْف البَدْر

فاختطف النِّصفَ وذلك النِّصْفُ هو نِصْفُه ؛ ليكون لهم إحدىٰ اليدين، وأخرىٰ تقع لسيف بِحَدَّين .

وتقوىٰ اللهِ أبْرَكُ ما آشتملت عليه عُودُها، وآنتخِبت له زَبِيدُها ؛ فلْيتَّخِذْها له ذِرْوةً يهْتَدِى بها أنَّىٰ سلك من الفِجَاج ، وآقتحم من حَلَك العَجَاج . وعليه بحُسْن الصُّحْبة لِرَفِيقِه، ويُمْن القَبُول علىٰ فَرِيقِه، وإقامةِ الحُدُود علىٰ ما شرع الله من دِينِه القَوِيم، وإدامَةِ التَّيَقُّظ [لِلثَّأرِ] المُنِيم ؛ وإنزال عَرَبه ومن يترل عليه أو ينزل عليهم فى منازلهم .

وليجْمَعْ قَوْمَه علىٰ طاعتنا الشَّريفةِ كُلَّ الجَمْع، ويُقَابِلْ ما تَرِدُ به مَراسِمُنا المطاعةُ عليه بما أوْجب اللهُ لها من الطَّاعة والسَّمْع ؛ وليأْخُذْ للجهاد أُهْبتَه، ويعجِّل إليه هَبَّتَه ؛ ولْيقِفْ من وراء البلاد الشامية المحروسة دَرِيئَةً لأسوارها المَنِيعَه، ونِطاقا علىٰ مَعَاقِلها الرفيعه ؛ وسَدًّا من بين أيْديها وخلفِها لباب كُلِّ ذَرِيعَه، وخَنْدَقًا يحوطُ بلادها الوَسِيعَه، وحِجابًا يمنع فيها مَن تعدَّى الحَقَّ وخاضَ الشَّرِيعَه ؛ ولا يُفَارِقِ البلادَ حتَّىٰ يُعبِّسَ فى وجوهها السَّحاب، ولا يَعُود حتَّى تُؤْذَنَ زُرُوعُها المخيِّمة بذَهَاب ؛ والكَرَمُ هو فيه سجايَا، والعَزْم ما بَرِح لوِشَان(؟) أسِنَّتِه بكلِّ قَناةٍ حَايَا(١)، والحَزْمُ بيده المَرَاوِيَّة من آل مِرَاءٍ يظْهِرُ له الخفايا، والشجاعةُ هو فى رُباها المنيرةِ «ابنُ جَلَا وطَلَّاعُ الثَّنايا» ؛ وما رضع المُرمِل كأفاوِيقِ الوِفَاق، ولا وضع شَيْئًا فى موضعه كمُدَارَاة الرِّفَاق ؛ فلْيكن لِرَفِيقِه أكْثَرَ مساعدةً من الأخ لأخيه، وأكْبرَ مُعاضَدَةً من المِصْرَاعِ لقَسيمه والجَفْنِ لجَفْنِه والشَّيْءِ لما يُؤاخِيه . هذا يجب ويتعيَّن وليس يجمعهما فردُ طاعه، ولا يلزمهما لشيءٍ واحدٍ آستطَاعَه ؛ فكيف وهو [و] رفيقه إلينا آعْتزاؤُهما ومنَّا إعْزازهما، وهما فَرْعان معْتَنِقان : لدَيْنا إجْناؤُهما وبيدنا إهزازُهما .

(١) يريد لحاء بالهمز فاضطر للقلب مراعاة للسجع .

وليحصِّل من الخيل كلَّ سابقةٍ تليق أن تقــدّم إلينا، وسابحةٍ فى كل مَهْمهٍ حين يَقْدَمُ علينا . والشَّرْعُ الشريفُ يكون إليه مآبُك، وعليه عَفْوُك وعِقابُك؛ وبمقتضاه عَقْدُ كلِّ نِكاح لا يصح إلا علىٰ وَجْهِه المَرْضِىِّ وإلَّا فهو سِفاح، والميراثُ علىٰ حُكمه لمن جَرَّه إليه وإلا فهو ظُلْمٌ صُراح، وبقيةُ ما نوصيه به إذا انتهىٰ منه إلىٰ هذه النُّبْذَة فما عليه فى سواها جُنَاح . وسبيلُ كلِّ واقِفٍ علىٰ تقليدنا هذا أن يُنِيبَ إلىٰ نُصُوصِه، ويؤُوبَ إلىٰ عُمومه وخُصُوصه؛ والحَذَرَ من الخُروج عنــه بقَوْلٍ أو عَمَل ، فالسَّيْفُ أسْبقُ من العَذَل ؛ والله تعالىٰ يُمتِّعه بمــا وهبه من العزِّ فى النُّقَل، والمَحاسن التى هى بَدُ المسامع والأفواه والمُقَل؛ والخط الشريف أعلاه ... ...

المرتبـــــة الثـانيـــــة

(من أرباب المراسيم من العرب ـ من يُكْتَبُ له فى قَطْع الثُّلث بـ«السَّامى» بغير ياء، مفتتحا بـ«أمَّا بعدُ» وهم ثلاثة أيضا)

الأوّل ــ أُمَراء بَنِي مَهْدِىّ ، وهى مقسومة بين أرْبعــة . ورتبةُ كلِّ منهــم «مجلس الأمير» .

وقد تقدّم أنَّ منازلهم البَلْقاءُ، إلىٰ مائر، إلى الصوان، إلىٰ عَلَم أعفر .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ برُبْع إمْرَةِ بنى مَهْدِىّ، وهى :

أمَّا بعــدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى حقَّقَت فى كَرمِنا المآرب، وأجْزلَتْ من آلائنــا المَواهِب، وقرَّبَتْ لمن رَجانا بإخْلاص الطاعة ما يأْبَىٰ عليه من المَطَالِب؛ والصَّلاةِ والسـلامِ علىٰ سـيدنا محمدٍ المبعوثِ من أشْرف ذَوائِب لُؤَىِّ بن غَالِب، المخصوص باللِّواء الذى لا يَضْحَىٰ مَن أوىٰ إلىٰ ظِلّه والحَوْض الذى لا ظَمَأ بعــدَ وُرُوده

لشارب ، وعلىٰ آله وصحبه الذين فازوا من صحبته وطاعته بأسمى المراتب وأسنى المناقب — فإنّ أولىٰ من رفعت رعايتنا قدره ، وأطلعت عنايتنا فى أفق السعادة بدره، وحققت آلاؤنا سوله ، وبلّغته صدقاتنا مرامه ومأموله — من أحكم فى طاعتنا أسباب ولائه ، وأتقن فى خدمتنا آنتساب بعيده وآنتمائه ؛ وتقرّب إلينا بإخلاصه فى آجتهاده، ومتّ بما يرضينا من آحتفاله بأمور جهاده؛ مع ما تميّز به من أسباب تتقاضىٰ كرمنا فى تقديمه ، وتقتضى إجراءه علىٰ ما ألف أولياء الطاعة من حديث إحساننا وقديمه .

ولما كان فلانٌ هو الذى آختصّ بهذه المقاصد ، وعُنِيَ بما ذكر من المصادر والموارد — رسم أن يرتّب فى ربع إمرة بنى مهدىّ .

فليرتّب فيما رسم له به من ذلك قائما من وظائفها بما يجب، عالما من مصالحها بما يأتى وما يجتنب، واقفا لآعتماد مايرد عليه من المراسم وقوف المنتظر المرتقب، ملزما عربه من الخدم بما يؤكّد طاعتهم ، ومن إعداد الأهبة بما يضاعف آستطاعتهم، ومن المحافظة علىٰ أسباب الجهاد بما يجعل فى رضا الله تعالىٰ ورضانا قوّتهم وشجاعتهم؛ وليقدّم تقوى الله تعالىٰ بين يديه، ويجعل توفيقه العمدة فيما آعتمد فيه عليه ؛ والخير يكون، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة مرسوم شريف بربع إمرة بنى مهدىّ أيضا :

أمّا بعد حمد الله علىٰ نعمه التى جدّدت لمن أخلص فى الطّاعة رتب السّعود ، ورفعت من نهض فى الخدم الشّريفة حقّ النّهوض إلىٰ مناصب الجدود ؛ والصّلاة والسّلام علىٰ سيدنا محمد المخصوص بلواء الحمد المعقود ، وظلّ الشّفاعة الممدود ،

والحَوْض الذى لا يَنْضُبُ علىٰ كَثْرة الوُرود ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَفَّوْا بالعهود ، وبَدَتْ سِيمَاهُم فى وجوهِهم من أثَرِ السُّجود ـ فإنَّ أوْلىٰ من آجْتلىٰ وُجوهَ النِّعم ، وآجْتَنىٰ ثَمرَة ما غَرَس من الخِدَم ، وآرْتَقىٰ إلىٰ ما أُنْعِم به عليه من التَّقَدُّم الذى أقامه السَّعْدُ لآستحقاقه علىٰ أثْبتِ قَدَم ـ من نشأَ فى طاعتنا الشَّريفةِ يَدِينُ بوَلائِها ، ويتَقَلَّب فى خَيْرِ نِعَمِها وآلائِها ، ويتَعبَّدُ بما يُؤَهَّل له من خِدَمها ، ويبادِرُ إلىٰ مايُنْدَب له من المَهامِّ الشَّريفةِ بين يَدَىْ مراسمنا أو تحتَ عَلَمِها .

ولمَّا كان فلانٌ هو الذى ذُكِرتْ طاعَتُه ، وشُكِرت خِدَمُه وشَجاعَتُه ـ رُسم ... ... أنْ يُرَتَّب فى رُبْعِ إمْرة بَنِى مَهْدىٍّ ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعِدَته .

فليرتَّبْ فى ذلك ، قائمًا بما يجب عليه من وظائفها المَعْروفةِ المألُوفَه ، وخِدَمِها التى هى علىٰ ما تبرُزُ به أوامِرُنا الجاريةُ موقُوفَه ؛ وليكنْ هو وعَرَبُه بصَدَدِ مايُؤْمَرون به : من خِدْمةٍ يبادرون إليها ، وطاعةٍ يُثابِرون عليها ، وتأهُّبٍ للجهاد ، حيثُ سَرَت الجيوشُ المنصورةُ لم يَبْقَ لهم عائقٌ عن التَّوجُّه بين يديها ؛ وسِياسةٍ تَأْخذُهم من الطرائقِ الحميدةِ بسُلُوك مايَجِب ، ويعرفُ بها سلُوكَ مايَسْلُك وآجتنابَ ما يَجْتَنِب ؛ والخير يكون ، إن شاء الله تعالىٰ .

الثانى ـــ مقدّم زُبَيْد . ومنازلُ بعضهم بالمَرْج وغُوطَةِ دمَشْق ، وبَعضهم بصَرْخَد ، وحَوْران .

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريفٍ بتَقْدِمة عرب زُبَيْد ، وهى :

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أبْقىٰ بنا للنِّعم تأْبيدا ، وأحْسن العاقِبَة لأحسن عاقِبَةٍ أدام لهم فيها تَخْليدا ، وأحْيا به منهم حَيًّا نكتب لأميرهم وإمْرتِهم فى كُلِّ حِينٍ تَقْليدا ؛

ونَفَّل منهم نَوْفَلاً فلا نزالُ نجدِّدُ فيهم مَلَابِسَ الفَخَار بذكر ٱسمه تَجْديدا ، ورَعَىٰ بنا أبناءَ بيْتٍ تناسَقُوا أبْناءً وجُدُودا ، وتَبَاشَرُوا بولَدٍ لمَّا خَلَفَ وَالِدَه بأنَّ ٱبْنَ سَعيدٍ لا يكون إلَّا سَعِيدا ؛ والصَّلاةِ والسَّلامِ علىٰ نبيه محمدٍ الذى أهْلك بسَيْفِه كلَّ غَاشِمٍ ، وأنْجل بسَيْبِه كلَّ غمام لوَجْنَةِ الرِّياض وَاشِم ، وأسْعد بسَبَبِه نَوْفَلًا وعبْدَ شَمْسٍ بأُخوتهما لهاشم ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه خُلَاصَةِ العَرَب ، صلاةً لا يُعَدُّ ضريبا لها الضَّرَب ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ العساكرَ المنصورةَ الإسلاميةَ : منهم حاضِرَةٌ أهلُ جِدَار ، وباديةٌ فى قِفَار ، وقومٌ هم المُدُن المُمَدَّنَةُ وقومٌ عليها أسوار ؛ وهم صنفان : صِنفٌ لا تَمَلُّ السيوفَ عَواتِقُهُم ، وصنفٌ سيوفُهم تُحبس بها مَناطِقُهم ؛ والعَرَبُ أكرم [أهل] البَوادى ، وأعظمُ قَبائِلهم تَضَرُّمًا كالبرْق مُباراةً للسُّحُب الغَوادِى ؛ قد نَصَبُوا بقارعَة الطَّريقِ خيامَهم ، وسَرَّحوا مع أسراب الظِّباء سَوَامَهم ؛ ووقفُوا دُونَ الممالك المحروسة كَتَائِبَ مصْفُوفه ، ومَواكِبَ بما تُعرفُ به العربُ من الشَّجاعة موصوفه ؛ وزُبَيْدٌ من أنْخَرِها قَبِيله ، وأكْثَرِها فوارسَ : [فأمَّا أحْسَابها] فكريمةٌ وأمَّا وجوهها فجميلَه ؛ شَامِيَّةٌ أعْرقَتْ أنْسابا فى يَمَنِها ، وأتْهمَتْ بشَطْء أسنَّتِها ماتَفَتَّح فى المجَرَّة من سَوْسَنِها ؛ فما يَبِيتُ بَطَلٌ منهم علىٰ دِمَن ، ولا يُعْرفُ فارسٌ إلا إذا تَمَلَّى فى الخَلِيطَيْن من شَامٍ ومن يَمَن ؛ كَمْ فيهم بمَواقِعِ الطِّعانِ فَطِنٌ ذو كَيْس ، وكَمْ صَبَغ منهم بالدِّماء رايةً حَمراءَ يَمَنِيٌّ لا يُنْسب إلىٰ قَيْس ؛ كَمْ كَرَب علىٰ مَعْدِيكَرِبَ منهم فَارس ، ونُسِب إلىٰ زُبَيْدٍ وهو خَشِنُ الملابس ؛ منهم صاحب الصَّمْصامة يَقِى مثلها السَّيفَ فردا ، وكَمْ قتل من أقْرانه الشُّجْعان مِن أخٍ صالحٍ وبَوَّأه فى العَجَاج بيديه لَحْدا ؛ ومن نجومهم الزواهرُ السَّراه ، وغيومهم الأكابر السَّراه ، من لم يَزَلْ حَوْل دِمَشْق وما يليها من حَوْرَان ، مَنارَةَ مَنازِلَ وأوْطان ؛ حَامَوْا عن جَنابِها المَصُون ، وحَامُوا حَوْلَ غُوطَتِها تَشَبُّهًا بحَمَائمها

علىٰ الغُصُون ، وماثَلُوا بسيوفهم أنْهارَها ، ورِمَاحِهم حَوْلَ دَوْحاتِ الأيْك أشْجارَها ، وآسْتَلأَمُوا بمِثْلِ غُدْرانِها دُرُوعا ، وحَكَوْا بما أطَلُّوا من دِماء الأعْداء شَقائق رَوْضِها ، وبما جَرُّوا من حُلَلهم المُسَهَّمَة سيلا ، ولم يَزَلْ لهم من البَيْت النَّوْفَلِيّ مَن يجمع جماعَتَهم ، ويضُم تَحْتَ راية الدولة الشريفة طاعَتَهم ، يَخْلُفُ آبنٌ منهم لأبيه أو أخٌ لِأخيه ، وينتظِم كلُّ فَرْقد مع من يناسِبُه وينضاف كلُّ كَوْكَبٍ إلىٰ مَن يُؤَاخيه .

وكان مجلس الأمير الأجلّ ، فلان بن فلان الزُّبَيْدى ـ أدام الله عزه ـ هو بَقِيَّةَ من سلف من آبائه ، وعرف مثل الأَسَد القَسْوَرةِ بإبائه ، وآنْحَصَر فيه مِن آستِحْقاقِ هذه الرتبة مِيراثُ أبيه ، وآستغْرَقَ جميع ما كان من أمْر قَوْمه وإمْرَتهم يَلِيه .

فرسم بالأمر الشريف ـ زاده الله تعالىٰ شَرَفا ، وذَخَر به لكلِّ سَالِفٍ خَلَفا ـ أن يرتب فى إمْرةِ قَوْمه من زُبَيد النَّازِلين بظاهر دِمَشْق وبلاد حَوْرانَ المحروس ، علىٰ عادة أبيه المستقرّه ، وقاعِدَته المستمرّه ، إلىٰ آخر وقت ، من غير تَنْقِيص له عن نَجْم سَعْدِه فى سِمَةٍ ولا سَمْت ، تَقْـدمةً تشملُ جميعَهُم ممَّن أعْرَق وأشْأم ، وأنْجَد وأتْهم ، لا يخرج أحَدٌ منهم عن حُكْمه ، ولا ينفردُ عن قِسْمه ، لا ممَّن هو فى جِدار ، ولا ممَّن هو مُصْحِرٌ فى قفار ، يَمْشِى علىٰ ما كان عليه أبُوه ، ويقومُ فيهم مَقامَه الذى كان عليه هو وأُولُوه .

ونحنُ نُوصِيك بتقْوَى اللهِ تعالىٰ ، وباتِّبَاع حكْم الشَّريعةِ الشريفة ما أقَمْتَ علىٰ بلد أو أزْمَعْتَ آرْتِحالا ، وجَمْع قَوْمِك على الطاعة فُرْسَاناً ورُكْبانا ورِجَالا ، واتباع أوامِرها الشَّريفةِ وأمْر نُوَّابنا الذين هم بإزائهم ، وما آعْتِزازُ من قَبْلك إلا لمَا مالوا إليه فى آعتزائهم ، والتَّأهُّبِ أنت وقَوْمك لما رسم به فى لَيْل أو نهار ، وحَمايَةِ حِمًى أنتم حوله فى صَحْراءَ مُصْحِرة أو مِن وَرَاء جِدار ، والمطالعةِ بمن يَنْتقِلُ من أصْحابك

بالوَفَاه، والوصايا كثيرة ومِثْلُك أيْسَرُ ماقال له آمْرُؤٌ كَفاه، والله تعالىٰ يوفقك لما يرضاه، ويُؤْثِرُك فى كلّ أمْرٍ للعمل بمقتضاه، وسبيل كلّ واقفٍ عليه العملُ به بعد الخط الشريف شرّفه الله تعالىٰ وأعلاه أعلاه، إن شاء الله تعالىٰ .

النيابة الثانية

(من نيابات البلاد الشامية ــ نيابة حلب . ووظائفها التى يكتب بها من الأبواب السلطانية علىٰ نوعين)

النوع الأوّل

(من بحَاضِرَة حَلَب ، وهم علىٰ أصناف)

الصنف الأوّل

(منهم أرْباب السُّيُوف ، وهم علىٰ طبقتين)

الطَّبَقة الأولىٰ

(من يُكتب له تقليدٌ ، وهو نائب السَّلْطنة بها ؛ وتَقْليده فى قَطْع الثُّلثين بـ«ـالجناب الكريم»)

وهذه نسخةُ تَقْليدٍ شريفٍ بنيابَة السلطنة بحَلَب ، كُتِب به للامير استدمر، من إنشاء الشَّيخ شهاب الدِّين محمود الحلبىّ ، وهى :

الحمدُ لله حافظِ ثُغُور الإسلامِ فى أيّامنا الزَّاهرَة ، بمن يَفْتَرُّ عن شَنَب النَّصْر سَيْفُه ، وناظِمِ نِطاق الحُصُون فى دَوْلَتِنا القاهرةِ ، علىٰ هِمَم من لم يَزَلْ يغزُو عدوّ الدِّينِ قبل طُلوعِ طَلَائِعه طَيْفُه ، ونَاشرِ لِواءِ العَدْل فى أسْنىٰ ممالكنا بيَد من لا يُؤمَنُ فى الحق قوّته

ولا يُرْهَبُ فى الحُكْم حَيْفُه ، ومدَّخِر [أجر] الرِّباط فى سَبِيله لمن لم يَبِتْ لَيْلَةً إلا والتَّأْييد نَزِيلُه والنَّصْر سَمِيرُه والظَّفَرُ ضَيْفُه ؛ الذى جعلَ الجِهاد فى أطْراف الممالك المحروسة سُورًا لعَواصِمِها ، والصِّعادَ فى مَقَاتِل أعْداء الدِّين شَجنًا فى صُدُورها وشَجًى فى غَلاصِمِها ؛ والسُّيُوفَ الحِدَادَ تُزْهَىٰ بمشاركتها لاسم من بُلِيَتْ منه أجْساد أهْلِ الكُفْر بقاسِمِها ، ورُمِيتْ منه أعْمارُهم بقَاصِمِها ؛ وأرْهفَ لهذا الأمرِ من أوْلِيائنا سيفًا تتحلَّى الشَّهْباء بجواهرِ فِرِنْده ، وتَتَوقَّع الأعْداء مواقعَ فَتَكَاته قبلَ تألُّق بَرْقه من سُحُب غِمْده ؛ ويعرفُ أهْلُ الكُفْر مَضَاربَه التى لا تُطِيقُ مَقَاتِلُهم جَحْدَها ، وتتفرّقُ عُصَب الضلال فَرَقًا من مهابته التى طالما أغارَتْ علىٰ جيوشهم المتعدِّدَة وحْدَها .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت النَّصْر لأجياد ممالكنا عُقُودا ، والكُفْرَ للَهَبِ صَوارِمنا وَقُودا ، والتَّأْييدَ من نتائج سُيوفنا التى تَأْنَفُ أن تُرىٰ فى مَضاجِع الغُمُود رُقُودا ؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُعْلِى مَنَارَ الهُدىٰ ، وتُطفِئ أنْوار العِدَا ، وتُخْلِى أجْسادَ أهلِ الكُفْر من قُوىٰ أرْواحِهم فتَغْدُو كديارِهم التى لا يُجِيبُ فيها إلا الصَّدَىٰ ؛ ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أعْلى الله بِناءَ الإيمان بتأذينه ، وأيَّدنا فى الذَّبِّ عن مِلَّته ، بكل وَلِيٍّ يتلقَّ رَايةَ النَّصْر بيمينه ، وأعاننا علىٰ مصالح أُمّته ، بكلِّ سيفٍ نَتَأَلَّق نارُ الأجل من زَنْده ويَتَرَقْرقُ ماء الحياة من مَعِينه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين وَسَمَتْ أسِنَّتُهم من وجوه الكُفْر أغْفالا ، وكانتْ سُيُوفُهم لمَعاقِلِ أهْلِ الشِّركِ مَفاتِحَ فلمَّا فُتِحَت غَدَت لها أقْفالا ؛ فمنهم مَن فَازَ بمَزِيَّة السَّبْق إلىٰ تَصْديقه ، ومنهم من كان الشيطانُ يُنَكِّبُ عن طَرِيقه ؛ ومنهم مَن أمَر بإغْماد سَيْف الانْتصار لدَمه عن مُرِيقه ، ومنهم من حاز رُتْبة أختانه وصِهْره دون أُسْرته الكرام وفَرِيقه ؛ صلاةً دائمةَ الخُلود ، مُسْتَمِرَّة الإقامة فى التَّهائم والنُّجود ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنّ أولى من حُلِّيت التقاليدُ بلآلئ أوصافه، ومُلِئت الأقاليمُ بمواقع مَهَابته وإنصافه؛ وريعت قلوبُ العدا بطُروق خياله قبل خَيْله، وخاف الكُفْرُ كلَّ شيءٍ أشبه ظُبَاه من توقُّد شموس نهاره أو حكىٰ أسنَّته من تألُّق نجوم ليله؛ ومُدَّ على الممالك من عزماته سُورٌ مُصَفَّحٌ بصفاحه، مُشَرَّفٌ بأسنَّة رماحه؛ ساميةٌ علىٰ منطقة الجوزاء منطقةُ بُروجه، نائيةٌ علىٰ أمانى العدا مسافةُ رفعته فلا يقدر أملُ باغٍ علىٰ آرتقائه ولا رجاءُ طاغٍ علىٰ وُلُوجه ـ من تمهَّدتْ بسَداد تدبيره الدُّوَل، وشهِدت بسير محاسنه السِّيَرُ الأُوَل؛ وتوطَّدتِ الممالكُ علىٰ أسنَّته فحقَّقت أنَّ أعلَى الممالك ما يُبْنىٰ على الأسَل، وسارتْ فى الآفاق سُمْعتُه فكانت أسرىٰ من الأحلام وأسبق من الأوهام وأسْيَرَ من المَثَل؛ وصانَت الثُّغورَ صَوارِمُه فلم يَشِمْ بَرْقَها إلا أسيرٌ أو كسير، أو مَن إذا رَجَع إليها بصره آنقلبَ إليه البَصَرُ خاسئًا وهو حَسير؛ وزانَت الأقاليمَ مَعْدِلَتُه فلا ظُلْمَ يغشَى ظَلامُه، ولا جَوْرَ يُخشَىٰ إلْمامُه، ولا حَقَّ تُدْحضُ حجَّتُه ولا بَاطِلَ يَعْلُو كلامُه؛ فالبلادُ حيثُ حَلَّ بعَدْله مَعْمُوره، وبإيالَته مغْمُوره، وسُيوفُ ذَوِى الأقْلام وأقْلامُهم بأوامره فى مَصالح البلاد والعباد مَنْهِيَّةٌ ومأْمُوره .

ولما كان الجنابُ العالى هو الذى عانقَ الملكَ الأعزَّ نِجادُه، واللَّيْثَ الذى لم يَزَلْ فى سبيل الله إغارَتُه وإنجادُه؛ والكَمِيَّ الذى كَمْ له فى جهاد أعداء الله من مَوْقِفِ صِدْقٍ يضلُّ فيه الوَهْم وتَزِلُّ فيه القدَم، والهمامَ الذى إنْ أنكرتْ أعْناقُ العدا مواقعَ سيُوفه «فما بالعَهْد من قِدَم»؛ والمِقْدامَ الذى لا تُنْكَر مَشاهِدُه فى إرْغام الكُفْر ولا تُكْفَر، والزَّعيمَ الذى حَمَتْ مَهابَتُه السَّواحلَ فخاف البَحْرُ: وهو العَدُوُّ الأزْرق، من بَأْسه الأحْمر، علىٰ بَنِى الأصْفر؛ والمُقدَّمَ الذى كَمْ ضاقتْ بسَرايا شيعتِه الفِجَاج، ! وكَمْ أشْرقتْ نُجُوم أسنَّته من أُفُق النَّصْر فى ظُلَم العَجَاج، ! وكَمْ حَمَى العَذْبَ الفُراتَ على البُعد بسُيوفه وهى مجاورةٌ للملْح الأُجَاج ! ! ؛ مع سَطْوَةٍ أنامَت الرَّعايا فى مِهاد أمْنِها،

ورأفةٍ غَمرتِ البرايا بعاطفَةِ إقْبالها ويُمْنِها، ورِفْقٍ تكفَّل لسَهْلِ البلاد وحَزْنِها بإعانة مُزْنِها ؛ وشَجاعةٍ أعدَّت الجيوشَ التى قِبَـلَه فغدَتْ آحادُها أُلُوفا ، وفتكاتٍ عوّدت الطَّيْر الشِّبَعَ من وَقائِعه فباتَتْ علىٰ راياته عُكُوفا ، ومَعْدلَةٍ عمَّت مَن فى إيالَتِه فأضْحىٰ الضَّعيفُ فى الحَقِّ قَوِيّاً عنده والقَوِىُّ فى الباطل ضَعيفًا .

وكانت البلاد الحَلَبيَّة المحروسةُ هى المملكةَ التى لا تُجارىٰ شَهْباؤُها فى حَلْبَةِ فَخَار، والرُّتبَـةَ التى لا يُؤَهَّلُ لهـا من خَواصِّ الأَوْلياء الأَعِزَّةِ إلَّا مَن ٱستخرنا اللهَ تعالىٰ فى تَقْليـد جِيد مَفَاخِرِه بلآلئِ كَفالتِها فَخَار ؛ فهى سُورُ الممالكِ الذى لا تَتَسَوّرُه الخُطوب ، وأمُّ الثُّغور التى ما بَرِح يُسْفِر بابْتِسامِها عن شَنَب النَّصْر وجْهُ الزمن القَطُوب ؛ ومَوْطِنُ الرِّباط الذى كُلُّ يوم وليـلة [فيـه] خير من الدُّنْيا وما فيها ، وعقيلةُ الأقاليم التى لَمْ أشْجىٰ قلوبَ الملوكِ الأكابرِ صُدُودُها وأسْهر عيونَ العظماء الأكاسرةِ تجافِيها ؛ بل هى عِقْـدٌ دُرُّه حُصُونُه ، ورَوْضٌ سيوفُ الكُماةِ جَداولُه ورِماحُ الحُمـاةِ غُصُونُه ؛ وحِمًى لم تَزَلْ عيونُ عنايَتِنا بعَوْنِ الله تَحُفُّه وأيدى تأييـدنا بقُوّة الله تَصُونُه ـ ٱقتضت آراؤُنا الشريفـةُ أن نُرْهِفَ بحمايَتِها هـذا السَّيفَ الذى تُسابِقُ الأَجَلَ مَضارِبُه ، وتبطل الحِيَـلَ تَجارِبُه ، ويتَقَـدَّم خَبَرَ عَزائِمه خَبَرُها فلا يُدْرَىٰ : هلْ رِيحُ الجَنُوب أَسْرىٰ وأسْرع أَمْ جَنائِبُه ؛ وتبُثُّ مَهابَتُه أمام سراياه إلىٰ العِدَا سرايا رُعْبٍ تَفُلُّ جَمْعَهم ، وتَسْبِقُ إلىٰ التَّحرُّزِ من بَأْسِـه بَصَرهم وسَمْعَهم ؛ وتسفر بكل أفق عن نعتها مغيره (١) ، أو كَتيبةٍ تجعلها لمعالى النصر الكامنة مُثيره .

فلذلك رُسم بالأمر الشَّريف العـالى ـ لا زالت أَوامرُه مبْسُوطةً فى البَسيطَه ، ومَمـالِكُه مَحُوطَةً بمهابَتِه الشَّامِلَةِ ومَعْدلته المُحيطه ـ أنْ تفوّض إليه نيابةُ السَّلطنة الشَّريفة بالمملكة الحَلَبِيَّة : تفْويضًا يعوّذُها من عيون العِدا بآياتِ عَزائِمه، ويعوّدُها

(١) كذا فى نسختين ولعل الصواب "عن شيعة" إلخ .

اجتناءَ ثَمر المُنىٰ والأمْنِ من وَدْقِ صَوارِمه ؛ وينْظِم دَرارِىَّ الأسِنَّة من أجْياد حُصُونها فى مكان القلائد ، ويجعل كُماةَ أعدائها لخوفه أضْعفَ من الوُلْدانِ وأجبن من الوَلائد؛ ويُجَرِّدُ إلىٰ مُجاوِريها من هِمّته طلائعَ تحصُرهم فى الفَضاء المتّسع ، وتسُدّ عليهم مَجالَ الأرْض الفسيحة فيغْدُو لهم حَزْنُها الحَزَن الشّامل وسَهْلها السَّهْل المُمتنع .

فليتقلّدْ هـذه الرتبةَ التى بمِثْلها تُزْهَى الأجْياد ، وبتَقلُّدِها يَظْهَر حسنُ الآنتِقاءِ لجواهرِ الأوْلياء والانتِقاد ، وبتَفْوِيضها إلىٰ مِثْله يُعلَم حسن الآرتياد لمصالح البلاد والعِباد؛ ولْيزِدْ جيوشَها المنصورة إرْهابا لعَدُوّهم ، وإرْهافاً لصَوارِمِ الجِهاد فى رَواحِهم وغُدُوّهم ، وإدامةً للنَّفير الذى حَبَّبَه اللهُ إليهم ، وقُوّةً علىٰ مجاوِريهم من أهْل النِّفاق الذين يَحْسَبُون كُلَّ صَيْحةٍ عليهم ؛ فإنّهم فُرْسان الجلاد الذين ألِفُوا الوقائع ، وأسْوار الفُراتِ الذين عُرِفُوا فى الذَّبّ عن مِلّتِهم بحِفْظ الشّرائع ، وكَشّافةُ الكُرَبِ الذين لا يزالُ لهم فى سائر بلاد العِدا سرايا وعلىٰ جميع مطالع ديار الكُفْر طلائع؛ وهم بتَقْدمته تتضاعفُ شَجاعَتُهم ، وتَزِيدُ آستِطاعَتُهم وطاعَتُهم ؛ وليأْخُذْهم بمضاعفة الأُهَب وإدامةِ السَّعْى فى حِفْظ البلاد والذَّب ، والتشبُّه بأُسُود الغابات التى هَمُّها فى المَسْلُوب لا السَّلب؛ وليهتَمَّ بكَشْفِ أحْوال عَدوّ الإسلام ليَبْرح(١) آمنًا علىٰ الأطراف من حَيْفِهم، متيقِّظًا لمكايِدِهم فى رِحْلَتَىْ شتائِهم وصَيْفِهم ؛ مُفاجِئًا لهم فى كلّ منْزِل بسَيْرٍ يُرَوِّعُ سِرْبَهم ، ويُكَدِّرُ شِرْبَهم ؛ ويجعلُ رُوحَ كلٍّ منهم من خَوْف قُدُومه نافرةً عن الجَسَد، ويَسْلُبُهم بتوَقُّع مُفاجَآته القَرارَ « ولا قَرار علىٰ زَأْرٍ من الأسَد » ، ولا تزالُ قُصّادُه بأسْرار قُلوب الأعْداء مُناجِيه [ولا تبرح له من أعيان عيونه بين العِدا فرقة ناجيه](٢) وليحْتَفِل بتَدْريج الحَمَامِ التى هى رُسُل أعِنَّتِه ،

---

(١) مراده ليبق على الدوام آمنا الخ إلا أن هذه المادة لاتؤدى هذا المعنى إلا بسبق النفى . تأمل .

(٢) الزيادة مما يأتى قريبا ليستقيم الكلام .

وإقامة الدَّيادب الذين إذا دَعوْا هَمْهَمَةً بألْسِنَةِ النِّيران لبَّتْهُم ألْسِنَة أسِنَّته ؛ ولْيُمِتْ قـلوبَ أعْدائه بوَجَل لِقائه قبْـل الأجَل ، ولْيَزِدْ فى الحَـزْم علىٰ آبن مزْيَدٍ الذى لم يُرَ فى الأمْن إلا فى درْعٍ مُضاعَفَـة « لا يَأْمَنُ الدَّهْرَ أنْ يُدْعَى علىٰ عَجَـل »(١) ؛ ولْيَجْعَلْ أحْوال القِلاعِ المَحْروسةِ دائمـا بمرأًى منه ومَسْمَع ، ويُشَيِّدْها من مُلاحَظَته باحْتِفالٍ لا يَدَعُ لشَائِمِ بَرْقِها وحمول أموالهـا [مطمعا] فقـد آستكمل حُسْنَ النَّظَر فى مصالحها أجْمـع ؛ وليُقِمْ منـارَ الشَّرعِ الشَّريفِ بمُعاضَدَةِ حُكَّامه ، والآنقيادِ إلىٰ أحْكامه ، والوُقُوفِ مع نَقْضِه وإبْرامه :

فَلْيَجْعَلْ حكْمَ الشريعةِ المطهَّرةِ أمَامه وإمامَه ، وليُقِمْ أمْرَ اللهِ فيمَن آقتاده الشرعُ إلىٰ حكمه بجـاذَب زِمامَه ؛ وليُعَظِّم حَمَلَةَ العِـلْم الذى أعلىٰ اللهُ مَنارَه ، وأفاض علىٰ الأُمَّةِ أنْوارَه ، وحَفِظ بهم على المِلَّة سُـنَّة نبيهم صلَّى الله عليه وسـلم وآثارَه ؛ وليَكُنْ لأقدارِهم رَافِعا ، ولمضَارِّهم دَافعا ، ولأوْقافِهم بجميل الآحْتِفال عَامِرا ، وفى مصالحهم بتَحْلية الأحْوال آمِرا ؛ ولْيَنْشُر لِواءَ العَدْل الذى أمر اللهُ بنَشْره ، ويشْفَعْه بالإحسان الذى هو مَأْلُوفٌ من سجاياه ومَعْروفٌ من طَلاقَةِ بِشْره ؛ ويمدَّ على الرَّعايا ظِلَّ رأْفَتِه الذى يُضْفِي فى النِّعَم لِباسَهُم ، ويُدِيمُ إلْفهم بالرَّفاهية وآستِئْناسَهم ؛ ويُقِمْ حُكْمَ سياسته علىٰ مَن لم يَسْتَقِمْ ، ويَقِفْ مع رضَا اللهِ تعالىٰ فى كلِّ أمْر : فإذا رَحِم فللّهِ فلْيَرْحَمْ وإذا آنتقم فلِغَيْر اللهِ لا يَنْتَقِم ؛ ولْيَعْتَنِ بعمارة البـلاد ببَسْط العَدْل الذى ما آحْتَمىٰ به مُلْكٌ إلَّا صَانَه ، والرِّفْقِ الذى لم يكن فى شَيْءٍ إلَّا زَانَه ، وتَوَخِّى الحقِّ الذى مَن جعله نُصْبَ عَيْنَيه وفَّقه اللهُ له وأعانَه . وكذلك أمْرِ الأمْوالِ : فإنَّها ذَخيرة المُلْكِ وعَتَادُه ، ومادَّةُ الجَيْش الذى إذا صُرِفَتْ إلىٰ مصالحهـم هِمَمُه لم يُخْشَ عليـه آنْقِطاعُه ولا

(١) يشير إلى بيت من قصيدة لمسلم بن الوليد يمدح بها يزيد بن مزيد الشيبانى وهو :

تراه فى الامن فى درع مضاعفـة * لا يأمن الدهر أن يدعى على عجل

نَفَاذُه، وجميعُ الوصايا قد أَلِفْنا من سِيرَتِه فيها فَوْقَ ما نَقْتَرِح، وخَبَرْنا من مَقاصِدِه فيها ما يقولُ للسانِ قَلَمِها : قد عرفتُ ما أَوْمَأْتَ إليه من مَقاصِدِك فاسْتَرِح ؛ ومِلاكُها تقْوَى اللهِ تعالىٰ ورِضَانا ، وهو المَأْلُوف من عَدْلِه وإنْصافِه ؛ واللهُ تعالىٰ يُديمُها بتَأْييدِه وقد فعل ، ويجعله من أركان الإسلام وأعْلامِ المسلمين وقد جَعَل ؛ بمنِّه وكَرَمه، والاعتمادُ ... ... إن شاء الله تعالىٰ[1] .

وهذه نسخةُ تقليدٍ شريفٍ بنِيابَة حَلَبَ أيضا، كُتب بها عن السلطان المَلِك النَّاصر «محمد بن قلاوون» للأمير شَمْس الدِّين «قراسُنْقر» باعادته إليها . من إنشاء الشيخ شِهاب الدِّين محمود الحَلَبِيّ، وهي :

الحمدُ للهِ الذى جعل العَواصِمَ بإقامَةِ فَرْض الجِهَاد فى أيَّامنا الشريفةِ مُعْتَصِمَه، والثُّغُورَ بما تفْتَرُّ عنه من شَنَبِ النَّصْر فى دَوْلتنا القاهِرةِ مُبْتَسِمَه، والصَّوارِمَ المُرْهَفة فى أطراف الممالك بأيْدِى أوْليائنا لأرْواحِ مَن قَرُب أو بَعُد عنها من الأعْداء مُقْتَسِمَه، والحُصونَ المُصَفَّحَة بِصفَاحِنا بأعْلام النَّصْر مُعْلَمَةً وبِسِيَا الظَّفَر متَّسِمَه؛ مُعْلِي قَدْرِ مَن أحْسن فى مصالح الإسلام عَمَلا ، ورَافِعِ ذِكْرِ مَن يبسط إلىٰ عِزِّ طاعةِ اللهِ ورسولِه وطاعَتِنا أَمَلا ، ومُجَدِّدِ سَعْدِ مَن تَلْبَس الأقلامُ من أوْصافه أنْفَرَ الحُلَل إذا خَلعَتْ من المحامد علىٰ أوْصافه حُلَلا، ومُفَوِّضِ زَعامَةِ الجُيوش بمواطن الرِّباط فى سبيله إلىٰ من إذا فَلَّتْ مَقاتِلُ العدا سيوفَ الجِلادِ كانت عَزائِمُه من السيوف المُرْهَفَةِ بَدَلا .

نَحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت طاعَتَنا من آكَدِ أسْباب العُلُوّ ، وخِدْمَتَنا من أنْجَح أبْواب الرِّفْعة بحَسَب المبالغة فى الخِدْمة والغُلُوّ، ونِعَمَنا شاملةً للأوْلياء بما يُرْبِى علىٰ

طَوامِحِ الآمَال فى البُعْد والدُّنو ، ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُستنزلُ بها موادُّ النَّصر والظَّفَر ، وتُسْتَجْزَلُ بها ذخائرُ التأييدِ التى كمْ أسْفر عنها وَجْهُ سَفَر ، وتُرْهَفُ بهـا سيوف الجهاد التى كم آلفَتْ من آمَن وكَفَّتْ من كَفَر ، ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسولُه الذى أنْزل سَكِينَتَه عليـه ، وزُوِيَتْ له الأرضُ فرأىٰ منهـا مايبْلغ مُلْكُ أُمَّتِه إليه ، وعرِضتْ عليه كُنوزُ الدُّنيا فأَعْرِضَ عمًّا وُضِع من مقاليدها بيَدَيْه ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين رضى الله عنهم ، ونَهَضُوا بمـا أُمِروا به من طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه وطاعةِ أُولى الأمْرِ منهم ؛ صـلاةً دائمة الظِّلَال ، آمنة شمسُ دَوامِها من الزَّوال ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمَّا بعدُ ، فإن أوْلىٰ من طُوِّقَتْ أجْيادُ الممالك بفرائد أوْصَافه ، وفُوِّقَتْ إلىٰ مَقَاتِل العِدا سِهامُ مَهابَتِه التى تَحُولُ منهم بين كُلِّ قَلْبٍ وشِغَافه ، وخُصَّتْ به أُمُّ الثُّغور التى دَرّ لها حَلَبُها ، ومَدّت عليها أفْياءَ النَّصر المَمْدودةَ ذَوابِلُها وقُضُبُها ، وأهْدَىٰ أرجَ التَّبلُّج افْتِرَارُها وشَنَبُها ـ مَن تقومُ مَهابَتُه مقامَ الأُلُوف ، وتَجْتَنِى سُمْعتُه من ذَوابِلِ العزائم ثَمَر النَّصْر المَأْلُوف ، ويسْبِقُ خَيالُه سرايا خَيْلِه التى هى أسْرىٰ من هُوجِ الرِّياح إلىٰ هَزْم الجُموعِ وتَفْرِيق الصُّفُوف ، وتَنْظِمُ أسِـنَّةُ رِماحِه فى الوَغَىٰ قلوبَ العِدا نَظْمَ السُّطورِ وتَنْثُرُ صِفَاحُه رءُوسَهم نَثْر الحُرُوف ، وتُحيطُ بنِطَاق المَمَـالك المُتَطَرِّفَة صَوارِمُه إحاطةَ الأسْوار بالحُصُون ، والخمَائِل بالغُصُون ، والهَالاتِ بالأقْمَـار ، والجَوانِح بالأسْرار ؛ ولا تَبيتُ ملُوكُ العِـدا منه إلَّا علىٰ وَجَل ، ولا يُرىٰ فى الأمْن إلا فى دِرْعٍ مُضَاعَفَة «لا يَأْمَنُ الدهرَ أنْ يُدْعَىٰ علىٰ عَجَل» ؛ ولا يَخْفَىٰ عن ألْمَعِيَّته ما يُضْمِرُ الأعداءُ من الحركات قبلَ إظْهارها ، ولا يَبْعُد علىٰ عَزَماتِه ماهى مَلِيَّةٌ به من بِدارِها أعْداءَ الدِّين

بِدَارِها، وإذا جلس لنَشْر المَعْدِلَة تبرَّأ الظلم من فكر [(١)] البغى والجَوْر علىٰ إنسان، وشَفَع ما تَصَدَّىٰ له من ذلك بما أَمَرَ اللهُ به من العَدْل والإحسان .

ولما كان الجناب العالى الفُلانى هو الذى مُلِئَتْ قلوبُ العدا بُرعْبِه، وٱنْطَوتْ قلوبُ الرعايا علىٰ حُبِّه، وتَهلَّلَتْ وجوهُ المُنىٰ فى سِلْمِه وٱستَهلَّت سُحُب المنايا فى حَرْبِه، وجمع بين حِدَّةِ البَأْسِ ولُطْف التُّقَىٰ فكان هو الكَمِىّ الذى شَفَع الشَّجاعةَ بالخُضوعِ لِربِّه، وحَاطَ ماوَلِيَه من الأقاليم بسُورَىْ بأْسِه وعَدْلِه فبات كلُّ أحَدٍ وَادِعًا فى مِهَادِه آمِنًا فى سِرْبِه، وأغارَتْ سَرايَا مَهابَتِه قبل طُلوعِ طَلائعِه فأصْبَح كلُّ من العِدا أسِيرَ الذُّعْرِ قبلَ إمْساكِه ــ قَتِيلَ الخَوْف قبلَ ضَرْبِه، مع ٱحْتفال بعمارة البِلادِ، أعَان السُّحُبَ علىٰ رَيِّها، وٱشْتمالٍ علىٰ مصالح العِباد، قام فى تَيْسِيرِ أرْزاقِهم مقامَ وَسْمِىِّ الغمائم وَوَلْيِها، وتَيَقُّظٍ لمصالح الثُّغورِ أنامَ عنها عيونَ الخُطُوب، وإشراقٍ فى أُفُقِ المَواكِب كَسَا وجْهَ الدِّين نُورَ البِشْرِ ووَجْهَ الكُفْر ظلامَ القُطُوب .

وكانت المملكة الحَلَبِيَّة عقيلَةَ المَعاقِل، وعِصْمَةَ العَواصِم، ووَاسِطَةَ عُقودِ الممالك، وسِلْكَ فرائد النَّصْر التى كم أضاءَتْ بها إلى الكُفْر وجُوهُ المسالك، لا تُدْرَكُ فى مِضْمارِ الفَخَار شَهْباؤُها، ولا تُرىٰ إلا كما تُرى النجوم فى عيون العِدا حَصْباؤُها، ولها من الحُصونِ المَصُونَةِ كلُّ قَلْعة يتَهَيَّبُ الطَّيْفُ سلوكَ عِقَابِها، ويتقاصر لَوْحُ الجوِّ عن منال عُقابِها، فهى عَزِيزَةُ المَنالِ، إلَّا علىٰ كريم كَفَاءَته، بعيدةُ مَجال الآمال، إلَّا علىٰ ما أَلِفَت من إيالة كفايَتِه، ساميةُ الأُفُق إلا علىٰ شَمْسِه، نَابيةُ الطَّرْف إلا علىٰ ما عَرَفت من سلوكه فى أمْسِه، ظَاميةُ الغُروس التى أنْشَأَها فى مصالحها إلىٰ ما ٱعْتادَتْه من سُقْيَا غَرْسِه ــ ٱقتضت آراؤنا الشريفة أنْ نَزِيدَها إشراقًا بشَمْس

(١) بياض بالأصل .

جَلالِه ، وآعتلاءً بسَيْفِه الذى رِياضُ الجَنَّة تحتَ ظِلالِه ؛ وأن نُعيدَ أمْرها إلىٰ مَن طالما حَسَّن عَدْلُه بُقْعتَها ، وحصَّن بَأْسُه قَلْعتَها ؛ وأطَارت مَهابَتُه سُمْعتَها ، وأطَالتْ سِيرَتُه سُكُونَ رعاياها فى مِهادِ الأمْن وهَجْعتَها ؛ وأعاد وُجودُه أحْوال مُجاوِريها من العِدا إلى العَــدم ، وأبَاد سَيْفُه أرْواح مُعانِدِيهــا : فلو أنْكَرَتْه أعْناقُهم لم يكن بالعَهْد من قِدَم .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زالتْ شَمسُ عَدْله ، مُشْرِقَةً فى الوجود ، وغَيْثُ فَضْله ، مستهِلَّ الجُود فى التَّهائِم والنُّجود ـ أنْ تفوّضَ إليه ... ... تفويضًا يُجَدِّد آرْتِفاعها ، ويُعَمِّر وِهادَها وبِقاعَها ، ويُؤَيِّد آنْدفاعَ مَضَارِّها وآنْتِفاعَها ؛ ويُعِيدُ الإشْراقَ إلىٰ مَطالِعِها ، والأُمُورَ إلىٰ مواقِعها من سَدَادِ التدبير ومَواضِعِها ؛ والإقدامَ إلىٰ جُيُوشِها وأبْطالها [والشجاعة الى حماتها ورجالها] .

فلْيَطْلُعْ فى أُفُق مَواكِبِها طلوعَ نَعْتِه الكريم ، ويُجْرِ فى جَوانِبِها ما ألِفَتْه من موارد عَدْلِه الذى فَارقَها غَمامُه وأثَرُ سَيْلِه مُقيم ؛ ويُعاوِدْ مصالِحَ تلك المَمْلكةِ التى لا تصلُح أُمورُها إلّا عليه ، ويُراجِعْ عِصْمةَ تلك العَقِيلةِ التى لا تطمَحُ أبْصارُ عَواصِمِها إلّا إليه ، ويُلْقِ فى قُلوبِ مُجَاوِرِيها ذلك الرُّعْبَ الذى نَعَىٰ إلىٰ كلٍّ منهم نَفْسَــه وأسْلاه عمّــا فى يَدَيْه ؛ ويُثَبِّتْ تلك المهابَةَ التى جعلت مَنايا العِدا براحَتِه يأْمُرها فيهــم ويَنْهاها ، ويَنْشُرْ فى الرعايا تلك المَعْدلةَ التى هى كالشَّمْس : لا تَبْتَغِى بمــا صَنعتْ مَنْزِلةً عندهم ولا جَاها ؛ ولْتَكُنْ أحْوالُ عدوِّ الإســلام بمرأًى منه علىٰ عادته ومَسْمَع ، ويَكُفَّ أطماع الكُفَّار علىٰ قاعدته فلا يحدُثُ لهم إلىٰ شَــيم بَرْق الثُّغور مطْمَحٌ ولا فى العــلم بشَنَبِها مَطْمَع ؛ وليكنْ من أرصادِه ، نَهارُ عدوِّ الدِّين ولَيْلُه ، ومن أمْدادِه ، مجازُ الجِهاد وحقيقَتُه فلا يبرحُ يُبَيِّتُهم خَيالُه إذا لم تُصَبِّحْهم خَيْلُه ؛ ولا يبرحُ له من أعْيان عُيُونه

بين العِدا فِرْقةٌ ناجيَـه، وطائفـةٌ بأسْرار قُلوبِ القَوْم مُناجيَـه، لتكونَ له مَقاتِلهُم علىٰ طُول الأبَد بادِيَه، وتَغْدُو مَنازِلهُم خاوِيَةً بين سراياهُ الرائحـةِ والغادِيَه. ولْيَتعاهَدْ أحْوالَ الجيوشِ بإدامةِ عَرْضِها، وإقامةِ واجِبـاتِ القُوَّةِ وفَرْضِها، وإطالةِ صِيتِ السُّمْعةِ المشهورةِ لكُماتِها فى طُولِ بلاد العِدا وعَرْضِها، وإزاحةِ أعْذارِها للرُّكوب، وإزالَةِ عَوائِقِ ٱرتيادها للوُثُوب، وإعْدادِ العُدَدِ التى لهـا من أيْديهم طلوعٌ و[فى] مقاتل أعْدائهم غُروب. وليتفقدْ أحْوالَ الحُصونِ المَصُونة بسِدَاد ثُغُورِها، وسَدَاد أُمُورِها، وإزاحَةِ أعْذار رجالهـا، وإرهاف هِمَم حُماتِهـا التى تضيقُ علىٰ آمالِ العدا سَعَةُ مجالهـا، وتَوْفير ذخائرها، وتَعْمير بَواطِنها وظَواهِرها، وتَحْصينِ مَسَالِكها التى يَرْهَبُ الخيالُ المتولى إلىٰ العيونِ سلوكَ مَحاجِرِها.

ولْيُعْلِ مَنـارَ الشَّرعِ الشريف بتَشْييد مناره وإحْكامِه، وتنفيذه لقَضايا قُضاته وأحْكام حُكَّامِه، والوُقوفِ فى كلِّ أمْرٍ مع نَقْضِـه فى ذلك وإبْرامِه، ورَفْعِ أقْدار حَمَلةِ العِلْم علىٰ ما ألِفُوه من الرِّفْعـة والسُّموِّ فى أيَّامِه. ولْتَكُن وطْأةُ بأسِـه علىٰ أهل الفَساد مُشْتَدَّه، وأوامِرُه مُتَقَدِّمةً بوَضْعِ الاشـياء فى مواضعها: فلا تُوضَع الحِـدَّةُ موضعَ الأناةِ ولا الأناة موضع الحِـدَّه. وليراعِ عُهودَ المُوادِعين مهـما استقاموا، ويجمع عليهم إن يَكُفُّوا أناملَ بأْسه التى هم فى قَبْضَتِها رَحلُوا أو أقامُوا، ولتخبر ألْسنةُ النيران بشَبِّها على اليَفاع [والآكام] مَنْ قدم لمكيدة أو طعن بمَطارِ الحمَامِ ـ وجميع ما يتعلَّق بهـذه المَرْتَبة السنية من قواعِدَ فإلىٰ سالِفِ تَدْبيره يُنْسب، ومن سـوابق تَقْريره وتَحْريره يُحْسَب، فهو ٱبن بَجْدَتِها، وفارِس نَجْدَتِها، ومُؤَثِّلُ قواعدها، ومُوَثِّر ماحُمِد من ٱمتداد عَضُدِها إلىٰ مصالح الإسلام وسَاعِدِها، فلْيفعلْ فى ذلك ما يشكره الله والإسلام عليـه، ويُثَبِّت الحجّةَ عند الله تعالىٰ فى إلْقاء المقاليد إليـه، وملاكُ

الوصايا تقوى الله وهى سَجِيَّة نَفْسه ، وثَمَرَة ما اجْتَنىٰ فى أيّام الحياة من غَرْسه ، ونَشْرُ العَدْل والإحسان فبهما تظهرُ مَزِيَّة يَوْمه الجميلِ علىٰ أمْسه ؛ والله تعالىٰ يجعل نِعَمَه دائمة الاستقبال ، وشَمْسَه آمنة من الغُروب والزَّوال ؛ والاعتماد ... ... :

الطبقة الثانية

(من يكتب له فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السامى» وفيها وظائف)

الوظيفة الأولىٰ

(نيابة القَلْعَة بها)

وهذه نسخةُ مَرْسُومٍ شريفٍ بنيابة قَلْعة حَلَب :

الحمدُ للهِ مُعْلِي قَدْرِ من تحلَّىٰ بالأمانة والصَّوْن ، ورافعِ مكانةِ من كان فيما عَرَض من العَوارِض نِعْم العَوْن ؛ ومُؤَهِّلِ من أرْشَدَنا إليه لِلاجْتِباءِ حسنُ الاختبار ، ومُبَلِّغ الإيثار من شُكِرتْ عنه محامدُ الآثار .

نحمدُه حمدَ الشّاكرين ، ونَشْكره شكْرَ الحامدين ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ مُخْلِصٍ فى اعتقاده ، مُبَرَّإٍ من افتْراء كلّ جاحدٍ وإلْحاده ؛ ونشْهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أرْسله بالحقّ بشيرًا ونذيرا ، وأيّده بسُلْطانٍ منه وطَهَّر [به] الأرضَ من دَنَس الضَّلالِ تَطْهيرا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يزال عَلَم العِلْم بها مَنْشورا ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ العنايَةَ بالحصُون تُوجب أن لا يُخْتارَ لها إلا من هو مَلِيٌّ بحِفْظها ، مُوَفِّر [لها] من حُسْن الذَّبِّ غايةَ حَظّها ، حسَنُ المُرابَطَه ، مبرّأٌ من دَنَس الأفعال

السَّاقِطَه ؛ ذو قَلْبٍ [قوىّ] وقَالِب ، وعَزْمٍ مازال لمهمات الأمور أشْجعَ مُغالِب ؛ إذْ هو للْمُرابِطِين بها أوْثقُ حِرْزٍ حَرِيز ، وأصْوَنُ حِجابٍ لمُبارَزَة ذَوِى التَّبرِيز ؛ [فتصبح به] مستورا عَوارُها ، كاتِمةً لأسْرَارِها أسْوارُها ؛ تخاطب مُنازلِيها من مَجَانِيقها بأبْلغ لِسان ، وتُشافِهُ مُلَاجيها من أنَفة أنْفِها إلا أنه بأعلىٰ مكان .

ولمـا كانت القلعةُ الفلانية بهذه المَنْزِلة الرَّفيعه ، والمَكانَةِ التى كلُّ مَكانَةٍ بالنِّسْبة والإضافة إلىٰ عُلُوِّ مكانها المَكانَةُ الوَضِيعَه ـ آخْتَرْنا لهـا وآبْتَغَيْنا ، وآستَوْعَبنا بالتَّأْهيل لنيابتها ولم نترك فى آسْتِيعَابِنا ولا أبْقَيْنا ؛ فلم نَجِدْ لولايَتِها كُفْأً إلا من نُظِمَتْ عُقُود هذا التَّقْليدِ لتَقْليده ، ورُتِّلَتْ سُوَرُ هذه المحامدِ بمُبْدِئ لسان تَقْريظه ومُعِيده ؛ إذ هو أوْثقُ من يُلْقىٰ إليـه إقْلِيدُها ، وأكْفَأُ من يُنْجَزُ به مَوْعُودُها ؛ إذ كان المَكِين ، والثِّقةَ المُتَحَلِّىَ إذ كان التحلِّى ممـا يَزِينُ العاطِلَ المَشِين ؛ إن ذُكِر الرَّأْىُ فهو المتَّصِفُ بسَدِيده ، أو العَزْمُ فهو الموسُومُ بشَدِيده ؛ أو التَّثبُّت فهو من صِفة شَجاعَتِه ، أو حُسْنُ المُظافَرة فهو الباذل فيها جُهْدَ آستطاعته .

ولمـا كانت هذه المناقبُ مَناقِبَه ، وهذه المَذاهِبُ مَذاهِبَه ؛ رُسِم بالأمر الشَّريف العالى ـ زاده الله مَضاءً ونَفاذا ، وآستِحْواءً وآسْتِحْواذا ـ أن تفوّضَ نيابةُ السَّلْطنة بالقَلْعة الفُلانِيَّـة وما هو منسوبٌ إليها من رُبُضٍ ونَواح ، وقُرًى وضَواح ، للمجلس السَّامى فُلان .

فلْيَرقَ إلىٰ رُتبتها المُنيف قَدْرُها ، المُهِمِّ سِرُّها وجَهْرُها ؛ ولْيَكُن من أمْرِ مصالحها علىٰ بَصِـيرَه ، ومن تَفَقُّد أحْوالهـا علىٰ فِطْنةٍ مازالت منـه مَخْبُورَه ؛ ولْيأْخُذ مُحْرِزَها من الجُنْـد وغيرِهم بالمُلازمَة لمـا عُدِق به من الوظائف ، ويتَقدَّمْ إلىٰ واليهـا مع طَوَّافِهـا أوّل طائف ؛ وليتفقَّدْ حواصِـلَها من الذَّخائر ، ووَاصِلَها من التَّبْـذِير بمن

يرتِّبــه علىٰ حفظها من الأخاير، ومهــما عَرِضَ يُسْرِعْ بالمطالعة بأمْرِه، والإعلام بنَفْعه وضَرِّه .

هذه نُبْذَةٌ كافيــةٌ للوثُوق بكفايته، والعِلْم بسَدِيدِ كفالَتِه ؛ والله تعــالىٰ يحسن له الإعانَه، ويجزل له الصِّيانَه ؛ والخط الشَّريفُ أعْلاه ... ... :

الوظيفـــــة الثانيـــــــــة

(شدُّ الدَّواوِين بحَلَب)

وهذه نسخةُ تَوْقيع بشدِّ الدَّواوين بحَلَب :

الحمدُ للهِ الذى أرْهفَ فى خِدْمةِ دَوْلَتِنا كلَّ سَيفٍ يُزْهَى النَّصرُ بتَقْليده ، ويُرْوىٰ نَبأُ الفتْحِ عن تَجْرِبَتِه فى مصالحِ الإسلام وتَجْرِيدِه، ويَرْوَىٰ حَدُّه إذا قابله عَدُوُّ الدِّين من قُلُبِ قَلْبِه ومَوارِدِ وَرِيدِه .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه السابغةِ حمدَ متعرِّضٍ لمزيده، ونشكره علىٰ مِنَنِه السَّائِغَة شكرَ مسْتَنْزِلٍ موادَّ تَأْبيدِه؛ ونشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةَ مُقِرٍّ بتَوْحِيدِه، مُسِرٍّ مثل ما يُظْهِرُ من الخضوع لِكبْرِياءِ تَقْديســه وتَمْجِيده، مُصِرٍّ علىٰ جهادِ من ألْحَــدَ فى آياته بنَفْسه وجُنُودِه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه أشْرفُ من دَعتْ دَعْوتُه الأُمَمَ إلىٰ الآعتراف بخالقها بعد جُحُودِه، وأنْجزَ لأُمَّتِه من الآستيلاء علىٰ الكُفْر سابِقَ وُعُودِه، وأمالَ به عَمُودَ الشِّرْك فأهوىٰ إلى الصَّعيد بعد صُعُودِه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا من بَذَل فى طاعة اللهِ وطاعتِه نِهايةَ مَجْهودِه، وأطْفَأ نارَ الكُفْرِ بعد وُقُودها بإيقَادِ لَهَبِ الجهاد بعــد خُمُودِه ؛ صــلاةً تقترن بركوع الفَرْض وسُجُوده، وتُقامُ أركانُها فى أغْوارِ الوجود ونُجُوده؛ وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ ما أَجْمَلْنا فى مصالحه النَّظَر ، وأَعْمَلْنـا فى آرتياد الأَكْفاء له بوادر الفِكَر ، وآخْتَرْنا له من الأَوْلياء من كان مَعْـدودا من خَواصِّنا ، مَحْبُوًّا بمَزِيد تَقْرِيبنا ومَزِيَّة آخْتِصاصِنا ، أَمْرُ الأَمْوال الدِّيوانيَّه بالمملكة الحَلَبيَّـه وتفْوِيضُ شَدِّ دواوِينهـا المعمورةِ إلىٰ من تُضَاعِفُها رتْبَتُـه المَكِينَه ، ونَزاهَتُه المَتِينَه ، ويده التى هى بكمال العِفَّة مبسوطه ، وخِبْرَتُه التى بمثلها يحسُنُ أن تكونَ مصالحُ الدولةِ القاهرةِ مَنُوطَه ، ومَنزِلَتُـه التى تَكُفُّ عن الأَموال الأَطْماعَ العَادِيَه ، ومَهابَتُـه التى تكفى الأَوْلياءَ من ضَبْط الأعمال بما يَرْوِى الآمالَ الصَّادِيَه ، لأَنَّها موادُّ الثُّغور التى ما بَرِحَت عن شَنَبِ النَّصْر مُفْتَرَّه ، وأَمْدادُ الجيوشِ التى جعل الله لها أَبَدًا علىٰ أَعْدائه الكَرَّه ، ورِيَاضُ الجِهادِ التى تُجْتَنىٰ منها ثمراتُ الظَّفَر الغَضَّـه ، وكُنوزُ المُلْك التى يُنْفَقُ منها فى سبيل الله القَناطيرَ المُقَنْطَرَةَ من الذَّهَب والفضَّه .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى آخترناه لذٰلك علىٰ عِلْم ، ورَجَّحْناه لمـا آجتمع فيـه من سُرْعَةِ يَقَظَةٍ وأَناةِ حِلْم ، ونَدَبْناه فى مُهِمَّاتِنا الشريفةِ فكان فى كلِّ موْطِنٍ منها سَيْفا مُرْهَفا ، وآخْتَرْناه فكان فى كلِّ ما عَدَقْناه به بين القَوِىِّ والضَّعيفِ مُنْصِفا ، وعَلِمْنا من معرفته مايَسْتَثِيرُ الأَمْوال من مَكَامِنِها ، ومن نَزَاهَتِه مايُظْهِرُ أَشْتات(؟)المصالح من مَعادِنِهـا ، ومن مَعْدِلَتِـه ما يمتِّع الرعايا بآجْتِناء ثَمَر المُنَىٰ من إحسان دولتنا القاهرة وآجتلاء مَحاسِنِها ــ آقتضت آراؤُنا الشريفـةُ أن نُحَلِّىَ جيدَ تلك الرتبة بعُقُود صفاته الحَسَنَه ، وأن نُنَبِّه علىٰ حُسْن هِمَمه التى ما برحت تَسْرى إلىٰ مصالح الدولة القاهرة والعيونُ وَسِنَه .

فلذٰلك رُسم أن يُفوَّض إليه ذلك تَفْوِيضًا يبسُـطُ فى مصالح الأموال لِسانَه ويَدَه ، ويَقْصُرُ علىٰ مضاعفة آرْتِفَاعِ الأَعْمال يومَه الحاضرَ وغَدَه ، ويُحَسِّنُ بسدّ الخَلَلِ

وتَتبُّع الإهمــال مصْدَره الجميلَ ومَوْرِدَه ؛ ويجعل [له] فى مصالحها العَقْد والحَلّ ، والتَّصَرُّفَ النافذَ فى كلِّ مادَقَّ من الأمْوال الدِّيوانية وَجَلّ .

فليُباشرْ ذٰلك بِهمَّةٍ علِمْنا فى الحق مَواقِعَ سَيْفِها، وأمِنَّا على الرعايا بمــا ٱتَّصفَتْ به من العدل والمعرفة من مواقع حَتْفِها، وأيقظتِ العيونَ الطَّامحةَ لسلوك ما [لا] يجب بِما لم تزلْ تَتخيَّلُه من روائع طَيْفِها؛ ولْيُثمر الأمْوالَ بالجَمْع فى تحصيلها بين الرَّغْبَة والرَّهبه، ويجعلْ مايَستخرِجُ منها ببركة العِفَّةِ والرِّفْق: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ﴾. ولْيُعَفِّ أثَرالحمايات ورَسْمَها، ويُزِلْ بالكلِّية عن تلك الممالك الحَسَنَة وَسْمَها القَبيحَ وٱسْمَها ؛ وليكُنْ مُهِمُّ الثغورِ هو المُهِمَّ المقـدَّمَ لَديه ، والنَّظَرُ فى كُلَف القِلاعِ المحروسةِ هو الفَرْضَ المتعيِّنَ أداؤُه عليه ، فيحْمِلُ إليها من الأموال والغِلَال ما يَعُمُّ حواصِلَها المَصُونَه ، ويكْفِى رِجالَهَــا الفِكْرفى المَئُونَه ؛ ويضــاعِفْ ذَخائرَها التى تُعدّ من أسْباب تَحْصِينها ، ويُصْبِح به حملُ عامها الواجدِ كِفَايةَ مايستقبلُه مع موالاة الحُمول من سِنِيها ؛ وماعدا ذلك من الوصايا فقد ألْقَينا إلىٰ سَمْعه ما [عليــه] يعتمد، وعَرَّفْناه أنَّ تقوى الله أوفىٰ مابه يَسْتبدُّ وإليه يَسْتَنِد؛ بعد الخط الشَّريف :

الصـــــنف الثــانى

(من أرباب الوظائف بحَلَب ــ أرْبابُ الوظائف الدِّينية)

وهم علىٰ طبقتين أيضا :

الطبقـــــة الأولىٰ

(من يُكْتب له فى قَطع الثلث بـ«السَّامىّ» بالياء ، وتشتمل علىٰ وظائف)

منهــا ــ قَضاء القُضاة . وبها أرْبعة قُضاةٍ : من كل مذهب قَاضٍ ، كما فى الديار المصْرية والشَّام . والشافعىُّ منهم هو الذى يولِّى بالبلاد كما فى مِصْروالشَّام .

وهذه نسخةُ توقيع بقضاء قُضاة الشّافعية :

الحمد للهِ الذى رفع منارَ الشَّرعِ الشريف وأقامَه، ونَوّر به كلَّ ظلامٍ وأزالَ به كلَّ ظُلامَه، وجعله صِراطًا سَوِيًّا للإسلامِ والسَّلامه، الذى جعل القُضاة أعلامًا، بهم يُهتَدىٰ، ونَصَبهم حُكّاما، بمراشدهم يقتاد ويُقْتَدىٰ، وأَخذَ بهم الحقَّ من الباطل حتَّى لا يُعتَلَّ فى قَضيَّةٍ ولا يُعْتَدىٰ؛ والصَّلاةِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أَوْضح اللهُ به الطَّريق، وأبْدىٰ به بين الحلال والحرام التَّفْريق، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تتكفل لرغَباتِ قائلها بالتَّحْقيق .

وبعدُ، فإنَّ أَحقَّ ما وَجَّهت الهِمَمُ إلىٰ تصريفه وجْهًا مُسْفِرا، وقرّبتْ(١) إلىٰ يَدِ الاقتطاف من شجرته المباركة غُصْنا مُثْمِرا، وسَهَّدت فى الاختيار له والاصطفاء لَحْظًا ما زال للفِكْرِ فى مصالح الأُمَّة مُسْهِرا ــ الشرعُ الشريفُ الذى حرس اللهُ به حَوْمَةَ الدِّينِ وحَمىٰ جانبَه، وحَفِظ به أقْوالَ الهُدَى عن المجادلة من المُبْتَدعين وأطْرافَه من المُجاذَبه؛ وكانت حِراسَتُه معدُوقةً باختيار الأئمَّة الأعْلام، ومَوْقوفةً علىٰ كلِّ مَن يُطاعِنُ البِدَعَ عند الاستفتاء برِماحِ الخَطِّ وليست رماحُ الخطِّ غيرَ الأقْلام؛ ومُصرَّفةً إلىٰ كلِّ مُنصِفٍ فى قضاياه حتَّى لو ترافعت إليه اللَّيالى لأنْصفها من الأيَّام.

ولما كان فلانٌ هو مَدْلولَ هذه العِبارَه، ومُرْتَمىٰ هذه المَشارَه، ومُرْتَمَقَ هذه الإشارَه؛ وقد حَلَّ من المَمادح فى محل صَعْبِ المُرْتَقىٰ علىٰ مُتَوقِّله، وطلع من منازل سعودها فى بُروج بَعِيدَةِ الأَوْج إلا علىٰ سَيْرِ بَدْرِه وتَنَقُّله؛ وطالما حَكَم فأحْكم؛ وفَصَل ففَصَّل؛ ورُوجِعَ فما رَجَع وعَدَل فعدَّل؛ وشهدت مراتبُه الشريفةُ بأنَّه خيرُ من تنوّلها ميراثا واستحقاقا، وأجَلُّ مَن كادت تَزْهُو به مَطالِعُ النجوم إشْراقًا وإشراقا؛ وكانت حَلَبُ المحروسةُ مركزَ دائرة لأيَّامه، وسلكَ جوهرَ تصريفه الذى

(١) فى الأصل «وصلت» ولم نفهم له معنى يناسب .

طالما تقلدت أحسنَ العقود بنظامه؛ وقد ٱفتخرتْ به ٱفْتِخارَ السماءِ بشَمْسِها، والرَّوْضةِ بغَرْسِها؛ والأفْهَامِ بإدْراكِ حِسِّها، والأيَّام بما عَمِلَتْه من خَيرٍ فى يومها وأَسْلَفته فى أمْسِها؛ وقد ٱشتاقتْ إلىٰ قربه شَوْقَ النَّفْس إلىٰ تردّد النَّفَس، واللَّيلةِ إلىٰ طلوع النَّجم أوْلَا فإلىٰ إضاءَةِ القَبَس .

فلذلك خرج الأمرُ الشَّريفُ بأن يُجَدّد له هذا التوقيعُ بالحكم والقضاء، بالمملكة الحَلَبِيَّة وأعمالها وبلادها، علىٰ عادته .

فلْيَسْتَخِرِ اللهَ تعالىٰ ولْيَسْتَصْحِبْ من الأحكام ما هِمَّتُه مَلِيَّةٌ باسْتِصْحابِه، ويَسْتَوْعِبْ من أُمُورها ماتتوضح المصالحُ باسْتِيعَابِه؛ ويُقِمْ بها مَنارَ العَدلِ والإحسان، وينْهَضْ بتدبيرِ ما أقْعدَه منها زَمانَةُ الزَّمان . وعنده من الوصايا المباركه، مايسْتَغْنِى به عن المُساهَمة فيها والمُشارَكه؛ لكن الذِّكْرَى النافعةُ عند مِثْلِه نَافقه، فإن لم يكن شُعاعُ هِلالٍ فَبارِقَه؛ وليتّقِ الله ما ٱستطاع، ويُحْسِنْ عن أمْوال اليتامَى الدِّفاع، ويحرُسْ مَوْجودَ من غاب غَيْبةً يجب حِفْظُ ماله فيها شرعا، ويقْطَعْ سَبَبَ من رام لأسباب الحقِّ قَطْعا، ولا يراعِ لحائفٍ حُرْمَةً فإنَّ حُرمات الحائفين لا تُرْعىٰ؛ وينْظُرْ فى الأوقاف نَظَرا يحرُسُها ويَصُونُها، ويبحثْ عنها بَحْثًا يَظْهرُ به كَمينُها؛ والله تعالىٰ يسدِّدُه فى أحْكامه بمنه وكرمه ! .

قلتُ : وعلىٰ ذلك تُكْتبُ تواقيع بقية القُضاة بها من المذاهب الثلاثة الباقية .

ومنها ــ وَكالةُ بيْتِ المال المعمور .

وهذه نسخة تَوْقيع من ذلك، كُتب بها لمن لقبه «كمال الدِّين» وهى :

الحمْدُ للهِ الذى جعل كمالَ الدِّين موجودا، فى ٱقتران العِلْم بالعَمَل، وصلاحَ بَيْتِ المال مَعْهودا، فى استناده إلىٰ مَن ليس له غيرَ رضَا اللهِ تعالىٰ و براءَة الذِّمة أمَل،

وآرْتقاءَ رُتَبِ المتَّقِين مقصورًا علىٰ من بارتقاءِ مِثْلِه من أئمَّة الأُمَّة تُزْهىٰ مناصبُ الدُّول، والاكتفاءَ بالعلماء مَحْصُورًا فى الآراء المَعْصُومة بتوفيق الله من الخَلَل .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى جعلت مُهِمَّ مصالح الإسلام، مُقَدَّمًا لَدَيْنا، وآختصاصَ المَرَاتب الدِّينية بالأئمَّة الأعْلام، مُحَبَّبا إلينا ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً رفَع الجهادُ عَلَمها، وأمضىٰ الآجتهاد كَلِمها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أشْرقتْ سماء مِلَّتِه، من علماء أُمَّتِه، بأضْواءِ الأهِلَّة، ونطقتْ أحْكام شِرْعَتِه، علىٰ ألسِنَةِ حَمَلَةِ سنَّتِه، بأوْضحِ الأدِلَّة ، وبزغتْ شمْسُ هِدايَتِه فى تَهائِم الوُجود ونُجُودِه فانطوت بها ظُلَمُ الأهواءِ المُضِلَّة ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نصحوا لله ولرسوله ، وآثروا رضاه علىٰ نفوسهم فلم يكنْ لهم مُرادٌ سوىٰ مُراده ولا سُولٌ غير سُولِه ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من تَلَقَّاه كرُمنا بوَجْه إقباله ، وآختارتْ له آلاؤنا من الرُّتَبِ ما صدّه الإجْمال فى الطَّلبِ عن تَعَلُّقه ببَالِه ؛ ورَأىٰ إحسانُنا مكانَه من العِلْم والعَمَل فعَدَق به من مَصالِح المسلمين مالم يتركْه أوّلًا إلّا موافقةً له لا رَغْبةً عن خَيالِه ، ورَعىٰ بِرُّنا وِفادَتَه فاقتضى إعادته من مَناصِبِه إلىٰ مالم يَزَلْ مُشْرِقَ الأُفُق بكمال طَلْعته وطَلْعة كماله ــ مَن ظهرتْ لَوامِعُ فوائده ، وبَهرتْ بدائعُ فرائِده ؛ وتَدَفَّقتْ بِحارُ فَضائِله ، وتألَّقتْ أشِعَّة دلائله ؛ وتَنَوَّعَتْ فُنُونه : فهو فى كلِّ عِلْمٍ آبنُ بَجْدَتِه ، وفارسُ نَجْدَتِه ، وحامِلُ رايَتِه ، وجَوادُ مضماره الذى تَقِفُ جيادُ الأفْكار دُون غَايَته .

ولما كان فلانٌ هو هذا البحرَ الذى أُشِيرَ إلىٰ تَدَفُّقه ، والبَدْرَ الذى أُومِئَ إلىٰ كمال ما تألَّق به من أُفُقِه ؛ وكانت وكالَة بيْتِ المـال المعمورِ بحَلَب المحروسةِ من المناصب التى لايتعَيَّنُ لها إلا من تُعقَدُ الخناصرعليه ، ويُشارُ ببَنَان الآخْتِصاص إلَيه ، ويُقْطَعُ

بجميل نُهوضِه فيما يُوضَع من المصالح الإسلامية بيَدَيْه ؛ وله فى مباشرتها سَوابِق ، وآثارٌ [إن] لم تَصِفْها ألْسِنَةُ الأقْلام أوْحتْ بها تلك الأحْوالُ الحالِيَةُ وهى نَواطِق — اقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ إنْعام النَّظَر فى الإنعام عليه بمكانٍ ألِفَه ، ومنْصبٍ رَفَع ما أسْلفه فيه من جميل السِّيرة قدرَه عندنا وأزْلَفَه .

فرسم بالأمر الشريف — لازال بَابُه ثِمالَ الآمال ، وأُفُقَ السَّعْدِ الذى لَو أَمَّهُ البَدْرُ لَمَا فارق رُتَبَ الكمال — أنْ يفوّضَ إليه كذا : لما ذكر من أسْبابٍ عَيَّنَتْه ، وفَضائلَ تزَيَّنتْ به كما زَيَّنَتْه ؛ ووِفَادَةٍ تقاضَتْ له نُزُلَ الكرامَه ، واقتضتْ له موادّ الإحسان ومواردَه فى السُّرَىٰ والإقَامَه .

فلْيَلِ هذه الرتبةَ التى علىٰ مِثْله من الأئمَّة مَدَارُ أمْرِها ، وبمِثْل قُوَّته فى مصالحها يتَضاعَفُ دَرُّ احْتِلابِها ويترادفُ احتلاب درِّها ؛ مُراعيًا حقوقَ الأُمَّة فيما جرّه الإرْثُ الشرعىّ إليهم ، مُناقشًا عن المسلمين فيما قَصَره مذْهبُه المُذْهَبُ من الحقوق المَالِيَّة عليهم ؛ وَاقِفًا بالحقِّ فيما يثْبُت بطَرِيقِه المُعْتَبر ، تابِعًا لحكْمِ الله فيما يختلف سبيله [و]فيما يحرّر بالعِيانِ أو يُحقَّقُ بالخَبَر ، مُحافِظًا علىٰ مايئُول إلىٰ بيْتِ المال بلُطْفِ تَدْقيقه ، وحُسْن تَحْقيقِه ، وقَبولِ الدَّافِع بوجْهِه ودَفْعِه بطَرِيقه ؛ ولا يَمْنَعُ الحقَّ إذا ثبت بشروطه التى أعذر فيها ، ولا يَدْفَع الواجب إذا تعيَّن بأسْبابِه التى يتقاضاها الشَّرْعُ الشَّريفُ ويقْتَضيها ؛ وهو الوكيل عن الأُمَّة فيما لهم وعليهم ، ومتولِّى المدافَعة عنهم فيما يُقِرُّه الشرعُ فى يَدَيْهم ؛ فلْيُؤَدِّ عنهم أمانَةَ دينِه ، ويجْتهِدْ لهم فيما وضعناه من أمْر هذه الوكالة الشريفة بيَمينه ؛ ومِلاكُ هذا الأمْر الوقوفُ مع الحقِّ الجلىّ ، والتَّمسُّكُ بالتَّقْوى التى تظهر بها قُوَّةُ الأمِين وأمانةُ القَوِىّ ؛ والله تعالىٰ يوفِّقه ويسدِّده .

قلتُ : وفى معنىٰ ما تقدّم من قَطْع الورق والألقاب الحسبةُ ، ونظرُ الأوْقاف الكِبَار، وخَطابَةُ الجوامع الجليلة ، وكِبَارُ التَّدَارِيس ، وما يجرى مجرىٰ ذلك : إذا كُتِب به من الأبْواب السُّلطانية . وإلّا فالغالبُ كتابةُ ذلك جَميعِه عن نائب السَّلْطنة بها .

الطبقـــة الثـانية

(من يكتب له فى قَطْع العادة «بالسامى» بغير ياء ، أو «بمجلس القاضى»)

قال فى "التثقيف" : وهم مَن عَدا القضاة الأرْبعة من[أرباب] الوظائف الدينية ، فيدخلُ فى ذلك قَضاءُ العَسْكر ، وإفْتاءُ دار العَدْل ، وما يجرى مجرىٰ ذلك ، حيثُ كُتِب من الأبواب السلطانية .

الصـنف الثـالث

(من أرباب الوظائف بحَلَب ــ أرْباب الوظائف الديوانية ، وهـم علىٰ طبقتين)

الطبقـــة الأولى

(من يكتب له فى قطع الثلث بـ«ـالسامى» بالياء . وتشتمل علىٰ وظائف)

منها ــ كتابة السرّ . ويعبَّر عنها فى دِيوَانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية ــ بصاحب دِيوانِ المُكاتَبات ، ورُبَّما قيلَ : صاحبُ ديوان الرسائل . قال فى "التثقيف" : ورُبَّما كُتب له فى قَطْع النِّصف .

وهذه نسخة تَوْقيع شريفٍ من ذلك، وهى :

الحمـدُ للهِ الذى زان الدَّوْلةَ القاهرةَ، بمَن تغدُو أسرارُها من أمانَتِـه فى قرارٍ مَكِين، وحلَّىٰ أيَّامنا الزاهرةَ، بمن تَبْدُو مَراسِمُها من بلاغَتِه فى عِقْد ثَمين، وجَمَّل الكُتب السائرة، بمَن إذا وَشَّتْها بَراعَتُه ويَراعَتُه قيل : هذا هو السِّحْر البَيانىُّ إن لم يكن سِحْرٌ مُبِين .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى خصَّت الأسْرار الشريفة بمن لم يَرِثها عن كَلالَه، ونَصَّتْ فى تَرقِّى مناصبِ التَّنفيذ علىٰ من يَسْتَحِقُّها بأصالَةِ الرَّأْى وقِدَمِ الأصَاله؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً رقَمَ الإخْلاصُ طُروسَها، وسَقَى الإيمانُ غُروسَها؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى آتاه جَوامِعَ الكَلِم، ولَوامِعَ الهُدىٰ والحِكَم؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين كَتَبَ فى قلوبهم الإيمان، وكَبَت بهم أهلَ الطُّغيان؛ صلاةً يشْفَعُها التَّسليم، ويتْبَعُها التَّعظيم؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ الرُّتبِ بارتيادِ مَن تُعْقَدُ علىٰ أوْلَوِيَّتِـهِ الخَناصِر، ويُعْتمدُ علىٰ أصالَتِه التى ما بَرِحَتْ فى الاتِّصال والاتِّصاف بها ثابِتَةَ الأواصِر؛ ويعتَقَدُ فى أمانَته التى تَأْوِى بها الأسْرارُ إلىٰ «صَخْرةٍ أعيا الرِّجالَ انْصِداعُها» ويعتَضَدُ بفضائله التى يَقِلُّ فى كثيرٍ من الأكْفاء اجْتِماعُها؛ ويعوِّلُ فيها علىٰ بَلاغَتِه، التى أعْطتْ كلَّ مقامٍ حقَّه من الإطْنابِ والإيجاز، ويرجَعُ فيها إلىٰ بَديهَته، التى جَرَتْ بها سوابِقُ المعالى إلىٰ غاية الحَقِيقَةِ فى مِضْمار المَجاز _ رُتْبَةٌ هى خِزانةُ سِرِّنا، وكِنَانَة نَهْيِنا وأمْرِنا؛ فلا يتعينُ لبلوغها إلَّا مَن ومَن، ولا يعين لتَلَقِّيها وتَرقِّيها إلَّا أفراد قلَّ أنْ يكثُرَ مثْلُهم فى زَمَن؛ ولا يَحْسُنُ أنْ تكونَ إلَّا فى بَيْتٍ عريقٍ فى أنْسابها، وَثِيقٍ فى تَمَكُّنِ عُرَا أسْبابها، علِم بقواعدها التى إذا اشْتبهت طُرُقُ آدابِها كان أدْرَىٰ بها .

ولما كان فلانٌ هو الذى ذُكرتْ أسباب تَعيُّنه لهذه الرُّتبة وتعْيينه، وفُتِحتْ أبْواب أوْلَوِيَّتِه بتَلَقِّى رايةِ هذا المنصب بيَمينه؛ مع أدواتٍ كَمَّلَتْ مفاخِرَه، وصِفاتٍ جَمَّلت مآثره؛ وكِتابةٍ، إذا جادت أنْواؤُها أرْضَ طِرْسٍ أخَذت زُخْرُفَها، وإذا حاذَتْ أنْوارُها وجْهَ سَماءٍ ودَّتِ الدَّرَارِىُّ لو حكتْ أحْرُفَها؛ وبلاغةٍ، إن أطْرتْ بوَصْفٍ أغارَت الفَرائِد، وأعارَت دُرَرَها القَلائد، وأتت من رِقَّة المعانِى بما هو أحْسنُ من دُموعِ التَّصابِى فى خُدودِ الخرائِد؛ وإن أغْرتْ بعَدُوٍّ أعانتْ علىٰ مَقَاتِله السُّيوف، ودَلَّتْ علىٰ مَكامِنِه الحُتوف؛ ودِيانةٍ، رفعَتْه عند الله وعنْدنا إلىٰ المكان الأسْنىٰ؛ وصيانَةٍ، جمعتْ له من آلائنا وآعْتِنائنا بين الزِّيادة والحُسْنىٰ؛ وأمانَةٍ، أغْنَتْه بجَوْهرِ وصْفِها الأعْلىٰ عن التَّعرُّض إلى العَرَضِ الأدْنىٰ؛ وبَراعَةٍ، آعْتضَدَ بها يَراعُه فى بُلُوغ المقاصد آعتِضادَ الرَّقِص بالمَغْنىٰ.

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف أن يفوَّضَ إليه كذا فلْيُبْشِرْ بتَلَقِّى هذا الإحسان، بيد الآسْتِحْقاق، ولْيَتَلَقَّ عقودَ هذا الآمتنان، الذى طالما قلَّد نَحْرَه الأعْناق؛ ولْيُباشر ذلك مباشَرةً يَسُرُّ خُبْرُها ويَسْرِى خَبَرُها، ويُشَنِّفُ الأسْماعَ تأْثِيرُها وأثَرُها؛ ولْيسْلُكْ فيها من السَّدادِ، ما يُؤَكِّد حَمْدَه، ومن حسن الآعتِماد، ما يُؤَيِّد سَعْدَه؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها خَبيرٌ عليم، حائزٌ منها أوْفرَ الأجْزاء وأوْفى التَّقْسيم(١)؛ وملاكُها تقْوَى الله فلْيجْعلْها عُمدَته، وليتَّخذْها فى كلِّ الأُمور ذخيرته؛ والله تعالىٰ يضاعفُ له من لدُنَّا إحسانا، ويرفع له قَدْرًا وشانا؛ والآعتِماد فى ذلك علىٰ الخطِّ الشَّريف أعْلاه اللهُ تعالىٰ أعْلاه.

ومنها — نظر المملكة الحلبيَّة القائم مقام الوزير.

---

(١) فى الاصل: وأوفى التقصيرء ولا معنى له.

وهـذه نسخةُ توقيعٍ من ذلك : كُتِب به لعماد الدِّين « سعيد بن ريان » بالعَوْد إليها ، وهى :

الحمدُ للهِ رافعِ قَدْرِ مَن جعل عليه آعْتِمادا ، ومُجَدِّدِ سَعْدِ مَن غدا فى كُلِّ مايُعْدَقُ به من قواعد النَّظرِ الحَسَنِ عِمادًا ، ومُسَنِّى حَمْدِ مَن تكَفَّلَ له جميلُ التَّصرُّفِ أن لا تُبْعِدَ الأيامُ عليـه مُرادا ، ومُجزِلِ موادِّ النِّعمِ لمَن إذا آستَمْطر قَلَمَه فى المصالح همىٰ فافتَنَّ أفْنانًا وأيْنع تَمْيِرًا وأثْمر سَدادا ، و إذا أيْقظ نظَرَه فى مُلاحظَةِ الأعمال آستجْلَىٰ وُجوهَ المصالحِ آنتقاءً لِمَـا خَفِىَ منها وآنْتِقادا .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى لا تزالُ النِّعَمُ بها مُجَدَّدَة ، والقواعِدُ مُوَطَّدة ، والكرَمُ مُعادا ؛ وآلائِه التى جعل لهـا الشُّـكْرُ آزديادا علىٰ الأَبَدِ وآزدِيادا ؛ ومِنَنِه التى لا يقومُ بهـا ولا بأداءِ فَرْضِها الحَمْـدُ ولو أنَّ ما فِى الأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أقْلامٌ أو كان البَحْرُ مِدَادا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهـادةً لا تَأْلُو هِمَمُنا آجْتِهادا فى إعْلاءِ منارِها وجِهادا ، ولا تَكْبُو جيادُ عَزائِمِنا ، دُون أن تُسْكِنَها من الجاحِدين قُلوبًا وتُجرِىَ بها من المُنْكِرين أَلْسِنَةً وتُقَلِّدَها من المشركين أجْيادا ، ولا تَنْبُو صَوارِمُنا ، حتَّى تتَّخِذَ لهـا من وَرِيدِ كلِّ مُعانِدٍ مَوْرِدًا ومن قِمَمِ كلِّ نا كِثٍ أغْمادا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسوله الذى أسْرى اللهُ به إليه فبَلغ فى الآرتقاء سَـبْعًا شِدَادا ، وأنْزل عليه أشْرفَ كُتُبِه بيانًا وأعْجَزها آيةً وأوْضَحها إرْشادا ، وبعَثَه إلىٰ الأحْمرِ والأسْـوَدِ فسَعِد من سَعِد به إيمَـانًا وشَقِىَ من شَقِىَ به عِنادا ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين لم يأْلَفُوا فى طاعة الله وطاعتـه مِهادا ، صلاةً لا تستطيعُ لهـا الدُّهور نَفَادا ، ولا تَمَلُّها الأسْماعُ تَعْدادًا وتَرْدادا ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعد، فإن أولى من سما به منصبه الذى عرف به قديما، وزهيت به رتبته، التى لم يزل فيها لأقتناء الشكر مستديما ؛ وتحلت به وظيفته، التى لم يبرح يلبس بها ثوب الثناء قشيبا ويجر بها رداء السعد رقيما، وتقاضت له عوارفنا معارفه التى لم يزل عقدها فى جيد المراتب السنية نظيما ؛ وتطلع إليه مكانه فكأنه بقدم هجرته لم يبرح فيه وإن بعد عنه مقيما ـ من لم يزل قلمه بصرفه فى أسنى ممالكنا الشريفة كاسمه سعيدا، وطرف نظره فيما يليه من المناصب السنية يريه من المصالح ما كان غائبا ويدنى إليه من أسباب التدبير ما كان بعيدا ؛ فما أعمل فى مصالح الدولة القاهرة قلما إلا وأقبلت نحوه وجوه الأموال سافره، ولا لحظ فى مهمات وظائفها أمرا إلا وعاودته أسباب التثمير النافره، ولا اعترض(١) قلمه بنطقه وفكره إلا وغدت الثلاثة على كل مافيه عمارة ما يفوض إليه من الأعمال متضافره ؛ وذلك لما اجتمع فيه من عفة نفسه وكمال معرفته وطهارة يراعه، واتصف به من حسن اضطلاعه وجميل اطلاعه، وجبلت عليه طباعه من نزاهة زانت خبرته ومن ينقل مشكورا عن طباعه .

ولما كان فلان هو الذى حنت إليه رتبته وتلفتت إليه منصبه ودعته وظيفته النفيسة إلى نفسها، واعتذرت بإقبالها إليه فى يومها عن نشوزها عنه فى أمسها، واشتاقت إلى التحلى بفضائله التى لم تزل تزهى بما ألفته منها على نظرائها من جنسها ـ اقتضت آراؤنا الشريفة أن نجمل لها عادتها ونجدد له من الإحسان بمباشرتها السعيدة إعادته، ونعيد إليه بمباشرة نظره الجميل مسرته التى ألفها وسعادته .

فلذلك رسم ... ـ لا زال بره لعماد الدين رافعا، وأمره بالإحسان شافعا ـ أن يفوض إليه نظر المملكة الحلبية على عادة من تقدمه .

---

(١) لعله : "اعتضد" .

فليباشرْ هذه المملكةَ التى هى من أشْهر ممالِكنا سُمْعَـه ، وأيْمنِها بُقْعَه ؛ وأحْسَنِها بِلادا ، وأخْصبِها رُبًا ووِهَادَا ، وأكْثرِها حُصونًا شَواهِق ، وقِلاعًا [سوامى] (1) سوامق ، وثُغورًا لا تَشِـيمُ ما آفْترَّ منها البروقُ الخوافق ؛ مباشَرةً تزيد مصالِحَها علىٰ ما عَرفَتْه ، وتُرِيها من خِبْرته فوق ما ألِفَتْه ؛ وتدلُّ علىٰ مافيه من كفاءة هذَّبَتْها التَّجارِب ، وهدَتْها الأنوارُ الثَّواقِب ، وصرفَتْها الأفكارُ المطَّلِعة على الطوالع من المغارب ، وسدّدها إلى الأغْراضِ الجميـلةِ الخُلوُّ من الأغْراض ، ووقَّفها علىٰ جواهرِ الصَّواب عدمُ آعتراض النَّظرِ إلى الأعْراض ؛ وأراها التَّوفيقُ ما تَأْتِى من وجوه التدبير وما تَذَر ، وعَرَّفَتْها المعرفةُ الآحتراسَ من مخالفة الصَّواب فما تزالُ من ذٰلك علىٰ حَذَر ، وفَتَحتْ لها الدُّرْبَةُ أبْوابَ التَّثْمير فما لحظت أمْرًا من الأُمور الديوانية إلا وبدت البِدَر ؛ ولتكن النعمِ المصونةُ المقـدّم لديه ، والنظرُ فى مصالح القِلَاعِ المحروسةِ هو الغَرَضَ المنْصُوصَ عليه ؛ فلْيُضاعفْ ذخائرها ، ويتفقَّدْ موارِدَ أمورِها ومَصادِرَها ؛ وفى مَعْرِفَتِه بقواعد هذه الوظيفة ما يُغْنِى عن الوصايا ، لكن ملاكُها تقوى الله ، فلْيجْعَلْها نَجِىَّ نَفْسه ، وسمير أُنْسِه ؛ والخط الشريف ... .

ومنها ـ نظر الجيش بهـا .

وهذه نسخة تَوْقِيع بنظر الجيْش بالمملكة الحَلَبِيَّة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل أُفُقَ السـعادة بطلوع شَمْسِه مُنِيرا ، وأقرَّ فى رُتَبِ العَلْياءِ مَن يغْدُو ناظِرُها بحسْنِ نَظَرِه قَرِيرا ، وحَلَّىٰ مفَارِقَ المناصب السَّنِيَّة بصَـدْرٍ إذا تغـالَى

(1) الزيادة ممـا يأتى بعد نحو عشر صفحات .

اللسانُ فى وَصْفه كان بَنانُ البيانِ إليه مُشيرا ، وآختار لأمصارِ ممالكنا الشريفة من إذا فُوِّض إليه نظَرُها كان بِنسْبَتِه إلى الإبْصار حَقِيقًا به وجَدِيرا .

نحمدُه وهو المحمود، ونشكُره شكرًا مُشْرِقَ السُّعود، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً عذْبَةَ الوُرود ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضْحت به شيوخٌ من الإسلام منْشُورة البُنُود ، صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه ما أوْرق عُود ، وأُوبِجَ نهارُ السيوف فى لَيْلِ الغُمُود، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإن الله تعالى لما خصَّ كُلَّ مملكةٍ من ممالكنا الشريفة بكَثْرة الجُيُوش والأنصار ، وجعَل جُيُوشَنا وعساكِرَنا تُكاثِرُ عددَ النُّجومِ فى كلِّ مِصْرٍ من الأمْصار، وكانت المملكةُ الشريفةُ الحلبيَّةُ هى ركنٌ من أرْكان الإسلام شَدِيد، وذُخْرٌ مادعاهم دَاعٍ إلّا ولبَّاه منهم عَدَدٌ عَدِيد ـ وجب أن يُخْتارَ للنَّظر عليها من الأكْفاء من سَمَا فى الرآسة أصْلُه وزَكا فَرْعُه ، فاستحقَّ بما فيه من المعرفة تَمْييزَ قَدْره ورَفْعه، وفَاقَ فى فَضْل السِّيادَةِ أبْناءَ جِنْسِه ، وأشْرقتْ أفْلاكُ المعالى بطُلوع شَمْسِه، وأقَرَّ [بنظره] نظرَ الجيوش المنصوره، وسارت الأمْثِلَةُ بما آتُّفِق عليه [فيه] من حُسْنِ خِبْرة وخِيرَه، وكان فلان هو الذى طلع فى أُفُق هذا الثَّناء شَمْسًا مُنِيرَه ، وآختبر بالكفايَةِ والدِّرايَةِ وآخْتِير لهذا المَنْصِب على بَصِيرَه ، وهو الذى له من جميلِ المباشرة فى المناصب السَّنية ما هو كالشَّمْسِ لا يَخْفَى، والذى أحسن النَّظرَ فى الأوْقاف المَبْرورَةِ حتَّى تَمَنَّى كُلُّ منصبٍ جليلٍ أن يكونَ عليه وقْفا ، وهو الذى حَوَى من الفضائلِ ما لا يُوجَدُ له نَظيرٌ ولا شَبِيه ، والذى سما إلى رتبة من المعالى رَبيعَةٍ وكان ذا الجَدِّ النَّبيه والأبِ النبيه .

فلذلك رُسِم ... ... ـ لا زالَ يُقِرُّ الناظر بجُوده ، ويُحسِنُ النظر فى أمر جُيُوشه وجُنوده ـ أن يفوّض إليه كذا : علماً بأنه أحَقُّ بذلك وأوْلىٰ ، وأنّ كفايَتَه لا يُستثنى فيها بإلَّا ولا بلَوْلا ، وأنَّ السَّدادَ مقترنٌ بحسن تَصْرِيفه ، وعلْمَه قد أغْنىٰ عن تعليمه بمواقع التَّسْديد وتَوْقِيفه .

فليباشِرْ ذلك بصدْرٍ مُنْشرِح ، وأمَلٍ مُنْفَسِح ، عاملًا بالسُّنة من تقوى الله تعالىٰ والفَرْض ، عالمًا بأنّا عند وُصولنا إلى البلاد نأْمُر بعَرْض الجيوش : فلْيعْمَل علىٰ مايُبَيِّض وجْهَه يوم العَرْض ، ولْيُلْزِمْ عِدّةً من المباشرين بعمَل مايلزمُهم من التّفْريع والتّأْصيل ، والتّجْريد والتّنْزيل ، وتَحْريرِ الأمْثلة والمقابلة عليها ، وسُلُوكِ الطَّريق المُسْتقيم التى لا يتطرَّقُ الذّمُّ إليها ، والملاحظةِ لأُمُور الجيوش المنصورة فى قَليل الإقطاعات وكَثيرها ، وجَليلها وحَقِيرها ، بحيثُ يكون علْمُه محيطًا بذلك إحاطَةَ اللّيل ، ويشْتَرِطْ علىٰ من يتعيَّن تنزيلُه ما آستطاع من قُوَّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ، ويقابِلِ الأُمور المضطرِبَةَ بالإضْراب ، ويسلكْ أحْسن المسالك فى سَيْره وسِيرَته : فإنّنا فوّضْنا إليه الجيوشَ المنصورةَ من جُنْد المملكة الحَلَبيَّة ومن أهْل المدِينَة ومَن حَوْلهم من الأعْراب . والوَصايا كثيرةٌ وإن كثُرتْ فعِلْمُها عِنده ، وقد ضُرِب له منها مَثَلٌ فلْيكُنْ علىٰ سياقَتِه فيما لم يُذْكر فى العِدّه ، وأهَمُّ الأُمور أنْ يتمسكَ من خَشْيةِ الله بالسَّبَب الأقْوَىٰ ، ويجعلَ تقْوَى اللهِ عمادَه فى كلِّ الأمور : فإنَّ خير الزَّاد التَّقْوَىٰ ، والخطُّ الشريفُ أعْلاه حجةٌ فيه .

الطبقة الثانية

من يكتب له من أهْل المملكة الحَلبيَّة فى قَطْع العادة مفتتحًا بـ«رسم» إمَّا مع «مجْلِس القاضى» أو مع «القاضِى الأجَلّ» ككُتَّاب الدَّرج ومن فى رُتْبتهم ، إن كُتب

لأحد منهم من الأبواب السلطانية . وإلّا فالغالبُ ٱستبدادُ نائب السَّلْطنة بها بالكتابة فى ذلك . فإن كُتب شَىءٌ منها من الأبْواب السلطانية، فلْيمش فيه علىٰ نحو ما تقدّم فى الديار المصرية والمملكة الشامية التى قاعدتُها دِمشق .

النــــــوع الثانى

(من أرباب الوظائف بالمملكة الحلبية ـ من هو خارجٌ عن حاضرتهـا ، وهم علىٰ أصناف)

الصـــــنف الأوّل

(أرْباب السيوف، وهم غالبُ مَن يكتب لهم عن الأبْواب السُّلْطانية)

وقد تقدّم أنَّ العادةَ جاريةٌ بتَسْمية مايُكْتب لمن دون أرْباب النيابات العِظام: من دمَشْق، وحَلَب، وطَرَابُلُس ، وحَماة ، وصَفَد ، وغَزَّة ، والكَرَك ـ مراسيم . وأنَّ التقاليدَ مختصــةٌ بالنُّوَّاب العظام المقدّم ذكرهم . ولا يخفىٰ أنَّ النياباتِ الدَّاخلةَ فى المملـكة الحَلَبِيَّة : ممـا هو تحت أمْر نائب السَّـلْطنة بحَلَب أكثر من كل سائر الممـالك الشامية .

وبالجُمْـلة فأمْرهم لا يخرُج عن ثلاثة أضْرب : إما مُقَــدّم ألْف ، كنائب البِيرَة ، ونائب قَلْعــة الرُّوم المعبرِ عنها فى ديوان الإنشاء بقَلْعة المسـلمين ، ونائب مَلَطْيَة ، ونائب طَرَسُوس ، ونائب البُلُسْتَيْن ، ونائب البَهَسْنَىٰ ، ونائب آياس المعبَّر عنها بالفتوحات الجاهانية . وإمَّا طبلخاناه، كنائب جعبر، ونائب دَرَنْدة ونحوهما . وإما أمير عشرة ، كنائب عين تاب ، ونائب الرَّاوَنْدان ، ونائب كَرْكَر، ونائب بَغْـراس، ونائب الشُّغْر وبَكَاس ، ونائب الدَّرْبَساك، ونائب سرْفَنْـدكَار، ومن فى معناهم .

وقد تقدّم فى الكلام على المكاتبات نقلًا عن "التثقيف" : أنَّ هؤلاء النوّابَ تختلف أحْوالهم فى الارتفاع والانحطاط : فتارةً تكون عادةُ تلك النيابة أميرَطبلخاناه، ثم يولّى فيها عشرةٌ وبالعكس . وقد تكون عادتُها طبلخاناه فيستقرّ بها مقدّمُ ألْف وبالعَكْس . والضابط فى ذلك أنَّ من يُكْتب له المرسوم : إن كان مقدّمَ ألْف، كُتِب مَرْسومُه فى قَطْع النصف بـ«المجلس العالى» . وإن كان طبلخاناه، كُتِب له مرسومُه فى قَطْع النصف أيْضا بـ«السامىّ» باليـاء . وإن كان أميرَعشرةٍ كُتِب مَرْسومُه فى قَطْع الثُّلث . فأمّا ما يُكْتَب فى قطع النِّصف، فإنَّه يفتتح بـ«الحمد لله» سواء كان صاحبُه مقدّمَ ألْفٍ أو أمِيرَ طبلخاناه .

وهذه نسخة مَرْسومٍ شريفٍ بنيابة آياس، وهى المعبَّرعنها بالفُتوحات الجاهانيَّة، يستضاء بها فى ذلك، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل من أوْلياءِ دَوْلتِنا الشَّريفة كلَّ سيْفٍ لا تَنْبُو مَضارِبُه، واصْطفَى لبوادر الفُتوحات من أنصارنا من تُحمَدُ آراؤه وتَجارِبُه، وألْهمنا حسْنَ الاختيار لمن تُؤْمَن فى المحافظة مآربُه، وتَعذُبُ فى المخالطة مَشَارِبُه، وحقّقَ آمالنَا فى مضاعفة الفَتْح التى أغْنَى الرُّعْبُ فيها عما تُدافِعُه سيوف الإسلام وتُحارِبُه .

نحمدُه حمدًا يضاعِفُ لنا فى التّأْييد تَمْكينا، ونشكُره شكْرًا يستدْعِى أن يزيدنا من فضله نَصْرًا عزيزًا وفَتْحًا مُبِينا ؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُخلِصُ فيهـا يقينًا من المخاوف يَقِينَا، ونَرِدُ من نَهَلِها مَعِينا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيده الله بالملائكة والرُّوح، وزَوَى له الأرضَ فرأى مشارِقَها ومَغارِبَها ونَرْجُو أنْ يكونَ ما زَواهُ له مُدّخَرًا لنـا من الفُتوح ؛ صلَّى الله عليـه وعلى آله وصَحْبه

الذين هم خيرُ أمّةٍ أُخرِجتْ للإسلام ، والذين ما زال الإيمـانُ بهم مرفوعَ الألوِيَة والأعْلام ، والذين لم يبرحْ داعِى الضَّلالة تحْتَ قهْرِ سُيوفهم : فإذا أغْفَى «جرَّت عليه سيوفَها الأحْلام» ؛ صلاةً يطيب اللّسانُ منها فيُطْرِب ، ويُعْرِب عن صِدْق الإخلاص فى تكرارها فيُغْرِب ؛ وسلَّمَ تسليماً .

أمَّا بعــدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من تسْتَنِدُ أمورُ الممالك لَعَزْمتِه ، ويُلْقىٰ أمرُ بوادِرِ الفتوحات السَّعيدة لِهِمَّتِه ، ويُعتَمَدُ فى تدبير أحْوال البلاد والعباد علىٰ يُمْنِ تصرُّفه ومُمْتَدّ نهْضَتِه ــ مَن لم يزلْ معروفاً سَــدادُ رأْيِه ، مشْكوراً فى الخِدْمةِ الشريفةِ حُسْنُ سَعْيِه ، مؤيَّدا [فى] عزْمِه ، مظفرا فى حَزْمِه ، مأْمُونَ التَّأْثير ، ميمون التــدبير ، كافِياً فى المهمات ، كافِلاً بعلُوّ الهِمَّات ، إذا همّ ألْقىٰ بين عينيه [صادق] عَزْمه ، وإذا آعْتُمِد عليه فى مُهِمٍّ تلَقَّاه بهمَّته وحَزْمِــه ، وإذا جُرِّدَ كان هو السَّيفَ آسْمًــا وفعْلا ، وإذا دارَتْ رَحَى الحَرْبِ الزَّبُون فهو الشهمُ الذى لا يخاف سهْمًا ولا يرهبُ نَصْلا .

ولمــا كان (١) هو بَدْرَ هذا الأفُق ، ومُقلَّدَ هذا العِقْد ولا يصلُح هــذا الطَّوْق إلا لهــذا العُنُق ؛ وهو الذى فاق الأوْليــاءَ آهتماما ، وراقَ العُيونَ تقدّمًا وإقْداما ، وأرْضَى القلوبَ نُصْحًا ووفَاء ، وأنْضَى الهِمَمَ آحْتفالا للمصالح وآحتِفاء ؛ طالمــا جُرِّبَ فحُمِد عند التجارب ، وجُرِّدَ فأغْنَىٰ عن القواضب ، وآختُبِر فاختِير ، ونُظِر فى خَصائِصه فلم يُوجَدْ له نظير ــ آقتضَىٰ حسنُ الرَّأْيِ الشريفِ أن نقــلّده فتوحاتٍ أنْقــذَها الله تعــالىٰ من شَرَكِ الشِّرْك ، وأخْرجها إلىٰ النُّور بعد ظلام الإفْك ؛ وبشَّرها أنَّ هــذه سحــابةُ نَصْرٍ يأْتِى وابِلُه إن شاء الله تعــالىٰ بعد رَذاذه ، وأنَّها مقدِّمةُ سَعْدٍ تتلو قولَه تعالىٰ : ﴿ وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ ﴾ .

---

(١) بياض بالأصل والمراد المولى بآسمه ولقبه .

فلذلك رُسم ... ... ـ لا زال الفَتْح فى دَولته يَزْهُو بآنتظام سِلْكه، وأيامُه الشريفةُ تستردّ مغْتَصَبَ البلاد من يَدِ الكفر إلىٰ بَسْطَةِ مُلْكه وقَبْضة مِلْكه، وإحسانُه يحمِى الحصونَ بسَيْفٍ يُروِّعُ العِدا بأْسـه وفَتْكه ـ أن يُفوّض ... ... آعتمادًا علىٰ مَضَائه الذى لا ينكر مثله للسَّيف، ورُكونًا إلىٰ هِمَّته التى تَسْرِى برُعْبِها إلىٰ قلوب الأعْداء سُرَى الطَّيْف .

فلْيباشِرْ النيـابةَ المذكورة : مُعْمِلًا رَأْيَه فى تَمْهيد أحْوالهـا، وتَقْرير أُمورها التى رَاقَ الأوْليـاء وراعَ الأعداءَ ما كان من مآلِهـا ؛ مُجْتَهِدًا فى حِفْظ ما بها من القِلاعِ والحُصون، مُبادِرًا [إلى] كلِّ ما يَحْمِى حِماها ويَصُون ؛ قائمًا حقَّ القيام فى مصالح تَقْرِيرها، وأحْوال تَحْرِيرِها ؛ وأُمور تُمَهِّدُها، ومنافِعَ تُشَيِّدُها ؛ وحواصِلَ تَكْفِيها، وأسْبابِ مصْلَحةٍ تُوافِيها بمزيد الآهْتِمام وتُوَفِّيها ؛ وليكُنْ بأحْكام الشَّرعِ الشريف مقْتَـديا ، وبنُور العَـدْل والإحسان مهْتَدِيا ؛ وبتقوَى اللهِ عزَّ وجلَّ مُتَمسِّكا ، وبخَشْـيَةِ الله مُتَنَسِّكا ؛ وهو يعلم أنّ هذه الفتوحات [قَذًى] فى حدَقَة العَـدُوِّ المخذول وشَجًا فى حُلُوقِهم، وعِلَّةً فى صُدورهم وحَسْرَةً فى قُلوبهم .

فليكن دَأْبُه الآجتهادَ الذى ليس معه قَرار، والتَّحرُّزَ الذى يحلّيها أو يحمِيها فيكونُ عليها بمنزلة سُورٍ أوسِوَار؛ ويُصَفِّحْها من عَزْمِهِ بالصِّفاح، ويجعلْ عليها من شُرُفات حَزْمه ما يكون أحدَّ من أسِنَّة الرِّماح؛ ثم لا يزالُ آحتياطُه محيطًا بها من كلِّ جانب، وتيقُّظُه لأحْوالها بمنزلة عَينٍ مُراقِب، وآحتِفَالُه الآحتفالَ الذى بمِثْله يُصانُ رِداؤُها من كلِّ جاذِب؛ ثمَّ لا تزالُ قُصَّادُه وكُشَّافُه وطَلائِعُه لا يقَرُّبهم السُّرىٰ، ولا يعرِفُون طَعْم الكَرىٰ؛ يَطَّلِعون من أخْبار العِدَا علىٰ حقائقها، ويَتحَيَّلُ كلُّ فِرْقَة منهـم علىٰ معرفة الأحوال بينهـم بمَكْرٍ من تعَدُّد طُرُقِها وآتِّساع طرائقها، لتكونَ المتَجَدِّداتُ عنده بمنزلة ما يراه

فى مِرْآة نَظَره، وسِرُّ أُمور العِدا لَديه قبلَ أنْ يشيع بينهم ذِكْرُ خَبَره، والوصايا كثيرةٌ وهو بحَمد الله لا يحتاج مع معرفته إلىٰ تَبَصُّره، ولا يفتَقِرُ مع حسن بصيرته إلىٰ تَذْكِرَه، والله تعالىٰ يتولَّاه، ويُعِينُه علىٰ ما وَلَّاه، بعد الخطِّ الشريف أعْلاه .

وأما من يكتب له فى قَطْع الثلث بـ«مجلس الأمير» وهم العشرات [فقد ذكر فى "التعريف" : أنَّه يكتب لهم من الأبواب السلطانية علىٰ ذلك .

قلت : وقد تقدّم فى الطبقة السابعة أنَّ الكَخْتا، وكَرْكَر، والدَّرْبَساك، قد تكون عشرةً أيْضا . وفى معنىٰ ذلك نيابة عين تاب، والراوَنْدان، والقُصَير، والشُّغْرو بَكَاس، إذا كانت عشرة . ونيابة دَبْركى إذا كانت عشرة](١) فيفتَتَح فيها بـ«أما بعد حمد الله» علىٰ عادة ما يُكْتب للعشرات .

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريف من هذه الرتبة، كُتب به لنائب حَجَر شَغْلان من معاملة حَلَب، وهى :

أما بعد حمد اللهِ الذى شيَّد المعاقلَ الإسلامية بأكْفائِها، وصان الحُصونَ المحروسةَ بمن شُكِرتْ همَّتُه فى إعادتها وإبدائِها، وحَمَىٰ سَرْحَها بمن أيْقظ [فى] الخِدْمةِ الشَّريفة عيونَ عَزْمه فما ألمت بعد إيقاظه بإغفائها، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى انْتضَىٰ سيوفَ التأْييد فأعَزَّتِ الهدىٰ وأذلَّت العِدا حين انتضائها، وعلىٰ آله وصَحْبه ما بَدَت النجومُ فى ظَلْمائِها، وسرت الغيوم فى فَضائِها ـ فانَّ من شُكِرت هِمَمُه، وثَبَتَتْ فى الطاعة الشريفةِ قَدَمُه، وأشْبه عَزْمُه فى مَضَائه صارِمَه، وأضْحت

(١) ما بين القوسين المربعين [ ] وجد ملحقا بهامش نسخة ومؤشرا عليها بالتصحيح فأثبتناه فى الصلب عملا بتلك الاشارة .

ثُغُور تَقْدِيمه بَاسْمه ، أَوْلىٰ بأَنْ تَرْفعَ هذه الدولةُ الشريفةُ من مَحَلِّه ، وتنْشُرَ عليه [من] تكْرِيمها وارِفَ ظِلِّه ، وترتَضِيه لقلاع الإسلام وتَشْيِيدها ، وتَجْتَبِيه لصَوْنها وتأْيِيدها ، وتجعلُه قُرَّةَ عَيْنها وحِلْيةَ جِيدِها ، وتُمْضِى كلمتَه فى مصالحها ، وتُغْدق به أسْباب مَنَاجِحِها ، فيُصْبِحُ ولقَدْرِه منَّا إعلاءٌ وإعْلان ، ويُمْسى وله شُغْلٌ بطاعتنا العالية الشَّان ، وشغل بالمَعْقِلِ الذى يُحْرَز بعَزْمِه ويُصان ، فلأَجْلِ ذلك غَدا وله من هَذه النيابة على الحقيقة شُغْلان .

وكان [فلان] هو الذى جادَتْ عليه دَوْلَتُنا الزاهرةُ بسَحائِبها ، وأشْرَقَتْ علىٰ حظوظه سُعودُ كواكِبها ، وأسْمتْ له قَدْرا ، وجعلت له إمْرةً وأمْرا ، وصَرَفَتْه إلىٰ نيابة مَعْقِلٍ معدودٍ من قلاع الممالك الإسلامية وحُصُونِها ، ومَعاقِلِها التى علَتْ محلًّا فالجبالُ الشُّمُّ من دُونِها ، قد أصْبح شَاهِقًا فى مَبْناه ، ممنعًا فى مَغْناه ، مُحَصَّنًا برجاله ، مَصُونًا من ماضِيَيْن : السَّيف فى مَضَائِه والعَزْم فى ٱحتِفاله ــ ٱقْتضىٰ حُسن الرأْي الشريف أن نُوَقِّله رتبةَ هذه النيابه ، ونَنْشُر عليه من إحساننا سَحابَه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زال ... ... أن يستقرّ ... ...

فليحُلَّ هذه النيابةَ المباركةَ مُظْهِرًا من عَزْمه ما تُحْمد عَواقِبُه ، وتَعْلُو مَراقِبُه ، وتَسْمو مَراتِبُه ، وتَتوضَّحُ سُبلُه ومَذاهِبُه ، مُحَصِّنًا لسَرْحه ، معزِّزًا موادّ نُجْحه ، مُراعِيًّا[(١)] أحْوالَ رجاله ، المُعَدِّين من حُماتِه وأبْطاله ، حتَّى يغْدُوا يَقِظين فيما يَنْدُبهم إليه ويَسْتَنْهِضُهم فيه ، مبادِرين إلىٰ كل ما يَحْفَظُ هذا الحِصْنَ ويَحْميه ، ومَن بهذا المَعْقِل من الرّعية فليَرفُق بضُعَفائِهم ، وليُعامِلْهم بما يَسْتَجْلِب لنا به صالحَ دُعائِهم ، والوصايا كثيرةٌ ومِلاكُها التَّقْوىٰ ، فليتمَسَّكْ بها فى السِّرّ والنَّجْوىٰ ، وليَغْرِسْها فى كل

(١) فى نسخة : مُرتقبا والمعنى واحد .

قول يُبْدِيه ، وفِعْل يرتَضِيه ، فإنَّ غُروسَها لا تَذْوَىٰ . واللهُ يوفقه لِصالح القَوْل والعمَل ، ويصُونُه من الخَطَإ والخَطَل ؛ والخطُّ الشريفُ أعْلاه ، حجة بمقْتضاه ؛ إنْ شاء الله تعالىٰ ، والحمدُ للهِ وحده .

قلتُ : وقد تقدّم أنَّه لا يكتب عن السلطان مَرْسومٌ بنيابة فى قَطْع العادة ، لأنَّ ذلك لا يكون إلا لجُنْدِىٍّ وهو دون ، ومثل ذلك إنما يُكْتب عن نوّاب الممالك .

الصنف الثانى

(ممَّا هو خارجٌ عن حاضرة حَلَب ـ الوظائفُ الدِّينية بمعاملتها : من القِلاع وغيرها)

وهى فى الغالب إنَّما تصدر الكتابةُ فيها عن نائب حَلَب أيْضا أو قاضيها، إنْ كان مرجِعُ ذلك إليه . فإن صَدَر شَىْءٌ منها عن الأبْواب السُّلطانية، كان فى قَطْع العادة مفتتحًا بـ«رُسِم» .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ من هٰذا النَّمَط يُنْسج علىٰ مِنْواله ، كُتِب به لقاضى قلعة المسلمين، وهى :

رُسِم بالأمْر الشريف ـ لا زال عَدْلُه مؤيِّدًا للحُكَّام ، ورأْيُه مسدَّدًا فى النَّقْض والإبْرام ، وسُلْطانُه يَخْتار للمناصب الدِّينية مَن نطقَتْ بشُكْرِه ألْسنةُ الأنَام ـ أن يستقرَّ فى كذا : لِمَا آشْتَهر عنه من عِلْم ودين ، وظهر من حُسْنِ سِيرَةٍ آقتضتْ له التَّعْيين .

فْليباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركَة بالحقِّ حَاكِما ، وللرِّفْقِ مُلازِما ، وللتَّقْوىٰ مداوما ؛ وهو غَنِيٌّ عن الإسهاب فى الوصايا ، مَلِيٌّ بسُـلُوك تَقْوَى الله فى القَضايا ؛ والله تعالىٰ يَزِيدُه تأْيِيدا ، و يضاعِفُ له بمَوَادِّ السعادة تَجْدِيدا ؛ والعلامةُ الشريفـةُ أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه .

الصـــــنف الثـالث

(ممـا هو خارج عن حاضرة حَلَبَ ـ الوظائفُ الدِّيوانية)

وهى إنَّمـا تصدُرُ فى الغالب أيْضا عن نائب حَلَب . فإن كُتب شىءٌ منهـا عن الأبواب السلطانية ، كان فى قَطْع العادة مفتتحا بـ«رُسم بالأمْر» .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من ذلك ، يستضاءُ به فيما يُكْتَب من هٰذا النوع ، كُتب بها بنَظَر جَعْبَر ، من مُعاملة حَلَب ، وهى :

رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال مُنْهَلَّ النَّدىٰ ، مُسْتَهَلَّ الجَدىٰ ، مُعيدًا للإحسان كما بَدا ـ أن يُعادَ فلانٌ إلىٰ وظيفته : لمـا أَلِفَتْ من سِيرةٍ له لم تَزلْ تُحْمَد ، وسيما خَيْرٍ منه علىٰ مِثْل الشَّمْس تَشْهَد ؛ ولِأمانَتِه التى لم تزلْ تَفْتَرُّ بها الثُّغور ، وتَخْضَرُّ بها المَعاهِدُ : تارةً فى طَوْقِ النَّحْر وتارةً فى نُحُور البُحور ؛ وأصالةٍ آمتـدّ ظلُّها الظَّليل ، وعُرِف منها فى العَصْر حسنُ الأَصِيل ، وأَيْنَعَتْ أكْرَم فَرعٍ زَكَا مَنْبِته (١) فى الأرْض المُقَدّسـة وجِوار الخَلِيل ؛ ولِمَـا أسْلف فى هذه المباشرة من عَمَلٍ صالح ، وسَـدَادِ آعتمادٍ لم يخرجْ عن تحريرِ تَقْرِيرٍ وتقريرِ مصالح ؛ وكِتَابةٍ رآها الرَّائى ونقلها النَّـاقِل ، وكفايَةٍ حفَّتْ عليه مثل العروس المجلُوَّة من عقائِل المعاقل .

---

(١) فى الأصل « منبتها » بالتأنيث .

فليباشر هذه العَرُوسَ فقد أنْقدها[(١)] سالفَ الخِدَم وأمهرها ، وليُثابِرْ سُقْيَا الغُروس التى أنْشأها فى هذه الجهة وثَمَّرها ، ولْيَسْلُكْ مَسْلَكه الذى لم يزلْ مُخَيِّماً علىٰ رءُوس القُنَن ، ومهوِّما به طَرْفُ الأمن لليقظة الذى لا يُلِمُّ به الوَسَن ؛ مُخَوِّلاً فى وظيفته المَبَرَّات ، مُسْتقبلًا للمَسَرَّات ، مفْتخرًا بمباشراته التى تَجْرِى مَجارِىَ البحار : تارةً المِلح الأُجاجَ وتارةً العذْبَ الفُرات ؛ وهو أعرف بما يقدّمه من أمانَةٍ بها يتقدّم ، ودِيانَةَ يُرَجَّب بها ٱستِكْفاؤُه ويُحَكَّم ؛ وتَقْوى الله جماعها فليكُنْ بها مُتَمَسِّكا ، وبمشاغلها مُتَنَسِّكا ؛ والله تعالىٰ يجعل عطاءه مُوَفَّرا ، وعَمَله مُتَدَفِّقًا ليُرَدَّ جَعْبَرا جَعْفَرا .

النيابة الثالثة

(نيابة طَرَابُلُس ، ووظائفها التى جرت العادةُ بالكتابة فيها من الأبْواب السُّلطانية علىٰ نَوْعين)

النوع الأوّل

(ما هو بحاضرة طَرابُلُس ، وهو علىٰ ثلاثة أصْناف)

الصِّنف الأوّل

(أرباب السيوف ، وهم علىٰ طبقتين)

الطبقة الأولىٰ

(من يكتب له تقليد)

وهو نائب السلطنة بها . ومرسومه فى قَطْع الثُّلثين ، ولقبُه « الجناب العالى » مع الدعاء بمُضاعَفَة النعمة .

---

(١) الذى ورد فى القاموس وغيره أن النقد بمعنى الاعطاء من باب الثلاثى فلعل الهمز من زيادة الناسخ فتنبه .

وهذه نسخةُ تَقْليد شريف بنيابتها :

الحمــدُ للهِ الذى جعل لنـا التَّأْييدَ مَدَدا ، والنَّصْرَ عَتادًا لا نَفْقِـدُ مع وجوده من الأوليـاء أحَدا ، والعِزَّ وَزَرًا تُصِمُّ شُهُبه مسامعَ العِدا : ﴿فَمَنْ يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِـدْ لَهُ شِهَاباً رَصَدا﴾ . والفَتْحَ ذُخْرًا لحيثُ ما نشاء مدَدْنا إليه بقوّةِ اللهِ يدا ، وشَدَدْنا عليه بمَعُونَته عَضُـــدا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت مَراتِبَ دَوْلتنا فَلَكًا تُشْرِقُ فيــه رُتَبُ الأَوْلياء إشْراقَ البـدُور ، وثُغُورَ ممـالكنا أُفُقًا حيثما شامَتْه العِـدا ضُرِبَ بينهم وبينه من سـيوف مَهابَتِنا بسُور ، وفَواتِحَ الفُتوحِ النَّائيةِ دَانِيَةً من هِمَمِ أصْفيائنا فإذا يَمَّمُوا غَرَضًا طارتْ إليه سهامُهم بأجْنِحَة النُّسُور ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يرفعُ الجهادُ عَلَمها ، وينْصُر الإيمانُ كَلِمَها ، ويُزْجى الإيقانُ إلىٰ رياض التَّأْييد دِيَمَها ، ويَسْتَنْطِقُ التوحيدُ بإعلائها وإعْلانها سيفَ أيَّامنا الزاهرةِ وقَلَمَها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبــدُه ورسولُه الهـادِى إلى الحقِّ وإلىٰ طريق مُسْتقيم ، ونَبِيُّه المخصوصُ بالآيات والذِّكْرِ الحكيم ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نصرُوا اللهَ فنَصَرهم ، وأظْهروا دِينَــه فأعَزَّهم وأظْهرهم ، ويسَّروا لأُمّتِه سبُلَ الهُــدىٰ فهداهم وللسَّبيل يَسَّرهم ؛ صلاةً لا يزال اليقينُ يُقيمُ دعوتَها ، والتَّوْحيدُ يعْصِمُ من الانْفِصام عُرْوتَها ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من تَفْتَرُّ الثُّغورُ بإيالَتِــه ، عن شَنَبِ النَّصْر ، وتَرْمِى الحصونُ بكفالته ، مَن شَامَ من العِدا بَرْقَها بشَرَرٍ كالقَصْر ، وتُقَسِّمُ السَّواحِلُ بمَهابتَه ، مَن جاور من أهْلِ الكُفْر بَحْرها بين الحَصْـد والحَصْر ، وتَمْنعُ عَزَماتُه شَوانِىَ العدا أن تَدِبَّ عقارِبُها ، أو تَرْكَبَ اللُّجَجَ بغير أيَّامه (١) مَراكبُها ، أو يَنْتقِلَ عن ظَهْر البَحْر إلىٰ غير

(١) لعله « بغير أمانه » تأمل .

سيوفه أو قُيوده مُحاربها - من لم يزلْ فى نُصْرةِ الدِّين لامعًا كالبَرْق شِهابُه ، زَاخرًا كالبَحْر عُبابُه ، وَاصِبًا علىٰ الشِّرك عَذابُه ؛ ظَامِيًا إلىٰ مَوارِدِ الورِيد سَيفُه ، سارِيًا إلىٰ قلوب أهْلِ الكُفْر قبل جُفونهم طَيْفُه ؛ قائمةً مقام شُرَفِ الحُصون أسِنَّة رِماحِه ، غَنِيَّة بُروجُ الثُّغورِ عن تَصْفيحِها بالجَلْمَدِ بصَفا صِفَاحِه ؛ مع خِبْرة بتَقْدِمَة الجُيوش تُضاعِفُ إقْدامَها ، وتُثَبِّت فى مَواطِنِ اللِّقاءِ أقْدامَها ؛ وتُسدِّدُ إلىٰ مقاتل أهْل الكُفْر سهامَها ، وتُقرِّبُ عليها فى البرّ والبحر مَنالَها وتُبْعِدُ مَرامِيَها علىٰ مَن رَامَها ؛ ومَعْدِلةٍ للرَّعايا السُّكونُ فى مهاد أمْنِها ، والرُّكونُ إلىٰ رُبَا إقْبالها ووِهَادِ يُمْنها ؛ فسِرْبُ الرعايا مَصُونٌ بعَدْلِه ، والعَدْلُ مكنونٌ بين قَوْله وفِعْله .

ولما كان فلانٌ هو اللَّيثَ الذى يُحْمَىٰ به غَابُه ، والنَّيِّرَ الذى يُزْهَىٰ أُفُقٌ تألَّق فيه شِهابُه ؛ والهُمامَ الذى تُعْدى هِمَمُه فُرسانَ الوَغىٰ فتُعَدُّ آحادُها بالأُلوف ، والشُّجاعَ الذى إذا ٱستعانَتْ سَواعِدُ الشُّجعانِ بسُيوفِها ٱسْتَعانَتْ بقُوَّة سَواعِده السُّيوف - ٱقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُحَلِّيَ به جِيدَ مملكةٍ ٱنتظمتْ علىٰ وِشَام البَحْر ، وأحاطت بما فى ضميره من بلاد العِدا إحاطَةَ القلائد بالنَّحْر .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أنْ يفوّضَ إليه كَيْت وكَيْت : لما أشير إليه من أسْباب تَعَيُّنه لهذه الرُّتبة المَكينَه ، وتَحَلِّيه بما وُصِف من المحاسن التى تُزْهَىٰ بها عقائلُ الحصون المَصُونَه .

فلْيَلِ هذه النيابةَ الجليلةَ بعزْمَة تُجمِّلُ مواكِبَها ، وهِمَّة تُكمِّلُ مراتِبَها ؛ ومَهابَةٍ تَحُوط ممالِكَها ، وصَرامَة تُؤَمِّن مسالِكَها ؛ ومَعْدِلةٍ تُعَمِّر ربوعَها ورِباعَها ، ويَقَظة تصُون حُصونَها وقِلاعَها ؛ وشَجاعَة تَسْرى إلىٰ العِدا سَرايَا رُعْبِها ، وسَطْوَة تُعْدِى السُّيوفَ فلا تستطيع الكُماةُ الدُّنُوَّ من قُرْبِها ، وسُمْعَة تُرهِبُ مُجاوِريه حتى يَتَخيَّل البَحر [أنه] من أعوانه علىٰ حَرْبِها .

وليؤْتِ تَقْـدِمة الجيوش الإسلامية حقَّها من تَدْبير يجمَعُ على الطاعة أمْرها وأُمَراءها، ويرفَعُ فى مَراتبِ الخدْمةِ الشَّريفةِ علىٰ مايجب أعْيانَها وكُبراءَها، ويُرهِبُ بإدامة الآستعداد قُلوبَ أعْدائِها، ويربِطُ بأيْزا كِها شَوانِىَ البَحْرحتَّى تَعْتَدّ الرباط فى ذلك من الفُروض التى يُتَعبَّدُ بأدائِها؛ فلا يَلُوحُ قِلْع فى البحْر للعدا إلا وهو يرَهبُ الوقوعَ فى حِبالِها، ولا تلحظُ عيْنُ عَدوٍّ سَنا البرّ إلا وهى تتوقَّعُ أن تُكْحَل بنِصالِها؛ ولْيُقِمْ مَنـار العَدْلِ بنَشْرِلوائِه، ويعضِّدْ حكم الشَّرعِ الشريف برجوعه إلىٰ أوامِره وآنتهائه؛ وليكُفَّ يدَ الظُّلْمِ [عنها] فلا تمتدّ إليها بنان، وليشْفَعِ العَدْلَ بالإحسان إلىٰ الرعِيَّة فإن الله يأْمُر بالعَدْل والإحْسان؛ وفى سِيرَتِه التى جعلته صَفْوةَ الآختيار، ونُخْبَةَ ما أوْضَحتْـه الحقيقةُ من الآختبار، ما يُغنِى عن الوَصِـيَّة إلا علىٰ سبيل الذكرىٰ التى تَنْفعُ المؤمنين، وترفَعُ قَدْرَ المُوقِنين؛ وملاكُها تَقْوى الله تعالىٰ: فلْيجْعَلْها أمام آعتماده، وإمام إصْدارِه وإيراده، والله تعالىٰ يُديمُ موادّ تأْييده وإسعاده؛ إن شاء الله تعـالىٰ.

الطبقة الثانيـــــــة

(من يُكْتب له مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع الثُّلث بـ«المجلس السَّامى» بغير ياء، وتشتمل علىٰ وظائف)

منها — شدُّ الدَّواوين بطَرابُلُس.

وهذه نسخةُ تَوْقيع بها:

الحمـدُ للهِ مُجدِّدِ الرُّتَبِ لمَن نهضَ فيها بإخْلاصه بمـا يجب، ومُولِى المِنَنِ لمَن إذا آعْتُمد عليـه من مُهمَّات الدَّوْلة القاهرة فى أمرٍ عَرفَ ما يأْتِى فيـه وما يجْتنِب؛

ومُؤَكِّدِ النِّعَمِ لِمَن إذا آرْتِيدَت الأكْفاءُ فى الخدْمة الشَّريفةِ كان خِيرةَ مَن يُخْتار ونُخْبةَ من يُنْتَخَب .

نحمدُه على نِعَمِه التى سَرَتْ إلى الأوْلياءِ عَوارِفُها ، وآشْتَمَل على الأصْفِياءِ وافِرُ ظِلَالِها ووَارِفُها ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لديه ، وتكونُ لقائلها ذَخِيرةً يوم العَرْض عليه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشْرفُ مَبْعوث إلى الأُمَم ، وأكْرَم منعُوتٍ بالفَضْل والكَرَم ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبه الذين وُلُّوا أمْرَ الأُمَّة فعَدلُوا ، وسَلَكُوا سَنَن سُنَّتِه فما مالُوا عنها ولا عَدلُوا ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ ما آخْتِيرَ له من الأوْلياءِ كلُّ ذى هِمَّة عَلِيَّه ، وعَزْمَة بمصالح ما يُعْدَقُ به من مُهِمَّات الدَّولة القاهِرة مَلِيَّه ؛ وخِبْرة بكلِّ ما يُرَاد منها وَفِيَّه ، ويَقَظة تَلْحَظ فى كلِّ ما قرب ونأىٰ من المصالح الأمُورَ الباطنةَ والأحْوالَ الخَفِيَّه ؛ وصَرامَة تُؤْيِسُ من آستلانة جانبِه ، ونَزاهَة تُؤَمِّنُ من إمالة رَأْيِه فى كلِّ أمْرٍ عن سلوك واجِبِه ؛ ومعْرِفَة مُطَّلِعه ، ونَهْضه بكلِّ ما إن حُمِّلَه من أعْباء المهمَّات الشَّريفةِ مضطلِعَه — أمْرُ الأموال الديوانية : فإنَّها معادنُ الأرْزاق ، ومَوَادُّ مصالح الإسلام على الإطلاق ؛ وخزائنُ الدَّولة التِى لو ملكَتْها الغمائمُ لأمْسكتْ خَشْية الإنْفاق ، وذخائرُ الثُّغورِ التى مواقعها من أعْداء الدِّين مواقع الشَّجَا فى القُلوب والقَذَىٰ فى الأحْداق .

ولما كان المجلس السامى هو الذى سَمَتْ به هِمَمُه ، ورَسَخَتْ فى خِدَم الدَّولة القاهِرةِ قَدَمُه ، وتبارَىٰ فى مصالح ما يُعْدَقُ به من المُهِمَّات الشَّريفةِ سيفُه وقلَمُه ؛ وكانت المملكة الطَّرابُلُسِيَّة من أشْهر ممالكنا سُمْعَه ، وأيْمنِها بُقْعَه ، وأعْمرِها بلادا ،

وأخْصبِها رُبًّا ووهادا، وأكْثرِها حُصونا شَواهِق، وقِلاعًا سَوامِىَ سَوامِق، وثغورا لا تشِيمُ ما آفتَرَّ من ثُغُورها البروقُ الخَوافِق؛ ولها الخواصُّ الكثيره، والجهات الغَزِيرَه، والأمْوالُ الوافِرَه، والغَلَّاتُ المتكاثِفةَ المُتكاثِرَه ـ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَرْتادَ لها من يسُدُّ خلَلَ عطَلِها، ويشُدُّ عَضُد ميَدِها وميَلِها، وينْهَضُ من مصالحها بما يُراد من مِثْلِه، ويعيدُ لها بحسْنِ المباشرة بَهْجَةَ مَن فَقَدَتْه(١) من الأكْفاء من قَبْلِه.

فلذلك رسم ... ... أن يفوّض إليه شَدُّ الدواوين المعمورة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة والحصون المحروسة، على عادة من تقدّمه فى ذلك.

فلْيباشِرْ ذلك بمعْرِفة تستخرج الأمْوال من معادِنها، وتَسْتثِيرُ كوامِنَ المصالح من مَكامِنها، وتُثَمِّرُ أمْوالَ كلِّ معاملة بحسن الآطلاع عليها، وصَرْفِ وَجْه الآعتناء إليها؛ وتَفقُّدِ أحْوالِ مُباشِريها، ومُباشَرةِ مايتجدَّدُ من وجوه الأمْوال فيها؛ وضَبْطِ آرتفاعها بعَملِ تَقْديره، وحِفْظِ متَحصِّلِ ضِياعِها من ضَياعِه وصَوْنِ بِذارِها عن تَبْذيره؛ ولْيَجْتَهِدْ فى عمارة البلاد بالرِّفْقِ الذى ما كان فى شَىْءٍ إلا زَانَه، والعَدْلِ الذى ما آتَّصفَ به مُلْكٌ إلا صَانَه، والعفَّةِ التى ما كانت فى امرِئ إلّا وفقه الله تعالىٰ فى مقَاصِده وأعَانَه؛ ولْيُقَدِّم تَقْوى اللّهِ بين يديه، ويعتَمِدْ علىٰ توْفِيقِه فيما آعتُمِدَ فيه عليه، إن شاء الله تعالىٰ.

قلتُ: وعلىٰ ذلك يكتبُ شدُّ مراكز البريد ونحوها.

---

(١) لعله "مافقدته من عمل الأكفاء".

الصنف الثانى

(من الوظائف بطرابُلُس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية ـ الوظائف الدِّينيَّة، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولىٰ

(مَن يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» بالياء، وتشتمل علىٰ وظائف)

منها ـ القضاء . وبها أربعةُ قُضاة من المذاهب الأرْبعة : من كُلّ مذهب قاض .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بقَضاء قُضَاة الشَّافعيَّة بها، يُنْسجُ علىٰ منواله، وهى :

الحمـدُ لله الذى أعزَّ الدِّينَ بعُلَمـائه، وعضَّدَ الحكْمَ بالمتَّقين من أوْليائه، وأوْضح الرُّشْد للمُقْتَدين بمن جعلهم فى الهـدايَة كنجُوم سَمائه، وجعل لكلٍّ من الأئمَّةِ من مطالع الظهور أُفقًا يهتدىٰ فيه بأنْوارِه ويُقْتدىٰ بأنْوائه .

نحمدُه علىٰ أنْ جعل سَهْم آجتهادنا فى الآرتياد للأحْكام مُصيبا، وقَسَم لكلٍّ من أُفُق ممالكنا من بركة علماء قَسيمه الآخَرِ نَصيبا، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تعصِمُ من الهوىٰ فى الحُكْم لعباده، وتَفْصم العرا ممن جاهر فيها بعناده، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءتْ أنْوار ملَّته، فاسْتَشَفَّ العلماءُ لَوامعَها، ووَضَحتْ آثارُ سُنَّته، فأحْرز أئمَّـةُ الأُمَّة جَوامعَها، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين دُعُوا إلى الله فأجابُوا، ودَعَوْا إلى الحُكْم بسنَّته فأصابُوا، صلاةً لا تزال الألْسن تُقيمها، والإخْلاصُ يُديمُها، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ ماأدَّىٰ فيه الآجتهادُ جُهْدَه، وبلغَ فيه الآرتيادُ حَدَّه، واسْتُضِىء فيه بنور التَّوْفيق، وآسْتُصْحبَ فيه من آستخارة اللهِ خيْرُ رَفيق ـ أمْرُ الحُكْم العزيز

وتَفْويضُه إلىٰ من وسَّع اللهُ تعالىٰ مجالَ عِلْمِه، وسدَّد مَناطَ حُكْمه؛ وطَهَّر مَرامَ قَلْبِه، ونوَّر بصَرَه فى الحكم وبَصيرَتَه فأصْبح فيهما علىٰ بَيِّنَة من ربِّه؛ فأجرىٰ الحق فى البحث والفُتْيا علىٰ لسانه و يمينه، ونَزَّهه عن إرادة العلم لغير وجْهِه الكريم، ونبَّهه علىٰ ٱبتغاء ما عند الله بذٰلك واللهُ عنده أجرعظيمٌ .

ولما خَلا مَنْصِبُ قَضاء القُضاة بطَرابُلُس المحروسةِ علىٰ مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه : وهو المَنْصِب الذى يُضِىءُ بالأئمَّة الأعلامِ أُفُقُه، وتَلْتَقِى بالفُضَلاء الكرام طُرُقُه؛ وتَحْتوى علىٰ أرْباب الفُنون المتعدّدة مَجالِسُه، وتَزْكو بالفوائد المختلفةِ مَغارِسُــه؛ وكان فلانٌ هو الذى أُشِيرَ إلىٰ خصائص فَضْله، ونُبِّه علىٰ أنَّ الٱجتهاد للأُمَّة أفْضىٰ إلىٰ إسـناد الحكم منـه إلىٰ أهْلِه؛ وأنّه واحدُ زَمانِه، وعَلَّامة أوانِه؛ وجامعُ الفضائِلِ علىٰ ٱخْتـلافِها، وقامِعُ البِـدَعِ علىٰ ٱفتراق شُبَهِها منـه وأئْتلافها؛ وحَاوِى الفروع التى لا تتناهىٰ، والمُرْبِى علىٰ رَبِّ كلِّ فضـيلةٍ لا يَعْرف غيرها ولا يَأْلَفُ سواها ــ ٱقتضت آراؤنا الشريفـة أن نجزم من ٱرْتيـادِه لهذه الرتبـة بهذا الرَّأْيِ [السديد]، وأن نُقَرِّب سُراهُ إلىٰ هذا المَنْصِبِ الذى ناداه بلسان الرَّغبة من مَكان بَعيد .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف ــ لا زال إحسانُه كالبَدْرِ، يملأ المشارقَ والمغارب، وبِرُّه كالبَحْر، يَقْـذِف للقَريبِ الجواهر ويبْعثُ للبعيـد السَّحائب ــ أنْ يفوّض إليـــه كذا .

فليطلُعْ بذلك الأفق الذى يترقَّبُ طلوعَه رِقْبــةَ أهلَّةِ المواسم، ويُسْرِعْ إلىٰ تلك الرُّتْبة التى تكاد تَسْتطلِــعُ انباءه من الرياح النَّواسم؛ وينشُرْ بها فَرائدَه التى هى أحَقُّ

أن تطوى إليها المراحل ، ويَقْدُمْ بها على الأسماع الظّامية لعَذْبِ فَوائِدِه قُدومَ الغَمامِ علىٰ الرَّوض الماحِل ؛ ويَلِ هـذا المَنْصِبَ الذى هو فيـه بين عَدْل يَنْشُره ، وحقّ يظهره ، وباطِل يزْهِقُه ، وغالب يُرْهقُه ، ومظلوم يَنْصُره .

وليكُنْ أمرُ أمْوال الأيْتام المُهِمَّ المقدّمَ لديه ، وحَديثُ أوْقاف البِرِّ من أوّل وأوْلىٰ ما يَصْرِف فِكْرَه الجميـلَ إليه ؛ ويتعاهَدُ كَشْفَ ذلك بنَفْسِـه ، ولا يكتفى فى عِلْمِـه فعـل اليوم باطّلاعه عليـه بأمْرِه فى أمْسه(١) ؛ وهو يعلَمُ أنَّ الله يجعله بذٰلك مشاركًا للواقفين فى الأجْرِ المختصِّ بهم والشُّـكْرِ المنسوبِ إليهم ، خارجًا من العُهْدَة فى أمْرِ اليتامىٰ باسـتعمال الذين يَخْشَوْنَ لو تَرَكُوا من خَلْفِهم ذُرِّيَّةً ضِعافًا خَافُوا عَلَيْهِم ؛ وليُقِمْ مَنارَ الحق علىٰ ما يجب وإن سَرَّ قومًا وساء قَوْما ، ويَقُمْ بالعَـدْلِ علىٰ ما شُرِع : فإنَّ « عَدْلَ يومٍ خيرٌ للأرْض من أنْ تُمْطَرَ أرْبعين يَوْما » .

وأمّا ما عدا ذلك من أحْوال الحكم وعَوائِده ، وآداب القَضـاء وقَواعِده ، فكُلُّ ذلك من خصائصه يُسْـتفاد ، ومن مَعارِفه يُسْـتزاد ؛ وملاكُ ذلك كلِّه تقوى الله وهى مِن أطْهرِ حِلاهُ الحَسَـنَه ، وأشْرف صِفاته التى تَتَداوَلُهـا الألْسِنَه ؛ فلْيَجْعلْها وسيلةَ تَسْدِيدِه فى القَوْل والعَمل ، وذَخيرةَ آخرتِهِ التى ليس له فى غيرها أمَل ، ويقلد العلىٰ فيما حَدَّثَتْه من أسْـباب نُقْلَتِه فإنَ كمالَ العزِّ فى النُّقَل ؛ والله تعـالىٰ يمدّه بموادّ تَأْييدِه وقد فعل ، ويجْعَـلُه من أوليائه المتَّقين وقد جَعَل ؛ بمنّه وكَرَمه ! ، إن شاء الله تعـالىٰ .

قلتُ : وعلىٰ ذلك تكتب تواقيع القُضاة الثلاثة الباقين .

ومنها ـ وكالة بَيْتِ المـال .

---

(١) لعله « على أمره فى أمسه » .

وهذه نسخة توقيع من ذلك، وهى :

الحمـــدُ لله الذى عَمر بيْتَ مال المسلمين بسَدَاد وَكِيله ، ونموّ تَحْصِـيله ومَزِيد تَمْوِيلِه ، وتمسُّكِه بالصِّدْق من قِيلِه ، وسُلُوكِه ماتبيَّنَ [من] سبيله ، وآعتماده الحق فى دليله ؛ ودَفْعِه المَضَارَّ وجَلْبِه المسارّ بتَخْوِيله .

نحمَدُه علىٰ بِرِّه وتَفْضيله ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلٰهٌ تنزَّه عن نِدِّه ومَثِيلِه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه الله لتمـام هذا الدِّينِ وتَكْمِيلِه ؛ وأنزل عليه المُعْجِزات فى تنزيله ، وحَفِظ به الذِّكْرَ الحكيمَ من تَبْديلِه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه وقَبِيلِه ؛ وسلَّمَ تسليماً .

وبعــدُ ، فإن بيْتَ المالِ المَعْمورَ هو نِظامُ الإسلام ، وذُخْرالأنَام ، وفيه مَحْصولُ المسلمين تحتَ نَظَرِ الإمام ، وفيــه مادَّةُ المجاهدين فى سبيل الله علىٰ تَطاوُلِ الأيَّام ؛ وإليه تُجْبَى القَناطِيرُ المُقَنْطَرةُ من الأمْوال ، وعنه تصدُر المبيعاتُ من الأملاك ما بين أراض وأبْنِية ومَحال . والوكِيلُ علىٰ ذلك عنّا بالمَمْلَكَةِ الطَّرابُلُسِيَّة المحروسةِ هو الذَّابُّ عن حَوْزَته ، القائمُ بتأْمِين رَوْعَتِه ، المجتَهِدُ فى تمييز رَجْعَتِه ؛ وينبغى أن يكونَ من العلمـاء الأعْلام الأئِمَّـه ، المعوَّلِ عليهم فى الأُمور المُهِمَّه ، البَصيرِ بمـا يترجح به جانِبُ بيتِ المـال المعمورِ ويَكْشِف كلَّ غُمَّه ، العَرِيقِ فى السِّيادةِ التى آنقادت إليها السجايا الجميلةُ بالأزِمَّه .

ولـما كان فلانٌ هو الرَّاقِىَ هَضْبَةَ [هذه] المآثِر ، الطَّالِعَ كَوْكَبُ مَجْدِه السَّافِر ، المستَحِقّ لكلِّ آرتقاءٍ على المنابر ، ويَعُدُّ سَلفًا كريمًـا نَصيرًا فى المفاخر ، ويَمُتُّ ببَيْتٍ

بحره زاخر؛ وله فى مذهب الإمام الشافعىّ رضى الله عنه بَحْثٌ فاق به الأشْباهَ والنظائر، وعنده عِلْمٌ بالمسائل المضروب مَثَلُها السَّائِر - فلذلك رسم ... ...

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ مُحْترِزًا فى كلّ ما يأْتيه ويَذَرُه، ويقْصِدُه ويُحَرِّرُه، ويُورِدُه ويُصْدِرُه، ويُبَيِّنه ويُقَدِّرُه، ويُخْفيه ويُظْهِرُه، ويبْدِيه ويَسْتُرُه، ويُدْنيه ويُحْضِرُه؛ ويقرِّرْ جانِبَ بيْت المال المَعْمور، بما فيه الحظُّ الموْفُور؛ والغبطَة فى كلّ الأُمُور، وهو عالِمٌ بما فيه صلاحُ الجُمْهُور؛ ومن رَغِب فى ٱبْتِياعِ أَرَاض وقَرَاح، وأبْنِيَة وأمْلاك ورِحاب فِسَاح؛ مما هو جَار فى مِلْك بيْتِ المال فلْيُوَفِّرْ جانِبَ القِيمَة علىٰ ما فيه الصَّلاح، وهو بحمد الله من بَيْتِ الدِّين والصَّلاحِ والإصْلاح، وهو يُقَوِّى بإسناده الأحادِيثَ الصِّحاح؛ ومن له حقٌّ فى بيْتِ المال فلْيَسْمَعْ دعوىٰ مُدَّعِيه، ولا يصرفْ دِرْهَمًا ولا شَيْئًا إلا بحقٍّ واضِحٍ فيما يثبته فيه، وهو وَكِيلٌ مأْمونٌ فى تأَتِّيه، ومَعْنى الوكيل الذى يُوكَلُ إليه الأمْر الذى يَلِيه .

والوصايا كثيرةٌ وأجلُّها تَقْوَى الله بالسَّمْع والبَصَر واللسان، فمن تَمَسَّك بها من إنْسان فإنَّه يفوز بالإحسان؛ وهو غَنِيٌّ عن الوصايا بما فيه من البيان، والله يجعله فى كِلَاءَة الرَّحْمن؛ بمنِّه وكَرَمه ! . والخطّ الشريف أعلاه ... ...، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وقد يُكتب لوكالة بيت المال ونحوها بالٱفتتاح بـ«أمَّا بعدُ» علىٰ قاعدة أصْل الكتابة فى قَطْع الثلث . والكاتب فى ذلك علىٰ مايراه بحسب مايقتضيه الحال .

المرتبـــــة الثـانية

(من تواقيع أرْباب الوظائف الدينية بطَرابُلُسَ ـ مَن يُكْتب له في قطع العادة ، مفتتحا بـ«رُسِم»)

وهذه نسخةُ تَوْقيع من هــذه الرتبة بوظيفــة قراءة الحديث النَّبَوِىّ ، علىٰ قائله أفضل الصلاة والسلام، لمن آسمه «يحيي» يستضاء به في ذلك، وهي :

رُسم بالأمْر الشريف ـ لا زال رَمِيمُ الفَضْل بأرْواحِ عنايته يَحْيا، وأحاديثُ مِنَنه الحِسانِ تَعِيها أُذُنٌ وَاعِيةٌ من طِيبِ السَّماعِ لا تَعْيَا ؛ ولا بَرِحتْ أوْلِيــاءُ خِدَمه تُثْنى علىٰ صدقاته بألْسِنَةِ الأقْلام ، وتُدِيرَ(1) على الأسْمــاع من رَحِيقِها كُئُوسًا مِسْكِيَّةَ الخِتَام ـ أنْ يستقرَّ في كذا آستقرارًا تَرْشُفَ الأسماعُ ، كُئُوسَ روايتها فلا تَرْوىٰ، ورتب كماله يقْصُر عن طلوعها كُلُّ باعٍ ، فَمُناواتُه لا تُنْوَىٰ؛ ورُبُوعُ معروفه لا تَبِيد، وآياتُ صِــلَاتِه ينْطِقُ بتلاوتها كُلُّ بليغ فيُبْدِئُ ويُعِيد ؛ لأنَّه العــالِمُ الذى أحْيا من مدَارِس العُلوم مادَرَس، والفاضلُ الذى أضاءَ بِبَصَرِ عُلُومه ليلَ الجَهْــل ولا غَرْوَ : «فَطُرَّةُ الصُّبْحِ تَمْحى آيَةَ الغَلَس» ؛ والكاملُ الذى لا يَشُوبُ كمالَه نَقيصَه، والأمْثَلُ الذى أنَتْه المعالى رَخِيصَه ؛ والإمام الذى تَأْتَمُّ وراءَه الأفاضِــل ، وتَأخَّر عصْرُه ففاقَ الاوائِل ؛ مادَرَّسَ إلا وجَمع من فوائد «أبِى حَنِيفة» و«آبن إدريس» ، ولا عَرَّس بأيْلِ الطَّلَبِ إلَّا حَمِد عنــد إدراك طَلَبِه ذلك التَّعرِيس ؛ ولا أعاد الدُّروسَ للطَّلَبــة إلا وترشَّحتْ منه بالفَوائِد، ولا جَمع ما فصَّله العلماءُ إلا وأتىٰ بالجَمْع الذى لا نظيرَ له في الفَرائِد .

(١) في الأصل : وقدمر وهو تحريف واضح .

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ مُباشَرةً أنْوارُ هداها لا تَخْمُد(١) ، ولْيُلازِمْها ملازمةً تشكره عليها الألْسِنة وتَحْمَد ؛ وأنْت ـ أدام الله تعالىٰ فوائدك ـ لا تحتاج إلىٰ الوصايا إذْ أنْت بها عَالِم ، وبأسْبابِها مُتَمَسِّكٌ وبالقيامِ بها يَقِظٌ غيرُ نائم ؛ لكن التقوىٰ [أوْلىٰ] بمن عرف الأمور ، ولِباسُ سَوابِغِها يُبْعِدُ كلَّ محْذُور ؛ والاعتماد علىٰ الخطّ الشريف أعْلاه .

الصـنف الثالث

(من الوظائف بطَرابُلُس التى يكتب لأربابها من الأبواب السلطانية ـ الوظائف الدِّيوانية ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبـة الأولىٰ

(ما يكتب فى قَطْع الثلث بـ«المجلس السامىّ» باليـاء ، وتشـتمل علىٰ وظائف)

منها ـ كِتَابَةُ السِّرّ ، ويعبَّر عنه فى ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بـ«صاحب ديوان المكاتبات» .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ من ذٰلك ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جعـل الأسْرارَ عنـد الأحْرار ، وطَوَى الصُّحُفَ علىٰ حَسَـنات الأبْرار ، وأجْرى الأقْلامَ تَرْجُماناً للأفْكار ، وجعـل الحَفَظَةَ يكْتُبون الأعمـالَ مع تَطاوُل الأعْمَار ، آناءَ اللَّيلِ وأطْرافَ النَّهار ، وبَسط المَعانِى أرواحا ، والألْفاظَ لهـا أشْباحا ، مع التَّكْرار ، وأبْهج الصدور بصُدُور الكُتُب والإيراد والإصدار .

---

(١) فى القاموس خمدت النار كنصر وسمع .

نحمدُه علىٰ فَضْـلِه المِدْرار، ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ إقْرار، وعملٍ بالجَوارِحِ بلا إنْكار؛ ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه المصْطَفىٰ من مُضَرَ بن نِزَار، المخصوصُ بالمُهـاجِرين والأنْصار، الثَّاوى بأشْرف بُقْـعَة تُزَار، المُشَرِّفُ كُتَّابَ الوَحْيِ: فهم يَكْتُبون بمـا يُمْلِيه عليهم المختار، وجبريلُ يُلْقِي علىٰ قَلْبه الآيات والأذْكار، عن رَبِّ العزة المُسْبِل الأسْتار، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه ما نَفَح رَوْضٌ مِعْطار، وسَحَّ صَوْبُ أمْطار، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ مِلاكَ المُلْكِ الشَّريفِ حِفْظُ سِرِّه، والاحتفـالُ بكُتُبه الشَّريفـة ولفظها ودُرِّه، وخطابها ونَثْره، وخطها ونَشْره، وخَتْمها وعِطْره، وتجهيزها مع الأمناء الثِّقات الذين تؤمن غائلةُ أحَدهم فى كلِّ أمْره؛ وما أُلْقِيَ السِّرُّ الشريفُ إلَّا لأكْمَلِ الأعْيان، وصَدْر الزَّمان، وبَليغٍ كسَحْبان، وفَصِيحٍ كقُسٍّ فى هذا الزمان، وأصيل فى الأنْساب، وعَرِيق فى كَرَم الأحْساب، وفَاضِلٍ يعنو له فَاضِلُ بَيْسَان، ويُنْشِي لفظُه الدرَّ والمَرْجان، وكاتبُ السِّرِّ فلا يَفُوه بلسان .

ولمـا كان فلانٌ هو واسطة عِقْد الأفاضـل، ورَأْسَ الرُّؤساء الأماثِل، وحافظَ السِّرّ فى السُّوَيْداءِ مِن قَلْبه، وناظِمَ الدُّرِّ فى سُطور كُتْبه؛ والمُورِدَ علىٰ مسامعنا الشريفة من عبارته ألفاظًا عِذَابا، القائلَ صَوابا، والمُجِيدَ خطابا، وإذا جَهَّز مُهِمًّا شَرِيفًا راعاه بعَيْنـه عَوْدا وذَهَابا، وإذا آسْـتَعطف القُلوبَ النافرةَ عادت الأعْداء أحْبابا، وإذا أرْعد وأبْرق علىٰ مَأْزِقٍ أغْنىٰ عن الجيوش وأبْدىٰ عَجَبًا عُجابا، وإذا كتب أنْبت فى القِرْطاس رياضا خِصَابا .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف أنْ يفوّض إليه كذا . فلْيَحُلَّ هذا المنصبَ الشَّريفَ حلُولَ القَمَر هالَتَه، ولْيُعِدْ إليه أيَّام سرّه وسُرورِه الفَائِتَه، وليُعرِبْ عن أُصول ثَابِتَه،

وفُرُوعٍ فى منابت الخيرْ نَابِتَه ؛ ولينفِّذِ المهماتِ الشَّريفةَ أوّلًا فأوّلا من غير أنْ يَعْدِق مُهِمًّا بغيره أو يُبَيِّتَه إلىٰ غَدِه، ولْيحَرِّر البَرِيدَ المنصورَ بيديه غير معتمد فيه علىٰ غير رَشَدِه، ولا يَغِبْ عن وظيفته طَرْفَةَ عَيْنٍ بل يكون كالنَّجْم فى رَصَدِه لمرْتَصِدِه ؛ ولْيُوصِ كُتَّاب الإنشاء لَدَيْه ، والمتَصَرِّفين بين يديه ، بكتم السِّرِّ فإن ذلك إليه ؛ فإذا أفشىٰ أحدٌ من السِّرّ كَلِمَه ، فليَزْجُرْه وليأمُرْه أن يحفظ لسانَه وقَلَمَه ، ولْيُعْطِ كلَّ قَضِيَّة ماتستحقها من تَنْفِيذ كَلِمَه ؛ والابتداءاتُ والأجوبةُ فلتَكُنْ ثغورها بألفاظه متشنِّبة وعُقُودُها بإملائه مُنْتَظِمَه ؛ فأمَّا الابتداءُ فهو على اقْتِراحه ، وأمَّا الجوابُ فهو علىٰ ما يقتضيه الكتابُ الوارد باصْطِلاحه ، ولا يملى إلَّا إلىٰ ثقاته ونُصَّاحه ؛ والكتبُ الملوكية فليوفِّها مقاصِدَها ، وليراعِ عَوائِدَها ؛ والتَّقْوىٰ فهى الْهامُّ [من] أمْرِه ، وختامُ عِطْره ، وتَمامُ بَدْرِه ؛ والوصايا فهى كثيرةٌ لديْه وفى صَدْرِه ، والله تعالىٰ يكمِّل به أوْقات عَصْرِه ؛ بمنِّه وكرمه ! والخطُّ الشَّريف أعْلاه ... .

ومنها ــ نظر المملكة ، القائمة بها مقامَ الوِزَارة .

وهذه نسخةُ تَوْقِيعٍ من ذلك ، وهى :

الحمدُ لله مُفيضِ حُلَلِ إنْعامِنا علىٰ مَن أخْلص فى طاعتنا الشَّريفةِ قَلبَهُ ولِسانَهُ ، ومُولِى فَضْلِ آلائنا العَمِيمةِ علىٰ مَن أرْهَف فى مصالحها آلةَ عَزْمه وبنَانَه ، ومُحَلِّى رُتَبِ عَلْيائنا الشَّريفةِ بمن أشْرق فى سماء المَعالى بَدْرُه وإنْسَانُه ، وأينعتْ فى غصون الأمان قُطوفُه وأفْنانُه .

نحمدُه حمدًا يَبلُغُ [به] أقْصىٰ غاية المَجْد مَن تَبْتَسِم بجميل نَظَرِه الثُّغور ، وتَعْتَصِمُ بحميد خَبَرِه وخِبْرَتِه الأُمور ؛ ونشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُشْرِق بها

البُـدور، ويُعتَمَدُ عليها فى الايّام والدُّهور؛ ونشهدُ أنَّ سـيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الهـادى إلى الحقِّ وإلىٰ طريق مُسْـتقيم، والنّاشرُ لواءَ العَدْل بسَنَنه الوَاضِح وشَرْعِه القويم؛ وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين آهتدىٰ بهَدْيِهِـم ذَوُو البصائرِ والأبْصار، وآرتَدىٰ بأرْدِيَتِهِم المُعْلَمَةِ مقتفى الآثار من النُّظّار؛ وسلَّمَ تسليماً .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ من أسْندنا إلىٰ نَظرِه الجميلِ رُتْبَةَ عِزٍّ ما زالتْ بنُو الآمال عليها تحُوم، وعدَقْنا بتَدْبيره الجميلِ مَنْصِبَ سِيادَة ما برِحَتْ الأمَانِيُّ له ترُوم؛ واعتَمَدْنا علىٰ هِمَمِه العَلِيَّة فصَـدَّق الخُبْرُ الخَبَر، وركَنَّا إلىٰ حَميـدِ رأيِه فشَهِد السَّمعُ له وأدّى النَّظَـــر .

ولـما كان فلانٌ هو الذى رَقِىٰ فى ذِرْوَةِ هَذِه المعالى، وانْتَظَم به عِقْدُ هذه اللّآ لى، وحَوىٰ بفَضِيلة البيانِ واللِّسانِ مالم تدركه المُرْهَفاتُ والعَوالى؛ فما حلَّ ذرْوةَ عزٍّ إلّا حلّاها بنَظرِه الجميـل، ولا رَقىٰ رُتْبة سِـيادَة إلا وأسْفر فى ذِرْوَتِها وجْهُ صُبْحه الجميل، ولا عُدِق بنَظَرِه كَفالَةُ رُتْبة إلا وكان لهـا خيْرَ كَفيل .

فلذلك رُسِم بالأمْرِ الشَّريف ـ لا زال ينْتَصِى للرُّتَبِ العَلِيَّـة خيرَ مُنْجِد ومُغِـير، ويَخْتارُ للمناصب السَّنِيَّة نِعْم المَولىٰ ونِعْم النَّصير ـ أن يفوّضَ إليه كذا فإنَّه القَوِىُّ الأمين، والمتمسكُ من تَقْوى الله تعالىٰ وكِفايَتِه بالسَّبَب المَتين، والمُسْتَنِدُ بجميـل كَفالَتِه وحَميدِ ديانَتِه إلىٰ حِصْن حَصِين، والمُسْتَذْرى بأصالَتِه الطّاهرة وإصابَتِه إلى الجُنَّةِ الواقيَة والحَرَمِ الأمين .

فليقَدِّمْ خِيرَةَ الله تعالىٰ ويُباشِرْ الجهةَ المذكورةَ بعزْم لا ينْبُو، وهِمَّة لا تخْبُو، وتَدْبِيرٍ يتضاعفُ علىٰ مَمَرِّ الأيَّام ويرْبُو؛ ونظَر لا يعزُب عن مبـاشرته مثقالُ ذَرَّة إلا وهى من خاطره فى قَرارٍ مَكين، وضَبْط لا تمتدُّ إليـه يدُ ملْتَمِس إلا ويَجِدُ من مُرْهَفه

ما يكُفّ كَفَّها بالحدّ المَتين . ولْيضاعِفْ هِمَّته، فى مصالح هذه الجهة التى عَدَقْناها بنظره السعيد، ولْيُوفِّرْ عَزْمَته، فإنّ الحازِمَ من ألْقَى السَّمْعَ وهو شهيد؛ والوصايا كثيرةٌ ومثله لا يُدَلُّ عليها، والتَّنْبيهاتُ واضحةٌ وهو ـ وفقه الله تعالىٰ ـ أَهْدىٰ من أنْ يُرشَدَ إليها؛ واللهُ يوفِّقه فى القَوْل والعَمَل، ويُصْلِحُ بجميل تدبيره وحَميدِ تأثيلِهِ كلَّ خَلَل؛ والاعتماد علىٰ الخطّ الشريف، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ـ نظر الجَيْش بها :

وهذه نسخة توقيع بها لمن لقبه «شَمْس الدِّين» وهى :

الحمدُ للهِ الذى أطْلع فى سماء المَعالِى شَمْسًا مُنيرَه، وأينع غُروسَ أُولِى الصَّدارَةِ بعِهادِ سُحُب عَوارِفِهِ الغَزيرَه، وأبْدع الإحْسانَ إلىٰ من قَدمه الاختبارُ والاختيارُ علىٰ بَصيره .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى عَمّ فَضْلُها، ومُدَّ علىٰ أوْلياء الدولة القاهرة ظِلُّها؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُزْلِفُ لَدَيْه، وتُسْلِفُ ما يجدُه المتمسِّكُ بها يَوم العَرْض عَلَيْه؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من بُعِثَ إلى الأُمَم كافَّه، وأكْرمُ مَن غدَتْ أمْلاكُ النَّصر بآيته حَافَّه؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حازوا بصُحْبته الشَّرف، وفازُوا بطاعة اللهِ وطاعَتِه من الجنان بغُرَف من فَوْقها غُرَف .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ ما عُدِقَ بالأكْفاء، وأحَقَّ ما صُرِف إليه وجه الاعْتناء، وأجْدرَ ما أُوقِظَ له طَرْفُ كَافٍ لا يُلِمُّ بالإغْفاء ـ أمْرُ الجيوشِ المنصورة بطَرَابُلُس

المحروسةِ التى لا ينهَضُ بأعْباءِ مصالحها إلا مَن عُرِفَ بالسَّداد فى قلَمه وكَلمه، وأُلِفَ منه حُسْنُ التصرُّف فيما يُبْـدِيه من نزاهَته ويُظْهِرُه من هِمَمه؛ بخِبْرة مُؤَكَّده، وآراءٍ مسَدَّدَه؛ ومعرِفَةِ أوْضاع تَرْتِيبِها وأحْوالها، وقواعد مُقَدَّمِيها وأبْطالها، وكِفايَةٍ تفْتحُ رحاب حالهـا .

ولمـا كان فلانٌ هو الصَّـدْرَ المَلِيَّ بوَافِى الضَّـبْط ووافِر الاَهْتِمام، والكَافِىَ الذى نطقَتْ بكفايتِه ألْسِنَةُ الخِرْصان وأفْواهُ الأقْلام، والضَّابِطَ الذى لا يَعْجِزُ فَهْمُه عن إحاطة العِلْم بذَوِى الآلام .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال يقَدِّمُ للمراتب، كَافِيًـا مَشْكُورا، ويُرَشِّح للمناصب، صَدْرًا أضْحىٰ بالأمانَةِ مَشْهُورا ـ أنْ يفوّضَ إليه كذا : لأنَّه الصَّدْر الذى تزاحَمَتْ ألْسِـنةُ الثَّناءِ عليـه، وترادَفَتْ بين أيْدينـا محَامِدُه فقرّرنا العوارِفَ لَدَيْه؛ وشُكِرتْ عندنا هِمَمُه فى سَداد كُلِّ ما يُباشِرُه، وذُكِرتْ لدَيْنا بالخيْر سِيرَتُه وسَرائِرُه .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفـةَ الجليلةَ مُتَحَلِّيًا بين الأنام بعُقُودِها، مُطْلِعًا شمْسَ نزاهَتِـه فى فَلَكِ سُـعودِها؛ ناهِضًا بأعْباءِ مَنْصبه السعيد، ضَابِطًا قواعِدَه بكلِّ تحرير تَلِيد؛ متْقِنًا دِيوانَ الجيوش المَنْصوره، مُعْمِلًا فى ملاحظتها نَافِذَ البَصَرِ وحُسنىٰ البَصِيره؛ مُحَرِّرًا أوْراق العِدَّة والعُـدَّه، باذِلًا فى ضَـبْط الحِلَىٰ اَهْتِمامَه وجُهْدَه؛ والله تعـالىٰ يُسْعِدُ جَدَّه، ويُجَدِّدُ سَعْدَه؛ والخطُّ الشريفُ أعْلاه ... ... إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : ورُبَّمـا كُتِب مفْتتَحًا فى هـذه الرتبة بـ«أمَّا بعد» فإنها أصْل ما يكتب فى قَطْع الثلث .

المرتبـــة الثانية

(من مراتب أرباب الوظائف الديوانية بطرابُلُس ـ مَن يُكْتب له فى قَطْع العادة بـ«مَجْلس القاضى»)

وهو قليلُ الوقوع . والغالب فى ذلك أن يكتب عن نائب السلطنة بها .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من هذه الرتبة بكتابة الدَّسْت بطرابُلُس ، يقاسُ عليه ما عداه من ذلك ، وهى :

رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال أمْره الشريفُ ، يزيد من يَصْطَفِيه شَرَفا ، وبِرُّه المُنِيفُ ، يُفيد من يَجْتَبِيه تُحَفا ، وخَيْرُه المُطِيفُ ، يُجِيد لمن يختاره جُودا ، ويسُرُّ قَلْبَ مَن رفعه إلىٰ صَـدْر الدَّسْت صُعودا ، فيبَوِّئُه من جَنَّات العَلْياء غُرَفا ـ أنْ يَسْتَقرَّ فى كذا : آستقرارًا تُجْتَنَىٰ منه ثِمـار الخيرات ، وتُجْلَىٰ عليه عَروسُ المَسَرَّات ؛ لأنَّه الرَّئيسُ الذى تَفْتخِرُ هـذه الوظيفةُ بآنتسابها إليه ، وتتجمَّلُ حُلَلُها وألْوِيَتُها إذا نُشِرت عليه ؛ والفَاضِلُ الذى ألْقتْ إليه البلاغةُ زِمامَها ، والكامِلُ الذى ملك بيانَها ونِظامَها ؛ والأدِيبُ الذى لا يُدْرَكُ فى الآداب ، واللَّبِيبُ الذى يقصُر عنه طُولُ عامَّة الطُّلَّاب ؛ كَمْ له من كِتَابَةٍ حَسَنة الآتِّساق ، وبَلاغَة حصَل علىٰ فَضْلِها الآتِّفاق ، ودِيانَةٍ أطْلَق فيها لِسانَهُ ويَدَه فشكرها الناسُ على الإطْلاق ؛ فهو مُسْتَنَد الرآســه ، وآبنُ من حاز كلَّ فَخار ورَاسَــه ؛ والعَلَمُ المشهورُ عِلْمُه ، وصاحبُ القَلَمِ المشكورُ رَقْمُه ؛ فالمناصبُ بارتِفاعه إليها مُفْتخِرَه ، والمراتبُ بعَلَائه مُسْتَبْشِرَه ؛ والأسْمـاعُ بفضائله مُشَــنَّفه ، والأسْجاعُ بكَلِمه مُشَرَّفه .

فليباشِرْ هــذه الوظِيفَه ، ولْيَسلُكْ فيها طَرِيقَ نَفْســه العَفِيفَه ؛ ولْيُدَبِّج القَصَص بأقْلامه ، ولْيُبهِج التَّواقِيعَ بمـا يُوقِّع مُبْرَمُ فصيحِ كَلامه ؛ ولْيُزَيِّن الطُّروسَ بكتابَتِه ،

ولْيُنْعِش النُّفوسَ ، ببلاغَتِـهِ ؛ وليَجمِّلْ من المباشرة ما تُصْبح منـه مطالعُ شَرَفه مُنِيره ، وتُمْسى به عينُ مُحِبِّه قَرِيرَه ؛ والوَصايا فهو خَطيبُ منْبَرِها ، ولَبِيبُ مَورِدِها ومَصْدَرِها ؛ والتَّقوىٰ فلْيلازمْ فيها شـعَارَه ، ولْيداومْ بها علىٰ ما يَبْلغُ به أوْطارَه ؛ واللهُ تعالىٰ يجعـلُ سُعودَه كلَّ يَوم فى آزدياد ، ويسهلُ له ما يرفعُ ذكْرَه بين العباد ، بمنِّه وكرمه ! . والآعتماد فى ذلك على الخطِّ الشريفِ أعْلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

النــــوع الثـانى

(من الوظائف بطرابُلُس ـ ما هو خارِجٌ عن حاضرتهـا ، وهـــم علىٰ ثلاثة أصْناف أيضـا)

الصِّـــنْف الأوّل

(أرْباب السيوف)

وقد تقـدّم أنّه ليس بها مقدّمُ ألْف سوىٰ نائب السَّلْطنة بها ، وحينئذ فالنيابات بمعاملتها علىٰ طبقتيـن :

الطبقـــة الأولىٰ

(الطَّبْلَخا ناه)

ومَرَاسِيمُهم تُكتبُ فى قَطْع الثلث بـ«ـالسَّامىّ» بالياء ، مفتتحة بـ«الحمد لله» .

وهـذه نسخةُ مرسوم شَريف من ذلك بنيابة قَلْعة ، تصلح لنائب اللَّاذِقِيَّـة ، يُنْسج علىٰ منوالهـا ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل الحُصونَ الإسْلاميَّةَ فى أيَّامنا الزَّاهِرةِ ، مصَفَّحةً بالصِّفاح ، والثُّغورَ المَصُونَةَ فى دَوْلتِنا القاهرةِ ، مشَرَّفةً بأسِنَّة الرِّماح ، والمعاقِلَ المحروسةَ مخصوصةً من أوْليائِنا بمن يُعَدُّ بَأْسُه لها أوْقَى الجُنَنِ وذَبُّه عنها أقْوَى السِّلاح .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى عَوارِفُها عَميمَه ، وطوارِفُها كالتَّالدةِ للمَزِيد مُسْتَديمَه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تنطِقُ الضمائرُ قبل الألْسِنة بإخلاصِها ، وتُشْرِقُ القلوبُ بعموم إحاطَتِها بها وآخْتِصاصِها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أشْرقتْ بنورِ مِلَّتِه الظُّلَمُ ، وآرتوت بفَوْرِ شَريعَتِه الأُمَمُ ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين آمْتَطَوْا إلىٰ جهاد أعْداء الله وأعْدائه غاربَ الهِمَمِ ، صلاةً سارِيةً كالرِّياح هامِيَةً كالدِّيَمِ ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ ما عُقِدَ عليه فى صِيانةِ الحُصونِ الخناصِر ، وآعْتُمِدَ علىٰ مِثْله فى كفايةِ المَعاقِل إذا لم يكُنْ غيرَ تأْييد اللهِ وحدِّ السَّيفِ ناصر ـ من هو فى حِفْظ ما يليه كالصُّدور التى تصونُ الأسْرار ، والكَمائِمِ التى تحُوط الثِّمار ، مع اليَقَظَة التى تَذُود الطَّيْفَ أنْ يُلِمَّ بحُماةِ حِماه ، والفِطْنة التى تصُدُّ الفِكْرَ أنْ يتخَيَّلَ فيه ما آشتمل عليه وحَواه ، والأمانَةِ التى ينوِى فيها طاعةَ الله وطاعةَ رسوله صلَّى الله عليه وسلم وطاعتَنا الشريفة ولكلِّ آمرِئٍ ما نواه .

ولما كان فلانٌ هو السيفُ الذى تروق تجرِبَتُه ويَرُوع تجريدُه ، وإذا ورد فى الوَغىٰ مَنْهَلَ حَرْبٍ فمَشْرَعُه من كلِّ كَمِيٍّ وَرِيدُه ـ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نُرهِفَ حدَّه بحِفْظ أسْنَى الحصونِ عندنا مكانًا ومكانَه ، وأسْمى المعاقل رِفْعةً وعِزَّةً وصِيانَه .

فرُسم بالأمْرِ الشَّريفِ أن تفوّض إليه النيابةُ بقلعة كذا .

فليباشِرْ هذه النِّيابةَ السَّامِيَ قدرُها ، الكامِلَ فى أُفُقِ الرُّتب بدْرُها ؛ مباشرةً تصُدُّ الأفْكار ، عن توهُّمِها ، والأبصارَ ، عن توسُّمِها ؛ والخواطِرَ ، عن تخيُّـل مغْناها ، والسَّرائِرَ ، عن تمثُّل صورتها ومَعْناها .

ولْيكُنْ لمصالحها متلَمِّحا ، ولنَجْوىٰ رجالِها متصَفِّحا ؛ ولأعْذار حُماتِها مُزيحا ، وللخواطر من أسْباب كفايتها مُريحا ؛ ولمواطِنها عَامِرا ، وبما قَلَّ وجلَّ من مصالحها آمِرا ؛ ولوَظائفها مُقيما ، وللنَّظَر فى الكبير والصغير من أُمُورها مُديما ؛ ولِخدْمَتها مُضاعِفا ، ولكلِّ ما يتعينُ الاحتفال به من مُهِمَّاتها وَاقِفا ؛ ومِلاكُ الوصايا تقْوَى الله : وهى أوَّلُ ما يقدِّمه بين يديه ، وأوْلَىٰ ما ينبغى أن يصْرِفَ نظرَه إليه ؛ فلْيجعَلْ ذلك خُلُق نَفْسه ، ومزِيَّةَ يوْمِهِ علىٰ أمْسه ، والخير يكونُ . والخط الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقـــة الثـانية

(العشرات)

ومراسيمهم إن كُتبت من الأبْواب السُّلطانية فهى قَطْع الثلث بـ«السَّامى» بغير ياء ، مفتتحة بـ«أمَّا بعد» إلا أنَّ الغالبَ كتابتُها عن نائب السَّلطنة .

وهذه نسخةُ مَرْسوم شَريف بنيابة قَلْعة بَلاطُنُس ، من معاملتها وهى :

أمَّا بعـدَ حمد اللهِ علىٰ نِعَمٍ توالَىٰ رِفْدُها ، ووجب شكْرُها وحَمْدُها ، وعَذُب لذَوِى الآمالِ وِرْدُها ؛ والصَّلاةِ والسـلامِ علىٰ سـيدِنا محمدٍ الذى رُفع به لقُرَيْش مجْدُها ، فعلَا جَدُّها ، وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً لايُحْصىٰ عَددُها ولا يحصُرُ حَدُّها ـ فإنَّه لمَّـا كان فلانٌ ممن قَدُمَتْ تقادمُ خدمِه ، وتعالَىٰ به إلىٰ العَلْياء سَامِى هِمَمِه ، وترَفَّع به حُسْنُ

ولائه حتّى أعلت الدوْلَةُ من شأنِه ورفعتْ من عَلَمِه، وٱستكْفتْه لَمصُون الحصُون، وجادَتْ عليه بصَوْب إحسان روّى الأمانِيَّ فأضحت نَضرَةَ الغُصون؛ وكانت قلعةُ فلانة هى القلْعةُ التى شمخَتْ بأنفها على القلاع عُلُوّا، وسامَتِ الجَوْزاءَ سُمُوّا؛ فوجب أن لا يُسْتَحْفظَ عليها وفيها، إلّا مَن عُرِف بحسْن المحافظة وتوفِّيها؛ وكان المشار إليه هو عينَ هذه الأوْصاف، والوارِدَ من حُسْن الطاعة المورِدَ الصّاف ـ ٱقتضى حسنُ الرأيِ الشَّريفِ أن نُنَوّه بذكره، ونَرَفَعَ من قَدْرِه.

ولذلك رُسم ... ... ـ لا زال ... ... أن تفوَّضَ إليه النيابةُ بهذه القلعة المحروسه، وأن تكون بأوَانِس صِفاتِه مأنوسه.

فلْيكن فيما ٱستُحْفِظَ كُفْوا، وليُورِدِ الرَّعيَّة من حُسْن السِّيرة صَفْوا، وإذا تعارَضَ حكْمُ الانتقامِ وكان الذنْبُ دُونَ الحدِّ فلْيقَدِّمْ عَفْوا. وعليه بالعَدْل، فإنَّه زِمامُ الفَصْل؛ والقَلْعةَ ورِجالَها، وذَخائِرَها وأمْوالَها، فلْيُمعِنِ النظر فى ذلك بُكْرةً وأصيلا، وإجْمالا وتَفْصيلا، وتَحْصِينًا وتَحْصِيلا. وعليه بالتَّمسُّك بالشَّريعة المطَهَّره، وأحْكامها المحرَّره؛ وليَرْدعْ أهْلَ الفساد، ويقابِلْ من ظَهر منه العِناد، بما يُؤَمِّن المناهِج، ويجدِّدُ المبَاهِج؛ والوصايا كثيره، فلْيكُنْ ممَّا ذكر على بَصيره؛ أعانَه الله على ما أوْلاه، ورَعاه فيما ٱسْترعاه؛ والخطُّ الشريف أعلاه، حجّةٌ بمقتضاه؛ والخير يكون إن شاء الله تعالى.

الصـــنف الثانى

(ممّا هو خارج عن حاضرة طرابُلُس ـ الوظائفُ الدِّينية)

والغالبُ كِتابتها عن نائب السلطنة بطرَابُلُس. فإن كُتب شَىْءٌ منها عن الأبْواب السلطانية، كان فى قَطْع العادة «بمجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم».

وهـذه نُسخة توْقيعٍ من ذلك بنظَر وَقْفٍ علىٰ جامع بمعاملة طرَابُلُس، كُتب به لمن لقبه «زَيْن الدِّين» وهى :

رُسم بالأمْر الشَّريف ـ لا زال كَرِيمُ نَظَرِه يستَنِيبُ عنه بمصالح بيُوت الله تعالىٰ من تَزْدادُ بنظره شَرَفًا وزَيْنا ، ويعيِّنُ لهـا من الأعْيـان من تُسَرُّ به خاطِرًا وتَقَرُّ به عَيْنا ، ويمنَحُها مَنْ إذا باراه مُبَارٍ وُجِد بينهما بَوْنا وبَيْنا ، ويقرّر لهـا كلَّ كَافٍ إذا فاه رَاءٍ بوصْفِ آرائه المُمُوحَةِ عَيَّن صَوابَها ولا يَجِدُ عليها عَيْنا ـ أنْ يستقرّ بالنَّظرِ علىٰ كذا : آستقرارًا يَرَى الوقْفُ بنَظَرِه علىٰ رَبْعِه طَلاوَه ، ويجِدُ بمباشرته فى صَحْنِه حَلاوَه، ويُعرِب عن آستمراره علىٰ حُسْن الثَّناء، ويَجِدُ من نيلِ رَيْعِه أكْمل وَفَاء؛ لأنَّه الناظرُ الذى لا يَمَلُّ إنْسانُه، من حُسْن النَّظر، ولا يكِلُّ لِسانُه، عن الأمْر بالمصالح ولفْظُه عن إلْقاءِ الدُّرَر، والشَّريفُ الذى وُجِدَتْ مخايِلُ شَرَفِه من فَضْـل خِلالِه ، والجَوَادُ الحائِزُ بجُوده قَصَب السَّبْق علىٰ أمْثاله ؛ والكامِلُ الذى لا تُوجدُ فى صفاته نَقِيصَه، والفاضِلُ الذى أتَتْه الفضائل علىٰ رَغْمِها رَخِيصَه .

فلْيباشِرْ هذا النَّظَر مباشرةً ما تَكَحَّل ناظِرُه فيها بالوَسَن، ولْيُقابِلْها من جميل سُلوكه بكل وَجْه حَسَن ؛ ولْيَبْـدَأْ أوْقاف الجـامع المذكور بالعِمارَه ، ولْيقطَعْ بمُدْيةِ أمانَتِه يَدَ من يَشُنُّ علىٰ ماله الغَارَه ؛ ولْيأمُرْ أرْبابَ وظائفـه باللُّزوم، وليخُصَّ كُلًّا منهـم من فَضْـله بالعموم؛ وليتَّقِ اللهَ تعـالىٰ فى القَوْل والعَمَل، وليجتَهِدْ علىٰ أن لا يَتَخلَّل مباشرته الخَلَل ؛ والآعتمادُ علىٰ الخطِّ الشَّريف أعْلاه ... .

الصـــــنف الثالث

(مما هو خارجٌ عن حاضرة طرابُلُس ـ أرْباب الوظائف الدِّيوانية)

وقلَّ أن يُكْتب فيها شَيْءٌ عن الأبْواب الشَّريفةِ السُّلطانية، وانَّ الغالبَ كتابةُ ما يكتب فيها من نائب السَّلْطنة بطرَابُلُس . فإن ٱتَّفق كتابةُ شَيْءٍ من ذلك عن الأبواب السلطانية ، مَشىٰ الكاتِبُ فيه علىٰ نَهْج ما تقدّم فى الوظائف الدِّينيَّة : من كتَابتِـه فى قَطْع العادة بـ«مجلس القاضى» مفتتحًا بـ«رُسم» لا يختلف الحال منـه فى ذلك إلَّا فى الفَرْق بين التَّعلُّقات الدِّينية والدِّيوانيَّـة . والكاتب المـاهر يصَرِّفُ قلمه فى ذلك وفى كلِّ مايحدُث من غيره علىٰ وَفْق ماتقتضيه الحال، وبالله المستعان .

النيـابة الرابعـــــة

(نيابة حَماةَ . ووظائِفُها التى تُكْتب بها من الأبواب السلطانية، ما بحاضرتها خاصّة ، وهى علىٰ ثلاثة أصْناف)

الصـــــنف الأوّل

(أرباب السيوف)

وليس بهـا منهم إلَّا نائبُ السلطنة خاصَّة . ويُكْتَب له تقليـدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«الجناب العالى» مع الدعاء بمضاعَفَة النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة حَمَاة :

الحمدُ لله ذِى التَّدْبير اللَّطِيف ، والعَوْن المُطِيف ، والحِياطَةِ التى تَسْـتوعبُ كُلَّ تَصْريف وكلَّ تَكْليف .

نحمده بمحامدَ جميلةِ التَّفْويف، حَسَنةِ التَّأْليف، مُكمَّلةِ التَّكْييف، بريَّةٍ من التَّطْفِيف، حريَّةٍ بكلِّ شكرٍ مُنِيف، وذِكْرٍ شريف؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خلص تحريرها عن كلِّ تَحْريف، وتنزَّه مقالُها عن تسويد تفنيد أو تسويف؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه صاحبُ الدِّين الحَنِيف، والمبعوثُ بالرَّحْمة والتَّخْفيف؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً مُتناوِبةً تناوُبَ الصَّرِير والصَّرِيف، والشِّتاء والمَصِيف؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا.

وبعدُ، فإنَّ من شِيَم الدَّولةِ وسجاياها، وأحكامِها وقَضاياها؛ تَقْديمَ الأهَمِّ فالأهَمّ، وتحْتِيمَ الأتَمِّ من الرَّأْيِ وتَحْكيمَ التَّدبير الأعَمّ؛ وفِعْلَ كلِّ ما يَحُوط الممالك ويَحْفَظُها، ويُذْكِي العيونَ لملاحظتِها ويُوقِظُها: لِمَا أوْجبه اللهُ من حُقوقِها، وحَظَره من عُقُوقِها؛ ولا يكونُ ذلك إلا باختيار الأوْلياء لضَبْطِها، والتَّعْويل على الأمْلياء بالقيام بشَرْطِها، والاسْتِنادِ من الزُّعماءِ إلىٰ من يُوَفِّي من الخَرَّاجة(١) والعُيون وَافِيَ قِسْطِها.

ولما كانت المملكةُ الحَمَويَّةُ جديرةً بالالْتِفات، حقيقةً بالحِياطَة من جميع الجهات؛ مُسْتَدْعِيةً من جميل النَّظر كلَّ ما يحْرُس رَبْعَها، ويُديم نَفْعها، ويُحَفِّلُ ضَرْعَها، ويَلُمُّ شَعَثَها ويَشْعَب صَدْعَها، ويَسُرّ سَمْعَها، ويُفْعِم شِرْعَها، ويُعَظِّم شَرْعَها؛ ويكْتَنِفُها اكْتِناف السُّور والسِّوار، والهَالَةِ للبَدْر والأكْمامِ للثِّمار؛ وكان فلانٌ هو المتقشِّعُ سحابُ هذا الوَصْف عن بَدْرِه المُنِير، والمتقلِّع ضَبابُ هذا التَّفْويض عن نُورِ شَمْسه المُنْعِشَة قُوىٰ كلِّ نبت نضير، والذي بأهْلِيَّته لرُتبة هذا التفويض ما خاب المسْتَخِير، ولا نَدم المسْتَشِير، والذي يُفْرِدُه استحقاقُه بهذه الرتبة فلا يَقُول أحدٌ من كبيرٍ ولا صغيرٍ امتثالًا للمراسيم الشَّريفةِ في حَقِّه: «منَّا أميرٌ ومنكم أمير» — اقتضىٰ

(١) في القاموس "رجل خرّاج ولّاج كثير الظرف والاحتيال" ولعله المراد هنا.

جميلُ الرأيِ المُنيف ، أن خرج الأمْر الشريف ـ لا برح يُحسِن التَّعْويل ، ويَهْدى إلىٰ سواء السبيل ، ويَمْضى مَضاءَ القضاءِ المُنَزَّل والسيف الصَّقيل ـ أن تفوّضَ إليه نيابةُ السلطنة المعظمة فى مملكة كذا وكذا .

فليَقَـدِّمْ خيرَةَ الله قَائِلًا وفاعلا ، ومُقيما وراحلا ، ومُوجِّهًا ومواجِهًا ومُسَـجِّلا وساجلا ، وعالِمًـا وعاملا ؛ ومعتمدًا على الله فى أمْرِه كلِّه . وليَكُنْ من هذه المعرفة قريبًا ، وعلىٰ كلِّ شيءٍ حتّىٰ علىٰ نفسهِ رَقيبا ؛ وإذا ٱتَّقى اللهَ كفاه اللهُ الناس ، وإن ٱتقى الناس لَمْ يُغْنُوا عنه من اللهِ شيئًا فلْيَقِسْ علىٰ هذا القياس ، ويقْتَبِسْ هذا الاقتباس .

وأما الوصايا فالعساكر المنصورة هم مِخْلبُ الظَّفَر وظُفْره ، وبهـم يُكْشَف من كل عَدُوٍّ سرُّه ، ويُخلِّىٰ وطنُـه ووَكْره ، ويضْرَبُ زَيْدُه وعَمْره ؛ ويبَدَّدُ جَمْعه ، ويُساء صُنْعه ، ويعمىٰ بصَرُه ويُصَمُّ سَمْعُه ؛ وهم أسْوارٌ تُجاه الأسْوار ، وأمواجٌ تنْدفِعُ وتنْدَفِقُ أعظم من ٱندفاق البحار ، وما منهم إلا مَن هو عندنا لمن المُصْطَفَيْنَ الأخْيار ؛ فأحسِن استجلابَ خواطِرِهم ، وٱسْتِخْلاب بواطنهم وسرائرهم ، وٱسْـتِحْلاب الشائع (١) من طاعاتهـم فى موارِدِهم ومصـادِرِهم ؛ وكُنْ عليهـم شَفُوقا ، وبهـم فى غير الطاعة والاستعباد رَفُوقا ، وأوْجب لهـم بالجهاد والاجْتِهـاد حُقُوقا ، وٱصرف لهم حِمْـلا لأعباء المِهمّات والملمّات مُطِيقا ؛ وٱستَشِر منهم ذوى الرأْيِ المصيب ، ومن أحْسن التَّجْرِيب ، ومن تَحَقَّقُ منـه النُّصْحَ من الكُهُول والشِّيب ، ممن كلل بغيرة منـه ما شَبَّ فإنَّ المرءَ كثيرٌ بأخيه ، وإذا ٱجْتمعتْ غُصونٌ فى يد أيِّدٍ عَسَتْ (٢) علىٰ قَصْفِه وقَصْفُ كلِّ واحدَة فواحدَة لا يُعْيِيه .

---

(١) فى الأصل "السامع مع من" الخ وهو تحريف كما لايخفى .

(٢) فى اللسان "عسى القضيب يبس" . وهو مناسب للقام .

والجهادُ[(1)] فهو مِلاكُ كلِّ آستحواءٍ وآستحواذ ، وبه تميّزُ أفعال الكُفَّار بالنَّفاد وأفعالُ الدِّين الحنيف بالنَّفاذ؛ وماجعل اللهُ للمدافعين عن دِين الله سواه، ولا مُزْجِى صَوْبِ صَوابٍ إلا إيَّاه؛ وعلىٰ ذلك جعل الله أرْزاقَهم ، وهيَّأ لهم به إرْفاقَهم ؛ فليكْرِمْهم بأخْذِ الأُهْبَه، فى الآعتلاء والآنْصِبابِ فى كلِّ هَضْبه، والآستعداد برباط الخَيْل وكلِّ قُوَه .

ومن الوصايا التى ينبغى أنها ترسَمُ فى جبهات الفِكَر [دون توانٍ] أو ركون أن لا يسْتَحْقِر عدوّا، ولا يَسْتهزِئَ بقلَّته لا رَواحًا ولا غُدُوًّا، وليكُنْ للاستظهار مُسْتوعِبا، ولإعْمالِ المكايد مسْتَوثِبا، وللكَشْف بعد الكَشْف مُسْتَصْحِبا؛ وغير ذلك من الأُمور، التى بها صلاحُ الجُمْهور .

والشَّرع الشريف وتنفيذ أحْكامِه، وتَقْوِية أيْدى حُكَّامه؛ فهو مِيزانُ الإسلام والسَّلامه، وقِوامُ الصَّلاح والآستقامه، وأخُوه المُرْتَضِعُ من ثَدْى الحَقّ، العَدْلُ الذى كم شَاق وكثيرا ما علىٰ أهل الباطل شَقّ؛ وعمَّ القريبَ والبعيدَ، والسَّائِق والشَّهيد، والمُريبَ والمريد، وكلَّ ذِى ضَعْف مُبِيد، وكلَّ ذِى بأْس شَديد، وكلَّ مُسْتَشِيرٍ ومُسْتَزِيد؛ فإنَّ ذلك إذا شَمِل حاط، وتمّ به الآرتيادُ والآرْتباط، وهدَىٰ إلىٰ أقْوَمِ صِراط .

والحدُود فهى حياةُ النفوس، وبها تُزَالُ البُؤس؛ فأقِمْها ما لم تُدْرأْ بالشُّبُهات الشَّرعيه، والأُمور المَرْعِيَّه .

والأموالُ فهى مَجْلَبَة الرِّجال، ومَخْلبةُ الآمال؛ وبها يُشَدُّ الأزْر، ويَقْوَى الآستظهارُ [و]الظَّهْر، فيَشُدّ من الذين أمْرُها بهم معْدُوق، ويُقَوِّى أيْديهم بكلِّ طريق فى كلِّ طُرُوق، بحيث لا يؤخَذ إلا الحق ولا يترك شَىْءٌ من الحقوق .

(1) فى الأصل "والاجتهاد" وهو غلط .

والرعيةُ فهُم عند وَالِى الأمْر ودَائِـعُ : ينبغى أنَّها تكون مَحْفوظه، وبعين الاعْتِناء ملْحُوظَه ؛ فأحسن جِوارَهم، وأزِلْ نِفارَهُم، واكْفُفْ عنهم مَضارَّهم، ولا تعامِلْهم إلّا بما لا تُسْألُ عنه غدًا بين يدَى ربِّك فإنَّه يراك حِين تقُوم ، وأعْدِدْ جواباً لذلك فكلُّ راعٍ مَسْئُول .

وأمَّا غير ذلك فلا بدّ أن تُطْلِعَك المباشرةُ علىٰ خفايا تُغْنيك عن المُؤامره، وستَتَوالَىٰ إليك الأجْوبةُ عنـد المُسافَرَة فى المكاتبات الوَارِدَة والصَّادره؛ واللهُ يوفقك فى كلِّ مَنْهجٍ تسلكُه وتقْتَفِيه ، ويسدِّدُك فيما من ذلك تَنْتَحِيه .

قلتُ : أمَّا سائر أرْباب الوظائف بهـا : كشَدِّ الدواوين ، وشدِّ مراكز البَرِيد وغيرهما، فقد جَرتِ العادة أنَّ النائب يستقلُّ بتوليتها . فإن قدِّر كتابةُ شيءٍ من ذلك لأحد بهـا ، كُتب لمن يكون طبلخاناه فى قَطْع النصف ، «السامى» بغير ياء، ولمن يكون عشرة فى قَطْع الثلث بـ«مجلس الأمير» كما فى غيرها .

الصـــــنف الثـانى

(أرباب الوظائف الدينية ، وهم علىٰ مَرْتبتين)

المرتبة الاولىٰ — من يُكْتب له فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ بالياء» . وهم قُضاة القُضاة الأرْبعة .

المرتبة الثانية — من يُكتب له فى قَطْع العادة : إمَّا فى المنْصُورىّ، مفتتحًا بـ«أما بعدُ» وإما فى الصَّـغير مفتتحًا بـ«رُسِم» . وعلىٰ ذلك تُكْتب تواقيع قضاةِ العَسْكر بهـا ، ومفتى دار العَـدْل ، والمُحتَسِب ، ووَكيل بيْت المـال ، ووظائف

التَّدارِيس والتصادير، ونظر [1] إن كتب شئٌ من ذلك عن الأبواب السلطانية، وإلّا فالغالبُ كتابةُ ذلك عن النائب بها [2] .

النيابة الخامسة

(نيابة صَفَد)

قد تقدّم فى الكلام على المكاتبات أنَّها فى رتبة نيابة طرَابُلُس وحَماةَ فى المكاتبة، وأنَّها تُذْكر بعد حَماةَ فى المطلقات .

ووظائفها التى تولّى من الأبْواب السُّلطانية على ثلاثة اصناف .

الصنف الأوّل

(أرْباب السيوف، وفيه وظيفتان)

الوظيفة الأولى

(نيابة السلطنة بها ، ويكتب تقليده فى قطْع الثلثين)

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السَّلطنة بصَفَد ، كُتب به لسيف الدين «قطلقتمش» السلحدار الناصرى ، فى سابع رمضان سنة عَشْر وسبعمائة، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى صانَ الثُّغورَ المحروسةَ من أوْليائنا بسَيْف لا تَنْبُو مَضاربُه، وخصَّ أسْنى الممالك المصُونة من أصْفيائِنا بعَضْب لا يَفُلّ غَرْبَه مُحَارِبُه، وقدّم على زَعامَة

(١) بياض بالأصل ولعله الأحباس .

(٢) ترك الكلام على الصنف الثالث وهم أرباب الوظائف الديوانية كما يؤخذ من نظائره السابقة واللاحقة .

الجيوش من خواصّنا لَيْثًا يسكُنُ إليه كلُّ أَسَدٍ من أُسدٍ ذائلة[1] تُغالِبُه ، حافِظ[2] نطاق البَحْر من أبْطال دولَتنا بكلِّ كَمِيٍّ تَصُدّ البحرَ مهابتُه أنْ يَسْتقلَّ بِراكبه أو تستقرّ علىٰ ظهره مَراكبُه ، وناشر[2] لِواءِ عدْلنا فى أقاليمنا بما يُغْنى كلَّ قُطْر [عن] أن تتدفّق جَداولُه أو تستهلّ به سحائبُه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى جعلتْ سيْفَ الجهاد رائِدَ أوامِرِنا ، وقائِدَ جيوشنا إلىٰ مواقف النَّصر وعَساكرنا ، وذائدَ أعْداءِ الملة عن أطْراف ممالكنا التى أسْبَقُ إليها من رَجْع النَّفَس فى الدُّجَىٰ تألُّقُ نجوم ذَوابِلِنا ، وفى الضُّحَىٰ تبلُّجُ غُرَرِ صَوارمنا ؛ ونَشْهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يستظلُّ الإيمانُ، تحت لِوائِها، وتَعْبق الأكْوانُ ، بما تنطق به الألْسنةُ من ارْوائِها ، ويُشْرق الوجودُ بما يبدُو على الوجوه من رُوَائِها ، وتُجادِلُ أعداءَها فى الآفاق لرفْع كَلِمة مِلَّتها على المِلَل وإعْلائها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه خاتَمُ الأنْبياءِ ، وأشْرف حَمَلَةِ الأنْباء ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه المخصوصين بأسْنىٰ مراتِب الأجْتِباء ، صلاةً دائمةً بدوام الأرْض والسماء ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمّا بعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من فُوِّضتْ إليه زَعامةُ الجيوش بأسْنَى المَمالك ، وعُدِقَ به من تَقدُّم العساكر ما يُرجِفُ بمهابته هُناك أرْضَ العدُوِّ هُنالِك ؛ وعُقِدَ به للرعايا لِواءُ عدل تَجَلَّىٰ بإشراق لَيْل الظُّلْم الحالك ، وعُوِّلَ عليه من جميل السيرة فيما تَعْمُر به البلادُ وتأمَنُ به الرعايا وتَطْمئنُّ به المسالك ــ من لم يزَلْ فى خدمة الدولة القاهرة سيفًا تَرْهَبُ العِدا حدَّه ، ويخافُ أهلُ الكُفر فَتَكاته تحقُّقًا أنَّ آجالهم عِنْدَه ، ويتوقَّعُ كلُّ كَمِيٍّ من عظماء الشِّرك أنَّ رأسَه سيكونُ غِمْدَه ؛ مع سياسة تشتمِلُ على الرعايا

(١) ذائلة طويلة الذيلة .

(٢) حق التركيب «وحفظ عطفا على صان» ... ونشر لواء .

ظلالُهـا الممتدّه، وسِيرة تضعُ الأشياءَ مواضِعَها فلا تَضَعُ الحِدّةَ موضع اللِّين ولا اللِّينَ موضعَ الحِدّه، وتَوفُّرٍ علىٰ عِمـارة البلاد يُعينُ علىٰ رَيِّها طَلَّ الأنْواء والوابل ، وبراءة تجعلُ ما يودَعُ فيها بالبركَة والنَّمـاءِ : ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ﴾ .

ولمـا كان الجناب العالى هو السيفَ الذى علىٰ عاتِق الدَّولة نِجادُه، واللَّيثَ الذى لم يزلْ فى سبيل الله إغارَتُه وإنْجادُه، والغيْثَ الذى يُخْصِبُ بمعدلَته البَلَدُ المـاحل ، والأسَـدَ الذى تَصُدّ ساكنى البَحْر مهابَتُه فيتحقَّقُون أنّ العَطَبَ لا السلامةَ فى الساحل ـ ٱقتضت آراؤنا الشريفةُ أن نزيدَ حدَّ عزمه إرْهافا، وأن نُرهِب العدا ببَأسه الذى يردُّ آحادَ ما تَقَدَّم عليـه من الجيوش آلافا ، وأن نُفوِّضَ إليه من أمور رعايانا ما اذا أسند إليه[(١)] يُوسِعُهم عَدْلًا وإنْصافا .

فلذٰلك رسم بالأمْر الشريف : أن تفوَّضَ إليـه نيابةُ السلطنة الشريفة بصَـفَد المحروسة : تفويضًا يُعلِى قَدْرَه، ويُمضِى فى عموم مصالحها وخُصوصِها نَهْيَه وأمْره، ويُرْهِفُ فى حفْظِ سواحلها وموانيها بِيضَه وسُمْرَه، ويُصْلِى مُجاوِرَها من ساكنى المـاء من بَأْسِه المُتَوقِّدِ جَمْرَه .

فلْيَتَلَقَّ هذه النعمةَ بباعِ شُكرِه المَدِيد، ويترقَّ هذه المرتبةَ بمزيّةِ ٱعْتزامِه التى ليس عليها فيما يُعَدَّقُ به من مصالح الإسلام مَزِيد، وينشُرْ بها من عموم مَعْدِلَتِه مالايُخَصُّ دونَ قومٍ قَوْما، ويعمِّرْ بلادَها بالعَدْلِ : فإنَّ «عدْلَ يومٍ واحدٍ خيرٌللأرض من أنْ تُمطَرَ أرْبعين يَوْما» ؛ ويبسُطْ فيها من مَهابَتِه مايكُفُّ أكُفَّ البُغاةِ أن تَمْتدّ، ويمنع رُخَاء أهْويَةِ أهْلِها أن تشتدّ ؛ ويؤَمِّنُ المسالك أن تُخاف ، والرعايا أنْ يُجار عليهـم أو يُحاف ؛ وليَكُنْ مَـن فى تَقْدِمَته من الجيوش المنصورةِ مكَمَّلى العَدَد والعُدَد ،

(١) فى الأصل "رعايا أسند اليه ما" الخ وهو خلط من الناسخ .

ظَاهِرِى اللَّأْمَةِ التى هى مادّةُ المجالدَة وعَوْنُ الجَلَد؛ مُزاحِى الأعْذارِ فيما يُرْسم لهم به من الرُّكوب، مُزالِى العوائِق فى التَّأهُّبِ لما هم بصَدَدِه من الوُثوب؛ حَافِظى مَرا كِزِهم حِفْظَ العيونِ بأهْدابِها، آخِذِى أخْبار ما يشْغَلُ البَحْر من قِطَع العِدا فى حال بُعْدها كحال ٱقترابِها؛ بحيثُ لا يُشْرِفُ علىٰ البرّ من قِطَع المَخْذُولين إلا أسيرٌ أو كَسير، أو مَن إذا رَجَعَ بَصَرَه إلى السَّواحل ينقلب إليه البَصَرُ خَاسِئًا وهو حَسِير؛ وليكُنْ أهْلُ الجبالِ بمهابَته كأ[هل ا]لسَّهل فى حُسن ٱنقيادهم وطَاعَتِهم، ويصُدَّ عنهم بسطوته مَجَال الأوْهام المتَّصِلةِ فلاتَنْصرف إلىٰ غيرمُجاوِرِيهم من الأعْداء مواقعُ بأْسِهم وشَجاعَتِهم؛ ومِلاكُ الوصايا تقوى الله: وهى من أخصِّ أوْصافه، والجمعُ بين العَدْلِ والإحسان وهما من نتائج إنْصافِه؛ فلْيجْعَلْهما عمدَتىْ حُكْمِه فى القول والعمل، والله تعالىٰ يجعلُه من أوليائه المتَّقين وقد فَعَل؛ والاعْتماد ... ... إن شاء الله تعالىٰ.

الوظيفة الثانية

(نيابةُ قَلْعة صَفَد)

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ شريفٍ بنيابة قَلْعة صَفَدَ المحروسةِ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ ٱبن فضل الله، كُتب به للأمير سيف الدين «أزاق الناصرى» خامس المحرّم سنة أرْبعٍ وثلاثين وسبعمائة، وهى:

الحمدُ لله الذى خصَّ الحصونَ برِفْعةِ ذُراها، وسُمْعَةِ مَن فيها من رجالٍ تَحْمِى اها؛ وتَخْطَفُ أبصارَ السيوف بسَناها، وتُصيبُ برميها حتىٰ قَوْسَ قُزَحَ إذا راماها.

نحمدُه حمدًا تبرُزُ به المعاقلُ فى حِلاها، وتفْخَرُ به عقائل القِلاع علىٰ سوَاها؛ وتشْرُفُ به شُرُفاتها حتَّىٰ تجرى المَجَرَّةُ فى رُباها؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يطيبُ جَنَاها، ويطنب فى السماء مُرْتقاها؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا

محمدًا عبدُه ورسولُه الذى كَتَب به للأُمَّة هُـداها ، وكَبَت عِداها ، وبَوَّأها مقاعِدَ للقتال تَقْصُر دُونَها النجومُ فى سُراها ؛ صلَّى اللهُ عليـه علىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا ينقَطِع عنهم قِرَاها ، وسلَّم تسليماً كثيرًا دائمـًا إلىٰ يوم الدين .

وبعـدُ ، فإنَّ صفَدَ صَفَتْ ، ووفَّتْ ووَفَتْ ، وكَفَّتْ وكَفَتْ ؛ وجاورتِ البَحْرَ فمـا غَمَضَتْ عنـه لدَيادِبها عُيون ، ولا خيطَتْ لسيوفها بالكَرىٰ جُفُون ؛ ولا وَنَتْ لرماحها عَزائِمُ شابَتْ لِمَمُها ، ولا آنتَشَتْ من السِّهام نِبالٌ تَفيضُ دِيَمُها ؛ ولا أطالَتْ مجانيقُها السُّكوتَ إلا لتَهْدِرَ شَقاشِقُها ، وتُهَدَّ بها من الجبال شَواهقُها ؛ وتَهولَ العدا بمـا تُرِيهم من التَّهْويل ، وتَرْمِى به من كِفَّاتِها الحجارةَ من سِجِّيل .

وهى القلْعةُ التى يضْرَب المثَـلُ بحَصَانَتِها ، ويَطْمَئِنُّ [أهْلُ] الإسـلامِ فى إيداع أمْوالهم وأهْلهم إلىٰ أمانَتِها ؛ قد أطَلَّتْ على الكواكب نزولا ، وجَرَّدَتْ علىٰ مِنْطَقة بُروجِها من البُروق نُصُولا ؛ وأتعبتِ الرياحَ لمـَّا حلَّقَتْ إليها ، وأخافَتِ الهِلالَ حتَّى وقَف رَقِيبًا عليها ؛ وفيها من جنودنا المؤيَّدةِ مَنْ نَزِيدُهم بها مَدَدا ، وتَطيبُ قُلوبُهم إذا خرجُوا لجهاد أعداء الله وخَلَّوْا لهم فيهـا مالًا وولَدا . وكانت النيابةُ بهـذه القلْعة المحروسةِ قد كادتْ تَنطِقُ بِشَكْواها ، وتَتَظلَّمُ ممَّن أساء صُحْبَتَها لمـَّا تولَّاها ؛ وآقتضَتْ آراؤُنا العاليةُ أن نُزَحْزِحَ ظَلامَه ، عن صَباحِها ، ونُقَوِّضَ خِيامَه ، عما فَرَش على الفَلَك الشاهقةِ من بِطاحِها ؛ وفكَّرْنا فيمَن له بالقِلاع المحروسة دُرْبَةٌ لا يَخفَىٰ عليه بها سُلُوك ، ولا يُخاف معه علىٰ هذه الدُّرّة الثمينة فى سُلوك ؛ ممَّن حُمِـد فى دَوْلَتنا الشريفة مَساءَ صَباح ، ومَن كان فى أبْوابنا العاليـة هو الفَتَّاح ؛ ومَن له هِمَّةٌ تُناطُ بالثُّرَيَّا مطالِبُها ، وعَزْمَةٌ ما آلقضاءُ إلا قَواضِبُها ، ومعرِفَةٌ ما الرُّمحُ المثقَّفُ إلَّا تَجارِبُها ، وكفايَةٌ ما الغُرُّ الزواهرُ إذا عدِّدت إلَّا مَناقِبُها .

وكان المجلس السامىّ ـ أدام الله عِزّه ـ هو المحلّق إلى هذه المرْتَبَه، والمخلّق بالأصيل أرْدِيَتَها المُذْهَبه؛ والمحقّق فى صفاته الوَرَع، والمنزّه عن تَدْنيس طِباعه بالطّمع؛ وله فى الأمانة اليَدُ المشْكُورَه، وفى الصِّيانَة مايمتع به ذُيولَ السّحاب المجْرُورَه؛ ومن التّقْوىٰ ما قرّب عليه المطالبَ البَطِيّه، ومن الفُروسيّة ما آتخذ كلّ ذِرْوةٍ صَهْوةً وكلّ جَبَلٍ مَطِيّه، ومن الآستحقاق مايُسَهِّل له من صدقاتنا الشريفة صَفَدَ: وفى اللّغة أنّ الصّفَد هو العَطِيّه.

فرسُم بالأمْر الشريف ـ شرّفه الله وعظمه، وأحْكمه وحَكّمه ـ أنْ يرتّبَ فى النيابة بقَلْعة صَفَد المحروسة: علىٰ عادة من تقدّم وقاعدته فى التقرير، وأمّا كيفَ يكون آعتماده، فسنُرْشِدُه منه بصُبْحٍ مُنير.

فقدّم تقوَى اللهِ فى سِرِّك ونَجْواك، وآقْصُر على القَنَاعة رَجْواك[1]؛ وآحْفَظْ هذه القلعةَ من طوارِقِ اللّيل والنّهار، وأعِدَّ مَنْ قِبَلَك للقتال فى قُرًى مُحَصَّنَة أو من وراء جِدَار، وآملأ سَماءَك حَرَسًا شديدًا، وشُهُبًا وكَثِّرْ رجالَها لتُبارِىَ بهم النُّجومَ فى أمْثالها من بروج السماء عَديدا، وخُذْ إلىٰ طاعَتِنا الشريفةِ بقُلُوبهم وهم علىٰ ذلك ولٰكِنّا نُرِيدُ أنْ نزِيدَهم تَوْكيدا، وتَألّفْهم علىٰ مُوالاتِنا حتّىٰ لا تَجِدَ أنت ولاهم إلىٰ المزيد مزيدا؛ وتَفَقّد الذخائرَ والآلات، وتيقّظْ لما تُلْجِئُ إليه الضائِقَةُ فى أوْسع الأوْقات؛ وحَصِّنْ مبانِيها، وحصِّلْ فيها من الذخائر فوقَ ما يَكْفيها؛ ومن السِّلاح ما هو أمْنعُ من أسْوارِها، وأنْفعُ فى أوْقات الحاجة ممّا تكْنِزُه الخزائن من دِرْهَمِها ودِينَارِها: من مَجانيقَ كالعَقارِب شائِلةً أذْنابَها، دافِعَةً فى صَدْر الخَطْب إذا نابَها؛ تَرْمِى بشَرَر كالقَصْر، وتنْزِل من السماء بآيات النّصر؛ ومن قِسِىٍّ: منها ما تُدافَعُ بالأرْجُل مَرامِى

(١) مراده واقصر رجاءك على القناعه ولكن اضطره السجع فاستعمل مصدرا للرجاء ليس فيما بأيدينا من كتب اللغة فتنبه .

سهامه، ومنها ماتُدوَّرُ بالأيْدى كَأْسُ حمامه؛ ومنها مايَسْكُت إذا أُطْلق حتَّى لايسمعَ كَلامُ كَلامه، ومنها ما يَترنَّم إذا غَنَّى بالحَمَـامِ صَوْتُ حَمَامه؛ و[من] سَتائِرَ يستَّرُ بها وجْهُها المَصُون، ومَنائِر يُشاهَدُ منها أقْربُ مَن يكونُ أبْعدَ مايكُون؛ ورهجية تُجلَىٰ بها فى كلِّ ليلة عروسُها المُمَنَّعه، ودرّاجة تحاط بهم من جهاتها السِّتِّ وحدودها الأرْبعه؛ وأقرَّ نُوَبَ الحَمَـامِ الرَّسَائِلِيِّ فبها تَسْقُط علينا وعليك الأخْبار، ويُطْوَى المَـدَى البَعيدُ فى أوَّل ساعة من نَهار؛ وآفتح البابَ وأغْلِقْه بشَمْس، وآحترز علىٰ ماآشتملت عليه من مَال ونفْس؛ وبقيةُ الوصايا أنت بهـا أمَسّ، والله تعالىٰ يزيل عنـك اللَّبْس؛ والآعتماد ... .

الصـــــنف الثـانى

(أرباب الوظـائف الديوانيـــة)

والذين يكتب لهـم من الأبواب السـلطانية صاحبُ ديوان الرَّسائل، وناظرُ المـال، وناظِرُ الجَيْش، ووكيل بيْتِ المال . وما عدا ذلك فإنَّه يكتب عن نائبها، وربمـا كتب عن الأبْواب السلطانية .

الصـــــنف الثـالث

([أرباب] الوظائف الدينية، وهى علىٰ مرتبتيـــن)

المرتبـة الأولىٰ : ما يُكتب فى قَطْع الثلث بـ«السَّامىّ» باليـاء، وهم القضاة الأرْبعـــة .

المرتبـة الثانية : من يُكْتب له فى قَطْع العـادة، وتشتمل علىٰ قَضَاء العَسْكر، وإفتاء دار العَدْل، والحِسْبة، ووكالة بيت المـال .

الصـــــنف الرابع (١)

(أرباب الوظـائف الديوانيـــة)

والذى يكتب به من الوظائف الديوانية بهـا ـ ثلاث وظائف، يُكْتَب لكلٍّ منهـم فى قطع الثلث بـ«السامىّ» باليـاء، وهم : صَحابَةُ ديوان المكاتبات ، ونَظَرُ المَـال، ونظَرُ الجَيْش . فإن كُتب لأحد غير هؤلاء ، كتب له فى قَطْع العادة .

النيـابة السادســـة

(نيـابة غَزَّة)

وقد تقدّم أنَّها تارةً تكون نيابةً، وتارة تكون تقدمةَ عَسْكر ، ومُقَدَّمُ العسْكَر بهـا يراجِع نائبَ الشَّام فى أُموره . وبكلِّ حال فالوظائف التى تُوَلَّىٰ بها من الأبْواب السلطانية علىٰ صِنْفين :

الصِّـــــنْف الأوّل

(أرْباب السُّيوف)

وليس بهـا منهم إلَّا نائبُ السَّلطنة إن كانت نيابةً، أو مُقَدَّمُ العَسْـكر إن كانت تَقْدِمةَ عسكرٍ . فكَيْفما كان فإنَّه يُكتب له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«الجناب العالى» مع الدعاء بدوام النِّعمة .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابتهـا : كُتِب به للأمير « عَلَم الدِّين الجاولى » من إنشاء الشَّيخ شِهاب الدِّين محمود الحلَبىّ، وهو :

---

(١) هذا الصنف زائد على مافى التقسيم ومع ذلك هو بمعنى الصـــنف الثانى وغاية مافى هــذا أنه بين فيه اللقب وقطع الورق فتنبه .

الحمدُ للهِ رافعِ عَلَمِ الدِّين فى أيَّامنا الزَّاهرةِ ، بإقامة فَرْض الجهاد و إدامته ، وجامعِ رُتَبِ التَّقْديم فى دَوْلتنا القاهرةِ ، لمن تَفْتَرُّ الثُّغور بين تَرَقْرُق عَدْله وتألُّق صرامتـه ، وقاطِعِ أطماعِ المُعْتدين بمَن يتوقَّد بأسُـه فى ظِلال رِفْقه توقُّدَ البرْقِ فى ظُلَلِ غَمامته ، وقامِعِ أعْدائه الكافرين بتفويض تَقْدمة الجُيوش بأوامِرنا إلىٰ كلِّ وَلِىٍّ يُجتنَى النَّصْر ويُجْتلَىٰ من أفْنان عَزَماته ووَجاهَة زَعامتِه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى سدَّدَتْ ما يصـدُر من الأوامِر عَنَّا ، وقلَّدت الرُّتَبَ السَّنِيَّة بتقْليدها أعَزَّ الأوْلياء منَّا مَنَّا ، ورَجَّحتْ مُهِمَّاتِ الثُّغور لدَيْنا علىٰ ما سواها فلا نَعْدِقُ أُمورَها إلا بمن تُعْقَدُ عليـه الخناصرُ نَفاسَةً به وضَنّا ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ لَهُ شهادةً لا تزالُ القلوبُ بإخلاصها مُتَدَيِّنه ، والألْسِنَةُ بإعْلانِها مُتَزَيِّنه ، والأسـنَّة والأعِنَّة مُتباريَيْن فى إقامة دَعْوتِها التى لا تحتاج أنْوارُها البَيِّنَةُ إلىٰ البَيِّنه ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ مَبْعوثٍ إلى الأُمَم ، وأكرمُ مَنْعوتٍ بالفَضْـل والكَرَم ، وأعَزُّ مَنْصور بالرُّعْبِ الذى أُغْمِـدتْ سُيوفُه قبـل تَجْريدها فى القِمَم ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين نَهَضُوا بجهاد أعْداء اللهِ وأعْدائه علىٰ أثْبتِ قَدَم ، وسَرَوْا لفَتْح ما زُوِىَ له من الأرْض علىٰ جِياد العزائم ونَجائِبِ الهِمَم ، وبذَلُوا نفائسَهم ونُفوسَهـم للذَّبِّ عن دِينه فلم تَسْـتزِلَّ أقْدامَهم حُمْرُ النَّعَم ، ولم يَثْنِ إقْدامَهم بِيضُ النِّعَم ؛ صـلاةً لا يَمَلُّ السامعُ نِداءَها ، ولا تَسْأمُ الألْسُنُ إعادتَها وإبْداءَها ؛ وسـلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّا من حينِ مَكَّن اللهُ لنا فى أرْضه ، وأنْهضَنا بمَسْنُون الجهاد وفَرْضه ؛ وقلَّدنا سَيْفَ نَصْره الذى ٱنْتَضاه ، وأقامَنا لنُصْرةِ دينـه الذى ٱرْتضاه ؛ لم يَزلْ مُهِمُّ كلِّ ثَغْر مقدَّمًا لَدَينا ، وحِفْظُ كلِّ جانب جاوَر العـدُوَّ برًّا وبحرًا مُتَعَيِّنًا متعيِّنًا على ٱعْتنائنا

ومُحَبَّباً إلينا ؛ فلا نُرهِفُ لإيالة الممالك إلّا من إذا جرَّدَ سيفَه أغمده الرُّعْبُ فى قلوب العِدَا ، ومَن إنْ لم تَسلُكِ البَحْرَ خَيْلُه بثَّ فى قلوب ساكِنيه سَرايَا مَهابةٍ لا تَرْهبُ مَوْجًا ولا تستبعِدُ مَدىً ؛ ومَن إذا تقدّم على الجُيوش أعاد آحادها إلى رُتَبِ الأُلُوف ، وجعل طلائعَهم رُسُلَ الحُتُوف ؛ وأعْداهم بأسُه فآستَقلُّوا أعْداءَهم و إن كَثرُوا ، وأغْراهُم بمعنَى النِّكايَةِ فى كَتائِبِ العِدا : فكَمْ من قَلْب بالرِّماح قد نَظَمُوا وكَمْ من هَامٍ بالصِّفاح قد نَثَرُوا .

ولذٰلِكَ لمّا كان فلانٌ هو الذى ما زال الدِّين يرفَعُ عَلَمَه ، والإقْدامُ والرَّأْىُ يبثَّان فى مقاتِل العِدا كُلُومَه وكَلِمَه ، والعَدْلُ والبَأْسُ يتَولَّيانِ أحكامه فلا يُمْضيان إلّا بالحقِّ سَيْفَه وقَلَمَه ؛ فكَمْ نكَّس رايَةَ عدوٍّ كانت مُرْتفِعَه ، وأباح عَزْمُه وحَزْمُه معاقلَ شِرْكٍ كانت مُمْتَنِعَه ؛ وكَمْ زلزَلَ ثَباتُه قَدَم كُفْر فأزالَها ، وهزَم إقْدامُه جيُوشَ باطِلٍ ترهبُ الآسادُ نِزالَها ؛ فهو العَلَمُ الفَرْد ، والبطَلُ الذى لأوْليائه الإقْبالُ والثَّبات ولأعْدائِه العَكْسُ والطَّرْد ؛ والوَلىُّ الذى لولا آحتِفالُنا بنِكايَةِ العِدا لم نسمَحْ بمِثْله ، والهُمام الذى ما عدَقْنا به أمْرًا إلا وقع فى أحْسن مواقعه وأُسنِد إلى أكْمل أهلِه .

وكانت البلادُ الغَزَّاوِيَّة والسَّاحِلِيَّة والجَبَلِيَّة على ساحلِ البَحْر بمنزلة السُّورِ المشَرَّف بالرِّماح ، المصفَّح بالصِّفاح ؛ مُرُوجُه الحُماه ، وقُلَلُه الكُماه ؛ لايَشِيمُ بَرْقَه من ساكنى البَحْرِ إلا أسِيرٌ أو كَسِير ، أو مَن إذا رجع إليه طَرْفه ينْقَلِبُ إليه البَصَرُ خاسِئًا وهو حَسِير ؛ وبها الجيشُ الذى كَمْ لسيوفه فى رِقابِ العِدا من مَواقِع ، ولسُمْعته فى قلوب أهْل الكُفْر من إغارَة تَركَتْها من الأمْن بَلاقِع ؛ وبها الأرض المقَدَّسه ، والمَواطِنُ التى هى على التَّقْوى مُؤَسَّسه ؛ والمعابِدُ التى لا تُعْدَقُ أُمورُها إلا بمِثْلِه من أهْل الدِّين والوَرَع ، والأعْمالُ التى هو أدْرى بما يأْتِى من مصالحها وأدْربُ بما

يَدَع ـ ٱقتضَتْ آراؤُنا الشريفــةُ أنْ نَعْدِقَ به نيــابَةَ مُلْكِها ، ونزَيِّنَ بلآلئ مفاخِره عُقودَ سِلْكِها ، وأنْ نفوّضَ إليه زَعامةَ أبْطالِها ، وتَقْـدِمةَ عساكرِها التى تلْقى البَحْر بأزْخَرَ من عُبابِه والأرْضَ بأثْبَتَ من جِبالِهــا ، وأنْ نرمِىَ بَحْرَها من مَهابَتِــه بأهْولَ من أمْواجِه ، وأمَرَّ فى لَهَواتِ ساكِنيه من أُجاجِه ، لتَغْدوَ عقائلُ أهلِه ، أرِقَّاءَ سيْفِه الأبْيض وذابِلِه ، ويُتَبِّرَ العَدُوَّ الأزْرقَ من بنى الأصْفَرِ ، خوفُ بأْسِه الأحْمر .

فلذلك رُسم بالأمْر الشَّريف أن يفوّض إليــه كَيْت وكَيْت : تفويضًــا يحقِّق فى مثله رَجاءَها ، ويزيِّنُ بعدْله أرْجاءَها ، ويصونُ ببَأْســه قاطِنَها وظَاعِنَها ، ويعمُرُ ويغْمُر برِفْقِه وإنْصافِه مساكِنَها وساكِنَها .

فلْيباشِرْ هــذه الرُّتبَةَ التى يُكَمَّل به سُــعودُها ، ويُجَمَّل به عُقُودُها ، مباشرة يُخيفُ بأْسُها اللُّيوثَ فى آجامِها ، ويعينُ عَدْلُهــا الغُيوثَ علىٰ دَفْع أزْماتِها ، ويغْدُو بها الحقُّ مرفُوعَ العَــلَم ، مسْمُوعَ الكَلِم ، ماضِىَ السَّيفِ والقَلَم ، ممدودَ الظِّلِّ علىٰ من بهــا من أنْواع الأُمَم . ولْيأْخُذِ الجيوشَ التى بهــا من إعْداد الأُهْبــةِ بمــا يُزيلُ أعْذارَهم عن الركوب ، ويُزيحُ عوائقَهم عن الوُثوب ، ويجعلُهم أوّلَ مُلَبٍّ لدَاعى الجهاد ، وأسْرعَ مُجيب لنداء ألْســنة السُّيوف الحِـداد ، وينَظِّم أيْزاكَهم علىٰ البَحْرِ ٱنْتِظـام النُّجوم فى أفْلاكِها ، والشُّذُور فى أسْلاكِها ، فلا تَلُوح للأعْداء طريدةٌ إلا طُرِدت ، ولا قِطْعَةٌ إلا قُطِعَتْ ، ولا غُرابٌ إلا حُصَّتْ قَوادِمُه ، ولا شَامِخ عمارة إلا وأُتيحَ له من اللَّهاذِم هادِمُه . ولْيُعْـلِ منارَ الشَّرع الشَّريف بإمْضاء أحْكامه ، ومُعاضَـدَة حُكَّامه ، والانْقيادِ إلىٰ أوامِرِه ، والوُقوف مع موَارِد نَهْيِه ومَصادِرِه ، ولتَكُنْ وطْأتُه علىٰ أهْل العناد مشْتَدَّه ، ومعرِفَتُه تَضَعُ الأشْياء مواضعها : فلا تَضَعُ الحِدَّةَ موضِعَ اللِّين ولا اللِّينَ موضعَ الحِدَّه ؛ وليَعْلَمْ أنَّه وإن بَعُــد عن أبْوابنا العالية مخصوصٌ منّا

بمزِيَّة قُرْبه ، مختصّ بمنزلَة إخلاصه التى أصْبح فيها علىٰ بَيِّنَة من رَبِّه ؛ وجميعُ مايذكر من الوصايا فهو مما يُحْكىٰ من صفاته الحَسَنه ، وأدَواته التى ما بَرِحت الأقْلامُ فى وصف كمالها فَصِيحَة الألْسِنَه ؛ وملاكُها تقوى الله وهى فى خصائصه كَلِمة إجماع ، وحِلْيَةُ أبصار وأسْماع ؛ واللهُ تعالىٰ يُعلِي قدْرَه وقد فَعل ، ويؤيِّده فى القوْل والعمل ، والاعتماد ... .

وهذه نسخةُ تقليد بتَقْدمة العَسْكر بغَزَّة المحروسة :

الحمدُ لله مُبْدئِ النِّعَم ومُعيدِها ، ومُؤَكِّد أسْبابها بتَجْديدِها ، ومُعْلِي أقْدارِها بمزايا مَزِيدِها ؛ الذى زيَّن أعناقَ الممالك من السُّيوف بتَقْلِيدِها ، وبيَّن من ميامنه ما رُدّت إليه بمقالِيدِها .

نحمدُه بمحامِده التى تَفُوت الدَّرارىَّ فى تَنْضِيدِها ، وتفُوقَ الدُّرَّ فيتمنَّى منه عِقْدَ فريدها ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نافعةً لشَهِيدها ، جامعةً لتَوْحِيدها ، ناقعةً لأهل الجُحود ممَّا يُوَرِّدُ الأرضَ بالدِّماء من وَرِيدها ؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى كاثَرَ الأُمَم بأُمَّتِه فى عَدِيدِها ، وظاهَرَ علىٰ أعْداء الله بمن يفُلُّ بأْسَ حديدها ، فيُرسِلُ من أسنته نُجُومًا رُجومًا لمُرِيدها ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً نتظافر بتأْييدِها ، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ من عوائد دَوْلتنا القاهرةِ أنْ تعُودَ بإحْسانِها ، وتجُود بثُبوتِ كلِّ قَدَم فى مكانها ، وإذا ولَّت عرف سَحابِها عن جهة عَادتْ إليها ، أو سَلَبت لها رَوْنَقًا أعادت بهجَتَه عليها ؛ وكانت البلاد الغَزَّاوِيَّة وما معها قد تمتَّعتْ من قدماء ملوك(١)

(١) فى الأصل «ممالك» وهو لايناسب المقام .

بيتنا الشّريف بسيف مشهور، وبطل تُشامُ بوارقُ عَزْمه فى الثّغور؛ وهو الذى عمّ بصيِّبه بلادَها سَهْلًا وجَبَلا ، وعمّر روْضَها بعدْل أغناها أن يسقِىَ طلٌّ طَللا ؛ وجمع أعمالَها برًّا وبحْرا، ومنع جانبَيْها شامًا ومِصْرا ؛ وألِف أهْلُها منه سِيرةً لولا ما آستأْثرنا الله به من سرّه لما أفْقدناهم فى هذه المدّة حلاوةَ مَذَاقِها ، وسريرةً لا نرْضَى معها بكَفِّ الثّريّا إذا بُسِطت لأخْذ مِيثاقِها ؛ ولم نَرْفَعْ يدَه إلا لأمرٍ قضَى اللهُ به لأجَل موْقُوت ، ومضَى منه ما يُعْلَم أنَّه بمرجُوعِه القَريب لا يفُوت؛ لأنَّ الشمسَ تَغِيبُ لتطلُعَ بضَوْءٍ جديد، والسّيفَ يُغْمَدُ ثم يُنْتَضَى فيقُدُّ القَدَّ والجِيد ؛ والعُيونَ تُسَهَّدُ ثم يُعاوِدُها الرُّقاد، والماءَ لو لم يُفْقَدْ فى وَقْت لما وُجِد لمَوْقِعه بَرْدٌ على الأكْباد .

فلمّا بلغَ الكِتَابُ أجلَه ، وأخذَ حقَّه من المَسْألَه ؛ وآنتقل مَن كان قد استقرّ فيها إلى جِوارِ ربّه الكريم ، وفارق الدُّنيا وهو على طاعَتِنا مُقِيم ــ آقتضتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُراجِعَ هذه العقيلةَ كفؤَها القديم ، وتَرجِعَ هذه الأرضُ المقدّسةُ إلى مَن فارقها وما عَهْدُه بذَمِيم ؛ مَن لم تزلْ به عقائلُ المَعاقِل تُصان ، وخُصُورُ الحُصون بحمائل سُيُوفِه تُزان ، ومَباسِمُ الثُّغور تُحْمَى فى كلّ ناحية من أسِنَّته بلِسان ؛ وحَمَى الثّغرَيْنِ وما بينهما من الفِجاج ، وجاوَر البَحْرَيْن فمَنَعَ جانِبَيْهما : فهذا عَذْبٌ فُراتٌ وهذا مِلْحٌ أُجاج ؛ وله فى العِدا وقائعُ زُلزِلَت لمواقعها الأُلُوف ، ومواقِفُ لولا ما نَعقَتْ فيها من غِرْبان البَيْنِ لطالَ على الدِّيار الوُقوف ؛ وهو الذى مُدِحتْ له فى بَيْتِنا المنصور المنصورىّ من الخِدْمة سَوابِق ، وحُمِدتْ طرائق ؛ وكَثُرتْ محاسن ، وكَبُرَتْ مَيامِن ؛ ولَمَعَتْ كواكب ، وهَمَعَتْ سَحائب ؛ وصدَحَتْ حَمائم ، وفُتِّحتْ كمائم ؛ وعَزّت جيوشُنا المؤيَّدةُ له بمضارب ، وهزّتْ سيوفًا حِدادًا وهو بالسَّيف ضارب .

وكان المجلس العالى ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمته ـ هو الذى حُمِدتْ له آثار، وحسُنَتْ أخبــار ؛ وعَمّتْ مِدَح ، وتَمّتْ مِنَح ؛ فرسَمْنــا بإقراره من(١) هذا المَنْصب الشَّريف فى مَحلِّه ، وإعادَتِه إلىٰ صيِّب وَبْلِه ، وإنامَةِ أهْلها مُطْمَئِنِّين فى عَدْله ، وإقرار عُيون من أدْرك زمانَهُ بعودِه ومَن لم يدرك زمانَه بمـا سَيَرَوْنَه من فَضْله .

فرُسِم بالأمر الشريف ـ لازالتْ ملابِسُ نِعَمِه، تُخْلَع وتُلْبَس بُرودُها، وعَرائِس كرمه، تُفَارَق ثم تُراجَع غِيدُها ـ أنْ تفوّضَ إليه أُمور غَزَّة المحروسة وأعْمالها وبِلادِها، والتَّقْـدمَةُ علىٰ عساكرها وأجْنادها، والحكمُ فى جميع ما هو مُضافٌ إليهـا من سَهْلٍ ووَعْر، وبَرّ وبَحْر، وسَواحِل وموَانى ، ومَجْرى خُيول وشَوانى ، ومَن فيها من أهْل عَمَد، ورعايا وتُجّار وأعيان فى بَلَد، ومن يتعلق فيها بأسْباب ، ويعدُّ فى صف كَتيبَة وكتاب، علىٰ عادة من تقدّم فى ذلك، وعلىٰ ما كان عليه من المسالك .

وسنخْتَصِر له الوصايا لأنَّه بها بَصير، وقد تقدّم لهـا علىٰ مسامعه تَكْرِير، ورأْسُ الأُمورِ التَّقْوىٰ وهو بها جَدِير، وتأْييدُ الشَّرع الشريف فإنَّه علىٰ هُدًى وكتاب مُنِير، والاطِّلاع علىٰ الاحوال ولا يُنَبِّئُكَ مثلُ خَبِير .

والعدْلُ فهو العُرْوةُ الوُثْقىٰ ، والإنْصاف حتَّى لايَجِد مسْتَحِقّا، والعَفافُ فإنَّ التَّطلع لمـا فى أيْدى النـاس لا يَزِيدُ رِزْقا ، والاتِّصافَ بالذِّكر الجميــل هو الذى يَبْــقىٰ ، وعَرْضُ العَسْكرِ المنصور ومن يَنْضَمُّ إليــه من عَرَبه وتُرْكُمانه وأكْرادِه، وكلِّ مكَبِّرٍ فى جَحافِله ومكَثِّرٍ لسواده ، وأخْذهم بالتأهُّب فى كلِّ حركةٍ وسُكون ، والتَّيقُّظ بهم لكلِّ سيف مشْحوذ وفُلْكٍ مشْحُون ، والاحتراز من قِبَــل البرِّ والبَحْر ، وإقامة كلِّ يزك فى موضعه كالقِلادة فى النَّحْر ، ولا يعَيِّنُ إقطاعًا إلا لمن يَقْطَع باستحقاقه ،

(١) فى الأصل «من اقراره فى» وهو تصحيف الا أن يكون الأصل فرسمنا مارسمنا من اخ .

ويقمعُ العدا بما يعرَفُ فى صَفَحات الصِّفاح من أخْلاقه؛ ولا يُخْلِ المباشرين من عنايةٍ تمدُّ إليهم ساعِدَ المساعدَه، فلا يُخِلُّوا فى البلاد بعمارةٍ تغْدُو فى حُلَلِها مائِدَه؛ وليحْفَظ الطُّرُقات حفظًا تكون به مَمْنوعه، ويمسك المسالكَ فإنَّه فى مفَرِّق طرقاتها المجموعه؛ ولْيقدِّمْ مُهِمَّات البرَيد وما ينْطِق علىٰ جناح الحمام، وليتَّخذْهما نُصْب عيْنَيه فى اليَقَظة والمَنام؛ فرُبَّ غفلةٍ لا يَسْتدرِكُ فائتَها رَكْض، ورسالةٍ لا يبلِّغُها إلَّا رسولٌ ينزل من السماء وآخرُ يَسِيحُ فى الأرْض؛ ويرصُد ما تَرِدُ بِهِ مراسِمُنا العالية ليسارع إليه مُمتثِلا، ويطالعُنا بما يتجدَّدُ عنده حتَّى يكون لدينا مُمَثَّلا؛ وهو يعلم أنَّه واقفٌ من بابنا الشريف بالمَجَاز، وقُدَّام عينينا حقيقةً وإن قيل علىٰ طريق المجاز؛ فليؤَاخذْ نفْسَه مؤاخَذَةَ من هو بين يدينا، ويعمَلْ بما يسُرُّه أنْ يقدَّمَ فيما يُعرَضُ من أعْماله علينا؛ والله تعالىٰ يَزِيدُه حُظْوَةً لدينا، ويؤيِّد به الإسلامَ حتَّى لا يَدَعَ علىٰ أعْداءِ الله للدِّين دَيْنا، والاعتماد ... .

• الصـــنف الثـانى

(الوظـائف الديوانيـة بغَزَّة)

وبها ثلاثُ وظائفَ : يُكْتب لكلٍّ منها فى قَطْع العادة بـ«السامى» بغير ياء .
وهى : كتابةُ الدَّرج القائمةُ مقام كتابة السِّرّ، ونظرُ المال، ونظرُ الجيش . قال فى "التثقيف" : أمَّا قاضيها ومحتَسِبُها ووكيلُ بيت المال بها، فإنَّهم نوَّابٌ عن أرباب هذه الوظائف بالشَّام، فلا يكتَبُ لأحد منهم شيءٌ عن المواقف الشريفة .

قلتُ : وما ذكره بناءً علىٰ أنَّها تَقدِمةُ عسْكَر . أمَّا إذا كانت نيابةً فإنَّ هذه الوظائفَ يكتَبُ بها عن الأبواب السُّلطانيـة . وقد يكْتَب حينئذ بوكَالةِ بيْت

المـال والحِسْبة عن النّائب ، ويكون ذلك جميعُه فى قطع العـادة ، مفتتحًا بـ«أمّا بعـدُ» فى المنصورىّ ، أو بـ«رُسِم» فى الصّغير، علىٰ حَسَب ما يقتضيـه الحالُ . علىٰ أنَّه قد حدث بها فى الدولة الظاهرية قاضٍ حَنَفِىٌّ يكْتَب له من الأبْواب السُّلْطانيـة .

النيـابة السابعـة

(نيابة الكَرَك . وأرْبابُ الولايات بها من الأبْواب السلطانية علىٰ أصْناف)

الصـنف الأوّل

(أرْبابُ السيوف)

وليس بها منهم غيرُ نائب السَّلطنة، ويكْتَبُ له تقليدٌ فى قَطْع الثلثين بـ«المجلس العـالى » .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السَّلطنة بالكَرَك، كُتب به للأمير «سيف الدين ايتمش» من إنشاء الشيخ شِهاب الدّين محمود الحلبىّ ، وهو :

الحمدُ للهِ الذى خصَّ بعَزائمنا مَعاقِلَ الإسلام وحُصُونَه ، وبصَّرنا باختيار من نُرتّبُه فى كلِّ مَعْقِل منها من أمْجاد الأُمَراءِ ليحْفَظَه ويَصُونَه ، وجعلَها بعنايَتنا روْضًا تَجْتلِى أبصارُ الأولياءِ من بيِض صِفاحِنا نُوره وتجْتِنِى من سُمْر رِماحِنا غُصُونَه، وعوّذَها من آيات الحَرَس بمـا لا تزالُ حُماتُها وكُماتُها يَرْوُونَ خَبره عن سَيْفنا المنْتَضىٰ لحفظها ويقُصُّونه .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى أعلَتْ بِنا بنَاءَ الممالك، وحاطَتْها من نَبْل مهابَتِنا، بما لو تَسَلَّلَتْ بيْنـه الأوْهامُ ضاقتْ بهـا المسالِك، وصفَّحَتْها من صِفاح عنايَتِنا، بمـا يحُولُ برْقُه

بينها و بين ما يستُر طَيْفَ العِدا من الظَّلام الحالك ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تعْصِمُ من أوىٰ إلىٰ حَرَمِ إخلاصِها ، وتُنْجِي غدًا مَن غدَا من أهْل تقريبها وٱخْتِصاصها ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءَتْ ملَّتُه ، فلم تَخْفَ علىٰ ذى بَصَر ، وعلَتْ شرْعَته ، فغدا باعُ كلِّ ذى باعٍ عن معارضتها ذَا قِصَر ، وسَمتْ أُمَّتُه ، فلو جالدها مُعاد أوْبقَه الحصْرُ أو جادَلها مُناو أوثقَه الحَصَر ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانت مَعاقِلُهم صَهَوات جيادِهم ، وحُصُونُهم عَرَصاتِ جلادهم ، وخيامُهم ظلالَ سُيوفهم وظلالُهم أفْياء صعادهم ؛ صلاةً لا يزال الإخلاصُ لها مُقيما ، والإيمانُ لها مُديما ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ الحُصون الإسلامية بأنْ تَحُوطَ عنايَتُنا أركانَه ، ونتعاهَدَ رعايَتُنا مكانَه ؛ وتُلاحظَ مهابَتُنا أحوالَه فتُحَلِّيها ، وتشاهِدَ أوامرُنا قواعدَه فتشيِّدُها بجميل النَّظر وتُعْليها ؛ وتَحُول سَطواتُنا بين آمال الأعداءِ وتوهُّمه ، وتَحْجُبَ مخافَةُ بأْسِنا أفكارَ أهلِ العِناد عن تأمُّلِ ما فى الضَّمير وتَوَسُّمِه ـ حِصْنٌ ٱنعقد الإجماعُ علىٰ ٱنقطاعِ قَرِينِه ، وٱمتناعِ نَظيرِه فيما خصَّه الله به من تَحْصِينه ؛ فهو فَرْدُ الدَّهْرِ العزيزُ مثالُه ، البعيدُ مَنَالُه ؛ المسْتَكِنَّةُ فى ضمائرِ الأوْدِيَةِ الغوامض بقُعْته ، المسْتَجِنَّة بقُلَلِ الجبال الشواهق نَقْعتُه ، السَّائرُ فى أقْطار الأرْض صِيتُه وسُمْعتُه .

ولما كانت قَلْعةُ الكَرَك المحروسةُ هى هذه العَقِيلَة التى كَمْ ردَّتْ آمالَ الملوك رَاغِمَه ، ومنَعَتْ أهواءَ النُّفوس أن تُمثِّلها فى الكَرَى الأجْفانُ الحالمَه ؛ وكان فلانٌ ممَّن ينهضُ مِثلُه بحِفْظِ مِثْلِها ، ويعلم أنَّ أمانَتَها التى لا تَحْمِلها الجبالُ قد أُودعتْ منه إلىٰ كُفْئِها ووضعت كفايَتَها فى أهْلِها ؛ فهو سَيْفُنا الذى يَحُوطها ذُبابُه ، ووَلِيُّنا الذى مَن طَمَحَ بَصَرُه إلىٰ أُفُق حَلَّه أحرقه شهابُه ؛ ونَشْؤُ أيَّامنا التى تُنَشِّئُ كلَّ لَيث يَقْنِص

الظَّفَر ظُفْرُه وينْبو بالسـيوف نَابُه ، وغَدَتْ دَوْلتنا الذى ما آعتمَدْنا فيه علىٰ أمرٍ إلّا كَرُم به نُهوضُه وحَسُن فيه مَنَابُهُ ـ آقتضت آراؤُنا الشريفةُ أن نَخُصَّها بمهابة سَيْفِه ، ونُحَصِّنَها بمـا فيه من قُوّة فى الحقِّ تكُفُّ كلَّ باغٍ عن حَيْفه .

فلذلك رُسم بالأمر الشَّريف ـ لازالت الحصونُ المصونةُ تختالُ من ملكه فى أبْهَى الحُلَل ، وتعْلُو معاقلَ الكُفْر بسُلْطانه عُلُوّ ملَّة الإسـلام علىٰ المِلَل ـ أنْ تفوّضَ إليه نيابَةُ السلطنة الشريفـة بالكَرَك المحروس تفْويضًا يُعْـلِي قَدْرَه ، ويُطْلِـعُ فى أُفُقها بَدْرَه ، ويُطْلَقُ فى مصالحها سـيْفَه بالحقِّ وقلَمه ، ويُمْضى فى حمايتها أفْعالَه وكَلِمَه ، ويسدِّدُ فى أُمورها آراءَه المقْرونَةَ بالصَّواب وهِمَمَه .

فلْيباشِرْ هذه الرُّتبـةَ العَلِيَّة صورةً ومَعْنَى ، المليَّةَ إذا طاولَتِ الكَواكبَ بأنْ لا يعلم لهـا(١) أسْمىٰ وأسْنىٰ ؛ ولْيجتَهِدْ فى مصالحها آجتهادًا يُوالى له من شُكْرنا المِنَح ، ويأْتِى فيــه من مَواضِينا بالغَرَض المُقْترح ؛ ويزيدُها إلىٰ حَصانَتِهـا حَصانَةً وقُوّه ، ويَزِينُها بسياسته التى تَغْدو قلوبُ أهْل العِناد بمَخافَتِها مَغْزُوّه . ولينظُرْ فى مصالح رجالها فيكونُ لحُمـاتِهم مُقَدِّما ، ولمقدَّميهم مُكْرِما ، ولأعذارهم مُزِيحا ، ولخواطِرهم بتَيْسِـير مقرّراتهم مُرِيحا . وليكُنْ لمَنار الشَّرع الشريف مُعَظِّما ، ولأحْكامه فى كل عَقْد مُحَكِّما ؛ ولمـا قَرُب وبَعُد من بلاد نيابته عَامِرا ، ولأكُفِّ الجَوْر عن الرعية كَافًّا : فلا يبرحُ عن الظُّلْم ناهِيًا وبالعَـدْل آمِرا ؛ ومِلاكُ الوصايا تقوَى الله فلْيجعَلْها حِلْيةَ نَفْسِـه ، ونجىّ أُنْسِـه ، ووظيفةَ آجتهادِه التى تَظْهر بهـا مَزِيَّةُ يومه علىٰ أمْسِه ؛ والله تعالىٰ يسدِّدُه فى أحْواله ، ويعَضِّدُه فى أفعاله وأقواله ؛ بمنِّه وكرمه ! .

(١) لعله «بأن لا يعلم أسمى منها وأسنى» .

وهذه نسخةُ تقليد بنيابة السَّلطنة بالكَرَك ، كُتب به للأمير «تلكتمر الناصرىّ» عند ما كان المقرّ الشِّهابىّ أحمد ولدُ السلطان الملك النَّاصر بالكَرَك ، وهو :

الحمـدُ لله الذى جعل بنا الممـالِكَ مُحصَّنةَ الحُصون ، مَحْمِيَّةً بكلّ سَيف يقْطُر من حَدِّه المَنُون ، مُمَنَّعةً لا تتخطّىٰ إليها الظُّنون ، مُحَجَّبةً لا تَرَاها من النجوم عُيون ؛ رَافِلَةً من الكواكب فى عقْـد ثَمِين ، مَنِيعَةً أشْبهت السَّماءَ وٱشْتَبَهت بهـا فأصْبحتْ هذه البروجُ من هذه لا تَبِين .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى رفَعت الأقْدار ، وشرَّفَتِ المقْدار ، وحَلَّت فى ممالكنا الشَّريفة كلَّ عَقِيـلةٍ ما كان مِعْصَمُها المُمْتَـدُّ إلى الهلال لِيُتْرَكَ بغَيْر سوار ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً رفعت للحصون العاليـةِ رُتَبا ، ومُلِئَتْ بهـا سَماؤُها حَرَسًا وشُهُبا ، وأعْلتْ مكانَهـا فاقتَبسَتْ من البرق نَارًا ووَرَدتْ من السَّحاب قُلُبًا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من بعثَ وُلاةً على الأمْصار ، وكُفَاةً على الأقْطار ، صلَّى اللهُ عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِه ما صدَحت الحَمـائِم ، وسفَحتِ الغمائم ، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

أمّا بعدُ ، فإنَّ خيرَ من حُمِيتْ به الممـالك ، وحُمِدتْ ـ ولله المِنَّة ـ منه المسالك ، وٱرْتقَتْ هِمَمُه إلى الشَّمس والقَمر والنُّجوم وما أشْبه ذٰلك ، مَنْ حصل الوُثُوقُ به فى أشْرف مملكة لَدَيْنا ، وأفْضل ما يُعرض فى دَوْلتنا الشريفة من أعْمالهـا الصالحة علينا : وهى التى قعدتْ من الجبال علىٰ مَفارِقِها ، وٱتَّصلتْ من النُّجوم بعلائِقِها ؛ وتحدَّرت الغَمائِمُ من ذُيولِها ، وطفَتْ على السماء وطافَتْ على الكواكب بِحَرَت المَجَرَّةُ

من سُبُولها . وكان الكَرَك المحروسُ هو المُراد، ومدينتُه التى لم يُخْلَق مِثْلُها فى البلاد، وقَلْعتُه تتَشَكّى الرِّياحُ لها طلوعَ وَاد ونُزول وَاد؛ وهى أرْضٌ تَمُتُّ بأنَّها لنا سَكَن، ونَمَّت مناقبُها بما فى قلوبنا من حُبِّ الوَطن؛ وآستقرّت للمقامات العالية أوْلادنَا — أعزَّهم الله بنَصْره — فانتقَلَتْ من يَمينٍ إلى يسار، وتقابلت بين شُموسٍ وأقمار، وجادَ بها البَحْر على الأنهار .

فلمَّا خَلَتْ نيابةُ السلطنة المعظمة بها عَرَضْنا على آرائنا الشَّريفة مَن تَطْمئِنُّ به القلوب، ويحصُلُ المطلوب، وتَجرِى الأُمُور به على الحُسنَى فيما ينُوب؛ وتُبارى عزائمُه الرياح بمرمى كل مقلة وهزّة جيد، ولا يُشَكُّ فى أنّه كُفْؤُ هذه العَقيله، وكافى هذه الكَفالَةِ التى ما هى عند الله ولا عندنا قَليلَه، وكافلُ هذه المملكة التى كَمْ بها بَنِيَّةٌ أحْسنُ من بَنِيَّة وخَمِيلَةٌ أحسن من خَميلَه؛ من كان من أبْوابِنا العالية مَطْلَعُه، وبين أيْدينا الشَّريفةِ لا يُجْهلُ مَوْضعُه؛ طالما تكَمَّلتْ به الصفوف، وتَجَمَّلَتْ به الوقوف، وحَسُنَ كلّ موصوف، ولم تخف محاسِنُه التى هو بها معروف؛ كَمْ له شِيَمةٌ عَلِيَّه، وهِمَّةٌ جَلِيَّه، وتَقْدِماتُ إقدام بكلِّ نهايةِ غاية مَلِيَّه، وعَزائِمُ لها بنَعْتِه مَضاءُ السَّيف وباسمه قُوَّةُ الحديد وهى بالنسبة إليه مُلْكيَّه؛ وكان المجلس العالى — أدام الله نِعْمته — هو لابِسَ هذه البُرود التى رُقِمَتْ، والعُقودِ التى نُظِمَت، وجامِعَ هذه الدُّرَرِ التى قُسِمت، والدَّرارِىّ التى سَمَتْ إلى السماء لما وُسِمَت؛ وهو من المَلائِكِ فى الوَقار، وله حُكْمٌ كالمَاس وبأْسٌ يقْطَعُ الأحْجار، وهو مَلِكٌ نِصْفُه الآخَرُ من حَديد كما أنَّ لله مَلائِكَةً نِصْفُهم من الثَّلْج ونصفهم من نَار؛ وهو الذى آقتضت آراؤُنا الشريفة أن نجعلَه فى خدمة ولدنا — أمْتعه الله ببقائنا — نائبا بها، وقَائمًا بحسن مَنابِها؛ والمتصرِّف فيها بين أيديه الكريمه، والمتلَقِّ دُونَه لأُمورها التى قلَّدنا بها عُنُقَه أمانةً عظيمه .

فلذلك خرج الأمْر الشريفُ ـ لا زال به سَيْفُ الدِّين ماضيا ، ولا بَرِحَ كلُّ واحد بحكْم سَيفِه فى كلِّ تجْريد وقلَمِه فى كلِّ تقْليد راضيا ـ أن تفوّض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالكَرَك المحروس وما معه على عادة من تقدّمه فيها ، وقاعدته التى يتكفل لها بالإحسان و بكَفِّ العُدْوانِ و يَكْفِيها ؛ وكلُّ ما فيها من أمْرٍ فهو به مَنُوط ، وكلُّ عمل لها به مَحُوط ، وحكْمُه فى مصالحنا الشريفة فى جميع بلادها مبْسُوط ، وله تُطالَعُ الأُمُور ومنه تصدر المطالعه ؛ و به تُزالُ كلُّ ظُلامَه ، وتُزاحُ كلُّ مَلامَه ؛ ويُؤَيَّد الشرعُ الشريفُ ويؤَبَّد حُكْمه ، و ينشر علمُه ويُنْشَر عَلَمُه ؛ وتُقامُ الحدودُ بحَدِّه ، والمهابَة بِجِدِّه . و رجالُ هذه القَلْعة به تَتألَّف على طاعتنا الشريفة قُلُوبُهم ، والرعايا يعمهم بالعَدْلِ والإحسان وأيْسَرُ ما عندنا مَطْلُوبُهم ؛ وهؤلاء هم شيعتنا قبلك ، ورعِيَّتُنا الذين هم لنا ولَك ؛ فَرفْرِفْ عليهم بجَناحِك ، وخُذْهم بسَماحِك ؛ والمُسارَعةُ إلى آمتثال مراسمنا الشريفةِ هى أوّلُ ما نُوصيك باعتماده ، وأولى ما يُقْبَس من نُوره ويُسْتمدُّ من أمْدادِه ؛ فلا تُقَدِّمْ شيئًا على الآنتهاء إلى أمْره المُطاع ، والعَمَلُ فى السَّمع والطاعة باكرله مايمكنُ أنْ يستطاع ؛ وخِدْمَةَ أولادِنا فلا تَدَعْ فيها مُمْكِنًا ، وآعلم بأنَّ خدْمتهم وخدمتَنا الشريفةَ سواءٌ لأنّه لا فَرْقَ بينهم و بيننا ؛ وهذه القلْعةُ هى التى أودعناها فى يَمينِ أمانَتِك ، وحَمَيْناها بسَيْفِك وصُنَّاها بصيانَتِك ؛ فاللهَ اللهَ ! فى هذه الوَديعَه ، وأدِّ الأمانَةَ فإنّها نِعْمتِ الذَّريعَه ؛ وآحْفَظْها بقوّةِ الله وتَحفَّظْ بأسْوارِها المَنِيعَه ، وعليك بالتَّقْوى لتقْوى والوُقُوف عند الشَّريعَه ؛ والله تعالى يَزيدُك علوّا ، ويبلِّغك مَرْجُوّا ؛ والآعتماد ... .

قلتُ : ورُبَّما ولى نيابةَ الكَرَك من هو جَليلُ الرتبة رَفيعُ القَدْر ، من أوْلاد السلطان أو غيرهم ، فَتعظُم النيابةُ بعِظَمِه ، و يُرفَعُ قدْرُها بارتفاع قَدْرِه ، وتكونُ مكاتَبتُه وتقليدُه فوقَ ما تقدّم ، بحسب مايقتضيه الحال من «الجناب» أو غيره .

وهذه نسخة تقليد بنيابة السلطنة بالكَرَك، كُتب بها عن السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » لولده الملك الناصر « أحمد » قبل سَلْطَنته، وكتب له فيه بـ«الجناب العالى»، من إنشاء الشريف شِهاب الدِّين، وهى :

الحمدُ لله الذى أسعدنا بوِراثةِ المُلْك والممالك، وأرشدنا للرَّأى المُصيب فى أنْ نَستَنيبَ من نشاء من ذلك ؛ وأيَّدنا بالعَوْن والصَّوْن فى حفْظ ما هُنا ولحْظ ما هنالك، وعوَّدنا الإمدادَ بيُمْنه المتداوَل والإنجادَ بمنّه المتدارَك ؛ وسدَّدنا بالفضل والإسعاف إلىٰ أن نَتَّبع من العَدْل والإنصاف أنجحَ السُّبل وأوْضح المسالك، وعَضَّدنا من ذُرِّيَّتنا بكلِّ نَجْل مُعْرِق، ونَجْم مُشْرِق، يَرْشُقُ شِهابُه، فى الكَرْب الحَالِّ ويأْتَلقُ صَوابُه، فى الخَطْب الحَالك ؛ وأفردَنا بالنَّظَر الجميل، والفِكْر الجليل، إلىٰ أسعد تَحْويل تنير بمِرْآته فى الآفاق الشُّهبُ الطوالِعُ وتَسيرُ ببُشْراه فى الأقْطار النُّجُب الرَّواتِك (١) .

نحمدُه ! وكيف لا يَحْمد العبدُ المالك ! ، ونشكُره علىٰ أنْ أهَّلنا لإقامة الشَّعائر وإدامة المَناسك ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له جل فى جَبَرُوته، عن مُشابِهٍ وتَعالَىٰ فى مَلَكُوته، عن مُشارِك ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى أنْجد جنودَه من المَلإِ الأعلىٰ بالمَلائك ، وأمدَّ بُعوثَهُ بالنَّصر والظَّفَر فى جميع المواقف والمَعارِك ؛ وأيَّد أُمَّتَه بولاية ملوك يجلِسُون فى النَّعيم على الأرائِك، ويَحْرُسُون حِمَى الدِّين بجِهادِهم وآجْتِهادِهم من كلِّ فَاتِنٍ وفَاتِك ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله سُفُن النَّجاة المؤَمِّنين من المَخاوف والمُنْقِذين من المَهالِك ، ورَضِىَ الله عن أصْحابه الذين نظَمُوا شَمْلَ الإيمانِ، وهزَمُوا جَمْعَ البهتان، بكلِّ باتِرٍ وفاتِك ؛ صلاةً ورضواناً يُضْحِى لقائلهما

(١) أى القريبات الخطا .

فى اليوم العَبُوس الوَجْهُ الطَّلْقُ والثَّغر الضَّاحك ، ويُنْشَر فيُحْشَرُ مع النَّبِيِّين والصدّيقين والشُّهداء والصَّالحين وحَسُن أُولٰئـك ، ما ٱبْتَهَل بصالح الدُّعاء ، وناجِح الآستدعاء ، لأيَّامنا كلُّ عابِد وناسِك ، وعَوَّل حُسْنُ آرائنا علىٰ تقديم مَن هو لجميل آثارنا سَالك ، وأقبـل بالإقبال سَنَا شِهابِه المُنِير يجلو ما تُثِير من ليل نَقْعِها السَّنابِك ، فحصل للكَرَك والشَّوْبَك بهذا القُدوم فخَـار مَسِيرِك بينهما وبين النجوم الشَّوابِك .

أمَّا بعـدُ ، فإن الله تعالىٰ آثرنا بتوفير التوفيق ، ويسَّرنا من الهُدىٰ إلىٰ أقْوم طريق ؛ ووهَبنا فى الملك النَّسبَ العلِيَّ العَرِيق ، والحسبَ الذى هو بالتَّقديم والتَّحكيم حَقِيق ؛ وقلَّدنا من عَهْد بَيْعة السَّلطنة ما لحمده فى الآفاق تَطْرِيق ، ولعِقْده فى الأعْناق تَطْوِيق ؛ نفَيَّأنا من شَجَرة هذا البَيْت الشريف النَّاصرىّ المنْصُورىّ كلَّ غُصْن وَرِيق ، وهيَّأ للبَرِيَّة تكريمًا عميًا بتقديم من له المَجْدُ يتعيَّن وبه السُّؤْدُدُ يَلِيق ؛ وأطْلَع فى أُفُق أعزِّ الممالك علينا من بيتنا شِهابَ عُلًا هو للبدْرِ فى الكمال والجمالِ شَبِيهٌ وشَقِيق ، وأطَعْنا أمْرَ اللهِ تعـالىٰ فى معاملة الولَد البارّ معاملة الوالِد الشَّفِيق ؛ وأوْدعْنا لدَيْه ما أوْدعه الله تعالىٰ لدينا : مملكةً مرتفعةً متسعةً ليرتَفِعَ محلُّه ويتَّسِعَ أملُه ولا يَضِيق ، وجمَعْنا له أطْرافَها لتكونَ لكلمته العُلْيا بها الآجتماعُ من غير تَفْرِيق .

ولمـا كان الجناب العالى ، الولدىّ ، الشهابىّ ، سليلُ الملوك والسلاطين ، خَليل أمِير المؤمنين : هو الذى تُشِير رُتَب الكَفَالة بترقِّيه ، وتَقَرُّ عيونُ الأولياء بتَعَيُّنه لإلْقاء أمرنا المُطاع وتَلَقِّيـه ؛ وتلْهَجُ الألْسِـنةُ ضارِعةً إلى الله تعـالىٰ أنْ يخلِّدَ مُلْكَ بيْته الشريف ويُبْقِيه ، وتعرُجُ إلى السموات دَعَواتُ الأتقياء أن يُوقِّيَه اللهُ ممـا يتَّقِيه ؛ ونُمْسِـكُ فى هذا المقام لِسانَ المَقالِ عن مَدْحه أدَبا ، ونترُكُ الآفتخارَ بالمـال والعَدِيد إيثارًا لثواب الله وطَلَبا ، ونُدْرِك موعِظَةَ الله سبحانه فى كتابه قَصْدًا وأرَبا :

﴿ والبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وخَيْرٌ عُقُبًا ﴾(١) . و ببركة هذا القصْد يتمّ لنا فيه المراد، ويعمُّ هذه المملكة النفعُ بهذا الإفْراد ؛ فإنها مَعْهَدُ النصر والفَتْح، ومشْهَدُ الوَفْر والمَنْح ؛ ومصْعَدُ العِزّ الذى لما وطِئْنا صَرْحَه تدَكْدكَ للعدا كلُّ صَرْح، وتَملَّك للهُدىٰ كلَّ سَرْح ؛ ونَشِقنا بها لقُرب المزار من طِيب طَيْبَةَ أعْظَم نَفْح، وقد بقينا بجَاه الحالِّ بها فى تيسير التَّأْييد فكان كالَّلمح ؛ وجرىٰ خَلَفُنا السَّمْحُ بعد ذلك علىٰ عادته فى الحكم والصَّفْح، وسرىٰ ذِكْرُنا فى الشَّرقِ والغَرْب وللحُدَاةِ به أطْربُ صَدْح، وآتى اللهُ من فَضْله مُلْكًا نِعمًا تَجِلُّ عن العدّ والشَّرح ؛ فيها مَنْشَأُ دولَةِ الدُّول ومنها فَتْح الفتوح ، وبإضافته إلينا تفاؤُلُ خيرٍ مَشْهورٍ مَلْمُوح ؛ كما قيل قبلها كَرَكُ نُوح، فبتطهير الأرض من الكُفَّار، عزائِمُنا تغْدُو وتَرُوح، وبالآستناد بأطْول الأعمار، أمارَةٌ باديَةُ الوضوح ؛ وآثارُ بركةِ الآسم الشَّريف المُحمَّدىّ تظهر علينا فى الحركات والسَّكَنات وتَلُوح ، ونَخَارُ هذه المملكة المباركة : لآختصاصها بالحَرَمَين الشَّريفَيْن عليها طَلاوَةٌ وسعادةٌ وفيها رُوح ؛ وكنَّا قد سلَكْنا بهذا الوَلد النَّبيل، سنَّةَ أبِى الأنْبياء إبراهيمَ الخَليل، فى ولده إسماعيل، عليهما السلامُ التامُّ فى كلِّ بُكْرة وأصِيل ؛ حيثُ فارقه وأفْرده، وتَفقَّده فى كلِّ حين وتَعهَّده ؛ حتَّى شدَّ اللهُ تعالىٰ به عَضُدَه ورفع هُو وأبُوه قواعِدَ البيْتِ وأعانه لمَّا شَيَّده، فأجْمل اللهُ لنا هذا القَصْدَ وأحْمده ، وكَمَّل هذا الشُّروع وأسْعده ؛ وأجْزل [له] من فوائِده أوْفر هِبَةٍ وأنْجز له من عوائده أصْدقَ عدَه ؛ فأحْللناه فى هذه المدَّة بمملكة الكَرَك فسَلَكَ من حُسن السجايا أحْسن مَسْلَك، وملك قلوبَ الرَّعايا وبِمَا وَهَبَ من المنح تمَلَّك ؛ وبسُنَّتنا فى التَّواضُع للحقّ مع الخَلْقِ تَمسَّك، وبشِيَمنا وخُلُقِنا فى الجُودِ تَخَلَّق فبذَل وما أمْسك .

(١) التلاوة «وخير أملا» أما وخير عقبا فهو فى آية قبلها .

ولما بلغ أشُدَّه وٱستوىٰ، وبزغ شِهابُ عُلاه الذى هو وبَدْرُ السماءِ سَوا، وحاز مكارمَ الأخلاقِ وحوىٰ، وفازَ سلطاننا فى نجابته بحسن النية : "وإنَّما لِكُلِّ ٱمْرِئٍ ما نَوَىٰ" ـ حكَّمناه فى هذه النيابة التى ألِفَها ودَرَّبها، وعرف أُمورَها وجَرَّبها، وٱستمال خواطِرَ أهلِها وٱستجلَبها، وأدنىٰ لهم لمَّا دَنَا منهم المَيامِنَ ولمَّا قرَّبها منهم قَرَّبها، وٱستحقَّ كَفالتَها وٱستوجَبها، وأظهرَ اللهُ تعالىٰ فيه من الشَّمائِل أنْجبها، ومن الخلائق أرْحَبَها، ومن الأعراق أطْيَبَها، ومن العوارف أنْسَبَها، ومن العَواطف أقْرَبَها، ومن البَسالة أرْهفَها وأرْهبَها، ومن الجلالة أحبَّها إلى القلوب وأعْجَبَها، ومن السيادة ما أخذَتْ نفْسُه لها أُهبَها، ومن الزيادة ما يتعيَّن [له] شكرُ الله الواهبِ الذى وهَبَها، ومن السَّعادة ما رفَعتِ الأقْدارُ علىٰ مناكِبِ الكواكبِ رُتَبَها، وأطْلعتْ لِحُماته سماءُ العَلْياء شُهُبَها، ورقَّتْ علىٰ هامَةِ الجوزاء مَنْصِبَها، وٱستصحبتْ من العناية لهذا البَيْت مَزِيَّةً فرض اللهُ بها له الطاعةَ وكَتَبها؛ فاستَخَرْنا الله تعالىٰ الذى يختار لنا ويَخِير، وسألْناه التَّأْييدَ والتَّيْسير، وفوَّضْنا إليه وهو الكَفيلُ لنا بالتدبير، فى كلِّ مَبْدَإٍ ومَصير، واستَعنَّا به وهو نِعْمَ النَّصير، وٱقتضىٰ حسنُ الرَّأْيِ الشريف أن نُسْرِج شهابَه المُنير، ونُنتج للأَولياء يمن التَّأْثِيل بحسن هذا التَّأْثِير، ونُنْهِجَ فى بِرِّه سُبُلًا تقدَّمنا إليها كلُّ ذِى منْبَرٍ وسَرير، ونُثْلِجَ الصُّدورَ ونُقرَّ العيونَ بسَعيد هذا الإصدار وحَميد هذا التَّقْرير.

فلذلك رسم بالأمْر الشريف ـ لا برح أمْرُه يصيب السَّدادَ فيما إليه يصير، وخَبَرُه يحمِل الموافاة فلِلأَلْسِنة عن مكافأة بِرِّه تَقْصير ـ أن تفوّضَ نيابةُ السَّلطنة الشريفةِ بالكَرَك المحروس والشَّوبك للجناب العالى، الولدىّ، الشهابىّ، وما ينضم إلىٰ ذٰلك وينْضَاف، من جميع الأَقْطار والأَكْناف؛ وجمعنا له من هـذه المملكة الأطْرَاف، وجعلنا له علىٰ سَهْلها وجَبَلها إشْراف، وصَرَّفناه منها فيما هو عن علمه

الكريم غيرُ خاف ؛ نيابةً كاملَه ، كافلَة شاملَه ، عامَّه ، تامَّه ، وافرَه ، سافرَه ؛ يستلزمُ طاعَتَه فيها الأفْتِراض ، وتنحسم عنه فيها موادُّ الاعْتراض ، وتَنْفُذ مراسمه من غير تَوقُّف ولا انْتِقاض ، وتُبْسَطُ يدُه البيضاءُ من غير انْقِباض ، ويرتفع رأيه من غير انْخِفَاض .

فلتقْدُرْ رَعِيَّةُ هذه البلاد نِعْمةَ هذا التفويض قَدْرَها ، ولْيسألُوا الله أن يُوزِعَهُمْ لحُسْنِ هذا التفويض شُكْرَها ؛ فقد أنشأ لهم يُسْرَها ، وأفاء لهم بِرَّها ؛ وألْقىٰ إليهم جُودَها وخَيْرها ، وأبقىٰ عندهم عِزَّها ونَصْرَها . ولْيَتَّبِعوا السَّبيلَ القَوِيم ، ولْيُجْمِعُوا على الطاعَة التى تُبْقِي عليهم نِعْمَةَ العافية وتُديم ؛ ولْيَسْمَعُوا ويُطِيعُوا لما يَرِد إليهم من المَرَاسِيم ، فمن لم يَسْتَقِمْ كما أُمِر لا يَسْتمِرُّ بهذه البلاد ولا يُقِيم ؛ والعاقلُ لنفْسه خَصيم ، والجاهلُ مَن عَدِمَ النِّعمةَ وحُرِمَ النَّعيم ؛ وفِراسَتُنا تلْمَحُ نتائجَ الخيْر من هذا التَّقْديم ، وسِياسَتُنا تُصْلِحُ ماقرُب منَّا وما بَعُد بتعْريف أحْكام التَّحْكيم ؛ وكَيْف لا ؟ وهو الكَريم بن الكَرِيم ، المؤمَّلُ لتمام السُّؤْدُد قبل أن يُعْقَد عليه التَّميم ؛ المشتمِلُ على الخِلالِ المُوجِبَة له الفَضْلَ العَميم ، المتوصِّلُ بيُمْنِ حركاته إلىٰ أنْ يكونَ لمثل هذا المُلْكِ العظيم ؛ وإلىٰ أمَانَتِه آستيداعٌ وإلىٰ صِيانَتِه تَسْليم ، المقْبِلُ وجهدنا الإقبال فتتلو الرِّجال : ﴿ماهذَا بَشَرًا إنْ هَذَا إلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ .

ونحن نَأْمُرك من التَّقْوىٰ بما به من الله أُمِرْنا ، ونبصِّرُك من الهدىٰ بما له هُدِينَا وبُصِّرْنا ، ونُبْقِي لديك من بدائعها مابه خُصِصْنا وأُوثِرنا ؛ ونُوصِيك آتِّباعًا للكِتَاب والسُّنَّه ، ونُؤْتِيك من الهداية مالله فى الإرشاد إليه المِنَّه : فقد وَعظ ووَصَّىٰ لُقْمانُ ـ عليه السلام ـ آبْنه ، وأوْصىٰ رسولُ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم مُعَاذَ بنَ جَبَل لمَّا بعثَه إلى اليَمَنِ فحقَّق اللهُ تعالى فى نجاحه رَجاءَهُ وفى فَلاحِه ظَنَّه ؛ ونُذَكِّر جنابك ، ونرجو أن

تكون ممن تنفعه الذِّكرىٰ، ونُسَيِّر شِهابَك، إلىٰ أُفُق السَّعد ونَأْمُل أن تُيَسَّر لليُسْرىٰ، ونُؤَمِّرك فنزيدُ عَلَم عِزِّك رفعًا ولِواءَ مَجْدِك نَشْرا، ونَأْمُرك ثِقَةً بحسْنِ أخْلاقك، فيتلو لسانُ وِفَاقِك: ﴿سَتَجِدُنِى إنْ شَاءَ اللهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِى لَكَ أَمْرا﴾. فمثلك من أيَّدَتْه العِصَم، وأصْعدتْه الهِمَم، وحَمِدَتْه الأُمَم، وأرْشَدَتْه إلىٰ الحُكْم ما عَهِدَتْه فِكْرَتُه من الحِكَم، وسدَّدتْه أعْراقُه وأخْلاقُه فلا يُزَاد علىٰ ما فيه من كَرَم؛ فلا نُذَكِّر منك نَاسِيا، ولا نُفَكِّر لَاهِيا، ولا نَأْمُر ونَنْهىٰ إلَّا مَن لم يَزَلْ بالمعروف آمِرًا وعن المُنْكر نَاهِيا.

فٱتَّقِ اللهَ تعالىٰ: فعلَى التَّقْوىٰ مَرْباك، وراقِب اللهَ تعالىٰ: فالمراقبةُ للملوك من بيْتِك مِلَاك، وجِدَّ فى نُصْرة الحقِّ ولاتَأْبَ: فقد أنْجد الله تعالىٰ بذٰلك جَدَّك وأباك، وٱعْدِلْ فبالعَدْل تعْمُر الدُّوَل وأقِمْ مَنارَ الشَّرع، فهو الأصْل الذى يُرَدُّ إليه من القضايا كُلُّ فَرْع، ومَجالُه الرَّحْبُ إذا ضاق الذَّرْع؛ فأيِّدْ حاكِمَه، وشَيِّدْ مَعالِمَه؛ وأكِّد الإلزامَ بأحْكامه اللَّازِمَه.

والأُمراءُ والجُنْد فهم جَناحُ النَّجَاح، وصِفَاحُ الصِّفاح؛ فاعتمِدْ أحْوالَهم بالصَّلاح، وأرِدْ فيهم ما ٱستطَعْتَ الإصْلاح. والخَيَّالةُ والرَّجَّالةُ الذين يُحْمىٰ بهم مَصُون الحُصون أن يُستباح، فالْحَظْ أُمورهم بعَيْن فِكْرك فى كلِّ مَساءٍ وصَباح، فمَن نهض فى الخِدْمة تعيَّن من النِّعمة أن يُزادَ ومَن قَصَّر فى العَزْم قضَى الحَزْمُ أن يُزاح. والرعايا فهم للإحسانِ ودَائِع، وللٱمتِنانِ صَنائِع؛ فأعْذِبْ لهم من المَعْدلة المشارِع، وٱنْصِبْ لهم من إقامة الحُرْمة الزواجِرَ والرَّوادِع؛ وأخْصِبْ لهم من النِّعمة مَرْبعًا يُرَغِّبُ الجانِحَ ويُقَرِّبُ الطائع. وأهْلُ الذِّمَّة فآوِهِم إلىٰ كَنَف العَدْل الواسع، وٱحْمِهم أن تمتدَّ إلىٰ أنْفُسِهم يَدُ جَانٍ وإلىٰ أموالهم يَدُ طامِع، وأقِمْ عليهم بَأْسًا يُحِلُّ بهم إذا ٱعْتَدَوْا

القَواصِمَ والقَوارِع ، وأدِمْ لهم مهابة تَسُدُّ من فساد الذَّرائـع ، وعاوِدْ آراءَنا الشَّريفَةَ ورَاجِع ، وواصِلْ بأنْبائِك السارَّةِ وأفْعالِك البارَّةِ وتَابِـع ، وبمـا نتطَلَّع إليه خَواطِرُنا العاطفة من مُتَجَدِّداتِك المباركة أتْحِفْ وطالع ، والله تعـالىٰ يشَنِّف بحسْنِ سيرتِك المسامع ، ويشَرِّفُ بحلُول عَدْلِك المحافِلَ والمَجامع ، ويُوزِعُك شكْرَ نعمَتِه ويجعلُ لك من عِصْمَتِه أعْظمَ وازِع ، ويمَتِّعُـك بأيَّامِنا التى فيها الخـيْرُ الشَّامِلُ والبِرُّ الجـامِع ، ويصونُ بجلالك الحُسنَىٰ ما آسْتَطْعْتَ(١) من أسْنى الودائع ، ويُزَيِّن سمـاءَ العَلْياء بجلالك فمنهـا لك قمـراها والنجوم الطوالع ، ويوفِّقُ بجميل قصـدك إلىٰ أن تأْخذ من القـلوب بالمجامع ، ويحقِّقُ فى إسْـعاد جَنابِك المطالب ويُشْرِق بإصْعادِ شِهابِك المطالع ؛ والعلامة ... .

الصنف الثـانى — أرْباب الوظائف الدِّينيـة . وبهـا قَاض واحدٌ شافعىّ ، وتوقيعُه فى قَطْع الثلث بـ«السامىّ» بالياء .

الصنف الثـالث — الوظائف الدِّيوانية . وهى ثلاثُ وظائِفَ ، يكْتَب لكلٍّ منهـا تَوقيعٌ فى قَطْع العادة . الأُولىٰ كتابة الدَّرج . الثانيـة نَظَر المـال . الثالثـة نَظَر الجَيْش .

القســـم الثـالث

(ممـا يكْتَب من الولايات عن الأبْواب السلطانية بالديار المصرية ـ ما يكتب لأرباب الوظائف بالمملكة الحجازية)

وقد تقدّم أنهـا تشتملُ علىٰ ثلاث قواعد :

---

(١) لعله «ما آستحفظت» .

القاعـــدة الأولىٰ

(مكة المشرّفة ، وبها وظيفتان)

الوظيفـــة الأولىٰ

(الإمارة)

وقد تقـدّم أنّ إمارتها فى بنى الحَسَنِ بن علىّ بن أبى طَالِب رضِى الله عنهما ، وأنّها كانت تُولّىٰ من أبْواب الخلافة ببغْدَادَ إلىٰ حينِ آنْقِراضِها ، إلّا ما تغلَّب عليه الفاطِميُّون أصْحابُ مِصْر فى خلال ذلك . ثم آستقرّت آخرًا من جهة ملوك مِصْر إلى الآن . ويُكْتب له تقليدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«ـالمجلس العالى» بزيادة ألْقاب تخُصُّه ، وقد تقدّمت ألْقابه فى أوّل هذا الطَّرَف .

وهذه نسخةُ تَقْليد بإمْرةِ مَكَّة المشرّفة : كُتب بها عن الملك الناصر « محمد بن قلاوون» لأَسَد الدِّين «رميثة» بن أبى نُمَىٍّ ، بإمرة مَكَّة المشرّفة ، عِوضًا عن أخِيه «عطيفة» عند قتل الأمير الدمرجان دار وولَده خليل ، من إنشاء المولىٰ تاج الدين آبن البارنبارى رحمه الله ، فى المحرّم سنة إحدىٰ وثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ للهِ الحكيم : فالشَّريفُ من آتبع أوامِرَه ، العظِيم : فالسَّعيدُ من آتّقىٰ غَضَبه بأعْماله الزاكية ونِيَّاته الطاهِرَه ، الكَرِيم : فالفائزُ من سلك مَراضِيَه فى الدنيا ليأْمَنَ فى الآخره ، ومن أخاف عاكِفَ حَرَمِ الله وبادِيَه فقد بَاءَ بالأفْعال الخاسره ، ومن عَظَّم شعائِرَ الله فقدْ رَفَل فى حُلَلِ الإقبال الفَاخِرَه .

نحمدُه علىٰ ألْطافه الباطنة والظَّاهِرَه ، ونشكُرُه ونرجُوه وما زال يُنْجِحُ راجِيَه ويَزِيدُ شاكِرَه ، ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ من آتخذ الحق ناصِرَه ،

وأوْدع إخلاصَها ضمائِرَه؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه اللهُ من الحرَمِ فألَّف القلُوبَ النَّافرَه، وفتح مكَّة فطهَّرها من الزُّمْرةِ الكافِرَه، وقال فى ذلك اليوم : «مَن أغْلَق عليه بَابَه فقَدْ أمِن» فأمسىٰ أهْلُها ونفوسهم بالأمْن ظافرَه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله بَنِى الزهراء العِتْرة الزاهرَه، وعلىٰ صَحْبه النُّجومِ السافرَه؛ وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

أمَّا بعدُ، فإنَّ الحكْمَ [بالعدل] شعارُنا ، وبالله آقْتِداؤُنا وآقْتدارُنا؛ وفى الإحْسان رَغْبَتُنا ، وفى كلِّ عُنُق مِنَّتُنا؛ نَصْفَح ونَمْنح ، ونَرْعىٰ مَن أمسىٰ قَديمَ الهجرة فى ولايتنا وأصْبح؛ ونُقيمُ من أهل البيْت لحفْظ ذلك البيت الأصْلَحَ فالأصْلَح، ونُقدِّمُ من لم يزلْ مقدَّماً وإلىٰ صَوْب الصواب يَجْنَحُ فيَنْجَح ، ونُنْجى من الهَلَكَةِ مَنْ لاح له مَنْهجُ الخير فسلكه فأفْلح .

وكانت مَكَّةُ المعظمةُ هى أُمَّ القُرىٰ، والبَلَدُ الامينُ المُجْزَلُ فيه القرىٰ؛ نَشأ الإسلامُ فى بِطْحائِها ، وحَرَّمها اللهُ فلا ينَفَّر صَيْدُها ، ولا يُعْضَدُ شَجَرها ، ولا تَحِلُّ لُقَطَتُها إلَّا لمُنْشِد تأكيدًا لتَشْريفها وإعْلائِها؛ وطلعَتْ شمسُ النُّبوَّة من شِعابِها، وغُسلت الذُّنوبُ بوَبْل سَحابِها؛ فيها زَمْزَمُ وكَزَّةُ جبْرِيل، وفيها بدَأ الوَحْىُ والتَّنزيل، وإليها أعْنقَت الرِّكابُ ففى كلِّ أبْطحَ لمَطىٍّ مَسيرٌ ومَسيل؛ فكَمْ أتىٰ إليها من سائر الناس سائِر، وكم أتَىٰ إليها النـاسُ رِجالًا وعلىٰ كلِّ ضَامِر؛ فالرَّحمة مُستقِرَّة بين نواحيها والعُيونُ تَمَـلَّىٰ بأنوار تلك الأسْتار حتَّى تَجْتَليها، والشِّفاهُ تتشرَّفُ بتَقْبيل ذلك الحَجَر الذى يشهدُ لها فى غَدٍ ويَقِيها؛ فطُوبَىٰ لمتَّقيها، وسُحقًا لمن أخاف وفْدَ اللهِ فيها؛ ونحنُ قد بصَّرنا اللهُ بخِدْمة بيتِها المحرَّم، وحَرَمِها المعظَّم، وكَرَّر إليها حَجَّنا وكَرَّمه : فلله الحمدُ أن كَرَّر حَجَّنا وكَرَّم؛ وما بَرِحْنا نُقيمُ فى إمارَتِها من العتْرة النَّبويَّة كلَّ شريف النَّسب،

وكلّ من يكْتَسِب فيها رضَا الله تعالىٰ : وكلُّ آمْرِئٍ وما آكْتَسب ؛ فمن أصْلح منهم أقمناه ، ومن حَاد عن الطاعة وجَحَد النّعمة أزلْناه ؛ ومن أخاف فيه السبيلَ لم نجعلْ له إلى الخَيْر سبيلا ، ومن آستقام على الطريقة توكّلْنا على الله ووَلَّيناه : وكَفَىٰ بالله وكيلا .

وكان فلانٌ هو الذى مازالت خواطرُنا الشريفةُ تقدّمُه علىٰ بَنِى أبيه ، وتَخْتارُه أميرًا وتَجْتَبِيه ؛ ورُبَّمَا سلَفَتْ من بَيْتِه هَنَاتٌ صفَحْنا عنها الصَّفْح الجميل ، وما قابلْناهُم إلا بما يَلِيقُ لمجْدِهم الحَسنيّ الحَسَنِ الأصِيل ؛ والإمْرةُ وإن كانت بيَدِ غيره هذه المدّة فما كان فى الحقيقة أميرٌ عندنا سواه ، لأنّه كبيرُ بيْتِه المشكورُ من سائر الأفْواه .

والآن قد آقتضَتْ آراؤُنا الشريفةُ أن نُقيمه فى بلده أميرًا مُفْرَدًا إليه يشار ، وأنْ نَصْطَفِيَه : وإنّه عِنْدنا لَمِنَ المصْطَفَيْنَ الأخْيار ، وأن نجعلَ الكلمةَ واحدةً ليأْمن النَّزِيلُ والجار ؛ ومَتىٰ تَجَاذب الأمْرَ كلمتان فَسَدَ نِظامُه ، ومَتىٰ أُفْرِد الحُكْمُ حسُنَتْ أحكامُه ؛ ومتىٰ توَحّد الأمْرُ زال الآختلاف ، وزاد الآئْتِلاف ، وأقبلتْ أيّامهُ .

فلذلك رسم بالأمْر الشَّرِيف أن تفوّضَ إليه إمْرةُ مكَّةَ المشرّفة ، علىٰ عادة والده . فلْيتقلّد ما فوّضناه إليه من الإمْرة والنيابة بمكة المعظمة : شاكرًا ما أنعم اللهُ به عليه من مراضينا التى لا نجاةَ لمَن لم ينَلْ منها نَصيبًا مَوْفورا ، ولا فوْزَ لمَن لم يُدْرِكْ منها حظًّا كبيرا ؛ ولْيشْرَعْ فى تمهيد البلاد من إزالةِ المَظْلمَه ، ولْيُطَهِّرها من كلّ مُجْتَرِئٍ على الله تعالىٰ فى البُقْعة المحَرَّمه ؛ ولا يُقَرِّبْ مَن فى قَلْبه مرضٌ فيُعْدِيه ، ولا يرجعْ لمن فيه شقاقٌ ظاهرٌ فى صفَحَات وجْهه وفَلَتَات فِيه ؛ ولْيعلَمْ أن هذا بلدٌ حرامٌ حرّمه اللهُ يوم خَلَق السّموات والأرْض ، وصيّرَ حَجَّ بَيْتِه علىٰ مستَطِيعه من الفَرْض ؛ وجعله للنّاس مَعادًا ومَعاذا ، وقال صلَّى الله عليه وسلم يَوْم

عَرَفَةَ : « إنَّ دِماءَكُم وأموالَكُمْ وأعْراضَكُمْ عليكُم حَرامٌ كحُرْمَةِ يَوْمِكُم هـذا فى شَهْرِكُم هَذا فى بَلَدِكُمْ هذَا » .

فليَمْنع الدِّماء من أنْ تُراق ، والأمْوالَ من أن تُؤْخذَ بغير ٱستِحْقاق ؛ والظُّلْمُ فى البَلَد الحرامِ حَرام ، وبَنُو حَسَن أحَقُّ باتباع سُنَّة الإسلام ؛ وٱتَّقِ اللهَ لتَلْقاه بالوَجْه الأبْيض والعَمل الأغَرّ ، وٱتَّبع سُنَّةَ جَدِّك : فعلَى ٱتِّباعها حَثَّ وأمر ؛ وٱلْق وفْدَ الله فى البرّ والبَحْر بالحُسْنىٰ فهم أضْيافه ، وأمِّن الحَجَّ لِيَتمَّ نُسُكُه وطَوافُه .

هذا تَقليدُنا لك أيُّها الشَّريف : فطِبْ نَفْسًا بمَراضِينا ، وصَفِحنا عما مَضىٰ ومَنَحنا الرِّضا حقًّا يقينا ، لأنَّا نتحقَّقُ أنَّ الإحسانَ يَحرُسُنا ويَقينا ، إنْ شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخةُ تَقْليد شريف لأمير مَكَّةَ المشَرَّفة :

الحمدُ للهِ الذى جعل البَيْتَ مثابَةً للناس وأمْنا ، ونَصَب فيه للقانِتين رُكْنا ، وجعل أرْضَ الحَرم لا تَبِيدُ بركاتُها ولا تَفْنىٰ ، وجعل لشَجَرة النَّسبِ الهاشِمىّ فيها أصْلًا شريفًا كَمْ أخرج غُصنا ، وآتَىٰ بَنِى الحَسَنِ فيها إحسانًا من لَدُنْه وحُسْنا ، وأقام منهم أميرًا فى ذلك المحلِّ الأسْنىٰ .

نحمَدُه فُرادىٰ ومَثْنىٰ ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً كاملةَ اللَّفظِ والمَعنىٰ ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شيَّد اللهُ به للدِّين خيرَ مبْنىٰ ، وأضْحتِ الضُّلوع علىٰ مَحبَّتِه تُحْنىٰ ، وثِمارُ الخَيْر مما بين رَوْضَته ومِنْبره تُجْنىٰ ، وخصَّه اللهُ بالشَّرعِ المستقيم والدِّين الأهنىٰ ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً فى الصدور لها سُكْنىٰ ، وسلَّمَ تسليمًا .

وبعـدُ ، فإنَّ أمَّ القُرىٰ ، خَيرُ البِلاد بلا مِرَا ، قد جعل اللهُ للناس إليهـا رِحلَةً وسُرىٰ ، وهجُروا فى قَصْدِهم إليها لَذيذَ الكَرىٰ ، ونصَبَ فيها بيْتًا مَتِينَ العُرىٰ ، وأنْبع فيها بِئْرًا ماؤُها يشفِى السَّـقيمَ ويُبْرِئُ الوَرَى (١) ، وجعل فيها للشَّرف بيتًا عالِىَ الذُّرىٰ ، فأميرُها المُطاع ، من أهْل بيْتِ النُّبوّة لا يُخَيَّبُ ولا يُضَاع ، ذُو هِمَّة تخافُها السِّباع ، ويرهَبُها البَطَلُ الشُّجاع ، يَعُدّ من الآباء أسْلافا كراما ، كمصابيح السماء تجلو ظَلَاما ، وقد طيَّب اللهُ مُقَامَهم وأعلىٰ مَقَامَهم حين جاوَرُوا مَقاما .

ولمـا كان ... ... هو شريفَ العَرَب ، المُعْرِقَ فى النَّسَب ، الطِّيِّبَ الحَسَب ، المُحْيِيَ من آثار آبائِه ما ذَهب ، الشَّريفَ النَّفْس : فلا يلْتفِتُ إلىٰ العَـرَض الأدْنىٰ من الرِّقَة وأكَّد شكْرَه الحَـرمُ وأهْلُه ، وأثْنىٰ علىٰ صَـفاءِ سِيرتِه الصَّفَا وعلىٰ مُروءَتِه المَرْوَةُ إذ طاب أصْلُه ، قد ٱقتفَىٰ فى الكَرَم أباه وجدَّه ، وأمَّن سَبِيلَ الحاجِّ من جهـة البرّ ومِن جِهَة البَحْر من جُدَّه .

فلذلك رُسم أن يفوّضَ إليـه ... ... فليحُلَّ البـلَدَ الحرامَ حاكِمًا وآمِرا ، وليسْتَجْلِبْ له من العاكف والبَـادِ شاكِرا ، ولْيُحسِنْ للطَّائفين والعاكِفين والرُّكَّع السُّجود ، وليتَّبِـع آثارَ آبائِه أهْـلِ الكَرَم والجُود ، وليؤَمِّن الخائِفَ فى تلك التهـائِم والنُّجود ، ولْيَرْدَعِ الحائِفَ عن حَيْفه فلا يَعُود ، وليعلَمْ أنَّه بوَادٍ غيرِ ذى زَرْعٍ ولكن فيه للبركات ظِلٌّ مَمْدُود ، وخير مَشْهُود ، وبمكة مولِدِ أشرفِ مَوْلُود ، وجدّه الحَسَن رضى الله عنه فلْيكُنْ حسَنَ الفِعال فكما سَاد يَسُود ، وليُعرِبْ عن الثَّناء الأبْيض عند ما يتمسك بتلك السُّتورِ السُّود ، وليتَلَقَّ المَحْمَلَ الشريفَ فى كلِّ عام ، بالآحتفال والإكْرام ، والطاعةِ التى يبَلُغ بهـا المرام ، ولْيَقِفْ مع أُمراء الحـاج مقيما لحُرْمَتِهِـم بجميل الآحترام ، ولْيكُفَّ الأشرارَ من العبيد والمَوالِى ، عن النَّهْب والتَّخَطُّف لوَفْد

(١) الورى اسم للقيح يكون فى الجوف .

الله الذى قَطَع السُّرىٰ بالأيَّام والليالى ؛ ولْيُلازِمْ خدَمَة المَحْمل الشريف علىٰ ما يناسب شَرَفَه ، حتَّى يقِفَ بعَرَفَه ، ثم يدْفع إلى المزْدَلِفَــه ، إلىٰ أنْ يقضِىَ الحَجَّ ويرحلَ من مَكَّة المشَرَّفه ؛ ولْيكُنْ سِــياجًا على الحُجَّاج ، فى تلك الفِجاج ، حتَّى لا يفقد أحَدُهم عِقالا ، ولا يجِــدَ ٱخْتزالا ، ويرحَلُون عن مَكَّة المعظمَة من الذُّنوب خِفافاً وبمَنِنــه ثِقالا . والوصايا كثيرةٌ وهو غنىٌّ عن أن نُطيلَ له فيها مَقالا ، وتقوَى الله فمن تمسَّكَ بها حَسُنَ حالا ، وأنتم أهْلها كَرَّمكم اللهُ أهْلًا وآلا ، والله الله فى حِفْظ جانب الصَّحابة رضى الله عنهــم فلْيردَعْ عن الخَوْض فيهم جُهَّالا ، والله يجعلُه مغمورًا مسروراً بنِعَم الله تعالىٰ ، بمنِّه وكرمه ! .

وهذه وصِيَّةٌ لأمير مكَّة ، أوردها فى "التَّعريف" :

وليعلَمْ أنَّه قد وُلِّىَ حيثُ وُلِد بمكَّة فى سُرَّة(1) بَطْحائِها ، وأُمِّر عليها ما بين بَطْنِ نَعْمانِها إلىٰ بَحْــوَة رَوْحائِها ؛ وأنَّه قد جُعلتْ له ولايةُ هذا البَيْت الذى به تَمَّ شرفُه ، وعلَتْ غُرَفُه ، وعَرَفَ حَقَّه له أبْطحُه ومُعَرَّفُه ، إذ كانــ أَولىٰ وُلاةِ هذا الحَرَم بتعظيم حُرُماتِه ، وسُرور جوانبه بمــا يلُوح من البِشْر علىٰ قَسَماتِه ؛ ولأنَّه أحقُّ بنى الزَّهْراء بمــا أبْقته له آباؤُه ، وألْقته إليه من حديث قُصَىٍّ جدِّه الأقصىٰ أنْباؤُه ؛ وهو أجْدرُ من طهَّر هذا المسْجدَ من أشْياءَ يُنَزه أن يَلحَق به فُحْشُ عابِهــا ، وشَنعاءَ هو يعرف كيف يتَتبَّعها «وأهلُ مكَّةَ أعْرفُ بشِعابِها» .

فليتلقَّ رايةَ هذه الوِلايةِ باليَمين ، ولْيتوقَّ ما يتَخَوَّفُ به ذلك البَــلدُ الأمينـــ ؛ ولْيعلَمْ أنَّه قد أعطى الله عَهْدَه وهو بين رُكْن ومَقام ، وأنَّه قد بايَع اللهَ : واللهُ عزيزٌ ذُو ٱنْتقــام ؛ وليعْمُرْ تلك المَواطِن ، ويغْمُرْ ببرِّه المــارَّ والقَاطِن ؛ وليعملْ فى ذلك

(1) فى الأصل «نمرة» والتصحيح من "التعريف" (ص ١٠٤) .

بما يُنَجِّث عنه نِجارُه[1]، ويأمَنُ به سُكَّانُ ذلك الحَرَم الذى لا يُرَوَّعُ حَمامُه فكيف جَارُه، ولْيُنصِتْ إلى ٱسْمِه [عزّوجلّ] حيث يُعلِنُ به الدَّاعى علىٰ قُبَّة زَمْزَم فى كلّ مساء ولْيَعْرِفْ حقَّ هذه النِّعمه، ولْيعامِلْ من وُلِّيَ عليهم بما يليق أنْ يعامَلَ به من وقَفَ تحْتَ ميزابِ الرَّحْمه، وقد أكَّد مَوْثِقَه واللهَ اللهَ فى نَقْضه، ومدَّ يَدَه على الحجَر الأسْود يَمينِ اللهِ فى أرضه، وليَتبصَّرْ أيْنَ هو فإنَّ اللهَ قد ٱستأمَنه علىٰ بيْته الذى بَناه، وسلَّمه إليه بمَشْعَرِه الحَرامِ ومَسْجد خَيْفه ومِناه، وإنَّه البَيْتُ المقصود: وكلُّ من تَشَوَّق حِمَىٰ لَيْلَىٰ فإنَّما قصَدَه او تَعلَّقَ بلَعْلَعٍ فإنَّما عَناه، وفى جَمْعه يجتمعُ كلُّ شَتِيت، وفى ليالى مِناه يَطيبُ المَبيت، وبُحصَّبِه تُقام المواسِم، وتفْتَرُّ الثُّغور البَواسِم، وتَهُبُّ من قبل نَعْمانَ الرِّياحُ النَّواسِم، وفى عَقْوَة دارِه مَحطُّ الرِّحال فى كلِّ عام، ومقَرُّ كل ذات عُودٍ تُجْذَبُ بقِلْعٍ وعُودٍ تُقادُ بزِمام، وإليه تضرِبُ التِّجَار البرارِيَّ والبِحار، وتأْتِيه الوُفودُ علىٰ كلِّ قِطار يُحْدَىٰ من الأقطار، وكلُّ هؤلاء إنَّما يأْتُون فى ذِمَام الله بيتِه الذى مَنْ دخله كان آمِنا، وإلىٰ مَحَلِّ آبن بنْت نَبِيِّه الذى يلزمه من طريق بِرِّ الضيف ما أخذ لهم وإن لم يكُنْ ضامِنا .

فليأْخُذْ بمن أطاع مَن عَصىٰ، وليرْدَعْ كلَّ مفْسِد ولا سِيَّما العَبيدُ فإنَّ العبدَ المفسِدَ لا يزْجُره إلا العصا، وليتلَقَّ الحُجَّاجَ بالرُّحْب والسَّعَه، فهم زُوَّارُه وقد دعاهم إلىٰ بيْتِه وإنَّما دعاهم إلىٰ دَعَه، وليتلَقَّ المَحْمِلَ الشريفَ والعصائبَ المنصوره، وليخْدُمْ علىٰ العادة التى هى من الأدب مع الله تعالىٰ مَعْنًى ومَعَنا صُورَه، وليأْخُذْ بخواطر التُّجَّار فإنَّهم سَبَبُ الرِّفقِ لأهل هذا البلد وتَوْسِعَةِ ما لَدَيْهم، والمُسْتَجَابُ فيهم دَعْوةُ خليله إبراهيم ــ صلوات الله عليه ــ إذ قال : ﴿ وٱجْعَلْ أفْئِدَةً مِنَ النَّاس تَهْوِى إلَيْهِمْ ﴾ . ولا تُحيِّفْ أمْوالَهم بغرامَةٍ يَقِلُّ بها الغُنْم، ولا بظُلامَة فإنَّه بإزاء هذا

(١) ينجث يستخرج ونجاره أصله .

البيْتِ الذى يُرَدُّ دُونَه من أراد فيه إلحادًا بظُلْمٍ ؛ ولْينظُرْ كيف حُبِس دُونَه الفيل ، وليكُفَّ عادِيَةَ مَنْ جاوره من الأعْراب حتّى لا يخاف ٱبْنُ سَبِيل ؛ وليُقِمْ شعائِرَ الشَّرع المطَهَّر ، وأوامِرَ أحْكامه التى قامت بأبويه : بحُكْم جدِّه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم وسَيْفِ أبِيه حَيْدر . وليأْمُرْ طوائِفَ الأشْراف وأشْياعَهم وسائِرَ أهْلِ موالاتهم وأتباعهم بلزُوم ما كان عليه صالحُ السَّلَف وما عليه الإجْماع ، وتجَنُّبِ ما كانت الزَّيْدِيَّةُ زادت فيه وكَفِّ الأطماع ، وليتّقِ اللهَ فإنَّه مسئُولٌ لديْه عما ٱسترعاه وقد أصْبح وهو له رَاع ؛ وإيَّاه أن يتَّكلَ علىٰ شرف بَلَدِه ، فإن الأرْض لا تُقَدِّسُ أحدا ، أو شَرَفِ مَحْتِدِه ، فإنَّ فى يوم القيامة لا ينفعُ وَلَدٌ والدًا ولا وَالدٌ ولَدًا .

الوظيفة الثانية

(قَضاءُ مكَّة ، ويكْتَب به تَوْقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«ـالسامىّ» بالياء)

وهذه نسخةُ تَوْقيع بقضاء مَكَّة المشرّفةِ :

الحمْدُ لله الذى أنفذ الأحكام ، بالبَلَد الحَرَام ؛ وأيَّد كلمةَ الشَّرعِ فى بَلَدِه ومنْشَئِه بين الرُّكْن والمَقَام ، وجعلَ الإنْصافَ الجَزِيل ، حَوْل حِجْرِ إسْماعِيل ؛ مُتَّسِق النِّظام .

نحمدُه حمْدًا حَسَنَ الدَّوام ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبدٍ قائمٍ بحقِّها أحْسنَ القيام ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه السّامِي من ولد سَام ، والذى قام لله حتَّى ورِمَت منه الأقْدام ؛ وأُسْرِىَ به من مَكَّةَ إلى السماء مَرَّتَينِ : فى اليَقَظة والمَنَام ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أئمَّة الصَّلاة والصِّيام ؛ وسلَّمَ تسليمًا .

وبعــدُ ، فإنَّ وظيفةَ القضـاءِ بمَكَّة المعظمةِ هي أجَلُّ مَنْصِبٍ بتلك الأباطح ، ونُورُها فى الجَبِينِ لائح ؛ فإنَّ الشَّرع نَشَأ منهـا والوَحْىَ أُنزل فيها فَزُهِيت البطائحُ، وظهرت النَّصـائح ، وأطْربت الصَّوادِح ، وأسكتت النَّوائح ، وغمرت المَنـائح ، وٱنتشَرتِ المَصالح، فمن وَلِىَ الحكْمَ بها وعدَلَ فذٰلك هو العَدْلُ الصالح، وكيف لا؟ وماءُ زَمْزَم شَرابُه ، وأسْتارُ البَيْت تَمَسُّها أثوابُه ، وعلى اللهِ أجْرُه وثوابُه ؛ وفى ذٰلك الجناب الشريف كَرُم جَنابُه، وإذا دَعا اللهَ عند المُلْتَزَم جاءَه من القبول جَوابُه .

ولمَّـا كان فلانٌ هو فرعُ الدَّوْحَةِ المثمِرَه ، ومحَصِّـل من العلوم الشَّرعيةِ المَـادَّةَ المُوَفَّره، وله البُحوثُ التى [هى] عن أحْسن الفوائد وغُرَرِ الفرائد مُسْفِرَه؛ ورَضِىٌّ أهْلِ الحَرَم، لِمَـا جُبِلَ عليه من خَيْرٍ وكَرَم، [تمسك] بالعروة الوثقىٰ والقوى الأتقىٰ فلا جَرَم .

فلذلك رسم ... ... ـ لا زال ... ...

فليكن فى أُمِّ القُرىٰ ، كالوالدِ المُشْـفِق علىٰ الوَرىٰ؛ وليَتمَسَّكْ من التَّقْوىٰ بأوْثق العُرا ، وليخْشَ رَبَّ هـذا البيْتِ إنَّه سميعٌ يسـمَعُ ويَرىٰ ، ووَفْد اللهِ قطعُوا إليـه المَراحِلَ فى السُّرىٰ، ليصافِحُوا كَفَّه المضَمَّخَ عنبَرا؛ وليقْضِ بين الخصوم بالحقِّ فمِثْلُه من دَرَأَ الباطِل : قد جعله اللهُ جارَ بيْتٍ عَالِى الذُّرا ، وفى أرضٍ شرَّف الله جبالهـا وقدّس غِيرانها فمنها غَارُ ثَوْرٍ وغَارُ حِرا ، لأنَّ النبىَّ صلَّى الله عليه وسلم كان يتَعَبَّدُ فى غَارِحِرا، وأوىٰ إلىٰ غَارِ ثَوْرٍ لمـا هَاجَرمُؤَيَّدًا مظَفَّرا؛ والوصايا كثـيرةٌ وملاكُها تقوى الله فلْيتمَسَّكْ بها من أمامٍ ووَرا، والله تعالىٰ يجعلُ نهاره منوّرا ، ولَيلَه مقْمرا؛ بمنّه وكرمه ! .

القاعدة الثانيـــة

(المدينةُ النبويةُ، وبها ثلاث وظائف)

الوظيفـــة الأولىٰ

(الإمارةُ)

والأمرُ فيها علىٰ ما مرّ فى إمارة مكّة المشرَّفة .

وقد تقـدّم أن إمارتها فى بَنِى الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهـما ، ويكتَبُ لهـا تقليدٌ فى قَطْع النِّصف بـ«ـالمجلس العـالى» أيضا بألقاب مخصوصة ، وقد تقدّم ذكر ألقابه .

وهـذه نسخةُ تَقْليـد شريف بإمارة المدينة النبوية، كُتب به للأمير بدر الدين «وُدَىّ[1] بن جماز» من إنشاء المقرّ الشهابىّ بن فَضْل الله ، سقى اللهُ عَهْده :

الحمدُ للهِ الذى صرَّف أمْرنا فى أشْرف البِقاع ، وشرَّف قَدْرَنا بمُلْكِ ما آنعقد علىٰ فَضْلِه الإجماع ، وعرَّف أهلَ طَيْبَةَ الطيِّبة كيف طلع البدْرُ عليهم من ثَنِيَّات الوَدَاع ؛ وأمدّها بُوَدَىّ صُغِّر للتَّحَبُّب وإلّا فهو وَاد متدفِّقُ الأجْرَاع .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى أغْنتْ مَهابطَ الوَحْىِ عن آرتقاب البَرَد اللَّمَّاع، وآرتقاء النظر مع بدره المنير إلىٰ كلِّ شمس سافرة القِنَاع ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُخْمِد من الضلال ما شاع ، ومن البِدَع ما آستطار له فى كلِّ أُفُقٍ شُعاع ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبــدُه ورسولُه أشْرفُ من أنِفَت به حَمِيَّة الآمتناع، وألِفَت

(١) سبق ضبطه مرارا فى ج ٤ بالتكبير تبعا لضبط النسخة والظاهر ماهنا .

بنا سُنَّته أن ترعىٰ لأهْلها ولا تُراع، وعصَفت ريحُها بمن يمالى دينه فمال إلىٰ الآبتداع، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ليس فى فَضْل أحدٍ منهم نزاع، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإن الآهتمام بكلِّ جهةٍ علىٰ قَدْر شَرَفها، وعلىٰ حَسَب الدُّرَّةِ الثمينة كرامَةُ صَدَفها، والكِمامةُ بثَمَرها، والغَمامة بمطَرِها، والهالَةُ بما يجلو الدُّجىٰ من قمرها، والمدينة الشريفة النبويَّة لولا ساكنُها ما عاجَتْ إليها الركائب، ولا ناجَتْ حدائقَها غُرُّ السَّحائِب، ولا وقفت بتأرُّج شَذَا الرَّوضة الغَنَّاء بها الجَنائِب، ولا بكى متيَّمٌ دِمَنَ العقيق بمثله من دم ذائب، ولا هاج إليها البرقُ متألِّقا، ولا هام صَبٌّ فيها بظَبياتِ سَلعٍ والنَّقا، ولكنَّها مَثْوَى النُّبوّة تُرابُها، ومَهْوَى الرُّسل جنابُها، ومأْوَىٰ كتاب الله الفَسيحُ رِحابُها، دارُ الهِجْرة التى تعالتْ شمسُ الشريعة بأُفُقها، وتوالَتْ سُحُب الهُدىٰ من بين أُبَيرِقها، وهى ثانيةُ مكَّة المعظمة فى فَضْلها إلَّا ماذهب إليه فى تَفْضيلها علىٰ مَكَّة مالكُ بن أنَس، ومنها آنبعَثتْ للهُدىٰ نُوَارة كلِّ نُور وشُعاعُ كلِّ قَبَس، وكانتْ لنبيِّ هذه الأمَّة صلَّى الله عليه وسلم أبْقىٰ دارَيْه، وأعلىٰ سماءٍ حوتْ ثلاثةَ أقْمارٍ منه ومن جارَيْه .

ولما كان بها لبعْضِ الوُلاة من الشِّيعة مُقَام، ولهم فيها تحامُلٌ لا يجوز معه من الآنتقاد إلَّا الآنتقالُ أو الآنتقام، حتَّى إنَّه فيما مضىٰ لمَّا كثُرمنهم علىٰ بُغْض الصاحِبَيْن ـ رضى الله عنهما ـ الإصْرار، وآشْرأبُّوا فى التَّظاهُر بسَبِّهما إلىٰ هَتْك الأسْتار، دَبَّ من النار فى هذا الحَرَم الشريف ما تَعَلَّق بكلِّ جِدار، وأبَتْ لها حَمِيَّة الغَضب إلَّا أنْ يطَهِّر ما سَنَّتْه أيدى الرَّوافِض بالنَّار، فلما آتَّصل بنا الآن أنَّ منهم بقَايا وَجَدُوا آباءَهم علىٰ أُمه، وآقتدَوْا بهم فى مَذْهب الإماميَّة بما لاأراده اللهُ تعالىٰ

ولا رسولُه صلَّى الله عليه وسلم ولا أولٰئك الأئمّه ؛ وحضَر المجلسُ العالى الأميرىُّ، الأصيلىُّ، الكَبيرىُّ العادلِىُّ، المجاهدىُّ، المُؤيَّدىُّ، الزَّعيمىُّ، المقَـدَّمىُّ، الذُّخْرىُّ، الكافِلىُّ، الشَّريفىُّ، الحَسِيبىُّ، النَّسيبىُّ، الأوحدِىُّ، البَـدْرىُّ : عزُّ الإسلام والمسلمين، شرفُ الأُمراءِ فى العالمين، نُصرةُ الغُزاة والمجاهدين ؛ جمالُ العِتْرة الطاهره، جلالُ الأُسْرة الزّاهره ؛ طِرازُ العِصابة العَلَويّه، كَوْكَبُ الذُّرِّيَّة الدُّرِّيّه، خُلاصـةُ البقية النَّبويّه ؛ ظهيرُ الملوك والسلاطين، نَسِيبُ أمير المؤمنين ؛ وُدَىّ بن جَمَّاز الحسينى ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمته ـ بين أيدينا الشريفـة بمحضرِ قُضاة القُضاة الأربعة الحُكّام، وتَذَمَّم بأنّ مع طُلوع بَدْره المنيرِ لا تَبْقىٰ ظُلامةٌ ولا ظُلّام ؛ وتكفَّل لأهلِ السُّنة بما أشْهدْنا اللهَ به عليه ومَنْ حضر، وتَلقَّىٰ بإظهار فَضْل الترتيب كما هم عليه : النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم ثم أبو بكرٍ ثم عُمَر؛ فما آختصّهما الله بجِوارِه إلا لِيُثبِتَ لهما علىٰ غيرهما إفْضالا، ولِيجْعلَ قبورَهُما فى معرفة أقربهم منـه درجةً مثالا ؛ لما تواترتْ به الأحاديثُ الشريفـةُ فى فضائِلهما ممَّا هو شِفاءُ الصُّدور، ووفاءً بعهْده إذ يقولُ : « عليكُم بسُنَّتى وسُنَّةِ الخُلَفاءِ الراشدين من بَعْـدى عَضُّوا عليها بالنَّواجِذ وإيَّاكُم ومُحْدَثاتِ الأمور » ؛ فلَم يسَعْنا إلا أن نجعلَ له منَّا تقليـدًا يمحُو بجِـدِّه ما حدث من أحداثِ البِـدَع، ويجدِّدُ من عَهْد جَدِّه نبينا صلَّى الله عليه وسلم فى مَعْرِفة حَقِّ أصحابه رضى الله عنهم ماشَرَع ؛ وُثُوقًا بأنَّه من بَيْتٍ كان أوّلُ هذا الدِّين الحنيف من دَلِّه(١)، ومبدأُ هذا الحقِّ الظاهر ماأثَّلتْه ومثَّلتْه فى سلفه الشريف بأقارب متصِـله ؛ وأنَّه هو المورَّثُ من الفَخار ما وَرِثَه عن آبائه الكرام، المحدِّثُ عن كرم الجـدود بما لا يُحْقَر له جِوارٌ أو يُخْفَرُ ذمام ؛ المشرِقُ من الأُسرة العَلَوِيّة بدْرًا تماما، المحدِقُ به من الكواكب العُلْوِيّة ما يظن به(؟) أبا تسمّى وابْنا

(١) فى الدّلّ الهَـدْىُ .

تسامَىٰ ؛ المنتخَبُ من آباء صِدْق أحْسن فى ديارهم الصنيع ، وحَفظ من حَسَبِهم الكريم ما أوْشك أنْ يَضيع ؛ واستضاءَ بلامِعَةٍ من هُدَىٰ سَلَفه السابق ، وهامِعَةٍ من نَدَىٰ ما يرْوِيه السَّحابُ عن الجُودِ والبَرقُ عن المَهارق ؛ تَهتَزُّ بمقْدَمِه المدينةُ سرورا ، وتفْتَرُّ رُباها منه بنَسَب كأنَّ علىٰ نَسَبِه من شَمسِ الضُّحىٰ نُورا ؛ ويتباشَرُ ما بين لابَتَيْها بمن يحْمِى حِماها ، ويُحَيِّ مُحَيَّاها ؛ وتتشَوّف منه رُبا كلِّ ثَنِيَّة إلىٰ آبن جَلاها ، وطَلَّاعِ ثَنايَاها ؛ مع ما لا يُجحَدُ من أنَّ له فيها من أبيه حقَّ الوِراثَه ، وأنَّه لما كان هذا ثَانِيَ المسجِدَيْن آحتاج إلىٰ ثَانِى آثْنَين تعظيماً للواحد وفِرارًا من الثَّلاثَه ؛ ليكونَ هو ومَن فيها الآن بمنزلة يدَيْن كلتاهُما تقْبَل الأُخْرىٰ ، وأُذُنَيْنِ كلتاهما تُوعِى دُرّا ؛ وعَيْنَين مامنهما إلا مايُدرِك أمْرًا بعيدا ، وفَرْقَدَيْن لايصلُح أن يكون أحدُهما فَرِيدا ؛ وقَمَرَيْنِ لا يغَلَّبُ أحدُهما على الآخر فى التَّسمية بالقَمَرَيْن ، وعُمَرَيْن وكَفَىٰ شرفًا أن لا يُوجَد فى الفَضْل ثالثٌ للعُمَرَيْن .

فرُسم بالأمر الشريف العالى ، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكىّ ، الفُلانىّ ـ زاد الله به المواطنَ شرفا ، وزاد به البواطن الشريفةَ حبا وشَغَفا ـ أن يفوّضَ إليه نِصْف الإمْرة بالمدينة الشريفة علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام ، شريكًا للأمير سَيْف الدين ابن أخيه ، ورَسِيلًا معه فيما يَليه ، ولكلٍّ منهما حقٌّ لا يكاد الآخرُ يُخْفيه ، هذا له برُّ الوَلَدِ وهذا له حرمةُ الوالِد لأنَّ ابن الأخ ولدٌ وعمَّ الرَّجل صِنْوُ أبيه ؛ فتُقْسَمُ الإمرة بينهما نِصفَيْن ، وتوسَم جِباهُ الكُتب الصادرةِ عنهما لهما بآسْمَيْن .

والوصايا تمدّ من عنانها ، وتعدّ من أعْيانها ؛ فأوّلها تَقْوَى الله فإنَّها من شعائر القلوب ، وبشائر الغُيوب ، وأمائر نجاحِ كلِّ مَطْلوب ؛ والآعتصامُ بالشَّريعة الشريفةِ : فإنَّها الحبلُ الممدود ، والجَبَل الذى كَمْ دُونَه من عَقَبة كَئُود ؛ والآنتهاءُ إلىٰ مانص عليه

الكتابُ والسنةُ والإجماع ، وقصَّ جَناحِ مَن مالَ به الهوىٰ إلىٰ مجاذبَة الأطْماع ، وتَلَقِّ وفْد الله الزائر بما أَلِفه نزيلُ هـذا الحِمىٰ من كرامة المُلتقَىٰ ، وتوقِّى المَذَمَّة فإنَّها دَنَسٌ لا يَحْمَـدُ مِثْلَه نَقاءُ هذا النقا ؛ ونعنِى بالمَذَمَّة ما نُسب إلى الرَّوافِض من البِـدَع التى لا تُطَهِّرها غُرُّ السحاب ، ولا يستبيح معها لدخول المَسْجد الطَّاهر من قَنِـع بمقامه حَوْله التيممَ بالتراب ؛ ولا يَدَعُ أحدًا من هٰـذه الفِرْقَة الضَّالَّة يعلى ولا يعيِّره بما يكون به مُثْلَه ، ولا يَشُبّه قَلْبَه فى محبَّةِ أهلِ البَيْت ـ سلام الله عليهـم ـ بإنَاءٍ آمْتلأَ ماءً ولم تبق فيه فَضْلَه .

ولا يظنُّ جاهلٌ منهـم أنَّ عليَّه ـ كرَّم الله وجْهَه ـ كان علىٰ أحد من الصاحِبَيْن معاتبا أوعاتِب ، أو أنَّه تأوَّل فى خِلافتهما معْتَقِدًا أنَّ أحدًا منهم غَاصِب ؛ فما تأخَّر عن البَيْعةِ الأُولىٰ قليلًا إلَّا لاشتغاله بما دَهَمه بمَوْتِ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم من المَصائِب ، وإلَّا فقد آتخذ أُمَّ وَلَدٍ من سَبْيِ أبى بكرٍ رضى الله عنـه لا كما يدَّعيه كلُّ كاذِب ، وقد تزوَّج عمرُ بن الخطَّابِ رضى الله عنه آبنتَه أُمَّ كُلْثُوم وأقام بأمْرِه الحدُودَ وناب عنه وهو غائِب ؛ فيكُفَّ منعادِيَة هؤلاء الروافِض الأشْرارِ ما سيَصْلَوْنَ فى المُوافقة بنَارِه ، وسَيصِلُون إلىٰ الموافقة علىٰ ما طار من شَرارِه ؛ ولا يدَعْ للإماميَّة إمامًا يقْتَدِى به منهم قومٌ شِرار ، ولا قاضيًا يقْضِى بينهم : فإنَّه إنَّما يقطعُ لمن قضَىٰ له أوعليه قِطْعةً من نار ؛ ولا عالِمًا يرفَعُ له عَلَم ، ولا يُفْتح لهم بفَتْوىٰ علىٰ مذاهبهم فم ، حتَّى ولا ما يتحرَّكُ به فى فَمِ الدواة القَلَم .

ولْيطَهِّرْ هذا المسجِدَ الشريفَ من دَنَسِهم ، وليُمِطْ مايحملُه أديمُ مجلَّداتِ التَّصانيف من نَجَسِهم ؛ وسُكَّانُ هذا الحرم الشريف ومن أقام عندهم من المجاورين ، أو خالطَهم من زُمَرِ المقيمين والسائرين ؛ يُحسِنُ لأُمورِهم الكَفَالَه ، ولا يتعرضُ لأحدٍ منهـم بما يؤْذِى نفْسَـه ولا يَنَاله ؛ فهم فى جوار نبينا صلَّى الله عليـه وسلم وفى شفاعتِه ،

وكلٌّ منهم نَزِيلُ حَرَمِه ومكَثِّر سَوادِ جماعَتِه ؛ وحَقُّهم واجب علىٰ كل مُسْلِمٍ فكيف علىٰ حَامِي ذلك الحِمَىٰ ، بل من له إلىٰ نسبه الشَّرِيف مُنْتَمىٰ .

وآصْحَبْ رفيقَك بالمعروف فإنَّكما مفترقان والسعيد من لا يُذَمُّ بعد فِراقه ، ومُسْتَبِقَان إلىٰ كلِّ مَوْرِدٍ لا يُدْرَىٰ أيُّكما المجِدّ فى سِبَاقِه ؛ ومتَّفِقَان علىٰ فَرد أمرٍ وأفضَلُكما من داوم صاحبهُ علىٰ إرفاقه ، وصَحْبُه علىٰ وِفَاقِه .

وأمَّا ما للمدينة الشريفة من تَهائِمَ ونُجودٍ مُضافةٍ إليها ، ومُسْتظِلَّة بجُدُرِها أو متقدِّمة فى الصَّحراء عليها ، فهى ومَن فيها : إما أنْ تُوجدَ بقلوبهم فهم أعْوان ، وإما أن تَنفرَ فهم أشبَهُ شَيءٍ بالإبل إذا نَفَرتْ تعلَّق بذَنَب كلِّ بَعيرٍ شيطان ؛ فأقربُهما إلى المصلحة تقريبهم ، وتأْلِيفُهم بما يَقْرُبُ به بعيدُهم ويَزْدادُ قُرْبىٰ قَرِيبهم ؛ والرُّكبان التى تتَّقد بهم جَمَراتُ الأَصْباح والعَشايا ، ويعْتَقِدُ كلٌّ منهم فى مَعاجِه إلى المدينة الشريفة أنَّ تمامَ الحَجِّ أن تَقِفَ عليها المَطايا ؛ فهم هُجودُ سُرىٰ ، ووُفودُ قِرىٰ ، ورُكُودٌ فى أُفُقِ الرِّحال خَلَعتْ مُقَلُهم على النجوم الكَرىٰ ؛ ومعهم المَحامِلُ الشريفة التى هى مُلْتَفُّ شِعابِهم ، ومحتَفُّ ركابِهم ؛ وهى من أَسِرَّتنا المرفوعه ، ومَبَرَّتِنا المَشْروعه ؛ فعَظِّمْ شعائر حُرُماتها ، وقَبِّلْ أمام منابرها الممثلةِ مراكِزَ راياتها ؛ وأكْرِمْ من جاء فى خِفارَتِها ، ومن جال فى دُجى اللَّيل لا يَسْتضِيءُ إلَّا بما يبدو من إشارَتِها ، وقد أشهَدْنا عليك مَن هو لك يَوم القيامة خَصِيم ، وأنت وشأنَك فيما أنْت به عَلِيم .

وباقى الوصايا أنْت لها مُتَفطِّن ، وعليها مُتوطِّن ، وما ينتفع الشريفُ بحَسَبِه ، إنْ لم يكُنْ عملُه بحَسَبِه ؛ ولا يرتفِعُ بنَسَبِه ، إن لم يتجنَّب مكان نَشَبِه ، واللهُ تعالىٰ يُمتِّعُ بدوام شرفه ، ولا يضيِّع له أجْر حَالِّ عمله الصالح وسَلَفِه ؛ والاعتماد ... .

(١) فى الأصل «الأجناح» .

وهـذه نسخةُ تقليد شريف بإمْرة المدينة النبوية ، علىٰ ساكنها أفضلُ الصلاة والسـلام :

الحمدُ للهِ الفَرْدِ بلا شريك، الواحدِ لا من أعْداد تقْتَضِى التَّشْرِيك ، المليكِ الذى يتناهَىٰ إليه تقليدُ كلِّ مَلِيك .

نحمَـدُه حمدًا يكمِّلُ مواهِبَ التَّمليك ، ويُحْمِد عواقِبَ التَّسليك ، ونشهدُ أن لاإلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تصدَعُ التَّشْكيك ، وتصدُّ كلَّ أفِيك ، وتسُدُّ خلَلَ التَّـدريك ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسـولُه خيرُ من حُمِىَ به عريك ، وحمى عليه تريك ، وحمل حتَّى تأتَّىٰ له التحريرُ فى التَّحْريك ، وتأنَّىٰ وما فاته على أعدائه النَّصْر الوَشِـيك ، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه صـلاةً تخْلُصُ كالذَّهب السَّبِيك ، وترفَعُ ما شُيِّدَ وتمنَعُ ماشيك ، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

أمَّا بعـدُ ، فلمَّـا كانت المدينة الشريفة النبوية ـ على ساكنها أفضل الصـلاة والسلام ـ حَرمًا لا يُسْتباح ، وحِمًى ليس إلّا لمن ٱنْتهَكه دَمٌ مُباح ، وجَنابًا ما علىٰ من حَلَّه جُناح ، ومَهْبِطَ وَحْيٍ لا يُمَسِّحُ بأرْكانِه لغيرِ الملائكة جَنَاح ، ولا يُمسَّكُ بعِصْمَة من أغْضىٰ فيه على قَذىٰ ، وسكت لساكِنيه على أذىٰ .

ولمَّـا ٱتصل بنا عن الرَّوافِض مالا صَبْرَ لمسْلِم يرجُو اللهَ واليومَ الآخر عليه ، ولا وَجْهَ لمن قَنِـع فيها بإخراج يديه ، ولا عُذْرَ لمن لَقِيَ اللهَ مُغْضَبا لما يُنْهَى إليه ، لامغضبًا لمـا ينال رسولَ الله صلى الله عليه وسلم من التعرّض إلىٰ صاحبيه ، ممـا تقاضىٰ منَّا ما يمحو ظَلَامه الممتدّ ، وظُلْمه المشْتَد ، وبِدَعَهم فسواءٌ من ٱبتَدَعها ومن ٱرْتَد ـ فمكَّنَّا بتقليدنا الشريف من أعْطى اللهَ وأعْطانا على قَوْله مَوْثِقا ، وجرَّد عزائِمَ لا تردُّها من

خدَعهم الرُّقىٰ ؛ وأشْهدَ اللهَ عليه ومَن حضر انَّه لايَدَعُ هذه الفرقةَ الضالَّة حتى يَدُعَّ يَتيمَها ، ويُعِدَّ لَمقَاتِل السُّيوف حَطيمَها : ممـا تضمنه نَصُّ ماضِي ذلك التَّقْليـد ، وما ضم ذِكْرىٰ لمن كان له قَلْبٌ أو ألْقَ السَّمعَ وهو شَهيد ؛ ونَبَّهنا علىٰ أنَّه بدْرٌ لم يبقَ مع طلوعه ظُلْمةٌ ولا ظُلامَـه ، ولا إضاعةٌ ولا إضامه (١) ، ولا ما تتجنَّبُ به الرَّكائِبُ تمام الحَجِّ فى مواقِفِها ، ولا تُنْكر ما جهِلتْ فى قِبَاب قُبَاءٍ من معارفها ؛ وتَرِدُ أعطانَها ولا يَسُوقها إلىٰ الأبرقِ بارقٌ على أطْلالِه ، ولا يُعجِبها إن خيل لهـا فى النخيل مَقيل فى ظِلاله .

وكان المجلس العـالى ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمتــه هو المتكَفِّلَ بتطْهِير ذلك الحَرَم الشريف من ألَم كلِّ قولٍ يُفْترىٰ ، ولَم كلِّ باطلٍ يُلِمُّ يقَظةً أو طيْفَ كَرىٰ ، وإزالةِ كلِّ شُحٍّ فيها على من أمَّلَ قِرَىٰ أُمِّ القُرىٰ ؛ وإماتَةِ كلِّ بِدْعة تُسْكَبُ على مِثْلها العبَرَات ، وإماطَةِ كلِّ أذًى من طريق منًى والجَمرات ، ومَنْعِ شَقاشِقِ شيعَةٍ تَغْلِي مَراجِلُها من الزَّفرات ، وقَطْعِ كلِّ نَجْوىٰ يُنـادُون بها من وراء الحُجَرات ، وقَلْعِ طائفــةٍ لولا إقامةُ حُدود الله لكفاهم مايُقَطِّع أكْبادَهم من الحَسَرات ؛ وكان بها من أولاد أخيه ، بل بعضُه منه وبعضُه من بنى أبيه ، من ٱنْتهىٰ عمَّا تحلَّىٰ به شِيَمُ الشريف الشريفه ، وٱنتهىٰ إلى ما لا يَعْنِيــه ولا يُغْنِيه فى تَأخير خَليفة وتقــديم خليفه ، وأهْمل حقوقاً عواقبُها مع الله تعالى ورسولِه صلَّى الله عليــه وسلم مُخِيفَه ، وأوْهم عقوقا لأصْحابه بل له لقوله : «دَعُوا لِى أصْحابى فلو أنْفق أحَدُكم مِثْلَ أُحُد ذَهبًا ماأدرك مُدَّ أحدِهم ولا نَصيفَه» . وبقِى يتَّصل بنا فى هـذا المعنىٰ مالا يُقالُ ممَّـا يقالُ عنهم ، ويَصل أذاهم إلى رسول الله صلَّى الله عليه وسلم فى صاحِبَيْه وقد قال : «إن أهل الدرجات

---

(١) مراده اضاعة الحق كله أو نقص شيء منه الا أنا لم نجد فيا بأيدينا من كتب اللغة من هــذه المادة فعلا رباعيا ليكون هذا مصدرا له ولعله استعمل اللغة العامية ترويجا للسجع .

العُلَىٰ لَيَرَاهم مَنْ تَحتَهم كما يَرَوْنَ النَّجْمَ الطالع فى أفق السماء، وإنَّ أبا بَكْرٍ وعُمَرَ منهم» يطلبون فى التقـديم على من قَدَّمه الله رَدّ فائتِ ما جرىٰ به القَدَر(١)، ويضربون صَفْحًا عمـا لا أراده الله ولا رسولُه صلَّى الله عليه وسلم فى قوله : « لا أدْرى ما قد بَقِيَ لى فيكم فاقتدُوا باللَّذيْن من بَعـدى : أبِى بَكْرٍ وعُمَر» . مع ما أضيـف إلى هذا من قَوادِح نواب، وفواتح أبواب؛ وحَوادِث تُزعِجُ مقرَّ النبوّة أنباؤُها، وتمتدُّ على مشارق الأنْواء ظَلْمـاؤُها ؛ وتُغَـيِّر عوائد الوفـود فى كرامة زَائِرهم ، وإدامَةِ بشاشَـةِ المُلْتَقىٰ لسائرهم ؛ وأمْن سِرْبِهم أن يُراع ، وشِربِهم أن يَتَمَثَّـلَ به لغيْر برق شُعاع ، وضَمِّهم إلىٰ ذلك الحمىٰ الذى لا يُضامُ نَزِيلُه ، ولا يُرام فى طَرِيق المجرَّة سَبِيلُه ؛ ولا يضِـلُّ سارٍ إليـه ووُجوهُ سكَّانِ الحمىٰ دَليـلُه ، ولا يضيع وقَدْ تلقَّاه من النَّسيم بِلَيْله بَليلُه ، ولا يقِفُ وقْفَة المُرِيبِ وضَوْءُ الصباح من أيْمَن النَّقا قِنْديلُه، ولا يَخْشىٰ وشَعْبُ ذلك الحيِّ شَـعْبُه وقَبِيلُه قبيله ؛ وإراحة رِكَابهـم التى أزْعجها حَادى السرىٰ، وإمْتاعهم بقرب الجوار عِوضًا من دُموعِهم عمَّا جَرىٰ .

فلمَّـا لم يَبْقَ لمن أشَرْنا إليه ــ مِمَّنْ أعطانا عَهْدَ مَوْثِقِه، وسارَ لا يُريد إلا نَقَاءَ نَقَاه وبراءة أبْرقه ــ إلَّا أن يَحُطَّ بالمدينة الشريفة رِكابَه، ويُبْعِدَ الشَّكْوىٰ ممـا لاعَهِدَ من معاهدها ٱقترابَه ــ أصَرَّ مَن فيها من ذَوِى قَرابَتِه علىٰ مَنْعه أن يدْخُلَها إلَّا بقتال يُحِل مَقاعدَ الحَرَم ، ويَحُلُّ معاقد(٢) الحُرَم؛ ويُشْعِلُ نارًا يصْلىٰ بها من لم تمتدَّ له يدٌ إليها إلى وقود، ويَروعُ من الآلِف فيها من يمتـدّ له فى غير مراتع غزْلان النَّقا سِجاف قيام معقود، وقدِم إلىٰ أبْوابنا العاليـة مَنْ كان فيها مقيما ، وأنْعمنا عليـه بإبقاء النِّصْف

(١) مراده أنهـم يطلبون فى تقديم علىّ رد فائت ماأراده الله من تأخيره عنهما و يتركون أيضا ماورد فى الحديث من الأمر بالاقتداء بعده بأبى بكر وعمر . الا أن العبارة سطت عليها يد النساخ فزادت فيها ما غير مبناها وشوش معناها . تأمل .

(٢) فى الأصل مقاعد وهو تصحيف .

ففاته الكُلُّ لمَّا لم يقْنَعْ أنْ يكون قسيما ؛ فأَبَتْ حميَّتنا لله ولرسوله صلَّى الله عليه وسلم ولتلك المواطن المعظمة إلّا أن نُطَهِّرها ممـا أسبَلَت علىٰ سريره أذيالَها ، وما أطاقت (١) علىٰ مضَضِه الأليم آحتمالَهـا .

فرُسم بالأمر الشريف ـ لازال قَدْرُه عاليا ، وبِرُّه لايخل بُودَى ولا يخلى مُواليا ـ أن تفوَّض إليه إمْرةُ المدينةِ الشريفةِ النبوِيَّةِ على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام : مستَقِلًّا بأعْبائها ، مستَهِلًّا سَحابُه علىٰ أرجائهـا ؛ إمْرةً تَسْتَوْعِبُ جميعَها ، وتَسْتوعى لمراسمه رُباها ورُبوعَها وعَاصِيَها ومُطِيعَها ، وتَهائِمها ونُجودَها ، وقَرِيبَها وبَعيدَها ؛ وكلَّ مايدخلُ لهـا فى حَدّ ، وينتَظِمُ لها فى عَدّ ، وأهْلَ حاضِرَتِها وبادِيَتِها ، وما تقف عليه من السحب(؟) ركائب رواعيها وغاديَتِها ؛ ومن تتبَسَّم بهم ثناياها ، وتتنَسَّم لهم أرواح بُكَرِها وعشاياها ؛ ومن يضُمُّهم جَناحُها المفضَّـل ، ويلمُّهم وِشاحُها المفَصَّـل ؛ ويجمعهم جَيْشُها السائر ، ويلُفُّهم فى شَمْلةِ الدُّجَىٰ قمرُها الزَّاهر ـ تفويضًا يدخل فيه كلُّ شريف ومَشْروف ، ومجهول ومَعْروف ، ومستوطن من أهْلها ، وغَريبٍ آنتهت [به] إليها مطارح سُبُلِها ؛ مافيه تَأْوِيلٌ ، ولا تَعْليلٌ ، ولا آستثناءٌ ، ولا آنْثناء ، ولا تخرج منه الأرْض المغبَرَّةُ ولا الرَّوْضَةِ الغَنَّاء ؛ لاشُبْهَةَ فيه لداحِض ، ولا حُجَّةَ لمعارِض ؛ يستقلُّ بها جَميعِها بَدْرُه التمـام ، وبَرُّه الغَمَام ، وبَحْرُه الذى يأبىٰ فَرِيدُه أن يُؤَاخىٰ فى نِظام ؛ وأمْرِه الذى يتلَقَّىٰ به عن الثقة من سادات بيته مَقاليدَ الأحْكام ، وتَقاليدَ مايجرى به القـلَمُ ويَمْضِى السيفُ الحُسام ؛ إفرادًا له فى التحكيم ، وأنَفةً لمِثْله من ضرر التَّقْسيم ، وفِرارًا من الشَّرِكَة المشتقة من الشِّرْك : ﴿إنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيم﴾ . ولاية تامه ، عامه ، كامِلَه ، شامِلَه ؛ لايبقىٰ من أهْل نَجْدٍ من لايدخل فى حُكْمِها ، ويَنْضافُ

(١) فى الأصل « وأطفأت » .

إلى قِسْمِها؛ تَقابَلُ السَّوابِقُ فى غاياتها، وتُقاتِلُ الجَحافِلُ تحت رَاياتِها؛ ويعدُّ مع أَهْل بَدْر فيها، ويُعِدّ من حقوقها ما يُوَفِّيها .

وقد سبق من الوصايا ما فيه غِنَىً، إلّا ما لا تخل العوائد به مما يُذْكر هنا؛ وقد حَوَيْتَ بحمد الله فى جميع طباعك، وجميل آنْطباعِك؛ من حقِّ آعترامك، وصدق آلتزامك؛ ما هو كالسَّنا للشَّمْس، والمُنىٰ للنَّفس؛ مما تحسدُ علىٰ شَرَفه النُّجوم، وتنافسُ العَلْياء ما تعلق به الغُيُوم .

فكَمِّل بتَقْوَى اللهِ شَرفَك، وآتَّبِعْ فى الشريعة الشَّريفةِ سَلَفَك؛ وكتابُ الله المنَزَّل، أنْتم أهل بَيْت فيكم تَنَزَّل، وسنةُ جدِّكم سيدِنا رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم لاتُهمَلْ، وهى مجدكم المؤثل؛ ومعرفة حقِّ من مضَىٰ عنكم، وإلا فعمَّن تُنقل، ومنكم، وإلا فممَّن تُؤَمَّل؛ وإزالةُ البِدَعِ وإلَّا فلاىِّ شَيْءٍ سيوفكم تُصْقَل، و[لمـاذا][1] رماحُكم تُعدَّل؛ والرافضةُ وغلاةُ الشِّيعة هم دنَس من انتمى إلىٰ هذا البَيْتِ الشريف بولائه، وسبَبُ وقُوف من يقصـد الدُّخول تحت لِوائه؛ فهم وإن حُسبوا من امداده، لَيْسُوا ـ وحاشىٰ نورُه الساطع ـ إلّا من المكثِّرين لسـواده؛ أرادُوا حفْظ المودّة فى القُربىٰ فأخلُّوا، وقصدُوا تكثيرَ عدَدِهم فقلُّوا؛ وأنِفَ من هو برىءٌ من سُوءِ مذْهَبِهم، أن يتظاهَرَ بالوَلاء فيُعَدَّ من أهْل البِدَعِ بسَبَبِهم؛ مع أنَّهم طمِعُوا فى رِضا الله فأخطَأتْهم المَطامِع، وصحيحٌ أنَّهم زادُوهم عددًا إلّا أنَّها كزيادة الشَّغياء[2] أو كزيادة الأصابِـع .

فصَمِّمْ عَزْمَك على ماعاهدْتَ اللهَ عليه من رَفْع أيْدى قُضَاتِهم، ومَنْعِهم هُم ومَن آتَّبع خُطُواتِ الشَّيطانِ فى سبيل مَرْضاتِهم؛ وحذِّرْهم ممَّا لا يعودُ معه علىٰ أحد منهم سِتْرُهُ يُسْبل، ولايبقىٰ بعده لغيرِ السَّيفِ حُكْمٌ يُقْبل؛ فمَن خاض للسَّلَف الصالح يَمَّ ذَمٍّ

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٠٧ .

(٢) فى القاموس : الشغياء السن المخالفة الخارجة عن نبتة الأسنان .

أُغرِق فى تيَّاره ، أو قَدَح فيهم زنَادَ عِناد أُحرِق بنَاره ؛ وألْزِمْ أهلَ المدينة الشريفة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم ـ بكلمة السنة فإنها أوّل ما رُفعت بتلك المواطِن المعظَّمة أعْلامُهـا ، وسمعت فى تلك الحُجْرة المكرَّمة أحْكامُها ؛ مع تَعْفِيَة آثارِ ما ينْشأُ علىٰ هذه البِـدْعة من الفتَن حتَّى لا ينْعقِد لها نَقْعٌ مُثار ، وتَوْطئَةِ أكْناف الحِمىٰ لِئـلَّا يبقىٰ به لمُبطل فى مَدَارج نُطْقِه عثَار ؛ والوصية بسُكَّان هذا الحَرَم الشريف ومَن ينزل به من نَزِيل ، ويُجـاوِرُ به مستقرًّا فى مِهادِ إقَامَة أو مُسْتَوفِزًا علىٰ جَناح رَحِيـل ؛ ومَن يَهْوِى إليهم من ركائب ، ويَأْوِى إليهم من رُفْقَة مالتْ من نَشَواتِ الكرىٰ بهـم رَاقِصاتُ النَّجائب ؛ ومن يَصِـلُ من رُكْبَانِ الآفاق ، وإخْوانِ نوًى يتَشاكَوْن إليهم مُرَّ الفراق ؛ ومن يتلاقىٰ بهـم من طوائِفَ كلُّهم فى بيوت هذا الحَىِّ عُشَّاق ، وأُمَم شَتَّىٰ جُموعُهم : من مِصْرٍ وشَام ويَمَن وعِراق ؛ وما يصل معهم فى مَسِيل وُفُودِنا ، وسبِيلِ جُودِنا ؛ ومَحامِلِنا الشريفة التى يُنْصَب لنا بهـا فى كلِّ أرْض سَرِير ، وأعْلامِنا التى ما سُمِّيتْ بالعِقْبانِ إلَّا وهى إليها من الأشْواق تَطِير ؛ فمتى شَعَرْتَ بمَقْدَمِ رِكابِهم ، أو بَرَقَتْ لك عوارِضُ الأقْمار من سَماءِ قِبابِهم ؛ فبادِرْ إلىٰ تلَقِّيهم ، وقبِّلْ لنا الأرضَ فى آثار مَواطِيهم ، وقُمْ بمـا يجبُ فى طاعة الله وطاعةِ رسـوله صلَّى الله عليه وسـلم وطاعَتِنا [وأخرج عنهم كلَّ يد ولا تُخْرِجْهم عن جمـاعتنا](١) .

وأهـل البادية هم حِزْبُك الجَيْش اللُّهَام ، وحَرْبُك إذا كان وقُودَها جُثَثٌ وهَام ؛ وهم قوم لم يؤَدِّبْهم الحَضَر ، ولا يَبِيتُ أحَدٌ منهـم لأَنَفَتِه علىٰ حَذَر ؛ فاسْـتَجْلِبْ بمُداراتِك قلوبَهم الأشْتات ، وبادِرْ حبال إبِلِهم النَّافِرة قبل البَتات ؛ وتَرَقَّبْ مراسِمَنا المُطاعة إذا ذَرَّتْ لك مَشارِقُها ، وتَأَهَّبْ لجهـادِ أعداءِ الله متَىٰ لمعَتْ لك من الحُروب بَوارِقُها ؛ وأحسِنْ كما أحْسنَ اللهُ إليك ، ولولا أنَّ السيْفَ لا يحتاج إلىٰ حِلْية

(١) الزيادة من الوصية الآتية بعد ومن التعريف (ص ١٠٨) .

لأطلْنا حمائل ما نُمليه عليك؛ فما شَهِد للشَّريف بصحّة نَسَبه ، أزكىٰ من عمله بحَسَبِه ؛ واللهُ تعالى يقوّى أسْبابَك المَتينَه ، ويُمْتِعُ العيونَ بلوامِعِك المُبِينَه ، ويُمسك بك ما طال به إرْجافُ أهلِ المدينه ؛ والاعتماد ... .

وهذه نسخةُ تقليد بإمْرة المدينة النبوية ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى خصّ بالنُّصْرةِ ، دارَ الهِجْره ، وأطْلع للإيمانِ بَحْره ، بتلك الحُجْره ، وطيَّب طَيْبةَ وأوْدع فيها سليل الأُسره .

نحمَدُه حمدًا نأْمَن به مَكْرَه ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ عبد تمسَّكَ بالحَجِّ وتَنسَّك بالعُمْره ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شرَّف اللهُ قَدْرَه ، وأنفذَ أمْره ، وأيَّده فى ساعة العُسْره ، وكان أكْرَمَ الناسِ فى العِشْره ، وأسخَى العالَمِينَ إذْ يبسُطُ بالجُود رَاحَتَيْه فما أسْمح عَشْرَه ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاة ثَبَتَتْ شَجَرتُها من الأرْض فاتَّصلتْ فروعُها بالسِّدْره ؛ وسلَّم تسليما .

وبعدُ ، فإنَّ المدينةَ النبويةَ مَعدِنُ الهُدىٰ والوَقار ، ومَسْكَنُ الرِّضوانِ والأنوار ، ومَهْبِطُ الملائكة الأبرار ، ومنْزِلُ الوَحْى فى اللّيل والنهار ، ودارُ الهِجْرةِ للنبىّ المختار ، وتُرْبةُ مَدْفَنِه الزَّاكى المِعْطار ، تُشَدُّ الرِّحالُ إليها من أقاصى الأقْطار ، ويأْتى إليها الظَّالمون لأنْفسهم بالاسْتِغْفار ، فيرجعون وقد مُحيتْ عنهم الأوْزار ، فقُلوبُ أهل الاشْتياق مُقيمةٌ فى فِناءِ تلك الدَّار ، وإن كانت أجْسامُهم بعيدةً من وَراءِ البِحار ، وبها من آلِ البَيْت سادةٌ أطهار ، وأُمراءُ كِبار ، يُتقرَّبُ إلى اللهِ بحُبّهم فى الإعْلان والإضْمار ، ويُتَوسَّلُ بوَلائِهم فى دَعْوةِ الأسْحار ، قد ضَمُّوا إلىٰ كَرَم الراحَه ، وسَماحَة

الأنْفُس المُرْتاحَه ، شَجاعةً وبَسَاله ، وعَلَوِيَّةً فعَّاله ، وتَمسُّكًا بالمُروءَة المعروفةِ بشَرَف الأصالَه ، وهم يتوارَثُون إمْرتها عن آباءٍ سادات ، وكِرام لهم فى الفَضْل عادات .

ولما كان فلان هو بَقِيةَ الأُسْرة المتضوِّعه ، وثمَرة الشَّجرة المُتَفَرِّعَه ، والمخصُوصَ بالوَصْف الذى رَفَعَـه ، والقَولِ الذى ٱتَّبعه حين سَمِعَه ـ ما زال فى المدينـة النبويَّة علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسـلام مشكورَ الطَّرِيقَه ، محفوظَ الوَثِيقَه ، مَعْروفَ الحَقِيقَه ، مَوْصوفَ الآثار الحَسَنةِ بين الخَلِيقَه ، يَجْتنِي لكلِّ صالحة من تلك الرَّوضة الشريفة المُثْمرة الوَرِيقَه ، ويَحْمِي السَّرْحَ أنْ ينتهب ، ويطْفِئُ نارَ الفتَنِ فما تلتهِب ، ويُعظِّم المجاورين والواردين والقادمين علىٰ حِمىٰ سيِّدِ العَجَم والعَرَب .

فلذلك رسم أن يستقرّ ... ...

فليَحُلَّ هذا الرَّبْـع المعمورَ بالتُّقىٰ ، وليُباشِرْ هذه الإمْرَةَ الشَّرِيفةَ زادها اللهُ عُلُوًّا وٱرْتِقا ، ولْيسْـتعمِلِ السكينةَ فإنَّهـا جميلة اللِّقا ، ولْيسْلُكِ الأدبَ مع ساكن النَّقا ، وليعتَمِدْ علىٰ حُسن اليَقِـينِ فإنَّه له وِقَا ، وقد جاورَ العَقِيقَ فأصْـبح بقلائِدِه الفَاخرةِ مُطَوَّقا ، ولْيَحْكُمْ بالعَدْل فى بلدٍ نشأ منه العَدْلُ والإنصافُ فَمُنْذُ ٱجتمعا فيه ما ٱفْترقا ، وليصُنْ شَرفَه من الوُلوج فى فِتَنه ، وليغْمِدْ سيْفه ولا يَشْهرْه فى وقْت مِحْنَه ، ويحقِن الدِّماءَ أن تُراق ، ويتَلَقَّ الزُّوّارَ بالإرفاق ، فإنَّهم جاءوا من أقاصى الآفاق ، رجالًا وعلىٰ النِّياق ، تحثُّهم الصَّبابَةُ والأشْواق .

وكلمـةُ الشَّرعِ وشِـعارُ السُّنَّة فليكُنْ معظِّمًا لها باتفاق بغير شِقَاق ، وشـيخَ الحَرَم الشَّريف وخدّامَه ومُجاوِرِيه فليكرِمْ مُحسِـنَهم ويعامِلْه بحسـن الأخلاق ، ويتجاوَزْ عن مُسِيئِهم بِطِيبِ أخْلاق ، وحواصلَ الحَرَم الشَّريف المخزونةَ فيه فلتكُنْ محميَّةً من التبذير فى وَقْت الإنفاق ، وتلك دارُهم سُكَّانُها الطيِّبو الاعراق ، والتَّقْوىٰ فمن يتهم

الشّريف آثارُها الإشراق ، وعليهم نَزل الفُرْقانُ والتّحْريم والطّلاق ، فماذا عسَىٰ أن نُوصِيَه وهو أهل الفَضْل على الإطلاق ، واللهُ تعالىٰ يجعلُ نِجارَه فى الفخر مُجَلِّيه فى السِّباق ، بمنِّه وكَرَمه ! .

وهذه وصية لأمير المدينة أوردها فى "التعريف" ، وهى :

فكَمِّل بتقوى الله شَرَفك ، وٱتَّبِعْ فى الشريعة الشريفةِ سَلَفك ، وكتابُ اللهِ المنَزَّل ، أنتم أهْلُ بيْت فيكم تَنَزَّل ، وسنةُ جدِّك سيدِنا رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم لاتُهْمَلْ ، وهى مجْدُكم المؤثَّل ، ومَعْرِفَةُ حقِّ مَن مضىٰ ، عنكم ، و إلا فعمَّن تُنْقل ، ومنكم ، و إلَّا فمن تُؤَمَّل ، و إزالةُ البِدَعِ و إلَّا فلأىِّ شىءٍ سُيوفكم تُصْقَل ، ولماذا رِماحُكُم تُعَدَّل ؛ والرافِضةُ وغُلاةُ الشِّيعة هم دَنَس من ٱنتمىٰ إلىٰ هذا البَيْت الشريف بولَائه ، وسببُ وقُوف من يقصِد الدُّخول تحت لِوائه ؛ فهم و إن حُسِبوا من أمداده ، ليسوا ـ وحاشىٰ نوره الساطع ـ إلا من المكَثِّرِينَ لسَوادِه ؛ أرادُوا حِفْظ المودَّة فى القربىٰ فأخَلُّوا ، وقَصدُوا تكْثيرَ عددهم فقَلُّوا ؛ وأنِف مَن هو بَرِیءٌ من سُوءِ مَذْهَبِهم ، أنْ يتظاهَرَ بالوَلاءِ فيُعَدّ فى أهْل البِدَع بسَبَبِهم ؛ مع أنَّهم طمِعُوا فى رضا الله فأخْطأتْهم المطامِع ، وصحِيحٌ أنَّهم زادوهم عدَدًا إلَّا أنَّها كزيادة [الشَّغياء أو كزِيادة](1) الأصابِع .

فصمِّم عَزْمَك علىٰ ماعاهدْت اللهَ عليه من رَفْع أيدى قُضاتِهم ، ومَنْعِهم من ٱتِّباع خُطُوات الشيطان فى سبِيل مَرْضاتِهم ، وحَذِّرْهم مما لا يعود معه علىٰ أحد منهم سِتْر يُسْبل ، ولا يبقىٰ معه لغير السَّيف حُكْمٌ يقبل ؛ فمن خاض للسَّلَف الصالح يَمَّ ذَمٍّ أَغْرق فى تيَّاره ، أو قدح فيهم زِنادَ عِناد أُحْرِق بناره ؛ وألْزِمْ أهلَ المدينة الشريفة النبويّة

(١) الزيادة من "التعريف" . (ص ١٠٧) ومن التقليد الذى سبق ، انظر (ص ٢٥٢) .

بكلمة السُّـنَّة فإنَّها أوّل ما رُفعتْ بتلك المَواطِنِ المعظمةِ أعلامُها ، وسُمعتْ فى تلك الْحُجْرة المكَّرمةِ أحْكامُها ، مع تعْفِيَة [آثار] ما ينشأُ علىٰ هذه البِـدْعةِ من الفِتَن حتّى لاينْعَقد لها نَقْعٌ مُثار ، وتَوْطِئَة أكْناف[ذلك] الحِمىٰ لئلّا يَبْقَىٰ به لمُبْطل فى مدارج نُطْقه عِثَار ؛ والوَصيَّةُ بسُكَّان هذا الحَرَم الشريف علىٰ الحالِّ به أفضل الصـلاة والسلام ومن يتزل به من نَزِيل ، ويجاوِرُ به مُسْتَقِرًّا فى مِهادِ إقامة أو مُسْتَوْفِزًا علىٰ جَنـاح رَحِيل ؛ ومن يَهْوِى إليهم من ركائب ، ويأْوِى إليهم من رُفْقَة مالَتْ من نَشَواتِ الكَرىٰ بهـم رَاقِصاتُ النَّجائِب ؛ وَمن يَصِلُ من رُكْبَان الآفاق ، وإخوانِ نَوًى يَتَشاكَوْن إليهم مُرَّ الفِرَاق ؛ ومن يتلاقىٰ بهـا من طوائِفَ كُلُّهم فى بُيوتِ هذا الحَىِّ عُشَّاق ، وأُمَم شَتَّىٰ جُموعُهم من مِصْرٍ وشام [ويَمَن][1] وعِرَاق ؛ وما يصل معهم فى مَسِيل وُفُودِنا ، وسَبيل جُودِنا ؛ ومَحامِلِنا الشريفةِ التى يُنْصَبُ لنا بها فى كلِّ أرضٍ سَرِير ، وأعْلامِنا التى ما سُمِّيتْ بالعِقْبان إلّا وهى إليها من الأشْواق تَطِير .

فمتىٰ شَعَرْتَ بمَقْدَمِ رِكابِهم ، أو بَرَقَتْ [لك][1] عوارِضُ الأقْمـار من سَماءِ قِبابِهم ؛ فبادِرْ إلىٰ تَلَقِّيهم ، وقبِّـلْ لنا الأرضَ فى آثار مَواطِيهم ، وقُمْ بمـا يجبُ فى طاعة الله وطاعة رسـوله صلَّى الله عليه وسـلم وطَاعَتِنا ، وأخْرِجْ عنهم كلَّ يَد ولا تُخْرِجْهم عن جمـاعَتِنا .

وأهْلُ البادية هم حِزْبُك الجيْشُ اللُّهام ، وحَرْبُك إذا كان وَقُودَها جُثَثٌ وهَام ؛ وهم قوم لم يُؤَدِّبْهـم الحَضَر ، ولا يَبِيتُ أحدٌ منهم لأنفَتِه علىٰ حَذَر ؛ فاسْـتجلِبْ بمداراتك قُلُوبَهم الأشْـتات ، وبادِرْ حبـال إبِلِهم النَّافِرةِ قبـل الأنْبِتات ؛ وتَرَقَّبْ مراسِمَنـا المطاعةَ إذا ذَرَّت لك مَشارِقُها ، وتأهَّبْ لِجهادِ أعداءِ الله متىٰ لَمعتْ لك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٠٨) .

من الحُروب بَوارِقُها ؛ وأحْسِنْ كما أحْسن اللهُ إليك ، ولولا أنّ السّيف لا يحتاج إلىٰ حِلْيَة لأطَلْنا حَمائِل ما نُمليه عليك ؛ فما شَهِد للشّريف بِصحّة نَسَبِه، أزْكىٰ من عَمَله بحَسَبِه ؛ والله تعالىٰ يُقَوِّى أسْبابَك المَتينَه، ويُمْتِـعُ العيونَ بلَوامِعِك المُبِينَه، ويُمْسِك بك ماطال به إرْجاف أهلِ المَدينَه .

الوظيفـــة الثانيـــة
(القَضـاء)

وكان فى الزّمن القديم بها قاض واحدٌ شافعىٌّ ، ثم ٱستقرّ بها قاضيان آخران : حَنَفىٌّ ومالِكىٌّ، يُكتَبُ لكلٍّ منهم تَوْقيعٌ فى قَطْع الثلث بـ«ـالسامى» بالياء .

وهذه نسخةُ تقليد بقضاء الشافعية بالمدينة النبوية :

الحمـدُ للهِ الذى جعل الشرعَ الشريفَ دافِقَ السُّيول، وفى طَيْبَـةَ له الأُصول ؛ ومنها نَشأ وتفَرَّع فله فى البَسيطة عُمومٌ وشُمُول، وكلُّ قُطْرٍ به مَشْمُول، وكل رَبْع به مَأْهُول، وتأكَّد به المعلومُ وتبدَّد به المَجْهول ، وزالَتِ الشرائـعُ كلُّهـا وهو إلىٰ آخر الدُّهور لا يَزُول .

نحمدُه وحمدُه يَطول ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً عَمرتْ [بها] طُلُول، ونشهدُ أنّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ رَسول، وأكرمُ مَأْمول، وأفضلُ مَسْئُول ، ومُهَنّدٍ من سيوف الله مَسْلُول، صلّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الطيبى الفُروع والأُصول؛ وسلّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنّ الشرعَ الشريفَ مَعْدِنُه فى أرضٍ ثَوىٰ خيرُ الرُّسلِ فيهـا ، ومَنْشَأه فى بَلَدٍ ملائكةُ الله تَحْميها ؛ فلا يَلِى أقْضِيةَ الناس إلّا مَن طالَتْ ذَوائِبُ عِلْمـه،

وأشْرقتْ ثَواقِبُ فَهْمِه ، وبُنِيتْ على الأُصول قَواعِدُ حُكْمِه ، وتحلَّىٰ بالورع فتَجَلَّىٰ في سمـاء النجاة كنَجْمِه .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى جذَبَتْه السعادةُ إلىٰ مَقَرِّها ، وخَطبَتْه المغْفرَةُ إلىٰ مَوْطِنِ بِرِّها ، وأهَّلتْـه الأقْدار إلىٰ جوار نَبِيٍّ هو خاتَم الأنبياء وفاتِحُ أمْرها ؛ وأصْبح للحُكْم فى المدينه ، مستحقًّا لمـا فيـه من سَكِينَه ، وتحْصيل للعِلْم ومَن حَصَّـلَ العِلْمَ كان الله مُعينَه .

فلذلك رسم أنْ يستقرّ ... ...

فلْيباشِرْ مَنْصِباً جَليلًا فى مَحَلٍّ جَليـل ، ولْيَعلَمْ أنَّ سائر الأمْصار تَغْبِطُه وتَحْسُـدُه وما لَمنصِبه من مَثِيل ؛ أينَ يُوجد سواه فى كلِّ سبيل ؟ من قاض هو بسيِّد المرسلين نَزِيل ، ومن يُصْبِحُ ويُمْسِى جارًا للمُستجير فى المَحْشَرِ الطَّويل .

فاحكُمْ بين نَاس طَيْبَةَ بورَعٍ وتَأْصِيل ، وتَحْرِيرٍ فى تَحْريم وتَحْلِيل ، وٱتَّق اللهَ فى كلِّ فِعْل وقِيل ، وٱسْتَقِمْ على الحقِّ حِذارَ أن تَمِيل ، فصاحِبُ الشَّرعِ أنت منـه قريب والنبيُّ من الله قَرِيبٌ وحَبِيبٌ وخَلِيل ، وما ذا عسىٰ أن نُوصِـيه وهو بحمد الله تعالىٰ كالنَّهار لا يحتاج إلىٰ دَلِيل .

وأما الخَطَابة : فارْقَ دَرَجَ مِنبَرِها ، وشَنِّف الأسْماعَ من ألْفاظِك بدُرِّها ؛ وحَرِّرْ ما تقوله من المواعظ فإنَّ صاحب العِظَات يسْمَعُك ، وتواضَعْ لله فإنَّ اللهَ يرفعك ؛ وهذا المَرْقىٰ فقد قام فيه النبيُّ الأُمِّىُّ سـيدُ الثَّقلين ، ومِن بعده الخليفَتان قُرَّتَا العيْن ، ومن بعدهمـا عُثْمان ذو النُّورين ، وعلِيٌّ رضى الله عنه أبوالحَسَنيْن ؛ فاخْشَعْ ، عنـد المَطْلَعْ ؛ وٱصْدَعْ ، بمـا ينْفَع ؛ وٱنظُرْ لمـا تقولُه فإنَّ رسولَ الله صلَّى الله عليه وسلم

هنالك يسمع، وقاضى المدينة وخطيبها يرجو أن ليس للشيطان فيه مطمع، والله تعالى يحوز له الخير ويجمع، بمنه وكرمه !.

الوظيفة الثالثة

(مشيخة الحرم الشريف)

وقد جرت العادة أن يكون له خادم من الخصيان المعبر عنهم بالطواشية، يعين لذلك من الأبواب السلطانية، ويكتب له توقيع فى قطع الثلث بـ«المجلس السامى» بالياء مفتتحا بـ«الحمد لله».

وهذه نسخة توقيع شريف من ذلك :

الحمد لله الذى شرف بخدمة سيد الرسل الأقدار، وفضل بالتأهل للدخول فى عداد كرمه بخدمته من اختاره لذلك من المهاجرين والأنصار، وجعل الاختصاص بمجاورة حرمه أفضل غاية تهجر لبلوغها الأوطان والأوطار، وعجل لمن حل بمسجده الشريف تبوأ أشرف روضة تردها البصائر وترودها الأبصار.

نحمده على نعمه التى أكملها خدمة نبيه الكريم، وأفضلها التوفر على مصالح مجاورى قبر رسوله الهادى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، وأجملها الانتظام فى سلك خدمة حرمه [لأنها] بمنزلة واسطة العقد الكريم النظيم؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مزلفة لديه، مقربة إليه، مدخرة ليوم العرض عليه، ونشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله أشرف نبى بعث إلى الأسود والأحمر، وأكرم من أنار ليل الشرك بالشرع الأقمر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين نخرت الحبشة بهجرتهم الأولى، ونجا النجاشى بما اتخذ عندهم من السابقة الحسنة واليد الطولى، وأولى

بِلَاهُم من السَّبْق إلىٰ خِدْمة أشرَف الأنبياء عليه وعليهم أفْضلُ الصلاة والسلام أفْضلَ مايُولىٰ، صلاةً لا يزال شهابُها مُرْشِدا، وذِكْرها فى الآفاق مُغيرًا ومُنْجِدا، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعد، فإنَّ أوْلىٰ ما[1] اعْتمد عليه مَنْ أفَاء اللهُ عليه من نِعَمه، وأفاض عليه من مَلابِس كَرَمِه، وشرَّف قَدْرَه بأن أهَّله لخِدْمة سيدِ الرُّسل بل لمَشْيَخة حَرَمِه، وخَصَّه برُتْبة هى أسْنى الرُّتَب الفاخِره، وأجْمعُ الوَظائِف لشَرف الدُّنيا والآخره ــ من رجَّحه لذٰلك دِينُه المَتِين، ووَرَعُه المَكِين، وزُهْدُه الذى بَلَغ به إلىٰ هذه الرتبة التى سيكونُ بها ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ وَجِيهاً فى الدُّنيا والآخرَة ومن المُقَرَّبِين .

ولمَّا كان فلانٌ هو الذى ادرك من خِدْمة سيِّد الرسل غاية سُولِه، وزَكَتْ عند الله هِجْرَتُه التى كانت على الحقيقة إلىٰ الله ورسوله، وسلك فى طريق خِدْمته الشَّريفة أحْسنَ السُّلوك، وانْتهَتْ به[2] السَّعادةُ إلىٰ خِدْمة رسول الله صلَّى الله عليه وسلم لِيُعْرِضَ بجَوْهَرِها الاعْلىٰ عن عَرَض خِدْمَة الملوك، وفَازَ من مُجاوَرَة الحُجْرة الشريفة بما عَظُمَتْ عليه [به] المِنَّه، وحلَّ به ممَّا بين القبْر والمِنْبَر فى رَوْضَة من رياض الجَنَّه، وأقام فى مَقَامِ جبْرِيل، ومَهْبِط الوَحْىِ والتَّنزيل، يَتَفَيَّأُ ظلالَ الرَّحمة الوارِفَه، ويَتَهَيَّأُ من تلك النِّعمة بالعَارِفَة بعد العَارِفَه ــ تَعيَّن أن يكونَ هو المُحلَّىٰ بعُقُود مَشْيَخةِ ذٰلك الحَرَم، والمتولِّيَ لمصالح هذه الطائفة التى له فى التَّقدُّم عليهم أثْبتُ قَدَم .

فرسم بالأمر الشريف لا زال ... ... أن تفوّض إليه المَشْيَخة علىٰ خُدّام الحَرَم الشريف النَّبوىِّ: للْعِلْم بأنَّه العامِلُ الوَرِع، والكافِلُ الذى يعْرِف أدبَ تلك

(١) لعله "من اعتمد عليه من" الخ .

(٢) فى الأصل "اليه" .

الوظيفة : من خدْمة الرسول صلى الله عليه وسلم ــ علىٰ ما شُرِع ؛ والزَّاهدُ الذى آثر جَوارَ نَبِيِّه علىٰ ما سواه ، والخاشِعُ الذى نَوىٰ بخِدْمَتِــه الدُّخولَ فى زُمْرة من خَدَمه فى حياته : « ولكُلِّ آمْرِئٍ مانَواه » .

فلْيستقِرّ فى هذه الوظيفةِ الكَريمةِ قائمًــا بآدابِها ، مشَرِّفًا بها نفْسَه التى تشبثت من خدمته الشريفة بأهدابِها ، سالِكًا فى ذٰلك مايجِب ، مُحافِظًا علىٰ قواعد الوَرَع فى كلِّ ما يَأْتِى وما يَجْتَنِب ، قاصِدًا بذٰلك وجهَ اللهِ الذى لايُخَيِّبُ لرَاجٍ أملا ، ولا يُضَيِّعُ أجْرَ مَنْ أحْسن عَمَلا ، مُلزِمًا كلًّا من طائفة الخُدَّام بما يُقَرِّبُه عند اللهِ زُلْفىٰ ، ويُضاعِفُ الحسنةَ الواحِدةَ سبعين ضِعْفا ، هادِيًا من ضَلَّ فى قوانينِ الخِدْمة إلىٰ سواء السبيل ، مُبْدِيًا لهم من آداب سُلُوكه ما يغدُو لهم منه أوْضحُ هاد وأنورُ دَليل ؛ وفيه من آداب دِينِــه مايُغنِى عن تَكْرار الوصايا ، وتَجْــديد القَضايا ؛ واللهُ تعالىٰ يسـدِّده فى القَوْل والعَمل ، ويوَفِّقه لِخدْمةِ سيِّد المرسلين صلَّى الله عليه وسلم وقد فعَل ؛ بمنِّه وكرمه .

القاعدة الثالثـــة اليَنْبُع

(وبهــا وظيفـــةٌ واحدةٌ ، وهى النيابة)

وقد تقدّم أنَّ نيابتها فى بَنِى الحَسَن ، من بنى قتادةَ أيضا . وعدل بهــا عن لفظ الإمارة إلىٰ لفظ النيابة تصغيرا لشَأْنها عن مَكَّة والمدينة . ويُكتَبُ لنائبها مرسومٌ شريفٌ فى قَطْع الثلث «بالمجلس السامى» بغير ياء .

وهذه نسخةُ مرسوم شريف بنيابة اليَنْبُع ، كُتب به «لمخذم بن عقيل» فى عاشر رجب الفرد سنة أرْبع وثلاثين وسبعمائة ، من إنشاء المقرّ الشِّهابىِّ بن فَضْل الله ، وهو:

الحمـدُ للهِ الذى أتمَّ لدولتِنا الشريفةِ أنْعُما ، وأحْسن فى تقـديم شَريفِ كلِّ قوم تَقَدُّما ، وأمْضَىٰ فى كفِّ كفِّ الأعداء رُمْحًا سَمْهرِيًّا وسيفًا مِخْذَما .

نحمُده حمدًا يكاثِرُ عددَ القَطْرِ إذا هَمىٰ ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادة تؤمِّن بالإدمان عليهـا مُنْجِدًا ومُتْهِـما ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شَرَّف من إليه ٱنْتمىٰ ، وعلىٰ نَسَبِه الشريفِ ٱرْتَمىٰ ، وبجوارِه المَنيعِ ٱحْتَمىٰ ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين طَلَعوا فى صباح كلِّ نَهَـارٍ شُموسًا وفى عَشِيَّة كلِّ لَيَل أنجما ، وسَلَّم تسليمًا .

وبعـدُ ، فإنَّ أولىٰ من أعدْنا له سعادة جَدِّه ، وعُدْنا إلىٰ عَوائِدِه الحُسنىٰ لأبيـه وجَدِّه ، ورَعَتْ صدَقاتُنا الشريفةُ له قَصْدَه الجَميل ، وشَرَفه الذى سَما به من أصْلِه إلى النَّجْم فَرْع لا يُنالُ طَوِيل ، وأُقِرّت عينُه بسَكَنِه ، وٱستقرّتْ به مراسمنا العالية فى مَسْكَنِه ، وأغْنَتْه عِنايَتُنا الشريفةُ عن ٱنتظار كلِّ نَجم سعادة يَطْلُع ، وبعَثَتْ إليه كلَّ خير إلىٰ وَطَنِه وهو « يَنْبُع » ، منزلةُ نسبه الصَّميم ، والحسَبِ الذى يتمسَّكُ به فى قومه كلُّ كَرِيم ، والشَّرف الذى أنارت كَوا كِبُه ، والوَصْف الذى ينظم الدُّرَّ ثاقبُه (١) .

ولـمَّـا كان المجلسُ السَّـامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الشريفُ ، الحَسِيبُ ، النَّسيبُ ، الأوحدُ ، العضُدُ ، النصيرُ ، الأصيلُ ، فلان الدين ، مجدُ الإسلام ، زين الأنام ، شرفُ الأُمراء الأشْراف ، فخرُ العِـتْرة الطَّاهره ، جمـالُ الأُسرة الزاهره ، نَسِيبُ الخلافة ، عَضُدُ الملوك والسلاطين « مِخْذَم بن عقيل » أيده الله تعالى ــ هو الذى تقدّمت إليه كلُّ إشاره ، وحسُنَتْ به كلُّ شَارَه ، وتعجَّلَتْ له بمراضينا الشريفة من مُخَلَّقِ الشَّفَقِ كلُّ بِشارَه ؛ وحصل فى اليَنْبُعِ ما حصل من الاعتـداء ، وٱمتَدَّتِ الأيْدى به إلىٰ ما كان لحُجَّاج بيْتِ الله من وَدِيعَه ، وظنَّ أنَّه لا يشيع خبره

(١) لم يذكر خبرا لإن وهو معلوم من نظائره وكثيرا ماورد كذلك ونبهنا عليه .

فى البَيْداءِ ، نخالف الوَاجِبَ وتعدَّى الشَّريعَـه ؛ فاقتضت آراؤنا الشريفة تَفْوِيضَها إلى العارف منها بمـا يجب ، العَالِمِ من طريق سَلَفِه الصَّالِح بمـا يأْتِى فيها ويَجْتَنِب ؛ العامِلِ فى طاعتنا الشريفةِ بمـا هو به وبمِثْلِه من أهلِ الشَّرف يَلِيق ، المَـاشِى فى خِدْمتنا الشريفة وفى خِدْمَة الوُفود إلىٰ بَيْت الله الحرام على الطَّرِيق .

فرُسِم بالأمرِ الشريف ـ أعلاه الله تعالى وشَرَّفه ، وأنْفـذه وصَرَّفه ـ أن تُفوّضَ إليه النيابة باليَنْبُعِ على عادة من تقـدَّمه وقاعدَتِه إلىٰ آخر وَقْت :

فليُقَدِّم تقْوى اللهِ فى كلِّ ماتقدَّم ، ويَقِفْ مع حُكْمِ الشرعِ الشريفِ فإنّه المُهِمُّ المقدّم ؛ ولَيَسْتَوْصِ بالحُجَّاج خيْرًا فإنَّهم وَفْدُ اللهِ وهوعليه سَيَقْدَم ، وليؤَمِّن الطَّريقَ فإنَّه بين حَرَمَين : بَيْتِ اللهِ ومَسْجِدِ رسوله صلَّى الله عليه وسـلم ؛ وليحفَظْ أمانةَ اللهِ فيما يَخَلِّى ويخلِّف عنده الحجاجُ كتب الله سلامتهم من ودَاعه[(١)] ، وليأْخُذْ بقلوب الجَلَّابَةِ فإنَّهم فى تَوسيعِهم علىٰ أهْلِ الحرمين كالمُتصَدِّقين وإن كانوا تُجَّارا بِبِضَاعَه ؛ وليُوصِّلْ من تَأخَّر من أبْناء السبيل إلىٰ مَأْمَنِهم ، وليخُصَّ بالعَدْل أهْلَ بلَدِه ليستقرُّوا آمنين فى مَوْطِنِهم ، والرِّفْق فهو الذى بحُلَلِه يُزيَّن ، وبحَلْيِه يُسْتحسن ، والتَّأنِّى فى معرفة الحقِّ من الباطل فإنَّ به الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسْودِ من الباطل يُبَيَّن ؛ ولزُوم الطاعة ، التى أوْجبها اللهُ لنا علىٰ عباده ونَدَب إليها ، ومُلازَمة الجماعةِ ، التى يكفيه من بركاتها أنَّ يَد اللهِ عليها ؛ وإقامة الخِدْمة فيما قِبلَه من البـلاد ، وكلِّ حاضر وباد ، وكلِّ من كَادَ أو كَاد ، أو تعرَّض لعِنادِ العِبـاد ، فمن أقْدم علىٰ محْـذُور ، أو تقدّم إلىٰ محظُور ، أو ٱرْتكب فى الخـلاف أمْرًا من الأُمور ، بجُرّه بالبَغْيِ إلىٰ مَصْرَعه ، وحَرِّك السيفَ لمضْجعه ، ودَعِ الرُّمْحَ الذى ٱعتقـله للشِّقاق يبكِى للإشـفاق عليه بأدْمُعه ؛ وقد رَأيتَ كيف

(١) مراده «وديعة» ولكن اضطره السجع الى موافقة اللغة العامية . فتنبه .

طَرِيقَتُنا المُثْلَىٰ، وسِيرَتُنا التى لا تجد لها مِثْلا؛ فاسْلُكْ هذه المَحَجَّه، وحَسْبُك أن تَتَّخذ بينك وبين اللهِ حُجَّه؛ وفى هـذا عن بقية الوصايا غِنًى، واللهُ يُزِيل عنك الخَوْفَ فى الخَيْف ويُبَلِّغك المُنَىٰ فى مِنىٰ؛ والاعتماد ... .

القسم الرابع (١)

(مما يُكْتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ـ ما يقَعُ علىٰ سَبيل النُّدور، وهو الذى يقع فى حين من الأحيان من غير أن يسبق له نظير)

قال الشَّيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحَلَبىُّ فى "حُسْن التوسل": ويحتاج الكاتبُ فيه إلىٰ حُسْن التَّصرُّف على ما يقتضيه الحال .

[فمن ذلك] ما يُكْتَبُ به للنيابة الخارجة عن المملكة إذا رغب فيها مُتَوَلِّيها .

وهذه نسخةُ تَقْليد شريف من ذلك، كَتب به المولَىٰ الفاضلُ شِهابُ الدين محمود الحلبىّ لمتملِّك سِيسَ، بإقراره على ما هو قاطع النَّهر من بلاده، وهى :

الحمـدُ للهِ الذى خصَّ أيَّامنا الزاهرة، باصْطناع مُلوك المِلَل، وفضَّلَ دولتَنا القاهرة، بإجابة من سألَ بعضَ ماأحْرَزَتْه لها البِيضُ والأسَل؛ وجعل من خصائص مُلْكِنا إطْلاقَ الممالك وإعْطاءَ الدُّوَل، والمَنَّ بالنُّفوس التى جعلها النَّصر لنا من جُملة الخَوَل؛ وأغْرىٰ عَواطِفَنا بتحقيق رَجاءِ مَن مَدَّ إلىٰ عَوارِفنا كَفَّ الأمَل، وأفاض بمواهِبِ نَعْمائِنا، علىٰ من أناب إلى الطاعة حُلَل الأمْنِ بعد الوَجَل؛ وانتزع بآلائنا،

---

(١) تقدم له تقسيمه الى ثلاثة أقسام فقط كما ورد فى الصفحة ١٣٤ من ج ١١ من هذه الطبعة فيكون هذا زائدا على الأقسام .

لمن تمسَّك بولائنا ، أرْواحَ رعاياه من قَبْضـةِ الأجَل ، وجعل بَرْدَ العَفْوِ عنه وعنهم بالطاعة نَتِيجَةَ ما أذاقهُم العِصْيانُ من حَرارَةِ الغَضَب : إذ « رُبَّمـا صَحَّتِ الأجْسامُ بالعِلَــلَ » .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جعلت عَفْوَنا ممَّن رَجَاه قَرِيبـا ، وكَرَمنا لمن دعاه بإخْلاص الطاعة مُجِيبا ، وبِرَّنا لمن أقْبَـل إليه مثيبًا بوجه الأملِ مُنِيبا ، وبَأْسَـنا مصيبا لمنْ لم يجعَل اللهُ له فى التَّمسك بمراحمنا نَصِيبا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَعْصِم دَمَ من تمسَّك بِذمامِها ، وتَحْسِمُ موادَّ مَن عانَدها بانتقام حُسَامِها ، وتَفْصِم عُرَا الأعْناق ممَّن أطْمعه الغُرور فى آنْفصال أحْكامها وآنْفصامِها ، وتَقْصِمُ مَن قَصد إطْفاءَ ما أظْهره اللهُ من نُورِها وآقْتِطاعَ ما قضاه من دَوَامِها ، وتجعلُ كلمةَ حَمَلتِها هى العُلْيا ولا تزالُ أعناقُ جاحِدِيها فى قَبْضة أوْليائها وتحت أقْدمها ؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالهُدىٰ ودِينِ الحَقِّ إلىٰ كلِّ أُمَّه ، المنْعوتُ فى الكُتُب المنزَّلة بالرأْفَة والرَّحْمه ، المخصوصُ مع عموم المعجزات بخَمْسٍ : منها الرُّعْبُ الذى كان يتقدَّمه إلىٰ من قَصَـده ويَسْبِقُه مَسِـيرةَ شَهْرٍ إلىٰ من أمَّه ، المنصوصُ فى الكُتُب المُحْكَمَة علىٰ جِهادِ أُمَّتِه الذين لا حَياةَ لمن لم يتمسَّكْ من طاعتهم بذِمَّه ؛ صلَّى اللهُ عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين فَتَحُوا بدَعْوتِه الممـالك ، وأوضَحُوا بشِرْعَتِه إلى الله المَسالِك ، وجَلوْا بنُور سنَّتِه عن وَجْه الزَّمن كلَّ حالٍ حَالِك ، وأوْردُوا من كَفَر برَبِّه ورُسُلِه مَوارِدَ المَهالِك ، ووَثِقُوا بمـا وعد اللهُ نَبِيَّه حين زَوَىٰ له ذلك ؛ صلاةً لا تزال الأرْض لهـا مَسْجِدا ، ولا يَبْرحُ ذِكْرُها مُغـيرًا فى الآفاق ومُنْجِدا ، ما آسْتَفْتَحتْ أَلْسنَة الأَسِـنَّة النَّصْرَ بإقامتها ، وأبادتْ أعداءَها باستِدَامَتِها ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّه لمـا آتانا اللهُ مُلْك البَسِيطَه ، وجعل دَعْوتَنا بأعِنَّة ممـالك الأقْطار مُحِيطَه ؛ ومكَّن لنا فى الأرْض ، وأنْهضَـنا من الجِهاد فى سبيله بالسُّـنَّة والفَرْض ،

وجعل كلَّ يوم تُعرَضُ فيـه جيوشُنا من أمْثلة يَوْمِ العَرْض، وأظَلّتْنا بَوادِرُ الفتوح، وأطَلَّتْ علىٰ الأعْداءِ سُيوفُنا التى هى علىٰ من كَفَر بالله وكفر النِّعْمَةَ دعْوةُ نُوح؛ وأيَّدنا بالملائكة والرُّوح، علىٰ من جعل الواحدَ سبحانه ثلاثةً : فانْتصر بالأبِ والآبْن والرُّوح؛ وألْقتْ إلينا مُلوكُ الأقطار السَّلام، وبذَلتْ كرائِمَ بلادها وتِلادِها رَغْبـةً فى الآلتجاء إلىٰ ظِلٍّ أعْلىٰ من الأعْلام؛ وتوسَّـلَ من كان منهـم يُظْهِر الغِلْظَةَ بالذِّلَّة والخُضُوع، وتوصَّـل من كان منهم يُبْـدِى القُوَّةَ بالإخْلاصِ الذى رَأوْه لهم أقْوَى الجُنَنِ وأوْقَى الدُّرُوع ـ عاهَدْنا الله تعالىٰ أن لا نَرُدَّ منهم آمِلا، ولا نَصُدَّ عن مَشارِعِ كَرمِنا نَاهِلا؛ ولا نُخَيِّبَ من إحساننا رَاجِيا، ولا نُحَلِّئَ عن ظِلِّ بِرِّنا لَاجِيا؛ عِلْمـا أنَّ ذلك شكْرٌ للقُـدْرة التى جعلها الله لنـا علىٰ ذلك الآمِل، ووُثُوقًا بأنَّه حيثُ كان فى قبضتنا متىٰ نَشَاءُ نجمع عليه الأنامِل؛ اللَّهمَّ إلَّا أن يكونَ ذلك اللَّاجئُ للغِلِّ مُسِرًّا، وعلىٰ عَداوَةِ الإسلام مُصِرًّا؛ فيكونُ هو الجانِىَ علىٰ نَفْسه، والحَانِىَ علىٰ مَوْضِعِ رَمْسه، والمُفَرِّطَ فى مَصْلحة يَومِه وغده بتذكيرِ عَداوَةِ أمْسه.

ولـمَّا كان من تقدَّم بالمملكة الفلانيـة قد زَيَّن له الشيطانُ أعْمالَه، وعَقَد بحِبَالِ الغُرورِ آمالَه؛ وحَسَّن له التَّمسُّـكُ بالتَّتَار الذين هم بمهابتنـا محصورون فى ديارهم، مَأْسُورُون فى حبائل إدْبارِهم؛ عاجِزُون عن حِفْظ ما لَدَيْهِـم، قاصِرُون عن ضَـبْط ما آسْتَلَبَتْه السَّرايا المنصورةُ من يَدَيْهم؛ ليس منهم إلَّا مَن له عند سُيُوفنا ثَار، ولهـا فى عُنُقِه آثَار، ومن يعلَمُ أنَّه لابدَّ له عندنا من خُطَّتَىْ خَسْف : إمَّا القتلُ أو الإسار.

وحينَ تمـادَى المذكورُ فى غَيِّه، وحمـله الغُرورُ علىٰ رُكوبِ جَوادِ بَغْيِه، أمَرْنا جُيوشَنا المنصورةَ فجاسَتْ خِلَالَ تلك المـالك، وداسَتْ حَوافِرُ خَيْلِها ما هُنالك، وساوتْ فى عُموم القَتْل والأسْرِ بين العبْد والحُرِّ والمملوك والمـالك؛ وألْحقتْ رَواسِىَ

جِبالهم بالصَّعيد ، وجعلتْ حُماتَهم كزُرُوعٍ فَلاتِهم منْها قائمٌ وحَصيد ؛ فأسْلمهم الشيطانُ ومرّ ، وتركهم وفرّ ، وما كَرّهم وما كَرّ ، وأعْلمهم أنَّ موعِدَهم الساعةُ والساعةُ أدْهىٰ وامرّ ؛ وأخْلَفهم ما ضَمِنَ لهم من العَوْن ، وقال لهم : ﴿ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُم إِنِّى أَرَىٰ مَالَا تَرَوْنَ ﴾ .

وكان الملكُ فلانٌ مِمَّن تدبَّر طُرُقَ النَّجاة فلم يَرَ إليها سِوَى الطَّاعةِ سَبِيلا ، وتأمَّل أسْبابَ النَّجاح فلم يَجِدْ عليها غيرَ صِدْقِ الاْنْتماء دَليلا ؛ فأبْصر بالخِدْمَةِ موضِعَ رُشْده ، وأدْرك بسَعْيِه نافِرَ سَعْدِه ؛ وأراه الإقبالُ كيف تثبَتْ قَدَمُه فى الملك الذى زلَّتْ عنه قَدَمُ من سَلف ، وأظْهر له الإشْفاقُ علىٰ رعاياه مصارِعَ من أوْرده سُوءُ تَدْبيرِ أخيه مَوارِدَ التَّلَف ؛ وعرَّفَه التمسُّكُ بإحساننا كيف ٱحْتوت يدُه علىٰ مالم يُبْقِ غَضَبُنا فى يَد أخيه منه إلَّا الأسَىٰ والأسَف ؛ وحسَّنتْ له الثِّقةُ بكرمنا كيف يُجْمِلُ الطَّلب ، وعلَّمتْه الطاعةُ كيف يَستنْزِل عوارفَنا عن بعض ماغلبت عليه سُيُوفنا : وإنَّما الدنيا لمن غَلَب ؛ وٱنْتمىٰ إلينا فصار من خَدَمِ أيَّامنا ، وصنائِعِ إنْعامِنا ، وقَطَع علائِقَه من غيرنا ؛ فلَجأ منَّا إلىٰ رُكْنٍ شَديد ، وظِلٍّ مَديد ، ونَصْرٍ عَتيد ؛ وحَرَمٍ تأْوِى المِلَّة إليه ، وكَرَمٍ تُقِرُّ نَضارتُه ناظِرَيْه ، وإحْسانٍ يُمتِّعه بما أقرَّه عطاؤُنا فى يديه ، وٱمْتنانٍ يَضَعُ عنه إصْرَهُ والأغْلالَ التى كانَتْ عليه ـ ٱقتضىٰ إحْسانُنا أن نُغْضِىَ له عن بَعْض ما حلَّت جُيوشُنا ذُرَاه ، وحَلَّتْ سَطواتُ عساكرنا عُراه ، وأضْعفَتْ عَزَماتُ سَرايَانا قُواه ، ونَشَرتْ طلائِعُ جُنُودنا ماكان سَتَره صَفْحُنا عنهم من عَوْراتِ بلادهم وطَوَاه ، وأن نُخَوِّلَه بعضَ ما وردت خُيولُنا مَناهِلَه ، ووَطِئَتْ جيادُنا غارِبَه وكَاهِلَه ، وسلَكَتْ كُماتُنا فملَكَتْ دارِسَه وآهِلَه ؛ وأن يبقىٰ مُلْكُ هذا البَيْتِ الذى مَضىٰ سَلَفُه فى الطاعة عليه ، ويستمرَّ مَلَكَ الأرْمَن الذى أجْمل السَّعْىَ فى مصالحه

بيديه ؛ لِتَتَيَمَّن رعاياه به ، ويعلموا أنَّهم أمِنُوا على أرْواحهم وأوْلادهم بسَبَبِه ، عن طو ية مخلصــة ونفس مطيعة ، ولا تخشى عليه يَدُ جائِرَه ، ولا سريَّةٌ فى طلَبِ الغِرَّة سَائِره ؛ ولا تَطْرُق كِنَاسَه أَسْدُ جيُوش مفْتَرِسَه ، ولا سِباعُ نِهاب مُخْتَلِسَه ؛ بل تستمرُّ بِلادُه المذكورةُ فى ذِمام رعايَتِنا ، وحَضانَةِ عنايَتِنا ؛ وكَنَف إحْساننا ، ووَديعَــةِ بِرِّنا وآمْتِناننا ؛ لاتَطمَحُ إليها عينُ مُعانِد ، ولا يمتدُّ إليها إلّا ساعدُ مُساعِد وعَضُد مُعاضد .

فليُقابِلْ هذه النِّعمة بشُكْرِ الله الذى هــداه إلى الطاعه ، وصانَ بإخلاص وَلائِه نَفْسَــه ونَفائِسَ بلاده من الإضاعَه ؛ وليَقْرُنْ ذلك بإصْــفاء موارد المَوَدَّه ، و إضْفاءِ ملابس الطاعة التى لاتَزْدادُ بحسْنِ الوفاء إلا جِدَّه ؛ وآستِمْرارِ المُناصَحةِ فى السِّرِّ والعلَن ، وآجتناب المُخادَعة ما ظَهَر منها وما بَطَن ؛ وأداءِ الأمانَةِ فيما آستقرَّ معه الحلْف عليه ، ومُبايَنَةِ ما يُخْشىٰ أن يَتَوجَّه بسببِه وجْهُ عَتْب إليــه ؛ وآسْــتدامَةِ هذه النِّعمة بحِفْظ أسْبابها ، وآسْتِمَامَةِ أحْوالِ هــذه المِنَّةِ برَفْضِ مُوجِبات الكَدَرِ وآجْتِنابِها ، و إخْلاص النِّيَّةِ التى لا تُعتبر ظواهرُ الأحْوالِ الصالحة إلّا بِها .

ومن ذلك ما يكتب به لحكم رُماةِ البُنْدق

قد جَرَت العادةُ أنَّه إذا كان للســلطان عنايةٌ برَمْيِ البُنْدق ، أقام لرُماتِه حاكمًا من الأُمراء الذين لهم عنايةٌ برَمْيِ البُندق .

وهذه نسخةُ تَوْقيع من ذلك :

الحمدُ للهِ الذى خصَّ أيَّامنا الزاهرةَ ، باستكمالِ المحاسنِ فى كلِّ مَرام ، وجعل [من] أوْلياءِ دَوْلتِنا القاهرةِ ، من أصاب من كلِّ مَرْمًى بَعيد شاكِلَةَ الصَّوابِ حتّىٰ أصبح

حاكمًا فيه بين كلّ رَام ، وجمع لخواصّنا من أشتات المفاخرِ ما إذا برزُوا فيه للرياضة ليلًا [أغنتْ] قِسِيّهم عن الأهِلّة ورُجومُها عن رجُوم الظّلام ، وسدّدَ مقاصِدَ أصْفيائنا فى كلّ أمْرٍ فما شُغلوا بمَسَرّة سِرٍّ إلا وكانت من أقوى أسْبابِ التّمرُّن على خَوْض الغَمَرات العِظام ، واقتحامِ الحَرْب اللُّهام ، واشتِمالِ جلابيبِ الدُّجى فى مصالح الإسلام .

نحمدُه على نِعَمه الوسام ، وأياديه الجِسام ، وآلائه التى ما بَرِحَتْ بها ثُغُورُ المسارّ دائمةَ الابْتِسام ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تعصِمُ من الزّلَل ، وتُؤَمّن من الزّيْغ والخَلَل ، وتُلْبِسُ المتمسّكَ بها من أنوارِ الجلالة أبْهَى الحُلَل ، ونشهدُ أنّ محمّدًا عبدُه ورسولُه المنزّه عن الهوى ، المخصوصُ بالوَحْيِ الذى عَلّمه شَديدُ القُوَى ، الدّالُّ على اعتبار الأعْمال بِصِحّة القَصْد بقوله صلّى الله عليه وسلم : « إنّما الأعْمال بالنّيّاتِ وإنّما لِكُلّ امْرِئٍ مانوى » . صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين وَفّقَ الإخلاصُ مساعِيَهم ، ووفّر الإيمانُ دَواعِيَهم ، صلاةً دائمةَ الاتّصال ، مستمرّةَ الإقامة بالغُدُوّ والآصال ، وسلّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنّه لمّا كان رَمْىُ البُنْدق من أحْسنِ مالهَتْ به الكُماة ، فى حال سِلْمِها ، ومن أبْهجِ ما حفِظَتْ به الرُّماة ، حياةَ نُفُوسها وعِزّةَ عَزْمِها ، على ما فيه من اطّراحِ الراحة واجْتِنابِها ، واسْتِدعاءِ الرّياضة واجتنائها ، وخَوْضِ الظُّلُمات فى الظّلام ، وتَوخّى الإصابةِ فى غَمَرات الدُّجى التى تَخْفَى فيها المقاتلُ على حَدَق السّهام ، وارْتقاب ظَفَر ، يُسْفِرُ عنه وَجْهُ سفر ، ومُهاجَمةِ خَطَر ، تُفْضى إلى بلُوغِ وَطَر — وله شَرائطُ تَقْتَضِى التقدُّمَ بين أرْبابِه ، وقَواعِدُ لا يخالفها(١) مَن كان مُبرِّزًا فى أصْحابه ، وأدَواتُ

(١) فى الأصل «فى مخالفها» ولا معنى له . تأمل .

كال، لابُدَّ للمتحلِّي بهذه الرُّتبة منها، وحُسْن خِلال، تُهدَرُ أعمالُ من بَعُد عليه مَرامُها وقَصُرتْ مَساعِيه عَنْها؛ وعوائِدُ معلومةٌ، بين أرْباب هذا الشَّأْن وكبرائِه، ومقاصِدُ مَفْهومةٌ، فيما يتميز به المُصيبُ الحاذقُ علىٰ نُظَرائِه .

ولمَّا كان الجنابُ العالى الفلانىُّ ممَّن يشارُ إليه فى هذه الرتبة بَبَنانِ التَّرْجيح، ويُرجَع إلىٰ أقواله فيما آقتضَى التَّعديلَ فيما بين أرْبابها والتَّجْريح؛ ويُعملُ فيها بإشارَتِه الخالصةِ من الهَوَىٰ والأغْراض، ويُعوَّلُ فيها علىٰ قدَمِ مَعْرفَتِه المميزة بين أقْدار الرُّماة مع تَساوِى إصَابة الأغْراض؛ لآحْتِوائِه علىٰ غايات الكمال فيها، وسَبْقه منها إلىٰمقاماتٍ حسان لايُعْطيها حَقَّها[الا]مِثْلُه ولا يُوفِّيها ـ آقتضىٰ رَأْيُنا الشريفُ أن نَعدِق به أحكامَها، ونَرُدَّ إلىٰ أمْرِه ونَهْيِه كُبراءَها وحُكَّامَها .

فرُسم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكمًا فى البُنْدق لما يتعين من آخْتِصاصِها بجَنابِه، ويتبين من أولَوِيَّته بالحُكْم فى هذا الفَنِّ علىٰ سائرأرْبابِه .

فَلْيَلِ ذلك حاكمًا بشروطه اللّازمة بين أهْلِه، المعتَبَرةِ بها خِلالُ الكمال فى قَوْلِ كلِّ أحد منهم وفِعْلِه؛ المُمَيِّزةِ بين تَفاوُتِ الرُّماة بحسب كيفيةِ الرَّمْيِ وإتْقانه، المرجحة فى كَثْرة الطَّير بإمكانه له فى وَقْتِ البروز ومكانه؛ المُهْدِرَة مايجب بين أهْل هذا الفَنِّ إهْدَارُه، المُثْبِتَةِ مايتعيَّن فى كمال الأدَوات إثْباتُه فىقِدَم الكُبراء وإقْرارُه؛ ولْيعْمَلْ فى ذلك جميعه بما تقتضيه معْرفَتُه المجمَعُ فى فَنِّه عليها، ويتقَدَّمْ فيه بما تدله عليه خِبْرتُه التى ما بَرِحَ وجْهُ الآختيار مصروفًا إليها؛ والله تعالىٰ يسدِّدُه فى القوْلِ والعَمَل، ويبلِّغه مراتِبَ الرِّفعة فى خلاله الجميلَة وقد فعل؛ والخيرُيكون، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : ورُبَّما كان المرسومُ المكْتَتَب لمن هو دُون من تقدَّم من أميرعشرة أو مَنْ فى معناه، فيفتتح بـ«أما بعد» ويكمل علىٰ نحو ماتقدّم .

وهذه نسخةٌ ثانيةٌ لحاكم البُنْدق، مفتتحةٌ بـ«أما بعدُ» وهى :

أمّا بعدَ حَمْدِ اللهِ الذى لا مُعَقِّب لحُكْمِه، ولا يَعْزُب شَىْءٌ عن عِلْمه، ولا قُنُوطَ من رَحْمته وسَعةِ حِلْمِه، مُلْهِم أهل محاربة أعداء دِينِه بالرِّياضة لها فى أيَّام سِلْمِه، ومُنْجِز وُعُود السُّعود لمن كان النَّجْم مَبْدأ هِمَّتِه، والصِّدْقُ حُلَّة سَجِيَّته، والعزُّ حلْيةَ ٱسْمِه؛ والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى هدَى اللهُ بنُورِ ملَّته العادلة من تردَّىٰ فى ظُلُمات ظُلْمِه، ورفَعَ منارَ النُّبوَّة بما خصه به من ٱفتتاح التقدّم فى رتبتها وخَتْمِه؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سَرىٰ كلٌّ منهم إلىٰ غاية الكمال علىٰ نَجائِبِ هِمَّتِه وجِيادِ عَزْمِه ــ فإنَّ أَوْلىٰ من رُعِيَتْ له أسْباب قِدَمِه وتَقَدُّمه، وفُتِحتْ له أبْواب حُكْمِه فى رُتْبته وتَحَكُّمه، وأُعِيدَ إلىٰ مكانته التى رَقَاها باسْتِحقاقِه قَدِيما، ورُفِعَ إلىٰ منزِلَته التى لم يَزَلْ بقواعدها خَبِيرًا وبأَوْضاعها عَلِيما ــ مَن ارتقىٰ فى رتبته إلىٰ نَجْم أُفُقِها، وٱقْتدىٰ فى مَناهِجِه بدَلِيل مسالكها وطُرُقِها؛ فأتَىٰ فى مصالحها بيوتَ الإصابَةِ من أبوابها، ونَقَل فيها أوْضاعَ الإجادة عمَّن كان أدْرىٰ بها؛ وتقدَّم فيها تقدُّمَ هِجْرَتِه وسَبْقِ قِدَمِه، وبلَغ فى مقاماتها الغايَةَ بين وَثَبَاتِ سَاعِدِه وثَبَاتِ قَدَمِه؛ وجمع من أشْتات الطَّير ما ٱفترق فى غيره، وحَوىٰ من السَّبْق إلىٰ أنْواعها ما حكم بسَعْد نَجْمه ويُمْن طَيْره؛ فكَمْ ليلةٍ أسْفر فيها أبْرزُوه عن صباح نَجاحِه، وكَمْ طائرٍ زاحم النَّسْرَيْنِ بقوادمه أصْبح لدَيْه محمولًا بجَناحِه؛ وكَمْ أنزلت أهِلَّةُ قِسِيِّه الطيْرَ علىٰ حُكْمِها، وكم حَكَتْ بَنادِقُه فى رُجوم الطَّيْرِ المُحلِّقَةِ إلى السماء ٱنقِضَاضَ نَجْمِها؛ وكَمْ أبصرَ مقاتِلَ الطَّير وهى من اللَّيل فى ظُلُماتٍ بعْضُها فوقَ بَعْض، وكَمْ ٱشتغل من الطير الواجب بنَدْب رَمْيٍ لم يشْغَلْه من إعداد الأُهبَة للجهاد عن الفَرْض؛ حتَّىٰ كاد النَّسْر الطائر إذا توهَّم أنَّ الهِلالَ قَوْسُه يَغْدو كأخِيه واقعا، والمِرْزَم المحلِّقُ فى الأُفُقِ يُمْسِى لإشارة

بنادقه الصُّمِّ متتبِّعا ؛ حتى أصبحَ وهو الكبير فى فنِّه بآداب التعريف ، وأضحىٰ وهو الخبيرُ بنَوْعِه بطريق النَّقل والتَّوْقيف .

ولمَّا كان فلانٌ هو كبيرَ هـذا الفَنِّ وخبيرَه ، ومُقَـدَّمَ هذا النَّوع الذى لم يزل بَجْلائه عَظِيمَ كلِّ عَصْر وأميره ، وقديمَ هذا المَرْمَى الذى جُلُّ المراد به الجِدُّ لا اللَّعِب ، وأليفَ هذا المَرامِ الذى يَنْشَطُ إليـه اللاَّعِبُ ويستَرْوِحُ إليه التَّعِب ـ ٱقتضى الرأْىُ الشريف أن نجعلَه حاكمًا فى هـذه الرتبة الجليـلة بمـا علم أو عُلِّم منها ، فاصلًا بين أهْلِها بمعرفتـه التى ما برِحَتْ يُؤْخذ بهـا فى قواعدها وينقَلُ عنهـا ـ فرُسِم بالأمر الشريف أن يكونَ حاكمًا فى البُندق .

فلْيَسْتقِرَّ فى هذه الرتبة التى تلقَّاها ، بيمين كفَايَتِه ويُمْنه ، وٱرْتقاها ، بتَفَرُّده فى نَوْعه وتَقـدُّمِه فى فَنِّه ؛ ولْيعتَمِدِ الإنصافَ فى أحكام قَواعِدِها ، وإجْراءِ أمْرِ أربابها على أحوالهـا المعروفة وعَوائِدِها . ويُنافِسِ المعْرُوفين بها على التَّحَلِّى بآدابها ، والتَّمسُّـك من المُروءَة والأُخُوَّة بأفْضـل أهْدابِها ؛ ويُنْصِفْ بينهم فيما يُعْتَـدُّ به من وَاجِبِها ، ويُلْزِم الداخلَ فيها بالمَشْىِ على المأْلُوف من طُرُقها والمعروفِ من مَراتِبِها ؛ ولا يَحكُمْ فى التقديم والتأخير بهَوَى نَفْسِه ، ولا يقْبَلْ من لم يَتَحَرَّ الصِّدْقَ فى يومه أنَّه قُبِل منه فى أمْسِه ؛ فإنَّ ٱسْـتِدامةَ شروطها أمانٌ من السُّـقوط عن دَرَجها ، وإذا حَكَّمتْ نفوسُ أهْلِها الصِّدْقَ فى أقْوالها وأفْعالها فقد خَرجَتْ من خَطِّ حَرجِها ؛ ولْيَرْعَ لذَوى التقدُّم فيها قِدَم هِجْرَتِهم ، وٱشْتِهارَ سيرتهم الحسنة بين أسْرتِهم ؛ وقد خُبِرَ من أوْصافه الحَسَنه ، وسَابِقِ رُتْبته التى لم تكن عَيْنُ العِناية عنها وَسِنَه ؛ ما ٱقتضَى ٱستقرارَ رُتْبته علىٰ مكانتها ومكانهـا ، وٱكتُفِى له من مَبْسوط الوصايا بعُنْوانها ؛ فلْيتَّقِ اللهَ فى قوله وعمله ، ويجعلْ الاعتماد علىٰ تَوْفيقه غايةَ أمَله ؛ والخيرُ يكون : إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك ما يُكْتَبُ به فى إلْباس الفُتُوَّة .

اِعلم أنَّ طائفةً كبيرةً من الناس يذهبون إلىٰ إلباس لِباس الفُتُوَّة، ويقيمُون لذٰلك شروطًا وآدابًا جاريةً بينهم . ينْسُبون ذلك فى الأصل إلىٰ أنَّه مَأْخوذٌ عن الإمام علىّ كَرَّم اللهُ وجهَه .

والطريقُ الجارى عليــه أمْرُهم الآنَ أنّه إذا أراد أحدُهم أخْذَ الطَّريق عن كَبيرٍ من كبراء هذه الطائفة، آجتمع من أهْلها من تَيَسَّر جَمْعُه، وتقدّم ذلك الكبيرُ فيُلْبِسُ ذلك (١) ثِيابًا، ثم يجعلُ فى كُوز أو نَحْوه ماءً ويَخْلِط به بعْضَ مِلْح، ويقومُ كلُّ منهم فيشربُ من ذلك المـاء ويَنْسُبُه إلىٰ كبيره . وربّما آعتنىٰ بذلك بعضُ الملوك . وقد جَرتِ العادةُ فى ذلك أنه إذا ألْبس السلطانُ واحدًا من الأُمَراء أن يكتبَ له بذلك تَوْقيعًا .

وهذه نسخةُ توقيع بفتوَّة، من إنشاء القاضى مُحيِى الدِّين بن عبدالظاهر، وهو :

الحمدُ للهِ الذى جعل أنسابَ الفُتُوَّه، متصلةً بأشْرف أسْبابِ النُّبوّه، وأفْضلِ من أمدّه منه بكلِّ حَيْلٍ وقُوَّه، وأسْعد من سَما فكان عليًّا علىٰ كلِّ من سام عُلُوّه .

نحمدُه حمــدًا تغْدُو الأفواه به مَمْلُوّه، ونشكُره علىٰ مواهبِــه بآيات الشُّكْر المَتْلُوّه ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ من جعــل إلىٰ مَنْهَجِ التوحيــد رَوَاحَه وغُدُوَّه، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شدَّ اللهُ أزْرَه بخير من أفْتىٰ وفتّىٰ فنال كلُّ فَتِوىٍّ من الفِتْيانِ به شَرفَ الأُبُوَّة والبُنُوَّه، صلّى اللهُ عليــه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين نصروا وَلِيَّه وخذَلُوا عَدُوّه، صلاةً موصِّلةً إلىٰ نَيْلِ الأمانِىِّ المرْجُوَّه .

(١) بياض بالأصول، ولعله : المريد أو نحوه .

وبعدُ، فإنَّ خير من ٱتَّصل به رجاءُ الرجال الأجْواد، وطَوَى البعيدُ إلىٰ تَحْصيل مَرَامه كلَّ طَوْد من الأطْواد، وأماط به عن مكارم الأخلاق لِثَامَ كلِّ جُود وٱمْتطىٰ ظهْرَ خيرِ جَوَاد، وٱسْتمسَكَ من ملابس الشَّرف بما يؤمِّن ويؤمِّل وما يشدّ به من كلِّ خيرٍ لباسَ التَّقْوىٰ، وما تُؤَيَّد به عزيمته فتقوىٰ، وما يتقيد به علىٰ رءُوس الأحزاب، وما يتنزل به عليه أحْسنُ آيةٍ من هذا الكتاب — من ٱشْتهر بالشَّجاعَة التي تَقَدَّم بها علىٰ قَوْمه، وحَمِدَ أمْسَها في يَوْمه؛ وبالشَّهامة التي لها ما للسِّهام من تَفْويق، ولِزُرْقِ الأسِنَّة من تَحْذيق؛ ولِبِيضِ الصِّفاح من حدَّة مُتُون، وللسَّمْهَرِيَّةِ من ٱزدحامٍ إذا ٱزدحَمَتِ المَنُون؛ ومن صِدْق العَزِيمَه، مايشهد به كرمُ الشِّيمَه؛ ومن شِدَّة الباس، مايجتمع [به] علىٰ طاعته كثيرٌ من الناس؛ ومن صِدْقِ اللَّهْجَةِ واللِّسان، ماٱتَّصف عَفافُه منهما بأشْرفِ مايتَّصِفُ به الإنسان؛ ومن طَهارَةِ النَّفْسِ مايتنافَسُ علىٰ مِثْله المُتَنافِسُون، ويَسْتضيءُ بأنوارِه القَابِسُون، ويَرْفُلُ في حُلَلِ نَعْمائه اللَّابِسُون؛ و[كان] من الّذين أبانُوا عن حُسْن الطاعة وأنابُوا، وإذا دُعُوا إلىٰ ٱسْتِنفارِ جهادٍ وٱجتهاد لَبَّوْا وأجابُوا؛ والذين لايَلْوُون ألْسِنَتهم عن الصِّدْق، ولا يُوَلُّون وجُوهَهُم عن الحَقّ؛ والذين لايُقْعِدهُم عن بلوغ الأوطار مع إيمانِهم حُبُّ الأوطان، وإذا نَفذُوا في حَرْبِ حِزْب الأعْداء لايَنْفُذُون إلا بسُلْطان .

ولما كان فلانٌ ذُو المَفاخِر، والمَآثِر، أميرُ الفِتْيان، مُمَيِّزُ الإخْوان والأعْيان؛ هو صاحِبَ هذا المَحْفِلِ المَعْقود، والممدُوحَ بهذا المَقالِ المحمُود، والممنوحَ بهذا المقام المشْهُود؛ والثَّناءِ الذى سَرَّ بالَهُ بما سَرْبَلَه أثوابَ العِزَّة والفَخار، والٱعتناءِ الذى ٱستخير اللهُ في ٱصْطِفائه وٱخْتيارِه في ذلك فَخار — ٱقتضَىٰ حُسْنُ الرأْيِ الشريف — كَرَّم اللهُ أنصارَه، وأعلىٰ مَنارَه — أن نُجيبَ وَسائِلَ مَن وقَفَ في هذا القَصْد وَقْفَةَ سائل، لِيَنَال بذلك كلَّ إحسان وإحْسانَ كلِّ نائِل؛ ودعا إلى الكريم العامِّ بالإنعام،

والدعاء لسُلْطان يُدعَىٰ له ويدعو كلُّ الأنَام ، فقال : أسْألُ اللهَ وأسْألُ سُلطانَ الأرض، مَلِكَ البَسيطَةِ إمامَ العَصْر، رَافِعَ لِواءِ النَّصْر، ناصرَ المِلَّة المُحَمَّديَّه، مُحيي الدَّولة العبَّاسيَّه، فاتحَ البلادِ والقِلاعِ والأمصار، قاهرَ الكُفَّار مُبِيد الفرنجِ والأرْمَنِ والتَّتار، سُلطانَ الزَّمان، خُسْرُوانَ إيران، شَاهِنْشَاه القانِ ، سُلطانَ العالَمِ وارثَ المُلْك ، سُلطانَ العَرَبِ والعَجَمِ والتُّرْك، الذى آنتهىٰ إليه عن أميرِ المؤمنين الإمام الأوّاب، المِغْوار، علىّ بن أبى طالب ذِى الفَخَار، شَرفُ الفُتُوَّة وآتّصالُ الأنْساب.

قلتُ : هذا ما وقفْتُ عليه من نُسْخة هذا التَّوْقيع . وقد ذكر الشيخُ شِهابُ الدِّين محمودٌ الحَلَبيُّ فى كتابه "حسن التوسل" نسخةَ تقْليد أنشأه فى الفُتُوّة ، أسقط منه أوَّل الخُطبة وهو : — وابْتدأ منه بقوله :

نحمَدُه علىٰ ما مَنَحنا من نِعَم شتَّىٰ ، ووهَبنا من عِلْمٍ وحِلْمٍ غَدَوْنا بهما أشْرف من أفتىٰ، وآتانا ملك خِلال الشَّرَف الذى لاينبغى لغيرِ ما آختصنا به من الكمال ولايتأتَّىٰ ، وخَصَّنا به من رَفْعِ أهْلِ الطاعة إلىٰ سماء النِّعَم يَتَبوَّءُون من جِنانِ الكَرَم حيثُ شَاءُوا : وغَيرُهم لا تُفَتَّحُ لهم أبوابُ السماءِ ولا يدخلون الجنَّةَ حتَّىٰ؛ ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةَ من آنتمىٰ فى فَخار أُبُوَّة التُّقَىٰ إلىٰ حَسَب عَلِيّ، وآنتهىٰ فى بأوة البُنُوَّةِ إلىٰ سَببٍ قَوِىٍّ ونَسَب زَكِيّ، وآرْتدىٰ حُلَلَ الوَقار بواسطة الفُتُوَّة عن خيرِ وَصِيٍّ عن أشْرف نَبِيّ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى نور شَريعَتِه جَلِيّ، وجَاهُ شفاعته مَلِيّ ، وبسَيْفِهِ وبه حاز النَّصْر من آنتمىٰ وفاء إليه : فلا سَيْفَ إلَّا ذُو الفَقارِ ولا فَتَى إلَّا عَلِيّ .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ من لَبَّىٰ إحْسانُنا نداءَ وُدِّه، ورَبَّى آمْتنانُنا نِتاجَ وَلائه الموْرُوث عن أبيه وجَدِّه، ورقَّاه كَرَمُنا إلىٰ رُتبة عَلاءٍ يَقفُ جَوادُ الأملِ عن بُلوغِها عند حَدِّه؛

وتَلَقَّتْ كرائمُنا وَفْدَ قَصْـدِه بالتَّرحيب، وأنزلت جَارَ رَجائِه من مصر نَصْرِها بالحَرَم الآمِن والرَّبْع الخَصِيب؛ وأدْنَتْ لأمَلِه ما نأىٰ من الأغْراض حتى بلَّغَهُ بفَضْلها سَهْمُ آجْتهاده المُصِيب، وأعَدّتْ له من حُلَلِ الجـلالة ما هو أبهىٰ من رِداءِ السماء الذى تَزْدادُ على الأبَدِ جِدّةُ بُرِده القَشِيب؛ وخَصَّـته لأبْناءِ المَجْـدِ بأجَلِّ بُنُوّة جعلَتْ له فى إرْث خِلالِ الشَّرف أوْفَر حَظٍّ وأوْفىٰ نَصِيب ــ من سَمَتْ مَنابِرُ المَجْـدِ بذِكْرِه، وٱبْتسمَتْ أسِرَّةُ الحَمْـدِ بشُكْرِ أوصافه ووَصْفِ شُكْرِه؛ وٱخْتالَتْ موادُّ الثناء بحسن خِلالِه، وٱختارتْ كواكبُ السَّناء إقبالَ طوالِعه بطوالع إقْباله؛ وتَمسَّكَ من طاعَتِنا بأمْثل أسْباب الهُدىٰ، وٱعْتصم بعُرْوَةِ بُنُوّة الأبناء فأوْطأه التَّوثُّق بها رِقابَ العِـدا، وٱتَّصف بمحاسن الشِّيَم فى مَوَدَّتِنا فأضْحىٰ فَتِيَّ السِّنِّ كَهْلَ الحِلْمِ يهتَزُّ للنَّـدىٰ؛ وٱنتمىٰ إلينا فأصْبح لدينا مَلِكًا مقرَّبا، وأوْجب من حُقوق الطاعة علينا ما أمْسَىٰ به لدينـا ــ مع جَلالَةِ الأبْناء ــ ٱبْناً وغَدَوْنا له ــ مع شَرَفِ الآباء ــ فى نَسَبِ الفَخْرِ العَريق أبا؛ ونَشأ فى مهاد المُلْك فسَما به للعِلْمِ والعَلَم، بالسَّيف والقلَم، والبأْس والكَرَم، وٱعتزىٰ إلىٰ أُبُوّة حنوّنا بِبُنُوَّة رجائه فتَشَبَّه بعَدْل أيَّامنا: «ومَنْ يُشْبِهْ أبَاه فمـا ظَلَم»؛ وتَحَلّى بصِـدْق الوَلاءِ وهو أوَّلُ ما يطلب فى سرِّ هذا النَّسب ويُعْتَـبر، وتَخَلَّىٰ لنكاية عدوّ الإسلام بلُطْف مُكايَدَة: السيوف تَجُزُّ الرِّقاب «وتَعْجز عما تنال الإبَر».

ولـمَّـا كان فلانٌ هو الذى زَانَ بمُوالاتِنا عُقُودَ مَجْدِه، وزادَ فى طاعتنا علىٰ ما وَرِثَ من مكارم أبِيه وجَدِّه؛ وزانَ المُلوكَ فى إقبال شَبَابِه، وصانَ مُلْكَ أبيه عن عوارض أوْصابِه بٱتِّباعِ ما أوْصىٰ بِه، وأنِفَتْ صَوارِمُه أنْ تكونَ لغيرِ جِهاد أعْداء الله مُعَدَّه، وعَزائِمُـه أن تَتَّخِذَ عَدُوَّ الله وعدوّه أوليـاءَ تُلْقِي إليهم بالمَوَدَّه؛ وسِهامُه أن تُسَـدَّد [الا] إلىٰ مَقاتِل العِدا، وأسِنَّته أن يُبَلَّ لهـا من غير مَناهِلِ صُدُورِ الكُفْر صَـدَىٰ؛ مع ٱجْتماع خلال الشَّرف لشَرف خلاله، وٱفْتراق أسْـباب السِّرار عن هَالَةِ كَماله؛

وسُؤالِه ما ليس لغيره أنْ يمدّ إليه يدا ، وٱلْتِمَاسِه من كَرمِنا العميم أجَلّ ما نَحَلَ والدٌ ولَدا ، وأنّه وقف علىٰ قَدَم الرَّجاءِ الثَّابِت ، ومَتَّ بِقِـدَمِ غُروسِ الوَلاءِ التى أصْلها فى رَوْضِ المَوَدَّةِ نَابِت ؛ وقال : أسْألُ اللهَ وأسْألُ سُلطان الأرض ، القـائِمَ لِجهادِ أعْداء الله بالسُّـنَّة والفَرْض ، فاتِحَ الأمْصار ، الذى لم تَزَلْ سُيوفُه تُهاجِرُ فى سبيل الله عن غُمودِها إلىٰ أن صار له من الملائكة الكِرَامِ أنْصار ، الذى كَرَّم الله شرفَ الفُتُوَّة بٱنْتمائِها إليه ، وأعْلىٰ قَدْرَ بُنُوّة المرُوءَةِ بٱتّصالها به عن الخلفاء الراشدين عن أب أوَّاب عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رِضْوَانُ الله عليـه ؛ وأورَثَه من خُلُقِـه الكَرَمَ والبَأْسَ فتَحَلَّيا منه بأجَلّ مُوافِ مُوافِق ، ومَنَحَه بحِفْظ العَهْد من خصائِصه ماعَهِدَ به إليه النَّبىُّ الأُمّىُّ من أنَّه مايُحِبّه إلا مُؤْمِنٌ ولا يُبْغضه إلا مُنافِق ؛ أعزّ الله سلطانه ، وأوْطأ جِيادَه مَعاقِلَ الكُفْر وأوْطانَه ؛ أن يتقبَّـلَ قَصْدِى بقَبُول حَسَن ، ويُقْبِـلَ بوَجْه كَرمِه علىٰ أمَلِى الذى لم يَقْعُدْ به عن فُروض الطاعات وسُنَنها وَسَن ؛ ويَنْظِمَنِى فى سلك عقود الفُتُوَّة مُلْتزِمًا بأسْبابها ، مقْتَديا بطاعته التى هى أكْمَلُ أنْسابِها ؛ متَّصِفًا بموالاته التى لايَثْبُت لهـا حُكْمٌ إلّا بها ، آتيًا بشروط خِدْمَتِه التى من لم يَأْتِ بها علىٰ ما يجب فمـا أتَى البيوت من أبوابها .

فاستخرنا اللهَ تعالىٰ فى عَقْد لِواءِ هذا الفَخَار لمجْده نَخَار ، ونظمْناه لعقْد هذا المقام الكريم واسطةً لمِثْله كان يَزِينُها الآدِّخار .

فرُسِم بالأمرِ الشريف ـ لازال جُودُه يُعْلِي الجُدُود ، ويُوَطِّدُ لأبْناء ملوك الزَّمن من رُتَب الشرف فوقَ ما وطَّدَت الآباءُ والجُدُود ـ أن نَصِلَ سَبَبه بهذا السَّبَب الكريم ، ونعقِدَ حَسَبه فى الفُتُوَّة بأواخى هذا الحَسَب الصَّميم ، ونعْدِقَ نَسَبه بأصالة هَذِه الأُبوَّة التى هى إِلا عن مثْله عَقِيم ، ويُفاضَ عليه شِعارُ هذا الخُلُق المتَّصل عن أكرم وَصىٍّ بمن قال الله تعالىٰ فى حَقِّه : ﴿ إِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيم ﴾ .

فليحُلَّ هذه الهَضْبَةَ التى أخَذَتْ من مرافق العِزِّ بالمَعاقِل، ويُحَلِّ هذه الرتبةَ التى دُونَ بلوغها من نوع الفَراقِد ألْفُ رَاقِد؛ ويَجُرَّ رِداءَ الفَخْرِ علىٰ أهداب الكواكب، ويُزاحِمْ بمواكب مَجْدِه النجومَ علىٰ وُرُود نَهْر المَجَرَّة بالمناكب؛ ولْيصِل شرف هذه النسبة من جِهَتِه بمن رآه أهْلًا لذلك، ولْيُفْتِ فى الفُتُوَّة بما عَلِم من مذهبنا الذى ٱنتهىٰ فيه منَّا إلىٰ مالك؛ وليُطِلْ علىٰ مُلوك الأقْطار، بهذه الرتبة التى تَفَانَى الرِّجالُ علىٰ حُبِّها، ويَصُلْ علىٰ صُروف الأقْدار، بهذه العناية التى جعلَتْه ــ وهى حِلْيَةُ حِزْبِ اللهِ ــ من حِزْبها؛ وليصِلْ سِرَّ هذا الفَضْل العميم بإيداعه إلىٰ أهْله، وٱنتزاعه ممن لم يَرَه أهْلًا لحَمْله .

قلتُ : وما تقدّم مما يُكْتب عن الأبواب الشريفة السلطانية بالديار المصرية والممالك الشامية، لأرباب السيوف وأرباب الأقلام وغيرهم : من التَّقاليد، والتَّفاويض، والتَّواقيع، والمراسيم : المُكَبَّرة والمصَغَّرة، ليس هو علىٰ سبيل الٱستيعاب، بل علىٰ سبيل التَّمثيلِ والتَّذكير، لِيُنْسَجَ علىٰ مِنْواله، ويُنْهَجَ علىٰ نَهْجه . فإنَّ ٱستيفاءَ ما يكتب فى ذلك مما يَشُقُّ، ويقِفُ القَصدُ دونه . بلْ لا بدّ من حوادثَ تَحدُث لم يسبق لها مثال يقتفىٰ أثَرُه . فيحتاج الكاتب إلىٰ حُسْن التَّصرُّف فى إيراد ما يلائم ذلك ويُناسبُه . وكلُّ كاتب ينفقُ من كَسْبه، علىٰ قَدْر سَعَتِه، والله تعالىٰ هو الموفق إلىٰ نَهْج الصواب، والهادى إلىٰ طريق الحَقِّ فى الأَمور كلِّها، بمَنِّه وكَرَمه .

الفصل الثالث

من الباب الرابع من المقالة الخامسة

(فيما يكتب من الولايات عن نوّاب السلطنة ، وفيه طرفان)

الطرف الأوّل

(فى مقدّمات هذه الولايات ، ويتعلق بها مقاصدُ)

المقصد الأوّل

(فى بيان مَن تصدُر عنه الولايات : من نوّاب السلطنة)

اِعلم أنّ نوّاب السلطنة بالديار المصرية لا تصدُر عنهم ولايةٌ فى جَليل ولا حَقير، بل التولية والعَزْل مَنُوطانِ بالسُّلطان ، والكِتابةُ فى ذلك مَعْدُوقةٌ به ، سواءٌ فى ذٰلك النائبُ الكافلُ ، ونائبُ الإسكندرية ، ونائِبَا الوَجْهين : القبلىِّ والبحرىِّ ، إلا ما يكتبُ عليه النائبُ الكافلُ من القِصَص فى صغائر الولايات : من نَظَر الأوقاف وغيرها ، ثم تُعَيَّنُ ويُكْتب بها تواقيعُ سلطانية .

أمّا نوّاب السلطنة بالممالك الشامية : وهم نائبُ السَّلطنة بالشام ، ونائبُ السَّلطنة بحَلَب ، ونائبُ السلطنة بطرَابُلُس ، ونائبُ السلطنة بحَمَاة ، ونائبُ السَّلطنة بصَفَد ، ونائبُ السلطنة بغَزَّة ، إذا كانت نيابةً لا تَقدِمَةَ عَسكر .[1]

---

(١) يظهر أن هنا سقطا ولعله « فتصدر عنهم الولاية » أخذا مما تقدّم .

المقصـــــد الثـانى

(فى بيان الولايات التى تصدر عن نوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبْواب السلطانية بالممالك الشامية ، أنَّ نُوّاب هذه الممالك يَسْتَبِدُّون بتَوْلِية وُلاة الأعْمال، وقد يَسْتَبِدُّون أيْضا بتوليـة صِغار النُّوّاب ، كالقِلاع والبُلدان التى تكون نيابتها إمْرة عَشَرة . ورُبَّما آستبدُّوا بتوليـة بعض النيابات التى تكون نيابتها إمْرَةَ طَبْلخاناه ، إلّا أنَّ توليةَ العشرات عن النوّاب أكْثرُ، وتوليةَ الطبلخاناه عن السُّلطان أكثر . أمَّا النيابات التى تكون نيابَتُها تقدِمَةَ ألْف ، فإنَّها مختصةٌ بالسلطان . والنياباتُ التى يكون مُتولِّيها جُنْديًّا أو مقـدّمَ حَلْقة فإنَّها مختصةٌ بالنوّاب . وأنَّ توليـةَ أكابرأرْباب الأقلام : كـكاتبِ السِّرّ، والوزيرِ بالشّام، حيث جعلت وزارةً، وناظرِ النُّظار، حيث جعلت نَظَرا ، وأصحاب دواوين المكاتبات ، ونُظّارِ المال بسائر الممالك ، ونُظّارِ الجَيْش ، وقُضاةِ القُضاة بها ـ فإنَّ (١) التوليـةَ فى ذلك تَخْتص بالسلطان دون النوّاب . وما عدا ذٰلك يولّى فيه السلطانُ تارةً، والنوّابُ أخرىٰ . ورُبَّما حصلتِ الولاية فى بعض ذٰلك من بعض النوّاب ثم يُكْتب من الأبواب السلطانية بالحَمْل عليها، علىٰ ما تقدم بَسْطُ القول فيه هناك، فلْيُراجَعْ منه .

---

(١) أعاد هذه الكلمة لطول الفصل .

المقصـــد الثالث

[فى افتتاحات التواقيع والمراسيم بتلك الولايات]

تقدّم فى الكلام على الولايات الصادرة عن الأبْواب السلطانية أنَّه يراعىٰ فيها بَراعةُ الاسْتِهلال فى الافْتتاح وأنَّ الافتتاح فيها بـ«الحمد لله» أعلىٰ من الافتتاح بـ«أما بعدُ» والافتتاحَ بـ«أمَّا بعدُ» أعلىٰ من الافتتاح بـ«رُسِم بالأمْر الشريف» وأنَّ لفظَ «أمَّا بعدُ» أعلىٰ من لفظ «وبعدُ» وأنه يراعىٰ فى الولايات وصفُ المتولِّى والولاية، ويُؤْتىٰ لكلِّ أحد من ذلك بما يناسبه من صفات المدح، ثم يقال: "ولما كان فلان هو المشارَ إليه بالصفات المتقدّمة، اقتضىٰ حسنُ الرَّأْى أن يستقرّ فى كذا ونحو ذلك". ثم يؤتىٰ من الوصايا بما يناسبُ مقام الولاية والمتولِّى لها، ثم يؤتىٰ بالاختتام: من المَشيئَة والتَّاريخ، والحَمْدَلَةِ، والتَّصْلية، والحَسْبَلَة.

والأمر فيما يكتب عن النوّاب جار علىٰ هذا المَنْهج إلَّا فى أُمور قليلة:

منها ـ أنَّ جميعَ ما يُكْتب عن النوّاب بالشَّام يقال فيه «تَوْقيعٌ» ولا يقال فيه «تَقْليدٌ» ولا «تَفْويضٌ» وربما قيل «مَرْسُومٌ» فى أُمورٍ خاصَّة.

ومنها ـ أن التَّوقيع يوصف بـ«الكَرِيم» لا بـ«الشَّريف» فيقال: «توقيعٌ كريمٌ أنْ يستقرّ فلانٌ فى كذا» أو «مرسومٌ كريمٌ لفلان بكذا» بخلاف ما يكتب عن الأبواب السلطانية، فإنَّه يوصف بكونه «شَريفًا» فيقال: «تقليدٌ شريفٌ» و«تَفْويضٌ شريفٌ» و«مَرْسومٌ شريفٌ» و«تَوْقيعٌ شريفٌ» علىٰ ما تقدّم ذكره.

ومنها ـ أنَّ(١) الكاتبَ يأْتِى بنون الجمع [جاريا](٢) فى ذلك علىٰ من تصدر عنه الولاية، كما أنَّ الولايات عن الأبواب السلطانية [يجرى فيها على](٢) العادة فى الكتابة

(١) ذكر هذا فى المخالف سهو فانه موافق لما يكتب عن السلطان أو الملك كما لايخفىٰ. (٢) بياض بالأصل.

عن الملوك . وكأنّهم رَاعَوْا فى ذلك أنَّ المكتوبَ عنه هو السلطانُ فى الحقيقة ، وفعلُ النائبِ كأنَّه فعلُه نَفسه ، كما يقال : هَزَم الأميرُ الجيْشَ ، وفتح السلطانُ المدينةَ ، والذى هَزَم وفَتَح إنَّما هم جُنْدُه لا هو فى نَفْسِ الأمر .

ومنها — أنَّه إذا آفتتح التوقيع بـ«رُسم بالأمر» — لا يوصف بـ«الشَّريف» بل بـ«العالى» علىٰ ما تقدّم . فيقال : «رُسم بالأمر العالى، المولوىّ، السلطانىّ، المَلَكِىّ، الفُلانى الفلانىّ» . وكذلك إذا أُتِى بذكر «رسم» بعد الآفتتاح بـ«الحمد لله وأما بعد» فإنَّه يقال فيه : «العالى» دون «الشريف» .

قلتُ : هذا ما كان الأمرُ عليه فى الزّمن المتقدّم كما أشار إليه المقرُّ الشّهابىُّ آبن فَضْل الله فى "التعريف" . ثم آستقرّ الحال علىٰ وَصْفِ الأمر بـ«الشريف» فيقال : «رسم بالأمر الشريف العالى» إلىٰ آخره، كما يكتب عن السلطان .

ومنها — أنَّه يقال فى آخر التوقيع : «والآعتمادُ على الخط الكريم أعْلاه» ولا يقال : «على الخط الشريف» ، كما فى السلطان .

ومنها — أنَّه لا يذكر فى تواقيع النّوّاب مستندُ كتابتها ، كما يُكْتب فيما يُكْتب عن السلطان .

المقصد الرابع
(فى بيان الالقاب)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة ، فى الكلام على الولايات الصادِرَة عن الأبْواب السلطانية أنَّ أعلىٰ ما يكتب لِأرباب السيوف «المقرّ الكريم» ثم «الجناب الكريم» ثم «الجناب العالى» ثم «المجلس العالى» ثم «المجلس السامىّ» بالياء، ثم «المجلس السامى» بغير ياء، ثم «مجلس الأمير» ثم «الأمير» .

وأن أعْلىٰ ما يكتب لارباب الوظائف الديوانية : « الجناب العالى » ثم « المجلس العالى » ثم « المجلس السامىّ » بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء، ثم «مجلس القاضى» ثم «القاضى» .

وأن أعْلىٰ ما يكتب لأرباب الوظائف الدينية : «المجلس العالى» . ثم ٱستقرّ أعْلىٰ ما يكتب لهم : «الجناب العالى» و «المجلس العالى» بعده، ثم «السامىّ» بالياء، ثم «السامى» بغير ياء ، ثم «مجلس القاضى» ثم « القاضى» علىٰ ما تقدّم فى أرباب الوظائف الديوانية ، إلّا فيما يقعُ الٱختلاف فيه من الألقاب والنُّعوت الخاصّة بكلٍّ منهما .

وأنّ أعلىٰ ما يُكْتب لأرباب الوظائف الصُّوفيّة : « المجلس العالى » ثم « المجلس السامىّ» بالياء ، ثم « المجلس السامى » بغير ياء ، ثم « مجلس الشيخ » ثم « الشيخ » .

وأنّه يُكتب لأرباب الوظائف العادية : «المجلس السامى ، الصدر الأجل » أو «مجلس الصدر» أو «الصدر» .

وأنّه يُكْتب لزعماء أهل الذّمة ألْقابُهم المتعارَفةُ . فيُكتب لرئيس اليهود : «الرئيس» ولبطاركة النّصارىٰ : «البَطْرك» ونحو ذلك .

فأمّا ما يُكتب عن نوّاب الشام، فعلى أصْناف، كما تقدّم فى الألْقاب التى تكتب عن الأبواب السلطانية ، مع ٱختلافٍ فى بعض الألقاب بزيادة ونقص ، وعلوّ وهبُوط .

الصـــــنف الأوّل

(أرباب السـيوف، ولألقابهم مَرَاتِبُ)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّ الشريف . وبذلك يُكْتب للطبقة الأُولىٰ من مَقَدّمى الألوف بالشّام، وحَلَب، وطَرابُلُس، إذا وُلِّى أحدٌ منهم نَظَرَ وقف، أو نحو ذلك . أمّا غير هذه الممالك الثلاث، فقد تقدّم أنّه ليس فى شيءٍ منها تقدمةُ ألْف، ويقال فيه عندهم : « المقرُّ الشريفُ، العالى، المَوْلَوِىّ، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، العالمىّ، العادِلىّ، العَوْنىّ، الغِياثِىّ، الزَّعيمىّ، الظَّهيرىّ، المَخْدومىّ، الفُلانىّ، عزُّ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأُمراء فى العالَمين، ناصِر الغُزَاةِ والمجاهدين، زَعِيم جُيوش المَوحِّدين، عَوْن الأُمَّة، كَهْف المِلَّة، ظَهِير الملوك والسلاطين، فلان الفلانى : أعَزَّ الله تعالىٰ أنصاره » .

المرتبة الثانية — المقرُّ الكريم . وبذلك يكتب للطبقة الثانية من مقدّمى الألوف، ويقال فيه : « المَقَرُّ الكريم، العالى، المَوْلَوِىّ » . بنحو الألقاب المتقدّمة .

المرتبة الثالثة — المقرّ العالى . وبه يكتب للطبقة الثالثة من مقدّمى الأُلوف، ويقال فيه : « المقرُّ العالى، المولوىّ » بنحو الألقاب المتقدّمة أيضا [كما][1] يكتبُ لنقيب الأشراف بحَلَب، وهى : « المَقَرُّ العالى، الأميرىّ، الكَبِيرىّ، النَّقيبىّ، الحَسِيبىّ، النَّسِيبىّ، العَرِيقىّ، الأصيلِىّ، الفَاضِلىّ، العلّامىّ، العارِفىّ، الحُجِّىّ، القُدْوىّ، النَّاسِكىّ، الزَّاهِدىّ، العَابِدىّ، الفُلانىّ، جَلال الإسلام والمسلمين، جمال الفُضَلاء البارعين، فَخْر الأُمراء الحاكمين، زَيْن العِتْرة الطاهره، شَرف الأُسرة

(١) بياض بالأصول .

الفاخِره، حُجَّة العِصابة الهاشميه، قُدْوَة الطائفة العَلَوِيَّه، نُخْبة الفِرْقَة الناجية الحَسَنِيَّه، شَرَف أُولى المراتب، نَقِيب ذوى المناقب، مَلاذ الطُّلَّاب الدَّاعين، بركة الملوك والسلاطين، فلان : أسبغ الله عليه ظلاله » .

المرتبة الرابعة — الجَناب الكريم . وبه يُكْتَب للأُمراء الطَّبلخاناه، ويُقال فيه : « الجناب الكريم، العالى، المَوْلَوِىّ، الأمِيرىّ، الكَبِيرِىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، المجاهدىّ، المُؤَيِّدىّ، الذُّخْرِىّ، الظَّهيرىّ، الفُلانىّ، مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شَرَف الأُمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزاة والمُجاهِدين، ظَهِير الملوك والسلاطين، فلان : أعَزَّ الله تعالىٰ نُصْرته » .

المرتبة الخامسة — الجناب العالى . وبه يُكْتَب لأُمراء العِشْرِينَات، ويُقال فيه : « الجناب العالى، الأمِيرىّ، الكَبِيرى، الذُّخْرِىّ، النَّصيرىّ، المجاهِدىّ، المؤَيِّدىّ، الأوْحَدِىّ، الأكْمَلىّ، الظَّهِيرىّ، الفُلانى، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزَاة والمجاهدين، ظَهِير الملوك والسلاطين، فلان أدام الله تعالىٰ نِعْمته » .

المرتبة السادسة — المجلس العالى . وبه يُكْتَب لأُمراء العَشَرات، ويُقال فيه : « المجلس العالى، الأمِيرىّ، الكَبِيرىّ، الأجَلِّىّ، المُجاهِدىّ، العَضُدىّ، النَّصيرىّ، الهُمامىّ، الأوْحدىّ، الذُّخْرىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شَرَف الأمراء فى العالَمين، نُصْرة الغُزَاة والمجَاهِدين، عَضُد الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ رِفْعَته » .

المرتبة السابعة — المجلس السامىُّ بالياء . وبه يُكْتَب لمقدَّمِى الحَلْقة، وأعْيان جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « المجلسُ السامِىُّ، الأميرىّ، الأجَلِّىّ، الكَبِيرىّ،

المُجاهدىّ، الأعَزِّىّ، الأخَصِّىّ، الأكْلىّ، الأوْحدىّ، الفُلانىّ، مَجْد الأُمراء، زَيْن الأكابر، ذُخْر المجاهدين، فلان : أدام الله تَوْفيقه » .

المرتبة الثامنة — المجلس السامى بغير ياء . وبه يُكْتب للطَّبقة الثانية من جُنْد الحَلْقة ، ويقال فيه : « المجلسُ السامِى، الأمير، الأجلّ، الكَبِير، الغَازى، المُجاهد، المرْتَضىٰ، المُخْتار، فلان الدِّين، مَجْد الإسلام، بَهاءُ الأنام، زَيْن الأُمراء، فَخْر المجاهِدين، عُمْدة الملوك والسلاطين، فُلان : أعَزَّه الله تعالىٰ » .

المرتبة التاسعة — مجلس الأمير. وبه يُكْتب للطَّبقة الثالثة من جُنْد الحَلْقة، ويقال فيه : « مجلس الأمِير، الكبير» . بنَحْو ألْقاب السَّامى بغير ياء .

المرتبة العاشرة — الأمير. وبه يُكْتب لجُنْد الأُمراء ونَحْوهم ، ويقال فيه : «الأمِير الأجلّ» .

الصـــــنف الثـانى

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ أرباب الوظائف الديوانيـــة ، وفيهم مَرَاتِب)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّ الشريف. وبه يُكْتب لكَاتِب السِّرّ بالشَّام، وصاحبِ ديوان الرسائل بحَلَب، ومَنْ فى معناهما .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لكاتِب السِّرّ بدِمَشْق بوِلاية مَشْيَخة الشُّيوخ، وبُولِغَ فيها جِدَّ المبالغـة، إلَّا أنَّها ليستْ حَسَنةَ التَّأْليف، ولَا رائِقَـة التَّرْتيب؛ وهى : « المَقَرُّ الشَّريفُ ، العالى ، المَوْلَوِىُّ، القاضَوِىّ، الكَبِيرىّ، العَالِمىّ، العَامِلىّ، العَـلَّامِىّ، الإمامىّ، الفريدىّ، المُفيـدىّ، القُدْوىّ، الحُجِّىّ، الأجَلِّىّ، الحَـبْرِىّ، المُحَقِّقىّ،

المُدقِّقِىّ، الزاهِدِىّ، العارفىّ، الخاشعىّ، الناسِكىّ، المُسَلِّكِىّ، العابِدىّ، المُرْشِدىّ، الرَّبَّانىّ، الورَعِىّ، المهِّدِىّ، المشَيِّدىّ، المُشيرِىّ، السَّفيرِىّ، اليَمينِىّ، المَلاذِىّ، الشَّيْخِىّ، الفُلانىّ، جلالُ الإسلام والمسلمين، سيِّد الأكابِر والرُّؤساء فى العالَمين، عَوْن الأُمَّه، صلاحُ المِلَّه، جمالُ المملكة، نِظام الدَّوْلة، عِزُّ المُلك، لِسانُ الممَالكِ، زَيْن الأوْلِيـاء، مُظْهِر أنْباء الشَّريعـة وناصِرُها، مُؤَيِّد الحقِّ والمُعِينُ علىٰ إظهاره، قَامِعُ البِـدَعِ ومُخْفِى أهْلها، رُحْلَة الحُفَّاظ، عَلَم المُفَسِّرين، حُجَّة الطالبين، سَيْف المناظِرين، قُدْوة العُبَّـاد والزُّهَّاد، ملْجَأُ الصُّلَحاء والعارِفين، حَسَـنةُ الأيَّام، فَرْد الزَّمان، غُـرَّة وَجْه الأوان، شيخُ المشايخ، مُفِيد كلِّ غَاد ورَائِح، مُوَصِّل السَّالكين، مُرَبِّى الأتْقِياء والمُرِيدين، كَنْز السَّالِكين والمُرْشِدين، مُمَهِّد الدُّوَل، مُشَيِّد الممـالك، مُجَمِّلُ الأمصار، مدَبِّر أُمورِ سُلْطانه فى اللَّيل والنَّهار، مُجْهِدُ نَفْسِه فى رِضا مولاه، مُعين الخلائق علىٰ حُقُوقِهـم، مُذِلُّ حِزْب الشَّـيْطان، مَلِكُ البُلَغاء والمُتَكَلِّمين، خُلاصَة سَلَف القَوْم المُبارَكين، بركَةُ الملوك والسلاطين، وَلِىُّ أمير المؤمنين، فلان الفلانىّ: أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظلاله».

المرتبة الثانية — المَقَرُّ الكريم. وبه يُكْتب للطبقة الثانية من أرْباب الوظائف الديوانية. ويقال فيه: «المقرُّ الكريمُ، العالى، المَوْلَوىّ، القَاضِوىّ». بنَحْو الألقاب السابقة مع «المقَرّ الشريف».

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم. وبه يُكْتب للطبقة الثالثة من أرْباب الوظائف الديوانية. وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض الكُتَّاب بكِتابة الإنشاء والجَيْش بحَلَب، وهى: «الجناب الكريمُ، العالى، المَوْلَوِىّ، القضائىّ، الكبيرىُّ، العالِمىّ، الفاضِلِىُّ، البارِعِىّ، الكامِلِىّ، الماجدىّ، الأوْحدِىّ، الأثِيرىّ، الأثِيلِىّ، الأصيلِىّ، القَوامىّ،

النِّظامىّ، الفُلانىّ، ضياء الإسلام والمسلمين، أوْحد الفُضلاء فى العالَمين، خالِصَة الملوك والسلاطين، فلان : ضاعف الله تعالىٰ نعمته» .

المرتبة الرابعة — الجناب العالى. وبه يُكْتب لكُتَّاب الدَّسْت ونحوهم. وهذه ألقابٌ كُتب بها لبعض كُتَّاب الدَّسْت بالشَّأم، وهى : «الجناب العالى، القضائىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضلىّ، الأكْملىّ، البارعىّ، الأوْحدىّ، القَوَامِىّ، النِّظامىّ، المُفَوَّهِىُّ، الرَّئِيسِىّ، الماجدىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام والمسلمين، شرف الرُّؤَساء فى العالَمين، أوحد الفضلاء الماجدين، قُدْوة البُلَغاء، جمال الكُتَّاب، زَيْن المُنْتشِئين، خالِصَة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ نِعْمته» .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى. وهذه ألْقاب كُتب بها لكاتب دَرْجٍ بالشام جَلِيلِ القَدْر، وهى : «المجلسُ العالى، القضائىّ، الأجَلِّىّ، الكبيرىّ، العالمىّ، الفاضِلىّ، البارِعىّ، الكامِلىّ، الرَّئيسىّ، الأوْحدىّ، الأثِيرىّ، الأصيلىّ، العَرِيقىّ، الفلانىّ، مَجْد الإسـلام، شَرَف الرُّؤَساء فى الأنام، حُجَّة البُلَغاء، قُدْوة الفضلاء، أوْحد الأُمناء، زَيْن الكُتَّاب، رَضِىُّ الدَّولة، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام اللهُ علوّه» .

المرتبة السادسة — المجلس السامىّ باليـاء . وهذه ألقابٌ كتب بها لبعض كُتَّاب دِمَشْق بنَظَر الرِّباع وهى : «المجلسُ السامىُّ، القَضائىّ، الأجلىّ، الكبيرىّ، الرئيسىّ، الأوْحدىّ، الأكْملىّ، الماجِدىّ، الأثِيرىّ، الأثيلىّ، الأصِيلىّ، الفُلانىّ، مَجْد الإسلام، شَرَف الرُّؤَساء، أوْحد الفُضلاء، صَفْوة الملوك والسلاطين، أدام الله تعـالىٰ علوّه» .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامِى بغير ياء. وهذه ألقابٌ كُتب بها لكُتَّاب دَرْجٍ بالشام، وهى : «المجلسُ السامى، القاضى، الأجلّ، الكبيرُ، الفاضلُ، الأوحدُ،

الأثيرُ، الرئيسُ، البليغ، الأصيل، فلان الدِّين، مجدُ الإسلام، بهاء الأنَام، شرفُ الرؤَساء، أوحد الفُضلاء، زَيْن الأعيان، فَخْرُ الصدور، نَجْلُ الأكابر، سَلِيلُ العلماء، صَفْوة الملوك والسلاطين، فلان : أدام الله تعالىٰ رفعته » .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلسُ القاضِى، الاجلّ، الكَبيرُ» والباقى من نسبة ألْقاب السامى بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . ويقال فيها : «القاضى، الأجلُّ» . ورُبَّما زيد علىٰ ذلك قليلا ، كما تقدّم فى السلطانيات .

الصنف الثالث

(من أرباب الولايات بالممالك الشأمية ـ أرباب الوظائف الدِّينية ، وفيه مراتب)

المرتبة الأُولىٰ — المقرُّالشريف . وبذلك يُكْتب لقُضاة القضاة ومن فى معناهم .

وهذه ألقابٌ كُتب بها لقاضى القضاة المالكىّ بدِمَشْقَ بتصديرٍ، وهى : «المقرُّ الشريفُ ، العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، الإمامىّ ، العالِمىّ ، العلَّامىّ ، الفريدىّ ، المُفِيدىّ ، الخاشعىّ ، النَّاسكىّ ، الرُّحْلِىّ ، القُدْوِىّ ، المَلَاذىُّ ، العابدىّ ، المحَقِّقِىّ ، المدقِّقىّ ، المحسنىّ ، الحاكمىّ ، الفلانىّ ، جلالُ الإسلام والمسلمين ، سيِّدُ العلماء فى العالَمين ، قُدْوة البارِعين ، سيِّدُ المناظرين ، لسانُ المتكلِّمين ، مَلاذُ الطالبين ، كَنْز المتفقِّهين ، إمام الأئِمَّه ، حجة الأُمَّه ، ناصِرُ الشريعة ، فَرْد الزمان ، أوحد الوَقْت والأوان ، رُحْلة القاصدين ، حَكَمُ الملوك والسلاطين ، فلان : أسبغ الله ظلاله » .

المرتبة الثانية — المقرّ الكريم . وبه يُكْتب لمن دُونه من هذه الرتبة .

وهذه ألْقاب كُتب بها لقاضى القُضاة بحَلَب بوظيفة دِينيّة ، وهى : « المقرّ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىّ ، القاضَوىّ ، الكَبِيرىّ ، العالمىّ ، العادلىّ ، الأصِيلىّ ، العَرِيقىّ ، القِوَامِىّ ، النِّظامىّ ، الإمامىّ ، العلّامىّ ، القُدْوىّ ، المُفيدىّ ، الشَّيخىّ ، الرُّكنىّ ، الصاحبىّ ، الحاكمىّ ، المحسنىّ ، الفُلانىّ ، فلانُ الإسلام والمسلمين ، شَرَف الفُضَلاء فى العالَمين ، قُدْوة العلماء العاملين ، لسانُ المتكلمين ، بُرْهان المناظرين ، صَدْر المدرِّسين ، رُحْلَة الطالبين ، بَقيّة السلف الكرام الدارجين ، بَرَكةُ الملوك والسلاطين ، خالِصةُ أمير المؤمنين ، فلان : أعزّ الله تعالىٰ أحكامه » .

المرتبة الثالثة — الجناب الكريم . وهذه ألْقابٌ كُتب بها لبعض المشايخ بتَدْرِيس بالشّام ، وهى : « الجنابُ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىّ ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالِمىّ ، الفاضلىّ ، المُفيدىّ ، الفريدىّ ، المحقِّقِىّ ، المدقِّقِىّ ، الأوْحدىّ ، الأكْملىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرَفُ العلماء فى العالَمين ، جمالُ الفُضَلاء المدرِّسين ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، فلان : أسْبغ الله تعالىٰ ظِلّه » .

المرتبة الرابعة — الجناب العالى . وهذه ألقابٌ من ذلك كُتِب بها لقاض من قضاة العسكر بالشام ، وهى : « الجنابُ العالى ، القضائىّ ، الكبيرىّ ، العالمىّ ، الفاضلىّ ، الرئيسىّ ، الأكملىّ ، الإمامىّ ، العَلّامى ، المفِيدىّ ، المحقِّق ، الفَرِيدىّ ، البارعىّ ، المدَقِّقِىّ ، الأوحدىّ ، القُدْوىّ ، الحَبْرِىّ ، الحافظىّ ، الأصِيلىّ ، الأثيرىّ ، النّاسكىّ ، الوَرِعىّ ، العَلّامىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، شَرفُ العلماء العاملين ، زَيْن الحُكّام فى العالمين ، حُجّةُ المذهب ، إمام البلغاء ، مُفْتى المسلمين ، مفِيد الطالبين ، قُطْب الزُّهّاد ، مَلاذُ العُبّاد ، خالصةُ الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالىٰ نعمته » .

المرتبة الخامسة — المجلس العالى . وهى : « المجلسُ العالى ، القضائىُّ ، الأجلىُّ ، الكبيرىُّ ، العالِمىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، الرَّئيسىّ ، الأوحدىّ ، الأثيرىّ ، الأثيلىّ ، الأصيلىّ ، العَرِيقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام ، شَرفُ الرُّؤَساء فى الأنام ، حُجّة الفُضَلاء ، صَدْر المدرِّسين ، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله تعالىٰ عُلوّه » .

المرتبة السادسة — المجلس السامىّ بالياء . وهى : «المجلسُ السامىُّ ، القضائىُّ ، العالِمىّ ، الفاضِلىّ ، الكامِلىّ ، الأوحدىّ ، الأصِيلىّ ، العَرِيقىّ ، المحقِّقىّ ، الفُلانىّ ، مجدُ الإسلام والمسلمين ، أوحدُ الفضلاء فى العالَمين ، صَدْر المدرِّسين ، أوحد المُفيدين ، مُرْتَضَى الملوك والسلاطين ، فلانٌ : أدام اللهُ سعادتَه » .

المرتبة السابعة — المجلسُ السامِى بغير ياء . وهى : «المجلس السامى ، القاضى ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، الأحد ، المرتضىٰ ، الأكملُ ، فلانُ الدين ، مجدُ الإسلام ، بهاءُ الأنام ، زَيْن الفُضَلاء ، أوحدُ العلماء ، رَضِىُّ الملوك والسلاطين ، فلان : أدام الله عِزّه » .

المرتبة الثامنة — مجلس القاضى . وهى : « مجلسُ القاضِى ، الأجلُّ » بنَحْوِ الألقاب المذكورة فى «السامى» بغير ياء .

المرتبة التاسعة — القاضى . وهى : «القَاضِى الأجلُّ» علىٰ ما تقدّم .

الصنف الرابع

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ـ مشايخُ الصوفية)

ولم أقِف علىٰ شَىْءٍ من ألْقاب ماكُتِب من هذا الباب . سوىٰ [ماكُتِب] فى مَشْيخة الشيوخ بالشام لكاتب السِّرّ ، وقد تقدّم ذكْرُه فى أوّل الألقاب الديوانية

هناك. وألقابِ الجناب العالى فيما كُتِب به فى مشيخة الزاوية الأمينيَّة بدِمَشْق، وهى: « الجنابُ العالى ، الشيخىُّ ، العالِمِىّ ، العامِلىُّ العَلّامىّ ، الأوحدىّ ، القُدْوىّ ، العابِدِىّ ، الزاهدىّ ، الوَرَعِىّ ، الناسِكِىّ ، الخاشِعىّ ، المُسَلِّكِىّ ، المُرَقِّىّ ، الربانىّ ، الأصِيلىّ ، الفلانىّ ، مجدُ الإسلام ، حَسَنةُ الأيام ، قُدْوة الزُّهّاد ، ملاذ العُبّاد ، جمالُ الوَرِعين ، مُرَبِّى المريدين ، أوْحد السالكين ، خلفُ الأولياء ، بركة السلاطين ، فلانٌ : أعاد الله تعالىٰ من بَرَكته » .

ومن هذا يُؤْخذ ما حدث كتابته مما هو فوق ذلك أو دُونه .

الصنف الخامس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ــ أُمراء العُرْبان)

ولم أقِف علىٰ شىءٍ مما كُتِب به من ألْقابهم ، سِوَىٰ ألْقابِ « السَّامِى » بغير ياء لبعض أُمَراء بنى مَهْدِىّ ، وهى : « المجلسُ السامى ، الأميرُ ، الأجلُّ ، الكبيرُ ، المجاهدُ ، الأصيلُ ، العَرِيقُ ، الأوْحد ، فلانُ الدين ، مَجْدُ الإسلام ، بهاءُ الأنَام ، شرفُ العُرْبان ، زَيْن القبائل ، عُمْدة الملوك والسلاطين ، فلانٌ : أعَزَّه الله تعالىٰ » . وعليه يُقاسُ ما عساه يُكْتب من هذا النَّمَط .

الصنف السادس

(من أرباب الولايات بالممالك الشامية ــ أربابُ الوظائف العادية ، كَرآسة الطِّبِّ ونحوها)

وألْقاب رئيس الطِّبِّ : « المجلسُ العالى ، القضائِىُّ » علىٰ نَحْو ما تقدّم فى الدِّيوانيات .

الصـــــنف السـابع

(من أرباب الولايات بالنيابات الشامية ـ زعماءُ أهلِ الذِّمّة)

وهى رآسة اليهود، وبَطْرَكيّة النّصارَىٰ .

أما رئيسُ اليَهُود، فالذى رأيْتُــه لهم من ألقــابِه فى عَهْدٍ قديمٍ، كَتَبه آبن الزكىّ فى الدولة الأيُّوبية . قال فى ألْقابه : «الرئيسُ، الأوحدُ، الأجلُّ، الأعزُّ، الأخَصُّ، الكَبير، شَرفُ الداوودِيين، فُلانٌ» .

وأما بَطْرَك النَّصارَىٰ ، فرأيتُ لهم فيه طريقتين :

الطريقة الأُولىٰ : «البَطْرَكُ المحتَشِمُ، المبَجَّلُ، فلانٌ، العالِمُ بأُمور دِينِه، المُعَلِّمُ أهْل مِلَّته، ذُخْر المِلَّة المسيحِيَّه، كبيرُ الطائفة العِيسَوِيَّه، المشكورُ بعَقْله عند الملوك والسلاطين، وفقه الله تعالىٰ» .

الطريقة الثـانية : «مجلسُ القسِّيسِ، الجليل، الرُّوحانِيّ، الخطير، المتبتل، ابن المِطْران، النَّاصِب، الخاشِع، المبجَّل، قُدْوةُ دِين النَّصرانِيَّه، فَخْرُ الملة العِيسَوِيَّه، عمـاد بنى المَعْمُودِيَّه، جمالُ الطائفة الفُلانيه، صَفْوة الملوك والسـلاطين، فلان : أدام اللهُ تعالىٰ بهْجَته» .

المقصـــد الخـامس

(فى بيان مقادير قَطْع الوَرَق المستعمل فيما يُكْتَب عن نوّاب الممـالك الشامية)

قد تقدّم فى المقالة الثالثة، فى الكلام علىٰ مقادير قَطْع الورَق، أنّ الورقَ المستعملَ فى دواوين الممـالك الشامية علىٰ ثلاثة مقادير : قطع الطلحية الشامية الكاملة، وهو

فى عَرْض الطَّلْحية المعبر عنها بالفَرْخة وطُولها . وقطع نصف الحَمَوِىّ ، وهو فى نصف عَرْض الطلحية التى فى قَطْع الحموىّ وطُولها ، ورُبَّما نقصتْ فى الطول . وقَطْع العادة ، وهو علىٰ نَحْوٍ من قَطْع العادة البلدى . وقد تقدّم ذكره .

فما كان منها فى طول الشامىّ الكامل كُتب بقلم الثلث . وما كان فى قَطْع نِصْف الحموىّ كُتب بقَلَم التوقيعات . وما كان فى قَطْع العادة كُتب بقَلم الرِّقاع . ثم ما كان فى قَطْع الطلحية ، آفتتح ما يكتب فيه بـ«الحمدُ لله» . وما كان فى قَطْع نِصْف الحَمَوِىّ ، آفتتح ما يكتب فيه بـ«أمَّا بعد حمد الله» . وما كان فى قطع العادة ، آفتتح ما يُكْتب فيه بـ«رسُم بالأمرِ الشريف» سواء فى ذلك علَتِ الألقابُ أو آنْحَطَّتْ ، حتّىٰ إنه رُبَّما كتب بـ«المقرّ» فى قَطْع العادة ، آعتباراً بحال الوَظِيفة .

المقصد السادس

(فى بيان ما يكتب فى طُرَّة التواقيع)

اعلم أنَّ النوّابَ بالممالك الشاميَّة عادتُهم فى العلامة كتابة اسم النائب ، كما أنَّ السلطان فيما يُكْتب عنه من الولاية يكتب فى العلامة اسمه . وحينئذٍ فيحتاجُ الكاتبُ إلىٰ أنْ يكتُبَ فى أعْلى الدَّرْج فى الوسط ما صورته : « الآسم الكريم » ثم يكتبَ من أوّل عَرْض الدَّرْج ما صورته : «توقيعٌ كريم باستقْرارِ المقرِّ الشريف أو الكريم ، أو الجناب الكريم أو العالى ، أو المجلس العالى أو السامى ، أو مجلس الأمير أو القاضى ، أو الشيخ ، ونحو ذلك ، فى كذا وكذا إلىٰ آخره» . فإن كان فيه معلومٌ كُتب آخرا : « بالمعلوم الشاهد به الديوان المعمور ، أو الشاهد به كتابُ الوَقْف » ونحو ذلك ثم يكتب : «حَسَب ما رُسِم به علىٰ ما شُرِح فيه» . ولفظ :

«حَسَب ما رُسم به» ممـا جَرَتْ به عادة كُتَّابهم، بخلاف ما يكتب به من الأبواب السلطانية علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه .

وهذه طُرَّة تَوْقيع بنقابة الأشْراف بحَلَب المحروسة، كُتب به للشريف «غياث الدين احمد» بن محمد بن إبراهيم المعروف بابن الممدوح، وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بٱستقرار المقرّ العـالى، الأميرىِّ، الكَبيرىّ، الشَّريفىّ، النَّقيبىّ، الحسيبىّ، الأَصِيلىّ، العِزّىّ، بَرَكة الملوك والسـلاطين، أحمد ٱبن المقرّ العـالى، الشَّريفىّ، النَّقيبىّ، الشِّهابىّ، أحمد الحسينى، أسبغ الله ظلالهما، فى وظيفـة نقابة السَّادة الأشراف، ونظر أوْقافها، والحكم فى طوائفهم على ٱختلافهم أجمعين، عِوَضًا عن والده المشار إليه برِضاه، علىٰ عادته فى ذٰلك ومُسْتقرّ قاعِدَته، وتعاليمه المستمرة إلىٰ آخر وَقْت، حسَب مارُسم به بمقتضَى الخَطّ الكريم، علىٰ ما شُرح فيه .

وهذه نسخة طرة توقيع بكشف الصفقة القبلية بالشام، ممـا كُتِب به لـ«غرس الدين خليل الناصرىّ» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ الجنابُ الكريمُ، العالى، المَوْلوِىّ، الأميرىّ، الكَبيرىُّ، الغَرْسىّ، ظهير الملوك والسـلاطين، خليـل الناصرى، أدام الله تعـالىٰ نعمته، فى كَشْف البـلاد القبلية المحروسـة بالشام المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ومسْتَقِرّ قاعدته، حسب ما رُسم به، علىٰ ما شرح فيه .

وهذه نسخة طُرَّة تَوْقِيع بالمِهْمِنْدارِيَّة بالشام المحروس، كُتب به لـ«غرس الدين خليل الطناحى» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ باستقرار الجناب العالى، الأميرى، الكبيرى، الغَرْسِى، عَضُد الملوك والسلاطين، خليل الطناحى، أدام الله تعالىٰ نعمته، فى وظيفة المِهْمِنْدارِيَّة الثانية بالشام المحروس، عِوضًا عن حُسام الدِّين حَسَن بن صارُوجا، بُحكْمِ شُغُورِها عنه، لما ٱتفق من الغَضَب الشَّريف عليه، وٱعتقاله بالقَلْعة المنصورة بحَلَب المحروسة، علىٰ أجمل عادة، وأكْمل قاعدة، حسب ما رُسم به، علىٰ ما شُرِح فيه .

وهذه نسخةُ طرَّة توقيع بتَصْدير الجامع الأُموىّ بالشام، كُتِب به للقاضى «ناصر الدين» بن أبى الطَّيِّب كاتبِ السِّر بالشام، وهى :

توقيعٌ كريمٌ بأن يستقرَّ المقرُّ الشريف، الناصرىُّ، محمدُ بن أبى الطيب العمرى، العثمانى، الشافعى، صاحبُ ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشاميَّة المحروسة، عظَّم اللهُ تعالىٰ شَأْنَه، فى وظيفة التَّصدير بالجامع الأُموىّ المعمور بذِكْر الله تعالىٰ، عِوَضًا عن القاضى صَدْر الدِّين عبد الرحمن الكَفَرىّ الشافعى، بُحكْم وَفَاتِه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، بمالَه من المعلوم الذى يشهدُ به دِيوان الوقف المبرور، حسب ما رُسم به، علىٰ ما شرح فيه .

وهذه نسخةُ طُرَّة تَوْقيعٍ بإعادة مَشْيخة الشُّيوخ بالشام إلى القاضى «ناصر الدين ابن أبى الطَّيِّب» المذكور أعلاه، وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن تُفَوَّضَ إلى المقرِّ الشريفِ العالى، المَوْلَوِى، القاضِوِى، النَّاصرى، محمد بن أبى الطيب العمرى، العثمانى الشافعى، صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، أعاد اللهُ تعالىٰ من بركاته، وأسْبغ

ظلاله، مشيخةُ الشُّيوخ بالشام المحروس، وَظِيفتُه التى خرجتْ عنه، المرْسُومُ الآن إعادتها إليه، عوضًا عمن هى بيده، بمعلومه فى النظر والمشيخة، الشاهِد بهما ديوانُ الوَقْف المبرور، إلىٰ آخر وقت، علىٰ أجْمل العوائد، وأكْمل القواعد، حسب ما رسم به، علىٰ ما شرح فيه .

وهذه طُرَّةُ توقيعٍ بالحَمْل على النُّزُول والتقرير الشَّرعىّ، بالزاوية الأمِينيَّة، بالقُدس، كُتب به للشيخ «برهان الدين المَوْصِلىّ» وهى :

توقيعٌ كريمٌ بأن يُحْمَل الجناب العالى، الشيخىّ، البرهانىّ، إبراهيم ٱبن سيدنا المرحوم الشيخ القطب، تقىّ الدِّين أبِى بكر المَوْصِلىّ، رضى الله عنه وأعاد من بركاتهما، فى وظيفتى النظر والمشيخة، بالزاوية الأمِينية بالقُدس الشريف، علىٰ حُكْم النزول الشَّرعىّ، وٱستمرار ذلك بمقتضاهما، ومَنْع المنازع بغير حُكْم الشَّرع الشَّريف، حسب ما رُسم به، علىٰ ما شُرح فيه .

وهذه طُرَّة مَرْسومٍ برُبْعِ تَقْدمة إمْرة بنى مَهْدِىّ، كُتب به لـ«عيسى بن حناس» وهى :

مَرْسومٌ كريمٌ بأن يستقرّ المجلسُ السامى، الأميرُ، شرفُ الدِّين، عيسى بن حناس(؟)، أعزَّه الله تعالىٰ، فى رُبْع تَقْدمة بنى مَهْدِىّ، علىٰ عادة من تقدّمه، حملا علىٰ ما بيده من التَّوقيع الكريم، علىٰ ما شُرِح فيه .

وهذه طُرَّةُ توقيع ببَطْرَكية النَّصارىٰ المَلَكيَّة بالشام، كُتِب به لـ«داوُد الخورى» وهى :

تَوْقيعٌ كريمٌ بأن يستقرّ البطريرك ، المُحتَشِمُ ، المبَجَّلُ ، داود الخُورى ، المشكور بعَقْله لدى الملوك والسلاطين ، وفّقه اللهُ تعالىٰ ، بطريركَ الملَكِيَّة بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة ، حسَب ما آختاره أهلُ ملّتِه المقيمُون بالشام المحروس ، ورَغِبوا فيه ، وكتبوا خُطُوطَهم به ، وسألُونا تَقْرِيرَه دون غيره ، حسب ما رُسِم به ، علىٰ ما شُرِح فيه .

المقصد السابع

(فى بيان كيفية ترتيب هذه التواقيع)

قَدْ جرتْ عادةُ كُتَّاب هذه النيابات أنْ تُكْتب الطُّرَّةُ بأعْلى الدَّرْج كما تقدّم . ثم يترِكُ وَصْلان بياضًا بما فى ذلك من وَصْل الطُّرة ، ثم تُكْتب البسملة فى أوّل الوَصْل الثالث ، ثم يُكْتب تحت البَسْمَلة علىٰ سمت الجلالة : «المَلَكِيُّ الفلانِىُّ» ثم يخلَّىٰ بيت العلامة نحو ستة أصابع معترضة ، ثم يُكتب السطر الثانى ويوافى كتابة السّطر ، ويكون ما بينهما بقَدْر أصبعين ، والباقى علىٰ نحو ما تقدّم فى السلطانيات .

الطرف الثانى

(فى نُسَخ التواقيع المكتتبة عن نُوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

قد تقدّم فى المقالة الثانية أنّ بالبلاد الشامية سَبْعَ نيابات : دِمَشْق ، وحَلَب ، وطَرَابُلُس ، وحَمَاة ، وصَفَد ، وغَزّة إن كانتْ نيابة ، والكَرَك . وأنّ اعلاها دمَشْق ، ثم حَلَب ، ثم طَرَابُلُس . وفى معنىٰ طَرَابُلُس حَمَاةُ وصَفَدُ .

وقد آقتصرت فى نسخ التواقيع علىٰ ما يكتب فى ثلاث نيابات [تقديمًا لها](١) علىٰ ما عداها .

(١) بياض بالأصل .

النيابة الأولى الشام
(والتواقيع التى تُكْتب بها على خمسة أصناف)

الصنف الأوّل
(ما يُكْتب بوظائف أرباب السيوف، وهو على ضربين)

الضرب الأوّل
(ماهو بحاضرة دِمَشْق، وهو على مراتب)

المرتبة الأولى
(ما يفتتح بـ«الحمد لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة تَوْقيع بولاية دِمَشْق :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الأيَّامَ الزاهرةَ تنقُلُ أوْلياءَ آلائه الشريفة إلى أعْلى المراتب، وتُجْزِل لهم من مِنَنِه الجمَّة المواهب، وتُضاعف لهم النِّعمةَ بكرمها الذى إذا انْهمَلَ كان كالغَيْث السَّاكب .

نحمدُه على أنْ جعل نَظَرنا يلْمَحُ أهلَ الهِمَم ويُراقب، ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يَبْلُغ قائلُها ببركتها المُنَى والمآرب، وتَهُونُ عليه كلُّ المَصاعب؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ بِبعْثَته الحقَّ فى المشارق والمغارب، وأنار به ظُلَم الغَياهب؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وأصْحابه الذين شيَّدُوا مَنَار الإسلام وأقاموه بالسيوف القَواضب، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ المناصب بمُتولّيها ، والمَعالِيَ بمُعلّيها ، والعُقودَ ليْسَتْ بمن تُحَلّيه بل بمن يُحَلّيها ؛ وأطْيَب البِقاعِ جناباً ماطاب أرَجاً وثمـارا ، وبُحِّر خلالَه كلُّ نَهْرٍ «يروع حَصاه حالِيَـةَ العَذارَىٰ» ورنَّحتْ مَعاطفَ غُصُونه سُلافُ النَّسيم فتراها سُكَارىٰ ، وتمتدُّ ظلال الغُصون فيخال أنَّها علىٰ وجَنات الأنْهار عذَارا .

ولمَّـا كانت دمَشْقُ المحروسة لهـا هـذه الصفات ، وعلىٰ ضَـفَّاتها تَهُبُّ نَسَماتُ [هذه] السِّمات ، لم يتَّصِفْ غيرُها بهذه الصفه ، [ولا اتفق أولو الألباب إلا علىٰ محاسـنها المختلفه] (١) وكان الجنـابُ الكريمُ هو من أعيان الدَّولة وأماثِلِهم ، ووُجُوه رُؤَسائهم وأفَاضلهم ؛ وله فى طاعتها آسـترسالُ الأمْنِ من سُوءِ مَواطِن المَخَـاوف ، ووَصل فى وَلائها القـديمَ بالحديث والتَّالِدَ بالطَّارِف ؛ وتَولَّىٰ مُهمَّاتِ الخِـدَم فأبانَ فى جميعها عن مَضاءِ عَزْمه ، وكان من حُسْنِ آثاره فيهـا ما شَهَر غُفْلَها بوَسْمه ؛ فمن نَاوَاه من أقْرانِه أرْبىٰ عليه وزاد ، ومن بَارَاه من أنْظارِه أنْسىٰ ذِكْرَه أو كَاد .

فلذلِك رُسم بالأمرِ الشَّريف أنْ يستقرَّ فى ولاية مدينة دِمَشْق المحروسة .

فلْيباشِرْ هـذه الولاية : عاملاً بتقْوَى الله تعالىٰ التى أمَر بهـا فى مُحْكَمِ الكِتَاب ، حيثُ يقولُ : ﴿وتَزَوَّدُوا فَإنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ ياأُولِى الأَلْبابِ﴾ . ولْيشْمَلْ كافَّةَ الرَّعايا بالحِفْظ والرِّعايه ، ويُجْزِلْ حَظَّهم من الملاحظة والعِنايَه ؛ ولْيُساوِ فى الحقِّ بين ضعيفهم وقَويِّهم ، وفَقِيرهم وغَنِيِّهم ؛ ولْيُلْزِمْ أتباعَه بحِفْظِ الشوارع والحارات ، وحِراسَتِها فى جميعِ الأزْمِنَة والأوْقات ؛ مع مُواصَلة التَّطْواف كلَّ ليلة بنَفْسه فى أوْفىٰ عِدَّه ، وأظْهَرِ عُدَّه ، مُنْهِيا فى ذلك وفيما يُجارِيه إلىٰ مايَشْهد باجتهاده ، ويُعرِبُ عن سَـدَادِه ، ويُعْلَم منه صَوابُ قَصْدِه وآعْتماده ، وبَذْلُ مُناصَحَته فى إصْدارِه وإيرادِه ؛ واللهُ تعالىٰ يُعينُه علىٰ ماوَلَّاه ، ويَحْفَظُ عليه مانَوَّله وأوْلاه ؛ بمنِّه وكرمه .

(١) الزيادة مما تقدّم فى الصنف الثالث فى تواقيع أرباب الوظائف فى حاضرة دمشق ليستقيم الكلام .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بنَظَر الجامع الأَمَوِىّ، لصاحب سَيْفٍ : كُتِب به فى الدَّولة الظَّاهِرية « برقوق » لناصر الدين « محمد » آبن الأمير جمال الدين، عبد الله ابن الحاجب، عند مُصَاهَرته الأمير بطا الدوادار، وهى :

الحمدُ لله الذى قدَّم أعْظَمَ الأُمراءِ لِيَعُمَّ مَواطِنَ الذِّكر بنَظَرِه السَّعيد، وأقام لتَعْظِيم بُيُوتٍ أذِنَ اللهُ أنْ تُرفَعَ، [أميرا] فى الآكْتساب للأُجور أسْرعَ من البَرِيد، وأطْرب المَسامِعَ بِسيرَتِه فى أحْسن مَعْبَدٍ جُلِّيَتْ فيه عَرُوسٌ مَهْرُها كتابُ الله تعالىٰ والنُّورُ من زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ ولا غَرْبِيَّة ومَرْئِىٌّ (١) عليه من مكانٍ بَعِيد .

نحمدُه علىٰ أنْ أحلَّ ناصرَ الدين بجمَاله الأسْنىٰ أشْرفَ المراتب، وبوَّأه المحلَّ الرَّفيعَ الذى بَلَّغ به الأُمَّة المحمديةَ المآرب، وسارَ خبرُ سِيرَتِه فى المشارق والمغارب، وبَلَّغَ بمُشارَكَةِ نَظَره السعيدِ الشَّاهدَ والغَائب ؛ حمدًا نرفَعُه على النَّسْر الطائر، ونتمثَّلُ بقول القائل : كَمْ تَرَكَ الأوَّلُ للآخِر؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى خلق العباد لعبادته، وفضَّلَ بعضَ المساجد علىٰ بعضٍ لِمَا سبق فى عِلْمه من إرَادته؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمَّدا خيرَ الخلائق عبدُه ورسولُه الذى سنَّ الجُمعة والجَماعه، وعَمَر المساجِدَ بالرُّكوع والسُّجود إلىٰ قيام السَّاعَه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحْبه الذين آتَّبعُوه فى قيام الليل إلَّا قليلا، ولا زَمُوا المساجِدَ بُكْرَةً وأصيلا، وحضُّوا على الجماعة إلىٰ يومٍ تَكُونُ الجبالُ فيه كَثيبًا مَهِيلا؛ وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعدُ ، فلمَّا كان جامعُ دِمَشْقَ المحروسةِ رَابِعَ المساجد ، ومَوْطِنَ كلِّ راكِع وساجد؛ وتَقْصِدُه الأُمَمُ من الأقطار، ولم يَخْلُ من العبادة فى اللَّيل والنهار، ورَواتِبُ حُكَّام الشريعة عليه، والعُلماءُ الأعْلام تَبُثُّ فيه العلومَ وتَأْوِى إليه ؛وغالبُ المساجد

(١) فى الاصل «ومزية» ولم نفهم معناه .

إلىٰ سَمَـاط وقْفه مُضافَه، وخَطابَتُـه تُضاهِى مَرْتبـةَ الخلافه ؛ وهو أجلُّ عجائب الدُّنيا التى وُضِعت علىٰ غير مِثال، وبه يَفْتخِرُ أهلُ الهُدىٰ علىٰ أهلِ الضَّلال ـ تَعيَّن أنْ يكونَ الناظِرُ فى أمْرِه مَن عَظُم قَدْرا، وطاب ذِكْرا ؛ وفَتح لوَقْفه بابَ الزِّيادَة علىٰ مُضىِّ الساعات، وجَمع أمْوالَه بعـد الشَّتَات ؛ ووصَل الحُقُوقَ لأربابهـا الذين كأنَّهم جَرادٌ منْتَشر، ولم يُضِعْ من ماله مثْقالَ حَبَّـةٍ ومن قال : إنَّه صدَقَةٌ فيومُه يومٌ عَسِر ؛ وعَمّ جميعَ المساجد المضافةِ إليـه بالفَرْش والتَّنْوير، وبَدَّأ الأئمَّـة والمُؤَذِّنين والخَدَمةَ بعد العمارة على الكبير والصَّغير .

وكان الجنابُ الكريم ـ ضاعف الله تعالىٰ نِعْمَته ـ هو الذى يقوم فى هذا الأمرِ أحسن مَقَام، ويَصْلحُ له فى مَصْلَحَتِه الكَلَام .

رُسم بالأمْر العالى، المَوْلَوِىّ، السُّلْطانِىّ، المَلَكِىّ، الظَّاهِرِىّ، السَّيْفِىّ ـ لازال هـذا الدِّين القَيِّمُ قائمًـا بحُمَّده، والمساجِدُ المعمورةُ [معمورةً] بإكرام مسْجِده ـ أنْ يستقرَّ الجنابُ الناصِرىُّ المشار إليه فى النَّظَر السعيدِ على الجامع الأُمَوِىّ المعمور بذِكْر الله تعالىٰ، وأوْقافِه المبرورة، علىٰ أجْمَلِ العوائد، وأكْمَل القواعد ؛ بالمعلـومِ الشاهِدِ به ديوانُ الوقْفِ المبرور، إلىٰ آخر وقت .

فلْيُباشِرْ ذلك : لِمَـا يُعْرفُ من فِعالِه الحَسَـنَه، وخِبْرته التى نَطقَتْ بها من المحابِرِ الأفْواهُ ومن الأقْلام الألْسِنَه ؛ ولِمَـا حازه من فَضيلَتِي السَّيْف والقَلَم، وأعما التى بَدَتْ للمُهْتدِى بها كنُورٍ لا نَارٍ علىٰ عَلَم ؛ ولْيُعَمِّرْ مادَثَر من الأوقاف ولْيُوَصِّل الحُقُوقَ إلىٰ أرْبابها، ولْيَـدْفَع الأموالَ إلىٰ مَن هو أوْلىٰ بهـا ؛ ويكُفَّ كَفَّ الظُّلْم ولْيُبلِّغ المستَحِقَّ المآرِب، وليحْجُبِ الخَوَنَةَ عن التَّوصُّـلِ إلىٰ مِثْقال ذَرَّةٍ بِجِدِّه فهو بجَدِّه حَاجب ؛ ولْيَبْـدَأ بالعمارة والفَرْش والتَّنوير فى جميـع الأوقات، وأرباب الصَّـلاة

والصَّلات . والوَصايا كثيرةٌ وهو بها أدْرَى، وتقوى الله عَزّ وجلّ مِلاكُها ولا زَال يُفيـدُها كما يُعَلِّمُ الشَّجاعَةَ زيدًا وعَمْرا ؛ والله تعالىٰ يجعَلُه أبدًا للدِّين ناصِرا، ويُصْلِحُ عَمَله أوّلًا وآخرا ؛ والاعتماد فى معناه، علىٰ الخطّ الكريم أعْلاه .

المرتبـــة الثـانية

(ما يُفتتح بـ«أما بعـــدَ حمدِ الله» وفيها وظائف)

وهذه نسخة توقيع ... ... الزكاة[1]، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة، وهى:

أمَّا بعدَ حمدِ الله مُسْعِدِ من زَكَّاه عَمَلُه، ووَفَّاهُ وعْدَ الخَيْرِ أمَلُه، ومُصْعِدِ من وَفَتْ فى تدبير الوظائف تَفاصِيلُ أمْرِه ووَفُرَتْ فى تثمير الأمْوال جُمَلُه ؛ والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه الذى أمَرَنا بالصَّلاة والزَّكاه، وشفَىٰ جانِبَ الدِّين القَيِّم من الشَّكاه، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سارَ علىٰ نَهْجِه القَويم سائِرُهم، وتزكَّى ـ وإنَّما يَتَزَكَّىٰ لنَفْسِه ـ مُنْجِدُهم وغَائِرُهم ـ فإنَّ أحقَّ الوظائف أنْ يُنْـدَبَ لحمايتها الحُسام، ويَتَرتَّبَ لِكفايَتِها من تحلَّت بالمحامد شِيَمُه الجِسام ـ وَظيفةُ الزَّكاة التى وصلت سبب مكانها بإمكانها، وبُنِيتْ شريعة الإسلام علىٰ أحَدِ أرْكانِها ،ومُدِحَت المملكةُ بمعالِى البِرِّ والإحسان المُنَظَّمَة من دِيوَانِها .

ولمـا كان فلانٌ ممّن زكَتْ صِـفاتُه ، وسَمَتْ بالجميــل سِمَاتُه ؛ ووَضَحَتْ كَفاءَتُه ودرايَتُه، وصَلحَتْ حِمايَتُه الحُساميَّة ووِقايَتُه ؛ وكان اليُمْنُ فى قَبْضة مَضَائه، وتَجْرِيدِه وآنْتِضائه، وكان نُفُوذ أمْرِه واقفًا عند حدّه واقعًا علىٰ وَفْقِ آرْتِضائه ـ تعيَّن أنْ يُوصَلَ سَبَبُ الشَّدِّ بأسْبابِه، ويُرْجَعَ إليه فى الزكاة المستَحَقِّ نِصابُها حتّىٰ يقال : رَجَع الحقّ بالحُسام إلىٰ نِصابِه .

(١) بياض بالأصل ولعله : بتولية وظيفة الزكاة الخ .

فلذلك رُسِمَ أن يرتب ... ... عِلْمًا بأنَّه الكافِى الذى إذا شَدَّ سَدّ، وإذا قَصَر رَأْيَه علىٰ الصُّنْعِ الجميـل مَدّ؛ والخبـيرُ الذى إذا جَمـع مالًا وعَدّده كان مَشْكُورا ، وإذا فَرَّقه فى مُسْتَحِقِّيه كان خِلافَ الغَيْرِ بالخَيْرِ مَذْكُورا ؛ والنَّاهِضُ الذى ما تبرَّم بمَضايِق المُهِمَّات ولا شَكاها، والمَهِيبُ الذى قد أَمِنَ مَن سار بالبضاعة إليـه وقد أفْلَح من زَكَّاها .

فليستَقِرَّ فى هذه الجِهة آسْـتقرارًا يَزِيدُ مَكانه وإمْكانَه ، ويُثَمِّـرُ عَمَلَه وديوانَه ، وليُوَصِّلْ كُلَّ ذى حقٍّ إلىٰ حَقِّه فإنَّمـا بُسِطتْ أيْدى وُلاةِ الأُمورِ ليَبْسُطَ عَدْلَه مُتَوَلِّيها وإحْسانَه . وتقْوى الله تعالىٰ هى العُمْدة : فلْيُحَقِّقْ باعتمادها فيـه ظُنونَ الرَّاجين ، وليَسْتَعِنْ بها علىٰ رِضا المستنْهِضين له وعلىٰ رِضا المحتاجين ، والله تعـالىٰ يلْهِمُه الخيرَ فى ذَوِى الصادِرِ والوارِدِ حتَّى يكونُوا إلىٰ خيرِ «لاچين» خيرَ لاجين .

وهــذه نسخةُ توقيع بشَــدِّ الحوطات بدِمَشْق . كُتب به لشَرف الدين يحيى بن العفيف، [باجرائه] علىٰ عادته، وحمله علىٰ مابيده من التَّوْقيع الشَّريف، وهى :

أمَّا بعــدَ حمدِ الله الذى سهَّل الخيْراتِ بأسْبابها ، وأقرَّ فى الوظائف السَّنية كُفَاة أرْبابِها، وكَمَّلَ أدَواتِ من حَنَّكَتْه التَّجارِبُ فى المُباشرات حتَّىٰ دخل المَناصبَ العَلِيَّةَ من أبوابها ؛ والصلاةِ والسـلامِ الأَتَمَّين الأكْمَلَيْن علىٰ سـيدنا محمدٍ الذى جاءَ برشد الشريعــة وصَوابِها ، وعَرَّفَ بحسْنِ الصَّنِيعة وثَوابِهـا ؛ وعلىٰ آله وصَحْبـه وعِتْرته الطاهرين ــ فإنَّ أوْلىٰ من لَفَتْنا إليه جِيـدَ الإحْسان ، وألْقينا إليه طُرَفَ التَّكْريم فبلغ الأمانِىّ والأمان، ولحَظْناه بعَيْنِ عِنايَتِنا فنال من فَضْلِنا ما أخْجل الغَيْثَ الهَتَّان؛ ومَنَحْناه من بِرِّنا ما شَرح له صَدْرا، وآستَصْحَبْنا له ما أَلِفه من كَرَمِنا وجعلْنا له بعدَ

عُسْرٍ يُسْرا، وأيْقظْنا حَظَّه وقد كاد أن يَغْفَىٰ، وأطْلَعْنا كَوكَبَ سَعْدِه بعد أن كاد يَخْفَىٰ - من ألِفَتْ مُهِمَّاتُنا منه الهِمَمَ العَلِيَّه، وسلك بين أيدينا المَسالكَ المَرْضِيَّه، وأُتُمِنَ علىٰ أموال الحَوْطات الدِّيوانية فنَمَتْ بحسْنِ أمانَته، وشكرتِ الدولَةُ جميلَ تَدْبيره ودِرايَته.

وكان المجلس العالى فلانٌ - أدام الله عِزَّه - هو الذى أخْبَر عنه الوَصْفُ بما أثْبته العِيان، وأظْهر الاختبارُ منه حُسْنَ السِّيرَة والسَّريرة والسَّجايا الحِسان.

فلذلك رُسِم بالأمر العالى - أعْلاه الله تعالىٰ، وضاعف إحْسانَه علىٰ أهلِ الهِمَم ووَالىٰ - أنْ يَستمرَّ المشارُ إليه فى شَدِّ الحَوْطات الديوانية بِدمَشْق المحروسة، علىٰ عادته، ومُسْتِقرِّ قاعدته، وحَمْله علىٰ مابيده من التَّوقيع الشريف المُسْتَمِرّ حُكْمُه.

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ علىٰ أجْمل عوائده، وليَعُدْ إليها علىٰ أكْمل قواعده؛ إلَّا أنَّ التَّذْكرة بتَقْوَى اللهِ تعالىٰ لابُدَّ من اقتباس ضِياها، والتَّنبيه علىٰ سُلوك سبيل هُداها؛ فلْتكُنْ قاعِدَةَ أمله، وخاتِمةَ عَمَلِه. والاعتمادُ فى معناه، علىٰ الخطِّ الكريم أعلاه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

المرتبــــة الثـالثة

(من تواقيع وظائف أرباب السُّيوف بِدمَشْق - ما يُفْتتح بـ«رُسِم بالأمْر العـالى» وفيه وظائف)

وهذه نسخُ تواقيعَ من ذلك :

نسخةُ تَوْقِيع بشَدِّ مراكز البريد، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، كُتب بها لمن لقبه «بدر الدين» فى سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة، وهى :

رُسم بالأمْرِ العالِي ـ لا زالت البُرُدُ سائرةً بأوامِرِ عَدْله المَديد ، وهَوامِرِ جُوده المجيد ، وسوائر الأخبار عن بأسه ونَدَاه المروِىّ سَنَدُهما عن ثابتٍ ويَزِيد ، ولا بَرِحت جَوامِعُ عطاياه وقضاياه : هذه فاتحةً لمصالح الآمال بَابَ الزِّيادة وهذه فاتحةً لمصالح الإسلامِ بابَ البَرِيد ـ أنْ يستقرَّ المجلسُ علىٰ عادته الأُولىٰ ، وقاعِدته التى ما بَرِحتْ قَدَمُ مساعيه فيها المقدَّمةَ ويَدُ أمانتِه الطُّولىٰ ، علمًا بكَفَاءتِه التى شَهِدتْ بها حتَّى الخيل المائلاتُ خُرْسا فأفْصَحتْ ، المواصلاتُ سَعْيًا فأنْجَحتْ ، المُورِياتُ قَدْحًا إلا أنَّ ألْسِنةَ الأحوالِ فى شهادتها ماقَدَحتْ ، المُغيراتُ علىٰ السُّرىٰ صُبْحًا مادار عليها شَفَقُ العَشِىِّ فآغْتبقتْ ، حتَّى دار عليها شَفقُ الفَجْر فآصْطبَحتْ . ومَراكِزُ الطُّرُق التى حمَتْها مَهابَتُه فكأنَّها مَراكِزُ الأَسَل ، ومَراكِضُ السُّبَل ، كلُّ وادٍ منها وما حمل وكل حَدَبٍ وما نَسَل ؛ وآعتمادًا علىٰ سَدادِ عَزْمِه الذى وافق خُبْرُه الخَبَر ، ورَشادِ سَعْيه الذى كلُّ أوقاتِه من وُجوه الإجادة ووُجُوهُ الجِيادِ غُرَر ؛ ورُكُونًا إلىٰ أنَّه الكافى فيما يعتَمِدُه ويراه ، السَّارِى فى المُهِمَّات لايَمَلُّ وهَيْهاتَ أنْ يَمَلَّ البَدْرُ من سُراه ؛ كَمْ أعان الإسلامَ علىٰ ما آتَّخذه من قُوَّةٍ ومن رِباطِ الخَيْل ، وكَمْ جَاد علىٰ الجِياد علىٰ الغَيْث(١) حتَّى سارَتْ بين يديه كالسَّيْل ، وكم حَفِظ عليها قُوتَها وقُوَّتَها فبعدَ ما كانت تموتُ بالعَدَد صارت تَعِيشُ بالكَيْل .

فلْيباشرْ ما عُوِّل فيه عليه ، وأُعِيد من حَقِّه وإن كان خرج عنه إليه ، ولْيُطلِقْ يدَ أمْره ونَهْيِه بما يَسُرّه أنْ يُقَدِّمَه بين يديه ؛ حَرِيصًا علىٰ أنْ تَنْطقَ هذه الدَّوابُّ الخُرْسُ غَدًا بثَنائه ، مُجْرِيا لقوائمها وللإقامة بها علىٰ عادة إجْرائه ؛ متَخيراً لها كلَّ حَسنِ الإمْرة والسِّياسة عند رَحِيلها وقُدُومها ، ومَن إذَا عُرِضَتْ عليه بالعَشِىِّ الصَّافِناتُ الجِيادُ طَفِق مَسْحًا ولٰكِن بإماطَةِ الأذىٰ عن جُسُومِها ؛ مُوسِّعًا عليها من

---

(١) لعله زائد من قلم الناسخ .

المبانى والأحوال كلَّ مَضيق، آمِرًا بما يحتاج إليه نَوْعُها البديعُ من صِناعَتَىْ تَرشيح وتَطْبِيق، مُسْتأْمِنًا من الأَيْدِى من يَرُدُّ عنها الأيادِىَ الضَّائمه، ومن يُساوِى بينها فى الأقْوات حتَّى لا تكونَ كما قال الأوّلُ: «خَيْلٌ صِيامٌ وخَيْلٌ غيرُ صائمه»، مُتَحرِّيًا فى تَكْفِيتِها أجْمل الطُّرق والطَّرائِق، مُسْتَجْلِبًا صُنوف العليق فلا تَنْقطع من بِرِّه العلائق؛ واللهُ تعالىٰ يمدُّه بعَوْنه ورَشَده، ويجعلُ عَزْمه سابِقًا إلى التوفيق «سَبْق الجَوادِ إذا ٱسْتَولىٰ علىٰ أمَده»، بمنّه وكرمه.

وهذه نسخةُ تَوْقيع بِنقابة النُّقباء، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا، كُتِب بها لشهاب الدين «بولاقى» عوضا عن أبيه، فى سنة أربع وثمانمائة، وهى:

رُسم بالأمر العالى ــ لازال بإنْعامِه يُسْفِرُ عن وَجْهِ الأملِ نِقابَه، ويَحْفَظُ لكافى الخِدْمة أعْقابَه، ويَلْوِى بٱستمرار النِّعم أدْوارَ الزَّمان وأحْقابَه، ويُطْلِعُ فى آفاق دَوْلَته شهابَ كلِّ عَزْمٍ تَحمَدُ عساكِرُه المنصورةُ ٱرْتقاءَه وٱرْتِقابَه ــ أن يرتَّب المجلسُ السامى، الأمير: ... ... علمًا بأوصافه الحَسَنه، وأوْضاعِه التى لا يحتاجُ الحكْمُ بَفضْلها إلىٰ إقامة بَيِّنه، وكَفاءَته التى تَنْطق بها ألْسِنةُ الأحوال المُؤَمِّنة وقُلوبُ العَساكِر المُؤْمنه، وهِمَّتِه التى إذا وَقَّفتِ المواقفُ علىٰ الأعْداءِ عَرَّفَتْه أصحابَ المَيْمَنَة ما أصْحاب المَيْمَنه، وتَصْديقًا لدلالة عَزْمِه الوَاعِد، وتَحْقيقًا لحماية شِهابِه الوَاقد، ورُكونًا إلىٰ قيامه مَقام أبيه رحمه الله فى الخِدْمة حتَّىٰ كأن لم يَفْقِدْه من الجَيْش فَاقِد؛ وأنَّه لدَرجات الاستحقاق رَاقِى، وأنَّه العِوَضُ عن أبٍ لاقىٰ مَنِيَّته وكلُّ ٱمرئٍ لاقِى المَنِيَّة وٱبْنُ لاَقِى؛ وأنه كُفْءُ هذه المنزلة كما حكم الرأْىُ وٱقْتضىٰ، وكما شَهِد(؟) لغرّته بغُرَرِ الفوائد وكيف لا وهو ٱبن النَّقِيب المرْتَضىٰ!.

فلْيَتلقَّ بشِهابِه المُضىءِ هذا المَطْلَعَ الأسنىٰ، ولْيُقِمْ فى هذه الوظيفةِ علىٰ قَدَمِ الخِدْمة صُورَةً ومَعْنىٰ، مُقَدَّمًا علىٰ النُّقباء تَقْديم إمامِهم، مُعلِّمًا لجُنْد الإسلام معلوم مَقامِهم، مالئًا بإتْقانِ معرفة الحِلىٰ سَمْع مَن آسْتَملاه، مُحْظِيًا للجُنْدىّ مُعينًا له علىٰ حُصول الخَيْر حتَّىٰ يشكُرَه شُكْر من أطْعَمه وحَلَّاه، نَاظِمًا للمواكب عِقْدَ مُجْتَمعِها الثَّمين، مُصاحِبًا لها صُحْبةً يُثْنىٰ بها عليه وحَسْبُه أن يكونَ من أصْحاب اليَمين، مُرَتِّبًا لها أحْسن تَرْتيب، مُنَقِّبًا عن مَحاسنَ تُجَمِّلُها: فإنَّ آسمَ النَّقيبِ مُشْتَقٌّ من التَّنْقيب. ولْيُكاثِرْ حَمَلَةَ السُّيوف فإنَّه حامِلُ سَيْفٍ وعَصا، وإنَّه بهذه مُخَلِّصُ حقوقَ من أطاع وبهذا مُوبِقُ نَفْسَ من عَصىٰ؛ ولْيَحْرِصْ علىٰ أن يقومَ بوَعْدِ الآجتهاد المُنْجز، وعلىٰ أن يكونَ سيفَ تَحْرِيضٍ علىٰ جَرْحَى الأعداءِ مُجْهِز، وعلىٰ أن يحصُلَ فى مَواطن الجِهاد على الأجْرين: أجرِ المُقاتِلِ وأجْرِ المُجهِّز؛ واللهُ تعالىٰ يُحمِّدُ فى الخير طرائِقه، ويؤيِّد عَزْمه الجَيْشىَّ حتَّى تلهجَ بشُكْره ألْسِنةُ الأعلام الخافِقه؛ والآعتماد ... .

وهذه نسخة توقيع بشَدِّ خزائن السلاح، من إنشاء آبن نُباتةَ أيضا، وهى:

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ أسِنَّة نجوم السَّعد من سِلاحِه، وصَواعِقُها من أعْوان صِفاحِه، وسِماكُها الرَّامحُ من أنصارِ رِماحِه؛ ولا بَرِحَ يُعْمِلُ معادنَ الأرض حتَّىٰ يَفْنَىٰ ذَهَبُها وحَديدُها على يدَىْ بَأْسه وسَماحِه ـ أن يرتَّب ... ... لأنَّه الناهِضُ الذى تتزيَّنُ الوظائفُ بسَمْتِه وباسْمِه، وتتعيَّنُ المصالحُ والمناجِحُ بعَزْمِه وحَزْمِه؛ والمُسدَّدُ من آرائه سِهاما، والمُجرِّدُ من آهتمامه كلَّ ماضى الحَدِّ إذا كان بعضُ الآهتمام كَهاما؛ والوَفِىُّ فى شَدِّ الجهات قولًا وعَمَلا، والمَلِىُّ بحَمْلِ السلاح وآستعمالِه علىٰ رَغْم القائلِ: «أصْبَحْتُ لا أحْمِلُ السِّلاحَ ولَا»؛ والخبيرُ بمحاسِن الآقتراح، والكافى ولا

عَجَبَ إذا سَلَّمت له ذَوُو الوظائف وألْقت عليه السلاح! ؛ ذُو العَزْم الأشدّ، والرَّأْيِ الأسَدّ ، والذَّكِيُّ الذى إذا تناولَ بعضَ الأسْلِحَة وآنتسبت شَجاعَتُـه رَأيتَ القَوْس فى يَدِ عُطَارِدَ فى بَيْتِ الأسد .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ المُبـارَكةَ بعزْمٍ أقْطعَ من حُسام، وأمانَةٍ أقْومَ من ألِفٍ وصِيانَةٍ أحْصَنَ من لَام، مُعتبِرًا لأحوالهـا، مُقَرِّرًا لمطالب مآلها من مالهـا، مُوَفِّرًا من أسْلِحتها التى تتوفَّر بها من الخَيْرِ سِهامُه، مُنْصِفًا لصُنَّاعِها الذين يُحمَدُ عند آستعمالهم صَنِيعُه وآهتِمامُه، مُكثِّرًا لخزائنها من ذخائر العُدَد، مُجهِّزًا لجيوش الإسلام من مادّة عَمَلِها بأنْفع مَدَد: من قِسِىٍّ تقضى أهلها بقَطْع أعمـار العدا، وسُيوفٍ صَقِيلَةٍ إذا نادَتْ دِيارُ النَّاكثين أجابت النـدا، ودُرُوعٍ تموّجت غُدْرانُها إلا أنها فى مَهَالك الحرب لا تُغَوِّر، ورِماحٍ آطَّردَتْ كُعُوبُها فكأَنَّها علىٰ عَدُوّ الإسْـلام كَعْبٌ مدَوّر؛ إلىٰ غير ذلك ممـا يدُلُّ علىٰ عَزْمِه الحميـد، ويَقْضِى للنِّعمة عليه بالمَزِيد؛ والله تعالىٰ يثَقِّفُ عَزْمه، ويُوفِّرُ من السِّلاح والنَّجاح سَهْمَه .

وهذه نسخةُ تَوقيع بشَدِّ الجَوَالى، من إنشاء ابن نُباتَة أيضا، وهى :

رسم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ سُعودُ أوامرِه واضِحةَ الأدِلَّه، نافِذَةَ الحُكم علىٰ كُلِّ مِلَّه، قائمةً لخِصْبِ البِلاد بالعَدْل مَقام السُّحُب المُسْتَهِلَّه ـ أن يرتِّب فلانٌ فى شَدِّ الجوالى بدِمَشْق المحروسةِ : لمـا ظَهر من نَجابَتِه، وآشْتهر من حَزْمه ومَهابتِه؛ وبَدا من هِمَمِه العَوالِى، وعَزائِمِه التى تَجْلُو صَـدأَ الهَمِّ بالجوالى، وإذا قيل لحاسده : له ولأبيه إمْرَةُ الخَيْل قال : والجَوَىٰ لى، وأنَّه الكَافِى الذى إذا آسْتُنْهِضَ كانت عَزائِمُه شَابَّه، ونَفَحاتُ ذِكْرِه الجميلِ هَابَّه؛ ونَجْلُ الهُمامِ الذى أشْهد على كَفاءَتِه النَّهارَ وعلى

تَعَبُّـدِه اللَّيل ، وأعدّ لمصالح الإسلام مَا ٱستَطاعَ من قُوَّةٍ ومن رِبَاطِ الخَيْل ؛ وأنَّ مَرْباه جَميل ، ومنْشَاه فى منازل الخير دَلِيل .

فلْيُباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ بعَزْمٍ يُثَمِّـر مالهـا ، ويقرِّرُ على السَّداد أحْوالها ؛ ويَسْتَخلِصُ الحقَّ من أهلِ الاعتقاد الباطل ، ويَسْتَخْرِج الوَفْر من أهْل الجَلَد المـاطل ؛ فلا نَصْرانِيَّ إلّا وهو يتضرَّع تحت الزَّرْقاء من بَأسه ، ولا يَهُودِيَّ إلا وهو يشْكُو الصَّفْراء فى رَاســه ، ولا سَامِرِيَّ إلّا والنارُ الحَمْراءُ مُطِلَّةٌ علىٰ أنفاســه ، حتَّىٰ تكون أوْصافُ شدِّه مَتْلُوه ، وعَزائِمُه فى الحَوالى مجْلُوَّه ؛ وهِمَمُه جارِيةً علىٰ إيلافها ومَأْلُوفها ، مُجَزِّئَةً لأقْلام الحساب والدَّراهم علىٰ حُرُوفها ؛ صَحِيحةَ الوَزْن غير مَنْهوك ، آخِذَة الدِّينـار من وَازِنِه وهو كالمَأْخُوذِ منـه مَصْكُوك ؛ شَـدًّا تنعقِدُ علىٰ ٱختياره الخناصِر ، وكما أنَّ للإسلام منه قُوَّةً فليَكُنْ للوظائف الدينية منه ناصر .

الضـــرب الثـانى

(ممن يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من أرباب السيوف ـ من هو بأعمال دمشق ، ومَواضِعُهم علىٰ ثلاثِ مراتِبَ أيضا)

المرتبـــة الأولىٰ

(ما يُفْتتح بـ«ـالحمـدُ لله» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ تَوْقيع بنيابة بَعْلَبَكَّ كُتب بها لركن الدين «عمر بن الطحان» وهى :

الحمدُ للهِ الذى جمَّلَ بمحاسِنِ زَيْنِه من ٱستحقَّ الصُّعودَ إلىٰ أعْلَى المنازل ، وجَعل نَجْمَ سَعْدِه بارتقائه إلىٰ سماء المناصب طالِعًا غيرَ آفِل ، وصانَ بعَقْلِه الراجِح أحْصنَ المَعاقِل .

نحمَده علىٰ إحْسانِه الواصِل ، وغَيْثِ جُودِه الذى هو على الدّوام هاطِل ؛ حمدًا ينطِقُ بمَدْحِ مَعْدِلتِه كلُّ لسانٍ قائل ، ويَزِيدُ خَيْرُه علىٰ كلِّ عامٍ قابِل ؛ ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى ألْحق جِيادَ الأواخِر بالأوائِل ، وجعلَ أجْمل الأُمراءِ يَفُوقُ البُدورَ الكَوامِل ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمّدًا عبدُه ورسولُه الذى جعله لَدَيْه أعْظمَ الوَسائِل ، وتَلازَم هُو وجِبْرِيلُ فى عُلُوِّ المنازل ، والتّقدُّمِ فى المَحافل ؛ صلّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه ساداتِ العَشائِرِ والقَبائِل ، والمُجاهِدِين فى سبيل الله بالبِيض البَواتِرِ والسُّمْرِ الذَّوابِل ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فلمَّا كانت بَعْلَبَكُّ المحروسةُ من أعَزِّ بلاد الإسلام ، وأبْهج مُدُن الشَّام ـ تعيَّن أن نُعيِّن لها حاكمًا دينًا خَبيرا ، أمينًا أميرا ، شُجاعًا مُهتابًا(١) ، بَطَلًا برُمْحِه وسَيْفه فى صُدُور الأعداء ورقابِهم طَعَّانًا ضَرَّابا ؛ وكان الجنابُ الكريم فلان : ـ ضاعف اللهُ تعالى نِعْمته ، وحَرس من الغِيَرِ مُهْجَته ـ من بَيْتٍ كان على التَّقْوىٰ أساسُه ، وعُدَّتْ لدَفْع المُعضِلاتِ أُناسُه ، وٱشْتهرتْ هِمَّتهُم فلا يُرَدُّ لهم سَهْمٌ ولا يُطاق باسُه ؛ طالَما نَفَوْا عن الدِّين الحَنيفِيِّ خَبثَ الكُفْر بعد ما تمكنتْ أدْناسُه ، وشَمَّروا عن ساعِد الاجْتهادِ فمُحِىَ بسيوفهم ضَلالُ الشِّرْك وأرْجاسُه ؛ وهو أعَزَّه اللهُ تعالى ممَّن شَجىٰ بشجاعَتِه ، حُلُوقَ الكتائب ، ووَفَّىٰ بعَدْله وحُسْنِ سياسته ، حُقوقَ المناصب ؛ وقام فى خِدْمة الدَّولة الشريفةِ أحْسن قيام ، وهَذَّبَتْه بمُرُورِها اللّيالى والأيام ؛ وتأهَّل لحُلُولِ الرتب العَليَّه ، وتَعيَّن لٱرتقاء المراتب السَّنِيَّه ؛ فأرَدْنا أن نَخْتبِره فيما نُوَلِّيه ، ونَخْبُر عَزْمه فيما نُولِيه .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ـ لا زال أمْرُه مستمرَّ الإحسان ، مُجْزِلًا لذَوِى الاستحقاقِ عوارفَ النِّعَم الحِسَان ـ أن يستقرَّ الجنابُ الكريمُ المشار إليه ـ ضاعف

(١) فى الأصل «مهابا» ولم يجئ من هذه المادة فعل رباعىّ بهذا المعنى بل الوارد هابه واهتابه .

اللهُ تعالىٰ نِعْمتَه ـ فى نيابة السَّلطنةِ الشريفةِ ببعلَبَكَّ المحروسةِ والبِقَاعين المعمورَيْن، علىٰ عادة من تَقدّمه فى ذلك، ومُسْتَقِرِّ قاعدته، بالمعلوم الذى يشهدُ به الديوان المعمورُ، إلى آخر وَقْتٍ .

فْليباشِرْ هذه النيابةَ الشريفةَ بخاطرٍ مُنْفَسِح حَاضِر، وقَلْبٍ مُنْشَرِح على الخَيْرات مُثابِر، ولْيتَّخِذِ الشرعَ الشريفَ إماما، ولْيَتَوَخَّ أوامِرَه ونَواهِيَه نَقْضًا وإبْراما؛ وليقِفْ عند حُدوده المشروعه، ولا يَتَعَدَّها ومن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فيَدُه من الإيمان مَنْزُوعَه؛ وليُلِنْ جانِبَه للرَّعِيَّه، ولْيَحْمِلْهم من العَدْل والإنصاف على المَحجَّةِ الوَاضِحَةِ الجَلِيَّه؛ فإنَّهم الرعية الضعفاء(١) الصالحون الذين أنْعم اللهُ عليهم بتَفْويض أمورهم إليه، ولْيعرِّفْهم قولَ النبى صلَّى الله عليه وسلم : «اللَّهُمَّ من وَلِىَ من [أُمور](٢) أُمَّتِى شيئًا فرفَقَ بهم فَارْفُقْ به ومن شَقَّ عليهم فَاشْقُقْ عليه»؛ وليعَمِّر البلاد، وليقْمَع أهلَ الفساد، وليمَهِّدْ البِقاع، ولْيُحْيِ مَواتَ الضِّياع؛ ولْيُقِمْ على القَلْعة المنصورة الحَرَس، ولا يغْفُلْ عن حِفْظها بمعرفته التى أكَّدتْ له من السَّعادة سَبَبا، واللهُ تعالىٰ يبلِّغه من إحساننا أرَبا، ويُنْجِحُ له من فَضْلنا طَلَبا، ويَحْرُسُه بسورَتَىْ فَاطِرٍ وسَبا؛ والاعتمادُ فى معناه، على الخط الكريم أعْلاه .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بكَشْف البلاد القبلية، كُتب به لغَرْس الدين خليل النّاصرىّ فى الدولة الظاهرية «برقوق» وهى :

الحمدُ للهِ الذى جرَّد من أوْلياءِ هــذه الدَّولة الشَّريفة سُيوفًا تَحْسِمُ مَوادَّ الفَسَاد، وتُبِيدُ أهلَ الزَّيْغ والعِناد، وتَعُمُّ ببَأْسِها وبعَدْلِها البِلاد . حمدًا مستمرًّا على الآباد،

(١) فى الأصل : العلماء، والتصحيح من الرسالة الآتية بعد .

(٢) الزيادة من الرسالة الآتية بعد .

مُزَوِّدًا غَرْسَها النافِعَ ونِعْم الزَّاد ؛ ونشهدُ أنْ لَا إِلٰه إِلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له رَبُّ العِباد، القَائِمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بمـا كَسبَتْ والمُجازِى لها بمـا عَمِلَتْ يوم يَقُوم الأَشْهاد؛ ونَشهدُ أنَّ سـيدَنا محمَّدًا خيرَ الخلائِقِ عبـدُه ورسولُه الذى بلَّغه فى الدنيا والآخرة أقْصَى المُراد، وفَضَّلَه على الخلائق : الآلافِ والمِئِينَ والعَشَراتِ والآحاد؛ صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فتَحُوا البـلاد، بسيوفِهم الحِداد ، ومَزَّقَتْ رِماحُهم من مُخَالِفِى دينِهم القَويم القُلوبَ والأَكْباد، وسلَّم تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم التَّناد .

وبعدُ ، فلمَّـا كانت المملكةُ القِبْلِيَّة جُلَّ البلادِ الشاميـه ، وبها أرْزاقُ العَسا كِر الإسلاميه ؛ وطَرِيقَ الحاجِّ إلىٰ بَيْت اللهِ الحَرام ، وزِيَارةِ نَبِيِّه عليـه أفضلُ الصَّلاة والسلام ؛ وإلى الأَرْض المُقَدَّسه ، التى هى على الخَيْراتِ مُؤَسَّسَه ؛ وإلى الأَبْواب الشريفة السلطانيه ، ومَمَرَّ التِّجار قاصِدِين الدِّيارَ المِصْرِيَّة ؛ ومَنازِلَ العُرْبان ، ومَواطِن العشران(١) ــ وجب أن يُفَوَّضَ حُكْمُهـا إلىٰ من عُرِف بالشَّهامَة والشجاعه ، واليَقَظَة التى لا يغْفُلُ بها عن مصْلَحة المُسْلمين ساعَه ؛ من أثْمر غَرْسُـه وما يفوه ، وأيْنـع بالمُروءَة والفُتُوَّه ؛ وتقدَّم فى الكَمال علىٰ زَيْدٍ وعَمْرو ، وأضْرمَ فى قُلوب الأعداء نارًا أحَرَّ من الجَمْر .

وكان الجنابُ الكريمُ ــ أدام اللهُ نِعْمته ــ هو المشهورَ بهذه الصِّفات ، والمَنْعوتَ بالشَّجاعَةِ والإقْدامِ وحُسْن الأدوَات .

فلذلك رُسِم بالأمْر العالى ــ لا زَال إحْسَانُه يُثْمِرُ غَرْسا ، وجُودُه يَسُرُّ نَفْسا ــ أنْ يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليـه فى كَشْف البِلاد القِبْلِية المحروسةِ على مِنْوال من تَقَدَّمه وعَادَتِه ، وحُدودِه فى ذلك ومُسْتَقرِّ قاعِدَتِه .

(١) لم يرد هذا الجمع فيما بأيدينا من كتب اللغة ولعله ارتكب القياس فى اللغة فجعله كرغيف ورغفان وقطيع وقطعان .

فَلْيُباشِرْ ذلك بهِمَّتِه العَلِيَّه، وشَجاعَتِه الأَحْزَمِيَّه، ونَفْسِه الأَبِيَّـه؛ ولْيُبَيِّضْ وجْهَه في هـذه النَّوْبَةِ حتَّى يَطْرَب الناس بالنَّوْبَة الخَلِيلِيَّه؛ ولْيَعْدِلْ في الكبير والصغير، ولْيَقْمَعْ رُءُوسَ عَشِـيرٍ ٱتخذُوا رَأْسهم مَوْلًى: فَلَبِئْسَ المَوْلَىٰ ولَبِئْسَ العَشِير؛ ولْيَدْفَعْ أَذَىٰ العَرَب، ولْيُحذِّرْهم شَرًّا ٱقْتَرب؛ ولْيُكْثِر الركوبَ إلىٰ المعـاملات، ولا يَخْشَ من كَثْرة الحركات، ولْيَعْلَم أنَّ كلَّ ما هو آتٍ آت؛ وليتخذِ الشَّرعَ الشريفَ إماما، وليَتَوخَّ أوامِرَه ونَواهِيَه نَقْضًا وإبراما؛ وليَقِفْ عند حُدودِه المَشْرُوعه، ولا يتعَدَّها: ومن يَتَعَدَّ حُدودَ اللهِ فيَدُه من الإيمـان مَنْزُوعه؛ ولْيُلِنْ جانبَه للرَّعِيَّه، ولْيَحْمِلْهم من العَـدْلِ والإنصافِ على المَحَجَّةِ الواضحة الجَلِيَّه؛ فإنَّهم الرعيةُ الضُّعفاء الذين أنْعم الله عليهم بتَفْوِيض أُمورِهم إليه، ولْيَعتمِدْ قولَ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلم: «اللَّهُمَّ من وَلِيَ من أُمورِ أُمَّتِي شيئًا فرَفَق بهم فٱرْفُقْ به ومن شَقَّ عليهم فٱشْقُقْ عليه»؛ والوصايا كثيرةٌ وتقْوى اللهِ عزَّ وجلَّ نِظامُها وقِوامها، وٱتِّبـاعُ سُنَّة نَبِيِّه سيدِنا محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم قِيادُها وزِمامُها، والٱعتمادُ في معناه، على الخطِّ الكريم أعلاه .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بكَشْف الرَّمْلة، كُتِب به لأبِي بَكْر «أمير علم»، في الدولة الظاهرية «برقوق» وهي:

الحمدُ للهِ الذي قلَّد أجياد المُجاهِدين، سَـيْفَ نَصْره، وأكَّد بعزائم أهلِ اليَقِينِ، حِمايَةَ حَوْزَةِ الإسلام وصِيانَةَ ثَغْرِه؛ وجعل ألْسِنةَ أسِنَّة المُرابِطِين في فَمِ الثَّغْر زَيْنًا إذا ٱزْدان بغُرَّةِ بَدْرِه، وأنزل بأعْداءِ الدِّين قَوادِحَ نِقَمِه وقَوارِعَ قَهْرِه .

أَحْمدُه أن حمىٰ بأُولِي النَّجْدة والبَأْس للسلمين حِمَىٰ، وأشْكُره علىٰ ماهَمَع من صَيِّب نَعْمائِه وهَمىٰ؛ وأشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً أتَّخِذُها عنـد الله

ذُخْرا ، وأرْجو بها فى العُقْبىٰ أجْرا ؛ وأشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى آيدَ يدَه بالسَّيف وأمدَّه أيدا ، وعلىٰ آله الذين حَلَّىٰ بهم للإسلام جِيدا ، وصَحْبِه الذين جَلَا بَوارِق صِفاحِهم ، وخَوارِق رِماحِهم ؛ غُمَم المجال ، وغَمَم القتال ؛ فلم يُهمِل الأعداءَ ولم يُمْهِلْهم رُوَيْدا .

وبعدُ ، فإنَّ أولىٰ مَن جُعِل فى نَحْر البَحْر هُماماً صَارِمْ(١) ، وأشدَّ من قاطع أعداء الدين وصارَمْ ؛ من تُضرَبُ بشجاعته الأمثال ، ويُورِدُ فى صدور الأبْطال صُمَّ الأَسَل النِّهال ؛ ويَحْمِى حِمَى الثَّغْر فلا يَدَعُ عدوًّا ولا يَرْهَبُ نَهْبا ، ويَرْقَىٰ رِقابَ الكُفْر فيُؤْمنون وإن كان وراءَهم مَلِكٌ يأخذُ كلَّ سَفِينة غَصْبا .

ولما كان الجناب الكريم فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمته ـ هو الذى أخلص فى الطَّاعه ، ونصح سُلْطانَه حسب الطاقة والاْستِطاعَه ـ رُسم بالأمر الشريف العالى ـ لازال سيفُ عدله ماضِيا ، وكُلٌّ بحُكْمِه راضِيا ـ أن يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليه كاشفًا بالرَّملة المعمورة ، علىٰ عادة من تقدَّمه فى ذلك .

فلْيُباشِرْ ذلك مُعَمِّرًا تلك البلادَ بعَدْله ، مُجتهِدًا علىٰ إيصال الحقِّ إلىٰ أهْله ؛ وليتخِذِ الشَّرعَ الشريفَ إماما ، ولْيَتَوَخَّ أوامرَه ونَواهِيَه نَقْضًا وإبْراما ؛ ولْيقِفْ عند حدوده المشروعه ، ولا يتعدَّها : ومن يتَعَدَّ حُدودَ اللهِ فيَدُه من بِرِّ الإيمان منْزُوعه ؛ ولْيُلِنْ جانبَه للرَّعِيَّه ، وليحملهم من العَدْل والإنْصاف على المَحجَّة الواضحة الجليَّه ؛ [فإنَّهم الرعيةُ الضُّعفاء الذين أنْعم اللهُ عليهم بتَفْويض أُمُورِهم إليه](٢) ولْيعتمِدْ فيهم قولَ النَّبي صلَّى الله عليه وسلم : «اللَّهمَّ من وَلِيَ من أُمورِ أُمَّتى شيئًا فرفَق بِهم فٱرْفُق به ومن شَقَّ عليهم فٱشْقُق عليه» . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التَّقوىٰ فليلازمْ عليها فإنَّها

(١) وقف عليه بلغة ربيعة .
(٢) الزيادة مأخوذة مما تقدّم .

تحفَظُه ، و بالسيادة والسعادة تَلحَظُه ، والله تعالىٰ يكمّل توفيقه ، ويسهّل إلىٰ نُجْح المقاصد طَرِيقَه ، والاعتماد فى معناه ، على الخط الكريم أعلاه .

قلتُ : ومن تأمّل وصايا هذه التواقيع الثلاثة المتقدّمة الذكر ، علم ما كان عليه كُتَّاب الزمان ، من ٱنتزاع الفقرات من تَوْقيع ، وتَرصِيعها فى تَوْقيع آخر ، من غير تغيير لفظ فى أكْثرها .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع أرباب السيوف ممَّن بأعمال دِمَشْق ـ مايُفتتح بـ«أما بعـدَ حمد الله» وفيهـا وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيعَ بنيابة بعلَبَكَّ لمن دون من تقدّم فى المرتبة الأولىٰ ، من إنشاء الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة ، كُتب به لمن لقبه «ناصر الدين» : وهى

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى لم يُخلِ مملكةً إسْلاميةً من قُوَةٍ ولا ناصر ، ولم يُحلِ أمرَها على ذِى عَزْمٍ قاصر ، ولم يُحَلِّ وَجْهَها إلا بمن نُسِىَ به القديمُ وشَهِد له المُعاصر ، ولم يُلْقِ مقاليدَها إلا لمن وَضَح برأيه الإبهـامُ وثَبتتْ بفَضْلِه الشهادةُ وعُقِدتْ علىٰ ذِكْره الخَناصر . والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى شيَّد معالِمَ الدِّين وأرْكانَه ، وجدَّد مكان الحقِّ و إمْكانه ، وعلىٰ آله وصَحْبِـه الذين تابعوا فى الخلق عَدْلَه و إحْسانَه ، وشايعُوا فى النَّصر نَصْلَه وسِنَانَه ، ما ٱستتاب الوَدْقُ فى سُقْيا الرِّياض غُدْرانَه ، وخَلَع على الغُصونِ خِلعًا خَطَر فيهـا الزَّهر بأكْمامه وعَقَد من الثَّمرِ تِيجانَه ـ فإنَّ شَرَفَ الأماكِن بساكِنِيها ، وجُسُومَ الديار بنُفُوس قَاطِنِيها ، والمَنازِلَ بكواكِبها ، والمناصبَ

بنَصيبها من الكفاءة ونائبها؛ وإنَّ مدينة بعلبكّ عَلَمٌ فى المدائن مرفوعُ الخطّه، وجسمٌ من جُسوم الديار قد آتاه اللهُ بَسْطَه؛ بِنْيَةُ سليمانَ عليه السلام فهى بالملك قديمة الاختصاص، ومُبْتَنَى الجانِّ المنسوبةُ عُقودُها العليةُ والدُّرِّية إلى كلِّ بنَّاءٍ وغوّاص؛ وشامُ الشّام المُعجِبه، ورَوْضةُ نَداه المُعشِبَه؛ وثَنِيَّة ثغرِه الباسم، وعَرْفُ أعْراق حياه النَّاسم؛ ومأْوَى صُلَحائه أحْياءً بين أوْطانها، وأمواتًا بين صَفيح لُبْنانِها؛ لو عُرِضَتِ البِلادُ سُحُبًا لقيل لسَحابِها: يا كَثيرَ المِنَن، ولو صُوِّرَتْ أناسيَّ لقيل لإنسانها: ياطَيِّب النَّجْرِ واللَّبَن؛ لا يُمْنع ماعُونُها، ولا يَنْقطِعُ عَوْنُها عن البلاد وما أدراك ماعَوْنُها؛ ولا تَليق من النوّاب إلّا بكُلِّ سَرِىِّ العَزْمِ والهِمَّه، عَلِىِّ الآراءِ فى المُلِمَّة المُدْلَهِمَّه؛ ناجِح القَوْل والعمل، صالِح لأن يُثْنِى على نيابته البَعْلَبَكِّيَّة صالحو المدينة والجَبَل؛ مُكَمَّل لسلوك الحقِّ الأنجَى والعزم الأنجَد، مُؤَهَّلٍ لارتقاء الرُّتب التى تماحدنا[1] ولها الأمجد.

وكان فلانٌ هو جُملةَ هذا التَّفصيل، وجَمالَ هذا التَّفْضيل؛ وكُفْءَ هذه العَقيلَه، وسَعْدَ هذه المنزلة التى مَدّتْ بالسَّيف والقَلَم ذِراعَه ونَظَّمَتْ من البناء إكْليلَه.

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالت الممالكُ بمحاسِنِ أيَّامِه إرَمَ ذاتِ العِماد، والبِلادُ ذاتَ الخِصْبِ السَّنِىِّ لا ذاتَ السَّنةِ الجَماد ـ أن يرتَّبَ فى نيابة بعلبكّ المحروسة: مُجَدِّدًا بهِمَّته العالية عُلُوَّ صَرْحِها، وحِمايةَ سَرْحِها؛ ورِعايةَ جَبَلِها وسَفْحِها، مُورِيًا فى مصالحها زِنادَ فِكْرِه التى لا تمكّنُ أقوالُ العُداةِ من قَدْحِها؛ مُصرِّفًا أوامِرَه كيف شاءتْ، مُنْصِفًا للأحوال المَنُوطَةِ برِعايتِه إن دَنَتْ أو تَناءَتْ؛ باسِطًا لعَدْلِ قلمه على المُجيدين، وسَطَواتِ سَيْفِه على المعتدين، وازِعًا بمهابَتِه مَن جاوَر جبال

(١) لعله "التى إذا خلت من ماجد تناولها" الخ.

العَمَل من الضَّالِّين، ﴿فعسىٰ أُولئك أن يكونُوا من المُهْتَدين﴾ وليَتبوّأ منها مَعْقِلًا يحمُده المُناصِر والمُهاجِر، وليَحُطْ منها ثَغْرًا مَساوِيكُه الأسَلُ والمَسْعىٰ إليه علىٰ المَحاجِر، ولْيُجْرِ أُمور الديوان علىٰ سَنَنِ التَّمييز والتَّثْمير، وليُدبِّر الأوقافَ المبرورةَ بمحاسن التَّدبير، وليُشارِكْ أهلَها فى الأجْر الأوّل بالأجْر الأخير، والأسْوار هى وقُلوبُ الرِّجال من أهمِّ ما يُعَمِّرُه، ووُفورُ الحَواصل والسِّلاح ممَّا للوَلِيِّ ولِقاءِ العَدُوِّ يدَّخِرُه، وتقْوَى الله عزَّ وجلَّ ممَّا لا يزال لِسانُه يَسْتَحْلِي القولَ فيه فيُكَرِّره، واللهُ تعالىٰ يمدُّه بإعانته ولُطْفِه، ويكْفِيه ما أهَمَّ من الأُمور فما كُفِي مَن لم يَكْفِه .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية الولاة بالشَّام المحروس لمن لقبُه «عزُّ الدِّين» من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة أيضا، وهى :

أمّا بعدَ حمد اللهِ الذى جعل للوُلاة فى هذه الدَّولة عِزًّا يَتجدَّد، وعَزْمًا يتشدَّد، وعلالًا يتعدَّىٰ إذا حكم وزيدا لا يتعَدَّد[1]، وكافِى وُلاةٍ يتلذَّذُ الواصفُ بذكر آهتمامه الذى إذا آهْتَمَّ لا يتلَدَّد، وإذا آعتُبِر عَزْمُه وحَزْمُه فهذا فَضْلٌ يتجدَّد، وهذا وصف لا يَتحدَّد . والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِ الخلقِ محمد، وعلىٰ آله وصَحْبِه ذوى العِزِّ المؤبَّد، والعَزْم المؤيَّد، ما كَتَب قلَمُ الغَيْثِ الجائد علىٰ طِرْس الرَّوْض بخَوَد - فإنَّه لما كانت الوُلاة فى خدمة البلاد جيْشًا يَحْمُون سَرْحَها، ويُعمِّرون صَرْحَها، ويُخْصِبُون بالعَدْل قبل العِمارَة سَفْحَها، ويَحْكُمون فى رعاياها، ويتَحَكَّمُون فى قَضَاياها، ويقْرَعُون ثُغُورها ويفْرَعُون ثَناياها - تعيَّن أن نقدِّمَ علىٰ هذا الجَيْش المذكورِ أميرًا يقَرِّرُ أمرها، ويُنَسِّق من مَيْمنتِه ومَيْسرتِه يُمْنَها ويُسْرَها؛ ويُجرِّدُ من الرَّأى سِلاحَه، ويَسُرُّ قلْبَه بالتَّدبير ويَرِيشُ جَناحَه .

(١) كذا فى الأصل بالاهمال ولعل صوابه «وفعلا اذا حكم لا يتعدّى ورأيا لا يتعدد» .

وكان المجلسُ السامِى هو الأميرَ الدَّالّ عليــه هذه الإماره ، المَعْنِيّ بهــذه الشَّارَة والاشاره، المُسْتَحِقّ بشريف نَفْسه مَدَارِجَ الآرتقاء ، ومَباهِجَ الآنْتِقاد والآنْتِقاء ؛ المُسْبِلَ أذْيالَ مَفاخِره أىَّ إسْبال، المَرْقُومَ بآسمه ورَسْمِه علىٰ أرْجاء الوِلايات : «عِزٌّ يَدُومُ وإقْبال» ؛ المُقِيمَ من أمانَتِه ومَهابتِه بين حِرْزَيْن، الشَّهْمَ الذى لا يَذِلُّ وهو من نَعْته ومُنْتَسَبِه بين عِزَّيْن؛ الصَّمْصَامَ الذى تُسَرُّ [به] يدُ من آرتضاه وآنْتضاه، والمَـاشِيَ على الحقِّ الظَّاهِر حتَّىٰ يقال : أهَذا وَالِى الوُلاةِ أمْ قاضِى القُضَاه ؟ .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ شَرَّفه اللهُ وعظَّمه ـ أن يَستقرَّ ... ... آعتمادًا علىٰ شَهامَتِه التى بِمثْلِها تُمَهَّـدُ البِلاد ، وكَفَاءتِه التى تُفْصِحُ بالخيرات السَّنِيَّة ألْسِــنَةَ الجَماد ؛ وصَرامَتِه التى تَشُدُّ علىٰ أيْدى الوُلاة فيَردُّون الحُقوقَ من أيْدى الآغْتِصاب، ودِرايَتِه التى ينتَسِبُون إليها فيُنْشِدُون :

وكُنَّا كالسِّهامِ إذا أصابَتْ * مَرامِيها فَرَامِيها أصَاب[1].

فلْيباشِرْ هذه الرُّتبَةَ بكُفْئِها : من العَزْمِ العالى، والقَدْرِ الغالى؛ والمَعْدِلَةِ التى تَتَمَسَّكُ منهـا الأحوالُ بأوْثقِ العُرا ، وتتلُو سَـيَّارتها المرفقة : ﴿ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى القُرَىٰ ﴾ . مُراعِياً لجميع الأحْوال ، مُثَمِّرًا لمَرْبعِ الأمْوال؛ وَالِيًا علىٰ وُلاةٍ إن شَكُوا فى صُنْع الله فـا لهم من اللهِ من وَال ، ماشــيًا من تَقْوى الله تعالىٰ فى كلِّ أمرٍ على أقْوىٰ وأقْومِ مِنْوال ؛ واللهُ تعـالىٰ يُخْصِب البــلادَ بغَمامِ رأْيِه الصَّيِّب ، ويُطَيِّبُ الأماكن المُنْبِتةَ بمثْلِه : « وكلُّ مَكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّب» .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية البَلْقاء والصَّلْت ، من إنشاء آبن نُباتة، وهى :

(١) الرواية : أصابا بألف الإطلاق، وحذفت هنا لمراعاة الفاصلة .

أمّا بعدَ حمدِ الله مُضاعِف النِّعْمه ، ومُرادِف رُتَب الإحْسان لمن أخْلص في الخِدْمه ، ومُجدِّدِ منازِلِ العزِّ لمن طلعتْ كواكبُ آهْتمامه في آفاق الأُمور المُهِمَّه ، ومُؤكِّدِ سِهام الخَيْر المقْتَسَمه ، لمن سدَّد في شَرَف الأغْراض رَأْيَه بل سَهْمَه . والصلاةِ والسلامِ على سيدِنا محمدٍ النبيّ الأُمّيِّ هادِي الأُمَّه ، وعلى آله وصَحْبه حُماة الدِّين من العوارض المُلِمَّه ، صلاةً تكونُ بين أرْواحِهم الزَّكية مَوَدَّةً ورَحْمه ـ فإنَّ أحقَّ الأولياءِ بمزِيد الآلاء المتّصِله ، وتَجْديد النِّعَم المقْبِلَةِ وتَقْديم المساعى التى لاتَلْبَس حُلَلَ الفَخار إلا مُكْتَمِلَه ـ من وَضَحتْ في صفات الفَضْل آياتُه ، وتقابَلَتْ في حالَتَي التَّدْبير سَطَاهُ وأناتُه ، ورَوّى غُلَّة البَلَد الخائف ففاض على المُعْتَدِينَ جَدْوَلُ سيفه وجَرَتْ بالدَّم قَناتُه ، وقام على قَدَم الاجْتهاد ، وقَسَّم بين جَفْنِه وجَفْن سَيْفه السُّهاد .

ولما كان المجلسُ هو المقصودَ بهذه الكِنَايَه ، والمشهودَ له في طَلَق هذه الغَايَه ، والعالِيَ بِهِمَمِه على ذَوِي الارْتقاء ، والوَالِيَ الذي إذا رَكِبَ الوُلاةُ لاشْتهارِ ذِكْرٍ كان من بينهم فارِسَ البَلْقاء ، والنّاهِضَ بتَثْمير الأموال غَمامُ رَأيه الصَّيِّب ، والطَّيِّبَ بسياسته مَحَلُّ الولاية : « وكلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طَيِّب » ـ تعين أن تتَزَيَّد مَنْصِبَه إذا تزيَّدتِ المناصب ، وأن تَستمرَّ مَرْتَبَتُه إذا مَرّتْ لذَهابِها المَراتِب ، وأن يشتملَ في آسْتمرارها عليه ، وأن يكون في إعْراب الدَّولة القاهِرة مُضافًا ومُضافًا إليه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ أعلى الله تعالى أبدًا عِمادَه ، وجعل لوُلاةِ أيَّامه الحُسنى وزِيادَه ـ أنْ يستمرَّ على ولاية البَلْقاء على عادته ، وأنْ تُضافَ إليه ولِايةُ الصَّلْت (١) : جمعا له بين الأُخْتَين حَلالا ، والذِّرْوَتَيْن مَنَالا ، والرَّايتَيْن نُهوضًا بهما

(١) لم يذكرها القاموس ولا ياقوت وفي تقويم البلدان هي بليدة وقلعة من جند الأردن .

وآستقْلالا، وعلمًا بوفاءِ عَزْمه الذى أَمَرَ أمْرُه، ورَفْعًا لقَدْرِه الذى حَسُن أن يقولَ لمَنْصب البَلْقاء : « لنا الأبلْقُ الفَرْدُ الذى سارَ ذِكْرُه »، وتَيَمُّنًا بغرّة الصَّلْتِ فإنَّ الصَّلْتَ هو الجبينُ الواضحُ بِشْره؛ وكَيْف لا؟ وهو الكَافى الذى جمعَ مالَ الجِهاتِ فأوْعىٰ، وقَسَم فُنُونَ المصالح جِنْسًا ونَوْعا، وحَسَم أدْواءَها بحُسامِ رِفْقه كَرْهًا وطَوْعا .

فليباشِرْ بالعِزِّ واليُمنِ جِهتَيْه، وليأْخُذْهما بكلْتَا يَدَيْه، ولْيفض وَجْه عزمه فى أرض الدَّولة حتَّىٰ يكون شبه البلْقاءِ اللازم لإحدى ولايتيه؛ محصّنًا بسِماكَىْ سَيْفه وقَلَمه فنِعْمَ البَلْدتان، مُثَمِّرا بسَدادِ قَوْله وفِعْله ومن دُونِهما جَنّتان؛ مُوفِيًا للحقوق، مُعْفيًا لاعتراف النِّعمة من العقوق، رَاقِيًا بهمته - إن شاء الله تعالى - إلىٰ رُتَبٍ لو رامَها نَجْمُ الأُفقِ لعاقَهُ العَيُّوق، عاملًا بتَقْوَى اللهِ عزَّ وجلَّ فإنَّ خيرَ الدنيا والآخرةِ بتقْوَى الله مَعْدُوق؛ واللهُ تعالى يُوضِّح لرأْيه أجْمَلَ الطرائق، ويُنْجِح على البَلْقاءِ وغيرِها سَعْيَه السَّائِق، وفِكْرَه السابق؛ بمنه وكرمه! .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية نَابُلُس، من إنشاء آبن نباتةَ أيضا، وهى :

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ علىٰ ماهَنَّأ من المواهب، وهَيَّأ من عَلِيِّ المراتب، وأنْجز من وُعود السُّعود بعد مِطَالِ المَطَالِب، وزَيَّن من سماء الوظائف عند إزهائها بزِينَةِ الكواكب، وعَمَّر من صُدُور الوُلاة والولاية بعَلِيٍّ تُثْنِي عليه الرعيَّةُ «ولو سكَتُوا أثْنَتْ عليه الحقائب» . والصلاةِ علىٰ سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه الذى جَرّد لنَصْر الإيمان حَدَّه القاضِب، وحِزْبَه الغالب، ونَدَب لإحْياءِ الحقِّ عليه بعد ماهَمَّت به النَّوادب؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين هم فى المَمَات جمالُ الكُتُب كما كانوا فى الحَياةِ

جَمَالَ الكَتَائِب ، صلاةً تتعطر بنَفَحاتِها الصَّبا وتتَقَطَّر من خَلْف سُراها الجَنائِب ـ فإنَّ عقائِلَ الوِلايات أوْلىٰ بخِطْبَة أكْفائِها ، ورَغْبة السَّرَاة من ذَوِى ٱصْطِفائِها ، ونِسْبة من يقوم للأُمور المُعَلَّلَة بقانُونِها وشِفَائِها .

ولما كانت بَلَدُ نابُلُس المحروسة من أعْلىٰ عقائِل البلاد قَدْرا ، وأَمْرإ الجهات أمْرا ، وأسْرى الوِلايات مَحَلًّا وذِكْرا ، وأوفَى النَّواحِى من زمان بَنِى أيُّوبَ علىٰ تكاليف المُلْك صَبْرا ، وأنْزَه البِقاع التى لو رآها المَلِكُ المِصْرِىّ لمَا ٱسْتَغْلىٰ غُوطَةَ الشَّام بشِبْرَيْن من شِبْرا ؛ بَلَدٌ أعارَتْه الحمامةُ طَوْقَها وحمَّلت الثَّناء فوقَ طَوقِه ، ونَجَمَ نبات واديها الزَّهْر حتَّى تَساوَى النَّجْمان من تحْتِه ومن فَوْقِه ـ تعيَّن أن يُختار لولايتها من تَعيَّن وَلَاؤُه ، وتمكن فى الرُّتَب عَلَاؤُه ، وتبيَّن فى مصالح الولايات ٱحْتِفالُه وٱحْتِفاؤُه ، وشُهِر وَفاؤُه بالخِدْمة فلا شَرفَ بسعى إلَّا لَه مِنْه شِينُه ورَاؤُه وفَاؤُه ؛ من شَهِدَت السَّواحِلُ الشاميَّةُ فى مُباشَرته أنَّه أجْرَى منها المالَ بَحْرا ، وأفاض الوَصْف دُرّا ، وشَهِدت الزَّكاة ـ ودِيوانُها المَادِحُ ـ أنَّه أفْلحُ من زَكَّاها خَبَراً وخُبْرا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يُرتَّب فلانٌ ... ... عِلمًا بأنَّه الأوحَدُ الذى جمع الأوصافَ المتقدِّمَه ، وأسْمَع من المحامد نَتِيجَةً لها من كِلَا قَوْله وفِعْله مُقَدِّمَه ؛ وأطلع فى آفاقِ الوَظائِف كنُجُوم الجَوْزاءِ الثَّلاثَة رأْيَه وسَيْفَه وقلَمَه ، وٱطَّلَع علىٰ مَحاسِنِ التَّدْبير فكان فى رَعايا بَلَدِه ممَّن تَواصَوْا بالصَّبْر وتَواصَوْا بالمَرْحَمَه ؛ وأنَّه الكافِى الذى إذا وَلِىَ ثَمَّر ، وإذا صال على المُفْسِدِينَ دَمَّر ، وإذا شَامَت المُهِمَّاتُ بارِقَ عَزْمٍ ، أسْبَلَ وإذا سَامَتْ قُواهُ شَمَّر ؛ وأنَّه الأمينُ إذا تَصرَّف ، والمأْمُونُ إذا تعَرَّف ، والشُّجاعُ إذا تحصَّنت البلادُ بنَسَبِه الحِصْنِىّ : فَسواءٌ فى شُمولِ الأمْن ماتَوسَّط منها وما تَطَرَّف .

فلْيباشِرْ هذه الوِلايةَ المباركَةَ بعَزْمٍ يُوضِّح بِشْرَها ، ويُنْجِحُ أمْرَها ، ويُقِيمُ فى خِطْبَة عُلاه عُذْرَها ؛ وحَزْمٍ يُثمِر مالَها وغِلالَها ، ويَنْقَعُ غُلَّتها ويَضَعُ أغْلالَها ؛ وبأْسٍ يَدَعُ

المُفسِدَ من سَيْفِه أو قَيْدِه فى طَوْقٍ أو حِجْل ، ويَذَرُ السَّارِقَ والمَـارِقَ يُشِيرُ بلا كَفٍّ ويَسْعىٰ بلا رِجْل ؛ مُشَيِّدًا لنَواحِيها بالتَّرغيب والتَّرهيب علىٰ أوْثَق المَبـانِى ، مُصْلِحًا بين أهْلِ الأهْواءِ حتَّى لا يَضُرّ قَوْلُ القَائِل : «رَفِيقُكَ قَيْسِىٌّ وأنْت يَمـانِى» ؛ مُتَفَقِّدًا من الأحوالِ كُلَّ جَليلٍ وحَقـير ، ناهِضًا فى تلَقِّى المهمات علىٰ قدم التقـدم بالعَزْم الأثِير ، جاعِلًا من لَدَى مَحَجَّةِ عَمَـلِه لصلاحِ العشِيرةِ نِعْم العَشـير ، عامِلًا بتَقْوى اللهِ تعـالىٰ فى كلِّ أمْرٍ وإليها بالحديث يُشِير .

وهذه نسخةُ توقيع بشـد الدَّواوين بغَزَّة ، من إنشاء ٱبن نُبـاتة ، كُتب به لـ«عَلاء الدِّين بن الحصنى» المقدَّم ذِكْره فى التَّوقيع قَبْله ، وهى :

أمَّا بعـدَ حمدِ اللهِ علىٰ كلِّ نِعمةٍ جَلَّتْ ، ونَعْمَةٍ فى أهْلِهـا حلَّتْ وحَلَّتْ ، ورتبة بانتساب كافيها وباسمه تحصنت على الحقيقة وتَعلَّت ، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ خيرِ من سَلَّمتْ عليه الألْسِنةُ وصَلَّتْ ، وسُلَّت به سُيوفُ النَّصْرِ وصلَّت ، صلاةً دائمةً ما أُمْلِيَتْ على الأسماع فمَلَّتْ ، ولا قَابلَتْها وُجوهُ الملائكة إلَّا تَهلَّلَتْ ولا سُحُب الرِّضْوان إلَّا ٱنْهلَّتْ — فإنَّ منزلةً يُستَحقّ [من] مُهِمَّات الدَّولة خَبَرُها ، ويُسْتدعَى من جَانبَيْ مِصرَ والشَّام سَـبْرُها ، ويُحْمَد إليها من ناحِيتَى الساحلِ والجَبَلِ سُراها وسَيْرُها ؛ وتلك وظيفةُ شدِّ الدَّواوين المعمورة بغَزَّة المحروسة التى تُلْتقطُ من ساحِلِ بَحْرِها دُرَرُ الخير المقْتَبَـل ، وتقولُ المهِمَّات الشريفةُ لسَراةِ ٱسْتِنهاضِها : ياسارِيَةُ الجَبَـل — حَقِيقَةٌ أن يُتَخَيَّرَ لها من الشاكرين من يُحْمد ٱجْتِهادُه وجِدُّه ، ومن السَّابقين إلى المقاصد من يَحْسُنُ — كما يقال — تَقْرِيبُه وشَدُّه ؛ ومن شُكِرَتْ فى الولايات آلاؤُه ، ومَن إذا علا نَظَرُ رَأْيِه فى المصالح قيـل : دَام عَلاؤُه ؛ ومَن إذا دَبَّرَ جِهةً قالت بلسان الحـال : لقد زاد فى المصالح حُسْنا ، ولقد تَحَصَّنتُ بانتساب ذِكْرِه فلا عَدِمْتُ منه حصنا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرّ ... ... لمـا عُرِف من حَزْمِه وعَزْمِه، ولمَـا جُدّد فى مقدّمات القَدْرِ من رَفْعِـه وفى إعْلاء المهِمّات من جَزْمِه؛ ولمَـا عُهِد من هِمَمِه فى جِهاتٍ دَبَّرها، وفى وِلاياتٍ ثَمَّرَها، وفى وَظائِفَ شـدّها: أمّا على العُتَاةِ فشـدّدها وأمّا علَى المُسْتَحِقّين فيسَّرها؛ ولمَـا آشتهر من ذِكْره الذى لا بَرِحَ عَلِيّا، ولمَـا ظهر من دِرايتِه التى جعلتْ كوكبَ سَعْده وسَعْيه دُرِّيّا، ولمَـا بَهَر من تَميُّزه الذى إذا هَزَّ عصاه بيَدٍ تُساقِطُ على المقاصد رُطَباً جَنِيّاً.

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ مباشرةً تُبَيِّضُ لهـا وَجْهًا وعِرْضًا، وإذا أثْنىٰ عليه المُثْنِي تَبرُّعًا كافَأه حتّى يكونَ قَرْضا؛ مجتهِدًا فى تَثْمِيرِ الأموال والغِلال، ضابِطًا لأُمور الدِّيوان حتّى لايشْكُو الخَلَّةَ ولا الآختِلال؛ قائِمًـا بحقوقِ الخِدْمه، مُسْتزِيدًا ـ بشُكْر الأقوال والأفعال ـ لمـا يرسَخُ له من أقْسام النِّعْمه، عَلِيًّا علىٰ كلِّ حالٍ إذا وَفَّت الفِكَرُ قَدْرَه وإذا ذكر اللِّسانُ آسْمَه.

المرتبـــــة الثـالثة

(من تواقيع أرباب السيوف بأعمال دِمَشْق ما يفتتح بـ«رُسم» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك:

نسخةُ توقيع بنِيابة قَلْعة القُدْس، من إنشاء الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة، كُتب بها لشرف الدين «مُوسى الرّدادى» وهى:

رُسم ... ... ـ لا زالتْ وُلَاةُ أيّامه عالِيةَ الشَّرف، سامِيةَ المسْتَشْرَف آوِيةً من جَنَّات خَيرِ الدُّنيا والآخرةِ إلىٰ غُرَف من فَوْقها غُرَف ـ أن يستقرَّ المجلسُ السامى ... ... علْمًا باهتِمامه الوَفِى، وآعتزامه المتيقِّظ إذا نام حَدُّ المَشْرَفى؛ وآستنادًا إلىٰ رَأْيه الذى

يقولُ نَجْمُه الطَّالِعُ : «مَا أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقصانَ من شَرَفِى» ! ! ؛ وإرْشادِ سَعْيِه إلىٰ أن ٱتَّخذَ من الأرض المُقَدَّسةِ دَارا ، ومن حَرَمِهِ الشَّرِيف جَارا ، وٱتّقَادِ ذِهْنِه وشجاعَتِه اللَّذَيْن آنَس بهما من جَانِبِ الطُّورِ نَارا ؛ وكَيْفَ لا ؟ وقد قالت هِمَّتُه : يا مُوسَىٰ أقْبِلْ ولا تَخَفْ ، وأخْرِجْ يَدَكَ البَيضَاءَ فى النِّيابة تَكُنْ أحَقَّ من ٱعْترف بها الإحسانَ وٱعْتَرف .

فلْيباشِرْ ما فُوِّض إليــه مُبَاشرةً يَعْلُو بهــا شَرَفُ ٱسْمِه ومُسَمَّاه ، ويَبْــدُو للاختيار والاختبار فضلُ التقدّم الذى إذا بدا له كفاه ؛ ولْيُجْرِ بهذه الرُّتبة رَأْياً حسَنَ الإحكام ، ولْيُواظِبْ علىٰ حِفْظِ هذه القَلْعة التى فُتِحَ بهــا عليه فإنَّها من أعْظَمِ فُتوح الإسلام ، ولْيُمــدَّ عليها من كِفايَتِه سُورًا حَوْلَ سُورِها ، وليتفقَّدْ رِجالَها وعُدَدَها تفقُّدَ الشُّهُب فى دَيْجُورِها ، وليرُدَّ عنها بعَزْمِهِ الرَّدادىِّ عُيونَ الأعادِى الزُّرق حتَّى لا يراعَ فى أرْض الحَرَم ولا حَمَامَاتُ طُيُورِها . ولْيَشْكُرْ نِعْمَةً أوَتْه إلىٰ هذه المنازل الطَّاهِرَه ، وليقرِّبْ لِيَدِ آمِلِه طَلَبَ خيرِ الدنيا والآخِرَه . ولْيقدِّمْ من الوصايا تقْوَى الله التى عن أصْلها تتفرَّعُ نِعَمُه البــاطِنَةُ والظَّاهِرَه ، حتَّى يجعلَ له فى الوَادِى المُقَــدَّس رَبْعًا مَأْنوسا ، وجَمْعا مَحْروسا ، وأحاديثَ حَسَنَةً تقولُ لمُسْتَمِع مِثْلِها فى الآفاق : ﴿هَلْ أتاكَ حَدِيثُ مُوسىٰ﴾ . واللهُ تعالىٰ يمدُّه بإعانته ، ويُلْهِمُه شكْرَ مارُزِقَ من فَضْل مَكانِه ومَكانَتِه ؛ بمنِّه وكَرَمه !

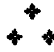

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة قَلْعة صَرْخَد لمن لقبُهُ «جمال الدين» وهى :

رُسِم بالأمرِ ـ لا زال يَتَخيَّرُ لقلاعِه النَّائِبَ ويَتَحيَّزُ (١) من النَّائِبَه ، ويُمِدُّها بسَحائِبِ بِرِّه وفِكَرِه الصَّائِبَه ، ويندُب لخدْمتها كلَّ سَيْفٍ يُرضِى النَّادِبَ ويُقيم علىٰ غيرِها النَّادِبَه ـ

(١) أى يتنحى .

أن يُرتَّب مجلسُ الأمير ... ... لأنَّه الكافِى الذى تُسَرُّ الحُصونُ بأمْثاله ،وتَبْتسِمُ شُرُفَاتُ القِلاعِ لإقْباله ، وتنشَرِحُ منازِلُها بتنقُّلِ نجوم الهداية من أفعاله وأقوالِه ؛ والمَلِيُّ بأداءِ الخِدْمه ، والمرَشَّحُ لمـا هو أوفَىٰ وأوْفَرُ من الأُمورِ المُهِمَّه .

فلْيباشِرْ نيابةَ هذه القَلْعة القـديم أثرُها ، والشَّهِيرِ خَيْرُها وخَبَرُها ؛ بعَزْمةِ سَـيفٍ قاطعه ، وحِدَّةِ بأْسٍ ذائِعَه ، ومَهابَةِ ذِكْرٍ لشياطينِ النِّفاق عنها رَادعَه ؛ فإنَّها من بِناء المَرَدَة : فلْيَرُدَّ عنها آفةَ جِنْسِها ، ولْيَحُطْ بِرُقَىٰ عَزائِمه حَوْل نَفاسَـتِها ونَفْسِها ؛ ولْيُجْرِ أمْرَها على السَّدد(١) ، وليَبْنِها بلُزومه المَهْدِى أوْثَقَ ممَّـا بناها أُولئك بالصُّفَّاح والعَمَد ، وليَرْضِ الآثَارَ السُّلَيمانِيَّـة بسَلْمـانِ بيت الملازمة علىٰ طُولِ الأبد ، ولْيَجْتهِدْ فيما هو بصَدَدِه حتى تُدَمِّرَ بتَدْمُرَ جوانِحُ الحَسَدَة بالكَمَد ، مكَثِّرًا بذِكْرىٰ مَهابَتِه لعَـدَدِها ، مُوَفِّرًا لعُدَدِها ، مُسْتَوْجِبًا لآستجلاب الإنعام عليه بآستجلاب مَدَدِها .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بنيابة قَلْعة الصُّبَيْبَة ، وهى :

رُسِم بالأمرِ العالى ـ لا زال إحْسانُه يُعيدُ إلىٰ الحُصون نَاصِرَها وزَيْنَها ، ويُفيـدُ أصحابَ الهِمَمِ صَوْنَها ، ويَحْرُسُها بمن إذا نَظَر فيها وحَمَاها كان عَوْنَها وعَيْنَها ـ أن يستقرّ المجلسُ السامىُّ الأميرىُّ ... ... لمـا ألِفَتْه هـذه القلعةُ المنصورةُ من تحْصِينِه وتَحْسِينِه ، وعرَفَتْه من تَرْتِيبه فى عمارتِها وتَزْيِينِه ؛ ولأنَّه الأدْرىٰ بالمصالحِ العائد نَفْعُها ، والأدْرَبُ بمَنَاجِحِها الحميـدِ وَقْعُها ؛ الذى باشرها من قبلُ فأحْسَنَ السُّلوك ، ونَصَحَ هذه الدولةَ القاهِرةَ فأثْنىٰ علىٰ سِيرَتِه مُلُوكُ الحُصُونِ وحُصونُ المُلوك .

فلْيعُدْ إلىٰ هـذا المَعْقِلِ المَنيعِ عَوْدَ المـاء إلىٰ مَشارِبِه ، ولْيَسِرْ فى أرجاءِ أبْراجِهـا مَسِـيرَ القَمَر بين كَواكِبِه ؛ ولْيَتَفَقَّدْ أُمورَ رجالهـا المستخدَمين ، ولْيَسْتَجْلِبْ قلوبَ

(١) السدد [بالتحريك] الاستقامة كالسداد .

حَفَظَتها الأقدَمين؛ مُتَحاشِيًا من رَأْيِ القاصر الغَبِيّ، قَائمًا بالمُهِمّات التى تُزاحِمُ منه بَشْيخ لا تُزاحِمُ بِصَبِيّ؛ مُقيمًا علىٰ رَفْعِ الأدْعِيةِ لهذه الدولة القاهره، مُسْتَزِيدًا بالشُّكر لِنِعَم الله الباطنة والظَّاهره، مُجْتهِدًا مُعْتمِدًا علىٰ تَقْوَى الله تعالىٰ التى جعلت له مكانًا مَكِينًا فى الدُّنيا وطَرِيقًا سَهْلًا إلى الآخِره؛ والله تعالىٰ يُنْجِحُ قَصْدَه، ويتقبلُ جِهادَه وجُهْدَه؛ بمَنّه وكَرَمه! .

قلتُ : هــذا كان شأْنَها حين كان يُولَّى بهــا مقدَّمُ حَلْقةٍ أو جُنْدىٌّ من الشَّام . لكن قد تقدَّم فى الكلام علىٰ ترتيب الممــالك الشَّاميَّة فى المقالة الثالثة أنَّها ٱستقرّتْ فى الدولة الناصرية «فَرَج» فى سنة أرْبع عشرة وثمــانِمائة [ولاية](١) .

وحينئذٍ فتكونُ ولايتها من الأبْواب السلطانية . فإن عادت إلىٰ ما كانت عليــه أوّلًا، عاد الحكْمُ كذلك .

وهــذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة حِمْصَ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، وهى :

رسم بالأمر – لا زال يَنْدُبُ لِخدْمة قِلاعِه كلَّ سَيْفٍ مُخْتَبَر، ومُجَرّبٍ عَبرتْ عليه العِبَر، ومُؤَدٍّ لفرائض الخِدْمة : إمَّا بقِيامٍ عنــد الصِّبا وإمَّا بقُعود عند الكِبَر – أن يُرتَّب فلانٌ فى نيابة قَلْعــة حِمْص المنصورة إجابةً لسُؤَاله فيما سأله : من التَّوفُّر علىٰ مواصلة الصَّلَوات، ورَفْعِ الدَّعوات، وجمعِ ثَوَابَيِ الجهاد والخَلَوات؛ وتَقَضِّى باقى العُمْر وادِعا، متَنَسِّكًا طائِعا؛ إذَا بكىٰ بجِواره حتَّى النَّهْرُ العاصِى رَقَّ عليه فمــا يعْدَم منــه بُــكا .

(١) بياض بالأصل والتصحيح من بقية الكلام ومما تقدّم .

فليباشِرْ نيابةَ هذه القَلْعـة العَلِيِّ خَبَرُها ومَخْبرُها ، المليِّ سَمـاعُها ومَنْظَرُها ؛ المُطِلَّة علىٰ مراكز الرِّماح المشهوره ، ومَهابِّ الرياح : إمَّا بغَيْث السِّهام مُمْطِرةٌ وإمَّا بسِهام الغَيْث ممطوره ، المُجاوِرَةِ لسَيْف الله «خالد» فهى بإعْراب المُجاوَرَة مَنْصورةٌ غير مَكْسُوره ؛ مُعْتبِرًا لأحوالهـا ، مُسْتَدْعِيًا لمـا تَحْتاج إليـه من عُدَدها وعدَد رجالها ، مُحَصِّنًا باستدعاء السِّلاح وسِلاح الأدْعية الجديرَيْنِ بأمْثالها .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة قَلْعة جَعْبر، قبل أن تُنْقَلَ إلىٰ حَلَب، وهى :

رُسم بالأمْر الشريف ـ أعْلَى اللهُ تعالى فى سمـاء الملك كَواكِبَه ، ونصر فى أقْطار الأرض كُتُبَه وكَتائبَـه ، وصَرَّفَ بأوامِرِه العاليـةِ كلَّ نائبٍ وفَرَّق بها كلَّ نائبَـه ـ أن يُرَتَّب ... ... عِلْمـا بأنَّه الكافِى الذى تُعْـقَد علىٰ هِمَّتـه الخَناصِر، ويُثْنِي علىٰ تَقْـديم عزائمه القَـديمُ والمُعاصِر، وتَقْوَى الجِهاتُ وتُنْصر باسْمِه بعد أن كانت بغَـيْرِ قُوَّةٍ ولا نَاصِر، وآعتمادًا علىٰ كفاءته النافعه، وشَهامَتِه الرَّائِقة الرَّائعه ، ودِرايَتِه التى تُضِيءُ بهـا القَلْعةُ وتَسْمُو حتّىٰ يقولَ الآستيقان : ماهـٰذه شُمَيس[(١)] هذه شمسٌ طالِعَـــه .

فليباشِرْ هذه القلعةَ القديمَ أثَرُها ، الحَميدَ خُبْرها وخَبَرُها ، المُصَغَّر[(٢)] تَصْغيرَ التَّحبيب والتَّحْسين آسْمُها ومَنْظَرُها ، المنْفَرِدَ سَهْلُها بذَيْل الآفاق فتمسك[(٣)] بسحبها ، المُنشِدَةَ لآرتِقاب نَهْضَـة حال من علم آبن منصور بهـا ؛ راقيًا صَرْحَها ، رَاعِيًـا بالمصالح

(١) كذا فى الأصل وصوابه شميسة .

(٢) هذا الوصف يناسب قلعة الصبيبه فانها هى المصغرة .

(٣) فى الأصل «متمسكا» .

سَرْحَها ، مُجْتَهِدًا فيما يقضى لقَدْره بالرِّفعه ، ولرَائد أمَلِه بخِصْبِ النُّجْعَه ، جاعلًا هذه المنزلةَ أوّلَ دَرَجاته : وحَسْبُه بمنزلةٍ يكونُ أوّلُ درجَاتِها قُبَّةَ قلعَـه ، واللهُ تعالىٰ يُسدِّدُ عَزْمَه وحَزمه ، ويُحْمِدُ فى الكُفَاة خَبَره كما أحمدَ فيهم ٱسْمَه ، بمنّه وكرمه ! .

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة مَغَارَةِ زَلَّايا ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زال يَزِيد قِلاعَ الإسلامِ عَلاءً فى السِّـمَةِ والاسم ، وفى القُوّةِ والجِسْم ، وفى ٱعْتناء يجمع لعقيلتها بيْن الحُسْن والقِسْم ـ أن يُرتَّب مجلسُ الأمير... ... ... لقيامه بواجب الخِدْمه ، وملازَمة فَرائِضِها المُهِمَّه ، وعَزْمَته الوَفيَّة فى النَّفس ، الزَّائدِ وَصْفُها على الأمْس ، العَلىِّ نَسَبُها وحَسَبُها : فَتارةً إلى العُلَىٰ وتارةً إلىٰ الشَّمْس .

فلْيباشِرْ هـذه القَلْعَةَ التى عَلَتْ بنَفْسها محلًّا وسَكَنًا ، وقال سَاكِنُ مغَارِها لثَـانِى ٱثنين من حَزْمِه وعَزْمِه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ مَعَنَا ﴾ ، وٱسْتَعلِ ثَنِيَّتَها فأنْشَـد : "أنا ٱبْنُ جَلا وطَلَّاع الثَّنايا" ، ونادَىٰ بُقْعَتَها : هذا عَزْمى وحَزْمى لا يقال ولا يازَلَّايا ، مُجْتَهِدًا فى سَداد أُمورها ، وتَحْصِينِها بالمهابة القائمَـةِ مقام سُورِها ، مُسْتَجْابًا ما يحتاج إليـه وما يُرتَّب من عُدَده ، مُلازمًا لُزومَ الخَمْس لأوقات مُباشَرتِهـا لا يُوصف بالزَّوال بل بطُول المُدَّه .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية القُدس ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ... ... لازال يشملُ بظِلِّه وفَضْلِه ، ويُجَمِّلُ بإحسانه وعَدْله ، ويُنَقِّلُ شمس الوُلاة من البُرْجِ الظَّاهِر إلىٰ مثْله ـ أن يُنْقَلَ فلانٌ من كذا إلىٰ ولَاية

القُدس الشريف : عِلمًا بكفايته التى تقدّمتْ ، وشهامتِه التى تحكّمتْ ، وإمامتِه التى سَلِمت فيما سَلَّمت ؛ وهِمّتِه التى وضَحَتْ شمسًا فلا تُنْفَس ، وقالتْ لقيامه فى المصالح: ﴿ ٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ ﴾ .

فلْيباشِرْ هذه الولايةَ مباشرةً تمحُو بضياء شَمْسِه ظُلَمًا وظَلاما ، وتقولُ لنَارِ الحوادث فى المَشاهِدِ الجليلةِ : ﴿ يانارُ كُونِى بَرْدًا وسَلَاما ﴾ ؛ مُجتهِدًا فيما هو بصَـدَدِه ، عارِفًا بوُجُوه المصالح حتَّى يكونَ السَّكَنُ أعْرفَ بشَمْسِ بَلَدِه ؛ ناهِضًا بأُمور الدِّيوان جَليِّها وخَفيِّها ، وعِبْءِ المهمات حَافِلها وحَفِيِّها ؛ مستزيدًا بالشكر لمبادئ النِّعَم ، قائِلًا فى محلِّ البَلَدين المُبارَكَين : ماسِرْتُ مِن حَرَمٍ إلَّا إلىٰ حَرَم .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية غَزَّةَ ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زال يُنْشِئُ فى رِياض الإحْسانِ غَرْسا ، ويُحقِّق فى آستحقاق الكُفاةِ حَدْسا ، ويُقـدِّمُ من لا تزال الوِلاياتُ تَحْمَـد له يَوْمًا وتَذْكر لقَوْمِه أمْسا ـ أن يُرتَّب ... ... لِمَا عُرِفَ من عَزْمه الذى جَرَّد منه الآختيار والآختبار جَميلا ، وكَمالِ شَخْصِه الذى آتَّخذه التوفيق فلم يقل : ﴿ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلَا ﴾ ؛ وآعتماده الذى يُصْبِحُ فى المحامد ويُمْسى ، ويُنافِسُ مَرْباهُ فهذا يقول : ثَمَرى وهذا يقولُ : غَرْسِى .

فلْيباشِرْ هـذه الولاية بعَزْمٍ مقْتَبِل الشَّبِيبَه ، وحَزْمٍ لا يُقْعِدُ الرأْىُ المحيـلُ تَجْرِيدَه فى المصالح وتَجْرِيبَـه ؛ ونَفْعٍ فى المهمَّاتِ ورَدْعٍ للمفسدين تُحْمَـدُ مَوارِدُه ومصادِرُه ، وذِكْرٍ له حَسَنٍ تُلْتقطُ من ساحل الشام جَواهِرُه ؛ مُسْتزيدًا لمَـا رَسَخ له من درجات

الأُمور المُهـمّه ، مُنزَّهَ العِرْض عن كلّ لائمَـةٍ مُرَجِّحًا تقْوَى اللهِ تعالىٰ فى كلِّ مُلِمَّه ؛ واللهُ تعـالىٰ يُحْمِد فى الخِـدْمة آثارَه ، ويُعِزُّ فى ولاية حربه الساقةَ إذا هانت الحرب على النَّظّاره .

وهذه نسخةُ تَوقيع بولايةِ لُدّ ، لمن آسمه «نجم الدين أيّوب» وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ نُجومُ أوامِرِه سَعِيدَه ، وظِلالُ غوارِفِه مَدِيدَه ، ومَنازِل الولايات حامِدَةً لمن يُقَدِّمه وطَوالِـعُ أُفقِها حَمِيدَه ـ أن يُرَتَّب ... ... آعتمادًا علىٰ كَفَاءَته التى تُشَيِّدُ له مَجْدا ، وتُعقِبُ مَسْعاه حَمْدا ، وتكْفِى من هذه الجهة وأهلها بَلَدًا وقَومًا لُدًّا : لمـا آحْتَوىٰ عليه من مُوجبات الاصطناع ودَواعِيه ، وفَاتَ باستقلاله أَمَدَ مُساجِلِه ومُنَـاوِيه ، وآشْتمَلَ على الخِـلال التى قَضَتْ بتَقْدِيمه ، والأفْعالِ التى آستدْعَتِ المبالغة فى تَفْخِيمه وتَكْرِيمِه ؛ وسَلكَ من المخالصة ما يُوجب الاسْتِحقاقَ والاسْتِيجاب ، ويُوصِّلُ حَمِيدَ مَسْعاه إلىٰ بُلوغ الآمال وإدْراكِ المَحابّ .

فلْيباشِرْ هـذه الولايةَ : عامِلًا بتَقْوَى اللهِ تعـالىٰ فيما يُسِرُّه ويُعلِنُه ، مُعْتمِدًا فيها غايةَ ما يَسْتطِيعُه المُكلَّفُ ونِهايةَ ما يُمْكِنُه ؛ ولْيُسوِّ بين القَوِيِّ من أهلِ هذه الولاية والضَّعيف ، ولا يَجعلْ فى الحقِّ فَرْقًا بين المَشْروف والشَّريف ؛ ويَمُـدَّ علىٰ كافَّتِهم رِواقَ السُّكون والأَمنَـه ، ولْيُجْرِهم فى المَعْدِلة على العادة الجميلة الحَسَـنَه ؛ وليأْخُذْ فى الأُمور الدِّيوانيَّة بالاجْتِهـاد مُراعِيًا فى ذلك حال العِمارَه ، آتِيًا مِن الإحْسان إلى الرَّعية ما يكون للعَدْل شارَه ؛ وافِيًا فى ذلك كلِّه بالمَطْلوب ، صابِرًا علىٰ تكاليف المُهِمّات ولا يُنْكَرُ الصَّبْرُ لأيُّوب .

وهـذه نسخةُ توقيع بولاية بَيْسانَ ، لمن لقبـه « شِهاب الدين » من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ شُهُبُ أوقاته سَـعيده ، وسُحُب هِبَـاته ساحِبَـةَ الجُود مَديدَه، وبحورُ نَعْمائه الحقيقيَّةُ كبُحورِ الأعارِيضِ المجازِيَّة : كاملةً مُنْسَرِحَةً مَديدَه ـ أن يستقرّ... ... ...ٱعتمادًا علىٰ عَزْمِهِ المُنِيرِ شِهابُه، الكثيرِ توَقُّدُه فى أوقات المهمات وٱلْتِهابُه ؛ وٱستنادًا إلىٰ كَفاءَته التى يشهدُ بها وَلاؤُه فى الخِدْمة ووِلَايَتُه ، وشَهامَتِـه التى يُحْزَمُ بهـا فى الأمْر رَأْيُه وترفع فى الخِدْمةِ ولايَتُـه ومهابتُه ؛ وعِلْمًـا بسياسَتِه التى يقمعُ بها أهْـلَ الفساد ، وتـكادُ تفْخَر بَيْسانُ بفَضْـلها كما فَخَرتْ بـ«فاضِلِها» على البلاد .

فلْيَقُمْ فى وظيفته علىٰ قَدَمِ ٱجتهاده ، وكَرَم ٱرْتِيادِه وٱعْتيادِه ؛ شَافِياً لأحوال أهْل ناحيته مِـن الوَصَب ، مُثَمِّرًا الغِلالَ والأموالَ بعَزْمٍ قد ٱرتفعَ وٱنْتَصب ؛ ظاهرًا فى الخدمة مَجْهودُه ، مُلَيِّنًا لحَـديد من عَصى عليـه فى عمله كما أورثَه داوُدُه ؛ والله تعالىٰ يوفِّقه .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَيْدا، لمن لقبـه « شجاع الدين » بـ«ـالمجلس العالى» وهى :

رسم بالأمر العالى ـ أنفذه اللهُ فى الأقطار، ونَجَّم بولاته أيَّام الأوطان والأوْطار، وأجرىٰ بشُكْره سُفُنَ الركائبِ ورَكائبَ السُّفن إذا سَـفَّ وإذا طار ـ ان يسـتقرّ فلانٌ : ... ... رُكُونًا إلىٰ عَزْمه وحَزْمه، وسُكونًا إلى ٱهتمامه الذى حكَم فيه الاختبار

بِعلْمِه ، وعِلْمًا أنَّ للولايات به الآنْتفاع ، ولحُصُونِها الآمتناع والآرْتِفاع ، وأنَّه إذا وَلِيَ رَعَىٰ وإذا أقْوىٰ(١) كان أعصم راع ، وإذا فَكَّر فى الرأْيِ ووقَبَ فى المُهِـمِّ كان نِعْم الشُّجاع .

فلْيباشِرْ ولايةَ عَمَله نَاهِضًا بأعبائه ، رافِعًا بالعَدْل لأرجائه ورَجَائِه ، حَرِيصًا علىٰ طِيبِ الأخبار المُنْتشرَةِ من كافُور صُبْحِه ومِسْكِ مَسائه . ولْيتَفَقَّدْ أحوالَ بَرِّه وبَحْره ، ويتيقَّظْ لذلك البَرِّ وجَهْره ، وذلك البَحْر وسِرِّه ، حتَّىٰ يتحدَّث البحْرُ عن عَزْمه ولا حَرَج ، ويَسِيرَ ذِكْرُه كنَسِيم الرَّوضِ لاضائعَ الصُّنع ولكن ضَائِعُ الأرَج ، ويعتَمِدْ مصالحَ النواحِى وسُكَّانِها ، والأموالِ ودِيوانِها ، والجهاتِ وضُمَّانِها ، ونُجُومِ التقسيطات فى البلدة وتَحْرِيرِ مِيزانِها ، ويَجْمَعْ بين اللِّينِ والشِّـدَّة بسياسَةٍ لا يخرُجُ بهـا الرَّأْىُ عن إبَّانِها ، وتَقْوى اللهِ تعالىٰ هى العمدةُ فعليها يَعْتَمِد ، وعلىٰ رُكْنها يَسْتَنِد ؛ حتَّىٰ تَجْعلَ له على المصالح أيدا ، وحتَّى تَثْنِي نحو الثناء عليه عمرًا وزَيْدا ، وحتَّىٰ تجعـلَ له بأْسًا فى الأعداءِ يَكِيدُ كَيْدا ، وحُسْنَ ذِكْرٍ فى البَلَد يَصِيدُ «صَيْدا» .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية قاقُون ، من إنشاء آبن نُباتة ، وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زال يَنْدُبُ لمصالح الولايات سُـيُوفا ، ويقدِّمُ ظَنًّا فى الكُفَاة يعـلم أنَّه سَيُوفىٰ ، ويُدْنِى من ثَمرات الإنعـام والإرغام لأَيْدِى المُجْتَنِينَ قُطُوفا ـ أنْ يستقِرَّ ... ... آعتمادًا علىٰ هِمَّته الشَّائدَه ، ودِرَايَتِه السَّائدَه ، وأمانَتِه الشَّاهده ، وصِفاتِ عزْمِه التى هى فى الولايات «مَعْنٌ» وهى «زَائِدَه» ؛ مُجْتهِدًا علىٰ أن يُثْمِرَ عملَ ولايته فتَزْكُو أعْمالُه ، وتَرِدُ عليه المُهِمَّاتُ فتتلقَّاها بالكفاءة أفْعالُه المعروفةُ وأقْوالُه ، وتَشْهدُ منه الأحْوال مَعْنًى بل مَعانِيَ يثبت بها فى الأذهان قَبُولُه وإقْبالُه .

(١) أقوى . نزل بالقفر ـ أعصم ـ أمنع وأحفظ لرعيته من الاغتيال .

وهذه نسخةُ توقيع بولاية صَرْخَد، من إنشائه، لمن لَقَبُه «جمال الدين» وهى :

رُسم بالأمر أعلاه ٱلله تعـالىٰ، وبلّغ بأيّامه الرُّتَبَ وأهْلَها آمالا، وزانَ الولايات بمـا يُنْتِج من مُقدِّمة فِعْله وقَوْله جمالا ـ أن يُرتَّب مجلسُ الأمير... ... ... لأنَّه الكافِى الذى عُرِفتْ فى المهِمَّات هِمَّتُـه، وأُلِفتْ عَزْمَتُه، وأُدِيرَتْ أوصافُه عُقَارًا صَرْخَدِيَّةً ولا عجب أن سَرَتْ بالنَّواحِى خدمتُه، والنَّاهِضُ الذى وَفَّى الوِلايةَ حَقَّها، وأدَّى الأمانةَ وسلَكَ طُرُقَها، وأطلعَ فى سَماء الولاياتِ شُهُبَ رَأْيِه فحَمَىٰ وزان أُفُقَها.

فلْيباشِر هذه الولايةَ بعَزْمٍ سَـنِىّ، وحَزْمٍ سَرِىّ، ومَهابَةٍ تأْخذ للضَّعيف من القَوِىّ، ودِيانَةٍ تَمْشى من الكفاءة والأمانة على صِراطٍ سَوِىّ، مُثَمِّرًا للمال والغِلال، رَاقِمًـا لحُلَلِ الذِّكْر بحُسْن الخِلال، مُحَسِّـنًا لذِكْر ولايَتِـه حتَّىٰ يجمعَ لهـا بالوَصْف والنَّعت بين الحُسن والجمـال، وإيَّاه والجُبْنَ عن المهِمَّات فمـا كل جُبْنٍ صَرْخَدِىّ مَحْمودُ العاقبة والمآل.

وهـذه نسخةُ توقيع بولاية سَلَمِيَّةَ، من إنشائه، كُتب به لـ«شهاب الدين الحجازىّ» وهى :

رُسم ... ... ـ لا زال يُطلِعُ شُهبَ الوُلاة مُشْرِقَه، ويُنْشِئُ سُحُبَ الإحسانِ مُغْدِقَه، ولَا بَرِحتْ أقْلامُ علائِمِـه كالغُصون بأحْسن ثمراتِ الدَّوحِ مُثْمِرةً مُورِقَه ـ أن يُرتَّب ... ... عِلمًا أنَّه الناهضُ الذى إذا وَلِىَ كَفىٰ، وإذا طَبَّ الوِلايَةَ المعتَلَّةَ بتقديم المعرفة شَـفَىٰ، ورُكُونًا إلىٰ عَزْمه الذى أبَىٰ لشِهابِه أن يخْمَد، وكفاءَتِه التى

قَضتْ لاسْمه بالعَوْد : فإنَّ العوْد أحمد ، وٱعتمادًا علىٰ سيرته الحَسَنة السُّمْعه ، الحقيقة بالرِّفْعه ، وعلىٰ سَطْوَته بالمُفْسدين التى حَسَّنتْ أن يُقال فيه : «لقد أوْقع الجَحَّـاف بالبِشْر وقْعه»(١) .

فلْيباشِرْ هـذه الولاية بعزْمه المُتَوالى ، وٱجْتهادِ رأْيه الذى يُطْرِبُ بارِقُه المُتعالِى ؛ جارِيًا علىٰ عادة سَـدَدِه ، مُجْتهدًا فيما هو بصَدَدِه ، مُسَدَّدًا ـ إن شاء الله ـ فى القَوْل والعَمَل ، مانِعًا لناحيته الأعْرابيَّة من تطرُّق الخَلَل وتَطرُّف الخَلَل ؛ مُصْلِحًا بالتَّدْبير عمل مايشهدُ بعزائمه الوَفِيَّه ، وهِمَمِه الجَليلَة الجَلِيَّه ، وإذا سأل عن شَدِّ الوُلاةِ واحِدٌ قيل : سَلْ مَيَّةَ عن سَلَمِيَّه .

وهذه نسخةُ توقيع بشَدِّ مُتَحَصِّل قُمامة ، من إنشاء ابن نُباتة ، وهى :

رُسم بالأمر ـ بسطَ اللهُ تعالىٰ على الأُمَم مَهابَتَـه وظِلَّه ، وبأْسَه وفَضْلَه ، ووجَّه إليـه آمالَ الخَلْق من كلِّ قِبْله ، وأعلىٰ آراءَه التى يقال لعَدْلها : «لقد جُدْتَ حتَّىٰ جُزْت فى كلِّ مِلَّه» ـ أن يُرتَّب ... ... مضافًا لمـا بيَده ، وٱستنادًا إلىٰ صحيح خَبَرِه فى الكفاءة وعُلُوِّ سَنَده ، وٱرْتيادًا لهِمَمِه التى إن رواها مُسلمٌ عن طَوْعه رواها نَصْرانِيٌّ عن تَجلُّدِه ؛ وسُكونًا إلىٰ حَرَكته التى تُحصِّلُ مَالا ، وتَصِلُ إلىٰ مالا ؛ وتستخْرِجُ الوَفْرَ من مَكْمَنه ، وتأْخذُ الحقَّ [من] قُدَّام يَدَىِ الماثل ومن خَلْف أُذُنه ؛ وعِلْمًا أنَّ مالمتحصل قُمَامَةَ مثلُ عَزْمه المختـار ، ورِفْقه الذى يستنزل دَرَّ القصـد المِدْرار ، وٱجْتهاده الذى زَرَعه المستنهِضُونَ فٱسْتوىٰ علىٰ سُوقه يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغيظَ بِهِمُ الكُفَّار .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ بشِـدَّةٍ ولِينٍ يجعـلُ كلَّ واحدٍ منهما فى مَوْضعه ومَقامه ، وحَقٍّ مُنيرٍ يجعل سَبْتَ نُورٍ كلَّ لياليه وأيامِه ؛ وأمانةٍ مُدِلَّه ، وكفاءةٍ مُظِلَّه ؛ وصِيانةٍ

(١) صدر بيت للأخطل وتمامه «الى الله منها المشتكى والمعوّل» والجحاف اسم رجل والبشر اسم جبل .

تُوجِبُ مَزِيدَ الخير إذًا له ، ومَهابَةٍ إذا أُدخِلَتْ مُسْتَخْرَجَ قُمَامَةَ أصْلَحَتْه وجَعلتْ أعِزَّةَ أهْلِها أذِلَّه ؛ لا يَثْنِي هِمَمَه النَّفِيسَه ، ولا يَلْتَفِت ـ كما يقال ـ لتَبْخِير الكَنِيسَه ؛ بل يستعملُ فِراسَةً تَرُوعُ من حَمَلَ عن أداءِ الحَقِّ بُهتانا ، ومناقَشَةً تكْشِفُ عن جبالِ التَّجَلُّد أكْنانا ، ورَأْفَةً مع ذلك بالظَّاهِرِى العَجْزِ : ذٰلِكَ بِأنَّ مِنهم قِسِّيسِينَ ورُهْبانا ، ومتابعةً للضَّرائِبِ القديمة لا يُصْرف عنها ، وآستخلاصَ ماعلى الرَّأْس حتّىٰ يقال : «ليس تَحْتَ الزَّرْقاءِ أخْضَع منها» ؛ عامِلًا بتَقْوى الله تعالىٰ فإنَّ أهلَ معامَلَتِه أهلُ ذِمَّه ، مُجْتهدًا فى آستحقاق مايترشّح له من ولايات الأُمور المهمَّه .

الصـــــنف الثانى

(ممَّـا يكتب لأرباب الوظائف بدمَشْق ـ تواقيعُ أرباب الوظائف الدِّينية ، وهى علىٰ ضربين)

الضـــــرب الأوّل

(مايكتب لمن هو بحاضرة دِمَشْق ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولىٰ

(مايُفتتح بـ«ـالحمـــدُ لله»)

وهذه نسخ تواقيعَ من ذلك :

تَوْقيعٌ بنَظَر الحِسْـبَة بالشّام ، كُتب به للقاضى «نور الدين علىّ بن أبى الفرج» بـ«ـالجناب الكريم» وهو :

الحمدُ لله الذى جعل مقامَ الأولياءِ عليًّا، ورَقىّ بهم إلى طُورِ العناية فأشْرق نُورُهم سَنِيًّا، ووفَّقهم للأمْرِ بالمعْرُوف فلم يَزَلْ غَيْثُ النَّدَىٰ بهم وَلِيًّا ، وزَنْدُ سُبُلِ الرَّشاد والحِكْمة وَرِيًّا .

نحمَدُه حمدًا كثيرًا طيِّبًا زَكِيًّا ، ونشكُره شُكْرًا لا يزال غُصْنُه بالزِّيادة جَنِيًّا ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نُكَرِّرها بُكْرةً وعَشِيًّا، ونسلُك بها صراطًا سَوِيًّا؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه الذى آختاره صَفِيًّا، وقَرَّبه نَجِيًّا، ورسولُه الذى قام به الحقُّ وأصبح به الباطلُ خَفِيًّا؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً ينال بها المُؤْمِنُ يوم العَطَشِ رِيًّا، ويحوزُ بها فى جَنَّة المأْوىٰ حُلَلًا وحُلِيًّا، وسَلَّم تسليمًا كثيرا .

أما بعدُ، فإنَّ أولىٰ ما يَلزمُ الفِكْرُ [فيه] ويتعيَّن ، ويَتِمُّ النُّجْحُ بحسْنِ النَّظَرِ فيه ويَتَبيَّن ـ أمْرُ الحِسْبة الشَّريفة : فإنَّها المَنْصب الذى به صَلاحُ أحوال الرَّعِيَّه ، وقِوَامُ إقامَةِ الحُدود الشَّرعِيَّه؛ تَسْلُك العامَّةُ لمُسْتَوْليه سُبُلَ صَنائعه ذُلُلا ، وتَكْسُو بإتقانها أنْواع بضائعها حُلَلا ؛ ويَنْتَفِعُ بمعرفته الآمِرُ والمأْمور ، وتُحاطُ المعَايِشُ عن غِشْيانِ الغِشِّ من حُرْمته بسُور؛ وتطمئِنُّ القلوبُ بإصلاح المطاعم وتَهَنَّىٰ ، وتقولُ الألْسِنَةُ : شُكْرًا لمن سنَّ هذه السُّنَّة الشَّريفةَ وسَنَّىٰ ، وردَع ذَوِى الغِشِّ عن غَوَايَتِهم : فَمَنْ غَشَّنا ليس مِنَّا؛ لا سِيَّما بدِمَشْقَ فإنَّها شامةُ البلاد المحروسه ، ومَوْطِنُ البركة المأْثورَةِ والبَهْجةِ المأْنُوسه؛ بلدٌ شاعَ ذِكْرُها فى المغارب والمشارق، وإنَّ مَحاسِنَها لن تُقاسَ بغيرها : والجامعُ الفَارِق .

وكان فلانٌ ممن تَحلَّىٰ من عُقود المحامد بجَواهِرها ، وآرْتَدىٰ من حُلَلِ المآثر بمفاخِرها؛ وعُرِفَ بالنَّهْضة والعَفَاف، وآتَّصف بجميل المَعْرفة والإنْصاف؛ وحَسُنَتْ سِيرتُه فى أحكامِه، وحُمِدَت قواعد تعدّده (١) ونَضارَةُ نِظامه .

(١) لعـله "تعهده" .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ـ لا زال يُولِى جميلا ، ويُوَلّى فى الوظائف السَّنِيَّة جَليلا ـ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى نَظَر الحِسْبة الشريفةِ بالشَّام المحروس، على عادة مَن تقدَّمه فى ذلك، والقاعدة المستمرّة، بالمعلوم المستمرّ للوظيفة المذكورة، إلى آخر وقت : وضعًا للشَّىءِ فى مَحلِّه، وتفويضًا لجميلِ النَّظرِ إلى أهْلِه .

فليباشرْ ذلك آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المُنْكَر، سالِكًا من حُسْن الطريقة ما يُحمد به ويُشْكر، ويَسُرُّه حين تُتلى سُوَرُ محاسِنِه وتُذْكر ؛ متفقِّدًا أحوالَ العامَّة ومَعايِشِها فى كلّ آن، ملْتفتًا فى أمْر مايُكالُ أو يُوزَنُ إلى قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ . مُشَمِّرًا عن ساعده فى الإجراء على العوائد المُسْتَحَبَّة ، مُحترزًا فيما يأمر به : فإنَّ اللهَ تعالى لا يَخْفى عليه مِثْقالُ حَبَّة ؛ ولْينظُرْ فى الدَّقيق والجَليل ، والكَثيرِ والقَليل ؛ ولْيستكثِرِ الأخْبار، ولْيَسْتعلِمِ الأسعار ، ولا يَغْفُلْ عن تعاهد السُّوقَةِ آناءَ الليل وأطرافَ النّهار؛ ولْيُلاحِظْ أمر السِّكَّةِ السلطانية بإصلاح العِيار، وضَبْط أحْوالِ النُّقودِ بِمِقْدار؛ ولْيُقِمْ من خَدَمَتِه رَقيبًا على من ٱتّهم فى صَنْعتِه أو ٱسْتَرَاب. ولْيُبالِغْ فى النَّظر فى أمر المآكل والمشارب فإنَّ أكْثَرَ الدَّاء من الطعام والشَّراب ؛ وليزْجُرْ بتأْدِيبِه مَن ٱفترى ، أو تَلَقَّ الرُّكبانَ أو غَدَا فى الأقْوات مُحْتكِرا ؛ ولْيعلَمْ أنَّه قُلِّد أمْرَ هذه الوظيفةِ المباركةِ : فلْيَخْتَرْ من يَسْتَنِيب ، ولْيُبصِرْ كيف يسلُك برِعايَتِه مَن حكم عليه فما يَلْفِظُ من قَوْلٍ إلَّا لَدَيْه رَقيب ؛ والوصايا كثيرةٌ وأصْلُها التقْوَى التى هى أجَلُّ ما يَقْتَنِى المؤمِنُ ويَكْتَسِب ، وأجْدرُ بالزِّيادة : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ . واللهُ تعالى يُديم علاه، ويتولاه فيما تولّاه .

وهذه نسخةُ توقيع بنظر الجامع الأُموىّ، من إنشاء الشيخ جمال الدِّين بن نُباتة، كُتب به للقاضى «عماد الدين بن الشيرازى» فى الدولة الصالحية «صالح بن الناصر محمد» بـ«بالجناب الكريم» وهى :

الحمدُ للهِ الذى أَذِنَ لبيوتهِ أَنْ تُرفَعَ فرفَعِ عمادَها، وأعاد أَحْسنَها إلىٰ نظر من صَرَّف أُمورَها بمـا حَسُن وصرَفها عمَّا دَهىٰ، وأَحْيا الآثارَ الأُمَوِيَّةَ حتَّىٰ غدتْ كالهـاشمية تدعو أَجْوادَها وسُجَّـادَها، وأَنْجز وَعدَ أَهْلِها بمن أشارتْ إلىٰ مُباشَرتِه أعلامُ أعلامِ المنابرِ بالأصابع ونَصَّت المآذِنُ أَجْيادَها .

نحمَـدُه علىٰ ماهَيَّأ من الفوائد، وهَنَّأ من العوائد، ونشهدُ أَنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يقومُ بها الخطابُ شاهدًا ويقومُ بها الخُطباءُ فى المَشاهد، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى أُوتِىَ الجَوامِعَ من الكَلِم وجُعلتْ له الأرضُ من المساجد، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَمَرُوا بُيوتَ العبادات بهِدَايَتِـه، وظَهَرُوا فى مَجالِ الجَمْع وسِجَال الجموع تحت رَايتِـه، صلاةً متصلة السَّـيرِ كالسَّيْل، مُسْـبَلَةَ الغمام كالذَّيل، واضِحةً كرَدْعِ الخَلُوقِ لدُلُوكِ الشَّمْسِ فائِحَةً كفَتِيتِ المِسْـك إلىٰ غَسَقِ اللَّيل .

وبعـدُ، فإنَّ أَوْلَى الأُمور الدِّينية بتَقْديم الاهْتِمام، وتَقْرِيرِ الاعتزاء إلىٰ الاعتزام، وتَشْميرِ ساعِدِ الرَّأْىِ وزَهَراتُه علَى الأَكْمام ـ أمرٌ تكونُ إقامَةُ الصَّلَوات أحَدَ أَرْكانِه، وتَدْبيرُ المصالح مُشِيرًا إلىٰ عُلُوِّ شانِه، وأَرْزاقُ العُلماءِ والصُّلَحاءِ تُسْـتَدَرُّ من هَطَّاله وهَتَّانِه .

وكان الجامعُ الأُمَوِىّ بدِمَشْق المحروسة لهذه الأَرْكانِ بمنزلة الأُسِّ الرَّاسِخ تَمْكينُه، والفَرْعِ الشَّامخِ فى وَجْه السَّحاب عِرْنينُه؛ وبُنْيَةَ زمان بنى أُميـة الذين عَفَا شَرَفُ مَفاخِرِهم وما عَفَا شَرفُه وفَخْرُه، ووَكْرَ الإسلام الذى مَضَىٰ لُبَدُ أمثاله وما بَقِىَ إلَّا نَسْرُ السماء ونَسْرُه؛ ذُو المَرْأَى الشارح والفضْـل المَشْرُوح، والحُسْنِ الذى إن تغَـالىٰ فى وصـف الجوامع قَوْمٌ قيـل: بابُ الزِّيادَة مفتوح؛ تَفْخَرُ به دمشْـقُ وحُقَّ لهـا علىٰ كلِّ مِصْرٍ أن تَفْخَر، وتبعثُ نظراتُ حُسْنِه الفَخْر من حَمَلة فُصوص التَّرخيم إلى الأسْوَدِ والأحمر؛ يَحْمَـدُ المُجاوِرُ به مَغْنـاه وغِنَاه، ويَسَعُ أرباب العِـلْم والمَقاصِـدِ نَادِيه ونَدَاه، ويُطالِـعُ المِسْكُ سُطورَ مِياهِه المتَجعِّدة فأوَّلُ ما يُقْرأُ من تنْبِيـه عَزْمِه بابُ المِيَـاه؛ وقد عُهِـد أنْ يتولَّىٰ نَظَرَه كلُّ سَـنِىّ المفاخر، سَرِىِّ المآثر؛ كَرِيمِ الفَرْع والأَصْل، ماضِى العَزْمِ كالنَّصْل، حائزٍ من أقلامه أَمَدَ العَلْياء وقَصَبَ الخَصْل.

ولذلك رُسِم بالأمر الشَّريف ـ لا زال وجْهُ الفَضْـل بدَوْلته الشريفـةِ وَاضِحا، وميزانُ العَـدْل والإحسان رَاجِحا، ولا زال فى كَنَف مَن منّ به على الدِّين والدنيا وآتاهما صَالِحـا ـ أن يُفوَّض إلىٰ فلان نظَرُ الجامع الأُموِىّ المذكور: لِمَـا عُرِف من أنَّه الرئيسُ الذى ماسَاد سُدَىٰ، والكاملُ الذى إذا آنس [سَارٍ] نارَ فِكْرَته وَجَد على النار هُدَىٰ؛ وأنَّه باشَرَ نظَرَ هذا الجامـع قديمًا فَجمَّلَه، ورَصَد سَنَاه فكَمَّلَه، وٱستشهد فى مَحْضَرِ ديوانه على النَّزاهَة أقْلامَه المُعَـدَّلَه، وتَدْبِيرَه المُعَدَّ لَه؛ وكَثَّر أوقافَه وكانت قد ٱضْمَحَلَّتْ، وشَـيَّدَ عمائرَه وكانت قد ٱسْتَقَلَّتْ، ومَلأَ حَواصِـلَه وكانت أقلامُ المُكْتَسِبَة تُنشِدُ: «أُسائِلُها أىّ المَواطِنِ حَلَّتْ»؛ ولِمَـا أَلِفَ هذا الجامعُ المعمورُ من عَواطِفِه، وعَرفَ من عَوارِفِه، وشَهِدَ من جُلوسِـه لمصالح وقْفِه أحْسنَ الله مكافأةَ جَالِسِه ووَاقِفِه؛ فأثْبَتَ فى صَدْرِ المحافِلِ أنَّ اللّه تعالىٰ قد رزَقَه من الفَضْل جَسِيما،

وكَتَب له من شَرَف الاكتساب والانتساب حَديثًا وقَديمـا ، وألقىٰ إلىٰ يَده قَـلَم كفاءةٍ وأمانةٍ كان كَرمُها للآملين حَصينًا وكان قَلمُها للخائنـين خَصيما ؛ كَمْ وفَّر به المصالحَ فَوفَّىٰ ، وكَمْ جمعَ بِهمّته المحاولة مالاً جَهَّز به من جُنْد الدُّعاء صَفًّا ؛ كَمْ سَرَّ بمَناقبه سَراةَ سَلَفٍ مامنهم إلَّا جَوادٌ لا يَرْضىٰ فى سَبْق المكارم بحاتِمه ، وكاتبٌ يَكْبُرُ عن قَولِ الواصِف : إنَّ ياقُوتا فى فَصِّ خاتَمِه ؛ ورَئيسٌ هو أجلُّ ما أهْدتْ شِيرازُ إلىٰ دِمَشْقَ من عالِى طِراز الفَضْل وعالِمه .

فليباشِرْ مافُوِّض إليه بعَزْمٍ لاتُفَلُّ مَضارِبُه ، ورأْيٍ لاتأفُل كَواكِبُه ، ومَعْدِنِ وَفاءٍ بالمَنصِبِ لا تبرح لجُنَـاةِ الخيانة مَهالِكُه ولجُنَاة الجِنـانِ مَطالِبُه ؛ ناظِرًا فى حُسْن وظيفتها باجتهاد لا يَمَلُّ من النَّظَر ، مُثَمِّرًا لأوْقافهـا بغُصْنِ قَلَمه الذى لاينكر لأصْله الصَّائِبِ أطايبُ الثَّمَر ، مُلاحِظًا لمَبانى هـذا الجامع بسعادته : وإنَّ السَّعادةَ لتَلْحَظُ الحَجَر ، صارِفًا لذَوى الاستِحْقاقِ مُستَحَقَّهم كما عَهِدُوا من إمام بَراعَته المُنْتَظَر ، مُجتهدًا علىٰ أن يُرضِىَ الوَظيفةَ والقَوْم ، مُعينا عَدْوىٰ أنامله الخَمْس علىٰ عَدَدِها من فريضـة اللَّيلة واليَوْم ؛ عالِمًـا أنَّ الله تعالىٰ قد أحْيا هـذا الدِّيوانَ فإنَّه كما عَلِم أصْلٌ فى بابه ، آمِرًا بمـا يقترح لنِظامِ هذا الدِّيوانِ وكُتَّابه ، مُنْتَقِدًا حال من إذا عَمَّر دَواةً فى وَقْفٍ كانت سَبَبًا لعُمْرانه أو سَبَبًا ــ والعِياذ بالله تعالىٰ ــ لخرَابه ، مُطالِبًا مَن ظَنَّ أنَّ حِسابَه يُهمَلُ فى دَهْرِ هذه المباشرة «فكان حِسابُ الدَّهرِ غيرَ حِسابِه» ؛ مُتَخيِّرًا من الكُفَاةِ كُلَّ مأْثُور الفَضِـيلَه ، ومن الأُمَناءِ كُلَّ مَأْمُون الرَّذِيلَه ، ومن القُوَّامِ كُلَّ مَن لايَقْعُد عن الواجِب ، ومن الوَقَّادينَ كُلَّ مَن لايُعابُ بطُولِ الفَتيله ، جاعِلًا تَقْوى الله تعـالَىٰ فى كُلِّ ما يأْتِى ويَذَرُ سائِقَه إلى الفَوْزِ ودَليلَه ؛ والله تعـالىٰ يُمِدُّه بالسداد ، ويَصِلُ مَفاخِرَه بالسَّـنَد ويحرُس شَرَفَ بَيْتِه من السِّناد ، ويجعلُ كُلَّ مَنْصِبٍ كَريم باسْمِه وقَلَمِه كما قال الأوَّلُ : «رَفيعَ العِماد طَويلَ النِّجاد» .

وهذه نسخةُ توقيع بنَظَر مدرسة الشيخ أبى عمر، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين» بالجناب العالى، وهى :

الحمدُ لله الذى عَمر عَهْد التُّقَىٰ بتقِيِّه ، وأقرّ نظَرَه بمشاهدة أبيْض العِرْض نَقيِّه ، وأخصب مَنازِلَ الأولياءِ بمن ينُوب تَثْميرُه وتَدْبيرُه عن الغَيْث مَنابَ وليِّه، ومَن إذا شَهِد مقامُ الزُّهّاد بمعْروفه شَهِد سَدادُ العَزْم بسَرِيِّه .

نحمَدُه علىٰ جَلِيِّ اللُّطْف وخَفِيِّه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةَ وافِى الحقِّ وفِيِّه، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمَّدا عبدُه أكْرِمْ بعَبْده ونَبِيِّه ، ورَسولِه وصَفِيِّه، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً يمزُج أرَجُها كافُورَ صباح النهار بمِسْك عَشِيِّه .

وبعدُ ، فخيرُ النظر ما كان به الثَّوابُ مَأْمُولا ، والعمَلُ مَقْبولا ، والآخِرةُ للناهِض فيه خيرا من الأُولىٰ، وتَخَيُّرُ الأكْفاءِ لمناصبِ الدِّينية سَبَبًا لخير الدَّارَيْن مَوْصُولا .

ولمَّا كانت المدرسة الصالحية بجَبَل الصالحية المعروفة بالشيخ العارف أبِى عمر: رضى الله عنه وأرضاه، وسَقَىٰ سَبَلُ الغيث آثارَه الطاهِرَةَ وثَرَاه، مما يتعيَّن فى مصالحها حُسْنُ النَّظر، ويتبيَّن فى القيام بأمْرِها فَضْلُ الآراء والفِكَر، إذْ هى زاوية الخير النافعه ، ومدرسةُ الذكر الجامعه ، وعُشُّ القُرآن المترنِّمةُ أطْيارُه بخَفَقان القُلُوب الخاشعه، وصُفَّةُ الفقراءِ الذين لا يسألُون النَّاس إلْحافا، والأصْفياءِ من الطَّمَع الذين لا يتقاضَوْن الدهر إنْصافا وإن صَافىٰ، ومُرتَكَضُ سوابق الأعمال والأقوال، ومَقَرُّ

القُرَّاء والقِراءَةِ على مَمَرِّ الليالى الطوال ، ومَعْدِنُ التِّلاوَةِ المأثُور غناؤُها فى ذلك الجَبَل وما كُلُّ المعادِنِ ولا كُلُّ الجبال ، والبِنْيَةُ لله وتَحتاجُ مَن ينظرُ بنُور الله فى وَقْفِها ، ويحفظُ مَسالِكَ جَمْعها وصَرْفِها ، ويُنَمِّى حالَ دِرْهَمِها بتَدْبِيرِه الوَافِى : فرُبَّما أبقتْها الأحوالُ منه على نِصْفِها .

وكان فلانٌ مِمَّن لَحَظَ أُمورَها على بُعْـدٍ فشُغِفَ المَلْحُوظ باللَّاحِظ ، وحَفِظَها على نَأْيٍ فكأنَّما رَوتْ بالإجازة عن الحافظ ، وأدارَ عليها من رَشَفَات قلمه نَغْبَةَ السَّاقِى ، وأنْهلها شَرْبةً مضى بها ما مضى من تَعدُّد المال : وفى الجرائد باقٍ يطلبُ البَاقِى ؛ وسأل أهْلُها بعد ذلك ملازَمَتَه للنَّظر فلَزِمُوا ، ورَفعُوا قِصَصَهم فى طَلَبه لهذه الوظيفة فجَزَمُوا ، وكَيْف لا؟ وهو نِعْم الناظرُ والإنسان ، وفى مصالح القَوْل والعَمَل ذُو اليَدَيْنِ واللِّسان ، وذُو العزائم التى تَقَيَّدتْ فى حُبِّه الرُّتَبُ : "ومَنْ وَجدَ الإحْسَان" ، والمتقدِّمُ فِعْلُه ورَأْيُه فى العاجل والآجل ، والمأمُون الذى يُعزىٰ إلىٰ عقيلة نسبة الرشيد ولا عَجَب أنْ يُعزَى المأمونُ إلىٰ مَرَاجل[1] ، كَمْ جَرتْ ألْسِنَةُ الأوْقاف بأوصافه ، وكَمْ رَوَى الجامعُ الصحيحُ خبرًا عن مُسلَّم عَفافِه ، وكَمْ جدَّد لِبنائه زُخْرُفًا بعدَ ما كاد نَادِبُ الرُّسومِ يَقِفُ علىٰ أحْقافه ، كَمْ وَفَّر على الأيْتام ميراثَ وَفْرِها ، وكَمْ قال ٱختبارُ الملوك البَاقِيـة : «لأشْكُرَنَّك ماحَيِيتُ» فقال مَاضِى المُلوكِ ذَوِى الأوْقاف : «ولتَشْكُرَنَّك أعْظُمِى فى قَبْرِها» ــ فاقتضَى الرأْىُ أنْ يجابَ فى طَلَبه المُهِمِّ سؤالُ القَوْم ، وأن يتَّصلَ أمْسُ الإقبال باليَوْم ؛ وأن تَبلُغَ هذه الوظيفةُ أمَلَها فيه بعد مامَضتْ عليها من الدَّهر مَلاوَه ، وهذه المدرسةُ التى لولا تَدارُكُه لكانتْ كما قال الخُزاعِىُّ : «مَدارِسُ آيات خَلَتْ من تِلاوَه» .

(١) يشير الى المأمون بن هرون الرشيد العباسى وأمه مراجل .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يُراعى مصالح المؤمنين ـ أن يفوَّض إليه النَّظرُ علىٰ هذه المدرسة المعموره، وأوْقافها المبروره؛ إجابةً لسؤال مَن فيها من جماعة الفُقَراء ورَغْبَتِهم فيه، وآرْتقابِهم لعَزْمه الذى إذا نَظَر حالَها الأوّل تَلا فيه تَلافِيه؛ علىٰ أنْ يتَّبِعَ فى أمْرِها شَرْطَ الوَاقِفِ بِرَأْيٍ غيرِ قاعِد، وإن كان لايزيد فيها علىٰ أرْبعمائةِ نَفَرٍ إلَّا أن يَزِيدَ رَيْعُ الوَقْفِ وهو ـ إن شاء الله ـ ببركَتِه وهِمَّتِه زائد.

فلْيباشِرْ ما فُوِّض إليه مباشرةَ مَن إذا بَدَأ أعاد، وإذا دُعِىَ لمثل هذا الحال الضَّعيف طَبَّ وعَاد؛ مثمرا لِمالِها ـ علىٰ عادة غُصْنِ قَلَمِه الأخْضَر ـ أثمارا، مُسْتخْلِصًا للبَواقِى من أرْبابها التى تَنْهبُ العيْنَ وتَدَّعى لفَتَراتِها آنْكسارا؛ قائلًا فى حال هذه المدرسة بالعَطْف، مُساوِيًا فى المُواسَاةِ بين فُقَرائها عند المِيزانِ والصَّرْف، نازلًا بنُور بِشْرِه ووُدِّه بينهم منازِلَ القَلْبِ والطَّرْف؛ مُجهِّزًا لجَيْش عُسْرَتِهم فإنَّهم جمع للتِّلاوة والصلوات، مُتَطَلِّعًا لخبَرِهم فإنَّهم أجْنادُ صُفوفِ الأسْحارِ وسِلاحُهم الدَّعوات؛ وتَقْوى اللهِ تعالىٰ مُشْتَقٌّ منها آسْمُه فلْتكُنْ شَقِيقَةَ نفْسِه فى الخَلَوات؛ والله تعالىٰ يحفظُ عليه حَظًّا نَفِيسا، وقَدْرًا للنجوم جَلِيسا، ويُحْيِي به مَيِّتَ الوظائفِ حتَّىٰ يقالَ: أسُلَيمانُ أنت أمْ عِيسىٰ ؟.

وهذه نسخةُ توقيع بخَطابة الجامِع الأُمَوِىّ، من إنشاء آبن نُباتة، كُتِب به باستمرار القاضى تاج الدين، «بالجناب العالى» وهى:

الحمدُ للهِ الذى رفع للمنابِرِ رَأْسًا باسْتقرار تَاجِها، وجمع لصُدُور المحارِيبِ شَمْلًا بعوائد آبْتِهاجِها، وزَيَّنَ مواقعَ النِّعم بالتَّكْرارِ كما تُزانُ لآلِئُ النِّظامِ بازْدِواجِها، وبيَّن مطالِعَ الفَرَجِ بعدَ الغَمِّ: وما الدَّهْرُ إلَّا لَيلُ غُمَّةٍ ثم صُبْحُ آنْفِراجِها.

نحمده على مَعادِ الآمال ومعَاجِها ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تمشِى البصائرُ إلى الحقِّ بِسراجها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه القائمُ على المنابر لمداواة الفُهُوم وعِلاجِها ، ومُداراة الخُصوم وحِجَاجِها، القائلُ له تأْديبُ ربِّه : ﴿وَٱصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلّا باللهِ﴾ آيةً يَسْرِى الفَطِنُ علىٰ مِنهاجِها، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه بُحُورِ النِّعَم والنِّقَم عَذْبِها وأُجاجِها ، وبُدُورِ مساجِدِ التُّقىٰ ومَشاهِدِ الوَغىٰ عند عَجاجِ لَيْلِها ولَيْلِ عَجاجِها، صلاةً كصَلاتِهم آمنةً من خِداجِها ، ما مدَّتْ نَفَحاتُ الروض إلىٰ مخالطة سيرهم يَدَ ٱحتِجاجِها ، ومازَجَتْ معاليهم النُّجومَ فحُسْنَ بكأْسِ الثُّرَيَّا شرفُ ٱمْتِزاجِها .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلَى الناس باستقرار مَناصِب الدِّينِ العَرِيقَه ، وٱسْتِمرارِ عُلُوِّ الدَّرجاتِ : إمَّا من المراتب مجازًا وإمَّا من المنابر حَقِيقَه ، وٱسْتِمطارِ الوظائفِ بعِيادة فَضْله ولا سيَّما أعْوادُ الخَطابَه ، وٱسْتِبصارِها بلَفْظه ولا سيَّما إذا سُلِّمت الرايةُ العباسيَّةُ من نُطْقِه لعَرابَه ـ مَن دَرَجَ من عُشِّ فُروعِها خافقًا عليه جَناحا عَلَمَيْه ، وصَعِد إلىٰ عَرْشِها مُقبلَةً بنَظَراتِ الجُفونِ المتسامية آثارَ قَدَمَيْه ، وأعْرقَ نَسَبُه فى مَوْطِن مكانها المَكِين ، وبَلَغ مقامُه مقامَ سَلَفِه أربعين سنةً فى الطُّلوع بأُفقِها المُبِين ، وقال ٱستِحقاقُ مِيراثِه : "وماذا تَدَّرِى الخُطَباءُ مِنِّى"(١) * "وقدْ جاوَزْتُ" بمقام السَّلَف "حَدَّ الأرْبَعِين"، ومَن إذا سُمِعتْ خَطابَتُه قال الحَفْل : لافُضَّ فُوه ، ولا عُدِمَ البَيْتُ ولا بَنُوه ، ومَن إذا طلَع دَرَجَ المِنبَرِ قال المُسْتَجْلُون لسَناه : أهَلَّ البَدْرُ؟ قيل لهم : أخُوه ؛ ومَن إذا قام فَرِيدًا عُدَّ بألْفٍ من فرائد الرجال تُنَظَّم ، وإذا أقبلَ فى سَوادِ طَيْلَسانه واحدًا قِيل : جاءَ السَّوادُ الأعْظَم .

(١) الرواية الشعراء وهو نثر بيت لسحيم الرياحى .

ولمـا كان فلانٌ هو معنىٰ هذه الإشاره ، وفحـوىٰ هذه العباره ، وصدر هذا التصـدير : ومن سواه أحقُّ بصفات الصداره؟ ، ومن إذا ضرب المثلُ بالخطابة النبـاتيَّة فى حلب قال لخطابته بدمشق : «إيَّاك أعنى فاسمعى ياجاره» ؛ ومن نشأ فى محلِّ فخار طيب المعاقد ، ومن وضع رجله على المنـابر ومدّ عزمه إلى الفراقد ، ومن شمَّر فى أوائل عمره إلىٰ العلياء وحيدًا وخلَّف دونهـا من أنداده ألف راقد ؛ ومن إذا صعد للخطابة أنشد الحفدةُ :

ولمّـا رأيتُ الناسَ دون محلِّه * تيقنتُ أنَّ الدَّهر للنَّاس ناقد

وكانت خطابة[1] الجامع الأُموىّ المعمور بذكر الله تعالىٰ بدمشق المحروسة هو الذى كلُّ بنانٍ إلىٰ حُسنه يشير ، وكلُّ ذى مذهبٍ إذا عاين تصنيف وضعه قال هذا لفقه المحاسن هو الجامعُ الكبير ؛ ميزابه (؟) المسلم لرشده ، المُعلَم بطرازى نسبه ورشده ، المقدّم ليد نصرته سيف خطابة لايخرجُ بيد الاستحقاق عن حدّه ؛ تكاد المنابرُ تعود للنَّشأة الأولىٰ طربًا لسجع بيانه ، يُسهب ويقولُ الناس ليته لا آختصر ، ويودُّون لو لبس كلَّ يومٍ سوادَ أُهبته وزيد فيـه منهم سوادُ القلب والبصر ؛ وعارضـهُ من العظماء الكُفاة من نوىٰ بدلًا فأبىٰ حُنـوُّ الدَّولة إلا عطفا ، ونازله واردٌ من القضاء ولكن أنزل اللهُ عليه مع القضاء لُطفا .

ولذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يستقرَّ علىٰ عادته فى خطابة الجـامع المذكور ، وما يتعلق بذلك : من تدريسٍ وتصدير ، وتقريرٍ وتقدير ، وتأثيلٍ وتأثير ؛ ومحكومٍ بالتفويض إليه ومُحكَّم ، ومرسومٍ لا يُغيَّر عليه ما رُسم به وما يُرسَم ؛ وأن يُمنع دليـلُ

(١) الكلام هنا غير مستقيم ولعل الصواب «ولمـا كان فلان هو معنى الخ وكان الجامع الأموى هو الذى الخ تعين أنه المسلم ليده .

الاعتراض ويُدفع، ويُكَفّ حتّى تتصل العنايةُ بهذا البَيْت الذى هو من بُيوتٍ أذن الله أن تُرفَع، وحتّى يعلَم أنّ قوماً أحْسنوا صُحْبة الدُّوَلِ فسَعِدُوا، ونبَّهوا عهود الخِدْمة لأعْقابهم ومَجَدُوا، وحتّى يقولَ هـذا النَّجْلُ الظافرُ بعد آبائه وأخيه : لَيْتَ أشْياخى ببَدْرٍ شَهِدُوا .

فليُعِدْ حديثَ مَنْصِبِه القديم، وليَقُمْ إلى تَشْنيف الأسماعِ من نَثِير لَفْظه بأبهى من العقْد النظيم، ولْيفُكّ أسْرَى القُلوبِ برواتب إشارَته : فإنّه «الفاضل عبدُ الرَّحيم» ؛ ولْيُبـكِ العُيونَ بوَعْظه وإنْ أقرَّها بمُشاهَدَته، وليَحْرِصْ على فَخْر الدولة الشريفة به كما فَخَر سَيْفُ الدَّولة بابن نُباتَته .

ووصايا هذه الرُّتبة متشَعّبةٌ وهو على كلِّ حالٍ أدْربُ وأدْرَى بهـا، وما استقرّت على قَبْض سـيوفها يَدُه إلَّا ورجَعتِ الحُقوقُ إلى نِصابِها ؛ وكذلك ما هو معْـدوقٌ بوظائفه : من مَدارس عُلوم، ومجالِس نَظَرٍ طالمَـا نظر فى كُتُبها وهو الصَّحيحُ نَظْرةً فى النُّجوم ــ لا يَحْتاجُ فيها إلى مُطالعة الوصايا فإنّه من كلِّ أبوابِها دَخَل، ولا يمُرُّ بها على أُذُنه فَمُ المُبَلِّغ فإنّها من فِمه أحلى ومن تَسويغ فَمِه أحَلّ ؛ ولكنّ التَّذْكارَ بتَقْوَى الله تعالى فيما يأْتى ويَذَرُ أُسٌّ جَليل، ووَجْهٌ تتفاضَلُ وُجُوه الألْفاظ من ذِكْره على لَفْظٍ جَميل، وألفاظُ الخَطيبِ المُتّقِى إذا وصلتْ من القَلْب إلى القَلْبِ وفَتْ برَىِّ الغَليل ؛ والله تعالى يُمدُّه بألْطافه، ويُجرِيه على عوائد إسْـعاده وإسْعافه، ويُرْوِى بصَواب كَلِمه الأسْمـاع وبصَوْب الغمام عُهُودَ أسْلافه .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بتَدْرِيس المدْرَسة المسرورية بدمَشْقَ، من إنشاء الشَّيخ صلاح الدين الصَّفَدِىّ، كُتب به للشيخ «تقِىِّ الدين السُّبْكى» بـ «ـالمقرّ الكريم» وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تقِيَّ الدِّينِ عليّا، وأوجده فردًا فى هذا الملإ فكان بكلّ علمٍ مليّا، وأظهر فضلَه الجليل فكان كالصَّباح جليًا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى تكاثرتْ فانْجلَت الغمائم، وتوفَّرت الألْسِنَةُ علىٰ حَمْده فتعلَّمتْ أسْجاعَها الحَمائم، وتأثَّرت بمُوافقها الأحْوالُ فأنْملت زَهْر الخمائل فى الكمائم . ونشهدُ أن لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا شُبهةَ تُعكّر ما صَفَا من لُجّتها، ولا رِيبةَ تُوعِّر ما تَسهَّلَ من مَحجّتِها ، ولا ظُلمةَ باطلٍ تُكدِّر ما أنارَ من حُجّتِها . ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى جُمِعتْ فيه مكارمُ الأخلاق، وتفرَّد بمزايا منها أنَّه حَبيبُ الخلّاق، وشارَك الأنبياءَ فى مُعجزاتِهم وزاد عليهم بما أُتيحَ له من خَمْسٍ لم يعْطَهُنَّ غيرُه منهم على الإطْلاق . صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين تفقَّهوا فى الدِّين، وحازُوا الأُجورَ لمّا جرَوْا إلى حَزِّ الغَلاصِم من المُلْحدين، وأنْزلُوا لمّا نازلُوا أبْطالَ الباطلِ والمُعْتلين من المُعْتدين، صلاةً يفُوحُ نَسيمُ رَيّاها المتأرِّج، ويلُوحُ وَسِيمُ مُحيّاها المتضَرِّج، ما فرَّجَ العلماءُ مَضايِقَ الجدالِ فى الدُّروس، وقبَّلَتْ ثُغورُ الأقلامِ وَجَناتِ الطُّروس، وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدِّين .

وبعدُ، فإنَّ المدارسَ ـ عَمَرها اللهُ تعالىٰ بالعلماء ـ لِواقِفيها شُروط، ولأهْلها هِمَمٌ أنْزلُها بالنجوم منُوط، يغُوصُونَ بُحورَ البُحوثِ فى طَلَب اللآلى، ويقْطَعُون ظُلَلَ الظَّلامِ بالسَّهر فى حُبِّ المَعالى، سِيَّما المدرسةُ المَسْرُوريَّة : فإنَّ واقفَها ـ أثابَه الله تعالى ـ شَرطَ فى المُدَرِّس بها شُروطًا قلَّ من يُقلُّها، أو يَتحلّىٰ بعُقُودِها أو يَحُلُّها، وكان مَفْرِقُها قد تحلَّى بتاجٍ تَجوْهَر، ومُغْلَقها قد ضَمَّ منه فاضلًا تَمهَّدتْ به قواعدُ المَذْهَبِ لمَّا تمهَّر، فأعرضَ عنها، ونفض يَدَه منها، رَغْبةً فى الإقبال علىٰ شأنه، وانْقطاعًا إلىٰ مَالكِ الأمْرِ ودَيَّانه، فخَلا رَبْعُها من أُنْسِه، وكادتْ تكون طَلَلًا بعد دَرْسه .

وكان فلانٌ ــ أسْبغَ اللهُ ظِلَّه ــ قد وَافقَ بعضَ ما فيــه شَرطُ الواقف ، وشَهِد بنَشْر عُلُومِه البَادِى والعَاكِف ، وطاف بكَعْبَــةِ فَوائِدِه كلُّ طَائِفٍ ، ينصَرِف عنه باللَّطائِف ، أمّا "التفْســيرُ" فإنّه فيــه آيَه ، وأمّا "الحديثُ" فإنّه الرُّحْلة فى الرِّوايةِ والدِّرايَه ، وأمّا "الأُصول" فإنّه زَأر بـ«الرَّازِىّ» حتّى ٱختفىٰ ، وأمّا "الفِقْه" فلو شاء أملَىٰ فى كلِّ مَسْألةٍ منــه مُصَنَّفا ، وأمّا "الخِلاف" فقد وَقَع الاتِّفاقُ علىٰ أنّه شــيخُ المذاهب ، وأمّا "العربية" فـ«الفارِسِىُّ» يعتَرِفُ له فيها بالغرائب ، إلىٰ غير ذلك من العلوم التى هو لها حَامِلُ الرَّايَه ، وله بالتَّدْقِيق فيها أتَمُّ عِنايَه ، وإذا كان أهل كُلِّ عِلمٍ فى المَبادِى كان هو فى الغَايَه .

فلذلك رُسِم بالأمر العالى ــ أعلاه الله تعالىٰ ــ أن يفوّضَ إليه كذا وكذا : وَضْعًا للشَّىءِ فى مَحَــلِّه ، ومنعًا لتاريخ وِلايَةِ غيره أن يَفْجَأ فى غير مُسْــتَهلِّه ؛ فالآنَ أمسَىٰ الواقِفُ مَسْرورًا علىٰ الحَقِيقَه ، والآنَ جَرَى الخلافُ فيها على أحْسنِ طَرِيقَه ؛ وهو ــ أسْــبغ الله تعالىٰ ظِلَّه ــ أجَلُّ خَطَرًا من أن يذَكَّر بشَىْءٍ من الوصايا ، وأعظَمُ قَدْراً من أن تُدَلَّ ألْمَعِيَّتُه علىٰ نُكَتِها الخَفَايا ؛ لأنَّه بَركَةُ الإسلام ، وعَلَّامةُ الأعلام ، وأوْحد المجْتَهِدين والسَّلام ؛ والله تعالىٰ يمتِّع المسلمين ببَقائِه ، ويُعْلى درجاتِ ٱرْتِقائِه ؛ والخَطُّ الكريم أعلاه الله تعــالىٰ أعلاه ، حجــةٌ فى ثبوت العمل بمقتضاه ؛ إن شاء الله تعــالىٰ .

وهــذه نسخةُ توقيع بتَدْريس المدرسة الناصرية الجوّانيــة ، من إنشاء الصَّلاح الصَّفَدِىّ أيضا ، كُتب به للقاضى ناصر الدين «محمد بن يعقوب» كاتب السِّرّ يومئذ بالشام ، حين عاد إلىٰ تَدْريسها بعد ٱنْفصاله عنه ، بـ«المقرّ الكريم» وهى :

الحمـدُ لله الذى بَدأ النِّعم وأعادها ، وأَفاءَ المِنَنَ وأفادَها ، وزَان المناصِبَ السَّنِيَّةَ بمن يَلِيها وزَادَها ، وشادَ عِمادَ المَعالى بأرْبابِها وصانَها عَمَّا دهىٰ .

نَحمدُه علىٰ نِعَمِه التى بدأتْ بالمعروف وتَمَّتْ ، وخَصَّصتْ بالإحسان وعَمَّمتْ ، وبَرَّأتْ من النَّقائِص وسَلَّمتْ ، وفَلَّتْ بالألْطاف الخَفِيَّة صَوارِمَ الحوادث وثَلَّمتْ . ونشهـدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُضيءُ بهـا الحَنادِس ، وتَزْكُو بأنْوائِها مَنابِتُ الإيمـان والمَغارِس ، وتَسْـمُو بٱقْتنائِها إلىٰ عِلِّيِّينَ النفوسُ النَّفائِس ، ويُرْغِمُ المؤمنون بإعلائِها من الكُفَّار المَعاطِس؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى تَمَّم للناس مَكارِمَ الأخْلاق ، وأخْجلَ بجُودِ كَفِّه الفَيَّاض صَوْبَ الغَيْث الدَّفَّاق ، وفَضَح البَدْر اللِّيَاحَ فى الدُّجىٰ بنُورِ جَبِينِه البَرَّاق ، وتَقدَّم النَّبيين والمُرْسَـلين فى حَلْبَةِ الشَّرف علىٰ جَوَادِ فَضْـله السَّبَّاق ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِـه أعْلىٰ مَن نَصَبُوا للهُدىٰ أعْلاما ، وأرْقىٰ من أصْبح العِلْمُ لفَضْلِهم البَاهِرِ رَقَّاما ، وأحْلىٰ من كان الزمانُ بُوجودِهم وجُودهم للعُفَاة أحْلاما ، وأقْوىٰ من كان الإيمـان بهم إذا ٱسْتَنْجدَ على الكُفْر أقْداما ؛ صلاةً لا ينْفَد لهـا أمَد ، ولا يَفْنَىٰ لهـا مَدَد ، ما شَبَّ بارِقٌ وخَمَد ، وشَفَى الغَمامُ طَرْف زَهْرٍ من الرَّمد ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا إلىٰ يوم الدِّين .

وبعدُ ، فإنَّ مدارِسَ العِلْمِ الشريفِ لها الذِّكْر الخالِد ، والشَّرفُ الطَّارِفُ والتَّالِد ؛ بها تَتبيَّنُ فَوارِسُ الجِلادِ فى مَضايِق الجِدَال ، وتَتجلَّىٰ بُدُورُ الكلام فى مَطالِع الكَمال ، وتَبْدُو شُموسُ الجمال فيما لها من فَسِيحِ المجال ؛ والمدْرسةُ الناصرية ــ أثاب اللهُ تعالىٰ وَاقِفَها ــ هى الواسـطةُ فى عُقودِها ، والدُّرَّةُ الثَّمِينة بلا كُفْـءٍ لهـا بين قِيَم نُقُودِها ؛ قد تَدبَّج فيهـا البِناء ، وتأرَّج عليها الثَّناء ، وتَخَـرَّج عنهـا الحُسْنُ فإنَّ له بها مَزِيدَ آعتِناء .

وكان المقرُّ الفلانىُّ قد نَفَض يَدَه من عِنانها، ورَفَض عن ٱختيار بهاء جِنانها، وثَنىٰ طَلِبَتَه عن مُحاوَرتها، ورمىٰ أُمْنيَّته من مُجاوَرتها؛ فساءَ مَن بها من أهلِ العِلْم فِرَاقُه، وأوحَشَهم وجْهُـه الذى أخْجَلَ البُـدورَ رَوْنَقُه والبَحْرَ ٱنْدفاقُه، وفقَدوا مكارِمه التى ما سمع «السَّمْعانِىُّ» بمِثْلِها ولا وصلت إلى «الصُّولِىِّ» ولا ضَمَّتها أوْراقُه.

فلِذٰلك رُسم بالأمْرِ العـالى أن يُعاد إلىٰ تَدْرِيسها : لأنَّ العَوْدَ أمْدحُ وأحْمـد، والرُّجوعَ إلى الحَقِّ أسْعفُ وأسْعد.

فليُباشِرْ ما فُوِّض إلَيه مباشرةً أُلِفَتْ من كمال أدَواتِه، وعُرِفَتْ من جمال ذَاتِه؛ نَاشِرًا أعلامَ عُلومِه المتنوِّعَه، وفَضَـائِله التى تَقْصُر عن الثَّناءِ عليهـا أنْفاسُ الرِّياضِ المتَضوِّعَه؛ فلَو عاصَرَه «ٱبن عَطِيَّـة» أمْسك عنه فى تَفْسِـيره[(١)]، أو «صَاحِبُ الكَشَّاف» لغَطَّىٰ رَأْسَـهُ من تَقْصيره؛ أو «الرَّافعىّ» لأصْبحَتْ رايةُ رَأْيِه فى الفِقْه خَافِضَـةً رَافِعه، أو «النَّوَوىّ» رحمـه الله لٱسـتعار منه زَهَراتِ رَوْضَته اليَانِعَه؛ أو «الآمِدىّ» لمـا ٱمْتدَّتْ له معه فى أُصولِه خَطْوَه، أو «ٱبنُ الحاجِب» لمـا كان له مع ٱبن الحاجب حُظْوه؛ أو «ٱبنُ يَعيشَ» لمـات ذِكْرُه فى النَّحْوِ فكان فَقِيدا، أو«ٱبنُ مالكٍ» لأمْسىٰ "تَسْهيلُه" تَعْقيدا؛ أو«الشِّبْلِىّ» لعلم أنَّه ما شَبَّ له فى التَّصرُّف مِثْلُ شِـبْلِه، أو «ٱبنُ عَرَبىّ» لأعرب عن عُجْمَةٍ وما تَمسَّكَ صُوفِىٌّ بحَبْلِه، إلىٰ غير ذلك من إنْشاءٍ إنْشاءٍ ساد فيه العَبْدين : «عَبْدَ الحميد» و «عَبْدَ الرَّحيم»، ونَظْمٍ كُلَّمـا نَظْمَأُ إلىٰ رَشْـفه طافَتْ علينا قَوافِيه بكَأْسٍ مِزاجُها من تَسْنِيم؛ وعلَى الجُمْلَة فتَفْصِيلُ مَعارِفِه يَضِيقُ عن فَضِّها فَضاءُ هـذا التَّوقِيع الكريم، وسَرْدُ مَحاسِنه لاتَتَّسعُ له حَواشِى هـذا البُرْدِ الرَّقِيم؛ ولٰكِنْ أشارتْ أُنْمُـلَةُ القَلَمِ منها إلى نُبْذَه، وعلِمْنا أنَّ القلوبَ تَشْتاقُ إلى أوْصافه فقلَذْنا لهـا من ذلك فِلْذَه.

(١) لعله « عن تفسيره ».

وأما الوصايا فمِثْلُه لا يذَكَّرُ بشَيْءٍ منها ، ولا يقالُ له : دَعْ هـذه الوَدَعةَ وهذه الدُّرَّةَ صُنْها ؛ لأنَّ الأمرَ والنَّهْىَ له فى ذلك ، وإذا أطْلع بُدُورَ وصِيَّةٍ ضَوَّأ أحْوالَ الدَّياجِى الحَوَالِك ؛ ولٰكن تَقْوى اللهِ عزَّ وجلَّ ذِكْرُها فى كلِّ تَوْقيعٍ طِرازُه المُعْلَمَ ، ونُكتَتُه التى طَوْدُها لا يُثَلُّ وحَدُّها لا يُثْلم ، فلْيكُنْ مُسْتَصْحِبَ حالِها الحالى ، مُسْتَصْعِبَ فِراقِها الذى يُهوِّنه البالُ البالِى ؛ واللهُ تعالى لايُخْلى رُبوعَ العِلْمِ من أُنْسِه ، ويجعلُ سَعْدَه فى غَدٍ زائدًا كما زاد فى يَوْمِه علىٰ أمْسِه ، والخطُ الكريم أعلاه ، حجَّةٌ فى ثُبوت العَمَل بمُقْتضاه .

وهـذه نسخةُ توْقيعٍ بتَدْريس المدرسة النُّورِيَّة ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نُباتة ، كُتب به لقاضى القضاة «نجم الدين الحنفىّ» بنزول والده عنها بـ«الجناب الكريم» وهى :

الحمـدُ للهِ الذى أنْمَىٰ أهِـلَّةَ العِلْمِ فأبْدَرتْ ، وفُرُوعَه فأثْمَرتْ ، ونُجُومَه فاسْتَقَلَّت مَطالِعُها النُّورِيَّةُ وتَنَوَّرَتْ ، ولآلِئَه فى بِحارِ اللَّفْظ والفَضْلِ فتَجَوْهَرتْ ، وأنْهارَه التى أخذت فى المدِّ مآخِذَ تلك البِحارِ فاسْتَرْحَبَت واسْتَبْحَرَتْ .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمِه التى قَرَّتْ وقَرَتْ ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً إذا خَصَّلها اليَقينُ وفَرَتْ ، وإذا نَصَّلها الإخْلاصُ مَضَتْ فى أوْداجِ الباطل وفَرَتْ ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه الحاكمُ فى فَصْـلِ الأقْضية لَمَّا شَجَرتْ ، والنَّاظِمُ دُرَرَ الإيمـانِ حتَّىٰ زَهَتْ فى أعناقِ العَقائدِ وزَهَرتْ ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبِـه فِئَةِ الحقِّ التى ظَهَرتْ وطَهُرتْ ، وعِصابَةِ الإسْـلامِ التى سَرتْ خَلْفَها

(١) مستعار من نصل السيف والرمح والسهم ركب فيه النصال وهو حديد .

سَرايا الذِّين نهاجَرتْ فى الله ونَصَرتْ، صَلاةً طَيِّبةً تحْلو إذا تكَرَّرتْ، وتَحِيَّةً باقيةً تُشرِقُ شَمسُها إذا الشَّمسُ كُوِّرَت، وتَعْبَقُ نَفَحاتُ نَشرِها إذا الصُّحُفُ نُشِرَتْ .

أما بعـدُ، فإنَّ مَنازِلَ العِلْمِ من خَيْرِ ما أبْقى الآباءُ للأعْقاب، وأَكْمَلِ ما ذُخِر لنُجَباءِ الأبْناءِ علىٰ مَدَى الأحْقاب ، وأعْدل ما شَهِـدَ بلِسانِ حاله المتَمثِّلِ أنَّ وَكْرَ العُقابِ لاَبن العُقاب ؛ وكانت المدرسـةُ النُّورِيَّة الكُبرىٰ بدِمَشْقَ المحروسـةِ هى الواسطةُ والمدارِسُ دُرَر ، والصُّبحُ وأوْطانُ العِلْمِ غُرَر ؛ ومنْزِلةَ الحكم الأمْنع ، وبيْتُ القَضاء الذى أذِنَ اللهُ لقَـدْرِه أن يُرفَع ، ومكانُ ذِى اليَدِ المـاضى سَيْفُ حكمه إذا قُرِعَت العَصَا لذِى الإصْبَع ؛ وذَاتُ العِمادِ التى آدَّخرها لنَجْلِه ، وأعَدَّ فَضْلها فى العِبادِ والبِلاد لفَضْـلِه ؛ وكان ذلك(١) قد نَزَلَ لولده فلانٍ عن الحُـكْمِ علىٰ هذا الحُكْم، ونطق بمَزِيَّةِ الاَسْتِحقاقِ وقُلُوبُ بعْضِ الأعداءِ صُمٌّ بُكْمٌ ؛ ورَغِبَ ـ أجَلَّه اللهُ ـ فيما يَرغَبُ فيـه من الاَنقطاع ذُو السِّنِّ(٢) العالى، والقَدْر الغالى، وآنْتظم تَقْليدَه الشريفَ فكان أجوَدَ حِلْيةٍ علىٰ أحْسنِ جِيدٍ حَالِى ؛ ثم التَّوقيعَ بتَدْرِيس هـذه المدرسة التى زُكِّىَ فى أهْلِ الفَضْل شهيدُها، ونَظَرِها الذى خَلَفَ فى حُكْمه ولىُّ عَهْدِه عن أبِيه : فلِلّهِ أمِينُ هذه الخلافة ورَشِيدُها .

ولذلك رُسم بالأمرِ الشريف أنْ يفوِّضَ إلىٰ فلانٍ تَدْرِيسُ المدرسة النُّورِيَّة ونَظَرُها : لاَستحقاقه لهـا بشُفْعَةِ مَنْصب الحُكْمِ العزيز، ومَنْشَإِ الفَضْـلِ الحَرِيز، ووجِيز النزول المكتَتَب، وقَبُول هِبَـةِ والده الذى يعتادُ أن يَهَبَ الجليلَ لمن يَهَب ؛ وتَشْرِيفـه بإنعامها النَّفِيس ، وإجْلاسِه بهـا علىٰ مَرْتَبَةِ حُكْمٍ وبِساطِ نَظَرٍ وسَجَّادةِ تَدْرِيس ؛ وعِلمًا بأنَّ نجمَ ذلك النَّيِّرِ أوْلىٰ بهذه المنازل ، وشِبْلَ ذلك الأسَـدِ أحقُّ

(١) لعله «وكان ذلك الامام الموصوف» أى والد نجم الدين .
(٢) نص أهل اللغة على أن السن بمعنى العمر مؤنثة .

بهذا الغَابِ المائِل ؛ وأنَّه كوكبُ هذا المَذْهَبِ المُنِير ، وإمامُ جامِعيَّه المعروفين : كبيرٍ وصَغِيرٍ ؛ وصاحبُ شَبِيبَة العَزْم المقْتَبل ، والرَّأْيِ المُوفِي علىٰ قياس الأمل ؛ وتَجْنيس الجُود والإجادَه ، وتَكْمِيل بَحْرَي العِلْمِ والبِرِّ وٱجتهاد الزِّياده ؛ وأنَّه ممَّن آتاه اللهُ رِفْعَةً في القَدْر والآسم ، وزاده بَسْطَةً في العِلْمِ والجِسْم ؛ وأحكم بَدِيهَةَ عِلْمه فما تَسْتوقِفُ الأسماعُ رويَّته ، وأعْلاه وعَظَّمه فما هو النَّجْم الذي تَسْتَصغِرُ الأبصار رُؤْيَتَه .

فلْيباشِرْ تَدْرِيسَ هذه المدرسة ونَظَرها بعَزْمِهِ الباهر وَصْفا ، التَّالِي بلسان الحَمْد : ﴿وإبْراهِيمَ الَّذِي وفَّىٰ﴾ ؛ جارِيًا علىٰ أعْراقِ نَسَبِه المشهور ، فائِضَ اللَّفْظ والفَضْل فإنَّه بَحْرٌ من البحور ، مظهِرًا من مَباحِثِه التي تقلِّد العُقولَ بأبْهىٰ مما تُقلَّد النُّحور ، مهْتَدِيًا من رَأْيِهِ ومن برَكَةِ الواقِف ـ رضِيَ اللهُ عنه ـ بنُورٍ علىٰ نُور ، واللهُ تعالىٰ يَزِينُ بنَجْمِه أُفُقَ السِّياده ، ويَزِيدُ فيما وهَبَه من الفَضْل إن كان التَّمامُ يقبلُ زِيادَه .

تَوْقيع بتَدْرِيس المدرسة الرَّيحانية الحَنَفِيَّة ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، كُتب به للقاضي «عماد الدين الحنفي» بـ«ـالجناب الكريم» وهو :

الحمدُ لله الذي جمَّل مدارِسَ العِلْمِ بذَاتِ عِمادِها ، وصاحِبِ نَقْلِها وٱجْتِهادِها ؛ ومُنْشِرِ عَهْدِها ومُنْشِئ عِهادِها ، وواصِلِ مَناسِبِها التي لو ٱدَّعاها دُونَه زَيْدٌ لكانت دَعْوىٰ زِيادِها ، ومُفْصِحِ فتاويها علىٰ مِنْبرِ قَلَمٍ ٱهتز عُوده ونَفَح وأطْرَب : فناهِيكَ بثلاثة أعْوادها ! .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التي قَضَى الحمدُ بٱزْدِيادِها ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُعِدُّها النفس لمَعادِها ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه هادي الأُمَّة

إلىٰ سبيل رَشادِها ، صلَّى اللهُ عليــه وعلىٰ آله وصَحْبِه بِحارِ العِلْمِ وأطْوادِها ، ما قامت الطُّروسُ والسُّطورُ لعُيونِ الألفاظِ مَقام بياضها وسَوادِها .

أمَّا بعدُ ، فإنَّ لمذاهِبِ العِلْمِ رِجالًا يوَضِّحونَ طُرُقَها ، ويمدُّون فى المباحث طَلَقَها ، ويَعَمِّرونَ مدَارِسَها : فيالَهَا من ذَاتِ دُروسٍ يكون العُمْرانُ مُعْتلِقَها ومُعْتنِقَها ! .

ولمَّـا كانت المدرسـةُ الرَّيحانية بدِمَشْق فى أيدى العُلَماءِ نُخْبَةً رَيْحانيَّه ، وشَقيقَةَ نَفْسٍ نُعمانيَّه ، مأْهُولةَ المَنازِهِ والمنازل بكلِّ ذى فَضْــل جَلِيّ ، وعِلْمٍ مَلِيّ ، ووَصْفٍ كريم ، ونفسٍ نفيس يتلقَّاه منها رَوْحٌ ورَيْحانٌ وجَنَّــةُ نَعيم ، وخَلَتِ الآنَ من إمامٍ كَرُمَتْ خِلالُه ، وعظُمَتْ خِصالُه ، ومَضَى وتمضَّى وما يَبْقىٰ إلا اللهُ جلَّ عن الحوادث جَلالُه ـ فتعيَّن أنــ نَخْتارَ لتَدْرِيس مكانها من يفتخر به المكانُ والزَّمان ، ويَتَشَيَّدُ بزيادة عِلْمــه لصاحبِ مذهبها أضعافُ ما شاده زياد للنُّعمان ؛ من شــيَّد الشريعةَ الشريفــةَ مَقالُه ومَقامُه ، وعلا عِمــادُه إلىٰ عُقودِ الشُّهُب فلله مُرادُه ومَرامُه ، من لو عاصره «ابن الحسين» لَحَسُن أن يعترفَ بقَدْرِه الجليل ، وقال عند محاضرة بَحْثِه كما قال «أبو يوسف» : فَصَبْرٌ جَميل ؛ واستزاد «شمس الشريعة» فكيف «السراج» من لمعه البريقه ، وقال «ابن الساعاتى» : مارأيتُ أرفعَ من هــذا القَدْرِ درجةً ولا أبدعَ من هذا الذِّهْن دَقِيقَه .

ولذلك رُسم بالأمرِ الشريف ـ لازال عالِيًا بأمْره كلُّ عِماد ، زاهِياً بمحامد مُلْكِه كلُّ ناطِقٍ وجَماد ، أن يفوَّضَ لفلان ... ... لأنَّه المَعْنِيُّ بمــا تقدّم من الأوصاف الحُلْوةِ إذا تكَرَّرتْ ، والمقصودُ بألْفاظِها إذا تعنونَتَ الأفْهام وتيَسَّرت ؛ والمعوَّذَةُ فرائدُ مباحِثِــه المفرّقَةُ بـ « إذا الكَوا كِبُ انتثرتْ وإذا البِحَار فُجِّــرتْ » ؛ وإمامُ المذْهب الحنفيِّ والحُكْمِ الأحْنَفيّ ، وحَصاةُ القَلْبِ التى تَنْسِف بإشارتها جبال «النَّسَفيّ » ، ولسانُ النَّظَرِ الذى أشْرف علىٰ بُعْدِه فاخْتَفَىٰ فى قُرْبِه المَشْرَفِيّ ؛ وصاحِبُ الفُنون وما

وسَقَتْ، وأفنانِ الحُكْمِ والحِكَمِ وما بَسقَتْ، ونُعوتِ الفَضْلِ والفضائِلِ وما عَطَفتْ من البيان ونَسَقَتْ .

فلْيَتَوَلَّ تَدْرِيسَ هـذه المدرسـة المعمورةِ مُؤَيَّدَ الولايه، مُجَـدِّدَ البداية لحنيفيَّتها والنهايه، سـاجِدًا قَلَمُ الفتاوىٰ والفُتُوَّةِ كلَّما تَلا كَرَمُه وكَلِمُه آيةً بعدَ آيَه؛ مُنْفِقًا من ألْفاظِه حتَّىٰ يَسْتغنى عن "الكَنْز" وصاحِبِه، ويَرُدَّ فَرعَ المقال على الأصْل وطَالِبِه؛ ويُعْرِضَ عن أعارِيضِ "البسيط"، ويُغْرِقَ فى أفْكارِ وَارِدِه "المحيط". ويمدَّ سماط العِلْمِ الذى وَفىٰ بعد «القُدُورِىِّ» وما خَان، وتَفْخر بقَاضِيها أعظمُ مَدينةٍ فما يضُرُّها فقــدُ « قاضى خان» ، ونتذكَّر المَقَدَّميةُ من طَلَبَتِــه فوائد الحَلْقَه، وينتقل الجناب الكريم من تقدِمَتِها إلىٰ ما هو أوفىٰ فى الغَرَضِ وأوفَرُ فى النَّفَقَه؛ والله تعالىٰ يَزِيدُ رُتَبَ العِلْمِ به سرورا، ويجعلُ له باستطلاعها كتابَ حُكْمٍ وحِكَمٍ يلقاه مَنْشُورَا .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بتَصْدِيرٍ بالجامع الأُموِىّ، كُتب به لقاضى القضاة «علم الدين آبن القَفْصى» قاضى قضاة دِمَشْـقَ بـ «المقرِّ الشريف» وهى من تَلْفِيـقِ كُتَّاب الزمان . علىٰ أنها بالمدرّس ألْيَقُ منها بالمصدَّر، وهى :

الحمدُ لله الذى أعلىٰ عَلَم أئِمَّة الدِّين إلىٰ أعلى الغُرَف، وميَّزهم بالعِلْمِ الشَّريفِ الذى يَسْمُو شرفُه علىٰ كلِّ شَرف، وأوضَح بهـم مَنْهجَ الحقِّ القويم فعَلَا بإرْشادِهم سـبِيلُ الهُدىٰ وآنْكشَف .

نحمـدُه علىٰ ما أفاض مِـن نِعَمِه المتواترة كلَّ حِين، ونشكُره علىٰ إحْيـاءِ مَعاهِدِ المعابِد بمن حَذَا حَذْوَ الأوليـاء المُتَّقين؛ حمـدًا يُظهِرُ الآياتِ المحمَّديَّةَ والبراهين، ويَبْسُط ظلَّ مَن هو عن الحقِّ لا يَمِين. ونشهدُ أن لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له

رَبُّ العالمين ، الذى عَلَّم الإنسانَ ما لَم يَعْلَم وهو العالم بما تُخْفِى الصُّدُورُ ويَعْلَمُ عبادَه المؤمنين ؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه الذى أُوتى عِلْمَ الأوّلين والآخِرين ، وكان من دعائه لشَيْبةَ : « اللّهمَّ فَقِّهْهُ فى الدِّين » . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين عَمِلُوا بما عِلموا فكانوا أئمّةَ المسلمين ، والعُمْدَةُ علىٰ أقوالهم التى نقلوها عن خَاتَم النبيين ، علىٰ تَوالِى الأَيَّام والجُمَع والأشْهُر والسِّنين ؛ وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

أما بعدُ ، فلمَّا كانت أعلامُ العُلماءِ فى الآفاق مَنْشوره ، ورُبُوعُ الفوائد بطريقتهم المُثْلىٰ معْمُورَه ، وصُدُورُ المعابِد الشَّريفة محتاجة إلىٰ صِلَتِها بكُفْئِها الفَرْد مَسْرُورَه ؛ وكان فلانٌ ــ أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظِلَالَه ، وضاعف جَلالَه ــ هو الذى مَلأَتْ مُباشرتُه العُيونَ والأسماع ، وآنعقدتْ علىٰ تَفَرُّدِه فى عَصْرِه كَلِمةُ الإجْماع ، وآشتَهرَ ذكْرُه الجميلُ بأنواع المَكْرُمات وأطاعَهُ من مُشْكل المَذْهَب ما هو علىٰ غيره شديدُ الآمْتِناع ؛ وأَضْحَتْ فضائلُه "المَدَوَّنَة" ولفظُه الجَلَّاب ، وكَنَفُه "المُوَطَّأ" للطَّلَبَة يُغْنِيهم عن مَعاهِد « عبد الوهاب » ؛ وعزيمته لا يُلْحقُ غُبارُها فى المعارك ، ولا يَظنُّ خُدَّامُ العلوم الشرعية والأدبية إلا أمَّ مالك وآبن مالك .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لازال يجمعُ لَمن بَرعَ فى العلوم من ألْوانِ المناصب المختلفه ، ويَرفَعُ قَدْرَ القَوْمِ الذين قُلوبُهم على التقوىٰ مُؤْتَلِفه ــ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة التَّصْدير بالجامع الأُمَوِىّ بدِمَشْق المحروسة ــ عمرَه اللهُ تعالىٰ بذكْره ــ عِوَضًا عن فلانٍ بُحكْمِ نزوله عنه برضاه ، حَمْلًا علىٰ ما بيده من النُّزولِ الشَّرعىّ ، بالمعلوم الذى يشهدُ به ديوان الوَقْف المبرور ، علىٰ أجْمل عاده ، وصرفه إليه مُهَنًّا مُيَسّرًا أُسوة أمثاله .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ علىٰ عادة مُباشراته التى حُفَّت بالعُلُوم ، وآفتخرتْ بحُسْنِ المَنْطوق الدَّالّ على المعنَى المفْهُوم ؛ ويُمِدّ مَوائدَ علْمه المحتويةَ علىٰ أنواع الفَضائِل ،

ولُيُبَيِّنْ ما يَخْفىٰ على الطَّلَبَـةِ بأوْضحِ الدلائل ؛ وليؤَدِّ الفوائدَ الواصلةَ إلى الأذهان علىٰ أحْسنِ أُسْلُوب ، وليُقَرِّرِ الأُصولَ التى آمتدَّتْ فُروعُها بقواعِدِ السُّـنَّةِ المحمَّدِيَّة وفى ثمرها الجَنِيِّ تَقْويةُ القُلوب ؛ وليُكْرِمْ منهم من يَضِحُ فضله لَدَيْه ويَبِين ، وليَبْسُطْ هِمَمَهم بقوله صلَّى الله عليه وسلم : "مَن يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّين" . ولْيُوَضِّحْ طريقَ إرْشادِه ليَسْهُلَ سُلُوكُها عليهم ، ولْيجعَلْ وُفُودَ فوائده فى كلِّ وقتٍ واصِـلَةً إليهم ، وليَتَّبِـعْ «إمامَ دارِ الهِجْرَة» فى مَذْهَبه المُذْهَب ، وليخَلِّدْ من صفاته الجميلة ما يَذْهَب الزَّمانُ ولا يَذْهَب ؛ ولْيسْمَحْ للفقهاء بمواصلة فَضْلِه الأعَمّ ، فإنَّه أنْ يُهدَىٰ به واحِدٌ خيرٌ من حُمْرِ النَّعَم .

والوصايا كثيرةٌ ومنه يُطلَبُ بيانُها ، وبه تَقْوَىٰ أسْـبابُها ويَعلُو بُنْيانُها ؛ ولٰكن الذِّكْرىٰ تنفَعُ المُؤْمنين ، ويَظْهَرُ [بها] سِرُّ خبرهم ويَسْتَبين ؛ وتَقْوى اللهِ تعالىٰ هى العُرْوة الوُثْقىٰ ، والخَصْلةُ التى بها يعظم كلُّ واحِدٍ ويَرْقَىٰ ؛ فلْيُواظِبْ عليها ، ولْيَصْرِفْ وَجْهَ العناية إليها ؛ واللهُ تعـالىٰ المسْئُولُ أن يجعلَ عَلَمَ عِلْمِه دائمًـا فى الآفاق مَنْشُورا ، وذِكْرَه الطَّيِّبَ علىٰ ألْسنَة الخلائق كلَّ أوانٍ مَذْكورا .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع أربابِ الوظائف الدِّينيـة بحاضرة دِمَشْقَ — ما يفتتح بـ«أَما بعدَ حمدِ الله» وفيها عدّةُ وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك .

توقيعٌ بقضاء العَسْكر بِدِمَشْـق ، كُتب به للقاضى شَمْس الدِّين «محمد الإخنائى» الشافعىّ ، بـ«ـالجناب العالى» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله تعالىٰ مضاعِفِ النِّعمه، ومُرادِفِ رُتَبِ الإحسان لمن أخْلَصَ فى الخدْمه، ومُجَدِّدِ مَنازِلِ السَّعْدِ لمن أطْلَعتْ كواكبُ اهتمامِهِ فى آفاقِ الأُمورِ المُهِمَّه؛ والصلاةِ والسلامِ الأتمَّينِ الأكْملينِ علىٰ سيدنا محمدٍ وآلِه الذى بُشِّر بنَصْرِ هذه الأُمَّه، ووُعِدَ بأنْ سيُكشَفُ به غمامُ كلِّ غُمَّه، وأنَّه يتجاوزُ عن أهْلِها بشفاعته وكيف لا؟ وقد أُرْسِلَ للعالَمين رَحْمَه، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً تُجزِلُ لقائلها نَصيبَه من الأجْرِ وتُوفِّرُ قِسْمَه ـ فإنَّ أحقَّ الأولياءِ مَن تأكَّدتْ له أسْبابُ السعاده، وكافأْناه بالحُسْنىٰ وزيادَه، وبلَّغْناه من إقْبالِنا غايةَ مآرِبِه ومَطالِبِه؛ وعُرِفَتْ منه العلومُ التى لا يُشَكُّ فيها، والنَّباهَةُ التى لا يَقْدِرُ أحدٌ من أقْرانِه يُوفِّيها؛ والخِبْرةُ الوافيةُ الوافِرَه، والدِّيانةُ الباطنةُ والظَّاهِرَه؛ وسار بعُلُومه المَثَل، وسلك مَسْلَكَ الأولياءِ فى العِلْمِ والعَمَل؛ واعْتُبِرت أحوالُه التى تُوجِبُ التقديم، واخْتُبِرت فِعالُه التى ضاعفَتْ له مزيدَ التكريم.

وكان فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمتَه ـ هو الذى أتْقن العُلومَ بحْثًا وتهْذيبا، وبَرْهَنَ عن المسائل الشَّرعيةِ بأفهامٍ تَزيدُها إلىٰ الطَّالِبين تَقْريبا؛ وأوضح عَوِيصَ مُشْكِلاتِها، وصحَّحَ من ألْسُنِ العَربِ لُغاتِها.

فلذلك رُسِم بالأمرِ العالى ـ لا زالت شَمْسُه بالعناية مُشْرِقَه، وأنْواءُ فضائلِ أوْليائه مُغْدِقَه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى وظيفة قَضاء العساكرِ المنصورة الشاميَّة: حمْلًا علىٰ ما بيَدِه من النُّزول الشَّرعىِّ، علىٰ عادة من تَقدَّمه فى ذلك وقاعدَتِه، ومَعْلُومه الذى يشْهَدُ به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخرِ وقْتٍ. فهو الحاكمُ الذى لم يَزَل للعساكرِ المنصورة نِعْمَ الصَّاحِب، والمُورِدُ علىٰ سَمْعِهم من الأحكام الشَّرعيةِ ما يَقْتَدى به الحاضِرُ والغائب؛ والقائمُ بأعْباءِ العساكرِ المنصوره، والحافِظُ لنِظامِ المُلْكِ الشريف علىٰ أحْسنِ صُورَه.

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ وليَحُلَّ فى قضاء العساكر المنصورة بطَلْعَتِه السَّنِيَّه، وليفصِلْ بينهم فى الأسْـفار كلَّ قَضِيَّه، ولْيعرِّفْهم طُرُقَ القواعد الشَّرْعِيَّه؛ وليحترِز فى كلِّ ما يَأْتِيه ويَذَرُه، ويقصدُه ويَحْذَره، ويُورِده ويُصْدِره.

والوصايا كثيرةٌ ومنه تُسْـتفاد، وإليه يَرجِعُ أمرُها ويُعاد، ولكن لا بُدَّ للقَـلَم من المَرَحِ فى مَيْدان التَّذْكار، والتَّنْبيه علىٰ مِنهـاج التَّقْوىٰ التى هى أجْمَلُ شِـعار؛ واللهُ تعـالىٰ يَمنحُه من إحساننا جزيلَ العَطاءِ والإيثار، ويُسْمِعُه من أنْباء كَرَمِنا كلَّ آوِنَةٍ أطْيبَ الأخْبار؛ بمَنِّه وكَرَمه!.

تَوْقيعٌ بنَظَر جامع يلبغا اليحياوىّ، كُتب به للامير جمـال الدين «يوسف شاه» العُمَرىّ الظاهرىّ بـ«ـالجناب الكريم» وهو:

أمَّا بعدَ حمدِ اللهِ الذى أظْهر جمالَ الأتْقياءِ فى كلِّ مَشْهَدٍ وجامع، وقدَّمه بما أوْلاه علىٰ كلِّ ساجدٍ وراكِع، وخَصَّه من فَضْله بمـا قَصُرتْ عنه الآمالُ والمَطَامع؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّين الأكْمَلَين علىٰ سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه مُولِى الخَيرِ الواسِع، والإحسانِ المُتَتَابِـع، ومَن أحْيا جَوْدُ جُودِه النُّفوسَ وسَرَّ القُلوبَ وأطرَب ذِكْرُ عِظَاتِه المَسامِع؛ وعلىٰ آله وصَحْبِه النُّجومِ الطَّوالِـع، والذين أودَعهم العِلْمَ الذى آتاه لإقامَةِ دِينِـه من لا تَخِيبُ لَدَيْه الوَدائِـع؛ والتَّشْريف و[الإكرام]، والتَّبجيـل والإعظام ــ فإنَّ أوْلىٰ من رَعَيْنا له حقَّ الخِـدَم، ووُقُوفَه فى الطاعةِ الشريفةِ علىٰ أثْبتِ قَدَم؛ مَنْ قام بمـا لم يَقُمْ به غَيرُه، وحَسُنَتْ سِيرَتُه وسَيْرُه.

وكانَ فلانٌ أدام اللهُ تعالىٰ نِعْمَته، وحَرَسَ من الغِيَرِ مُهْجَتَه؛ ممَّن جَمَّل المَمـالكَ ودَبَّرها، وضبَط أمْوالَ الأوقاف وحَرَّرها؛ وآرْتفع على الرءُوس، وحصَّـلَ أموالَ

الأوقاف التى فَطَر تحصيلُها أكبادَ الخَوَنَة وسَرَّ من مُسْتَحِقِّيها النُّفوس ـ تعيَّن أن نَعْرِفَ له مِقْدارَه الذى لا يَخْفىٰ، ونُوَفِّيه بعْضَ حَقِّه فإنَّه الذى بالإحسان قد أوْفىٰ .

فلذلك رُسم بالأمرِ الشريف ـ لا زال يُقْبِلُ علىٰ فَضْل وَلِيِّه ، ويضاعِفُ له البِرَّ المُسْتَمْطَرَ من غَيْثِ جُودِه ووَلِيِّه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى كذا ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ومُسْتَقِرِّ قاعدته ، بالمعلومِ الشاهِدِ به دِيوانُ الوَقْفِ المَبْرور إلىٰ آخر وَقْت .

فلْيباشِرْ هذه الأوقاف ، ولْيَسْلُكْ فيها طُرُقَ العَدْل والإنْصاف ، وليتَّبِعْ شَرَطَ وَاقِفِها ـ رحمه الله تعالىٰ ـ المُجْمَعَ علىٰ صِحَّتِه من غير خِلاف ؛ وليُحْيِ ما تَشَعَّثَ وتَخَرَّبَ فى الجامع المُشار إليه وأوْقافِه بعَيْنِ بَصيرَته ، ولْيَقُمْ بالمعروف من مَعْرِفَتِه ؛ وهو أعزّه اللهُ تَعالىٰ أوْلىٰ مَن باشَرَه ، وعَمَر داثِرَه ، وأحْرىٰ مَن تَحَرَّىٰ مَبارَّه ومَآثِرَه ؛ ومَيَّز أوْقافَه ، وتَدارَك بتَلافيه تِلافَه . وهو غَنِيٌّ عن شَرْح الوصايا فإنّها من آدابِه تُعرَف ، ومن بَحْرِ أدَواتِه تُغْرَف ؛ ومِلاكُها تقوى الله تعالىٰ الرَّءوف ، فلْيكُنْ علىٰ مُسْتَحِقِّ هذا الوقف عَطُوف ؛ واللهُ تعالىٰ يُجزِلُ له أجْرا ، ويجعلُ له ما يفعلُه من الخير ذُخْرا .

تَوْقيعٌ بنظر تُربة أرغون شاه ، كُتِب به « لقجا السيفى بوطا » بـ« ـالجناب العالى » وهـو :

أمّا بعد حَمْدِ اللهِ الذى بَلَّغَ الأوْلياءَ من مَبرّاته الأمَلَ والإرادَه ، وألْقىٰ مَقاليدَ الأُمورِ إلىٰ مَن ٱسْتَحَقَّ بحُسْنِ مُباشرته الزِّيادَه ، والصَّلاةِ والسلامِ الأتَمَّينِ الأكْمَلَين علىٰ سيدِنا محمدٍ عبدِه ورسولِه صاحبِ لِواءِ الحَمْدِ والنَّصْر ، ومَن جاءتْ آياتُ تَفْضيله كفَلَقِ الصُّبْحِ وجَمُلَتْ مَحاسِنُه كلَّ عَصْر ، وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين نَصَرُوه فنَصَرهم

الله ، وحجبوه بأنفسهم عن البَأس ولم يَحْجُبُوه عن النّاس خَفْض جَناحِه لمَوْلاه ؛ والتَّشريف والتَّكْريم ، والتَّبجيل والتَّعظيم .

ولمَّا كان فلانٌ ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمَته ـ هو المعروفَ بالأوْصاف الجميلَه ، والمَنْعُوتَ بالنُّعوتِ التى أتَتْ فى وَصْفِه بكلِّ فَضِيلَه .

فلذلك رُسم بالأمرِ العالى ـ لازال إحْسانُه عَمِيما ، وفَضْلُه لذَوِى الاْستِحقاق أبدًا مُقِيما ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ فى كذا ، علىٰ عادة من تَقدَّمه فى ذلك ومُسْتَقرِ قاعِدَته ، بالمعلوم الذى يشهدُ به دِيوانُ الوَقْفِ المبرور إلىٰ آخِرِ وَقْتٍ .

فليباشِرْ ذلك بهِمَّتِه العَلِيَّه ، ونَفْسِه الأبيَّه ؛ والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التَّقوىٰ : فليلازِمْ عليها فإنَّها تحفَظُه ، وبالسِّيادة تَلْحَظُه ؛ واللهُ تعالىٰ يكمِّلُ تَوْفيقَه ، ويُسهِّل إلىٰ نُجْحِ المَقاصِد طَرِيقَه ؛ بمحمَّدٍ وآله ! .

تَوْقيعٌ بتَدْريس الجامع الأُمَوِىّ عَوْدًا إليه ، من إنشاء جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للقاضى «فخر الدين المصرىّ» وهو :

أمَّا بعدَ حَمْدِ اللهِ مُعيدِ الحقِّ إلىٰ نِصابِه ، والغَيْثِ إلىٰ مَصابِّه ، واللَّيْثِ ـ وإن غَاب ـ إلىٰ مُسْتَقرِّ غَابِه ، وشَرَفِ المكانِ إلىٰ مَن هُو أحقُّ وأوْلىٰ بِه ، وبَحْرِ العلومِ إلىٰ دَوَائرِ مَحافِلِه فى الدُّروس وإلىٰ قَوِىِّ أسْبابِه ؛ والصَّلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى هاجر فرَجَع بغَنِيمَتِه وإيابِه ، وطَلَع من ثَنِيَّات الوَداعِ طُلُوعَ البَدْرِ المُشْرِق فى أثْناءِ سَحابِه ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الشائمين سَبَلَ صَوْبِه السَّالكين سَبِيلَ صَوابِه ، ما قُطِفَ من غُصُون أقْلامِ العلماء ثَمَرُ "البيان والتَّبيين" مُتَشابِهًا وغيرَ مُتَشابِه ـ

فإنَّ شَرفَ الكواكِبِ فى سيرِها ورُجُوعِها ، ونُموِّ تَشَعُّلِها ما بين فَتْرةِ مَغيبِها وطُلُوعِها؛ لا سيَّما العلماءُ الذين يُهْتَدىٰ بأنوارِهم، ويُقْتَدىٰ بآثارِهم ، ومَصابيحُ الحقِّ التى تُقْدَحُ ولا يُقْدَحُ فى أزْنِدة أفْكارِهم .

وكان من قُصِدَ بهذا التَّلْوِيح ذِكْرُه، وعُرِفَ من هذا المَعْنىٰ المَفْهومِ فَخْرُه؛ قد حُمِد بمجالس التَّصدير بالجامع الأُمَوىّ ماذكره من سلفِ أعْيانه، وقام بوُجُودِ الدَّليل علىٰ وُجُود مَاضِى بُرْهانه ، وجَادل لِسانُه وقَلَمُ يَدِه عن الشَّريعة : وغَيْرُه من العِىِّ لا من يَدِه ولا من لِسانِه؛ ثم هَجَر مكانَه هِجْرَةً على العُذْرِ محْمُولَه ، وهاجَر إلىٰ حَرَمِ الله تعالىٰ وحَرَم رَسُولِه صلَّى الله عليه وسلم هِجْرَةً مَقْبُولَه؛ ورَامَ بعضُ الصِّبيانِ التقدُّمَ إلىٰ رتبة الشيخ فقالت : إليك عنِّى، فأنا من مَخْطُوبات الأكابر فما أنا منك ولا أنت منِّى؛ ثم حضر إلىٰ محلِّه الكريم من غاب ، ورجع إلىٰ مُسْتقرّه الأمثل به : وما كلُّ حَمْزَةَ أسَدُ اللهِ فلْيسكُنْ فى ذلك الغَاب .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زالت صلاتُ مَراسِمه جميلة العوائد، جليلةَ الفوائد، وأقلامُها أغصانُها ممدودٌ بها الرِّزقُ فهى على الوصْفَين موائد ـ أن يستمرَّ علىٰ عادته فى كذا وكذا، وإبطالُ ما كُتِب به لغيره : عملًا باختبار الحاضر، وآختيار نَظَرِ الناظر؛ وعِلْمًا بأنَّ هذه المرتبةَ لمن له إتْقانُ عقلها ونقلها ، وتلاوةٌ فى موضع الوقف : ﴿ إنَّ اللهَ يَأمُرُكُمْ أنْ تُؤَدُّوا الأماناتِ إلَىٰ أهْلِهَا ﴾ .

فقولا للممنوع : ما كلُّ عِزٍّ بدائم ، ولا كلُّ ذى طَلَبٍ بكمال الوُجوبِ قائم؛ ومن أين لهذه الرتبة مثلُ هذا الكُفْءِ الذى آشتهر نخره، وزهَتْ به على الأمْصار شامه ومصره ؟؛ وهذا الإمام، وكلُّ مُضاهٍ مَأْمُوم ، وهذا المِقْدام، تحت عَلَمِ العِلْمِ وكلُّ مُباه مهزوم؛ وهذا الثَّابِتُ وكلُّ نِدٍّ مُشَرَّد ، وهذا الكامل وكل ضدّ مُبرَّد .

فليستمرّ علىٰ عادته الجميلة مُجمِّلا لزمانه ومكانه ، مُكَمِّلا فى وشائع العلم ما يَشِى «ٱبن الصَّباغ » من ألْوانه ، مالِكًا لما حَرَّره «الشَّافِعِى »، جازما بفعل ما نَصبه «الرَّافِعِىّ» ، سامِيًا عن وفاء الوَاصِف : فسواء فى ذكره إسْرافُ بَيانٍ أو إسْرافُ عِىّ ؛ شاملًا للطلبة المعتادين بعَطْفه ، مُقابِلًا للمُسْتَفْتِينَ بلطائفه ولُطْفه ؛ باحثًا عن دُرَر الجِدال بفكره إذا بحثَ قلمُ بعض المجادلين عن حَتْفِه بظِلْفِه ، داعِيًا لهذا الملك الصالحىّ فإنَّ دُعاء العالِم الصالح سُورٌ من بين يديه ومن خَلْفِه ؛ والله تعالىٰ يُجرِيه علىٰ خير العوائد ، و يمدّه باقبال النعم الزوائد ؛ بمنّه وكَرَمه ! .

توقيعٌ بتَدْرِيس المدرسة الدماغية بدِمَشْق ، من إنشاءِ ٱبن نُباتة ، كُتب به للقاضى جمال الدين «أبى الطَّيب ، الحسن بن على» الشافعىّ ، وهو :

أمَّا بعدَ حمد الله رافعِ مُنادَى العلم بمُفْرَده ، و بَيْتِ التُّقىٰ بقافية سُودُده ، ونظم المفاخر بمن إذا قيل : «أبو الطَّيب» أصْغى الحَفْلُ لمنْشِده ، ومشهِد الفَضْل بإمامه : وحَسْبُك من يكون «الحسن بن على» إمامَ مَشْهدِه ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه سيدِ الخلقِ وسَنَدِه ، وعلىٰ آله وصَحْبه السائرين فى العِلْم والحِلْم علىٰ جَدَدِه ، ما سَحَب نَسِيمُ الرَّوْض بُرْدَه وٱفترّ لَعَسُ السحابِ عن ثَغْرِ بَرَدِه ـ فإنَّ للعلم أبناءً ينْشَئُون فى ظِلاله ، و يسكُنون فى حِلاله ، و يفرّقون للخلق بين حرام المُشْتَبِه وحَلاله ، و يُجَمِّلون وَجْهَ الزمانِ : فلا عدِم الزمانُ منهم جمال وَجْهه ولا وَجْه جَماله ؛ ترتَشِفُ شِفَاهُ المدارس من كَلِمِهم كلَّ عَذْبِ المَسَاغ ، وتُشافِهُ منهم كلَّ ذى فَضْلٍ ما هو عند البلاغ بَلاغ ، وتُشاهد ما خُصُّوا به من الشَّرف والرَّآسة فلا عَجَبَ أنَّ مَحلَّهم منهما محلُّ الدماغ ! .

وكانت المدرسة الشافعية الدماغية بدمشق المحروسة رأسًا فى مدارس العلم، وهامةً فى أعضاء منازل ذوى الحكم والحلم؛ لا تسمو همّتها إلا بكلّ سامى العمامه، هامى الفضل كالغمامه، ساجع اللفظ إلّا أنه أبهى وأزهى من طوق الحمامه، كائد للملحد مكرم للطالب ولا كيد لابن الخطيب ولا كرامه ـ واسطة بين العادلية والأشرفيّة تليق بمن يكون عقد كلامه المثمن، ونظامه الأمكن، وبيانه المنشد "أجارة بيتينا" يعنى بيت النسب وبيت المسكن .

فلذلك رسم بالأمر الشريف ـ لازال يجدّد لوجوه العلم جمالا، ولوجوب الحمد نوالا، ولوجود الفضل كرما ما قال قط ولا نوى: لا ـ أن يفوّض إلى فلان ـ أيّد الله مجده، وحرس للسلمين أباه وأعلى بالسعادة جدّه ـ تدريس المدرسة الدّماغية المذكورة: لأنّه جمال العلم المعقودة على خطبته الآمال، المعدوقة بمقدّمات فضله وفصله نتائج الأقوال الصالحة والأعمال؛ المحبوبة إلى الله والخلق سيماه وشيمه ولا نكر: فإنّ الله جميل يحبّ الجمال؛ ولأنّه العالم الذى إذا قال لم يترك مقالًا لقائل، وإذا شرح على قياسه أتى بما لم تستطعه الأوائل؛ وإذا جارى العلماء كاد «إمام الحرمين» يقول: أنا المصلّى وأنت السابق، «والغزالىّ»: من لى أن أنسج على منوال هذا اللفظ الرّائق؟؛ «وابن دقيق العيد»: ليت لى من هذه الدّقائق بلغه؟، و«ابن الصّبّاغ»: هذا الذى صبغه الله من المهد عالما! ومن أحسن من الله صبغه؟؛ ولأنه العالم الذى أحيا ذكر «ابن نقطة» بعد مادارت عليه الدوائر، وأغنى وحده دمشق عمن أتى فى النسب «بعساكر»، ولأنّه فى البيان ذو الانتقاد والانتقاء، والعربىّ الذى إن كان لرقاب الفضلاء «ابن مالك» فإن قرينه «أبو البقاء»؛ والكامل حسبًا، ومثل جيّده المنقود لا يبهرج، والواصل نسبًا، ومثل فرعه يعد أصله: «ولله أوس آخرون وخزرج» .

فليباشر هذا التَّدريس بعزائِمَ سَريَّه، ومَباحِثَ تُستنار منها مَعارِفُ القَوْل التَّبْريَّه، وطَرائِفَ لا تُحْبَس بِدمَشْق علىٰ نقداتهـا المِصْريه؛ ولْيَنصُرْ مذهبَ الإمام الشافعيّ رضى الله عنه فإنَّ قومَه الأنصار، وليخْفِضْ جَناحَه للطَّلَبَة فطالمـا خَفَضَت الملائكةُ أجْنِحَتها ليَصيرَ فلا عَجَبَ أنْ صار! ؛ وليُفِدْ وَا فِدِيهِ وهو قاعدٌ أضْعاف ما أفادَهم صاحِبُ المكان وهو وَاقِف، وتَقْوىٰ الله عزَّ وجلَّ أوْلىٰ ما طالعه فى سِرِّه وجَهْرِه من "عوارف المعارف" والله تعـالىٰ يمدُّه بإسـعاده ولُطْفه، ويُحُوطه بمعَقِّباتٍ من بين يديه ومِن خَلْفِه؛ ويُضِيءُ بارقَ كَلِمِـه الصَّيِّب، ويُطْرِب أسماعَ الطَّلَبَة بالطَّيِّب من معـانى «أبِى الطَّيِّب» .

توقيعٌ بتَـدْريس المدرسة الرُّكْنية الحَنَفِيَّـة بظاهِرِ دِمَشْق، كُتب به للقـاضى بدر الدين «محمد بن أبِى المنصور» الحَنفىِّ بـ«المقرِّ العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمـدِ اللهِ الذى أطْلع بَدْر الدِّينِ مُشْرِقًا فى منازل السُّعود، وحَرَس سمـاءَ مَجْده فلا يُطيقُ مَنْ رام جَنابَها الاَستطراقَ إليها ولا الصُّعود؛ وجعل رُكْنَه الشـديد فى أيَّامنا الزاهـرةِ المَشـيد وظِلَّه الممدود؛ والصلاةِ والسـلامِ الأتَمَّيْنِ الأكْمَلين علىٰ سـيِدِنا محمدٍ ذى الحَوْضِ المَوْرُود، والكَرَم والجُود؛ وعلىٰ آله وصَحْبه نجومِ الهُـدَىٰ وأعْيان الوُجود، ما أوْرق عُود، وحُمِدتْ عُقْبَى الصُّـدورِ والوُرُود؛ صلاةً دائمـةً إلى اليوم الموعود ـ فإنَّ أعلامَ الهُدَىٰ لم تزلْ مَنْشورةً بمعالِمِ العُلَماء، وأقْطارَ الأرض ما بَرِحتْ مُشْرِقَةً بمن تَسْتغفرُ لهم الحِيتانُ فى البَحْرِ والملائكةُ فى السماء، وطُولُ الأرض إلىٰ فضائلهم أشدَّ اَضطرارًا وأحوجَ إلى القرب إليهم والاَنتماء؛ وكان فلانٌ ـ أدام الله تعالىٰ تأْييدَه ـ من بَيْتٍ شهِدت الأيامُ مَفاخِرَه، وحَمِدَ الأنامُ أوائِلَه وأواخِرَه،

وأضحتْ عيونُ الزمان إلى مآثره ناظِره، وغُصونُ الفُنون بفرائِده ناضِره، وأوصافُه الجليلةُ للأبصار والبَصائِر باهِره، وأصْنافُ الفَضائِل من إمْلائِه واردةٌ صادِره.

فلذلك رُسم بالأمر العالى - زاده اللهُ تعالى على العلماء إقْبالا، وضاعف إحْسانَه إليهم ووَالى - أنْ يستمرَّ المشارُ إليه فيما هو مستمِرٌّ فيه: من تَدْريس المدرسة الرُّكْنية الحَنفيَّة، بظاهر دِمَشْق المحروسةِ، حمْلًا على ما بيده من الوِلاية الشَّرعية والتوقيع الشريف: رِعايةً لجانِبِه وتَوْقِيرا، وإجابة لقَصْده الجميل وتَوْفِيرا، وآستمراراً بالأحَقِّ وتَقْرِيرا.

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً أُلِفتْ منه، وآشتهر وَصْفُها الزَّكىُّ عنه؛ ولْيوضِّحْ للطَّلَبة سُبُلَ الهدايه، ولْيوَصِّلْهم من مقاصِدِهم الجميلَةِ إلى الغايه؛ ولْيَسْلُكْ طريقةَ والِده، فإنَّها الطريقةُ المُثْلى، وليتحلَّ من جواهر فَرائِده، فإنَّها أعْلى قِيمَةً وأغْلى، ولْيُمْلِ على الأسماعِ فضائِلَه التى لا تُمَلُّ حين تُمْلى.

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْرِيس المدرسة الخاتونية البَرَّانية الحَنَفيَّة بدمَشْق، كُتب بها للشيخ صدر الدين «علىّ بن الآدمىّ» الحَنَفىِّ بـ«ـالجناب الكريم». وكأنَّه فى الأصل لمن لَقَبُه «بدر الدين» لأنَّ البَدْرَ هو المناسب لهذا الآفتتاح؛ فنقله بعضُ جَهَلةِ الكُتَّاب إلى «صدر الدين» كما تراه. وهذه نسخته:

أمَّا بعدَ حمد الله الذى زان أهْلَ العِلْم الشريف بصَدْرٍ أخْفى نُورُه الشُّمُوس، وأعْلاه - لِمَا حازه من الشَّرف الأعْلى - على الرُّءُوس، وجعل كلَّ قَلْبٍ يأْوِى إلى تِبْيان بَيانِه يوم الدُّروس؛ والصلاةِ والسلامِ الأتَمَّيْنِ الأكْمَلَين على سيدنا محمد الذى أذهب اللهُ ببركته عن هذه الأمَّة كلَّ مَكْرُوبُوس، وخصَّهم فى الدُّنيا بطِيبِ

الحياة وفى الآخِرَة بسُرُور النُّفوس، وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً مُثْمِرَةَ الغُروس ــ فإنَّ أوْلىٰ من تَنْصرِفُ إليه الهِمَم، من تَبْدُو دلائِلُ علْمه كنُورٍ لا نارٍ علىٰ عَلَم؛ وتَسِيرُ فضائِلُه فى الآفاقِ سَيْرَ الشُّموسِ والأقْمار، وتَبرُزُ إذا يُبدِيها صَدْرُه من حُجُبٍ وأسْتار.

وكان فلانٌ ــ ضاعف الله تعالىٰ نِعْمته، وحَرس من الغِيَرِ مُهْجَتَه ــ هو الذى أُشِيرَ إلىٰ ما حواه صَدْرُه الكريم من الفضائل، وآشتهر فى دُرُوسِه بإقامة الحُجَج وإيضاحِ الدَّلائل؛ وبَرَع فى العـلوم الدِّينيه، وفاق أبناءَ عَصْرِه فى الصِّناعة الأدَبيَّه؛ وأنْفق كَنْزَه على الطُّلَّابِ، فأصْبح "عمدةَ المحدّثين" وأمْسىٰ "مُختار الأصْحاب"، «أبو يَعْلىٰ» ينزلُ ببابه، و«آبنُ عقيل» يرتَدُّ علىٰ أعقابِه؛ و«آبنُ الحاجِب» يرفَعُه علىٰ عَيْنه، و«الرَّازِىُّ» يدّخر كَسْـبَه لوفاء دَيْنِـه؛ و«آبن بَطَّة» يَطِـيرُ من مواقع سِهامِه، و«مُقاتِلٌ» مجروحٌ بحَـدِّ كلامه؛ و«آبن قُدَامَةَ» متأخِّرٌ عن مجاراته، و«الأثْرمُ» يَخْرَس عند سماع عباراته.

فلذلك رُسم بالأمر العـالى ــ لازال يجمعُ لمن بَرَعَ فى العـلوم من ألْوانِ المناصب المُخْتلفه، ويرفع قَدْر القَوْمِ الذين قُلوبُهم على التَّقْوىٰ مُؤْتَلِفه ــ أنْ يستمرَّ الجنابُ الكريم المشارُ إليه بالمدرسة الخاتونية البرّانية الحَنفيَّه، حملًا علىٰ مابيده من النُّزول الشَّرعىّ والولاية الشرعيه: لأنَّه الخُلاصةُ التى صَفَتْ من الأقذار، والعُدَّة ليوم الجِدال إذا وَلَّىٰ غيرُه الأدْبار؛ والمختارُ الذى جَنَحتِ المنـاصبُ السَّـنِيَّة إلى آختياره دون من سِواه، رَغْبةً فيما آدّخره من الفضائل وحَوَاه؛ "بِدَايَتُه" "نهاية الطلاب"، وعلومه "تُحفةُ الأصحاب"؛ إنْ حدَّثَ «فابْن معينٍ» بصحَّةِ نَقْله يَحْيا، أو فسَّر «فمُجاهِدٌ» عن مجاراته يَعْيا؛ و«الزَّمَخْشرىُّ» يبْعُدُ عن الجِوارِ، و«البَغَوىُّ» يبْتَغى الوقوف على الآثار؛ و«سيبويه» عند ما يَنْحُو يقصد "التسهيل" من لفظه المُغْرب المعرِب، و«آبن عُصْفورٍ» يكاد يَطِـيرُ طَرَبًا لمـا يبْـديه من "المُرْقِص المُطْرِب"؛

و « أبو يوسف » أصبح بصُحْبتِه مَنْصورا ، و « محمـد بن الحَسَن » أضحىٰ برفعته مَسْرُورا ؛ هو فى القَدْر « علىّ » وفى الطريقة « محمود » وفى العـلوم « محمد » ، وفى النطق والحركة « سـعيد » وفى النظر « أسعد » ؛ وفى النَّضارة « النعمان » و « طاوس » يتحلَّىٰ جزءا من كمال خِصالِه ، و « الحَسَنُ » يقْتَدِى بحسن فعاله ؛ نَشَأ فى العِفَّة والصِّيانَه ، وكَفَلَه التوفيقُ وزانَتْـه الأمانَه ؛ فهو بَحْر العلوم ، ومُسْتَخْلِصُ دُرِّها المَكْنونِ ومُظْهِرُ سِرِّهـا المَكْتوم ؛ لو رآه «الإمام» لقـاس عُلَاه بالشَّمس المُنيره ، ولو عاصر الأصحابَ لغَدَتْ أعينهم به قَرِيرَه .

فلْيباشِرْ هاتَيْنِ الوَظيفَتَيْنِ اللَّتين ٱكْتَستَا به بعد نُورِ الشَّمسِ جَلالا ، ولْيُلقِ عُلومَه التى يقولُ القائلُ عند سَماعها : هكذا هكذا و إلَّا فلا لا ؛ ولْيُعلِّمِ الطَّلَبة إذا أدْهشتهم كثرةُ عُلومه أنَّ فوق كلِّ ذِى عِلْمٍ عليم ، وليتكَرَّم عليهم بكَثْرةِ الإفادة فإنَّ عَلياًّ هو الكريم ؛ وليَفُقْ فى مباشرة النَّظر كلَّ مَثيلٍ ونظير ، ولا يُنَبِّئُك مِثلُ خَبير ؛ وليَجتهِدْ علىٰ عِمارَةِ معاهدها بذكر الله تعالىٰ ، وأداءِ الوظائف بحُسْنِ مُلاحظَتِه : ليزداد عند الخليقَة جَلالا ؛ وفيه ـ بحمد الله ـ ما يُغْنِى عن تأْكيد الوصايا ، ويُعينُ على السَّـداد وفَصْلِ القضايا ؛ وكيف لا ؟ وهو الخَبِيرُ بمـا يَأْتِى ويَذَر ، والصَّدْرُ الذى لا يَعْـدُو الصَّوابَ فى وِرْدٍ ولاصَدَر ؛ واللهُ تعالىٰ يَسُرُّ القلوبَ بعُلُوِّ مَراتِبِه ، ويُقِرُّ العُيونَ ببُلُوغ مَقاصِدِه ومآربه ؛ بمنِّه وكرمه ! .

توقيعٌ بخَطابة جامِع جراح ، من إنشاءِ ٱبن نُبـاتة ، كُتب به لـ«شرف الدين بن عمرون» بـ«ـالمجلس العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى قَسَم للمنابر شَرَفًا يتجدَّد ، وعَطْفًا من الفُصَحاءِ يتأكَّد ، وعَلَمًا مَرفوعًا لا يتعدَّىٰ وعَلَمًـا مَنصوبًا لا يَتعدَّد ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سـيد الثَّقلَين

وصاحبِ القِبْلَتين محمد ، وعلىٰ آله وصَحْبِه القانِتِين القائمين الرُّكَّع السُّجَّد، ما عَظُم خَطِيبٌ ومُجِّد ، وبَدا فى حِلْيةِ سيادةٍ وأُهْبةِ خَطابةٍ وهو على الحالين مُسَوَّد - فإنَّ لصَهَواتِ المنابر فُرْسانا ، ولصُدُور المحاريب أعْيانا ، ولعُيونِ المشاهد أنَاسِيَّ يُراعِى منها الاستحقاقُ لكلِّ عَيْنٍ إنْسانا .

ولَمّا كان جامعُ جراح المعمورُ بذِكْرِ الله تعالىٰ مِمّا أُسِّسَ على التَّقْوىٰ ، ووُسِم بأهلِ الزُّهْد سِمَةً إذا ضَعُفَتْ السِّماتُ تَقْوىٰ ؛ مَجْمَع الصُّلَحاءِ من كلِّ ناحِيَه، ومُنْتَجَع الفُقَراء : فنِعْمَ الجامعُ لهم ونِعْمتِ الزَّاوِيه ! ؛ ومَفْزَع العُظَماءِ عند استدفاع حَرْبٍ وكَرْب، ومَطْلَعٌ لنُور الهُداة الذى أغْرب فأطلع نُجومَهم من الغَرْب - تعيَّن أنْ نختارَ له الخطباءَ والأئمَّه، وتَنْتخِبَ لمنْصِبِه من أفاضل الأُمَّه، وتتناسَبَ حُضَّار مِنْبَرِه بصاحب علومهم وأعْلامهم وإمامهم، المسرورين به يوم يأْتِى كلُّ أُناسٍ بإمَامِهم .

فرُسِم بالأمر - لا زالت أعوادُ المنابِرِ بذِكْرِه أرِجَه ، وأعلامُها كالألْسِنة بحَمْده لَهِجَه - أن يفوّض لفلان ... ... عِلْمًا باستحقاق شَرَفِه لهذه الرُّتبه ، وصُعودِ هذه الذِّرْوة والهَضْبَه، ولأنَّه الأوْلىٰ بدرجات الرُّتَب النَّفائس، والأجْدَرُ بجَنَىٰ فروعها المَوائِس ؛ والإمامُ على الحالَيْن إذا قامت صُفوف المساجِد وإذا قعدت صُفُوف المَدارِس، والعَرِبيُّ الذى إذا رَقِىَ ذِرْوة مِنْبرٍ أُطْلِقتْ عليه لفظةُ فارِس؛ والوَرِعُ الذى آثَر فى مناصبه الباقِيَةَ على الفانيَه ، ومَنابِرَ الحِكَم المُضِيئة علىٰ مراتب الحُكْم الماضيه ؛ وعلىٰ مجالِس الدَّعاوَىٰ مجالِسَ الدَّعوات ، وعلىٰ مَقامِ الصِّلاتِ مقام الصلوات ؛ وعلى القَضاءِ الفَرْض، وعلَى الرَّحَبةِ (١) ولو كَمَفْحِص القَطاة من الأرْض؛ وعلىٰ عَرَض الدُّنيا القليلِ جَوْهَرَ الفَضْلِ الكثير، وعلىٰ "كِتَابِ أدب القاضى" "كِتَابَ الجامع الصغير" .

(١) لعله وعلى الرحبة المحل الأرقى ولو الخ

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركة : خطيبا تَدْرَأُ مواعظُه الخُطُوب ، وَاعِظًا من قَلْبٍ تَقِيٍّ تَصِلُ هدايا تُقَاه إلى القلوب ؛ فَصِيحًا تكاد المنابِرُ تهتَزُّ طَرَباً ببيانه ، نَجِيحًا تكاد أَجْنِحَةُ أعلامها تَطِيرُ فَرَحًا بمكانه ؛ شاملًا بنفحات فضله النَّواسِم ، كامِلًا ! لو تقدّم زَمانُه لم يُقَلْ : « فلا الكَرَجُ الدُّنْيا ولا النَّـاسُ قَاسِم » ؛ والله تعـالىٰ يسدِّدُ أقوالَه وأفعالَه ، ويرفَعُ على المنابر والرُّتَب والمراتب مقامَه ومقَالَه ، ويُمَتِّعه بهـذه الرُّتبة التى أشبهتْ معنًى فى الخلافة : «فلم يكن يصلُحُ إلَّا لهـا ولم تكن تصلح إلا له» .

المرتبـــــــــة الثـالثة

(مِنْ تواقيع أرباب الوظائف الدينية بحاضرة دِمَشْقَ ـ ما يفتتح بـ«ـرسم بالأمر» وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخة توقيع بالتَّدْريس بالجامع الأُمَوِيّ والإفتاء به ، من إنشاء الشيخ جمال الدين آبن نُباتة ، كتب بها للشيخ «فَخْر الدين المصرىّ» آستمراراً ، بـ«ـالمجلس العالى» وهى :

رُسِم بالأمر الشَّريف ـ لا زال لدَوْلَتِه الفَخْر على الإطلاق ، والمَنُّ على الأعناق ، والكَرَم لطالِبِي الإرْفاد والإرْفاق ، والتَّكْرِيمُ والتَّقْدِيمُ لذَوِى التَّأهيل والآسْـتِحْقاق ؛ ولا بَرِحتِ النِّعمُ الثابتةُ للسَّاجِعِينَ بمَدْحه المُطْرِب قائِمـةً مقام الأطْواق ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ ... ... نفع اللهُ ببقائه ، ورَفَع عُيونَ الأنْجُمِ لدرجات آرْتِقائِه ؛ : لفوائده التى شَمِلَتِ الوَرَىٰ ، وعَلَت الذُّرا ، وحَمِدَت الأفهامُ عند صَباحِها السُّرىٰ ، وقَعد بها مُسْبِلُ ذَيْل الحَيـاءِ وسار بذِكْرِه من لا يَسِيرُ مُشَمِّرا ؛ ومَنْزِلَتِـه التى نَصَبت للهُدىٰ عَلَما ، وألفاظه التى أعْربت عن بَدائِـعَ بَهرتْ فما فَتح بمِثْلِها العلماءُ فَمـا ؛ وآسْتِنباطه

الذى يقول للأول : قال وقلتم ، وأقام وزُلْتم ؛ وآحتياطه الذى يقول للسائلين : آهبطوا من آنتساب حَلْقته مِصْرًا فإنَّ لكم ما سَألْتُمْ ؛ وأنّه الفاضـلُ الذى ماآستنار بعلمه فَتًى فتاه ، والنَّافِعُ الذى ماآستَطَبَّ بكلماتِه سَقِيمُ ذِهْنٍ فلمَّـا تحرَّكَتْ شَفَتاه شَفَتاه ؛ كَمْ جلس للأشغال فتىً أنْفُسَ المـارَّةِ عن أشْغالها ! ، ونصر العِلْمَ فى حَلْقَته المجنَّدَة فكان من أُمَرائها المنصور ولم يكن للأنداد من رجالها ! ؛ كَمْ سُلِّمَ لبيان بَحْثه الحَقِيقىِّ والمجَازى ! ، وكَمْ سُـطِّرَتْ لمُناظَرته المحمدية مع أهْلِ الزَّيْغِ سِيَرٌ ومَغازى ! ، وكَمْ خَلَصَ دِينارُ فَهْمِه المِصْرىِّ على النَّقْدِ فهَيْهاتَ أنْ يُروزَ مِثْلَه «الرَّازى» ! ؛ كَمْ فخرت مِصْرُ بانتسابه ! ، ودِمَشْقُ بسُـقْيا سَحَابه ! ، وكَمْ قال الرازى : لَيْتَ لِى هـذا الفَخْرَ فأرْوِى فى الأوَّلِ بفتىً خطيبِه وفى الآخر بفتىِّ خِطابِه .

فلْيستَمِرَّ ـ نفع اللهُ به ـ علىٰ وظيفته المأْثُوره ، وحَلْقَتِه التى نُصِبتْ علىٰ مَصايِدِ كَلِمـاتِه المَشْهُوره ، ومائِدَةِ عِلْمِـه المَنْصوبَة وذُيُولُ منـافعها فى الآفاق مجْروره ؛ ولْيُواظِبْ على جُلُوسِه بالجامع المُنْشَرِح المشروح ، ودَرْسه المُتَضَمِّنِ فَتْحَ أبوابِ العُلوم وغَيْرِه كما يقال : على المفتوح ؛ سالِكًا من نَهْجِ الإفادةِ مَسالِكَه ، مُكَاثِرًا بأجْنِحَةِ فَتاوِيه الطَّيارَةِ ما يُبْسَطُ لديه من أجْنِحَةِ الملائِكه ؛ مُتصَرِّفًا علىٰ عادة عبادته فى مَواطِنِ العِلْمِ والعَمَل ، مُسْتَنِدًا فى جِلْسَتِه إلىٰ سارِية يقولُ لهـا وَقارُه وحِلْمُـه : يا سارِيةُ الجَبَلَ الجَبَـل ، داعِيًا لهذه الدَّولة الشريفة : فإنَّ دعاء العالِمِ مِثْـلِه طائِرٌ لآفاق القَبُول من أوْكار القبَل ؛ والله تعالىٰ يُمِدّه بعَوْنه ولُطْفه ، ويَحوطُ مجالِسَ علْمِه بالملائكة المقَرَّبين من بين يديه ومن خَلْفه ؛ بمنّه وكَرَمه ! .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بتَدْرِيس مَدرسة القَصَّاعين ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به لفخر الدين «أحمد بن الفصيح» الحَنفىِّ المُقْرى بـ«المجلس السامى» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يقدِّمُ من العلماء أفخرَهم ذِكْرا، وأحمدهم أمْرا، وأفصحَهُم نَسَبَ فضائِلَ وفضائِلَ نَسبٍ يقولُ الاستحقاق : كِلاهُما وتَمْرا ـ أنْ يرتَّب فلانٌ ... ... : لما شُهِر من علومه السَّنيَّه، وفوائده السَّرِيَّه ؛ ووجوه فضائِله الحَسَنه ، وعيونِ كلماتِه المتيقِّظةِ إذا كانت بعضُ العُيونِ مستوْسِنَه ؛ ولأنَّه غريبٌ فى الوَصْف والمكان، وصاحِبُ عِلْمٍ لا يكاد يُوجَد له شَقِيقٌ وإن كان منسوبًا إلى « النُّعمان » ؛ وإمامُ قِراءاتٍ ثَبتَتْ له فيها على «أبِي عَلِيّ» الحُجّه ، وتوضَّحتْ ببيانه المَحجَّه ؛ وتعينَّ محلُّه الأثير ، ورَوَى الطالِبُ من عِلْمِه عن « نافع » ومن ذِهْنِه فى الفوائد عن « ٱبن كَثِير » ؛ وأنَّه فَخْرُ الحنفيَّة القائمُ فى السُّمْعة مقام « رَازِيها » ، المُطِلُّ بِمنْسَرِ قَلَمِه على المعانى إطْلالَ بَازِيها ؛ « الأَكْمُل » الذى له من علوم صَدْرِه خِزانه ، « الصَّدْرُ » الذى كلُّ صَدْرٍ يشهدُ له بعلُوِّ المَكانَه .

فلْيباشِرْ تَدْريس هذه المدرسة المباركة : حقيقًا بجلوس صَدْرِها ، خَلِيقًا بتَجْديد شرفها وذِكْرِها ؛ مُظْهِرًا لخَبايا النُّكَت فى زَواياها ، جَدِيرًا بأنْ يكونَ فى خفايا المسائل ٱبنَ جَلَاها وطَلَّاعَ ثَنَايَاها ؛ يَمْلأُ ببيان بُحُوثه فِكْرَ الوَاعِي وسَمْعَه ، ويُشِيرُ ببنَانِ قَلَمِ فُتْياه ما يتجدَّدُ له من رِفْعَه ، ويَبْسُط إدْلالَ الطَّلَبة حتَّى يأْكُلوا فى القَصَّاعية معه فى القَصْعه ؛ واللهُ تعالىٰ يَسُرُّه من مدارس الحنفيَّة بهذه البدايه ، ويُقرُّه بما يتجدّد من وظائفها التالية : ﴿وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَه﴾ بمنه وكرمه ! .

وهذه نسخةُ توقيع بتَدْريس المدرسة الطَّرْخانية، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتب به للقاضى جمال الدين «يوسف الحَنَفِيّ» بنزولٍ من والده ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ مَواطِنُ العِلْمِ مُكَمَّلةً بذِكْره ، مُبَجَّلةً بأمْرِه ، مُؤَهَّلةً (١) لكلِّ يوسُفِيِّ الجمال يذَكِّر عَزيزُ شامِه عَزيزَ مِصْرِه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى كذا ، بحكم ما قرّره مجلسُ الحكم العزيز الشافعيّ ، ونعم المَالِكُ لمذهب شَافِع ، وآتِّباعاً لِما حرّره الجناب الشريف التَّقوِيّ ذُو النَّسَب الصَّحابيّ الذى كلُّ أمرٍ لأمْرِه تَابِع ، وعَملًا بما رآه رَأْيُهُ الكريمُ الذى إذا كان الجمالُ شافِعًا كانَ هو للجمال شَافِع ؛ وإذا أنْشأ من أبْناء العلماء فُروعًا [لا] تميل عليهم الأيام ميله ، وإذا وقفت فى طريقهم الأنداد قال آقتصار نسبه الأنصاريّ : يأْبَى الله ذاك وبنو قيلة (٢) ؛ وقبولا لنزول هذا الوالِد الذى أعْرقَتْ فى آفاقِ العِلْمِ مَطالِعُه ، وإقبالًا على هذا الوَلَد الذى نَجَحَتْ فى آسْتِحقاق التَّقديم مَطامِعُه ؛ وعِلْمًا بنجابة هـذا الفاضل الذى طاب أصْلًا وفَرْعا ، وقَدَّم نَفْسَه ووالِدَه وَتْرًا وشَفْعا ؛ وهـذا البَادى الشَّبِيبَةِ الذى يَأْمُر بفضائله على الشِّيبِ ويَنْهىٰ ، وهـذا الوَاضِحُ الدِّلالَةِ علىٰ مَفاخِرِ قَوْمِه : فَحَبَّذَا الدَّعْوىٰ وبيِّنَتُها منها ؛ وهذا النَّجِيبُ الذى قَدَّمه أبُوه مُنْجبا ، وذَكاؤُه معجبا ؛ وقَلَمُـه فى الأوْراق مُعْشِبا ، وآشْتِغالُه : إذْ قال يُوسفُ لأبيه يا أبَتِ إنى رَأيتُ من محفوظات كُتُبى ما يقارب أحَدَ عشَرَ كَوْكَبا ؛ وإذا دَرَّس كان لطَلَبَتِه مَلاذا ، وإذا عانَدَه مُعانِدٌ قال برفيع هِمَّته : يُوسُفُ أعْرِضْ عَنْ هٰذَا ؛ وإذا قَرأ كُتُبَ فَصاحَتِه أذْهل ذَوِى الألْباب ، وإذا فتح لتفسير كتاب الله فَاتِحةً ، عُوِّذَ بفضل : ﴿ الٓمٓ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ ﴾ وإذا رَوَى الأحاديثَ أطربتْ حَقِيقَتُه السماع ، وإذا أخذ فى دَقائِق النَّقْلِ والعَقْل عُلِم وعُقِل أنَّ الفِكْرة صَنَاع .

(١) فى القاموس «أهله لذلك رآه له أهلا» .

(٢) هى قيلة بنت كاهل أم الأوس والخزرج .

فليباشرْ هذه المدرسةَ المباركَةَ ببيان عَرَبىٍّ وإن كان نَسَبُها طَرْخانيًّا، وعِلْمٍ رَوْضىٍّ لا يَعْرفُ العلماءُ شقيقَه وإن كان مَذْهبُه نُعمانيًّا ؛ ومَباحِثَ تُذْكِى نارَ قريحَته : فكَمْ طَبَخَ لأنْداده من أصْحاب «القُدُورِىّ» قِدْرا ، ولُزومِ دَرْسٍ يسُرُّ أباه بمذهبه : فإنَّه القاضِى «أبو يُوسف» خَبَرًا فى الحقيقة وخُبْرا، واللهُ تعالىٰ يصُونُ شبيبَتَه المقبلَةَ من طَوارِقِ الحَدَثان، وينَفَعُ بعلوم بيْتِهِ التى من شَكَّ منها فى الحَقِّ فكأنه من الحُدْثان.

وهـذه نسخةُ توقيع بتَصْدِيرٍ بالجامع الأُمَوِىِّ، من إنشاء ٱبن نُبـاتة ، كُتب به لـ«شمس الدين بن الخطيب» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالَتْ نِعَمُه ظاهِرةَ الفَضْـل كالشَّمْس ، طَـاهِرة الوُضُوح من دَنَسِ اللَّبْس، وَافرةَ النُّمُوِّ فيَوْمُها قاصِرٌ عن الغَدِ زائدٌ على الأمْس ـ أنْ يرتَّب فلانٌ فى كذا ويرتَّبَ له كذا على المصالح، فكم للسلمين فى جامع عِلْمِه مَصالِحُ، وفى مَنافِـعِ قَصْده مَناجِحُ ؛ وفى فَوائِده نَصيب، وفى طُرُقِ هُـداه معالِمُ : ولا تُنْكَر "المَعالِمُ" لٱبن الخَطيب ؛ ليتناوَلَ هـذا الرَّاتِبَ المُسـتَقِرَّ من أحَلِّ الجهات وأجَلِّها ، وتكونَ شَمْسُـه المباركةُ خيرَ شَمْسٍ تَجْرِى لمُسْتَقَرٍّ لَهَا ؛ عِوَضًا عما نزل عنه من تَدْرِيس الحَلْقَـة المعدوقَة بصاحب حِمْص وتصـديرًا بالجـامع الأَمَوِىّ يبســط به أنواره الشَّمْسِيَّه ، وينقلُ ٱسمـه إلىٰ إمْرةِ العِلْم بدِمَشْق عوَضًا عن الحلْقَـةِ الحِمْصِيَّه ؛ فلْيعتمد ما رُسم به ، ولا يتحوّلْ عما قَضَى العدلُ والإحسانُ بمُوجَبِه .

الضـــرب الثـانى

(من تواقيع أربابِ الوظائف الدِّينية بالشام ـ
ما يُكتَب به لمن هو بأعمـال دِمَشْق ، وهو علىٰ مرتبتين)

المرتبـــة الأُولىٰ

(ما يُفْتتح بـ « أما بعدَ حمد الله » وفيها وظائف)

توقيعٌ بتَدْرِيسِ المدرسة النُّورِيَّة بِدَمَشْق(١)، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة ، كُتب به للقاضى زين الدين «عمر البلفيانى» بـ«المجلس العالى» وهو :

أمَّا بعـدَ حمدِ الله الذى جعل لوُجوه العِلْمِ زَيْنًا وأىّ زَيْن ، وأقرّ لأما كِنِها عَيْنًا بمَن يكونُ التَّنْبيهُ علىٰ فَضْل مكانته فَرْضَ عَيْن ، ونَشَر أحاديثَها بمَن إذا حدَّث عن يَدِ تَمكُّنِه فى العَقْل والنَّقْل قيل: صدق «ذُو اليدين» ، وأحْيا مذاهِبَها بمَن إذا عُقِدتْ الخَنـاصِرُ علىٰ أمْثاله العُلمـاءِ كان أوّل العِقْد وثَانِىَ الغَيْث وثالِثَ « العُمَرَيْن » ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ عبـدِه ورسولِه الذى أوْضح تَبْيينَ الهُـدىٰ وسَنَّه ، وأرهف شَبَا الحَقِّ وسَـنَّه ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم « عَلِىٌّ » مفتاحُ مَدِينَةِ العِلْم و « عُمَرُ » سراجُ أهـلِ الجَنَّه ، ما جَرتْ أقلامُ العِلْم والجُودِ فى هذه الأيَّام الصَّالِحيَّة طَلْقَة العِنانِ مُطْلَقَة الأعِنَّه ـ فإنَّ أوْلَى العلماءِ بمدارس عِلْمٍ لا خَلَتْ ، ومَجالِسِ فَهْمٍ عَزَّتْ بأهْلِها فلا تَعزَّلَتْ ، ومَشاهِدِ عَقْلٍ ونَقْلٍ لاعُقِلتْ ألسِنَتُها بعد مُسْتَحِقِّيها ولا ٱنْتَقلتْ ـ من أضاءتْ مِشْكاتُها النُّورِيَّة بمصابيحِ كَلِمِه ، وفَتَّحت كِمَامُها النَّوْرِيَّةُ عن زَهراتِ الهُدَىٰ بقَطراتِ قَلَمِه ، وتذكرت بأوْقاتِه الأخيرة عُهُودَ أهْلِها من هُدَاة الاسلام وأوْقات ذِى سَلَمِه .

---

(١) صوابه بحمص ، كما يؤخذ من التوقيع .

ولمّا كان فلانٌ هو المقصودَ بخلاصة هذا المعنىٰ، والممْدودَ إليه نظَرُ هذا الوَصْف الأسْنىٰ؛ والعَالِمَ الذى تشبث بأسباب محاسِنه بلَدُ «الهرمَيْن»، والسابقَ وإن خَلا وقْتُه الطاهِرُ خلف وقت «إمام الحرَمين»؛ كَم اجْتنَىٰ ثمرَ الفوائِدِ من أصْلٍ وفرْع!، وكَمْ بات قَلَمُه من وَرَقِ فَتاوِيه وإسكاتِ مُناوِيه بين وَصْلٍ وقَطْع!؛ كَم صَدَق بَرْقُ بَدِيهَتِه الأفْكارَ حين شَامَتْ!، وكَم نَبَّهتْ عند ليالى المُشْكِلات «عمر»(١) ثم نامَتْ!؛ وكم تهادت نَظَرَه كُتبُ العِلْم حتّىٰ قال "كتاب الأمّ": نِعْم الولَدُ النَّجِيب، وقال "كتاب الروضة": نِعْم أخُو الغائث الصَّائب علىٰ رِياض القَوْل المُصِيب؛ وقال "الشامل" من فضله: هذا لطلبته "نهاية المطْلَب"، وقال "التنبيه" علىٰ محاسِنه: لَيْتَ «النَّابِغةَ» رآه فدَرَىٰ أىُّ الرِّجال «المُهَذَّب» وكانت المدرسة الشَّهيدية النُّورِيَّة بحِمْص المحروسةِ قد شَهِدتْ مع مَن شَهِد بفَضْلِه، وسَعِدَتْ بنُبْلِه؛ ووُسِمَتْ بعَلَمِ عِلْمِه، وسَمَتْ سُمُوَّ الشهباء: هذه بمقَرِّ تَدْرِيسِه وهذه بمجلس حكمه؛ ثم زار دِمَشْقَ زَوْرَةً تشوَّقَتْ [إليه] بعدها تلك المشاهد، وتَشَوَّفَتْ إلىٰ العَوْدِ هَاتِيكَ المَعاهِد؛ وقضَى الوفاءُ أن يُعادَ إليها أحْسنَ إعادَه، وأن يَرجِعَ إلى الأماكن الشهيدية الشاهدة ببِرِّه فتكون منه عادةً ومنها شَهادَه، واقْتضَىٰ الاستحقاق أن يَرِدَها بالمعلوم المسْتقِرِّ وزيادة وأحْسنُ ما وُرِدَ البَحْرُ فى الزِّيادَه.

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ أعلاه اللهُ وشرَّفه، وحَلَّىٰ بسِيَرِه الصالحة سَمْعَ الدَّهرِ وشَنَّفَه ـ أن يستقرَّ فلانٌ فى تَدْرِيس المدرسة النُّورِية بحِمْص المحروسة علىٰ

(١) يشير الى بيت بشار فى مدح عمر بن العلاء أحد عمال المهدى.

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبه لها عُمَرًا ثم نم

وبعده

فتى لا ينام على غرة * ولا يشرب الماء إلا بدم

عادته ، وعلىٰ نَهْج إفاءته و إفادته ؛ بالمعلُوم المقرَّر له بمجلس الحكم العزيز الشافعىّ بدِمَشْق المحروسة : رِعايةً لتلك المعاهد النُّورِيَّة التى تتأرَّجُ بها الآصالُ والبُكَر، وأنْوارِ القبول القَائلةِ لوَفْدها الطارق : «عَلَيْك سلامُ اللهِ ياعُمَر» .

فلْيعُدْ إلىٰ هذه الوظيفة عَوْدَ الحُلِيّ إلى العاطِل ، ولْيقْبِلْ علىٰ رُتْبته المرتَقبة إقْبال الغَيْثِ على المْاحِل، ولْيقُلْ بلسان تقدُّمِه لمعانديه : إنْ كان أعْجبكم عَامُكم فعُودُوا إلىٰ حِمْص فى قَابِل؛ ولْينصُرْ بِقاعَها الحِمْصِيَّةَ بجِلادِ جِدَاله فإنَّها من أوَّل جُنْدِ الإسلام ، ولْيَقُم الآنَ فى هذه الأوقات الشَّاميَّـة فإنَّه بَركَةُ الوَقْت والبركَةُ فى الشَّام؛ مُثْمِرًا من أقلام علومه أزْكَى الغُرُوس، مُظْهِرًا من مَباحِثِه النَّفائسَ مُبْهِجًا من طَلَبَتِه النُّفوس، عَامِرًا لمعاهدها بدُرُوسه : وياعَجبًا لمَعاهِدَ تُعْمَرُ بالدُّروس! ؛ ذاكرًا للوصايا الحسنة التى لا تُقَصُّ عليـه فهو أخْبر بها، والتى من أوَّلها وأوْلاها تَقْوَى الله تعالىٰ وهى بأفْعاله أمْسَـكُ من تفاعيل العَرُوض بسَبَبِها؛ والله تعالىٰ يُعَضِّدُه فى رِحْلَته ومُقَامه، و يمتع الرُّتَب تَارَةً بمجالس دُرُوسه وتارةً بمجالس أحْكامه ، ويُرْوِى صَدَىٰ مِصْرَ والشَّامِ من موارد عِلْمِه : هذه بأوْفىٰ من نِيلِها وهذا بأوْفَرَ من غَمامه .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع أرباب الوظائف الدينية بأعمال دِمَشْقَ ـ ما يفتتح بـ«رسم بالأمر» ، وفيها وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بحِسْبَة بَعْلَبَـكَّ : من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب بها لـ«شهاب الدين بن أبى النور» ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ شُهُب أوامرِه عاليةَ السَّنا والسَّناء، وفيَّةً لذَوِى الاُسْتحقاق بمَزيد الاُعْتناء والاُغْتِناء ، جاليَةَ البِرّ بمن شهد بحُسْن حِسبته حتَّىٰ لسانُ الميزان وفَمُ الكَيْل وشَفَةُ الإناء ـ أن يستمرَّ فلانٌ ... ... لِمَا ذكر من أوصافه التى ضاعَفتْ فيه الرَّغْبه ، وحالفَتْ به سُمُوَّ الرُّتبه ، وشَهِدتْ بها حِسْبَتُه تِلْو الشُّهود : وحَسْبُك من ٱجتمعَتْ علىٰ فضله شهادةُ الفَرْض وشهادة الحِسْبَه؛ ولِمَا صحَّ من كَفَاءته وتَجْرِبِيه، ووَضَح فى هذه الوظيفة من تَدْرِيبه التى تَدْرِى به ؛ ولِمَا تعيَّن من ٱستمرار شِهابِه فى المنزلة التى تَكْتَسِى من أضْوائه وتَكْتَسِب، وهذه الرتبة التى تعلو بمعرفته : وكفاه أنَّه يرزق من حَيثُ يَحْتَسِب ومن حَيثُ لا يَحْتَسِب ! ؛ وأنَّه فيها ذُو الرَّأْى الزَّائد، والنَّفْع الوارد ، والشِّهابُ الذى نُورُ هُداه فى وجه المريد وأثَرُ كَيِّ حِسْبته فى وَجْه المارد ؛ وأنَّه وَلِيَها ولايةً لا تزال تُذْكر وتُشْكَر ، وعُرِفَ بوفائها وكان أوْفىٰ من أمَرَ بمعروف أوْ نَهىٰ عن مُنْكَر ؛ وأنَّه قام حقَّ القيام حتَّىٰ قال البلد : رَعَى اللهُ زَمانك ، وٱجْتَهد حتَّىٰ قال الاُعْتبار للميزان : لا تَذْكُر الزَّيْغَ ولا تُحرِّكْ به لِسانَك .

فلْيستَمِرَّ فى حِسْبته المباركةِ ٱستمرارًا يُستحلىٰ ذِكْرُه ، ويُسْتَجلَىٰ فى الاُسْم شِهابُهُ وفى السِّمَة بَدْرُه ، ولْيَحتَسِبْ فى نَفْع المسلمين حِسْبَةً يَحْتسِبُ بها عند المملكة ثَناءَه وعند الملائكة أجْره ؛ سالكًا علىٰ نَهْج العَزْم الجميل ، جاعلًا أوَّل نَظَره من أقْوات الرَّعِيَّة فى الدَّقيق والجليل؛ مُسْتَبِينًا لما ٱلْتبس من غِشِّ المطاعم والمشارب فلم يَسْتَبِن، حاكما ـ ولا سِيَّما فى قاعات بعلبك ـ بِرَأْيٍ يُفَرِّقُ بين الماء واللَّبَن ؛ حاثًّا علىٰ بَيْع المآكلِ بخِبْرةٍ من مَلَإِ بصَره، حَريصًا علىٰ أن لا يُنْشدَ لِسانُ الدَّاخِلِ فيه « ومَن لم يمُتْ بالسَّيف مات بغَيْره» ؛ دافعًا ضَرر المُجْتَرِى البائِع عن المُشْتَرِى المسكين، ذكِيًّا فيما يُذَكَّى فيَذْبَح بسِكِّين ويذبح مُتَناوِلَه بغير سكّين ؛ قاضِياً بالحقِّ فى كلِّ ما يُشْتَرَىٰ

ويباع ، متكلمًا فى أنواع الملابس وغيرها بالباع والذِّراع ؛ وَازِنًا بالعَدْل فى كلِّ مَوْزون ومَكْيُول ، رَادِعًا لكلِّ عَمَّالٍ مُداهِنٍ فى كلِّ مَدْهون ومَعْمول ، حامِلًا على الحال المستقيم كلَّ حَيٍّ لديه وكلَّ من هو علىٰ آلَةٍ حَدْباءَ مَحْمول ؛ ومن زاد فى الإضْرارِ فلْيَمنَعْ زائده ، ومن زاد فى الاشتطاط وتجبير الشراء فلْيقطَعْ بالنَّكال زَائدَه ؛ ومن دَنَّسَ فى الأشربة فلا يلبث أن يُغلِّظ التأْديبَ وأن يُرِيقَه ، ومن سَقَى الضُّعفاءَ منها كما يقال : سَقيةً فلْيَسْقِه من السَّوْط ما يكاد يَنْثُر جِسْمَه على الحقيقه ؛ ومن عَانَىٰ صِناعَةً ليس له فيها يَدٌ فلْيَلْزِمْه بما بَسط فى إفْسادِه اليَدَيْن ، ومن حَكم فى صِناعَةِ الطِّبِّ بما لم يَسُغْ فى المسائل فلْيَصْرِفْه منها بخُفَّىْ حُنَيْن ؛ ومن تَمَرَّد فى مُعامَلَته فليرُدَّه بالقَهْرِ إلىٰ صالح مَرَدِّه ، ومن عَدَا وعَتَا فلْيُعامِلْه بما يخرجه من التَّرح لا من الفَرَح من جِلْدِه ؛ مقْدامًا فى الأمر بالمعروف والنَّهْيِ عن المُنْكر ولا جَزَع ، مُسْتعينًا بالديوان فيما أَهَمَّ : فإنَّ اللهَ يَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَع ؛ مجتهدًا فيما يزيد تَقَدُّم سَعْيه المشكور ، وصُنْعِه المبرور ، مُنِيرًا لآفاقِ مَنْصِبه وكيف لا وهو الشِّهاب بن أبِي النُّور ؟ ؛ وتَقْوى الله تعالىٰ هى السبيلُ الأقوم فلْيكُنْ لها مِنْهاجا ، ولْيواظِبْ علىٰ طريقة الحقِّ : فكَمْ شَرٍّ عنها حاد وكَمْ خيرٍ منها جَا ! .

توقيعٌ بنظر السبيل بدرب الحجاز ، بالركب الشامىّ ، من إنشاء ابن نُباتة ، كُتب به للقاضى «قطب الدين السبكىّ» وهو :

رُسم بالأمر ــ لا زال يُقِرُّ بالوظائف الدِّينيـة من يُحِبُّها وتُحِبُّه ، ومَن يتواردُ علىٰ ذِكْره بادِى الشُّكر ورَكْبُه ، ومن إذا بَدَتْ مطالِعُ الخَيْر فهو نَيِّره وإذا دار فَلَكُ الثناء فهو قُطْبُه ــ أن يستقرَّ ... ... : لما ذُكر من وَصْفه الجميل ، واستحقاقه الذى دلَّ عليه

البرهانُ فى مَحْفِلِه و برهَنَ فى مَوْكِبِه الدليل ؛ ودِيانَته التى هى لمبانِى الأوْصاف الرَّفيعة أَسَاس ، وكَفَاءَتِه التى لهـا من نَفْسِه نَصٌّ ومن نَفْسِ قومه قِياس ؛ ومَرْباه فى بَيْتٍ تقِيٍّ صَحَّت تجارِبُ مَعْدنِه على السَّبْك ، و [دلت] مَناقِبه على ٱستحقاق الرُّتَب التى يقول بَشِيرُها : قِفَا نَبْتَسِمْ ! ويقولُ حاسِدُها : قِفَا نَبْك ؛ ولِمَـا تقدَّم من تَشَوُّفه لهـذه العَزْمة الناجحه ، وتَشَوُّقه من هـذه المبرَّة الشريفة الصالحيَّـة بسُلوك تلك الفِجاج الصَّالحه ؛ ولأنَّ الضَّعْفَ عاقه عن المـاضى فأطْلقتْه الآنَ هذه القُوَّه ، وجعلتْ له بأوْفَى القادرين على الحسنات والإحسان أُسْـوَه ، ومكَّنته فى هذه الشُّقَّة الطويلة علىٰ سَحْب أذيال المعروف من منزل الكُسوة إلىٰ منازل ذات الكُسْوه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المبرورةَ بعَزْمٍ يُبير من الوَجْد مَاكِنَه(١) ، وحَزْمٍ يُثِير من المَدْح المشكور كَامِنَه ، وسُمْعة علىٰ ألْسنة التذكار يَمْضى وتَبْقىٰ حتَّى تكاد تكون للكواكب السبعة ثَامِنَـه ؛ مُتصرِّفًا فى الإرفاد والإرفاق ، بآراء يؤيد الله [بها] الذين هم رِفاقٌ وأىُّ رِفاق ؛ مُنْفِقًا فى سبيل الله علىٰ يده أعْدلَ إنْفاق ، حاميا عَدْله من لَفْظة نِفَاق ؛ مُخْصِبا بإنعام الدَّولة الشريفـة فى القَفْر المـاحل ، حامِلًا للمنقطع علىٰ أنهض وأبرك الرواحل ؛ مُواصِلًا لنَقْل الأزْواد إقامَته ومَسِيرَه ، وبالماء والشَّراب الطَّيبين الطَّهُورين ضَعِيفَه وفَقِيرَه ، وبأنواع الأدْوية والعقاقير التى تعُمُّ متتابع الرَّكْب [و] عقيره ، وتَجْبُر على الحالين كَسِيرَه ، وبوَفاءِ جميع المستحقِّين تَالِيًـا عن لسان الدولة الشريفة : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِـيرَه ﴾ داعيا بخُلود مُلْكها فى تلك المشاهـد التى هى بقَبُول مَصَاعِدِ الدَّعوات ونُزُول مواعد البركات جَدِيرَه ؛ واللهُ تعـالىٰ يتَقَبَّلُ دعاءه وسعيه ، ويُحْسن كِلاءَتَه ورَعْيَه ، بمنه وكرمه ! .

---

(١) يريد مكينه ولكنه اضطره السجع الى موافقة العامة .

الصــــنف الثـالث

(من التواقيع التى تُكتب لأرباب الوظائف بِدمَشْقَ ـ مايكتب لأرباب الوظائف الدِّيوانية، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما يكتب لمن بحاضرة دِمشْق منهم ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبـــة الأولىٰ

(ما يفتتح بـ«الحمـــد لله» وفيهـا وظائف)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيعٍ بكتابة الدَّسْت بِدمَشْق ، كُتب به لتـاج الدين « عبـد الوهاب » ابن المنجا التنوخىّ، عِوضًا عن شمس الدين «محمد بن حميد» بالوفاة، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل تاجَ الأولياء أيْما حلَّ حلَّى المراتِبَ وزانَها، وغَدا على التَّحقيق كُفْأَها ووِزَانَها ، وألْبسها من براعَتِـه ويَراعَتِه عقودًا تَزُرُّ دُرَرها وجُمانَها ، ومَنح دَسْـتَها العلىَّ من ألْفاظها المَجِيدَةِ بيانَها ، وزادها بأصالَته فَخَـارًا يستصحِبُ وقْتَها وزَمانَها، وآرتقىٰ ذِرْوتها التى طالَمَـا زاد بالمعالى أرْكانَها، فتبوَّأ بمزيد المَجْدِ مكانَها .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى أجزلَتْ إحسانَها، وأجْمات آمْتِنانَها؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تشهدُ القلوبُ إيمـانَها ، ويَدَّخِرُ القائلُ إلىٰ يوم المَخـاف أمانَها ، ويَتَبَوَّأُ بهـا فى الدَّار الآخرة من يُخلص فيها جَنَانُه جنانَها ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهر اللهُ تعالىٰ به الشريعةَ المطهرةَ وأبانَها ، وشرَّف هذه الأُمّةَ ورفع علىٰ جميع الأمم شانَها ، وبعثه رحمةً إلىٰ كافَّة الخلقِ فأقام بمعجزاته دليلَ

الهِـدايَةِ وبُرهانَها ، وأطْفأ بنُورِ إرشادِه شَرَرَ الضَّلالة ونيرانَها ؛ وأخْمد بدينـه القَوِيم وصراطِه المُستقيم مُعْتَقَـداتِ [طوائف] الشِّرك وأديانَها ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَن نَزَّه نفسه النَّفيسةَ وصانَها ، وسلَكَ فى خِدْمتـه وصُحْبته الطريقةَ المُثْـلىٰ فأحسن إسْرارَ أمورِه وإعلانَهـا ، صلاةً دائمةً باقيةً تحمَـد بالأُجُور آقْترانَها؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فانَّ أولىٰ من جَدَّدنا رِفْعةَ تَاجِه، وسدَّدْنا قولَه فى مجلس عَدْلٍ ينشر فيه بكلمة الحقِّ ما آنْطوىٰ من أدْراجِه، وحدَّدْنا له محلَّ سفارة يلْحَظُ فيه حوائج السائل فيُغْنيه عن إلْحاحِه ولَجاجِه ـ مَن هو فى السُّؤدد عَرِيق ، ولسانُه فى الفضائل طَلِيق، وقلمه حلَّى الطروسَ بمـا يفُوقُ زَهْرَ الرِّياضِ وهو لهـا شقيق؛ وكان فلانٌ هو الذى عَلا تاجُه مَفْرِقَ الرآسه، وجَلَا وصفه صُوَرَ المحاسِنِ والنَّفاسَه .

فرُسم بالأمر العالى ـ لا زال يُولِى جميلا، ويُوَلِّى المناصِبَ الجليلةَ جليـلا ـ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى وظيفة تَوْقيعِ الدَّست الشريف بالشام المحروس،عِوضًا عن فلانٍ بحكم وَفاتِه إلىٰ رحمة الله تعالىٰ، بالمعلوم الشاهِد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وَقْت .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً تُشْكرَمَدَى الزمان، وتُحمدُ كلَّ وَقْتٍ وأوان، ولْيملأْ بالأُجور لنا صُحُفًا بمـا يُؤَدِّيه عنَّا من خيرٍ وإحسان؛ والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها التقوىٰ، فليلازم عليهـا فى السِّرّ والنَّجوىٰ ، والله تعالىٰ يحرسه ويرعاه ، ويتولَّاه فيمن تولاه ، والآعتماد ....

[وهذه نسخةُ] توقيع بنَظَر الخـاصّ ، من إنشاء آبن نُباتة ، كُتب به للقاضى «بهاء الدين بن ريان» ، وهى :

الحمــدُ لله مُعْلى رُتَبِ الأعيان ، ومبْقِى أحبَّـاء السِّيادة علىٰ ممرّ الأحْيان ، ومُبْدِى "بهاءِ" المنـاصب ، بمن فَضلُه الواضح والصُّبحُ سِيَّان ، ومُنْشِى ثَمرات المَناقب ، فى مَنابِتِ أهْلِها حيثُ الفرْعُ باسِقٌ والأصل "رَيَّان" .

نحمَدُه علىٰ أنْ يسَّر البَيْتَ المعلَّىٰ بحسَنِه ، وأيْقظ جَفْن الآمال من وَسَنه ؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تجمع لنـا من خيرى الدُّنيا والآخرة كَرَم المَطْلَبين ، وشَرَف المَنصبَين ، ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه المشْرِقُ فضــلُه علىٰ أهل المَشْرِقَين والمَغْرِبَين ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أصبح الثناءُ عليهم وقفا ، وآشتمالُ الذِّكر عليهم عَطْفا ، صلاةً تُضِىءُ آفاقَ القَبُول بشَمْعة صُبْح لا تُقَطُّ ولا تُطْفىٰ ؛ وسلَّم .

أما بعــدُ ، فإنَّ للمناصب الدينية نِسْبةً ببيوت أهْلِ الدِّيانه ، ولخاصِّ الرُّتَب تعلقًا بالخاصِّ من ذوى الكَفاءة والأمانَه ؛ والمنازلُ بكواكبها المتألِّقَه ، والحدائقُ بمغارِسها المتأنِّقه ، ونفوسُ الدِّيار بسُكَّان معاهدها المُتَشَوِّفة المتشوِّقه .

ولمَّـا كان الخـاصُّ الشريفُ والوقف المنصوريُّ لوجْهِ المناصب الشامية بمنزلة حُسْن الشامَتَيْن ، ولِرائد الخِصْبِ من جِهتَيِ الدنيا والآخرة بمحلِّ نَفْع الغمامتين ؛ هــذا علىٰ صُنْعِ البِرِّ الممدودِ مَقْصور ، وهذا لسَحابِ الخَيْر سَفَّاحٌ لأنهرِ جِهَةٍ لـ«ـلمنصور» ؛ يعْلُو هــذا بالنَّاظر فى دقائقه إلىٰ أعْلَى الدَّرَج ، ويَتْلُو هــذا بلِسانِ مِيزانه المُنْفِق على المـارستان : ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ ـ لايليق الجَمْعُ بين رتبتيهما إلَّا لمن يجمع بسَـعْيِه فضْلَ الدَّارَيْن ، ومن يُجيدُ بَنانُ قَلَمه الحَلَبىّ حَلْبَ ضَرْعَيْهما الدَّارَّيْن ؛ ومَن نَشأ فى بَيْتِ سعادةٍ أذِنَ اللهُ لقَدْره أنْ يُرفع ، وأقْلَامِ بيته أن تَنْفع ، ولمحاسِنِ ذَوِيه أن تَشْفَعَ بجمالهـا إلىٰ قلوب الأوْلياء فتُشَفَّع ؛ ومَن يَسُرُّ بروايةِ فَضْله وبرُؤْيتِه السَّمْعَ والعَيْن ، ومَن يفْتَرِض شَرفُه وشرفُ

إخائه حُبَّ «الحَسَن» و «الحُسَين» ؛ ومن تَبْتَهِجُ جوانحُ المحاريب بتَعبُّده ، وتَلْهَجُ أَلْسنةُ مصابيح المساجد بالثَّناء علىٰ تَردُّده وتَودُّده ، وتَسْتبِقُ جيادُ عَزْمه : فبينما الكُمَيْتُ فى الشَّهباء تابِعُ أَدَبِه إذا بآبن أَدْهَمَ رَسِيلُ تَزهُّده ؛ ومن تقولُ مناصبُ حَلَب : لله دَرُّ بهائِه المقْتَبَل ! ؛ ومن ينشدُ ثباتُ وَقارِه مع لطافة خُلُقه : «ياحبَّذا جبَلُ الرَّيَّانِ من جَبَل» ! ؛ ومن تَنْفَحُ أخبارُه منافِحَ الأزهار ، ومن يشهدُ بفَضْلِه جيشُ المحراب فى اللَّيلِ و بمباشرته جَيْشُ الحَرْب فى النهار؛ ومن تأْسى بلدةٌ فارقها فِراقَ العَيْن للوَسَن ، ومن يَروِى صامِتُ دِمَشْق وغيرها من تَدْبيره عن «عامرٍ» وعن «حَسَن» .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال من أَلْقابِه الشريفة صالحُ المؤمنين ، وعِمادُ الدَّاعِينَ لدَوْلته القاهرة والمُؤَمِّنين ـ أنْ يفوّضَ للجناب العالى ... ... فإنَّه المَعْنِىُّ بهذه الأوصاف المتقدِّمَه ، والمقصودُ بإفاضَةِ حُلَلِها المُعْلَمَه ؛ والموصوفُ الذى يحلُو وَصْفُه إذا كُرِّر ، ويَسْتَعْبِدُ الأوصافَ والأسماع إذا حُرِّر ، والأَحَقُّ برتْبَـةِ عِزٍّ فى النُّظار مَضَىٰ وأبقىٰ ثناءَه ، ومكانِ نَظَرٍ إن لم يقُـلِ الدعاءُ اليَوْم : أدام اللهُ عِزَّه ! قال : أدام اللهُ بَهـاءَه ؛ واللَّائِقُ بتَقْرِيرِ مَنْصِبٍ تقصُرُ دونَه المطامع ، وتَصْدِيرِ ديوانٍ إن آنقطعَتْ رِوايتُه عن «حَمْزة» فقد آتَّصلتْ رِوايتُه عن «نافِع» .

فليباشِرْ هٰذيْن المَنْصِبين المُنْجِبَين ، مجتهدًا فى مصالح الخاصّ الشريف ، والوَقْف الذى لا تحتاج هِمَّتُه فيـه إلىٰ تَوْقيف ؛ حتّىٰ يكونَ خيرُ الخاصّ عامًّا ، وأمْرُ الوقف تامًّا ؛ ورَيْعُهما بالبركات خيرَ محفوف ، والمنصورىُّ من جهة المعاضدة قد أضْحىٰ وهو بالعَضُدَيْن موصوف .

والوصايا متعدّدةٌ وهو أدرىٰ وأدْرَبُ بهـا ، وتَقوى الله تعالىٰ أوْلىٰ وَصِيَّةٍ تمسَّكَ المرءُ بسَبَبِها ، وشكرُ النعمة أدلُّ علىٰ نَبِيهِ هِمَمِ الرجال وعلىٰ فضل مُهَذِّبِها ؛ واللهُ تعالىٰ يسدِّدُ قَلَمه ، ويثبِّتُ فى مطالع العزِّ قَدَمه ؛ بمنّه وكرمه ! .

توقيعٌ بنظر الخزانة العاليـة، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتب به للقاضى «تقىّ الدين ٱبن أبى الطَّيِّب» بـ«ـالجناب العالى» وهو :

الحمدُ لله الذى له خزائنُ السموات والأرض، وبحِكْمَتِه يَهَبُ منها مايشاءُ لمن يشاءُ رَضِىَ المُعانِدُ أمْ لم يَرْضَ، وبِمِنَّتِه فُضِّلَتْ مراتبُ أهلِ التُّقىٰ على الرُّتَبِ كما فُضِّلَ على النافلةِ الفَرْضُ، وبعنايَتِه بُنِيَتْ بيوتُ أهـلِ السِّيادة على الطُّولِ وبَقِىَ صالحُ عملهم إلى العَرْض، وبهدايَتِه سمـا إلىٰ أعْلَى الخزائنِ من تُقْرِضُها أوصافُ قَلَمِـه وقَلَمِ أبيه أحْسَنَ القَرْض .

نحمَدُه علىٰ مامنح من خزائن فَضْلِه، ونشكُرُه والشُّكْرُ ضامِنُ المَزِيدِ لأهْلِه؛ ونشهدُ أن لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً يدَّخِرُها الإنسانُ لنِيَّتِه وقَوْلِه وفِعْلِه، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه الذى جمع بفَيْئِه وفَرَّق ببَذْلِه، وأعطىٰ مالم تَنْطَوِ ضمـائرُ الأكياس فى صُـدُورِ الخزائن علىٰ مِثْـلِه، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه السَّالِكين سَنَنَ فضيلته وفَضْله، التابعين فى الكَرَم والبأْسِ قِياسَ بيَانِه ونَصَّ نَصْلِه؛ ما أطْلَعَتْ خِزانَةُ الوَسْمِىّ آثارَ نُقَطِ الغَيْث كالدَّراهِم، وخَلَعَتْ على الدنيا خِلَعَ الروض مُتَقَلْنِسَةً بمُسْتَدِيرِ الظِّلال مَزْرُورَةً بمعقودِ الكمائم؛ وسَلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ الرُّتَبَ ذَخائرُ قومٍ فى خزائن الٱختيار، وأخايرُ أهْلٍ تزكو نقودُ شيمِهم علىٰ مَحَكِّ الٱعتناء والٱعتبار، وفروعُ خَلَفٍ تظهر مَظاهرُ أُصولِها الزكيَّة سابغةَ الظِّلِّ رائقةَ الزَّهر فائقةَ الثِّمار؛ إذا ٱحتيج منهم إلىٰ ذخيرة نَفَعَتْ، وإلىٰ أخيرٍ وَقْتٍ أرْبىٰ علىٰ عزائم الأُوَلِ وما صَنَعَتْ، وإلىٰ فُروعِ شجرةٍ سَرَتْ محامِدُها الضَّائعةُ : لا ممَّا ضاعَتْ بل ممَّـا تَضَوَّعَتْ .

ولما كانت رتبةُ نَظَرِ الخزانة العالية بدِمَشْق المحروسةِ أحَقَّ بمَن هٰـذا وَصْفُه ، وهذا نَعْته فى مُقدِّمة الذِّكر الجميل وهذا إليه عَطْفُه ، إذْ هى مرتبةُ العَلْياءِ ومَكانُها ، وزُهَرة سَمـاءِ المملكة وميزانُها ، ومَنْشأُ غُيوثِ صِلاتِها الهَـامِره ، ومَنْبِتُ رياض خِلَعِها الزَّاهِره ، وأُفُق السعادة ومَطْلَع نجمها المُنير ، وجَنَّة أولياءِ الدَّوْلة ولِباسُهُم فيها حَرِير ، ومَغْنىٰ شَرَف الاكْتِساء والاكْتِساب ، ومأْوَى الفاضلِ ـ والحمد لله ـ الذى يَحْفظها التحصيلُ بحساب ويُعْطِيها الجُودُ بغيرِ حساب .

وكان الجناب ... ...(١) ممن تضم أعطافه أنوار السَّعاده ، وتَحُفُّ أطرافه و ... ...(١) السِّياده ، وتَنْتقِلُ جَلْسته : إمَّا من تنفيذ الديوان لمَرْتَبَةٍ و إمَّا من تَدْريس العِلْم لسَجَّادَه ، ذُو الفَضْل والفضائل حَسَنُ التَّجْنِيس والتَّطْبِيق ، والكتابةُ : من حساب وإنْشاءٍ زاكيةُ النَّـثْر علَى التَّعليق ، ونفحات البِر من نفحات العيش أجود ، والشبيبة فيها النهىٰ فكانه كما قال البحترىّ : نسبٌ أسْوَد ، والهِمَم التى حاوَلَتْ مَنال الشُّهُبِ المُمتَنِعَة وَلاتَ حِينَ مَنـاص ، والكلمة التى لو عَايَنَ « البَصْرِىُّ » فرائد نَحْرِها لقال : كلُّ هـذه دُرَّة الغَوَّاص ، والعَزائِم التى رامَتِ المناصبَ فما قَبِلَتْ من خِزَانَتِها سوَى الرَّفيعِ وما رَضِيَتْ من دِيوانِهـا سِوَى الخـاص ، كَمْ نبَّهتْ منه المَقاصِـدُ « عُمَر »(٢) ثم نَامَتْ ! ، وكَمْ أجلَسَتْه كواكبُ اليُمْنِ فى صَـدْرِ مَحْفِلٍ ثم قَامَتْ ! ، كَمْ حَوىٰ من الحَمْـد سَنِيّا ! ، وملأَ الرِّباعَ خيراً وَفِيّا ! ، وقَيَّضَ اللهُ للفقراءِ والأيتامِ حَناناً من لَدُنْه وزَكاةً وكان تَقِيّا .

---

(١) بياض بالأصل فى الموضعين .

(٢) أخذه من بيت بشار :

إذا أيقظتك حروب العدا * فنبـــه لها عُمَـرا ثم نم

يريد عمر بن العلاء أحد عمال المهدىّ وكان على طبرستان .

فلذلك رُسم بالأمر الشَّريف – لا بَرِحَ صَالِحَ الدهرِ كالزَّهْر ، مالكَ نُفوس الأوليـاءِ والأعْداء : هاتيكَ بِالإنعامِ وهاتيك بالقَهْر – أنْ يفوّضَ إليه نظرُ الخزانة العالية مُضافًا إلىٰ ما بيَده من نظر الخاصِّ الشريف : لأنَّ مِثْلَه لا يُصْرفُ عن وَظِيفَة بِسَناهُ تَعْتَرِف ، ومن نَداهُ تَغْترِف ، وأنَّ آجْتماعَ العَدْلِ والمَعْرفَةِ قَاضٍ بأنَّ «عُمَـر» لا يَنْصرِف ؛ وأنَّ الخاصَّ لخـاصِّ الأولياءِ أمَسُّ مَكانَه ، وأنَّ الخزانَةَ أنْسبُ بمَن عُرِفَ بالصِّيانَه ؛ وأنَّ خَزائِنَ الأرضِ وهي مِصْرُ لو نَطقَ نَظِيرُها لقال : ليسَ لِي مِثْلُ هـذه الخزَانَه ؛ وأنَّ عينَ الأعيان أوْلىٰ بالنَّظَر ، وأنَّ الأنْظار لا بل الصَّحابَةَ أحقُّ بـ«عمر» ؛ لِمَـا عُلِمَ من سِيرَتِه النَّقِيَّه ، وسَريرتِه التَقِيه ، وصِفاتِه التي يَمتَدُّ فيها نَفَسُ القَوْلِ حتَّى ينقطِعَ وفي الأوْصافِ بعدُ بَقِيَّةٌ وبَقِيَّه .

فلْيبا شِرْ مافُوِّضَ إليه من أعْلَى المراتِبِ المُنْجبات ، والوظائف المُعْجِباتِ المُعْشِبات ، والجهاتِ التي مالهَـا كَبْتِه الطَّيِّبِ : والطَّيِّبون للطَّيِّبات ؛ مُسْتَجِدًّا من نَظر هـذه الخزانة ثَوبَ سَعْدِه الجديد ، مُعْمِلًا في مصارف الذَّهب والفضَّة بَصرَ آرائِه الحَديد ؛ مُنَبِّهًا لهـا عَزْمَه العُمَرِيَّ ونعم من يُنَبِّه ، مُشْبِهًا في الكَفاءَةِ أباهُ المَرْحومَ وما ظَلَم من أشْبَه ، مُقرِّرًا من أحْوالِها أحْسن مُقَرَّر ، مُحرِّرًا من أُمورِها أولىٰ ما آعْتُمِدَ والخـزانةُ أوْلَىٰ بالمُحرَّر ، حافِظًا لما لها بقَلَم التَّحصيلِ حتَّى ينفّذ قَلَمَ الإطلاق ، صائِنًا لوَفْرِها حتَّى يُنْفِقَه الكرمُ خَشْيةَ الإمْساكِ بعد ما أمْسكَه الصَّوْنُ خَشْيةَ الإنْفاق ؛ مُسْتَدْعِيًا من أصْنافِها كلَّ ماتنوَّعَ وتَصنَّف ، وتَوشَّع وتَفَوَّف ، مُثْبِتًا كلَّ ماخُلِـعَ من ديوانها العَزيزِ وتَخلَّف ، مُؤَلِّفًا للكَساوَىٰ(١) في رِحْلَةِ كلِّ صَيْفٍ وشَتْوَه ، مُواصِلًا للأحْمال من دِمَشْقَ علىٰ كلِّ حال من جهة الكُسْوَه ؛ مُنْهِيًا لإنعامها بقَلَمِ الإطلاق التَّام ، مُتَلَقِّفًا بعَصَا قَلَمه في يَده البيضاءِ ماتأْفِكُ عَصا الأقْلام ، حَرِيصًا على أن يكونَ بابُها في الكَرَم كما يقال :

(١) لم يرد هذا الجمع فيما بأيدينا من كتب اللغة . والظاهر أنه جارى العامة في استعمالهم .

«سَهْلُ الحِجاب مُؤَدَّبُ الخُدَّام» ؛ عاملًا بتَقْوَى اللهِ تعالى التى بها يُبْدَأُ الذِّكْرُ الجميلُ ويُخْتم ، ويُلْبَس بها فى الدُّنيا والآخرة رِداءُ الخير المُعْـلَم ، غَنِيًّا عن تبيين بقايا الوَصايا التى هو فيها بَحْرٌ ، وآبْنُ بَحْرٍ بكتاب "البيان والتبيين" أعْلم ؛ والله تعالىٰ يمدّه بفَضْله ، ويحفظُ عليـه الفَضْلَ الذى هو من أهْلِه ؛ ويملأُ آمالَه بغَمامِ الخَيْرِ الصَّيِّب . ويُديمُ سعادةَ بَيْتِه الذى لا يَرْفَع الشُّكْرَ لطيبه إلا الكَلِمُ الطَّيِّب .

المرتبـــــة الثـانية

(من تَواقيع أرْبابِ الوظائف الديوانية بحاضرة دِمَشْق ـ مايُفتتح بـ«أمَّا بعدَ حمدِ الله»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

[نسخة] توقيع بنَظَرِ الأسْرىٰ ونَظَرِ الأسْوار، كُتب بها لدوادار الأمير «سودون الطرنطاى» كافِلِ الشَّام، وإن كانت هى فى الأصْل ديوانية أو دِينِيَّة، وهى :

أمَّا بعـدَ حمدِ الله الذى خصَّ أولياءَه بفَضْلِه الوَافِر، وعَمَّهم بحُسْن نَظَرِه فأشْرق صُبْحُ صَبَاحِهِم السَّافِر، وآنْتَضىٰ من عَزائِمهم لنُصْرةِ الدِّين سَيْفًا يسُرُّ المؤْمِنَ ويَغِيظُ الكافِر، وآجْتَبىٰ من الكُفَاةِ من يشَـيِّدُ مَعاقِلَ الإسلامِ بفَضْله المتَظَافِر ؛ والصلاةِ والسلامِ الأَتَمين الأكْمَلين علىٰ سـيدِنا محمدٍ الذى أضاء برسالته الوُجُود ، وخصَّه اللهُ تعالىٰ بالصِّفات الفَائقَة والمآثر الحَسَنة والجُود ؛ وعلىٰ آله وصَحْبه الذين حَرَسُوا المِلَّةَ الحَنِيفيَّةَ من جهادهم بأمْنع سُور، وأوْهَنُوا جانبَ الكُفْر وأنقذُوا الأسِير وجَبَرُوا المكسور ؛ صلاةً دائِمـةً مَدَى الأيَّام والشُّهور ، مُعْلِيَةً للأولياءِ عَلَم النَّصْرِ المنْشُور ـ فإنَّ أوْلىٰ من عَدَقْنا به المناصبَ السَّنِيَّة ، وفوَّضْنا إليـه جَلِيلَ الوظائف الدِّينيَّـه ؛

ونُطْنَا به فَكَّ رَقَبَـةِ المُسْلم من أَسْره ، وخَلاصَـهُ من عَدُوّه الذى لا يَرْثِى لمَسْكَنتِه ولا يَرِقُّ لكَسْرِه، وأَجْرَيْنا قَلَمـه ببَذْل الفِدَاء، وجعلنـا مِدَادَه دِرْياقًا لمرَض الأَسْر الذى يعدِلُ أَلْف دَاء، وأقمناه للعانِى من شَرَك الشِّرْك مُنْقِذا، وللدافع فى بَيْداء العِدَا بحُسْن إعانته مُنْجِدا ، وللأَسْوارِ المُمَنَّعةِ بجميـل نظره مُتَفَقِّدا ـ من أضحىٰ فَضْلُه ظَاهِرا، وجلالُه باهِرًا، وخِلالُه مَوْصوفةً بالمحـاسن أَوَّلًا وآخِرا .

وكان فلانٌ هو الذى بَهَرَتْ مآثِرُه الأبصارَ ومَلأَتِ الأَسْمـاع ، وٱنْعقـدتْ علىٰ تَفَرُّدِه فى عَصْره بالمفاخِرِ كلمةُ الإجْماع ، وسارَتِ الرُّكبان بذِكْره الذى طاب وجُودِه الّذى شاع، وصَفَتْ سَرِيرتُه، فأضحىٰ جميـلَ الإعلان، وحُمِدتْ سِفارَتُه، فكانتْ عاقِبةُ كلِّ صَعْبٍ ببركتها أنْ لَان .

فلذلك رُسم بالأمر العـالى ـ لازال يُولِى جميلا، ويُوَلِّى فى الوظائف جَليـلا ـ أن يستقرَّ المشارُ إليـه فى وظيفتَىْ نَظَرِ الأسرىٰ والأسْوار بدِمَشْقَ المحروسـةِ ، علىٰ أجمـلِ عادة ، وأكمل قاعدة ، بالمعلوم الشاهـد به دِيوان الوقْف المبرورِ إلىٰ آخر وَقْت : وضْعًا للشيءِ فى محلّه ، وتَفْويضًا لجميل النَّظَر إلىٰ أهْلِه .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً تَسُرُّ النفوس، وتَزيدُ بها الغِلالُ وتَزْكُو بها الغُروس، ولْيُجْرِ أحوالَ الوَقْفِ المـبرورِ علىٰ مقتضىٰ شَرْط الواقف والشَّرع الشريف ، ولْيَتَصَرَّفْ فى تحصيل المـال وإنْفاقه أحسنَ تَصْريف، ولْيَجْتَهِدْ علىٰ تَخْليص المأْسُور، وإغاثةِ مَن ضُرب بينه وبينه بسُور، ويُسارِعْ إلىٰ تَشْييد الأسْوار المُمَنَّعه، وإتقان تحصينها : ليَتضاعَفَ لمن حَوَتْه منَّا الأَمْنُ والدَّعه، والوصـايا كثيرةٌ وملاكُها تَقْوىٰ الله تعالىٰ وسُلُوكُ صِراطِ الحَقِّ المستقيم : فلْيواظِبْ عليها ، ولْيصْرِفْ وَجْهَ عنايته إليها ، والله تعالىٰ يُديم عُلاه ، ويتولّاه فيما تولاه ، بمَنِّه وكرمه .

تَوْقِيعٌ بصَحَابة دِيوان الأسْرىٰ ، من إنشاء ٱبن نُبـاتَةَ ، كُتب به للقاضى شَرَف الدين «سالم بن القَلاَقِسى» ، وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله الذى جدّد بطالِـع الشَّرف قواعِدَ بَيْتِ السِّياده ، ومَشاهِدَ حَوْكِ السَّعادَه ، ومَصاعِدَ ذُرَا الأقلامِ التى قَسَّمتْ مجانِىَ قَصَبِها للإفاءَةِ والإفادَه ، ومَعاهِدَ القَوْم الذين سلكوا مَسالِكَ سَلَفِهم الحُسْنىٰ : ولو كان التمَّـامُ يقبلُ هنا مَزِيدًا قيل : وزِيادَه . والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى شدَّ الله برسالَتِه أزْرَ الحقِّ وشادَه ، وعلىٰ آله وصَحْبِه ذَوِى الأقدار المُسْتزادَة المُسْتجادَه ، ما ٱتَّصلَ بحديث الفَضْل سَنَدُه وأمِنَ بَيْتُ التقوىٰ سِنادَه ـ فإنَّ البيُوتَ المُنتَظِمَ فَخَارُها ، المأْمُونَ من عَروضِ الأيَّام زِحافُها وٱنْكِسارُها ، أوْلىٰ بأنْ تنْتَخَب لهم المنـاصبُ كما تُنْتَخَبُ للبيُوت المَعـانِى ، وتُستَقْرَى الوظائفُ العَلِيَّة كما تُسْتَقْرَىٰ لمواضع كَلِمها المَبانِى ؛ وتختار لنجل الأصحاب(؟) بينهم كُلَّ جِهةٍ مأْمُونة الصَّحابَه ، مَوقُورَة السَّحابَه ، مَجْرورَةَ ذَيْل الخَيراتِ السَّحَّابَه ؛ مَصُونةٍ عن غير الأكفاء كما يُصَان للجهات حُجُبـا ، لائِقَـةٍ بالأفاضل لأنَّ لأوقاف الأسْرىٰ بالفاضل نَسَبا .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف أنْ يرتَّب فى كذا : علْمًا بأنَّه الرئيسُ الذى إذا وَلِىَ وظيفةً كَفَاها ، و إذا وعَدَها بصلاح التَّدْبير وَفَاه وفَاهَا ، و إذا وصل نَسَبها بنَسَبِه كان من إخْوانِ صَفَائِهـا لا من إخْوانِ صَفَاهَا ؛ والخَبيرُ الذى ٱستوضح بيُمْنِ الرَّأْى مَذَاهِبَه ومَسالِكَه ، والعالِمُ الذى إذا مَشَّى الأُمورَ بسط جَناحَ الرِّفْقِ و إذا مَشَى بسطتْ له أجْنِحَتَها الملائِكَه ؛ والجليلُ الذى إذا نظر ذِهْنُه فى المشكلات دقَّق ، والكاتِب الذى تعينَتْ أقلامُ عِلْمِه وكفاءته إلّا أنَّ كلَّها فى الفَصْل مُحقِّق ؛ هـذا وخَطُّ عِذارِه ما كَتَب فى الخَدِّ حواشيه ، وليلُ صِباهُ ما ٱكْتَمل ! فكيف إذا أطلَعتْ كوا كبَ

المَشيبِ دَياجيـه، وكَيْف لا؟ وأبوه ـ أعلَى اللهُ تعالىٰ جَدّه ـ صاحِبُ المَجْدِ الأثيل، والفَضْل الأصِـيل، ووكيلُ السلطنة الذى إذا تأمّلت محاسِـنه قالتْ: حَسْبُنا الله ونِعْم الوكيل.

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ برأْيٍ يُسَهِّلُ ـ بمشيئة الله ـ عَسيرَها، ويفُكُّ ـ بعَوْن الله ـ أسِـيرَها، وآجتهادٍ سَنِيٍّ يُحسِنُ قلمُه فى الأُمور مَسْرىٰ، وآعتمادٍ سَرِيٍّ لا يرىٰ دِيوانُ أسْرىٰ منه أسْرىٰ، مُشْـبِهًا أباه فى عَدْلِه ومن أشْبه أباه فمـا ظلم، وتوقُّد رَأْيه لَدَىٰ طَوْدِ حِلْمٍ وعِلم «فيالك من نَارٍ علىٰ علَمَ!»، حتَّى يَأْمَنَ دِيوانُ مباشرته من ظُلْم الظالم، ويُشْعِل ذكاءه حتَّىٰ يقال: عجبا للمُشْعِل نَارًا وهو سالم!، ويُثَمِّر مالَ الجِهَةِ بتَدْبِيره، ويشْتَرِك لفظُ إطلاقِ الديوان فى مالِه وأسِيرِه، وتَنْتقلُ الأسْرىٰ من رُكُوب الأداهِمِ إلىٰ رُكوب الشُّهْب والحُمْرِ من دَراهِمِه ودَنانيرِه، ويُحمد على الإطلاق، وينفِقُ خَشْيَةَ الإمساك إذا أمْسك [غيره] خَشْيةَ الإنْفاق، ويمشى بتَقْوَى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فى الطَّريق اللَّاحِب، ويُنْسَب إلىٰ ديوانه وقَوْمه فيقال: صَـاحِبٌ طَالَمَـا آنتسب من سَلَفِه لصاحب، واللهُ تعالىٰ يُنْجِح لكواكب رَأْيِه مَسِيرا، ويَجْبُر به من ضَعْف الحال كَسِيرا، ويُكافِئُ ساداتِ بَيْتِه الذين ﴿يُطْعِمُون الطعامَ علىٰ حُبِّه مِسْكِينًا ويَتِيمًا وأَسِيرا﴾.

المرتبـــــة الثـالثة

(من تَواقيع أرْباب الوظائف الديوانية بحاضرة دمَشْق ـ ما يُفتتح بـ«رُسم بالأمْر الشريف»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك:

نسخة توقيع (١) ... ... من إنشاء آبن نُباتة، كُتب به للقاضى «علاء الدين بن شرف الدين بن الشهاب محمود» عند موت أبيه وهو صغير، وهى:

(١) بياض فى الأصل ولعله «توقيع بكتابة السر».

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال يَجْبُرُ بِرِّه مُصابَ الأبْناءِ بآبائهم ، ويَسُرُّهم بما يتجدَّد فى كواكب الشَّرَف من عَلائِهم ، ويُعْتِق قُلوبَهم من إسَارِ الحُزْن حتَّى ينشَئُوا من الصِّغَر علىٰ أنساب عِفَّتِهم ووَلائِهم ـ أنْ يستقرَّ ... ... آعتمادًا علىٰ نجابتِه الشاهده ، ومَخايِل هِمَّته السائِدَه ، وآستنادًا إلىٰ أصالَتِه التى لا يُبْدِى فَرْعُها إلَّا زَكِىَّ الثَّمَر ، ولا يهْدِى بَحْرُها إلَّا أنفسَ الدُّرَر ، ولا يخلِّف أُفقُها إلَّا كبيرًا تَسْتصغِرُ الأبصارُ رُؤْيته : والذَّنْبُ للطَّرْفِ لا للكَوْكَبِ فى الصِّغَر ، وعِلْمًا أنَّه من أُسْرةٍ شهابِيَّة لا يهتدىٰ فى الإنشاء إلَّا بنُورِهم ، ولا يُحَدَّثُ بالعجائب إلَّا عن بُحُورِهم ، ولا يُنبِتُ أقْلامَ البلاغة إلَّا عُشْبُهم ، ولا تُعشِب روضاتِ الصحائف إلا سُحُبُهم ، ولا تُثْبِت أفْلاكَ الكتابة إلا كُتُبُهم ، صَغِيرُهم فى صدور الإنشاء كبير ، ومُلَقَّن آيات فَضْلِهم يَرْوى أعْداد الفوائد عن «آبن كثير» ، وعليهم بعد «أبى بكر» تقول المحامد لسَلَفه وخَلَفِه : منَّا أميرٌ ومنكم أمير ، وأنَّه اليومَ لا سَيْفَ إلَّا «ذو الفَقار» من أذهانهم ، ولا فَتَىً إلَّا «عَلِىٌّ» من وِلْدانِهم ، وأنَّ فَرْخ البطِّ سابح ، وسَعْد القوم للأنْدادِ ذَابح ، وخواتم صُحُف الجمع الظاهر أشْبهُ بالفواتح ، والبلاغةُ فى الدنيا كنوزٌ والأقلام فى أيديهم مفاتح ، وأنَّ الكلام حليته وَسِمَتُه (١) ، وأنَّه إذا خدم دَوْلةً بعد مُخَلِّفه قيل للذاهب : لقد أوحَشَنا وجهُه وللقادم : لقد آنسَتْنا خِدْمَتُه .

فلْيأْخُذْ فى هذه الوظيفة بقُوَّةٍ كَتَابَه ، ولْيَتَناوَلْ باليُمْن واليمين قَلَم جَدِّه كما تناول رَايَةَ مَجْده عَرَابَه ، ولْيتقلَّدْ بقلائد هذه النِّعَم عقيبَ ما نَزَع التمائم ، ولْيَجْهَدْ فى إمْرارِ كَلِمه الحُلْوِ الذى أوَّلُ سمائه قَطْرٌ ثم صَوْبُ الغمائم ، مُجوِّدًا خَطَّه ولَفْظَه حتَّىٰ تتناسبَ عُقَدُه ، ناشئًا علىٰ كَتْم السِّرِّ حتَّىٰ كأنَّ الفؤادَ قبرُه والجَنْبَ لَحْدُه ، مُهْتدِيًا بالعَلَم الشِّهابىِّ فى بِرِّ أخيه الأكبر فإنَّه من بوارق المزن ، مُبْتدِيًا مع أخيه الآخَرِ السُّرورَ إذْ ينزع

(١) فى الأصل هكذا "وأن الكلا بحاهم" .

عنهما لباسهُما من الحُزْن ، واللهُ تعالىٰ يَزِيدُ فى فَضْلِه ، ويُتِمُّ عليه النعمةَ كما أتَمَّها علىٰ أبِيه من قَبْلِه ، ويفَقِّهُه فى السيادة حتّىٰ يُحْسِنَ فى الفَخار رَدّ الفَرْعِ إلىٰ أصْلِه .

توقيعٌ بنَظَر مَطَابخ السُّكّر ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، كُتِب به للقاضى « شَرَف الدِّين ٱبن عَمْرون » وهو :

رُسم ... ... ـ لا زالَتْ سَمَةُ المناصب فى دَوْلَتِه الشَّريفة مُشَرَّفه ، وأقلامُ الكُفاةِ مُصَرَّفَه ، وألفاظُ الشّكْر ثابتةً عنـد ذَوِى الاستحقاق ومُصَـنَّفَه ، والنَّعْماء المُنْصِـفَة لأمثالهم حُلْوَةَ المذاقَيْنِ من نَوْعٍ ومن صِفَه ـ أنْ يستقرّ ... ... لمـا عُرِف من شِيَمِه المُستجاده ، وهِمَمِه المُسـتزاده ، وكَفَاءَتِه اللّائق بها حُسْنُ النَّظَر الثَّابتِ بفَضْلِها رَقْمُ الشَّهاده ، وأصالَتِه التى نَهَض أوَّلُهـا بمهمَّات الدُّوَل فلو رآه مُعاوِية ـ رضى الله عنه ـ لقال : يا عَمْرونُ أنت عمْرٌو وزياده ؛ ولِمَـا أُلِفَ من مُباشرته المُنِيفَـة خُبْرًا وخَبَرا ، وأنظارِه السَّامِيةَ إلىٰ معالى الأُمور نَظَرا ؛ ووظائِفِه التى لا يكاد يَبْلُغ العُشْرَ منهاذَوُو الهِمَم العَلِيَّه ، وجِهاتِه التى عُرِف بها سَلَفُه وخَلَفُه فلا غَرْوَ أنْ لَبِس عمامة مَفاخِرِه بيضاءَ وسُكَّرِيَّه .

فلْيباشر هـذه الوظيفةَ الحُلْوةَ مَعْنًى ومَذَاقا ، الحَلِيَّـةَ عِقْدًا ونِطاقا ، المحسُوبَةَ علىٰ مطالع الشَّرَف وَفْقًا وآفاقا ؛ جاعِلًا شُكْر النِّعمة من أوْفىٰ وأوفَرِ مزاياه ، وصَلَف الهِمةِ من أوْلىٰ وأوّل وصاياه ؛ حافِظًا للطـابخ وإنْ كان عادةَ آبائِه بَذْلُهـا ، مُدَخِرًا للجفان وإنْ كانت سِمةَ قِراهُمْ إزالَتُها ونَقْلُها ؛ حَرِيصًا علىٰ أن لايجعل لأيْدى الأقلام الخائنة مَطْمَحا ، وعلىٰ أنْ يُنْشَدَ كلَّ يومٍ للتَّدْبِير لا للتبذير .

* [لنا] الجَفَناتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ فى الضُّحَىٰ *

مُحرِّرًا لحساب دِرْهَمِها ومَحْمُولها ، ومَصْروفِها ومَحْصولها ؛ مُحتَرِزًا علىٰ مُباشَرتِه من الخَلَلِ فى هذين المكانين، حَذِرًا من كِفتَّيها وقَبَّانِها فإنَّها تتكلَّمُ فى الحَمْد أو فى الذَّم بلسانَيْن ؛ بل تُعْلِنُ ـ إن شاء الله ـ بحمده المُقَرَّر، وتُكَرِّر الأحاديثَ الحلوةَ عنه فمن عندها خرج حَديثُ الحُلْوِ المكرَّر؛ والله تعالىٰ يُمِدّ مَساعِيَه بالنُّجْحِ الوَفِى، ويُلْهِم هِمَّته أن تُنْشِد : «ما أبْعَدَ العَيْبَ والنُّقْصانَ من شَرَفِى !» .

توقيعٌ بنَظَر دار الطِّراز ، من إنشاء ٱبن نُباتة ، وهو :

رُسم بالأمر ـ لازالتْ سِيَرُه بمرقُومِ المحامد مُطَرَّزَه ، ودَوْلتُه بمحاسن التَّأْييد والتَّأْبِيد مُعَزَّزه ، ونِعَمُه ونِقَمُه : هذه على الأعْداء مُجْهِزَة وهذه إلى الأولياء مُجَهَّزه ـ أنْ يرتَّب فلانٌ : لكتابَتِه التى رقَّتِ الطُّروس ، وطرَّزَتْ بالظَّلْماءِ أرْدِيَةَ الشُّموس ، وأثْمَرتْ أقْلامُه بمحاسن التَّدْبير فكانت فى جهات الدُّوَل نِعْمَ الغُرُوس ؛ وحِسَابِه الذى ناقَشَ ونَقَش ، ورَقَم الأوراقَ ورَقَش ؛ وٱعْتِزامِه الذى عَلَّم رَشَدا ، وسَلَك طرِيقًا فى الخِدْمة جَدَدا ، وقَوِىَ ٱسمُه وتكاثرتْ أوصافُه فما كان من أنْدادِه أضْعفَ نَاصِرًا وأقلَّ عَدَدا ؛ وأنَّه الكافِى الذى إذا قُدِّم نَهَض ، وإذا سَدَّد سَهْمَ قَلَمِه أصاب الغَرَض ؛ والسَّامِى إلىٰ سماء رُتَبِه بالقَلْب والطَّرْف ، والمنزَّهُ لقلمه الحُرِّ من أنْ يستعبدَ علىٰ حَرْف .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ بكَفَاءةٍ عليها المُعَوَّل ، وأقلامٍ إذا تمشَّتْ فى دار الطِّراز على الوَرَق قيل : «شُمُّ الأُنُوف من الطِّرَاز الأوَّل» ؛ مُسْتَدْعِيًا لأصْنافها ومالها ، عادلًا فى قِسْمةِ رَجائِها ورِجالِها ؛ مُعْمِلًا راحَتَه بالقَلَم فإنَّ كتابتها مُتْعِبَه ، مُهْتدِيًا فى طُرُق حسابِها فإنَّها طرقٌ مُتَشَعِّبَه ؛ ماشِيًا علىٰ نَهْج الاحتراز ، ساعِيًا إلى الرُّتَب بإرْهاف عَزْمٍ كالسَّيف الجُراز ، سَعِيدَ السَّعْيِ ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ حتَّىٰ يقولَ سَناءُ الملك

المُسْتَنهَضُ له : هٰذا القاضى السَّعِيدُ وهٰـذه دَارُ الطِّراز ؛ والله تعالىٰ يوفِّقُه فى جميع أحْواله ، ويؤيِّدُ مَساعِىَ قلَمِه الذى تَنْسِجُ أقْلام الكُفَاةِ علىٰ منْوالِه .

توقيعٌ بنظر الرِّباعِ ، من إنشاء الشـيخ صلاح الدِّين الصَّفَدِىّ ، باسم القـاضى نجم الدين «أحمد بن نجم الدين محمد بن أبى الطَّيِّب» ، وهو :

رُسم بالأمر العالى ــ لا زال نَجْمُ أوليائه(١) يتَّقِدُ نُورا ، وخاطِرُ أوليائِه يتَّجِـدُ بالآمال سُرورا ــ أنْ يرتَّب المجلس السامىّ القضائىّ ــ أدام الله تعـالىٰ عُلُوَّه ــ فى نَظَر الرِّباع الدِّيوانية ، ومباشرة الأيْتام ــ حرسهم الله تعالىٰ ــ علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلى آخر وقت : لأنَّه النَّجْمُ الذى بَزَغ فى أُفُق الرِّآسه ، وحَمَّل ما آثَره قَبِيلُه وأَنَاسَه ؛ والأصيلُ الذى شاد الفَضْلُ مَجْـدَه ، وأحْكم الفَخْرُ عَقْدَه ؛ والرَّئِيسُ الذى يَصْـدُق التَّفَرُّسُ فى شمائله ، ويَحْـكُم الظن الصائِب فى أثْناء مخايِلِه .

فلْيباشِرْ ذلك مباشرةً هى معروفةٌ من هـذا البَيْت ، مَأْلُوفَةٌ من كبيرهم وصغيرهم : فإنَّهم لا لَوَ فيهم ولا لَيْت ؛ مُعْتمِدًا علىٰ سُلوك طريقة أخيه وأبِيه ، مُجْتهِدًا على آتِّباع آعتمادهما فى تَوَخِّيه الصَّوابَ أو تأبِّيه ؛ حتَّى يقال : هذا صِنْوُ ذلك الغُصْن الناضِر ، وهذا شِبْل ذلك اللَّيْث الخادِر ؛ وتُصْبِح الرِّباعُ بحُسْن نظره آهِلَةً بالأهِلَّه ، كامِلَةً بالمحاسن التى تُمْسِى الأقْـارُ منها مُسْتَهِلَّه ؛ وتعود الأيْتام بمشارَفَتِه كأنَّهم لم يفْقِدُوا بِرَّ والدهم ، ولم يحتاجُوا مع تَدْبيره إلىٰ مُساعِدِهم . والوصايا كثيرةٌ وأهمُّها تَقْوَى الله عزَّ وجلَّ فإنَّها الحِصْنُ الأوقَىٰ ، والمَعْقِلُ المَنِيعُ المَرْقَىٰ ؛ فلْيتَّخِذْها لعَيْنَيه نُصْبا ، ولْيشْغَلْ

(١) كذا بالأصل ، ولعله : آلائه .

بهـا ضَمِيرَه حتّىٰ يكون بها صَبّا ؛ والله تعالىٰ يُمَنِّى غُصْنَه الناضر، ويُقِرُّ بكماله القَلْب والنَّاظِر! والخطُّ الكريم أعلاه الله تعالىٰ أعْلاه، حُجَّةٌ فى ثُبوت العمل بمـا ٱقْتضاه؛ والله الموفِّقُ بمنِّه وكَرَمه ! .

تَوْقيعٌ باستيفاء المقابلة وٱستيفاء الجَيْش، وهو :

رُسم بالأمر ـ لازالتِ المناقبُ فى دَوْلَتِه الشريفة شَمْسِيَّةَ الأنوار، قُرَشِيَّةَ الفَخَار، مُشْتَقَّةَ المحامد من الأسمـاء والآثار، مُحَصِّلَةً بأقْلام اليمين ما يَبْـذُله الكرم من أقْسام اليسار ـ أنْ يستقرّ ... ... حَسَب الٱستحقاق الْمُقتضىٰ ، والٱختيار المُرْتَضَىٰ ؛ وعَيْنِ الرَّأْىِ الذى ما بينه وبين الرَّائِى حاجب، وتَقَدُّمِ السُّـنَّةِ القديمة فإنَّ التقديمَ لقُرَيْش وَاجِب؛ ولأنَّ الصفاتِ الشَّمْسيَّةَ أوْلىٰ بشَرَف آفاقها، ومَنازِلِ إشْرافِها وإشْراقِها، ومطالع سَـعْدِها المُنَزَّهة عن اللَّبْس ، وجلائل قَلَمِها العُطـارِدِىِّ فى يَدِ الشَّمْس ؛ ولأنَّ المشارَ إليـه أَحَقُّ بمَصاعِدِ المُرْتَقِين ، ولأنَّه تَرَبَّى فى بَيْتِ التُّقىٰ فكان الله معه إنَّ الله مع المُتَّقين .

فلْيباشِرْ هاتَيْن الوظيفَتَيْنِ على العـادة المعروفة بعَزْمه السـديد، ومَدَّات قَلَمِه التى بَحْرها فى السبع بَسِيطٌ وظِلُّها فى النَّفْع مَدِيد؛ ولْيَتَمَثَّلْ بديوان مُقابلة فريدًا لا يَرْهَب مُماثَلَه، ولْيجْبُرْ أحوالَها بضَبْطه حتّىٰ يجمعَ بين الجَبْرِ والمُقَابَلَه ؛ ولْيمُدَّ الجيوشَ المنصورةَ من أوْراقِه بأعْلامِه ، ومن قَصَباتِ السَّـبْقِ برماحٍ تُعرَفُ بأقْلامه ؛ ولْيَسْـتَرْفِعْ من الحُسْبانات ما يمحو بإيضاحه وتكميله من مُقَدِّماتِ ظُلْمٍ وإظلام، وليجمَعْ بين ضَرَّتَيِ الدنيا والآخرة فى شريعة الإسلام؛ والله تعالىٰ يُمِدُّ قُرَشِيَّتَه بأنْصار من العَزْم، وتابعين بإحسانٍ من نوافذ نوافل الحَزْم .

تَوْقيعٌ بصَحَابة ديوان الأسْواق ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتَةَ ، وهو :

رُسم بالأمر ــ لا زالتْ أسْواقُ نِعَمه قائِمَــه ، وأجْلابُ كَرَمه دائِمَه ، ولا بَرِحَتِ المناصِبُ مُكَمَّلَةً بِكُفَاةِ أيَّامِه الذين يُحقِّقون ظُنُونَها الساميــة ويَرْعَوْنَ أحوالَهَـا السَّائِمه ــ أنْ يرتَّب فلانٌ... ... ... : عِلْمًـا بكِتابته التى وَسَمت الدَّفاتِرَ أحسنَ سِمَه ، وٱسْتَبَقَتْ إلىٰ صُنْع الخير المُسَوَّمَه ، وكفاءَتِه التى لا تزالُ تَنْمو لديه وتَنْتَمِى ، ويراعَته التى إذا سُئِل عنها السُّوقُ قال : هِىَ عَصَاىَ أتوَكَّأُ عليها وأهُشُّ بها على غَنَمِى ، ودِرايَتِه التى تُعِينُ المملكة على المَيْر ، ويَشْهدُ تَيمُّنُها أنَّ الخَيْــلَ فى نَواصِيها الخَيْرُ ، وتُحَقِّق فيه الظَّنَّ والأمل ، وتَحُوطُ السُّوقَ عن الخائن حتَّىٰ يقولَ : لانَاقَةَ لى فى هَذا ولا جَمَل ، وأنَّه الكَافِى الذى إن قال أو فعل كان مُسَدَّدا ، وإن ضَبَط دِيوانَ الشَّدِّ السعيدِ كان على الزَّائِغينَ من الكَتَبةِ حَرْفًا مُشَدَّدا .

فلْيباشِرْ هــذه الوظيفةَ المباركةَ مُتَمَكِّنَ الأسباب ، مَالِكَ الحَزْمِ والرِّفْق حتَّى تَكْثُرَ لَدَيه الجُلَّاب ، مُعِيناً لبَيْتِ المــال على الإنفاق ، قائِمًــا بحقوق ذَوِى الٱسْتِحْقاق ، عَالِمًا أنَّه [متولى] أكْثَرَ جهات الخير المُطْلَق فليَكُنْ بها مشكُورًا على الإطلاق ، مُجْتَهِدًا فى رِضا المطالبين حتَّى يتَّبِعُوا سَنَن المُرْسلين فى هذه [الصفة] يأْكُلُون الطَّعامَ ويَمْشُونَ فى الأسْواقِ ، مُواظِبًا على الديوان الذى هو بصَحَابَتِه مَعْدُوق ، سالِكًا سُبُلَ الصِّيانَة والكفاءة فكلاهما نِعْمَ السَّبِيلُ المَطْرُوق ، مُحْتَرِزًا من ذِى خِيانَةٍ إن غفل عنه طَفِقَ مَسْحًا بالسُّوق ، والله تعالىٰ يُوَفِّق عزائمه التى هى أشْهر من عَلَم ، وهِمَّته التى قاسَمَتْ « أبا الطَّيِّب » : «والخيلُ تَشْهدُ والقِرْطاسُ والقَلَم» .

نسخةُ توقيعٍ بشهادة الخزانة العالية، من إنشاء ٱبن نُباتة، كُتِبَ به لجمال الدين «عبد الله بن العماد الشيرازى» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ سِمَةُ المناصب فى دَوْلته بأسْماء الكُفَاةِ مُجَمَّلَه، وخِلَعُ المَفَاخِرِ علىٰ بُيُوت السيادة مُكَمَّلَه، وخَزائنُ المُلْك بين نَقيضَيْنِ من جِنْسٍ واحدٍ: فبينما هى بأقلام الكُفاةِ مُحْتفَظَةٌ إذا هى بأقْلام الكُفَاةِ مُبَذَّلَه ـ أن يستقرّ المجلس السامى ... ... : علما بمحاسِنه التى وَضَح جَمالُها، وتَفَسَّح فى العَلْياء مَجالُها، ونَجَح فى مَنابِتِ الفَضْل أصْلُها، وشَرُف بكواكب اليُمْن ٱتِّصالُها؛ ومَعالِيهِ التى تهلَّلَ بها وَجْهُ الأصَالَه، وكمل بيْت الرَّآسَةِ والجَلالَه، ومَساعِيهِ التى ٱستوفىٰ بها أجناسَ الفَضْلِ وتَوْرِيثَه فما أخذها عن كَلالٍ ولا وَرِثها عن كَلالَه؛ وسِيرَته التى تَطْوى نَخَارَ الأقْرانِ حينَ تُنْشَر، وهِمّتِه التى أنشدتِ السّعادةُ فَرْعَها الكَرِيمَ : «مَبادِيكَ فى العَلْياءِ غَايَةُ مَعْشَر»؛ ومَكانَتِه من بَيْت السيادة الرَّفِيع عِمادُه، البَدِيع سَنَدُه المَنِيع سِنادُه، المَدِيدِ من تلقاء المَجرَّة طُنُبُه الثَّابتَةِ من حَيِّزِ النُّجوم أوْتادُه؛ وأنّه نَجْل السَّراةِ الذين أخذُوا من الفَضْل فى كلِّ وَاد، وٱسْتَشْهدوا علىٰ مَناقِبِهم كلَّ عَدُوٍّ وكلَّ وَادّ؛ وحَمَلُوا من صناعاتهم رَاياتٍ عَبّاسِيَّةً سارتْ بها رِماحُ أقلامِهم تحت أبْدعِ سَواد، ومَلَئُوا قَدِيمَ الأوطان بشَرَف الأخير : فسواءٌ علىٰ شِيرازَ محاسِنُ «ٱبن العميد» ومحاسن «ٱبن العماد»؛ وتَبيَّنتْ مناقبهُم بهذا النَّجْلِ السَّعيدِ طُرُقَ المراتِبِ كَيفَ تُسْلَك، وإحْرازَ المناصب كَيف يكونُ لها يَدُ أرباب البُيُوت أمْلَك، ودَرجاتِ الوظائف كيف تَسُرُّ الوالِدَ بالوَلَد حتّىٰ يقولَ : لا أُبالِى هى اليَوْمَ لِى أمْ لَك؟؛ كَمِ ٱستَنْهضَ والدُه لجليل فكَفَىٰ، وجَمِيلِ قَصْدٍ فوفىٰ؛ وأوْقاتٍ عَلَتْ حتى أضْحت

إلىٰ عُلاه تنْتَسب، ومناصبَ رُزِقَ ـ بتَقْواه فيهـا ـ من حَيْثُ يَحْتَسب ومن حيثُ لا يَحْتَسِب؛ وجاء هذا الوَلَدُ ذخيرةَ والدِه لحُسُنَتْ للخزانة الذَّخيره، وعُضِّدَت الأوّلَة من السيادة بالأخيرَه .

فلْيباشرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً هى أعلىٰ منها وأشْرفُ سِيرَه، مُجتهدًا فيما يُبيِّضُ وَجْهَ عِلْمِه ونَسَبِه ، عارفاً قَدْرَ هـذه الرُّتبةِ من أوائِلِ رُتَبِه ، متيقِّظَ الأفكار والطَّرْف ، متأرِّجَ المَعْـرِفة إذا ذَكَرُوا العَرْف ، زاكيًا تبرُ شهـادته على التَّعْليقِ فلا يُنْتَقَدُ عليـه فى مُتَحصَّل ولا صَرْف، حتّىٰ تقولَ الخزانَةُ : نِعْمَ العَزْم الشاهد ! وحَتّىٰ يشهدَ بوفاء فَضْلِه المَضْمُون ، وحتّىٰ يُعْلَمَ بأمانته أنَّ عبد الله هو «المأْمُون» ؛ وتَقْوى اللهِ تعالىٰ فى الوصايا أوَّل وأوْلىٰ ما تَمَسَّـكَ به ، وآستقام علىٰ شَرَف مَذْهَبِه ، واللهُ تعالىٰ يُسُرُّ الإسلامَ بتَنْبِيه قَدْرِه ويُقِرُّ الأوصافَ بمهَذِّبه ! .

تَوْقيعٌ بشهادة الأَسْوار، وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال يَمُدُّ على الإسـلام من عنايَتِه سُورا ، ويُجَدِّدُ للأولياء بِرًّا مَيْسُورا، ويُسْـعدهم بكلِّ تَوْقيع يكونُ بالحساب يوم القيامة كتابًا يلْقاه مَنْشُورا ـ أن يرتّب المجلسُ ... ... : عِلمًا بعزْمه الساهد، وحَزْمِه الشاهد ؛ وكفاءَته وأمانَته التى ما كان وَصْفُهما حدِيثًا يُفْتَرىٰ ، ونظَرًا لحاله وحالِ الأسْوارِ : فيالَها شهادةً كان أصْلُها نَظَرا .

فلْيباشِرْ هـذه الرتبةَ المباركةَ كما عُهِد منه مباشرةً حَسنةَ الآثار، مُشْرِقَةَ الأنْوار، جاعِلةً تلكَ العَمائرَ حِلْيَةً لِدِمَشْق : فبينما هى سُـورٌ إذا هى سِوَار ؛ ضابطًا لمتَحصّلِها ومَصْروفها، محرِّرًا لوقفِها مُحْترِزًا من وُقُوفِها، جاريًا علىٰ جميل عادته، زاكيًا بكرم الله

تعالىٰ على التَّوفيق تِبرُّ شهادته ؛ حتَّىٰ تشهدَ هذه الوظيفةُ بِهمَّته المتمكِّنةِ الأسباب، ويُضْرَبَ بين المَدِينة وبين من كادَها بسُورٍ باطِنُه فيه الرَّحمةُ وظاهِرُه من قِبَلِه العَذاب؛ واللهُ تعالىٰ يسدِّدُه فى كلِّ أمْرٍ، ويحفظُ هِمَّتَه وبَرَكَتَه «ليوم كَرِيهَةٍ وسِدادِ ثَغْر» .

تَوْقيعٌ بمشارفَةِ خزائن السِّلاح، لمن لَقَبُه «جمال الدين إبراهيم» وهو :

رُسِم بالأمر العالى ـ أعْلى اللهُ تعالىٰ أعلامَ حَمْدِه، وجعل أحكام المَقادِير من جُنْدِه، ولا زالتْ أفلاكُ الشُّهُبِ من خزائن سلاح سَعْدِه ـ أن يُرتَّب ... ... : حَمْلًا علىٰ حكم النُّزول الشَّرْعىّ، والطُّلوعِ إلىٰ رُتَبِ الاستحقاق المَرْعِىّ؛ وعِلْمًا بكفايته التى بَلَّغتْه آمالا، وجَعَلتْ للوظائف بذِكْرِه جَمالا، وثَمَّرتْ بقَلَمِه للجهات مالا، وأوْصلَتْه علىٰ رَغْمِ الأنْداد لِمَا لا ؛ واعتمادًا علىٰ أمانَتِه التى أعدّها مَلاذا، واكْتفىٰ بها سِلاحُ عَزْمِه نَفاذا؛ وصِيانَتِه التى طَالَمَا اعترض [لها] عَرَضُ الدُّنْيا فقالتْ : يإبْراهِيمُ أعْرِضْ عن هٰذا؛ واستِنادًا إلىٰ نَشْأتِه فى بَيْتٍ عَلَتْ فى المناصب أعْلامُه، وصَدَقَتْ فى المراتب حُلُومه وأحْلامُه، وتناسَبتِ الآنَ تَصرُّفاتُه السعيدةُ : فإمَّا فى تَدْبِير الجيوش وإمَّا فى تَثْمِيرِ السلاح أقْلامُه .

فلْيباشرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ بعَزْمٍ بَادِى النَّجا[(١)] والنَّجاح، وقلمٍ علىٰ حالَتَىْ وَظيفتِه وهمَّتِه مَاضِى عزم السِّلاح؛ مقرِّرًا لعَمَلِها ومَعْمولها، ضابِطًا اواصلها ومَحْمولها؛ حتَّى يَذْهبَ لسانُ سَيْفِها بشُكْرِه، وتَطْلُعَ أهِلَّة قِسِيِّها بميامِنِ ذِكْرِه، وتَكُون كُعُوبُ رِماحِها كُلُّهـا كَعْبٌ مُبارَكٌ بمباشرته وبِشْرِه ؛ واللهُ تعـالىٰ يسدِّدُ قَلَمـه فى وظيفته تَسْدِيدَ سهامِها ، ويُوَفِّر له من أنْصباءِ المَراشِد وسِهامِها .

(١) هو مصدر نجا نجاءً بالمدّ وقد يقصر ،

قلتُ : وهذا تَوْقيعٌ بوظيفةٍ بكتابة دِيوانِيّـة لسامِرِىٍّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبـاتَةَ ، وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زال قَـلَمُ أوامِرِه الفِضّىّ يُظْهِرُ ثَمَـره ، مُسْمِعاً حَدِيثَ الإنْعام الشامل حتّىٰ سَمَره ـ أن يرتّب فلانٌ فى كذا : عِلْماً بكفايته التى يُعْذَر بها فى قَوْمِه علىٰ سُلُوك التِّيه ، وحِذْقِ حِسابِه الذى هو ألَذُّ من السَّلْوَىٰ لمُجْتَنِيه ومُجْتَبِيه ؛ وقَرِيحَتِه التى إذا آختارها آخْتِيارَ قَوْمِ مُوسىٰ فَازَ من العمـل بمَطْلُوبِه ، وإذا قِيـلَ : يا سَامِرِىُّ ما قَدّمك على القُرَناءِ فى الحساب ؟ قال : بَصُرْتُ بِمَـا لَمْ يَبْصُرُوا بِه ؛ وأمانَتِـه التى حاطَت حِياطَةَ الصَّعْدَةِ السَّمْراء ، ورفَعتْ رايَتَه على الأنداد قائِلَةً : ما حَاطَ البَيْضاءَ والصَّفْراءَ كصاحب الحَمْراء ! ؛ وآعتمادًا علىٰ كتابَتِه التى شَهِدَتْ بها من حُسْبانَاتِه الأسْفار المُبَيِّنَه ، وإقراءا لصناعاته التى سَحَرتِ الفِكْرَ حتّىٰ قِيلَ : هـذا من شَعْبِ القَرّايِينَ والكَهَنَه .

فلْيباشِرْ هـذا الآستيفاءَ لِأوفىٰ منـه مُتَرقِّيا ، ولِكَلِماتِ الآختيار مُتَلَقِّيا ، ناهضًا بالخِدْمه ، مجدّدا باعتزامه الإسرائيلىّ ذِكْرَ النِّعْمَه ، عارِفًا قَدْرَ الإنعام الذى رَعىٰ وشَمِلَ كُلَّ ذِمَّه ، سالِكًا من الآجتهاد فى خِدْمَةِ حِسابِه كُلَّ طريقه ، غائظا للحُسَّاد من أهل مِلَّتِه : فيَعْبُدُون العِجْلَ مجازًا وحَقِيقَه ، مجتهِدًا فى آستِنْزال المَنِّ لا المَنْع ، مُعَوِّذًا الآلافَ الحواصل بعَشْرِ كَلِماتٍ رَاتِبَةٍ منه فى السَّمْع ، مُعَلِّقًا علىٰ جميعها هَيْكَلًا من أمانَتِه فهو أدْرَىٰ فى الهَيْكلِ بشَرْط الجَمْع ، صائِنًـا لنَفْسِـه من عُدْوانِ الخيـانة حتّىٰ لا يَعْدُو فى سَبْتٍ ولا فى أحَد ، مُتَنَزِّهًا عن أكْلِ المـال مع الخَوَنَة حتّىٰ يقال : نِعْمَ السَّامِرِىُّ الذى لا يَأْكُلُ مع أحَد .

الضـــرب الثـانى

(من الوظائف الديوانية بالشام ـ ما هو خارجٌ عن حاضرة دِمَشْق .
وغالبُ مايكتب فيها من التواقيع مفتتح بـ«رُسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بنظر غَزَّة، وهى :

رُسم بالأمر ـ لازال النَّصْرُ المكَرَّر يَحْلُو بذِكْرِه، والسَّعْد المقرّر يَجْلُو وُجوهَ الآمالِ بذَهْره، ولا بَرِحَ سِراجُ الخدَم مُضِيأً عنـد ليالى نَهْيه الحالكِ وأمْرِه ـ أن يستقرّ فلانٌ ... ... : لِمَـا عُرِف فى المناصب من نُهوضِه الذى رَاق وراج، وفى المهمّات من رَأْيِه الذى يمَشِّى أحوالَ الجهاتِ المستقيمة بسِراج ؛ ولِمَا شُهِر له فى الأَنْظار المتعدّدة من عُلُوّ الهِمَم ، وفى الوظائف المتردّدة من العَزَمات التى يقول السَّـدادُ : نَبِّهْ [لها] عُمَرًا[(١)] ثم نَم ؛ ولِمَـا وُصِف من أمانَتِه ودِرايَتِه وهُما المراد [تان] من مِثْلِه ، ورآسَـة خَلْقِه وخُلُقِه المُشِيدَيْنِ عن حُسْنِ الثناء وسَهْلِه ، وآثاره الحميـدة المنتقِلات وكيف لا ؟ وهو المنتسِب إلىٰ سلفٍ يحمَد لسانُ الإسلام أثرَ عَقْلِه ونَقْلِه .

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ المباركةَ على العادة مباشرةً يُحمد أثَرُها ، ويُسْنَدُ عن صحيح عزمه خُبْرها وخَبَرُها، ويُورق بغُصون الأقْلام وَرَقُ حِسابِها ويَرُوق ثَمَرُها ؛ مُجْتهـدًا فهو من نَسْل المجتَهِدين فى عوائد التَّحْصِين والتَّحْصيل ، والتَّأثير والتَّأثيل ، مَلِيًّا بمـا يجبُر كَسْر هذه البلاد بالصِّحَّة ويأْسُو جُرْحَها بعد التَّعْدِيل ، حَرِيصًا علىٰ أنْ يُحْيِيَ ـ بمشيئة الله تعالىٰ وتدبيره ـ عَملَها الذى لم يُبْقِ الموتُ من ذَمائِه غيرَ القَلِيـل ؛ سالِكًا

---

(١) أُنظر حاشية ٢ ص ٣٨٨ من هذا الجزء .

من النّزاهة والصّيانة طريقته المُثلىٰ، ومن الكفاءة والأمانة عادته التى ترفع درجته ــ إن شاء الله ــ إلىٰ ما هو أعلىٰ وأغلىٰ؛ مُسترفعًا للحساب ولقدره فى الخدمه، شاكرًا: فإنّ الشُّكر ضمينٌ لازدياد النّعمة بعد النّعمه، سراجًا وهّاج الذّكاء على المنار ولا ظُلمَ مع وُجوده ولا ظُلمه؛ والله تعالىٰ يُعلى قدره، ولا يُطفئ ذكره.

توقيعٌ بصحابة ديوان الحرمين، من إنشاء ابن نُباتة، لمن لقبه «شمس الدّين» وهو:

رُسم بالأمر ــ لا زالتْ أوامرُه نافذةً فى الآفاق، عاطفةً عطف النّسق علىٰ ذوى الاستحقاق، مُطلعةً شمس التّقىٰ والعلم فى منازل الإشراق ــ أنْ يستقرّ المجلس ... ... : علمًا باستحقاقه لما هو أكثر وأكبر، وأوفىٰ وأوفر، وإطلاعًا لشمسه وإن اعترضها غمّ غيم فى مطالع شرفها الأنور؛ وإعلامًا بأنّه غيمٌ يزور ويزول، ونقصٌ لا يُقيم إلا كما يذهب عارضٌ من أُفول؛ واعتمادًا علىٰ ما عُرف من وفاء صحابته، وأَلِف من سناء درايته ودرابته، ووُصف من أيّام ديونته (١) بعد أيّام حُكمه بعد أيّام خطابته! ؛ واستنادًا إلىٰ نشأته فى بيت العلم المستفاد، والحُكم المُستجاد، والفضل المُستزاد، وتربية الوالد الذى كان الاختيار يحلف بالفخر أنه ما يرىٰ أظهر من ذات العماد.

فليباشر صحابة ديوان هذين الحرمين الشّريفين بأمل مبسوط، وحالٍ بينما هو منحوسُ حظٍّ إذا هو ــ إن شاء الله ــ مغبوط؛ واجتهادٍ مضمونٍ لجدواه فضلُ الزياده، وسيرٍ لا يزال بشمسه حتّى تجرى لمستقرٍّ لها من منازل السّعاده، ومُباشرةٍ لأوقافها تُعان وتُعادُ أجمل إعانةٍ وأكمل إعاده، وصحابةٍ يتنوّع فى نفعها ويتعين حتّى تكونَ [منه] عادةً ومنها شهاده.

(١) أيام كان بديوانه. وهو لفظ سخيف ليس بعربى.

تَوْقيعٌ بنظر الشّعْرا و بانياس، من إنشاء آبن نُباتة، لمن لقبه «صَدْر الدِّين» وآسمه «أحْمد» بالعَوْد، وهو :

رُسم بالأمر - لا زالتْ صُـدُور الكُفاة مُنْشرِحةً فى أيّامه، مُنْسرِحَةَ الآمال فى إنعامه، ولا بَرِح عَوْدُه أحمدَ إلَى المناصب فى ظلال سُيُوفه وأقْلامه .

ومنـه : فلْيباشرْ هـذه الوظيفة الشاكِرَةَ له أوّلًا وآخِرا، ولْيجتهِدْ فيما يَزِيدُه من الاعْتناء والاغْتناء باطِنًا وظاهرا، وليستَزِدْ بشُكْره من النِّعمة فما أخلفَ وعْدُ المَزِيد شاكرا، ولْيَحْرِصْ علىٰ أن يُرىٰ أبدًا فى المراتب صَدْرًا ولا يُرىٰ عن وُرُود الإحسان صَادرا .

تَوْقيعٌ بنظر حِمْص، من إنشاء آبن نُباتة، كُتب به لآبن البَدْر ناظِرِ حِمْص بالنُّزول من أبِيه عند ما أسَنَّ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زال حسنُ النَّظَر من مَواهِبِه، ويُمْنُ الظَّفَر من مَرَاكِبه، وسَقْيُ البلاد صَوْبَ العَدْل من سحائبِـهِ، ولا بَرِح سنا البَدْرِ من خَدَمه فإذا أحَسَّ بالسِّرار ألْقَى الخَدَمة إلىٰ أزْهَرِ كواكبه - أنْ يستقرَّ المجلسُ ... ... : لِمَـا عُلِم من رَأْيه الأسَدّ، وعَزْمه الأشَدّ، ومَرْبَىٰ والده حتَّى يبين عِظَمُ الهَناء بالشِّبْل عند ماوَهَن عَظْمُ الأسَد، ورُكونا إلىٰ نَجابتَه التى سَمَتْ أصلًا وفَرْعا، وقَدُمتْ غَناءً ونَفْعا، وتَبَسَّمتْ كمائمُ أصْلِها المستأْنَفَة حيثُ كاد الزمانُ يَنْعَىٰ منه يَنْعا، وآستنادًا إلىٰ أنَّ الصِّناعة شَابَّه، ونَسماتِ التَّمكينِ هَابَّه، وإلىٰ أنَّ أغصانَ العزائم نَضِرَه، وإلىٰ أنَّ مع القُدْرة قُدْره، وإلىٰ أنَّ كوكَبَ العِزِّ فى المنزلة قد خَلَف بَدْرَه، وآعتمادًا علىٰ سِهام تَنْفيذه الصائبه،

وأحكام هِمَمِه الواجبه ، وأقْلام يَدِه التى تُحسِنُ إخراج الأمل فيه وكيف لا ؟ وهى الحاسِبَةُ الكاتبه .

فلْيباشِرْ هـذا النَّظَر المفَوَّضَ إليـه سامياً نَظَرُه ، زاكِياً فى الخِدْمة خُبْره وخَبَرُه ، شاكِرًا هـذا الإنعامَ الذى بَرَّ أباه (١) وأسْـعد جَدَّه ومَزِيدُ الإنعام مضمونُ المزيد لمن شَـكَرَه ، عالمـاً أنَّ هـذه المملكة الحِمْصِـيَّة من أقْـدم ذخائر الأيام ، وأكْرم ما أفاءَ اللهُ من غَنِيمَتِهـا وظِلِّها علىٰ جُنْدِ الإسـلام ، وأنَّهـا من مراكـز الرِّماح كما شُهِر فلْيُمِدَّهـا من تَدْبيره برماح الأقْـلام ؛ ولْيواظِبْ بحُسْنِ نَظَرِه علىٰ تقْرير أحْوالهـا ، وتَقْرِيب آمالهـا ، وتأْثير المصالح فى أعْمالها ، ولا يمحِّص أمرها فى التَّضْييق فكفىٰ ما حَمَّصَتْها الأيامُ علىٰ تعاقُب أحْوالهـا ؛ بلْ يجتهِدُ فى إزاحَةِ أعْذارها بسَـدادِ الرَّأْىِ الرابح ، وإشاعة الذِّكر الحَسَن مع كلِّ غادٍ ورائح ، ورفْع الأيْدى بالأدْعيةِ الصالحة فى تلك المشاهد للمَلك «الظاهر» فى هـذا الوقت والملك «الصالح» ؛ حتَّى يشهـدَ سَيفُ اللهِ «خالد» بمَضاءِ سَيْف حَزْمه وعَزْمه ، وحتَّىٰ يتوفَّر من غَرَضِ الخَيْر والحَمْد نَصِيبُ سَهْمِه ، وتقوى الله تعالىٰ أوَّلُ الوصايا وآخرها فلْتكُن أبدًا فى هِمَّة فَهْمِه .

تَوْقيعٌ بنَظَر الرَّحبة ، من إنشاء آبن نُباتة لمن لقبه «تاج الدين» وهو :

رُسم بالأمر ــ لا زالَ مَلِيءَ السَّحاب ، بسُقْيا الآمال الوارده ، مَمْلُوءَ الرِّحاب ، بكُفاة الأعمال السَّائده ، مَخْدوم الممـالك والأيَّام بأقلام الدواوين الحاسبة وأقلامِ الدواوين الحامدَه ــ أنْ يسـتقرّ ... ... : لكفاءته التى وافق خُبْرها الخَبَر ، ونَشْر ذِكْرُها نَشْرَ الحِبَر ، وصِناعة حِسَابِه التى لو عاش «أبو القاسم المعَرّى» لم يكن له فيها قَسِيما ،

(١) لعل هذه الكلمة زائدة من قلم الناسخ .

ولو عاصرها «ٱبْن الجَرَّاح» بقَـدَمِه وإقـدامه لا نقلب عنها جريح الفِكْر هَزِيمـا؛ بل لو نَاوأه الشَّدِيد المـاعِزُ لَذُبِحَ بغير سِكِّين ، والتَّاج الطويلُ لرَجع عن هذا التَّاج الطائل رُجوعَ المِسْكين .

فلْيباشِرْ ما فُوِّض من هذه الوظيفة إليه، ونَبَّه الأختبار فيها نَظَره الجميلَ وناظِرَيْه؛ جارِياً علىٰ عوائد هِمَمِه الوثيقه ، ماشِياً علىٰ أنْجح طريق من آرائه وأوْضح طَرِيقَه ، نازِلًا منزلةَ العَيْن من هذه الجهة التى لو صُوِّرَتْ بَشَرًا لكان ناظِرَها على الحقيقَـه ؛ مُفَرِّجًا لمَضَايقها حتَّىٰ تكون كما يقال رَحبه ، مُقْتَحِماً من حُزُون أحوالهـا العَقبة وما أدْراكَ ما العَقَبه؟ ؛ فَكَّ من رقابِ السُّـفَّار المعوَّقين رَقَبَـه ؛ وأطْعِم أربابَ الأستحقاقات فى يومٍ ذِى مَسْغَبه ، وساعَفَ بتَيْسِير المعلوم كلَّ كاتبٍ ذِى مَتْرَبَه ؛ حَرِيصًا علىٰ أن يُغْنِيَ الديوان بوَفْرِه ، وتُغَنِّى حُداةُ التُّجَّارِ بشُـكْره ، وعلىٰ أنْ يقومَ رجالُ الأستخدام فى المُهِمَّات بنَصْره ؛ وعلىٰ أن تُساقَ بفِضِّيِّ قلَمِه الأموالُ أحْسنَ سَـوْق ، وعلىٰ أنْ يكونَ لأهلِ الرَّحبَـة من إحسانه «مَالِكٌ» ومن جَدْوَىٰ تَدْبيره «طَوْق» ؛ واللهُ تعالىٰ يُوضِّح فى المصالح مِنْهاجَه، ويُعلِي علىٰ رُءُوس الأوصاف تَاجَه .

تَوْقيعٌ بنَظَر جَعْبر قبل أن تُنْقل إلىٰ عمل حَلَب ، من إنشاء آبن نُباتة، كُتب به «لِهَبة الله بن النفيس»، وهو :

رُسِم بالأمر ـ لا زالتِ المناصِبُ فى دولته الشريفة تَسْتقبِلُ هِبةَ الله بشُـكْرِها ، ونَتائِجَ الذِّكْر النَّفيس بمقدّمات نَشْرها وبِشْرها ـ أنْ يرتَّب ... ... : لكفاءته التى ٱشتهرتْ ، وأمانتِـه التى طَهُرت فظَهرتْ ، ومُباشَرتِه التى ضاهتْ نُجُوم السماء إذا زَهَرتْ ، ونُجُومَ الأرضِ إذا أزْهرتْ ؛ وأنّه الذى جُرِّب عَزْمُه فزكا على

التَّجْريب، ورَقِيَ فى مطالع التَّدْريج والتَّدْريب، ونَصَّ حَديثُ آجتهاده المقَرّب فكان سابِقًا على النَّصِّ والتَّقْرِيب؛ وأنَّ هـذه البُقْعة المباركة ممَّن أطاب التَّارِيخُ خَبَرها، وقَصَّ سِيَرَها، وحَمِدَ صاحِبُها العقيليّ من قَدِيمِ أثَرها، وعَرَف بركَتَها لمَّـا آستسقىٰ بها من السَّماءِ علىٰ لسان بَعْض الحيوان مَطَرَها .

فلْيباشِرْ هذا الثَّغْر المحروس بكفاءة باسِمَه، وعَزْمةٍ كالحُسامِ لأدْواءِ الأمور حاسِمَه؛ ورأيٍ للنَّجاح حَسَنِ الاَسْتِصحاب، وتَثْمِيرٍ كما مَلأَ الرَّحبَة فلْيَمْلأْ بمضاعَفَتِه الرِّحاب؛ مُوفِّرًا العَدَدَ للحواصِل وحَواصِل العِدَاد، فاتِحًا لأفواه القُفُول بذكره الجميل فى التَّهائم والنِّجاد، ماشيًا فيما يأتِى ويَذَر علىٰ سَدادِ الطُّرُق وطُرُقِ السَّداد .

تَوْقيعٌ بنَظَر البِقاع، من إنشاء آبن نُباتة، وهو :

رُسِم بالأمرِ – لا زال يُهَنِّئُ للكُفَاة رِزْقا، ويُهَيِّئُ لتَجْدِيد المناصب مُسْـتَحِقًّا، ولا بَرِحَتِ البِقاع بأيَّامه الكريمة تَسْعَد كما تَسْعَد الرِّجالُ ولا تَشْقىٰ – أن يرتِّب ... ... حَسَبَ ماتضمنته مُكاتَبة الجناب الفلانى: مُنَبِّهًا علىٰ قَدْر هذا الناظر المُهذَّب وصْفُه، المرتَّب علىٰ نَحْوِ الثناء نَعْتُه وعَطْفُه؛ المشهورِ بمباشرته آنتفاعُ الوظائف وآرْتفاعُها، الشاهِد بكفاءته وأمانته مَسالكُ الأعمـال وبِقاعُها؛ وآعتمادًا علىٰ مباشرته الزكيه، وكتابته التى لا يُداهِنها المداهِنُون وهى نِعم البَعْلَبَكِّيه[(١)] .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المتَيَمِّنَةَ بمطالع رَشَده، ومَطَالب سَدَدِه، عالمًـا أنَّ البقاعَ كالرِّجال تَسْـعَد وتَشْقىٰ: فلْيَكُنْ سَعْدُها علىٰ قَلَمِـه ويَدِه؛ مجتهدًا فيما يُبَيِّض وَجْهَ

(١) نسـبة الى بعلبك عند من يجعله اسما واحدا ويمنعه من الصرف فأما من يضيف الأوّل الى الثانى ويجرى الأول بوجوه الاعراب فالنسبة عنده بعليّ .

شَاكِرِه، حَرِيصًا على ٱزدياد الصفات التى كانت فى عقد حساب العمل مَحلَّ بَنَانه بجعلته الآن مَحلَّ نَاظِرِه ؛ مُثَمِّرا لأموال النواحى وغِلالِها ، واضعًا عن أرباب الأستحقاقات ما عليها من سُوءِ التدبير : من إصْرِها وأغلالِها ؛ محتاطًا لنفْسه فى الحوطات حتىٰ لا يُذْكَر إلا بخَيْر، ولا يُعرف قَلَمُه إلا بمَيْر، ناثرا حَبَّ حُبِّه حتىٰ تَهْوِى إليه ألفاظُ الثَّناء هُوِىَّ الطَّير، جاعِلًا تَقْوى الله مَقْصَدَه : فإنَّها السبيلُ إلىٰ فَوْز الدارين لا غَيْر .

الصنف الرابع

(ممَّا يُكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تواقيعُ مشايخ الخَوَانق ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(ما هو بحاضرة دِمَشْق ، وهو علىٰ ثلاث مراتب)

المرتبة الأولى

(ما يفتتح بـ«ـالحمد لله »)

وهو توقيعُ شَيخ الشيوخ بِدمشق : وهى مَشْيخةُ الخانقاه الصلاحية المعروفة بالشُّميصاتية . وقد تقدّم أنها يكتب بها أيضا من الأبواب السلطانية . ثم هى تُفْرد تارةً عن كتابة السِّر بالشام ، وتارة تُضافُ إليها .

تَوْقيعٌ بمَشْيَخةِ الشُّيوخ بالشام، من إنشاء الشَّيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للشيخ «علاء الدين علىّ» مفردة عن كتابة السِّرّ ، وهو :

الحمدُ للهِ الذى جعل شَرَف أوْليائه عَليا، وفَضْلَه الجليـلَ جَليّا ، وٱتّصالَ علائهم كٱتصال كَوْكبِ الشَّرَف بإيلاءِ الخيرات مَليّـا ، وحاضِرَ أُفقِهم كغائِبِه إذا سُطِّرت دَعَواتُه وٱسْتمطرت هِباتُه كان علىٰ كِلا الحالَين وَليّا .

نحمَـدُه علىٰ توالى النِّعم الأنيقَـه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تستَمِرُّ بأصْلِها فُروعُ الحقيقه ، ونشهدُ أن محمدًا عبدُه و رسـولُه أجْدرُ الخَلق بكَرَم الخَليقَـه ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبـه الذين سَلَكوا بهُدَاه أحسنَ طَرِيق وسُلِكُوا فى أحْسن طَرِيقَه ، صلاةً دائمةً لا تزالُ بها عقائِد الإخْلاصِ مُوثَقَة وألْسِنة الذِّكر طَلِيقَه ، وتَحيَّـةً إذا بَدتْ فى حَضْرةِ الأذْكار كانت للأعْين من النُّور نهـاره وكانت للأنْجم من القَدْر شَقِيقَه .

أما بعدُ، فإنَّ أوْلَى المراتب الدينية بتَقْديم العِنايَه ، وتَفْخيم الرعايه ، وتكريم التولية ولا سيما إذا كانت منتسبة إلىٰ أهْل الوِلايَه ــ مَرْتبةُ مَشْيخة الشيوخ التى يجمع عبادَ الله الصالحين نِطاقُها ، ويَضُمُّهم رِواقُها ، وتطلعهم مطالِـعَ كواكب الهُدَىٰ آفاقُها المُنيرة وأوْفاقُهـا .

ولمـا خَلَتِ الآنَ هـذه الرتبةُ بالشام المحروس من شَـيْخ تَدُور هذه الطائفة علىٰ قُطْبِه ، وتجتمعُ علىٰ مائدة قُرُباته وقُرْبه ، وتَمْشِى علىٰ قَدَمِه وتُناجِى صلاحَ أحوالهـا عن قَلْبِـه ــ تَعيَّن أنْ نختار لهـا مَن كَمَلت بالله أدَاتُه ، وصَفَتْ فى مشاهد الحقِّ ذَاتُه ، وزَكَتْ فى عِلْمَيِ الإبانَةِ والأمانة شهادتُه المُفْصِحةُ ومشاهَداتُه ، وأجْمع الناسُ علىٰ فوائد تَسْليكه واسْلاكِ قَلَمِـه حيث بَدَتْ فى وجوه الحسن حَسَـناتُه ، ووُجُوه الشام شَاماتُه ؛ لمـا شُهِر من مَعْرفته وعِرْفانِه ، ولمـا دُعىَ له ببَقَاءِ نُوح لمـا فاض

فى العِلْم من طُوفانِه؛ ولِمَا قام فى الأذهان من طبقة قَدْرِه الموصوف، ولما سار من رِسالة أخْباره فإذا قالَت الآثارُ : «هذا السِّرِىُّ» قال الإيثارُ : «وفَضْلُه مَعْروف» .

فلْيباشرْ هــذه المشيخةَ المباركةَ بصَدْرٍ للسّالكين رَحِيب ، وبِرٍّ للسائلين مُجِيب ، وفَضْلٍ يقولُ الرائدُ والمرِيدُ بدار إقامَتِه : قِفَا نَبْكِ من ذِكْرىٰ مَنْزِلٍ وحَبِيب ؛ وبِشْر وبُشْرىٰ يملآن عَيْنَ المُجتلِى ويَدَ المُجْتَدِى ، وعَطْفٍ ولُطْفٍ إذا قال الذّاكر لمن مَضَىٰ : راح مَالِكِى ! قال المُعايِنُ : وجَاء سَيِّدِى ؛ ولْيُراعِ أمور الخَوانِقِ الشاميّة ما غاب منها وما حَضَر ، وما سَمِع منها وما نَظَر ، ولْيُهَذِّبْ قُلوبَ ساكِنيها حتّىٰ يَعودَ كإخْوان الصَّفاءِ من المودَّةِ قومٌ كانُوا إخوانَ الصَّفَا من الحَجَر ، قائمًا بحقوق الرُّتبة قِيامَ مِثْلِه من أئمّة العِلْم والعَمَل ، داعيًا لهذه الدَّولة العادِلَة فإنّه أقصىٰ دَواعِى الأمل ، مُعْرِبًا ــ لأنَّ العَرَبِيَّة من عُلومه ــ عن الإيضاحِ غَنِيًّا عن تَفْصيل الجُمَل ؛ وهو المَسَلِّك فما يحتاج لتَسْلِيك دُرَرِ الوصايا ، المَخْبُوءُ لمِثْل هــذه الزَّوايا المبرورة : فنِعْمَ الزَّوايا المَحْبُوّة بنِعَم الخَبايا ؛ واللهُ تعالىٰ يُعيد على الأُمّة بركاتِه ، ويُمَتِّعهم بَاسْتِسْقاء الغُيُوث : إمّا بِبَسْطِها عِنْد بِرِّه ! وإمّا بِبَسْطِها عند دَعَواتِه .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بمشيخة الشيوخ بالشام أيضا ، مضافةً إلىٰ كتابة السِّرِّ به ، كُتب بها للقــاضى ناصر الدين « محمــد بن أبى الطَّيِّب » كاتِبِ السِّرِّ بالشام بـ«المَقَرّ الشريف» وهى :

الحمدُ للهِ الذى شَرح صُدور أوْليائه بمعرفة الحقِّ واتّباعه ، وجعلهم خَواصَّه الذين غَدَوْا من أتْباع الحَبِيب وأشْياعه ، ورَفَع ذِكْرَهم علىٰ رُءُوس الأشهاد وآواهُم إلىٰ مَقام الأُنْس فى محلِّ القرب بالتَّسْليك المُحَمَّدىّ الذى أوْصل إليه مَزِيدَه بانْقطاعِه ، وخَصَّهم

ببركات من حَضَّهُم على الأعْمال الصالحة بقَصْده الجميل وعِلْمه الغَزِير واتِّضاعه، ومَنَحهم بمن أوْضح لهم الطَّرِيقَ المستقيمَ بإبدائه الحَقَّ و إبْدار إبْداعه، وغَذَاهم بالحِكْمة فنَشَئُوا بالمعْرفة وصار لهم العَقْل السَّليم بالتَّحفُّظ من الأهْوِية الرَّدِيَّة فسَلِمتْ لهم الطِّيبة علىٰ قانون الصِّحَّة بحُسْن تركِيبِه وأوْضاعه، وأفاض عليهم من بَحْر علْمه ما نالوا به الرُّشْد فصاروا أوْلياءَ بملازمة أوْرادِه ومُتابَعة أوْزاعِه .

نحمدُه علىٰ ما ألْهمنا من وَضْع الشَّيْءِ فى محلِّه ، و إيصالِ الحَقِّ إلىٰ أهْلِه ، و إجابة سُؤَال الفُقراء و إعانَتِهم بمَن أغناهم عن السُّؤالِ بفَضائِله وفَضْلِه ؛ حمدًا يعيد كَشَّاف الكُرَب علىٰ مُرِيدِيه وطَلَبتِه ، ويَرْفَعُ مَقام من قام بشِعارِ الدِّين بتَعْظِيم قَدْرِه وعُلُوِّ دَرَجته ؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى مَن تقرَّب منه ذِراعا ، تَقرَّب منه باعا ، ومن أتاهُ يَمشِى أتاه هَرْوَلة و إذا تقرَّب إليه عَبْدُه بالنوافل أحبَّه ، ﴿وعِنْدَه مَفاتِحُ الغَيْبِ لا يعْلَمُها إلَّا هُوَ ويَعْلَمُ مَا فِى الْبَرِّ والْبَحْرِ ومَا تَسْقُطُ من وَرَقةٍ إلَّا يَعْلَمُها ولَا حَبَّه﴾. ونشهد أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أضاءَتِ الأكْوانُ من نُورِ هَدْيِه فاهْتدتْ به أصْحاب المَعارِف المُسَلِّمُون لمُوجِدهم الأمْرَ والإرادَه ، ومن هو رُوحُ الوجود الذى أحْيا كلَّ مَوْجُود وسَلَّك طَرِيقَ سنَّتِه المُوصِّلَةَ إلىٰ عَالِم الغَيْب والشَّهادَة ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين صَفَتْ قلوبُهم من الأكْدار و إلى التَّقْوىٰ سَبَقوا ، وصَدَقُوا فى المَحبَّة فاستحَقُّوا ثناءَ مَوْلاهم : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا﴾ ؛ فمنهم من شُمَّتْ من فِيه رَائحةُ كَبِدٍ مَشْوِيَّة من خَشْيَة الله ، ومنهم من حَدَّث بما شاهده ببَصَره وبَصِيرَته على البُعْد ورآه ؛ ومنهم مَن أحْيا لَيْلَه واسْتَحْيَتْ منه مَلائِكةُ السماء ، ومنهم من اتَّخذه أخًا إذْ هو بابُ مدينة العِلْم ورُكْن العلماء ؛ صلاةً دائمةً تُطَيِّبُ أوقات المحبِّين ، وتُطْرِبُ بسماعها قُلُوبَ المتَّقِينَ أهْلِ اليَقِين ؛ وسلَّم تسليما .

أمّا بعدُ، فإنَّ أولىٰ مَن قدّمناه، إلىٰ أهْل الصلاح، ورفعْناه، إلىٰ محلِّ القُرْب ورُوح الأرواح؛ وحكّمناه، علىٰ أهْل الخَيْر، ومكّنّاه فى حزْب الله الذى غلَب لمّا اجتهدُوا علىٰ إخراج حزب الشَّيْطان من قلوبهم وزحَفُوا علىٰ قرارِه بجَيْش التَّقوىٰ وسِمَتُهم الزُّهْدُ وحُسْن السَّيْر؛ ووَلّيناه أجلَّ المناصب الذى تجْتمعُ فيه قلوبُ الأولياء على الطّاعه، وأحْللناه أرفعَ المراتِبِ الذى خطبه منهم خِيارُ الجَمْع بخَلْوةِ عَرُوس الجمال فى الخَلْوة بعَقْد ميثاق سُنَّةِ المحبَّةِ وشهادة قُلوب الجماعَه ـ مَن جمَّلَه صورةً ومعنىٰ، وافتخَرَ به أحاد ومَثْنىٰ؛ وباشره علىٰ أحْسنِ الوُجوه، وبلَّغَ كلًّا من مُريدِيه وطَلَبَتِه من فضائله وفَضْله ما يُؤمِّلُه ويرْجوه؛ ومَدَّ موائدَ عُلومه المحْتَويَةَ علىٰ أنْواع الفضائل المُغَذِّيَةَ للقلوب، وجلس فى حُلَلِ الرِّضا فكَسَا القَوْمَ الذين لا يَشْقىٰ بهم الجَليسُ ملابِسَ التَّقوَى المطهرةَ من العُيوب؛ وظهر فى محْفِلِهم للهِدَايَةِ كالبَدْرِ وهم حولَه هالَه، وكان دَلِيلَهم إلى الحقِّ فغَدَوْا بتَسْليكه من مشايخ الرِّساله؛ وجاهد فى بيان معانى القرآن العَظِيم حتّىٰ قيل لمّا فسَّره: هذا «مُجاهِد»، واستدَلَّ علىٰ تنْزيه من تكلم به ـ سبحانه ـ عن التشبيه والتعليل "وفى كلِّ شيْءٍ له آيةٌ تدلُّ علىٰ أنّه واحِد"؛ ونقَل الحديثَ المحَمَّديَّ الذى هو "مُوَطّأ" لتفهيم "الغريب" منه وميز "صحيحه" لكلِّ "مُسْلِم" فأطرب بسماعه الوُفُود، وأفاد العِباد "تنبيه الغافلين" فقاموا فى الخِدْمة فأصْبحوا تَعْرِفُهم بسِيماهُم: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾؛ وخَفَض جَناحَه الذى عبَرَ به الشِّعْرى العَبُورَ والنَّسْر الطائر، وسار إحْسانُه إلىٰ طوائف الفُقَراء فصار مَثَلًا فحَبَّذا "المَثَلُ السَّائر".

وكان فلانٌ ـ أعاد الله تعالىٰ من بركاته وأسْبغ ظِلالَه ـ هو الذى أقامه اللهُ تعالى لهذه الطائفة المباركة مرّةً بعد مرَّه، وذُكرتْ صفاتُه الجميلة فكان مَثَله للعيون قُرَّه؛

واتّصف بهذه الصِّفاتِ التى ملأت الأفواهَ والمَسامعَ كما ملأَتْ مرءآته المُقل، وحصل البِشْر بمعروفه الذى تتبعه السرىّ أبو يَزِيدَ لجرىٰ علىٰ عادة القَوْم الكرام ووصل؛ ونَبعتْ عناصِرُ فضائله فكانت شَرابَ الذين صَفَتْ قلوبُهم من كَدَرِها، وأمْطرتْ سَحائبُ علومِه الإلهيَّة الدارّةُ من سماء الحقيقة فسالَتْ أَوْدِيَةٌ بقَدَرِها؛ وظهرتْ لُمْعَةُ أنوارِ شَمْسِ معارفه عند التَّجلّى على المُريد، وساقَ نُفوسَ القائمين لمَّا عَزَّ مَطْلَبُهم بأَصْلِه الذى شرح طَلاسِمَ قَلْبِ الفَانِى بذِكْرِ الباقِى فغَرِقُوا فى بحار المحبَّة ﴿وجاءَتْ كلُّ نَفْسٍ مَعها سَائِقٌ وشَهِيدٌ﴾ .

فلذلك رُسم بالأمر العالى ــ لا زال يرفَعُ أهلَ العِلْم والعَمَل إلىٰ أعلىٰ مَقام، ويَبْنِى لهم فى جَنّات القُرْب قُصورَ الرِّضا: ﴿لهم ما يشاءُون فيها﴾ ومَزِيدُهم الإكرام ـ أن تُفوّضَ إليه مشيخةُ الشيوخ بالشام المحروس: وَظيفَتُه التى خرجتْ عنه، المرسومُ الآنَ إعادتُها عليه، عوضًا عمَّن كانتْ بيده، بمعلُومَى النَّظر والمشيخةِ الشاهدِ بهما ديوان الوَقْف المبرور إلىٰ آخر وَقْت، علىٰ أجمل العوائد، وأكمل القواعد؛ تفويضًا نُظمتْ بالقَبول عُقُودُه، ودامَتْ فى دار السعادة سُعُوده، وفى دَرج المعالى صُعودُه .

فلْيَتَلَقَّ ذلك بالقَبول، ولْيبلِّغ الفقراءَ من إقْبالِه الجَمّ الذى ألْجم عَدُوَّه المُنىٰ والسُّول؛ ولْيعامِلِ المُريدينَ بالشَّفَقةِ المعروفَةِ من رَحْمة دينه وإفضاله، ولْيشمَلْ كلًّا منهم بعنايته ولُطْفه فإنَّ الخَلْق عِيالُ الله وأَحبُّهم إليه أشْفَقُهم علىٰ عِيالِه؛ وليأمُرْهم بملازمة إقامة الصَّلاة طَرَفَىِ النهار وزُلَفًا من اللَّيل، وإذا مالوا ــ والعياذُ بالله تعالىٰ ــ يومًا إلىٰ مُنافَسَةٍ بينهم فلْيقلِ: اتَّقوا اللهَ ما استطعتم وكُونُوا عِبادَ الله إخْوانًا ولا تَميلُوا كلَّ المَيْل؛ ولْيفْسَحْ لهم حَرَم الخَيْرِ الذى وقَفُوا فيه تُجاهَ قَصْرِ تَعبُّده الذى عَلَا بالجَوْهر

الفَرْدِ وقُوَّةِ الإخلاص ، ولْيُدْخِلْهم منه جَنَّـةَ إقبال فوائده التى فيها من أبْكار معانيه حُورٌ مقصوراتٌ فى خِيامِ أداتِه لم يَطْمِثْهُنَّ إنْسٌ قبلهـم ولا جَانٌّ وأعْجز قَصْرُه العالى وجَوْهَرُه الغالِى كُلَّ بَنَّاءٍ وغَوَّاص ؛ ولْيجعلْهُم له علىٰ جَبَـل آعْتِمادِه ومَرْوَةِ مُرُوءَته إخْوانَ الصَّفا ، ولْيُقِمْهُم فى رُكْنِ مقام المُنـاجَاة اذا زَمْزم مُطْرِبُ حَيِّهم تِلْقاءَ أهل الوفا ؛ ولْيقَـدِّم السابِقينَ بمعرفة حَقِّهم ونجدتهم بالوَرَع الذى يَغْلبون به الشـيطانَ فإنَّ حِزْبَ الله هم الغالبون ، ولْيُـداوِ قُلوبهم المَرْضَىٰ بشراب المَحبَّة وتَرْكيب أدْوِيَة الأمتلاء من الدنيا ليغتذُوا وقْت السَّحَرِ [بحديث] (هلْ من تائِب) ولا يَسْقِهم كاساتٍ تَضْعُفُ عنها قوَّتُهم حتَّىٰ يُنَقَّوْا من بَرَدَةِ الهَوى المُضِرَّة ويَغْتَسلوا بحـارِّ مجارِى دُمُوعِ الخُشوع ويَلْبسوا جَدِيدَ ملابِسِ التُّقىٰ ويغدوا من الحَبائِب . ومنه تُعرف الوصايا ، وعنه تُنْقل المزايا ، وكَرَمُ الأخلاق والسَّجايا ؛ ولْيأمُرِ السالكينَ بمداومة الأعمـال التى قامت بحُسْن العقائد وآسْـتَقلَّتْ ، ولْيَحُضَّ المُرِيدينَ أوائِلَ التَّسْلِيك علىٰ ذلك فإنَّ أحبَّ الأعمـال إلى اللهِ تعالىٰ أدْومُها وإنْ قَلَّتْ ؛ وليعرِّفهم المحبةَ بذكرِ الله لئَلَّا يقُومُوا علىٰ قَدَم الهُيام ، وليبيِّنْ لهم المَعْنىٰ إذا لم يعرفوا المَعْنىٰ ليقطعُوا الهَواجِرَ فى طلب الصِّـيام ؛ وليفرِّقْ بين الواردات بملازمة الأوْرادِ لَئَلَّا يقَعُوا من الأشتباه فى حيْره ، ولْيأمُرهم بآدِّخار العَمِلِ الصالحِ لتكونَ التقوىٰ لقلوبهم قُوتاً والزُّهـدُ مِيره ؛ وليَقْمَعْ أهلَ البِـدَع ، وليَرفَعْ مَن آتَّضع ؛ وليتفقَّـد أحوالَ أوقافِهم بجميع الخوانق والرُّبُط والزوايا بالجميل من النَّظَر ، وليَزِدْ فى الأُجور بما يؤثِّر فيها نظَرُه الذى مازال لهم منه أوْفَرُ نصيبٍ فحبَّذا العَيْنُ والأثَر ؛ والوصايا وإنْ كثرتْ فهو مُفيدُها وعنده مَنْبَعُها ، وتَقْوى الله الذى هو شَيْخُها ومُرِيدُها فى بيتـه المبارك حَلاوَةُ ذَوْقِها ومَجْمَعُها ؛ والله تعـالىٰ يَكْلَؤُه فى اللَّيل والنهار بآياته البيِّنات ، ويرفَعُه بها ويُرَقِّيه إلىٰ أعلى الدَّرجات .

المرتبـــة الثـانية

(من تواقيع مشايخ الأمكنة بحاضرة دِمَشْق ـ ما يفتتح بـ«أمّا بعد حمـــد الله» وفيها وظائف)

نسخةُ تَوْقيعٍ بمشيخة إقْراء القرآن ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للشيخ شهاب الدين «أحمد بن النقيب» بـ«المجلس العالى» وهى :

أمَّا بعدَ حمدِ الله رَافعِ شُهُبِ الهدىٰ أعْلاما ، وجاعِلِ رُتَبِ أفْضلها أعلىٰ ما ، ومُحِلِّ أحمدها من مَدارِس الآياتِ مَنازِلَ بَدْرٍ إذا محا المحاقُ من هذا اسمًا أثبت من سُمُوِّ هذا قمرًا تمَاما ، ومُسْكِنِه من مواطن الذكر جنَّاتِ قَوْمٍ بارتقائهم وبَقاءِ ذِكْرِهم خالدين فيها حَسُنَتْ مستقرًّا ومُقاما ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ أرفعِ من اتَّخذ القرآنَ إماما ، وأنْفعِ من عَقد استحقاقُ النُّبوَةِ علىٰ حَمْده خِنْصَرًا وجَلَا الحقُّ بهداه إبْهاما ؛ وعلىٰ آله وصَحْبِـه أمْنعِ من لَبِسَ بسَرْدِ الآياتِ دِرْعًا واقتسم من بركتها سِهاما ـ فإنَّ وظيفـةً يكونُ القرآنُ الكريمُ ، رَبِيعَ فَصْلِها وفَضْلِها ، ورُتْبةً يكون الذِّكر الحكيمُ ، مُداوِيَ قُلوبِ جَفْلِها ، ومَشْيخةً يكون مُرِيد الآيات البيِّناتِ وارِدَ زوايا أهْلِها ـ لأحَقُّ أن نَتَخيَّر لها الأكفاءُ من ذَوِى الفَضْلِ الأثِير ، والأدِلَّاءُ علىٰ أشرفِ نِتاجِ الهداية من ذَوِى الحِلْمِ الساكِن والعَزْم المُثِير .

ولمـا كانتْ مشيخةُ إقراءِ القُرآن بالتُّربة المعروفة بأُم الصالح بدِمَشْق المحروسـة : هى كما يقال : أمُّ العِلْمِ وأبوه ، وأخوه وحَمُوه ، وصاحِبَتُه وأهْلُ الكتابِ والسُّنة بَنُوه ؛ وخَلَتِ الآنَ من شيخٍ [كان] يحمِى حِماها ، وتُقْسِمُ الخلواتُ والآياتُ من بركته وتِلاوَتِه بـ«الشَّمْسِ وضُحاها والقَمَرِ إذا تَلاهَا» وكان فلانٌ هو الذخيرةُ المخبوءةُ لهذا الأمر ، وذو السِّيرة المحْبُوّة بهذا الشَّرف الغَمْر ، وصاحِبُ القراءة والبيان الذى لا يُعْوِزُ زمانَ

طَلَبته [أبو] عُمَر[١] ولا أبو عَمْرو، والجامعُ لعلوم كتاب الله تعالىٰ جَمْع سلامةٍ فى فَنّه، وصِحّة فى شَرَف ذِهْنه، وجَواز أَمْرٍ يشهد أنّ البَحْرَ يَخْرج [لدى] المشكلاتِ من صَدْره ويدخل عند عَقْد الحُبَا فى رُدْنه، والقارئُ الذى إذا قال مُبَيِّناً قال الذى عنده عِلْمُ الكتاب، والتّالى الذى اذا قَصر أو مدّ، مدّ إلىٰ سموات العُلَىٰ بأسْباب، والمُشيرُ إلىٰ علمه المرسوم بمُصْحَفه فلا عَدِمَ إشارتَه ومَرْسومَه أُولُو الألْباب، والمُجلِّى وإن سَمّاه العُرْفُ تاليا، والمُنَقِّب عن غوامض التَّفْسير: و «ابنُ النقيب» أولىٰ بسند التَّفْسير عاليا، والإمام السُّنِّى وإن سمّاه الشرعُ الإمامَ الحاكِمَ دهرا وأقام له فى أُفق كلِّ فضل داعيا، والسّامى الذى يَسْلُك بفَخْره على "العراقِيّ" أوْضح مَحَجّه، والعَرَبِىُّ الذى ما "للفارِسيّ" دخولٌ فى باب تَيقُّنه وإن جاء بحُجّه، وذو الرِّوايات المَرْوِيةِ سحائبُه، وخَلَفُ العلماءِ الأبْيضُ فما «خَلَفُ الأحْمر» مما يُقارِبُه، ولا «ثَعلَبٌ» مما تَضِجُّ لديه ثَعالِبُه، ولا «ابن خَرُوف» مما يُدانيه وهو «اللَّيْث» ومن الأقْلام مَخالِبُه، وبقيةُ السادة القُرّاءِ المنشدُ قولَ الحماسِىِّ.

وَإنِّى من القومِ الّذين هُمُ هُمُ * إذا ماتَ منهم سَيِّدٌ قام صاحِبُه!
بُدُورُ سماءٍ، كلّما غابَ كَوْكَبٌ، * بَدا كَوكَبٌ، تأْوِى إليْه كواكِبُه!

تَعيّن أن يُخْطَبَ لهذه المَشْيخة خِطْبَة الفَتَىٰ لاقتبال مَجْده والشَّيْخ لتَوْقيره، ويُطْلَبَ لهذه الرتبة طلبا يَقْضِى الأملُ فيه بعنوان تَيْسيره.

فرُسم بالأمر الشريف أنْ يستقر... ... : وضْعًا للأشياء فى محلّها، ورفعًا لأقْدار الأفاضِلِ إلىٰ أعلىٰ رُتَب الفَضْل وأجلّها، وعِلمًا بمقدار هذا العالم السابقِ فى أُفُق الهُدىٰ شهابا، المُدَفِّقِ علىٰ رِياض العِلْم سَحابا، النّاقِلِ إلىٰ مجالس الاشْتغال خُطًا يقولُ لها المؤْمنُ بالإكرام والكافرُ بالإرغام: ﴿ يالَيْتِنى كُنْتُ تُرَابا ﴾.

(١) هو حفص بن عمر الدّوْرى.

فلْيباشِرْ هـذه الوظيفةَ مباشرةَ مِثْله من ذَوِى الأناةِ والإفادَه ، وكُفاةِ المناصب الذين علىٰ سَعْيِهم الحُسْنَىٰ وعلى الدَّولة تَصِلُ الزِّياده ؛ ولْيَسلُكْ فى الأشغال عادة نُطْقه الأَحسن ، ولْيعامِلْ طَلَبَته فى المباحث بغير ما أَلِفُوا من الخُلُق الأخْشَن ، ولْيعلَمْ أنّه قد جُمِـع بين بِرِّه وتُرْبة الأُمِّ كى تَقَرَّ عينُها ولا تَحْزن ؛ فلْيسُرَّها بنُبْلِه ، ولْيبرَّها بفَضْلِه ؛ ولْيُوفِّرِ السَّعْىَ إليها كلَّ وقْتٍ فى المَسِير ، ولْيُفَسِّرْ أحلامَ أمامِها فيه فمِنْ مُفردات علومه التَّفْسير ، ولْيُحسِنْ لتلامذَته الجَمْع ، ولْيَحْمِ حِمىٰ رواياتِهم من الخطإ ولا عَجَب أنْ يُحْمىٰ حِمَى السَّبْع ! ، تالِيًا كلام رَبِّه كما أُنْزِل وحَسْـبه ، داعِيًا بِنَسَب قراءتِه إلى ٱبْن كَعْبٍ فحبذا نَسَـبُه المباركُ وكَعْبُه ؛ ناصِبًا بمنْظَرِ شَخْصِه أشخاص أمْثاله الأوَلِ بعد ما ضمهم صَفِيح اللَّحْدِ وتُرْبُه ، حتَّىٰ يميس «الكِسَائِىُّ» فى بُرْدِ مَسَرَّته الفـاخر ، ويفتح عيونَ « حَمْزَةَ » علىٰ زَهراتِ رَوْضِ عَبِقِ المباخر ، ويترنَّم وَرَشانُ « وَرْشٍ » فى الأوراق علىٰ بَحْرِه الزَّاخر ، ويظهرَ بفَضْلِه ذِكْرُ «الشَّاطِبىّ» فيكون «القاضى الفاضل» رحمه الله قد أظْهره فى الزمن الأوّلِ و«القاضى الفاضل» أجلّه الله قد أظْهره فى الزمن الآخر ، وتَقْوى الله تعالىٰ كما عَلِم خِتامُ الوصايا البِيض فلْيَتَناوَلْ مِسْكَها الذى هو بشَـذَا المِسْك سَاخِر ؛ والله تعـالىٰ ينفع بعلوم صَـدْرِه الذى ما ضاقَ عن السُّؤال فَمَلَّه ، ويمتعُ بعلوِّ قَدْرِه الذى إن لم يَكُنْ هو لفَضْل الثناء فمَنْ لَه .

المرتبـــة الثالثـــة

(من تواقيع مشايخ الأماكن بحاضرة دِمَشْقَ ـ ما يُفتتح بـ«رُسم بالأمر»)

تَوْقيعٌ بمشيخة الجَوَالِيقية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ؛ وهو :

رُسم بالأمر ـ لا زال حُسْن ٱعتقاده يَسْـتَنزِلُ النَّصْر فيُنْصَر ، ويَسْتَبْصِرُ مطالع الفَوْز فيُبَصَّر ، ويَسْتَجْلِبُ الأَدْعيـةَ الصالحةَ من كلِّ زاهِدٍ إذا حام فى أُفُق العبادة

حلَّق وما قَصَّر ـ أنْ يستقرَّ ... ... : حملًا على الوصية التامَّة الحكم والأساس، وعِلْمًا بأنَّه ممَّن حلَّ فى مشيخته لباسُ بَلَاس[1]، ونزع فى الزُّهد عمـا عُدّ زينـةً فى النَّاس ؛ وسرّح شَـعْره حقيقة التَّسريح فأطْلقه ، ومحا رِقَّ سَوادِه وبَياضه فأعْتقه ؛ ولازَمَ طرِيقَ مشايخه فمـا ، وشكر الحالَ فجعل فى مَنْبِتِ كلِّ شَعْرةٍ لساناً للشُّكروفـا؛ وسَرَّ طائفةً وردُوا علىٰ آثاره مَناهِلَ الوَفا ، وصَفَتْ قلوبهُـم ووجوهُهم فدارت عليهـم كُئُـوسُ إخْوان الصَّفا؛ حتَّىٰ مَشَوْا إلىٰ مطالب الخير مَشْىَ الرِّخاخ، وفَاخرُوا أقواماً دنَّسُوا عِزَّة رُتْبتهم فلولا أدبهُم لأنشدُوهم : «عُقولُ مُرْدٍ ولِحَىٰ أشْياخ» .

فلْيقُمْ فى مَشْيخَتِه قياماً يُحْيِي القَومَ بأنفاسِه ، ويُبْهِجُهم بكرامة الكَشْف من قَلْبِـه وتكريم الكَشْفِ من رَاسِه؛ سالِكًا بهم فى طرائق الخير مُسْتبشرين ، آمِرًا بتَقْصير الملابس وَرَعًا حتَّىٰ يدخل بهم إلى النُّسُك مُحلِّقين ومُقَصِّرين ؛ والله تعالىٰ ينفعُ به ، ويُغْنِي حالَه بمُذْهَبِ مَذْهَبِه .

الضـــــرب الثـانى

(من تواقيع مَشْيخة الأماكن ـ ماهو بأعمال دِمَشْق ، وفيه مرتبة واحدة ، وهى الافتتاح بـ«رسم»)

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ تَوْقيع بمشْيخة الحَرَم الخَليلىّ ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة ، كُتب به للشيخ «شمس الدِّين بن البرهان» الجعبرىّ بـ«المجلس» وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ أعلاه الله تعـالىٰ، وبَسَط عَدْلَه الذى لا يبلغه الوَاصِفُ ولو تَغالىٰ ، وسَرَىٰ لأولياء بِنِي الأولياءِ بِبِرِّه الذى تَسَنَّن بسُـنَّة الغَيْث ثم تَوالىٰ ـ أن

(١) البلاس كسحاب المِسْح فارسىّ معرب .

يستقرّ ... ... ـ أدام الله تعالىٰ ببركته الأنْتِفاع، و باقتداء سَلَفِه الأرتفاع، وأعاد من بَركاتِ بَيْتِهِ الذى قام البُرهانُ بفَضْله وقال بوُضُوح شَمْسه الإجماع ـ فى مَشْيخة حَرَم سيدنا الخَلِيل صلوات الله عليه وسلامه، علىٰ عادته القديمة المقدّمه، ومستقرّ قاعدته المعلومة المعلمه؛ بعْد إبطال ما كُتب به لغيره فإنَّ هذا الوَلِيَّ أَوْلىٰ، ولأنَّ الحقَّ معه وبَاعُ الحقِّ أطْوَلُ على المُعْتَدِين إطالةً[1] وطَوْلا؛ وضْعًا للشَّيْءِ فى محلّه الفاخر، وحملًا علىٰ ما بيده من تواقيع شريفة تَوارثَ بركَتَها مُلوكُ البسيطة فى الأوّل والآخِر؛ وعِلْمًا أنّه بقيّةُ العلْمِ المَشِـيد، والزُّهْد العَتِيد؛ وخَلِيفَة السَّلَف الصالح وما منهم إلَّا مَن هو «أمين» العَزْم «رَشيد»، وأنّه الشيخُ وكلُّ مَن عرفه فى بَقائه ولِقائه مُرِيد؛ والقائمُ بالمَقام الخليليّ ـ صلوات الله تعالىٰ علىٰ سَاكِنه ـ مقامًا مُجْتبىٰ، والمنْتَسِبُ إلىٰ خِدْمة الحَرَم الإبراهيميّ مَخْدوما صلى الله عليه ونسبا؛ والقَدِيمُ الهِجْرة فلا تتركه الأوْطان ولا تَهْجُره، والمُقِيمُ بالبَلَد الخَلِيلِيِّ علىٰ إقامة الخَيْر: فما ضَرَّه أنَّ العَدُوَّ يشْكُوه إذا كان «الخَلِيلُ» يشْكُره؛ وقد سبقتْ له مباشراتٌ فى هـذا الحرم الشريف فكان عَزْمُها تَماما، وشُكْرُها لِزاما، وكانتْ على الصَّادِرينَ والوَارِدينَ كتِلْكَ النَّار النبويَّة بَرْدًا وسَلَاما.

فلْيعُدْ إلىٰ مباشرة وظائفه المذكورة فى التواقيع الشريفة التى بيَـده، ولْيكُنْ يومُه فى الفضـل زائدًا علىٰ أمسِـه مُقَصِّرًا عن غَده؛ بثناء يتَلَقَّ أضيافَ أبِى الأضْـياف، بأليف أحْوالِ الداخلين إليه شِتاءً وصَيْفًا وإن لم تكُن رِحلَةَ إيلَاف، جارِيًا فى بركة التَّدْبير والتثمير علىٰ عادته وعادة سَلَفِه فنِعْم الخَلَفُ ونِعْم الأسْلاف؛ مُواظِباً علىٰ عادة تَقْواه و رفْع الأدعية لهـذه الدَّولة الشريفـه، جاعلًا ذلك منـه أوّلَ وآخِرَ كلِّ وَظِيفَه؛ والله تعالىٰ ينفع ببركات سَلَفه وبه، ويكافئُ عن الأضياف بَسْطَ راحَتِـه بالخيرات وفَضْلَ تَعَبِه.

(١) الأنسب «طُولا وطَوْلا».

تَوْقيعٌ بمشْيَخة الزاوية الأمِينية بالقُدْس ونَظَرِها، كُتب به للقاضى «برهان الدين» آبن المَوْصِلى بـ«ـالجناب العالى» وهو :

رُسم ... ـ لازال يُجْرى الأولياءَ فى مقاصدهم علىٰ أجْمل عادَه، ويَخْتار منهم لمَواطِنِ الخيْر مَنْ يرعاها بنَظَرٍ يُثمِّرُ لهـا السعادَه ـ أن يُحمَـلَ فلانٌ فى وظيفَتَىِ النظر والمشْيَخة بالزاوية الأمِينيَّة بالقُـدْس الشريف ، علىٰ حكم النُّزول والتقرير الشرعيَّين المستمرِّ حُكْمُهما إلىٰ آخر وَقْت ، وآستمراره فى الوظيفتيـن المذكورتين بمقتضاهما ، ومَنْع المنازِع بغير حكم الشرع الشريف .

فلْيباشرْ ذلك بمـا يُقْتدىٰ به من تَسْليكِه وتأديبه ، وتَسرُّعِ رَغْبته فى هـذا المقام ومن عناية تَهْذيبه ؛ والوصايا كثيرةٌ ولكن لا تُقال لِمثْـلِه إذ هو مُعَلِّمُها ، وتَقْوىٰ الله سبحانه أهَمُّها وأعظَمُها ؛ واللهُ تعـالىٰ المسْئُولُ أن يرشِدَنا إليها ، وأنْ يجعلَ فى كلِّ الأُمور آعتمادنا عليها ؛ بمنِّه وكرمه! .

الصـــــنف الخـامس

(ممّـا يُكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تَواقيع العُرْبان)

والذى وقفت عليه من ذلك مَرسومٌ مكْتَتَب برُبْع تَقْدمَة بنى مَهْدىّ بـ«ـالمجلس السامى» بغير ياء، كتب به لـ«موسىٰ بن حناس» مفتتحا بـ«أمَّا بعد» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله تعالىٰ الذى جمع على الطاعة الشريفة كُلَّ قَبِيلَه ، وبسطَ علىٰ ذوى الإخلاص ... ...(١) الظَّليلَه ؛ والشهادةِ بأنَّه الذى لا إلٰه إلَّا هو وحدَه لا شريكَ له

(١) بياض فى الأصل ولعله «ظلال نعمه الظليلة» .

شهادة أتخذُها للتوحيد دَلِيلَه، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمد عبده ورسوله الذى آتخذه الله تعالىٰ حَبيبَه وخَليـلَه ، وآتاه الدَّرجة الرفيعةَ والوَسِـيلَه ، وعلىٰ آله وصَحْبه صـلاةً مباركةً أصِـيلَه ـ فإن الأولىٰ لتزكيـة القوم تُرعىٰ[(١)] ، وذَا الإخْلاص ينجحُ له كلُّ مَسْعىٰ ، والجديرَ بالنِّعم من يُجيبُ بالطَّاعة حِينَ يُدْعىٰ ؛ مَن سَـلكَ فى الخِدْمة الشريفة مَسْلَكَ الأسْـلاف ، وتَجنَّب ما يُفْضِى إلى الشِّقاق والخِلاف ؛ فعند ذلك رَفَعْنا مَراتبَه ، وضاعَفْنا مَواهبَه ، وأنَرْنا بالإقبال الشَّريف كواكبَه ، وأجْملنا مكَاسبَه ؛ وبَسطْنا فى رُبْع تَقْدِمة بنى مَهْدِىٍّ كلامَه ، ونفَّذْنا أمره علىٰ طائفَتِه : قولَه وإبرامَه ؛ مَن أضحىٰ مَشْكورًا من كلِّ جانب ، مُجتهدًا فى المصالح وبلوغ المآرب ؛ مَن عُرِف بالأمانَةِ فسلَكها ، وآشْـتَهر بالصِّيانَةِ فملَكَها ؛ وحاز أوصافًا حَسَـنه ، وسيرةً نطقَتْ بهـا الألْسِنَه ؛ وكان فلانٌ هو الذى أضحىٰ علىٰ عُرْبانه مقدّما ، ومن أكابِرِهم معظَّما .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ مراسِمُه الشريفةُ عاليةً نافذَه ، وأوامرُه بصلة الأرزاق عائده ـ أنْ يستقرَّ ... ... علىٰ عادته وقاعدته : حَمْلًا علىٰ ما بيده من التوقيع الكريم .

فليباشِرْ هـذه الإمْرةَ مع شُركائه مُباشَرةً حَسَنه ، وليَسرْ فيها سـيرًا تشكُره عليه الألْسِنَه ؛ وليُظهِر السَّداد ، وليبذُلِ الطَّاعةَ والاجْتهاد ؛ وليَسْلُكْ المسالكَ الحَسَنَه ، والله تعـالىٰ يجعـله من الذين يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أحْسَـنَه ؛ والوصايا كثيرةٌ ومِلاكُها تقوىٰ الله تعالىٰ ، والله تعالىٰ يجعلُ إحساننا إليه يتوالىٰ .

قلتُ : وقد تقدّم أنَّه يُكتب بإمْرة بنى مَهْدِىّ من الأبواب السلطانية أيضا . علىٰ أنَّ هذا التوقيعَ من التواقيع الملفَّقةِ ، ليس فيه مطابقـة للتواقيع ، وليس برائق اللفظ ، ولا مُؤْنِق المعنىٰ .

(١) هذا الكلام كما نبه عليه المؤلف بعد غير منسجم بل غير مستقيم .

الصـــنف السادس

(ممـا يكتب لأرباب الوظائف بالشام ـ تواقيع زعمـاء
أهل الذِّمة : من اليهود والنصارى)

وهـذه نُسخة تَوْقيعٍ لبطرك النصارىٰ مفتتحًا بـ «أمّا بعـد» كُتب به للبطرك «ميخائيل» وهى :

أمّا بعدَ حمـدِ اللهِ الذى جعلنا نَشْملُ كلَّ طائفـةٍ بمزيد الإحسان، ونُفِيضُ من دولتنا الشريفـة علىٰ كلِّ بَلَدٍ آطمئنانًا لكلِّ مِلّةٍ وأمان ، ونُقِرُّ عليهـم من آختاروه ونُراعِيهـم بمزايا الفَضْـل والآمْتِنان ؛ والشَّهادةِ بأنّه اللهُ الذى لا إلٰه إلّا هو الواحدُ الذى ليس فى وحدانيته قَوْلان ، والفَرْد المنزّه عن الجَوْهر والأقنوم والوالد والولد والحُلول والحَدَثان ، [شهادةً] أظهر إقْرارَها اللّسان ، وعَمِلَتْ بها الجوارحُ والأركان ؛ والصّلاةِ والسلام علىٰ سيدنا محمدٍ عبدِه ورسولِه المبعوث إلىٰ كافّة المِلَلِ والإنْس والجانّ ، الذى بشّر به عيسىٰ وآمن به موسىٰ وأنزل عُمومَ رسالته فى التّوراة والإنْجيل والزّبور والفُرقان ، فصَحّ النَّقْل بنبوّته وآدَمُ فى المـاء والطّين وأوْضح ذلك البُرْهان ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين سادوا بإخلاص الوحدانيـه ، وشادُوا أركان الملة المحمّديّه ، وأعزُّوا الإيمان وأذلُّوا الطُّغيان ، صلاةً ينفَحُ طِيبُها ، ويُفْصِحُ خَطِيبُها ، ويَفْرح بها الرحْمٰن ـ فإنَّ أوْلىٰ من أقْمْناه بِطْريكا علىٰ طائفة النصارىٰ الملَكيّه ، علىٰ ما يقتضيه دِينُ النصرانية والمِلّة العِيسَويّه ؛ حاكِمًا لهم فى أمورهم ، مُفْصِحًا عمـا كَمَن فى صُدُورهم ـ من هو أهلٌ لهذه البِطْريكيه ، وعارف بالمِلّة المسيحيّه ؛ أخذَهُ[1] لها أهْلُ طائفتِه ، لمـا يعلمون من خِبْرتِه ومعرفته ، وكِفَايته ودُرْبَتـه ؛ ونُدِب إلىٰ وِلايَةٍ يستحقُّها علىٰ أبناء جنْسه ، ورَغب فى سلوكه لهـا مع إطَابة نَفْسه ، مع ماله من مَعْرفةٍ سَرَت

---

(١) يريد اختاره لهـا .

أخْبارُها ، وظهرتْ بين النَّصارىٰ آثارُها ؛ وكان فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ بهْجته ـ هو من النصارىٰ المَلَكيَّة بالمعرفة مَذْكُور ، وسَــيرُه بينهم مَشْكور ، القائِم فيهــم بالسِّيرة الحَسنَه ، والسَّالِك فى مذاهبهم سِيَرًا تشكُره عليها الألْسِنَه .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُه العميمُ لكلِّ طائفــةٍ شامِلا ، وبِرُّه الجسيمُ لسائر الملك بالفَضْل مُتواصِلا ـ أنْ يستقرَّ بَطْرَكا على النصارى الملَكيَّة بالشام وأعماله ، علىٰ عادة من تقدّمه فى ذلك ، وتقوية يده علىٰ أهل مِلَّته ، من تقادم السنين بحُـكْم رضاهم ، ومنع من يعارضــه فى ذلك : حملًا علىٰ ما بيده من التوقيع الكريم المستمرّ حكمه إلىٰ آخر وَقْت .

فلْيباشِرْ هذه البَطْركيَةَ مباشرةً محمودةَ العواقب ، مشكورةً لِمَا تحلَّتْ به من جميــل المناقب ؛ ولْيحكُمْ بينهم بمقتضَىٰ مَذْهبِه ، ولْيسِرْ فيهم سَيرًا جَمِيلًا ليحصلَ لهم غايةُ قَصْده ومَأْربِه ؛ ولْينظُر فى أحوالهم بالرحْمه ، وليعملْ فى تعلُّقاتهم بصدْق القَصْد والهِمَّه ؛ ولْيسلُكِ الطرقَ الواضِحةَ الجليَّه ، ولْيتخلَّقْ بالأخلاق المرضِيَّه ، وليفْصِلْ بينهم بحُكْم مذْهَبِه فى مواريثهم وأنكحتهم ، ولْيعْتمِدِ الزُّهدَ فى أموالهم وأمْتعتهم ؛ حتّىٰ يكون كلُّ كبيرٍ منهم وصغير ممتثِلًا لأمْرِه ، واقِفًا عندما يُقدّم به إليه فى سِرِّه وجَهْرِه ؛ مُنْتصبينَ لإقامة حُرْمته ، وتنفيذِ أمْره وكلِمَته ؛ ولْيحْسِن النظرَ فيمن عنده من الرُّهبان ، وليرفُقْ بذوِى الحاجات والضُّعفاء : من النِّساء والصِّبيان ، والأساقِفَة والمَطَارنة والقِسِّيسينَ زيادةً للإحْسان ، إحسانًا جاريًا فى المَساء والصَّباح ، والغُدُوِّ والرَّواح .

فلْيمتثلوا أمْره بالطَّــاعة والإذعان ، ولْيُجِيبُوا نَهْيــه من غير خلاف ولا تَوان ؛ ولا يُمكِّن النَّصارىٰ فى الكنائس من دَقِّ الناقوس ، ورَفْعِ أصواتهم بالضَّجيج ولا سيما عند أوقات الأذان لإقامة النَّامُوس ؛ ولْيَتقَدَّمْ إلىٰ جميع النصارىٰ بأنَّ كلًّا منهم يلزم

زِيّه، وماجاءت به الشروط العُمَرِيّةُ ـ عمرُ بن الخطّاب رضىَ الله عنه ـ لتكونَ أحوالُهم فى جميع البلاد مَرْعِيّه، ولْيَخْشَ عالِمَ الخفيّات، ولْيستعمِل الأناةَ والصّبْرَ فى جميع الحالات؛ والوصايا كثيرةٌ وهو بها عارف، والله تعالىٰ يلْهِمُه الرُّشْد والمعارف .

قلتُ : وهـذا التوقيع فيه ألْفاظٌ ومعانٍ غيرُ مستَحْسَنةٍ، وألفاظٌ ومعانٍ مُنْكرةٌ، أفْحُشها قولُه : مُفْصحًا عمـا كَمَن فى صُدُورِهم . فإنّه لا يعلم ماتُخْفِى الصدورُ وتُكنّه إلّا الله تعـالىٰ .

واعلم أنّه ربمـا ٱفْتتح تَوْقيعُ البطريك عندهم بـ«رُسم بالأمر» .

توقيـع لبَطْرك النصارىٰ بالشام أيضـا، كُتب به للبطريك «داود الخُـورى» بـ«ـالبَطْرك المحتشم» وهو :

رُسم بالأمرـ لازال يَعِزُّ بالآلْتِجاءِ إلىٰ حَرَمِهِ من يَأْوِى إليه، ويَقْصد عَدْلَه من أهْل المِلَلِ ويعتمدُ عليه ـ أن يستقرّ فلانٌ ـ وفّقه الله تعالىٰ ـ بطريكَ المَلَكية، بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة، حَسَب ما ٱختاره أهلُ ملّتِـه المقيمون بالشام المحروس ورَغِبوا فيه، وكَتبُوا خطُوطهم به، وسألُوا تقريره فى ذلك دونَ غيره؛ إذْ هو كبير أهل مِلّته، والحاكِمُ عليهم ما ٱمتد فى مدّته؛ وإليه مَرْجِعُهم فى التّحريم والتّحليل، وفى الحكم بينهم بمـا أنزل اللهُ تعالىٰ فى التّوراةِ ولم يُنْسخْ فى الإنجيل؛ وشِرعَته مبنِيّة على المسامحة والآحتمال، والصّبر على الأذىٰ وعَدَم الآكتراث [به] والآحتفال .

فَخُـذْ نفسكَ فى الأوّل بِهذه الآداب، وٱعْلَمْ بأنّ لك فى المَـدْخل إلىٰ شريعتك طَريقًا إلى البـاب؛ فتخلّقْ من الأخلاق بكلِّ جميل، ولا تَسْتَكْثِرْ من متاع الدنيا

فإنه قَلِيل ؛ وقَدِّم المصالحَة بين المتحا كمِينَ إليك قبل الفَصْل البَتِّ فإنَّ الصُّلح كما قِيل : سيِّد الأحكام، وهوقاعدة دِينِك المَسِيحىِّ ولم تخالِف فيه المحمديَّة الغَرَّاءُ دِينُ الإسلام ، ونَظِّف صُدُور إخوانك من الغِلِّ ولا تَقْنع بما يُنَظِّفه ماءُ المعمودية من الأجْسام؛ وإليك الأمرُ فى البِيَع ، وأنت رَأْس جماعتك والكلُّ لك تَبع ؛ فإيَّاك أن تَتَّخِذَها لك تِجارةً مُرْبِحه، أو تَقْتطِعَ بها مالَ نَصْرانىٍّ تقرّبُه فإنَّه ما يكونُ قد قَرَّبه إلى المَذْبَح وإنَّما ذَبَحه ؛ وكذلك الديارات والقَلَالى ؛ [يتعين عليه أن يتفقَّدَ فيها كل أمر فى] (١) الأيام والليالى ؛ ولْيَجْتَهِدْ فى إجراءِ أُمورها علىٰ ما فيه رَفْع الشبهات ، ولْيعلَمْ أنَّهم إنَّما اعتزَلُوا فيها للتَّعبُّد فلا يَدَعْها تُتَّخذُ متنَزَّهات ؛ فهُم إنَّما أحدثُوا هذه الرَّهبانية للتَّقلُّل فى هـذه الدنيا والتَّعفُّف عن الفُروج ، وحَبَسُوا فيها أنفُسهم حتَّىٰ إنَّ أكثرهم إذا دخل إليها ما يعودُ يبْقىٰ له خُروج ؛ فلْيحذِّرْهم من عَمَلها مِصْيَدَةً للمال ، أوْ خَلْوةً له ولٰكِنْ بالنِّساء حرامًا ويكونُ إنَّما تنزُّه عن الحلال ؛ وإيَّاه ثم إيَّاه أن يُؤْوِى إليه من الغُرباءِ القادمين عليه من يُرِيب ، أو يَكْتُم عن الإنْهاء إلينا مُشْكِلَ أمرٍ ورد عليه من بَعِيدٍ أو قريب ؛ ثم الحَذَر الحَذَر من إخْفاء كتابٍ يرد [اليه] من أحَدٍ من الملوك ، ثم الحَذَرَ الحذَر من الكتابة إليهم أو المشى علىٰ مثل هذا السُّلوك ؛ ولْيتجنَّب البَحْر وإيَّاه من اقْتحامه فإنَّه يَغْرَق ، أو تَلَقِّى ما يُلْقِيه إليه جَناح غُرابٍ منه فإنَّه بالبَيْن يَنْعَق ؛ والتَّقوىٰ مَأْمور بها أهلُ كلِّ مِلَّة ، وكلُّ مُوافِقٍ ومُخالِفٍ فى القِبْلَه ؛ فلْيكُنْ عملُه بها وفى الكناية ما يُغْنِى عن التصريح ، وفيها رضا الله تعالى وبها أمر المَسِيح .

تَوْقيعٌ برآسة اليهود بالشام، مفتتحا بـ«رسم» من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نُباتة، وهو :

---

(١) مأخوذ من «التعريف ص ١٤٥» .

رُسم بالأمر ـ لا زال جُودُه فى كلِّ ملَّه ، وغَمامُ كرمه على الخَلْق كأنه ظُلَّه ، وذِمامُ نِعمه يُبَلِّغ المُسْلِمَ والذِّمِّىَّ من الاستحقاق محلَّه ، أن يستقرَّ الحكيم (١) ... ...

ومنه : ـ وأن يعامِلَهم علىٰ ما أُلِفوه من الأحْكام ، ويُنْصِفَ صاحِبَ حَقِّهم من مُتَظَلِّمهم : حتَّىٰ لا يَعْدُوَ أحدٌ فى سَبْتٍ ولا فى سائر الأيَّام ؛ ويُهذِّبَ وَحْشِىَّ جاهلهم بإيناسه ، ويعالِجَ سَقَم كاهِلِهم حتَّى تطلُعَ الصَّفْراءُ من رأسه .

فلْيقُمْ مقامًا فى هذه الطائفة القديمه ، ولْيَعبُرْ من أسْفارٍ عبرانيَّة عن عوائد قضاياهم النظيمه ، مُفَرِّحًا بمعرفته كلَّ حَزَّان ، جامعًا كلَّ شَعَثٍ علىٰ عَدْلٍ عنده وإحْسان ؛ شاكِرًا لظُلَلِ النِّعمه ، عارِفًا بالعوارف التى تَرْعىٰ يمينَها كلُّ ذِمَّه .

النيابة الثانية

(من النيابات التى يُكتب عن نوابها بالولايات ـ نيابة حَلَب)

وهى علىٰ نَحْوٍ من نَمَط دِمَشْق فيما يكتب عن نائبها . فيكتب عن نائبها أيضا بالتواقيع لأرباب الوظائف بحاضرة حَلَب وأعْمالها : من أرباب السُّيوف ، وأرباب الأقلام الدِّينية ، وأرباب الأقلام الديوانية ، ومشايخ الأماكِن وغيرهم ، مُرَتَّبةً علىٰ المراتب الثلاث : من الافتتاح بـ«الحمد لله» ، والافتتاح بـ«أمَّا بعد حمد الله» ، والافتتاح بـ«رُسم بالأمر» .

وهذه نُسَخ تَواقِيعَ ممَّا كتب به لأرباب السيوف بحاضرة حَلَب وأعمالها ، يُستضاءُ بها فى ذلك :

---

(١) بياض بالأصول .

تَوْقِيعٌ بِنقابة الأشراف، كُتب به للشريف عِزِّ الدِّين «أحمد بن أحمد الحُسَيْنى» بـ«المقر العالى» وهو :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى خَلَّد السيادةَ فى بيوت الشَّريف أحمدَ تَخْليد، وقلَّد تقاليد السَّعادة، لأهْلِ الإفادة، أسْـعد تَقْليد، وجدّد الوِفادَة، لحَرَم العِبادَة، بعزِّ العِصابَةِ المحمدية آكَدَ تَجْديد، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدِ الخلقِ الذى عقد العَهْدَيْن لأمَّته، بالثَّقلَيْنِ : من كتاب الله وعِتْرَتِه، وسرَّ النفوسَ المُؤْمنةَ هُداه بكلِّ أبِيٍّ من أُسْرتِه، وأقرَّ العيونَ المراقبةَ بكلِّ سَرِيٍّ من أهلِ بيْتِه تبرُق تَبرُق أنوارُ النبوّة من أسِرَّتِه، وعلىٰ آله حَبْلِ النَّجاةِ للتَمسِّك، وسُبُلِ الهُداة للتَنَسّك، وصَحْبِه نجومِ الهُدىٰ، ورُجومِ العِدَا، وأئمَّةِ الخَير لمن بهم اقْتدىٰ، صلاةً وسلاما، يتعاقبان دَواما، ويتلازَمان على الألْسِنة مدَى المَـدىٰ لِزاما، ما حَلا بعين وَطَف، وما علا عَلَوِيٌّ ذُرا شَرف - فإنَّ أهمَّ ما اعْتنىٰ به وُلاةُ أُمورِ الإسلام، وأعمَّ ما اقْتنَى منـه رُعاةُ أجورَ الحكَّام - رِعايةُ مصالحِ أهْلِ البَيْت، وانتهازُ الفُرْصة فى مُوالاتِهم حتَّىٰ لا يقالَ لفَواتِها : لَيْت، وتَعْظيمُ ما عَظَّم الله تعالىٰ من حُقوقِهم، وتَكْريمُ ما كَرَّم رسولُه من بِرِّهم واجْتنابِ عُقوقِهم، وتَقْـديمُ أحَقِّهم بالتقْـديم لاحِق سَـبَّاقِهم إلىٰ غايات الغَلوات وسَبُوقِهم؛ والتَّعبدُ بالتَّعَبِ والاجْتهـاد فى نَفْعِهـم، ونَصْبُ النفوس للنَّصَبِ لتجُرَّ ذُيولَ الفَخْر بمُوالاتِهـم، وإعْلائِهـم على الرءُوس ورَفْعِهم؛ اخْتيارًا لرَأْيِ مَن زاد فى العناية بالعِتْرةِ الطاهِرة وأرْبَىٰ، وائْتمـارا بقوله تعالىٰ : ﴿قُلْ لَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ خصوصًا نِقابةَ الأشراف، والنَّظر فيما لهم من الأوقاف؛ فهى شاملةُ جَمْعِهم، وجامعةُ شَمْلِهم، وواصِلَةُ نَفْعِهم، ونافعةُ كُلِّهم؛ وبفضْلِ مبـاشرها تُسْبَغُ عليهم النِّعمه، وتُسْتَدَرُّ ببركة إجماعهم عليه سُحُبُ الرَّحْمه؛ وبكَفَالته تُجمع المِنَّة لمراتبهم وأحْسابهم، وبإيالَتِه تُدفعُ الظِّنَّة عن مَناقِبِهم وأنْسابِهم؛ وهو القائمُ عن وُلَاة الأمور من خدَمِهم

بفروض الكفايه، والدّائمُ الدّأْبِ لمرآة أدبهم لتَحْسُن لهم الرِّعايه، فوجب الآحتفال باختيار من يُحلِّى هـذا المَنْصِبَ الشريف، وتَعيَّن الآبتهالُ فى آمتياز مَن يُسبَغُ عليه هـذا الظِّلُّ الوَرِيف؛ ممَّن قَدُم فى هذه السيادةَ بَيْتُه، وآرتفع بخفْض العَيْش لقرابَتِه بعَفَافِه ودِيانَتِه صِيتُه؛ وتنزَّه عن كلِّ ما يَشِينُ وتبرَّا، وآكتسىٰ حُلَلَ الفَخار العليـة ومن أعْراضِ الدنيا الدَّنيَّة تعرّىٰ.

وكان فلانُ بن فلانٍ ــ أسبغ الله تعالىٰ ظِلَالَهم، وضاعف بمعالى الشَّرف جَلالَهم ــ ممَّن حازَ فى هـذه الخلال المَنَازِع، وجاز نِهايةَ هذه الخِصَال بلا مُنَازِع، ووَرَد من حِياض المناقب الجميلة أعْذبَ المَشَارع؛ ودَرَى المراقِيَ إلى المَجْد ودَرِب، وبلغتْ نفوس مُحبِّيه من مَخايل سُعُودِه الأرَب، وقَرَّتْ عيونُ أقاربِه بما حصل له من القُرَب؛ ونَشَأ فى حِجْر السَّعاده، وآرْتضع لِبَان الإفادَه، ولَحِقَ بالسابِقِينَ الأوّلِينَ من أهْـل بَيْته فى الزَّهاده، وتبتَّل بالإخلاصِ فظهرتْ علىٰ وَجْهِـه أنوارُ العباده؛ وآنْقطع على العمل، وبَلَغ من العـلوم الأمل: فؤوم تشبث بالمجـرَّة وهو شـامة فى شامه المنسوب:

وَرِثَ السِّيادَةَ كابِرًا عن كابِرٍ! * كالرُّمْحِ أُنْبوبٌ علىٰ أُنْبـوبِ.

أصْلُ نَخارٍ سَما، وفَرْعُ نِجارٍ نَما، وغَيْثُ فَضلٍ همىٰ؛ أثْبتَ فى أعلَى المعالى قَدَما، ونَاسب قَدْرَه سَعْيُه كَرَما؛ وجلَّتْ صفاتُ محاسِـنِه اللَّائِقَه، وحلَّتِ الأفواهَ مَدائحُ سجاياه الرَّائِقَه، وتَملَّت الألْسنُ وما ملَّتْ ما تُملى عنه بالخير كلُّ ناطقَه.

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زالتْ أوامِرُه بِبرِّ آل مُوالاتِه ماضِيَه، ونَواهيه بقَهْر أهلِ مُعادَاتِه قاضِيَه ــ أن يستقرّ ... ... آستقرارًا يُقِرُّ عينَ العُلَا، ويسرُّ نفوسَ أهلِ الوَلا؛ ويَضعُ الأشياءَ فى محلِّها، ويُسنِدُ الأُمور إلىٰ أهْلها؛ ويَسْتجلِبُ الأدعيه،

ويحمل بالولاء الجميل ألويه ؛ ويشرح خواطر الأشراف ويطيب نفوسهم، ويرفع بعد سجود الشكر بالدعاء رءوسهم .

فليباشر هذه الوظيفة مباشرة يقفو بها آثار بيته الطاهر، بعزم كريم : لكل مصلح بالخير غامر، ولكل مفسد بالضير قاهر ؛ وحزم حليم : لكل حق ناصر، ولكل كسر جابر ؛ وليصل بالبر رحمه، وليلن للضعيف كلمه ؛ وليقم بأعباء هذه الوظيفة قيام عمه الشريف وأبيه ، وليصم عن أموال الأوقاف صياما يقربه الله تعالىٰ به ويجتبيه ؛ ليحمد، هذا المنصب الجليل ، فى بيته الأصيل ، عوده علىٰ أحمد ؛ ولينفع قرابته بتثمير أموالهم ، وليشفع النهضة بالمعرفة فى تثمير غلالهم ؛ : لتدر بركته أخلاف أرزاقهم ، وتقر خواطرهم بمضاعفة أرزاقهم وإطلاقهم ؛ ويخصب فى جنابه مرعاهم ، ويقرب فى بابه مسعاهم ؛ وتنطق بشكره ألسنتهم الشريفه، وتنطبق علىٰ صحبته ظلال بيوتهم الوريفه ؛ وليعتبر ويختبر أشغالهم ويمنع شبانهم من الاحتراف بحرف الأدنياء ، وليأمر الآباء بتعهد تربية الأبناء ؛ وليأمرهم من العمل بما يناسب معاليهم ، وليجبرهم بتدبيره السديد جبرا يميزهم بحسن السمت من أوليائهم : وكلنا من مواليهم .

والوصايا كثيره، وعين علومه بتعدادها بصيره ؛ وتقوى الله تعالىٰ لا يهمل النص عليها ، والإشارة بحسن البيان وحسن البنان إليها ؛ فلتكن ركن آستناده، ورأس مال آعتماده ؛ والله تعالىٰ يديمه فى صعود درج السعود مدة حياته ، ويجمع له خيرى الدنيا والآخرة برفع درجاته .

وهذه نسخة توقيع بنقابة الجيوش بحلب ، كتب به لـ«ناصر الدين بن ايتبك» بـ«السامى» بغير ياء، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال أمْرُه الشريفُ يُعَضِّد الجيوشَ بأعْضَدِ ناصر، ويُرشِدُ أولياءَ الخِدْمة إلى آرْتقاء رُتَب المعالى فكلُّ إنسانٍ عن إدراك محلِّها قاصِر ـ أن يستقرّ فلانٌ ـ أدام الله تَوفِيقَه، وجعل اليُمْن والسَّعْد قَرِينَه ورَفِيقَه ـ ... آستقرارًا يُظْهر مالم يَخْفَ من نَهْضَتِه وكِفَايته، ويُشْهر مُعْلَن سرِّ يَقَظَتِه ودِرايَتِه؛ لأنّه الفارسُ الذى أعزّ كلَّ راجِلٍ بشَجاعته، والمُمَارِسُ الذى خَبَرَ الوقائعَ بحُسْن دُرْبَتِه ودراية صِناعَتِه؛ والعارِفُ الذى آتّصف بالخِبْرة وحُسْن الصِّفه، وعُرِفَ فى أُموره بالعَدْل والمَعْرفه؛ والهُمامُ الذى عَلَتْ هِمَّته فوقَ كلِّ هِمَّه، وكَشف بجزِيلِ مُروءَتِه من الكُرُبات كلَّ غُمَّه؛ وسار فى الجيوش سَيرَةَ والِده، فشَهِد كلٌّ بمـا حواه من طَارِف الفضل وتَالِدِه .

فلْيباشِرْ ذلك : سائِرًا فى الجنود أحسنَ سيرَه، مُراقِبًا الله تعالىٰ فيما يُبْديه من القَوْل والفِعْل والعَلانيَة والسَّريره؛ مُلازِمًا مايلزمه من حُقوق هذه الوظيفه، قائمًا بمـا يجب من أداءِ الخِدْمة الشَّريفه؛ ولْينفِّذْ ما يُؤْمَر به من الأوامر، عالِمًـا بمـا يتعيَّن من حقوق المأْمُور والآمِر؛ [وليجتهد] فى جَمْع العساكر وإعلامِهم بالمُهِمَّات، ولْيتفَقَّدْ أحوالَ الجُنْـد فى سائر الأوقات؛ ولْيُسْفِرِ النِّقابَ عن الوُجوه بالحِلْية يوم العَرْض، ولْيُسبِلْ حِجابَ السَّتْرِ علىٰ من أدركه العَجْزُ عن أداء الفَرْض؛ والوَصايا كثيرةٌ لاتحتاج إلى التَّعداد، وتَقْوَى الله تعالىٰ هى العُمْدة فى كلِّ الأُمور وعليها الآعْتِماد .

تَوْقيعٌ بالمِهْمَنْدارِيَّة بحَلَبَ، كُتب به لـ«غَرَس الدين الطناحى» بـ«ـالجناب العـالى» وهو :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عزائِمُه تَنـدُب للمهمَّات من غُرِسَتْ برِياض ولِيِّه أدْواحُ الهِمَم فزكا غَرْسا، وتُقرِّرُ لهـا من شاب فَوْدُه فى إفادة الوُفُود فأجاب

قَصْدًا وأطاب نَفَسًا، ولا بَرِحت عنايته تشمل من أولياء خِدَمها كلَّ شَهْم اذا سل عضبا أزال نفسا وأسال نَفْسا ، وتَعيَّن من أعْيانهم كلَّ جميلٍ يودُّ المُنافِسُ لو شاهده ولا تَبْخَس يَدُ الرُّقِيِّ منه نَفْسا ـ أنْ يستقرَّ ... ... لأنَّه ذُوالهِمَم التى لاتُلْحق جيادُها، ولا تُسْبَقُ جَوْدةً جِيادُها (١) ؛ لا مُنْتهىٰ لصغارِ هِمَمه فأنَّىٰ تُدرَك كِبارُها، ولا تُدْرك سَوابِقُه فأنَّىٰ تُقْتفىٰ آثارُها؛ له قَدَمُ إقدامٍ فى الثَّرىٰ لا يزال رَاسِخا (٢)، وهَامةُ هِمَّةٍ لم يَزَلْ شَرفُها على الثُّريَّا بَاذِخا ؛ ولأنَّه الفارِسُ الذى تُفُرِّسَتْ فى مَخايِله الشَّجاعه ، وتَبضَّعَ الشَّهامةَ فى الحروب فكانتْ أربحَ بِضاعَه؛ كَمْ أَزْرتْ سُمْرُ رِماحِه بهيفِ القُدود ، وأخجلتْ بِيضُ صِفاحِه كلَّ خَوْدٍ أُمْلود ؛ وكَمْ جُرِّدت من مُطْرِبات قِسيِّه الأوتارُ فتراقَصتِ الرُّءُوس، وشَرِبتِ الرِّماحُ خَمْر الدِّماء فعَرْبدتْ على النُّفوس :

له هِمَمٌ تعلُو السَّحائِبَ رِفْعَةً، * وكَمْ جاد منها بالنَّفائِس والنَّفْس!
وتُجْنىٰ ثِمارُ الفَضْلِ من دَوْحِ غَرْسه! * ولا غَرْوَ أن تُجْنَى الثِّمارُ من الغَرْس!

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً تَحْمَده فيها الوُرَّاد ، وتَشْكره بالقَصْد أَلْسنةُ القُصَّاد، وتَذْكُره البَرِيديَّةُ بالخير فى كلِّ وَاد ؛ ولْيُهيِّئْ لهم [من القرىٰ ما يهيِّئُه] (٣) المَضِيف ، ولْيحصِّل لهم التَّالدَ منه والطَّرِيف، ولْيتلقَّهم بوَجْه الإقبال ، ولْيبدَأْهم بالخير ليحْسُن له المآل، ولْيَجْعَلِ التَّقْوىٰ إمامه فى كلِّ أمرٍ ذى بَال ، وليتَّصفْ بالإنصاف فهو أحْمَدُ الأوصاف فى جميع الأحوال .

تَوْقيعٌ بتَقْدِمة البَرِيديَّة بحَلَب ، كُتب به لعماد الدين « إسماعيل » بـ«المجلس العالى» وهو :

(١) كذا فى الأصل مشيرا إليه بعلامة التوقف ولا توقف لان الأولى جمع جيِّد نقيض الردىء والثانية جمع جواد للفرس الرائع السابق .

(٢) ذكر القدم وهى أنثى مجاراة للعامة . (٣) زيادة تطلبها صحة المعنى .

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زالتْ عِنايَتُـه الكريمةُ تقدِّمُ إلى الرُّتب العَلِيَّة مَنْ بَنىٰ أُسَّ إقْدامِه من المُرُوءَةِ علىٰ أشرف عِمـاد ، وتُعَيِّن للمِهمّات الشَّريفةِ من آمْتطَىٰ من جِياد العَزْم أسْبق جَواد ، وتَنْدُب لها من أولياء خَدَمِه كلَّ نَدْبٍ لم يزلْ ساعِدُ سَعْده مَبنِيًّا على السَّـداد ، وتُصْعِد إلىٰ أُفقِها من ذَوِى الشَّهامة من فاقَتْ بِيَمِينه الصِّعاد ـ أن يسـتقرّ ... ... : لأنَّه ذُو الهِمَم التى سامىٰ بهـا الفَراقِد ، والكُفْءُ الذى نَشِط إلى القيام بالعزائم إذا قَعد عنهـا من ذَوِى الهِمَم ألْفُ راقِد ؛ والمقـدَّمُ الذى قدَّمه الإقدامُ علىٰ قَضَاء الأُمور المُعْضِـلات ، وحلّىٰ أجْيادَ ذَوِى المآرب إذْ حَلَّ لهم منها بِيُمْنِ عَزْمِه المُشْكلات ؛ ماعَلا جَوادَ بَرِيدٍ إلَّا وسابَقَ الطِّرْفَ بل الطَّرْفَ إلى المراد ، ولا نُدِب إلىٰ مُهِمٍّ للحـكم فيه نيلًا لأمَلٍ إلَّا قدح من رأْيه فى قَضائه أوْرىٰ زِنَاد ؛ والفارسُ الذى تمـايلَتْ بكَفِّه العواملُ عُجْبًا فأخجلت الأغْصان ، وحَلَتْ إذْ حَلَّتْ بقـلوب الأعداء وإن كانت من المُرَّان ؛ والشَّهْمُ الذى سـبق السَّهمَ إلى الغَرَض ، والشُّجاعُ الذى ما أعْرَض عن مُحاربَة الأقْرانِ : فصفَّىٰ جَوْهَرَ شجاعته من العَرَض ؛ واليَقِظُ الذى لم يكن يناظره إنْسان ، ولا آنطبق علىٰ أسيافه المُسَهَّدةِ بيَمينه أجْفان .

فلْيباشِرْ هذه التَّقْدِمَة مباشرةً يشهدُ الحاسِدُ له فيها بالتقديم ، ويُقِرُّ الجاحدُ أنَّه أُهْدِى لمـا أُسْدِى إليه إلىٰ صراط عَزْمٍ مُسْتقيم ؛ ولْيَطِرْ إلىٰ قَضاءِ المُهِمّات الشريفة بأجْنحَة السَّداد ، ولْيمتَطِ من جَوادِ الجوَادِّ أسبقَ جَواد ؛ ولْيُسَوِّ بين البريدية فى الأشغال ، ولْيُقبِلْ عليهم فيما يرومونه من حُسْن السِّفارة بوَجْهِ الإقبال ؛ ولْيسْلُكْ سَنَن الصِّدْق والتَّقْوىٰ ولْيجْعلْهما له أحْسنَ سُنَّه ، ولْيَلْبَس سَوابِـغَ الإنصاف فإنَّها من سهام الخَلَل جُنَّه .

نسخةُ توقيع بنيابة عينتاب ، كُتب به لناصر الدين « محمد بن شعبان » بـ« المجلس العالى » عوضًا عمن كان بها ، وهى :

رُسم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُه العميمُ، يرفَعُ لناصر الدين قَدْرا، وامْتِنانُه الجسيمُ، ينفِّذُ له فى حِفْظ الممالكِ المنصورة أمْرا، ويُولِّى أمْر الرَّعية مَن حَسُنتْ سيرته سِرًّا وجَهْرا ـ أن يستقرّ ... ... : لأنه شَهْمٌ سَهْمُ عِرْفانه مُصيب، وفَارِسٌ رَبْع خَبَره وخُبْره خَصِيب، له مَناقِبُ جَليلَه، وسِيرةٌ محمودةٌ جَميلَه، تَنقَّلَ فى المراتب تَنقُّلَ البَـدْر فى سُعُوده، وآرْتقىٰ ذِرْوةَ السيادة آرتقاءَ الكوكب فى منازِلِ صُعُوده؛ ماباشَر مُباشَرةً إلَّا ونُشِرتْ له بها أعْلامُ شُكْرِه، ولا علَا مَنْزلةً إلَّا تُلِيتْ بها سُورُ حَمْدِه وذِكْرِه؛ لم يزلْ متَّبِعًا للحقِّ فى أحكامه، سالِكًا سُـبُلَ الصَّوابِ فى نَقْضِه وإبْرامِه؛ فَتح له إقْبالُنا الكريمُ بابَه، فلِذلك قُدِّم علىٰ غيره فى هذه النِّيابه .

فلْيباشِرْها مُقْتفيًا آثار العَفَاف، مُرْتَدِيًا أرْديةَ العَـدل والإنصاف، مُقيمًا مَنَـار الشرع الشريف، مُنْصِـفًا من القَوِىِّ الضَّعيف؛ واللهُ تعـالىٰ يوفِّقه للصواب فيما تَوَلَّاه، والخطُّ الكريمُ شاهد أعْلاه .

قلتُ : وعلىٰ نيابة عينتاب هذه يُقاس مافى معناها من نيابات العَشَرات، فيَجْرِى الحكم فى تواقيعها كذلك . أمَّا الطبلخانات فقد تقـدّم أنَّ الأصلَ أنَّه لا يولَّىٰ فيها إلَّا من الأبواب السلطانية .

وهذه نسخةُ مَرْسومٍ بإمارة الرَّكْبِ الحَلَبىّ المتوجِّه إلى الحجاز الشريف، كُتب به لشِهاب الدين « أحمد بن الطنبغا » بـ«ـالجنـاب الكريم » . والبياض فيه وصـلٌ واحد، وهى :

رُسم بالأمر العالى ـ لا زال يَمنَحُ وَفْدَ اللهِ تعالى بِمَن لم يزلْ شِهابُ هِمَمِه فى أُفُق الصيانة مُنِيرا، ويُسْنِدُ أمرَهم إلىٰ كلِّ نَدْبٍ لايزالُ على الحقِّ ظاهرًا وعلىٰ ذَوِى الباطل

ظَهِيرا ـ أنْ يستقر فلان من أعْيان المَوالِى الأمراءِ الطبلخانات بحَلَب المحروسة ـ أعزَّ اللهُ تعالىٰ نُصْرتَه ـ أمِيرًا علىٰ رَكْب الحاجِّ الحَلَبىّ فى هذا العام المقبل، علىٰ أجْمل العوائد، وأكْمل القواعد، حَسَب ما رُسم به. ٱستقرارًا يحْمَدُ به الوَفْدُ عند صَبَاح هِمَمه السُّرَىٰ، ويَبْلُغ بهم قِرىٰ الغُفْران بأُمِّ القُرىٰ؛ ويَنالُ به طِيبَ العَيْش بطَيْبَة وطَابَه، ويُدرِكُ بجِياد فَضْلِه آرَابَه؛ ويُمْنَح به زِيارةَ سَيِّد البَشَر عليه أفضل الصلاة والسلام، ويُفَوِّق به سَهْم إصابته من البِشْر إلىٰ مَرامِى المَرَام؛ ويشهُد به بين قَبْره ومِنْبره رَوْضَةً من رِياض الجَنَّه، ويلبَسُ به سَوابِغَ القَبُولِ لتكون له من سِهام الذُّنوب أوْقَىٰ جُنَّه؛ ويتَردَّىٰ [به] بُرودَ التُّقىٰ حِينَ يَنْزِعُ مُحَرَّماتِ الإحْرام، ويُقْبِلُ به علىٰ ذِكْرِ الله تعالىٰ فى الوِهَادِ والبِقَاعِ والآكام، ويَسْتقبلُ به حَرَمَ بَيْتِ اللهِ الحرام، ويشِبُّ له الهنا حِينَ دخوله المسجدَ من باب بنى شَيْبَه، ويَتَعاطىٰ به أسباب التَّوبة، لينالَ من العَفْوِ من الله الكريم سَيْبَه؛ ولا يقتصر به عن التَّطاول إلى الدعاء إلى الله تعالىٰ لتَعُمَّه الرحمةُ بفضْلِه وطَوْلِه، ويدخلُ به حرمًا آمِنًا يُتَخَطَّفُ الناسُ من حَوْله، ويَفْتح به إلى المقام بابًا من الأمْن إلىٰ يَومِ القيامة مُقِيم، ويذْكُر بوقُوفه بعرَفاتٍ وُقُوفَه ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيم ﴾ .

فلْيباشِرْ هذه الإمْرَةَ المباركةَ مباشرةً يتيقظُ منها لهَجْرِ المنام، ولْيَصْرِفْ وَجْهَ سِهامه إليها فى المَسِير والمُقام؛ ولْيُنفِقْ علىٰ الحاجِّ من كُنوزِ مَعْدِلته، ولْيَجْعَلِ القيام بمصالحهم من أكْبرِ هِمَّته؛ ولْيَسْعَ بالصَّفا فى حِراسَتِهم من أهْلِ الفساد، ولْيعْتَمِدْ صَوْنَهم من ذَوِى العِناد؛ ولْيعامِلْهم بالإرْفادِ والإرْفاق، ولْيَقْطَعْ من بينهم شُقَّة الشِّقاق؛ ولْيجعَلْ تقوَى الله إمامه فى القول والعمل .

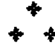

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الوظائف الدينية بحلب :

توقيعٌ بقضاء القُضاة، كُتب به لقاضى القضاة جمال الدّين «إبراهيم بن أبى جَرادة» قاضى قضاة حلب المحروسة الشهير بـ«ٱبن العديم» من إنشاء ... ... (١) الحنفى بـ«المقرّ الكريم» وهو .

الحمدُ لله الذى رَفع مَراتبَ المناصب العَليَّة وكساها من مَلابِس أهْلها حُلَل الجمال، وجَمع شَمْلها فٱقترنت بإلْفها ٱقترانَ النَّيِّرَيْنِ: شَمسِ الضُّحىٰ وبَيْتِ الكَمَال، ورَفع عَنْها يَد المُتطاولِ والمُتناولِ فأصْبح رَقْمُ طِرازِها المُوَشَّىٰ مُنْتَسِجًا علىٰ أحْسنِ مِنْوال، وقطع الأطماعَ عن إدراك شَأْوِها فلا يَصِلُ إليها إلّا كلُّ فَحْلٍ من الرجال .

نَحمدُه علىٰ نِعَمه التى ٱعترف من بَحْرِها الوَافِرِ بالخَيْرِ الكامل والفَضْلِ المَديد، وٱقْترف من ٱقتطف ثِمارَ جُودِها جَميلَ النَّوالِ المُفيد، وجَزيلَ الإحسان العَديد، حمدًا يُوافِى نِعَمَه ويُكافِى مَزِيدَه، ويعُمُّ بالإنعام الشَّامِلِ نَائِلَه ومُرِيدَه؛ ونَشكُرُه علىٰ مِنَنِه التى يقصُر لِسانُ الإطناب عن حَصْرِها وتَعْدادِها، وتَعْجزُ بَناتُ الفكْرِ عن إدراك وَصْفِها وتَرْدادِها، شُكْرًا ينالُ به العَبْدُ رِضا المَعْبود، ويبلغُ به من مقاصِد الكَرَم والجُود غايةَ المقصود؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ولا ضِدّ، ولا وَالِدَ له ولا وَلَد ولا نِدّ؛ شهادةً تُبيِّضُ وَجْهَ قائلها عند العَرْض، ويَنْطِقُ بها لِسانُ التوحيد يوم تُبَدَّلُ الأرضُ غيْرَ الأرْض؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظْهر اللهُ به الحقَّ وأعْلنه، وبَهَرَ بحقائق مُعْجِزاته العُقولَ فاعترف

(١) بياض فى الأصل .

كلٌّ بصحّةِ ما عَرَّفه وبيَّنه؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين نَصر اللهُ بهم الإسلامَ وأبّد أحكامه، وأحْكَم بهم مَبانِى الإيمان المُنيرةَ وأيد إحْكامه؛ صلاةً تتعطَّرُ بنفحَات عَرْفِها أرْجاءُ المدارِس، ويُنادِى لسانُ فَضْلها لرَائِد فرائِد المَعالِى علىٰ طُول المَدَا . رِسْ(١)؛ وسلَّمَ ومجَّد وكَرَّم، وشَرَّف وبجَّل وعظَّم .

وبعـدُ : فإنَّ أوْلىٰ من لحَظتْه عَينُ العِنايَة والقَبُول، وأجْدَرَ من بَلَغ من مقاصد المناصب العلية غايةَ القَصْدِ والسُّول؛ وأعزَّ مَن رَقِىَ ذُرا المَعَالى وٱرْتقىٰ، وأجَلَّ مَن وُصِف بالأوصاف الجميلةِ ونُعِتَ بالدِّيانة والتُّقىٰ ـ مَن سَارتْ سيرةُ فَضْلِه فى الآفاق، ودَلَّ علىٰ صَفاءِ السريرة منه حُسْنُ الأخلاق؛ وٱشتهر بالعلوم الجزيله، والمناقب الجَليله، وعُرِف فى الإنصاف بالأوْصاف المحمودة والخِصالِ الجميلَة؛ وأظْهر من العلوم الشريفة، ماحيَّر العقول، وحقَّق من المسائل اللَّطيفَة، ماجمع فيه بين المَنْقُول والمعقول؛ ودقَّق المباحِثَ حتَّىٰ ٱعترف بفَضْلِه الخاصُّ والعام، وفَرَّق بين الحقيقة والمَجازِ فلا يحتاجُ إلى ٱستعارة إذا تَشَبَّه الأخصام؛ وحَكَم بما أراهُ اللهُ فأحكامُه مَرْضِيَّه، وقَضاياهُ فى الجملة قد أُنْتِجت فهى مُقَدَّمةٌ فى كلِّ قَضِيَّه؛ وثابَرَ علىٰ إلقاء الدُّروس فى وقْتِها وأوانِها، وقَرَّر كلَّ مَسْألةٍ فى محلِّها ومكانِها؛ وأفاد طُلَّاب العلْم الشريف من فوائده الجَمَّه، وكَشَف لهم عن غَوامِض المباحث فجَلَا عن القلوب كلَّ غُمَّه؛ وجَال فى ميادينِ الدُّروس لخَيِّر الأبطال، وحاز قَصَبَ السَّبْقِ فى حَلْبَة اللِّقاءِ فرَدَّ مُتأسِّفًا كلَّ بَطَّال؛ ونظر فى أُمور الأوقاف بما أراهُ اللهُ فأتْقن بحُسْن النظر وَجْهَ ضَبْطِها، وأجْرَىٰ أُمورَ الواقفينَ على القواعد المَرْضِيَّة فوافق المَشْروطَ فى شَرْطِها؛ وجَمَع ما تفرَّق من شَمْلها فأجْمَل وفَصَّل، وحَفِظ أموالَها لحَصَّل

(١) مراده ارس من رسايرسو .

وأصَّـل ؛ فهو الحـاكم المشهورُ بالعَـدْل والمَعرِفَه ، والناظرُ الذى حَمِدت الأُمُورُ تَصرُّفَه ؛ والإمامُ الذى ٱئتمَّ الأنامُ بأقوالِه وأفعاله ، والعالِمُ الذى يَحمَـدُ الطالِبُ إليه شَـدَّ رِحَالِه ؛ والمدرِّسُ الذى أفاد بِفِقْهِه المُفيدِ النـافع ، وترفَّعَ فى البِداية والنِّهاية فهو المختارُ فى المنافع ؛ وسلَكَ مِنهاجَ الهِدايَه ، فنال من العلومِ الغايَه ؛ فبدائـعُ ألفـاظِه لعقائد الدِّين منظومه ، وكَنزُ عِرْفانِه عَزِيزُ المَطْلَب ومحاسِـنُه المشتملةُ على الكمال مَعْلُومه .

ولمـا كان فلانٌ ــ أعزَّ الله تعـالىٰ أحكامَه ، وقَرَنَ بالتوفيق والسَّـدادِ نَقْضَـه وإبْرامَه ؛ هو المشارَ إليـه بالأوصاف والنُّعوت ، والمعوَّلَ عليـه إذا نَطَق بالفضائل والحـاضِرونَ سُكُوت ؛ والمشكورَ أثرُ بَيْتِه المشهور ، والمنْشُورَ عَلَمُ عِلْمِه من السَّـنَة والشُّهور ؛ يالَه من بَيْتٍ لم يزلْ معمورًا بالتَّقوىٰ والصَّلاح ، مَحْمِيًّا بأسْلِحة أهْلِه : فمن أحْكامِهم السُّيوفُ ومن أقْلامهم الرِّماح ؛ فهو العـديمُ المِثْل وبَيْتُه العـديم ، وحَرَم فَضْلٍ يحُجُّ إليـه الرَّاحِلُ والمُقِيم ؛ فٱستحقَّ أنْ تقابَلَ مقاصِـدُه بالإقبال ، ويُقابَل بمـا يُؤَمِّله مُقابَلَةَ مِثْلِه ولا كسائر الأمْثال .

فلذلك رُسم بالأمر الشريف ــ لازالتْ مراسِمُه المُطاعة تُقِرُّ الحقَّ فى يَدِ مُسْتحِقِّه ، وتَرُدُّ الأمرَ إلىٰ وَلِيِّـه ومالكِ رِقِّه ؛ وتَسُـوق هَدْىَ الإحْسانِ إلىٰ مَحِلِّه ، وتَضـعُ الٱسْتِحقاقَ فى يَدِ مُسْتَحِقِّه والحقُّ وَضْعُ الشَّىْءِ فى مَحَلِّه ــ أن يستقِرَّ ... ... بحكم ظُهورِ الحقِّ بيده المباركه ، وخَفاءِ الباطِلِ الذى ليس له فى الحقِّ مُشاركَه ؛ ٱستقرارًا مباركًا مَيْمونًا ، بالخيْرِ والسَّـعد مَقْرونا ؛ لأنَّه الأحقُّ بأمرِ وظائفه ، والطائف حول حَرَمِها الممنوع طائفه ؛ وأوْلىٰ من عُقِلَتْ عليه عَقِيلَتُه ، ورُدَّتْ إليه فَرِيدَتُه ؛ وباشَر بنفسه الكريمةِ ما عَهِـد إليه سَلَفُه ، وٱنْفرد به فلا ينالُه ــ إن شاء الله ــ إلَّا خَلَفُه ؛

طالما أَلِفَتْ منه الأوقافُ مَنَّ الشَّفقة والخَيْر، وحَفِظ جِهاتِها المَحْمِيَّةَ عن تطاوُلِ يدِ الغَيْر، ونَعِمَ بحُسْنِ نَظَرِه من المدارس كلُّ دارِس، وفازتْ منه الدُّروسُ بالعالِمِ العارِفِ والبَطَلِ المُمارِس .

فلْيباشِرْ ذلك علىٰ ما تقدّم له من حُسْن المباشره، ولْيجْتَهِدْ - علىٰ عوائده - فى تحصيل رَيْعه مُثابِرًا على الأُجُور أشدَّ مُثابَره، ولْيَصْرِفْ أموال الأوقاف فى مَصارِفها، بعد العِمارة والتَّثْمير المبْدَأيْن فى شَرْط وَاقِفِها، ولْيسَوِّ - علىٰ مُقتضَىٰ مَعْدِلته - بين القَوِىّ والضعيف، والشابِّ الصَّغير والشَّيخ النَّحِيف، على قَدْر تفاوُتِهم فى العِلْم الشريف، ولْيُطْلِقْ لسانه فى إلقاء الدُّروس علىٰ عادته، ولْيُمَهِّدْ للمشتغلين طَرِيقَ الفَهْم لِينالوا القَصْدَ من إفادته، وهو بحمد الله تعالىٰ أَوْلىٰ من أدّى الأُمور علىٰ الوَجْه المستقيم، ووَفَّى المناصِبَ حقَّها فإنَّ الوفاء جَدِيرٌ بـ«إبراهيم» (1) .

والوصايا كثيرةٌ وإليه مَرْجوعُها، ومن بِحارِ عِلْمه ودِينِه المتين يَنْبُوعُها، والله تعالىٰ يُؤَيِّدُ به المناصِب، ويرفعُ بعلُوِّ رُتبته المَراتِب .

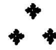

نسخةُ تَوْقيع بخَطابَة جامع، كُتب به لقاضى القُضاة «كمال الدين عمر» ابن قاضى القضاة جمال الدين إبراهيم بن أبى جرادة الحَنَفِىّ، الشهير بابن العديم بـ«المقَرِّ الشريف» وهى :

رُسِم بالأمر الشريف - لا زالتْ عِنايَتُه تُرَقِّى فى مَنازل المَجْد من تأَثَّل بفَضْله بَهْجةً وكمالا، وتُذَلِّلُ جِيادَها لفُرسانِ الفضائل فتُجيدُ لهم فى مَيْدانِ البلاغة مَجالا،

(1) يشير الى قوله تعالى : (وإبراهيم الذى وفّىٰ) .

وتُسلِّم رايتَها [إلىٰ من صدق بارق سعده ، ووُهِب من العلم](١) ملكا لا ينبغى لأحدٍ من بَعْده ــ أن يَستقِرَّ ... لأنَّه الإمامُ الذى [لو] تقدّم عَصْرَه لكان أحَدَ أئمّة الاَجْتهاد، والعارِفُ الذى بلغ بولايَتِه مُرِيدُ الفَضْل غَايةَ المُراد، والعالِمُ الذى وَجَدتْ أخْبارُ علومه نسبة يطابقها فى الخارج صالحُ العمل ، وآتبع سَنَن الكِتَاب والسُّنَّة فلم يتخلَّل طريقتَه المُثلىٰ خَلَل ؛ والمُحقِّقُ الذى وَجَد إلىٰ كُنْه الحقيقةِ أكْمَلَ مجاز ، والمُفَوَّهُ الذى بلغ من البلاغة فى كلام البَشَر حَدَّ الإعْجاز ؛ إنْ خطبَ شَنَّفَ بدُرَرِ مواعِظه الأسماع ، وشَرَّف بغُرَرِ فرائِده الأسْجاع ؛ وآهتَزَّتْ أعواد المنابر طَرَبًا لكَلِمه الطَّيِّب ، ورَوَّى أُوَامَ(٢) القلوب سَحُّ فَضْلِه الصَّيِّب ؛ وإن قرأ فى مِحْرابه أقرّ بفَضْلِه الجَمْعُ الجامع ، وآستَقَلَّ «آبْنَ كَثِير» حين وَجد «الكِسَائِىّ» عارِيًا ممَّا لَدَيْه وفَضْلُه الجَمّ أكمل «نافع» :

خَطيبٌ إذا الصَّادِى تَصَدَّىٰ لفَضْلِه : * ليَرْوَىٰ ، فأنْواعُ العُلُومِ تُغيثُه !

وإنْ يَرْوِ للجُلَّاسِ أخْبارَ أحْمَدٍ ، * فخَيْرُ جَليِسٍ لا يُمَلُّ حَدِيثُه !

وهو الكامل الذى أدْرك دَرَجاتِ الكمال فى البِداية فأمِن فى النِّهاية وهو قاصٍ من النقص ، وسارت عِيسُ الطُّلَّاب إلىٰ حضرته الكريمة وَاخِدَةً ولكن بالنَّص ؛ والصَّاحِبُ الذى آستصحب يَسار العُفَاةِ باليَمِين ، وأزَال ظَنَّ قاصده فى بِرِّه الشامل باليقين ؛ كَمْ أطلق بأقْلامِه المُفِيدة مَكرمةً بِصِلَةِ الأرزاق ، ونَسخَ بمُحَقَّقِ فَضْلِه رِقاعَ الأُوَل بالعَطاءِ على الإطْلاق ؛ ولو نَظر المَلَكانِ : هَارُوتُ ومَارُوتُ ما ملكه من

(١) الزيادة يقتضيها المقام .

(٢) الأوام بالضم العطش .

كتابته السَّاحِرَةِ لأقرّوا أنّه السِّحْر الحلال ، ولو قابَله «ٱبْن هلَالٍ» لٱنْخَسف بَدْر فَضْله عند الكمال :

فَفِى كَفِّــه الأقلامُ تَهْزأُ بالقَنَــا ، * وتَخْشىٰ سطَاهَا الأسْدُ فى غَابِ غَابِها !
يَرُوعُ سُيوفَ الهِنْــدِوِرىِّ يَرَاعِه (١) ، * وقَدْ طارَ مِن خَوْفٍ حَدِيدُ ذُبَابِها !

فلْيباشِرْ هذه الخَطابةَ مُباشرةً تَرشُف منها كُئُوسَ كَلِمِه الأسْماع ، ولْيَكْشِفْ لهـا عن وُجوه فضائله القِناع ؛ ولْينْــثُرْ عليهم من دُرَرِ بلاغته ما تَلْتقِطُه أفواهُ المسامع ، ولْيَنْشُرْ من طَىِّ لسانِه عَلَم عِلْمه الذى لا يقاس عليـــه غيره أبَى اللهُ والفَارقُ الجامع ؛ ولْيُطرِبْ بمواصيل أسْجاعِه القاطعة بفضَائِله المكَمَّلة ، ولْيظهِرْ ما جَمعه من محَاسِنه التى هى الجَمْع الذى لا نَظيرَله ؛ ولْيُنفِقْ علىٰ الجَمْع يوم الجُمُعة ممـا آتاه الله تعالىٰ من كُنوز الفضائل ، ولْيبلِّغْهم من بلاغته التى أخْملتْ ذِكْر «قُسٍّ» و «سَحبانِ وَائِل» ؛ وأنْت ــ أسْبغ اللهُ تعالىٰ ظِلالَك ــ مَعْدِنُ الفضائل فأنّىٰ تُهدىٰ إليك الوصايا؟ ، والمُتَّصِفُ بصفات الكمال فكَيْف تُعرَضُ عليك المزايا؟ ؛ ولكنّ الوصيةَ بتَقْوى الله تعـالىٰ من شعائر الإسلام ، واللهُ تعالىٰ يُديمُك غُرَّةً فى جَبْهة الأيَّام .

وهــذه نسخةُ تَوْقيع بتَدْريس بالجـامع المذكور ، كُتِب به للقاضى علاء الدين «علىّ الصَّرْخَدىّ» الشافعىّ ، نائب الحكم العزيز بحَلَب بـ«المقرِّ العالى» وهى :

رُسم بالأمر ــ لا زالتْ صَدَقاتُه تَمنحُ دروسَ العِلْم الشريف بعَلِىِّ العلوم ، وتَنْدُب لهـا من ذَوى الاجتهاد مَن سايَر بهِمَمِه البرْقَ وسائرَ النُّجوم ، وتُقرِّرُ للطَّلَبــة من

(١) فى الأصل «دوىّ» بتشديد الياء وهو تحريف .

أُولِى العناية من حَقَّق الفضائِلَ وٱطَّلع علىٰ سِرِّها المكتوم، وتُدِيرُ عليهم من مَشْرَب فوائده مايُخالُ أنَّه الرَّحِيقُ المخْتُوم ـ أن يستقر فلانٌ ... ... ٱستقرارًا تَقَرُّ به أعينُ الطُّلَّاب، وتُلْمَحُ من صَوْبِ فَضْله عَينُ الصَّوَاب؛ ويُشَيَّدُ به دَارِسُ الدروس، ويَطْلُعُ به فى سماء الفضائل أنْوَرُ شُموس؛ وتُنْشَر به أعلامُ العلوم من طَىِّ الألْسِنَة، ويُذْهِبُ من كلِّ الطَّلَبَة فى تحصيل العِلْم الشريف وَسَنَه؛ لأنَّه الحَبْر الذى شَهِدت بِفَضْله الأسفار، ورَحَلَتْ إلىٰ فوائده الجَمَّة السُّفَّار؛ والبَحْرُ الذى جَرتْ سُفُنُ الأذهان به فلم تُدْرِكْ غاية قَرارِه، وعَجِزت الأمثالُ عن خَوْض تيَّاره؛ والعالِمُ الذى أقرَّ بعِلْمه الأعلام، وشَهِدَت بإحكامِ أحْكامِه الأحكام؛ مابَرَزَ فى مَوْطِنِ بَحْث إلَّا وبرَّز على الأقْران، ولا جاراهُ مُجتهِدٌ إلَّا وكانا كَفَرَسَىْ رِهَان، ولا نَطق بمَنْطِقٍ إلَّا وأنْتجتْ مُقَدِّماتُ هِمَمه العليَّةِ وٱجتهاده علىٰ فَضْلِه أكمَلَ بُرهان، ولا أجْرىٰ جِيادَ عُلُومه إلىٰ غايَةٍ إلَّا مُطلقةَ العِنان، ولا رآه من أخبر عن فَضْلِه إلَّا تمثلَ له: ليس الخَبَرُ كالعِيان؛ إنْ تصدَّر للفوائد ٱلْتقطَتِ الأسماعُ دُرَّ عِلْمِه النفيس، وإنْ درَّس تَخالُ الطَّلَبَةُ أنَّه «ٱبنُ إدْرِيس»؛ فهو طَوْدُ فَضْلٍ لايُسامىٰ عُلوًّا ورِفْعه، ولايَنْوِى مُناوأته مُنَاوِئٌ ولو كان «ٱبنَ رِفْعه»:

إمامٌ غَدا للسَّالكينَ مُسَلِّكًا، * عَلِيمٌ، وَكَمْ أوْلَى الفَضائِلَ مَنْ وَلِى!

عَلَا فَأسال البَحْرَ من فَيْضِ عِلْمِه! * وذلك سَيْلٌ جاء بالفَضْل من عَلِى!

فلْيباشِرْ هذا التَّدْريسَ المبارَكَ مباشرةً يُثْبِتُ بها فوائِدَه، ويَنْشُرُ بها فرائدَه؛ ويُطرِبُ الطُّلَّابَ بطَرِيفِ العلْم وتالِدِه، ويَجمعُ لهم من صِلَة الفَضْل وعائِده؛ ولْيلازِمِ المباشرةَ ملازمةً لاينْفكُّ عنها أيَّام الدُّروس، ولْيُنِر القلوبَ بمصابيح الكِتَاب والسُّنة ويَسُرّ النفوس.

وأنت ـ أمْتع اللهُ بفوائدك ـ من نُورك الوصايا تُقْتبس ، وكَم آنَس الطَّالِبُ نارَ فَضْلِا فأتَىٰ منها بأنْورِ قَبَس ؛ واللهُ تعالىٰ يُبقيك للعلوم كَنْزًا لاتَفْنىٰ مَواهِبُه ، ويُديمُكَ للطُّلّاب بَحْرًا لا تَنْقَضِى عَجائبُه .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بتَدْرِيس بالجامع المذكور لحَنَفِىٍّ ، كُتِب به للشَّيخ شَمس الدين «محمد القرمىّ» الحنفىّ ، بـ«الجناب العالى» ، وهى :

رُسم بالأمر ـ لا زالتْ عِنايتُه الكريمةُ تُطْلِعُ شَمسَ الدِّين للهداية فى أُفق المدارس ، وتُشَيِّد بالعلمــاء الأعْلام من رُبوعها كلَّ دارِس ؛ وتمنَحُ الفُقهاءَ بمَن إذا تَصــدَّىٰ للإفادة جادَتْ نَفْسه بالدُّرر النَّفائس ، وتَنْدُب لهــا من أُولِى البلاغة مَن إذا أَلَّف فَضْــلًا وُجِدتْ غُصون أقْلامِه فى رَوْضاتِ الطُّروس أحْسَنَ مَوائِس ـ أن يستقرَّ فلانٌ : آستقرارًا تُجمَّل به الدُّروسُ بالفوائد ، وتَمنَحُ الطَّلَبة منها بالصِّلَة والعائِد ، ويمدُّ لهم من مَوادِّ العلوم أشْرفَ مَوائد ، ويُورِدُهم من مَناهِلها أعذبَ مَوارِد ؛ لأنَّه شمسُ العلومِ ومِصْباحُها ، وقَمرُ لَيْلِ المُشْكلاتِ وصَباحُها ؛ وساعِدُ الفَتاوىٰ الطائِرة بفضائله فى الآفاق وجَناحُها ، ورُوحُ كُئُوس العلوم ورَاحُها ؛ وطَليعَةُ الحقائق وعُنْوانُهــا ، وعَيْنُ الدقائق وإنْسانُهــا ؛ والإمامُ الذى آئْتمَّ به الطُّلّابُ فاستحقَّ الإمامَه ، والعالِمُ الذى آجتهد علىٰ فَضْل العُلوم فآستوجب أنْ يُنْعتَ بالعَلّامه ؛ والفاضِلُ الذى ضُبِطتْ أقواله : للآطِّلاع علىٰ سِرِّها المكْتُوم ، فآختصَّ فِعْلُ عِلْمه المُتعدِّى باللُّزوم لآتِّصافِه بالعُموم ؛ كَم آلتُقِطتْ من دُروسه الجَواهِر ، وتمثَلَ لأبكار فوائده : كَمْ تَركَ الأوَّلُ للآخِر ؛ قابَلَتْه الأسْفارُ عن وجُوه فوائدها بالإسْفار ، وأظهرتْ لذُكاء ذَكائه ما ضَمَّنته أحْشاؤُها من الإضمار ؛ فهو المُختارُ لهذا التَّدريس : إذْ دُرَرُ فوائده مَنْظُومه ، والمُجْتبىٰ للإفَادَة بسُلُوكه طُرُقَ الهداية إلىٰ دقائقها المَكْتومَه ؛ وكَم آستنارَتِ الطَّلبَــة

من سَمَرِ فَضْله حتّىٰ كاد أنْ يكون ثالِثَ القَمَرَيْن، وجَمع فى صَـدْرِه بَحْرَى المنقُولِ والمَعْقول حتّىٰ قيل : هذا "مَجْمع البَحْرَيْن" :

هُو البَحْرُ، إلّا أنَّ فيه عَجائِبًـا، * وَوافِرَ فَضْلٍ ليس يُوجَدُ فى البَحْرِ!
بَلاغَتُه السِّـحْرُ الحَلالُ، وإنَّمـا * بَديـعُ معانيها يَجِلُّ عن السِّـحْرِ!

فلْيباشِرْ هذا التَّدْرِيسَ ناثِرًا دُرَرَ فَرائِده، ناشِرًا غُرَرَ فوائِده، جائِدًا بجِياد فَضائِله السّابقة إلى الغايات، عائِدًا بِصِلاتِ حقائِقِه لتَكْمُلَ للطَّلَبة به المَسَرّات، ولْيلازِمْ أيّامَ الدُّروس ما أُسْدِىَ إليه من هـذه الوظيفه، ولْيَرتَقِ من دَرَجِ التَّقْوىٰ لغُرَفِ المعارف الشَّرِيفه .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بإمامةٍ وتَصْـديرٍ بجامع منكلى بغا الشَّمْسى بحَلَب، كُتِب به للشيخ شمس الدين «محمد الإمام»، بـ«الجناب العالى»، وهى :

رُسِم بالأمر ـ لا زالتْ صَدَقاتُه العميمةُ تُطالِـعُ شَمسَ الدِّينِ فى أُفُقِ المعالِى، وتَرْفَعُ من أوليائه خِدْمةَ مَن جِيدُه بالفَضْلِ حَالِى؛ وتَمنحُ بِرَّها مَن أعربَتْ عن لَحْنِه الطِّيِّبِ وتَنَفَّستْ من فيه باللّآلِى، وتَسْفَحُ غَيْثَ جُودِها علىٰ من أجمع علىٰ طِيبِ مُسامَرتِه ورَفْعِ أدْعيتِه الأسْماعُ واللّيالى ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ ـ أدام اللهُ تعالىٰ ضياء شَمْسه، وبَنىٰ له رَبْعَ السَّـعد من جُودِه علىٰ أُسِّـه ـ ... ... لأنّه الإمامُ الذى شهدتْ بحُسْنِ قِراءته المَحاريب، والآتِى من فَضْلِ فضائله بالأغارِيب؛ والفاضلُ الذى سلَكَ طُرقَ الفَضائل أحْسنَ سُلوك، وشَهِد بسَبْق جِياد جُوده فى حَلْبة الآختبار كلُّ حتّى المُلوك؛ والكاملُ الذى كَمُلتْ أوصافُه المحمودةُ فأمِنَ النَّقائِص، وآختصَّ بجميل الشِّيَم وحُسْنِ الخصائص؛ ما أمَّ إلّا وشَهِد بفَضْله كلُّ مَأْموم، وأقرّوا أنَّ أسماعَهم آرْتشفَتْ رَحِيقَ فضائله من

كَأْسِها المَخْتوم ؛ وما سَامَر الخواصَّ إلّا وشَهِدَ العوامُّ بحُسْن صفاته ، ولا حدَّث إلّا وكانت الملوكُ من رُواته .

فليباشِرْ هذه الوظائفَ المباركةَ مباشرةً تَقَرُّ بها النَّواظِر ، وتجتمعُ الألْسنةُ على أنّه أكْرمُ إنسان وخَيْر ناظِر ؛ وليَتصدَّرْ لإلْقاء الفوائد ، وليُكْسِبِ الأسماعَ من عِلْمه بالطَّرِيف والتَّالد ؛ وليتناوَلْ مَعْلومَه أوان الوُجودِ والآستحقاق ، هَنِيًّا مُيَسَّرًا من غير تَقْييد على الإطلاق ؛ وليتّقِ اللهَ فيما أُسْدِىَ إليه من ذلك ، ولْيَسْلُكْ من سَنَن التَّقْوى - بقَدَم الصِّدْق - أحْسنَ المسالك .

وهذه نسخ تواقيع لأرباب الأقلام الديوانية بحَلَب وما معها :

تَوْقيعٌ بكتابة الدَّست بحَلَب ، كُتب به لـ«بهاء الدين بن الفرفور» ونظر بَيْت المال بحَلَب ، بـ«ـالجناب العالى» ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زال يَنْظِم عُقودَ الإحسان فى أجْيادِ أوليائه ، ويُجْزِلُ لهم بوافر نَظَرِه وَافِىَ عَطائه ، ويُجْرِى بهاءَ الدِّينِ على أحْسنِ نظام فيُنْجِزُ له عِدَةَ وَفائه - أنْ يستقرّ ... ... آستقرارًا يبلُغ به وُجوه الآمال ، ويَكْسُو الدَّواوِينَ ملابِسَ البَهاءِ والكَمال ، ويَزِيدُها رِفْعةً بما يفضلُه من ذلك الجمال ؛ لأنّه الفاضلُ الذى إذا قَصد المَعانِىَ أصاب ، وإذا سُئِل عن كلِّ مَعْنًى لطيف أجاد وأجاب ؛ والفَصِيحُ الذى إذا تكلَّم أجْزل وأوْجز ، وأسْكتَ كلَّ ذى لَسَنٍ بفصاحته وأعْجز ؛ والبليغُ الذى أبْدع فى مكاتَباته بمَنْثورِه ومَنْظومِه ، واللَّبيبُ الذى أطلعَ من أزْهار كَلِمه المسموعةِ فى رِياض الطُّروس ما يُخْجِلُ الرَّوضَ إذا آفتخرتْ بمَشْمُومه ؛ والكاتبُ الذى قَطعتْ بمعرفَتِه الأقلام ، والحاسِبُ الذى عُقِدَت على خِبْرَتِه خناصِرُ الأنام ؛ والأدِيبُ الذى

جمع بين قَلَم الإنشاء الشّريف(؟)، وحازَ ما فى ذٰلك من تالِدٍ وطرِيف؛ فللّهِ دَرُّه من كاتبٍ زَيَّن الطُّروسَ بحُسنِ كتابته، وجمَّل الألْفاظ والمعانِىَ بجميل درايَتِه وفَصاحَتِه.

فلْيباشِرْ ما عُدِق به من ذٰلك مُباشرةً مقْرونةً بالسَّداد، مشْكورةَ المساعى والاعْتماد؛ مُظهِرًا براعةَ يراعِه، باسِطًا يدَ إيداعِه الجميلِ وإبْداعِه؛ مُفَوِّفًا حَواشِىَ القِصَصِ بتَوْقيعاته، مُوَشِّيًا بُرودَ الطُّروسِ بتَرْصيعاتِه وتَوْشيعاته؛ ناظِرًا على اعتماد مصالح بَيْت المال المعمور، وتَحْصيل حواصِلِه على الوَجْه المشْهور والطَّريقِ المشْكُور؛ عامِلًا بتَقْوى الله عزّ وجلّ فى ضَبْط مصالح ديوان الجُيوش المنْصُوره، سالِكًا من حُسْن الاعْتماد طُرقًا على السَّداد والتَّوْفيق مقْصُوره؛ والوصايا كثيرةٌ وتَقْوى اللهِ تعالىٰ عِمادُها، فلْيجْعلْها عُمْدَتَه فيما يَتِمُّ به للنفس المطمئنة مُرادُها؛ ولْيتناوَلْ مَعْلومَه المستقرّ لذٰلك أوانَ وجُوبِه، واللهُ تعالىٰ يُبلِّغه غايةَ قَصْدِه ومَطلُوبِه.

تَوْقيعٌ بصَحابة ديوان الأموال بحَلَب، من إنشاء ابن الشِّهاب محمود، كُتب به للقاضى شَمس الدِّين «محمد بن محمد»، أحدِ كُتّاب الدَّست بحَلَب، بـ«المجلس العالى»، وهو:

رُسم بالأمر ـ لازالتْ صَدَقاتُه العَميمةُ تَسُرُّ نفوسا، وتُطْلِعُ فى هَالاتِ الوظائف السَّنِيَّة عِوَضَ الشَّمْس شُموسا؛ وتَسْقِى غَرْسَ نَعْمائِها الهِبَاتِ الهَنِيَّةَ فتُزْهِى أغْصانًا يانعةً وغُروسا ـ أنْ يستقرَّ ... ...: لأنّه الأوْحدُ الكامل، والرئيس الفاضِل؛ ولأنّه حازَ قَصَبَ السَّبْق فى المُباشرات، والمَناصِب الجَليلةِ والمراتب السَّنِيّات؛ طالمَا بَذَل جُهدَه فى خِدْمة الدُّول، وسلك بجميل مُباشرته طَرِيقَ السَّلَف وسَبيلَ الأُوَل؛ فأدْرك بحُسْن سيرَتِه ويُمْنِ طَرِيقَتِه نِهايَةَ السُّؤْلِ وغايةَ الأمَل، وأتىٰ الأُمور علىٰ

قَدَرٍ ولا يقال : علىٰ عَجَل ؛ ولأنَّه الأمِينُ فى صَـنْعة الإنشاء، والتابِـعُ فى فَنِّه فُنونَ الأدباء؛ إنْ رقَم الطُّروسَ طرَّز ، وإنْ بارَز الأقْران فى مَواطِن الآفْتِخار بَرَّز ؛ وإن بَسط الجرائد ، تَغارُ من حُسْنهِنَّ الخَرائِد ؛ طالَمَـا نَطَق بالحِكَم ، وآشْتهر بين أصْحابِه مِثل آشْتهار النَّار علىٰ علَم؛ نَظَم المحاسِنَ فى نَثْره البَدِيع ، وجَمع بين الأضْداد فيما يُبْدِيه من الإنشاء ويُحَلِّيه من التَّصْريع ؛ قَدُمت هِجْرتُه فى الخِدْمة الشريفه ، وآقْتطف من زَهَر الصَّدَقات الشريفة أحْسنَ مَنْصِب وأجْمـلَ وَظِيفه ؛ وتَحلَّىٰ جِيدُه بالقلائد ، وحَصَّل بسَعْيه مجموعَ الفرائد ، فعادتْ عليه الصَّدَقاتُ الشريفةُ بأجْمل العوائد ؛ قد آستحقَّ التقديم ، وآستوجَبَ من الصَّدَقات العميمةِ نِهايةَ التَّكريم .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنةَ الآثار ، جميلةَ الإيراد والإصْدار ؛ ناظمًا بقلَمه الحِسابَ علَىٰ أنواعه ، مُحكِمًا له علىٰ سداد أوْضاعه ؛ ولْيُطْلِعْ شمسَه فى سماء هذه الوظيفه ، ولْيَجْنِ من رَوْضها الأرِيضِ كلَّ يانِعةٍ لَطيفَه ؛ ولْيعلَمْ أنَّ هذه بَوادِرُ خَيْرٍ سَرَتْ إليه ، وسَوابِغُ نِعَمٍ خُلِعتْ عليـه ؛ وأنَّ الصدقاتِ العميمةَ لا بُدَّ أنْ تُولِيَه بعد ذلك بِرًّا ، وتَترادَفَ عليـه تَتْرىٰ ؛ وتُعْلى له بين رِفَاقه المرفقين قَدْرا ؛ ومِثْلُه لا يُنَبَّهُ علىٰ وَصِيَّه ، لا دَانيةٍ ولا قَصِـيَّه ؛ لكن التقوىٰ لا بُدَّ منها ، ولا يجوز أنْ يُغْفل عنها ؛ فلْيَجْعلْها آعتمادَه فى كلِّ الأُمور ، ولْيَتَناوَلْ معلومَه المقـرَّرَ له على الوظيفـة المذكورة فى غُرَر الشهور ؛ والله تعالىٰ يضاعفُ له بمضاعفة الصدقات عليه أوقاتَ السُّرور ، ويَقيـه بلُطْفِه كلَّ محذور .

توقيع بنظر بَهَسْنَىٰ ، من عمل حَلَب ، كُتب به لفَتْح الدين «صَدَقة بن زين الدين ، عبد الرحيم المصرىّ» ، بـ«المجلس السامى» ، وهو :

رُسم بالأمر - لا زالتْ صدَقاتُه العميمةُ تفتح لأولياء خِدْمته أبوابَ الخَيْرات، ولا بَرِحتْ تُهْدِى إليهم أنواعَ المَسَرَّات - أنْ يستقرَّ... ... فى وظيفة النظر بمدينة بَهَسْنىٰ المحروسة عِوَضًا عمَّن بها، بالمعلوم الذى يشهد به الديوان المعمور إلىٰ آخر وقت، على العادة فى ذلك والقاعدة، آستقرارًا يَسُرُّ خاطِرَه، ويُقِرُّ ناظِرَه؛ لأنَّه المـاهِرُ فى صناعته، والرَّابِحُ فى مَتاجِرِ بضاعته.

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً حسنه، لتُصْبِح الألْسِنة بشُكْرها مُعْلِنه؛ وليُصرِّفْ قَلَمه فيما يعود نَفْعُه عليه، ولْيجتهِدْ فيما يستجلِب الأثْنِية إليه؛ وليقْبِضْ معلومه أوانَ وُجوبِه هَنِيًّا، ولْيتناوَلْه بيَدِ آستحقاقه مَرِيًّا؛ والوصايا كثيرةٌ وهو - بحمد الله تعالىٰ - غيرُ محتاجٍ إليها، لأنَّه الفاعلُ لها والدَّالُّ عليها؛ وتقوَى الله تعالىٰ عِمادُها، وبه قِوامها وسِنادُها؛ فلْيتمسَّكْ بسَبَبِها فى الحركات والسَّكَنات، والله تعالىٰ يُهيِّئُ له أسْباب المَسَرَّات.

توقيع بكتابة الإنشاء ونظر الجيش بدَبْرَكِى، كُتب به للقاضى شهاب الدين «أحمد آبن أبى الطيِّب العُمَرِىّ العُثمانى»، بـ«ـالجناب الكريم»، وهو:

رُسم بالأمر - لازال يجمِّلُ الثغورَ بمَن تَزْهو برَحيق كَلِمه الطيِّب [المناصب]، ويُكمِّلُ محاسِنَها بمَن لم تَزَل الصُّحفُ تَقودُ من جياد فَضْلِه أجملَ جنائب، وحَباها بشِهابٍ يُهتدىٰ إلى المقاصدِ بنَجْم رَأْيِه الثَّاقِب، وسرَّها بكلِّ نَدْبٍ لم تزلْ كُتبه تَرُدُّ من الدُّعَّار الكتائب - أن يستقرَّ... ... فى وظيفتى كتابة الإنشاءِ الشريف والجَيْش المنصور بدَوْرَكِى(١) المحروسة، عوضًا عن فلان، بالمعلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر

(١) لغة فى دبركى كما سلف قريبا وتقدّم فى ج ٤ ص ١٣٢ من هذا المطبوع.

وقتٍ . لأنّه من بَيْتٍ رُفِع عَلَمُ قَدْره على السحائب ، وٱنْتصبَتْ رايَةُ آرائِهم بالتميز فى مَوا كِبِ العِزة عن المواكب ، وأُضِيفَ إلىٰ مَجْدِهم شرفُ الكمال فانْجَرَّ بالإضافة ذَيْلُ مَجْدِهم على الكواكب ، وجَزم أُولُو الفَضْل بنسبتهم إلى المعالى فحازُوا قَصَبها ٱستحقاقًا وما زاحَمُوا عليها بالمَناكب ، وأُسِّسَ أَصْلُه علىٰ عماد شرف «الفاروق» و«ذى النُّورَيْن» فتفرّع علىٰ أكملِ تناسُل بتناسب .

النيابة الثالثة

(مما يكتب من التواقيع بالولايات عن نوّاب السلطنة بها ـ نيابةُ طرابُلُس)

وهى علىٰ ماتقدّم فى دمَشْق : من تقسيمها إلىٰ تواقيع أرباب السيوف، وتواقيع وظائف أرْباب الأقلام الدينية ، وتواقيع أرْباب الوظائف الديوانية ، وأرباب الوظائف بمشيخة الأماكن وغيرهم ،وتقسيم ذلك إلىٰ مايفتتح بـ«الحمد لله» ، ومايفتتح بـ«أما بعد حمد الله» ، وما يفتتح بـ«رُسم بالأمر» .

وهذه نسخ تواقيع من ذلك :

نسخةُ توقيع بشدّ الدواوين بطرابُلُس، كُتب به لصلاح الدِّين «صلاح الحافظى» ، بـ«الجناب الكريم» ، وهى :

الحمدُ لله الذى أيَّدَ هذه الدولةَ وسدَّدها بأنواعِ الصَّلاح ، وعَمَر العالَمَ بعدْلِ سُلطانها وجعل أيَّامَه مقرونةً بالنَّجاح ، وأقام لتَدْبير المملكة [كل] كُفْء كافٍ مشهور باليُمْن والفَلاح .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه الغامرةِ فى المَساء والصَّباح ، ونشكُره علىٰ آلائه فى كلِّ غُدُوٍّ و رَواح ، ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالصةً ضَوْئيَّةً كالمِصْباح ،

وأنّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ من آصطفاه وأرْسله بالدين الحنيفىِّ فبشر وأنْذر وحلّل وحرّم ... ... وأباح (١) ، صلّى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دائمةً مستمرّةً ما حيْعَل الدّاعى إلى الفلاح .

وبعدُ، فإنّ أوْلَى الأولياء بمُضاعفةِ الإحْسان، وأن يعلى له فى المكان والإمكان ـ مَن عُرِف بأجلّ المباشرات فى الفُتوحات ، وآشْتهر فيها بالكفاية والصِّيانة وجميل التّدْبير وحُسْن الصِّفات .

ولمّا كان فلانٌ هو المُنْفرِدَ بهذه الصِّفات الحَسَنه، وآتّفقتْ على نُعوتِه الجميلةِ الألْسنَه ، والوَحيدَ بهذه السَّجايا ، القَريدَ بشَرفِ المَزايا ، عُقِدت الخناصرُ عليه ، وآقْتضت الآراء أنْ يسندَ تَدْبيرُ المملكة إليه : فإنّها لم تَجِدْ لها كُفْأً غيْرَه ، ولا من يجمع شَمْلَ شَتاتِ أقْوالها ولم يفرِّطْ مثقالَ ذَرَّه .

فلذلك رُسم بالأمر ـ لازال ينْدُب لتَدْبير الممالك كلّ كُفْءٍ كاف، ويُورِدُ أولياءه من موارِد إحْسانِه مَوْرداً عَذْباً صاف ـ أنْ يفوّضَ إلى الجناب الكريم ـ أدام اللهُ عُلوَّ قدرِه ، وأيده بالمَعُونة فى أمْره ـ شدُّ الدّواوينِ المعمورة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة، بالمعلوم المستقرّ، الشاهد به الديوانُ المعمور إلى آخروقت، على عادة من تقدّمه .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بالآستمرار فى شَدِّ الدّواوين :

الحمدُ لله الذى قَرن الشِّدّة بالفَرَجِ وجَبَر بعد الآنكسار ، وآمْتحن عِبادَه بأنواعٍ من المِحَنِ ليعلَمَ الصادقين فى الآصْطِبار ، وأطْلع فى أُفُق العُلا سَعْدَ السُّعودِ ساطعاً

(١) بياض بالأصل ولعله : وحظروأباح، الخ .

بالنُّور بعد ما غَار ، وجَمع لمن ٱنْقطع به حَبْلُ الرَّجاءِ من الخَلْق فتوكَّل عليه بين نَيْل المَطْلوب وتَمْحيص الأوْزار .

نحمدُه وفى مَحامِده تَطِيبُ الآثار ، ونَشكُره علىٰ ما أسْبل من النِّعم الغِزَار ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلٰهٌ كشف الغَمّ بعد ما غَمَّ القلوبَ وغَطَّىٰ على الأبصار ، وفَرَّج الهَمّ ، وقد كان ٱدْلَهَمّ ، وأظْلمتْ منه النَّواحِى والأقْطار ؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه المصطفىٰ المُختار ، سَيِّدُ وَلَدِ آدمَ فى الدُّنيا وسيدُهم فى دار القَرار ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الأطهار ، وصَحَابَته الأخيار ، ما أظلم لَيلٌ وأضاءَ نهار .

وبعدُ ، فإنَّ الله تعالى لَطَف بهذه الدَّولة المعظَّمة فى المُقامِ والسَّيْر ، فما مضىٰ لأحدٍ معها يومُ سُرورٍ إلَّا والذى من بعده خَيْر ؛ ونَصب خِيامَ عَدْلِها على الخَلْق وشَرع أطنابها ، ورَغَّب العِبادَ فى فَضْلِها العميم وفَتح لهم بَابَها ؛ وجعلها كاشفةً للكُروب المُوجِبة للحَزَن والضِّيق ، رَاشِفةً من خزائن مُلْكه ومعادن نَصْره كأْسَ رَحِيق ؛ تصِلُ بقُوَّته وتَقْطع ، وتُفَرِّق بإرادته وتَجْمع ؛ ثم جعل المالَ نِظامَ مُلْكها القَويم ، وقِوامَ سِلْكِها النَّظِيم ؛ به تَمْضى أوامِرُه ونَواهِيه ، وتجرى على السَّداد بما يُحِبُّه ويُرضِيه ؛ فتعيَّن إعدادُ مَن يُقِيم بعزمه عَمَده ، ويُقْعِد من أخذ منه بغير ٱستحقاق ممن أقعد الدِّينُ زنده ؛ وقدَّر الله تعالىٰ فى هذا الوقت ما قضاه ، ونَفَّذ حُكْمه فيمن خرج عن طاعته وأمضاه ؛ فلم تَبْقَ مملكةٌ إلّا ومَسَّها وأهْلَها الإضْرار ، ولا بُقْعةٌ إلّا ولَحِق أهْلَها بَأْسُ أُولئك الفُجَّار ؛ فأدرك اللُّطفُ الإلٰهىُّ ممالكَ الإسلام ، وحلَّ الرِّكاب الشريف بأرْض الشام ، فكان بَرْدا وسلام ، ونَجا المخلصُ وهلك الناكثُ النَّاكلُ بقدوم سلطان الإسلام ؛ خلَّد الله ملكه [ليقذف] بالحقِّ على الباطل ، وأيد اللهُ دَوْلَته الشريفةَ بعَوْنه المُتواصل .

وكان فلانٌ له مباشراتٌ عَديدَه ، وتأثيراتٌ حَميدَه ؛ وآخر ما كان فى وظيفة شدّ الدواوين بطرابلس : فباشرها مباشرةً جميلةَ الأثر، مشكورةَ السَّيْر عنْد من وَرَد وصَدَر ، ودَبَّر مهماتٍ يَعْجز عن حصرها أولُو العقول والفِكَر ؛ وحَصَّل للديوان المعمور أمْوالًا كالطُّوفان ولكن بلا غَرَق ، واسْتُعْجِب منها كيف حَصَرتْها الأقلامُ أو وَسِعَها الوَرَق ! ؟ ؛ والذى كان بوظيفة الشَّدّ الآن زاهدٌ عنها ، ليس له رغبةٌ فيها ولا فى شَىْء منها .

فتعين إعادة الجناب الفلانى إليها . و رسم بالأمر ـ لا زالتْ أيَّام دَوْلَتِه الشريفة تُصْلح الشان ، وتُعيد الخير إلىٰ ما كان ـ أنْ يستقرّ ... .

فلْيعُدْ إليها عَوْد الحُسامِ إلىٰ غِمْده ، والماءِ إلىٰ مَنْهَلِ وِرْده ؛ ولْيباشِرْها بمباشَرتِه المعروفه ، وعَزَائمه المَأْلُوفه ، وهِمَمه المَوْصوفه ، مُسْتَرفِعًا المتحصل ومصروفَه ؛ ولْيتحقَّقْ أنَّ الله تعالىٰ سَيصِلُ رِزْقه فلا يُوجِسْ فى نَفْسه خِيفَه ، ولْيجْعَلْ تقْوى الله تعالى دَأْبَه فى كلّ قَضِيَّة ثقيلةً كانت أو خفيفه ، واللهُ تعالى يُمِدّه بألطافِه المُطيفَه ؛ بمنّه وكرمه .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنقابة العساكر بطرابُلُس :

الحمدُ للهِ الأوّل بلا آخِر ، الغَنِىّ فى مُلْكه عن النَّاصِر ، المنَزَّه فى سُلْطانه عن المُؤَازِر ، المتَوحِّد بعدم الأشْباه والنَّظائِر ، المُبيد لكلِّ مُظاهِر بالعِنَاد مُجاهِر ، العليم بما تُكِنّه الأفكارُ وتُجِنّه الضَّمائِر ، الرَّقيبِ علىٰ كلِّ ماترَدَّدَ من الأحوالِ بين سَوادَى القَلْب والناظِر .

وأشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالصةً يُرغَم بها كلُّ جاحِدٍ وكافِر ، وأشهدُ أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ والشِّركُ مُدْلَهِمُّ الدَّيَاجِر ، والرُّشْدُ

قد خَيَّم عليه الضَّلالُ فما له من قُوَّةٍ ولا ناصِر، فأقام به الدِّينَ الحنيفِيَّ النَّيِّرَ الزَّاهِر، ورفَع ذِكْرَه فى سائر الأقْطار والأمصار علىٰ رُءُوس المنابر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله أهْلِ المكارم والمآثر، ما حَمِدَ السُّرىٰ عند الصَّباح سائِر، ونَمَّ شَرَرُ الشَّرِّ بكلِّ مُناضِلٍ ومناظِر، وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ من سِيقَتْ إليه وُفُود النِّعَم، ومُنِحَ من الخيرات أجْزَلَ القِسَم، وعُدِقَت الأُمورُ بعزائمه، واْعتُمِد علىٰ هِمَّتِه التى هى فى المَضاءِ كأسِنَّته وصَوارِمه، ورُعِيتْ عُهودُ وَلائِه التى لا تُنْكر، ووُصِفَتْ مَساعِيه التى آستحقَّ أنْ يُحمد بها ويُشْكر - مَن إذا عُوِّل عليه فى المُهِمَّات كَفاها، وإذا آسْتُطِبَّت المُعضِلاتُ به شفاها، وسارَت أنباءُ مهابته غَوْرًا ونَجْدا، وآتَّصف بحُسْن التدبير الذى عليه من الإقْبال أكْمَلُ إجْدا .

ولمَّا كان فلانٌ هو الذى تناقلتْ تَباشِيرَ أخْبارِه الرُّكْبان، وأثْنىٰ علىٰ شهامَته السَّيْفُ والسِّنان، وشَرُفَتْ بمحاسِنِه الأقلام، وآرتفَع ذِكْرُه بالشجاعة علىٰ رُءُوس الأعْلام .

فلذلك رُسِم ... ... - لا زال للدِّين الحنيفِيِّ ناصِرا، وللأعْداء قامِعًا قاهِرا، وللحقِّ مُؤَيِّدًا باطِنًا وظاهِرا - أنْ يستقرَّ الجنابُ العالى المشارُ إليه أميرَ نُقَباءِ العساكرِ المنصورةِ الطَّرابُلُسِيَّة، عِوَضًا عمَّن كان بها، علىٰ عادته وقاعدته : لأنَّه الحَبْر الذى عُقِدَتْ علىٰ خِبْرَتِه الخناصر، ووَرِثَ الشَّهامَةَ كابِرًا عن كابِر، وأضْحىٰ بتَدْبيره واضِحَ الغُرَر، شاهِدًا له به العَيْنُ والبَصَر، إنْ جال بين صُفُوف العساكر كان أسَدا، وإن رَتَّب جُيوشَها أحْصاها حِلْيةً وعَدَدا .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ محرِّرًا أحْوالَ العساكر المنصوره، مقرِّرًا لهم فى مَنازِلهم علىٰ أكْمَلِ عادةٍ وأجْمل صُورَه، بمُناصحةٍ ضُمِّخ بمِسْكها، ومُخالَصةٍ قام مَقامَ واسطَة جَوْهر

سِلْكِها ، ومُلازَمَةِ خِدْمَةٍ تأزَّرتْ بها أعْطافُه ، وصَفاءِ طَوِيَّةٍ شَرُفت بها أوْصافُه ؛ ومَحَبَّة عَدْلٍ جمع فيها بين قَوْله وفِعْله ، وإخْلاصٍ يحَسُن بالمَرْء أنْ يكونَ مُلْتَحِفًا بظِلِّه : لِكَيْ يُتِمَّ الله النِّعَمَ عليه كما أتَمَّها علىٰ أبيه من قَبْلِه ؛ ولْيَقْصِدْ رضا الله تعالىٰ فى هذا الأمر ، لا رِضَا زَيْدٍ ولا عَمْرو ؛ والله تعالىٰ يتولَّاه فيما تولَّاه ، والاعتماد فى ذلك على الخط الكريم أعْلاه ، حجةٌ بمقتضاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخةُ توقيعٍ بنقابة الأشراف بطرابُلُس بـ«المجلس الساميِّ» بالياء ، وكُتِب فيه «القضائىّ» علىٰ خلاف الأصل ، وهى :

رُسم بالأمر - لا زال يَرفعُ لذَوِى الأصالة الشَّريفة قَدْرًا ، ويَنْقُلهم إلى الرُّتَبِ السَّنِيَّةِ ويُعْلِى لهم ذِكْرا ، ويشْمَلُهم من إحْسانِه بما يسرُّ لهم قَلْبًا ويَشْرحُ صَدْرا ؛ ويُبَلِّغهم من المآرب أوْفاها ، ومن ملابس القَبُول أجْمَلَها وأسْناها - أنْ يستقرَّ فلانٌ - أدام الله نِعْمته - فى نقابة السَّادَة الأشْراف بالمملكة الطرابُلُسِيَّة ، علىٰ ما تقدّم من عادته فى ذلك : استقرارًا جاريًا فيه علىٰ أجْمل العادات ، واعتمادًا علىٰ ما عُهِد من سَلَفه الشَّريفِ الذَّات ؛ ورِعايةً له فى تَجْديد المَسارّ ، وتَرْجِيحًا لما اشتمل عليه من حُسْنِ الكِفاية فى كلِّ إيرادٍ وإصْدار ؛ ورِفْعةً لِيَده الباسطة علىٰ أبْناءِ جِنْسِه ، وتَقْوِيةً يَجِدُ أثرها فى معناه وحِسِّه ؛ رَسْمًا يستوجب به النِّعَمَ الجزيله ، ووِلَايةً تُولِيه من الكَرَم سُولَه ، وعِنايةً تُصْبِحُ بها رُبوعُ أُنْسِه مَأْهُولَه ؛ لأنَّه أوْلىٰ أن يُقَرَّ فى هذه الوظيفة ويُزَاد ، وأحَقُّ أن يُرعىٰ لما سَبق له من السَّداد ، وأجْدرُ أن لا يُضاعَ حَقُّه حيث له إلىٰ رُكْنِ الشَّرَفِ المُنِيف استِناد .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المُباركة مبسوطًا أملُه فى المَزِيد ، مَنُوطًا رَجاؤُه فى نِعَمنا باستئنافٍ وتَجْديد ، مَحوطًا ما بيده من كَرمِنا العديد ؛ وهو غنىٌّ أن نُثَنِّيَ له الوصايا

ونُعيد، مَلِيٌّ بحسن السجايا التى جُبِلَتْ على التَّحْقيق والتَّوْفيق والتَّسْديد؛ والله تعالىٰ يُطَوِّقُ بمِنَنِ جُودِنا منه الجيد، ويُغدِقُ له سحائِبَ رِفْدِنا التى تُجْريه علىٰ ما أَلِف من فضلها العديد؛ والعلامة الشريفة ـ أعلاها الله تعالىٰ ـ أعْلاه، حُجَّةٌ بمقتضاه.

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بشدّ الشوانى بطرابلس، كُتب به لعلاء الدين «أيد غمش» وهى:

رُسم ... ـ لازالتْ أيامُه، قائمةً بالجهاد فى سبيل الله عَزَّ وجَلّ، وأعلامُه، حائمَةً على ٱلْتِقاطِ مُهَجِ العِدَا فى البرِّ والبَحْر بما يُقَرِّبُ لهم الأجل ـ أنْ يستقرَّ فلانٌ فى شَدِّ الشَّوانى المعمورة المنصورة على العادة فى ذلك، بهِمَّتِه العليه، وعَزْمَتِه التى هى ببلوغ المقاصد مَلِيَّه؛ وشَهامَتِه التى تُرهِبُ العِدا، وشجاعَتِه التى تُلْبِسُهم أرْدِيَةَ الرَّدىٰ؛ وبَسالَتِه التى تُبْسِلُهم فى البَحْر فتصيِّرهم كالأسماك لا يُسامُ لهم صدىٰ.

فلْيَجْتَهِدْ فى ذلك جِدَّ الاجتهاد، ولْيعمدْ فيه السِّداد والسَّداد؛ ولْيُوقِظْ أجْفانَ سيوفه من الغَمْض، ولْيُرهِبْ العِدا بشِدَّةِ وَطْأَتِه التى لها الثَّباتُ فى الأرْض؛ ولْيلازِمْ مُواظَبَةَ الشوانى لَيلًا ونهارا، ولْيكُنْ هو ومَن حَوْلَه لمن بها أنْصارا؛ والله تعالىٰ يُجزِلُ له مَبارا، ويَرْفعُ له مقْدارا، بمنّه وكَرَمه.

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بشَدِّ دار الضَّرْب، كُتب به لـ«علاء الدين الدَّوَادار»، وهى:

رُسم ... ـ لا زال إحْسانُه يجُود غَماما، وفَضْلُه الشاملُ على الأولياءِ المتَّقين إماما، وسَحائِبُ بِرِّ كَرَمه هامِيةً علىٰ أوْليائِه، هامِلَةً علىٰ أصْفيائِه، فتَراهُمْ يَخِرُّونَ للأذْقان سُجَّدًا وينْتصبُون قِياما ـ أنْ يستقرَّ المشارُ إليه فى شدِّ دار الضَّرْب: إعانةً له على الخدمة الشَّريفه، وإرْفادًا له بمَعْلومها إذْ هى ليستْ له بوظيفه؛ لأنَّه أكبرُ من ذلك قَدْرا،

وأحَقُّ بكلِّ منزلَةٍ عَلِيَّةٍ وأحْرىٰ ؛ ولكِنْ هـذه الجهةُ هى قَانُونُ المُعامَلَه ، وسِكَّتُها بشِعار المُلْك مُتَّصِلَة وبين الحقِّ والباطِلِ فاصِلَه ؛ ومنها النُّقوشُ التى هى رُسْتاق الأرزاق ، وصَـدْرُ كلِّ إطْلاق وقنداق ؛ حَكِيمٌ ما أُرسِـل فى حاجَةٍ إلَّا وأُذِنَ لهـا بالنَّجاح ، ولا آستؤمن عليه آمْرُؤٌ باذن الإمام إلا وحقَّ له [الاتصاف] بالصـلاح والفلاح ؛ هذا وهو فى الأصـل مذموم ، وطالبـه محروم : لأنه مقسوم ، والأجل محتوم ؛ ولكن تطهيره من الدنس واجب ، والحسـبة فى عياره حتى يغدو وبودَق صفائه من الغِشِّ ناضب .

فلْيعْتمِدِ المشارُ إليه فى شَدِّ هذه الجِهَة حُسْنَ التقوىٰ ويُلاحِظْ بعزْمه أُمورَها لتكونَ على السَّداد ، ويَعْتمِدْ على السَّيد النَّاظِر فإنَّه نِعْم العِماد ، ويُفوِّضْ إليه كَشْفَ الرُّوباص وحَكَّ العِيار فهو به أدْرىٰ وأحْرىٰ وأدْربُ بادْحاض غِشِّ الفَساد ، ولْيتناوَلْ مَعْلومه المُقَرَّر له عنـد الوجوب والاَسْتِحْقاق ، هَنِيًّا مُيَسَّرًا خالِصًا من التَّنازُعِ والشِّقاق ، ومِثْلُه فلا يُدَلُّ علىٰ [صواب] : إذْ تَقْوى الله تعالىٰ كَلِمةُ الفَصْل وفَصْلُ الخطاب ، والله تعالىٰ يجعلُها لنا وله زادًا وحِرْزَا ، وذُخْرًا يوم المَعَاد ورِكْزًا (١) .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بشَدِّ البَحْر بمينا طَرابُلُس ، وهى :

رُسِم بالأمر ــ لا زال سَيْفُه قاطعًا من الأعداءِ نَحْرا ، وأمْرُه نافِذًا بَرًّا وبَحْرا ، وفِعْلُه صالحًا دنيا وأُخْرىٰ ــ أنْ يستقرَّ الجنابُ المشارُ إليه فى شَدِّ مِينَا البَحْر بطرَابُلُس .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ شارِحًا لهـا صَدْرا ، فاتِحًا لهـا بحُسْن مُباشَرتِه الجميلة بَصَرًا وفِكْرا ؛ باعِثًا لهـا فى الآفاق بمباشرته ذِكْرًا جميلا ، باحِثًا عمَّا يتعلق بتحَصلِ المِينَا

(١) يريد ركزة واحدة الركاز المال المدفون . وذكَّر مراعاة للسجع .

المعمورةِ بُكْرةً وأصِيلا، مُسَوِّيًا بين الناس فيما رَزَق اللهُ وفَتَح ، وبَعث من فَضْله ومَنَح ؛ بحيثُ لا يقدِّم عزيزًا ولا يُؤَخِّر ذَلِيلا ، ولا يُراعِى فى ذلك صَدِيقًا ولا خَلِيلا .

ولْيقَدِّمْ خَوْفَ الله تعالىٰ علىٰ خَوْفِ خَلْقِه ، ولْيُسوِّ بين الضَّعِيف والقَوِىِّ فيما بَسَط اللهُ من رِزْقه ؛ وآكَدُ ما نُوصِيه به تَقْوى الله تعالىٰ فيما هو بصَدَدِه ، فلْيَجْعلها فى أُمُورِه الباطِنَةِ والظاهِرَةِ من عُدَدِه ؛ واللهُ تعالىٰ يقدِّمُه فى مباشَرتِه لاقتناء محَاسن المعروف وزُبَدِه ، ويرزُقُه من الأجْر على ما يَعْمله من الخَيْر مع تُجَّار هذا البَحْر بما هو أكثر من زَبَدِه .

توقيعٌ كريمٌ بنيابة اللّاذِقِيَّة ، من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارى ، كتب به لـ«شمس الدين» ابن القاضى ، بـ«ـالجناب العالى» ، وهو :

الحمدُ للهِ الذى زاد «شَمْس» الأولياءِ إشْراقا ، ومَنَحه فى هذه الدَّوْلة الشريفة إرْفادًا وإرْفاقا ، وصَانَ الثُّغورَ المحروسةَ بعزَماتِه التى سَرَّتْ قُلوبًا وأقَرّتْ أحْداقا ، وجدّدتْ لأوْليائها من مَواهِبِها عَطاءً وِفاقا .

نحمدُه علىٰ حُكْمِه وفِعْلِه ، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تمنحُ قائِلَها مَزِيدَ فَضْلِه ؛ ونشهدُ أنَّ سيِدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيَّده اللهُ بملائكته المُقَرَّبين ، وشدَّ أزْرَهُ من أصحابه بالآباء والبَنِين ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وصَحْبه أئمَّة الدِّين ، صلاةً تمنحُ قائِلَها غُرَفَ الجِنَانِ ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِين﴾ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ من شِيَمِ هذه الدَّوْلة إذا بَدأتْ تَعُود ، وإذا نَظَرتْ تَجُود ، وإذا قَدّمتْ وَلِيًّا لحَظَتْه بأعْيُنِ السُّعود .

وكان الجنابُ العالى ـ أدام اللهُ نِعْمَته ـ عَيْنَ القِلادَه ، وبَيْتَ السِّيادَه، ومَعدِنَ السَّعاده، وأهْلاً أنْ يُدبِّر الأُمور، ويَسُدّ الثُّغُور، ونِيابَةُ اللّاذقِيّـة مجاوِرَةُ البُحور، وجَزِيرَةُ العَدُوّ بينها و بينها نَهارٌ فهى فى أمرها له قاعدة فى النُّحور، وقد رَأيناه أهْلاً أنْ يَصُونَ نَحْرها ، ويتقلَّد أمْرَها ، ويحفَظَ برَّها ، ويَدْفعَ شَرَّها .

فلذلك رُسم بالأمر ـ أعْلى اللهُ تعالىٰ شَرفَه ـ أنْ تُفوَّضَ إليه نيابةُ اللّاذقية المحروسة، علىٰ عادة من تقدّمه .

فلْيَسِرْ إليها سَيْرَ الشَّمْسِ فى أبْراج شَرَفِها ، ولْيُقْبِلْ عليها إقْبالَ الدُّرَّةِ على التَّرائِبِ بعد مُفارَقَة صَدَفِها ،وأوّلُ ما نأمُره[به] : إرْهابُ العَدُوِّ بالعُدّة والعَديد،وإظْهارُ المَهابَةِ فى القريب والبعيد ، وتَفَقُّدُ الأَيْزاكِ بنَفْسه من غير ٱتّكالٍ علىٰ سِواه كما يفعلُ البَطَلُ الصِّنْديد، ولْيَخْلَعْ عنه مَلابِسَ الوَشْيِ ويَلبَس الحَديد، ولْيهْجُرِ المضاجِعَ ويَتَّخِذْ ظَهْر جَوادِه مستَقَرّه العَتِيد ، حتّىٰ ينتَشِرَ له صِيتٌ بين أهْلِ التَّثْليثِ كما ٱنتشر صِيتُه بين أهْلِ التَّوحِيد .

وٱبْسُطْ بِساطَ العَدْلِ ليطَأَه المَوالِي والعبيد ، وٱحْكُمْ بالحَقِّ فالحقُّ مُفِيدٌ والباطِلُ مُبِيد، ومَتَىٰ تسامعَ التُّجّارُ بعَدْلك جاءُوا بالأصناف والمَتْجَرِ الجَديد، وٱرْكَنْ إلىٰ حُكْم الشَّرع الشريف فإنّه يَأْوِى إلىٰ رُكْنٍ شديد، وٱتّقِ اللهَ تَجِدْه أمامَك فيما تَرُوم وتُرِيد، وتَمسَّــكْ بالسِّيرة الحسـنة يَزِدْكَ اللهُ رِفْعَةً وأنت أحَقُّ بالمزِيد ، وعقِبها نَسْتَنْجِزُ لك تَشْرِيفًا شَرِيفًا مَقْرونًا بتَقْلِيدٍ أعْظَمَ من هذا التقليد ؛ والخطُّ الكريم أعلاه حجّةٌ به ، إن شاء الله تعالىٰ .

تَوْقيعٌ بنيابة قَلْعـة حصْنِ الأكراد ، كُتِب به لشهاب الدين «أحْمد الناصرى» ، وهو :

الحمدُ لله الذى أطْلع فى سماء الدِّينِ شهابا، وفتح لمن خافه وٱتّقاه إلى الخيرات أبْوابا ، وحَبَاه من إفْضالِه وألْبَسه من حُلَلِ إنعامه ونَعْمائه أثْوابا .

نحمدُه علىٰ نِعَمِه التى أجزل لنا بمَزِيد حَمْدها أنْعماً وثَوابا ، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نتّخذُها من النار حِجابا، ونَعْتدُّ بها فى الآخرة مَفَازًا حدائِقَ وأعْنابا، وكَواعِبَ أتْرابا ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شَرّفه على الأنبياء مَنْصِبًا ونِصَابا، وسَبىٰ بطَلْعتِه وطَلِيعَتِه قُلُوبًا وأحزابا، وقرّبَه إلىٰ أنْ كان قابَ قَوْسَيْنِ وأسمعه من لَذيذِ كلامَه خِطَابا ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وأصْحابه : أكْرِمْ بِهِ وبِهِمْ آلًا وأصْحابا ! ؛ وسلَّم تسليماً كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ من ٱنتُدِبَ، لحِفْظِ المعاقل الإسْلاميَّة وٱنْتُخِب، وأحْرىٰ من لَحَظَتْه عَيْنُ عنايتِنا فكان إليها من العَيْن أقرب، وأحَقَّ من ٱعْتُمِد علىٰ بَسَالَتِه وإيالَتِه بما سَبَرَ من الأنام والأيام وجَرَّب ـ مَن عُرِفَ بشجاعةٍ أيْنَ منها عَمْرو بن مَعْدِى، وأمَانةٍ كَفَّتْ حين كَفَّتْ كَفَّ التَّعدّى ، وعِفَّةٍ جعلها فى أحوالِه كلِّها نُصْبَ العَيْن ، وسِياسَةٍ ما زال يُصْلِحُ بها بين ذَوِى المُشاقَقَةِ ذاتَ البَيْن ؛ وكان فلانٌ هو الموصول المُقَدّم ، المَوْصوفَ بهذه الصفات التى سُرَّ السّاحِلُ بها فتَبَسَّم .

فلذلك رُسِم بالأمر ـ لا زال يُطْلِعُ فى آفاق الحُصونِ المَصُونَةِ شهابا ، ويَرفَعُ الأوْلياءَ بإحْسانه الذى يُؤَكِّد لهم فى جُودِه أسبابا ـ أن يستقرّ (١) نائبًا بقلعة حصنِ الأكراد المحروس وأعمالها، علىٰ عادة من تقدّمه ومُسْتَقرّ قاعدته .

فلْيباشِرْ ما ولّيناه وأوْلَيْناه : مُباشرةً تُسْفِرُ عن حُسن فِطْنَتِه وذَكائه ، وتُضِىءُ الآفاقَ بنُورِ شِهابِها وسَنائه ، وتُظْهِر مَعْروفَها المعروفَ بعدم غَيْبته وخَفائه ؛ مُعْتمِدًا

(١) بياض بأصله ومراده الجناب العالى . أو المجلس العالى .

على الله تعالىٰ فى إبدائه وإنهائه ، شارحًا لكلِّ قَلْبٍ ألائه إحْسانُه بعد غِلْظَته وجَفائِه ، مانِحًا من بَحْرِ جُودِه وعَدْلِه بالدُّرِّ لا بُجفائِه، مُكْرِمًا لمن بهذا المَعْقِل : من أُمَرائِه وأجْنادِه وأغْنيائِه وفُقَرائِه ، مُقِيماً لمَنارِ الشَّرعِ الشريفِ الذى لا تَسْتَقيمُ الأُمورُ إلَّا بمتابعتِه وإبدائه ؛ ولْيُظْهِرْ من شجاعته وبَسالَتِه ما لا فائدةَ فى خَفَائِه ، ولْيَشْهَرْ سَيفَه، فى وَجْه من أظْهر حَيْفَه، وعَدِم خوفَه، من سَطْوَةِ رَبِّه وكُرَمائِه .

وأعظمُ ما نُوصِيه به التَّقْوىٰ، فإنَّه بمُلازَمتِها يَقْوىٰ، علىٰ دَفْعِ الشَّرِّ وفِعْلِ الخير وإسْدائِه ، والوصايا كثيرةٌ وهو المجرِّب بالعَمَلِ بها لمن يرغب فى آسْتِيلائِه ، والله تعالىٰ يُحْرِقُ بشهاب عَدْلِه كلَّ مُتَمَرِّدٍ ... ...

*
* *

وآعلم أنَّه ربَّما كُتب تَوْقيع نائبِ حِصْنِ الأكراد مفتتحًا بـ«أمَّا بعدَ حمدِ الله» .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بنيابة حِصْنِ الأكراد، كُتب به باسم «شهابِ الدين الحاكى» بـ«الجناب العالى»، وهى :

أمَّا بعدَ حمدِ الله الذى جعل شِهابَ الدِّين يَتَنَقَّلُ فى مَطالِعِ سَعْدِه، وجَدَّد أثواب النَّعماء لمن قَدُمَتْ هِجْرتُه وظهر خَيْره فأنجز له الإقبالُ صادِقَ وَعْدِه، وأشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تُبَلِّغ قائِلَها إنالَةَ قَصْده، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيَّده اللهُ بنَصْرٍ من عِنْده ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين كانوا من أنْصاره وجُنْده، صلاةً دائمةً يبلغُ المؤمنُ بها غايةَ رُشْده، وسلَّم تسليماً كثيرا ـ فإنَّ أوْلىٰ مَن شَمِله إحْسانُ هذه الدَّوْلة الشريفة وتَولَّه مُرادَه ، وأجْزل عليه النِّعَم فكان أحَقَّ بها لحُسنِ طَوِيَّتِه فأجْراه اللهُ علىٰ أحسَنِ عادَه ، وبلَّغه غايةَ القَصْدِ ومَعْدِنَ السعادة ـ من سَلَكَ مسالكَ الأُمناءِ الثِّقات ، وآشْتهرَتْ عنه العفَّةُ وحُسْنُ الصِّفات ، فتعيَّن تَقْديمُه وتَقْريبُه إلىٰ أجلِّ ولايات الفُتوحات .

ولمّا كان فلانٌ ـ أدام الله عِزّه، وأنجح قَصْدَه ـ هو المنْعُوتَ بصفات السَّداد، المشْهورَ بالنَّهْضةِ والشَّجاعة فى هذه البلاد ؛ الذى حَوىٰ المكارِمَ والإفْضال، ووافَق خُبْرُه خَبَره فى سائِر الأحوال .

فلذلك رُسم بالأمر ـ لا زال شِهابُ فَضْلِه سَاطِعا ، ونُورُ إحسانِه لَامِعا ـ أنْ يستَقِرّ المجلسُ العالى الشِّهابىُّ المشارُ إليه فى وِلَاية الأعمال الحِصْنِيَّة والمناصف عِوَضًا عمَّن بها ، علىٰ عادته وقاعدته : لأنَّا وجَدْناه شَمْسَ أعيان الأماثِل، وألْفَيْناه قَلِيلَ النَّظِير والمُضاهى والمُماثِل؛ وعليه عُقِدَت الخَناصِر، واتَّفقَتِ الآراءُ الثاقِبةُ فى الباطن والظاهر ؛ ولِمَا جَمع من كَرِم الشِّيَم وجَمِيل الخِلَال ، وحازَ من النَّباهَةِ الرفيعةِ الذُّرَا المَدِيدَةِ الظِّلَال .

فلْيتَوجَّهْ إلىٰ محلِّ وِلَايتِه ، ولْيُظْهِرْ ما أكْمَنَه من العَدْل والإنْصاف فى ضمائره بحُسْنِ سياسَتِه؛ ولْيُنْصِفِ المَظْلُومَ ممَّن جارَ عليه واعْتَدىٰ؛ ويتَّبِعْ فى ذلك ما يُوضِّح له من طريق مَنَارِ الهُدىٰ ؛ ولْيَبْسُطِ المَعْدِلَة ويُمِدَّ باعَه ، ولْيُبِدِ الظُّلْمَ ويَقْصِمْ ذِرَاعَه؛ ولْيَصْرِفْ هِمَّته فى عِمَارة البلاد، وتَأْمِينِ العِباد، وسُلُوكِ سُبُلِ الرَّشاد؛ ولْيجْتَهِدْ فى سَدِّ الخِلال، وإصْلاحِ ما فَسَد بغَيْره من الأحْوال؛ وليجْعَلْ تَقْوى اللهِ مَحَجَّتَه ، واتِّباعَ العَدْلِ حُجَّته، وسُلُوكَ الحَقِّ عُدَّتَه؛ فقد جاءت التَّقْوىٰ فى التنزيل مُؤَكَّدَه، ووَرَدَتْ فى كَثيرٍ من السُّوَر مُرَدَّده؛ واللهُ تعالىٰ يُعِينُه علىٰ ما وَلَّاه ، ويَحْرُسُه ويتَوَلَّاه ، بعد الخط الكريمِ أعلاه .

وهذه نسخةُ توقيع بنيابة قَلْعة المَرْقَب والولاية بها، كُتب به لصلاح الدين «خليل» ، بـ«ـالجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل هذه الدَّولةَ الشريفةَ مَقْرونَةً بالتَّأْييد والنَّجاح، ووفَّقَ أوْلياءَها إلىٰ سُلُوك سُبُل السعادة وشَيَّدها بالصَّلاح، وخَوَّلَهم فى أيَّامها المراتبَ العلية ليبْتَهِلُوا بأدْعِيَتِهِم وبدوامها فى المَساءِ والصَّباح .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى لا يبْرَح مُخْلِصُها فى ٱزْدِيادٍ وٱرْتياح، ونشكُرُه علىٰ آلائه شُكْرًا نستَحِقُّ به المَزِيدَ كما أُوضِح فى القُرآن أكْمَلَ إيضَاح، ونشهدُ أنْ لا إله إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً مُعْلِنَةً بالفَلاح، وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه الذى أنزل عليه فى مُحْكَم كتابه العزيز : ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَٱلأَرْضِ مَثَـلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَـا مِصْبَاحٌ ﴾ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصْحابه الغُرِّ الكِرَامِ الأشْباح، ما ترنَّم طائرٌ علىٰ غُصْنٍ وحَيْعَلَ الدَّاعِى الى الفَلاح، وسلَّمَ تسليماً كثيرا .

وبعــد، فإن أوْلىٰ من عُدِقَت به نِيابَةُ أجَلِّ المعاقِلِ والثُّغور وفُوِّضت إليه، وعُوِّل فى حِفْظِها ومباشرتِها الحَسَنة الجميلة عليه ــ مَن عُقِدَتْ علىٰ حَزْمِه الخَناصِر، ووَرِثَ الشَّجاعةَ والشَّهامَةَ كابِرًا عن كابِر، وهو الذى نَمَا فَرْعًا وزكا [أصْلا]، وفاقَ فى المكارم علىٰ نُظَرائِه قَوْلا وفِعْلا، فأضحىٰ وافِرَ الثَّناءِ واضِحَ الغُرَر، شاهِدًا له به العَيْن والبَصَر .

ولمـا كان فلانٌ هو المَنْعوتَ بهـذه الصِّفات، والمَوْصُوفَ فى مَواقِفِ الحروب بما لَدَيْه من الثَّبات والوَثَبات، المَشْكُورةَ خِدْمَتُه، شامًا ومِصْرا، المَشْهورةَ بين الهِمَم هِمَّتُه، بَرًّا وبَحْرا .

فلذلك رُسِم ... ــ لازالتْ مراسِيمُه الشريفةُ مَبْثوثَةً بالعَدْل والإحْسان، ومَعْدِلَتُه تَسْتَدْعِى بدوام دولته الشريفــة لِسَانَ كلِّ إنْسان ــ أنْ تفوَّضَ إليــه نيابة قَلْعــة المَرْقَب المحروس، والولاية بالأعْمال الشَّرْقِيَّــة، وما هو منسوب إليها، علىٰ العادة فى ذلك ومستقرِّ القاعدة : إذْ هو أحقُّ بها وأهْلها، وأكْمَلُ [من] يجمَعُ شَتَاتَ شَمْلِها .

فليباشر ما نُدب إليه من هذه الجهات مُباشَرةً تقصُر الأفكارُ عن توهُّمها ، والأبصارُ عن تَوَسُّمِها ، والخواطِرُ عن تخيُّلِ مبْناها ، و [الأذهانُ] عن تمثُّلِ صُورتِها ومعناها ؛ ولْيكن لمصالحها متلمِّحا ، ولأحوالِ رجالها متصفِّحا ، ولأقدارِ جهاتها مُربِحا ، وللخواطِر بأداء أحوالها على السَّداد مُريحا ، ولوظائِفِها مُقيما ، وللنظر فى الكبير والصَّغير من مصالحها مُديما ، ولحُرْمتِها مُضاعِفا ، وعلىٰ كلِّ ما يتعيَّن الاحتفالُ به من مُهمّاتها واقفا ، ويُعِدَّ للعدُوّ المخذولِ عند تحرُّكه العَزْمَ الشديد ، ويَهْجُرْ لِبْسَ الوَشْيِ ويتألَّف لِبْسَ الحديد ، ويَتَّخِذْ ظَهْر جَوادِه مُسْتَقرّه العَتِيد ؛ ويُشَمِّرْ للجهاد ذَيْلا ، ومعاذَ اللهِ أن يَميلَ عنه مَيْلا ؛ ويَبْسُطِ العَدْلَ للرَّعيَّه ، ويُعامِلْهم المعاملةَ المَرْضيَّه ، ويُحْسِنْ إلى الأُمَراء البَحْرِيَّه ، ويُلاحِظْ مصالِحَهم فى كلِّ قَضيَّه ؛ ويتفقَّدِ الرِّجال ، وأرْبابَ الأدراك والشَّوانى ويُحَذِّرْهم من الإهمال ، ويأمُرْهم باليَقَظَة والاحتراز فى اللَّيل والنهار وسائِرِ الأحوال ؛ وليعمَلْ ما يحتاج إليه من آلات الجهاد ولْيَكُنْ علىٰ حَذَر مما يتجدّد كلَّ يوم ، ولْيُوقِعِ الرَّهْبةَ فى قلوب الأعداء بخَيْلِه فى اليَقَظَة وخَيالِه فى النَّوْم ؛ ويتفقَّد الموانى فى سائر الأوقات فى اللَّيل والنهار ، ولْيُحَذِّرْ أُمَراء الأيْزاك من الغَفْلَة فإنَّ الغافِلَ لا يزال علىٰ شَفَا جُرُفٍ هَار .

ولْيتَّقِ اللهَ فى أقواله وأفعاله . والوصايا كثيرةٌ وهو أدْرَبُ بها وأدْرَىٰ ، وأبوابُ الخيرات واسِعَةٌ وهو إليها أسْرعُ وأجْرىٰ ؛ ولْيشكرِ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما ولَّاه ، والاعتماد على الخط الكريم أعلاه .

وهذه نسخةُ تَوْقيع بنيابة حِصْن عكَّار ، كُتب به لـ « ناصر الدين الكُردى » ، بـ « الجناب العالى » ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى نَصر هذا الدِّينَ الحنيفىَّ بسيِّد البَشَر، وخصَّ هذه الدولةَ الشريفةَ بالتأْييدِ والظَّفَر، ووافَى الأولياءَ بجُودها الذى لم يزلْ من ذِمَّة الوَفَاء يُنْتظر .

نحمدُه علىٰ مَنِّه الذى طالما بدا فى جَبهات الأوليـاء بِشْرُه وظَهر ، ونشـكره علىٰ جُودِه الذى أغنىٰ عن التَّحْجيل والغُرَر، ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادة تُنْجِى قائلَها يوم الفَزَع الأكبر ، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أقام اللهُ بسَيْفِه الإيمانَ فاشْتَهر ، وكَفَّ به يَدَ الطُّغيان وزَجَر، صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله ما اتَّصلتْ عَيْنٌ بنَظَر وأُذُنٌ بخَبَر، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أَوْلىٰ من (١) رُعِيتْ له خِدَمٌ عَدِيدَه ، وعُرِفَتْ له فى أجَلِّ الثُّغور مباشراتٌ سَعِيدَه ؛ واشْتهرتْ شَهامَتُه وكِفايَتُه فى الآفاق، وظهرتْ أمانَتُـه ظُهورَ الشَّمس فى الإشراق، وتقدّم بذلك علىٰ نُظَرائِه وفَاق .

ولمَّـا كان الجنابُ العالى هو المنعوتَ بهذه الصفات الجميله ، والمُحْتوِىَ علىٰ هـذه المزايا الجليله ؛ الذى شَاعتْ شجاعَتُه مع طهارة يَد ، ولا عَجَبَ فانَّ هـذا الشِّبْلَ من ذاك الأسَـد ! ؛ وسارتِ الرُّكْبَانُ فى الممـالك بنَهْضَتِهما فى المباشرات ، وسَدِّ الخَلَل فى المُهِمَّات المُعْضِلات .

فلذلك رُسِم ... ـ لازالتْ أيَّامُه مَبْثُوثةً بالعَوارِف والإحْسان، ومَعْدِلَتُه تستدعى بدوام دَوْلته الشريفةِ لِسَانَ كلِّ إنسانْ ـ أنْ تفوّض إليه نيابة قَلْعة حِصْنِ عكَّار المحروس، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، بالمرتَّب الشاهدِ به الديوانُ المعمورُ .

فلْيُقَدِّمْ خِيَرَةَ اللهِ تعالىٰ ويَتوجَّهْ إليها ، ويَصْرِفْ وَجْه الإقبال عليها ، وينظُرْ فى عمارتها ومصالحها ، ويَسْـتَدْرِكْ ما اسْتَهْدَم من بيوت حَواصِلها ؛ لِيُصْبِحَ وَجْهُ هـذا الثَّغر

(١) لعل الصواب «فان أولى الأولياء بالمناصب من رعيت» الخ ليستقيم الكلام .

بحُلُوله به بَاسِما ، ويَنْشَر له من حُسْن تدبيره وجميل تَأْثِيره عَلَما ؛ ولْيُحسنْ إلى الأمراء البَحْرِيَّه ، ويُنْزِلْهم منازلَهم على العادات المَرْضِيَّه ؛ ولْيَعدِلْ فى الرَّعيَّه ، ويُنْصِف المظلومَ من الظالم فى كلِّ قَضِيَّه ؛ ويُلْزِمْ أربابَ الوظائف من المقدَّمين والرَّجَّالة بالخِدْمة بالنَّوْبة على العاده ، ويُوَصِّلْ إليهم مَعْلُومَهم من جهاتهم المعتاده ؛ ويَتَّبِع الحَقَّ المَحْضَ فى كلِّ أمر ، لا يَقْتدى برَأْى زيد ولا عَمْرو؛ ولْيَعلَمْ أنَّه مُطالَبٌ بالعَدْل فى وظيفته ، فإنَّ كلَّ رَاعٍ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّتِه ؛ والوصايا كثيرةٌ ومُعْظَمها تقوى الله فى سائر الأُمور : فليتَمَسَّكْ بها يقوىٰ ، فإنَّها السَّبَبُ الأقْوىٰ ، واللهُ تعالىٰ يتولاه فى السِّرِّ والنَّجْوىٰ ؛ بعد الخطِّ الكريم أعلاه .

وهذه نسخةُ تَوْقيعٍ بنيابة بَلاطُنُس بـ«ـالجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى أسْبغَ نِعَمَه علىٰ أوْليائِه ، وأجْزلَ كَرَمه علىٰ أصْفِيائِه ؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰه إلَّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُنْجِى قائِلَها من وَبِيلِ العذاب ، وتُجدِّدُ له أسْبابَ السعادة فى الدُّنيا ويَوْمَ الحساب ؛ ونشهدُ أنَّ محمَّدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بالنُّور المُبِين ، المخصوصُ بالدِّين المتَين ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله وأصْحابه ، وأهْله وأصْفيائِه وأتْرابِه .

وبعدُ ، فإنَّ القِلاعَ المنصورةَ ممَّا يتعيَّنُ الاحتفالُ بأمْرِها ، والاهْتمامُ بحِفْظ رجالها فى سِرِّها وجَهْرها ؛ ومن أجَلِّ قِلاعِ الساحل المحروس ، وأجْمِلِ مساكن البَحْر المأْنوس ، قلعة بَلاطُنُس .

فلذلك رُسِم ... ـ لا زالتْ صَدَقاتُه تشملُ كلَّ أوْحَد ، وتَجْبُرُ كلَّ وَلِيٍّ أمْجد ـ أنْ يستقرَّ ... ... إذْ هو الخبيرُ ، الذى ليس لمَعْرِفَتِه نَظِير ، والضَّابِطُ الذى يُحاقِقُ على

الجليل والحقير، والنَّقِير والقِطْمِير، والشُّجاعُ الذى هو فى يوم النِّضالِ علىٰ أخْذ العَدُوِّ لَقَدِير، والضِّرْغامُ الذى أعطاه الله القُوَّةَ والمَعْرِفَةَ التامَّةَ فهو بهما جَدِير .

فلْيَسِرْ إلىٰ الثَّغْر المحروس، ويَعْتمِدْ فى أُمُوره ما هو فيه من الخِبْرة مَغْرُوس .

وهذه نسخةُ توْقِيع بتَقْدِمَة العَسْكر بجَبَلَة ، كُتب به لـ«صلاح الدّين الحافظى» ، بـ«ـالجناب العالى» ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل هــذه الدَّوْلَة الشريفةَ تَنْقُلُ كلَّ وَلِىٍّ إلىٰ درجات سَـعْدِه ، وتُؤَكِّد أسبابَ الارتقاء لمن حُمِدَت مآثِرُه وحَسُنَتْ سِيرتُه فى اليوم والذى من بَعْدِه ، وتُجَدِّدُ أثوابَ النَّعماء لمن ظَهر خَيْرُه وخِبْرتُه فأنْجز له الإقبال صَادقَ وَعْدِه .

نحمدُه علىٰ نِعَمِــه التى أجْزلتْ لمُسْتحِقّها مَواهِبَ رِفْدِه ، ونشــكُره علىٰ مِنَنِه التى خَصَّتْ كلَّ كافٍ بتأْثِيل مَجْدِه ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يبلُغُ بها قائِلُها غايةَ قَصْدِه ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيَّده الله تعالىٰ بنَصْرٍ من عِنْده ، وآمَنَه علىٰ وَحْىِ الرِّسالة فنصح الأُمَّة غاية جُهْدِه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين كانوا من أنْصارِه وجُنْده ، صلاةً دائِمــةً باقِيةً يبلُغُ بها المُؤْمِنُ غاية رُشْدِه ، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعــدُ ، فإنَّ الجنابَ العالِىَ لمـّا تقدَّمَتْ له مباشرات ، فى أجَلِّ الولايات وأحْسَنِ النيابات ، وهو يَسِيرُ فى كلٍّ منها أجْمَلَ سَيْر ، ويُحْسِنُ إلىٰ رَعِيَّتِها فلا غَرْوَ أنْ يذكروه بكلِّ خَيْر ، كَمْ قام بمُهِمَّات من غيْر عَسْف أهْلِ البلاد ، وكَمْ أعانَ الدِّيوان المَعْمورَ من غير ضَرَرٍ للعباد ، وكَمْ ميَّزَ أمْوالًا فكانت أيَّامُ مباشراته أعْياد ، وكَمْ له من خِدَم سار بهــا الرُّكابُ وبلَغ بها المُرَاد ، وكَمْ أثنىٰ عليــه لِسانُ القَلَم حتَّى نَفِدَ المِــدَاد ،

وكَمْ وُصِفَتْ هِمَمُه وحُسنُ تأتِّيــه فى كلِّ توْقيع وتقْليدٍ على أنَّ الكاتِبَ ما زاغ عن الحقِّ ولا مالَ عن الصِّدْقِ فيها ولا حَاد .

فاقتضىٰ محْمودُ رأْينا الذى ما برِحَ بعَوْنِ الله يُصيب، وجَميلُ فِكْرِنا الذى ما دعَوْناه لأمْرٍ إلّا وبالإصابة بحمد الله يُجيب، أنْ نُعيِّن له وظيفةً نُريحُه فيها من التَّعب، ونُوَفِّره من تَبِعاتِ الطَّلَب ؛ وكان مَن فى تَقْدِمَةِ العسكر بجبلة يَعْتريه أَلَمٌ يَعوقُه عن الرُّكوب فى الخِدَم الشريفة والنزول، سِيَّما فى هذا الوقت الذى فيه يتحرَّكُ العَدُوُّ المَخْذُول .

فلذلك رسم ... ـ لا زالتْ أيَّامُه الشَّريفةُ تُيَسِّر أسْبابَ النَّجاح، وعَوارِفُه تُطوىٰ لهـا أرْضُ البُعْدِ عن أوليائها كما تُطْوىٰ لِذى الصَّلاح ـ أنْ يستقرّ الجناب ... ... فى تَقْدِمة العَسْكر المنصور بجَبَلَةَ ، علىٰ عادة مَن تقدّمه وقاعِدَته .

فلْيباشِرْها مباشَرةً تَليقُ بشَجاعَته، وتُعْهَدُ من حُسْن سياسَته؛ ولْيُكْرِم الشَّرْعَ الشريف، ولْيَردَعْ من يَحيدُ عن الحقِّ أو يَحيف؛ ولْيجْمَع الأمراءَ المقدّمين والحلقة المنصورة على الركوب فى الخِدْمة الشَّريفه، وليشكرْ نِعْمةَ الله تعالى المُطيفَه؛ ولْيَتَيقَّظْ لِرَدْعِ العَدُوِّ المخذول ، ولْيَعْلَمْ أنَّا آسترعيناه أمْرَ ذٰلك وكلُّ رَاعٍ مَسْئُول ؛ ولْيَتحقَّقْ أنَّ العدُوَّ المخذولَ طالِبٌ للهالكين منهــم بالثّار، وهم قاصدون جَبَلَةَ فلْتكُنْ عنــده يَقَظَةٌ وآستبصار؛ وليرتب الأيزاك ولْيُعَمِّر الموانى بالرجال، ويتفقَّدْهم فى الليل أكثر من النهار ؛ ولْيَهجُرِ النَّوْمَ فى طَلَب الظَّفَر والمُنَىٰ فمن سَهِر لذلك ما خَاب ، ولا يَأْمَنْ مَكيدَتَهم ويَغْتَرَّ بهم فيقولُ : قد ضُرِبَ بينهم وبينها بسُــورٍ له بَاب؛ وباقى الوصايا فهو بها أعْلم ، ولم يَبْرحْ مُتَلَفِّعًا بثَوْبِها المُعْلَم ؛ ومِلاكُها تقوى الله تعالىٰ فمن لم يعمل بها يأْثَم، ومن تركها يَنْدَم، ومن لَزِمها فهو فى الدارين مُقَدَّم ؛ والله تعالىٰ يتولاه ، والآعتماد على الخطِّ الكريم أعلاه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وٱعلَمْ أنّه ربّما ٱفتتح تَوْقيعُ مقدّم العسكر بجَبَلَةَ بـ«أمّا بعدَ حمد الله» .

تَوْقيعٌ بتقدمة العسكر بجبلة ، ممّا كُتب به لحسام الدين العلائىّ بـ«الجناب العالى» وهو :

أمّا بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمِه التى تُجْزِلُ لكلّ وَلِىٍّ من مَوادِّ فَضْلِها إنْعامًا ، وتَمْنحُ من عَوارِفِها أقْساما ؛ وتُبَلِّغُ من النُّجْح لذوى الآستحقاق آمالا وتجعلُ فى نُحُورِ الباغين حُسَاما ؛ والشَّهادةِ له بالوحدانية التى لم تزلْ للأولياء المُتَّقِين لِزاما ، وترفعُ لهم فى الجَنَّاتِ مَقاما ؛ والصَّلاةِ علىٰ سَيِّدنا محمدٍ الذى محَا اللهُ بنبوَّته عن الأمة المحمديَّة آثاما ، وشرّفَه علىٰ سائر خَلْقه وجعله للأنْبياء خِتاما ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ظافَرُوه وبايَعُوه دُهُورا وأعْواما ، صلاةً دائمةً تَزِيدُ مُرِدِّدَها عِزًّا وإكراما ــ فإنَّ الآهْتِمام بكلِّ جِهَةٍ هو علىٰ قَدْرِها ، والعناية بقُطْرِها .

ولما كانت مدينةُ جبلةَ المحروسةِ مخصوصةً بمقام بر (١) السَّند، الزَّاهد الذى ترك الدُّنيا والأهْلَ والوَلد، والوَلِىِّ المبَرِّزِ فى عِبادة الخالق ، والمتوكِّلِ الذى لم يدَّخِرْ قُوتَ ساعَةٍ لساعةٍ آعتمادًا على الرَّازق ــ تعيَّن النظرُ فى أمْرِها وحِفْظِها من العَدُوِّ المخذول ، وإن كان بهذا السَّيِّد السَّنَد قد تبين حفظها ؛ وكان فلانٌ ممَّن باشرها فأحْسنَ فيها المُباشَره، وكلأ حِفْظَها بيقَظَتِه وعَيْنِه السَّاهِرَه ــ آقتضىٰ رَأْيُنا أن نُعِيدَه إليها ، ونُسْبِغَ ظِلَّه عليها .

فلذٰلك رُسم بالأمر ــ لا زال حُسَامُه قاطِعًا من الأعْداءِ نَحْرًا ، وفِعْلُه صالحاً دُنيا وأُخْرىٰ ــ أنْ يُعادَ المشارُ إليه إلىٰ تَقْدِمة العَسْكر المنصور بجبلَةَ المحروسة ، عوضًا عمَّن بها ، وعلىٰ عادته وقاعدته .

(١) بياض بالأصول ولعله بركات السيد السند .

فلْيَعُدْ إليها عَوْد الحُسام إلىٰ غِمْدِه، والمَاءِ إلىٰ مَنْهَلِ وِرْدِه ؛ ولْيُقَدِّم خيرةَ الله فى المَسيرِ إليها، ولْيَبْسُطِ العَدْل ليأْمَنَ أهلُها بقدومه عليها؛ ولْيُكْرِمْ من بها من العسكر المنصور، ويُحْسِنْ إلى الرَّعِيَّة بها ليُصْبِحَ خَيْرَ مَشْكُور؛ ولْيُنصف المظلوم ممَّن ظَلَمه، ويَنْشُر للشَّرع الشريف عَلَمه ؛ ولْيُخَلِّص الحقَّ من القَوِيِّ والضَّعيف ، والدَّنِيِّ والشريف؛ ولْيَلْزِمْ من بهذا الثَّغْر بعمل اليزك المعتاد، والتَّيَقُّظ لأمْرِ العَدُوّ المخذول ومضاعفة الاجتهاد، ولْيلازِمْ تقْوى الله تعالىٰ فى الأقوال والأفعال ، واللهُ تعالىٰ يَمْنَحُه من فَضْلِه ما يرجو من الآمال .

وهذه نُسخُ تواقيعَ لأرباب الوظائف الدينية بطَرَابُلُس .

تَوْقيعٌ بنظر الحِسْبَة بِطَرَابُلُس ، كتب به للقاضى «ناصر الدين بن شيصة» وهو :

الحمدُ لله مُبَشِّرِ الصابرين، ومُوَصِّل الأرزاق علىٰ يَدِ أصْفِيائِه من العالمَين، ومُعيد كلِّ ولِيٍّ إلىٰ مَنْصبه ولو بعد حين .

نحمدُه علىٰ فَضْلِه المُبين، ونشكُره علىٰ أن جَعلَنا من عباده المؤمنين؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلّا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً ندَّخِرُها ليَوْم الدِّين ، ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الصادِقُ الوَعْدِ الأمين، الذى أرسله بواضح الحُجَج ومُحْكَم البراهين، وأنزل عليه كتابًا عربيًّا مبين ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصحبه الغُرِّ المُحَجَّلين ، صلاةً مستمِرَّةً علىٰ ممَرِّ الأيام والشُّهور والسِّنين؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من غَزَّرْنا موادَّ رِفْده ، وأجْزلْنا له حُظُوظَ سَعْده ، وبلَّغْناه من إقبالنا غايةَ قَصْدِه ، وحَمِدْنا تَصَرُّفَه من قبلُ عند مارَسم لما جُدِّد [من] بعدِه؛ وأعدْناه إلىٰ رتْبة ألِفَتْ منه حُسْنَ السياسة والتَّدْبير، وعُرِفَ فيها بالكفايةَ والصِّيانَة

ويُمْنِ التأثير ــ مَنْ ــ له واسلفه فى المباشرات الجليلة يَدٌ طُولَىٰ ، فكان بوظيفته أحقَّ وأَوْلىٰ .

ولما كان المجلسُ العالى هو المُتَّصِفَ بصفات الكمال ، المَشْكُورَ فى سائر الأحوال ؛ فلذلك رُسم بالأمر ــ أنْفذه الله فى الآفاق ، وأجراه بِصلَةِ الأرْزاق ــ أن يُعادَ فلانٌ ــ أدام الله نِعْمته ــ إلىٰ نَظَرِ الحِسْبة الشريفة بالمملكة الطَّرابُلُسيَّة علىٰ عادته وقاعدته ، مُضافًا إلىٰ ما بيده من بَيْت المـال المَعْمور : لأنَّه الفاضِلُ الذى لا يُجارَىٰ ، والعالِمُ بأحْوال الرَّعِيَّة فلا يُناظَرُ فى ذلك ولا يُمـارَىٰ ؛ والفَيْلَسُوفُ الذى يُظْهِر زَيْفَ كلِّ مُرِيب ، والنِّحْرِيرُ الذى بخِبْرته يَسِيرُ كلُّ حَبِيبٍ ولَبِيب .

فلْينظُرْ فى الدَّقِيق والجَلِيل ، والكَثِير والقليل ، وما يُحصَر بالمقادير وما لا يُحْصَر ، وما يُؤْمَر فيه بمَعْروفٍ أو يُنْهىٰ عن مُنْكَر ، وما يُشْترىٰ ويُباع ، وما يُقَرِّبُ بتَحْرِيره إلى الجنَّة ويُبْعِدُ عن النـار ولو لم يكُنْ قد بَقِيَ بينه وبينها إلا قَدْرُ باعٍ أو ذِرَاع ؛ وكلِّ ما يُعْمل من المَعايِش فى نَهارٍ أو لَيْـل ، وما لا يُعْرف قَدْره إلا إذا نطق لِسانُ المِيزانِ أو تَكلَّم فَمُ الكَيْل ؛ وليَعمل لَدَيْه مُعَدَّلًا لكلِّ عَمَل ، وعِيارًا إذا عُرِضَتْ عليه المعايير يَعْرِفُ من جَار ومن عَدَل ، ولْيَتَفَقَّدْ أكْثَرَ هذه الأسْباب ، ويُحَذِّرْ من الغِشِّ : فإنَّ الدَّاءَ أكْثَرُه من الطعام والشَّراب ؛ وليتعرَّف الأسـعار ، ويَسْتَعْلِمْ الأخبارَ من كلِّ سُوقٍ من غير إعلام لأهْلِه ولا إشْـعار ؛ ولْيُقِمْ عليهم من الأمَناءِ من يَنُوب عنه فى النَّظَر ، ويَطْمَئِنُّ به إن غاب أو حضَرَ ؛ ودارَ النُّقود والضرب التى منها تَنْبَثّ ، وقد يكون فيها من الزَّيْف مالا يظهر إلا بعد طُولِ اللَّبْث ؛ فلْيتصَدَّ لمُهِمِّها بصَدْرِه الذى لا يَحْرَج ، ولْيَعْرِضْ منها على المَحَكِّ [من رأيه] ما لا يجوز عليه بَهْرَج ، وما يعلق من الذهب المكسور ويروبص من الفضـة ويخرج ؛ ولْيُقِمِ الضُّمَّانَ على العَطَّارِين والطُّرُقِيَّـة

فى بَيْع غرائب العقاقير إلّا ممن لايُسْتراب فيه وهو معروف ، وبخَطّ طَبِيبٍ ماهِرٍ لمريض مُعَيَّنٍ فى دواء موصوف ؛ والطُّرقِيّة وأهْلُ النّجامَةِ وسائرُ الطوائف المنسوبة إلىٰ سَاسَان ، ومن يأخذُ أمْوالَ الرِّجالِ بالحِيلَةِ ويأكُلُهم باللِّسان ، وكلّ إنْسان سُوءٍ من هذا القبيل هو فى الحقيقة شَيْطانٌ لا إنسان ؛ فامْنَعْهُمْ كلَّ المَنْع ، وآصْدَعْهُم مِثْلَ الزُّجاجِ حتَّىٰ لاينجبرلهم صَدْع ، وصُبَّ عليهم النَّكال وإلّا فما تُجدى فى تأْدِيبِهم ذاتُ التَّأديبِ والصَّفْع ؛ ومن وَجَدتَه قد غَشَّ مُسْلِما ، أو أكَل بباطِلٍ دِرْهما ؛ أو أخْبَرمُشْتَرِيًا بزائِد ، أو خرج عن مَعْهُود العوائد ؛ اشهِرْه بالبَلَد، وأرْكِبْ تلك الآلَةَ قَفاهُ حتَّىٰ يَضْعُف منه الجَلَد ؛ وغيرهٰؤُلاءِ [من فقهاء المكاتب ، وعالمات النساء وغيرهما من الأنواع](١) ممن يُخَاف من ذئبِه العائث فى سِرْب الظباء والجآذر ، ومن يُقْدِمُ علىٰ ذلك أو مِثْلِه وما يُحاذِر ؛ آرْشُقْهُم بسِهامِك ، وزَلْزِلْ أقْدامَهُم بإقْدامِك ؛ ولا تَدَعْ منهم إلّا مَن آختَرتَ أمانَتَه ، وآختبرت صِيانَتَه ؛ والنوّابُ لا تَرْضَ منهم إلا من يُحْسِن نَفَاذا ، ويُحْتسب لك أجْرُ آسْتِنابَتِه إذا قيل لك : مَن آسْتَنَبْتَ ؟ فقلت : هذا ؛ وتَقْوَى الله هى نِعْم المسالك ، وما لك فى كلّ ماذكرناه بل أكثره إلّا إذا عَمِلْت فيه بمَذْهَبِ مَالِك ، والله تعالىٰ يُسَدِّدُكَ ويُرْشِدُك ويوفِّقُك إلىٰ أحْسنِ المسالك .

تَوْقيعٌ بالخَطابَةِ والإمامة بالجامع المَنْصورىّ بطَرَابُلس ، كُتِب به للخطيب «جمال الدين إبراهيم» ، بـ«المجلس السامى» بغير ياء ، وهو :

رُسِم بالأمر الشَّريف ــ لا زالَ عُودُ مَنابِرِ الإسلام بمَاءِ إحْسانِه رَطِيبا ، وبُرْدُ شعائرالدين الحَنِيفىِّ فى أيّامه الزاهرة قَشِيبًا ، ومَواهِبُه ومَناقِبُه تُقِيم لمَادِحِه فى كلِّ

(١) الزيادة من «التعريف صفحة ١٢٦» وهى لازمة لاستقامة الكلام .

وَادٍ شَاعِرًا ولمحامِدِه فى كلِّ نَادٍ خَطِيبا ـ أنْ يُرتَّب المجلسُ السامى، الإمام، العامل: ـ رَحِم الله تعالىٰ السَّلَف، وزاد مَجْدَ الخَلَف ـ خَطِيبًا وإمَامًا بالمَسْجد الجامِع المعمور المَنْصوريّ بطرابلس المحروسة، عِوَضًا عن فلان، وعلىٰ عادته وقاعدته، وبمَعْلومه الشاهِد به الديوان المعمور المستقِرّ بآسمه، إلىٰ آخر وَقْت: رعاية لأهْلِيَّتِه الواضِحة الدلائل، وفَضِيلَتِه الناطقَة الشَّواهد الصَّادِقَة المَخايِل، وأوْصافه الجميلةِ التى بها تُعْرفُ من أبِيه الشَّمائل؛ ولأنَّه الصَّدْر آبن الصدرِ النَّجِيب، والخَطِيبُ الإمامُ آبن الإمامِ الخطيب؛ والوَلَدُ النَّجِيبُ الذى حَذَا حَذْوَ والدِه فى الصَّلاح ما خَابَ ولا يَخِيب؛ والنَّجلُ النَّبِيهُ المُهَذَّبُ الذى أشْبه أباهُ فى الدِّين والوَرَع: ومَن أشْبَه أباهُ فما ظَلَم فى النَّباهَةِ والتَّهذِيب.

فلْيباشِرْ هذه الخَطابَةَ والإمَامَةَ التى هو آبنُ جلَاها، وطَلَّاعُ ثَنايَاها؛ زَائِنًا حِلاها، زائِدًا عُلَاها؛ وليَرْقَ ذِرْوَة هذا المَنْصِبِ الذى هو أعْلىٰ المناصِبِ الدِّينيَّه، وليَتَلَقَّ نِعَمَ اللهِ عزَّ وجلَّ بالشُّكرِ الذى يُوجبُ المَزِيدَ ويُكْسِبُ المَزِيَّه؛ وليقُمْ مقامَ والِده فى هذه الرُّتْبةِ السَّنِيَّه، بإخلاص العَمَل وصِدْقِ النِّيَّه؛ مُجَلِّيًا فى مِضْمارِ البيان الذى سُلِّمَتْ إليه أعِنَّتُهُ، وأُلْقِيَتْ إليه أزِمَّتُهُ؛ مُحَلِّيًا بقلائِد المَواعِظ وفَرائِدِ الأمْثال أعْوادَ المِنْبرِ الذى لو أمْكنه لسَعىٰ إليه، مُشَنِّفًا الأسْماعَ بجَواهِرِ الأوامِرِ وزَواهِرِ الزَّواجِرِ التى يَصْدَعُ بها عليه.

ولْيَسِرْ كسِيْرَةِ والده فى الطَّرِيقة المُثْلىٰ وسُلُوكِ المَنْهَج الأسَدّ، ولْيَجْتَهِدْ فى إحْياءِ رُسُومِه فى العبادة وآقْتِفاءِ آثارِه فى العِلْمِ والزَّهادَة حتَّىٰ يقولَ الناسُ: هذا الشِّبْلُ من ذَاكَ الأسَد؛ جارِيًا علىٰ أفْضَل العوائد فى دِيانَتِه، سارِيًا بأجْمَلِ القَواعِد من صِيانَتِه؛ ولْيُوصَّلْ إليه مَعْلُومُه الشاهدُ به الدِّيوانُ المعمورُ المستقِر إلىٰ آخر وَقْتٍ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته: لآسْتِقْبال مُباشرته أحْيان الوُجوب وأزْمان الآسْتِحْقاق،

رزقًا دارًا ، سارًا ، هنيًا ، مرضيًا ، من غير تنغيص ، ولا تنقيص ؛ والاعتماد على العلامة الكريمة أعلاه ، وثبوته إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخة توقيع بخطابة ، كتب به للشيخ «صدر الدين الخابورى» ، بـ«المجلس السامى» بالياء ، وهى :

رسم ... ... ـ لا زالت أيامه الشريفة تضع الأشياء فى محلها ، وتفوض المناصب المنيفة إلىٰ أهلها ، وتشرف صدور المحافل بصدر العلماء فى حزنها وسهلها ـ أن تفوض إلىٰ فلان الخطابة بالجامع الناصرى المعروف "بجامع التوبة" بطرابلس المحروسة وجوبًا وتعينًا ، اقتضىٰ فى تقدم الفاضل على المفضول تيقنًا وتبينًا ؛ لأنه الحبر الذى لا يجارىٰ فى فضائله ، والبحر الذى يجود فيجيد بفواضله ، والصدر الذى ملئت بفوائده وفرائده بزمانه محافل صدوره وصدور محافله ؛ كم نطقت ألسن الأقلام بأفواه المحابر بفضله فى الأقاليم والآفاق ، وكم من عبارة بفصاحة وبلاغة حققت أنه بها فات الفصحاء والبلغاء وفاق ؛ لقد أصبح شمل هـذا الجامع بهذا الفاضل الذى طال ارتقابه له جامعا ، وأمسىٰ وقد ظفرت يمناه من اليمن به والبركة بما لم يكن بشىء منه فى مثل هـذه الأيام طامعا ، فلذلك بادر منبره المنيف وحل له حقوته مسارعا ؛ ووطأ ـ لامتطائه إياه ـ صهوته ، وغفر للدهر بهذه الحسنة الجميلة فيما سلف منه هفوته ؛ وعلم أنه الخطيب الذى استقر يطالع المنابر من خطبته بما يفجر من العيون منابع المدامع ، ويشوق إلىٰ الآخرة : من ألفاظ يشنف بها المسامع ؛ وأن قسًا لا يقاس به فى خطبه وعظاته ، وأن سحبان يود من خجله أن يسحب ذيله علىٰ مآثره المأثورة عنه ليعفى آثار فلتات كلماته ولفتات لفظاته .

فليباشرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ باللهِ تعالىٰ مُذَكِّرا، ولِمَا أمر عِبادَه ونَهاهُم عنه علىٰ أسْماعِهِم مُكَرِّرا؛ ويَعْلَمْ أنَّه فى المِحْراب مناجٍ لربه، وَاقِفٌ بين يَدَىْ من يَحُول بين المَرْءِ وقَلْبِه؛ فلْيعْتَصِمْ بالله عزّ وجلّ فى قَوْله وفِعْله، ويتَيقَّنْ أنَّ الكلمة إذا خرجت من قَلْبٍ لا تَقَعُ إلا فى مِثْلِه.

وفى إحاطة عِلْمِه المَشْهور، وفَضْلِه المَشْهُود المَشْكُور؛ ما يُغْنِى عن وَصيَّةٍ بها يَتَذَكَّر، وتَذْكرَة فى صَحيفَةِ فِكْرِه تُرْقَم وتُسَطَّر؛ ولْيُوصِّلْ إليه معْلُومَه علىٰ هذه الوَظِيفة الشاهدُ به الديوانُ المعمورُ. وليوفِّر خاطِرَه من التَّبذُّل فى تَحْصيل مَعْلومه الجارى له وطَلَبِه، وليُعامَلْ بما يَلِيقُ من الإجْلال والإعْظام بوَظِيفته الشَّريفَة والمَحَلِّ العالى الرَّفِيع من مَنْصِبِه؛ والعلامةُ الكريمةُ أعْلاه، حُجَّةٌ بمقتضاه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

وهذه نسخُ تواقِيعَ لأرباب الوظائف الديوانية بطرابلس:

نُسخةُ تَوْقيع بشهادة الجيوش بطرَابُلُس، كُتِب به للقاضى بَدْر الدين «محمد ابن الفرفور»، ووالِدُه يومئذ ناظر الجيوش بها، بـ«ـالمجلس العالى»، وهى:

أما بَعدَ حمدِ الله الذى زَيَّن سماءَ المَعَالى بِبَدْرِها، وأنْبت فى رِياض السَّعادة يانِعَ زَهْرِها، ورَفَع المناصِبَ السَّنِيَّة إلىٰ شَرَف مَحَلِّها ومَحَلِّ شَرفها؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً خالِصَةً فى قَوْلِها وفِعْلِها، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه أرْسله بالمِلَّة الحنِيفِيَّة قائمًا بفَرْضِها ونَفْلِها، آمرًا بالمَعْروف ناهِيًا عن المُنْكَر مُبَلِّغًا لرسالاتِ رَبِّه كُلِّها؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا ينحصِرُ عَدَدُها، ولا ينْقضى أمَدُها، وسلَّم تسليمًا كثيرًا ـ فإنَّ أوْلىٰ من خَطبَتْه المَناصبُ من هو أحقُّ بها وأهْلُها (١) فيها

(١) بياض بالأصل ولعله: وله فيها، الخ.

نِسْبةٌ لا يُنْكر فضلُها، ومُباشراتٌ فى المَمالِك الإسلامية مَشْهُوراتٌ بالكِفَاية والعفَّةِ فى بَرِّها وبَحْرِها .

ولمَّا كان فلانٌ ـ حرس الله جَنابَه وأسْبغ ظِلَّ والده ـ هو المَعْنِيّ بهذه الإشارَه، وشَمْسَ هذه الهَالَةِ وبَدْرَ هذه الدَّارَه .

فلذلك رسم ... ... ـ زاده الله تعالىٰ عَظَمةً وشَرفا ، ومنحه فى الجنان قُصُورًا وغُرَفا ـ أن يستقرّ ... ... : اقرارا لعَيْن والده، وجمْعًا له بين طَرِيف السَّعْدِ وتَالِده؛ لأنّه النَّبْعةُ التى نشأتْ فى رِيَاض السِّياده ، والزَّهْرةُ التى بَرَزَتْ فى كِمامِ السَّعاده ؛ فلا يزالُ فَرْعُه ـ إن شاء الله ـ بسعادة هذه الدَّولة الشريفة يَنْمِى إلىٰ أنْ يتأصَّل ، وزهْرَتُه تُزْهِىٰ إلىٰ أنْ تبلُغَ الإثمار وتتوصَّل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركةَ مُباشَرةً تَظْهرُ فيها كِفايَتُه عند الانتقاد، وتحمَدُ فيها عُقْبىٰ الاختيار والاختبار والرَّشاد؛ ولْيسْلُكْ فى أمانَتِه سنن أبِيه ـ أسبغ اللهُ ظِلَّه ـ التى أحكمها فى كل ما أبْدَىٰ وأعاد ، ويتَّبِعْ طُرُقَه الهاديةَ إلىٰ سبيل السعادة والإرْشاد ؛ ويُبْدِ ما اكتسبه من والِده عن سَلَفِه من هذه الصِّناعَةِ وهو أحقُّ بهذا السَّنَد ، ولا يَخْرُجْ عن رَأْيِ أبيه ـ أيّده الله ـ حتّىٰ يقولَ الناسُ : هذا الشِّبْل من ذاكَ الأسَد؛ ولْيُشَمِّرْ فى تحصيل الفضائل التى تُبْلَغ بها الآمال ، وتَصلُحُ الأحوال؛ ولْيَتَلَقَّ هذه المباشرَةَ بعَزْمِه الشديد ، بنَفْسِه لا بالتَّقْليد، فإنّه شاهِدٌ ومَسْئُول، بقوله يوفَّق فى الاستحقاق وفى النُّقود والكُيول ؛ وتَقْوى الله هى السَّبَبُ الأقْوىٰ ، فلْيتَمَسَّكْ بحَبْلِها يَقْوىٰ ؛ والوصايا كثيرةٌ فى ذلك ووالِدُه بها أعْلم، واللهُ تعالىٰ يُسَلِّكه سَبيلَ الهدىٰ فإنّه أنْجَحُ الطُّرُق وأسْلم ؛ والله تعالىٰ يتولىٰ عَوْنَه ، ويُديمُ صَوْنَه ؛ والاعتماد ... .

تَوْقيعٌ بكتابة الدَّرْج بطرابُلُس، كُتب به بـ«المجلس السامىّ» بالياء، وهو :

رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا زالتْ مَراسِمُه العاليَةُ تُطْلِـع فى أفلاكِ المعالى بَدْرًا مُنيرا هادِيًا إلى الفضائل مَأْمُونًا من السِّرار، ومكارِمُه الوافِيَةُ ترفَعُ من أعْلام المعانى صَدْرًا كبيرًا رَشيدًا فى البيانـــ أمِينًا على الأسْرار، ومَراحِمُه الكافيةُ تُقَرُّ عيونَ الأعيانِ والأخْيار ـ أنْ يُرتَّب فلانٌ ـ ضاعف الله تعالىٰ أنْوارَ فضائله التى يَأْتَمُّ بها المُسْتَضِىءُ والمُهْتدى، ويَعْشُو إلىٰ قِراهَا المُسْتَعِينُ والمُقْتدى ـ فى كتابة الدَّرْج السعيد بطرابُلُس المحروسةِ بما قُرِّرَ له من المعلوم الوارد فى الآستئمار الشَّرِيف علىٰ مايتَعيَّنُ بقلَمَ الآستيفاء جِهتُه، ويُبيِّنُ تَفْصِـيلُهُ وجُمْلته؛ نَظرًا إلى آستحقاقه الظَّاهِر، وفَضْلِه الباهِر، وبَلاغَتِـه التى أفْصحتْ عن بيان البَليغ القادر، وفَصاحَتِه التى بلغت الكمالَ بعَوْن الملك القادر، وإطْرابِه، فى إطْنابِه، وإعْجازِه، فى إيجازِه؛ فله فى الدلائل قُدْرة «المَنْصور» وفى الفضائل قُوَّةُ «الناصر»؛ طالمـا أزْهر بقلمه «المَهْدىّ» للصواب، «السَّـفَّاح» كالسَّحاب، رَوْضُ العُـلومِ والآداب؛ وأظهر ببيـانه «المُنْتَصر» فى الخطاب، «المُقْتَدِر» على الآقْتِضاب؛ طُرُقَ الفُنون، واضِحةَ العيون، مُحْكَمة الأسـباب، وسُبُلَ الحِكَم مُفَتَّحةَ الأبواب؛ فهو بالسنا والسناء بَدْر «المُستَرْشِد»، وبالجَـدا والجَدَاءِ «مُعِزٌّ» «المُسْتنجد»؛ وبفَرْط الحَيا والحَياءِ سَحـابُ المُسْتَمْطِر و«المُسْتظهِر»، وبغَرْب الذَّكا والذَّكاء برق «المُسْتَبْصِر» و«المُسْتَنصِر».

فليباشِرْ هذه الوظيفةَ المباركة «مُعْتصِمًا» بحَبْل التَّقْوىٰ، «مُستعصِمًا» من المُراقبة بالسَّبَب الأقْوَم الأقوىٰ، مُجدِّدًا رُسـومَ هذه الصـناعةِ التى رَبْعُها قد دَرَس ومَحلُّها قد أقْوىٰ؛ فإن «المُتقِى لله» «الرَّاضى» به هو «الرَّاشِـدُ» «الفَائِزُ» بالسَّـعاده،

و «المُتوكِّل» عليه «المُطيعَ» له هو «الوَاثِقُ» ببُلُوغِ القَصْد الحائز للاراده ؛ ولْيَطرِّزْ حُلَل البيان بوَشْيِ بنَانِه الذى أصبح دِيبَاجُ الطِّرْسِ به «مُعْتَزًّا» ، ولْيقوِّمْ مَعانِىَ البَدِيع بعامِل قَلَمِه الخَطِّىِّ الذى أمسَى الفَضْـلُ به كالسَّمْهَرِىِّ قائمًـا مُهتزًّا ؛ «مُسْتكفيا» بمـا يصَرِّعُه ويُرَصِّعه نَظْمًا ونَثْرًا من البدائع ، «مُستعليا» لمـا يرَفِّعه ويفَرِّعه من غُرَرِ الفِقَر ، ودُرَرِ الفِكَر ، بخاطره الوَقَّاد النَّقَّادِ المنقاد الطائع ؛ «مُقْتفِيًا» فيما يُنْشِـئُه آثار ما يصْدُر عن «الحاكم» و «الآمر» ، «مكتفيا» فيما يُبْدِيه بمقدار ما تبرُز به المراسِيمُ والأوامر ، «حافِظا» للسِّرِّ «العزيز» كاتِبًا كاتِمًـا فلا يعْضُده فيه «عاضد» ولا يظْفَر به «ظافر» ؛ «معتمدا» على الكِتْمان فى جميع ما يُورِدُه ويُصْدِرُه ، مقتصِداً بالتَّوفيق فى سائر ما يُخْفِيه ويظهره .

والوَصايا فمن آدابه تُسْتفاد ، والنَّصائح فلَها منه المَبْدأ وإليه المَعَاد ؛ فلْيَتَسَنَّمْ ذِرْوَةَ أعْلاها ، ولْيَتَنَسَّمْ نَفْحةَ رَيَّاها ... .

توقيعٌ بشهادة دَارِ الضَّرب بطرابُلُس، وهو :

رُسم بالأمر ــ لا زال رَأيُه الشريف يقَرِّبُ من الأمور صَوَابا ، ولا بَرِحَ أُفُقُ سماء مملكته الشريفة يُطْلِـع بفَلَكِه بدْرًا مُنيرًا وشِهابا ــ أنْ يُرَتَّبَ فلانٌ ... ... : لأنه العَدْل الذى آشتهرتْ عدَالَتُه ، والأمينُ الذى بَهرتْ فظهرتْ أمانَتُه ؛ والرَّئِيسُ الذى ما بَرِحَ صَدْرَ المحافل ، والفاضلُ الذى فاق بفَضْلِه على الأقْران والأماثِل ، وشَهِدَتْ بنَزاهته المشهورةِ الأواخِرُ والأوائِل .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ مباشرةً مطابِقَةً لعَدالَتِه المشهوره ، مُعْرِبَةً عن أصالَتِه المَخْبوره ، مُوَضِّحةً عن ديانَتِه التى غَدَتْ فى العالَمِين معروفةً غيرمَنْكُوره ؛ لِيُصْبِحَ هذا المَنْصب

مُشْرِقًا بنُوره ، سَنِيَّ الأرْجاءِ بسَاطِعِ ضياء شِهابِه ونُورِ بُدُورِه ؛ وهو ـ أعَزّه الله ـ غَنِيٌّ عن وَصِيَّة منه تُسْتفاد ، أو تَنْبِيه علىٰ أمْرٍ منه يُبْدأ و إليه يُعاد ؛ ولْيَتَناوَلْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المَعْمور هَنيًّا مُيسَّرا ، ولا يَقِفْ أملَهُ عنـده : فإنا لَنَرْجُو فوق ذلك مَظْهرا .

تَوْقيعٌ بنَظَر اللّاذِقيّة ، كُتب به للقاضى «بُرْهان الدين» الأذرعىّ ، وهو :

رُسم بالأمر ـ أنْفذه اللهُ فى الآفاق ، وطَوَّق بمَنّه وفَواضِـل بِرّه الأعناق ـ أنْ يسـتقرَّ المجلسُ السامى ـ حرس الله مُهْجَتَه ، وأهْلَكَ حَسَدَتَه ـ فى نظر اللّاذقيـة المحروسة ، علىٰ عادة من تقدّمه وقاعدته ، بالمَعْلوم الشاهد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخرِ وَقْتٍ : عِلْمًا بأمانَتِـه المَشْهوره ، وكِتابَتِه التى هى بين أهْل الصِّناعَةِ مَشْكُوره ، وخِبْرَتِه التى هى فى المُباشَرات مَعْروفةٌ غيرمَنْكوره ، وكِفَايَتِه المـأْلُوفة المَوْفُوره ؛ فإنَّه باشَر الحِسْبَةَ الشَّريفةَ ونَهَىٰ وأمَر ، واتَّبع فى أحْكامِه ما أمَر به «أميرُ المؤمنين عُمَر» ؛ وضَبَط أموالَ بَيْتِ المـال بحُسْنِ نَظَره ومَيَّزَ وثَمَّر .

فلْيبـاشِرْ هذه الوظيفةَ المُباركَةَ مُباشَرةً علىٰ أجْمـل العادات ، ويَسْترفِعْ مالها من الحُسْبانات ، ويُوَصِّلْ إلىٰ أرباب الاستحقاق ما لَهم من الحُقُوقات ، علىٰ مايشهدُ به الديوانُ المعمورُ فى سائر الأوقات ؛ فإنَّ هذه الوظيفةَ من أجَلِّ المُباشَرات ، ولْيتناوَلْ مَعْلُومه الشاهِدَ به الديوانُ المعمورُ هَنِيًّا مُيسَّرا علىٰ جارِى العَادة لمن تَقَدّمه فى الفُروع وسائر الجهات ، ولْيعْتَمِدْ علىٰ تَقْوَى الله تعـالىٰ فى سائر الحركات والسَّكَنات ؛ والله تعالىٰ يتولّاه ، والاعتماد على الخط الكريم أعلاه .

توقيع أيضا فى المعنى .

لا زالتْ صَدَقاتُه الشريفةُ تُقِيمُ لأتباع الحقِّ بُرْهانا، وتُسْدِى إلى كلِّ أحَدٍ خَيْرا وإحْسانا ـ أن يرتَّبَ فلانٌ ناظِرًا باللَّاذِقيَّة المحروسةِ وما هو مضافٌ إليها، على عادة من تَقدَّمه وقاعِدَته ومعلومه الشاهِدِ به الديوانُ المعمور : لأنَّه طالمَا باشَر نَظَر بَيْت المَال فوَفَّر الأموال ، وأصْلح ما فَسد من الأحْوال ، وسَدَّد بحُسْنِ تَدْبيره الأقوال والأفعال، وأظْهر من الأمانة ماتَميَّز به فى مباشراته، وفاقَ به على قُرَنائِه وأهْلِ زَمانِه وأوْقاتِه ؛ ثُم باشَر الحِسْبَة فسَلَك فيها مَسْلَك السِّرِّ والجَهْر وصِدْقِ الخَبَر، وسلك مَسْلك أمِير المؤمنين عُمَر .

فلْيباشِرْ هـذا النَّظَر بقَلْبٍ مُنْشَرِح ، وأمَلٍ مُنْفَسِح ؛ ولْيُظْهِرْ فيه ما جُرِّب به من الأمانَه ، وتَجَنُّبِ الخِيَانه ؛ ولْيجتَهِدْ فى تَحْصِيل أموال الدِّيوانِ المعمور ، ويَبْسُطْ قَلَمَه فى إصلاح الأمور، ولْيُوصِّلْ إلى أرباب المُرَتَّباتِ ما هو لهم مُسْتَحَق، فإنَّهم به أوْلى وأحَق ؛ ولْيوَصَّل إليه مَعْلومُه أوَانَ وُجُوبه وٱسْتِحْقاقه ... .

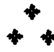

تَوْقيعٌ بمشارفة حِصْن الأكراد ، كُتب به للقاضى « بَدْر الدين » بـ«ـالمجلس العالى» ، وهو :

رُسم بالأمر الشَّريف ـ لا زالتْ مَراسِمُه العالِيةُ تُولِى الأنامَ بِرّا ، وتُجَدِّدُ بإسْباغ الإنعام بِشْرا، وتُضَوِّعُ فى كلِّ نَادٍ من أنْدية الثَّناء والدعاء نَشْرا، وتُطْلِع فى كلِّ أُفُق من آفاق السِّيادة من صُدُور الأعيان وأعْيان الصُّدُورِ بَدْرا ـ أن يُرتَّبَ فلانٌ فى مُشارَفة حِصْن الأكْراد المحروس : لمـا هو عليه من العِفَّـةِ والصَّلَف ، والنَّزاهَة

التى عُرِف بها وٱتّصف ؛ والرِّآسَةِ التى ٱنْتقلتْ إلى الخلَف عن السَّلَف ، والعَدالَةِ التى لا يتكلَّفُ لسُلوك نَهْجِها : ومن العَجَبِ خُلُوُّ البَدْرِ عن الكَلَف ! ؛ كَمْ حُفِظَتْ بمباشرته الأموال ، وصَلَحتْ بمُلاحَظَتِه الأحوال ؛ وعُقِدَت الخَناصِرُ علىٰ سيرَتِه وحُسْنِ سَيْرِه ، وٱشْتَهر بجميل تَدْبيرٍ أَوْجب تَقْديمَه علىٰ غَيْرِه .

فلْيباشِرْ هذه الوظيفةَ التى هى من أَجَلِّ الوظائف ، ولْيشْكُرْ ما أُولِى من المعروف وأُسْدِىَ إليه من العوارف ؛ ولْيبذُلْ جُهْدَه فى صلاح الأحوال ، وتَثْمِيرِ الأموال ، وتَقْرِيرِ القواعد على السَّداد ، وإجْراءِ العَوائد علىٰ وَفْقِ المُراد ؛ فانَّه ممَّن دَلَّت خِبْرَتُه علىٰ جَميلِ آثاره ، ولاحَتِ الغِبْطَةُ فى ٱختياره الذى أَغْنىٰ عن تَقْديم ٱخْتباره ؛ كَيْفَ لا ؟ وهو ممَّن نَشَأَ فى خُدُورِ فُنُون الكِتابَه ، وٱشْتَهر فى مَواطِن النِّضال مع وُفُورِ الانْتقال بحُسنِ الإصابَه ؛ فهو إن شاء الإنْشاءَ بَلَغ منه المَرام ، وإن بَسَط الجرائِدَ للتَّصَرُّف قيل : هذا الكَاتِبُ النَّظَّام ؛ كَمْ له من يَدٍ بيْضاءَ فى التَّبييض والتَّسْويد ، وهِمَّةٍ عَلْياءَ بلغ بها من السِّيادة ما كان يُرِيد .

فلْيقَدِّمْ خِيرَةَ الله تعالىٰ فى هذا الأمر ويجْعلْها إمامه ، ولْيتَمسَّكْ بها مُقْتدِيًا بمن قدمها أمامَه ، ولْيكُنْ عند حُسْنِ الظَّنِّ به ليبلُغَ من سعادة الدَّارَيْنِ مَرامَه .

والوَصايا التى يعُمُّ نفعُها ، ويتعيَّنُ علىٰ تناسُبِ الأعْمال جَمْعُها ؛ به تُسْلَكُ سُبُلُها ، وعنه تُؤْخذ تَفاصِيلُها وجُمَلُها ؛ فليَسْلُكْ منها الأقْوَمَ الأرْشَد ، وليتَمسَّكْ بالأفود الأحْمد ، بحَزْمٍ وافر ، وعَزْمٍ غيرِ قاصِر ؛ ولْيتناوَلْ مَعْلومَه الشاهِدَ به الديوانُ المعمورُ أحْيان الوُجوب والاستحقاق رِزْقًا دارًّا ، هَنيًّا مُيَسَّرًا سَارًّا ؛ من غير تَقْتير ولا تَكْدِير ، ولا تَنْغِيصٍ ولا تأْخير .

توقيعٌ بمشيخة المقام الأدهمىّ ، كُتب به باسم الشيخ « عبد الله السطوحى » بـ«سالمجلس العالى» ، وهو :

أما بعد حمدِ الله الذى سَقىٰ مَحْلَنا بإيابه ، وأنبتَ عُشْبَنا بسَحابه ، وأقرأنا كِتابَ وَجْهِه وأغنانا عن وَجْهِ كتابه ؛ وجَعَلَ لكلِّ مَقامٍ مَقالًا من صِدْق أوليائه ، ومَنَحَهم بما آختار لهم من سرائر مَواهِبه وعَطائه ، وجَمع قُلُوبَ الفُقَراء علىٰ العِبَادة والدعاء بواسطةٍ من أحْبابِه وأخِصَّاءِ نُجَبائه ؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ نَجْمِ السُّرىٰ ، ولَيْثِ الشَّرىٰ ، وسَيِّدِ من وَطِئَ الثَّرىٰ ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم من لو أقْسم لأبَرَّ قَسَمَه رَبُّ السما ، وسلَّم تسليما كثيرا ـ فلمَّا كان الاعْتناءُ بالأمور الدِّينيَّة من الواجبات ، والمحافظةُ عليها [مما] تُبادِرُ إليه من النُّفوس الرَّغَبات ؛ وبُيُوت الله تعالىٰ فهى قِوامُ الدِّينِ المَتِين ، ولا يَنْهَضُ بعمارتها إلا الذين آتَّقَوْا وآمنوا بربِّ العالَمين ، فطُوبىٰ لهم ونِعْم أجْرُ العاملين .

ومن البيوت العامِرَه ، والسَّراة الطَّاهِرَه ، والمقامات التى إذا حَلَّ بساحَتِها أكْمَهُ العَيْن بَصَّرتْه نُجوماً زاهِرَه ـ مقامُ من ذِكْرُ كرامتِه أشْأَم فى أقْطارِ الأرض وأيْمَن وأنْجَد وأتْهم ، السَّيِّدِ الجليل وَلىِّ الله « إبراهيم بن أدْهم » ؛ سَيِّدِ الأولياء ، وسُلْطانِ الأتْقياء ؛ رَحْمَةُ الله عليه ما سَارَ على الطَّرِيقِ سائر ، وما آمْتطىٰ ظَهرَ قَلُوصٍ مُسافِر ؛ مَقَامٌ بالزُّهْدِ موصوف ، وبالبَرَكاتِ مَعْرُوف ؛ وله الإطلاقاتُ المَشْهوره ، والمَناهِلُ المأْثُوره ، فى وِرْدِها المَبْروره ؛ قد آسْتولَتْ عليه يَدُ التَّبْذير ، وعَاد بَعْدُ طُولُ سِماطِه فى تَقْصير ، وآخْتلف فيه النِّيَّاتُ فكان فى كيس الفقير(١) ؛ فكَشَفَ الله هذه النِّقْمَه ، وأدام سَوابِغَ النعْمه ؛ وأسْبَل على هذا المقام ظِلالَ الحُرْمه ؛

(١) لعلّ الصواب «فكان فى كيس الغنى بعد أن كان فى كيس» الخ .

وأرْسَلَ اللهُ علىٰ عباده المتّقينَ باعثًا من عنده ، وأيقظهم لعِلْمِه بأن كلًّا واقِفٌ عند أمْرِه وحَدّه ؛ وأنطق لِسانَ من لا رادّ لأمْرِه ، فكشف غُمّة هـذا المقام وعزَل من يُخافُ عليه من سُوءِ تَدْبيره وشَرّه .

فلذلك رُسم ـ أن تفوّضَ مشيخةُ المقام الجليـل الأدْهميّ بثَغْر جبَلَة المحروس ـ علىٰ ساكنه الرحمة والرضوان ـ إلىٰ فلانٍ ـ نفع الله ببركاته ، وأعاد على المسلمين من صالح دعواته ـ عِوَضًا عمن كان بها بحكم آنفصاله حَسَب ما وردتِ المراسيم الشريفة ـ شرفها الله تعالىٰ وعظمها ـ عند آتصال العلوم الشريفة ـ زادها الله تعظيما ـ بأمر المقام المشار إليه وآعتماد المتصرفين فيه : إذْ وُضِعَت الآنَ الأشياءُ فى مَحلّها ، وأُسندت الأمور إلىٰ أهْلها ، وقُلّدتْ هذه المَثُوبَةُ إلىٰ من يُظْهِر سرائرَ فَضْلِها ؛ ولحظت الآراء حَجَر هـذا المقـام والأثر ، ولا شَكَّ أنَّ السّعادة تَلْحَظُ الحجَر ؛ كَمْ له من آيات مَشْهورَه ، وكرامات بلسانِ الحَمْـد مَذْكوره ، ومساعٍ فى الخيرات مَبْروره ؛ وقد عَمّ الزَّوايَا بأجْناسِ المَكارِم ، وبَسَـط ... من إكرامه سِماطًا يقول الزّائرُ : هـذا ولا حَاتِم :

نَزُورُ دِيارًا زارَها جُودُ كَفِّهِ ، * ومن دُونِها للزّائرينَ مَراحِلُ ،
ونَرْجِعُ عنهـا والجُفُونُ قَريرةٌ : * كما رَاجَعتْ مأوَى الحُقُوفِ المَساحِلُ !

فلْيَتلقّ ـ أعاد الله من برَكَتِه ـ هذه التولِيَه . ولْيجعلْ للمقامِ المُشارِ إليه من خَاطِرِه الكريم أوفَرَ عنايَه ؛ ويستخلفْ عَنْه إذا توجّه إلىٰ (١) بحِصْنِ الأكراد فإنَّها مُسْتَمرّةٌ بيده وولايتها باقية عليه ؛ وأمْرُها فى إبْدائه وإعادَته عليه ؛ واللهُ تعالىٰ يتولّاه ، فيما وَلّاه ؛ والآعتماد ... .

(١) بياض بالأصل ومراده الى مشيخة ... ... بحصن الأكراد .

قلتُ : وقد أَتيتُ علىٰ جُمْـلةٍ من تواقيع أرباب الوظائف : بدمَشـق وحَلَب وطَرَابُلُس وأعمال كلٍّ منها ، يَسْتغنِى بها المـاهِرُ عمّا سواها ، ويَقِيسُ عليها ما عَداها ؛ إذْ لا سبيلَ إلىٰ آستيفاء جَميعها ، والإتيانِ علىٰ جُمْلتها .

وفيما ذُكِر من هذه الممـالك الثلاثِ تَنْبِيهٌ علىٰ ما يكتب بحَماة وصَفَد اللَّتين همـا فى رُتْبَـة طَرابُلُس ، وتَلْويحٌ إلىٰ ما عداها ، ممـا هو دونهـا كغَزَّة إذا كانت نيابة ، والكَرَك التى هى دون ذلك .

والله تعالىٰ هُو الهـادى إلىٰ التوفيق ، والمُرْشِدُ للسَّداد ، بمَنّه وكَرَمه .

تم الجزء الثـانى عشر . يتلوه إن شاء الله تعـالىٰ الجزء الثالث عشر

وأوّله المقـالة السادســـــة

(فيما يكتب فى المسامحات ، والاطلاقات السلطانية ، والطَّرْخانيات وتحويل السنين والتذاكر ، وفيها أربعة أبواب)

والحمد لله رب العالمين ، وصلاته على سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين وآله وصحبـه والتابعين ، وسـلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ١٩١٦/٥٠٧١/٣٠٠٠)

فهـــــــرس

الجـــزء الثـانى عشر

من كتاب صـبح الأعشى للقلقشـــندى

صفحة

القسم الثانى — مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية ما يكتب لأرباب الوظائف بالممالك الشامية ، وهى على ضربين ٥

الضرب الأول — من لا تصدر عنه منهم تولية فى عمل نيابته ... ٥

« الثانى — من تصدر عنه التولية والعزل فى عمل نيابته ، وهى سبع نيابات ٦

النيابة الأولى — نيابة دمشق ، ويعبر عنها بكفالة السلطنة بالشام ، ووظائفها على نوعين ٧

النوع الأول — ما هو بحاضرة دمشق ، ويشتمل ما يكتب به عن الأبواب السلطانية على أربعة أصناف ٨

الصنف الأول — أرباب السيوف ، وهم على طبقات... ... ... ٨

الطبقة الأولى — من يكتب له تقليد فى قطع الثلثين ٨

« الثانية — من يكتب له تقليد فى قطع النصف ٢٤

« الثالثة — من يكتب له مرسوم ، وهى على مرتبتين ٢٦

المرتبة الأولى — من يكتب له فى قطع النصف ٢٦

« الثانية — من المراسيم التى تكتب بحاضرة دمشق لأرباب السيوف مايكتب فى قطع الثلث ٣٣

الصنف الثانى — من الوظائف بدمشق الوظائف الدينية ، وجميع ما يكتب فيها تواقيع ، وهى على مرتبتين ٣٨

المرتبة الأولى — ما يكتب فى قطع النصف الخ ٣٨

« الثانية — مايكتب فى قطع الثلث الخ... ... ... ٥٩

الصنف الثالث — تواقيع أرباب الوظائف الديوانية ، وفيها مرتبتان ٨٦

المرتبة الأولى — ما يكتب فى قطع النصف الخ ٨٦

« الثانية — من يكتب له فى قطع الثلث الخ ٨٩

صفحة

ـنف الرابع — وظائف المتصوّفة ومشايخ الخوانق، وفيها مرتبتان ١٠١
المرتبــة الأولى — ما يكتب فى قطع الثلث الخ... ... ... ١٠١
« الثانيــة — من يكتب له فى قطع العادة الخ ١٠٣
النــوع الثانى — من وظائف دمشق ما هو خارج عن حاضرتها ١٠٤
الطبقــة الأولى — ما يكتب به مرسوم فى قطع النصف ١٠٦
الصـنف الثانى — ممن هم خارج دمشق أمراء العرب، وهم على طبقتين ١١٨
الطبقــة الأولى — من يكتب له منهم تقليد فى قطع النصف ... ١١٨
« الثانيــة — من يكتب له مرسوم شريف، وهم على مرتبتين... ١٢٤
المرتبــة الأولى — من يكتب له فى قطع النصف ١٢٤
« الثانيــة — من يكتب فى قطع الثلث ١٣٥
النيــابة الثانيــة — من نيابات البلاد الشامية نيابة حلب، ووظائفها
التى يكتب بها من الأبواب السلطانية على نوعين... ... ... ١٤٠
النــوع الأوّل — من بحاضرة حلب، وهم على أصناف... ... ... ١٤٠
الصنف الأوّل — منهم أرباب السـيوف، وهم على طبقتين ١٤٠
الطبقة الأولى — من يكتب له تقليد فى قطع الثلثين ١٤٠
« الثانية — من يكتب له فى قطع الثلث ١٥١
الصنف الثانى — أرباب الوظائف الدينية بحلب، وهم على طبقتين ١٥٥
الطبقة الأولى — من يكتب له فى قطع الثلث الخ ١٥٥
« الثانية — من يكتب له فى قطع العادة ١٦٠
الصنف الثالث — من أرباب الوظائف بحلب أرباب الوظـائف
الديوانيــة، وهم على طبقتين ١٦٠
الطبقة الأولى — من يكتب له فى قطع الثلث ١٦٠
« الثانية — من يكتب له فى قطع العادة... ... ... ١٦٧

النـــوع الثـانى — من أرباب الوظائف بالمملـكة الحلبيـه من
خارج عن حاضرتها، وهم على أصناف ١٦٨
الصنف الأول — آرباب السـيوف ١٦٨
« الثـانى — الوظائف الدينيـة ١٧٤
« الثالث — الوظائف الديوانية ١٧٥
النيـابة الثـالثـة — نيابة طرابلس ، ووظائفها التى جرت العادة بالكتابة فيها
من الأبواب السلطانية على نوعين ١٧٦
النـــوع الأول — ما هو بحاضرة طرابلس، وهو على ثلاثة أصناف ... ١٧٦
الصنف الأول — أرباب السيوف، وهم على طبقتين ١٧٦
الطبقةالأولى — من يكتب له تقليد ١٧٦
« الثانية — من يكتب له مرسوم فى قطع الثلث... ... ... ١٧٩
الصنف الثانى — الوظائف الدينيـة ، وهى على مرتبتين ١٨٢
المرتبـة الأولى — من يكتب له فى قطع الثلث ١٨٢
« الثانية — من يكتب له فى قطع العـادة ١٨٧
الصنف الثالث — الوظائف الديوانية ، وهى على مرتبتين ١٨٨
المرتبـة الأولى — ما يكتب فى قطع الثلث ١٨٨
« الثانيـة — من يكتب له فى قطع العادة ١٩٤
النـــوع الثـانى — ماهوخارج عن حاضرة طرابلس، وهم على ثلاثة أصناف ١٩٥
الصنف الأول — أرباب السيوف، وهم على طبقتين ١٩٥
الطبقةالأولى — الطبلخاناه ١٩٥
« الثانية — العشرات ١٩٧
الصنف الثانى — الوظائف الدينيـة ١٩٨
« الثالث — أرباب الوظائف الديوانية ٢٠٠

النيابة الرابعة — نيابة حماة، وهى على ثلاثة أصناف ... ...

الصنف الأوّل — أرباب السيوف ... ...

« الثانى — أرباب الوظائف الدينية ٤

النيابة الخامسة — نيابة صفد، ووظائفها على ثلاثة أصناف... ... ... ٥

الصنف الأوّل — أرباب السيوف، وفيه وظيفتان ٥

الوظيفة الأولى — نيابة السلطنة ٥

« الثانية — نيابة قلعة صفد ٨

الصنف الثانى — أرباب الوظائف الديوانية ١١

« الثالث — أرباب الوظائف الدينية ١١

النيابة السادسة — نيابة غزة، ووظائفها على صنفين ١٢

الصنف الأوّل — أرباب السيوف ٢١٢

« الثانى — الوظائف الديوانية بغزة ٢١٩

النيابة السابعة — نيابة الكرك، وأرباب الولايات فيها على أصناف ٢٢٠

الصنف الأوّل — أرباب السيوف ٢٢٠

« الثانى — أرباب الوظائف الدينية ٢٣٢

« الثالث — أرباب الوظائف الديوانية ٢٣٢

القسم الثالث — مما يكتبب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ما يكتب لأرباب الوظائف بالمملكة الحجازية، وتشتمل على ثلاث قواعد ٢٣٢

القاعدة الأولى — مكة المشرفة، وبها وظيفتان ٢٣٣

الوظيفة الأولى — الإمارة ٢٣٣

« الثانية — قضاء مكة ٢٤٠

القاعدة الثانية — المدينة النبوية، وبها ثلاث وظائف ٢٤٢

صفحة

ـة الأولى — الإمارة ٢٤٢

« الثانيـة — القضاء ٢٥٨

« الثالثـة — مشيخة الحرم الشريف ٢٦٠

ـاعدة الثـالثـة — الينبع ، وبها وظيفة واحدة وهى النيابة ٢٦٢

ـم الرابـع — مما يكتب من الولايات عن الأبواب السلطانية بالديار المصرية ما يقع على سبيل الندور ٢٦٥

ـصل الثـالث — من الباب الرابع من المقالة الخامسة فيما يكتب من الولايات عن نواب السلطنة، وفيه طرفان ٢٨٠

طـرف الأول — فى مقدّمات هذه الولايات، ويتعلق بها مقاصد ... ٢٨٠

المقصد الأول — فى بيان من تصدر عنه الولايات من نواب السلطنة ٢٨٠

« الثـانى — فى بيـان الولايات التى تصدر عن نواب السلطنة بالممـالك الشامية ٢٨١

« الثالث — فى افتتاحات التواقيع والمراسيم بتلك الولايات ... ٢٨٢

« الرابع — فى بيان الألقاب، وفيه أصناف ٢٨٣

الصنف الأول — أرباب السيوف، ولألقابهم مراتب ٢٨٥

« الثانى — أرباب الوظائف الديوانية، وفيهم مراتب ٢٨٧

« الثالث — من أرباب الولايات بالممـالك الشاميـة أرباب الوظائف الدينية، وفيه مراتب... ... ... ٢٩٠

« الرابع — من أرباب الولايات بالممالك الشامية مشايخ الصوفية ٢٩٢

« الخامس — من أرباب الولايات بالممالك الشامية أمراء العربان ٢٩٣

« السادس — من أرباب الولايات بالممـالك الشاميـة أرباب الوظائف العادية ٢٩٣

« السابع — من أرباب الولايات بالممـالك الشامية زعماء أهل الذمة ٢٩٤

صفحه

المقصد الخامس — فى بيان مقادير قطع الورق المستعمل فيما يكتب عن نوّاب الممالك الشامية... ... ... ٢٩٤
« السادس — فى بيان ما يكتب فى طرّة التواقيع... ... ... ٢٩٥
« السابع — فى بيان كيفية ترتيب هذه التواقيع ٢٩٩
الطرف الثانى — فى نسخ التواقيع المكتتبة عن نوّاب السلطنة بالممالك الشامية، وفيه ثلاث نيابات ٢٩٩
النيابة الأولىٰ — الشام، والتواقيع التى تكتب بها على خمسة أصناف ... ٣٠٠
الصنف الأوّل — ما يكتب بوظائف أرباب السيوف، وهو علىٰ ضربين ٣٠٠
الضرب الأوّل — ما هو بحاضرة دمشق، وهو علىٰ مراتب ٣٠٠
المرتبة الأولىٰ — ما يفتتح بالحمد لله ٣٠٠
« الثانية — ما يفتتح بأما بعد حمد الله ٣٠٤
« الثالثة — ما يفتتح برسم بالأمر العالى ٣٠٦
الضرب الثانى — ممن يكتب له عن نائب السلطنة بالشام من أرباب السيوف من هو بأعمال دمشق، ومواضعهم علىٰ ثلاث مراتب ٣١١
المرتبة الأولىٰ — ما يفتتح بالحمد لله... ... ... ٣١١
« الثانية — ما يفتتح بأما بعد حمد الله ٣١٧
« الثالثة — ما يفتتح برسم... ... ... ٣٢٥
الصنف الثانى — تواقيع أرباب الوظائف الدينية، وهى علىٰ ضربين ٣٣٧
الضرب الأوّل — ما يكتب لمن هو بحاضرة دمشق، وهو علىٰ ثلاث مراتب... ... ... ٣٣٧
المرتبة الأولىٰ — ما يفتتح بالحمد لله... ... ... ٣٣٧
« الثانية — ما يفتتح بأما بعد حمد الله ٣٥٩
« الثالثة — ما يفتتح برسم بالأمر ٣٧٢

صفحة
الضرب الثانى — مايكتب به لمن هو بأعمال دمشق ، وهو على مرتبتين ٣٧٧
المرتبة الأولى — ما يفتتح بأما بعد حمد الله ٣٧٧
« الثانية — ما يفتتح برسم بالأمر ٣٧٩
الصنف الثالث — ما يكتب لأرباب الوظائف الديوانية ،
وهى على ضربين... ... ... ٣٨٣
الضرب الأول — ما يكتب لمن بحاضرة دمشق منهم ،
وهو على ثلاث مراتب ٣٨٣
المرتبة الأولى — ما يفتتح بالحمد لله ٣٨٣
« الثانية — ما يفتتح بأما بعد حمد الله ٣٩٠
« الثالثة — مايفتتح برسم بالأمر الشريف ٣٩٣
الضرب الثانى — ما هو خارج عن حاضرة دمشق ، وغالب ما يكتب
فيها من التواقيع مفتتح برسم... ... ... ٤٠٤
الصنف الرابع — تواقيع مشايخ الخوانق ، وهى على ضربين ٤١٠
الضرب الأول — ما هو بحاضرة دمشق ، وهى على ثلاث مراتب ... ٤١٠
المرتبة الأولى — ما يفتتح بالحمد لله... ... ... ٤١٠
« الثانية — ما يفتتح بأما بعد حمد الله ٤١٧
« الثالثة — ما يفتتح برسم بالأمر ٤١٩
الضرب الثانى — ما هو بأعمال دمشق ، وفيه مرتبة واحدة
وهى الافتتاح برسم ٤٢٠
الصنف الخامس — تواقيع العربان ٤٢٢
« السادس — تواقيع زعماء أهل الذمة من اليهود والنصارى ٤٢٤
النيابة الثانية — نيابة حلب ٤٢٨
« الثالثة — نيابة طرابلس ٤٥٠

(تم فهرس الجزء الثانى عشر من كتاب صبح الأعشى)

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الثالث عشر

طبـع
بالمطبعة الأمـيرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٧ هـ
١٩١٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

المقالة السادسة

فيما يكتب فى [الوصايا الدينية(1) و] المسامحات، والإطلاقات السلطانية والطرخانيات، وتحويل السنين والتذاكر؛ وفيها أربعة أبواب

الباب الأول

فى الوصايا الدينية، وفيه فصلان

الفصل الأول

فيما لقدماء الكتاب من ذلك

اعلم أنه كان لقدماء الكتّاب بذلك عنايةٌ عظيمة بحسب ما كان للملوك: من الإقبال على معالم الدين، ومن أكثرهم عنايةً بذلك أهل الغرب: لم يزالوا يكتبون بمثل ذلك إلى نواحى ممالكهم، ويقرأ على منابرهم؛ ولهم فى ذلك الباع الطويل والهمة الوافرة.

وهذه نسخة من ذلك كتب بها أبو زيد الداراوى: أحد كتّاب الأندلس عن أمير المؤمنين آبن أمير المؤمنين المنصور(2): أحد خلفاء بنى أميّة بالأندلس، وهى:

---

(1) الزيادة من ج ١ ص ٣٦ من هذا المطبوع.

(2) ليس فى خلفاء بنى أمية بالأندلس من آسمه المنصور، وإنما المنصور هو آبن أبى عامر كان تغلب على هشام بن الحكم الأموى واستبد بالأمر وتغلب من بعده آبنه المظفر ثم أخوه المظفر عبد الرحمن الملقب بالناصر لدين الله؛ ثم انقرضت دولتهم وعادت الدولة الى بنى أمية فخلع هشام هذا وبويع آبنه محمد الملقب بالمهدى. انظر "نفح الطيب" ج ١ و"العبر" ج ٤ و"صبح الأعشى" ج ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ من هذا المطبوع.

الحمدُ لله الذى جعل الأمرَ بالمعروف والنهىَ عن المنكر أصلين تتفرّع عنهما مصالحُ الدنيا والدِّين ، وأمر بالمعروف والإحسان إرشادًا إلىٰ الحق المبين ، والصلاةُ علىٰ سيدنا محمد الكريم المبتَعَث بالشريعة التى طهّرت القلوبَ من الأدران وآستخدمتْ بواطنَ القلوب وظواهرَ الأبدان طَوْرا بالشِّدّة وتارة باللين ، القائلِ (ولا عَدُولَ عن قوله عليه السلام) «مَنِ آتّقَى الشُّبُهاتِ آستبْرأ لِدينه» تنبيها علىٰ تركِ الشكِّ لليقين ؛ وعلىٰ آله الكرام أعلام الإسلام المتلقِّين رايةَ الآهتداء فى إظهار السُّنَن وإيضاح السَّنَن باليمين ؛ الذين مكّنهم الله تعالىٰ فى الأرض فأقامُوا الصلاة وآتَوُا الزكاةَ وأمَرُوا بالمعروف ونَهَوْا عن المنكَر : وفاءً بالواجب لذٰلك التمكين .

والرِّضا عن الأئمة المُظْهِرين للدِّين المتين ، البالغين بالبلاد والعباد نشرا للعَدْل وإتماما للفضل إلى أقصىٰ غاية التمهيد والتأمين ، رضى الله عنهم أجمعين ! وعن تابعيهم بإحسانٍ إلىٰ يوم الدين ! .

وإنّا كتبْناه لكم ـ كتب الله لكم آتّباعا إلىٰ ما يُنْهىٰ من المصالح إليكم ، وآستماعًا إلىٰ ما يُتْلىٰ من المواعظ عليكم ـ من حضرة إشْبِيلِيَةَ ـ كَلأَها الله ـ .

والذى نُوصيكم به تقوى الله تعالىٰ والعملُ بطاعته والآستعانةُ به والتوكُّلُ عليه ، وأن تعلَموا أنا لم نَقُم هذا المقامَ الذى حَفِظ الله به نظامَ الحق من انتثاره ، وأمدّنا بعَوْنه الجميل علىٰ إحياء الدِّين وإفاضةِ أنواره ، إلا لنستَوْفِىَ كلَّ نظر يعودُ على الأمة باستقامة أُخْراها وأُولاها ، ونُهيبَ بها إلىٰ أسْمىٰ رتب السعادة وأعْلاها ، ونُوقِظَ بصائرَها بنافع الذكرىٰ من كَرَاها . فعلينا لها بحكم ماتقلّدناه من إمامتها ، وتحمّلناه من أمانتها ، أن نتخوّلها بالحكمة والموعظة الحسَنه ، ونُرشِدَها إلىٰ المناهج الواضحة والسُّبُل البيِّنه ، ونُضْفِى علىٰ خاصّتها وعامّتها ظلَّ الدَّعَة والأَمَنة ؛ وإذا كنّا نُوفِّيها تمهيدَ دُنْياها ،

ونعتني بحماية أقصاها وأدناها ، فالدِّين أهمُّ وأولىٰ ، والتهمّم باحياء شرائعه وإقامة شعائره أحقُّ أن يُقدّم وأحرىٰ . وعلينا أن نأخُذ بحسَبِ ما نأمُر به ونَدَع ، ونتّبع السُّنن المشروعةَ ونَذَر البِدَع . ولها أن لا نَدَّخر عنها نَصيحه ، ولا نُغبّها ارادةً من الأدواء مُريحه . ولنا [عليها] أن تُطيع وتسْمَع ، وقد علم اللهُ أنا لم نتحمَّل أمانةَ الإسلام، لنستكثِرَ من الدنيا وزُخْرُفها ، ولم نتصَدّ لهذا المَقام ، لنستأثر بنعيمها وتَرَفها ، وإنما كان قصدُنا قبلُ وبعدُ إقامةَ الكافَّة فى أوْثر قُراها وأوْطإ كَنَفها ، وبحَسَب هذه النية التى طابقَها العمَل ، ولم يتعَدّها الأمَل ، نيلتْ من الخيرات نهايات ، كانت الخواطرُ تستبْعِد منَالَها ، وتيسَّرت إرادات ، كانت الأُمَّة منذُ زمانٍ لم تر مِثالَها ، وساعدتِ العنايةُ الربَّانيَّة فلم تُؤْن مقصودًا جميلا ، ولا منًّا جزيلا .

وإلىٰ هذا ــ أدام الله كرامَتكم ــ فإنا لم نزَلْ مع طُول المباشرة للأحوال كلِّها ، وتردُّد المشاهدة لعقْد الأمور وحَلِّها ، نَقِف وقُوفَ المتأمل علىٰ جُزْئيَّات الأمور وكليَّاتها ، ولا يَغيبُ عن تصفُّحنا وتعرُّفنا شيءٌ من مصالح الجهات وكَيْفيَّاتها ، ولم نمُرّ بمسائل إلا تولَّينا إقامتَه ، وأعَدْنا إليه اعتدالَه واستقامَتَه ، ولا انتهينا إلىٰ صَوابِ قولٍ أو عمل إلا شِدْنا مَبْناه ، وأظهرنا لَفْظَه ومعْناه .

والآنَ حينَ استوفىٰ إشرافُنا علىٰ البلاد قاطبه ، ولزِمَنا بحكم القيام لله فى خَلْقه بحقِّه أن نتعهَّد الكافَّة دانيَةً ونائيةً وشاهدةً وغائبه ، ورجونا أن نتخلَّص من القِسْم الأوّل فى قوله عليه السلام : «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِم فَارْفُقْ بِه» بأعمالٍ علىٰ الرِّفق دائبَه ، وعلى الحقِّ مواظبه ــ صَرَفْنا أعِنَّةَ الاعتناء بجوامع المصالح فرأينا الدِّين ينظِمُ تبدُّدَها ، ويستوعب تعَدُّدَها ، لاتشذُّ مصلحةٌ عن قوانينه ، ولا تُنال بركةٌ إلا مع تحصينه وتحسينه ، والله تعالىٰ يُعيننا وإياكم علىٰ إقامة حدُوده ، وإدامة

عُهُوده . وأوّل مايتناول به الأمرُ كافَّةَ المسلمين الصلاةُ لأوقاتها ، والأداءُ لهـا علىٰ أكمل صِفاتها ، وشهودُها إظهارًا لشرائع الإيمان فى جماعاتها ، فقد قال عليه السلام : «أَحَبُّ الأعْمَال إلىٰ اللهِ الصَّلاةُ ، فَمَنْ حَفِظَها وحافَظَ عليها حَفِظَ دِينَه ، ومن ضَيَّعها فهو لِمَـا سِوَاها أَضْيَعُ» . وقال عمر رضى الله عنه : «ولا حَظَّ فى الإِسْلام لِمَنْ تَرَكَ الصَّلاة» فهى الرُّكن الأعظم من أركان الإيمان ، والأُسُّ الأَوْثَقُ لأعمال الإنسان ، والمُواظبةُ علىٰ حضُورها فى المساجد ، وإيثارُ مالِصلاةِ الجماعة من المَزِيَّةِ علىٰ صلاةِ الواحد ، أمرٌ لايُضَيِّعه المُفْلحون ، ولا يحافظُ عليه إلا المؤمنون . قال ٱبن مسعود رضى الله عنه : «لقد رَأَيْتُنا ومَا يتخَلَّف عنها إلا مُنافِقٌ مَعْلُوم النِّفاق ، ولقـد كان الرجل يُؤْتىٰ به يُهـادَى بين الرَّجُلين حتَّى يُقام فى الصَّف» وشُهودُ الصبح والعشاء الآخرةِ شاهدٌ بتمحيص الإيمـان ، وقد جاء : «إنَّ شُهودَ الصُّبْح فى جمـاعةٍ يَعْدِل قِيَامَ لَيْلةٍ» وحَسْبُكم بهذا الرُّجْحان . والواجبُ أن يُعتنىٰ بهـذه القاعدةِ الكُبْرىٰ من قواعد الدِّين ، ويُؤْخَذَ بهـا فى كافَّة الأمصار الصغيرُ والكبيرُ من المسلمين ، ويُلحظ فى التزامها قولُه عليه السلام : «مُرُوا أَوْلادَكُمْ بالصَّلاةِ لِسَبْعٍ واضْرِبُوهُمْ عليها لِعَشْرِ سِـنِين» . وبِحسَبِ ذٰلكم رأينا أن نُلْزِم جارَكلِّ مسْجِد ، وأميرَكلِّ سُـوق وشَيْخَ كلِّ زُقَاق ومُعَلِّمَ كلِّ جهة الأنتـدابَ لهذا السعْى الكريم ، والبِدارَ لمـا فيه من الأجْر العظِيم ، وأن يَحُضَّ كلَّ مَن فى جِهته أو سُـوقِه أو حَوْمة مسجده أو موضِع صنعته أوتجارته أو تعليمه علىٰ الصَّلاة وحضُورها ، والاعتناء بأحكام طُهُورها ، وأنلا يتخلَّف عن الجماعة إلا لِعُذْرٍ بيِّن ، أو أمْرٍ يكون معه الشُّهودُ غيْرَ ممكن . وعليهم أن يلتزمُوا هذه الوظيفةَ أتمَّ ٱلتزام ، ويقُومُوا بهـا مُؤْتَجِرِين أحسَنَ قيام ، ويُشَمِّروا عن سَاعِد كلِّ جِدٍّ وٱعْتِزام ، ويتعرَّفُوا كُلَّ من تحتوِى عليـه المنازلُ ممن بلَغ حدَّ التكليف من الرجال ، ويتعهَّدوهم الحِينَ بعـد الحِينِ والحالَ إثْرَالحال ، ويَطْلُبوهم بالذِّكر بملازمة

هذا العمل الذى قدّمه الله علىٰ سائر الأعمـال . وليَحْذر المسـلم أن يواقعَ بإضاعة المكتوبة أمْرا إمْرا ، ويَتْرُكَ من فرائض الإسـلام ما يُقْتَل متعمّدُ تركه حَدًّا أو كُفْرا . وعلىٰ معلّمى كتاب الله أن يأخذوا الصِّبيان بتعَلُّم الصلاة والطهارة والإدامة لإقامتها والموالاة وحفظ ماتُقام به وأقلُّ ذٰلك سورةُ فاتحة الكتاب . وعلىٰ كل إنسانٍ فى خاصّته أن يأخُذَ صِغارَ بنيـه وكِبارَهم وسائرَ أهْله ومَنْ إلىٰ نظره بذٰلك ويأمُرَهم به ، قال الله تعـالىٰ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ . وقال عليه الصلاة والسلام : « كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُم مَسْئُولٌ عن رَعيَّته » .

ثم آعلموا أنَّ الصلاة بمـا آثَرَها الله به من وظائفِها الشريفه ، وخَصائصها المُنيفه ، تنْتَظِم من أعمال البِرِّ ضُرُوبا لا تُحْصَر ، وتَعْصِم من مُواقعة ما يُشْنأُ ويُنْكَر ، وتُحْظِى من الخيراتِ العميمةِ الجسيمةِ بالقِسْم الأوْفَى الأوْفَر ، قال الله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهىٰ عن الفَحْشاءِ والمُنْكَر ﴾ . ونحن لا نُوسِع تارِكَها بحالٍ عُذْرا ، ولا نُؤخِّرله عِقابا وزَجْرا ، ولا نزال نَجْـبُره علىٰ إقامتها قَسْرا ، وإذا آستمرَّ التعهُّدُ لهـا مع الأحْيـان ، وعمِل الناسُ بمـا جدَّدناه من إجراءِ التذكيرِ بها بينَ القَرابة والصَّحابة والجِـيران ، وتَواصَوْا بالمحافظة عليها حَسَبَ الإمكان ، لم تزلْ بيوتٌ أذن الله تعالىٰ أن تُرْفَع ويُذْكَر فيها آسمه معمورةً بتلاوة القرءان ، ولم تنْفَكَّ إلا للإقامة عنِ الأذان .

وممـا يَزيد هذه الوظيفةَ تأكيدا ، ويُوَفِّى قواعدَها تَشْيِيدا ، دَرْسُ كتاب الصلاة والطهارة حتّى يستكماوه وَعْيـا وحِفْظا ، ويُؤدُّوا مُضَـمَّنَه لفظا فلَفْظا ، ففى ذٰلك من الإشراف علىٰ أحكام العبادتين ما تَبين مزيّتُه وفضْـلُه ، ولا يَسَع المؤمنَ بحال جَهْلُه ، ثم إذا أحكموه انتقَلُوا إلىٰ دَرْس كتاب الجهاد ، وعَمَروا الآناءَ بتعرُّف ما أعدَّ الله للمجاهدين من الخير المستَفاد ، فالجهادُ فى سبيل الله فرضٌ علىٰ الأعيان ، وقدتأكّد

تعيُّنه لهذه البلاد المجاورة لعَبَدة الأصنام والصُّلْبان ، ونرجُو أن يُنْجِز الله ماوعدَ به من الفتح القريبِ لأهل الإيمان ، وليطْلُبوا الناس بعَرْض مايتدارَسُون تثبيتاً لمحفوظاتهم ، واستزادةً لقِسْمهم من الأجر وحُظُوظِهم .

ومن مقدّمات الجهاد ، وأقوى أسباب الاعتداد ، تعلُّمُ الرِّماية التى ورَد الحَضُّ عليها ، وندَبَ الشرعُ إليها ، قال عليه السلام فى قوله تعالىٰ : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مااستطَعْتُمْ من قُوَّة﴾ « ألا إنَّ القُوَّةَ الرَّمْىُ » قالها ثلاثا : فأَظْفِرُوا الناسَ بتعلمهم ، ولْترتِّبوهم طبقاتٍ علىٰ قدر إجادتهم وتقدُّمِهم ، قال عليه السلام : «مَنْ تَرَكَ الرَّمْىَ بَعْدَ مَاعُلِّمَهُ رَغْبةً عنه فإنَّها نِعْمةٌ تَرَكَهَا أو قال كَفَرَها» . وقال عليه السلام : « مَنْ رَمىٰ بسَهْم فى سبيل الله فبَلَغَ العَدُوَّ أوْ لم يَبْلُغْ كَانَ له كعِتْقِ رقَبةٍ » .

ولْيعْلمُوا أنهم يُطْلَبون فى وقت الحاجة بما يُثْمِره هذا التأكيدُ من بِدَارهم ، ويترتَّب عليه مِن آثمارهم ؛ وليَحْرِصُوا علىٰ أن يُلْفىٰ عددُهم وافراً فى حالتَىْ إيرادِهم وإصدارِهم .

ومما فيه مصلحةٌ كريمةُ الأثر ، واضحةُ الحُجُول والغُرَر ، يكونُ ذِكْرُها جميلا ، وأجرُها جزيلا ، تعَهُّد الضُّعفاء والفقَراء ، وإسهامُهم من الكثير كثيراً ومن القليل قليلاً بحَسَب الإصابة والرَّخاء ، ووضْعُ الصدقات فى أهل التعفُّف الذين لا يَسْأَلون الناس الحافا أوّلَ ما يجيءُ حينُ العطاء ، فقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ المِسْكِينُ بهذَا الطَّوَّافِ الذى يَطُوف عَلى الناسِ فتَرُدُّه التَّمرةُ والتَّمْرتانِ وإنَّما المِسْكِينُ الذى لا يجِدُ غِنًى يُغْنِيه ولا يُفْطَنُ له فيُتَصَدّقَ عليه ولا يَقُوم فيَسْأَلُ النَّاس » فتفقَّدوا هذا الصِّنف فهو أَوْلىٰ بالإيثار ، وأحَقُّ أهلِ الإقتار ، والمؤمنون إخوة ويُعْنَى الجارُ بالجار ، ولْيُعِن الغنىُّ الفقيرَ فذٰلك من مكارم الآثار .

والأمرُ بالمعروف والنهيُ عن المنكر وظيفةٌ تعيَّنت إقامتُها على المسلمين جميعاً فمن رأى منكرا فلْيُنْهِه إليكم وعليكم تغييرُه وتعفيةُ أثَره على ما يُوجبه الدِّين ويقتضيه ، ولْيأخُذُوا الحقَّ من كل من تعيَّن عليه سواءٌ فى ذلك القويُّ والضعيف ، والمشْرُوف والشريف . وكُلُّ من ارتكب منكرا كائنًا من كان ، عزَّ قدْرُه أو هان ، فليبالَغْ فى عِقابه ، وينَكِّل على قَدْر ما ارتكَب من المُنكَر وأتَى به ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّمَا أهْلَكَ الَّذِين مِنْ قَبْلِكم أنَّهم كانُوا إذا سَرَق فيهم الشَّرِيفُ تَرَكُوه واذا سَرَق فيهم الضَّعِيفُ أقامُوا عليه الحَدَّ ، وإنِّي والَّذِي نَفْسِي بِيَدِه لو أنَّ فاطمةَ بِنْتَ محمدٍ سَرَقتْ لقَطَعْتُ يَدَها» وقال لأسامة فى الحديث نفْسه «أتَشْفَعُ فى حَدٍّ من حُدُود اللهِ» وقد حدّ عمرُ رضى الله عنه ولَدَه ، وحدّ عثمانُ رضى اللهُ عنه أخَاه . فلتكُن هذه الوظيفةُ منكم بمَرْأًى ومسْمَع ، ولتَسْلُكُوا فى إقامتها على الخامل والنَّبِيه أوْضَحَ مَهْيَع ، ووَفُّوا المعروفَ حقَّه من الإظهار ، وتلَقُّوا المنكر بأتَمِّ وجُوه الإنكار ، ثم عليكم أجمعين بالتَّواصِى بالخير والتَّعاوُن على البرّ والتقوى ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ . وقال عليه السلام : «لاتَبَاغَضُوا ولا تَحَاسَدُوا ولا تَدَابَرُوا ولا تَجَسَّسُوا وكُونُوا عِبَادَ اللهِ إخْوَانا » .

وبالجملة فعلى المؤمن أن يستَنْفِد وُسْعه فى الاقتداءِ برسول الله صلى الله عليه وسلم والسَّلَف من بعده ، ولقد كان لكم فى رَسُولِ الله أُسْوةٌ حسنة ، ولم يَنْشأ ما نَشَأ من الأهوال ، ولا طرأ فى هذه الأمة ما طرأ من الاختلال ، إلا بمُفارقة الاقتداء الذى هو للدِّين رأسُ المال ، ورَضِى الله عن عمر حيث قال : « فُرِضتِ الفرائضُ وسُنَّت السُّننُ وتُرِكْتم على الواضِحةِ إلا أن تَضِلُّوا بالناس يَمِينا وشِمَالا » .

ومن أشدّ المنكَرات بغير نكير وجُوبَ تغييرِ الخمرُ التى هى أُسُّ الإثم والفُجور ، وأمُّ الخبائث والشُّرور ، وأُسُّ كلِّ خَطِيئة ورأسُ كل محظُور ، فليشتَدّ أتمّ الاشتداد

فى أمرها ، ويَبْحث غاية البحث عن مكامن عَصْرها ، ويتفقّد الأماكن المُتَّهمة بَبْيعها ، ويتسبّب بكلّ وجه وكل طريق إلى قطعها . وليُبادرْ حيث كانتْ إلى إراقة دِنانها ، وليُبالغْ إلى أقصى غاياتِ الاجتهاد فى شأنها ، وإنّ الله لعَنَ الخمْرَ وعاصرها ومعتَصِرَها وحاملَها والمحمولةَ إليه ؛ فليتّقِ الله مُدْمِنُ شُرْبها فإنها رِجْس من عمل الشيطان ، وَلْيَحْذَرْ ما فى قوله عليه السلام : « لَا يَشْرَبُ المُؤْمِنُ الخمرَ حِينَ يَشْرَبُهَا وهو مُؤْمِن » : من إخراجه عن أهلِ الإيمان ؛ وشُرْبُ الخمر لِجَاجٌ فى الطَّبع ، فلا خير فيها مع الاعتناء المبنىّ على الشَّرْع ، ولو نُهِىَ الناسُ عن فَتِّ البَعر لَفَتُّوه حرصًا غالبا على ما تقدّم فيه من الزَّجْر والمَنْع ؛ فمن عُثِر عليه بعدُ من شاربٍ لها أو عاصر ، مستَسِرٍّ بها أو مجاهر ، فلْيُضْرَبِ الضربَ المبرِّح ، ويُسْجن السجنَ الطويل ، وليُبقَّ إلى أن تَصِحّ توبتُه صحةً لا تحتمل التأويل ؛ ثم إن عاد فالحُسَام المصمِّم يَحْسِم داءه إذا أعْضَل ، ويُصَدّ به سواه عما آستَحَلَّ من هذا الحَرام وآستَسْهَل .

ومن أشدّ ما حُذِّرَ منه ، وأُكِّدَ النهىُ عنه ، كُتُب الفَلْسفة لعَن الله واضِعَها ! فإنهم بنَوْها على الكُفْر والتعطيل ، وأخْلَوْها من البرهان والدَّليل ، وعَدَلُوا بها ضَلالا وإضْلالا عن سَواءِ السبيل ، وجعلُوها تُكَأَةً لعقائدهم ومقاصِدِهم المُخَيَّلة ركونًا إلى الباطل وتمسُّكا بالمستحيل . وقد كان سيدنا الإمام المنصور رضى الله عنه قد جدّ فيها بالتحريق والتَّمزيق ، وسَدّ بإمضاء عَزْمه المسدَّد ورأيه المؤيَّد وجُوهَ طُلَّابها بكل طريق ، فحَسْبُنا أن نقتدىَ فى ذلك بأثَره الجميل ، ونأخُذَ فى إحراقها حيث وُجِدت وإهانة كاتبِيها وطالبِيها وقارِيها ومُقْرِيها ، ولا يُعدَلُ عن السيف فى عِقَاب من آنتحاها وآستَوْهبَها وإنَّ السيف فى حقّه لقليل ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « تَرَكْتُ فيكم أمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا ما تمسَّكْتُم بهما كِتَابَ الله وسُنَّةَ نبيِّه » وبِحَسْب العاقل كتابُ الله وسُنَّةُ الرسول .

ويتعلق بهذا المنهىّ عنه ما ٱسترسل فيه مَرَدةُ أهل الأهواء ، والمتنكّبون فيما تلبّسوا به من الأدران عن سَنن الاهتداء ، أولئك قومٌ ٱعتقدوا إباحة المحظورات كلّها ، وعدّوا بإيهاماتهم السخيفة ، وتخيّلاتهم الضعيفة ، كلَّ واهي العُقَد منْحلّها ، وٱدّعوا أنهم من الملة وأعمالُهم تقضي بأنهم ليْسُوا من أهلها ، فليُبْحَثْ عن ذلك الصّنف الأوّل وهذا الثانى ، فمذهبُنا أن نطهِّر دينَ الله ممّا لَصِق به من الأدران ، وأنْ نُعيده إلىٰ ما كان عليه قبْلُ واللهُ المستعان .

ومن الوظائف التى يجبُ أن تعتَنُوا بها غايةَ الاعتناء ، وأن تُقدِّموا النظرَ فيها علىٰ سائر الأشياء ، أمْرُ أسواق المسلمين فقد ٱتّصل بنا ماتطرّق للتّجارات من مُسامحاتٍ تَعفّى عليها الخدع ، ولا يَنْثُرها إلا الحِرْص والطمَع ، ولا تُوافق الشرْعَ ولا يُطابقها الوَرَع ، حتى شابَ أكثرَ المعاملات الفساد ، ولا يجرى علىٰ القانون الشرعىّ فى كثير من المُبايعات الانعقاد ، وتصدّى المتحيّلون فيها لحِيَل يقصدُونها ، وأنواع لاجتلاب السُّحْت يرصُدُونها ، ورُبّما وَرَدَ التاجرُ من القطر الشاسع ، وحسَّن الظنَّ بالمشترى منه أو البائع ، فيَبْلُغ فى خدْعته ، والإضرار به فى سِلْعته ، أسوأَ المَبَالغ ، ويرتكبُ من مُحرَّم الخِلَابة ماليس بالسائغ ، وسُمِع من ذلك أن من لايتّقِى الله تعالى يُلابِس الرِّبَا فى تجارته ، ويَبْنِى عليه جميعَ إدارته ، وحفظُ المكاسب من الخبائث أوجبُ الواجبات ، والحلالُ بيّنٌ والحرامُ بيّن وبينهما أمورٌ متشابهات ، ويَمْحَق اللهُ الرِّبَا ويُرْبِى الصدقات ، فَلْتَلْزموا الأُمناءَ المعروفين بالدِّيانه ، المشهورين بالأمَانه ، تفقُّدَ هذه الأسواق ، ولْيُحْصِ كلَّ أمين من تشتمِلُ عليه سُوقُه من التُّجّار ، وليَعْرِف المُختار منهم من غير المختار ، ومن لا يصْلُح للتجارة فى سوق المسلمين يُقَام منها علىٰ أسوإ حال ، ومَنْ عُثِر منهم علىٰ ربًا فى معاملته عاجلْتُموه بأشدّ العقاب وأسْوَإ النّكال ، فخلّصُوا المَتاجرَ من الشوائب ، ومُرُوهم بأن يَسيروا فى بَيْعهم وشرائهم وٱقتضائهم علىٰ

أجمل المَذَاهب ، وأن يحْذَرُوا الغِشَّ فقد قال عليه السلام : «مَنْ غَشَّنا فَلَيْس مِنَّا» والاْنتفاءُ من الإيمان من أعظم المصائب ، وإذا اعتُبِرَتْ فى المبايَعات الوجوهُ الشرعيَّة ولُحِظت الأحكام زَكَّى الله عمل التاجر، وبُورِك له فيما يُدِيرمن المَتَاجر . ثم لتُوصُوا كلَّ من تُقدِّمونه لشُغْل من الأشغال أن يبْدَأ بصَلَاح نفسه قبل سِواها ، وأن يلتزم الأعمال التى يُؤْثِرُها الله تعالىٰ ويَرْضاها ، وحَذِّروهم كلَّ الحَذَر أن تَقِفُوا لهم علىٰ مايَشِين ، أو تسْمَعُوا لهم قَبِيحا يخْفىٰ أو يبِين ، فمن سمِعْتم عنه أدْنىٰ سبَب من هذا فعاجلُوه بالعقاب الشَّدِيد ، والنَّكال المُبِيد ، إن شاء الله تعالىٰ والسلام .

قلت : وعلىٰ هذه المعانى والأمور المأمورِ بها فى هذا الكتَابِ قد كانت الخلفاءُ تكتب بها فى المكاتبات علىٰ أنحاءٍ متفرّقة علىٰ ماتقدّم فى مَقاصد المُكاتبات من المقالة الرابعة ، وكانوا يُولُّون علىٰ الصلاة والمساجد مَن يقومُ بأمرها علىٰ ماتقدّم ، وإنّ أكثر هذه الأمورِ الآنَ مضَمَّنة فى تواقيع أصحاب الحِسْبة علىٰ ما تقدّم ذكرُه فى الكلام علىٰ الولايات فى المقالة الخامسة وبالله التوفيق .

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من المقالة السادسة

(فيما يُكتب من ذٰلك فى زماننا)

وهو قليل : لقلَّة الاْعتناء بأمرِ الدين والاْكتفاء فى ذٰلك بالتفويض إلىٰ متولِّى الحِسْبة، إلا أنه رُبَّما كُتِب فى ذٰلك فى الأمور المهمة عند تعدِّى الطَّوْرِ فى أمرٍ من الأمور الدِّينيَّة، والخُروج فيه عن الحدّ .

ثم هو علىٰ ضربين :

الضـــــرب الأوّل

(ما يُكتَب عن الأبواب الســـلطانية)

وهذه نسخةُ توقيع شريفٍ من هذا النوع كُتِب به فى الأيام   أن لايبَاع علىٰ أهل الذمّة رقيقٌ حين كَثُر شراءُ أهل الذمة من اليهود والنصارى العبيدَ والجَوارِيَ وتهويدَهم وتنصيرهم . (١)

(١) لم يذكر نسخة التوقيع بل كتب بهامش غير نسخة مانصه "بياض مقدار ورقة" .

الضـــــرب الثـانى
(ممـا يُكتب فى الأوامر والنَّواهى الدينيـــة ـ ما يُكتَب عن نوّاب الســلطنة بالممـالك)

وهذه نسخة توقيع كريم بمنع أهل صَيْدا وبَيْرُوتَ وأعمالها من ٱعتقادِ الرافضة والشِّيعة ورَدْعِهم، والرُّجوع إلىٰ السنَّة والجماعة، وٱعتقادِ مَذْهَب أهل الحق، ومنْع أكابرهم من العُقُود الفاسـدة والأنكحة البـاطلة، والتعرّض إلىٰ أحدٍ من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين؛ وأن لا يَدَعُوا سلوكَ [طريق] أهـل السنة الواضحة، ويَمْشُوا فى شَرَكِ أهلِ الشك والضَّلال، وأن كل مَن تظاهر بشىءٍ من بِدَعهم قُوبِل بأشدِّ عذاب وأتمِّ نَكَال، ولْيُخْمِدْ نِيرانَ بِدَعهم المُدْلَهِمَّه، ولْيُبادِرْ إلىٰ حسم فَسادِهم بكل هِمَّه، وتصريفهم عن (١) ٱعتبره، وتطهير بواطنهم من رُذَالة ٱعتقادهم الباطل إلىٰ أن يُعلِنُوا جميعُهم بالترضِّى عن العَشَره. ولْيحفَظْ أنسابَهـم بالعقود الصحيحه، ولْيُدَاوِمُوا علىٰ ٱعتقاد الحقِّ والعمل بالسنَّة الصريحه. فى خامس عِشْرِين (٢) جمادى الآخرة سنة أربع وستين وسبعمائة، وهى :

الحمـدُ لله الذى شَرَع الحـدُودَ والأحكام، وجَدَع بالحق لأُنُوفَ العَوَامِّ الأغْتَام الطَّغَام، وجمع الصَّلاح والنَّجَاح والفَلاح فى الأخذ بسُنَّة خير الخلق وسيِّد الأنام، وقَمَعَ الزائغين عمَّا عليه أهلُ السنة من الحق فى كلِّ نقضٍ وإبرام.

نحمـده علىٰ نِعَمه الجِسام، ومِنَنه التى تُومض بروقُها وتُشام، وآلائه التى لا تُسْأَم ولا تُسَام؛ ونشهد أنْ لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريك له شهادةً ليس لمن تَمَسَّـك

(١) بياض فى الأصل ولعله «عن التهوّك فى مهالك أهوائهم إلى مانص عليه الشرع واعتبره».
(٢) كذا فى الأصل بإثبات النون ونقل الصبان عن ٱبن هشام تلحين الكتّاب فيه.

بعروتها الوثقى انفصال ولا انفصام؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الداعى إلى الملك العلام، والهادى إلى الحق بواضح الإرشاد والإعلام، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين هم أئمة الإسلام، وهداة الخلق إلى دار السلام؛ خصوصا أبا بكر الصديق الذى سبق الناس بما وقر فى صدره لا بمزية صلاة ولا بمزيد صيام، وعمر بن الخطاب الذى كان له فى إقامة الحق أعظم مقام، ومن أهل الصلاح والفساد انتقاء وانتقام، وعثمان بن عفان الذى جمع القرءان فحصل لشمل سوره وآياته بما فعل أحسن التئام، وأنفق ماله محتسبا لله تعالى فحاز من الثواب رتبة لا ترام، وعلى بن أبى طالب الذى كان صهر النبى صلى الله عليه وسلم وابن عمه ووارث علمه الإلهام، والمجادل عن دينه بالعلم والمجاهد بين يديه بالحسام، والباقين من العشرة الكرام، صلاة تستمد بركاتها وتستدام، وينمو فضلها بغير انقضاء ولا انصرام .

وبعد، فإن الله تعالى بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بشرعه الذى ارتضاه، ودينه الذى قضاه، وحكمه الذى أبرمه وأمضاه؛ فبلغ الرساله، وأوضح الدلاله، وأفصح المقاله؛ وجاهد فى الله طوائف الأعداء، وأمال الله تعالى إلى قبول قوله وتصديقه من سبقت له العناية من الأوداء؛ ونصره على مخالفيه من المشركين والحاسدين حتى مات كل منهم بما فى نفسه من الداء؛ وبين الطريق، وبرهن على التحقيق، فأعلن النذارة والبشاره، ومهد قواعد الدين تارة بالنص وتارة بالإشاره؛ وتم الدين بإحكام أحكامه، وشيدت قواعده بإعلاء أعلامه؛ وعمت الدعوة وتمت، وفشت الهداية ونمت؛ ودخل الناس فى الدين أرسالا، وبلغت نفوس المؤمنين من إعلاء كلمة التوحيد آمالا، وأصبحت الخيرات والبركات تتواتر وتتوالى، وخمدت نار الشرك وطفئت مصابيح الضلالة ووحد الله تبارك وتعالى .

فلمّا تكامل ماأراد اللهُ تعالىٰ إظهارَه فى زمانه، وتَمَّ ماشاء إبرازَه فى إبّانه، وأُعلنت الهداية، ومُحِيت الغَوايه، وقام عمودُ الدين، ودَحَضَت حجةُ المُلْحدين، وآستوْسَق أمرُ الإسلام وآستتبّ، وتَبَّت يدَا مُناوِئه وتَبّ – آختار الله تعالىٰ لنبيه صلى الله عليه وسلم جِوارَه وقُربَه، فقضَىٰ نَحْبه ولَقِيَ ربَّه؛ فقام خلفاؤُه بعده بآثاره يقْتَدُون، وبهَدْيِه وإرشاده يَهْتَدُون؛ ولأحكامه يَتَّبِعون، ولأوامره يستَمِعُون؛ ولِمَانى ماجاء به يَعُون، وإلىٰ قضاياه يرجِعُون، لا يُغَيِّرون ولا يبدِّلون، ولا يتعرَّضون ولا يتأَوَّلُون؛ فقَضىٰ علىٰ ذٰلك الخلفاءُ الراشدون، والأئمَّة المَهْدِيُّون؛ لم يَتَّبِـع أحدٌ منهم فى زمانهم عقيدةً فاسده، ولم يُظْهِر أحدٌ مقالةً عن سَواء السبيل حائدَه؛ ثم تفرّقت الآراء، وتعدّدَت الأهواء، وآختلفَت العقائد، وتبايَنت المَقاصِـد، ووَهَت القواعد، وتصادَمت الشَّواهِـد، وتفرقتِ الناس إلىٰ مُقِرّ بالحقّ وجاحد، وظَهَرت البِدَع فى المَقالات، وضَـلَّ كثيرٌ فى كثير من الحالات، وتهافَتَ غالِبُهـم فى الضَّلالات، وقال كلُّ قوم مَقالةً تضمَّنت أنواعًا من الجَهَالات؛ وكان من أسْخَفِهم عَقْـلا، وأضْعَفِهم نَقْلا، وأوْهَنِهم حُجَّه، وأبْعدِهم من الرَّشَد مَحجَّه، طائفةُ الرافضة والشِّيعه، لآرتكابهم أمورا شَنِيعه، وإظهارِهم كلَّ مقالةٍ فظيعه؛ وخَرْقِهم الإجماع، وجمعِهم قَبِيح الآبتداع؛ فتبدّدُوا فِرَقا، وسَلَكُوا من فواحش الاعتقادات طُرُقا؛ وتنوّعَ ناسُهم، وتعـدّدَتْ أجناسُهُم، وتجَرّءُوا علىٰ تبديل قواعد الدِّين، وأقدموا علىٰ نَبْذ أقوال الأئمة المرشِدين، وقالوا مالم يُسْبَقُوا إليـه، وأعظَمُوا الفِريةَ فيما حَمَلُوا كلامَ الله ورسولِه عليه السلام عليه، وباءُوا بإثم كبير وزُورٍ عظيم، وعَرَّجُوا(١) عن سواء السبيل فخَرَجُوا عن الصراط المستقيم؛ وفاهُوا بمـا لم يَفُهْ به قبلهم عاقِل، وآنتحَلُوا مذاهبَ لا يُساعدُهم عليها نقْلُ ناقل، وتخيَّلُوا أشـياءَ فاسدةً حالُهم فيما نُخَيِّلُهـا أسوأُ من حالِ باقل؛ وتمسَّكُوا بآثارٍ

(١) أى عدلوا عنه. انظر المصباح.

موضوعه، وحكاياتٍ إلىٰ غير ٱلثِّقات مرفُوعه؛ يُنْقَل عن أحدهم ماينقُلُه عن مجهول غير معروف، أو عمن هو بالكَذب والتدليس مشهورٌ وموصُوف؛ فأدّاهم ذٰلك إلى القول بأشياء ــ منها مايُوجِب الكفْرَ الصُّراح، ويُبيح القتلَ الذى لاحرجَ علىٰ فاعله ولا جُناح ــ ومنها ما يقتضى الفسقَ إجماعا، ويَقْطَع من المتَّصِف به عن العَدَالة أطماعا ــ ومنها ما يُوجِب عظيم الزَّجْر والنَّكال ــ ومنها ما يُفْضِى بقائله إلىٰ الوَيْل والوبال. لَعِب الشيطانُ بعقُولهم فأغواهم، وضَمَّهم إلىٰ حِزْبه وآواهُمْ، ووعَدَهم غُرورا ومَنَّاهم، وتمنَّوْا مغالبةَ أهل الحق فلم يَبْلُغوا مُناهم؛ مَرَقُوا من الدِّين، وخرقُوا إجماع المسلمين، وٱستحلُّوا المَحَارم، وٱرتكَبُوا العظائم، وٱكتسبُوا الجَرائم؛ وعدَلُوا عن سواء السبيل، وتبوَّءوا من غضب الله شرَّ مَقيل. مذْهبُهم أضعفُ المذاهب، وعقيدتُهم مخالفةٌ للحق الغالب، وآراؤُهم فاسده، وقرائحُهم جامدَه، والنُّقول والعُقول بتكذيب دَعاوِيهم شاهِده؛ لا يرجعُون فى مقالتهم إلىٰ أدلَّة سليمه، ولا يُعَرِّجون فى ٱستدلالهم علىٰ طريق مستقيمه؛ يعارِضُون النُّصوص القاطعه، ويُبْطلون القواعدَ لمجرَّدِ المنازعة والمُدافعه، ويفَسِّرون كلامَ الله تعالىٰ بخلاف مُراده منه، ويتجرَّءُون علىٰ تأويله بما لم يُرِدْه اللهُ ولم يَرِدْ عنه؛ فهم أعظمُ الأمة جَهاله، وأشدُّهم غَوَاية وضَلَاله؛ ليس لهم فيما يَدَّعُونه مستَنَد صحيح، ولا فيما ينقُلونه نَقْلٌ صريح.

فلذلك كانوا أقلَّ رتبةً فى المناظره، وأسوأَ الأُمَّة حالًا فى الدنيا والآخره؛ وأحقَرَ قَدْرا من الاحتجاج عليهم، وأقلَّ وضْعا من توجيه البحث إليهم؛ أكابرهم مخلِّطون، وأصاغِرُهم مثلُهم ومعظَمُهم مخبِّطون؛ بل كلُّهم ليس لأحد [منهم] حَظٌّ فى الجدال، ولا قَدَم فى صحة الاستدلال؛ ولو طُولِب أحدٌ منهم بصحَّة دعواه لم يجِدْ عليها دليلا؛ ولو حُقِّق عليه بحث لم يَلْقَ إلىٰ الخلاص سبيلا؛ غايةُ متكلِّمهم أن يَرْوِىَ عن منكر من الرجال مجهول، ونهاية متعلِّمهم أن يُورد حديثًا هو عند العلماء موضُوع أو مَعْلول؛ يطْعَنُون

فى أئمة الإسلام، ويسُبُّون أصحابَ النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، ويَدَّعُون أنهم شِيعةُ أميرالمؤمنين عليِّ بنِ أبي طالب رضى الله عنه وهو برىء منهم، منزَّه عما يصْدُر عنهم، فقدرُه أرفَعُ عند الله والناس، ومَحَلُّهُ أعلىٰ بالنص والقِياس، ويحْرُم أن يُنْسَب إليه الرِّضا بهذه العقائد، أو التقريرُ لهذه المَفَاسد، فإن طريقته هى المُثْلىٰ، وسيرته هى العُلْيا، فالأخْذُ بالحق إليه يَئُول، والصوابُ معه حيث يفْعَل أو يقُول، ولا يصِحُّ نقلُ شىءٍ من هذا عنه، ولا يحل نسبةُ شىء إليه منه، ومنصبُه أجلُّ من ذلك، ومكانُه أعزُّ مما هُنالك، غير أنَّ هٰؤلاء يَعْرِض لأحدهم فى دينه شُبْهة، يقلِّد فيها مثلَه فى الضلالة وشِبْهَه، ويتردَّدُ فى نفْسه من الغَمِّ بُرْهةً لا يجد لخلاصه منها وِجْهة، ولا يوجِّه قلبُه إلىٰ طلب النجاة منها وَجْهَه، ولا يقَع نظرُ بصيرته علىٰ طريق الصواب ولايحقِّق كُنْهَه، فيرتكبُ خَطَرا يُوجِب توبيخَه فى القيامة وجَبْهَه، وتَسْودُّ فى الموقف ناصيةٌ منه وجَبْهَه، ويَعْدَم لتحيره فى الضلال عقْلَه وفهمه وفِقْهَه، قد صَرَفوا إلىٰ الطعن فى العلماء، ومخالفة ربِّ الأرض والسماء، هَمَّهم وهِمَمَهم، وافترَوْا علىٰ الله كذبا فذَمَّهم وأباح دَمَّهم، وقال لسانُ حال أمرهم أرا قَدَمهم أراقَ دَمَهم، وهان دَمُهم فها نَدَمُهم .

وقد بلَغَنا أن جماعةً من أهل بيْروتَ وضواحيها، وصَيْدا ونواحيها، وأعمالها المضافةَ إليها، وجهاتِها المحسوبةَ عليها، ومَزارعَ كل من الجهتين وضياعَها، وأصقاعها وبِقاعَها، قد انتحلُوا هذا المذهبَ الباطل وأظهَرُوه، وعمِلوا به وقرَّرُوه، وبَثُّوه فى العامَّة ونشَرُوه، واتخذوه دِينًا يعتقدُونه، وشرْعا يعتمِدُونه، وسلكُوا مِنهاجَه، وخاضُوا لِجاجَه، وأصَّلوه وفرَّعوه، وتديَّنوا به وشَرَعوه، وحصَّلوه وفصَّلوه، وبلَّغوه إلىٰ نفوس أتباعهم ووصَّلوه، وعظَّموا أحكامَه، وقدَّمُوا حُكَّامه، وتَمَّموا تبجيله وإعظامَه، فهم بباطله عاملُون، وبمقتضاه يتعاملُون، ولأعلام علْمه حاملُون، وللفساد

قابلون، وبغير السَّداد قائلون، وبحَرَم حرامه عائذُون، وبحِمىٰ حمايته لائذُون، وبكَعْبة ضلاله طائفُون، وبسُدّة شدّته عاكفون. وإنهم يسُبُّون خيرَ الخلق بعد الأنبياء والمرسلين، ويستحلُّون دمَ أهل السنَّة من المسلمين، ويستبيحُون نكاحَ المُتعة ويرتكبُونَه، ويأكلون مالَ مخالفيهم وينتهبُونه، ويجمعُون بين الأختين فى النكاح، ويتديّنُون بالكفر الصُّرَاح، إلىٰ غير ذٰلك من فروع هذا الأصلِ الخبيث، والمذهبِ الذى ساوىٰ فى البُطْلان مذهبَ التثليث ـ فأنكرنا ذٰلك غايَةَ الإنكار، وأكبَرْنا وقوعَه أشدَّ إكبار، وغضِبْنا لله تعالىٰ أن يكون فى هذه الدولة للكُفْر إذاعَه، وللمعصية إشادةٌ وإشاعه، وللطاعة إخافةٌ وإضاعه، وللإيمان أزْجىٰ بِضاعه، وأردنا أن نجَهِّز طائفةً من عسكرِ الإسلام، وفرقةً من جُنْد الإمام، تستأصل شأْفَةَ هذه العُصْبة المُلْحِده، وتطهِّرُ الأرضَ من رِجْس هذه المَفْسَده، ثم رأينا أن نقَدِّم الإنذار، ونسبِق إليهم بالإعذار، فكتَبْنا هذا الكتاب، ووجَّهْنا هذا الخطاب، ليُقْرأَ علىٰ كافَّتهم، ويُبلِّغ إلىٰ خاصَّتهم وعامَّتهم، يُعْلمهم أن هذه الأمورَ التى فعلُوها، والمذاهبَ التى انتحَلُوها، تُبيح دماءَهم وأموالَهم، وتقتضِى تعميمَهم بالعذابِ واستِئْصالهم، فإنَّ من استحَلَّ ما حَرَّم الله تعالىٰ وعُرِف كونُه من الدين ضرورةً فقد كفَر، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿ وأنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلَّا ما قَدْ سَلَفَ ﴾ عطْفا علىٰ ما حَكَم بتحريمه، وأطلق النصَّ فتعيَّن حملُه علىٰ تعميمه، وقد انعقد علىٰ ذلك الإجماع، وانقطعت عن مخالَفته الأطماع، ومخالفةُ الإجماع حرام بقول من لم يزَلْ سميعا بصيرا ﴿ ومَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ماتَبَيَّنَ له الهُدَىٰ ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ماتَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وسَاءَتْ مَصِيرا ﴾. ونكاح المُتعة منْسوخ، وعَقْده فى نفس الأمر مَفْسُوخ، ومن ارتكبه بعد علمه بتحريمه واشتهاره، فقد خرج عن الدِّين بردّه الحقَّ وإنكاره، وفاعلُه ان لم يتُب فهو مقتول، وعُذْره فيما يأتيه من ذٰلك غيرُ مقْبُول. وسَبُّ الصحابة رضوانُ الله عليهم

مخالفٌ لما أمَرَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من تعظيمهم ، ومنابذٌ لتصريحه باحترامهم وتبجيلهم ، ومخالفتُه عليه السلام فيما شَرَعه من الأحكام ، موجبةٌ للكفر عند كل قائلٍ وإمَام ، ومُرتكبُ ذلك علىٰ العقوبة سائر ، وإلىٰ الجحيم صائر . ومَنْ قذَفَ عائشةَ أُمَّ المؤمنين رضى الله عنها بعد ما بَرَّأها الله تعالىٰ فقد خالف كتابَه العظيم ، وآستحقَّ من الله النَّكالَ البليغَ والعذابَ الأليم ، وعلىٰ ذلك قامتْ واضحاتُ الدلائل ، وبه أخذ الأواخرُ والأوائل ، وهو المَنْهج القويم ، والصِّراطُ المستقيم ، وماعدا ذلك فهو مرْدُود ، ومن المِلَّة غيرُ معْدُود ، وحادثٌ فى الدين ، وباعثٌ من المُلْحدين ، وقد قال الصادق فى كل مَقَالَه ، والمُوضِّح فى كل دِلَاله ، « كُلُّ مُحْدَثة بِدْعةٌ وكلُّ بِدْعةٍ ضَلَاله » . فتوبُوا إلىٰ الله جميعا ، وعودُوا إلىٰ الجماعة سريعا ، وفارِقُوا مذهبَ أهل الضَّلاله ، وجانبُوا عُصْبةَ الجَهَاله ، واسمَعُوا مقالَةَ الناصح لكم فى دينكم وَعُوا ، وعن الغَىِّ ارجعُوا ، وإلىٰ الرَّشاد راجعُوا ، وإلىٰ مغفرةٍ من ربِّكم وجنةٍ عرضُها السمواتُ والأرضُ باتِّباع السنة بادِرُوا وسارِعُوا . ومن كان عنده امرأةٌ بنكاحِ متعة فلا يَقْرَبْها ، ولْيحذَرْ من غشْيانها ولْيتجَنَّبْها . ومَنْ نكح أختين فى عقْدَيْن فليُفارِق الثانيةَ منهما فإنَّ عقدَها هو الباطل ، وان كانَتَا فى عقدٍ واحدٍ فليُخْرِجْهما معا عن حِبَالته ولا يُمَاطِلْ ، فإنَّ عذاب الله شديد ، ونَكالَ المجرم فى الجحيم كلَّ يوم يَزِيد ، ودارَ غضب الله تُنادِى بأعدائه هل من مَزِيد ، فلا طاقَةَ لكم بعَذَابه ، ولا قُدرةَ علىٰ أليم عقابه ، ولا مَفَرَّ للظالم منه ولا خَلَاص ، ولا ملجأً ولا مَناص . فرحِم اللهُ تعالىٰ امْرأً نظر لنفسه ، واستعدَّ لرَمْسه ، ومَهَّد لمَصْرَعه ، ووطَّأ لمَضْجَعه ، قبلَ فَواتِ الفَوْت ، وهُجوم المَوْت ، وانقطاعِ الصَّوْت ، واعتقالِ اللسان ، وانتقال الإنسان ، قبل أن تُبْذَل التوبةُ ولا تُقْبَل ، وتُذْرىٰ الدموُع وتُسْبَل ، وتنقضى الآجالُ وينقطع الأمل ، ويمتنعَ العمَل ، وتزهَق من العبد نَفْسُه ، ويضُمَّه رَمْسُه ، ويَرِدَ علىٰ ربه وهو عليه

غَضْبان، وإنَّ سُخْطه عليه بمخالفة أمرِه قدْ بان، ولا ينفعُه حينئذٍ النَّدَم، ولا تُقال عثرتُه إذا زَلَّت به القدَم، وقد أعْذر من أنْذَر، وأنصَف من حَذَّر، فإنَّ حزب الله هم الغالبون، والذين كَفَرُوا سيُغْلَبُون، وسَيَعْلَمُ الَّذِين ظَلَمُوا أيَّ منقلَبٍ ينْقَلِبُون، ألهمنا الله وإيَّاكم رُشْدَنا، ووفَّق إلىٰ مَرَاضيه قصْدَنا، وجمَعَنا وإيَّاكم علىٰ الطاعه، وأعاننا جميعا علىٰ السُّنَّة والجماعه، بمنِّه وكرمه! .

وهـذه نسخة مرسوم كُتِب به عن نائب المملكة الطرابُلُسيَّة إلىٰ نائب حِصْن الأكراد، بإبطال ما أُحْدِث بالحصن: من الخَمَّارة، والفَوَاحش، وإلزام أهل الذِّمَّة بما أُجْرِي عليهم أحكامُه من أمير المؤمنين عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه ـ فى أواخر جُمادىٰ الأولىٰ سنة خمس وستين وسبعمائة، وهو:

المرسومُ بالأمر العالى ـ لازال قصدُه الشريفُ المثابرةَ علىٰ تغيير المنكَر، وشَدِّ أزر المُنْكِر، مشمِّرا فى إراحة القلوب بإزاحة مَوَاطن الفواحش: من سِفَاح ومخدِّر ومَيْسر ومُسْكِر ـ أن يتقدّمَ الجنابُ الكريم باستمرار ماوفَّقنا الله تعالىٰ له ورَسَمْنا به، وأعطيناه دُستُورا يجِدُه من عَمِل به يوم حِسابِه: من إبطال الخَمَّاره، وهدْم مبانيها بحيثُ لا يبقىٰ للنَّفْس الأمَّارة عليها أَمَاره، وإخفاءِ معالمِها التى توطَّنها الشيطانُ فقَطَن، وإزالةِ ما بها من الفَواحش التى ما ظهر منها أقلُّ ممـا بَطَن، وإخلاءِ تلك البلاد من هذا الفَسَاد الموجب لكثرة المحن والاختلاف وإراقة ما بها من الخُمور، التى هى رأْسُ الإثم والشُّرور، وإحراقِ كل مخَدِّر مذْمُوم فى الشَّرْع محْذُور، وإذهاب اسم الحانة بالكلِّيَّة بحيث لا يتلفَّظ به مسلِمٌ ولا كافِر، ولا يُطمِع نفسَه فى الترتيب عليها مَنْ هو علىٰ خِزْيه وبَغْيه مُظَافِر. وقد غيَّرنا هـذا المنكر بيدٍ أطال الله بفضله فى الخير باعَها، وغنِمْنا إزالةَ هذه المَفْسَدة فأحرَزْنا بِرَّها واصطناعَها، خوفاً من وعيد

قوله تعالى : ﴿كانُوا لا يَتَناهَوْنَ عن منكرٍ فَعَلُوه لَبِئْسَ ما كانُوا يفْعَلُون﴾ ورجاءَ أن نكونَ من المراد بقوله تعالى : ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إلى الخَيْرِ ويَأْمُرُونَ بالمَعْرُوف ويَنْهَوْنَ عنِ المُنْكَرِ وأُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾ وعملًا بقوله عليه السلام : «مَنْ رأى منكم مُنكَرًا فلْيغَيِّرْه بيده» . وعلما بأنَّ أمير الرعية إذا لم يُزل المنكَرَ من بينهم فكيفَ يُفْلِح في يومه وحالِ السُّؤال عنهم في غَدِه .

وقد صار حِصنُ الأكراد بهذه الحسنة في الحِصْن المَنِيع ، وأهلُهُ المتمسّكُون بالعُروة الوُثْقى في مَرْبَع خَصِيب مَرِيع ، وضَواحِيه مطَهَّرةً من خُبْث السِّفاح ونَجاسة الخُمور ، ونَواحيه كثيرةَ السُّرور قليلة الشُّرور ، قد أعلى الله تعالى به كلمته ، وأجاب لصغيره وكبيره في هذا الأمر دَعْوته ، وما ذلك إلا بتوفيقِ مَن أهلَّنَا لذلك ، وألهَمنا رُشْدنا وطَهَّرَنا من هذه المَفاسد تلك المَسالك ، وله الحمدُ على ما وفَّق إليه ، وأعانَ عبدَه في ولايته عليه ، فإن المنكَر إذا فشا ولم يُنْكَرْ آنَ خَرابُ الديار ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّ الله لَيَغَار » ، فعند ذلك تمنَعُ السماءُ دَرَّها ، وتُمسك الأرض بَذْرَها ، ويَجِفُّ الضَّرْع ، ويَيْبس الزَّرْع ، وتَعْطَش الأكباد ، وتَهلِك البِلاد .

فليبْسُط الجنابُ الكريم يدَه في إزالة ما بَقِيَ من مُنْكَر ، متفقِّدا لجَليله وحقيره بالفَحْص الشديد وما على ذلك يُحمَدُ بكل لسانٍ ويُشْكَر ، مترقِّبا من يُدْخِل البلَدَ ذلك ليقابلَه بالضرب بالسياط ، آخذًا في تتبُّع حِلَاله بالحزم والتحرِّي والاحتياط ، إلى أن تصل بنا أخبارُه ، ويعلُو لدَيْنا في سياسته ونَهْضته منارُه ، وتُحمَد عندنا إيالتُه وآثارُه ، وهو بحمد الله كما نعهد شديدٌ على كل مُفسِد ومعاند ، سديدُ الآثار والأثارة والمقاصد .

وأما أهلُ الذمَّة فما رُفِع عنهم السيفُ إلا باعطاء الجزية والتزامِ الأحكام ، وأخْذِ عهود أكيدةٍ عليهم من أهل النقض والإبرام .

فليتقدّم الجنابُ الكريمُ بإلزامِهم بما ألزمهم به الفارُوق رضوانُ الله عليه، ولْيُلْجِئْهم فى كل أحوالِهم إلىٰ ما ألجأهم إليه : من إظهار الذِّلَّة والصَّغار ، وتغيير النَّعْل وشدِّ الزُّنَّار، وتعريفِ المرأة بِصَبْغ الإزار، ولْيُمنَعُوا من إظهار المنكَر والخمرِ والناقوس وليُجعل الخاتَمُ أو الحديدُ فى رقابهم عند التجرُّد فى الحمَّام، ولْيُلْزَموا بغير ذٰلك من الأحكامِ التى ورد بها المرسوم الشريف من مُدّة أيَّام،ومن لم يلتزم منهم بذٰلك وآمتنع، وأعلن بكفْرِه وأعلى كلمتَه ورَفَع، فما له حَكَم إلا السيف، وغُنْمُ أمواله وسَبْيُ ذرارِيِّه وما فى ذٰلك علىٰ مثله حَيْف، فهاتانِ مَفْسَدتانِ أمرْنا بالزامهما فِرارا من سُخْط الله تعالىٰ وحِذَارا ، إحداهُما إبطالُ الحانة والثانيةُ إخفاء كلمةِ اليهود والنَّصارىٰ .

فليتقدّمِ الجنابُ المشارُ إليه باستمرار ما رسَمْنا به فهو الحق الذى لا شكَّ فيه ، والنُّور الذى يَتْبَعُه المؤمنُ ويَحْكيه ، ونرجُو من كرم الله تعالىٰ استمرارَ هذه الحسنةِ مَدَىٰ الأزمان ،وآستثْمارَ شجرِها المائد الأغصان ، و إبطالَ هذا الحُزْن المسمَّى ظلما بالفَرَح، و إعمالَ السيف فى عنُق من آرتضاه بين أظهر المسلمين فانهتك سِتْره وآفتضح .

ولْيَقْمَعْ أهلَ الشرك والضلال، بما يُلزِم الصَّغارَ عليهم والإذلال، إلىٰ أن لا يُرْفَع لهم راس ، ولا يُشَيِّدوا كيدا إلا علىٰ غير أساس، وليستجلِبِ الجنابُ الكريم لهذه الدولة الشريفةِ ولنا الدعاءَ من المسلمين، والفقراءِ والصالحين والمساكين، ولْيُطِبْ قلوبَهم باستمرار ما أزَلْناه، ومحَوْنا آثاره وأبطلْناه ، وقصدْنا بإبطاله من تلك الأرض، مسامحةً من الحَكَم العَدْل يوم العَرْض ، ومَن أعاد ما أبطلناه أو أعان علىٰ إعادته ، أو أمر بتشييده وبناء حِجارته، أورتَّب مرتَّبا علىٰ خِدْرِ بَغِيّ ومَوَّه ودلَّس بالأفراح ، أو أطلق أن يُباعَ منْكَر أو سوّل له شيطانُه أنه من الأرباح، فإن الله تعالىٰ يُحاكمه وهو أحكم الحاكمين، وعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين .

الباب الثانى

فيما يكتب فى المسامحات والإطلاقات، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

فيما يكتب فى المسامحات

والمُسامحات جمع مُسامحة، وهى [الجُود[١] والموافقةُ علىٰ ما أُرِيد منه] . والمراد المسامحةُ بما جرَتْ به عادةُ الدواوين السلطانية : من المقررات واللوازم السلطانية، وهى علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل

(ما يُكتَب من الأبواب السلطانية)

وقد جرتِ العادةُ أنَّ السلطانَ إذا سَمَح بترك شىءٍ من ذٰلك كُتِب به مرسومٌ شريف وشمِلتْه العلامة الشريفة، وهو علىٰ مرتبتين :

المرتبة الأُولىٰ — المسامحاتُ العِظام .

وقد جرت العادةُ أن تُكتَب فى قطع الثلث مفتتحةً بـ«الحمد لله» .

وصورَتُها أن يُكتب فى أعلى الدَّرْج بوَسَطه الاسمُ الشريف كما فى مراسيم الولايات، ثم يكتب من أوّل عَرْض الورق إلىٰ آخره «مرسومٌ شريفٌ أن يُسامَح بالجهة الفلانية وإبطال المُكوس بها، أو أن يسامح بالباقى بالجهة الفلانية، أو أن يُسامَح أهلُ الناحية الفلانية بكذا وكذا، ابتغاءً لوجه الله تعالىٰ، ورجاءً لنواله الجسيم

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المصباح .

علىٰ ما شُرِح فيه» ثم يُترك وصلان بياضًا غير وَصْل الطُّرّة، ويُكتَب فى أوّل الوصل الثالث البسملة، ثم الخطبةُ بالحمدُ لله إلىٰ آخرها، ثم يقال : وبعدُ، ويؤتى بمقدّمة المسامحة : من شكر النعمة، والتوفيَــة بحقها ومقابلتها بالإحسان إلىٰ الخلق، وعمل مصالح الرعية وعمارةِ البلاد، وما ينخرِط فى هذا السِّلك، ثم يقال : ولذٰلك لمـا كان كذا وكذا اقتضت آراؤنا الشريفة أن يُسامَح بكذا، ثم يُقال : فرُسِم بالأمر الشريف أن يكون الأمرُ علىٰ كذا وكذا، ثم يقال . فلتستقرّ هـذه المسامحةُ ويؤتىٰ فيها بمـا يناسب، ثم يقال : وسبيلُ كلِّ واقف علىٰ هذا المرسوم الشريف العمَلُ بمضمونه أو بمقتضاه، ويُختَم بالدعاء بمـا يُناسِب .

وهذه نسخة مرسوم بمسامحةٍ ببواقى دِمَشْق وأعمالهـا، من إنشاء الشيخ شهاب الدين محمود الحلبىّ رحمه الله تعالىٰ، وهى :

الحمدُ لله الرءوفِ بخَلْقه، المتجاوزِ لعباده عما قَصَّروا فيه من حَقِّه، المُسامِح لبَرِيته بمـا أهمَلُوه من شُكْر ما بَسَط لهم من رِزْقه، جاعلِ دولتِنا القاهرةِ مَطْلَع كرم، تُجتَلىٰ أنوارُ البِرِّ فى البَرايَا من أُفُقه، ومَنْشأَ دِيَم، تُجتَلَبُ أنواءُ الرِّفق بالرعايا من بَرْقه، ومِضمارَ جُود يحتَوِى علىٰ المعروف من جميع جهاتِه ويشتَمِل علىٰ الإحسان من سائرِ طُرُقه، فلا بِرَّ تنتهِى إليه الآمالُ إلا ولكَرمِنا إليــه مَزِيَّة سَــبْقه، ولا أجْرَ يتوجَّه إليه وجهُ الأمانِىِّ إلا تلقَّته نِعمُنا بمُتهلِّل وجه الإحسان طَلْقه، ولا معروفَ تُجْدِب منه أرجاءُ الرجاءِ إلا واستهلّتْ عليه آلاؤُنا من صَوْب بِرِّنا المألوفِ لآلِئُ وَدْقه .

نَحمَده علىٰ نِعمه التى عمَّت الرَّعايا بتَوالِى الإحسان إليهم، وأنامَتْهم فى مِهاد الأمن بمـا وضعَتْ عنهم مسامحتُنا من إصرهم والأغلال التى كانَتْ عليهم، وأنالَتْهــم ما لم

تطْمَحْ آمالُهم إليه : من رَفْع الطَّلَب عن بواقى أموالٍ أخَّرُوها وراءَ ظهورِهِم وكانَتْ كالأعمال المقدّمة بين يديْهِم .

ونشهد أنْ لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تبعَثُ علىٰ نَشْر رحمتِه، التى وَسِعت كلَّ شيءٍ فى عباده، وتحُثُّ علىٰ بثِّ نعمتِه، التى غَمَرت كلَّ حىٍّ علىٰ اجتماعه وسَعَتْ إلىٰ كل حىٍّ علىٰ انْفرادِه، وتَحُضُّ علىٰ ما ألهمنا من رأفةٍ بمن تابله بتوحيده وشِدّةٍ علىٰ من جاهَرَه بعِناده .

ونشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله الذى أسكَتَ ألْسِنةَ الشرك وأخْرَسَها، وعَفَّىٰ مَعالِمَ العُدْوان وطَمَسها ، وأثّل قواعدَ الدين علىٰ أركانِ الهدىٰ وأسَّسَها، وأوْضَح سُبُلَ الخيرات لسالِكيها فإذا سَعِدت بالملوك رَعاياها فإنما أسْعدتِ الملوكُ بذٰلك فى نَفْس الأمر أنفُسَها . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين شَفَعُوا العدْلَ بالإحسان ، وجمَعُوا بين مُلْك الدنيا والآخرة بإحياء السُّنَن الحِسان ، وزرَعُوا الجهادَ بالإيمان فى كل قلبٍ فأثْمَر بالتوحيد من كلِّ لسان ، صلاةً جامعةً أشتاتَ المُراد ، سامعةً نداءَ أربابِها يوم يقومُ الأشهاد ، قامعةً أربابَ الشكِّ فيها والإلْحاد، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فإننا لمَّا آتانا الله من مُلْك الإسلام ، وخَصَّنا به من الحُكْم العامّ ، فى أمة سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وأيَّدَنا به من النصر علىٰ أعداء دينِه، وأمدّنا به من تأييد تأييده ودَوام تمكينه ، وجعل دَوْلَتنا مَرْكَزا مَدارُ مُلك الأمة الإسلامية عليه، وفَلَكًا مآلُ أمور الأمّة المحمدية فى سائر الممالك علىٰ اختلافها إليه، ورزَقنا من النصر علىٰ أعدائه ما أعزَّ المسلمين وأذالَهُم ، وأذَلَّ المشركين وأذالَهم ، وكَفَّ بالرُّعب أطماعَهم، وأعمىٰ بما شاهَدُوه أبصارَهم وأصَمَّ بما سمِعُوه أسماعهم،

وحَصَرهم بالمَهابة فى بلادهم ، وأيْأَسهم بالمَخافة من نُفوسهم قبل طارفِهم وتِلادِهم ــ لم نزلْ نرْغَب فى حسنات تُحَلَّىٰ بها أيامُنا ، وقُرُباتٍ تجْرِى بها أقلامُنا ، ومكْرُمات تكمُلُ بها عوارِفُنا وإنعامُنا ، ومآثرَ يخُلَّد بها فى الباقياتِ الصالحاتِ ذِكْرُنا ، ومواهِبَ تُجمَّل بها بين سِيَرِ العصور الذاهبةِ سيرتُنا الشريفةُ وعَصْرُنا ، ومَصالحَ يُصْرَف بها إلىٰ مصالح البلاد والعباد نظرُنا الجميل وفكرُنا ، نُهوضًا بطاعة الله فيما ألقىٰ مَقاليـدَه إلينا ، وأداءً لشُكْره فيما أتمَّ به نِعمَه العميمةَ علينا ، واكتساباً لثوابه فيما تُقدِّمه من ذخائر الطاعات بين يدَيْنا ، ونظرًا فى عمـارة البلاد بخِفَّة ظهور ساكنيها ، وإطابةً لقلوب العباد من تَبِعاتِ البواقِى التى كانت تمنَعُهم من عِمارة أراضيهم وتُنَفِّرهم من التوطُّن فيها ، ورَغبةً فيما عند الله واللهُ عنـده حُسْن الثواب ، وتحرِّيا لإصابة وجهِ المصلحة الإسـلاميَّة فى ذٰلك واللهُ الموفِّقُ للصواب .

ولذٰلك لَـمَّـا ٱتَّصـل بنـا [أنَّ] باقِىَ البلاد الشامية من البواقِى التى يُتْعِب ألسنةَ الأقلام ، إحصاؤُها ، ويُثْقِل كواهلَ الأفهام ، تَعدادُ وجوهِها وٱستقصاؤُها ، ممـا لايُسْمَح بمثله فى سالِف الدُّهور، ولا يَسْخُو به إلا من يرغَبُ مثلُنا فيما عندَ الله من أُجورٍ لاتُخْرِجه عن مصـالح الجُمْهور ــ اقتضت آراؤُنا الشريفة أن نُعْفِى منها ذِممًـا كانت فى أغلالِ إسارِها ، وأثقالِ انكسارِها ، ورَوْعة اقتضائها ، ولَوْعةِ التردُّد بينَ إنظارِ المطالبة وإمضائها ؛ وأن نُعتِق منها نفُوسا كانت فى سِـياق مَساقِها ، وحِبَال إزهاقِها وإرهاقِها ، لتتوفَّر الهِمَمُ علىٰ عمـارة البِلاد ، بالأمن علىٰ الطارف والتِّلاد ، وتُجمَع الخواطرُ علىٰ حُسْن الخلَف ، بمـا حصَل لهم من المسامحة عما عليهم من ذٰلك سـلَف ، بذمم بريَّة من تلك الأثقـال ، عريَّة عن عَثَرات تلك البواقى التى ما كان يُقال إنها تُقَال .

فرسم بالأمر الشريف ـ زاده الله تعالىٰ عُلُوّا وتشريفا، وأمضاه بما يَعُم الآمالَ رِفْقا بالرعايا وتخفيفا، وأجْراه من العدل والإحسان بما يعُمُّ البلاد، ويجبرُ العباد، فإن الأرض يُحييها العدْلُ ويَعْمُرها الاقتصارُ علىٰ الاقتصاد ـ أن يسامح ... ...

فليستقرّ حكمُ هذه المسامحةِ استقراراً يُبقِي رَسْمَها، ويمحُو من تلك البواقي المُساقة رَسْمَها واسْمَها، ويضع عن كواهل الرعايا أعباءَها، ويُسَيِّر بين البرايا أخبارَها الحسنةَ وأنباءَها، ويُسْقِط من جرائد الحساب تفاصيلَها وجُمَلَها، ويحقِّق بتعفيته آثارَها رجاءَ رعيَّةِ بلادنا المحروسة وأمَلَها .

فقد ابتغَيْنا بالمسامحة بهذه الجُمَل الوافرة ثوابَ الله وما عندَ الله خيْرٌ وأبقىٰ، وأعتقنَا بها ذِمَم من كانت عليه من مَلْكة المال الذى كان له باستيلاء الطَّلَب واستمرارِه مستَرَقًّا، تقرُّبا إلىٰ الله تعالىٰ لِمَا فيه من إيثار التخفيف، ووَضْع إصْرِ التكليف، وتقْويةِ حال العاجز فإنَّ غالبَ الأموال إنما تُساقُ علىٰ الضعيف، وتوفيرِ همِّ الرعايا علىٰ عمارة البلاد وذٰلك من آكَد المَصالح وأهمِّها، وتفريغ خواطِرهم لأداء ما عليهم من الحقوق المستقْبَلة وذٰلك من أخصِّ المنافع وأعَمِّها، فلْيُقابِلوا هذه النِّعَمَ بشكر الله على ماخَصَّ دولتَنَا به من هذه المحَاسن، ويُوالُوا حمدَه علىٰ مامتَّعهم به من موادِّ عَدْلها التى ماءُ إحسانها غيرُ آسن، ويبتهلُوا لأيَّامنا الزاهرة بالأدْعِيَة التى تُخَلِّد سلطانَها، وتشيِّد أركانَها، وتُعْلِي مَنارَ الدين باعتلائها، وتُؤَيِّدها بالملائكة المقرّبين علىٰ أعداء الله وأعدائها . وسبيلُ كل واقفٍ علىٰ مرسُومنا هذا : من وُلَاة الأمر أجمعين العمَلُ بمضمونه، والانتهاءُ إلىٰ مكْنُونه، والمبادرةُ إلىٰ إثبات هذه الحسنة، والمسارعةُ إلىٰ العمل بهذه المسامحة التى تستَدْعي مسارّ القلوب وثناء الألْسنة، وتعفيةِ آثار تلك البواقى التى عفَوْنا عن ذِكْرها، ومَحْوِ ذكر تلك الأموال التى تعوّضْنَا عن استيفائها بأجْرِها .

وهــذه نسخة مرسوم شريف بالمسامحة بالبواقى فى ذِمَم الجُنْــد والرَّعايا بالشام ، كُتِب به فى الدولة النــاصرية محمد بن قَلاوُون فى شهور ســنة ٱثنتين وسبعمائة بخط العــلَّامة كمال الدين محمد الزَّمْلَكانى (١) من إنشائه ، وقُرِئ علىٰ المِنْبر بالجـامع الأُمَوِىّ بدمَشق المحروسة ، وهى :

الحمدُ لله الذى وَسِع كُلَّ شيء رحمةً وعِلْمــا ، وسَمِــع نداءَ كُلِّ حىٍّ رأفةً وحِلْما ، وخَصَّ أيامَنــا الزاهرةَ بالإحسان فأنْجح فيها مَنْ عــدَل وخابَ من حَمَل ظُلْمــا ، وزانَ دولَتنا بالعَفْو والتجاوُز فهى تَعْتَــدّ المسامحةَ بالأموال الجسيمه غنْما إذا ٱعتدَّتْها الدُّوَلُ غُرْما .

نَحمَدُه علىٰ نعمه التى غَمَرت رعايانا بإدامةِ الإحسان إليهــم ، وعَمَرت ممالكَنَا بمــا نَتعاهَدُ به أهلَها من نَشْر جَناح الرأفة عليهم ، وخَفَّفتْ عن أهل بلادنا أثقالَ بواقِى الأموال التى كانُوا مطلُوبين بها من خَلْفِهم ومن بيْنِ يدَيْهم ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحدَه لا شريك له شهادةً لم تزل تشْــفَع لأهلها العَدْلَ بالإحســان ، وتجمع لأربابها بالرأفــةِ والرِّفق أشتــاتَ النِّعمَ الحِسان ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبــدُه ورسولُه الذى جَلَا الغُمَّه ، وهدَى الأُمَّه ، وسَنَّ الرأفَة علىٰ خلْق الله والرحْمه ، وحثَّ علىٰ الإحسان إلىٰ ذَوِى العُسْرة لمــا فى ذٰلك من براءةِ كل مشغُول الذِّمَّه ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أُمِروا بالتيسير ، وٱقتنَعُوا من الدنيا باليسير ، وأوْضَحُوا طُرُق الإحسان لسالكيها فسَهُل على المقتدى بهم فى الحُنُوّ علىٰ الأمة الصعْبُ ويُسِّر العَسِير ، صلاةً تُدَّخَر ليوم الحِساب ، وتُعَدّ للوقت الذى إذا نُفِـخ فى الصُّور فلا أنْساب ، وسلَّم تسليما كثيرا .

(١) نسبة إلى زملكان وقد ضــبطها صاحب القاموس بالــكسر وضــبطها ياقوت فى معجمه بالفتح فلعل فيها روايتين .

وبعـدُ، فإن الله تعالىٰ لمّا خصّ أيامَنا الزاهرةَ بالفُتوح التى أنامت الرعايا، فى مِهادِ أمْنها، وأنالتِ البرايا، مواقـعَ يُمْنها ومَنّها، وكفَّت أكُفَّ الحوادث عن البلاد وأهلها، ونشرَتْ عليهـم أجنحةَ البشائر فى حَزْن الأرض وسَهْلها، وأعذبَتْ من الطُّمأنينة مواردَهم، وعمَّت بالدَّعَة والسكون قاطِنَهم وراحِلَهم، وبدَّلتهم من بعد خَوْفهم أمْنـا، ونوّلتهم باجابة داعى الذَّبِّ عنهم مِنّا مَنّا، رأينا أن نُفَسِّح لهم مجَـالَ الدَّعة والسكون، وأن لانَقْنع لهم بمـا كان من أسباب المَسَارّ حتّى نُتْبِعَها بما يكُون، وأن نُصَفِّى بالإعفاء من شوائب الأكْدار شِرْبَهم، ونؤمِّن بالإعفاء عن طلَب البواقى التى هى علىٰ ظُهورهم كالأوزار سِرْبَهم، وأن نشْفَعَ العـدلَ فيهم كما أمر اللهُ تعـالىٰ بالإحسان إليهم، ونضَعَ عنهم بوَضْع هذه الأثقالِ إصْرَهم والأغلالَ التى كانتْ عليهم، وأن نُوفِّر علىٰ عمـارة البلاد هِمَمَهم، ونُبْرِئَ من تَبِعات هـذه الأموالِ اللازمة لهم ذِمَمَهم، ونُرِيحَ من ذٰلك أسْرارَهم، ونُطْلِق من رِبْقة الطلب المستمرِّ إسارهم، ونُسامحهم بالأموال التى أهمَلُوها وهى كالأعمال محسوبةٌ عليهم، ونُعْفِيَهم من الطلب بالبَوَاقى التى نسُوْها كالآجال وهى مقدّمةٌ بين يدَيْهم، لتكونَ بُشْراهم بالنصر كامله، ومسَرّتُهم بالأمن من كل سبيلٍ شامِله.

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ـ لازال بِرُّه عميما، وفضـلُه لحُسْن النظر فى مَصالح رعاياه مُديمـا ـ أن تُسامَح مدينةُ دمشق المحروسـة وسائرُ الأعمال الشامية بمـا عليها من البواقى المُساقَة فى الدواوين المعمُورة إلىٰ المُدَد المعينة فى التذكرة الكريمة المتوّجة بالخط الشريف، وجملةُ ذٰلك من الدراهم(1) ألفُ ألفٍ وسبعُمائة ألفٍ وستةٌ وأربعون ألفا ومائةُ ألف وخمسةٌ وأربعون درْهما، ومن الغلال المنوّعة تسعةُ آلاف وأربعُمائة واثنتان وأربعون غِرَارة، ومن الحبوب مائتان وثمـانٍ وعشرون غِرارة، ومن الغَنَم

(1) لعله « من الدنانير » وحينئذ يستقيم الكلام .

خمسمائة رأس ، ومن الفُولاذ سِتمائة وثمانيةُ أرطال ، ومن الزَّيْت ألفان وثلثمائة رِطْل ، ومن حَبّ الرُّمَّان ألفٌ وستمائة رِطْلٍ .

فلْيتلقَّوْا هذه النعمةَ بباع الشكر المَديد ، ويستقبلُوا هذه المِنَّةَ بحمد الله تعالىٰ فإنَّ الحمد يستَدْعي المَزِيد ؛ ويرْفُلوا في أيامنا الزاهرة ، في حُلَل الأمن الضافيه ، ويرِدُوا من نِعَمنا الباهرة ، مَناهلَ السعد الصافيه ؛ ويُقْبلوا علىٰ مصالحهم بقُلوبٍ أزال الأمنُ قَلقَها ، وأذهبتْ هـذه المسامحةُ المبرورةُ فَرقَها ؛ ونفوسٍ أمِنَت المؤاخذَةَ من تلك التَّبِعات بحسابها ، ووثِقَتْ بالنجاة في تلك الأموال من شِـدّة طالبٍ يأْبىٰ أن يُفارِق إلَّا بها ؛ وليتوفَّروا علىٰ رفْع الأدعية الصالحة لأيَّامنا الزاهره ، ويتيمَّنُوا بما شَمِلهم من الأمن والمَنّ في دولتنا القاهره ؛ فقد تصدّقْنا بهذه البواقي التي أبقَتْ لنا أجرَها وهي أكمل ما يُقْتنىٰ ، وخفَّفتْ أثقالَ رعايانا وذٰلك أجملُ ما به يُعتنىٰ . وسبيلُ كل واقفٍ علىٰ هـذا المرسوم الشريف آعتمادُ حُكْمه ، والوقوفُ عند حدِّه ورَسْمه ؛ ويُعفَّي آثارَ هذا الباقي المذكورِ بمَحْو رسْمه واسْمه ، بحيثُ لا يُترك لهذه البواقي المذكورة في أموالنا آنتِساب ، ولا يبقىٰ لها إلىٰ يوم العَرْض عرضٌ نُورِده ولا حِساب ؛ والخط الشريف شرفه الله تعالىٰ أعلاه حجةٌ بمقتضاه .

وهذه نسخةُ مسامحةٍ بمُكُوس علىٰ جهاتٍ مستقْبَحة بالمملكة الطرابُلُسية ، وإبطالِ المنكَرات ، كُتِب بها في الدولة الناصرية « محمد بن قلاوون » أيضا في شهور سـنة سبعَ عشرةَ وسبعمائة ، وهي :

الحمدُ لله الذي جعل الدِّينَ المحمَّديَّ في أيامنا الشريفة علىٰ أثبتِ عِمَاد ، وآصطفانا لإشادة أركانه وتنفيـذ أحكامه بينَ العباد ؛ وسهَّل علينا من إظهار شعائره ما رَامَ

مَنْ كان قبلنا تسهيلَه فكان عليه صَعْبَ الانقياد ، وادّخَرلنـا من أجُور نَصْره أجلَّ ما يُدَّخرليوم يفتقَر فيه لصالح الاستِعْداد .

نحمَـدُه علىٰ نِعَم بلَّغتْ من إقامة مَنَار الحق المُرَاد، وأخمدَتْ نارَ الباطل بمُظافرتها ولولا ذٰلك لكانت شديدةَ الاتِّقاد ؛ ونكَّست رُءُوس الفحشاء فعادَتْ علىٰ استحياء إلىٰ مُسْتَسِنِّها أقبَحَ مَعَاد ، ونشكُره علىٰ أن سَطَّر فى صحائفنا من غُرَر السِّـيَرِ ما تبقى بهجتُه ليوم المَعَاد ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً يجدُها العبدُ يوم يَقُوم الأشهاد ، وتَسْرى أنوارُ هَـدْيها فى البرايا فـلا تزال آخذةً فى الازدياد ؛ ونشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى بعثه اللهُ بالإنذار إلىٰ يَوْمِ التَّنَاد، والإعذار إلىٰ مَن قامتْ عليه الحجةُ بشهادَة المَلَكين فأوْضَح له سبيلَ الرَّشَاد، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَنْ رَدّ أهلَ الردّة إلىٰ الدِّين القويم أحسَنَ تَرْداد ، ومنهم مَنْ عَمَّم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر سائرَ العباد والبِلاد ، ومنهـم من بَذَل مالَه للمجاهدين ونفْسَه للجهاد، ومنهم من دافَع عن الحق فلا بَرِح فى جِدالٍ عنه وفى جِلَاد، صلاةً تَهدى إلىٰ السَّداد، وتقوّم المُعْوجَّ وتُثقِّف المَيَّاد، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإن الله تعالىٰ منذُ مَلَّكنا أمورَ خلْقِه، وبسَط قُدرتَنا فى التصرُّف فى عباده والمطالبةِ بحقِّه، وفوّضَ إلينا القيامَ بنُصرة دينِـه، وفَهَّمنا أنه تعالىٰ قَبَض قبل خَلْق الخلائق قَبْضتين فرغِبْنا أن نكونَ من قَبْضة يمينِه ، وألقىٰ إلينا من مَقَاليد الممـالك، وأقام الحجةَ علينا بتمكين البسطةِ وعدَمِ المُشاقِق فى ذٰلك ، ومهَّد لنا من الأمر ما علىٰ غيرنا توعَّر، وأعدّ لنا من النَّصْر ما أجرانا فيه علىٰ عوائد لُطْفه لاعن مَرَح فى الأرض ولا عن خدٍّ مُصَعَّر ـ ألهمَنَا إعلاءَ كلمة الإسلام، وإعزازَ الحَلَال وإذلالَ الحَرام، وأن تكونَ كلمةُ الله هى العُلْيا ، وأن لا نختارَ علىٰ دار الآخرة دارَ الدُّنيا ؛ فلم نَزَل نُقيم

للدِّين شعارا، ونُعَفِّى للشِّرْك آثارا؛ ونُعْلِن فى النصيحة لله تعالىٰ ولرسوله صلى الله عليه وسلم جَهْرا وإسْرارا؛ ونتبّع أثَر كرم نقتفيه، وممطولِ بحقّه نُوفّيه؛ ونَعْلم حق قُرْبة نُشَيِّده، ومخذولا آستظهرَ عليه الباطلُ نؤيّده؛ وذا كُرْبة نَفْرجها، وغَريبةَ فحشاءَ آستطْرَدتْ من أدوُر الحق نُخْرجها؛ وسنّةً سيئةً تستعظِم النفوسُ زوالهَا فنجعلُها هباءً منثُورا، وجملةً عظيمة أُسِّست علىٰ غير التقوىٰ مبَانيها فيَحْطِمها كرمُنا فنؤدى الجزاء عنها موفورا؛ فاستقصينا ذلك فى ممالكنا الشريفة مملكةً مملكه، وآستطردْنا فى إبطال كل فاحشةٍ مُوبِقة مُهْلِكه؛ فَعفَّينا من ذلك بالديار المصرية ماشاع خَبَرُه، وظهَر بين الأنام أثَرُه؛ وطُبِّقت بمحاسنه الآفاق، ولَهجتْ به ألسنةُ الدُّعاة والرِّفاق: من مُكوس أبطلناها، وجهاتِ سُوءٍ عَطّلناها، ومظالِمَ رددناها إلىٰ أهلها، وزجَرْناها عن غيِّها وجَهْلها، وبَواقٍ سامحنا بها وسَمَحْنا، وطَلبات خفَّفنا عن العباد بتركها وأرَحْنا؛ ومعروفٍ أقمنا دعائمَه، وبيُوتٍ لله عز وجل أثرْنا منها كل نائمَه؛ ثم بَثَثْنا ذلك فى سائر الممالك الشامية المحروسه، وجنَيْنا ثمراتِ النصر من شَجَرات العدْل التى هى بَيدِ يقَظتِنا مغْروسه.

ولما آتّصل بعلومنا الشريفة أنَّ بالمملكة الطرابُلُسية آثارَ سُوء ليستْ فى غيرها، ومواطِنَ فِسق لايقدِرُ غيرُنا علىٰ دَفع ضررها وضَيْرها؛ ومَظانَّ آثامٍ يجدُ الشيطان فيها مجالا فسيحا، وقُرًى لا يُوجَد بها من [كان] إسلامُه مقبولًا ولا مَنْ [كان] دينُه صحيحا؛ وخمورا يُتظاهَر بها، ويتصل سبَبُ الكبائر بسببها؛ وتُشاع بين الخلائق مُجْهَرا، وتُباع علىٰ رءُوس الأشهاد فلا يُوجَد لهذا المنكر مُنْكِرًا؛ ويُحْتَجُّ فى ذلك بمقرّراتِ سُحْت لا تُجْدى نفعا، وتُبقِى فى يد آخذها كأنها حيَّة تَسْعىٰ.

ومما أُنْهِى إلينا أن بها حانةً عُبِّر عنها بالأفراح قد تطايَرَ شررُها، وتفاقم ضررُها، وجُوهِر فيها بالمعاصِى، وآذنَتْ لولا حِلْمُ الله وإمهالُه بزلزلة الصَّياصِى، وغدت لأهل الأهوية مَجْمَعا، ولذَوى الفساد مرْبَعا ومرْتَعا، يُتظاهر فيها بما أُمِر بسَتْره من القاذُورات، ويُؤتىٰ بما يجب تجنُّبه من المحذورات، ويُسترسَل فى الأفراح بها بما يُؤدِّى إلىٰ غضَب الجبَّار، وتهافَتُ النفوسُ فيها كالفَراش على الاقتحام فى النار .

ومنها ــ أن المسْجُونَ إذا سُجِن بها أُخِذ بجميع ماعليه بين السجن وبين الطَّلَب، وإذا أُفْرِج عنه ولو فى يومه انقلَب إلىٰ أهله فى الخَسارة بشرِّ منقلَب، فهو لا يجد سُرُورا بفَرَجه، ولا يَحْمَد عُقْبىٰ مُخْرَجه .

ومنها ــ أنَّ بالأطراف القاصية من هذه المملكة قُرًى سُكَّانُها يُعْرفُون بالنُّصَيرية لم يَلِج الإسلامُ لهم قَلْبا، ولا خالَط لهم لُبًّا، ولا أظهَرُوا له بينهم شِعَارا، ولا أقامُوا له مَنَارا، بل يُخالِفُون أحكامَه، ويجهلون حَلَاله وحرامَه، ويَخْلِطون ذبائحَهم بذبائح المسلمين، ومقابِرَهم بمقابر أهلِ الدِّين، وكل ذٰلك مما يجب رَدْعُهم عنه شرعا، ورجوعُهم فيه إلىٰ سَواء السبيل أصْلا وفَرْعا، فعند ذٰلك رَغِبنا أن نفْعل فى هذه الأمور مايَبقىٰ ذكرُه مَفْخَرة علىٰ ممرّ الأيَّام، وتَدُومُ بهجتُه بدوام دولةِ الإسلام، ونَمحُوَ منه فى أيامنا الشريفة ما كان علىٰ غيرها به عارًا، ونسْتَرجعَ للحق من الباطل ثَوْبا طالَمَا كان لدَيْه مُعارا، ونُثْبِتَ فى سيرة دولتنا الشريفة عوارِفَ لا تَزال مع الزمن تُذْكَر، ونتلو علىٰ الأسماع قولَه تعالىٰ : ﴿ إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بالعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاءِ ذِى القُرْبىٰ ويَنْهىٰ عن الفَحْشاءِ والمُنْكَر ﴾ .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ــ لا زال بالمعروف آمِرا، وعن المُنْكَر ناهيًا وزاجِرا، ولامتثال أوامرِ الله تعالىٰ مُسارعا ومبادِرا ــ أن يُبْطَل من المعاملات بالمملكة الطرابلسية ما يأتى ذكره :

جهـــات

الأفراح المحذورة بالفتوحات خارجا عمـا لعله يستـقرّ من ضمـان الفــرح الخ . وتقـــديرها

سعللعم

السجون

بالمملكة الطرابلسية خارجا عن سجن طرابلس بحكم أنه أبطل بمرسوم شريف متقدّم التاريخ وتقديرها

عالعم

سجن الأقصاب

المُحْدَث بأمر أقصاب الديوان المعمور التى كان فلّاحو الكُورة بطرابلس يعملُون بها ثم أُعْفُوا عن العـمل وقـرّر عليـــه فى الســـنة

سللى

أقصـــاب

للأمراء بحكم أن بعض الأمراء كان لهـم جهـات زرع أقصاب وقـرّروا علىٰ بقيـة فلّاحيهم العملَ بهـا والقيام بنظيره آخر العمل . وتقـــدير ذلك

سلسالعم

عفاية الشام

بكور طرابلس واقفـة والسرون وما معـه بحكم أن المذكورين كانوا ثبتوا على المراكز بالبحر فلمـا شكت المراكز بالعساكر المنصورة قرّر علىٰ ذلك فى السنة

عالعم

حق الديوان

بصـــهيون بطـــرابلس وقصريون بطرابلس عمن كان معا فى حصنها وتقدير متحصـــل ذلك

سلسالعم

هبـــة الشـادّ

بنواحى الكهف تُشَـدّ فيما كان يستأدى من كل مدير وتقدير متحصـــله

للعم

ضمـان

المَشْـعل بطرابلس ممـا كان أوّلا بديوان الشـــام بالفتوحات ثم استقر بالديوان المعمور فى شهور سنة ست عشرة وسبعمائة وتقديره

لعالعم

المستحدث

إقطاعا من بعض الأمراء على الفلاحين ممـا لم تجر به عادة : من حشيش ومِلْـح وضيافة . وتقديره

سالعم

فليُبْطَلْ هـذا علىٰ مَمَرّ الأزمنة والدُّهور، إبطالًا باقيًا إلىٰ يوم النُّشور، لا يُطْلَب ولا يُسْتادى، ولا يَبْلُغ الشيطانُ فى بقائه مُرادا .

ويُقْرأ مرسومُنا هـذا علىٰ المنابر ويُشاع ، وتُسْتَجْلَب لنا منهم الأدعيةُ الصالحةُ فإنها نِعم المَتاع .

وأما النُّصَـيرِيَّة فلْيَعْمُروا فى بلادهم بكل قَرْيةٍ مسـجدا، ويُطْلَقْ له من أرض القرية رُقْعـةُ أرضٍ تقومُ به وبمن يكون فيـه من القُوّام بمصالحه علىٰ حَسَب الكِفاية، بحيثُ يستفزُّ الجناب الفلانىُّ نائبُ السلطنة بالمملكة الطرابُلُسيةِّ والحصُونِ المحروسة ضاعف الله تعالىٰ نعمته مِنْ جِهتِه من يَثِق إليه لإفراد الأراضى وتحديدِها وتسليمِها لأئِمَّة المساجد المذكُورة، وفَصْلِها عن أراضى المُقْطَعين وأهل البلاد المذكورة ويَعْـمَلُ بذٰلك أوراقا وتُخَلَّد بالديوان المعـمور حتى لا يبقىٰ لأحد من المُقْطَعين فيهـا كلام، ويُنادى فى المقْطَعين وأهـل البلاد المذكورة بصُورة ما رسَمْنا به من ذٰلك .

وكذٰلك رسَمْنا أيضا بمَنْع النُّصيريَّة المذكورين من الخطاب وأن لا يُمكَّنُوا بعـد وُرُود هذا من الخطاب جمـلةً كافية ، وتُؤخَذ الشهادة علىٰ أكابرهم ومشايخ قُراهم لئلا يعُودَ أحدٌ منهم إلىٰ التظاهر بالخِطاب ومَنْ تظاهر به قُوبِل أشدَّ مقابلة .

فلتُعتَمدْ مراسِمُنا الشريفـة ولا يُعْدلْ عن شيء منها، ولْتجْرِ المملكة الطرابلسـيَّة مَجْرى بقيَّة الممـالك المحروسة فى عدم التظاهر بالمُنْكَرات، وتعفيـة آثار الفواحش وإقامة شعائِرِ الدِّين القويم : ﴿ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ ما سَمِعَهُ فَإِنَّمـا إِثْمُهُ علىٰ الَّذين يُبَدِّلُونه إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ والاعتماد على الخط الشريف أعلاه .

وهذه نسخةُ توقيع بالمسامحةِ فى جميع المراكز بما يُستأدىٰ على الأغنام الدغالى الداخلةِ إلىٰ حلب ، وأن يكونَ ما يُستخْرَج من تِجَار الغنم على الكِبار منها خاصّة ، من إنشاء المقرّ الشهابىّ بنِ فضل الله ، مما كُتِب به فى شهور سنة سبع وثلاثين وسبعمائة ، وهى :

الحمدُ لله ذى المواهب العَمِيمه ، والعَطايَا التى لاتجُودُ بها يدُ كريمه ، والمِنَن التى عَوَّضنا منها عن كل شىءٍ بخيرٍ منه قيمه ، والمسامحةِ التى ادَّخرلنا بها عن كل مال حُسْنَ مآل وبكُلِّ غَنَم غَنِيمه .

نحمده علىٰ نِعَمه التى غَدتْ علىٰ كَثْرة الإنفاق مُقِيمه ، ونشهد أنّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه أكرمُ من سَمَحَ وسامَح فى أمورٍ عظيمه . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً مستديمه ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعد ، فمنذُ مَلَّكنا الله لم نزَلْ نرغَب إليه ، ونعامِلُه بما نَهَبُه له ونَرْبَح عليه ، ولم نُبْقِ مملكةً من ممالكنا الشريفة حتى سامَحْنا فيها بأموال ، وسامَيْنا فيها بنَفْع أرضها السُّحُب الثِّقال ، وكانت جهةُ العِدَاد بالمملكة الحلبيَّة المحروسة مُثْقَلةَ الأوزار بما عليها ، مَشْدُودةَ النِّطاق بما يَغُلُّ من الطلب يَدَيها ، مما هو علىٰ التُّرْكُمان بها محسُوب ، وإلىٰ عديدهم عَدَدُه منسوب ، ونحن نظُنُّه فى جملة ما أسقطتْه مسامحتُنا الشريفة وهو منهم مطلُوب ، وهو المعروف بالدغالى زائدًا علىٰ الرُّءوس الكبار ، ومعدُودا عند الله من الكبائر وهو فى حساب الدَّواوين من الصِّغار ، فلمّا آتصل بنا أنّ هذه المَظْلِمةَ ما آنجلى عنهم ظُلَمُها ، ولا رُفِع من الحساب عنهم قلَمُها ـ أكبَرْنا مَوْقِعَ بقائها ، وعلِمْنا أنها مدّةٌ مكتوبةٌ لم يكن بُدٌّ من المَصير إلىٰ آنقضائها ، واستجلَبْنا قلوبَ

طوائِف التُّرْكمان بها ، وأوثقنا أسبابَهم فى البلاد بسَببها ، لأمرين كلاهما عظيم : لرغْبتِنا فيما عنـد الله ولِمَا لهم من حقٍّ وَلاءٍ قديم ، كم صارُوا مع الجيوش المنصورةِ جُيُوشا ، وكم سارُوا إلىٰ بلاد مُلُوك الأعداء فثَلُّوا لهم عُرُوشا ، وكم كانُوا علىٰ أعقابِ العساكر المؤيَّدة الإسـلامية رِدْفا ومقدِّمتهم فى محاصَرة جاليشَا ، وكم قتَـلُوا بسِهامهم كافرا وقدّموا لهم رِمَاحَهم نُعوشا ، ومنهم أمراءُ وجُنود ، ونُزولٌ ووُفُود ، وهم وإن لم يكونُوا أهلَ خِباء فهم أهلُ عَمُود ، وذَوُو أنسابٍ عريقه ، وأحسابٍ حقيقـه ، إلىٰ القَبْجاق الخُلَّص مرجعهم ، والفُرْس بفرسان دولتنا الشريفةِ تجَمَعُهم ــ فاقتضىٰ رأيُنا الشريف أن نَرْعىٰ لهم هـذه الحقوقَ بإبطال تلك الزيادةِ المراده ، وأن نتناسىٰ منها ما هو فى العَدَد كالنَّسِيء فى الكُفْر زِيادَهْ .

فرسم بالأمر الشريف ــ لا زالَتْ مواهِبُـه تشمَلُ الآفاق ، وتَزِيد علىٰ الإنفاق ، وتُقَدِّم ما ينفَدُ إلىٰ ما هو عِنْـد اللهِ باق ــ أن يُسامَح جميعُ التَّراكمينَ الدَّاخِل عِدَادُهم فى ضَمان عِدَاد التُّركمان بالمملكة الحلبية المحروسةِ بما يُستأْدى منهم على الأغنام الدغالى ، وأن يكون مايُستخْرَج منهم من العدد على الكِبَار خاصَّـةً : وهو عن كل مائة رأسٍ كِبار ثلاثةُ أرؤُس كِبار خاصَّةً لاغير من غير زيادةٍ علىٰ ذٰلك ، مسامحةً مستمرّه ، دائمةً مستقرّه ، باقيةً بقاءَ الليالى والأيام ، لا تُبَدَّل لهـا أحكام ، ولا تتغيّر بتغيُّر حاكم من الحُكَّام ؛ نرجو أن نُسَرَّ بها فى صحائف أعمالنا يومَ العَرْض ، لا يُتأوّل فيها حِسَاب ، ولا تمتدّ إليها [يَدُ] حُسَّاب ، ولا يبقىٰ عليها سبيلٌ للدواوين والكُتَّاب ، ولا تُسيَّب أغنامُهم ليَرْعاها منهم أُولٰئك الذِّئاب ؛ كُلَّما مَرَّ علىٰ هذه المسامحة زمانٌ أكَّد أسبابَها ، وبيَّض فى صحائف الدفاترِ حسَابَها ، لا تُعارَض ولا تُناقَض ولا يَتأوّلُ فيهـا متأوِّل فى هـذا الزمان ولا فيما بعدَه من الزمان ، ولا يدخل حُكْمُها فى النسيان ، ولا يُنْقَص أجرها المضْمُون ، ولا تُطلَب أصحابُ هذه الدغالى عليها بعدَاد فى قَرْن من القُرون ،

ولا يُستحقَر بما يُستأْدىٰ منها جليلةً ولا حقيرَه، ولا يَسْمَح لنفسه من قال إنها صغيرةٌ وهى عِنـدَ الله كبيره: لتَطيبَ لأهلها ومن تسَامَعَ بمـا شَمِلهم من إحساننا الشريف النُّفُوس، ولا تُصَدَّع لهم بسبب هـذا الطَّلَب رُءُوس، فمَن تعرّض فى زماننا أمدّنا اللهُ بالبقاء أو كَشَف فىهذه الصدقة الجارية وجْهَ تأويل، أو سكن فيها إلىٰ مُداومةٍ بقليل، أو طلَبَ من ظالم بِعَيْنِه مُداواةَ قولِه العليل، فسيجِدُ ما يُصْبِح به مُثْـلَه، ويتوبُ به مثْلُه ويكون لمن بعده عِبْرةٌ بمن قُدِّم قبْلَه، ونحن نبرْأُ إلىٰ الله ممن يتعرّضُ بعدَنا إلىٰ نَقْضها، وهذه المسامحة عليه حجّتُنا التى لايَقْدِر عندَ الله علىٰ دَحْضِها.

ولتُقْرأْ علىٰ المنابر وتُعلَن كلمتُها، وتَمَدَّ فى أقطار الأرض كما امتدّ السحابُ تَرْجَمتُها، وسبيلُ كل واقفٍ عليها من أرباب الأحكام: أصحاب السـيوف والأقلام، ومن يَتَناوبُ منهـم على الدَّوام، العملُ بمـا رسمنا به واعتمادُ ما حكم بموجبه، بعد الخط الشريف شرفه الله تعالىٰ أعلاه. إن شاء الله تعالىٰ.

المرتبة الثـانية — من المساحـات أن تُـكتَب فى قطع العادة مفتتحةً برسم بالأمر الشريف.

وغالبُ ما يُكتَب ذلك للتِّجار الخَواجَكية بالمسامحة بمـا يلزمُهم مِـن المُكُوس والمقرَّرات السلطانية عن نظير ثمنِ ما يُبتاع منهم من المـاليك.

والعادةُ أن يكتب فى طُرَّتها «توقيعٌ شريفٌ بمسامحةِ فلان بمـا يجبُ عليـه من الحقوق الديوانية بالديار المصرية والبلاد الشامية» بحسَب ما يُرسَم له به.

وهذه نسخة توقيع من ذٰلك، وهى:

رُسِم بالأمر الشريف - لا زال يُتْبِـع السَّماحَ بمثله، ويشْمَل الرعايا كلَّ وقتٍ فى ممـالكه الشريفة بعَدْله، ويُواصل إليهم رفْقـه ورفْدَه فلا يبرَحُون فى مهادٍ من

نِعَمِه وإسعادٍ من فضله ـ أن يُسامَحَ المجلسُ السامى (إلىٰ آخر ألقابه) أدام الله تعالىٰ رفعته بما يجبُ عليه من الحقوق الدِّيوانيــة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وسائر الممالك الإسلامية، فيما يَبِيعه ويبتاعُه ويتعوَّضُه من سائر الأصناف خَلَا الممنوعات: صادرًا لاغيرُ أو صادرًا وواردًا، بنظير المماليك الذين ابتاعهم برَسْم الأبواب الشريفة بكذا وكذا ألفَ درهم .

فليَعتَمِدْ هــذا المرسومَ الشريف كلُّ واقف عليه ويعمَلْ بحَسبِه ومقتضاه، من غير عُدُول عنه ولا خُروج عن حكمه ومعناه، والخطُّ الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه حجةٌ بمقتضاه . إن شاء الله تعالىٰ .

*
* *

وهذه نسخةُ دعاءٍ آخر يفتتَح به توقيعُ مساحة، وهو: لازالَتْ نِعمُه عميمه، وسَجاياه كريمه، ومواهِبُه فى الآفاق سائرةً وفى الأقطار مُقيمه، أن يُسامَح فلان بكذا وكذا .

آخــــر : لا زالتْ صدقاتُه الشريفة تحقِّق وسائلَ طالبها، وأوامِرُه المطاعةُ نافذةً فى مَشارق الأرض ومَغاربها، أن يسامح فلان بكذا وكذا .

قلت : والعادةُ فى مستَنَد ذلك أنه تُحَضَّر به قائمة من ديوان الخــاص الشريف فيَكْتُب عليها كاتبُ السر بالتعيين، ويخَلِّدها كاتبُ الإنشاء عنده شاهدا له بذلك كما فى غيره من سائر المستَنَدات .

الضـــــرب الثـانى

(ما يُكتَب عن نوّاب السلطنة بالممالك الشامية)

وغالب مايكونُ فى مسامحات التِّجار بمقَّرر ما يبتاعونه أو يشْتَرُونه، أو بقَدْرٍ معيَّن يحصل الوقوفُ عنــده، ويعبَّر عمــا يُكتب فيه بالتواقيع كما فى الولايات عندهم، وأ كثرُ ما يُفتتح برُسم بالأمر .

وهذه نسخة مرسوم شريف بمسامحة كُتِب بها عن نائب الشام فى الدولة الناصرية «فرج» لخواجا محمد بن المُزَلِّق، وهى :

رسم بالأمر العالى ـ لا زال قصْدُ ذَوِى الحقوق عنده ناجِحا، وإحسانُه لمُقَرَّب إليه مسامِحا ـ أن يُسامَحَ الجناب العالى، الصَّدْرِىّ، الكبيرِىّ، المحترَمِىّ، المؤتمنِىّ، الأوحدِىّ، الأكملِىّ، الرئيسِىّ، العارِفِىّ، المقرَّبِىّ، الخواجَكِىّ، الشمسِىّ؛ مَجْدُ الإسلام والمسلمين، شرفُ الأكابر فى العالمين، أوحدُ الأمناء المقرّبين، صدرُ الرؤساء، رأسُ الصُّدور، عينُ الأعيان، كبيرُ الخَواجَكيه، سفيرُ الدوله، مؤتَمَن المُلوك والسلاطين: محمدُ بن المزلِّق، عينُ الخواجَكية بالمملكة الشريفة الشامية المحروسة ـ أدام الله تعالىٰ نعمتَه ـ بما يجِب عليه من الحقوق الديوانية بالطُّرقات المِصْرية، وجميع البلاد الشامية المحروسة والركاه بدِمَشْق، وحلَبَ، وطرابُلُس، وحماةَ، وصفَدَ، وغَزَّةَ، وحِمْصَ، وبَعْلَبَكَّ المحروسات، والبروك، والمقطعين، وقَطْيا، مما يَبِيعه ويبتاعه ويتعوَّضُه من جميع الأصناف خلا الممنوعات صادِرًا وواردًا، ويُثَمَّن عليه بقيمة ما يشتريه بما مَبْلَغُه من الدراهم النُّقرة الجيِّدة مائتا ألف درهم، ولا يُطالَبُ عن ذٰلك بحقٍّ من الحقوق ولا بمقرّرٍ من المقرّرات، مسامحةً باقيةً مستمره، دائمة أبدًا مستقِرّه، لا يَنتقِضُ حكمها، ولا يغيَّرُ رسمُها، لخدْمتِه الدُّوَل على ٱختلافها، ولمبالغته فى التقرّب بما يُرضِى الخواطرَ الكريمةَ وينفع الناس بما يُحْضِره من أنواع المتاجر وأصنافها، ولٱستحقاقه لهذا الإنعام، ولٱختصاصه به دُونَ الخاصِّ والعام.

فليتلَقَّ ذٰلك بالحمد والٱبتهال، والله تعالىٰ يُبَلِّغه من مَزِيد إنعامنا الآمال، والٱعتمادُ فى معناه، علىٰ الخط الكريم أعلاه. إن شاء الله تعالىٰ.

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الثـانى من المقـالة السادسة

(فيما يكتب من الإطلاقات : إمّا تقريرا لما قرّره غيرُه من الملوك السابقة، وإمّا ابتداء لتقريرٍ مالم يكن مقرّرا قبلُ، وإما زيادةً علىٰ ماهو مقرّر، وفيـه طرفان)

الطــــــرَف الأوّل

(فيما يُكتَب عن الأبواب السلطانية ، وهو علىٰ ثلاث مراتبَ)

المرتبـــة الأولىٰ

(ما يُكتَب فى قطع الثلُث مفتتحًا بالحمد لله ، وهو أعلاها)

وهـذه نسخةُ توقيع شريفٍ باستقرار ما أطلقه السلطان صلاحُ الدين يوسفُ ٱبنُ أيوب بالديار المصرية للعُمَريِّين أعصابِ أمير المؤمنين عمرَ بن الخطاب رضى الله عنـه ، كُتِب به فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، من إنشاء المقرّ الشِّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله الذى أبْدأ الجميل وأعاده، وأجرىٰ تكرُّمنا علىٰ أجمل عادَه ، وقفّىٰ بنا آثارَ الذين أحسنُوا الحُسْنىٰ وزيادَه .

نحمَدُه علىٰ أن جعل جُودَنا المقدّمَ وإن تأخّر أياما، والمُطَيِّب لذِكْر من تقدّم حتّى كأنما حالُه مثلُ المسكِ ختاما، والصَّيِّبَ الذى تقدّمه من بَوادر الغيث قطْرٌ ثم ٱستهَلّ هو غَمـاما ؛ ونشهد أنْ لا إلٰه إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً نرفَع أعلامها ونمنَعُ أن تَطْمِس الليالى لمن جاهد عليها من ملوك الزمان أعْلاما ؛ ونشهد أن سيدنا محمدًا

عبدُه ورسوله الذى هدَىٰ به إلىٰ أوضح المسالك ، صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين فتحُوا من الأرض ماوُعِد أنه سيبلغُ مُلْكُ أمّته إلىٰ مازُوِى من ذٰلك، وسلم .

وبعــدُ، فإن أفضل النِّعم ما قُرِن بالإدامه، وأعظمَ الأجور [أجْرُ] من سَنَّ سنةً [حسنةً] فله أجْرُها وأجْرُ من عَمِل بها إلىٰ يوم القيامه، وأحسَنَ الحسناتِ ما رَغَّبت السلفَ الصالحَ فى خَلَفهم، وأمَرَّتْ بأيديهم ماحازُوه من ميراثِ سَلَفهم، وكان المولىٰ الشهيدُ الملكُ الناصرُ صلاح الدين، منقذُ بيت المَقْدِس من المشركين، أبو المظَفَّر يوسفُ بن أيوب ــ قدّس الله رُوحَه ــ هو الذى كان علىٰ قواعد العُمَريِّين بانيا، والفاتحَ لكثيرٍ من فتوحاتِ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه فُتوحًا ثانيا؛ ولمـا اعلى اللهُ بمصر دولتَــه المُنيره، ومحا به من البِـدَع الإسماعيلية عظائمَ كثيره، حَبَّس ناحيةَ «شَبَاس المِلْح» وما معها جميعُ ذٰلك بحدّه وحُدُوده وقريبه وبعيده، وعامره وغامرِه، وأوّلِه وآخرِه، على المُقيمين بالحرمين الشريفيْن من الذُّرِّية العُمَريّة، كما قاله فى توقيعه الشريف المكتتَب بالخط الفاضل عمر الأنام، واقتفى بهداه بعده من إخواننا الصالحين ملوكُ الاسلام، فجدّدْنا لهم هذا التوقيع الشريف تبرُّكا بالمشاركة واستدراكِ ما فاتنا مع سَــلَفهم الكريم بالإحسان إلىٰ أعقابِهم . ومرسومُنا أن يُحمَلُوا علىٰ حكم التوقيع الشريف الصَّــلاحىِّ وما بعده من تواقيــع الملوكِ الكِرام، ولا يُغيِّر عليهم فيه مُغيِّر من عوائد الإكرام، ولا يُقبَلَ فيهم قولُ معترِض ولا تتعرّضَ إليهم يَدُ متعرّض، ولا يُفْسَح فيهم لمستعصٍ إن لم يكن رافضًا فإنه برفض حقِّهم مترَفِّض، وليُعامِل اللهَ فيهم بمـا يزيدُ جَدَّهم رضى الله عنــه رِضًا، ويُحبِّس تحبيسا ثانيًا لولانا لقِيلَ لمن يُطالِب بهـا كيف تُطالب بشىءٍ مضىٰ مع مَنْ مَضىٰ ، ونحن نبرأ إلىٰ الله ممن سعىٰ فى نقْضها بسببٍ من الأسباب، أو مدَّ فيها إلىٰ فتح بابٍ، أو تأوّل فى حكم هذا الكتاب عليهم وقد وافق حُكْمُ جَدّهم حكْمَ الكِتاب، وأن لا يُقْسَم شىءٌ من رَيْع

هـٰذه الناحية علىٰ غير المقيمين منهم بالحرمين الشريفين . ومَنْ خاف علىٰ نَفْسـه في المُقام فيهـما ممن كان في أحدهمـا ثم فارقه علىٰ عَزْم العَوْد إلىٰ مكانه ، وأقام وله حنينٌ إلىٰ أوطانه ، ولم يُلْهِه استبدالُ أرض بأرض وجيرانٌ بجيرانٍ عن أرضه وجيرانه ، إتباعا لشرطها الأوّل بمثله ، وآتباعا فيها (؟) فاز مع السابقين الأوّلين بمَزِيد فضله .

ولْيكُنِ النظرُ فيـه لأمْثل هذا البيتِ من المستحقين لهذا الحُبُس كابراً عن كابِر ، ناظرًا بعد ناظر ، اتّباعا للمراد الكريم الصَّلَاحِيِّ في مرسومه المقدّم ، وتفسيراً لمن لا يَفْهَم ، من غير مشاركةٍ معهم لأحدٍ من الحُكّام ، لا أربابِ السيوف ولا أربابِ الأقْلام : لنكونَ نحنُ ومحبِّسُها ــ أثابه الله علىٰ هذه الحسنةِ ــ متناصِرَيْن ، ولتجِد البقيّةُ التي قد ناصرها ناصريْن الناصرُ الأوّلُ منهما بناصرين ، وليحْذَر من تَتَبَّع عليهم تأويلا ، ومن وجَدَ في قلبه مرضًا فأعداهُمْ به تعليلا ، فمـا كتبناه لتأويلٍ حصل عليهم ، ولا لتعليل المراسيم المُلُوكية التي هي في يدَيْهم ، وإنمـا هو بمثابةِ إسجال آتّصل من حاكمٍ إلىٰ حاكم ، وسيفٍ جدّدنا تقليدَه ليُضْرَبَ به علىٰ يَد الظالم ، وجُودٍ أعلمنا من يجيءُ أنه علىٰ مدَى الليالي والأيام ضَرْبٌ لازم ، وفضلٍ إن تقدّمَنَا إليه من الملوك الكِرامِ حاتِم ، فإنّ كَرَمنا عليـه خاتِم ، فقد نَبَّهوا رحمهم الله مكافأةً علىٰ إحسانهم إلىٰ الذرّية العُمَرية عُمَرا ، ثم ماتُوا وأحالُوا علىٰ جُودِنا المحمديّ فإنهـم ببركاتِ من سُمِّينا باسمه صلى اللهُ عليه وسـلم لأنواع الحسنات أُسَرا . فكان توقيعُنا هـذا لهم بمنزلة الخاتمة الصالحه ، والرحمـةِ التي أرْبَتْ أوائلُها علىٰ الغيوثِ السافحه ، فلقد تدارَكْنا رمَقَ بِرِّهم المعَلَّل ، ولحِقْنا سابقَ معروفهم فلم نتمهَّل ، وأعدْنا ما بَدَأُوا به من الجميل فتكمل ، وقَرَنَّا مراسيمنا المطاعةَ بعضَها ببعض وربمـا زاد الآخرُ علىٰ الأوّل ، فأمدَدْناها منـه بمـا لو لم يكن مِدادُه أعزّ من سَواد القَلْب والبصر لمـا كان قُرّةَ عين لمن يتأمّل : ايرتفع عن هذه الناحيةِ وعُمَرُ فيها كُلُّ كارثٍ كارث ، ويُزالَ عنهم إلا ما يكونُ من مجدّدات

الخير خيرَ حادِث، ويعلَمَ المَلِكان المتقدّمان أمامَنا أن نُعزِّز بثالث . وجميع النوّاب والولاة والمتصرفين، والمسارِعين إلىٰ الخيرات ونعوذُ بالله من المتوقِّفين، ومن يدخُلُ فى دائرة الأعمـال ، وينضَمُّ إلىٰ راية العُمَّال ، فانا نُحذِّره أن يتعرّضَ فيهـا إلىٰ سُوء مآل ، أو يردّ منها يَدَه إلىٰ جيبه بمال ، أو يُشَوِّش علىٰ أهلها ما آستقامُوا علىٰ أحسن حال ؛ وإن يحمَد اللهَ من تقدّمنَا من الملوك واتَّبعُوا فيه التوفيقَ فى علاماتهم فإنا نحمَدُه وهو أملُنا ولنا فى الغيْب آمال ، والله تعالىٰ يجعلُ هذه الحسنةَ خالصةً لوجهه الكريم ، معَوّضة منه بالثواب العظيم ، واصلةً بالرحمة لرميم هـذا البيتِ القديم ، إن شاء الله تعالىٰ ، والآعتماد ... ...

المرتبـــة الثـانية

(ما يُفْتتح بـ«أما بعد حمـد الله»)

وهو علىٰ نحو ما تقدّم فى الولايات : إما فى قَطْع الثلث أو فى العادة المنصوريِّ .

وهذه نسخة توقيع شريف من ذٰلك ، وهى :

أما بعْدَ حمد الله الذى جعل أيّامنا مطْلَعا للسَّعاده ، وجعل لأوليائها ، من إحسانِنا الحُسْنىٰ وزِياده ، وأضْـفىٰ حُلَل بهائِهـا ، علىٰ من لم يجتَمِع لغـيره ما آجتَمع له من أوصاف السِّياده ، والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ عبده ورسوله الذى شَيَّد اللهُ به مَبانِىَ الدين الحنيفىِّ ورفَع عِمـاده ، ونصَر جيوشَ الإسلام ومَهَّد مِهاده ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين مامنهم إلا من جعـل طاعتَه ونُصرتَه عمدتَه وآعتِمادَه ، وآتخذ مُظافَرته ومُؤازَرَته فى كل أمر عَتَادَه ، صـلاةً مستمرّةً علىٰ كَرِّ الجديدين إلىٰ يوم الشَّهاده — فإنَّ أوْلىٰ من تلحَظُه دولتنا الشريفةُ فى أقْبالها بمزيد إقْبالهـا ، وتُعلِى قدرَه إلىٰ غاية

تقصُر الأفلاكُ عن إدراك مَنَارها وبُعْد[1] مَنَالها ، وتُضاعِفُ له أسبابَ الإحسان من حُسْن نَظَرها وآشتمالها ، وتُشَيِّدُ مبانِيَ عِزِّه فلا تصل يدُ الزمن إلىٰ بعض تَصَرُّمها ، وتُسْبِغ ملابسَ النِّعم عليه فيختالُ فى أضْفاها ومُعْلَمِها ، وتُجدّد من مزايا جُودِها ما يحسُن به الجزاءُ عما أسلفه من خِدَمها — مَنْ نظرَ فى مصالح أحوالها المنصورة فأحسَنَ النظر ، وعَضَّد أنصارَها بآرائه التى تُشْرق بها وجوهُ الأيّام إشراقَ الدَّرارِيِّ والدُّرَر ، وأضحىٰ وله فى العَلْياء المحلُّ الأثيل ، والمناقبُ التى هى كالنهار لا تحتاجُ إلىٰ دليل ، والسيادةُ التى تكسُو الزمنَ حُلَل البَهاء فيَجُرّ منها على المَجَرَّة ذيلا ضافيًا ، والمآثرُ التى لولا ما أحيَتْه من مَعَالم الرئاسة كان طَلَلا عافيا ، معَ ماله من الحقوق التى تشكُرها الأيّامُ والدُّول ، والخِدَم التى كم بلغَ بمخالصته فيها من قَصْد وأَمَل ، والسَّجايا التى إذا خلعْتَ عليها حُلَلا من الثناء وجدْتها منه فى أبهىٰ الحُلَل .

ولما كان فلان هو الذى تحَلّىٰ من هذا الثناء بدُرِّه الثَّمين ، وتلقّىٰ رايةَ هذا المجد كما تلقَّاها عَرَابةُ باليمين ، وتنضَّدتْ كواكبُ هذا المَدْح لتنتظم سِلْكا لمآثِره ، وآتَّسقتْ فرائدُ هذا الشكر لترُصَّع عقودًا لمَفاخره — وجب علينا أن نُجدِّد له فى أيامنا ماتتضاعف به أسبابُ النِّعم لدَيْه ، ويتحقَّق منه إقبالنا بوجْه الإقبال عليه .

فلذلك رسم بالأمر الشريف — زاد اللهُ تعالىٰ فى عَلَائه ، وأضْفىٰ علىٰ أوليائه حُلَلَ آلائه ، وأبقىٰ على الزمن بوُجُوده رَوْنَق بَهائه — أن يستقرّ للمشار إليه فى الشهر كذا وكذا مُضافًا إلىٰ غير ذلك من لحم وتوابِلَ وعَليق علىٰ ما يشهَدُ به الديوانُ المعمُور إلىٰ آخرِ وقت ، فليتلَقّ إحسانَنا بيد استحقاقٍ لها فى الفضل باعٌ شديد ، ويثِقْ منّا بالإقبال الذى لا يزَالُ عنده إن شاء الله وهو ثابتٌ ويَزيد ، ويتناوَلْ ما قُرِّر باسمه فى كل شهر من آستقبالِ تاريخه بعد الخطّ الشريف أعلاه ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) لعله لارتفاعها وبعد الخ .

المرتبـــة الثـالثة

(ممـا يكتب به فى الاطـلاقات)

أن يُكتَب فى قطع العـادة مفتتحا برُسِم بالأمر الشريف ، والرسمُ فيـه علىٰ نحو ماتقدّم فى الولايات ، وهو أن يقـال : « رسم بالأمر لا زال ... ... أن يستقرّ باسم فلان كذا وكذا : لأنه كذا وكذا » ونحو ذلك .

وهـذه نسخة توقيع شريفٍ بمرتَّب على الفَرَنْج الجُرْجان الواردين لزيارة القُدْس أنشأْته لشرف الدّين قاسم ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ــ لا زال عدْلُه الشريفُ لمال الفَىْء بينَ ذَوِى الآستحقاق قاسمـا ، وفضلُه العميمُ لِأُولى الفضـل فى سِلك الصِّلات ناظما ، ومعروفُه المعروفُ لمواقع البِرّ يَؤُمّ عالمـا ويبيت غانما ــ أن يستقرّ لمجلس القاضى فلانِ الدين علىٰ الفَرَنْج الجُرْجان الواردين لزيارة قُمَـامةَ بالقُدْس الشريف كذا وكذا : لمـا آشتَمَل عليـه : من مُبِين العلم ومَتِين العمل وجميلِ السِّيره ، واجتمع لديْه : من طَيِّب الذِّكْر وجميل الأثَر وصَفْو السَّريره ، ولإقامته بالمسْجدِ الأقْصىٰ الذى هو أحدُ المساجد الثلاثة التى تُشَدّ الرحالُ إليها ، وإحدى القبلتين المعوّلُ فى أوّل الإسلام عليها ، ومُجاورةِ الصَّخرة المعظَّمه ، والآثارِ الشريفةِ والأماكن المكَرَّمه ، وقيامه بمـا يجبُ من الدعاء لدولتنا القاهره ، والآبتهالِ إلىٰ الله تعالىٰ بدَوام أيّامِنا الزاهره .

فليتناوَلْ هذا المعلومَ مُهَنَّأً مُيَسَّرا ، وليَرْجُ من كرمنا الوافِر فوقَ ذٰلك مَظْهَرا ، وليَشْهَرْ سلاحَ دعائه بتلك الأماكن الشريفةِ علىٰ أعداء الله وأعداء الدِّين ، ويَرْمِهم بسِهَام الليل التى لا تُخْطِئ إن شاء الله تعالىٰ الطُّغَاة المتمرّدين ، فبذٰلك يستحقُّ هذا السَّهْم من الفىْء حقًّا ، ويُعَدّ من المقاتِلةِ الذّابِّين عن الإسلام صِدْقا ، وليَقُمْ علىٰ جادَّة

الاستقامة فى الدِّين وليكُنْ مما سوى ذلك بريًّا ، ويقابِلْ هو ومثلُه إنعامنا بالشكر يتلُو عليهم لسانُ كرمنا فكلوه هنيئًا مَريًّا ، والخط الشريف أعلاه ... ...

وهذه نسخة توقيع شريف أيضا أنشأتُه باسم بهاء الدِّين أبى بكر بن غانم كاتب الدَّسْت الشريف بالشام المحروس باستمرار مُرَتَّبه على الفَرَنْج الجُرْجان الواردين إلى ثَغْر الرملةِ المحروسِ ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال إحسانُ كَرَمِه يَزِين ببَهَاء حسنه المكارم ، وكَرَمُ إحسانه تتراكم سحائبُه الهاميةُ فتُزْرِى بالسُّيول وتَهْزَأ بالغمائم ، وفَىْءُ نَواله يُقْسَم فى أوليائنا خَلَفًا بعد سَلَف فهم من فضله بينَ غانِمٍ وآبنِ غانم ـ أن يستقرّ مرتَّب المجلس السامى ... ... (١)

---

(١) لم يذكر الطرف الثانى وهو ما يكتب عن النوّاب فتنبه .

الباب الثالث

من المقالة السادسة فى الطَّرْخانيَّات

والمرادُ بها أن يصيرَ الشخصُ مسمُوحا له بالخِدَم السلطانية : يُقيم حيثُ شاء ، ويرتحِلُ متىٰ شاء : تارةً بمعلوم يتناوَلُه مجَّانا ، وتارةً بغير معلوم ، وفيه فصلان :

الفصل الأوّل

فى طَرْخانيَّات أربابِ السُّيوف

وآعلم أنَّ الطرخانية تُكتَب للأمراء تارةً وللأجناد أُخْرىٰ ، وأكثَرُ ما تُكتب لمن كبِرتْ سِنُّه وضعُفت قُدرتُه وعَجَز عن الخدمة السلطانية .

وقد جرتِ العادةُ أن يسمَّى مايكتب فيها مراسيم ، وهى علىٰ ثلاث مراتِبَ :

المرتبة الأولىٰ

(أن يُفتَتَح المرسوم المكتَتَبُ فى ذٰلك بالحمدُ لله)

والرسمُ فيه علىٰ نحوٍ من الولايات : وهو أن تُستوفى الخطبةُ إلىٰ آخرها ، ثم يقال : وبعدُ ، ثم يقال : ولما كان فلانٌ ونحو ذٰلك ، ثم يقال : آقتضىٰ رأينا الشريف ، ثم يقال : فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف أن يستقِرّ فلانٌ طرخاناً يتصَرَّف على آختياره يسيرُ ويُقِيم فى أىِّ مكان اختاره من بلاد المملكة ، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك .

وهذه نسخة مرسوم شريف بطرخانيةٍ لأمير ، وهى :

الحمدُ لله اللطيف بعباده الرءُوف بخَلْقه ، المانِّ بفضله الغامرِ بجُوده الجائد برِزْقه ، المتفضِّل علىٰ العبد : فى الصِّبا بصَفْحه وفى الكُهولة بعَفْوه وفى الشَّيخُوخة بعتْقه .

نحمَده علىٰ أن جَبَلَنا علىٰ ٱصطناع الصنائِـع ، وخَصَّنا برَفْع العوائِق وقَطْع القَواطع ، وألهَمَنا عطفَ النَّسَق و إن كثُرتْ مما سِواه التَّوابع ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُسْكِن الرحمةَ فى قَلْب قائلها ، وتَرْفَع سطوةَ الغضَب عن منْتحِلها فى أواخرِ السَّطْوة وأوائِلِها ؛ ونشهد أنَّ سيدنا محمَّدًا عبده ورسوله أفضــلُ نبيٍّ أوْعد فعَفَا ، وأكرمُ رســول وَعَد فوَفَىٰ . صــلى الله عليــه وعلىٰ آله وصحبــه الذين سلَكُوا فى المعروف سَنَنه ، ونهجُوا فى الإحسان إلىٰ الخَلْق نَهْجَه فكان لهم فى رسولِ الله أُسْوةٌ حَسَنه ، صلاةً تُقيل العَثَرات ، ونتلو بلسان قَبُولها ﴿إنَّ الحَسَنات يُذْهِبْنَ السَّيِّئات﴾ وسلم تسليما كثيرا .

وبعــد ، فإن أوْلىٰ مَن رمَقَتْه المراحم الشريفة ، بعيْن عِنايتِها ، ولحَظَتْه العواطفُ المنيفة ، بلَحْظ رعايتِها ، (١) مالا يُفارقه ولا يُباين ، وأن لا يُحَطَّ من قدْره العالى بسبب ما ٱتَّفق إذ كلُّ مقدَّر كائِن ، وأن يُصَرَّف ٱختياره فى الإقامة حيثُ شاء من الممـالك المحروسة والمَدَائن .

فلذٰلك رسم بالأمر الشريف ـ لا زال من شِيَمِه السَّماح ، ومن كرمه بلُوغ النجا والنَّجاح ، ومن نِعَمه الصَّفْحُ عن الذَّنْب المُتَـاح ، حتَّى يَحفَظ علىٰ الأنفس النفيسة الأموالَ ويُرِيحَ لها الأرواح ، [ولا برح يُولى](٢) من قِسْمة المكْرُمات مايُنْسى به الذَّنب فكأنَّه كان برقًا أوْمض ولَمَح وراح ـ أن يكونَ المُشارُ إليه طَرْخانًا يُقيم حيثُ شاء وأين أرادَ من البلاد الإسلاميــة المحروسة مُعامَلا بمزيد الإكرام والاحترام ، وأوفرِ العِناية والرِّعاية حسَبَ ما ٱقتضته المراسيمُ الشريفة فى ذٰلك عند ماشملتْه الصــدقاتُ العميمةُ والمراحِمُ الشــاملةُ بالعفو الشريف ، والحُكْم المنيف ، والإقبــال والرِّضا ،

---

(١) بياض فى الأصل ولعله «من أهله اخلاصه فى الخدم لأن يقوم مقاما الخ» .

(٢) زدنا هذه الجملة ليتسق الكلام .

والصَّفح عمَّا مَضىٰ، لما رأيناه من تَرفيـه خاطره، وقَرار قلبه برفْع التكليف عنه وقُرَّة ناظره. ولما تخلَّقتْ به أخلاقُنا، من التيمُّن الذى ألبَسه أثوابَ الأمَان، وجُبلت عليه طِباعُنا، من الرأفة والرحمة والراحمُون يرحَمُهم الرحمٰن؛ ولما مَهَّده له عندَنا اعترافُه الذى هو له فى الحقيقة أقوى شَفاعه، ولما تحقَّقناه من أنه لم يفْعَل ذٰلك الا لوفُور الطاعة التى أوجبتْ له الإرهابَ إذ الهَرَب من الملوك طاعه، وكيف لا وقد تيقَّن سُخْطَنا الشريف وعلِم، وخشِىَ مهابَتَنا الشريفةَ ومَنْ خاف سَلِم.

فليَتَقلَّدْ عقُودَ هذه المِنَن التى طوَّقت جِيدَه بالجُود، وليشكُرْ مواقِعَ هذا الحِلْم الذى سَرَّ وسار كالمَثَل السائر فى الوُجُود، ولْيُقابِلْ هـذا الإقبال بالدعاء لأيَّامنا الزاهره، وليحْظَ بمواهبنا العميمة وصَـدَقاتنا الباهره، ولْيُحطْ عِلْما بأنَّ إحساننا العميمَ قد أعاد إليه ما ألِفَه من الإسـعاد والإصعاد، وأنَّ صَفْحنا الشريفَ قد أضربَ عمَّا مضىٰ والماضى لايُعاد، فلْيقُمْ حيثُ شاء من البلاد المحروسه، متفَيِّئا ظلالَ مواهبنا التى يَغْدو وسرائُره بها مأنُوسـه، وارداً بِحارَ عطايانا الزاخره، ممتَّعا بملابس رضانا الفاخره، طيِّبَ القلب منبسط الأمَل، مُنْشرِح الصدر بما عمَّه من الإنعام وشَمَلْ، مَرْعِىّ الجنابِ فى كل مكان، معظَّم القَـدْر علىٰ تَوالى الأزمان، مبتَهِجا بِفَقْد ما عَرَض من ذٰلك التقطيب، مستبشرا بإقبالنا الذى يلَذُّ به عيشُه ويَطيب، والله تعالىٰ يُديم له عوارِفَنا المُطْلَقه، وغمائمَ كرمنا المُغْـدِقه، ومواهبَنا التى انتشرَتْ له فى كلِّ قُطْر فهى لأنْواع العطايا مستغْرِقَه، ومِنَنَنا التى تسير معه حيثُما سار وتُقيم لدَيْه أنّٰى أقام فلا تزالُ عنده مخيِّمةً فى الأماكن المتفرِّقه، والاعتمادُ علىٰ الخط الشريف أعلاه الله تعالىٰ أعلاه.

المرتبة الثانية

(أن يفتتح مرسومُ الطَّرْخانية بـ«أما بعد»)

والرسمُ فيه كما فى الولايات أيضا يقال فيه [أما بعد] فإن كذا وكذا ، ثم يُقال : ولما كان كذا وكذا ، اقتضى رأينا الشريف ، ثم يقال : ولذلك رُسِم بالأمر الشريف ، ويكمَّل عليه .

وهذه نسخة مرسوم من ذلك ، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمه التى أوزَعَتْنا بالإحسان إلىٰ عباده أداءَ شُكْرِها ، وآلائِه التى ألهمَتْنا بالتخفيف عن بريَّته اقترانَ محامده بذِكْرِها ، ومِنَنِه التى وفَّق بها دولتَنا الشريفةَ لأن يكونَ العدلُ والإحسان أوْلىٰ ما أجرَتْه بفكْرِها ، وأحقَّ ما أمرَّتْه بذُكْرِها . والصلاةِ والسلامِ علىٰ رسوله الذى أوضح سُبُل المعروف ، وشرَع سَنَن العَدْل المألوف ، ووصفَه الله تعالىٰ بالرأفة والرحمة فبه يَقْتدى كلُّ رحيم وبه يأتمُّ كلُّ رءُوف ، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين رفعُوا منَار العدل لسالِكه ، وقرّبُوا منَالَ الفضل لآخذه وبيّنوا الحَيْف والاشتطاط لتاركه ـ فإن الله تعالىٰ خصَّ أيامنا الزاهرة بتعاهُدِ أهل خدْمتنا بالعَدْل والإحسان ، وتفقُّد رعايانا بإزالةِ ما يكدِّر عليهم مواردَ النِّعم الحِسان ، فلا نزال نُنْعِم النظرَ فى أمورِهم ، ونُفيض عامَّ إحساننا علىٰ خاصِّهم وجُمْهورهم ، لينامُوا من عدلنا فى مِهَاد الدَّعَة ، ويبيتَ ضعيفُهم من مراحمنا الشريفة فى أتمِّ رأفة وفقيرُهم فى أوفرِ سَعة .

ولما كان فلان ممن توفرَّ فى الخدمة الشريفة قِسمُه ، وكَبِر فى الطاعة سِنُّه ووهَن عَظْمُه ، وعجزتْ عن الركُوب والنزول حركتُه ، وذهبتْ مواقفُ حَرْبه ولم يبقَ إلا أن تُلْتمَس بركتُه ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يُضاعَف إليه الإحسان ، ويُعامَل بوافِر البِرِّ وجزيل الامتنان .

فلذلك رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يُوالى المِنَن ، ويُولِى الأولياء من المعروف كلَّ جميلٍ حسَن ـ أن يستقرّ المذكورُ طَرْخاناً لا يُطلَب لخدمة فى نهارٍ ولا ليل ، ولا يُلْزَم بالقيام بنَزْك(١) ولا خيل ، فلْيُمْضَ حكمُ هذه الطَّرْخانية لاتتأوّلُ ألسنةُ الأقلام فى نصِّه ، ولا تتطرّق أوهامُ الأفهام إلىٰ ٱعتراض ماثبت من إعفائه بنقْضِه ولا نَقْصِه ، وسبيلُ كل واقف عليه ٱعتماد مضمونه والوقوفُ عند حكمه ، والٱنتهاءُ إلىٰ حدّه وٱتِّباعُ رسْمه ، إن شاء الله تعالىٰ(٢) .

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الثـالث من المقالة السادسة

(فيما يكتب فى طَـرْخانيّـات أرباب الأقـلام)

وهو قليل نادر قلَّ أن يُكتَب ، وإذا كتب فغالب ما يفتَتح برسم ، ويسمّٰى ما يُكتَب فيه تواقيع .

وهـذه نسخة طَرْخانية كُتِب بها عن الملك الناصر محمد بن قلاوون للقاضى قُطْب الدين بن المكرَّم أحد كُتّاب الدَّرْج الشريف بالأبواب الشريفة ، عند إقامته بالحجاز الشريف ، بأن يستقرّ طَرْخانا بنِصْف معلومه الذى كان له علىٰ كتابة الدَّرْج الشريف وأن يقيم حيث شاء ، وهى :

رُسِم بالأمر الشريف ـ لا زال يأمُر فيُطَاع ، ويصِل فيُعين على الٱنقطاع ، ويُرىٰ على ٱقتراح الآمل جُودُه المكرُ المكرَّم فالآمل يقترح ما ٱستطاع ـ أن يستقرّ للمجلس السامى القضائى فلانِ بنِ المكرَّم نفع الله به من معلومه عن كتابة الدرج

---

(١) النزك الطعن بالنيزك وهو رمح صغير .

(٢) لم يذكر المرتبة الثالثة ولعلها ما يفتتح برسم بالأمر الشريف .

الشريف الشاهد به الديوان المعمور إلىٰ آخر وقتِ النِّصف من كل شهر ، علىٰ الأدعية الصالحة لهذه الدولة القاهرة ، ويُقيم حيثُ شاء ، ثم يستقرّ ذلك لأولاده من بعده ، ثم لأولاد أولاده بالسَّوِيَّة إعانةً له علىٰ بلوغ قصده ورغائبه ، وٱستعانةً بحاضِر الجُود دُونَ غائبه ، وإكرامًا لجانبه ، وطالبُ وجهِ الله تعالىٰ [يُعان] علىٰ الفَوْز بكنوز مَطَالبه .

وما كنّا لِنَسْمحَ ببُعْده عن أبوابنا الشريفه ، ولا نُجيبَه لمفارقة مابيده من وَظِيفه ، لأنه مايُدرِك أحدٌ من أبناء عَصْره مُدّه ولا نَصيفه ، ولديوان إنشائنا جمـالٌ بعُقُود كتابته النظيمة ومعانى ألفاظه اللطيفه ، وإنّمـا لإقْباله علىٰ الآجلَه ، وإعراضه عن العاجله ، وٱستيعاب أوقاته بأداءِ الفريضة والنافله ، أسعفنا سُؤالَه بالإجابه ، وأعنّاه علىٰ الإنابَهْ ، وأجزلنا سَهْمَه من الإحسان فبلغ سهْمُه الإصابه ، ومن أحسَنُ سبيلا ممن أخَذ لنَفْسه قبل الحَيْن ، ونَفَضَ يدَيْه من الدنيا فراحَ بالخير مَمْلُوءَ اليديْن ، فنظر إلىٰ مَعادِه فأقبلَ على الله قريرَ العين ، وها نحن قد كَرَّمناه فى وقتٍ واحدٍ بالنشاءِ ولَدَيْن .

فلْيَشْكُر لصدَقَاتنا هـذه النِّعَم المتزايِدَه ، والصِّلاتِ العائده ، والإحسانَ إليه وإلىٰ بَنِيه جملةً واحده ، وليَـدْعُ لدولتنا القاهرة حينَ يقوم لله قانتًا ، وحينَ يقُول ناطقًا وحيث يُفَكِّر صامتا ، وعند فِطْره من صَوْمه ، وفى أعقابِ الصلوات فى ليلته ويومه ، ولْيُوصَّل إليه هذا المرَتَّب مُيَسَّرا لا يُكَدَّر موردُه بتأخير ، ولْيُصْرَفْ إليه مُهَنَّأً لا يُشانُ طولُهُ بتقصير ، ولا يُحْوَج إلىٰ عناءٍ وطَلَب ، ولا يُلْجأ فى تناوُله إلىٰ كَدٍّ وتَعَب ، بل يُرَفَّه خاطرُه عمّا فاز به من حُسْن المنقَلَب ، والله تعالىٰ يمُدّه بعَوْنه وفضلِه ، ويُنْجِب فرعَه ببركة أصله ، والخطُّ الشريف أعلاه حجةٌ فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

الباب الرابع

من المقالة السادسة

(فيما يُكتَب فى التوفيق بين السِّنين الشمسيَّة [والقَمَرِيَّة] المعبَّر عنه فى زماننا بتحويل السِّنين، وما يُكتَب فى التذاكر، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

[فيما يكتب فى التوفيق بين السنين، وفيه طرفان

الطرف الأوّل] (١)

(فى بيان أصل ذلك)

اِعلم أنّ آستحقاقَ الخراج [و]جبايَتَه منُوطان بالزُّروع والثِّمار من حيثُ إن الخَرَاج من متحصِّل ذلك يُؤْخَذ، والزُّروعُ والثِّمار منوطةٌ بالشُّهور والسنين الشمسيَّة من حيث إن كل نوعٍ منها يظْهَر فى وقتٍ من أوقاتها ملازمٍ له لا يتحوَّلُ عنه ولا ينتقل لُزُوم كل شهر منها وقْتًا بعينِـه من صيف أو شتاءٍ أو خريفٍ أو ربيع؛ وآستخراجُ الخراج فى المِلّة الإسلامية منُوطٌ بتاريخ الهجرة النبوية، علىٰ صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وشهورُه وسِنُوه عربية. والشهورُ العربية تنتقِل من وقتٍ إلىٰ وقت، فربمـا كان آستحقاقُ الخَرَاج فى أوّل سنةٍ من السِّنين العربية، ثم تراخى الحالُ فيه إلىٰ أن صار آستحقاقُه فى أواخِرها، ثم تراخى حتّى صار فى السنة الثانية فيصيرُ الخَرَاج منسوبا للسنة السابقةِ، وآستحقاقُه فى السنة اللاحِقة، فيُحتاجُ حينئذ إلىٰ تحويل السَّنة الخراجيَّة السابقةِ إلى التى بعدها علىٰ ماسيأتى ذكرُه.

---

(١) الزيادة مأخوذ مما سيأتى له من التقسيم.

قال فى "موادّ البيان" : والسببُ فى ٱنْفِراج ما بيْنَ السنين الشمسية والهلالية أنَّ أيَّام السـنة الشمسية هى المُدّة التى تَقْطَع الشمسُ الفلكَ فيهـا دَفْعة واحدة، وهى ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما ورُبُع يوم بالتقريب حسَبَ ما توجبه حركتُها، وأيَّامُ السنة الهلاليَّة هى المُدّة التى يقطع القمرُ الفَلَك فيها ٱثنَتَىْ عشرة دَفْعة ، وهى ثلثمائة وأربعةٌ وخمسون يوما وسُدُسُ يوم ؛ فيكون التفاوُتُ بينهـما أحدَ عشرَ يوما وسُدسَ يوم، فتكون زيادةُ السنين الشمسيةِ على السنين الهلاليةِ فى كل ثلاثِ سنين شهراً واحدا وثلاثةَ أيام ونصفَ يوم تقريبـا . وفى كل ثلاثٍ وثلاثين سـنةً سنةً بالتقريب ؛ فإذا تمـادىٰ الزمان تفاوَتَ ما بين السنين تفاوتا قبيحا ؛ فيرىٰ السلطانُ عند ذٰلك أن تُنْقَلَ السنة الشمسيةُ إلى السنة الهلاليَّة بالاسم دُونَ الحقيقة توفيقًا بينهما ، وإزالةً للشبهة فى أمرهمـا ؛ ومتىٰ أوْعزَ بذٰلك لم يَقِفْ على الغَرَض فيه إلا الخاصَّـةُ دُونَ العامّة ؛ وأسرع إلىٰ ظنِّ المُعَامَلين وأرباب الخَرَاج والأملاك أنَّ ذٰلك عائدٌ عليهم بظُلم وحَيْف ، وإلىٰ ظَنِّ مستحِقِّ الإقطاع أنه منتقِصٌ لهم، ونسبُوا الجوْرَ إلى السلطان بسبب ذٰلك وشَنَّعُوا عليـه، فرسَم بُلَغاءُ الكُتَّاب فى هـذا المعنىٰ رُسُوما تعُودُ بتفهيم الغَبِى، وتبْصير العَمِى، وتُوصِل المعنىٰ المرادَ إلى الكافَّة إيصالًا يتساوَوْن فى تصديقه وتيقُّنه، ولا تَتَوجَّه عليهم شبهةٌ ولا شكٌّ فيه .

قلت : وقد ذكر أبو هلال العسكرىّ فى الأوائل : أنَّ أوّل من أخَّر النَّيروزَ المتوكِّلُ على ٱلله أحدُ خلفاء بنى العَبَّاس، وذٰلك أنه بينَما هو يطُوفُ فى مُتَصـيَّد له إذ رأىٰ زَرْعا أخضَرَ، فقال : قد ٱستأذنَنِى عبيدُ الله بنُ يحيىٰ فى فتح الخَرَاج وأرى الزَّرْع أخضَرَ ؛ فقيل له : إن جِبَـايةَ الخراج الآنَ قد تَضُرُّ بالناس إذ تُلْجِئهم إلىٰ أنهـم يَقْترِضُون مايؤدُّون فى الخراج، فقال : أهذا شيءٌ حدَثَ أو لم يَزَلْ كذا ؛ فقيل له : بل حَدَث، وعُرِّف أنَّ الشمسَ تقْطع الفلكَ فى ثلثمائة وخمسةٍ وستين يومًا ورُبُع يوم،

وأنّ الروم تَكْبِس فى كل أربع سنين يوماً فيطرَحُونه من العَدَد ، فيجعلُون شَباطَ ثلاثَ سنين متواليات ثمانيةً وعشرين يوماً . وفى السنة الرابعة يَنْجبِرُ من ذلك الرُّبُعُ اليومِ يومٌ تامّ ، فيصير شباطُ تسعةً وعشرين يوماً ، ويُسمُّون تلك السنة الكَبِيسةَ . وكانت الفرس تكبِسُ للفَضْل الذى بين سِنِيها وبين سَنةِ الشمس فى كل مائةٍ وستٍّ عشرةَ سنةً شهرا ؛ فلما جاء الإسلامُ عُطِّلَ ذٰلك ولم يُعْمَل به فأضر بالناس ذٰلك ؛ وجاء زمنُ هِشام بن عبد الملك فاجتمعَ الدَّهاقنةُ إلىٰ خالد بن عبدالله القَسْرىّ وشرحُوا له ذٰلك (ولم يَعْمَل به فأضَرَّ بالناس ذٰلك)(١) ، وقد سألوه أن يُؤَخّر إليه [فأرسل](٢) الكُتُب إلىٰ هشام سرًّا فى ذٰلك ، فقال هشام : أخافُ أن يكونَ ذٰلك من قول الله تعالىٰ : ﴿ إنَّمَا النَّسِيءُ زِيادَةٌ فى الكُفْرِ ﴾ .

فلما كان أيّامُ الرشيد ٱجتمعُوا إلىٰ يحيىٰ بنِ خالد البَرْمَكِىّ ، وسألوه فى تأخير النَّيْروز نحوَ شهر فعزَم علىٰ ذٰلك ، فتكلم أعداؤُه فيه وقالوا : تَعَصَّب للمَجُوسية ، فأضرَبَ عنه فبقِيَ علىٰ ذٰلك إلى اليوم ؛ فأحضر المتوكِّلُ حينئذ إبراهيمَ بنَ العباس ، وأمَرَه أن يكْتُب عنه كتابا فى تأخير النَّيْروز بعد أن تُحْسَب الأيام ، فوقع الاتّفاق علىٰ أن يُؤَخَّر إلىٰ سبعة وعشرين يوما من حَزِيرانَ ، فكتب الكِتابَ علىٰ ذلك . قال العسكرىّ : وهو كتابٌ مشهورٌ فى رسائل إبراهيم بن العباس ، ثم قُتِل المتوكل قَبل دخُول السنة الجديدة ، ووَلِيَ المنتصرُ وٱحتيجَ إلى المال فطُولِب به الناسُ على الرسم الأوّل ، وانتقَضَ مارسَمَه المتوكل فلم يُعمَل به حتّى ولِيَ المعتضد ، فقال لعلىّ بن يحيى المنجِّم : تذْكُر ضجيجَ الناس من أمر الخَراج فكيف جعلتِ الفُرْس مع حِكمَتِها وحُسنِ سِيرتها ٱفتتاحَ الخراج فى وقتِ مالا يتمكَّن الناس من أدائه فيه ؟ فشرح له أمْرَه ، وقال :

(١) لعل مابين القوسين مكرر من قلم الناسخ .

(٢) بياض فى الأصل بقدر كلمة .

ينبغى أن يُردَّ إلىٰ وقته ، ويَلْزَم يوما من أيام الرُّوم فلا يقع فيه تَغيُّر، فقال له المعتضد سِرْ إلىٰ عبيد الله بن سليمان فوافقْه علىٰ ذلك ، فصرت إليه ووافقته ، وحَسَبْنا حسابَه فوقع فى اليوم الحادى عشر من حزيران ، فأُحْكِم أمرُه علىٰ ذلك ، وأُثْبت فى الدواوين ، وكان النَّيْروزُ الفارسىّ إذ ذاك يومَ الجمعة لإحدىٰ عشرةَ ليلةً خَلتْ من صفر سنة آثنتين وثمانين ومائتين . ومن شهور الروم الحادى عشر من نَيْسانَ .

وقد قال أبو الحسين علىّ بن الحسين الكاتب رحمه الله : عَهِدتُ جبايةَ الخراج فى سنين قبل سنةِ إحدىٰ وأربعين ومائتين فى خلافةِ أمير المؤمنين المتوكِّل رحمة الله عليه تجْرِى لكل سنةٍ فى السنةِ التى بعدَها بسببِ تأخُّر الشهور الشمسيَّة عن الشُّهور القَمَرية فى كل سنة أحدَ عشَرَ يوما ورُبُعَ يوم وزيادةَ الكسر عليه ، فلما دخلَتْ سنةُ آثنتين وأربعين ومائتين ، كان قد آنقضىٰ من السِّنين التى قبلها ثلاثٌ وثلاثون سنة ، أوّلهن سنة ثمان ومائتين من خلافة أمير المؤمنين المأمون رحمة الله عليه ، وآجتَمع من هذا المتأخِّر فيها أيامُ سنةٍ شمسيَّة كاملةٍ : وهى ثلثمائة وخمسةٌ وستون يوما ورُبُعُ يوم وزيادةُ الكسر، وتهيَّأ إدراكُ غلَّاتِ وثمار سنة إحدىٰ وأربعين ومائتين فى صدرِ سنةِ آثنتين وأربعين [ومائتين] ، فأمر أمير المؤمنين المتوكل رحمة الله عليه بالغاء ذكر سنة إحدىٰ وأربعين ومائتين ، إذ كانت قد آنقضت ونُسِب الخراجُ إلىٰ سنة آثنتين وأربعين ومائتين .

قال صاحب "المنهاج فى صنعة الخَرَاج" : ولما نُقِلت سنةُ إحدىٰ وأربعين ومائتين إلىٰ سنة آثنتين وأربعين ، جَبَىٰ أصحابُ الدواوين الجَوالِىَ والصدقاتِ لسنتَىْ إحدىٰ وآثنتين وأربعين ومائتين فى وقتٍ واحدٍ ، لأن الجَوالِىَ بسُرَّ مَنْ رأىٰ ومدينةِ السلام ومُضافاتهما كانت تُجْبىٰ علىٰ شهور الأهلة ، وما كان عن جماجم أهل القُرىٰ

والضِّياع والمستغَلّات كانت تُجْبىٰ علىٰ شهور الشمس، فأُلزِم(١) أهلُ الجوالى خاصَّةً فى مدة الثلاث وثلاثين سنة، ورفَعَها العُمَّال فى حُسْباناتهم فاجتمع من ذٰلك ألوفُ ألوف دراهم، فجرت الأعمالُ بعد نقل المتوكِّل علىٰ ذٰلك سنةً بعد سنةٍ، إلىٰ أن انقضتْ ثلاثٌ وثلاثون سنةً آخرتُهن انقضاءُ سنة أربع وسبعين ومائتين؛ فلم يُنبِّه كُتَّابُ أمير المؤمنين: المعتمد على الله رحمة الله عليه علىٰ ذٰلك، إذ كان رؤساؤُهم فى ذٰلك الوقتِ إسمعيلَ بنَ بُلْبل وبَنِى الفُرات، ولم يكونوا عملُوا فى ديوانِ الخَرَاج والضِّياع فى خلافة أمير المؤمنين المتوكل رحمه الله، ولا كانتْ أسنانُهم أسناناً بلغَتْ معرفتُهم معها هذا النَّقْل، بل كان مولدُ أحمدَ بن محمد بن الفُرات قبل هذه السنة بخمس سنين، ومولدُ علىٍّ أخيه فيها؛ وكان إسماعيل يتعلَّمُ فى مجلسٍ لم يبلُغْ أن يَنْسَخ، فلمّا تقلّدتُ لناصر الدين رحمةُ الله عليه أعمالَ الضِّياع بقَزْوِين ونواحيها لسنةِ ستٍّ وسبعين ومائتين، وكان مقيماً بأَذْرَبيجانَ، وخليفتُه بالجبل والقرى جَرَادَةُ بن محمد، وأحمدُ بنُ محمد كاتبه، واحتجْتُ إلىٰ رفع جماعَتِى إليه ـ ترجمتُها بجماعةِ [سنة] ست وسبعين ومائتين [التى أدركت غَلّاتها وثمارها فى سنة سبع وسبعين ومائتين](٢)، ووجب إلغاء ذكر سنةِ ستٍّ وسبعين ومائتين؛ فلمّا وقَفَا علىٰ هذه الترجمة أنكراها وسألانى عن السبب فيها فشرحتُه لهما، ووَكَّدت ذٰلك بأن عَرَّفتهما أنى قد استخرجْتُ حسابَ السنينَ الشمسيةِ والسنين القمريةِ من القرءان [بعد] ما عرضته علىٰ أصحاب التفسير، فذكروا أنه لم يأْتِ فيه شىءٌ من الأثر، فكان ذلك أوكَدَ

(١) عبارة المقريزى ج ١ ص ٢٧٦ «وفى ثلاث وثلاثين سنة اجتمعت أيام سنة شمسية كاملة فألزم أهل الذمة خاصة بالجوالى ورفعها الخ» وهى أوضح .

(٢) الزيادة من "المواعظ والاعتبار" للقريزى ج ١ ص ٢٧٦ وقد اعتمدناها فى كثير من التصحيف فى هذا الموضع .

فى لُطف استخراجى : وهو أن الله تعالىٰ قال فى سورة الكهف : ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَمِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ . فلم أجِدْ أحدًا من المفسّرين عرَف ما معنىٰ وازدادوا تِسْعا ، و إنما خاطبَ اللهُ جل وعز نبيَّــه بكلامِ العرب وما تَعْرِفُه من الحِسَاب ؛ فمعنى هذه التسع أن الثلثمائة كانت شمسيةً بحساب العَجَم ومن كان لا يعْرِف السنينَ القمريةَ ، فإذا أُضيف إلىٰ الثلثمائة القمريَّة زيادةُ التسع كانت سنينَ شمسيَّةً [صحيحة] فاستحْسَناه ؛ فلما انصرف جَرادةُ مع الناصر رحمة الله عليه إلىٰ مدينة السلام وتُوفِّىَ الناصر رضوان الله عليــه وتقلد أبو القــاسم عُبَيْدُ الله بن سليمان رحمه الله كتابةَ أمير المؤمنين : المعتضد بالله صلوات الله عليه ، أجرىٰ له جرادةُ ذِكْرَ هذا النقل ، وشرح له سببَه : تقرّبًا إليه ، وطَعْنا علىٰ أبى القاسم عُبيد الله رحمه الله فى تأخيره إيَّاه .

فلما وَقَف المعتضد بالله رحمه الله علىٰ ذلك تقدّم إلىٰ أبى القاسم بإنشاء الكُتُب بنقل سنة ثمــانٍ وسبعين ومائتين إلىٰ ســنةِ تِسْع وسبعين ومائتين ، فكَتَب ، وكان هــذا النقلُ بعدَ أربعِ سنين من وجُوبه ، ثم مضت السنونَ ســنةً بعد سنة إلىٰ أن انقضتِ الآنَ ثلاثٌ وثلاثون ســنةً أُولَاهن السنةُ التى كان النقل وجب فيهــا : وهى سنة خمسٍ وسبعين ومائتين ، وآخرتُهن انقضاءُ سنة سبع وثلثمائة ، فوافق ذٰلك خلافةَ المُطيع لله فى وِزارة أبى محمد المهلَّبى ، فأمر بنقْل سنة ستٍّ وثلثمائة إلىٰ سنةِ ســبع وثلثمائة ، ونسبةِ الخراج إليها فنُقلَتْ ، وأمر بالكتابة بذٰلك من ديوان الانشاء فكُتِب به .

وقد حكىٰ أبو الحسين هلال بن المُحْسن بن أبى إسحق إبراهيم الصابى عن أبيــه أنه قال : لمــا أراد الوزيرُ أبو محمّد المَهلَّبى نقلَ السنة أمرَ أبا إسحقَ والدى وغيْرَه من كُتَّابه فى الخراج والرسائل بإنشاء كتابٍ عن المُطيع لله رحمة الله عليه فى هذا المعنىٰ ، وكلٌّ منهــم كتَب ، وعُرِضت النُّسخُ على الوزير أبى محمّد فاختار منها كتابَ والدى

وتقدّم بأن يُكْتَب إلىٰ أصحاب الأطراف . وقال لأبى الفَرَج بن أبى هاشم(١) خليفته : ا كْتُبْ إلى العُمّال بذلك كُتُبا مخففة ، وآنسَخْ فى أواخر[ها] هذا الكتابَ السلطانى فغـاظَ أبا الفَرج وقوعُ التفضـيل والآختيار لكتاب والدى ، وقد كان عمِل نسخةً اطُّرِحت فى جمـلة ما اطُّرِح ، وكتب : «قد رأينا نقْلَ سـنة خمسينَ [إلىٰ إحدىٰ وخمسين] فاعمل علىٰ ذلك»(٢) ولم ينسخ الكتاب السلطانى ، وعرَف الوزير أبو محمد ما كتب به أبو الفرج ، فقال له : لماذا أغفَلْتَ نسخَ الكتاب السلطانى فى آخر الكتاب إلى العُمّال و إثباتَه فى الديوان ؟ فأجاب جوابا علّل فيه ، فقال له ياأبا الفرج : ما تركْتَ ذلك إلا حسَدا لأبى إسحق علىٰ كتابِه ، وهو والله فى هذا الفن أكتَبُ أهلِ زمانه .

قال صاحب "المنهاج فى صنْعة الخراج": وقد كان نقلُ السنين فى الديار المصرية [أُغْفِل](٣) حتى كانت سنةُ تسع وتسعين وأربعمائة الهلاليّةُ فنُقلت سنة تسع وتسعين الخراجية إلىٰ سنة إحدى وخَمْسِمائة فيما رأيتُه فى تعليقات أبى . قال : وآخر مانُقلت السنةُ فى وقتنا هـذا أنْ نُقلت سنةُ خمس وستين وخمْسِمائة إلىٰ سـنة سبع وسـتين وخمْسِمائة الهلالية ، فتطابقَت السنتانِ . وذلك أننى لما قلْتُ للقاضى الفاضل عبد الرحيم البَيْسانى : إنه قد آنَ نقلُ السـنة ، أنشأ سجلًّا بنقلها نُسِخ فى الدواوين ، وحُمِل الأمر علىٰ حُكْمِه ، ثم قال : وما بَرِح الملوكُ والوزراء يُعْنَوْن بنقل السنين فى أحيانها ، ومطابقة العامَيْنِ فى أوّل زمان اختلافهما بالبُعد وتقاربُ اتفاقهما بالنَّقْل .

قلت : والحـاصل أنه إذا مضىٰ ثلاثٌ وثلاثون سـنة من آخر السنة ، حُوّلت السـنةُ الثالثةُ والثلاثون إلىٰ تلْو السنة التى بعدها ، وهى الخامسةُ والثلاثُون ، وتُلْغىٰ

(١) فى المقريزى «هشام» .

(٢) الزيادة من المقريزى ج ١ ص ٢٧٧ .

(٣) من المقريزى ص ٢٧٦ — ج ١ .

الرابعةُ والثلاثون ؛ ومقتضىٰ البناء على التحويل الذى كان فى خلافةِ المُطيع فى سنة سبْع وثلثمائة المقدّمِ ذكرُه أن تحوّل سنةُ سبع وثلثمائة إلىٰ سنة تسع وثلثمائة ؛ ثم تحوّل سنةُ أربعين وثلثمائة إلىٰ آثنتين وأربعين وثلثمائة ، وتُلْغىٰ سنةُ إحدىٰ وأربعين ؛ ثم تحوّلُ سنةُ ثلاث وسبعين وثلثمائة إلىٰ سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، وتلْغىٰ سنة أربع وسبعين ؛ ثم تحوّل سنة ست وأربعمائة إلىٰ سنة ثمان وأربعمائة ، وتلغىٰ سنة سَبع ؛ ثم تحوّل سنةُ تسع وثلاثين وأربعمائة إلىٰ سنة إحدَىٰ وأربعين وأربعمائة ، وتلغىٰ سنةُ أربعين ؛ ثم تحوّلُ سنة آثنتين وسبعين وأربعمائة إلىٰ سنة أربع وسبعين وأربعمائة ، وتلغىٰ سنةُ ثلاث وسبعين ؛ ثم تحوَّل سنةُ خمس وخمسمائة إلىٰ سنةِ سبع وخمسمائةٍ ، وتلغىٰ سنة ستٍّ ؛ لكن قد تقدّم من كلام صاحب "المنهاج فى صنعة الخراج" أن التحويل كان تأخّر بالديار المصرية إلىٰ آخر سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، فحوّلتْ سنةُ تسع وتسعين الخراجية إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسمائة ؛ فيكون التحويل بالديار المصرية قد وقع قبل استحقاقه بمقتضى الترتيب المقدّم ذِكْره بستِّ سنين من حيثُ إنه كان المستحَقُّ مغَلَّ سنة خمس وخمسمائة إلىٰ سنة سبع وخمسمائة كما تقدّم ، فنقلت سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسمائة . والأمر فى ذلك قريبٌ إذ التحويل على التقريب دُونَ التحديد .

ثم مقتضىٰ ترتيب التحويل الرابع فى الديار المصرية بعد تحويل سنة تسع وتسعين وأربعمائة إلىٰ سنة إحدىٰ وخمسمائة أن تحوّل بعد ذٰلك سنةُ ثنتين وثلاثين وخمسمائة إلىٰ سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وتلغىٰ سنة ثلاثٍ وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة خمس وستين وخمسمائة إلىٰ سنة سبع وستين وخمسمائة ، وتلغىٰ سنةُ ستٍّ وستين ؛ ثم تحوّل سنةُ ثمانٍ وتسعين وخمسمائة إلىٰ سنة ستمائة ، وتلغىٰ سنة تِسْع وتسعين وخمسمائة ؛ ثم تحوّل سنة إحدىٰ وثلاثينَ وستِّمائة إلىٰ سنة ثلاثٍ وثلاثين وستمائة ، وتُلْغىٰ سنةُ

آثنتين وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنة أربع وستين وستمائة إلى سنة ستٍّ وستين وستمائة ، وتلغى سنةُ خمس وستين ؛ ثم تحوّل سنة سبْع وتِسعين وستمائة إلى سنة تسع وتسعين وستمائة ، وتلغى سنةُ ثمانٍ وتسعين ؛ ثم تحوّل سنة سبْعِمائة وثلاثين إلى سنةِ سبعمائة وآثنتين وثلاثين ، وتلغى سنةُ إحدى وثلاثين ؛ ثم تحوّل سنةُ ثلاثٍ وستين وسبعِمائة إلى سنةِ خمس وستين وسبْعِمائة ، وتلغى سنةُ أربع وستين وسبعمائة ؛ وتحوّلُ سنة ست وتسعين وسبعِمائة إلى سنة ثمانٍ وتسعين وسبعمائة ، وتُلْغى سنةُ سبع وتسعين ؛ ثم لا يكون تحويل إلى سنة تسع وعشرين وثمانمائة ، فتحوّل إلى سنة إحدى وثلاثين وثمانمائة ، لكن قد حوّلَ كُتَّاب الدواوين بالديارِ المصرية وأربابُ الدولة بها سنةَ تِسع وأربعين وسبعمائة : (وهى سنةُ الطاعون الجارفِ العامّ) إلى سنة إحدى وخمسين وسبعمائة ، وألغَوْا سنة خمسينَ . وكان يقال : مات فى تلك السنةِ كلُّ شيءٍ حتّى السنة ، وسيأتى ذكر المرسوم المكتتب بها فى تحويل السنين فى هذه المقالة ، إن شاء الله تعالى .

ونُقِل ذلك لتأخيرٍ وقع من إغفال تحويل سنة سبعمائة وثلاثين المتقدّمة الذكر ، وآخِرُ سنةٍ حُوّلت فى زماننا سنة ... ... (1) .

---

(١) بياض فى الأصل .

الطـــــرف الثـانى

(فى صورة ما يُكتَب فى تحويل السنين، وهو علىٰ نوعين)

النـــــوع الأوّل

(ما كان يكتب فى ذلك عن الخلفاء، وفيه مذهبان)

المـــــذهب الأوّل

(أن يُفتَتح ما يكتَب بـ«أمَّا بعـــد»)

وعلىٰ ذٰلك كان يُكتَب من ديوان الخلافة ببغدادَ .

وهذه نسخةُ ماذكر أبو الحسين بنُ على الكاتبُ المقدَّم ذكُره أنه كُتِب به فى ذٰلك فى نقل سنة ثمـانٍ وسبعين ومائتين إلىٰ سنة تسع وسبعين ومائتين فى خلافةِ المعتضِد بالله أمير المؤمنين، وهى :

أمَّا بعــدُ، فإنَّ أوْلىٰ ماصَرَف إليه أميرُ المؤمنين عنايَتَه، وأعملَ فيه فِكْره ورَوِيَّتَه، وشَــغَل به تفَقُّدَه ورعايتَه، أمرُ الفَىْء الذى خصَّــه الله به وألزمه جمْعَه وتوفيرَه، وحياطَتَه وتكثيرَه، وجعله عِمادَ الدِّين، وقِوَامَ أمر المسلمين، وفيما يُصْرف منه إلىٰ أعطياتِ الأوليـاءِ والجنُود، ومَنْ يُسْــتعانُ به لتحصين البَيْضَــة والذَّبِّ عن الحَريم، وحَجِّ البيتِ، وجهاد العدوّ، وسَدِّ الثُّغُور، وأَمْن الســبل، وحَقْن الدِّماء، وإصْلاح ذاتِ البَيْن . وأميرُ المؤمنين يسألُ الله راغباً إليه، ومتوكِّلا عليه، أن يُحْسِن عَوْنَه علىٰ ماحمَّله منه، ويُديم توفيقَه لمـا أرضاه، وإرشادَه إلىٰ مايَقْضى عنه وله .

وقد نَظَر أميرُ المؤمنين فيما كان يجْرِى عليه أمرُ جِباية هــذا الفَىْء فى خلافة آبائه الراشــدين فوجَدَه علىٰ حَسَب ما كان يُدْرك من الغَلَّات والثِّمـار فى كل ســنة أوّلا

أوّلًا على مَجارى شُهور سِنِى الشمسِ فى النُّجوم التى يَحِلُّ مالُ كلِّ صنف منها فيها ، ووجدَ شُهورَ السنة الشمسية تتأخّر عن شهور السنة الهلاليّة أحدَ عشَرَ يوما ورُبُعا وزيادةً عليه ، ويكونُ إدراكُ الغلات والثّمار فى كل سنة بحسَب تأخُّرها .

فلا تَزالُ السنونَ تَمْضى علىٰ ذٰلك سنةً بعد سنةٍ حتى تنْقَضِىَ منها ثلاثٌ وثلاثون سنةً وتكونُ عدّة الأيام المتأخِّرة منها أيامَ سنةٍ شمسيَّة كاملة ، وهى ثَلثمائة وخمسةٌ وستون يوما ورُبُع يوم وزيادةٌ عليه ، فحينئذٍ يتهيَّأ بمشيئة الله وقُدرته إدراكُ الغَلّات التى تجرى عليها الضرائبُ والطُّسُوق فى ٱستقْبال المحرَّم من سِنِى الأهِلَّة . ويجب مع ذٰلك إلغاءُ ذِكر السنةِ الخارجةِ إذ كانتْ قد ٱنقضتْ ونسبتُها إلىٰ السنة التى أدركتِ الغَلّات والثمارُ فيها . وإنه وَجَدَ ذٰلك قد كان وقع فى أيام أمير المؤمنين المتوكِّلِ على الله رحمة الله عليه عند ٱنقضاء ثَلاثٍ وثلاثين سنةً ، آخرتُهُن سنة إحدىٰ وأربعين ومائتين ، فاستُغْنِىَ عن ذكرها بالغائها ونسبتها إلىٰ سنة ٱثنتين وأربعين ومائتين ؛ فجرَت المكاتباتُ والحُسْبانات وسائرُ الأعمال بعد ذٰلك سنةً بعد سنةٍ إلىٰ أن مضتْ ثلاثٌ وثلاثون سنةً ، آخرتهُنَّ انقضاءُ سنة أربع وسبعين ومائتين ، [ووجب إنشاء الكتب بإلغاء ذكر سنة أربع وسبعين ومائتين] (١) ونسبتها إلىٰ سنة خمس وسبعين ومائتين . فذهب ذٰلك علىٰ كُتّاب أمير المؤمنين [المعتمِد على الله وتأخّر الأمرُ أربع سنين الى أن أمر أمير المؤمنين] (١) المعتضدُ بالله رحمه الله فى سنة سبع وسبعين ومائتين بنقل خَرَاج سنة ثمان وسبعين ومائتين إلىٰ سنة تسع وسبعين ومائتين ؛ فجَرَىٰ الأمرُ علىٰ ذٰلك إلىٰ أن انقضتْ فى هذا الوقت ثلاثٌ وثلاثون سنةً : أُولاهُنَّ السنة التى كان يجب نقلُها فيها ، وهى سنة خمس وسبعين ومائتين ، وآخرتُهن انقضاءُ شهور خراج سنةِ سبْع وثلثمائةٍ ؛ ووجب افتتاحُ خراج ما تجْرى عليه الضرائبُ والطسوقُ فى أوّلها

(١) الزيادة من المقريزى ص ٢٧٧ ج ١ وهى لازمة لاستقامة الكلام .

[وإن] من صَواب التدبير وآستقامة الأعمال، وآستعمالِ مايخفّ على الرعية معاملتُها به نقلَ سنة الخراج لسنة سبع وثلثمائة إلىٰ سنة ثمانٍ وثلثمائة، فرأىٰ أميرُ المؤمنين (لمـا يُلْزِمه نفسه ويؤاخذُها به، من العناية بهذا الفيء وحياطةِ أسبابِه، وإجرائها مجاريها، وسُلوكِ سبيلِ آبائِه الراشدين رحمة الله عليهم فيها،) أنْ يُكْتَب إليكَ وإلىٰ سائر العُمَّال فى النواحى بالعمل علىٰ ذٰلك، وأن يكونَ ما يَصْدُر [إليكم] من الكُتُب وتُصْدِرونه عنكم وتجرى عليه أعمالُكم ورُفُوعكم وحُسْباناتُكم وسائرُ مُناظَراتكم علىٰ هذا النَّقْل .

فآعلَمْ ذٰلك من رَأْى أمير المؤمنين وآعمَلْ به مستشْعِرا فيه وفى كلِّ ما تُمضيه تقوى الله وطاعتَه، ومستعمِلاً [عليه] ثقاتِ الأعوان وكُفاتَهم، مُشرفا عليهم ومقوِّما لهم، واكتب بما يكونُ منك فى ذٰلك، إن شاء الله تعالىٰ .

وهذه نسخةُ ما كتَب به أبو إسحقَ الصابى عن المُطيع لله بنَقْل سنة ستٍّ(١) وثلثمائة إلىٰ سنة سبع وثلثمائة، وهى :

أما بعْـدُ، فإنَّ أمير المؤمنين لا يزالُ مجتهِدا فى مصالح المسلمين، وباعِثًا لهم علىٰ مَراشِـد الدنيا والدِّين، ومهيِّئـا لهم إلىٰ أحسَنِ الآختيار فيما يُورِدون ويُصْدِرون، وأصْوبِ الرأى فيما يُبْرِمون وينقُضُون، فلا تَلُوحُ له خَلَّةٌ داخلةٌ علىٰ أمُورهم إلا سَدَّها وتلافاها [ولا حالٌ عائدة بحظٍّ عليهم إلا اعتمدَها وأتاها](٢) ولا سُنَّةٌ عادلةٌ إلا أخَذَهم بإقامة رَسْمِها، وإمضاء حُكْمِها، والآقتـداءِ بالسلف الصالح فى العمل بهـا والآتباع لهـا، وإذا عرض من ذٰلك ما تعْلَمه الخاصَّة بوفُور ألبابها، وتجهلُه العامّةُ بقُصُور أفهامها، وكانت أوامِرُه فيـه خارجةً إليك وإلىٰ أمثالِك من أعيانِ رجالِه، وأماثِل

(١) صوابه «بنقل سنة خمسين وثلثمائة الى إحدى وخمسين وثلثمائة» كما يفيده نص الكتاب بعد اه .

(٢) الزيادة من ''رسائل الصابى'' ص ٢٠٩ ومن المقريزى ص ٢٧٨ ج ١ .

عُمّاله ، الذين يكتفُون بالإشاره ، ويجترِءُون بيَسير الإبانة والعباره ، لم يَدَعْ أن يبلُغ من تَلْخِيص اللفظ وإيضاح المعنىٰ إلى الحدّ الذى يُلْحِق المتأخّر بالمتقدِّم ، ويجمع بين العالِم والمتعلِّم ؛ ولا سيَّما إذا كان ذٰلك فيما يتعلَّق بمعاملات الرعيَّه ، ومن لا يَعْرِف إلا الظَّواهرَ الجليَّة دُونَ البواطن الخفيَّه ، ولا يَسْهُل عليه الانتقال عن العادات المتكرره ، إلىٰ الرُّسوم المتغيّره ، ليكون القولُ بالمشْرُوح لمن بَرَّز فى المعرفة مذكِّرا ، ولمن تأخَّر فيها مبصِّرا ؛ ولأنه ليس من الحق أن تُمنَع هذه الطبقةُ من بَرْد اليقين فى صُدُورها ، ولا أن يُقتَصر علىٰ اللَّمْحة الدالَّة فى مخاطبة جُمْهورها ، حتَّى إذا ٱستَوتِ الأقدامُ بطوائف الناس فى فَهْم ما أُمِروا به وفِقْه ما دُعُوا إليه وصارُوا فيه علىٰ كلمةٍ سواء لا يعترِضُهم شكُّ الشاكِّين ولا ٱسترابة المستَرِيبين ، ٱطمأنَّتْ قلوبُهم ، وٱنشرحَتْ صدُورُهم ، وسقَط الخلافُ بينَهم ، وٱستمرّ الاتفاق فيهم ، وٱستيقَنُوا أنهم مَسُوسُون على ٱستقامةٍ من المِنْهاج ، ومحرُوسُون من جرائر الزَّيغ والاعوجاج ؛ فكان الانقيادُ منهم وهم دَارُون عالمون ، لا مقلِّدون مُسَلِّمون ؛ وطائعُون مختارُون ، لا مُكْرَهُون ولا مُجْبَرُون .

وأميرُ المؤمنين يستمِدُّ الله تعالىٰ فى جميع أغراضه ومَرَاميه ، ومطالِبه ومَغَازِيه ، مادّةً من صُنْعه تَقِف به علىٰ سَنَن الصَّلاح ، وتَفتَحُ له أبوابَ النَّجاح ، وتُنْهِضه بما أهَّله لحَمْله من الأعباء التى لا يَدَّعى الاستقلالَ بها إلا بتوفيقه [ومَعُونته] ، ولا يتوجه فيها إلا بدِلَالته وهدايته ، وحَسْبُ أمير المؤمنين اللهُ ونِعْم الوكيل .

وأميرُ المؤمنين يرىٰ أنَّ أوْلى الأقوالِ أن يكون سَدَادا ، وأحرىٰ الأفعال أن يكونَ رَشَادا ، ماوُجِد له فى السابق من حكْم الله أصولٌ وقَواعِد ، وفى النَّص من كتابه آياتٌ وشواهد ؛ وكان مُفْضِيًا بالأمة إلىٰ قَوَام من دينٍ ودُنْيا ، ووِفَاقٍ فى آخرةٍ وأُولىٰ ،

فذلك هو البنـاءُ الذى يثبُتُ و يعلو، والغَرْس الذى ينبُتُ و يزكُو ، والسَّعىُ الذى تَنْجَح مَبادِيه وهَوَادِيه ، وتُبْهِج عواقِبُه وتَوَاليه ، وتستنير سُـبُلُه لسالكيها ، وتُورِدُهم موارد السعود فى مَقَاصدهم فيها، غير ضالِّين ولا عادِلين، ولا مُنْحرِفين ولا زائِلين .

وقـد جعل اللهُ عزَّ وجلَّ لعباده من هـذه الأفلاكِ الدائِره ، والنُّجُوم السائِره ، فيما تَتَقلَّب عليـه من ٱتِّصالٍ وافتراق ، ويتَعاقبُ عليها من اختلافٍ واتِّفاق، منافعَ تظْهَر فى كُرُور الشُّهور والأعوام، ومُرُو ر اللَّيالِى والأيَّام، وتَنَاوُب الضِّياء والظلام ، واعتدالِ المَساكِنِ والأوطان، وتغايُرِ الفُصول والأزمان ، ونَشْء النَّبات والحيوان، فمـا فى نِظَام ذلك خَلَل ، ولا فى صَنْعة صانعه زَلَل ، بل هو منُوط بعضُه ببعض، ومَحُوط من كلِّ ثُلْمة ونقْض ، قال الله سبحانه : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِـيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَاخَلَقَ اللهُ ذٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾ وقال جل من قائل : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَـارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَـا تَعْمَلُونَ خَبِـيرٌ ﴾ . وقال : ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَـا ذَٰلِكَ تَقْـدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ . وقال عزَّت قدرتُه : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَـدِيمِ ﴾ . ففَضَّل الله تعالىٰ فى هذه الآيات بيْنَ الشمسِ والقمرِ، وأنبأنَا فى الباهِرِ من حِكَمِه، والمُعْجِزِ من كَلِمه، أنَّ لكلٍّ منهما طريقًا سُخِّر فيها وطبيعةً جُبِل عليهـا ، وأن كلَّ تلك المباينة والمخالفة فى المَسِير، تُؤدِّى إلىٰ موافقةٍ وملازمةٍ فى التدبير، فمن هُنالك زادتِ السنةُ الشمسيةُ فصارت ثلثمائة وخمسةً وستين يومًا ورُبُعا بالتقريب المعمُول عليـه، وهى المدّة التى تقطَع الشمسُ فيهـا الفَلَك مرَّة واحدة ، ونقصَتِ السـنةُ الهلالية فصارت ثلثمائة وأربعةً وخمسين يوما وكَسْرا ، وهى المُدّة التى يُجامِع القمرُ فيها الشمسَ ٱثنتَىْ عَشْرة

مرة، واحتيج اذا ٱنساق هذا الفضلُ إلى استعمال النقل الذى يطابِقُ إحدى السنتين بالأخرىٰ اذا افترقتَا، ويُدانِى بينهما اذا تفاوَتتَا .

وما زالت الأُمَم السالفة تَكْبِس زياداتِ السنين علىٰ افتنانٍ من طُرُقها ومذاهبها، وفى كتاب الله عز وجل شهادةٌ بذٰلك إذ يقول فى قِصَّــة أهل الكهف : ﴿ ولَبِثُوا فى كَهْفِهِمْ ثَلٰثِمَائةٍ سِنِينَ وازْدَادُوا تِسْعا﴾ . فكانت هذه الزيادة بأن الفضْل فى السنين المذكورة علىٰ تقْرِيب التقريب .

فأما الفُرْس فإنهم أجْرَوْا معاملاتِهم على السنة المعتَدِلة التى شهورُها اثنا عشر شهرا، وأيامُها ثلٰثمائة وســتون يوما، ولَقَّبوا الشهورَ اثنَىْ عشَر لَقَبــا، وسَمَّوْا أيام الشهر منها ثلاثين ٱسمــا، وأفردوا الأيَّام الخمسةَ الزائدة، وسَمَّوْها المسترقَةَ وكَبَسوا الرُّبْع فى كل مائة وعشرين سنةً شهرا .

فلما ٱنقرض مُلْكُهم، بطل فى كَبْس هــذا الربع تدبيرُهُم، وزال نَوْرُوزُهم عن سُنَّته، وٱنفرج ما بينــه وبيــن حقيقــةِ وقْتِه، انفراجا هو زائدٌ لا يقِف، ودائم لا ينقطع، حتّٰى إنّ موضوعهم فيه أن يقع فى مَدْخَل الصيف وسينتهى إلىٰ أن يَقَع فى مَدْخَل الشتاء، [ويتجاوز ذلك، وكذلك موضوعهم فى المهرجان أن يقع فى مدخل الشتاء] (١) وسينتهى إلىٰ أن يَقَع فى مَدْخَل الصيف ويتجاوزه .

وأما الروم فكانُوا أتقنَ منهم حكْمَةً وأبعدَ نظرا فى عاقبةٍ : لأنهم رتَّبوا شهورَ السنة علىٰ أرصادٍ رصَدُوها، وأنواءٍ عرَفُوها، وفَضُّوا الخمســةَ الأيام الزائدةَ على الشُّهور، وساقُوها معها على الدُّهور، وكَبَسُوا الرُّبُع فى كل أربع سنينَ يوما، ورَسَمُوا أن يكون إلىٰ شَبَاطَ مضافا فقرَبوا ما بَعّده غيرُهم، وسَهَّلوا على الناس أن يقتَفُوا أثَرَهم؛ لا جرم

(١) الزيادة من "المقريزى" ص ٢٧٩ ج ١ ومن الرسائل وهى من سقطات الناسخ .

أن [المعتضد بالله صلواتُ الله عليــه علىٰ أصُولِهم بنىٰ ، ولمثالهم ٱحتذىٰ](١) فى تصييره نَوْرُوزَه اليومَ الحادىَ عشَرَ من حَزِيران ، حتّى سَلِم ممــا لَحِقَ النوارِيزَ فى سالف الأزمان ، وتلافَوُا الأمرَ فى عَجْز سِنِي الهلال عن سِنِي الشمس ، بأن جَبَرُوها بالكَبْس ، فكُلَّما ٱجتمع من فُضُول سِنِي الشمس ما يَفِى بتمــام شهرٍ جعلوا الســنةَ الهلاليّةَ التى يتّفق ذٰلك فيهــا ثلاثةَ عشَرَ هلالا ، فرُبَّمــا تَمَّ الشهر الثالث عشر فى ثلاثِ ســنين وربَّمــا تَمَّ فى سنتين بحَسَب ما يُوجِبه الحساب ، فتصير سنَتَا الشمسِ والهلال عندهم متقاربتين أبدًا لا يتباعَدُ ما بينَهما .

وأمّا العربُ فإنَّ الله جل وعزَّ فضّلها على الأُمَم المــاضية ، وورَّثها ثمراتِ مساعيها المتعِبــة ، وأجرىٰ شهرَ صيامها ومواقيتَ أعيادِها وزكاةَ أهل ملّتها ، وجزية أهل ذمّتها ، علىٰ السنة الهلاليّة ، وتعبَّدها فيها برُؤْية الأهلة ، إرادةً منه أن تكون مناهِجُها واضحه ، وأعلامُها لائحه ، فيتكافأ فى معْرفة الغَرض ودخُول الوقت الخاصُّ منهــم والعام ، والناقِصُ الفقْه والتام ، والأنثىٰ والذكَر ، وذو الصِّغَر والكِبَر ، فصاروا حينئذ يَجْبُون فى سنة الشمس حاصلَ الغلّات المقْسُومة وخراج الأرض الممسوحة ، ويجْبُون فى ســنة الهلال الجَوالِىَ والصدَقات والأرجاء(٢) والمُقَاطعات والمســتَغَلّات ، وسائرَ ما يجرى على المُشاهَرات ، وحدَث من التعاظُل والتداخُل بين الســنين ما لو ٱستمر لقَبُح جِدّا ، وازداد بُعْدا ، إذ كانت الجبايةُ الخراجيةُ فى السنة التى تنتهى إليها تُنْسَب فى التسمية إلىٰ ما قبلَها فوجبَ مع هــذا أن تُطْرَح تلك السَّنَةُ وتلْغىٰ ، ويُتجاوزَ إلىٰ ما بعدها ويَتخطّى ، ولم يجُزْ لهم أن يقتدُوا بمخالفيهم فى كَبْس سنة الهلال بشهرٍ ثالث عشر ، لأنهم لو فعلوا ذٰلك لتزحزَحت الأشهرُ الحرُم عن مواقِعِها ، وانحرفَت المناسكُ

(١) الزائد من "رسائل الصابى" و"المقريزى" .

(٢) كذا فى المقريزى أيضا والذى فى الرسائل الخطية «والأرحام» .

عن حقائقها ، ونقصَت الجباية عن سِني الأهلة القِبْطية بقِسْط ما استغْرَقه الكبسُ منها ، فانتظَرُوا بذلك الفضلِ إلىٰ أن تتِمّ السنة ، وأوجبَ الحسابُ المقرِّب أن يكون كل آثنتين وثلاثين سـنةً شمسيةً ثلاثا وثلاثين سـنةً هلالية ؛ فنقلُوا المتقـدّمة إلىٰ المتأخِّرة نقلا لايتجاوزُ الشمسيةَ ، وكانت هـذه الكُلْفةُ فى دُنياهم مستَسْهَلة مع تلك النعمة فى دينهم .

وقد رأىٰ أميرُ المؤمنين نقلَ سـنة خمسين وثلثمائة الخراجيَّـة إلىٰ سـنة إحدىٰ وخمسين وثلثمائة الهلالية جمعًا بينهما ، ولزوما لتلك السُّنَّة فيهما .

فاعمَلْ بمـا ورد به أمرُ أمير المؤمنين عليْـك ، وما تضـمنَه كتابهُ هـذا إليك ، ومُرِ الكُتَّاب قِبَلك أن يحتذُوا رسمَه فيما يكتبُون به إلىٰ عُمَّـال نواحيك ، ويخلِّدونه فى الدواوين من ذُكورهم ورُفُوعهـم ، ويقرِّرونه فى دُرُوج الأموال ، وينظِمُونه فى الدفاتر والأعمـال ، ويبنُونَ عليه الجمـاعات والحُسْبانات ، ويُوعِزون بكَتْبه من الروزنامجات والبراآت ، وليكن المنسوبُ كان من ذلك إلىٰ سـنة خمسين وثلثمائة التى وقَع النقلُ [عنها معْـدُولا به إلىٰ سنة إحدى وخمسين التى وقع النقل](١) إليها ، وأقِمْ فى نفوس من بحضْرتك من أصناف الجُنْد والرعية وأهلِ الملَّة والذمَّة أنَّ هـذا النقلَ لا يغيِّر لهم رَسْمـا ، ولا يُلْحق بهم ثَلْما ، ولا يعودُ علىٰ قابِضى العطاء بنُقْصان ما آستحقُّوا قبضه ، ولا علىٰ مؤدّى حقّ بيتِ المـال بإغضاء عمـا وجبَ أداؤُه ، فإن قرائحَ أكثرهم فقيرةٌ إلىٰ إفهام أمير المؤمنين الذى يُؤْثر أن تُزَاح فيه العِلة ، وتُسَدّ به مِنْهم الخَلَّة ، إذ كان هذا الشأنُ لا يتجدَّدُ إلا فى المُدَد الطِّوال التى فى مثلها يُحتاجُ إلىٰ تعريف الناشى ، وإذكار الناسى ، وأجِبْ بمـا يكون منك جواباً يحسُن موقعُه لك ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) الزيادة من رسائل الصابى الخطية .

المـــذهب الثـانى

(ممـا كان يُكْتَب عن الخلفاء فى تحويل السنين أن يُفْتَتَح ما يكتب بلفظ : « من فلانٍ أمير المؤمنين إلىٰ أهل الدولة » ونحوِ ذٰلك)

ثم يُؤتىٰ بالتحميد وهو المعبَّر عنه بالتصدير، وعليـه كان يكتُب خلفاء الفاطميين بالديار المصرية .

قال فى "موادِّ البيان" : والطريقُ فى ذٰلك أن يفتتح بعد التصدير والتحميد ...(1)

... ...

الضــــرب الأوّل

(ما كان يُكْتَب فى الدولة الأيوبيـــة)

وكانت العـادةُ فيه أن يفتَتَح بخرجت الأوامرُ ونحو ذٰلك ، ثم يذكر فيـه نحوا ممـا تقـدّم .

وهـذه نسخةُ مرسوم بتحويل السـنة القبطية [إلى السنة العربية] ، من إنشاء القاضى الفاضل عن الملك النـاصر « صلاح الدين يوسفَ بنِ أيوب » تغمَّده الله برحمته ، وهى :

خرجتِ الأوامرُ الصَّلاحيَّة بكَتْب هـذا المنشورِ وتلاوةِ مُودَعه بحيث يستمِر، ونَسْخه فى الدَّواوين بحيث يستقرّ، ومضمُونُه .

إنَّ نظرنا لم يَزَلْ تتجلَّىٰ له الجلائلُ والدقائِق ، ويتوخّى من الحسـنات ما تَسيرُ به الحقائبُ والحقائق ، ويُخَلِّد من الأخبار المشروعةِ ، كلَّ عذْبِ الطرائق رائِق ، ويجدّد

(1) هنا بياض فى الاصل بقدر كلمات ولعل بعدها وهو علىٰ ضربين» الضرب الخ .

من الآثار المتبُوعة، ما هو بثَناء الخلائق لائق، ولا يُغادِر صغيرةً ولا كبيرةً من الخير إلا جَهَدَنا أن نكتَسبها، ولا يُثَوِّب بنا الداعى إلىٰ مَثُوبة إلا رأينا أن نحتَسبها، لا سيَّما ما يكون للسنينَ الماضية مُمْضيا، و إلىٰ القَضايا العادلة مُفْضيا، ولمَحَاسن الشريعة مُجَلِّيا، ولعوارض الشُّبَه رافِعا، ولتناقُض الخَبَر دافعا، ولأبواب المُعاملات حافظا، ولأسباب المُغالطات لافِظَا، وللخواطر من أمراض الشُّكُوك مصَحِّحا، وعن حقائق اليقين مُفْصِحا، وللأسماع من طَيْف الآختلاف مُعْفيا، ولغاية الإشكال من طُرُق الأَفهام معفِّيا .

ولما آستهلَّتْ سنةُ كذا الهلاليةُ، وقد تباعَدَ ما بينها وبيْنَ السنة الخراجية إلىٰ أن صارتْ غَلَّاتها منسوبةً إلىٰ ما قبلها، وفى ذٰلك مافيه: من أخْذ الدِّرْهم المنقُود، عن غير الوَقْت المفْقُود، وتسمية بيتِ المال مُمْطِلا وقد أنْجَز، ووَصْف الحق المُتْلَف بأنه دَيْنٌ وقد أعْجَز، وأكْل رِزْق اليوم وتسمِيته منسوبًا إلىٰ أمْسِه، وإخراجِ المعتَدّ لسنةِ هلالِه إلىٰ حسابِ المعتدِّ إلىٰ سنةِ شمْسِه .

وكان اللهُ تعالىٰ قد أجرىٰ أمرَ هذه الأمّة علىٰ تاريخ منَزَّه عن اللَّبْس، مُوقَّر عن الكَبْس، وصرَّح كتابهُ العزيز بتحريمه، وذَكَرَ ما فيه من تأخيرِ وقْتِ النَّسيء وتقديمه، والأمّةُ المحمديةُ لا ينبَغى أن يُدرِكَها الكسر، كما أنَّ الشمس لا ينبغى أن تُدْرِكَ القَمَر، وسُنَنُها بين الحق والباطل فارِقَه، وسَنَتُها أبدًا سابِقَه، والسِّنُون بعدها لاحِقَه، يتعاوَرُها الكَسْر الذى يُزَحْزِح أوقاتَ العبادات عن مواضِعها، ولا يُدْرِك عملَها إلا من دَقَّ نظَرُه، واستُفْرِغت فى الحساب فِكَرُه، والسنةُ العربيةُ تَقْطَع بخَناجِر أهلَّتها الآشتباه، وتَرِدُّ شهورَها حاليةً بعقُودها موْسُومَةَ الجِباه، وإذا تقاعسَت السنةُ الشمسية عن أنْ تَطأَ أعقَابَها، وتُوَاطِىَ حِسابَها، اجتذبَتْ قِراهَا قَسْرا، وأوجبَتْ

لحَقِّها ذكرا، وتزوّجَتْ سنةُ الشمس سنةَ الهلال وكان الهلالُ بينهما مَهْرا؛ فسنَتُهم المؤنثةُ وسنَتُنا المذكّره، وآيةُ الهلال هُنَا دُونَ آية الليل هى المُبْصِرَهْ، وفى السَّنة العربيَّة إلىٰ ما فيها من عَرَبِيَّة الإفصاح، وراحةِ الإيضاح، الزيادةُ التى تظهر فى كل ثلاثٍ وثلاثين سنةً تُوفِى علىٰ عدد الأُمَم قَطْعا، وقد أشار اللهُ إليها بقوله : ﴿ ولَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلٰثَمِائَةٍ سِنِينَ وازدَادُوا تِسْعا ﴾ . وفى هذه السنةِ الزائدةِ زيادَه، من لطائف السَّعاده، ووظائِفِ العِبَاده، لأن أهلَ ملَّة الإسلام يمتازُونَ علىٰ كل ملة بسَنَة فى نظير تلك المدّة قصَدُوا صَلاتَها، وأدَّوْا زكاتَها، وحجُّوا فيها البيتَ العتيقَ الكريم، وصامُوا فيها الشهرَ العظِيم، وٱستوجَبُوا فيها الأجُورَ الجليله، وأُنسِئَتْ فيها أسماءُهُم بالأعمار الطويله، ومخالِفُوهم فيها قد عُطِّلت صحائفُهم فى عُدْوانِهِم، وإن كانت عاطله، وخلَتْ مواقِفُهم فى أديانِهم، وإن لم تَكُنْ قطُّ آهلَهْ .

وقد رأينا باستخارةِ الله سبحانه والتيمُّن بٱتّباع العوائد التى سلَكَها السَّلَف، ولم تَسْلُك فيها السَّرَف، أن ينسَخُوا أسماءَها من الخَرَاج، ويذهبَ ما بين السنِينَ من الٱضْطِراب والٱعوجاج، لا سيما والشهورُ الخراجيَّة قد وافقَتْ فى هذه الشهور الشهورَ الهلالية، وألقىٰ اللهُ فى أيامنا الوِفاقَ بين الأيَّام، كما ألقىٰ باعتلائنا الوِفاقَ بين الأنَام، وأسكَنَ بنظرنا ما فى الأوقات من ٱضطرابٍ وفى القلوب من اضْطِرام .

فلْيُستَأْنَف التاريخُ فى الدواوين المعموره، لٱستقبال السنة المذكوره، بأن تُوسَم بالهلاليَّة الخراجيَّةُ لإزالة الالتباس، ولإقامة القِسْطاس، وايضا[حا] لمن أمْرُه عليه غُمَّةٌ من الناس، وعلىٰ هذا التقرير، تُكْتَب سِجِلَّات التحضير، وتنتظِم الحُسْبانات المرفُوعه، والمَشارِعُ الموضُوعه، وتَطَّرد القوانينُ المشْرُوعه، وتُثْبَت المكلَّفات المقطوعه، ولو لم يكُنْ بين دَواعى نقْلها، وعَوارض زَلَلِها وزوالها، إلا أنَّ الأجناد

إذا قبضُوا واجباتِهم عن منشورٍ إلىٰ سنةِ خمس فى أواخرِ سنةِ سبع وسقَط ساقِطُهم بالوفاة، وجرىٰ بحكم السمْع لا بالشَّرْع إلىٰ أن يرث وارثُه دُونَ بيت المال مستغَلّ السنة الخراجيـة التى يلتقى فيهـا تاريخ وفاتِه من السـنة الهلالية وفى ذٰلك ما فيه، ممـا يُباينُ الإنصاف وينافيه [لكفى].

وإذا كان العدلُ وضْعَ الأشـياء فى مواضعها فلسنا نَحْرِم أيَّامنا المحرّمةَ بذِمَامِنا، مارُزِقَتْه أبناؤُها من عدل أحكامنا، بل نخْلَع عن جديدها المس كل المس، و[نَمْنَع] تَبِعة الضَّلال أن تُسند مهادنَتُه إلىٰ نُور الشمس، ولا نجعلَ أيامنا معمورةً بالأسقاط التى تجمعها، بل مَغْمورةً بالأقساط التى تنفَعُها، فلْيُبْنَ التاريخُ علىٰ بُنْيانه وليُحْسَم الخُلْف الواقع فى السنين، بهذا الحقِّ الصادِع المبين، وليُنْسَخ المشهودُ به فى جميع الدواوين، ولْيكاتَبْ بُحكْمه من الخراج إلىٰ من يمكِنُه من المستَخْدَمين ـ ومنهـا أن المستجدّ من الأجناد لو حُمِل على السنة الخراجية فى استِغْلاله، وعلى الهلاليَّة فى استِقْباله، لكان مُحالًا علىٰ مايكون مُحالا، وكان يتعَجَّل استِقْبالا، ويُباطِن استعلالا، وفى ذٰلك ماينافِرُ أوصافَ الإنصاف ويصُون الفلاح إن شاء الله تعالىٰ.

الضـــرب الثـانى

(ما يُكتَب به فى زماننـا)

وقد جرتِ العادةُ أن يُكتَب فى قطع الثُّلُث وأنه يفتَتَحُ بخطبة مفتتحة بـ«الحمدُ لله» ثم يقال: وبعـدُ فإنا لِمَا اختصَّنا الله تعالىٰ به من النظَر فى أمر الناس ومصالحِهم، ويذكر ماسنح له من ذٰلك ثم يُقال: ولمّـا كان، ويذكُر قصـة السنين: الشمسيةِ والقمريَّة، وما يطْرَأ بينهما من التباعُد الموجب لنَقْل الشمسية إلى القَمَرية،

ثم يقال : اقتضى الرأىُ الشريفُ أن يحوّلَ مُغَلُّ سنةِ كذا إلى سنة كذا وتُذْكر نسخة ذلك ، ثم يقال : فرُسِم بالأمر الشريف الفلانى لا زال ... ... أن تحوّل سنةُ كذا إلى سنةِ كذا .

وهذه نسخة مرسوم بتحويل السنة القِبْطية إلى العربية ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعلَ الليلَ والنهارَ آيتين ، وصيَّر الشهورَ والأعوام لابتداء المُدَد وانتهائِها غايتَيْن ، ليَعْلَمَ خلقُه عددَ السنينَ والحساب ، وتعمل بريَّتُه على توفيةِ الأوقات حقَّها من الأفعال التى يحصُل بها الاعتداد ويحسُن بها الاحتساب .

نحمدُه على ما خَصَّ أيامنا الزاهرةَ من إنعام النظَر فى مصالح خَلْقِه ، وإمعانِ الفكْر فى تشييد ما بَسَط لهم من رِزْقِه ، وإزالة الضَّرر فى تيسير القيام بما أوجبَ عليهم من حقِّه ؛ ونشهد أنْ لا إلهَ إلا الله وحده لا شريكَ له شهادةً عاصمةً من الزيغ ذا هَوى ، معتصمةً من التوفيق بأقْوى أسباب التوثيق وأوثَقِ أسباب القُوى ، شافعةً حُسنَ العمل فى مصالح العباد بحُسْن النية ، فإنَّ الأعمالَ بالنيات وإنَّما لكُلِّ امرئٍ ما نَوى ؛ ونشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه الله رحمةً للعالمين ، وحجةً على العامِلين ، ونشر دعْوتَه فى الآفاق فأيَّده لإقامتها بنَصْره وبالمؤمنين ؛ صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين أُمروا فأطاعُوا ، ونُهُوا فاجتنَبُوا ما نُهوا عنه ما استطاعُوا ، صلاةً تنمى نَماءَ البُدور ، وتَبْقَى بقاءَ الدُّهور ، وتُطْوى بنشرها مراحلُ الأيام إلى يوم النُّشور .

وبعد ، فإنَّا لما اختصَّنا الله تعالى به من التوفُّر على مصالح الإسلام ، والتناوُل لما تنْشَرح به فى مواقِف الجهاد ، صدُورُ السيوف وتنطِقُ به فى مصالح العبَاد ، السنةُ الأقلام ، نَتْبَع كلَّ أمر فنَسُدّ خَلَلَه ، ونُثَقِّف مَيلَه ، ونُقيم أوَدَه ، وننظُر ليومه

بما يصلح به يومُه ولغده بما يُصْلِح غَدَه، إصلاحًا لكل حالٍ بحسَبِه ، وتقريباً لكل شيءٍ علىٰ ما هو أليقُ بشأنه و إقرارا لكلِّ أمرٍ علىٰ ما هو الأحسَنُ به .

ولما كان الزمنُ مقسومًا بين سنينَ شمسيةٍ يتَّفِق فيها ما أخرج الله تعالىٰ من الرِّزْق لعباده ، و يحصُلُ بها ميقاتُ القُوت الذى قال الله تعالىٰ فيه : ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِه إذا أَثْمَرَ وآتُوا حَقَّه يَوْمَ حَصَادِه﴾ وقمريَّة لا يُعَوَّل فى أحكام الدِّين إلا عليها، ولا يُرجَع فى تواريخ الإسلامِ إلَّا إلَيْها، ولا تُعتبر العبادةُ الزمانيَّة إلا بأهلَّتِها، ولا يُهتدىٰ إلىٰ يومِ الحجِّ الأكبرِ إلا بأدلَّتِها، ولا يعتَدُّ فى العِدَد التى تُحفَظ بها الأنسابُ إلا بأحكامِها، ولا تُعْـلَم الأشهرُ الحُرُم إلا بوُجُودِها فى الأوقات المخصوصـة من عامِها . وكان قد حصل بينَهـما من تفاوُت الأيام فى المُدَد، وآختلاف الشُّهور الهلالية فى العَـدَد ، ما يلزم منـه تداخُلُ مُغَلّ فى مُغَل ، ونسـبةُ شيءٍ راح وآنقضىٰ إلىٰ ما أدركَ الآنَ وحصَلْ، و يؤدِّى ذٰلك إلىٰ إبقاء سنةٍ بغير خَرَاج، وهَدْر ما يجب تركُه فليس الوقتُ إليه محتاج ، و إلغاءِ ما يتعيَّن إلغاؤُه ، و إسقاطِ ما تلتفتُ إليه الأذهان وهو لا يمكِنُ رجاؤُه، و إن كان ذٰلك الإسقاط لاضَرَرَ فيه على العباد والبِلاد ، ولا نقْص يَنْتُج منه للأُمَراء والأجناد ، ولا حقيقةَ له ولا معنىٰ ، ولا إهمـالَ شيء أفْقر تركُه ولا إبقاؤُه أغنىٰ ، ولٰكن صار ذٰلك من عوائد الزَّمَن القـديمِ ، ومُصطَلَحا لا تزال العقُول بالآحتياج إلىٰ فعْـله عَليمه ، وأمْرا لا بُدّ للمُلْك منه، وحالا لامنْدُوحة للدُّوَل عنه ، لتغدو التصرُّفاتُ على الآستقامة ماشيَه، والمعاملاتُ من الحق ناشـيَه، و يُعفىٰ رسمُ مالم يكن فى الحقيقـة رابطْ ، و يزال آسمُ مالو توسَّمه الفضـلُ لأضحىٰ كأنه يُغالِط ـ آقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن تحوَّل هذه السـنةُ التى يحصُل بها الكَبْس ، وأن يَدْحَضَها يقينُ النفس ، وأن يُرفَع ما بها من أشكال الإشْكال ، و يُزالَ هـذا السببُ الذى نشأ عنه دخولُ الأكثر باسـتِدْراج الأقَلّ فلا يكونُ للأذهان عليـه آتِّكال .

نظرًا بذلك فى مصالح الأمّه ، ودفعا لما يجدونه من أوهام مُدْلَهِمَّه ، وعملًا يطابق به الدليلُ حكمَه ، و يوافقُ فيه اللفظُ معناه والفعلُ آسمَه ، وتخفيفًا عن الرعية من لزوم مالا يلزم فى الحقيقة عملًا بقوله تعالىٰ : ﴿ ذٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ .

فلذٰلك رُسِم بالأمر الشريف ــ لازال عدْلُه سائرا فى الأيّام والأنام ، وفضْلُه [سائدا] بالرِّفق الذى تغْدُو به العقُول والعيُونُ كأنها من الأمْن فى منَام ــ أن يُحوّل مُغَلُّ سنة تسع وأربعين وسَبْعمائة بالديار المصرية المحروسة ، لمُغَلّ سنة خمسين وسبعمائة ، ويُلْغىٰ آسمُ مُغَل السنة المذكوره ، من الدَّواوين المعموره ، ولا يُنْسَب إليها مُغَلُّ بل يكون مُغَلُّ سنة خمسين وسبعمائة تاليًا لمُغَل سنة ثمانٍ وأربعين وسبعمائة ، وتستقرّ السنةُ حينئذٍ هلاليَّةً خَرَاجيَّةً بحكم دَوَرانِ السنين ، وآستحقاقُ هذا التحويل من مدّة خمسَ عشرةَ سنة ، حيث آتفاقُ مبدإ السنين الشمسية والقمريّة ، ووُقوع الإغفال عن هذا المُبْهَم فى الدول الماضية ، لتكون هذه الدولة الشريفة قائمةً بما قَعد عنه من مَضَىٰ من الدول ، مُقَوِّمةً بعَوْن الله لكل متأوِّدٍ من الزَّيْغ والخَلَل ، لما فى ذٰلك من المصلحة العامّه ، والمِنْحة التامّه ، والحقّ الواضح ، والقَصْد الناجح ، والمَنْهج القَويم ، والصِّراط المستقيم ، والآعتمادِ على الشهور القمريَّة قال الله تعالىٰ : ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ .

فليُعْتَمَدْ حُكْمُ ماقرّرْناه ، وليُمتَثَلْ أمرُ ماأمَرْناه ، وليُثبَّت ذٰلك فى الدّواوين ، وليُشْهَر نَبَؤُه المبين ، وليُسْقَطْ ماتخلّل بين هاتين السنتين من المُغَلّ الذى لاحقيقةَ له ، وليُتْرَكْ مابينَهما من التفاوُت الذى لا تَعْرف الحُسْبانات مُعدّله ، وليُمْحَ آسمُ هـذه الأيام من الدفاتر ، ولْيُنْسَ حكمُها فإنها أَوْلىٰ بذٰلك فى الزمن الآتى والغابر ، فليس المُغَلّ سوىٰ للعام الذى وُجد فيه سببُه ، وظهر فيه حصولُه وتعيّن طلَبُه ، وأَدْرَكَ فى إبّانه ، وجاء

فى زمانه، وأينع به ثمرُ غَرْسه، وآستُحِقَّ فى وقته لا كما يلزم أن يكون اليومُ فى أمْسه؛ وفى ذلك من الأسباب الباعثة على مارسَمْنا به، والدَّواعى اللازمة لذَهَابه، والبراهين القاطعة بقطْعه، والدلائل الواضحة على دَفْعه، ماقدّمناه : من المصالح المعيَّنه، والطُّرُق المبيَّنه، وإزالة الأوْهام، وتأكيد الأفْهام، وإراحة الخَوَاطر، وإزاحة ما تتشوّق إليه الظُّنونُ فى الظاهر؛ وليُبْطَل ذلك من الآرتفاعات بالكُلِّيَّه، ويُسْقَط من الجرائد لتغدُوَ الحُسْبانات منه خَلِيَّه، ولا يُذْكَرَ مُغَل السنة المدحوضة فى سجلٍّ ولا مَشْروح، ولا مشهودٍ يغدُو حكمه ويَرُوح، ولا مكلَّفات تُودعها الأقلام شيئاً على المَجَاز وهو فى الحقيقة مَطْرُوح، لتَثْبُتَ الحسناتُ لأيامنا الزاهرة فى هذا المَحْو، ويُكْشَف ماينْتجُ بسماء العقل من غيم الجَهالة بما وَضَح من هذا الصَّحْو، ويتَمَسَّكَ فى صحة العبادات والمعاملات بالسنِينَ العربية من غير خُروج عن ذلك النحو، والله تعالى يُبَيِّنُ بنَا طُرُقَ الصواب، ويُحْسن ببقاء مُلكنا الشريف المآلَ والمآب، ويجعلُ دولتنا تُوَضِّح الأحكام على آختلاف الجديدين : ﴿ إنَّ فى خَلْق السَّمٰوَاتِ والأَرْض وآخْتِلاف اللَّيْل والنَّهارِ لآيَات لِأُولِى الأَلْبَاب ﴾ .

والآعتمادُ فيه على الخط الشريف ــ أعلاه الله تعالى ــ أعلاه، إن شاء الله تعالى .

حادى عِشْرِين[1] جمادى الأولى سنة خمسين وسبعمائة .

حَسَبَ المرسوم الشريف، بالإشارة الكافلية السيفيَّة، كافل الممالك الشريفة الإسلامية، أعزَّ الله تعالى نُصْرته، ثم الحَمْدلة والتصلية والحَسْبلة .

قلت : وهذه النسخةُ صدْرُها إلى قوله : والشهورُ الهلاليةُ أجنبىٌّ عما بعدَ ذلك من تتمة الكلام . وذلك أنى ظَفِرت بعَجُز النسخة، وهو المكتتَب فى تحويل

(١) كذا فى الأصل باثبات النون وهو كثير فى كتابات الكتاب وهو لحن .

ســنة تسع وأربعين فى نفس المرسومِ الشريفِ الذى شملتْـه العلامةُ الشريفــة ، وقد قُطِع أوّله فركّبتها علىٰ هذا الصدْر .

ومن عجيبِ ما يُذْكَر فى ذٰلك أن سنة تِسع وأربعين التى حُوِّلت إلىٰ سنةِ خمسين هى الســنة التى وقَع فيها الطاعونُ الجـارفُ الذى عمّ الأقطارَ خلا المدينةَ النبويَّةَ، علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام التى أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم أنه لا يَدْخُلها الطاعون، وكَثُر فيها الموتُ حتى ٱنتهىٰ إلىٰ عشرين ألفًا فى اليوم الواحد، وكان يُقال فى هذه السنة لمـا حُوِّلت : [مات كلُّ شىء حتى الســنة] لإلغائها . وجَعْل مُغَلِّ سنة خمسين تاليا لُمغَل سنة ثمـانٍ وأربعين كما تقدّم .

الفصــــلُ الثـانى
من البـاب الرابــع من المقـالة السادســة
(فيــما يُكتَب فى التــذاكر)

والتّــذاكر جمــع تَذْكِرة .

قال "فى موادّ البيان" : وقد جرتِ العـادةُ أن تُضَمَّن جمَلَ الأموال التى يُسافِر بها الرسولُ ليعودَ إليهـا إن أغفل شيئًا منها أو نسـيه ، أو تكونَ حجةً له فيما يُورِده ويُصدِره، قال : ولا غنًى بالكاتب عن العِلم بعُنْواناتها وترتيبها .

فأما عُنوانُ التــذْكِرة فيكون فى صَــدْرها تِلْوَ البسملة، فإن كانت للرسول يعْمَل عليها، قيل : تَذْكِرة مُنْجِحة صدرتْ علىٰ يد فلان عند وصوله إلىٰ فلان بن فلان، وينْتَهِى بمشيئة الله تعالىٰ إلىٰ ما نُصَّ فيها . وإن كانت حجةً له يَعْرِضها لتَشْهد بصدق

مايورده، قيل : تذكرة مُنْجِحة صدرتْ علىٰ يد فلانٍ بنِ فلان بما يحتاجُ إلىٰ عَرْضه علىٰ فلان .

وأما الترتيبُ فيختلف أيضا بحَسَب آختلاف العُنوان : فإن كانتْ على الرسم الأوّل ، كانَ بصدرها « قد آستخَرْنا الله عزَّ وجل وندَبْناك ، أو عوّلْنا عليك ، أو نفَّذناك ، أو وَجَّهناك إلىٰ فلان : لإيصال ما أودَعْناك وشافَهْناك به من كذا وكذا » ويَقُصُّ جميع الأغراض التى أُلْقِيت إليه مجَملة . و إن كانت محمولةً علىٰ يده كالحُجة له فيما يَعْرِضه ، قيل : « قد آستخرْنا الله عزَّ وجل وعوّلْنا عليك فى تحمُّل تَذْكِرتنا هذه والشُّخُوص بها إلىٰ فلان ، أو النُّفُوذ ، أو التَّوجُّه ، أو المَصير ، أو القصد بها و إيصالها إليه ، وعَرْض ماتضمَّنته عليه ، من كذا وكذا » ويقُصُّ جميع أغراضها .

ثم قال : وهذه التذاكرُ أحكامُها أحكامُ الكتب فى النُّفوذ عن الأعلىٰ إلى الأدْنىٰ ، وعن الأدنىٰ إلى الأعلىٰ ، فينبغى أن تُبْتَنىٰ علىٰ ما يَحفَظُ رتَب الكاتب والمكتوب إليه : فإن كانتْ صادرةً عن الوزير إلى الخليفة مثلا فتُصَدَّر بما مثاله « قد آستخرتُ الله تعالىٰ ، وعوّلتُ عليك فى الشُّخُوص إلىٰ حضرة أمير المؤمنين ــ صلواتُ الله عليه ــ متحَمِّلا هذه التَّذْكِرة ، فإذا مَثَلْت بالمواقف المطَهَّرة ، فوَفِّها حقَّها من الإعظام والإكبار ، والإجْلال والوَقَار ، وقدِّم تقبيلَ الأرض والمطالعةَ بما أشاءُ مواصلتَه من شُكْرِ نِعَم أمير المؤمنين الضافيةِ علىّ ، المتتابعةِ لَدَىّ ، و إخْلاصِى لطاعته ، وآنتصابى فى خدمته ، وتَوْفيرى على الدعاء بثَبات دولته ، وخُلُود مملكته ، وطالِعْ بكذا وكذا » وعلىٰ هذا النظام إلىٰ آخر المراتب يعنى مراتب المكاتبات .

قلت : والذى جرىٰ عليه آصطلاحُ كُتَّاب الزمان فى التذاكر أنَّ التذْكِرة تكتب فى قطع الشامى ، تُكْسَر فيها الفَرْخة الكاملةُ نصفين ، وتجعل دفترًا وورقةً إلىٰ جنب

أخرىٰ لا كُرَّاسةً بعضُها داخلُ بعض ، وتكون كتابتُها بقَلَم الرِّقاع ، وتكون البسملة فى أعلىٰ باطن الورقة الأُولىٰ ببياضٍ قليلٍ من أعلاها وهامش عن يمينها ؛ ثم يُكتَب السطر التالى من التذْكرة علىٰ سَمْت البسملة ملاصقًا لها ، ثم يُخَلَّىٰ قدرُ عرض إصبعين بياضا ويُكتَب السطر التالى ، ثم يخلَّىٰ قدر إصبع بياضا ويكتب السطر التالى؛ ويجرى فى باقى الأسْطُر علىٰ ذلك حتى يأتى علىٰ آخر الورقة، ثم يُكتَب باطنُ الورقة التى تليها كذٰلك ، ثم ظاهرها كذلك ، ثم الورقة الثانيةُ فما بعدها علىٰ هذا الترتيب إلىٰ آخر التذكرة ، ثم يكتب « إن شاء الله تعالىٰ » ثم التاريخ ، ثم الحمدلة والصلاة على النبىّ صلى الله عليه وسلم ، ثم الحسبلة، علىٰ نحو ماتقدّم فى المكاتَبات والولايات وغيرِها علىٰ ماتقدّم بيانه فى المقالة الثالثة فى الكلام على الخواتم .

وهذه نسخةُ تذْكرة أنشأها القاضى الفاضلُ عن السلطان صلاح الدين يوسفَ ٱبن أيُّوب ، سيَّرها صُحْبَةَ الأمير شمس الدين الخطيب : أحدِ أمراءِ الدولة الصلاحية إلىٰ أبواب الخلافة ببغْدادَ فى خلافة الناصر لِدين الله ، وهى :

تَذْكرةٌ مباركة ولم تزل الذِّكْرىٰ للؤمنين نافعه ، ولعَوارِض الشكِّ دافعه ، ضُمِّنت أغراضًا يُقَيِّدها الكتّاب ، إلىٰ أن يُطْلِقَها الخطاب . علىٰ أن السائرَ سَيَّار البيان ، والرسولَ يَمْضِى علىٰ رِسْل التبيان ؛ والله سبحانه يُسدّده قائلا وفاعلا ، ويحفَظُه بادئًا وعائدًا ومُقِيما وراحلا .

الأميرُ الفقيهُ شمسُ الدين خطيبُ الخطباء ــ أدام الله نعمتَه ، وكتَب سلامتَه ، وأحسن صَحَابَتَه ــ يتوجَّه بعد الاستخارة ويقْصِد دارَ السلام ، والخِطَّةَ التى هى عُشُّ بيضة الإسلام ، ومجتَمَع رجاء الرِّجال ، ومتَّسَع رحاب الرِّحال ، فإذا نظَر تلك الدارَ

الدارّ سَحابُها ، وشاقَهَ بالنظر مَعَالمَ ذلك الحَرَم المحرّم على الخُطوب خِطابُها ، ووَقَف أمامَ تلك المواقفِ التى تحْسُد الأرجلَ عليها الرُّءوس ، وقام بتلك المنازلِ التى تُنافس الأجسامَ فيها النُّفُوس ، فلو ٱستطاعَتْ لزارَتِ الأرواحُ محرِمةً من أجسادِها ، وطافَتْ بكَعْبتها متجرّدةً من أغمادها ، فلْيُمْطِر الأرضَ هناك عنّا قُبَلا تُخَضِّبها ، بأعداد لا نُحصِّلها ، ولْيُسَلِّم عليها سلاما نعْتَدُّه من شعائر الدين اللازمه ، وسُنَن الإسلام القائمه ، ولْيُورِدْ عنا تحيَّةً يستنْزِلها من عند الله تحيةً مباركةً طيِّبه ، وصلاةً تخترِق أنوارُها الأستارَ المحجَّبه ، ولْيُصافح عنّا بوجْهه صَفْحة الثَّرىٰ ، وليستَشْرِف عنّا بنظره فقد ظَفِر بصباح السُّرىٰ ، ولْيستلِم الأركانَ الشريفة ، فإن الدِّين إليها مستَنِد ، وليستَدِم الملاحظاتِ اللَّطيفة ، فإنَّ النُّور منها مستَمَدّ ، وإذا قضَى التسليمَ وحقَّ اللقاء ، وٱستدعى الإخلاصُ جَهْد الدعاء ، فلْيَعُدْ ولْيُعِدْ حوادثَ ما كانتْ حديثا يُفْترىٰ ، وجَوارِىَ أمور إن قال منها كثيراً فأكثرُ منه ما جرىٰ ، وليشْرَحْ صدرا منها لعلّه يشْرَحُ منا صَدْرا ، ولْيُوضِّح الأحوالَ المستسرة فإنَّ الله لا يُعْبَدُ سِرّا :

وَمِن الغَرائِب أنْ تَسيرَ غَرائِبٌ * فى الأرضِ لَمْ يَعْلَمْ بها المَأْمُول

كالْعِيس أقتَلُ ما يكونُ لها الظَّمَا * والماءُ فَوْقَ ظُهُورِها مَحْمُول

فإنّا كنّا نقتَبِس النارَ بأيدينا ، وغيرنا يستنير ، ونستَنْبِط الماء بأيْدِنا ، وغيرُنا يستَمِير ، ونَلْقىَ السِّهام بنحورنا ، وغيرُنا يعَبِّر التصوير ، ونُصافح الصِّفاح بصُدُورنا ، وغيرنا يدَّعِى التصدير ، ولا بدّ أنْ نستَرِدَّ بضاعتنا ، بموقِف العدْل الذى تُرَدُّ به الغُصوب ، ونُظْهِر طاعتنا ، فنَأْخُذُ بحظ الألسنة كما أخذْنا بحظِّ القُلُوب ، وما كان العائقُ إلا أنّا كنّا ننْظُر ابتداءً من الجانب الشريف بالنعمه ، يُضاهى ابتداءَنا بالخدْمه ، وإيجابًا للحق ، يشاكل إيجابَنَا للسَّبْق ، إلىٰ أن يكون سَحابُها بغيرِ يدٍ مستنْزَلا ، وروْضُها بغير غَرْس مُطْفِلا .

كان أوّلُ أمرنا أنا كُنّا فى الشام نفْتَح الفُتوحاتِ مُباشِرين بأنفسنا ونُجاهد الكفّارَ متقدّمين لعساكره نحنُ ووالدُنا وعمُّنا، فأىُّ مدينة فُتِحت، أو مَعْقِلٍ مُلك، أو عسكر للعدُوّ كُسِر، أو مَصَافٍّ للإسلام معه ضرب، فما يجهل أحد، ولا يجحَدُ عدوّ، أنّا نَصْطلِى الجَمْره، ونملك الكَسْره، ونتقدّمُ الجماعة، ونرتّب المقاتلة، وندبّر التعبئة، إلىٰ أن ظهرَتْ فى الشام الآثارُ التى لنا أجْرُها، ولا يضُرُّنا أن يكون لغيرنا ذِكْرُها .

وكانت أخبارُ مصرَ تتّصل بنا بما الأحوالُ عليه فيها من سُوء التدبير، ومما دوْلتُها عليه من غَلَبة صغيرٍ علىٰ كبير، وأن النِّظام قد فَسَد، والإسلامَ بها قد ضَعُف عن إقامته كلُّ قائم بها وقعَد، والفَرَنْج قد احتاج مَنْ يُدَبِّرها إلىٰ أن يُقاطِعَهم بأموال كثيره، لها مَقاديرُ خَطيره، وأنّ كلمة السُّنّة بها وإن كانت مجمُوعه، فإنها مَقْمُوعه، وأحكامَ الشريعة وإن كانت مُسَمّاه، فإنّها مُتَحاماه، وتلكَ البِدَع بها علىٰ ما يُعْلَم، وتلك الضَّلالاتِ فيها علىٰ ما يُفْتَى منها بفراق الإسلام ويُحْكَم، وذٰلك المذهَبُ قد خالط من أهْلِه اللَّحْمَ والدَّم، وتلك الأنصابُ قد نُصِبت آلهةً تُتَّخذ من دُون الله تُعظَّم وتُفَخَّم، فتعالى الله عن شَبَه العِباد، ووَيْلٌ لمن غَرّه تقلُّب الذين كفَرُوا فى البِلاد .

فسمَتْ هِمَمُنا دُونَ هِمَم ملوك الأرض إلىٰ أن نستفْتِح مُقْفَلها ونسترجِعَ للإسلام شارِدَها ونُعِيد على الدِّين ضالّته منها فسِرْنا إليها بعساكرَ ضَخْمه، وجموعٍ جَمّه، وبأموالٍ انتَهكَت الموجُود، وبلغَتْ منّا المجهُود، وأنفَقْناها من خالص ذِمَمنا وكَسْب أيدينا، ومن أَسارَى الفَرَنْج الواقعين فى قبْضتِنا، فعرَضَتْ عوارِضُ مَنعتْ، وتوجّهت للمصريين حِيَل باستنجاد الفَرَنج تمّت : ﴿ولِكُلِّ أجلٍ كِتَاب﴾ . ولكلِّ أملٍ باب .

وكان فى تقدير الله سبحانه أنّا نَمْلِكُها على الوجه الأحسَن ، ونأخُذُها بالحكم الأقْوى الأمْكَن ، فغَدَر الفَرَنج بالمصريين غَدْرة فى هُدْنةٍ عظُم خطْبها وخَبْطُها ،

وعُلِم أنَّ ٱستئصالَ كَلمةِ الإسلام محطُّها، وكاتَبنا المسلمون من مِصْر فى ذٰلك الزمان، كما كاتَبنا المسلمون من الشام فى هـذا الأَوَان، بأنّا إن لم نُدْرِك الأمرَ وإلا خرج من اليـد، وإن لم نَدْفَع غريمَ اليومِ لم يُمْهِل إلى الغـد، فسِرْنا بالعساكر الموجودة والأمراءِ الأهل المعروفةِ إلىٰ بلادٍ قد تمهَّد لنا بها أمران، وتقرَّر لنا فيها فى القُلوب وُدَّان: الأوَّلُ لمـا علمُوه من إيثارنا المذهَبَ الأقوم، وإحياءِ الحقِّ الأقْدَم، والآخَرُ لمـا يرجونه من فكِّ إسَارهم، وإقالة عِثَارهم، ففعل اللهُ ما هو أهلُه، وجاء الخبرُ إلى العدوّ فانقَطع حَبْلُهُ، وضاقَتْ به سُبُله، وأُفْرِج عن الديار بعد أن كانت ضِياعُها ورساتِيقُها وبلادُها وإقليمُها قد نفَذَت فيها أوامِرُه، وخفَقَتْ عليها صُلْبانه، وأمِن من أن يُسْتَرْجَعَ ما كان بأيديهم حاصلا، وأن يُستَنْقَذ ماصار فى مِلْكهم داخلا، ووصَلْنا البـلاد وبها أجنادٌ عَدَدُهم كثير، وسَوَادُهم كبير، وأموالُهم واسعه، وكلمتهم جامعه، وهم علىٰ حربِ الإسلامِ أقدَرُ منهم علىٰ حرْبِ الكُفْر، والحِيلةُ فى السِّرِّ منهم أنفَذُ من العزيمة فى الجهر. وبها راجِلٌ من السُّودان يزيد علىٰ مائةِ ألف رجل كلهـم أغْتامٌ أعجام، إنْ هُمْ إلا كالأنْعام، لا يعرِفُون ربًّا إلا ساكنَ قَصْره، ولا قبلةً إلا مايتوجَّهُون اليـه من رُكْنه. وبها عسكرٌ من الأرْمَن باقونَ على النَّصْرانية موضوعةٌ عنهم الجِزْية كانت لهم شَوْكة وشكَّة، وحَمِيَّـة وحُمَة، ولهم حواشٍ لقَصْرهم من بين داعٍ تَلْطُف فى الضَّلال مَداخِلُه، وتُصيب العقولَ مخاتِلُه، ومن بين كُتَّاب أقلامُهم تفعل أفعالَ الأَسَل، وخُدَّامٍ يجمعُون إلىٰ سَوادِ الوجُوه سَوادَ النِّحَل، ودولةٍ قد كَبِر عليها الصغير، ولم يعرِفْ غيرَها الكبير، ومهابةٍ تمنع خَطرَات الضمير، فكيفَ لَحَظَاتُ التدبير.

هذا إلى استباحةٍ للمَحارِم ظاهرة، وتعطيلٍ للفرائض علىٰ عادة جارية، وتحريف للشَّريعة بالتأويل، وعُدُول إلىٰ غير مُراد الله فى التنزيل، وكُفْرٍ سُمِّي بغـير ٱسمه، وشرع يُتستَّر به ويُحكَم بغير حُكْمه.

فما زلنا نَسْحَتهم تحْت المَبَارِد للشِّفار ، ونتحَيَّفهُم تحَيُّفَ الليل والنهار للأعمار ، بعجائبِ تدبيرٍ ، لا تحتملها المَسَاطِير، وغرائبِ تقرير، لا تحْملها الأساطِير، ولطفِ تَوصُّل ما كان فى حيلةِ البشر ولا قُدرتِهم إلا إعانةُ المقادير، وفى أثناء ذٰلك استنجَدُوا علينا الفَرَنْج دَفعةً إلىٰ بُلْبَيْس ، ودَفْعة إلىٰ دِمْياط ، فى كل منهُما وصَلُوا بالعدوِّ المُجْهِر، والحَشْد الأوفَر، وخصوصا فى نَوْبة دِمْياطَ فإنهم نازَلُوها بحرًا فى ألفِ مَركَبٍ مُقاتِل وحامل، وبَرًّا فى مائتى ألفِ فارس وراجل ، وحصَرُوها شهرين يباكرُونها ويُراوِحُونها ، ويُماسُونها ويُصابِحُونها ، القتالَ الذى يُصْليه الصَّليب ، والقِرَاعَ الذى يُنَادَىٰ به من مكانٍ قريب ، ونحن نُقاتِلُ العدُوّين : الباطنَ والظاهِر ، ونُصابِرُ الضِّدّيْن : المنافِقَ والكافِر ، حتَّى أتَى الله بأمره ، وأيَّدنَا بنَصْره ، وخابتِ المَطامع من المِصْريِّين ومن الفَرَنْج ومن مَلك الرُّوم ومن الجَنَويِّين وأجناسِ الرُّوم لأن أنْفارهم تنافَرَتْ ، ونَصارَاهم تناصَرَت ، وأناجِيلَ طَوَاغيتِهم رُفِعتْ ، وصُلُبَ صَلَبُوتِهم أُخرِجَتْ ، وشرَعْنا فى تلك الطوائفِ من الأجنادِ والسُّودان والأرمن فأخرجْناهم من القاهرة تارةً بالأوامِرِ المُرْهِقة لهم ، وبالذُّنوب الفاضحةِ منهم ، وبالسُّيوف المجرَّدة وبالنار المُحْرِقة ، حتَّى بقِىَ القصرُ ومَنْ به من خَدَمــه قد تفرّقتْ شِــيَعُه ، وتمزَّقت بِدَعُه ، وخفتَتْ دعْوتُه ، وخَفِيَت ضلالَتُه . فهنالك تمَّت لنا إقامةُ الكلِمة والجهرُ بالخطبة والرفعُ لِلواءِ السَّواد الأعظم ، والجمعُ لكلمةِ السَّواد الأعظم ، وعاجلَ اللهُ الطاغيــةَ الأكبرَ بفَنائه ، وبَرَّأنَا من عُهْدةِ يمينٍ كان حِنْثُها أيسَرَ من إثْم إبقائِه ، إلا أنه عُوجِل لفَرْط رَوْعته ، ووافَقَ هلاكُ شخْصه هَلاكَ دَوْلته .

ولمــا خَلا ذَرْعُنا ، ورَحُب وُسْــعُنا ، نظرْنا فى الغَزَوات إلىٰ بلاد الكُفّار ، فلم تخرُجْ سَنَة إلا عن سُــنَّة أُقِيمَتْ فيها برًّا وبحرا ، ومَرْكَبا وظهرا ، إلىٰ أن أوسَعْناهم قَتْلا وأَسْرا ، ومَلَكْنا رقابهم قَهْرا وقَسْرا ، وفتَحْنا لهم معاقلَ ماخطَرَ أهلُ الإسلام فيها

منذُ أُخِذت من أيديهم ، وما أوجفَتْ فيها خيلُهم ولا رِكابُهم مُذْ مَلَكها أعاديهم ، فمنها ماحكَمَتْ فيه يدُ الخراب ، ومنها ما آستولَتْ عليه يدُ الاكتساب ، ومنها قَلْعة بثغر أَيْلَة كان العدوّ قد بَنَاها فى بحر الهِنْد ، وهو المسلوكُ منه إلى الحرمين واليَمَن ، وغزا ساحلَ الحَرَم فسبىٰ منه خَلْقا ، وخَرَق الكفرُ فى هذا الجانب خَرْقا ، فكادت القبلة أن يُستولىٰ علىٰ أصلها ، ومساجدُ الله أن يسكُنَها غيرُ أهلها ، ومَقامُ الخليل صلواتُ الله عليه أن يقومَ به مَنْ نارُه غيرُ بَرْدٍ وسَلام ، ومَضْجَعُ الرسول شرّفه الله أن يتطرّقه من لايَدينُ بما جاء به من الإسلام ، ففتَح اللهُ هذه القلعةَ وصارتْ مَعْقلا للجهاد ، ومَوْئِلا لسُفّار البِلاد ، وغيرِهم من عُبّاد العِباد ، فلو شُرِح ماتَمَّ بها للمسلمين من الأثَر الجليل ، وما آستدَّ من خَلّاتهم ، وأُحْرِق من زُروع المشركين ورُعِى من غَلّاتهم ، إلىٰ أن ضَعُفَت ثغُورُهم ، وآختلّت أُمورُهم ، لاحتيج فيه إلىٰ زمن يَشْغَل عن المهمات الشريفة لسَماع مَوْرِده ، وإيضاح مَقْصده .

وكان باليَمَن ما عُلِم من آبن مَهْدِىٍّ الضالّ وله آثارٌ فى الإسلام ، وثارٌ طالبُه النبىُّ عليه الصلاةُ والسلام ، لأنه سبَى الشرائفَ الصالحاتِ وباعَهُنّ بالثمن البخس ، وآستباحَ منهن كلَّ ما لا تَقِرّ عليه نفس ، وكان بِبِدْعِه دَعا إلىٰ قبر أبيه وسَمّاه كَعْبه ، وأخذ أموالَ الرعايا المعصومة وأجاحَها ، وأحلَّ الفروجَ المحرّمةَ وأباحها ، فأنهضْنا إليه أخانا بعسكرٍ نا بعد أن تكلَّفْنا له نفقاتٍ واسعه ، وأسلحةٍ رائعه ، وسار فأخذْناه ولله الحمد ، وأنجح اللهُ فيه القَصْد ، ووردَتْنا كُتُبُ عساكرنا وأُمَرائنا بما نَفَذ فى آبن مهدىٍّ وبلاده المفتتحة ومَعاقله المستضافة ، والكلمةُ هنالك بمشيئة الله إلىٰ الهند سارِيَهْ ، وإلىٰ مالم يَقْتَضّ الإسلامُ عُذرتَه مُذْ أقام الله كلمتَه مُتَمادِيَهْ .

ولنا فى المَغْرب ، أثرٌ أَغْرب ، وفى أعماله أعمالٌ دُونَ مَطْلَبِها كما يكُون المَهْلَك دُونَ المطْلَب ، وذلك أن بنى عبد المُؤْمن قد آشتهر أنَّ أمْرَهم أَمر ، ومُلْكَهم

قد عَمِر ، وجُيوشَهم لا تُطاق ، وأوامِرَهم لا تُشاقّ ، ونحن والحمـدُ لله قد ملَكْنا ممـا يُجاورنا منه بلادًا تزيد مسافتُها علىٰ شهر، وسيَّرْنا عسكرًا بعد عسكر رجع بنصْرٍ بعـد نَصْر، ومن البلاد المشاهير، والأقاليم الجماهير — لُكّ — بَرْقة — قَفْصة — قَسْطيلية — تَوْزَر، كلُّ هـذه تُقام فيها الخُطبـة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلامُ الله عليـه ، ولا عَهْدَ للإسلام باقامتها، وتُنَفَّذُ فيها الأحكام بعلَمِها المنصورِ وعلامتِها . وفى هذه السنة كان عندنا وَفْدٌ قد شاهده وُفود الأمصار، مقدارُه سبعون راكبا كلُّهـم يطْلُب لسلطان بلده تقليدًا ، ويرجُو منّا وعْدا ويَخاف وَعِيدا .

وقد صدرَتْ عنـا بحمد الله تقاليـدُها ، وأُلقيتْ إلينـا مقاليدُها ، وسـيَّرْنا الخِلَع والألْوِيه ، والمَناشِير بمـا فيها من الأوامر والأقْضِيه .

وأما الأعداءُ الذين يُحْدِقُون بهذه البلاد ، والكُفّارُ الذين يُقاتِلونَها بالممـالك العِظام والعزائِم الشِّداد ، فمنهم صاحب قُسْطَنْطِينِيَّةَ وهو الطاغية الأكْبر، والجبَّار الأكْفَر، وصاحِبُ المملكة التى أكلَتْ على الدَّهْر وشَرِبت ، وقائمُ النَّصرانية التى حكَمَتْ دولتُه علىٰ ممالكها وغلَبَتْ ، وجرَتْ لنا معه غَزَواتٌ بحريّة ، ومُناقلات ظاهريَّة وسرِّية ، وكانت له فى البلاد مطامعُ منها أن يجبى خراجا ، ومنها أن يملِكَ منها فِجَاجا ، وكانت غُصَّـةً لا يُسِيغها المـاء ، وداهيةً لا تُرْجىٰ لهـا الأرضُ بل السَّماء ، فأخذْنا ولله الحمدُ بكَظَامه ، وأقمْناه علىٰ قَدَمه ، ولم نَخْرُج من مصر ، إلىٰ أن وصلَتْنا رسُلُه فى جمعةٍ واحدة فى نوبتَـيْن بكتابين كُلُّ واحد منهما يُظْهِر فيـه خفضَ الجَنَاح ، وإلقاءَ السِّـلاح ، والانتقالَ من مُعاداه ، إلىٰ مُهَـاداه ، ومن مناصَحَه ، إلىٰ مناصحـه ، حتَّى إنه أنْذَر بصاحب صِقِلِّيَةَ وأساطيله التى يَرِدُ ذكرُها ، وعساكرِه التى لم يَخْفَ أمرُها .

ومن هٰؤلاء الكفّار صاحبُ صِقِلّيّة هـذا كان حينَ علم أن صاحبَ الشام وصاحبَ قُسطَنْطينيَّة قد اجتمعَا فى نَوْبة دِمْياط فغُلبا وهُزِمَا وكُسِرا، أراد أن يُظْهِر قوّته المستقلّة بمُفْردها، وعزمته القائمة بمجرّدها، فعمر أسـطولًا استوعبَ فيه مالَه وزمانَه: فإنه الى الآنَ منذُ خمس سنين يكثّر عدّته، وينتخبُ عُدّته، ويجتلبُ مقاتلته الىٰ أن وصل منها فى السنة الخالية إلىٰ إسكندريّة أمرٌ رائع، وخَطْب هائل، ما أثقَلَ ظهرَ البحرِ مثلُ حمْله، ولا ملأ صَدْرَه مثلُ خيله ورَجْله، ماهو إقليمٌ بل أقاليمُ نَقَله، وجيشٌ ما احتَفَل ملكٌ قطّ بنظيره لولا أنّ الله خَذَله؛ ولو ذهبنا نَصِفُ ما ذهبَ فيه من ذَهَب، وما أُخذَ منـه من سِلاح وخيل وعُدَد ومجانيق، ومَنْ أُسِرَ منه من خَيّالة كِبار، ومقدّمينَ ذوى أقدار، وملوك يُقاطِعُون بالجمل التى لها مقْدار؛ وكيف أخْذُه وهو فى العَدَد الأكثر بالعَـدَد الأقلّ من رجالنا، وكيف نصر اللهُ عليـه مع الأصعب من قتاله بالأسْهَل من قتالنا، لعُلِم أنّ عناية الله بالإسلام تُغْنيه عن السلاح، وكفايةَ الله لهذا الدّين تكْفيه مَئُونة الكِفاح؛ ومن هؤلاء الجَنويّين الذين يُسَرّبون الجيوش ـ البنادقةُ ـ البياشنه ـ الجنوية كلُّ هؤلاء تارةً لا تُطاق ضراوةُ ضُرّهم، ولا تُطفأُ شرارةُ شَرّهم؛ وتارة يُجَهّزون سُفّارا يحتكمون على الإسلام فى الأموال المجلُوبه، وتقصُر عنهم يدُ الأحكام المرهُوبه؛ وما منهم الآنَ إلا من يجلُب إلىٰ بلدنا آلةَ قتاله وجهاده، ويتقرّبُ إلينا بإهداء طرائف أعمـاله وبلاده؛ وكلُّهم قد قرّرت معه المواصَفَه، وانتظمتْ معه المسالمه، علىٰ ما نريد ويكرهُون، ونُؤْثِر ولا يُؤْثِرون .

ولـما قضى اللهُ بالوفاة النُّورية، وكنّا فى تلك السنة علىٰ نيّة الغزْو، والعساكرُ قد ظهرَت، والمَضاربُ قد برَزَت، ونزل الفِرَنْج بَانِيَاس وأشرفُوا على احتيازها، ورأوْها فرصــةً مدُّوا إليها يدَ انتهازها، اسـتصرخَ بنا صاحبُها للممانَعَـه، واستنهضَنا لتفريج الكُرَب الواقعه؛ فسرْنا مراحلَ اتّصــل بالعدوّ أمرُها، وعُوجل بالهُدْنة الدّمَشقيّة

التى لولا مسيرُنا ما انتظم حكمُها ولا قُبِل كثيرُها ولا قليلُها ؛ ثم عُدْنا إلى البلاد فتوافتْ إلينا الأخبارُ بما الدولة النُّوريَّة عليه من تشعُّب الآراء وتوزُّعها، وتشتُّت الأمور وتقطُّعها ؛ وأن كلَّ قلعة قد حصَل فيها صاحب، وكلَّ جانب قد طَمَح إليه طالب ؛ والفَرَنْج قد بنَوْا بلادا يتحيَّفُون بها الأطرافَ الإسلاميه، ويضايقون بها البلاد الشاميَّه ؛ وأمراءُ الدولة قد سُجِن أكابرُهم وعُوقِبوا وصُودِرُوا، والمماليكُ الذين للتوقِّى أغرارٌ خُلقوا للأطراف لا للصُّدور، وجُعلوا للقيام لا للجلُوس فى المَحْفِل المحصُور ؛ وقد مَدُّوا الأعيُنَ والأيدىَ والسُّيُوف، وساءتْ سِيرتُهم فى الأمر بالمنكر والنهىِ عن المعروف ؛ وكلٌّ واحد يتَّخذ عند الفَرَنْج يدا، ويجعلُهم لظهره سَنَدا ؛ ويرفَع عنهم ذخيرةً كانت للإسلام، ويُفَرِّج لهم عن أسير من أكابر الكُفَّار كان مُقامُه ممايدفَع شرا، ولا يَزِيدُ نار الكفر جَمْرا، وإطلاقه يجلُب قطيعةً تُقَوِّى إسلاما وتُضْعِف كفرا ؛ فكثُرت إلينا مكاتباتُ أهل الآراء الصائبه، ونظرْنا للإسلام ولنا ولبلاد الإسلامِ فى العاقبه ؛ وعرَفْنا أن البيتَ المقدَّس إن لم تتيسَّر الأسبابُ لفتْحه، وأمْرَ الكفر إن لم يجرِّد العَزْمُ فى قلْعه ؛ وإلا ثبتَتْ عُرُوقه، واتسعت على أهل الدين خُرُوقه ؛ وكانت الحجةُ لله قائمه، وهِممُ القادرين بالقُعود آثمه ؛ وإنا لا نتمكن بمصْرَ منه مع بُعْد المسافة، وانقطاع العِمارة وكَلَال الدواب، وإذا جاورْناه كانت المصلحة باديَة، والمنفعة جامعة، واليدُ قادرة، والبلادُ قريبة، والغَزْوةُ ممكنة ؛ والميرةُ متسعةً والخيلُ مستريحة، والعساكر كثيرة، والجموعُ متيسرة، والأوقاتُ مساعدة ؛ وأصْلحنا مافى الشام من عقائدَ معتلَّه، وأمور مختلَّه ؛ وآراء فاسده، وأُمَراء متحاسده ؛ وأطماعٍ غالبه، وعقولٍ غائبه ؛ وحفظْنا الولَدَ القائم بعدَ أبيه، وكفَلْناه كفالةَ من يقضى الحقَّ ويُوفيه ؛ فإنَّا به أوْلىٰ من قوم يأكُلُون الدنيا باسمه، ويُظهرون الوفاء بخِدَمه وهم عاملون بظُلْمه ؛ والمرادُ الآنَ هو كل ما يُقَوِّى الدوله،

ويؤكِّد الدعوه، ويجمع الأمه، ويحفَظ الألفه، ويضمَن الزُّلفه، ويفتح بقيَّة البلاد، ويطَبِّق بالاسم العَبَّاسيّ كلَّ ما تُخْطِئُه العِهاد ـ ونحن نقترح على الأحْكام المعهُوده، وننتظر أنْ يأتِيَ الإنعامُ على الغايات المَزيده، وهو تقليدٌ جامعٌ لمصر والمَغْرِب واليمن والشام، وكلِّ ماتشتمل عليه الولايَةُ النُّورية، وكل ما يفتحهُ الله للدولة بسُيوفنا وسُيوفِ عساكرِنا، ولمن نُقيمه من أخٍ وولدٍ من بعدنا، تقليدًا يضمَن للنِّعمة تخليدا، وللدَّعْوة تجديدا، مع مايُنْعَم به من السِّمات التى يقتَضِيها المُلْك، فإنَّ الإمارة اليوم بحُسْن نيَّتنا فى الخِدْمة تُصَرِّف بأقلامنا، وتُستفادُ من تَحْت أعلامنا، ويتبيَّنَ أنَّ أمراء الدولة النُّورية يُحتاج اليهم فى فتح البلاد القُدْسية ضرورةً: لأنها منازلُ العساكر، ومجمعُ الأنفار والعشائر، فمتىٰ لم يكنْ عليهم يدٌ حاكمه، وفيهم كلمة نافذه، منَعَهم وُلاةُ البلاد، وبُغاة العناد.

وبالجملة فالشامُ لاينتظمُ أمرُه بمن فيه، وفتحُ بَيْت المَقْدس ليس له قِرْن يقومُ به ويكفيه، والفَرَنْج فهم يعرفُون منا خَصْما لا يَمَلُّ الشرَّ حتَّى يملُّوا، وقِرْنا لا يزَالُ يحرِّم السيف حتَّى يَحِلُّوا، حتى إنا لَمَّا جاوَرْناهم فى هذا الأمد القريب، وعلموا أنَّ المُصحفَ قدجاء بأيدينا يُخاصِم الصليب، استشعرُوا بِفراق بلادهم، وتهادَوْا التعازِيَ لأرواحهم بأجسادهم، وإذا سدَّد رأيَنا حسنُ الرأى ضربْنا بسيفٍ يقْطَع فى غِمْده، وبلغنا المُنىٰ بمشيئة الله ويَدُ كلِّ مسلم تحتَ بُرْده، واستنقذنا أسيرًا من المسجد الذى أسرىٰ اللهُ اليه بعَبْده.

هذا مالاح طَابَهُ علىٰ قَدْر الزمان، والأنفُس تطْلُب علىٰ مِقْدار الإحسان، فإنَّ فى استنهاض نيَّات الخُدَّام بالإنعام مايعُود على الدولة منافعُه، وتَنْكأ الأعداءَ مواقعُه، وتبعثُ العزائمَ من موتِ مَنامها، وتنفُض عن البصائر غُبارَ ظَلامها، والله تعالىٰ يُنْجِد إرادتنا فى الخدمة بمضاعفة الاقتدار، ومساعدة الأقدار، إن شاء الله تعالىٰ.

الضـــرب الثـانى

(ما كان يُكتَب لنوّاب السلطنة بالديار المصرية عند سَـفَر السلطان عن الديار المصـرية)

والعادة أن يُكتَب فيما يتعلق بمُهِـمّات الديار المصرية وأحوالهـا ومصالحِها ، وما يترتَّب فيها ، وما يُمشَىٰ علىٰ حكمه بمصر والقاهرة المحروستين ، وسائر أعمال الديار المصرية ، وما تَبْرُز به المراسيم الشريفةُ فى أمورها وقضاياها ، وآسـتخراج أموالِها وحُمُولها ، وعَمَل جُسُورها وحفائرِها ، وما يتجدّدُ فى ذٰلك ، وما يجرِى هـذا المَجْرىٰ من سائر التعلُّقات ، وتصدُر بذٰلك التذكِرة .

وهذه نسخة تذكِرة سلطانية كُتِب بها عن السلطان الملك الصالح علىّ ، ابن الملك المنصور قلاوون الصالحى ، لكافل السلطنة بالديار المصرية ، الأمير زين الدين كتبغا ، عند سفر السلطان الملك الصالح الى الشام ، وآستقرارِ كتبغا المذكور نائبًا عنه فى سنة تسع وتسعين وستمائة ، من إنشاء أحمدَ بنِ المُكَرَّم بن أبى الحسن الأنصارىّ ، أحد كُتَّاب الدرج يومئذ ومن خَطّه نَقَلْتُ ، وهى :

تذْكِرة نافِعه ، للخيرات جامِعه ، يعتَمِد عليها المجلسُ العالى ، الأميرىُّ ، الزَّينىّ ، كتبغا المنصورىّ ، نائب الســلطنة الشريفة ــ أدام الله عزه ــ فى مُهِمّات الديار المصرية وأحوالها ومصالحها ، وما يترتَّب بها ، وما يُبَتُّ ويُفْصَــل فى القاهرة ومصر المحروستين وسائر أعمال الديار المصرية ، صانها الله تعالىٰ ، وما تُستخرَج به المراسيمُ الشريفة ، المَوْلوية ، السلطانية ، المَلَكية ، الصالحيّة ، الفلانية ــ أنفذها الله تعالىٰ ــ فى أمورها وقضاياها ، وولاياتها وَوُلاتها ، وحمولِها وحفيرها وحفْظها ومتجدّداتها علىٰ ماشُرح فيـــه :

فصـــل الشّرع الشريف :

يَشُدّ من حُكّامه وقُضاته فى تنفيذ قضاياه وتَصْريف أحكامه ، والشّدّ منه فى نَقْضه وإبرامه .

فصـــل العَدْل والانصاف والحق :

يعتَمِدُ ذلك فى جميع المملكة الشريفــة : مُدُنِهــا وقُراها وأعمالِهــا ووِلاياتِها : بحيث يشْــمَل جميعَ الرعايا من خاصٍّ وعامّ ، وبعيــدٍ وقريب ، وغائب وحاضر ، ووارِدٍ وصادِر ، ويستجْلِب الأدعيةَ الصالحة من جميع الناس لهذه الأيّام الزاهرة ، ويَستَنطِق الألسنةَ بذلك ، فإنَّ العدل حجةُ الله ومَحَجّة الخير ، فيدفع كلَّ ضَرَرٍ ويرفَع كلَّ ضَــيْر .

فصـــل الدماء :

يعتَمِد فيها حكمَ الشرع الشريف . ومن وجب عليه قصاصُ يسلَّم لغريمه ليقتَصّ منه بالشرع الشريف ، ومن وجَب عليه القطعُ يُقطَع بالشرع الشريف .

فصـــل الأمور المختصّة بالقاهرة ومصر المحروستين حرسهما الله تعالىٰ :

لا يَتَجوَّزه فيهــا أحدٌ ، ولا يَقْوىٰ قَوِىٌّ علىٰ ضعيف ، ولا يتعــدّىٰ أحدٌ علىٰ أحد جملةً كافية .

فصـــل

يتقدّم بأن لا يَمشِىَ أحدٌ فى المدينة ولا ضواحيها فى الحُسيْنِيّة والأحكار فى الليل إلا لضَرُورةٍ ، ولا يَخْرُجَ أحدٌ من بيتــه لغير ضرورةٍ ماسّــةٍ ، والنساء لا ينْصرفن فى الليل ولا يَخْرُجْن ولا يمشينَ جملةً كافية .

فصـــل الحبوس :

تُحرَس وتُحفَظ بالليل والنهار، وتحلَق لحَى الأَسارىٰ كلِّهم : من فرَنْج وأنطاكيِّين وغيرهم ، ويُتعهَّد ذلك فيهم كلمـا تَنْبُت ، ويُحترَز فى أمر الداخل إلىٰ الحُبوس ، ويُحتَرز على الأسَارىٰ الذين يُستعْمَلون، والرجال الذى يخرُجون معهم، وتُقام الضُّمَّان الثِّقاتُ على الجانْدارِيَّة الذين معهم، ولا يُستخدَم فى ذٰلك غـريب ، ولا مَنْ فيه رِيبة ، ولا تبيت الأَسارى الذين يُستعمَلُون إلا فى الحُبوس ، ولا يخرج أحدٌ منهـم لحاجة تختص به ولا لحَّام ولا كنيسة ولا فُرْجة ، ونُتفقَّد قيودُهم وتُوثَّق فى كل وقت .

ويضاعَف الحـرس فى الليـل علىٰ خِزانة البُنُود باظهار ظاهِرِها وعلُوِّها وحوْلهـا وكذلك خِزانةُ الشمائل وغيرها من الجُيوش .

فصـــل

يُرتَّب جماعة من الجند مع الطُّوَّاف فى المدينة لكَشْف الأزقَّة وغَلْق الدُّروب وتفقُّد أصحابِ الأرباع، وتأديبِ من يُخـلُّ بمركَزه من أصحاب الأرباع، وتكون الدُّروب مغْلَقه . وكذٰلك تجرّدُ جمـاعة الحُسينيَّة والأحكار وجميع المراكز، ويعتَمَد فيها هذا الاَعتماد، ومن وُجِد فى الليل قد خالف المرسومَ ويمشِى لغير عُذْرٍ يُمْسَك ويؤدَّب .

فصـــل

يَحْتَرِز على الأبواب غايةَ الاَحتراز ، ويَتَفَقَّد فى الليـل خارجَها وباطِنَها وعنـد فَتْحِها وغَلْقها .

فصـــل

الأماكنُ التى يجتَمِع فيها الشَّـبابُ وأولُو الدَّعارة ومن يَتعاَنى العَيْثَ والزَّنْطرة ، لا يُفْسَح لأحد فى الاجتماع بهـا فى ليلٍ ولا نهار، ويَكُفُّون الأَكُفَّ اللئامَ بحيث تقوم المهابةُ وتعظُم الحرمة ، وينزجرُ أهل الغيّ والعَيْث والعبث .

فصـــل

يرتّب المجرّدون حولَ المدينتين بالقاهرة ومصر المحروستين على العادة، وكذلك جهةُ القَرافةِ وخلْفَ القلعةِ وجهةُ البحر، وخارجُ الحسينية، ولا يهمَلُ ذلك ليلةً واحدة، ولا يفارِقُ المجرَّدُون مراكزهم إلا عند السُّفُور وتكامُلِ الضوء .

فصـــل

يتقدّمُ بأن لا تجتمعَ الرجالُ والنساءُ في ليالى الجُمَع بالقرافتين، ويمنَعُ النساءَ من ذلك .

فصـــل

مُهِمّات الغائبـين فى البِيكار المنصور تُلْحَظ ويَشُـدّ من نوّابهـم فى أُمُورهم ومصالحهم ، ويَستخْلِص حقوقَهم لنوّابهم وغِلْمانهم ووُكَلائهم؛ ومن كانت له جهةٌ يستخلِص حقَّه منها ولا يتعرَّضُ إلىٰ جهاتهم المستقرّة فيما يستحِقُّونه؛ ويُقَوِّى أَيْدِيَهم، وتُؤخَذ الحُجج علىٰ وكلائهم بما يقْبِضُونه حتى لا يقولَ موكِّلُوهم فى البِيكار : إنَّ كُتُب وكلائنا وردَتْ بأنهم لم يقْبِضوا لنا شيئا ، فيكون ذلك سببا لردّ شكاويهم .

فصـــل

خليجُ القاهرة ومصرَ المحروسـتين يُرْسَم بعَمَله وحَفْره وإتقانه فى وقته : بحيث يكون عَمَلا جيّـدا مُتْقَنا من غير حَيْف علىٰ أحد، بل كُلُّ أحدٍ يعمل ما يلزَمُه عملا جيّـــدا .

فصـــل

جُسورُ ضواحى القاهرة يُسْرِع فى إتقانها وتعريضها ، ويجتهِد فى حُسْن رَصْفها وفتْح مَشارِبها ، وحفْظها من الطارق عليهـا ، وتبقىٰ متْقَنةً مكملة إلىٰ وقتِ النِّيـل المبارك ؛ ولا يخرُجُ فى أمرها عن العادة، ولا يحتَمى أحدٌ عن العمل فيها بمـا

يلزَمه ؛ ويحمَــلُ الأمرُ فى جَرَارِيفها ومُقَلْقِلاتِها علىٰ ما تقــدّمَتْ به المراسيمُ الشريفة فى أمرِ الجسور القريبةِ والبعيدةِ .

فصـــل فى الأعمـــال والولايات .

تُنجّز الأمثلةُ الشريفةُ السـلطانية ، المولويةُ ، المَلكية ، الصالحية ، الفلانية ، شرفها الله تعالىٰ ، بإتقان عملِ الجُسور وتجويدها وتعريضها وتفقّد القناطر والترّاع ، وعملِ ماتهدَّم منها وترميم ماوهىٰ ، وإصلاح ماتشعّث من أبوابها ، وتحصيلِ أصنافها التى تدعو الحاجةُ اليها فىوقتِ النّيل ، وتعتَمدُ المراسيمُ الشريفة من أنّ أحدا لايعمل بالجاه ، ومَنْ وجب عليه فيها العملُ يعْمَل على العادة فى الأيام الصالحيّــة ، ويُؤكّد على الوُلاة فى مباشَرَتها بنفُوسهم ، وأن لايتّكِلوا على المُشدِّين ، وأىُّ جهةٍ حصل منها نقصٌ أو خَلَل كان قُبـالَةَ ذلك رُوحُ والِى ذلك العملِ ومالُه ؛ ويُشدَّد على الولاة فى ذلك غايةَ التشديد ، ويحذَّر أتمَّ التحذير ، وتؤخَذُ خطوطُ الولاة بأنّ الجسورَ قد أُتْقِن عملُها على الوضع المرسومِ به ، وأنها أُتقِنَتْ ولم يَبْق فيها خَلَل ، ولا ما يخْشَوْن عاقبتَه ، ولا ما يخافُون دَرَكه ، وأنها عُمِلت علىٰ ما رُسِم .

فصـــل

يتقدّمُ إلىٰ الوُلاة ويستخْرِج الأمثـلَة الشريفَة السـلطانية بترتيب الخُفَراء علىٰ ما كان الحالُ رُتِّب عليــه فى الأيام الظاهرِيّة : أن يُرتَّب من البلد إلى البلد خُفراءُ ينزلون ببيوتِ شَعَر على الطُّرُقات على البلدين ، يَخْفُرُون الرائحَ والغادِىَ ، وأىُّ مَنْ عُدم له شىء يلزمه دَرَكُه ، ويُنادىٰ فى البلاد أن لايسافِرَ أحدٌ فى الليل ولا يُغَرِّر ، ولا يسافِر الناس إلا من طلوع الشمس إلىٰ غُرُوبها ، ويؤكّد فى ذلك التأكيد التام .

فصـــل الثغور المحروسة :

يُلاحِظ أمورَها ومهمَّاتِها ، ويستخرج الأمثلةَ الشريفة السلطانية فى مُهِمَّاتها وأحوالِها وحفظِها ، والاحترازِ على المعتقَلين بها ، والاستظهار فى حِفْظهم ، والتيقُّظ لمهمَّات الثغر ، واستجلاب قُلُوب التُّجار ، واستمالةِ خواطرِهم ، ومعاملتِهم بالرِّفق والعدل حتى تتواصلَ التجار وتَعْمُر الثغور ، ويؤكِّد عليها فى المستخْرَج وتحصيل الأموال ، وأصناف الذَّخائر ، وأصناف الخزائن المعمورة والحَوَائج خاناه ، ويُوعِز إليهم بأنَّ هذا وقتُ انفتاح البحر وحضور التِّجار وتَزْجِيةِ الأموال ، وصلاح الأحوال ، والنهضةِ فى تكثير الحُمُول ، ويُؤكِّد عليهم فى المُواصلةَ بها ، وأن تكون حُمُولا متوفِّرة ، وأنه لا يُفرِّط فى مستخْرَج حقوقِ المراكب الواصلة ، ولا يُقلِّل متحصِّلَها ، ولا ينقَصُ حِملُها ، ويُسَيِّر بحِمْلها حَمْلًا إلىٰ بيت المال المعمور على العادة ، ويؤكِّد عليهم فى الاستعمالات ، وتحصيل الأقمشةِ والأمتعةِ علىٰ اختلاف أصنافها وإزالةِ الأعذار فيها : بحيثُ لا يتوقَّف أمر الاستعمالات ولا يؤخِّر مهمُّها عن وقته ، ومهْمَا وصل من المماليك والجوارِى والحريرِ والوبَرِ والأطلس والفِضَّة الحجر ، وأقصابِ الذهب المغْزُول يعتَمَدُ فى تحصيله العا.ة .

فصـــل

يؤكِّد علىٰ وُلاة الأعمال فى استخلاص الحُقُوق الديوانية من جهاتها ، والمواصلةِ بالحمول فى أوقاتها ، ومباشرةِ أحوال الأقصابِ ومَعَاصِرها فى أوقاتها ، واعتمادِ مصلحة كل عملٍ علىٰ ما يناسبه وتقتضيه مصلحتُه : من مستخْرَج ومستَغَل ، ومحمُول ومُزْدَرَع ، ومستعمل ومُنْفَق ، ويحذِّرهم عن حصول خَلَل ، أو ظهور عَجْز ، أو فُتُور عَزْم ، أو تقصير رَأْى ، أو ما يقتضى الإنكارَ ويُوجِب المؤاخذة ، ويشَدِّد فى ذٰلك ما تقتضيه فرصُ الأوقات التى ينبغى انتهازُها علىٰ ما يطالعون به .

فصــل [أموال] الخراج الديوانية :

يحترز عليها وتُربّى وتَنَمّى ، ولا يطلَق منها شىءٌ إلا بمرسوم شريفٍ منّا ، ويُطالـع بأنّ المرسوم ورد بكذا وكذا ويعود الجواب بمـا يعتمَد فى ذلك .

فصــل حقوق الأُمراءِ والبحرية والحَلْقةِ المنصورة والجُنْد وجِهاتهم :

يستخْلِصُ أموالَهم ووكلاءَهم ، ويُوجِد الشهادات بما عليهم من غَلّة ودراهم ، وغير ذلك ، ولا يحوِجُ الوكلاءَ إلىٰ شكْوىٰ منهم تتصل بمن هو فى البيكار ، ويحْسِم هذه المـادّة ، ويَسُدّ أبواب المماطلة عنهم .

فصــل

يتقدّمُ إلىٰ الوُلاة والنُّظّار والمستخْدَمين بعمل أوراق بما يتحَصّل للمُقْطَعين الأصلية (؟) فى كل بلد ، ولمُقْطَع الجهة ، ولمن أُفْرِد له طينٌ بجهة ، وان جهتُه على الرسوم : ليُعلَمَ حالُ المقطَعين فى هذه السنة الجيشيّة والجهاتيّة وما تحصّل لكل منهم ، ولا يحصُلُ من أحد من الوُلاة مكاشرةٌ ولا إهمـالٌ ، ولا يطْمَع فى الوكلاء لأجل غَيْبةِ الأمراء والمقْطَعين فى البيكار ، ولا يُحوَج أحدٌ من المقطَعين إلىٰ شكْوىٰ بسبب متأخّر ولا ظليمةٍ ولا إجْحاف .

فصــل

إذا خرج جانْدار من مصر إلى الأعمال لايُعطىٰ فى العمل أكثرَ من درهمين نُقْرةً ، ويوصّل الحقّ الذى جاء فيه لمستَحِقّه ، فإن حصل منه قالٌ وقيلٌ أوحيفٌ أوتعنّت يُرسَم عليه ، ويُسَيّر الحقّ مع صاحبه معه ، ويطالـعُ بأن فلانا الجاندار حضر وجرىٰ منه كذا وكذا ، ويشرحُ الصورةَ ليحْسِم الموادّ بذلك .

فصـــل

إذا سَيَّر أحدٌ من الولاة رسولا بسببِ خلاص حقٍّ من بعض قرىٰ أعماله فيكون مايُعْطىٰ الجاندار عن مسافة سفر يومٍ نصفَ نُقْرة ، وعن يومين درهمٌ واحدٌ لاغيرُ، وأيُّ جاندار تعدّى وأخذ غير ذٰلك يؤدَّبُ ويُصْرَف من تلك الولاية .

فصـــل :

تُكتبُ الحُجج علىٰ كل وكيل يقبِضُ لمخدُومه شيئًا من مُغَلّه أو جِهته : من الديوان أو الفلّاحين؛ ولا يسـلَّم له شيءٌ إلا بشهادةٍ بحُجَج مكتتبة عليـه، تُخَلَّد منها حجّـةٌ الديوان المعمور بمـا قَبَضه من جِهته أو إقطاعه، وتبقىَ الحججُ حاصلة حتى إذا شكا أحد إلينا وسيَّرْنا عَرَّفناهم بمن يشكو مِن تأخُّر حقه، يُطالعونَنا بأمر وكيله وما قَبَض من حقه، وتُسيَّر الشهادةُ عليه طَيَّ مطالَعته، (ويُحترز من الشهادات) بما وصل لكلِّ مُتْمَطع، حتّى إنا نعـلم من مضمون الحجج والشهادات متحَصَّل المُقْطَعين من البلاد والجهات مُفَصَّلا وجملَة ما حصل لكل منهم : من عين وغلة وما تأخَّر لكل منهم، ويَعمل بذٰلك صورةَ أمور البلاد والمُقْطَعين وأحوالِهم، ويُزيلُ شكوىٰ من تجب إزالةُ شكواه، وتُعلم أحوالهم علىٰ الجليَّة .

فصـــل

تقرأ هــذه التذاكر على المنابر فصلا فصلا ، ليسمعَها القريبُ والبعيدُ ، ويُبلِّغها الحاضرُ والغائب، ويَعمَل بمضمُونها كل أحد . ومَنْ خَرَج عنها أو عمِل بخـلافها فهو أخبَرُ بمـا يلقاه من سَطواتنا وشدّة بأسنا، والسلام .

الضــــرب الثــالث

(ما كان يُكتَب لنُوّاب القِلاع ووُلَاتها : إما عند آستقرارِ النائب بها ، وإما فى خلال نيابتِــه)

والعادةُ فيها أن يُكتب فيها باعتماد الكَشْف عن أحوال القَلْعة وأسوارها وعَرْض حواصلها، ومقدَّمى رجالها ، وترتيبِ الرجال فى مراكزِهم، وكشفِ مَظَالِم الرعايا، والنظرِ فى الاحتراز على القلعةِ وعلىٰ أبوابها، والاحتفاظِ بمفاتيحها على العادة، وتحصيلِ مايُحتاج إليه فيها من الزاد والحَطَب والمِلْح والفَحْم وغيرِ ذٰلك . والمطالعةِ بمتجدِّدات الأخبــار .

وهذه نسخةُ تذكِرة كُتِب بها عن الســلطان الملك المنصور قلاوون بسبب قلعة صَرْخَدَ من الشام، عند آستقرار الأمير سيف الدين باسطى نائبًا بها ، والأمير عزالدين واليًا بها فى سنة تسع وسبعين وستمائة، من إنشاء القاضى محيى الدِّين بنِ عبد الظاهر صاحبِ ديوان الإنشاء الشريف بالأبواب السلطانية، وهى :

تذكِرةٌ مبارَكة نافعه، لكثيرٍ من المصالح جامعَه، يعتَمِد عليها الأميران: سيفُ الدين وعزُّ الدين عند توجُّهِهما إلىٰ قلعة صَرْخَدَ المحروسة :

يعتَمِدان العدلَ فى الرعيه، وسلُوكَ مَنْهَج الحق فى كل قضيَّه، وآعتمادَ ما يُرضِى اللهَ تعالىٰ ويُرْضِينا ، ولْيكُنِ الإنصافُ لهما عقيدةً والتقوىٰ دِينا، ولا يتطَلَّع أحدُهمــا إلىٰ ما فى يدِ أحد من مال ولا نَشَب ، ولا يُعــارِضْ أحدٌ أحدا بلا سَبَب، وليتقُوا اللهَ ويخشَوْه ، ويتجنَّبُوا الباطل ولا يَغْشَوْه ، ولا يظُنَّ أحدٌ منهم أن قد بَعُد عنا فيطمَحَ إلى الظلم أو يطْمَع ، فإنا منهم بمرأًى ومَسْمَع ، ولْيكونُوا على المصالح متفقين ، وبأذيال الحق متعلِّقين ، وعلى الرعيَّة مشفقِين .

فصـــل

يتقدّمانِ بكَشْف أسوار القلْعـة المنصورةِ وأبراجها وبدَناتها وأبوابها ، وما يحتاجُ إلىٰ إصـلاح وترميم وعمـارة ، ويحرّران أمرَ ذلك تحريرا ، ويجتهدانِ فى إصـلاح ما يجب إصلاحُه وترميم ما يجب ترميمُه ، والمطالعةِ بمـا كشفَاه وما آعتمدَاه .

فصـــل

يتمدّمان بعَرْض حَواصل القَلْعة المنصورة ، والخزانة المعمُورة ، ويحقّقون ما بها من الأموال والغِلال والذخائر والحواصل ، ويعملون بذلك أوراقًا محرّرة ، ويُسيِّرون نسختَها إلى الباب الشريف .

فصـــل

يتقدّمان بعَرْض مقـدَمى رجال القلعة ، وأرباب الجامكِيّات والرواتب بهـا ، ويُحرِّران أمرَ مقرّراتهم : من جامكية وجِراية ، ويَجْريان فى صَرْف ذلك على العادة الجارية المستقِرّة .

فصـــل

يستَوْضِحان من الأمير عزّ الدين والأمير عَلَم الدين المنصرفَيْن عن المصالح المختصّة بهذه القلعة وعن أُمورها ، جليلِها وحقيرِها ، فإنهما قد أحسنا فى ذلك التدبير ، وأجملا التأثير ، وسلَكا أجملَ مَسْلك ، ويهتديان بما يوَضّحانه لهما من المصالح والمهمّات ليكون دُخولُهما فى هذا الأمر علىٰ بَصيرة .

فصـــل

يكونُ أمرُ النيابة والحُكْم العامّ فى القلعة المنصورة ، وتنزيلِ الرجال وآستخْدامِهم وصَرْف من يجب صرْفُه — للأمير سيف الدّين باسطى بمشاركة الأميرِ عز الدين فى أمر الرجال والاستخدامِ والصَّرْف ، ويكون أمرُ النيابة راجعا للأمير سيف الدين

باسطى والحكمُ فيها له ،ويكون أمرُ ولاية القلعة للأمير عزّ الدين ، ويجريان فى ذلك علىٰ عادة من تقدّمهما فى هذه النيابة والولاية ، ويكونُ الأمير سيفُ الدين فى الدار التى كان يسكُنها الأميرُ عزُّ الدين ، وحكمُه فى النيابة كحكمه ، ويسكُنُ الأميرُ عزُّ الدين فى الدار التى كان يسكُن فيها الأمير علَم الدّين ، وحُكْمُه فى الولاية كحكمه . ولا يتعدّىٰ أحدٌ طَوْره ، ولا يخرجُ عما قُرِّر فيه ، ويَرْعىٰ كلٌّ منهما لصاحبه حقّه فيما رُتِّب فيه ، و يتفقانِ على المصالح كلِّها ، ويكونان كروحينِ فى جسدٍ واحدٍ .

فصـــل

يتقدّمانِ بأن يترتَّبَ الرجال فى مراكزهم ومنازلهم على العادة فى الليـل والنهار ، والحَرَسيَّة على العادةِ فى الليل والنهار . وإن كان ثَمَّ خَلَل فى ذلك أو تفريطٌ أو إهمالٌ ، فليستَدْرك الفارطُ ويرتِّبِ الأمرَ فيه علىٰ أحسن ترتيب .

فصـــل

ينتصبان فى أوقاتِ العادة فى بابِ القلعة لكَشْف مظالِم الرعيـة فى القَلْعة والبرِّ ، ويعتمدانِ إنصافَهم ، وتلبيةَ داعِيهم ، وسَماعَ كَلِمهم ، وكفَّ ظالِمِهم وإعانة مظلومِهم ، واعتمادَ ما يجبُ من العدل وبسْطه فى الرعية ، وكَفَّ الأيدى العادية .

فصـــل

أبوابُ القلعة إذا أُغْلِقتْ فى كل ليلة تُبيَّت المفاتيحُ عند النائب فى المكان المعتادِ بعد خَتْم الوالى عليها على العادة ، وإذا تسلَّمها يتسلَّمها بختْمها على العادة .

فصـــل

الذّخائر والغلال يُجتَهد فى تحصيلها بالقلعة ، ولا تُخزَن غلةٌ جديدةٌ علىٰ غلةٍ عتيقة . وكلُّ هُرْيٍ يُخْزَن فيـه غَلَّة يحرَّرُ أمرُها وتُشال عيِّنتُها فى كيس وتجعـل فى الخزانة ويُختَم عليها ، ولا يُصرَف من الجديد قبل نَفَاد العتيق ، ولا يُترْك العتيقُ ويُصْرف من الجديد . وكذلك بقيةُ الحواصل يُسْلَك فيها هذا المَسْلَك .

فصــــل

مَهْما جرت العادةُ بتثمينه علىٰ أرباب الجامكيّات والمقرّرات ، فليُجْرِ الأمرُ فيه على العادة من غير حَيْف ، وليَدْخُل الديوانُ والمباشِرُون فى التثمين لئلاَّ يُسْلَكَ أمرُ التثمين على الرَّجَّالة والضُّـعَفاء مع قلّة معلومهم ويُوَفَّر من ذٰلك أربابُ الدَّواوين مع كثرة معلومهم ، بل يكُونوا أوّلَ من يُثَمَّن عليه ؛ ومن لا قُدرةَ له : مثلُ راجل ضعيف أو رَبِّ معلومٍ قليل ، فليُرْفَق به فى ذلك ، نظرًا فى حقِّ الضعفاء .

فصــــل

يُكَثِّرون من الأحطـاب ومن الفَحْم والمِلْح بالذخائر ، وكذٰلك من كلِّ ما تدْعُو الحاجةُ إليه ، ويجتهِدُون فى تحصـيل الأموال وتوفيرها بالخزانة المعمورة : بحيث لا يكون لهما شُغْل يَشْغَلُهما عن ذلك ، بل يَصْرِفان الهمَّة فى غالب أوقاتهما إلى الفِكرة فى مالٍ يحصِّلُونه ، أو صِنْفٍ يدَّخِرونه ، ولا يهملان ذٰلك .

فصــــل

يُطالعانِ الأبوابَ العاليـةَ فى غالب أوقاتهما بمـا يتجدّدُ عندهمـا من المصالح ، وبمـا يَتَميَّز من الأموال ، و[بمـا] حُمِـل إلى الخزائن وإلى الأهراء من الأَموال والغِلال . وكذلك يُطالعان نائبَ السـلطنة بدِمَشْق المحروسـة على العادة فى ذٰلك ، ولْتكن مطالعتهما جامعةً وعليها خطُّهما . ومَنْ لاحت له مصلحةٌ فى بعض الأوقات وآختار أن يطالِـع بانفراده فليُطالِـعْ .

فصــــل

لا يمكِّنانِ أحدا من الرجال المرتَّبـين بالقلعة المحروسـة وأربابِ النُّوَب أن يُخِلَّ بنَوْبته ولا يفارِقَها ، ولا يخرُج من القلعة أحدٌ من الرجال إلا بدُسْتور ويعودُ فى يومه والله الموفق .

قلت : وبالجملة فالتذاكر مَنُوطة بحال المكتوبِ له التذْكرة ، والمكتوبِ بسببه ؛ فيختلفُ الحـال باختلاف الأسـباب ، ويُؤْتىٰ لكل تذْكرة بفصُول تُناسِبها بحسَب ماتدعُو الحاجة إليه .

وآعلم أنَّ اللائق بالتذاكر الخارجةِ من ديوان الإنشاء أن تكونَ فى الفصاحة والبلاغة علىٰ حدِّ الرسائل ، فيعلو شأنُ التَّذْكرة باعتبار آشْتمالها على الفَصَاحة والبلاغة ، ويَنحَطُّ بفواتِهما ؛ وآنظرْ إلىٰ تذكرة القاضى الفاضلِ المبتدَإ بها ، وما آشتملتْ عليـه من الفَصَاحة والبلاغة ، وأين هى من التذكرتين اللتين بعدَها ؛ فإنه قد أُهْمِل فيهما مراعاةُ الفصاحة والبلاغة جملةً ، بل لم تُراع فى الأخيرة منهما قوانينُ النحو ، إذ يكون يتكلَّم بصيغة التثنية علىٰ سـياق ما عُقِدت له التذْكرة لاشتمالهـا علىٰ آثنين فإذا هو قد عدل إلىٰ لفظ الجمع ، ثم يعود إلىٰ لفظ التثنية ، هذا ، وهى منسوبةٌ إلى القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر ، صاحب ديوان الإنشاء يومَئذ ، وهو من بيت الكتابة والبلاغة ، إلا أنه قد يُريد بعُـدُوله من التثنية إلى الجمع أن ينتقل إلىٰ خطاب جمع المتحدّثين فى القلعة فيما يتعلَّق بذٰلك الفصل الذى يكون فيه ، وإلا فلا يجوزُ صدُور مثلِ ذٰلك عنه وتكرارُه المرّةَ بعد الأخرىٰ .

المقالة السابعة

فى الإقْطاعات والقَطَائع ، وفيها بابان

الباب الأوّل

فى ذكر مقدِّمات الإقطاعات ، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

فى ذكر مقدّماتٍ تتعلَّق بالإقطاعات ، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأوّل

(فى بيان معنى الإقطاعات وأصلِها فى الشرع)

أما الإقطاعاتُ فجمعُ إقطاع ، وهو مصدر أقطع ، يقال : أقطعه أرض كذا يقطعه إقطاعا ، وآستقطعه إذا طلبَ منه أن يُقْطِعه ، والقَطِيعة الطائفةُ من أرض الخَرَاج .

وأما أصلُها فى الشرع فما رواه الحافظ آبن عساكر فى تاريخ دِمَشْق بسنَده إلىٰ آبن سِيرِينَ عن تميم الدارِىِّ أنه قال : « آستَقْطعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أرضًا بالشأم قبل أن تُفْتَح فأعطانِيها ، ففتحها عمرُ بنُ الخطاب فى زمانه فأتيتُه ، فقلتُ : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانى أرضًا من كذا إلىٰ كذا ، فجعل عمرُ ثلُثها لآبن السبيل ، وثلُثا لعمارتها ، وثُلُثا لنا » .

وفى رواية : آستقْطَعتُ أرضًا بالشام فأقطعَنِيها ، ففتحها عمرُ فى زمانه فأتيته ، فقلت : إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعطانِى أرضًا من كذا إلىٰ كذا ، فجعل عمر ثلُثَها لآبن السبيل ، وثُلُثها لعمارتها ، وتَرَكَ لنا ثُلُثا .

وذكر الماورديُّ فى "الأحكام السلطانية" : أنَّ أبا ثَعْلبةَ الخُشَنِيّ رضى الله عنه سأل النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يُقْطِعَه أرضًا كانت بيَد الروم فأعجبه ذٰلك ، وقال ألا تَسْمَعُون ما يقول ؟ فقال : والذى بعثَكَ بالحق لَيُفْتَحَنَّ عليك ، فكَتَب له بذٰلك كتابا .

وذكر أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم : أقطَع الزُّبَيْرَ بنَ العوّام رَكْضَ فرسه من مَوَاتِ البَقِيع فأجراه ورمىٰ بسَوْطه رغبةً فى الزيادة ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : «أَعْطُوه منتَهىٰ سَوْطه» .

وذكر أنَّ الأبيضَ بن حَمَّال آستَقْطعَه مِلْحَ مَأْرِب فأقطَعَه ، فأخبره الأقرعُ آبنُ حابس أنه كان فى الجاهلية [وهو بأرض ليس فيها غيره مَنْ وَرَده أخَذَه ، وهو مثلُ الماء العِدِّ بالأرض ، فاستقالَ الأبيضَ فى قطيعة المِلْح فقال قد أقلتُكَ على أنْ تجعَلَه مِنِّى صَدقةً ، فقال النبيّ عليه الصلاة والسلام : هو منك صَدَقةٌ ، وهو مثل الماء العِدِّ من وَرَده أخذه](١) .

وذكر أبو هلال العسكرىُّ فى كتابه "الأوائل" : أنَّ أوّلَ من أقطع القطائعَ بالأَرَضِين أميرُ المؤمنين عثمانُ بن عفّان رضى الله عنه ــ ولا وَجْهَ له بعد ما تقدّم ذكره ؛ اللهم إلا أن يُرِيد أنَّ عثمان أوّلُ من أقطع القطائعَ بعد الفَتْح ، فإنَّ ما أقطعه النبيُّ صلى الله عليه وسلم كان قبل الفَتْح كما تقدّم .

قال بعد ذٰلك : ويروى أن النبيّ صلى الله عليه وسلم : أقطع قطائعَ فاقْتَدىٰ عثمانُ به فى ذٰلك وأقطَعَ خَبَّابَ بنَ الأرَتِّ وسَعْدَ بنَ أبى وَقَّاص وسَعيدَ بنَ زيد

(١) ترك فى الأصل بياضا فى هذا الموضع وقد تداركناه من كتاب الأحكام السلطانية ص ١٧٤ تتميما للكلام .

والزُّبيرَ، وأقطع طلحةَ أَجَمَةَ الجُرْف(١) : وهو موضع النَّشَاسْتَج ، فكتب إلىٰ سعيد ٱبن العاص وهو بالكوفة أن يُنَفِّذها له .

الطـــرف الثـانى

(فى بيان أوّل من وَضَع ديوانَ الجيش، وكيفيَّةِ ترتيب منازل الجُنْد فيـــه ، والمساواةِ والمفاضـــلةِ فى الإعطاء)

ذكر أبو هلال العسكرىّ فى "الأوائل" والماوَرْدىُّ فى "الأحكام السلطانية" أن أوّل من وَضَع الديوان فى الإسلام أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ الخطَّاب رضى الله عنه . قال الماوردىّ : وٱختلف [الناس] فى سبب وضْعه [له] : فقال قومٌ : سببُه أن أبا هُرَيرة قَدِم عليه بمالٍ من البَحْرينِ، فقال له عمر : ماجِئْتَ به ؟ قال خَمْسُمائةِ ألفِ دِرْهم، فٱستكثَره عمرُ، وقال : أتدرى ماتَقُول ؟ قال نَعَمْ ! مائةُ ألفٍ خَمْسَ مرات ، فقال عمر : أطَيِّبٌ هو ؟ قال لا أدْرى . فصَعِد عمرُ المنبرَ، فحمِد الله وأثنىٰ عليه ، ثم قال : أيُّها الناس ! قد جاءنا مالٌ كثيرٌ، فإن شئتم كِلْنا لكم كَيْلا ، وإن شئتم عَدَدْنا لكم عَدّا ، فقام اليه رجل فقال ياأمير المؤمنين : رأيتُ الأعاجِمَ يُدَوِّنُون دِيوانًا، فدَوِّن أنتَ لنا دِيوانا .

وذهب آخَرُون إلىٰ أن سببَ وَضْع الديوان أنّ عمر بعثَ بَعْثا وعنده الهُرْمُزَان ، فقال لعمر : هـذا بَعْثٌ قد أعطيْتَ أهلَه الأموالَ ، فإن تخلَّف منهم رجل وأَخَلَّ بمكانه ، فمِن أيْنَ يعلم صاحبُك به ؟ فأثْبِتْ لهم ديوانا، فسأله عن الدِّيوان ففَسَّره له .

---

(١) فى الأوائل "الجوف" .

ويُرویٰ أنَّ عمرَ رضی الله عنـه ٱستشار المسلمینَ فی تَدْوین الدواوین ، فقال علیٌّ ٱبن أبی طالب کرَّم الله وجهه : تَقْسِم کلَّ سنة ما ٱجتَمَع الیك من المـال ، ولا تُمْسك منه شیئا . وقال عثمان : أریٰ مالًا کثیرا یَسَع الناس ، فإن لم یُحصَوْا حتّٰی یُعْلَم من أخَذَ ممن لم یأْخُذ ، خَشِیت أن ینتشِر الأمْرُ ـ فقال خالدُ بنُ الولید رضی الله عنه : قد کنْتُ بالشام فرأیتُ ملوکَها دَوَّنوا دِیوانا وجَنَّـدوا جنُودا ، فدوِّنْ دیوانًا وجنِّد جُنُودا ، فأخَذَ بقوله ودعا عَقِیلَ بنَ أبی‌طالب ، ومَخْرمةَ بنَ نوْفل ، وجُبَیر بنَ مُطْعِم ، (وکانوا من شَبابِ قریش) فقال : ٱکتبوا [الناسَ] علیٰ مَنازِلهم ، فبدءوا ببنی هاشم فکَتَبُوهم ، ثم أتْبعُوهم أبا بکر وقوْمَه ، [ثم عمرَ وقومَه] وکتبُوا القبائل ووضَـعُوها علی الخلافة ، ثم رفعُوه إلیٰ عمر ، فلما نظر فیه ، قال : لا ! وما وَددْت أنه هکذا ، ولکن ٱبْدَءوا بقرابة رسول الله صلی الله علیه وسلم : الأقربَ فالأقربَ حتّٰی تضعُوا عمرَ حیثُ وضعه الله . فشکره العبَّاس علیٰ ذلك ، وقال : وصَلَتْك رَحِمٌ .

ورویٰ زیدُ بن أسـلَمَ عن أبیـه : أن بَنِی عَدِیٍّ جاءُوا إلیٰ عمر ، فقالوا : إنك خلیفةُ أبی بکر ، وأبو بکر خلیفة رسول الله ، فلو جعلتَ نفسَك حیثُ جعلك هؤلاء القومُ الذین کَتَبُوا؟ فقال : بَخٍ بَخٍ یابنی عَدِیٍّ ! ! إنْ أردْتُم إلّا الأکْلَ علیٰ ظهری ، وأنْ أُذْهب حسناتی لکم ، لا والله ! حتّٰی تأتیکم الدعوةُ ولو ٱنطبَق علیکم الدفترُ . یعنی ولو أن تُکْتَبوا آخِرَ الناس . إنَّ صاحِبَیَّ سلَکَا طریقا ، فإن خالفتُهما خُولِفَ بی ، والله ماأدرکنا الفضلَ فی الدنیا والآخرة ، ولا نرجُو الثوابَ عند الله علیٰ عملنا إلا بمحمد صلَّی الله علیه وسلم ، فهو أشرَفُنا ، وقومُه أشرَفُ العرب ، ثم الأقربُ فالأقربُ ، ووالله لَئِن جاءتِ الأعاجِمُ بعَمَلٍ وجئنا بعملٍ دُونَهم ، لَهُم أَوْلیٰ بمحمد صلی الله علیه وسلم منّا یومَ القیامة : فإنّ من قَصَّر به عملُه لم یُسْرِع به نسَبُه .

ورُوِى أنَّ عمر رضى الله عنه حينَ أراد وضْعَ الديوان، قال : بمن أبدَأُ؟ فقال له عبدُ الرحمن بنُ عوف : آبْدأْ بنَفْسِك، فقال عمر : أذكر أنِّى حضرتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يَبْدأُ ببنى هاشم وبنى عبدِ المُطَّلب، فبدأ بهم عمرُ، ثم بمن يليهم من قبائل قُرَيش بَطْنا بعد بَطْن، حتى آستوفىٰ جميع قُريش، ثم آنتهىٰ إلى الأنصارِ، فقال عمرُ : آبدَأُوا برهْطِ سعدِ بنِ مُعاذ من الأوس، ثم بالأقربِ فالأقرب لسَعْد .

وأما المُساواةُ والمفاضلةُ فى العطاء فقد آختُلِف فيه : فكان أبو بكر رضى الله عنه يرىٰ التسوية [بينهم] فى العطاء [ولا يرىٰ التفضيلَ بالسابقة] كما حكاه عنه الماوَرْدىّ فى "الأحكام السلطانية" .

قال أبو هلال العسكرىّ فى "الأوائل" : وقد رُوِى عن عَوَانة أنه قال : جاء مالٌ من البحْرَيْن إلىٰ أبى بكر رضى الله عنه فَسَاوىٰ فيه بينَ الناس، فغَضِبت الأنصارُ، وقالوا له : فَضِّلْنا، فقال : إن أردْتُم أنْ أُفَضِّلَكم فقد صار ما عمِلتُموه للدُّنيا، وإن شئْتم كان ذٰلك لله، فقالوا : والله ما عمِلْناه إلا لله! وآنصرَفُوا . فرَقِىَ أبو بكر رضى الله عنه المِنْبر، فحمِد الله وأثنىٰ عليه، ثم قال : يامَعْشَرَ الأنصار لوشئتم [أن] تقُولُوا : إنا آوَيْناكم وشارَكْناكم أموالَنَا ونَصَرْناكم بأنفُسِنا لَقُلْتم، وإنَّ لكم من الفضل مالايُحصىٰ له عَدَد، وإن طال الأمَد، فنحنُ وأنتم كما قال الغَنَوِىّ :

جَزَى اللهُ عنَّا جعْفَراً حين أَزْلَقَتْ * بنا نَعْلُنا فى الواطئين فزَلَّتِ
أَبَوْا أنْ يَمَلُّونَا ولَوْ أنَّ أُمَّنَا * تُلَاقِى الَّذِى لاقَوْه مِنَّا لَمَلَّتِ
هم أسكنونا فى ظلال بيوتهم * ظلالِ بيوتٍ أدفأت وأكَنَّتِ

قال الماوردىّ : وإلىٰ ما رأىٰ أبو بكر رضى الله عنه ذهب علىّ رضى الله عنه فى خلافته ، وبه أخذ الشافعىّ ومالكٌ .

وكان عمرُ رضى الله عنه يرىٰ التفضيلَ بالسابقة فى الدِّين ، حتّى إنه ناظَرَ أبا بكر رضى الله عنه فى ذٰلك ، حين سوَّى بينَ الناس ، فقال : أتُساوِى بينَ من هاجَر الهِجْرتَيْن وصلَّى إلى القِبلتين وبيْنَ من أسلم عامَ الفتح خوفَ السيف ؟ ! ـ فقال أبو بكر : إنما عَمِلُوا لله ، وإنما أجُورُهم على الله ، وإنما الدُّنيا [دار] بَلاَغ [للراكب](١) ، فقال له عمر : لا أجعل [من قاتل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه ؛ فلما وضع الديوان جرىٰ](١) على التفضيل بالسابقة ؛ فَفَرض لكلِّ رجلٍ شهِد بَدْرًا من المهاجرين [الأوّلين] خمسةَ آلاف دِرْهم كلَّ سنة ، ولكل من شَهِد بَدْرا من الأنصار أربعةَ آلاف درهم ، ولكلِّ رجلٍ هاجَرَ قبل الفتح ثلاثةَ آلافِ دِرْهم ، ولكلِّ رجلٍ هاجر بعد الفتح ألفَين ؛ وفرض لغِلْمانٍ أحداثٍ من أبناء المهاجرين والأنصار أُسوةَ من أسْلم بعد الفَتْح ؛ وفرضَ للناس علىٰ منازلهم ، وقراءتِهم القُرآن ، وجِهادِهم بالشام والعِراق ؛ وفرضَ لأهل اليَمَن وقَيْس : لكل رجلٍ من ألفَيْ درهم إلىٰ ألف دِرْهم ، إلىٰ خمسمائة درهم ، إلىٰ ثلثمائة درهم ، ولم يَنْقُص أحدا عنها ، وقال : لَئِن كَثُر المال لأَفْرِضَنَّ لكلِّ رجل أربعةَ آلافِ درهم : ألْفا لفَرَسه ، وألْفا لسِلاحه ، وألْفا لسَفَره ، وألفا يُخَلِّفها فى أهْله ؛ وفرض للنْفُوس مائةَ دِرْهم ، فإذا تَرَعْرَع فرضَ له مائتين ، فإذا بلَغَ زاده . وكان لا يَفْرِض للمولود شيْئا حتّى يُفْطَم ، إلىٰ أن سَمِع ليلةً امرأةً تكْرِه ولَدَها على الفطام ، وهو يَبْكى ، فسألها عنه ـ فقالت : إن عمرَ لا يَفْرِض للمولُود حتى يُفْطَم فأنا أُكْرِهُه علىٰ الفطام حتى يُفْرَض له ـ فقال ياوَيْحَ عُمَرَ ! كم احتَقَب من

(١) الزيادة من "الاحكام السلطانية" ص ١٧٧ .

وِزْر وهو لايدرى؛ ثم أمر مناديا فينادى: ألَا لاتُعْجِلوا أولادَكم بالفِطَام، فإنا نفرض لكلِّ مولُودٍ فى الإسلام . قال المـاوردىّ : ثم رُوعِى فى التفضيل عنـد آنقراض أهل السوابِق التقدُّم فى الشجاعة والبَلَاء فى الجِهـاد .

وأما تقـديرُ العطاء فمعتبر بالكِفَاية حتَّى يستغْنِىَ بها عن آلتمـاس مادَّة تَقْطَعه عن حماية البَيْضـة . ثم الكفايةُ معتـبرةٌ من ثلاثة أوجه : أحدُهـا عدَدُ من يعُوله من الذَّرارِىِّ والممـاليك ـ والثـانى عَدَد ما يرتَبِط من الخيـل والظَّهْر ـ والثـالث : الموضعُ الذى يَحُـلُّه فى الغَلاء والرُّخْص فتقدّر [كفايتُه فى] نفقَتِهِ وكسوتِه لعامِه كلِّه . ثم تُعتَـبر حالُه فى كل عام ، فإن زادتْ نفقاتُه زِيد ، وإن نقَصت نقُص ؛ فلو تَقدَّر رزقُه بالكِفاية ، فمنع الشافعىّ من زيادته على الكفاية وإن آتَّسع المـال ، لأن أموال بَيْت المـال لا توضَع إلا فى الحقوق اللازمـة ؛ وأجاز أبو حنيفـة زيادَتَه حينئذٍ .

الطـــرف الثـالث

(فى بيان من يستَحق إثباتَه فى الديوان، وكيفيةِ ترتيبهم فيه)

فأما من يستَحق إثباتَه فى الديوان، ففيه خمسةُ أمور :

أحدها ـــ البُلُوغ . فلا يجوز إثباتُ الصَّبىّ فى الدِّيوان، وهو رأْىُ عمر رضى الله عنه، وبه أخذ الشافعىُّ رضى الله عنه، بل يكونُ جاريًا فى جملة عطاءِ الذَّرارِىِّ .

الثـانى ـــ الحُرِّيَّةُ . فلا يُثْبَت فى الديوان مملوكٌ، بل يكون تابعًا لسيِّده داخلا فى عطائه، خلافًا لأبى حنيفة فإنه جوَّز إفرادَ المملوك بالعطاء، وهو رأْىُ أبى بكر رضى الله عنـــه .

الثـالث — الإسلامُ ، ليَدْفَع عن المِلّة باعتقاده ، حتَّى لو أُثْبِت فيهـم ذمّىّ لم يجز، ولو ٱرتد منهم مُسْلِم سَقَط .

الرابع — السَّـلامة من الآفاتِ المـانعة من القتال . فلا يجوز أن يكون زَمِناً ولا أعْمَى ولا أقْطَع ، ويجوز أن يكون أخْرَس أو أصَمَّ . أما الأعْرَج ، فإن كان فارسا جاز إثباتُه أو راجِلاً فلا .

الخامس — أن يكون فيه إقدامٌ على الحرب ومَعْرفةٌ بالقِتال ، فإن ضَعُفت هِمَّته عن الإقدام ، أو قَلَّت معرفتُه بالقتال لم يجز إثباتُه .

فإذا وُجدتْ فيه هذه الشروطُ ، ٱعتُبِر فيه خُلُوُّه عن عمل وطَلَبُه الإثباتَ فى الديوان ؛ فإذا طَلَب فعلىٰ وَلِىّ الأمرِ الإجابةُ إذا دعتِ الحاجةُ إليه . ثم إن كان مشهورَ الآسم فذاك ، وإلا حُلِّىَ ونُعِت ، بذكر سِنّه وقَدّه ولَونه وصفة وجْهه ، ووُصِف بمـا يتميَّز به عن غيره ، كى لا تتفق الأسماءُ ، أو يَدَّعِىَ فى وقت العطاء ، ثم يُضَمُّ إلىٰ نقيبٍ عليه أو عريفٍ يكونُ مأخُوذا بدَرَكه .

وأما ترتيبُهم فى الديوان فقد جعلهم المـاوَرْدىّ فى "الأحكام السلطانية" علىٰ ضربين :

الضرب الأوّل — الترتيبُ العامُّ . وهو ترتيبُ القَبائل والأجناس حتَّى تتميَّز كلُّ قبيلةٍ عن غيرها وكلُّ جنْسٍ عمن يخالفه ، فلا يُجمَع بين المختلفين ، ولا يُفَرَّق بين المُؤتلفين : لتكونَ دعوةُ الديوان علىٰ نَسَـق معروفِ النسب يزولُ فيـه التنازُع والتجاذُب . فإن كانُوا عَرَبا رُوعِىَ فيهم القُرْب من رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، كما فعل عمرُ

رضى الله عنه : فتُقدَّمُ العربُ المُستعْرِبة : وهم عَدْنانُ من ولد إسماعيلَ عليه السلام، على العَرَب العاربة : وهم بنو قَحْطانَ عَرَبُ اليَمَن : لأن النبيَّ صلى الله عليه وسلم من عَدْنانَ . ثم عَدْنانُ تجمع ربيعةَ ومُضَرَ؛ فتقَدَّم مُضرُ على ربيعةَ : لأن النُّبوّة فى مُضَر، ومُضَرُ تجمع قُرَيْشا وغيرَ قُرَيش ، فتقدّم قرَيْشٌ على غيرهم : لأن النبوّةَ فيها ، فيكون بنُو هاشِم هم قُطْب الترتيب، ثم من يليهم من أقرب الأنسابِ إليهم حتّى يستوعِب قريشا، ثم مَنْ يليهم فى النَّسَب حتّى يستوعِبَ جميعَ مُضَر، ثم من يليهم حتى يستوْعب جميع عَدْنان .

وإن كانوا عَجَما لا يجتمعُون على نسَبٍ ، فالمرجوعُ إليه فى أمرهم : إما أجْنَاسٌ وإما بِلَاد ، فالمميَّزُون بالأجناس كالتُّرك والهِند ؛ ثم تَمَيَّزُ التُّرك أجناسا ، والهندُ أجناسا . والمُمَيَّزون بالبلاد : كالدَّيْلم والجَبَل ؛ ثم تُميَّز الديلم بُلْدانا ، والجبل بُلْدانا . فإذا تميَّزُوا بالأجناس أو البُلْدان : فإن كانت لهم سابقةٌ ترتَّبوا عليها فى الديوان ، وإن لم تكن لهم سابقة ترتَّبوا بالقُرْب من وَلِيِّ الأَمر ، فإن تساوَوْا فبالسَّبْق إلى طاعته .

الضرب الثانى — الترتيبُ الخاصّ : وهو ترتيبُ الواحد بعدَ الواحد ، فيقدّم فيه بالسابقة بالإسلام كما فعل عُمَرُ رضى الله عنه ، فإن تساوَوْا ترتَّبُوا بالدِّين ، فإن تقارَبُوا فيه رُتِّبوا بالسِّن ، فإن تقاربُوا بالسِّن رُتِّبوا بالشَّجاعة ، فإن تقاربوا فيها ، كان وَلِىّ الأمر بالخيار بين أن يرتِّبهم بالقُرْعة أو على رأيه واجتهاده

الفصـــــل الثانى

من البـاب الأوّل من المقـالة السابعة

(فى بيانـ حُكْم الإقطـاع)

قال فى "الأحكام السلطانية" : وإقطاعُ السلطان مختصٌّ بما جاز فيه تصرُّفه، ونَفَذتْ فيه أوامِرُه، دُونَ ماتعيَّن مالِكُه وتميَّز مُسْتحِقُّه .

ثم الإقطـاع علىٰ ضربين :

الضــــرب الأول

(إقطاع التَّمليـك)

والأرض المُقْطَعة بالتمليك إمَّا مَوَاتٌ، وإمَّا عامِرٌ، وإمَّا مَعْدِن .

فأمَّا المَوَاتُ فإنْ كان لم يَزَلْ مَوَاتا علىٰ قديم الزمان، لم تجْرِ فيه عِمارةٌ، ولم يَثْبُت عليه مِلْك، فيجوزُ للسلطان أن يُقْطِعه مَنْ يُحْيِيه ويَعْمُره. ثم مذهَب أبى حنيفةَ أنَّ إذنَ الإمام شرطٌ فى إحياء الموات، وحينئذٍ فيقومُ الإقطاع فيه مَقَام الإذن . ومذهبُ الشافعىّ أن الإقطاعَ يجعَلُه أحقَّ بإحيائه من غيره . وعلىٰ كِلَا المذهبين يكون المُقْطَع أحقَّ بإحيائه من غيره .

وأما إن كان المواتُ عامرًا فخرِب وصار مَوَاتا عاطلا، فإن كان جاهليًّا : كأرض عادٍ وثمودَ، فهى كالمَوَات الذى لم تَثْبتْ فيه عِمَارة فى جَواز إقطاعه . قال صلى الله عليه وسلم : « عادَتِ الأرضُ لله ولرَسُولِه ، ثم هِىَ لَكُم مِنِّى ، يعْنِى أرضَ عادٍ » . وإن كان المَواتُ إسلاميًّا جرىٰ عليه مِلْكُ المسلمين، ثم خَرِب حتّى صار مَوَاتا عاطلا،

فمذهبُ الشافعىّ أنه لا يُمْلك بالإحياء، عُرِفَ أربابُه أم لم يُعْرَفُوا، ومذهبُ مالك أنه يُمْلَك بالإحياء، عُرِف أربابُه أم لم يُعْرَفوا، ومذهبُ أبى حنيفة أنه إن عُرِف أربابُه لم يُمْلك بالإحيــاء، وإلّا مُلِك . ثم إذا لم يجز أنْ يُمْلَك بالإحياء علىٰ مذهب (١) الشافعى، فإن عُرِف أربابُه لم يجُزْ إقطاعُه، وإن لم يُعْرَفوا جاز إقطاعُه وكان الإقطاعُ شرطًا فى جَواز إحيائه. فإذا صار المواتُ إقطاعًا لمن خَصَّه الامامُ به لم يستقرّ مِلْكُه عليــه حتى يُحْيِيَه ويكْمُلَ إحياؤُه ، فإنْ أمسك عن إحيائه كان أحقَّ به يدًا وإن لم يَصِرْ له مِلْكا .

وأمَّا العامر : فإن تعَيَّن مالِكُوه، فلا نَظَر للسلطان فيه إلا ما تعلّق بتلك الأرض من حُقُوق بَيْتِ المــال إذا كانتْ فى دار الإسلام، سواء كانتْ لمسلم أو ذمّىّ، وإن كانت فى دار الحربِ التى لم يثْبُتْ عليها للسلمين يدٌ جاز للإمام أن يُقْطِعَها ليملكَها المُقْطَع عند الظَّفَر بها ، كما أقطعَ النبىُّ صلى الله عليه وسلم تميمًا وأصحابَه أرضًا بالشأم قبل فتحه، علىٰ ماتقدّم ذكره فى أوّل الباب .

وإن لم يتعيَّنْ مالِكُوه: فإن كان الإمامُ قد آصطفاه لبَيْت المــال من فُتُوح البلاد: إما بحَقِّ الخُمس، أو بآستطابة نفوس الغانمين ، لم يَجُزْ إقطاعُ رقبته : لأنه قد صار باصطفائه لبيتِ المــال مِلْكا لكافَّة المسلمين، فصار علىٰ رَقَبته حكمُ الوقْف المؤبَّد؛ (٢) والسلطانُ فيه بالخيار بينَ أن يستغِلَّه لبَيْت المــال وبين أن يتخَيَّر له من ذَوِى المَكنَة والعمل من يَقُوم بعمارة رقَبتِه ، ويأخُذُ خَراجه ، ويكونُ الخراجُ أجرةً عنــه تُصْرَف فى وجوه المصالح .

---

(١) عبارة الأحكام السلطانية «وإن لم يجز على مذهبه أن يملك» الخ والضمير عائد على أبى حنيفة ، وحرر .

(٢) عبارة "الأحكام" السلطانية «بجرى على رقبته حكم الخ» وهى أوضح .

و إن كان العامرُ أرضَ خراجٍ لم يجُزْ إقطاعُ رِقابِها تمليكًا .

وأما إقطاعُ خراجِها فسيأتى فى إقطاع الاستغلال فيما بعْدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

و إن كان المَوَاتُ قد مات عنــه أربابُه من غير وارث، صار لبَيْت المـال مِلْكًا لعامَّة المسلمين . ثم قيل : تصيرُ وقْفا على المسلمين بمجرَّد الانتقال الىٰ بيت المـال، لا يجُوز إقطاعُها ولا بيعُها . وقيل : لاتصيرُ وقْفا حتَّى يَقِفها الإمام، و يجوز للإمام بيعُها اذا رأىٰ فيه المصلحةَ و يُصْرَف ثَمَنها فى ذَوِى الحاجات . ثم قيل : يجوزُ إقطاعها كما يجوز بيعها، و يكون تمليك رَقَبتها بالإقطاع كتمليك ثَمَنها . وقيل : لايجوز إقطاعها و إن جاز بيعُها : لأن البيع معاوَضةٌ والإقطاعَ صِلَة .

الضـــــرب الثـــانى

(من الإقطاع إقطاع الاســـتغلال)

وهو : إمَّا خَراجٌ أو عُشْر .

فأما الخَرَاج : فان كان من يُقْطِعه الإمامُ من أهل الصَّدَقات لم يجز أن يُقْطَع مالَ الخراج : لأن الخراج فَىْءٌ لايستحقُّه أهل الصدقة كما لايستحِقُّ الصدقةَ أهلُ الفَىْءِ وأجاز إقطاعَه أبو حنيفة .

و إن كان من أهل المصالح ممن ليس له رِزْق مفرُوض فلا يصحُّ أن يُقْطَعَه على الإطلاق و إن جاز أن يُعْطىٰ من مال الخراج : لأنهــم من نَفْل أهل الفَىْءِ لا من فَرْضــه، وما يُعْطَوْنه إنمـا هو من غَلَّات المصالح ، فإن جُعِل لهم من مال الخراج شىءٌ أُجْرِى عليه حكمُ الحَوَالة لاحُكْم الإقطاع .

وإن كان من مُرْتَزِقة أهـلِ الفَىْء وهم أهلُ الجَيْش، فهم أخَصُّ الناس بجواز الاقطاع : لأن لهم أرزاقا مقدّرةً تُصْرف اليهم مَصْرِف الاستحقاق، من حيث إنها أعواضٌ عما أرْصَدُوا نفوسهم له من حماية البَيْضة والذّبِّ عن الحريم .

ثم الخراج : إما جِزْيةٌ وهو الواجب على الجَماجم، وإما أُجْرة وهو الواجبُ على رِقَاب الأرض . فإن كان جزيةً لم يجز إقطـاعُه أكثَرَ من سَـنَةٍ ، لأنه غير موثُوق باستحقاقه بعدَها لاحتمال أن يُسْـلِم الذمّىّ فتزولَ الجزيةُ عنه . وإن كان أجرةً جاز إقطاعُه سنينَ لأنه مستقرّ الوجوبِ على التأبيد .

ثم له ثلاث أحـــوال :

إحداها ــ أن يُقدَّر بسنينَ معلومةٍ، كما إذا أقطعه عَشْر سنين مثلا، فيصحُّ، بشرط أن يكون رزْق المُقْطَع معلومَ القَدْر عند الإمام، وأن يكون قدرُ الخراج معلومًا عند الإمام وعند المُقْطَع، حتَّى لو كان مجهولا عندهما أو عندَ أحدهما لم يصحَّ . ثم بعد صِحَّة الإقطاع يُراعىٰ حالُ المقْطَع فى مُدّة الإقطاع : فإن بقى إلى انقضاء مُدّة الإقطاع علىٰ حال السـلامة فهو على استحقاقِ الإقطاع إلى انقضاء المدّة، وإن مات قبـل انقضاء المُدّة بطل الإقطاعُ فى المدّة الباقية، ويعودُ الإقطاع إلىٰ بيت المـال . وإن كان له ذرِّية دخَلُوا فى عطـاء الذرارِىِّ دُونَ أرزاق الأجناد ، ويكون ما يُعطَوْنه تسبُّبا لا إقطاعا . وإن حدَث بالمُقْطَع زمانةٌ فى تلك المدّة ففى بقاء الإقطاع قولان : (أحدهما) أنَّ إقطاعه باقٍ عليه إلىٰ انقضاء المدة (والثانى) أنه يُرتَجَع منه .

الثـانية ــ أن يُقْطَعَه مدّة حَياته ثم لعَقِبه وورثته بعد موته ، فلا يصحُّ : لأنه يخرُج بذلك عن حقُوق بيتِ المـال إلى الأملاك الموروُثة، فلو قَبَض منه شيئا بَرِئَ أهلُ الخراج بقَبْضه : لأنه عقدٌ فاسدٌ مأذُونٌ فيه ويُحاسَب به من جملة رِزْقه : فان

كان أكثر ردّ الزيادة، وإن كان أقلّ رجَع بالباقى، وعلى السلطان أن يُظهر فسادَ الإقطاع حتّى يمتنِعَ هو من القَبْض ويمتنع أهل الخراج من الدّفْع ولم يبرءُوا بما دفعوه إليه حينئذ .

الثالثة — أن يُقطَعه مدّة حياته . ففى صِحّة الاقطاع قولان للشافعى بالصحّة والبطلان، ثم إذا صَحّ الإقطاع فللسلطان آسترجاعُه منه فيما بَعْدَ السنة التى هو فيها، ويعودُ رِزْقه إلىٰ دِيوان العطاء . أما السنةُ التى هو فيها : فإن حَلَّ رزقُه فيها قبل حلول خراجها لم يسترجع منه فى سنته لآستحقاق خراجها فى رزْقه، وإن حل خراجُها قبل حلول رزقه جاز آسترجاعُه منه : لأنَّ تعجيلَ المؤجَّل وإن كان جائزا فليس بلازم .

وأما العُشْر فلا يصحُّ إقطاعُه، لأنه زكاةُ الأصناف، فيعتبر وصفُ آستحقاقِهم عند دفعها إليهم، وقد يجوز أن لا يُوجدَ فلا تجب .

قلتُ : هذا حكم الإقطاع فى الشريعة، وعليه كان عملُ الخلفاء والملوك فى الزمن السالف، أما فى زماننا فقد فَسَد الحالُ وتغيَّرت القوانينُ، وخرجتِ الأمورُ عن القواعد الشرعية، وصارت الإقطاعاتُ تَرِد من جهة الملوك علىٰ سائر الأموال : من خَرَاج الأرضينَ، والجِزْية، وزكاةِ المواشى، والمَعادنِ، والعُشْر، وغير ذٰلك . ثم تفاحَشَ الأمرُ وزاد حتّى أقطعُوا المُكُوس على آختلاف أصنافها، وعمَّت بذٰلك البَلْوىٰ، والله المستعانُ فى الأمور كلِّها ! .

الباب الثانى
من المقالة السابعة
(فيما يُكْتَب فى الإقطاعات فى القديم والحديث ، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
فى أصل ذٰلك

والأصل فيه ما رُوِى أنّ النبىّ صلَّى الله عليه وسلم أقطع تَمِيمًا الدَّارِىَّ أرضًا بالشأم وكَتَب له بها كِتابًا .

وقد ذكر الحافظ آبن عساكرَ فى تاريخ دِمَشْقَ فيه طُرُقا مختلفة . فروَىٰ بسنده إلىٰ زياد بن فائد ، عن أبيه فائد ، عن جدّه زيادِ بنِ أبى هند ، عن أبى هندٍ الدارىّ أنه قال : قَدِمْنا علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم مَكَّةَ ونحن سِتَّة نَفَر(١) : تميمُ بنُ أوس ، ونُعَيْم بنُ أوْس أخوه ، ويزيدُ بنُ قيس ، وأبو هندٍ بنُ عبد الله ، وهو صاحب الحديث ، وأخوه الطيِّبُ بنُ عبد الله [كان آسمُه برا(٢)] فسماه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن(٣) ، وفاكهُ بنُ النعمان ، فأسلَمْنا وسألْنا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يُقْطِعَنا أرضا من أرض الشأم ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : « سَلُوا حيْثُ شِئْتُم » . فقال تميمٌ : أرَىٰ أن نسألَه بيتَ المَقْدِس وكُوَرَها ، فقال أبو هند : [هذا محلُّ مُلْك العجم(٤)] وكذٰلك يكون فيها مُلْك العرب وأخاف أن لا يَتِمَّ لنا هذا ، فقال تَميم : فنسأله

(١) فى "سيرة آبن هشام" عدهم ثمانية .

(٢) الزيادة من "سيرة آبن هشام" ج ٢ ص ١٩٥ وهى لازمة لصحة المقام .

(٣) فى "سيرة آبن هشام" ـ عبدالله ـ وأن الذى سماه عبدالرحمن إنما هو عرفة بن مالك ولم يذكر هنا .

(٤) الزيادة من "السيرة الحلبية وتاريخ ابن عساكر المحفوظ بدار الكتب الأزهرية" .

بيت جِبْرِينَ وكُورَتِها ، فقال أبو هندٍ : هـذا أكبر وأكبر . فقال : فأين ترىٰ أن نسأله؟ فقال : أرىٰ أن نسأله القُرَى التي يقع فيها تلٌّ مع آثار إبراهيم . فقال تميم : أصبْتَ ووُفِّقت — قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لتميم : «أتُحِبُّ أن تُخبِرَني بما كنتُمْ فيـه أو أُخبِرَك ؟ » — فقال تميم : بل تُخْبِرنا يارسولَ الله نزدَادُ إيمانًا — فقال رسولالله صلى الله عليه وسلم : «أردتُمْ أمرًا فأراد هذا غَيْرَه» ونِعم الرأْيُ رَأَىٰ — قال : فدعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقِطْعةِ جِلْدٍ من أَدَم، فكَتَب لنا فيها كتابا نُسْخته :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

«هـذا [كتابٌ](١) ذُكِر[فيه](١) ما وَهَب محمدٌ رسولُ الله للدَّارِيِّين إذا»
«أعْطاه اللهُ الأرضَ . وَهَب لهم بيت عينُونَ وحَبْرُونَ، و بيتَ إبراهيمَ»
«بمَنْ فيهنَّ لهم أبدًا» .

«شهِد عبَّاسُ بنُ عبد المطَّلب ، وجَهْم(٢) بنُ قيس ، وشُرَحْبِيلُ بنُ»
«حسَنةَ، وكَتَب» .

قال : ثم دخل بالكتاب إلىٰ منزله فعالَجَ(٣) في زاويةِ الرُّقعة وغَشَّاه بشيءٍ لا يُعْرَف، وعَقَده من خارجِ الرُّقْعة بسَيْرٍ عُقْدتين ، وخرج إلينا به مَطْويًّا وهو يقول : ﴿ إنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإبْراهِيمَ لَلَّذِين اتَّبعُوه وهذا النَّبِيُّ والَّذين آمَنُوا واللهُ وَلِيُّ المُؤْمِنِينَ﴾

(١) الزيادة من "السيرة الحلبية" ج ٣ ص ٢٩٦ وتاريخ ابن عساكر .

(٢) في "السيرة الحلبية" ص ٢٩٦ ج ٣ « وخزيمة بن قيس » .

(٣) بياض في الأصل بمقدار كلمة ، والتصحيح من تاريخ ابن عساكر .

ثم قال : ٱنصرِفُوا حتّى تسمَعُوا بِى قد هَاجَرْتُ . قال أبو هند : فانصَرَفْنا . فلما هاجر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، قَدِمْنا عليه فسألْناه أن يُجَدِّد لنا كِتابا ، فكتب لنا كِتابا نُسْخَتُه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« هذا ما أنْطَى محمدٌ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لتَمِيم الدَّارِيّ »
« وأصحابِهِ ، إنّى أنْطيْتُكم عَيْنُونَ وحَبْرُونَ والرطوم وبيْتَ إبراهِيمَ برُمَّتِهِم »
« وجميع مافِيهِم نَطِيَّةَ بَتٍّ ، ونَفَّذْتُ وسَلَّمت ذٰلك لهم ولأعْقابِهم مِنْ »
« بَعْدِهِم أَبَدَ الأَبَد ، فمَنْ آذاهُمْ فيها آذاه اللهُ » .

« شهِد أبو بكْر بنُ أبى قُحافة ، وعُمَرُ بنُ الخطّاب ، وعثمانُ بنُ عَفّانَ ، »
« وعلِيُّ بنُ أبى طالِبٍ ، ومعاوِيةُ بنُ أبى سُفْيانَ ، وكَتَب » .

فلما قُبِض رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ووَلِى أبو بكر ، وَجَّه الجنودَ إلى الشأم ، فكتب لنا كِتاباً نُسْخَتُه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

« مِن أبِى بكرٍ الصدّيقِ إلى عُبَيدةَ بنِ الجَرَّاح ، سلامٌ عليك فإنّى »
« أحمَدُ إليكَ اللهَ الّذى لا إلٰهَ إلّا هُو » .

« أما بعد ، ٱمْنَعْ مَنْ كانَ يُؤْمِن بِاللهِ واليَوْم الآخِرِ من الفَسَاد »
« فى قُرَى الدَّارِيِّينَ ؛ وإنْ كان أهْلُها قد جَلَوْا عنها وأرادَ الدَّارِيُّون »

« أن يَزْرَعُوها فَلْيَزْرَعُوها، فإذا رجَع أهلُها إليها فَهِى لهُمْ وأحقُّ بِهِمْ »
« والســلامُ عليْكَ » .

ورَوى بسنده أيضا إلى الزُّهرِىِّ وثَورِ بنِ يزِيدَ عن راشد بن سَعْد، قالا : قام تميمٌ الدارِىُّ وهو تميمُ بنُ أوْسٍ، رجلٍ من لَخْمْ، فقال يارسولَ الله، إنَّ لى جِيرةً من الرُّوم بفِلَسْطِينَ لهم قريةٌ يقال لهـا حَبْرى، وأُخرى يقال لهـا بيْتُ عَيْنُون : فإنْ فتحَ الله عليك الشأم فهَبْهُما لى، قال : هُمَا لك، قال : فاكْتُبْ لى بذٰلك، فكتَبَ له :

« بسم الله الرحمٰن الرحــيم »

« هـذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسـلم لتميمِ بنِ أَوْسٍ »
« الدارِىّ ، إنَّ له قَرْية حَبْرى و بَيْتَ عَيْنُون قَرْيَتَها كلَّها سَهْلَها وجَبَلَها »
« وماءَها وحَرَّتَها وأنْباطَها و بَقَرها ولعَقِبه من بعـده لا يُحاقُّه فيهـا أحدٌ »
« ولا يلِجُه عليهم أحدٌ بظُلْمٍ . فمن ظَلَمَهم أو أخذَ من أحدٍ منهم شَيْئًا »
« فعليه لعنةُ اللهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين » وكتب علىّ .

فلما وَلِى أبو بكر كتب لهم كتابا نُسْخته :

« هذا كتابٌ مِن أبى بكرٍ أمينِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الذى »
« آستُخْلِف فى الأرض بعدَه، كتَبه للدَّارِيِّين أن لا تُفْسَدَ عليهم مَأْثُرَتُهم »
« قريةُ حَبْرى و بيتُ عَيْنُون، فمن كان يَسْمَع و يُطِيع فلا يُفْسِد منها شيئًا »
« ولْيَقُمْ عمرُو بنُ العاصِ عليهما فلْيَمْنَعْهُما من المُفْسِدين » .

وروى ابن منده بسنده إلى عمرو بن حَزْم رضى الله عنه أنه قال : أقطعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تميمًا الدارِىّ ، وكَتبَ :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«هذا كتابٌ من محمدٍ رسولِ الله لتميم بنِ أوْس الدارِىّ ، إنَّ له صِهْيَوْنَ»
«قريَتَها كلَّها سَهْلَها وجبَلَها ومَاءَها وكُرُومها وأنْباطها وورَقها ، ولعقِبه مِن»
«بعده لايُحاقُّه فيها أحدٌ ، ولا يَدْخُل عليه بِظُلْمٍ ، فمن أراد ظُلْمَهم»
«أوْ أخْذَه منهم فإنّ عليه لعنةَ الله والملائكةِ والناسِ أجمعِين» .

قلتُ : وهذه الرُّقعةُ التى كَتَب بها النبىّ صلى الله عليه وسلم موجودةٌ بأيدى التميميين خُدَّامِ حَرَم الخليل عليه السلام إلى الآنَ ، وكُلَّما نازعَهم أحدٌ أتَوْا بها إلى السلطان بالديار المِصريَّة ليقِفَ عليها ويكُفَّ عنهم من يَظْلِمهم . وقد أخبرنى برؤيتها غيرُ واحدٍ ، والأديمُ التى هى فيه قد خَلَق لطُول الأمَد .

الفصـــــل الثانى

من البـاب الثـانى من المقالة السابعة

(فى صورة ما يُكتَب فى الإقطاعات، وفيـــه طرفان)

الطــــرف الأوّل

(فيما كان يُكتَب من ذٰلك فى الزَّمن القديم)

وكانتِ الإقطاعات فى الزّمن الأوّل قليلةً، إنّمـا كانت تُجْبىٰ الأموالُ إلىٰ بَيْت المـال ثم يُنْفَق منه على الجُنْد علىٰ ما تقـدّم ذِكره، ورُبَّمـا أقطعُوا القريةَ ونحوَها وقرّرُوا علىٰ مُقْطَعِها شـيئا يقومُ به لبَيْتِ المـال فى كل سـنةٍ، ويُسَمُّون ذٰلك المقاطعـــةَ .

ثم ما كان يُكتَب فى ذٰلك علىٰ ضربين، كِلاهما مفتتَح بلفظ «هذا» :

الضــــرب الأوّل

(ما كان يُكتَب عن الخلفاء، ولهـــم فيه طريقتان)

الطريقـــةُ الأُولىٰ

(طريقة كُتَّاب الخُلفاء العبَّاسيِّين ببغدَادَ)

وكان طريقُهم فيها أن يُكتَب « هـذا كتابٌ من فلان (بلَقَب الخليفــة) إنك ذكرتَ من أمر ضَيْعَتِك الفلانية كذا وكذا، وسألتَ أميرَ المؤمنين فى كذا وكذا، وقد أجابك أميرُ المؤمنين إلىٰ سُؤالك فى ذٰلك ونحوه » .

وهـذه نسخةُ مُقاطعةٍ، كُتِب بها عن المُطيع لله الخليفةِ العبّاسىّ، من إنشـاء أبِى إسحاقَ الصابِى، وهى :

هذا كتابٌ من عبد الله الفَضْلِ، الإمامِ المُطِيع لله أمير المؤمنين، لفلان بن فلان .

إنّك رفَعْتَ قِصَّتَك تذكُر حالَ ضَيْعتك المعروفةِ بكذا وكذا، من رُسْتاق كذا وكذا، من طَسُّوج كذا وكذا ؛ وأنها أرضٌ رَقيقةٌ قد تَوالىٰ عليها الخَراب ، وٱنغلَق أكثرُها بالسَّدّ والدَّغَل، وأنّ مِثْلَها لاتتّسع يدُ الليالى للإنفاق عليه، وهلب ىالاسله(؟)وٱستخراج سُدُوده وقَفْل أَرْضه ؛ ولا يرغَبُ الأَكَرَةُ فى ٱزْدِراعِه والمعاملةِ فيه . وإن أميرَ المؤمنين مُقاطِعُك عن هذه الضَّيْعة علىٰ كذا وكذا من الوَرِق المُرْسَل فى كلّ سنةٍ، على ٱستقبال سنة كذا وكذا الخراجيّة ، مُقاطَعةً مؤبَّدة، ماضيةً مُقرّرةً نافذة ، يُستخرَج مالُها فى أوّل المحرَّم من كلّ سنة، ولا تُتْبَع بنقصٍ ولا يتأوّلُ فيها متأوِّل ، ولا تُعترَضُ فى مستأنَف الأيّام، [إن] ٱجتهَدْتَ فى عِمارتها، وتكلَّفْتَ الإنفاقَ عليها وٱسْتِخراجَ سُدُودها، وقَفْلَ أراضيها وٱحتِفارَ سواقِيها، وٱجْتِلابَ الأَكَرَة إليها، وإطلاقَ البذُور والتقاوى فيها ، وإرْغابَ المُزارعين بتخفيف طُسُوقها بحق الرقبة ومُقاسماتها ، وكان فى ذلك توفيرُ حقّ بَيْتِ المال وصلاحٌ ظاهر لايختلّ .

وسألتَ أميرَالمؤمنين الأمْرَ بذلك والتّقدُّمَ به والإسْجالَ لك به، وإثباتَه فى ديوان السَّواد ودَواوينِ الحَضْرة وديوان الناحية ، وتَصْيِيرَه ماضيًا لك ولَعقِبك وأعقابهم ، ومَنْ لعَلّ هذه الضَّيْعةَ أو شيئًا منها ينتقِلُ اليه ببيع أو ميراثٍ أو صَدَقةٍ أو غير ذلك من ضُرُوب الٱنتقال .

وإنّ أمير المؤمنين بإيثاره الصَّلاح، وٱعتمادِه أسبابَه ، ورَغْبته فيما عادَ بالتوفير علىٰ بَيْت المال، والعِمارةِ والتّرفيه للرّعية، أَمَرَنا بالنظر فيما ذكرْتَه، وٱستقصاء البَحْث عنه، ومَعْرفةِ وجهِ التدبير، وسبيلِ الحظّ فيه، والعملِ بما يُوافق الرُّشْد فى جميعه . فرُجِع إلى الدِّيوان فى تعرُّف ماحكيتَه من أحوال هذه الضَّيعة، فأنْفذ منه رجلٌ مختارٌ ثقةٌ

مأمونٌ، من أهل الخبْرة بأمور السَّواد وأعمال الخَرَاج : قد عَرَف أميرُ المؤمنين أمانتَه وعِلْمَه ومعرفتَه، وأَمر بالمَصير إلىٰ هٰذه الناحيةِ، وجَمْع أهلها : من الأدِلَّاء والأَكَرَة والمُزارعين، وثِقاتِ الأمَنـاء والمُجاورين، والوُقوف علىٰ هـذه الأقرحة، وإيقاع المِساحة عليها، وكَشْف أحوال عامِرها وغامِرها، والمَسِـير علىٰ حُدودها، وأخْذ أقوالِهم وآرائِهم فى وجهِ صَلاح وعمارةِ قَراحٍ قَراحٍ منها، وما يُوجِبُه صوابُ التدبير فيما آلتمستَه من المقاطعة بالمَبْلغ الذى بذَلْته. وذكرتَ أنه زائدٌ على الآرتفاع، والكِتَاب بجميع ذٰلك الى الديوان، ليوقَف عليه ويُنْهىٰ الىٰ أمير المؤمنين فينظُرَ فيه : فما صَحَّ عنده منه أمْضاه، وما رأىٰ الآستظهار علىٰ نَظَر الناظر فيه آستظْهَر فيما يرى منه، حتَّى يقِفَ علىٰ حقيقته، ويَرْسُم مايُعمَل عليه.

فذكر ذلك النـاظرُ أنه وقَف علىٰ هـذه الضَّيْعةِ، وعلىٰ سائر أقْرِحَتِها وحُدُودها ونِطاقِها، بمَشْهَدٍ من أهل الخِبْرة بأحوالها : من ثِقات الأدِلَّاء والمجاورين، والأَكَرة والمزارعين، والأُمَنـاء الذين يُرجَع الىٰ أقوالهم، ويُعمَلُ عليها، فوجد مِساحَةَ بُطُونِ الأقْرِحة المزدَرَعة من جميعها، دُون سَواقِيها وبُرُورِها وتِلَالها وجنائِبها ومستنقعاتِها، وما لا يُعتَمد من أرضها، بالجَرِيب الهاشمىّ الذى تُمْسح به الأرضُ فى هذه الناحية كذا وكذا جَرِيباً : منها جميعُ القَرَاح المعروفِ بكذا وكذا، ومنها قَراحُ كذا وكذا، ومنها الحِصْن والبُيوتُ، والساحاتُ، والقَرَاحات، والخَزَّانات، ووجد حالَها فى الخَرَاب والآنْسِداد، وتعذُّرِ العِمارة، والحاجةِ الىٰ عظيم المَئُونة وفَرْط النَّفقة علىٰ ما حكيْتَه وشكَوْته، ونظر فى مِقْدار أَصْل هذه الخَزَّانات من هذه الضَّيعة، وما يجب عليها، وكشفَ الحالَ فى ذٰلك.

ونَظَر أمير المؤمنين فيما رفعه هـذا المؤتَمَنُ المُنَفَذُ من الديوان، وآستظهر فيه بما رآه من الآستظهار، ووجبَ عنده من الآحتياط، فوجد مارفعه صحيحًا صحَّةً عرَفها أميرُ المؤمنين وعَلِمها، وقامتْ فى نَفْسه، وثبتَتْ عنده، ورأىٰ إيقاعَ المُقاطَعة التى آلتمَسْتَها علىٰ حقِّ بَيْت المال فى هذه الضَّيعة، فقاطَعَك عنه فى كلِّ سنة هلاليَّة، على آستقبال سـنة كذا وكذا الخراجية، علىٰ كذا وكذا : درْهما صِحَاحًا مُرسَلَة بغير كَسْر ولا كعابه (؟) ولا حقِّ حَرْب ولا جَهْبذة، ولا مُحاسَبةٍ ولا زيادةٍ، ولا شَىْءٍ من جميع المُؤَن وسابق التواقيع والرُّسوم. تؤدَّىٰ فى أوّل المحرَّم من كلِّ سنة، حسَبَ ما تُؤدَّىٰ المقاطعةُ، مقاطعةً ماضيةً مُؤَبَّدة، نافذةً ثابتة، علىٰ مُضِىِّ الأيام، ولُزُوم الأعوام، لا تُنْقَض ولا تُفْسَخ، ولا تُتْبَع، ولا يُتأوَّل فيها، ولا تُغَيَّر. علىٰ أن يكون هـذا المـالُ : وهو من الوَرِق المرسَـل كذا وكذا فى كل سـنة مؤدًّى فى بيت المـال، ومصحَّحا عند من تُورَد عليه فى هذه الناحية أموالُ خَراجِهم ومقاطعاتهم وجباياتهم، لا يُعْتَلُّ فيها بآفةٍ تَلْحَق الغَلَّات، سماويَّةٍ ولا أرضيَّة، ولا بتعَطُّلِ أرض، ولا بقُصُور عِمارة، ولا نُقْصانِ رَيْع، ولا بانحطاط سِـعْر، ولا بتأخُّر قَطْر، ولا بشرْب غَلَّة، ولا حَرَق ولا شَرَق، ولا بغير ذٰلك من الآفات بوجْه من الوجوه، ولا بسَبَبٍ من الأسباب، ولا يحتَجُّ فى ذٰلك بحُجَّة يحتجُّ بها التنا (؟)، والمُزارِعُون، وأربابُ الخَرَاج فى الآلتواءِ بما عليهم، وعلى أن لا يدخُلَ عليك فى هذه المقاطعة يَدُ ماسِحٍ ولا مُخَمِّنٍ، ولا حازِر، ولا مقدِّم، ولا أمِينٍ، ولا حاظِر، ولا ناظِرٍ، ولا متتَبِّع، ولا متعرِّف لحال زراعةٍ وعِمارة، ولا كاشِفٍ لأمر زَرْع وغَلَّة، ماضِيًا ذٰلك لك ولعَقِبك من بعدك، وأعقابِهم، وورَثَتِك وورَثَتِهم، أبدًا ما تناسَلُوا، ولمن عسىٰ أن تنْقِلَ هذه الأَقْرِحةُ أو شىءٌ منها إليه بإرْثٍ، أو بيْع، أو هِبةٍ، أو نَحْل، أو صَدَقةٍ، أو وَقْف، أو مُناقَلة، أو إجارة، أو مُهايأة، أو تمليك، أو إقْرار، أو بغير ذٰلك من الأسباب التى تنتقِلُ بها

الأملاكُ من يَدٍ إلىٰ يَدٍ ، ولا يُنقضُ ذٰلك ولا شيءٌ منه ، ولا يغيَّر ولا يفْسَخ ، ولا يُزال ولا يبــدَّل ، ولا يعقَّب ، ولا يعترَض فيه بسَبَب زيادةِ عمــارةٍ ، ولا آرتفاعِ سِعْر ولا وُفُور غَلَّة ، ولا زَكاءِ رَيْع ، ولا إحياءِ مَوَاتٍ ، ولا آعتمالِ مُعطَّلٍ ، ولا عمــارةِ خَراب ، ولا آستخراج غامرٍ ، ولا صَــلاح شِرْبٍ ، ولا آستحداثِ غلَّات لم يَجْرِ الرسمُ باستحداثها وزراعتها ، ولا يُعَدُّ ولا يُمْسَحُ ما عسىٰ أن يُغْرس بهذه الأقرحة : من النَّخْل وأصناف الشَّجَر المعدُود والكَرْم ، ولا يُتأَوَّل عليك فيما لعلَّ أصلَ المساحة أن تزيدَ به فيما تُعمِّره وتســتخرجُه من الجَبَــابِين(١) والمستنقَعات ، ومواضِع المَشارِب المُسْــتغنىٰ عنها ، إذْ كان أميرُ المؤمنين قد عرَف جميعَ ذلك ، وجعــل ما يجب علىٰ شيءٍ منه عند وجوبه داخلًا في هذه المُقاطَعة ، وجارِيا معَها .

علىٰ أنَّك إن فصَّلْت شيئًا من مال هــذه المُقاطَعة علىٰ بعض هــذه الأقْرحة من جميع الضَّــيعة ، وأفردْتَ باقِيَ مال المقاطَعة بباقيها عنــد مِلْك ينتقِلُ منها عن بَدَل ، أو فَعَلَ ذٰلك غيرُك ممَّن جُعِل له في هذه المقاطَعة ما جُعِل لك من وَرَثتك ووَرَثتهم ، وعَقِبك وأعقابهم ، ومَنْ لعلَّ هذه الضَّيعةَ أو شيئًا من هذه الأقرحة ينتقِلُ إليه بضَرْب من ضُروبِ الانتقال ، قُبِل ذلك التفصيلُ منكم عند الرِّضا والآعتراف ممَّن تَفْصِلُون باسمه ، وتُحِيلون عليه ، وعُومِلتم علىٰ ذٰلك ، ولم يُتأوّل عليكم في شَيْءٍ منه .

وعلىٰ أنك إن آلتمستَ أو آلتمس مَن يقُوم مَقامك ضَرْبَ مَنَارٍ علىٰ هذه الضيعةِ ، تُعرَف به حدُودُها ورسومُهــا وطُرُقها ، ضُرِب ذٰلك المَنَــار أيَّ وَقْتٍ آلتمسُوه ، ولم يُمَنعُوا منــه ، وإن تأخَّر ضربُ المَنَــار لم يُتأوّلْ عليكم به ، ولم يُجعَلْ عِلَّة في هــذه المقاطعة ، إذْ كانت شهرةُ هذه الضيعةِ وأقْرحتها في أماكنها ، ومعرفةُ مجاورِها بمــا ذُكر من تسميتها ومِساحتها ، تُغْني عن تَحْديدها أو تَحْديد شيءٍ منها ، وتَقوم مقام المَنَار

(١) الجبابين الصحارى .

فى إيضاح معالمها ، والدّلالة على حُدُودها وحُقُوقها ورسُومها . وقد سوّغك يافلانُ آبن فلان أميرُ المؤمنين وعقِبَك من بعدك وأعقابَهم ، ووَرثتَك وورثتَهم أبدًا ماتناسَلُوا ، ومَن تنتقل هذه الأقرحةُ أو شىءٌ منها إليه — جميعَ الفصْل بين ما كان يلزَم هـذه الضَّيعةَ وأقرحتَها من حقّ بيت المـال وتوابعِه ، على الوَضيعة التامة ، وعلى الشروطِ القديمة ، وبين ما يلزمها علىٰ هذه المقاطعةِ ، وجعل ذلك خارجًا عن حاصل طَسُّوج كذا وكذا ، وعما يرفَعُه المؤتَمَنون ، ويُوافِق عليه المتضمِّنُون ، علىٰ غابِر الدهر ومَرِّ السنين ، وتعاقبُ الأيَّام والشهور .

فلا تُقْبل فى ذٰلك سِعايةُ ساعٍ ، ولا قَدْحُ قادِحٍ ، ولا قَرْفُ قارِفٍ ، ولا إغْراءُ مُغْرٍ ، ولا قولُ معنِّف ، ولا يُرْجَع عليك فيما سُوِّغتَــه ونُظِرَ لك به فى حالٍ من الأحوال ، ولا يُرْجَع فى التقريرات ، ولا تنقَضُ بالمعاملات وردِّها إلىٰ قِوام أُصُولها ، ولا ضَرْب من ضُرُوب الحُجَج والتأويلات ، التى يتكلم عليها أهلُ العَدْل علىٰ سبيل الحُكْم والنظَر ، وأهل الجور علىٰ سبيل العُدْوان والظُّلْم . ولا تكلَّف يافلان بن فلان ، ولا عقبُك من بعدك ، ولا ورثَتُك ، ولا أعقابُهم ، ولا أحدٌ ممن تخرُج هذه الضَّيعة أو هذه الأقْرِحة أو شىءٌ منها إليه ، على الوجوه والأسباب كلِّها — إخراجَ تَوْقيع ، ولا كتابَ مجدَّد ، ولا منشورٍ بانفاذ شىءٍ من ذٰلك ، ولا إحضارَ سِجِلٍّ به ، ولا إقامةَ حُجَّة فيه فى وقتٍ من الأوقات .

وعلىٰ أن لا يلزَمَك ولا أحدًا ممن يقُوم مَقامَك فى هذه المقاطَعة مَئُونةٌ ، ولا كُلْفةٌ ، ولا ضَريبةٌ ، ولا زيادةٌ ، ولا تقسيط كراء منـه ، ولا مصلحةٌ ، ولا عاملُ بريد ، ولا نفقةٌ ، ولا مئونةُ جماعة ، ولا خفارةٌ ، ولا غيرُ ذلك . ولا يَلزَم بوَجْه من الوجوه فى هذه المقاطَعَة زيادةٌ على المبلغ المذكور المؤدَّىٰ فى بيت المال فى كلِّ سنةٍ خراجية ،

وهو من الوَرِق المُرْسَل كذا وكذا، ولا تمنعُ من رَوْزِ[1] جِهْبِذ أو حُجَّة كاتب أو عامل بمـا لهذه المقَاطَعَـة إذا أدّيتَـه أو أدّيْتَ شيئا منه أوّلا أوّلا، حتّى يتَكمّلَ الأداءُ، وتحصُلَ فى يَدِك البراءةُ فى كلّ سنةٍ بالوفاء بجميع المـالِ بهذه المقاطعةِ .

وعلىٰ أن تُعاوَنوا علىٰ أحوال العِمارة ، وصـلاح الشِّرْب ، وتُوفَّر عليكم الضِّـيافةُ والحِمايه، والذَّبُّ والرِّعايه .

ولا يَتَعقَّبَ ما أمر به أميرُ المؤمنـين أحدٌ من وُلاة العهود والأمراءِ والوُزراءِ وأصحاب الدواوين، والكُتَّاب والعُمَّال والمُشْرِفين، والضُّمَناء والمؤتَمَنين، وأصحاب الخـراج والمَعَاوِنِ، وجميع طَبَقات المُعاملين، وسائر صُـنوف المتصرِّفين ـ يُبْطِله أو يُزيلُه عن جهته، أو ينقُضُه، أو يفسَخُه، أو يغيِّره، أو يبدِّلُه، أو يوجبُ عليك أو علىٰ عَقِبك من بعدك وأعقابهم وورَثتهم أبدا ما تناسلُوا ومن تخرُج هذه الضيعةُ أو شيءٌ منها [اليه] حجةً علىٰ سائر طُرُق التأويلات، ولا يُلزِمُكَ شيئا فيه، ولا يُكلِّفكم عِوَضًا عن إمضائه، ولا ينظُر فى ذٰلك أحدٌ منهم نَظَرَ تتبُّع ولا كَشْف، ولا بَحْثٍ، ولا فَحْص . فإن خالف أحدٌ منهـم ما أَمَر به أميرُ المؤمنين، أو تعرَّض لكَشْف هـذه المقاطعة أو مساحتها أو تخْمِينها أو اعتبارها والزيادةِ فى مبلغ ما لهـا، أو ثبَت فى الدَّواوين فى وقتٍ من الأوقات شيءٌ يخالِفُ ما رسمه أميرُ المؤمنين فيها : إما علىٰ طريق السَّهْو والغَلَط، أو العُـدْوان والظُّلْم والعِناد والقَصْـد، فذٰلك كلُّه مردُود، وباطلٌ، ومُنْفَسِخٌ، وغيرُ جائز، ولا سائغ، ولا قادِحٍ فى صحَّة هذه المقاطَعة وثُبوتها ووجوبها، ولا معطِّلٍ لها، ولا مانعٍ من تلافى السَّهْو واستِدْراكِ الغَلَط فى ذٰلك، ولا مغيِّرٍ لشيء من شرائط هـذه المقَاطَعة . ولا حجَّةَ تقُوم عليك يافلانُ بنَ فلان، ولا علىٰ من يقومُ فى هذه المقاطعة بشيءٍ من ذٰلك : إذ كان ما أَمَر به أميرُ المؤمنين

(١) الروز التجـــربة .

من ذلك على وجه من وجوه الصلاح ، وسبيلٍ من سُبُله رآهما وأمضاهما ، وقطع بهما كلَّ اعتراض ودعوى ، واحتجاجٍ وقذف ، وأزال معهما كلَّ بحثٍ وفحص ، وتبعةٍ وعلاقة ، وإن كان من الشرائط فيما سلف من السنين وخلا من الأزمان ما هو أوكدُ وأتمُّ وأحكمُ وأحوطُ لك ، ولعقبك وورثتك ، وأعقابهم وورثتهم ؛ ومَنْ تنتقل هذه الأقرحةُ أو شيءٌ منها إليه مما شُرط في هذا الكتاب بحال ، أوجبها لك الاحتياطُ على اختلاف مذاهب الفقهاء والكتّاب وغيرهم مما للخلفاء أن يفعلوه وتُنفَّذ فيه أمورُهم ، وحُمات وحُملوا عليه ، وهو مضافٌ إلى شروط هذا الكتاب التي قد أتى عليها الذِّكرُ ، ودخلتْ تحت الحَصْر ، ولم يكلَّف أحدٌ منكم إخراجَ أمرٍ به .(١)

وإن التمست [أنت] أو أحدٌ من ورثتك وأعقابك ، ومَنْ عسى أن تنتقلَ هذه الضَّيعة والأقرحةُ أو شيءٌ منها إليه في وقتٍ من الأوقات تجديدَ كتابٍ بذلك ، ومكاتبةَ عاملٍ أو مشرفٍ ، أو إخراجَ توقيعٍ ومنشورٍ إلى الديوان بمثل ما تضمَّنه هذا الكتابُ ، أُجبتم إليه ولم تُمنعُوا منه .

وأمَرَ أمير المؤمنين بإثبات هذا الكتاب في الدَّواوين ، وإقراره في يدك ، حُجةً لك ولعقبك من بعدك وأعقابهم ، وورثتك وورثتهم ، ووثيقةً في أيديكم ، وفي يد من عسى أن تنتقلَ هذه الضيعةُ أو الأقرحةُ أو شيءٌ منها إليه ، بضَرْب من ضُروب الانتقال التي ذُكرتْ في هذا الكتاب والتي لم تُذْكَر فيه ، وأن لا تُكلَّفوا إيراد [حجة] من بعده ، ولا يتأوّلَ عليكم متأوِّلٌ فيه .

فمَن وقف على هذا الكتاب وقرأه أو قُرئ عليه : من جميع الأمَراء ، وولاة العهود والوُزَراء ، والعُمّال ، والمشرفين ، والمتصرِّفين ، والناظرين في أمور الخَرَاج ، وأصحاب السيوف على اختلاف طبقاتهم ، وتباينُ منازلهم وأعمالهم . فليمْتثلْ ما أمَرَ به أمير

(١) متعلق بأوكد وما بعده .

المؤمنين ولينفِّذْ لفلانٍ بن فلان وورثته وورثتهم، وعقِبه وأعقابِهم، ولمن تنتقل هذه الأفرحةُ أو شيءٌ منها إليه ـ هذه المقاطعةَ، من غير مراجعةٍ فيها، ولا آستئمارٍ عليها، ولا تكليف [له] ولا لأحدٍ ممن يقُوم بأمرها إيرادَ حُجَّة بعدَ هـذا الكتاب بهـا . وليَعْمَلْ بمثل ذٰلك مَن وَقَف علىٰ نسخة من نُسَخ هذا الكتاب فى ديوانٍ من دواوين الحضرة، وأعمالهـا أو الناحية، وليُقَرَّ فى يد فلانٍ بن فلان أو يَد من يُورِده ويحتجُّ به ممن يقُوم مقامه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الطريقـــة الثانيـــة

(ما كان يُكْتَب فى الإقطاعات عن الخُلَفاء الفاطميين بالديار المصرية)

وهو علىٰ نحوٍ ممـا كان يُكْتَب عن خلفاء بنى العَبَّاس .

قال فى "موادّ البيان" : والرسْم فيها أن يُكْتَب :

أميرُ المؤمنين بمـا وهَبه الله تعالىٰ : من شَرَف الأَعْراق، وكَرَم الأَخْلاق؛ ومَنَحه من علُوِّ الشان، وآرتفاعِ السُّلطان؛ يَقْتدى بإذن الله سبحانه فى إفاضة إنعامه وبِرِّه، على الناهِضين بحقُوق شكْرِه؛ ويُوقع أياديَه عند من يقُوم بحقِّها، ويتألَّفُها بحَمْدها، وشُكْرِها، ولايُنَفِّرها ويُوحِشُها بكُفْرها، وجَحْدها؛ ويتحرَّىٰ بعَوارفه المَغَارِسَ التى تُنْجِب شَجَرتُها، وتَحْلَوْلِى ثَمَرتُها؛ والله تعالىٰ نسألُه أن يوفِّقه فى مقاصِده، ويُرِيَه مخايِلَ الخير فى مَصادِره ومَوارِده؛ ويُعينَه علىٰ إحسانٍ يُفيضُه ويُسْبِغُه، وآمتنانٍ يُضْفيه ويُفْرِغُه .

ولمـا كان فلانُ بنُ فلان ممن غَرَس أميرُ المؤمنين [إحسانَه] لديْه فأثْمر، وأولاه طَوْلَه فشَـكَر، ورآه مُسْـتَقِلًّا بالصَّنيعه، حافِظًا للوَديعه، مقابِلًا العارفةَ بالإخلاص فى الطاعه، مُستَدِرًّا بالانْقِياد والتِّباعه، أخلافَ الفَضْل والنِّعمة (ويُوصَف الرجل

المَقْطَع بمـا تقتضـيه منزلتُه) ثم يقال : رأىٰ أميرُ المؤمنين مضاعفـةَ أياديه لدَيْه ، ومُواصلةَ إنعامه إليه ، وإجابةَ سُؤاله ، وإنالتَه أقاصيَ آماله ، وتنويلَه ما نَحَتْ إليه أمانتُه ، وطمَحَت نحوَه راحتُه ، وإسْعافَه بمـا رَغِب فيه من إقطاعه الناحيةَ الفلانيةَ ، أو الدارَ أو الأرضَ ، أو تسويغَه ما يجب عليـه من خَراج مِلْكه ، وما يجرى هـذا المجرى . ثم يقال : ثقةً بأنَّ الإحسانَ مغروسٌ منه فى أكرم مَغْرِسٍ وأزكاه ، وأحقِّ مَنْزِلٍ بالتنويل وأَوْلاه . وخرج أمْرُه بإنشاء هـذا المنشُور بأنه قد أقْطَعه الناحيـةَ الفلانية ، لاستقبال سنةِ كذا بحقُوقها وحدُودِها ، وأرْضِها العامرةِ ووجُوه جباياتها ، (وينص علىٰ كلِّ حق من حقُوقها ، وحدّ من حدُودها) فإذا آستوفىٰ القول عليه ، قال : إنعامًا عليه ، وبَسْطا لأمله ، وإبانةً عن خَطَره .

فلْيعلَمْ ذٰلك كافَّةُ الولاة والنُّظَّار والمسـتخْدَمين من أمير المؤمنين ورَسْمه ، ليعمَلُوا عليه وبحَسَبه ، ولْيحْذَرُوا من تجاوُزِه وتعدّيه ، وليُقرّ بيده بعد العملِ بمـا نُصَّ فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : والتحقيق أنَّ لهم فى ذٰلك أساليبَ : منهـا ما يفتَتَح بلفظ « هذا » والمعروفُ أنه كان يسمّى ما يُكتَب فى الاقطاعات عندهم سِجِلَّات كالذى يُكتَب فى الولايات .

وهذه نسخةُ مَنْشورٍ من مَنَاشيرهم ، من إنشاء القاضى الفاضـلِ لولدٍ من أولاد الخليفة آسمُه حسَن ولقبُه حُسامُ الدين مفتَتَحٌ بلفظ «هذا» وهى :

هـذا كتَابٌ من أمير المؤمنـين لولَدِه الذى جَلَّ قَـدْرا أن يُسامىٰ ، وقرّ فى ناظر الإيمـان نُورا وسَلَّته يدُ الله حُساما ، وحَسُن به الزمانُ فكان وجُودُه فى عِطْفـه

حليةً والغُرّةِ ابتساما، وأضاءتْ وجوهُ السعادة لَمنْحها(١) بكريم اسْمه اتّساما، وتهيَّأت الأقدارُ لأن تُجْرِىَ على نَقْش خاتم إرادته امتثالًا وارْتساما - الأمير فلان، جَرْيًا على عادة أمير المؤمنين التى أوضحَ اللهُ فيها إشراقَ العوائد، واتّباعاً لسنّة آبائه التى هى سَنَن المكارم والمراشد، وارتفادًا مع ارتياح [إلى موارد] كرمه التى هى موارد لا يُحَلَّأ عنها وارد، واختصاصًا بفضله لمن كفَاه من الشَّرف أنَّه له والد، وعموما بما يسُوقُه الله على يده من أرزاق العباد، وإنعامًا جعل نَجْلَه طريقَه إلى أن يُفيض على كلّ حاضرٍ وبَاد .

وأميرُ المؤمنين بحرٌ ينتَشِئ من آله السَّحابُ المُنزَّل، ويَمُدّهم جَوادَ العطاءِ الأجْزَل .

أمر بكَتْبه لما عُرِضتْ لمَقامه رُقْعةٌ بكذا وكذا، وخرَج أمرُ أمير المؤمنين إلى وَليِّه وناصره، وأمينه على ما استأمنَه اللهُ عليه ومُوازِره، السيد الأجلّ الذى لم تزل آراؤُه ضوامنَ للمصالح كوافل، وشُهُبُ تَدْبيره من سماء التوفيق غيرَ غاربةٍ ولا آوافل، وخدَمُه لأمير المؤمنين لا تَقِف عند الفرائض حتّى تتخطّى إلى النَّوافل، وجاد فأخْلافُ النِّعم به حَوافِل، وأقبلَ فأحزابُ الخلاف به جَوافِل، وأيقَظَ عيونا من التدبير على الأيَّام لا تدَّعى الأيَّامُ أنها غَوافِل؛ بأن يُوعزَ إلى ديوان الإنشاء بإقطاع ناحيةِ كذا بحَدِّها، والمعتاد من وصفِها المعاد، وما يدُلُّ عليه الديوان من عِبْرتها، ويتحصَّل له من عَيْنها وغَلّتها؛ إلى الديوان الفُلانىّ: إقْطاعا لا ينقَطِع حكمه، وإحسانا لا يعفُو رَسْمُه، وتسويغًا لا يطيش سَهْمُه، وتكميلًا لا يُمْحَى وَسْمُه، وتخويلًا لا يُثْنَى عَزْمُه؛ يتصَرَّف فيه هذا الديوانُ ويستبدُّ به مالكا، ويُفاوِض فيه مُشارِكا، ويزرَعُه متعمِّلا ومضمِّنا، ويستَثْمره عادلًا فى أهله مُحْسنا؛ لا تتعقَّبه الدواوين بتأوُّلٍ مّا، ولا الأحوالُ بتحوُّلٍ مّا؛ ولا الأيَّام بتقلُّبها، ولا الأغْراض بتعقُّبها؛ ولا اختلافُ الأيدى بتنقُّلها، ولا تعترضُه الأحكام بتأوُّلها .

---

(١) فى الأصول هكذا «بمحها» باهمال نقط الكلمة بتمامها .

وقد أوجبَ أميرُ المؤمنين على كلِّ وَالٍ أن يتحامىٰ هذه الناحيةَ بضَرره، ويقْصِدَها بجميل أَثَره، ويُحيطَها بحُسْن نظَرِه، ويتَّقِيَ فيها رُكوبَ عواقِب غَرَره، ويَجْتنِبَ فيها مطالِبَ وِرْدِه وصَدَره، ونزولَ مستقرّه؛ ولا يمكِّن منها مُسْتخْدَما، ولا يكلِّف أهلَها مَغْرما، ويُجرِيَها مُجرىٰ ما هو من الباطل حِمىٰ؛ مالم يقل فيها بميل، أو يُخَف من سُبُلها سبيل، وله أن يتطَلَّب الجانيَ بعَيْنه، ويقتَضِيَه بأداء ما آستوجَبَ من دَيْنه، وأَخْذُه مَسُوقا بجرائم ذَنْبه إلىٰ مَوْقف حَيْنه، فمَن قرأه فليعمَلْ به .

وهذه نسخة سجِلٍّ بإقطاع، عن العاضد آخرِ خلفاء الفاطميين أيضا لبعض أُمَراء الدولة، من إنشاء القاضى الفاضل أيضا، وهى :

أميرُ المؤمنين ــ وإن عمّ جودُه كما عمّ فضلُ وجُوده، وسار كثيرُ إحسانه وبِرّه فى سُهول المعمُور ونُجُوده، ورحِمَ اللهُ الخلقَ بما آستأْثَره دونَ الخلائق من قُرْبه فى سُجُوده ــ فإنه يخُص بنى القُرْبىٰ من جَدِّه، والضاربينَ معه فى أنصباء مَجْده؛ : من سُلالته الزكيَّه، وطينتِه المِسْكيَّه، وأعْراقِه الشريفه، وأنسابه المُنيفه؛ فكُل غَرَّاءَ لا تخْفىٰ أوضاحُها، إلا إذا فاضَتْ أنوارُهم، وكل عَذْراء لا يُعْهَد إسْماحُها[1]، إلا إذا راضَتْ أخطارُهم .

ولَمَّا عُرِضت بحضْرته ورقَةٌ من ولده الأمير فلان الذى أقرّ اللهُ به عينَ الإسلام، وأنجزَ به دَيْنَ الأيَّام، وأطلعه بَدْرًا فى سماء الحَسَب، وجَلَا بأنواره ظَلَامَ النُّوَب، وآمتاحَ من مَنْبَع النبوّة وآرتَوىٰ، وآستَوْلىٰ علىٰ خصائص الفَضْل الجَلِيِّ وآحتَوىٰ ،

(١) أى انقيادها .

وأعدّ اللهُ لسعد الأئمة ذا مِرَّةٍ شديدَ القُوىٰ ، وأدْنىٰ الآستحقاقَ من الغايات حتّى تأهَّب لأن يكون بالوَادِ المُقَدّس طُوىٰ ؛ وأضحتْ كافَّةُ المؤمنين مؤمِّنين علىٰ مَكارمه ، وأمسَتْ كافَّةُ الخائفين خائفينَ من سَيْل أنفُسِهم علىٰ صَوارمه ؛ وآراؤُه أعْلىٰ أن يُضاهِيَها [رأىٌ] وإن جلَّ خَطَرُه ، وأعطيَتُه أرْقىٰ أن يُدانيهَا عطاءٌ وإن حَسُن فى الأحوال أثرُه ؛ وإنما يُنْبِع بمُلْكه منها ما راقَ بعَيْن آختياره وإيثاره ، وسَعِد بالآنتظام فى سِلْك جُوده الذى يعرِّضُه أبدًا لآنْتثارِه ، وتضمَّنتْ هذه الرُّقْعة الرغبةَ فى كذا وكذا ، وذكر الديوانُ كذا .

خرَج أمرُ أمير المؤمنين إلىٰ فَتـاه وناصِره ، ووَزيره ومُظاهِره ؛ السيد الأجلّ الذى آنتصر اللهُ به لأمير المؤمنين من أعدائه ، وحَسَم بحُسامه ما أعضَل من عارض الخَطْب ودَائه ، ونطقَتْ بفضله ألْسُن حُسَّاده فضْلًا عن ألسنة أودَّائه ، وسخَت الملوكُ بأنفُسها أن تكونَ فداءً له إذا حَوَّزها المجدُ فى فِدائه ؛ الذى ذخَره الله لأمير المؤمنين من آدمَ ذَخيره ، وجمع له فى طاعته بينَ إيقاظ البَصيرة وإخْلاص السَّريره ، وفُضِّلت أيامُه علىٰ أيّام أوليائه بما حَلَّاها من جميل الأُحْدوثة وحُسْن السِّيره ؛ وسهَّل عليه التَّقَوِّيَ فى المنافع والعُكُوفَ على المصالح ، وأجْنىٰ من أقلامه ورِمَاحه ثمراتِ النَّصائح ، وفازَ بما حاز من ذخائر العمل الصالح بالمَتْجَر الرَّابح ؛ وألهمه من حِراسَة قانُون المُلْك ما قضىٰ بحِفْظ نِظامه ، ولم ينصَرفْ له عَزْمٌ إلا إلىٰ ما صُرِف إليه رضا ربِّه ورِضا إمامه .

ونفَذتْ أوامِرُه بأن يُوعَزَ إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجل إلى الديوان الفلانىّ بإقطاعه الناحيةَ وما معها منسوبًا إليها وداخلًا فيها لآستقبال [سنة] كذا ، مِنْحةً سائغه ، لا يَعترِضُها التكدير ، ونِعمةً سابغه ، لاينقُضُها التَّغْيير ؛ وحِباءً موصولَ

الأسباب، وعَطاءً بغير مَنٍّ ولا حِساب؛ يتحكَّم فيه علىٰ قضايا الآختيار، وتنفُذ فيه أوامرُه الميمونةُ الإيرادِ والإصدار .

ومنها – أن يفتتح السِّجلّ بلفظ : « إنَّ أمير المؤمنين » ويذكُرُ من وصْفه ما سَنح له، ثم يذكُر حكمَ الإقطاع، وكيفيةَ خُروجه .

وهـذه نسخة سِجِلٍّ من ذلك كُتِب به لبعض وزَرائهـم ، من إنشاء القـاضى الفاضل، وهى :

إنَّ أمير المؤمنين لمَـا أطلقَ الله يدَ بِرّه من أمْيالٍ تبدُو على الأحوال شواهِدُ آثارِها، وتَرُوض الآمالَ سحـائبُها بسائب مِدْرارِها، وتتنزَّه مواعِدُها عن إنْظارِها ، ومواردُها عن أن يُؤتىٰ بأنْظارِها ، ويقُوم بناصِرها فيكونُ أقوىٰ أعوانها على الشكر وأنصارها؛ وألهمَه من مُواصَـلة المِنَن التى لا تنقطع رِوايتُها ولا تتناهىٰ مراتِبُها ، ومُوالاة المِنَح التى تَهُبُّ علىٰ جَناب الخـير شمـائِلُها وجنائِبُها ، وتَلْتقِى فى مَسَارح المـدائح غرائِبُها ورغائبُها؛ وحَبَّبه إليـه من آنتهاز فُرَص المَكارِم فى الأكارِم ، وآبتـداءِ المعرُوف وآبتدارِ مَغانِمه التى لا تَعْقُبها مَغارم – يُولِى آلاءَه من يَجْزِى عن حسنَتِها عَشْرا ، ويعقِلُ عقائلَها عنـد من يَسُوق إليهـا من آستحقاقِها مَهْرا ، ويقـابلُ بالإحسان إحسانَ أجلِّ أوليـائه قدرا ، ويُضاعِف الآمتنان عنـد من لم يَضْعُف فى مُوازَرَته أزْرا؛ ويُودِع ودائعَ جُوده فى المَغارس الجيِّدة بالزَّكاء والنَّماء، ويُزكِّى أصولَ معروفه لمن يفتَخِر بالآنضواء إلىٰ مُوالاته والآنتماء ، ويستكْرِم مستقَرَّ مِنَنِه وآلائه، ويُحْسِن إلى الإحسان ثم يبتَهِج بموالاته لديْه وإيلائه .

ولمـا كان السـيدُ الأجلُّ أميرُ الجيوش آيةَ نَصْر أمير المؤمنـين التى آنبرتْ فمـا تُبارىٰ، ونعمةَ الله التى أشرقتْ أنوارُها وأورتْ فمـا تتَوارىٰ؛ وسيفَ حقّه الذى

لا تكلّ مقاطعه ، وبحر جوده الذى لا تُكدّر مشارعه ؛ والمستقلّ من الدّفاع عن حوزته بما عجزت عنه الأمم ، والعلىّ علىٰ مقدار الأقدار إذا تفاوتت قيم الهمم ، والكاشف الجلّى عن دولته وقد عظمت مظالم الظّلم ، والجامع على المماراة والمواراة قلب المؤالف والمخالف ولسان العرب والعجم ؛ والمتبوّئ من الملك ملكا لا ينبغى لأحد من بعده ، والمتوقّل من الفخر محلّا لا يطمع النّجم فيه من بعده ؛ والمغير على الحرب العوان بقبليّة البكر ، والمنفّذ بمبتدع العزمات ما لولا وقوعه لما وقع [فى] الفكر ، والقاضى للدّين بحدّ سيوفه مطلول حقّه وممطول دينه ، والقائم لأمير المؤمنين مقاما قام به أبوه فى نصرة جدّه صلى الله عليهما يوم بدره ويوم حنينه .

ولقد أظهر الله آيات نضارة نظره على الأرض فأخذت زخرفها وآزّينت ، وآبتدت أيديه الجنىٰ فتظاهرت أدلّتها علىٰ دولته وتبينت ؛ وآستلأمت المملكة من تدبيره بجنّة تحاماها الأقدار وهى سهام ، ووثقت من عنايته إلىٰ هجر الخطوب بما يعيد نارها وهى بردٌ وسلام ؛ وما ضرّها مع تيقّظ جفنه أن يهجع فى جفنه طرف الحسام ، ولا آحتاجت وقلبه يساور جسيم أمورها أن تتعب فى وأدها الأجسام ؛ فأىّ خير يولىٰ – وإن عظم – يناهض آستحقاقه ؟ وأىّ غاية وإن جلّت تروم نيل مدىٰ مسعاه ولحاقه ؟ ؛ وأنّى لأعراض الدنيا أن تهدى لجوهره عرضا ، ولا تبلغ مبالغ النعم الجلائل أن تعتدّ اليوم من مساعيه عوضا ؟ ؛ وهل لأمير المؤمنين أعمال فى مجازاته عن قيامه بغمد رأيه ومجرّد عضبه ، ودفاعه عن حوزة عدّته وذبّه ، وكرّه فى مواقف كربه ، وكفايته للأمة فى سلمه وحربه ، وإيالته التى خصّ الأرض منها فضل خصبه ، إلا أن يذكره بقلبه عند ربّه ، وأن يرفع الحجب عند كلّ سؤال كما يرفع الله عند دعائه مسدل حجبه ؟ .

وعُرِضتْ بحَضْرة أمير المؤمنين مطالعةٌ منه عن خَبرٍ باسمه الكريم مَقْصورٍ على الرَّغبة فى خُروج الأمر بتمليك جهتِه التى تقومُ عِدّتُها عِدّة ألْفٍ، مستخْرِجا بها الخطَّ الشريف بإمضاء التمليك وإجازتِه، وتَسْليم المِلْك وحيازتِه .

فتلقّى أميرُ المؤمنين هـذه الرغبةَ بإفرازٍ جَرىٰ فيه من الأوامر علىٰ أفضل سَنَن، وتقبّلها منه بقَبُولٍ حَسَن، وتهللتْ عليه لسُؤاله مصابيحُ الطّلاقة والبِشْر، ونفذت (١) مَواقِعُ توقيعه مالا تَبلغُه مواقِعُ ماءِ المُزْن فى البَلَد القَفْر . وشَمِله خطُّه الشريفُ بما نُسْختُه : خَرج أمرُه اليه بأن يُوعَز إلىٰ ديوان الإنشاء بكَتْب هذا السِّجلّ بتمليك الجهةِ المقدّمِ ذكرُها بجميع حُدُودها وحُقُوقها، وظاهِرِها وباطنِها، وأعاليها وأسافلِها، وكلِّ حقٍّ لها، داخلٍ فيها وخارجٍ عنها، وما هو معروفٌ بها ومَنْسوبٌ إليها، تمليكاً مخلَّدا، وإنعامًا مؤبَّدا، وحقًّا مؤكَّدا، يَجرى على الأصل والفرع، ويُحْكم أحكامَ الكَرَم والشَّرْع، ماضيًا لا تُتعقَّب حدودُه بفَسْخ، جائزا لا تُتجاوَز عقودُه بنَسْخ، مَوْصولةً أسبابُه فلا تتطرّقُ أسبابُ التغيير إليها، موروثا حتّى يرثَ اللهُ الأرض ومَن عليها .

فليعتَمِدْ كافّةُ وُلاة الدّواوين، ومَنْ يليهم من المتصرِّفين، حملَ الأمر علىٰ مُوجَبه، والحَذَرَ من تعدِّيه وتَعقُّبه، وٱمتثالَ مارَسمه أمير المؤمنين وحَدّه، والوقوفَ عند أمره الذى عَدِم مَنْ مالَ فَرَدَّه، وليقرّ فى يد الديوان حُجّة لمودَعه بعد نَسْخه فى الدواوين بالحَضْرة، إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) لعله «وبلغت مواقع» الخ .

الضـــــرب الثـانى

(ممـا كان يُكتب فى الإقطاعات فى الزمن المتقدّم ما كان يُكْتب عن ملوك الشرق القائمين علىٰ خُلَفاء بنى العبّاس)

وطريقتُهم فيـه أن يُكتَب فى الأبتداء : « هـذا كتابٌ » ونحوُ ذلك ، كما كان يُكتَب عن خُلَفاء بني العبّاس فى ذلك ، ثم يُذكر عرْضُ أمْره على الخليفـة ، وآستكشافُ خبر ما تقَع عليـه المقاطعةُ من الدواوين ، وموافقـةُ قولهم بمـا ذكره فى رُقْعته ، ويذكَرُ أنّ أمير المؤمنين وذلك السُّلطانَ أمْضيَا أمرَ تلك المقاطعةِ وقرّراه . ثم ربّمـا وقَع تسويغُ ما وجب لبيتِ المـال لصاحبِ المقاطعـة زيادةً عليها ليكون فى المعنىٰ أنّه باشَرَها .

وهذه نسخةُ مقاطعةٍ بضَيْعةٍ كُتِب بها عن صَمْصام الدولة بن رُكْن الدولة بن بُوَيْه ، وهى :

هذا كتابٌ من صَمْصام الدولة ، وشَمْس المِلّة ، أبى كَالِيجار ، بنِ عَضُد الدولة وتاج المـلة أبى شجاع ، بن رُكن الدّولة أبى علىّ مَوْلىٰ أمير المؤمنـين ، لمحمد بن عبد الله آبن شهرام .

إنك ذكرتَ حالَ ضِـياعِك المعروفة برسدولا والبَـدْرِيّة من طَسُّوج نَهْر المَلِك ، والحظائر والحِصّـة بنهر قُلّا من طَسُّوج قُطْرَبُّل ، وما لحَقها : من آختـلال الحال ونُقْصان الآرتفـاع ، وآندواب المَشارب (١) ، وآستئْجام المَزارع ، وطَمَع المجاورين ، وضَـعْف الأَكَرَة والمُزارِعين ، وظُلْم العُمّال والمتصَرّفين ، لتطَاوُل غَيْباتك عنهـا ، وآنقطاعك بالأسفار المتصـلة عن آستيفاء حقُوقها ، وإقامةِ عماراتها ، والإنفاق علىٰ

(١) كذا بالأصل ، ولا معنى لها ولعلها : «واندثار المشارب» .

مصالحها، والانتصاف من المجاورين لها والمعاملين فيها، ووصفْتَ ما تحتاج إلىٰ تكلُّفه من الجملة الوافرة: لاحتفار أنهارها، وإحياء مَوَاتها، واعتمال متعطِّلها، وإعادة رسومها، وإطلاق البُذور فيها، وابتياع العوامل لها، واختلاف الأكَرَة إليها .

وسألت أن تُقاطَع عن حقِّ بيت المال فيها وجميع توابعه، وسائر لزومه، علىٰ ثلاثة آلاف درهم فى كلِّ سنة، معونةً لك علىٰ عمارتها، وتمكينًا من إعادتها إلىٰ أفضل أحوالها، وتوسعةً عليك فى المعيشة منها .

فأنهينا ذلك إلىٰ أمير المؤمنين الطائع لله، وأفَضْنا بحضرته فيما أنت عليه من الخلائق الحميده، والطرائق الرَّشيده، وما لك من الخِدْمات القديمة والحديثة، الموجبة لأن تُلْحقَ بنظرائك من الخدَم المختصِّين، والحواشى المستخلَصين، بإجابتك إلىٰ ماسألْتَ، وإسعافك بما التمسْتَ . فخرج الأمر ــ لازال عاليا ــ بالرجوع فى ذلك إلىٰ كُتّاب الدواوين، وعُمّال هذه النَّواحى، وتَعرُّف ما عندهم فيه مما يَعود بالصَّلاح، ويدْعو إلى الاحتياط . فرُجع إليهم فيما ذكرتَه وحكَيْتَه، فصَدَّقوك فى جميعه، وشهدوا لك بصحَّته، وتردَّد بينك وبينهم خطابٌ فى الارتفاع الوافر القديم، وما توجبه العِبَرُ لعدّة سنين؛ إلىٰ أن استقرّ الأمْرُ علىٰ أن توقَّعتْ علىٰ هذه الضِّياع المسمّاة فى هذا الكتاب خمسةُ آلاف درهم ورِقًا مرسَلا بغير كسر، ولا كفايةٍ، ولا حقِّ خزن، ولا جَهْبذَة ولا محاسَبة، ولا غير ذٰلك من المُؤَن كلِّها .

ثم أنهينا ذٰلك إلىٰ أمير المؤمنين الطائع لله، فأمر ــ زاد الله أمْرَه علُوًّا ــ بإمضاء ذٰلك، علىٰ أن يكون هذا المال، وهو خمسة آلاف درهم مؤدًّى فى الوقت الذى تُفْتَتَح فيه المُقاطعات : وهو أوّلُ يَوْمٍ من المحرّم فى كلِّ سنة، على استقبال السنة الجارية، سنةِ ثلاثٍ وسبعين وثلثمائةٍ الخراجية، عن الخَرَاج فى الغَلّات الشَّتْويَّة

والصَّيْفية، والمُحْدَثة والمبكِّرة الجارية على المِسَاحة، والحاصِل من الغَلَّات الجارية على المُقاسَمة والحَوالى، والمَرَاعى، والأَرْحاء، وسائر أبواب المـالِ، ووُجُوه الجبايات، وتقْسِـيطِ المصالح، والحِمَـاية، مع ما يلزَمُ ذٰلك من التوابع كلِّها: قليلِها وكثيرِها، والرسومِ الثابتة فى الدواوين بأَسْرِها؛ وعن كلِّ ماأُحْدِث ويُحْدَث بعـدها علىٰ زيادة الارتفاع ونُقْصانه، وتَصَرُّف بجميع حالاته: مقاطعةً مقرَّرة مُؤبَّده، مُمْضاة مخلَّده، علىٰ مُرُور الليالِى والأيَّام، وتعاقُب السنين والأعْوام. لك ولوَلَدك، وعَقِبك من بعدك، ومَنْ عسىٰ أن تنتقِلَ هذه الضياعُ إليه بميراثٍ، أو بَيْعٍ، أو هِبةٍ، أو تمليك، أو مُنَاقلةٍ، أو وَقْفٍ، أو إجارةٍ، أومُبادَرة، أومزارَعة أو غيرذٰلك من جميع الوجوه التى تنتقل الأملاكُ عليها، وتجرِى بين الناس المعاملاتُ فيها، لايُفْسَخُ ذٰلك ولايغيَّر، ولايُنْقَضُ ولا يبدَّل، ولا يُزال عن سَبيله، ولا يُحَال عن جهته، ولا يُعترَضُ عليـك ولا علىٰ أحدٍ من الناس فيـه ولا فى شيءٍ منـه، ولا يتأوَّل عليـك ولا علىٰ غيرك فيـه، بزيادةِ عِمـارةٍ، ولا زَكاءِ رَيْعٍ، ولا غُلُوِّ سِعْرٍ، ولا إصْلاحِ شِرْبٍ، ولا اعتمال خَرَابٍ، ولا إحياءِ مَوَاتٍ، ولا بغـيرذٰلك من سائرأسبابِ وُفُورِ الارتفاع ودُرُورِ الاسـتغلال.

وحظَر مولانا أميرُ المؤمنين الطائعُ لله، وحظَرْنا بحَظْره علىٰ كُتَّاب الدَّواوين: أُصُولِهـا وأزِمَّتِها، وعُمَّال النواحى، والمُشْرِفين عليها، وجميع المتصرِّفين على اختلاف طبقاتِهم ومنازِلهم، الاعتراضَ عليك فى هذه المقاطَعة، أو إيقاعَ ثَمَن أو مساحةٍ علىٰ ما كان منها جارِيًا على الخراج، أوتقريرٍ أو حَزْرٍ، أو قسمة علىٰ ما كان منها جاريًا على المقاسمة، أو أن تدخُلَها يَدٌ مع يدك لناظِر أو حاظِر أو مستظْهِر أو معتبِر أو متصَفِّح، إذْ كان ما يظهر منها من الفَضْل علىٰ مُرُور السنين مسوَّغًا لك، لاتُطالَب به، ولا بمَرْفَقٍ عنـه، ولا علىٰ ماظهَر عليه وعلىٰ شيءٍ منه؛ ولا يُلتَمس منك تجديدُ كتاب،

ولا إحضار حجّةٍ، ولا توقيعٌ به ولا منشورٌ بعد هذا الكتاب : إذْ قد صار ذلك لك وفى يدك بهذه المقاطَعة، وصار مايجبُ من الفَضْل بين ماتُوجبه المسائحُ والمقاسماتُ وسائرُ وجوه الجبايات، وبينَ مالِ هذه المقاطعة المحدودةِ المذكورةِ فى هذا الكتاب خارجًا عمّـا عليه العُمّال، ويرفَعُـه منهم المؤتَمَنون، ويوافقُ عليه المتضمِّنون ؛ على مُرور الأيّام والشهور، وتعاقُب السنينَ والدُّهور؛ فلا تُقْبَل فى ذلك نصيحةُ ناصِحٍ، ولا تَوْفير موفِّرٍ، ولا سِعايةُ ساعٍ، ولا قَذْفُ قاذِفٍ، ولا طَعْن طاعِنٍ .

ولايلزَم عن إمضاء هذه المقاطَعة مَـئُونةٌ، ولا كُلْفةٌ، ولا مُصانَعةٌ، ولا مصالَحة، ولا ضَريبـةٌ، ولا تَقْسيطٌ، ولا عمـلُ بَريد، ولا مصلحةٌ من المصالح السلطانية، ولا حقُّ حماية، ولا خِفارة، ولا غيرُ ذلك من جميع الأسباب التى يتَطَرّق بها عليك، ولا [على مَن] بعدَك، لزيادةٍ على مالها المحصورِ المذكورِ فى هذا الكتاب، ولا حقُّ خَزْن ولا جَهْبَذة، ولا مُحاسَبة ولا مَـئُونةٍ ولا زيادة . ومتى آستُخْرِج منك شىءٌ أو من أحدٍ من أنسبائك، أو ممَّن عَسَى أن تنتقل إليه هذه المقاطعةُ بشىءٍ زائدٍ عليها على سبيل الظلم والتأوّل والتعنُّت لم يكنْ ذلك فاسخا لعَقْدها، ولا مُزِيلا لأمرها، ولا قادِحًا فى صحّتها، وكان لك أنْ تطالِب بردّ المأخوذ زائدًا على مالهـا، وكان على من ينْظر فى الأمور إنصافُك فى ذلك وردُّه عليـك، وكانت المقاطعـةُ المذكورة ممضاةً على تصرُّف الأحوال كلّها .

ثم إنَّا رأينا بعـد ماأمضاه مولانا أميرُ المؤمنين، وأمضيناه لك من ذلك وتمـامه وإحكامه ووُجوبه وثُبوته، أنْ سوّغناك هذه الخمسـةَ آلاف درهم المؤدّاة عن هذه المقاطعة على آستقبال سنة ثلاثٍ وسبعين وثلثمائة الخراجية، تَسْويغًا مؤبَّدا، ماضيا على مرّ السـنين : ليكون فى ذلك بعضُ العِوَض عن باقى أملاكك وضِياعك التى

قُبِضت عنك ، وبعضُ المَعُونة فيما أنت متَصَرِّف عليه من خِدْمتنا ، ومتردِّدٌ فيه من مهمَّات أمورنا؛ وأوجَبْنا لك فى هذا التَّسْويغ جميعَ الشروط التى تُشْتَرَط فى مثله؛ ممـا ثبت فى هذا الكِتاب وممـا لم يَثْبُت فيه : لينحسِم عنك تَتَبُّع المتتبِّعين، وتعقُّب المتعقبين، وتأوُّلُ المتأوِّلين على الوجوه والأسباب .

وأمرنا ـ متىٰ وَقَع علىٰ مال هذا التَّسْويغ (وهو خمسةُ آلاف درهم) ٱرتجاعٌ، بحَدَثٍ يحدُث عليك، أو بتَعْويض تُعَوَّض عنه، أو بحالٍ من الأحوال التى تُوجب ٱرتجاعَه ـ أن يكون أصلُ المُقاطَعة ممضًى لك، ورسْمُها باقياً عليك وعلىٰ مَن تنتقل هذه الضياعُ إليه بعدك، علىٰ ما خَرَج به أمرُ أمير المؤمنين فى ذٰلك، من غير نَقْضٍ ولا تأول فيه، ولا تغييرٍ لرسْم من رسومه، ولا تجاوُزٍ لحدّ من حدوده، علىٰ كلِّ وجه وسبب .

فلْيُعلَمْ ذٰلك من رَأْيِ أمير المؤمنين الطائع لله وأَمرِه ، ومن ٱمتثالنـا وإمضائنا ، وليَعْمَلْ عليه جماعةُ مَن وقف علىٰ هذا الكتاب : من طبقات الكُتَّاب، والعمَّال، والمشْرِفين، والمتصرفين فى أعمال الخراج والحمايةِ والمصالح، وغيرهم . وليحْذَرُوا من مخالفته ، ويُمْضُوا بأسْرهم لمحمد بن عبد الله بن شهرام ومن بعده جميعه، وليحْملُوه علىٰ مايُوجِبه . ولْيُقَرّ هذا الكتابُ فى يده وأيديهم بعدَه حجةً له ولهم، ولينْسَخْ فى جميع الدواوين، إن شاء الله تعالىٰ .

الطريقة الثانيـــــة

(ممـا كان يُكتَب فى الإقطاعات فى الزمن المتقدّم ـ ما كان يُكتَب عن الملوك الأيوبيّـــة بالديار المصرية)

وكانوا يُسَمُّون مايُكتب فيها تواقيع ، ولهم فيه أساليبُ :

الأســـــلوب الأوّل

(أن يُفتتح التوقيعُ المكتتَب بالإقطاع بخطبة مفتتحة بـ«الحمد لله»)

وكان من عادة خُطَبهم أن يُؤتىٰ فيها بعد التحميد بالصلاة على النبيّ صلى الله عليه وسلم ، ثم يُؤتىٰ ببعْديّة ، ثم يُذْكَر ماسَنَح من حال السلطان ، ثم يُوصَف صاحبُ الإقطاع بمـا تقتضيه حالُه من صفات المدح ، ويُرتَّب علىٰ ذلك آستحقاقُه للإقطاع . وقد كان من عادتهم أنهم يأتون بوَصية علىٰ ذلك فى آخره .

وهــذه نسخةُ توقيعٍ علىٰ هذا الأسلوب ، كُتِب به عن السلطان صــلاح الدين «يوسفَ بن أيوب» رحمه الله ، لأخيه العادل «أبى بكر» بإقطاع بالديار المصرية ، وبلاد الشام ، وبلاد الجزيرة ، وديار بَكْر ، فى سنة ثمـانين وخمسمائة ، بعد الانفصال من حَرْب الكفار بعكّا وعَقْد الهُدْنة معهم ، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل أيّامنا حِسانا ، وأعلىٰ لنا يدًا ولسانا ، وأطابَ مَحْتِدَنا أوْراقًا وأغصانا ، ورفع لمَجْدنا لواءً ولجِدّنا بُرْهانا ، وحقّق فينا قوله : ﴿ سَنَشُدُّ عَضُـدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا ﴾ .

نَحْمَدُه علىٰ سُبوغ نِعْمته ، ونسأله أن يجعلَنا من الداخلين فى رَحمته .

ثم نُصلِّى علىٰ رسوله محمد الذى أيّده بحِكْمته ، وعَصَمه من الناس بعِصْمته ، وأخرج به كلَّ قلْب من ظُلْمته ، وعلىٰ آله وأصحابه الذين خَلَفوه فأحسنوا الخلافة فى أُمّته .

أما بعدُ ، فإن فُروعَ الشَّجَرة يأْوِى بعضُها إلىٰ بعضٍ لمكان قُرْبه ، ويُؤْثِر بعضُها بعضا من فَضْـل شِرْبه ؛ ونحن أهـلُ بَيْتٍ عُرِف منا وِفاقُ القلوب وُدّا ، وإيثارُ الأيدى رِفْدا ؛ وذٰلك وإن كان من الحَسَنات التى يكثُر فيها إثباتُ الأقلام ، فإنه من مصالح المُلْك التى دلَّت عليها تجاربُ الأيَّام ؛ وكلا هٰذَين الأمرين مشكورةٌ مَذَاهبُه ، محمودةٌ عواقبُـه ، مرفوعةٌ علىٰ رُءُوس الأشهاد مَناقبُـه ؛ وما من أحَدٍ من أدَانِينَـا إلا وقد وَسَمْناه بعوارِفَ يختـالُ فى مَلَابسها ، ويُسَرُّ فى كلِّ حِينٍ بزِفاف عرائسها ، ولم نَرْضَ فى بَلِّ أرحامهـم بمواصلة سَـلامِها دُون مواصَـلةِ بِرِّها وإدناء مجالسها ؛ ولإخْوتِنا من ذٰلك أوفَرُ الأقسام ، كما أنَّ لهم منَّا رَحِمًا هو أقربُ الأرحام ؛ وقد أمَرْنا بتَجْديد العارفة لأخينا الملكِ العـادل ، الأجلِّ ، السيد ، الكبير ؛ سـيفِ الدين ، ناصرِ الإسلام « أبى بكر » أبقاه الله . ولو لم نفعلْ ذٰلك قضاءً لحقِّ إخائه الذى تَرِفُّ عليه حَوانِى الأضالع ، لَفعلْناه جزاءً لذائع خِدَمه التى هى نِعْم الذَّرائع ؛ فهو فى لُزُوم آدابِ الخِدْمة بَعيدٌ وقَفَ منها علىٰ قَدَم الاجتهاد ، وفى لُحْمَة شوابك النَّسب قريبٌ وصَلَ حُرمةَ نَسَبه بحُرْمة الوِداد ؛ وعنـده من الغَنَاء ما يحكم لآماله بِبَسْطة الخيـار ، ويرفَعُ مكانَتَه عن مكانة الأشـباه والأنظار ، ويجعـلُه شريكًا فى المُلْك والشريكُ مساوٍ فى النَّقض والإمرار ؛ فكم من موْقِفٍ وقَفَه فى خِدْمتنا فجعـل وَعْره سَهْلا ، وفاز فيه بارضائنا وبفَضِـيلة التقدّم فانقلب بالحبْذَيْن إرضاءً وفَضْـلا ؛ ويكفِى من ذٰلك ما أبلاه فى لِقاء العدوّ الكافر الذى آستَشْرَى فى هِيَاجه ، وتمـادىٰ فى لجَاجه ، ونزل علىٰ ساحل البحر فأطلَّ عليه بمثل أمْواجه ، وقال : لا بَرَاحَ ، دُون آستِفْتاح ، الأمْرُ الذى عَسُرتْ معالجـةُ رِتَاجه ؛ وتلك وقائـعُ آستضأْنا فيها برأيه الذى يَنُوب مَنَابَ الكمين فى مُضْمره ، وسَيْفه الذى يُنْسَب من الاسم إلىٰ أبْيضه ومن اللَّون إلىٰ أخْضَره ؛ ولقد آستغنينا عنهما بنَضْرة لَقَبه الذى تولَّتْ يدُ الله طَبْع فضْله ، وعُنيت يَدُ

السِّيادة برَوْنَق صَقْله ؛ فهو يَفْرِى قلوبَ الأعداء قبلَ الأجساد، ويَسْرى إليهم من غير حامِل لمَنَاط النِّجاد، ويستَقْصِى فى ٱستِلابهم حتَّى ينتَزِع من عيُونهم لَذَّة الرُّقاد؛ وليس للحديد جَوْهَرُ معدِنه المستخْرَج من زكاء الحَسَب ، وإذا ٱستُنْجِد قيل له : ياذا المَعَالِى ! كما يُقال لسَمِيِّه : ياذا الشُّطَب ؛ ولو أخذْنا فى شرْح مناقبه لظَلَّ القلَم واقفًا علىٰ أعواد منبره، وٱمتدّ شأْوُ القول فيه فلم يثْنِه مَوْرِدُه إلىٰ مَصْدَرِه ؛ فمهما خوّلناه من العَطايا فإنه يَسِيرٌ فى جَنْب غَنائه، ومهما أثنَيْنا عليه فإنَّه سَطْرٌ فى كتاب ثَنائه .

وقد جعلْنا له من البلاد ما هو مقْتَسم من الديار المصرية والشاميَّة، وبلاد الجزيرة وديار بَكْر : ليكون له من كلِّ منهـا حظٌّ تُفيض يَدُه فى أمواله ، ويرْكَب فى حَشْـدٍ من رجاله ؛ ويُصْبِحُ وهو فى كلِّ جانب من جوانب مُلْكِنا كالطَّليعة فى تقَدّم مكانها ، وكالرَّبيئة فى إسهارِ أجفانها .

فليتسَلَّمْ ذٰلك بيدِ معَظِّم قَدْرا ، ولا يستكْثِرْ كُثْرا ، ويحمل منها رِفْدها غيثا أو بحرا ؛ وكذٰلك فليعْدِل فى الرعيَّـة الذين هم عنـدَه ودَائع ، وليُجَاوِز بهم درجةَ العَـدْل إلىٰ إحسانِ الصنائع ؛ فإذا أسنَد هذا الأمرَ إلىٰ وُلَاته فليَكونُوا تُقاةً لا يَجِدُ الهوىٰ عليهم سَبِيلا ، ولا يجِدُ الشيطانُ عندهم مَقِيلا ، وإذا حُمِّلوا ثِقْلًا لا يجدون حَمْله ثقيلا .

وقد فَشَا فى هذا الزمن أخْذُ الرَّشوة وهى سُحْتٌ أمَر رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بنَبْذه ، ونهىٰ عن أخْذِه ، وعن الرغبة فى تَدَاوُله ، وهو كأخْذ الرِّبا الذى قُرِنت اللَّعنةُ بمُؤكِله وآكِلِه .

وأما القُضاة الذين هم للشريعة أَوْتاد ، ولإمضاءِ أحكامها أجْناد ، ولحِفْظ علُومها كنوزٌ لا يتطرّق إليهـا النَّفاد ؛ فينبغى أن يُعوَّل فيهـم على الواحد دُون الآثنـين ، وأن يُستعانَ منهم فى الفَصـل بذى الأيدى وفى اليَقَظة بذى اليدَين ، ومن رام هذا

المنْصِبَ سائلا فَلْيَلُمْهُ وليغلِظ القولَ فى تجْريع ملامِه ، وليعْرِف أنه ممّن رام أمْرا فأخطأَ الطَّريقَ فى ٱستجلاب مَرامه ؛ وأمرُ الحكّام لايتوَلّاه من سأله ، و إنما يتَوَلّاه من غَفَل عنه وأغْفَله .

و إذا قضيْنا حقَّ الله فى هذه الوصايا فلْنَعْطِفْها علىٰ ما يكون لها تابعا ، ولقواعد المُلْك رافعا ، وذاك أنَّ البلادَ التى أضفْناها اليك : فيها مدنٌ ذاتُ أعمالٍ واسعه ، ومعاقِلُ [ذات] حَصانةٍ مانعه ؛ وكلُّها يفتقر إلى ٱستخدام الفِكْر فى تَدْبيره ، وتصريف الزمان فى تَعْميره ؛ فولِّ وَجْهَك إليها غيْرَ وانٍ فى تكثير قليلها ، وترويضِ مُحْيلها ؛ وبثِّ الأَمَنة علىٰ أوساطها ، و إهداء الغِبْطة إلىٰ أفْئِدَةِ أهلها حتّٰى تسمع باغتباطها ؛ وعنـدَ ذٰلك يتحدّثُ كلٌّ منهم بلسان الشَّكُور ، ويتمثل بقوله تعالىٰ : ﴿ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ ورَبٌّ غَفُور ﴾ .

وٱعلم أنه قد يُجاوِرُك فى بعضها جِيرانٌ ذُو بِلادٍ وعساكِر ، وأَسِرَّة ومنابِر ، وأوائلَ للْمَجْد وأَوَاخِر ؛ وما منهم إلا من يتمسَّك منّا بوُدٍّ سليم ، وعَهْـدٍ قديم ، وله مساعدة نَعْرِف له حقَّها (والحَقُّ يعرِفُه الكريم) .

فَكُنْ لهؤلاء جارًا يَوَدُّون جِوارَه ، ويحمدون آثارَه ؛ و إن سألوك عهدا نابذُلْه لهم بَذْلَ وفِيٍّ واقفٍ على السُّـنَن ، مساوٍ بين السرِّ والعَلَن ؛ ولا يكُنْ وفاؤُك لخوف تَتَّقِى مَراصِـدَه ، ولا لرجاءٍ تَرْقُب فوائِدَه ؛ فاللهُ قد أغناك أن تكونَ إلى المُعاهدة لاجيا ، وجعلك بنا مَخُوفا ومَرْجُوًّا لاخائفا ولا راجيا ؛ وقد زِدْناك فَضْلةً فى محلك تكون بها علىٰ غيرك مُفَضَّـلا ، وقد كنتَ من قبلها أَغَرَّ فأوْفَتْ بك أَغَرَّ مُحَجَّلا ؛ وذاك أنَّا جعلناك علىٰ آية الخيل تَقُودها إلىٰ خَوض الغِمار ، وتُصرِّفها فى منازل الأسفار ، وترتِّب قلوبَها وأجْنِحتَها على ٱختلاف مراتبِ الأطوار ، فنحنُ لانلْقىٰ عدُوّا ولا ننْهَد إلىٰ

بلدٍ إلا وأنت كوكَبُنا الذى نهتدِى بمَطْلَعه، ومفتاحُنا الذى نستفتح المُغْلَق بيُمْن موقِعــه، ونُوقن بالنصر فى ذَهَابه و بالغنيمة فى مَرْجعه؛ والله يشرحُ لك صــدْرا، و يُيَسِّر لك منَّا أمْرا، و يشُدّ أزْرَنا بك كما شَدّ لموسىٰ بأخيه أزْرا، والسلام .

الأســــلوب الثــانى

(أن يُفتتَح التوقيع بالإقطاع بلفظ : « أما بعد فإنَّ كذا »)

و يذكُر ماسنَح له من أمر السلطان أو الإقطاع أو صاحبه، ثم يتعرّض إلىٰ أمر الإقطاع، وهو دُون الأسلوب الذى قبله فى الرتبة .

وهذه نسخةُ توقيع بإقطاع من هذا الأسلوب ، كتِب بها لأميرٍ قدم على الدولة فاستخدمَتْه، وهى :

أما بعــدُ ، فإنَّ لكلّ وَسيلةٍ جزاءً علىٰ نِسْــبةِ مكانها ، وهى تتفاوَتُ فى أوقات وجُوبها ومثاقِيل مِيزانها؛ ومِن أوجَبِها حقًّا وسيلةُ الهجرة التى طَوَى لهــا الأمَلُ من شُقّته ماطَوىٰ، وبَعَث بها علىٰ صِدْق النِّية «ولكُلِّ ٱمْرِئٍ ما نَوَىٰ»؛ فالأوطانُ إليها مُودَعه، والخَطواتُ مُوسَّعه، والوجُوه من بَرْد الليل وحَرِّ النهار مُلَفّعه؛ وقد توخَّاها قومٌ فى زَمن رسول الله صلى الله عليه وسلم فحَظُوا فى الدُّنيا باعتلاءِ المَنَار، وفى الآخرة بعُقْبىٰ الدار، وقُدِّموا علىٰ مَنْ آوى ونَصَر فقال تعــالىٰ : ﴿ والسَّابِقُون الْأَوَّلُونَ من الْمُهَــاجِرِين والْأَنْصار ﴾ . ثم صارتْ هذه ســنَّةً فيمن هاجَر من أقوام إلىٰ أقْوام ، وٱستبدَل بأنام عن أنام؛ وكذٰلك فعلْتَ أيُّها الأميرُ فلان ــ وفقك الله ــ وقد تُلُقِّيَتْ هجرتُك هذه بالكَرامه، وزُخْرِفَتْ لهــا دارُ الإقامه؛ فمــا ٱبتغَيْتَ بها بُغْيةً إلا سُهِّلت لك خِفَاجُها ، أو عاجَ عليــك مَعاجُها، وحُمِد لدَيْك تأويبُهــا و إدلاجُها؛ وأصبحت

وقد وجدتَ خَفْضا غِبَّ السُّرىٰ، وخِيطتْ منك الجفُونُ علىٰ أمْن الكَرىٰ، وتبوَّأتَ كَنَف الدولة التى هى أمُّ الدُّوَل إذ صِرْتَ إلى القَرْية التى هى أُمُّ القُرىٰ . ونحن قد أدْنيناكَ منَّا إدناءَ الخليط والعَشِير، ورَفَعْناك إلىٰ محلِّ الآختصاص الذى هو المحَلُّ الأثير، وآخَيْنا بينَك وبين عَطَايانا كما وُوخِىَ بينَ الصَّحابة النَّبويَّة يومَ الغَدِير .

هذا ولك وسيلةٌ أخرىٰ تُعَدّ من حِسان المناقب، وتُوصَف بالصِّفات الأطايب؛ وما يُقال إلا أنها من الأطْواد الرَّواس، وأنها تَبْرُز فى اللباس الأحمر وغيْرُها لا يبْرُز فى ذٰلك اللِّبَـاس؛ وهى التى تجعلك بوَحْدتها فى كَثْره، ونتأَمَّر بها من غير إمْره؛ وطالمـا أطالَتْ يدَك بمَناط البِيض الحِـداد، وفرَّجَتْ لك ضِيقَ الكَرِّ وقد غَصَّ بهَوادِى الجِيـاد، وحسَّنَتك العُيون وقد رُمِيتْ منـك بشَرَق القَذا ونَبْوة السُّهاد؛ ومن شَرَف الإقْدام أن العدُوّ يُحِبُّ العدوّ من أجْله، ويَضْطرُّه إلىٰ أن يُقِرّ بفَضْله؛ ومذ وصلْتَ إلينا وصَلْناك بأمرائنا الذين سلفَتْ أيَّامُهم، وثبَتَتْ فى مَقامات الغَناء أقْدامُهـم؛ وتوسَّمْنا أنك الرجلُ الذى يزكُو لديْك الصَّنيع، وأنك ستشْفَعُه بحقوق خِدْمتِك التى هى نِعْمَ الشفيع .

وقد عَجَّلنا لك من الإقطاع ما لا نرضَىٰ أن تكونَ عليه شاكرا، وجعلناه لك أوّلا وإن كان لغـيرك آخِرا؛ وهو مُثْبَتٌ فى هـذا التَّوْقيع بقلم الديوان الذى أُقِيم لفَرْض الجُنْد كِتَابا، ولمعرفة أرزاقِهم حِسَابا، وهو كذا وكذا .

فتناوَلْ هذا التَّخْويلَ الذى خُوِّلتَه باليمين، وآستمسِكْ به آسْتِمساكَ الضَّنِين .

وآعلم أنه قد كَثُر الحواسِـدُ لِمَـا مَدَدْناه من صُـنْعك، وبسَطْناه من ذَرْعك؛ فأشْجِ حلُوقَهم بالسَّعْيِ لآستحقاق المَزِيد، وآرْقَ فى درجات الصُّعود وأَلْزِمْهم صَفْحة الصَّــعيد .

والذى نأمرك به أن [تُعِدّ] نَفْسَك للخِدْمة التى جُعلتَ لهـا قِرْنا وأنت بها أغنىٰ، وأن تنتهِىَ فيها إلى الأمَـد الأقصىٰ دُونَ الأدْنىٰ؛ فلا تَضْمُمْ جَناحَك إلَّا علىٰ قوادِمَ من الرجال لا علىٰ خَوَاف ، وإذا استُنْفِرْتَ فانفرْ بثِقالٍ من الخَيْـل وخِفَاف؛ وكُن مذْخُورا لواحدةٍ يقال فيها : ياعزائِمُ اغْضَبِى، وياخيلَ النَّصر ارْكَبِى؛ وتلك هى التى تتَظَلَّم بها الجماجِمُ من الضِّراب، وتَلاقىٰ فيها عُصَبُ الغِرْبان والذُّباب؛ ولا تحتاجُ مع هذه إلىٰ مَنْقَبة تتجمَّل بتفْوِيفِها، وتتكثَّر بتعرِيفِها، وتنتمى إلىٰ تلِيدِها باستحداث طرِيفِها .

والله تعـالىٰ يَشُـدّ بك أزْرا ، ويملأُ بك عَيْنا وصَدْرا ، ويجعـل الفَلَج مقْرونا برأْيك ورايتِـك حتّى يقـال : « ومكَرُوا مَكْرا » وجَرَّدنا بِيضا وسُمْرا ؛ والسـلامُ إن شاء الله تعالىٰ .

الأسـلوب الثـالث

(أن يفتتَح التوقيعُ المكتتَبَ بالإقطاع بمـا فيه معنىٰ الشجاعة والقتال وما فى معنىٰ ذٰلك ، وهو أدنىٰ من الذى قبله رُتبةً)

وهذه نسخةُ توقيعٍ بإقطاع من هـذا النَّمَط ، كُتب به لبعض الأمراء الصِّغار ، وهى :

القَلَم والرُّمْح قَلَمـان كلاهما أَسْمر، وكما تشابَهَا فى المَنْظَر فكذٰلك تشَابَهَا فى المَخْبَر، غيرَ أنَّ هذا يرْكَب فى عَسْكرٍ من القَوْل وهـذا يحمِل فى عَسْكر؛ وقد نطَق أحدُهمـا بالثناء علىٰ أخيـه فأحسَن فى نُطْقـه ، وأقرّ له بالفضِـيلة ومن الإنصـاف أن يُقرّ لذى الحق بحَقّه ، غير أنّ هذه الفضـيلةَ تُعْزىٰ إلىٰ من يُقيم أَوَدَ الساعى بتقويم

أوده، ولا يرى لها سبيلا قصدا إلا بالوطء على قصده، وهو أنت أيها الأمير فلان أيدك الله ! .

وقد اخترناك لخدمتنا على بصيره، وأجريناك من اعتنائنا على أكرم وتيره، ورفعنا درجتك فوق درجة المعلّى لمن سبقك وإنها لكبيره .

ولم يكن هذا الاختيار إلا بعد اختبار لا يحتاج معه إلى شهاده، ولو كشف الغطاء لم يجد اليقين من زياده، فطالما عجمت نبعتك، وتيمنت طلعتك، ولم تعرض سلعة الغناء إلا نفقت سلعتك، ومثلك من تباهى الرجال بمكانه، وتخلّى له فضلة عنانه، ويتسع ميدان القول فى وصفه إذا ضاق بغيره سعة ميدانه ؛ وما يقال إلا أنك الرجل الذى تقذف الجانب المهم بعزمك، وترمى برأيك قبل رماء سهمك ؛ وبك يحسر دجى الحرب الذى أعوزه الصباح، ويحمى عقابها أن يحص له جناح ؛ فأسباب الاعتضاد بك إذن كثيرة الأعداد، وأنت الواحد المشار إليه ولا تكثر إلا مناقب الآحاد .

وقد بدأناك من العطاء بما يكون بيسم الله فى صدر الكتاب، وجعلناه كالغمامة التى تأتى أولا بالقطار ثم تأخذ فى الانسكاب ؛ وخير العطاء ما رب بعد ميلاده، وأينع ثمره بعد جداده ؛ وإن صادف ذلك وسائل خدم مستأنفة كان لها قرانا، وصادف الإحسان منه إحسانا ؛ وقد ضمن الله تعالى للشاكر من عباده مزيدا، ولم يرض له بأن يكون مبدئا حتى يكون معيدا ؛ وكذلك دأبه فيمن عرف مواقع نعمه، وعلم أن صحتها لا تفارقه مالم يعدها بسقمه .

ونحن أولى من أخذ بهذا الأدب الكريم، وألزم نفسه أن تحلى بخلقه وإنه لخلق العظيم ؛ وعطاؤنا المنعم به عليك لم يذكر فى هذا التوقيع على حكم الامتنان ،

بل إثباتا لحِسَاب الجُنْـد الذين هم أعوانُ الدَّوْلة ولا بدّ من إحصاءِ الأعوان ؛ وهو كذا وكذا .

فامدُدْ له يدًا تجمع من[1] الشُّكْر مُواظَبـه ، ومن[1] الطَّاعة مُراقَبَـه ، وكُنْ فى التَّأهُّب للخدمة كالسَّهْم الموضُوع فى وَتَره ، وأصِخْ بسَمْعك و بصرِك إلىٰ ما تُؤمَر به فلا آئتمارَ لمن لم يُصِخْ بسَـمْعِه و بَصَره .

ومِلاكُ ذٰلك كلِّه أن تتكثر من فُرْسان الغوَار ، وحُماةِ الذِّمار ، والذين هم زينةُ سِلْمٍ ومَفْزَعُ حِذَار ، ومثلُ هٰؤُلاء لا يضُمُّهم جَيْشٌ إلا تقدّمه جيشٌ من الرُّعْب ، ودارتْ منه الحربُ علىٰ قُطْبهـا ولا تدُور رحًى إلا علىٰ قُطْب ؛ وإذا ساروا خلْفَ رَايَتِك نُشِرت ذوائبُهـا علىٰ غابةٍ من الآساد ، وخفقتْ علىٰ بَحْر من الحديد يسِـيرُ به طَودٌ من الجِياد .

ومن أهمِّ الوصايَا إليك أن تُضِيف إلىٰ غَنَائِهم غِنًى يُبْرِزُهم فى زَهْرة من اللِّباس ، ويُعينُهم علىٰ إعداد القُوّة ليوم الْباس ، ويُقَصِّر لديهم شُقَّة الأسفار التى تذهَب بنَزَقات الشِّماس ، وينقَطِع دُونَ قَطْعها طُولُ الأنفاس ؛ وأىُّ فائدةٍ فى عسكرٍ يأخذ بعد المَسْرَىٰ فى حَوْره ، ولا يزيدُ صَبْرُه بزيادة سَفَرِه ، ويكون حافِرُه وخُفُّه سواءً فى آنتساب كلٍّ منهما إلىٰ شِدّة حَجَره .

فانظُرْ إلىٰ هذه الوصية نظَرَ من طالَ علىٰ صَحْبِـه بالكَفِّ الأوْسَع ، وعَلِم ما يَضُرُّ فيهـم وما ينْفَع ؛ والله يمنَحُك من لَدُنه توفيقا ، ويَسْـلُكُ بك إلى الحُسْنىٰ طريقا ، ويجعلُك خَليقًا بمـا يُصْلِحك وليس كلُّ أحدٍ بصلاحِهِ خَليقا ، والسلام .

---

(١) لعله «مع» بدل «من» فى الموضعين .

الطــــرف الثـانى

(ما يُكتَب فى الإقطاعات فى زماننـا)

وهـــو علىٰ ضَرْبين :

الضــــــربُ الأوّلُ

(ما يُكتَب قبـــل أن يُنْقَل إلىٰ ديوان الإنشـاء)

وفيـــه جملتان :

الجملة الأُولىٰ — فى ابتداء ما يُكتب فى ذٰلك من ديوان الجَيْش .

اِعلم أنَّ مَظِنَّة الإقطاعات هو دِيوانُ الجيش دُونَ ديوان الإنشاء، وما يُكْتب فيه من ديوان الإنشاء هو فَرْع ما يُكْتَب من دِيوان الجَيْش .

ثم أوّل ما يُكتَب من ديوان الجَيْش فى أمر الإقطاع إما مِثالٌ ، وإما قِصَّة ، وإما نزول (١) .

فأما المِثـال، فإنه يكتُب ناظرُ الجيش فى نِصْف قائمةٍ شامىّ، بعد ترك الثلثين من أعلاها بياضا، فى الجدْول الأيمن من القائمة ما صُورته :

«خُبْز فلان المتوفَّى إلىٰ رحمة الله تعالىٰ» أو «المرسوم آرتجاعه» أو «المنتقل لغيره» ونحو ذلك . ويكون «خُبْز» سطرا، وباقى الكلام تحتَه سطرا . وتحت ذلك ما صُورته : «عبرة كذا وكذا دينارا» بالقلم القبطى . وفى الجَدْول الأيسر ما صورته :

« بآسم فلان الفلانى » وإن كان زيادة عُيِّن ، ثم يشـمَلُه الخط الشريف السلطانى بما مثاله : « يُكتَب » ثم يكتُب تحته ناظِرُ الجيش ما مثاله : « يمتَثل المَرسُوم

(١) أى إشهاد بنزول كما يؤخذ من التفصيل الآتى .

الشريف » ويُعيِّنه علىٰ مَن يَختـاره من كُتَّاب الجيش، ثم يُترَك بعد ذٰلك بديوان النظر، ويُكتَب تاريخُه بخطِّ كاتب ناظرِ الجَيْش بذَيْل المثـال، ويخلِّده الكاتب المعيَّن عليه، ويكتُبُ بذٰلك مرَبَّعة، علىٰ ما سيأتى ذِكْره .

وأما القِصصُ فتختلفُ بحسَب الحـال : فتارة يُنهىٰ فيها وَفاةُ من كان بيـده الإقطاع، وتارة ٱنتقالُه عنه، وتارةً ٱرتجاعُه، وتارة طلبُ إعادة ما خَرج عنه، وتارةً طلبُ تجديدٍ، ونحو ذلك .

ويكْتُب ناظرُ الجَيْش علىٰ حاشيتها بالكَشْف. ويُكْتَب الكشفُ بذَيْل ظاهرِها من ديوان الجيش بمـا مثاله :

« رافعُها فلان أنهىٰ ما هو كذا وكذا ، وسأل كذا وكذا » ويذكُر حالَ الإقطاع . ثم يشمَلُها الخطُّ الشريف السلطانى بمـا مثاله : « يكتب » وباقى الأمر علىٰ ما تقدّم فى ذكر المثال .

وأما الإشهادات فتكون تارةً بالنزول، وتارة بالمقايَضَة، وربَّما وقع ذٰلك بالشركة، ثم يكْتُب ناظرِ الجيش علىٰ ظاهرِ الإشهاد بالكَشْف ، ويُعمَل فيه علىٰ ما تقـدّم فى القِصَّـــة .

الجملة الثانية — فى صورة ما يكتَب فى المرَبَّعة الجَيْشية .

قد جرتْ عادةُ ديوان الجيش أنه إذا عَيَّن ناظرُ الجَيْش المثالَ أو القصةَ أو الإشهادَ علىٰ أحَدٍ من كُتَّاب ديوان الجيش، يخلِّد الكاتبُ ذٰلك عنده، ثم تُكتَب به مَربَّعةٌ من ديوانِ الجَيْش وتكَمَّل بالخطوط علىٰ ما تقدّم، وتجَهَّز إلىٰ ديوان الإنشاء، فيعيِّنها كاتبُ السِّرِّ علىٰ من يَكْتب بها منشورًا علىٰ ما سيأتى .

وصورة المربَّعة أن يَكْتُبَ فى ورقة مربَّعة، يجْعلُ أعلىٰ ظاهر الوَرَقة الأَولىٰ منها بياضا، ويَكْتُب فى ذيلها معترِضا : آخذا من جهة أسفل المربعة إلىٰ أعْلاها أسطرا قصيرةً علىٰ قَدْر عَرْض ثلاثة أصابع ما صورته :

«مثالٌ شريف — شَرَّفه الله تعالىٰ وعظمه — بما رُسِم به الآنَ : من الإقطاع» باسم من عين فيه من الأمراء أو من المماليك السلطانية بالديار المصرية، أو بالمملكة الفلانية، أو من الحَلْقة المِصرية أو الشامية، أو نحو ذلك «علىٰ ما شُرح فيه حسَبَ الأمر الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظمه» .

وتحت ذلك كلِّه ما صُورته :

«يحتاج (١) الشريف أعلاه الله تعالىٰ» .

ثم يَكتُب داخل تلكَ الورقة بعد إخلاء هامِش عَرْض إصبعين البَسْملةَ، وتحتها فى سطرٍ ملاصِقٍ لها : «المرسُومُ بالأمر الشريف العالى، المولَوىّ، السلطانىّ» ثم ينزل إلىٰ قدر ثلثى الصفحة، ويكتب فى السَّطر الثانى بعد البياض الذى تركه علىٰ مُسامتة السَّطر الأوّل : «المَلَكِىّ الفلانىّ الفلانىّ» بلقَب السلطنة : كالناصِرىّ، ولقب السلطان الخاص كالزَّينىّ « أعلاه الله تعالىٰ وشرَّفه، وأنْفذه وصَرَّفه، أن يُقْطعَ من يُذْكَر : من رجال الحلْقة بالدِّيار المصرية أو المملكة الشامية أو نحو ذلك، ما رُسِم له به الآنَ فى الإقطاع، حسَبَ الأمر الشريف شرَّفه الله تعالىٰ وعظَّمه» .

ثم يكتبُ فى الصفحة الثانية مقابل البسملة : «فلان الدِّين فلان الفلانِىّ، المرسومُ إثباتُه فى جُمْلة رجال الحَلْقة المنصورة بالديار المِصْرية أو الشامية، بمقتضى المثال

(١) بياض فى الأصل ولعله «إلى الخط الشريف» .

الشّريف أو المرَبَّعة الشريفة المشمولة بالخط الشريف» . ثم يكتب تحتَ السَّطر الأخير فى الوسط ماصورته : « فى السنه كربستا » إن كان جميع البَلَد أو البلاد المقْطَعة لا يُستثنىٰ منها شيءٌ ، أو يكتب : « خارجاً عن المِلْك والوَقْف » أو نحو ذلك «علىٰ ما يقتضيه الحقُّ» .

ثم يكتب تحت ذلك علىٰ حيال السُّطور ممتدّا من أوّل السَّطر إلىٰ آخره : « خـــبز » .

ثم يكتب تحته : «فلان بن فلانى الفلانىّ ، بحكم وفاته ، أو بحكم نزوله برضاه» ونحو ذلك علىٰ عادته ــ ناحية كذا . ناحية كذا . ناحية كذا .

وإن كان فيه نَقْد ونحوه ذكره ، ويستوفى ذلك إلىٰ آخر : « بعد الخط الشريف ــ شرفه الله تعالىٰ ــ إن شاء الله تعالىٰ » .

ثم يُؤَرِّخ فى سَطْرين قصيرين ويُحضَر إلىٰ صاحب ديوان الإنشاء ، فيعَيِّنه علىٰ مَن يكتُبه من كُتَّاب الإنشاء ، علىٰ ماسيأتى بيانُه .

الضـــــرب الثـانى

(فيما يُكتَب فى الإقطاعات من ديوان الإنشاء ، وفيه خمس جمل)

الجمــــلة الأولى

(فى ذكر ٱسم ما يُكْتب فى الإقطاعات من ديوان الإنشاء)

قد اصطلح كُتَّاب الزمان علىٰ تَسْمية جميع ما يُكْتَب فى الإقطاعات : من عَاليها ودَانِيها ، للأمراء والجُنْد والعُرْبان والتُّرْكمان وغيرهم ــ مَنَاشِــيرَ ، جمع مَنْشــور . والمنشورُ فى أصــل اللُّغة خلافُ المَطْوِىِّ . ومنــه قوله تعالىٰ : ﴿ وكِتَابٍ مَسْطُورٍ فى رَقٍّ مَنْشُورٍ ﴾ .

وٱعلم أن تَخْصيص ما يكتَب فى الإقطاعات باسم المناشِير ممـا حدَث الٱصطلاحُ عليه فى الدولة التُّرْكية .

أما فى الزَّمَن المتقــدِّم فقد كانوا يُطلِقُون ٱسم المَناشِــير علىٰ ماهو أعَمُّ من ذٰلك : ممـا لا يَحتاجُ إلىٰ خَتْم : كالمكتوب بالإقطاع علىٰ ما تقــدّم ، والمكتوبِ بالوِلاية ، والمكتوب بالحمـاية ، وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك . ورُبَّمـا سمِّى ما يُكْتَب فى الإقطاع مُقاطعةً ، وربمـا سمِّى سِجِلًّا وغير ذٰلك .

أما الآنَ فإذا أُطْلِقَتِ المناشيرُ لا يُفْهَم منها إلا ما يكتَب فى الاقطاعات خاصَّة ، وخَصُّوا كلَّ واحدٍ ممـا عداها باسمِه ، علىٰ ماهو مذكُور فى مواضعه دُونَ ماعداها ، ولا مشاحَّةَ فى الٱصطلاح بعدَ فَهْم المعنىٰ .

قلتُ : ومن خاصَّة المناشير أنَّهـا لاتُكتَب إلا عن الســلطان مشمولةً بخَطِّه ، وليس لغيره الآنَ فيها تصرُّفٌ ، إلَّا ما يَكتُب فيه النائبُ الكافلُ ٱبتداءً .

الجملة الثانية

(فى بيان أصناف المناشير، وما يَخُصُّ كلَّ صِنْف منها: من مقادير قَطْع الورَق، وما يختصُّ بكلِّ صِنْف منها من طَبَقات الأمراء والجُنْد)

اِعلم أنَّ المناشيرَ المصطَلَح عليها فى زمانِنا علىٰ أربعةِ أصناف: يختصُّ بكلِّ صِنف منها مِقدارٌ من مقادير قَطْع الورق .

الصِّنف الأوّل — ما يكتب فى قَطْع الثُّلُثَين وهو لأعْلَى المراتب من الأمراء .

قال فى "التعريف" : ومن كان مُؤَهَّلا لأن يُكتَبَ له تقليدٌ كان منشورُه من نوعه ومِن دُونِ ذٰلك إلىٰ أدْنى الرُّتَب .

قال فى "التثقيف": وفى قَطْع الثُّلُثين يُكْتَب لمقدَّمى الألوف بالديار المصرية، سواء كان من أولاد السلطان أو الخاصكيَّة أو غيرهم، وكذٰلك جميعُ النوّاب الأكابر بالممالك الإسلامية، والمقدَّمُون بدِمَشْقَ . وكلُّ من له تقليد فى قَطْع الثلثين يكون منشورُه فى قَطْع الثلُثين .

الصنف الثانى — ما يُكتب فى قَطْع النِّصف .

قال فى " التثقيف " : وفيه يُكْتَب لأُمَراء الطَّبْلخانات بمصر والشام، سواءٌ فى ذلك الخاصكيَّة وغيرهم . وكذٰلك الأمَراء المقدَّمُون من نُوّاب القِلاع الشامية . وفى معناهم المقدَّمون بحَلَبَ وغيرها : من نوّاب القِلَاع وغيرهم .

الصنف الثالث — ما يُكتَب فى قَطْع الثلث .

قال فى "التثقيف" : وفيه يُكْتَب لأمراء العَشَرات مطلقًا بسائر الممالك، يعنى مصْر والممالكَ الشامية بجملتها . قال : وكذلك الطَّبْلخانات من التُّركمان والأكراد بالممالك الإسلامية .

الصنف الرابع — ما يكتب فى قَطْع العادة المَنْصوريّ .

قال فى "التثقيف" : وفيه يُكْتَب للماليك السُّلطانية ، ومقدّمى الحَلْقة ، ورجال الحَلْقة . إلا أنه يختلِف الحالُ بين المماليك السلطانية ، ومقدّمى الحَلْقة ، وبين رجال الحَلْقة بزيادةِ أوصال الطُّرّة ، والإتيانِ بالدُّعاء المناسِبِ : يعنى أنه يُتْرك فى طُرّة مناشير المماليك السلطانية ثلاثةُ أوصال بياضًا ، وفى مناشير رجال الحَلْقة وَصْلان .

قلتُ : ولا فرقَ فى ذلك بين حَلْقة مِصرَ وغيرها من الممالك الشاميّة .

الجملة الثالثة
(فى بيان صُورة ما يكتَب فى المناشير فى الطُّرّة والمَتْن)

قال فى "التثقيف" : إن كان المنشور فى قطع الثُّلثَين ، كُتِب فى طرَّته من يَمِين الورق بغير هامش ما صُورتُه :

«منشورٌ شريفٌ بأن يَجْرِى فى إقطاعات المَقرّ الكريم» أو «الجناب الكريم العالى الأميرىّ الكبيرىّ» وإن كان نائبا زِيدَ بعدها : «الكافلىّ الفلانىّ» يعنى بلقَبه الخاصّ «فلان الفلانى» بلقَب الإضافة إلىٰ لَقَب السلطان : كالناصرىّ ونحوه . ثم الدعاءُ بما جرتْ به عادتُه دَعوةً واحدة « ما رُسِم له به الآنَ من الإقطاع » ويَشْرح ما تضمَّنته المربَّعةُ إلىٰ آخره ، فمن ذلك جميعه سطران بقَلَم الثلث .

قال : والأحسن أن يكون آخرُ السطر الثانى الدعاءَ والتتمةُ بالقلم الرِّقاع أسْطُرا قصارًا بهامشٍ من الجانبين ، ثم يَكتُب فى الوسط سَطْرا واحدًا بالقلَم الغليظ : «والعدّة» وتحته بالقلم الدقيق «خاصته ، ومائة طواشىّ أو تسعون طواشيًّا أو ثمانون طواشيًّا أو سبعون طواشيا » حسَبَ ما يكون فى المربّعة . ويترك ثلاثةَ أوصال بياضا بما فيه من وصل الطُّرّة ؛ ثم تُكتَب البسملة فى أوّل الوَصْل الرابع ، وبعدها

خُطْبة مفتَتَحة بالحمد، ويكمَّل بما يناسبه، ثم يقال : « أما بعدُ » ويَذْكُر ما ينبغى ذكْرُه علىٰ نحو ما تقدّم فى التقاليد .

قال فى "التعريف" : إلا أن المناشيرَ أخصر، ولا وصَايَا فيها .

قال فى "التثقيف" : ثم يذكُر بعد ذلك ٱسْمَه بأن يقول : «ولمـّا كان الجناب» وبقيةُ الألقاب والنعوتِ والدُّعاء ــ ولا يُزاد علىٰ دَعْوة واحدة « هو المرادَ بهذه المِدَح ، والمخْصُوصَ بهذه المِنَح » أو نحو ذلك ــ « ٱقتضىٰ حسنُ الرَّأى الشريف أن نُخَوّله بمزيد النعم » .

وإن كان المنشورُ فى قَطْع النِّصف كُتِب علىٰ ما تقدّم ، إلا أنه لا يقال : «أن يُجرىٰ فى إقطاعات» . بل إن كان مقدَّما بحَلَبَ أو غيرِها أو طبلخاناه خاصَكِيا، أو كان من أولاد السُّلطان، كُتِب : «أن يجرى فى إقطاع المجلس العالى أو السامى» . وإن كان طبلخاناه ممَّن عدا هؤلاء، كُتِب « منشورٌ شريفٌ بما رُسِم به من الإقطاع للمجلس السامى» والتتِمة علىٰ حكم ما تقدّم من غير فَرْق .

وأمَّا ما يُكتب فى قطع الثلث فيُكْتَب : «مَنْشُورٌ شريفٌ بما رُسِم به من الإقطاع لمجلس الأمير» .

وأما التجديداتُ فيُكتَب فى طُرَّتها : «مَنْشُورٌ شريفٌ رُسِم بتَجْديده بٱسم فلان بنِ فلان الفلانى ، بما هو مُسْتقِرٌّ بيَده من الإقطاع الشاهِد به الديوانُ المعمورُ إلىٰ آخر وقت» ويُشْرَح حَسَب ما تضمنَتْه المربَّعة، ثم يقال : «علىٰ ما شُرِح فيه» .

وأما الزياداتُ والتَّعْويضاتُ، فقال فى "التعريف": إذا رُسِم للأمير بزيادة أو تعويضٍ : فإن كان من ذَوى الأُلُوف : كالنُّوّاب الأكابر، ومقدَّمى الأُلُوف بمصر والشام، كُتِب له فى قَطْع الثلث الطُّرَّةُ على العادة ، وبعد البسملة : «خَرَج الأمرُ

الشريف العالى، المولوىّ ، السلطانىّ ، المَلَكى ، الفلانىّ ، الفلانى ، ويُدْعىٰ له بما يناسبُ الحالَ «أن يُجْرىٰ فى إقطاعات المقرّ الفُلانىّ أو الجناب الفُلانى» . وفى التَّتِمَّة نظيرُ ما تقدّم فى المناشير المفتتَحة بالخُطْبة ، علىٰ ما تقدّم بيانه .

والذى ذكره فى "التعريف" : أنه يُكتَب فى ذلك لمقدَّمى الأُلوف أو مَن قاربهم : «أما بعدَ حمدِ الله» .

وإن كان من أمراء الطبلخاناه الصغار فَمَن دُونَهم حتَّى جُنْد الحلْقة ، كتب له فى قطع العادة : «خرجَ الأمرُ الشريفُ» .

قال فى "التثقيف" : وكذٰلك الزيادات والتعاويضُ ، سواءٌ فى ذٰلك كبيرهُم وصغيرهُم . قال : ويمكن أن يميَّزَ أميرُ آل فضل فيُكْتَبَ له ذٰلك فى قطع الثلث . قال فى "التعريف" : أما إذا انتقل الأميرُ من إقْطاعٍ إلىٰ غيره ، فإنه يُكتَب له كأنَّه مبتدأٌ علىٰ ما تقدّم أوّلا .

واعلم أنه لم تَجْرِ العادةُ بأن تُكتَب فى أعلى الطرّة إشارةٌ إلىٰ العَلَامة السلطانية ، كما يُكتَب فى الولايات الاسمُ الشريف فى أعلىٰ الطُّرّة . قال فى "التثقيف" : والسببُ فيه أنَّ العلامةَ لاتخرُج عن أحدِ ثلاثةِ أمور : إما الاسمُ الشريف مفردًا ، كما فى الأمثلة السلطانية إلىٰ مَن جَرَتِ العادةُ أن تكونَ العلامةُ له الاسمَ الشريفَ ، وما (١) يتعلّق بالتقاليد والتواقيع والمراسيم الشريفة ، وأوراقِ الطريق . أو يضافُ إلىٰ الاسم الشريف والدُه ، أو أخُوه ، وذٰلك ممّا يتعلق بالأمثلةِ الشريفة خاصة إلىٰ من جرَتْ عادتُه بأن تكون العلامةُ إليه كذٰلك . وذٰلك بخلاف المناشير فإنَّ العلامةَ فيها علىٰ ما جرتْ به العوائدُ ، أن يَكْتُبَ السلطانُ : «اللهُ أَمَلِى» أو «اللهُ وليِّى» أو «اللهُ حَسْبِى» أو «المُلْكُ لله» أو «المِنّة لله وحْدَه» لا يختلفُ فى ذٰلك أعلىٰ

(١) لعله «وذلك مما يتعلق» الخ .

ولا أدنى ، فلا يُحتاج إلى إشارة بسببها يُنَبه عليها ، لأن ترك الإشارة إليها دليلٌ عليها ، وإشارةٌ إليها ، كما ذكر النحاةُ علاماتِ الاسم والفِعْل ولم يذكروا للحَرْف علامةً ، فصار تركُ العلامة إليها علامةً ؛ بخلاف الأمثلة : فإنها تختلِف : فتكون العلامةُ فيها تارةً الاسمَ ، وتارةً أخوه ، وتارةً والده .

الجمـــــلة الرابعـــــة

(فى الطُّغْرىٰ[(1)] التى تكونُ بين الطُّرّة المكتَتَبة فى أعلى المنشُور وبين البسملة)

قال فى "التعريف" : قد جرت العادة أن تُكتَب للمناشير الكبار كمُقَدّمى الأُلوف والطبلخانات طُغْرىٰ بالألقاب السلطانية ، ولها رجُل مفْرَد بعَمَلها وتحصيلها بالدّيوان . فإذا كتَب الكاتبُ منشوراً أَخَذ من تلك الطُّغْراوات واحدةً ، وألصقها فيما كتَب به . قال فى "التعريف" : وتكونُ فوقَ وصلٍ بياضٍ فوقَ البسملة . قال فى "التثقيف" : فبعْدَ وصلَيْن أو ثلاثةٍ من الطُّرّة .

قلتُ : ولم تزَلْ هــذه الطُّغْرى مســتعملةً فى المناشــير إلى آخر الدولةِ الأشرفيَّة «شعبانَ بنِ حُسَينٍ» ثم تُركتْ بعد ذلك ورُفِض استعمالُهــا وأُهْمِلتْ . ولا يخفىٰ أنه يرِدُ عليها السُّؤالُ الواردُ على الطُّغْرىٰ المكتَتَبة فى أوّل المكاتبات إلىٰ سائر مُلُوك الكُفْر من تقديم اسمِ السلطان على البَسْملة ، علىٰ ما تقدّم بيانُه فى موضعه .

وقد تقدّم الاحتجاجُ لذلك بقوله تعالىٰ فى قِصَّة بِلْقِيسَ : ﴿ إِنِّى أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ . وأنه يحتمل أن يكون قولُه :

---

(١) نص فى التاج علىٰ أن الطغرىٰ بضم الطاء وسكون الغين وفتح الراء مقصورة كلمة أعجمية استعملتها العرب .

﴿ إنَّه مِنْ سُلَيمٰن ﴾ حكايةً عن قول بِلْقِيس ، ويكونُ ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ هو أوّلَ الكِتاب ، فلا يكون فى ذٰلك حجةٌ علىٰ تقدّم الاسم على البَسْملة . وأنه إنما يَتَّجِه الاحتجاجُ بذٰلك على القَوْل بأنَّ قولَه : ﴿إنَّه مِنْ سُلَيمٰن﴾ من كلام سُلَيمان عليه السلام . وأنه إنما قَدَّم اسمَه على البَسْملة وقايةً لاسم الله تعالىٰ ، من حيثُ إنه كان عادةَ ملوكِ الكُفر أنهم إذا لم يَرْضَوْا كتابًا مزّقُوه أو تَفَلُوا فيه ، فجعل اسمَه حالًّا محلَّ الوقاية . ولا شكَّ أنَّ مثلَ ذٰلك لا يَجِيءُ هنا ، لأن المحذورَ فيه مفقُود ، من حيث إنَّ هذه المناشيرَ إنما تُلْقىٰ إلى المسلمين القائمينَ بتعظيم البَسْملة والمُوفِين لها حَقَّها . وحينئذ فيكونُ لترك استعمالها وجْهٌ ظاهرٌ من جهة الشرع ، بخلاف ما فى المكاتبات إلىٰ مُلُوك الكُفْر .

واعلم أن هذه الطُّغْراوات تختلف تركيباتُها باعتبار كَثْرة منتصِباتها من الحروف وقِلَّتها ، باعتبار كثرة آباء ذٰلك السلطان وقِلَّتهم ، ويحتاجُ واضعُها إلىٰ مُراعاة ذٰلك باعتبار قلّة منتصِبات الكلام وكثْرتها . فإن كانت قليلةً أُتِى بالمنتصِبات كما سيأتى بيانُه بقلمٍ جليلٍ مَبْسوط ، كمختَصَر الطُّومار ونحوه ، لتَملأَ علىٰ قلّتها فضاءَ الورق من قَطْع الثُلُثَيْن أو النِّصف . وإن كانت كثيرةً أُتِى بالمنتصِبات بقلمٍ أدقَّ من ذلك ، كجليل الثُّلُث ونحوه اكتفاءً بكثرة المنتصِبات عن بَسْطها .

ثم تختلف الحالُ فى طُول المنتصِبات وقِصَرها باعتبار قَطْع الورَق : فتكون منتصِباتُها فى قَطْع النِّصف دُونَ منتصِباتِها فى قَطْع الثلثين .

ثم قد اصطلَح واضعُوها علىٰ أن يجعلوا لها هامشًا أبيضَ من كلٍّ من الجانبين بقدر إصبعيْن مطبوقَيْن ، وطرّةً من أعلى الوصل قدرَ ثلاثة أصابعَ مطبُوقة .

ثم إن كانت فى قَطْع النصف جُعِلت منتصِباتُها مع تصوير الحروف بأسفلها فى الطول بقدر (١) ذراع، وفى العَرْض بقَدْر (١) ذراع .

وإن كانتْ فى قطع الثلثين جُعِل طولُها مقدارَ (١) ذراع ، وعرضها مقدار (١) ذراع . ثم تارةً تكون منتصِباتٍ مَحْضةً يقتَصر فيها من اسم السلطان علىٰ ما هو مَذْكور من اسْمِه واسمِ أبيه ، وتارةً يجعل اسمُ السلطان واسمُ أبيه بأعالى المنتصِبات فى الوَسَط بقَلَم الطُّومار قاطعًا ومقطوعًا ، بحيث يكونُ ما بين أعلَىٰ الاسم وآخرِ أعْلى المنتصِبات قدْرَ أربعة أصابعَ أو خمسة أصابعَ مطبوقة . ثم إذا ألْصَق الكاتبُ الطُّغْرىٰ ، كَتَب بأسفلها فى بَقِية وَصْلها فى الوَسَط ، بعد إخلاء قدر إبهام بياضا ماصُورتُه : « خَلَّد الله سلطانَه » .

وهذه صورةُ طُغْرىٰ منشورٍ بألقاب السلطان الملِكِ الناصر « محمدِ بنِ قلاوون » مضمُونها .

« السلطانُ الملِك الناصرُ، ناصر الدُّنيا والدِّين ، محمد ابنُ السلطان الشهيد الملك المنصور، سيف الدين قلاوون » .

وعددُ منتَصِباتها من الألِف وما فى معناها خمسةٌ وثلاثون منتصِباً بقَلَم النِّصف ، وهو بقَدْر قَلَمِ الثلثِ الثقيلِ وقدْرِ نصفه .

وترتيبُ منتصِباتها [مُنتصِبانِ] متقارِبانِ بينهما بياضٌ لطيفٌ بقدْر مِرْودٍ دقيق ، ثم منتصِبٌ يحفُّه بياضان ، كلٌّ منهما أعرضُ من المنتصِب الأسودِ بيسيرٍ . وبعد ذلك مُنْتصِبانِ متقاربانِ بينهما علىٰ ماتقدّم . وكذلك إلىٰ آخر المنتصِباتِ ، فتُختَتَم

(١) بياض فى الأصل فى هذه المواضع .

بمنتصبين مُزْدَوِجين ، كما ٱفْتُتِحت بمنتصبين مُزْدَوِجين ، على ما ٱقتضاه تحريرُ التقسيم ، وهى فى طُول نصف ذراعٍ بذراع القُماش القاهرىّ مع زيادةِ نحو نصف قيراطٍ ، وعرْضٍ مثل ذلك . وتحتها فى الوسط بقَلَم الثُلث الجليل بعد خُوٍّ عَرْض إصبع بياضًا ما صورته : « خلّد الله سلطانَه » وهى هذه :

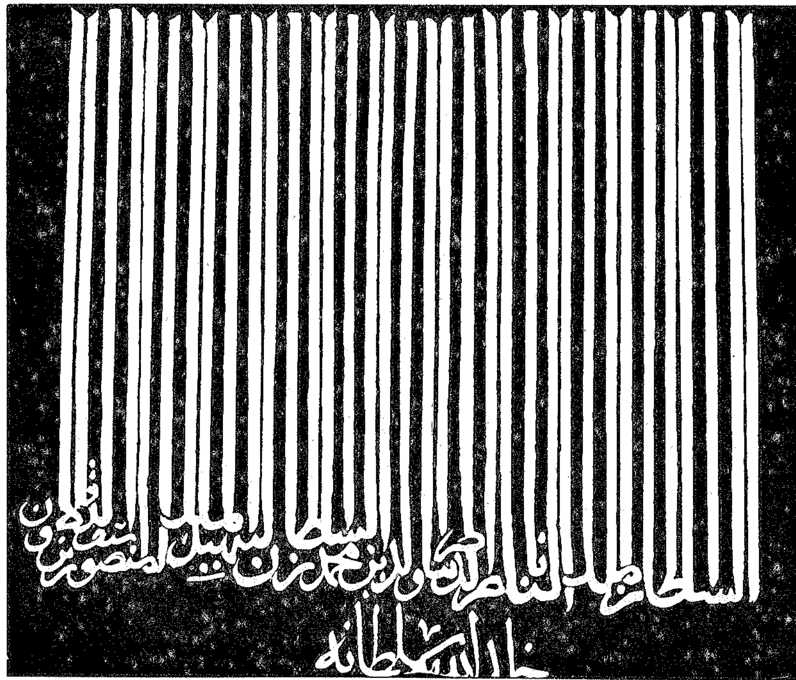

وهذه نسخةُ طُغرىٰ منشور أيضًا بألقاب السلطان الملكِ الأشرف شعبانِ بن حُسَين بن الناصر محمد بن قلاوون ، مضمُونها .

« السلطانُ الملك الاشرفُ ناصرُ الدنيا والدين ٱبن الملكِ الأمجد ٱبن السلطان الملك الناصر ٱبن الملِك المنصور قلاوون » .

وعدد منتصباتها من الألفات وما فى معناها خمسةٌ وأربعون منتصبًا، بقلم جليل الثُّلُث، بين كلِّ مُنْتصبين قدْرُ منتصبٍ مرّتين بياضًا، وطولُها ثلثُ ذراع وربعُ ذراع بالذراع المقدّم ذكره، وعرضُها كذلك؛ واسمُ السلطان بأعاليها بقلم الطُّومار بالحبر قاطع ومقطوع كما أشار إليه فى التعريف .

مثاله : شعبان بن حسين ــ الشين والعين والباء والألف سَطْر، والنون من شعبان وابن سَطْر مركب فوق الشين والعين، وحُسَين سَطْر مركبٌ فوق ذلك؛ وطُولُ ألف شعبان تقدير سُدُس ذراع، وقد قطعت النون الألفَ وخرجت عنها بقدْرٍ يسير، وأوّلُ الاسم بعد المنتصب السادسِ عشر من المنتصبات، وآخرُ النون من حسين البارزة عن ألف شعبان إلى جهة اليسار بعدها أحدَ عشر منتصبا من جهة اليسار، وهى هكذا :

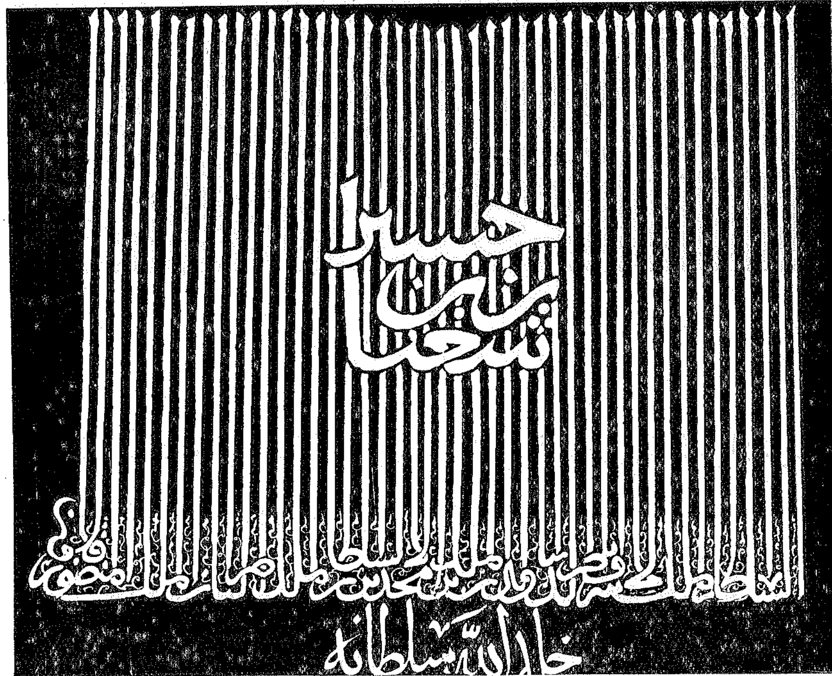

الجملة الخامسة

(فى ذكر طَرَف من نُسَخ المناشير التى تُكتَب فى الإقطاعات فى زماننا)

قد تقدّم الكلامُ فى الجملة الثالثة علىٰ صُورة ما يُكتَب فى المناشير وما تُفْتَتَح [به] وذكر تَرْتيبها ، وآختلافِ حالِها باختلاف حال مراتب أصحابها صُعودًا وهُبوطا ، فأغنىٰ عن ذِكْر إعادته هنا .

وآعلم أن الأحسن بالمناشير أن تكونَ مبتكَرَةَ الإنشاء، ليُرَاعىٰ فيها حالُ المكتوبِ له فى بَرَاعةِ الآستهلال وغيرها من المناسبات والمُطابَقات . فإن تعذّر ذٰلك فالأحسَنُ أن تكونَ براعةُ الآستهلال منقولة فى الآسم والكُنْية واللَّقَب ونحوها ليكون ذٰلك أقربَ إلىٰ الغَرَض المطلوب . فإن تعذَّر ذٰلك فينبغى أن تكون براعةُ الآستهلال قاصرةً علىٰ معنىٰ الإقطاع وما يجرُّ إليه من ذكر كَرَم السلطان ومَنِّه وإحسانه إلىٰ أخصّائه، وما ينْخَرِط فى هذا السِّلك .

ثم نُسَخ المناشير علىٰ ثلاثة أنواع :

النوع الأول

(ما يفتتَح بـ«ـالحمدُ لله» ، وهو علىٰ ثلاثة أضرب)

الضرب الأول

(مناشيرُ أولاد المُلُوك)

وهذه نسخ مناشيرَ من ذٰلك :

نُسخة منشورٍ، كُتِب به عن الملك المنصور قلاوونَ لآبنه الناصر محمدٍ فى سلطنة أبيه المذكور، من إنشاء القاضى مُحْيِي الدين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله الذى زيَّن سماءَ المُلْك بأنورِ كوكبٍ بزَغ ، وأعزِّ مَلِكٍ نبَغ ، وأشرف سلطان بلغ إلىٰ ما بلَغ ذوو الاكتهال من اختيار شرف الخلال وما بلَغ .

نحمدُه حمدًا تَزيدُ به النعماءُ وتنْمِى ، وتَهْمِل به الآلاءُ وتَهْمِى ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً خالصةً من كلِّ رَيْب ، واقصةً كلَّ عَيْب ؛ ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بعثه اللهُ تعالىٰ بمكارم الأخلاق ، ومُعاداة ذَوى النِّفاق ، وساوَىٰ بين الصَّغير والكبير من أُولِى الاستحقاق ، فى الإرفاد والإرفاق . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه مارَقَّ نَسيمٌ وراق ، وما خُصِفَتْ أوْراق .

وبعدُ ، فإن الهَواتِف أبينُ ما تشْدُو ، إذا حَفَّت الرياضُ بها من كلِّ جانب ، والسماءَ أحسنُ ماتبدُو ، إذا تزيَّنتْ بالكواكب السيَّارة والشُّهُب الثَّواقِب ، والسعادةَ أحمدُ ما تحْدُو ، إذا خُصِّصت بمَنْ إليه ، وإلَّا ماتُشَدّ الركائب ، وعليه ، وإلا ما تُثْنى الحقائقُ والحَقَائب ؛ ومَنْ هو للمَلِك فلذة كَبِده ، ونُورُ مُقْلته وساعِدُ يَده ؛ ومَنْ تتيمَّن السلطنةُ بملاحظة جبينه الوَضِى ، وتستنيرُ بالأنْور المُضِى ، ومَنْ تغضَبُ الدنيا لغَضَبِه وتُزْهىٰ إذا رَضِى ؛ ومن نشأ فى رَوْض المُلْك من خير أصْلٍ زكىّ ، وفاحَتْ أزاهِرُه بأعْطَر أرَجٍ وأطيبِ نَشْرٍ ذَكِىّ ؛ وطَلَع فى سماء السَّلْطنة نجمًا ما للنيِّرَيْن ما له من الإضاءه ، ويزيدُ عليهما بحُسْن الوَضَاءه ؛ ومن تشوّفَ النصْرُ له من مَهْده ، وتشوّقَ الظَّفَر إلىٰ أنه يكونُ من جُنْده ؛ واستبشرت السلطنةُ بأنْ صارلها منه فرعٌ باسِق ، وعِقْد متَناسِق ؛ وزَنْدٌ وارٍ وجَناحٌ وارِف ، ونَجَار تَليدٌ وعزٌّ طارف ، وطَرَفَان مُعْلَمان تُنْشَر فيهما المَطَارف .

ولهذه المحاسِنِ التى تشْرَئِبُّ إلىٰ قَصْدِها آمالُ الخلائق المُنْتَجِعَة ـ اقتضىٰ حسْنُ البِرِّ الوَصُول ، وشرفُ الإقبال والقَبُول ، أن خرجَ الأمرُ العالى ـ لابرحَتْ مَراسِمُه

متزينةً زينةَ السماء بكواكبها، ومُزَاحِمةً سَمْك السِّماك بمَنَاكبها ـ أن يجُرىٰ فى ديوان الجناب العالى المِزْلَوِىِّ، المَلَكِىّ، الناصرىّ ... ...

قلت : كما أنَّ هذا المَنْشُورَ منشورُ سلطان فهو فى البلاغة لحُسْن إنشائه سلطانُ المَنَاشِير .

الضرب الثانى

(من نسخ المناشير المفتتَحة بالحمد مناشيرُ الأمَرَاء مقدّمِى الألوف)

وهذه نسخ مناشِيرَ منها .

نُسخةُ منشور، كُتِب به للأمير بَدْر الدين بيدرا استادار المَلِك المنصور قلاوون، من إنشاء القاضى مُحْيِى الدين بن عبد الظاهر رحمه الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل بَدْر الدين تمــامًا على الَّذِى أحسَن، وإمامًا تَقْتَدِى النجومُ منه بالضِّــياء الأَبْين والنُّور الأزْيَن ، ونظامًا يجمَعُ من شَمْــل الدُّرى ما يغدُو به حمَاه الأحْمىٰ وجنابُه الأَصْوَن .

نحمدُه حمدَ مَن أعلىٰ صوْتَه وصيتَه أعْلَن، ونشهدُ أنْ لاإلٰهَ إلّا اللهُ وحْدَه لاشريكَ له شهادةً تغْدُو وتبدُو عند الذَّبِّ وفى القلب مَكانُها الأمكَن ؛ ونشهدُ أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه ونبيُّه الذى أوْهَى الله به بِناءَ الشِّرك وأوْهَن . صلَّى الله عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبِه ورضِىَ عمَّن آمن به وعمَّن أمَّن .

وبعدُ، فإنَّ خير النَّعماء ماأُتِىَ به على التَّدْرِيج، وأَتىٰ كما يأتى الغيثُ بالقَطْر والقَطْر لإنباتِ كل زَوْجٍ بَهِيج، وأقبل كما تُقْبِــل الزيادةُ بعد الزيادة فبيْنَا يُقال : هذا خليجٌ

يَمُدّه البَحْر إذ يقال : هـذا بحرٌ يَسْتمِدُّ منه كلُّ خَلِيج ، و بينَا يُقال : هذا الأمير ، إذ يُقال : هذا المُمير، و بَيْنَا يُقال : هذا الهلال، إذ يقال : هذا هو البَدْر المُنِير .

ولَمَّـا كان فلانٌ من هـذه الدَّوْلة بموضع الغُرَّة من الجَبِـين ، ومكانِ الرَّاحة من اليَمِين ، وله سوابقُ خِدْمة لا يزاحِمُـه أحدٌ فى طُرُق طُروقها ، ولا تُستكثَرُ له زيادةٌ بالنسـبة إلىٰ مُوجَبات حقُوقها ، وهو من التَّقْوىٰ بالمحـلِّ الأسْمىٰ ، علىٰ غيره من الطُّرَّاق ، والمكانِ الأحْمى ، الذى مكانُه منه ــ و إن كان أميرَ مجلس ــ صَدْرُ الرُّواق ، وله الكراماتُ التى تُرىٰ الخُدودُ لهـا صُعْر ، وكم سَقَتْ من سُمِ العُدَاة دَافقَ الذُّعْر ، وكم قابَلَ نُورُه ناراً فصارتْ بَرْدا وسـلاما ، وكم تكَلَّم علىٰ خاطِر فشاهدَ الناسُ منه شـيْخا من حيثُ الشبيبة أجلَّ الله قدْرَه غُلاما ، فهو المجاهد للكُفَّار ، وهو المتهجِّد فى الأسْحار ، وهو حاكمُ الفُقَراء و إن كان سلطانُه جعَله أُسْتاد الدَّار ، وهو صاحبُ العصا التى أصبح بحَمْلها مضافةً إلىٰ السَّـيْف يتشرَّف ، ومُعْجِزها لايُستكثَرُ له أنهـا لكلِّ حيَّـة تتلقَّف ، وهو الذى تحمَدُ الكُشوفُ والسُّـيوفُ فُتوحَه وفَتْحَه ، والذى يشْكُر يَدَه عِنانُ كلِّ سابِح وزِمامُ كلِّ سُبْحه ، وكم أسال بيدَيْه من دماء الأعداء ماءً جَرىٰ ، وعُمِل بين يديْه للفقراء ما جَرىٰ ، وكَمْ ولىٍّ لله خَفِىَ شخصُه فأظهر محضَـه فقال الولى : وما أدرى دَرًا لولا بَيْـدَرا ــ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن يحمِّل إحسانُ الدولة القاهرةِ له عَملا ، وأن يُحْسِن له عَلًّا ونَهَـلا ، وأن يختار له إذ هو صاحبُ العصا كما ٱختار مُوسىٰ قَوْمه سَبعين رَجُلا .

وخرج الأمر العـالى ــ لا زال ظلُّه ظليلا ، بامتداد الفىء بعـد الفَىْء ، وعطاؤه جزيلًا ، بتنويل الشىْءِ بعد الشىْء ــ وهو ذُو الكَرم والكرامات ، وصـاحبُ العصا بالأستادارية ولا يُستكثَرُ لصاحبها سِحْرُ الحيَّات .

وهذه نسخة مَنْشور من ذٰلك لمن لقبُه سيفُ الدّين، من إنشاء المَقر الشّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله الذى جرَّدَ فى دَوْلتنا القاهرةِ سَيْفا مَاضيا ، ووفَّق من جعل فعلَه لمزيد النِّعَم متقاضيا ، وأسعدَ بإقبالنا الشريفِ مَنْ أصبح به سلطانُه مَرْضيًّا وعيْشُه راضيا .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى تَسُرُّ مُواليا وتسُوءُ مُعاديا، وتُقدّم من أوليائنا من يقُوم مَقامَنا إذا سَمِع منادِيا ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً كم أرْوَتْ فى مَواردِ الوَريد من الرِّماح صاديا ، وأوْرَتْ هادِيا ، ورفعَتْ من أعيانِ الأعلامِ هاديًا، ونشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أُنزِل القُرآنُ بصفاته حاليا، وأحَلَّنا ببركة المشاركة فى آسْمِه المحمَّدىِّ مكانًا عاليًا. صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يبرَح كُلُّ لِسانٍ لها تالِيًا، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعد، فانَّ صدَقاتنا الشريفةَ لم تَزَلْ تُجَدِّد إنعاما، وتزِيدُ إكراما، وتُضاعِف لكلِّ من أضحىٰ ناصِرَنا بحقيقة وَلائه إجلالًا وإعظاما، ليترقَّى إلىٰ أعْلى الدَّرَج، ويَعْلَمَ أنه قد ورَدَ البَحْرَ فيُحدِّثُ عن كَرَمه ولا حَرَج ؛ ومَنْ رأى التقرُّب إلىٰ الله تعالىٰ بمراضينا الشريفة فتقَرَّب إليها ، وأقبل بقَلْبٍ مُخْلِص عليها، وأشبَه البدُورَ فى مَواقفه توسُّما، وحكَى السَّيفَ بارقُ ثَغْره لمَّا أومَض فى حَوْمة الحرب متَقَسِّما، وأقدَمَ حين لم يجِد بُدًّا أن يكونَ مُقدِّما، ووُصِفت الطَّعَنات التى أطلعَتْ أسِنَّتُها الكواكبَ بها دُرِّيَّه، والحَمَلاتُ التى تُقِرّ العِدَا لفَعَلاتها أنها بَهادِريَّه ؛ كَمْ له من محاسِن، وكم عُرِفَت له من مَكامِن؛ وكم له من صِفاتٍ كالعُقُود يَصْدُق بها من قال : الرجالُ معادن؛

كم له من هِمَّة تترقَّى به إلى المَعَالى، كم له من عَزْمة يُرْوَىٰ حديثُها المسنَدُ عن العَوَالى؛ كم به أمورٌ تُنَاط ، وكم جُمْهورٌ يُحاط ؛ كَمْ له من آحتِفاء وآحتفال ، وكَمْ له من قَبُول وإقبال ، وكَمْ له من وَثَبات وَثَبات ، وكم له من صِفاتٍ وصِفات، وكم له إماتَةُ كُماة؛ كم له من مناقبَ تُصْبِح وتُمْسِى، وكم له من معارِفَ لمَّا علم بها مَالِكهُ ـ خلَّد الله مُلْكه ـ قال الملكُ : آئتونى بِهِ أسْتَخْلِصْه لِنَفْسِى .

فلذٰلك لاتزال آراؤُنا العاليةُ تَعْقِد له فى كلِّ وقْتٍ رايَه، وتسعَىٰ به إلىٰ أبْعدِ غايَه، وتُتْبِع له عنايةً بعد عِنَايه ، حتى لا تخلُوَ دولتُنا الشريفةُ من سَيْف مَشْهور ، وعِلْمٍ مَنْشُور، وبَطَل لا يَرُدُّ عن الصَّمِيم تصميما، ولا تُعَدُّ أكابر الأمَراء إلا ويكونُ على العساكر مقدَّما وعلى الجيوش زعِيما : ليعلَم كلُّ مأمور وأمير ، وكلُّ مُماثِل ونظير، أنَّ حُسنَ نظرنا الشريف يضاعِفُ لمَنْ تقرَّب إلينا بالطاعة إحساناً ، ويُوجِب علىٰ مَنْ وجَد الميْسورَ بهذا المنشُور آمتِنانا : ﴿ لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ ويَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَاناً ﴾ .

ولمَّا كان فلان هو المُعْنِيَّ بهذه المقاصِد، والمخصوصَ بهذه المَادِح والمَحامِد، والواحدَ الذى ما قُدِّم على الألْف إلَّا وكالألف ذلك الواحد .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا زالت أيَّامه موصُولةَ الخُلُود، موسومةً بمزايا الجُود ـ أن يُجرىٰ فى إقطاعه ... ...

وهذه نُسخةُ مَنْشور من ذلك لمن لقبُه «شمس الدين» كُتِب به فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وهى :

الحمدُ لله الذى جعلَ دولتَنا القاهرةَ مَطْلَعَ كلِّ قمرٍ مُنِير، ومجمَعَ كلِّ مأمور وأمير، وموْقِعَ كلِّ سَحابٍ يظْهَر به البرقُ فى وجه السَّحاب المَطير؛ الذى شرَّف بنا الأقْدار، وزاد الاقتِدار، وجعلَ ممالِكَنا الشريفةَ سَماءً تُشْرِق فيها الشُّموسُ والأقمار.

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى تختالُ أولياؤُنا بها فى مَلَابِسها، وتختصُّ بنَفَائسها؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةً نجرِّدُ سيفَ الدِّين لإقامتها، ونُحافِظُ بوقائعه فى الحرب علىٰ إدامَتِها؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه الذى خَصَّه بمزيَّة التقريب، وشرفه على الأنبياءِ بالمكان القَريب؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الذين عَظَّمهم بقُرْبه، وكَرَّمهم بحُبِّه، وقدَّمهم فى السَّلَف الصَّالح إذا جاء كلُّ مَلِكٍ بأتْباعه وكلُّ مَلَكٍ بصَحْبِه، وسلم.

وبعدُ، فإن أَوْلى الأولياء أن تشمَلَه صدقاتُنا الشريفةُ بحسن نظرِنا الشريف، وبرِفْعةِ قَدْره المُنيف؛ ليتِمَّ له إحسانُها، ويَزِيدَ إمكانُها؛ حتَّى ينتقلَ هلالُه إلىٰ أكمل مراتب البُدُور، ويمتدَّ بحِصْنه المستظِلِّ به كثيرٌ من الجمهور؛ ويتقدَّمَ فى أيَّامنا الشريفة إلى الغايةِ التى يرجُوها، ويقدِّمَ قَدَمه إلىٰ مكانةِ أمثاله التى حَلُّوها، وتتكَمَّلَ بنا نعمةُ الله: ﴿وإنْ تَعُدُّوا نِعمةَ اللهِ لاتُحْصُوها﴾ ـ الناصرىُّ بحقيقةِ ولائه، البَهادرىّ شجاعةً فى لِقائه؛ مَن تكفَّلَتْ صدقاتُنا العميمةُ له بما لم يكُنْ فى أمَلِه، وجَمَّلَتْ حمايتُنا الشريفةُ مَعاطِفَه بأبهىٰ مما يَنْسِجه الربيعُ من حُلَلِه، وتوسَّمنا فيه من معرفة تُقرِّبُ إلىٰ مراضينا الشريفة بها دَرِيًّا، وهمَّةٍ جرَّدنا بهامنه سيْفًا بها دِرِيًّا، وطَلعةٍ أطلعَتْ منه بالبَهاء كوكبًا دُرِّيًّا؛ مع ماتخوّل فيه من نِعَمنا الشريفه، وقامَ به فى أبوابنا العالية من أحسَن القيام فى كلِّ وَظيفه.

ولما كان فلانٌ هو الذى أشرْنا إليه، ونبّهنا مُقَل النجُوم عليه . فاقتضَتْ آراؤنا الشريفةُ أن نبلغَه أقصىٰ رُتَب السعاده ، ونُعجّل له بحظّ الذين أحسنُوا الحُسنىٰ وزيادَه؛ ليُعدّ فى أكابر أمَراء دَوْلتِنا الشريفةِ إذا ذُكرُوا، والمُقَدّمِينَ علىٰ جيوشنا المنصورة إذا بادَرُوا إلىٰ مُهِمٍّ شريفٍ أو ٱبتَدَرُوا؛ ليعلَمَ كلُّ أحَدٍ كَيْف يُجازىٰ كلُّ شَكُور، وكيف يتحلّىٰ بنعمنا الشريفةِ كلُّ سَيْفٍ مشهور ، وكَيْفَ نذكرُ واحدا منهم فيغْدُو فى زعماء العساكر المؤيَّدة وهو مذكُور؛ ليبذُلُوا فى خدمة أبوابنا الشريفة جُهْدَهم، ويتوكّلُوا على الله تعالىٰ ثم علىٰ صدَقاتِنا العميمة التى تُحقِّق قصْدَهم .

فلذلك خرج الأمرُ الشريفُ ... ...

وهذه نُسخةُ منشورٍ من ذلك، كُتِب به فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» لمن لقبُهُ «بدرُ الدين» وهى :

الحمدُ لله الذى زَيّن أُفُق هذه الدَّولة القاهرة بِبَدْرها ، وسَيّره فى دَرَج أَوْجها ونَصْرها، ونَقّله فى بروج إشراقها ومنازِل فَخْرها .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه المُنْهَلَّة بِبرّها ، المتهلّلةِ بِبِشْرها ، المتزَيِّدةِ كُلّما زِدْنا فى حمدها وشُكْرها ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تنطق بها القلوبُ فى سرِّها وجَهْرها ؛ ونشهد أنّ محمدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ إلى الأمم بأَسْرِها . صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تملأُ الوجُودَ بأجْرها ، وتضْمَن لأُمّتها النّجاةَ يوم حَشْرها .

وبعدُ ، فإنّ أوْلىٰ من تعمَّمت النُّعمىٰ بتواليها عليه ومَرِّها، وخيرَ من ٱستقرّت الخيراتُ عنده فى مستقَرِّها، وأعلىٰ مَنْ عمَّمته أَلْسنةُ الأقلامِ ببدائع نَظْمها ونَثْرِها،

وخصَّصته بمحامدَ تتأرَّج المناشيرُ بنَشْرها ــ من كان للدولة القاهرة يشْرَح صدرَها، بتيسير أمرِها، ويَشُــدّ أزْرَها، بحَمْل وِزْرِها، ويتكفَّل بأداء فرائض إتمــامها ونَصْرِها، ويُوصِّل حِمْلَ ما يَفتحه من الحصون الضَّيِّقة إلى مِصْرِها .

ولمــا كان فلان هو بدْرَ هذه السماء ومُنِيرَ زُهْرِها، ونَيِّرَ نجوم هذه المقاصد ومُبْتَدأَ فَخْرها، وفريدةَ عِقْد هــذه القلائد ويتيمةَ دُرِّها، وصاحبَ هــذه الألغاز ومفتاحَ سِرِّها ــ ٱقتضت الآراءُ الشريفةُ أن تُزَفَّ إليــه عرائسُ العَوارف، ما بينَ عَوَانهــا وبِكْرها، وتَرِفَّ عليه نفائسُ اللَّطائف، ما بينَ شَفْعها ووَتْرِها، وتتهادَى إليه الهداياَ ما بين صُفْرها وحُمْرها، وتتوالى عليــه الآلاءُ ما بين ثَمَرِها وزَهْرِها، وأن تزاد عدّتُه المبــاركةُ فى كَمِّيَّتها وقَــدْرِها، وأن تَكَمَّل عشراتُه التِّسع بعَشْرِها، لِيُعْــلَم أنه لا يَبْرَح فى خَلَدها وسِرِّها، وأنها لا تُخْليه ساعةً من سعيد فِكْرِها .

فلذلك خرج الأمرُ العالى ــ لا زالتِ الأقدارُ تخُصُّ دولتَه القاهرَة بإطابة ذِكْرِها، وإطالةِ عُمْرِها، ولا برِحتِ الأملاكُ كفيلةً بنَصْرِها، بِمَضاء بِيضها وإعمال سُمْرِها ــ أن يجرى ... ...

وهذه نُسخةُ منشور من ذلك كُتِب به فى الدولة الناصرية «محمد بن قلاوون» لمن لَقَبُه «صلاحُ الدين» وهى :

الحمدُ لله الذى أتْحفَ الممــالكَ الشريفةَ من سَعِيد تدبيرنا، بصَلَاحها، وصَرَفَ حميدَ تأثيرنا، بإنجاب الأوْلياء وإنْجاحها، وأسعَفَ طَرائحَ أمانِيِّهم : من ٱقترابهم من خواطرنا الشريفة فى بُعْدهم وتَدانيهم باجابة سُؤالهــا وإصابة ٱقتراحها .

نحمَدُه على أنْ جعــل نَصْرَ دَوْلتنا الشريفــة قريبا من نُصَّاحها، ونَشْكُره على أن وصل أراجِيَّهم بإرْباحها، ونشهد أنْ لا إلهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُحْسِن

المآلَ والعاقبةَ لذَوِى الإخلاص كما أحسنَتْ فى ٱبتدائهـا وٱفتتاحها، ويُؤْذِنُ حسنُ ٱعتنائها لأحوال أُولى الأختصاص بإصلاحها؛ ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدًا عبدُه ورسوله الذى عمَّت مَواهبُه، بابراق سَمائها وإغداق سَمَاحها، وسَمَتْ مناقبُه، بأئتلاق غُرَرها وإشراق أَوْضاحها، وأَمَّت مواكبُه، ديارَ العدا فشَدّتْ عليهم مَشْهورَ قِراعها ومنصورَ كِفاحها . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أصابتْ أكُفُّهم فى السِّلْمِ بمسْعِفات أقلامها وصالَتْ أيْديهـم فى الحرْب بمُرْهَفات رِماحها، ما جرتِ الأقـدارُ بمُتاحها، وسَرتِ المبارُّ لمُتاحها، وظهرتْ آثارُ الإقبال التام علىٰ من له بخدْمتنا ٱهتمامٌ وٱحتفالٌ فَلاح علىٰ مقاصده معهودُ فَلاحها . وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلى مَنْ لَحَه نظرنا الشريفُ حيثُ كان، ورجَّحه فِكرُنا الحَسَـنُ الجميـلُ فمَنَحه الإجمالَ والإحسان، من لم يزل شُكْرُه أَرِجًا بكلِّ مَكان، وذِكْرُه بَهِجًا تَسْرِى به الركائبُ وتَسيرُ به الرُّكْبان، وصـدْرُه الرحيبُ مستوْدَعَ الأسرار فلا تُصابُ إذ كانتْ فيه تُصان، وقدْرُه عندنا المحفوظَ المكانة، فإنْ بَعُد فهو قريبٌ دان، وأمْرُه منَّا الملْحوظَ بالإعانة، فلا نزالُ نُوليه البِرَّ ونُعْلى له الشّان .

ولمـا كان فلان ... ...

وهذه نُسخةُ منشورٍ، كُتِب به للأمير سعد الدين مسْعود بن الخَطيرى، من إنشاء الشريف شهاب الدين كاتب الإنشاء، وهو :

الحمدُ لله علىٰ نعَمه التى زادتْ سُعودا، وضاعَفَتْ صُعودا، وكَرُمت فى أيَّامنا مَنْ لاحاجِبَ له عَن أن نمْنَحه من إنعامنـا مَزِيدا، وقدَّمت بين أيدينا الشريفـةَ من أوليائنا مَنْ غدا قدْرُه عندنا خَطيرًا وحَظُّه لدينا مسْعُودا .

نحمَدُه علىٰ أنْ أنْجز لأصفيائنا من وَفائنــا وُعُودا ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تَحْمَدُ لمُخْلِصها صُدُورا ووُرُودا ، وتَلْقىٰ مُؤْمِنَهــا بالبِشْر إذا جمع المَوْقِفُ وُفُودا ، ونَشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى شَرَّف بإنجاده مطرودًا ، وأُرْدِف بالملائكة جُنُودا ، وأَوْصَل به حقُوقا وأقامَ حُدُودا ، وحَجَب ببركانه وفَتكاته الأسواءَ فغَدا العدلُ موجودا ، وأَضْحَى الحكمُ مقْصُودا . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين ما منهم إلا مَنْ كان بالمؤمنين رحيمًا وعلى المشركين شديدا .

أما بعــدُ ، فنِعَمنا إذا أَوْلت وليًا ، مَنْحَها والَتْ ، وإذا قَدَّمَتْ صــفيًّا ، وهَبَتْه مَزِيدهَــا وأنالَتْ ، وإذا أقبلَتْ بوجهِ إقبالهــا علىٰ مُخْلِصٍ تتابعتْ إليــه المَسَرَّات وآنْثالَتْ ، لا سيَّمــا من أطابت الألسنةُ الثناءَ عليــه وأطالَتْ ، وجُبِلت سَجَاياه على العَدْل والمعرفة فما حافَتْ ولا مالَتْ ، وأوصلَتْ رأفتَه منَّا المستضعَفين وعلى المجرمين سَطْوتُه صالَتْ ، فبِيُمْن مقاصِده هانَت الخطوبُ وإن كانت فتَكاتُه فى الحروب كَمْ هالَتْ ، وهِمَمُه فى السِّلم قد جَلَّت ويَوْمَ الرَّوْع كم جالَتْ ، وعزائمُه كم غارَتْ فأغارَتْ وللمعتــدين كَمْ غالتْ ، وكم ســبقَ إلىٰ خدمتِنا صاحبُ الشمس وكيف لا وهو البدْرُ ولكنه لم يَزُل وإنْ هى زالَتْ .

وكان فلان هو الذى نَقَّلناه فى دَرَجات التَّقْديم حتّٰى كَمَل بدرُه ، ووقَّلناه فى مراتب التَّكْريم حتّٰى أصــبَح وهو المســعُود حظُّه المحمودُ ذِكْرُه ، وخوّلْناه مواهِبَ جُودِنا العميمةَ فاستَدّ باعُه وآشتَدّ أَزْرُه .

فلذٰلك خرج الأمرُ الشريفُ ــ لا بَرِح إنعامُه يَجِلُّ عن الحَصْر ، ودولتُه يخدُمُها العِزُّ والنَّصر ، وإكرامُــه يقضِى بمَسَرَّات الأولياء بالجمع ويُفضِى إلىٰ أعمــار الأعداء بالقَصْر ــ ... ...

وهذه نُسخةُ مَنْشور، كُتِب به لعلاء الدين إيدغمش أمير اخور الناصرى" [كُتِب به فى الدولة الناصرية] محمد بن قلاوون، من إنشاء الشريف، وهو :

الحمد لله الذى زادَ عَلاءَ دَوْلتنا الشريفَه، وأفادَ النِّعماء التامَّة مَنْ قام بين أيدينا أتَمَّ قيامٍ فى أتَمّ وَظِيفه، وأجاد الآلاءَ المتواليةَ بمَنْ أعِنَّةُ الجيادِ بإشارته مُصَرَّفَةٌ ومِنَّةُ الجُود بسِفارته مَصْرُوفه، وأرادَ الأصطفاءَ لأعَزّ هُمَام : فى قلُوب الأولياء له محبَّة وفى قُلُوب الأعداء منه خِيفَــه، وأبادَ أُولِى العِناد بفَتَكاته التى بهــا الغوائلُ مكفيَّة والطَّوائلُ مكْفُوفه، وشادَ المُلْك الأعزَّ بإرفاد وَلِىٍّ له الشجاعةُ المشكورةُ والطاعةُ المعرُوفه .

نحمَدُه علىٰ أنْ جعلَ آختياراتِنا بالتَّسْــديد محفُوظةً وبالتأييد محفُوفه؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شــهادةً السَّرائرُ لإخلاصِها ألُوفَــه، والضَّمائرُ على آختصاصِها معْطُوفه؛ ونشهدُ أنَّ ســيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى نَسَــلَه من النَّبْعة المُنِيفَه، وأرسَــلَه بالشِّرْعة الحَنِيفَه، وفَضَّله بالرِّفْعة علىٰ ظَهْر البُراق إلى السَّبْع الطِّباق وجُنودُ الأملاك به مُطِيفه، صلّى الله عليه وعلىٰ آله ذَوِى الهمم العاليَّة والشِّيَم العَفِيفه، ورضِىَ الله عن أصحابه الذين لو أنْفَق أحدٌ مثــلَ أُحُدٍ ذهَبًــا ما بَلَغ مُدَّ أحَدهم ولا نَصِيفَه، صلاةً تُبَيِّضُ بالأُجُور الصَّحِيفه، وتَعَوّض بالوُفُور من مَبَرَّاتنا الجليلة بفِكْرتنا الجميلةِ اللطِيفه، وسلم تسليما كثيرا .

أما بعــدُ، فكرَمُنا يُسْبِــغُ المواهبَ والمَنائِح، ونِعمُنا تُبَلِّغ المآرِبَ والمَناجِح؛ فلا نَبْرَح نَنْقُل فى درجات الصُّعود مَن هو فى خِدْمتنا لا يُبارِح، ويتكَفَّلُ صالحُ نظرنا الشريفِ صَلاحَ حال مَن أجْمَلَ النصائحَ وأثَّل المصالح؛ فكَمْ راضَ لنا من جامِحٍ، وخاض بَحْرَ الوغَىٰ علىٰ ظهرِ سابِحٍ، وحَمىٰ رُواقَ الإســلام من رُعْبــه بذَبٍّ ورمىٰ

أعناق الكُفَّار من عَضْبِه بذابِح ، وأصْمى المَقاتِل بكل نابِل يسْتَجنُّ فى الجَوانح ، وآنتمىٰ إلىٰ سعادة سُلْطاننا الناصر الفاتح ، وسَما عَزْمُ إعلائه بتقريبه وإدنائه إلى السِّماك الرامِح . طالَمَا مَسَّ الكفَّارَ الضُّرُّ إذ مَسَّاهم بالعاديات الضَّوابح ، وأَحَسَّ كلٌّ منهم بالدَّمار لما ظَنَّ أنه لَحَرْبه يُكابِد ولِحزْبه يُكافِح ، وصَبَّحهم بإغاراته على المُوريات قَدْحًا فأغْرىٰ بهم الخُطُوب الفَوادِح ، وطَرَحهم بالفَتَكات إلى الهَلَكات فصافَحَت [رقابُهم] رِقابَ الصَّفائح ، وأخْلىٰ من أهل الشِّرك المَسارِبَ والمَسارِح ، وأجْلى أهلَ الإفْك عن المَطارد والمَطارِح .

ولمَّا كان فلان هو الذى آستنار إليه شَأْنَ هذه المَدَائح ، وسار بذِكْره وشُكْره كلُّ غادٍ ورائح .

خرج الأمر الشريفُ — لا بَرِح سبيلُ هُداه الواضح ، وجزِيلُ نَدَاه يَغْدُو كالغَوادى بالعائِد والبادِى من فَضْله وهو الناصح ، ... ...

وهذه نُسخةُ مَنْشورٍ ، كُتِب به للأمير شمسِ الدين سنقر البكتوتى الشهير بالمَسَّاح ، وهى :

الحمدُ لله الذى أجزَلَ المَواهِب ، وجَدَّد من النِّعم ما لا تَزالُ الألْسنةُ تُحدِّثُ عن بَحْرها بالعجائب ، وأطْلَع فى أُفُق الدولة الشريفة شَمْسا تستَمِدُّ من أنوارها الكواكب .

نحمَدُه علىٰ نِعَم يتوالَى دَرُّها تَوالِىَ السحائب ، ويُغالَى دُرُّها عن أن تُطوَّق(١) به الأذُنَان والتَّرائب ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تختَصُّ قائلَها من

(١) المراد بالتطويق هنا مطلق التحلية وكان الأولى «أن تقرط به الأذنان وتطوق به الأعناق وتحلى به الترائب» .

درجات القَبُول والإقبـال بأسْمىٰ الدَّرجات وأسْنَى المراتب ؛ ونشهدُ أنَّ محمّدًا عبـدُه ورسوله الذى آصطفاه من لُؤَىِّ بنِ غالب ، وصان بِبعْثته الشريفـةِ رداءَ النُّسْك عن كلِّ جاذب ، وخَصَّـه بأشرفِ المَوَاهب ، وصَيَّر الإيمـانَ بنُور هدايتـه واضحَ السُّبُل والمَذَاهب . صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا يَمْضى جُزْءٌ من الدّهر إلا ووُجُودُها فيه وجُودُ الفَرْضِ الرّاتب ، وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أحقَّ من حُلِّىَ من النَّعماء بأفضـلِ العُقُود ، وخُصَّ بأضْفىٰ ملابِس الإقبال وأصْفىٰ مَناهل الإفضال : فاستعْذَبَ من هـذه الوُرُود ، وآختالَ من هـذه فى أجمـل البُرُود ، ومُنِح من الإقبـال بكلِّ غاديةٍ تُخْجِل السحابَ إذ يجُود ، وإن رقَمَتْ بها الأقلامُ سطورا فى طُرُوس أزْرَتْ بالزَّهَرِ اليـانِـع والرَّوض المَجُود ، ونُقِل قدْرُه من منزل عزٍّ إلىٰ منزل أعزَّ فكان كالشَّمْس تتنقّل فى منازل الشّرَف والسُّعود ـ مَن ظَهرتْ مكارمُ سِماته ، وآشتهرَتْ محاسنُ صِفاته ، وطلعَتْ فى سماء العَجَاج نُجومُ خُرْصانِه ولمعَتْ فى دُجى النَّقْع بُروق ظُبـاتِه ، وقُدِّم على الجُيوش والجحافِل فظهَرَتْ نتـائجُ التأييدِ والتّسْـديدِ من تقَدُّمه وتَقْدماته ، وهَزَم جيوشَ الأعداء ، فى مواقف الهَيْجاء ، بثَبات أقْدامـه فى إقدامِه وثَبَاته ، وتجرّد فى المُهمّات والمُلمّـات تجرّد الماضِيَيْن : من سُيُوفه وعَزَماته .

ولمـا كان فلانٌ هو الموصُوفَ بهذه الأوصاف الجَليله ، والمنْعوتَ بهذه المَحاسن الجميله ، والمشارَ إليه بهذه المحامِدِ والمَمـادح التى تَزْهُو علىٰ زُهْرِ الكَوا كب ، وتسمُو بمـا لَهُ من جميـل المآثر والمناقِب ـ أوجَبَ له الآختيارُ المَزيد ، وقضى له الآمتنانُ بتَخْويلِه نِعَمًا وتَنْوِيلِه مِنَنًا : تُضْحِى هذه عِقْدا فى كلِّ جِيد ، وتُمْسى هذه مُقَرِّبةً له من

الآمال كلَّ بعيد — واقتضى حسنُ الرَّأْى الشريف أن يُمنح بهذا المنشور : ليُخَصَّ من الأولياء بالسعد الجديد والجَدِّ السعيد .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ... ...

وهذه نسخة منشورٍ، كُتِب به للأمير خاص تُرْك فى الرّوك الناصرىّ، وهى :

الحمدُ لله على نِعَمِه التى سَرَت إلى الأولياء ركائبُها ، وهَمَتْ على رياض الأصفياءِ سحائبُها، وتوالَتْ إلى مَنْ أخلص فى الطاعة بغرائبِ الاحسان رغائبُها، وتكفَّلتْ لمن خُصَّ بأسْنى رُتَبِ البِرِّ الحِسانِ مكارمُها العميمةُ ومواهبُها، وغمرَتْ بحارُ كَرَمِها الزاخرةُ من يُحَدَّث عن شجاعتِه ولا حرجَ كما يُحدَّث عن البُحور التى لا تَفْنَى عجائبُها .

نحمَدُه على نِعَمه التى إذا أغبَّتْنا سحائبُ النَّدى أعقبَتْ سحائب، وخَصَّت الخواصَّ من دَرَج الامتنان بمراتبَ تُزاحِمُها الكواكبُ على نَهْر المَجَرَّة بالمَناكب ، ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا يَزال الجهادُ يرفَع ألْوِيتَها، والجِلادُ يَعْمُر بوفُود الإخلاص أنْدِيَتَها، والإيمانُ يُشَيِّد فى الآفاق أركانَها المُوَطَّدةَ وأبنِيتَها، ونشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أيده الله بنَصْره ، وخصَّه بمزيَّة التَّقدُّم على الأنبياء مع تأخُّر عَصْره ، وآتاه من المعْجزات ما تَكِلُّ ألْسِنةُ الأقلام عن إحصائِه وحَصْره . صلَّى الله عليه وعلى آله وصَحْبه الذين حاطُوا دِينَه بالمحافظة على جهادِ أعدائِه ، وأيَّدُوا ملَّته بإعادة حُكْم الجلاد فى سبيل الله وإبْدائه ، صلاةً لا يزالُ الإيمانُ يُقيم فرضَها ، والإيقانُ يملأُ بها طُولَ البسيطة وعَرْضَها، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإن أوْلَى من ضُوعِفتْ له النِّعم ، ووُطِّدت له الرُّتَبُ التى لا تُدْرَك غاياتُها إلا بسوابِق الخِدَم ، وأشرقَتْ به مطالِعُ السُّعود ، وحُقِّقت له مطالبُ الاعتلاء

والصُّعود، ورفَعتْه مواقعُ الإحسانِ إلىٰ أسنى المراتب التى هو مَلىٌّ بارتقائها، وتولّتْ له هَوامِعُ البِرّ والآمتنان آنتقاءَ فرائد النِّعم التى هو حقيقٌ باختيارها وآنتقائها ؛ وبلّغتــه العنايةُ بأجلّ مما مَضىٰ قَدْرا، وآستقبلَتْه الرعايةُ من أُفُق الإقبال بمــا إذا حُقّق التأمُّل وُجِد هــلالُه بَدْرا ــ مَنْ رُبّى فى ظِلّ خدْمتنا التى هى مَنْشأ الآساد، ومَرْبَى فُرْسان الجهاد، وغرينُ لُيُوث الوغَىٰ التى آجامُها عَوالِى الصِّعاد ؛ وبَراثنُها مَواضِى السُّيوف الحِـدَاد، وفرائسُها كُماةُ أهل الكُفْر وحُماةُ أرباب العِناد ؛ فكَمْ له فى الجهاد من مواقِف أعزّت الدِّين، وأذَلّت المُعْتَدين؛ وزلْزلَت أقدامَ الأبطال، وزَحْزحتْ ذَوى الإقدام عن مواقِف المَجَال ؛ وحكّمتْ صَفَاتَه فى القِمَم، وأنبَتتْ صِفاحَه فى مَنابت الهِمَم؛ وفَرّقت ما لأهل الكفر من صُفُوف، وأرَتْهم كيف تُعَدّ أُلُوفُ الرجال بالآحاد وآحادُها بالأُلُوف .

ولمـا كان فلان هو الذى أُشيرَ إلىٰ مناقبه، ونَبّه علىٰ شهرة إقدامه فى كل موْقف يُمْنُ عواقِبــه ، وأُومِئَ إلىٰ خصائص أوصافه التى ما زال النصرُ يلحَظُها فى مَشاهِد الجهاد بعــيْنِ مُلاحِظه ومُراقِبه ــ آقتضَتْ آراؤُنا الشريفــةُ أن نُجَدّد آعتلاء مَجْده، ونَزِيدَ فى أُفُق الآرتقاء إضاءةَ إقباله وإنارةَ سعْده .

فلذلك خرج الأمر الشريف لا زال ... ... :

وهــذه نسخةُ منشور كُتِب به فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون لجمــال الدِّين أقوش الأَشْرَفِى، المعروفِ بنائب الكَرَك عند خرُوجه من الجُبِّ ، وهى :

الحمدُ لله مفرِّح القلوب، ومُفرِّج الكُروب، ومُبهِج النفوس بذَهاب غَياهب الخُطوب، ومُبلِّغ مَنْ تقادَم عهدُه فى حفظ ولائنا نهايةَ المرغوب، وغايةَ المطلوب؛ الذى أعاد إلى المخلصين فى طاعتنا النعمةَ بعد شُرودِها، وعوَّضهم عن تقطيب الأيّام بابتسامها وعن خُمولها بسُعودها، وألقىٰ على الأُوَل منهم جَمالا لا يَسَع الأذهانَ أن تتّصف بإنكار حقوقِه وجُحودِها .

نحمَدُه علىٰ ما وَهَبنا من الأَناة والحِلْم، وخصَّ به دولتَنا من المَهابة التى تُخْشىٰ يوم الحرب والمواهِب التى تُرْجىٰ يوم السِّلْم؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تكفَّلَتْ بالنجاة لقائِلِها، وأغنَتْ مَنْ حافظ عليها عن ضَراعات النُّفُوس ووسائِلِها؛ ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه المبعوثُ برِعاية الذِّمم، والمنعوتُ بحُسْن الرأفة التى هى شِعارُ أهل الوفاء والكَرَم، [صلى الله عليه] وعلىٰ آله وصحبه ما تلافَتِ الأقدارُ نفوسا من العَدَم، وتوافَتِ الأمانىُّ والمَنَاجِحُ فأظفرَتْ من أخلص نيّتَه الجميلةَ بردّ ضالَّة النِّعَم، صلاة تُضْفِى على الأولياءِ حُلَل القَبُول والرضا، وتُصْفِى من الأكدار مَناهِلَ سُرورِهم فكأنَّ الخَطْبَ أبْرق وأَوْمَض فمضىٰ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أوْلىٰ من انتظمَتْ بعد الشَّتَات عقُودُ مَسَارِّه، وابتسمَتْ بعد القُطُوب ثُغورُ مَبارِّه، واشتملَتْ عواطفُنا عليه فخلبَتْ أسبابَ منافعه وسلبَتْ جِلْباب مَضارِّه، واحتفلَتْ عوارِفُنا بالملاحظة لعهْده الوثيقِ العُرا، والمحافظة علىٰ سالف خدمتِه التى ما كان صِدْقُ ولائها حديثًا يُفْتَرَىٰ؛ وسبَقَ له من الاختصاص فى الإخلاص ما يرفَعُه من خاطرنا مكانَةً عاليةَ الذُّرا ــ من أضْحىٰ من السابقين الأوّلينَ فى الطاعه، والباذلين فى أداء الخِدْمة والنَّصيحة لدولتنا جُهْدَ الاستطاعه، والسالكين للمماليك بحُسْن الخَلَّة وجميل الاعتزام؛ والمحافظين علىٰ تشييد قواعد المُلْك

بآرائه وراياته التى لا تُسامىٰ ولا تُسَام ، وأمسىٰ هو الولىَّ الذى لا يُشاركه أحدٌ فى إخلاص الضمير فى موالاتنا وصفاء النيّه ، ولا يُساهِمُه وَلِىٌّ فيما آشتمل عليه من صِدْق التعبُّد وجميل الطَّوِيَّه ، والمُخْلِص الذى انفرد بخصائص الحقُوق السابقة والآنِفَه ، وآمتازَ بمُوجَبات خِدَمٍ لا تُجْحَدُ محافظَتُها التالدةُ والطارِفَه ، وطلعتْ شمسُ سعادته فى سماء مملكتنا فلم يَشُبْها الغُروب ، وأضاء بدْرُه فى أُفُق عزِّه فكان سِرارُه مُذْهبا لأعْيُن الخطوب .

ولما كان فلان ... ...

الضرب الثالث — مما يفتتح بالحمد مناشيرُ أمراء الطبلخاناه .

وقد تقدّم أنَّها كمناشير مقدَّمى الألُوف فى الترتيب إلا أنها أخصَرُ منها .

وهذه نسخ مناشيرَ من ذٰلك :

نسخة منشور كُتِب به لبعض الأمراء ، وهى :

الحمدُ لله رافِعِ الأقدار ، ومُجْزِل المَبَارّ ، وجاعل يمينِ كرمنا مبْسوطةً باليَسَار .

نحمده علىٰ غيث فضلِه الدَّارّ ، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً سَرَّت الأسْرار ، وأذهب نُورُها ما كان للشرك من سِرَار ، ونشهد أنَّ محمدا عبدُه ورسوله الذى أنجدَ له فى نَصْر الحق وأغار ، وأرْهَفَ من سيف النَّصر الغِرَار . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين منهم مَن كان ثانِىَ اثنين فى الْغار ، ومنهم مَنْ سبقَتْ له دعوةُ سيد المرْسَلين من سالف الأقدار ، ومنهم من كَرَّم الله وجْهَه فكان له من أعظم الأنْصار .

وبعـدُ، فإنَّ العطايا أيسرُ ما يكونُ تنويلُها، وأسرُّ ما يُلفىٰ تخويلُها، إذا وَجدتْ مَنْ هو لرايتها متلَقّيا، وفى ذُرَا الطاعة مترقّيا، ومَنْ إذا صدَحتْ حمائمُ التأييد كانتْ رماحُه الأغصان، وألويتُـه الأفنان، ومَنْ تردّىٰ ثيابَ الموت حُمْرا فـا يأتى لهـا الليلُ إلا وهى بالشهادة مُخْضَرّة من سُنْدُس الجنان، وإذا شَهَر عَضْبه، أرضىٰ ربَّه، وإذا هَزَّ رُمْحَه، حمىٰ سَرْحه، وإذا أطلق سَهْما، قتَل شَهْما، وإذا جَرّد حُسَاما، كان حَسَّاما، وإذا سافرَتْ عزائمُه لتَطْلُب نَصْرا، حلّت سُيوفَه فجاءتْ بالأوْجال جمعا وبالآجال قَصْرا .

ولمـا كان فلانٌ هو الذى جَمَع هذه المناقبَ الجمّه، وآمتاز بالصَّرامة وعُلو الهِمّه، آستَحقَّ أن يُنظَر إليـه بعين العِنايه، وأن يُجعلَ آبتداؤُه فى الإمْرة دالًّا علىٰ أسـعد نهـايه .

فلذٰلك خرج الأمر الشريفُ ـ لا زال يرفَع الأقْدار، ويُجْزِل المَبارّ، أن يُجْرَىٰ فى إقطاع ... ...

وهذه نسخة منشور لمن لَقَبه زَينُ الدين، وهى :

الحمدُ لله الذى وَهَب هذه الدولةَ من أوليائها أحسَنَ زَيْن، ومنَحَها منهم من يَشْكُرُ السيفُ والعِنانُ منه اليدَيْن، ومَنْ يملأُ وَلاؤُه القلبَ وثناؤه السَّمْع وبَهاؤُه العين .

نحمده علىٰ نِعَمه التى نفَتْ عن نُور المُلْك كلَّ شىء من شَيْن، وأبقَتْ له من كُماته وحُماته مَنْ لا فى إخلاصه رَيْبٌ ولا فى محافظتِه مَيْن، ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةَ متبرّئٍ من اتخاذِ إلٰهَـيْن اثنين، ونشهدُ أنَّ محمدا عبدُه ورسولُه شهادةَ متَمسِّكٍ من هذِه وهذِه بعُرْوتَيْن . صلَّى الله عليه وعلىٰ آلِه وصَحْبـه صلاةً دائمة

ما جَمَع المسافِرُ من الصلوات بَيْنَ الأُخْتين ، وما جلَس خطيبٌ بين خُطْبتين ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعــد ، فإنَّ خير من رَقِى خطيبُه إلىٰ أرفع رُتَبه ، وأُنْجِح فى تخويل النِّعم علىٰ كل طَلِبةٍ ورَغبه ، لا بلْ أُهْديت إليه عرائسُ النَّعْماء وقد ٱبتدأتْ هى بالخِطْبه ، وكُثِّر له فى معروفٍ أصــبح ببَذْله معرُوفا ، وأُعِينَ علىٰ جُودٍ أمسىٰ به موْصُوفا ، وذُلِّلت له قُطوفُ إحسانٍ كم ذَلَّل الأولياءُ [من أجله] فى مَرَاضى الدولة ومَحَابِّها قَطُوفًا فقَطُوفا ــ مَنْ خَلَف المَلِك أحسَنَ الخَلَف ، ومَنْ له بفعل الخير أعظَمُ كَلَف ، ومَنْ يَشْهد له بالشَّجاعة الخَيْلُ واللَّيْل والْبَيْدَاء ، والســيفُ والرمْحُ والأعداء ، فلا غَزْوةَ إلا له فيها تأثيرٌ وأثَر ، ولا نَدْوةَ إلا وبها من وَصْــفه بالذكر الجميل سَمَر ، تتشوّفُ إلىٰ ملاحظة غُرَّته كلُّ عين ويتبيَّن لحياطتِــه فى الوجود كلُّ أثَر ، ما أنارَ وجْهُــه فى نَهار سلم إلا وقيل الشمسُ ولا بَدَا فى ليلِ خَطْبٍ إلَّا وقيل القَمَر .

ولمــا كان فلان هو بدْرَ هذه الهــاله ، وجَلَّ هــذه الجَلَاله ، ونُورَ هذه المُقْله ، ولابِسَ هــذه الحُلَّه ــ ٱقتضىٰ حسنُ الرأى الشريفِ أن تُكَثَّر لديه النِّعم وأن يَجْرىَ بتَنْمِيةِ الإحسانِ هذا القلم .

فلذٰلك خرج الأمر الشريف ــ لا بَرِح يَجُود ، وبالخيرات يَعُود ــ أنــ يُجْرى فى إقطاعه ... ...

وهذه نسخة منشور من ذٰلك ، وهى :

الحمدُ لله الذى أيَّد دولتَنا القاهرةَ بكل رايةٍ تُعْقَد ، وأميرٍ يُؤمَّر وجنودٍ تُجَنَّــد ، وكلِّ بطَل إذا جرَّد عَزْمَه سُلِّم إليه المهنَّد ، وٱشتَبَه الرمْحُ بمعاطِفه فلم يُدْرَ أيُّهما تأوَّد .

نحمَدُه كما يجبُ أن يُحمَد ، ونَمْدَحُه بما لا يُماثِلُه الدُّرُّ المنضَّد؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له أفضلَ مابه نَشْهَد؛ ونصلى علىٰ نبيِّه وعبده سيدنا محمد . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه فى كل مَقالٍ يتجدَّد، صلاةً فيها الأقلامُ لا تتردَّد فيما تتردَّد ، ورضى الله عن أصحابه وسلَّم وكَرَّم ومجَّد، ما غرَب فَرْقَدٌ وطلعتْ شمسٌ ثم ما غربَتْ شمسٌ وطلَعَ فَرْقد .

وبعدُ ، فإنَّ لآرائنا العاليةِ المَزِيدَ فى كل ما تقتضيه ، وفى كل مَنْ ترتضيه، من جميع أوليائها، لجميل آلائها ، ممن فاق أبناءَ جنْسه ، وكان فى أمثاله وحيدًا لأنه لا يُوجدُ له نظيرٌ وهو كثيرٌ بنَفْسه ، وتسابقت الخيلُ إلى ٱرتقائه علىٰ صَهَواتها ، والتطَمَتْ بحارُ الوغىٰ لما ألقىٰ له كلُّ سابح فى غمراتها ، وٱفتخَرتِ القِسِىّ بمدّه الذى لا تخرج به الأقمارُ عن هالاتها، والسيوفُ لأنه إذا ٱشتركتْ معه فى لَقَب كان أسْمىٰ مسمَّياتها ، والرماحُ لأنه كَمْ له عليها من مِنَّة لما أطْلقَها فى الحروب من ٱعتقالِ راياتها؛ وتجدّدتِ الأسنَّة فيما يتلُوه من سُورات الفُرْسان لأنه أكْبَرُ آياتها، وهوالذى ٱنتظمَتْ به المَعالِى والعَوالِى قَصْدَها الذى به يَرى غمراتِ الموت ثم يَزُورُها علىٰ ما هى عليه من إهالاتِها[(1)] ، مع ماله فى خدمتنا الشريفة من سوابِقَ لا تُجارىٰ فىسبيل ، ولا يَلْحَق لها شَأْوًا أشهبُ الصبح ولا أدْهَمُ الليل ولا أشقَرُ البرق ولا أصْفَرَ الأَصِيل . فاقتضت صدقاتُنا الشريفةُ له الإحسان ، وتقاضَتْ عوارِفُنا الحِسان، فرفعَتْ له رتبةً لا يبلغُها كثيرٌ من الناس إلا باللسان ، وكان فلانٌ هو الذى حَسُن وصفا، وشكَرت مساعيه سَجاياه وهو أوْفَرُ وأَوفىٰ .

فلذٰلك خرج الأمر الشريف ... ...

(١) يريد من هولها ولكن السجع ٱضطره إلى أن يجارى العوام فى لغتهم .

وهذه نسخة منشور، وهى :

الحمدُ لله علىٰ نِعَمه التى أسْنتِ المَواهِب ، وأغنَتِ الأولياءَ بآلائها عن دَوْم الدِّيَم وسَحِّ السحائِب .

نحمده علىٰ غَرائب الرَّغائِب ؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً تتكَفَّل لقـائلها ببُلُوغ المآرِب ؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى آفتخرَتْ باسمه المَناقِب ، وآنتصرتْ بعَزْمه المقَانِب ، وقَهرَ بباسـه كلَّ جانٍ وعَمَر بناسه كُلَّ جانِب ، وكشفَ اللهُ ببركته اللَّأْواء ، وغلَب بفَتَكاته الأعداء ، وكيف لا وهو سيِّد لُؤَىِّ بن غالب . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أذلَّ بجهادهم المُحارِب ، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـدُ ، فإنَّ أوْلىٰ من أعذَبْنـا نَهلَه ، وأنجحْنا أَمَلَه ، وأجزَلْنا [له] من هِبات جُودِنا [وأغدقنا عليه من مِنَن عطائنا ورفْدنا ـ من نازل الأعداء يوم الوغىٰ فراح](١) إلىٰ أعلامهم فنَكَّسها وإلىٰ أعناقِهم فوَقَصها(٢) ، وحَكَّم سيفَه فى أشلائِهم وأرواحِهم : فهذه آقتناها وهذه آقتنَصَها ؛ ما فَوَّق يومَ الرَّوْع سَهْمَه إلا أصابَ المَقَاتل ، ولا شَهَر سيْفَه إلا قَهَر بِبأْسه كلَّ باسِل ، ولا سارَتْ عِقْبانُ راياته إلىٰ معْترك الحرب ضُحًى إلا ظُلِّل بعِقْبان طَيْر فى الدماء نَواهِل .

ولـما كان فلان هو الذى يُشِير إليه بَنَانُ هذا المَدْح ، ويَسِير إليـه إحسانُ هذا المَنْح .

(١) زدنا هذه الكلمات لاحتياج المقام اليها .

(٢) فى الأصل "فنكصها" وهو لا يفيد ما يريد .

فلذلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا بَرِحت ظلالُ كرمه وارفه، وسحائبُ نِعَمه واكفَه ـ أن يُجْرى فى إقطاعه ... ...

وهذه نسخة منشور تصلُح لمن مات أبُوه، وهى :

الحمدُ لله الذى جعل سَمـاءَ كرمنا، على الأولياء هاميةَ السَّحاب، وعوارِفَ نعمنا، جميلةَ العُقْبىٰ للأعقاب، وعواطِفَ أيامنا الشريفةِ تُجْزل العطاء وتَجْبُر المُصاب .

نحمَدُه علىٰ نِعَمه التى ما سَخُنت العُيونُ إلا أقرَّتها، ولا ٱكتأَبت النُّفوس بمُلِمَّة إلا سَرَّتها؛ ونشهد أنْ لا إلٰهَ إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً لا يَزالُ رَبْع الأُنس بهـا معمُورا، وصَدْعُ النَّفْس بهـا مجْبُورا؛ ونشهد أنَّ محمدا عبـدُه ورسولُه الذى أصبح شَعَثُ الإيمان به ملْمُوما، وحِزْبُ الطُّغْيان به مهْزُوما، وداءُ البهتان بحُسامه محْسُوما. صلَّى الله عليـه وعلىٰ آله وصحبه الذين كان [هو] بَدْرَ السيادة وكانوا نُجوما ، صلاةً لا يَبْرَح ذكرها فى صحائف القَبُول مرْقُوما، وسلم تسليما كثيرا .

وبعـدُ، فإنَّ أوْلىٰ من دَرّت أخلافُ جُودِنا لخَلَفه، ورعىٰ كَرَمُنا خِدَم سلَفه، ونقَّلنا هلاله من تقريبنا إلىٰ منازل شَرَفه، وأجراه إحسانُنا علىٰ جميل عوائده، وسوّغه نوالُنا أعذَبَ مواردِه، وجمـع له إنعامُنا بين طارِفه وتالِده، مَن ٱستمسك من سَبَب إخلاصنا بآكَدِه، وحَذَا فى ولائنا أحسَنَ حذْو ولاغَرْوَ أن يحذُوَ الفتىٰ حَذْوَ والِده، وٱشتهر بالشَّهامة التى أغنَتْ بمفْرَدها عن الأُلوف ، وعُرِف بالإقدام الذى طالمـا فَرَّق الجموع وٱخترقَ الصُّفوف، مادَنَا من الأعداء إلا دنَتْ منهم الحُتُوف، ولا أظلم لَيْلُ النقع إلا جلَتْه أنْجُم الصِّعاد وأهِلَّة السُّيوف .

ولمـا كان فلان هو الممدُوحَ بجميل هذه الشِّيَم، والممنوحَ جزيلَ هذه النِّعم، والشبيهَ فى موالاتنا بأبيه ومَنْ أشْبَه أباه فمـا ظَلَم .

فلذٰلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا بَرِحت سُحُب كرمه هاطِلةَ الأنواء، شامـلةَ الآباء والأبناء ـ أن يُجْرى فى إقطاعه ... ...

النـــوع الثـانى

(من المناشير مايفتتَح بـ«أما بعدُ» ويختَصُّ بأمراء العَشَرات ومَنْ فى معناهم : كأُمَراء العِشْرينات ونحوهم ممَّن لم يبلُغ شأوَ الطَّبْلخانات)

وهى علىٰ ضربيـن :

الضـــرب الأوّل

(فى مناشير العَشَرات كائنًا ذٰلك الأميرُ مَنْ كان)

وهذه نسخُ مناشِيرَ من ذٰلك :

نسخة منشور من ذٰلك، وهى :

أما بَعْـدَ حمـدِ الله علىٰ نِعَمِه التى يُبْدِيها ويُعيدها، ويُفيئُها ويُفيدُها، ويُديمها علىٰ مَنْ شكر ويَزِيدُها، والصلاة والسلام علىٰ سـيدنا محمد الذى نزلَتْ لنَصْره ملائكةُ السماء وجنودُها، وأُخِذتْ على الإقرار بنُبوّته مواثيقُ الأملاك وعُهودُها، وعلىٰ آله وصحبه الذين هم أُمنَاء هذه الأمّة وشهُودُها ـ فإنَّ أحقَّ من تقلَّب فى إنعامنا، وتقدَّم فى أيّامنا، وتوالَتْ إليـه آلاؤُنا تَترىٰ، وتكرّرت عليه نَعْماؤنا مَرَّة بعـدَ أُخْرىٰ، مَن ظهرَتْ آثارُ خدمتِـه، وصَحّت أخبارُ نَجْدته، وشُكِرت مَساعيه الجليله، وحُمِدتْ

دَواعِيه الجميله، وكان له من صِفاتِه الحُسْنَى، ما يُنيله من الدَّرجات الأعْلىٰ ومن المطالب الأَسْنىٰ .

ولما كان فلانٌ ممَّن زانَتْه طاعتُه، وقدَّمه إقدامُه وشجاعتُه، وشهِدَتْ له مواقِفُ الحُروب، أنه مُجْلِي الكُروب، وأُقِرَّ له يومَ الوغىٰ، بإبادة مَنْ بغىٰ، وكان له مع الشهامة الرأْيُ الثاقِب، والسَّهم الصائِب، يُصيب ولا يُصاب، جَذَعُ القريحه، رابطُ الجأش عنـد تغَيُّر الأذهانِ الصحيحه ـ اقتضىٰ حسنُ الرأى الشريف أن تُرفَعَ درجتُه، وتُعلىٰ رتبتُه، ويُنْظَم فى عقود الأمراء، ويُسْلَك به جادَّةَ الكبراء، لتُرَقِّيه فى دَرَج السعاده، وتَبْلُغَ به رُتْبةَ السياده .

فلذٰلك خرج الأمرُ الشريف ـ لا بَرِحت هاميةً غَوادِى آلائه، سابغةً ملابِسُ نَعْمائه ـ أن يُجْرىٰ فى إقطاعه ... ...

وهذه نسخة منشور من ذٰلك، وهى :

أما بعدَ حمدِ الله علىٰ نِعَمه التى فسَّحتْ فى كَرَمها مجالَ المَطالِب، وفتَّحت لخدَمها أبوابَ نُجْحِ المآرِب، وحَقَّقت فى عوارِفها آمالَ من تقرّب اليها من الخِدْمة والطاعة بأنجح ماتقرَّب الراغب إلى الرغائب، والصلاة والسلام علىٰ سيدِنا محمد الذى زَوَى اللهُ له [الأرض] لِيَرىٰ ماتنتهى اليه الكواكِب، وعلىٰ آله وصَحْبه الذين استَسْهلوا فى جهَاد أعدائه المَصَاعب، ورَمَى الله مَنْ ألحَـدَ فى دينه من سَطَواتهم بعـذابٍ واصب، فإنَّ أَوْلىٰ من تلقَّتـه وجُوه النِّعم السوافر، واستقبلَتْه نِعَم العَوارف التى هى من غير الأكْفاء نَوافِر، وأَتَتْه السُّعُود المقبله، ووافَتْه الآلاء المُقيمةُ والمستَقْبَله، مَنْ صَحَّت شجاعتُه فى مواقف الجهاد المُدْلَهِمَّه، وسَمَحت شهامتُه فى الوغىٰ بمجال السُّيوف المُرْهَفة

عن أحمدَ . وذهب أبو حنيفة إلىٰ أنه الحَلِف على الماضى من غير قَصْدِ الكَذِب فى يمينه، مثل أن يَظُنَّ شيئا فيحْلِفَ عليه ؛ وهو الرواية الثانية عن أحمد ، وحُكى عن مالكٍ أن هذه هى اليمين الغَمُوس .

الطرف الثانى

(فى التَّحذيرِ من الوُقوع فى اليمين الغَمُوس)

أما اليمين الغَمُوس فإنَّها من أعظم الكبائر، وناهيكَ أنها تَغْمِسُ صاحِبَها فى الإثْم . وقد قال تعالىٰ : ﴿ لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْوِ فى أَيْمَانِكُمْ وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ ﴾ . وقال جلَّ وعزَّ : ﴿ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ﴾ . وفى الحديث أن النبىَّ صلَّى الله عليه وسلم قال : «مَن حَلَفَ علىٰ يَمينٍ وهو فيها فاجِر ليقتَطِعَ بها مالَ آمرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ عزَّ وجلَّ وهو عليه غَضْبانُ» . وقد قيل إن التوحيد (وهو : الذى لَا إله إلا هو) إنما أُوصِلَ فى اليمين رِفْقًا بالحالف كَيْ لايَهْلِكَ لوَقْتِه ، فقد رُوِىَ عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه أنه قال : « إذا حَلَفَ الحالِفُ بالله الذى لاإله إلا هو ، لم يُعاجَلْ لأنه قد وحد الله تعالىٰ» .

ويُروىٰ أن جَعْفرَ بنَ محمد عليه السلام : آدّعى عليه مُدَّعٍ عند قَاضٍ ، فأَحْلَفه جعفرٌ باللهِ ، لم يَزِد علىٰ ذلك ، فهَلَكَ ذلك الحالِفُ لوَقْتِه ، فقال القاضى ومَن حضر : ماهذا ؟ فقال : إن يَمينَه بما فيه ثَناءٌ على اللهِ ومَدْحٌ يؤخِّر العقوبةَ كَرَماً منه عزَّ وجلَّ وتَفَضُّلا . وقال أمير المؤمنين علىُّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه : « أَحْلِفُوا الظَّالِمَ إذا أردتُّم يَمينَه بأنه بَرِىءٌ من حَوْلِ الله وقُوَّتِه ، فإنه إذا حَلَف بها كاذباً عُوجِلَ » .

ومن غريب ما يُحكىٰ فى ذلك أن عَبْد الله بن مُصْعَب الزُّبَيْرِىّ سعىٰ بيَحْيىٰ بن عبد الله بن الحسن إلى الرشيد، بعد قيام يحيىٰ بطلب الخلافة، فجمعَ بينهما وتواقفا، ونَسَبَ يحيىٰ إلى الزُّبيْرىّ شعراً يقول منه :

قُومُوا بَبيْعَتِكم نَنْهَضْ بطاعتها * إنَّ الخلافة فيكم يا بَنِى حَسَن

فأنكر الزبيرىّ الشِّعر، فأحلفه يحيىٰ، فقال : قل قد بَرِئْتُ من حَوْلِ اللهِ وقُوَّته، وٱعْتَصَمْتُ بحَوْلِى وقُوَّتى، وَتَقَلَّدتُ الحَوْلَ والقُوّة من دُون الله ٱستكبارًا على الله، وٱسْتِغناءً عنه، وٱسْتِعلاءً عليه، فامْتَنع . فغضب الرشيد وقال : إن كان صادقاً فلْيحلِف، وكان للفَضْل بن الربيع فيه هَوًى، فرفَسَه برِجْله، وقال: وَيْحَكَ احلِفْ! فحَلَف ووَجْهُه متَغَيِّر وهو يَرعُد، فما بَرِحَ من موضعه حتَّى أصابه الجُذَامُ فتقطَّع ومات بعد ثلاثة أيام، ولما حُمِل إلىٰ قَبرِه ليُوضعَ فيه ٱنخسف به حتَّى غاب عن أعْيُن الناس، وخرجتْ منه غَبَرةٌ عظيمة، وجعلوا كلَّما هالُوا عليه التُّرابَ ٱنْخَسف، فسقَّفُوه وٱنصرفوا .

الباب الثانى
من المقالة الثامنة
(فى نُسَخ الأَيْمانِ المُلُوكيَّة، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل
فى نُسَخ الأَيْمانِ المتعلِّقة بالخُلَفاءِ، وهى علىٰ نوعين

النوع الأوّل
(فى الأَيْمان التى يُحَلَّفُ بها علىٰ بيعة الخليفة عند مبايعته ، وهى الأصل فى الأيمان الملوكية بأَسْرها)

وأَوّلُ من رَتَّبَها الحجَّاجُ بنُ يُوسفَ حين أَخْذِه البَيْعَةَ لعبد المَلِك بن مَرْوانَ علىٰ أهل العِراق، ثم زِيدَ فيها بعد ذلك، وتنقَّحَت فى الدولة العبَّاسية وتنضدت . وكان عادتُهم فيها أن يجرى القَوْل فيها بكَافِ الخطاب ، كما فى مكاتباتهم يَوْمئذ ، وربَّما أُتِى فيها بلَفْظ المتكلم .

وهذه نُسخةُ يَمينٍ أوردها أبو الحُسَين الصَّابِى فى كتابه "غُرَر البلاغة" وهى :

تُبايعُ عبدَ الله أمير المؤمنين فلاناً : بَيْعةَ طَوعٍ وٱختيار، وتَبَرُّعٍ وإيثار، وإعْلان وإسرَار، وإظْهارٍ وإضمار، وصِحَّةٍ من غير نَغَل ، وسَلامةٍ من غير دَغَل، وثَباتٍ من غير تَبْديل ، ووَفاءٍ من غير تَأْويل ؛ وٱعترافٍ بما فيها من ٱجتماع الشَّمل ، وٱتِّصال الحَبْل ، وٱنتظام الأمور ، وصلاح الجُمْهور ، وحَقْنِ الدِّماء ، وسُكُونِ الدَّهْماء ، وسَعادة الخاصَّة والعامّه ، وحُسْنِ العائدة علىٰ أَهْل المِلَّة والذِّمَّه ـ علىٰ أن عبدَالله فلاناً

أميرَ المؤمنين عبـدُ الله الذى اصطفاه ، وأَمينُه الذى ارتضاه ، وخَليفَتُه الذى جعل طاعتَه جارِيَةً بالحقّ ، ومُوجَبـةً على الخَلْق ، ومُورِدَةً لهم مَوْرِدَ الأمْن ، وعاقِدةً لهم مَعاقِدَ اليُمْن ، وولايتَه مُؤْذِنَةً بجميل الصُّنع ، ومُؤَدِّيةً لهم إلىٰ جَزيل النَّفْع ، وإمامَتَه التى اقترن بها الخيرُ والبَرَكه ، والمصلحةُ العامّةُ المُشْتَرَكه ، وأُمِّلَ فيهـا قَمْعُ المُلْحِد الجاحد ، وردُّ الجائر الحائد ، ووَقْمُ العاصِى الخالع ، وعَطْفُ الغَاوِى المُنازِع . وعلىٰ أنك وَلِيُّ أوليائه ، وعدوّ أعْدائه : من كلِّ داخِلٍ فى الجُمله ، وخارِجٍ عن المِلَّه ؛ وعائذٍ بالحَوْزه ، وحائدٍ عن الدَّعْوه ؛ ومتمسِّكٌ بما بذلته عن إخلاص من رَائك ، وحَقيقةٍ من وَفَائك ؛ لاتَنْقُضُ ولا تَنْكُث ، ولا تُخْلِفُ ولا تُوارِى ولا تُخـادِع ، ولا تُداجِى ولا تُخاتِل ؛ عَلانِيَتُك مِثلُ نِيَّتِك ، وقولك مثل طَوِيَّتِك . وعلىٰ أن لا تَرْجِعَ عن شىءٍ من حقوق هذه البَيْعة وشرائطها علىٰ ممرّ الأيام وتطاوُلهـا ، وتَغيُّرِ الأحوال وتَنَقُّلِها ، واختلاف الأوقات وتَقَلُّبِها . وعلىٰ أنك فى كلّ ذٰلك من أهل المِلّة الإسلامية ودُعاتِها ، وأعْوانِ المملكة العباسيَّة ورُعاتِها ، لا يتداخَلُ قولَك مواربَةٌ ولا مُداهَنَه ، ولا يعترِضُه مغالطةٌ ولا يَتَعقَّبُه مخالفه ؛ ولا تُحْبَسُ به أمانه ، ولا تقلُّه خيانه ؛ حتَّى تلقَ اللهَ تعالىٰ مُقيما علىٰ أمْرِك ، ووَفيًّا بعَهْـدك ؛ إذ كان مُبـايِعُو وُلاةِ الأمْرِ وخُلفـاء الله فى الأرض ﴿ إِنَّمـا يُبايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فإِنَّمـا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ ومَنْ أَوْفَىٰ بِمَـا عَاهَدَ عَلَيهُ اللهَ فَسيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

عليك بهذه البَيْعةِ التى أَعْطيْتَ بهـا صَفْقَةَ يَدك ، وأَصْفَيتَ فيها سَرِيرةَ قَلْبك ؛ والتزمت القيام بها ما طال عُمْرُك ، وامتدّ أَجَلُك ـ عَهْدُ اللهِ إنَّ عَهْدَ الله كان مَسْئُولا ، وما اخذَه علىٰ أنبيائه ورسُلِه ، وملائكته وحَملة عرشـه : من أَيْمـانٍ مغلَّظة وعهود مؤكَّده ، ومَواثِيقَ مشَدَّده ؛ علىٰ أنك تسمع وتُصْـغى ، وتُطيعُ ولا تَعْصِى ؛ وتعتَدلُ

ولا تَميد، وتَستقيمُ ولا تَميل، وتَفِي ولا تَغْدر، وتَثْبُت ولا تَتَغيَّر، فمتى زُلْتَ عن هذه المَحَجَّة خَافِرًا لأمانَتِك، ورَافِعًا لدِيانَتِك، بجحدتَ الله تعالىٰ رُبُوبِيَّتَه، وأنكرتَ وَحْدانِيَّته، وقطعتَ عِصْمَةَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم منكَ وجَذَذْتَها، ورَمَيْتَ طاعَتَه وراءَ ظَهْرِك ونبذْتَها، ولقيتَ الله يوم الحَشْرِ إليه، والعَرْض عليه، مخالفًا لأمره، وناقضًا لعهْده، ومقيما على الإنكار له، ومُصِرًّا على الإشْراك به، وكلُّ ما حلَّله اللهُ لك محرَّمٌ عليك، وكلُّ ما تملكه يومَ رجُوعك عن بَذْلِك، وٱرتجاعِك ما أَعطيتَه في قَوْلك: من مالٍ مَوجُودٍ ومَذْخور، ومَصْنوعٍ ومَضْروب، وسارِحٍ ومربوط، وسائمٍ ومَعْقول، وأرضٍ وضَيْعة، وعقار وعُقْدة، ومملوك وأمة، صَدَقةٌ على المساكين، محرَّمةٌ علىٰ مَرِّ السنين، وكلُّ ٱمرأةٍ لك تَمْلِكُ شَعْرَها وبَشَرَها، وأخرىٰ تتزوّجها من بعدها طالقٌ ثلاثًا بتاتًا، طلاق الحرج والسنة، لا رَجْعةَ فيها ولا مَثْنَوِيَّة، وعليك الحجُّ إلىٰ بَيْت الله الحرام الذى بمكة ثلاثين دَفْعةً حاسرًا حافيًا، وراجلًا ماشيا، نَذْرًا لازما، ووَعْدا صادقا، لا يُبْرِئُك منها إلا القضاءُ لها، والوفاءُ بها، ولا قَبِلَ منك تَوْبةً ولا رَجْعه، ولا أَقالك عَثْرةً ولا صَرْعَه، وخَذَلك يوم الاستنصار بحَوْله، وأَسْلمك عند الاعتصام بحَبْله، وهذه اليمينُ قولُك قلتَها قولًا فصيحا، وسَرَدْتَها سَرْدا صَريحا، وأخلصتَ فيها سِرَّك إخلاصا مُبِينا، وصَدَقْتَ بها عَزْمك صِدْقًا يَقينا، والنِّيَّة فيها نِيَّة فلان أمير المؤمنين دُون نِيَّتِك، والطَّوِيَّة دون طَوِيَّتِك، وأشهدتَ اللهَ علىٰ نَفْسِك بذلك ﴿ وكَفَىٰ باللهِ شَهِيدًا ﴾ يوم تَجِدُ كلُّ نفس عليها حافظًا ورَقيبا.

وهذه نُسخةُ يَمينِ بَيْعةٍ أوردها ٱبنُ حَمْدونَ في "تَذْكِرَتِه" وأبو الحسن بن سعد في "تَرسُّله"؛ تواردت مع البَيْعة السابقة وأيمانها في بعض الألفاظ، وخالفت في أكثرها، وهى:

تُبايع الإمامَ أميرَ المؤمنين بَيْعةَ طَوْعٍ وإيثار، ورضًـا وآختيار، وآعتقادٍ وإضمار، وإعلانٍ وإسرار؛ وإخْلاصٍ من طَوِيَّتك، وصِـدْقٍ من نِيَّتك، وآنشراحِ صَدْرِك وصِحَّةِ عَزِيمَتك؛ طائعا غيرَ مُكْرَه، ومُنقادًا غيرَ مُجْـبَر؛ مُقِرّا بفَضْلها، مُذْعِنا بحَقِّها، مُعْترِفا بَبركتها، ومُعْتَدًّا بحُسْن عائدتها؛ وعالمـًا بمـا فيها وفى تَوْكيـدها من صَلاح الكافَّة، وآجتماع الكَلِمة الخاصَّة والعـامّة؛ ولَمِّ الشَّعَث، وأمْنِ العواقب، وسكون الدَّهْماء، وعِزِّ الأولياء، وقَمْع الأعداء ــ علىٰ أن فلانًا عبدُ الله وخَليفَتُه، والمفترَضُ عليك طاعتُه، والواجب على الأمة إقامته وولايته، اللّازِم لهم القيامُ بحقِّه، والوفاءُ بعَهْده، لا تَشُكُّ فيه، ولا ترتابُ به، ولا تُداهِن فى أمره ولا تميل؛ وأنك وَلِيُّ وليِّه، وعَدُوُّ عدوِّه: من خاصٍّ وعام، وقريبٍ وبَعيد، وحاضرٍ وغائب، مُتَمَسِّكٌ فى بَيْعته بوفاء العَهْد، وذِمَّة العَقْد؛ سَرِيرتُك مثـل عَلانِيَتِك، وظاهِرُك فيـه مِثْلُ باطِنك، وباطِنُك فيه وَفْق ظاهرك. علىٰ أنَّ إعْطاءَك اللهَ هذه البَيْعةَ من نَفْسك، وتَوْكيدَك إيَّاها فى عُنُقك، لفلان أمير المؤمنين عن سلامةٍ من قَلْبك، وآستقامةٍ من عَزْمك، وآستمرارٍ من هواك ورأيك. علىٰ أن لاتتأوَّلَ عليه فيها؛ ولا تَسْعَىٰ فى نَقْض شيءٍ منها، ولا تَقْعُدَ عن نُصْرته فى الرَّخاء والشِّدَّة، ولا تَدَعَ النَّصرَ له فى كلِّ حال رَاهِنةٍ وحَادِثَةٍ، حتَّى تَلْقى الله تعالىٰ مُوفِيًا بها، مؤَدِّيًا للأمانة فيهـا إذ كان الذين يبايعون وُلاةَ الأمر وخُلَفاءَ الله فى الأرض ﴿ إنَّمـا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فإنَّمـا يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِهِ ﴾ .

عليك بهذه البَيْعة التى طوَّقْتَها عُنُقَك، وبسطتَ لها يَدَك، وأعْطيْتَ بها صَفْقَتَك؛ وما شُرِط فيها من وَفاءٍ ومُوالاة، ونُصْحٍ ومُشايَعـة، وطاعةٍ ومُوافَقَة، واجتهاد ومبالغة ــ عهدُ الله إنَّ عَهْدَ اللهِ كان مَسْـئُولا، وما أخذَ اللهُ علىٰ أنبيائه ورسُلِه عليهم

السلام؛ وأخذ على عباده من وكيدات مواثيقه، ومحكمات عهوده؛ وعلى أن تمسك بها ولا تبدّل، وتستقيم ولا تميل .

وإن نكثت هذه البيعة، أو بدّلت شرطًا من شروطها، أو عفّيت رسمًا من رسومها، أو غيّرت حكمًا من أحكامها، معلنًا أو مسرًّا، أو محتالًا أو متأوّلا، أو زغت عن السبيل التي يسلكها من لا يخفر الأمانه، ولا يستحلّ الغدر والخيانه؛ ولا يستجيز حلّ العقود ــ فكلّ ماتملكه من عين أو ورق أو آنية أو عقار أو زرع أو ضرع أو غير ذلك من صنوف الأملاك المعتقده (١)، والأمور المدّخره، صدقةٌ على المساكين، محرّمةٌ عليك أن ترجع من ذلك، إلى شيء من مالك، بحيلة من الحيل، على وجه من الوجوه وسبب من الأسباب، أو مخرج من مخارج الأيمان؛ وكلّ ما تفيده في بقيّة عمرك : من مال يقلّ خطره أو يجلّ، فتلك سبيله إلى أن تتوفّاك منيّتك، ويأتيك أجلك . وكلّ مملوك لك اليوم أو تملكه إلى آخر أيامك أحرارٌ سائبون لوجه الله تعالى، ونساؤك يوم يلزمك الحنث، ومن تتزوّج بعدهنّ مدّة بقائك طوالق ثلاثًا بتاتًا، طلاق الحرج والسنّة، لا مثنويّة فيها ولا رجعة، وعليك المشي إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجّة حافيًا حاسرًا راجلًا، لا يرضى الله منك إلا بالوفاء بها، ولا يقبل الله منك صرفًا ولا عدلًا، وخذلك يوم تحتاج إليه، وبرّأك الله من حوله وقوّته، وألجأك إلى حولك وقوّتك، والله تعالى بذلك شهيدٌ ﴿ وكفى بالله شهيدًا ﴾ .

---

(١) أى التى اعتقدها صاحبها ملكا، انظر القاموس .

الضـــــرب الثـانى
(الأيمـان التى يُحَلَّفُ بهـا الخلفـــاء)

وقَلَّ من تعرَّضَ لها لقلَّة وقوعها ، إذ الخليفة قلَّما يُحَلَّف : لعلوّ رتبته ، وآرتفاع محله . ومَدَار تَحْليفِ الخلفاء بعد القَسَم بالله على التَّعليق بوقوع المحذور عليهم ، ولزومه لهم ، مثل البراءة من الخلافة والانخلاع منها ، وما يجرى مجرىٰ ذلك . ولم أقف علىٰ ذلك إلا فى ترسل الصَّابِى ، وذلك حين كان الأمر مَعْدُوقا بالخلفاء .

الفصــــــل الثـانى
من البـاب الثـانى من المقـالة الثـامنة
(فى نُسَـــخ الأَيْمـان المتعلقـــة بالملوك ، وفيه خمســـة مَهَايِـع)

المهيــــع الأوّل
(فى بيان الأَيمـان التى يُحَلَّف بها المسلمون ، وهى علىٰ نوعين)

النــــــوع الأوّل
(من الأيمـان التى يُحَلَّف بها المسلمون أيمانُ أهْلِ السُّنَّة)

وهى اليَمِين العـامةُ التى يُحَلَّف بها أهلُ الدولة : من الأمراء والوزراء والنوّاب ، ومن يجرى مجراهم .

وهذه نُسْخةُ يَمينٍ أوردها فى "التعريف" وهى :

أقولُ وأنا فلان : واللّهِ واللّهِ واللّهِ ، وباللّهِ وباللّهِ وباللّهِ ، وتاللّهِ وتاللّهِ وتاللّهِ ، والله العظيم الذى لا إلٰهَ إلا هُوَ ، البـارِئُ الرحمنُ الرحيم ، عالِمُ الغَيْب والشهادة ، والسِّر

والعلانية، وما تُخْفِى الصُّدُورُ، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ، والمُجازِى لها بما عَمِلَتْ . وحقِّ جلالِ اللهِ، وقُدرَةِ اللهِ، وعَظَمةِ اللهِ، وكِبْرياءِ اللهِ، وسائرِ أسماءِ اللهِ الحسنىٰ، وصفاته العُلْيا إنَّنى من وَقْتِى هذا، وما مَدّ اللهُ فى عُمْرِى، قد أخلصتُ نِيَّتى، ولا أزالُ مجتهدًا فى إخلاصها، وأصْفَيتُ طَوِيَّتِى، ولا أزال مُجْتهدا فى إصْفائها، فى طاعة مَوْلانا السلطان فلان الفُلانى ـ خلَّد الله مُلْكَه ـ وخِدْمته ومَحَبَّته، وٱمْتِثالِ مَراسيمه، والعَمَلِ بأوامره . وإننى والله العظيم [حَرْبٌ لمن حَارَبَه، سِلْمٌ لمَن سالَمَه، عَدُوٌّ لمن عاداه، وَلِىٌّ لمَن والاه من سائرِ النّاس أجمعين . وإننى والله العظيم](١) لا أُضْمِرُ لمولانا السلطان فلانٍ سُوءًا ولا غَدْرا، ولا خَدِيعَةً ولا مَكْرًا، ولا خيانَةً فى نَفْسٍ ولا مال، ولا سَلْطنةٍ، ولا قِلاعٍ ولا حُصونٍ، [ولا بِلادٍ ولا غير ذلك](١) ولا أسعىٰ فى تَفْرِيق كلمةِ أحَدٍ من أمرائه، ولا مَماليكه، ولا عساكره، ولا أجْناده، ولا عُرْبانه ولا تُرْكُمانه ولا أكراده، ولا ٱسْتِمالة طائفة منهم لغيره، ولا أُوافِقُ علىٰ ذلك بقولٍ ولا فِعْلٍ ولا نِيَّةٍ ولا بمكاتبة [ولا مراسلةٍ](١)، ولا إشارة ولا رَمْزٍ، ولا كِنايةٍ ولا تَصْرِيح . وإن جاءنى كِتابٌ من أحدٍ من خَلْق الله تعالىٰ بما فيه مَضَرّةٌ علىٰ مولانا السلطان أو أهْلِ دَوْلته لا أعملُ به، ولا أُصْغِىٰ إليه، وأحمِلُ الكِتابَ إلىٰ ما بين يَدَيْه الشريفتين هو ومن أحْضَره إن قدرتُ علىٰ إمساكه .

وإننى والله العظيم أَفِى لمولانا السلطان بهذه اليَمِينِ من أوّلها إلىٰ آخرها، لا أنْقُضُها ولا شيئًا منها، ولا أسْتَثْنِى فيها ولا فى شىءٍ منها، ولا أُخالِفُ شرطًا من شروطها؛ ومتى خالفتها أو شيئا منها، أو نَقَضْتُها أو شيئًا منها، أو ٱسْتَثْنيتُ فيها أو فى شىءٍ منها طَلَبًا لنَقْضِها، فكلُّ ما أَمْلِكُه : من صامِتٍ ونَاطِقٍ صدقةٌ على الفقراء والمساكين،

(١) الزيادة من "التعريف" صفحة ١٤٧ .

وكلُّ زَوْجةٍ فى عَقْد نكاحه أو يتزوَّجُها فى المستقبل فهى طالق [ثلاثا بتاتا علىٰ سائر المذاهب](١)، وكلُّ عَبيدى وإمائى أحرارٌ لوَجْه الله، وعليه الحجُّ إلىٰ بَيْت الله الحرام بمكّةَ المعظَّمة، والوقوفُ بعرفَةَ ثلاثين حَجَّةً مُتوالياتٍ متتابعاتٍ كَوامل، حافيًا ماشيًا، وعليه صَوْمُ الدَّهر كلِّه إلا المَنْهىّ عنه، وعليه أن يفُكَّ ألفَ رَقَبةٍ مؤمنةٍ من أَسْر الكُفّار، ويكونُ بَريئًا من الله تعالىٰ ومن رسوله صلى الله عليه وسلم ومن دِين الإسلام إن خالفتُ هَذه اليمينَ أو شَرْطًا من شروطها .

وهــذه اليمينُ يَميني وأنا فلان، والنِّيَّة فيها بأسْرِها نيَّةُ مولانا السلطان فلانٍ، ونيَّة مُسْتَحْلِفِىّ له بها، لا نيَّــةَ لى فى بَاطِني وظاهرى [سواها]، أُشْهِدُ الله علىّ بذلك، وكَفَىٰ بالله شهيدا، واللهُ علىٰ ما أقولُ وَكِيلٌ .

قلتُ : عجيبٌ من المقرّ الشِّهابىّ رحمه الله ما أتىٰ به فى نُسْخةِ هــذه اليمين، فإنه أتىٰ بها بلَفْظ التكلم إلىٰ قوله : « وكلُّ زوجةٍ » فعدَلَ عن التكلم إلىٰ الغَيْبة، وقال فى نكاحه، وكذلك ما بعــده إلىٰ قوله « من أَسْر الكفار ويكونُ بريئًا من الله ومن رسوله صلى الله عليه وسلم إن خالفتُ هذه اليمينَ » وأتىٰ بصيغة التكلم إلىٰ آخر الكلام . فإن كانَ فَرّ فى قوله : وكل زوجة فى نكاحه خَوْفًا من أن يقولَ فى نكاحى فتطْلُقَ زوجتُه هو، فلا وَجْه له : لأن الحاكِىَ لا يقع عليــه الطَّلاق، وكذا ما بعده من العِتْق وغيره .

وأعجب من ذلك كلِّه قولُه : ويكونُ بريئًا من الله ورسوله صلى الله عليــه وسلم ومن دِينِ الإســلام إن خالفتُ ؛ فجَمَعَ بين الغَيْبــة والتَّكلُّم فى حالة واحدة ! ! . علىٰ أن ما ذكره بلفظ الغَيْبة إنمــا هو فيما سَطَّره فى النُّسْــخة . أما إذا كُتبت اليمينُ

(١) الزيادة من "التعريف" صفحة ١٤٧ .

التى يُحَلَّف بها ، فإنها لا تكونُ فى الجميع إلا بلَفْظ التكلُّم ، فما المعنىٰ فى أنّه خاف من الوُقوع فى المَحذورِ عند حكاية القَوْل ، ولم يَخَفْ مثل ذلك فيما يكتبه فى نَفْس اليمين؟ .

وقد ذكر صاحبُ "التثقيف" جميع ذلك بلَفْظ التكلم ، مع المخالفة فى بعض الألفاظ وزيادةٍ ونَقْصٍ فيها .

وهذه نسختها، وهى :

أقولُ وأنا فلانُ بن فلان : واللهِ واللهِ واللهِ، وباللهِ وباللهِ وباللهِ، وتاللهِ وتاللهِ وتاللهِ، واللهِ الذى لا إله إلا هو ، البـارِئُ الرحمنُ الرحيمُ ، عالِمُ الغَيْب والشَّهادة ، والسِّر والعلانية ، وما تُخْفِى الصُّدور ، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ ، والمُجازِى لها بما اكْتَسَبتْ . وحقِّ جلالِ الله ، وعظمةِ الله ، وقُدرةِ الله ، وكِبْرياءِ الله ، وسائرِ أسماء الله الحُسْنىٰ ، وصفاته العُلْيا ، وحقِّ هذا القُرءَان الكريم ومَن أنزلَه ، ومن أُنزِلَ عليه — إننى من وَقْتى هذا ، ومن ساعَتِى هذه ، وما مدَّ اللهُ فى عُمْرى قد أَخْلَصْتُ نِيَّتى ، ولا أزال مجتهدًا فى إخْلاصها ، وأَصْفَيتُ طَوِيَّتِى ، ولا أزالُ مجتهدًا فى إصْفائها — فى طاعة السُّلْطانِ الملكِ الفلانىّ ، فلانِ الدنيا والدِّين فلان — خلَّد اللهُ مُلْكه — وفى خِدْمته ومَحبَّته ونُصْحه ، وأكونُ وَلِيًّا لمن والاه ، عدُوًّا لمن عاداه ، سِلْمًا لمن سالمه ، حَرْبًا لمن حاربه : من سائر الناس أجمعين ، لا أُضمِرُ له سُوءًا ولا مَكرًا ، ولا خَديعةً ولا خِيانَةً فى نَفْسٍ ، ولا مالٍ ، ولا مُلْكٍ ، ولا سَلْطنةٍ ، ولا عَسَاكرَ ، ولا أجنادٍ ، ولا عُربانٍ ، ولا تُرْكُمانٍ ، ولا أكرادٍ ، ولا غير ذلك ، ولا أسعىٰ فى تَفْريق كَلِمة أحَدٍ منهم عن طاعته الشريفة . وإنّنى واللهِ العظيم أَبْذُل جُهْدى وطاقتِى فى طاعة مولانا السلطان الملك الفُلانىّ ، فلان الدنيا والدين المشار إليه . وإن كاتَبنى أحَدٌ من سائر الناس أجمعين بما فيه مَضَرّةٌ علىٰ مُلْكه لا أوافِقُ علىٰ ذلك بقَوْلٍ

ولا فِعْلٍ ولا نِيَّةٍ ؛ وإن قدرتُ علىٰ إمْساكِ الذى جاءنى بالكِتَاب أمْسكْتُه ، وأحْضَرتُه لمولانا السلطان الملك الفلانىّ المشار إليه ، أو النائبِ القَريبِ منِّى .
وإنَّنى واللّهِ العظيمِ أَفِى لمولانا السُّلطان المشارِ إليه بهذه اليمينِ من أوّلها إلىٰ آخرِها ، لا أسْتثْنِى فيها ولا فى شَىْءٍ منها ، ولا أسْتَفْتِى فيها ولا فى شَىْءٍ منها . وإن خالفتُها أو شَيئًا منها ، أو آستثْنيتُ منها ، أو آستَفتَيْتُ طلَبًا لنَقْضِها أو نَقْضِ شىءٍ منها ، فيكون كلُّ ما أمْلكه من صَامِتٍ ونَاطِقٍ صَدَقةً علىٰ الفُقَراء والمساكينِ من المسلمين ؛ وتكونُ كلُّ زَوْجةٍ فى عَقْدِ نِكاحى أو أتزوَّجُها فى المُسْتقبلِ طالقا ثلاثًا بَتاتًا علىٰ سائرِ المذاهِب ، وتكونُ كلُّ أمةٍ أو مَمْلُوكٍ فى مِلْكِى الآنَ أو أَمْلِكُه فى المستقبلِ أحْرارًا لوَجْه الله تعالىٰ ؛ ويَلْزَمُنى ثلاثُونَ حَجَّةً متوالياتٍ متتابعات ، حافيًا حاسِرًا ؛ وعلىّ صَوْمُ الدَّهْرِ بِجُمْلتِه إلا الأيامَ المَنْهِىَّ عن صَوْمِها .

وهذه اليمينُ يَمِينِى ، وأنا فلانُ بنُ فلانٍ ، والنِّيَّةُ فى هذه اليمين بأسرها نِيَّةُ مولانا السلطانِ الملِكِ الفلانِىِّ المشارِ إليه ، ونِيَّةُ مُسْتحلِفِىَّ له بها ، لا نيَّةَ لى فى غيرِها ، ولا قَصْدَ لى فى بَاطِنِى وظَاهِرِى سِوَاها . أُشْهِدُ الله علىّ بذلك ، وكَفَى باللهِ شهيدًا ، واللهُ علىٰ ما أقولُ وَكِيلٌ .

قلتُ : وربَّما كان للسلطان ولىُّ عَهْدٍ بالسَّلْطنةِ فيَقَعُ التَّحليفُ للسُّلطان ولولده جميعًا ، وهى علىٰ نَحْوِ ما تقدّم ، لا يتغير فيها إلا نَقْلُ الضمير من الإفراد إلىٰ التَّثْنِية .

وهذه نُسخةُ يمينٍ حُلِّف عليها العساكرُ للسلطان الملك المنصور "قلاوون" فى سنة ثمان وسبعين وستمائة له ولولده ولىّ عهده الملك الصالح علاء الدين "علىّ" أوردها آبن المُكَرَّم فى تَذْكرته ، وهى :

واللّهِ واللّهِ واللّهِ ، وباللّهِ وباللّهِ وباللّهِ، وتاللّهِ وتاللّهِ وتاللّهِ ، واللهِ العظيمِ الذى لا إله إلا هو، الرحمنُ الرحيم، الطّالِبُ الغالِبُ، المُدرِكُ المُهلِكُ، الضارّ النافع؛ عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادة، والسِّرِّ والعلانيةِ وما تُخْفِى الصدورُ، القائمُ علىٰ كلِّ نَفْسٍ بما كَسبتْ، والمُجازِى لها بما ٱحْتقَبتْ . وحقِّ جلالِ اللهِ، وعِزَّةِ اللهِ، وعظَمَةِ اللهِ، وسائرِ أسماء الله الحسنىٰ، وصفاتِه العُلْيا ـ إنَّنى من وَقْتى هٰذا ، ومن ساعتِى هٰذه ، وما مدّ الله فى عُمْرى قد أخلصتُ النِّيَّة ، ولا أزال مُجتهِدًا فى إخلاصها ، وأصْفَيتُ طَوِيَّتِى ولا أزالُ مُجتهِدًا فى إصفائها، فى طاعة السُّلطانِ فلان، وطاعة ولَدِه وَلِىِّ عَهْدِه فلان، وخِدْمتِهما ومُوالاتِهما ، وٱمْتثالِ مراسيمِهما ، والعَمَلِ بأوامرِهما . وإنَّنى والله العظيمِ حَرْبٌ لمن حارَبهما، سِلْمٌ لمن سالَمهما ، عَدُوٌّ لمن عاداهما، وَلِىٌّ لمن والاهما . وإنَّنِى واللهِ العظيمِ لا أَسْعَىٰ فى أمرٍ فيه مَضَرَّةٌ علىٰ مولانا السلطان، ولا فى مَضَرَّةِ وَلَدِه، فى نفْسٍ ولا سَلْطنةٍ ، ولا ٱسْتِمالَةِ لغيرهما ، ولا أُوافِقُ أحدًا علىٰ ذلك بقَوْلٍ ولا فِعْلٍ، ولا مُكاتَبةٍ ولا مُشافَهةٍ ، ولا مُراسَلَة، ولا تَصْريح . وإنَّنِى واللهِ العظيم لا أدّخِرُ عن السُّلطانِ ولا عن ولده نَصِيحةً فى أمْرٍ من أمور مُلكِهما الشريف ، ولا أُخْفِيها عن أحَدِهما ، وأنْ أُعْلِمَه بها فى أقْربِ وقْتٍ يُمكِنُنى الإعلامُ له بها ، أو أُعْلِمَ من يُعلِمُه بها، وأن الخ[1] ... ...

---

(١) كذا فى الأصل ولعله ترك الباقى اتكالا على ما سبق فى الأيمان قبله .

النـــــوع الثـــانى

(من الأيْمـــانِ التى يُحَلِّف بهـــا المسلمون أيْمـــانُ أهــــل البِدَع . والذين منهم بهذه المَمْلكةِ ثلاثُ طوائف)

الطائفـــــة الأولىٰ

(الخَـــوارِجُ)

وهُم قومٌ ممن كانوا مع أمير المؤمنين عَلِيّ بنِ أبى طَالِبٍ رضى الله عنه ، حَمَلُوه علىٰ أنْ رَضِىَ بالتَّحْكيم بينه وبين مُعاوِيَةَ ، وأشارُوا بإقامة أبى مُوسَى الأشْعَرِىّ حَكَماً عن عَلِىّ ، وإقامةِ عَمْرو بن العَاص حَكَماً عن مُعاوِيَة ، فخَدَع عَمْرٌو أبا مُوسَى : بأن ٱتَّفق معه علىٰ أن يَخْلعا عَلِيًّا ومعاويةَ جميعا ، ويُقيمَ المسلمون لهم خَليفةً يختارونه ، فتقـدَّم أبو مُوسَىٰ وأشهدَ مَن حَضَر أنه خَلَعَهُما ، فوافق عمرٌو علىٰ خَلْع عَلِىّ ، ولم يَخْلَعْ معاويةَ ، وبَقِىَ الأمرُ لمعاوية . فأنكروا ذلك حينئذ ، ورَفَضُوا التَّحْكيم ، ومنعوا حُكْمَه ، وكَفَّروا عليًّا ومعاويةَ ومَن كان معهما بصِفِّينَ ، وقالوا : لا حُكْمَ إلا لله ورَسوله ، وخرجُوا علىٰ عَلِىٍّ ، فسُمُّوا الخوارج ، ثم فارقوه وذهبوا إلىٰ النَّهْروانِ فأقامُوا هُناك ، وكانوا أربعةَ آلافٍ غَوْغَاءَ لا رأْسَ لهم ، فذهب إليهـم عَلِىٌّ رضى الله عنـه فقاتلهم ، فلم يُفْلِتْ سِوَى تسـعةِ أنْفسٍ : ذهب منهم ٱثنان إلىٰ عُمَان ، وٱثنان إلىٰ كَرْمان ، وٱثنان إلىٰ سِجِسْتانَ ، وٱثنان إلىٰ الجَزيرة ، وواحدٌ إلىٰ اليَمَن ؛ فظهرتْ بِدْعَتهُـم بتلك البـلاد وبَقِيتْ بهـا .

ثم من مَذْهبِهم مَنْعُ التَّحْكيم علىٰ ما تقدّم ، وتَخْطِئَةُ عَلِىٍّ وأصحابِه ، ومُعاويةَ وأصْحابِه بصفِّينَ فى ٱعتقادهم إيَّاه ، بل تَكْفيرُهم علىٰ ما تقدّم ، ومنها ٱمتناع ذلك عن رِضًـا أصْـلا (؟) وأنهم يَمْنعُون التأويل فى كِتَاب الله تعالىٰ . ومنهم من يقولُ : إن سُورَةَ

يُوسُفَ عليه السلام ليستْ من القُرءان، وإنما هي قِصَّةٌ من القِصَص، ومن أدخلها في القُرءان فقد زاد فيه ما ليس منه، علىٰ ما سيأتي ذكره. ويقولون: إن إمارة بني أُمَيَّة كانت ظُلْمًا، وإنَّ قَضَاءَهُم الذي رتَّبوه على التحكيم باطِلٌ. ويذهبون إلىٰ تَخْطِئة عمرو بن العاص وأبي مُوسى الأشْعَرِيّ فيما آتفقا عليه عند تحكيمهما، ويُشَنِّعون علىٰ معاويةَ وأصحابه، ويقولون: آستباحُوا الفُروجَ والأموالَ بغير حَقٍّ.

ثم منهم من يُكَفِّر بالكبائر، ومنهم من يكَفِّر بالإصْرار على الصَّغائر بخلاف الكبائر من غير إصْرارٍ علىٰ ما يأتي ذكره. ويصَوِّبون فَعْلة عبد الرحمن بن مُلْجَم في قَتْله عَليًّا رضي الله عنه، ويُنْكِرون علىٰ من يُنْكِر ذلك عليه، لا سيَّما من ذهب من الشِّيعة إلىٰ أن ذلك كُفْرٌ. وفي ذلك يقول شاعِرُهم:

يا ضَرْبةً من وَلِيٍّ(١) ما أرادَ بها * إلا لِيَبْلُغَ من ذي العَرْشِ رِضْوانا

إنِّي لأذْكُره يَوْمًا فأحْسَبُه * أوْفَى الخليقَةِ عنْدَ الله ميزَانا

وكذلك يصوِّبون فِعْل عمرو بن بكر الخارجيِّ في قَتْل خارِجَةَ بن أبي حَبِيبة(٢) صاحب شُرْطة عمرو بن العَاصِ بمِصْر، حين قتلَه علىٰ ظَنِّ أنه عَمْرو بن العاص، لما لهم عنده من الإحَنِ والضَّغائِن. وأنهم يصوِّبون فعلَ قَطَام زوج عبد الرحمن بن مُلْجَم في ... ...(٣)، وأنهم يَسْتَعظِمُون خَلْعَ طاعةِ رُءُوسهم، وأنهم يُجَوِّزون كَوْن الإمام غير

(١) في الملل ص ٦٩ "من منيب" وفي كامل ابن الأثير ج ٣ ص ١٧١ «من شقيّ».

(٢) في الأصل حنيفة وهو تصحيف والتصحيح من كامل ابن الأثير ج ٣ ص ١٧٠.

(٣) بياض بالأصول ولعله «في اشتراطها على ابن ملجم حين خطبها ثلاثة آلاف وعبدا وقينة وقتل عليّ» أنظر كامل ابن الأثير ج ٣ ص ١٦٨ و ١٦٩.

قُرَشيٍّ، بلْ هم يجوِّزون إمامة الحُرِّ والعَبْد جميعا، ويَنْسُبونَ من خالفهم إلىٰ الخطإ، ويستبيحون دِماَءهم بمقتضَىٰ ذلك .

واعلم أن ما تقدّم ذِكْرُه من معتَقَدات الخوارج هو مُقْتضَى ما رتّبه من يمينهم فى "التعريف" علىٰ ماسيأتى ذكره . علىٰ أن بعضَ هذه المعتقداتِ يختصُّ بها بعض فرَقِ الخوارج دون بَعْضٍ علىٰ ما سيأتى بيانُه ، ولكلٍّ منهم معتقداتٌ أخرىٰ تَزِيدُ علىٰ ماتقدّم ذكره .

وهـٰأنا أذكر بَعضَ فِرَقِهم، وبَعْضَ ما ٱختصَّتْ [به] كلُّ فِرْقةٍ منهم، ليَبْنِيَ علىٰ ذلك مَن أراد تَرْتيبَ يَمِينٍ لفِرْقةٍ منهم :

فمنهم المُحَكِّمَةُ ــ وهم الذين يمنعون التَّحْكيم .

ومنهم الأزَارِقةُ ــ وهم أَتباعُ نَافِع بن الأزْرَق، وهم الذين خرجُوا بفارِسَ وكَرْمانَ أيَّامَ ٱبنِ الزُّبَير، وقاتلهم المُهَلَّبُ بن أبى صُفْرَة، وهم الذين يكَفِّرون عَليًّا مع جَمْعٍ من الصحابة، ويُصَوِّبون فِعْلَ ٱبن مُلْجَم، ويكَفِّرون القَعَدَةَ عن القتال مع الإمامِ وإن قاتل أهْلَ دِينِه ، ويُبِيحُون قَتْلَ أطفالِ المخالِفين ونِسَائهم ، ويُسْقِطون الرَّجْمَ عن الزَّانى المُحْصَن، وحَدَّ القَذْفِ عن قاذف الرَّجل المُحْصَن دون قاذف المرأة المُحْصَنة ، ويُخْرِجون أصحاب الكبائر عن الإسلام، ويقولون : التَّقيَّة غيرُ جائزةٍ .

ومنهم النَّجَداتُ ــ وهم أصحاب نَجْدَةَ بن عامرٍ ، يكَفِّرون بالإصرار على الصغائر دون فعل الكبائر من غير إصرار، ويستَحِلُّون دماءَ أهلِ العَهْد والذِّمَّة وأموالَهم فى دار التَّقيَّة، ويتبرءُون ممن حَرَّمها .

ومنهم البَيْهَسِيَّة ـ وهم أصحاب أَبِي بَيْهَسَ بن خالد(١)، يَرَوْنَ أنه لاحرامَ إلا مَاوقَع عليه النَّصُّ بقوله تعـالىٰ : ﴿ قُلْ لَا أَجِدُ فِيمَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ﴾ الآية . ويكَفِّرون الرَّعِيَّة بكُفْر الإمام .

ومنهـم العَجارِدَة ـ وهـم الذين يُنْكِرون كَوْنَ سورة يُوسُـف من القُرءان ، ويقولون : إنمـا هي قِصَّةٌ من القِصَص ، ويُوجِبُون التَّبَرِّيَ من الطِّفْل فإذا بلغ دُعِيَ إلى الإسـلام .

ومنهم المَيْمونية ـ وهم فِرْقَةٌ يقولون : إن الله تعالىٰ يريد الخَيْر دون الشَّر ، ويجَوِّزون نِكاحَ بناتِ البَناتِ وبَناتِ أوْلادِ الإخْوَة والأخوات .

ومنهم الإباضِيَّة ـ يَرَوْنَ أنَّ مُرتَكِب الكَبِيرة كافِرٌ للنعمة لامُشرِكٌ ، ويَرَوْنَ أنَّ دار مخالفيهم من المسلمين دَارُ تَوْحيد ، ودَارَ السلطانِ منهم دارُ بَغْيٍ .

ومنهم الثَّعالبة ـ يَرَوْنَ وِلايَةَ الطِّفْل حتَّى يظهرَ عليه إنْكارُ الحَقِّ فيتبرءُون منه .

ومنهم الصُّفْرِيَّة ـ يَرَوْنَ أنَّ ما كان من الكبائر فيـه حَدٌّ كالزِّنا لا يُكَفَّر به ، وما كان منها ليس فيه حَدٌّ : كَترك الصَّلاة يكَفَّر به .

وكأن الذى أورده فى "التعريف" مُتَّفقٌ عليـه عندهم ، أو هو قولُ أكثرِهم فاكتفىٰ به .

وقد رتب فى "التعريف" تَحْليفَهم علىٰ مُقتضى ما ذكره من اعتقادهم فقال :

وأَيْمـانُهم أَيْمـانُ أهل السُّـنَّة ، ويزاد فيها : وإلا أجَزْتُ التَّحكِيمَ ، وصَوَّبْتُ قول الفَرِيقَين فى صِفِّينَ ، وأَطَعْتُ بالرِّضا مِنِّى حكمَ أهْلِ الجَوْر ، وقلتُ فى كتاب الله

(١) كذا بالأصول ، والذى فى "القاموس" و "الملل والنحل" للشهرستانى أن أبا بيهس اسمه "الهيصم ابن جابر" ولعل ما فى الأصول تصحيف .

بالتأويل : وأدخلتُ فى القرءان ماليس منه . وقلت : إن إمارة بنى أُمَيَّة عَدْلٌ ، و إن قَضاءَهم حَقٌّ ، و إن عَمْرو بنَ العَاصِ أصاب ، و إنَّ أبا مُوسَى ما أخْطأَ ، وٱسْتَبَحْتُ الأموال والفروجَ بغير حقٍّ ، وٱجترحْتُ الكَبَائِر والصَّغائِر ، ولَقِيتُ الله مُثْقَلا بالأوزار ، وقلتُ : إن فَعْلة عبد الرحمن بن مُلْجَم كُفْر ، [و إن قاتلَ خارجة آثم ، وبرِئت من فَعْلة قطامِ ،] (١) وخلعتُ طاعة الرُّءُوس ، وأنكرتُ أن تكونَ الخلافَةُ إلَّا فى قُرَيْشٍ ، و إلَّا فلا رَوَّيْت سَيْفِى ورُمْحِى من دماء المُخْطِئِينَ .

الطائفة الثانية

(الشِّيعَةُ)

وهم الذين شايَعُوا أَمِيرَ المؤمنين علىَّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقالُوا بإمامته وخلافته : نَصًّا ووِصَايةً : [إمَّا] جَلِيًّا أو خَفِيًّا ، وإن الامامةَ لاتخرج عنه وعن بَنِيه إلا بظُلْمٍ (٢) من غير ذلك الإمام ، أو بتَقِيَّةٍ منه لغيره .

قال الشَّهْرَسْتانِىُّ فى "النِّحَل والمِلَل" : ويجمعُهم القول بوجوب التَّعيِين للامام والتنصيص عليه ممَّن قَبْلَه ، وثُبوتِ عِصْمةِ الأئِمَّة وجوبًا عن الكبَائر والصغائر ، والقَولُ بالتَّوَلِّى للأَئِمَّة والتَّبَرِّى من غيرهم .

وقال فى "التعريف" يجمعُهم حُبُّ عَلِىّ رضى الله عنه ، وتختلِفُ فِرَقُهم فيمَن سواه .

فأما مع إجماعهم علىٰ حُبِّه فهم مختَلِفون فى ٱعتقادهم فيه ، فمنهم أَهْلُ غُلُوٍّ مُفْرِط وعُتُوٍّ زائد : ففيهم من أدّىٰ به الغُلُوُّ إلىٰ أن ٱتَّخذ عَلِيًّا إلهًا وهم النُّصَيْرِيَّة ـ قال : ومنهم

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٦٢ .

(٢) عبارة الشهرستانى «بظلم يكون من غيره أو بتقية من عنده» وهى أوضح .

من قال : إنه النبيّ المُرْسَل و إنَّ جِبْرِيلَ غَلِط . ومنهم من قال : إنه شريكٌ فى النُّبوَّة والرسالة . ومنهم من قال : إنه وَصِيُّ النُّبوَّة بالنَّصِّ الجَلِيّ ، ثم تخالفوا فى الإمامة بعده وأجمعوا بعده علىٰ الحَسَنِ ثم الحُسَين . وقالتْ فرقة منهم : وبعدهما محمد بن الحَنَفيَّة .

ثم قد ذكر فى "التعريف" أن الموجود من الشيعة فى هذه المملكة خَمْسُ فِرَق :

الفــــرقة الأولىٰ
(الــزَّيْديَّة)

وهم القائلون بإمامة زَيْد بن علىّ بن الحُسَين السِّبْط ، ابن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهو الذى رأْسُه مدفونٌ بالمَشْهد الذى بين كِيمانِ مِصْر ، جَنُوبِىّ الجامع الطُّولُونىّ ، المعروفِ بمَشْهد الرَّأْس ، فيما ذكره القاضى مُحْيِي الدِّين ابن عبد الظاهر فى خِطَط القاهرة . قال فى "التعريف" : وهم أقربُ القَوْم إلىٰ القَصْد الأَمَم . قال : ولهم إمَامٌ باقٍ باليَمَن إلى الآنَ ، وصَنْعاءُ دارُه ، وأُمراءُ مَكَّة المُعظَّمة منهم . ثم قال : وحدّثنِي مُبارَكُ بن عُطَيْفةَ بن أَبِي نُمَيٍّ : أنهم لا يَدِينون إلا بطاعة ذلك الإمام ، ولا يَرَوْنَ إلا أنَّهم نُوّابُه ، وإنما يتَّقون صاحِبَ مِصْر لخوفهم منه وللإقْطاع ، وصاحِبَ اليَمَن لمُداراته لواصِل الكارم ورُسُوم الأنعام . ومن ثَمَّ عدَّهُم فى جملةِ مَن بهذه المملكة من طوائف البِدَع .

وكان من مَذْهبِ زَيْدٍ هـذا جوازُ إمامة المفضول مع قيام الأفْضَل ، ويقول : إنَّ عليًّا رضى الله عنه كان أفضلَ الصَّحابة رضوانُ الله عليهم ، إلا أنَّ الإمامةَ فُوِّضتْ إلىٰ أبى بَكْرٍ وعُمَر رضى الله عنهما لمَصْلَحةٍ رَأَوْها ، وقاعِدَةٍ دِينيَّةٍ راعَوْها : من تَسْكين نائرة الفتْنة ، وتَطْييبِ قُلوب العامَّة ، مع تَفْضيلِ علىّ على الشَّيْخَيْن عندهم فى أوانهم .

وأتباعُه يعتقدون أنَّ هــذا هو المعتَقَدُ الحقُّ، ومن خالَفَه خرج عن طريق الحَقِّ، وضل عن سَواءِ السَّبِيل .

وهم يقولون : إن نَصَّ الأذَانِ بَدَل الحَيْعلَتينِ : «حَيَّ علىٰ خَيْرِ العَمَلِ» يقولونها فى أَذانِهم مَرَّتين بدل الحَيْعلتَيْنِ، وربَّمـا قالوا قبل ذلك : «محمدٌ وعَلِيٌّ خير البَشَر، وعِتْرَتُهما خير العِتَر» ومن رأَىٰ أن هذا بِدْعةٌ فقد حاد عن الجَادَّة .

وهم يسوقون الإمامةَ فى أَوْلاد عَلِيّ كَرَّم الله وَجْهَه من فاطمة رضى الله عنهـا، ولا يُجَوِّزونَ ثُبوتَ الإمامة فى غير بنيهما، إلا أنَّهـم جَوَّزُوا أن يكونَ كلُّ فاطمىٍّ عالِمٍ زَاهِدٍ شُجاعٍ خَرج لطَلَب الإمامة إمامًا مَعْصومًا واجبَ الطاعة، سواء كان من ولد الحَسَنِ أو الحُسَينِ عليهما السلام، ومن خلع طاعتَه فقد ضَلَّ . وهم يَرَوْن أن الإمام المَهْدِىَّ المُنتَظَر من ولَد الحُسَين رضى الله عنه دون ولَد الحسَن، ومن خالف فى ذلك فقد أَخْطَأَ . ومن قال : إنَّ الشيخينِ أبا بَكْرٍ وعُمَر رضى الله عنهما أفضلُ من عَلِيٍّ وبَنِيه فقد أَخْطأَ عنــدهم وخالفَ زيدًا فى مُعْتَقَدِه . ويقولون : إن تَسْلِيم الحَسَنِ الأمْرَ لمَعاوية كان لمَصْلَحةٍ اقتضاها الحال، وإن كان الحقُّ له .

قال فى "التعريف" : وأَيْمـانُهم أَيْمـانُ أَهْلِ السُّنَّة، يعنى فيحلِّفون كما تقدّم، ويزاد فيها : وإلَّا بَرِئْتُ من مُعْتَقَدِ زَيْد بن عَلِيّ، ورأيتُ أنَّ قَوْلِى فى الاذان: "حَيَّ علىٰ خَيْرِ العَمَل" بِدْعةٌ، وخَلَعتُ طاعة الإمام المعصوم الواجبِ الطَّاعة، وادَّعَيْتُ أن المَهْدِىَّ المنتَظَر ليس من وَلَد الحُسَــينِ بن علِيّ، وقلتُ : بتَفْضِيل الشيخين على أمير المؤمنين عَلِيٍّ وبَنِيهِ، وطعَنتُ فى رَأْى ابنه الحسن لمـا اقتضته المَصْلَحةُ، وطعَنتُ عليه فيه .

الفــرقة الثانيـــة
(من الشِّـيعَةِ الإماميـــة)

وهم القائلون بإمامة آثنَيْ عشر إماما : أوَّلُهم أميرُ المؤمنين علىٌّ المرتضىٰ، ثم آبنـه الحَسنُ المُجْتَبىٰ، ثم أخُوه الحُسَيْنُ شَهيدُ كَرْبَلاء، ثم آبنـه علىٌّ السَّجَّاد زَيْنُ العابِدين، ثم آبنـه محمد البَاقِر، ثم آبنه جَعْفر الصَّادِق، ثم آبنه مُوسَى الكَاظِم، ثم آبنه، علِىٌّ الرِّضَا وهو الذى عَهِد إليه المَأْمونُ بالخلافة وماتَ قبلَ أن يموتَ المأمونُ، ثم آبنه محمد التَّقِىّ، ثم آبنه علِىٌّ النقِىّ، ثم آبنـه الحَسَن الزَّكِىّ المعروفُ بالعَسْكَرِىّ، ثم آبنُه محمدٌ الحُجَّة، وهو المَهْدِىّ المنتظَر عندهم، يقولون إنه دخل مع أمّه صَغيرا سِرْداَبًا بالحِلَّة على القُرْب من بَغْدَادَ ففُقِد ولم يَعُدْ، فهم ينتظِرُونه إلىٰ الآنَ، و يقـال : إنهم فى كلِّ ليلةٍ يقِفُون عنـد باب السِّرْداب ببَغْلة مَشْدُودةٍ ملجمة من الغروب إلىٰ مَغيبِ الشَّفَقِ ينادُون : أيُّها الإمامُ! قد كَثُر الظُّلْمُ! وظهر الجَوْر فاخْرُج إلينا ! ثم يرجعون إلى اللَّيلة الأُخرىٰ، وتُلَقَّب هذه الفِرْقَة بالاْثنَىْ عَشْرِيَّة أيضـا ، لقولهم بامامة آثنَىْ عشَرَ إماما ، وبالمُوسَوِيَّة لقولهـم بانتقال الخلافة بعـد جَعْفَر الصادق إلىٰ آبنــه مُوسَى الكاظم المقـدّم ذكره دون أخيه إسمعيلَ إمامِ الإسْماعِيلِيَّة الآتى ذكره، و بالقَطْعِيَّة لقولهم بموت إسمعيـلَ المذكورِ فى حياة أبيـه الصادقِ والقَطْعِ بانتقال الإمامة إلىٰ مُوسىٰ .

قال فى "التعريف" : وهم مُسْلِمون، إلا أنهم أهلُ بِدْعةٍ كبيرة سَبَّابة .

وهم يقولون : بإمامة عَلِىٍّ رضى الله عنــه نصًّا ظاهِرًا، وتعيينًا صادقا، آحتجاجا بأنَّ النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : «من يُبايِعُنِى علىٰ مَاله، فبايَعه جماعةٌ، ثم قال :

من يُبايِعُنِي علىٰ رُوحِه وهو وَصِيِّ ووَلِيُّ هـذا الأَمْرِ من بَعْدِى ، فلم يُبايِعْـه أحدٌ ، حتّى مدّ أميرالمؤمنين عَليٌّ عليه السلام يَدَه إليه فبايَعَه علىٰ رُوحِه ووَفىٰ بذلك» .

قال فى "العبر" : وهذه الوَصِيَّة لا تُعرفُ عن أحَدٍ من أهل الأثَر، بل هى من موضوعاتهم ؛ ويخُصُّونه بِوِرَاثة علم النبيّ صلى الله عليه وسلم .

ويروون أنه صلى الله عليه وسلم قال يوم غَدِيرخُمٍّ : «مَن كنتُ مَوْلاه فعَلِيٌّ مَوْلاه ، اللهُمَّ وَالِ مَن وَالَاه ، وعَادِ مَن عَاداه ، وأدِرِ الحقّ علىٰ لِسَانه كيْفَما دَار» ويرَوْن أنّ بَيْعةَ الصِّـدِّيق رضى الله عنه يوم السَّـقيفة غيرُ صحيحة : حين آجتمع الأنصارُ بعد مَوْت النبيّ صلى الله عليه وسـلم علىٰ سَعْد بن عُبَادة فى سَقيفَة بنى سَاعِدةَ ليُبايِعوه ، وذهب إليهم أبُو بَكْرٍ رضى الله عنه ومعه عمرُ بنُ الخطاب وأبُو عبيدة ، وروَىٰ لهم أن النبيّ صلّى الله عليه وسلم قال : «لا يَصْلُح هذا الأَمْرُ إلّا لهذا الحَىِّ من قُرَيْشٍ» فرجعُوا إلىٰ قوله وبايعَه عُمرُ ، ثم بايعه النـاسُ علىٰ ما تقـدّم ذكْرُه فى الكلام علىٰ مبايعاتِ الخُلَفاء فى المقالة الخامسة ، وأنّ القائمَ فيها مجترمٌ لا سيَّـا أوّلُ بادٍ بذلك . ويقولون : إن الحقّ كان فى ذلك لعَلِيٍّ بالوَصِيَّة . ويقولون : إن القيامَ على أميرالمؤمنين عثمانَ بنِ عَفَّانَ رضى الله عنه وحَصْرَه فى الدار كان واجبًا لآعتقادهم عدَمَ صحّة خلافته مع وجود عَلِيٍّ رضى الله عنـه ، وإن المتأخِّرعن حَصْرِه كان مُخْطِئا . ويرَوْنَ جوازَ التَّقيَّةِ خوْفًا على النَّفس ، وأنّ عليًّا رضى الله عنه إنمـا تأخّرعن طلَبِ الإمامة عنـد قيامِ من [كان] قَبْله بها تَقِيَّةً علىٰ نَفْسه . ويَرْوْنَ أنّ مَن أعان أميرَ المؤمنين عُمَرَ بنَ الخطاب رضى الله عنـه على الخلافة كان مُخْطِئًا : لبُطلان خلافَته بترَتُّبِها علىٰ خلافة أبِى بَكْرٍ ووُجودِ عَلِيٍّ الذى هو أحَقُّ بها . ويزعُمون أنّ الصِّدِّيقَ رضى الله عنه مَنَع فاطمةَ رضى الله عنها حَقَّها من إرْثِها من رسول الله صلّى الله عليه وسلم تَعدِّيًا ، وأنّ

مَن ساعد فى تَقْديم تَيْمٍ بخلافة أبى بكر، أو تَقْديم عَدِىٍّ بخلافة عمر، أو تَقْديم أُمَيَّةَ بخلافة عثمان كان مُخْطئًا . ويزعُمون أنَّ عمر رضى الله عنه لم يُصِبْ فى جَعْل الأمْرِ شُورَى بين بَقِيَّة العَشَرةِ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، لاَستحقاق تَقَدُّم علىٍّ على الجميع .

ويصَوِّبُون قولَ حسان بن ثابت رضى الله عنه فيما كان من موافَقَته فى حديث الإفْكِ فى حَقِّ عائشَةَ رضى الله عنها، ولا يَرَوْنَ تكْذيبَه فى ذلك . ويَرَوْنَ أنَّ عائشةَ أمَّ المؤمنين رضى الله عنها كانت مُخْطِئةً فى قيامها علىٰ علىٍّ يوم الجَمَل، وأنَّ مَن قام معها كان مُخْطئًا للموافقة على الخَطَإ .

ويقولون إنَّ من قام مع معاوية علىٰ علىٍّ بصِفِّينَ وشَهَر السَّيْفَ معه عليه فقد آرتكب محظورا . وينكرون ما وقع من زِيَادِ بن أبيه من الدَّعوى الباطلة . وذلك أنه بعد قَتْل الحُسَين عليه السلام جهَّز جَيْشًا إلى المدينة النبوية مع مُسْلم بن عبد الله فقتلُوا وسَبَوْا وبايعُوا من تَبِعهم علىٰ أنَّهم خَوَلٌ ليَزيدَ .

ويقولون : ببُطلان حُكْم آبن مَرْجانَةَ . ويعُدُّون من العظائم قِيامَ عُمَر بن سعد فى قتال الحُسَينِ، وحَقِيقٌ أن يُنْكِروا عليه ذلك ويَسْتعظِمُوه ! فقد قِيلَ : إنه بعد قَتْله أمَر جماعةً فَوطِئُوا صَدْر الحُسَيْنِ وظَهْرَه بالخَيْل، وكان يَزِيدُ قاتله الله قد أمره بذلك .

ويَرَوْن أن الأمْر صار بعد الحَسَنِ عليه السلام إلىٰ أخيه الحُسَيْنِ، ويقولون : إنَّ الإمامة عند الحَسَنِ مُسْتوْدَعةٌ لامُسْتقِرَّةٌ، ولذلك لم تَثْبُتْ فى بَنِيه . ويعُدُّون من العظائم فِعْلَ شَمِر بن [ذى] الجَوْشَن : وهو الذى آحتَزَّ رأْسَ الحُسَينِ، وأنَّ مَن ساعده علىٰ ذلك مُرتَكِبٌ أعظَمَ محظوراتٍ بأشَدِّ بَلِيَّة، وحَقيقٌ ذلك أن يستعظموه ! فأىُّ جَرِيمَةٍ أعظَمُ من قَتْل سِبْطِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ .

وقد ذكر صاحبُ "نَظْم السِّمْط فى خَبَر السِّبْط" : أنه وُجد فى حَجَرٍ مكتُوب قبل البِعْثة بألف سَنَةٍ ما صُورَتُه :

أترجُو أُمَّـةٌ قتلَتْ حُسَيْناً * شَفاعَةَ جَدِّه يومَ الحِسَابِ؟

ويُقال : إنَّ الذى ٱحْتَزَّ رأسَ الحُسَينِ إنما هو سِنانُ بن أَنَس النَّخَعىّ . ويعُدُّون من العظائم أيضا سَبْىَ مُعاوِيَةَ أهْلَ البَيْت عند غَلَبَة علىٍّ رضى الله عنه بصِفِّينَ وسَوْقَهم معه إلى دِمَشْق سَوْقًا بالعِصِىّ . ويَرَوْن أنَّ خِلافةَ يَزِيدَ بنِ مُعاوِيَةَ كانت من أعْظَم البلايا ، وأن المُغِيرةَ بنَ شُعْبة أخطأَ حيثُ أشار على معاوية بها . ويقولون بالتَّبرّى من عَمْرو بن العاص رضى الله عنه لأنْتِمائه إلى معاوية ، وخَديعتِه أبا مُوسى الأشْعرىّ يوم الحَكَمَيْنِ حتى خَلع عَلِيًّا ، وإنَّ من ظَاهَره أو عَاضَدَه كان مُخْطِئا .

وكذلك يتبرَّءُون من بُسْر بن [أبى] أرْطاةَ : لأنَّ معاوية بعثه إلى الحِجَاز فى عَسْكَرٍ فدخل المدينةَ وسفَكَ بها الدِّماء ، وٱستكره الناسَ على البَيْعة لمعاوية ، وتوجه إلى اليَمَن بعد ذلك فوجد صَبِيَّيْنِ لعبيد الله بن عَبَّاس عامِلَيْن[1] على اليَمَن فقتلهما .

ويرَوْن تَخْطِئَةَ عُقْبةَ بن عبد الله المزى ، ويَقْدَحُون فى رَأْى الخوارج : وهم الذين خَرجُوا على علىٍّ رضى الله عنه بعد حَرْب صِفِّينَ ، على ما تقدّم ذكره [فى الكلام] على أَيْمَانِ الخوارج : وهو مُفارَقَتُهم عَلِيًّا رضى الله عنه ، وتَخْطِئَتُهم له فى الغنائم .

ويقولون : إنَّ الامامة ٱنتقلت بعد الحُسَينِ السِّبْط عليه السلام فى أبنائه إلى تَمامِ الاثْنَىْ عَشَر . فٱنتقلت بعد الحُسَينِ إلى ٱبنه زَيْنِ العَابِدين ، ثم إلى ٱبنه محمد

(١) صوابه "عامل علىّ على اليمن" والصبيان هما قثم وعبد الرحمن ٱبنا عبيد الله انظر ج ٣ ص ١٦٦ من الكامل لٱبن الأثير .

الباقر، ثم إلىٰ ابنه جعفر الصادق، ثم إلىٰ ابنه موسى الكاظم، ثم إلىٰ ابنه علي الرضا، ثم إلىٰ ابنه محمد التقي، ثم إلىٰ ابنه علي النقي، ثم إلىٰ ابنه الحسن الزكي، ثم إلىٰ ابنه محمد الحجة، وهو المهدي المنتظر عندهم، علىٰ ما تقدّم ذكره في أوّل الكلام علىٰ هذه الفرقة، وإنّ من خالف ذلك فقد خالف الصواب .

ويستعظمون دلالة من دلّ بني أميّة وبني العبّاس علىٰ مقاتل أهل البيت . أما دلالة بني أميّة، فبعد غلبة معاوية بصفّين . وأما دلالة بني العبّاس، فعند تنازع بني العبّاس وأهل البيت في طلب الخلافة، زمن أبي جعفر المنصور وما بعده .

ويقولون : ببقاء حكم المتعة : وهي النكاح المؤقّت الذي كان في صدر الإسلام .

ويشنّعون علىٰ نجدة بن عامر الحنفي الخارجي حيث زاد في حدّ الخمر، وغلّظ فيه تغليظًا شديدا، كما حكاه الشّهرستاني عنهم .

ويستعظمون البراءة من شيعة أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، واتّباع أهوية أهل الشام من متابعي بني أميّة والغوغاء القائمين بالنّهروان : وهم الخوارج الذين خالفوا عليًّا بعد قضيّة التحكيم بصفّين، وأقاموا بالنّهروان من العراق لقتال عليّ، ورئيسهم يومئذ عبد الله بن وهب، فسار إليهم عليٌّ وكانوا أربعة آلاف فقتلوا عن آخرهم (١)، ولم يقتل من أصحاب عليٍّ سوىٰ سبعة أنفس .

ويرون أن أبا موسى الأشعريّ رضي الله عنه أخطأ في موافقته عمرو بن العاص رضي الله عنه : حيث حكم بخلع عليّ ولم يخلع عمرو معاوية .

ويعتمدون في القرءان الكريم علىٰ مصحف عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، دون المصحف الذي أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم، فلا يثبتون مالم يثبت فيه قرءانا .

(١) أي ولم يبق منهم سوى تسعة تفرّقوا في الجهات كما تقدّم .

ويتبرءون من فعل ابن مُلْجَم فى قَتْله أميرَ المؤمنين رضى الله عنه، وحقّ لهم التّبَرّى من ذلك .

ويَرَوْنَ أنّ مُوالاةَ ٱبن مُلْجَم وإسعافَه فى صَداقِ زَوْجَته قَطَامِ جَرِيرةٌ .

ويرون محبة قبيلة هَمْدَانَ من المَحْبُوبِ المطلوب : لمشايَعتهم عَلِيًّا رضى الله عنه ومَحَبَّتِهم أهْلَ البَيْتِ كما هو المشهور عنهم ؛ حَتَّى يُحكَىٰ أنَّ أمير المؤمنين علياً رضى الله عنه صَعِدَ يومًا المِنْبَرَ وقال : أَلَا لا يُنْكِحَنَّ أحَدٌ منكم الحسَنَ بنَ عَلِيٍّ فإنه مِطْلَاقٌ ، فنَهضَ رَجلٌ من هَمْدَانَ وقال : واللهِ لنُنْكِحَنَّهُ ثم لَنُنْكِحَنَّهُ ! إنْ أَمْهر أَمْهَرَ كَثيفًا ، وإنْ أَوْلَدَ أَوْلَدَ شَرِيفا ! . فقال علىٌّ رضى الله عنه حينئذ :

لَوْ كُنتُ بَوَّاباً على باب جَنَّةٍ * لقُلْتُ لهَمْدانَ ٱدْخُلِى بسَلَامِ !

ويقولون باشتراط العِصْمَةِ فى الأَئمَّةِ ، فلا يكونُ من ليس بمعْصُومٍ عندهم إماما .

وقد رَتَّب فى "التعريف" يَمِينَهم علىٰ هذه العقائد، فقال : وهؤلاء يَمِينُهم هى :

إنّنى واللهِ واللهِ واللهِ العظيم ، الرَّبِّ الواحدِ الأَحَدِ ، الفَرْدِ الصَّمَدِ ، وما أعْتَقِدُه من صِدْق محمدٍ صلى الله عليه وسلم ونَصِّه علىٰ إمامة ٱبن عَمِّهِ ووَارِث عِلْمه علىِّ بن أبى طالبٍ رضى الله عنه يوم غَدِيرِخُمٍّ ، وقولِه : « مَنْ كنتُ مولاه فعَلِىٌّ مولاه ٱللَّهمَّ وَالِ مَنْ وَالاه ! وعَادِ مَنْ عَادَاه ! وأَدِرِ الحَقَّ علىٰ لِسانه كَيْفما دَارَ ! » . وإلّا كنتُ مع أوّل قائمٍ يوم السَّقيفَة ، وآخِرَ مُتأخِّرٍ يوم الدّار ، ولم أَقُلْ بجواز التَّقيَّة خوفًا على النَّفْس ، وأَعَنتُ ٱبْنَ الخَطّاب ، وٱضْطهدتُ فَاطمةَ ، ومَنَعتُها حقَّها من الإِرْثِ ، وساعدتُ فى تَقْديم تَيْمٍ وعَدِىٍّ وأُمَيَّةَ ، ورضيتُ بحُكْم الشُّورَىٰ ، وكَذَّبتُ حَسَّانَ بنَ

ثابتٍ يوم عَائشَةَ، وقمتُ معها يومَ الجَمَلِ، وشَهرتُ السَّيفَ مع مُعاوِيةَ يوم صِفِّينَ، وصـدَّقتُ دَعْوىٰ زيادٍ، ونزلْتُ علىٰ حُكْم ٱبن مَرْجَانَةَ، وكُنْتُ مع عُمَر بن سـعد فى قتال الحُسَيْنِ، وقلتُ : إنّ الأمْرَ لم يَصِرْ بعدَ الحَسَنِ إلىٰ الحُسَيْنِ، وساعدتُ شَمِر ٱبن [ذى] الجَوْشن علىٰ فعلِ تلك البَلِيَّة، وسَبَيْتُ أهلَ البيتِ وسُقْتُهم بالعِصِىِّ إلىٰ دمشْقَ، ورَضِيتُ بإمارة يَزِيدَ، وأطَعْتُ المُغيرةَ بنَ شُعْبَةَ، وكنتُ ظهيرًا لعَمْرو بن العَاصِ، ثم لبُسْر بن [أبى] أَرْطاةَ، وفعلتُ فِعْلَ عُقْبة بن عبدالله [المرّى](١) وصدّقْتُ رأْىَ الخَوارج، وقلتُ : إن الأمْرَ لم ينْتقِلْ بعد الحُسيْنِ بن عَلِىٍّ فى أبنائه إلىٰ تمام الأَئِمَّة، إلىٰ الإمام المَهْدِىِّ المنتظَر، ودلَلْتُ علىٰ مَقَاتل أهْلِ البَيْت بَنِى أُمَيَّة وبَنِى العَبَّاس، وأبطلْتُ حُكْم التَّمتع، وزِدتُ فى حَدِّ الخَمْر مالم يكُنْ، وحرَّمتُ بَيْع أمَّهاتِ الأولاد، وقلتُ : برأْيِى فى الدِّين، وبَرِئْتُ من شِيعَة أميرِ المؤمنين، وكنتُ مع هَوىٰ أهْلِ الشَّامِ والغَوْغاءِ القائمَة بالنَّهروان، وٱتَّبعتُ خَطَأَ أبِى مُوسَى، وأدْخلْتُ فى القُرءان مالم يُثْبِتْه ٱبنُ مَسْـعود، وشرِكْتُ ٱبن مُلْجَم وأسْعدته فى صَـداق قَطامِ، وبَرِئْتُ من مَحَبَّـةِ هَمْدَانَ، ولم أَقُلْ باشتراط العِصْمَةِ فى الإمام، ودخلْتُ مع أهْلِ النصب الظُّلَّام .

قلتُ : قد ذكر فى "التعريف" فِرْقة الإمامية هذه من الشِّيعةِ الذين بهذه المملكة، ولم أعلم أين مكانُهم منها .

الفِـــرْقة الثـالثـــة
(من الشِّيعَةِ الإسمـاعيلية)

وهم القائلون بإمامة إسْماعِيلَ بن جعفر الصَّادق، وأنَّ الأمامةَ ٱنتقلتْ إليـه بعد أبِيه دون أَخِيـهِ مُوسى الكاظم المقدّم ذكرُه فى الكلام علىٰ فِرْقة الإمَاميَّـة . وهم

(١) الزيادة من "التعريف" (ص ١٥٩) .

يوافقون الإماميَّةَ المقدّمَ ذِكْرُهم فى سَوْقِ الامامة من أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه إلىٰ جَعْفر الصَّادِق، ثم يَعْدِلُون بها عن مُوسَى الكَاظِم الذى هو الامام عند الإماميَّة إلىٰ إسْماعِيلَ هذا، ثم يَسُوقونَها فى بَنِيه، فيقولون : إنَّ الإمامة انتقلَتْ بعد أمير المؤمنين علىٍّ رضى الله عنه إلىٰ ٱبْنِه الحَسَن، ثم إلىٰ أخيه الحُسَيْن، ثم إلىٰ ٱبنه علىٍّ زَيْنِ العَابِدينَ، ثم إلىٰ ٱبنه محمد البَاقِر، ثم إلىٰ ٱبنه جَعْفر الصَّادق، ثم إلىٰ ٱبنه إسماعيلَ ـ الذى تُنْسَبُ إليه هذه الفِرْقَةُ ـ بالنَّصِّ من أبيه. فمن قائل: إن أباه مات قبله، وٱنتقلت الإمامةُ إليه بمَوْته. ومن قائلٍ : إنه مات قبل أبيه. وفائدة النَّصِّ ثُبوتُها فى بَنِيه بعده. ثم يقولون : إنها ٱنتقلت من إسماعيلَ المذكورِ إلىٰ ٱبْنِه محمد المَكْتُوم، ثم إلىٰ ٱبنه جَعْفر الصدق(١)، ثم إلىٰ ٱبنه محمد الحبيب، ثم إلىٰ ٱبْنه عُبَيدالله المَهْدِىّ أوّل خلفاء الفاطميين ببلاد المَغْرب، وهو جدّ الخُلفاء الفاطِمِيِّينَ بمِصْر، ثم إلىٰ ٱبنه القائم بأمْرِ الله أبى القاسم محمد : ثَانِى خُلَفَاءِ الفاطِمِيِّين ببلاد المَغْرِب، ثم إلىٰ ٱبنه المنصور بالله أبى الطاهر إسماعيل : ثالث خلفاء الفاطِمِيِّين ببلاد المغرب، ثم إلىٰ ٱبنه المُعِزِّ لدينِ الله أبى تَمِيم مَعَدّ : أوّلِ خلفاء الفاطِمِيِّينَ بمِصْر بعد قيامه ببلاد المَغْرب (وهو بانِى القَاهِرَة)، ثم إلىٰ ٱبنه العزيز بالله أبى المنصور نِزَار : ثانى خلفائهم بمصر، ثم إلىٰ ٱبنه الحاكم بأمْرِ الله أبى علىٍّ المنصور : ثالث خُلَفائِهم بمصر، ثم إلىٰ ٱبنه الظاهر لإعزازِ دينِ الله أبى الحَسَن علىٍّ : رابع خلفائهم بمصر، ثم إلىٰ ٱبنه المُسْتَنْصِر بالله أبى تَمِيم مَعَدّ : خامس خلفائهم بمصر.

ثم من هَاهُنا ٱفترقتِ الإسماعيليةُ إلىٰ فِرْقَتَيْن : مُسْتَعْلَوِيَّة ونِزَارِيَّة.

فأمَّا المُسْتَعلَوِيَّة فيقولون : إن الإمامةَ ٱنتقلتْ بعد المُسْتَنصر بالله المقدّم ذِكْرُه إلىٰ ٱبنه المُسْتَعلِى بالله، أبى القاسم أحمد : سادس خلفائهم بمصر، ثم إلىٰ ٱبنه الآمِرِ

(١) كذا فى الأصول ووقع فى العبر «الصادق».

بأحْكامِ الله أبِي عَلِيٍّ المنصور : سابع خُلَفائهم بمِصْر ؛ ثم إلىٰ ٱبنـه[1] الحافظ لدين الله أبى المَيْمُون عبـدِ المجيدِ بن أبىالقاسم : ثامن خلفائهم بمِصْر ؛ ثم إلىٰ ٱبنـه الظافر بأمْرِ الله أبى المَنْصور إسْمـاعِيلَ ، تاسع خلفائهم بمصر ؛ ثم إلىٰ ٱبنه الفَائِز بنَصْرِ الله أبِي القاسم عِيسَى بن الظَّافر : عاشر خُلَفائهم بمِصْر ؛ ثم إلى العاضـد لدين الله أبى مُحمد عَبْـد الله بن يُوسفَ بنِ الحَافِظ : حادِى عَشَر خُلَفائهـم بمِصْر ، وهو آخرهم حتّى مات .

وأما النِّزارِيَّة فانهم يقولون : إنّ الإمامةَ ٱنتقلتْ بعد المُسْتَنْصر إلىٰ ٱبنه نِزَارٍ بالنَّصّ من أبيه دونَ ٱبنه المُسْتَعلِي ؛ ويستَنِدُون فى ذلك إلىٰ أنّ الحَسَن بن الصَّبَّاح كان من تَلامِذَة أحمَد بن غطاش صاحِبِ قَلْعةِ أصْبهان وألموت ، وكان شَهْمًا عالمًا بالتَّعاليم والنُّجوم والسِّحْر ، فٱتَّهمه ٱبن غطاش بالدَّعوة للفاطِميِّين خُلَفـاءِ مِصْر ، فخاف وهَرَب منه إلىٰ مِصْر فى خلافة المُسْتَنصِر المقدَّمِ ذِكْرُه ، فأكرمه وأمَرَه بدعاية النـاس إلىٰ إمامَته ، فقال له ٱبن الصَّباح : من الإمام بعـدك ؟ فقال له : ٱبنِي نِزَار ، فعاد ٱبنُ الصَّباح من مِصْر إلى الشَّامِ والجَزِيرةِ وديار بَكْرٍ وبلاد الرُّوم ، ودخل خُراسَانَ ، وعبر إلىٰ ما وراء النَّهر ، وهو يدعو إلىٰ إمامةِ المستنصر وٱبنه نِزَار بعدَه . قال الشَّهْرَسْتانِىُّ فى "النِّحَلِ والمِلَل" : وصَعِد قَلْعةَ ألموت فى شَعْبان سـنة ثلاثٍ وثمـانين وأرْبَعمِائة وٱسْتظْهر وتحصَّن .

ثم النِّزارِيَّة يزعُمون أنَّ نِزَارًا المذكورَ خرج من الإسكندرية حَمْلًا فى بَطْن جارية ، تَقِيَّةً علىٰ نَفْسِـه ، وخاضَ بِلادَ الأعداء حتّى صار إلىٰ ألموت . ورأيتُ فى المُغْرب

---

(١) الصواب «ثم الى الحافظ» وفى المقريزى ج ١ ص ٣٥٧ «ومن بعده الحافظ ... ... ٱبن الأمير أبى القاسم محمد » ووقع فى ج ٣ ص ٤٣١ من هـذا المطبوع « ثم ولى بعده ٱبن عمه الحافظ ... ... عبد الحميد بن الآمر أبى القاسم محمد الخ» وفيه بعض التصحيف فتنبه .

لآبن سَعِيد أنه إنَّمـا صار من عَقِبِه مَن وَصل إلىٰ تِلْك البـلاد ، وصارت الإمامةُ فى بَنِيه هُنـاك .

والمستعلوية يُنْكِرون ذلك إنكارا ، ويقولون : إنه قُتِل[(١)] بالإسكندرية : سار إليه الأفْضلُ بنُ أمير الجُيوش وَزيرُ المُسْتَعلِي وحاصره بالإسكندرية ، ثم ظَفِر به وأتَىٰ به إلىٰ المستعلى ، فبَنَىٰ عليـه حائطين فمـات ، ثم فرَّ بعضُ بَنِي نِزَارٍ إلىٰ بلاد المشارق[(٢)] وأقام بالمَغْرِب ، والقائِمُون بها الآنَ من وَلَدِه ، وهو الذى تَشهدُ به كُتبُ التواريخ : كمُغْرِب آبن سَعيد وغيره .

ثم الإسماعِيليَّـةُ فى الجمـلة : من المُسْتَعْلويّة والنِّزارِيَّة يسـمُّون أنْفُسَهم أصحابَ الدَّعوة الهَادِيَة ، تبعًا لإمامهم إسْمـاعِيلَ المذكور ، فإنه كان يسمَّى صاحِبَ الدَّعوة الهـادية .

قال فى "التعريف" : وهم وإن أظهرُوا الإسلامَ وقالوا بقَوْل الإمامِية ، ثم خالفُوهم فى مُوسى الكاظم وقالوا : إنَّ الامامة لم تَصِرْ إلا إلىٰ أخيه إسْماعِيلَ ، فإنَّهم طائفةٌ كافِرَةٌ يعتقدُون التَّناسُخَ والحُلُول .

وذكر فى "مسالك الأبصار" : أن مُلَخَّصَ مُعتَقَدِهم التَّناسُخُ . ثم قال : ولقـد سألتُ المقدَّمَ عليهـم والمُشارَ إليـه فيهم : (وهو مُبارَك بن عُلْوان) عن مُعتَقَدِهم وجاذَبْتُه الحديثَ فى ذلك مِرَارًا ، فظهر لى منـه أنَّهم يرَوْنَ أنَّ الأرواحَ مَسْجونةٌ فى هذه الأجسام المكَلَّفة بطاعة الإمام المطَهَّر علىٰ زَعْمِهم . فإذا آنتقلَتْ على الطاعة

---

(١) لعل الصواب «فر الى الاسكندرية» ليستقيم الكلام بعد وقد ذكر المقريزى خبره ج ١ ص ٤٢٣ على وجه الصحة فتنبه .

(٢) كذا بالأصل ولعل مراده بلاد مشارق أفريقية كما سيأتى .

كانتْ قد تخلَّصتْ وانتقلت للأنوار العُلْوِيَّة ، وإن انتقلتْ على العصيانِ هَوَتْ في الظُّلُماتِ السُّفْلية .

وذكر في "العبر" : أنَّ منهم مَن يدَّعِي أُلُوهيَّة الإمامِ بنَوْع الحُلُول ، ومنهم من يدَّعِي رَجْعةَ من مات منَ الأَئِمَّة بنَوْع التناسُخ والرَّجْعة ، ومنهم من ينْتظِر مجيءَ من يُقْطَع بمَوْته ، ومنهم من ينتَظِر عَوْدَ الأمر إلىٰ أهْلِ البيْت .

ثم المستَعْلَوِيَّة والنِّزارِيَّة يتَّفِقون في بَعض المعتَقَدات ويخْتلِفُون في بعْضها .

فأمَّا مايتفقون عليه من الاعتقاد ، فهم يتَّفِقُون علىٰ أنه لا بدَّ من إمامٍ معصومٍ : ظاهِرٍ أو مَسْتُور . فالأئمَّة الظاهِرُون هم الذين يُظهِرُون أنفُسَهم ويدْعُون الناسَ إلىٰ إمامتهم ، والمَسْتُورونَ هم الذين يَسْتَتِرُون ويُظهِرُون دُعاتَهم . وآخِرُ الظَّاهِرين عندهم إسماعيلُ الذي يُنْسَبون إليه ، وأوّلُ المستورين ابنُهُ المكتوم . ومن مُعْتقَدِهم أنَّ مَن مات ولم يَعرِفْ إمامَ زَمانِه أو لم يكن في عُنُقه بَيْعةُ إمامٍ ، مات مِيتةً جاهليَّة . ويرَوْن أن العِلْمَ لا يكون إلا بالتعليم من الأئمَّة خاصَّة ، وأنَّ الأئمَّة هم هُداةُ الناس . ويقولون : إن للأئمَّة أدْواراً في كلِّ دَوْرٍ منها سبعةُ أئمَّة : ظاهِرين أو مستورين . فإن كان أهلُ الدَّوْرِ ظاهرينَ يسمَّىٰ ذلك الدَّوْرُ دَوْرَ الكَشْف ، وإن كانوا مستورين يسمَّىٰ دَوْرَ السَّتْر . ويقولون بوجوب موالاة أهْلِ البَيْت ، ويتبرءون ممَّن خالفهم ، وينسُبُونهم إلى الأَخْذِ بالباطل ، والوقُوعِ في الضَّلال ، لا سيَّما النَّواصِب ، وهم الطائفة المعروفة بالناصِبِيَّة أتباعُ (١) ، ويرمُونَهم بالعظائم ، وينْسُبونهم إلى اعتمادِ المُحال والأَخْذِ به . ومن خرج عندهم عن القَوْل بانتقال الإمامة بعد الحَسَن

(١) بياض في الأصول .

السِّبْط عليه السلام ، ثم أخيه الحُسَيْن ، ثم فى أَئِمَّتهم المتقدّم ذِكْرُهم ، إلى إمامهم (١) إسماعيلَ الذى يُنْسَبون إليه بالنَّص الجَلِيّ ، فقد حادَ عن الحَقّ . وهم يعظمون ويستعظمون القَدْح فيه ، وأن من وقع فى ذلك فقد ٱرتكب خَطأً كبيرا .

ولدُعاة الأَئِمّة المستورين عندهم من المَكانة وعُلُوّ الرُّتبة الرُّتْبةُ العُظْمىٰ ، لا سيّما الداعى القائمُ بذلك أوّلا : وهو الداعى إلىٰ محمد المكتوم أوّلِ أئمّتهم المستُورين علىٰ ما تقدّم ذكره ، فإن له من الرُّتبة عندهم فوقَ ما لغيره من الدُّعاة القائمين بعده .

وممّا ٱشتهر من أمْرِ الدُّعاةِ لأَئِمّتهم المستورين أنه كان ممّن يُنْسَب إلى التَّشَيُّع رجُلٌ ٱسمه رَمضان ، ويقال : انه صاحب كتاب "الميزان" فى نُصْرة الزندقة ، فوُلِد له ولَدٌ يقال له : مَيْمونٌ ، نشأَ علىٰ أُهْبَةٍ فى التَّشَيع والعِلْم بأسرار الدُّعاء لأهْلِ البيت ، ثم نَشأَ لَمِيْمُونٍ وَلَدٌ يقال له : عبدُالله ، وكان يعالج العيُونَ ويَقْدحُها ، فسُمِّىَ القَدّاح ، وٱطّلع علىٰ أسرار الدَّعْوة من أبيه ، وسار من نواحى كَرْخٍ وأَصْبهانَ إلى الأهواز والبَصْرة وسَلَمْيَةَ من أرْض الشام يدعُو الناسَ إلىٰ أهْلِ البيْت ، ثم مات ونشأ له وَلَدٌ يسمّى أحمد فقام مقام أبيه عبدِ الله القَدّاح فى الدَّعْوة ، وصَحِبه رجلٌ يقال له رستم ٱبن الحُسَين بن حَوْشب النَّجّار من أهل الكُوفَة ، فأرسله أحمدُ إلى اليَمَن ، فدعا الشِّيعةَ باليَمن إلىٰ عبد الله المَهْدىّ فأجابوه ، وكان أبو عبد الله الشِّيعىُّ من أهل صَنْعاءَ من اليَمَن ، وقيل من أهْلِ الكُوفة ، يَصْحَبُ ٱبنَ حَوْشب ، فَحَظِىَ عنده وبعثه إلى المغرب . ومن نسب أحدًا من هذه الدعاة إلىٰ ٱرْتكابِ مَحْظُورٍ أو ٱحتِقاب إثم فقد ضَلَّ وخرج عن جادّة الصواب عندهم . ويَرَوْن تَخْطِئةَ من مالأَ على الإمام عُبيد الله المَهْدىّ : أوّل أئمتهم القائمين ببلاد الغَرْب علىٰ ما تقدّم ، وٱرتِكابَه المحظورَ وضَلالَه عن

(١) بياض فى الأصول ولعله «امامهم إسماعيل» .

طريق الحقّ؛ وكذلك من خَذَل الناسَ عن ٱتِّباع القائم بأمر الله بن عُبَيد الله المهدىّ ثانى خلفائهم ببلاد المَغْرب ، أو نقض الدولة علىٰ المُعِزّ لدين الله : أوّل خُلَفائهم بمصر؛ ويَرَوْنَ ذلك من أعظم العظائم، وأكبر الكبائر .

ومن أعيادهم العظيمة الخَطَر عندهم يَوْمُ غَدِيرِخُمٍّ (بفتح الغَيْنِ المعجمة وكَسْر الدال المهملة وسكونِ المُثَنَّاة تَحتُ وراءٍ مُهمَلةٍ فى الآخر، ثم خاء معجمة مضمومة بعدها ميمٌ) : وهو غَيْضَة بين مَكّة والمدينة علىٰ ثلاثة أيام من الجُحْفَة . وسبَبُ جَعْلِهم له عِيدًا أنهم يذكرون أنّ النبىَّ صلى الله عليه وسلم نزل فيه ذات يوم فقال لَعَلِىٍّ رضى الله عنه : « أللّهُمَّ من كنتُ مولاه فعَلِىٌّ مولاه ، أللّهمَّ وَالِ من وَالَاه ، وعَادِ من عَادَاه ، وٱنْصُرْ من نَصَره، وٱخْذُل من خَذَله ، وأَدِرِ الحقَّ معه حَيْثُ دَار» علىٰ ما تقدّم نَحْوُه فى الكلام علىٰ يَمينِ الإمامية .

وقد كان للخلفاء الفاطِمِيِّينَ بمصر بهذا العيد ٱهتمامٌ عظيمٌ ، ويكتُبون بالبِشَارة به إلىٰ أعمالهم ، كما يكتُبون بالبِشَارة بعيدِ الفِطْر وعِيدِ النَّحْر ونحوهما . ويَعْتقدون فى أَئِمّتهم أنهم يعلمون ما يكون من الأمور الحادثة .

وقد ذكر المؤرِّخون عن عُبيد الله المهدىِّ جَدِّ الخلفاء الفاطِمِيِّين بمصر أنه حين بَنَى المَهْدِيَّة بمشارق أفْريقية من بلاد المَغْرِب طَلَع علىٰ سُورِها ورَمَىٰ بسَهْم وقال إلىٰ حَدِّ هذه الرمية يَنْتَهِى صاحِبُ الحِمَار، فخرج بالمَغْرب خارِجىٌّ يُعرَف بأبى يَزِيدَ صاحبِ الحِمَار، وقصد المَهْدِيَّةَ حتّى ٱنتهىٰ إلىٰ حَدِّ تلك الرمية؛ فرجع ولم يَصِلِ المَهْدِيَّة .

وكان الحاكِمُ بأمر الله أحَدُ خُلَفاءِ مِصْر من عَقِب المهدىِّ المذكور يدَّعِى عِلْمَ الغَيْب علىٰ المِنْبر بالجامع المعروف به على القُرب من باب الفُتوح بالقاهرة، فكتبوا له بِطَاقَةً فيها :

بالظُّـــلْمِ والجَوْرِ قد رَضِينَا * وليس بالكُفْرِ والحَمَاقَه

إن كنتَ أُوتيتَ علم غيب * بيِّنْ لنـا كَاتِبَ البِطاقَـــه

فترك ما كان يقوله ولم يَعُدْ إليــه ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ .

وهم يَقْدحون فى عَيَّاش(١) بن أبى الفُتوح الصِّنْهاجِىّ وزِيرِ الظَّافِر : أحَدِ الخلفاء الفاطِميِّين بمِصْر . وذلك أنَّه كان له وَلَدٌ حسَنُ الصُّورة آسمه نَصْر ، فأَحبَّه الظافِرُ المذكورُ حتَّى كان يأتى إليــه لَيْلًا إلىٰ بَيْته ، فرَمَىٰ عيَّاشٌ الظافرَ بآبْنه ، وأمره أن يَسْتدعِيَه فاستدعاه ، فأتى إليه ليلَةً على العادة ، فآجْتمع عيَّاشُ بن السلار(٢) هو وآبنُه نَصْرٌ على الظافر وقَتَلاه ، وهربا إلى الشام ، فأسرهما الفرنج(٣) ، ثم فُدِيَ آبنُه وصُلِبَ علىٰ باب زويلة .

وهم يقدحون فى عَيَّاشٍ المذكورِ ويَرْمُونه بالنِّفاق بسَبَبِ ما وقع منه فى حَقِّ الظافر من رَمْيِه بابنه وقتله إياه .

قلتُ : وعيَّاشٌ هذا هو الذى أشار إليه فى "التعريف" فى صُورَة يَمِين الإسماعيلية بِآبْنِ السلار . وهو وَهَمٌ منه ، إذ ليس عياشٌ بآبن الســلار ، وإنمـا آبنُ السلار هو زَوْج أمّ عَيَّاشٍ المذكور ، وكان قد وُزِّرَ للظَّافِرِ المذكورِ قبل رَبِيبــه عَيَّاشٍ وتلقَّبَ بالعادل ، وآسْــتولَىٰ على الأمْر حتَّى لم يكُنْ للظافر معــه كَلامٌ ، ثم دَسَّ عليه رَبِيبُه

(١) كذا فى الأصول بالمثناة التحتية والشين المعجمة ووقع فى آبن الأثير والمقريزىّ بالمـــوحدة والسين المهملة .

(٢) سيأتى بعد أسطر التنبيه على هذه النسبة .

(٣) عبارة آبن الأثير (ج ١١ ص ٧٩) باختصار : فقتل عياشا الفرنجُ وأسروا آبنــه ثم فداه الملك الصالح طلائع بن رزيك منهم وصلبه على باب زويلة .

عَيَّاشٌ مَنْ قَتَلَه ، ووُزِّر للظَّافِر بعــده . فابنُ السلار هو العادلُ وَزِيرُ الظافر أوَّلًا لا عَيَّاشٌ رَبِيبُه .

ومن أكبر الكبائر عندهم وأعظم العظائم أن يُرمىٰ أحَدٌ من آلِ بَيْتِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم لا سيَّما الأَئِمَّةُ بكبيرة ، أو ينْسُــبها [أحد] إليهم ، أو يُوالى لهم عَدُوًّا أو يُعادِى وَلِيًّا .

وأما مايختص به المُسْتعلَوِية ، فانهم يُنْكِرون إمامة نِزَارِ بن المُسْتَنْصِر المقدّمِ ذِكْرُه ، ويكذِّبون النِّزَارِيَّة فى قولهم : إن نِزَارًا خرجَ حَمْلًا فى بَطْنِ جاريةٍ حتّٰى صار إلىٰ بلاد الشَّرقِ . ويقولون : إنه مات بالإسكندرية مِيتَةً ظاهرة . ويقولون : إنه نازع الحقَّ أهْلَه وجاذب (١) من حيث إن الحقَّ فى الإمامَةِ والخلَافةِ كان لإمامهم المُسْــتعْلِى بالله فادَّعاه لنَفْسه . ويقولون : إن شِــيعَتَه على الباطل ، وموافَقَتَهم فى ٱعتقادهم إمَامَتَه خَطَأٌ . ويرَوْنَ من الضَّلال ٱتباعَ الحَسَن بنِ الصَّبَّاح داعِيةِ نِزَارٍ والنَّاقِلِ عن المُسْتَنْصِر النَّصَّ علىٰ إمامته ، ويرَوْنَ الكَوْنَ فى جُملةِ النِّزَارِيَّة من أعظم الأضَالِيل ، لا سيَّما مَن كان فيهم آخِرَ أدْوار الأَئِمَّة التى هى فى كلِّ دَوْرٍ سبعةُ أئِمَّة ، علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه فى صَدْر الكلام علىٰ أصْلِ معْتَقَد هذه الفِرْقة .

ثم هم يعظِّمُون راشِدالدين سِنَان : وهو رَجلٌ كان بقِلَاع الدَّعْوة بأعمال طَرَابُلُسَ من البلاد الشاميــة فى زَمَنِ السلطان صَــلاحِ الدِّين يوسُــفَ بن أيُّوب ، ٱنتهت رِياسَتُهم إليه . قال فى "مسالك الأبصار" : وكان رَجُلًا صاحبَ سِيميا ، فأراهُم بها ما أضَلَّ به عُقولَهم : من تَخْييل أشخاصِ مَن مات منهم علىٰ طاعة أَئِمتِهم فى جَنَّاتِ النعيم ، وأشْخاصِ مَن مات منهم علىٰ عِصْــيانِ أئِمَّتِهم فى النــار والجحيم ؛ فثَبَت ذلكَ

(١) بياض بالأصول ولعله : الخلافة ربَّها ، كما سيأتى نقلا عن التعريف .

عندهم وآعتقدوه حَقًّا . ومن قدح فى ذلك فقد دَخَل فى أهْلِ الضلال . ويَقْدَحُون فى آبن السلار المقدَّمِ ذكْرُه ويسَفِّهون(١) رَأْيَه فيما كان منه : من إزالة الخُطْبَة للفَاطِميِّين وحَطِّ رَايتِهم الصَّفْراء والخُطْبةِ لبَنِي العَبَّـاس ورَفْع رَايتِهم السَّوْداء ، وما كان منـه من الفَعْلة التى آستولىٰ بها علىٰ قَصْر الفاطِميِّين ومَن فيه ، وأخْذِ أموالِهم بعـد مَوْتِ العاضـــد .

وأما ما يختص به النِّزارِيَّة ، فانهـم يقولون : إنَّ الأمْرَ صار إلىٰ نِزَارٍ بعـد أبِيهِ المُسْتَنْصر علىٰ ماتقدّم ذكره ، وإن مَن جَحَد إمامَتَه فقد أخْطَأَ ، ويزعمون أنه خرج من الإسكَنْدرِيَّة حَمْلًا فى بَطْنِ أَمَةٍ وخاضَ بلادَ أعْدائِه الذين هم المُسْتَعلِوِيَّة بمِصْر حتَّى صار إلىٰ بلاد الشرق . ويقولون : إن الآسم يغـير الصورة بمعنًى ؛ ويرَوْن أن الطَّعْنَ على الحَسَن بن الصَّباح المقدّم ذكْرُه فيما نَقَله عن المُسْتَنْصر من قوله : الإمَامَة بَعْدى فى وَلَدِى نِزَارٍ من أعْظَم الآثام ، ويعظِّمُون عَلَاء الدِّين صاحِبَ قَلْعة أَلموت ، وهى قَلْعـةٌ بالطَّالَقَان بناها السـلطان مَلِكْشاه السَّلْجُوقِىُّ . وذلك أنه أَرْسـل عُقَابًا فَبَرَز فى مكانِها ، فلمَّـا وَافَى مكانَها بَنَىٰ فيـه هذه القَلْعَـةَ وسمَّـاها أَلموت ، ومعناه تَعْلِيم العُقَاب .

وعَلاءُ الدِّين هذا هو آبن جلال الدِّين الحَسَـن المُلَقَّب بإلكِيَا ، وهو من عَقِب الحَسَن بن الصَّبَّاح المقدَّمِ ذكْرُه ، وكان أبوه جلالُ الدِّين قد أظهر شعائرَ الإسلام ، وكَتَب بذلك إلىٰ سائر بلاد الإسْماعِيليَّة بالعَجَم والشَّام فأُقِيمَتْ فيهـا ، ثم تُوُفِّى بقلعة أَلموت المذكورةِ فى سنة ثمـان عشرةَ وستمائة ، فاستولَى آبنُه علاءُ الدِّين هذا علىٰ قَلْعة

(١) لعل الصواب « ويسفهون رأى صـلاح الدين يوسف بن أيوب » فانه هو الذى عمل ذلك العمل كما يشير إلىٰ ذلك فى اليمين الآتى والا فابن السلار قتل فى زمن الظافر .

أَلَموت المذكورة، وخالف رَأْىَ أبيه المذكور إلىٰ مَذْهب النِّزارِيَّة، وصار رَأْسًا من رُءُوسهم، والتَّبرّى منه عندهم من أشَدّ الخَطَإِ .

وٱعْلم أنَّ أصْلَ هـذه الفِرْقة كانتْ بالبَحْرَيْنِ فى المـائة الثانية وما بعدها، ومنهم كانت القَرامِطَةُ الذين خَرجُوا من البَحْرَيْنِ حينئذ، نِسْبَةً إلىٰ رجلٍ منهم ٱسمه قَرْمط، خرجَ فيهم وٱدّعَى النُّبوّةَ وأنّه أُنْزِل عليـه كِتابٌ ؛ ثم ظهروا بالمَشْرِق "بأَصْبهانَ" : فى أيام السلطان مَلِكْشاه السَّلْجُوقىّ ، وٱشتهروا هنـاك بالباطنية : لأنهـم يُبْطِنون خلافَ ما يُظْهرون ، و بالمَلاحِدَةِ : لأن مذهَبَهم كلَّه إلْحادٌ ؛ ثم صارُوا إلى الشَّام ، ونزلوا فيما حَوْلَ طَرَابُلُسَ، وأظهروا دَعْوتَهم هناك، و إليهم تُنْسب قِلاعُ الإسماعيلية المعروفةُ بقِلاع الدَّعْوة ، فيما حَوْل طَرَابُلُس ، كَمَصْيافٍ ، والخَوَابِى ، والقَدَمُوس ، وغـــيرها .

ولمَّـا ٱفترقوا إلىٰ مُسْتَعلَوِيَّةٍ ونِزارِيَّةٍ كما تقدّم، أخَذَ مَن منهم ببلاد المَشْرِق بمذْهَب النِّزارِيَّة، عملاً بدعوة ٱبن الصَّباح المقدّم ذِكْرُه ، وأخذ مَـنْ منهم بالشَّام بقلاع الإسماعيلية بمذْهَب المُسْتَعلَوِيَّة، وصاروا شِيعَةً لمَن بعد المُسْتَعْلى من خُلفاء الفَاطميِّين بمصر، وٱشتهروا باسم الفِدَاوِيَّة، ووَثَبُوا على السُّلطان صلاحِ الدِّين يوسفَ بنِ أيُّوبَ بالشام مَرَّاتٍ وهو راكبٌ ليقتُـلوه فلم يتمكَّنُوا منـه . ثم صالحهم بعـد ذٰلك علىٰ قِلاعِهم بأعْمال طَرَابُلُس فى سَنة ٱثنتين وسبعين وخمسمائة ؛ ثم ٱنْتَمَوْا إلىٰ ملوك مِصْر فى أيام الظاهر بِيبَرْس، وٱشتهروا باسم الفِدَاوِيَّة لمفاداتهم بالمـال علىٰ مَن يَقْتُلونَه .

وقد ذكر فى "مسالك الأبصار" نقلاً عن مقدَّمهم : مُبارك بن عُلْوان : أن كلَّ من مَلَك مِصْر كان مَظْهَرًا لهم . ولذلك يَروْنَ إتلافَ نُفُوسهم فى طاعته : لمـا ينتقلون إليـه من النعيم الأكبر فى زَعْمِهم . و رأيتُ نَحْوَ ذلك فى "أَسَاسِ السِّياسة" لٱبن ظَافر ؛ وذكر أنّهم يرَوْن أن مُلوكَ مِصْر كالنوّاب لأئِمَّتِهم : لقيامهم مَقَامهم .

أما أَيْمانُهم التى يُحَلَّفون بها فقد قال فى "التعريف" جَرْيًا علىٰ مُعْتَقَدِهم المتقدّم : إن اليَمِينَ الجامعــةَ لهم أن يقولَ : إنّنِى وَاللهِ واللهِ الواحدِ الأحد ، الفَرْدِ الصَّـمَد ، القَادِرِ القَاهِرِ، الذى لاإلٰهَ إلا هُوَ، وحَقِّ أَئِمَّةِ الحقِّ، وهُداةِ الخَلْق، عَلِيٍّ وَبنِيهِ أَئمة الظُّهورِ والخَفَاءِ ، وإلَّا بَرِئْتُ من صحيح الوَلَاء ، وصَدَّقتُ أهْلَ الأباطيل ، وقُمْتُ مع فِرْقةِ الضَّلال، وٱنتصبتُ مع النَّواصِبِ فى تَقْرِيرِ المُحال، ولم أَقُلْ بٱنتقالِ الإمامة إلى السَّيد الحُسَينِ، ثم إلىٰ بَنِيهِ بالنَّصِّ الجَلِيِّ ، مَوصُولة إلىٰ جَعْفَر الصادق، ثم إلى ٱبنه إسماعيلَ صاحِبِ الدَّعْوةِ الهَـادِية ، والأَثَرةِ الباقية ، وإلَّا قَدحْتُ فى القَدَّاح ، وأَثَّمتُ الدَّاعِىَ الأوّل ، وسَعَيتُ فى ٱختـلاف الناس عليـه ، ومالَأْتُ على السَّـيِّد المَهْدِىِّ ، وخذَلتُ الناسَ عن القـائم ، ونَقَضتُ الدَّولة على المُعِزِّ، وأنكرتُ أن يَوْمَ غَدِيرِ خُمٍّ لايُعَدُّ فى الأعياد، وقلتُ : أن لاعِلْمَ للائمَّة بمـا يكون، وخالفتُ من ٱدَّعَىٰ لهم العلم بالحِدْثان ، ورَمَيْتُ آلَ بَيْتِ محمدٍ بالعظائم ، وقلتُ فيهم بالكبائر، ووَالَيْتُ أعداءَهم، وعاديتُ أوْلياءَهم .

قال : ثم من هنا تُزادُ النِّزارِيَّة : وإلَّا فجَحَدْتُ أن يكونَ الأمرُ صار إلىٰ نِزَارٍ ، وأنه أتَى حَمْـلًا فى بَطْن جاريةٍ لخَوْفِهِ خَوْضَ بلادِ الأعداء ، وأن الاسْم لم يُغَيِّر الصورة . وإلا طَعَنْتُ على الحَسَن بن الصَّـبَّاح ، وبَرِئْتُ من المَوْلىٰ علاءِ الدِّين صاحب الأَلَمُوت ، ومن ناصِرِ الدِّين سِـنَانٍ المُلَقَّبِ براشِـد الدِّين ، وكنتُ أوّلَ المُعْتَـدِين ، وقلتُ : إنَّ مارَوَوْه كان من الأباطيـل ، ودَخلْتُ فى أهْـلِ الفِرْيةِ والأضَالِيل .

قال : وأمَّا مَن سِـواهم من الإسمـاعيلية المُنْكِرِين لإمامة نِزَارٍ، فيقال لهم عِوَض هذا : وإلا قُلْتُ : إن الأمرَ صار إلىٰ نِزَارٍ، وصدَّقْتُ القائلين أنَّه خرج حَمْلًا فى بَطْن

جارية، وأنكرتُ ميتتَه الظاهرةَ بالإسكندرية، وادَّعيْتُ أنَّه لم يُنازِع الحقَّ أهْلَه، ويجاذِبِ الخلافةَ ربَّها، ووافقْتُ شيعتَه، وتبِعتُ الحسَن بن صَبَّاح، وكنتُ فى النِّزاريَّة آخرَ الأدْوار.

قال: ثم يجمعهم آخرَ اليمين أن يُقال: وإلَّا قلتُ مقالةَ ابن السَّلار فى النِّفاق وسدَّدْتُ رأْىَ ابن أيُّوبَ، وألْقيتُ بيدى الرَّايةَ الصَّفْراءَ، ورفَعْتُ السَّوْداءَ، وفعلتُ فى أهْلِ القَصْر تلك الفعالَ، وتمحَّلْتُ مثل ذلك المُحَال.

قلتُ: ما ذكره فى "التعريف" فيما تُزادُه النِّزارية: «ومنْ ناصر الدِّينِ سِنَان المُلقَّبِ براشد الدِّين» وَهَمٌ: فانَّ سنانا المذكورَ إنَّما هو من إسماعيلية الشَّام الذين هم شيعَة المُسْتعلَويَّة لامن الإسماعيلية النِّزارِيَّة الذين هم ببلاد المَشْرق، علىٰ ما تقدّم بيانه. فكان من حَقِّه أن يُلْحِقَ ذلك بيَمينِ مَن سواهم من الإسماعيلية الذين هم المستعلوية. وكذلك قوله: ثم يجمعهم آخرُ اليمين أن يقال: «وإلَّا قلتُ مقالة ابن السَّلار فى النِّفاق، وسَدَّدْتُ رأْىَ ابن أيُّوبَ» إلىٰ آخره، فإنَّ ذلك مما يختص بالمُستَعْلَوِيَّة، لأن ابن السَّلار كان وَزيرَ الظافر كما تقدّم، والظافرُ من جُمْلة الخلفاء القائمين بمِصْر بعد المُسْتعلِى، الذين خالَفتِ النِّزارِيَّةُ فى إمامتهم. وكذلك قَضيةُ ابن أيُّوبَ إنما كانت مع العاضد آخر خُلَفائهم بمصر، وكلُّ ذلك مختصٌّ باسماعيلية الشَّام الذين هم شِيعَةُ المستعلوية دون النِّزارِيَّة، وحينئذ فكان من حقِّه أن يقتصرَ فى زيادة يمين النزارية علىٰ آخر «وبَرِئْتُ من المَوْلىٰ علاءِ الدِّين صاحبِ ألموت» ويزيدَ فى يمين مَن سواهم من الإسماعيلية بعد قوله آخر الأدوار: «وإلَّا بَرِئْتُ من ناصر الدِّين سنان المَلقَّب براشد الدِّين، وكنتُ أوَّلَ المُعْتدينَ، وقلتُ: إنَّ ماراٰه كان من الأباطيل، ودَخَلْتُ فى أهْلِ الفِرْيَةِ والأضاليل» ثم يقول بعد ذلك: «وإلَّا قلتُ

مَقالةَ آبنِ السَّلار فى النِّفاق ، وسدَّدْتُ رَأْىَ آبن أيُّوبَ ، وألقَيْتُ بيَدى الرَّاية الصَّفْراءَ ، ورَفَعْتُ السَّوْداء ، وفعلتُ فى أهل القَصْر تلك الفعال ، وتمحَّلْتُ مثل ذلك المُحَال » .

الفِرْقة الرابعة
(من الشِّيعةِ الدُّرْزِيَّة)

قال فى " التعريف " : وهُم أتباعُ أبى محمدٍ الدُّرْزىّ . قال فى " التعريف " : وكان من أهْلِ مُوالاةِ الحاكم أبى عَلِيٍّ المنصورِ بن العَزيز خَليفةِ مصر . قال : وكانوا أوَّلًا من الإسماعِيليَّة ، ثم خرجوا عن كلِّ ما تَمَحَّلُوه ، وهَدَموا كلَّ ما أثَّلُوه ، وهم يقولون برَجْعةِ الحاكم ، وأن الألوهية آنتهتْ إليه وتديرت ناسُوتَه ، وهو يَغيبُ ويَظْهر بهَيْئته ويقتلُ أعْداءَه قَتْل إبادةٍ لامَعادَ بعده ، بل ينكرون المَعادَ من حيثُ هو ، ويقولون نَحْو قولِ الطبائعية : إن الطبائع هى المُوَلِّدة ، والموتَ بفَناء الحرارة الغريزية ، كانْطفاءِ السراج بفَنَاء الزَّيْت إلا من آعْتُبِط ، ويقولون : دَهْرٌ دائم ، وعالَمٌ قائم ؛ أرحامٌ تدفع ، وأرضٌ تَبْلع ؛ بعد أن ذكر أنهم يستبيحون فُروجَ المحارم وسائر الفروج المحرَّمة ، وأنهم أشدّ كُفْرا ونِفاقًا من النُّصَيريَّة الآتِى ذكْرُهم ، وأبعدُ من كلِّ خَيْرٍ وأقْربُ إلىٰ كلِّ شَرٍّ .

ثم قال : وأصلُ هذه الطائفة هم الذين زادوا فى البَسْملة أيَّام الحاكم ، فكتبوا : باسم الحاكمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم ، فلما أُنْكِر عليهم كتبوا : باسم اللهِ الحاكم الرحمنِ الرحيم ، فجعلوا فى الأوّل اللهَ صِفَةً للحاكم ، وفى الثانى العكس . وذكر أن منهم أهل كِسْروان ومَنْ جاوَرَهم . ثم قال : وكان شَيخُنا آبن تَيْمِيَةَ رحمه الله تعالىٰ يَرىٰ

أنَّ قتالَهم وقتالَ النُّصَيْرِيَّةِ أوْلىٰ من قتال الأرْمَنِ : لأنهم عَدُوٌّ فى دار الإسلام وشَرُّ بقائِهم أضَرُّ .

وقد رتَّب علىٰ هذا المعْتَقِدِ أيْمانَهم فى "التعريف" فقال : وهؤلاء أيمانهم .

إنّنى واللهِ وحَقِّ الحاكم ، وما أعتقده فى مَوْلاىَ الحاكم ، وما آعْتَقَده أبُو محمد الدُّرزىّ الحجةُ الواضحه ، ورآه الدُّرْزىّ مثل الشَّمس اللاَّئحَه ؛ وإلا قلتُ : إن مَوْلاى الحاكِمَ مات وبَلِى ، وتَفرّقَتْ أوْصالُه وفَنِى ؛ وآعتقدتُ تَبديلَ الأرض والسماء ، وعَوْدَ الرِّمَم بعد الفَناء ؛ وتبِعْتُ كلَّ جاهل ، وحظَرْتُ علىٰ نَفْسى ماأُبِيحَ لى ، وعمِلتُ بيَدِى علىٰ ما فيه فَسادُ بَدنِى ، وكفَرتُ بالبَيْعةِ المأخوذه ، وألْقيتُها ورائِى مَنْبُوذه .

الفِــرْقة الخامســة
(من الشِّيعة النُّصَيْرِيَّة بضم النون وفتح الصاد المهملة)

قال فى "إرشاد القاصد" : وهم أتباع نُصَيرٍ غُلامِ أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه ، وهم يدَّعون ألوهية علىٍّ رضى الله عنه مُغالاةً فيه . قال الشَّهْرَسْتانِىُّ : [ولهم جماعةٌ ينصرون مَذْهَبَهم ويَنُوبُون عن أصحاب مقالاتهم](١) قال : وبينهم خلافٌ فى كَيْفية إطلاقِ الأُلوهِيَّة علىٰ الأئمة [من أهل البيت](١) وآختلافهم راجع(٢)

---

(١) الزيادة من «الملل والنحل» للشهرستانى ص ١٠٩ .

(٢) بياض فى الأصول مقدار ثلاثة أسطر .

ويزعمون أن مَسْكن عليّ السَّحاب، وإذا مرّ بهم السَّحابُ قالوا: السلامُ عليك ياأبا الحَسَن، ويقولون: إن الرَّعدَ صَوْتُه، والبرقَ ضحكُه، وهم من أجْلِ ذلك يعظِّمُون السَّحابَ، ويقولون: إن سَلْمَانَ الفارسيّ رَسُولُه، وإن كَشْفَ الحجابِ عمَّا يقولُه من أيِّ كَتَابٍ بغير إذْن ضَلالٌ، ويُحبُّون آبن مُلْجَم قاتِل عليٍّ رضى الله عنه، ويقولون: إنه خَلَّص اللَّاهُوتَ من النَّاسُوت، ويُخَطِّئُونَ من يلعنه.

قال فى "التعريف": ولهم خطابٌ بينهم، مَنْ خاطبوه به لا يَعودُ يرجع عنهم ولا يُذِيعه ولو ضُرِب عُنُقُه. قال: وقد جُرِّب هذا كثيرا، وهم ينكرون إنكاره.

قال فى "إرشاد القاصد": وهم يُخفون مقالتَهم، ومن أذاعها فقد أخْطأَ عندهم، ويروْن أنهم على الحقِّ، وأنَّ مقالتَهم مقالةُ أهل التَّحقِيق، ومن أنْكرَ ذلك فقد أخطأ.

قال فى "التعريف": ولهم [آعتقاد] فى تعظيم الخَمْر، ويَرَوْن أنها من النُّور. ولَزِمهم من ذلك أن عظَّمُوا شجَرة العِنَبِ التى هى أصْلُ الخَمْر حتَّى آستعظَمُوا قَلْعَها. ويزعمون أن الصِّدِّيقَ وأمير المؤمنين عُمَر وأميرَ المؤمنين عُثمانَ رضى الله عنهم تعدَّوْا عليه ومنعُوه حقَّه(١) من الخلافة؛ كما تعدَّىٰ قَابِيلُ بن آدمَ عليه السلام علىٰ أخيه هَابِيل، وكما آعْتَدىٰ النُّمرود على الخليل عليه السلام، وكما يقوم كلُّ فِرْعَوْن من الفراعنة علىٰ نَبِيٍّ من الأنبياء عليهم السلام.

قال فى "التعريف": وهى طائفةٌ ملعونَةٌ مَرْذُولة مَجوسِيَّةُ المعْتَقَد، لا تُحَرِّم البناتِ ولا الأَخَواتِ ولا الأُمَّهاتِ. قال: ويُحكَىٰ عنهم فى هذا حكايات.

وقد رَتَّب فى "التعريف" حَلِفَهم علىٰ مقتضىٰ هذا المعْتَقَد، فقال: وأَيْمانُهم: إنَّنى وحقِّ العليّ الأعْلىٰ، وما أعْتقِدُه فى المَظْهرِ الأَسْنىٰ؛ وحقِّ النُّورِ وما نَشأ منه،

(١) الضمير راجع الى "على بن أبى طالب" وان لم يذكر.

والسَّحابِ وساكِنه . وإلَّا بَرِئْتُ من مولاى علىِّ العلىِّ العظيم ، ووَلَائى له ، ومظاهر الحقّ ، وكشفْتُ حجابَ سَلْمانَ بغير إذْن ، وبَرِئْتُ من دَعْوة الحجَّة نُصَيْر ، وخُضتُ مع الخائضين فى لَعْنةِ ٱبن مُلْجَم ، وكفرتُ بالخطابِ ، وأَذَعْتُ السِّرَّ المصُونَ ، وأنكرتُ دعوىٰ أهْل التَّحقيق ، وإلَّا قَلعتُ أصْلَ شَجرة العِنَب من الأرْض بيَدِى حتَّى أجتَثَّ أصُولَهـا وأمنع سَبيلَها ، وكنتُ مع قابيـلَ علىٰ هابيـلَ ، ومع النُّمرودِ علىٰ إبراهيم ، وهكذا مع كل فِرْعَوْن قام علىٰ صاحبه ، إلىٰ أن ألقَ العَلِيَّ العظيمَ وهو علىَّ ساخِطٌ ، وأبرأُ من قَوْل قَنْبَر ، وأقول : إنه بالنار ما تَطَهَّر .

الطائفة الثـالثـــة
(من أهــل البِــدَع القَــدَرِيَّة)

وهم القائلون بأن لا قَدَر سابِقٌ ، وأن الأمر أُنُفٌ : يعنى مُسْتأنَفًا ، ولكنهم لمـا سمعوا قولَ النَّبىّ صلى الله عليه وسـلم « القَدَرِيَّة مَجُوسُ هـذه الأمَّة » قَلَبُوا الدليل وقالوا بمُوجَب الحديث ، وقالوا : القَدَرِيَّة ٱسمٌ لمن يقول بسَبْقِ القَدَر . ثم غلَب عليهم ٱسم المُعْتزِلَة بواسطة أن وَاصِلَ بنَ عَطاءٍ أحَدَ أئمَّتِهم كان يقرأ علىٰ الحَسَن البَصْرِىّ فاعْتزله بمسْألةٍ خالفَه فيها . وهم يُسَمُّون أنفسهم أهْلَ التَّوحِيد [وأهلَ العَدْل] ويَعْنُون بالتوحيد نَفْىَ الصفات القديمة عن الله تعالىٰ : كالحياة والعِلْم والإرادة والقُدْرة ؛ وأنه تعالىٰ حَىٌّ بذاته ، [عالم بذاته] مُرِيدٌ بذاته ، قادِرٌ بذاته ، لا بحَياةٍ وعِلْمٍ وإرادةٍ وقُدْرةٍ ؛ ويَعْنون بالعَدْلِ أنَّهم يقولون : إنَّ العبدَ إنما يستحقُّ الثَّوابَ والعِقابَ بفِعْله الطاعةَ والعِصْيانَ ، باعتبار أنَّه الخالقُ لأفعال نَفْسه دُونَ الله تعالىٰ ، تَنْزِيهًا له تعالىٰ عن أن يضاف إليه خَلْقُ الشَّرِّ : من كُفْرٍ ومَعْصِية . وإذا كان العبدُ هو الخالقَ لأفعال نَفْسه المُوجِدَ لهـا فليس قَدَرٌ سابِق .

ولهم أئمّةٌ كثيرةٌ ، لهم مُصنَّفات فى الأصول والفروع : منهم وَاصِلُ بنُ عطاء ، وأبو الهُذَيْل العلّاف ، وإبراهيم النَّظّام ، وبِشْرُ بنُ المُعْتَمِر ، ومَعْمَر بن عبّاد ، وأبو عُثمان الجاحظ ، [وأبو علىّ الجُبّائى] (١) وابنُه أبو هاشم ، وغيرُهم . وعندهم أنّه لا قَدَرَ سابقٌ بل الأمر أُنُف ، وأن الله تعالىٰ إنما يخلق الأفعال والمشيئة ، وأن العبدَ هو المُكْتسِبُ لأفعاله كما تقدّم .

وممّن عَلَتْ رُتْبَتُه فيهم الجَعْدُ بن دِرْهَم ، اجتمع علىٰ مَرْوانَ بنِ محمدٍ آخرِ خُلَفاء بنى أُمَيَّة ، وأخذ عنه مَرْوانُ مَذْهَبَه فى القَوْل بالقَدَر وخَلْقِ القرءان ، وعَلَتْ رُتْبَتُه عنده ، وبه سُمّى مَرْوانُ المذكورُ الجَعْدىَّ . وكانت له واقعةٌ مع هشام بن عبد الملك ابن مَرْوانَ . ويستعظمون الإيمانَ بالقَدَر : خَيرِه وشَرِّه ، ويتبرءون منه ، وينكرون القول بأنّ ما أصاب الإنسان لم يكن ليُخْطِئَه وما أخطأَه لم يكن ليُصيبَه . ويقولون : إذا كان أمرٌ مفروغٌ منه ففِيمَ يُسَدِّدُ الإنسانُ ويُقارب ؟ . ويطعنون فى رُوَاة حديث : « اعْمَلُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له » . ويتأوّلون قولَه تعالىٰ : ﴿وَإِنَّه فِى أُمِّ الكِتَابِ لَدَيْنا لَعَلِىٌّ حَكِيم﴾ . ويَستعظِمُون البراءةَ من اعتقادهم ، ولِقاءَ الله تعالىٰ على القَوْل بأن الأمْرَ غيرُ أُنُف .

وقد رتّب فى "التعريف" أَيْمانَهم علىٰ هذا المُعْتَقَد ، فقال :

ويَمِينُهم : واللّهِ واللّهِ واللّهِ العظيمِ ذِى الأَمْرِ الأُنُف ، خالقِ الأَفعالِ والمَشيئة . وإلّا قلتُ : بأن العبدَ غيرُ مُكْتَسِبٍ ، وأنّ الجَعْدَ بنَ دِرْهَم محتقَبٌ ، وقلتُ : إن هشامَ بنَ عبدِ المَلِك أصاب دَمًا حلالًا منه ، وإن مَرْوانَ بنَ محمد كان ضالًّا فى اتّباعه ، وآمنتُ بالقَدَرِ خيرِه وشَرِّه ، وقلتُ : إن ما أصابنى لم يكن ليُخْطِئَنِى

(١) الزيادة عن «خطط المقريزى» ج ٢ ص ٣٤٨ .

وما أخْطَأَنِي لم يكن لِيُصيبَني ، ولم أَقُل : إنه إذا كان أمْرٌ قد فُرِغَ منه ففِيمَ أُسَدِّد وأقارِبُ ، ولم أطعَنْ فى رُواةِ حديث « آعملُوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له » ولم أتأوَّلْ معنىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ . وبَرِئْتُ مما أعتقد ، ولَقِيتُ اللهَ وأنا أقول : إنَّ الأمرَ غيرُ أُنُف . وبالله التوفيق والعِصْمة .

المهيــــع الثانى

(فى الأَيْمـان التى يُحلَّف بها أهلُ الكُفر ممَّن قد يُحْتاج إلىٰ تحْلِيفه ، وهم علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(مَن زعم منهم التَّمسُّكَ بشريعة نَبِيٍّ من الأنبياء عليهم السلام ، وهـــم أصحـاب ثلاث ملَل)

المـــلّة الأولى

(اليَهُــود)

وآشتِقاقُها من قولهم : هَادَ إذا رَجَع . ولزِمَها هذا الآسْمُ من قَوْلِ مُوسَىٰ عليـه السـلام : ﴿ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ﴾ أى رجَعْنا وتَضرَّعْنا . ومُنْتَحِلُها اليَهُودُ المتمسِّكون بشريعة مُوسَى عليه السلام . قال السلطان عِمادُ الدِّين صاحِبُ حماةَ فى تاريخه : وهم أعَمُّ من بنى إسرائيل : لأن كثيرًا من أجناس العَربِ والرُّوم وغيرهم قد دخلوا فى اليَهُودِيَّة وَليسُوا من بنى إسرائيل . وكِتابهـم الذى يتمسكون به "التَّوراة" وهو الكتاب الذى أُنْزل علىٰ مُوسَى عليه السلام .

قال أبو جعفر النَّحَّاس، فى "صناعة الكُتَّاب" : وهى مُشْتَقَّةٌ من قولهم : وَرَتْ نَارِى ووَرِيَتْ، وأوريْتُها إذا ٱستخرجْتَ ضَوْءَها : لأنه قد ٱستخرج بها أحكام شِرْعة موسىٰ عليه السلام، وكان النَّحَّاسُ يجنح إلىٰ أن لفظ التَّوراة عَرَبِىٌّ، والذى يظهر أنه عِبْرانىٌّ مُعَرَّب : لأن لغة مُوسَى عليه السلام كانت العِبْرانية، فناسب أن تكون من لُغَتِه التى يفهمُها قَوْمُه، قال الشَّهْرَسْتَانِىُّ فى "النِّحَل والمِلَل" : وهى أوّل مُنْزَّلٍ علىٰ بنى إسرائيل سُمِّى كتابا، إذْ ماقبلها من المُنَزَّل إنما كان مَواعِظَ ونحوها . قال صاحبُ حماة : وليس فيها ذِكْر القيامة ولا الدَّارِ الآخرةِ ولا بَعْثٍ ولا جَنَّةٍ ولا نَارٍ، وكلُّ وَعِيدٍ يقع فيها إنمـا هو بمجازاة دُنْيوِيَّة، فيُوعَدُون علىٰ مجازاة الطَّاعة بالنَّصر علىٰ الأعداء، وطُولِ العُمْر، وسَعَةِ الرِّزق ونحو ذلك؛ ويوعدُون علىٰ الكُفْرِ والمعْصيَة بالموت ومَنْع القَطْر والحُمَّيات والحَرْب، وأن يَنْزِلَ عليهم بدل المَطَرِ الغُبَارُ والظُّلْمة ونحو ذلك، يشهدُ لما قاله قوله تعالىٰ : ﴿ فبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمنا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ . الآية، بجعـل الظُّلْم سببًا للتحريم . قال : وليس فيها أيضًا ذمُّ الدنيا، ولا طَلَبُ الزُّهْد فيها، ولا وظيفةُ صَلَواتٍ معلومة، بل فى التوراة الموجودة بأيديهم الآنَ نسبةُ أمورٍ إلى الأنبياء عليهم السلام من الأسباط وغيرهم لا تَحِلُّ حكايَتُها .

وٱعلم أنَّ التَّوراةَ علىٰ خَمْسةِ أسفار :

أوّلهـا — يشتمِلُ علىٰ بَدْءِ الخليقة والتاريخ من آدَمَ إلىٰ يُوسفَ عليه السلام .

وثانيها — فيه ٱسـتخدامُ المِصْرِيِّين بنى إسْرائيل، وظهورُ موسى عليـه السلام عليهم، وهَـلاكُ فِرْعَونَ، ونَصْبُ قُبَّة الزمان وهى قُبَّة [كان ينزل علىٰ مُوسَى فيهـا الوَحْىُ] (1) وأحوالُ التِّيه، وإمامةُ هٰرُونَ عليه السلام؛ ونزولُ العَشْر كلمات فى الألواح

(1) بياض فى الأصل والتصحيح ممـا سيأتى قريبا . انظر ص ٢٥٨ من هذا الجزء .

علىٰ موسى عليه السلام ، وهى شبه مختصرٍ ممّـا فى التوراة يشتمل علىٰ أوامرَ ونواهٍ وسماعُ القَوْمِ كلامَ الله تعالىٰ . وقد أخبر الله تعالىٰ عنها بقوله : ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِى الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَىْءٍ ﴾ . قال مجاهـد : وكانت الألواح من زُمُرُّذَةٍ خضراء، وقال ٱبن جُبَيرٍ : من ياقوتة حمراء، وقال أبو العاليَة : من زَبَرْجَدٍ، وقال الحَسَن : من خَشَبٍ نزلتْ من السماء، ويقال : إنها كانت لَوْحَين . وإنمـا جاءت بلفظ الجَمْع : لأن الجمع قد يقع علىٰ الآثنين، كما فى قوله تعالىٰ : ﴿ وإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ ﴾ والمراد ٱثنان .

وثالثهـا — فيه كيفية تَقْرِيب القَرَابين علىٰ سبيل الإجمال .

ورابعها — فيه عَدَدُ القَوْمِ، وتَقْسِيمُ الأَرض بينهم، وأحوالُ الرُّسُل الذين بعثهم مُوسَى عليه السلام من الشام، وأخبارُ المَنِّ والسَّلْوَىٰ والغَمام .

وخامسها — فيـه أحكامُ التَّوراةِ بتفصيل المُجْمل، وذِكْرُ وفاةِ هٰرُونَ ثم مُوسَى عليهما السلام، وخِلافةُ يُوشَعَ بن نون عليه السلام بعدهما .

ثم قد ذكر الشَّهْرَسْتانىُّ وغيره أن فى التَّوراة البِشارَةَ بالمَسِيح عليه السلام، ثم بنَبِيِّنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم، إذ قد وردَ ذِكْرُ المَشِيحا فى غير مَوْضِع ، وأنه يخرج واحدٌ فى آخر الزمان ، هو الكَوْكَبُ المُضِيءُ الذى تُشْرِق الأرض بنُورِه . وغير خافٍ علىٰ ذى لُبٍّ أنَّ المرادَ بالمَشِيحَا المَسِيحُ عليه السلام، وأنّ المرادَ بالذى يخرجُ فى آخر الزمان نَبِيُّنا محمدٌ صلى الله عليه وسـلم ؛ بل ربّمـا وقعت البِشَارة بهما جميعًا فى موضع واحدٍ، كما فى قوله : إن الله تعالىٰ جاءَ من طُورِسَيناء وظهر من سَاعِير وعلن بفَارَان (١) .

(١) كذا فى الشهرستانى أيضا وفى معجم البلدان لياقوت : وأشرق من ساعير وٱستعلن الخ .

وسَاعِير هى جبال بَيْت المَقْـدس حيثُ مَظْهرُ المَسِيح عليه السـلام، وفَارَانُ جِبالُ مَكَّةَ حيثُ ظهر النبيُّ صلى الله عليه وسلم .

قال الشَّهْرَسْتَانِيُّ : ولمـا كانت الأسرارُ الإلهيّـة ، والأنوارُ الرَّبانيَّـة ، فى الوَحْي والتنزيل ، [والمناجاة والتَّأْويل](١) علىٰ ثلاث مراتب : مَبْـدَإٍ ووَسَطٍ وكَمَال ، وكان المَجِيءُ أشـبَهَ شَيْءٍ بالمبدإ ، والظهورُ أشْـبَهَ بالوَسَط ، والعَلَنُ أشبه بالكمال ، عبّر فى التوراة عن ظهور صُبْح الشريعة [والتَّنْزِيل](١) بالمَجِيءِ [علىٰ طورسيناء](١) ، وعن طلوع شَمْسِها بالظهور [علىٰ ساعير](١) ، وعن بلوغ دَرَجَة الكمال [والاَستواء](١) بالعلن [علىٰ فاران](١) ، وقد عَرَفوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم بوَصْفِه فى التَّوْراةِ حَقَّ المَعْرفة : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ ﴾ . وقد ذكر المُفَسِّرُونَ عن ٱبن عَبَّاس رضى الله عنه أن مُوسَى عليـه السلام لمـا ألقَى الألواح عند رجوعه إلىٰ قومه ، تكَسَّرتْ فلم يَبْقَ منها إلا سُـدُسها . ويروى أن التَّوراة كانت سـبعين وَسْقَ بَعِيرٍ (٢) وأنها رُفِع منها سِـتَّةُ أسباعِها وبَقِيَ السُّـبع ، ففى الذى بَقِيَ الهُدَىٰ والرحمة ، وفى الذى رُفِعَ تَفْصِيل كلِّ شيءٍ .

وليعلم أنَّ اليهودَ قد ٱفترقوا علىٰ طَوائِفَ كثيرةٍ ، المشهورُ منها طائفتان :

الطائفـــة الأولىٰ

(المُتَّفِقُ علىٰ يَهُودِيَّتِهِـم ، وهم القَرّاءُون)

وهم وإن كانوا فرقتين(٣) ، فإنَّهم كالفِرْقة الواحدة ، إذْ تَوْراتُهم واحدةٌ ، ولا خلافَ فى أصْـلِ اليَهُودِيَّة بينهـم . وقد ٱتفقَ الجميعُ علىٰ ٱستخراج ستمـائة وثلاثَ عَشْرةَ

(١) الزيادة عن «الملل والنحل» للشهرستانى (ص ١٢٥) .
(٢) بيـاض بأصــله .
(٣) أى قرائين وربانيين بدليل ما يأتى .

فَرِيضةً من التَّوراة يتعبَّدُون بها . ثم كلُّهم متفقُونَ علىٰ نُبُوَّةِ مُوسَىٰ وهٰرُونَ ويُوشَعَ عليهم السلام، وعلىٰ نُبُوَّةِ إبراهيم وإسْحٰق ويَعْقوب : وهو إسْرائيل ، والأسْباطِ : وهم بَنُوهُ الآثنا عشر الآتى ذكرهم آخرا (١) . وهم يَنْفرِدُون عن الطائفة الثانيـة الآتى ذكرها : وهى السَّامرة بنُبوَّةِ أنبيـاءَ غيرِ مُوسَىٰ وهٰرُون ويُوشـع عليهم السـلام ، وينقلون عن يُوشَعَ تسعةَ عَشَر كِتاباً زيادةً على التَّوراةِ يعبِّرون عنها بالنُّبوَّات تعرفُ بالأُوَل .

ثم الرَّبَّانِيُّون يَنفرِدُون عن القَرَّائِين بشُرُوحٍ موضوعةٍ لفرائِضِ التَّوْراة المتقـدِّمة الذِّكر، وضَعَها أحْبارُهم، وتَفْريعاتٍ على التَّوْراة ينقلُونها عن مُوسَى عليه السلام .

ويتَّفِقُ الرَّبَّانيُّون والقَرَّاءُون علىٰ أنَّهم يستقبلون صَخْرةَ بَيْتِ المَقْدس فى صَلاتِهم، ويوجِّهُون لهـا مَوْتَاهم، وعلىٰ أن الله تعالىٰ كلَّم مُوسَىٰ عليه السلام علىٰ طُورسيناءَ : وهو جَبَلٌ فى رأس بَحْرِ القُلْزُم فى جهة الشَّمال علىٰ رَأْس جَزِيرةٍ فى آخره ، داخِلٌ بين ذراعين يكْتَنِفانه .

وهم مختلفون فى أمْرَيْن :

أحدهما ــ القولُ بالظَّاهِر والجُنُوح إلى التأويل . فالقَرَّاءُون يَقِفُون مع ظواهر نُصوصِ التَّوْراةِ ، فيَحْمِلُون ما وقع فيها منسوباً إلى الله تعالىٰ : من ذِكْرِ الصُّورَة ، والتكلُّم ، والآسْتِواءِ على العَرْش، والنُّزولِ علىٰ طُورِسيناءَ، ونحو ذٰلك علىٰ ظواهره، كما تقوله الظاهرية من المسـلمين، ويَنْجَرُّونَ من ذلك إلى القَوْل بالتَّشْبِيه، والقَوْلِ بالجِهَـةِ . والرَّبَّانيُّون يذهبون إلىٰ تأوِيلِ ماوقع فى التَّوراة من ذلك كلِّه، كما تفعـل الأشْعَرِيَّة من المسلمين .

(١) أى فى ص ٢٦٤ من هذا الجزء .

الثانى — القَوْلُ بالقَدَر . فالرَّبَّانيُّون يقولون بأن لا قَدَرَ سابِق وأن الأمْر أُنُفٌ كما تقوله القَدَرِيَّة من المسلمين . والقرّاءُون يقولون بسابق القَدَر كما تقوله الأشْعَرِيَّة . أما ماعدا ذلك فكِلا الفريقين يقولون : إن الله تعالىٰ قَديمٌ أزَلِىٌّ واحِدٌ قادِرٌ ، وإنه تعالىٰ بعث مُوسَى بالحقِّ ، وشَدَّ أزْرَه بأخيه هٰرُون . ويعظِّمُون التوراةَ التى هى كتابهم أتمّ التعظيم ، حتَّى إنهم يُقسِمون بها كما يُقْسِم المسلمون بالقُرءان ، وكذلك العَشْر كلمات التى أُنْزِلَتْ علىٰ مُوسى عليه السلام فى الألواح الجَوْهر ، وقد تقدّم أنها مُخْتَصَرُ ما فى التوراة ، مشتملةٌ علىٰ أوَامِرَ ونَوَاهٍ وسَماعِ كلامِ الله تعالىٰ ، وهم يحْلِفُون بها كما يحلفون بالتَّوراة ، ويعظِّمونَ قُبَّة الزَّمان وما حَوَتْه : وهى القبةُ التى كان ينزلُ علىٰ مُوسى فيها الوَحْىُ .

ومن أعظمِ أنواع الكُفْر عندهم تَعَبُّدُ فِرْعونَ وهامان لعنهما الله . (وكان آسمُ فِرْعونِ مُوسى فيما ذكره المفسرون الوَلِيدَ بنَ مُصْعَب ، وقيل : مُصْعَبُ بن الرَّيَّان . وآختلف فيه : فقيل كان من العمالقة . وقيل من النَّبَط . وقال مجاهد : كان فَارِسيّاً وهامانُ وَزِيره) والتَّبَرِّى من إسرائيلَ (وهو يعقوبُ عليه السلام) ومَعْنَى إسرائيلَ فيما ذكره المفسرون «عبد الله» كأنَّ «إسْرا» عبد ، و«إيل» آسم الله تعالىٰ بالعِبرانية . وقيل : إسرا من السِّرِّ(١) ، وكأنَّ إسرائيلَ هو الذى شدّده الله وأتْقَنَ خَلْقَه .

ومن أعْظَمِ العظائم عندهم الأَخْذُ بدِينِ النَّصْرانية ، وتَصْدِيقُ مَرْيَمَ عليها السلام فى دعواها أنها حملَتْ من غير أن يَمَسَّها بَشَرٌ ، ويَرْمُونَها بأنها حَمَلتْ من يُوسُفَ النَّجَّار ، وهو رجلٌ من أقاربها كان يَخْدُم البَيْتَ المقَدَّس معها ، ويَرَوْنَ تبرِئَتَها من ذلك جَرِيرَةً تُقْتَرف .

ويستعظمون الوُقُوعَ فى أمورٍ :

(١) لعله من الأسر كما يفيده ما بعده .

منها — القَوْلُ بإنكار خِطَابِ الله تعالىٰ لمُوسَى عليه السلام وسماعه له .

ومنها — تعمُّدُ طُورِسَيْنَاءَ الذى كلَّم اللهُ تعالىٰ مُوسَى عليه بالقاذُورَات ، ورَمْىُ صَخْرَةِ بيْتِ المَقْدِس التى هى قِبْلَتهم بالنَّجاسَة ، ومُشَارَكةُ بُخْتُنَصَّرَ فى هَـدْمِ بيْتِ المَقْدِس وقَتلِ بَنِى إسرائيلَ ، و إلْقاءُ العَذرة علىٰ مَظَانِّ أسفار التَّوراة .

ومنها — الشُّرْبُ من النَّهَرِ الذى ٱبتُلِىَ به قَومُ طالُوتَ ملِكِ بنى إسرائيل ، والمَيْلُ إلىٰ جَالُوتَ مَلِكِ الكَنْعانيِّين : وهو الذى قتله داودُ عليه السلام ، ومُفارَقةُ شِيعَةِ طَالُوتَ الذين قاموا معه علىٰ جَالُوت . وذلك أنَّه لمَّا رُفِعت التَّوراةُ وتَسَلَّط علىٰ بنى إسرائيل عَدُوُّهم من الكَنْعانيِّين الذين مَلِكُهم جَالُوتُ ، كانتِ النُّبوَّةُ حينئذٍ فيهم فى شَمْعُونَ ، وقيلَ فى شَمْوِيلَ ، وقيل فى يُوشَعَ بن نُون ، فقالوا له : إن كُنتَ صادقًا فابعث لنـا مَلِكًا نُقاتِلْ فى سَبيل الله ، فقـال لهم ما أخبر اللهُ تعالىٰ به : ﴿ إنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ﴾ ولم يكن من سِبْطِ المُلْكِ ، إذ كان المَلِك من سِبْطٍ مَعْروفٍ عندهم ، فقيل : كان سَقَّاءً ، وقيـل : كان دَبَّاغًا ، فأنكروا مُلْـكَه عليهم ، وقالوا كما أخبر الله تعالىٰ : ﴿ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ الآية ؛ فلمـا فَصلَ طَالُوتُ بالجُنُود أراد الله تعالىٰ أن يُرِيَه مَن يُطِيعُـه فى القتال ممَّن يَعْصِيه ، فسلَّط عليهم العَطَشَ وٱبْتلاهم بنَهَرٍ من حَوْلِهم ، قيل : هو نَهْر فِلَسْطِينَ ، وقيل : نَهْر بين الأُرْدُنِّ وفِلَسْطِينَ ، فقال لهم طَالوتُ : ﴿ إنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُمْ بنَهَرٍ فمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى ومَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنَّه مِنِّى ﴾ إلىٰ قوله : ﴿ وقَتَل دَاوُدُ جَالُوتَ ﴾ .

ومنها — إنكارُ الأنبياء الذين بَعثَهم اللهُ تعالىٰ إليهم : وهم مُوسَى وهٰرُونُ و يُوشَعُ ومَن بعدهم : من أنبيائهم عليهم السلام ، ومَن قَبْلهم : من إبراهيمَ و إسْحٰقَ و يَعْقوبَ صـلواتُ الله عليهم ، والأسْـباطِ الاثنى عشر الآتى ذِكْرُهم ، والدَّلالَةُ علىٰ دَانيالَ

النَّبِيِّ عليــه السلام حتَّى قُتِل ، وإخْبارُ فِرْعونِ مِصْرَ بمكان إرْمِياء النَّبِيِّ عليه السلام عند اختفائه بهـا ، والقيامُ مع البغى والفَوَاجِرِ يوم يَحْيىٰ بن زَكَرِيَّا عليهما السلام فى المُساعَدَةِ عليه .

ومنها ــ القولُ بأنَّ النارَ التى أضَاءَتْ لمُوسى عليه السـلام من شَجَرة العَوْسَج بالطَّريق عند مَسِيرِه من مَدْيَنَ حتَّى قصدها وكانَتْ وَسِـيلةً إلىٰ كلام الله تعالىٰ له نارُ إفْكٍ لا وُجودَ لها ، وكذلك أخْذُ الطُّرُق علىٰ مُوسىٰ عليه السلام عند تَوَجُّهِه إلىٰ مَدْيَنَ فارًّا من فِرْعَونَ ، والقَوْلُ فى بَنَاتِ شُعَيْبٍ اللَّاتِى سَقَى لهُنَّ مُوسَىٰ عليه السـلام بالعظائم ورَمْيُهُنَّ بالقَبِيح .

ومنها ــ الإجلابُ مع سَحَرةِ فِرْعونَ علىٰ مُوسَى عليه السلام والقيامُ معهم فى غَلَبته ، والتَّبرِّى ممن آمَنَ منهم بمُوسَىٰ عليه السلام .

ومنها ــ قولُ مَن قال من آل فرعون : اللَّحاقَ اللَّحاقَ : لنُدْرِكَ من فَرَّ : من مُوسى وقَوْمه عنـد خُروجهم ، كما أخبر الله تعـالىٰ عن ذلك بقوله : ﴿ فَأَتْبَعُوهُم مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ .

ومنها ــ الإشارةُ بتَخْليف تَابُوتِ يُوسُفَ عليه السلام بمِصْر حين أراد مُوسىٰ عليه السلام نَقْلَه إلى الشَّام ليَدْفِنَه عنـد آبائه : إبراهيمَ وإسحٰقَ ويعقوبَ : وذلك أنَّهم جعلوا تَابُوتَه فى أحَدِ شِقَّى النِّيل فأخْصَبَ وأجْدَبَ الجانبُ الآخَر، فحوّلوه إلى الجانب الآخَرِ فأخْصَب ذلك الجانبُ وأجْدَبَ الجانبُ الأوَّلُ ، فجعلوه وَسَط النِّيل فأخصَبَ جانبَاهُ جميعا ، إلىٰ أن كان زَمَنُ مُوسىٰ عليه السلام وضَربَ النِّيلَ بعَصاه فانْفلَق عن التَّابُوتِ . فأخذ فى نَقْله إلى الشام ليدفنه عند آبائه كما تقدّم . فأشار بعضُهم ببَقَائه بمِصْر فوقَع فى مَحْظُورٍ لمخالَفَة مُوسىٰ عليه السلام فيما يُرِيدُه .

ومنها ـ التَّسْلِيمُ للسَّامِرِيِّ وتَصْـدِيقُه على الحوادث التى أحدثها فى اليَهُودِيَّة علىٰ ما سيأتى ذكره فى الكلام على السَّامرة فى الطائفة الثانية من اليَهُود .

ومنها ـ نُزولُ أَرِيحَا : مَدِينَةِ الجَبَّارِينَ من بلاد فِلَسْطِينَ .

ومنها ـ الرِّضا بِفِعْل سَكَنَة سَدُومَ من بلاد فِلَسْطِينَ أيضا وهم قوم لُوطٍ .

ومنها ـ مخالفةُ أحكامِ التَّوْراة التى ورد [الحَثُّ] فيها عليها .

ومنها ـ ٱسْتِباحَةُ السَّبْتِ بالعَمَلِ فيـه والعَدْوِ فيه : إذ ٱستباحَتُه عندهم تُوجِبُ هَـدْرَ دَمِ مُسْتَبِيحِه من حَيْثُ إنه مُسِخَ مَن مُسِخَ بٱسْتِباحَتِه قِرَدَةً وخَنازِيرَ ، والله تعالىٰ يقول : ﴿ وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾ .

ومنها ـ إنكارُ عِيدِ المَظَلَّةِ وهو [سبعة أيام أوّلها الخامس عشر من تشرى] (١) وعيد الحنكة وهو [ثمانية أيام يوقدون فى الليلة الأولىٰ من لياليه علىٰ كل باب من أبوابهم سراجا وفى الليلة الثانية سراجين وهكذا حتى يكون فى الليلة الثامنة ثمـانية سرج] (١) وهما من أعظم أعيادهم .

ومنها ـ القَوْلُ بالبَدَاءِ على الله فى الأحكام ، وهو أن يَخْطُرَ له غيرُ الخاطر الأوّل ، وهو تعـالىٰ مُنَزَّهٌ عن ذٰلك ، ورتَّبوا عليـه مَنْعَ نَسْخِ الشرائع ، ويزعُمُون أن النَّسْخَ يستلزم البَدَاء ، وهو ممـا ٱتَّفَقَ كافَّةُ اليَهُودِ علىٰ مَنْعه ، علىٰ ما تقدّم أوّلا .

ومنها ـ ٱعتقادُ أنَّ المسيحَ عليه السلام هو الموعُودُ به علىٰ لسان مُوسَى عليه السلام ، المذكور بلَفْظ المَشِيحَا وغير ذلك ، علىٰ ما تقدّمت الإشارة إليه .

ومنها ـ الٱنتِقالُ (٢) من دِينِ اليَهُودية إلىٰ ماسواها من الأديان ، إذْ عندهم أنَّ شريعةَ مُوسَى عليه السلام هى التى وقَعَ بها الٱبتداءُ ، وبها وقع الٱختتامُ .

(١) بياض بالأصول والتصحيح من ج ٢ ص ٤٢٦ و٤٢٨ من هذا المطبوع

(٢) هو عين ما بعده فى المعنى .

ومنها ــ الانتقالُ من اليَهُوديَّة إلىٰ ما عداها من الأديان : كالإسلام والنّصرانية وغيرِهما ، فإنه يكون بمثابة المُرْتَدّ عند المسلمين .

ومنها ــ استباحَةُ لَحْم الجَمَل : فإنه محرَّمٌ عندهم ، ومن استباحَه فقد ارتكب مَحْظوراً عَظِيماً عنـدهم ، وقد دخل ذٰلك فى عموم قوله تعـالىٰ إخباراً بمـا حَرَّم عليهـم : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ﴾ . يعنى ما ليس بمُنْفَرِج الأصابع كالإبل وما فى معناها .

ومنها ــ استباحةُ أكْلِ الشَّحْمِ خَلا شَحْمَ الظَّهْر ، وهو ماعلا فإنه مُباحٌ لهم ، وعن ذلك أخبر اللهُ تعـالىٰ بقوله : ﴿ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَـا ﴾ .

ومنها ــ استباحةُ أكْلِ الحَوَايا . قال ابـن عباس وغيره : هى المَبَاعِرُ . وقال أبو عُبَيْدَةَ : هى ماتَحَوَّىٰ من البَطْنِ أى استدار ، والمراد شَحْم الثَّرْب . وكذلك استباحَةُ مااخْتلَطَ من الشَّحْم بعَظْمٍ وهو شَحْمُ الأَلْيَةِ ، وعنه أخبر تعـالىٰ بقوله : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ﴾ عطفًا على الشُّحومِ المحرَّمةِ . علىٰ أن بعض المفسِّرين قد عطف قولَه تعالىٰ : ﴿ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بعَظْمٍ ﴾ على المستثنى فى قوله : ﴿ إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما ﴾ . فحمله علىٰ الاستباحة ، والموافقُ لمـا يَدَّعُونه الأَوّلُ ، ويَرَوْنَ أن سَبَب نزولِ هــذه الآية أنَّ اليهودَ قالوا لم يحرِّمْ علينا شَيءٌ إنمـا حَرَّم إسرائيلُ علىٰ نَفْسِـه الثَّرْبَ وشَحْمَ الأَلْيةِ فنَحْنُ نُحَرِّمه ، فنزلت . علىٰ أنَّ اليهودَ القرَّائين والرَّبَّانيِّين يَحْمِلُونَها فيبيعونها ويأكلون ثَمَنَها ، ويتأوَّلُون أن آكِلَ ثَمَنِها غيرُ آكِلٍ منها ، وإلىٰ ذلك الإشارةُ بقوله صلى الله عليه وسلم : «قاتَلَ اللهُ اليهودَ! حُرِّمَتْ عليهم الشُّحُومُ فباعوها وأكلوا ثَمَنَها» والسامِرَة مخالفون فى ذلك ، ويقولون بتَحْرِيم الثَّمَنِ أيضًا ، علىٰ ماسيأتى ذكره .

وليُعْلم أن القَرَّائين والرَّبَّانِيِّين يُحَرِّمُون من الذَّبيحة كلَّ ما كانتْ رِئَتُه ملْتصِقَةً بقَلْبه أو بِضلَعه ، والسَّامِرة لا يُحَرِّمون ذلك .

ومنها — مقالة أهل بابِلَ فى إبراهيم عليه السلام ، وهى قولهم (١) ... ...

ومنها — أن يُحَرِّم الأحْبارُ الذين هم عُلماؤُهم علىٰ الواحد منهم ، بمعنىٰ أنهم يمنعونه من مُباحَاتهم فى المآكِلِ والمشارِب والنِّكاح وغير ذلك حُرمةً يُجْمِعُون عليها ، وتتأكَّد بقَلْبِ حُصُرِ الكنائس عليها ، إذْ مِن عادتهم أنهم إذا حَرَّموا علىٰ شخصٍ وأرادُوا التَّشْديدَ عليه قلَبُوا حُصُر الكنائس عند ذلك التَّحْريم تَغْليظًا علىٰ المحرَّم عليه .

ومنها — الرُّجوعُ إلى التِّيه بعد الخروج منه ، فإنهم إنما خَرجُوا إليه عند سُخْط الله تعالىٰ عليهم بمخالفة مُوسى عليه السلام عند ٱمتناعهم عما أُمِرُوا به من قتال الجَبَّارين ، كما أخبر تعالىٰ عن ذلك بقوله : ﴿ قَالَ فإنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلىٰ القَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ قال المفسِّرون : وكان تيهُهُم ستَّة فراسِخَ فى أربعةِ فَراسِخ ، يمشُون كلَّ يومٍ ويبيتُون حيثُ يُصْبِحُون ، فأمر الله تعالىٰ مُوسَىٰ عليه السلام فضَربَ الحَجَر بعَصَاه فانفجرتْ منه ٱثنتا عَشْرَةَ عينًا ، وكانوا ٱثنَىْ عشَر سِبْطًا لكُلِّ سِبْطٍ عَيْنٌ ، فإذا أخذُوا حاجَتهم من الماء ٱحتبس وحَملُوا الحَجَر معهم ، وكانت ثِيابُهم فيما يُروَىٰ لا تَخَرَّق ولا تَتَدنَّس ، وتَطُولُ كلّما طالَ الصِّبْيانُ .

ومنها — تَحْريمُ المَنِّ والسَّلْوَىٰ الذى ٱمتَنَّ اللهُ تعالىٰ عليهم به كما أخبر بذٰلك بقوله تعالىٰ : ﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ والسَّلْوَىٰ ﴾ ويقال إنه التَّرَنْجَبِينُ . وقال ٱبن عَبَّاسٍ : والمراد بالمَنِّ الذى يسقُط على الشَّجَر وهو معروف . قال قتادة : كان المَنُّ يسقُطُ عليهم من طلوع الفَجْر إلىٰ طلوع الشَّمْس كسُقوط الثَّلج ، فيأخذ

(١) بياض بالأصول ولعله «انه لمن الظالمين فى تكسير أصنامهم» .

الرجلُ منهم ما يَكْفيه ليومه، فان أخذَ أكثرَ من ذلك فَسَد . وأما السَّلْوَىٰ، فقيل: هى طائرٌ كالسُّمَانَى، وقال الضَّحَّاك : هى السُّمَانَى نَفْسُها، وقال قَتادَةُ : هو طائرٌ إلى الحُمْرة كانت تَحشُرُه عليهم الجَنُوب .

ومنها — التَّبَرُّؤُ من الأسْباط : وهم أولادُ يَعْقُوبَ عليهم السلام، وعددُهم آثنا عَشَر سِبْطًا : وهم يُوسُفُ، وبَنْيامِينُ، ونَفْتالِى[1]، ورُوبِيلُ، ويَهُوذَا، وشَمْعونُ، ولَاوِى، ودَان، وزَبْلُونُ[2]، ويشجر، وجاد، وأشر؛ ومنهم تفرَّع جميعُ بَنِى إسرائيلَ وَلَدَ كلٌّ منهم أُمَّةً من الناس . وسُمُّوا أسباطا أخْذًا من السَّبْط وهو التتابع، إذْ هُمْ جماعةٌ متتابعون . وقيل : من السَّبَط وهو الشَّجَرُ، فالسِّبْطُ الجماعة الراجعون إلىٰ أصْلٍ وَاحِدٍ .

ومنها — القعودُ عن حَرْبِ الجبَّارين مع القُدْرة علىٰ حَرْبِهم : وذلك أنهم أُمِرُوا بدخول الأرض المقدَّسة : وهى بَيْتُ المَقْدِس فيما قاله آبن عباس والسُّدِّىّ وغيرهما، والشامُ فيما قاله قَتادَةُ، ودِمَشْقُ وفِلَسْطِين وبَعضُ الأُرْدُنِّ فيما قاله الزَّجَّاج، وأَرْضُ الطُّورِ فيما قاله مُجاهِدٌ، وكان فيها قومٌ جبَّارُون من العَمالِقَة كما أخبر الله تعالىٰ، والجَبَّار هو المتعظِّم الممتنِعُ من الذُّلِّ والقَهْر أخْذًا من الإجْبار : وهو الإكراهُ كأنَّه يجبرُ غيره علىٰ ما يُريدُه .

قال آبن عبَّاس : لما بَعَثَ مُوسَىٰ عليه السلام من قَومه آثْنَىْ عَشَر نَقيبًا ليُخْبِروه خبَرَهم، رآهم رَجُلٌ من الجبَّارِينَ فأخذَهُم فى كُمِّه مع فَاكِهَةٍ كان قد حَمَلها من بُسْتانه وجاء بهم إلى المَلِك فنَثَرهم بين يَدَيْه، وقال : إن هٰؤلاءِ يُريدون قِتالَنا، وكان من أمْرِهم ما قَصَّه الله تعالىٰ فى كتابه بقوله : ﴿ وإذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِه يا قَوْمِ آدْخُلُوا

(١) كذا فى الكشاف للزمخشرى (ج ١ ص ٣٨٠) وفى الأصل «نفتاى» .
(٢) فى الأصل : ربولى، والتصحيح من الخطيب الشربينى (ج ٢ ص ٩١) .

الْأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَامُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا يَامُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَادَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ . فكان فى قعودهم عن حَرْب الجبارين مع القُدرَة والنَّشاط مخالَفةٌ لما أُمِرُوا به .

وقد رتَّب فى "التعريف" أَيمَان اليَهُود علىٰ هذا المقتضىٰ، فقال : وَيمِينُهم .

إنى واللهِ واللهِ واللهِ العَظيم ، القَديم الأَزَلىِّ الفَرْدِ الصَّمَد الوَاحِد الأَحَد المُدْرِك المُهْلِك، باعِث مُوسىٰ بالحَقِّ ، وشَادِّ أَزْره بأخيه هٰرُونَ ، وحقِّ التوراة المكَرَّمة وما فيها وما تضمَّنَتْه، وحقِّ العَشْر كلماتٍ التى أُنزلَتْ علىٰ مُوسَى فى الصُّحُف الجَوْهَر، وما حَوَتْه قُبَّة الزَّمان، وإِلَّا تعبَّدتُ فِرْعونَ وهَامَان ، وبَرِئْتُ من بَنِى إسْرائيلَ ، ودِنْتُ بدِينِ النَّصرانية ، وصدَّقْتُ مَريَمَ فى دعواها ، وبَرَّأْتُ يُوسُفَ النَّجَّار ، وأنكرتُ الخطاب ، وتعمدتُ الطُّورَ بالقاذُورات ، ورَمَيتُ الصَّخْرة بالنَّجاسَة ، وشَرِكْتُ بُخْتُنَصَّرَ فى هَدْم بيْتِ المَقْدِس وقَتْلِ بنى إسرائيل ، وألقيتُ العَذرة علىٰ مَظَانِّ الأسفار ، وكنتُ ممَّن شَرِب من النَّهر ومال إلىٰ جَالُوتَ ، وفارقتُ شِيعةَ طَالُوتَ ، وأنكرتُ الأنبياء ، ودلَلْتُ علىٰ دَانِيَالَ ، وأعلَمتُ جَبَّار مِصْر بمكان إرْمِياءَ ، وكنتُ مع البَغِىِّ والفَواجِر يومَ يَحْيَى ، وقلتُ : إن النَّار المُضِيئَة من شَجرة العَوْسج نارُ إِفْك ، وأخذتُ الطُّرُقَ علىٰ مَدْيَنَ ، وقلتُ بالعَظائم فى بنات شُعَيْب ، وأجلَبْتُ مع السَّحَرة علىٰ مُوسَىٰ ، ثم بَرِئْتُ ممن آمن منهم ، وكنتُ مع من قال : اللَّحاقَ اللَّحاقَ

لِتُدرِكَ من فَرَّ، وأشرتُ بتَخْليف تَابُوتِ يُوسُفَ فى مِصْر، وسلَّمت إلىٰ السَّامِرِىِّ، ونزلتُ أَرِيحَا مَدِينَةَ الجَبَّارِينَ ، ورضِيتُ بفِعْل سَكَنَةِ سَــدُومَ ، وخالفتُ أحكامَ التَّوراة، وآستبحْتُ السَّبْتَ وعَدَوْتُ فيــه، وقلتُ إن المَظَلَّةَ ضَلال، وإن الحنكة مُحال، وقلتُ بالبَـدَاءِ علىٰ الله تعالىٰ فى الأحكام، وأجزتُ نَسْخَ الشرائع، وآعتقدْتُ أنَّ عيسَىٰ بنَ مريمَ المَسِــيحُ المَوْعُودُ به علىٰ لسان مُوسىٰ بن عِمْرانَ ، وآنتقلتُ عن اليهودية إلىٰ سِوَاهَا من الأديان، وآستبحْتُ لَحْمَ الجَمَلِ والشَّحْمَ والحَوَايَا أو ما آختلط بعظم ، وتأوَّلتُ أنَّ آكِلَ ثَمَنِه غيرُ آكِلِه ، وقلتُ مقالةَ أهْـلِ بَابِلَ فى إبراهــيم ، وإلَّا أكونُ مُحَرَّمًا حُرمةً تُجْمِــع عليها الأحْبَار، وتُقْلَبُ عليها حُصُر الكَنَائِس، ورُدِدتُ إلىٰ التِّيه ، وحُرِمْتُ المَنَّ والسَّلْوىٰ ، وبَرِئْتُ من كلِّ الأسباط ، وقعدتُ عن حَرْبِ الجبَّارِينَ مع القُدرَة والنَّشاط .

قلتُ : قوله فى هذه اليمين فى حُرْمة الشَّحْم وما فى معناه : وَتَأَوَّلْتُ أنّ آكِلَ ثَمَنِه غيرُ آكِلِه، بمعنى أنه يستعظم الوقوع فى تأوُّل ذلك ، وهو خلاف مُعْتَقَدِهم : لأنهم يتأوَّلون أن آكل ثَمَنِه غيرُ آكله كما تقدّم عنهم، وإنمـا تَمْنع ذٰلك السَّامِرَةُ ، فكان من حَقِّه أن يُورِد ذٰلك فى يَمِينِ السَّامرة وأن يقولَ هنا : ولم أتَأَوَّلْ أن آكلَ ثَمَنِه غيرُ آكِلِه فتنبه لذلك .

وآعْلم أنَّ أوّلَ ما آستُحْدِثتْ هذه الأَيْمَــانُ لأهْلِ دِينِ اليهوديَّة فيما ذكره محمدُ بن عمر المدائنىّ فى كتاب "القَلَم والدَّوَاة" فى زمن الفَضْلِ بن الرَّبيع وَزِيرِ الرَّشِــيد ، أحدثهـا كاتبٌ له قال له : كيف تُحَلِّف اليَهُودِىَّ قال : أقول له : وإلَّا بَرِئْتَ من إلٰهِــكَ الذى لا تعبــدُ غيرَه ولا تَدِينُ إلَّا له ، ورَغِبْتَ عن دِينِك الذى آرتَضَيتَه ، وجحدتَ التَّوراةَ وقُلتَ : إنَّ حِمَارَ العُزَيْرِ راكبٌ جَمَلَ مُوسَى ، ولعَنكَ ثمـانمـائة

حَبْرٍ على لسان داوُدَ وعيسَى بن مَرْيَمَ ، ومسخك الله كما مَسَخ أصحابَ السَّبْت ، فجعل منهم القِرَدَةَ والخنازيرَ ، وخالفت ما دوّنه دانيالُ وأشلوما ويُوحَنَّا ، ولقيتَ الله بدم يحيَ بن زكريا ، وهدمتَ الطُّورَ صخرةً صخرةً ، وضربتَ بالنَّاقوس في بَيْت المَقْدِس ، وتبرأ منكَ الأسباطُ وآباؤهم : إسرائيلُ ، وإسحقُ ، وإبراهيمُ ، وغمستَ لحيةَ الجاثليق في مَعْموديَّة النَّصارىٰ ، وانقلبتَ عن السَّبْت إلى الأحد ، وإلّا قدّر الله لكَ أن تلقَ الذي يخرج من الماء لَيْلَة السَّبْتِ ، وصيّر الله طعامَكَ لحمَ الخنْزيرِ وكُروشَ الجمالِ ومعَدَ الخنازير ، وسلّط الله عليك وعلىٰ أهْلك بُخْتُنَصَّر ثانيةً يقتُلُ المقاتِلةَ ويَسْبِي الذُّرِّيَّة ويُخَرِّب المدائنَ ، وأراكَ الله الأيدي التي تنالُ الرُّكَب من قبيل الأسباط ، وآخذكَ الله بكلِّ لسانٍ جحدتَه وبكلِّ آيةٍ حرَّفتها ، وقلتَ في مُوسَى الزُّورَ ، وإنَّه في محلِّ ثُبُورٍ ، وفي دارِ غُرُورٍ ، وجحدت إهْيَا أشَرْ إهْيَا[1] أصبئوت آل شدّاء . وهذه اليمينُ لازمةٌ لكَ ولبَنيكَ إلىٰ يوم القيامة .

قلتُ : هذه اليمينُ في غاية الإتْقانِ والتَّشْديد ، إلا أنَّ قولَه : وآخذَكَ الله بكلِّ لسانٍ جحدتَه وبكلِّ آية حرَّفتها غير مناسب لتحليفهم : لأنهم يَرَوْن أن لا إثمَ عليهم في الجَحْدِ ولا يعترفون بالتَّحْريف بل يُنْكِرونه . علىٰ أن أكثرها غيرُ متواردٍ علىٰ اليمين التي أوردها في "التعريف" : فلو ألحقها بها مُلحقٌ في آخرها علىٰ صيغة اليمين الأولىٰ من إيرادها بصيغة التكلم ، مثل أن يقولَ : وإلا برِئْتُ من إلهي الذي لا أَعْبُدُ غيرَه ولا أدينُ إلّا له ، وإلا رَغبتُ عن ديني الذي ارتضيتُه ، وعلىٰ ذلك في الباقي ، لكان حسَنا .

---

(١) هكذا ضبطها في القاموس ، ثم قال : و يقولون اهيا شراهيا وهو خطأ ، على ما يزعمه أحبار اليهود .

الطائفـــــة الثـانية
(من اليَهُود السَّامِرَةُ)

وهم أَتْبَاعُ السَّامِرِىِّ الذى أخبر اللهُ تعالىٰ عنه بقَوْله فى سُورَة الأعْرافِ : ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴾ . قال بعض المفَسِّرِينَ : وٱسمه مُوسَى بن ظفرٍ، وكان أصله من قَوْمٍ يعبدُون البَقَر فرَأَىٰ جبريلَ عليه السلام مَرَّةً وقد جاء إلىٰ مُوسىٰ راكبًا علىٰ فَرَسِ الحَيَاةِ ، فأخذ قَبْضَةً من ترابٍ من تَحْت حافر فَرَسه . وكان بَنُو إسرائيلَ قد خَرجُوا معهم حُلِىٌّ [استعارُوه] من القِبْط ، فأمرهم هٰرُونُ أن يحفِروا حُفْرةً ويُلْقُوا فيها ذلك الحُلِىَّ حتَّى يأتِىَ مُوسىٰ فيرىٰ فيه رَأْيَه ، فجمعوا ذٰلك الحُلِىَّ كلَّه وألقَوْه فى تلك الحُفْرة ، فجاء السَّامِرىُّ فألقىٰ ذلك الترابَ عليه ، وقال له : كن عِجْلا جَسَدًا له خُوَارٌ ، فصار كذٰلك . قال الحَسَن : صار حَيَوانًا لَحْمًا ودَمًا . وقيل : بل صار يَخُور ولم تَنْقلب عَيْنُه . فقال لهم السَّامِرىُّ : هـذا إلٰهكم وإلٰهُ مُوسَىٰ ، فعَكَفوا علىٰ عبادته ، ونهاهُم هٰرُونُ فلم ينتهُوا (١) وحَرَّق العِجْلَ وذرّاه فى اليَمِّ كما أخبر الله تعالىٰ عنه بقوْله : ﴿ وٱنْظُرْ إلىٰ إلٰهِكَ الَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فى اليَمِّ نَسْفًا ﴾ . فأُمِروا بقَتْل أنفسهم كما أخبر تعالىٰ بقوله : ﴿ فَتُوبُوا إلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ الآية . فقُتِلَ منهم سبعُون ألفا ثم رُفع عنهم القَتْلُ بعد ذلك .

وقد ٱختُلِف فى السَّامِرَة : هل هم من اليَهُود أم لا؟ والقَرَّاءُون والرَّبَّانِيُّون يُنْكِرون كون السَّامِرَة من اليَهُود . وقد قال أصحابنا الشافعية رحمهم الله : إنهم إن وافقت أصُولُهم أصُولَ اليهود فهم منهم حتَّى يُقَرُّوا بالجِزْيَة وإلا فلا .

(١) بياض بالأصل ولعله "فجاء موسىٰ وحرق الخ" .

ثم السَّامِرَة لهم تَوْراةٌ تختصُّهم غيرُ التوراة التى بيــد القَرَّائين والرَّبَّانيين ، والتَّوراةِ التى بيد النَّصارىٰ؛ وهم ينفردون عن القرائين والربانيين بإنكار نُبوّةِ مَن بعدَ مُوسَى ما عدا هَرُونَ ويُوشَع عليهــما السلام ، ويخالفونهم أيضا فى آستقبال صَخْرة بَيْتِ المَقْدِس ، ويستقبلون طُورَ نَابُلُس ويوجِّهون إليه مَوْتاهُم ، زاعمين أنَّه الذى كلَّم الله تعالىٰ مُوسىٰ عليه ، ويزعمون أنَّ الله تعالىٰ أمر داودَ عليه السلام ببناء بَيْتِ المَقْدس عليه ، فخالف وبَناهُ بالقُدْس : قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ . وهم قائلون أيضا : إن الله تعالىٰ هو خَالِقُ الخَلْق البارئُ لهم ، وإنه قادرٌ قاهرٌ قديم أزَلِىٌّ . ويوافقون علىٰ نُبوّةِ مُوسَى وهَرُون عليهــما السلام ، وأن الله تعالىٰ أنزل عليه التَّوْراةَ ، إلا أنَّ لهم توراةً تخصُّهم تُخـالِفُ تَوْراةَ القَرَّائين والرَّبانيِّين المتقدّمة الذِّكْر ، وأنه أنزل عليه أيضًا الألْواحَ الجَوْهر المتضمِّنَةَ للعَشْر كلمات المتقدّمة الذِّكْر ، ويقرّون أنَّ الله تعالىٰ هو الذى أنقذَ بَنِى إسرائيل من فِرْعَونَ ونَجَّاهم من الغَرَق ، ويقولون : إنه نَصَب طُورَ نَابُلُس المقدَّمَ ذكْرُه قِبْلَةً للتعبّد .

ويستعظمون الكُفْر بالتَّوراةِ التى هم يعترفون بها ، والتَّبَرِّى من مُوسَى عليه السلام دون غيره من بَنِى إسرائيلَ ، ويعظِّمون طُورَهُم طُورَ نَابُلُسَ المقــدَّم ذكْرُه ؛ ويسـتعظمون دَكَّه وقَلْعَ آثار البَيْت الذى عُمِر به ؛ ويستعظمون آستباحَةَ السَّبْت كغيرهم من اليهود ؛ ويوافقون القَرَّائين فى الوقوف مع ظَواهِرِ نصوص التَّورَاةِ ؛ ويمنعون القَوْل بالتأويل الذاهبِ إليــه الرَّبانِّيون من اليَهُود؛ وينكرون صحَّــةَ توراةِ القرَّائين والرَّبانيِّين ، ويجعلون الآعتماد علىٰ تَوْراتِهم ؛ ويقولون : لا مِسَاسَ : بمعنى أنه لا يَمَسُّ أحدًا ولا يمسُّه . قال فى "الكشاف" : كان إذا مَسَّ أحدًا أو مَسَّهُ أحدٌ حصلت الحُمَّى للمـاسِّ والمَمْسُوس . وقد أخبر الله تعالىٰ عن ذلك بقوله تعالىٰ حكايةً عن مُوسى عليه السلام للسَّامِرِىِّ ﴿ ٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى الحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾

ويُحرِّمون من الذّبائح [1] ، ويحرِّمون أَكْلَ اللحم مختلطًا بلَبَنٍ ، زاعمين أنَّ فى تَوْراتِهم النَّهْىَ عن أكْلِ لَحْمِ الجَدْىِ بلَبَنِ أمِّه ، ويستَعْظِمُون السَّعْىَ إلىٰ الخروج إلىٰ الأرض التى حُرِّم عليهم سُكْناها وهى مدينة أَريحَا .

ومن أكْبَرِ الكبائر عندهم وَطْءُ المَرْأةِ الحائض ، والنَّوْمُ معها فى مَضْجَعٍ واحدٍ ، لا سيما إذا فَعَلَ ذلك مُسْتَبِيحًا له . ومن أعْظمِ العظائم عندهم إنْكارُ خلافةِ هَرُون عليه السلام ، والأَنَفَة من كَوْنِها .

وقد رتَّب فى "التعريف" : يمينَهم علىٰ مقتضىٰ ذلك ، فذكر أنَّ يمينَهم :

إننى واللهِ واللهِ واللهِ العظيمِ ، البَارِئِ ، القادرِ ، القاهرِ ، القَديم ، الأزَلِىِّ ، رَبَّ مُوسَىٰ وهرونَ ، مُنْزِلِ التوراةِ والألواح الجَوْهرِ ، مُنْقِذِ بنى اسرائيلَ ، وناصِبِ الطُّورِ قِبْلةً للتعبِّدينَ . وإلَّا كفرتُ بما فى التوراة ، وبَرِئْتُ من نُبُوَّةِ مُوسَىٰ ، وقلتُ : إنَّ الإمامة فى غَيْرِ بنى هَرُون ، ودكَّيتُ الطُّورَ ، وقلعتُ بيدى أثَرَ البَيْتِ المَعْمورِ ، وآستبحْتُ حُرمَةَ السَّبْتِ ، وقلتُ بالتأويلِ فى الدِّين ، وأقْرَرْتُ بصحَّةِ تَوْراةِ اليَهُودِ ، وأنكرتُ القول بأَن لَا مِسَاسَ ، ولم أتجَنَّبْ شيئًا من الذَّبائح ، وأكلتُ الجَدْىَ بلَبَنِ أُمِّه ، وسَعَيْتُ فى الخروج إلى الأرض المَحْظُورِ علىّ سَكَنُها ، وأتَيْتُ النِّساءَ الحُيَّضَ زمانَ الطَّمْثِ مُسْتَبِيحًا لهُنَّ ، وبِتُّ معهنَّ فى المَضَاجع ، وكُنتُ أوّلَ كافرٍ بخلافة هَرُون ، وأنِفْتُ منها أن تكون .

---

(١) بياض بالأصل .

الفـــرْقة الثالثــــة
(ممَّن تدعُو الضرورةُ إلىٰ تحْليفه ـ النَّصرانيَّة)

وقد ٱخْتُلِف فى ٱشـتقاقها، فقيـل : أخْذًا من قَوْلِ المَسِيح للحَوَارِيِّينَ : ﴿ مَن أنْصَارِى إلَى الله ﴾ وقَوْلِ الحَوارِيِّين : ﴿ نَحْنُ أنْصَارُ الله ﴾ . وقيل : من نُزُولِه هُو وأمّه ـ بعـدَ عَوْدِها به من مِصْرـ بالنَّـاصِرَة : وهى قَرْيةٌ من بلاد فِلسْـطِينَ من الشام : وقيل غير ذلك .

والنَّصارَىٰ ــ هم أمَّةُ عِيسَى عليـه السلام ، وكِتَابُهم الإنْجِيلُ . وقد ٱختُلِف فى ٱشتقاقه علىٰ ثلاثة مذاهِبَ حكاها أبو جَعْفر النَّحَّاسُ فى "صِنَاعة الكُتَّاب":

أحدها ــ أنه مأخوذٌ من قَوْلهم : نجلتُ الشَّىْءَ إذا أخْرَجْتَه، بمعنىٰ أنه خرج به دَارِسٌ من الحَقِّ .

والثـانى ــ أنه مأخوذٌ مِن قولهم : تَناجَلَ القومُ إذا تنازَعُوا ، لأنه لم يَقَعْ فى كِتَابٍ من الكُتُبِ المَنَزَّلةِ [مثلُ] التنازع الواقع فيه . قاله أبو عمرو الشَّيْبانِىّ .

والثالث ــ أنه مأخوذٌ من النَّجْلِ بمعنَى الأصْـلِ : لأنه أصْلُ العِلْم الذى أطْلَعَ الله تعالىٰ فيه خَلِيقَتَه عليه، ومنه قيل للوالد نَجْلٌ : لانه أصل لولده .

ثم ذِكْرُ هذه الآشتقاقاتِ جُنُوحٌ من قائلها إلىٰ أن لَفْظ الإنْجِيلِ عَرَبِىٌّ ، والذى يظهر أنه عِبْرانِىٌّ : لأنَّ لُغَةَ عِيسَى عليه السـلام كانت العِبْرانيَّـة ، وقد قال صاحب "إرشاد القاصد" : إنَّ معنَى الإنجيلِ عندهم البِشَارَة .

وٱعلم أنَّ النَّصارَىٰ بجُمْلَتِهم مُجْمِعُونَ علىٰ أن مَريَمَ حَمَلَتْ بالمَسِـيح عليه السـلام ، وولَدتْه ببَيْتِ لَحْمٍ من بلاد القُـدْسِ من الشَّام ، وتكلَّم فى المَهْدِ، وأنَّ اليَهُودَ حين

أنكروا علىٰ مَرْيَمَ عليها السلام ذلك فَرَّتْ بالمسيح عليه السلام إلىٰ مِصْر، ثم عادتْ به إلىٰ الشام، وعمرُه آثنتا عشرةَ سنة، فنزلت به القَرْيَةَ المسمّاة ناصِرَةَ المقدّم ذِكْرُها، وأنه فى آخر أمْرِه قَبَضَ عليه اليهودُ وسَعَوْا به إلىٰ عامِل قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ علىٰ الشام، فَقَتَله وصَلَبه يوم الجمعة، وأقامَ علىٰ الخَشَـبة ثلاثَ ساعات، ثم آستوهبه رجلٌ من أقارب مَرْيَم آسْمُه يوسفُ النَّجّار من عامل قَيْصَر، ودفَنـه فى قَبْرٍ كان أعدّه لنَفْسه فى مكان الكنيسة المَعْروفةِ الآن بالقُمامَة بالقُـدْس، وأنَّه مكثَ فى قَبْرِه ليلةَ السَّبْت ونَهارَ السَّبْت وليلةَ الأحَد، ثم قام من صَبِيحة يوم الأحَد، ثم رآه بُطْرس الحَوَارِىُّ وأوصىٰ إليـه، وأنَّ أمَّه جمعت له الحَوَارِيِّين فبعثهم رُسُلًا إلىٰ الأقطار للدِّعاية إلىٰ دِينِه، وهم فى الأصل آثنا عَشَر حَوارِيًّا: بُطْرس ويقـال له: سَمْعان، وشَمْعُون الصَّـفا أيضا. وأندراوس وهو أخو بطرس المقـدَّم ذِكْرُه، ويَعْقُوبُ بن زيدى، ويُوحَنَّا الإنجيلىُّ، وهو أخو[1] أندراوس، وفيلبس، وبرتلوماوس، وتوما: ويُعرف بتوما الرسول، ومَتَّى ويعرفُ بمَتَّى العَشَّار، ويعقوبُ بن حلفا، وسمعانُ القنانى ويقـال له شمعون أيضا، وبولس ويقـال له تداوس، وكان آسمه فى اليَهُودية شاول، ويَهُوذَا الاسخريوطى (وهو الذى دَلَّ يَهُودَ علىٰ المَسِيح حتَّى قبضوا عليـه بزَعْمهم) وقام مقامَه بنْيامينُ، ويقولون: إنه بعد أن بعث مَن بَعَث من الحوَارِيِّين صَعِد إلى السَّماء. وهم متَّفقون علىٰ أن أربعةً من الحَوارِيِّين تَصَدَّوْا لكتابة الإنْجِيل: وهم بطرس، ومتَّى، ولُوقا[2]، ويُوحَنَّا. فكتبوا فيـه سِيرَة المَسِيح من حينِ وِلادَته إلىٰ حينِ رَفْعِه، وكتب كلٌّ منهم نُسخةً علىٰ ترتيب خاصٍّ بلُغَةٍ من اللُّغات.

(١) سيأتى قريبا كما فى "العبر" (ج ٢ ص ١٤٧) أن يوحنا الإنجيلى أخو يعقوب بن زيدى وكذلك فى "المقريزى" ج ٢ ص ٤٨٣.

(٢) كذا فى "الملل والنحل" أيضا ولكن لم يرد فى الحواريين المذكورين قبل هذا الاسم.

فكتب بطرس إنجيلَه باللُّغة الرُّوميَّة فى مدينة رُومِيَةَ قاعدةِ بلادِ الرُّوم، ونسبه إلىٰ تِلْميذِه مُرقَس أوّلِ بطاركة الإسكندرية، ولذلك يعرَف بمُرقُس الإنْجِيلىّ، وقيل : إن الذى كتبه مُرقُس نَفْسُــه . وكتب متّىٰ إنْجِيـلَه بالعبْرانيَّة فى بَيْت المقْدس، ونقلَه بعــد ذلك يُوحَنَّا بن زيدى إلى اللُّغة الروميــة . وكتب لوقا إنجيله بالرُّومية وبعث به إلىٰ بَعْض أكابر الرُّوم، وقيل : بل كتبه باليُونانيَّة بمدينة الإسكندرية . وكتب يُوحَنَّا إنجيله باليونانية بمدينة أفْسُس، وقيل مدينة رُومِيَة .

قال الشَّهْرَسْتانِىُّ : وخاتِمةُ إنجيل مَتَّى : « إنى أُرْسلُكُم إلىٰ الأُمَمِ كما أرْسَلنِى أَبِى إليكم فاذْهبوا وٱدْعُوا الأُمَمَ بٱسم الأب والاْبن ورُوحِ القُدُس» ثم ٱجتمع برُومِيَةَ من توجَّه اليها من الحَوارِيِّين ودوَّنُوا قوانينَ دِينِ النصرانية علىٰ يد أقليمش(١) تِلْمِيذِ بطرس الحَوارِىّ، وكتبوا عدد الكُتُب التى يجب قبولهــا والعمَلُ بمقتضاها، وهى عِدّةُ كتبٍ : منها الأناجيلُ الأربعةُ المتقدمةُ الذِّكْرِ، والتَّوراةُ التى بأيديهم، وجملةُ كُتُبٍ من كُتُب الأنبياء الذين قَبْلَ المَسِيح عليــه السلام، كيُوشَع بن نُون، وأيُّوبَ، وداودَ، وسُليمانَ عليهم السلام، وغيرهم .

ثم لمــا مات الحواريُّون أقام النَّصــارىٰ لهم خلَائِفَ، عُبِّر عنهم بالبَطارِكَة جمعُ بَطْرِكٍ، وهى كلمة يونانية مُرَكَّبةٌ من لفظين، أحدهما بَطْر ومعناه (٢) ،والثانية يَرْك ومعناه (٢) ، ورأيتُ فى ترَسُّلِ العَلاء بن مُوصَلايَا : كاتبِ القائم بأمر الله العبَّاسىّ "فَطْرَك" بابدال الباء فاء، والعامة يقولون : "بَتْرَك" بابدال الطاء تاء، وهو عندهم خليفة المَسِيح، والقائم بالدِّين فيهم .

(١) فى المقريزى ص ٤٨٣ ج ٢ "قليموس" وفى العبر ج ٢ ص ١٤٨ "اقليمنطس" .

(٢) بياض بالأصول، وكذلك بيض له فيما تقدّم عند الكلام على ألقاب وظائف النصارى انظر (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع .

وقد كان لبَطارِكَتِهم فى القـديم خَمْسَةُ (١) كَرَاسِىَّ ، لكُلِّ كُرسِىٍّ منها بَطْرَكٌ . الأوّل منها بمدينة رُومِيَة ، والقائم به خَلِيفةُ بطرس الحَوَارِىّ المتوجه إليها بالبِشَارَة . والثانى بمدينة الإسْكَنْدرِيَّة . والقائم به خَلِيفةُ مرقس تِلْميذُ بطرس الحَوارِىّ المقدّم ذكره وخليفته بها . والثالث بمدينة بِزَنْطِيَة : وهى القُسْطَنْطِينِيَّةُ . والرابع بمدينة أَنْطاكِيَةَ من العواصم التى هى فى مُقَابَلة حَلَبَ الآن . والخامس بالقُدْس . وكان أكبَرُ هذه الكَرَاسِىِّ الخمسـةِ كُرْسِىَّ رُومِيَةَ لكَونه محلَّ خلافة بُطْرس الحَوَارِىّ ، ثم كُرسِىّ الإسكندرية ، لكونه كُرْسِىَّ مرقس خَلِيفَته .

ثم آصطلحوا بعد ذٰلك علىٰ أسماءٍ وضعوها علىٰ أرباب وظائف دياناتهم ، فعبروا عن صاحب المَذْهَبِ بالبِطْرِيقِ ، وعن نائِبِ البَطْرَكِ بالأُسْقُفِّ ، وقيـل الأُسْقُفُّ عندهم بمنزلة المُفْتِى ، وعن القاضى بالمَطْرَانِ ، وعن القَارِئِ بالقِسِّيس ، وعن صاحِبِ الصلاة وهو الإمامُ بالجَاثَلِيق ، وعن قَيِّمِ الكنيسة بالشَّمَّاس ، وعن المنقطع إلى المَوْلى للعبَـادَة بالرَّاهِب .

وكانت الأساقِفَةُ يُسَمُّون البَطْرَكَ أباً ، والقُسُوسُ يسمُّون الأُسْـقُفَّ أباً ، فوقع الآشتراكُ عندهم فى آسْم الأَبِ ، فوقع اللَّبْس عليهم ، فاخترعوا لبَطْرَكِ الإسكندرية آسم البَابِ ، ويقال فيه البَابَا بزيادة ألف ، والبابه بإبدال الألف هاء ، ومعناه عندهم أبو الآباء : لتمييزِ البَطْرِكِ عن الأُسْقُفِّ ، فاشتهر بهـذا الآسم ، ثم نقل آسمُ البَـابِ إلىٰ بَطْرَكِ رُوميَـةَ لكَونه خليفـةَ بطرس الحَوَارِىِّ ؛ وبقى آسم البَطْرَكِ علىٰ بَطْرَكِ الإسكندرية وغيره من أصحاب الكَرَاسِىِّ .

---

(١) تقدّم فى (ج ٥ ص ٤٧٣) من هذا المطبوع أنها أربعة ولم يذكر كرسىّ بزنطية .

وآعلم أن النّصارىٰ مُجمعون علىٰ أن الله تعالىٰ وَاحدٌ بالجَوْهر ثلاثةٌ بالأُقْنُوميّة؛ ويُفسّرون الجَوْهر بالذّات والأُقْنُوميّة بالصّفات : كالوُجود والعِلْم والحَياة؛ ويعبرون عن الذّات مع الوُجود بالأَب ، وعن الذّات مع العِلْم بالآبْن؛ ويعبرون عن الذّات مع الحَياة برُوح القُدُس؛ ويعبّرون عن الإلٰه باللّاهُوت، وعن الإنسان بالنّاسُوت؛ ويُطْلقون العِلْم على الكلمة التى أُلْقيت إلىٰ مَرْيمَ عليها السلام فحَمَلتْ منها بالمَسيح عليه السلام؛ ويخُصُّونه بالآتّحاد دون غيره من الأقانيم .

وآجتمع منهم ثلثمائة وثمانية عَشَر، وقيل وسبعة عَشَر (١) أُسْقُفًا من أساقفتهم بمدينة نيقيَة من بلاد الرُّوم بحضرة قُسْطَنطينَ ملكِ الرُّوم عند ظهور أرْيوش الأُسْقُف وقوله : إن المَسيح مخلوقٌ ، وإنَّ القَديمَ هو الله تعالىٰ ، وألّفوا عقيدةً آستخرجُوها من أناجيلهم لقّبوها بالأمانة ، من خَرَج عنها خرج عن دِين النّصْرانية؛ ونَصُّها علىٰ ما ذكره الشَّهْرَسْتانى فى "النِّحَل والمِلَل" وآبنُ العَميد مُؤَرِّخُ النّصارىٰ فى تاريخه ما صُورتُه .

نُؤمنُ باللهِ الوَاحِد الأَب، مالكِ كُلِّ شَيْء، وصَانِعِ ما يُرىٰ وما لا يُرَىٰ، وبالآبْنِ الوَاحِدِ أيشوعَ المَسيحِ آبنِ اللهِ؛ بِكْرِ الخلائق كُلِّها، وليس بمَصْنُوع؛ إلٰهٍ حَقٍّ من [إلٰهٍ حق من] (٢) جوهَرِ أبيهِ الذى بيَدِه أُتْقِنَت العَوالِمُ وكلُّ شَيْء، الذى من أجْلنا و[من] (٢) أجْلِ خَلاصِنا نَزَلَ من السَّماء، وتجسّد برُوح القُدُس، ووُلِدَ من مَرْيمَ البَتُول، وصُلِبَ أيام فيلاطوس، ودُفِنَ ثم قام فى اليَوْم الثالث وصَعِدَ إلىٰ السَّماء، وجلسَ عن يَمِين أبيه، وهُو مُسْتَعِدٌّ للمجيء تارَةً أخرىٰ للقَضاء بين الأمْوات

(١) الذى فى "الملل والنحل" للشهرستانى (ص ١٣٢) وثلثمائة وثلاثة عشر رجلا . وفى "العبر" ج ٢ ص ١٥٠ أنهم كانوا ألفين وأربعين اسقفا واتفقوا منهم على ثلثمائة وثمانية عشر .

(٢) الزيادة من العبر (ج ٢ ص ١٥٠) .

والأَحْياء . ونُؤْمِنُ بِرُوحِ القُــدُسِ الواحِدِ الحَىِّ الذى يخرجُ من أَبِيه ، و بمَعْمُودِيَّة واحدةٍ لغُفْران الخَطَايا ، و بجماعة [واحدة] قُدْسِيَّةٍ مَسِــيحِيَّةٍ جَاثَلِيقِيَّةٍ ، وبقيامِ أَبْدانِنا، وبالحياة الدَّائِمَة أبد الآبِدين .

ووضــعوا معها قوانين لشرائعهم سَمَّوْها الهيمانوت (١) . ثم آجتمعَ منهم جَمْعٌ بقُسْطَنْطِينِيَّةَ عند دَعْوىٰ مقدونيوس المعروف بعُدُوِّ رُوحِ القدس، وقوله : إن رُوحَ القُدُس مخلوقٌ، وزادوا فى الأمانة المتقدِّمةِ الذِّكْرِ مانصه : "ونُؤْمِنُ بِرُوحِ القُدُس المُحْيِي المُنْبَثِقِ من الأب" ولعنوا مَن يَزِيدُ بعد ذلك علىٰ كلام الأمانة أو ينقص منها .

وآفترق النَّصارىٰ بعد ذلك إلىٰ فِرَقٍ كثيرة، المشهور منها ثلاثُ فِرق :

الفِــــرْقة الأولى
(المَلْكَانِيَّـــة)

قال الشَّهْرَسْتَانِىُّ : وهم أتباع مَلْكَانَ الذى ظهر ببلاد الرُّوم؛ ومقتضَىٰ ذلك أنَّهم منسوبون إلىٰ مَلْكَانَ صاحب مَذْهَبِهم . ورأيتُ فى بعض المصَنَّفات أنَّهم منسوبون إلىٰ مَرْكَان قَيْصر أحَدِ قياصرَة الرُّوم، من حيثُ إنَّه كان يقومُ بنُصْرة مذهبهم، فقيل لهم مَرْكَانيَّة، ثم عُرِّبَ مَلْكَانيَّة؛ ومُعْتَقَدُهم أن جُزْءاً من اللَّاهُوتِ حلَّ فى النَّاسُوتِ، ذاهبين إلىٰ أن الكَلمةَ وهى أُقْنُوم العِلْمِ عندهم آتَّحدَتْ بجَسَد المَسيح وتدرَّعَتْ بنَاسُوتِه ومازَجَتْه مُمَــازَجةَ الخَمْر [اللبن] أو المَــاءِ اللَّبَنَ؛ ولا يسمُّون العِــلْمَ قبل تَدَرُّعِه آبناً، بل المَسِيحُ وما تَدَرَّع به هو الآبْنُ؛ ويقولون : إن الجَوْهَر غير الأقانيم كما فى المَوْصوف والصِّفة، مصَرِّحينَ بالتثليث، قائلينَ بأن كلًّا من الأَب والآبنِ ورُوح القُدُس إلٰهٌ، واليهم وقعت الإشارةُ بقوله تعالىٰ : ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ﴾ .

(١) فى "العبر" : الهمايون .

وهم يقولون : إن المَسيح قديمٌ أزَلِيٌّ من قَديم أزَلِيٍّ ، وإن مَرْيمَ ولدتْ إلهًا أزليًّا ، فيطلقون الأبوَّة والبُنُوَّة على الله تعالى وعلى المَسيح حقيقةً ، متمسِّكين بظاهر ما يزعمون أنه وقع فى الإنجيل من ذِكْر الأَب والابن : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ .

ثم هم يقولون : إن المَسيحَ ناسُوتٌ كُلِّيٌّ لا جُزْئِيٌّ ، وإن القتلَ والصَّلْبَ وقعا على الناسُوتِ واللَّاهُوتِ معا كما نقله الشَّهْرَسْتَانِيُّ فى « النِّحل والمِلَل » وإن كان الشيخُ شَمسُ الدِّين بن الأكفانى فى كتابه "إرشاد القاصد" قد وَهِم فنَقل عنهم القولَ بأن الصَّلْبَ وقع على النَّاسُوت دونَ اللَّاهُوت .

ومن مُعْتَقدِهم أيضا أنَّ المَعادَ والحَشْر يكون بالأبدان والأرواح جميعا ، كما تضمَّنَتْه الأمانةُ المتقدّمةُ ، وأنَّ فى الآخرة التَّلَذُّذاتِ الجُسمانيَّةَ بالأكْلِ والشُّرب والنِّكاح وغير ذلك كما يقوله المُسْلِمُون .

ومن فُروعهم أنهم لا يَخْتَتِنُون ، وربَّما أكلَ بعضُهم المَيْتَة . وممَّن تَمذْهَبَ بمذْهَبِ المَلْكَانيَّة الرُّومُ والفَرَنْجةُ ومَن وَالاهُم .

والمَلْكَانية يَدينون بطاعة البـاب : وهو بَطْرَك رُوميَةَ المقدَّمُ ذِكْرُه ، قال فى "الروض المِعْطار" : من قاعدة الباب أنه إذا اجتَمَع به مَلِكٌ من ملوك النَّصارى ينبطح على بَطْنه بين يَدَيْه ، ولا يزال يُقبِّلُ رجْلَيْه حتَّى يكون هو الذى يأمُرُه بالقيام .

الفِــــرْقة الثــانية
(اليَعْقُوبيّـــة)

وهم أتْباعُ دِيسَقْرس بَطْرَكِ الإسكَنْدريّة فى القَـديم : وهو الثامنُ من بَطارِكَتِها من حين بَطْرَكيّةِ مُرْقُس الإنْجِيلىّ نائبِ بُطْرس الحَوارِىّ بهـا . قال ٱبن العَميـد فى تاريخه : وسُمّى أهلُ مَذْهَبِـه يعقوبية : لأن ٱسمه كان فى الغِلْمـانية يَعْقوب . وقيل : بل كان له تِلْميذٌ ٱسمُه يعقوبُ فنُسِبوا إليه . وقيل : بل كان شَاوِيرشُ بَطْرَكُ أنطاكية علىٰ رأى دِيسَقْرس، وكان له غلامٌ ٱسمُه يَعقوبُ فكان يبعثُه إلىٰ أصحابه : أن ٱثبُتُوا علىٰ أمَانة دِيسَقْرس فنُسِبوا إليه . وقيل : بل نُسِبوا إلىٰ يَعْقُوب البردغانى تِلْميذِ سويرس بَطْرَكِ أَنْطاكِيَةَ، وكان رَاهِبًا بالقُسْطَنْطِينيّة فكان يطوفُ فى البـلاد ويَدْعو إلىٰ مَذْهب ديسَقْرس . قال ٱبن العميد : وليس كذلك فإنّ اليعاقبةَ يُنسَبُون إلىٰ دِيسَقْرَسَ قبل ذلك بكثير، ومُعتَقَدُهم أن الكلمة ٱنقلبتْ لَحْمًا ودَمًا فصار الإلٰهُ هو المَسِيحَ .

ثم منهم من قال إن المَسِيحَ هُو الله تعالىٰ . قال المؤيَّد صاحب حماة : ويقولون مع ذلك إنه قُتِل وصُلِب ومَاتَ وبَقِيَ العالَمُ ثلاثةَ أيّامٍ بلا مُدبِّر . ومنهم من يقول: ظَهَر اللّاهُوتُ بالنّاسُوتِ ، فصار نَاسُوتُ المَسِـيح مَظْهَر الحَقّ لا علىٰ طريق حُلول جُزْء فيه، ولا علىٰ سَبِيل ٱتّحاد الكلمة التى هى فى حُكْم الصِّفَة، بل صار هو هو ، كما يقال : ظَهَرَ المَلَكُ بصُورَةِ إنْسانٍ، وظهر الشَّيْطانُ بصُورةِ حَيَوانٍ، وكما أخبر التَّنزِيلُ عن جِبْرِيل عليه السلام بقوله تعالىٰ : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَـا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ .

وأكثرهم يقولُ: إن المَسِيحَ جَوْهَرٌ واحدٌ إلا أنَّه من جَوْهَرين، وربّمـا قالوا : طبيعةٌ واحدةٌ من طبيعتين . فجَوْهَرُ الإلٰه القَدِيم وجَوْهرُ الإنسان المُحدَث تركّبَا تركُّبَ

النَّفس والبَدَن فصارا جَوهَرًا واحدا أَقنُومًا واحدًا وهو إنسانٌ كلُّه و إلٰهٌ كلُّه، فيقال : الإنسانُ صار إلهًا ولا ينعكس، فلا يقال : الإلهُ صار إنسانًا، كالفَحْمة تُطرَح فى النار فيقال : صارت الفَحْمةُ نارا، ولا يقال : صارت النارُ فَحْمةً، وهى فى الحقيقة لا نارٌ مطلقة ولا فَحْمةٌ مطلقة، بل هى جمرة .

ويقولون : إنَّ الكلمةَ اتحدَتْ بالإنسان الجزئىِّ لا الكلِّىِّ، وربّما عبَّروا عن الاتحاد بالامتزاج والادِّراع والحُلُول، كحلول صورة الإنسان فى المرآة .

ومنهم من يقول : إن الكلمةَ لم تأخُذْ من مَرْيمَ شيئا لكنَّها مرَّت بها كمُرورِ الماءِ بالمِيزابِ، وإنَّ ما ظهر من شَخْص المَسيح عليه السلام فى الأعْيُنِ هو كالخيال والصُّورةِ فى المرآة، وإن القَتْل والصَّلْبَ إنما وقعا على الخيال .

وزعم آخرون منهم أنَّ الكلمةَ كانَتْ تُداخِلُ جَسَد المَسيح أحيانا فتصدُرُ عنه الآيات : من إحياء المَوْتَى، وإبْراءِ الأكْمَهِ والأبْرص، وتُفارِقُه فى بعض الأوقات فتَرِدُ عليه الآلامُ والأوجاعُ . ثم هم يقولون : إن المَعَاد إنما هو رُوحانىٌّ فيه لَذَّةٌ وراحَةٌ وسُرورٌ، ولا أكْلَ ولا شُرْبَ ولا نِكاحَ .

ومن فروعهم أنهم يختَتِنُون، ولا يأكلون الحَيَوانَ إلا بعد التَّذْكِيَة . وقد حكَى ابنُ العميد مؤرِّخُ النَّصارَى أن دِيسَقْرس صاحبَ مَذْهبِ اليعقوبية حينَ ذهبَ إلى ما ذهب : من مَذْهبِه المقدَّم ذِكْرُه، رُفِع أمره إلى مَرْكانَ قَيْصَرَ مَلِك الروم يومئذ، فطلَبه إلى مَدينة خَلْقَدُونِيَة (١) من بلاد الرُّوم، وجمعَ له ستَّمائةٍ وأربعةً وثلاثين أُسْقُفًا، وناظروه بحَضْرة المَلِك فسَقَط فى المُناظرة، فكلَّمتْه زوجةُ الملك فأساء الرَّدَّ فلطمتْه بيدها، وتناوله الحاضرون بالضرب، وأُمِرَ بإخراجه؛ فسار إلى القُدْس،

(١) كذا فى "العبر" أيضا باثبات مثناة تحتية بعد النون والذى فى معجم ياقوت بحذفها .

فأقام به وٱتبعه أهــل القُدْس وفِلَسْطين ومصر والإسكندرية ، وقد ٱتَّبعه علىٰ ذلك أيضا النُّوبَةُ والحَبَشةُ ، وهم علىٰ ذلك إلىٰ الآن .

الفِـــرْقة الثـالثة
(النُّسْـــطُورِيَّة)

ومقتضَىٰ كلام ٱبن العميد أَنَّهم أتباعُ نُسْطوريوس بَطْرك القُسْطَنْطِينِيَّة . ويُحكَىٰ عنه أن من مَذْهبِه أن مَرْيَمَ عليها السلام لم تَلِدْ إلٰهًا ، وإنمـا وَلدتْ إنْسانا ، وإنَّمـا ٱتَّحد فى المَشيئَة لا فى الذَّات ، وأنه ليس إلٰهًا حقيقةً بل بالمَوْهبة والكرامة . ويقولون بجَوْهرَيْنِ وأُقْنومَيْنِ ، وإن كِرلس بَطْرَكَ[1] الإسكندرية وبَطْرَكَ رُوميَةَ خالفاه فى ذلك ، فجمع لهم مائتَىْ أُسْقُفٍّ بمدينة أَفْسس وأبطلوا مقالة نُسْطوريوس وصَرَّحوا بكُفْره ، فنفى إلىٰ إخميم من صعيد مِصْر ومات بها ، فظهر مَذْهبُـه فى نصارىٰ المَشْرق : من الجزيرة الفُراتيَّة والمَوْصِل والعِرَاق وفَارِس .

والذى ذكره الشَّهْرَسْتانِىُّ فى "النِّحل والمِلَل" أنهم مَنْسوبون إلىٰ نُسطور الحكيم الذى ظهر فى زمان المأمون ، وتصرَّف فى الأناجيل بحُكْمِ رأْيِه ، وقال : إن الله تعالىٰ واحدٌ ذو أقانيم ثلاثة : الوُجودِ والعِلْمِ والحَيَاة ؛ وإن هذه الأقانيمَ ليستْ بزائدة على الذَّاتِ ولا هِى هِى ، وإنَّ الكلمةَ ٱتَّحدتْ بجَسَد المسيح عليه السـلام لا علىٰ طريق الاَمتزاج ، كما ذهبتْ إليـه المَلْكانيَّة ، ولا علىٰ طريق الظُّهور كما قالته اليَعْقوبيَّة ،

(١) عبارة ٱبن خلدون فى العبر (ج ٢ ص ٢ ١ ٥ ١) وبلغت مقالة نسطوريوس إلى كِرلس بطرك الاسكندرية ، فكتب إلى بطرك رومية وهو اكليمس ، وإلى يوحنا وهو بطرك أنطاكيـة ، والى يونالوس أسقف بيت المقدس ، فكتبوا الى نسطوريوس ليدفعوه عن ذلك بالحجة فلم يرتجع ولم يلتفت الى قولهم ، فاجتمعوا فى مدينة افسيس فى مائتين أسقفا الخ .

ولكن كاشراق الشَّمس فى كُوَّة ، أو كظهور النَّقْش فى الخاتَم : قال الشَّهْرَسْتانِىُّ : ويعنى بقوله إنه واحدٌ بالجَوهر أنه ليس مركّباً من جِنْس بل هو بَسِيطٌ واحد . ويعنى بالحياة والعلم أُقْنومَيْن جوهرين أى أصلين مبدأيْن للعالَم . قال : ومنهم من يثبت لله تعالىٰ صفاتٍ زائدةً على الوجود والحياة والعِلم : كالقدرة والإرادة ونحوهما . ومنهم من يطلق القول بأن كلَّ واحدٍ من الأقانيم الثلاثة حَىٌّ ناطِقٌ إلٰهٌ . ومنهم من يقول : إن الاله واحد ، وإن المسيح ٱبتدأ من مَرْيَمَ عليها السلام ، وإنه عبدٌ صالح مخلوق ، خلقه الله تعالىٰ وسماه ٱبناً على التَّبَنِّى لا على الوِلادَة والاتِّحاد . ثم هم يخالفون فى القتل والصَّلْب مذهَبَ المَلْكانية واليَعْقوبية جميعا ، فيقولون : القَتْل والصَّلْب وقعا على المسيح من جهة ناسُوته لا من جهة لَاهُوته : لأن الإلٰهَ لا تَحُله الآلام . قال صاحب حَمَاةَ : وهم عند النصارىٰ كالمعتزلة عندنا .

ولْيُعلَمْ أن للنَّصارىٰ أشياءَ يعظِّمُونها و [أشياء] يستعظِمُون الوقوع فيها .

فأما التى يُعظِّمونها فإنهم يعظمون المَسيح عليه السلام حتَّى ٱنتَهَوْا فيه إلىٰ ما ٱنْتَهَوْا : من دعوى الأُلوهيَّة والبنوة لله سبحانه ، تعالىٰ الله عما يشركون ، وٱسْمُه عندهم أيشوع فعُرِّب عيسى . وإنَّما سُمى المسيحَ لكَوْنه مَمسوحَ القدَمَين لا أَخْمَصَ له .

ويعظِّمون مَريَمَ عليها السلام لولادتها المَسِيحَ عليه السلام ، ويعبِّرون عنها بالسَّيِّدة ، وبالبَتُول ، وبالعَذْراء .

ويعظمون مَريُحَنَّا المعمدان ، وهو عندهم يَحْيَى بنُ زكَرِيَّا عليه السلام ، ومعنى مَرْ السَّيِّد ، ويُحَنَّا يعنى يَحْيىٰ ، ويسمُّونه المعمدان لأنهم يزعُمون أنَّ مريمَ عليها السلام حين عَوْدِها من مِصْر إلى الشأم ومعها السَّيِّدُ المَسيحُ تلقَّاه يَحْيىٰ عليه السلام فعمَّده فى نَهر الأُرْدُنِّ من بلاد فِلَسْطِينَ ، يعنى غَمَسه فيه ، ويجعلون ذلك أصلا

لِلْمَعْمُودِيَّة : وهو المـاء الذى يُغْمَسُون فيه عنــد تَنَصُّرِهم ، و يقولون : إنه لا يصح تَنَصُّر نَصْرانىّ دون تَعمُّد . ولِمَـاءِ المعمودية بذلك عندهم من التَّعْظِيم مالا فوقه . و بعضُهم يقول : إن المرادَ بمَرْيحَنَّا المعمدان غيرُ يحيىٰ بن زَكَرِيَّا عليهما السلام .

و يعظمون الحَوَارِيِّين : وهم أصحاب المَسِيح عليه السلام . وقد تقدّم أن عِدّتهم آثْنا عَشَر حوارِيًّا ، ومعنى الحَوَارِىّ الخاصّ ، ومنه قيل للدَّقيق النَّاصِع البَيَاض دَقِيقٌ حُوَّارىٰ ، سُمُّوا بذلك لأن المَسِيح عليه السلام آستخلصهم لنَفْسِه .

و يعظِّمُون البَطارِكَةَ لأنهــم خُلَفاء الدِّين عندهم ، و يَرَوْن لهم من الحُرْمة مالدِين النَّصْرانية عندهم من الحُرْمة ، بل يجعلون أمْرَ التَّحْلِيل والتَّحْرِيم مَنُوطًا بهــم ، حتَّى لو حَرَّم البَطْرَكُ علىٰ أحدهم زَوْجَتَــه لم يقرَبْهــا حتَّى يُحِلَّها له . وســيأتى(١) مالبَطْرك اليعقوبية عند صاحب الحَبَشةِ من الحُرْمة عند ذكر المكاتبة إليه فيما بعدُ ، إن شاء الله تعــالىٰ .

وكذلك يعظِّمُون أربابَ الوظائف الدِّينية عندهم : من البِطْرِيق ، والأُسْقُفّ ، والمَطْران ، والقِسِّيس ، والشَّمَّاس ، والراهب ؛ وقد تقدّم تَفْسِيرُهم فيما مرّ .

و يعظِّمُون يُوسفَ النَّجَّار : وهو قريبٌ لمريمَ عليها السلام ، يقالُ : إنه آبنُ عَمِّها ، كان معها فى خِدْمةِ بَيْت المَقْدِس ، وهو الذى آستوهبَ المَسِيحَ بعد الصَّلْب بزَعْمِهم حتَّى دفَنَه . واليَهُودُ يَرْمُون مريَمَ عليها السلام معه بالفُجُور علىٰ ما تقدّم .

و يعظِّمُون مَرْيم المَجْدَلانِيَّةَ المقدّم ذِكْرُها ، و يزعمون أنها (٢) أخرج منها سبعة شياطين ، وأنها أوّلُ من رَأَى المَسِيحَ حين قام من قَبْره .

(١) سبق الكلام على المكاتبة اليه فى ج ٨ ص ٣٩ فهذا الوعد سهو عما سبق .

(٢) بياض بالأصول .

ومن عادتهم أنه إذا مات منهم أحدٌ ممن يعتقدون صَلاحَه صَوَّرُوا صُورته فى حِيطانِ كَنائسِهم ودِياراتِهم يتبركُون بها .

ويعظِّمُون قُسْطَنْطِينَ بنَ قُسْطَنطِينَ ملكِ الرُّوم ، وذلك أنّه أوّلُ من أخذ بدينِ النصرانيــة من الملوك وحَمَل علىٰ الأَخْذ به . وقد آختُلِف فى سَبَب ذلك فقيــل : إنه كان يُحارِب أمَّة البُرْجان بجِواره وقد أعجزه أمْرُهم ، فرأىٰ فى المنام كأنَّ ملائكةً نزلتْ من السماء ومعها أعلامٌ عليها صُلْبان ، فعَمِل أعلامًا علىٰ مثالهــا وحارَبهــم بها فظهر عليهم . وقيل : بل رأىٰ صُورةَ صَليبٍ فى السماء . وقيل : بل حملته أمُّه هيلانى علىٰ ذلك .

ويعظمون هيــلانى أم قُسْطَنْطِينَ المقــدَّمِ ذِكْرُه ، ويقولون : إنهــا رحلَتْ من قُسْطَنْطِينِيَّةَ إلىٰ القُــدْس ، وأتت إلىٰ محلِّ الصَّلْبِ بزعمهم ، فوقَفَتْ وبَكَتْ ، ثم سألت عن خَشَــبة الصَّلْب ، فأُخْبِرَتْ أن اليهودَ دفنوها وجَعَلوا فوقهــا القُماماتِ والنَّجاساتِ ، فاستعظمتْ ذلك ، وآستخرجتها وغسلتها وطَيَّبتها وغَشَّــتْها بالذَّهب ، وألبستْها الحرِيرَ ، وحملتها معها إلى القُسْطَنْطِينِيَّة للتَّبرُّك ، وبَنَتْ مكانها كنيسةً ، وهى المسمَّاة الآنَ بالقُمامة ، أخذا من آسْم القُمَامَةِ التى كانت موضوعةً هناك .

ويعظِّمُون من الأَمْكنة بيْتَ لَحْمٍ حيثُ مولِدُ المَسِيح عليه السلام ، وكَنِيسةَ قُمَامَةَ حيثُ قَبْرُه ، وموضعُ خَشَبةِ الصَّلْب التى آستخرجتها هيلانى أم قُسْطَنطِين بزعمهم .

وكذلك يعظِّمُون سائرَ الكنائس : وهى أمكنة عباداتهــم كالمساجد للمســلمين . وأصْلُها فى اللُّغة مأخوذٌ من قولهم : كِنَاسُ الظَّبْيِ : وهو المكانُ الذى يَسْــتَتِرُ فيه ، سُمِّيتْ بذلك لآسْتِتَارهم فيها حالَ عبادتهم عن أعْيُنِ النــاس . وكذلك يعظِّمُون الدِّيارات : وهى أمكنة التَّخَلِّى والآعتزال كالزَّوايا للمسلمين .

ويعظِّمُون المَـذْبَح : وهو مكانٌ يكون فى الكَنِيسـةِ يقرِّبُون عنـده القَرابِينَ ويَذْبحون الذَّبائح، ويعتقدون أنّ كلّ ماذُبِحَ عليه من القُرْبان صار لَحْمُه ودَمُه هو لَحْمَ المَسِيح وَدمَه حقِيقة .

ويعظمون من الأزْمِنَـة أعْيادَهم الآتى ذِكْرُها عنـد ذكر أعْيادِ الأمم : كعِيـد الغِطَاس من أعيادهم الكِبَار، ومَوْقِعُه فى الحادى عَشَر من طُوبه من شُهور القِبْط . وعِيدِ السَّيدةِ من أعيادهم الصِّغار . ومَوْقِعُه فى الحادى والعشرين من بئُونة منها . وعيد الصَّليب . وموقعه عندهم فى السابعَ عَشَر من تُوت، إلى غير ذلك من الأعياد الآتى ذِكْرُها(1) مع أعياد الأمم ، فى الكلام على الأَزمنـة من هـذه المقالة ، إن شاء الله تعـالى .

وأما الأشياءُ التى [يتَعبَّدُون] بها ، فإنهم يُصَلُّون سـبْع صلوات فى اليَوْم واللَّيلة، وهى : الفَجْر، والضُّحَى، والظُّهر، والعَصْر، والمَغْرب، والعِشَاءُ، ونِصْفُ اللَّيل؛ ويقرءون فى صَلاتِهم بمزامير دَاوُدَ عليه السلام كما تفعل اليَهُود . والسُّجود فى صلاتهم غيرُ مَحْدودِ العَـدَد ، بل قد يَسْجُدون فى الرَّكْعة الواحدة خَمسين سَجْـدة . وهم لايتوضئُون للصلاة، ولا يغتسلون من الجَنَابَة، وينكرون الطُّهْر للصَّلاة على المسلمين وعلى اليهود ، ويقولون : الأَصْـلُ طَهَارة القَلْب . وإذا أرادوا الصَّـلاة ضَرَبُوا بالنَّاقُوس، وهو خَشَبةٌ مستطيلة نَحْو الذراع يُضْرب عليها بخَشَبةٍ لَطِيفَةٍ فيجتمعون . وهُمْ يستقبلون فى صَلاتِهم المَشْرِقَ، وكذلك يُوجِّهون إليه مَوْتاهُم . قال الزَّمَخْشَرِىُّ : ولعلَّ ذَهابَهـم إلى ذلك لأخْذِ مَرْيم عليها السلام عنهم مَكَانًا شَرْقِيًّا كما أخبر تعـالى بقوله : ﴿ إِذِ ٱنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّـا ﴾ .

(1) لم يذكر شيئا من الأعياد فى هذه المقالة وقد سبق ذكر ذلك فى الفصل الثالث من المقالة الأولى فـا هنا سهو .

ولهم صِيامَاتٌ فى أوقات مُتَفَرِّقَة .

منها ــ صَوْمُهم الكَبِير : وهو سِتُّون يوما أوّلها يوم الاثنين . وموقع أوّله فى شباط أو أذار من شُهور السُّريان، بحسَب مايقتضيه حِسابُهم، يُفْطِرون فى خِلا لها يوم الأحَد، تبْقَى مدّة صيامهم منها تسعةٌ وأربعون يَوما .

ومنها ــ [صَوْمُهم الصَّغير] : وهو سِتّة وأربعون يَومًا يصُومُونها بعد الفصح الكبير بخمسين يوما، أوّلها يوم الاثنين أيضا، وعندهم فيه خِلافٌ .

ومنها ــ صَوْمُ العَذَارَىٰ : وهو ثلاثة أيام، أوّلُها يوم الاثنين الكائن بعد كَانُون الثانى، فى صيامات أخرىٰ يطول ذِكْرُها، ولكثرة صِيامِهم قِيل : إذا حُدِّثْتَ أن نَصْرانيًّا مات من الجُوع فصَدِّقْ .

وأمَّا ما يحرِّمُونه، فإنهم يقولون بتحريم لَحْم الجَمَل ولَبَنِه كما يقُولُه اليهود، ويقولون : بحِلِّ لَحْم الخِنْزِير خِلافًا لليهود، وهو مما يُنْكِره اليهود عليهم من مخالفة أحكام التوراة .

ويحرِّمون صَوْمَ يوم الفِصْح الأكْبر، وهو يومُ فِطْرِهم من صَوْمِهم الأكبر .

ويحرِّمون على الرجل أن يتزوّج آمرأتين فى قَرَنٍ واحِدٍ .

ويحرِّمون طلاقَ الزوجة بل إذا تزوّج أحدُهم آمرأةً لا يكون له منها فِراقٌ إلا بالموت .

وأما الأشياء التى يستعظمون الوُقُوع فيها :

فمنها ــ جحود كَوْن المَسِيح هو المُبَشَّر به علىٰ لسان مُوسَى عليه السلام .

ومنها ــ إنكارُ قَتْل المَسِيح عليه السلام وصَلْبِه، فإنهم يعتقدون أن ذلك كان سَبَبًا لخلاص اللَّاهُوت من النَّاسُوت، فمن أنكر عندهم وُقُوعَ القَتْل والصَّلْب على المَسِيح

خرج عن دِينِ النصرانية، بل إنكارُ رُؤْيَتِه مَصْلُوباً عندهم آرتكابُ مَحْظور، علىٰ أنَّهم يُنْكِرون على اليَهُود آرتكابَهم ذلك، ويستَعْظِمُون مُشارَكَتهم فى ذلك، فيالها من عُقُولٍ أضلَّها بارِئُها! .

ومنها ـ كَسْر صَلِيب الصَّلَبُوت، وهو الخَشَبة التى يزعمون أن المَسِيح عليه السلام صُلِب عليها . وقد تقدّم أن هيلانى أمَّ قُسْطَنْطِينَ آستخرجتها من القُمامة وغَسَلَتْها وطَيَّبتها وغَشَّتْها بالذَّهب وألبسَتْها الحرِيرَ وحَمَلَتْها معها للتَّبرك .

ومنها ـ الرُّجوع عن متابعة الحَوارِيِّين الذين هم أصحابُ المَسِيح عليه السلام .

ومنها ـ الخروج عن دِينِ النَّصرانيـة أو التَّبرى منـه ، والقولُ بدِين التوحيـد أو دين اليهودية .

ومنها ـ الوقوعُ فى حَقِّ قُسْطنطينَ وأمِّه هيلانى : لقيامهما فى إقامة دِينِ النَّصْرانية أوّلا علىٰ ماتقدّم ذكره . وكذلك الآسْتِهانَةُ بالبطاركة أو أَحَدٍ من أرباب الديانات عندهم : كالأسَاقِفَة ونحوهم ممن تقدّم ذِكْرُه .

ومنها ـ القُعودُ عن أهْلِ الشَّعانِين : وهم أهل التَّسْبيح الذين كانوا حَوْل المَسِيح عليه السلام حين رَكِبَ الحِمَـارَ بالقُدْس ودخل صِهْيَوْن يأمُر بالمَعْروف ويَنْهَى عن المُنْكَر وهم حوله يسبِّحُون الله تعالىٰ ويُقَدِّسُونه .

ومنهـا ـ صَوْم يوم الفِصْح الأكبر ، وصَرْفُ الوَجْه فى الصـلاة عن الشَّرْق ، وآستقبالُ صَخْرة بيْت المَقْدِس موافقةً لليهود .

ومنها ـ هَدْمُ كَنِيسة قُمَـامَةَ : لكونها عندهم فى مَحَلِّ القبر بزعمهم . وكذلك غيرُها من الكنائس والدِّيَرَة .

ومنها — تكذيبُ أحَدٍ من نَقَلَة الإنْجيل الأربعة الذين كتبوه كَمَتَّى وغيره ، أو تكذيبُ أحَدٍ من القُسُوس : وهم الذين يقرءون الإنجيلَ والمَزاميرَ، وتكذيبُ مَرْيم المجدلانية فيما أخبرتْ به عن المَسيح من قِيامِه من قَبْرِه الذى كان دُفِنَ فيه بزَعْمِهم ، فإنهم يزْعُمونَ أنَّها أوّل من رآه عند قِيامه .

ومنها — القولُ بنجاسة ماء المَعْمُودِية : وهو الماءُ الذى يَنْغَمسُون فيه عند تَنَصُّرِهم .

ومنها — عَدَمُ ٱعتقاد أن القُرْبانَ الذى يُذْبَح فى المَذْبَح لا يصير لَحْمُهُ ودَمُه هو لَحْمَ المَسيح ودَمَه ، ولعَمْرِى إن هذه لَعُقُولٌ ذَاهِبَة .

ومنها — ٱسْتِباحةُ دِماء أهْلِ الديارات ، والمشاركةُ فى قَتْلِ الشَّمامسة الذين هم خُدّامُ الكنائس .

ومنها — خِيانَةُ المَسيح فى وَدِيعَتِه . وذلك أنَّهم يزعمون أن كلَّ ماخَالَفَتْ فيه فِرْقَةٌ من الفِرَقِ الثلاث الفِرْقةَ الأُخْرىٰ كقول المَلْكانية بأنّ المَعادَ جُسْمانِىٌّ ، وقول اليعقوبية : إن المعاد رُوحَانِىٌّ ، فإنَّ الفِرْقة الأُخْرىٰ يستعظمون الوقوع فيما ذهب إليه مُخالِفُها ، وكذلك كلُّ ماجرىٰ هذا المجرىٰ .

وقد رتَّب الكُتَّابُ أيْمانَ النَّصارىٰ علىٰ هذه المعتقَدات . قال محمد بن عمر المدائِنىُّ فى كتاب "القَلَم والدَّواة" : وقد يذهَبُ علىٰ كثير من الكُتَّاب ما يُسْتحْلَفُ به اليَهُود والنصارىٰ عند الحَاجَة إلىٰ ذلك منهم ، فيُسْتَحلَفُون بأيْمانِ الإسلام وهم مُسْتَحِلُّون للحرام ، ومُجْتَرِئُون علىٰ الآثام ، ويتأثَّمون من أَيْمانهم ، والاَسْتِقْسام بأدْيانِهم . ثم أشار إلىٰ أنَّ أوّلَ ما رُتِّبت الأَيْمانُ التى يُحَلَّفُ بها النصارىٰ علىٰ هذه الطريقة فى زَمَنِ الفَضْلِ بنِ الرَّبيع ، فحَكَى عن بَعْض كُتَّاب العِراق أنه قال : أراد الفَضْلُ

ٱبْنُ الربيع : يعني وَزِيرَ الرَّشِيد أن يَسْتَحْلِفَ كاتبه "عَوْنا النصراني" فلم يَدْرِ كيفَ يَسْتَحْلِفُه ، فقلت : وَلِّنى ٱسْتِحْلافَه ، قال : دُونك ، فقلتُ له : إحلف بالٰهك الذى لا تعبد غيرَه ، ولا تَدِينُ إلّا لَه ، وإلا فخَلَعْتَ النَّصرانيَّةَ ، وبَرِئْتَ من المَعْمُودية ، وطرحْتَ على المَذْبَح خِرْقَةَ حِيضَةٍ يهوديَّة ، وقُلتَ فى المسيح ما يقوله المسلمون ﴿ إنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ﴾ . وإلا فلَعنكَ البطريك الأكْبَر، والمَطَارنة، والشَّمامِسَة، والقَمَامسة، والدَّيْرانيُّون، وأصحابُ الصوامع عند مجتمع الحنازير وتَقْرِيبِ القُرْبانِ، وبما ٱسْتغاثَتْ به النَّصارىٰ لِيَسُوع ، وإلّا فعليكَ جُرْمُ ثلثمائة وثمانيةَ عَشَرَ أُسْقُفًّا الذين خرجوا من نِيقِيَةَ حتى أقاموا عَمُود النصرانية، وإلا فشَقَقْتَ الناقُوسَ وطبخْتَ به لَحْمَ جَمَلٍ وأكلتَه يوم الٱثنين مَدْخَلَ الصَّوم وٱمحت من كل بركه يوما (؟) ورَمَيْتَ الشاهِدَ بعشرين حَجَرًا جاحِدًا بها ، وهَدمْتَ كنيسة لُدٍّ، وبنَيْت بها كنيسة اليهود، وخَرقتَ غِفارَةَ مريمَ وكهنونة داود، وأنتَ حَنِيفٌ مسلم ؛ وهذه اليمينُ لازمةٌ لك ولعَقِبِك من بَعْدك . قال فقال عَوْنٌ : أنا لا أسْتَحِلُّ أن أسمعَ هذه فكيف أقولها ! وخرج من جميع ماطالبه به الفَضْلُ ، فأمر بها الفَضْلُ فكُتِبتْ نُسَخًا وفُرِّقتْ على الكُتَّاب وأمرهم بحِفْظِها وتَحْليف النصارىٰ [بها] .

قلتُ : وقد أكثر النَّاسُ من تَرْتِيب نُسَخِ الأيْمانِ لتَحْليفِ النَّصارىٰ ، فمن مُطْنِبٍ ومن مُوجِزٍ ، على ٱختلاف مَقَاصِدهم فيما يقع به التَّحليفُ ويوافق آراءهم فيه . وقد رتَّب المقرُّ الشِّهابىُّ ٱبن فَضْلِ الله فى "التعريف" لهم أيمانًا علىٰ مقتضى آراء فِرَقِهم الثَّلاثِ المتقدّمة الذِّكْرِ : من المَلْكانيَّة، واليعقوبية، والنَّساطرَة .

فأما المَلْكانيَّة، فقال : إنَّ يمينَهم : واللهِ واللهِ واللهِ العظيمِ، وحقِّ المَسيح عيسى آبن مريم، وأمِّه السَّيدةِ مَرْيَمَ، وما أعتقدُه من دِينِ النَّصرانيَّة، والمِلَّة المَسيحية . وإلَّا أَبْرأُ من المَعْمودية، وأقولُ : إن ماءها نجس، وإن القَرابينَ رِجْسٌ، وبَرِئْتُ من مَرْيُحَنَّا المعمدان والأناجيل الأربعة، وقلتُ : إن متَّى كَذُوب، وإن مريم المَجْدَلانيَّةَ باطلةُ الدَّعوىٰ في إخبارها عن السَّيد اليَسُوع المَسيح، وقلتُ في السيدة مَريَمَ قولَ اليَهُود، ودِنْتُ بدِينهم في الجُحُود، وأنكرتُ آتِّحادَ اللَّاهُوت بالنَّاسُوت، وبَرِئْتُ من الأبِ والآبن ورُوح القُدُس، وكَذَّبتُ القُسوس، وشاركتُ في ذَبْح الشَّمامِس، وهدمتُ الدياراتِ والكنائس؛ وكنتُ ممَّن مال علىٰ قُسطنطينَ بن هيلانى، وتعمَّدَ أمَّه بالعظائم، وخالفتُ المَجَامِعَ التى أجمعت الأسَاقِفةُ برُوميَةَ والقُسْطَنطِينيَّة، ووافَقْتُ البرْذَعانيَّ بأنطاكيَةَ، وجحدتُ مَذْهبَ المَلْكانيَّة، وسفَّهتُ رأْيَ الرُّهبان، وأنكرتُ وقوعَ الصَّلْب علىٰ السَّيِّد اليَسُوع؛ وكنتُ مع اليهود حين صَلَبُوه، وحِدْتُ عن الحَوارِيِّين، وآستبحْتُ دِماءَ الدَّيْرانيِّين؛ وجذبتُ رِداءَ الكِبْرياء عن البطريرك، وخرجتُ عن طاعة البَابِ، وصُمْتُ يوم الفِصْح الأكبر، وقعَدْت عن أهْلِ الشَّعانين، وأبَيْتُ عِيد الصَّليب والغِطاس، ولم أَحْفِلْ بعِيد السَّيدة، وأكلتُ لَحْم الجَمَل، ودِنْتُ بدين اليَهُود، وأبَحْتُ حُرْمة الطَّلاق، وخُنْتُ المَسيح في وَديعَتِه، وتزوجتُ في قَرَنٍ بامرأتين، وهدمْتُ بيَدى كنيسةَ قُمامةَ، وكسرتُ صَليبَ الصَّلَبُوت، وقلتُ في البُنُوَّة مقالَ نُسْطورس، ووجَّهتُ إلى الصَّخْرة وَجْهِي، وصدّيت عن الشَّرق المُنير حيثُ كانَ المَظْهَر الكريم، وإلَّا برِئْتُ من النورانيين والشعشعانيين، ودِنْتُ غيرَ دِينِ النَّصارىٰ، وأنكرتُ أنَّ السَّيدَ اليَسُوع أحيا المَوْتَى وأبْرَأَ الأكْمَهَ والأبْرَص، وقلتُ بأنَّه مَرْبوب، وأنَّه ما رُؤِيَ وهو مَصْلوب، وأنكرتُ أن القُرْبانَ المقدَّس على المَذْبَح ما صار لَحْمَ المَسيح ودَمَه حقيقة، وخرجتُ

فى النصرانية عن لاحِبِ الطريقة ، وإلّا قلتُ بدِينِ التَّوْحيد ، وتعبدْتُ غيرَ الأرباب ، وقَصَدْتُ بالمظانيات غيرَ طَرِيقِ الإخلاص ، وقلتُ : إنَّ المَعَاد غيرُ رُوحانىٍّ ، وإن بَنِى المعمودية لا تَسيح فى فَسيح السماء ، وأثْبَتُّ وُجودَ الحُورِ العِينِ فى المَعَاد ، وأن فى الدار الآخرة التَّلَذُّذاتِ الجُسْمانية ، وخرجتُ خروجَ الشَّعرة من العَجين من دِينِ النَّصْرانية ، وأكونُ من دِينِى مَحْرُوما ، وقلتُ إن جرجس لم يُقْتَل مظلوما .

وأما اليعاقبة ، فقال : إنه يُبْدَل قوله : آتحاد اللّاهُوتِ بالنَّاسُوت بقَوْله : مُمَاسَّة اللّاهُوت للنَّاسُوت . ويُبْطَلُ قولُه : ووافَقْتُ البَرْذَعانىَّ بأنطاكية ، وجحدت مذهب المَلْكَانيَّة ويبدَّلُ بقوله : وكَذَّبْتُ يعقوبَ البرذَعانىَّ ، وقلتُ : إنه غير نصرانى ، وجحدت اليعقوبية ، وقلت إن الحق مع المَلْكانية . ويبطل قوله : وخرجت عن طاعة البَابِ ، ويُبدَل بقوله : وقاتلتُ بيَدى عمدشيون ، وخرَّبْتُ كنيسةَ قُمَامة وكنتُ أوّل مفتون .

وإن كان من النساطرة أبدل القَوْلين وأبقَى ما سواهما ، وقال عوض مماسة اللّاهُوت للنَّاسُوت : إشراق اللّاهُوت على النَّاسُوت ، ويُزاد بعد ما يُحْذَف : وقلتُ بالبراءة من نُسْطورس وماتَضَمَّنه الإنجيلُ المقَدّس .

وهذه نُسْخة يَمِينٍ حُلِّفَ عليها مَلِكُ النُّوبَة للسلطان الملك المَنْصور « قلاوون » عند آستقراره نائبًا عنه فى بلاد النُّوبَة ، وهى :

واللهِ واللهِ واللهِ ، وحَقِّ الثَّالُوثِ المقدّس ، والإنْجِيلِ الطَّاهر ، والسيدةِ الطَّاهرة العَذْراءِ أُمِّ النُّور ، والمَعْمودية ، والأنْبياءِ ، والرُّسُلِ ، والحَوَارِيِّينَ ، والقِدِّيسينَ ،

والشُّهداءِ الأبْرارِ، وإلَّا أجْحَدُ المَسِيحَ كما جحده بودس، وأقولُ فيــه مايقولُ اليَهُود، وأعتقدُ مايعتقدونه، وإلَّا أكونُ بُودس الذى طَعَن المَسِيحَ بالحَرْبَةِ - إنَّنى أخلَصْتُ نِيَّتِى وطَوِيَّتِى من وَقْتى هذا وساعَتِى هذه للسُّلطان الملك فلان، وإنى أبْذُل جُهْدِى وطَاقَتِى فى تحصــيل مَرْضَاته، وإننى ما دُمْتُ نائبَه لا أقطعُ المَقَرَّرَ علىّ فى كلِّ سنة تَمْضِى: وهو مايفضُــلُ من مشاطرة البلاد علىٰ ما كان يتحصَّلُ لمن تقدَّمَ من ملوك النُّوبَة، وأنْ يكونَ النِّصفُ من المتَحَصِّلِ للسلطان مخلَّصًا من كلِّ حقٍّ، والنِّصفُ الآخَرُ مُرْصَــدًا لعمارة البلاد وحِفْظها من عَدُوٍّ يَطْرُقها، وأن يكون علىّ فى كلِّ سنةٍ كذا وكذا . وإنَّنى أقرِّر علىٰ كلِّ نَفَرٍ من الرَّعية الذين تحت يَدِى فى البلاد من العُقَلاء البالغين دينارًا عَيْنًا . وإنَّنِى لا أترك شيئًا من السِّلاح ولا أُخْفيه، ولا أمكِّنُ أحدًا من إخفائه . ومتىٰ خرجتُ عن جميع ما قرَّرْتُه أوعن شَيْءٍ من هذا المذكور أعلاه كلِّه، كنتُ بَرِيئًا من الله تعــالىٰ ومن المَسِيح ومن السَّــيِّدَة الطاهِرَة، وأخْسَرُ دِينَ النَّصْرانية، وأُصَــلِّى إلىٰ غير الشَّرْق، وأكْسِر الصَّليبَ، وأعتقدُ مايعتقدُه اليَهُود . وإنَّنِى مهما سمعتُ من الأخبار الضَّارَّة والنافعة طالعتُ به السُّلطانَ فى وَقْته وساعَته، ولا أنفردُ بشَيْءٍ من الأشــياء إذا لم يكن مصلحة . وإنَّنِى وَلِيٌّ مَن وَالى الســلطان وعَدُوٌّ من عاداه، والله علىٰ ما نقولُ وَكِيلٌ .

قلتُ : وسيأتى ذكر أَيْمــان الفَرَنْج على الهُدْنَة عند ذكر ما أهمله فى "التعريف": من نُسَخِ الأيمــان فى آخر الباب، إن شاء الله تعالىٰ .

الملـــــة الثالثـــــة

(المَجُوسِيَّة : وهى المِلَّة التى كان عليها الفُرْس ومَن دَانَ بدينهم)

وهـــم ثلاثُ فِـــرَق :

الفرقة الأولى — الكُيُومَرْتِيَّة ـ نسبةٌ إلى كُيُومَرْت ، ويقـال : جُيُومَرْت بالجيم بدل الكاف . وهو مَبْدأُ النَّسْلِ عندهم كآدَمَ عليه السلام عِنْد غيرهم ، وربّما قِيل : إن كُيُومَرْت هو آدم عليه السلام . وهؤلاء أثبتوا إلهًا قديمًا وسَمَّوه يزدان ، ومعناه النُّور ، يعنُون به الله تعـالىٰ ، وإلهًا مَخْلوقًا سمَّوْه أهرمن ، ومعناه الظُّلْمة ، يعنون به إبليس . ويزعمون أن سَبَب وُجُود أهرمن أنَّ يزدان فكَّر فى نَفْسِـه أنه لو كان له مُنازِعٌ كيف يكون ، فحدثَ من هذه الفكرة الرَّدِية أهرمن ، مَطْبوعًا على الشَّرِّ والفِتْنة والفَساد والضَّرَر والإضرار ، فخرج علىٰ يزدان وخالَف طبيعَته ، فجَرَتْ بينهما مُحارَبَةٌ كان آخر الأمر فيها علىٰ أن اصطلحا أن يكون العَالَمَ السُّـفْلِيُّ لأهرمن سبعةَ آلاف سنة ، ثم يخلّى العالَمَ ويُسَلِّمه ليزدان . ثم إنه أباد الذين كانوا فى الدُّنيا قبل الصُّلْح وأهلكهم ، وبدأ برجُلٍ يقـال له كُيُومَرْت ، وحَيَوانٍ يقال له الثَّوْر ، فكان من كُيُومَرْت البَشَر ومن الثَّور البَقَرُ وسَائرُ الحيَوان .

وقاعدة مَذْهبهم تَعْظيمُ النور ، والتَّحرُّزُ من الظُّلمة ، ومن هنا انْجَرُّوا إلى النار فعبدوها : لما اشتملت عليـه من النور . ولمّا كان الثَّوْرُ هو أصْلَ الحَيَوان عندهم المُصادِف لوجود كُيُومرت ، عظَّمُوا البقر حتَّى تعبَّدُوا بأبوالهـا .

الفِرْقةُ الثانية — الثَّنَوِيَّة ـ وهم علىٰ رَأْيِ الكُيُومَرْتِيَّة فى تفضيل النُّور والتحرز من الظُّلْمة ، إلا أنهم يقولون : إن الاثنين اللذين هما النور والظلمة قديمـان .

الفِرْقة الثالثة — الزَّرادشتية الدائنُون بدِينِ المَجُوسيَّة ـ وهم أتْبـاعُ زرادَشْت الذى ظهر فى زَمَنِ كيستَاسِفَ السَّابع من مُلُوك الكِيانية، وهم الطَّبَقة الثانيةُ من ملوك الفُرْس، وٱدَّعَى النبوّةَ وقال بوَحْدانيَّـة الله تعالىٰ، وأنَّه واحدٌ لا شريكَ له ولا ضِدَّ ولا نِدَّ، وأنَّه خالقُ النُّورِ والظُّلْمة ومُبْدِعُهما، وأنَّ الخَيْر والشَّرَّ والصَّلاح والفَسَادَ إنما حصل من ٱمتزاجهما، وأنَّ اللهَ تعالىٰ هو الذى مزجهما لحِكْمَة [رآها] فى التركيب، وأنهما لو لم يمتزجا لمـا كان وُجودٌ للعـالَم، وأنَّه لا يزالُ الآمتزاجُ حتَّى يغلبَ النُّورُ الظُّلْمَةَ، ثم يخْلُصُ الخَـيْرُ فى عالَمِه ويَنْحَطُّ الشَّر إلىٰ عَالَمِه، وحينئذٍ تكونُ القيامة. وقال باستقبال المشرق حيثُ مَطْلَعُ الأنوار، والأَمْرِ بالمعروف، والنَّهيِ عن المُنْكر، وٱجْتنابِ الخبائث. وأتىٰ بكِتَابٍ قيل صَنَّفه، وقيل أُنْزِل عليه. قال الشَّهْرَسْتانى: ٱسمه "زندوستا". وقال المسعودىّ فى "التنبيه والإشراف": وٱسم هذا الكتاب "الإيستا" وإذا عُرِّب أثبتت فيه قافٌ فقيل: "الإيستاق" وعدد سُوَرِه إحدىٰ وعشرون سُورَة، تقع كلُّ سورة فى مائتى وَرَقة، وعددُ حروفه ستُّون حَرْفا، لكلِّ حَرْفٍ سُورةٌ مفردة، فيها حروفٌ تتكرر وفيها حُروفٌ تَسْقُط. قال: وزرادشت هو الذى أحدث هذا الخطَّ والمجوسُ تسميه: دين تبره، أى كتاب الدين.

وذكر أنه كُتِبَ باللغة الفَارِسِـيَّة الأولىٰ فى ٱثْنَىْ عَشَر ألفَ جِلْدِ ثَوْرٍ بقُضْـبان الذَّهب حَفْرًا، وأن أحدًا اليومَ لا يعرِفُ مَعْنىٰ تلك اللغة، وإنمـا نقل لهم إلىٰ هذه الفارسية شَىْءٌ من السُّوَر فى أيديهم يقرءونها فى صَلَواتهم: فى بَعْضِها الخَبَرُ عن مُبْتَدَإ العالَمِ ومنتهاه، وفى بعضها مَواعِظُ. قال: وعَمِل زرادشت لكتاب "الإيسـتا" شرحًا سمـاه "الزند" ومعناه عندهم: ترجمةُ كَلامِ الرَّب، ثم عَمِل لكتاب "الزند" شرحا سماه: "بادزنده" وعملَتْ علماؤُهم لذلك الشَّرْح شَرْحا سموه: "يازده".

ومن حيثُ آختلافُ النـاس فى كتاب زرادشت المقدّم ذكره هذا : نُزِّل عليـه أو صَـنَّفَه قال الفقهاءُ : إن للمَجُوسِ شُبهَةَ كتاب : لأنه غيرُ مقطوعٍ بكَوْنه كتاباً مُنزَّلاً .

وأتى زرادشت كيستاسف المَلِك بمُعْجِزات .

منها ـ أنه أَتَى بدائرةٍ صحيحةٍ بغير آلة، وهو ممتنع عند أهل الهَنْدَسةِ .

ومنها ـ أنه مَرَّ على أعمى، فأمرهـم أن يأخذوا حَشِيشَةً سمَّاها ويَعْصِرُوها فى عَيْنيه، فأبصر . قال الشَّهْرَسْتانِىُّ : وليس ذلك من المُعْجِزة فى شىء، إذ يحتملُ أنه كان يعرف خاصَّةَ الحشيشة .

وهم يقولون : إن الله تعالى خلق فى الأوّلِ خَلْقًا رُوحانياً ، فلما مضَتْ ثلاثة آلاف سَنَةٍ أنفذ الله تعالى مشيئته فى صورة من نور متلالِئٍ على [تركيب] صورة الإنسان ، وخلقَ الشَّمْسَ والقَمَر والكواكبَ والأَرض (وبنُو آدم حينئذٍ غيرُ متحرِّكينَ) فى ثلاثة آلاف سَنَةٍ .

ثم المَجُوس يفضِّلُون الفُرْس على العَرَب وسائر الأُمَم، ويفضِّلون مالهم : من مُدُن وأَبْنِيةٍ على غيرها من الأبنية، فيفضِّلُون إقليم بَابِلَ على غيره من الأقاليم، ومَدِينَتَه على سائر المُدُنِ ، من حيثُ إنَّ أوشهنج أوّلَ طبَقَةِ الكِيانية من مُلُوك الفُرْس هو الذى بناها ، ويقولون : إنه أوّلُ من جَلَس على السَّرير، ولَبِس التَّاجَ ، ورفع الأعمال، ورتَّبَ الخراج ، وكان مُلْكُه بعد الطُّوفان بمائَتَى سَنَة، وقيل : بل كان قبل الطوفان .

ويفضِّلُون الكتّابة الفَهْلوية وهى الفارسية الأولى على غيرها من الخُطُوط، ويزعُمُون أن أوّل مَن وضعها طهمورث : وهو الذى مَلَك بعد أوشهنج المقدَّمِ ذكْره .

ويجحدُون سِيَاسَة بَنِي سَاسَانَ ، وهم الطَّبقةُ الثالثةُ[1] من مُلُوك الفُرْس مَنْسوبون إلىٰ سَاسَان . ويَسْخَطون [على] الروم ، لغَزْوِهم الفُرْس وتَسلُّطِهم عليهم ببلادِ بابِل . ويعبُدون النَّار ، ويَرَوْن أنَّ الأفلاكَ فاعلةٌ بنفسها ، ويستبيحُونَ فُرُوجَ المحارم من البَنَاتِ والأمَّهات ، ويرَوْن جواز الجَمْع بين الأُخْتَين إلىٰ غير ذلك من عقائدهم .

ويعظِّمُون النَّيْروزَ : وهو أوّلُ يَوْم من سَنَتِهم وعِيدُهم الأكبر . وأوّلُ من رَتَّبه جمشيد أخو طهمورث . ويعظِّمون أيضا المِهْرَجان : وهو عِيدٌ مشهور من أعيادهم .

ويسخطون [علىٰ] بيوراسب : وهو رابعُ مُلُوكهم : وهو الضحاك يقال له بالفارسية : الدهاش ، ومعناه عَشْر آفات . وكان ظَلُوماً غَشُوما ، سار فيهم بالجَوْرِ والعَسْفِ ، وبسطَ يده بالقَتْل ، وسَنَّ العُشُورَ والمُكُوسَ واتَّخذ المغَنِّينَ والمَلاهِيَ ، وكان علىٰ كَتِفِهِ سِلْعتان مستورتان بثيابِه يُحَرِّكهما إذا شاء ، فكان يَدَّعِي أنهما حَيَّتانِ ، تَهْويلًا علىٰ ضُعَفَاء العقول ، ويزعم أن ما يأخذُه من الرَّعِيَّة يُطْعمه لهما ليكُفَّهما عن الناس ، وأنهما لايشبعان إلا بأدْمِغةِ بَنِي آدم ، فكان يقتلُ فى كلِّ يومٍ عددا كثيرا من الخَلْق بهذه الحجة . ويقال : إن إبراهيم الخليلَ عليه السلام كان فى آخر أيامه .

وكان من شأنه أنه لما كَثُرَ جَوْرُه وظُلْمه على الناس ، ظهر بأَصْبِهانَ رجلٌ اسمه كَابِي ، ويقال : كابيان من سِفْلة الناس ، قيل حدّاد ، كان الضَّحَّاك قد قتل له ابنين فأخذ كَابِي المذكورُ دِرَفْسًا وهو الحَرْبَةُ وعلّق بأعلاها قِطْعَةَ نِطَع كان يَتَّقِي بها النَّار ،

(١) فى "العبر" ج ٢ ص ١٦٩ أنها الرابعة .

ونادىٰ فى النـاس بمحاربة الضَّحَّاك ، فأجابه خلقٌ كثيرٌ ، وآستفحل أمْرُه ، وقصدَ الضَّحَّاكَ بمن معـه ، فهرب الضَّحاك منه ، فسأله الناسُ أن يتملَّك عليهـم ، فامتنع لكونه من غير بَيْت المُلْك ، وأشار بتولية إفريدون من عقب جمشيد المقدّم ذكره ، فولَّوْه ، فتبِـع الضَّحاكَ فقبضَ عليه وقتَله ، وسار فيهم بسيرة العَدْل وردّ ما آغتصبه الضحَّاك إلىٰ أهْلِه ، فصار لكَابِي المذكور عندهم المقامُ الأعْلىٰ ، وعظَّمُوا دِرَفْسَـه الذى علق به تِلك القِطْعَـةَ من النِّطَع ، وكللوه بالجَواهر ، ورصَّـعُوه باليواقيت ، ولم يَزَلْ عنـد ملوكهم يَسْـتفْتِحون به فى الحروب العظيمة حتّى كان معهـم أيام يَزْدَجِرْدَ آخرِ ملوكهم عنـد محاربة المسلمين لهم فى زَمَن عُثْمان ، فغلبهم المسـلمون وآقتلعوه منهم .

وهم يعظمون افريدون مَلِكَهم المقدّمَ ذكْرُه ، لقيامه فى هَلاك الضَّحاك وقتْله . وفى أوّل مُلْك افريدون هذا كان إبراهيم الخليل عليه السلام . ويقال : إنه ذو القَرْنَيْنِ المذكورُ فى القرءان الكريم .

وهم يعظمون أيضا من ملوكهم سَابُورَ الملقَّبَ بذى الأكْتَاف ، لأخْذه بثار العَجَم من العَرَب . وذلك أنه كان يتْبَعُ العَرَبَ بالجزيرة الفُراتِيَّة وما جاورها ، وسار فى طَلَبِهم حتّى بلغ البَحْرَيْن ، لِيُهْلِكَهم قتْلا ، لايقبلُ من أحَدٍ منهم فِدَاءً ، ثم أخَذَ فى خَلْع أكْتَافِهم ، فلذلك سُمِّى ذا الأكْتاف .

ويعظمون مانِى بن فاتن[1] : وهو رجلٌ ظهر فى زَمَنِ سَابُورَ بنِ أرْدَشِير بعد عِيسى عليـه السلام ، وآدَّعَى النبوّة وأحدث دِينًا بين المجوسية والنَّصْرانية . وكان يقول : بنبوَّةِ المسيح عليه السلام ، ولا يقول بنبوّة مُوسى عليـه السلام ، وقال : إنَّ العالَمَ

(١) فى "الملل" آبن فاتك بالكاف .

مَصْنوعٌ من النُّور والظُّلْمة، وإنَّهما لم يزالا قديمين حَسَّاسَيْن سَمِيعَيْن بَصِيرَيْن . وله أتباعٌ يعرفون بالمَـانَوِيَّة .

ويتبرءُون من مزدك : وهو رجلٌ مَشْهورٌ منسوب عنـدهم إلى الزَّنْدقَة أيضا، ظهر فى زَمَن قُبَاذَ أحدِ مُلوك الفُرْس من الأكاسرة، وآدَّعى النبوّةَ ونَهَىٰ عن المخالفة والمباغَضَة، وزعم أنَّ ذلك إنمـا يحصلُ بسَبَب النساء والمـال، فأمر بالاشـتراك والمساواة فيهما، وتَبِعه قُبَاذُ علىٰ ذلك، فتوصَّلت سِفْلَةُ الرجال إلىٰ أشراف النِّساءِ، وحصـل بذلك مَفْسَدَةٌ عظيمة . وكان يقولُ : إن النُّور عالِمٌ حساسٌ، والظلامَ جاهِلٌ أعْمَى، والنُّور يفعلُ بالقَصْد والاختيار، والظُّلمة تفعلُ على الخَبْط والاتفاق، وإنَّ امتزاجَ النُّور والظُّلْمة كان بالاتفاقِ والخَبْطِ دون القَصْـد والاختيار، وكذلك الخلاص . وله أتباع يقالُ لهم المزدكية، ولم يَزَلْ علىٰ ذلك حتَّى قَتَلَه شرْوانُ بنُ قُباذَ هو وأتباعه، وقتل معهم المَـانَوِيَّةَ أتباعَ مَانِي المقـدّمِ ذِكْرُه، وعادت الفُرْس إلى المجُوسيَّة القديمة .

وقد رتَّب فى "التعريف" للمَجُوس يَمِينًا علىٰ مقتضى ما عليه عَقِيدةُ المَجُوس أتْباعِ زرادشت المقدَّمِ ذِكْرُه، وهى :

إنَّنِي واللهِ الرَّبِّ العَظِيمِ، القَدِيمِ، النُّورِ، الأوّلِ، ربِّ الأرباب، وإلهِ الآلِهَـةِ، ماحِى آيةِ الظُّـلَمِ، والمُوجِدِ من العَـدَم، مقدِّرِ الأفلاك ومُسَـيِّرِها، ومُنَوِّرِ الشُّهب ومُصَوِّرِها، خالِقِ الشَّمسِ والقَمَرِ، ومُنْبِت النجوم والشَّجَرِ، والنَّارِ والنُّورِ، والظِّلِّ والحَرُورِ، وحقِّ جِيُومَرْت وما أَوْلَد من كرائم النَّسْلِ، وزرادشت وما جاء به من القَوْل الفَصْل، والزَّنْد وما تضمنه، والخَطِّ المُسْتدِيرِ وما بَيَّن . وإلَّا أنكرتُ أنَّ زرادشت لم يَأْتِ بالدائرةِ الصحيحة بغير آله، وأن مملكة إفريدون كانت ضَـلَالَه، وأكونُ

قد شاركتُ بيوراسب فيما سفَك طُعمًا لحَيَّتَيْه، وقلتُ إن كابيان لم يُسلَّط عليه؛ وحرقتُ بيدى الدِّرَفْس، وأنكرتُ ما عليه من الوَضْع الذى أشرقت عليه أجْرَام الكواكب، وتمازَجتْ فيه القُوَى الأرْضية بالقُوَى السَّماوية، وكَذَّبتُ مَانِى وصدَّقتُ مزدك، وآستبَحْتُ فُضُول الفُروج والأموال، وقلتُ بانكار الترتيب فى طَبَقات العَالَم، وأنه لا مَرْجِع فى الأبوّة إلَّا إلىٰ آدَمَ، وفضَّلتُ العَرَبَ على العَجَم، وجعلتُ الفُرْس كسائر الأمم، ومسحْتُ بيَدى خطوطَ الفَهْلَويَّة، وجحدتُ السِّياسَةَ السَّاسَانيَّة، وكنتُ ممَّن غَزا الفُرْسَ مع الرُّوم، وممن خَطَّأ سابُورَ فى خَلْع أكتاف العَرب، وجلبت البلاءَ إلىٰ بابل، ودنتُ بغير دِينِ الأوائل؛ وإلَّا أطْفَأْتُ النار، وأنكرتُ فِعْل الفَلَك الدَّوّار؛ ومالأْتُ فاعلَ الليل علىٰ فاعلِ النَّهار، وأبطلتُ حُكْمَ النَّيْروز والمهرجان، وأَطْفَأْتُ ليلةَ الصَّدَق مَصابيحَ النِّيران؛ وإلَّا أكونُ ممَّن حرَّم فُروجَ الأمهات، وقالَ بأنَّه لا يجوز الجَمْع بين الأخَوَات؛ وأكونُ ممَّن أنكَرَ صَوابَ فِعْل أردشير، وكنتُ لقَومى بِئْسَ المَوْلَى وبِئْسَ العَشِير.

المهيع الثالث

(فى الأيْمان التى يَحلِّف بها الحُكَماء)

وهم المعبَّر عنهم بالفَلاسِفَة، جَمْعُ فَيْلَسُوفٍ: ومعناه باليُونانيَّة مُحِبُّ الحِكْمَة. وأصْلُه فِيلاسُوف، فَفيْلا معناه مُحِبّ، وسُوف معناه الحِكْمَة، وهم أصحاب الحِكَم الغَريزيَّة والأحْكام السماوية، فمنهم مَن وقف عند هذا الحَدِّ، ومنهم من عَرَف الله تعالىٰ وعَبَده بأدَب النَّفْس.

قال الشَّهْرِسْتَانِيُّ: وهم علىٰ ثلاثة أصناف:

الصِّنف الأوّل — البَراهِمَة، وهم لا يُقِرُّون بالنُّبُوَّات أصْلاً، ولا يقولون بها.

[الصِّنف الثانى — حكماء العرب][(١)]، وهم شِرْذِمَةٌ قليلة، وأكثر حِكَمِهم فَلَتاتُ الطَّبع، وخَطَرات الفِكْر، وهؤلاء ربَّما قالوا بالنبوّات .

[الصِّنْفُ الثالث — حكماء الروم][(١)]، وهم على ضربين :

الضرب الأوّل

(القُدَماء منهم الذين هم أَسَاطِين الحِكْمَة)

وهم سَبْعة حكماء : ثاليس المَلَطِى، وانكساغورس، وانكسمانس، وانباديقلس[(٢)]، وفيثاغورس، وسقراط، وأفلاطون . ومذاهبهم مختلفة، وبعضهم عاصر بعض الأنبياء عليهم السلام، وتلقَّف منه، كانباديقلس : كان فى زمن داوُد عليه السلام، ومضى اليه وتلقّى عنه، وآختلف إلى لُقْمان وآقتبس منه الحِكْمة . وكذلك فيثاغورس : كان فى زمن سُلَيمان عليه السلام، وأخذ الحِكْمة من مَعْدِنِ النبوّة .

الضرب الثانى

(المتأخرون منهم، وهم أصحاب أرَسْطاطالِيس، وهم ثلاث طوائف)

طائفةٌ منهم تُعرَف بالمشائين : وهم الذين كانوا يَمْشون فى رِكابه يقرءون عليه الحِكْمة فى الطريق وهو راكب . وطائفةٌ تُعرف بالرُّواقيين : وهم الذين كان يجلس لتعليمهم بالرُّواق . والطائفة الثالثة فَلاَسِفَةُ الإسلام : وهم حكماء العَجَم . أما قبل الإسلام فإنه لم يُنْقَلْ عن العَجَم مقالة فى الفَلْسَفَة، بل حِكَمُهم كلُّها كانت مُسْتفادةً

(١) الزيادة عن الشهرستانى بالمعنى ليستقيم الكلام .

(٢) فى الملل والنحل : انبذقلس .

من النُّبوّات : إما من المِلَّة القديمة ، وإما من غيرها من المِلَل . ومُعْتَقَدُهم أن الله تعالىٰ واجبُ الوجود لذاته ، وأنه ليس بجَوْهَرٍ ولا عَرَضٍ ، وأن ما سواه صادرٌ عنه على ترتيب ، وأنه تعالىٰ واحدٌ فَرْدٌ ، ليس له شريكٌ ولا نَظير ، باقٍ أبَدِيٌّ سَرْمَدِيٌّ ، وأنه الذى أوجد الأشياءَ وكَوَّنها ، ويُعَبِّرون عنه بعِلَّة العِلَل ، وأنه قادرٌ ، يفعلُ إن شاء ولا يفعلُ إن لم يَشَأْ ، فاعل بالذات ليس له صِفَة زائدةٌ علىٰ ذاته ، مريدٌ ، له إرادةٌ وعنايةٌ لا تزيد علىٰ ذاته ، وأنه أوّلٌ لابِدَايةَ له ، آخِرٌ لا نهايةَ له ، وأنه يستحيلُ أن يتغَيَّر ، منَزَّهٌ عن أن يكون حادِثًا أو عَرَضًا للحوادث ، حَىٌّ متَّصِفٌ بصفات البقاء السَّرْمدِيَّة ، وأنه حكيمٌ بمعنى أنه جامع لكلِّ كمالٍ وجلال ، وأنه خالقُ الأفْلاكِ بقُدْرَته ، ومدَبِّرها بحِكْمَته ، ويقولون : إن الأرضَ ثابتةٌ لا تتحرَّكُ ، والماءُ مُحِيطٌ بها من سائر جهاتها على ما ٱقتضته الحِكْمَة الإلٰهية ، وكشفَ بعضَ أعلاها لسُكْنَى الخلق فيه ، فهى كبِطِّيخَةٍ مُلْقاةٍ فى بِرْكَةِ مَاءٍ ، ويُحِيطُ بالماء الهَوَاء ، ويحيط بالهواء النَّار ، ويحيطُ بالنار فَلَكُ القَمَر وهو الأوّل ، ويُحِيطُ بفلك القَمَر فلكُ عُطارِدَ وهو الثانى ، ويحيطُ بفَلَك عُطارِد فلكُ الزُّهَرَة وهو الثالث ، ويحيطُ بفَلَك الزُّهَرَة فلكُ الشَّمس وهو الرابع ، ويحيطُ بفَلَك الشَّمس فلكُ المِرِّيخ وهو الخامس ، ويحيطُ بفَلَك المِرِّيخ فلك المُشْتَرِى وهو السادس ، ويُحِيطُ بفلك المُشْتَرِى فلكُ زُحَلَ وهو السابع ، ويحيطُ بفَلَك زُحَلَ فلكُ الكواكب وهو الثامن ، وهو الذى فيه الكواكب الثابتة بأسْرِها ، وهى ما عَدَا الكواكبَ السَّبعةَ التى فى الأفلاك السَّبْعة المقدّم ذِكْرُها : من البروج الاثنى عشر ومَنَازِلِ القَمَر الثمانية والعشرين وغيرها . ويُحِيط بالكواكب الفَلَكُ الأطْلَسُ وهو الفلك التاسع ، والأفلاكُ التسعةُ دائرةٌ بما فيها من المَشْرِق إلى المَغْرِب ، بحيث تقطع فى اليوم والليلة دَوْرةً كامِلَةً ، والكواكب السبعة

التى فى الأفلاك السبعة الأوَّلة ، وهى : زُحَلُ ، والمُشْتَرِى ، والمِرِّيخ ، والشَّمس ، والزُّهَرة ، وعُطَارِد ، والقَمَر ؛ متحركةٌ بالسَّيْر إلىٰ جهاتٍ مخصوصة : الشَّمسُ والقَمَرُ يسيران بين المَشْرق والمغرب وبقيَّةُ الكواكب يختلف سَيْرها آستقامةً ورُجوعًا ، والكواكب التى فى الفَلَك الثامن ثابتةٌ لا تتحرّك ، والله تعالىٰ هو الذى يُسَيِّر هذه الأفلاكَ والكواكبَ ويُفِيضُ القُوَىٰ عليها .

ويقولون : إن الشمسَ إذا سَخَّنت الأرضَ بواسطة الضَّوْءِ صعِدَ من الرَّطْب منها بُخَارٌ ، ومن البَارِد اليَابِس دُخَانٌ . ثم بعضُه يخرجُ من مَسَامِّ الأرضِ فيرتفع إلى الجَوِّ ، وبعضُه يَحْتَبِس فى الأرض بوجود ما يمنعه من الخروج منها : من جبل ونحــوه .

فأما ما يخرج من مَسَامِّ الأرض ، فان كان من البُخار ، فما تصاعد منه فى الهواء يكون منه المَطَر والثَّلج والبَرَد وقَوْسُ قُزَحَ والهالةُ ؛ ثم ما آرتفع من الطبقة الحارّة من الهَوَاء إلى الباردة تكاثف بالبَرْد وآنعقد غَيْمًا ، وإن كان ضعيفا أثَّرت فيه حرارةُ الشمس فاستحال هَوَاءً ، ومهما آنتهىٰ إلى الطَّبَقة الباردة تكاثف وعادَ وتقاطر وهو المطر . فإن أدركها بَرْدٌ شديدٌ قبل أن تجتمع ، جَمَدتْ ونزلتْ كالقُطْن المَنْدوف وهو الثَّلج ، وإن لم تدركها بُرودةٌ حتى آجتمعتْ قَطَراتٌ من الجوانب أذهبتْ برودتَها ، آنعقدت بَرَدا ؛ وإذا صار الهواءُ رَطْبًا بالمَطر مع أدنىٰ صَقَالةٍ ، صار كالمرآة فيتولد من ضَوْءِ الشمسِ الواقع فى قفاه قَوْسُ قُزَحَ ، فإن كان قبل الزَّوال رُؤِىَ فى المَغْرب ، وإن كان بعد الزوال رُؤِىَ فى المَشْرق ، وإن كانت الشمسُ فى وَسَط السماءِ لم يُمْكِنْ أن يرىٰ إلا قَوْسا صغيرًا إن آتّفق . وفى معنىٰ ذلك الهالةُ المحيطةُ بالقَمَر ، إلا أنَّ الهالة إنما تحصل من مجرَّد بُرودَة الهواءِ وإن لم يكن مَطَر .

وإن كان مايخرج من مَسَامِّ الأرض دُخَاناً : فإن تصاعَدَ وٱرتفع فى وَسَط البُخَار وضربه الرِّيحُ فى ٱرتفاعه، ثَقُل وٱنتكس فحرّكه الهواءُ فحصل الرِّيح . وإن لم يَضْرِبْه الرِّيحُ، تصاعد إلىٰ عُنْصُر النار وٱشتعلت النارُ فيــه فصار منه نارٌ تشاهد ، وربمــا استطال بحسب طُولِ الدُّخَان فَيسمَّى كوكبا منقَضًّا . وإن كان الدُّخَانُ كثيفاً واشتعل بالنــار ولكنه لم يستحِلْ على القُرْب، بل بقى زمانا ، رُؤِىَ كأنَّه كوكبٌ ذو ذَنَب . وإن بَقِىَ شىءٌ من الدخان فى تضاعيف الغَــيْم وبَرَد ، صار ريحًــا فى وسَــط الغَيْم فيتحرّكُ فيــه بشدّة فيحصل منه صَوْت وهو الرَّعْد، فإن قَوِيَتْ حركتُه ٱشتعل من حرارة الحَركة الهــواءُ والدُّخانُ فصار نارًا مُضيئةً وهو البَرْق . وإن كان المُشْــتَعِلُ كثيفًا ثقيــلًا مُحرقًا ، ٱندفع بمصادفة الغَــيم إلىٰ جِهَةِ الأرض وهى الصاعقة : ﴿ صُنْعَ اللهِ الَّذِى أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ .

ويُقِرُّون أن الله تعالىٰ مُكَوِّنُ الأكوان، ومُنَمِّى المعادن والنَّباتِ والحَيَوان .

فأما المعادنُ — فهى التى تتكوَّنُ فيها جواهِرُ الأرض : من الذَّهَبِ والفِضَّــة وغيرهما . وذلك أن البُخَارَ والدُّخَان فى الأرض فإنها [ان] تجتمعْ وتمتزجْ، فإن غلب الدخانُ كان الحاصلُ منه مثلَ النُّوشادر والكِبْريت، وربَّمــا تغلَّبَ البخار فى بعْضه فيصير كالمــاء الصَّافِى المنعقدِ المتَحجِّرِ، فيكون منــه الياقُوتُ والبِــلَّوْرُ ونحوه ممَّــا لا يتطرَّقُ تحْتَ المَطَارق . وإن ٱستحكم ٱمتزاج الدخان منه بالبُخَار وقَلَّت الحرارةُ المحققة فى جواهرها ، ٱنعقد منه الذَّهب والفِضَّة والنُّحاس والرَّصاص ونحوُها ممــا يتطرق بالمِطْرَقة .

وأما النبات — فانهم يقولون : إن العَنَاصر قد يقعُ بها ٱمتزاجٌ وٱخْتِلاطٌ أتَمُّ من ٱمتزاج البُخَار والدُّخَان المقدّم ذكره ، وأحسنُ وأقربُ إلى الٱعتدال ، فيحصُل من ذلك النُّمُوّ الذى لايكون فى الجمادات .

وينشأ عن ذلك ثلاثةُ أمورٍ :

أحدها — التَّغْذِيَةُ بقوّة مُغَذِّيَةٍ : وهى قُوَّةٌ مُحِيلَةٌ للغذاء تخلعُ عنها صُورتَها وتكسوها صورة المُتَغَذِّى، فتنتشر فى أجزائه وتلتصق به وتَسُدُّ مَسَدَّ ما تَحَلَّل من أجزائه .

وثانيها — التَّنْمِية بقوّة مُنَمِّيَةٍ، بأن يزيد الجِسْم بالغِذَاءِ فى أَقْطارِه على التناسب اللائق بالنامى حتَّى ينتهى إلىٰ مُنْتَهىٰ ذلك الشىء .

وثالثها — التَّوْليدُ بقوّة مولِّدة : وهى التى تَفْصِل جِسْماً من جِسْمٍ شَبِيهٍ به .

وأما الحيوان — فإنهم يقولون إن تَكَوُّنَه من مِزَاجٍ أقربَ إلى الاعتدال وأحْسنَ من الذى قبله، من حيثُ إن فيه قوّة النباتية وزيادةَ قوّتين، وهما المُدْرِكَة والمتحرِّكة، ومهما حصل من الإدراك انْبَعَثَ الشَّهوةُ والنُّزوعُ، وهو إما لطَلَب ما يحتاج إليه فى طَلَب المُلائم الذى به بقاءُ الشَّخْص : كالغِذاء، أو بقاء النَّوْع : كالجماع، ويسمَّى قُوَّةً شَهْوانية . وإما للهَرَب ودَفْع المُنافى، وهى قوّة غَضَبِيَّةٌ، فإن ضَعُفَت القوّة الشَّهْوانية فهو الكراهة، وإن ضَعُفَت القوّة الغَضَبِيَّةُ فهو الخَوْف .

والقوّةُ المُدْرِكَةُ تنقسم إلىٰ باطنة : كالخيالية والمُتَوَهِّمَة والذَّاكرة والمُفَكِّرة، وإلىٰ ظَاهِرَةٍ : كالسَّمْع والبَصَر والذَّوْق والشَّمّ واللَّمْس . فاللَّمس قوّةٌ مُنْبثَّةٌ فى جميع البَشَرة، تُدْرِك الحرارةَ والبُرودةَ والرُّطوبةَ واليُبُوسةَ والصَّلابةَ واللِّينَ والخُشُونَةَ والمَلاسَةَ والخِفَّةَ والثِّقَلَ . والشَّمُّ فى زائدتَى الدِّماغ الشبيهتين بحَلَمَتَى الثَّدْي . والسَّمْع فى عَصَبَة فى أقْصَى الصِّماخ . والذَّوْقُ فى عَصَبَةٍ مَفْروشَةٍ علىٰ ظاهر اللِّسان بواسطة الرُّطُوبَة العَذْبة التى لا طَعْم لها، المنبسطة علىٰ ظاهر اللِّسان . والإبصار يحصلُ عن انطباعِ مِثْل صُورَة المُدْرَك فى الرُّطوبة الجُلَيْدِيَّة التى تُشْبه البَرَد والجَمَد فإنَّها كالمرآة، فاذا قابَلَها يكون انطبع فيها مثلُ صُورَته فتحْصُلُ الرُّؤْيَةُ .

ويَرَوْنَ أنَّ النفسَ محلّها العُلْو . ويقولون : إن النفسَ فى أوّل الصبا تكونُ عالمةً بالمعقولات المجرَّدَة والمَعَانِى الكُلّيّة بالقُوَّة ، ثم تَصِيرُ بعد ذلك عالمةً بالفعْل .

ثم إن سَعِدَتْ بالاستعداد للقَبُول ، انقطعتْ حاجتُها عن النَّظَر إلى البَدَن ومُقتضَى الحَوَاسّ ، إلا أنَّ البَدَنَ لا يزالُ يجاذبُها ويشْغَلها ويمنَعُها من تمام الاتصال بالعُلْويّات ، فاذا انْحَطّ عنها شُغل البَدَن بالمَوْتِ ارتفع عنها الحجابُ ، وزالَ المانعُ ، ودام الاتصالُ ، وكَمُل حالُها بعد فِراقِ البَدَن ، والتذّتْ به لَذّةً لا يُدرِكُ الوَصْفُ كُنْهها . وإن كانت النفسُ محجوبةً عن هذه السعادة فقد شَقِيت .

وعندهم أنه إنّما تُحْجبُ باتّباع الشهوات ، وقَصْر الهمة علىٰ مُقتضى الطَّبْع ، وباقامته فى هذا العَالَم الخَسِيس الفَانِى ، فَتَرْسَخُ فى نَفْسه تلك العادةُ ويتأكّد شَوْقُه إليها ، فتفُوتُ بالمَوْتِ آلةُ دَرْك ذلك الشَّوْق ويبقَى التشوُّقُ وهو الأَلَمُ العظيمُ الذى لا حَدَّ له ، وذلك مانعٌ من الوصال والاتصال . وهذه النفس ناقِصَةٌ بفَقْد العِلْم ، ملطَّخَةٌ باتباع الشَّهَوات ، بخلاف النَّفْس السابقة .

ويقولون : إن الهَيُولَىٰ قابِلَةٌ لتركيب الأجسام ، ويُخَالِفُون أهْلَ الطبيعة فى قولهم : بانكار المَعَاد وفَنَاءِ الأرواح ، فيذهبون إلىٰ أنَّ الأرواحَ بَاقِيةٌ وأن المَعَادَ حَقٌّ .

ويَرَوْنَ أن التَّحْسينَ والتقبيح راجعان إلىٰ العَقْل دُون الشَّرْع ، كما هو مَذْهب المُعْتزلة وغيرهم .

ويقولون : إن الإله تعالىٰ فاعل بالذات ليس له صِفَةٌ زائدة علىٰ ذَاته ، عالِم بذاته وبسائر أنواع الموجودات وأجْناسها ، لا يَعْزُب عن علمه شيءٌ ، وإنه يعلم الممكنات الحادثة .

ويقولون باثبات النبوّات لأن العالمَ لا ينتظمُ إلا بقانُونٍ متْبوعٍ بين كافَّة [الناس] يحكُمُون به بالعَدْل ، وإلَّا تقاتلُوا وهَلَكَ العالَمُ ، إذ النبيُّ هو خَليفةُ الله فى أرْضِـه ، بواسطته تنتهى إلى الخَلْق الهِدَايَةُ إلىٰ مصالح الدُّنيا والآخِرَة ، من حيثُ إنه يَتَلَقَّ عن الملَك والمَلَكُ يَتلقَّىٰ عن الله تعالىٰ ، إلا أنهم يقولون : إن النبوّاتِ غير متُناهِيَـةٍ وإنها مكتسبةٌ ينالُهـا العَبْد بالرياضات . وهاتان المقالتان من جملة ما كَفَرُوا به : بتجويز النُّبوّة بعد النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم الذى أخبر تعالىٰ أنه خَاتَمُ النبيين ، وقَوْلِهم إنها تُنَال بالكَسْب .

وقد حَكَى الصَّلاحُ الصَّفَدىُّ فى "شَرْح لامية العجم" أن السلطانَ صَلاحَ الدِّين يُوسفَ بن أيُّوبَ إنمـا قتلَ عُمارَةَ اليَمَنِيَّ الشاعر، حين قام فيمن قام بإحياء الدولة الفاطِميَّة بعد انقراضها ، علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه فى الكلام علىٰ ترتيب مملكة الديار المصرية فى المقالة الثانية ، مُسْتَنِدًا فى ذلك إلىٰ بَيْتٍ نُسِب إليه من قصيدةٍ ، وهو قوله :

وكانَ مَبْدَأُ هذا الدِّينِ من رَجُلٍ * سَعَى فأصْبَحَ يُدْعَىٰ سَـيِّدَ الأُمَمِ

فجعل النبوّة مكتسبة (١) علىٰ أن الله تعالىٰ ليس بجِسْم ولا جُسْمانى ، وأنه ليس فى جِهَةٍ ولا يدخل تحت الحَدِّ والمَـاهِيَّة .

وهذه نسخة يمين رتبها لهم فى "التعريف" وهى :

إننى واللهِ واللهِ واللهِ [العظـيم] (٢) ، الذى لا إله إلا هُو ، الواحدُ الأحَدُ ، الفَرْدُ الصَّمَد ، الأبدىُّ ، السَّرمدىُّ ، الأزَلِيُّ ، الذى لم يَزَلْ عِلَّةَ العِلَل ، ربُّ الأرباب ،

(١) بياض فى الأصل ، ولعله « وهم مجمعون علىٰ أن » الخ .
(٢) الزيادة من التعريف ص ١٦٢ .

ومُدَبِّرُ الكلِّ [القديرُ] القَـديم ؛ الأوّلُ بلا بدَايَة ، والآخِرُ بلا نهـاية ، المنَزَّهُ عن أن يكونَ حادثا أو عَرَضًا للحوادث ، الحَيُّ الذى ٱتَّصف بصفات البقاء والسرمدية والكمال ، والمتردِّى بِرداء الكِبْرِياء والجَلال ؛ مُدَبِّر الأفلاك ومُسَيِّر الشُّهب ، مُفيضُ القُوَىٰ على الكواكب ، وباثُّ الأرواح فى الصُّـوَر ، مكوِّنُ الكائنـات ، ومُنَمِّى الحيوان والمَعْدِنِ والنبات . وإلَّا فلا رَقِيَتْ رُوحِى إلىٰ مكانها ، ولا ٱتَّصلتْ نَفْسِى بعالَمِهـا ، وبَقِيتُ فى ظُلَم الجَهَالة وحُجُب الضَّلالة ، وفارَقْتُ نَفْسِى غيرَ مُرْتَسِـمَةٍ بالمعارف ولا مُكَمَّلَةٍ بالعِـلْم ، وبَقِيتُ فى عَوَزِ النَّقْص وتحت إمْرةِ الغَىِّ ، وأخذتُ بِنَصيبٍ من الشِّرْك ، وأنكرتُ المَعَاد ، وقلتُ بفَنَاء الأرواح ، ورضيتُ فى هذا بمقالة أهـل الطبيعة ، ودُمْتُ فى قيد المركَّبات وشـواغل الحس ، ولم أُدْرِك الحقائق علىٰ ماهى عليه ؛ وإلا فقلتُ : إن الهَيُولَىٰ غيرُ قابلةٍ لتركيب الأجسام ، وأنكرتُ المـادّةَ والصُّورَة ، وخَرقْتُ النواميسَ ، وقلتُ : إن التَّحْسِـينَ والتَّقْبيح إلىٰ غير العَقْل ، وخُلِّدتُ مع النفوس الشِّرِّيرة ، ولم أجِد سبيلا إلى النَّجاة ، وقلتُ : إن الإلٰهَ ليس فاعلا بالذات ، ولا عالِمًـا بالكُلِّيات ، ودِنْتُ بأن النبوّاتِ مُتَناهيةٌ وأنها غيرُ كَسْبِيَّة ، وحِدتُ عن طرائق الحكماء ، ونَقَضْتُ تَقْرِيرَ القدماء ، وخالفتُ الفلاسـفة ، ووافقتُ علىٰ إفساد الصُّوَر للعبث ، وحَيَّزتُ الرَّبَّ فى جهـة ، وأثبتُّ أنه جِسْمٌ ، وجعلتُـه فيما يدخل تحْتَ الحَدِّ والمـاهية [ورَضِيتُ بالتَّقْليد فى الأُلوهية](1) .

---

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٦٣ .

المهيــــع الرابـــع

(فى بيان المَحْلوف عليه، وما يَقَع على العموم، وما يختصّ به كلُّ واحد من أرباب الوظائف ممـا يناسبُ وَظِيفَتَه)

اِعلَمْ أن المحلوفَ عليه فى الأَيْمـان المُلُوكيَّة تارَةً يشتَرِكُ فيه جميعُ من يُحَلَّفُ من أهـل الدولة، وتارةً يختلِفُ بآختـلاف ما يمتـازُ به بعضُهم عن بعضٍ ممـا لا تَقَعُ الشَّرِكَة بينهم فيه .

فأما مايقع فيه الاشْـتِراكُ، كطاعَةِ السلطان وما فى معناها : من إخْلاص النيّـة وإِصْفاءِ الطَّوِيَّة، وما يجرى مجرىٰ ذلك، فذلك ممـا يشتركُ فيه كلُّ حالِفٍ يحلفُ للسلطان على آختـلاف عقائدهم : من مسـلم : سُـنِّىّ أو بِدْعِى، وكافِرٍ : يَهُودِىّ أو نَصْرانِى، أو غيرهما . فكلُّ أحدٍ يحلِّفُ بمـا تقتَضِيه عقيدتُه فى التعظـيم، علىٰ ما تقدّم بيانُه فى أَيْمـان الطوائف كلِّها .

فاذا آنتهى إلى المحلوف عليه، قال : إِنَّنِى من وَقْتى هذا ومن سَاعَتِي هذه وما مدّ الله فى عُمْرى قد أخلصتُ نيَّتِى ولا أزالُ مجتهـدًا فى إخلاصها، وأصْفَيتُ طَوِيَّتِى ولا أزالُ مجتهـدًا فى إصْفائها، فى طاعة مولانا السلطان المَـالِك المَلِك الفُلانِىّ فلانِ الدنيـا والدِّين فلان، آبن السـلطان السَّعيدِ الشَّهيد المَلِك فلان الدُّنيا والدِّين فلانٍ خلد الله تعالىٰ مُلْكه، وفى خِدْمَتِه ومَحبَّتِه ونُصْحِه، وأكونُ وَلِيًّـا لمن وَالاه، عَدُوًّا لمن عاداه، سِلْمًـا لمن سالمه، حَرْبًا لمن حَارَبه من سائر الناس أجمعين، لا أُضْمِرُ له سُوءًا ولا مَكْرُوها ولا خَديعَـةً ولا خِيانَة، فى نَفْسٍ ولا مَالٍ ولا مُلكٍ ولا سـلطنةٍ ولا عَسَاكِرَ ولا جُنْدٍ ولا عُرْبانٍ ولا تُرْكُمانٍ ولا أكْرادٍ ولا غيرِ ذلك، ولا أسْـعَىٰ فى تَفْريق كلمـة أحدٍ منهم عن طاعته الشريفـة . وانَّنِى والله العظيم أبْذُل جُهْدِى

وطَاقَتِى فى طاعة مولانا السلطان المَلِك فلانِ الدُّنيا والدِّين المشار إليـه ، وإن كاتَبَنِى أحدٌ من سائر الناس أجمعين بمـا فيه مَضَرَّةٌ علىٰ مُلْكِه لا أُوافِقُ علىٰ ذلك بقَوْلٍ ولا فِعْلٍ ولا عَمَلٍ ولا نِيَّةٍ ، وإنْ قدرتُ علىٰ إمْساكِ الذى جاءَنِى بالكتاب أمسكْتُه وأحضرتُه لمولانا السلطان المَلِك فلانٍ المشار إليه أو لنائبه القَريبِ مِنِّى .

وأما ما يقعُ فيـه الاختلاف فمـا يتبايَنُ الحالُ فيه باختصاص رَبِّ كلِّ وَظِيفـةٍ بمـا لايشاركه فيه الآخر. وقد أشار فى " التَّعريف " إلىٰ نُبْـذةٍ من ذلك فقال : وقد يُزاد نُوّابُ القِلاع ونُقَباؤُها والوُزَراءُ وأرباب التَّصَرُّف فى الأموال والدوادارية وكُتَّاب السِّرِّ زيادات ، يعنى علىٰ ما تقدّم .

فأما نُوّابُ القِلاع ونُقَباؤُها فيزاد فى تَحْليفهم : وإنَّنِى أجمعُ رجالَ هذه القَلْعة علىٰ طاعة مولانا السلطانِ فلانٍ وخِدْمته فى حِفْظ هذه القلعة وحِمايتِها وتَحْصِينِها ، والذَّبِّ عنها ، والجهادِ دُونَها ، والمُدافَعَة عنها بكلِّ طريق . وإنِّى أحفظُ حَواصِلَها وذَخائرَها وسِلاحَ خاناتِهـا على اختلاف ما فيها من الأقوات والأسلحة . وإنَّنِى لا أُخرِجُ شـيئًا منها إلا فى أوقات الحاجة والضَّرورةِ الدَّاعيـة المتَعَيِّنِ فيهـا تَفْرِيقُ الأقوات والسلاح ، علىٰ قَدْر ما تدعو الحاجةُ إليـه . وإنَّنِى أكونُ فى ذلك كواحدٍ من رجال هـذه القَلْعة ، وكلُّ واحدٍ ممن يَتْبعنى كواحدٍ ممن يتبع أتباعَ رجالِ هذه القَلْعة ، لا أتَخَصَّصُ ولا أُمَكِّنُ من التخصيص . وإنَّنِى واللهِ واللهِ واللهِ لا أفتحُ أبوابَ هذه القَلْعة إلا فى الأوقات الجارى بهـا عادةُ فَتْحِ أبواب الحُصُون ، وأُغْلِقُها فى الوقت الجارى به العادةُ ، ولا أفتَحُها إلا بشَمْسٍ ، ولا أغْلِقُها إلا بشَمْس . وإنَّنِى أُطالبُ الحُرّاسَ والدراجة وأرباب النُّوَبِ فى هذه القلعة بمـا جَرَتْ به العوائدُ اللازمة لكلٍّ منهم مما فى ذلك جميعه مصلحةُ مولانا السلطان فلان . وإنَّنِى لا أُسَلِّمُ هذه القلعةَ إلا

لمولانا السلطان فلانٍ، أو بمَرْسُومه الشَّريف وأمارته الصحيحة وأوامِره الصريحة . وإنَّنِي لا أستخدمُ فى هذه القَلْعة إلا مَن فيه نَفْعُها وأهْلِيَّةُ الخِدْمة، لا أعمل فى ذلك بغَرِض نَفْسِى، [ولا أُرَخِّص فيه لمن يعمل بغَرَض نَفْسٍ له (١)] ، وإنَّنى أبذُلُ فى ذلك كلِّه الجهْدَ، وأشَمِّر فيه عن ساعِدِ الجِدِّ، قال : ويسمِّى القَلْعَةَ التى هو فيها .

وأما الوزراء وأرباب التَّصَرُّف [فى الأموال] فما يزاد فى تَحْليفهم : وإنَّنِى أحفظُ أموالَ مولانا السلطانِ فلانٍ ــ خلَّد الله مُلْكَه ــ من التَّبذير والضَّياع ، والخَوَنة وتَفْريط أهْلِ العَجْز ، ولا أستخدمُ فى ذلك ولا فى شَىْءٍ منه إلا أهْلَ الكِفاية والأَمانَةِ ، ولا أُضَمِّنُ جهةً من الجهات الديوانية إلا من الأمناء الأتْقياء القادرين ، أو ممن زاد زيادةً ظاهِرةً وأقام عليه الضُّمَّانَ الثِّقَاتِ، ولا أُؤَخِّر مطالبةَ أحَدٍ بما يتعينُ عليه بوَجْهٍ حقٍّ من حقوق الديوان المعمور والمُوجَبات السلطانية على آختلافها . وإننى واللهِ العظيم لا أُرَخِّص فى تَسْجيلٍ ولا قياس، ولا أسامِحُ أحدًا بموجَبٍ يجبُ عليه ، ولا أَخرُجُ عن كلِّ مصْلَحة تتعيَّن لمولانا السلطان فلانٍ ولدَوْلَته ، ولا أُخْلِى كلَّ دِيوانٍ يرجع إلىَّ أمْرُه ، ويُعْدَقُ بى أمْرُ مُباشَرته من تَصَفُّحٍ لأحواله ، وآجتهادٍ فى تثمير أمواله ، وكَفِّ أيدى الخَوَنة عنه ، وغَلِّ أيديهم أن تصلَ إلىٰ شَىْءٍ منه ، ولا أدَعُ حاضِرًا ولا غائبًا من أمور هذه المباشرة حتَّى أجِدَّ فيه ، وأبذُلَ الجُهْدَ الكُلِّيَّ فى إجراء أُمورِه على السّداد وحُسن الآعتماد . وإنَّنِى لا أستَجِدُّ على المستقرّ إطلاقَه ما لم يُرْسَمْ لى به إلا ما كان فيه مَصْلحة ظاهِرة لهذه الدَّولة القاهِرة، ونَفْعٌ بَيِّنٌ لهذه الأيام الشريفة . وإنَّنِى واللهِ أُؤَدِّى الأمانة فى كلِّ ما عُدِقَ بى ووُلِّيتُ : من القَبْض والصَّرْف ، والولايَة والعَزْل ، والتأخير والتقديم ، والتقليل والتكثير ، وفى كلِّ جَليلٍ وحَقِير، وقَليلٍ وكثيرٍ .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٤٩ .

وأما الدَّوَادَارِيَّة وكُتَّابُ السِّرِّ فيزاد فيهما : وإنَّنِي مهما اطلعتُ عليه من مصالح مولانا السلطان فلانٍ ـ خلَّد الله مُلْكه ـ ونصائحه، وأمرِ دَانِي مُلْكه ونازِحه، أوصَّلُه إليه، وأعْرِضُه عليه، ولا أُخْفيه شيئًا منه ولو كان عَلَيَّ، ولا أكْتُمُه ولو خِفْتُ وصول ضرره إليّ .

ويفرد الدَّوادَارُ : بأنِّي لا أُؤَدِّي عن مولانا السلطان رسالةً في إطْلاقِ مال، ولا آستِخدام مُسْتخْدَم، ولا إقْطاع إقْطاعٍ، ولا تَرْتيب مُرَتَّب، ولا تَجْديد مُسْتَجدٍّ، ولا شادّ شاغِرٍ (١)، ولا فَصْلِ مُنازَعَةٍ، ولا كِتابةِ تَوْقيع ولا مَرْسومٍ، ولا كِتَابٍ صغيرا كان أو كبيرًا إلَّا بعد عَرْضِه على مولانا السلطان فلانٍ ومُشاوَرتِه، ومعاودة أمْرِه الشريف ومُرَاجَعته .

ويفرد كاتب السر : بأنَّه مَهْما تأخرتْ قِراءَتُه من الكتب الواردة على مولانا السلطانِ فلانٍ من البعيد والقريب، يعاوِدُه فيه في وَقْتٍ آخَر، فإن لم يُعاوده فيه بمَجْموع لفظه، لطوله الطُّولَ المُمِلَّ، عاوده فيه بمعناه في المَلَخَّصات، وأنه لا يُجاوِبُه بشَيْءٍ لم يَنُصَّ المرسومُ الشريفُ فيه بنَصٍّ خاصٍّ، وما لم تَجْرِ العادةُ بالنصِّ فيه لا يُجاوِب فيه إلا بأكمل ما يَرَى أن فيه مَصْلحةَ مولانا السلطان فلانٍ ومَصْلحةَ دَوْلته بأسَدِّ جَوَابٍ يَقْدِر عليه، ويَصِلُ آجتهادُه إليه . وأنه مهما أمْكَنه المراجعةُ فيه لمولانا السلطان فلانٍ راجَعَه فيه وعمِل بنص ما يرسم له به فيه . هذا ما آنتهى إليه كلامه .

قال في "التثقيف" : ويزادُ النُّوَّاب مثل قَوْله : ولا أسْعىٰ في تَفْريقِ كلمة أحَدٍ منهم عن طاعته الشريفة، وعليَّ أن أبْذُلَ جُهْدِي وطاقَتِي في ذلك كلِّه وفي حفْظِ المملكة التي آستنابني فيها، وصِيانَتِها وحِمايَتِها، وما بها من القِلاعِ والثُّغُور والسواحل . ثم يأتي بعده : وإن كاتَبَنِي أحدٌ الخ .

(١) في "التعريف" ص ١٥٠ «ولا سداد ثاغر» .

قلتُ : والمراد أنه يُؤتىٰ باليمين العامة التى يحلف عليها كلُّ أحَدٍ، ثم يزاد لكلِّ واحدٍ من أرباب الوظائف ما يُناسِبُه مما تقدّم ، ثم يؤتىٰ علىٰ بقيّة اليمين من عند قوله : وإنّني أَفِي لمولانا السلطانِ بهذه اليمينِ ، إلىٰ آخرها أو ما فى معنىٰ ذلك من أَيْمان أهل البِدَعِ وأصحاب المِلَل علىٰ ما تقدّم ذكره .

ثم قال فى "التثقيف": وقد تتجدّد وَقائعُ وأمورٌ تحتاج إلى التَّحْليف، بسببها تتَغيّر صِيغَةُ المحلوف عليه بالنسبة إلىٰ ما رُسِم به فيها . ثم أشار إلىٰ أنه لم يَرَ مدّةَ مُباشرته بديوان الإنشاء أحدًا ممن ذكره فى "التعريف" : من أرباب الوظائف حُلِّفَ ، وإنما ذكرها لاحتمال أن تدعُوَ الحاجةُ إليها فى وقْت من الأوقات ، أو أنها كانت مستعملة فى المتقدّم، فيكون فى تَرْكها إهمالٌ لبعض المصطلح .

قلت : وقد أهملا فى "التعريف" و "التثقيف" : ذِكْرَ يمينين مما رتبه الكُتّابُ وحلّفوا به فى الزمن المتقدّم مما لا غنًى بالكاتب عنه .

الأولىٰ — اليمينُ على الهُدْنةِ التى تنعقد بين مَلِكَين أو نائبهما ، أو مَلِكٍ ونائب مَلِك آخر، علىٰ ما سيأتى ذكره فى المقالة التاسعة، إن شاء الله تعالىٰ .

وتقع اليمين فيها علىٰ ما فيه تأكيدُ عَقْدِ الهُدْنة والتزامُ شروطها والبقاءُ عليها وعدمُ الخروج عنها أو عن شيءٍ من ملتزماتها، وغيرُ ذلك مما يدخل به التَّطرقُ إلى النَّقْض والتَّوصُّلُ إلى الفَسْخ .

وهذه نسخةُ يمينٍ حُلِّفَ عليها السلطانُ المَلِك المنصورُ «قلاوون» على الهُدْنةِ الواقعة بينه وبين الحُكّام بمملكة عَكّا وصَيْدًا وعَثْليث وبلادها، من الفرنج الاستبارية ،

فى شهر ربيع الأوّل سنة ٱثنتين وثمانين وستمائة، فى مباشرة القاضى فَتْح الدِّين بن عبد الظاهر كِتَابةَ السِّر، علىٰ ما أورده ٱبن مُكَرَّم فى تَذْكِرَتِه، وهى :

أقولُ وأنا فلانٌ : واللّهِ واللّهِ واللّهِ، وباللّهِ وباللّهِ وباللّهِ، وتاللّهِ وتاللّهِ وتاللّهِ، واللّهِ العظيمِ، الطَّالبِ، الغَالِبِ، الضَّارِّ، النافعِ، المُدْرِكِ، المُهْلِكِ، عالمِ ما بَدا وما خَفِىَ، عالمِ السِّر والعلانِيَةِ، الرَّحمنِ الرحيمِ، وحقِّ القُرآن ومن أنزله ومن أُنْزِلَ عليه، وهو محمدُ بن عبدالله صلى الله عليه وسلم، وما يقالُ فيه من سُورةٍ سُورةٍ، وآيةٍ آيةٍ، وحقِّ شَهْر رمضان، إنّنى أَفِى بحفظ هـذه الهُدْنةِ المباركةِ التى ٱستقرّتْ بَيْنِى وبين مَمْلَكة عَكَّا والمقدّمين بهـا علىٰ عَكَّا وعَثْليث وصَيْدا وبلادها، التى تَضَمَّنتْها هذه الهُدْنة، التى مُدَّتُها عَشْرُ سنينَ كوامل، وعشرةُ أشْهُرٍ، وعشرةُ أيام، وعَشْرُ ساعات، أوّلهـا يومُ الخميس خامسُ ربيع الأوّل سَنةَ ٱثنتين وثمانين وستمائة للهجرة من أوّلهـا إلىٰ آخرها، وأحْفَظُها وألتزمُ بجميع شُروطها المشروحة فيها، وأُجْرِى الأمورَ علىٰ أحكامها إلى ٱنقضاءِ مُدّتهـا ولا أتأوّلُ فيها ولا فى شَىْءٍ منها، ولا أسْتَفْتِى فيها طلَباً لنَقْضها مادام الحاكمُون بمدينة عَكَّا وصَيْدا وعَثْليث ـ وهم كافلُ المملكة بعَكَّا، ومقدَّمُ بَيْت الرُّوم، ومقدَّمُ بيت الأستبار، ونائبُ مقدَّم بَيْت الأسـتبار إلى الآن، ومن تولى بعدهم فى كَفَالة مَمْلكةٍ، أو مقدَّمِ بَيْتٍ بهـذه المملكة المذكورة ـ وافين باليمين التى يُحَلَّفُون عليها (فى وَلَدِى الملك الصالح، ولأولاده، على ٱستقرار هذه الهُدْنة المحرَّرَة الآن) عاملين بها وبشروطها المَشْروحةِ فيها إلى ٱنقضاءِ مُدَّتِها، مُلْتزمين أحكامَها، وإن نكثتُ فى هـذه اليمين فيلزمُنِى الحجُّ إلىٰ بَيْت الله الحرَامِ بمكّةَ حافيـاً حاسِرًا ثلاثين حَجَّة، ويلزمُنى صَوْمُ الدّهر كلّه إلا الأيامَ المنْهِىَّ عنها .

ويذكر بقية اليمين إلىٰ آخرها، ثم يقول : واللهُ علىٰ ما نقولُ وَكِيل .

وهذه نسخةُ يَمينٍ حُلِّف عليها الفَرنجُ المعاقَدُون علىٰ هذه الهُدْنة أيضا، فى التاريخ المقدّم ذكره علىٰ ما أورده ٱبنُ مكَرَّم أيضا، وهى :

واللهِ واللهِ واللهِ ، وباللهِ وباللهِ وباللهِ ، وتاللهِ وتاللهِ وتاللهِ ، وحقِّ المَسِيحِ وحَقِّ المَسِيحِ ، وحقِّ الصَّليب وحَقِّ الصَّليب ، وحقِّ الأقانيم الثلاثةِ من جَوْهرٍ واحدٍ المكَنَّى بها عن الأَبِ والآبْنِ ورُوحِ القُدُس إله واحد، وحقِّ الصليب المكَرَّم الحالِّ فى النَّاسُوت، وحقِّ الإنجيلِ المطَهَّر وما فيه، وحقِّ الأناجيل الأربعة التى نقلها مَتَّى ومُرْقُس ولُوقا ويُوحَنَّا ، وحقِّ صَلَواتهم وتَقْديساتهم ، وحقِّ التلامذة الآثْنَى عَشَر، والآثنين وسبعين، والثلثمائة وثمانيةَ عَشَر المجتمعين للبيعة، وحقِّ الصَّوْتِ الذى نزل من السماء علىٰ نَهْر الأُرْدُنِّ فزجره ، وحقِّ اللهِ مُنْزِل الإنجيل علىٰ عيسى بن مَرْيَمَ رُوحِ الله وكَلِمَتِه، وحقِّ السيدةِ مَارِيَةَ أمِّ النُّور (ومارية مَرْيَم) ويُوحَنَّا المعمودى ومرتمان ومرتمانى، وحقِّ الصَّوْم الكبير، وحقِّ دِينِى ومعبودى وما أعْتَقِدُه من النَّصْرانية ، وما تَلقَّيتُه عن الآباء والأقِسَّاءِ المعمودية ــ إنَّنِى من وَقْتِى هذا وساعَتِى هذه، قد أخلصتُ نِيَّتى، وأصْفيتُ طَوِيَّتِى فى الوَفاء للسلطان المَلِك المنصور ولولده المَلِك الصالح ولأولادهما ، بجميع ماتَضَمَّنته هذه الهُدْنَة المباركةُ التى ٱنعقد الصُّلْحُ عليها، علىٰ مملكة عَكَّا وصَيْدا وعَثْليث وبلادها الداخلة فى هذه الهُدْنة، المسماة فيها، التى مدّتُها عَشْرُ سنين كوامِل، وعشرةُ أشهر، وعشرَةُ أيّامٍ، وعَشْر ساعاتٍ، أولُها يومُ الخميس ثالثُ حَزِيرَان سنة ألْفٍ وخمسمائة وأربع وتسعين للإسْكَنْدَرِ بن فيلبس اليونانى، وأعملُ بجميع شروطها شَرْطًا شَرْطًا، وألتزمُ الوَفَاءَ بكلِّ فَصْلٍ فى هذه الهُدْنة المذكورة إلى ٱنقضاء مُدَّتها . وإنَّنِى واللهِ واللهِ وحقِّ المَسِيحِ ، وحقِّ الصَّليب ،

وحقِّ دِينِى لا أتعرّضُ إلىٰ بلاد السُّلطان ووَلَدِه، ولا إلىٰ من حَوَتْه وتَحْوِيه من سائر الناس أجمعين، ولا إلىٰ من يتردَّدُ منهم إلى البلاد الداخلة فى هذه الهُدْنَة بأَذِيَّة ولا ضَرَرٍ فى نَفْسٍ ولا فى مال . وإنَّنى واللهِ وحَقِّ دِينِى ومَعْبودى أسْلُك فى المعاهدة والمُهَادَنَةِ والمُصَافاة والمصادَقَةِ وحِفْظِ الرَّعيـة الإسلامية، المتردّدين فى البلاد السلطانية، والصادرِينَ منها وإليها ـ طَرِيقَ المُعاهَدِين المُتصادِقِينَ المُلْتَزِمين كَفَّ الأذِيَّة والعُـدْوانِ عن النُّفوس والأموال، وأَلْزَمُ الوَفاءَ بجميع شروط هذه الهُدْنة إلى ٱنقضائها، مادام المَلِك المنصورُ وافيًا باليمين التى حَلَف بها على الهُدْنةِ، ولا أَنْقضُ هذه اليمينَ ولا شيئًا منها، ولا أسْـتَثْنِى فيها ولا فى شىء منها طَلَبًا لنَقْضها، ومتىٰ خالفتُها ونَقَضتُها فأكونُ بَرِيئًا من دِينِى وٱعتقادِى ومَعْبودِى، وأكونُ مُخَالِفًا للكَنِيسة، ويكونُ علىَّ الحجُّ إلى القُدْس الشريف ثلاثين حَجَّةً حافيًا حاسِرًا، ويكونُ علىَّ فَكُّ ألْف أسِـيرٍ مُسْلِم من أسْرِ الفَرَنْج وإطْلَاقُهم، وأكونُ بَرِيئًا من اللَّاهُوت الحـالِّ فى النَّاسُوت، واليمين يَمِينى وأنا فلانٌ، والنيةُ فيها بأسْرِها نِيَّـةُ الملك المنصور، ونيةُ وَلَدِه المَلِكِ الصالح، ونيةُ مُسْتَحلِفِىَّ لهما بها على الإنجيل الكَرِيم، لا نِيَّـةَ لى غيرُها، واللهُ والمَسِيحُ علىٰ ما نقول وَكِيل .

وكذٰلك كُتِبت اليمينان، من جهة السلطان الملك الظاهر بِيبَرْس، ويمين صاحب بَيْرُوت وحِصْنِ الأكراد والمَرْقَب من الفَرَنْج الاستبارية فى شهر رمضانَ سنة خَمْسٍ وستين وستمـائة .

قلتُ : ومقتضى ما ذكره ٱبن المُكَرَّم فى إيراد هذه الأيمان أن نُسْخَةَ اليمين تكون مُنْفصلةً عن نسـخة الهُدْنة كما فى غيرها من الأيمـان التى يُستحلَف عليها، إلا أنَّ مقتضَىٰ كلام "مَوَادِّ البيان" : أن اليمين تكونُ متَّصلةً بالهُـدْنة . والذى يتَّجِه أنه

إن تيسّر الحَلِفُ عَقِبَ الهُدْنة ـ لوُجُود المتحالفين ـ كُتِب فى نفس الهدنة مُتَّصلا بها ، وإلّا أفرد كلُّ واحدٍ من الجانبين بنُسْخة يمين ، كما فى غيرها من الأيمان . وربّما جُرِّدت الهُدْنةُ عن الأَيْمان ، كما وقع فى الهُدْنة الجارية بين الظاهر بِيبَرْس وبين دون حاكم الريدأرغون ، صاحب بَرْشَلونه من بلاد الأَنْدَلُس ، فى شهر رمضان سنة سبع وستين وستمائة علىٰ مُقْتضى ما أورده آبن المُكَرَّم فى تَذْكِرَته .

وآعلم أنه قد يكتفىٰ باليمين عن الهُدْنة [باليمين] فى عَقْد الصُّلْح .

وقد ذكر القاضى تقيُّ الدِّينِ آبنُ ناظرِ الجَيْش فى "التثقيف" : أنه رتَّب يمينا حُلِّفَ عليها الفَرَنجُ بالأبواب السلطانية بالديار المصرية عند عَقْد الصُّلْح معهم ، فى سنة آثنتين وسبعين وسبعمائة ، فيها زيادات علىٰ ما ذكره المَقَرُّ الشِّهابىُّ بن فضلِ الله فى "التعريف" وهى :

واللّهِ واللّهِ واللّهِ العظيمِ ، إلهِ إبراهيمَ ، مالك الكُلِّ ، خَالِق ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ ، صانِع كلِّ شيءٍ ومُتْقِنه ، الربِّ الذى لا يُعْبد سواه ، وحقِّ المَسيح ، وحقِّ المَسيح ، وحقِّ المَسيح ، وأمِّه السيدةِ مَرْيَمَ ، وحقِّ الصليب ، وحَقِّ الصليب ، وحقِّ الصليب ، وحقِّ الإنْجِيل ، وحقِّ الإنجيل ، وحقِّ الإنْجيل ، وحقِّ الأَبِ والآبْنِ ورُوحِ القُدُس إلهٍ واحدٍ من جَوْهرٍ واحدٍ ، وحقِّ اللّاهُوت المُكَرَّم ، الحالِّ فى النَّاسوت المُعظَّم ، وحقِّ الأناجيل الأربعة التى نقلها مَتَّى ومُرْقُس ولُوقا ويُوحَنَّا ، وحقِّ اللّاهُوت والنَّاسوت وصَليبِ الصَّلَبوت ، وحقِّ التلاميذ الآثْنَىْ عَشَر ، والآثنين وسبعينَ ، والثلثمائة وثمانيةَ عَشَر المجتمعين علىٰ البِيْعَةِ ، وحقِّ الصَّوْتِ الذى نزل علىٰ نَهْر الأُرْدُنِّ فزجره ، وحقِّ السيدة ماريةَ أمِّ النُّور ، وحقِّ بَيْعةٍ وقديس وثالوث ، وما يقولُه فى صلاته كلُّ معمدانىٍّ ، وحقِّ ما أَعتقِدُه من دِينِ النصرانية ، والمِلَّة المسيحية ـ إنَّنى أفعلُ كذا وكذا ، ومتىٰ

خالفتُ هذه اليمينَ التى فى عُنُق، أو نقضتها أو نكثتها، أو سَعَيْتُ فى إبطالها بوجْهٍ من الوُجُوه، أو طَرِيقٍ من الطُّرُق - برئْتُ من المعمودية، وقلتُ : إن ماءَها نَجِسٌ، وإن القَرَابِينَ رِجْس، وبرئْتُ من مَرْيُحَنَّا المعمدان، والأناجيلِ الأربعة، وقلتُ : إنَّ متَّىٰ كَذُوب، وإن مَرْيَمَ المَجْدَلانية باطلةُ الدَّعوىٰ فى إخبارها عن السَّيدِ اليَسُوع المَسِيح ؛ وقلتُ فى السيدة مَرْيَمَ قولَ اليَهُود ، ودِنْتُ بدِينهم فى الجُحُود، وبَرِئْتُ من الثالوث، وجحدتُ الأبَ، وكذبتُ الآبْنَ، وكفرتُ برُوحِ القُدُس، وخلعتُ دِينَ النصرانيــة، ولَزِمْتُ دِين الحَنِيفِيَّة، ولطخت الهَيْكَلَ بحَيْضَــةٍ يَهُودِيَّة ، ورفضتُ مَرْيَمَ ، وقلتُ : إنهــا قُرِنَتْ مع الأسخريوطى فى جَهَنَّم ، وأنكرتُ آتحاد اللَّاهُوت والنَّاسُوت ، وكَذَّبتُ القُسوسَ ، وشاركتُ فى ذَبْحِ الشَّمامِس، وهَــدَمتُ الديارات والكَنائسَ، وكنتُ ممن مال علىٰ قُسْــطَنْطِينَ بن هيلانى، وتعمدتُ أُمَّه بالعَظائم ، وخالفتُ المَجــامِعَ التى آجتمعتْ عليها الأسَاقِفُ برُومِيَــة والقُسْطَنْطِينِيَّة، وجحدتُ مَذْهبَ المَلْكانِيَّة ، وسـفَّهتُ رَأْىَ الرُّهْبان ، وأنكرتُ وقُوعَ الصَّلْبِ على السَّــيدِ اليَسُوع، وكنتُ مع اليَهُود حينَ صلبوه ، وحِدتُ عن الحَوَارِيِّين، وآستَبَحْتُ دِماءَ الدَّيْرانِيِّــين، وجَذَبْتُ رِداءَ الكِبْرياء عن البطريك، وخرجتُ عن طاعة البَــابِ، وصُمْتُ يوم الفِصْحِ الأكبر، وقعدتُ عن أهْلِ الشَّــعانين ، وأبيتُ عِيدَ الصليب والغِطاس ، ولم أحْفِلْ بعيد السَّــيِّدة ، وأكلتُ لَحْمَ الجَمَــل ، ودِنْتُ بدِين اليَهُود ، وأبَحْتُ حُرْمَةَ الطَّلاق ، وهدمْتُ بيَدِى كنيسة قُمَــامَةَ، وخُنْتُ المَسِيحَ فى وديعته، وتزوّجْتُ فى قَرَنٍ بامرأتين، وقلتُ : إن المسيح كآدَمَ خلقه اللهُ من تُرَاب، وكفرتُ بإحْياءِ العَيَازِرة ، ومجىء الفارقْلِيط الآخر، وبرئْتُ من التلامذة الآثنى عَشَر، وحرّم علىَّ الثلثمائة وثمــانية عشر ، وكسرتُ الصُّلْبانَ ، ودُسْتُ برِجْلى القُرْبان ، وبَصَقْتُ فى وجوه الرُّهْبان عند قولهم : كَيْرِ اليِصُون، وآعتقــدْتُ أن بعسه كفر الجون (؟)

وأنَّ يُوسفَ النَّجَّار زَنَىٰ بأم اليَسُوع وعَهَر ، وعطَّلْتُ النَّاقوس ، وملتُ إلىٰ ملّة المَجُوس ، وكَسرتُ صَليب الصَّلبُوت ، وطبختُ به لَحْمَ الجَمَل ، وأكلتُه فى أوّلِ يومٍ من الصَّوْم الكبير ، تحتَ الهَيكَلِ بحضْرَة الآباء ، وقُلتُ فى البنوّة مقالَ نُسْطُورس ، ووَجَّهتُ إلى الصَّخْرة وَجْهى ، وصدَّيتُ عن الشَّرْق المُنيرِ حيثُ كان المَظْهَر الكريم . وإلَّا بَرِئْتُ من النُّورانيين والشَّعْشَعانيين ، وأنكرتُ أنَّ السَّيدَ اليَسُوعَ أحْيا المَوْتىٰ وأَبْرأ الأَكْمَهَ والأبْرَصَ ، وقلتُ : إنَّه مَرْبُوب ، وإنه ما رُؤِىَ وهو مَصْلوب ، وأنكرتُ أن القُرْبانَ المقدَّس على المَذْبَح ماصار لَحْمَ المَسيح ودَمَه حَقيقه ، وخرجتُ فى النَّصرانية عن لاحِبِ الطريقه . وإلَّا قلتُ بدِينِ التوحيد ، وتعبَّدْتُ غيرَ الأرْباب ، وقصدْتُ بالمظانيات غير طريق الإخلاص ، وقلتُ : إن المَعادَ غيرُ رُوحَانِىٍّ ، وإن بَنِى المعمودية لا تَسِيح فى فَسِيح السماء ، وأثبتُّ وُجُودَ الحُورِ العِينِ فى المَعاد ، وأنَّ فى الدار الآخرة التلذذاتِ الجُسْمانية ، وخرجتُ خُروجَ الشَّعْرة من العَجِين من دينِ النصرانية ، وأكونُ من دِينِى مَحْروما ، وأقولُ : إن جرجيس لم يُقْتَلْ مَظْلوما ، وخرقتُ غفارة الرَّب ، وشاركتُ الشِّر[ير] فى سَلْبِ ثيابه ، وأحْدَثْتُ تحت صَليبِه ، وتجمَّرْتُ بخَشَبَته ، وصَفَعْتُ الجاثَليق . وهذه اليَمينُ يَمينى وأنا فلانٌ ، والنِّيةُ [فيها] بأسْرِها نيةُ مولانا السلطان الملك الأشرف ، ناصِرِ الدُّنيا والدِّين «شعبان» ونِيَّةُ مُسْتَحْلِفِىَّ ، والإلٰهُ والمَسِيح علىٰ ما أقول وَكِيل .

قلتُ : خلَطَ فى هذه اليمين بعضَ يمينِ اليعاقبة الخارجة عن مُعْتَقد الفرَنج الذين حَلَّفهم من مَذْهب المَلْكانية ، يظهرُ ذلك من النَّظَر فيما تقدّم من مُعْتقدات النصرانية قبل ترتيب أيْمانهم . علىٰ أنه قد أتَىٰ فيها بأكْثر مارتَّبه المَقَرُّ الشِّهابىّ بن فَضْلِ الله فى تَحْليفهم علىٰ صداقته ، وزاد مازاد من اليَمين المرتَّبة فى التَّحاليف على الهُدْنة السابقة وغيرها .

اليمين الثانيــة ـــ ممــا أهمله فى "التعريف" يمينُ أميرِ مَكّة .

والقاعدة فيهــا أن يحلّف علىٰ طاعةِ الســلطان، والقيامِ فى خِدْمة أمير الرَّكْب، والوَصِيَّةِ بالحُجَّــاج، والاحتفاظ بهم .

وهذه نسخة يمين حُلِّف بها الأمير نَجْمُ الدِّين أبو نُمَيٍّ أميرُ مكَّة المشرَّفة، فى الدَّولة المنصورية قلاوون الصالحى، فى شعبان سنة إحدىٰ وثمــانين وستمــائة .

ونُسْختها علىٰ ما ذكره آبن المُكَرَّم فى تَذْكِرته بعد آستيفاء الأقسام :

إنِّى أخلصتُ نِيَّتِى، وأصفَيْتُ طَوِيَّتِى، وساوَيْتُ بين باطنى وظاهرى فى طاعة مولانا الســلطانِ الملكِ المنصور، وولدِه السلطانِ المَلِك الصالح، وطاعةِ أولادهمــا وَارِثى مُلْكِهما، لا أُضمرُ لهم سُوءًا ولا غَدْرًا فى نفسٍ ولا مُلْكٍ ولا سَــلْطنة . وإنّى عدوٌّ لمن عاداهم، صديقٌ لمن صادقهم، حَرْبٌ لمن حاربهم، سِلْمٌ لمن سالمهم . وإنّنى لا يُخْرجُنِى عن طاعتهــما طاعةُ أحدٍ غيرِهمــا، ولا أتَلَفَّتُ فى ذلك إلىٰ جهــةٍ غير جهتهما، ولا أفعــلُ أمرًا مخالفًا لمــا آستقرّ من هذا الأمر، ولا أُشْرِكُ فى تحكمهما علىّ ولا علىٰ مَكَّة وحَرَمِها ومَوْقِف جبلها زيداً ولا عَمْــرًا . وإنّنى أَلْتزم ما آشــترطتُه لمولانا الســلطان ولولدِه فى أمر الكُسْوة الشريفة المنصورية الواصلةِ مِن مصر المحروسة وتعليقها على الكَعْبة الشريفة فى كل مَوْسِم، وأن لا يعلُوَها كُسْوة غيرها، وأن أقدِّم عَلَمــه المنصور علىٰ كلِّ عَلَمٍ فى كلِّ مَوْسم، وأن لا يتقــدّمه عَلَمُ غيره . وإنّنى أُسَهِّلُ زيارةَ البَيْت الحرامِ أيامَ مواسم الحجِّ وغيرها للزّائرين والطّائفين والبادين والعاكفينَ، والآمِّينَ لحَرَمه والحــاجّين والواقفين . وإننى أجتَهِد فى حِراسَتِهم من كلِّ عادٍ بفعله وقوله، ومُتَخَطِّفٍ للنــاس من حَولِه . وإنّنى أُؤَمِّنهم فى سِرْبِهم، وأُعْذِبُ لهم مَناهِلَ شُرْبِهم؛ وإنَّنى واللّهِ أستمرُّ بتفرّد الخطبة والسِّكّة بالآسم الشريف

المنصورى"، وأَفعلُ فى الخِدْمة فِعْلَ المخلِص الوَلىّ . وإنَّنى واللهِ واللهِ أمتثلُ مراسيمه آمتثـالَ النائبِ للمستنيب ، وأكون لداعى أمْرِه أوّلَ سامع مُجِيب . وإننى ألتزم بشروط هذه اليمين من أوّلها إلىٰ آخرها لا أنقُضُها .

المهيـــع الخامس

(فى صُورة كتابة نُسخ الأيمـان التى يحلف بهـا)

وقد جرت العادةُ أنه إذا آسـتقرّ مَلِكٌ فى المُلْك يُحَلَّفُ له جميعُ الأمراءِ والنوّابِ فى المملكة، وإذا آستقرّ نائبٌ من النوّاب فى نيابةٍ حُلِّفَ ذلك النائبُ عند آستقراره، وربّمـا آقتضت الحالُ التحليفَ فى غير هذه الأوقات .

ثم الأَيْمـان التى يُحَلَّف بها علىٰ ضربيـــن :

الضـــرب الأوّل

(الأَيْمـانُ التى يحلَّفُ بها الأمراءُ بالديار المصرية)

وقد جرت العـادةُ أن كُتَّاب دِيوانِ الإنشـاء يجتمع من يجتمعُ منهم بالقَلْعــة ، ويتصدّىٰ كلُّ واحدٍ منهم لتحْليف جماعةٍ من الأمراء والممـاليك السلطانية وغيرهم ، وينصَبُ المُصْحَفُ الشريفُ علىٰ كُرْسىٍّ أمامَ الحـالفين، ويحلِّفُ كلُّ كاتبٍ من كُتّاب الإنشاء من يُحَلِّفه تُجاهَ المصحفِ بألفاظ اليمين المتقدّمة الذّكر على الوَجْه الذى يُرْسم تَحْليفُهم عليـه ، ويكتبُ كلُّ واحدٍ من أولئك الكُتّاب أسمـاءَ الذين حَلَّفهم فى وَرَقةٍ ويُؤَرِّخها ويحملها إلىٰ ديوان الإنشاء فتخلَّدُ فيه .

الضـــــرب الثـــانى

(الأَيْمـان التى يحلّف بها نوّابُ السلطنة والأمراءُ بالممالك الشامية وما ٱنضمّ إليها)

وقد جَرَتِ العادةُ أنه إذا أُرِيدَ تحليفُ نائبٍ من نوّاب الممالك الخارجةِ عن الحَضْرة بالدِّيار المصرية أو أميرٍ من أمرائها أن تكتبَ نسخةُ يمين من دِيوانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية ، وتجهَّزَ إلى النائبِ أو الأميرِ الذى يُقْصَدُ تَحْليفُه فيحْلِفُ علىٰ حكمها متلفظا بألفاظها جَميعِها . قال فى "التثقيف" : وصِفَةُ مايكتب فى النُّسخة بعد البسملة من يمين الورق «أقول وأنا» ثم يخلى بياضا قليلا بقدر أصبعين لموضع كتابة الحالف ٱسمه ، ثم يكتبُ تحتَه من يمين الورق بهامش دَقِيقٍ جدّا «واللهِ واللهِ واللهِ » وتكمَّلُ تَتِمَّة النسخة علىٰ ما تقدّم ذكره . وتكون سُطورُها متلاصقةً سَطْرًا إلىٰ سَطْرٍ إلىٰ عند قوله «وهذه اليمين يمينى وأنا» فيخلّى بعد ذلك بياضًا قليلًا لموضع كتابة ٱسْمِ الحالف أيضا ؛ ثم يكتُبُ من يمين الورق : « والنِّية فى هذه اليمين بأسرها » إلىٰ آخر النسخة .

قلت : وكذلك نُسخُ الأَيْمان التى تكتبُ ليحلَّفَ بها فى الهُدَنِ التى تُفْرد الأيمانُ فيها عن الهُدَن ، يخلَّى فيها بياضٌ لكتابة الأسم بعد قوله « أقول وأنا » وبعد قوله «وهذه اليمين يمينى وأنا» سواء فى ذلك اليمين التى يحلَّف بها السلطان أو الملك الذى تقع معه المهادنة : من ملوك الإسلام أو ملوك الكُفْر .

وقد جرتِ العادةُ أن يكون الوَرَق الذى تكتب فيه نُسَخ الأَيْمـان التى يحلَّف بها النوّاب وغيرهم من الأمراء الخارجين عن الحَضْرة فى قَطْع العادة . أما ما يحلَّفُ به على الهُدَن فلم أقِفْ فيه علىٰ مقدار قَطْع الوَرَق . والذى يظهر أن كلّ يمينٍ تكون فى قَطْع الورق الذى يكاتَبُ بها ذلك الملكُ الذى يُحَلَّف .

المقالة التاسعة

فى عُقود الصُّلح والفُسُوخ الواردةِ على ذلك، وفيها خمسة(١) أبواب

الباب الأوّل

فى الأمانات، وفيه فصلان

الفصل الأوّل

فى عَقْد الأمان لأهل الكُفْر

قال فى "التعريف": وهو أقوى أمور الصُّلْح دلالةً على آشتداد السُّلْطان، إذ كان يُؤَمِّن الخائفَ أمْنًا لاعوَضَ عنه فى عاجلٍ ولا آجل، وفيه طرفان:

الطرف الأوّل

(فى ذِكر أصْله وشَرْطه وحُكْمه)

علم أن الأَمَانَ هو الأمرُ الأوّلُ من الأمور الثلاثة التى يُرْفعُ بها القتلُ عن الكُفَّار. قال العلماء: وهو من مَكايِدِ القتال ومَصالِحه وإن كان فيه تَرْكُ القتال: لأن الحاجة [داعِيَةٌ] إليه. والأصل فيه من الكِتَاب قولُه تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾. ومن السُّنَّة قولُه صلى الله عليه وسلم: «المُؤْمِنُون تَتَكَافَأُ دِماؤُهم، ويُجِيرُ عَلَيهم أدْناهُم، وهم يَدٌ على مَنْ سِواهم».

(١) كذا وقع أيضا فى فهرست المؤلف ج ١ ص ٢٩ من هذا المطبوع ولكن سيذكر آخر المقالة بابا سادسا فى الفسوخ.

وقد ذكر الفقهاءُ له أركانا وشرائط وأحكاما .

فأما أركانُه، فثلاثة :

الأوّل — العاقد للأمان من المسلمين . وليُعلَم أنَّ الأمانَ علىٰ ضربين : عامٍّ وخاصٍّ . فالعامُّ هو عَقْدُه للعَدَد الذى لا يُحْصَر كأهْلِ ناحية، ولا يصحُّ عَقْدُ الأمانِ فيه إلا من الإمامِ أو نائبه كما فى الهُدْنة . والخاصُّ هو عَقْدُه للواحد أو العَدَدِ المحصور، ويصحُّ من كلِّ مُسلمٍ مكلَّفٍ [وإن لم تكن] له أهليةُ القِتال، فيصح من العَبْد والمرأة والشَّيْخ الهَرِم والسَّفيه والمُفْلِس، بخلاف أمانِ الصَّبىِّ والمجنون .

الثانى — المعقود له، ويصح عَقْدُه للواحد والعَدَدِ من ذكور الكُفَّار وإناثهم . نَعَم فى تأْمينِ المرأة عن الاسترقاق خلاف .

الثالث — صيغة العَقْد . وهى كلُّ لفظٍ يُفْهِم الأمانَ كنايةً كان أو صريحًا، وفى معنى ذلك الاشارةُ المُفْهِمة . ويعتبرُ فيه قَبُول الكافر، فلا بدّ منه حتى لو ردَّ الأمانَ لم ينعقد، وفيما إذا سكت خلافٌ . نَعَم لو دخل للسِّفارة بين المسلمين والكُفَّار فى تبْليغ رسالة ونحوها، أو لسماع كلام الله تعالىٰ لم يُعتبر فيه عَقْد الأمان، بل يكون آمِنًا بمجرد ذلك، أما لو دخل لقَصْد التجارة بغير أمانٍ فإنه لا يكون آمِنًا إلَّا أن يقولَ الامامُ أو نائبُه : من دخل تَاجِرًا فهو آمِنٌ .

وأما شرطه، فأن لا يكونَ على المسلمين ضَرَرٌ فى المسْتَأْمِن : بأن يكون طَلِيعَةً أو جَاسُوسًا، فإنَّه يقتل ولا يُبالَىٰ بأمانه، ويعتبرُ أن لا تَزِيدَ[1] مدّةُ الأمان

(١) عبارة "المنهاج" ويجب أن لا تزيد مدته على أربعة أشهر" وفى قول يجوز مالم تبلغ سنة" قال صاحب التحفة : فان بلغتها امتنع قطعا .

علىٰ سَـنَةٍ بخلاف الهُـدْنة ، فقد تقدّم أنهـا تجوزُ عند ضَـعْف المسلمين إلىٰ عَشْرِ سنين .

وأما حكمه ، فإذا عُقِد الأمانُ لزم المَشْروط ، فلو قتله مسـلمٌ وجبت الدِّيَةُ . ثم هو جائز من جهة الكُفَّار ، فيجوز للكافر نَبْذُه متَى شاء ، ولَازِمٌ من جهـة المسلمين ، فلا يجوز النَّبْذُ إلا أن يُتَوقَّعَ من المُسْتَأمِنِ الشَّرُّ ، فإذا تُوُقِّعَ منه ذلك جاز نَبْذُ العَهْد اليـه و يلحقُ بمأْمَنِه ، وبَقِيَّةُ فِقْهِ الفَصْل مستوفًى فى كُتُب الفِقْه .

الطـــرف الثـانى

(فى صـــورة ما يكتب فيـــه)

والأصل مارواه ٱبن إسحق أنَّ رِفاعَةَ بن زَيْدٍ الخزاعى[1] قَدِم علىٰ رسول الله صلى الله عليه وسلم فى هُدْنة الحُدَيْبِيَة ، فأهدىٰ لرسول الله صلى الله عليه وسلم غُلاما ، وأسلم وحَسُن إسلامُه ، وكتب له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم كِتَاباً إلىٰ قومه فيه :

« بسم الله الرحمن الرحـيم »

« هذا كِتَابٌ من محمد رسولِ اللهِ لرِفاعةَ بنِ زَيْدٍ : إنى بعثتُه إلىٰ قَوْمه »
« عامَّةً ومَنْ دَخَل فيهم يدْعُوهم إلى الله تعالىٰ و إلىٰ رسوله ؛ فَمَنْ أَقْبَلَ »
« منهم ففِى حِزْبِ اللهِ ورسولِه ، ومن أدبر فلَهُ أَمَانُ شَهْرين » .

فلما قدم رِفاعَةُ علىٰ قومه أجابوا وأسلموا .

---

(١) فى الأصل الجذامى والتصحيح من السيرة النبوية ص ٣٣ ج ٣ وقد ضبطها بالعبارة .

ثم للكُتّاب فيه مذهبان :

المذهب الأوّل — أن يُفتتَح الأمانُ بلفظ : « هذا كتابُ أمانٍ » أو « هذا أمانٌ » وما أشبه ذلك، كما ٱفتتح النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما كَتَب به لرفاعة بن زَيْد على ما تقــدّم .

وعلى ذلك كتب عمرُو بن العَاص رضى الله عنـه الأمانَ الذى كتب به لأهـل مِصْرَ عند فَتْحها، ونَصُّه بعد البسملة :

"هذا ما أعطى عمرُو بنُ العاصِ أهلَ مِصْر من الأمانِ على أنْفُسهم ومِلَّتِهم(1) وأموالهم وكَنائسهم وصُلُبهم وبَرِّهم وبَحْرهم ، لا يدخل عليهم شىءٌ من ذلك ولا يُنْتقَص ، ولا تُساكِنُهم النُّوبَةُ . وعلى أهـلِ مِصْر أن يُعْطُوا الجِزْيةَ إذا ٱجتمعوا على هـذا الصُّلْح، وٱنتهتْ زيادةُ نَهْرهم ـ خمسين ألفَ ألفٍ . وعليه ممَّنْ جَنَىٰ نُصْرَتُهم ، فإن أبىٰ أحدٌ منهم أن يُجيب رُفِع عنهم من الجزَىٰ بقدر [هم وذِمّتُنا ممَّن أبَى بَرِيَّة ، وإن نقَصَ نَهْرُهم عن غايته إذا ٱنتهى رفع عنهم بقدر](2) ذلك ؛ ومن دخل فى صُلْحهم : من الرُّوم والنُّوبَةِ فلَهُ مالَهُم وعليه ما عليهم ؛ ومن أبَى وٱختار الذَّهابَ فهو آمِنٌ حتى يبلُغَ مَأْمَنَه أو يخرجَ من سُلْطاننا . وعليهم ما عليهـم أثلاثاً فى كلِّ ثُلُثِ جِبـايةُ ثُلُثِ ما عليهـم . على ما فى هذا الكتاب عهْدُ اللهِ [وذِمَّتُــه](2) وذِمَّةُ رسوله وذِمَّةُ الخليفـة أميرِ المؤمنين [وذِمَم المؤمنين](2) . وعلى النُّوبَةِ الذين ٱسـتجابوا أن يُعينوا بكذا وكذا رَأْسًا، وكذا وكذا فَرَسًا ، على أن لا يُغْزَوْا ولا يُمْنَعُوا من تجارةٍ صادرةٍ ولا وَاردَة .

شَهِد الزُّبير وعبدُ الله ومحمدٌ ابناه، وكَتَبَ وِرْدَانُ وحَضَر" .

---

(1) فى العبر ص ١١٥ بقية الجزء الثانى «ودمهم» وفيه بعض التغيير من زيادة ونقص .

(2) الزيادة من العبر ص ١١٥ بقية ج ٢ .

وعلىٰ ذلك كتب الحافظ لدين الله أحد خُلَفاء الفاطميِّين الأمانَ لبَهْرامَ الأرمَنِيّ ، حين صُرِف من وزارته وهرب عنه إلىٰ بلاد الأَرْمَنِ ، وكَتَب إلى الحافظ يُظْهِر الطاعةَ ويسأل تَسْيِيرَ أقاربه ، فكتب له بالأمانِ له ولأقاربه .

فأما ما كُتِب له هو فنَصُّه بعد البسملة .

هـذا أَمَانٌ أمَر بكَتْبِه عبدُ الله ووَلِيُّه عبدُ المَجِيد أبو المَيْمونِ الحافظُ لدين الله أميرُ المؤمنين ، للأمير المقدَّمِ ، المُؤَيَّد ، المنصورِ ، عِزِّ الخلافةِ وشَمْسِها ، وتاجِ المملكة ونِظامِها ، فَخْرِ الأمراء ، شَيْخِ الدولة وعِمادِها ، ذِى المَجْدَيْن ، مُصْطفىٰ أميرِ المؤمنين بَهْرامَ الحافظى : فإنك آمِنٌ بأمان الله تعالىٰ ، وأمانِ جَدِّنا محمدٍ رسولِه ، وأبينا أميرِ المؤمنين عَلِيِّ بن أبى طالب صلى الله عليهما ، وأمانِ أميرِ المؤمنين ، علىٰ نَفْسك ومَالك ، وأهْلِك وجميع حالك ، لا يَنالُك سُوءٌ ، ولا يَصِلُ إليك مَكْروه ، ولا تُقْصَد باغتيال ، ولا يُخْرَج بك عن عادَةِ الإحسان والإنعام ، والتَّمييزِ والإكرام ، وحَرَاسةِ النَّفْس ، والصَّوْنِ للحريم والأَهْلِ ، والرِّعاية فى القُرْب والبُعْد ، مادُمْتَ متحيِّزًا إلىٰ طاعة الدولة العَلَوِيَّة ، ومُتَصَرِّفًا علىٰ أحكام مُشايَعَتِها ، مُواليًا لمُواليها ، ومُعاديًا لمُعاديها ، ومُسْتَمِرًّا علىٰ مَرْضاة إخلاصك . فثِقْ بهـذا الأمانِ وٱسْكُنْ إليـه ، وٱطْمَئِنَّ إلىٰ مَضْمونه ، واللهُ بمـا أُودِعَه كَفيلٌ وعليه شَهيد ، وما تَوْفيقُ أميرِ المؤمنين إلا بالله ، عليه يتوكَّلُ وإليه يُنِيب .

وأما الأمانُ الذى كُتِب لأقاربه فنَصُّه :

هذا أمانٌ تقدّم بكَتْبِه عبـدُ الله ووَلِيُّه ، لبسيل وزرقا ، وبهرامَ ٱبن أُخْتِهما ، ومن يَنْتمِى إليهم ويتعلَّقُ بهم ، ويلتزمون أمْرَه ممن دُونَهم ، ومن يَتَمَسَّكُ بسَبَبِهم .

مضمونه : إنكم مَعْشَرَ الجماعة بأسْرِكُم لما قصدتُم الدَّوْلةَ ووفَدْتم عليها، وتَفَيَّأْتُم ظِلَّها وهاجرتُم إليها، شَمِلَكم الصُّنْع الجميل ، وغَمَرَكُم الإنعامُ السَّابغُ والإحسانُ الجَزيل ، وكُنِفْتم بالرِّعاية التامَّة، والعنايةِ الخاصَّة لا العناية العامَّة ، ووُفِّر حَظُّكم من الواجبات المقرّرة لكم ، والإقْطاعاتِ الموسُومة بِكُم ؛ وكنتم مع ذلك تَذْكرون رَغْبَتَكم فى العَوْد إلىٰ دياركم، والرُّجُوع إلىٰ أوْطانِكم، وٱلْتِفاتاً إلىٰ مَن تركتموه من ورائكم. وقد سِرْتُم من الباب علىٰ قَضِيَّة المخافة، وقد أمَّنَكُم أميرُ المؤمنين ، فأنتم آمنون بأمان الله تعالىٰ وأمانِ جَدِّنا محمدٍ رسولِه وأَبِينا أميرِ المؤمنين : علىٍّ بن أبى طالبٍ، صلى الله عليهما ، وأمانِ أمير المؤمنين ، علىٰ نُفُوسكم وأهْلِيكم وأمْوالكم وما تَحْوِيه أيديكم ويحوزه مِلْكُكم، ويشتملُ عليه ٱحتياطكم ؛ لا يَنَالُكم فى شَىْءٍ من ذلك مَكْروه، ولا سَبَب مَخُوف، ولا يَمَسُّكم سُوءٌ، ولا تَخْشَوْن من ضَيْم ، ولا تُقْصَدُون بأذيَّة ، ولا يُغَيَّر لكم رَسْمٌ ، ولا تُنقضُ لكم عادة، وأنتم مُسْتَمِرُّون فى واجباتكم وإقْطاعاتكم علىٰ ما عَهِدتموه، ولا تُنْقَصُون منها ، ولا تُبْخَسون فيها . هذا إذا رَغِبتم فى الإقامة فى ظِلَالِ الدَّولة، فإن آثَرْتُم ما كنتم تذكرونَ الرَّغبةَ فيه من العَوْدةِ إلىٰ دِيارِكم عند ٱنْفتاح البَحْر ، فهذا الأمانُ لكم إلىٰ أن تتوجَّهوا مَشْمُولين بالرعاية، مَلْحُوظين بالعناية، ولكم الوَفاءُ بجميع ذلك، والله لكم به وَكِيلٌ وكَفِيلٌ، وكَفَىٰ به شهيدا .

المذهب الثانى — أن يُفتتح الأمانُ المكْتَتَب لأهْلِ الكُفْر بالتَّحْميد ، ثم يقال : « ولما كان كذا وكذا ٱقتضَى حُسْنُ الرَّأْى الشريف كذا وكذا » ثم يقال : « فلذلك رُسم بالأمر الشريف أن يكون كذا وكذا » علىٰ نحو ما يُكْتب فى الولايات .

وعلىٰ ذلك كُتِبَ عن السلطان الملك الناصر « محمد بن قلاوون » أمانٌ لفراكس صاحبِ السّرب، من مُلوك النصارىٰ بالشّمال وزَوْجَتِه ومن معهما من الأتباع، عند طَلَبِهم التّمكينَ من زيارة القُدْس الشريف، وإزالة الأعْراض عنهم، وآستِصْحاب العناية بهم، إلىٰ حِينِ عَوْدِهم آمِنِينَ علىٰ أنفسهم وأموالهم، من إنشاء الشريف شهَابِ الدِّين كاتبِ الإنشاء .

ونَصُّه بعد البسملة :

أمّا بعدَ حَمْدِ اللهِ الذى أَمَّنَ بمهابتنا المَنَاهِجَ والمَسَالك، ومَكَّنَ لكَلِمتنا المُطاعَة فى الأقْطارِ والآفَاقِ والمَمَالك، وأعان علىٰ لِسانِنا (١) بدَعْوةِ الحَقِّ التى تَنْفِى كلَّ كَرْبٍ حَالِكٍ وتَكْفِى كلَّ كَرْبٍ حالك، والشّهادةِ له بالوَحْدانية التى تَنْفِى المُشابِهَ والمُشارِك، وتَفِى بالمِيعَادِ من الإصْعادِ على الأَرَائك؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أنجده ببُعُوث الملإِ الأعلىٰ من المَلَائك، وأيّده بالصَّوْنِ المُلازِمِ والعَوْنِ المُتَدَارك، ووَعَده أنْ سَيَبْلُغُ مُلْكُ أمّته ما بين المَشْرق والمَغْرِب وأنْجَزَ له ذلك، وعلىٰ آله وصحبه الذين زَحْزَحُوا عن المَهَالك، ونَصَحُوا لله ورَسوله وأكرِمْ بأولٰئك ! ! ! ـ فإن كَرَمنا يَرْعى الوُفُود، وشِيَمنا تُدْعىٰ فتَجُود، وذِمَمَنا بها حَفْظ الحقوقِ وحِفْظُ العُهود، فبِخِدَمنا يَنْجَحُ كُلُّ مقصود، وبنِعَمنا تُمْنَحُ الأمانىُّ والمُنَى وهُما أعظمُ نعمتين فى الوجود؛ فليس آمِلٌ عن أبواب سَماحنا بمَرْدُود، ولا مُتَوَسِّلٌ إلينا بضراعة إلا ويرجع بالمَرَام ويَعُود .

ولما كانت حَضْرة المَلِك الجَليل، المُكَرَّم، المَبَجَّل، العَزِيز، المُوقَّر، "إستيفانوس فراكس" : كَبِيرِ الطائفة النَّصْرانية، جَمالِ الأمّة الصَّلِيبِيَّة، عِمادِ بَنِي المعمودية،

(١) لعله «وأعان لسانا على دعوة الخ» .

صـديقِ المُلُوكِ والسلاطين، صاحبِ السَّرْب ـ أطال الله بقاءه ـ قد شمله إقبالُنَا المَعْهود، ووَصَلَه إفضالُنا الذى يَحْجِزُ عن مَيامِنِه السُّوءَ ويُنْجِز الوُعُود ـ ٱقتضىٰ حُسْنُ الرَّأْيِ الشريف أن نُيَسِّرَ سَبِيلَه، ونُوَفِّرَ له من الإكرام جَسِيمَه كما وَفَّرنا لغيره من الملوك مَسُولَه؛ وأن يُمَكَّنَ من الحضور هو وزوجته ومن معهما من أتباعهما إلىٰ زِيَارَةِ القُدْس الشريف، وإزالة الأعْراضِ عنهم، وإكرامهم ورعايتهم، وٱسْتِصْحاب العناية بهم، إلىٰ أن يعودُوا إلىٰ بلادهم، آمِنِينَ علىٰ أنفسهم وأموالهم، ويُعامَلُوا بالوَصِيَّة التامَّة، ويُواصَلُوا بالكرامة والرعاية إلىٰ أن يعُودوا فى كَنَفِ الأمْنِ وحَرِيم السَّلامه؛ وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه أن يسمَعَ كلامه، ويَتْبَعَ إبْرامَه، ولا يَمْنَعَ عنهم الخَيْر فى سَيْرٍ ولا إقامه، ويدفَعَ عنهم الأَذَىٰ حيثُ ورَدُوا أو صدَرُوا فلا يَحْذَرُوا إلْمَامَه؛ والله تعالىٰ يُوَفِّرُ لكلِّ مُسْتَعِينٍ من أبوابنا أقْساطَ الأمْنِ وأقْسامَه، ويُظْفِرُ عَزْمَنا المحمدىَّ بالنَّصر السَّرْمدىِّ حتَّى يُطَوِّق الطائعَ والعاصِىَ حُسامَه. والعلامةُ الشريفة أعلاه حُجَّةٌ فيه، والخيرُ يكونُ إن شاء الله تعالىٰ:

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الأوّل من المقالة التاســـعة

(فى كتابة الأمانات لأهل الإسلام وما يُكتب فيها، ومذاهِب الكُتَّاب فى ذلك فى القديم والحديث، وأصلِه ؛ وفيه طرفان)

الطـــــرف الأوّل

(فى أصْـــلِه)

اِعلم أنَّ هذا النوعَ فَرعٌ ألْحقَه الكُتَّاب بالنوع السابق ، وإلا فالمُسْلِم آمِنٌ بقَضيَّة الشَّرْع بمجرَّد إسلامه ، بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أن أُقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يقُولوا لا إلٰهَ إلا اللهُ فإذا قالُوها عَصَمُوا منِّى دِماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّها» . وإنما جَرَت عادةُ الملوكِ بكتابة الأمانِ لكلِّ من خاف سَطْوَتَهـم ، لا سيَّما مَن خرج عن الطَّاعة ، وخِيفَ آستِشْراءُ الفساد باستمرار خُروجِه عن الطاعة خَوْفًا ؛ حتَّىٰ صار ذلك هو أغلبَ ما يُكْتبُ من دواوين الإنشاء .

وقد ورد فى السُّنَّة مايدلُّ لذلك ، وهو مارواه أبو عُبَيدٍ فى "كتاب الأموال" عن أبى العلاء بن عبد الله بن الشِّخِّير أنه قال : كنا بالمِرْبَد ومعنا مُطَرِّف ، إذ أتانا أعرابىٌّ ومعه قِطْعةُ أَدِيم ، فقال : أفيكُمْ مَن يقرأ ؟ قُلنا : نعم ، فأعطانا الأَدِيمَ فإذا فيه :

« بسم الله الرحمٰن الرحـــيم »

«من محمدٍ رسُولِ اللهِ لبَنِى زُهَيْر بن أُقَيْشٍ من عُكْلٍ . إنَّكم إن شَهِدْتُم»
«أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ، وأقَمْتُم الصلاةَ، وآتيْتم الزَّكَاةَ، وفارَقْتُم المشركينَ ،»

«وأعطيتم من الغنائم الخُمُسَ، وسَهْمَ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم والصَّفِيَّ»؛ «أو قال: وصَفِيَّه، فأنتم آمِنُون بأمان اللهِ ورسُوله».

الطــــرف الثـانى
(فيما يُكتب فى الأمانات)

وللكُتَّاب فى ذلك مذهبان:

المذهب الأوّل — أن يفتتح الأمانُ بلفظ: «هـذا كِتَابُ أمانٍ» أو «هذا أمانٌ» ونحو ذلك، علىٰ ما تقدّم فى الفصل السابق.

قال فى "مَوادِّ البيان": والرسمُ فيه: «هذا كتاب أمانٍ، كتبه فلانُ بن فلانٍ الفلانىّ أميرُ المؤمنــين أو وزيرُه، لفلان بن فلان الفلانىّ الذى كان من حاله كذا وكذا، فإنه قد أمَّنــه بأمَانِ الله تعالىٰ وأمانِ رسُولِه صلى الله عليــه وسلم وأمَانه». فإن كان عن الوزير قال: «وأمان أمير المؤمنين فلان بن فلان وأمانه، علىٰ نَفْســه وماله، وشَعْرِه، وبَشَرِه، وأهْـلِه، ووَلَدِه، وحُرَمِه، وأشياعِه، وأتْباعِه، وأصحابِه، وحَالِه، وذاتِ يَدِه، وأملاكِه، ورِباعِه، وضِــياعِه، وجميعِ ما يخصُّه ويخصُّهم — أمانًا صحيحًا، نافذا واجبًا لازمًا، لا يُنْقضُ ولا يُفْسَخُ ولا يبَدَّلُ، ولا يُتَعقَّب بمَخاتلة، ولا دِهَانٍ ولا مُوارَبة، ولا حِيـلَةٍ ولا غِيلَةٍ. وأعطاه علىٰ ذلك عَهْدَ الله وميثـاقَه وصَــفْقَةَ يَمِينِه، بنِيَّةٍ خالصــةٍ له ولجميع من ذُكِر معه، وعَفَـا له عن كلِّ جَرِيرةٍ متقدِّمَة، وخَطِيئةٍ سالفــة، إلىٰ يوم تاريخ هــذا الأمان، وأحَلَّه من ذلك كُلِّه، وآســتقبله بسلامة النَّفْس ونَقَاءِ السريرة، وأوجب له من الرِّعاية ما أوجبه لأمثاله،

ممن شَمله ظِلُّه ، وكَنَفَتْه رِعايَتُه ، حاضرًا وغائبًا ، وملَّكه من ٱختياره قريبًا و بعيدًا ، وأن لا يُكْرِهَه علىٰ ما لا يريده ، ولا يُلزِمَه بما لا يختارُه» .

قلتُ : هـذا ما أصَّلَه صاحِبُ "مواد البيان" : فى كتابة الأمانات . ومقتضاه ٱفتتاحُ جميع الأمانات المُكْتَتَبة عن الخليفة أو الوزير أو غيرهما بلفظ « هذا » . وسيأتى أن الأماناتِ قد تُفْتَتَحُ بغير هـذا الآفتتاح : من الحمد وغيره ، علىٰ ما سيأتى بيانُه ، ولعل هذا كان مُصْطلَح زمانِه فوقَفَ عنده .

و بالجملة فالأماناتُ المكتتبةُ لأهل الإسلام علىٰ نوعين :

النـــوع الأوّل

(ما يُكْتب عن الخلفـاء ، وفيه مذهبان)

المذهب الأوّل — طريقـة صاحب "مواد البيان" المتقدّمةُ الذِّكْر ، وهى أن يُفْتَتَحَ الأمانُ بلفظ « هـذا » وحينئذ فيقال : « هذا كتابُ أمانٍ كتبَه عبد الله فلان أبو فلانٍ أميرُ المؤمنين الفلانىُّ ، أعزَّ اللهُ تعالىٰ به الدِّينَ ، وأدام له التَّمْكين ، لفلان الفلانىّ ، فإنَّه قد أمَّنه بأمانِ الله تعالىٰ ، وأمانِ رسولِه صلى الله عليه وسلم وأمانِه ، علىٰ نَفْسِه ، ومالِه ، وشَعْرِه ، وبَشَرِه ، وأهْلِه ، وولَدِه ، وحُرَمِه ، وأشْياعِه ، وأتباعِه ، وأصحابه ، وحالِه ، وذَاتِ يَدِه ، وأملاكه ، وربِاعِه ، وضِياعِه ، وجميع ما يخُصُّه ويخُصُّهم — أمانًا صحيحًا ، نافذا واجبًا لازمًا ، لا يُنْقَضُ ولا يُفْسَخُ ، ولا يُبَدَّلُ ، ولا يُتعقَّبُ بمخاتَلة ، ولا دِهانٍ ولا مُوارَبة ، ولا حِيلةٍ ولا غِيلَة ؛ وأعطاه علىٰ ذلك عَهْدَ اللهِ وميثاقَه وصَفْقَة يَمِينه ، بنيَّةٍ خالصةٍ له ولجميع من ذُكِر معه ، وعَفَا له عن كلِّ جريرةٍ متقدّمةٍ ، وخَطِيئةٍ سالفة ، إلىٰ يوم تاريخ هـذا الأمان ،

وأحلَّه من ذلك كلِّه ، وآستقبله بسلامة النَّفْس ونَقَاءِ السريرة ، وأوجب له من الرِّعايةِ ما أوجبه لأَمثاله : مِمَّن شَمِلَه ظلُّه ، وكَنَفَتْه رعايتُه ، حاضرا وغائبا ، ومَلَّكه من آختياره قَرِيبًا وبعيدًا ، وأن لايُكْرِهَه علىٰ مالا يريدُه ، ولا يُلْزِمَه بما لايختارُه» .
وغير ذلك ممـا يَقْتضيه الحالُ ويَدْعُو إليه المقام .

المذهب الثـانى — أن يفتتح الأمان بخُطْبةٍ مفتتحةٍ بالحَمْد . والرسم فيـه أن يُستفتحَ الأمانُ بخُطْبةٍ يكرَّرُ فيها الحمدُ مرتين أو ثلاثا فأكثر، بحسب مايقتضيه حالُ النِّعمة علىٰ من يصْدُر عنه الأمانُ فى الآسـتظهار علىٰ مَن يُؤَمِّنه . يحمدُ اللهَ فى المَرَّة الأُولىٰ علىٰ آلائه ، وفى الثانية علىٰ إعْزاز دينه ، وفى الثالثة علىٰ بِعْثة نَبِيِّه ، وفى الرابعة علىٰ إقامة ذلك الخليفة من بَيْت النبوّة لإقامة الدِّين . ويأتى مع كلِّ واحدة منهـا بمـا يناسب ذلك ، ثم يذكُرُ الأمانَ فى الأخيرة .

وهذه نُسخةُ أمانٍ من هذا النَّمَط ، كُتِب به عن بعض متقدِّمى خُلَفاء بنى العَبَّاس ببَغْـداد ، أوردها أبو الحُسَين أحمدُ بن سَعِيدٍ فى "كتاب البلاغة" الذى جمعه فى الترسُّـــل :

الحمدُ لله المَرْجُوِّ فَضْـلُه ، المَخُوف عَدْلُه ، بارئ النَّسَم ، ووَلِىِّ الإحسانِ والنِّعَم ، السابقِ فى الأمُورِ علْمُه ، النَّافذِ فيها حُكْمُه ، بمـا أحاط به من مُلْكِ قُدْرته ، وأنفذ من عزائم مَشِيئَته ؛ كلُّ ماسواهُ مدَبَّرٌ مخلوق وهو أنشاه وآبْتَداه ، وقدّر غايتَه ومُنْتهاه .

والحمدُ لله المُعِزِّ لدينـه ، الحافِظ من حُرماتِه ماتربَّصَ المتربِّصُون[1] عن حياطتـه ، المُـذْكِى من نُوره ما دأب الملحِدُون لإطْفـائه حتَّى أعلاه وأظهره كما وَعَد فى مُنْزَل

(١) فى اللسان « رجل رُبْضة ومتربِّض عاجز» ولعل ماهنا منه وهى فى الأصل بالصاد المهملة .

فُرقانه بقوله جَلَّ ثَنَاؤُه : ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَه بِالْهُدىٰ ودينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ .

والحمدُ للهِ الذى بعث محمدًا رحْمَةً للعالمين ، وحُجَّةً علىٰ الجاحِدين ، نختم به النبيين والمرسلين ، صلواتُ الله عليهم أجمعين ، وجعله الدَّاعىَ إلىٰ دينِ الحَقّ ، والشَّهيدَ علىٰ جميع الخَلْق ، فأدَّىٰ إليهم ما ٱسْتُودِع من الأمانة ، وبلَّغهم ما حُمِّلَ من الرِّساله ، فلما أنقذَ اللهُ به من التَّوَرُّط فى الضَّلاله ، والتَّهوُّر فى العَمَىٰ والجَهَاله ، وأوضح به المَعَالِمَ والآثار ، ونَهَج به العَدْل والمَنَار ، ٱختار له ما لديه ، ونقله إلىٰ ما أعدّ له فى دَارِ الخُلُود : من النَّعيم الذى لا يَنْقَطِعُ ولا يَبِيد . ثم جعله فى لُحْمَتِه وأَهْله وراثة بما قلدهم من خلافته فى أُمَّتِه ، وقدّم لهم شَواهِدَ ما ٱختصَّهم به من الفضيله ، وزُلْفَةِ الوَسيله ، فى كتابه النَّاطق ، علىٰ لسان نَبِيِّه الصادق ، صلى الله عليه وسلم — منها ما أخبر به من تَطْهِيره إيَّاهُم : ليجعلهم لِمَا ٱختاره مَعْدِنًا ومَحَلًّا ، إذ يقول جَلَّ وعَزَّ : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ . ومنها ما أمر الله به رسولَه صلى الله عليه وسلم من مَسْألته أُمَّتَه المَوَدَّة ، فقد أوضح لِذَوى الألباب أنهم مَوْضِعُ خِيرتِه ، بتطهيره إياهم ، وأَهْلُ صَفْوتِه ، بما ٱفترض من مَوَدَّتِهم ، وولاةُ الأَمْرِ الذين قَرن طاعَتَهم بطاعَتِه .

ولم يزِل اللهُ بعظيم مَنِّه وإنْعامه يُدْعِم أَرْكانَ دِينِه ، ويُشَيِّدُ أعلامَ هُداه ، باعزاز السلطان الذى هو ظِلُّه فى أَرْضِه ، وقِوامُ عَدْله وقِسْطه ، والحِجازُ الذَّائدُ لهم عن التَّظالُمِ والتَّغاشُم ، والحِصْن الحَرِيزُ عند مَخُوف البَوائِق ومُلِمِّ النَّوائِب ، فليس يَكِيدُ وُلاتَه المُسْتَقِلِّين بحقِّ الله فيه كائد ، ولا يجحدُ ما يجبُ لهم من حقِّ الطاعة جاحِد ، إلّا من ٱنطوى علىٰ غِشِّ الأُمَّه ، ومُحاوَلَةِ التَّشْتيت للكَلمه .

والحمدُ لله علىٰ ما تولّىٰ به أميرَ المؤمنين فى البَدْءِ والعاقبة : من الإِدْلاءِ بالحُجَّة ، والتّأْييدِ بالغَلَبة ، عند نَشْوه من حيز وطأة الخفض (؟) ، متّبعا لكتاب الله حيثُ سلك به حُكْمُه ، مُقْتفيًا سُنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم حيثُ ٱنسابَتْ أمامَه ، باذلًا لله نَفْسَه ، لا يصُدُّه وعيدُ مَنْ تكبَّر وعتا ، ولا يُوحشُه خِذْلانُ من أدْبر وتولّىٰ ، مُنْتظِرًا لمن نكثَ عَهْدَه وغدر ببَيْعته وٱلْتمس المَكْر به فى حَقّه الآياتِ الموجبة فى قوله : ﴿ ثُمَّ بُغِىَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ ٱللّهُ ﴾ . ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ﴾ . مُكْتفيًا بالله ممّن خَذَله ، مُسْتعينًا به علىٰ من نصَب ، لا يَسْتفزُّه ما أجْلبَ به الشيطانُ من خَيْله ورَجْله ، وهو فى أنصاره المعتصمين ، لا تستَهْويهم الشُّبَه فى بصائرهم ، ولا تَخُونُهم قَواعِدُ عزائمهم فى ساعة العُسْرَة مِنْ بَعْدِ ما كادَتْ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُم ، فكَتَّبهُمْ أميرُ المؤمنين ، وأنْهدهُم لعَدُوّه ، ينتظرون إحْدَى الحُسْنَيَيْن : من الفَلْج المُبين ، والفَوْز بالشّهادة والسعادة ، فليس يُلْفِتُهم عن حقّهم ما يَتَلَقَّوْنَ به من الترغيب والترهيب ، ولا يزدادون علىٰ عَظيم التّهاويل والأخطار إلا تَقَحُّمًا و إقداما ؛ مُتَمثِّلين لسِيَرِ إخوانهم قبلهم فيما ٱقتص الله عليهم من شأْنهم ، إذ يقول جلّ وعزّ : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ .

وكان بِدايةَ جُنْد أمير المؤمنين فى حَرْبهم التَّقدُّمُ بالإِعْذار والإِنْذار ، والتّخْويف بالله جلّ وعزّ وأيّامه ، وماهُم مسئولونَ عنه فى مَقامه : من عُهودِه المؤكّدة عليهم فى حَرَمه ، و بين رُكْنِ كَعْبته ومقام خَليله ، المعَلّقة فى بَيْته ، الشاهِد عليها وُفُودُه .

فكان أوّلَ ما بَصَّرهم اللهُ به حُجّتُه التى لا يقطعُها قاطِع ، ولا يدفعُها دافع ، ثم ما جعلهم الله عليه من التناصُر والتّوازُر الذى فَتّ فى أعْضادِهمْ ، ورماهم به من

التَّخاذُل والتَّواكُل ؛ فكُلَّما نَجَمَتْ لهم قُرونٌ ٱجتثَّها اللهُ بحدّ أوليائه ، وكلَّما مَرَق منهم مَارِقٌ أسالَ اللهُ مُهْجَتَه ، وأورثهم أرْضَه ودِيارَه .

ومَخْلوعُهم المُبْتدِئُ بمـا عادتْ عليهـم نِقْمتُه ونَكَالُه قد أعْلَق بالرِّدَّة ، وصَرَّحتْ شياطينُه بالغَدْرِ والنَّكْثِ ، يرى بذلك الذُّلَّ فى نَفْسه وحِزْبِه ، وتَنْتقصُ عليه الأرضُ من أطْرافِها وأقْطارِها ، ويُؤْتَىٰ بُنْيـانُه من قواعده ، ويَرُدُّ اللهُ جُيوشَهم مَفْـلولة ، وجُنودَهم مُخَلّاة عن مراكِزِها ، مَقْموعًا باطِلُهـا . وليس مع ما ناله من سُخْط الله جلَّ وعزَّ نازِعًا عن ٱنْتِهاكِ مَحَارِمه ومآثِمِـه ، ولا مُحْدِثًا عن جَائحةٍ يحُلُّها به إحْجامًا عن التَّقحُّم فى ملاحمه الملبسـة له فى عاجل مايُرْدِيه ويُوبِقُه ، وآجل مايرصُـدُ الله به المُعانِدينَ عن سبيله ، النَّاكبين عن سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأميرِ المؤمنين – إذْ جمعَ اللهُ له مُتبايِنَ الأُلْفه ، وضمَّ له مُنْتَشِرَ الفُرْقه ، علىٰ مَعْرفته بحَرْبِه وحِزْبِه ، وعَدُوِّه ووَلِيِّه ، ومن سَعىٰ له أو عليه ، أو أطاع اللهَ أو عصاه فيه : من وَافٍ ببَيْعـة ، أو خَاترٍ بإلٍّ وذِمَّة [جَدِيرٌ] أن يعُمَّ بجميـل نَظَره كافَّةَ رعِيَّتِـه ، ويتعطَّفَ عليهم بحُسْن عائدتِه ، ويشْمَلَهم بمبْسُوط عَدْله وكريم عَفْوِه ، وتَقْديم أهل الأفكار المحموده ، فى المواطن المَشْهوده ، بمـا لم تَزَلْ أنفُسُهم تَشْرَئِبُّ إليه ، وأعْيُنُهم تَرْنُو نَحْوه ، لتُحْمدَ عنهم عاقِبةُ الطاعة ، ويُعَجِّلَ لهم الوَفاءُ بمـا وَعَدهم من الجزاء ، إلىٰ ماذخره لهـم من حُسْنِ المَثُوبَة ومَزِيد الشُّكران . وأمر لفلان بكذا ، ولمن قِبَله من أهل الغَنَـاء بكذا ، وأمَّن الأسْودَ والأحْمرَ ، ماخلا المُلْحدَ ٱبن الربيع ، فإنَّه سعَىٰ فى بلادِ الله وعباده سَعْيَ المفسدين ، وٱلْتمس نَقْض وَثائق الدِّين .

فجميعُ من حلَّ مدينةَ السـلام آمنونَ بأمان اللهِ ، غير مُتْبَعِينَ بتِرَةٍ ، ولا مَطْلوبين بإحْنَة ، فلا تَدْخُلَنَّ أحدًا وَحْشَةٌ منهم لضَغِينةٍ يظُنُّ بأميرِ المؤمنين الآنطواءَ عليها ، ولا

يحملنّه ماعفا له عنه من ذَنْبه علىٰ [خلاف] ما هو مستوجب من ثواب طاعته أو نكال مَعْصِيَته، فإنَّ اللهَ جلَّ وعزَّ يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾.

فاحمدُوا الله علىٰ ما ألهم خليفَتَكم، من إِنَابَةِ أهـلِ السوابق منكم بأَوْفَىٰ سَعْيِهم، والتطوُّل علىٰ عامَّة جُنْـده بمـا شَمِلَهم برِفْقه وحسنت عليهم عائدته، وما تعطَّف به علىٰ أهل التفريط: مِن إقالةِ هَفَواتهم وعَثَراتِهم، حتىٰ صِرتم بنعمةِ الله إخوانا مُتَرافِدين، قد أذهب الله أضْغانَكم ونزع حَسائِكَ صُدُورِكم، وردَّ أُلْفتكم إلىٰ أحْسَنِ مايكون، وصِرْتُم بين مُتَقدِّمٍ بغَناء، ومُقْلِع بإحْسان. فحافِظُوا علىٰ ما يُرْتَبَطُ به رَاهِنُ النِّعمة، ويُسْتَدْعَىٰ به حُسْنُ المَزِيد، إن شاء الله تعالىٰ.

النــــوع الثـانى

(من الأمانات التى تُكتب لأهل الإسلام، ما يُكتب به عن الملوك، وهو علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(ما كان يُكتب من هذا النَّمَط فى الزمن السابق، ممـا كان يصْدُر عن وزراء الخلفاء والملوك المتغلِّبين على الأمر معهم، ولهم فيه أسلوبان)

الأســلوب الأوّل

(أن يُصَـدَّر بالتمـاس المُسْتأْمِن الأمان)

وهذه نُسْخة أمَانٍ من هذا الأُسْلوب، كتب بها أبو [إسحق بن] هلال الصابى، عن صَمْصام الدَّوْلة، بن عَضُـد الدَّوْلة، بن رُكْن الدَّوْلة، بن بُوَيْهٍ الدَّيْلَمِىّ لبَعْض من كان مُتَخَوِّفًا منه، وهو:

هذا كتابٌ من صَمْصام الدَّوْلة وشَمْس المِلَّة أبى كَالِيجَار ، بن عَضُد الدَّوْلة وتَاج المِلَّة أبى شُجَاع ، بن رُكْنِ الدَّوْلة أبى عَلِيٍّ مَوْلَىٰ أمير المؤمنين ـ لِفُلان بن فُلان .

إنَّك ذكَرْتَ رَغْبتكَ فى الانْحياز إلىٰ جُمْلتِنا ، والمَصير إلىٰ حَضْرتِنا ، والسُّكُون إلىٰ ظِلِّنا ، والسُّكْنَىٰ فى كَنَفِنا ، والْتمسْتَ التَّوْثِقَةَ منّا بما تَطِيبُ به نَفْسُك ، ويَطْمَئِنُّ إليه قَلْبُك ؛ فتقَبَّلْنا ذلك منك ، وأوْجَبْنا به الحقَّ والذِّمامَ لك ، وأمَّنَّاك بأمَانِ اللهِ جلَّ ثناؤُه ، وأمانِ رَسُولِه صلى الله عليه وسلم ، [وأمانِ](١) أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، وأمانِنا ـ علىٰ نَفْسك ، وجَوَارِحك ، وشَعْرك ، وبَشَرك ، وأهْلك ، ووَلَدك ، ومالك ، وذَاتِ يَدك : أمانًا صحيحًا ماضِيًا نافذًا ، واجبا لازما ؛ ولك علَيْنا بالوفاءِ به إذا صِرْتَ إلينا عهدُ اللهِ وميثاقُه ، من غير نَقْضٍ له ولا فَسْخٍ لشَيْءٍ منه ، ولا تأوُّلٍ عليك فيه علىٰ [كلِّ](١) وَجْهٍ وسَبَب .

ثم إنّا نَتَناوَلُكَ إذا حَضَرتَ بالإحسانِ والإجمال ، والاصْطِناع والإفْضال ، مُوفِينَ بك علىٰ أَمَلِك ، ومُتَجاوِزِين حَدَّ ظَنِّك وتَقْديرِك . فاسْكُنْ إلىٰ ذلك وثِقْ به ، وتَيقَّنْ أنك محمولٌ عليه ، ومُفْضٍ إليه . ومَنْ وقف علىٰ كتابنا هذا : من عُمَّال الخَرَاج والمَعاوِن وسائرِ طَبَقات الأولياء والمتَصرِّفِينَ فى أعمالنا ، فلْيعمَلْ بما فيه ، وليَحْذَرْ من تَجاوُزِه أو تَعدِّيه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وعلىٰ نَحْوٍ من ذلك كتب أبو إسحق الصابى ، عن صَمْصام الدَّوْلة المقدَّم ذِكْرُه ، الأمانَ لجماعةٍ من عَرَب المنتفق ، بواسطة محمد بن المسَيَّب ، وهو :

(١) الزيادة من رسائل الصابى الخطية .

هذا كتاب مَنْشُور من صَمْصام الدَّوْلة، وشَمْس المِلَّة، أبى كَالِيجَار، بن عَضُد الدَّوْلة وتاج المِلَّة أبى شجاع، بن رُكْن الدَّوْلة أبى عَلِيٍّ، مَوْلَىٰ أمير المؤمنين لجماعةٍ من العَرَب من المنتفق، الرَّاغبين فى الطاعة والداخلين فيها مع أولياء الدَّوْلة .

إن محمدَ بن المسَيَّب سألَ فى أَمْرِكم، وذكر رَغْبَتكم فى الخِدْمَه، والانحيازِ إلىٰ الجُمْله؛ والْتمسَ أمانَكُم علىٰ نُفُوسِكم وأموالكم، وأَهْلِكُم وعَشِيرتِكم؛ علىٰ أن تَلْزَمُوا الاستقامه، وتَسْلُكوا سَبِيل السَّلامه؛ ولا تُخِيفُوا سبيلا، ولا تَسْعَوْا فى الأرض فَسادًا، ولا تُخالِفوا للسلطان ووُلَاةِ أعْمَالِه أمْرا، ولا تُؤْوُا له عَدُوًّا، ولا تُعادُوا له وَلِيًّا، ولا تُجِيرُوا أحدًا خرج عن طاعته، ولا تَذُمُّوا لأَحَدٍ طلبه، ولا تَخُونُوه فى سِرٍّ ولا جَهْرٍ، ولا قَوْلٍ ولا عَمَلٍ . فرأينا قَبُولَ ذلك منكم، وإجابةَ محمدٍ إلىٰ ما رَغِب فيه عنكم، وتَضَمَّنَتْه العُهدَةُ فيما عُقِد من هذا الأمان لكم علىٰ شرائطه المأخوذة عليكم : فى الكَفِّ عن الرَّعِيَّة والسَّابِلة، وأَهْلِ السَّوادِ والحاضرة؛ وتَرْكِ التَّعرّض للمال والدَّم، أو الانتهاكِ لذِمَّةٍ أو مَحْرَم، أو الارتكابِ لمُنْكَرٍ أو مأثَم .

فكونوا علىٰ هذه الحُدُودِ قائمين، وللصِّحَّة والاستقامة مُعْتقِدين، ولأَحْداثِكم ضابِطين، وعلىٰ أيدى سُفَهائِكم آخِذين؛ وأنتُم مع ذلك آمِنُون بأمانِ الله جلَّ جلالُه، وأمانِ رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمانِ مولانا أمير المؤمنين، وأمانِنا : علىٰ نُفُوسِكم وأَمْوالكم وأَحْوالكم، وكلِّ داخِلٍ فى هذا الأَمانِ وشرائِطه معكم : من أَهْلِكم وعَشِيرَتِكم وأَتْباعِكم، ومَن ضَمَّتْه حَوْزَتُكم .

ومن قرأ هذا الكِتَاب من عُمَّال الخَرَاج والمَعَاوِن، والمتصَرِّفين فى الحَمَّارة والسَّيارة وغيرهم من جميع الأسباب، فلْيَعْمَلْ بمتضَمَّنه، وليَحْمِلْ جماعةَ هؤلاء القَوْم علىٰ مُوجَبِه، إن شاء الله تعالىٰ .

الأســـلوب الثـانى

(أن لا يتعرض فى الأمان لالتماس المُستأمِن الأمانَ)

وهذه نُسْخةُ أمانٍ علىٰ هذا الأُسْـلوب، أورده أبو الحسـين بن الصابى فى كتابه "غرر البلاغة" ونصه بعد البَسْملة :

هذا كتاب من فلان مَوْلَىٰ أمير المؤمنين لفلان .

إننا أمَّنَّاكَ علىٰ نَفْسِك ومَالِك ووَلَدِك وحُرَمِك، وسائر ما تَحْوِيه يَدُكَ، ويشتمل عليـه مِلْكُك ؛ بأمانِ الله جَلَّتْ أسمـاؤُه، وعَظُمتْ كِبْرِياؤُه، وأمانِ محمدٍ رسوله صلى الله عليه وسلم، وأمانِنا ــ أماناً صحيحًا غير مَعْلُول، وسَليما غيرَ مَدْخُول، وصادقًا غير مَكْذوب، وخالصًا غير مَشُوب؛ لايتَداخَلُه تَأْوِيل، ولا يتَعقَّبُهُ تَبْديل؛ قد كَفَله القَلْبُ المحفوظ، وقام به العَهْـدُ الملْحُوظ ــ علىٰ أن تَشْمَلَك الصِّـيانةُ فلا يلحَقُك اعتراضُ مُعْتَرِض، وتَكْنُفَك الحِراسَةُ فلا يَطْرُقُك اغتماضُ مُغْتَمِض؛ وتُعزَّك النُّصْرةُ فلا ينالُك كَفُّ مُتَخَطِّف، ولا تمتدُّ إليـك يَدُ متَطَرِّف؛ بل تكونُ فى ظلِّ السلامة راتِعًا، وفى مُحاماة الأمانة وَادِعًا، وبعَيْنِ المراعاة مَلْحوظا، ومن كلِّ تعقُّبٍ وتَتَبُّعٍ محفوظا؛ لك بذلك عَهْدُ الله الذى لا يُخْفَر، ومَواثيقُه التى لا تُنْكَث، وذِمامُه الذى لا يُرْفَض، وعَهْدُه الذى لا يُنْقَض :

المـــذهب الثـانى

(مما يُكْتب به فى الأمانات لأهل الإسلام ــ أن يُفْتتح الأمانُ بلفظ : «رُسِم» كما تُفْتَتَحُ صِغارُ التواقيع والمراسيم، وهى طريقة غريبة)

وهـذه نُسْخةُ أمانٍ علىٰ هـذا النَّمَط، أوردها محمدُ بن المكَرَّم أحدُ كُتَّاب ديوانِ الإنشاء فى الدَّوْلة المنصورية «قلاوون» فى تذْكِرَتِه التى سماها : "تَذْكِرَةَ اللَّبيب"

كتب بها عن المنصور قلاوون المقدّم ذِكْرُه ، للتُّجّار الذين يصلون إلىٰ مصرَ من الصِّينِ والهِنْد والسِّنْد واليَمَنِ والعِراقِ وبلاد الرُّوم، من إنشاء المولىٰ فَتْح الدِّين بن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المصرية ، وهى :

رُسِم ـ أعلَى اللهُ الأمرَ العالِيَ ـ لا زال عَدْلُه يُحِلُّ الرعايا من الأمْنِ فى حِصْنٍ حَصِين، ويَستخْلِصُ الدعاءَ لدَوْلَتِه الزاهرةِ [من] أهْلِ المَشَارق والمَغَارب فلا أحَدٌ إلا وهو من المخلصين ، ويُهَيِّئُ برحابها لُمْعتَفِينَ جَنَّةَ عَدْنٍ من أىِّ أبوابها شاء الناسُ دُخولًا : من العِراق من العَجَم من الرُّوم من الحِجاز من الهِنْدِ من الصِّين ـ أنَّه مَن أراد من الصُّدور الأجِلَّاء الأكابر التُّجّار وأرباب التَّكَسُّب، وأهل التَّسَبُّب ، من أهل هذه الأقاليم التى عُدِّدَتْ والتى لم تُعَدَّد ، ومن يُؤْثِر الوُرُودَ إلىٰ ممالكنا إن أقام أو تَرَدَّد ـ النُّقْلَةَ إلىٰ بلادنا الفَسِيحةِ أرْجاؤُها ، الظَّليلَةِ أفْياؤُها وأفْناؤُها ، فلْيعْزِمْ عَزْمَ من قَدَّر اللهُ له فى ذلك الخَيْرَ والخِيرَه ، ويَحْضُرْ إلىٰ بلادٍ لا يحتاج ساكنُها إلىٰ مِيرَةٍ ولا إلىٰ ذَخِيره : لأنها فى الدنيا جَنَّةُ عَدْنٍ لمن قَطَن، ومَسْلاةٌ لمن تغرّب عن الوَطَن، ونُزْهةٌ لا يَمَلُّها بَصَر، ولا تُهْجَرُ للإفْراط فى الخَصَر(١)، والمُقِيم بها فى ربيع دائم، وخَيْرٍ مُلازِم، ويَكْفِيها أن من بَعْض أوصافها أنّها شامَةُ اللهِ فى أرْضه ، وأن بَرَكَة اللهِ حاصلةٌ فى رَحْلِ من جعل الإحسانَ فيها من قِراضِه والحَسَنَةَ من قَرْضِه ؛ ومنها ما إذا أُهْبِط إليها آملٌ كان له ما سَأَل ، إذ أصبحَتْ دارَ إسلامٍ بجُنُودٍ تَسْبِقُ سُيوفُهم العَذَل، وقد عَمَّر العدْلُ أوْطانَها ، وكَثَّر سُكّانَها، واتّسعتْ أبْنِيَتُها إلىٰ أن صارتْ ذاتَ المَدَائن، وأيْسَر المُعْسِرُ فيها فلا يَخْشَىٰ سَوْرة المُدَاين ؛ إذ المَطَالِبُ بها

(١) الخصر بالتحريك البرد .

غير مُتَعسِّره ، والنَّظِرةُ فيها إلىٰ مَيْسَره ، وسائرُ الناسِ وجميعُ التِّجار ، لا يَخْشَوْن فيها من يَجُور فان العَدْل قد أجار .

فمن وقَف علىٰ مَرْسومنا هذا من التِّجار المقيمين باليَمَنِ والهِنْد ، والصِّين والسِّنْد ، وغيرهم ، فليأخُذ الأُهْبَةَ فى الارتحال إليها ، والقُدومِ عليها ؛ ليجد الفَعالَ من المَقالِ أكْبَر ، ويَرىٰ إحساناً يقابَلُ فى الوفاء بهذه العهود بالأكثر ، ويَحُلَّ منها فى بَلْدةٍ طَيِّبةٍ وربٍّ غَفُور ، وفى نعمةٍ جزاؤُها الشُّكْر وهل يُجازَىٰ إلا الشَّكُور ، وفى سلامةٍ فى النَّفْس والمال ، وسعادةٍ تُجَلِّى الأحوالَ وتُمَوِّلُ الآمال ، ولهم منا كلُّ مايُؤْثِرونَه : من مَعْدَلةٍ تُجِيبُ داعِيَها ، وتحمَدُ عِيشَتُهم دَواعِيَها ، وتُبْقِى أموالَهم علىٰ مُخَلَّفِيهم ، وتستخْلِصُهم لأن يكونوا متفَيِّئين فى ظلالها وتَصْطفِيهم ؛ ومن أحضر معه بضائع من بَهارٍ وأصنافٍ تُحضِرُها تُجَّار الكارم فلا يُخَاف عليه فى حَقّ ، ولا يُكلَّفُ أمراً يَشُقّ ، فقد أبقَىٰ لهم العَدْلُ ما شَاقَ ورفع عنهم ما شَقّ ؛ ومن أحضر معه منهم مَمَاليكَ وجَوارِىَ فله فى قِيمَتِهم مايَزِيدُ علىٰ ما يُرِيد ، والمُسامحةُ بما يتَعَوَّضُه بثَمَنِهم على المعتاد فى أمر من يَجْلِبُهم من البَلَد القريبِ فكيف من البَعِيد : لأَن رَغْبَتَنا مَصْروفةٌ إلىٰ تكثير الجنود ، ومَن جلَب هٰؤُلاء فقد أوجب حقًّا علىٰ الجود ؛ فلْيَسْتَكْثِرْ من يَقْدِرُ علىٰ جَلْبِهم ، ويَعلَمْ أن تكثير جُيُوش الإسلامِ هو الحاثُّ علىٰ طَلَبِهم : لأنَّ الإسلامَ بهم اليوم فى عِزٍّ لواؤُه المَنْشور ، وسُلْطانُه المَنْصور ، ومن أُحْضِر منهم فقد أُخرِجَ من الظلمات إلىٰ النُّور ، وذَمَّ بالكُفْر أمْسَه وحَمِد بالإيمان يَوْمَه ، وقاتَلَ عن الإسلام عَشِيرتَه وقَوْمَه .

هذا مَرْسومُنا إلىٰ كلِّ واقفٍ عليه من تُجَّارٍ شَأْنُهم الضَّربُ فى الأرض : ﴿ يَبْتَغُونَ من فَضْلِ اللهِ وآخَرونَ يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ ﴾ . ليقرأوا منه ما تيَسَّر لهم

من حُكْمِه، ويهتدون بنَجْمه، ويَقْتَدُون بعِلْمه، ويَمْتَطُون كاهِلَ الأمَلِ الذى يَحْمِلُهم علىٰ الهِجْرَه، ويَبْسُطون أيديَهم بالدُّعاءِ لمن يَسْتَدْنِى إلىٰ بلاده الخلائقَ ليفُوزُوا من إحسانه بكلِّ نَضَارةٍ وبكلِّ نَظْرة، ويَغْتَنِمُون أوقات الرِّبْح فإنَّها قد أدْنَتْ قِطافَها، وبعَثْتُ بهذه الوُعود الصادِقَةِ اليهم تُحَقِّقُ لهم حُسْنَ التَّأْميل، وتُثْبِتُ عندهم أن الخطَّ الشريفَ حاكِمٌ بأمر الله علىٰ ما قالته الأقلامُ ونِعْمَ الوَكِيل .

قلتُ : هذا المكتوبُ وإن لم يكنْ صَريحَ أمَانٍ فإنه فى مَعْنى الأمان، كما أشار إليه ٱبنَ المُكَرَّم . وفيه غرابتان : إحداهما ـ الآفتتاح «برُسم»، والثانية ـ الكتابةُ به إلىٰ الآفاق البعيدة والأقطار النائية، إشارةً إلىٰ ٱمتداد لسان قلَم هذه المملكة إليهم .

الضـــــرب الثـانى

(من الأمانات التى تُكْتب لأهْلِ الإسلام ماعليه مصطلحُ زماننا، وهى صنفان)

الصـــنف الأوّل

(ما يُكْتب من الأبواب الســلطانية)

والنظر فيــه من جهة قَطْع الوَرَق، ومن جهة الطُّرّة، ومن جهة ما يُكْتب فى المَتْن .

فأما قَطْع الورق فقد قال فى "التثقيف": إنّ الأمانَ لا يُكْتب إلا فى قَطْع العادة .

قلتُ : والذى يتّجِـهُ أن تكونَ كتابةُ أمانِ كلِّ أحَدٍ فى نَظيرِ قَطْع وَرَق المكاتبة إليه . فإن كان ممن تُكْتب المكاتبة إليه فى قَطْع العادة، كُتِب له فى قَطْع العادة . وإن كان فى قَطْعٍ فَوْقَ ذلك، كتب فيه .

وأما الطُّرَّة فقد قال فى "التثقيف" : إنه يُكْتب فى أعْلَى الدَّرْج فى الوَسَط الاسمُ الشَّريفُ ، كما فى المكاتبات وغيرها ، ثم يكتب من أوّل عَرْض الوَرَق إلىٰ آخره كما فى سائر الطُّرَر ما صُورتُه :

« أمانٌ شَريفٌ لفلان بن فلان الفُلانىّ بأن يَحْضُر إلىٰ الأبواب الشريفة ، أو إلىٰ بَلَده أو مكانه ، أو نحو ذلك آمِنًا علىٰ نَفْسه وأهْلِه ومَاله ، لا يُصيبُه سُوءٌ ، ولا ينالُه ضَيْمٌ ، ولا يَمَسُّه أذًى ، علىٰ ما شُرِح فيه » .

قلتُ : والعلامةُ فى الأمان الاسم ، والبياضُ بعد الطُّرَّة علىٰ ما فى المكاتبات إما وَصْلان أو ثلاثةٌ ، بحسب ما تقتضيه رُتْبةُ صاحبِ الأمان ، وبحسب ما يقتضيه الحال : من مُدَاراة مَن يُكْتب له الأمان : لخَوْف اسْتِشْراءِ شَرّه وما يُخالِفُ ذلك .

وأما مَتْن الأمانِ : فإنَّه تُكْتَبُ البَسْملة فى أوّلِ الوَصْل الثالث أو الرابع ، بهامش من الجانب الأيْمن كما فى المكاتبات ، ثم يُكْتب سَطْرٌ من الأمان تحتَ البَسْملة علىٰ سَمْتِها ، ويخلّى موضعُ العلامة بياضًا كما فى المكاتبات ، ثم يكتب السَّطْر الثانى وما يليه علىٰ نَسَق المكاتبات .

قال فى "التعريف" : ويجمعُ المقاصدَ فى ذلك أن يُكْتب بعد البَسْملة : «هذا أمانُ الله تعالىٰ وأمانُ نَبِيّه محمدٍ [نَبِيّ الرحمة](١) صلّى الله عليه وسلم وأمانُنا الشَّريفُ ، لفلانِ بن فلانٍ الفُلانىّ [ويذكُرُ أشْهرَ أسمائه وتعريفَه](١) ، علىٰ نَفْسِه وأهْلِه ومَاله ، وجميعِ أصحابِه وأتْباعِه وكلّ ما يتعلق به : من قليلٍ وكثيرٍ ، وجَليلٍ وحَقيرٍ ــ أماناً لا يَبْقَىٰ معه خَوْفٌ ولا جَزَعٌ فى أوّل أمْرِه ولا آخره ، ولا عاجلِه ولا آجِله ، يخصُّ ويعُمُّ ، وتُصانُ به النَّفْسُ والأهْلُ والوَلَد والمَالُ وكلُّ ذاتِ اليَد . فليحْضُرْ هو

(١) من "التعريف" ص ١٦٤ ، ١٦٥ .

وبَنُوه، وأَهْلُه وذَوُوه وأَقْرِبُوه ، وغِلْمانُه وكُلُّ حاشيتِه ، وجميعُ ما يَملِكُه من دَانِيَتِه وقاصيَتِه ؛ وليَصِــلْ بهم إلينــا ، ويَفِدْ علىٰ حَضْرتنا فى ذِمام اللهِ وكلاءته وضَمَــانة هــذا الأمانِ، له ذِمَّةُ اللهِ وذِمةُ رسولِه صلى الله عليــه وسلم أن لا ينالَه مَكْرُوهٌ منَّا ، ولا من أحدٍ من قِبَلِنا ، ولا يُتَعرَّضَ إليه بسُوءٍ ولا أذًى ، ولا يُرَنَّقَ له مَوْرِدٌ بقَذًى ؛ وله منَّا الاحسانُ ، والصَّــفاءُ بالقَلْب واللِّسان ؛ والرعايةُ التى تُؤَمِّن سِرْبه [وتُهنِّئُ شِرْبَه](1) ويَطْمَئِنُّ [بها](1) خاطِرُه ، وتُرفرِفُ عليه كالسَّحاب لا ينالُه إلا مَاطِرُه .

فلْيحضُرْ واثِقًا بالله تعالىٰ وبهذا الأمانِ الشريف ، وقد تلَفَّظْنا له به ليَزْدادَ وُثُوقا ، ولا يجدَ بعده سُوءُ الظَّنِّ إلىٰ قَلْبه طَريقا . وسبيلُ كلِّ واقفٍ عليه إكرامُه فى حال حُضُوره ، وإجراؤُه علىٰ أحسنِ ما عُهِدَ من أُموره ؛ ولْيكُنْ له ولكلِّ من يَحضُرُ معه أوفَرُ نَصيبٍ من الاكرام ، وتَبْليغُ قُصَارَى القَصْدِ ونهاية المَرَام ؛ والآعتمادُ علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه » .

وذُكِر فى "التثقيف" : بِصيغةٍ أخرىٰ أَخْصَرَ من هذه ، وهى :

«هذا أمانُ اللهِ عَزَّ وجلَّ ، وأمانُ رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأمانُنا الشريفُ لفلانِ بن فلانٍ الفلانيِّ ، بأن يحضُرَ إلى الأبواب الشريفة آمنًا علىٰ نَفْسه وأهْلِه ومَاله ، لا يُصيبُه سُوءٌ ، ولا ينالُه ضَيْمٌ ، ولا يَمَسُّه أذًى . فلْيثِقْ بالله وبهذا الأمانِ الشريفِ ويحضُر إلى الأبواب الشريفة ، آمنًا مُطْمئِنًّا ، لا يُصيبُه سُوءٌ ، ولا ينالُه أذًى فى نَفْسٍ ولا مالٍ ولا أَهْــلٍ ولا وَلَدٍ . والآعتماد علىٰ الخطِّ الشريف أعلاه ، واللهُ الموفِّق بمنه وكرمــه» .

وزاد فقال : ثم التاريخُ والمستندُ والحَسْبَلَةُ . ولا يُكْتب فيــه : «إن شاء الله تعالىٰ» لأنها تقتضى الآستثناء فيما وقع من الأمانِ المذكور .

(1) من "التعريف" ص ١٦٥ .

ثم قال : هذا هو الأمرُ المستقرُّ من ٱبتـداء الحال و إلىٰ آخر وقْتٍ ، لم يُكْتبْ خلافُ ذلك . غير أنَّ القاضيَ شهابَ الدِّين ذكر النُّسخةَ المذكورةَ بزيادات حَسَنةٍ لا بَأْسَ بها ، لكنَّني لم أرَ أنه كُتِب بها فى وَقْتٍ من الأوقات . ثم قال : وهى فى غاية الحُسْنِ ، وكان الأولىٰ أن لا يُكْتَب إلّا هِى .

قلتُ : وقد رأيتُ عِدّةَ نُسَخِ أماناتٍ فيها زياداتٌ ونقْصٌ عمّا ذكره فى "التعريف" و"التثقيف" . والتحقيق ما ذكره صاحب "موادّ البيان" : وهو أن مقاصدَ الأمان تختلفُ بٱختلاف الأحوال ، والذى يُضْبطُ إنّمـا هو صورةُ الأمانِ ، أما المقاصدُ فإن الكاتبَ يُدخِلُ فى كلِّ أمانٍ ما يليق به ممـا يناسبُ الحال .

وهذه نُسخةُ أمانٍ ، كُتِب بها لأسَدِ الدِّين رُمَيثَةَ أمير مكّة ، فى سنة إحْدىٰ وثلاثين وسبعمائة ، من إنشاء القاضى تاج الدين بن البارنبارى ، وهى :

هذا أَمانُ اللهِ سبحانه وتعالىٰ ، وأمانُ رَسُولِه سـيدنا محمدٍ صلى الله عليـه وسلم ، وأمانُنا الشريفُ ، للمجلس العـالى الأَسَدىّ رُمَيثةَ ٱبن الشريفِ نَجْمِ الدِّينِ محمد بن أبى نُمَىٍّ : بأَن يحضُر إلىٰ خِدْمة السَّنْجق الشريف المجهّز صُحْبةَ الجناب السَّيْفىِّ ايتمش الناصرىّ ، آمِنًا علىٰ نَفْسه ومالِه وأهْلِه ووَلَده وما يتعلّق به ، لا يخْشَىٰ حُلُولَ سَطْوةٍ قاصِمَه ، ولا يخافُ مُؤاخذةً حاسِمَه ، ولا يتوقَّعُ خَديعـةً ولا مَكْرا ، ولا يجدُ سوءًا ولا ضُرّا ، ولا يستَشْعِرُ مَهابةً ولا وجَلا ، ولا يَرهَبُ بأسًـا وكيف يرهَبُ من أحسن عملا ؟ ، بل يحضُر إلىٰ خِدْمة السَّنجق آمِنًا علىٰ نَفْسـه ومالِه وآله ، مُطمئنًّا وَاثِقـا بالله و برسولِه وبهـذا الأمانِ الشريفِ المؤكَّد الأسـباب ، المبيِّض للوجُوهِ الكريمة الأحساب ، وكلُّ مايخطُر بباله أنّا نؤاخِذُه به فهو مَغْفور ، ولله عاقبةُ الأمور ،

وله منّا الإقْبالُ والتأْميرُ والتّقديم ، وقد صَفَحْنا الصَّفْحَ الجميلَ : ﴿ إنَّ رَبَّكَ هُوَ الخَلَّاقُ العَلِيمُ ﴾ .

فلْيَثِقْ بهذا الأمانِ الشّريف ولا تَذْهَبْ به الظُّنون ، ولا يَصْغَ إلى الذين لايعلمون ، ولا يَسْتَشِرْ في هذا الأمرِ غيرَ نَفْسه ، ولا يظنَّ إلّا خيرًا فيَوْمُه عندنا ناسِخٌ لأمْسه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم [فيما يرويه عن ربه] : « أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِى بِى فَلْيَظُنَّ بى خَيْرًا » .

فتمسَّكْ بعُرْوةِ هذا الأمانِ فإنها وُثْقَىٰ ، واْعمَلْ عَمَلَ من لايَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ، ونحنُ قد أمَّنَّاك فلا تَخَفْ ، ورَعَينا لك الطاعةَ والشَّرَف ، عفَا اللهُ عما سَلَف ، ومن أمَّنَّاه فقد فاز ، فطِبْ نفْسًا وقَرَّ عيْنًا فأنتَ أميرُ الحجاز .

قلتُ : هذا الأمانُ إنشاء مبتكَرٌ مطابِقٌ للواقع ، وهكذا يجبُ أن يكونَ كلُّ أمانٍ يُكْتَب .

وهذه نُسْخةُ أمانٍ كُتِب بها عن السلطان الملك الظاهر « برقوق » عند مُحاصَرته لدِمَشْق بعد خروجه من الكَرَك بعد خَلْعه من السَّلطنة : أَمَّنَ فيها أهْلَ دِمَشْقَ خلا الشيخَ شِهابَ الدِّين بن القُرَشِىِّ وجردمر الطاربى ، كُتِبَ فى لَيْلةٍ يُسفِرُ صباحُها عن يوم الأربعاء السادس والعشرين من شَهْر ذى الحجة الحرام ، سنة إحدى وتسعين وسبعمائة ، وهى :

هذا أمانُ اللهِ سبحانه وتعالىٰ ، وأمانُ نَبِيِّه سيدنا محمدٍ نَبِيِّ الرَّحْمه ، وشَفيع الأمَّه ، وكاشف الغُمّه ، صلى الله عليه وسلم ، وأمانُنَا لكلِّ واقفٍ عليه من أهل مدينة دِمَشْقَ المحروسة : من القُضَاةِ ، والمفْتِينَ ، والفُقَهاءِ ، وطالبى العِلْم الشّريف ، والفُقَراء والمساكينِ ، والأُمَراءِ ، والأجْنادِ ، والتُّجّارِ ، والمتَسَبِّبِينَ ، والشُّيوخ ، والكُهول

والشُّبَّان ، والكِبار والصِّغار ، والذُّكور والإناث ، والخاصّ والعامّ من المسلمين و [أهلِ] الذمة ، إلا جرذمر الطاربى ، وأحمد بن القُرَشىّ – على أنفسهم ، وأموالهم ، وأولادهم ، وأهلِهم ، وحُرَمِهم ، وأصحابِهم ، وأتباعِهم ، وغِلمانِهم ، وقبائلهم ، وعشائرهم ، ودَوَابِّهم ، وما يملكونه من ناطقٍ وصَامِتٍ ، وكلِّ ما يتعلق بهم : من كثيرٍ وقليلٍ ، وجليلٍ وحقيرٍ . أمانٌ لا يبقىٰ معه خوفٌ ولا جَزَع ، فى أوّلِ أمْرِه ولا فى آخره ، ولا فى عاجلِه ولا فى آجلِه ، ولا ضُرٌّ ، ولا مَكْرٌ ، ولا غَدْرٌ ، ولا خَديعةٌ ، يخُصّ ويَعُم ، وتُصانُ به النفْسُ والمالُ ، والولَدُ والأهْلُ ، وكلُّ ذاتِ يدٍ .

فليحْضُروا ببَنِيهم ، وأَهْلِهم وذويهم ، وأقربائهم ، وغِلْمانِهم ، وحاشيَتِهم ، وجميع ما يملكونه من ناطقٍ وصامِتٍ ، ودانٍ وقاصٍ ؛ وليَصِلُوا بهم إلينا ، وليَفِدُوا بهم على حَضْرتِنا الشريفةِ فى ذمام الله تعالىٰ وكَلاءَته ، وضمانِ هذا الأمان . لهم ذِمَّةُ الله تعالىٰ وذِمَّةُ رسولِه سيدِنا محمدٍ نبيِّ الرَّحْمة ، صلَّى الله عليه وسلم – أنْ لا ينالَهم مكْروهٌ منّا ، ولا من أحدٍ من قِبَلنا ؛ ولا يُتعرَّضَ إليهم بسُوءٍ ولا أذًى ، ولا يُرنَّقَ لهم مَوْرِدٌ بقَذًى ؛ ولهم مِنّا الإحسان ، والصَّفاء بالقَلْب واللِّسان ؛ والرعايةُ التى نُؤَمِّنُ بها سِرْبَهم ، ونُهَنِّئُ بها شِرْبَهم ، ويَطْمَئِنُّ بها خاطِرُهم ، وتُرفرِفُ عليهم كالسَّحاب لا ينالُهم إلا ماطِرُهم .

فليحْضُروا واثِقينَ بالله تعالىٰ وبرسولِه صلى الله عليه وسلم ، وبهذا الأمان الشريف . وقد تلطَّفْنا بهم ليزدادُوا وُثُوقا ، ولا يَجِدَ سُوءُ الظَّنِّ بعد ذلك إلىٰ قلوبهم طَريقا . وسبيلُ كلِّ واقِفٍ عليه إكرامُهم فى حال حضورهم ، وإجراؤُهم على أكمَلِ ما عهِدُوه من أمورهم ؛ وليَكُنْ لهم ولكلِّ من يحضُر معهم وما يُحْضَر أوْفَرُ نصيب من الإكرام ، والقَبُول والاحترام ، وتبليغُ قُصارَى القَصْد ونهايةِ المَرَام ، والصَّفْح والرِّضا ، والعَفْو عما مَضىٰ ؛ وليَتمسَّكُوا بعُرْوة هذا الأمان المؤكَّدِ الأسباب ، الفاتِح

إلى الخيرات كلَّ بَاب ، ولْيثقوا بعُرْوته الوُثقىٰ ، فإنّه من تمسَّكَ بها لا يَضلُّ ولا يَشْقىٰ ، ولْيشرحُوا بالصَّفْح عما مَضىٰ صَدْرا ، ولا يخْشَوْا ضَيْمًا ولا ضُرّا ، ولا يَعْرِض كلٌّ منهم على نَفْسه شيئًا مما جَنىٰ وٱقْترَف ، فقد عفا اللهُ عما سلف .

ونحنُ نعرِّفُهم أن هذا أمانُنا بعد صَبْرِنا عليهم نَيِّفًا وأربعين يومًا مع قُدْرتِنا على دَوْس ديارهم وتَخْريبها ، وٱستئصالِ شَأْفَتِهم ، ولكنَّا مَنَعنا من ذلك الكِتَابُ العزيزُ والسنةُ الشريفة ، فإنَّنا مستَمْسِكون بهما ، وخَوْفُنا من الله تعالىٰ ومن نَبِيِّه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم واليومِ الآخِر ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ وهم يغالِطون أنفُسَهم ويظنون أن تأخيرَنا عنهم عن عَجْزٍ منَّا .

فلْيَتَلَقَّوْا هذا الأمان الشريفَ بقَلْبِهم وقالَبِهم ، وليرجِعُوا إلى الله تعالىٰ ، وليصُونُوا دِماءَهم وأموالَهم وأوْلادَهم ، وحُرَمَهم ودِيارَهم ، فقد رَأَوْا ما حلَّ بهم من نَكْثِهم وبَغْيِهم . قال اللهُ عزَّ وجلَّ : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِه وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وقال عزَّ من قائلٍ : ﴿ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ﴾ فى مَعرِض المَدْح لمن وَفَى بعَهْده : وقال جلَّ وعلا : ﴿ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ ﴾ . وقال تَبارَكَ وتعالىٰ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ ﴾ . وقال تعالىٰ : ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ . وقال النبىُّ صلى الله عليه وسلم : « ثَلاثٌ مَن كُنَّ فيه كُنَّ عليه : المَكْرُ والبَغْىُ والخَديعَةُ » . وقال عليه السَّلام : «المَرْءُ مَجْزِىٌّ بعَمَلِه» . وقال عليه السَّلام : «الجَزاءُ من جِنْس العَمَلِ» . وقال أهل التصَوُّف : (الطَّرِيقُ تأخُذُ حقَّها) . وقال أهلُ الحِكْمة : (الطَّبِيعَة كَافِيَةٌ) . وقال الشاعر :

قَضَى اللهُ أنَّ البَغْىَ يَصْرَعُ أهْلَه * وأنَّ على البَاغِى تَدُورُ الدَّوَائِرُ !

ثم إنّهم يُعلِّلُون آمالهم بعَسَىٰ ولَعَلّ ، ويقولون : العَسْكَرُ المِصْرىُّ واصِلٌ إليهم نجْدَةً لهم ، وهذا واللهِ من أكبر حَسَراتنا أن تكون هذه الإشاعة صحيحة ، وبهذا طمعت آمالُنا ، وصَبَرنا هذه المدّةَ الطَّويلةَ ، وتمنَّيْنا حُضُورَه ورَجَوْناه ، فإنّه بأجْمعِه ممالِيكُ أبوابنا الشريفة ، وقد صارت الممالكُ الشريفةُ الإسلاميةُ المحروسةُ فى حَوْزَتِنا الشريفة ، ودخل أهْلُها تحتَ طاعتنا المفْتَرَضَة علىٰ كلِّ مُسْلِمٍ يُؤْمِن بالله تعالىٰ وبنَبِيِّه سيدنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم وباليوم الآخر : من حاضِرٍ وبَادٍ ، وعُرْبانٍ وأكْراد وتُرْكمانٍ ، وقاصٍ ودانٍ ، وهم يتحققون ذلك ويُكابِرُون فى المَحْسوس ويتَعلَّلُون بعَسَىٰ ولَعلَّ ، ويقولون : ياليْتَ ، فيقالُ لهم : هَيْهات .

فلْيَسْتَدْرِكُوا الفارِطَ قبل أن يَعَضُّوا أيديَهم نَدَما ، وتَجرِىَ أعينُهم بدَلَ الدُّموع دَما ، وهذا مِنَّا واللهِ أمانٌ ونَصيحةٌ فى الدنيا والآخرة ، واللهُ تعالىٰ رَبُّ النِّيَّات ، وعالِمُ الخَفِيَّات ، يعلمون ذلك ويَعْتمِدُونه ، والله تعالىٰ يُوفِّقُهم فيما يُبْدِئُونه ويُعِيدونه ، والخطُّ الشريفُ شرَّفَه اللهُ تعالىٰ وأعلاه ، وصَرَّفه فى الآفاق وأمْضاه ــ أعلاه ، حجةٌ فيه .

قلتُ : وهذا الأمانُ أوّله مُلَفَّقٌ من كلام "التعريف" وغيره ، وآخِرُه كلامٌ سُوقِىٌّ مُبْتَذَلٌ نازِلٌ ، ليس فيه شىءٌ من صِناعةِ الكلام .

(تنبيه) من غرائب الأمانات ماحكاه محمدُ بن المُكَرَّم فى كتابه : "تَذْكِرة اللَّبيب" أن رُسُل صاحب اليَمنِ وفَدتْ على الأبواب السلطانية ، فى الدولة المنصورية «قلاوون» فى شهر رمضان ، سنة ثمانين وستمائة ، وسألُوا السلطان فى كَتْب أمَان لصاحب اليَمَنِ ، وأن يُكْتب على صَدْره صورةُ أمانٍ له ولأولاده ، فكتب له ذلك وشَمِلَتْه علامةُ السلطان ، وعلامة ولَدِه وَلِىِّ عَهْدِه « الملك الصالح على » وأعلمهم

أنَّ هذا ممَّا لم تَجْرِ به عادَةٌ ، وإنَّما أجابهم إلىٰ ذلك إكرامًا لمخْدُومهم ، ومُوافقةً لغَرَضِه وٱقْتِراحه .

الصنف الثانى
(من الأَمانات الجارى عليها مُصْطلح كُتَّاب الزَّمان ، ما يُكْتب عن نوّاب الممالك الشامية)

وهو على نَحْوِ ما تقدّم ذكْرُه مما يُكْتب عن الأَبواب السلطانية ، إلا أنه يُزاد فيه : « وأمانُ مَوْلانا السُّلطان » وتُذْكر ألقابُه المعروفة ، ثم يُؤْتَىٰ على بقيَّة الأَمان ، على الطريقة المتقدّمة ، ويقالُ فى طُرَّته : «أمان كريم» . ويقال فى آخره : «والعلامة الكريمة» كما تقدّم فى التواقيع .

وهذه نُسخةُ أمانٍ كُتِب به عن نائب السَّلطنة بحَلَب فى نيابة الأَمير قشتمر المنصورىّ ، فى الدولة الأشرفية «شعبان بن حسين» لبعْض من أراد تأْمينَه ، وهى :

هذا أمانُ الله سبحانه وتعالىٰ ، وأمانُ نَبِيِّه سيدِنا محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، وأمانُ مولانا السلطانِ الأعظمِ ، العالِمِ ، العادِلِ ، المُجاهِد ، المُرابط ، المُثاغِر ، المؤَيَّد ، المَالِك ، المَلِك الأشرف ، ناصرِ الدُّنيا والدِّين ، سلطانِ الإسلام والمسلمين ، مُحْيي العَدْل فى العالمين ، مُنْصِف المظلومين من الظالمين ، قامعِ الكَفَرةِ والمُشْركين ، قاهرِ الطُّغاةِ والمُعْتَدين ، مُؤَمِّنِ قلوبِ الخائفين والتائبين ، مَلِكِ البَحْرَيْنِ ، صاحبِ القِبْلَتَين خادمِ الحَرَمين الشريفين ، وَارِثِ المُلْك ، سُلطانِ العَرَب والعَجَم والتُّرك ، مَلِكِ الأَرض ، الحاكمِ فى طُولها والعَرْض ، سيِّدِ المُلوك والسلاطين ، قَسِيمِ أميرِ المؤمنين «شعبان» ٱبن المَلِك الأمجد جمال الدُّنيا والدِّين «حسين» ٱبن مولانا السلطان الشَّهيد

الملِكِ الناصر ، ناصرِ الدُّنيا والدِّين ، سلطانِ الإســلامِ والمسلمين «محمد» آبن مولانا السلطانِ الشهيدِ المَلِكِ المنصورِ «قلاوون» ـ خلَّد اللهُ مُلْكَه ، وجعلَ الأَرضَ بأسْرِها مِلْكَه ـ إلى فلانٍ بالحضور إلى الطاعة الشريفة : طَيِّبَ القَلْب ، مُنْبسِطَ الأمَل ؛ آمِنًا على نَفْسه ومالِه وأَوْلادِه ، وجماعتِه وأَصحابِه ودَوابِّه ؛ لا يخافُ ضَرَرًا ولا مَكْرًا ، ولا خَدِيعــةً ولا غَدْرا ؛ وله مَزِيدُ الإكرام والآحترام ، والرعايةِ الوَافِرة الأَقْسام ، والعفوُ والرِّضا ، والصفح عمَّــا مَضَىٰ .

فليتَمَسَّكْ بعُرْوةِ هــذا الأمانِ المؤكَّد الأســباب ، الفاتحِ إلى الخيرات كلَّ باب ، ولْيَثِقْ بعُرْوته الوُثْقَىٰ ، فإنَّه من تمسَّكَ بها لا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ؛ ولْيَشْرَحْ بالصَّفْح عمــا مضَىٰ صَدْرا ، ولا يخشَ ضَيْمًا ولا ضُرًّا ؛ ولا يَعْرِضْ على نَفْسه شيئًا مما جَنَىٰ وآقترف ، فقد عفا اللهُ عمَّا سَلَف ؛ والخطُّ الكريم أعلاه الله تعالى أعلاه حُجَّةٌ فيه .

قلتُ : ومما ينبغي التنبيهُ عليه في الأمانات ، أنه إن آحتاج الأمر في الأمان إلى الأيْمــانِ ، أتى بها بحسب ما يقتضيه حالُ الحالِفِ والمحلوفِ له ، علىٰ ما تقدّم ذِكْرُه في المقالة الثامنة .

الباب الثانى
من المقالة التاسعة
(فى الدَّفْن)

والمراد به دَفْن ذُنُوب من يُكْتَب له حتّىٰ لم تُرَبعدُ، وفيه فصلان :

الفصل الأوّل
فى أصْله وكَوْنه مأخوذًا عن العَرَب

والأصْلُ فيه ماذكره فى "التعريف" أن العَرَب إذا جَنَىٰ أحدٌ منهم جِنايةً، وأراد المَجْنِيُّ عليه العَفْوَ عما وقع، فالتَّعويلُ فى الصَّفْح فيها على الدَّفْن. قال فى "التعريف" : وطريقتُهم فيه أن تجتمِعَ أكابرُ قَبِيلةِ الذى يَدْفِن بحضور رجالٍ يثِق بهم المدفونُ له، ويقومُ منهم رجُلٌ، فيقول للمَجْنِيِّ عليه : نُرِيدُ منك الدَّفْنَ لفلانٍ، وهو مُقِرٌّ بما أهاجَك عليه، ويُعدِّدُ ذنوبَه التى أُخِذَ بها ولا يُبْقِى منها بَقِيَّة، ويُقِرُّ الذى يَدْفِنُ ذلك القائلَ علىٰ أن هذا جُمْلةُ ما نَقَمه على المدفون له، ثم يَحفِرُ بيده حَفيرةً فى الأرض، ويقولُ : قد أَلْقَيْتُ فى هذه الحَفِيرةِ ذُنوبَ فلانٍ التى نَقَمْتُها عليه، ودفَنْتُها له دَفْنِى لهذه الحَفيرة، ثم يردُّ ترابَ الحفيرة إليها حتّىٰ يدْفِنَها بيده . قال : وهو كثيرٌ متَداوَلٌ بين العَرَب، ولا يطْمَئِنُّ خاطِرُ المُذْنِب منهم إلا به، إلا أنه لم تَجْرِ للعرَب فيه عادةٌ بكِتابة، بل يُكْتَفَىٰ بذلك الفعْل بمَحْضَرِ كِبَار الفريقين؛ ثم لو كانت دِماءٌ أو قتلىٰ عُفِيَتْ وعَفَتْ بها آثارُ الطلائب .

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الثـانى من المقـالة التاســـعة

(فيما يكتب فى الدَّفْنِ عن الملوك)

قال فى "التعريف" : وصورته أن يكتب بعد البسملة : «هذا دَفْنٌ لذنوب فلان ، من الآنَ لا تُذْكر ولا يطالب بها ، ولا يُؤاخَذُ بسببها ؛ اقْتَضَتْه المَراحِمُ الشَّريفةُ السُّلطانية المَلَكيَّة الفلانية ، ضاعف الله تعالىٰ حَسَناتِها وإحسانَها : وهى ما بدَا من الذنوب لفلان من الجرائم التى ارْتكبها ، والعظائم التى احْتَقبها ، وحصل العَفْوُ الشَّريفُ عن زَلَلِها ، وقابل الإحسانُ العَمِيمُ بالتغمُّد سُوءَ عَمَلِها ؛ وهى : كذا وكذا (وتذكر) : دَفْنًا لم تَبْقَ معه مُؤَاخَذَةٌ بسبَبٍ من الأسباب ، ومات به الحِقْدُ وهِيلَ عليه التُّراب ؛ ولم يَبْقَ معه لمُطالِبٍ بشئ منه مَطْمَع ، ولا فى إحْيائه رجاءٌ وفى غيْرِ ماوارَت الأرْضُ فاطْمَعْ ؛ تَصدّقَ بها سيِّدُنا ومولانا السلطانُ الأعظم (ويذكُرُ ألْقابَه واسْمَه) ـ تقبَّل اللهُ صدقَتَه ـ وعفا عنها ، وقطع الرَّجاءَ باليَأْس منها ؛ وأبطلَ منها كُلَّ حَقٍّ يُطْلب ، وصفح منها عن كل ذَنْبٍ كان [به](١) يُستذْنَب ؛ ودفَنها تحْت قدَمه ، ونَسِيَها فى عِلْمِ كَرَمه ، وخَلَّاها نَسْـيًا مَنْسِيًّا لا تُذْكَرُ فى خِفَارَةِ ذِمَّه ؛ وجعله بهـا مُقِيمًا فى أمْنِ الله تعـالىٰ إلىٰ أن يبعثَ اللهُ تعالىٰ خَلْقَـه ، ويتقاضَىٰ كما يشاءُ حَقَّه ؛ لا يتعَقَّبُ فى هذا الأمانِ مُتَعَقِّب ، ولا ينتَهِى إلىٰ أمَدٍ له نَظَرُ مترَقِّب ؛ لا يُنْبَشُ هذا الدَّفين ، ولا يُوقَف له علىٰ أثَرٍ فى اليوم ولا بعدَ حِين ؛ ولا يُخْشَى فيه صَـبْرُ مُصَابِر ، ولا يُقالُ فيـه :

(١) الزيادة عن "التعريف" ص ١٦٦ .

إلّا وَهَبْا كشَئْءٍ لم يكنْ أو كنَازِحٍ به الدَّارُ أو مَن غَيَّبته المَقَابِر . ورُسِم بالأمر الشريف العالى ، المَوْلوِىّ ، السُّلطانىّ ، المَلَكىّ الفلانىّ ـ أعلاه الله تعالىٰ وشرَّفه ، وغفر به لكلّ مُذْنبٍ ما أسلفه ـ أن يُكتبَ له هذا الكِتَابُ بما عُفِىَ له عنه وحُفِر له ودُفِن ، وأصْبح بعَمَلِه غيرَ مُرْتَهِن ؛ ودُفِن له فيه دَفْنَ العَرَب ، وقُطِع فى التَّذكُّر له أرَبُ كلّ [ذى] أَرَب ؛ ودُرِس فى القُبور الدَّوارس ، وغُيِّبَ مكانه فيما طُمِر فى اللَّيالى الدَّوامِس .

وسبيلُ كلِّ واقفٍ علىٰ هذا الكتاب ـ وهو الحُجَّةُ علىٰ من وَقَف عليه ، أو بَلَغه خَبَرُه ، أو سمعه أو وَضَحَ له أثَرُه ـ أن يَتناسَىٰ هذه الوقائع ، و يتَّخذَها فيما تَضَمَّنته الأرْضُ من الودائع ، ولا يذكر منها إلا ما ٱقتضاه حِلْمُنا الذى يُؤْمَنُ معه التَّلَف ، وعَفْوُنا الذى شَمِل وعفَا اللهُ عمَّا سَلَف .

قال فى "التثقيف" : ولم أكُنْ رأيتُ شيئًا من هذا ولا وجَدْتُه مسطورًا إلا فى كتابة "التعريف" . قال : والذى أعْتقِدُه أنه لم يُكْتبْ به قَطُّ ، وإنما الرجلُ بسَعَةِ فَضْلِه وفَضِيلَته ، أراد أن يرتِّبَ هذه النُّسخة لٱحتمالِ أن يُؤْمر بكتابة شَىْءٍ من هذا المعنى ، فلا يَهْتدى الكاتبُ إلىٰ ما يَكْتُبه . ثم قال : على أنه كَرَّر فيها ذِكْر السلطان مرَّتين ، والثالثة قال : رُسِم بالأمر الشريف ، فهى علىٰ غيرِ نَحْوٍ من النِّظام المعهود والمصطلح المعروف ، بحُكْم أن فيها أيضا تَوسُّعًا كثيرًا فى العبارة والألفاظ التى تُؤَدِّى كلُّها معنًى واحدا . قال : وكان الأولىٰ بنا ٱختصارَ ذلك وعَدَمَ كتابته ، لكنَّنا أردنا التنبيهَ علىٰ ما أشار إليه ، ليكون هذا الكِتَابُ مُسْتوعِبًا لجميع ما ذُكِر ، ممَّا يُسْتعمل وممَّا لا يُسْتعمَل .

قلتُ : ما قاله فى "التثقيف" كلامٌ ساقِطٌ صادرٌ عن غير تَحْقيق ، فإنَّه لا يلزمُ من عَدَم ٱطِّلاعِه علىٰ شيءٍ كُتِب فى هذا المعنىٰ ولا سُطِّر فيـه أن لا يكون مسطورًا لأحدٍ فى الجُمْـلة . وماذا عسىٰ يبلُغ ٱطِّلاعُ المطَّلِـع فَضْـلا عن غيره ؟ وإن كان صاحبُ "التعريف" هو الذى ٱبتكر ذلك، كما أشار إليه فى "التثقيف" فنِعْمَت السَّجِيَّة الآتية بمثْلِ ذلك ممـا لم يُسْبق إليه . وأما إنكارُه تَكْرِيرَ ذِكْر السلطان فيها، فلا وجْهَ له بعدَ ٱنتظـام الكلام وحُسْن ما أتىٰ به فى "التعريف" سواءٌ كان فيه مُبْتكِرًا أو مُتَّبِعًا أو مُنْتزِعًا له من الأصل السابق .

وأحسن ما يكتب فى ذلك فى تأْمِينِ العُرْبان : لأنه إنمـا أُخِذَ عنهم، فإذا صدَر إليهـم شىءٌ يعرفونه ويَجْرِى علىٰ قواعِدِهم التى يألَفُونها ، تلَقَّوْه بالقَبُول ، وٱطْمأَنَّتْ إليه قُلُوبهم، ووقع منهم أَجَلَّ مَوْقِع، وباللهِ المُسْتعان .

الباب الثالث

من المقالة التاسعة

(فيما يُكتب فى عَقْد الذِّمَّة، وما يتفرّع علىٰ ذلك؛ وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

فى الأُصول التى يَرْجع إليها هذا العَقْد، وفيه طرفان

الطرف الأوّل

(فى بيان رُتْبة هذا العَقْد، ومعناه، وأصله من الكِتَاب والسُّنَّة، وما يَنْخَرِطُ فى سِلْك ذلك)

أما رُتْبَته، فإنه دُون الأمانِ بالنِّسْبة إلى الإمام. وذلك أنه إنما يُقرِّرُه بعوَضٍ يأخذُه منهم، بخلاف الأَمانِ.

وأما معناه، فقد قال الغَزَالِيُّ فى "الوَسِيط": إنه عبارةٌ عن ٱلتزام تَقْرِيرهم فى ديارنا، وحِمايَتِهم، والذَّبِّ عنهم ببَذْل الجِزْيَة أو الإسلام من جِهَتِهم.

وأما الأَصْلُ فيه: فمن الكِتَاب قولُه تعالىٰ ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾. فجعلَ الجِزْية غاية ما يُطْلَبُ منهم، وهو دَليلُ تَقْرِيرهم بها.

ومن السُّنَّة ما ورد «أن النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم حين وَجَّه مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ إلى اليَمَنِ. قال: إنَّك سَتَرِدُ علىٰ قَوْمٍ مُعظمُهم أَهْلُ كِتَابٍ فٱعْرِضْ عليهم الإسلامَ،

فإن ٱمتنعُوا فأعْرِضْ عليهم الجزْيَةَ وخُذْ من كلِّ حَالِمٍ دينارًا ، فإن ٱمْتنعُوا فاقْتُلْهم» فجَعْلُ القَتْلِ بعد الامتناع عن أداء الجِزْية يدلُّ علىٰ تقريرهم بها أيضا .

وقد قرّر أمير المؤمنين عُمَرُ بنُ الخطَّاب رضى الله عنه نَصارَى الشّامِ بإيالتهم علىٰ شروطٍ ٱشترطوها فى كِتَابٍ كتبُوا به إليه، مع زيادةٍ زادها .

قال الإمامُ الحافظ جمالُ الدِّينِ أبو صادق محمد، ٱبن الحافظ رَشيدِ الدِّين أبى الحسين يحيى، بن على، بن عبد الله القُرَشىِّ فى كِتَابِه الموسوم "بالزُّبَد المجموعه، فى الحكايات والأشعار والأخْبار المَسْمُوعه": أخبرنا الشيخُ الفَقيهُ أبومحمدٍ عبدُ العزيز ٱبنُ عبد الوَهَّاب بن إسماعيلَ الزُّهْرِىّ المالِكىّ وغيرُ واحدٍ من شُيوخنا إجازةً، قالوا : أنبأنا أبو الطَّاهِر إسماعيلُ بن مَكِّىِّ بن إسماعيلَ الزُّهرىّ، قال : أخبرنا أبُو بَكْرٍ محمدُ بن الوليد الفِهْرىّ الطُّرْطُوشِىّ قِراءةً عليه، قال : أخبرنا قَاضِى القُضَاةِ الدامَغَانىُّ، أخبرنا محمدٌ، أخبرنا أبومحمدٍ عبدُالرَّحمٰن بن عمر بن محمد التُّجِيبِىّ فيما قرأتُ عليه، أخبرنا أبو سعيدٍ أحمدُ بنُ عمرَ بن زياد الأعْرابِىّ بمكَّةَ سنة أربعين وثلثمائة، أخبرنا محمدُ بن إسحٰق أبوالعبَّاس الصَّفَّار، أخبرنا الرَّبيعُ بن تَغْلِب أبو الفَضْل، أخبرنا يحيى بن عُقْبة بن أبى العَيْزار عن سُفْيان الثَّوْرىّ، والوليد بن رَوْح، والسَّرِىِّ بن مصرِّف، يذكُرون عن طَلْحَةَ بن مصرف، عن مَسْرُوق، عن عبد الرَّحْمٰن بن غُنْمٍ، قال : كتَبْتُ لعمر بن الخطَّاب حين صالح نصارَى الشّامِ .

« بسم الله الرحمن الرحيم »

«هذا كِتَابٌ لعبد الله عُمَرَ أمير المؤمنين، من نَصارَى مدينة كذا وكذا»

«إنكم لما قَدِمْتُم علينا سألنا كم الأمانَ لأنْفُسنا وذَرارِيِّنَا وأموالِنا»

«وأهلِ مِلَّتِنا، وشَرطْنا لكم على أنْفُسنا أن لا نُحْدِثَ فى مَدِينَتِنا»

«ولا فيما حَوْلَها قَلِّيَّةً[1] ولا صَوْمَعَةَ رَاهِبٍ، ولا نُجَدِّدَ ما خَرِب منها : دَيْرًا»
«ولا كنيسةً، ولا نُخْفِيَ ما كان منها في خِطَط المسلمين، ولا نَمنَعَ كَنائسَنا»
«أن يَنزِلَها أحدٌ من المسلمين ثلاثَ ليالٍ نُطْعِمُهم، ولا نُؤْوِيَ في منازلنا»
«ولا كَنائِسِنا جاسُوسًا، ولا نكتُمَ غِشًّا للمسلمين، ولا نُعَلِّمَ أولادَنا القُرآنَ»
«ولا نُظْهِر شِرْكًا، ولا نَدْعُوَ إليه أحدًا، ولا نمنع من ذَوِي قَرابَتِنا»
«الدُّخولَ في الإسلام إن أرادُوه، وأن نُوقِّرَ المسلمين ونقومَ لهم في مجالسنا»
«إذا أرادوا الجُلوسَ، ولا نَتَشَبَّهَ بهم في شَيْءٍ من لِباسِهِمْ : في قَلَنْسُوَةٍ»
«ولا عِمامَةٍ ولا نَعْلَيْنِ ولا فَرْقِ شَعْرٍ، ولا نتكَلَّمَ بكلامهم، ولا نَتَكَنَّى»
«بكُنَاهُم، ولا نَرْكَبَ السُّروجَ، ولا نتقلَّدَ السُّيوفَ، ولا نَتَّخِذَ شيئًا من»
«السِّلاح، ولا نَحْمِلَه معنا، ولا ننقُشَ على خواتيمنا بالعَرَبيَّة، ولا نَبِيعَ الخُمُورَ»
«وأن نَجُزَّ مَقادِمَ رُءُوسِنا، وأن نَلْزَمَ دِينَنا حيثُ ما كُنَّا، وأن نَشُدَّ زَنانِيرَنا»
«على أوْساطِنا، وأن لا نُظْهِرَ الصَّليبَ على كَنائسنا، ولا كُتُبَنا في شَيْءٍ»
«من طُرُقِ المسلمين ولا أسْواقِهم، ولا نَضْرِبَ بنواقيسنا في كَنائسنا»
«إلَّا ضَرْبًا خَفيفا، ولا نَرْفَعَ أصْواتَنا بالقِراءَةِ في كَنائِسنا ولا في شَيْءٍ»
«من حَضْرةِ المسلمين، ولا نُخْرِجَ سَعَانِينَ ولا باعُوثا، ولا نرفَعَ»
«أصْواتَنا مع مَوْتانا، ولا نُظْهِرَ النِّيرانَ معهم في شَيْءٍ من طُرُقِ المسلمين»

(١) القلية هي التي يقال لها القلّاية . وهي من بيوت عباداتهم . والسعانين عيد لهم قبل عيدهم الكبير بأسبوع . والباعوث عندهم كالاستسقاء عندنا . انظر لسان العرب .

«ولا أَسْواقِهِم، ولا نُجاوِرَهم بمَوْتانا، ولا نَتَّخِذَ من الرَّقِيقِ ما يَجْرِى عليه»
«سِهامُ المسلمين، ولا نَطَّلِعَ عليهم فى مَنَازِلهم» .

قال عبد الرحمن : فلما أتيتُ عُمَر بالكتاب زاد فيه :

«ولا نَضْرِبَ أحدًا من المسلمين . شَرَطْنا ذلك على أنْفُسِنا وأهْلِ»
«مِلَّتِنا، وقَبِلْنا عليه الأمَانَ . فإن نحنُ خالَفْنا عنْ شَىْءٍ مما شَرَطْناه»
«لكم وضَمِنَّاه على أنْفُسِنا فلا ذِمَّةَ لنا، وقد حَلَّ لكم مِنَّا ما يَحِلُّ لأهْلِ»
«المُعانَدَةِ والشِّقَاقِ» .

وفى رواية له من طريقٍ أخرى «أن لا نُحْدِثَ فى مدينَتِنا ولا فيما حَوْلها»
«دَيْرًا ولا كَنِيسَةً ولا قَلَّايَةً ولا صَوْمَعَةَ راهِبٍ» .

وفيها : — «وأن لا نَمْنَع كَنائِسَنا أن ينزِلَها أحدٌ فى لَيْلٍ ولا نَهار، وأن»
«نُوسِّع أبوابَها للمارَّةِ وٱبنِ السَّبِيل» .

وفيها : — «وأن نُنْزِلَ مَن مَرَّ بنا من المسلمين ثلاثةَ أيَّامٍ نُطْعِمُه» .

وفيها : — «وأن لا نُظْهِرَ صَلِيبًا أو نَجَسًا فى شىءٍ من طُرُقِ المسلمين»
«وأسْواقِهِم» .

وفيها : — «وأن نُرشِدَ المسلمين ولا نطَّلِعَ عليهم فى منازلهم» .

قال أبو صادق المقدّم ذِكْرُه : ومما ذكره أهل التاريخ أن الحاكِمَ الفاطمىَّ أمر اليهودَ والنَّصارَىٰ إلا الجبابرة بلُبْس العمائم السُّودِ، وأن يحمِلَ النَّصارَىٰ فى أعناقهم

من الصُّلْبان ما يكونُ طولُه ذراعًا ووَزْنُه خمسةَ أرْطالٍ؛ وأن تحملَ اليهودُ فى أعناقهم قَرَامى الخَشَب على وَزْن صُلْبان النَّصارىٰ، وأن لا يركَبُوا شيئًا من المراكب المُحَلَّاة، وأن تَكُون رُكُبُهم من الخَشَب، وأن لا يَسْتَخْدِموا أحدًا من المسلمين، ولا يركَبوا حمارًا لمُكَارٍ مُسْلِم، ولا سَفِينةً نُوتيُّها مسلم؛ وأن يكونَ فى أعْناقِ النصارَىٰ — إذا دخلُوا الحَمَّام — الصُّلْبانُ، وفى أعناق اليهود الجَلَاجِلُ : ليتميَّزُوا بها من المسلمين، وأفردَ حمامات اليهود والنصارَىٰ عن حمامات المسلمين ونُهُوا عن الاجتماع مع المسلمين فى الحَمَّامات، وخُطَّ على حمامات النَّصارَىٰ صُوَرُ الصُّلْبان، وعلىٰ حَمَّاماتِ اليَهُود صُوَرُ القَرَامِى .

قال : وذلك بعد الأربعمائة . ثم قال : ولقد أحسن فيما فَعَل بهم، عفا الله عَنَّا وعنه، ورزقنا من ينْظُر فى أمورنا وأمورهم بالمَصْلَحة .

الطـــرف الثـانى
(فى ذِكْر ما يحتاج الكَاتِبُ إلىٰ معرفته فى عَقْدِ الذِّمّة)

واعلم أنَّ ما يحتاج الكاتِبُ إليه من ذلك يرجعُ إلىٰ ثمانية أمور :

الأمر الأوّلُ — فيمن يجوزُ أن يتولَّىٰ عَقْدَ الذِّمة من المسلمين . ويختَصُّ ذلك بالإمام أو نائِبِه فى عَقْدِها؛ وفى آحاد الناس خِلافٌ، والأَرجَحُ أنه لا يصحُّ منه لأَنه من الأُمور الكُلِّية، فيحتاج إلىٰ نَظَرٍ واجْتهادٍ .

الأمر الثـانى — معرفةُ من تُعقَدُ له الذِّمة . ويشترَطُ فى المعقود له : التَّكْليفُ والذُّكورَةُ والحُرِّيةُ . فلا تُعقَدُ لصَبِيٍّ ولا مجْنونٍ ولا امْرأةٍ ولاعَبْدٍ، بل يكونون تَبعًا، حتَّىٰ لا تجب علىٰ أحدٍ منهم الجِزْيةُ؛ وفيمن ليس أهْلًا للقتال : كالشَّيْخ الكبير

والزَّمِن خلافٌ، والأصحُّ صحَّةُ عَقْدِها له . ويعتبر في المعقود له أيضا أن يكونَ زاعِمَ التَّمسُّك بكتاب: كاليهوديّ يزعُم تمسُّكه بالتَّوراة، والنَّصْرانيّ يزعُم تمسُّكه بالتَّوراة والإنْجِيل جميعًا، وفي المُتَمسِّك بغير التَّوراة والإنجيل: كصُحُفِ إبراهيم وزَبُورِ داوُد خلافٌ والأصحُّ جوازُ عَقْدِها له . وكذلك المجوسُ، لقوله صلى الله عليه وسلم: « سُنُّوا بهم سُنَّةَ أهْلِ الكِتَاب » . والسَّامِرَةُ إن وافقتْ أصولُهم أُصُولَ اليهود، عُقِد لهم وإلّا فلا . وكذلك الصَّابِئةُ إن وافقت أصولُهم أُصُولَ النَّصارىٰ، ولا يُعْقَدُ لزِنْدِيقٍ، ولا عابِدِ وَثَنٍ، ولا مَن يعبدُ الملائكةَ والكَواكِبَ . ثم إذا كمَلَتْ فيه شروطُ العَقْد فلا بُدَّ من قبوله العَقْدَ . ولو قال: قَرِّرْني بكذا فقال: قَرَّرْتُك صحَّ . ولو طلبها طالبٌ من الإمام وجَبَتْ إجابتُه .

الأمر الثالث — معرفةُ صِيغَةِ العَقْد: وهي ما يدل علىٰ معنى التَّقْرير من الإمام أو نائبِه، بأن يقول: أقْرَرْتُكم أو أذِنْتُ لكم في الإقامة في دارِنا علىٰ أن تبذُلُوا كذا وكذا وتَنْقادُوا لحُكْمِ الإسلام .

الأمر الرابع — المدّةُ التي يُعْقَد عليها . ويعتَبرُ فيها أن تكون مطلقةً بأن لا يَقِّيدَها بانتهاء، أو بما شاء المعقودُ له من المُدّة . ولا تجوز إضافةُ ذلك إلىٰ مَشيئة الإمام، لأن المقصودَ من عَقْدِها الدَّوامُ . وقولُه صلَّى الله عليه وسلم « أُقِرُّكُمْ ما أَقَرَّكُم اللهُ » إنما وَرَد في المُهادَنة لا في عَقْدِ الذِّمّة .

الأمر الخامس — معرفةُ المَكان الذي يُقَرُّون فيه . وهو ماعدا الحِجَازَ، فلا يُقَرُّون في شيْءٍ من بلاد الحِجَاز: وهي مَكّة، والمَدِينَةُ، واليَمامَةُ، ومَخَالِيفُها يعني قُراها: كالطَّائف بالنِّسبة إلىٰ مَكّة، وخَيْبَرَ بالنِّسبة إلى المَدِينة، ونحو ذلك . وسواءٌ في ذلك القُرَىٰ والطُّرُق المتخلِّلةُ بينها . ويُمنعون من الإقامة في بَحْرِ الحِجاز، بخلاف رُكُوبه للسفر . وليس لهم دُخولُ حَرَمِ مَكّة لإقامة ولا غيرها، إذ يقولُ تعالىٰ: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا

﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ . فلو تعدّىٰ أحدٌ منهم بالدخول ومات ودُفن في الحَرَم ، نُبِشَ وأُخْرِج منه ما لم يتقطّعْ ، فان تقطّعَ تُرِك . وقيل : تُجمَع عظامُه وتُخْرج . وعليه يدلُّ نصُّ الشافعيِّ رضى الله عنه فى الأُمِّ .

الأمر السادس — معرفة مايلزم الإمامَ لهم بعد عَقْد الذِّمّة . إذا عَقَد لهم الإمامُ الذِّمّة فينبغى أن يَكْتبَ أسماءَهم ودِينَهم وحِلاهُم ، وينْصِبَ علىٰ كلِّ جَمْع عَرِيفًا : لمَعْرفة من أسْلَمَ منهم ، ومن مات ومن بلغ من صِبْيانِهم ، ومن قَدِمَ عليهم أو سافَر منهم ؛ وإحْضارِهم لأداءِ الجِزْيَة ، أو شَكْوىٰ مَن تعدّى الذِّمِّىُّ عليه من المسلمين ونحو ذلك ؛ وهذا العَرِيف هو المعبَّر عنه فى زماننا بالديار المصرية بالحاشر . ثم يَجِبُ الكَفُّ عنهم بأن لا يتعرَّض متعرِّضٌ لأنْفُسِهم ولا أمْوالِهم ، ويضْمَنُ ما أَتْلَفَ منها ، ولا تُراقُ خُمُورُهم إلا أن يُظْهِرُوها ، ولا تُتْلَفُ خَنازِيرُهم إذا أخْفَوْها ، ولا يُمنَعون التَّردُّدَ إلىٰ كَنائِسِهم . ولا ضَمَانَ علىٰ من دخل دارَ أحَدٍ منهم فأراق خَمْرَه وإن كان مُتَعدِّيا بالدُّخول ، وأوجب أبو حَنِيفَةَ عليه الضَّمانَ . ويجبُ ذَبُّ الكُفَّار عنهم ما داموا فى دارنا ، بخلاف ما إذا دخلُوا دارَ الحَرْب .

الأمر السابع — معرفةُ مايُطْلَب منهم إذا عقد لهم الذِّمّة . ثم المطلوب منهم ستّةُ أشياءَ :

منها — الجِزْيَةُ : وهى المالُ الذى يبْذُلُونه فى مُقابلة تَقْرِيرهم بدار الإسلام . قال الماوَرْدىُّ فى "الأحكام السلطانية" : وهى مأخوذة من الجَزَاء : إمَّا بمعنى أنها جَزاءٌ لتَقْريرهم فى بلادنا ، وإمَّا بمعنى المقابَلَة لهم علىٰ كُفْرِهم .

وقد اخْتلف الأَئِمّةُ فى مِقْدارها : فذهب الشّافِعىُّ رضى الله عنه إلىٰ أنها مقدّرةُ الأقلِّ ، وأقلُّها دينارٌ أو اثنا عشر درهما نُقْرةً فى كلِّ سنة علىٰ كلِّ حَالِمٍ ، ولا يجوز

الاقتصار علىٰ أقلَّ من الدِّينار، وغيرُ مقدَّرة الأكثر، فتجوزُ الزيادة علىٰ الأقلِّ برضا المعقود له . ويستحبُّ للإمام المُماكَسَةُ : بأن يزيدَ عليهم بحسَبِ ما يراه . ونقل ٱبنُ الرِّفعةِ عن بَعْض أصحاب الشافعيِّ أنه إذا قُدِّر علىٰ العَقْد غاية لم يجز أن يُنْقَص عنها . ويستحبُّ أن يُفاوِتَ فيها : فيأخذَ من الفقير دينارًا، ومن المتوسِّط دينارين، ومن الغَنِيِّ أربعةَ دنانير .

وذهب أبو حنيفة إلىٰ تصنيفهم ثلاثة أصناف : أغْنِياءَ، يُؤْخذُ منهم ثمانيةٌ وأربعون درهمًا . وأوساطٍ ، يؤخذُ منهم أربعةٌ وعشرون درهما . وفقراءَ، يؤخذُ منهم ٱثنا عشر درهما . فجعلها مقدَّرةَ الأقل والأكثر ، ومَنَع من ٱجتهاد الإمام ورَأْيِه فيها .

وذهب مالكٌ إلىٰ أنه لا يتقَدَّرُ أقلُّها ولا أكثرُها ، بل هي مَوْكولةٌ إلى الاجتهاد فى الطَّرفَيْنِ .

ومنها ــ الضِّيافةُ : فيجوزُ للإمام بل يستحبُّ أن يشترط علىٰ غير الفقير منهم ضِيافَةَ من يمرُّ بهم من المسلمين زيادةً على الجِزْية ، ويعتبرُ ذِكْرُ مُدَّة الإقامة ، وأن لا تزيدَ علىٰ ثلاثة أيام ، وكذلك يعتبرُ ذِكْرُ عَدَد الضِّيفَانِ من فُرْسانٍ ورَجَّالةٍ ، وقَدْرِ طعام كلِّ واحدٍ وأُدْمِه ، وقَدْرِ العليقِ وجِنْسِ كلٍّ منهما ، وجنْس المَنْزِل .

ومنها ــ الانقيادُ لأَحْكامنا، فلو ترافعوا إلينا أمضينا الحُكْمَ بينهم برضَا خَصْمٍ واحد منهم، ونحكُمُ بينهم بأحكام الإسلام .

ومنها ــ أن لا يركَبُوا الخَيْلَ . ولهم أن يركبوا الحَمِيرَ بالأُكُفِ عَرْضًا : بأن يجعلَ الرَّاكبُ رِجْلَيه من جانبٍ واحدٍ . وفى البِغَالِ النفيسة خلافٌ : ذهب الغَزالىُّ وغيرُه إلى المَنْع منها والراجح الجوازُ، إلا أنهم لا يتخذون اللُّجُمَ المحلَّاة بالذَّهَبِ والفِضَّة .

ومنها ـ أن يُنْزِلُوا المسلمين صَدْرَ المجالس وصَدْرَ الطريق . وإن حصل فى الطَّريق ضِيقٌ [أُلجِئُوا] إلىٰ أضْيَقِه . ويُمْنعون من حَمْلِ السِّلاح .

ومنها ـ التميز عن المسلمين فى اللِّباس : بأن يَخيطُوا فى ثيابهم الظاهرةِ مايخالفُ لَوْنَها، سواءٌ فى ذلك الرجالُ والنِّساءُ . والأوْلىٰ باليهود الأصْفَر، وبالنَّصارىٰ الأزرقُ والأكْهَبُ (وهو المعبَّرُ عنه بالرَّمادِىّ) وبالمجُوسىِّ الأَسودُ والأَحْمَرُ . ويشُدُّ الرجالُ منهم الزُّنَّارَ من غير الحَرِير فى وَسَطِه، وتشُدّه المرأة تحت إزارِها، وقيل فَوْقَه . ويميِّزونَ ملابِسَهم عن ملابس المسلمين، وتُغايرُ المرأةُ لون خُفَّيْها : بأن يكون أحَدُهما أبيضَ والآخَرُ أسْوَدَ، ونحو ذٰلك . ويجعل فى عُنُقه فى الحَمَّام جُلْجُلًا أو خاتمًا من حَديد . وإن كان على رأْس أحدهم شَعْرٌ أُمِر بجَزِّ ناصِيتِه . ويُمْنعون من إرْسال الضَّفائر كما تفعلُ الأشرافُ . ولهم لُبْسُ الحرير والعِمامَة والطَّيْلسان . والذى عليه عُرْف زماننا فى التَّمييز أنَّ اليهودَ مطلقا تَلْبَسُ العمائمَ الصُّفْر، والنَّصارىٰ العَمائم الزُّرْق، ويركبون الحميرَ على البَراذِع، ويَثْنِى أحدُهم رِجْلَه قُدَّامَه، وتختصُّ السَّامرةُ بالشَّام بلُبْس العمامة الحَمْراء، ولا مُمَيِّزَ يعتادونه الآن سوىٰ ماقدَّمْناه .

ومنها ـ أنهم لا يرفعون ما يَبْنُونه علىٰ [بنيان] جيرانهم من المسلمين، ولا يُساوونَه به ولو كان فى غاية الانْخفاض، ويُمْنع من ذلك وإن رَضِىَ الجارُ المسْلِم، لأن الحقَّ للدين دون الجار، وله أن يرفع مابناه بمَحَلَّةٍ منْفَصلة عن أبنية المسلمين . ولو اشْترى بِناءً عاليًا بَقِىَ علىٰ حاله، فلو انهدم فأعاده لم يكن له الرَّفْع على المسلم ولا المُساوَاة .

ومنها ـ أنهم لا يُحدِثُون كنيسةً ولا بِيعَة فيما أحْدَثَه المسلمون من البلاد : كالبصْرة، والكُوفَة، وبَغْداد، والقاهِرَة، ولا فى بلدٍ أسلم أهلُها عليها : كالمدينة واليَمَن . فإن أحدثوا فيها شيئا من ذلك نُقِض، نَعم يُتْرك ماوُجد منها ولم يُعلَمْ حالُه :

لاحتمال اتصال العمارات به . وكذلك لا يجوز إحداثُ الكنائس والبِيَع فيما فُتِح عَنْوةً، ولا إبقاءُ القَديم منها لحصول الملك بالاستيلاء . أمّا ما فُتِح صُلْحًا بخراجٍ على أن تكونَ الرَّقَبةُ لهم، فيجوز فيها إحْداثُ الكنائس وإبقاءُ القديمة منها، فإن الارض لهم . وإن فُتِحَتْ صُلْحًا على أن تكون لنا : فإن شُرِط إبقاءُ القديمة بَقِيتْ وكأنّهم ٱستَثْنَوْها . ويجوزُ لهم إعادةُ المتَهدِّمةِ منها، وتَطْيِينُ خارِجها دون تَوْسيعها .

الأمر الثامن — معرفةُ ما يَنْتقضُ به عَهْدُهم .

ويَنْتَقِضُ بأمورٍ :

منها — قِتَالُ المسلمين بلا شُبْهةٍ، ومَنْعُ الجِزْيةِ، ومَنع إجراءِ حُكْمنا عليهم ؛ وكذا الزِّنا بمُسْلِمة أو إصابتُها بٱسم نِكَاحٍ، والاطلاعُ على عَوْرات المسلمين وإنهاؤُها لأهْلِ الحَرْب، وإيواءُ جاسوسٍ لهم، وقَطْعُ الطَّريق، والقَتْلُ الموجِبُ للقِصَاص، وقَذْفُ مُسلِمٍ، وسَبُّ نَبِيٍّ جَهْرا، وطَعْنٌ فى الإسلام أو القرءان إن شُرِطَ عليهم الانتقاضُ وإلا فلا . أما لو أظهر ببَلَدِ الإسلام الخَمْرَ أو الخِنْزيرَ أو النَّاقوسَ أو مُعْتَقَده فى عُزَيْرٍ والمَسيح عليهما السلام أو جَنازَةً لهم أو سَقَى مسلمًا خمرًا فإنه يُعزَّر .

الفصـــــل الثـانى

من البـاب الثـالث من المقالة التاسعة

(مايُكْتب فى مُتعلّقات أهْلِ الذِّمة [عند خرُوجهم] عن لوازم عَقْد الذِّمّة)

وٱعلم أنه ربّما خرج أهْلُ الذِّمّة عن لوازم عَقْدِ الذِّمة ، وأظهروا التميزَ والتّكبُّر وعُلُوَّ البناء، إلى غير ذلك مما فيه مخالفةُ الشروط ، فيأخذُ أهْلُ العَدْلِ : من الخُلَفاء والملوكِ فى قَمْعهم والغَضِّ منهم وحَطِّ مقاديرهم ، ويكتبون بذلك كُتباً ويبعثُونَ بها إلى الآفاق ليُعْمَل بمقتضاها ، غَضًّا منهم وحَطًّا لقَدْرِهم ، ورِفْعةً لدين الإسلام وتَشْريفًا لقَدْره ، إذ يقولُ تعالىٰ : ﴿ هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

وهــذه نُسْخةُ كتابٍ كُتِب به عن المتوكِّلِ على الله حين حَجَّ ، سَمِع رجلًا يدعو عليه ، فهَمَّ بقَتْله ، فقال : واللهِ ياأمير المؤمنين ماقُلتُ ماقلتُ إلّا وقد أيقنتُ بالقَتْل ، فاسْمعْ مَقالى ثم مُرْ بقَتْلى ، فقال : قُلْ ! ــ فشَكا إليه ٱسْتِطالةَ كُتّاب أهْلِ الذِّمّة على المسلمين فى كلام طويل ، فخرج أمْرُه بأن تَلْبَس النَّصارىٰ واليَهودُ ثِيابَ العَسَلِىِّ ، وأن لا يُمَكَّنُوا من لُبْس البَياضِ كَىْ لا يتشبَّهوا بالمسلمين ، وأن تكونَ رُكُبُهم خَشَبًا ، وأن تُهـدَمَ بِيَعُهم المستَجِدّة ، وأن تُطْلَقَ عليهم الجِزْيةُ ، ولا يُفسحَ لهم فى دخول حَمّاماتٍ خَدَمُها من أهْلِ الإسلام ، ولا يَسْتخدمُوا مسلمًا فى حوائجهم لنفوسهم ، وأَفْرَدَهم بمن يحتسب عليهم . وقد ذكر أبو هلالٍ العَسْكَرىُّ فى كتابه " الأوائل " : أن المتوكِّلَ أوّلُ من ألزمهم ذلك ، وهى :

أما بعـدُ، فإنَّ اللهَ ٱصطفىٰ الإسلامَ دِينًا فشرَّفه وكرَّمه، وأناره ونَصَّره وأظْهَره، وفَضَّله وأكْمَله؛ فهو الدِّين الذى لا يَقْبلُ غيرَه، قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْـهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. بَعث به صَـفِيَّه وخِيرتَه من خَلْقه: محمدًا صلى الله عليه وسلم، بجعله خَاتَم النَّبيِّين، وإمامَ المُتقين، وسَيِّد المرسلين: ﴿لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. وأنزل كِتَابًا: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾. أسعد به أُمَّتَه، وجعلهم خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرجت للناس يأْمُرون بالمَعْروف ويَنْهَوْن عن المُنْكر ويؤمنون بالله: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُـمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. وأهان الشِّركَ وأهْلَه، ووَضَعهم وصَغَّرهم وقَمَعهم وخَذَلهم وتَبَرَّأ منهم، وضَرب عليهم الذِّلَّةَ والمَسْكَنَةَ، فقال: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾. واطَّلع علىٰ قلوبهم، وخُبْث سَرائِرهم وضمائرهم، فنَهىٰ عن ٱئْتمانهم، والثِّقة بهم: لعَدَاوتهم للمسلمين، وغِشِّهم وبَغْضائهم، فقال تعـالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُـدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾. وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾. وقال تعالىٰ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾. وقال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُـمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

وقد ٱنتهىٰ إلىٰ أمير المؤمنين أنَّ أُناسًا لا رَأْىَ لهم ولا رَوِيَّة يَسْتَعِينون بأهل الذِّمة فى أفعالهم ، ويَتَّخِذُونهم بِطَانَةً من دون المسلمين ، ويُسَلِّطونهم على الرَّعِيَّة ، فيَعْسِفُونهم ويَبْسُطون أيْدِيَهم إلىٰ ظُلْمِهم وغِشِّهم والعُدْوانِ عليهم . فأَعْظَم أميرُ المؤمنين ذلك ، وأنْكَره وأكْبَره ، وتبرَّأ منه ، وأحبَّ التقرُّبَ إلى الله بحَسْمِه والنَّهْيِ عنه ، ورأىٰ أن يكتُبَ إلىٰ عُمَّاله على الكُوَرِ والأمصارِ ، ووُلاةِ الثُّغور والأجْناد ، فى تَرْكِ ٱستعمالهم لأهلِ الذِّمَّة فى شَيءٍ من أعمالهم وأُمُورهم ، والإشراكِ لهم فى أماناتهم ، وما قلَّدَهم أميرُ المؤمنين وٱستحفظهم إيَّاه ، إذ جعل فى المسلمين الثِّقَةَ فى الدِّين ، والأمانةَ علىٰ إخوانهم المؤمنين ، وحُسْنَ الرِّعايةِ لما ٱسترعاهم ، والكِفَايةِ لما ٱسْتُكْفُوا ، والقيامِ بما حُمِّلوا بما أغنىٰ عن الاستعانة [بأحد] من المشركين بالله ، المكَذِّبِينَ برُسُله ، الجاحدين لآياته ، الجاعلين معه إلٰهًا آخر ، ولَا إلٰه إلا هُو وحْدَه لاشَريكَ له ، ورَجا أميرُ المؤمنين ـ بما أَلْهَمَهُ اللهُ من ذلك ، وقذفَ فى قَلْبه ـ جزِيلَ الثَّوابِ ، وكريمَ المآب ؛ واللهُ يُعِينُ أميرَ المؤمنين علىٰ نِيَّتِه علىٰ تعزيزِ الإسلام وأهْلِه ، وإذلالِ الشِّرْك وحِزْبِه .

فلتَعْلَم هـذا من رَأْيِ أميرِ المؤمنين ، ولا تَسْتعِنْ بأحَدٍ من المشركين ؛ وأنزِلْ أهْلَ الذِّمةِ منازِلَهم التى أنزلهم اللهُ بها . فاقرأْ كِتَابَ أمير المؤمنين علىٰ أهْلِ أعمالِك وأشِعْهُ فيهم ، ولا يعلَمُ أميرُ المؤمنين أنَّك ٱستعَنْتَ ولا أحدٌ من عُمَّالك وأعْوانِك بأحَد من أهْلِ الذِّمَّة فى عَمَلِ الإسلام .

وفى أيام المُقْتدِر بالله ، فى سنة خَمْسٍ وتسعين ومائتين ، عَزَلَ كُتَّابَ النَّصارَى وعُمَّالَهم ، وأمَرَ أن لايُستعانَ بأحَدٍ من أهْلِ الذِّمة حتَّى أمَرَ بقَتْل ٱبن ياسِرِ النَّصْرانىِّ عامل يُونُس الحاجب ، وكَتَب إلىٰ عُمَّاله بما نُسْخَتُه :

عَوائِدُ اللهِ عنــد أمير المؤمنــين تُوفِى علىٰ غاية رِضَاهُ ونِهايَةِ أمانيــه ، وليس أحَدٌ يُظْهِر عِصْيانَه إلا جعله اللهُ عِظَةً للأنَام ، وبادَرَه بعاجِل الأصطلام : ﴿ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴾ . فمن نَكَث وطَغَىٰ وبَغَىٰ ، وخالَف أميرَ المؤمنين ، وخالف محمدًا صلى الله عليه وسلم ، وسَعىٰ فى إفْساد دَوْلة أمير المؤمنين ، عاجَلَه أميرُ المؤمنين بسَطْوَتِه وطَهَّر من رِجْسِه دَوْلَتَه ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ .

وقد أمَرَ أميرُ المؤمنين بتَرْك الاستعانة بأحَدٍ من أهلِ الذِّمة ، فلْيحْذَرِ العمالُ تجاوُزَ أوَامرِ أمير المؤمنين ونَواهيه .

وفى أيام الآمرِ بأحكام الله الفاطمىّ بالديار المصرية ، امتدّتْ أيْدى النَّصارىٰ ، وبَســطُوا أيْدِيَهم بالخيــانة ، وتَفَنَّنوا فى أذَى المســلمين وإيصال المَضرة إليهم . واستُعْمِل منهم كاتبٌ يعرَف بالرَّاهب ، ولقِّب بالأبِ القدِّيس ، الرُّوحانىّ النَّفيس ، أبى الآباء ، وسَــيِّد الرُّؤَساء ، مقدَّمِ دِينِ النَّصْرانية ، وسَــيِّد البَتْرَكِيَّة ، صَفِىِّ الرَّبِّ ومُخْتاره ، وثالث عشر الحَوَارِيِّينَ . فصادر اللَّعينُ عامَّة مَن بالديار المصرية : من كَاتِبٍ وحَاكِمٍ وجُنْــدِىٍّ وعامِلٍ وتاجِرٍ ، وامتدّت يَدُه إلىٰ النَّاس علىٰ اختلاف طبقاتهم . فخوّفه بعضُ مَشَايخ الكُتَّاب من خَالِقِه وباعِثِه ومُحاسِبِه ، وحَذَّرَه من سُوءِ عواقِبِ أفعاله ، وأشار عليه بتَرْك مايكونُ سَبَبا لهلاكه . وكان جماعةٌ من كُتَّاب مِصْر وقِبْطها فى مَجْلِسه ، فقال مُخاطِبًا له ومُسْمِعًا للجماعة : نحنُ مُلَّاكُ هــذه الدِّيار حَرْثا وخَراجًا ، مَلَكها المســلمونَ منَّا ، وتغلَّبُوا عليهــا وغَصَبُوها ، واستملكوها من أيدينا ؛ فنَحْنُ مَهْما فعَلْنــا بالمسلمين فهو قُبَالَةَ ما فَعَلُوا بنا ، ولا يكونُ له نِسْــبَةٌ إلىٰ من قُتِل من رُؤَسائنا ومُلُوكنا فى أيام الفُتُوح ؛ فجميعُ ما نأخُذُه من أموالِ المســلمين وأموال

مُلُوكهم وخُلَفائِهم حِلٌّ لنا ، وهو بَعْضُ ما نَسْتحِقُّه عليهم ؛ فإذا حَمَلنا لهم مالًا كانت المِنَّةُ لنا عليهم ، وأنشد :

بِنْتُ كَرْمٍ يَتَّمُوهــا أُمَّها * وأهانُوها فَدِيسَتْ بالقَــدَم

ثُمَّ عادُوا حَكَّمُوها بَيْنَهُمْ * وَيْلَهُمْ من فِعْلِ مظْلومٍ حَكَمْ

فاستحسن الحاضرون من النَّصارىٰ والمُنافِقين ماسَمِعُوه منه ، وآستعادُوه ، وعَضُّوا عليه بالنَّواجِذ ، حتَّى قيــل : إنَّ الذى آحتاط عليه قَــلَمُ اللَّعِينِ من أملاك المسلمين مائتا ألْفٍ وآثنان وسبعون ألفًا ، ومائتا دَارٍ وحَانُوتٍ وأَرْضٍ بأعمال الدَّوْلة ، إلىٰ أن أعادها إلىٰ أصحابها أبُو علىٍّ بن الأفضل ؛ ومن الأموال ما لا يُحْصيه إلا اللهُ تعالىٰ .

ثم آنْتَبَــه من رَقْدَته ، وأفاقَ من سَكْرَته ، وأدركَتْه الحَمِيَّةُ الإسلاميــه ، والغَيْرةُ المحمَّديَّه ؛ فغَضِب لله غَضْبَة ناصِرٍ للدِّين ، وثَائِرٍ للمسلمين ؛ فألبس أهلَ الذِّمَّةِ الغيار ، وأنزلهم بالمَنْزِلة التى أمر الله أن يُنْزَلوا بها من الذُّل والصَّغار ؛ وأمر أن لا يُوَلَّوْا شيئًا من أعمال الإسلام ، وأن يُنْشَأَ فى ذلك كتابٌ يَقِفُ عليه الخاصُّ والعامّ .

وهــذه نُسْخَتُه :

الحمــدُ لله المعبودِ فى أرْضِه وسمــائِه ، والمُجِيبِ دعاءَ من يَدْعُو بأسمــائه ؛ المُنْفرِدِ بالقُدْرة البــاهــره ، المتوحِّد بالقُوَّة الظاهــره ، وهو اللهُ الذى لا إله إلا هو له الحمــدُ فى الأُولىٰ والآخره ؛ هَدَىٰ العبادَ بالإيمــان إلىٰ سَبِيل الرَّشاد ، ووفَّقَهم فى الطاعات لمــا هو أنفعُ زَادٍ فى المَعَاد ؛ وتفرَّد بِعلْم الغُيُوب فعَلِم من كلِّ عبْــدٍ إضْمــارَه كما علِم تَصْرِيحَه ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَه ﴾ . الذى شرَّف دِينَ الإسلام وعَظَّمه ، وقَضَىٰ بالسعادة الأَبِديَّة لمن آنْتحاه ويَمَّمه ، وفَضَّله علىٰ كلِّ شَرْعٍ سَبَقه وعلىٰ كلِّ دِينٍ تَقَدَّمه ؛ فنَصَره وخَذَلها ، وأشادَه

وأنحلَها، ورَفَعه ووَضَعها، وأطَّده وضَعْضَعها؛ وأبَىٰ أن يَقْبَل دِينًا سِواه من الأوّلين والآخرين، فقال تعالىٰ وهو أصدق القائلين: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. وشَهِدَ به بنَفْسه، وأشْهَدَ به مَلائكتَه وأُولي العِلْم الذين هم خُلاصَةُ الأنام، فقال تعالىٰ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

ولمَّا ٱرتضاه لِعباده وأتَمَّ به نِعْمَته، أكمَلَه لهم وأظْهَره على الدِّين كُلِّه وأوضحه إيضاحًا مُبِينا، فقال تعالىٰ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾.

وفَرَق به بين أوليائه وأعدائه، وبين أهْلِ الهُدىٰ والضَّلال، وأهْلِ البَغْيِ والرَّشاد، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ ٱهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

وأمَر تعالىٰ بالثَّبات عليه إلىٰ المَمات فقال وبقَوْله يَهْتَدي المهتَدُون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ٱتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. وهي وَصيَّة إمامِ الحُنَفاءِ لبَنِيه وإسرائيلَ: ﴿يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

وشَهِد علىٰ الحَوارِيِّين عبدُ الله ورسولُه وكَلِمَتُه عِيسىٰ بنُ مَرْيَم وهو الشّاهد الأمينُ، قال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

وأمر تعالىٰ رَسُولَه أن يدعُوَ أهْلَ الكِتَاب إليه، ويُشْهِدَ من تَوَلَّىٰ منهم بأنَّه عليه؛ فقال تعالىٰ وقولُه الحقُّ المُبِين : ﴿ قُلْ يَـٰأَهْـلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَـةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ .

وصلَّى اللهُ على الذى رَفَعه بٱصْطفائه إلىٰ مَحَلِّه المُنِيف، وبعثه للناس كافَّةً بالدِّينِ القَيِّم الحَنِيف .

أما بعــدُ، فإن الله سبحانه ببَالغ حِكْمته، وتَتَابُعِ نِعْمته، شَرَّف دِينَ الإسلام وطَهَّره من الأدْنَاس، وجعلَ أهْلَه خيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس؛ فالإسلامُ الدِّينُ القَوِيمُ الذى ٱصطفاه اللهُ من الأديان لنَفْسه، وجعلَه دِينَ أنْبِيائه ورُسُله وملَائكة قُدْسه؛ فارْتضاه وٱخْتاره، وجعلَ خيرَ عباده وخاصَّتَهم هم أولياءَه وأنْصارَه؛ يحافظُون علىٰ حُدُوده ويُثابِرُون، ويَدْعُون إليــه ويُذَكِّرون، وَيَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ويَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، فهم بآيات رَبِّهــم يُؤْمنون، وإلىٰ مَرْضاته يُسارِعُون؛ ولمن خَرجَ عن دِينِـه مُجاهِدُون، ولعباده بجُهْدِهم ينْصَحون، وعلىٰ طاعَته مُثابِرُون، وعلىٰ صَلَوَاتِهم يُحافِظُون، وعلىٰ رَبِّهم يتوكَّلون، وبالآخرة هم يُوقِنُون : ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

هــذا وإن أُمَّةً للهِ هداها إلىٰ دِينِه القَوِيم، وجعلها ــ دُون الأُمم الجاحدة ــ علىٰ صِرَاطٍ مُسْتقيم، تُوفِى من الأُمَم سبعين، هم خيرُها وأكرمُها علىٰ رَبِّ العالمين ــ حَقِيقةٌ بأن لا نوالِى من الأمم سواها، ولا نسْتعِينَ بِمَن حَادَّ اللهَ خالقَه ورَازقَه وعبدَ من دُونه إلهًا، وكذَّب رُسُلَه، وعصَىٰ أمْرَه وٱتَّبع غيرَ سَبِيلِه، وٱتَّخذَ الشَّيْطانَ وَلِيًّا من دُونِ اللهِ؛ ومعلومٌ أن اليهودَ والنَّصارىٰ مَوْسومُون بغَضَبِ الله ولَعْنَته، والشِّرْك به والجَحْد

لوَحْدانيَّتِه ؛ وقد فرض اللهُ علىٰ عبـاده فى جميع صلواتهم أن يَسْأَلوا هِـدَايَةَ سبيلِ الذين أنْعم الله عليهم : من النَّبيِّينَ والصِّدّيقينَ والشُّهَداء والصَّالحين ، ويُجنِّبهم سبيلَ الذين أبْعدهم من رَحْمَتِه ، وطردَهم عن جَنَّتِه ؛ فباءُوا بغَضَبِه ولعنته : من المَغْضُوب عليهم والضالين .

فالأُمة الغَضَبية هم اليهودُ بنَصِّ القرآن ، وأمةُ الضَّـلالِ هُم النصارىٰ المُثَلِّثة عُبَّادُ الصُّلبان ؛ وقد أخبر تعالىٰ عن اليَهُود بأنَّهـم بالذِّلَّة والمَسْكَنَة والغَضَب مَوْسُومون ، فقال تعالىٰ : ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَمَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ .

وأخبر بأنَّهـم باءوا بغَضَبٍ علىٰ غَضَبٍ وذلك جزاء المُفْتَرِين ، فقـال : ﴿بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ .

وأخبرَ سُبْحَانَه أنه لَعَنَهم ولا أصدَقَ من الله قِيلًا ، فقال : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّا أَصْحَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا﴾ .

وحكَم سُبْحَانَه بَيْنهم وبَيْن المسلمين حُكْمًا تَرْتضِيه العُقول ، ويَتَلَقَّاه كلُّ مُنْصِف بالإذعان والقَبول ، فقال : ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ مَنْ لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ .

وأخبر عمّا أحلّ بهم من العُقوبة التى صاروا بها مَثَلًا فى العالَمين، فقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾.

ثم حَكَم عليهم حُكمًا مُستمِرًّا عليهم فى الذَّرارىّ والأعقاب، على مَمَرّ السنين والأَحْقاب، فقال تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ﴾. فكان هذا العذابُ فى الدُّنيا بعضَ الاستحقاق: ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴾. وأنهم أنجسُ الأمَم قُلوبًا وأخبثُهم طَوِيَّةً، وأرْداهم سَجِيَّةً، وأوْلاهم بالعَذاب الأليم، فقال: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾. وأنهم أئمّةُ الخيانة لله ورسوله ودِينه وكِتابه وعِباده المؤمنين، فقال: ﴿ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾.

وأخبر عن سُوءِ ما يَسْمعون ويَقْبلُون، وخُبْث ما يأكُلون ويحكمون، فقال تعالى: ﴿ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾.

وأخبر تعالى أنه لَعَنهم على ألْسِنَة أنْبِيائه ورُسُله بما كانوا يكسبون، فقال: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَىٰ كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴾.

وقطعَ المُوالاَةَ بين اليهودِ والنَّصارىٰ وبين المُؤمنـين، وأخبر أنَّ من تَولَّاهم فإنه منهم فى حُكْمه المبين، فقال تعالىٰ وهو أصْدَق القائلين: ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَـاءَ بَعْضُهُم أَوْلِيَاءُ بَعْض وَمَنْ يَتَوَلَّهُـمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُـمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِـمِينَ ﴾ .

وأخبر عن حالِ مُتَوَلِّيهم بمـا فى قَلْبِـه من المَرَض المؤدّى إلىٰ فسـاد العَقْلِ والدِّين، فقـال : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِـمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِىَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْـدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِى أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴾ .

ثم أخْبَر عن حُبُوط أعْمالِ مُتَوَلِّيهـم ليكون المؤمنُ لذلك من الحَذِرين، فقال : ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَـانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُـمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ ﴾ .

ونهىٰ المُؤمنين عن ٱتِّخاذ أعدائه أوْلياءَ، وقد كفروا بالحقِّ الذى جاءهم من رَبِّهم، وإنهم لا يمتنعون من سُوءٍ ينالُونَهم به بأيديهم وألسنتهم إذا قَدَرُوا عليـه فقال تعالىٰ : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَـا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـادًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَـا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

وجعـل سبحانه لعبـاده المسلمين أُسوةً حَسَنَةً فى إمام الحُنَفاءِ ومَن معـه من المؤمنين، إذْ تبرأ مِمَّن ليس علىٰ دينهم ٱمتثالا لأمر الله، وإيثاراً لمَرْضاته وما عنده،

فقال تعالىٰ : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَه إِذْ قَالُوا لِقَومِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللهِ وَحْدَهُ ﴾ . وتبرأ سبحانه ممن اتخذ الكفار أولياء من دون المؤمنين فقال : ﴿ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴾ .

فمن ضُروب الطاعات إهانَتُهم فى الدُّنيا قبل الآخرة التى هم إليها صائرون ، ومن حُقُوق الله الواجبة أخْذُ جِزْيَةِ رءوسهم التى يُعْطُونها عن يَدٍ وهُمْ صاغِرُون ؛ ومن الأحكام الدِّينية أن يُعَمَّ جميعُ الأمَّةِ إلا مَن لا تجِبُ عليه باستخراجها ، وأَنْ يُعتَمد فى ذلك سلوكُ سَبِيلِ السُّنَّة المحمَّديةِ ومِنْهاجِها ؛ وأن لا يُسامَحَ بها أحدٌ منهم ولو كان فى قَوْمه عظيما ، وأن لا يُقْبلَ إرسالُه بها ولو كان فيهم زَعِيما ؛ وأن لا يُحِيلَ بها علىٰ أحدٍ من المسلمين ، ولا يوكِّلَ فى إخراجها عنه أحدًا من الموحِّدين ؛ بل تُؤْخذُ منه علىٰ وَجْهِ الذِّلَّة والصَّغار ، إعْزازًا للإسلام وأهله وإذلالًا لطائفة الكُفَّار ؛ وأن تُسْتوفَىٰ من جميعهم حَقَّ الاسْتيفاء ، وأهْلُ خَيْبَرَ وغيرُهم فى ذلك على السَّواء .

وأمَّا ما ادَّعاه الجَبابرةُ من وَضْعِ الجِزْيةِ عنهم بعَهْدٍ من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنَّ ذلك زُورٌ وبُهْتان ، وكَذِبٌ ظاهرٌ يعرِفُه أهلُ العِلْم والإيمان ؛ لَفَّقَه القَوْمُ البُهْتُ وزَوَّرُوه ، ووضَعُوه من تِلْقاءِ أنفسهم ونَمَّقُوه ؛ وظَنُّوا أن ذلك يخفَىٰ على الناقدين ، أو يَرُوجُ علىٰ علماء المسلمين ؛ ويأْبَى اللهُ إلَّا أن يكشفَ مُحَالَ المُبطلين ، وإفْكَ المُفْترين ؛ وقد تظاهرت السنَنُ وصحَّ الخبرَ بأن خَيْبَرَ فتحَتْ عَنْوَة ، وأوْجفَ عليها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون على إجلائهم عنها كما أجْلَى إخوانَهم من أَهْلِ الكِتاب ، فلمَّا ذكَرُوا أنهم أعْرَفُ بسَقْيِ نَخْلِها ومَصالحِ أرْضها ، أقرَّهم فيها

كالأُجَراءِ وجعل لهم نِصْفَ الارْتِفاعِ، وكان ذلك شَرْطًا مُبِينا، وقال : « نُقِرُّكُم فِيهَا مَاشِئْنَا»، فأقرَّ بذلك الجبابِرَةُ صاغرين، وأقاموا علىٰ هذا الشَّرْط في الأرض عَامِلِين؛ ولم يكنْ للقَوْم من الذِّمام والحُرْمَه، ما يُوجِبُ إسقاطَ الجزْية عنهم دُون مَن عداهم من أهْلِ الذِّمَّه؛ وكيف ؟ وفي الكِتَاب المَشْحونِ بالكَذِب والمَيْنِ، شهادةُ سَعْدِ ابن مُعَاذٍ وكان قد تُوُفِّيَ قبلَ ذلك بأكثر من سَنَتَيْن؛ وشهادةُ مُعاويةَ بنِ أبي سُفْيان، وإنَّما أسلَم عام الفَتْح بعد خَيْبَرَ سنةَ ثَمَان؛ وفي الكِتَاب المَكْذُوب أنه أسقطَ عنهم الكُلَف والسُّخَر، ولم تكنْ علىٰ زمانِ خُلَفائِه الذين سارُوا في الناس أحْسَنَ السِّيَر .

ولما اتَّسعتْ رُقْعةُ الإسلام، ودخل فيه الخاصُّ والعام، وكان في المسلمين مَن يقوم بعَمَلِ الأرض وسَقْيِ النَّخْل، أجْلَىٰ عمرُ بنُ الخَطَّاب اليهودَ من خَيْبَرَ بَلْ من جَزِيرة العَرَب حتَّى [قال] : لا أدَعُ فيها إلا مُسْلماً .

وفي شهر رجب سنة سبعمائة وصل إلىٰ القاهرةِ المحروسةِ وَزِيرُ صاحبِ المَغْرِب حَاجًّا، فاجتمع بالمَلِك النَّاصر «محمد بن قلاوون» ونائبُه يومئذٍ الأميرُ سلار، فتحدَّث الوزيرُ معـه ومع الأمير بِيبَرْس الجاشَنْكِير في أمر اليَهُود والنَّصارَى، وأنهم عندهم في غاية الذِّلَّة والهَوَان، وأنهم لا يُمَكَّن أحَدٌ منهم من رُكُوب الخَيْل ولا الاستِخْدام في الجِهَاتِ الدِّيوانية، وأنْكر حالَ نَصارَى الدِّيار المِصْرية ويَهُودِها بسبب لُبْسهم أفْخَر الملابِس، ورُكُوبِهم الخَيْـلَ والبِغالَ، واستخدامهم في أجلِّ المناصب، وتَحْكِيمهم في رِقابِ المسلمين؛ وذكر أن عَهْـد ذِمَّتِهم انقضَىٰ من سنة ستمـائة من الهِجْرة النَّبويَّة، فأثَّر كلامُه عند أهْلِ الدَّولة، لاسيَّـا الأميرُ بِيبَرْس الجَاشَنْكِير؛ فأمَر بجَمْع النصارىٰ واليهود، ورَسَم أن لا يُسْتخدَم أحدٌ منهم في الجهات السلطانية، ولا عند

الأمَرَاء ، وأن تُغَيَّر عمـائمُهم : فيلبَس النَّصارَى العمائمَ الزُّرْق ، وتُشَـدُّ فى أوساطِهم الزنانيرُ، ويَلْبَس اليهودُ العمائمَ الصُّفْرَ ويدقوا (١) فى البيع فى إبْطال ذلك فلم يُقْبلْ منهم ، وغُلِّقت الكنائسُ بمِصْر والقاهرة ، وسُمِّرتْ أبوابُها ، ففُعل بهم ذلك ، وأُلْزِموا بأن لا يركَبُوا إلا الحَمِـير، وأن يَلُفَّ أحدُهم إحدَىٰ رِجْلَيْـه إذا ركب ، وأن يقَصَّر بنيانُهم المجاوِرُ للمسلمين عن بناء المُسْـلم . وكُتِب بذلك إلىٰ جميع الأعمـال ليُعْمَل بمقتضاه ، وأسـلَم بسَبَبِ ذلك كثيرٌ منهم ؛ وأُلْبِسَ أهْـلُ الذِّمة بالشام : النَّصارَى الأزرق ، واليهودُ الأصْفر، والسامِرَةُ الأحمر .

ثم عادُوا إلى المباشرات بعد ذلك ، فآنتدبَ السلطانُ المَلِكُ «الصالحُ صالحٌ» آبن الملك النـاصر فى سنة خمسٍ وخمسين وسبعمائة لَمنْعِهم من ذلك ، وألزمَهُم بالشروط العُمَرِيَّة ، وكتب بذلك مَرْسومًا شَرِيفًا وبعث بنُسْـخته إلى الأعمـال فقُرِئَتْ علىٰ مَنَابِرِالجوامع .

وهٰذه نُسختُه ــ صورةُ مافى الطُّرَّة :

«مَرْسومٌ شريفٌ بأن يَعْتمِدَ جميعُ طوائف اليَهُود والنَّصارَىٰ والسَّامِرَة : بالديار المصرية ، والبلاد الإسـلامية المحروسة وأعمالهـا ، حُكْمَ عَهْد أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخطَّاب رضى الله عنـه ، لمن مضىٰ من أهْلِ مِلَّتهم : وهو أن لا يُحدِثوا فى البلاد الإسلامية دَيْرًا ولا كَنيسةً ولا صَوْمَعةَ راهبٍ، ولا يُجَدِّدُوا ما خَرِبَ منها، ولا يُؤْوُا جَاسُوسًا ولا مَن فيه رِيبَةٌ لأهْلِ الإسـلام ، ولا يكْتُموا غِشًّا للمسلمين، ولا يُعلِّموا أولادَهم القرآنَ، ولا يُظهِروا شِرْكًا، ولا يمنَعُوا ذَوِى قَرابةٍ من الإسلام إن أَرادُوه ، ولا يتَشَبَّهوا بالمسلمين فى لِباسِهم ؛ ويلبَسُون الغِيَار الأزْرق والأصْفَر، وتُمنَع نِساؤُهم

(١) بياض فى الأصـل فى غير نسخة والكلام غير ملتئم ولعل الأصل « العمائم الصـفر فبالغوا فى السعى فى إبطال ذلك» الخ .

من التَّشَبُّه بنساء المسلمين ، ولا يركبوا سَرْجًا ، ولا يتقلَّدوا سيفًا ، ولا يركبوا الخيلَ ولا البِغال ، ويركبون الحَمِيرَ بالأُكُف عَرْضًا ، ولا يبيعوا الخُمور ؛ وأن يلزموا زِيَّهم حيثُ كانوا ، ويشُدُّوا زَنانيرَهم غيرَ الحرير على أوساطهم ؛ والمرأةُ البارزةُ من النصارىٰ تلبَسُ الإزارَ الكَتَّانَ المصبوغَ أزْرق ، واليَهُوديةُ الإزارَ الأصْفر ؛ ولا يدخُلُ أحدٌ منهم الحَمَّامَ إلا بعلامةٍ تُميِّزه عن المسلمين فى عُنُقه : من خَاتَمِ حَديدٍ أو رَصاصٍ أو غير ذلك ؛ ولا يَعْلوا على المسلمين فى البِناءِ ولا يُساوُوهم ، بل يكونون أدْوَنَ منهم ؛ ولا يضربُوا بالناقوس إلا ضَرْباً خفيفًا ، ولا يرفعُوا أصواتَهم فى كَنائِسِهم ، ولا يَخْدُمُوا فى دولتنا الشريفة ــ ثَبَّت الله قواعدها ــ ولا عنـد أحَدٍ من أمرائها ــ أعزَّهم اللهُ تعالىٰ ــ ولا يَلُوا وَظِيفةً يَعْلُو أمرُهم فيها علىٰ أحدٍ من المسلمين ؛ وأن يُحمَلَ الأمرُ فى مواريث مَوْتاهم علىٰ حُكْم الشريعةِ الشريفةِ المحمَّديَّة ، وتوقع عليهم الحَوْطَةُ الدِّيوانيـة أُسْوة مَوْتَى المسلمين ؛ وأن لا يدخلَ نِسْوةُ أهْلِ الذِّمة الحمَّاماتِ مع المسلمات ، ويُجْعلُ لهنّ حَمَّاماتٌ تخصُّهنَّ يَدْخُلْنَها ، عملًا فى ذلك بما رَجَّحَه علماءُ الشَّرعِ الشريف ، علىٰ ما شُرح فيه » .

ونصُّه بعد البَسْملة الشريفة .

الحمـدُ لله الذى بصَّر سلطانَنا الصَّالح ، باعتماد مَصَالِح الدِّين والدُّنيا ، ويَسَّر لرَأْيِنا الراجِح ، تَوْفيرَ التَّوفيق إثباتًا ونفْيًا ، وتَحْريرَ التَّحقيق أمْرًا وَنهْيا ؛ وقَهر بأحْكامِ الإسلامِ ، من رام نَكْثَ العَهْد ونَقْضَ الذِّمام ، بتَعَدِّى الحُدُودِ عُدْوانًا وبَغْيا ، وَجَسَر علىٰ اقْتحام ذُنوبٍ عِظامٍ ، تُحِلُّ به فى الدَّارَين عذاباً وخِزْيا ، وتكَفَّل للأمّة المحمَّدية فى الأولىٰ والأخْرىٰ بالسـعادة السَّرْمديَّة التى لا تتناهىٰ ولا تَتَغَيّا ، وجعـلَ كَلمةَ الذين كفروا السُّفلىٰ وكَلمَةَ الله هى العُلْيا .

نحمده أَنْ أصحبَ فِكْرَنا رَشَدًا وأذهبَ بأمْرِنا غَيّا ، ونَشْكُرُه على أن جبر بأحكام العَدْل للإيمان وَهْنًا وآثر لذَوِى البُهْتان بالانتقام وَهْيا ؛ ونشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له واحدٌ أحَد ، فَرْدٌ صَمَد ، خلقَ ورزق وأنشأ وأفنىٰ وأمَاتَ وأحْيا ، وتقدّس وتمجّد عن الصَّاحِبة والوَلَد ، وأوجد عيسى بنَ مَرْيم كما أوجدَ آدَمَ ولم يكنْ شيئا وجعلَه عَبْدًا صالحًا نَبيًّا زكِيّا ؛ ونشهدُ أنَّ سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أنزل عليه مع الرُّوحِ الأمِينِ قُرآنًا ووَحْيا ، وآستأصل به شأْفَةَ الكُفَّار وأنزل بهم من الأخطار الداهيةَ الدَّهْيا ، وآتَّبع مِلَّة أبِيه إبراهيم الذى أُرِيَ الصِّدْقَ وصدّق الرُّؤْيا ، وجمع اللهُ به الشَّتاتَ فهدَىٰ قلوبًا غُلْفًا وأسماعًا صُمًّا وأبصارًا عُمْيا ، وبلَّغ الرسالةَ ، وأدَّى الأمانة ، ونصح الأمّة فبُشْرىٰ لمن وُفِّق من أمّته فرُزِق لحكْمَته وَعْيا ، ورفَع الضلالة ، وردّ الضالة ، وأجمل للعَهْد حفْظًا وللذِّمام رَعْيا ، ونسخَتْ شريعتُه الشرائع ، وسَدَّت الذَّرائع ، وشمَخت علىٰ النُّجوم الطوالع ، فهى أسمىٰ منها رِفْعَةً وأنْمىٰ عَدَدا وأسْنىٰ هدْيا ، صلَّى اللهُ عليه وعلىٰ آله فُروعِ الزَّهْراء الذين عُنُوا بقوله تعالىٰ : ﴿ رَحْمَةُ اللهِ وبَرَكَاتُه عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴾ أمْرَعَ سَقْيا ، خُصوصًا صِدِّيقَه ورَفيقَه فى المَمَات وفى المَحْيا ، ومن آستخلفه فى الصَّلاة عنه إشارةً إلىٰ أنه أحقُّ لرُتْبة الخلافة بالرُّقْيا ، ومن فَرَق منه الشَّيطانُ ووافق الفُرْقَانُ له رَأْيا ، ويَسَّر اللهُ تعالىٰ فى أيَّامه المباركة من الفُتُوحات ما لا آتّفق لغيره ولا تَهيّا ، وذا النُّورَيْنِ الذى قَطَع اللَّيلَ تَسْبيحًا وقُرْآنًا وأحْيا ، وآستحْيَتْ منه ملائكةُ السماء لمَّا مِنَ اللهِ آسْتَحْيَا ، وعلى الصِّهْرِ وآبنِ العَمِّ المُجاهِدِ الزَّاهد الذى طلَّق ثلاثًا الدَّارَ الفانيةَ التى ليس لها بُقْيا ، وسَرَّه لمَّا قَضَى على الرِّضا نَحْبَه ، فوجد الأحِبَّة : محمدًا وحِزْبَه ، وحَمِدَ اللَّحاقَ واللُّقْيا ؛ وعلىٰ تَتِمَّة بَقيَّة العشرة الأبرار ، وبَقيَّة المهاجرين

والأنصار، رحمةٌ تُديم لمضاجعهم صَوْبَها الدَّارَّ السُّقْيَا ، صلاةً وافرةَ الأقسامِ سَافِرَ القَسَماتِ باهِرَةَ المُحَيَّا، وسلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ، فأحكامُ الشَّرع الشريفِ أَوْلىٰ بوجوب الاتِّباع، وذِمامُ الدِّينِ الحَنِيفِ يُبِيرُ من عَصَىٰ ويُجِيرُ من أطاع، وحُرُماتُ المِلَّةِ المحمَّديَّةِ أحقُّ بأن تحفَظَ فلا تُضَاع؛ ومن المهمَّاتِ التى تُصْرَف إليها الهِمَّه، ويُرْهَفُ لها حَدُّ العَزْمه، وتُقامُ علىٰ متعدِّى حُدُودِها بالانتقام الجِزْيه؛ اعتبارُ أحْوالِ المِلَّتينِ من أهْـلِ الذِّمَّة الذين حَقَن منهم الدِّماءَ حُكْمُ الإسلام، وسكَّن عنهم الدَّهْماءَ ما التزموه من الأحْكام، مع القيام بالجِزْية فى كلِّ عام، وسلَّموا لأوامر الشَّريعَـةِ المطَهَّرةِ التى لولا الانقيادُ إليها والاستسلام، لأُغْمِدَ فى نُحُورِهم حَدُّ الحُسَام. فهم تَحْتَ قَهْرِ سلطانِ الإيمـان سَائِرُون، ولأمْرِ دِينِ الحقِّ الذى نَسَخ اللهُ تعالىٰ به الأدْيانَ صائِرُون؛ وهم المَعْنِيُّون بقوله تعالىٰ : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ .

ولمَّـا فتح الله تعالىٰ ببركة سيِّدنا رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ما فَتَح من البلاد، واسْترجَع بأيدى المهاجرين والأنصارِ من أيْدى الكُفَّار العَادِيَةِ كثيراً من الأمصار واسْتَعاد؛ وأكثرُ ذلك فى خلافة أمير المؤمنين «عُمَرَ بنِ الخطَّاب» رضى الله عنه، فإنها كانت للفَتْح مَوَاسِم ، وبالمَنْح بَوَاسِم؛ وتظافَرَتْ فيها للمسلمين غَرَائِزُ العزائم ، التى أعادَتْ هَزَاهِزُها الكُفَّارَ يجُرُّون ذُيولَ الهزَائم ــ عقَـدَ أمراؤُه الفاتحونَ لهـا بأمْرِه ــ رضى الله عنه وعنهم ــ لأهْلِ الكِتَاب عَهْداً، وحدُّوا لهم من الآداب حَدًّا لا يجوزُ أن يتعَـدَّىٰ؛ ولم تزل الخلفاءُ بعد ذلك والملوكُ فى جميع بلادِ الإسـلام يُجَدِّدُونها ، وبالمحـافظة والملاحظة يتَعَهَّدونها؛ وآخرُ من ألزمهم أحكامَها العَادلَه ،

وعَصَمَهم بذِمَّتِها التى هى لهم ما آستقاموا بالسَّلامة كافله ؛ والدُنا السلطانُ الشَّهيد « الملك الناصر » ناصرُ الدُّنيا والدِّين، سَقَ اللهُ تعالىٰ عَهْدَه عِهادَ الرَّحْمه، ولَقَّ نفْسَه الخيرَ لنُصْحِه الأُمَّه ؛ فإنه ــ قدّس اللهُ رُوحَه ــ جدّد لهم فى سنة سبعمائة لِباسَ الغيار، وشدّد عليهم بَأْسَ النَّكالِ والإنكار، وعقد لهم ذِمَّة بها الآعْتبار، وسَطَّر فى الصحائف منها شُروطًا لهم بالتزامها إقْرار، وبأحكامها أمكنهم فى دار الإسلام الآستقرار ؛ وخذل الفِئَتين المُفْتَرِيَتَيْن عملًا بقول الله تعالىٰ : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴾ .

ولمَّا طال عليهم الأَمَدُ تَمادَوْا علىٰ الآغْترار، وتَعادَوْا إلىٰ الضرِّ والإضرار ؛ وتدرّجوا بالتكبر والآستكبار، إلىٰ أن أظهروا التَّزيُّن أعْظَمَ إظهار، وخرجوا عن المَعهُود فى تَحْسينِ الزُّنَّارِ والشِّعار، وعَتَوْا فى البلاد والأمصار، وأَتَوْا من الفَسادِ بأمورٍ لا تُطاقُ كِبار .

ولما وَضَح عندنا منهم الآستمرارُ علىٰ ذلك والإصْرار، أنْكرنا عليهم أشَدَّ إنْكار، ورأينا أن نَتَّبع فيهم ما أمر اللهُ تعالىٰ به فى الكِتَاب والسُّنَّة، وأبيْنا [إلا معاملتهم] بأحكام المِلَّةِ المحمَّديَّة التى لها علىٰ المِلَّتين العِيسَوِيَّة والمُوسَوِيَّة من مِنَّه، وادَّخر الله تعالىٰ لنا هذه الحَسَنةَ التى هى من جملة الفتوحات التى يفتحُ الله تعالىٰ بها لنا فى الدُّنيا أبْوابَ السَّعادة وفى الآخرة أبْوابَ الجَنَّه ؛ فاسْتفْتَينَا فى أمرهم المجالسَ العاليةَ حُكَّامَ الشَّريعة المطَهَّره، وآقْتدَيْنا بأقوالِ مذاهبهم المحرَّره، التى لنا بهَدْيِها إلىٰ إصابة الصَّواب تَبْصِره ؛ وعَقَدْنا لهم مجلسًا بدار عَدْلنا الشريف، وألزمناهم أحْكامَ أهْل الذِّمَّة التى بآلتزام أوائلِهم لها جَرَىٰ عليهم حُكْمُ هذا التَّكْليف ؛ وأخذناهم بالعَهْد الذى نَسُوه، وألبسناهم ثَوْبَ الهَوانِ الذى لَبِسُوا [و] لما طال عليهم الزمانُ نزعُوه ولم يَلْبَسُوه ؛ وأجْرينا عليهم الآنَ شروطَه المَضْبُوطَه، وقوانِينَه التى هى من التَّبديل

والتّغيير مَحُوطَه؛ فمن جاوزها، فقد شاقَقَ الشَّريعةَ الشريفةَ وبارَزَها؛ ومن خالفها، فقد عاند المِلّة الإسلاميَّةَ وواقَفَها؛ ومن صَـدَف عن سُبُلها وتنَكَّبها، فقـد ٱقترف الكبائر وٱرْتكبها؛ وحظرنا عليهم أن يجعـل أحَدٌ منهم له بالمسلمين شَبَها، وصيَّرنا عليهم الذِّلَّة التى ضربها الله تعالىٰ عليهم وأوْجَبها .

فلذلك رسم بالأمْرِ الشريف العالى، المَوْلَوِىّ، السُّلطانىّ، المَلَكِىّ، الصَّالحِىّ، الصَّـلاحِىّ - لا زال أمرُه الممتثَلَ المُطاع، وزجْرُه به عن المآثم ٱمتناعٌ وٱرْتِدَاع، ورَأْيُه الصالحُ يريدُ الإصلاح ما ٱستطاع - أن يَعْتمِدَ جميعُ طوائفِ النَّصارىٰ واليَهُود والسَّامِرَة بالديار المصرية وجميع بلاد الإسلام المحروسة وأعما لها: من سَائِر الأقطار والآفَاق، ما أُخِذ علىٰ سَالِفيهم فى عَهْد أمير المؤمنين عُمَرَ بن الخَطَّاب رضى الله عنه من أكيد العَهْد ووَثِيق المِيثَاق :

وهو أن لا يُحْدِثُوا فى البلاد الإسلامية وأعْما لهـا دَيْرًا ولا كَنِيسةً ولا قَلَّايةً ولا صَوْمَعَةَ راهِبٍ، ولا يُجَدِّدوا فيها ما خَرِب منها، ولا يمنعوا كَنَائسهم التى عُوهِدُوا عليها، وثَبَتَ عَهْدُهم لديها، أن ينزلهـا أحَدٌ من المسلمين ثلاثَ ليالٍ يُطعِمُونهم، ولا يُؤْوا جاسُوسًا ولا مَنْ فيه رِيبَـةٌ لأهل الإسـلام، ولا يَكْتُموا غِشًّا للمسلمين، ولا يُعَلِّموا أولادهم القُرآنَ، ولا يُظْهِروا شِرْكًا، ولا يمنعُوا ذَوِى قرابة من الإسلام إن أرادُوه، وإن أسلم أحدٌ منهم لا يُؤْذُوه ولا يُسا كِنُوه، وأن يُوَقِّروا المسلمين، وأن يقومُوا من مجالِسِهم إن أرادُوا الجلوسَ، وأن لا يَتَشبَّهوا بشَىْءٍ من المسـلمين فى لِباسهم قَلَنْسُوَةً ولا عِمامةً ولا نَعْلينِ ولا فَرْقَ شَـعْر، بل يلبَس النَّصرانىُّ منهـم العِمامةَ الزَّرقاء عَشَرة أذْرُعٍ غير الشـعرى (؟) فمـا دونها، واليهودىُّ العِمامةَ الصَّفراءَ كذلك؛ وتُمْنع نِساؤُهم من التَّشبُّه بنساء المسلمين ولُبْس العمائم، ولا يَتَسَمَّوْا بأسمـاء

المسلمين، ولا يتكَنَّوْا بكُناهم، ولا يتلقَّبوا بألقابهم، ولا يَرْكبوا سَرْجًا، ولا يتقلَّدوا سَيْفا، ولا يركَبُوا الخَيْل ولا البِغالَ، ويركبون الحميرَ بالأُكُف عَرْضًا من غير تَزَيُّنٍ ولا قيمةٍ عظيمةٍ لها، ولا يتخذوا شيئًا من السِّلاح، ولا يَنْقُشوا خواتيمَهم بالعربيَّة، ولا يبيعوا الخمورَ، وأن يجُزُّوا مَقادِمَ رُءُوسهم، وأن يلزموا زِيَّهم حيثُ ما كانوا، ويشدُّوا زَنانيرَهم غير الحرير على أوْساطهم، والمرأةُ البارِزَةُ من النصارى تلبَسُ الإزارَ الكَتَّان المَصْبوغَ أزْرق، واليَهُوديَّةُ الإزارَ المصبوغَ أصْفر، ولا يدخلَ أحدٌ منهم الحَمَّامَ إلا بعلامةٍ تميِّزُه عن المسلمين فى عُنُقه: من خاتَم نُحاسٍ أو رَصاصٍ أو جَرَسٍ أو غير ذلك، ولا يستخْدمُوا مسلمًا فى أعمالهم، وتلبَسُ المرأة البارِزَةُ منهم خُفَّين: أحدُهما أسودُ، والآخَرُ أبْيض، ولا يُجاوِرُوا المسلمين بمَوْتاهُم، ولا يرفعوا بِنَاءَ قُبورهم، ولا يَعْلُوا على المسلمين فى البِناء، ولا يُساوُوهم، ولا يتحيَّلُوا على ذلك بحيلَةٍ، بل يكونون أدْونَ من ذلك، ولا يَضرِبُوا بالناقوس إلا ضَرْبا خَفيفا، ولا يرفعُوا أصواتَهم فى كنائسهم، ولا يَخْرُجُوا شعانين، ولا يرفعوا أصْواتَهم على مَوْتاهُم، ولا يُظْهِروا النِّيرانَ، ولا يَشْتَرُوا مُسْلمًا من الرَّقيق ولا مُسْلِمَةً، ولا من جَرَتْ عليه سِهامُ المسلمين، ولا مَن مَنْشَؤُه مُسلِمٌ، ولا يُهَوِّدُوا ولا يُنَصِّروا رَقيقًا، ويجتنبون أوساطَ الطريق تَوْسعةً للمسلمين، ولا يَفْتِنُوا مسلمًا عن دِينه، ولا يَدُلُّوا على عَوْرات المسلمين. ومن زَنَى بمُسْلمةٍ قُتِل، ولا يضعُوا أيديَهم على أراضٍ مَواتٍ للمسلمين ولا غَيْرِ مواتٍ ولا مُزْدرع، ولا يَنْسُبوه لصَوْمَعةٍ ولا كَنيسةٍ ولا دَيْرٍ ولا غير ذلك، ولا يَشْتَروا شيئًا من الجَلَبِ الرقيق ولا يُوَكِّلوا فيه، ولا يتحيَّلُوا عليه بحيلَةٍ. ومتى خالفوا ذلك فقد حلَّ منهم ما يحِلُّ من أهْلِ النِّفاقِ والمُعانَدَة.

وكذلك رسمنا أنَّ كلَّ مَن مات من اليَهُود والنَّصارى والسَّامرة: الذُّكور والإناث منهم يحتاط عليهم من ديوان المواريث الحَشْريَّة بالديار المصرية وأعمالها وسائر

البلاد الإسْلاميَّة المحروسةِ ، إلىٰ أن تُثْبِتَ وَرَثَتُه ما يستحِقُّونه من ميراثِه بمقتضَى الشَّرْعِ الشريف ، وإذا أثبتوا ما يَسْتحِقُّونه يُعطونه بمُقْتَضاه؛ ويُحْمَلُ ما فَضَلَ بعد ذلك لبَيْتِ المـال المعمور؛ ومن مات منهم ولا وَارِثَ له يَسْتوعِبُ ، حُمِلَ مَوْجودُه لبَيْتِ المـال المعمور، ويُجْرُونَ فى الحَوْطةِ علىٰ مَوْتاهُم من دَواوِين المَوارِيث ووُكَلاءِ بَيْتِ المـال المعمور مُجْرَىٰ من يموتُ من المسلمين : ليتَبيَّنَ أمرُ مواريثِهم ، ويُحْمَل الأمرُ فيهـا علىٰ حُكْمِ الشَّرعِ الشريف ، عمـلًا بالفتاوَى الشَّرعيـةِ المتضَمِّنَةِ إجراءَ مواريثِ مَوْتاهُم علىٰ حُكْمِ الفَرائِضِ الشَّرعيةِ بحُكْمِ المِلَّةِ الاسلاميَّـةِ المحمَّديَّة : من إعطـاءِ كلِّ ذِى فَرْضٍ وعَصَـبَةٍ ما يستـحِقُّه شَرْعًا ، من غير مُخَالَفـةٍ ولا ٱمتناع ، ولا مُواقَفَةٍ ولا دِفَاع ، فإنَّ ذلك مما يتعيَّنُ أن يكونَ له إلىٰ بَيْتِ المـال المعمورِ فيه إرجاع ؛ ولتعلُّقِ حقوق المؤمنين بذلك ، ولأنه يعيـد حيث تفيا إلىٰ المسلمين ما يَسْتحِقُّه بيتُ المـال من مال كلِّ هَالِك ، ولأنَّا المطالِبُون بمـا يئُولُ إلىٰ ميراثِ المسـلمين من تُراثِ أولَئِـك ، لتكونَ هذه الحَسَنَةُ فى صحائفنا مُسَطَّره ، وإن كانت الأيامُ قد تمـادتْ عليها ومَعْرِفَتُها نَكِرَه ، وتَعادتْ اليها أيْديهم العَادِيَةُ فٱختَلَسَتْ من الذَّهبِ والفِضَّةِ القَناطِيرَ المقَنْطرَه .

ورَسَمْنا أن لا يخدمَ نَصْرانِىٌّ ولا سَامِرِىٌّ ولا يَهودِىٌّ فى دَوْلتنا الشريفة ثَبَّت اللهُ قواعِدَها ، ولا فى دواوين الممـالك المحروسة والأعمال ، ولا عِنْـد أحدٍ من أُمَرائنا أعزَّهم الله تعـالىٰ ، ولا يُبـاشِرُ أحدٌ منهـم وَكَالةً ولا أَمَانةً ، ولا ما فيه تَأَمُّرٌ علىٰ المسـلمين ، بحيثُ لا يكونُ لهم كلمةٌ يستَعْلُون بها علىٰ أحَدٍ من المسلمين فى أمْرٍ من الأمور ، فقـد حَرَّم اللهُ ذلك نَصًّا وتأويلا ، وضَمَّن حُكْمَه فى الحال والاستقبال قُرآنًا وتَنْزِيلا ، فقال تعالىٰ : ﴿ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ . وأوضَح فى ٱجتنابهم للمتَّقِين علم اليَقِين ، فقال تعالىٰ : ﴿ يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِـذُوا الَّذِينَ

ٱتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقد نهى اللهُ عن مُوالاتهم وأضاف بسُخْطه كلَّ خزْيٍ إليهم ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ .

وقد أذلّهم الله جلَّ وعزَّ لافترائهم واجترائهم من كتابه العزيز فى مواضع عِدّه ، فقال تعالى : ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ ﴾ . فوجب أن لا يكونوا على الأعمال أَمَنَه ، ولا للأموال خزَنَه : لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اليهودُ والنصارىٰ خوَنَه » . وقال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : « لا تَسْتعْملوا اليهودَ والنّصارىٰ فإنّهم أهلُ رُشًا فى دِينهم ولا تَحِلُّ الرُّشا » فباعتزالهم واختزالهم يُؤْمَن من مكْرِهم وخيانتهم ما يُخْتشَى .

ولما قدم عليه أبو مُوسى الأشعرىّ من البَصْرة وكان عامِلَه بها ، دخل عليه المَسْجِدَ ، واستأذن لكاتبه وكان نَصْرانيًّا ، فقال له أميرُ المؤمنين عمرُ : ــ ولّيتَ ذمّيًّا على المسلمين ، أما سمعتَ قولَ الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ هلّا اتخذتَ حَنيفيًّا ؟ ــ فقال يا أمير المؤمنين : لى كِتَابتُه وله دِينُه ، فأنكر أميرُ المؤمنين عليه ذلك ، وقال : لا أُكْرِمُهم إذ أهانَهم الله ، ولا أُعِزُّهم إذْ أذلّهم الله ، ولا أُدْنيهم إذ أقْصاهُم الله ــ . فاتّبعنا فى صَرْفهم الكِتَابَ والسُّنّة والأثَر ، ومنعنا عن المسلمين ــ بِغَلِّ أيديهم عن المباشرة ــ الأذَى والضَّرر ، ودفَعْنا عن أمير المؤمنين من سُوءِ مُعاشَرتِهم ما أَلِمُوا له من الاذَىٰ مع شَرِّ مَعْشر .

فليعتمدْ حُكْمُ هـذا المرسوم ، الذى هو بالعَدْل والإحسان مَوْسُوم ، ولْيُخَلَّد فى صحائف المَثُوبات ليَسْتقِرّ ويَسْتمِرّ ويَدُوم ، ولْيُشَعْ ذِكْرُه فى الممالك ، ولْيُـذَعْ أمْرُه فى المسالك ، وعلىٰ حُكّام المسلمين ــ أيدهم الله تعالىٰ ــ وقُضاتِهم ، ومتصرّفيهم

وولاتهم ؛ أن يوقعوا بمن تعدّىٰ هذه الحدود ، من النصارى واليهود ، ويردعوا بسيف الشرع كلّ جهولٍ من أهل الجحود ، ويحلّوا العذابَ بمن حمله العقوقُ علىٰ حلّ العقود ، ويذلّوا رقابَ الكافرين بالإذعان لاستخراج الحقوق وإخراج الأضغان والحقود .

وقد رسمنا بأن يحمل الأمر فى هذا المرسوم الشريف علىٰ حكم ما التزم فى المرسوم الشريف الشهيدىّ الناصرىّ المتقدّم ، المكتتب فى رجب سنة سبعمائة ، المتضمّن للشهادة علىٰ بطركي النصارى اليعاقبة ، والملكيّة ، ورئيس اليهود بالتحريم وإيقاع الكلمة علىٰ من خالف هذا الشرط المشروط والحدّ المحدود ، وأن لا يحلّوا ما انبرم من محكم العقود ، فيحلّ عليهم عذابٌ غير مردود ، والله تعالىٰ يعين سلطانَ الحق علىٰ ما يرجع بنفع الخلق ويعود ، ويزين بصالح المؤمنين ملكَ الإسلام وممالكَ الوجود ، ويهين ببأسه أعداءَ الدين ، الذين لهم عن السبيل المبين ، صدوفٌ وصدود ، ويسلك به شرعةَ الشرع الشريف ومنهاجه : من إماتة البدع وإحياء السنن وإدامة الصون وإقامة الحدود ، ويهلك بسطوته الكافرين كما هلك بدعوة صالحٍ النبيّ صلى الله عليه وسلم ثمود . والعلامةُ الشريفة أعلاه حجّةٌ فيه .

تم الجزء الثالث عشر . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء الرابع عشر

وأوّله الباب الرابع من المقالة التاسعة

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين

وآله وصحبه والتابعين ، وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

(المطبعة الاميرية ١٦٩٣/١٩١٨/٣٠٠٠)

دار الكتب السلطانية

صبح الأعشى

الجزء الثالث عشر

طبع
بالمطبعة الاميرية بالقاهرة
سنة ١٣٣٧ هـ
١٩١٨ م

فهـــرس

الجـــزء الثـالث عشر

من كتاب صـبح الأعشى للقلقشـندى

المقالة السادسة

صفحة

فيما يكتب فى الوصايا الدينية ، والمسامحات ، والاطلاقات السلطانية والطرخانيات ، وتحويل السنين والتذاكر ، وفيها أربعة أبواب ٢
الباب الأول — فى الوصايا الدينية ، وفيه فصلان ٢
الفصل الأول — فيما لقدماء الكتاب من ذلك ٢
« الثانى — فيما يكتب من ذلك فى زماننا ، وهو على ضربين ١١
الضرب الأول — مايكتب عن الأبواب السلطانية ١٢
« الثانى — مايكتب عن نواب السلطنة بالممالك ١٣
الباب الثانى — فيما يكتب فى المسامحات والاطلاقات ، وفيه فصلان ٢٣
الفصل الأول — فيما يكتب فى المسامحات ، وهى على ضربين... ٢٣
الضرب الأول — مايكتب من الأبواب السلطانية ، وهو على مرتبتين ٢٣
المرتبة الأولى — المسامحات العظام ٢٣
« الثانية — من المسامحات أن تكتب فى قطع العادة الخ ... ٣٨
الضرب الثانى — ما يكتب عن نواب السلطنة بالممالك الشامية ٣٩
الفصل الثانى — فيما يكتب من الاطلاقات ، وفيه طرفان... ... ٤١
الطرف الأول — فيما يكتب عن الأبواب السلطانية ، وهو على ثلاث مراتب... ... ... ٤١
المرتبة الأولى — مايكتب فى قطع الثلث مفتتحا بـ«الحمد لله» ... ٤١
« الثانية — مايفتتح بـ«أما بعد حمد الله» ٤٤
« الثالثة — مما يكتب به فى الاطلاقات أن يكتب فى قطع العادة مفتتحا بـ«رسم بالأمر الشريف»... ... ٤٦

صفحة

الباب الثالث — فى الطّرْخانيات، وفيه فصلان ٤٨

الفصل الأوّل — فى طرخانيات أرباب السيوف، وهى على ثلاث مراتب (لم يذكر إلا مرتبتين) ٤٨

المرتبة الأولى — أن يفتتح المرسوم المكتتب فى ذلك بـ«الحمد لله» ٤٨

« الثانية — أن يفتتح مرسوم الطرخانيات بـ«أما بعد» ... ٥١

الفصل الثانى — فيما يكتب فى طرخانيات أرباب الأقلام... ... ٥٢

الباب الرابع — فيما يكتب فى التوفيق بين السنين الشمسية والقمرية المعبر عنه فى زماننا بتحويل السنين وما يكتب فى التذاكر، وفيه فصلان ٥٤

الفصل الأوّل — فيما يكتب فى التوفيق بين السنين، وفيه طرفان ٥٤

الطرف الأوّل — فى بيان أصل ذلك ٥٤

« الثانى — فى صورة ما يكتب فى تحويل السنين، وهو على نوعين (لم يذكر إلا نوعا واحدًا)... ... ... ٦٣

النوع الأوّل — ما كان يكتب فى ذلك عن الخلفاء، وفيه مذهبان... ... ... ٦٣

المذهب الأوّل — أن يفتتح ما يكتب بـ«أما بعد»... ... ... ٦٣

« الثانى — مما كان يكتب عن الخلفاء فى تحويل السنين أن يفتتح ما يكتب بلفظ «من فلان أمير المؤمنين إلى أهل الدولة» ونحو ذلك، وفيه ضربان ... ٧١

الضرب الأوّل — ما كان يكتب فى الدولة الأيوبية ٧١

« الثانى — ما يكتب به فى زماننا ٧٤

صفحة

الفصــــل الثــانى — فيما يكتب فى التذاكر [وفيــه ثلاثة أضرب]
(ولم يذكر الضرب الأوّل) ٧٩

الضـــرب الثــانى — ما كان يكتب لنوّاب الســلطنة بالديار المصرية
عند سفر الســلطان عن الديار المصرية ٩١

« الثالث — ما كان يكتب لنوّاب القلاع وولاتها : إما عند
استقرار النائب بها وإما فى خلال نيابته ٩٩

المقــالة السابعـــــة

فى الاقطاعات والقطائع ، وفيها بابان ١٠٤

البـــــاب الأوّل — فى ذكر مقدّمات الاقطاعات ، وفيه فصلان... ١٠٤

الفصــــل الأوّل — فى ذكر مقــدّمات تتعلق بالاقطــاعات ،
وفيه ثلاثة أطراف ١٠٤

الطـــرف الأوّل — فى بيان معنى الاقطاعات وأصلها فى الشرع ... ١٠٤

« الثــانى — فى بيــان أوّل من وضع ديوان الجيش وكيفيــة
ترتيب منــازل الجند فيه والمساواة والمفاضــلة
فى الاعطــاء ١٠٦

« الثالث — فى بيــان من يستحق إثباته فى الديوان وكيفية
ترتيبهم فيــه ١١٠

الفصــــل الثــانى — فى بيان حكم الاقطاع ، وهو على ضربين ... ١١٣

الضـــرب الأوّل — إقطاع التمليك ١١٣

« الثــانى — إقطاع الاستغلال... ... ... ١١٥

البـــــاب الثــانى — فيما يكتب فى الاقطاعات فى القديم والحديث ،
وفيه فصلان ١١٨

صفحة
الفصـــل الأوّل — فى أصل ذلك ١١٨
« الثـانى — فى صورة ما يكتب فى الاقطاعات، وفيه طرفان ١٢٣
الطــرف الأوّل — فيما كان يكتب من ذلك فى الزمن القـــديم ،
وهو على ضربين ١٢٣
الضرب الأوّل — ما كان يكتب عن الخلفاء، ولهم فيه طريقتان ١٢٣
الطريقة الأولى — طريقة كتّاب الخلفاء العباسيين ببغداد ١٢٣
« الثانية — ما كان يكتب فى الاقطاعات عن الخلفاء
الفاطميين بالديار المصرية ١٣١
الضرب الثـانى — ممـا كان يكتب فى الاقطاعات فى الزمن المتقدّم
ما كان يكتب عن ملوك الشرق القـائمين على
خلفاء بنى العباس ، وفيه طريقتان ١٣٩
الطريقة الأولى — أن يكتب فى الابتـداء « هذا كتاب » كما كان
يكتب عن خلفاء بنى العباس فى ذلك ١٣٩
« الثانية — ما كان يكتب عن الملوك الأيوبيـة بالديار
المصرية، ولهم فيه أساليب... ... ... ١٤٤
الأسلوب الأوّل — أن يفتتح التوقيع المكتتب بالاقطاع بخطبـة
مفتتحة بـ«الحمد لله» ١٤٤
« الثانى — أن يفتتح التوقيع بلفظ «أما بعد فان كذا» ... ١٤٨
« الثالث — أن يفتتح التوقيع بما فيه معنى الشجاعة والقتال ،
وما فى معنى ذلك ١٥٠
الطــرف الثانى — ما يكتب فى الاقطاعات فى زماننـا ، وهو على
ضربين ١٥٣

صفحة

الضـــرب الأوّل — ما يكتب قبل أن ينقل إلى ديوان الإنشــاء ، وفيــه جملتان ١٥٣

الجمـــلة الأولى — فى ابتداء ما يكتب فى ذلك من ديوان الجيش ١٥٣

« الثانية — فى صورة ما يكتب فى المربعة الجيشية ١٥٤

الضـــرب الثـانى — فيما يكتب فى الاقطاعات من ديوان الإنشاء ، وفيه خمس جمل ١٥٧

الجمـــلة الأولى — فى ذكر اسم ما يكتب فى الاقطاعات من ديوان الإنشــاء... ... ... ١٥٧

« الثانية — فى بيان أصناف المناشير، وما يخص كل صنف منها من مقادير قطع الورق ١٥٨

« الثالثة — فى بيان صورة ما يكتب فى المناشير فى الطرّة والمتن ١٥٩

« الرابعة — فى الطُّغْرى التى تكون بين الطرّة المكتتبة فى أعلى المنشور وبين البسملة ١٦٢

« الخامسة — فى ذكر طرف من نسخ المناشـــير التى تكتب فى الاقطاعات فى زماننا، وهى على ثلاثة أنواع ١٦٧

النوع الأوّل — ما يفتتح بـ«الحمد لله» وهو على ثلاثة أضرب ... ١٦٧

الضرب الأوّل — مناشــير أولاد الملوك ١٦٧

« الثانى — « الأمراء مقدّمى الألوف... ... ... ١٦٩

« الثالث — « أمراء الطبلخاناه ١٨٤

النوع الثانى — من المناشير ما يفتتح بـ«أما بعد» وهو على ضربين ١٩٠

الضرب الأوّل — فى مناشير العشرات كائنا ذلك الأمير من كان ... ١٩٠

« الثانى — « أولاد الأمراء... ... ... ١٩٣

النوع الثالث — من المناشير ما يفتتح بـ«خرج الأمر الشريف» ١٩٨

المقالة الثامنة

صفحة

فى الأيمان ، وفيها بابان ٢٠٠

الباب الأوّل — فى أصول يتعين على الكاتب معرفتها قبل الخوض فى الأيمان ، وفيه فصلان... ... ... ٢٠٠

الفصل الأوّل — فيما يقع به القسم ، وفيه طرفان ٢٠٠

الطرف الأوّل — فى الأقسام التى أقسم بها الله تعالى فى كتابه العزيز... ... ... ٢٠٠

« الثانى — فى الأقسام التى تقسم بها الخلق ، وهى على ضربين ٢٠٣

الضرب الأوّل — ما كان يُقْسَم به فى الجاهلية... ... ... ٢٠٣

« الثانى — الأقسام الشرعية ٢٠٥

الفصل الثانى — فى بيان معنى اليمين الغموس ولغو اليمين والتحذير من الحنث والوقوع فى اليمين الغموس ، وفيه طرفان ٢٠٨

الطرف الأوّل — فى بيان معنى اليمين الغموس ولغو اليمين ٢٠٨

« الثانى — فى التحذير من الوقوع فى ايمين الغموس... ... ٢٠٩

الباب الثانى — فى نسخ الأيمان الملوكية ، وفيه فصلان... ... ٢١١

الفصل الأوّل — فى نسخ الأيمان المتعلقة بالخلفاء ، وهى على نوعين... ... ... ٢١١

النوع الأوّل — فى الأيمان التى يُحْلَف بها على بيعة الخليفة عند مبايعته ٢١١

« الثانى — الأيمان التى يحلف بها الخلفاء (ووقع سهوًا : الضرب الثانى الخ)... ... ... ٢١٦

صفحة

الفصــل الثــانى ــ فى نسخ الأيمــان المتعلقة بالملوك، وفيه خمســة مهايع (لم يذكر المهيع الخامس) ٢١٦

المهيــع الأوّل ــ فى بيان الأيمــان التى يُحلَّف بها المسلمون، وهى علىٰ نوعين ٢١٦

النــوع الأوّل ــ أيمــان أهل السنة... ... ... ٢١٦

« الثــانى ــ أيمــان أهل البدع، وهم ثلاث طوائف ... ٢٢٢

الطائفــة الأولىٰ ــ الخوارج ٢٢٢

« الثانية ــ الشــيعة، وهم خمس فرق ٢٢٦

الفــرقة الأولىٰ ــ الزيدية ٢٢٧

« الثــانية ــ الإماميــة ٢٢٩

« الثــالثة ــ الاسمــاعيلية ٢٣٥

« الرابعة ــ الدُّرزية ٢٤٨

« الخامسة ــ النُّصَــيْرية ٢٤٩

الطائفــة الثالثة ــ القَــدَرية ٢٥١

المهيــع الثــانى ــ فى الأيمــان التى يحلَّف بهــا أهل الكفر، وهم علىٰ ضربين ٢٥٣

الضــرب الأوّل ــ من زعم منهم التمسك بشريعة نبىّ من الأنبياء، وهم أصحاب ثلاث ملل ٢٥٣

الملة الأولىٰ ــ اليهود، وهم طائفتان ٢٥٣

الطائفة الأولىٰ ــ المتفق علىٰ يهوديتهم، وهم القرّاؤون ٢٥٦

« الثانية ــ من اليهود السامرة... ... ... ٢٦٨

صفحة

الملة الثانيــة — النصرانيــة (ووقع سهوًا : الفرقة الثالثة الخ)
وهم ثلاث فرق ٢٧١

الفــرقة الأولىٰ — الملكانيــة ٢٧٦

« الثـانية — اليعقوبيــة ٢٧٨

« الثـالثة — النســطورية ٢٨٠

الملة الثـالثــة — المجوسية ، وهم ثلاث فرق ٢٩٢

الفــرقة الأولىٰ — الكيومرثية ٢٩٢

« الثـانية — الثنوية ٢٩٢

« الثـالثة — الزرادُشْتية ٢٩٣

المهيـــع الثـالث — فى الأيمـان التى يُحَلَّف بها الحكماء ، وهم علىٰ
ثلاثة أصناف... ... ... ٢٩٨

الصــنف الأوّل — البراهمة ٢٩٨

« الثـانى — حكماء العرب ٢٩٩

« الثالث — حكماء الروم ، وهم علىٰ ضربين ٢٩٩

الضرب الأوّل — القدماء منهم ٢٩٩

« الثانى — المتأخرون منهـم ، وهم أصحاب أرسطاطاليس ٢٩٩

المهيـــع الرابــع — فى بيان المحلوف عليـه ، وما يقع على العموم ،
وما يختص به كل واحد من أرباب الوظائف
ممـا يناسب وظيفته ٣٠٧

« الخـامس — فى صورة كتابة نسخ الأيمـان التى يُحَلَّف بها ،
وهى علىٰ ضربين ٣١٩

الضـــرب الأوّل — الأيمان التى يُحَلَّف بهـا الأمراء فى الديار
المصرية ٣١٩

« الثانى — الأيمـان التى يُحَلَّف بها نوّاب السلطنة والأمراء
بالممـالك الشامية ، وما انضم إليها ٣٢٠

المقالة التاسعة

صفحة

فى عقود الصلح والفسوخ الواردة على ذلك، وفيها خمسة أبواب ٣٢١

الباب الأول — فى الأمانات، وفيه فصلان... ... ... ٣٢١

الفصل الأول — فى عقد الأمان لأهل الكفر، وفيه طرفان... ٣٢١

الطرف الأول — فى ذكر أصله وشرطه وحكمه ٣٢١

« الثانى — فى صورة مايكتب فيه... ... ... ٣٢٣

الفصل الثانى — فى كتابة الأمانات لأهل الإسلام، وفيه طرفان ٣٢٩

الطرف الأول — فى أصله ٣٢٩

« الثانى — فيما يكتب فى الأمانات، وفيه مذهبان ٣٣٠

المذهب الأول — أن يفتتح الأمان بلفظ: «هذا كتاب أمان الخ»

وهو على نوعين... ... ... ٣٣٠

النوع الأول — ما يكتب عن الخلفاء، وفيه مذهبان... ... ... ٣٣١

المذهب الأول — أن يفتتح الأمان بلفظ : «هذا» ٣٣١

« الثانى — أن يفتتح الأمان بخطبة مفتتحة بالحمد ٣٣٢

النوع الثانى — ما يكتب به عن الملوك، وهو على ضربين ... ٣٣٦

الضرب الأول — ما يكتب من هذا النمط مما كان يصدر عن

وزراء الخلفاء والملوك المتغلبين على الأمر معهم،

ولهم فيه أسلوبان ٣٣٦

الاسلوب الاول — أن يصدر بالتماس المستأمن الأمان ... ٣٣٦

« الثانى — الا يتعرض فى الامان لالتماس المستأمن

الامان... ... ... ٣٣٩

صفحة
المذهب الثانى — مما يكتب به فى الأمانات لأهل الإسلام
أن يفتتح الأمان بلفظ: «رسم» ٣٣٩
الضرب الثانى — من الأمانات التى تكتب لأهل الإسلام ما عليه
مصطلح زماننا، وهى صنفان ٣٤٢
الصنف الأول — ما يكتب من الأبواب السلطانية ٣٤٢
« الثانى — من الأمانات الجارى عليها مصطلح كتاب
الزمان — ما يكتب عن نواب الممالك الشامية... ٣٥٠
الباب الثانى — من المقالة التاسعة فى الدفن (دفن الذنوب)،
وفيه فصلان ٣٥٢
الفصل الأول — فى أصله وكونه مأخوذا عن العرب ٣٥٢
« الثانى — فيما يكتب فى الدفن عن الملوك ٣٥٣
الباب الثالث — فيما يكتب فى عقد الذمة، وفيه فصلان ٣٥٦
الفصل الأول — فى الأصول التى يرجع إليها هذا العقد،
وفيه طرفان ٣٥٦
الطرف الأول — فى بيان رتبة هذا العقد، ومعناه وأصله من
الكتاب والسنة ٣٥٦
« الثانى — فى ذكر مايحتاج الكاتب إلى معرفته فى عقد الذمة ٣٦٠
الفصل الثانى — ما يكتب فى متعلقات أهل الذمة عند خروجهم
عن لوازم عقد الذمة ٣٦٦

(تم فهرس الجزء الثالث عشر من كتاب صبح الأعشى)

دار الكتب السلطانية

كتاب

صبح الأعشى

تأليف

الشيخ أبى العباس أحمد القلقشندى

الجـــزء الرابع عشر

طبـــع
بالمطبعة الأمـــيرية بالقاهرة
سـنة ١٣٣٨ هـ
١٩١٩ م

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الباب الرابع

من المقالة التاسعة

(فى الهُدَنِ الواقعةِ بين مُلُوكِ الإسلام وملوكِ الكُفْر، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

فى أصولٍ تتعيَّنُ على الكاتب معرِفَتُها، وفيه ثلاثة أطراف

الطرف الأوّل

(فى بيان رُتْبتها ومعناها، وذِكْرِ ما يُرادفُها من الألفاظ)

أما رُتْبَتُها فإنها متأخرةٌ ـ عند قُوَّة السلطان ـ عن عَقْدِ الجِزْيَةِ: لأن فى الجِزْيَة ما يدلُّ علىٰ ضَعْفِ المعقود له، وفى الهُدْنةِ ما يدلُّ علىٰ قُوَّته.

وأما معناها فالمُهادَنة فى اللُّغَة المُصالحةُ، يقال: هادَنَه يُهادِنُه مُهادَنةً إذا صالحه والاسم الهُدْنة. وهى إما من هَدَنَ بفَتْح الدال يَهْدُن بضَمِّها[1] هُدُونًا إذا سكن، ومنه قولُهم: «هُدْنَةٌ علىٰ دَخَنٍ». أى سُكونٌ علىٰ غِلٍّ، أو تكون[2] قد سميت بذلك لما يوجد من تأخير الحرب بسببها.

---

(١) أى من باب قتل كما فى المصباح وبه ضبط بالقلم فى نسخة خطية من الصحاح ولكن ضَبْطُه فى القاموس واللسان وكذا المحكم بالقلم يفيد أنه من باب ضرب، فلعل فيه لغتين.

(٢) هذا هو أحد شق التفصيل. أى الهدنة إما من الهدون بمعنى السكون أو من الهدون بمعنى التريث والتأخير.

ويرادفُها ألفاظٌ أخرى :

احدها — المُوادَعة، ومعناها المُصالحَةُ أيضا، أخذًا من قولهم : عليك بالمَوْدوعِ يريدون بالسَّكينةِ والوَقَار، فتكونُ راجعةً إلىٰ معنى السُّكون . وإما أخْذًا من تَوْديع الثَّوْب ونَحْوِه : وهو جَعْلُه فى صِوَان يَصُونُه، لأنه بها تحصل الصِّيانةُ عن القتال . وإما أخْذًا من الدَّعة : وهى الخَفْضُ والهَنَاء، لأن بسببها تحصلُ الراحةُ من تَعَب الحَرْب وكُلَفه .

الثانى — المُسالمَة ومعناها ظاهِرٌ : لأن بوقوعها يَسْلَمُ كلٌّ من أهْلِ الجانبين من الآخر .

الثالث — المُقاضاةُ، ومعناها [المُحاكَمةُ مُفَاعَلَةٌ من القَضَاءِ بمعنى الفَصْلِ والحُكْم] .

الرابع — المُواصَفةُ، سُميتْ بذلك لأن الكاتبَ يَصِفُ ما وقع عليه الصُّلْح من الجانبين . علىٰ أن الكُتَّابَ يخُصُّون لَفْظ المواصفة بما إذا كانت المهادنة من الجانبين، ولا شَكَّ أن ذلك جارٍ فى لَفْظِ المُوادَعةِ والمُسالمَةِ والمُقَاضاةِ أيضا : لأن المفاعلة لاتكون إلا بين آثنين إلا فى ألفاظٍ قليلةٍ محفوظةٍ، علىٰ ماهو مقرّر فى عِلْم العربية .

أما لفظُ الهُدْنَةِ فإنَّه يصدُقُ أن يكونَ من جانبٍ واحدٍ، بأن يَعْقِدَ الأعلىٰ الهدْنةَ لمن هو دُونَه . علىٰ أنها عند التَّحْقيق ترجع إلىٰ معنى المفاعلة، إذ لا تتصوّر إلا من آثنين .

وأما فى الشَّرْع فعبارةٌ عن صُلْحٍ يَقَعُ بين زعيمين فى زَمَنٍ معلومٍ بشروطٍ مخصوصةٍ، علىٰ ماسيأتى بيانه فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

والأصل فيها أن تكون بين مَلِكَيْنِ مُسْلِمٍ وكَافِرٍ، أو بين نائبَيْهما، أو بين أحَدِهما ونَائِبِ الآخر . وعلىٰ ذلك رتَّب الفُقَهاءُ رحمهم الله باب الهُدْنَةِ فى كُتُبِهم . قال صاحب

"موادّ البيان" . وقد يتعاقد عظماء أهل الإسلام على التّوادُع والتّسالُم واعتقاد المَودّة والتّصافي، والتّوازُر والتّعاوُن، والتّعاضُد والتّناصُر، ويشترط الأضعفُ منهم للأقوى تَسْليمَ بعض ما في يَده والتّفادي عنه بمعاطفته والانقياد إلى اتّباعه، والطاعة والاحترام في المخاطبة، والمجاملة في المعاملة، أو الإمداد بجَيْش، أو امتثال الأوامر والنواهي وغيرها مما لا يُحْصَى .

قلتُ : وقد يكون المَلِكان متساويين في الرُّتْبة أو مُتقارِبَيْن، فيقَعُ التّعاقُدُ بينهما على المُسالَمة والمُصافاة، والمُوازَرة والمُعاوَنة، وكَفّ الأذيَّة والإضرار وما في معنى ذلك، دُونَ أن يلتزمَ أحدُهما للآخَر شيئًا يقومُ به أو إتاوةً يحملُها إليه؛ ولكلّ مَقامٍ مَقالٌ، والكاتبُ الماهِرُ يُوفّي كلَّ مقامٍ حَقَّه، ويُعطِي كلَّ فَصْل من الفصول مستحقَّه .

الطـــرف الثـاني

(في أصْلِ وَضْعِها)

أمّا مُهادَنةُ أهْلِ الكُفْر فالأصْلُ فيها قولُه تعالى : ﴿ فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ ﴾ الآية، وقولُه : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا ﴾ .

وما ثبت في صحيح البُخاريّ من حديث عُرْوَة بن الزُّبَيْر رضي الله عنه :

« أنَّ قُرَيْشًا وجَّهَتْ إلى النَّبيِّ صلَّى الله عليه وسلم وهو بالحُدَيْبِيَة حِينَ »
« صَدَّهُ قُرَيشٌ عن البَيْتِ ـ سُهَيلَ بنَ عَمْرو، فقال للنبيّ صلى الله عليه »
« وسلم : هاتِ [اكْتُب] بيْننا وبَيْنَك كِتابًا، فدعا النبيُّ صلَّى الله عليه وسلم »
« الكاتِبَ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم : « اكْتُب بسم الله الرحمن »

«الرحيم» . فقال سُهَيلٌ : أما الرحمٰن فوالله ماأدْرِى ماهو؟ ولكن ٱكْتُبْ»
«بٱسمك اللّهُـمَّ كما كُنْتَ تكتُبُ . فقال المسلمون : والله لانكتب إلّا»
«بسم الله الرحمن الرحيم ، فقـال النبىُّ صلى اللهُ عليه وسَلَّمَ : ٱكتُبْ :»
«بٱسمك اللهم ـ ثم قال : هذا ماقَاضَىٰ عليه محمدٌ رسولُ الله ـ فقال سُهَيلٌ :»
«وٱللهِ لو كُنَّا نعلمُ أنَّك رسولُ اللهِ ما صَـدَدْناك عن البَيْتِ ولا قَاتَلْناك ؛»
«ولكن ٱكتب محمدُ بنُ عبدِالله ، فقال النبىُّ صلَّى الله عليه وسلم : وَاللهِ»
«إنى لرسولُ الله وإن كَذَّبْتمونِى ، ٱكتُبْ محمدُ بنُ عبد الله ، ثم قال النبىُّ»
«صلى الله عليه وسلم : علىٰ أن تُخَلُّوا بيننا وبين البَيْتِ فَنَطُوفُ به ـ فقال»
«سُهَيلٌ : والله لاتَتَحَدَّثُ العَرَبُ أنَّا قَدْ أُخِذْنا ضُغْطَةً ، ولكن ذٰلك من»
«العَامِ المُقبِلِ ، فكتب ـ قال سُهَيلٌ : وعلىٰ أنه لا يأتِيـك منَّا رَجُلٌ»
«وإنْ كان علىٰ دِينِك إلا رَدَدْتَه إلينـا ـ قال المسلمون : سُبْحانَ الله !»
«كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلمـا ! فبينما هُمْ كذٰلك ، إذ جاء»
«أبو جَنْدَلٍ يرْسُفُ فى قُيُودِه ، وقد خَرَج من مَكَّةَ حتَّى رمىٰ بنفْسه بين»
«أَظْهُرِ المسلمين ـ فقال سهيلٌ : هذا يا محمدُ أوّلُ ما أُقَاضِيك عليـه أن»
«تَرُدَّه إلىَّ ـ فقال النَّبىُّ صلى الله عليه وسلم : إنا لم نَقْضِ الكِتَابَ بعدُ ـ»
«قال : فواللهِ [إذًا] لا أُصالِحُكَ علىٰ شَىْءٍ ابدا ـ قال النبىُّ صلى الله»
«عليه وسـلم : فأَجِزْهُ لِى ـ قال : ما أنا بمُجيزِه لك ـ قال بلىٰ فافعَلْ ـ !»

«قال : ما أنا بفاعِلٍ . قال مِكْرَز بنُ حَفْصٍ : بلى قد أجَزْناه لك . قال»
«أبو جَنْدلٍ : أى مَعْشَرَ المسلمين : أُرَدُّ إلى المشركين وقد جِئْتُ مُسْلِماً؟»
«ألا تَرَوْنَ ما قد لَقِيتُ؟ وكان قد عُذِّب عذاباً شـديداً فى الله تعالى .»
«قال عمرُ بن الخَطَّابِ : فأتَيْتُ النبيَّ صـلى الله عليه وسـلم، فقلت :»
«ألستَ نَبِيَّ اللهِ حقًّا؟ قال بلى! قلتُ : ألَسْنَا على الحقّ وعَدُوُّنَا على»
«الباطلِ؟ قال بلى! قلتُ : فلِمَ نُعْطى الدَّنِيَّةَ فى دِينِنا إذًا؟ قال : إنى»
«رسولُ الله ولستُ أَعْصِيه وهو نَاصِرِى» .

قلت : هـذا ما أورده البخارىُّ فى حديثٍ طَوِيلٍ[1] . والذى أورَدَه أصحـابُ السِّيَرِ أن الكاتِبَ كان علىَّ بنَ أبى طَالِب، وأن نُسْخةَ الكتاب :

«هذا ماقاضَى عليه محمدُ بنُ عبدِ اللهِ سُهَيلَ بنَ عمرٍو على وَضْعِ الحَرْبِ»
«عن النـاس عَشْر سنين، وأنه من أَحَبَّ أن يدخُلَ فى عَقْدِ محمدٍ»
«وعَهْدِه دخلَ فيـه، ومن أَحَبَّ أن يدخُلَ فى عَقْدِ قُرَيْشٍ وعَهْدهم»
«دخل فيه» .

وأشهد فى الكتاب على الصُّلْح رجالًا من المسلمين والمُشْركين .

---

(١) ذكر هذا الحديث بتمامه فى كتاب الصلح وهو فى ج ٤ من "ارشاد السارى" للقسطلانى ومنه كان التصحيح .

الطـــــرف الثـالث

(فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة الهُدَن)

قال فى "موادّ البيان" : وهــذا الفنُّ من المكاتبات له من الدَّوْلة محلٌّ خَطِير، ومن المَمْلَكة مَوْضِعٌ كبير، ويتعين على الكاتب أن يُخَلِّى له فِكْرَه، ويُعْمِلَ فيه نَظَره، ويَتَوفَّرَ عليه تَوَفُّراً يُحكِم مبانيَه، ويهذِّب معانيَه .

والذى يلزمُ الكاتبَ فى ذلك نوعان :

النـــــــوع الأوّل

(مايختص بكتابة الهُدْنة بين أهْلِ الإسلام وأهْلِ الكفر)

وهى الشروط الشرعية المعتبرة فى صِحّةِ العَقْد، بحيثُ لا يصحُّ عقدُ الهُــدْنة مع إهمال شَىْءٍ منها . وهى أربعة شروط :

الأوّل — فى العاقد . ويختلفُ الحالُ فيه بٱختلاف المَعْقودِ عليه : فإن كان المعقودُ عليه إقْليماً : كالهِنْدِ والرُّومِ ونحوهما، أو مُهادَنَةَ الكُفَّارِ مطلقا، فلا يصحُّ العَقْدُ فيه إلا من الإمام الأعْظَمِ أو من نائبِه العامِّ المفوَّض إليه التَّحدُّثُ فى جميع أمور المملكة . وإن كان علىٰ بَعْضِ القُرَىٰ والأطراف، فلآحادِ الوُلَاة المجاوِرِينَ لهم عَقْدُ الصُّلْح معهم .

الثـانى — أن يكونَ فى ذلك مَصْلَحةٌ للمسلمين : بأن يكون فى المسلمين ضَعْفٌ أو فى المـال قِلَّةٌ، أو تَوَقُّع إسلامِهم بسبب ٱختلاطهم بالمسلمين، أو طَمَعٌ فى قبولهم الجِزْيَةَ من غير قِتالٍ و إنفاقِ مالٍ . فإن لم تكنْ مصلحةٌ فلا يُهادَنُون بل يُقاتَلُون حتّىٰ يُسْلموا أو يؤدّوا الجِزْيَةَ إن كانوا من أهلِها .

الثـالث — أن لا يكون فى العَقْد شَرْطٌ يأباه الإسْـلامُ : كما لو شُرِطَ أن يُتْرَكَ بأيديهم مالُ مُسلِمٍ، أو أن يُرَدَّ عليهم أَسيرٌ مُسلِمٌ ٱنفلَتَ منهم، أو شُرِطَ لهم على المسلمين

مالٌ من غير خَوْفٍ على المسلمين، أو شرط رَدُّ مُسلِمَةٍ إليهم، فلا يصحُّ العَقْدُ مع شيءٍ من ذلك، بخلاف ما لو شُرِطَ رَدُّ الرجلِ المسلمِ أو المرأةِ الكافرة فإنه لا يمنعُ الصِّحَّة. قال الغزالى : وقد جرت العادةُ أن يقول : (١) على أنَّ مَن جاءكم من المُسْلمين رَدَدْتُمُوه، ومن جاءنا مُسْلمًا رَدَدْناه . فإن كان فى المسلمين ضَعْفٌ وخِيفَ عليهم، جاز ٱلتزامُ المالِ لهم دَفْعًا للشَّرِّ، كما يجوز فكُّ الأسيرِ المُسلِمِ إذا عَجَزْنا عن ٱنتزاعه .

الرابع — أن لا تَزِيدَ مدّةُ الهُدْنةِ عن أربعة أَشْهُرٍ عنـد قُوَّة المسلمين وأَمْنِهـم، ولا يجوز أن تَبْلُغَ سَـنةً بحال، وفيما دُون سَـنَةٍ وفوقَ أربعـةِ أَشْهُرٍ قَولانِ للشافعيِّ رضى الله عنه، أَصَحُّهما أنه لا يجوز. أما إذا كان فى المسلمين ضَعْفٌ وهناك خَوْفٌ، فإنه تجوزُ المهادَنةُ إلىٰ عَشْرِ سنين؛ فقد هادَنَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَهْلَ مَكَّةَ عَشْرَ سنين كما رواه أبو داود فى سُنَنِه . ولا تجوز الزيادةُ عليها على الصحيح، وفى وجهٍ تجوزُ الزيادةُ علىٰ ذلك للمَصْلَحَةِ . فلو أطلَقَ المُـدَّةَ فالصحيح من مَذْهَبِ الشافعىّ أنَّها فاسِدَةٌ، وقيـل : إن كانت فى حال ضَعْفِ المسلمين حُمِلَتْ علىٰ عَشْرِ سنين، وإن كانت فى حال القُدْرَة : فقد قيل تحمل على الأقل : وهو أربعةُ أشْهُرٍ، وقيـل على الأكثر : وهو ما يقارب السَّـنَة . ولو صَرَّحَ بالزيادة علىٰ ما يجوز عَقْدُ الهُدْنَة عليـه : فإن زاد علىٰ أربعة أَشْهُرٍ فى حال القُوَّة أو علىٰ عَشْرِ سـنينَ فى حال الضَّعْفِ صح فى المدّة المُعْتَبَرة وبَطَل فى الزائد . فإن ٱحتيج إلى الزيادة على العَشْرِ، عقَدَ علىٰ عَشْرٍ ثم عَشْرٍ ثم عشرٍ قبل تَقَضِّى الأولىٰ، قاله الفُورانىُّ وغيرُه من أصحابنا الشافعيـة . وذهب أصحاب مالك رحمهم الله إلىٰ أن مُدَّتَها غيرُ محْدودَةٍ، بل يكون موكولا إلى ٱجتهاد الإمام ورَأْيِه .

---

(١) بياض فى الأصل بقدر كلمة ولعله « نهادنكم علىٰ الخ » .

النـــوع الثـانى

(ماتشترك فيه الهُدَن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام، وعقودُ الصُّلح
الجاريةُ بين زعماء المسلمين، وهى ضربان)

الضــرب الأوّل

(الشروط العادية التى جَرَتِ العادةُ أن يقعَ الاتّفاق عليها بين
الملوك فى كتابة الهُدَنِ خلا ماتقدّم)

وليس لها حَدٌّ يحصُرُها، ولا ضَابِطٌ يَضْبِطُها، بل بحسَبِ ما تَدْعو الضرورةُ إليه فى تلك الهُدْنة بحسب الحال الواقع .

فمن ذلك — أن يَشْتَرِطَ عليه أن يكون لوَلِيِّه مُوالِيًا، ولعَدُوِّه مُعادِيًا، ولمُسالِمِه مُسالِمًا، ولمُحارِبِه مُحارِبًا، ولا يُواطِئَ عليه عَدُوًّا، ولا يوقع عليه صُلْحًا، ولا يُوافِق علىٰ ما يَقْدَحُ فى أمْرِه، ولا يَقْبل سُؤالَ سائِلٍ، ولا بَذْلَ باذِلٍ، ولا رِسَالَةَ مُراسِلٍ ممـا يخالُف الاتفاقَ الجارى ؛ والأَخْذَ علىٰ يَدِ من سَـعىٰ فى نَقْضِ الصُّلْح ونَكْثِ العَهْـد إن كان من أهْلِ طاعتِه، والمُقاتَلَةَ إن كان من المُخالِفِين له ، وأنَّه إذا جنىٰ من أهْلِ مملكتهم جَانٍ كان عليه إحْضارُه أو الأَخْذُ منه بالجناية .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه أن يَكُفَّ عن بلادِه وأعمالِه ، ومُتَطَرِّف ثُغُورِه، وشَاسِعِ نواحيه ـ أيدىَ الداخلين فى جماعته ، والمُنْضَمِّين إلىٰ حَوْزَتِه ، ولا يُجَهِّز لها جَيْشًا، ولا يُحاولَ لهـا غَزْوًا ، ولا يَبْدأَ أهْلَها بمُنازَعَةٍ، ولا يشرع لهم فى مُقارَعة، ولا يَتَناوَبهـم بمَكِيدَةٍ ظاهرة ولا باطنـة، ولا يُعامِلَهم بأذِيَّةٍ جَلِيَّـة ولا خَفِيَّـة ، ولا يُطْلق لأحَدٍ ممَّن ينوبُ عنه فى إمارة جَيْشِه، ومن يُنْسبُ إلىٰ جُمْلَتِه، ويتصرَّف

علىٰ إرَادَتِه ـ عِنَانًا إلىٰ شَىْءٍ من ذلك بوَجْهٍ من الوجوه، ولا سَبَبٍ من الأسباب، وأن لا يُجاوِزَ حُدُودَ مملكته إلى المملكة الأخرىٰ بنَفْسِه ولا بعَسْكَرٍ من عساكره .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه أن يُفْرِجَ عمَّن هو فى حَوْزَتِه ممَّن أحاطت به رِبْقَةُ الأَسْرِ، ويُمَكِّنَهم من المَسِيرِ إلىٰ بلادهم : بأنفسِهم وخَدَمِهم وعيالِهم وأتْباعِهم، وأصنافِ أمْوالِهم، فى أتَمِّ حِراسَةٍ، وأَكْمَلِ خِفَارَةٍ، دون كُلْفَةٍ ولا مَئُونَةٍ تَلْحَقُهم علىٰ إطلاقهم، ونحو ذلك .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه مالًا يحمِلُه إليه فى كُلِّ سَنَةٍ، أو أن يُسَلِّمَ إليه ما يختارُه : من حُصُونٍ وقلاعٍ وأطْرافٍ وسَواحِلَ ممَّا وقع الاستيلاء عليه من بلاد المسلمين، أو أَحَبَّ انتزاعَه أو استضافته من بِلادِ مَن يُهادِنُه من مُلوك الكُفْرِ، وأن يُبْقِيَ مَن بها من أهلها، ويُقَرِّرَهم فيها بحُرَمِهم وأوْلادِهم ومَواشِيهم وأزْوادِهم وسِلاحهم وآلاتِهم، دون أن يَلْتمِسَ عن ذلك أو عن شَيْءٍ منه مالًا، أو يَطْلُبَ عنه بدلًا، وما ينخَرِطُ فى هذا السِّلْك .

ومن ذلك — أن يشترط عليه عَدَمَ التَّعرُّضِ لتُجَّارِ مَمْلكَتِه، والمُسافِرِينَ من رَعِيَّتِه، برًّا وبَحْرًا بنَوْعٍ من أنواع الأَذِيَّةِ والإِضْرارِ، فى أنفُسِهم ولا فى أموالهم، وللمُجاوِرِينَ للبَحْرِ عَدَمَ رُكوبِ المراكب الحَرْبِيَّة التى لا يعتادُ التُّجَّارُ رُكُوبَ مثلها .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه إمضاءَ ما وقعتْ عليه المعاقدةُ، وأن لا يرجِعَ عن ذلك ولا عن شَيْءٍ منه، ولا يؤخِّرَ شيئًا عن الوقت الذى ... ... (١) .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه أنه إذا بَقِيَ من مُدَّةِ الهُدْنَةِ مدّةٌ قريبةٌ ممَّا يحتاج إلى التَّعْبِيءِ فيه، أن يعلمه بما يُرِيدُه من مُهادَنَةٍ أو غيرها .

(١) بياض بالأصول ولعله «الذى اتفق عليه» .

ومن ذلك — أن يشترطَ عليه أنه إذا ٱنقضىٰ أَمَدُ الهُدْنة علىٰ أحدٍ من الطائفتين وهو فى بلاد الآخرين، أن يكون له الأَمْنُ حتَّى يلحَقَ مَأْمَنَه .

ومن ذلك — أن يشترطَ ما لا يحمله إليه فى الحال أو فى كُلِّ سَنَةٍ ، أو حُصُونًا ، أو بلادا يُسَلِّمُها من بلاده ، أو ممـا يغلب عليه من بلاد مُهادِنه ، إلىٰ غير ذلك من الأمور التى يجرى عليها الاتِّفاقُ ممـا لا تُحْصىٰ كَثْرةً .

الضـــــرب الثـانى

(ممـا يَلزم الكَاتِبَ فى كتابة الهُدْنَةِ ـ تَحْرِيرُ أوضاعها ، وترتيب قوانينها ، وإحْكَامُ مَعَاقِدِها)

وذلك باعتماد أُمُور :

منها ـ أن يَكْتُبَ الهُدْنَةَ فيما يناسِبُ المَلِكَ الذى تجرى الهُدْنةُ بينه وبين مَلِكه ، ولم أَرَ مَن تعرَّض فى الهُدَنِ لِمقْدارِ قَطْع الوَرَق وإن كَثُرتْ كتابَتُها فى الزَّمنِ المتقدِّم بَيْن ملوك الديار المِصْرية وبين ملوك الفرنج ، كما سيأتى ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالىٰ . والذى ينبغى أن يُراعىٰ فى ذلك مقْدَارُ قَطْعِ الوَرَقِ الذى يُكاتَبُ فيه المَلِكُ الذى تَقَعُ الهُدْنة معه : من قَطْعِ العادةِ أو الثُّلُثِ أو النِّصْفِ .

ومنها ـ أن يأْتى فى ٱبْتِدائها ببراعة الاستهلال : إما بذِكْرِ تَحْسينِ مَوْقِع الصُّلْح والنَّدْبِ إليه ويُمْنِ عاقِبَتِه ، أو بذِكْرِ السلطان الذى تَصْدُر عنه الهدنةُ ، أو السُّلْطانَيْن المُتَهادِنَين ، أو الأَمْرِ الذى ترتَّبَ عليـه الصُّلْحُ ، وما يجْرى هذا المجرىٰ ممـا يقتضيه الحالُ ويَسْتَوْجِبُه المَقَامُ .

ومنها ـ أن يأْتِىَ بعد التَّصْدير بمقَدِّمَةٍ يذكر فيها السَّبَبَ الذى أوجب الهُدْنَة ودعَا إلىٰ قَبولِ المُوادَعَة .

فإن كانت الهُدنةُ مع أهلِ الكُفْر، ٱحْتَجَّ للإجابة إليها بالأئْتِمارِ بأمر القرآن والأنقيادِ إليه، حيثُ أمرَ اللهُ رسولَه صلّى الله عليه وسلم بالمُطاوَعَةِ على الصُّلْحِ والإجابةِ إلى السِّلْمِ بقوله : ﴿ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ . وماوردتْ به السُّنَّة من مصالحَتِه صلّى الله عليه وسلم قُرَيْشًا عام الحُدَيْبِيَة، وذكرِ ما سنح له من آيات الصُّلْح وأحاديثِه، وما جرىٰ عليه الخُلَفاء الراشدون من بَعْدِه، وكَفِّهِم عن القتال وُقُوفًا عند ما حدّ لهم . وأنَّه لولا ذلك لشَرَعُوا الأَسِنَّةَ إلىٰ مُخالِفِيهم فى الدِّين، وركَضُوا الجِيادَ إلىٰ جِهادِ من يَلِيهمْ من المُلْحِدين .

وإن كان الصُّلْحُ بين مُسْلِمَيْنِ ٱحتجَّ بنَحْوِ قوله تعالىٰ : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ . وبأحاديث التَّحْذِيرِ من تَقاتُلِ المسلمين كقوله صلى الله عليه وسلم : « إذَا ٱلْتَقَى المسلمانِ بسَيْفَيْهِمَا فقتل أحدُهما صاحبَه فالقَاتِلُ والمقتولُ فى النَّارِ » وما يجرى هذا المَجْرىٰ .

ومنها ــ أن يراعِىَ المقام فى تَبْجِيلِ المتهادِنَيْنِ أو أحدهما بحسب ما يقتضيه الحالُ، ووَصْفِ كلِّ واحِدٍ منهما بما يليقُ به : من التعظيم، أو التَّوسُّط، أو ٱنحطاط الرُّتْبَة بحسب المقام، ويجرى علىٰ حَسَبِ ذلك فى الشدّة واللين .

فإن كانت الهُدْنةُ بين مُتَكافِئَيْنِ سَوَّىٰ بينهما فى التعظيم، وجرىٰ بهما فى الشِّدَّةِ واللِّينِ علىٰ حدٍّ واحدٍ، إلا أن يكونَ أحدُهما أَسَنَّ من الآخَرِ، فيراعِى للأَسَنِّ ما يجبُ له على الحَدَثِ من التَّأَدُّبِ معه، ويُراعِى للحَدَث ما يجب له على الكبير من الحُنُوِّ والشَّفَقَة .

وإن كانت الهُدْنةُ من قَوِىٍّ لضَعِيفٍ، أَخَذَ فى الأشْتِدادِ، آتِيًا بما يدلُّ علىٰ عُلُوِّ الكلمة، وٱنْبِساطِ القُدْرةِ، وحصولِ النُّصْرةِ، وٱستكمال العدد، وظهور الأَيْد،

ووُفُور الجُنْـدِ، وقُصُور الملوك عن المُطاوَلَة، وعَجْزِهِم عن المُحاوَلَة، ونحو ذلك مما يَنخرط فى هذا السِّلْك، لا سِيَّما إذا كان القَوِىُّ مُسْلِمًا والضعيفُ كافرًا، فإنه يَجِبُ الازدِيادُ من ذلك، وذِكْرُ ما للإسلامِ من العِزَّةِ، وما تَوالىٰ له من النُّصْرة، وذِكْرُ الوقائع التى كانت فيها نُصْرَةُ المسلمين على الكُفَّار فى المواطن المَشْهُورة، والأماكن المعروفة، وما فى معنىٰ ذلك .

وإن كانت الهُدْنة من ضَعِيفٍ لقَوِىٍّ، أخَذَ فى المُلايَنَة بحسب ما يقتضيه الحال، مع إظهار الجَلادَة، وتَماسُك القُوَّة، خصوصا إذا كان القَوِىُّ المعقودُ معه الهُدْنَةُ كافرا . وإن شَرط له مالًا عند ضَعْف المسلمين للضَّرورة أتىٰ فى كلامه بما يقتضى أنَّ ذلك رَغْبَةً فى الصُّلح المأمور به، لا عن خَوَرِ طِباعٍ وضَعْفِ قُوَّة، إذ الله تعالىٰ يقول : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ ﴾ .

ومنها ـ أن يتحفَّظ من سَقَطٍ يُدْخِلُ على الشريعة نَقِيصَةً، إن كانت المهادنةُ مع أهْلِ الكُفْر، أو يجرُّ إلىٰ سُلْطانِه وهِيصَةً، إن كانتْ بين مُسْلِمَين، ويتحذَّرُ كُلَّ الحَذَرِ من خَلَلٍ يتطرَّقُ إليه : من إهْمالِ شَىْءٍ من الشروط، أو ذِكْرِ شرطٍ فيه خَلَلٌ على الإسلام أو ضَرَرٌ على السلطان، أو ذِكْرِ لفظٍ مُشْتَرَكٍ أو معْنًى مُلْتَبِسٍ يُوقِعُ شُبْهَةً تُوجِبُ السبيلَ إلى التأوُّلِ، وأن يأخُذَ المأْخَذَ الواضِحَ الذى لا تَتَوجَّه عليه مُعارَضَه، ولا تتطَرَّقُ إليه مُناقَضَه، ولا يَدْخُله تأْوِيلٌ .

ومنها ـ أن يُبَيِّنَ أن الهُدْنةَ وقعتْ بعد آستخارةِ الله تعالىٰ وتَرْوِيَةِ النَّظَرِ فى ذلك وظُهُورِ الخَيْرِ فيه، ومُشاوَرَةِ ذَوِى الرَّأْى وأهْلِ الحِجىٰ، ومُوافَقَتِهم علىٰ ذلك .

ومنها ـ أن يُبَيِّنَ مدّةَ الهُدْنة . فقد تقدّم أن الصَّحِيحَ من مَذْهَبِ الشافعىِّ أنه إذا لم تُبَيَّن المدّةُ فى مُهادَنَةِ أهْلِ الكُفْرِ فسدت الهُدْنَة .

قال فى "التعريف" : وقد جرت العادةُ أن يَحْسُبُوها مَدّة سِنِين شَمْسِيَّة فيحرر حسابَها بالقَمَرِيَّة . ويذكُرُ سِنِينَ وأشْهُرًا وأيّامًا وساعاتٍ حتّى يَسْتوفِى السنينَ الشَّمْسية المهادنَ عليها . أما فى عقد الصُّلح بين مسلمين فإنه لايشترطُ ذلك ، بل ربّما قالوا : إن ذلك صار لازِمًا للأَبَد ، حتّى فى الوَلَدِ ووَلَدِ الوَلَد .

ومنها ـ أن يبيِّن أن الهُدْنة وقعتْ بين المَلِكَيْن أنفسهما ، أو بين نائبيهما ، أو بَيْنَ أحَدِهما ونائِبِ الآخَرِ ، ويستوفى ما يجب لكلِّ قِسْمٍ منها .

فإن كانت بين الملكين أنفُسِهما بغير واسطة بين ذلك ، ذكَر ما أُخِذَ عليهما من العُهُود والمواثيق ، والأَيْمانِ الصادرةِ من كلٍّ منهما ، وذَكَر ماوقعَ من الإشْهادِ بذلك عليهما ، وما جرىٰ من ثُبُوتِ حكمه إن جرىٰ فيه ثُبوتٌ ونحو ذلك .

وإن كانتْ بين المكتوب عنه ونائِبِ الآخرِ ، بيّن ذلك ، وتعرَّض إلى المُسْتَنَد فى ذلك : من حُضُورِ كتابٍ من المَلك الغائب بتَفْويض الأمْر فى ذلك إلىٰ نائبه ، وأنه وَصَل علىٰ يَده أو يَد غَيْره ، والإشارة إلىٰ أنّه مُعَنْونٌ بعنْوانه ، مختومٌ بخَتْمه المتعارَف عنه أو وكَالَة عنه . ويتعرَّضُ إلىٰ قيام البَيِّنَة بها وثُبُوتِها بمَجَالِس الحُكْم ونحو ذلك من المستندات .

وإن كانتْ بين نائبَيْن ، بيّن ذلك وذَكَر مُسْتَنَد كلِّ نائبٍ منهما علىٰ ماتقدّم ذكره . ويتعرَّضُ إلىٰ أن النائبَ فى ذلك قام فيه بٱخْتياره وطَوَاعيتِه ، لاعن إكْراه ولا إجْبارٍ ، ولا قَسْرٍ ولا غَلَبَةٍ ، بل لِمَا رأىٰ لنَفْسه ولمُسْتَنِيبِه فى ذلك من المَصْلَحة والحَظّ . وأنَّ كتَابَ الهُدْنَة قُرِئَ عليه وبُيِّنَ له فَصْلًا فَصْلًا ، وتُرجِمَ له بموثُوقٍ به ، إن كان لايَعْرِفُ العَرَبيَّة ونحو ذلك .

ومنها ـ أن يتعرَّضَ إلىٰ ما يجرى من التَّحْليف فى آخرها : على الوَفَاء ، وعَدَمِ النَّكْث والإخْلالِ بشَيْءٍ من الشروط ، أو الخُرُوج عن شَيْءٍ من الآلتزامات ،

او مُحاوَلَة التأويلِ فى شَىْءٍ من ذلك ، أو السَّعْى فى نَقْضِه أو فى شَىْءٍ منه ، وما فى معْنىٰ ذلك :

فإن كانتْ بين مَلِكَيْنِ ، تعرّض إلىٰ تَحْليف كلٍّ منهما على التَّوْفية بذلك .

وإن كانت بين أحدهما ونائبِ الآخَرِ ، حُلِّف المَلِكُ كما تقدّم ، وسيأتِى صُورَةُ الحَالِفِ الذى يقعُ فى الهُدَنِ فى الكلام على الأَيْمَانِ(١) فيما بعدُ ، إن شاء الله تعالىٰ .

ومنها ـ أن يُحَرِّرَ أمْرَ التَّاريخ بالعَرَبىِّ وما يُؤَرَّخُ به فى مَمْلكةِ المَلِكِ المُهادَنِ : من السُّرْيانىِّ والرُّومىِّ وغيرهما . قال فى "التعريف" : ولهم عادة أن يَحْسُبُوها مدّة سِنِينَ شَمْسِيَّة فيُحَرِّرُ حسابَها بالقَمَرِيَّة ، ويَذْكُرُ سِنِينَ وأشْهرًا وأيَّامًا وساعاتٍ حتَّى يَسْتكمل السنين الشمسية المُهادَن عليها . وقد تقدّم فى الكلام على التَّارِيخ من المقالة الثالثة كيفية معرفة التواريخ وٱسْتخْراجها .

ومنها ـ أن يَقَعَ الإشهادُ علىٰ كلٍّ من المتعاقدين بذلك ، ولا بَأْسَ بإثبات ذلك . وقد جَرَتِ العادةُ أنه يَشْهدُ علىٰ كلِّ مَلِكٍ جماعةٌ من أهْلِ دَوْلتِه ليُقْضَى علىٰ مَلِكهم بقَوْلهم وإن كان مُخالِفًا فى الدِّين . وقد ثبت فى الصَّحيح أن النبىَّ صلى الله عليه وسلم «أشهد علىٰ مُصالحَتِه مع قُرَيْشٍ رجالًا من المسلمين ورجالًا من المُشْرِكين» . وربَّما طَلَبَ النائبُ عن المَلِك الغائبِ إحضار نُسْخةِ مُهادَنَةٍ من جِهَةِ مُسْتَنِيبِه علىٰ ماوقع به العَقْد ، مشمولةً بخَطِّ الكُتَّاب ، مشهودًا عليه فيها بأهْلِ مَمْلكته ، أو تُجَهَّزُ إليه نسخةٌ يَكْتُبُ عليها خَطَّه ، ويَشْهدُ عليه فيها أهْلُ مَمْلَكته . والغالبُ الاكْتِفاءُ بالرُّسلِ فى ذلك .

---

(١) أى الأيمان الواقعة فى عقود الصلح ، وإلا فالأيمان بأنواعها تقدمت فى ج ١٣ .

الفصـــــل الثـانى

فى صورة ما يُكْتَبُ فى المهادنات والسِّجِلَّات، ومَذاهِب الكُتَّاب فى ذلك، وفيه طرفان

الطـــــرف الأوّل

(فيما يَسْتَبِدُّ ملوكُ الإسلام فيه بالكتابة عنهم ـ وتُخَلَّد منه نُسَخٌ بالأبواب السلطانية، وتُدْفَعُ منه نسخٌ إلىٰ ملوك الكُفْر)

ثم ما يُكْتَبُ فى ذلك علىٰ نَمَطيْنِ :

النَّمَـــطُ الأوّل

(ما يُكْتَبُ فى طُرَّةِ الهُدْنةِ من أعلىٰ الدَّرْج)

وقد جرت العادةُ أن يفتتح بلفظ « هذا » أو لفظ « هذه » وما فى معنىٰ ذلك، مثل أن يكتب : « هذا عَقْدُ صُلْحٍ » أو « هذا كِتَابُ هُدْنَةٍ » أو « هذه مُوادَعة» أو « هذه مُواصَفَةٌ » وما أشبه ذلك . وربَّمـا حُذِف المبتدأُ وهو «هذا» وآكتفى بالخبر عنه، مثل أن يقال: «كِتَابُ هُدْنَةٍ» أو «كِتَابُ مُوادَعةٍ» أو «عَقْد مُصالحَةٍ» وما أشبه ذلك .

وهذه نسخة بعقدِ صُلْحٍ أنشأْتُها لِيُنْسَجَ علىٰ مِنْوالهـا، وهى :

هذا عَقْدُ صُلحٍ آنتظمتْ به عُقُود المَصَالح، وآنْتَسقَتْ بواسطته سُبُلُ المَنَاجِح؛ وتحدَّثَ بحُسْنِ مُقَدِّمَتِه الغَادِى وتَرنَّم بيُمْنِ نَتِيجَتِه الرَّائح . عاقَدَ عليه السلطانُ فلانٌ فلانًا القائمَ فى عَقْدِ هذا الصُّلْح عن مُرْسِلِه فلانٍ، حسَبَ ما فوض إليه الأمْر فى ذلك فى كِتَابِه الواصِــلِ علىٰ يَدِه، المؤرَّخ بكذا وكذا، المُعَنْوَن بعُنْوانه، المَخْتومِ بطابَعِـه

المُتعارَف عَنْه ـ علىٰ أن يكون الأمر كَذَا وكَذَا . ويشرحُ مُلَخَّص مايَقَعُ من الشروط التي يقع عليها الاتفاقُ بينهما فى الصُّلْح إلىٰ آخرها؛ ثم يقال : علىٰ ما شُرِحَ فيه .

النَّمَـــطُ الثانى

(ما يُكْتَب فى مَتْنِ الهُـدْنَة ، وهو علىٰ نوعين)

النـــوع الأوّل

(ما تكونُ الهُدْنةُ فيـه من جانبٍ واحدٍ)

بأن يكون الملكان متكافئين، [فيتعاقدان إما علىٰ حِصْنٍ](١) وإما علىٰ مالٍ يعطيه الملك المعقودة له الهُدْنةُ لعاقدها، كما كان يُكْتَبُ عن صاحب الديار المصرية .

وللكُتَّابِ فيـه مذهبان :

المـــذهب الأوّل

(أن تُفْتتحَ الهُدْنةُ بلفظ : «هذا ما هَادَنَ عليه»

أو «هذه هُدْنةٌ أو مُوادَعَة أو مُواصَفَةٌ أو سِلْمٌ أو صُلْح» أو نحو ذلك

علىٰ نحو ما تقدّم فى الكلام على الطرّة)

وعلىٰ ذلك كُتِبَ كِتَابُ القَضِيَّة بين النبىّ صلى الله عليه وسلم وبين قُرَيْش عام الحُدَيْبِيَة، علىٰ ما تقدّم ذكره فى الكلام علىٰ أصْلِ مشروعِيتّها .

وهـذه نسخةُ هُدْنةٍ كُتِب بها عن سُلْطانٍ قَوِىٍّ ، لملِكٍ مَضْعُوفٍ، باشتراط مالٍ يقومُ به المَضْعُوفُ للقَوِىِّ فى كلّ سَنَةٍ أو حُصُونٍ يسلّمها له أو نحو ذلك ، وهى :

هـذا ما هادَنَ عليه ، وأَجَّلَ إليه ، مَولانَا السلطانُ فلانٌ ـ خَلَّد الله سُـلْطانَه وشَرَّف به زَمانَه ـ الملِكَ فلانًا الفلانىَّ . هادَنَه حِينَ تردّدَتْ إليه رُسُله ، وتَوالتْ عليه

(١) الزيادة من المقام لاستقامة الكلام .

كُتُبُه ، وأمَّلَه ، ليُمْهِلَه ، وسَأَلَه ، ليَكُفَّ عنه أَسَلَه ، حين أبَتْ صِفَاحُه أن تَصْفَح ، وسَمَاءُ عَجَاجِهِ بالدِّماءِ إلا أن تَسْفَح ، فرَأَىٰ ـ سَدَّدَ اللهُ آرَاءَه ـ أن الصُّلْحَ أصْلَح ، وأن مُعاملَةَ اللهِ أرْبَح ، وهادَنَ هـذا الملك (ويسميه) علىٰ نَفْسِـه وأهْلِه ، وولَدِه ونَسْـلِه ، وجَمِيعِ بِلادِه ، وكلِّ طَارِفِه وتِلَادِه ، ومالَه من مِلْكٍ ومال ، وجِهـاتٍ وأعْمال ، وعَسْكَرٍ وجُنُود ، وجُموعٍ وحُشُود ، ورعايا فى مَمْلَكَتِه من المُقِيم والطَّارِى ، والسَّائِر بها والسَّارِى ـ هُدْنَةً مُدَّتُها أوَّلُ تاريخ هذه الساعة الراهنة وما يَتْلُوها ، مدّة كذا وكذا من سِنِينَ وأشْهُرٍ وساعاتٍ ، يَحْمِلُ فيها هذا المَلِكُ فلانٌ إلىٰ بَيْتِ مال المسلمين ، وإلىٰ تَحْتَ يَدِ مولانا السلطان فلانٍ قَسِيم أمير المؤمنين ، فى هـذه المدّة كذا وكذا ـ يَقُومُ به هذا المَلِكُ من ماله ، ومِمـا يتكفَّلُ بجِبايَتِه من جِزْيَةِ أهْلِ بلاده وخَرَاجِ أعمـاله ، علىٰ أقساط كذا وكذا ـ قِيامًا لا يُحوِجُ معه إلىٰ تَكَلُّفِ مُطالَبَه ، ولا إلىٰ تناوُلِه بيَدِ مُغالَبَه .

علىٰ أن يكُفَّ مولانا السلطانُ عنه بَأْسَ بَأْسَائِه ، وخَيْلَه المُطِلَّةَ عليه فى صَباحه ومَسائِه ، ويَضُمَّ عن بِلاده أطْرَافَ جُنُوده وعَساكِرِه وأتْباعِهِم ، ويُؤمِّنَه من بِطَائِهم وسِرَاعِهِم ، ويمنَعَ عن بلاد هذا المَلِكِ المُتاخِمةِ لبلاده ، والمُزاحِمَةِ لدَوَافِق أمْدادِه ، ويرُدَّ عنهـا وعمَّن جاورها من بقيَّـة ما فى مملكته ، وهى كذا وكذا أيْدِىَ النَّهْب ، ويكُفَّ الغـاراتِ ويَمْنَعَ الأذىٰ ، ويرُدَّ من نَزَح من رعايا هـذا المَلِكِ إليـه ، ما لم يدخُلْ فى دِينِ الإسـلام ويشهد الشَّهادَتَينِ ، ويُقِرَّ بالكلمتين المُعْتادَتين ؛ ويؤَمِّنَ جَلَّابَةَ هذا الملِكِ وتُجَّارَه المتردِّدِينَ من بلاده إلىٰ بلاد الإسـلام فى عَوَارِض الأشغال ، ولا يحصلَ عليهـم ضَرَرٌ فى نَفْسٍ ولا مال ؛ وإن أخَذَتِ المتجَرِّمَةُ منهم مالًا أو قتلتْ أحدًا ، أمَر بانْصافهم من ذلك المتجَرِّم ، وأن يُؤْخَذَ بحقِّهم من ذلك المُجْرِم . وعليه مثْلُ ذلك فيمَن يدخلُ إليه من بلاد الإسلام ، وأن لا يفْسَحَ لنَفْسِه

ولا لأحدٍ من جميع أهل بلاده فى إيواء مُسْلِمٍ مُتَنَصِّر، ولا يرخِّص لذى عمًى منهم ولا مُتَبَصِّر .

وأنه كلما وردتْ إليه كتب مولانا السُّلطانِ فلانٍ أو كتبُ نُوَّابه، أو أحد [من المَتَعَلِّقين](١) بأسْبابِه، يسارعُ إلىٰ آمتثاله والعمَلِ به فى وَقْته الحاضِر ولا يُؤَخِّره ولا يمهِلُه، ولا يَطْرحُه ولا يُهمِلُه .

وعليه أن لا يكونَ عَيْناً للكُفَّار، علىٰ بلاد الإسلام وإن دَنَتْ به أو بعُدتِ الدَّار، ولا يواطِئ علىٰ مولانا السُّلطانِ فلانٍ أعداءَه [وأوّلُهم التَّتار،](٢) وأن يَلْتزِمَ ما يلزَمُه من المُسْكَةِ بالمَسْكَنَه، ويفعلَ ما تسكتُ عنه به الأسِنَّة وما أشْبهها من الألْسِنه .

وعليه أن يُنْهِىَ ما يتجدّدُ عنده من أخبار الأعداء ولو كانوا أهْلَ مِلَّته، ويُنَبِّهَ علىٰ سُوءِ مقاصِدِهم، ويعرِّفَ ما يُهِمُّ سماعُه من أحوال ماهُمْ عليه .

هـذه هدنةٌ تمَّ عليها الصُّلح إلىٰ منتهى الأجَلِ المعيَّنِ فيه ما آسْتَمسَكَ بشُروطها، وقام بحُقُوقها، ووقف عند [حَدِّها الملتزم به](٣)، وصَرَف إليها عِنَانَ آجتِهادِه وبَنَى عليها قَواعِدَ وَفائه، وصان من التكدير فيها سَرائِرَ صَفَائِه؛ سأل هو فى هذه الهُدْنَة المقرّره، وأجابه مولانا السلطانُ إليها علىٰ شُروطِها المحرّره، وشهد به الحضُور بالمملكتين وتَضَمَّنته هذه الهُدْنة المُسَطَّره؛ وبالله التوفيق .

قلتُ: الظاهر أنه كان يُكْتب بهذه النُّسْخة عن صاحب الديار المصرية والممالك الشامية، لمتَمَلِّك سِيسَ، فإنَّ فى خِلَالِ كلامِ المقرِّ الشِّهابىِّ بعد قوله : ولا يواطئ علىٰ مولانا السلطان فلانٍ أعْداءَه : «وأوّلُهم التَّتار»، وقد تقدّم فى الكلام على الممالك

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٦٨) .

(٢) « « (ص ١٦٩) ومما يأتى قريبا .

(٣) بيض له فى الأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٦٩) .

أن متملك سِيسَ كان يمالئُ التَّتارَ ويَميلُ إليهم، ويساعدهم فى حَرْبِ المسلمين ويُكَثِّر فى سَوادِهـــم .

وعلىٰ مثل ذلك يُكْتب لكلِّ مَلِكٍ مضعوفٍ فى مُهادنة المَلِكِ القَوِىِّ له .

وهذه نُسْخة هُدنَةٍ من هـذا النَّمَط، كتب بهـا أبو إسحٰق الصَّابِى، عن صَمْصامِ الدَّولة، بن عَضُـدِ الدَّوْلة، بن رُكْنِ الدَّوْلة، بن بُوَيه الدَّيلَمِىِّ، بأمْرِ أمير المؤمنين الطَّائِـع لله، الخليفةِ العبَّاسِىِّ ببَغْدادَ يومَئِـذ، لوردس المعروف بسفلاروس مَلِكِ الرُّوم، حِينَ حِيلَ بينـه وبين بِلادِه، وٱلتمَس أن يُفْرجَ له طَرِيقُه إلىٰ بلاده، علىٰ شُروطٍ ٱلترمها، وحُصُونٍ يُسلِّمها، علىٰ ما سيأتى ذكره، وهى :

هذا كِتابٌ من صَمْصامِ الدَّوْلة، وشَمْسِ المِلَّة، أبى كَالِيجَارَ، بنِ عَضُـدِ الدَّولة وتَاجِ المِلَّة أبى شُجاعٍ، بنِ رُكْنِ الدَّولة أبى عَلِىٍّ، مَولَىٰ أمير المؤمنين، كتبه لوردس ٱبن بينير المعروف بسفلاروس مَلِكِ الروم .

إنك سألتَ بسِفَارَةِ أخينا وعُدَّتنا، وصاحِبِ جَيْشنا (أبى حَرْبٍ ربار بن شَهْرا كَوَيْه) تأَمُّلَ حالِك فى تَطاوُلِ حَبْسك، وٱعْتياقِكَ عن مُراجَعَةِ بَلدِك؛ وبذَلْتَ ـ متىٰ أُفْرِجَ عنك، وخُلِّىَ طرِيقُك، وأُذِنَ لك فى الخروج إلىٰ وَطَنِك، والعوْدِ إلىٰ مقرِّ سُلْطانك ـ أن تكونَ لَولِيِّنا وَلِيًّا، ولعَدُوِّنا عَدُوًّا، ولسِلْمِنا سِلْما، ولحَرْبِنا حَرْبا : من جميع الناس كلِّهم، على ٱخْتلافِ أحوالهم وأدْيانِهم، وأجْناسِهم وأجْيالِهم، ومَقارِّهم وأوْطانِهم؛ فلا تُصالِحُ لنا ضِـدًّا مُباينا، ولا تُواطِئُ علينا عَدُوًّا مُخالِفا؛ وأن تَكُفَّ عن تَطرُّق الثغور والأعمـال التى فى أيدينا وأيدى الدَّاخلينَ فى طاعَتِنا : فلا تُجَهِّز إليها جَيْشا، ولا تُحاوِلُ لها غَزْوا؛ ولا تَبْدأُ أهْلَها بمُنازَعه، ولا تَشْرَعُ لهم فى مُقارَعه، ولا تَتناوَلُهم بمَكِيدَةٍ ظاهرةٍ ولا باطنة، ولا تُقابلُهم بأَذِيَّةٍ جَلِيَّةٍ ولا خَفِيَّة؛ ولا تُطلِقُ لأحَدٍ ممن

ينوبُ عنك فى قيادة جيُوشِك، ومن يُنْسَبُ إلىٰ حُماتِك، ويتصرَّفُ علىٰ إرادتك ـ الاجتراءَ علىٰ شَيْءٍ من ذلك على الوجوه والأسباب كُلِّها ؛ وأن تُفْرِجَ عن جميع المسلمين وأهْلِ ذِمَّتِهم الحاصلين فى محابِسِ الرُّوم، ممَّن أحاطتْ بعُنُقِه رِبْقَةُ الأَسْر، وٱشتملتْ عليه قَبْضَةُ الحَصْرِ والقَسْر، فى قديم الأيَّامِ وحَديثِها، وبَعيدِ الأوقات وقَرِيبِها ؛ المقيمين علىٰ أدْيانِهم ، والمختارِينَ للعَوْدِ إلىٰ أوْطانِهم ؛ وتُنْهِضَهم بما يُنْهَضُ به أمثالُهم، وتُمَكِّنَهم من البرُوزِ والمَسِير بنفوسهم وحُرَمِهم وأولادِهم وعِيالاتِهم وأتْباعِهم ، وأصناف أمْوالِهم ؛ مَوْفُورِين مَضْمُونِينَ ، مُتَبَذْرَقِينَ(١) محْرُوسِينَ ، غير ممنوعين، ولا مُعَوَّقِينَ، ولا مُطالَبِين بمُؤُونَةٍ ولا كُلْفَةٍ صغيرةٍ ولا كبيرة .

وأن تُسَلِّمَ تَتِمَّةَ سبعةٍ من الحُصُون ، وهى : حِصْن أرحكاه المعروف بحصن الهندرس ، وحِصْن السناسنة ، وحِصْن حويب، وحصن اكل، وحِصْن انديب، وحِصْن حالى، وحِصن تل حرم، برَساتِيقِها ومَزَارِعِها إلىٰ من نُكاتِبُك بتَسْليمِها إليه، مع مَن بها من طبقات أهْلِها أجمعين ، المُختارِينَ لسُكْناها والاستِقرارِ فيها ، بحُرَمِهِم وأولادِهم وأسْبابِهم ومَواشِيهم وأصْنافِ أمْوالِهم وغَلَّاتِهم وأزْوادِهم وسِلاحِهم وآلاتِهم، ليكونَ جميعُها حاصِلًا فى أيدينا وأيْدى المسلمين ، علىٰ غابرِ الأيام والسِّنين ؛ من غير أن تَلْتمسَ عنها أو عن شَيْءٍ منها مالًا ، ولا بَدَلًا، ولا عِوَضًا من الأعواض كُلِّها .

وعلىٰ أنك تُمْضِى ما عَقَدتَه علىٰ نَفْسِك من ذلك كلِّه بابًا بابًا ، وتَفِى به أوّلًا أوّلًا ، مُنْذ وقت وُصولِك إلىٰ أوائل أعمالك ، وإلىٰ غايَةِ ٱستيلائك عليها، ونَفَاذِ أمرِك فيها ؛ ولا تَرجِعْ عن ذلك ولا عن بَعْضه، ولا تُؤَخِّرْ شيئًا منه عن الوَقْت الذى تقدر فيه عليه، ولا تُرَخِّصْ لنَفْسِك فى تَجاوُزٍ له ولا عُدُولٍ عنه . ومتىٰ سمعتْ طائفةٌ من الطَّوائِف التى تُنْسَبُ إلى الروم والأرْمَنِ وغيرهم فى أمْرٍ يخالِفُ شرائط هذا الكِتَاب،

(١) البذرقة الخفارة معرّبة .

كان عليك مَنْعُهم من ذلك إن كانوا من أهْـلِ الطاعَةِ والقَبُول مِنْك ، أو مُجاهَدَتُهم ومُمانَعَتُهم إن كانوا من أهْل العُنُود عنك ، والخِلافُ عليهم حتَّى تَصْرِفَهم عما يرومونه ، وتحولَ بينهم و بين ما يُحاوِلُونَه ، بمشيئةِ اللهِ و إذْنِه ، وتَوْفِيقِه وعَوْنِه .

وآشترطتَ علينا بعد الذى شَرَطتَه لنا من ذلك التَّخْلِيَةَ عن طَرِيقِك وطريقِ من تَضَمَّنَتْه جُمْلَتُك ، وآشتملَتْ عليه رُفْقَتُك : من طبقات الأصحاب والأتباع ، فى جميع أعمالنـا حتَّى تَنْفُـذَ عنها إلىٰ ما وراءها ، غيرَ مُعَوَّقٍ ، ولا مُعْتَقَلٍ ، ولا مُؤْذًى ، ولا مُعارَضٍ ، ولا مُطالَبٍ بمُؤنَةٍ ولا كُلْفَةٍ ، ولا مَمْنوعٍ من آبْتِياعِ زَادٍ ولا آلَةٍ ، ولا نُؤْثِرُ عليك أحَدًا نَاوَأَكَ فى أعمـالك ، ونازَعَك سُلْطانَ بِلادِك ، ودافعك عنـه وناصَبَك العَداوَةَ فيه : ممَّن ينتَسِبُ إلى الرُّوم والأرْمَنِ والخزرية وسائر الأمم المُضادَّةِ لك ، ولا نُوَقِّع معه صُلْحًا عليك ، ولا مُوافقةً علىٰ مايعُود بثَلْمِك أو قَدْحٍ فى أمْرِك ، ولا نَقْبلُ سُؤالَ سائل ، ولا بَذْل باذِلٍ ، ولا رِسالَةَ مُراسِل فيما خَالَفَ شَرائِطَ هـذا الكِتَابِ أو عاد بإعْلالِه ، أو إعْلالِ وَثِيقَةٍ من وثائِقِه .

ومتَىٰ وَفَد إلينـا رَسُولٌ من جهة أحَدٍ من أضْدادِك ، راغبًا إلينا فى شَيْءٍ يُخالِفُ ما آنعقد بيننا و بينك ــ آمْتَنَعْنا من إجابتِـه إلىٰ مُلْتَمَسِه ، وردَدْناه خَائبًا خاليًـا من طَلِبَتِه . وإذا سَلَّمتَ الحُصونَ المقدَّمَ ذِكْرُها إلىٰ من نُكاتِبُك بالتَّسْليم إليه ، كان لك علينـا أن نُقرَّ مَن فيها وفى رساتيقِها علىٰ نِعَمِهـم ومَنازِلِهم وضِـياعِهم وأمْلاكهم ، وأن لانُزِيلَهم عنها ولا عن شَيْءٍ منها ، ولا نَحُولَ بينهم و بين ماتَحْوِيهِ أيديهم من جميع أموالهم ، وأن نُجْرِيَهم فى المعاملات والجِبايَاتِ علىٰ رُسُومهم الجارِيةِ المـاضِيةِ التى عُومِلُوا عليها ، علىٰ مَرِّ السِـنينَ ، و إلىٰ الوَقْت الذى يَقَعُ فيه التَّسْليم ، من غير فَسْخٍ ولا تَغْيِيرٍ ولا نَقْضٍ ولا تَبْديل .

فأنْهينا إلىٰ مولانا أمير المؤمنين الطائـع لله ماسألتَ وٱلتمسْتَ ، وضَمِنْتَ وشَرطتَ وٱشْترطْتَ من ذلك كله ، وٱسـتأذَنَّاه فى قَبُوله منك ، و إيقاعِ المُعاهَدَةِ عليه معك ؛ فأَذِنَ ـ أدام الله تَمْكينَه ـ لنا فيه ، وأمَرَنا بأن نُحْكِمَه ونُمْضِيه ؛ لمـا فيه من ٱنتظام الأمور ، وحياطَةِ الثُّغُور ، وصَلاحِ المسلمين ، والتَّنْفِيس عن المأسُورِين .

فأمْضيْنَاه علىٰ شرائطه ، وتراضَيْنا جَميعًا به ، وعاقدْناك عليه ، وحلفْتَ لنا باليمين المؤكَّدة التى يحلِفُ أهْلُ شَريعتِك بها ، و يتحرَّجُون من الحِنْث فيها على الوَفَاءِ به ؛ وأشهدْنا علىٰ نُفُوسنا ، وأشْهدتَ علىٰ نَفْسك اللهَ جلَّ ثَنَاؤُه ، وملائكَتَه المقرَّبِينَ ، وأنبياءَه المُرْسلين ، وأخَانَا وعُدَّتَنَا أبا حَرْبٍ ربار بن شَهْرا كَوَيْه مَوْلىٰ أمير المؤمنين ، ومن حَضَر المجلِسَ الذى جَرَىٰ فيه ذلك ، باستقرار جَميعِه بيننا و بينك ، ولُزُومِه لنا ولك .

ثم حضر بعد تمـام هذه المُوافَقَةِ وٱستمرارِها ، وثُبوتِهـا وٱستِقْرارِها ، قُسْطَنْطِينُ ٱبن بينير أخو وردس بن بينير ، وأَرْمانُوسُ بن وردس بن بينير ، فوقَّعا علىٰ هـذا الكِتَابِ ، وأحاطا به عِلْمًا ، وٱستوعَباه مَعْرِفة ، وشَهِدا علىٰ وردس بن بينير مَلِكِ الرُّومِ بإقراره به ، وٱلتزامِه إياه . ثم تبرَّعَ كلُّ واحدٍ منهما بأن أوْجَب علىٰ نَفْسه ٱلتَّمسُّكَ به والمُقامَ عليه متَىٰ قام وردس بن بينير فيما هو مَوْسومٌ به من مَلِكِ الرُّوم ، وجعل جَميعَ الشرائط الثابتة فى هـذا الكتاب المَعْقودِ بعضُها ببَعْضٍ أمانةً فى ذِمَّتِه ، وطَوْقًا فى عُنُقِه ، وعَهْدًا يُسْأَلُ عنه ، وحَقًّا يُطالَبُ فى الدُّنيا والآخرةِ به ؛ وصار هذا العَقْد جامعًا لهم ولنـا ، ولأولادِنا وأولادِهم ، وعَقِبِنا وعَقِبِهـم ؛ ماعِشْنا وعاشُوا ، يَلْزَمُنا وإيَّاهُم الوَفاءُ بمـا فيه علينا وعليهم ، ولنا ولهم ، علىٰ مُرورِ اللَّيالى والأيام ، وٱخْتِلافِ الأدْوارِ والأعْوام .

أمضَىٰ وأنْفَذَ صَمْصامُ الدَّوْلةِ وشَمْسُ المِلَّة أبو كاليجار ذلك كُلَّه علىٰ شرائطه وحدوده ، وٱلتزمَهُ وردس بن بينـير المعروف بسـفلاروس مَلِكُ الرُّومِ ، وأخوه

قُسْطَنْطِينُ ، وآبنه أرمانُوسُ بن وردس بن بينير ، وضَمِنُوا الوَفَاءَ به ، وأشهدُوا كلَّ واحِدٍ منهم علىٰ نُفُوسهم بالرِّضَا به ، طائعينَ غير مُكْرَهين ولا مُجْبَرِينَ ، لا عِلَّةَ بهم من مَرَضٍ ولا غيره ، بعد أن قرأه عليهم ، وفَسَّره لهم وخاطبهم باللغة الرُّومية من وُثِقَ به ، وفَهِمُوا عنـه ، وفَقِهُوا مَعْنىٰ لَفْظِه ، وأحاطوا عِلْمًـا ومعرفةً به ، بعـد أن مَلَكُوا نُفوسَهم ، وتَصَرَّفوا على آختيارهم ، وتَمكَّنُوا من إيثارهم ، ورَأَوْا أن فى ذلك حَظًّا لهم ، وصَلاحًا لشأنهم ، وذلك فى شعبان سنة ست وسبعين وثلثمائة .

وقد كُتِبَ هذا الكِتَابُ علىٰ ثلاث نُسَخٍ متساوياتٍ ، خُلِّدت آثنتان منها بدواوين مَدِينَةِ السلام ، وسلمت الثالثةُ إلىٰ وردس بن بينير مَلِكِ الرُّوم وأخيه وآبنه المذكورَيْنِ معه فيه .

وهذه نُسْخةُ هُدْنةٍ من مَلِكٍ مضعوفٍ لمَلِكٍ قَوِىٍّ ، كَتَب بها الفقيهُ أبُو عَبْدِ الله ابن (١) أحدُ كُتَّابِ الأَنْدَلُسِ ، عن بعض ملوك الأَنْدَلُسِ من المسلمين ، من أتْبَاع « المَهْدِىّ بن تُومَرْتَ » القائم بدَعْوة الموَحِّدِينَ ، مع « دون فرانده » صاحبِ قَشْتالَةَ من مُلُوك الفَرَنْج بعَقْد الصُّلْح علىٰ مُرْسِيَةَ من بلاد الأَنْدَلُسِ ، وهى :

هذا عَقْدُنا بعد آستخارة الله تعالىٰ وآسْتِرْشادِه ، وآسْتعانَتِه وآسْتِنْجادِه ، نِيابَةً عن الإمارة العَلِيَّـة بحُكْم آستنادنا إلى أوَامِرِها العالية ، وآرائها الهَـادِية . عقَدْناه ــ والله الموفِّقُ ــ لقَشْتالَةَ مع فُلانٍ النائبِ فى عَقْده معنا عن مُرْسله إلينا ، المَلِكِ الأجَلِّ الأَسْنَى المُبَجَّلِ « دون فرانده » مَلِكِ قَشْتالةَ ، وطُلَيْطِلَةَ ، وقُرْطُبة ، وليُون ، وبَلَنْسِيَةَ ــ أدام الله كرامته ومِيزته بتقواه ــ حين وَصَلَنا من قِبَلِه كتابٌ مختومٌ بطَابَعِه المعلومِ له المُتعارَفِ عنه ، تَفْوِيضًا منه إليه ، فى كل ما يُعْقَدُ له وعليه . وعاقَدَنا علىٰ أن يكونَ

(١) بياض بالأصول .

السِّلْم بيننا وبين مُرْسِلِه المذكورِ لعامَيْنِ آثنين ، أوّلها شَهْر المحرَّم الذى هو أوّلُ سَنَة تاريخ هذا الكِتَاب ، الموافِقُ من الأشْهُرِ العَجَمِيَّة شهر كذا ، علىٰ جميع ما تَحْتَ نَظَرِنا الآنَ من البلاد الراجعة إلى الدَّعْوة المهديَّة ـ أسماها الله تعالىٰ ـ حَواضِرِها وثُغُورِها ، مَوَاسِطِها وأطْرافِها ، من جزيرة شَقْر إلىٰ بِيْرَة والمنصورة وما يليها ـ حرس الله جميعها ـ سِلْمًا محافَظًا عليها من الجهتين ، محفوظًا عَهْدُها عند أهل المِلَّتَيْنِ ؛ لاغَدْر فيها ، ولا إخْلالَ فى معْنًى من معانيها ؛ ولا تُشَنُّ فى مُدُنِها غَارَه ، ولا تُذْعَرُ سَيَّارَه ؛ ومَهْما وقع اغوار ، أو حَدَث اقدار ؛ على جهة المجاهره ، إذا آتَّصلتْ والمُساتَره ؛ فإن كان من جهة النصارىٰ ، فعلىٰ ملك قَشْتالَةَ تَسْرِيحُ الأسارىٰ ، وردُّ الغنائم والنَّهْب ، والإنْصافُ من الغنيمة إن عُدِمَت العين ، وأعْوزَ الطَّلَب . وعلينا مثلُ ذلك سَواء ، ليقابَلَ بالوَفَاء ؛ هذا بعد أن يُتَّبَعَ الأمْرُ ويُعلَمَ من أين كان .

ومن هذه المهادنة أن لا يُتَسبَّبَ إلى الحُصُون بالغَدْر ولا بالشَّرِّ ، ولا يتجاوَزَ النصارىٰ حُدُودَ بلادهم وأرْضِهم بشَيْءٍ من البِنَاء ، ولا يَصِلَ من بَلَدِ قَشْتالَةَ مَدَدٌ لمُخَالِفِنا ، ولا مَعُونَةٌ لمُقَاتِلِنا . وكل ما يرجِعُ إلىٰ هذه الدَّعْوة ، ويدخلُ فى الطَّاعة من البلاد بعد هذا العَقْد فداخِلٌ فى السِّلْم ، بزيادة نِسْبَتِه من المال الذى هو شَرْطٌ فى صِحَّة هذا الحُكْم . وإذا بَقِيَ من مُدَّةِ هذه المُسالَمَة شهرانِ آثنانِ ، فعلىٰ ملِكِ قَشْتالة أن يُعْلِمَنا بغَرَضِه فى المهادَنة أو سِوَاها ، إعلامًا من مذاهب الوَفَاء أوْناها .

وقد آلتزَمَ رسولُ المذكورِ لنا هذه الشُّروطَ ، وأحْكَم معنا ـ نِيَابَةً عنه فيها ـ العُقُودَ والرُّبوطَ ، علىٰ كلِّ ما ذكرناه . وآلتزمنا فى هذا السلم المَلِكَ قَشْتالَةَ المذكورة ـ مكافأةً عن وَفاءِ عَهْدِه ، وصِحَّةِ عَقْدِه ـ مائةَ ألفِ دينارٍ واحدةً ، وأربعين ألفَ دينار فى كلِّ عامٍ من عامَىْ هذا الصُّلْحِ المقدَّمِ الوَصْف ، مقسَّمًا ذلك على ثلاثة أنْجُم

فى العام، ليتقاضاها ثِقاتُه، ويوفِّىَ عَيْنَها على التمام والكمال، قَبَضَ منها كذا ليوصِّلَها إلىٰ مُرْسله، وٱلتزَمَ له تَخْلِيص باقى كذا عند ٱنقضاء كذا على أوْفَىٰ وجْهٍ وأكْمَلِه؛ فإن وُفِّىَ له بذلك بعد الأربعين يوما المؤقَّتة، فالسِّلْم باقِيةٌ وحُكْمُها ثابتٌ، وإلا فالسِّلْم مفْسُوخَةٌ ولا حُكْمَ لها إن عُجِزعن الوَفاء له، بحصول مابَقِىَ من الشُّروط فى ٱسْتِصحاب الحكم وٱتِّصالِ العَمَل؛ إن شاء الله تعالىٰ.

وعلى ما تَضَمَّنه هذا الكِتابُ أمْضَىٰ فلانٌ ـ أعَزَّه اللهُ ـ بحُكْمِ النيابة، عن الأمر العَالِى ـ أسماه الله ـ هذا العَقْدَ الصُّلْحِىَّ، وأشهد بما فيه علىٰ نَفْسه وحضَره المفسل طور(؟) المذكور، فتُرجِمَ له الكِتابُ وبُيِّنتْ له مَعانيه، وقُرِّرَ علىٰ مَضامِينِه، فالتزم ذلك كلَّه عن مُرْسِلِه مَلِكِ قَشْتالَةَ حسَبَ مافوّض إليه فيه؛ وأشْهد بذلك على نَفْسه، فى صِحّتِه وجَوَاز أمره فى كذا، واللهُ الموفِّقُ لما يرضاه، ومُقَدِّم الخَيْرِ والخِيرَةِ فيما قَضاه، بمَنِّه والسلام.

المذهب الثانى

(أن تُفْتتح المُهادنَةُ قبل لفظ «هذا» ببَعْدِيَّةٍ)

وهذه نُسْخةُ هُدْنةٍ بين مَلِكَين متكافئين دون تَقْرير شَىْءٍ من الجانبين، كتَب بها الفَقيهُ المحدِّثُ أبو الرَّبيع بن سالم من كُتَّاب الأَنْدَلُس، فى عَقْد صُلْح على بَلَنْسِيَةَ وغيرها من شَرْق الأَنْدَلُس، وهى:

وبعدُ، فهذا كتابُ مُوادَعَةٍ أمْضَىٰ عَقْدَها وٱلتزمَه، وأبْرَمَ عَهدها وتممه؛ فُلانٌ لِلمَلِكِ أرْغُونَ، وقومط بَرْجَلُونة، ويرنسب مقت بشلى، حافظة(؟) بن بَطْرة، بن أدفونش، ٱبن ريموند، أدام اللهُ كرامتَه بتقواه له خاتما وعنوانا، المعهود صدوره فى أمثالها من المراوضات الصُّلْحِيَّة تضَرُّعًا وإعلانا؛ مُتَضَمِّنًا من الإحالة فى عَقْدِ المُسالَمة

عليه، والتَّفويض فى إبرام أسبابها والتزام فصولها وأبوابها إليه؛ ما أوجب صحيح النَّظر، وصريح الرَّأى المعتبر، مقاربةً فيه، وموافقةً منه على ما يحفظ حقَّ المسلمين ويوفِّيه، جنوحًا منه إلى ما جنح إليه من ذلك متقاضيه، وتحرِّيًا للعمل على شاكلة الصَّواب والإيثار لما يقتضيه، بعد محاولاتٍ بلغ منها النَّظر غايته من الاجتهاد، وإراغاتٍ قرن بها من استخارة الله تعالى واستنجاده ما رضى فيه من فضله العميم معهود التَّسديد والإنجاد؛ فأجلى ذلك عن إمضاء عهد السِّلْم لملك أرغون على بلنسية وكافَّة جهاتها أطرافًا ومواسط، وثغورًا وبسائط؛ وكذلك شاطبة ودانيه، وما ينتظم معهما من أحوازهما ويرجع إلى حكم بلنسية وحالها من الجهة النَّائية والدانيه؛ لمدَّة عامين اثنين، شمسيِّين متَّصلين، وأيام متَّصلة بهما كذلك. وهذا يحصر أمره، ويحقِّق عدده، أن نفتتحه بيوم الأحد الرابع والعشرين لشهر نوبر، الموافق لعاشر ذى القعدة المؤرَّخ به هذا الكتاب، الذى هو من عام أحد وعشرين وستِّمائة بتاريخ الهجرة — مسالمةً تضع بها الحرب بين الجانبين أوزارها، وتمهِّد للهدنة بين الطائفتين آثارها، وترفع اللبنة (؟) عمن ذكر من الملَّتين أذيَّتها وأضرارها؛ البرُّ والبحر فى ذلك سيَّان، والمساترة فيها بالأذى والمجاهرة ممنوعان، وحقيقة اللَّازم من ذلك غنيٌّ ببيانه ووضوحه عن الإيضاح والتِّبيان؛ لا التباس ولا إشكال، ولا غائلة ولا احتيال؛ ليس إلَّا الأمن الكافل لكافَّة من تشتمل عليه كافَّة المواضع المذكورة من المسلمين، ومن تحويه بلاد ملك أرغون من الطَّوائف أجمعين. وكلُّ منتمٍ إلى خدمة هذه المملكة الأرغونيَّة بما كان من وجوه الانتماء، أو ناظرٍ فى جزءٍ منها كائنًا ما كان من الأجزاء، فهو فى هذا الحكم داخل، وتحت هذا الرَّبط الصُّلحىِّ واصل؛ ولا حجَّة لمن كان له منهم حصنٌ ينفرد به عن هذه المملكة، على ما لهم فى ذلك من العوائد المتعارفة. فإن نقض بجزءٍ منه وذهب إلى أن يكون فى حصنه منفردًا فهو

وما آختار، إذا تنكّب الإضرارَ؛ فإن رام التَّطرُّق بشَىْء إلىٰ أحَدِ الجانبَين كان على المسلمين وعلىٰ أهْل أرْغُونَ التظافُرُ على آستِنزاله، والتظاهُرُ علىٰ قِتاله، حتّىٰ يَكُفُّوا ضَرَره، ويُعَفُّوا أثَرَه .

والحدُودُ الفاصلةُ بين الجزأين هى أوساطُ المسافات، علىٰ ما عُرِف من مُتقـدِّم المسالمـات؛ ويَدُ كلِّ فَرِيقٍ منهم مُطْلَقةٌ فيما وَرَاءَ حَدِّه بما شاء، من آنتشاءٍ برَسْم الإصلاح والانشاء؛ وكلّ من قصد المسلمين من رِجال المملكة الأرْغُونيَّة بريئًا من تَبِعَةِ الفَساد فقَبُولُ قَصْـدِه مُبَاح، وليس فى آسـتخدامه والإحسانِ إليه جُنَـاح؛ والطريق للتُّجَّار المعهودِ وُصُولُهم من بلاد أرْغُونَ إلىٰ بَلَنْسِـيَةَ فى البَرِّ والبَحْر مُباحَةُ الأنْتِيَاب، مَحْفُوفةٌ بالأَمَنَةِ التامَّة فى الجَيْئَةِ والذَّهاب؛ وعلىٰ تُجَّارِ البحْر منهم أن يتجنَّبوا رُكُوب الأجفان الحَرْبِيَّـة التى يُمكِنُ بها الإضرار، ويَسْتَغنِى عن (١) التُّجَّار؛ والآستِرْهابُ مَرْفوعٌ عن هٰؤلاءِ الواصلين برَسْم التِّجارةِ على آختِلافهم، وتَبـايُنِ أصْـنافِهم؛ فيما لم تَجْنِهِ أيْدِيهـم، ولا كان مَنْسُوبًا إلىٰ تعَدِّيهم؛ وكلُّ مُعْتَقِلٍ من الطائفتين بأدْنىٰ شَىْءٍ يُطَرِّق إلىٰ حُكْمِ هذه السِّـلْمِ خِلافًا، أو يُلْحِقُ بعَهْدِها إخْلافًا؛ فعلى أهْلِ مَوْضِعه الإنْصافُ ممن جَنَاه، وصَرْفُ ماسَلَبَتْه يَدَاه، وإحْضارُه مع ذلك ليُعاقَبَ بمـا أتاه. وليس لأحَدٍ من الطائفتين أن يتسبَّبَ بآسْتِرْسال، إلى الإنْصاف من جنـايةِ حَال؛ بل يقومُ بدَفْعِ ذلك حيثُ يُحَب، ويطلبُه فى المَوْضِع الذى ينبغِى فيه الطَّلَب؛ حتَّى يخاطَبَ الناظرُ على المملكة التى نُسِبَتْ إليها هذه الإذايه، وصدَرتْ عن أهْلِها [تلك] الجنايه؛ بِطلَبِ الإنصافِ من عُدْوانها، وتعادُ عليه الأعْذارُ فى شأنها؛ وعليه ــ ولا بُدَّ ــ التَّخليصُ منها عملًا بالوَفَاءِ الذى يَجِبُ العمَلُ به، وقيامًا بحقِّ العَهْد الذى أُكِّد الآعْتلاقُ بسَبَبِه؛ ومتى غادر مغادِرٌ من أحَدِ المِلَّتين حِصْـنًا من حُصُون

(١) بياض بالأصول ولعله « عن ركوبها » .

الأخرىٰ فله الأَمْنُ على الكمال، والرَّعْىُ الحافظُ للنَّفْسِ والمال؛ حتى يُلْحَقَ بمأْمَنِه، ويَعُودَ سالِماً إلىٰ وَطَنِه .

فعلى هذه الشروطِ المحقَّقه، والرُّبُوط الموثَّقه، ٱنعقد هذا السِّلْم، وعلىٰ من ذُكِرَ من المسلمين وأهْلِ أرغون الحُكْم ؛ وهذا الكِتَابُ ينطِقُ فى ذلك بالحَقِّ اللازم للطائفتين، ويُعْرِب عن حقيقة ما ٱنعقَد بين من سُمِّىَ من أهْلِ المِلَّتين ؛ وٱلتزَم كُلَّه عن مَلِكِ أرغُونَ النائبُ عنه بتَفْوِيضِه إليه، وٱستِنابتِه إيَّاه عليه ؛ الزعيم بطره آبن فدانف بكدريش(؟)على أتم وجوه الٱلتزام،وأبْرَمَ ذلك مَلِكُ أرْغُونَ بأوْثَقِ علائق الإبرام، وكلُّ ذلك بعد أن بُيِّنَتْ له الفُصولُ المتقَدِّمَةُ غايةَ التَّبْيِين وأُفهِمَها حقَّ الإفْهام ؛ وألْزم نفْسَهُ مع ذلك وُصولَ كِتَاب هذا المَلِكِ الذى تولَّى النِّيابَةَ عنه فى هذا العَقْدِ، مصرِّحًا بٱلتزامه وإمضائه فيه عَمَله، وَفْقَ ما تَضَمَّنه كِتَابُه الذى أرسَلَه، وأَشهد مع ذلك زعماءَ دَوْلَتِه وكُبراءَ القائمين عليه، تحقيقًا لمعناه، وتَوْثيقًا لَمبْناه، إن شاء الله تعالىٰ .

النــوع الثــانى

(من الهُدَن الواقعةِ بين مَلِكٍ مُسْلم ومَلِكٍ كافِرٍ ـ أن تكونَ الهدنةُ من الجانبين جميعا)

وفيها للكُتَّاب ثلاثة مذاهب :

المــذهب الأوّل

(أن تُفتتحَ الهُدْنةُ بلفظ : «هذه هُدنَةٌ» ونحو ذلك)

قال فى "التعريف" : وسبيلُ الكِتابَة فيها أن يُكْتَبَ بعد البَسْملة : هٰذه هُدْنةٌ ٱستقرّتْ بين السُّلطانِ فلانٍ والسُّلطانِ فلانٍ، هادَنَ كلُّ واحدٍ منهما الآخرَعلى الوَفاءِ عليه، وأجَّل له أجَلًا ينتهى إليه؛ لما ٱقتَضَتْه المصلحةُ الجامعه، وحُسِمتْ به موادُّ

الآمالِ الطَّامعه ؛ تأكَّدتْ بينهما أسبابُها ، وفُتِحتْ بهما أبوابُها ؛ وعليهما عَهْدُ الله على الوَفاء بشَرْطِها ، والانتهاءِ إلىٰ أمَدِها ، ومَدِّ حَبْلِ المُوادَعَة إلىٰ آخر مُدَدِها ؛ ضَربا لهـا أجَلًا أوّلُه ساعةُ تاريخـه وإلىٰ نهاية المُدّة ، وهى مُدّة كذا وكذا ؛ علىٰ أنّ كلَّ واحدٍ منهما يُغْمِدُ بينه وبين صاحِبه سَيْفَ الحَرْب ، ويَكُفُّ ما بينهما من السِّهام الراشِقَة ، وتُعقَلُ الرِّماحُ الخطَّارة ، وتُقَرُّ علىٰ مرابطها الخَيْلُ المُغيرة . وبلادُ السلطان فلانٍ كذا وكذا ، وبلادُ السلطانِ فلانٍ كذا وكذا ، وما فى بلادِ كلٍّ منهما من الثُّغور والأطْرافِ والمَوانِى والرَّساتيق والجهات والأعمال : برًّا وبَحْرا ، وسَهْلًا وجَبَلًا ، ونائيًا ودانيًا ، ومَن فيها : من مالِكها المسَمَّىٰ وبَنِيه ، وأهْلِه وأمْواله ، وجُنْده وعَساكِره ، وخاصِّ من يتعلَّقُ به وسائِره ؛ ورعاياه على اختـلاف أنواعهـم ؛ وعلى انفرادِهم واجْتماعِهم ؛ البادى والحاضِر ، والمُقِيم والسَّائِر ، والتُّجّار والسَّفّارة ، وجميع المتردّدين من [سائر] (١) الناس أجمعين . علىٰ أن يكون علىٰ فلان كذا و[على فلان] (١) كذا [ويعين ما يعين] : من مالٍ ، أو بلادٍ ، أو مساعدةٍ فى حَرْبٍ ، أو غير ذلك ، يقوم بذلك لصاحبه ، وينهَضُ من حقِّه المقرَّرِ بواجِبه ؛ وعليهما الوفاءُ المؤكَّدُ المواثيق ، والمحافظةُ على العَهْد والتَّمَسُّكُ بسَبَبِه الوَثيق ـ هدنةً صحيحةً صريحةً ، نَطَقا بهـا ، وتَصادقَا عليها ، وعلىٰ ما تَضَمَّنته المواصفةُ [المستوعَبَةُ بينهما فيها ، وأشهدَا اللهَ عليهما بمَضْمُونها ، وتَواثقَا علىٰ دُيُونها ، وشَهِدَ من حَضَر مقام كلٍّ منهما علىٰ هذه الهُدْنة وما تضَمَّنته من المواصفه] (١) ، وجرَتْ بينهما علىٰ حُكْم المُناصَفه ، رَأَيا فيها سُكونَ الجِماح ، وغَضَّ طَرْفِ الطِّماح .

وعلىٰ أنَّ علىٰ كلٍّ منهما رعايةَ ما جاوره من البِلادِ والرَّعِيَّه ، وحَمْلَهم فى قضاياهم على الوُجُوه الشَّرعيَّـه ؛ ومن نَزَح من إحْدَى المملكتين إلى الأُخْرىٰ أُعِيد ، وما أُخِذَ منها باليَدِ الغاصِبَة استُعِيد ؛ وبهذا تم الإشْهاد ، وقُرِئَ على المسامع علىٰ رُءُوس الأشْهاد .

(١) الزيادة من "التعريف" ص ١٧٠ .

المــــذهب الثـانى

(أن تُفتتحَ الهُـدْنة : بلفظ : «ٱستقرّتِ الهُدْنة بين فلانٍ وفلانٍ» ويقدّم فيــه ذِكْرُ الملكِ المُسْـلِم)

وعلىٰ ذلك كانت الهُدَنُ تُكتبُ بين ملوكِ الدِّيار المصرية، وبين ملوكِ الفَرَنْج، المتغلّبين علىٰ بَعْضِ البلاد الشامية .

وهذه نُسْخةُ هُدْنةٍ علىٰ هذا النَّمَط : دون تَقْرِيرٍ من الجانبين ؛ كُتِبتْ بين المَلِك الظَّـاهر « بيبرس البندقدارى » صاحبِ الدِّيارِ المصرية ، وبين الاسْبِتَار (١) بحِصْنِ الأكراد والمَرْقَب ، فى رابع شَهْر رمضانَ سنة خَمْسٍ وستين وسِتِّمائةٍ، وهى :

ٱستقرّتِ الهُـدْنةُ المباركةُ المَيْمونَةُ بين مولانا السلطانِ المَلِكِ الظَّاهرِ رُكْنِ الدِّينِ أبِى الفَتْح «بيبرس» الصَّالحِىِّ النَّجْمِىِّ ، وبين المقدّم الكبيرِ الهُمامِ فلانٍ مُقدّمِ بَيْتِ الاسْبِتَار الفلانىِّ بعَكَّا، والبلادِ السَّاحليَّة، وبين فُلانٍ مقدَّمِ حِصْن الأكراد، وبين فلانٍ مُقـدَّم حِصْن المَرْقَب ، وجميعِ الإِخْوةِ الاسْبِتَار ، لمدّةِ عَشْر سـنين مُتَوالية وعَشَرةِ أشْهُرٍ وعشرةِ أيَّامٍ وعَشْرِ ساعات : أوّلهـا يومُ الاثنينِ رابعُ رمضانَ سـنة خَمْسٍ وسِتِّين وسِتّمـائةٍ من الهِجْرة النَّبويَّة علىٰ صاحبِها أفضلُ الصَّلاةِ والسـلام ، الموافِقُ لليومِ الثَّلاثين من أيّام (٢) سنةَ ألفٍ وخَمسمائةٍ وتسعةٍ وسبعين سنة للإسْكَنْدر بن فيلبس اليُونَانِىّ ـ علىٰ أن جميعَ المَمْلكةِ الحِمْصيَّةِ والشَّيْزَرِيَّةِ والحَمَوِيَّة وبلادِ الدَّعْوةِ المُباركَة، واقِعٌ عليها الاتفاقُ المُبارك، ومُسْتقِرَّةٌ لها هذه الهُدْنة المَيْمونَة بجميعِ حُدُود هذه المَمـالك المَعْروفه ، وبلادِها الموصوفه ، وقُراها وضِياعِها ، وسَهْلِها وجَبَلِها ، وعَامِرِها وغامِرِها ، ومَزْرُوعِها ومُعَطَّلِها ، وطُرُقاتِهـا ومِياهِها ، وقِلاعِها

(١) الاسبتار بتقديم الموحدة على التاء هو رئيس الطائفة الدينية المعروفة فى الكتب العربية بالاسبتارية .
(٢) بياض بالأصول .

وحُصونِها ـ علىٰ مايُفَصَّلُ فى كلِّ مملكة، ويُشْرَح فى هذه الهُدْنةِ المباركة للمّدَةِ المعيَّنةَ إلىٰ آخرِها .

وعلىٰ أن المستقرَّ بمَمْلَكةِ حِمْص المحروسةِ أنَّ جميع المَوَاضِع والقُرَىٰ والأراضِى التى من نَهْرِ العاصِى، وتغرِّب إلى الحَدِّ المعروفِ من الغرْبِ لبَلَدِ المُناصَفَات : عامِراً ودَاثِراً، وبما فيها من الغَلَّات صَيْفِيا وشَتْويا، والعداد وغَيرِها من الفوائد جَميعِها ـ تقرَّرَ أن يكونَ النِّصفُ من ذلك للسُّلطانِ الملِكِ الظاهِر رُكْنِ الدنيا والدِّين أبى الفَتْح «بيبرس»، والنِّصف لبَيْتِ الأسبِتار .

وعلىٰ أن كلًّا من الجهتين يَجْتَهِدُ ويَحْرِصُ فى عمارة بَلَد المُناصفاتِ المذكورة بجُهْدِه وطَاقَتِه، ومَن دخل إليها من الفلَّاحين بدَوابَّ، أو من التُّركمان، أو من العَرَب، أو من الأكْرَاد، أو من غيرهم، أو القُنَاة ـ كان عليهم العِدادُ كجارِى العَادَة . ويكون النِّصْفُ للسلطانِ، والنِّصفُ لبَيْت الاسْبِتَار .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهر يَحْمِى بلَدَ المناصفات المقدّمَ ذِكْرُها من جَميعِ عَسْكَره وأتباعه، ومِمَّن هو فى حُكْمِه وطاعَتِه، ومن جميع المسلمين الدَّاخلين فى طاعته كافَّة . وكذلك مقدَّمُ بَيْتِ الاسْبِتَار وأصحابُه يَحْمُونَ بِلادَ مولانا السلطانِ الدَّاخلةَ فى هذه الهُدْنة .

وعلىٰ أنَّ جميعَ من يتعدَّىٰ نَهْر العاصِى مُغَرِّباً لرَعْىِ دوابِّه : سواءٌ أقام أو لَمْ يُقِمْ، كان عليه العِدادُ سِوىٰ قُنَاة البلد ودَوابِّه، ومن يخرجُ من مَدِينة حِمْص ويعودُ إليها، ومن غَرَّبَ منهم ومات كان عليه العِدَادُ .

وعلىٰ أن يكون أمْرُ فلَّاحِى بلَدِ المناصفات فى الحَبْس والإطلاق والجِباية راجعاً إلىٰ نائِبِ مولانا السلطان، بآتِّفاقٍ من نائبِ بَيْت الاسبِتار، علىٰ أن يحكُمَ فيه بشريعة الإسلامِ إن كان مُسْلِماً، وان كان نَصْرانياً يحكم فيه بمقتضىٰ دَوْلة حِصْن الأكراد .

وأن يكونَ الفلاحونُ الساكنون فى بلاد المناصفات جميعها مُطْلَقين من السُّخَرِ من الجانبين .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهرَ لا يأخذُ فى بَلَدِ المناصفات المذكورةِ : من تُرْكمانٍ ولا عَرَبٍ ولا أَكْرادٍ ولا غَيْرِهم عِدَادًا ولا حقًّا من حقوق بَلَدِ المناصفات ، إلا ويكونُ النِّصفُ منه للمَلِك الظاهر ، والنِّصفُ الآخرُ لبَيْت الأَسْبِتَار .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهرَ لا يتقـدَّمُ بمنع أحَدٍ من الفَلَّاحين المعروفين بسُكْنَى بلاد المناصفات من الرُّجوعِ إليها ، والسَّكَنِ فيها إذا آختارُوا العَوْدَ . وكذلك بيْتُ الأَسْبِتَار لا يمنعون أحدًا من الفَلَّاحين المعروفين بسُكْنىٰ بلاد المناصفات من الرُّجوعِ إليها والسَّكن فيها إذا آختارُوا العَوْد .

وعلىٰ أن المَلِكَ الظاهرَ لا يَمنـعُ أحدًا من العُرْبانِ والتُّركمان وغيرهم : ممَّن يُؤدِّى العِدَاد ، من الدُّخولِ إلىٰ بَلَدِ المناصفات ، إلَّا أن يكونَ مُحارِبًا لبَعْض الفَرَنج الداخلين فى هذه الهُدْنة ، فله المَنْع من ذلك . وأن تكونَ خُشَاراتُ الملك الظاهر وخُشَاراتُ عساكِرِه وغِلمانُهُـم وأهلُ بَلَدِه تَرعَىٰ فى بلد المناصفات آمِنَـةً من الفَرَنج والنَّصارىٰ كافَّة . وكذلك خُشَاراتُ بَيْتِ الاسْبِتَار وخُشَاراتُ عَسْكرِهم وغِلْمانِهم وأهْلِ بَلَدِهم ترعى آمِنةً من المسلمين كافَّةً فى بَلَدِ المناصفات . وعند خروج الخُشارات من المَراعِي وتَسْليمِها لأصحابها ، لا يُؤخَذُ فيها حقٌّ ولا عِدَادٌ ولا تُعارَضُ من الجهتين .

وعلىٰ أن تكونَ مِصْيَدة السَّـمكِ الرُّوميَّة مهما تحصَّلَ منها ، يكونُ النِّصفُ منه للمَلِكِ الظاهِرِ والنِّصفُ لبيْت الاسْبِتَار . وكذلك المَصَايد التى فى الشَّطِّ الغَرْبىِّ من العاصِى يكونُ النِّصفُ منه للمَلِك الظاهِر والنصفُ لبَيْتِ الاسْبِتَار . ويكونُ لبَيْتِ الاسْبِتَار فى كلِّ سنةٍ خمسُونَ دينارًا صُورِيَّة عن القَشّ ، ويكون القَشُّ جميعُه للمَلك الظاهر يتصَرَّفُ نُوَّابُه فيه علىٰ حَسَب آختيارهم . ويكونُ اللَّيْنوفَرُ مناصَفَةً : النِّصفُ

منه للمَلك الظاهر والنِّصفُ لبَيْت الاسْبِتَار . وتقرّرَ أن الطاحُونَ المستجدَّ المعروفَ بإنشاءِ بَيْت الاسْبِتَار، الذى كان حصل الحَرْب فيه، والبُسْتانَ الذى هناك المَعْروف بانشاء بيت الاسْبِتَار أيضا يكون مناصفة . وأن يكونَ متولِّى أمْرِهما نائبٌ من جِهَةِ نُوّابِ السلطان ونائبٌ من جِهَةِ بيت الاسْبِتَار ، يتوليان أمْرَهما والتَّصرُّفَ فيهما وقَبْضَ مُتَحَصِّلِهما . وتقرّر أنَّ مهما يجدِّده بَيْتُ الاسْبِتَار على الماء الذى تَدُور به الطاحُونُ ويَسْقِى البُسْتانَ من الطواحين والأبنية وغير ذلك ، يكون مُنَاصَفَةً بين المَلِك الظاهِر وبين بَيْتِ الاسبتار .

وأما المستقرُّ بمَمْلَكَةِ شَيْزَر المحروسة ، فهى شَيْزَر ، وأبو قُبَيْس وأعماله ، وعَيْنتابُ وأعمالُها ، ونِصفُ زاوية بَغْراس المعروفةِ بحماية بَيْت الاسبتار وأعمالُها ، وجميعُ أعمال المَمْلَكَةِ الكِسْروية والبلادِ المذكورةِ بحُدُودِها المعروفةِ بها ، وقُراها المُسْتقرّةِ بها ، وسَهْلِها وجَبَلِها وعامِرِها وغامِرِها .

وما آستقرّ بمملكة المَلِك المَنْصور، ناصِرِ الدِّين «محمد» بن المَلِك المظَفَّر أبى الفَتْح «محمود» بن الملك المَنْصور «محمد» بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب فهى : حماةُ المحروسةُ وقِلاعُها ومُدُنها ، والمَعَرَّةُ وقُراها وسَهْلُها وجَبَلُها وأنهارُها ، ومَنَافِعُها وثِمارُها وعامِرُها وغامِرُها ، وبلادُ رُقَيبة وبلادُ بارِينَ بحُدودها وتُخُومها وعامِرِها ودَاثِرِها وجميع من فيها وما فيها ــ على أن المَلِك المَنْصور لا يرخِّصُ للتُّركمان ولا للعَرَب أن ينزلوا بَلَد رُقَيبة وبارِينَ سِوَى ثلاثين بَيْتاً يحملون الغَلَّةَ لقَلْعَةِ بارِينَ ، وإن أرادوا الزيادةَ يكونُ بمراجعة الإخْوة الاسبتارية والآتفاق معهم على ذلك .

وعلى أنَّه إن تعدَّى أحدٌ من أصحابه بأذيَّةٍ ، أو تعدَّى أحدٌ من الفَرَنجة فى بِلادِه بأذيَّة ، كانت المُهْلة فى ذلك خَمْسة عشر يوما ؛ فإن آنْكشفتِ الأخيذة ،

أعيدت . وإلا تُحلَّف الجهَةُ المدَّعىٰ عليها أنها ما علِمتْ وما أحسَّت ، وكما لهُم ، كذلك عليْهم .

والمستقِرُّ لمملكة الصاحِبَيْن : نَجْمِ الدِّينِ وجَمالِ الدِّين ، والأميرِ صارِم الدِّين نائبَيِ الدَّعْوَةِ المُبـاركة ، وولَد الصاحِب رَضِيِّ الدِّين ، وهى : مِصْيافُ والرُّصافَةَ وجميعُ قِلاعِ الدَّعْوةِ وحُصُونِهـا وسَهْلِها ووَعْرِها وعامِرِها وداثِرِها ، ومُدُنُهـا وبلادها ، وضياعِها وطُرقاتِها ، ومياهِها ومَنَابِعِها ، وجميعُ بلادِ الإسماعيلية بجبلَى بَهْرا واللُّكَّام ، وكلُّ ماتشتمِلُ عليـه حُدُود بلادِ الدَّعوة وتُخُومها ـ أن يكونَ الجميع آمِنِينَ من علىٰ الرَّصيف الذى بشَـيْزَر إلىٰ نهاية الأراضِى التى بحُصُون الدَّعوةِ وبلادِها . وحمـايةَ القَرْيَةِ المعروفةِ بعرطار (؟) يكونُ له أسوة الاسماعيلية . وإن علِم الأصحابُ أن أحدًا من الإسماعيلية قد عبَر إلىٰ بَيْتِ الاسبتار لأذيَّة ، أَعلمُوا بَيْت الاسبتار قبلَ أن تَجْرِىَ أذيَّة ، وما لم يُعلِمُوا به عليهـم اليمينُ أنَّهـم ما علِمُوا به ، وإن لم يحلِفُوا ردُّوا الأذيَّةَ التى تَجْرِى .

وتقرّر أن يكونَ فلَّاحُو بَيْتِ الاسبتار رائحينَ وغادينَ ومتصرِّفِينَ فى بَيْعِهـم وشرائِهم ، مطمئِنِّينَ لا يتعدَّىٰ أحدٌ عليهم . وكذلك جميعُ فلَّاحِى بلاد الإسمـاعيلية لا يتعدَّىٰ أحدٌ عليهم ، وأن يكونُوا آمنينَ مطمئِنِّينَ فى جميع بلاد الاسبتارية ، وإن تعدَّى أحدٌ من الجهتين فى سُوقٍ أو طَرِيقٍ ، فى لَيْلٍ أو نهار ، تكون المُهْلَة خمسةَ عَشَرَ يوما ، فإن ردَّت الشَّكْوىٰ كلُّها فما يكون إلا الخَيْر بينهم ، ومن توجَّهتْ عليه اليمينُ حَلَف ، ومن لم يفعلْ يحلِّف وإلا يَرُدُّ الأذيَّة . وتكون الضَّيْعةُ التى رهَنَها عبدُالمسيح رَئيسُ المَرْقَبِ الاسبتار ، وهى المشيرِقة تكون آمنةً إن كان الحال آستقرّ عليها إلىٰ آخرِ وقْتِ عند كتابة هـذه الهُدْنة المباركةِ بين الأصحـاب وأصحابهم . ويحمل الأمْر فى الحقوق .

ويبطُل ما هو علىٰ بلاد الدَّعْوةِ المباركَةِ من جميع مالبَيْت الاسبتار علىٰ حماية مِصْياف والرُّصافة، وهو فى كلّ سنةٍ ألفٌ ومائتا دينارٍ قومصية، وخمسون مُدًّا حِنْطةً، وخمسون مُدًّا شعيرا، ولا تبقىٰ قَطيعةٌ علىٰ بلاد الدَّعْوة جميعها، ولا يتعرَّضُ بَيْتُ الاسبتار ولا نوَّابهم ولا غِلْمانُهم إلىٰ طلبِ قَديم من ذلك ولا جَديد، ولا مُنْكَسر ولا ماضٍ، ولا حاضِرٍ ولا مُسْتقبلٍ علىٰ ٱختلافه .

وتقرّر أن تكونَ جميعُ المباحات من الجهتين مُطْلقةً ممـا يختصُّ بالمملكة الحِمْصيَّة، يسترْزِقُ بها الصَّعاليكُ . وأنَّ نوّابَ المَلِك الظاهِرِ يحمونهم من أذيَّةِ المسلمين من بلاده المذكورة ، وأن نُوّابَ بيْتِ الاسبتار يَصُونونَهم ويَحْرُسونهم ويَحْمونَهم من النَّصارىٰ والفَرَنج من جميع هذه البلادِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنة . ولا يتعرّضُ أحدٌ من المسلمين كافَّةً من هذه البلادِ الدَّاخلةِ فى [هذه] الهُدْنة [إلىٰ بلاد الاسبتارية] بأذيَّةٍ ولا إغارة، ولا يتعرضُ أحدٌ من جَميع الفَرَنْجة من هذه البلاد الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ بحُدُودها الجاريةِ فى يَدِ نُوَّابِ الاسبتار وفى أيديهم، إلىٰ بلاد الملك الظاهر بأذيَّةٍ ولا إغارَة .

وعلى أنه متىٰ دخل فى بلاد المُناصَفات أحدٌ ممن يَجِبُ عليه العِـدَادُ وٱمتنع من ذلك ، وكان عِداد إحْدَى الجهتين حاضرًا : إمَّا عِدَادُ ديوان المَلِك الظـاهر، وإمَّا عِدَادُ بَيْتِ الاسبتار ، فلنائِبِ العِـدادِ الحَاضر من إحدَى الجِهتَـين أن يأخُذَ من ذلك الشَّخْصِ الممتنع عن العِـدَاد أو الخارج من بَلَدِ المناصـفات رَهْنًا بمِقْدار ما يجبُ عليه من العِدَادِ، بحُضورِ رئيس من رُؤَساءِ بَلَدِ المناصفات ، ويُتْرَكُ الرَّهْن عند الرَّئيسِ وَديعَةً إلىٰ أن يحْضُرَ النائبُ الآخَرُ من الجِهَةِ الأخرىٰ، ويُوصِّلَ إلىٰ كلِّ من الجهتين حَقَّه من العِدَادِ .

وإن خرج أحدٌ ممن يَجِبُ عليه العِدَادُ، وعَجَز النائبُ الحاضِرُ عن أخْذِ رَهْنِه : فإن دخلَ بلدًا من بلاد المَلك الظاهر، كان علىٰ النوّابِ إيصالُ بَيْتِ الاسبتار إلىٰ حَقِّهم

ممـا يجبُ علىٰ الخَارِج من العِدَاد . وكذلك إن دخل الخـارجُ المَذْكورُ إلىٰ بَيْتِ الاسبتار، كان عليهم أن يُوصِّلوا إلىٰ نوّابِ الملِك الظاهِرِ حَقَّهُم مما يَجِبُ على الخارج من العِدَادِ . وكذلك يعتمدُ ذلك فى المَمْلكةِ الحَمَوِيَّة و بلادِ الدَّعوة المحروسة .

وعلىٰ أن التُّجّار والسُّـفّارَ والمتردِّدِينَ من جميع هـذه الجهات المذكورة يكونون آمِنِينَ من الجِهَتينِ : الجِهَةِ الإسلامية ، والجِهَةِ الفرنجية والنَّصرانيَّة، فى البلاد التى وقعتْ هذه الهُدنَةُ عليها ــ علىٰ النُّفوسِ والأموال والدَّوابِّ وما يتعلقُ بهـم، يحميهم السُّلطانُ ونوّابُه ، ويتعاهدُون البلادَ الداخلةَ فى هـذه الهُدْنة المبـاركةِ الواقعِ عليها الصُّلْح وفى بَلَد المناصفات ــ من جَميع المسلمين . ويحميهم بَيْتُ الاسبتار فى بلادهم الواقع عليها الصُّلْح وفى بلد المناصفات ــ من الفَرَنْج والنصارىٰ كافَّة .

وعلى أن يتردّدَ التُّجّارُ والمسافِرُون من جَميـعِ المتردّدين على أىِّ طريقٍ آختاروه من الطُّرق الداخلةِ فى عَقْدِ هذه البلاد الداخِلةِ فى هذه الهُدْنةِ المباركة المختصَّة بالمَلك الظاهِرِ، وبلادِ مُعاهَديه، وبلادِ المناصفات، وخاصِّ بَيْتِ الاسبتار والمناصفات؛ يكونُ الساكِنُون والمتردِّدُون فى الجِهَتينِ آمِنـينَ مُطْمَئِنِّين على النُّفوسِ والأموال ؛ تحمِى كلُّ جِهةٍ الجهةَ الأُخرىٰ .

وعلىٰ أنَّ ما يختص بكلِّ جهةٍ من هـذه الجهات : الإسلامية ، والفرنجية الاسبتارية . لا يكونُ عِدادٌ على ما لَهَـا فى المناصفات : من الدَّوابِّ والغَنَم والبَقَرِ والجِمَالِ وغيرها ، على العادةِ المقرَّرةِ فى ذلك .

وعلى أنَّ إطلاقَ الرُّؤساءِ يكونُ باتفـاقٍ من الجهتين : الإسـلامية ، والفرنجية الأسبتارية . ومتىٰ وقعتْ دعوى على الجهـة الأُخرىٰ، وُقِفَ أمرُها فى الكشف عنهـا أربعين يوماً ، فإن ظهرت أُعِيدتْ علىٰ صاحبها ، وإن لم تظهرْ حَلَفَ ثلاثة

نَفَرٍ ممَّن يختارهم صاحبُ الدَّعوىٰ على ما يعلمونَه فى تلك الدَّعوىٰ، وإن ظهرتْ بعد اليمينِ أعِيدَتْ إلىٰ صاحبها، وإن كان قد تعوَّض عنها أُعِيد العِوَضُ .

وعلىٰ أن يكْشِفُوا عن الأَخيذة بجُهْـدِهم وطَاقَتِهم . ومتىٰ تحققتْ أعِيـدتْ الىٰ صاحِبها ؛ فإن حَلَفوا يبرءون من الدعْوىٰ ، وإن ظهرتْ بعـد اليمين أعيدتْ علىٰ صاحبها ، وإن آمتنع المدَّعىٰ عليـه من اليمين حَلَف المدَّعى، ولا يسـتحق (١) عوض ما عدم من كل شيء مثـله . وكذلك يجرى الأمْرُ فى القَتْل : عِوَضُ الفَارِس فارِسٌ ، وعِوَضُ الرَّاجِلِ راجِلٌ ، وعِوَضُ البَرْكِيلِ بَرْكِيلٌ ، وعِوَضُ التَّاجِر تاجِرٌ ، وعِوَضُ الفَـلَّاح فَلَّاحٌ . وإذا آنقضت الأربعون يومًا المذكورةُ لكَشْفِ الدَّعوىٰ ولم يَحْلِف المدَّعَىٰ عليه للمدَّعِى وجب عليه العِوَضُ حتَّىٰ يردّ، وإن ردّ اليمينَ على المدَّعِي ومَضىٰ علىٰ ذلك عشرةُ أيَّامٍ، ولم يَحْلِف صاحب الدعوىٰ بطلتْ دعواه وحُكْمُهـا ، وإن حلف أخَذَ العِوَض .

ومتىٰ هَرَب من إحْدى الجِهَتينِ إلىٰ الأخْرىٰ أحَدٌ، ومعه مالٌ لغيره أُعِيـدَ جميعُ مامعه، وكان الهـارِبُ مخَيَّرًا بين المُقامِ والعود . وإن هرب عبدٌ وخرج عن دِينِه، أعِيدَ ثَمَنُه ، وإن كان باقِيًا علىٰ دِينِه أعيد .

وعلى أن لا يدخلَ أحدٌ من القاطِنِينَ فى بلَدِ المناصفات : من الفلَّاحِينَ والعَرَب والتركمان وغيرِهم، إلىٰ بلادِ الفَرَنْج والنَّصارىٰ كافَّةً لإغارة ولا أذِيَّةٍ بعِـلْم المَلِك الظاهِر وبلاد مُعاهَدِيه ، [ولا يدخُل أحدٌ] بلاد المسـلمين لإغارةٍ ولا أذِيَّةٍ بعلم بيْتِ الاسبتار ولا رِضاهُم ولا إذْنِهم .

وعلىٰ أَنَّ الدعاوىٰ المتقدّمةَ على هـذا الصُّلْح يحمَلُ أمْرُها على شَرْط المُواصَفةِ التى بين المَلِك الظاهِر وبين مُعاهَدِيه وبين بَيْتِ الاسبتار .

---

(١) كذا فى الأصل، ولعل الصواب «ويستحق» كما هو ظاهر .

وعلىٰ أن هذه الهدنةَ تكونُ ثابتَـةً مُسْتقرّةً، لا تُنْقَضُ بموْت أحدٍ من الجهتين، ولا وَفاةِ مَلِك ولا مُقَدَّمٍ، إلىٰ آخر المدّة المذكورة، وهى: عَشْرُ سنينَ وعشرةُ أشْهرٍ وعشرةُ أيام وعَشْرُ ساعات، أوّلها يوم تاريخه.

وعلى أن نُوَّابَ الملِكِ الظاهر ومعاهديه لا يتركونَ أحدًا من التُّركمان، ولا من العُرْبان، ولا من الأكْرادِ، يدخلُ بلادَ المناصَـفَات بغَيْرِ آتِّفاقٍ من بَيْت الاسبتار أو رِضَاه، إلا أن يكْفُلوه علىٰ نُفُوسهم فى هذه الطوائف المذكورة، ويعلَموا حالَه، لئلَّا تَبْدُوَ منهـم أذِيَّةٌ أو ضَرَرٌ أو فَسادٌ ببلد المناصفات وببلد النصارىٰ. ولنوّاب مولانا السلطان أن تتركهم علىٰ شَرْطِ أنهم يعلَمُ بهم بيْتُ الاسبتار فى غَدِ نزولهم المَكان، إن كان المكانُ قريبا. وإن ظهر منهم فَسَادٌ كان النوّابُ يجاوبون بَيْت الاسبتار.

وعلىٰ أن المهادنةَ بحُدُودِها يكونُ الحكمُ فيها كما فى المناصفات، والحدُودُ فى هذه البلاد جميعِها تكونُ علىٰ ما تَشْهدُ به نسخ الهُـدَنِ، وما آستقرَّ الحـالُ عليه إلىٰ آخرِ وَقْت.

وعلىٰ أن تخلَّىٰ أمورُ المَملكَةِ الحِمْصِيَّة علىٰ ما كان مستقرًّا فى الأيام الأشْرفِيَّـة، علىٰ ما قرّره الأمير عَلَمُ الدِّين «سنجر».

هذا ما وقع الآتِّفاقُ والتَّراضِى عليـه من الجهتين. وبذلك جَرَى القلمُ الشريفُ السلطانىُّ المَلَكىُّ الظاهِرِىُّ: حجَّـةً بمقتضاه، وتأكِيدًا لمـا شُرِحَ أعلاه. كُتِب فى تاريخ كذا وكذا.

وهذه نُسْخةُ هُدْنَةٍ من هذا النَّمَط، عُقِدتْ بين السلطان المَلك الظاهر «بيبرس» أيضا، وبين مَلِكةِ بيروت من البلاد الشامية، فى شُهُور سنة سبع وستين وستمـائة حين كانت بيدها، وهى:

آستقرّت الهُدْنة المباركةُ بين السُّلطانِ الملِكِ الظاهِرِ رُكْنِ الدين «بيبرس» وبين المَلِـكَة الجليلة المَصُونة الفاخرةِ، فُلانة آبنـة فلان، مالِكَةِ بيروتَ وجميع جبالهـا وبلادها التَّحْتية مدّةَ عَشْرِ سنين متوالية؛ أوّلُهـا يومُ الخميس سادِسُ رمضانَ سـنة سـبع وستين وستمائة الموافِقِ لتاسع إيار سـنة ألفٍ وخمسمائة وثمـانين يونانيـة ـ علىٰ بيروتَ وأعمالِها المضافة إليهـا، الجارى عادَتُهم فى التَّصرُّف فيها فى أيام المَلِكِ العَادِل، أبى بَكْرِ بنِ أيُّوبَ، وأيامِ ولَدِه الملكِ المعظَّم عِيسَى، وأيَّامِ المِلكِ النـاصِرِ صلاحِ الدِّين يُوسفَ بن الملك العَزِيزِ. والقاعدةِ المسـتقرّة فى زمَنِهم إلىٰ آخر الأيام الظاهرية، بمقتضى الهُدْنَةِ الظاهِريَّة. وذلك مدينةُ بيروتَ وأماكِنُها المضافةُ إليها: من حدّ جُبَيْلٍ إلىٰ حدّ صَيْدا، وهى المواضع الآتى ذِكْرُها: جُونيَة بحدودها، والعذب بحدودها، والعصفورية بحدودها، والراووق بحدودها، وسِنّ الفيل بحدودها، والرح والشويف بحدودها، وانطلياس بحدودها، والحديدة بحدودها، وحسوس بحدودها، والبشرية بحدودها، والدكوانة وبرج قراجار بحدودها، وقرينة بحدودها، والنصرانية بحـدودها، وجلدا بحدودها، والناعمة بحدودها، ورأس الفيقه، والوَطاءُ المعروف بمدينة بيروتَ، وجميعُ ما فى هـذه الأماكِنِ من الرَّعايا والتُّجَّار، ومن سائر أصناف الناس أجمعين، والصَّادرين منها والواردين إليها من جميع أجْناسِ النَّاس، والمتردّدين إلىٰ بلاد السلطان فلانٍ، وهى: الحميرةُ وأعمالُها وقِلاعُها وبلادُها وكلُّ ماهو مختصٌّ بها، والمَمْلكة الأَنْطاكِية وقِلاعُها وبلادُها، وجَبَلةُ واللَّاذِقيةّ وقِلاعُها وبِلادُها، وحِمْصُ المحروسةُ وقِلاعُها وبِلادُها وما هو مختصٌّ بها، ومملكةُ حِصْنِ عَكَّا وما هو مَنْسُوبٌ إليه، والمملكةُ الحَمَوِيَّة وقِلاعُها وبِلادُها وما هو مختصٌّ بها، والمملكة الرَّحَبِيَّة وما هو مختصٌّ بها: من قلاعِها وبِلادها، والمملكةُ البَعْلَبَكِّيَّة وما هو مختصٌّ بها: من قلاعها وبِلادها، والمملكةُ الدِّمَشْقِيَّةُ وما هو مختصٌّ بهـا: من قِلاعِهـا وبِلادها ورعاياها

ومَمالِكِها، والمملكة الشَّقِيفِيَّة وما يختصُّ بها من قِلاعِها وبِلادِها ورعاياها، والمملكةُ القُدْسِيَّة وما يختص بها، والمملكةُ الحَلَبِيَّة وما يختصُّ بها، والمملكةُ الكَرَكِيَّةُ والشَّوْبَكِيَّة وما يختص بها من القِلَاعِ والبلادِ والرَّعايا، والمملكةُ النَّابُلُسِيَّةُ، والمملكةُ الصَّرْخَدِيَّةُ، ومملكةُ الدِّيار المِصْرِيَّة جميعها : بثُغُورها، وحُصُونِها، ومَمَالِكِها، وبلادِها، وسَواحِلِها، وبَرِّها، وبَحْرِها، ورعاياها، وما يختصُّ بها، والسَّاكنين فى جميع هذه الممالك : المذكورة وما لم يذكر من ممالك السُّلْطانِ وبلادِه، وما سيفتحُه اللهُ تعالىٰ علىٰ يَدِه ويَدِ نُوّابِه وغِلْمانِه يكونُ داخلًا فى هذه الهُدْنة المباركة، ومُنْتَظِمًا فى جُمْلة شروطِها، ويكونُ جميعُ المتردّدين من هذه البلاد وإليها آمنينَ مُطْمئِنّين علىٰ نُفُوسِهِم وأموالِهِم وبضائِعهم، من المَلِكة فلانةَ وغِلمانِها، وجميعِ من هو فى حُكْمِها وطاعتِها : بَرًّا وبحرًا، ليلًا ونهارًا، ومن مَراكِبِها وشوانيها . وكذلك رعيَّةُ المَلِكَة فلانةَ وغِلْمانُها يكونون آمنين علىٰ أنْفُسِهم وأمْوالِهم وبضائعهم من السُّلطانِ ومن جميع نُوّابِه وغِلْمانِه ومَن هو تحت حُكْمِه وطاعَتِه : بَرًّا وبحرًا، ليلًا ونهارًا : فى جَبَلَة، واللَّاذِقِيَّة، وجميعِ بلادِ السلطان، ومن مَراكِبِه وشَوانيه .

وعلىٰ أن لا يُجَدَّدَ علىٰ أحَدٍ من التُّجَّارِ المتردّدين رَسْمٌ لم تَجْرِ به عادةٌ، بل يُجْرَوْنَ على العوائد المُسْتَمِرَّة، والقواعد المُسْتَقِرَّة من الجِهَتَيْنِ . وإن عُدِم لأحَدٍ من الجانبين مالٌ، أو أخذَتْ أخِيذَةٌ، وصحتْ فى الجِهَة الأخْرىٰ رُدّتْ إن كانت موجودةً، أو قِيمَتُها إن كانتْ مفقودةً . وإن خَفِى أمْرُها كانت المدّةُ للكَشْفِ أربعين يومًا، فإن وُجدتْ رُدّت، وإن لم توجدْ حَلَّف وَالِى تِلْك الولايةِ المدّعىٰ عليه، وحَلَّف ثلاثة نَفَرٍ ممَّن يختارُهم المُدّعِى، وبَرِئَتْ جهتُه من تلك الدَّعْوىٰ . فإن أبىٰ المدّعىٰ عليه عن اليمينِ حَلَّف الوَالِى المُدّعِىَ، وأخذ ما يدَّعِيه . وإن قُتِلَ أحدٌ من الجانبين خطأً كان أو عَمْدًا، كان على القاتِلِ فى جهته العِوَضُ عنه نَظِيره : فارِسٌ بفارِسٍ،

وبَرْكِيلٌ ببَرْكِيلٍ ، وراجِلٌ براجِلٍ ، وفَلَّاحٌ بفَلَّاحٍ . وإن هرب أحدٌ من الجانبين إلى الجانِب الآخر بمال لغيره، ردّ من الجهتين هو والمالُ، ولا يُعتَذَرُ بعُذْرٍ .

وعلىٰ أنه إن تاجر فرنجى صَدَر من بيروتَ إلىٰ بلاد السُّلطان يكونُ داخلًا فى هذه الهُدْنة، وإن عاد إلىٰ غيرها لا يكون داخِلًا فى هذه الهُدْنَة .

وعلىٰ أنَّ المَلِكَة فلانةَ لا تُمَكِّنُ أحدًا من الفرنج على آختلافهم من قَصْدِ بلاد السُّلطانِ من جهة بيروتَ وبلادِها ؛ وتمنعُ من ذلك وتدفَعُ كلَّ متطرِّقٍ بسُوءٍ ، وتكونُ البلادُ من الجهتينِ محفُوظةً من المتَجَرِّمين المُفسِدين .

وبذلك آنعقدت الهُدْنة للسلطان ، وتقرَّرَ العملُ بهذِه الهُدْنةِ والآلتزامُ بعُهُودها والوفاءُ بها إلىٰ آخر مُدَّتها من الجهتين : لا ينقُضُها مُرُورُ زمانٍ، ولا يُغَيِّر شروطَها حِينٌ ولا أوَان ؛ ولا تُنتَقَضُ بموْتِ أحدٍ من الجانبين . وعند آنقضاءِ الهُدْنة تكون التُّجَّار آمنين من الجهتين مدّةَ أربعين يوما ، ولا يُمنَعُ أحدٌ منهم من العَوْدِ إلىٰ مستقره ، وبذلك شَمِلَ هذه الهُدْنةَ المباركةَ الخطُّ الشريفُ حُجَّةً فيها، والله الموَفِّقُ، فى تاريخ كذا وكذا .

وهذه نُسخةُ هُدْنةٍ عُقِدتْ بين السلطان المَلِكِ الظاهر «بيبرس» وولده المَلِكِ السَّعِيد، وبين الفرنج الاسبتارية، علىٰ قَلْعةِ لُدٍّ بالشام، فى سنة تسع وستين وستمائة، وهى :

آستقرّتْ الهدنةُ المباركةُ بين السُّلطانِ المَلِك الظَّاهِر رُكْن الدِّين «بيبَرْس الصَّالحِيّ» قَسِيم أمير المؤمنين ووَلَدِه المَلِكِ السَّعِيد ناصر الدِّين «محمد بَرَكه خاقان» خليل أمير المؤمنين ؛ وبين المُباشِر المقدَّمِ الجَليل افريز أولدكال مقدّمِ جَميع بَيْتِ آسبتار سرجوان بالبلاد السَّاحِلية ، وبين جميع الإخْوَة الاسبتارية ، لمدّة عَشْر سنين

كوامِلَ مُتواليات مُتَتابعاتٍ، وعَشَرة أشْهُرٍ، أوّلُهـا مُسْتهَلُّ رمضانَ سنةَ تسع وستين وستمائةٍ للهِجْرةِ النبوِيَّة المحمَّدِيَّة، الموافِق للثامن عَشَر من نَيْسانَ سنةَ ألْفٍ وخمسمائةٍ وآثنتين وثمـانين للإسْكَنْدَرِ بن فيلبس اليُونانِيّ ــ علىٰ أن تكونَ قَلْعـةُ لُدٍّ بكمالهـا ورَبَضِها وأعمالِها، وما هو مَنْسوبٌ إليها ومحسُوبٌ منها، بحُدُودِها المعروفةِ بها من تَمادُم الزمان، وما آستقرّ لهـا الآن، وما يتعلَّقُ بذلك: من المواضع، والمَصايِدِ، والمَلّاحات، والبَساتينِ، والمَعـاصِرِ، والطَّواحِين، والجزائر: سَهْلِهـا وجَبَلِها، وعامِرِها، ودَاثِرِها، وما يَجرِى بها من أنْهارٍ، ويَنْبُعُ بها من عُيُون، وما هو مَبْنِيٌّ بها من عمائر، وما آستجدّ بها من القَراح وغيرِ ذلك؛ وكلُّ ما عُمِّر فى أراضِى المُناصَفات علىٰ دُورِها وأنهارها، وما بحدود ذلك من نَهْر بدرة إلىٰ جِهَة الشَّمال، وما آسـتقرّ لبَلْدَة من هـذه الجهات إلىٰ آخر الأيام النَّاصِريَّة من الحدود المعروفة بها والمُسْتقِرَّة لهـا، وحِصْن برغين وما يُنْسَبُ إلىٰ ذلك من البلاد والضِّـياع والقُرَى التى كانت مُناصَـفَةً ــ تكونُ جميعُ بَلدة وهـذه الجهات خاصا إلىٰ آخر الزائد للمَلِك الظّـاهِر، ولا يكون لبَيْت الآسبتار ولا للرقب فيها حقٌّ ولا طَلَبٌ بوجْهٍ ولا سَبَبٍ إلىٰ حين آنقضاء مُدَّة الهُدْنَة وما بعدها إلىٰ آخر الزائد، ولا لأحدٍ من جميع الفرنجة فيها تعلُّقٌ ولا طَلَبٌ بوجْهٍ ولا سبب .

وكذلك مهما كان مُناصَـفةً، كتَمْلعةِ العليقـة فى بلادها لبَيْتِ الاسبتار، يكون ذلك جميعُـه للدِّيوان المَعْمور والخـاصِّ الشريف، ولا يكون للرقَبِ فيهـا شيءٌ ولا لبَيْت الآسبتار .

وكذلك كلُّ ما هو فى بلاد الدَّعوة المُباركَة جميعها وقِلَاعِها من القرىٰ ــ لا تكون فيها مُناصَفةٌ لبيت الاسبتار ولا للرقَب، ولا حقٌّ، ولا رَسْمٌ، ولا شرطٌ، ولا طلبٌ

فى جميع بلادِ الدَّعْوة : مِصْـيافِ المحروسة ، والكَهْف ، والمنيقـة ، والقُدْمُوس ، والخَوابِى ، والرُّصافَة ، والعليقة . وكلُّ ما هو فى هذه القِلاع وفى بلادها من مُناصَفَة ، يكون ذلك خاصًّا للملك الظـاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجة فيـه حَديثٌ ولا طَلَبٌ .

وعلىٰ أن تكونَ بلادُ المَرْقَب وحُدُودُها من نَهْر لُدٍّ مُقَبَّلًا ومُغَرَّباً إلىٰ حدود بلاد مَرْقَبـة المعروفةِ بها ، الدَّاخل جَميعُها فى الفُتُوح الشريف ، وٱسْـتِقْرارها بحُكْم ذلك فى الخاصِّ المباركِ الشَّريف ، وحَدّ البُيوتِ المحاذيةِ لسُور الرَّبَض ، تسـتقرُّ جميعُها مناصفةً بين السُّلطانِ و بين بَيْتِ الأسبتار نِصْفين بالسَّوِيَّة ، وما فى جميع هذه البلاد : من بَسَاتين ، وطواحِينَ ، وعمائرَ ، ومَصايدَ ، وملَّاحات ، ووُجُوهِ العَيْن ، والمُسْتَغَلَّات الصَّيْفيّة والشَّتْوية ، والقَطَانِى ، والحُقوقِ المستخرجة ، وما هو مَزْروعٌ من الفدن لأهْـل الرَّبَضِ وبَيادِرها : يكونُ ذلك مُناصَـفَةً بين السلطان و بين بَيْتِ الأسبتار سرجوان بالسَّوِيَّة نِصْفَين .

وما هو دَاخل الرَّبَض وداخل المَرْقَب ، فإنه مُطْلَقٌ من المَلِك الظاهرِ للمقَـدَّمِ الكبير افريز أولد كال مقـدّمِ بَيْتِ الأسبتار سرجوان وخَيَّالَتِه ، ورِجَالِه وحَمَّـالَتِه ورَجَّالَتِـه ورَعِيَّتِه ، برَسْمِ إقامتهم وسُكْناهُم من داخل الأسوار ، وعن سُورِ الرَّبَض المحـاذيةِ للسُّورِ تكونُ مناصَـفَةً جميعُها ، بمـا فيـه من حقوق طُرُقات وأحْكَار ، ومَراعِى المَواشِى على ٱخْتلافِ أصْوافِها وأوْبارها ، وجميع السخريات ، وكلّ أَرْضٍ مَزْروعةٍ أو غَيْرِ مزروعةٍ مهما أُخِذَ منه من حَقٍّ أو عِدادٍ يكونُ مُناصَفَةً .

وكلُّ ما هو من المَوَانِى والمَرَاسِى البَحْرِيَّة المعروفةِ جميعِها بحِصْنِ المَرْقَب : من مِينَا بَلْدة إلىٰ مينا القَنْطرة المُجاوِرَةِ لحـدود مَرْقَبَة ـ تكونُ هى وما يتحصَّلُ منها من

الحقوقِ المُسْتخْرجَةِ من الصادرين والواردين والتُّجَّار، وما ينعَقِدُ عليه ٱرتفاعُها، وتَشْهَدُ به الحُسْبانات ـ جميعُه مُناصَفةً. وما يدخُلُ فى ذلك من أجناس البَضائع على ٱختلافها يؤخذُ الحقُّ [منه] مُناصَفَةً على العادةِ الجاريةِ من غير تغيير لقاعدَةٍ من حينِ أخْذِ بيتِ الآسبتار المَرْقَب إلىٰ تاريخ هـٰذه الهُدْنةِ المباركةِ مُناصَفَة على العادة الجارية، بل تَجْرِى التُّجَّارُ فى الحقوق علىٰ عادتهم فى البضائع التى يُحْضِرونها والمَتْجَر كائنا من كان.

يعتمدُ ذلك فى كلِّ ما يَصِلُ للمتردِّدِينَ والمقيمين بالقَلْعةِ والرَّبَض: من عامَّةٍ وغير عامَّة، وخَيَّالةٍ وغير خَيَّالة، على ٱختلاف أجناسهم، خَلَا ما يَصِلُ للإخْوَةِ ولِغلْمانهم المعروفين بالإخْوَةِ الآسبتارية من الحُبُوب والمَئُونة والكُسْوةِ والخَيْلِ التى هى بِرَسْم رُكُوبِهم خاصَّةً، لا يكونُ عليها حقٌّ، بشَرْطِ أنه لا يكون فيها للتُّجَّار شىءٌ من ذلك، وماخلا ذلك جميعه يُؤْخذُ الحقُّ منه مناصفةً علىٰ ما شَرَحْناه.

وعلىٰ أنه لا يَحْمِى أحدٌ من الإخْوةِ الخَيَّالة، والوُزَراءِ، والكُتَّاب، والنُّوَّاب، والمستخدمين شيئًا علىٰ ٱسم بَيْتِ الآسبتار، ليستطلقَ الحقّ ويمنَعَ من ٱستيدائه، ولو أنَّه أقْربُ أخٍ إلى المُقَدَّم أو وَلَدُ المقدَّم. إذا ظَهَر منه خلافُ ما وقع عليه الشَّرْط، أُخِذَ جميعُ مالِه مُسْتَهلَكًا للجهتَين: للدِّيوانِ السُّلْطانىّ المعمور، ولبَيْت الآسبتار، إن كان خارجًا من البَحْرِ أو نازلًا إلى البَحْرِ، صادرًا وواردًا، وكذلك فى البَرِّ صادرًا وواردًا بعد المُحاققَة علىٰ ذلك وصِحَّته.

وعلىٰ أنَّ نُوّابَ المُباشِرِ المقدَّمِ الكبيرِ لبَيْت الآسبتار، ووُلاتَه وكُتَّابَه ومُسْتَخْدميه وغِلمانَه، يكونونَ آمِنِينَ مُطمَئِنِّينَ علىٰ نفوسِهم وأموالِهم وجميع ما يتعلَّقُ بهم. وكذلك غلْمانُنا وولاتُنا ونُوّابُنا ومُسْتَخْدَمُونا وكُتَّابُنا ورعايا بِلادِنا يكونون آمِنِينَ

مُطمَئِنِّين علىٰ نفوسهم وأموالهم ، مُتَّفِقِينَ علىٰ مصالح البـلاد وأخْذِ الحُقُوق ، وسائر المُقاسَمات والطُّرقاتِ والبَساتِين والطَّواحِين ، والحُقُوق المقرَّرَة على الفدن على ٱخْتِلاف أجْناسها . وكذلك الرَّآسة وٱستخراجُ وُجوهِ العينِ ، والحُبُوبِ ، والتصاريفُ الجارى بها العادة المقرَّرَة على الفدن ، من جميع ما يتعلَّقُ بها .

وعلى أن جميعَ الضمانات يكونُ نُوّابُ الساطانِ ونُوّابُ بَيْتِ الأسبتار مُتَّفِقينَ جُملةً علىٰ ذلك ، لا ينفردُ أحَدٌ منهـم بشَىْءٍ إلا بٱتفـاقٍ وتَنْزِيلٍ فى دفاتر الديوان المَعْمور وديوانِ بَيْتِ الأسبتار ، ولا يُطْلَقُ ولا يُحْبَسُ إلا بٱتِّفاقٍ من الجهتـين ، ولا ينفَرِدُ واحدٌ دون آخَر .

وعلىٰ أنَّ أىَّ مُسْـلِمٍ تصدُرُ منـه أذِيَّةٌ يحكُمُ فيه بمـا يَقْتضِـيه الشرعُ الشريفُ فى تأْدِيبه ، يعتمدُ ذلك فيه نَائِبُنا : من شَنْقٍ يجبُ عليـه ، أو قَطْعٍ . أو أُدِّبَ بحُكْمِ الشَّرْع الشريف : من شَنْقٍ ، وقَطْعٍ ، وكَحْلِ أعْيُنٍ ، بحيثُ لا يُعْمَلُ ذلك إلا بحضورِ نائبٍ من جِهَةِ بَيْتِ الأسبتار ، حاضِرٍ يُعايِنُ ذلك بعَيْنِه ، ويكونُ قد عَرَقَ الذَّنْبَ وتَحقَّقَه . وإن كانـ ذَنْبُه يستوجِبُ جنايةً أو غَرامَةَ دراهِمَ أو ذَهَبٍ أو مَوَاشٍ أو غيرِ ذلك على ٱختِلاف أجْناسِـه ، يكونُ ما يُستأدَىٰ مُناصَـفَةً للدِّيوان المَعْمُور ولِبَيْتِ الأسبتار وصاحِبِ المَرْقَب . فإن كان فيها[(١)] قمَـاشٌ وبَضائِـعُ على ٱختلاف أجْناسِه ، وصاحبُه مُسْلِمٌ ، يأخذُ بضاعتَه من غير ٱعْتراضٍ من الجِهَتَينِ بعد أداءِ الحقِّ للدِّيوان المعمورِ ولبَيْت الأسبتار . وإن لم يُعْرَفْ صاحِبُ البضاعة وكانَتْ لمُسْلِمٍ ، أعيدتْ للخِزَانة السُّلْطانية ولا يكونُ لبَيْتِ الأسبتار فيها تَعلُّقٌ . وإن كان صاحِبُ البضاعة نَصْرانياً على ٱختلاف أجنـاس النَّصارىٰ ، تُؤْخذُ بِضاعَتُه من غير ٱعتراضٍ من جهتِنا ، بعد أداءِ الحَقِّ . وإن لم يُعْرفْ صاحِبُ البضاعة ، وكانتْ لنَصْرانِىٍّ ،

(١) لعله سقط هنا شىء يعود عليه الضمير .

تبقىٰ تحت يد بَيْتِ الأسبتار ، خلا من كان من بلاد مملكة السُّلْطان على آختلاف دِينه : إن كان نَصْرانيًّا أو ذِمِّيًّا ، على آختلاف جِنْسِ دِينه ، ليس لبَيْت الأسبتار عليهم آعتراضٌ ، ويحملُ ذلك جميعُه على آختلاف أجْناسِ البضائع للدِّيوان المَعْمُور .

وعلىٰ أنه متى آنْكسر مَرْكَبٌ ، وظهر إلىٰ برّ المَوانى بِضَاعةٌ ، وقصد صاحِبه شَيْلَه إلىٰ جِهَةٍ يختارها فى البَرّ والبَحْر ، ولا يُبْتَعُ ، فيؤخَذُ الحقُّ منه : إن باع يؤخَذُ الحقُّ ، وإن حَمَل يؤخَذُ الحقُّ ، ويكونُ الحقُّ للجهتين : وهو الحقُّ المعروفُ الجارِى به العادة .

وعلىٰ أن التُّجَّارَ السَّفَّارة والمتردّدِينَ بالبضائع من بلاد المُسْلمين والنَّصارىٰ متىٰ ما خرجُوا من المَوَانِى المحدودة أعْلاه يتوجّهونَ بخفَارَةِ الجهتين من غير حقٍّ : لا يُتناوَلُ من الخفَارةِ شىءٌ مَنْسوبٌ إلىٰ نفوسهم إلىٰ أن يُخرجَهم ويُحضِرَهم إلىٰ برّ حُدُودِ المَرْقب آمِنِينَ مُطمئِنِّين تحت حِفْظ الجهتين . ومتىٰ وصلَ التُّجَّار من مملكة السُّلطانِ إلىٰ بلاد المَرْقبِ ومواني‍ها ، فالتَّرْتيبُ على الخفَارةِ من الجهتين ، مع تدَرُّك الرُّؤساء الحِفْظَ للطرقات صادرًا ووارِدًا ، بحيثُ إنَّهم يحضرون إلىٰ بلاد المَرْقبِ ، وإلى الموانى بالمَرْقَبِ المحدودةِ أعْلاه ، طيِّبِينَ آمِنِينَ علىٰ أرواحهم وأموالهم بالخفارة من الجهتين ، علىٰ ما شَرحناه .

وعلىٰ أنَّ غلمان المباشِرِ المقدَّمِ لبَيْت الأسبتار والإخْوة والخيَّالة والرَّعيَّة المقيمين بقَلْعة المَرْقب والرَّبَض ، يكونون آمنينَ مُطْمئِنِّين على أَنْفسِهم وأموالهم ومن يَلُوذ بهم ويتعلَّق ، فى حال صُدُورهم ووُرُودِهم إلىٰ بلادنا الجارية فى ممَالكتنا فى البرِّ منَّا ومن نُوَّابِنا بالمملكة والبلادِ الجارية فى حكْمِنا ، ومن وَلَدِنا المَلِك السَّعيد ، ومن أُمَرائنا وعَساكرنا المنصورة . وإن قُتِلَ قتيلٌ أو أُخذَتْ أَخيذَةٌ فى حدود المناصف ببلاد

المَرْقب ، فيقعُ الكَشْفُ عن ذلك عِشرين يومًا : فإن وُجِد فاعِلُ ذلك ، يؤخَذُ الفاعِلُ بذَنْبِه . وإن لم يظهَرْ فاعِلُ ذلك مدّةَ عشرين يومًا فيُمْسِكُ رُؤَساءُ مكانِ قَطْعِ الطَّرِيقِ وأَخْذِ الأَخِيذَةِ ، وقَتْلِ القَتيلِ ، إن كان أخْذٌ وقَتْلٌ - مكانَ من قَتَلَ القَتيلَ أو أَخَذَ الأَخيذَةَ - أقْربَ القُرباءِ إلى الذى قَطَع عليه الطريقَ أو قَتَل قَتيلًا . فإن خَفِىَ الفاعِلُ لذلك ، وعُجِزَ عن إحضاره بعد عشرين يومًا ، يُلزِمُ أهْلُ نُوَّابِ الجهتين من القُرباءِ الأقربَ لذلك المكان بألْفِ دينارٍ صُورِيَّة : للدِّيوان السلطانىّ النِّصْفُ ، ولِنَقيبِ الآسبتار النِّصفُ ، ولا تتكاسل الولاةُ فى طَلَبِ ذلك ، ويكونُ طَلَبُه يدًا واحدةً ، ولا يختص الواحِدُ دون الآخَر . ولا يحابى أحد منهم لأخْذِ الفَلَّاح فى هذا أو غيرِه فى مَصْلحةِ عِمارَة البلاد ، وآسْتخراجِ الحُقُوق ، ومُقاسَمةِ الغِلال ، وطَلَبِ المُفْسدين ليلًا ونَهارا .

وعلىٰ أن لا تتغيَّرَ الهُدنةُ المُبارَكَةُ بأمْرٍ من الأمور ، لا من جِهتِنا ولا من جِهَةِ ولدِنا المَلِك السَّعيد ، إلى آنقضاء مُدَّتِها المعيَّنة أعْلاه وفروغِها . ولا تتغيَّر بتَغَيُّر المقدَّمِ المُباشِر لبَيْت الآسبتار الحاكم على المرقَب وغيره . وإذا جَرَتْ قَضِيَّةٌ فى أمْرٍ من الأمور يعرِفُهم نُوَّابُنا ، ويحقَّقُ الكَشْفُ إلى مدَّةِ أربعين يومًا ؛ فمن يكون للبداية يخرج منها على من سبب(؟) ويكونُ قد عَرَف دَيْنَه الذى بدا من جِهَةِ كلِّ واحِدٍ . وإذا تغيَّرَ النوّابُ بالمَرْقَبِ وحضَر نائِبٌ مُسْتَجِدٌّ يعتَمِدُ ما تضَمَّنَتْه هذه الهُدْنةُ ، ولا يخرج عن هذه المُواصَفَةِ . وإذا تَسَحَّبَ من المسلمين أحدٌ على آختلاف أجْناسِه ، إن كان مَمْلُوكًا أو غيرَ مَمْلوكٍ ، أو مَعْتوقًا أو غيرَ مَعْتُوقٍ ، أو كائنًا مَن كان من المسلمين على آختلاف مَنازِلهم ، وإن كان غُلامًا أو غيرَ غُلامٍ - يرَدُّ بجميع ما يُوجَدُ معه ، إن كان قليلًا أو كثيرًا يرَدّ . ولو أنَّ المتَسَحِّبَ دخَلَ الكَنيسةَ وجلس فيها يُمْسَكُ بيَده ويخرجُ ويسَلَّمُ لنوّابِنا بجميع ما مَعَه ، وإن كان خَيْلًا أو قماشًا أو دَراهِمَ أو ذَهَبًا

وما يتعامل الناسُ به، يسلِّمُ بما معه إلى نوابنا على ماشَرَحْناه. وكذلك إذا تسحَّبَ أحدٌ من جهتهم من الفرنج أو النَّصارى إلى أبوابنا الشريفة، أو وَصَلَ إلى جهة نُوّابنا يُمْسكُ ويسلَّم بما يحضُر معه: من الخَيْلِ والأقْمِشَةِ والعدَّة وجميع مايَصِلُ إن كان قليلًا أو كثيرا، يُمسكه نُوَّابُنا ويُسلِّمون ذلك بما معه لنائِب المقدَّمِ الماستر المُقِيم بالمَرْقب، وأخَذُوا الخطوط بذلك بتَسْليمه بما حَضَر معه.

وعلى أنهم لا يكونُ لهم حديثٌ مع قَلْعَةِ العليقة، ولا الرَّعِيَّة الذين فيها، ولا مع نُوّابِ آبن الرديني المقيمين فيها: لا بكِتَابٍ، ولا بمشَافَهَةٍ، ولا برسَالَةٍ، ولا بقَوْلٍ، ولا يَطْلُع أحَدٌ من جهتهم إليهم؛ ولا يمَكِّنُ أحَدٌ من الحضور إليهم، [والوصول] إلى جهتهم من القَلْعةِ المذكورة؛ ولا تُسَيَّرُ إليهم مَئُونَةٌ ولا تجارة ولا جَلَب على آختلاف أجناسه، ولا تكونُ بينهم معاملة. وإن حَضرأحَدٌ من جِهَةِ قَلْعة العليقة إليهم يُمسكُون ويُسلِّمون لنوّابنا ويأخذوا بذلك خُطُوطَهم.

وعلى أنهم لايجدّدون عِمَارةَ قَلْعةٍ، ولا في القَلْعةِ عِمارةً، ولا في البدنة ولا في أبْراجها؛ ولا [يعتمدون] إصلاح شَيْءٍ منها إلا إذا عاينه نُوابُنا أو أبصروا أنه يحتاج إلى الضَّرورة في ترميمٍ يُرمِّمونَه بعد أن يُعايِنَه نُوَّابُنا من هذا التاريخ؛ ولا يجدِّدُون عِمَارةً في رَبَضها، ولا في سُورها، ولا في أبْراجها، ولا يجدِّدُون حَفْرَ خَنْدقٍ، وعِمارةَ خَنْدقٍ، أو تُجَدِّدُ بنايةُ خَنْدقٍ أو قَطْعُ جَبَلٍ، أو تُحَصَّنُ عِمارة، أو تُحَصَّن بقَطْع جبل، منسوبًا لتَحْصين يَمْنَعُ أو يَدْفَع. ولم نأذنْ لهم بسوَى البناية [على] أثَرِ الدُّور التي أحْرِقَتْ عند دُخولِ العَساكر صُحْبةَ المَلِك السَّعيد. وقد أذنا لهم في عمارة باطن الرَّبَض على أثر الأساس القَديم.

وعلى أنَّ صِهْيَوْنَ وأعمالَها، وبرومه(؟) وأعْمالَها، والقليعةَ وأعْمالَها، وعَيْدُوبَ وأعمالَها، الجارية تحت نَظَرِ الأمير سَيْفِ الدِّينِ محمد بن عثمان صاحب صِهْيونَ ـ

يجرى حُكم هذه البلاد المختصة به حُكم بلادنا فى المُهادَنة، بحُكم أنَّ بلادَه المذكورةَ جَارِيةٌ فى ممالِكنا الشَّريفة .

وعلىٰ أنه لا يُمَكِّنُ بَيْتُ الأسبتار من دُخُول رِجْلٍ غَرِيبَةٍ فى البَرِّ ولا فى البَحْرِ إلىٰ بلادنا، بأذيَّةٍ ولا ضَررٍ يعودُ على الدَّوْلة ، وعلىٰ بِلادِنا وحُصُوننا ورَعِيَّتِنا ، إلا أن يكونوا يَدًا غالِبةً ، صُحْبةَ مَلِكٍ مُتَوَّج .

وعلىٰ أنَّ البُرْجَ الداخِلَ فى المُناصَفَةِ، وهو بُرْج مُعاوِيةَ الذى عند المحاصَّةِ الداخلةِ فى مَناصِفِ المَرْقَبِ الآنَ ، يُخرَّبُ ما يَخُصُّنا منه، وهو النِّصفُ من البُرْجِ المذكورِ أعْلاه . وأن الجِسْرَ المعروفَ بجسْر بَلْدة لم يكنْ لبيْتِ الأسبتار فيه شىءٌ من البَرَّيْن، وأنه خالِصٌ للديوان المعمور دُونَ بَيْتِ الأسبتار . وأن الدَّارَ المستجدَّةَ عمارتُها بقَلْعةِ المَرْقَب برسْم الماستر المقدَّمِ الكَبِير، الذى هو عايز تكميل عِمارةِ سَقْفِ القَبْوِ بالحجارة والكِلْسِ، لا تَكَمَّلُ عِمارتُها، ويبقىٰ علىٰ حاله، وهو فى وَسَطِ القَلْعةِ الظاهر منه قليلٌ إلىٰ البرّ الشَّرْقى وهو المذكورُ أعلاه .

وعلىٰ أن نُوّابَ الأسْبتارِ بالمَرْقَبِ لا يُخْفُون شيئًا من مُقاسمات البِلادِ ولا شيئًا من حُقُوقها الجارِى بها العادةُ أن بَيْت الأسبتار يَسْتخْرِجُونه ولا يُخْفون منه شيئًا، وكلُّ ما كان يستأْدىٰ من البلاد فى أَيْدى الأسبتار قبلَ هذه الهُدْنَة يُطْلِعُون نوّابنَا عليه ولا يُخْفُون منه شيئًا قليلًا ولا كثيرًا من ذلك .

وعلىٰ أنَّ السلطانَ يأمُر نُوَّابَه بحِفْظ مُناصَفات بلادِ المَرْقَبِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنة، من المُفْسِدين والمتَلَصِّصِينَ والحرامِيَّة ممن هو فى حُكْمِه وطاعَتِه . وكذلك الماستر المقدَّم افريز أولدكال يلزمُ ذلك من الجِهَةِ الأُخْرىٰ . ومتىٰ وقَع ـ والعياذُ باللهِ ـ فَسْخٌ بسبَبٍ من الأسْبابِ ، كان التُّجَّارُ والسُّفَّار آمِنِينَ من الجهتين إلىٰ

أن يَعُودوا بأمْوالِهم ، ولا يُمْنعونَ من السَّـفر إلىٰ أما كِنِهم من الجهتين ، وتكونُ النهايةُ لهم أربعين يومًا . وتكونُ هـذه الهُدْنَةُ منعقدةً بشروطها المذكورة ، مُسْتَقَرَّةً بقواعِدِها المسطورة للمُدّةِ المعَيَّنة ، وهى : عَشْر سـنين وعشرةُ أشْهُرٍ كوامِلَ ، أوّلُهـا مُسْتَهَلُّ رمضانَ سـنة تسع وستِّين وستمائة إلىٰ آخرِها ، متتابعةً متواليـةً ، لا تفسخُ بموْتِ أحدٍ من الجهتين ، ولا بِعزْلِ وَالٍ وقيامِ غيره مَوْضِعَه ، ولا زَوالِ رجُلٍ غَريبةٍ ، ولا حُضُورِ يَدٍ غَالِبَةٍ ؛ بل يلزمُ كُلًّا من الجهَتَينِ حِفْظُها إلىٰ آخرِها ؛ ومن تَولَّى بعـد الآخَرِ حَفِظَها إلىٰ آخرها ، بالشُّروط المشروطةِ فيها أوّلًا وآخرًا . والخطُّ أعلاه ، حُجَّةٌ بمقتَضاه ، إن شاء الله تعالىٰ . فى تاريخ كذا وكذا .

وهـذه نُسْخةُ هُدْنةٍ عُقِدتْ بين السـلطان المَلِكِ المنصور « قَلَاوُون » الصالحىّ صاحبِ الدِّيارِ المِصْريَّةِ والبلادِ الشاميَّـةِ ووَلَدِه المَلِكِ الصالحِ «علىٍّ» وَلِيِّ عَهْـدِه ، وبينَ حُكَّامِ الفَرَنْجِ بعَكَّا وما معها من بلاد سَوَاحِلِ الشَّامِ ، فى شهور سـنة آثنتين وثمـانين وستمائة ، وهى يومئذ بأيديهم . وصُورتُها :

آستقرَّتِ الهُدْنةُ بين مولانا السُّلطانِ المَلِكِ المنصورِ سَـيْفِ الدِّينِ أبِى الفَتْحِ «قلاوون» المَلَكِىّ الصَّالِحِىّ ووَلَدِه السـلطانِ المَلِكِ الصالحِ عَلاءِ الدِّينِ « عَلِىٍّ » — خَلَّد اللهُ تعالىٰ سلْطَنَتَهما — وبين الحُكَّامِ بمَمْلَكةِ عكَّا ، وصَيْدَا ، وعَثْلِيثَ ، وبلادِها التى آنعقدتْ عليها هذه الهُدْنةُ ، وهم : الشيخَان أو دهيـل المملكة بعَكَّا ، وحضرةُ المقدَّمِ الجليلِ افريز كاسام دسا حول(؟)مقدَّمُ بَيْتِ الديويَّة ؛ وحضرةُ المقدَّمِ الجليل افريز سكفل للورن(؟)مقدَّمُ بَيْتِ الاسبتارية ، والمرشانُ الأجَلُّ افريز كورات نائبُ مقدَّمِ بَيْتِ الاسبتار الآمن — لمدّة عَشْرِ سنين كوامِلَ ، وعَشَرةِ أشْهر ، وعشرةِ أيَّامٍ ،

وعَشْرِ ساعاتٍ : أوَّلُها يومُ الخميس خامسُ ربيع الأوّل سنة آثنتين وثمانين وستمائة للهِجْرَةِ النَّبَوِيَّة، صلواتُ الله علىٰ صاحِبِها وسَلامُه، الموافِقُ للثالثِ من حَزِيرَانَ سنة ألفٍ وخمسمائةٍ وأربعٍ وتسعين لغَلَبَةِ الإسْكَنْدَرِ بنِ فيلبس اليُونانيِّ - علىٰ جميع بلادِ السُّلطانِ ووَلَدِه، وهى التى فى مَمْلكتهما وتَحتَ حُكْمِهما وطاعَتِهما وما تَحْوِيهِ أيديهما يومَئذٍ : من جميع الأقاليم والمَمالك، والقِلاع، والحُصُونِ الإسلامية، وثَغْرِ دِمْياطَ ، وثغرِ الإسْكَنْدَرِيَّةِ المحروستين ، ونَسْتَرُو ، وسَنْتَرِيَّة وما ينسب إليها من المَوَانى والسواحل، وثَغْرِ فُوَّةَ، وثَغرِ رَشِيدَ، والبلادِ الحجازية، وثَغْرِ غَزَّةَ المحروسِ، وما معها من المَوَانى والبلاد، والمَمْلكةِ الكَرَكِيَّة، والشَّوْبَكِيَّة وأعمالِها، والصَّلْتِ وأعْمالِها ، وبُصْرىٰ وأعمالِها، ومَمْلكةِ بلادِ الخَليل صلواتُ الله عليه وسَلامُه ؛ ومَمْلكةِ القُدْسِ الشَّريفِ وأعمالِها، وبَيْتِ لَحْمٍ وأعمالِه وبلادِه ، وجميع ما هو داخلٌ فيها ومَحْسوبٌ منها ، وبَيْتِ جبريلَ ، ومملكةِ نَابُلُسَ وأعمالِها ، ومملكةِ الأَطْرُون وأعمالِها ، وعَسْقَلانَ وأعمالِها ومَوانِيها وسَوَاحِلها، ومَمْلكةِ يافَا والرَّمْلَةِ ومِينَاهَا، وقَيْسارِيَّةَ ومِينَاها وسَواحِلها وأعْمالِها، وأَرْسُوف وأعْمالِها، وقَلْعة قَاقُونَ وأعْمالِها وبلادِها، وأعمال العَوْجَاءِ وما معها من الملاحة، والفُتُوحِ السَّعيدِ وأعمالِها ومَزَارِعِها، وبَيْسَانَ وأعمالِها وبلادِها، والطُّورِ وأعمالِه ، واللَّجُونِ وأعمالِه ، وجِينِينَ وأعمالِها، وعَيْنِ جالوتَ وأعمالِها ، والقَيْمُونِ وأعمالِه وما يُنْسبُ إليه، وطَبَرِيَّةَ وبُحَيْرَتِها وأعمالِها وما معها ، والمَمْلكةِ الصَّفَدِيةِ وما يُنْسبُ إليها ، وتِبْنِينَ وهُونِينَ وما معهما من البلاد والأعمال ، والشَّقِيفِ المحروسِ المعْرُوفِ بشَقِيف أَرْنُونَ وما معه من البلاد والأعمالِ وما هو مَنْسوبٌ إليه ، وبلادِ الفرن وما معه خارجًا عما عُيِّنَ فى هذه الهُدْنةِ المُباركَة، ونِصْفِ مَدِينة إسْكَندَرُونَةَ، ونِصْفِ ضَيْعةِ مأربَ بفُدُنِهما وكُرومِهما وبَساتِينِهما وحُقُوقِهما ؛ وما عدا ذلك من حُقُوق إسْكَنْدَرُونَةَ

المذكورة ، يكون جميعه بحُدُوده وبلاده للسلطان المَلِك المنصور ولولَدِه النِّصْف ، والنِّصفُ الآخَرُ لمملكَة عكّا . والبِقَاع العزيزى وأعماله ، وشَعْرا وأعمالها ، وشَقيف تيرُونَ وأعماله ، والعامِر جميعها ولا نا وغيرها (؟)، وبَانياس وأعمالها ، وقَلْعة الصُّبَيْبَة وأعمالها وما معها من البُحَيْرات والأعمال، وكَوْكَب وأعمالها وما معها، وقَلْعة عَجْلُونَ وأعمالها، ودِمَشْق والمملكة الدِّمَشْقِيَّة ـ حرسها الله تعالىٰ ـ وما لها من القِلاع والبِلاد والممالك والأعْمال، وقَلْعة بَعْلَبَكَّ المحروسة وما معها وأعمالها، ومملكة حِمْص وما لها من الأعمال والحدود ، ومَمْلكة حَماة المحروسة ومَدينتها وقَلْعتها و بلادها وحُدُودها ، وبَلاطُنُس وأعمالها ، وصِهْيَوْنَ وأعمالها ، وبَرْزَيه(١) وأعمالها، وفُتوحات حِصْن الأكْراد المحروس وأعْماله ، وصَافيتَا وأعْمالها ، و (٢) أعمالها، والعُرَيمة وأعمالها ، وقدقيا وأعمالها ، وحلبا وأعْمالها ، والقليعة وأعمالها، وحِصْن عَكَّار وأعْماله و بلاده ، وقلعة شَيْزَر وأعمالها، وأفَامِيَةَ وأعمالها، وجَبَلَةَ وأعمالها، وأبو قُبَيْس وأعماله ، والمملكة الحَلَبِيَّة وما هو مُضافٌ إليها من القِلاع والمُدُن والبِلاد والحُصُون ، وأنْطاكِيَةَ وأعمالها وما دخلَ فى الفُتوح المُبارَك ، وبَغْراس وأعمالها ، والدَّرْبَسَاك وأعمالها، والرَّاوَنْدان وأعمالها، وعَيْنتاب وأعمالها، وحَارِم وأعمالها، ويَبْرِينَ وأعمالها ، وسيح الحَديد وأعماله ، وقَلْعة نَجْم وأعمالها، وشَقِيف دَرْكُوش وأعماله ، والشُّغْر وأعْماله ، وبَكَاس وأعْماله ، والسُّوَيْداء وأعمالها، والبَاب وبُزاعا وأعمالها ، والبيرة وأعمالها ، والرَّحْبَة وأعمالها ، وسَلَمْيَةَ وأعمالها ، وشُمَيْمَس وأعمالها ، وتَدْمُر وأعمالها وما هو منسوبٌ إليها ، وجميع ما هو مَنْسوبٌ لمولانا السلطانِ ولولَدِه من البلاد التى عُيِّنتْ فى هذه الهُدْنة المباركة، والتى لم تُعَيَّنْ .

(١) أوردها ياقوت فى معجم البلدان هكذا : بَرْزُويَه، وذكر أن العامة تقول : بَرْزَيَه كما هنا .

(٢) بياض بالأصل .

وعلىٰ جميع العساكرِ، وعلىٰ جميع الرَّعايا من سائر الناسِ أجمعين : على ٱختلافِهم، وتَغَيُّرِ أنفارِهم وأجْناسِهم وأدْيَانِهم، للقاطنين فيها، والمتردِّدِينَ فى البَرِّ والبَحْرِ، والسَّهْلِ والجَبَلِ، فى اللَّيلِ والنهار، يكونونَ آمنين مُطْمئِنِّين فى حالتى صُدُورِهم ووُرُودِهم — علىٰ أنفسِهم، وأموالِهم، وأوْلادِهم، وحَرِيمِهم، وبَضائِعِهم، وغِلْمانِهم، وأتْباعِهم، ومَواشِيهم، ودَوابِّهم؛ وعلىٰ جميع ما يتعلَّقُ بهم، وكلِّ ما تَحْوِى أيْدِيهم من سائرِ الأشْياءِ على ٱختلافِها، من الحُكَّامِ بمملكة عَكَّا : وهم كَفِيلُ المملكةِ بها، والمُقَدَّمُ افريزكليام دسا حول (؟) مقدَّمُ بَيْتِ الديوية؛ والمقَدَّمُ افريز بيكوك للورن (؟)، وافريز اهداب نائِبُ مُقَدَّمِ بَيْت الاسبتار الآمِن، ومن جميع الفَرَنْجِ والإخْوة، والفُرْسان الدَّاخِلينَ فى طاعَتِهم وتَحْوِيهِ مَمْلكتُهم السَّاحِلِيَّة، ومن جميع الفَرَنْجِ على ٱختلافهم، الذين يَسْتَوْطِنُونَ عَكَّا والبلادَ الساحِلِيَّة الداخلةَ فى هذه الهُدْنَة من كلِّ وَاصِلٍ إليها فى بَرٍّ أو بَحْرٍ على ٱخْتلافِ أجْناسِهم وأنْفَارِهم، لا ينالُ بلادَ السُّلطانِ ووَلَدِه، ولا حُصُونَهما، ولا قِلاعَهما، ولا بِلادَهما، ولا ضِياعَهُما، ولا عَسَاكِرَهُما، ولا جيُوشَهما، ولا عَرَبَهما، ولا تُرْكُمَانَهُما، ولا أكْرَادَهُما، ولا رَعاياهُما، على ٱختلاف الأجناس والأنفار؛ ولا ما تَحْوِيهِ أيديهم من المَوَاشى والأمْوالِ والغِلالِ وسائرِ الأَشياء منهم غَدْرٌ ولا سُوءٌ، ولا يَخْشَوْنَ من جميعهم أمْرًا مكْروهًا ولا إغارةً، ولا تَعرُّضًا ولا أَذِيَّة .

وكذلك ما يَسْتفتِحُه ويُضِيفُه السلطانُ ووَلَدُه علىٰ يَدَيْهما، وعلىٰ يَدِ نوّابِهما وعَساكِرِهما : من بلادٍ، وحُصونٍ، وقِلاعٍ، ومِلْكٍ، وأعْمالٍ، وولاياتٍ، برًّا وبَحْرًا، سَهْلًا ووَعْرًا .

وكذلك جميعُ بلادِ الفَرَنْجِ التى ٱستقرَّتِ الآنَ عليها هذه الهُدْنَةُ : وهى مدينةُ عَكَّا وبساتِينُها، وأَرَاضِيها وطواحينُها؛ وما يختصُّ بها من كُرُومِها، وما لها من

حُقُوقٍ حَوْلَهَا ، وما تقرّر لهـا من بلادٍ فى هـذه الهُدْنة وهى : البصة ومَزْرَعتُها[١]، مجدل، حمصين، رأس عبده، المَنْوات ومَزْرَعتُها، الكابرة ومزرعتها، نصف وبه جعون ، كَفْر بَرَدَى ومَزْرَعتُها ، كَوْكَبُ عمقا ومَزْرَعتُها ، المونيـه ، كفر ياسيف ومَزْرَعتُها، تُوسيان، مكر حرسين ومَزْرَعتُها ، الحديدة، الغياضة، العطوانية، مرتوقا الحارثية ، ثمرا الطره ، الرب ، الـابوحه ومَزْرَعتُها ، العرج ومَزْرَعتُها ، المزرعة السّميرية البَيْضاء ، دعوق والطاحون ، كردانه والطاحون، حدرول ، تل النحل، الغار، الرخ والمجدل ، تَلُّ كيسان ، البروه ، الرامون ، ساسا السياسية ، الشبيكه ، المشـيرقه ، العطرانية ، المنيير، اكليل ، هريا سيف العربية ، هوشـه ، الزراعة الحديدة الشمالية ، الرحاحيـه ، قسطه ، كفر نبتل، الدويرات، ماصوب ، متماس العباسية ، سيعانه ، عين الملك ، المنصورة ، الرضـيفة ، حانا ، سرطا ، كفرتا ، أرض الزراعة، رولس ، صغد عدى ، سفرعم . هذه البلادُ المذكورةُ [تكون] خاصا للفَرَنْج . حِيفَا والكُرُومُ والبَسَاتين التى لهـا جميعها ، والقَصْر وهو الحوش وكَفْر تُوثا، وهى : الكنيسة ، والطيرة ، والسعبة ، والسعادة ، والمعر، والناجور، وسومرا . تكون حِيفَا وهـذه البلادُ المذكورةُ بحُدُودها وأرَاضِيها خاصّـةً للفرنج . وكذلك قرية مارسا ناره بها، المعروفة بهـا وكرومها وغروسها يكون خاصا للفرنج . ودَيْرُ السـياح ، ودَيْرُ مارلباس بأرَاضِيهمَا المعروفةِ بهما وكُرُومِهما و بَسَاتِينِهما يكونُ خاصًّـا للفرنج .

وعلى أن يكونَ للسُّلطانِ المَلِكِ المَنْصور ولوَلَدِه الصَّالِح : من بلاد الكِرْمِل، وهى : الدالية ، ودونه ، وضريبـة الريح ، والكَرَك، ومعليا، والرامون، ولونه، وسور ،

(١) لم نقف على أكثر هذه البلاد بعد البحث عنها فى معجم ياقوت وتقويم البلدان . لذلك تبعنا الأصول فى الاهمال والنقط .

وخربة يونس، وخربة خميس، ورشميا، ودوابه، يكون خاصًّا للفرنج فى بلادٍ أخرىٰ ذكرها . وما عدا ذلك من البلاد الجبلية جميعها للسلطان ولولده بكمالها .

وتكونُ جميعُ هذه البلاد العكّاويّة وما عُيّن فى هذه الهُـدْنة المباركة من البلاد السّاحليـة آمنـةً من السّلطانِ المَلكِ المنصور وولده المَلك الصّالح، وآمنةً من عساكرهما وجُنُودِهما ومن خَدَمِهما، وتكونُ هذه البلادُ المشروحةُ أعلاه، الداخلةُ فى هذه الهُـدْنة المباركة : الخاصّ بها، وما هو مُناصَفةٌ ـ مُطْمَئِنّةً هى ورعاياها، وسائرُ أجْناسِ الناس فيها، والقاطنين بها، والمتردّدينَ إليهـا على آختلاف أجْناسِهم وأدْيانِهم، والمتردّدينَ إليها من جميع بِلادِ الفرنْجة والسُّفّار، والمتردّدين منها وإليهـا فى برٍّ وبحْرٍ، فى لَيْلٍ أو نهارٍ، سَهْلٍ وجَبَلٍ، آمنينَ على النُّفوس والأموالِ والأوْلادِ، والمَراكبِ والدّوابّ، وجميع ما يتعلّقُ بهم، وكلّ ما تَحْويه أيديهم من الأشْياءِ على آختلافها، من السّلطانِ وولَدِه، وجميع من هو تحتَ طاعَتِهما : لا ينالُهم ولا يَنالُ هذهِ البلادَ المذْكورةَ التى آنعقدتْ عليها الهُدْنةُ سوءٌ ولا ضَرَرٌ ولا إغارةٌ، ولا ينالُ إحْدَى الجهتين المذكورتين : الإسـلاميّة والفرنْجية من الأخرىٰ ضَرَرٌ ولا أذيّةٌ؛ ويكونُ ما تقرّرَ أنه يكونُ خاصًّا للفرنج حسب ما بُيّن أعْلاه لهم، وما تقرّرَ أن يكونَ للسّـلطانِ ولولَدِه خاصًّا لها، والمناصـفاتُ تكونُ كما شُرِح . ولا يكونُ للفرنج من البلاد والمُناصَفاتِ إلا ما شُرِحَ فى هذه الهُدْنةِ وعُيّن فيها من البِلادِ .

وعلىٰ أنّ الفرنج لا يُجدّدُون فى غير عَكّا وعَثْليث وصَيْدَا : ممّا هو خارجٌ عن أسْوار هذه الجهاتِ الثّلاثِ المذْكوراتِ، لا قَلْعةً، ولا بُرْجًا، ولا حِصْنًا، ولا مُسْتَجدًّا .

وعلىٰ أنه متىٰ هَرَب أحدٌ ـ كائنًا مَن كان ـ من بلاد السّلطانِ وولَده إلىٰ عَكّا والبلاد السّاحلية المعيّنة فى هـذه الهُدْنة، وقصدَ الدُّخولَ فى دِينِ النّصْرانيّة وتَنَصّر

بإرادته، يُرَدُّ جميعُ ما يَروحُ معه ويَبْقىٰ عُرْياناً . وإن كان ما يقصِدُ الدُّخولَ فى دين النصرانية ولا يَتنَصَّر، رُدَّ إلىٰ أبوابهما العاليـةِ بجميع مايروحُ معه، بشفاعةِ ثِقَةٍ بعد أن يُعْطَى الأمانَ . وكذلك إذا حَضَر أحدٌ من عَكَّا والبلادِ السَّاحِليَّةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ، وقصدَ الدُّخولَ فى دِينِ الإسلام وأسْـلَم بإرادته، يردُّ جميعُ ما معـه ويبقىٰ عُرْيانا . وإن كان مايقصدُ الدُّخولَ فى دِينِ الإسلام ولا يُسْـلِمُ، يردُّ إلى الحُكَّامِ بعَكَّا، والمقدَّمِينَ بجميع مايروحُ معه بشفاعةٍ بعد أن يُعْطىٰ له الأمانُ .

وعلىٰ أنَّ الممنوعاتِ المعروفَ مَنْعُها قَديمـًا تَسْـتقرُّ علىٰ قاعِدَةِ المَنْعِ من الجهتين . ومتىٰ وُجِدَ مع أحدٍ من تُجَّـارِ بلاد السُّـلطان ووَلَدِه من المسلمين وغيرهم علىٰ آختلاف أدْيانِهـم وأجناسِهم شَيْءٌ من الممنوعات بعَكَّا والبلادِ السَّاحِليَّـةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ، مِثْل عدَّةِ السِّلاحِ وغيره، يُعادُ علىٰ صَاحِبِه الذى آشتراه منه، ويعادُ إليه ثَمَنُهُ، ويُردُّ ولا يُؤخَذُ مالُه آستهلاكًا، ولا يُؤذَىٰ . وللسُّلْطانِ ولوَلَدِه أن يفتصلا فى من يَخرجُ من بِلادِهما من رَعِيَّتِهما، علىٰ آخْتِلاف أديانِهم وأجْناسِهم، بشَيْءٍ من الممنوعات . وكذلك كَفيلُ المملكةِ بعَكَّا والمقـدَّمُون لهم أن يفتَصِلُوا فى رَعِيَّتِهم الذين يخرجُونَ بالممنوعاتِ من بِلادِهم الدَّاخلةِ فى هذه الهُدْنَةِ .

ومتىٰ أخِذَتْ أخيذةٌ من الجانِبَينِ، أو قُتِلَ قَتيلٌ من الجانبين، علىٰ أىِّ وَجْهٍ كانَ ـ والعيـاذُ باللهِ ـ رُدَّتِ الأَخِيـذةُ بعَيْنِها إن كانتْ مَوْجودةً، أو قيمتُها إن كانتْ مَفْقُودةً . والقَتيلُ يكون العِوَضُ عنه بنَظِيرِه من جِنْسه : فارِسٌ بفارِسٍ، وبَرْكِيلٌ ببَرْكِيلٍ، وتَاجِرٌ بتاجِرٍ، ورَاجِلٌ براجِلٍ، وفَلَّاحٌ بفَلَّاحٍ . فإن خَفِىَ أمرُ القَتيلِ والأخِيذةِ، كانت المهْلَةُ فى الكَشْفِ أربعين يوماً، فإن ظهرتْ الأخيذةُ أو تعَيَّنَ أمْرُ المقتولِ، رُدَّت الأخيـذةُ بعَيْنِها ويكونُ العِوَضُ عن القَتيلِ بنَظِيرِه، وإن لم تَظْهَرْ

كانتِ اليمينُ علىٰ وَالِي المكانِ المدَّعىٰ عليـه، وثلاثةِ نَفَرٍ يقعُ ٱختيار المدَّعِي عليهم، من تلك الوِلَايَة . وإن ٱمتنَعَ الوَالِي عن اليَمِينِ حُلِّف من الجِهَةِ المدَّعِيةِ ثلاثةُ نَفَرٍ تختارهم الجِهَةُ الأخرىٰ وأخذ قيمتها . وإن لم يُنْصِفِ الوَالِي ولا رَدَّ المـالَ، أنْهَى المـدَّعِي أمْرَه إلى الحُكَّامِ من الجِهتَينِ ، وتكونُ المهْلَةُ بعدَ الإنْهـاءِ أربعين يومًا ، ويُلْزَمُ الولاةُ من الجهتين بالوَفَاء بهذا الشَّرْطِ .

ومتىٰ أخْفَوْا قتيـلًا أو أخيـذَةً ، أو قدَرُوا علىٰ أخْذِ حَقٍّ ولم يأخُذْه كلُّ واحدٍ فى ولايته، يتعيَّن على الذى يوليه من مُلُوكِ الجهتين إقامَةُ السِّياسَـةِ فيه : من أخْذ الرُّوحِ والمَـالِ والشَّنْق، والإنـكار التـامّ علىٰ من يتَعَيَّنُ عليه الإنكارُ إذا فعل ذلك فى وِلايَتِه وأرْضِه .

وإن هَرَب أحدٌ بمـالٍ وٱعْترَفَ ببَعْضِه وأنْكَر بعْضَ ما يُدَّعَىٰ به عليه، لَزِمه أن يَحْلِفَ أنه لم يأخُذْ سِوَىٰ ماردَّه . فان لم يقْنَع المدَّعِي بيمينِ الهَارِب، حَلَفَ وَالِي تلك الولاية أنه لم يَطَّلِـعْ علىٰ أنه وَصَل معه غيرُ ماردَّه . وإن أنْكَرَ أنَّه لم يَصِلْ معه شَيْءٌ أصْلًا، ٱستحلف الهارِبُ أنه لم يَصِلْ معه للمدَّعِي شَيْءٌ .

وعلىٰ أنه إذا ٱنكسر مَرْكَبٌ من مَرَاكِبِ تُجَّـارِ السُّلطانِ وولَدِه التى ٱنعقدت عليها الهُدْنة ، ورَعِيَّتِهما من المسـلمين وغيرهم : على ٱختلاف أجْناسِهم وأدْيانِهم ، فى مِينَا عَكَّا وسَواحِلِها، والبِـلادِ السَّاحِلِيَّة التى ٱنعقدتْ عليها الهُدْنة، كان كلُّ من فيها آمِنًا على الأنْفُسِ والأمْوالِ والأتْباعِ والمَتَاجِر . فإن وُجِدَ أصحابُ هـذه المراكبِ التى تَنْكسِر تُسلَّم مراكِبُهم وأموالُهم [إليهم] . وإن عُدِمُوا بمَوْتٍ أو غَرَقٍ أو غَيْبةٍ، فيُحتَفَظُ بموجودِهم ويُسَـلَّم لنوّابِ السُّـلطان وولَدِه . وكذلك المَراكِبُ المتوَجِّهةُ من هذه البلاد السَّاحلية المنعَقِد عليها الهُدْنةُ للفَرَنج ، يَجْرى لهـا مثلُ ذلك فى بلاد

السُّلْطانِ وولَدِه، ويحتفَظُ بموْجُودِها إن لم يكن صاحِبها حاضِرًا إلىٰ أن يُسَلَّم لكَفِيل المملكة بعكّا أو المقدَّمِ .

ومتىٰ تُوُفِّى أحدٌ من التُّجّارِ الصادرين والواردين: علىٰ آختلافِ أجْناسِهم وأدْيانِهم، من بلاد السُّلطانِ وولَدِه، فى عكّا وصَيْدا وعَثْليثَ، والبلادِ السّاحليةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ على آختلاف أجْناسِهم وأدْيانِهم [فيحتفظ على ماله حتى يسلم لنواب السلطان وولده]، وإذا تُوُفِّى أحدٌ فى البلاد الإسلاميةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنةِ، يحتفَظُ علىٰ مالِه إلىٰ حِين يسلَّمُ إلىٰ كفيل المملكة بعكّا والمقدَّمين .

وعلىٰ أنّ شَوانِى السُّلطانِ وولَدِه إذا عمرتْ وخَرجتْ لا تتعرّضُ بأذيّةٍ إلى البلاد الساحليَّة التى آنعقدتْ عليها هـذه الهُدْنة . ومتىٰ قصدت الشَّوانِى المذكورةُ جِهَةً غير هذه الجهات، وكان صاحبُ تلك الجِهَةِ مُعاهِدًا للحُكّامِ بمَمْلَكَةِ عَكّا، فلا تدخُلُ إلى البلاد التى آنعقدتْ عليها هـذه الهُدْنةُ ولا تتزَوَّدُ منها . وإن لم يكنْ صاحبُ تلك الجِهَةِ التى تقصِدُها الشَّوانِى المنصورةُ مُعاهِدًا للحُكّامِ بمَمْلَكَةِ عكّا والبلادِ التى آنعقدتْ عليها الهُدْنَة، فلها أن تدخُلَ إلىٰ بلادها وتتزوّدَ منها . وإن آنكسر شىْءٌ من هـذه الشَّوانِى ـ والعياذُ باللهِ ـ فى مِينا من موانِى البلادِ التى آنعقدتْ عليها الهُـدْنَةُ وسَواحِلِها : فان كانتْ قاصِـدَةً مَن له مع مَمْلَكَةِ عَكّا ومُقَدَّمِى بُيُوتِها عَهْـدٌ، فيلزمُ كَفِيلُ المَمْلَكَةِ بعكّا ومقدّمِى البُيوت بحفْظِها، وتمكِين رجالها من الزوادة وإصْلاح ما آنكسر منها، والعَوْدِ إلى البـلاد الإسلامية، و [لا] يبطِلُ حركَة ما تنكَّر منهـا ـ والعياذُ باللهِ ـ أو يرميه البَحْر . هـذا إذا كانتْ قاصدةً مَن له مع مَمْلَكَةِ عكّا ومُقَدّميها عَهْدٌ . فإن [قصدتْ مَن] لم يكنْ لهـا معهم عَهْدٌ، فلها أن تتزوَّدَ وتُعَمرَ رجالها من البلاد المُنعَقِدِ عليها هذه الهُدْنَة، وتتوجَّهَ إلى البلاد المَرْسومِ لها بقَصْدِها، ويعتمدُ هذا الفَصْلُ من الجهتين .

وعلىٰ أنّه متىٰ تحرّكَ أحدٌ من مُلوكِ الفَرنجة وغيرهم من جُوّا البَحْرِ لقصْد الحضور لمضَرّة السّلطان ووَلَده فى بلادهما المتّفقَة عليها هذه الهُدْنَة ، فليلزَمْ نائب المملكة والمقدّمين بعكّا ، أن يعرِّفوا السلطانَ ووَلَده بحَرَكَتِهم قبلَ وصُولِهم إلى البلاد الإسلاميّة الداخلة فى هذه الهُدْنة بمدّة شَهْرين . وإن وصَلُوا بعد انقضاء مُدّة شَهْرين ، فيكونُ كَفِيلُ المَلَكَة بعكّا ، والمقدّمونَ بَريئِين من عُهْدة اليمينِ فى هذا الفَصْل . ومتىٰ تحرّك عَدُوٌّ من جِهَةِ البرّ من التّتَارِ وغيرهِم ، فأَىُّ مَن سَبَق الخبرُ إليه من الجهتين يُعرِّفُ الجِهَةَ الأخرىٰ بما سبق الخبرُ إليه من أمْرِهم .

وعلىٰ أنه إن قصدَ البلادَ الشّاميّةَ - والعياذُ باللهِ - عدُوٌّ من التّتَارِ وغيرِهم فى البَرّ، وانحازَتِ العساكرُ الإسْلاميةُ من قدّام العَدُوّ، ووصل العَدُوُّ إلى القُرْبِ من البلاد السّاحليّةِ الداخلةِ فى هذه الهُدْنَةِ وقصَدُوها بمضَرّةٍ ، فيكتب إلى [كفيل] المَمْلكَةِ بعكّا ، والمقَدّمِينَ بها أن يَدْرءُوا عن بيُوتِهم ورَعِيّتِهم وبِلادِهم بما تصِلُ قُدْرَتُهم إليه . وإن حَصل - والعياذُ باللهِ - جفلٌ من البِلادِ الإسْلاميّة إلى البلادِ السّاحليّة الداخلةِ فى هذه الهُدْنة ، فيلزم كَفِيل المملكة بعكّا ، والمقدّمين بها حِفْظُهم والدّفْعُ عنهم ومَنْعُ من يَقْصِدُهم بضَرَرٍ ، ويكونون آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ بما معهم .

وعلىٰ أنَّ النّائب بمملكة عكّا ، والمقدّمِين بها يوُصُونَ فى سائرِ البِلادِ الساحلية التى وقعتْ الهُدْنةُ عليها ، أنّهم لا يمكّنُون حَرَاميّةَ البَحْرِ من الزوادةِ من عندهم ولا من حَمْلِ ماء . وإن ظَفِرُوا بأحدٍ منهم يُمْسِكُونه ، وإن كانوا يبيعون عندهم بَضَائع فيُمْسِكُها كَفِيلُ المملكة بعكّا والمقدّمُونَ حتّى يظهَرَ صاحِبُها وتسلَّمَ إليه . وكذلك يَعتَمِدُ السلطانُ وولَدُه .

وعلىٰ أن الرّهائنَ بعكّا والبلادِ السّاحليةِ الدّاخلةِ فى هذه الهُدْنة ، كلّ من عليه منهم مَبلغ أو غَلّة ، فيحلف وَالِى ذلك المَكَانِ الذى منه الرّهينة ، ويحلف المُباشِر والكاتبُ

فى وَقْتِ أخْذِ هـذا الشَّخْص رَهِينةً أنه عليـه كذا وكذا : من دراهمَ أو غَلَّةٍ أو بَقَرٍ أو غيره . فاذا حَلف الوَالِى والْمُباشِرُ والكَاتِبُ قدّامَ نائبِ السلطان وولَدِه علىٰ ذلك يقوم أهْلُ الرَّهينة عنه بمـا للفرنج عليـه ويُطْلِقُونَه . وأما الرَّهائن الذين أخِذُوا منسوبين إلى الجفل والاْخْتِشاء أنهـم لا يهرُبون إلىٰ بلاد الإسـلام ويمتنع الولاةُ والمباشِرُون من اليمين عليهم، فأولئك يطلقون .

وعلىٰ أنْ لا يجدَّدَ على التُّجَّار المسافرين : الصادِرِينَ والوارِدِينَ من الجهتين حقٌّ لم تَجْرِ به عادةٌ، ويُجْرَوْا علىٰ عَوائِدهم المستمرّة إلىٰ آخر وقتٍ، وتُؤخَذُ منهم الحقوقُ على العَـادَة المسـتمرَّةِ، ولا يجدَّدُ عليهم رَسْمٌ ولا حَقٌّ لم تَجْرِ به عادةٌ . وكلُّ مكان عُرِفَ بآسـتخراج الحقِّ فيه يسـتخرجُ بذلك المكانِ من غَيْرِ زيادةٍ من الجهتَيْن، فى حالتى سَـفَرِهم وإقامَتِهم؛ ويكونُ التُّجَّار والسُّفَّارُ والمتردّدون آمنين مطمئنِّينَ مُخَفَّرين من الجِهَتينِ فى حالتى سَفَرِهم وإقامَتِهـم، وصُدُورِهم ووُرُودهم بمـا صُحْبَتهم من الأصناف والبضائع التى هى غير ممنوعة .

وعلىٰ أنه ينادىٰ فى البلاد الإسلاميةِ والبلادِ الفرنْجيةِ الدَّاخلَةِ فى هـذه الهدنة : أنه من كان من فَلَّاحِى بلادِ المُسْلمينَ يَعودُ إلىٰ بلاد المسلمين مُسْلماً كان أو نَصْرانياًّ . وكذلك من كان من فَلَّاحِى بلاد الفرَنج مُسْـلِماً كان أو نَصْرانيًّا، معروفًا قراريًّا من الجهتين، ومن لم يَعُدْ بعد المناداة يُطْرِدُ من الجهتين . ولا يمكَّنُ فَلَّاحُو بلاد المسلمين من المُقَامِ فى بلاد الفرنج المنعقِد عليها هذه الهُدْنة، ولا فَلَّاحُو بلاد الفرنج من المُقَام فى بلاد المسلمين التى آنعقدت عليها هذه الهُدْنة؛ ويكون عَوْدُ الفَلَّاح من الجهة إلى الجهة الأخْرىٰ بأمَانٍ .

وعلىٰ أنْ تكونَ كَنيسةُ النَّـاصِرة وأرْبَعُ بيُوتٍ من أقْرِب البُيُوت إليهـا لزيارةِ الحُجَّاجِ وغيرِهم من دِينِ الصَّليبِ : كَبِيرِهم وصَغِيرهم على آختلاف أجْناسهم وأنْفارِهم:

من عَكَّا والبلادِ الساحِليَّـة الداخلةِ فى هذه الهُـدنة ، ويُصَلِّى بالكَنِيسـةِ الاقِسَّاءُ[1] والرُّهْبانُ ، وتكونُ البيوتُ المذكورةُ لزُوّارِ كَنِيسة النَّاصِرَة خاصَّة ، ويكونون آمنين مُطْمَئِنِّين فى توجُّهِهم وحُضُورِهم إلىٰ حدود البلاد الداخلةِ فى هـذه الهُدْنَة . وإذا نُقِبتْ الحجارةُ التى بالكنيسة المذكورة تُرْمىٰ برا ، ولا يُحطُّ حَجَرٌ منها علىٰ حَجَرٍ لأجْلِ بِنَايَتِـه ، ولا يتعرّضُ إلى الأَقِسَّاءِ[1] والرُّهْبانِ ، وذلك علىٰ وَجْه الهِبَةِ لأجل زُوّار دِينِ الصَّلِيبِ بغيرِ حَقٍّ .

ويلزمُ السـلطانَ وولَدَه حِفْظُ هـذه البلادِ المشروحةِ التى ٱنعقدتْ عليها الهُـدْنةُ من نَفْسِهِما وعَساكِرِهما وجُنُودِهما ، ومن جميع المتجَرِّمَةِ والمتَلَصِّصِينَ والمُفْسِدِين : ممَّن هو داخلٌ تحت حُكْمِهما وطاعَتِهما . ويلزمُ كَفيلَ المملكة بعَكَّا والمقدَّمينَ بهـا حِفْظُ هـذه البلادِ الإسلامية المشْروحةِ التى ٱنعقدتْ عليها الهُـدْنةُ ، من نَفْسِهم وعَساكِرِهم وجُنودِهم ، وجميعِ المتجرِّمةِ والمتَلَصِّصِينَ والمُفسدِين : ممن هو داخلُ تحتَ حُكْمِهم وطاعَتِهم بالمملكة السَّاحِلِيَّة الداخلةِ فىهذه الهُدْنَة . ويلزم كَفيلَ المملكةِ بعَكَّا ، ومقدَّمِى البُيُوتِ بها الحُكَّامِ بعَكَّا والبلاد الساحليـة الداخلةِ فى هَذه الهُدْنةِ ـ القيامُ بمـا تَضَمَّنَتْه هذه الهُدْنَة من الشُّروطِ جَمِيعِها ، شَرْطًا شَرْطًا ، وفَصْلًا فَصْلًا ، والعَمَلُ بأحكامِها ، والوُقُوفُ مع شُروطِها إلى ٱنقضاء مُدَّتِها . ويَفِى كلٌّ منهم بمـا حلَفَ به من الأيْمـانِ المؤكَّدةِ : من أنَّه يَفِى بجميع ما فىهذه الهُدْنَةِ علىٰ ماحَلَفُوا به .

تَسْتَمِرُّ هذه الهُدْنَة المباركةُ بين السُّلطانِ وولَدِه وأوْلادِهما وأوْلادِ أوْلادِهم ، وبين الحُكَّامِ بمملكة عكَّا ، وصيْدا ، وعَثْلِيثَ ، وهم الشيخان أودرا(؟) المقدّمون المذكورون فلان وفلان إلى آخرها . لا تتغـيَّر بمَوْتِ مُلوكِ أحَدِ الجهتين ، ولا بتَغَيُّرِ مُقَـدَّم وتَوْلِيَةِ غيره ، بل تَسْـتَمِرُّ علىٰ حالِهـا إلىٰ آخرِها وٱنْقضائِها ، بشُرُوطها المحْدودَةِ ،

(١) لعل الصواب القسوس ، أو القسيسون .

وقَواعِدِها المقرّرة ، كامِلَةً تامَّة . ومتَى ٱنقضتْ هـذه الهُدنةُ المبـاركةُ ، أو وقَع ـ والعِياذُ باللهِ ـ فَسْـخٌ ، كانت المُهْلَةُ فى ذلك أربعين يومًا من الجهتين . ويُنادَىٰ برجوع كلِّ أَحَدٍ إلىٰ وَطَنِه بعد الإِشهادِ، ليعُودَ الناسُ إلىٰ مَواطِنِهم آمِنِينَ مُطْمَئِنِّينَ ، ولا يمنعون من السَّـفَرِ من الجهتين ، ولا تبطُلُ بعَزْلِ أَحَدٍ من الجهتين ، وتُشَـدَّدُ أحْكامُها مُتَتابِعةً متوالية ، بالسنين والشُّهورِ والأيَّامِ إلى ٱنقضائها ؛ ويلزم المتولىَ حِفْظُها والعَمَل بشُرُوطِها وفُصُولها ، وفُروعِها وأُصولِهـا ؛ ويَجْرِى الحالُ فيها علىٰ أَجْمَلِ الحالات إلىٰ آخِرِها . وعلىٰ جميع ذلك وَقَع الرِّضا والصَّفْحُ والاتِّفاقُ ، وحلف عليها من الجِهَتَينِ ، واللهُ الموَفِّق .

وهذه نُسْخَةُ هُدنَةٍ ، عُقِدتْ بين المَلِكِ الأشْرفِ ، صَـلاحِ الدِّين « خليل » ٱبن المَلِكِ المَنْصورِ سَيْفِ الدِّين « قلاوون » صاحبِ الديارِ المِصْريَّة والبلادِ الشَّامية ؛ وبين دون حاكم الريدأرغون ، صاحِبِ بَرْشَلُونَةَ من بلاد الأنْدَلُس ، علىٰ يَدِ رُسُلِه : أخَوَيْهِ وصِهرَيْهِ الآتِى ذكرهم ، فى صَفَرٍ سنة ٱثنتين وتسعين وسِتِّمائةٍ ، وهى :

ٱسْتقرّتِ المَوَدّةُ والمُصادقَة بين المَلِكِ الأشْرفِ ، وبين حَضْرة المَلِك الجليـلِ ، المُكَرَّمِ ، الخَطِيرِ ، البَاسِـلِ ، الأَسَدِ ، الضِّرْغامِ ، المفَخَّمِ ، المبَجَّلِ « دون » حاكم الريدأرغون ، وأخَوَيْهِ دون ولَذَريك ، ودون بيدرو ؛ وبين صِهرَيْهِ اللَّذيْنِ طلب الرَّسولان الوَاصِلَان إلى الأبوابِ الشريفةِ عن مُرْسِلِهما المَلِك دون حاكم أن يكونَا دَاخِلَيْنِ فى الهُدْنةِ والمُصادَقةِ ، وأن يلتزِمَ الملكُ دون حاكم عنهما بكلِّ ما ٱلتزم به عن نَفْسه ، ويتَدَرَّك أمْرَهما . وهما المَلكُ الجليلُ ، المكَرَّمُ ، الخَطِيرُ ، البَاسلُ ، الأسَدُ ، الضِّرْغامُ ، دون شانجه ، مَلِكُ قَشْتَالَة ، وطُلَيْطِلَةَ ، ولِيُونَ ، وبَلَنْسِيَةَ ، وأشْبِيلِيَةَ ، وقُرْطُبَةَ ، ومُرْسِيَةَ ، وجَيَّانَ ، والغرب ، الكفيلُ بمَمْلَكَةِ أرغون وبرتقال ـ والمَلِكُ

الجَلِيـلُ دون أتفونش مَلِكُ بُرْتُقال، من تاريخ يومِ الخميس تاسع عَشَر صفر سَـنَة ٱثنتين وتسعين وسِتّمائة، المُوافِقِ لثلاثٍ بَقِينَ من جنير سـنة أَلْفٍ ومائتَين وٱثنتين وتسعين لمولانا السَّيِّد المَسِيح عليه السلام . وذلك بحضُورِ رَسُولَي الملك دون حاكم، وهما : المُحْتَشِمُ الكَبِيرُ روصوديمـار موند الحاكِمُ، عن المَلِك دون حاكم فى بَلَنْسِيَةَ، ورَفِيقُه المُحْتَشِمُ العُمْدة ديمون المـان قرارى بَرْجَلُونَةَ ، الوَاصِلَيْن بكتَابِ المَلِك دون حاكم، المختومِ بخَتْمِ المَلِكِ المذكور، المُقْتَضِى معنـاه أنّه حَمَّلهما جَمِيعًا أَحْوالَهُـم ومَطْلوبَهم، وسَأَلَ أن يَقُوما فيما يقُولَانِه عنه، فكان مَضْمونُ مُشافَهَتِهما وسُؤَالِها تَقْرِيرَ قَوَاعِدِ الصُّلْحِ والمَوَدَّةِ والصَّداقَة . والشُّروط التى يَشْتَرِطُها المَلِكُ الأشرفُ على الملك دون حاكم، وأنَّه يلتَزِمُ بجميع هذه الشُّروطِ الآتى ذِكْرُها، ويَحْلِفُ المَلِكُ المذكورُ عليها هو وأَخَواهُ وصِهْراه المذْكُورون. ووَضَعَ الرسولان المذكوران خُطُوطَهما بجميع الفُصُولِ الآتِى ذكْرُها، بأمْرِهِ ومَرْسُومه . وأنَّ الملكَ دُون حاكم وأَخَوَيْهِ وصِهْرَيْهِ يلتزمون بها، وهى : ٱسْـتقرارُ المَوَدّةِ والمُصادَقَةِ من التّاريخ المقدَّم ذِكْرُه، على مَمَرِّ السنينَ والأعوامِ، وتعاقُبِ اللَّيالى والأيَّام: بَرًّا وبَحْرًا، سَهْلًا ووَعْرًا، قُربًا وبُعدًا .

وعلى أن تكونَ بِلادُ السلطانِ المَلِكِ الأشرف، وقلاعُه، وحُصُونُه، وثُغُورُه، ومَمـالِكُه، ومَوانِى بِلادِه وسَواحِلُها، وبُرُورُها، وجميعُ أقاليمها ومُدُنها، وكلُّ ما هو داخلٌ فى مملكته، ومَحْسوبٌ منهـا، ومَنْسوبٌ اليها : من سائر الأقاليم الرُّومِيَّـة، والعِرَاقِيَّة، والمَشْرِقِيَّة، والشَّامِيَّة، والحَلَبِية، والفُراتِيَّة، واليَمَنية، والحِجَازِيَّة، والدِّيار المصرية، والغَرْب .

وحدُّ هـذه البلاد والأقاليم ومَوَانِيها وسَوَاحِلهـا من البَرِّ الشَّامِيِّ من القُسْطَنْطِينِيَّة والبلادِ الرُّوميـة السَّاحِلِيَّة، وهى : مِـن طَرابُلُس الغَـرْب، وسَواحِل بَرْقَةَ، والإِسْكَنْدرِيَّة، ودِمْيـاط، والطِّينَة، وقَطْيـا، وغَزَّةَ، وعَسْـقَلانَ، ويَافَا،

وأَرْسُوفَ، وقَيْسارِيَّةَ، وعَثْلِيثَ، وحَيْفَا، وعَكَّا، وصُورَ، وصَيْدَا، وبَيْروتَ، وجُبَيْل، والبَيْرونِ، وأَنَفَة طَرَابُلس الشَّامِ، وأَنْطَرسُوس، ومَرَقِيَّة، والمَرْقَب، وساحِلِ المَرْقَب: بَانياس وغيرها، وجَبَلَةَ، واللَّاذِقِيَّة، والسُّوَيْدِيَّة وجميع الموانى والبرور إلىٰ ثَغرِ دمْياط وبُحيْرة تِنِّيسَ.

وحَدُّها من البَرِّ الغَرْبِيِّ: من تُونُسَ وإقليم إفْرِيقيَة وبِلادِها ومَوانِيها، وطَرابُلس الغَـرْبِ وثُغُورِها وبِلادِها ومَوانِيها، وبَرْقَةَ وثُغُورِها وبِلادِها ومَوانِيها، إلىٰ ثغْـر الإِسْكَنْدَرِيَّة ورَشِيد وبُحَيرة تِنِّيس وسواحِلِها وبِلادِها ومَوانِيها.

وما تَحْوِيهِ هـذه البلادُ والممَالكُ المذكورةُ والّتى لم تُذْكَر؛ والمَدَائن والثُّغور والسَّواحِل والمَوانى والطُّرقات فى البَرّ والبَحْر، والصُّدُور والوُرود، والمُقَام والسَّفَر، من عَسَاكرَ وجُنُود، وتُرْكانٍ، وأكْرادٍ، وعُرْبانٍ، ورَعَايا، وتُجَّار، وشَوَانى، ومَرَاكِبَ، وسُفُنٍ، وأَمْوال، ومَوَاشٍ، علىٰ اختلاف الأَدْيانِ والأَنْفارِ والأجناسِ، وما تَحْوِيهِ الأيدى من سائر أَصْناف الأَمْوال والأَسْلِحَة والأَمْتِعة والبضائع والمَتَاجِر، قليلًا كان أو كثيرًا، قَرِيبًا كان أو بعيـدًا، برًّا كان أو بَحْرًا ـ آمِنَةً(١) علىٰ الأَنْفُس، والأَرْواحِ، والأموال، والحَرِيم، والأَوْلادِ من المَلِك دون حاكم ومن أَخَوَيْه وصِهْرَيْه المذكورينَ، ومن أَوْلادِهم، وفُرْسانِهم، وخَيَّالَتِهِـم، ومُعاهَدِيهم، وعَمَـائِرهم، ورِجَالِهم، وكلِّ من يتعلَّقُ بهـم. وكذلك كُلُّ ما سيفتحه الله تعـالىٰ علىٰ يد المَلِكِ الأشرف، وعلىٰ يد أولاده وعَسَاكِره وجُيوشِـه، من القِلاع والحُصُون، والبِـلادِ والأقاليم، فإنه يَجْرِى عليه هذا الحُكْم.

وعلىٰ أن تكونَ بلادُ المَلِك دون حاكم وبِلادُ أَخَوَيْهِ وصِهْرَيْهِ ومَمَالِكُه المذكورةُ فى هـذه الهُدْنةِ، وهى: أَرْغُونُ وأعمالُهـا وبِلادُها: صَـقَلِّية وجَزِيرتُها وبِلادُها

(١) خبر قوله: أن تكون بلاد السلطان الواردة فى الصفحة قبل.

وأعْمالُهــا، بَرْبُولِيَةَ وأعمالُها و بِلادُها، جَزِيرَةُ مالَقَةَ، وقَوْصَرة و بلادُها وأعْمالُهــا، مَيُورَقةُ و يَابسَــةُ وبلادُها ، وأرسو يار (؟) وأعمالُها، وما سَيفتَحُه المَلِكُ دون حاكم من بلاد أعْدائِه الفَرَنْج المجــاورينَ له بتلك الأقاليم - آمِنــينَ من المَلِكِ الأشْرف وأوْلادِه، وعَساكِرِه وجُيُوشِه، وشَوانيه وعَمائِرِه، هى ومَن فيها من فُرْسانٍ وخَيَّالةٍ ورعايا . وأَهْلُ بلادِه آمِنــينَ مطمَئِنِّينَ على الأنفُسِ والأموالِ ، والحَرِيم والأوْلادِ ، فى البَرِّ والبَحْرِ ، والصُّدُور والوُرُودِ .

وعلىٰ أنَّ المَلِكَ دون حاكم هو وأَخَوَاهُ وصِهْراه أصْدِقاءُ مَن يُصادِقُ المَلِكَ الأشْرَفَ وأَوْلادَه، وأعْداءُ مَن يُعادِيهم من سائرِ المُلُوك الفَرَنْجية وغيرِ الملوك الفرنجيــة . وإن قَصَدَ البَابُ برُومِيَةَ، أو مَلِكٌ من مُلوكِ الفَرَنْج : مُتَوَّجًا كان أو غَيْرَ مُتَوَّجٍ، كبيرًا كان أو صــغيرًا ، أو من الجَنَوِيَّةِ ، أو من البَنَادِقَةِ ، أو من سائرِ الأجناس على ٱختلاف الفَرَنْج والرُّوم ، والبُيُوتِ : بيتِ الإخْوَةِ الديوية ، والاسبتارية ، والرُّوم ، وسائرِ أجناسِ النَّصارى - مَضَرَّةَ بلادِ المَلِكِ الأشْرَفِ، بمُحارَبَةٍ أو أذيَّةٍ، يمنعُهُم المَلِكُ دون حاكم هو وأخَوَاهُ وصِهْراه ويرُدُّونَهم ، ويعْمُرون شَوانِيَهم ومَراكِبَهم ، ويقصِدون بِلادَهُم، ويشْغَلُونهــم بنفُوسِهم عن قَصْــدِ بلاد المَلِكِ الأشْرفِ ومَوانِيهِ وسَواحِلِه وثغورِه المذكورةِ، وغَيرِ المذكورة ، ويقاتِلُونَهم فى البَرِّ والبَحْرِ بشوانيهم وعمائِرِهم، وفُرْسانِهم وخَيَّالَتِهم ورَجَّالَتِهم .

وعلىٰ أنَّه متىٰ خرج أحَدٌ من مُعاهِدى المَلِكِ الأشْرفِ من الفَرَنْج عن شروط الهُــدْنَةِ المستقِرّةِ بينَه وبينَهم، ووقَعَ ما يُوجِبُ فسخ الهُدْنَةِ ، لا يُعِينُهم المَلِكُ دون حاكم ولا أحَدٌ من أخَوَيْه ولا صِهْرَيْهِ ، ولا خيَّالَتِهــم ، ولا فُرْسانهم ، ولا أَهْــلِ بِلادِهم ، بخَيْــلٍ ولا خَيَّالةٍ، ولا سِلاحٍ ولا رَجَّالَةٍ ، ولا مال ولا نَجْدةٍ، ولا مِيرَةٍ ، ولا مَراكِبَ ولا شَوانٍ ولا غير ذلك .

وعلىٰ أنَّه متى طلب البَابُ برُوميَـةَ، ومُلوكُ الفَرَنْج، والرُّومِ، والتَّتـارِ، وغَيرُهم من الملك دون حاكم أو من أخَوَيْه أو من صِهْرِيْهِ أو من بلادهم، إنْجادًا، أو مُعاوَنَةً : بخَيَّالة، أو رَجَّالةٍ، أو مَال، أو مَراكِبَ، أو شَوانٍ، أو سِلاحٍ - لا يُوافِقُهم على شَيْءٍ من ذلك، لا فى سِرٍّ ولا جَهْرٍ؛ ولا يُعينُ أحدًا منهم ولا يُوافِقُـه علىٰ ذلك . ومتى ٱطَّلَعُوا علىٰ أنَّ أحدًا منهم يقْصِدُ بلادَ المَلِكِ الأشْرفِ لمُحارَبتِه أو لمضَرَّتِه بشَيْءٍ، يعرِّفُ المَلِكُ الأشرفُ بخَبَرِهم، وبالجِهَةِ التى ٱتَّفقوا علىٰ قَصْـدِها فى أقْرَبِ وَقْتٍ، قبل حوطتهم من بلادهم، ولا يُخْفيه شيئًا من ذلك .

وعلىٰ أنَّه متى ٱنْكسر مَرْكَبٌ من المراكب الإسْلامِيَّة فى بلاد الملك دون حاكم، أو بِلادِ أخَوَيْهِ أو بلاد صِهْرَيْه، [فعليهم] أن يَخْفُروهم، ويحفظوا مَراكِبَهم وأموالَهم، ويُساعِدُوهم علىٰ عِمـارةِ مَراكِبِهم ، ويُجَهِّزوهم وأمْوالَهم وبَضائِعَهم إلىٰ بلاد الملك الأشْرفِ . وكذلك إذا انكسرتْ مَرْكَـبٌ من بلاد دون حاكم، وبلاد أخَوَيْهِ وصِهْرَيْه، ومُعَاهِديه فى بلاد المَلِك الأشْرفِ، يكون لهم هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه .

وعلىٰ أنَّه متىٰ مات أحَدٌ من تُجّـارِ المسلمين ومن نصارىٰ بلادِ المَلِكِ الأشْرف، أو ذِمَّةِ أهْلِ بلاده، فى بلاد المَلِك دون حاكم وبلادِ أخَوَيه وصِهْريه وأولاده ومُعَاهِديه ، لا يعارضوهم فى أموالهم ولا فى بَضائِعهم، ويُحمَلُ مالُهم ومَوْجُودُهم إلىٰ بلادِ الملك الأشرف : ليفعلَ فيه ما يَخْتارُ . وكذلك من يَموتُ فى بلاد المَلِكِ الأشرفِ من أهْـلِ مملكة المَلِك دون حاكم وبلادِ أخَوَيْه وصِهْرَيْه ومُعَاهِدِيهِـم ، فلهم هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه .

وعلىٰ أنَّه متى عَبَرَ علىٰ بلاد المَلِكِ دون حاكم أو بلادِ أخَوَيه أو صِهْرَيْه أو مُعَاهِديه رُسُـلٌ من بلاد المَلِكِ الأشْرف قاصِـدين جِهَةً من الجهات القريبة أو البعيـدةِ ،

صَادِرِين أو وَارِدِين ، أو رماهم الرِّيحُ فى بلادهم ، تكونُ الرُّسُلُ وغِلمانُهم وأتْباعُهم ، ومن يَصِلُ معهم من رُسُل الملوك أو غيرهم ـ آمِنِينَ مَحْفوظِينَ فى الأنْفُسِ والأموال ، ويُجَهِّزُهم إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشرف .

وعلىٰ أنَّ المَلِكَ دون حاكم وأخَوَيه وصِهْرَيْهِ متى جَرَىٰ من أحدٍ من بلادهم قَضِيَّةٌ تُوجِبُ فَسْخ المهادنة ، كان على كلٍّ من المَلِكِ دون حاكم وأخويه وصِهْرَيْه طَلَبُ من يفعل ذلك وفِعْلُ الواجبِ فيه .

وعلىٰ أنَّ المَلِكَ دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه يفسحُ كلٌّ منهم لأهْلِ بلاده وغيرهم من الفرنج ، أنَّهم يَجْلُبُون إلى الثُّغور الاسلامية : الحَدِيدَ والبَيَاضَ والخَشَبَ وغير ذلك .

وعلىٰ أنَّه متى أُسِرَ أحَدٌ من المسلمين فى البَرِّ أو البَحْرِ ، من مَبْدإ تاريخ هذه المُهادَنَةِ من سائر البلاد : شَرْقِها وغَرْبِها ، أقصاها وأدْناها ، ووصلوا به إلىٰ بلاد المَلِك دون حاكم وبلاد أخَوَيه وصِهْرَيْه ليبيعوه بها ، فيلزمُ الملك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه فَكُّ أَسْرِه وحَمْلُه إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشرف .

وعلىٰ أنَّه متىٰ كان بين تُجَّار المسلمين ، وبين تُجَّار بلاد الملك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْهِ مُعَامَلةٌ فى بضائعهم ، وهم فى بلاد المَلِكِ الأشرف ، كان أمْرُهم محمولًا علىٰ مُوجَبِ الشَّرْعِ الشريف .

وعلىٰ أنَّه متىٰ رَكِبَ أحدٌ من المسلمين فى مَرَاكب بلاد الملك دون حاكم وأخَوَيه وصِهْرَيه ، وحَمَلَ بضاعَتَه معهم وعُدِمَتْ البِضاعة ، كان على المَلِك دون حاكم وعلىٰ أخَوَيه وصِهْرَيه ردُّها إن كانت موجودةً ، أو قِيمَتها إن كانت مَفْقُودةً .

وعلىٰ أنَّه متىٰ هَرَب أحَدٌ من بلادِ المَلِك الأشرف الدَّاخلةِ فى هَـذه المُهادَنَة إلىٰ بلاد المَلِك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيه ، أو تَوَجَّه ببِضاعة لغيره وأقام بتلك البلاد ،

كان على المَلِكِ دون حاكم وعلىٰ أخَوَيه وصِهْرَيْه ردُّ الهاربِ أو المقيم ببضاعة غيره، والمَالِ معه إلىٰ بلاد المَلِك الأشرف ما دام مُسْلِماً . وإن تَنَصَّر، يردُّ المالُ الذى معه خاصَّة . ولِمَمْلَكَةِ المَلِك دون حاكم وأخَوَيه وصِهْرَيْه فيمن يَهْرُب من بلادهم إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشرف هذا الحُكْمُ المذكورُ أعلاه .

وعلىٰ أنَّه إذا وصل من بلاد المَلِكِ دون حاكم وبلادِ أخَوَيه وصِهْرَيه ومُعَاهِدِيه من الفَرَنج من يقصِدُ زيارة القُدْسِ الشَّريفِ، وعلىٰ يَدِه كِتَابُ المَلِكِ دون حاكم وخَتْمُه إلىٰ نائِبِ المَلِكِ الأشرف بالقُدْس الشَّريف، يُفْسَحُ له فى الزِّيارة مَسْمُوحًا بالحَقِّ ليَقْضِىَ زيارَتَه ويَعُودَ إلىٰ بلاده آمِنًا مُطْمئِنًّا فى نَفْسِه ومَالِه، رجلًا كان أو آمْرأةً؛ بحيثُ إن الملك دون حاكم لا يَكْتبُ لأحَدٍ من أعدائه ولا من أعْداءِ المَلِكِ الأشرف فى أمْرِ الزيارة بشَىْءٍ .

وعلىٰ أنَّ المَلِك دون حاكم يحْرُسُ جميعَ بلادِ المَلِك الأشرفِ هو وأخَوَاه وصِهْراه من كل مَضَرةٍ، ويجتهدُ كلُّ منهم فى أنَّ أحدًا من أعْداءِ المَلِك الأشرف لا يَصِلُ إلىٰ بلاد المَلِكِ الأشْرف، ولا يُنْجِدُهم علىٰ مَضَرَّةِ بلاد الملك الأشْرفِ ولا رعاياه، وأنه يساعِدُ المَلِك الأشْرَفَ فى البَرِّ والبَحْرِ بكلِّ ما يشتهيه ويختارُه .

وعلىٰ أنَّ الحقوقَ الوَاجِبةَ علىٰ من يَصْدُر ويَرِدُ ويَتردَّدُ من بلاد الملك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه، إلىٰ ثَغْرِى الإسْكَنْدرِيَّة ودِمْياط، والثُّغورِ الإسلامية، والممالكِ السُّلْطانية، بسائر أصناف البضائع والمَتَاجِر على آختلافها، تستمرُّ علىٰ حُكْم الضرائبِ المستقِرَّةِ فى الدِّيوان المَعْمُورِ إلىٰ آخرِ وَقْتٍ، ولا يُحْدَثُ عليهم فيها حَادِثٌ . وكذلك يَجْرِى الحُكْمُ علىٰ من يتردَّدُ من البلاد السلطانية إلىٰ بلاد المَلِك دون حاكم وأخَوَيْه وصِهْرَيْه .

تَسْتَمِرُّ هذه المودّةُ والمُصادَقة علىٰ حُكْمِ هذه الشُّروطِ المَشْروحةِ أعلاه من الجهات على الدَّوامِ والاستمرار، وتَجْرِى أحْكامُها وقَواعِدُها علىٰ أجْملِ الاستقرار، فإن المَمالكَ بها قد صارتْ مَملكَةً واحِدَةً وشيئًا واحِدًا ؛ لا تَنْتقضُ بمَوتِ أحَدٍ من الجانبين ، ولا بعزْلِ والٍ وتَوْلِيَةِ غيره، بل تُؤَيَّدُ أحكامُها، وتَدُومُ أيَّامُها، وشُهُورُها وأعوامُها . وعلىٰ ذلك انتظمتْ واستقرَّتْ فى التاريخ المَذْكور أعلاه، وهو كذا وكذا، واللهُ الموفِّقُ بكَرَمِه إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ : وهذه النُّسَخُ الخمسُ المتقدِّمَةُ الذِّكْرِ نقلتُها من تَذْكِرَة محمد بن المكَرَّمِ ، أحَدِ كُتَّابِ الإنشاء بالدَّوْلة المنصورية «قلاوون» المُسَمَّاة : «تَذْكِرَة اللَّبِيب، ونُزْهة الأَدِيب» من نُسْخةٍ بخَطِّه ، ذَكَرَ فيها أن النُّسْخةَ الأولىٰ منها كتَبها بخطِّه علىٰ مَدينة صَفَد . وليس منها ما هو حَسَنُ التَّرتيبِ، رائِقُ الألْفاظِ، بَهِجُ المَعَانِى، بَليغُ المقاصد، غَيرَ النُّسخَةِ الأخيرةِ المعقودةِ بين المَلِك الأشْرفِ وبين المَلِك دون حاكم . أما سائرُ النُّسَخ المتقدِّمةِ فإنها مُبْتذَلَةُ الألفاظِ ، غيرُ رائِقَةِ التَّرتيبِ ، لا يَصْدُر مِثْلُها من كاتِبٍ عنده أدْنىٰ مُمارَسَةٍ لِصناعةِ الكلام . والعَجَبُ من صدور ذلك فى زَمَنِ «الظَّاهر بِيبَرْس» و«المَنْصورِ قلاوون» وهما من هما من عُظَماءِ المُلُوك ! ! وكِتَابةُ الإنشاءِ يومَئذٍ بيَدِ بنى عَبْد الظَّاهِرِ الذين هم بَيْتُ الفصاحةِ ورُءُوسُ أرباب البَلاغة ! ! ! ولَعلَّ ذلك إنما وَقع، لأن الفَرَنْج كانوا مُجاوِرِينَ للمسلمين يومئذٍ ببلاد الشَّام، فيقعُ الاتِّفاقُ والتراضى بين الجِهتَين علىٰ فَصْلٍ فَصْلٍ ، فيكتُبُه كاتِبٌ من كلِّ جِهةٍ من جِهتى المسلمين والفرنج بألفاظٍ مُبْتذَلةٍ غيرِ رائِقةٍ، طَلَبًا للسُّرعَةِ، إلىٰ أن ينتهىَ بهم الحالُ فى الاتِّفاق والتراضى، إلىٰ آخر فُصُول الهُدْنة ، فيكتبها كاتِبُ المَلِكِ المُسلِم علىٰ صُورة ما جَرىٰ فى المُسْوَدّة ، ليطابِقَ ما كتب به كاتِبُ الفَرَنْج . إذ لو عَدَلَ فيها كاتِبُ

السلطان إلى الترتيب ، وتَحْسِينِ الألفاظِ وبَلاغةِ التَّركيبِ ، لاَخْتلَّ الحالُ فيها عمـا وافَقَ عليه كَاتِبُ الفَرَنْجِ أوّلا ، فينكرونَه حينئذٍ ، ويَرَوْنَ أنه غيرُ ما وقع عليه الاتِّفاق ، لقُصُورهم فى اللُّغةِ العربِيَّة ، فيحتاجُ الكاتِبُ إلىٰ إبقاء الحَـالِ علىٰ ما توافق عليـه الكَاتِبان فى المُسْوَدَّةِ . وبالجُمْلة فإنمـا ذكرتُ النُّسخَ المذكورةَ ـ علىٰ سَخَافةِ لَفْظِها ، وعَدَمِ انْسِجام تَرْتِيبِها ـ لاَشْتمالِهـا على الفُصُول التى جَرىٰ فيها الاتِّفاقُ فيما تقدّم من الزَّمان ، ليَسْتمدَّ منها الكَاتِبُ مالَعلَّه لا يحْضُر ببَالِه من مَقاصِدِ المُهادَنات ، أغنانا اللهُ تعالىٰ عن الحَاجَةِ إليها .

واعلم أنه قد جَرَت العادةُ ، أنه إذا كُتبت الهُدنةُ ، كُتب قرينَها يمينٌ يَحْلِفُ بهـا السلطانُ أو نَائبُه القائمُ بعَقْدِ الهُدْنةِ ، على التَّوْفِيَةِ بفُصُولها وشُروطِها ؛ ويَمينٌ يحلِفُ عليهـا القائمُ عن المَلِك الكافرِ بعَقْدِ الهُـدْنةِ ، ممَّن يأذَنُ له فى عَقْدِها عنه ، بكتابٍ يصْدُر عنه بذلك ، أو تُجَهَّزُ نسختُها إلى المَلِك الكَافرِ ليَحْلِفَ عليها ، ويكتبَ خَطَّه بذلك ، وتُعادَ إلى الأبواب السلطانية .

المَــــذْهَب الثـالث

(أن تُفْتتحَ المُهادَنةُ بخُطْبةٍ مبتدأَةٍ بـ«الحمد لله»)

وعلىٰ هذا بَنىٰ صاحبُ "موادّ البيان" أمْرَه فى كِتابة الهُدْنةِ ، حيث قال : والرسم فيها أن تُفْتتحَ بحمدِ الله تعـالىٰ على الهِـدايَةِ إلىٰ دِينِ الإسـلام الذى أذَلَّ كُلَّ دِينٍ وأعزَّه ، وخَذَل كُـلَّ شَرْعٍ ونَصَره ، وأخْفَىٰ كلَّ مَذْهبٍ وأظْهَره ؛ والتَّوغُّل فى تَوْحيدِه ، وتَقْديسِـهِ وتَمْجِيدِه ؛ والثَّناء عليه بآلائه ، والصلاة علىٰ خَيرِ أنبيائه ؛ محمد صلى الله عليه وسلم .

قلتُ : ولم يأتِ بصُورة هُــدْنةٍ مُنْتظمةٍ علىٰ هــذا الترتيب ، بَلْ أشار إلىٰ كَيْفيّةِ عملها . ثم قال : والبَلِيغُ يكتَفِي بقَرِيحَتِه فى ترتيبِ هذه المعانى إذا دُفِع إلى الانشاء فيها ، إن شاء الله تعالىٰ . ولم أقِفْ لغيره علىٰ صُورة هُدْنةٍ مفتتحةٍ بالتحميد ، ولا يخفىٰ أن الآبتداءَ به فى كلِّ مُهِمٍّ من العُهودِ وجلائِل الولايات ونَحْو ذلك هو المَعْمولُ عليه فى زَمَانِنا .

الطـــــرف الثـانى

(فيما يُشارِكُ فيه مُلوكُ الكُفْرِ مُلوكَ الإسلام فى كتابة نُسَخٍ من دواوينهم)

اِعلم أنَّ الغالِبَ فى الهُدَنِ الواقعــةِ بين مُلوكِ الديار المصرية وبين مُلوكِ الكُفْر أن تُكْتَبَ نســخةٌ تخلَّدُ بديوان الإنشاء بالدّيار المصرية ، ونُسْــخةٌ تجهَّزُ إلى المَلِك المُهادَنِ . ورُبَّمــا كتبتْ نسخةٌ من دِيوانِه مُفْتتحةٌ بيَمِينٍ .

وهذه نسخةُ هُدنةٍ ورَدَتْ من جهة الأشــكرى ، صاحبِ القُسْطَنْطِينِيَّةِ فى شَهْر رمضان ســنة ثمــانين وستمائة ، مؤرَّخَةٌ بتاريخ موافقٍ لأواخر المحرَّم من السَّنة المذكورة ، فعُرِّبتْ فكانت نُسْخَتُها علىٰ ماذكره آبن مُكَرَّمٍ فى "تَذْكِرَتِه" :

إذْ قد أراد السلطانُ العَظِيمُ ، النَّسيبُ ، العَالِى ، العَزِيزُ ، الكَبِيرُ الجنْسِ ، المَلِكُ ، المنصورُ ، سَــيْفُ الدِّين « قلاوون » صاحبُ الديار المصرية ودِمَشْقَ وحَلَب ، أن يكونَ بينه وبين مَمْلَكَتِي مَحَبَّةٌ ـ فمملَكَتِي تُؤْثِرُ ذلك ، وتختارُ أن يكونَ بينها وبين عزِّ سلطانه مَحَبَّة . ولهذا وجب أن يَتوسَّطَ هذا الأمْرَ يمينٌ وآتِّفاقٌ : لتدومَ المَحَبَّةُ التى بهذه الصُّورة فيما بين مَمْلكتِي وعِزِّ سُلْطانِه ثابِتَــةً بلا تَشْوِيشٍ . فمملَكَتِي هذا اليوم ، وهو يَومُ الخميس الثامِنُ من شهر إيار من التاريخ [الرومى] التابع لسنة ستة آلاف

وسبعمائة وتِسْعٍ وثمانين لآدم ـ تحْلِفُ بأناجيل اللهِ المقدّسة، والصَّليبِ المُكَرَّمِ المحييّ، أنَّ مملكتِي تكونُ حافظةً للسُّلطانِ العظيم، النَّسيبِ، العَالِي، العَزيزِ، الكَبيرِ الجنْس، سَيْفِ الدِّين «قلاوون» صاحبِ الدِّيار المصرية ودِمَشْقَ وحَلَبَ، ولولَدِه ولوارِثِ مُلْكِ عِزِّ سُلْطانه : محبّةً مُسْتقيمةً، وصَداقةً كاملةً نَقيَّةً، ولا يُحرِّكُ مُلْكِي أبدًا علىٰ عِزِّ سلطانه حَرْبًا، ولا علىٰ بلادِه ولا علىٰ قِلَاعِها، ولا علىٰ عساكره؛ ولا يَتَحرَّكُ مُلْكِي أبدًا علىٰ حَرْبِه، بحيثُ إنَّ هذا السُّلطانَ العَظِيمَ، النَّسيبَ، العالِي، العزيزَ، الكَبيرِ الجِنْسِ، المَلِكَ المنصورَ سَيفَ الدِّين «قلاوون» صاحِبَ الدِّيارِ المِصْرية ودَمَشْقَ وحَلَبَ، يحفظُ مثلَ ذلك لمَمْلكَتِي ولولَدِ مَمْلَكَتِي الحَبِيبِ الكمينوس، الانجالوس، الدوقس، البالاولوغس، الملك ايرلنك، ولا يُحرِّكُ عِزُّ سُلطانه علىٰ مَمْلَكَتِنا حَرْبًا قطُّ، ولا علىٰ بِلادِنا، ولا علىٰ قِلَاعِنا، ولا علىٰ عَساكِرِنا؛ ولا يُحرِّكُ أحدًا آخرَ أيضًا علىٰ حَرْبِ مملكتنا. وأن تكونَ الرُّسلُ المتردّدون عن عِزِّ سلطانه أيضًا مطلقا [آمنين، لهم] أن يَعْبُرُوا فى بلاد مَمْلَكَتِي بلا مانع ولا عَائِقٍ، ويتوجَّهُوا إلىٰ حَيْثُ يَسيرون من عِزِّ سلطانه، وكذلك يعودُون إلىٰ عِزِّ سلطانه. وأن لا يحصُلَ للتُّجَّار الوَاردين من بلاد عِزِّ سلطانه [ضرر] من بلاد مَمْلَكَتِي، لايحذَرُونَ من أحَدٍ جَوْرًا ولا ظُلْمًا، بل يكون لهم مباحًا أن يعملوا مَتَاجِرَهم. ونظيرُ هذا ـ التُّجَّارُ الواردون إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه من أهْلِ بلاد مُلْكِي، يقومون بالحقِّ الواجِبِ علىٰ بضائعهم، وليقُمْ كذلك التُّجَّار الواردون من بلاد عِزِّ سلطانه إلىٰ بلاد مُلْكِي بالحقِّ الواجِبِ علىٰ بضائعهم. وإن حضر من بلاد سُوداقَ تُجَّـارٌ وأرادوا السَّفَرَ إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه، فلا ينالُ هؤلاء تَعْويقٌ فى بلاد مُلْكِي، بل فى عُبُورِهم وعَوْدِهم يكونون بلا مانع ولا عَائِقٍ بعد القيام بالحقِّ الواجِبِ. وهؤلاء التُّجَّارُ الذين من بلاد عِزِّ سلطانه والذين من أهْل سُوداقَ إن حضر صحبتَهم مماليكُ وتُجَّار، فليعُودُوا بهم إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه بلا عائقٍ

ولا مانع ، ماخلا إن كانوا نَصارىٰ ، لأنَّ شَرْعنا وتَرْتِيبَ مَذْهَبِنا لا يسمحُ لنا فى أمر النَّصارىٰ بهذا .

وأمَّا إن كان فى بلاد عِزِّ سلطانه ممـاليكُ نصارىٰ : رُومٌ وغيرُهم من أجنـاس النَّصارىٰ ، متمسِّكون بدِينِ النصارىٰ ، ويحصلُ لقومٍ منهم العِتْقُ ، فلْيكُنْ للذين معهم عَتَائق مباح ومطلق من عِزِّ سلطانه ، أن يَفِدُوا فى البَحْرِ إلىٰ بلاد مَمْلكَتِي . وكذلك إن أراد أحدٌ من أهل بلاد عِزِّ سُلْطانِه أن يبيعَ مملوكًا نَصْرانيًّا هـذه صورَتُه لأحَدٍ من رُسُـل مملكتى ، أو لتُجَّار وأُناس بلادِ مملكتى ، أن لا يجِدَ فى هذا تَعْويقًا ، بل يَشْـتروا المذكورَ ويَفِدُوا به فى البَحْر إلىٰ بلاد مملكتى بلا عَائِقٍ . وأيضًا إن أراد هـذا السلطانُ العَظِيم النَّسيبُ ، أن يُرْسِـلَ إلىٰ بلاد مُلْكى بضائع مَتْجَرا ، وأرادتْ مملكَتِي أن تُرسِلَ إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه بضائع مَتْجَرا ، فليكُنْ هكذا : وهو إن أراد عِزُّ سـلطانه أن تكونَ بضائع مَتاجِرِهِ فى بلاد مُلْكِى مُنَجَّاة من القيام بكلِّ الحقوق ، فلتكُنْ أيضـا بَضَائِـعُ متاجر مَمْلكَتِي فى بلاد عِزِّ سـلطانه مُنَجَّاةً مِثْل ذلك من كلِّ الحقوق ، وإن أراد أن تَقُومَ مَتاجِرُ مُلْكِى فى بلاده بالحُقوق الواجبـةِ [يَقُومُ] بمثلِ ذلك . وأيضًا أن يُطْلِقَ عِزُّ سلطانِه لمُلْكِى أن يُرسلَ أناسًا من بلاد مَمْلكَتِي إلىٰ بلاد عِزِّ سلطانه ، فيشترون لى خَيْلًا جيـادًا ويحمِلُونها إلىٰ بلاد مُلْكِى . وكذلك إن أراد عِزُّ سُلطانِه شَيْئًا من خيرات بِلادِ مُلْكى ، فَمَلْكَتِي أيضا تُطْلِقُ لعِزِّ سُلْطانِه أن يُرسلَ أناسَهُ ليشتروه ويَحْمِلُوه إلىٰ عِزِّ سُلطانه .

ولمَّـا كان فى البَحْرِ كرساليه من بلاد غَريبَـةٍ ، وقد يَتَّفِقُ فى بَعْضِ الأوقات أن يعـمَلُوا خسارةً فى بلاد مُلْكِى ، وكذلك يجدون هؤلاء الكرساليـة قومًا من بلاد عِزِّ سلطانه فيعملون لهم خَسارَة ، ثم إنَّ هؤلاءِ الكرسالية يفعلون هذا فى الآفاق فى تُخُومِ بلاد مُلْكى . لأجْلِ هذا صار : إذا حَضَرَ قَوْمٌ من بلاد مَمْلكَتِي إلىٰ بلاد عِزِّ

سُلطانِه بمَتْجَرٍ يُمْسِكُون من أهْلِ بلادِ عِزِّ سُلطانه و يغرِّمون . ولهذا فلْيَصِرْ مرسومٌ من عِزِّ سلطانِه فى كلِّ بلاده أن أحدًا من أهـل بلادِ مَمْلَكَتِي لا يغرّم بهذا السَّبَبِ ولا يُمْسك ، و إن عَرَض أن يقولَ أحَدٌ من أهل بلاد عزّ سلطانه : إنه غُرِّمَ أو ظُلِمَ من أهْـلِ بلاد مُلْكى فليعرّف مُلْكِى بذلك . و إذا كان الذى وضَع الغرامةَ من أهل بلادِ مُلْكى ، فمُلْكِى يأمُر ، وتعادُ تلك الخَسارةُ إلىٰ بلاد عِزِّ سُلطانِه . وكذلك إن قال أحدٌ من أهل بلادِ مَمْلكَتِي : إنه ظُلِمَ أوغُرِّم من أحَدٍ من بلادِ عِزِّ سُلطانِه ، يأمُرُ عِزُّ سُلْطانِه ، وتعادُ الغَرامَةُ إلىٰ بِلادِ مُلْكِى . وأيضا إذ قد أزْمعَت المحبَّـةُ أن تَصير بهذه الصُّورة ، وتكونَ الصَّداقةُ بين مَمْلكَتِي وعِزِّ سلطانه خالِصةً ، حتَّى إنه أرسل يقولُ لمُلْكِي علىٰ مَعُونةٍ ونَجْدةِ مُلْكِى فى البَحْرِ لمَضَرَّةِ العَدُوِّ المشترك ، فمَمْلَكَتِي تفوِّضُ هذا الأمْرَ إلى آختيـار عِزِّ سُلْطانه ، أن يرتب فى نسخة اليمين مع بَقِيَّةِ الفصول المعيَّنَة فيه ، وتأتى الصورة كيف تعين وتنجد مملكتى فى البحر . و إن كان لا يُريد نَجْدةَ ومَعُونةَ مَمْلَكَتِي ، فمملكَتِي تسمحُ بهذا الفَصْل أن لا يضَعَه عِزُّ سلطانه فى نُسْخةِ يَمينِه ، وهذه اليمينُ منا بحفظ مُلْكى لعِزِّ سلطانه ثابِتَةً غيرُ متَزَعْزِعة إن كان هذا السلطان العظيم يَحْلِفُ لى يميناً بمثلها ، وأنه يحفَظُ المحبَّة لمملكتنا ، ثابِتةً غير مُتَزَعْزِعَة ، والسَّلام .

وهذه نُسخةُ آتِّفاقٍ ، كتبتْ من الأبواب السلطانية عن المَلِك المنصور «قلاوون» عن نظير الهُـدْنة المتقدّمة ، الواردة من قِبَـلِ صاحب القُسْطَنْطِينِيَّةِ ، مفتتحةً بيمين موافِقَةٍ لها ، وهى :

أقولُ وأنا فلانٌ : إنه لمـا رغِبَ حضرة المَلِك الجليل ، كرميخائيل ، الدوقس ، الأنجالوس ، الكمينيوس ، البالاولوغس ، ضابطِ مَمْلكةِ الرُّوم والقُسْطَنْطِينِيَّة العُظْمىٰ ،

أكْبرِ مُلوكِ المَسيحيَّة ، أبقاه الله ـ أن يكونَ بين مَمْلكته وبين عِزِّ سُلْطانى ، محبةٌ وصَدَاقةٌ ومَوَدَّةٌ لاتتغير بتغيُّرِ الأيام، ولا تَزُولُ بزوال السِّنين والأعوام، وأكَّد ذلك بيَمِينٍ حَلَف عليها، تارِيخُها يومُ الخميسِ ثامنِ شهر إيار سـنة ستة آلافٍ وسـبعمائة وتسع وثمانين لآدَمَ، صلواتُ الله عليه، بحضورِ رَسُولِ عِزِّ سلطانى، الأميرِ ناصرِالدِّين ٱبن الجَزَرِىِّ ، والبَطْرِكِ الجليـلِ انباسيوس بَطْرَكِ الاسكندرية، وحضر رسـولاه فلان وفلان إلىٰ عِزِّ سلطانى بنُسْخةِ اليمين ، مُلتمِسَيْنِ أن يتوسَّط هذا الأمْرَ أيضًا يَمِينٌ وٱتفاقٌ من عِزِّ سُلْطانى ، لتَدُوم المحبَّةُ فيما بين مَمْلكتِه وعِزِّ سُلْطانى ، وتكونَ ثابتةً مستَمِرّةً على الدَّوام والاسْتِمرار .

فعِزُّ سُـلطانِى من هـذا اليَوْم، وهو يومُ الاثنين مُسْتَهَلُّ رمضانَ المعظمِ، سـنة ثمـانين وستِّمائة للهجرة النَّبوِيَّة المحَمَّدِيَّة ، علىٰ صاحبها أفضـلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ ؛ يحلِفُ بالله العَظِيم، الرَّحمٰنِ الرَّحِيم، عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادةِ ، والسِّرِّ والعَلَانيَةِ وما تُخْفِى الصُّدُور ، وبالقُرءان العَظِيم ، وبِمَن أنْزله ، وبِمَن أُنْزِلَ عليه ، وهو النَّبِىُّ الكريمُ ، محمدٌ صـلَّى الله عليه وسَـلَّم ـ على ٱستمرار الصَّداقَةِ ، وٱستِقْرارِ المَوَدَّة النَّقِيَّـة، للمَلِكِ الجليـلِ كر ميخائيـل ، ضَابِطِ مملكَةِ الرُّومِ والقُسْطَنْطِينيَّة العُظْمىٰ ، واوَلَدِ مملكتِه الحَبِيبِ الكمينيوس الانجالوس، الدُّوقس، البالاولوغس، الملك إيرإندروبنفوس، ولوارِثِى مملكة مُلْكه . ولا يحرّك عِزُّ سـلطانِى أبدًا علىٰ مملكتـه حَرْبًا ، ولا علىٰ بِلادِه ، ولا علىٰ قِلاعِـه ، ولا علىٰ عَساكِرِه : فى برٍّ ولا بَحْرٍ . ولا يحَرِّكُ عِزُّ سلطانِى أحدًا آخَرَ علىٰ حَرْبِه ، بحيثُ إن المَلِكَ الجليلَ كر ميخائيل يحفظُ مثلَ ذَلك لعِزِّ سُلطانِى ، ولمُلْكِى، ولبِلادِى ، ولقِلاعِى، ولعَساكِرِى ، ولوَلَدِى السُّلطانِ المَلِكِ الصالح علاء الدين «عَلِىٍّ» ولوَارِثِى مُلْكى من أولادى ؛ ويسـتمرُّ علىٰ هـذه الصـداقَة والمَوَدَّةِ النَّقِيَّـة ، ولا يُحرِّكُ مُلْكُه علىٰ عِزِّ سلطانى حَرْبًا قطُّ ، ولا علىٰ

بلادى ، ولا علىٰ قِلاعى ، ولا علىٰ عساكِرى ، ولا علىٰ مَمْلكَتِى ، ولا يحرِّكُ أحدًا آخَرَ علىٰ حَرْبِ مَمْلكَةِ عِزِّ سُلْطانى فى البَرِّ ولا فى البَحْر ، ولا يساعِدُ أحدًا من أضْدادِ عِزِّ سُلطانى ، ولا أعْدائِى من سائر الأديان والأجناس ، ولا يُوافقُه علىٰ ذلك ، ولا يَفْسَحُ لهم فى العُبُورِ إلىٰ مملكة عِزِّ سلطانى لمضَرَّة شَىْءٍ فيها بجُهْده وطَاقَته .

وأن الرسلَ المسَيَّرِينَ من مَمْلكَةِ عِزِّ سُلطانِى إلىٰ بَرِّ بَرَكَةَ وأوْلاده و بِلادهم وتلك الجهات ، وبَحْرِ سُوداق وبَرِّه ، يكونون آمِنينَ مُطمَئِنِّين مطلقًا : لهم أن يَعْبُروا فى بلاد مملكَةِ المَلِك الجليل ، كرميخائيل من أوَّلِها إلىٰ آخِرِها ، بلا مانِعٍ ولا عائِقٍ : أُرْسِلُوا فى بَرٍّ أو بَحْرٍ ، علىٰ ماتقتضيه مَصْلحةُ ذلك الوَقْتِ لمملكَةِ عِزِّ سُلطانى ، آمِنين مُطمئِنِّين ، غير مَمْنوعين بجميع من يَصِلُ معهم من رُسُلِ تلك الجهات وغيرها ، وكلِّ من معهم من مَمَاليكَ وجَوارٍ وغير ذلك . وأن لايحصُلَ للتُّجَّار الواردينَ من مَمْلكَةِ المَلِك الجليلِ كرميخائيل إلىٰ بلاد عِزِّ سُلطانِى جَوْرٌ ولا ظُلْمٌ ، و يترددون آمِنين مُطمَئِنِّين يعملون مَتاجِرَهم ، ولهم الرِّعايةُ فى الصُّدُورِ والوُرُودِ ، والمُقامِ والسَّفَرِ : بحيثُ يكونُ لتُجَّارِ مملكةِ عِزِّ سُلطانِى فى بلاد مملكَةِ المَلِك الجليل كرميخائيل مثلُ ذلك ، ويكونون مَرْعِيِّين ، لايجدون من أحَدٍ فى بلاد مملكة المَلِك الجليل كرميخائيل جَوْرًا ولا ظُلْمًا . ومن عليه حَقٌّ واجِبٌ فى الجهتين علىٰ ما آستقرَّ عليه الحالُ ، يقومُ به من غير حَيْفٍ ولا ظُلْمٍ .

وأنَّ من حضر من التُّجَّار : من سُوداقَ وغيرها بمماليكَ وجَوارٍ تُمَكِّنُهم مملكةُ المَلِك الجليلِ كرميخائيل من الحضور بهم إلىٰ مَمْلكَةِ عِزِّ سلطانى ولا تَمْنَعُهم . وأن الكرسالية مَتىٰ تعرَّضُوا إلىٰ أخْذ أحَدٍ من التُّجَّار المسلمين فى البَحْرِ ، ونُسِبَتْ الكرسالية إلىٰ رَعيَّةِ مملكة المَلِك الجليلِ كرميخائيل ، يُسَيِّرُ عِزُّ سُلطانِى إليه فى طَلَبهم ،

ولا يتعرّض أحَدٌ من نُوّاب مملكة عِزِّ سلطانى إلىٰ هـذا الجنس بسَبَبِهم، إلا أن يَتحقَّقَ أنهم آخِذُون، أو تَظْهَرَ عَيْنُ المـالِ معهم، علىٰ ما تضمَّنَتْه نُسْخَةُ يَمِينِ المَلِك الجليلِ كر ميخائيل، ولمملكة الملِك الجليـل كر ميخائيل من بلاد عِزِّ سُلطانِى مثلُ ذلك .

وعلىٰ أنَّ الرسُلَ المتردّدين من الجهتين : من مملكةِ عِزِّ سُلطانى ، ومن مملكة المَلِكِ الجليلِ كر ميخائيل، يكونون آمِنِينَ مُطمَئِنِّين فى سَفَرِهم ومُقَامِهم : بَرًّا وبَحْرًا، وتكون رَعِيَّةُ بلاد عِزِّ سلطانى ، ورعيةُ بلاد المَلِك الجليل كر ميخائيل، فى الجهتين من المسلمين وغيرهم آمِنِينَ مُطمَئِنِّين ، صادِرِينَ وارِدِينَ، مُحْتَرَمِينَ مَرْعِيِّين . وهذه اليمينُ لا تزالُ مَحْفوظةً مَلْحوظةً ، مُسْتمِرَّةً مستقرّةً، على الدَّوامِ والاسْتِمرار .

قلتُ : وهذه النُّسخةُ والنُّسخةُ الوارِدَةُ من صاحب القُسْطَنْطِينِيَّة المتقدِّمة عليها، وإن عُبِّرَ عنهما فى خلالها بلَفْظِ اليمين ، فإنهما بعَقْدِ الصُّلْح أشْـبَهُ ، واليمينُ جُزْءٌ من أجْزاءِ ذلك، ولذلك أوردتُها فى عُقُودِ الصُّلْح دون الأَيْمـان .

البـاب الخـامس
من المقـالة التـاسـعة
(فى عُقُود الصُّلْح الواقعةِ بين مَلِكين مُسْلمين ، وفيه فصلان)

الفصـل الأوّل
فى أُصـولٍ تُعتمَـدُ فى ذٰلك

اعلم أنَّ الأصْـلَ فى ذلك ما ذكره أصحابُ السِّيَرِ وأهْلُ التّـارِيخ ، أنه لمّـا وقع الحَـرْبُ بين أمير المؤمنين عَلِيّ بن أبى طَالِبٍ كَرَّم اللهُ وجْهَـه ، وبين مُعـاوِيَةَ بن أَبى سُفْيانَ رضِىَ اللهُ عنه ، فى صِفِّينَ ، فى سنة سبع وثلاثين من الهِجْرة ـ تَوافقَا علىٰ أن يُقيما حَكَمَيْنِ بينهما ، ويَعْمَلَا بمـا يتَّفِقان عليه . فأقام أميرُ المؤمنين عَلِىٌّ أبا مُوسىٰ الأشْعَرِىّ حَكَمًا عنه ، وأقام مُعاوِيةُ عَمْرو بن العَاص حَكَمًا عنه . فاتّفق الحَكَمان علىٰ أن يُكْتبَ بينهما كِتَابٌ بعَقْدِ الصُّلْح ، وآجتمعا عنـد عَلِىٍّ رضى الله عنه ، وكُتِب كِتَابُ القَضِيَّة بينهما بحَضْرتِه ، فكُتِب فيه بعد البَسْمَلة :

هذا ما تقاضىٰ أميرُ المؤمنين عَلِىٌّ ، فقال عمرو : هو أميركم ، أما أميرنا فلا . فقال [الأحنف : لا تَمْحُ آسم أمير المؤمنين فإنى أخاف إن مَحَوْتَها أن لا ترجعَ إليك أبدا . لا تَمْحُها وإن قتل الناس بعضهم بعضا ، فأبىٰ ذلك علِىٌّ مَلِيًّا من النَّهار . ثم إن الأشْعَث] (١) آبن قيس قال : أُمحِ آسم أمير المؤمنين ، فأجاب عَلِىٌّ ومحاه . ثم قال عَلِىٌّ : اللهُ أكبر ! سنةٌ بسنةٍ . واللهِ إنى لكَاتِبُ رسولِ اللهِ صلَّى الله عليه وسلم يوم الحُدَيْبِيَة ، فكتبتُ : محمدٌ رسولُ اللهِ ، فقالوا : لَسْتَ برسولِ اللهِ ، ولكن آكتبِ آسْمَك وآسْمَ أبيـك .

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من الكامل لابن الأثير ج ٣ ص ١٣٨ .

فأَمَرني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بمَحْوِه ، فقلتُ : لا أستطيع أفعل ! فقال إذَنْ أرنيه فأَرَيْتُه فمحاه بيَدِه ، وقال : « إنَّكَ سَتُدْعَىٰ إلىٰ مِثْلِها فتُجيب » .

وهذه نُسْخةُ كِتابِ القَضِيَّة بين أميرِ المؤمنين عَلِيٍّ وبين مُعاوِيَةَ ، فيما رواه أبو عَبْدِ الله الحُسَيْنُ بن نَصْر بن مُزاحِم المِنْقَرِيّ ، في "كتاب صِفِّينَ والحَكَمَين" بسَنَدِه إلى محمد بن عليّ الشَّعْبيّ ، وهو :

هذا ما تقاضىٰ عليه عَلِيّ بنُ أبِي طالِبٍ ، ومُعاوِيةُ بنُ أبي سُفْيانَ وشِيعَتُهما ، فيما تَراضَيَا من الحُكْمِ بكِتابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبِيِّه محمدٍ صلى الله عليه وسلم . قَضِيَّةُ عليٍّ علىٰ أهْلِ العِرَاقِ ومن كان من شِيعَتِه من شاهِدٍ أو غائِبٍ ، وقَضِيَّةُ مُعاوِيَةَ علىٰ أهْلِ الشَّام ومن كان من شِيعَتِه من شاهِدٍ أو غائِبٍ ، انا رَضِينا أن نَنْزِلَ عند حُكْمِ كتاب اللهِ بيننا حُكْمًا فيما آختلفنا فيه من فَاتِحَتِه إلىٰ خَاتِمَته ، نُحْيي ما أحْيَا ، ونُمِيتُ ما أمات . علىٰ ذلك تَقاضَيْنا ، وبه تَراضَيْنا . وانَّ عليًّا وشِيعَتَه رَضُوا أن يبعثُوا عبدَ اللهِ بنَ قَيْسٍ ناظِرًا ومُحاكِمًا ، ورَضِيَ مُعاوِيةُ وشِيعَتُه أن يبعثُوا عَمْرَو بنَ العاص نَاظِرًا ومُحاكِمًا ، علىٰ أنهم أخَذُوا عليهما عَهْدَ الله ومِيثَاقَه ، وأعْظَمَ ما أخَذَ اللهُ علىٰ أحَدٍ من خَلْقِه ، لَيَتَّخِذَانِ الكِتابَ إمامًا فيما بُعِثا له ، لا يَعْدُوانه إلىٰ غَيْرِه في الحُكْمِ بما وَجَدا فيه مَسْطورًا ، وما لم يَجِداه مُسَمًّى في الكِتَابِ رَدَّاه إلىٰ سُنَّةِ رسولِ اللهِ الجامعةِ ، لا يَتَعَمَّدانِ لها خِلافًا ، ولا يَتَّبِعانِ في ذلك لهما هَوًى ، ولا يدخلانِ في شُبْهةٍ .

وأخَذَ عبدُ اللهِ بنُ قَيْسٍ ، وعَمْرُو بنُ العاصِ علىٰ عَلِيٍّ ومُعاوِيَةَ عَهْدَ اللهِ ومِيثَاقَه بالرِّضا بما حَكَمَا به من كِتَابِ الله وسُنَّةِ نَبِيِّه ، ليس لهما أن يَنْقُضَا ذلك تَخالُفًا إلىٰ

غَيْره ، وأنهما آمِنَانِ فى حُكومَتِهما علىٰ دِمَائِهما وأمْوالِهما وأهْلِيهما ، مالم يَعْدُوَا الحقَّ ، رَضِىَ بذلك رَاضٍ أو أنْكرَ مُنْكِر . وأنَّ الأمةَ أنصارٌ لهما علىٰ ما قَضَيا به من العَدْل .

فإن تُوُفِّى أحدُ الحَكَمِين قبـل انقضاء الحُكُومَة ، فأميرُ شيعَتِه وأصْحـابُه يختارون رَجُلًا ، لا يأْلُوَان عن أهْلِ المَعْدِلة والإقْساط ، علىٰ ما كان عليـه صاحِبُه من العَهْد والمِيثَاق والحُكْم بكِتاب اللهِ وسُنَّة رسولِه ، وله مثلُ شَرْطِ صَاحِبِه .

وإن مات واحدٌ من الأميرين قبل القَضَاءِ ، فلِشيعَتِه أن يُوَلُّوا مكانَه رجُلًا يرضَوْنَ عَدْلَه .

وقد وَقَعتِ القَضِيَّة بيننا والأمْنُ والتَّفاوُضُ ، ووُضِعَ السِّـلاح . وعلى الحَكَمين عَهْـدُ اللهِ وميثاقُه : لَيَحْكُمَان بِكِتَابِ اللهِ وسُنَّةِ نَبِيِّه ، لا يَدْخُلانِ فى شُبْهةٍ ولا يأْلُوَانِ اجْتِهادًا ، ولا يتَعَمَّدان جَوْرًا ، ولا يتَّبِعانِ هَوًى ، ولا يعْدُوان ما فى كتاب اللهِ تعالىٰ وسُنَّة رَسُولِه . فإن لم يفعلا برِئَت الأمَّةُ من حُكْمِهما ، ولا عَهْدَ لهما ولا ذِمَّةَ . وقد وجبتِ القَضِـيَّة علىٰ ما سَمَّينا فى هـذا الكِتَابِ من مَوْقِعِ الشَّرْط على الأميرينِ والحَكَمينِ والفرِيقَينِ ، واللهُ أقربُ شَهيدا وأدْنَى حَفيظا ، والناسُ آمِنُونَ علىٰ أنْفُسِهم وأهْلِيهمْ وأمْوالِهمْ إلى انقضاء مُدَّةِ الأجَلِ ؛ والسِّـلاحُ مَوْضُوعٌ ، والسَّبِيلُ مُخَلًّى ، والشاهِدُ والغائبُ من الفريقَيْنِ سَوَاءٌ فى الأمْرِ . وللحَكَمينِ أن يَنْزِلَا مَنْزِلًا عَدْلًا بين أهْلِ العِرَاق وأهْلِ الشَّام ، ولا يَحْضُرُهما فيـه إلا من أَحَبَّا عن مَلَإٍ (١) منهما وتَرَاضٍ . وأجَّلَ القاضِيَيْنِ المسـلمون إلىٰ رَمَضان : فإن رأى الحَكَمان تعْجِيـلَ الحُكُومة فيما وُجِّها له ، عَجَّلَا . وإن أرادا تأْخِيرَه بعـد رَمَضانَ إلىٰ انقضاء المَوْسِم ، فإن ذٰلك إليهما . فان همـا لم يحكُمَا بِكِتَابِ الله وسُنَّة نَبِيِّه إلىٰ انْقضاءِ المَوْسِم ، فالمسلمون علىٰ

(١) أى تشاور واجتماع .

أمْرِهِم الأوّلِ فى الحَرْبِ، ولا شَرْط بين واحِدٍ من الفَرِيقَيْنِ . وعلى الأمَّةِ عَهْدُ اللهِ ومِيثَاقُهُ على التمـام علىٰ ما فى هذا الكِتَابِ . وهم يَدٌ علىٰ من أراد فى هـذا الكِتَاب إلْحَـادًا أو ظُلْمًا ، أو أراد له نَقْضًا .

شَهِدَ علىٰ ما فى هـذا الكتابِ من أصحاب عَلِيٍّ : الأشْعَثُ بن قَيْسٍ ، وعَبْدُ اللهِ ٱبن عَبَّاسٍ ، والأشْتَرُ بن الحٰرِث ، وسَعِيدُ بن قَيْسٍ الهَمْدَانِيُّ ، والحُصَيْنُ والطُّفَيْل ٱبنا الحٰرِثِ بن المُطَّلِب ، وأبو أَسِيد بن رَبِيعَةَ الأنْصارِيُّ ، وخَبَّابُ بن الأَرَتِّ ، وسَهْلُ بن حُنَيف الأنْصارِيُّ ، وأبو اليَسَرِ بن عمرو الأنْصارِيُّ ، ورِفَاعةُ بن رافِع ٱبن مَالِك الأنْصارِيُّ ، وعَوْفُ بن الحٰرِثِ بن المُطَّلب القُرَشِيُّ ، وبُرَيْدَةُ الأسْلَمِيُّ ، وعُقْبَةُ بن عَامِرٍ الجُهَنِيُّ ، ورَافِعُ بن خَدِيج الأنْصارِيُّ ، وعَمْرو بن الحَمِق الخُزَاعِيُّ ، والحَسَنُ والحُسَينُ ٱبنـا عَلِيٍّ ، وعبـدُ اللهِ بن جَعْفَرٍ الهَـاشِمِيُّ ، والنُّعْمَرُ بن عَجْلانَ الأنْصارِيُّ ، وحُجْرُ بن عَدِيٍّ الكِنْدِيُّ ، ووَرْقاءُ بن سُمَيٍّ البَجَلِيُّ ، وعبدُالله بنُ الطُّفَيْل الأنْصارِيُّ ، ويَزِيدُ بن حجية الدكريّ (١) ، ومَالِكُ بن كَعْب الهَمْدانِيُّ ، ورَبِيعةُ بن شُرَحْبِيلَ ، وأبو صُفْرَةَ ، والحارِثُ بنُ مالِكٍ ، وحُجْرُ بن يزيد ، وعقبة بن حجية .

ومن أصحاب مُعاوِيَةَ : حَبِيبُ بنُ مَسْلَمة الفِهْرِيُّ (٢) ، و[أبو] الأعْورِ السُّلَمِيُّ ، وبُسْرُ ٱبن أَرْطاة القُرَشِيُّ ، ومعاويةُ بن حُدَيج الكِنْدِيُّ ، والمُخَارِقُ بنُ الحٰرِث الحِمْيَرِيُّ ، وزُمَيْل بنُ عمرو السَّكْسَكِيُّ ، وعبدُ الرحمن بن خالِدِ بنِ الوليد المَخْزُومِيُّ ، وحَمْزَةُ بن مالك الهَمْدَانِيُّ ، وسبع بن زيد الحميريُّ (٣) ، وعبدُ الله بن عمرو بن العَاصِ ، وعلقمةُ بن مَرْثَد

(١) فى الكامل لابن الأثير "ابن حجية التيمى" .

(٢) فى خلاصة أسماء الرجال : الفهرى .

(٣) فى الكامل : "سبيع بن يزيد الأنصارى" .

الكَلْبِىّ ، وخالد بن الحُصَيْن السَّكْسَكِىُّ ، وعلقمةُ بن يزيد الحَضْرمىّ ، ويَزِيدُ بن الحرّ العَبْسِىُّ ، ومَسْروق بن حملة العكىّ ، ونُمَيْرُ بن يَزِيدَ الحِمْيَرِىُّ ، وعبدُ الله بن عامر القُرَشِىُّ ، ومَرْوانُ بن الحَكَم ، والوَلِيدُ بن عُقْبة القُرشِىُّ ، وعقبةُ بن أبى سُفْيانَ ، ومحمدُ بن أبى سُفْيانَ ، ومحمدُ بن عَمرو بن العَاص ، ويزيدُ بن عمرو الجُذَامِىُّ ، وعَمَّارُ ابن الأخوص الكَلْبىّ ، ومَسْعَدَةُ بن عمر القَيْنِىّ ، وعاصم بن المستنير الجُذامىّ ، وعبدُ الرحمن بن ذِى كَلَاعٍ الحِمْيَرِىُّ ، والصباح بن جلهمة الحِمْيَرِىُّ ، وثُمامَةُ بن حَوْشَب ، وعَلْقمةُ بن حكيم ، وحمزةُ بن مالك .

وإنَّ بيننا علىٰ ما فى هذه الصَّحِيفَة عَهْدَ الله وميثاقَه . وكَتبَ عُمَير يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلةً بقِيتْ من صفر سنة سَبْعٍ وثلاثين .

وأخرج أيضا بسَنَده إلىٰ أبى إسحق الشَّيبانىّ أن عَقْدَ الصُّلْح كان عند سَعِيد ابن أبى بُرْدَةَ فى صحيفةٍ صَفْراءَ عليها خاتَمانِ : خاتَمٌ فى أسْفَلِها ، وخاتَمٌ فى أعلاها . فى خاتَمِ عَلِىٍّ «محمدٌ رسولُ الله» وفى خاتَمِ مُعاوِيةَ «محمدٌ رسولُ الله» .

قلتُ : وذكر روايات أخرىٰ فيها زيادةٌ ونَقْصٌ أضْربْنا عن ذكْرِها خَوْفَ الإطالة ، إذ فيما ذَكَرْنا مَقْنعٌ . علىٰ أن المؤرِّخينَ لم يَذْكروا من ذلك إلا طَرَفًا يسيرًا .

الفصـــل الثـانى

من البـاب الخامس من المقالة التاسعة

(فيما جرتْ العادةُ بِكِتَابته بين الخُلَفاء ومُلوكِ المسلمين على تعاقُب الدول، ممّـا يُكْتبُ فى الطُّرَّةِ والمَتْنِ)

أما الطُّرَّة : فليُعلَمْ أنَّ الذى ينبغى أن يُكْتب فى الطُّرَّة هنا : «هذا عقدُ صُلْحٍ» ويكمل علىٰ ما تقدّم فى الهُـدْنةِ . ولا يكتبُ فيه : « هذه هُدنةٌ » لمـا يسبق إلى الأذهان من أن المرادَ من الهُدْنةِ ما يجرى بين المسلمين والكُفَّار .

وأما المَتْنُ فعلىٰ نَوْعين :

النــوع الأول

(ما يكون العَقْدُ فيـه من الجـانبَين)

ولم أَرَ فيه للكُتَّابِ إلا الآستفتاحَ بلَفْظ : «هذا» . وعليه كُتِب كِتابُ القَضِيَّة بين أمير المؤمنين عَلِيِّ بن أبي طالبٍ كَرَّم الله وَجْهَه ، و بين مُعاوِيةَ بن أبى سُـفْيانَ رضى الله عنه، علىٰ ما تقدّم ذكره .

وعلىٰ ذٰلك آستكْتبَ هٰرُونُ الرَّشيدُ ولَدَيْه : محمدا الأمِينَ ، وعبدَ الله المَأْمونَ : العَهْدَيْنِ اللَّذيْنِ عَهِدَ فيهما بالخلافة بعده لآبنه الأمِينِ ، ووَلَّى خُراسَانَ آبْنَه المَأْمونَ، ثم عَهِدَ بالخلافة من بعد الأمين للمَأْمُون، وأشْهدَ فيهما ، و بعثَ بهما إلىٰ مَكَّةَ فعُلِّقا فى بَطْنِ الكَعْبة، فى جُمْلةِ المعَلَّقاتِ التى كانت تُعَلَّق فيها، على عادة العَرَبِ السَّابِقة : من تَعْليقِ القَصَائِد ونَحْوها . و بذٰلك سُمِّيتِ القصائِدُ السبْعُ المشهورةُ : بالمعلَّقَاتِ، لتعليقهم إيَّاها فى جَوْف الكَعْبة .

أما عَهْدُ الأمينِ، فنُسْخَتُه بعد البَسْملة ـ على ما ذكره الأَزْرَقيُّ فى أخبار مكّة ـ ما صُـــورَتُه :

هذا كِتَابٌ لعَبْد الله هٰرُونَ أميرِ المؤمنين، كتبه [له] محمدٌ ٱبنُ أميرِ المؤمنين فى صِحّةٍ من بَدَنِه وعَقْلِه، وجَوازٍ من أَمْرِه، طائِعًا غيرَ مُكْرَه .

إنّ أميرَ المؤمنين هٰرونَ وَلّانِى العَهْدَ من بعده، وجعلَ لى البَيْعَةَ فى رِقَابِ المسلمين جميعًا، ووَلّى أخى عَبدَ الله بنَ أميرِ المؤمنين هٰرونَ العَهْدَ والخلافةَ وجميعَ أُمورِ المسلمين من بَعْدِى، بِرِضًا منّى وتَسْليمٍ، طائِعًا غيرَ مُكْرَهٍ . وولّاه خُراسَانَ بثُغُورها، وكُوَرِها، وجُنُودها، وخَراجِها، وطِرازِها، وبَرِيدها، وبُيُوتِ أموالِها، وصَدَقاتها، وعُشْرِها وعُشُورها، وجميعِ أعمالها، فى حَياته وبعد وَفاته . فشَرطتُ لعبد الله ٱبنِ أمير المؤمنين عَلَىَّ الوَفَاءَ بما جعله له أميرُ المؤمنين هٰرونُ : من البَيْعةِ والعَهْدِ، ووِلَايةِ الخلافَةِ وأُمورِ المسلمين بَعْدى، وتَسْليمِ ذلك له، وما جعلَ له من وِلَايةِ خُراسانَ وأعمالِها، وما أقطعَه أميرُ المؤمنين هٰرونُ من قَطيعةٍ، وجعل له من عُقْدَةٍ أو ضَيْعَةٍ من ضِياعه وعُقَدِه، أو ٱبْتاعَ له من الضِّياعِ والعُقَدِ . وما أعطاه فى حَيَاته وصِحّتِه : من مالٍ، أو حُلِيٍّ، أو جَوْهَرٍ، أو مَتَاعٍ، أو كُسْوَةٍ، أو رَقِيقٍ، أو مَنْزِلٍ، أو دَوَابٍّ، قَليلًا، أو كثيرا، فهو لعبد الله ٱبنِ أمير المؤمنين مُوَفَّرًا عليه، مُسَلَّمًا له . وقد عرفتُ ذلك كُلَّه شيئًا فشيئًا بٱسْمِه وأصْنافِه ومَواضِعه، أنا وعبدُ الله ٱبن هٰرونَ أميرِ المؤمنين . فإن ٱختلَفْنا فى شَىْءٍ منه فالقولُ فيه قولُ عبدِ الله بنِ هٰرونَ أميرِ المؤمنين، لا أتْبَعُه بشَىْءٍ من ذلك، ولا آخُذُه منه، ولا أنتقِصُه، صغيرًا ولا كبيرًا [من ماله] ولا من وِلايَةِ خُراسانَ ولا غَيرِها مما وَلّاه أميرُ المؤمنين من الأعمال، ولا أَعزِلُه عن شَىْءٍ منها، ولا أخْلَعُه، ولا أستَبْدلُ به غيره، ولا أُقَدِّم عليه

فى العَهْدِ والخِلافَةِ أحدًا من الناسِ جميعًا ، ولا أُدْخِلُ عليه مَكْرُوهًا فى نَفْسِه ولادَمِه ، ولا شَعْرِه ولا بَشَرِه ، ولا خَاصٍّ ولا عامٍّ من أموره ووِلايَتِه ، ولا أمْوالِه ، ولا قَطَائِعه ، ولا عُقَدِه ؛ ولا أُغَيِّر عليه شيئًا لسببٍ من الأسْباب ، ولا آخُذُهُ ولا أحدًا من عُمَّالِه وكُتَّابِه ووُلاةِ أمْرِه ـ ممن صَحِبَه وأقام معه ـ بمُحاسَبَةٍ ، ولا أتَتَبَّعُ شيئًا جرىٰ علىٰ يَدَيه وأيديهم فى ولايَةِ خُراسانَ وأعمالِهـا وغيرها ممـا ولاه أميرُ المؤمنـين فى حَياتِه وصِحَّتِـه : من الجِبَايَةِ ، والأمْوالِ ، والطِّرازِ ، والبَرِيد ، والصَّدَقاتِ ، والعُشْرِ والعُشُور ، وغيرِ ذلك ؛ ولا آمُرُ بذلك أحدًا من الناس ، ولا أُرَخِّصُ فيه لغَيْرِى ، ولا أُحَدِّثُ نَفْسى فيه بشىءٍ أمْضيه عليه ، ولا أَلْتَمِسُ قَطيعةً له ، ولا أنقصُ شيئًا مما جعله له هٰرونُ أميرُ المؤمنين وأعطاه فى حَياتِه وخِلافَتِه وسُلْطانِه من جميع ما سَمَّيْتُ فى كِتَابِى هذا . وآخُذُ له عَلَيَّ وعلىٰ جميع الناس البَيْعةَ ، ولا أُرَخِّصُ لأحَدٍ ـ من جميع الناس كُلِّهم فى جميع ما وَلَّاه ـ فى خَلْعِه ولا مُخالَفَتِه ، ولا أسْمَعُ من أحدٍ من البَرِيَّة فى ذلك قَوْلًا ، ولا أَرضَىٰ بذلك فى سِرٍّ ولا عَلانِيَةٍ ، ولا أُغْمِضُ عليه ، ولا أتغافَلُ عنه ، ولا أقبلُ من بَرٍّ من العِبَاد ولا فَاجِرٍ ، ولا صادِقٍ ولا كاذِبٍ ، ولا ناصحٍ ولا غاشٍّ ، ولا قريبٍ ولا بَعيدٍ ، ولا أحدٍ من وَلَدِ آدمَ عليه السـلام : من ذَكَرٍ ولا أُنْثَىٰ ـ مَشُورَةً ، ولا حِيلَةً ، ولا مَكيدةً فى شىءٍ من الأمور : سِرِّها وعَلانِيَتِها ، وحَقِّها وباطِلِها ، وظاهِرِها وباطِنِها ، ولا سَبَبٍ من الأسبابَ ، أريدُ بذلك إفْسادَ شَىْءٍ ممـا أعطيتُ عبـدَالله بنَ هٰرونَ أميرِ المؤمنين من نَفْسِى ، وأوجبْتُ له عَلَيَّ ، وشرطتُ وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هذا .

وإن أراد به أحدٌ من الناس أجمعين سُوءًا أو مَكْروهًا ، أو أراد خَلْعَه أو مُحارَبَتَه ، أو الوُصولَ إلىٰ نَفْسِـه ودَمِه ، أو حُرَمِه ، أو مَالِه ، أو سُلْطانِه أو وِلايَتِه : جميعًـا أو فُرادَىٰ ، مُسِرِّينَ أو مُظْهِرِين له ـ فإنِّى أنْصُرُه وأحُوطُه ، وأدْفَعُ عنه ، كما أدْفَعُ عن نَفْسِى ، ومُهْجَتِى ، ودَمِى ، وشَعْرِى ، وبَشَرِى ، وحُرَمِى ، وسُلْطانِى ؛ وأُجَهِّزُ الجُنودَ

إليه ، وأُعينُه علىٰ كلِّ من غَشَّه وخَالَفَه ، ولا أَسْلِمه [ولا أخذله] ولا أتَخَلَّىٰ عنه ، ويكونُ أمْرِى وأمْرُه فى ذلك وَاحِدًا [أبدا] ما كُنْتُ حيًّا .

وإن حدث بأمير المؤمنين هٰرون حَدَثُ المَوْتِ، وأنا وعبدُاللهِ آبنُ أميرِ المؤمنين بحَضْرة أميرِ المؤمنين، أو أَحَدُنا، أو كُنَّا غائِبَيْنِ عنه جميعًا : مجتمعَيْن كنَّا أو مُتَفَرِّقَيْن، وليس عبـدُ الله بنُ هٰرونَ أميرِ المؤمنـين فى وِلايتِه بخُراسَانَ [فَعَـلَىَّ لعَبْدِ اللهِ آبنِ أميرِ المؤمنين أن أُمْضِيَه إلىٰ خُراسَانَ] وأَنْ أُسَلِّمَ له وِلَايَتَها بأعمالِها كلِّها وجُنودِها ، ولا أَعُوقُه عنها ، ولا أَحْبِسُه قِبَلِى ، ولا فى شيءٍ من البُلْدانِ دون خُراسانَ ، وأُعَجِّلُ إشْخاصَه إلىٰ خُراسَانَ وَالِيًا عليها مُفْرَدًا بهـا ، مُفَوَّضًا إليه جميعُ أعمالهـا كُلِّها ، وأُشْخِصُ معه من ضَمَّ إليـه أميرُ المؤمنين : من قُوَّادِه ، وجُنُودِه ، وأصْحابِه ، وكُتَّابِه ، وعُمَّـالِه ، ومَوَالِيه ، وخَدَمِه ، ومن تَبِعَه من صُنُوف الناس بأهليهم وأموالِهِمْ ؛ ولا أحْبِسُ عنه أحدًا ، ولا أُشركُ معه فى شَىْءٍ منها أحدا ، ولا أُرْسِـلُ أميناً ولا كاتِباً ولا بُنْدارا ، ولا أَضْرِبُ علىٰ يديه فى قليلٍ ولا كَثيرٍ .

وأعْطيتُ هٰرونَ أميرَ المؤمنين وعَبْدَاللهِ بنَ هٰرونَ علىٰ ما شرطت لهما علىٰ نَفْسى ، من جميع ما سَمَّيْتُ وكتَبْتُ فى كِتَابِى هـذا ـ عَهْدَ اللهِ وميثاقَه ، وذِمَّةَ أميرِ المؤمنين وذِمَّتِى ، وذِمةَ آبائِى وذِمَمَ المؤمنين ، وأشَدَّ ما أَخَذَ اللهُ تعـالىٰ علىٰ النَّبِيِّينَ والمرسَلِين وخَلْقِـه أجمعين : من عُهُوده ومَوَاثِيقِه ، والأَيْمـانَ المؤكَّدَةَ التى أمَرَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بالوَفَاءِ بها ، ونَهىٰ عن نَقْضِها وتَبْديلِها .

فإن أنا نقضتُ شيئًا ممـا شرطتُ لهٰرونَ أميرِ المؤمنين ولعَبْدِ اللهِ بن هٰرونَ أميرِ المؤمنين وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هذا ، أَو حَدَّثتُ نَفْسِى أن أنقضَ شيئًا ممّـا أنا عليه ،

أو غيَّرتُ أو بَدَّلتُ، أو حُلْتُ أو غَدَرْتُ، أو قَبِلتُ [ذلك] من أحَدٍ من الناس : صَغيرًا أو كبيرًا، بَرًّا أو فاجِرًا، ذكرًا أو أُنثَىٰ، وجماعةً أو فُرادَىٰ ـ فبرِئْتُ من اللهِ عَزَّ وجَلَّ، ومن وِلايَتِه، ومن دِينِـه، ومن محمدٍ صلى الله عليه وسـلم ؛ ولَقِيتُ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يوم القيـامة كافِرًا مُشْرِكًا . وكُلُّ امْرأةٍ هي اليومَ لِى أو أتزوَّجُها إلىٰ ثلاثينَ سَـنَةً طالِقٌ ثلاثًا، البَتَّـةَ، طَلاقَ الحَرَجِ، وعَلَيَّ المَشْيُ إلىٰ بَيْتِ اللهِ الحَرَامِ ثلاثينَ حَجَّةً : نَذْرًا واجِبًا لله تعالىٰ فى عُنُقِي، حافِيًا راجِلًا، لا يقبلُ الله مِنِّى إلا الوَفاءَ بذلك . وكُلُّ مالٍ هو لى اليَوْمَ، أو أَمْلِكُه إلىٰ ثلاثينَ سـنةً هَدْيٌ بالِـغُ الكَعْبَـةِ الحـرامِ . وكلُّ مَملوكٍ هُو لِى اليومَ، أو أَملِكُه إلىٰ ثلاثينَ سَـنَةً أحْرارٌ لوَجْه اللهِ عَزَّ وجَلَّ .

وكلُّ ما جعلتُ لأميرِ المُؤْمنينَ ولعَبْدِاللهِ بنِ هٰرونَ أميرِالمؤمنين، وكتبتُه وشرطتُه لهما، وحَلَفْتُ عليـه، وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هـذا لازِمٌ لى الوَفاءُ به، لا أُضْمِرُ غيرَه، ولا أَنْوِى إلَّا إيَّاه . فإن أضمرتُ أو نَوَيْتُ غيرَه فهـذه العُقُودُ والمواثيقُ والأَيْمـانُ كُلُّها لازِمَةٌ لى، واجِبَةٌ علَيَّ . وقُوَادُ أميرِ المؤمنين وجُنُودُه وأهْلُ الآفَاقِ والأَمْصارِ فى حِلٍّ من خَلْعِي وإخراجِي من وِلَايَتِي عليهـم، حتَّىٰ أكُونَ سُـوقَةً من السُّوق، وكَرَجُلٍ من عَرَضِ المُسْـلِمين، لاحَقَّ لى عليهم، ولا وِلَايَةَ، ولا تَبِعةَ لى قِبَلَهم، ولا بَيْعـةَ لى فى أعناقهم، وهم فى حِلٍّ من الأيْمـانِ التى أعْطَوْنِى، بَرَاءٌ من تبِعَتِها ووِزْرِها فى الدُّنْيا والآخرَةِ .

شَهِدَ سُليمانُ بنُ أميرِ المؤمنين المَنْصُورِ، وعيسَى بنُ جَعْفَرٍ، وجَعْفَر بن جَعْفَر، وعبدُ الله بنُ المَهْـدِىّ، وجَعْفَرَ بن مُوسىٰ أميرِ المؤمنيـــن، وإسْحٰقُ بن مُوسىٰ أميرِ المؤمنين، وإسْحٰقُ بنُ عيسي بن علِيٍّ، وأحمدُ بن إسماعِيلَ بن علِيٍّ، وسُليمانُ بن

جَعْفر بن سُلَيمانَ، وعِيسى بنُ صالح بن عليٍّ، ودَاوُدُ بن عيسى بن مُوسَى، ويَحْيى ابنُ عيسى بن مُوسَى، وداودُ بن سُلَيمان بن جَعْفر، وخُزَيمةُ بن حَازِم، وهَرْثَمَةُ بن أَعْيَنَ، ويحيى بنُ خَالِد، والفَضْلُ بنُ يحيى، وجَعْفَرُ بن يحيى، والفَضْلُ بنُ الرَّبيع مولى أمير المؤمنين، والقاسِمُ بن الرَّبيع مَوْلى أمير المؤمنين، ودماثة بن عَبْـدِ العزيز العَبْسِيّ، وسُلَيمانُ بن عبد الله بن الأَصَمّ، والربيعُ بنُ عبدِ اللهِ الحَارِثيّ، وعبدُ الرحمٰن ابنُ أبي الشِّمْرِ الغَسَّانيُّ، ومحمدُ بن عبد الرحمٰنِ قاضي مَكَّة، وعبدُ الكَريم بن شُعَيْبٍ الحَجَبيُّ، وإبراهيمُ بنُ عبد الله الحَجَبيُّ، وعبدُ الله بن شُعَيْبٍ الحَجَبيُّ، ومحمدُ بن عبد الله ابن عثمانَ الحَجَبيُّ، وإبراهيمُ بن عبد الرحمٰنِ بن نَبِيهٍ الحَجَبيُّ، وعبدُ الواحدِ بنُ عبدِ اللهِ الحَجَبيُّ، وإسماعيلُ بن عبدِ الرحمٰن بن نَبِيهٍ الحَجَبيُّ، وأبانُ مولى أمير المؤمنين، ومحمدُ ابن منصور، وإسماعِيلُ بن صبيح، والحارثُ مَوْلَى أمير المؤمنين، وخالدٌ مَوْلَى أميرِ المؤمنين .

وكُتِبَ في ذي الحجة سنة ستٍّ وثمانين ومائَةٍ .

وأما ما كتبه المأْمُونُ، فنَصُّه بعد البَسْملة :

هذا كِتابٌ لعَبْدِاللهِ هٰرُونَ أميرِالمؤمنين، كتبه له عبدُاللهِ بنُ هٰرُون أميرِالمؤمنين، في صِحَّةٍ من عَقْلِه، وجَوازٍ من أَمْرِه، وصِدْقِ نِيَّـةٍ فيما كَتَبَ من كِتَابِه، ومَعْرِفَة ما فيه من الفَضْلِ والصَّلاح له ولأَهْلِ بَيْتِه ولجماعةِ المسلمين .

إنَّ أميرَ المؤمنينَ هٰرُونَ ولَّاني العَهْدَ والخلافَةَ وجميعَ أُمُورِ المسلمين في سُـلْطانه بعدَ أخي محمدِ بن هٰرُون أميرِ المؤمنين، وولَّاني في حَياته وبعده خُراسانَ وكُورَها، وجميعَ أعمالها : من الصَّدَقاتِ والعُشْرِ والبَرِيدِ والطِّرازِ وغير ذلك . وآشترط لي على

محمد ٱبنِ أميرِ المؤمنـين الوَفَاءَ بمـا عقَدَ لى من الخلافة والوِلَايةِ للعبادِ والبلاد بعدَه، وولايتى خُرَاسَانَ وجميعَ أعمالها، ولا يَعرِضُ لى فى شَىْءٍ مِمَّـا أقطعنى أميرُ المؤمنين، أو ٱبتاع لى من الضِّيَاع والعُقَدِ والدُّور والرِّبَاع، أو ٱبتعْتُ منه [لنفسى] من ذلك، وما أعطانى أميرُ المؤمنين هٰرُونُ من الأموالِ والجوْهرِ والكُسَا والمَتَـاعِ والدَّوَابِّ فى سَبَب مُحاسَنَتِه [لأصحابى]، ولا يَتَتَبَّعُ لى فى ذلك ولا لأحَدٍ منهم أثرًا، ولا يُدْخِلُ عَلَىَّ ولا عَلىٰ أحَدٍ مِمَّن كان مَعِى ومِنِّى، ولا عُمَّالِى ولا كُتَّابِى، ومن ٱستعنتُ به من جميع الناس ـ مَكْرُوهًا : فى دَمٍ، ولا نَفْس، ولا شَعَرٍ، ولا بَشَرٍ، ولا مَالٍ، ولا صَغِيرٍ، ولا كَبِيرٍ .

فأجابه إلىٰ ذلك وأقرَّ به، وكتب له به كِتَابًا كتبه علىٰ نَفْسِه ورَضِىَ به أميرُ المؤمنين [هٰرُون وقَبِلَهُ وعَرَف صِدْقَ نِيَّتِـه . فشَرَطتُ لعبـد الله هٰرُونَ أمير المؤمنـين] وجعلتُ له على نَفْسِى أن أسمعَ لمحمد ٱبن أمير المؤمنين وأُطِيعَه ولا أَعْصِيه، وأَنْصَحَه ولا أَغُشَّـه، وأُوَفِّىَ ببيْعَتِه ووِلايَتِـه، ولا أَغْدِر ولا أَنْكُث، وأُنَفِّذَ كُتُبَه وأُمُورَه، وأُحْسِنَ مُؤَازَرَته ومُكَانَفَتَه، وأجاهِدَ عَدُوَّه فى ناحيتِى بأحْسنِ جِهادٍ ما وَفىٰ لى بمـا شَرَط لى ولعَبْدِ الله هٰرُونَ أميرِ المؤمنين، وسَمَّاه فى الكِتَاب الذى كتبه لأميرِ المؤمنين ورَضِىَ به اميرُ المؤمنين، ولم ينقصْ شيئًا من ذلك، ولم ينقُضْ أمرًا من الأمور التى ٱشترطها لى عليه هٰرُونُ أميرُ المؤمنين .

وإن ٱحتَـاج محمدُ بنُ هٰرُونَ أميرِ المؤمنين إلى جُنْـدٍ وكتب لى يأمُرنى بإشْخاصِهم إليه، أو إلىٰ ناحِيةٍ من النَّواحِى، أو إلىٰ عَدُوٍّ من أعْدائه خالَفَه أو أراد نَقْصَ شَىْءٍ من سُلْطانه وسُلْطانِى الذى أسـنده هٰرُونُ أمير المؤمنين إلينا وولَّاناه ـ أن أُنفِّذَ أمْرَه ولا أُخَالِفه، ولا أقصِّر فى شَىْءٍ كتب به إلىّ .

وإن أراد محمدُ بنُ أميرِ المؤمنين هٰرُونَ أن يُوَلِّى رجُلًا من وَلَدِه العَهْدَ والخلافةَ من بَعْدِى، فذلك له ما وَفَّىٰ لى بما جعل لى أميرُ المؤمنين هٰرُونُ، وآشترط لى عليه، وشَرَطه علىٰ نَفْسِــه فى أمْرِى ، وعلَىَّ إنْفاذُ ذلك والوَفَاءُ له بذلك، ولا أَنْقُضُ ذلك ولا أُغَيِّرُه، ولا أُبَدِّلُه، ولا أقدّم [قبله] أحدًا من وَلَدِى ، ولا قَرِيبًا ولا بعيــدًا من الناس أجمعين ، إلا أن يُوَلِّى هٰرُونُ أميرُ المؤمنين أحدًا من وَلَدِه العَهْدَ من بعدى ، فيلزمُنِى الوَفاءُ بذلك .

وجعلْتُ لأميرِالمؤمنين ومحمدِ بنِ أميرِ المؤمنين عَلىّ الوَفاءَ بمــا آشترطتُ وسَمَّيْتُ فى كِتَابِى هــذا ، ما وَفَّى لِى محمدُ بنُ أميرِ المؤمنين هٰرُونَ بجميع ما آشترَطَ لى هٰرُونُ أميرُ المؤمنين عليــه فى نَفْسِى ، وما أعْطانِى أميرُ المؤمنين هٰرُونُ من جميع الأشــياء المسمَّاةِ فى الكِتَاب الذى كتبه له . [وعلَىَّ] عهدُالله تعالىٰ وميثاقُه، وذِمَّةُ أميرِ المؤمنين، وذِمَّتِى ، وذِمَّةُ آبائى ، وذِمَمُ المُؤْمنين ، وأشَــدُّ ما أخذَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ على النبيــين والمُرْسلين من خَلْقه أجمعين من عُهُوده ومَوَاثِيقه ، والأَيْمَــانِ المُؤَكَّدةِ التى أمر الله عَزَّ وجَلَّ بالوَفَاءِ بها .

فإنْ أنا نَقَضتُ شيئًا مما آشترطتُ وسَمَّيتُ فى كِتَابِى هذا له، أو غَيَّرتُ، أو بَدَّلْتُ، أو نَكَثْتُ ، أو غَدَرتُ ـ فَبَرِئْتُ مِن الله عَزَّ وجَلَّ ومن وِلايَتِــهِ ومن دِينِه ، ومن محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وسـلم ؛ ولَقِيتُ اللهَ سبحانه وتعــالىٰ يومَ القِيامَةِ كافرًا مُشْرِكًا . وكُلُّ آمْرأةٍ لى اليومَ أو أتزوّجُها إلىٰ ثلاثين سنةً طالِقٌ ثلاثًا البَتَّةَ [طَلاقَ] الحَرَجِ . وكلُّ مَمْلُوكٍ لى اليوم أو أَمْلِكُه إلىٰ ثلاثين سنةً أحْرَارٌ لوَجْهِ الله تعالىٰ . وعلَىَّ المَشْىُ إلىٰ بَيْت الله الحَرَامِ الذى بمَكَّةَ ثلاثين حَجَّــةً ، نَذْرًا واجبًا علَىَّ وفى عُنُقِى ،

حَافيًا رَاجِلًا ، لا يقبَلُ اللهُ منِّى إلا الوفَاء به ، وكلُّ مال هو لى اليومَ أو أَملِكه إلىٰ ثَلاثين سَــنَةً هَدْىٌ بَالِـغُ الكَعْبةِ . وكل ماجعلت لعبد الله هٰرُونَ أميرِ المؤمنين أو شرطتُ فى كِتَابِى هذا لازِمٌ لى ، لا أُضْمِر غيره ولا أنْوِى سِوَاهُ .

شَهِدَ فلانٌ وفلانٌ ، بأسماء الشهود المقدّم ذِكْرُهم فى كتاب الأَمينِ المبتدإِ بذِكرِه .

قال الأزرقىُّ : ولم يَزَلْ هــذانِ الشرطانِ مَعلقَيْنِ فى جَوْفِ الكَعْبــةِ حتَّىٰ مات هٰرُونُ الرَّشيدُ ، وبعد ما مات بسنتين فى خِلافَةِ الأمين . فكَلَّم الفَضْــلُ بنُ الربيع محمّدَ بن عبد الله الحَجَبىَّ فى إتْيانِه بهما ، فنزعهما من الكَعْبةِ وذهب بهما إلى بَغْداد ، فأخذهما الفَضْل فخَــرَّقَهما وحَرَّقهُما بالنَّار .

قلتُ : وعلىٰ نَحْوٍ من ذلك كَتبَ أبُو إسحاق الصَّــابِى مُواصَفَةً بالصُّلْح بين شَرَف الدَّوْلة وزَيْنِ المِلَّة أبِى الفَوَارِس ، وصَمْصامِ الدَّوْلة وشَمْسِ المِلَّة أبى كَالِيجَارَ ، ٱبنَىْ عَضُدِ الدَّوْلة بن رُكْنِ الدَّولة بن بُوَيه ، فى النِّصف من صَفَر سنة سِتٍّ وسبعين وثلثمائة .

ونَصُّها بعد البَسْمَلةِ الشَّريفة :

هذا ما ٱتَّفق وٱصْطلَح وتَعَاهَد وتعاقَدَ عليه شَرَفُ الدَّوْلة وزَيْنُ المِلَّة أبُوالفوَارِس ، وصَمْصامُ الدَّوْلَة أبو كَالِيجَارَ ٱبْنا عَضُــدِ الدَّوْلة وتَاجِ المِلَّة أبى شُجَاعِ بنِ رُكْنِ الدَّولةِ أَبِى عَلِىٍّ ، مَوْلَيَــا أميرِ المؤمنين الطائــعِ لله ــ أطال اللهُ بَقاءَه ، وأدام عِزَّه وتَأْييدَه ، ونَصْرَه وعُلُوَّه وإذْنَه .

اِتَّفقا وتَصالحَا ، وتعاهَدَا وتعاقَدَا ، علىٰ تَقْوَى الله تعالىٰ وإيثارِ طاعَتِه ، والاَعْتصامِ بحَبْله وقُوَّته ، والالْتجاءِ إلىٰ حُسْنِ تَوْفِيقه ومَعُونَته ، والإِقْرارِ بٱنْفرادِه ووَحْدانِيَّته ؛ لاشَرِيكَ له ولا مِثْل ، ولا ضِدّ ولا نِدّ ، والصلاةِ علىٰ محمدٍ رسولِه صلَّى الله عليه وعلىٰ

آله وسَلَّمَ تسليما؛ والطَّاعَةِ لأمير المؤمنين الطَّائـعِ لله، والآلتزام بوَثائِقِ بَيْعَتِه، وعلائق دَعْوتِه؛ والتَّوازُرِ علىٰ موالاة وَلِيِّـه، ومُعادَاةِ عَدُوِّه؛ وعلىٰ أن يُمْسِكا [ذات] بينهما بالسِّيَرِ الحَمِيده، والسُّنَنِ الرشيده، التى سَنَّها لهما السَّلَفُ الصالحُ من آبائهما وأجدادهما فى التآلُف والتَّوازُر، والتَّعاضُدِ والتَّظافُر؛ وتَعْظِيم الأصْغرِ للأكْبر، وإشْبالِ(١) الأكْبر على الأصغر؛ والآشتراكِ فى النِّعم، والتَّفاوُض فى الحظوظ والقِسَم؛ والآتِّحادِ بخُلُوص الطَّوَايا، والخَفَايا؛ وسلامةِ الخَواطِر، وطهارة الضَّمائر؛ ورَفْعِ ما خالف ذلك من أسْـبابِ المُنافَسَه، وجَرائِرِ المضاغَنَه؛ وجَوالِب النَّبْوَه، ودَوَاعِي الفُرْقَه؛ والإقْران لأعْداءِ الدَّوْلة، والإرْصـادِ لهم؛ والآجتماعِ على دَفْعِ كلِّ ناجِم، وقَمْعِ كُلِّ مُقـاوِم؛ وإرْغامِ أنْفِ كُلِّ ضَارٍ متجبِّر، وإضْراعِ خَدِّ كُلِّ مُتطاوِلٍ مُسْتَكْبِر؛ حتَّى يكونَ المُوالِي لأحَدِهم مَنْصورًا من جَماعَتِهـم، والمُعادِي له مَقْصودًا من سائرِ جَوانِبِهم؛ فلا يجِدُ المُنابِذ علىٰ أَحَدِهم مَفْزَعًا عنـد أحَدٍ من البَاقِينَ ولا آعْتِصامًا به، ولا آلْتِجاءً إليه؛ لٰكِنْ يكونُ مَرْمِيًّا بجميعِ سِهامِهم، ومَضْروبًا بأسْيافِ نِقْمَتِهم، ومأْخُوذًا بكُلِّيَّةِ بَأْسِهِم وقُوَّتِهم، ومَقْصودًا بغالِبِ نَجْدَتِهم وشِدَّتِهم؛ إذْ كانت هذه الآدابُ القَوِيمَه، والطَّرائِقُ السَّلِيمَه؛ جَارِيَةً للدُّوَلِ مَجْرَى الجُنَنِ الدَّافعة عنها، والمَعاقِلِ المَانِعةِ لها؛ وبِمِثْلِها تَطْمَئِنُّ النعم وتَسْكُن، كما أنَّ بأضْدادِها تَشْمَئِزُّ وتَنْفِر.

ولمـا وفَّق اللهُ تعـالىٰ شَرَفَ الدَّولةِ وزَيْنَ المِلَّةِ أبا الفَوَارِس، وصَمْصَامَ الدَّولةِ وشَمْسَ المِلَّةِ أبا كَالِيجارَ آعْتِقادَ هذه الفَضَائِلِ وإيثَارَها، والتَّظَاهُرَ بها وآسْتِشْعارَها؛ ودعاهما مَوْلاهُما الطائـعُ للهِ أميرُ المؤمنين إلىٰ ما دَعَاهما إليه من التَّعاطُفِ والتآلُف، والتَّصافِي والتَّخالُص؛ وأمَرَ صَمْصـامَ الدَّولةِ أبا كَالِيجارَ بمُراسَـلَةِ شَرَفِ الدَّولة

(١) الاشبال العطف والمعونة .

أبي الفوارس في إحكام معاقد الأخوّة، وإبرام وثائق الألفة ـ آمتثل ذلك وأصغى إليه شرف الدّولة وزين الملّة أبوالفوارس: أصغى إليه شرف الدّولة إصغاء المستوثق المستصيب، وتقبّله تقبّل العالم اللّبيب، وأنفذ إلى باب أمير المؤمنين رسوله أبا نصر خرشيد بن ديار بن مأفنة بالمعروف من كفايته، والمشهور من آصطناع الملك السّعيد عضد الدّولة وتاج الملّة رضوان الله عليه له، وإيداعه إيّاه وديعة الإحسان التي يحقّ عليه أن يساوي في حفظها بين الجهتين، ويوازي في رعايتها بين كلا الفريقين.

فجرت بين صمصام الدّولة وشمس الملة أبي كاليجار وبينه مخاطبات آستقرّت على أمور أتت المفاوضة عليها، وأثبت منها في هذه المواصفة ما آحتيج إلى إثباته منها [أمر] عامّ للفريقين، وقسمان يختصّ كلّ واحد منهما بواحد منهما.

فأما الأمر الذي يجمعهما عمومه، ويكتنفهما شموله، فهو: أن يتخالص شرف الدّولة وزين الملّة أبو الفوارس، وصمصام الدّولة وشمس الملّة أبو كاليجار في ذات بينهما، ويتصافيا في سرائر قلوبهما، ويرفضا ما كان جرّه عليهما سفهاء الأتباع: من ترك التّواصل، وآستعمال التّقاطع؛ ويرجعا عن وحشة الفرقة، إلى أنس الألفة؛ وعن منقصة التّنافر والتّهاجر، إلى منقبة التّبارّ والتّلاطف؛ فيكون كلّ واحد منهما مريدًا لصاحبه من الصّلاح مثل الذي يريده لنفسه، ومعتقدًا في الذّبّ عن بلاده وحدوده مثل الذي يعتقده في الذّبّ عما يختصّ به؛ ومسرًّا مثل ما يظهر: من موالاة وليّه، ومعاداة عدوّه؛ والمراماة لمن راماه، والمصافاة لمن صافاه؛ فان نجم على أحدهما ناجم، أو راغمه مراغم؛ أو همّ به حاسد، أو دلف إليه معاند؛ آتّفقا جميعًا على مقارعته: قريبًا كان أو بعيدًا، وترافدا على مدافعته: دانيًا كان أو قاصيًا؛ وسمح كلّ منهما لصاحبه عند الحاجة إلى المواساة في ذلك في سائر أحداث الزّمان

ونُوَبِه، وتَصارِيفِه وغِيَرِه؛ بمـا يتَّسِعُ ويشتملُ عليه طَوْقُه من مال وعُدَّه، ورجَال ونَجْدَه، وٱجْتِهادٍ وقُدْرَه؛ لا يغفُل أخٌ منهـما عن أخيـه، ولا يَخْذُله ولا يُسْلِمه، ولا يترك نُصْرتَه، ولا ينصرِفُ عن مُؤازَرتِه ومُظاهَرتِه بحـالٍ من الأحوال التى تَسْتحيلُ بها النِّيَّات : من إرْغابِ مُرْغِب، وحِيلَةِ مُحْتالٍ، ومُحَاولة مُحاوِل . ولا يقبلُ أحَدُهما مُسْتأمِنًا إليــه من جِهَةِ صاحبه : من جُنْدِىٍّ، ولا عَامِلٍ، ولا كَاتبٍ، ولا صَاحبٍ، ولا مُتصرِّفٍ فى وَجْهٍ من وُجوه التصرفاتِ كُلِّها؛ ولا يُجِيرُ عليه هَارِبا، ولا يَعْصِمُ منـه مُوَارِبا؛ ولا يتطرف له حَسَدًا، ولا يَتَحيَّفُه حَقًّـا، ولا يَهْتِك له حَرِيمًا، ولا يتناوَلُ منه طَوْقًا، ولا يُخِيفُ له سَبِيلا، ولا يَتَسَبَّبُ إلىٰ ذلك بسَبَبٍ باطن، ولا بٱعْتِـلال ظاهر؛ ولا يَدَعُ مُوَافَقَته، ومُلَاءمَته، ومُعاوَنَته ومُظَافَرته فى كلِّ قَوْلٍ وفِعْل، وسِرٍّ وجَهْر، علىٰ سائر الجهات، وتَصَرُّف الحـالات، ووُجُوه التَّأوِيلَات . يلتزِمُ كلُّ واحدٍ منهما ذلك لصَاحِبِـه ٱلتزامًا على التمـاثُلِ والتَّعادُل، والتَّوازِى والتَّقابُل .

وأما الأمرُ الذى يختصُّ شَرَفُ الدَّولةِ وزَيْنُ المِلَّة به، ويلتزِمُه صَمْصامُ الدَّوْلة وشَمْسُ المِلَّة له، فهو أن يُقدِّمَه صَمْصامُ الدَّولة وشَمْسُ المِلَّة علىٰ نَفْسِـه، ويُعْطِيه ما أعطاه اللهُ له من فَضْلِ سِنِّه، ويُطِيعَه فى كلِّ ما أفَادَ الدَّوْلةَ الجامعة لهما صلاحًا، وهاضَ من عَدُوِّهما جَنَاحا؛ وعاد علىٰ وَلِيِّهما بعِزّ، وعلىٰ عَدُوِّهِمـا بذُلّ؛ وأن يُقِيمَ صَمْصامُ الدَّولةِ الدَّعْوةَ علىٰ مَنَابِرِ مافى يَدِه من مدينة السَّـلام وسائر البُلْدان والأمْصار، التى أحاطتْ بهما حُقُوقه، وضُرِبَتْ عليهما حُدُودُه، لأمير المؤمنين ثم لشَرَفِ الدَّولة وزَيْنِ المِلَّة أبى الفوارس، ثم لنَفْسه . ويُجْرِى الأمْرَ فى نَقْشِ سِكَكِ دُورِ الضَّرْبِ التى يُطْبَعُ بها الدِّينارُ والدِّرْهم فى جميع هذه البلاد على المِثَال . ويُوَفِّى صَمْصامُ الدَّوْلة وشَمْس المِلَّة أبو كَالِيجارَ شَرَفَ الدَّولة وزَيْنَ المِلَّة أبا الفَوَارِس فى المكاتبـات

والمخاطبات حَقَّ التَّعظيم ، وشِعَارَ التَّفْخِيم ، على التَّقْرِيرِ بينه و بين خرشيد بن ديار ابن مأفنة فى ذلك .

وأما الأمْرُ الذى يختصُّ صَمْصَامُ الدَّوْلةِ وشَمْسُ الملة أبو كاليجَارَ به ، ويَلْتَزِمُه شَرَفُ الدولة وزَيْنِ المِلَّة أبو الفوارسِ له ، فهو تَرْكُ التَّعَرُّض لسائرِ مَمَالِكه ، وما يتَّصِلُ بها من حُـدُودها الجـارية معها ؛ والإفْراجُ منها عمـا يَوَدُّه ويُسْرِع إليـه أصحابُ شَرَفِ الدولة وزَيْنِ المِلَّة ، وتَجَنُّبُ التَّحَيُّفِ لها أو لشَيْءٍ من الحقوق الواجبة فيها ، ومُرَاعَاتُه فى الأمور التى يحتاج فيها إلىٰ نَظَرِه وطَوْلِه ، وإجْمالِه وفَضْـلِه ، وما يجب على الأَخِ الأَكْبَرِ مُرَاعَاةُ أخيـه وتَأليِه فيه ، ممَّـا ثَبَتت فى هذه المُواصَفَةِ جُمْلته ، وآشتملتْ المفاوضة مع خورشيد بن ديار بن مأفنة علىٰ تَفْصِيله .

آتَّفق شَرَفُ الدَّولة وزَيْنُ المِـلَّة أبو الفوارس ، وصَمْصَـامُ الدَّوْلة وشَمْس المِلَّة أبو كَالِيجَار ، بأمْرِ أمير المؤمنـين الطائع لله ، وعلى الآخْتِيارِ منهما ، والآنْشِراحِ من صُدُورِهما ، من غير إكْراهٍ ولا إجْبار ، ولا آضْطِبارٍ ولا آضْطِرَار ـ على الرِّضا بذلك كُلِّه ، والآلتزامِ له ، ويَصِيرُ جَمِيعُه عَهْدًا مَرْجوعًا إليه ، وعَقْدًا معمولًا عليه ؛ وحَلَفَ كُلٌّ منهما علىٰ مايلتزمه من ذلك يَمِينًا عَقَدها بأن يحلِفَ صاحِبُها بمِثْلِها ، علىٰ مايلتزمه منه . فقال صَمْصامُ الدَّولة : واللهِ الذى لا إلٰهَ إلا هُو (ويستتم اليمين) .

النـــــوع الثـانى
(ممّـا يجرى عَقْد الصُّلْح فيه بين مَلِكَيْن مُسْلمين ـ
ما يكونُ العَقْد فيه من جانبٍ واحدٍ)

وللكُتَّابِ فيه مَذْهبانِ :

المَـــذْهب الأوّل
(أن يُفتتَح عَقْدُ الصُّلْح بلفظ : « هذا » كما فى النوع السابق)

وهـذه نُسْخةُ عَقْد صُلْح من ذلك ، كتب بهـا أبو إسْحٰق الصَّابى ، بين الوزير أبى نَصْر سابُور بن أزدشير، والشَّريفَيْنِ : أبى أحْمَد الحُسَينِ بن مُوسى، وأبى الحَسَنِ محمدٍ ٱبنه الرَّضِىِّ، بمـا ٱنعقد من الصُّلْحِ والصِّهْرِ بين الوزير المذكور، وبين النَّقيبِ أبى أحمد الحُسَينِ وولده محمدٍ ، حين تزوّج ٱبنه محمدٌ المذكورُ بنتَ سابورَ المذكورِ ، وجعله علىٰ نُسْختينِ ، لكلِّ جانبٍ نسخةٌ ، بعد البسملة ماصُورَتُه :

هـذا كِتابٌ لِسَابُور بن أزْدَشير ، كَتَبه له الحسـينُ بن موسىٰ المُوسَوىّ ، ووَلَدُه محمد بنُ الحسين المُوسَوىّ .

إنَّا وإيَّاكَ ـ عند ما وصـله اللهُ بيننا من الصِّهْر والخُلْطَه ، ووَشَجه من الحـال والمَوَدَّه ـ آثَرْنا أن ينعقِدَ بيننا وبينك مِيثاقٌ مُؤَكَّد ، وعَهْدٌ مُجَدَّد ، تَسْكُن النفوسُ إليهما ، وتطمئنُّ القُلوبُ معهما ، وتزدادُ الأُلْفَةُ بهما على مَرِّ الأيَّام ، وتَعاقُبِ الأعوام ، ويكونُ ذلك أصْلًا مُسْتَقِرًّا نرجع جميعًا إليه ، ونُعوِّلُ ونَعْتمِدُ عليه ، ونَتوارَثُه أعْقابُنا ، ونَتْبَعُنا فيه أخْلافُنا .

فأعطيناكَ عَهْدَ اللهِ ومِيثاقَه ، وما أخذَهُ على أنبيائه المرسلين ، ومَلائِكَتِه المُقَرَّبين ، صلى الله عليهم أجمعين ، عن صُـدُورٍ مُنْشَرِحه ، وآمال فى الصَّلاح مُنْفَسِحَه ـ أنَّا

نُخْلِصُ لك جميعًا وكلُّ واحدٍ منّا إخلاصًا صحيحًا يُشاكِلُ ظاهِرُه باطِنَه ، ويوافِقُ خَافيه عالِنَه ؛ وأنّا نُوالِي أوْلياءَك ، ونُعادِي أعْداءَك ؛ ونَصِلُ من وَصَلَك ، ونقْطَعُ من قَطَعَك ، ونكونُ معك فى نَوائِب الزمان وشَدَائِده ، وفى فَوائِده وعَوائِده ؛ وضَمِنّا لك ضَمانًا شَهِدَ اللهُ بلزُومِه لنا ، ووُجُوبِه علينا . وأنا نَصُونُ الكريمةَ علينا ، الأثيرةَ عندنا ، فلانةَ بنتَ فُلانٍ — أدام اللهُ عِزَّها — المُنْتقلةَ إلينا ؛ كما تصانُ العُيونُ بجُفُونِها ، والقُلوبُ بشِغَافِها ؛ ونُجْرِيها مُجْرىٰ كَرائِمِ حُرَمِنا ، ونَفَائِسِ بنَاتِنا ، ومن تَضُمُّه منَازِلُنا وأوطانُنا ؛ ونَتَناهىٰ فى إجلالِها وإعْظامِها ، والتَّوسِعَةِ عليها فى مَراغِدِ عَيْشِها ، وعَوَارِضِ أوْطارِها ، وسائرِ مُؤَنِها ومُؤَنِ أسْبابِها ، والنُّهوض والوَفَاء بالحقّ الذى أوجبه اللهُ علينا لها ولك فيها ؛ فلا نُعْدِمُ شيئًا ألِفَتْه : من إشْبالٍ عليها ، وإحْسانٍ إليها ، وذَبٍّ عنها ، ومُحاماةٍ دُونَها ، وتعهُّدٍ لمسَارِّها ، وتَوَخٍّ لمحَابِّها ؛ ونكونُ جميعًا وكلُّ واحدٍ منا مُقيمين لك ولها على جميع ما آشتمل عليه هذا الكِتَابُ فى حَياتك — أطالها اللهُ — وبعد الوَفاةِ إن تَقَدَّمْتنا ، وحُوشِيتَ من السُّوءِ فى أُمورِك كُلِّها ، وأحْوالِك أجْمَعِها .

ثم إنا نقولُ — وكُلُّ واحدٍ منا ، طائِعِين مُخْتارِينَ ، غيرَ مُكْرَهِين ولا مُجْبَرِينَ ، بعد تمامِ هذا العَقْدِ بيننا وبينك ، ولُزُومه لنا ولك — : وَاللهِ الذى لا إلٰهَ إلّا هو الطَّالِبُ الغَالِبُ ، المُدرِكُ المُهْلِك ، الضَّارُّ النَّافِع ، المطَّلِعُ على السَّرائِر ، المُحِيطُ بما فى الضمائِر ، الذى يعلم خَائِنَةَ الأعْيُنِ وما تُخْفِى الصُّدور . وحَقِّ محمدٍ النَّبيِّ ، وعليٍّ الرضيِّ — صلى اللهُ عليهما وسلَّم وشَرَّفَ ذِكْرَهما ، وسَادَتِنا الأَئِمَّةِ الطيبين ، الطاهرين ، رحمةُ الله عليهم أجمعين . وحقِّ القُرآنِ العَظيمِ ، وما أُنْزِلَ فيه من تَحْليلٍ وتَحْرِيمٍ ؛ ووَعْدٍ ووَعِيدٍ ، وتَرْغِيبٍ وتَرْهِيبٍ ؛ لَنَفِيَنَّ لك يا سابورُ بنَ أَزْدَشِيرَ ، والكَرِيمةِ الأَثِيرةِ آبْنَتِك فُلانة — أحسن اللهُ رِعَايَتَها — بجميع ما تضمَّنه هذا الكِتَابُ ، وَفَاءً صحيحا ، ولنَلْتزِمَنَّ لك ولها شرائِطَه ووَثَائِقَه ، فلا نَفْسَخُها ، ولا نَنْقُضُها ،

ولا نتتبّعها، ولانتعقّبها، ولانتأوّلُ فيها، ولانزُولُ عنها، ولا نلتمسُ مَخْرجًا ولامَخْلصًا منها، حتّىٰ يجمعنا المَوْقِفُ بين يدى الله، والمَقْدَمُ علىٰ رَحْمَةِ الله، ونحن يومئذ ثابتَانِ عليها، ومُؤَدِّيان للأَمَانَةِ فيها، أداءً يشهدُ اللهُ تعالىٰ به وملائكَتُه يومَ يَقُومُ الأشْهَاد، ويُحاسَبُ العباد . فإن نَحْنُ أخلَلْنا بذلك أو بِشَيْءٍ منه، أو تَأَوّلْنا فيه أو فى شَيْءٍ منه، أو أَضْمرنا خِلَافَ ما نُظْهِر، أو أسرَرْنا ضِـدَّ مانُعْلِنُ، أو ٱلْتمَسْنا طَرِيقًا إلىٰ نَقْضِه، أو سَبِيلًا إلىٰ فَسْـخِه، أو أَلْمَمْنا بإخْفارِ ذِمَّةٍ من ذِمَمِه، أو ٱنْتهاكِ حُرْمةٍ من حُرَمِه، أو حَلِّ عِصْمَةٍ من عِصَمِه، أو إبْطَـالِ شَرْط من شُروطِه، أو تَجاوُزِ حَدٍّ من حُدُوده ــ فالذى يفعل ذلك منّا يوم يَفْعَلُه أو يَعْتَقِدُه، وحين يدخُلُ فيه ويَسْتجيزُه ــ برىءٌ من الله جَلَّ ثَناؤُه، ومن نُبُوّةِ رسولِه محمدٍ، ومن وِلَايَةِ أمير المؤمنـين علِيِّ بن أبى طَالِبٍ صلى الله عليهما وسلَّم، ومن القُرآنِ الحكيم العَظِيم، ومن دِينِ الله الصحيح القَوِيم؛ ولَقِيَ اللهَ يوم العَرْضِ عليـه، والوُقُوفِ بين يديه، وهو به ــ سـبحانه ــ مُشْرِك، ولرسولِه صلَّى الله عليه وسلم مُخَالِف، ولأهْلِ بَيْتِه مُعادٍ، ولأعْدائِهِم مُوَالٍ؛ وعليه الحَجُّ إلىٰ بَيْتِ اللهِ الحَرامِ العَتِيقِ الذى بمَكَّةَ : راجلًا، حَافِيًا، حاسرًا؛ وإماؤُه عَوَاتِق، ونِسَاؤُه طَوَالِق، طلاقَ الحَرَجِ والسُّنَّة، لا رَجْعةَ فيه ولا مَثْنَوِيَّة؛ وأمْوَالُه ــ على ٱخْتِلافِ أصْنافِها ــ مُحَرَّمةٌ عليه، وخارِجةٌ عن يَدَيْه، وحَبِيسَةٌ فى سبيل الله وبرأه اللهُ من حَوْلِه وقُوّتِه، وألجأه إلى حَوْلِه وقُوّتِه .

وهذه اليمين لازمةٌ لنا، وقد أطلقَ كُلُّ واحِدٍ منا بها لِسَانَه، وعقَدَ عليها ضَمِيرَه، والنِّيةُ فى جميعها نيَّـة فلانِ بنِ فلان، لا يقبلُ الله من كلِّ واحدٍ منّا إلا الوَفَاءَ بها، والثَّباتَ عليها، والاِلْتِزامَ بشُرُوطِها، والوُقُوفَ علىٰ حُدُودِها، وكَفَىٰ بالله شهيدًا، وجازِيًا لعِبَادِه ومُثيبا . وذلك فى يوم كذا، من شهر كذا، من سَنَة كذا .

المـــذهب الثـانى

(أن يُفتتحَ عقْدُ الصُّلح بخُطبة مُفتَتَحةٍ بـ«الحمدُ لله» ورُبَّمـا كُرِّر فيها التحميدُ إعلامًا بعظيم موْقِع النِّعمة)

وهذه نُسخةُ عَقْدِ صُلح كتبَ بها أبو الحُسَيْنِ أحمدُ بن سَعْدٍ عن بعض الأمراء لمن كان (١) ... ...

ونَصُّها علىٰ ماذكره فى "كتاب البلاغة" فى الترسل، بعد البَسْملة :

الحمدُ لله الذى خلق العِبادَ بقُدْرته ، وكوّن الأُمورَ بحكْمته، وصرَّفها علىٰ إرادَته . لم يلْطُف عنه خَفِىّ ، ولا آمتنَع عنـه قوِىّ؛ آبتدَع الخَلائقَ على آختلاف فِطَرِها، وتَبايُنِ صُوَرِها، من غير مِثَالٍ آحتذاه، ولا رَسْمٍ آقتفاه؛ وأيَّدهُم بنِعْمته ، فيما ركبـه فيهـم من الأَدواتِ الدَّالَّة علىٰ رُبُوبِيَّته، الناطقَةِ بوَحْدانيَّته ؛ وآكْتفَوْا بالمَعْرِفة به ـ جلَّ جَلالُه ـ بخَبَر العُقُول ، وشَهادَةِ الأفْهام . ثم آستظهر لهم فى التَّبْصره، وغلبهم فى الْحُجَّـه ؛ برُسُلٍ أرسلها ، وآياتٍ بَيَّنها ؛ ومعَالِمَ أوْضحها ، ومَنَاراتٍ لمسَالكِ الحَقّ رفَعَها ؛ وشَرَع لهم الإسْلامَ دينًـا وآرْتضاه وآصْطَفاه ، وفَضَّـله وآجْتَباه ، وشَرَّفه وأعلاه؛ وجعله مُهَيْمِنًا على الدِّينِ كُلِّه، وقدَّر العِزَّ لحِزْبِه وأهْلِه ؛ فقال جَلَّ جَلالُه : ﴿هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ وأيّدَه بأنبيائه الدَّاعِينَ إليه ، والنَّاهِجِين لطُرُقه ، والهَـادِينَ لفرائضه ، والمُخْبِرِينَ عن شَرَائعه؛ قرْنًا بعد قرْن ، وأُمَّةً بعد أُمَّة، فى فَتْرةٍ بعد فَتْرَه ، وبَيِّنَةٍ بعـد بَيِّنَه؛ حتّى آنتهىٰ تَقْـدِيرُه ـ جَلَّ جلالُه ـ أن بَعثَ النَّبِىَّ الأُمِّىّ ، الفَاضِلَ الزَّكِىّ؛ الذى قَفَّى به على الرُّسُـل، ونَسَخ بشَرِيعتِه شَرَائِـعَ المِلَل ، وبِدِينِه أدْيانَ الأمَم ؛ علىٰ حِينِ تَراخِى

(١) بياض بالأصل .

فَتْرَه، وتَرَامِى حَيْرَه؛ فَأَبَاخَ(١) به نِيرانَ الفِتَنِ بعد آضْطِرامِها، وأضَاء به سُبُلَ الرَّشادِ بعد إظْلامِها؛ علىٰ عِلْمٍ منه ــ تعالىٰ ذِكْرُه ــ بمـا وجده عنده من النُّهُوض بأَعْباءِ الرِّسالَه، والقيامِ بأداءِ الأمَانَه؛ فأزَاحَ بذلك العِـلَّة، وقَطَع المَعْذِرَة؛ ولم يُبْقِ للشَّاكِّ مَوْضِعَ شُبْهة، ولا للمُعانِدِ دَعْوى مُمَوَّهَة؛ حتىٰ مَضَى حَمِيدًا تشهدُ له آثارُه، وتقومُ بتأبيـدِ سُنَّتِه أخْبارُه؛ قد خَلَّفَ فى أمَّتِه، ما أصارَهم به إلىٰ عَطْفِ اللهِ ورَحْمتِه، والنَّجاةِ من عِقابِه وسُخْطِه؛ إلَّا من شَقِىَ بسُوءِ آخْتِيارِه، وحُرِمَ الرَّشادَ بخِذْلانِه؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله الطيبينَ أفضَل صَلاةٍ وأتَمِّها، وأوْفاها وأعَمِّها.

والحمـدُ للهِ الذى خَصَّ سـيدَنا الأميرَ بالتَّوفيق وتَوَحَّده بالإرْشادِ والتَّسْـديد؛ فى جميعِ أنْحائِه، ومَوَاقِعِ آرائِه؛ وجعل هِمَّتَه (إذْ كانتْ الهِمَمُ منْصرِفَةً إلىٰ هَشِيمِ الدُّنيا وزَخَارِفِها، التى يتحلَّىٰ بهـا الأبناءُ وتَدْعوها إلىٰ نَفْسها)، مَقْصُورةً علىٰ ما يجمعُ له رِضا رَبِّه، وسَلامةَ دِينِه؛ وآسْتِقامَةَ أُمورِ مَمْلَكَتِه، وصلاحَ أحْوالِ رعِيَّتِه؛ وأيَّده فى هذه الحَـالِ المعارضه، والشُّبْهة الواقعه؛ التى تَحارُ فى مِثْلِها الآراء، وتَضْطرِبُ الأهْواء؛ وتَتَنـازعُ خَواطِرُ النفوس، وتفتلج وَسَاوِسُ الصُّـدُور؛ ويَخْفىٰ مَوْقِعُ الصَّواب، ويُشْكِلُ مَنْهَجُ الصَّلاح ــ بمـا آختار له من السِّـلْمِ والمُوادَعه، والصُّلْح والمُوافَقَه؛ الذى أخبر الله تعـالىٰ فى كتابه علىٰ فَضْلِه، والخَيْرِ الذى فى ضِمْنِه، بقوله جَلَّ وعَزَّ: ﴿ والصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ وقوله جلَّ ذِكْرُه: ﴿ وَإنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَآجْنَحْ لهَـا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ﴾ حتَّىٰ أصبح السَّـيْفُ مَغْمُودا، ورِواقُ الأَمْنِ ممْدُودا؛ والأهْواءُ مُتَّفِقَه، والقُلُوب مُؤْتَلِفَه، والكَلِمةُ مُجْتَمِعَه؛ ونِيرانُ الفِتَنِ والضَّلالَة خَامِدَه، وظُنُونُ بُغاتِها والسَّاعِينَ لهـا كَاذِبَه، وطَبقاتُ الاولياء والرَّعِيَّة ــ بمـا أُعِيدَ إليهم من

(١) أى سكنها وأطفأها.

الأَمَنة تُعْقِبُ الخِيفَة، والأَنَسَة من بعد الوَحْشَة ـ مُسْتَبْشِرَةٌ؛ وإلى الله عَزَّ وجَلَّ ـ في إطَالَةِ بقاء الأمير وإدَامَةِ دَوْلتــه، وحراسَةِ نِعمَتِــه وتَثْبِيت وَطْأَته ـ رَاغِبِينَ، وفي مُسَالَمَتِه مُخْلِصِين. ولو لم يَكُن السِّلْمُ في كِتَاب الله مأمورًا به، والصُّلْحُ مخبرًا عن الخَيْرِ الذى فيه؛ لكان فيما يَنْتَظِمُ به: من حَقْنِ الدِّماء، وسُكُونِ الدَّهْمَــاء؛ ويجمعُ من الخلالِ المَحْمودَة، والفَضَائِل المَمْدُودَة، المُقَــدَّمِ ذِكْرُها ـ ماحَدَا عليه، ومَثَّل للعُقُول السَّليمَة والآرَاء الصَّحِيحَة مَوْضِعَ الخَيْرِ فيــه، وحُسْنَ العَائِدَة على الخــاصِّ والعامِّ به؛ فيما يَتَجَلَّى للعُيُونِ، من مشتبهات الظُّنُونِ، إذ الدِّينُ واقِعٌ، والشَّكُّ جانحٌ بين المُحِقِّ والمُبْطِل، والجَائِر والمُقْسِط. وقد قال الله جَلَّ ثَنَــاؤُه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَـؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ ناظرًا للمسلمين من مَعَرَّةٍ أو مَضَرَّةٍ تلحَقُ بعضَهم بغَــير عِلْم؛ ومُؤْثِرًا تَطْهِــيرَهم من ظَنِّ العُدْوَان، مع رَفْعِــه عنهم فَرَطاتِ النِّسْــيان، وكافًّا أيدى المسلمين عن المشركين، كما كَفَّ أيديَهم عن المسلمين؛ تَحَنُّنًا علىٰ بريِّتِه، وإبْقاءً علىٰ أهْلِ مَعْصِيَتِه؛ إلىٰ أن يَتِمَّ لهم الميقاتُ الذى أدْنَاه، والأمْرُ الذى أمْضاه، ومَوْقِعُ الحَمْد فى عاقبَته، والسَّلامَة فى خَاتِمَتِه. وبَلَّغهم من غاية البَقَاء أمدَها، ومن مَرافِقِ العَيْش أرْغَدَها، مقصورة أيدى النَّوائِب عما خَوَّله، ومعصومة أعْيُنُ الحَوَادِثِ عما نَوَّله؛ إنه جَوادٌ ماجدٌ.

قلتُ: وعلىٰ هــذا المَذْهَب كُتِبَ عَقْــدُ الصُّلْح بين السُّــلطانِ المَلِكِ النَّاصِرِ أبِي السَّعاداتِ «فَرَج» بن السُّلطانِ المَلِكِ الظَّاهِر «برقوق»، وبين المَقَام الشَّريف النُّطْعِيّ تَيْمُــور كوركان صاحِب ما وَرَاء النَّهْرِ، بعــد طُرُوقه الشَّامَ وفَتْحِه دِمَشْــقَ وتَحْرِيقِها وتَخْرِيبِها، وإرسالِ كِتَابِه فى مَعنَى طَلَب الصُّلْح، وإرْسال الأمير أطلمش لزمه، المأسُورِ فى الدَّوْلة الظَّاهِريَّة «برقوق» صحبــة الخواجا نظام الدين مَسْــعُود الكججانى. جُهِّز ذلك إليــه قَرِينَ كِتَابٍ من الأبواب السلطانية صُحْبَــةَ الخواجا

مسعود المذكور، والأمير شهاب الدين بن أغلبك، والأمير قانبيه، فى جمادىٰ الأولىٰ سنة خمسٍ وثمانمائة، بإشارة المَقَرِّ الفَتْحِى صاحب دِيوانِ الإنشاء الشريف، من إنشاء الشيخ زين الدِّين طاهر، ٱبن الشيخ بدر الدين حَبِيبٍ الحَلَبِىِّ، أحَدِ كُتَّاب الدَّسْتِ الشَّرِيف بالأبواب السلطانية، وهو مَكْتوبٌ فى قَطْع ... ...(١) بقَلَم ... ...(١) وفى طُرَّتِه ما صُورتَهُ :

«مَرْقومٌ شريفٌ جَلِيلٌ عَظِيمٌ، مبجَّلٌ مكَرَّمٌ جَمِيلٌ نَظِيمٌ، مُشْتملٌ علىٰ عَقْد صُلْحٍ ٱفتتحه المَقَـامُ الشريفُ، العالِى، القُطْبىُّ، نُصْرةُ الدِّينِ، تَيْمُور كوركان، زِيدتْ عَظَمتُه، يكونُ بينه وبين المقـام الشريفِ، السُّلطانِ، المَـالِكِ، المَلِكِ النَّـاصِرِ أبِى السَّـعادَاتِ «فرج» بنِ السلطانِ الشَّهِيدِ، المَلِكِ الظَّاهِرِ أبى سَعِيد «بَرْقوق» خادمِ الحَرَمَيْن الشريفين، خَلَّدَ اللهُ تعالى مُلْكَه. ٱنعقد بمباشرة السَّـفيرِ عن المقام الشريفِ القُطْبِىِّ، المشارِ إليه ووَكِيله فى ذلك، الخواجا نِظَامِ الدِّينِ مَسْعود الكَجَجانى، بشَهَادة من حضر صُحْبته من العُدُول بالتوكيل المذكور، علىٰ حُكْم إشارةِ مُرْسِلِهِ إليه ومضمون مُكَاتَبتِه، وقَصْده تجْهيز الأمير أطلمش لزمه. وحَلَفَ المقامُ القُطْبِىّ على المُوافَاة والمُصَافاةِ، وٱتِّحـادِ المَمْلَكَتَيْنِ، وإجراءِ الأُمُور علىٰ السَّـدادِ، وعمل مصالح العباد والبلاد».

والبياضُ ثلاثةُ أوصالٍ بوَصْـل الطُّرَّة، والبَسْملةُ فى أوَّلِ الوَصْلِ الرابع بهامِش عن يمينها، وتَحتَ البسملة سَـطْرٌ، ثم بَيْت العلامة، والسَّـطْر الثانى بعـد بَيْت العلامة. والعَلَامةُ بجَلِيل الثُّلُثِ بالذَّهَبِ ما صُورَتُه : «اللهُ أَمَلِى».

(١) بياض بالأصول.

ونُسْخةُ المَكْتوبِ بعد البسملة ما صُورَتُه :

الحمدُ للهِ الذى جعل الصُّلْحَ خَيْرَ ما ٱنعقَدَتْ عليه المَصَالِح ، والإصْلاحَ بينَ النَّاس اوْلَىٰ ما ٱتَّصلَتْ به أسبابُ المَنَاجِح ، وأحَقَّ ما نَطَقتْ به أَلْسُنُ المحامد وأثْنَتْ عليه أفْواهُ المَدَائح .

نَحمدُه علىٰ نِعَمِه التى جمعتْ أشْتَاتَ القُلوب الطَوائح ، وأضافَتْ إلىٰ ضِياءِ الشَّمْس نُور القَمَر فاهتدىٰ بهما كلُّ غادٍ ورائِح ؛ ونشهدُ أن لا إله إلا الله وَحْدَه لا شَريكَ له شهادةً تُبَلِّغُ قائِلَها أهْنَى المَنَائح ، ونتعطَّرُ مجالسُ الذِّكْر بعَرْفِ روائحها الرَّوائح ؛ ونشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه أفضلُ من آخَى بين المتَحَاكمين فنصح لله ورأَى الصُّلْحَ من أعظم النَّصَائح ، وأكملُ رَسُولٍ ٱنقادتْ لأَخْلاقِه الرَّضِيَّة ، وصِفاتِه المَرْضِيَّة ، جوانح النُّفُوس الجوانح ، وسلَّم تسليماً كثيرًا .

و بعدُ ، فإنَّ أولىٰ ما ٱجتمعتْ عليه آراءُ أولِى الألْباب ، ورَكَنتْ إليه قُلوبُ ذَوِى المَعْرفة من أهْـلِ المودَّةِ والأحْباب ـ ٱئتِلافُ القـلوبِ بعد ٱخْتِلافِها ، وٱتِّصافُها بِالتَّلَبُّسِ بأحْسَنِ أوْصافِها ؛ والعَمَلُ على الصُّـلْحِ الذى هو أصلَحُ للنـاس ، وأرْبَحُ مَتَاجِر الدُّنيا والآخرة وأدْفَعُ للبَأْسِ والباس ؛ إذ هُو مِفْتَاحُ أبواب الخيرات الشَّامِله ، ومِصْباحُ مَنَاهِجِ الفِكرِ الصَّحيحةِ الكاملَه ؛ والدَّاعى إلىٰ كلِّ فِعْلٍ جميـل ، والسَّاعِى بكلِّ قَوْلٍ هو شِفَاءُ صَدَى الغليل ونَجاةٌ من دَاءِ العَلِيل .

ولـمَّـا كان المقـامُ الشَّريفُ ، العَالى ، الكَبِيرىُّ ، العَالِمىُّ ، العَامِلىُّ ، المؤَيدىُّ ، المظَفَّرِىُّ ، المَلْجَئِىُّ ، المَلاذىُّ ، الوَالِدىُّ ، القُطْبِىُّ ؛ نُصْرة الدِّين ، مَلْجأُ القاصِدين ، ملاذُ العابِدين ، قُطْبُ الاسلام والمسلمين ، تَيْمورُ كوركانـ ، زِيدَتْ عظمتُه ـ هو البَادىَ بإحْياءِ هذه السُّنَّةِ الحَسَنة ، والحَادىَ إلى العَمَلِ بمقتضَى مُفَاوَضَتِه الشريفة

التى هى لذلك مُتَضَمِّنه ، الوَارِدَة إلىٰ حَضْرة عبد الله وَوَلِيِّـه ، السُّلطانِ المَـالِك ، المَلِكِ النَّاصِر ، زَيْنِ الدُّنيـا والدِّين ، أبى السَّعاداتِ « فَرَج » بن السُّلطانِ الشَّهيدِ المَلِكِ الظَّاهِر ، أبى سَـعِيد « بَرْقُوق » خادِمِ الحَرَمين الشَّريفَين ـ خلَّد الله تعـالىٰ مُلْكَه ـ علىٰ يَدِ سـفير حَضْرته ، المَجْلِس السَّامىّ ، الشَّـيْخىّ ، النِّظَامىّ ، مَسْعودِ الكَجَجانى ، المؤرَّخَةِ بمُسْتَهلِّ شهر ربيع الأوّل سنة تاريخه .

وجُلُّ مَضْمونهـا ، وسرُّ مَكْنونها ـ قَصْـدُ إيقاعِ الصُّـلْح الشريف بين المُشارِ إليهما ، ونَسْجُ المَوَدَّةِ والمَحَبَّـةِ والمُصادَقَة بينهما ، وإسْـبالُ رِداءِ محَاسِنِها عليهما ؛ بمقتضى تَفْويضِ المقامِ الشَّريف القُطْبىِّ المُشارِ إليـه الأَمْرَ فى الصُّلْحِ المَذْكورِ إلىٰ الشَّيخِ نِظَامِ الدِّين مَسْعود المذكور ، وتَوْكِيلِه إيَّاه فيه ، وإقامَتِه مَقَامَ نَفْسه الشَّريفة ، وجَعْلِ قَوْلِه من قوله ، وأنَّه ـ عَظَّم اللهُ تعالىٰ شأْنَه ـ أشهدَ اللهَ العَظيمَ عليه بذلك ، وأشْهدَ عليـه من يَضَعُ خَطَّه من جماعَتِه المجهِّزِينَ صُحبةَ الشَّـيخِ نِظامِ الدِّين مَسْعود المذكور ، وهما : الشَّيخُ بَدْرُ الدِّين أحمدُ بنُ الشَّيْخِ الإمامِ العالِمِ شَمْسِ الدين محمد بن الجَزَرىّ الشَّافِعِى ، والصَّدْرُ الأجَلُّ كمالُ الدِّين كمال أغا ؛ وأنَّ ذلك صَدَر عن المقام الشريف القُطْبىِّ المشار إليـه ، لمُوافقَتِه علىٰ الصُّلْحِ الشريف ، وإجابَةِ القَصْد فيه بإطْلاقِ الأمير أطلمش لزم المَقَامِ القُطْبىِّ المشارِ اليـه ، وتَجْهِيزِه إلىٰ حَضْرتِه العالِيَةِ ؛ وأنَّه عاهدَ اللهَ عزَّ وجَلَّ بحُضُورِ جَمٍّ غَفِيرٍ من أُمَراء دَوْلته وأكابِرِها ، ومَن حَضَر مَجْلِسَهُ ، باليمينِ الشَّرْعية الجامِعَةِ لأشْتاتِ الحَلِف : باللهِ الذى لا إلٰهَ إلا هُوَ رَبِّ البَرِيَّةِ وبَارِئِ النَّسَم ، علىٰ ذلك جميعِـه ، وعلىٰ أنه لا يدخُلُ إلىٰ البلاد الداخلةِ فى مَمْلَكةِ مولانا السُّلطان المَلِك النَّاصِرِ المشارِ إليه ، وأنَّه مهما عاهَدَ وصالَحَ وعاقَدَ عليه الشَّيخُ نِظَامُ الدِّينِ مسعودُ الوَكِيلُ المذكورُ يقْضِى به المقـامُ القُطْبىُّ المشارُ اليـه ، ويُمْضِيه ويَرْتَضيه . وٱنْفصلَ الأمْرُ علىٰ ذلك .

فعند ما وقف مولانا السلطانُ المَلِكُ النَّاصِرُ المشارُ إليه ـ خلَّد اللهُ تعالىٰ مُلْكَه ـ على المُكَاتَبةِ الشَّريفةِ المشارِ اليها، وتَفَهَّم مَضْمُونَها، ورأىٰ أن المَصْلحةَ فى الصُّلْح: تَبَرُّكًا بما وَرَد فى كِتَاب اللهِ عزَّ وجَلَّ، وسُنَّةِ رَسُولِه صلَّى الله عليه وسلم ـ استخار اللهَ عزَّ وجلَّ، وأمَرَ بتَجْهيزِ الأميرِ أطلمش المذكور، وتَسْليمه للشَّيْخ نِظامِ الدِّين مَسْعودٍ المذكور، وأذِنَ لهما فى التَّوجُّهِ إلىٰ حضْرةِ المقام الشريفِ القُطْبىِّ المشارِ إليه: بمُوافَقةِ مولانا أميرِ المُؤْمنين المتوكِّلِ على الله ـ أدام الله تعالىٰ أيَّامَه ـ على ذلك، وحُضُورِ الشَّيخِ الإمامِ الفَرْدِ الأوْحَدِ، شيخِ الإسلامِ، سِراجِ الدِّينِ، عمرَ البُلْقِينِىِّ ـ أعاد الله تعالىٰ على المسلمين من بَرَكاته ـ وقُضاةِ القُضاةِ الحُكَّامِ ـ أعزَّ الله تعالىٰ أحْكامَهم ـ ومَشايخ العِلْم الشَّريفِ والصَّلاحِ، وأرْكانِ الدَّوْلة الشريفةِ، ومَن يَضَعُ خَطَّه فى هذا الصُّلحِ الشَّريفِ بالشهادة بمَضْمُونه.

وعُقِدَ الصُّلْحُ الشريفُ بين مولانا السُّلطانِ المَلِكِ الناصِرِ المشارِ اليه ـ خلَّد اللهُ تعالىٰ مُلْكَه ـ وبين الشَّيخِ نِظامِ الدِّينِ مَسْعودٍ الوكيلِ المذكورِ عن المقام الشَّريف القُطْبىِّ المشار اليه ـ زِيدَتْ عَظَمَتُه ـ علىٰ حُكْم مَضْمون مُفاوَضَته الشريفةِ المقدَّمِ ذِكْرُها، وما قامتْ به البَيِّنَةُ الشَّرْعية، بشهادة العَدْلَيْنِ المذكورينِ الوَاصِلَيْن صُحْبَةَ الوَكِيلِ المذكورِ بالتَّوكيلِ المَشْروحِ فيه. فكان صُلْحًا صحيحًا شَرْعيًّا، تامًّا كاملًا مُعتبرًا مَرْضيًّا؛ علىٰ أحْسَنِ الأمور وأجْمَلِها، وأفْضَلِ الأحْوال وأكْمَلِها.

وحَلَفَ مولانا السلطانُ المَلِكُ الناصرُ المُشارُ اليه ـ خَلَّد الله مُلْكَه ـ وعاهَدَ اللهَ عزَّ وجَلَّ نظيرَ ما حَلَفَ وعاهَدَ عليه المَقامُ الشَّريفُ القُطْبىُّ المشارُ إليه من القَوْلِ والعَمَل؛ واسْتقرَّتْ بمشيئَةِ اللهِ تعالىٰ الخَواطِر، وسُرَّتِ القُلوبُ وقَرَّت النَّواظِر؛ لِمَا فى ذلك من حِفْظِ ذِمامِ العُهُودِ الشريفه، وإقامةِ مَنَارِ الشَّرْعِ الشريف وآمْتِدا

ظِلالِ أعْلامِه الوَرِيفه ؛ وإجْراءِ كَلِمَةِ الصِّدْقِ ، علىٰ لسانِ أهْلِ الحَقِّ ، وصَوْنِ أمَانةِ اللهِ تعالىٰ وشِعَارِ دينِه بين الخَلْق ؛ فلا يتغيَّر عَقْدُ هذا الصُّلْحِ الشريف علىٰ مَدَى الليالى والأيام ، ولا ينْقَضى حُكْمُه ولا يَحُلُّ إبْرامُه علىٰ تَوالى السِّنين والأعْوام .

هـذا : على أن لا يدخُلَ أحَدٌ من عساكرهما وجُنْدِهما ومَمَاليكهما إلىٰ حُدُود مَمْلكةِ الآخَر ، ولا يتعرّضَ إلىٰ ما يتعلّقُ به من مَمَالكَ وقِلاع ، وحُصُونٍ وسَوَاحِلَ ومَوَان وغيرِ ذلك من سائر الأنواع ؛ ورَعَاياهُما من جميع الطوائف والأجناس ، وما هو مختصٌّ ببِلادِ كلٍّ منهما ومَعْروفٌ به بين الناس : حاضِرِها وباديها ، وقاصِيها ودَانيها ، وعامِرِها وغامِرِها ، وباطِنِها وظاهِرِها ، ولا إلىٰ من فيها من الرَّعيَّةِ والتُّجَّارِ والمسافرين ، وسائرِ الغَادينَ والرَّائحينَ فى السُّبُلِ والطُّرُق : مُتَفَرِّقين ومجتمعين .

هذا علىٰ أن يكونَ كلٌّ من المَقَامَين الشَّريفين المُشارِ إليهما مع الآخَرِ علىٰ أكْمَل ما يكون فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاء : من حُسْنِ الوَفَاء ، وجَميلِ المودَّة والصَّفاء ؛ ويكونا فى الاتِّحاد كالوالِد والوَلَد ، وعلى المُبالَغَةِ فى الامْتِزاجِ والاخْتِلاطِ كرُوحَيْنِ فى جَسَد ؛ مع ما يُضافُ إلىٰ ذلك من مُصادَقةِ الأصْدِقاء ، ومُعادَاةِ الأعْداء ، ومُسالَمَةِ المُسَالمين ، ومُحارَبَةِ المُحارِبين ؛ فى السِّرِّ والإعلان ، والظُّهُورِ والكِتْمان ؛ وباللهِ التَّوْفيق ، وهو العالِمُ بما تُبْدى الأعْيُنُ وما تُخْفِى الصُّدور ، وعليه التُّكْلانُ فى كُلِّ الأمور ، فى الغَيْبة والحُضُور ، والوُرُود والصُّدُور .

الباب السادس
من المقالة التاسعة
(فى الفسوخ الواردةِ على العقود السابقة، وفيه فصلان)

الفصل الأوّل

الفَسْخُ، وهو ما وقع من أحَدِ الجانبين دونَ الآخَر

قال فى "التعريف" : وقلَّ أن يكونَ فيه إلا ما يبعثُ به على ألسِنَةِ الرُّسل . قال : وقد كتب عَمِّى الصاحبُ شرفُ الدِّين [أبو محمدٍ][1] عبدُ الوهَّابِ رحمه الله ، سنة دخول العساكر الإسلامية مَلَطْيَةَ، سنة أربع عشرةَ وسبعمائةٍ فَسْخًا على التكفور متملك سِيسَ، كان سببا لأن زاد قَطِيعتَه . ولم يذكر صورة ما كتبه فى ذلك .

وقد جرتِ العادةُ أنه إذا كان الفَسْخُ من الجانبِ الواحدِ أن يذكُرَ الكاتبُ فيه مُوجِبَ الفَسْخِ الصادر عن المفسوخ عليه : من ظُهورِ ما يوجب نَقْضَ العَهْد، ونَكْثَ العَقْد ، وإقامَةَ الحُجَّة على المفسوخ عليه من كل وَجْهٍ .

قال فى "التعريف": والذى أقولُ فيه : إنه إن كُتِب فيه، كُتِب بعد البسملة :

هذا ما ٱستخار الله تعالىٰ فيه فلانٌ، ٱستخارةً تَبَيَّنَ له فيها غَدْرُ الغادر، وأظهر له بها سِرَّ البَاطِن ما حَقَّقه الظَّاهِر؛ فسخَ فيها علىٰ فلانٍ ما كان بينه وبينه من المُهادنَةَ التى كان آخِرُ الوقْتِ الفلانىّ آخِرَ مُدَّتِها ، وطهَّر السيوف الذُّكور فيها من الدِّماء إلى ٱنقضاء عدَّتِها؛ وذلك حين بدا منه من مُوجِبات النَّقْض، وحَلِّ المُعاقَدَةِ التى كانت يُشَدُّ بعضُها ببعض (وهى كذا وكذا ، وتذكر وتعدّ) ممـا يوجبُ كُلُّ ذلك إخْفارَ

(١) الزيادة عن "التعريف" (ص ١٧١) .

الذِّمَّه ، ونَقْض العهود المَرْعِيَّة الحُرْمَه ؛ وهَــدِّ قَواعِدِ الهُدْنه ، وتَخْلِيَــةَ ما كان قد أُمْسِك من الأَعِنَّه ؛ كتبَ إنْذارا ، وقدّم حِذَارا ؛ وممن يشهدُ بوجوب هذا الفَسْخ ، ودخول مِلَّة تلك الهُدْنة فى حُكْم هــذا النَّسْخ ؛ ما تشهدُ به الأيَّام ، ويحكم به عليه النَّصْر المكتَتَبُ للإسلام ؛ وكُتِب هذا الفسخُ عن فلانٍ لفلانٍ وقد نبذإليه عَهْده ، وأنْجز وَعْده ؛ وأنفذ إليــه سَهْمه بعد أن صَبَر مَلِيًّا علىٰ مُمــالَاته ، وأقام مدّة يُدارِى مَرَضَ وَفائه ولا ينجحُ فيه شيءٌ من مُدَاواتِه ؛ ولَيَنصُرَنَّ اللهُ من يَنصُرُه ، ويَحْذَر مَن يَأْمَنُ مَكْره مَن يَحْـذَرُه ؛ وأمر فلانٌ بأن يقرأ هــذا الكِتَابُ علىٰ رءُوس الأشهاد ، لينقلَ مَضْمونُه إلى البلاد ؛ أنَفَةً من أمر لا يتَأَدَّىٰ به الإعلان ، وينصبُ به لهذا الغَادِرِ لِواءٌ لا يقال إذا يقال : هذا اللِّواءُ لغَدْرة فلان بن فلان .

الفصــــل الثانى

المُفاسَخَة وهى ما يكون من الجانبين جميعا

قال فى "التعريف" : وصورةُ ما يكتَبُ فيها : هذا ما آختاره فلانٌ وفلانٌ من فَسْخ ما كان بينهــما من المُهادَنَةِ التى هى إلىٰ آخر مدّة كذا . آختارا فَسْخَ بِنائِها ، ونَسْخ أنْبائِها ؛ ونَقْضَ ما أبْرِمَ من عقودها ، وأُكِّدَ من عُهُودها ؛ جرت بينهما علىٰ رِضا من كلٍّ منهــما بايقاد نارِ الحَرْبِ، التى كانت أُطْفِئَتْ ، وإثَارةِ تلك التَّوائر التى كانت كُفِيَتْ ؛ نبذاه علىٰ سَواءٍ بينهما ، وآعتقادٍ من كلٍّ منهما ؛ أن المَصْلحةَ فى هذا لجهَتِه ، وأسْقط ما كان يحْمِله للآخَرِ من رِبْقَتِه ؛ ورَضِيَ فيــه بقضاء السُّــيوف ، وإمضاءِ أمْر القَدَرِ والقَضاءِ فى مُساقَاتِ الحُتُوف ؛ وقد أشهدا عليهــما بذلك اللهَ وخَلْقَه ومن حَضَر ، ومن سَمِــعَ ونَظَر ؛ وكان ذلك فى تاريخ كذا وكذا .

المقـالة العاشـــــرة

فى فُنُونٍ من الكِتَابة يَتَداولها الكُتّابُ وتَتنافَسُ فى عملها، ليس لهـا تعلُّقٌ بكتابة الدَّواوين السلطانية ولا غيرها، وفيها بابان

البـاب الأوّل

فى الحِدِّيَات، وفيــه خمســة فصول

الفصــــل الأوّل

فى المَقَـــامات

وهى جمع مَقَامَةٍ بفتح الميم، وهى فى أصْلِ اللُّغة آسمٌ للمَجْلِس والجماعةِ من الناس. وسُمِّيت الأُحْدُوثَة من الكلام مَقامةً، كأنها تُذْكر فى مجلس واحدٍ يجتمعُ فيه الجماعةُ من الناس لسماعها. أما المُقامَةُ بالضَّم، فبمعنى الإقَامَة، ومنه قوله تعـالىٰ حكايةً عن أهل الجَنَّة: ﴿ الَّذِى أَحَلَّنا دَارَ المُقَامَةِ مِنْ فَضْلِه ﴾.

وآعلم أن أوّلَ من فتح بابَ عَمَـلِ المقامات، عَلَّامةُ الدَّهْر، وإمام الأدَب، البَدِيعُ الهَمَذَانِىُّ: فعَمِل مقامَاتِه المشهورةَ المنسوبةَ إليه، وهى فى غايةٍ من البلاغة، وعُلُوِّ الرُّتبــة فى الصَّنْعةِ. ثم تلاه الإمام أبو محمـدٍ القاسِمُ الحَرِيرىُّ، فعمل مَقاماتِه الخمسينَ المشهورةَ، فجـاءت نهايةً فى الحُسْن، وأتت على الجُزْءِ الوَافِرِ من الحَظِّ؛ وأقبل عليها الخـاصُّ والعامّ، حتّىٰ أنْسَتْ مقاماتِ البَـدِيع وصيَّرتها كالمرْفُوضة. علىٰ أن الوزيرَ ضِياءَ الدِّين بنَ الأثير فى "المَثَلِ السَّائر" لم يُوَفِّه حَقَّــه، ولا عَامَله بالإنصاف، ولا أجْمَل معه القَوْل. فإنه قد ذكر أنه ليس له يَدٌ فى غير المقامات،

حتّىٰ ذَكَرعن الشيخ أبى محمدٍ أحمدَ بنِ الخَشَّابِ أنه كان يقول : إن الحَرِيرِىَّ رَجُل مقاماتٍ . أى إنَّه لم يُحْسن من الكلامِ المنْثُورِ سواها، فإن أتىٰ بغيرها فلا يقولُ شيئًا . وذَكَرأنه لما حضر بَغْدَادَ ، ووُقِفَ علىٰ مَقَاماته، قيل : هذا يُسْتصلَح لكتَابة الإنشاء فى دِيوانِ الخِلافَةِ ، ويَحْسُن أثَرُه فيه ، فأُحْضِروكُلِّف كتَابةَ كِتَابٍ فأُفْحِمْ ، ولم يَجْرِ لِسانُه فى طويلِه ولا قَصِيرِه ، حتّىٰ قال فيه بعضُهم :

شَيْخٌ لنا من رَبِيعَةِ الفَرَسِ * يَنْتِفُ عُثْنُونَه من الهَوَسِ،
أنْطقه اللّهُ بالمَشَانِ وفى * بَغَدَادَأضْحَى المَلْجُومَبالخَرَسِ!

وٱعتُذِرَ عنه بأن المقاماتِ مَدَارُها جَمِيعُها علىٰ حكاية تخرجُ إلىٰ مَخْلَصٍ ، بخلاف المكاتبات فانها بَحْرٌلا ساحِلَ له : من حيثُ إن المعانِىَ تتجدّدُ فيها بِتَجَدُّدِ حوادث الأيام، وهى مُتَجَدِّدَةٌ علىٰ عَدَدِ الأنفاس .

وهذه المقامةُ التى قَدَّمتُ الإشارة إليها فى خُطْبَةِ هذا الكِتَاب، إلىٰ أنِّى كنتُ أنشأْتُها فى حُدُود سنة إحدىٰ وتسعين وسبعمائة، عند ٱستقرارى فى ديوان الإنشاء بالأبواب الشريفة ، وأنها ٱشتملتْ ـ مع الٱخْتِصَار ـ علىٰ جُملةٍ جَمَّةٍ من صِناعَة الإنشاء، وسَمَّيْتُها بـ "الكَواكِب الدُّرِّيَّة، فى المَنَاقِبِ البَدْرِيَّه" ووجَّهتُ القولَ فيها لتَقْرِيظِ المَقرِّ البَدْرِىّ، بن المَقرِّ العَلائىّ ، بن المَقرِّ المحيَوِىّ ، بن فَضْلِ الله، صاحب ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالدِّيار المِصْرية يومئذٍ . جعلتُ مَبْناها علىٰ أنه لا بُدّ للإنسانِ من حِرْفةٍ يتعلَّق بها، ومَعيشةٍ يتمسَّكُ بسَبَبِها؛ وأن الكِتابةَ هى الحِرْفَةُ التى لا يليقُ بطالِبِ العِلْمِ سِوَاها، ولا يجوزُ له العُدُولُ عنها إلىٰ ما عداها؛ مع الجُنُوح فيها إلىٰ تفضيل كِتابة الإنشاء وتَرْجِيحها ، وتَقْديمها علىٰ كتابة الدِّيوَنَةِ وتَرْشيحها .

وقد اشتملَتْ علىٰ بيَانِ ما يحتاجُ إليه كاتبُ الإنشاءِ من المَوادّ ، وما ينبغى أن يَسْلُكه من الجوَادّ ؛ مع التّنبيه علىٰ جُمْلة من المُصْطَلح بيّنَتْ مقاصِدَه ، ومهّدتْ قواعِدَه ؛ علىٰ ماستقِفُ عليه فى خلال مَطاوِيها إن شاء الله تعالىٰ ، وهى :

حكَى النّاثرُ ابن نظّام ، قال : لم أزَلْ من قبلِ أن يبلُغَ بريدُ عُمْرى مرْكزَ التّكليف ، ويتفرّقَ جمْعُ خاطِرى بالكُلَف بعد التّأليف ؛ أنْصِبُ لاقْتِناص العِلْمِ أشْراكَ التّحْصيل ، وأنزّهُ توْحيدَ الاشتغال عن إشْراكِ التّعْطيل ؛ مُشمّرًا عن ساقِ الجِدّ ذَيْلَ الاجتهاد ، مُستَمِرًّا على الوَحْدَةِ ومُلازَمةِ الانفراد ؛ أنتهِزُ فُرْصَةَ الشّبابِ قبلَ تولّيها ، وأغتنِمُ حالةَ الصِّحّة قبل تجافِيها ؛ قد حالَفَ جَفْنِى السُّهاد ، وخالَفَ طيبَ الرُّقاد ؛ أُمَرِّنُ النّفْسَ علىٰ الاشتغال كَىْ لا تَمَلَّ فتنفِرَ عن الطّلَب وتجمح ؛ مُمِيلًا جانبَ قَصْدِها عن رُكُوب الأهواء والمَيْلِ إليها ، صارِفًا وَجْهَ غايتِها عن المَطالب الدُّنْيَوِيّة والرُّكُونِ إليها ؛ مُتخيِّرًا ألْيَقَ الأماكِنِ وأوْفقَ الأوْقات ، قانِعًا بأدْنى العَيْش راضِيًا بأيْسَرِ الأقْوات ؛ أُونِسُ من شَوارِدِ العقول وَحْشِيَّها ، وأشَرِّدُ عن رَوابِضِ المَنْقول حُوشِيَّها ؛ وألتقِطُ ضالّةَ الحِكْمَةِ حيثُ وَجدتُها ، وأُقَيِّدُ نادِرَةَ العِلْمِ حيثُ أصَبْتُها ؛ مُقَدِّمًا من العلوم أشرَفَها ، ومُؤْثِرًا من الفُنونِ ألْطَفَها ؛ مُعْتَمِدًا من ذلك ماتألَفُه النفسُ ويَقْبَلُه الطّبْع ، مُقْبِلًا منه علىٰ مايستَجْلِى حُسْنَه النّظَرُ ويَسْتَحْلِى ذِكْرَه السّمْع ؛ مُنْتقِيًا من الكُتُب أمْتَعَها تَصْنيفا ، وأتمّها تحريرًا وأحْسَنَها تأليفا ؛ مُنْتخِبًا من أشياخ الإفادة أوْسَعَهم عِلْمًا وأكثرَهم تحقيقا ، ومن أقرانِ المُذاكَرة أرْوَضَهم بحثا وألْطَفَهم تدْقيقا ؛ عارِفًا لكلِّ عالِمٍ حقَّه ، ومُوَفِّيًا لكلِّ عِلْمٍ مُستَحَقَّه ؛ قد استغنيتُ بكِتابى عن خِلٍّ ورَفِيقٍ ، وآثرتُ بيْتَ خَلْوَتى علىٰ شَفِيقٍ وشَقِيقٍ ؛ أجُوبُ فيافِىَ الفُنُون لتظْهَرَ لى طلائعُ الفوائد فأشْهَدَها عِيانا ، وأجُولُ فى مَيْدانِ الأفكار لتلُوحَ لى كامِنُ المعانى فلا أثْنِى عنها عِنانا ؛ وأشُنُّ غاراتِ المطالعة علىٰ كتائبِ الكُتُب فأرْجِع

بالغَنيمه ، وأهْجُمُ علىٰ حُصُون الدَّفاتِر ثم لا أولّى عن هَزِيمَه ؛ بل كُلَّما لاحَتْ لى فِئَةٌ من البَحْثِ تَحَيَّزْتُ إليها ، أو ظهرتْ لى كَتِيبةٌ من المعانى حَمَلتُ عليها ؛ إلىٰ أن أُتِيحَ لى من الفَتْحِ ما أفاضته النِّعْمه ، وحَصَلتُ من الغنيمة علىٰ ما ٱقْتضَتْه القِسْمه .

فبَيْنا أنا أرْتَعُ فى رِياضِ ما نُقِّلت ، وأجْتَنِى ثمارَ ما خُوِّلْت ، إذْ طَلَع علىَّ جَيْشُ التَّكْليف فحَصرنى ، وخرج علىَّ كَمِينُ التَّكْليف فأسَرنى ؛ فأمْسَيْتُ فى أضْيَقِ خِنَاق ، وأشَدِّ وَثَاق ؛ قد عاقَنِى قَيْدُ الاكتساب عن الاشتغال ، وصَدَّنِى كَلُّ الكَدِّ عن الاهْتِمام بالطَّلَبِ والاحْتِفال ؛ فغَشِيَنِى من القَبْض ما غَشِيَنِى ، وأخَذَنى من الوَحْشَة ما أخَذَنى ؛ وتعارضَ فِىَّ حُكْمُ العَقْل بين الكَسْب وطَلَبِ العِلْم ، وتَساوَيَا فى التَّرْجِيح فلم تَجْنَحْ واحدةٌ منهما إلى السِّلْم ؛ فَصِرْتُ مَدْهوشًا لا أُحْسِنُ صُنْعا ، وبَقِيتُ مُتَحيِّرًا لا أدْرِى أىّ الأمْرَين أقربُ إلىَّ نَفْعا ؛ : إن طلبتُ العِلْمَ للكَسْبِ فقد أفْحَشْتُ رُجُوعا ، وإن تركتُ الكَسْبَ للعِلْمِ هَلَكْتُ ضَيْعَةً ومُتُّ جُوعا .

فلما عَلِمتُ أنَّ كُلًّا منهما لا يقوم إلا بصَاحِبِه ، ولا يَتِمُّ الواجبُ فى أحَدِهما مالم يُقَمْ فى الآخَرِ بواجِبِه ؛ ٱلتمستُ كَسْبًا يكونُ للعِلْمِ مُوافِقا ، وبحَمَلَتِه لائقا ؛ ليكونَ ذلك الكَسْبُ للعِلْمِ مَوْضوعًا والعِلْمُ عليه محْمولا ، والجَمْعُ ولو بوَجْهٍ أوْلىٰ ؛ فجعلتُ أسْبُرُ المَعَايِشَ سَبْرَ مُتَقَصِّد ، وأسِيرُ فى فَلَواتِ الصَّنائِع سَيْرَ مُتَعهِّد ؛ لكَىْ أجِدَ حِرْفةً تُطابِقُ أرَبِى ، أو صَنْعةً تُجانِسُ طَلَبِى .

فبينما أنا أَسِيرُ فى مَعَاهِدها ، وأرَدِّدُ طَرْفى فى مَشَاهِدها ؛ إذْ رُفِعَ لى صَوْتٌ قَرَعَ سَمْعِى بِرنَّتِه ، وأخَذَ قَلْبِى بحَنَّتِه ؛ فقَفَوْتُ أثَرَه مُتَّبِعا ، ومِلْتُ إليه مُسْتَمِعا ؛ فإذا رَجُلٌ من أحْسَنِ الناس شَكْلا ، وأرْجَحِهم عَقْلا ؛ وهو يَترنَّم ويُنْشِدُ :

إنْ كُنْتَ تَقْصِدُنِى بِظُلْمِكَ عامِدًا ، * فحُرِمْتَ نَفْعَ صَداقَةِ الكُتَّابِ ؛

السَّائِقِينَ إلى الصِّديقِ ثَرَى الغِنَىٰ * والنَّاعِشِينَ لعـثْرَةِ الأصْحَـابِ،
والنَّاهِضِينَ بكُلِّ عِبْءٍ مُثْقِـلٍ * والنَّاطِقين بفَصْلِ كُلِّ خِطَابِ،
والعَاطِفِينَ على الصَّدِيقِ بفَضْلِهِمْ * والطَّيِّبِينَ رَوَائِحَ الأثْوَابِ.
وَلَئِنْ جَحَدتهـم الثَّنـاءَ فطالمَـا * جَحَـدَ العَبِيدُ تَفَضُّلَ الأرْبابِ!

فلما سمعتُ منه ذلك، وأعْجبنِي من الوَصْفِ ما هُنالك؛ دَنَوتُ منه دُنوّ الوَاجل، وجَلَستُ بين يديه جُلُوسَ السَّائِل؛ وقلتُ: هذه وأبيكَ صِفاتُ المُلُوك بل مُلُوكُ الصِّفات، وأكْرَمُ الفَضَائِل بل أفْضَـلُ المَكْرُمات؛ ولم أكُ أظُنُّ أنَّ للكتابة هـذا الخَطَرَ الجَسِيم، وللكُتَّابِ هـذا الحَظَّ العَظِيم؛ فأعْرَضَ مُغْضبا، ثم فَوّق بَصَرَه إليّ مُعْجبا؛ وقال: هَيْهاتَ فاتَكَ الحَزْم، وأخْطَأَكَ العَزْم؛ إنها لمن أعْظَمِ الصَّنائع قَدْرا، وأرْفَعِها ذِكْرا؛ نَطَقَ القرآنُ الكَرِيمُ بفَضْلِها، وجاءت السُّـنَّة الغَرّاءُ بتَقْدِيم أهْلِها؛ فقال تعالىٰ جلَّ ثناؤه، وتبارَكتْ أسماؤه: ﴿ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَالَمْ يَعْـلَمْ ﴾ فأخبر تعالىٰ أنه عَلَّمَ بالقَلَم، حيثُ وصف نفسه بالكَرَم؛ إشارةً إلىٰ أن تَعْلِيمَها من جَزِيل نِعَمه، وإيذَانًا بأن مَنْحَها من فَائِضِ دِيَمه؛ وقال جَلَّتْ قُدْرَته: ﴿ نٓ والْقَـلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴾ فأقسم بالقلم وما سَـطَّرته الأقْلام، وأتىٰ بذلك فى آكَدِ قَسَمٍ فكان من أعْظَمِ الأقْسَام. وقال تقَدّسَتْ عَظَمَتُه: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكم لَحَافِظِينَ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ فجعَلَ الكِتَابةَ من وصْفِ الكِرَام، كما قد جاء فِعْلُها عن جمـاعةٍ من الأنبياء عليهم السلام؛ وإنمـا مُنِعَها النَّبىُّ صلَّى الله عليـه وسلم مُعْجزةً قد بيَّنَ تعـالىٰ سَبَبَها، حيثُ ذكر إلْحَـادَهُم بقوله: ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا ﴾.

هذا : وقد كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم فى كَثْرةِ الكُتَّاب رَاغبا ، فقد رُوِى أنه كان له عليه أفضَلُ الصَّلاة والسَّلام نَيِّفٌ وثلاثون كاتبا ؛ هم نُخْبَة أصْحابه ، وخُلاصَة أتْرابِه ؛ مَن ٱئْتَمَنَهم علىٰ أسرار الوحْيِ والتَّنْزِيل ، وخاطَبَ بألْسِنَة أقْلامِهم مُلُوكَ الأرض فأجابوا بالإذْعانِ على البُعْدِ والمَدى الطَّويل ؛ وكتبَ المُلُوكُ أيضا إليه ٱبتداءً وجوابا ، وكاتَبَ أصْحابَه وكاتَبُوه فأحسن ٱستماعا وأفْخَم خِطَابا ؛ وبهذلك جَرَتْ سُنَّة الخُلَفاء الراشدين فمن تَلاهُم ، وعلىٰ نَهْجِهِ مَشَتْ ملوكُ الإسلام ومن ضَاهَاهم .

فالكِتَابةُ قانُونُ السِّيَاسَه ، ورُتْبتُها غَايَةُ رُتَبِ الرِّياسَه ؛ عِنْدها تَقِفُ الإنَافَه ، وإليها تَنْتَهِى مَنَاصِبُ الدُّنيا بعد الخِلَافه ؛ والكُتَّابُ عُيُون الملوك المُبْصِرة وآذانُهم الوَاعِيه ، وألْسِنَتُهم النَّاطِقة وعُقُولُهم الحَاوِيَه ؛ بل مَحْضُ الحقّ الذى لا تَدْخلُه الشُّكُوك ، وإن المُلُوكَ إلى الكُتَّاب أحْوَجُ من الكُتَّاب إلى المُلوك ؛ وناهيكَ بالكِتَابة شَرَفا ، وأعْلِ بذَلِكَ رُتْبةً وكَفَىٰ ؛ أنَّ صاحِبَ السَّيْفِ والعَلَمِ يُزاحِمُ الكَاتِبَ فى قَلَمِه ، ولا يُزاحِمُ الكَاتِبُ صَاحِبَ السَّيْفِ والعَلَمِ فى سَيْفِهِ وعَلَمِه .

وعلى الجُمْلةِ فهم الحَاوُون لكلِّ وَصْفٍ جَمِيل ، وشَأْنٍ نَبِيل ؛ الكَرَمُ شِعَارُهم ، والحِلْمُ دِثَارُهم ؛ والجُودُ جَادَّتُهم ، والخَيْرُ عَادَتُهم ؛ والأدَبُ مَرْكَبُهم ، واللُّطْفُ مَذْهَبُهم ؛ ولله القائلُ :

وَشَمُولٍ كَأَنَّمَا ٱعْتَصَرُوها * من مَعَانِى شَمَائِلِ الكُتَّاب !

فلما ٱنْقضىٰ قِيلُه ، وبانَتْ سَبِيلُه ، قلتُ : لقد ذكرتَ قَوْمًا رَاقَنِى وَصْفُهم ، وشَاقَنِى لُطْفُهم ؛ ودَعَانِى طِيبُ حَدِيثِهم ، وحُسْن أوْصافِهم ، وجَمِيلُ نُعُوتِهم ؛ إلىٰ أن أَحُلَّ بنَادِيهم ، وأنْزِلَ بوَادِيهم ؛ فأجْعَلَ حِرْفَتَهم كَسْبِى ، وصَنْعَتَهم دَأْبِى ؛ ليَجْتَمِعَ بالعِلْمِ شَمْلى ، ويتَّصِلَ بالاشْتِغالِ حَبْلِى ؛ فأكُونَ قد ظَفِرْتُ بمُنْيَتِى ، وفُزْتُ ببُغْيَتِى .

فأىَّ قَبِيلٍ من الكُتَّاب أرَدت ؟ وإلىٰ أَىِّ نَوْعٍ من الكِتَابَةِ أشَرْت ؟ أكِتَابَة الأمْوالِ ؟ أم كِتَابَةَ الإنْشاءِ والخطابة؟، أم غيرَهُما من أنْواعِ الكِتَابة ؟ ؛ فنظَرَ إلىَّ مُتَبَسِّما ، وأنشد مُتَرَنِّمـا :

قَوْمٌ إذا أخَذُوا الأقلامَ من غضَبٍ * ثم ٱسْتَمَدُّوا بهـا مَاءَ المَنِيَّـاتِ ،
نالُوا بها من أعَادِيهِـمْ وإن بَعُدُوا * مالَمْ يَنَـالُوا بحَـدِّ المَشْرَفِيَّـاتِ !

فقلتُ : كأنَّك تُرِيدُ كِتَابةَ الإنشاءِ دونَ سائرِ الكِتَابات ، وهى التى تَقْصِدُها بالتَّصْرِيح وتُشِيرُ إليها بالكِنَايات ؛ فقال : وهَلْ فى أنواع الكِتَابة جُمْلَةً نَوْعٌ يُساوِيها ، أو فى سائرِ الصَّنائِـع على الإطْلاقِ صَنْعةٌ تُضاهِيها؟ ؛ إنَّ لها لَلْقِدْحَ المُعَلَّىٰ ، والجِيدَ المُحَلَّىٰ ؛ والذِّرْوةَ المُنِيفَه ، والرُّتْبَةَ الشَّرِيفَه ؛ كُتَّابُها أُسُّ المُلْكِ وعِمَادُه ، وأرْكانُ المُلْك وأطْوَادُه ؛ ولِسَانُ المملكَةِ النَّـاطِق ، وسَهْمُها المفَوَّقُ الرَّاشِق ؛ ولله حَبِيبُ بن أوسٍ الطَّائِىّ حيثُ يقول :

ولَضَرْبَةٌ من كَاتِبٍ ببَنَـانِه * أمْضَىٰ وأقْطَعُ من رَقِيقِ حُسَامِ !
قَوْمٌ إذا عَزَمُوا عَدَاوةَ حَاسِـدٍ * سَفَكُوا الدِّمَا بأَسِـنَّةِ الأَقْلامِ !

قَلَمُهـا يبَلِّغُ الأَمَل ، ويُغْنِى عن البِيضِ والأَسَـل ؛ به تُصانُ المَعَاقِل ، وتُفَرَّق المَحَافِل :

فَلَكَمْ يَفُلُّ الجَيْشَ وهو عَرَمْرَمٌ * والبِيضُ ما سُلَّتْ من الأغْمادِ !

فقلتُ : إن كُتَّاب الأمْوالِ يزعمون أن لهم فى ذلك المَقَـامَ الأعْلَىٰ ، والطَّرِيقَـةَ المُثْلَىٰ ؛ ويَسْتَشْهِدُون لفَضْلِها ، وتَقَدُّمِ أهْلِها ؛ بقولِ الإمامِ أبى محمد القَاسِمِ الحَرِيرِىّ رحمه الله ، فى مقامَاتِه :

«إنَّ صناعَةَ الحِسَابِ مَبْنِيَّةٌ على التَّحْقِيق ، وصِنَاعَةَ الإنْشاءِ مَبْنِيَّة على التَّلْفِيق ؛ وقَلَمَ الحَاسِبِ ضَابِط ، وقَلَمَ المُنْشِئِ خَابِط ؛ وبين إتَاوَةِ تَوْظِيفِ المُعَامَلات ، وتِلاوَة

طَوامير السِّجلَّات ؛ بَوْنٌ لا يُدرِكُه قِياس ، ولا يَعْتوِره ٱلْتِباس ؛ إذ الإِتاوةُ تَملأ الأكْياس ، والتِّلاوةُ تُفرِّغُ الرَّاس ؛ وخَراجُ الأوارِج ، يُغْنِي النَّاظِر ، وٱستِخراجُ المَدارِج ، يُعَنِّي الخَاطِر ؛ والحَسَبةُ حَفَظَةُ الأموال ، وحَمَلَةُ الأثْقال ؛ والنَّقَلَةُ الأثْبات ، والسَّفَرَةُ الثِّقات ؛ وأعْلامُ الإنْصاف والآنْتِصاف ، والشُّهُودُ المَقانِعُ فى الآختِلاف؛ ومنهم المُسْتَوْفِى الذى هو يَدُ السُّلطان، وقُطْبُ الدِّيوان؛ وقِسْطاسُ الأعمال ، والمُهَيْمِنُ على العُمَّال ؛ وإليه المَآبُ فى السِّلْم والهَرْج، وعليه المَدار فى الدَّخْلِ والخَرْج؛ وبه مَناطُ الضَّرِّ والنَّفع ، وفى يَدِه رِباطُ الإعْطاءِ والمَنْع ؛ ولولا قَلَمُ الحُسَّاب، لأوْدَت ثَمَرةُ الآكتساب، ولآتَّصلَ التَّغابُنُ إلىٰ يوم الحِساب ؛ ولَكان نِظامُ المعاملات مَحْلُولا ، وجُرْحُ الظُّلامات مَطْلُولا ، [وجِيدُ التَّناصُفِ مَغْلُولا](١) ، وسَيْفُ التَّظالُمِ مَسْلُولا ؛ على أنَّ يَراعَ الإنشاء مُتَقَوِّل ، ويَراعَ الحِسابِ مُتَأوِّل ؛ والمُحاسِبُ مُناقِش، والمُنْشِئُ أبو بَراقِش» .

فوصفَ كِتابَةَ الأموال بأتَمِّ الصِّفات، ونبَّه من شِيَمِ أهْلِها وشِيَاتِهم علىٰ أكْرمِ الشِّيَم وأحْسَنِ الشِّيات .

فقال : هذه الحُجّة مُعارَضَةٌ بِمثلها ، بل بَاطِلَةٌ من أصْلِها ؛ وأيْنَ ذلك من قوله فى صَدْرِ كلامه ؟ :

«اعلموا أن صِناعَةَ الإنشاءِ أرْفَع ، وصِناعَةَ الحِسابِ أنْفَع ؛ وقَلَم المُكاتَبَة خاطِب ، وقَلَم المُحاسَبَةِ حَاطِب ؛ وأساطِيرُ البلاغات تُنْسَخُ لتُدْرَس ، ودَساتِيرُ الحُسْبانات تُنْسَخُ وتُدْرَس ؛ والمُنْشِئُ جُهَيْنَةُ الأخبار، وحَقِيبَةُ الأسْرار ؛ ونَجِىُّ العُظَماء، وكَبِيرُ النُّدَماء؛ وقَلَمُه لِسانُ أسْرارِ الدَّوْله ، وفارِسُ الجَوْلَه ؛ ولُقْمانُ الحِكْمَه ، وتَرْجُمانُ الهِمَّه ؛ وهو

(١) الزيادة من مقامات الحريرى .

البَشير والنَّذير، والشَّفيع والسَّفير، به تُستخلَص الصَّياصِي، وتُملَكُ النَّواصِي ؛ ويُقتاد العَاصِي، ويُستدنَى القَاصِي ؛ وصَاحِبُه بَرِيءٌ من التَّبِعات، آمِنُ كَيْدَ السُّعات ؛ مُقرَّظٌ بين الجماعات، غير مُعرَّضٍ لنَظْمِ الجماعَات» .

فهذه أرْفَع المَرَاتب، وأشْرَف المَناقِب، التى لا يَعْتَورُها شَيْن، ولا يَشُوبُها مَيْن، وصَدْرُ الكَلَام يَقْتَضِي التَّرجِيح ، ويُؤذِنُ بالتَّرْشِيح ؛ والرَّفْع ، أبْلَغُ فى الوَصْف من النَّفْع ؛ فقد يُنْتَفَع بالنَّزْرِ اليَسِير، ولا يُرْتَفَع إلا بالأمْرِ الكَبِير؛ على أنَّه لو ٱعتبر نَفْع كِتَابة الإنشاءِ لكان أبْلَغ، وإقامَةُ الدَّليل عليه أسْوَغ ؛ وأنَّىٰ لكُتَّاب الأموال ، من التأثير فى فَلِّ الجُيُوش من غير قِتَال، وفَتْح الحُصُون من غير نِزَال ؛ فهٰذه هى الخِصِّيصَى التى لا تُسَاوَىٰ، والمَنْقَبَةُ التى لا تُنَاوَىٰ :

تِلْكَ المَكَارِمُ لا قَعْبَانِ من لَبَنٍ * شِيبَا بمَاءٍ فعَادَا بَعْدُ أبْوالَا !

فقلتُ : الآن قد ٱنقطَعَت الحُجَّه، وبانَتِ المَحَجَّه، فما الذى يحتاج كاتب الإنشاء إلىٰ مُمارَسَته ؟ فقال : إذًا قد تَعلَّقتَ من الصَّنْعةِ بأسْبابِها، وأتَيْتَ البُيُوتَ من أبْوابِها .

إعلم أن كَاتِبَ الإنشاء لاتظهر فَصَاحَتُه ، وتَبِينُ بَلاغَتُه، وتَقْوىٰ يَرَاعَتُه، وتَجِلُّ بَرَاعَتُه، إلا بعد تَحْصِيلِ جُمْلَةٍ من العلوم، ومَعْرِفة الٱصْطلاح والإحاطة بالرُّسُوم؛ ثم أَهَمُّ ما يَبْدَأُ بتَحْصِيله ، ويَعْتَمِدُ عليه فى جُمْلة الأمْرِ وتَفْصِيله ؛ حِفْظُ كِتَابِ الله العَزِيزِ الذى هو مَعْدِنُ الفَصَاحه، وعُنْصر البَلاغَه؛ وإدَامةُ قِراءَته وتَكْرِيرُ مَثَانيه، مع العلم بتَفْسِيره وتَدَبُّرِ مَعَانيه؛ حتَّىٰ لايزال دَائِرًا على لِسَانه حَاضِرًا فى ذِكْرِه، ولا يبرح معناه مُمَثَّلًا فى قَلْبِه مُصَوَّرا فى فِكْرِه؛ ليَكُونَ مُسْتَحْضِرًا له فى الوقائع التى يَحْتاج إلىٰ الٱستشهاد به فيها، ويُضطَرُّ إلىٰ إقامة الأَدِلَّة القاطعةِ عليها؛ فلِلَّهِ الحُجَّةُ البالغَه ، ولآياته الأجْوِبَةَ الدَّامِغَه؛ خصوصا السِّيَرِ والأحْكام، وما يتعلَّقُ بذلك من مُهمَّاتِ

الدِّينِ وقوَاعِدِ الإسلام، وما ٱشتَمَلَ عليه كَلَامُ النُّبوَّةِ من الألفاظ البَديعَة التى أبْكَمتِ الفُصَحاء، والمعانِى الدَّقيقةِ التى أعْيَتِ البُلَغَاء، مع النَّظَرِ فى معانيها ومَعْرِفَةِ غريبها، والاطِّلاعِ علىٰ ما للعلمـاءِ فى ذلك من الأقوال بَعِيدِها وقَرِيبِها، لتكونَ أبدًا حُجَّتُـه ظاهِرَه، وأدِلَّتُـه قَوِيَّةً مُتظَاهِرَه، فإنَّ الدَّلِيلَ إذا ٱستَنَد إلى النَّصِّ ٱنْقطَعَ النِّزَاعُ وسُـلِّمَ المدَّعَىٰ ولَزِم، والفَصَاحةُ والبلَاغَةُ غايَتُهما ـ بعد كِتَابِ الله تعالى ـ فى كلام من أُوتِىَ جَوَامِعَ الكَلِم، والعِلْمُ بالأحْكام السُّلطانيَّة وفُرُوعِها، وخُصُوصِها وشُيُوعِها، والتَّوَغُّل فى أشْعارِ العَرَب والمولَّدِين، وأهْلِ الصِّناعَة من المُحْدَثِين، وما وردعن كلِّ فَرِيقٍ منهم من الأمثال نَثْرًا ونَظْمًا، وما جرىٰ بينهم من المُحَاوَرَاتِ والمُنَاقَضَاتِ حَرْبًا وسِلْمًا، والتَّعْوِيلُ من ذلك على الأشْعارِ البَدِيعَةِ التى ٱختارها العُلماءُ بها، فتَمَسَّكُوا بأوْتادِها وتَعَلَّقوا بسَبَبِها، والأمثالُ الغَرِيبَةُ التى ٱنْتَقَوْها، ودَوَّنُوها ورَوَوْها، وٱسْتِيضاحُ القِسْمَينِ وٱسـتكشافُ غَوامضهما، وٱسـتِظهارُ النَّوْعينِ واسْتِمطـارُ عَوارِضِهما، والاطِّلاعُ علىٰ خُطَبِ البُلَغـاء، ورَسَائِلِ الفُصَحاء، وما وَقَع لهم فى مُخَاطَبَاتِهـم ومُكَاتَبَاتِهم، والعِلْمُ بأيَّامِ العَرَب وحُرُوبِهم، وما كان من الوقائع بين قَبَائِلِهم وشُعُوبِهم، والنَّظَرُ فى التَّوارِيخ وأخْبارِ الدُّوَلِ المـاضِيَه، والقُرُون الخَالِيه، وسِيَرِ المُلُوك وأحْوالِ المَمـالِك، ومَعْرِفة مَكَايِدِهم فى الحَرْبِ المُنقِذَةِ من المَهَاوِى والمُنْجِيَةِ من المَهَالِك.

مع سَعَةِ البَاع فى اللُّغَةِ التى هىَ رأْسُ مَاله، وأُسُّ مَقَاله، وكَنْزُه المُعَدُّ للإنْفَاق، ومُعِينُه بل مُغيثُه وَقْتَ الضَّرُورة على الإطلاق، والنَّحوِ الذى هو مِلْحُ كَلَامه، ومِسْكُ خِتَامه، والتَّصْرِيف الذى تُعرفُ به أُصُولُ أبْنِيَةِ الكَلِمَةِ وأحْوالها، وكَيفيَّةُ التَّصَرُّف فى أسمائها وأفعالها، وعُلُومِ المَعَانِى والبَيَانِ والبَدِيعِ التى هى حِلْيَةُ لِسَانه، وآيَةُ بَيَانِه، ومَعْرِفة أبْوابِها وفُصُولهـا، وتَحْقِيقِ فُرُوعِها وأُصُولهـا: من الفَصَاحة وطَرَائِقها، والبَـلاغة ودَقَائِقها، وٱختيار المَعَانِى وترتيبها، ونَظْمِ الألفـاظ وتَرْكيبها، والفَصْل

والوَصْلِ ومواقِعِهما ، والتَّقْديم والتَّأْخير ومواضعهما ؛ ومَوَاطِن الحَذْف والإضمار ، وحُكْم الرَّوابِط والأخبار ، وغير ذلك من الحَقِيقَةِ والمَجَاز ، والبَسْط والإيجاز ، والحَلّ والعَقْد ، وتَمْيِيز الكلام جَيِّده من رَدِيِّه بصِحَّة النَّقْد ؛ مع مَعْرِفةِ أنواع البَدِيع وطرائقها ، والاطِّلاع علىٰ غَوامِض أسْرارِها وفَرائِد دقَائِقِها .

علىٰ أن آكَدَ شَيْءٍ يجِبُ تَحْصِيله قبلَ كلِّ حَاصِل ، ويَسْتَوِى فى الاحتياج إلىٰ مَعْرِفَتِه المَفْضُولُ من الكُتَّاب والفَاضِل ؛ العِلْمُ بالخَطِّ وقوانِينه : من الهِجَاءِ والنَّقْط والشَّكْل ، والفَرْق بين الضَّادِ والظَّاءِ المتخالفين فى الصُّورَة والشَّكْل ؛ مع المعرفة بآلات الكِتَابة وصِفَاتِها ، وتَبايُنِ أنْواعِها واختلاف صِفَاتِها .

هذه أُصُولُه التى يُبنىٰ عليها ، وقَواعِدُه التى يُرْجَعُ إليها ؛ فإذا أحَاطَ بهذه الفُنُون عِلْما ، وأتْقَنَها فَهْما ؛ غَزُرَتْ عنده المَوَادّ ، واتَّضَحتْ له الجَوَادّ ؛ فأخَذَ فى الاستِعْداد ، وسَهُل عليه الاستِشْهاد ؛ فقال عَنْ عِلْم وتَصَرَّف عن مَعْرِفة واستَحْسَنَ ببُرْهان ، وانْتَقَدَ بحُجَّة وتَخَيَّر بدليل وصاغ بتَرْتِيب وبَنىٰ علىٰ أرْكان ؛ واتَّسَع فى العِبَارة مَجَالُه ، وفُتِح له من باب الأوْصَاف أقْفَالُه ؛ وتَلَقَّ كلَّ واقعةٍ بما يُماثِلُها ، وقابلَ كلَّ قَضِيَّة بما يُشاكِلُها ؛ وعَلِم المُجِيدَ فنَسَج علىٰ مِنْوالِه ، وظَهَر له القَاصِرُ فأعْرَض عن أقْوالِه ؛ وحصلَ له القُوَّةُ علىٰ فَهْمِ الخِطَاب ، وأنْشَأَ الجَوابَ بحَسَبِ الوَقائِع والأَغْراض ، علىٰ طِبْقِ المَقَاصِد والأغْراض ؛ ومتىٰ أخلَّ بشَيْءٍ من ذلك فاتَتْه الفَضَائِل ، وعَلِقَتْ به الرذائل ؛ وقَلَّتْ بِضَاعَتُه ، ونَقَصتْ صِنَاعَتُه ؛ وساءَتْ آثارُه ، وقَبُحَتْ أخْبارُه ؛ وخَلَط الغُرَرَ بالعُرَر ، ولم يُمَيِّزْ بين الصَّدَف والدُّرَر ؛ فأخْرجَ الصَّنْعَة عن أمَاكِنِها ، وطَمَس من الكِتَابة وُجُوهَ مَحاسِنِها ؛ بجَرِّ اللَّوْمَ إلىٰ نَفْسه ، وأمْسىٰ مَهْزَأَةً لأبْناءِ جِنْسِه .

و وَرَاءَ ذلك علومٌ هى كالنـافلَةِ للكَاتِب ، والزِّيادَة للّراغِب :

منهـا ما تكْمُل به صِناعَتُـه ، وتعظُمُ به مكَانَتُـه : كعِلْمِ الكَلَام، وأُصولِ الفقْهِ وسائِرِ الأحكام ؛ والمَنْطِقِ والجَدَل، وأحْوالِ الفِرَقِ والنِّحَلِ والمِلَل؛ وعِلْمِ العَرُوض والميزانِ المُحْكَم ، وعِلْمِ القَوافِي وحَلِّ المُتَرجَم؛ والحِسابِ المفتوح وما يترتَّبُ عليه من المُعامَلَه ، وما تُسْتَخرجُ به المجهولاتُ : من حساب الخطأين والدِّرْهم والدِّينارِ والجَبْرِ والمُقابَلَه ؛ وحِسابِ الدَّوْر والوصايا ، والتَّخْت والمَيْـلِ وما لأعمـاله علىٰ غيرها من المَزَايا ؛ والعِلمِ بالفِلاحه ، وأحوال المِساحه ؛ وعلمِ عُقُود الأبْنِيَة والمَناظِر المحقَّقه ، ومَراكزِ الأثْقال والمَرايا المُحرِقَه ؛ وعِلمِ جَرِّ الأثقال الأَبِيَّه ، والعلمِ بالآلات الحَرْبِيَّه ؛ وعلمِ المَوَاقِيت والبِنْكامات ، والتَّقَاويم والزِّيجات ؛ وعلمِ تَسْطِيح الكُرَة والتَّوصُّل بها إلى آستخراج المَطَالِب الفَلَكِيَّه ، وكيفيةِ الأرْصاد وأحْكامِ النُّجومِ والآلات الظِّلِّيَّه ؛ وعلمِ الطِّبِّ والبَيْطَره ، وأحوال سائر الحيوان وعِلْمِ البَيْزَره .

ومنها ما تكمل به ذاتُه ، وتَتِمُّ به أدوَاتُه ؛ كعِلْمِ التَّعْبير وعلم الأَخْلاق وعلمِ السِّياسَه ، وعلمِ تدبير المَنْزل وعلمِ الفِراسَه . وغير ذلك من العلوم التى أضْربْنا عن ذِكْرها خَشْيةَ الإطَالَه ، وأعْرَضْنا عن إيرادها خَوْف المَلَاله ؛ فهذه عُلُوم فَضْـلَةٌ يعظُمُ بعِلْمِها أمْرُه ، وفَضِـيلَةٌ يرتفعُ بتحصيلها ذِكْرُه ؛ بل لا يَسْتغنى عن العِلْم برءُوس مَسَائلها ، وإشارات أرْبابِهـا الآخذَةِ من بِحَارِها بأطراف سَـوَاحِلها ؛ علىٰ أنَّه قد تَرِدُ عليـه أوقاتٌ لا يَسَعُه جَهْلُ ذلك فيها ، وتمرّ عليه أزمانٌ يودُّ لو تُشْتَرىٰ فيشْتَرِيها .

قلتُ : قد بانتْ لى عُلُومُها ، فمـا رُسُومُها؟ . قال : إن أعْباءَها لبَاهِظَةٌ حَملا ، وإنها لَكَبِيرَةٌ إلّا ؛ ولكن سَأُحْدثُ لك ممـا سألتَ ذِكْرا ، وأُنَبِّئُكَ بمـا لم تُحِطْ به خُبْرا .

فمن ذلك : المعرفةُ بالولايات ولواحقِها ، على آختلافِ مَقَاصدها وتَبَايُنِ طَرائِقِها ؛ من البَيْعاتِ وأحْكَامِها ، والعُهُود وأَقْسامِها ؛ والتَّقاليـد وصِفَاتِهـا ، والتَّفاويض ومضاهاتها ؛ والمَرَاسِـيم وأوْضاعِها ، والتَّواقيع وأنْواعِها ؛ والخُطَبِ ومُناسَباتها ، والوَصايا ومُطابَقاتِها ؛ ثم العِلْمُ بالمَنَاشِـيرِ ومَراتِبِها ، والمرَبَّعاتِ الجَيْشِيَّة ومعايِبها ؛ ومعرفةِ رُتَبِ المكاتبات وطَبقَاتِها ، ومن يستَحِقُّ من الرُّتَبِ أدْناها أو يستوجب الرَّفْعَ إلىٰ أعلىٰ دَرَجاتِهـا : من المكاتبات الصادرةِ عن الأبواب الشريفة الخَليفَتيِه ، والمكاتباتِ الواردةِ عليهـا وعلىٰ أرباب المَنَاصِبِ من سائرِ الآلِ والعِـتْرةِ النَّبويَّه ؛ ومُلوكِ المسلمين والقَانَات ، ومُلُوكِ الكُفْرِ وأرباب الدِّيانات ؛ وأهْـلِ المملكةِ من النُّوابِ والكُشَّافِ والوُلاه ، والأُمَراء والوُزَراءِ والعُرْبانِ والقُضَاه ؛ وسائرِ حَمَـلةِ الأقلام ، وأهْـلِ الصَّلاح وبَقِيَّة الأعلام ؛ ونِساءِ المُـلُوك والخُونْدات ، ومكاتبات التُّجَّارِ وما عساه يَطْرَأُ من المكاتبـات المُسْتَجِدَّات ؛ وكُتُبِ البُشْرىٰ بالجُلُوس على التَّخْتِ والفَتْح والظَّفَر ، والبُشْرىٰ بوَفَاءِ النِّيل والقُدُوم من الغَزْوِ والسَّفَر ، وآسْتِرهَاف العزائم ، والبَطَائِق المَحْمولةِ علىٰ أجْنِحَةِ الحَمَائِم ؛ والمُلَطَّفات التى يُضْطَرُّ إليها ، ويُعوَّل فى الأمور الباطنة عليهـا ؛ وأوْراقِ الجَوازِ فى الطُّرُقات ، والإطلاقات فى التَّسْـفير والمثالات المطلقات ؛ ومَعْرفةِ الأوصاف التى يَكْثُرُ فى المكاتبات تَكْرارُها ، ويتَّسِقُ فى جِيدِ المراسلات إيرادُها وإصْدارُها : كوَصْفِ الأنْواءِ والكَوَاكب ، والأفْلاكِ العَلِيَّـةِ المَرَاتِب ، والآلاتِ المُلُوكية الجَليلةِ المِقْـدار ، والسِّلاحِ وآلات الحِصَار ، والخَيْـلِ المُسَوَّمه ، والجَوَارِح المُعَلَّمَه ؛ وجَلِيـلِ الوَحْشِ وسِباعه ، وطَيْرِ الوَاجِب وأتْباعه ؛ والأَمْكِنَةِ والرِّياض ، والمياه والغِياض ؛ وغير ذلك ممـا يَعِزُّ ويَغْلُو ، ويرتفعُ ويَعْلُو ؛ وإخْوانِيَّات المكاتبات وطَبقَاتِها ، وتميزِ كلِّ طَبَقَةٍ منهـا عن أخَواتِها ؛ وما تشتمل عليه من الآبْتداء والجَوَاب ، والتَّشَوُّق والعتاب ؛ والتَّرفُّق والآعْتِـذار ،

والشَّفاعة وطَلَب الصَّفْحِ والعَفْو عنــد الاْقتدار، والتَّهانِى والتَّعازِى، وما يكتبُ مع الَهدِيَّة ويجابُ عنها من المَجازِىّ وغير المَجازِى .

وغير ذلك من مَقاصِــد المكاتبات التى يَتعــذَّرُ حَصْرُها، ويمتنعُ على المُسْتقصِى ذِكْرُها ؛ ومعرفة الطُّغْراة والطُّرَّة والعُنْوان والتَّعريف ، والعَلَامة فى الكُتُب على أماكِنِها الفارقة بين آنحطاط القَــدْرِ والتَّشْريف، وتَتْريبِ الكِتَاب وطَيِّه وخَتْمه ، وتَعْمِيَة ما فى الكُتُب بضَرْبٍ من الحِيــلَةِ وإخْفاءِ ذلك وكَتْمِه ؛ ونُسَخ الأَيْمــانِ التى يُسْتَحْلف بهــا، ويُتَمَسَّكُ للوفَاء بسَبَبها ؛ كيَمِينِ البَيْعة العامَّة للموافِقِ والمُخالِف، وما يختصّ من ذلك بالنُّوَاب وأرْبابِ الوَظَائِف؛ وأيْمَــانِ أصحاب البِدَعِ والأهْواء، وأَهْلِ المِلَلِ والحُكَماء؛ وكِتَابَةِ الهُدَن والمُواصَفات، والأمانَات والدَّفْنِ والمُفاسَخات؛ ومَعْرِفة الأسمــاء والكُنىٰ والألقاب ، وبيانِ المستندات ومَحَلِّها المصطَلَح عليــه بين الكُتَّاب؛ وكِتابة التَّارِيخ وما أخذتْ به كلُّ طائفةٍ وثابَتْ إليه تَمَسُّكا، وما يفتتَحُ به فى الكِتابة تَيُّمنًا ويختِم به تَبرُّكا؛ ومعرفةِ قَطْعِ الوَرَق : من كامِلِ البَغْدادِىّ والشَّامىّ والثُّلُثين والنِّصْف والثُّلُث والمَنْصورىّ والعَادَه ، ومن يســتحقُّ من هذه المقــادير أعلاها أو يُوقَفُ به مع أدنى رُتَبِها من غير زياده؛ والأَقْلامِ المناسبة لهذه الأقدار ، من الرِّقَاع والتَّواقيع والثُّلُث ومُختَصرِ الطُّومار؛ والعلِم بالأوضاع وكيفيــة الترتيب ، ومقادير البياض ومُباعَدَة ما بين السُّــطور والتقريب؛ ومعرفة الزَّرادِيق وقُطَّانِهــا ، والنَّواحِى والبُلْدانِ وسُكَّانِها ؛ والأُمَم ومَمــالِكِها ، وطُرُق الأقاليم ومَسالِكِها ؛ ومَراكِز البَرِيد ومَسَافَاتِها ، وأبراج الحَمَــام ومطارَاتِها ؛ وهُجْنِ الثَّلْج والسُّفُنِ المُعَــدَّة لنَقْــله ، والمُحْرقَات المؤدِّية إلى آجْتِياح العَــدُوِّ وتفْريق شَمْله ؛ والمَنَاوِر وأماكنها، والقُصَّاد ومَكامِنِها .

هذه رُسُومها علىٰ سبيل الإجمال، والإشارة إلىٰ مصطلحاتها بأخْصَرِ الأقوال .

وٱعلم أنَّ حُسْنَ الخَطِّ من الكتابة واسِطةُ عِقْدِها، وقُوَّةَ المَلَكة على السَّجْع والازْدِواجِ مِلَاكُ حَلِّها وعَقْدِها؛ علىٰ أنَّ خَيرَ الخَطِّ ما قُرِى، وأحْسَنَ السَّجْعِ ما سَلِمَ من التَّكَلُّف وبَرِى؛ وللكُتَّاب فى بَحْرِ الكتابة سَبْحٌ طَوِيل، وتَفَنُّنٌ يُسْفِرعن كلِّ وَجْهٍ جَمِيل .

قلت : فهل لهذه الرُّتبة الرَّئيسه، والمَنْقَبة النَّفِيسَه، سِمْطٌ يَلُمُّها، أو سِلْكٌ يضُمُّها؟ ؛ فقال : سبحان الله : إن بَيْتَها لأشْهَرُ من قِفَانَبْك، وأظْهَرُ للعِيانِ من شَامِخَاتِ جِبَال النَّبْـك ؛ أيَخْفىٰ من البَـدْرِ ضَوْءُه الباهر، ونُورُه الزَّاهِر؛؟ إن ذلك لقـاصِرٌ علىٰ «آلِ فَضْلِ الله» حقّا، ومُنْحصِرٌ فى المَقَرِّ البَدْرِيِّ صِدْقا؛ فهو قُطْبُها الذى تدور عليه، وٱبْنُ بَجْدَتِها التى تَرجِعُ فى عُلُومها ورُسُومها وسائر أمورها إليـه؛ فلو رآه «الفَاضِلُ عبدُ الرحيم» لم يَرَ لنَفْسِه فضلًا ولا رَضِىَ لِفيـهِ مَقَالا، أو عَايَنَه «عبدُالحميد الكاتِبُ» لقـال : هكذا هكذا وإلَّا فلا لا ؛ أو عاصره «قُدَامةُ» لجلس قُدَّامَه، أو أدركه «ٱبن قُتَيْبَةَ» لاتَّخَـذه فى "أدَبِ الكَاتب" شَيْخَه وإمامَه؛ أو بَصُرَ به «الصَّابى» لصَبَا إليه ومال، أو قارَنَ زَمانَه «الحَسَنُ بن سَهْلٍ» بل «الفَضْلُ» أخُوه لأقام ببَابِه وما زال؛ أو جنح «ٱبْنُ العَـدِيم» إلىٰ مناوأته لأدركه العَدَم، أو جَرَى «الصاحِبُ بنُ عَبَّادٍ» فى مِضْمارِ فَضْله لَكَبَا وزَلَّتْ به القَدَم؛ أو ٱطَّلَع «ٱبنُ مُقْلَةَ» علىٰ حُسْن خَطِّه لقـال : هذا هو الجَوْهَرُ الثَّمِين، أو نظر «ٱبنُ هِلَالٍ» إلىٰ بَهْجةِ رَوْنَقِه لقال : إنَّ هذا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِين؛ إن تكلَّم نَفَثَ سِحْرا، أو كَتَب خِلْتَ زهرا أو تَخَيَّلتَ دُرّا :

يُؤَلِّفُ اللُّـؤْلُؤَ المَنْثورَ مَنْطِقُه، * ويَنْظِمُ الدُّرَّ بالأقْلام فى الكُتُبِ!

قد عَلَا نَسَبا، وفاق حَسَبا؛ وورِثَ الفَضْلَ لا عن كَلَالَه، وآستَحَقَّ الرُّتبةَ بنَفْسه وإن كانت له بالأَصَالَه:

فَحَيَّهَــلًا بالمَكْرُماتِ وبالعُـلَىٰ، * وحَيَّهَلًا بالفَضْلِ والسُّؤْدَدِ المَحْضِ!

فلما سمعتُ ذلك زال عَنّى الإلباس، وقلتُ: ذلك من فَضْـلِ اللهِ علينا وعلى النَّاس. ثم قلتُ: أقسمتُ عليك بالذى تُشِـيرُ إليه، إلا تَدُلُّنِى عليه؛ فقال: إنَّه صَفِيُّ المَلِكِ ونَجِيُّه، وكاتِبُ سِرِّه ووَلِيُّه، والقَرِيبُ منه إذا بعُدوا، والمخصوصُ بالمُقَامِ إذا طُرِدُوا، والموجَّهُ إليـه الخطابُ إذا حَضَروا، والمُسْتأثِرُ بالوُرُودِ إذا صَـدَرُوا، والمتكَلِّمُ بلِسَانِ المَلِكِ إذا سَكَتوا، والناطِقُ بفَصْـلِ الخِطَابِ إذا بُهِتوا، والصَّائِلُ بحُسَامِ لِسَانِه وخَطِّىِّ قَلَمِه، والحَامِى المَمَـالِكَ بجُيُوشِ سُطُوره وجُنْدِ كَلِمِه، والمُشَتِّتُ شَمْلَ العَدُوِّ ببديعِ أَلْفاظِه ودَقِيقِ حِكَمِه، والحائِزُ قَصَبَ السَّبْقِ بكَرَمِ فَضْلِه وفَضْـلِ كَرَمِه، والمُرْوِى ظَمَأَ الوافدين إليـه بوَاكِفِ وَبْلِه وفائِضِ دِيَمِه، والمُجْلِى غَياهِبَ الظُّلَمِ بنَيِّرِ بَدْرِه ومُضِيءِ أَنْجُمِه:

فمـا زالَ بَدْرًا فى سَمَـاءِ سِـيَادَةٍ * يُشارُ إليـــه فى الوَرَىٰ بالأنامِلِ:

بَسِيطَ مَسَاعِى المَجْـدِ يركَبُ نَجْدَةً * من الشَّرَفِ الأعلىٰ وبَذْلِ الفوَاضِلِ؛

إذا سَالَ أَعْيَ السَّامِعِـينَ جَوابُه * وإن قال لم يَـتْرُكْ مَقَالًا لقَائِلِ!

قلتُ: حَسْبُك! قد دَلَّنِى عليه عَرْفُه، وأرْشَدنِى إليه وَصْفُه؛ وبَانَ لى مَحْتِدُه الفَاخِرُ وحَسَبه الصَّمِيم، وعرفتُ أصْلَه الزَّاكِىَ وفَرْعَه الكَرِيم، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

ثم عَرَّجتُ إلىٰ حِمَاه، وملْتُ إلىٰ حَيِّه كَىْ أراه؛ فإذا به قد بَرَزَ تتلألأُ أنوارُه، وتُشْرِق بالجَلَالة أقْمَـارُه؛ قد عَانَه الهَيْبـةُ وغَشِيَتْه السَّكِينَة وحَفَّتْه الرِياسـةُ وجَلَّلَتْه السعاده، وحَكَمَتْ بعِزِّ مَنَال قَدْرِه الأقْدارُ كما آقتضَتْه الإرادَه.

فلما رأيتُه آستصغرتُ الرُّتبةَ مع شَرَفِها البَاذخ فى جانبِهِ ، وعَلِمْتُ أن ما تقدّم من المَدْح لم يُوَفِّ حَقَّه ولم يَقُمْ ببعض وَاجِبِه ؛ فَغَلَبَتْ هَيْبَتُه إقْدامِي ، وحالتْ حُرْمته بيني وبين مَرَامى ؛ فقلتُ : إنا لله ! قد فَاتَتْنِي مآربى ، ورجعتُ من فَوْرِى إلىٰ صاحِبى ؛ فأظهرتُ له الأسف ، وقَصَصْتُ عليه القِصَّةَ قال : لا تَخَفْ ؛ إنها لَمَنْقبةٌ عُمَرِيَّه ، وأَثَرةٌ عَدَوِيَّه ؛ فالفَارُوقُ جَدُّه ، وبَنُو عَدِىٍّ قَبِيلُه وجُنْدُه .

هذا وإنَّه لأَلْطَفُ وأَرَقُّ من النَّسيم السَّارى ، والماءِ الجارى ؛ وأحْيَىٰ من العَذْراءِ فى خِدْرِها ، وأشْفَقُ من الوَالِدَة إذا ضَمَّتْ وَلَدَها إلىٰ صَدْرِها ؛ وأحْلَمُ من « مَعْنِ بن زَائِدَه » ، وإن كان أفْصَحَ من «قُسِّ بن سَاعِدَه» :

يُغْضِى حَياءً ويُغْضَىٰ من مَهَابَتِهِ * فَـلا يُكَلَّمُ إلا حِينَ يَبْتَسِمُ!

بالعزائم الفَارُوقِيَّة فُتِحَت الأمصار ، وبالهَيْبةِ العُمَرِيَّة أقرّ المُهاجِرُون والأنصار ؛ ويشهدُ لذلك قِصَّة «آبنِ عَبَّاسٍ» فى العَوْلِ وسُكُوتُه فى خِلَافةِ عُمَر وصَمْتُه ، وجوابُه بعد ذلك للقائل له : هلَّا قُلتَ ذلك فى زَمَنِ عُمَر؟ بقوله : إنَّه كان مَهِيبًا فهِبْتُه ؛ كيف؟ وما سَلَكَ فَجًّا إلا وسَلَكَ الشَّيطانُ فَجًّا غيرَ فَجِّـه وضاقَتْ عليه الفِجَاج ، ولم تُمَاثِلْ هَيْبتُه بهَيْبَـةِ غيره وإن عَظُمتْ سَطْوَتُه حتى قال الشَّعْبِىُّ : إن دِرَّةَ عُمَر لَأَهْيَبُ من سَيْفِ الحَجَّاج ؛ وهو مع ذلك يلطُفُ بالأرامِلِ والمساكين ، ويُعِينُ الفقراءَ والمحتاجين ؛ فقد آتضحَتْ لك القَضِيَّه ، وتحقَّقْتَ أنها سِماتٌ إرْثِيَّه .

فعند ذلك ذَهَب رَوْعِى ، وقَوِىَ رُوعِى ؛ وقلتُ : فهل له أتبـاعٌ من الكُتَّاب فأتعلَّقَ بحِبَالِهِم ، وأتأسَّىٰ بهم فى أقوالهم وأفْعالِهم؟ ؛ لكى أتَّسِمَ بسِمَةِ الكُتَّاب ، وأُثْبَتَ فى جُمْـلةِ غِلْمانِ البـاب ؛ قال : أجَلْ ! رأسُ الدَّسْتِ الشريف صِنْوُه الكريم ، وقَسِيمُه فى حَسَبِه الصَّمِيم ؛ به شُدَّ عَضُدُه ، وقَوِىَ كَتَدُه ؛ فآجتمع الفَضْلُ له

ولأخيه ، وورِثا سِرَّ أبيهما « والوَلَدُ سِرُّ أبيـه » ؛ ثم كُتَّابُ ديوانِ الإنشاء جُنْـدُه وأتْباعُه، وأولياؤُه وأشْياعُه ؛ وكُتَّابُ الدَّسْت منهم أرْفَعُ فى المَقَـام، وكُتَّابُ الدَّرْجِ أجْدَرُ بالكِتابة وصَنْعةِ الكَلَام .

قلتُ : القِسْمُ الثانى أليَقُ بمِقْدارِى، وأقْرَبُ إلىٰ أوْطَارِى ؛ ثم وَدَّعْتُ صاحِبِي شاكِرًا له علىٰ صَنِيعِه وحامِدًا له علىٰ أدَبِه، وتركْتُه ومَضَيْتُ وكان ذلك آخرَ العَهْدِ به ؛ ثم عُدْتُ إليـه هو فرفَعْتُ إليـه قِصَّتِي، وسألتُه الإسْـعافَ بإجابة دَعْوتِى ؛ فقابلهـا بالقَبُول ، وأنْعَم بالمَسْئُول ؛ وقَـرَّرنِى فى كتابة الدَّرْجِ الشَّريف ، وٱكْتفىٰ بالعَرْفِ عن التَّعْريف ؛ وطَابَقَ الخُبْرُ الخَبَرَ ، وٱستَغْنَيتُ بالعِيَانِ عن الأَثَر ؛ ثم قُمْتُ عَجِلا ، وأنْشدتُ مُرْتَجلا :

إذا مابنو الفَارُوقِ فى المَجْدِ أعْرَقُوا ، * ونالوا بفَضْـلِ اللهِ مالَا كَمِثْـلِه ،
وجَلَّتْ دُجىٰ الظَّلْماءِ أنْوارُ بَدْرِهم ، * وعَمَّتْ بِقَاعَ الأَرْضِ أنْواءُ فَضْلِه ،
تَعَالتْ ذُرَى العَلْياءِ فيهم وأنْشَدَتْ : * أبَى الفَضْـلُ إلّا أن يَكُونَ لِمثْلِه !

ثم تشرفتُ بتَقْبِيل يَدِه، ومضيتُ إلىٰ ما أنا بصَدَدِه ؛ قد منَعَتْنِي هَيْبَتِي من اللِّيَاذِ به والقُرْبِ إليـه ، وصَيَّرتْ عَاطِرَ مَدْحِي وخَالِصَ أدْعِيتى وَقْفًا عليه ؛ وصِرْتُ إلى الدِّيوان، فوجدتُ قوما قد حَفَّهُم الحُسْنُ وزانَهم الإحْسان ؛ فقلتُ : الحمـدُ لله ! هؤُلاءِ فِتْيةُ ذاك الكَهْفِ بلا ٱمْتِراء، وأشْبَالُ ذَاك الأسَـدِ من غير ٱفْتِراء ؛ فجلستُ جُلُوسَ الغَرِيب ، وأطرقتُ إطْراقَ الكَئِيب ؛ إذ كُنتُ فى هـذه الصَّنْعةِ عِصاميًّا لا عِظَامِيًّا، ومُتْهِمًا لا تِهامِيًّا ؛ غير أنى تعلقتُ منهـا بحبال القَمَر، وٱستوقَدْتُ نارَها من أصْغَرِ الشَّرَر؛ فتلَقَّوْنِي بالرَّحْب ، وأحَلُّونى من ديوانهم بالمَكَانِ الرَّحْب ؛ وقابلونى بالجميل قبل المَعْرفه ، وعامَلُونى بالإحسان والنَّصَفَه .

فلما رأيتُ ذلك منهم حَمدتُ مَسْراى، وشكرتُ مَسْعاى؛ ودعَوْتُ لصاحِبى أوَّلًا إذ حَبَّبَ صَنْعتَهم إلىَّ وشاقَنِى، ودلَّنى عليهم وسَاقَنِى .

ولما تحققتُ أنى قد أُثبِتُّ فى ديوانه ، وكُتِبْتُ من جُمْلةِ غِلْمانِه ؛ رجعتُ القَهْقَرىٰ عن طَلَب الكَسْب ، وآستوىٰ عندى المَحْلُ والخِصْب ؛ وآكتفيتُ بنَظَرى إليه عن الطَّعامِ والشَّراب، وتيقَّنْتُ أن نَظْرةً منه إلىَّ تُرَقِّينِى إلى السَّحاب؛ وتلوتُ بلِسَانِ الصِّدْقِ على المَلَإِ وهم يسمعون : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ .

وفيما تضمَّنَته هذه المَقَامة من فَضْلِ الكِتَابة وشَرَفِ الكُتَّاب مَقْنعٌ من غيرها، ومُغْنٍ عن سواها، والحمد لله والمِنَّة .

وهذه نُسْخة مَقَامةٍ أنشأها أبو القاسم الخُوارزْمىّ فى لِقائه لأَدِيبٍ يعرفُ بالهِيتِىّ، وآنْقطاعِه فى البَحْثِ، وغَلَبةِ الخُوارزْمِىّ له . أوردها آبن حَمْدونَ فى "تَذْكِرَتِه" وهى :

وَصِيَّةٌ لكلِّ لَبِيب، مُتيَقِّظٍ أَرِيب، عالِمٍ أَدِيب؛ يَكْرَهُ مَواقِفَ السَّقَطات، ويَتحَفَّظُ من مَصَادفِ الغَلَطات ، ويتلطَّفُ من مُخْزِيات الفَرَطات ؛ أن يَدَّعى دون مَقَامه، ويقتصر من تَمامه ، ويغضَّ من سِهامِه ؛ ويُظْهِرَ بعض شَكِيمَتِه ، ويُساوِم بأيْسَرِ قِيمَتِه ، ويَسْتُرَ كثيرًا من بِضَاعَتِه ، ويَكْتُمَ دَقِيقَ صِناعَتِه، ولا يبلغ دقيق غاية آستِطاعَتِه ؛ وأن يُعاشِرَ النـاسَ بِصِدْقِ المُناصَحه ، وجَمِيلِ المُسامَحه ؛ وأن لا يَحْمِلَه الإعجابُ بما يُحْسِنُه، علىٰ الآزدراء بمن يَسْتَقْرِئُه، والآفْتِراء علىٰ من يَعْتَرِضُه ويُلْسِنُه ؛ ليكونَ خُبْرُه أكثرَ من خَبَرِه، ونَظْرتُه أرْوَعَ من مَنْظَرِه ؛ و يكونَ أقربَ من الآعْتِذار، وأبعد من الخَجلةِ والآنْكِسار .

فليس الفتىٰ من قال: إنّى أنا الفتىٰ، * ولٰكنّه من قيـل : أنتَ كذلكا.

وكَـمْ مُدّعٍ مِلْكًا بغـير شهادةٍ * له نَجْلَةٌ إن قيل: أن لَسْتَ مَالِكا!

ولقد نُصرتُ بالاتّضاع، علىٰ ذى نَباهةٍ وٱرْتفاع؛ وذلك أنى أصْعَدْتُ فى بعض الأعوام، مع جماعةٍ من العوَام؛ بين تاجرٍ وزائر، إلىٰ العَزْلِ والحائر؛ حتّى ٱنتهينا إلىٰ قَرْيةٍ شـارِعَه، آهِـلَةٍ زَارِعَه؛ وما منّـا إلا من أملّتْـه السَّمُريّة فٱعترضَـتْه، وأسْقمَتْه وأمْرَضَتْه، وقَتَّرتْه فقَبَضَتْه؛ وكَثُر منـا الجُؤار، وٱسـتولىٰ علينا الدُّوار؛ فخرجْنا منهـا خُروجَ المَسْجُون، وقد تَقَوّسْنا تقوّس العُرْجُون؛ فٱسترحنا بالصُّعود، من طُولِ القُعود:

كأنّنـا الطَّيْر من الأقْفاصِ * نَاجيَةً من أَحْبُلِ القَنَّاصِ،

طَيِّبَـةَ الأنْفُسِ بالخَلَاصِ * مُنَفضاتِ الرِّيشِ والنَّواصى!

فمـا ٱستَتَمَّتْ الرَّاحه، ولا ٱستقرّتْ بنا الرّاحه؛ حتى وَقَف علينا وَاقف، وهَتَف بنا هَاتِف؛ أيُّكم الحُوَارِزْمىّ؟ فقالوا له: ذلك الغُلام المُنْفرِد، والشّابُّ المُسْتَنِد؛ فأقبلَ إلىّ، وسَلَّم علىّ؛ وقال: إن النّاظِر يَسْتزيرُك، فَلْيُعَجِّلْ إليه مَصيرُك؛ فقمتُ معه، يتَقَدّمُنى وأتْبَعُه؛ حتَّى ٱنتهىٰ بى إلىٰ جِلّةٍ من الرجال، ذَوِى بهـاءٍ وجَلَال، وزِينَـةٍ وجمال؛ من أشْرافِ الأمصار، وأعْيانِ ذَوِى الأخْطار؛ من أهل وَاسط وبَغْداد، والبَصْرةِ والسَّواد.

ترىٰ كلَّ مَرْهوبِ العِمامَةِ لاثِمًـا * علىٰ وَجْهِ بَدْرٍ تحته قَلْبُ ضَيْغَمِ!

فقـام إلىَّ ذُو المعرفة لإكرامه، وسَاعَده البَـاقُون علىٰ قِيامه، وأطال فى سُؤَاله وسَلَامه؛ وجَذَبُونى إلىٰ صَـدْر المجلس فأبَيْت، ولَزِمْتُ ذُنَاباه وٱحْتَبَيت؛ وأخذوا

يَسْتخبِرونى عن الحال، والمَعيشَةِ والمَال؛ وداعية الارتِحَال؛ وعن النِّيَّة والمَقْصد، والأهْلِ والوَلَد، والجيرانِ والبَلَد .

وما منهُم إلا حَفِيّ مُسائِلُ، * ووَاصِفُ أشْواقٍ ومُثْنٍ بصالحِ،
ومُسْتَشْفِعٌ فى أن أُقيمَ لَيالِيًا * أَرُوحُ وأغْدُوعنده غيرَبارِحِ !

ثم قال قائِلُهم : هل لقيتَ عينَ الزَّمانِ وقَلْبَه، ومالِكَ الفَضْلِ ورَبَّه، وقَلِيبَ الأَدبِ وغَرْبَه؛ إمامَ العِرَاق، وشَمْسَ الآفاق؟ . فقلتُ : ومَن صاحِبُ هذه الصِّفةِ المَهُوله، والحِلْيَةِ المَجْهُوله؛ فقالوا : أو ما سَمِعتَ بكامِلِ هِيت، ذِى الصَّوْت والصِّيت ؟ :

ذَاكَ الذى لوعَاش[دَهْرًا]إلىٰ * زَمانه ذا وٱبْنُ صُوحانِ،
وٱبْنُ دُرَيْدٍ وأبو حَاتِمٍ * وسِيبَوَيْهِ وٱبْنُ سَعْدَانِ،
وعامِرُ الشَّعْبِىُّ وٱبنُ العَلا * وٱبنُ كُرَيْزٍ وٱبنُ صَفْوانِ.
قالوا مجابُ كُلِّهم : إنَّه * سَيِّدُنا، أو قال : غِلْمانى.

فقلتُ لهم : قد قلَّدتُّمُ المِنَّه، وهَيَّجتُم الجِنَّه؛ إلىٰ لِقاءِ هذا العَالِمِ المَذْكور، والسَّيِّد المشهور؛ وقد كانت الرياحُ تأتِينى بنَفَحاتِ هذا الطِّيب ، وهَدْرِ هذا الخَطِيب؛ فالآن لا أثرَ بعد عَيْن ، سأُصَبِّح لأجْلِه عن سُرىٰ القَيْن ؛ ٱغتِنامًا للفَائِده ، والنِّعَم البارِدَه، ووُجْدانًا للضَّالَّة الشَّارِدَه .

أيْنَ أَمْضِى وما الذى أنا أبْغِى * بعدَإدراكِىَ المُنَىٰ والطِّلابا ؟
فاذا ما وَجَدْتُ عندكم العِلْـ * ـمَ قَرِيبًا فما أُرِيدُ الثَّوابا .
اِذهَبُوا أنتم فزُورُوا عَليًّا : * لأَزُورَ الهِيتِىَّ والآدَابا :
لَنْ أُبَالى إن قيل الخُوَارز * مىّ أَخْطا فعله أوأَصَابا !

فقالت الجماعة : بل أصَبْت ، ووجدتَ ما طَلَبتْ ؛ وقديمًا كنا ننشُر أعْلاقَك ، ونَتَمَنَّى ٱتِّفاقَك ؛ ونتـداوَلُ أوْصَافَك ، ونُحِب مُضَافَك ؛ ونُكْبِر لَدَيْه ذِكْرَك ، ونُعَظِّم لديه قَدْرَك ؛ فيتحرّكُ منك سَاكِنُه ، ونَتَقَلْقَلُ بك أماكِنُه ؛ ونسألُ الله سبحانه أن يَجْمَع بينك و بينه بمحْضَرِنا ، وتُلامِحَ عَيْنُك عَيْنَه بمنْظَرِنا ؛ ويلتَفَّ غُبَارُك بغُباره ، ويَمْتَزِجَ تَيَّارُكَ بتَيَّارِه ، ويختلِطَ مِضْمارُكَ بمضْمارِه ، فيُعْرَف منكما السَّابِقُ والسُّكَيْت ، والسُّوذَانِقُ والكُعَيْت ؛ ويتبيَّنُ من الذى يَحْوِى القَصَب ، فانكما كما قال الشاعرُ :

هُمَا رُمْحانِ خَطِّيَّانِ كانا * من السُّمْرِ المثَقَّفَةِ الصِّعَادِ

تُهالُ الأرْضُ أن يَطَآ عليها * بمثْلِهما نُسالِمُ أو نُعَادِى!

فقال [بعضُ الجماعة] لقد تنَكَّبتم الإنصاف ، وأخْطَأتُم الآعْتِراف ؛ وأبعدتُم القِياس ، وأوقَعْتُم الآلتباس ؛ أيْنَ آبْنُ ثلاثين ، إلىٰ آبنِ ثمانين ؟ ؛ وآبْنُ اللَّبُون ، من البَازِل الأَمُون ؟ ؛ والرُّمْح الرَّازِح ، من الجَوَادِ القَارِح ؟ ؛ والكَوْدن المَبْرُوض ، من المُجَرَّب المَرُوض .

وآبْنُ اللَّبُونِ إذا مالُزَّ فى قَرَنٍ * لم يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعِيس!

كم لديهم بطائحُ وسباخ ، وساكِنُ صرائف وأكْوَاخ ، بين يديه سوادية أنباط ، وعُلُوج أشراط ، ورعاعُ أخلاط ، وسِفْلُ سُقَّاط ؛ فى بلدة إن رأيتُ سُورَها ، وعبرتُ جُسُورَها ، صِحْتُ : واغُرْبتاه ، وإن رأيتُ وجْهًا غَرِيبًا ناديتُ : واأبْتَاه ؛ لا أعرِفُ غيرِ النَّبَطِيَّة كلاما ، ولا ألقى سِوىٰ والدى إماما ؛ فى مَعْشَرٍ ما عَرَفُوا التَّرْحال ، ولا رَكِبُوا السُّرُوج والرِّحال ، ولا فارقوا الِجدَارَ والظِّلال .

أولئِكَ مَعْشَرٌ كَبَنات نَعْشٍ * خَوَالِفَ لا تَغُورُ مع النُّجُوم!

[فأنَّى له] بمصاولة رَجُلٍ جوَّال، رَحَّالٍ حَلَّال؛ بهيت وُضع، وبالكُوفة أرْضع؛ وببغدادَ أثْغر، وبواسط أحْفر، وبالحجاز وتِهامةَ فِطامُه، وبمِصْر والمَغْرِب كان احْتِلامُه؛ وبنجْدٍ والشَّامِ بَقَل عارِضُه، وباليَمَنِ وعمان قَوِيتْ نَواهِضُه؛ وبخُراسانَ بلغ أشُدَّه، وبُخَارَا وسَمَرْقَنْدَ تناهَى جِدُّه؛ وبغَزْنَة والهِنْد شاب واكْتَهل، ومن سَيْحُونَ وجَيْحُونَ عَلَّ ونَهِل؛ وبمَيْسانَ والبَصْرة عَوَّد وقرِح، وبالجبال جَلِهَ وجالح؛ فهو يعد «المَازِنيَّ» إمامه، و«ابنَ جِنِّي» غُلامَه؛ و«المُتَنبِّي» من رُواتِه، و«المَعَرِّي» حامل دَوَاتِه؛ و«الصَّابِي» بارِيَ قلَمِه، و«الصَّاحِبَ» رافعَ علَمِه؛ و«ابنَ مُقْلَةَ» من ناقلي غاشيَتِه، و«بني أبي حَفْصَةَ» بعضَ حاشيَتِه؛ وقد قرأ الكُتُب وتَلاها، وحفِظَ العُلومَ ورواها، ودَرَس الآدابَ ووَعاها؛ ودوَّن الدَّواوينَ وألَّفها، وأنْشأ الحِكَمَ وصَنَّفَها؛ وفَصَّل المُشْكلاتِ وشَرَحها، وارْتَجل الخُطَبَ ونَقَّحها؛ فهو البَحْر المَوْرود، والإمامُ المَقْصُود، والعَلَمُ المَصْمُود، هذا بَوْنٌ ومرتقى شديد.

أتلقونَ بالأعْزَلِ الرَّامِحا، * وبالأكْشَفِ الحاسِرِ الدَّارِعا،

وبالكَوْدَنِ السَّابِقَ السَّابحا، * وبالمِنْجَلِ الصَّارِمَ القاطعا؟

فما استتم كلامه حتى أقبل: فإذا نحنُ به قد طلع مُهَرْوِلا، وأقبلَ مُسْتَعْجِلا؛ فرأيتُ رجلًا أجْلَح، أهْتَمَ أفْلَح، أفْطَح أرْدَح؛ طَوِيلًا عَنطَنَط، يَحْكِي ذِئبًا أمْعَط، أجْمع أحْبَط؛ فتَلَقَّوْه مُعظِّمين، وله مُفَخِّمين؛ فقصَد في المَجْلس صَدْرَه، وأسْنَد إلى المِخَدَّةِ ظَهْرَه؛ فما استقرّ به المكان، حتى قيل له: هذا فُلَان؛ فقَبَّض من أنْفِه، ونَظَر إليّ بشَطْرٍ من طَرْفِه؛ وقال ببعْض فيه، هَلُمُّوا ما كنتم فيه؛ تَعْسًا للشَّوْهاءِ وجالِبِيها، والقَرْعاءِ وحالبِيها:

جاء زيدٌ مُجَرِّرًا رَسَنَه * فحل لايمنعه سننه (؟)

أحَبَّه قَوْمُه على شَوَهٍ * إنّ القَرَنْبَى في عَيْنِ أمِّها حَسَنَه!

كان لنا شَيْخٌ بالأنْبار، كَثِيرُ الأخْبار، قد بلغ من العُمْر أمْلاه، ومن السِّنّ أعْلاه، قرأتُ عليه جَمِيعَ الكتّاب، وعِلْمَ الأنْسَاب، و "مَسَائِلَ ٱبنِ السَّرَّاج"، و "دِيوانَ ٱبن العَجَّاج"، و "كِتَابَ الإصْلاح"، و "مَشْرُوح الإيضاح"، وشِعْرَ الطِّرِمَّاح، و "العينْ" للفُرْهُودِى، و "الجَمْهَرة" للأَزْدِى، وأكثَر من المصَنَّفَات، المجهولات والمعروفات، ينْفُخُ فى شَقَاشِقِه، ويُزْبِدُ فى بَقَابِقِه، ويَتعاظَمُ فى مَخَارقه، وجعل القَوْمُ يَقْسِمُون بيننا الألحاظ، ويَحْسُبُون الألفاظ، وما منهم إلا من ٱغْتاظ لسُكُوتِى وكلامه، وتَأَخُّرِى وإقْدامه.

ثم هـذى الشيخُ إذ وُصِفَ له رجُلٌ على الغَيْبِ ثم رآه، فاحْتَقَره وٱزدراه، وأنْشَد مُتَمَثِّلًا:

لعَمْرُ أبِيكَ تَسْمَعُ بالمُعَيْدِى * بَعِيدَ الدَّارِ خَيرٌ أن تَراه

فقال: هذا المُعَيْدِىُّ هو ضَمْرة، بنُ ضَمْرة، بن جَابِر، بن قَطَن، بن نَهْشَل، بن دَارِم، بن مَالِك، بن حَنْظَلة، بن مَالِك، بن زَيْدِمنَاة، بن تَمِيم، بن مُرَّة، بن أُدّ، ٱبن طَابِخَة، بن ٱلْيأْس، بن مُضَر، بن نِزَار، بن مَعَدّ، بن عَدْنَان. والمُعَيْدِىُّ تَصْغِيرُ مَعْدِىّ، وهو الذى قالتْ فيه نَادِبَتُه:

أنْعى الكَرِيمَ النَّهْشَلِىَّ المُصْطفَى * أكْرَمَ من خَامَر أو تَخَنْدَفا!

فقلتُ: ما بعد هذا المَقال، وَجْهٌ للٱحتمال؛ وما يَجِبُ لى بعدَ هذه المُوَاقَه، غيرُ المُكَافَه؛ ولم يَبْقَ لى بعد المُغَالَبه، من مُرَاقَبه:

ما عِلَّتِى وأنا جَلْدٌ نَابِلٌ (١) * والقَوْسُ فيه وَتَرٌ عُنابِلُ

* تَزِلُ عن صَفْحَتِه المَعَابِلُ! *

(١) كذا فى اللسان فى مادة ــ علل ــ وفى مادة عنبل "خب خاتل".

ماعلتى وأنا [رجل] جَلْدُ * والقَوْسُ فيه وَتَرٌ عُرُدُّ
* مِثْلُ ذِراعِ البَكْرِ أو أَشَدُّ *

فعَطَفْتُ عليه عَطْفَ الثّائرِ العَاسِف ، وٱلتفتُّ إليه ٱلْتِفاتَ الطّائرِ الخَاطِف ؛ فقلتُ له : يا أَخاهِيت ، قد قُلْتَ ماشِيت ، فأجِبِ الآنَ إذا دُعِيت ، وٱلْزَم مَكانَك ، وغُضَّ عِنانَك ، وقَصِّرْ لِسانَك ؛ إنَّ نادِبَة ضَمْرة خَنْدَفَه ، لمّا وَصَفَتْه ؛ وما سمعتُ في نِسْبتك إياه لِخِنْدِف ذِكْرا ، فأَبِنْ عن ذلك عُذْرا ؛ فقال : إن خِنْدِفَ هي ٱمرأةُ ٱليَأْسَ بنِ مُضَر ، غَلَبتْ علىٰ بَنِيها فنُسِبُوا إليها ، كَطُهَيَّةَ ومُزَيْنَه ، وبَلْعَدَوِيَّةَ وعُرَيْنَه ، والسُّلَكَةِ وجُهَيْنه ، ونُدْبَةَ وأُذَيْنَه ؛ وكَشَبِيب بن البَرْصَاء وٱبن الدَّعْمَاء . فقلت له : سُئِلْتَ ، فأَجَبْتَ وأَصَبْتَ ؛ فأخبرني عن خِنْدِفَ هل هو ٱسْمٌ مَوْضُوع ، أو لَقَب مَصْنُوع ؟ ؛ فوقَفَ عند ذلك حِمارُه ، وخَمَدتْ نَارُه ؛ ورَكَد جَرَيانُه ، وسَكَن هَذَيانُه ، وفَتَرغَلَيانُه ، وظَهر حِرَانُه ؛ وذَلَّ وٱنْقَمع ، وٱنْطَوىٰ وٱجْتَمع ؛ فاضطَرَّه الحَيَاء ، وأَلْجأَه الأَسْتِجْداء ؛ إلىٰ أن قال وهو يُخْفِي لَفْظَه ، ويُطْرِقُ لَحْظَه : أَظُنُّه لقَباً . فقلتُ : هو كما ظَنَنتَ فما مَعْناه وما سَبَبُه ؟ وكيف كان مُوجَبُه ؟ فلم يَجِدْ بُدًّا من أن يقولَ : لا أَدْرِي ، فقال وقد أَذَقْتُه مُرَّ الإمَاتَه ، وأَحَسَّ من القَوْم بتَظَاهُرِ الشَّماتَه :

وَدَّ بجَدْعِ الأنْفِ لو أنَّ صَحْبَه * تَنَادَوْا وقالُوا في المُنَاخِ له : نَمِ !

ثم أقبلُوا إليّ ، وعَكَفُوا عَلَيّ ؛ بأَوْجُهٍ مُتَهَلِّله ، وأَلْسِنَةٍ مُتَوَسِّله ؛ في شَرْح الحال ، والقيامِ بجواب السُّؤَال ؛ فقلتُ : هذا بَدِيعٌ عَجِيب ، أنا أَسْأَلُ وأنا أُجِيب ؛ إن ٱليأْسَ ٱبنَ مُضَر تزوّج لَيْلىٰ بنْتَ تَغْلِبَة (١) ، بن حُلْوان ، بن إلْحاف ، بن قُضَاعَةَ ، بن مَعَدّ ، (في بَعْضِ النَّسَب) ، فوُلِدَ له منها : عَمْرو وعامِرٌ وعُمَيْر . نفقدَتْهم ذاتَ يَوْمٍ ، فألْحَىٰ

(١) صوابه بنت حلوان بن عمران .

علىٰ لَيْلىٰ باللَّوْم، فقال: ٱخْرُجى فى أثَرِهم، وأْتِينِى بخَبَرِهم؛ فمَعَنَتْ فى طَلَبِهم، وعادتْ بهم؛ فقالت: ما زِلْتُ أُخَنْدِفُ فى ٱتباعهم، حتى ظفرتُ بلِقَائِهم؛ فقال لها ٱلْيَأْسُ: أنتِ خِنْـدِف. والخَنْدَفة فى الاتبـاع، تقارُبُ الخَطْوِ فى إسْراع؛ وقال عَمْرو: يا أَبَتِ أنا أدركتُ الصَّيْد فَلوِيْتُه، فقال له: أنتَ مُدْرِكَة إذ حَوَيْتَه. وقال عامرٌ: أنا طَبختُهُ وشَوَيْتُه. فقال له: أنتَ طابِخَة إذ شَوَيْتَه. فقال عُمَيْرٌ: أنا ٱنْقَمعْتُ فى الخِبَاء، فقال له: أنتَ قَمَعَةٌ للاخْتِباء؛ فلَصِقَتْ بها وبهم هذه الألقاب، وجَرَتْ بها إليهم الأنْساب.

فقال حينئذٍ: هذا عِلْمٌ ٱستفدتُه، وفَضْلٌ ٱسْتزدتُه؛ وقد قال الحكيمُ: مُذَاكَرَةُ ذَوِى الألْبابِ، نَمَـاءٌ فى الآداب. فقلتُ له مُتَمَثِّلا:

أقُولُ له والرُّمْحُ يَأْطِرُ مَتْنَه * تأَمَّلْ خُفَافًا: إنَّنِى أنا ذَلِكا!

ثم لم يَحْتَبِس إلا قليلا، ولم يُمْسِكْ طَويلا؛ حتى عاد إلىٰ هَدِيرِه، وأخذ فى تَهْذِيره؛ طَمَعًا بأن يأخُذَ بالثَّار، ويعودَ الفَيْضُ له فى القِمَار؛ فعدل عن العُلُوم النَّسَبِيَّة، وجَالَ فى مَيْدانِ العَرَبِيَّـة؛ ولم يُحِسَّ أن بَاعَه فيها أقْصر، وطَرْفَه دون حَقَائِقِها أحْسَر؛ فقال: حضرتُ يومًا حَلْبَةً من حَلَبَاتِ العُلُوم، ومَوْسِمًا من مَوَاسِم المَنْثور والمَنْظوم؛ وقد غُصَّ بكلِّ خطيبٍ مِصْقَع، وحَكَمٍ مُقَنَّع، وعالِمٍ مِصْدَع؛ ومُلِئَ من كلِّ عَتِيقٍ صَهَّال، وفَتِيقٍ صَـوَّال، ومِنْطِيقٍ جَوَّال؛ فأخذُوا فى فُنُون المُعارَضَات، وصُنُوف المُناقَضات؛ وسَلَكُوا فى معانى القَرِيض، كلَّ طَوِيلٍ عَرِيض؛ حتَّى أَخَذَ السَّائِلُ منهم بالمُخَنَّق، ببَيْت [الفرزدق](١):

وعَضّ زَمانٍ يا ٱبنَ مَرْوَانَ لم يَدَعْ * من المَـالِ إلَّا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ!

(١) الزيادة من اللسان مادة — س ح ت — و — ج ل ف —.

فكَثُر فيه الجدَال، وطَالَ المَقال ؛ وما منهم إلا من أجاد القِيَاسَ، وأصابَ القِرْطاس؛ ووقَع على الطَّرِيق ، وأتَىٰ بالتَّحْقِيق؛ فلمَّـا رأيتُهم فى غَمْرتِهم سَاهُون ، وفى ضَلالَتِهم يَعْمَهُون؛ فناديْتُهم : إلىَّ فَسَارِعُوا ، ومِنِّى فاسْمَعوا؛ فإنِّى أنا ٱبنُ بَجْدتِها، وعالِمُ ماتَحْت جِلْدَتِهـا؛ ثم إنِّى أبديتُ لهم سِرَارَه، وأبقيتُ ناره؛ وحَلَلتُ عُقَـدَه، ومَخَضْتُ زُبَدَه ، وأطَرْتُ لَبَدَه؛ وبَجَسْتُ حَجَره، وأبْثثتهم عُجَره وبُجَره؛ فقالوا : لله أبُوك ! فإنَّك أسْبَقُنا إلىٰ غَايَه، وأكْشَفُنا لغَيايَه؛ وأجْلَانا لشُبْهه، وأضوأُنا فى بَدْهه؛ وما أعلَمُ اليومَ علىٰ ظَهْرها من يَقُوم بعِلْم مافيه، ويَطَّلِـع علىٰ خَافِيه .

فأدرَكَنِى الآمتِعاض، وأخَذَنِى الأنْتِفَاض؛ فأنشدته :

مَنْ ظَنَّ أنَّ عُقُولَ النَّاسِ ناقِصَةٌ * وعَقْـلَهُ زَائِدٌ أزْرَىٰ به الطَّمَع !

وقلتُ له : ٱدَّعَيْت ، فَوْقَ ما وَعَيْت؛ فأخْبِرْنِى عن أوَّل هذا البيْت ، يا مُجْرِى الكُمَيْت؛ وكيف نُنْشِدُه : وعَضَّ بالفتح أو وعَضُّ بالضم؟ فقال : كِلَاهُما مَرْوِىّ، فقلتُ : نَبْتَدِئُ بالفِعْل ثم نَعُود إلى الآسْم ياذا الإعجاب ، تَهيَّأْ للسَّائِل فى الجَوَاب؛ وأخْبِرْنى لم فَتَحْتَ آخِرَ المـاضى؟ فأسْرَع من غير التغاضى ، وقال : لأنَّه مبْنِىٌّ عليه، لا يُضاف سِوَاه إليه . فقلتُ : هذا جَوَابٌ نَعْلَمُه ، ومن صِبْيانِ المَكْتَبِ لا نَعْدَمُه؛ وإنمـا ألْتَمِسُ منك الفائدةَ فيها ، وأطلبُ كَشْفَ خَافِيها . فقـال : ما جاء عن أئمّة النُّحاه، وسائِرِ الرُّواه؛ فى هذا غيرُ ما شَرحْتُه ، ولا زَاد علىٰ ما أوضَحْتُه . فقلتُ : دع عنك هذا وأخبرنى عن هذا البِنَاء، ألِعِلَّةٍ أم لغَيْرها؟ فأقبل يتردَّدُ ويتزحْزَح، ويتثاءَبُ تارةً ويتَنَحْنَح . فلما سُـدَّ عليه من طَرِيقه ، وحَصَل فى مَضِيقه، وغُصَّ برِيقِه؛ قال : لا أعْلَم ! . فقالت الجمـاعةُ : أعْذَرَ إليك من ألْقَىٰ سِلَاحَه، وغَضَّ جِمَاحَه؛ ومن أدْبَرَ بعد إقْباله ، عُدِلَ عن قِتَاله :

والحقُّ أبْلَجُ لا يُحَـدُّ سَبِيلُه * والحقُّ يعرفُه ذَوُو الألْبابِ!

والآنَ فقـد فازتْ قِداحُك ، وبانتْ غُرَرُكَ وأوْضَاحُك ؛ وأجَدْتَ النِّضال ، وأدْرَكتَ الخِصَال ؛ فأوْضِحْ لنا عمّا سَأَلت ، وأرْشِدْنا إلىٰ ما دَلَلت ؛ لئلَّا يقال : هذا بَهْت ، ومُحَالٌ بَحْت ؛ فقلتُ حُبًّـا وكَرَامَه ، اِسْمَعْ أنتَ ياطَغَامـه ؛ إنَّ الفِـعْل من فاعِله ، كالوَلَد من نَاجِله ؛ لايخلُو الفِـعْلُ من عَلامةِ الفَـاعِل ، فى لَفْظِ كلِّ قائِل ؛ وهى الفَتْحة من مَاضِيه ووَاقِعِه ، والزَّوائِدُ فى مُسْتَقْبِلِه ومُضَارِعِه . وبيانُ ذلك : أن الفَتْحةَ لا تكون مع التـاء والنون ... ...(١) فتثبت الفَتْحةَ ، ثم تقولُ : أخْرَجْتُ وأخْرَجْنَا ، فتُسقطُ ما ذكرنا ؛ وعلامتان لمعنًى محال ، لا يوجبهما الحال . فان كانت النونُ التى مع الألف ضَميرَ المَفْعول عادَت الفَتْحةُ ، فتقول : أخْرَجَنا الأميرُ ، فهذا بيِّنٌ . فصَفَّقَتِ الجماعةُ وسمحت ، وحسنت وبجبحت ؛ وجَعَل الأدِيبُ يضطَرِبُ اضْـطِّرابَ العُصْفُور ، ويتقَلَّبُ تَقَلُّبَ الصُّقور ؛ مُتَيقِّنًا أن أسَـدَهُ صار جُرَذا ، وبازِيَه عاد صُرَدا ؛ ودوره انقلبت مخشلبا (؟) ، وزَيْتُونَه تحوَّلَ عِرْبا ، وقَنَاه تغيَّر قَصَبا ؛ وأن مُسْتَقِيمَه تَعوَّج ، وجَيِّـده تبهْرَج ، وصَحِيحَه تَدَحْرج ، وجَدِيدَه تَكرَّج ؛ فقال مُنْشِدُهم :

تَرَى الرَّجلَ النَّحِيفَ فتَزْدَرِيه * وتَحْتَ ثِيـابِه أسَـدٌ مَزِيرُ
ويُعْجِبُك الطَّـرِيرُ فتَبْتَلِيـــه * فيُخْلِفُ ظَنَّك الرجُلُ الطَّرِيرُ
فما عِظَمُ الرِّجالِ لهم بفَخْرٍ * ولٰكِنْ فَخْرُهم كَرَمٌ وخِيرُ!

فأخَذَه الأبْلاس ، وضاقَتْ به الأنْفاس ، وسَكَنتْ منه الحَوَاسّ ، ورَفَضَـه النـاس ؛ وجعـل يَنْكُتُ الأرْض ، ويُواصِلُ بكَفِّـه العَضّ ؛ ويَتَشاءَمُ بيَوْمه ،

(١) بياض بالأصول .

ويعودُ علىٰ نَفْسِه بلَوْمِه؛ يَمْسَحُ جَبِينَه، ويُكْثِرُ أَنِينَه . فقمتُ فقامتْ معى الجماعة وتَرَكَتْه، وٱسْتَهانَتْ به وفَرَكَتْه؛ فلما بَقِىَ وَحْدَه، تَمَنَّى لَحْدَه؛ وأَسْبَل دَمْعَتَه، ووَدَّ أنَّ الأرض بَلَعَتْه :

وكان كمثل البَوِّمابينَ رُوَّمٍ * تَلُوذ بِحَقْوَيْه السَّراةُ الأكابِرُ،
فأصْبَح مِثْلَ الأَجْرَبِ الجِلْدِ مُفْرَدًا * طَرِيدًا فما تَدْنُو إليه الأَبَاعِرُ!

فقام فتَبعني، ووَقَف ووَدَّعَنِي؛ وأطال الٱعْتِذار، وأظهر التَّوْبَةَ والٱسْتِغْفار؛ وقال: مِثْلُك من سَتَرَ الخَلَل، وأقال العَثْرَةَ والزَّلَل؛ فقد ٱغتررتُ من سِنِّك بالحَداثه، ومن أخْلاقِك بالدَّماثه . فقلتُ : كلُّ ذلك مَفْهومٌ مَعْلوم، وأنتَ فيه مَعْذورٌ لا مَلُوم؛ وما جَرىٰ بيننا فهو مَنْسِيٌّ غير مَذْكُور، ومَطْوِىٌّ غير مَنْشُور، ومَخْفِيٌّ غير مَشْهُور :

و[جِدَالُ] أَهْلِ العِلْمِ ليس بقادِحٍ * مابين غَالِبِهم إلى المَغْلُوب!

ثم سكتَ فما أَعاد، ونَزلْتُ وعاد؛ وكان ذلك أوّلَ عَهْدِ به وآخِرَه، وباطِنَ لِقَاءٍ وظَاهِرَه، وكلَّ ٱجْتماعٍ وسَائِرَه .

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من المقالة العاشرة

(فى الرَّسَائِل)

وهى جَمْع رِسالةٍ، والمرادُ فيها أُمورٌ يُرَتِّبها الكاتِبُ : من حِكايةِ حَالٍ من عَدُوٍّ أو صَيْدٍ، أو مَدْح وتَقْرِيضٍ، أو مُفَاخَرَة بين شيئين، أو غير ذلك مما يَجْرى هذا المجرىٰ، وسُمِّيتْ رسائِلَ من حيثُ إنَّ الأديب المُنْشِئَ لها ربَّما كَتب بها إلىٰ غيره

مُخْبِرا فيها بصورة الحال، مُفْتتحةً بمـا تُفْتَتح به المكاتباتُ ، ثم تُوُسِّع فيها فافتتحت بالخُطَب وغيرها .

ثم الرَّسائِل علىٰ أصـــناف :

الصـــنف الأوّل

(منها الرَّسائِل المُلُوكيَّـــة ، وهى علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(رَسائِل الغَزْوِ ، وهى أعظمها وأجَلُّها)

وهــذه نُسْخة رسالةٍ أنشأها القاضى مُحْيى الدِّين بن عبد الظَّاهِر رحمه الله، بفَتْح [المَلِك الظَّاهِر] لقَيْسَارِيَّة من بلاد الروم، وآقْتِلاعِها من أيْدى التَّتَار، وآسْتِيلائِه علىٰ مُلْكها، وجُلُوسه علىٰ تَخْتِ بنى سُلْجُوق، ثم العَوْدِ منها إلىٰ مَمْلكة الدِّيار المِصْرية . كَتَب بها إلى الصَّاحِبِ بَهاء الدِّين بن حَنَّا، وزيرِ السلطان المَلِكِ الظاهر، ومَعرفَة ما كان فى تلك الغَزْوة، وما آشتملت عليه حالُ تلك السَّفْرَه، وهى :

يُقَبِّلُ الأرضَ بِسَاحَاتِ الأبواب الشريفة السَّيِّدِيَّه، الصَّاحِبية البَهائيَّه؛ لا زالتْ رَكائِبُ السِّيرِ تَحُثُّ إلىٰ أرجائِها السَّيْر، وصُرُوفُ الزَّمَنِ تُسالِمُ خُدَّامها وتُحِلُّ الغِيَرَ بالغَيْر، ولا بَرِحَتْ مَوْطنَ البِرِّ ومَعْدِنَ الجُودِ وبَحْر الكَرَمِ وعُكَاظَ الخَيْر؛ ويُنْهِى بعــد رَفْعِ أدْعِيَتِه التى لاتزالُ من الإجابة مَحُوطه، ولا تَبْرَحُ يداه بها مَبْسُوطَه؛ أنَّ العَبِيــدَ من شأنهم إتْحافُ مَوَالِيهم بما يُشَاهِدُونه فى سَفَرَاتِهم من عَجَائِب، وإطْلاعُهم علىٰ مايَرَوْنَه فى غَزَوَاتِهم من غَرَائِب؛ ليَقْضُوا بذلك حُقُوقَ الآسترقاق، وتكونَ نِعَمُ ساداتِهم قد أحْسَنَتْ لأفواههم الآسْتِنْطاق ؛ ويَتَعرّضُوا لمـا عساه يَعِنُّ مِنْ مَرَاحِمِهم التى ماعندهم غَيْرُها يَنْفَدُ وما عنْدها بَاقٍ .

ولمّا كان المملوكُ قد انتظم فى سِلْكِ الخَدَم والعَبِيد، وأصبح كَمْ له قصيدٌ فى مَدْح هـذا البَيْتِ الشَّرِيف كلُّ بَيْتٍ منها بقَصِيدِ بَيْتِ القَصِيد؛ وأنَّ فى مآثِره الرَّسائلُ التى قد شـاعَتْ، وضاعَتْ نَفَحاتُها فى الوجود وكَمْ رِسَالةٍ غيرها فى غيره ضَاعَتَ ـ رأىٰ أن يُتْحِف الخواطِرَ الشَّرِيفةَ من هذه الغَزْوَة بِلُمَحٍ يختارُ منها من يُؤلِّف، ويُسْنِد إليها من يُؤَرِّخُ أو يُصَنِّف؛ وإنَّما قصدَ أن يُتْحِفَ بها أبوابَ مولانا مع بَسْطِ القَوْل واتّساعِ كَلِمـاتِه، لأن الله قد شَرَّف المملوكَ بعبوديَّةِ مولانا : واللهُ أعلَمُ حَيْثُ يجعلُ رِسَالَاتِه؛ فانْ كان المملوكُ قد طَوّل فى المُطَارَحه، فمولانا يَتطَوّلُ فى المُسَامحه؛ وإن قال أحَدٌ : هذا هَذَىٰ، فمـا زال شَرْحُ الوقائِـع مُطَوّلا كذا؛ وتاللهِ ما وُرِّخ مِثْلُها فى التواريخ الأُوَل، ولعَمْرِى إنَّ خيرًا من سِـيرَة ذلك البَطَّال سيرةُ هـذا البَطَل؛ والأمر أعلىٰ فى قِراءَتِها واسْتِمـاعِها، والتَّمهُّلِ فى حَجَابها حتَّى تُسْفِرَ حَسَنَ نِقابِها وتَرْفَع مَسْدُول قِناعِها، (١) ... ...

قد أحاطت العلومُ الشريفةُ بالعَزَماتِ الشَّرِيفة السُّلْطانيـة، وأنها استصحبت ذلك، حتى تصفَّحَت المَهالِك؛ وسِرْنا لا يَسْتقرُّ بنا فى شَىْءٍ منها قَرار، ولا يُقْتَدحُ من غير سَـنَابِك الخَيْل نَار، ولا نَمُـرُّ علىٰ مَدِينـةٍ إلا مُرُورَ الرِّياح على الخمـائل فى الأَصَائِلِ والإِبْكَار؛ ولا نُقيمُ إلا بمقدار ما يَتزيَّد الزَّائرُ من الأُهْبَه، أو يتزَوَّدُ الطائرُ من النُّغْبَـه؛ نَسْبِقُ وَفْدَ الرِّيحِ من حيث نَنْتَحِى، وتَكادُ مَواطِئُ خَيْلنا بمـا تَسْحَبُه أذيالُ الصَّوافِنِ تَمْتَحِى؛ تَحْمِل همنا الخَيْـلُ العِتَاق، ويَكْبُو البَرْق خَلْفَنا إذا حاول بنا اللَّحاق، وكلٌّ يقول لسلطاننا نَصَره الله :

أَيْنَ أزمعتَ أيُّهـذَا الهُمَام؟ * نحنُ نَبْتُ الرُّبَا وأنتَ الغَمَام!

(١) بياض بالأصول .

ومَرَّ لا يفعلُ السَّيفُ أفعالَه ، ولا يَسيرُ فى مَهْمَهٍ إلا عَمَّه ولا جَبَلٍ إلا طَالَه ، تُسَايِرُه السَّوارِى والغَوادِى ، ولا ينفَكُّ الغَيْثُ من ٱنْسِكابٍ فى كلِّ نادٍ ووَادِى :

فباشَرَ وَجْهًا طالمَا باشَرَ القنا ، * وبَلَّ ثيابًا طالمَا بَلَّها الدَّمُ !

وكان مولانا السلطانُ من حلَب قد أمر جميعَ عساكره بٱدّرَاعِ لامَاتِ حَرْبِهم ، وحَمْلِ آلاتِ طَعْنِهم وضَرْبِهم :

فجَازَ له حَتّىٰ علَى الشَّمْسِ حُكْمُه ، * وبَانَ له حَتّىٰ على البَدْرِ مِيسَمُ .
يَمُدُّ يَدَيْه فى المُفَاضَة ضَيْغَمٌ * وعَيْنَيْه من تَحْتِ التَّرِيكَةِ أَرْقَمُ !

ورحَلُوا من حَلَب فى يوم الخميس ثانى ذى القعدة جَرائِدَ على الأمْرِ المعهود ، قد خَفَّفوا كلَّ شَىْءٍ حتَّى البُنودَ والعَمود ، فسِرْنا فى جِبالٍ نشتهى فيها سُلُوكَ الأرض ، وأوْدِيةٍ تَهْلِكُ الأشْواطُ فيها إذا مُلِئَتِ الفُرُوجِ من الرَّكْض ، نَزُورُ دِيَارًا ما نُحِبُّ مَغْناها ، ولا نَعرِفُ أقصاها من أدْناهَا ، وٱستقبلنا الدَّرْب فكان كما قال المُتَنَبِّى :

رَمَى الدَّرْبَ بالخَيْلِ العِتاقِ(١) إلى العِدَا * وما عَلِمُوا أنَّ السِّهامَ خُيُولُ ،
شَوَائِلَ تَشْوالَ العَقَارِبِ بالقَنَا * لَهَا مَرَحٌ مِن تَحْتِه وصَهِيلُ .
[وما هِى إلَّا خَطْرَةٌ عَرَضَتْ له * بحَرّانَ لبَّتْها قَنًا ونُصُولُ
هُمَامٌ إذا ما هَمَّ أمْضَى هُمُومَه * بِأَرْعَنَ وَطْءُ المَوْتِ فيه ثَقِيلُ
وخَيْلٍ بَرَاها الرَّكْضُ فى كُلِّ بَلْدَةٍ * إذا عَرَّسَتْ فيها فَلَيْسَ تَقِيلُ](٢)
فَلَمَّا تَجَلَّىٰ من دَلُوكَ وصَنْجَةٍ * عَلَتْ كُلَّ طَوْدٍ رَايَةٌ ورَعِيلُ

(١) الذى فى ديوان المتنبى : بالجُرْد الجياد .

(٢) الزيادة من ديوان المتنبى .

عَلىٰ طُرُقٍ فيها عَلَى الطُّرْقِ رِفْعَةٌ * وفِي ذِكْرِهَا عند الأَنِيسِ خُمُولُ!

ومَرَرْنا علىٰ مدينة دَاوُكَ وهي رُسُوم سُكَّانها ، ضاحِكَةٌ عن تبَسُّم أزْهارِها وقَهْقَهَةِ غُدْرانِها ، ذاتُ بُرُوجٍ مُشَيَّدَه ، وأرْكانٍ موَطَّدَه ، ونِيرانِ تَزاوِيق مُوقَدَه ، فى عَمَدٍ من كَنَائِسِها مُمَدَّدَه ، وسِرْنا منها إلىٰ مَرْجِ الدِّيباج نَتَعادَىٰ ، وذلك فى لَيْلَةٍ ذاتِ أَنْدِيَةٍ وإن لم تكُن من جُمادَىٰ ، ظُلُماتها مُدْلَهِمَّه ، وطُرُقاتُها قد أصبح أمْرُها عَلَيْنا غُمَّه ، لا يَثْبتُ تُرْبُها تحت قَدَم المَارّ ، وكأنَّما سَالِكُها يَمْشِي علىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ ، فبِتْنا هُنالك لَيلَةً نَسْتَحْقِر بالنِّسْبة إلىٰ شِدَّتها ليلةَ المَلْسُوع ، وتَمَنَّى العَيْنُ بها هَجْمَة هُجُوع ، وأخَذْنا فى ٱخْتِراق غَاباتِ أشْجارٍ تُخْفِي الرَّفِيقَ عن رَفِيقِه ، وتَشْغَلُه عن ٱقْتِفاء طَرِيقِه ، يَنْبرِى منها كُلُّ غُصْنٍ يُرْسِله المتقدِّمُ إلىٰ وَجْهِ رَفِيقِه ، كما يَخْرجُ السَّهْم بقُوَّةٍ من مَنْجَنِيقِه ، حَوْلَها مَعاثِرُ أحْجارٍ كأنَّها قُبُور بُعْثِرَتْ ، أو جِبَالٌ تَفَطَّرتْ ، بينها مَخَائِض ، لا بَلْ مَغَائِض ، كأنَّها بِحَارٌ فُجِّرَتْ ، ما خَرَجْنا منها إلا إلىٰ جِبالٍ قد تَمَنْطَقَتْ بالجَداوِل وتَعَمَّمتْ بالثُّلُوج ، وعُمِّيَتْ مَسالِكُها فلا أحدٌ إلا وهو قائلٌ : فهَلْ إلىٰ خُرُوجٍ من سَبِيلٍ أو إلىٰ سَبِيلٍ من خُرُوج ، تَضِيقُ مَنَاهِجُها بمَشْيِ الواحد ، وتَلْتَفُّ شَجراتها ٱلْتِفافَ الأكمام على السَّاعِد ، ذَاتُ أوْعَارٍ زَلِقه ، وصُدُور شَرِقَه ، وأوْدِيَةٍ بالمُزْدَحِمِينَ مُخْتَنِقه ، بَيْنما يقولُ مُنْتَحِيها : قد نِلْتُ السَّماءَ بسُلَّمٍ من هذه الشَّواهِق ، إذا هُو مُتَضائِلٌ قد هَبَط فى مَأْزِقٍ مُتَضايِق ، لم تَزَلْ هذه الجبالُ تأخُذُنا وتَرْمِينا ، وتلك المَسَارِبُ تَضُمُّنا وتلْك المَشَارِب تُظْمِينا :

تُسَوِّدُ الشَّمْسُ مِنَّا بِيضَ أَوْجُهِنَا ، * و[لا](1) تُسَوِّدُ بِيضَ العُذْرِ واللِّمَمِ ،

[وكانَ حَالُهما فى الحُكْمِ وَاحِدَةً * لوِ ٱحْتَكَمْنا من الدنيا إلى حَكَمِ](1)

---

(١) الزيادة من ديوان المتنبي (ص ٤٢٠) .

وَتَتْرُكُ المَاءَ لا يَنْفَكُّ من سَفَرٍ، * ماسَارَ فى الغَيْمِ منه سَارَ فى الأَدَمِ!

حتى وصلنا الحَدَثَ الحَمْراءَ المُسَّماة الآنَ بكينوك ومعناها المُحْرَقَة ، كان المَلِكُ قُسْطَنْطِينُ والِدُ صاحِبِ سِيسَ قد أخَذَها من أصحاب الرُّومِ وأحْرَقها، وتَمَلَّكَها وعَمَرها، بِقَصْدِ الضَّرر لبلاد الإسلام والتُّجَّار . فلما كان فى سنةِ اثنتين وسبعين وسَبْعمائة سَيَّر مولانا السلطانُ إليها عَسْكَر حَلَبَ فافتتحها بالسَّيْف وقَتَل من كان بها من الرِّجال وسَبَى الحَرِيمَ والذُّرِّيَّة، وخَرِبَتْ من ذلك الحِين، وما بَقِيَ بها من يَكَادُ يُبِين، فشاهَدْنا ما بَنىٰ سَيْفُ الدَّوْلة بنُ حَمْدان منها والقَنَا تَقْرعُ القَنَا ومَوْجُ المَنَايا حَوْلها مُتَلاطِم، وقيل حَقيقةً هُنَاك : علىٰ قَدْرِ أهْلِ العَزْمِ تَأْتِى العَزائِم؛ وهى التى عناها أبو الطَّيِّب بقوله :

غَصَبَ الدَّهْرَ والمُلُوكَ عَلَيها * فبناهَا فى وَجْنَةِ الدَّهْرِ خَالَا

فهِىَ تَمْشِى مَشْىَ العَرُوسِ اخْتِيالَا * وتَثَنَّى عَلَى الزَّمانِ دَلَالَا !

فبِتْنا بها وابْتَنَينا وخَيْلُنا مبْثوثَةٌ فوق الأحيدب كما نُثِرَت الدَّراهِم فوقَ العَرُوس ، وجِيادُنا على الرُّكُوب فى أعْلَى العَيْنُ تَدُوس، إذا زَلِقَت مَشَتْ كالأراقم على البُطُون، وإن تَكاسَلَتْ جَرَّ بعضُها بعضًا بالصَّهِيل : «والحديثُ شُجُون» ؛ وخُضْنا فى أثْناءِ ذلك مَخَائِضَ سَوابِحَ ، كأنَّها لأجْل عَوْم الخَيْلِ بها سُمِّىَ كُلٌّ منها لأجْل ذلك سَابِحٌ ، كلّما قُلْنا : هذا بَحْرٌ قد قطعناه اعْتَرَضَ لنا جَبَل، وكلَّما قُلْنا : هذا جَبَلٌ طَلَعناه بانَ لنا وَادٍ يُسْتهانُ دُونَ الهوِىِّ فيه نَفَادُ الأَجَل؛ لم نَزَل كذلك حتّىٰ وصلنا كوكصوا(؟) وهو النَّهْر الأزرق ، وهو الذى رُدّ المَلِكُ الكامِلُ منه سنة الدَّرْبَنْدات لما قصد التَّوجُّهَ إلى الرُّوم . وهذا النَّهر بين الجبال مَهْوىٰ رِجَامِها، ومَثْوىٰ غَمامِها، ومَلْوىٰ زِمَامِها، ومَأوىٰ قَتَامِها؛ فَلِلْوقت عبَرناه رَكْضا، وأعْجلت الخَيْلُ فما دَرَتْ هل خاضتْ لُجَّةً أم قطعتْ

أرْضًا ؛ وباتَ الناسُ من بَرِّ هذا النَّهرِ الآخرِ وأصبحوا مُتَسَلِّقِينَ فى تلك الشُّم ، ووَقْع السَّنابِكِ يُسْمَعَ من تلك الجبالِ الصُّم ؛ حتّىٰ وصلُوا إلىٰ أَقْجادربَنْد فما ثَبَتَتْ يَدُ فَرَس لمصافحة صَفَاها ، ولا نَعْلُه لمكافحة رَحَاها ، ولا رِجْلُه لمطارحة قُواها ؛ وتمرّنت الخَيْلُ علىٰ الاَقْتِحام والاَزْدِحام فى التَّطَرُّق ، وتعوّدتْ ما تعوّدتْه الأوعالُ من التَّسرُّب والتَّسَلُّق ؛ فصارتْ تنحطُّ انْحِطاطَ الهَيْدَب ، وتَرْتَفِعُ ارتفاعَ الكَوْكَب ؛ وتَسْرى سَرَيانَ الخَيال ، وتُمَكِّن حَوَافِرَها الجِيادَ فتزولُ منها الجِبَال ؛ حتّىٰ حصلَ الخروجُ من مُنْتهى أَقْجادربَنْد وهو خِنَاقُ ذلك المَأْزِق الذى كَمْ أمسكَ علىٰ طَارِق ، وفَمُ ذلك الدَّرْبِ الذى كَمْ عَضَّتْ أَنْيَابُه علىٰ مُساوِقٍ ومُسابِق ؛ وذلك فى يوم الأربعاء ثامِنِ ذى القَعْدة ، وباتَ السلطانُ والناسُ فى وَطْأةٍ هناك ، وسَحَت السُّحُبُ بما شاءتْ من بَرْدٍ و بَرَد ، وجاءت الرِّياحُ بما آلَمَتِ الجِلْدَ واَسْتَنْفَدَتِ الجَلَد ؛ وانتشرت العساكرُ فى وَطْأةٍ هناك حتّى مَلأَتِ المَفَاوِز ، ومَلَكت الطُّرُقَ على المَارِّ وأخَذَتْها على الجَائِز ؛ وقَدَّم مولانا السلطانُ الأميرَ شَمْس الدِّين سُنْقرًا الأشْقَر فى الجاليش فى جماعة من العساكر ، فوقع علىٰ ثلاثة آلاف فَارِس من التَّتار مُقَدَّمُهم كراى ، فانْهزَمُوا مِن بين يديه ، وأخذ منهم من قُدِّم للسَّيْف السلطانِىّ فأكل نَهْمَته وأسْار ، واستمرّتْ تلك سُنَّةً فيمن يُؤْخذ من التَّتارِ ويُؤْسر ؛ وذلك فى يوم الخميس تاسع ذى القَعْدة .

وباتَ التَّتارُ علىٰ أجْمَل تَرْتيبٍ لأنفسهم وأجْمَلِ مَنْظَر ، وباتَ المسلمون علىٰ أتَمّ تَيَقُّظ وأعْظَمِ حَذَر ، ولم يَتحقّقُوا قُدُوم مولانا السلطان فى جُيُوش الإسلام ، ولا أنَّه حَضَر بنَفْسه النَّفِيسَةِ ليقومَ فى نُصْرة دِينِ الله هذا المَقَام . فلمّا كان يوم الجمعة عاشرُ ذى القَعْدة تَتَابع الخَبَر بعد الخَبَر بأن القَوْم قد قَرُبوا ، وأنهم ثَابُوا ووَثَبُوا :

وَقَدْ تَمَنَّوْا غَدَاةَ الدَّرْبِ فى لَجَبٍ * أَنْ يُبْصِروه فلمَّا أبْصَرُوه عَمُوا !

وشَرَع مولانا السلطانُ فوَصَّىٰ جُنُوده بالتَّثبُّت عنـد المَصْدَمَه ، والآجتماع عند المُصَادَمه ؛ ورَتَّب جَيْشَ الإسلام اللَّجِب ، علىٰ ما يَجب ، وأرَاهُم من نُورِ رَأْيِه ما لا علىٰ بَصَرٍ ولا بَصِـيرةٍ يَحْتَجِب ، فطلعت العساكر مُشْرِفَةً علىٰ صَخَراتِ هونى من بَلَد أَبُلُسْتَين ، وكان العدوّ لَيلَتَه تلك بائتًا علىٰ نَهْر زمان ، وهو أصْلُ نَهْر جَهَان ، وهو نَهْر جَيْحَان المذكورُ فى الحديث النَّبوِىّ ، وإنَّمـا الأرْمَنُ لا تنطق بالهـاء .

فلما أقبل الناسُ من عُلْو الجَبَل شاهدوا المُغْل قد تَرتَّبوا أحَدَ عَشَر طَلَبا كلُّ طَلَبٍ يزيدُ علىٰ ألف فارِسٍ حقيقةٍ ، وعَزلوا عَسْكَر الرُّومِ عنهم خِيفَةً مِنْهم ، وجَعَلُوا عَسْكر الكُرْجِ طَلَبًا واحدًا بمُفْرَدِه . ولمَّـا شاهدُوا سَناجِقَ مولانا السـلطان المنصورةَ ومَن حَوْلها من الممـاليك الظاهرية ، وعليهم الخُودُ الصُّـفْر المُقْترحه ، وكأنَّها فى شُـعاع الشَّمس نيرانٌ مُقْتَدحه ؛ رجَعُوا إلىٰ ما كانوا عَقَـدوا من العزائم فحَـلُّوا ، وسُقِط فى أَيْديهِمْ ورَأَوْا أنَّهم قد ضَلُّوا ؛ وأقبـل بعضُهم علىٰ بعضٍ يتساءلون ، وعلى المَوْت يَتَراسَلُون ؛ فانْصبَّت الخَيْلُ إليهم من أعْلَى الجَبَل آنصبابَ السَّيْل ، وبَطَلت الحِيلَةُ منهم ونُفِى الحَيْل ؛ فشَمَّروا عن السَّواعِد ، ووقفوا وَقْفَةَ رَجُلٍ واحد ؛ وهؤُلاءِ المُغْل كان طاغِيةُ التَّتارِ آبغا ــ أهلكه الله ــ قد آختارهم من كلِّ ألْفٍ مائة ، ومن كل مائةٍ عَشَرة ، ومن كلِّ عشرةٍ واحِدًا لأجْلِ هذا اليوم ، وعَرَفهم بسِيمَا الشَّجاعَة وعَرَضهم لهذا السَّوْم ؛ وكان فيهم من المَقَدَّمين الكِبَار تدلون ، ومعنىٰ هذا الآسم النَّفَّاذ ، يعنى أنه ما كان فى عَسْكرٍ قطُّ إلا نَفَّذه ، والمقدَّمُ الآخَر بموا (؟) وإليـه أمْرُ بلاد الروم وعَسَاكِر المُغْل بهـا ، وأرختوا أخو تدلون ، وبهادر بخشى . ومن مُقَدَّمى الألُوف دنرك ، وصِهْر آبغا ، وقراق وخَوَاصُّه :

بِيضُ العَوَارِض طَعَّانُونَ مَن لَحِقُوا * من الفَوَارِس شَـلَّالُون للنَّعَمِ !
قَـدْ بَلَّغُوا بقَنَاهُم فوق طَاقتِـه * وليس يَبْلُغُ مافيهـم من الهِمَمِ .

فى الجَاهِلِيَّـةِ إلّا أنَّ أنْفُسَهمْ * من طِيبِهِنّ به فى الأشْهُرِ الحُرُمِ!

فعِنْد ما شاهَدُوا نَجْد الملائكه، وتَحَقَّقُوا أن نُفُوسهم هَالِكَه؛ أخْلَدتْ فِرْقَةٌ منهم إلى الأرْض فقاتَلَتْ، وعاجَتِ المَنَايا علىٰ نُفُوسهم وعَاجَلَت؛ وباعَت نُفوسُ المسلمين لهم وتاجَرَتْ، وكَسَرت وما كَاسَرَتْ؛ وجاء الموتُ للعَـدُوِّ من كلّ مَكان، وأصبح ما هنالك منهــم وقد هَـان؛ وللوقت خُذلُوا وجُدِّلُوا، ولبُطُونُ السِّباعِ وحَواصِل الطُّيور حُصِّلوا؛ وصارُوا مع عَدَم ذِكْرِ الله بأفواههم وقُلُوبِهم، يقاتلون قِيامًا وقُعُودا وعلىٰ جُنُوبِهِم؛ فكَمْ من شُجاعٍ أَلْصق ظَهْره إلىٰ ظَهْرِ صاحِبِه وحَامىٰ، وناضَلَ ورامَى؛ وكَمْ فيهم من شَهْم، ماسَلَّم قَوْسَه حتَّىٰ لم يَبْقَ فى كِنَانَتِه سَهْم؛ وذى سِنٍّ طارَحَ به فما طَرَحه حتَّىٰ تَثَلَّم، وذِى سَيْف حادثه بالصِّقال فما جَلَىٰ مُحادَثَة حتى تكَلَّم؛ وأبانوا عن نُفُوسٍ فى الحَرْب أَبِيَّه، وقُلُوبٍ كافِرَةٍ ونَخْوةٍ عَرَبِيَّه؛ وٱشتدَّتْ فِرْقَةٌ من العَدُوِّ من جِهَـةِ المَيْسَرَةِ مُعَرِّجِينَ على السناجق الشريفــة من خَلْفها، مُنْقلِبين بصُفُوفِهم علىٰ صَـــفِّها:

فَـلَزَّهُم الطِّــرَادُ إلىٰ قِتـالٍ * أَحَدُّ سِلاحِهم فيه الفِرَارُ!

فثَابَ مولانا إليهم، ووَثَب عليهم، فضَحَّىٰ كُلٌّ منهم بكلِّ أَشْمَط، وأفْرىٰ الأَجْسادَ فأفْرط؛ ولَحِقَ مولانا السـلطانُ منهم من قَصَـد التَّحْصِينَ بالجبال فأخذهم الأَخْذَة الرَّابِيَه، وقَتَلهم فهل تَرىٰ لهم من بَاقِيَه؟:

وما الفِرَارُ إلى الأَجْبَالِ من أَسَدٍ * تَمْشى النَّعامُ به فى مَعْقِل الوَعِلِ؟

وٱنهزمت جماعة يسيرةٌ طَمِع فيها من العَوَامّ من كان لايَدْفع عن نَفْسه، وأخذتهم المَهاوِى فما نجا منهم إلا آيِسٌ من حَياةِ غَدِه فى أَمْسِه.

مَضَوْا مُتَسابِقِى الأَعضاءِ فيه * لِأَرْؤُسِهِـمْ بأرْجُلِهم عِثارُ

إذا فَاتُوا الرِّماحَ تناوَلَتْهُــمْ * بأرْماحٍ من العَطَشِ القِفَارُ!

وقصدتْ مَيْمنةَ عَسْكرِنا جماعةٌ من المُغْلِ ذَوُو بَأْسٍ شديد، فقاتَلَهم المسلمون حتّىٰ ضَجِرَ الحديدُ من الحديد ؛ وكان مولانا الصاحبُ زَيْنُ الدّين ــ حرس الله جَلاَلَه ــ لمـا دُعِيتْ نَزَالِ أَوّلَ مُسابِق ، وأسْرع رَاشِق ؛ وأقْرَبَ مُطاعِن ، وأعْظَم مُعاوِن ؛ فذكر مَن شَاهَده أنه أحْسَن فى مَعْرَكَتِه ، وأجْمَلَ فى كَرَّته ، وأجاد فى طَعْنَتِه ؛ وزَأَرَ زَئِيرَ اللَّيْث ، وسابَق حتّىٰ لم يبْقَ حَيْث ؛ ووقف دَرِيئَةً للرِّماح من عَنْ يَمِينِه وشِماله ، وخَضَّب بمـا تَحَدَّر من دَمِ عَدُوّه أكْنَافَ سَرْجِه وعِنَانَ لِجَامِه ، وكانتْ عليه من الله باقِيَةٌ واقِيَةٌ فى تَقَدُّمه وإقْدامه ؛ وشاهَدْناه وقد خَرَج من وَسَطِ المَعْرَكَةِ وهو شَاكِى السِّلاح ، وقد أخَذَ نَصِيبَه ونَصِيبَ فَرَسه من سَالمِ الجِرَاح ؛ وأراد اللهُ أن لايُخْلِيَه من إسَالَةِ دَمٍ يُعَظِّمُ اللهُ الأجْرَ بسائِله ، فجَعَله ــ والمِنَّةُ لله ــ من بَعْضِ أطْرافِ أنامِلِه .

ولقد ذكر الأميرعِزُّ الدّين أيْدَمر الدَّوادَار الظَّاهِرِىّ ، قال : لَقِيتُنِى وقد تَكَسَّر رُمْحِى ، وعَادَ ــ لولا لُطْفُ اللهِ ــ إلى الخَسَــارة رِبْحِى ؛ فأعطانى المَوْلَى الصاحِبُ زَيْنُ الدِّينِ رُمْحه فإذا فيــه نُصُول ، وبسِنِّه من قِرَاعِ الدَّارِعِين فُلُول ؛ ورَأيتُ دَبُّوسَ المَوْلَى الصاحِبِ زَيْنِ الدِّين وقد تَثَــلَّم ، وكان الخوفُ عليه فى ذلك اليوم شَــدِيدًا ولكنَّ اللهَ سَــلَّم ؛ ولقد بَلَغ مولانا الســلطانَ خبرُه فسأله فمـا أجابه بغير أنْ قال : سَيْفُ مولانا السلطانِ هو الذى سَفَك ، وعَزْمُه هو الذى فَتَك .

ومَنْ يَكُ مَحْفُوظًا من اللهِ فَلْتَكُنْ * سَلامَتُه مِمَّنْ يُحاذِرُ هٰكَذا ،
ويَخْرجُ من بين الصُّفُوفِ مُسَلَّمًا * ولا مَنّ يُبْدِيه ولا نَالَه أَذَىٰ ! !

وأما العَدُوّ فتقاسمتِ الأيْدِى مايَمْتَطونَه من الصَّوَاهِل والصَّوَافِن ، وما يَصُولُون به من سُــيوفٍ وقِسِيٍّ وكَنَائِن ، وما يَلْبَسُونَه من خُوذٍ ودُرُوعٍ وجَواشِن ، وما يَتَمَوَّلُونه

من جَميع أصناف المَعادن؛ فغُنِم ماهُنَالك، وتَسَلَّم من ٱسْتَشهد من المُسلمين رِضْوانُ وتَسلَّم من قُتِلَ من الكُفَّار مَالك .

وكان الذين ٱسْتَشْهدُوا فى هذه الوَقْعةِ من المُقَدَّمين : شرفُ الدِّين قيرانُ العَلائىُّ، وعِزُّ الدِّين أخُو الأمير جَمالِ الدِّين المُحَمَّدىّ . ومن المماليك السلطانية : شَرَفُ الدِّين فلحق(؟) الجَاشَنْكِير الظَّاهِرىُّ، وأيْبَكُ الشَّقِيفِىُّ الذى كان وَزِيرَ الشَّقِيف . وكان المجروحون عِدَّةً لطيفةً لم يُعْلم عَدَدُها لِقِلَّتها، بل لِخفَّتِها؛ وأورثَ اللهُ المسلمين مَنَازِلَهم فنزلوها، وطَاقَاتِهم وخَرْكاوَاتِهم فتَمَوَّلُوها؛ وكان مولانا السلطانُ وكان أعداؤُه كما قيل :

فَمَسَّاهُـمْ وبُسْـطُهُمُ حَرِيرٌ، * وصَبَّحَهمْ وبُسْطُهُمُ تُرَابُ ! !

وأصْبَح الأعداءُ لا تُرَىٰ إلا أشْلَاؤُهم ، ولا تُبْصَر إلا أعياؤُهم ؛ كأنَّما جُزُرُ أجْسادِهم جَزائِرُ يتخلَّلُها من الدِّماء السَّيْل ، وكأنَّما رُءُوسُهم المجموعةُ لَدَى الدِّهْليز المَنْصورِ أكُرٌ تلعبُ بها صَوالِجَةٌ من الأيْدى والأرْجُلِ من الخَيْل :

أَلْقَتْ إلينا دِماءُ المُغْلِ طَاعَتَها * فلودَعَوْنا بلا حَرْبٍ أجَابَ دَمُ!

فكَمْ شاهدَ مولانا السلطانُ منهم مَهيبَ الهَامَه، حَسَنَ الوَسَامَه، تُتفرَّسُ فى جَهامةِ وَجْهِهِ الفَخامه، قد فَضَّ الرُّمْحُ فَاهُ فقَرَعَ السِّنَّ على الحقيقة نَدَامَه :

ووُجُوهًا أخَافَها منكَ وَجْهٌ * تركَتْ حُسْنَها له والجَمَالا !

أو كما قيـل :

لا رَحِـمَ(١) اللهُ أرْؤُسًا لَهُـمُ * أطَرْنَ عَن هَامِهِنَّ أقْحَافَا!

وأقبل بعضُ الأحْياءِ من الأسَارَىٰ على الأمْواتِ يَتَعارفُون، ولأخْبار شَجاعَتِهم يَتَواصَفُون؛ فكَمْ من قائل : هٰذا فلانٌ وهٰذا فلان ، وهٰذا كانَ وهٰذا كان ؛ وهٰذا

(١) فى ديوان المتنبى "لايرحم" .

كان يُحَـدِّثُ نَفْسَه بأنه يَهزِمُ الألُوف، وهٰـذا يُمَرِّر فى ذِهْنِه أنه لا تَقِفُ بين يَدَيْه الصُّفُوف؛ وكَثُرتِ الأسارَىٰ من المُغْلِ فاختار السلطان من كُبرائِهم البَعْض، وعَمِل فيهم بقَوْلِ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾. فجعلهم للسُّـيوف طُعْمَه، وأحْضِرَتِ الأسَارَىٰ من الرُّومِ فترقَّبَ مولانا السُّـلطانُ فيهم الإِلَّ والذِّمَّـــه :

وما قَتَــلَ الأَحْرارَ كالعَفْوِ عَنْهمُ، * ومَنْ لَكَ بالحُرِّ الذى يَحْفظُ اليَدَا!

وكان فى جمـلة الأسارَىٰ الرُّومِيِّين مُهذَّبُ الدين بكلارنكى، يَعْنى أميرَ الأُمَراء ولَدُ البرواناه، ونُورُ الدِّين جاجا أكبرُ الأمراء، وجماعةٌ كثيرةٌ من أُمَرَاءِ الرُّوم ومُقَدَّمِى عساكره، فكان البرواناه أحَقَّ بقولِ أبى الطَّيِّب :

نَجَـوْتَ بإحْدَىٰ مُقْلتيك جَريحَـةً * وخَلَّفْتَ إحْدَىٰ مُهْجَتَيك تَسيلُ!

أَتُسْــلِمُ للخَطِّيَّـــةِ ٱبْنَـكَ هَارِبًا * ويَسْكُنُ فى الدُّنْيا إليـكَ خَلِيلُ؟

لأنه شَمَّرَ الذَّيْل، وٱمْتطَىٰ ـ هَرَبًا ـ أشْهَبَ الصُّبْحِ وأحْمَرَ الشَّفَقِ وأصْفَرَ الأصِيل وأدْهَمَ اللَّيل؛ وثَمَّ يُخْبِر من خَلْفِه بمَـا تَمَّ، وهَمَّ قلبه رَفِيقَه حِينَ هَمّ :

فنَحْنُ فى جَذَلٍ، والرُّوم فى وَجَلٍ، * والبَرُّ فى شُغُلٍ، والبَحْرُ فى خَجَلٍ!!

ودَخَل البرواناه مَدينَـةَ قَيْصَرِيَّةَ فى تاريخ يوم الأحَدِ ثانى عشر الشَّهْرِ المذكور، فأفْهَم غِياثَ الدِّين سُلطانَها، والصاحِبَ فَخْرَالدِّين بن مملا (؟) والأتابِكَ مَجْدَالدِّين، والأميرَ جَلالَ الدِّين المُسْتَوفِى، والأميرَ بَدْرَ الدِّين مِيكَائِيل النَّائِب، والأميرَ فُلان الدين الطُّغْرائِى، وهو وَلَد عِزِّ الدينِ أخى البرواناه، وهو الذى يكتُبُ طُرَرَ المناشير ـ أنَّ المسـلمين كَسَرُوا بعضَ المُغْلِ وبَقِيتُهم مُنْهزِمُون، ويُخْشَىٰ منهم دُخُولُ قَيْصَرِيَّة وإتْلافُ ما يكون بهـا فى طَرَائِفِهم حَنقًا على الإسـلام . فأخذهم جَرائد، وأخَذَ

زَوْجتَه كُرْجى خَاتُون بْنتَ غِيـاثِ الدِّين صاحِبِ أرْزَن الرُّوم، فاستصحبتْ معها أربعمائة جَارِيةٍ لها، وكان لها مالا كان لصاحبِ الرُّوم من البَخَاتِيِّ والخِيَامِ والآلَاتِ، وتوجهوا كلهـم إلىٰ جربه توقات (؟) وهو مكانٌ حَصِينٌ مسـيرةَ أربعـةِ أيامٍ من قَيْصَرِيَّةَ . ولـما خرجوا من قَيْصرِية حَمَلَهـم علىٰ سُرْعة الهَرَب، وأنْذَرهم عذابًا قد اقْترب؛ وهَوَّلَ على بَقِيَّة أُمَراء الرُّوم فاتَّبعُوه إلا قليلا منهم، وأخْفَى البرواناه أمْرَه وأمْرَ من معه حتَّىٰ ولا مُخْبِرٌ يُخْبِر عنهم .

وكان مولانا السلطانُ قد جَرَّد الأميرَ شَمْسَ الدِّين سُنْقرًا الأشْقَر فى عَدَد مُسْتَظْهِرًا به لإدراكِ من فات من المُغْل، فَمَرُّوا فى طريقهم بفِرْقةٍ معها بُيُوتهم فأخذ منها جانبًا؛ ودخلَ عليهم اللَّيـل فمرَّ كلٌّ فى سِرْبِه ذاهِلًا ذاهبا . ورحلَ مولانا السلطانُ فى بُكْرة السَّبْتِ حادى عشر ذِى القَعْدة من مكان المَعْركَةِ، فنزل قَرِيبَ القريةِ المعروفة بريَّان، وهذه القريةُ قَرِيب الكَهْفِ والرَّقِيم حَقِيقة، لا ما يقالُ : إنه قَرِيبُ حُسْبَانَ من بلاد البَلْقاءِ، وقريبًا منه صَلْدٌ من الصَّفَا عليه كِتَابةٌ بالرُّومِيَّة أو غيرها من الخَطِّ القَدِيم . وأما القَرْيةُ المذكورةُ المسماةُ بريَّانَ فانَّ بيوتَهـا بُنِيتْ حَوْل سِنِّ جَبَلٍ قائم كالهَرَم إلا أنَّه مَلْمُوم، وعُمِّرت البُيُوت فى سَفْحه حَوْله بَيْتًا فوق بَيْتٍ فبـدَتْ كأنَّها مَجَرَّةُ النُّجوم، وما من بَيْتٍ منهـا إلا وبه مَقَاعِدُ ذوات درابزينات مَنْجُوره، ورَوَاشِنَ قد بَدَتْ فى أكملِ صُوَره؛ يختمُها من أعلاها أحْسَنُ بُنْيان، ويعلُوها من رأسها مَنْزِلٌ مُسَنَّم الرأسِ كما يعلو الصَّعْدَةَ السِّنان؛ وتطوفُ بهذه القَرْيةِ جبالٌ كأنَّها أسْوارٌ بل سِوارَ، وكأنَّها فى وسَـطِها إناءٌ فيه جَذْوةُ نار؛ ويتفَرَّعُ منها أنهـار، هى فى تلك الأوْدِيةِ كأنَّها بهبُوطِها كَثِيبٌ قد انْهار؛ ذَواتُ قَنَاطِر لاتَسَعُ غيرَ راكِب، ومَضَايِقَ لا يُلْفَىٰ عَبْرها لناكِب؛ قَدَّر اللهُ أنَّ العساكر خَلَصتْ منهـا ولكن بعد مُقَاساةِ الجُهْـد، وخرجتْ وقد رَقَّ لهـا قلب كلِّ وَهْـد؛ ونزلنا قريبًا منهـا حتَّىٰ

تَخَلَّص من تَخَلَّص ، وحَضَر من كان فى المَضَايِق قد تَرَبَّص ، وقال : كُلُّ الأرض حَصْحَص .

ورَحَلْنا من هناك فى يوم الأحَدِ ثانى عشر شَهْرِ ذى القَعْدَة وكانت السماءُ قد حَيَّتِ الأرضَ بتِيجَانِ أمْطارِها ، وأغْرقَتِ الهَوامّ فى أجْحارِها ، والفُتُخَ فى أوْكارِها ؛ وأصبحتِ الأرضُ لاتَماسَكُ حتَّىٰ ولا لمُرورِ الأَراقِمِ ، والجبالُ لاتَماسَك أن تكونَ للعِصَمِ عَواصِم ؛ تَضَع بها من الدّوابّ كُلُّ [ذَاتِ] حَمْـل ، وتَزْلَقُ فى صَقِيلها أرْجُلُ النَّمْل ؛ وسِرْنا علىٰ هذه الحالة نَهارَنا كلَّه إلىٰ قريب الغرُوب ، وقطَعناه بتَسلُّمِنا أيْدِى الدُّروب من أيْدِى الدُّؤُوب ؛ ونزلنا عِشاءً فى مُنْتَقعِ أرضٍ تَطُوف بها جِبَالٌ شَاهِقَه ، ومِياهٌ دَافِقَه ؛ تُعرف قاعَةُ تلك الأرضِ بوطأة قشلا وسار (؟) من أعمال أصاروس العَتِيق . ويَقْرب من تلك الجِهَةِ مَعْدِن الفِضَّة .

وبينما نحنُ قد شَرَعنا فى أُهْبَةِ المَبِيت ، ولم نَقْضِ الشَّمْل الشَّتِيت ؛ وإذا بالصَّادِحِ قد صَـدَح ، والنَّذِيرِ قد سَـنَح ؛ رافِعًا عَقِيرتَه بأن فَوْجًا من التَّتَـار فى بجَوْةٍ هنالك قد آسْـتَتَروا ، وفى نَجْوةٍ لغِرَّةٍ قد آنْتَظروا ؛ فركِبَ مولانا السلطان وركِب الناسُ فى السِّلاح ، وعَزَموا على المَطَارِ فعاقَهُم تَتَابُعُ الغَيْثِ وكيفَ يَطِير مَبْلُولُ الجَنَاح ؟ ؛ ثم لطفَ اللهُ وعاد مولانا السلطانُ وهو يقول للناس : ، لاباس ، فنِمْنا نومةَ السَّلِيم ، وصـدرت أفكارنا شاغِرَةً فى كلِّ وَادٍ تَهِيم ؛ وأصبَحنا فسَـلَكْنا جبالًا لا يحيطُ بهـا الوَصْف ، وتَنْبَسط عَذْراءُ الطَّرْف فيها حينَ يَكْبو فيها الطَّرْف ؛ نَنْحَطُّ منها إلىٰ جَنَادِل ، يَضْعفُ عن الهُوِىِّ إليها قوِىُّ الأجَادِل ؛ بَيْنا نَقولُ : قد أحْسَن الله لهـا نَفَادًا ومنها نَفَاذا ، وإذا بعد الأوْدِيةِ أوْدِيةٌ وبَعْـد الجِبالِ جِبالٌ نشكُرُ عند ذاكَ هٰذه وذاكَ عند هٰذا ؛ ومررنا علىٰ قرية أوتراك ، وتحتها قَنَاطِر وخَانٌ من حَجَرٍ مَنْحوت ، ثم خان آخَرُ

للسَّبِيل علىٰ رَأْسِ رابِيـةٍ هناك تعرف باشيبدى ، قَرِيبًـا من حِصْن سَمَنْدُو ، التى عَرَّض بها أبو الطَّيِّب فى قوله :

فإنْ يُقْدِمْ فقدْ زُرْنَا سَمَنْدُو * وإن يُحْجِمْ فمَوْعِدُه الخَلِيجُ!

وكان مولانا السلطانُ قد سَيَّر إليها خواصَّه بكِتَابٍ إلىٰ نائبها فقبِلَه وقَبَّله، وأذْعَنَ لتَسْليم حِصْنِها المَنِيعِ وللنُّزولِ لأمْرِ السلطانِ عنها إن ٱسْتَنْزله ؛ فشَكَر مولانا السلطانُ له تلك الإجابَه ، ووفَّاه من الشُّكْر حِسَابَه . وكذلك إلىٰ قَلْعـةِ دوندا وإلىٰ دوالوا، فكلُّهـم أجابُوا وأطاعُوا ولِكَلِمةِ الإذْعانِ قَالُوا ؛ ونَزَلْنا فى وَطْأةٍ قريبَ قَرْيةٍ تعرفُ بحمرها، وكان الناسُ قد فرغَتْ عُلوفَاتُ خَيْلِهم أوكادَتْ ، والخَيْـلُ قد باتَتْ ليالىَ بلا عَلِيقٍ فمـا ٱسْـتَفَادتْ، وشارَكَتْها خيولُ الكسوب(؟) فى عَلِيقِها، وما ساعَدَتْها فى طُرُوقها ولا فى طَرِيقِها ؛ فضَعُفَتْ عن حَمْلِ نُفُوسها فمـا ظَنُّكَ براكِبِيها ، وكاد الفَارِطُ ــ لولا لُطْفُ اللهِ عزَّ وجلَّ ــ أن يفْرِطَ فيها ؛ فصادَفْنا فى هذه اللَّيلةِ بعضَ أتْبانٍ أمسكت أرْماقَها، وأحْسنَتْ إرفادَها وإرفَاقَها .

وأصبحنا فى يوم الثُّلاثاء رابعِ عَشْرِ ذى القَعْدةِ راحلين فى جِبالٍ كأنها تلك الأُوَل، وهابِطِينَ فى أوْدِيةٍ يتَمَنَّى سَالِكُها من شِـدّةِ مَضايِقِها أن لو عاد إلىٰ تَرَقِّى أعلىٰ جَبَـل ؛ وما زِلْنا كذلك حتَّىٰ أشْرَفْنا علىٰ خانٍ هناك يعرف بقرطاى يَدُلُّ علىٰ شَرَفِ هِمَّـةِ بَانيه ، وطَلَبِ ثَوابِ اللهِ فِيـه ؛ وذلك أنه من أكْبَرِ الأبنية سَـعَةً وٱرْتِفاعا، وأحْسَـنِها شَكْلًا وأوْضَاعا ؛ كلُّه مَبْنِىٌّ بالحَجَر المَنْحوت المَصْـقول الأحْمر الذى كأنَّه رخام ، ومن ظاهر أَسْوارِه وأرْكانه نُقُوشٌ لا يتمكن أن يرسم مِثْلُها بالأقلام ؛ وله خَارِجَ بَابِه مثـلُ الرَّبَض ببـابَيْنِ بأسْوارٍ حَصِينَة، مُبَلَّط الأرض، فيه حَوَانِيت . وأبوابُ الخان حَديدٌ من أحْسَنِ مايمكن ٱستعماله . ودَاخِلَه أوَاوِينُ صَيفِيَّه، وأمْكِنةٌ

شَتْوِيَّه ، و إصْطَبْلاتٌ علىٰ هذه الصورة لا يُحْسِنُ الانسان أن يُعَبِّرعنها بكَيْف ، وما منها إلا ما يَجِـدُه الانسانُ رِحْلةً للشِّتاءِ والصَّيْف ؛ وفيه الحَمَّام والبِيمارِسْتانُ والأَدْوِيةُ والفَرْش والأَوانِى والضِّيافةُ لكلِّ طارِقٍ علىٰ قَدْرِه، حُمِـلَ لمولانا السلطان من ضِيَافَتِه لمَّـا مَرَّ عليه، وكثر الناسُ فما وَصَل أحدٌ إليها ولا إليه؛ وعليه أوقافٌ عَظِيمة ، وضِيَاعٌ كثيرةٌ حَوْله وفى غيره من البِلاد ، وله دَوَاوِينُ وكُتَّابٌ ومُباشِرُون يَتولَّوْن آستخراجَ أمْواله والإنْفاقَ فيه ، ولم يَتَعرَّض التَّتار إلىٰ إبْطالِ شَىْءٍ من رُسُومِه، وأبْقَوْه علىٰ عَوائِد تَكْرِيمِه، وأهْلُ الرُّوم يبالغون فى تَبْجِيل بَانِيه ــ رحمه الله ــ وتَعْظِيمِه ؛ ونَزَلْنا تلك اللَّيـلةَ قَرِيبَ قَرْيةٍ تقربُ من قَيْصَرِيَّةَ من حُقُوق وَادِى صلعومة شَرْقِىَّ الجَبَلِ المعروفِ بعَسِيب، وفيه قَبْرآمرئ القَيْسِ الشاعر ... ...

أجَارَتَنَـا إنَّ الخُطُوبَ تَنُـوبُ، * وإنِّى مُقِـيمٌ ما أقام عَسِيبُ،
أجَارَتنـا إنَّا غَرِيبانِ هَاهُنا * وكلُّ غَرِيبٍ للغَرِيبِ نَسِيبُ ! !

وهـذا الجَبَل يعلُوه جَبلُ أرجاس ، وهو الذى يَضْرِب الرُّوم الأمثالَ بتَسَامِيه، وتَتَضاءَلُ الجبـالُ فى جميـع الدُّنيا لتَعَالِيه ؛ لا تُسْـحبُ ذُيولُ السَّحائبِ إلا دون سَفْحِه ، ولا يُعرف من ثُلُوجِه شِتاءً وصَيْفًا ومن مثال الأبخرة المُتصعِّدةِ منه عِشاؤه من صُـبْحِه .

ولمـا كان يومُ الأربعاء منتصـف ذِى القَعْدة ، وهو يومُ شَرَف الزُّهَرَةِ رَكِبت العساكرُ المنصورةُ مُتَرتِّبَـه، ومـلأتِ الفَضاءَ مُتَسَرِّبَه ؛ ورَكِب مولانا السـلطانُ فى زُمْرَته، وذَوِى أَمْرِه وإمْرَته ؛ يختالُ جَوادُه فى أفْسَح مَيْدان، ويَصِيحُ به فَرَحًا ومَرَحًا كأنَّه نَشْوان درَىٰ أنه سُلطان :

تَظَلُّ ملوكُ الأرضِ خَاشعةً له * تُفَـارِقُه هَلْكَىٰ وتَلْقاه سُجَّدًا !

وخرج أهْلُ قَيْصرِيَّة وأكابرُها، وعُلماؤُها وزُهَّادُها وتُجَّارُها، ورعايَاها ونِسَاؤُها وصِغَارُها؛ فأكْرَم مولانا السلطانُ مَمْشاهُم، وشَكَرَ مَسْعاهم؛ وتلقَّى قُضَاتَهم وعُلَمَاءَهم رُكْبَانا، وحادَثَهم إنسانًا فإنْسانا؛ وحَصَلتْ لجماعةٍ من الفقراء والناسِ حالاتُ وَجْدٍ مُطْرِبَه، وصَدَحاتُ ذِكْرٍ مُعْجِبَه. وكان دِهْليزُ السلطانِ غياثِ الدِّين صاحبِ الرُّوم وخِيامُه وشِعارُ سَلْطنةِ الرُّوم قد بنى جميع ذلك فى وطأة قريب الجَوْسَق والبُسْتانِ المعروفِ بكَيخُسْرَوْ، وترجَّلَ النَّاس على آختلاف طَبَقاتِهم فى الرِّكابِ الشَّريفِ من مَلِكٍ وأُمَّةٍ ومَأمُورٍ وأَمير، وآرتفعتِ الأصواتُ بالتَّهْليلِ والتَّكْبير:

رَجَا الرُّومُ من تُرْجَى النَّوافِلُ كُلُّها * لَدَيْهِ ولا تُرْجَى لَدَيْه الطَّوائِلُ!

ونزل مولانا السلطانُ فى تلك المَضَارِب المُعَدَّةِ لكَرَم الوِفَادَه، وضُرِبتْ نَوْبَةُ سَلْجُوقَ علىٰ باب دِهْليزِه على العَادَه؛ وأذِنَ مولانا السلطانُ للناسِ فى التقرُّبِ إلىٰ شَرِيفِ فُسْطاطِه، وشَمِلهم بنَظَرِه وآحْتِياطِه؛ وحضر أصحابُ المَلَاهى، فما ظَفِرُوا بغيرِ النَّواهِى؛ وقيلَ لهم: آرْجِعُوا وراءَكُم فالْتَمِسُوا، وآذْهَبوا إلىٰ وادٍ غيرِ هذا الوَادِى فآقْتَبِسُوا؛ فهذه الهناة لا تَنْفُقُ هُنا، وما هذا مَوْضِعُ الغِنَاءِ بَلْ هذا مَوْضِعُ الغِنىٰ؛ وشرعَ مولانا السلطانُ فى إنْفاقِ اللُّهىٰ، وعَيَّن لكلِّ جِهَةٍ شَخصًا وقال: أنتَ لها؛ وحَكَمَ وحَكَّم، وعَلِم وعَلَّم؛ وآعتمد على الأمير سَيْفِ الدِّين جاليش فى النِّيابه، وأعطىٰ كلًّا بيمينه كِتَابَه؛ وأقام الحُجَّةَ علىٰ من آنْتَزَح بالآسْتِعْطاف، وتأْمِينِ مَن خَاف؛ فما خرج كَبيرُهم عن المُخاتَله، ولا زَعِيمُهم عن المُطَاوَله؛ فلمَّا علم مولانا السلطانُ أنهم لا يُفْلِحُون، ولغيرِ التَّتارِ لا يَصْلُحُون؛ وأنَّهم إن أصْبَحُوا على الطاعة لا يُمْسُونَ وإن أَمْسَوْا لا يُصْبِحُون؛ عاد عن تلك الوُعُود، وآختار أن ما بَدَأَ إليه يَعُود، وأن يبعثَ نَفْسَه إلىٰ ما بعثه اللهُ إليه من المَقَام المحمود؛ فرَكِب يومَ الجُمُعة سابِعَ عَشْر

ذى القَعْدة مستقبلًا من اللهِ كلَّ الخَيْر ، ونَصَب جَتْر بَنِى سَلْجوق علىٰ رَأْسه فشاهدَ النـاس منه صَاحِبَ القُبَّةِ والسَّبع وصاحِبَ القُبَّةِ والطَّير ؛ ودخلَ قَيْصرِيَّة فى بُكْرةِ هـذا اليوم وكانتْ دار السـلطنةِ قد فُرِشَتْ لنُزُولِه ، وتَخْتُ بنى سَلْجُوق وقد هُيِّئَ لحُلُوله ؛ وهى دارٌ تَزْهو، ومنازلُ من يَتَعبَّدُ أو مَنَازِهُ من يَلْهو؛ أنيقَةُ المُبْتَنىٰ ، تحفُّ بهـا بَساتِينُ عَذْبَة الجَنَىٰ ؛ جُدْرانُها بأَحْسَنِ أصناف القَـاشَانِىِّ مُصفَّحه ، وبأَجْمَلِ نُقُوشِه مُصَرَّحه؛ فجلس مولانا السـلطانُ فى مرتبةِ المُلْك فى أسْـعدِ وَقْت ، ونال التَّخْت بحلولِه أسْعَدَ البَخْت :

وما كان هٰذا التَّخْتُ من حين نَصْبِه * لغَيْرِ المَلِيكِ الظَّاهِرِ النَّدْب يَصْلُحُ .
مَلِيـكٌ على ٱسْمِ اللهِ ما فَتَحَتْ له * صَوَارِمُه البِيضُ المَواضِى وتَفْتَحُ .
أتَتْـهُ وُفُود الرُّومِ والـكُلُّ قَائِلٌ : * رَأَيْنَاكَ تَعْفُو عن كَثِـيرٍ وتَصْفَحُ .
فَأَوْسَـعَهم حِلْمًـا وجَادَ لهم نَدًى * وأَمْسَوْا علىٰ مَنٍّ وأمْنٍ وأَصْبَحُوا .
وَلَو أنَّهـمْ لم يَجْنَحُوا لمَنَـكَّبٍ * عن الحَقِّ والنَّهْجِ القَوِيم لأَفْلَحُوا ،
ولٰكِنَّهـمْ أعطوا يَدًا فَوْقَهـا يَدٌ * تُصافِحُ كَفًّا زَنْدُها النارَ يَقْدَحُ ! ! !

وأقبـل الناسُ علىٰ مولانا السلطانِ يهنِّؤونَه ، وعلىٰ كَفِّه الشريف يُقَبِّلُونه ؛ وبعد ذلك حضرتِ القُضاةُ والفُقَهاء والعُلماءُ والصُّوفيَّة وذَوُو المَرَاتِب من أصحاب العَمائم علىٰ عادة بنى سَلْجُوق فى كلِّ جُمُعة ، ووَقَف أميرُ المَحْفِلِ وهو كَبِيرُ المِقْدارِ عندهم ، له وَسَامةٌ ونَخَامَه ، وله أكْبَرُ كُمٍّ وأوْسَعُ عِمامَه ؛ وأخَذَ فى ترتيب المَحْفِل علىٰ قَدْرِ الأَقْدار ، وٱنتصبَ قائمًا بين يَدَىْ مولانا السلطانِ مُنْتظِرًا ماإليه به يُشَار ؛ وشرع القُرَّاءُ يقرءُون جَمِيعًا وفُرَادىٰ بأحْسَنِ تَلْحِين ، وأجْمَل تَحْسِين ؛ فأتَتْ أصواتُهم بكلِّ عَجِيب ، وعَدَلوا عن التَّرْتِيل إلى الترتيب . ولـما فَرَغوا شَرعَ أميرُ المَحْفِلِ صَارِخا ، وبكُورِ فَمِه نَافِخا ؛

فأنْشَد وأوْرَد بالفَارِسيَّة ما يُعجِبُ مَدْلوله ، ويَهُول مَقُوله ؛ وأطَالَ وماأطَاب ، وٱسْتَصوب من يَعْرف مَقالَه قَوْلَه ، والله أعلم بالصواب .

ولما ٱنقضىٰ ذلك مُدّ سِمَاطٌ ليس يُنَاسِبُ هِمَم المُلُوك ، فأكلَ النَاسُ منه للشَّرفِ لا للسَّرف ، ثم عاد كلٌّ منهم إلىٰ مَقامه فوَقَف ؛ وقام مولانا السلطانُ إلىٰ مكانِ الاستراحة فأقام ساعةً أو ساعتين ، ثم خرج إلىٰ مُخَيَّمه قَرِيرَ العَيْن ؛ وكان بدَارِ المَلِك حُرَم السَّلْجُوقية قد أصْبَحوا لا ترىٰ إلا مَسْكَنَتُهم ومَسَاكِنُهم ، قد نَبَتْ بهم مَوَاطِئُهم ومَوَاطِنُهم ؛ علىٰ أبوابهم أسْمَالُ سُتُورٍ من حَرِير ، ومَشَايِخُ خُدَّام يَسْتحقُّ كلٌّ منهم ـ لِكِبَرِ سِنِّه ـ أن يُدْعىٰ بالكَبِير ؛ عليهم ذِلَّة الانْكسار ، وأمَارُ الافْتِقَار ؛ فَجَبَرهم مولانا السلطانُ وآنَسَهم ، وأحْسَن إليهم ؛ وتَوجَّه من توجَّه إلىٰ صَلاةِ الجُمُعة فى قَيْصَرِيَّة وبها سَبْعُ جُمَعٍ تُقام ، وبها خُطَباءُ إن هُمْ إلا كالأنعام ؛ فصَلَّينا فى جامع السُّلطانِ وهو جامعٌ عَلِيٌّ يدلُّ على ٱحتِفال مُلُوكها ببيوت عبَادَاتِهم ، ورأَيْنا فيه من دَلَائِل الخَيْر ما يقضى بحسن إرَادَاتِهم ؛ فحضر أهْلُ المدينة وأكَابِرُها ، وجَلَسُوا حِلَقًا لا صُفوفا ، وأجْرَوْا من البَحْثِ بالعَجَمِيَّة صُنُوفا ؛ وٱجتمعتْ جماعةٌ من حَفَظَة الكِتَابِ العزيز فتخَارجُوا القراءةَ آيةً آيه ، وهى قِراءَةٌ بعيدةٌ عن الدِّرايَه ؛ بل إنها تبرِزُها أصواتٌ مُتَرَنِّمَه ، وألحانٌ لتفْريق الكَلِمات مُقَسِّمه ؛ ينطقون بالحروف كيف ٱتَّفقَتْ ، ولا يتَوقَّفون علىٰ مَخَارِج الحُروف أنها بها نطقت أو لا نطقت .

فلما آن وقتُ الأَذَانِ قام صَبِىٌّ عليه قَبَاءٌ من وَسَط جماعةٍ عليهم أقْبِيةٌ قعودٍ علىٰ دِكَّةِ المؤذِّنين ، فابتدأ بالتَّكْبير أوَّلًا وثانيًا بمفْردِه من غير إعانةٍ ولا إبانَه . ولما تَشَهَّد ساعَدُوه جميعُهم بأصواتٍ مُجَمْجِمةٍ مُلَعْلِعَه ، ونَغَماتٍ مُتَنوِّعة ؛ يُمسِكُون له النَّغَم بأحْسَنِ تَلْحِين ، ويتَرنَّمون بالأَصْواتِ إلىٰ آخر التَّأْذِين ؛ وفرغ الأذانُ وكلُّهم قعودٌ ما منهم

أحدٌ غيرِ الصَّبيِّ وَقَفَ ، وما مِنَّا أحدٌ لكلمةٍ من الأذَانِ عَرَف ؛ ولما فرغَ الأذانُ طَلَع شيخٌ كبيرُ السِّنِّ يعرف بأمير مَحْفِلِ المِنْبَر، فصَعِد إلىٰ ذِرْوةِ المِنْبَر، وشَرَع فى دُعاءٍ لا نَعْرِفُه ، وآدّعاء لا نَأْلَفُه ؛ كأنَّه مُخَاصِم ، أو وَكِيلُ شَرْعٍ أحْضَره لمُشَادَّةِ خَصْمه مُحَاكِمٌ بين يَدَىْ حَاكِم ؛ وطلع الخطيبُ بعد ذلك فَخَطَب ودعا لمولانا السلطانِ بغير مُشَارَكه ، ودعا الناسُ بمَا تَلَقَّتْه من الأفْواهِ المَلَائكه ؛ وآنْقَضتِ الجُمُعة علىٰ هذه الصُّوره، المَسْطُوره؛ وضُرِبتِ السِّكَّة بآسم مولانا السلطانِ، وأُحْضِرتِ الدَّراهِمُ إليه فى هـذا اليوم، فشاهَدَها فرأى أوجُهَها باسِمَةً بآسْمِه المَيْمُون، وأقَرّتِ الألْسِنَةُ بهذه النعمة وقَرَّتِ العُيون ؛ وشاهدتُ بقَيْسارِيَّة مَدَارِسَ وخَوَانِقَ ورُبُطًا تدلُّ على آهتمامِ بَانِيها، ورَغْبَتِهم فى العُلُوم الشَّرْعيةِ والدِّينية ، مُشَيدةً بأحْسَنِ الحِجَارِ الحُمْرِ المَصْقُولة المَنْقوشه ، وأرَاضِيها بأجْمَلِ تلك مَفْرُوشه ؛ وأوَاوِينُها وصُفَفُها مُؤَزَّرةٌ بالقَاشَانِىّ الأجْمَلِ صُورة ، وجَميعُها مَفْروشةٌ بالبُسُطِ الكُرْجيَّة والعالية ، وفيها المِيَاهُ الجَارِية ، ولها الشَّبابِيكُ على البَساتِين الحَسَنة ، وسُوقُ قَيْصَرِيَّةَ طائِفٌ بها من حَوْلها ، وليس داخلَ المدينةِ دُكَّانٌ ولا سُوقٌ .

والوَزِيرُ فى بلاد الرُّومِ جميعها يُعرفُ بالصَّاحِبِ «فَخْرالدِّين خواجا علىّ» ولا يُحْسِنُ الكِتَابةَ ولا الخَطَّ ، وخِلْعتُه من ممَاليكه خاصَّةً مائتا مَمْلوكٍ ، ودَخْلُه فى كلِّ يَوْمٍ — غيرُ دَخْلِ أولاده وغيرُ الإقْطاعاتِ التى له ولأولاده وخَوَاصِّه — سبعةُ آلاف درْهم سُلْطانية . ولقد شاهدتُ فى مَدْرَسَتِه من خِيَامه وخَرْكاوَاتِه شيئًا لا يكون لأكبر المُلُوك، وله بِرٌّ ومَعْروف، وهو بالخَيْر مَوْصُوف :

وَالْمُسَمَّوْنَ بالوَزِيرِ كَثِيرٌ * والوَزِيرُ الذى لنا المَأْمُولُ!

وعَلِىٌّ هٰـذَا وذَاكَ عَلِىٌّ * وعَلِىٌّ هٰـذا له التَّفْضِيلُ!

الذى زُلْتُ عنه شَرْقًا وغَرْبًا * ونَداه مُقابِــلِى لا يَزُولُ!

ومَعِى أيْنَمـا سَلَكْتُ كأنِّى * كُلُّ وَجْهٍ له بِوَجْهِى كَفِيلُ!

وأمَّا مُعِينُ الدِّين سُلَيْمان البرواناه وزَوْجَتُه كُرْجِى خَاتُون، فظهر لهما من المَوْجود البَادِى للعيون كُلُّ نَفِيس، وبحمد الله آستولى مولانا السلطانُ ومَمَالِيكُه من مَوْجُودِه ودَارِ زَوْجَتِه المذكورةِ علىٰ مُلْكِ سُلَيمان وصَرْحِ بِلْقِيس.

ولمـا أقام مولانا السلطانُ بقَيْصَرِيَّة هٰـذِه المدَّة، فَكَّر فى أمر عساكره ومصالحه بمـا لا يَعْرِفه سِـواه، ونظر فى حَالهم بمـا أراه الله؛ وذٰلك لأن الأقْواتَ قَلَّتْ، والسُّيُوفَ من المصارعة مَلَّتْ، والسَّواعِدَ من المُصَادَمة كَلَّتْ؛ وأنَّه ما بَقِى فى الرُّومِ من الكُفَّار من يُعْزىٰ، ولا بجَزاءِ السُّوءِ يُجْزىٰ؛ ولا بَقِىَ فى البلاد غيرُ رعايا كالسَّوائِم الهَامِلَه، ولا دِيَةَ ــ للكُفْر منهم ــ علىٰ عاقِلٍ وعاقِلَه؛ وأنَّه إن أقام فالبلادُ لا تَحْمِلُه، ومَوادُّ بلادِه لا تَصِلُه؛ وأعْشابُ الرُّوم بالدَّوْس قد آضمحلَّتْ، وعُلُوفاتُها قد قَلَّتْ؛ وزُرُوعها لا تُرْتَجىٰ لِكفايَه، ولا تَرْضىٰ خُيولُ العَساكِرِ المنصورةِ بما تَرْضىٰ به خُيولُ الرُّومِ من الرَّعْىِ والرِّعايَه؛ وأن الحُسَام الصَّقِيلَ الذى قُتِـل التَّتار به فى يَدِ القَاتِل، وأنَّهم إن كان أعْجَبَهم عَامُهم فيَعُودون إلى الرُّومِ فى قَابِل.

ورَحَل فى يوم الاثنين عِشْرين من ذى القَعْدة بعد أن أعطىٰ أمَرَاءَه وخَواصَّــه كلَّ ما أُحْضِرَ إليه من الأعِنَّة والأزِمَّه، وكلَّ ما يُطلَقُ علىٰ توليه آسْمُ النِّعْمه؛ فنزل بمَنْزِلةٍ تعرف بعترلوا وفى هذه المَنْزِلة ورَد إلى السلطان رَسُولٌ من جِهَة غِياثِ الدِّين سلطانِ الرُّوم، ومن جِهَةِ البرواناه والكُبَراءِ الذين معه، يسمَّى ظَهِير الدِّين التَّرْجُمان، وفى الحقيقةِ هو من عند البرواناه، يَسْتوقِفُ مولانا السـلطانَ عن الحرَكةِ وما عَلِمُوا إلى أيْن، بل كان الأمرُ شائعًا بين الناس أن الحرَكة إلى جِهَةِ سِيوَاس. فعَدَّدَ مولانا السـلطانُ عليه حُسْنَ وَفَائِه بعَهْده، وأنه أجاب دُعاءَهم مَرَّةً بعـد مَرَّةٍ من أقْصىٰ

مُلْكه مع بُعْـدِه؛ وأنهم ما وَقَفُوا عند الشُّروط المُقَرّره، ولا وَفَوْا بمضمونِ الرَّسائل المُسَـيَّره، وأنَّهم لمـا جاء الحَقُّ وزَهَقَ البَاطِلُ طَلَبُوا نَظِرَةً إلىٰ مَيْسَرَه؛ وأن أعِنَّتَهم للكُفْرِ مُسَلَّمه، وأنَّهم منذ ٱستيلاءِ التَّتَارِ هم أصحابُ المَشْأَمَه؛ وعَلِمَ مولانا السلطانُ أن بِلادَ الرُّوم ما بهـا عَسْكَر يَسْتخلِصُه لنَفْسِـه، ولا مَن يُقابل المُغْلَ فى غَده خَوْفًا ممَّـا شاهده كلُّ منهم فى أَمْسِه؛ وأنهم أَهْلُ ٱلْتِذَاذ، لا أَهْلُ نَفَاذ؛ وأهْلُ طَـرَب، لا أهْلُ حَرْب [وغَلَب]؛ وأهلُ طِيبَةِ عَيْش، لا قُوَّادُ جَيْش؛ فردَّ السلطانُ إلى سُلَيمان البرواناه مَدَّ يَده، وقال: قُلْ له: إنَّنِي قـد عرفتُ الروم وطُرُقَاتِها، وأخذتُ أمَّه أسيرةً وٱبنَ بِنْتِه ووَلَدَه؛ ويَكْفِينا ماجَرىٰ من النَّصْر الوَجيز، ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللهُ مَن يَنْصُرُه إنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ وما كُلُّ من قَضَى فَرِيضَةَ الحَجِّ تجِبُ عليه المُجَاوَرَه، ولا بعدَ هذه المناصَرَةِ مُناصَره، ولا بعد هذه المُحاوَرَة مُحَاوره، ونحنُ فقد ٱبْتَغَيْنا فيما آتانا اللهُ: من حَقْنِ دِماءِ أهْلِ الرُّوم وعَدَمِ نَهْبِ أموالهم الدَّارَ الآخِرَه؛ وتَنَزَّهنا عن أموال كُنتم للتَّتارِ تَسْتَحِبّونها، ومَغَارِمَ كثيرةٍ هى لهم من الجنَّات مَغَانِمُ يَأْخُذونها حين يَأْخُذُونها؛ وما كان جُلُوسُنا فى تَخْتِ سَلْطَنَتِكم لزيادةِ بتَخْتِ آلِ سَلْجُوق، إلا لِنُعْلِمَكم أنَّه لا عَائِقَ لنـا عن أمْرٍ من الأمورِ يَعُوق؛ وأنَّ أحدًا لاينبغى له أن يأمَنَ لنا سَطْوَه، ولِيَتَحَقَّقَ كُلٌّ أنَّ كلَّ مسافةِ جُمْعةٍ لنا خَطْوَه؛ وسُرُوجُنا ـ بحمد الله ـ أعْظَم من ذلك التَّخْتِ جَلالا، وأرْفَعُ مَنالا؛ وكَمْ فى مَمَـالِكنا كَرَاسِيُّ مُلْكٍ نحنُ آيَةُ ذلك الكُرْسِيّ، وكَمْ لنا فَتْحٌ كلُّه ـ والحمد لله ـ فى الإنافَةِ الفَتْحُ القُدْسِيّ.

مَنْ كانَ فَوْقَ مَحَلِّ الشَّمْسِ مَوْضِعُه * فَلَيْسَ يَرْفَعُـهُ شَيْءٌ ولا يَضَـعُ!

وٱسْتَصْحَبَ السلطانُ معـه تحْتَ الرِّضا والعَفْوِ من أكابرِ الرُّوميين ـ الأميرَ سَيْفَ الدِّين جاليش النَّائِبَ بالرُّوم، وهو رجلٌ شَـيْخٌ نَبِيهٌ له ٱشتغالٌ بعِلْم، وكان له

فى الرُّوم صُورة، وهو أَمِيرِدَار يعنى أمِيرَ المَظَالِم . وآستصحبَ ظَهِيرَ الدِّين موح(؟) مُشَرِّف المَمَالك، ومَرْتبته دُون الوِزارة وفيه فَضْلٌ، ونَسَخ كثيرًا من العُلوم بخَطِّه، مثل الصِّحاح فى مُجَلَّدٍ واحدٍ، وغير ذلك . وآستصحبَ الأميرَ نِظامَ الدِّين أوْحَد آبن شَرَف الدِّين بن الخَطِير، وإخْوَتَه وجماعتَه وجماعةَ والِده، وأولادَ عَمِّه ضياءِ الدِّين بن الخَطِير المُسْتَشْهد رحمه الله .

وآسْتَصْحبَ من الأمراء : الأميرَ مُظَفَّر الدِّين محاف (؟) والأميرَ سَيْفَ الدِّين بحكيا الجَاشَنْكير، والأميرَ نُورَ الدِّين المَنْجَنِيقيّ، وأصحابَ مَلَطْيَة أولادَ رَشِيدِ الدِّين أمير عارض، وهم : كَمالُ الدِّين وإخْوتُه، وأمير علىّ صَاحِبَ كَرْكَر .

وآسْتَصْحبَ قاضِيَ القُضاةِ بمَلَطْيَة، وهو القاضى حُسَامُ الدِّين آبنُ قاضى العَسْكَر، ووالِدُه الذى كان يَتَرَسَّلُ عن السلطان عَلَاءِ الدِّين إلى المُلُوك، وهو رَجُلٌ عالِمٌ فاضِلٌ . وأكثر هؤُلاءِ حَضَروا ببُيوتِهم ونِسَائِهم وغِلْمانِهم وحَفَدتِهم .

والذين حَضَروا تحت الغَضَب ـ وَلَدُ البرواناه المذكور، وَوَلَدُ خواجا يُونُس، وهو آبنُ بِنْتِ البرواناه، ووَالِدة البرواناه . والأميرُ نُورُ الدِّين جاجا، وهو أكبر أمَراءِ الرُّوم أصحابُ النّعمة والنِّعَم، والأميرُ قُطْبُ الدِّين أحمدُ أخُو الأتابك، والأميرُ سَيْفُ الدِّين سُنْقُر جاه الروناسىّ، والأميرُ سِراجُ الدِّين إسْماعِيلُ بن جاجا، والأميرُ نُصرةُ الدِّينِ صاحِبُ سِيواس، والأمير كمالُ الدِّين عَارِضُ الجَيْش، والأميرُ حُسامُ الدِّين ركاوك قَرِيبُ البرواناه، والأميرُ سَيْفُ الدِّين الجاويش، والأميرُ سِرَاجُ الدِّين أخُو حُسَامِ الدِّين، والأمير شِهاب الدين غازى بن على شير التُّرْكمانىّ .

ومن المغل : مقدّمى الألوف والمآت ـ زيرك وسرطلق، وحنوكه، وسركده وتماديه (؟) .

ثُمَّ رحلَ السلطانُ فى اليوم الثانى ونَزَل بمَنْزِلَةٍ قَرِيب خانِ السلطان عَلاء الدِّين كيقباذ، ويعرف بكروانى صَرَايْ . وهذا الخانُ بِنْيَةٌ عَظِيمةٌ من نِسْبَةِ خان قرطاى، وله أوقافٌ عظيمةٌ . ومن جُملةِ ما وُجِد قَرِيبًا منه أذْوادٌ كَثِيرةٌ من الأغْنام عَبثَتْ فيها العساكرُ المنصورة، سألتُ عنها فقيلَ : إنها وَقْفٌ على هذا الخَان يُذْبَحُ نِتاجُها للواردين على هذا الخانِ ، وهذه الأغنامُ له من جملة الوُقُوف، قَدَّر الله ٱسْتِيفَادَها جُمْلةً لمَّا كثرتْ علىٰ هذا الخَان من الجُيُوش المنصورة الضُّيُوف .

ورَحَلْنا فى اليوم الثالثِ وهو يومُ الأربعاء ثانى عشرين من الشَّهْر، ونزلنا فى وَطْأَةٍ عادَةُ التَّتارِ ينزلون بها تسمَّىٰ روران كودلوا، وكودلوا ٱسم جبال تلك الوَطْأَة .

ورَحَلْنا فى يوم الخميس ثالثَ عشرين من ذى القَعْدة، فعارَضَنا بها - فى وَطْأةٍ خَلْف حِصْن سَمَنْدُو من طريقٍ غيرِ الطريقِ التى كُنَّا توجَّهْنا منها - نَهْرٌ يعرفُ بنَهْر قزل صو، قريب كودلوا الصغير . ومعنىٰ قزل صو النَّهْر الأحْمر، وهذا النَّهْر صَعْب المَخاض، واسِعُ الاعْتِراض، عَالِى المَهْبَط، زَلِقُ المَسْقَط، مُرْتَفِعُ المُرتَقىٰ، بَعِيدُ المُسْتَقىٰ، لا يَجِدُ السَّالِكُ من أوحال حَافَتَيْهِ إلا صَعِيدًا زَلَقا؛ فوقَف مولانا السلطانُ بنَفْسِه ، وجَرَّدَ سَيْفه بيَدِه ، وباشَرَ العملَ بنَفْسِه هو وجميعُ خَواصِّه، حتَّىٰ تَهَيَّأَ المكانُ جميعُه، ووقَف راجِلًا يُعَبِّر الناسَ أوّلًا فأوّلًا : من كَبِيرٍ وصَغِيرٍ وغُلامٍ، وهو فى أثناء ذلك يَكُرُّ على من يَزْدحِم، ويُكَرِّر التَّأْدِيبَ لمن يطلب بأذِيَّةِ رَفِيقه ويَقْتَحِم؛ وما زال من رَابِعة هٰذا النهارِ إلى الساعة الثامنة حتَّىٰ عَبَرت النـاسُ سالمين . ولمَّا خَفَّتِ البُرور، ولم يَبْقَ إلا المُرور، رَكِبَ فرسَه وعَبَرَ المـاءَ والألْسِنةُ له داعِيه، وعليه من اللهِ وَاقِيَةٌ باقِيَه؛ فنزل فى وَادٍ هُناك به مَرْعًى ولا كالسَّعْدان، ومَرْأًى وَلا كَشِعْبِ بوَّان .

ثم رحلَ في يوم الجمعة فنزل عند صَحرات قراجار حصار، وهي قَرْيةٌ كانت عامِرَةً فيما مضىٰ، قَرِيبةٌ من هدر رجال (؟) قُبالَة بازَار بَلُّو، وهذا البَازَارُ هو الذى كانت الخلائِقُ تجتمع إليــه من أقْطارِ الأرض، ويُباعُ فيه كلُّ شَيْءٍ يُجْلَب من الأقاليم، ويقربُ من كودلوا الكبير.

وسِرْنا في يوم السَّبت سَوْقًا طُولَ النَّهار، حتَّىٰ نزلنا في وَطْأةِ الأَبُلُسْتَيْنِ، وفي هذا النهار عَبَر مولانا السلطان ـ نَصَره الله ـ علىٰ مكان المَعْركة لمُشاهَدَةِ أُمَمِ التَّتار، وكَيْفَ تعاقَبَتْ عليهم من العِقْبانِ كَواسِرُهــا، وكَفَّ بَأسَهُــم من النُّسور مَناسِرُها؛ وكَيْفَ أصْبَحوا لا يَنْدُبُهم إلا البُوم، وتَحَقَّقوا أن الَّتي أهلكَتْهم زُرْقُ الأسِنَّة لا زُرْق الرُّوم؛ فرآهُم لمن بَقِيَ عِبْره، وعُرِضُوا علىٰ رَبِّهِــمْ صَفًّا وجَاؤُوه كما خُلِقُوا أوَّلَ مَرَّه؛ وأبْصر الرِّياحَ لأشْلائِهم مُتَخَطِّفَه، والهَوَامَّ في أجْسادِهم مُتَصَرِّفَه، وشاهَدَهم وقــد هذَّأَهم كلُّ شَيْءٍ حتَّى الوُحُوش والرِّياح: فهذه من صَدِيدِهم مُتَكَرِّعةٌ وهٰذه عليهم مُتَقَصِّفه.

قَدْ سَوَّدَتْ شَجَرَ الجِبالِ شُعُورُهُمْ * فكَأَنَّ فِيه مُسِــفَّةَ الغِرْبَا نِ!

ولمَّــا عاينهم مولانا السلطانُ وعاينهم الناسُ، أكثروا شُكْرَ الله علىٰ هٰذه النِّعَم التى أمْسَتْ لكافَّة الكُفْر كافَّةً وشَــالَّةً ودَارِزَه، وأثْنَوْا على مِنَنِه التى سَنَّتْ[(١)] إليهِــم خيارَ العَسَاكر المنصورة حتَّىٰ أصبحَتْ تلك الأرضُ بهم بارِزَه؛ وحضرتْ مِن أهْلِ الأَبُلُسْتَين هنالك جماعةٌ من أهْلِ التُّقىٰ والدِّين، وٱستخْبَرهم مولانا السلطانُ عن عِدَّة قَتْلَى المُغْلِ فقالوا: ﴿فَٱسْأَلِ العَادِّينَ﴾؛ فاسْتَفْهم من كبيرهم عن عِدَّة المُغْلِ كَمْ من قَتيل، فقال: ﴿قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِعِـدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ وقال بعضُهم ممن عدّهم وممَّن عنده عِلْمٌ من الكِتَاب: «أنا عَدَدْتُ سِتَّةَ آلاف وسبعمائةٍ وسبعين نَفَرا وضاع

(١) مأخوذ من قولهم سنَّ الإبلَ ساقها سوقا سريعا.

الحِسَاب ؛ هـذا : غير من آوَىٰ إلىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُه من مَاءِ السُّيوف فما عَصَمه ، وغيرُ من آعتقد أن فَرَسَه تُسَلِّمُه فأسْلَمه ؛ فتركهم مولانا السلطانُ ومضىٰ والفَلَواتُ مَزْرَعةٌ لجُسُومِهم، والدُّود ـلأنَّها مُؤْمِنَةٌ وهم كُفَّارـ قد أثَّرتْ كالنواسر فى لُحُومِهم؛ فرسم مولانا السلطانُ بتقـدّم الأثْقـالِ والحُرَّاسِ والدِّهْليزِ المَنْصور صُحْبَـةَ الأمير بَدْرِالدِّين الخزندار، والدُّخولِ فى أجْه دربند، وأقام مولانا السلطانُ فى سَاقَةِ العَسْكر المَنْصورِ بَقِيَّةَ يوم السَّبت و يوم الأحد :

فهـو يَوْمَ الطِّرادِ أوّلُ سَابِق * وهو يَوْمَ القُفُولِ آخِرُ سائق!

وآنتَظَر فى هذين اليومين صَيْدًا من العَدُوِّ يَعِنّ، وما من دِمَاءِهم إلى السَّيفِ يَحِنّ؛ فلمَّا لم يَجِدْ أحدًا رحلَ فى يوم الآثنين فنزل قريبًا من الخَانِ الذى فى الدَّرْبَنْد، وركِبَ يوم الآثنين من طَرِيقٍ غير التى حَضَر منها، فسَلَك طريقًا من الأوْعَار يَبسا، وسَلَك من قُلَلِ الجبال فى هِضَابٍ كأنَّ كلًّا منها ألِفٌ حملت من الأنْجُم قَبَسا؛ فقاسَى العَالَمُ فى هذا اليَوْم من الشِّدَّة ما لا يَدْخلُ فى قِياس، وكادُوا يَهْلِكُون لولا أن الله عَزَّ وجلَّ تَدَارك النَّاس؛ فتَسَابقوا ولكن علىٰ مِثْـلِ حَدِّ السَّيف، وتَسَلَّلوا ولكن سَلَّ حَوافِر الخَيْـلِ كَيْف ؟ ، وهَبَطوا من جِبـالٍ يَسْتَصْعبُها كلُّ شَىْءٍ حتّىٰ طَارِقُ الطَّيْف ؛ يَسْتصْعبُ الحَجَرُ المُحَلِّقُ من شَاهِقٍ وُقُوعَه فى عِقابِهـا ، ويَسْتَهولُ النَّجْم الثَّاقِبُ تَرَفُّعَ شعابِها؛ بالقُرْبِ منها جَبَلٌ شاهِقٌ يُعرفُ بسَقَر وما أدراك ما سَقَر، لا يُبْقِى علىٰ شَىْءٍ من الدَّوابِّ ولا يَذَر، له عَقَبةٌ لَوّاحة للبَشَر؛ أعان الله على الهُبُوط منها، وفَازَ بمشيئة الله و بسعادة مولانا السـلطانِ من زُحْزِحَ عنها؛ وعَدّينا كوكصوا وهوالنَّهر الأزْرَق، و بات مولانا السـلطان هناك، وكان قَضِيمُ البِغَالِ تلك اللَّيلةَ وَرَقَ البَلُّوط، إلا من أمْسَتْ عناية الله أَن تُيَسِّرَ فى شَعِيرٍ بخمسةَ عَشَر درهمًا كلّ مُدٍّ يَحُوط .

ورحل مولانا السلطانُ فى يوم الأربعاء تاسع عشرين من ذى القَعْدة فنزل قريبَ كسول(؟) المقـدّم ذِكْرُها، وعدل إلىٰ طريق مَرْعَش فزال بحمد الله الداعى، وقالوا للشَّعير: ما فِينَا لك مُخَاطِبٌ ولا مِنَّا فيـك بمَـاله مُخَاطِر، وللخيولِ قد حصلَ لَكِ فى مِصْر الرَّبيعُ الأوّل فى شَـعْبان وفى الشَّـامِ فى ذِى الحِجَّـة الرَّبيع الآخِر، فأُرْتِعَتْ لا يَرُوعها أَصْحَـابُ الموازين فى تلك المساجد، وآسْتمرَّتْ فى مُرُوجٍ يتأسف عليها آبن المساجد (؟)؛ وقَسَّم مولانا السلطان تِلكَ الأعْشاب كما تَقَسَّمتْ فى آفاق السماء النُّجوم، وأوقفَ كلَّ أحدٍ فى مقامٍ حتّىٰ قال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم﴾؛ فكَمْ هنـالك من مُرُوجٍ أعْشَبتْ فأعْجَبتْ، وآنْجابَتِ السماءُ عنها فأنْجبتْ، وأرْبَتْ علىٰ زُهْرِ النُّجوم فاهْتَزَّتْ وَرَبَتْ:

يَصُدُّ الشَّمْسَ انَّىٰ وَاجَهَتْنا * فَيَحْجُبُها ويَأْذَنُ للنَّسِيمِ!

يَتَخَلَّلُها هنـالك أَتْرَعُ الحِياض، ويَلْهو بها كُلُّ شَىْءٍ فكَمْ قَصَـفَ العَاصِى بهـا فى تِلْك الرِّياض.

هذا كُلُّه: وخَيْرٌ من أرزنْجان، حَارَةُ بَرْجَوَان؛ وخَيْرٌ من أراضى تَوْرِيز، قِطْعَةٌ من ايليز؛ وكَوْمٌ من كِيمانِ سَـفْط مَيْدُوم، خَيْرٌ من قَصْرٍ فى قَيْصَرِيَّةِ الرُّوم؛ ونَظْرَةٌ إلى المِقْياس، خَيْرٌ من سِيوَاس؛ ومَنَاظِر اللُّوق، خيرٌ من كَيْقباذ آلِ سَلْجُوق؛ وتُرْبَةٌ من تُرَبِ القَرَافَه، خَيْرٌ من مُرُوج العرافه؛ وشِبْرٌ من شَبْرا، خَيْرٌ من سطا ومرا (؟)

وجُلوسٌ فى باب دَارِكَ خَـيْرٌ * من جُلوسٍ فى [بَابِ] إيوَانِ كِسْرىٰ،
وآلتِمَـاحِى لنُـورِ وَجْهِـكَ خَيْرٌ * لِىَ مِنْ أنَّنِى أُشَاهِـدُ بَدْرا!
ياوَلِيًّـا يُـولِى الأيَادِىَ سِرًّا * ووَزِيرًا فَلَيس يَكْسِبُ وِزْرا:
ما رَأَيْنـا واللهِ فيمَنْ رَأَيْنـا * لَكَ مِثْـلاً من البَرِيَّةِ طُـرّا.

كَمْ خَبَرْنَا الرِّجالَ فى كُلِّ أَرْضٍ * فإذَا أَنْتَ أعْظَمُ الخَلْقِ قَدْرا!
كَمْ فُلانٍ قَالُوا وقَالُوا فُلَانا * فإذا النَّاسُ دُونَ عَلْياكَ حَسْرَىٰ.
لَكَ مَدْحٌ قد طَبَّقَ الأرضَ سُبحَا * نَ إلٰهٍ به إلى النَّاسِ أَسْرَىٰ!
ما رَأَيْنا مِصْرًا كمِصْرَ ولا مِثْـ * ـلَكَ فِينَا، والحَمْدُ لِلّهِ شُكْرا!

الضـــرب الثـانى

(من الرسائل المُلُوكية رَسائِلُ الصَّيْد)

وهـذه نُسْخةُ رسالةٍ فى صَيْد السُّلطان الشَّهيد الملكِ الناصر بن السُّلطان الشَّهيد المَلِكِ المَنْصور «قَلَاوُون» من إنْشاءِ القَاضِى تاج الدين البارِزارِىّ، وهى :

الحمدُ لِله الذى نَعَّم النُّفوسَ الشَّرِيفةَ بإدراكِ الظَّفَر، وأنْعَم علىٰ هذه الأُمَّةِ بمُحَمَّدِها الذى أنار كَوْكَبُ نَصْرِه وسَفَر، وشَرَع لها علىٰ لِسَانِ نَبِيِّها صلى الله عليه وسلم الغَنِيمَةَ فى السَّفَر، وأسْعَف هـذه الدَّوْلَةَ الشريفةَ بدوام سُلْطانِها الذى حُفَّتْ أيَّامُه بالعِزِّ والتَّأييد والظَّفَر .

نَحمَدُه علىٰ أن أقَرَّ العُيونَ بفَضْله بما أقَر، ونشهدُ أن لا إلٰه إلّا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً ألانَتْ قَلْبَ من نَفَر، وكَرُمتْ أسبابُها فلا يتمسَّكُ بها إلّا أعزُّ فَرِيقٍ ونَفَر، ونشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى أعَزَّ من آمَن وأذلَّ من كَفَر، صلى الله عليـه وعلىٰ آله وأصحابه الذين تَجاوز اللهُ عن ذنوبهم وغَفَر، وسلَّم تسليماً .

وبعدُ، فإنَّ فى ٱبتغاء النَّصْر مَلاذًّا تُدْرِكها كلُّ ذاتٍ شَرُفَتْ ، وتَمْلِكُها السَّجَايا التى تعـارفتْ بالفَخَار وٱئْتَلفتْ ، وتَنالُهـا النُّفوسُ التى مالَتْ إلى العِزِّ وإلىٰ تِلْقائهِ

صُرِفَت ؛ ومَنْشَؤُها من حالتين : إمَّا فى مَوْقِف عِزٍّ عنـد ما تَلْمع بُرُوق الصِّفاح ، وتَشِيبُ من هَوْلِ الحَرْب رُءُوس الرِّماح ، وتَسْرحُ جَوارِحُ النِّبالِ لتحِلَّ فى الجوارح وتَصِيدَ فى الأرواح ؛ وإمَّا فى مَوْطِنِ سِلْم عند ماتَنْبسِطُ النفوسُ إلى ٱمتطاء صَهَواتِ الجياد فى الأَمْنِ والدَّعَه ، وتَنْشرِحُ الصُّـدورُ إلىٰ معاطاة الصُّيودِ والمَسَرَّاتُ مُجْتَمِعه ؛ وتُطْلق البُزَاة فتَصِـيد ، وتتصَرَّف بأمْرِ المُلوكِ الصِّيد ؛ وتُرسَـلُ الحَوامِي المُمْسَكه ، وتُلْقىٰ علىٰ ما سَنَح من الوَحْشِ فلا تُرىٰ إلا مُدْرَكه ؛ وتُفَاضُ حينئذٍ النِّعَم السُّلطانيةُ وتُجزَلُ مَوَاهِبُها ، وتَلُوح العِصَابةُ الشَّريفةُ وتَنْبعِثُ مَواكِبُها .

وكان الله تعـالىٰ قد جمع لِلْمَواقِفِ الشَّريفةِ ، المُعَظَّمة ، السُّـلْطانيةِ ، المَلَكيَّةِ ، النَّاصِريةِ ، خَلَّد اللهُ سُلطانَها ــ سعادةَ الحالتين حَرْبا وسِلْما ، وآتاه فيهما النَّصْرَ الأرفَعَ والعِزَّ الأَسْمىٰ ؛ ووَسَم بِصَـدَقاتِه وعَزَماتِه الأمْرَين وَسْمـا ، ونَصَره نَعْتـا وعَظَّمه سُمْعةً وشَرَّفه اسْمـا ؛ فأيَّامُ حُروبِه كلُّها رِفْعةٌ وٱنْتِصار ، وٱسْتِيلاءٌ وٱسْتِظْهار ، وقوة تَحْيا بهـا المؤمنون وتَفْنَى الكُفَّار ؛ وأيَّام سِلْمِه كلُّها عَدْلٌ وهِبَه ، وصَـدَقاتٌ مُنْجِيةٌ مُنْجِبَه ، ورَفْعُ ظُلاماتٍ مُتَشَعِّبه ؛ وقَمْـعُ نُفُوسٍ مُتَوثِّبه ؛ وحَسْمُ خُطُوبٍ مُسْتَدَّه ، وحِفْظُ الحَوْزةِ الإسلامية من كلِّ بأسٍ ووِقَايتُها من كلِّ شِدَّه ؛ وفى خِلالِ كلِّ عام تُصْرف عَزائِمُه الشريفةُ إلى ٱبتغاء صَيْدِ الوَحْشِ والطَّيْر : لمـا فى ذلك من تَمْرِين النُّفوس علىٰ ٱكتساب التَّأْييـد ، وحُصُولِ المَسَرَّةِ بكلِّ ظَفَرٍ جَديد ؛ فَيَرسُم ــ خلد اللهُ سُلطانَه ــ فى الوَقْتِ الذى يَرْسُمُ به من مَشْتَىٰ كلِّ عامٍ بإخراج الدِّهْليزِ المَنْصورِ فيُنْصَبُ فى بَرِّ الجِيزة بسَـفْحِ الهَرَم ، فى ساعةٍ مُبارَكَةٍ آخذةٍ فى إقْبال الجُودِ والكَرَم ؛ فتمدُّ بالتَّأْييد أطْنَابُه ، وتُرْفَعُ علىٰ عُمُدِ النَّصرِ قِبابُه ، ويُحاطُ بحِراسـةِ الملائكة الكرامِ رِحابُه ؛ وتَضرِب خِيامُ الأُمَرَاءِ حَوْله وِطَاقا ، وتَحُفُّ به [مِثْل] النُّجوم بالبَدْرِ إشْرَاقا ؛ ويَسْتقلُّ الرِّكَابُ الشريفُ ــ شرّفه الله ــ بعد ذلك بقَصْدِ عُبُورِ النِّيلِ المُبارَكِ فيظهرُ

من القَلْعةِ المحروسةِ والسَّلامةُ تَحْجُبه من المَخَافَه، والحِراسَةُ تصحَبُه فيما قَرُبَ ونَأَىٰ من المَسافَه، ولِسَانُ السَّعْدِ قد خاطبه بالتَّحيَّةِ وشافَه؛ ومَمَالِيكُه الأمَراءُ قد حَفُّوا به أَطْلابا، وسَنِيُّ مَوْكِبِه قد بَعَث أمامَه من الإضَاءَةِ نَجَّابا؛ ولم يَزَلْ حتَّىٰ يأتِيَ النِّيلَ المُبارَكَ ويَسْتَوِيَ على الكُرْسيِّ فى الفُلْكِ المَشْحون، مَحُوطًا بالنَّصرِ المَيْمون والجَيْش المَأْمُون، وقد ٱسْتَبشر باعْتِلائه البَحْرُ والنُّون؛ وأضحىٰ لظَهر الفُلْكِ من الفخار [بحضرته] المُكَرَّمه، مالصَهواتِ أَجْيادِه العِتاقِ المُسَوَّمَه؛ فلهٰذا نَشَر أعْلامَ بُشْراها، وقال: ﴿ ٱرْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مُجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا ﴾؛ فسارتْ به فى اليَمّ، ونَصْرُ اللهِ قد تَم؛ وصَعِدَ من فُلْكه، علىٰ مايَسُرُّ نفوسَ المؤمنين فى كَمالِ سُلْطانه وعِزَّةِ مُلْكه؛ وٱستقرَّ علىٰ جَوادٍ شَرُفتْ صَهْوتُه، وقُرِنَتْ بالأَنَاةِ والسُّكونِ خَطْوَتُه؛ عَرَبِيِّ النِّجار، يختالُ فى سَيْرِه كأنما ٱنْتَشىٰ من العُقَار:

ويختالُ بكَ الطِّرْفُ * كأَنَّ الطِّرْفَ نَشْوَانُ.
تَرَى الطِّرْفَ درَىٰ أو ليْـ * ـسَ يدْرِى أنَّكَ سُلْطانُ!

وسار فى زُرُوعٍ مُخْضَرّه، وثُغُورِ نَباتٍ مُفْتَرَّه؛ وقد طلعتْ للظَّفَر شُموسُه وبُدُورُه، وأُعِدَّتْ للصَّيْد بُزاتُه وصُقُورُه؛ من كلِّ مُتوقِّدِ اللَّحظ من الشَّهامه، محمولٍ على الرَّاحات من فَرْطِ الكَرامه؛ يُتوسَّمُ فيه النَّجاح، قبل خَفْقِ الجَناح، ويخرُجُ من جَوِّ السَّماءِ ولا حَرَجَ ولا جُنَاح؛ وبَازُها الأشْهَبُ، يَجِيءُ بالظفر ويَذْهبُ بصَدْرٍ مُفَضَّضٍ ونَاظِرٍ مُذْهَب؛ له مِنْسَرٌ أقْنىٰ، طالمَا أغْنىٰ، كأنَّما هو شَبَا السِّنان وقد حَباه الكُماة طَعْنا:

وصَارِمٍ فى يَدَيْكَ مُنْصَلِتٍ * إنْ كانَ للسَّيْفِ فى الوَغَىٰ رُوحُ،
مُتَّقِدِ اللَّحْظِ مِنْ شَهامَتِه * فالجَوُّ من نَاظِرَيْهِ مَجْروحُ!

قد راش النُّجحُ جناحَه، وقَرَن اللهُ باليُمْن غُدُوَّه ورَوَاحَه، ونَصَره فى حَرْبه حيث جعل مِنْسَره رُمْحه ومِخْلَبه صِفَاحه؛ فى قَوَادِمه السَّعْدُ قادم، وفى خَوافِيه النَّصْرُ ظَاهِرُ المَعَالِم؛ كأنَّما أُلهِم قَوْلَه صلى الله عليه وسلم: «بُورِكَ لأُمَّتِى فى بُكُورِها»، فيسرحُ والطَّيْر جاثِمَةٌ فى وُكُورِها؛ ويَخْرج فى إغباش السَّحَر وعليه سَوَاد، فيَهابُه الصَّادحُ فى الجَوِّ والبَاغِمُ فى الوَاد؛ ويأمُر ـ خَلَّد اللهُ سلطانَه ـ أمَراءَه فيَضْرِبون على الطَّيْر حَلْقةً وهى لَاهِيَةٌ فى ٱلْتِقاط حَبِّها، غَافِلَةٌ عمَّا يُرادُ بها، فيذْعَرُونَها بخَفْق الطُّبولِ وضَرْبِها؛ ومولانا السلطانُ ـ خَلَّد اللهُ مُلْكَه ـ لنافِرِها مُتَرقِّب، ولطائِرِها بالجارِح مُعقِّب، فما يَدْنُو الكُرْكِىُّ مَقْرُورا، حتَّى يَئُوبَ مَقْهورا؛ ساقطًا من سَمائِه إلىٰ أرْضِه، ومن سَعَتِه إلىٰ قَبْضِه، فسُبحانَ من خَلَق كلَّ جِنْسٍ وقَهَر بَعْضَه بِبَعْضِه؛ هذا: والجَارِحُ قد أنْشَب فيه مَخَالِبَه، وسَدَّ عليه سُبُلَه فى جَوِّ السَّماء ومَذَاهِبَه؛ ولم يزلْ ـ خَلَّد اللهُ تعالىٰ سُلْطانَه ـ عامَّةَ يَوْمِه مُتَوغِّلًا فى التَّمتُّع بلَذَّاتِ صُيُودِه، وأوقاتِ سُعُودِه؛ وحُصُولِ أَرَبِه ومَقْصُودِه، وجُنُودُ الملائكةِ حافُّونَ به وبجُنُودِه؛ حتَّىٰ يَنسَخَ النهارَ الليلُ بظَلْمائِه، ويَلْمعَ الطَّارِقُ بأضْوائِه؛ فيعودُ عند ذلك الرِّكابُ الشريفُ إلى المُخَيَّم المَنْصور والجَوَارِح كاسِبَه، والأقْدارُ وَاهِبَه؛ والجَوَارِح مَسْرُوره، والطُّيور مأْسُوره؛ والنُّفوسُ مُمَتَّعه، والمَواهِبُ مُنَوَّعه، والأرْجاءُ مُضَوَّعَه، واللهُ تعالىٰ مَعَ سُلطانِه بكَلَاءَتِه: «ومن كانَ مَعَ اللهِ كان اللهُ مَعَه»؛ فيرفع أمامَه فانُوسانِ تَوْءَمان، كأنهما كَوْكبَان بينهما ٱقْتِران، أو فَرْقَدانِ رَفَعَتْهما يَدَان؛ فيدْنُو إلىٰ مُخَيَّمه المنصورِ فى سُرَادِقِ العِزِّ الحَفِيل، وعِصابَةِ النَّصْر الأثِيل، وتَتَرجَّلُ الانْصارُ قَبْل فُسْطَاطِه المعظَّم علىٰ قَدْرِ مِيل؛ ويُسعىٰ بالشُّموعِ لتَلَقِّيه، ويُسَوَّىٰ تَخْتُ المُلْك لتَرَقِّيه؛ فعند ذلك يطوفُ بالدهليزِ المَنْصورِ أمَراءُ الحَرَس بالشُّموعِ المَرْفوعه، والمَزَاهِر المَسْمُوعه؛ فإذا طلع الفَجْر مُسْتَطِيلا، وجاء الصُّبْحُ شيئًا قَلِيلا؛ عُرِضَتْ

عليه النِّعَم فأعطاها ، والمُهِمَّات الإسلامية فقضاها ، وقُدِّمتْ له الجِيادُ المسوّمة فامْتَطاها ، ويسرحُ إلى الصَّيْد والجَوارح التى صادَتْ بالأمْسِ قد آسْتأسَدَتْ ، وبسَعادتِه إلىٰ ظَفَرِها قد أُرْشِدت ، فإذا سار رِكابُه الشَّريفُ فرّقت علىٰ أثَرِه عَساكر الإسلام ، وقُوِّضَتْ تلك الخيامُ كأنها الأيَّام .

ولم يبرحْ ذلك دَأْبه فى كلِّ يومٍ من أيّامِ حَرَكَتِه حتَّىٰ يأخُذَ حَظَّه من صَيْدِ الطَّيْر ، فعنـد ذلك يَثْنِى عِنانَ السَّيْر ، إلى آقتِناصِ الوَحْشِ فيعدُّ لإمْساكِها كلَّ هَيْكَلٍ قَيْدِ الأوابد ، قد عُقِدَ الخَيْر بناصِيَتِه فأصْبح حَسَنَ المَعاقِد .

فمن أشْهَب : كريم المَغـار ، ذى إهَابٍ من النَّهار ، وأديم كأنَّه صحيفةُ الأبْرار ، أبيضَ مثـل الهُـدىٰ ، له فى الصُّـبْح إثارة النَّصر وإغارَةٌ علَى العِـدا ، عَلا قَدْرًا وغَلا قِيمَه ، وله إلى آلِ أعْوَجَ نِسْبةٌ مُسْتَقيمَه ، إذا آسْتَنَّ فى مِضْمارٍ يسْبِقُ البُرُوق الخَاطِفَه ، ويُخَلِّفُ الرِّيح حَسْرىٰ وهى وَاقِفَه ، يجِدُه الفَارِسُ بَحْرا ، وله عند مَجْرىٰ العَوالى مع السَّوابِق مَجْرىٰ .

ومن أحْمَر : كأنَّما صبغ بدَمِ الأعْداءِ أديمُه ، وكأنَّمـا هو شَقيقُ الشَّقيقِ وقَسيمُه ، كَرُمتْ غُرَرُه وحُجُولُه ، وحَسُنَتْ أعْراقُه وذُيُولُه ، مِكَرٌّ مِفَرٌّ كَجُلْمودِ صَخْرٍ حطَّته من عَلٍ سُيُولُه ، حكَىٰ لونه مُحْمَرَّ الرَّحيق ، وله كلَّ يومٍ ظَفَرٌ جديدٌ مع أنه عَتِيق .

ومن أدْهَم : مُدْرِك كاللَّيل ، مُنْصَبٍّ كالسَّيْل ، كَرِيمِ النَّاصِيَه ، جَوَّابِ قَاصِيَه ، كأنّ غُرَّتَه صُبْحٌ تَنَفَّسَ فى الدُّجى الحَـالك ، وكأنَّه من اللَّيلِ باقٍ بين عَيْنيه كَوْكَبٌ يُضِىءُ المَسَالِك ، وكأنَّ حُجُولَه بروقٌ تَفَرَّقت فى جوانِبِ الغَسَقِ فحَسُنَ مَنْظَرًا لذلك ، سَـنابِكُه يُورِى قَدْحُها ، وغُرَّتُه يُنِير صُبْحُها ، وجَوَارِحُه مُسَوَّدٌ جُنْحُها ، وصَهْوَتُه كَمَن فيها العِزُّ فلا يزالُ ظاهِرًا نُجْحُها .

ومِمَّا سِوَى ذلك من الجياد المُخْتَبَره ، والصَّافِنات المُعْتبره :

إذا ما صَرَفْتَ اللَّحْظَ نَحْوَ شِياتِها * وألْوَانِها فالحُسْنُ عَنْكَ مُغَيَّبُ!(١)

وإنما هى بصَبْرِها على الظَّما ، وشِدَّة عَدْوِها فى النُّور والظَّلْما ، وسَبْقِها إلى غايات رِهَانِها ، وثَبَاتِها تحت رايات فُرْسانِها .

وتَلِيها الفُهُود الحَسَنُ مَنْظَرُها ، الجميلُ ظَفَرُها ، الكاسِبُ نَابُها وظُفُرُها ؛ تَفَرَّق اللَّيلُ فى أُهَبِها المُجْتمعه ، وأدْرَكَتِ العَوَاصِمَ فى هِضَابِها المُرْتفعه ؛ وجُوهُها كَوُجُوه اللُّيوثِ الحَادِره ، ووَثَباتُها على الطَّرِيدَة وَثَباتُ الفِئَةِ المُؤْمنة على الفِئَةِ الكَافِرَه ؛ مُقَلَّصةُ الخَوَاصِر ، عَزَماتُها على الوَحْشِ حَوَاصِر ؛ ما أُطْلِقَتْ علَى صَيْدٍ إلا قَنَصته سَرِيعا ، ولا بَصُرَتْ بعَانَةٍ من حُمُرٍ إلا أَخَذَتْها جَمِيعا .

ثم الحَوَامِي المُعَلَّمه ، والضَّوارِى التى أَضْحَتْ بالنُّجْح مُتَوَسَّمه ؛ ما منها إلَّا طَاوِى الخَاصِرَه ، وَثَباتُه طَائِلَةٌ غير قاصِرَه ؛ بنُيُوبٍ كالأسِنَّه ، وسَاعِدَيْنِ مَفْتُولَين تَسْبِقُ بهما ذَواتِ الأَعِنَّه ؛ لو رآه عَدِيُّ بنُ حَاتِمٍ رضى الله عنه لضَمَّه إلى ما لَدَيه ، وأكَلَ مما أَمْسَكَ عليه .

وتَضرِبُ العساكِرُ حَلْقَةً ما يَلْتَقِي طَرَفاها إلا إلى اللَّيْلِ فى آتساعها ، تَحْوِى سائِرَ الأَوَابِد على آختلاف أنْواعها .

فمن نَعامٍ : خُضِّبَ ظَلِيمُها لمَّا أكَلَ رَبِيعا ، وآحْمَرَّتْ أطرافُ رِيشِه فكأنَّها سِهامٌ أصابتْ نَجِيعا ؛ طالتْ أعْناقُها النَّاحِلَة فكأنَّها خَطِّيَّه ، وآشْتَدَّتْ قَوائِمُها الحَامِلَةُ فكأنَّها مَطِيَّه ؛ شَارَكَتِ الطَّيْرَ فى وُجُود الجَنَاح ، وفارقَتْها فى كَثَافة الأشْبَاح ؛ وأشْبهت

(١) الذى فى ديوان المتنبى :

إذا لم تُشاهد غير حسن شياتها * وأعضائها فالحسن عنك مغيب .

الوَحْشَ فى مَسْكَنِ القِفَار، وشِدَّةِ النِّفار؛ قد ٱجْتَمع فى ظَاهِرِها اللَّوْنان من الوَحْشِ والطَّيْر وٱئْتَلف فى باطنِها الضِّدّان من مَاءٍ ونَار .

ومن ظِباءٍ : مُسْوَدَّةِ الأحْدَاق، حَكَتِ الحَبَائِبَ فى كُحْلِ المُقَلِ وحُسْنِ سَوَالِفِ الأعْناق ؛ ٱبيضَّتْ بُطُونها، وٱحْمَرَّتْ مُتُونها ؛ وراقت أوراقُها، وحَاكَتْ آمَاقُها ؛ نَافِرةٌ فى صَحْرائِها، طَيِّبٌ مَرْعاها فالمِسْكُ من دمَائِها .

ومن بَقَرٍ وَحْشِيَّةٍ : عُفْرِ الإهاب، سَاكِنةِ الهِضَاب؛ لها فى حِقَافِ الرَّمْلِ مَرَابِض، حَذَرًا من قَانِصٍ قابِض ؛ كَمْ فى ... ...(١) من لِوًى يَتَهادَىٰ ، كأنَّ إبْرَةَ رَوْقِه قَلَمٌ أصابَ من الدَّوَاةِ مِدَادًا .

ومن حُمُرٍ إهابها أقمر مَنْسُوبَةٌ إلىٰ أحد (؟) ولم تُرَكَّبْ مُتُونُها، وقد حَكَى الجَزْعَ الذى لم يُثَقَّبْ فى دُجىٰ اللَّيْلِ عيونُها .

وعند ما تَلْتَقِى حَلْقَةُ العساكر يَلْحقها ــ خَلَّد اللهُ سُلطانَه ــ ومعه الجوارِحُ الصائده، والحوامى الصائلَه ؛ والأسْهُم النَّافِذه ، والفُهُود الآخِذَه ؛ فتَمُوجُ الوَحْشُ ذُعْرا ، وترَىٰ مَسالِكَها قد سُدَّتْ عليها سَهْلًا ووَعْرا ؛ وضُرِب دُونَ نَجاتِها بسُورٍ من الجِيَاد والفُرْسان، وحِيلَ بينها وبين خَلَاصِها بِنِبَالٍ وخُرْصان؛ فحِينئذٍ تَفِرُّ النَّعامُ عن رِمَالها، والظِّباءُ عن ظِلَالها ؛ والبَقر عن جَآذِرِها ، والحُمُر عن بولها ؛ ويَقْبِضُ ــ خَلَّد اللهُ سُلطانَه ــ من جِنْس الوَحْشِ كلَّ نَوْع ، ولو لم يُمسِكْها بجارحٍ لأمْسَكَها كما تُمْسِكُ عُداةُ الإسلامِ بالرَّوْع ؛ وتُجْزَل منها المَكَاسِب، وتُملأ منها الحَقَائِب؛ فاذا أخَذَ حَظَّه من القَبْضِ ولَذَّةِ ٱكْتِسَابه ، رَسَم لأمرائه بالصَّيْد عند صُدُور رِكابِه ؛ فيصيدون ويَقْنصون، زادهم الله من فَضْله ــ فإنهم فى طَاعَتِه مُخْلِصون ؛ فيكثر عند ذلك كلُّ

(١) بياض بالأصل .

قنِص ذَبِيح، ويأتى كلٌّ بما ٱقتنصه ليَظْهر التَّرجيح؛ فاذا ٱستكمل أوقاتَ الصَّيْد من الطَّيْر والوَحْش ثنىٰ رِكابَه الشَّريفَ إلىٰ جهة القَلْعة المحروسة والقِفارُ قد شَرُفتْ بمرور مَواكِبه، والوَحْشُ والطَّيْر قد ٱفتخرتْ بكَوْنها أصْبحتْ من مكاسِبِه .

هذا كلُّه وإن كانت النفس تراه لَهْوا، وتَبْلُغ به كلَّ ماتَهْوىٰ، ففى طَيِّه من تَمْرينِ الجُنُود على الحَرْبِ ما تَشْتَدُّ به العَزَماتُ وتَقْوىٰ؛ فيَؤُمُّ الركابَ الشَّريفَ عائدًا إلىٰ سَرِير مُلْكه بالقَلْعة المحروسة، والسَّلامةُ قد قَضَتْ ما يجبُ عليها من حِراسته، والأقدارُ قد وَفَتْ ما يَنْبغِى من كَلاءَته؛ فلم يَكُ إلا وهو صاعِدٌ إلى القَلْعة المحروسة وألْسِنَةُ السَّعادةِ تُخاطِبُه، وسَرِيرُه قد ٱهتزتْ فَرَحًا بمَقْدَمه جوانبُه، والصَّيْد المُبَارك قد سَعِدَتْ مَبادِيه وحُمِدَتْ عَواقِبُه؛ فيُلْقِى أُهْبَةَ السَّفَر، ويأخُذُ فيما بَطَن من المصالح الإسلامية وظَهَر، وتُنْشِدُه ألْسِنةُ السلامةِ ما أملىٰ عليها العِزُّ والتَّأْيِيد والظَّفر :

مَلِكُ البَسِيطَةِ آبَ من سَفَرِه * والنَّصرِ والتَّأْييدُ فى أَثَرِه،
فَكأنَّه فى عِزِّ مَوْكِبِه * بَدْرٌ تألَّق فى سَنَا خَفَرِه.
ما فى البَرِيَّةِ مِثْلُه مَلِكٌ * أُوتِى الذى أُوتِيه من ظَفَرِه!
يَسْرِى إلىٰ أعْدائه رَهَبٌ * ممَّا يَبُثُّ الناسُ من خَبَرِه.
فاللّهُ رَبُّ النَّاسِ فَاطِرُنا * يُؤْتِيهِ ما يُرْبِى علىٰ وَطَرِه!!

الصنف الثانى

(من الرسائل ما يَرِدُ منها مَوْرِد المَدْح والتَّقْرِيض)

إما بأن يجعلَ المَدْح مَوْرِد الرِّسالةِ ويُصَدِّر بمَدْح ذلك الشَّخْص المُراد، وإما بأن يُصَدِّر بماجَرِيَةٍ يحكيها المُنْشِئُ ويتخلَّص منها إلىٰ مَدْح من يَقْصِدُ مَدْحَه وتَقْرِيضَه

وما يَجْرى مَجْرىٰ ذلك . وللكُتَّاب وأهـلِ الصِّناعةِ فى ذلك أفانينُ مُخْتلفةُ المَقَاصِد، وطُرُقٌ متباينة المَوَارِد .

وهذه نُسْخةُ رسالةٍ أنشأها أبو عَمْرو عثمانُ بن بَحْرٍ الجاحظُ سَمَّاها "رسالة الشُّكْر" قَصَد بها تَقْرِيضَ وَزِيرِ المُتوكِّل وشُكْرِ نِعمه لَدَيْه ، مُصَدِّرًا لهـا بذكر حقيقة الشُّكْر وبيان مَقَاصِده، وهى :

جُعِلتُ فِداك، أيَّدك اللهُ وأكرمك وأعَزَّك ، وأتَمَّ نِعْمتَه عليك وعِنْدك . ليس يكونُ الشُّكْر ــ أبقاك الله ــ تامّا ، ومن حَدِّ النُّقْصانِ خَارِجا، حتَّى يَسْتَصْحِبَ أربعَ خِلَال ، ويشتمِلَ علىٰ أرْبَع خِصَال :

أوّلهـا : العِلْم بمَوْقِع النِّعمة من المُنْعَم عَلَيه، وبقَدْرِ انتفاعه بمـا يَصِلُ إليه من ذلك : من سَدِّ خَلَّة ، أو مَبْلغ لَذَّةٍ وعُلُوٍّ فى دَرَجة ، مع المعرفة بمقْدار احتمال المُنْعِم لَمشَقَّة ، والذى حاول من المُعاناةِ والكُلْفةِ فى بَذْلِ جاهٍ مَصُونٍ ، أو مُفـارَقَةِ عِلْقٍ ثَمينٍ . وكَيْف لا يكون كذلك ؟ وقد خَوَّل من نِعَمه بعضَ ما كان حَبِيسًا علىٰ حَوادِثَ عِدَّة، فزاد فى نِعَم غيره بما انْتَقَصَ من نِعَمِ نَفْسه ووَلَده. فكلَّما تَذَكَّر الشاكِرُ ما احتملَ من مَئُونَةِ البَذْل، سَهُل عليه احْتِمالُ ما نَهَضَ به من ثِقَلِ الشُّكْر .

والخَصْلة الثانية : الحُرِّيَّة الباعثةُ علىٰ حُبِّ المكافأة واسْتِحْسان المُجَازاةِ . والشُّكْرُ من أكْبَر أبواب الأمَانَه، وأبْعده من أسْبابِ الخِيانَه . ولن يبلُغَ أحَدٌ فى ذلك غاية المجد إلا بمَعُونَة الطمع، وإلا الحَرْب سِجَالٌ بَيْنهما ، والظَّفَرُ مَقْسومٌ عليهما . كذلك حُكْم الأشياء إذا تَساوتْ فى القُوَّه، وتَقارَبَتْ فى بُلُوغ المُدَّه . وقد زعم ناس أن الشّاكِرَ والمُنْعِم لا يَسْتوِيان، كما أن البَادِئَ بالظُّلْم والمُنْتَصِرَ لا يَعْتدِلَان ؛ لأنَّ البـادِئَ أخذَ ما لَيْس له ، والمُنْتصِرَ لم يتجاوزْ حَقَّه الذى هو له ؛ ولأن البادئَ لم يكن مُهَيَّجًا على

الظُّلْم بعِلَّةٍ جناها المُنْتَصِر، والمُنْتَصِرُ مُهَيَّجٌ على المُكافأة بعِلَّةٍ جناها البَادِئُ، والمُثَوَّر للطباع المُغْضَب، والمُسْتَخِفُّ المُهَيَّج أعْذَرُ من السَّاكِنِ الوَادِعِ المُطْمَئِنّ. فلذلك قالوا: إن البَادِئَ أظْلَم، والمُنْتَصِرَ أعْذَر. وزعَمُوا أن المُنْعِم هو الذى أودَعَ صَدْرَ الشاكِرِ المَحَبَّة بانعامه عليه، وهَيَّجَه بذلك علىٰ مُكافَأَتِه لإحْسَانه إليه، فقد صار المُنْعِمُ شَرِيكَ الشَّاكِرِ فى إحسانه، وتفرَّدَ بفَضْل إنعامه دُونَ مُشَارَكَة غيره، والمُنْعِم هو الذى دَفَع للشاكر أداةَ الشُّكْر، وأعَارَه آلَةَ الوَفَاء، فهو من هٰهُنا أحَقُّ بالتقديم، وأَوْلىٰ بالتَّفْضِيل.

هذا، وقد قال بعضُ الحكماء والأُدَباء والعُلَماء: من تَمَامِ كَرَمِ المُنْعِم التَّغافُلُ عن حُجَّتِه، والإقْرارُ بالفَضِيلة لشاكِرِ نِعْمَتِه؛ لأن المُحاجَّة مُغَالَبه، ولا تَتِمُّ مودَّةٌ إلا مع المُسامحَه. ولذلك قال الرَّبَعِىُّ لناسٍ من العَرَب يَخْتَصِمُون: هَلْ لَكُم فى الحَقِّ أو خَيْرٍ منه؟ قالوا: قد عَرَفنا الحقَّ، فما الذى هو خَيْرٌ منه؟ قال: التَّغافُلُ فإنَّ الحقَّ مُرٌّ. ألا تَرىٰ إلىٰ بِنْتِ هَرِمِ بن سِنَانٍ لما قالتْ لابنة زُهَيْر بن أبى سُلْمىٰ فى بَعْضِ المَناحَاتِ، أو فى بعض المُزاوَرَاتِ: إنَّه لَيُعْجِبُنى ما أرىٰ من حُسْنِ شَارَتِكُم، ونَقاءِ نَفْحَتِكم. قالت ابنةُ زُهَيْر: أمَا واللهِ لَئِنْ قُلْتِ ماقُلْتِ، فما ذلك إلا من فُضُول ماوَهَبْتُم، ومن بَقَايا ما أنْعَمْتُم. قالت بنتُ هَرِم: لابل لكم الفَضْلُ، وعَلَينا الشُّكْر، أعطيناكم ما يَفْنىٰ، وأعْطَيتُمُونا ما يَبْقىٰ. وقيل لعَبْد الله بن جَعْفَرٍ حين أجْزَل لنُصَيْبٍ الشَّاعِرِ فى الهِبَة، وكَثَّرله فى العَطِيَّة: أتُنِيلُ هذا العَبْدَ الأسْوَد كلَّ هذا النَّيْل، وتَحْبُوه بمِثْلِ هذا الحِباءَ؟ فقال عبدُ الله بن جَعْفَر: أمَا والله لَئِنْ كان أسْوَدَ الجِلْدِ إنه لَأَبْيَضُ الشِّعْر، أعطيناه دَرَاهِمَ تَفْنىٰ، وثِيَابًا تَبْلىٰ، ورَوَاحِلَ تُنْضَىٰ؛ وأعطانا ثَنَاءً يَبْقىٰ، وحَدِيثًا يُثْنىٰ، ومَكَارِمَ لاتَبْلىٰ. فلهٰذه الخِصَالِ تكاملتْ خِصَالُ المَجْدِ فيهم، فظَهَر عُنْوانُ كَرَم الخَيْرِ عليهم، فصاروا فى زَمَانِهم مَنَارا، ولمن بعدهم

أعلَاما . وليس تَتِمُّ معَانى كَرَمِ المُنْعِم ، ومَعَانِى وَفَاء الشاكر ، حتَّى تتوافَىٰ أقوالُهما ، وتتَّفِقَ أهْواؤُهمــا علىٰ تَدَافُع الحجة ، والإقْرارِ بالمُعْجِزَة ، فيزدادُ بذلك المُنْعِمُ فَضْلا ، والشَّاكِرُ نُبْلًا .

هٰذا جُملة القَوْلِ فى خَصْلَتينِ من الأَرْبَع التى قدّمنا ذكرها ، وشَهَرْنا أمرها .

والخَصْلة الثالثة : الدِّيانة بالشُّكْر ، والإخْلاصُ للمُنْعِم فى تَصْفِيَةِ الوُدّ ، فان الدِّينَ قَائِدُ المُرُوءة ، كما أن المُرُوءَةَ خِطَامُ الحَمِيَّة . وهــذه الخصالُ و إن تشَعَّبَتْ فى بعضِ الوُجوه ، وافترقتْ فى بَعْضِ الأماكِنِ ، فإنهـا تَرْجع إلىٰ نِصَابٍ يَجْمعها ، و إلىٰ إناءٍ يَحْفَظُها ، منه نَجَمتْ ، وعَنْه ٱنبَثَّتْ ، و إليه رَجَعَتْ . ولٱجتماعِ هــذه الخِصالِ علىٰ مُخَالَفَــةِ الهَوىٰ ، ومُجَانَبَةِ الهُوَيْنىٰ ، وعلى ٱتِّهـامِ دَوَاعى الشَّهْوة ، والٱمْتِناع من كَلَبِ الطَّبِيعَة ـ وَفَّقَ الأوّلون بينها فى جُمْلةِ الٱسم ، وقارَنُوا بينها فى جَمْهَرَةِ الحُكْم . ولذلك قال عمرُ بنُ الخَطَّابِ رضى الله عنه : ٱعْتَبِرْ عَزْمَهُ بحَمِيَّتِه ، وحَزْمَه بمَتَاعِ بَيْتِه .

ومَدَارُ جميع الأحوال المحمودة على الصَّبْر ، ولن يتَكَلَّفَ مَرَارَة الصَّبْرِ من يجهلُ عَاقِبَــةَ الصَّبْر . وقالوا : لمَّـا صار ثِقَلُ الشُّكْرِ لا يُحْتَملُ إلا بالصَّبر ، صار الشُّكْر من نِتَاجِ الصَّبْر . وكما أنه لا بُدَّ للحِلْمِ ـ مع كَرَمِ الحِلْمِ ـ من الصَّــبْر ، فكذلك لا بُدَّ للشُّكْرِ ـ مع كَرَمِ الشُّكْرِ ـ من الصَّــبْر . فالصَّبْر يجرى مع جميع الأفعال المحمودة ، كما يَجْرِى الهوىٰ مع جَمِيــع الأفعال المذمومة . ولذلك قال رســول الله صلى الله عليه وسَلّم : « خَلَقَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ النَّارَ وحَفَّها بالشَّهوات ، وخَلَقَ الجَنَّةَ وحَفَّهَا بالمَكَاره » .

والخَصْلَة الرابعــة : وَصْفُ ذلك الإحْسان باللّسان البَيِّن ، وتَخَيُّره بالبيان النَّيِّر ، و باللَّفظ العَذْبِ الشَّهِىّ ، والمَعْنى الشَّرِيفِ البَهِىّ . فان الكلامَ إذا كان حَسَــناً ، جعلَتْه الحكماءُ أدبا ، ووَجَدتِ الرُّواةُ إلىٰ نَشْرِه سَبَبا ، حتَّى يَصيرَ حَدِيثًا مَأْثُورا ، ومَجْدًا

مَذْكورا، وداخلًا فى أسْمارِ المُلوك، وسُوقًا من أسْواقِ المُتَأدّبين، ووُصْلَةً فى المَجالِس، وزيادةً فى العَقْل، وشَحْذًا للسان، وتَرْهِيفًا للقَلْب، وتَلْطِيفًا للفِكْر، وعِمَارَةً للصَّدْر، وسُلَّمًا إلى العُظَماء، وسَبَبًا إلى الجِلَّةِ الكُبَرَاء. وإذا لم يَكُنِ اللَّفظُ رائعا، والمَعْنَىٰ بَارِعا، وبالنَّوادِرِ مُوَشَّحا، وبالمُلَحِ مَجْلُوّا، لم تَصْغ له الأسْماع، ولم تَنْشَرِحْ له الصُّدُور، ولم تَحْفَظْه النُّفوس، ولم تَنْطِقْ به الأفْواه، ولم يُخَلَّدْ فى الكُتُب، ولم يَقَيَّد بالدَّرْس، ولم يَجْذَلْ به قَائِل، ولم يَلْتَذَّ به سَامِع. ومتَىٰ لم يكُنْ كذلك كان كلامًا ككَلَامِ اللَّغْو، ومَعَانى السَّهْو، وكالهُجْرِ الذى لا يُفْهَم، والمُسْتَغْلَقِ الذى لا يُعْلَم.

وليس ـ أبقاك الله ـ شَىْءٌ أحْوَجَ إلى الحِذْق، ولا أفْقَرَ إلى الرِّفْق، من الشُّكْرِ النَّافِع، والمَدِيحِ النَّاجِع، الذى يَبْقَىٰ بَقَاءَ الوَشْم، ويَلُوح كما يَلُوح النَّجْم. كما أنَّه لا شَىْءَ أحْوَجُ إلىٰ وُسْعِ الطَّاقَة، وإلى الفَضْلِ فى القُوَّة، وإلى البَسْطةِ فى العِلْم، وإلىٰ تَمام العَزْم ـ من الصَّبْر. وعلىٰ أن الشُّكْر فى طَبَقاتٍ مُتَفاوِتَه، ومنَازِل مُتَبايِنَه؛ وإن جمَعَها اسْمٌ، فليس يجمعها حُكْم، فرُبَّما كان كلامًا تَجِيشُ به الصُّدُور، وتَمُجُّه الأفْواه، وتَجْدِفُ به الألْسِنَة، ويُسْتعمَلُ فيه الرَّأْىُ المُقْتَضَب، والخَاطِرُ المُخْتار، والكَلامُ المُرْتَجَل، فيُرمَىٰ به علىٰ عَوَاهِنِه، وتُبْنَىٰ مَصَادِرُه علىٰ غير مَوَارِدِه، لا يَتَعَذَّرُ فيه الشَّاكِرُون لانْتِفَاعِ المُنْعِمِين، كما تعَذَّرَ المُنْعِمُون لانتفاعِ الشَّاكِرِين. وليستْ غايَةُ القَائِلِ إلا أنْ يُعَدَّ بَلِيغًا مُفَوَّها، أو يَسْتَزِيدَ به إلىٰ نِعَمِه السَّالِفَة نِعَمًا آنِفَة، أوَلَيْس إلا ليَغْتَرَّ كَرِيما، أو يَخْتَدِع غَنِيًّا لا يَتَفَقَّد ساعاتِ القَوْل، ولا يَتَعَرَّفُ أقْدارَ المُسْتَمِعين؟ وليس غايَتُه إلا الكَسْب والتَّعَرُّض والانْتِفَاعَ والتَّرَبُّح؛ وعلىٰ هذا يَدُور شُكْرُ المُسْتَأكِلِين، وإحْمادُ المُتَكَسِّبين.

وهذا البابُ وإن جَعلَتْه العوامُّ شُكْرا، فهو بغَيْرِ الشُّكْرِ أشْبَه، وبذلك أولىٰ، ورُبَّما كان شُكْرُه عن تَأَنُّقٍ وتَذْكِير، وعن تَخَيُّرٍ وتَخْيِير، وعن تَفَقُّدٍ للحالات،

وتَحْصِيلٍ للأُمور فى المقامات التى تُحِيطُ بمُهْجَتِه ، وبحَضْرة عَدُوٍّ لايزالُ مُتَرَصِّدًا لنِعْمَتِه ، فربَّما ٱلتمس الزيادةَ فى غَيْظِه ، ورُبَّما ٱلتمس شِفَاءَ دَائه وإصْلاحَ قَلْبِه ، ونَقضَ المُبْرَمِ من مَعَاقِدِ حِقْدِه ، علىٰ قَدْرِ الرَّد ، وعلىٰ قَدْرِ تَصَرُّف الحالات فى المَصْلحة ، لأن الشاكِرَ كالرَّائِد لأهْلِه ، وكَزَعِيم رَهْطِه ، والمُشَارُ إليه عند مَشُورته ، فرُبَّما ٱختار أن يكون شُكْرُه شِعْرا : لأن ذلك أشْهر ، ورُبَّما ٱختار أن يكون كَلامًا مَنْثورًا : لأن ذلك أنْبَل ، وربَّما أظهر اليُسْر وٱنْتَحل الثَّرْوَةَ ، وجعلَ من الدَّلِيل علىٰ ذلك كَثْرَةَ النَّفَقة ، وحُسْنَ الشَّارة ، ويَرَىٰ أن ذلك أصْدَقُ المَدْحَيْن ، وأنْبَلُ الشُّكْرين ، ويجعلُ قائدَه إلىٰ هذا المَذْهَب ، وسَابِقَه إلىٰ هذا التَّدْبِير قولَ نُصَيْبٍ :

فعَاجُوا فأَثْنَوْا بالذى أنْتَ أهْلُه * ولو سَكَتُوا أثْنَتْ عليك الحَقَائبُ !

وممَّا يدخُلُ فى هذا الباب وليس به ـ قولُ العَنَزِيّ :

يابْنَ العَلاءِ ويابْنَ القِرْمِ مِرْدَاسِ : * إنِّى لأُطْرِيكَ فى أَهْلِى وجُلَّاسِى .
حَتَّىٰ إذا قِيلَ : ماأعْطَاكَ من صَفَدٍ؟ * طَأْطَأْتُ من سُوءِ حَالٍ عندها رَاسِى !
أُثنِي عَلَيْكَ ولِى حَالٌ تُكَذِّبُنِى * بما أقُولُ فأسْتَحْيِي من النَّاسِ !

وبين هـذين الشُّكْرَين طبقاتٌ مَعْروفه ، ومَنَازِلُ مَعْلُومه . ومَوْضِعُ الشُّكْر من قَلْب السَّامِع فى القَبُول والاسْتنامه ، علىٰ قَدْرِ حُسْنِ النِّيَّة ، والذى يعرفُ به الشَّاكِرُ من صِدْقِ اللَّهْجَة ، ومن قِلَّة السَّرَف ، وٱعتِدَالِ المَذَاهِب ، والاقْتِصَادِ فى القَوْلِ . وهذا بابٌ سِوَى البابِ الآخَرِ من حُسْنِ الوَصْف ، وجَوْدَةِ الرَّصْف . ولذلك لمَّا أحْسَنَ بعضُ الوَاعِظِينَ فى المَوْعِظَة ، وأبْلَغ فى الاعْتِبارِ وفى تَرْقِيقِ القُلُوب ، ولمَّا لم يَرَ أحدًا يَخْشَع ، ولا عَيْنا تَدْمَع ، قال : ياهؤُلاءِ إما أن يكون بى شَرٌّ ، أو يكونَ بكم شَرٌّ .

وقيـل لجُلَساءِ الفَضْـلِ الرَّقَاشِيّ ، وعَبْد الصَّمَد بن الفَضْـلِ الرَّقَاشِيِّ : مابالُ دُمُوعكم عنـد الفَضْل أغْزَر ، وعند عَبْد الصَّمَد أنْزَر ، وكَلامُ عَبْد الصَّمَد أغْزَر ،

وكَلامُ الفَضْـلِ أنْزَر؟ قالوا : لأن قَلْبَ الفَضْـلِ أرَقّ، فصارتْ قُلوبُنـا أرَقّ، والقُلُوب تَتَجارَىٰ .

وقالوا : طُوبَىٰ للمَمْدوح إذا كان للمَـدْح مُسْتَحِقّا ، وللدَّاعِى إذا كانَ للاسْتِجابَةِ أَهْلا، وللمُنْعِم إذا حَظِىَ بالشُّكْر، وللشّاكِر إذا حَظِى بالقَبُول .

إنى لَسْتُ أحْتَشِم من مَدْحِك ، لأنى لَسْتُ أتَزَيَّد فى وَصْفِك ، ولستُ أمْدَحُك من جِهَة مَعْرُوفِك عندى، ولا أَصِفُك بتَقْدِيم إحْسانِكَ إلىَّ؛ حتَّىٰ أقدِّم الشُّكْر الذى هو أوْلىٰ بالتَّقْـدِيم ، وأفَضِّلَ الصِّـنْفَ الذى هو أحَقُّ بالتَّفْضِيل . وفى الخَـبَر المُسْتَفِيض ، والحَدِيث المأْثُور : « ماقَلَّ وكَفَىٰ خيرٌ ممّـا كَثُر وألْهَىٰ . وقَلِيلٌ باقٍ خَيرٌ من كَثِيرٍ فَانٍ » .

تَذَاكَرَ الناسُ عند بَعْض الحُكَماء طَبَقاتِ السَّابقِين فى الفَضْل ، وتَنْزِيلَ حَالَاتِهم فى البِرّ، ومَن كانتِ الخَصْلَةُ المَحْمودةُ فيه أكْثَر، والخَصْلَة الثانيةُ فيـه أوْفَر، فقال ذلك الحَكِيم : ليس بعَجَبٍ أن يَسْـبِقَ رجُلٌ إلى الإسْلامِ، وكلِّ شَىْء، فقد سَبَق إلىٰ تَقْدِيمه ناسٌ وأبْطأَ آخَرُون ؛ وليس بعَجَبٍ أن يَفُوقَ الرَّجلُ أتْرابَه فى الزُّهْـد ، وأكْفاءَه فى الفِقْه، وأمْثالَه فى الذَّبِّ : وهذا يُوجَدُ فى كلِّ زمانٍ ، ويُصابُ فى كلِّ البُلْدان . ولكنَّ العَجَب العَجِيب، والنَّادِرَ الغَرِيب ، الذى تَهَيَّأ فى عُمَر بنِ الخَطَّاب رضى الله عنه واتَّسَق له . وذلك أنه غَبَر عَشْرَ حِجَج : يفْتَح الفُتُوح، ويُدَوِّخ البِلاد، ويُمَصِّر الأمْصار، ويُدَوِّنُ الدَّواوِينَ، ويَفْرِضُ الفُرُوض، ويُرَتِّب الخاصَّـة، ويُدَبِّر العَامة، ويَجْبِى الفَىْءَ، وتَرْمى إليه الأرضُ بأفلاذِ كَبِدها، وأنواعِ زُخْرُفِها، وأصْنافِ كُنُوزِها ، ومَكْنُون جَوْهَرِها ، ويَقْتُلُ مُلوكَها ، ويَلِى مَمـالِكَها ، ويَحُلُّ ويَعْقِد ، ويُوَلِّى ويَعْزِل، ويَضَعُ ويَرْفَعُ ، وبلَغَتْ خَيْلُه إفْرِيقِيَة، ودخلتْ خُراسَانَ : كلُّ ذلك بالتَّـدْبير الصَّحِيح والضَّبْط، والإتْقانِ والقُوَّة ، والإشراف ، والبَصَر النَّافِذ، والعَزْم

الْمُتَمَكِّن . ثم قال : لا يَجْمَع مَصْلحةَ الأمَّة ، ولا يَحُوشهم علىٰ حَظِّهم من الأُلْفَة وآجتماعِ الكلمة ، وإقامَتِهم على المَحَجَّة ، مع ضَبْط الأطْراف ، وأمْنِ البَيْضَة ـ إلا لِينٌ فى غَيْر ضَعْف ، وشِدَّةٌ فى غير عُنْف . ثم غبر بعد ذلك سِنيَّه كُلَّها علىٰ وَتِيرةٍ واحدَةٍ ، وطَرِيقَةٍ مُطَّرِدَة ؛ لا يَنْحرِفُ عنها ، ولا يُغيِّرها ، ولا يَسْأَمُها ، ولا يزولُ عنها : من خُشُونةِ المَأْكَلِ والمَلْبَس ، وغِلَظِ المَرْكَب ، وظَلَفِ النَّفس عن صَغِيرِها وكَبِيرِها ، ودَقِيقِها وجَليلِها ، وكلِّ ما يُناجِزُ الناسُ عليه ، لم يَتغَيَّرْ فى لِقَاءٍ ولا فى حِجَاب ، ولا فى مُعَامَلةٍ ولا فى مُجالَسَة ، ولا فى جَمْع ولا فى مَنْع ، ولا قَبْض ولا بَسْط : والدُّنيا تَنْصَبُّ عليه صَبّا ، وتَتَدفَّقُ عليه تَدَفُّقا ، والخَصْلةُ من خِصَاله ، والخَلَّةُ من خِلاله ؛ تَدْعُو إلى الرَّغْبة ، وتَفْتَحُ بابَ الأُلْفَة ، وتَنْقُضُ المُبْرَم ، وتُفِيد المُرُوءَة وتُفْسِح المُنَّة ، وتَحُلُّ العُقْدَة ، وتُورِثُ الآغترارَ بطُولِ السَّلَامة ، والآتِّكالَ علىٰ دَوَامِ الظَّفَر ، ومُوَاتَاةِ الأيَّام ، ومُتابَعَة الزَّمان . وكان ثَبَاتُه عَشْرَ حِجَجٍ علىٰ هذه الحال أُعْجُوبةً ، ومن البَدَائِع الغَرِيبَة . وبأقلَّ من هذا يظهرُ العَجَب ، ويُسْتعمَلُ الكِبْر ، ويَظْهَر الجَفاء ، ويَقِلُّ التَّواضُع .

ونحنُ وإن كنَّا لا نَسْتَجيزُ أن نُلْحِقَ أحدًا بِطِبَاعِ عُمَر ومَذْهَبِه ، وفَضْلِ قُوَّته ، وتَمَام عَزْمِه ، فإنَّا لا نَجِدُ بُدًّا من مَعْرِفة فضلِ كلِّ مَن آستقامتْ طَرِيقَتُه ، ودامتْ خَلِيقَتُه ، فلم يتغيَّرْ عند تَتابُعِ النِّعَم ، وتَظَاهُرِ الصُّنْع ، وإن كانتِ النِّعَم مختلفةَ الأجناس ، ومُتفَاوِتَةً فى الطَّبَقات . وكيف يَلْحَقُ به أحَدٌ ؟ مع قوله : "لَوْ أنَّ الصَّبْر والشُّكْر بَعيرَان ما بَالَيْتُ أيَّهُما رَكِبْتُ" ولٰكنَّا علىٰ حالٍ لا نَدَعُ تعظيمَ كلِّ من بَانَ من نُظَرائِه فى المَرْتبَه ، وأشْباهِه فى المَنْزلَه ، إذ كان أدْوَمَهم طَريقَه ، وأشَدَّهُم مَرِيرَه ، وأمْضاهُم على الجَادَّةِ الوُسْطَىٰ ، وأقْدَرَهُم على المَحَجَّة العُظْمَىٰ .

ولا بدَّ من أن يُعطَى كلُّ رئيسٍ قِسْطَه، وكلُّ زمانٍ حَظَّه؛ ولا يُعْجِبُنى قولُ القائل: لم يَدَعِ الأوَّلُ للآخِرِ شيئًا، بل لَعَمْرِى لقد تَرَكَ له العَرِيضَ الطَّويل، والثَّمِينَ الخَطِير، واللَّقَمَ النَّهْجَ، والمَنْهَجَ الرَّحْب. ولو أنَّ الناسَ مُذْ جَرَتْ هذه الكلمةُ علىٰ أفواهِ العَوام، وأُعْجِبَ بها الأغمارُ من الرِّجال ــ قَلَّدُوا هذا الحُكْم، وٱسْتَسْلموا لهٰذا المَذْهَب، وأهملُوا الرَّوِيَّة، ويَئِسُوا من الفائدة، لقد كان ٱرتفَع من الدُّنيا نَفْعٌ كثير، وعِلْمٌ غزير.

وأىُّ زمانٍ بعد زَمانِ النَّبىِّ صلى الله عليه وآله أحَقُّ بالتَّفْضِيل، وأَوْلىٰ بالتقديم، من زمانٍ ظهرتْ فيه الدَّعْوة الهاشِمِيَّة، والدَّوْلةُ العبَّاسيَّة، ثم زَمانِ المُتوكِّلِ على الله، والنَّاصِرِ لدينِ الله، والإمامِ الذى جَلَّ فكْرُه، وكَثُر شُغْلُه بتَصْفِيَةِ الدِّينِ وتَهْذيبه، وتَلْخِيصِه وتَنْقِيحِه، وإعْزَازِه وتأْييدِه، وٱجْتماعِ كَلِمَتِه، ورُجُوعِ أُلْفَتِه. وقد سَمِعتُ من يقول ــ ويَسْتَشْهِدُ العِيَانَ القاهِر، والخَبَرَ المُتظَاهِر ــ: ما رأيتُ فى زَمانِنا من كُفَاةِ السُّلطانِ ووُلاتِه، وأعْوانِه وحُماتِه؛ من كان يُؤَمِّلُ لمَحَلِّك، ويَتَقدَّم فى التَّأَهُّبِ له، إلا وقد كان معه من البَذْخِ والنَّفْخِ، ومن الصَّلَفِ والعُجْب، ومن الخُيَلاء، ومن إفْرَاطِ التَّغَيُّرِ للأولياء، والتَّهَكُّمِ على الخُلَطَاء، ومن سُوءِ اللقاء، ما لا خَفَاءَ به علىٰ كاتبٍ ولا علىٰ عامِل، ولا علىٰ خَطِيبٍ ولا علىٰ أَدِيب؛ ولا علىٰ خاصِّىٍّ ولا علىٰ عامِّىٍّ.

فجمعتَ ــ والحمدُ لله على النِّعْمة فيك ــ بين التَّواضُعِ والتَّحَبُّب، وبين الإنْصاف وقِلَّةِ التَّزيُّد؛ فلا يَسْتطيعُ عدوٌّ مُعْلِن، ولا كاشِحٌ مُسِرّ، ولا جاهِلٌ غبىّ، ولا عالِمٌ مُبرِّز، يَزْعم أنه رَأىٰ فى شَمائِلك وأعْطافِك ــ عند تَتابُعِ النِّعَم، وتَظاهُرِ المِنَن ــ تَغَيُّرًا فى لِقاءٍ ولا فى بِشْرٍ عند المُساءَلة، ولا فى إنْصافٍ عند المُعامَلة، وٱحتمالٍ عند المطاولة. الأمرُ واحِد، والخُلُق دائِم، والبِشْرُ ظاهِر، والحُجَج ثاقِبة، والأعمال

زَاجِيــه، والنفوس راضـيَه ؛ والعُيُون ناطقة بالمَحَبَّــه ، والصُّدورُ مَأْهولة بالمودّه ؛ والدَّاعِي كثير، والشاكِي قليل ؛ وأنت بحمد الله تزدادُ فى كلِّ يومٍ بالتَّواضُعِ نُبْــلا ، وبالإنصافِ فَضْلا ؛ وبحسن اللِّقاءِ مَحَبَّه ، وبقِلةِ العُجْبِ هَيْبه .

وقال سَهْلُ بنُ هٰرُون فى دعائه لبعض من كان يَعْتَنِي بشأْنه : اللهم زِدْه من الخيرات ، وٱبْسُطْ له فى البركات ؛ حتّىٰ يكونَ كلُّ يوم من أيامه مُوفِيًا علىٰ أمْسه ، مُقَصِّرا عن فَضِيلة غَدِه . وقال فى هذا المعنىٰ أعْشَىٰ هَمْدانَ ، وهو من المُخَضْرمين :

رَأيْتُــكَ أمْسِ خَيْرَ بَنِي مَعَــدٍّ * وأَنْتَ اليومَ خَيْرٌ منــك أمْسِ ،

وبَعْــد غَدٍ تَزِيدُ الخَــيْر ضِعْفًا * كَذاكَ تَزِيدُ سَادةُ عَبْــدِ شَمْسِ !

قد والله أنعم اللهُ عليك وأسْبَغ ، فاشْكُرِ اللهَ وأَخْلِص ؛ مَحْتِدُك شَرِيف ، وأَرُومَتُك كَرِيمة ، والعِرْقُ مُنْجِب ، والعَدَد دَثْر ، والأمْر جَمِيــل ، والوُجُوه حِسَان ، والعُقُول رِزَان ؛ والعَفافُ ظاهر ، والذِّكْر طَيِّب ، والنِّعمة قَدِيمـة ، والصَّنِيعة جَسِيمَة ؛ وما مَثَلُكم إلا كما قال الشَّاعر :

إنَّ المَهالِبَة الكِرَام تَحمَّلُوا * دَفْعَ المَكارِه عن ذَوِى المَكْرُوهِ ،

زَانُوا قَدِيمَهم بحُسْــنِ حَدِيثِهم * وكَرِيمَ أخْلاقٍ بحُسْنِ وُجُوهِ !

النعمة محفوظة بالشُّكر ، والأخْلاق مُقَوَّمةٌ بالأَدَب ، والكفاءة مَحْفُوفة بالحِذْقِ ، والحِذْقُ مَرْدودٌ إلى التوكُّل ، والصُّنْعُ من وراء الجميع إن شاء الله .

هــذا إلىٰ ما ألْبَسك الله من القَبُول ، وغَشَّاك من المَحَبَّة ، وطوّقَك من الصَّبْر . فبقِيَ الآنَ أن تَشْتَهِيَ ما أنت فيه شَهْوةً فى وَزْنِ هذه المرتبة ، وفى مِقْدار هذه المَنْزِلة ؛ فإنَّ الرغبــةَ وإن قَوِيَتْ ، والرَّهْبة وإن ٱشــتدّت ؛ فإنهما لا يثمرانِ من النشاط ،

ويُنتِجان من القُوّة على المباشرة والكدّ ، ما تُثمّره الشّهْوة وإن ضَعُفَت ، والحَرَكة من ذات النَّفْس وإن قلَّت ، لأن النَّفْس لا تسمح بمكنونها كُلّه ، وتَجُود بمخزون قُوَاها أجْمَع ، إلا بالشهوة دُون كُلّ عِلّة مُحرِّكة ، وكُلّ سَبَبٍ مُهيِّج .

قال يحيى بنُ خالدٍ لجَعْفر بن يَحْيىٰ حين تقلّد الوِزَارة ، وتكلَّف النُّهوضَ بأعْباءِ الخِلافة : أَيْ بُنَيَّ ، إنّي أخافُ عليك العَجْزَ : لعَظِيم ما تَقلَّدتَ ، وجَسِيم ما تحمَّلْتَ . إنى لَسْتُ آمَنُ أن تَتَفسَّخ تَحْت ثِقْلِها تفسُّخَ الجمَل تحْت الحِمْل الثَّقِيل . قال جَعْفر : لٰكِنِّي أرْجُو القوّة ، وأطمعُ أن أسْتَقِلَّ بهذا الثِّقْل وأنا مُبتهِلٌ غير مَبهُور ، وأجِيءُ قبل السَّوابِق وأنا ثانِي . يقول : وأنا ثَانِي عِنَانِي ، لأنى لم أَجْهد فَرَسِي رَكْضا . قال يحيىٰ : إن لكلِّ رَجاءٍ سَبَبا ، فما سَبَبُ رجائك ؟ قال : شَهْوتِي لما أنا فيه ، والمُشْتهِي للعَمَل لا يجد من أَلَم الكَدّ ما يَجِدُه العَسِيف الأسِيف . قال يحيىٰ : إن نَهضتَ بثِقْلها فبِهذا ، وإلَّا فلا . وأنا أسأل الله أن يصرف شَهْوتَك إلىٰ حُبّ ذلك ، وهَوَاك إلىٰ الاحتفاظ بنِعْمَتك : بشُكْر المُصْلِحين ، والتوكُّلِ علىٰ رَبّ العالمين .

وحقٌّ لمن كان من غَرْس المتوكِّلِ على الله وآبتدائه ، ومن صَنائِعِه وآخْتيارِه ؛ أن يُخَرَّج علىٰ أَدَبِه وتَعْليمه ، وعلىٰ تثْقِيفه وتَقْويمه ؛ وأن يُحقِّقَ اللهُ فيه الأمَل ، ويُنْجِز فيه الطَّمَع ، وأن يمُدّ له في السَّلامَة ، ويُجْزِلَ له من الغَنِيمة ؛ ويُطَيِّبَ ذِكْرَه ، ويُعلِيَ كَعْبَه ؛ ويَسُرَّ صَدِيقَه ، ويَكْبِتَ عَدُوّه .

وهذه نسخةُ رسالةٍ تسمَّى الإغْرِيضِيَّة ، أرسلها أبو العَلاء أحمدُ بنُ عَبْد الله بن سليمانَ المَعَرّى التَّنُوخيّ إلىٰ أبي القاسم الحُسَيْن بن عليّ المَغْرِبيّ ، وهي :

[بسم الله الرحمن الرحيم وبه الإعانة](١) .

السلام عليك أيتها الحكمة المغربيه ، والألفاظ العربيه ؛ أى هواء رقاك ، وأى غيث سقاك ؛ برقه كالإحريض ، وودقه مثل الإغريض ؛ حللت الربوه ، وجللت عن الهبوه ؛ أقول لك ما قال أخو نمير ، لفتاة بنى عمير :

زكا لك صالح وخلاك ذم * وصبحك الأيامن والسعود!

لأنا آسف على قربك من الغراب الحجازى ، على حسن الزى ؛ لما أقفر ، وركب السفر ؛ فقدم جبال الروم فى نو ، أنزل البرس(٢) من الجو ؛ فالتفت إلى عطفه وقد شمط فأسى ، وترك النعيب أو نسى ؛ وهبط إلى الأرض فمشى فى قيد ، وتمثل ببيت دريد :

صبا ما صبا حتى علا الشيب رأسه ، * فلما علاه قال للباطل : ابعد!

وأراد الإياب ، فى ذلك الجلباب ، فكره الشمات ، فكمد حتى مات ؛ ورب ولى أغرق فى الإكرام ، فوقع فى الإبرام ، إبرام السأم ، لا إبرام السلم ؛ فحرس الله سيدنا حتى تدغم الطاء فى الهاء ، فتلك حراسة بغير انتهاء ؛ وذلك أن هذين ضدان ، وعلى التضاد متباعدان ، رخو وشديد ، وهاد وذو تصعيد ؛ وهما فى الجهر والهمس ، بمنزلة غد وأمس ؛ وجعل الله رتبته التى كالفاعل والمبتدا ، نظير الفعل فى أنها لا تنخفض أبدا ؛ فقد جعلنى : إن حضرت عرف شانى ، وإن غبت لم يجهل مكانى ؛ كيا فى النداء ، والمحذوف من الابتداء ؛ إذا قلت : زيد أقبل ، والإبل الإبل ؛ بعد ما كنت كهاء الوقف إن ألقيت فبواجب ، وإن ذكرت فغير لازب .

---

(١) الزيادة من شرح الرسالة الإغريضية الموجودة بدار الكتب السلطانية تحت نمرة ١٢٧ أدب .

(٢) البرس القطن ، والمراد الثلج الشبيه به .

إنّى وإن غَدَوْتُ [في زمانٍ](١) كثير الدّد ، كهاءِ العَـدَد ، لَزِمتِ المُذَكَّر ، فأَتَتْ بالمُنْكَر ؛ مع إلْفٍ يرانى فى الأَصلِ ، كألِفِ الوَصْل ؛ يذكُرُنى بغير الثّناء ، ويَطَّرِحُنى عند الاسْتِغْناء ؛ وحالٍ كالهمزة تُبْدَل العيْن ، وتُجْعَلُ بَيْنَ بَيْن ؛ وتكونُ تارةً حرفَ لِين ، وتارةً مثل الصّامتِ الرَّصين ؛ فهى لا تَثْبُتُ على طَرِيقَـه ، ولا تُدْرَكُ لهـا صورةٌ فى الحَقِيقه ؛ ونَوائِبَ ألحقتِ الكَبِيرَ بالصَّغير ، كأنها تَرْخيم التَّصْغير ؛ رَدَّت المُسْتَحْلس إلى حُلَيْس ، وقابوسًا إلى قُبَيْس ؛ لأَمُدَّنَّ صَوْتِى بتلك الآلاء ، مَدَّ الكُوفِىِّ صَوْتَه فى هؤُلاء ؛ وأُخَفِّفُ عن حَضْرة سيدنا [الوزير](١) الرّئيس الحَبْر ، تخْفيفَ المَدَنِىّ ما قَدر عليه من النَّبْر ؛ إن كاتَبْتُ فلَسْتُ مُلْتمِسَ جَواب ، وإن أسْهَبْتُ فى الشُّكْر فلَسْتُ طَالِبَ ثَواب ؛ حَسْبِى ما لَدَىّ من أياديه ، وما غَمَر من فَضْلِ السَّيِّد الأكبر أبيه ؛ أدام الله لهما القَدْر ما دام الضَّرْبُ الأوّل من الطَّوِيل صَحِيحا ، والمُنْسَرِحُ خَفِيفًا سَرِيحا ؛ وقَبَضَ الله يَمِينَ عَدُوِّهمـا عن كلِّ مَعْنٍ ، قَبْضَ العَرُوض من أوَّلِ وَزْن ؛ وجُمِـعَ له المَهـانَةُ إلى التَّقْييد ، كما جُمِعَـا فى ثانِى المَدِيد ؛ وقُلِمَ قَلْمَ القَسِيـط ، وخُبِلَ كسُباعِىِّ البَسِيط ؛ وعَصَبَ [اللهُ](١) الشَّرّ بهامَةِ شانِئِهما وهو مَجْزُوّ ، عَصْبَ الوافِرِ الثّالثِ وهو مَجْزُوّ ؛ بَلْ أَضْمَرَتْه الأرضُ إضْمارَ ثالثِ الكامِل ، وعَداه أَمَلُ الآمِلِ ؛ وسلِمَ سَيِّدانا أعزَّ الله نَصْرَهما ومن أحبّاه وقرَّباه سَـلامةَ مُتَوسِّطِ المَجْموعات ، فإنه آمِنٌ من المَرْوِعات ؛ فقد افْتَنَنْتُ فى نِعَمِهما الرَّائعه ، كافتنانِ الدّائِرة الرَّابِعه ؛ وذلك أنَّها أُمُّ سِتَّةٍ مَوْجُودين ، وثلاثةٍ مَفْقُودين .

وأنا أَعُدُّ نَفْسى مُراسَلَةَ حَضْرة سـيدنا الجليلةِ عِدَّةَ ثُرَيَّا اللَّيْل ، وثُرَيَّا سُهَيْل ؛ هـذه القَمَر ، وتِلْكَ عُمَر ؛ وأُعَظِّمُه فى كلِّ وَقْت ، إعظامًا فى مِقَةٍ وبعضُ الإعْظامِ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

فى مَمْت ؛ فقد نَصَب للآدَابِ قُبَّة صار الشَّامُ فيها كشامةِ المَغيب ، والعِرَاقُ كعراق الشَّعِيبِ ، أَحْسَبَ ظِلَالُها من البُرْدَيْن ، وأغنَت العالَم عن الهِنْدين ؛ هِنْـدِ الطِّيب ، وهِنْـدِ النَّسِيب ، رَبَّةِ الخِمَـار ، وأَرْبابِ قِمَـار ؛ أَخْدانِ التَّجْر ، وخَدِينَة الهَجْر .

•احامِلَة طَوْقٍ من اللَّيل ، وبُرْدٍ من المُرْتَبِـع مَكْفُوفِ الذَّيل ؛ أَوْفَتِ الأَشاء ، فقالَتْ للكَئِيبِ ما شاء ؛ تُسْمِعُه غيْرَ مَفْهوم ، لا بالرَّمَلِ ولا بالمَزْمُوم ؛ كأن سَجِيعَها قَرِيض ، ومُراسِلَها الغَرِيض ؛ فقد مَادَ لشَجْوِها العُود ، وفَقِيدُها لا يَعُود ؛ تَنْدُب هَدِيلاً فات ، وأُتِيح له بعضُ الآفات ــ بأشْوَقَ إلىٰ هَدِيلِها من عَبْده إلىٰ مُناسَمة أَنْبائه ، ولا أَوْجَدَ علىٰ إِلْفِها منه علىٰ زِيَارةِ فِنَائه ؛ ولَيْستِ الأشواقُ ، لذَواتِ الأطْواق ؛ ولا عنـد السَّاجِعه ، عَبْرةٌ مُتَراجِعَـه ؛ إنمـا رَأَتِ الشَّرطَيْن ، قَبـلَ البُطَيْن ؛ والرِّشاء ، بعـد العِشاء ؛ فحَكَتْ صَوْتَ المـاءِ فى الخَرِير ، وأتت بَراءٍ دائِمَـةِ التَّكْرِير ؛ فقال جاهِـلٌ فَقَدَتْ حَمِيا ، وثَكِلتْ وَلَدًا كريمـا : وهَيْهاتَ يا بَاكِيَـةُ أَصْبَحْتِ ، فَصَـدَحْتِ ؛ وأَمْسَيتِ ، فتَناسَيْتِ ؛ لا هَمَامَ لاهَمَـامِ ، ما رَأَيْتُ أَعْجَبَ من هَاتِفِ الحَمَـام ؛ سَلِم فَنَاح ، وصَمَتَ وهو مَكْسُور الجَنَاح ؛ إنَّمـا الشَّوْقُ لمن يَدَّكِرُ فى كلِّ حِين ، ولا يُذْهِلُه مُضِىُّ السِّنين .

وسيِّدُنا الوزير أطالَ اللهُ بقاءَه القائلُ النَّظْمَ فى ادِّكاءِ مِثْلِ الزَّهَر ، وفى النَّقاءِ مِثل الجَوْهَر ؛ تَحْسَبُ بادِرَتَه التَّاج ، آرتَفَع عن الحَجَاج ؛ وغَابِرَتَه الحِجْل ، فى الرِّجْل ؛ يَجْمَعُ بين اللَّفْظِ القَليل ، والمَعْنَى الجَليل ؛ جَمْعَ الأُفْعُوَانِ فى لُعَابِه بَيْن القِلَّه ، وفَقْدِ البِـلَّه ؛ خَشُن ، فَحَسُن ؛ ولان ، فمـا هَان ؛ لِينُ الشَّكِير ، يَدُلُّ علىٰ عِتْقِ المُحْضِير ، وحَرْشُ الدِّينار ، آيَةُ كَرَمِ النِّجار ؛ فصُنُوفُ الأشْعارِ بعده كألِفِ السَّلام ، يُلْفَظُ بها فى الكلام ، ولا تَثْبُت لهـا هَيْئةٌ بعد اللَّام ؛ خَلَص من سَبْكِ النَّقْد خُلُوصَ الذَّهَب ، من اللَّهَب ؛ واللُّجَـيْن ، من يَدِ القَيْن ؛ كأنَّه لآل ، فى أَعْناقِ حَوَال ؛ وسِوَاهُ لُطٌّ ، فى عُنُقِ ثَطّ ؛

ما خَانَتْه قُوَّةُ الخاطر الأَمينــ ، ولا عِيبَ بسِنَادٍ ولا تَضْمِين ؛ وأينَ النَّثْرة ، من العَثْره ؛ والغَرْقَد ، من الفَرْقد ؟ ؛ فالسّاعِى فى أثَرِه فارس عَصًا بَصِــير ، لا فَارِسُ عَصًا قَصِـــير .

وأنا ثابتٌ علىٰ هَــذه الطَّوِيَّة ثَبَاتَ حَرَكَةِ البناء ، مُقِيمٌ تلك الشّهادةَ بغير ٱستِثْناء ، غَنِيٌّ عن الأَيْمَــان فَلا عَدَم ، مُقْسِمٌ علىٰ ماقلتُ فلاحِنْث ولا نَدَم ؛ و إنّما تُخْبَأ الدُّرَّة الدُّره ، للحَسْناءِ الحُرّه ؛ ويُجادُ باليَمِــين ، فى العِلْقِ الثَّمِين ؛ ما أنْفَسه خاطِرًا ٱمْتَرىٰ الفِضَّه ، من القِضَّه ؛ والوَصَاه ، من مِثْل الحَصَاه ؛ ورُبَّمَــا نَزَعت الأَشْباه ، ولم يُشْــبِهِ المَرْءُ أباه ؛ ولا غَرْوَ لذلك : الخُضْرَةُ أمّ اللَّهِيب ، والخَمْرة بِنْتُ الغِرْبِيب .

وكذلك ســيدُنا وَلَّد من سِحْر المتقدّمين ، حِكْمَةَ للحُنَفاءِ المتَدَيِّنِين ؛ كم له من قافية تَبْنِى السُّود ، وتَثْنِى الحَسُود ، كالمَيْت ، من شُرْب العاتقة الكُمَيْت ؛ نُشُوره قريب ، وحِسَابُه تَثْرِيب ؛ أين مُشَبِّهو النَّــاقةِ بالفَــدَن ، والصَّحْصَحِ بِرِدَاءِ الرَّدَن ؛ وَجَبَ الرَّحِيل ، عن الرَّبْع المُحِيل ؛ نَشَأَ بعدهم وَاصِف ، غُودِرَ رَأْلُه كالمَنَاصِف ؛ إذا سَمِــع الخافِضُ صِــفَتَه للسَّهْبِ الفَسِيح ، والرَّهْبِ الطَّلِيح ، وَدَّ أَنَّ حَشِيَّتَه بين الأَحْنَاء ، وخَلُوقَه عَصِــيم الهِنَاء ؛ وحَلَم بالقُود ، فى الرُّقُود ؛ وصَاغَ بُرَىٰ ذَوَاتِ الأَرْسَان ، من بُرَىٰ البِيضِ الحِسَان ؛ شَــنَفًا لدُرِّ النُّحور ، وعُيُونِ الحُور ؛ وشَغَفًا بدَرٍّ بَكِى ، وعَيْنٍ مِثْلِ الرَّكِيّ ؛ وإعْراضًا عن بُدُور ، سَكَنَّ فى الخُدُور ؛ إلىٰ مُحُول ، كَأَهِلَّة المُحُول ؛ فهُنّ أشْباهُ القِسِيّ ، ونَعَامِ السِّيّ ؛ وإن أخَذَ فى نَعْتِ [الخَيْل][1] فياخيبة من سَبَّهَ[2] الأَوَابِدَ بالتَّقْيِيد ، وشَبَّه الحَافِرَ بقَعْبِ الوَلِيد ؛ نعتا غَبَط به الهَجِينُ المَنْسُوب ، والبَازِىُّ

(١) الزيادة من شرح الرسالة .

(٢) أى أذهب حواسَّها . وفى الأصل شَبَّه بالشين .

اليَعْسُوب ؛ إذْ رُزِقَ من الخَـيْر ، ما ليس لكَثِـيرٍ من سِباعِ الطَّيْر ؛ وذلك أنه على الصِّـغَر ، سَمِيُّ بعض الغُرَر ؛ وقد مَضىٰ حَرْس ، وخَفَت جَرْس ؛ وللقَالِـع ، أبْغَض طَالِـع ؛ والأزْرَق ، يُجَنِّبك عنه الفرَق .

فالآن سَلِمَتِ الجَبْهة من المَعْض ، وشَمِل بَعْضَها بَرَكاتُ بَعْض ؛ فأيْقَن النَّطِيح ، أنَّ رَبَّه لايَطِيح ؛ والمَهْقُوع ، نَجَاءُ رَاكِبِه من الوُقُوع ؛ فلن يُحْرَب ، قائدُ المُقْرَب ؛ ولن يُرْجَل ، سائسُ الأرْجَل ؛ والعَاب ، وإن لَحِقَ الكِعَاب ؛ فإنَّه نا كِبٌ ، عن نَاقِلات المَرا كِب . وقالت خَيْفَانَة آمْرِئِ القَيْس : الدَّبَّاءَه ، لرَاعِى المَبَاءَه ؛ والأُثْفِيَّه ، للقِدْرِ الكَفِيَّه ؛ نَقْمَّاعلىٰ جاعِل غُدَرِها كقُرُونِ العَرُوس ، وجَبْهتِها كمُحَذِّف التُّروس ؛ وأَنَّىٰ للكِنْدِى ، قَوَافٍ كهَجْمَة السَّعْدى :

إذا آصْطَكَّتْ بِضِيقٍ حَجْرَتَاهَا * تَلاقَى العَسْجَدِيَّة واللَّطِيـمُ !

فالقَسِيبُ ، فى تَضَاعِيف النَّسِيب ، والشَّبابُ فى ذلك التَّشْبِيب ؛ ليس رَوِيُّه بمَقْلوب ، ولٰكنَّه من إرْواءِ القُلُوب ؛ قد جمع أَلِيلَ مَاءِ الصِّبا ، وصَلِيلَ ظَمَاءِ الظِّبَا ؛ فالمِصْراعُ كوَذِيلَةِ الغَرِيبَه ، حَكَتِ الزِّينَةَ والرِّيبَه ؛ وأَرتِ الحَسْناء سَنَاها (١) ، والسَّمْجَة ما عَنَاها ؛ فأَما الرَّاحُ فلو ذَكَرَها لشَفَتْ من الهَرَم ، وآنْتَفَتْ من الكَرْمِ إلى الكَرَم ؛ ولم تَرْضَ دِنَانُ العُقَار ، بلباسِ القَار ، ونَسْجِ العَنَاكِب ، على المَنَاكِب ؛ ولكن تُكْسَىٰ من وَشْيٍ ثِيابا ، ويُجْعَل طِلَاؤُها زِرْيَابا ؛ ولقد سَمِعْتُه ذَكَرَ خَيْمَةً يَغْبِطُ المِسْكُ جارَها من الشِّيام ، ويَوَدُّ سَعْدُ الأَخْبِيَة أنه سَعْدُ الخِيَام .

ووقفتُ على "مُخْتَصر إصْلاحِ المَنْطِق" الذى كَادَ بسِماة الأبْواب ، يُغْنِي عن سَائِرِ الكُتَّاب ؛ فعَجِبْتُ كلَّ العَجَب من تَقْيِيد الأَجْمال ، بطِلَاءِ الأحْمال ؛ وقَلْبِ البَحْر ،

(١) فى نسخة أخرىٰ «مناها» .

إلى قَلْتِ النَّحْرِ، وإجراءِ الفُراتِ، فى مِثْلِ الأَخْرات؛ شَرَفًا له تَصْنيفًا شَفَى الرَّيبَ، وكَفَى من ٱبنِ قُرَيب؛ ودَلَّ على جَوَامِعِ اللُّغَة بالإيماء، كما دَلَّ المُضْمَر علىٰ ما طَالَ من الأسماء.

أقولُ فى الإخْبار: أَمَرْتُ أَبَا عَبْدِ الجَبَّار؛ فإذا أَضْمَرتُه، عُرِفَ مَتىٰ قُلتُ: أَمَرْتُه؛ وأَبَلَّ من المَرَضِ والتَّمْرِيض، بما أُسقِطَ من شُهُود القَرِيض؛ كأنَّهم فى تِلْك الحال، شَهِدُوا بالمَحال؛ عِنْد قَاض، عَرَفَ أمانَتَهم بالآنْتِقاض؛ علىٰ حَقِّ عَلِمَه بالعِيَان، فٱستَغْنىٰ فيه عن كلِّ بَيَان.

وقد تَأَمَّلْتُ شَواهِدَ "إصْلاحِ المَنْطِق" فوجدتُها عَشَرةَ أنواعٍ فى عِدَّة إخْوَة الصِّدِّيق، لمَّا تَظَاهَروا على غير حَقِيق؛ وتَزِيدُ على العَشَرة بوَاحِد؛ كأَخٍ لِيُوسُفَ لم يكن بالشَّاهِد. والشِّعْر الأوّلُ وإن كان سَبَبَ الأَثَره، وصَحِيفَةَ المَأْثُرَه؛ فإنه كَذُوبُ القَالَه، نَمُومُ الإطاله؛ وإنَّ قِفَا نَبْكِ [علىٰ حُسْنها]، وقِدَمِ سِنِّها؛ لتُقِرُّ بما يُبْطِل شهادةَ العَدْل الرِّضَا، فكَيْفَ بالبَغِيِّ الأُنْثَىٰ؛ قاتَلَها اللهُ عَجُوزًا لو كانت بَشَرِيَّه، كانت من أَغْوَى البَرِيَّه. وقد تَمَادىٰ بأبِي يُوسُفَ رحمه الله الآجْتِهاد، فى إقامَة الأشْهاد؛ حتى أَنْشَدَ رَجَزَ الضَّبّ، وإن مَعَدًّا من ذلك لِجَدُّ مُغْضَب؛ أَعَلىٰ فصاحَتِه يُسْتعان بالقَرْض، ويُسْتَشْهد بأَحْناشِ الأَرْض؟؛ مارُؤْبَةُ عنده فى نَفِير، فما قولك فى ضَبٍّ دَامِي الأظافير؟؛ ومَن نَظَر فى كتاب يَعْقُوب وَجَده كالمُهْمَل، إلا باب فَعْلٍ وفَعَل؛ فإنّه مُؤَلَّفٌ على عشرين حَرْفا: سته مُذْلَقه، وثلاثة مُطْبَقه؛ وأربعةٌ من الحروف الشَّديده، وواحِدٌ من المَزِيدَه؛ ونَفِيثَتَيْنِ: الثَّاء والذَّال، وآخَرَ مُتَعال؛ والأُخْتينِ العَيْنِ والحَاء، والشِّين مُضَافةً إلى حَيِّزِ الراء. فرَحِمَ اللهُ أبا يُوسُف لو عَاشَ لَفاظَ كَمَدا، أو ٱحْفَاظَّ حَسَدا، سَبَق ٱبنَ السِّكِّيت ثم صَارَ السُّكَيْت، وسَمَق ثم حَار وَتِدًا للبَيْت؛ كان الكِتَابُ تِبرًا فى تُرابِ مَعْدِن، بَيْنَ الحُثِّ وبَيْنَ المُتَدَن؛ فاستَخْرجه

سَيِّدنا وٱسْتَوْشاه، وصَقَلَه فِكْرُه ووَشَّاه، فَغَبطَه النَّيِّرَاتُ على التَّرقِيش، والآلِ النَّقِيش، فهو محبوبٌ ليس بِهَيْن، علىٰ أنه ذُو وَجْهَيْن، ما نَمَّ قطُّ ولا هَمّ، ولا نَطَق ولا أَرَم، فقد نَابَ فى كَلَامِ العَرَبِ الصَّمِيم، مَنَابَ مِرْآةِ المُنَجِّمِ فى عِلْمِ التَّنْجِيم، شَخْصُها ضَئِيلٌ مَلْمُوم، وفيها القَمَرانِ والنُّجُوم .

وأقولُ بعدُ فى إعادة اللَّفْظ : إنَّ حُكْمَ التَّأْليف فى ذِكْرِ الكلمة مَرَّتين، كالجَمْع فى النِّكاح بين الأُخْتَين، الأولىٰ حِلٌّ يُرَام، والثانية بَسْلٌ حَرَام، كَيْفَ يكون فى الهَوْدَجِ لَمِيسَان، وفى السَّبَّة(١) خَمِيسَان، يا أُمَّ الفَتَيات حَسْبُك من الهُنُود، ويا أَبَا الفِتْيانِ شَرْعُك من السُّعُود، عَلَيك أَنْتِ بزَيْنَبَ ودَعْد، وسَمِّ أيُّها الرَّجُل بِسِوَىٰ سَعْد، ما قَلَّ أثِير، والأَسْماء كَثِير .

مَثَلُ يعقوبَ مَثَلُ خَوْدٍ كثيرةِ الحُلِيّ ضاعَفَتْه على التَّراق، وعَطَّلت الخَصْرَ والسَّاق، كانَ يومُ قُدُومِ تلك النُّسْخةِ يومَ ضَرِيبٍ حَشَرَ الوَحْشَ مع الإِنْس، وأضافَ الجِنْسَ إلىٰ غير الجِنْس، ولم يَحْكُم على الظِّباء، بالسِّباء، ولا رَمَى الآجَالَ، بالأَوْجَال، ولكنَّ الأَضْدادَ تَجْتَمِع، فَتَسْتَمِع، وتَنْصَرِف بلَذَّات، من غير أَداة، وإن عَبْدَه مُوسىٰ لَقِيَنِى نِقابا، فقال : هَلُمَّ كِتابا، يكونُ لك شَرَفا، وبِمُوَالاتك فى حَضْرة سيدنا ــ أطال الله بَقَاءَه ــ مُعْتَرِفا، فَتَلَوْتُ عليه هاتَيْنِ الآيتين : ﴿ إنَّ لَكَ أَنْ لَاتَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا ولَا تَضْحَىٰ ﴾ . وأَحْسَبُه رَأَى نُورَ السُّؤْدد فقال لمخَلِّفيه، ما قاله مُوسىٰ صلى الله عليه لأَهْلِيه : ﴿ إنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًىٰ ﴾ . فليتَ شِعْرِى : ما يطلب ؟ أَقَبَسَ ذَهَب ؟ أم قَبَسَ لَهَب ؟ بل يَتَشَرَّفُ بالأخلاق البَاهِرَه، ويتبركُ بالأَحْسابِ الطَّاهِره .

---

(١) السَّبَّة الزَّمَن من الدّهر ، ولعـله يريد بها الأسبوع كما جاء فى شرح رسائل المعرّى الموجودة بدار الكتب السلطانية .

باتَتْ حَوَاطِبُ لَيْلَىٰ يَقْتَبِسْنَ لها (١) * جَزْلَ الجِذَا غيرَ خَوَّارٍ ولا دَعِرِ!

وقد آب من سَفْرتِه الأُولىٰ ومعه جَذْوَةٌ من نَارٍ قَدِيمة : إن لُمِسَتْ فنارُ إبراهيم ، أو أُونِسَتْ فنَارُ الكَلِيم ؛ وآجْتَنى بهارًا حبَتْ به المَرازِبَة كِسْرىٰ ، وحُمِل فى فكَاكِ الأَسْرىٰ ، وأدرَكَ نُوحًا مع القوم ، وبَقِىَ غضًّا إلى اليَوْم ؛ وما آنْتَجع مُوسىٰ إلا الرَّوْضَ العَمِيم ، ولا آتَّبع إلا أصْدَقَ مُقيم ؛ ووَرَد عَبْده الزُّهَيْرِىُّ من حَضْرته المطَهَّرة وكأنَّه زَهْرَةُ بَقِيع ، أو وَرْدةُ رَبِيع ، كَثِيرةُ الوَرَق ، طَيِّبة العَرَق ؛ وليس هو فى نِعْمَتِه كالرِّيم ، فى ظِلَال الصَّرِيم ، والحَبَاب ، فى السَّحَاب المُنْجاب ؛ لأن الظلام يسفر ، والغمام يَنْسَفِر ، ولٰكنَّه مِثْلُ النُّونِ فى اللُّجَّه ، والأعْفَرِ تَحْتَ جِرْيَه .

وقد كنتُ عَرَّفتُ سَيِّدَنا فى ما سَلَف أن الأدَب كعُهُود فى غِبِّ عُهُود ، أَرْوَت النِّجَادَ فما ظَنُّك بالوُهُود ؟ ؛ وأَنِّى نزلتُ من ذلك الغَيْثِ ببَلَدٍ طَسْم ، كأَثَرِ الوَسْم ؛ منعه القِرَاع ، من الإمْرَاع ؛ يابُوسَ ، بَنِى سَدُوس ؛ العَدُوُّ حازب ، والكَلَأُ عَازِب ؛ ياخِصْبَ بنى عَبْد المَدَان ، ضَأْنٌ فى الحُرْبُث وإبِلٌ فى السَّعْدان ؛ فلما رأيتُ ذلك أَتْعَبْتُ الأَظَلّ ، فلم أَجِدْ إلا الحَنْظَل ؛ فليس فى اللَّبِيد ، إلا الهَبِيد ؛ جَنَيْتُه من شَجَرةٍ آجْتُثَّتْ من فَوْقِ الأَرْضِ ما لَهَا من قَرَار . لَبَنُ الإبِلِ عن المُرَارِ مُرّ ، وعن الأَرَاكِ طَيِّبٌ حُرّ .

هذا مَثَلِى فى الأَدَب . فأما فى النَّشَب ، فلَمْ تَزَلْ لى بحمد الله تعالى وبقاءِ سَيِّدنا بُلْغتان : بُلْغَةُ صَبْر ، وبُلغَة وَقْر ؛ أنا منهما بين اللَّيْلَةِ المَرْعِيَّه ، واللَّقُوحِ الرِّبْعِيَّه ؛ هٰذه عام ، وتِلْكَ مالٌ وطَعَام ؛ والقَايِل ؛ سُلَّمٌ إلى الجَلِيل ؛ كالمُصَلِّى يُرِيغُ الضُّوء ، بإسْبَاغ الوُضُوء ، والتَّكْفِير ، بإدامَةِ التَّعْفِير ؛ وقاصِدُ بَيْتِ الله يَغْسِلُ الحُوب ، بطُولِ الشُّحُوب .

---

(١) فى شرح الرسالة : يلتمسن .

وأنا فى مكاتبة حَضْرةِ سَــيِّدنا الجليلَة ، والمَيْلِ عن حَضْرةِ سَــيِّدنا الأَجَلِّ والِده ـ أعزَّ اللهُ نصره ـ كسَبَإِ بْنِ يَعْرُب ، لمـا ٱبْتهَل فى التَّقرُّب ؛ إلىٰ خالِقِ النُّور ، ومُصَرِّف الأُمُور ، نَظَر فلم يرَ أشْرَقَ من الشَّمْس يدا ، فَسَجَد لهـا تَعبُّدا . وغيرُ مَلُومٍ سَيِّدنا لو أعرض عن شَقائِق النُّعمان الرَّبيعيَّه ، ومَدائِحه اليَرْبُوعِيَّه ؛ مَلَلًا من أهْلِ هٰذه البَلَد المُضَافِ إلىٰ هــذا الاسم ، فغيرُ مُعْتَذِر ، مَن أَبْغَضَ لأجْلِهم بَنِي المُنْــذِر ؛ وهُم إلىٰ حَضْرته السَّنِيَّة رَجُلانـــ : سَائِل ، وقَائِل ؛ فأمَّا السَّائِل فألَحّ ، وأما القَائِلُ فغَــيْر مُسْتَمْلَح ؛ وقد سَتَرتُ نَفْسى عنها سَتْرَ الخَمِيص ، بالقَمِيص ؛ وأَخى الهِتْر ، بسُجُوف السِّــتْر ؛ فَظَهَر لى فَضْلُه الذى مَثَلُه مَثَلُ الصُّــبْح إذا لَمع تصَرَّفَ الحَيَوانُ فى شُؤُونه وخَرج من بَيْتــهِ اليَرْبوع ، وبرز المَلِك من أجَلِّ الرُّبوع ، وقد يُولَع الهِجْرِس ؛ بأن يَحْرِس ؛ فى البَلَد الجَرْد ، قُدَّامَ الأَسَدِ الوَرْد . وإنى خُبِّرتُ أن تلك الرسالة الأُولىٰ عُرِضَتْ بالمَعْرِض الكَرِيم : فأوْجَبَ ذلك رَحِيلَ أُخْتِهـا ، مُتعرِّضَةً لِمثْــل بَخْتِها ؛ وكَيْف لا تنفع ، وفى اليَم تقَع ؛ وهى بمَقْصِد سَــيِّدنا فاخِرَه ، ولو نُهِيَتْ الأُولىٰ لانْتهت الآخِرَه :

كملت الرسالة .

قلتُ : وهذه رسالةٌ أنْشَأتُها فى تَقْرِيضِ المَقَرّ الكَرِيم الفَتْحِىّ ، أبى المعالى فَتْح الله ، صاحِبِ دَوَاوِين الانشاء الشريف بالديار المصرية والممـالك الإسْلامِيَّة ، أدام الله تَعالىٰ مَعالِيَه ، فى شُهورِ سنة أَرْبَعَ عشرةَ وثَمـانِمـائَة ، وهى :

الحمدُ لله الذى جَعَل الفَتْح مَحطَّ رِحَالِ القَرائِح الجَائِدَة ، ومُسْــتَقرَّ نواها ، ومُحِيطَ دَائِرَةِ الأفْكَارِ الوَارِدَة ، ومَرْكَزَ شُــعاعِ كُوَاهَا ، ومَادَّةَ عَنَاصِر الأَفْهام الجائِلَة ، وعِتادَ شَكِيمَةِ قُواها .

نَحْمَدُه على أن خَصَّ المملكةَ المِصْرِيةَ من إيداع سِرِّها المَصُونِ بأوْسَعِ صَدْرٍ رَحِيب، وأَنْهَضَ بتَدْبِيرِ مَصَالحِها مَن إذا سَرَتْ كَتَائِبُ كُتُبِه إلى عَدُوٍّ أَنْشَدَ من شِدَّة الفَرَق : قِفَا نَبْكِ من ذِكْرَى حَبِيب، وأقام لنُصْرَتِها بأَسَلِ الأقْلامِ وصِفَاحِ المَهَارِقِ من إذا طَرَقَها على البُعْد طارقٌ تلا لِسَانُ يَراعَتِه : ﴿ نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ .

وأشْهَدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحْدَه لا شَرِيكَ له شَهادةً تَسِيرُ بها بُرُدُ الهِدَايةِ إلى آفاق الأَخْلاقِ فتُشَيِّدُ لقِلَاعِ الإِيمانِ بأقطارِ القُلُوبِ أرْكانا، وتُرْقَمُ أسْرارُ شَعَائِرِها بنِقْسِ القَبُولِ فى صُحُفِ الإقبالِ فتُبَدِّلُ داعِيها بإذاعَةِ خَبَرِها من الإسْرارِ إعْلانا، وتَدِينُ بطاعَتِها مُلوكُ الممالك النائِيَةِ خُضُوعا فتَتَّخِذُ كُتُبَ رَسَائِلِها على المَفَارِق بعدَ اللَّثْمِ تِيجَانا ؛ وأشهدُ أن محمَّدا عبدُه ورسولُه أفضلُ نَبِيٍّ سَنَّ المعروفَ ونَدَب اليه، وأكْرَمُ رَسولٍ جَعل خَيْرَ بطانَتَيِ المَلِك التى تأمُره بالخَيْر وتَحُثُّه عليه ؛ صلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصَحْبِه الذين سَلَكُوا فى السَّيْرِ سَبِيلَه واتَّبعوا فى السِّيرة سُنَنَه واقْتَفَوْا فيه سَنَنَه، واتَّبعوا فى المعروف آثارَه فتَلَا عليهم تالِى الإخْلاصِ : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَة ﴾ . صلاةً تتناقلُ على مَرِّ الزمان أخْبارُها، ويَتَصدَّى لرِوَايتِها من الأَمّة على تَمَادِى الدَّهرِ أحْبارُها ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

وبعدُ، فان رِياسةَ أهْلِ الدُّولِ تتفاوَتُ باعتبارِ قُرْبِ الرئيس من مَلِكه فى مُخاطَبَتِه ومُناجاتِه، واعْتِمادِ تَصَرُّفِه فى أمور دَوْلَتِه وتَنْفيذ مُهِمَّاته، والاسْتِنادِ على رَأْيِه فى جَليل خُطُوبِه وعَظِيم مُلِمَّاته :

فعَالٍ تَمَادَتْ فى العُلُوِّ كأنَّما * تُحَاوِلُ ثَأْرًا عِنْدَ بَعْضِ الكَوَاكِبِ!

ولا خَفاء أن صَاحِبَ دِيوانِ الإنشاءِ من هذه الرتبة بالمَحَلِّ الأَرْفع، والمَنْزِلة التى لا تُدَافَع ولا تُدْفَع، والمَقَامِ الذى تَفَرَّد بصَدَارَتِه فكان كالمَصْدرِ لا يُثَنَّى ولا يُجْمَع ؛

إذ هو كَلِيم المَلِك ونَجِيُّه ، ومُقَرَّبُ حَضْرته وحَظِيُّه ؛ بل عَمِيدُ المملكة وعِمَادُها ، ورُكْنُها الأعظمُ وسِنَادُها ، حَامِى حَوْمَتِها وسِدَادُها ؛ وعِقْدُها المتَّسِقُ ونِظامُها ، ورَأْسُ ذِرْوَتِها العَلْياء وسَنَامُها ؛ وجُهَيْنَة خَبَرِها ، وحَقِيبَة وِرْدِها وصَدَرِها ؛ ومُبَلِّغُ أنْبائِها وسَفِيرُها ، وزَنْد رَأْيِها المُورِى ومُشِيرُها .

فَحَيَّهَلًا بالمَكْرُمَاتِ وبالعُلَىٰ * وحَيَّهَلًا بالفَضْلِ والسُّؤْدُدِ المَحْضِ!

هذا . وهو الواسطةُ بين المَلِك ورَعِيَّته ، والمتكفِّلُ لقَصِيِّهم بدَرْك قَصْده وبُلُوغ بُغْيَته ، والمُسْعِدُ للمظلوم من عزائم تَوْقيعاته بما يَقْضِى بنُصْرَتِه ؛ وحِينَئذ فلا يصلُحُ لها إلا مَن كان مع كَرَم الخِيم بارزَ الخِيَامِ لاصْطِناع المَعْروف ، ومع سُمُوِّ الرُّتْبة سَامِىَ الهِمَّة لإغَاثة المَلْهُوف ؛ ومع عِزِّ الجناب لدَى مَلِكه لَيِّنَ الجانب لِذى المَسْأله ، ومع قُرْبه بحَضْرة سُلطانِه قَرِيبًا من الرَّعِيَّة حتَّىٰ من المِسْكين والأَرْمَله .

وغيرُ خَافٍ أن كُلَّ وَصْفٍ من هذه الأوصاف مع مُقَابِله كالضِّدَّيْن اللَّذَيْن لايَجْتمعَان بحال ، والنَّقِيضَيْنِ اللَّذَيْنِ قضىٰ العَقْل بأنَّ الجَمْعَ بينهما مُحَال ؛ وأنَّىٰ يجتمع العالِى والهَابِط ، والمُرْتَفِعُ والسَّاقِط ؛ ؟ أم كَيْف تتَّصِلُ الأرضُ بالسَّماء ، أو يَقَعُ ٱمتِزاجُ عُنْصُرِ النَّارِ بعُنْصُر المَاء ؛ ؟ ومِن ثَمَّ عَزَّ هذا المَطْلَب لهذه الوَظِيفَة حتَّىٰ إنَّه لأَعَزُّ من الجَوْهرِ الفَرْد ، وقَلَّ وُجُودُه حتَّى لم يُوجَد إلا فى الواحد الفَذِّ فلا تراه إن تَراه إلا فى حيز النَّادِر ، ولا تَظْفَرُ به إلا ظَفَرَك بِبَيْض الأَنُوق إن كان يظْفَرُ به ظَافِر ؛ إلا أنه رُبَّما سمح الدَّهْرُ فأتَىٰ بالفَذِّ من هذا النَّوع فى الزَّمَن المتباعد ، أو أَسْعد الدَّهْرُ فأسْعَفَ بالواحد بعدَ ألف وَاحد .

ثم قد مضتْ بُرْهَةٌ من الأيام وجِيدُ دِيوانِ الانشاء من نَظَر من هو مُتَّصِفٌ ببعض هـذه الأوصاف عَاطِل ، والدَّهرُ يَعِدُ بمَن يقومُ فيه بتَفْرِيج كُرْبة المَلْهُوفين ولكنَّه يُماطِل :

يُرَقِّه ما يُرَفِّـه فى التَّقـاضِى * وليس لَدَيْه غيرَالمَطْلِ نَقْدُ!

إلىٰ أن طَلَع نَيِّرُ الزَّمان وتَوضَّحَ شُرُوقه، وظهرتْ تباشِيرُ صَباحِه وأَفَل بطُلُوع السَّعْد عَيُّوقُه، فأقْبَلتِ الدولةُ الظاهرية بسَعادَتِها، وتَلَقَّتْها الأيام الناصرية جارِيةً منها علىٰ وَفْقِ عادَتِهـا، ووُفِّر للدَّوْلتين من آنتخاب الأَصْـفِياء قِسْمَتُها، ومَخَضتْ لهـا الرَّأىَ الصائبَ حتّىٰ ظهرتْ فى الوُجُود زُبْدَتُها، فكان خُلاصَةَ آصْطِفَائِهما، وزُبْدَةَ آنْتِقائِهما، المقرُّ الأشرفُ، العالى، المَـوْلَوِىُّ، القاضَوِىّ، الكَبِيرِىّ، السَّفِيرِىّ، المُشِيرِىّ، الفَتْحِىّ، نظامُ الممالك الإسلامية وزِمامُ سِياسَتِها، ومُنَفِّذ أمورِها، وجامع رآسَتِها، أبُو المعالى فَتْحُ الله صاحِبُ دواوين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية، زادَ اللهُ تعـالىٰ فى آرْتِقائِه علىٰ تَعاقُبِ الدُّوَل، وأجْراه من خَفِىِّ اللُّطْف علىٰ أجْمَـل العَوائد وقد فَعَل، فَأُلْقِيَ إليه من أَسْرارِ المَمْلكة مَقَالِيدُها، وآتَّفَقَتْ بحُسْن سِفارَته بآتِّفاق الرُّواة أَسَانِيدُها، فنَفَذَت بتَنْفِيذِه أمُورُها، وكَمَلَتْ بصَحِيحِ رَأْيِه كُسُورُها، فجَرَتِ الأمور بحُسْن تَدْبِيره على السَّـدَاد، ومَشَتِ الأحْوالُ بلُطْف سِفَارته علىٰ أَتَمِّ المُرَاد، وآعترفتْ له الكافَّة بالسِّيادةِ فأطَاعَت، وعَرَفَتْ له الرَّعيةُ تَقَدُّمَه فى الرآسة فرَعَتْ حُرمَتَه ورَاعَتْ.

وإنَّ أُمُورَ المُلْك أضْحىٰ مَدَارُها * عَليهِ كمادَارَتْ علىٰ قُطْبِها الرَّحىٰ!

قد آسْتَعْبَدَ الخَطَّ فأصْبح له كالخَدِيم، وأتَىٰ من المعروف بكلّ غَرِيبٍ فأنسىٰ من أُثِرَعنه ذلك فى الزَّمَنِ القَدِيم، فلو رآه «خالدُ بن بَرْمَك» لأَحْجَم عن ملاقاته عِظَما، أو نَاوَأَه «يَحيىٰ بن خالدٍ» لمـاتَ من مُناوَأَته عَدَما، أو سَابَقَه «الفَضْل وجَعْفَر» آبناه لسَبقَهما كَرَما:

مَنَاقِبُ لو أَنِّى تكلَّفْتُ نَسْخَها، * لَأَفْلَسْتُ فى أقْلامِها ومِدَادِها!

أو سَمِع به "الحسن بنُ سَهْل" لقَطَع إليه الحَزْنَ والسَّهْل، أو بَصُر به "الفَضْل" أخُوه، لما رأىٰ أنه للفَضْل أهْل ؛ أو عايَنَه "أبو عَلِيّ بنُ مُقْلَة" لعلم أنه فاقَه حَظًّا وخَطًّا، أو نَظَر "ٱبْنُ هِلَالٍ" إلىٰ أَهِلَّة نُونَاتِه لتحقَّق أنه سَبَقَه إلىٰ تَحْرِيرِ هَنْدَسَةِ الحُرُوف وما أَخْطا :

إِذَا أخَذَ القِرْطَاسَ خِلْتَ يَمِينَه ✻ تُفَتِّحُ نَوْرًا أو تُنَظِّم جَوْهَرا !

فَإن تكلَّم أتىٰ من بيانه بالسِّحْرِ الحَلَال، أو حَاوَر أتَىٰ من البَلَاغةِ بما يُقَصِّر عن رتبته "سَحْبانُ" فى المَقَال، أو ترَسَّل أعْيىٰ "عَبْدَ الحَمِيد" فى رَسَائِله، أو كَتَب رَتَعْت من رَوْض خَطِّه فى زَهْرِ خمائِله :

يُؤَلِّفُ اللُّؤْلُؤَ المَنْثورَ مَنطِقُــه ✻ ويَنْظِمُ الدُّرّ بالأقْلَامِ فى الكُتُبِ !

فَرَأْيُه السَّيْفُ لا ما صَنَع الهِنْد، وعَقْلُه الصَّارِمُ لا ما ٱسْتُودِعَ الغِمْد :

فَفِى رَأْيِه نُجْحُ الأُمُورِ ولم يَزَلْ ✻ كَفِيلًا بإرْشَادِ الحَيَارىٰ مُوَفَّقا !

أَقْلامُه تُزْرِى بالصَّوارِمِ وتَهْزَأُ بالأَسَل ، وتَجْرِى بِصِلَةِ الأَرْزَاقِ فتَزِيدُ علَى الأمَانِى وتَرْبُو على الأَمَل :

بِتْ جَارَه فالعَيْشُ تَحْتَ ظِلالِهِ ✻ وٱسْتَسْقِهِ فالبَحْــرُ من أنْوائِه !

فمَكَارِمُه تُغْنِى من الإملاق ، وبَوا كِرُه بالإسْعادِ تبادر الغُدُوَّ والإشْراق ، وعَطايَاه تَسِيرُ سَيْرَ السَّحابِ فتُمْطِر الغَيْثَ على الآفاق :

كَرِيمُ مَسَاعِى المَجْــدِ يَرْكَبُ نَجْدَةً ✻ من الشَّرَفِ الأعْلىٰ وبَذْلِ الفَوَاضِلِ !

قد خَدَمتْه الحُظوظُ وأَسْعدتْه الجُدُود ، وقُسِمتِ المنازِلُ السَّنِيَّةُ فكان له منها سَعْدُ السُّعود :

لو عَدَّدَ الناسُ مافيه لما بَرِحَتْ * تَثْنِي الخَناصِرَ حتّى يَنفَدَ العَدَدُ!

فلو غَرَسَ الشَّوْكَ أثمَر العِنَبَاءَ أنَّى أرادَها ، أو حاوَلَ العَنْقاءَ فى الجَوِّ لَصَادَها ؛ أو زَرَعَ فى السِّبَاخِ لكانَ ذلك العَامُ العامَ والسَّنَةَ الخِصْبَه ، ولَضُوعِفَتْ مُضَاعَفَةَ حَسَناتِه فأنْبَتَتْ كُلُّ حَبَّةٍ سَبْعَ سَنابِلَ فى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّه :

وإذا السعادةُ لاحَظَتْكَ عيونُها ، * نَمْ فالمَخاوِفُ كُلُّهنَّ أمانُ ،

وٱصْطَدْ بها العَنْقاءَ فهى حَبائِل * وٱقْتَدْ بها الجَوْزاءَ فهى عِنَانُ!

قد لَبِس شرفًا لا تطمعُ الأيامُ فى خَلْعِه ، وتَقَمَّص من الفَضْلِ جِلْباباً لا تَتَطَلَّعُ الأيامُ إلى نَزْعِه ؛ وٱنتهى إليه المَجْدُ فوقف ، وعَرَفَ الكَرَمُ مكانَه فانحاز إليه وعَطَف .

فقَصُرتْ عنه خُطَا من يُجارِيه ، وضاق عنه بَاعُ من يُبَارِيه :

نَالَتْ يداه أقَاصِىَ الكَرَمِ الَّذى * مَدَّ الحَسُود إليه بَاعاً ضَيِّقا!

فَمَناقِبُه تَسْبِقُ أقلامَ الكَاتِب ، وتَسْتَغْرِقُ طاقَةَ الحاسِب ؛ ليس لٱرتفاعها غايه ، ولا لتَداوُلِها نِهايَه ؛ فلا تُوفِى جامِعَةٌ بشَرْطها ، ولا تَقُومُ جَرِيدَةٌ بِبَسْطِها :

وقَدْ وجَدْتَ مَكانَ القَوْلِ ذاسَعَةٍ * فإن وَجَدْتَ لِسَاناً قائِلاً فَقُل!

قد هتف بِمَدْحه خُطباءُ الأقلام علىٰ مَنَابِرِ الطُّروس ، ونَطَقتْ بفَضْلِه أفْواهُ المَحَابِر فنُكِّسَتْ لِرِفْعةِ قَدْره شَوامِخُ الرُّءوس ؛ وطَلَعتْ فى أُفُقِ المَهارِقِ سُعودُ إيَالَتِه السعيدةِ فأفَلَتْ لوجوده النُّحوس ؛ ورُقِمَتْ محاسِنُه بِنِقْسِ اللَّيلِ علىٰ صَفَحاتِ النَّهارِ فٱرْتَسَمتْ ، وحُمِلَتْ أخبارُ مَعْروفِه فتزاحمت الآفاقُ على ٱنْتِشَاقِ أرَجِ رِيحه العَبِقَةِ وٱسْتَهَمتْ :

لقَدْ كَرُمتْ فى المَكْرُماتِ صِفاتُه * فما دَخَلتْ لاءٌ عليها ولا إلّا!

اتّفقتِ الألْسنةُ على تقْريضِه فَمُدِحَ بكلِّ لسان، وتوافقتِ القلوبُ على حُبِّه فكان له بكلِّ قَلْبٍ مكان، وٱسْتَغْرَقَتْ مَمادِحُه الأزمِنَةَ والأمْكِنةَ فاستولى شُكْرُه على الزَّمان والمَكَان :

ولم يَخْلُ من إحْسانِه لَفْظُ مُخْبِرٍ * ولم يَخْلُ من تَقْرِيضِه بَطْنُ دَفْتَرِ !

على أنِّى أسْتقِيلُ عَثْرتى من التَّقصِير فى إطْرائِه، والتَّعرُّضِ من مَدْحِه لما لا أنْهَضُ بأَعْبائِه؛ فلو أن «الجاحِظ» نَصِيرى، و«ٱبنَ المُقَفَّع» ظَهِيرى، و«قُسّ بنَ ساعِدَة» يُسْعِدُنى، و«سَحْبانَ وائِلٍ» يُنْجِدُنى، و«عَمْرو بن الأهْتَم» يُرْشِدُنى؛ لكانَ ٱعترافى بالعَجْزِ فى مَدْحِه أبلغَ مما آتيه، وإقْرارِى بالتَّقْصِير فى شُكْرِه أولى مما أَصِفُه من تَوَالِى طَوْله وأيادِيه :

ولَوْ أنَّ لى فى كلِّ مَنْبِتِ شَعْرةٍ * لِساناً يُطِيلُ الشُّكْرَ فيه لقَصَّرا !

وهذه نسخةُ رسالةٍ للشيخ الإمام العَالِم مُعِين الدِّين تاج العلماء، خَطِيبِ الخُطَباء، زَيْن الأَئمة، قُدْوةِ الشَّرِيعة، الصَّدْرِ أبى الفَضْل يحيىٰ بنِ جَعْفر بن الحُسَين بن محمد الحَصْكَفِى رحمه الله، سماها : "عِتَابَ الكُتَّاب، وعِقَابَ الألْقاب، المُشْتملة على أُصُول الغَرِيب والإِغْراب" وهى :

عَذِيرِى من وُزَرَاءِ النصبة وكُتَّابِها، وكُبراء الدُّسُوت وأرْبابِها، وأَوَاخِى الدُّوَل وأَطْنابِها، ونُوَّابِ الدَّواوِينِ وَأَنْيابِها[1]، وجُبَاةِ بُيُوت الأموال، والسُّعاة فى زَمِّ نُشَرِ الأَحْوال؛ وسَاسَةِ الممالك، وصُحُفِ أسْرار المَآلك؛ الشّامِخِين بأُنوف التِّيه والكِبْرياء، والسّاحِبِينَ ذُيولَ العُجْب والخُيَلاء، الرّافلين فى حُلَلِ البَهاء، والغافِلِين عن فُرُوض العلاء؛ الذين تَبَوَّءُوا السُّؤْدَدَ من غير سَدَاد، وتَسَنَّموا الرُّتَب بلا إعْداد؛

(١) الأنياب جمع ناب وهو سيد القوم وكبيرهم .

فكأنهم الحاصب ، وعدوّ الله المناصب ؛ شَغَلهم الأشَرُ والفُجُور ، وكلٌّ علىٰ بَسْطَتِه يَجُور ؛ همهم محج الأحْراح ، وثَجُّ الراح بالماء القَرَاح ؛ وآمْتِطاءُ المُرْد ، والعِتاقِ الجُرْد ؛ أَمَلُهم تنْجِيد الأفْنيَه ، وتَشْيِيدُ الأبْنِيه ؛ والزِّيادةُ فى الرَّقِيق والكُرَاع ، والخَوَل والأتباع ؛ وليس بغَال ، كَثْرةُ خَيْلٍ وبِغال ؛ بما باعوه من الوَرَع والدِّيانَه ، وأضاعُوه من العفة والصِّيانَه :

قَدْ مَلَكُوا الدُّنيا علىٰ غِرَّةٍ * ونَافَسُوا فيها السَّلاطِينا !
تَوَزَّعوا الدَّولة والمُلْك والْـ * ـحَضْرَةَ والإسْلَام والدِّينَا ،
شَادُوا بأعْمالِهِمُ دُورَهم * وأخْربُوا فيها الدَّوَاوِينا ،
عَفُّوا وما عَفُّوا بأقْلامِهم * مَسَاكِنًا تَحْوِى مَسَاكِينَا ،
غَرَّتْهم الدُّنيا بأن أظْهَرت * عَنْ غِلْظَةٍ تُضْمِرُها لِينَا ،
والدَّهْرُ كَمْ جَرَّع فى مَرَّةٍ * مُرًّا وحَيْنًا سَاقَه حِينَا .
يا أنْفُسًا ذَلَّتْ بإتْيانِهم * وَيْك أتَأتِينَ الأتَاتِينا .
لاتَرْغَبِى فى رِسْلِهم إنَّما * تَمْرِينَ فى القَعْبِ الأمَرِّينا !
وكان يُجْدِى القَصْدُ لو أنَّهم * يَدْرُونَ شَيْئًا أو يَدَرُّونَا .
مَوتَىٰ هُمُو فَلْيَكُ تَقْرِيظُهُم * إن كُنْتِ لَا تَأْبِينَ ، تَأْبِينَا ،
لايَعْتَنِى الفَضْلُ بإطْراءِ مَن * يكونُ فيه الهَجْوُ مَغْبُونا ،
لَو رُمْتَ شيئًا دُون أقْدارِهِم * لَهَجْوهمْ لم تَجِد الدُّونَا ! ! !

قد أخْلَدوا إلى الوَضَاعه ، عن تَحْصِيلِ البِضَاعه ، وكَفَاهُم من البَرَاعه ، بَرْىُ اليَراعه ، وعُنُوا بآسْوِدَاد اللِّيقه ، عن سُؤْدُدِ الخَلِيقه ؛ وأحَالُوا على الرِّمَم ، عند قُصُورِ الهِمَم ؛ ومن أعْظَم الآفَات ، فَخْرُهُم بالعَظْمِ الرُّفَات .

وكأنّهم لِصَميم هاشِمْ * أو من لَهاميم العَباشِمْ،
غَشِموا فما يَغْشاهُمُ * بالطَّوْع إلا كُلُّ غاشِم:

لا يُعِينُ أحَدُهم علىٰ مُرُوّه، ولا يُنْعِشُ ذَا أُخُوّه، ولا يَرْعىٰ وارِثَ أُبُوَّه، ولو اعْتَزىٰ إلىٰ بُنُوّه، فهو غير آسٍ بجُودِه، ولا مُواسٍ بمَوْجُوده، يَرُوقُك كِيسُه والغُلَام، وتَرُوعُك دُوِيُّه والأقْلام، فإذا ٱسْتَنْطق قَلَمه الصَّامت، أَجْذَلَ عَدُوّه الشَّامِت، فزاد أدْرَاجَهُ ناقصا، وعاد على أدْرَاجِهِ ناكصا .

فهو الذى أمْلىٰ لهم حِلْمُه * مع الخَنا والنَّكَدِ الباهض:
لَوْ أنّنى وُلِّيتُ تأديبهم * شَفَيْتُ صَدْرَ النَّقِه النَّاهِض!
من نَاظِرٍ يُضْحى بلا نَاظِرٍ، * وعَارِضٍ يُمْسى بلا عَارِض،
ومُشْرِفٍ للدين ما قَصْدُه * فى الوَطْبِ إلا زُبْدَةُ المَاخِض،
وخَازِنٍ إن لَفَّ مَرْضَاته * من حُلْوِهِم عَفَّ عن الحَامِض،
ومن خَبِيثٍ جاءنا ذِكْرُه * فى الذِّكْر بين البِكْرِ والفَارِض،
وكَاتِبٍ لو أنْصَفُوا مُهْرَهُ * لكَان أوْلىٰ مِنْه بالرَّائِض!!!

إن وَقَّع، رأيتَ اللَّفْظ المُرَقَّع؛ وإن أطَال وأسْهَب، أذَال عِرْضَه وأنْهب؛ وكان أحَقَّ بتَقْلِيد الفُهُود، عند تَقْلِيد العُهُود؛ وأولىٰ بشَطْرِ المَنَاشِير، عن سَطْر المَنَاشِير؛ وأجْدَر بقَبْضِ الرُّوح، إذا ٱنبسط للشُّرُوح، وأخَذَ فى ذِكْر الوقَائِع والفُتُوح؛ كَفُّه بالجَلَم، أوْلىٰ منها بالقَلَم؛ وأخْلَقُ بالمِسْحاه، من السِّحاه؛ وأَلْيَقُ بالفُؤُوس، من الطُّروس؛ يَبْرى ويَقُط، ولا يَدْرى مايَخُط؛ إذ لَيْس فى السَّفَط، غير السَّقَط؛ إن فَاتَحْته، أو طَارَحْته؛ ظَفِرْتَ بغُصَّة المَاتِح؛ وخَشْرِ المُفاتِح، إن خَطَّ: فَنُونُه كَلَامه، وخَلَط فُنُونَه فى كلامه .

إنْ وَقَّعُوا وقعُوا فى ذَمِّ كُلِّ فَمٍ ، * أو أَنفَذُوا أَنْفَذَتْهم أَسْهُمُ الكَلِمِ ،
أو قَلَّدوا قُلِّدُوا خِزْيًا يُجَلِّلُهُمْ ، * أَو أَقْطَعُوا قُطِّعُوا شَتْمًا بجَهْلِهِمِ .
أَرَاقِمُ المَالِ والأَعْمالِ إنْ رَقَمُوا * جَاؤُا من الرَّقْمِ والأَلْفاظِ بالرَّقِمِ ،
فالله يأخُـذُ مِنْهـم للدَّواةِ وللأَنْقَاسِ بالحَقِّ والقِرْطاسِ والقَلَمِ ! !

فالحَدِيد بهم سَمَل ، والسَّوامُ بينهـم هَمَل ، ولا عِلْم عندهم ولا عمَـل ؛ لَهَفِى على الفَضْلِ المُذَال ، برِفْعةِ الأَنْذَال ، وضَياعِ الحُقُوق ، وٱنضياع البَيْضَةِ عن العُقُوق .

ثم ما علىٰ سـيدِنا الوَزِير ، مع ٱصْطحابِ البَمِّ والزِّير ، ونَفَاقِ سُوقه ، وٱنغماسـه فى فُسُوقه ، وٱتِّصال صَبُوحه بغَبُوقه ، وتَخَلِّيه فى البَهْو ، للَّعِب واللَّهْو ، من ظَهْرِ غَيٍّ يُرْكَب ، وذِى يَسارٍ ينكب ، وسَاعٍ يَشِى ، ورَاعٍ يَرْتَشِى ، ورُسُومِ حَيْفٍ تُجَـدّد ، وسَوْآتٍ تعـدّد ، ما يَضُرّه من شَكْوى الجَارِحِ البُغَاث ، وصَريخٍ لا يُغاث ، ووَالٍ يَعْسِـفُ بأَهْلِ مصره ، وإنْ شَرِكَه فى إصْره ، وقاضٍ لا يُنْصِف الرَّعِيـه ، ولا يَتَّبع القضايا الشَّرْعيه ، وفَقِيـهٍ يَسِفُّ إلىٰ تَحْصِـيل عَرَضٍ زائل ، وتَعْجِيلِ غَـرَضٍ من سَائل ، ماله ولِحفْظِ المال ، ومُحَاسَبَةِ العمال ؟ :

أَمْ ما عَلَى العَامِلِ نِمْسِ الدَّجاج * إنْ نَقَصَ الكَرْمُ وزَادَ الخرَاج ؟
عليه أن يَحْصُلَ فى كُمِّـه * شَىْءٌ وإنْ أخْلَىٰ جَمِيعَ الحرَاج .
وهْـو خُرَاجٌ عنـد مَا ينْتَهِى * يُبَطُّ بالمِبْضَعِ ما فى الخُرَاج ! ! !

شُـغْلهم بالشَّهْدِ المَشُور ، لا بمَشْهدِ يَومِ النُّشور ، وقَصْدهم الجَمْع والاكْتساب ، ومَتَى الجَمْع والحِسَاب ؛ إنمـا هو مال يُحْتَقَب ، لا مآل يُرْتَقَب ، وفَسادٌ فى الأرض ، لا إعداد ليَوْم العَرْض :

وَإِنِّى لَأَرْثِى لِمَـراتِبَ تَحْتَوِى * عليها قُرُودٌ فوقهن بُرُودُ،
سِراعٌ إلى السَّوْآتِ فيما يَشِينُهُم * ولٰكِنَّهم عما يَزِينُ رُكُود،
يِقَاظٌ إذا ما ثَوَّبَ اللُّؤْمُ دَاعِيًا * وعند نِداءِ المَكْرُمات رُقُود،
وما غَرَّنِى إلّا جَلَاوِز حَوْلَهم * وإلا قِيامٌ بينهم وقُعود.
لقد حُسِدُوا ظُلْمًا علىٰ ما أتاهم * وهَلْ لأَخِى نَقْصٍ يَسُودُ حَسُودُ؟
وللسَّيِّد المَحْسودِ كَفٌّ عن العُلىٰ * تَذُودُ وأُخرىٰ بالنَّوال تَجُودُ.
لَحا اللهُ دُنْيانا التى ضَلَّ سَعْيُها * وفيها علينا بالضَّلال شُهُود.
إذا صُغِّرَتْ كاسم الحُسَيْنِ مَحَلَّةٌ * عَلَتْ وعَلا فيها يَزِيدُ يَزِيدُ.

إنما الصَّدْرُ من صَدَّره كَمالُه، وحَسُنَتْ أعْمالُه، وجَرَّد العَزَمات، فشَرَّد الأَزْمات، ونَفَىٰ بذَبِّه الكُرُبات، واصْطَفىٰ لِرَبِّه القُرُبات، فسهل الغِنَى، وأفْعَم الإنا، ووَضَع مَواضِعَ النَّقْبِ الهِنا، فهو يَهَشُّ للنَّوال، ويَبَشُّ عند السُّؤال، لا يَشُوب وِرْدَه القَذَا، ولا يُبْطِلُ مَنَّه بالمَنِّ والأَذَىٰ، يبشر بِشْره بمَحاسِنِ الأخلاق، ويَنْشُر نَشْره الطَّيِّبَ فى الآفاق، ويَحْسِمُ بدواته دَاءَ الإمْلاق، ويُحْرِز بقصبته قَصَبَ السِّباق :

يُجَرِّدُها من مِثْلِ وَفْضَةِ نَابِلِ * أَجِنَّتُها مِن نَافِذَاتِ المَعابِلِ،
وفى خَطِّه المَنْسوبِ تُزْرِى شَباتُها * بِلَهْذَمَ مَنْسُوبٍ إلى الخَطِّ ذَابِلِ،
وإن بذَرَتْ عن حَبَّةِ القَلْبِ أَنْبَتَت * مِن البِرِّ قبلَ البُرِّ سَبْعَ سَنابِلِ ! !

دُؤُوبُه لإقالةِ العاثِر، وعِمارةِ الدّاثِر، وإشاعةِ المآثِر، هَمُّه فى مُعْضِلَةٍ تُراض، ومَعْدِلَةٍ تُفاض، وخَلَلٍ يُسَد، وخَلَلٍ يُصَدّ، وعَانٍ بظَهْرِه يُعان، وعاتٍ بقَهْره يُهان، بابُه مَفْتوح، وخَيْره مَمْنوح، وما أقَلَّ اللّائِم، لمن أكثر الوَلائِم، وأَغْفَل الحادِب،

لمن صنع المآدب، وأخلص الإخاء، لمن آستخلص السخاء؛ فبذل الرغوة والصريح، والسنام الإطريح؛ لا كمن يشح بالقتار، لفرط الإقتار؛ ويضن بالوضر، على المحتضر؛ ويبخل بالعراق، عمن روحه فى التراق؛ ويسر الغميره، لمن يبتغى الميره؛ ويبطن الداء، لمن ينتظر الغداء؛ ويسعر الأحشاء، لمن ترقب العشاء:

مسلط سيرته نقمة * وجائر قسمته ضيزى،
ليس بذى لب يمل الثأى * ولا لباب يملأ الشيزى!

يحقد على الإخوان، عند ظهور الخوان؛ فتراه يحدق، إلى من يشدق؛ وينتقم، ممن يلتقم؛ ويذل الأكيل، ويحل به التنكيل؛ ويبغض الشريب، وإن كان الخدن القريب؛ فالحائن من يرد، فيزدرد؛ والحائن من ينبسط، فيسترط؛ يشنأ من الأجراس، صوت الأضراس؛ وحشرجة البلاعم، بدحرجة المطاعم؛ وهرهرة الشدوق، وجرجرة الحلوق؛ وقد صدت حواجز بلواه، أفواها تصدت لحلواه؛ وحكمت لحامه، بحكمة لجامه؛ وعدت بكيوانه، لهى وعدت بألوانه؛ رغيفه أعرز[(١)] من الغريف، وأغرب من الشىء الطريف؛ صريف بابه، دون صريف نابه؛ ويحكم صك بابه، عن كبابه؛ ويعد سديف جفانه، من سديف أجفانه؛ يمانع بلديده، عن سفود قديده؛ ويصافح بصفحة وريده، عن صحفة تريده؛ حمله من نجوم الحمل، وسمكه فوق السماك الأعزل؛ وحوته بين الحوت والأسد، وجديه عند جدى الفرقد؛ دون عجته آرتفاع العجاجه، وتحت دجاجته ذنب الدجاجه:

يدرج فى القدر دراجه * ليلقط الحب وطيهوجه
ففى السموات سماناته * وعند ديك العرش فروجه

(١) من عرزه يعرزه انتزعه انتزاعا عنيفا والغريف الدلو .

يَحْرُسُ مائدَتَه الدَّلْو والعَقْرب، وهُما منَّا أدنىٰ وأقْرَب؛ يُعجِبُه التَّشمِيرُ والاْحتِجان، ويَلَذُّ له التَّوفِير والاْختِزان؛ وقصرُ مُفَاجَأَة أحوال، تُصَرِّحُ عن أهْوال؛ وكأنَّك بالأيام بعد الاْبتِسَام، شاهرة للحُسام؛ قد كَشرَتْ عن أنيابها العُصُل، فى بُكَرِها والأُصُل؛ وأجْلتْ عن سَلِيبٍ مَسْحُوب، لتَنَكُّرِ مَصْحوب؛ وآخَر يتردَّدُ فى البُوس، ويُخَلَّد فى الحُبُوس؛ قد حصل علىٰ سَلَّةِ الحاوى، من سلة الحلاوى؛ ومن طَعْمِ العَسَل، علىٰ طَعْنِ الأَسَل؛ ومن العَذْبِ البَارِد، علىٰ حَزِّ المَبَارِد:

تقبض من خَطْوِهِ الكُبُول * فهو علىٰ قَيْدِه يبُولُ،
خَلَا من الخَيْرِ فهو طَبْل * وهكذا تضْربُ الطُّبُول،
يَشْكُو إلى الله مُسْتغيثاً * وما له عنده قَبُولُ،
ذَاك بما كان مُسْتطِيلًا * تُرْدِى دَوَاهِيهِ والمُيُول!

فهم بين حصى تعصر، وقفا يقصر، وكِعَابٍ مَثْقُوبَه، وأنواعِ عُقُوبه؛ أو يقال فلانٌ أنارته شَعُوب، ووارَته الجَبُوب، واكْتَفىٰ بسُلْفَةِ المَمَات، من المُقَدَّمات؛ وما ظَنُّك بالشِّلْوِ الطَّرِيح، فى ضَنْكِ الضَّرِيح؛ تَحته البَرْزَخُ المَوْصُود، وفوقه الجَنْدَل المَنْضُود، أُنظر كَيْفَ هُجِر بابه المقصود، وجانَبَتْ جنابَه الوُفُود؛ وأخْلَقَت رِبَاعُه، وتَفَرَّقَتْ أتْبَاعُه؛ ثم تَشْوِيه الحوب، أبشع من تشويه الشُّحُوب(؟)؛ وويْلٌ للقَوْم البُور، من بَعْثَرَةِ القُبُور:

ويا خَسَارَ الأنْفُس الغَاوِيَه * من بعد تلك الحُفَرِ الهَاوِيه،
وكُلُّ مَن خَفَّتْ مَوازِينُه * فَأُمُّه فى بَعْثِهِ هَاوِيَه،
وليس يَدْرِى وَيْحَهُ ماهِيَهْ * نارٌ علىٰ سُكَّانِها حَامِيَه!

أعاذنا الله من خِلَالٍ يقضى جَهْلُها بالشَّنَار، وأفعالٍ تُفْضِى بأهْلِها إلى النَّار، بكَرَمه وإحسانه، وطَوْلِهِ وٱمْتِنانِه .

الصـــــنف الثـالث

(من الرسائل المفاخراتُ ، وهى علىٰ أنواع)

منها : المفاخرة بين العـــلوم .

وهذه نسخةُ رسالةٍ فى المُفَاخَرة بين العلوم ، أنشأتها فى شُهُور سنة ثمـان وتسعين وسبعمائة، لقاضِى القضاةِ شيخ الإسـلام، عَلَّامةِ الزمان، جلالِ الدِّين، عبدِ الرحمن ٱبنِ شيخِ الإسلام ، بَقِيَّة المجتهدين ، أبى حَفْص عمرَ البُلقينِيِّ الكنانىِّ ، الشَّافعىِّ ، أمْتَع الله تعالىٰ المسلمين ببَقَائِه ، ذكرتُ فيها نَيِّفًا وسبعين عِلْمًا، ٱبتدأتها بعِلْم اللُّغة ، وخَتَمتُها بفَنِّ التاريخ، ذاكرًا فَخْر كلِّ علمٍ على الذى قبله ، محتجًّا عليه بفضائلَ موجودة فيه دون الآخر، وجعلتُ مَصَبَّ القولِ فيها إلىٰ ٱشتماله علىٰ جميعها، وإحَاطتِه بكُلِّها، مع الإشارة إلىٰ فَضْل والِده، شيخِ الإسلام، ومساهمتِه له فى الفَضْلِ، علىٰ ماستَقِفُ عليه إن شاء الله تعالىٰ، وهى :

الحمدُ لله الذى جَعَل للعِلْم جلالًا تَوَدُّ جلائلُ الفضائل أن تكونَ له أتْباعا، وأطلق أَلْسِنةَ الأقلام من جميل ثَنَائِه بمـا أنْطقَ به أَلْسِنةَ العالَم ليكونَ الحُكْم بمـا ثَبَت من مَأْثور فَضْــلِه إجماعا، وأجْرىٰ من قَامُوسِ فِكْره جَدَاوِلَ أنهار العلوم الزَّكِيَّة فَنَعَّش قُلوبًا ونَزَّه أبصارًا وشَنَّف أسْماعا .

أحمدُه علىٰ أنْ أفاض نَتَائِجَ الأفكار على الأذهان السَّلِيمةِ لِذِى النَّظَر الصحيح، وبَثَّ جيادَ الألْسنَة فى مَيْدان الجِدال فحاز قَصَبَ السَّبْق منها كلُّ لسانٍ ذَلِق فَصِيح .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له الذى قَهَرتْ بَيِّنـاتُ دلائِلِه المُلْحِدَ المعَانِدَ، وبَهرتْ قَواطِعُ براهِينِه الأَلَدَّ الخَصِيمَ والجَدِلَ المُكايِد؛ وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أظهرَ من واضحِ الحُجَجِ الجليّةِ ما سقط بحُجِّيَّته دَعْوى المُعارِض، وأتىٰ من فَصْـلِ الخِطَاب بمـا أفحمَ به الخصومَ فلم يستطع أشَدُّهم فى البلاغةِ شكيمةً أن يأتِيَ له بمُنَاقِض؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين فازوا من جَليلِ المَنَاقِبِ بكل وَصْفٍ جميـل، وٱشتهرتْ فى الوجود مَفَاخِرُهم فلم يُحتجْ فى إثباتها إلىٰ إقامة دَليل؛ صلاةً يُتمسَّكُ فى دَعْوى الشَّرَف بمَتِين حَبْلها، وتَتَّفِقُ أدلَّة العَقْل والنَّقْل على القطع بعُلُوِّ شأْنِها وتَوفُّرِ فَضْلها .

وبعـد، فلما كانت العلومُ مشتركةً فى أصْلِ التَّفْضيل، مُتَّفقةَ الفَضْل فى الجملة وإن تَفاوَتتْ فى التفصيل؛ مُسَلَّمًا أصْلُ الشَّرَف فيها من غير مُنازِع، مُجْمَعًا علىٰ أنه لا شَيْءَ من العِـلْم من حيثُ هو علمٌ بضَارٍّ ولا شيءَ من الجَهْل من حيثُ هو جهلٌ بنَافِع؛ مع ٱختلافها فى التَّفاضُلِ باختلافِ مَوْضوعاتها، وتَفاوُتِها فى الشَّرَف بحسب الحاجة إليها أو وَثَاقة حُجَجها أو نفاسة غَاياتها؛ عَطَس كلٌّ منها بأنْفٍ شامخٍ غيرِ مُسَلِّمٍ للآخر ولا مُسالِم، ومدَّ إلَى العَلْيـاءِ يَدَ المطاولة فتناول الثُّرَيَّا قاعدًا غير قائم؛ وٱدّعىٰ كلٌّ منها أن بَحْره الطَّامى، وفَضْله النَّامِى؛ وجَوَاده الطَّامِح، وسِمـاكَه الرَّامح؛ زاعمًا أن حُسامَه القاطِع وعَضْبَه القَاضِب، وقِدْحَه المُعَلَّىٰ وسَهْمه الصَّائب، ونَجْمَه السارِى وشِهابَه الثَّـاقِب؛ وأن نَشْر الثناء علىٰ مَجامِره مَوْقُوف، وخَطِيبَ المَحـامِد بمَنَابِره معروف؛ وفَلَكَ الفَضْلِ علىٰ قُطْبِه دائر، وكلَّ شَرَفٍ عليه مُحَبَّسٌ وكلَّ فخرٍ عليه قاصر؛ فمَـاسَ بعِطْفِه ومَال، وبَسَط فى الكلام لِسَانَه فقال وطَالَ .

هٰذا : وإنَّها ٱجتمعتْ يومًا ٱجْتِماعَ مَعنًى لا صُورَه، وقامتْ لهـا سُوقٌ بالبَحْثِ معروفةٌ وعلى الجِـدَال مَقْصوره؛ وتَفاوَضَتْ بلِسانِ الحـال وتَخاطَبَتْ، **وتَحاوَرَت**

فى دَعْوى الشَّرَف وتجاوَبَتْ ، وأَلَمَّتْ بالمُنَافَرة فتنافرتْ ، وتسابقتْ فى مَيْدان الأَنْتِخار فتفاخَرَتْ ، وأخذَ كلٌّ منها فى نُصْرةِ مَذْهبِه ، وتَحْقيق مَطْلَبِه ، بأنواع الحُجَج والأستدلالات ، وإقامةِ البراهين والأَمارات ، ومايَتَوجَّه علىٰ ذلك من الأسئلة والأعتراضات . فكان أوّلَ باديءٍ بدأَ منها بالكلام ، وفَتَح بابَ الجِدال والخِصام : —

علمُ اللُّغَـــة فقال :

قد عَلِمْتم مَعْشَرَ العلومِ أنّى أعَمُّكم نَفْعًا ، وأَوْسعُكم مجالًا وأكثرُكم جَمْعا ، علىٰ قُطْب فَلَكى تَدُور الدوائر ، وبواسطتى تُدْرك المَقاصِد ويستعلمُ ما فى الضمائر ، وبدلالتى تُعْلَم المَعانى المفردات ، ويَتَميَّز مايدلُّ على الذوات ممـا يَدُلُّ على الأَدَوات ، وتَتبيَّنُ دِلالاتُ العامِّ والخاص ، ويتعرفُ ما يُرْشِد إلى الأنواع والأجناس وما يختصُّ بالأشخاص ، علىٰ أن كُلَّكُم كَلٌّ عَلَىَّ ، ومُحتاجٌ فى تَرْجمة مَقْصودِه إلَىَّ ؛ فلَفْظى "المُحْكَم" وأقوالى "الصِّحاح" ، وكَلامى "الجَامِع" وسَيْف لسانى "المُجَرَّد" نَاهيكَ من سِلاح ، وفَضْلى "المُجْمَل" لا يحتاج إلىٰ بيان . اِسْتَأْثر اللهُ تعالىٰ بتَعْليمى لآدمَ عليه السلام ، وآثره بى معرفةً على الملائكة فكان خِصِّيصةً(١) له على الملائكة الكرام .

فلمـا ٱنقضىٰ قِيلُه ، وبانَتْ للستَبِيرِ سَبِيلُه ، ثَابَ إليه علمُ التَّصْريف مُبْتدرا ، ولنَفْسِــه ولسائر العلوم مُنْتَصِرا ؛ فقال : رُوَيْدَكَ أيُّها المُساجِل ، وعلىٰ رِسْلِكَ ياذا المُناضِل ؛ فقد ذَلَّ مَن ليس له ناصِر ، وحُطَّ قَدْرُ من تَرفَّع علىٰ أبناء جِنْسه ولو عُقِدَت عليــه الخَنَاصِر ، وما يُجْدى البَازِى بغـير جَناح ، أو يُغْنِى السَّاعى إلى الحَرْب بغـير سِــلاح ، وأنَّىٰ يَطْعنُ رُمْحٌ بغير سِنان ، أو يقطَعُ سَيفٌ لم يُؤَيَّدْ بقائم ولم تَقْبِضْ عليه بَنَــان ، إنَّك وإن حَويتَ فَضْلا ، وأعْرقتَ أَصْلا ، وكنتَ للكلام نِظاما ، وإلىٰ

(١) الذى فى كتب اللغة «خِصِّيصىٰ» ويمدُّ .

بَيَان المقاصد إِمَاما ؛ فأنتَ غير مُسْتقلّ بنفسك ، ولا قائم برَأْسك ؛ بل أنا المتكفِّلُ بتأسِيس مَبَانِيك ، والملتزِم بتَحْرِيرِ ألفاظك وتَقْرِيرِ مَعانِيك ؛ بى تُعرفُ أصولُ أبْنِيَةِ الكلمة فى جميع أحوالها ، وكيفيةُ التَّصرُّف فى أسمائها وأفعالها ؛ وما يتَّصِلُ بذلك من أحوال الحروف البسيطة وتَرْتِيبها ، وآختلافِ مَخَارِجها وبيان تَرْكيبها ؛ والأَصْلِيّ منها والمَزِيد ، والمَهْمُوس والرِّخْوِ والشَّدِيد ؛ و (١) تَقْدِيره ، والصحيح والمُعْتَلّ وتحريره ؛ وكيفية التَّثنية والجَمْع ، والفَصْل والوَصْل والآبتداء والقَطْع ؛ وأنواعِ الأبنية وتَغَيُّرها عند اللَّوَاحِق ، وكيفية تَصْرِيف الفِعْل عند تَجَرُّده عن العوائق ؛ وأمْثِلة الألفاظ المفردة فى الزنة والهَيْئة وما يَختصُّ من ذلك بالأسماء والأفعال ، وتمييز الجامد منها والمُشْتَقّ وأصناف الآشتقاق : وكيفَ هو على التَّفصيل والإجمال .

علىٰ أنّك لو خُلِّيتَ ومجرَّد التعريف ، وبيان المقاصد بالآصطلاح أو التَّوْقِيف ؛ لكان عِلْمُ الخَطّ يقوم مقامك فى الدِّلالة الحالِيَّة لَدَى المُلْتقِىٰ ، ويترَجَّحُ عليك ببُعْد المسافة مع طُول البَقا ؛ مع ما فيه من زِيادَة تَرْتِيب الأحوال ، وضَبْط الأموال ؛ وحِفْظِ العلوم فى الأدوار ، وآستمرارِها على الأكوار ؛ وآنتقالِ الأَخْبار من زَمانٍ إلىٰ زمان ، وحَمْلِها سرا من مكانٍ إلىٰ مكان ؛ بل رُبَّما آكْتُفِىَ عنك بالإشارة والتَّلْوِيح ، وقامت الكِناية منها مَقَامَ التصريح .

فعندها غَضِب علمُ النَّحْو وآكْفَهَرّ ، وزَمْجر وآشْمَخَرَّ ؛ وقال : يا لله ! "آسْتَنَّتِ الفِصَالُ حتَّى القَرْعا" ، و"آسْتَنْسَرت البُغَاثُ" فكان أشَدَّ ثُلْمَةً وأعظَمَ صَدْعا ؛ لقد آدَّعيتَ ما ليس لك ففَاتَك الحُبور ، و"مَن تَشَبَّع بما لم يَنَل فهو كلابِس ثَوْبَىْ زُور" ؛ وهل أنت الا بَضْعَةٌ مِنِّى ؟ ، تُسْنَدُ إلَىَّ وتنقلُ عَنِّى ؛ لم يزل علمك باباً من أبوابِى ،

(١) بياض بالأصول .

وجُمْلتُـك داخلةٌ فى حِسابى؛ حتّى ميّزك "المَـازِنىُّ" فأفردك بالتَّصْـنيف ، وتلاه "ٱبنُ جِنّى" فتبعه فى التأليف؛ وٱقتصر "ابنُ مالك" منك فى تعْريفه على الضرورىّ الواجب ، وأحْسَن بك "ٱبنُ الحـاجب" فى شافيتـه فرَفَع عنك الحَاجب؛ وأنت مع ذلك كلّه مَطْوِىٌّ ضِمن كُتُبى ، نِسْبَتُك متّصلةٌ بِنِسْبَتِى وحَسَـبك لاحِقٌ بحَسَبى؛ أنا مِلْح الكلام ، ومِسْـكُ الختام ؛ لا يَسْـتغنِى عنّى متكلم ، ولا يَلِيقُ جَهْـلِى بعالِم ولا مُتَعلم ، بى تتبين أحوالُ الألفاظ المرَكَّبة فى دلالتها على المقاصد، ويرتفع اللَّبس عن سامعها فيرجع من فَهْمِها بالصِّلَة والعـائد ؛ فلو أتَى المتكلِّمُ فى لَفْظِه بأجلّ معنًى ولَحَن لذَهَبْت حَلاوَتُه ، وزالتْ طلاوته ، وعيبَ على قائِله وتغيرتْ دِلالتُه . وقد كانت الخُلَفاء تحثُّ على النَّحْو وترشد إليه ، وتَحْذَر اللَّحْن وتُعاقِبُ عليه :

و إذا طَلَبْتَ من العُلُوم أجلَّها * فأجَلُّها عِنْـدِى مُقيمُ الألْسُنِ !

فَبيْنما هو كذلك إذ بَرَزت علومُ المَعَانى والبَيَان والبَدِيع جُمْلَه ، وحَمَلتْ عليـه بِصِـدْق العَزْم فى اللِّقـاء حَمْلَه ؛ وقالتْ : جَعْجَعَةُ رَحًا من غير طِحْن ، وتَصْويتُ رَعْدٍ من غير مُزْن ؛ لقد أتَيْت بغـير مُعْرب ، وأعْربتَ عن لَحْنٍ ليس بمُطْرِب ؛ الحَقُّ أبْلَج ، والبـاطِلُ لجْلَج ؛ إن الفَوْزَ لِقِـدْحنا ، والوَرْىَ لقَـدْحنا ؛ نحنُ لُبُّ العَربيّة وخُلاصتها ، والمُعْتَرِفُ لنا بالفَضْـل عامَّتُها وخاصَّتُها ؛ وهَـلْ أنتَ إلا شىءٌ جَرىٰ عليـك الٱصْطلاح ، وساعَدَك الٱستعمالُ فأمِنْتَ الٱطِّراح ؛ فلو ٱصْطُلِح علىٰ نَصْب الفاعل ورَفْع المفعول لم يخلّ بالتَّفاهم فى المقاصد، وهٰا كلامُ العامّة لذلك أقْوَمُ دليل وأعْظَم شاهِد .

فقال علمُ الشعر : أرا كُمْ قد نَسِيتم فَضْلِى الذى به فَضَلتم ، وصَرَمْتُمْ حَبْلِى الذى من أجله وَصَلْتُم ؛ أنا حُجّة الأدَب ، ودِيوان العَرَب ؛ علىّ تَرِدُون ، وعنّى تَصْدُرون ؛

وإلىّ تنْتَسِبون، وبى تَشْتَهِرون، مع ما آشتملتُ عليه من المَدْح الذى كم رفَع وَضْعا، وجَلَب نَفْعا، ووَصل قَطْعا، وجَبَر صَدْعا، والهَجْو الذى كم حَطَّ قَدْرا، وأَخْمد ذِكْرا، وجَعَل بين الرَّفِيع والوَضِيع فى حَطِيطَةِ القَدْر نَسَبًا وصِهْرا، إلىٰ غير ذلك من أنواعى الشِّعْرية التى شاع ذكرها، وأضْوَاعى العِطْرِية التى فاح نَشْرُها؛ بل لا يكاد عِلْمٌ من العلوم الأدَبِيَّة يَسْتغنِى عن شَوَاهدى، ولا يخرج فى أصوله عن قَوانِينِى وقَواعِدِى؛ حتّىٰ علم النَّثْرِ الذى هو شَقِيقِى فى النَّسَب، وعَدِيلى فى لسان العَرَب، لم يَزَل أهْلُه يتطَفَّلُون علىّ فى بَيْتٍ يَحِلُّونه، ويَقِفُون من بَدِيعِ محاسنى عند حَدٍّ لا يَتَعَدَّوْنه .

فقال علمُ القافية : إنَّك وإن تألَّق بَرْقُ مَبَاسِمك، وطابَتْ أيَّامُ مَواسِمك، فأنتَ موقوفٌ علىٰ مقاصدى، ومُعْتَرِفٌ من رَوِىّ مَوَارِدى؛ أنا عُدّة الشَّاعر، وعُمْدَة الناثر؛ لا يَسْتغنِى عنى شِعْرٌ ولا خَطَابه، ولا يَسْتَنْكِفُ عن الوُقُوف علىٰ أبوابى ذُو تَرَسُّلٍ ولا كِتَابَه؛ طَالَمَا عَثَر الفُحولُ فى مَيْدانى، وتَشَعَّبتْ عليهم طُرُقِى فضَلُّوا السَّبيلَ وآختلفتْ عليهم المَبَانى؛ فلم يُفرِّقُوا بين التَّكَاوُس والتَّراكُب فى التَّعارف، ولم يُمَيِّزُوا بين التَّدارُك والتَّواتُر والتَّرادُف .

فقال علمُ العروض : لقد أسْمعتَ القَوْلَ فى الدَّعوىٰ من غير تَوْجِيهٍ فدَخَل عليك الدَّخيل، وأوْقَعك الوَصْلُ دونَ تأْسِيسٍ فى هُوَّة النَّقْص : فهَلْ إلىٰ خُرُوجٍ من سَبِيل؟؛ أنا مِعْيارُ القَرِيض ومِيزَانُه، وعلَىّ تُبْنىٰ قَواعِدُه وأرْكانُه؛ لم يَزَل الشِّعْرُ فى عُلوّ رُتْبته بفَضْلِى معترفًا ولحَقِّى متحَقِّقا، ومن بُحورِى مُغْتَرِفا، وبأسْبابِى متَعَلِّقا؛ فأبياتُه بميزانِى محرَّره، وأجْزاؤه بقِسْطاس تفاعيلى مُقَدَّره؛ وبفَواصِلى متَّصِلَه، وبأوْتادى مُرْتبطةٌ غير مُنْفَصِله .

فقال علمُ المُوسِيقىٰ : لقد أسْرفْتَ فى الافتخار فضَلَلْتَ الطَّرِيقَ وبِنْتَ عنها، ووَرَّطْتَ نَفْسَك فيما لا فائِدةَ فيه فلَزِمْتَ دائِرَةً لا تنفَكُّ عنها؛ وأتَيْتَ من طَويل

الكلام بما لا طائل تحته فثقل قولًا، وجئتَ من بَسيط القَوْل بما لو ٱقتصرتَ منه على المُتقارَب لكان بك أَوْلىٰ؛ فأنتَ بين ذى طَبْع وَزَّانٍ لا يحتاج إلىٰ معيارك فى نَظْم قَريضه، وآخر نَبَتْ طِباعُه عن الوَزْنِ فلم ينتفع من عِلْمك بضَرْبه ولا عَرُوضه؛ فإذًا لا فائدةَ فيك ولا حاجَةَ إليك، ولا عِبْرة بِكَ ولا مُعَوَّلَ عليك؛ وكَفَىٰ بك هَضْمًا، ونَقيصَةً وذَمًّا، وٱستدلالًا علىٰ دَحْضِ حُجَّتِك، وضَعْفِ أدِلَّتك، قولُ ٱبن حَجّاج:

مُسْتَفعِلُن فاعِلُنْ فَعُول * مَسَائِلٌ كُلُّها فُضُـول،

قَدْ كان شِعْرُ الوَرىٰ صَحِيحًا * من قَبْلِ أن يُخْلَقَ الخَليلُ!

علىٰ أنّه إن ثَبَتَتْ لك فائده، وعاد منك على الشِّعْر أو الشُّعراء عائده، فانَّما تفاعيلُك مقدِّمةٌ لألْحاني، وأوْزانُك وَسيلةٌ إلىٰ أوْزانى؛ نَعَمْ أنا غِذاءُ الأرواح، وقاعِدَةُ عَمُود الأفراح، والمتكفِّلُ ببَسْطِ النُّفوس وقَبْضِها، والقائمُ من تَعْديلها وتَقْويَتِها بنَفْلها وفَرْضِها؛ أُحَرِّكُ النَّفْسَ عن مَبْدَئِها فيحدُثُ لها السُّرور وتَظْهر عنها الشَّجاعةُ والكَرَم، وأبْعَثُها إلىٰ مَبْدَئِها فيحدثُ لها الفِكْرُ فى العَواقِب وتَزايُدُ الهُمُوم والنَّدم؛ فتارةً أُسْتعمَلُ فى الأفراح وزَوَالِ الكُرُوب، وتارةً فى عِلاجِ المَرْضىٰ وأُخْرىٰ فى مَيادينِ الحروب؛ وآونَةً فى محلِّ الأحْزانِ وٱجْتماعِ المَآتِم، ومَرَّةً يَسْتعملُنِى قومٌ فى بيوت العبادات فأبْعَثُهم علىٰ طَلَبِ الطاعات وٱجْتِنابِ المَحارِم؛ وآتِى من غَريب الألحان، بما يَشْبعُ به الجائعُ ويَرْوىٰ به الظَّمآن، ويأْنَسُ به المُسْتَوحِشُ ويَنْشَطُ به الكَسْلان؛ وتَدْنو لسماعه السِّباع، ويَعْنو له بعد الشِّدَّة الشُّجاع.

مع ما يَتفرَّعُ عنى من علم الآلات الرُّوحَانِيَّة التى تُنْعِشُ الأرواح، وتَجْلِبُ الأفراح؛ وتَنْفِى الأتراح، وتؤثر فى البَخيل السَّماح، وتَفْعل فى الألباب ما لا تَفْعل فى اللَّبَّاتِ بِيضُ الصِّفاح.

فقال عِلْمُ الطّب : لقَدْ أضَعْتَ الزّمانَ فى اللّهْو، ومِلْتَ مع الأَرْيَحِيَّة فماسَ بك العُجْب وزَاد بك الزّهو؛ وداخَلَك الطّيْشُ فقنِعْتَ بالإطراب؛ وعُنِيتَ بمعرفة اللّحن ففاتَك الإعْراب ، تُذَكِّر العُشّاق أحوالَ النّوىٰ فيُسْلِمُها الهوَىٰ إلى الهوَان ، وتَتنقّلُ فى نَوَاحِى الإيقاعِ تَنَقُّل الهائم فتُمْسِى فى حِجَازٍ وتُصْبِحُ فى أصْبِهَان ؛ وأنتَ وإن ٱدّعَيْتَ أنكَ العِلْم الرُّوحانى، والمُسْتَوْلِى بتَحْريك الطبائع الأرْبَع على النّوع الإنسانى وغيرِ الإنسانى ؛ فأنت غير مُسْتَغْنٍ عنى ، ولا فنُّكَ فى الحقيقة مُنْفَكٌّ عن فَنِّى ؛ بَلْ قَوَاعِدُكَ مُرَتَّبَةٌ علىٰ قوَاعِدى ، وفوائدُكَ مُسْتفادةٌ من فَوَائدى ، وأهْلُ صِناعَتِك يتَطَفّلون فى معرفة المُلائِم والمُنافِى علىٰ سَاقِطِ لُبَابِ موَائدى ؛ وأنّىٰ تنبسط بك الروح مع وُجُود السّقَم ، أو يَسْتريحُ إليك القَلْب مع شِدّة مُقاسَاة الألَم ؟ ؛ بل أنا قِوام الأبْدان ، وغَايَة مِلاكِ الإنْسان؛ بى تُحْفَظ صِحّةُ الأجسام ، وتُمَكّنُ النفسُ من ٱستكمال قُوّتَيْها النظريةِ والعَمَليةِ بواسطة زَوَال الأسْقام وٱنتفاء الآلام؛ مع مايَتّضِحُ بالنظر فى التّشْريح الذى هو أحَدُ أنواعى من سِرّ قوله تعالىٰ : ﴿ وَفِى أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ . وما يظهر من حَالِ الصِّحة والمَرَض وسرّ المَوْت من أنه تعالىٰ بَدَأ الخلْق أوّلَ مَرّةٍ وإليه يحشرون .

مع مايلتحق بى من علم خَوَاصّ العَقَاقير الغَرِيبَه ، والأحْجَار التى تُؤَثّر بتَمْزِيجها الصِّناعِىّ التأثير العَجِيبَه، وتَأْتِى من نَوادِر الأفعال بالأعمال الغَرِيبَه؛ علىٰ أنّى لستُ تختصّ فى الحقيقة ببَدَنِ الإنْسان ، ولا قاصِرٍ علىٰ نَوْعٍ من أنواع الحَيَوان ، وإنما أُفْرِدتُ بنَوْع البَشَر ٱهتمامًا بشانِه، وتَنْبيهًا علىٰ جلالة قَدْرِه وعُلُوّ مَكَانه .

ثم أُلْحِقَ بالإنسان فى الآعتناء به الخُيُول فٱشْتُقّ لها منّى عِلْمُ البَيْطَره، وتَلَاها فى الآعتناءِ جَوَارِحُ الطيور لآهتمامِ الملوك بشَأْنِها فٱسْتُنْبِط لها من أجزائى عِلْمُ البَيْزَرَه؛ وأُهملَ ما سِوىٰ ذلك من جِنْس الحيوان ، فلم يُعْتَنَ بأمرِه ولم يُهْتَمّ له بشَان .

فقال علم القَافَة : لقد ٱرتقيتَ مُرتقىً صَعْبا ، ووَلجْتَ مَوْلجًا صُلْبا ؛ وأَتيتَ من مُشْكلات القضايا بما ضَاقَتْ مَطَالِبُه ، وعَرَّضْتَ نفسك لمغالبة المَوْت والمَوْتُ لا شَيْءَ يُغالِبُه ؛ وٱقتصرتَ فى تَشْريحكَ الأعضاءَ علىٰ ذِكْرِ مَنَافعها وصِفَاتها ، وأضْربتَ عما تدلُّ عليه بصُوَرِها وكَيْفياتِها ؛ أَيْنَ أنتَ من إلحَاقِ الآبن بالأب بالصِّفات المتماثلة ، والحُكْمِ بثُبُوت النَّسَبِ بدلائل الأعْضاءِ كما يُحْكم بالبَيِّنَة العَادِلَه ؟ ؛ فهٰذه هى الفَضِيلة التى لا تُسَاوىٰ ، والمَنْقَبَة التى لا تُعادَلُ ولا تُنَاوىٰ ؛ وكَفَاكَ لذلك شاهدا ، وعلىٰ ثُبُوته فى الشَّريعة المُطَهَّرة مُساعِدا ؛ وأنه لا يَعْتَوِر ذلك مُعارَضَةٌ ولا نَقْض ، ٱسْتِبْشارُ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم بقول مُجَزِّز المُدْلِجيِّ : « إنَّ هٰـذِهِ الأَقْدَامَ بَعْضُها مِنْ بَعْض » .

فقال علم قَصِّ الأَثَر : نعم إن شَأْنَك لغَرِيب ، وإنَّ ٱجْتِهادكَ لمُصيب ؛ غير أنِّى أنا أَغْرَبُ مِنْك شَأْنا ، وأَدَقُّ فى الإدراك مَعْنى ؛ إذْ أنْتَ إنما تُلْحِقُ المحقَّقَ بالمشاهدة بِمِثْلِه ، وتَقِيسُ فَرْعًا علىٰ أَصْـلٍ ثم تُلْحِق الفَرْع بأصْلِه ؛ وأنا فأُدْرِكُ المؤثِّر من الأَثَر ، وأَسْتَدِلُّ على الغائب بما يَظْهر من اللَّوائح فى الرَّمْلِ والمَدَر ؛ ورُبَّما ميزْتُ أثَرَ البَعِير الشَّارِد من المَرَاتِـع ، وفَرَّقْتُ بالنَّظَرِ فيه بين الصحيح والظَّالع ؛ فأدركْتُ من الأمر الخَفِيِّ ما تُدْرِكه أنتَ من الظَّاهِر ، وقضيتُ على الغَائِب بما تَقْضى به على الحَاضِر .

فقال علم غُضُون الكَفِّ والجَبْهَة : ما الذى أَتَيْتَ به من الغريب ، أو أظهرته بعلْمِك من العَجِيب؟ ؛ فلو ٱبْتُلِيتَ بأَرْضٍ صُلْبةٍ لوقفت آمَالُك ، أو محَتِ الرِّيحُ مَعالِمَ الأَثَر لبطلتْ أعْمالُك ؛ أو وَلَجَ مَن تُقَفِّى أثَرَه المـاءَ لفَاتَ حَدْسُك الصائب ، أو جَعَلَ الماشى مُقَدَّم نَعْلِه مُؤَخَّره لقلتَ : إنَّ الذَّاهِبَ قادمٌ والقَادمَ ذَاهِب ؛ لكن أنا كَاشِفُ الأسرار الخَفِيَّه ، والمستدلُّ علىٰ لَوَازِم الإنسان بما رُكِّبَ فيه من الدلائل الخِلْقيَّه ؛

أَسْتَخْرِج من أسَارِير الجَبْهـةِ وغُضُون الكَفِّ أمورًا قد أرْشـدَتِ الحِكْمَةُ الالٰهِيَّة إليها ، وجُعلتْ تلك العلامةُ فى الانسان دِلالةً عليها .

فقال علم الكَتِف : إنه ليس فى الآستدلال على الشَّىءِ بلازِمه أمرٌ مُسْتغرب ، ولا ما يقال فيه : هذا من ذَاكَ أعْجَب ؛ و إنمـا الشَّأن أن يقعَ الآستدلالُ على الشَّىءِ بمـا هو أجنبىٌّ منـه ، وخارجٌ عنه ، كما أسـتدل أنا بالخطوط الموجودة فى كَتِف الذَّبِيحَةِ على الحوادث الغريبه ، والأسرارِ العجيبه ؛ ممـا أجرىٰ اللهُ به العادة فى ذلك ، وجعله علامة دالة علىٰ ما هنالك .

فقـال علم خطِّ الرَّمْل : لقـد علمتَ أنكَ لستَ بمحقِّقٍ لمـا أنت له مُتَوَسِّم ، ولا واثقٍ بالإصابة فيما أنت عنه تُتَرجِم ؛ وغايَتُك الوقوفُ مع التجارِب ، والرُّجوعُ فيما تُحاوِلُه إلى التقارب ؛ مع ما أنت عليه من الرَّفْض والإهمال ، وما رُميتَ به من القطيعة وقِلَّةِ الآستعمال ؛ أما أنا ففَارِسُ هذا المَيْدان ، ومالِكُ زِمامِ هذا الشان ؛ فكَمْ من ضَميرٍ أبرزتُه ، وأمرٍ خفىٍّ أظهرتُه ؛ ومكان عَيَّنته فوافق ، وأمَدٍ قدّرتُه فَطابَق ؛ علىٰ أنه ليس لك أصـلٌ ترجعُ إليه ، ولا دَليلٌ تعتمدُ عليه ؛ فأنا أثبتُ منك قواعد ، وأوضح عند الآعتبار فى الدلالة على المَقاصد ؛ فان عَدَوْتَ طَوْرَك ، أو جُزْتَ فى الآحتجاج خصمك ، فَمَداك ، أنه كان نَبِىٌّ يخطُّ فمن وافقَ خَطَّه فذاك .

فقـال علم تَعْبِيرِ الرُّؤْيا : إنَّك وإن أظهرتْ السَّرائر ، وأبرزتَ الضمائر ؛ فإنَّ أمرَك موقوفٌ فى حَدْسك على الدِّلالة الحاليه ، ومَقْصُورٌ فى تَخْمِينك على الأمور الآحتماليه ؛ أيْنَ أنت مِنِّى حين أُعَبِّر عمـا شاهدتْه النفسُ فى النَّوْم من عالَم الغَيْب ؟ وكَيْف أكْشِفُ عنه الحُجُب بالتَّأْويل فيقعُ كفَلَقِ الصُّبْح من غير شَـكٍّ ولا رَيْب ؛ فأخبر بحوادثَ تَقَعُ فى العالَم قبل وجودها ، وآتِى من حقائق النِّذَارَة والبشارة بمـا يُنَبِّه على التحذير من نُحُوسها والتَّرَقُّب لموافاة سعودها .

فقال علم أَحْكَامِ النُّجومِ : حقيقٌ ما أوّلْت ، وصحيحٌ ما عنه عبّرت وعليه عَوَّلْت ؛ إلا أنك قاصرٌ علىٰ وقائع مخصوصةٍ تُرْشِد إليها ، وأُمورٍ محدودةٍ تُنَبِّه عليها ؛ علىٰ أنه رُبَّما نَشأَت الرؤيا عن فِكْرة وقعت فى اليَقَظة فاتّصلتْ بالمنام ، أو حدثَتْ عن سُوءِ مِزَاجٍ أو رَدَاءةِ مَطْعَم ونحوِ ذلك فكانتْ أَضْغَاثَ أَحْلام ؛ أما أنا فإنى أدلّ بما أجراه الله تعالىٰ من العَادَه ، على الحوادث العامّة مصاحبًا لمقتضَيات الإرادَه ؛ ليَظْهَر ما فى الحِكْمة الإلٰهيّةِ من قضايا التَّدْبير ، ويتَبيّنَ ما آشتملتْ عليه الأفلاكُ العُلْويّة من تَقْدير التَّرتيب وتَرْتيب التَّقْدير ؛ مع مايترتَّبُ علىٰ ذلك من الأعمال العجيبه ، والأحوالِ الغَريبه ؛ التى تَبْهَرُ العقول ، ويمتنع إليها من غير طَريق الوُصول :

من علم السِّحْر على الإطلاق ، وعلم الطِّلّسْمَات الغَريبة وعلم الأَوْفاق ، وكذلك عِلْم النيرنجيات وعِلْم السِّيمِيا الآخذِ بالأحداق .

فقال علم الهَيْئة : مالَكَ ولأَباطيلَ تُنَمِّقُها ، وأكاذيبَ تُزَخْرِفها وتُزَبْرِقُها ؛ وأَمَاثِيلَ يَعْتمدها المُعْتمِدُ فتَخيب ، وأقَاوِيلَ تارةً تُخْطِئ وتارةً تصيب ؛ ولقد وَرَدَتْ الشريعة المطَهّرة بالنَّهْيِ عن آعْتبارك ، وجاءتِ السُّنّة الغرّاءُ بمَحْوِ أخْبارِك وإعْفاءِ آثارك ؛ وناهيكَ بفساد هذا الآعتقاد وردِّ هذا المَذْهب ، ما ثَبت فى الصحيح من أنه من قال : مُطِرْنا بنَوْءِ كذا فهو كافرٌ بالله مُؤْمِنٌ بالكَوْكب ؛ علىٰ أنك فى الحقيقة نَوْعٌ من أنواعى ، مَعْدودٌ من جُنْدى ومَحْسوبٌ من أتباعى ؛ نعم أنا القَائِمُ من دليل الآعتبار فى القدرة بتَمام الفَرْض ، والقائدُ بزِمَامِ العَقْل إلى التَّفكُّر فى خَلْقِ السمٰوات والأَرْض ؛ عنِّى يتفرّع علم الزيجات والتقاويم الذى به يُعرف مَوْضعُ كلِّ واحد من الكواكب السَّيَّارةِ ومدّة إقامتها ، وزَمَن تَشْريقها وتَغْريبها ومِقْدار رُجوعها

وٱستقامتها، وحال ظهورها وٱختفائها في كلِّ زمان، وما يتَّصل بذلك من الاتِّصال والانفصال والخسوف والكسوف وٱختصاص ذلك بمكانٍ دون مكان.

فقال علم كيفيَّة الأرصاد: ماعلم الزِّيجات والتَّقاويم الذى تقدِّمه فى الذِّكر علىّ، وتؤثره من الفضل بما لدىّ، إذ بى تتعرّف كيفيةُ تحصيل مقادير الحركات الفلكيّه، والتوصُّل إليها بالآلات الرَّصديه، التى عليها يترتب علم الزِّيجات، ويعرف فى التَّقويم الاتِّصالات والانفصالات والامتزاجات.

مع ما يلتحق بى من علم الكرة الذى منه تعرف كيفية ٱتخاذ الآلات الشُّعاعيّه، ويتوصَّل به الى ٱستخراج المطالب الفلكيّه.

فقال علم المواقيت: كيف وأنا سيِّد علوم الهيئة وزعيمها، وشريفها فى الشريعة وكريمها؛ بى تعرف أوقاتُ العبادات، وتُستخرجُ جهة القبلة بل سائر الجهات؛ وتُعلم أحوالُ البلدان ومحلُّها من المعمور فى الطُّول والعرض، ومقادير أبعادها وٱنحرافُ بعضها عن بعض؛ مع ما ينخرط فى هذا السِّلك من معرفة السموت وٱرتفاع الكواكب، ومطالعها من أجزاء البروج والطَّالع منها والغارب؛ وغير ذلك من الشُّعاعات المخروطه، والظِّلال القائمة والمبسوطه؛ إلى غير ذلك مما يلتحق بى، ويُنسب إلىّ ويتعلَّق بسببى:

من علم الآلات الظِّلِّيَّة التى تعرف بها ساعات النهار، ويظهر منها الماضى والباقى بأقرب ملتمس وألطف ٱعتبار، من نحو الرُّخامات القائمات، والمبسوطات منها والمائلات.

فقال علم الهندسة: إن فضلك لمشهور، ومقامك فى الشَّرف غير منكور، إلا أن آلاتك بى مقدَّره، وأشكالك بأوضاعى محرَّره؛ فأنا إمامك الذى به تقتدى، ونجمك

الذى به تهتدى؛ بل جميعُ علوم الهيْئة فى الحقيقة موقوفةٌ علىّ، وراجعةٌ فى قواعدها إلىّ؛ لولاى لم يُعرفِ السَّطح والكُرَه، ولم يُميَّز بين الخُطُوط والقِسِىّ والدّوائر المقدّره؛ مع ما يَنْشأُ عنى، ويستملَى من صحابى ويُقْتَبس منّى؛ من أحوال المقادير ولواحقها، ومعرفةِ ظواهرها الواضحة ودقائقها؛ وأوْضاعِ بعْضها عند بعض ونِسَبِها، وخواصّ أشْكالها والطُّرُقِ إلى عمل ما سبيلُه أن يعمل لها؛ واستخراجِ ما يحتاج إلى استخراجه بالبراهين اليقينيّة القاطعه، وإظهارها إلى الحِسّ بالأشكال البيّنة والحدود الجامعة المانعه .

فقال علم عُقُود الأبْنيَة : نَعَم، إلا أنّى أنا أجَلُّ مَقَاصِدك، وأعْذب مَوَارِدك، ونُورُ عيُونِك، وعَرُوسُ فنُونك؛ منّى يُستفادُ بِناء الحُصُون والأسْوار، ويتعرّفُ شَقُّ الأقْنِيةِ وحَفْر الأنهار؛ وعِمارةُ المُدُن وعَقْد القَوَاصِر، وسَدُّ البُثُوق وبِناءُ القَناطِر؛ وتَنْضيدُ المسَاكِن ووَضْعُ المنازل، ونَصْبُ الأشجار وتَرْتيبُ الرِّياض ذوات الخمائل .

فقال علم جَرِّ الأثْقَال : صدقتَ ولكنّى أنا أَسَاسُ مبانيك وقاعِدَة سِنَادك، وحامِلُ أثقالك وعَمُود اعتمادك؛ بى تُعْرف كيفية نَقْلِ الثِّقْلِ العظيم بالقُوَّة اليَسيره، حتّى تُنقل مائةُ ألْفِ رِطْلٍ بقُوَّة خَمْسِمائَة وذلك من الأسرار النَّفيسة والأعمال الخَطيره .

فقال علم مَرَاكِز الأثْقَال : إلا أنّك محتاجٌ إلىّ فى أعمالك، ومُتَوَقِّفٌ على فى جميع أحوالك؛ من حيثُ استخراجُ مَرَاكِز الأجْسامِ المحموله، وبيانُ مُعَادلة الجِسْم العظيم بما هو دونه لتَوَسُّط المسافة بالآلات المعموله .

فقال علم المِسَاحة : أرَاكَ قد غَفَلْتَ عن معرفة المَقَادير والمسافات التى هى مُقَدَّمة عليك فى وضع المبانى، ومُنْفردَةٌ عنك بكثيرٍ من المعانى؛ من أ. الخَرَاج والزراعات،

وتَقْدير الرَّساتيق والبياعات ، وكَيْفيَّةِ ذَرْع المُثلَّثات ، والمُربَّعات ، والمُدوَّرات ، والمُسْتَطيلات ؛ وغير ذلك من دَقائق الأعمال ، و إدْراكِ كَمِّيات المقادير على التفصيل والإجمال .

فقال علم الفِلاَحَة : فإذًا قد آعترفتَ أنَّكَ من جُمْلة لَوَاحق ، مُنْدَرِجٌ فى حُقُوق وَداخِلٌ تحت مَرَافِق ؛ فأنا فى الحقيقة المقصودُ منك فى الوَضْع بالقياس ، والمُتَّحِدُ بِك دُونَ غيرى من غَيْر آلتباس ؛ مع ماأنا عليه من مَعْرِفة كيفية تدبير النَّباتِ من بَدْءِ كَوْنِه إلى تمام تَدْبيره ، وتَنْمِيَةِ الحُبُوب والثِّمار بإصلاح الأرض وما تَخَلَّلها من المُعَفِّنات كالسِّماد وغيره وما أُبْديه من اللَّطائِف فى إيجاد بعض الفَوَاكه فى غير فَصْله ، وتَرْكيب بَعْضِ الأشجار على بَعْضٍ وآستخراجِ بَعْضها من غير أَصْلِه .

فقال علم إنْباطِ المِيَاه : إلا أَنِّى أنا بِدَايَةُ عَمَلِك ، وغاية مُنْتَهى أَمَلِك ؛ لايتم لك أمْرٌ بِدُونى ، ولا تَنْبُت لك خَضْراءُ ما لم تُسْقَ من بِثَارِى وعُيُونى ؛ فأنا الكَفيلُ باحياء الأرض المَيِّتة و إفلاحِها ، والقائِمُ بتَلْطِيف مِزَاجِها و إصْلاحِها .

فقال علم المَنَاظِر : ماآلذى تُجْدِى أنت وطَرْفى عنك مُرْتَد ، ونَظَرى إليك غير مُمْتَدّ ؛ وأنَّى تستَطِيعُ مِياهُك التَّرقى من الأغوار إلى النُّجُود ، وتَتَنَقَّلُ عُيُونُك وأنهارُك بين الهُبُوط والصُّعُود ؛ إذا لم أكنْ لك مُلاحِظا ، وعلى الاعتناء بأمْرِكَ مُحافِظا ؛ مع ما أَشْتَمِلُ عليه غير ذلك من تَحْقِيق المُبْصَرات فى القُرْب والبُعْد على آختلاف معانيها ، وما يَغْلَط فيه البَصَر كالأشجار القائمة على شُطُوط المِيَاه حيثُ تُرى وأسافِلُها أعالِيها .

فقال علم المَرَايا[1] المُحْرِقَة : إنَّك و إن دَقَّقتَ النَّظَر ، وحَقَّقتَ كُلَّ ما وقع عليه حاسَّةُ البَصَر ؛ فأنا مَقْصِدُك الأعظم ، ومُهِمُّك المُقَدَّم ؛ طَالَمَا أحرقتُ القِلاَع

(١) ذكر فى لسان العرب أن المرآة جمعها مراء كمراع وأن العوام يقولون فى جمعها : مرايا .

بشُعاعى، وحَصَّنْت الجيوشَ بدِفاعى، وقمتُ بما لم يقم به الجَيْشُ العَرَمْرَم والعسكر الجَرّار، وأغنيتُ مع انفرادى عن كَثْرة الأعْوانِ ومُعاضَدَة الأنصار .

فقال علم الآلات الحَرْبيَّة : وإن حَدَّك لكَليل، وإن جَدَاك لقَليل، وإنّ المُسْتَنْصِر بك لذَليل، وماذا عسىٰ تَصل فى الإحراق إليه، أو تُسَلَّط فى الحروب عليه؟ ؛ أنا بَاعُ الحَرْب المَديد، والمُحَصِّن من كلّ بأسٍ شَديد، والتّالِى بلِسَان الصِّدْق على الأعداء : ﴿ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ . فأنا نَفْسُ المقصود وعَيْن المُراد، وعَمُود الحَقِّ وقاعِدَة الجِهاد .

فقال علم الكِيمِيا : ما أنتَ والقِتَال، ومُواقَعَة الحُرُوب وقَوارِع النِّزال، وهَلْ أنتَ إلا آلةٌ من الآلات، لا تَسْتَقِلُّ بنَفْسك فى حالةٍ من الحالات ؛ وأنَّىٰ يُغْنى السِّلاح عن الجَبَان مع خَوَرِ الطِّباع، أو يَحْتاجُ إليه البَطَل الصِّنْديد والمُجَرَّب الشُّجاع ؛ فالعِبْرة بالمُقَاتِل، لا بالذَّوابِل ؛ والعُمْدة على الرِّجال، لا ببَوارِق السُّيوف عند النِّزال ؛ وبكلِّ حالٍ فالعُمْدة فى الحُروب وجَمْع العساكر على النَّقْدَيْن دون ماعداهما، والاسْتِناد إلى الذَّهَب والفِضَّة بخلاف ماسواهما ؛ وإلىَّ هذا الحديثُ يُساقُ وعلَىَّ فيه يُعْتمد، وعنِّى يُؤْخذُ وإلىَّ فى مثله يُسْتَند، أُحَاوِل بحُسْنِ التدبير، ما طَبَخَتْه الطبيعة علىٰ مَرِّ الدُّهور، فآتِى بمِثْله فى الزَّمن القَريب، وأُجانِسُ بين المَعَادِن فى مُمَازَجَتها فيظهر عنها كلُّ معنًى غَريب ؛ وأُبْرِز من خصائص الإكْسير ما يَقْلِب المِرِّيخ قَمَرًا من غير لَبْس ، ويُحِيلُ الزُّهَرة شَمْسًا وناهيكَ بإحالةِ الزُّهَرة إلى الشَّمْس ؛ فصاحِبِي أبَدًا عَزِيزُ المنال، شَريف النَّفْس عن الطَّلَب عَفيفُ اللسان عن السُّؤال .

فقال علم الحِساب المَفْتُوح : إنّك وإن دَفَعتَ عَنا ، وجَلَبتَ غِنَى ؛ فأمْوالُك الجَمّة، وحَواصِلُك الضَّخْمه ؛ محتاجةٌ إلىٰ حُسَّابِي، غير غَنِيَّة عن كُتَّابِي ؛ أنا جامِعُ

الأموال وضَابِط أُصُولها ، والمتكفِّل بحِفْظِ جُمْلتها وتَفْصيلها ؛ مع ٱحتياج كثيرٍ من العلوم إلىّ فى الضَّرْب والقِسْمة والإسْقاط .

قد أخذتُ من عِلْمِ الارتماطيقى الذى هو أصْـلُ علوم الحساب بجَوانِبِه، وتعلَّقْتُ منـه بأسْهلِ طُرُقه وأقرب مَذاهبـه ؛ ونَاهيكَ بشَرَف قَدْرى ، ورِفْعـة ذِكْرى ؛ قولُ أبى محمد الحريرىّ فى بعض مَقاماته ، مُنَبِّها علىٰ شَرَف قَلَمى وسَنِىِّ حالاته : «ولَوْلا قلَم الحُسَّاب لأَوْدَتْ ثَمرَةُ الاكْتِسَاب، ولاتَّصلَ التَّغابُنُ إلىٰ يَوْمِ الحِسَاب» .

فقال علم حساب التَّخْت والمِيل : مَهْ! فما أنت إلا عِلْم العامَّة فى الأسْواق، تَدُور بين الكافَّة على العموم وتَتَـداوَلُ بينهم على الإطْلاق ؛ تكادُ أن تكونَ بَديهيًّا حتَّىٰ للأطْفال ، وضَرُورِيًّا للنساء والعَبِيـد فى جميع الأحوال ؛ يَتَّسِعُ عليك مَجَالُ الضَّرْب فتَقْصُر عنه هِمَّتُكَ المُقَصِّره، وتَتَشَعَّب عليك مَدَارِكُ القِسْـمَة فتأتى بها على التَّقْريب غير مُحَرَّره ؛ أيْن أنتَ من سَعَة بَاعِى ، وٱمْتداد ذِرَاعِى ، وتَحْرِير أوْضَاعِى؟ ؛ لا يَعْتمِدُ أهلُ الهَيْئة فى مِسَاحة الأفْلاكِ والكَوَاكِب غَيْرَ حقائِقِ أُمُورِى، ولا يُعوِّلُون فيها ـ علىٰ سَعَةِ فَضَائِها ـ إلا علىٰ صِحَاحِى وكُسُورِى .

فقال علم حِسَاب الخَطَأَيْنِ : مَالِى ولِعِلْمٍ لا يُوصِّلُ إلى المقصود إلا بعد عَمَلٍ طَوِيلٍ؟، ويحتاجُ صاحِبُه مع زِيادة العَناء إلىٰ ٱستصحاب تَخْتٍ ومِيل، وقد قِيل : كُلُّ عِلْمٍ لا يَدْخلُ مع صاحِبِه الحَمَّام فحَدَاه قاصِرٌ ونَفْعه قَلِيل؛ علىٰ أنَّ غيرك يُشارِكُكَ فيما أنتَ فيه، ويوصِـلُ إلىٰ مَقْصودك بطريق لا يَدْخُله الغَلَط ولا يَعْتَرِيه ؛ وإنمـا الشَّأْن فى ٱستكشاف غَامِض أو إظْهارِ غَرِيب ، ولا أَعْجَبُ من أن تُصِيبَ إخْراجَ المَجْهول من الأعْداد بخَطَأَيْنِ فيقال : أَتَى بخَطَأَيْنِ وهو مُصِيب .

فقال علم الجَبْر والمُقابَلَة : حَسْبُك فإنَّما أنتَ فى آستخراج المجهولات كنُقْطة من قَطْر ، أو نُغْبَةٍ من بَحْر ، تقتصر منها بطُرُقِكَ القاصِرة وأعمالك النَّاكِبه ، علىٰ ما أمْكَن صَيْرورَته من العَدَد فى أربعةِ أعْدادٍ مُتَناسِبَه ؛ نَعَمْ أنا أبو عُذْرَتِها ، وآبْن بَجْدَتِها ، وأخُو نَجْدَتِها ، أسْتَخْرِج جميع المجهولات ، من مَسَائِل المُعامَلات ، والوَصَايا والتَّرِكَات ، وغير ذلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ ، ويَنْحُو هذا النَّحْو ويَسْرى هذا المَسْرىٰ ، مما يدخل تَحْت الأموال والجُذُور ، والأعداد المُطْلَقة من الصِّحَاح والكُسُور .

فقال علم حِسَابِ الدِّرْهم والدِّينَار : مَالَك ولاِدِّعَاءِ التَّعْميم فى آستخراج المجهولات وكَشْفِ الغوامض ؟ وإنَّما أنتَ قاصِرٌ على آسْتِعلامِ المجهولات العَدَديَّة المعلومةِ العَوَارِض ، دون ما تَزِيدُ عِدَّتُه على المعادلات الجَبْريَّه ، فقد فَاتَكَ حِينَئِذٍ الدَّعاوى الحَصْريه ، لٰكنِّى أنا كاشِفُ هذه الحَقَائق ، ومُبَيِّن سُبُلها بألْطَفِ الطَّرائق ، فَبِى إليها يُتَوَصَّل ، وعلىٰ قَواعِدِى لآستخراج مَقَاصِدِها يُجْمَل ويُفَصَّل .

فقال علم حساب الدَّوْرِ والوَصَايا : إنَّ استخراجَ المجهولات وإنْ عَظُم نَفْعا ، وحَسُن وَضْعا ، فأنا أعظم منه فَائدَه ، وأجَلُّ منه عَائده ، أُبَيِّنَ مِقْدار مايتعلَّقُ بالدَّوْر من الوَصَايا ، حتى يَتَّضِحَ لمن يَتَأمَّل ، وأقْطَع الدَّوْر فتعود المَسْأَلَة من أظهر القَضَايا ، ولَوْلا ذلك لدَار أو تَسَلْسَل .

فقال عِلْم الفِقْه : وهل أنتَ إلا نُبْذَة من الوَصَايا التى هى بَارِقَةٌ من بَوَارِق ، تتعلَّقُ بأطْنابِى وتدخُلُ تحت سُرادِقِى ، بِى تَتَميَّزُ معالِمُ الأحكام ، ويَتَبَيَّنُ الواجِب والمَنْدوب والمُبَاح والمَكْروه والحَرَام ، ويُتَعرَّف ما يُتَقَرَّب به إلى الله تعالىٰ من العِبَادَات ، وسَائِرِ أنواع التَّكاليف الشَّرْعِيَّة العَمَلية مما تدعو اليه الضرورات

وتَجْرِى به العادات ؛ فأنَا إمامُ العلوم الذى به يُقْتَـدَىٰ ، وعَمِيدُها الذى عليه يُعْتَمَدُ ونَجْمُـها الذى به يُهْتَـدَىٰ ؛ فلولا إرْشادِى لَضَلَّ سَعْىُ المُكَلَّفين، ولَأَمْسَوْا فى دَيْجاء مُدْلَهِمَّةٍ فأصْبَحُوا عن رَكائِبِ الخَيْر مُخَلَّفِين .

ونَاهِيكَ أن من جُمْلة أفْرادِى ، وآحادِ أعْدَادى : ـ

علم الفرائض الذى حَضَّ الشارع علىٰ تَعلُّمِه وتَعْلِيمه ، وأخبر بأنَّه نِصْفُ العِلْم مُنَبِّهًا علىٰ تعظيم شَأْنِه وتَفْخِيمه ؛ وبَالَغَ فى إثبـات قَوَاعِده و إحكام أُسِّه ، فقال : « إنَّ اللهَ لم يَكِلْ قِسْمَةَ مَوارِيثِكُم إلىٰ مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا نَبِىٍّ مُرْسَلٍ بَلْ تَوَلَّاهَا فَقَسَمَها بنَفْسِه » .

فقال علم أُصُول الفِقْه : إنَّ مَقَالَك لعَـال ، و إنَّ جِيدَك لحَـال؛ غير أَنِّى أَنَا المتَكَفِّلُ بتَقْرِير أُصُولك ، وتَوْجِيهِ المسائل الواقعـة فى خِلَال أبْوابِك وفُصُولك ؛ بِى تُعْرف مَطَالِب الأحكام الشَّرْعِيَّـة العَمَلِية وطُرُق آسْـتِنْباطها ، ومَوَاد حُجَجِها وآسْـتِخْراجها بدَقِيق النَّظَر وتَحْقِيق مَنَاطِها ؛ فبأُصُولِى فُرُوعُك مقـرَّرَه ، وبمَحَاسِنِ آسْتِدْلالى حُجَجُك مُنَقَّحَةٌ مُحَرَّره ؛ قد مَهَّدتُ طُرُقَك حتىٰ زال عنها الإلْباس ، وبَنَيْتُ علىٰ أعْظم الأصُول فُرُوعك فأسْنَدتها للكِتَاب والسُّنَّة والإجْماع والقِيَاس .

فقال علم الجَدَل : قَدْ علمتَ أن الدَّليل لا يَقُوم برَأْسه، ولا يَسْتِقلُّ بنَفْسِـه ؛ بل لا بُدَّ فى تَقْريره من النَّظَرِ فى مَعْرِفة كَيْفِيَّـة الآسْتِدْلال، والطَّرِيق المُوصِّـل إلى المَطْلوب على التَّفْصيل والإجمال ؛ وأَنَا المتَكَفِّلُ بذٰلك ، والمُوصِّل بكَشْف حَقَائِق البَحْثِ إلىٰ هٰـذه المَـدَارِك ؛ بِى تُعْرف كَيْفِيَّـةُ تَقْرِير الحُجَج الشَّرْعِيَّـه ، وقَوَادِحُ الأَدِلة وتَرْتِيب النُّكَتِ الخِلَافِيَّـه ؛ فمَوْضُوعك علَىَّ مَحْمول، ونَظَرُك إلىٰ نَظَرِى بكُلِّ حَالٍ مَوْكُول .

فقال علم المَنْطِق : خَفِّضْ عَلَيك ! فهَلْ أنتَ إلا نَوْعٌ من قِياسَاتِى المَنْطِقيَّة أُفْرِدتَ بالتَّصْنيف، وخُصِصْتَ بالمبَاحث الدِّينية فخَالَطتَ أصُولَ الفقْه فى التأليف؟؟ فأنتَ إذًا فَرْدٌ من أفْرادِى، ووَاحِدٌ من أعْدادِى؛ مع ما آشتمَلَ عليه سِوَاكَ من القياسات البُرْهانيَّة القَاطِعة فى المُناظرات، والقِياسَاتِ الخَطَابِيَّة والبلاغات النَّافِعة فى مخاطبات الجُمْهور علىٰ سَبِيلِ المُخَاصَمات والمُساوَرات؛ وكذلكَ حالُ القياسات الشِّعْرِيَّه، وكَيْف يُسْتعمَلُ التَّشْبِيه المُفِيد للتَّخَيُّلِ المُوجِب للانفعالات النَّفْسانِيَّه؛ كالإغْراء والتَّحْذير، والتَّرْغيب والتَّرهِيب والتَّعْظِيم والتَّحْقير؛ وغير ذلك من معرفة الأَلْفاظ والمَعَانى المفْرَدة من حيثُ هى عامَّة كُلِّيَّه، وتَرْكِيب المَعَانى المُفْردة بالنسبة إلى الإيجابية والسَّلْبِيه؛ تَعْصِمُ مُرَاعاتى الفِكْرَ عن الخَطَإ فلا يَزِلّ، وتَهْدِيه سَوَاءَ السَّبِيلِ فلا يَحِيدُ عن الصِّراط السَّوِىِّ ولا يَضِلّ، وأَسْرِى فى جَمِيع المَعْقولات فأتَصَرَّفُ فيما يَدِقُّ منها ويَجِلّ .

فقال علم دِرَايَة الحَدِيث : قد علمتَ بما ثَبَتَتْ به الأدِلَّة بالتَّلْوِيح والتَّصْرِيح، أنه لا مَجَال للعَقْل فى تَحْسِينٍ ولا تَقْبِيح؛ وحِينَئِذٍ فلا بُدَّ من نَصٍّ شَرْعِىٍّ تعتمِدُ عليه، وتَسْتَنِدُ فى مُقَدِّمَاتِك إليه؛ ولا أقْوَىٰ حُجَّه، وأوْضَح مَحَجَّه؛ من كلامِ الرَّسولِ صلى الله عليه وسلم، الذى لا يَنْطِق عن الهَوَىٰ إذا تكَلَّم؛ فاذا آستندتَ إلىٰ نُصُوصِه، وآعْتَمدتَ عَليه فى عُمُومه وخُصُوصِه؛ فقد حَسُنَ منك المُقَدَّم والتَّالى، وكانت مُقَدِّماتُك فى البَحْثِ أمْضَىٰ من المُرْهَفَاتِ ونَتَائِجُك أنْفَع من العوَالى؛ وقد تحققتَ أنِّى إمامُ هذا المَقَام، ومالكُ قِيادِ هذا الزِّمام .

فقال علم رِوَايَة الحَدِيث : لقد ذكرتَ من الصَّحِيح المتَّفَق عليه بما لا طَعْنَ فيه لمُرِيب، وتعلَّقتَ من كلام النُّبُوَّة بأوْثَقِ سَبَبٍ فأتَيْتَ بكل لَفْظٍ حَسَنٍ ومَعْنًى

غَرِيب؛ إلا أن الدِّرايه، مَوْقوفةٌ على الرِّوايَه؛ وكيف يَقَع نَظَر الناظر فى حديث قَبْلَ وُصُوله إليه، أو يَتأَتَّىٰ العِلْم بمَعْناه قبل الوقوف عليه؟؛ وهل يَثْبُتُ فَرْعٌ علىٰ غير أصْلٍ فى مقتضى القِياس، أو يُرقىٰ من غير سُـلَّم أو يُبْنىٰ علىٰ غير أسَاس؟؛ فَعَلى المحدِّث تقـديم العِلْم بالرواية بشَرْطها، ومَعْرفة أقواله صلَّى الله عليـه وسلم بالسَّماع المُتَّصِـل وتَحْريرها وضَبْطِها .

فقال علم التَّفْسير : قد تَبيَّن لَدىٰ العلمـاء بالشَّريعة أن حُكْم الكِتَاب والسُّـنَّة واحد، وإن آختلفتْ فى الأسمـاء فلم تَخْتلِف فى المَقَاصِـد؛ إلا أنهما وإن آتَّفَقا فى الدِّلالة والإرشاد، فقد آختصَّ الكِتَابُ فى النَّقْل بالتَّوَاتُر وجاء أكثر السُّنَّة بالآحاد .

فقال علم القِرَاآت : إلا أنه لا يَنْبغِى للمَفَسِّر أن يُقْـدِم على التَّفْسِـير ما لم يكن بقراءة السَّـبْع والشَّاذِّ عالِمـا، وبلُغاتها عَارِفًا وللنَّظَرِ فى مَعَانيها مُلازِما؛ مع ما يَلْتَحِق بذلك من عِلْم قوانين القِرَاءَة المتعلِّق من المَصَاحف بخَطِّها، والأشْـكَال والعلامات المتكَفِّلة بتَحْريرها وضَبْطها .

فقال علم النَّوامِيس : (وهو العِلْم بمتعلَّقات النُّبوَّة) : إنَّك لفَرْعٌ من فُروع الكِتَاب المُبين، وما نَزَل به الرُّوحُ الأمينُ علىٰ قَلبِ سَـيِّد المُرْسَـلين؛ وإلىَّ النَّظَر فى أحوال النُّبوّة وحَقِيقَتِها، ومَسِيس الحَاجَة إليها فى بيان الشَّريعة وطَرِيقَتِها؛ والفَرْق بين النُّبُوّة الحَقَّه، والدَّعَاوى البَاطِلة غير المُحِقَّه؛ ومَعْرفة المُعجزات المُخْتَصَّـة بالأنْبِياء والرُّسُل عليهم السلام، والكَرَامَات الصَّادِرَة عن الصِّدِّيقينَ الأَبْرار والأوْلِياء الكِرام؛ فأنا المُقدَّم علىٰ سائر العُلُوم الشَّرْعيه، وإمامُ الأصْليَّة منها والفَرْعِيَّة .

فقال علم الإلٰهِى : لقـد تَحقَّقتَ أنَّ اللَّازم المُحتَّم، والوَاجبَ تَقْـديمُه علىٰ كلِّ مُقَدَّم؛ العِلْمُ بمعرفة الله تعـالىٰ والطَّرِيقُ المُوصِّـل إليها، وإثباتُ صفاته المقدَّسـة

وما يجب لها ويَسْتَحيل عليها، وأنه الواجِبُ الْوُجُودِ لذَاتِه، وباعِثُ الرُّسُل لإقامة الُحجَّة علىٰ خَلْقِه بُمحْكَم آيَاتِه، وأنا الزَّعِيم بإقامة الأَدِلَّة علىٰ ذلك من المَعْقول والمَنْقول، والمتكَفِّل بتَصْحِيح مقدماته البُرْهانِيَّة بتَحْرِيرِ المُقَدَّم والتَّالِي والمَوْضوع والمَحْمول .

فقال علم أُصُول الدِّين : فحِينَئِـذٍ قد فُزْتُ من جَمْعِكُما بالشَّرَفَيْن، وجُمِـعَ لى مِنْكما الفَضْل بطَرَفَيْه فصِرْتُ بِكُما مُعلَمَ الطَّرَفَيْن؛ ومَيَّزْتُ بين صحيح الاعتقاد وفَاسِده فكان لى منهـما أحْسَنُ الاخْتِيارَيْن، وبَيَّنْتُ طَرِيقَ الحَقِّ لسالِكِها فكنتُ سَبَباً للفَوْز والنَّجاةِ فى الدَّارَيْن ؛ فانا المقصودُ للإنسان بالذَّات فى كمال ذَاتِه، وكُلُّ علْمٍ يَسْتمِدُّ مِنِّى فى مَبَادِيه ويَفْتَقِر إلىَّ فى مُقَدِّماته .

فقال علم التَّصَوُّف : لو كُشِفَ الغِطَاء ما ازْدَدتُ يَقِينـا، إذ كان كُلُّ امْرِئٍ بما عَمِل مُجازًى وبما كَسَب رَهِينا؛ إنَّه يَجِبُ علىٰ كُلِّ من كان بمُعْتَقِد الحَقِّ جَازِما، أن يكونَ عن دَارِ الغُرُور مُتجَافِياً ولأعمال البِرِّ مُلازِما؛ فانَّمـا الدُّنْيا مَزْرَعَةٌ للآخِرَه، إنْ حَصَلتِ النَّجاةُ فتِلْك التِّجارَة الرَّابحةُ وإن كانتِ الأُخْرَىٰ فتِلْك إذًا كَرَّةٌ خَاسِرَه ؛ فمن لَزِم طَرِيقَتِي فى الإعـراض عن الدُّنيا والزُّهدِ فيها سَلِم، ومَن اغْتَرَّ بزُخْرُفِها الفَانِى فقد خَابَ فى القيامة ونَدِم .

فلمـا كَثُرَت الدَّعاوَىٰ والمُعارَضَـات، وتَتَابعَتِ الُحجَجُ والمُنَـاقَضَات ؛ نَهَض عِلْم السِّياسَة قائمـا، وقَصَد حَسْم مادَّةِ الجدَال وظَالِمـا؛ وقال: أنَا جُذَيْلُها المُحَكَّك وعُذَيْقُها المُرَجَّب، وسَائسُها الكَافِى وحَاكِمُها المُهَذَّب؛ لقد ذَكر كُلٌّ منكم من فَضْله ما يُشَوِّق السَّامع، وأظْهَر من جليـلِ قَدْرِه ما تَنْقَطِع دُونَه المَطَامِع، وأتىٰ من وَاضِح كلامه بما لا يُحْتاجُ فى إثباته إلىٰ دَلِيلٍ ظَنِّىٍّ ولا بُرْهان قاطِع؛ غير أنه لا يَلِيقُ بالمُنْصِف أن يَتَخَطَّىٰ قَدْره المحـدود ولا يَتعدّى جُزْءَه المَقْسوم، ولكلِّ أَحِدٍ حدٌّ يَقِفُ عنده

وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم ؛ فلو سَلَكَ كلٌّ منكم سبيلَ المَعْدَلَه ، وأنْصفَ من نَفْسه فوقف عند ما حُدَّ له ، لكان به أَلْيَق ، ولمقام العِلْم أرْفَق .

فقال علم تَدْبِيرِ المَنْزِل : لقد تحرَّيتَ الصَّواب ، ونطقْتَ بالحِكْمَة وفَصْل الخِطَاب ؛ لٰكنّه لا بُدّ لكم من حَبْرٍ عالم ، وإمامٍ حاكِم ؛ يكونُ لشَمْلِكم جَامعا ، ولِمَوَاقع الشَّكِّ فى محلِّ التفاضُلِ بينكم رَافِعا ؛ مُحِيطٌ من كلِّ عِلْمٍ بمقْصُودِه ومُرَاده ، عارِفٌ بما تَشْتَمِلُ عليه مَبادِيه من حَدِّه ومَوْضُوعه وفائِدَته وآسْتِمْدَاده ؛ ليبلُغَ به من الفَضْل مُنْتهاه ، ويَقِفَ به من الشَّرف عند حَدٍّ لا يتعدَّاه ؛ فلا يَدَّعى مُدّعٍ بغير مُسْتَحَقّ ، ولا يطالِبُ طالِبٌ ما ليس له بحَقّ ؛ إلا أنَّ المحيط بكلكم عِلْما ، والقائمَ بجميعكم فَهْما ، أعَزُّ من الجَوْهرِ الفَرْد والكِبْرِيتِ الأحْمَر ، وأقَلُّ وجوداً من بَيْض الأَنُوق بل بَيْضُ الأَنُوق فى الوُجْدانِ أكْثَر .

فقال علم الفِرَاسَة : على الخَبِير سَقَطت ، وبآبْنِ بَجْدَتِها حَطَطت ؛ أَنَا بذلكم زَعِيم ، وبمَظِنَّته عَلِيم ؛ فلِلعِلْم عَرْفٌ يَنِمُّ علىٰ صاحبه ، وتلوحُ عليه بوَارِقُه وإن أَكَنَّه بين جوانِبِه ؛ فحَامِلُ المِسْك لا تخفىٰ رِيحُه علىٰ غيرِ ذى زُكَام ، والنَّهار لا يَخْفىٰ ضَوْءُه علىٰ ذِى بَصَرٍ وإن تسترتْ شَمْسه بأذْيال الغَمام ؛ ولقد تَصفَّحتُ وُجوه العلماء الكَمَلَه ، الذين طَوَاياهم علىٰ أجْمَلِ العلوم مُنطَوِيةٌ وعلىٰ تَفَاصيلها مُشْتمله ؛ وسَبَرت وقَسَّمْت ، وتَفَرَّستُ وتَوَسَّمْت ؛ فلم أجِدْ من يَلِيقُ لهذا المقام ، ويَصلحُ لقَطْع الجِدال والخِصام ؛ ويَعْرِف بلُغَةِ كلِّ عِلْمٍ فيُجِيبُ بلسانه ، ويَحْكم فلا يَنْقُض حُكْمَه غيرُه لآنْحطاطه عن بُلُوغ مَكانِه ؛ إلا البَحْرِ الزَّاخِر ، و (١) الذى لا يُعلم لفَضْله أوَّلٌ ولا يُدْرك لمَدَاه آخِر ؛ حَبْرِ الأمّه ، وعَلَّامة الأَئِمَّه ؛ وناصِرُ السُّنة وحامِيها ، وقامِعُ البِدْعة وقَامِيها (٢) ؛ نَجْلُ

(١) بياض بالأصل ولعله : الفاضل أو نحوه .

(٢) أصلُه وقامئها بالهمز فخففه من قَمَأه كمنعه قمعه .

شَيْخ الإسلام ، وخُلاصَةُ غُرَر الأيَّام ، جَلال الدِّين ، بَقِيَّة المجتهدين ؛ أبو الفَضْل عبد الرحمن البُلْقِينِيّ الشَّافعيّ ، النَّـاظِر فى الحُكْم العَزِيز بالديار المِصْريه ، وسائر المـالك الإسلامية وما أُضِيف إلىٰ ذلك من الوظَائِف الدِّينيـه ؛ لا زالتْ فواضِلُ الفَضَائل مَعْرُوفَهُ : فهو العَـالِم الذى إذا قال لا يُعارَض ، والحـاكِمُ الذى إذا حَكَم لا يُناقَض ، والإمامُ الذى لا يتخَلَّلُ ٱجْتِهادَه خَلَل ، والمُناظِرُ الذى ما حَاوَل قَطْع خَصْمٍ إلا كان لِسانُه أمْضَىٰ من السَّيف إذَا يقال : «سَبَق السَّيفُ العَذَل» :

إذا قَالَ بَذَّ القَائِلِيـن ولم يَدَعْ * لِمُلْتَمِسٍ فى القَوْل جِدًّا ولا هَزْلَا!

إن تكَلَّم فى الفقه فكأنمـا بلِسَان « الشَّافعيِّ » تكلَّم ، و « الرَّبيع » عنـه يَرْوِى و « المُزَنّى » منه يتَعَلَّم ؛ أو خاضَ فى أُصُول الفِقْه . قال « الغزالىُّ » : هذا هو الإمامُ باتفاق ، وقَطَع السَّيفُ « الآمِدِىُّ » بأنه المُقَدَّم فى هذا الفَنِّ على الإطلاق ؛ أو جَرَىٰ فى التَّفْسير . قال « الوَاحِدِىُّ » : هـذا هو العَالِم الأوْحد ، وأعطاه « ٱبْنُ عطِيَّةَ » صَفْقَة يَدِه بأن مِثْلَه فى التَّفْسير لا يُوجَد ، وٱعترف له « صَاحِبُ الكَشَّاف » بالكَشْف عن الغَوامِض ، وقال الإمام « فَخْرُ الدِّين » : "هذه مَفَاتِيح الغَيْب وأسْرارُ التَّنْزِيل" فارتفع الخِلَافُ وٱندفع المُعـارِض ؛ أو أخَذَ فى القِراآت والرَّسْم أزْرَى بأبى « عَمْرو الدَّانِى » ، وعَدَا شَأْوَ « الشَّاطِبِىِّ » فى "الرَّائية" وتَقَدَّمه فى « حِرْزِ الأَمانِى » ؛ أو تَحَدَّثَ فى الحَـدِيث شَهِد له « السُّفْيانَانِ » بعُلُوّ الرتبـة فى الرِّوايَه ، وٱعترف له « ٱبن مَعِين » بالتَّبْرِيز والتَّقَـدُّم فى الدِّرايَه ؛ وهَتَف « الخَطِيبُ البَغْدادِىّ » بذِكْرِه على المَنَابِر ، وقال « ٱبْنُ الصَّلَاح » : لِمثْل هـٰذِه الفوائد تَتَعَيَّن الرِّحْلة وفى تَحْصِيلها تَنْفَدُ المحَابِر ؛ أو أبْدَىٰ فى أُصُول الدِّين نَظَرًا تعلَّقَ منه « أبو الحَسَنِ الأشْعَرىُّ » بأوْفَىٰ زمام ، وسَدَّ بابَ الكلام على المُعْتَزِلَةِ حَتَّىٰ يقولَ « عَمْرو بن عُبَيْد » و « وَاصِلُ بنُ

عَطاءٍ » : لَيْتَنا لم نَفْتح بابًا فى الكلام ؛ أو دَقَّق النَّظَر فى المَنْطِق بهـر « الأَبْهرِىّ » فى مناظرته ، وكتب « الكَاتِبىُّ » علىٰ نَفْسه وَثِيقةً بالعَجْز عن مُقاوَمته ؛ أو أَلَمّ بالجَدَل رَمَى « الأُرْمَوِىُّ » نَفْسه بين يَدَيه ، وجعل « العَمِيدىُّ » عُمْـدَته فى آداب البَحْث عليه ؛ أو بَسَط فى اللُّغة لِسانَه ٱعترف له ٱبنُ « سِيدَهْ » بالسِّياده ، وأقرّ بالعَجْزِ لَدَيْه « الجَوْهَرِىُّ » وجَلَس « ٱبنُ فَارِس » بين يديه مجْلِسَ الٱسْتِفاده ؛ أو نَحَا إلى النَّحْو والتَّصْريف أَرْبَىٰ فيه علىٰ « سِيبَوَيْهِ » ، وصَرَف « الكِسَائىُّ » له عَزْمه فسار من البُعْد إليه ؛ أو وَضَع أُنْموذَجًا فى عُلوم البلاغة وَقَف عنده « الجُرْجَانِىُّ » ، ولم يَتَعدَّ حَدَّه « ٱبنُ أبِى الإِصْبَع » ولم يُجَاوز وَضْعَه « الرُّمَّانِى » ؛ أو رَوَىٰ أشعارَ العَرَب أزْرَىٰ « بالأَصْمَعِىّ » فى حِفْظِه ، وفَاقَ « أَبَاعُبَيْدَةَ » فى كَثْرة رِوايَته وغزيرِ لَفْظه ؛ أو تعرّض للعَرُوض والقَوافِى ٱسْتَحقَّهما على « الخَلِيـل » ، وقال « الأَخْفَشُ » عنه : أَخَذْتُ المُتَـدَارَك وٱعْتَرف « الجَوْهَرِىُّ » بأنه ليس له فى هـذا الفَنِّ مَثِيـل ؛ أو أَصَّـلَ فى الطِّبِّ أَصْـلًا قال « ٱبْنُ سِينَا » : هذا هو القَانُون المُعْتَـبَرُ فى الأُصُول ، وأَقْسَم « الرَّازِىّ » بُمحْيِي المَوْتَىٰ إن « بِقْرَاطَ » لو سَمِعه لمـا صَنَّف "الفُصُول" ؛ أو جَنَح إلىٰ غيره من العـلوم الطَّبِيعيَّة فكأنَّمـا طُبِـع عليه ، أو جَذَب له ذلك العِـلْم بزِمَامِ فٱنْقَاد إليه ؛ أو سَلَك فى علوم الهَنْدَسَة طَرِيقا لقال « أُوقْلِيدس » : هـذا هو الخَطُّ المُسْـتقيم ، وأَعْرَض « ٱبن الهَيْثَم » عن حَلِّ الشُّـكُوك ووَلَّىٰ وهو كَظِيم ، وحمد « المُؤْتَمن بنُ هُودٍ » عَدَم إكمال كتابه "الٱستكمال" وقال : عَرَفْتُ قَدْر نفسى : وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم ؛ أو عَرَّج علىٰ عُلوم الهَيْئة لٱعْتَرف « أَبُو الرَّيْحان البِيرُونِىُّ » أنه الأُعْجوبةُ النَّادِره ، وقال ٱبنُ أَفْلَحَ : هذا العَالِم قُطْبُ هذه الدَّائِرَه ؛ أو صَرَف إلىٰ عِلْم الحِسَاب نَظَره لقال « السَّمَوْءَلُ بن يَحْيىٰ » لقد أَحْيَا هذا الفَنَّ الدَّارس ، ونَادَىٰ « ٱبن مجلى المَوْصِلِىّ » قد ٱنْجلتْ عن هذا العلم غَيَاهِبُهُ حتى لم يَبْقَ فيه عَمَهٌ لِعَامِهٍ ولا غُمَّةٌ علىٰ مُمارِس .

وقدْ وَجَدْتَ مَكَان القَوْلِ ذا سَعَةٍ * فإنْ وَجَدت لِسَاناً قائِلًا فقُلِ!

وَكَيْف لاتُأْتِي إليه العلومُ مقاليدها، وتَصِلُ به الفَضَائِل أسَانيدَها، وهو ٱبْنُ شَيْخ الإسلام وإمَامِه، ووَاحِد الدَّهرِ وعَلَّامِه، وجَامِع العُلوم المُنْفرد، ومن حَقَّق وُجُوده في أواخر الأعصار أن الزَّمانَ لايَخْلو من مُجْتَهِد، ومن لم يَزَل موضوعُ الأوضاع المعتبرة عليه مَحْمولا، ومن كان علىٰ رَأْسِ المـائَةِ الثَّامنَة مُضاهِيًا لعُمَرَ بن عبد العزيز علىٰ رأس المـائَةِ الأُولىٰ، فالخَناصِرُ عليه وعلىٰ وَلَدِه تُعْقد، ولا غَرْوَ إنْ قام مُنْشِدُهما فأنْشَد:

إن ٱلمـائَةُ الأُولىٰ علىٰ رَأْسِهـا أَتَىٰ * لهـا عمرُ الثَّانِى لذَا الدِّينِ صَائِنَهْ،

ووَالىٰ رِجالٌ بعـد ذَاكَ كمِثْلِه * فها عُمَرٌ وافَى علىٰ رأس ثَامنَـهْ

يظَـاهِرُه نَجْلٌ سَـعيدٌ غَدَتْ به * مَعَاقِلُ عِلم فى ذُرا الحَقِّ آمنَـه.

إذا شَـيْخُ إسلامٍ أضَاءَ سِرَاجُه * رَأيتَ جَلالًا من سَنَا الفَضْلِ قارَنَه!

فلا يَعْدَمِ الإسْـلَامُ جَمْعَ عُلاهُمـا * ولَـنْ يَبْرحا للدِّين دَأْبا مَيامِنَه!

فقال علم الأخلاق : أَصبتَ سَوَاءَ الثُّغْرةِ وجِئْتَ بالرَّأْيِ الأكمل، وعَرفتَ من أيْن تُؤْكَلُ الكَتِف فطَبَّقْتَ المِفْصَلَ بالمِفْصَل، إلا أنَّ من مَحَاسِنِ الأخلاق، ومَعَالِمِ الإرْفاق، أنْ تَعُودوا بفَضْلِكم، وتَرجِعُوا بمَعْروفكم وبِرِّكُم، إلىٰ من جَرَىٰ بكم فى التَّفَاخُر مجرى الإنصاف، وبَسَط لسان كَلِمِه بمـا ٱشْتَمَلَ عليه كلٌّ منكم من جَمِيل الأوْصاف، ثم كان من شَأْنِه أن وَصَل بالٱتِّفاق والٱلْتِئَام حَبْلَكم، وجَمَع بالمَحَلِّ الكَرِيم بعد التباعد شَمْلَكم، وذَكَّرَكم بحُسْـنِ المُصَافاةِ أَصْلَ الوِدَاد القَـديم، وتَلا بلِسَان الأُلْفة فيكم: ﴿فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾. بأن يَنْتَصِب كلٌّ منكم له شفيعًا إلىٰ هذا السَّيِّد الجليل، ويكونَ له وَسِيلةً إلىٰ هذا الإمام الحَفيل، أن يَصْرِف إليه وَجْه العِنَايَه، ويَنْظر إليــه بعَـيْن الإقبال والرِّعايه، ليَعِز فى النـاس جَانِبُه، ويَطْلُع

فى أفُقِ السَّعْد بعد الأُفول غَارِبُه ؛ ويَبْلُغَ من مُنْتَهىٰ أملِه ماله جَهِد ، ويَسْعَدَ بالنَّظَر السعيد جَدُّه فقد قيل : «مَن وقَع عليه نَظَرُ السَّعِيدِ سَعِد» .

علىٰ أنه ـ أمتع الله الإسلام ببَقَائِه وبقاء والده ، وجَمَع بينهما فى دَارِ الكَرَامة كما جمع لهما بين طَارِفِ المَجْد وتَالِده ؛ ـ قد فَتَح له من التَّرقِّى أوّلَ باب ، ولا شَكَّ أنَّ نَظْرةً منه إليه بعد ذلك تُرقِّيه إلى السَّحاب .

فَأَزْرَقُ الفَجْرِ يَبْدُو قَبْلَ أبْيَضِه * وأَوّلُ الغَيْثِ قَطْرٌ ثم يَنْسَكِبُ !

فقال علم التاريخ : ٱهْبِطوا مِصْرًا فإنَّ لَكُم ما سَأَلْتُم ، وقَرُّوا عَيْنًا فإلى القَصْد الجليل وَصَلْتم ، وعلىٰ غاية الأمَلِ ـ ولله الحمد ـ حَصَلْتم ؛ فقد بَلَوْتُ الأوائلَ والأواخِر، وخَبَرْتُ حالَ المتَقدِّم والمُعاصِر ؛ فلم أَرَ فيمَنْ مَضَىٰ وغَبَر ، وشاعَ ذِكْرُه وٱشْتَهر ؛ من ذوى المراتب العَلِيَّه ، والمَنَاصِبِ السَّنِيَّه ؛ مَن يُساوِى هذا السَّيِّد الجليل فَضْلا ، أو يُدانيه فى المعروف قَوْلا وفِعْلا ؛ قد لَبِس شَرَفًا لاتطمع الأيام فى خَلْعه ، ولا يَتطلَّع الزمانُ إلىٰ نَزْعه ؛ وٱنتهىٰ إليه المَجْد فوَقَف ، وعَرَف الكَرَمُ مكانَه فانْحازَ إليه وعَطَف ؛ وحَلَّت الرَّآسةُ بِفِنَائه فٱسْتَغْنَتْ به عن السِّوىٰ ، وأنَاخَتِ السِّيادة بأفْنائه فألْقت عَصَاها وٱسْتَقَرّ بها النَّوىٰ ؛ فَقَصُرتْ عنه خُطَا من يُجَارِيه ، وضَاقَ عنه بَاعُ من يُنَاوِيه ؛ وٱجتمعتْ الألْسُنُ علىٰ تَقرِيضه فمُدِحَ بكلِّ لِسان ، وتَوافَقَتِ القُلوبُ علىٰ حُبِّه فكان له بكلِّ قَلْبٍ مَكَان :

وَلَمْ يَخْلُ من إحْسانه لَفْظُ مُخْبِر ، * ولم يَخْلُ من تَقْرِيظه بَطْنُ دَفْتَرِ !

فهو الحَرِىُّ بأن يُكْتَبَ بأقلام الذَّهَب جَمِيلُ مَنَاقِبه ، وأن يُرْقَمَ علىٰ صَفَحات الايام حَمِيدُ مَطالِبِه ؛ فلا يَذْهب علىٰ مَمَرِّ الزمان ذِكْرُها ، ولا يزولُ علىٰ تَوَالى الدُّهور فَخْرُها .

ولما تمَّ للعلوم هذا الاجتماع الذى قارَن السَّعدُ جلالَه، وتفجّرتْ ينابيعُ الفضل خِلالَه؛ أقْبلوا بوجُوهِهم على الشِّعْر مُعاتِبين، وبما يلزمه من تقْريض هذا الحَبْر ومَدْحِه مُطالِبين؛ وقالوا: قد أتى النَّثْرُ من مَدْحِه بقَدْر طَاقتِه، وإن لم يُوفِ بجَليل قَدْره ورَفيع مَكانَتِه؛ فلا بُدّ من أن تختِم هذه الرسالةَ بأبياتٍ بالمَقام لائقه، ولما نحنُ فيه من القَضيَّة الوَاقعة مُطابِقَه؛ قائمةً من مَدْحِه بالوَاجب، سالِكةً من ذلك أحْسنَ المَسالكِ وأجملَ المَذاهِب؛ لتكْمُلَ هذه الرسالةُ نَظْماً ونَثْرا، وتفْتَنَّ فى صناعة الأدَب خَطَابةً وشِعْرا؛ فقال: سَمْعًا وطاعَه، واسْتِكانةً وضَراعَه؛ ثم لم يَلْبَثْ أن قام عَجِلا، وأنْشَد مُرْتَجِلا:

بُشْراكُمْ مَعاشِرَ العُلُومِ أنْ * جُمِعْتُمْ بصَدْرِ حَبْرٍ كامِلِ!
فُنُونُه لم تجتَمِعْ لعالِمِ * وفَضْله لم يَكْتَمِل لفَاضِلِ!
يَشْفِى الصُّدُورَ إن غَدَا مُناظِرًا، * وبَحْثُه فَزِينَةُ المَحافِلِ!
كَمْ عَمَّرَتْ درُوسُه من دَارِسٍ، * وزَيَّنَتْ بحَلْيِها من عَاطِلِ!
وأوْضَحتْ أقوالُه من مُشْكِلٍ * لمَّا أتَى بأوْضَحِ الدَّلائلِ!
وكَمْ غَدَتْ آراؤُه حَمِيدَةً، * ونبَّهتْ بجِدِّها من خَامِلِ.
وحُكْمُه فكَمْ أقَالَ عَثْرةً * وجُودُه ففَوْقَ قَصْدِ الآمِلِ!
هٰذَا: وقد فَاقَ الوَرَى رآسَةً * محْفُوفَةً بألْطَف الشَّمائلِ!
مَنْ ذَا يَرُوم أن ينَال شَأوَه؟ * أنَّى له بأمْثَلِ الأماثِلِ؟
مَوْلًى عَلَا فَوْقَ السِّماكِ رُتْبَةً * قَدْ زُيِّنَتْ بأفضل الفَوَاضِلِ!
فما له فى فَضْلِه من مُشْبِهٍ، * وما لبَحْرِ جُودِه من سَاحِلِ!
حَاشَى لراجٍ فَضْلَه أن ينْثَنِى * صِفْرَ اليَدَيْن أو مُمَنَّى الآجِلِ!

قلتُ : ولم أَرَ من تعرّض للمُفاخَرَة بين العُلومِ سوى القاضِى الرَّشِيد أبى الحُسَين ٱبن الزبير فى مَقَالتِه المقدّم ذكرها(١) علىٰ أنَّها لم تكنْ جارِيةً علىٰ هذا النَّمَط ، ولا مُرَتَّبةً علىٰ هــذا التَّرتيب ، مع الاقتصار فيها علىٰ عُلوم قليلةٍ ، أشار إلى المُفَاضَلَة بينها علىٰ ما تقدّم ذِكْره . ولكنَّ اللهَ تعالىٰ قد هَدَىٰ بفَضْله إلىٰ وُجوه التَّرجيح التى يَرْجَحُ بهـا كلُّ علمٍ علىٰ خَصْمِه ، ويَفْلُجُ به علىٰ غَيْره ، والمُنْصِف يعرف لذلك حَقَّه . والذى أعانَنِى علىٰ ذلك جلالةُ قَدْرِ من صُنِّفتْ له وعُلُوُّ رتبتــه ، واتساعُ فَضْــلِه ، وكثرةُ علومه ، وتَعْداد فُنُونه ، إذْ صِفاتُ المَمْدوح تَهْدِى المـادح وتُرْشِدُه .

ومنها المفاخرة بين السَّــيْف والقَلَم ، وقد أكثر النــاسُ منها : فمن عالٍ وهَابِط ، وصَاعِد وسَاقِط .

وهذه رسالةٌ فى المفاخرة بين السَّيف والقَلَم ، أنشأتُها للمَقَرِّ الزَّيْنى أبى يَزِيدَ الدَّوادَار الظَّاهرىّ ، فى شهور سنة أربع وتسعين وسَبْعِمائة ، وسَمَّيتها : "حِلْية الفَضْل وزِينَة الكَرَم ، فى المُفَاخَرَة بين السَّيْف والقَلَم" وهى :

الحمدُ لله الذى أعَزَّ السَّــيفَ وشَرَّف القَلَم ، وأفْرَدَهما بِرُتَبِ العَلْياءِ فقَرَن لهما بين المَجْدِ والكَرَم ، وساوَىٰ بينهما فى القِسْمة فهذا للحُكْم وهذا للحِكَم .

أحمدُه علىٰ أنْ جَمعَ بخَيْر أميرٍ بعد التَّفرُّق شَمْلَهما ، ووَصَل بأعَزِّ مَلِيكٍ بعد التَّقاطُع حَبْلَهما ، وأرْغَبُ إليه بشُكْرٍ يكاثِرُ النجومَ فى عَدِيدِها ، ويكونُ للنعمة علىٰ مَمَرِّ الزَّمانِ أبَا يَزِيدها ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يأتمُّ الإخلاصُ بِمَذْهَبِها ، ولا يَنْجُو من سَيْفِها إلا من أجاب دَاعِيَها وأقرّ بها ، وأن محمدًا عبدُه ورسولُه

(١) لم تذكر هذه المقالة فيما مضىٰ فلعلها سقطت من قلم النساخ .

الذى خُصَّ بأشرف المَناقب وأفضَلِ المآثِر، وآستأثر بالسُّؤدد فى الدَّارين فحَاز أفخَر المعالى ونَال أعلىٰ المَفاخر، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه الذين قامَتْ بنُصرتهم دولةُ الإسلام فسَمَتْ بهم علىٰ سائر الدُّول، وكَرَعتْ فى دِماء الكُفْر سُيوفُهم فعادتْ بخَلُوق النَّصْر لابحُمْرة الخَجَل؛ صلاةً ينْقضى دُونَ آنقضائها تعاقُبُ الأيام، وتَكلُّ ألسِنةُ الأقلام عن وَصْفها ولَوْ أنَّ مَافى الأَرْض مِنْ شَجَرةٍ أقْلام .

وبعدُ، فإنَّه ما تقارب آثْنان فى الرُّتبة إلا تحاسَدا، ولا آجْتَمعا فى مَقَام رِفْعةٍ إلا آزْدَحما على المَجْد وتَوارَدَا؛ ورَام كلٌّ منهما أن يكونَ هو الفائزَ بالقِدْح المُعَلَّىٰ، وأن يكونَ مَفْرِقُه هو المُتوَّجَ وجِيدُه هو المُحَلَّىٰ؛ وآدّعىٰ كلٌّ منهما أن جَوادَه هو السابقُ فى حَلْبة السِّباق، والفَائزُ بقَصَب السَّبْق بالآتِّفاق؛ وأن نَجْمه هو الطالِعُ الذى لا يأفَل، وسُؤْدده هو الحاكِمُ الذى لا يُعْزَل؛ وأن المِسْكَ دُون عَبِيره، والبَحْرَ لايَجِىءُ نُقْطة فى غَدِيره؛ والدُّرّ لا يَصْلُح له صَدَفا، ونَفِيسَ الجَوْهَر لا يُعادِلُه شَرَفا؛ وأن مَنابِر المَعَالى مَوْقوفةٌ علىٰ قَدَمه، ومَجامِرَ المَفَاخر فائحةٌ بنَشْر كَرَمه .

ولمَّا كان السَّيفُ والقلَمُ قد تَدَانيا فى المَجْد وتَقارَبا، وأخذَا بطَرَفَى الشَّرَف وتَجاذَبا؛ إذ كانا قُطْبَينِ تَدُورُ عليهما دَوائرُ الكمال، وسَعْدَيْن يجتمعان فى دائرة الآعتدال؛ ونَجْمَين يَهْدِيان إلى المعالى، ومِصْباحَيْنِ يُستضاءُ بهما فى حَنادِس اللَّيالى؛ وقاعدَتَينِ تُبْنى الدُّوَلُ علىٰ أركانهما، وشَجَرتينِ يُجتنَى العِزُّ من أغصانهما؛ جَرَّ كلٌّ منهما ثوبَ الخُيَلاءِ فَخْرا فمشىٰ وتَبَخْتَر، وأسْبَلَ رِداءَ العُجْب تِيهًا فما تَخَبَّل ولاتَعَثَّر؛ وآتسع له المجالُ فى الدَّعوىٰ فجال، وطاوَعتْه يَدُ المَقالِ فقالَ وطَال؛ وتطَرَّقتْ إليهما عَقَاربُ الشَّحْناءِ ودَبَّتْ، وتوقَّدتْ بينهما نارُ المُنافَسة وشَبَّتْ؛ وأظهر كلٌّ منهما ما كان يُخفيه فكَتَب وأمْلىٰ، وباح بما يُكنُّه صَدْره والمُؤْمن لا يكون حُبْلىٰ؛ وبدأ القلَم فتكلَّم، ومضىٰ فى الكلام بصِدْق عَزْمٍ فما توقف ولا تَلَعْثَم؛ فقال :

باسم الله تعالىٰ أستفتِح، وبحَمْده أتيمّن وأستَنْجِح؛ إذ من شأْنِ الكتابه، ومن فَنِّى الخَطابه؛ وكلُّ أمْرٍ ذِى بالٍ لا يُبدأ فيه باسم الله تعالىٰ فهو أجْذَم، وكلُّ كلامٍ لا يفتتح بحمده فأساسُه غير مُحْكَم وردَاؤه غير مُعْلَم؛ والعاقلُ من أتى الأمر من فَصِّه، وأخذ الحديثَ بنَصِّه؛ والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع، والباطلُ أجْدَرُ أن يترك فلا يُصْغىٰ إليه ولا يستمع؛ إنى لأوّلُ مخلوقٍ بالنَّص الثابت والحُجَّة القاطعه، والمُسْتحقُّ لفضل السَّبق من غير مُنازَعه؛ أقْسم اللهُ تعالىٰ بِى فى كتابِه، وشرَّفنِى بالذِّكْر فى كلامِه لرسوله وخطابِه، فقال جلَّ من قائلٍ: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾. وقال جَلَّتْ قُدْرتُه: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾. فكان لى من الفَضْل وَافِرُ القِسْمه، وخُصِصْتُ بكمال المعرفة فجمعت شَوَارِدَ العلوم وكُنتُ قَيِّم الحِكْمه.

فقال السَّيفُ: بسم الله والله أكبر: ﴿نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾. لكلِّ باغٍ مَصْرَع، وللصَّائل بالعُدْوان مَهْلَكٌ لا يَنْجو منه ولا يَنْجع؛ وفاتحُ باب الشَّرِّ يُغلَق به، وقَادِح زَنْد الحَرْب يُحْرق بلَهَبِه؛ أقولُ بموجَب آسْتِدْلالك، وأُوجبُ الاعتراضَ عليكَ فى مَقَالِك:

نَعَم أقْسَمَ اللهُ تعالىٰ بالقَلَم ولَسْتَ بذلك، وكان أوّلَ مخلوقٍ ولستَ المَعْنِىَّ بما هُنالك؛ إنَّ ذلك لمَعْنًى يَكِلُّ فَهْمُك عن إدراكه، ويَضِلُّ نَجْمك أن يَسْرِىَ فى أفلاكه؛ وأنتَ وإن ذُكِرتَ فى التنزيل، وتَمسَّكتَ من الامْتِنان بكَ فى قوله: ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ بشُبهة التَّفْضِيل؛ فقد حَرَّم الله تعالىٰ تعلُّمَ خَطِّك على رسوله، وحَرَمك من مَسِّ أنامله الشريفة ما يُؤْسىٰ علىٰ فَوْتِه ويُسَرُّ بحُصُوله؛ لٰكنِّى قد نِلْتُ من هذه الرتبة أسْنىٰ المقاصد، فشَهِدْتُ معه من الوقائع مالم تشاهد؛ وحَلَّانى من كَفِّه شرفًا لا يزول

حَلْيه أبدا، وقُمْتُ بنَصْره فى كلِّ مُعْتَرَك : وسَلْ حُنَيناً وسَلْ بَدْراً وسَلْ أُحُدا ! ! ! ؛ ذَكَر اللهُ تعالىٰ فى القرآن الكريم جِنْسى الذى أنا نَوْعه الأكبر ، ونَبَّه علىٰ ما فيه من المنافع التى هى من نَفْعك أعَمُّ وأشهر؛ وما اجتمع فيه من عَظِيمَي الشِّدّة والباس ، فقال تقدّست عظمته : ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ . علىٰ أنك لو ٱعتبرت جِنْسَيِ القَصَب والحَـديد، وعرفتَ الكَليلَ منهما والجَليد ، لتحققتَ تسلط الحَديد عليك قَطًّا وبَرْيا، وتحكُّمَه فيك أمرًا ونَهْيا .

فقال القَلَم : فَرَرتَ من الشريعة وعَدْلِها،وعَوَّلْتَ على الطبيعة وجَهْلِها؛فافتخرتَ بحَيْفك وعُدْوانك ، وٱعتمدتَ فى الفَضْـل علىٰ تَعَدِّيك وطُغْيانك؛ فملتَ إلى الظُّلم الذى هو إليك أقْرب،وغلبَ عليك طَبْعُك فى الجَوْر : و «الطَّبْع أغلب» ؛فلا فِتْنَةَ إلا وأنتَ أَساسُها،ولا غارةَ إلا وأنت رأْسُها؛ ولا شَرَّ إلا وأنتَ فاتحُ بابِه ، ولا حَرْبَ إلا وأنت وَاصِلُ أسـبابِه؛ تُؤَكِّد مواقع الجفـاء ، وتُكَدِّر أوقاتَ الصَّـفاء؛ وتُؤَثِّر القَساوَه، وتُؤْثِر العَداوه؛ أما أنا فالحقُّ مَذْهبي، والصِّـدق مَرْكَبي ؛ والعَدْلُ شِيمَتِي ، وحِلْية الفَضْلِ زِينَتِي؛ إن حكمتُ أقسطت،وإن ٱسْتُحفِظْتُ حَفِظْتُ وما فَرَّطت ؛ لا أُفْشِى سِرّا يريد صاحبُـه كَتْمه، ولا أكْتُم عِلمًـا يبتغى مُتَعلِّمُه عِلْمَه ؛ مع عموم الحاجة إلىّ، والٱفتقارِ إلىٰ عِلْمى والٱكتسابِ ممـا لَدَىّ، أُدِيرُ فى القرطاس كاسَاتِ خَمْرِى فأُزْرى بالمَزَامِير وأَهْزَأُ بالمَزَاهِر ، وأنفثُ فيـه سِحْرَ بيَانِى فأَلْعَبُ بالألبـاب وأَستجلبُ الخَوَاطِر، وأُنْفِذُ جيوشَ سُطورِى علىٰ بُعدٍ فأَهْزِم العساكر :

فَلَكَمْ يَفُلُّ الجَيْشَ وهو عَرَمْرَمٌ * والبِيضُ ما سُلَّتْ من الأَغْمَادِ!

فقال السَّيفُ : أطلتَ الغَيْبه ، وجِئتَ بالخَيْبه؛ وسكتَّ أَلْفًا، ونَطقتَ خَلْفا .

السَّيفُ أصْدَقُ أَنْبـاءً من الكُتُبِ * فى حَدِّهِ الحَدُّ بينَ الجِدِّ واللَّعِبِ

إنَّ نجادى حِلْيةٌ للعواتق، ومُصاحبتى آمنةٌ من البوائق؛ ما تقلَّدنى عاتقٌ إلا باتَ عزيزا، ولا توسَّدنى ساعدٌ إلا كنتُ له حِرْزًا حَرِيزا؛ أَمْرِى المطاعُ وقولى المُستمع، ورأيى المصوَّبُ وحُكمى المُتبع؛ لم أزلْ للنَّصر مِفْتاحا، وللظلام مِصْباحا؛ وللعزِّ قائدا، وللعُدَاة ذَائدا؛ فأنَّى لك بمُساجلتى، ومُقاومتى فى الفَخْر ومُنافرتى؟؛ مع عُرْيِ جِسْمى ونَحافة بَدَنِك، وإسراعِ تلافك وقِصَرِ زَمَنِك، وبَخْس أثمانك على بُعْد وطَنِك، وما أنتَ عليه من جَرْيِ دَمْعك، وضِيقِ ذَرْعِك، وتفرُّقِ جَمْعك؛ وقِصَر باعك، وقِلَّة أتباعِك.

فقال القَلَم: مَهْلًا أيُّها المُساجل، وعلى رِسْلك أيها المُغالِبُ والمُناضل؛ لقد أفْحَشْتَ مَقَالا، ونَمَّقتَ مُحالا؛ فغادَرتْك سُبُلُ الإصابه، وخرجتَ عن جادَّة الإنابَه، وسُؤْتَ سَمْعًا فأَسأْتَ جابَه؛ إنِّى لمبارك الطَّلْعة وَسِيمُها، شريفُ النَّفْس كريمُها؛ آخذٌ بالفضائل من جميع جهاتها، مُستوْفٍ للمَادح بسائر صفاتها؛ فطائِرِى مَيْمُون، وغُولى مأْمون، وعطائى غير مَمْنُون؛ أَصِلُ وتَقْطَع، وأُعْطِى وتَمْنَع، وتُفرِّق وأَجْمَع؛ وإنَّ آزدِراءك بى من الكِبْر المَنْهِىِّ عنه، وغَضَّك عنِّى من العُجْب المُستعاذ منه؛ ومن حَقَّر شيئًا قَتَله، ومن آستهانَ بفاضلٍ فَضَله؛ وإنِّى وإن صَغُر جِرْمِى فإنى لَكبير الفِعال، وإن نَحُف بَدَنِى فإنى لشَديد البأس عند النِّزال؛ وإنْ عَرِىَ جِسْمى فكم كَسَوْتُ عاريا، وإن جَرَى دَمْعِى فكم أرْوَيتُ ظاميا؛ وإن ضاق ذَرْعِى فإنى بِسَعَة المَجال مَشْهور، وإن قَصُر بَاعِى فكَمْ أطلقتُ أسيرًا وأنا فى سِجْن الدَّواة مأسُور؛ إذا آمتطيْتُ طِرْسِى، وتَدرَّعْتُ نِقْسِى، وتقلدتُ خَمْسِى، وجاشَتْ على الأعداء نَفْسِى:—

رأيتَ جَليلًا شأْنُه وهو مُرْهَفٌ * ضَنًى وَسَمِينًا خَطْبُه وهو نَاحِلُ!

أنَسيتَ إذْ أنتَ فى المَعْدن تُرابٌ تُداسُ بالأَقدام؟، وتَنْسِفُك الرِّياحُ وتُزْرِى بك الأيام؟؛ ثم صرتَ إلى القَيْنِ تَقْعدُ لك السَّنادِينُ بالمَراصد، وتَدْمغُك المَقامِعُ وتَسْطو

بك المَبَارِد ؛ ثم لولا صِقَالك لأذهبك الجَرَبُ وأكلك الصَّدَى، مع قِلّة صَبْرِك على المَطَر والنَّدَى .

فقال السَّيْف : إنّا لله ! لقد ٱستأسَدَت الثّعالب، وٱستَنْسرت البُغَاثُ فَعَدَّ العُصْفورُ نَفْسَه من طَيْر الوَاجِب ؛ وجاء الغُرابُ إلى البَازِى يُهَدِّده، ورجَع ابن آوَى على الأَسَدِ يُشَرِّده ؛ فلو عَرَفْتَ قَدْر نَفْسك ، ولَزِمتَ فى السَّكينة طَرِيقَ أبْناءِ جِنْسك ؛ ووقفتَ عنـد ما حُدّ لك، وذكرتَ عَجْزك وكَسَلَك ؛ لكان أجْدَرَ بك ، وأحْمَدَ لعاقِبَتك، وألْيَقَ بأدبك .

إن المُلُوكَ لَتُعِدُّنِى لِمُهِمَّاتها، وتَسْتَنجِدُ بِى فى مُلِمَّاتها ؛ وتَتَعالَى فى نَسَبِى، وتَتَغالَى فى حَسَبِى ؛ وتتنافَسُ فى قُنْيَتِى وتَتَحاسَد ، وتجعلني عُرْضَةً لأَيْمانها فتتعاقدُ بالحَلف عَلَيَّ وتَتَعاهَد ؛ وتَدَّخِرُنى فى خَزَائنها ٱدِّخَارَ الأَعْلاق ، وتَعُدُّنى أنْفَس ذخائرها على الإطلاق ؛ فتُكَلِّلنى الجَوَاهِر، وتُحَلِّينِي العقود فأظْهَر فى أحْسَن المَظَاهِر ؛ أُبْرُزُ للشُّجْعانِ خَدِّى الأسِيلَ فأُنْسِيهم الخُدُودَ ذواتِ السَّوالِف ، وأَزْهو بقَدِّى فأسلبهم هَيَفَ القُدُود مع لِينِ المَعَاطِف ؛ وأُوهِمُ الظَّمآن من قُرْبٍ أن بأَنْهارِى مَاءً يَسِيل ، وأُخَيِّل للمَقْرور من بُعْدٍ أَنِّى جَذْوَةُ نَارٍ فيَطْلُبنِي على المَدَى الطَّوِيل ؛ ويَخَالُنى مُتَوَقِّعُ الغَيْثِ بَرْقًا لامِعا، ويَظُنُّنِي الحَائِرُ فى الشَّرْق نَجْماً طالِعا ؛ فالشَّمْسُ من شُعاعِى فى خَجَل ، واللَّيْلُ من ضَوْئِى فى وَجَل ، وما أسْرَعْتُ فى طَلَبِ ثَأْرٍ إلا قِيل : « فَاتَ ماذُبِح » و «سَبَق السَّيْفُ العذَل» .

فقال القَلَم : بَرِّق لمَن لاعَرَفَك ، ورَوِّج على غير الجَوْهَرِىّ صَدَفَك ؛ فما أنت من بَزِّى ولا عِطْرِى ، ولست بمُساوٍ حَدُّك القاطعَ بقُلاَمَة ظُفْرِى ؛ إن بَرْقَك لخُلَّب ، وإن رِيحَك لأزْيَب ؛ وإن مَاءَك لجَامِد ، وإن نَارَك لخَامِد ؛ ومن ٱدّعَى ماليس له فقد باء بالفُجُور ، ومن تَشَبَّع بما لم يُعْط فهو كَلاَبِس ثَوْبَى زُور .

ومَن قَالَ : إنَّ النَّجْمَ أكْبَرُها السُّهَىٰ * بغَــيْرِ دَلِيــلٍ كَذَّبَتْــهُ ذُكَاءُ!

أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك، وعُذَيْقُها المُرَجَّب، وكَرِيمُها المُبَجَّل وعالمها المُهَذَّب؛ يختلف حالى فى الأفعال السَّنية بٱختلاف الأعراض، وأَمْشِى مع المقاصد الشريفة بحسب الأغراض؛ وأَتَزَيَّا بكلِّ زِىٍّ جميــلٍ، فأَنْزِلُ فى كلِّ حَىٍّ وأسِــيرُ فى كلِّ قَبِيل؛ فتَارَةً أُرىٰ إماماً عالمــا ، وتارة لِدُرِّ الكلام ناثرًا وأخرىٰ لعُقُود الشِّعر نَاظِما ؛ وَطورًا تُلْفِينِى جَوادًا سابقا ، ومَرَّةً تَجِدُنِى رُمْحًا طَاعِنًا وسَهْمًا راشِقا ؛ وآونَةً تَخالُنِى نَجْمًــا مُشْرِقا ، وحِينًا تَحْسَبُنِى أُفْعُوَانًا مُطْرِقا ؛ قد فُقْتُ الشَّــبَّابَة فى الطَّرَب ، وبَرَّزْتُ عليها فى كلِّ معــنًى وإن جمع بيننا جِنْسُ القَصَب ؛ فكانتْ للأغانى، وكُنتُ للمَعــانى؛ وجاءَتْ بغَرِيب النَّغَم، وجِئتُ ببَــدِيع الحِكَم؛ ولَعِبتْ بالأسمــاع طَرَبا ، ووَلِعْتُ بالألباب فاتَّخذَتْ لدَهْرِها ممــا عَراها عَجبًا .

فقال السَّيْف : ذَكَّرتَنِى الطَّعْن وكُنْتُ نَاسيا، وطَلَبتَ التَّكثُّر فازْددتَ قِلَّةً وعُدتَ خَاسيا ؛ فكنتَ كطالب الصَّيْدِ فى عِرِّيسَةِ الأسَدِ إن لَقِيَه أهْلَكَه ، وخَالفْتَ النَّصَّ فألقَيْتَ بيَدَيْك إلى التَّهْلُكَه ؛ فاقْنَعْ من الغَنِيمة بالإياب، وعُدَّ الهَزِيمةَ مع السَّــلامَةِ من أرْبَحِ الأكساب ؛ فلستَ ممن يَشُقُّ غُبَارِى ، ولا يُقــابِل فى الهَيْجاءِ ضَرَمِى ولا يَصْطَلِى بنَارِى ؛ فكَمْ من بَطَل أبطلتُ حِرَاكَه ، وكَمْ من شُجاعٍ عجلتُ هلاكَه ؛ وكَمْ صِنْدِيدٍ أرَقْتُ دمَه ، وكَمْ ثابِتِ الجَأْشِ زَلْزَلْتُ قَدَمَه .

وأراد القَلَمُ أن يأخُذَ فى الكلام، ويَرْجِعَ إلى الجدال والخِصام؛ فَغَلَب عليه رِقَّةُ طَبْعِه وحُسْنُ مَوارِدِه، وسَلاسَة قِيادِه وجَميــلُ مَقاصِده ؛ فمــال إلى الصُّلْح وجَنَح إلى السِّلْم ، وأعرض عن الجَهْل وتَمسَّك بالحِلْم ؛ وأقبل على السَّيْف بقَلْب صَاف، ولِسان رَطْبٍ غير جَاف ؛ فقال : قد طالتْ بيننا المُجادَلَه ، وكَثُرتْ المُراجعة والمُقَاوَلَه ؛

مع ما بيننا من قرابة الشَّرف ، وأَخْذ كلٍّ منّا من الفضل بطرَف ؛ فنحْنُ فى الكَرم شقيقان ، وفى المجد رفيقان ؛ لا يَستقلُّ أحدُنا بنفسه ، ولا يأْنس بغير صاحبه وإن كان من غير جنسه ؛ وقد حلبتُ الدَّهر أشطُره ، وعلمتُ أصفاه وأكدره ؛ وقلَّبته ظَهرا وبطْنا ، وجُبتُ فيافيه سَهلا وحَزْنا ؛ وإنَّ معاداة الرَّفيق ، ومُباينة الشَّقيق ؛ تُوجب شَماتة العَدُوِّ وتغمُّ الصديق ؛ فهل لكَ أن تعقد للصلح عقْدًا لا يُتعدَّىٰ حدُّه ، ولا يُحَلُّ علىٰ طُولِ الزَّمان عقْدُه ؟ ؛ لنكونَ أبدًا متآلِفَيْن ، وعلى السَّرَّاء والضَّرَّاء مُتصاحِبَيْن ؛ حتى لا يُضْرب بنَديمَىْ جَذِيمةَ مع اصطحابنا مثَل ، ولا يَتشبَّه بنا الفرْقَدان إلا بَاءَا بالخَطَل .

ولَسْت بمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّهُ * علىٰ شَعَثٍ ، أىُّ الرِّجالِ المُهذَّبُ؟

فقال السَّيْفُ : لقد رأيتَ صوَابا ، ورفَعتَ عن وَجْه المَحجَّة نِقابا ؛ وسَريْتَ أحسن مَسْرىٰ وسِرت أجْملَ سَيْر ، وصحِبَك التَّوفيقُ فأشرْتَ بالصُّلْح : وَالصُّلْحُ خَيْر .

وَقَدْ يجمعُ اللهُ الشَّتيتَيْن بعد ما * يَظُنّان كلَّ الظَّنِّ أن لا تَلاقيَا !

ثم قالا : لا بُدَّ من حَكَمٍ يكونُ الصُّلْح علىٰ يديْه ، وحاكِمٍ نَرْجِع فى ذلك إليه ؛ لنَحْظىٰ بزيادة الشَّرف ، ونَظْفَر من كمال الرِّفعة بغُرَف من فوقها غُرَف ؛ ولَسْنا بفائزين بطَلِبَتِنا ، وظافرين ببُغْيَتنا ؛ إلا لدىٰ السَّيِّد الأكمل ، والمَالِكِ الأفْضل ؛ المَاجد السَّرىّ ، والبَطَل الكَمِىّ ؛ والبَحْر الخِضَمّ ، والغَيْث الأعَمّ ؛ مَوْلى المَعَالِى ومُولِى النِّعَم ، ومُمْتطِى جَوادِ العِزِّ ورَافِع أعلام الكَرَم ؛ جامِع أشتات الفضائل ومَالك زِمامها ، وضَابِط أمْرِ الدَّولة الظاهرية وحَافِظ نِظامها ؛ المَقَرِّ الكريم ، العالى ، المَوْلَوِىّ ، الزَّيْنِىّ ، أبى يَزِيدَ الدَّوادار الظَّاهِرىّ : ضاعف الله تعالىٰ حَسَناته المُتكاثِره ، وزاده رفْعةً فى الدَّارَيْن ليَجْمع له الارتقاءَ بين منازل الدُّنيا والآخره ؛ فهو قُطْبُ

المملكة الذى عليه تَدُور، وفارِسُها الأرْوَع وأسَدُها الهَصُور؛ وبَطَلُها السَّمَيْدَع وليثُها الشهير، وأبُو عُذْرَتِها حقًّا من غير نُكرٍ وٱبْنُ بَجْدَتِها السَّاقِطَةُ منه على الخَبِير؛ ومَعقِلُها الأمْنَع وحِرْزُها الحَصين ، وعِقْدُها الأنْفَس وجَوْهَرِها الثَّمين ؛ وتِلَادُها العَالِمُ بأحوالها ، والجَدير بمعرفة أقْوالِها وأفْعالها ؛ وتَرْجُمانُها المُتَكلِّم بلسانها، وعَالِمها المُتَفَنِّن فى أفْنانِها؛ وطَبِيبُها العارِفُ بِطِبِّها، ومُنْجِدُها الكاشف لكُرَبِها .

هذا : وإنَّه لمَالِكُ أمْرِنا ، ورَافِعُ قَدْرنا ؛ والصَّائِل منا بالحَدَّيْن ، والجَامِع منا بين الضِّدَّين ؛ فلو لَقِيه «فَارِسُ عَبْسٍ» لولَّىٰ عابِسا، أو طَرَق حِمىٰ «كُلَيْبٍ» لبات من حِمَاهُ آيِسا ؛ أو قَارَعه «رَبيعة بن مُكَدَّمٍ» لعَلا بالسَّيْف مَفْرِقَه، أو نَازَله «بِسْطامٌ» لبَدَّد جَمْعَه وفَرَّقه ؛ كما أنه لو قُرِن خطُّه بنَفِيس الجوهر لعلاه قِيمَه، أو قاسَمَه «ٱبنُ مُقْلَةَ» فى الكتابة لما رَضِىَ أن يكون قَسيمَه ، أو فاخَرَه «ٱبن هِلالٍ» لرَأَىٰ انه سَبَقَه إلىٰ كلِّ كَريمَه .

وبالجُمْلة فعزُّه الظاهر وفَضْله الأكمل ، وسِمَاكُه الرَّامِحُ وسِمَاكُ غيره الأعْزَل ؛ فلا يَسْمَح الزمانُ أن يَأْتِىَ له بنَظِير، ولا أراد مُدَّعٍ بُلُوغَ شَأْوِه إلا قِيل : ٱتَّئِدْ فلَقَد حَاوَلْتَ الٱنْتِهَاضَ بجَناحٍ كَسِير :

فَحَيَّهَلًا بالمَكْرُماتِ وبالعُلَىٰ * وحَيَّهَلًا بالفَضْلِ والسُّؤْدُدِ المَحْضِ!

فالحمدُ لله الذى جَمَعنا بأكْرَم محلٍّ وأفْضل، وأحْسَنِ مَقامٍ وأجْمل ؛ فَهلُمَّ إليه يَعْقِدْ بيننا عَقْد الصُّلح، ونُبَايِعُه على ملازمة الخِدْمة والنُّصْح .

ثم لم يَلْبثا أن كَتَبا بينهما كتاباً بالصُّلْح والمُصافَاه ، وتَعاهَدا على الوُدِّ والمُوافَاه ؛ وأعْلَنَ بعَقْدِ الصُّلح مُنادِيهما، وحَدَا بذِكْرِ التَّعاضُدِ والتَّناصُر حَادِيهما؛ وراح يُنْشِد :

حَسَمَ الصُّلحُ ما ٱشْتَهَتْه الأعَادِى، * وأذَاعَتْه ألْسُنُ الحُسَّادِ!

وزَالتْ عنهـما الأحْقادُ والإِحَن ، وباتا فى أعزِّ مكانٍ وأشرفِ وَطن ، وثَلَّث قِرَانهما فأسْعد ، ثم قام مُنْشِدُهما فأنْشَد :

لا يُنْكَر الصُّلْحُ بين السَّيفِ والقَلَمِ * فعاقِدُ الصُّلْحِ عَالى القَدْرِ والهِمَمِ !
أبو يَزِيدَ نِظَـامُ المُـلْكِ ما لِكُنا * ووَاصِــلُ العِلْمِ فى عَلْياه بالعَلَمِ .
فهو المُراد بمـا أبْدِيهِ من مِـدَحٍ * وغَايَةُ القَصْدِ من تَرْتِيبِ ذَا الكَلِمِ !
وإنْ جرىٰ مَدْحُ سَيْفٍ أو عَلَا قَلَمٌ ، * فَذَاكَ وَصْفٌ لما قد حَازَ من كَرَمِ !

قلتُ : وسَببُ إنْشائِى لهذه الرسالة أن الأمير أبا يَزِيدَ الموضوعة له ، تَغَمَّده الله تعـالىٰ بالرحمة والرضوان ، كان من جَوْدة الخَطِّ وتَحْرِير قواعِده فى الطَّبقَـةِ العُلْيا ، وعَظُمَتْ مَكَانَتُه عند سلطانه الملك الظاهر «برقوق» وعَلَتْ رُتْبته حتى ولَّاه وَظِيفة الدَّوَادَارِيَّة بإمرة تَقْدمة ألْفٍ ، ولم يَزَلْ مُقدَّمًا عنده حتى مات وهو مُتَولِّيها ، وأوْلَانِى عند عَمَلِها له من الصِّلَةِ والبِرِّ المُتوالى ما يَقْصُر عنه الوَصْف ، ويَكِلُّ عنه اللِّسان .

الصِّــــنْفُ الخـامس

(من الرسائل ـ الأسئلةُ والأجوبةُ ، وهى علىٰ ضربين)

الضرب الأوّل

(الأَسْــئِلة الأمْتِحانِيَّـــة)

قد جَرَتْ عادةُ مَشَايخِ الأَدَب وفُضَـلَاءِ الكُتَّاب أنهـم يَكْتُبون إلى الأفَاضِـل بالمَسَائل يَسْألُون عنها : إمَّا على سبيل الاسْتِفهام واسْتِمَـاحَة ما عند المَكْتُوب إليه فى ذلك ، وإمَّا علىٰ سبيل الامْتِحان والتَّعجِيز . ثم تارةً يُجَابُ عن تلك الأسْئِلة بأجْوِبَة فتُكْتَبُ ، وتارةً لا يُجاب عنها ، بحسب ما تَقْتضيه الحال .

وهـذه رسالةٌ كتبها الشيخ جمال الدين بن نَباتة المِصْرىّ إلىٰ الشيخ شِهاب الدِّين محمود الحلبيّ صاحب ديوان الإنشاء بالمَمْلكة الشّاميـة ، وقد بَلَغه أن بعضَ أهْـلِ الديوان نَالَ منه ، وأن الشيخ شِهاب الدِّين المذكورِ ناضَلَ عنه ودَافَع ، فكتب إليه يَشْكره علىٰ ذلك ويسأل كُتّابَ الدِّيوان عن أسـئِلة بعضُها يرجع إلىٰ صَنْعة الإنشاء ، وأكثَرُها يرجع إلىٰ فَنِّ التّاريخ . وقد بيَّنتُ بعضها ونبهتُ عليه فى مواضعه فى خلال هذا الكتاب ، وهى :

لا يُخرِجُ الكُرْهَ منّى غيرُ نَائبَةٍ(١) ✳ ولا أَلِينُ لِمَن لا يَبْتغى لِينِى !

الاستفتاح بـ«لَا» تَيمُّنٌ ببركة الشّهاده ، وهى هٰهنا مِقْراضٌ يقطَعُ من العَيْب المَدَّةَ ويَحْسم المَـادَّه ، فحَسم الله عن سـيدِنا الإمامِ العلّامةِ القُدْوة ، شِهابِ الدِّين ، مُكمِّلِ الآدَابِ ، ومَلِكِ الشُّعراءِ والكُتّاب ، شَرَّ كلِّ عَيْنِ حاسِدٍ ولو أنها عَيْنُ الشَّمْس ، وحَمَاه عن مدّ أَلْسِنَةِ ذوى الاغْتِياب والارْتياب مِن الهمج والهَمْس ، وهَيَّأَ له أَسْبابَ الخَيْر حتى يكون يَومُه فِيه مُقصِّرًا عن الغد زَائدًا على الأَمْسِ ، واسْتخدَم له الأقدارَ حتّىٰ تكونَ فَرائِضُ تَقْبيل أنَامِله العَشْر عندهم كفَرائِض الخَمْس ، وجَعَل ما يَرُدُّ عنه العَيْنَ من العَيْب ـ بُعْدَ شَأْنِه عن المُتَنَاوَلِ ـ وِقَايةً عن اللَّمْس ، حتّىٰ يكونَ المَعْنِيَّ بقَوْل القَائِل :

ولَا عَيْبَ فِيـه غيرَ أنَّ عَلَاءهُ ✳ إذا حَدَّدُوه كان قَدْ جَاوَزَ الحَـدّا ،

ولا عَيْبَ أيْضـا فى مآثِرِ بَيْتِــه ✳ سِوَى أَنَّها تُروىٰ بأَلْسِـنَةِ الأَعْدَا !

وحتَّى يُؤمَّنَ عليه القَائِلُ :

مَا كَان أحْوجَ ذَا الكَمَالِ إلَىٰ ✳ عَيْبٍ يُوقِّيه مِن العَيْنِ !

(١) هذا الشطر من صناعة ابن نباتة غيّره لما يريد وانما هو . لا يُخرِجُ القَسْرَ منى غيرُ مَأْبِيَةٍ . القَسْرُ . القهرُ والمأبية مصدر كالمَحْمِيَة معناها الإباء والبيت من كلمة لذى الإصبع العَدوانى .

ويُقبَل من الآخرِ قولُه :

شَخَص الأنامُ إلىٰ كمالك فاستَعِذْ * مِن شَرِّ أعيُنِهم بعَيْبٍ واحدِ!

العبْد يخدمُ بسلامٍ ماروضةٌ نقَّطَها الجوُّ بدرِّ سحائبِه ، وأفرغَ عليها الأفُقُ سفَط كواكبِه؛ وامتدّ نوْء الذِّراع لتَدْبيج سمائها، وتأْريج أرجائها، وتَخْييش معاصم أنهارِها المنْشَقَّة بأفنائها؛ وصِقال نَسَماتها السَّحَريه، ومُغازَلة عيونها السِّحْريَّه، وهوانِ الغالية بنَفَحاتِها الشَّجَريّه؛ تَصْرِفُ دنانيرَ أزْهارِها الصُّروف ، ويَسُلُّ جَدْولُها على الهُموم السُّيوف؛ وتجْذبُ حمائمُها القُلوبَ بالأطْواق، ويتَشفَّع دَوْحُها إلى النواظر بالأوْراق؛ قد ترَقْرق في وَجَناتِها ماءُ الشَّباب، وغَنَّىٰ مُطْربُ حَمامِها وعَنْتَرُه(١) في حك من الذُّباب، وبَحرِها رَوْنَق السَّيْف وفي قَلْبِ رَوْضَتِه الذُّباب(٢) .

فما كُلُّ أرْضٍ مِثْل أرْضٍ هِيَ الحِمىٰ، * وما كُلُّ نَبْتٍ مِثْل نَبْتٍ هُوَ البانُ!

يَوْمًا بأبهَج منه أشْواقا ، وأطْيَبَ منه انْتِشاقا واتِّساقا ، والطَّيِّبون للطيبات ، ولكلِّ غَيْثٍ نَبات ، وما لذلك الغَيْث إلا هٰذا النَّبات .

ونَعود فنَقُول : لا أدْرِي أأتعجَّب :

علىٰ أنَّها الأيَّامُ قد صِرْنَ كُلُّها * عَجائِبَ حتَّىٰ ليس فيها عَجائِبُ ! !

من قَوْمٍ هُمْ ما هُم : شَرْبٌ مُناسِب ، وطِيبُ مَكاسِب ؛ قد أمْكَنَتْهم المَعالى، وطاوَعَتْهم الأيامُ واللَّيالي؛ وخَدَمَتْهم جَوارِي السُّعُود ، وتطامَنَتْ لكُلِّ منهم مَراقِي الصُّعود ، كابر بسكون الجاش منحدر (؟) وكنتُ قد اسْتَجْدَيْتُ كلًّا منهم ولكن بالكَلام ، واسْتَسْقَيْتُ ولٰكن قَطْرةً من غَمام الأقْلام :

وأيْسَرُ ما يُعْطِي الصَّديقُ صَديقَه * من الهَيِّن المَوْجودِ أنْ يَتَكلَّما !

(١) العنتر الذباب أو صوته . (٢) ذباب السيف حدّه أو طرفه المتطرف .

"وليُسْعِد النُّطْق إن لم يُسْعِد الحالُ" فضَنَّ وظَنَّ ماظَنّ ، واَسْتعطِف بنَسِيم الكَلَامِ غُصْنُ يَرَاعِه فما عَطَفَ ولا حَنّ ؛ وبَخِل بما رَزَقه الله فإنَّ الفَضِيلة من الرِّزْق ، وحَرَمنِي لذَّة ألْفاظه فإنها التى إذا أُدْخِلت فى رَقٍّ دخل حُرُّ البلاغة تحْت ذلك الرِّق ؛ وهَلْ هو البَحْر فكَيْف شَحَّ بمَدَّةٍ من مَدِّه ، والْغَيْثُ ولا أقولُ : إن الذى حَبَسه إلا ما قَسَمه الله تعالىٰ من الحَظِّ عند عَبْده :

وإذا الزَّمانُ جَفَاك وهو أبُو الورَىٰ * طُـرًّا فَـلَا تَعْتِبْ على أوْلَادِه!

فأعلى الله كلمةَ سَيِّدنا العلَّامَة فى الدَّارَيْن ، وشكر غَنِيَّ جُودِ كَرمِه وكَلِمه الدَّارَّيْن ، [فهو] صاحِبُ ديوانِهم، وحُجَّة زَمَانِهم ؛ فلقد وَصَفَنِي بما يَزِيد على الجواب، وشافَهَنِي من الشُّكْر بما لا يَتَوارَىٰ من الرِّزْق بحِجَاب ، وأَمَّنَنِي العِزَّ والزمانُ حَرْب ، ونَصَرنِي والأيامُ سُيوفٌ تَتَنوّع من الضَّرْب فى كلِّ ضَرْب ؛ وأعطانى كَرَمه والمَحَلُّ مُحْل ، وفى قَلْب الزَّمانِ دَخْل ، ونَحَلَنى شُهْدَةَ إحْسانه والأوقاتُ كإبَرِ النَّحْل ؛ حتىٰ عَذَرَنى فى حُبِّه من كان من اللائمين ، واَهْتديْتُ من لفْظه وفَضْله بقَمَرَيْنِ لا يَمِيلُ أحَدُهما ولا يَمِين ، وصُلْتُ من جَاهه ومَاله بيَدَيْنِ إلا أن كِلْتَيْهما فى الإعْراض يَمِين :

ويَلُومُنِي فى حُبِّ عَلْوة نِسْوَةٌ * جَعَل الإلٰهُ خُدُودَهُن نِعالَها!

وحَرَس الله سَيِّدَنا شِهابَ زَمانِهم ، كما حَرَس به سَماءَ دِيوانِهم ؛ فلقد أسمعنى من الشُّكْر ما أرْبَىٰ علىٰ الأَرَب ، وجعَلنِي كحاجِب حينَ دَخَل على كِسْرَىٰ وهو وَاحِدٌ من العَرَب خَرج وهو سَيِّدُ العَرَب، وهَـدَتْنِي أنْوارُه وأنا أَخْبِط من لَيْـلِ القَرِيحَة فى عَشْواء، وجَادَتْ علىّ أنْواؤه ونَاهِيكَ بتلك الأنْوارِ من الأَنْواء ، ورَفَعتْنِي أَلْفاظُه ولٰكِنْ على السِّماك برَغْمِ حَسُودِى العوَّاء، وهٰذه قَصَائِدُه فِىَّ تَتَدَارَسُها أَلْسِنةُ الأقلام، وتُكْتَب بأنْفاس اللَّيالى علىٰ صَفَحاتِ الأيَّام؛ من كلِّ بَيْتٍ هو بَيْتُ مالٍ لا يَنْقُصه الإنفاق، ولولا التُّقىٰ لقلتُ : إنّه البَيْتُ الذى أمَرَ الله تعالىٰ بحَجِّه الرِّفاقَ من الآفاق ؛

فمتى أتفرّغ لطلب مدحه، وقد شغلني بمنحه؟، ومتى أجاريه بامتداح وإنما مدحي له من فوائد مدحه :

وما هو إلّا من نداه وإنّما * معاليه تُمليني الذى أنا كاتبُه!

أم أتعجّب ممن ثنيتُ عنان الثناء إليه، وجلوتُ عرائس المدائح عليه؛ وعاديتُ فى تنضيد أوصافه الكرى، وأنضيتُ بالقلم له فى نهار الطّرس وليل النّقس من السّير والسُّرى؛ ومدحتُه بملءِ فِيّ واجتهدتُ فى وصفه وكان سواء علىّ أن أجهدتُ، فى وصفه أو اجتهدت؛ فجازانى مجازاة السِّنّمار، وأوقعني من عنت عتبِه فى النّار، وجعل محاسنى التى أُدلِى بها ذُنوبًا فكيف يكون الاعتذار؟ :

وكان كذئبِ السُّوءِ إذ قال مرّةً : * لعمروسةٍ والذِّئبُ غرثانُ مُرمِلُ :
أأنتِ التى من غيرِ سُوءٍ شتمتِنى؟ * فقالتْ : متَى ذا؟ قال : ذا عامُ أوّلُ
فقالتْ : وُلدتُ الآنَ بل رُمتَ غدرةً * فدُونَكَ كُلْنِي لا هنالكَ مأكُلُ!

وحلُّ هذا المُترجَم، وتحقيق هذا الظّنّ المُرجَّم؛ أنه بلغني أن جماعةً من الذين استفتيتهم استنباطًا لفوائدهم، والتقاطًا لفرائدهم؛ لا تكليفًا لهم فيما لا يقوم به إلّا الأقوى من الأقوام، ولا يُستنجدُ به فى هٰذا الوقتِ إلا بأرباب صفحاتِ السُّيوف لا أرباب قصباتِ الأقلام؛ أرادوا الغضّ منّى، ونفى الإحسانِ عنّى؛ وهيهات !

* أنا أبو النّجمِ وشعرى شِعرى *

هٰأنا وبضاعتى، وهٰذه يدى لا أنّى ألقيتُ بها إلى السّلْم ولٰكنْ لأعرِضَ صناعتى : * هو الحمَى ومغانيه مغانيه *

وإنهم اجتمعوا بالميدانِ على حديثى، وذكروا قديمى وحديثى؛ وتسابقوا فى الغيبة أفراسَ رهانٍ، وأعجب كلًّا منهم أن يقول : هٰذه الشّقراءُ فى يدى وهذا الميدان؛

ولَامُوا وعَذَلوا، وهَمُّوا بالسَّبِّ وفعَلوا، وٱسْتطابُوا لحَمْ أخيهم فسَلَقُوه بألْسِنَةٍ حِدَاد وأكَلوا؛ حتى تَعَدَّىٰ ذلك إلىٰ من جَادَ علىَّ بالجَوَاب، وفِعْلُه إمَّا جَزاءٌ للمَدْحِ وإمَّا للثَّوَاب :

فقلتُ لهـا عِيثِي جَعَـارِ وجَرِّرِى * بلَحْمِ ٱمْرِئٍ لم يَشْهدِ اليَوْمَ نَاصِرُه!

وما كان المَلِيح أن يُغْرِى بى من سبق مَدْحُه إلىّ ، ومَن ٱنْتَصَر بعِزِّه لنَفْسِه فما ٱنتَصَر لَدَىّ "وهذا لعَمْرى جَهْد من لَالَه جَهْد" وما تَخْلو هذه الأفعال: إمَّا أن تكونَ مُجازَاةً علىٰ مَدْحهم، فأيْنَ الكِرَام وفَضْلُهم، والمُنْصِفُون وعَدْلُهم ؟ ، أو ظَنًّا أنِّى عَرَّضتُ بهم فيمَنْ عَرَّضْتُ، فأيْن ذَكَاء الألِبَّاء وأينَ عَقْلُهم ؟ ؛ وهَلْ تَظُنُّ السَّماءُ أن يَدًا تَصِل إليها، والنُّجُومُ أن خَلْقًا تَحْكُمُ عليها ؟ ؛ والذَّهَب مَحْرُوسٌ لا يَصْدَا جِرْمُه، والجَوْهر مَعْروفٌ لايُجْهَلُ حُكْمُه؛ ومَن الذى تُحَدِّثه نَفْسُه أن يَجْحَد الشَّمسَ فَضْلها الطَّائِل، أو يُحَسِّنَ له عَقْلُه أن يقولَ : سَحْبانُ وائِلٍ كبَاقِل ؟؛ (١) ... ... أدرَكْنِى ذَلِك اليَوْمَ ولَمَّا أُمَزَّق، وأَنْجِذْنِى بكلِّ لَفْظةٍ هى أمْضىٰ من السَّهْمِ وأرْشَق، وأضْوَءُ من النَّجْمِ وأشْرَق؛ وما أعْرِفُ كَيْفَ صَبْرِى علىٰ هذا الحَرْب فى صُورَة السِّلم؟ ، وما أظُنُّه أراد إلا أن يُعَلِّمَ قَلْبِى الذى فى يَده الحُكْم، كما عَلَّمه للقَلَم؛ وحيث قَضَى الحديثُ ما قَضَىٰ، ومَضَى الوقْتُ وما كان إلا سَيْفًا فى عرْض العَبْد مَضَىٰ :

فَكَرَّتْ تَبْتَغِيـه فَصَادَفَتْـهُ * علىٰ دَمه ومَصْرَعِه السِّبَاعا

فأنا أَنْشُدُ الله تَعالىٰ هؤُلاءِ السادةَ الغائِبين، أو القَوْمَ العاتِبِين ؛ هلْ يَعْرِفون أنَّ الذى عَرَّضتُ به منهم قَوْمٌ قد ٱسْتولَىٰ عليهم العِىُّ بجَرِيضه، ونَزَل فيهم الجِهَاد بقَضِّه وقَضِيضه، وأصْبح بابُهم لهم كبُسْتانٍ بلا ثِمَار، ودِيوَانُهم علىٰ رَأْىِ أبِى العَلَاءِ كديوانِ أبى مِهْيار؛ لايُحْسِنُ أحدُهم فى الكِتَابة غيرَ العامِّة المُدَرَّجه، والعَذَبَة المُعَوَّجه،

(١) بياض بالأصل بمقدار كلمة .

والعَباءَةَ الضَّيِّقةِ والأثْوابَ المُفَرَّجَه ؛ ويتناوَلُ السلم باليمين وكتابه إن شاء الله تعالىٰ بالشمال، ومَشَىٰ هذا علىٰ هٰـذا ولٰكن على الضَّلال؛ لو سُئِل أحدُهم عن «البَدِيع» فى الكِتابَة لم يَعْرِف من السؤال غَيرَ التَّرديد، وعن «عبدالحميد» لزاد فى الفكْر ونقص : وعَبْدُ الحميدِ عَبْدُ الحميد؛ و«الصَّاحِب» لقال : إنه تبرَقع بمَجْلِسِى، و «الخُوارزْمىّ» لقال : سَرْجُ فَرَسِى، «والفَاضِل» لقال : ها هو ذا ذَيْلُ مَلْبَسِى . فإن كان الأمر كذلك فِيمَ المَلَام والتفنيد :

عَلَّقُوا اللَّحْمَ للـبُزَا * ةِ عَلَى ذِرْوَتَىْ حَضَنْ(١)

ثُمَّ لامُوا الـبُزَاةَ أنْ * قَطَّعتْ نَحْوَها الرَّسَن،

لَـوْ أرادُوا صِيانَتِى * حَجَبُوا وَجْهَكَ الحَسَن!

والوَجْه الحَسَن هٰهُنا وَجْه المَنْصِب وحِجابُه عن شَيْن تلك الآثار، وتَخْميش تلك الألفاظ .

وإن كان غَيْرَ ذلك فما مَثَلِي مع من ذَكَرَنِي إلا قولُ القائل :

سَافِرْ بطَرْفِك حَيْثُ شِئْـ * ـتَ فَلَنْ تَرَىٰ إلَّا بَخِيلَا!

فقيل له : بَخَّلْتَ الناسَ، فقال : كَذِّبونِي بواحِدٍ . وهأنَا فلْتُكَذِّبُونِى بواحِدٍ ممَّن عَرَّضت، وصَحِيحٍ ممَّن أمْرَضْت؛ وليَبْرُزْ إلىٰ مَضْجِعه، وليَكُنْ علىٰ يَقِينٍ من مَصْرَعِه؛ ولا يَتْرك شيئا من أدَوَاته، ولا يَأْتِى إلَّا ومعه نَادِبَتُه من حَمَائم هَمَزاته .

وأنا أقْتَرِحُ عليه من مسائل الكتابة بَعْضَ ما اقْترحه الفُضَلاء، ونَبَّه عليه العُلَماء؛ وإلَّا فما أنا أبُو عُذْرَتِه، ومَالِكُ إمْرَته؛ ولا يَلُومُ إلَّا القَائل :

مَن تَحَلَّىٰ بغَيْرِ ما هو فيه * فَضَحَتْه شَوَاهِدُ الإمْتِحانِ!

(١) حضن جبل بأعالى نجد .

فانه الذى نبّهنى عليه وإن لم أكُنْ ساهيا، وذكّرنى الطّعن وما كنتُ ناسيا؛ حتىٰ رميتُه من هذه المسائل، فى مجاهل؛ لا يُهتدىٰ فيها بغير الذّهن الواقد، واقتحمتُ به فى بحارٍ لا يعصم منها جَبَلُ الفكر الجامد؛ علىٰ أنّها فيما أغفلت كالثّمد من البحار، واللّمحة من النّهار؛ ولولا الاختصار، لأتيتُ منها بالجمّ الجمّ فلنحمد الله والاختصار، فأقول :

من كتب فى الورق واستنبطه ؟ ومن ختم الكتاب بالطّين وربطه ؟ ومن غيّر طين الكتاب بالنّشا وضبطه؟؛ ومن قال : أمّا بعدُ فى كتابه ؟ ومن جعلها فى الخُطَب وأسقطها فى ابتدائه فى المكاتبة وجوابه؟؛ ومن كره الاستشهادَ فى مكاتبات الملوك بالأشعار؟، وكيف تركها علىٰ ما فيها من الآثار؟؛ ومن الّذى أراد أن يكتب نثرا فجاء شعرا ؟، ومن وضع هذه الطّرّة فى التقاليد واخترعها ؟، وما حجّته إذ قدّمها على اسم الله ورفعها ؟، ومن الّذى باعد بين السّطور ووسّعها ؟، وكيف ترك بالتعاظم فى كتبه سنّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسعه من التّواضع ما وسعها ؟؛ ومن استغنىٰ بكتابة آيةٍ من كتاب الله عن الجواب؟، ومن اكتفىٰ ببيت من الشّعر عما يحتاج من تطويله الكتاب؟؛ ومن الّذى عانى المترجمات ورتّبها ؟ وأخفىٰ ملطّفات الجواسيس وغيّبها ؟؛ ومن الّذى سنّ البُرُد وبعثها فى الملمّات ؟، ومن حاكىٰ شيئاً من مُلْكِ سليمانَ فاستخدم الطّيورَ فى بعض المهمّات ؟؛ وما أوجزُ مكاتبةٍ كُتب بها عن خليفةٍ فى معنى ؟؛ وما أبلغُ جوابٍ وأوجزُه أجاب به عن خليفةٍ من لا سمّىٰ ولا كنّىٰ ؟؛ ولِمَ أرّخ بهجرة النّبيّ صلى الله عليه وسلم؟ وكيف لم يؤرّخ بمولده أو غير ذلك من الأيام ؟، ومن الذى أمره الخليفةُ بكتابة معنى فأرتج عليه الكلامُ ولُقّنه فى المنام؟، ومن الذى وصف برسالةٍ طويلةٍ شيئاً لم يصفه بنثارٍ ولا نظامٍ؟؛ وكيف جاز للكاتب أن يكتب آيةً من الكتاب فى لفظةٍ يحسبها من لا يحفظ أنّها من عنده

لامن حِفْظه ؟، مثلُ قَوْله مع الرسول : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ . وقَولِ الآخَرِ فى كتابه : ﴿ هٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ . وكَثِيرٍ من هذا؟ وهَلْ يُؤْخَذُ عليه فى مِثْل ذلك كما أُخِذَ على الحَجَّاجِ فى أسمـاء(١) المُسْتَغِيثِين به من أهلِ السِّجْن : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ ؟ . وما الفَرْقُ بينهما ؟

وعَلامَ يُطَوّل الكَاتِبُ باءَ البَسْمَلَه ؟ ، ولا يُثْبِت إلا قَلِيلًا وَاوَ الحَسْبَلَه ؟ ؛ ولا يُحَمْدِل ولا يُبَسْمِل علىٰ ما أُلِف ، وَكَيْفَ يُعَلِّم فى بَعْض السَّجعاتِ على الأسماء المَقْصورة باليَاءِ والأصـلُ فيها الأَلِف ؟؛ وأَسْأَلُه كَيْف يَصِفُ القَراطِيسَ والأقلام ويَسْـتَدْعِيها ؟ ، والسِّكين والدَّواةَ ويَسْتَهْدِيها ، وكَيْف يكتب مَلِكٌ طَلَب منه عَدُوٌّ قَطِيعةً عن جَيْشِه يُعْطِيها ؟؛ وكَيْف يَكْتب عن خَلِيفَةٍ اسْتَسْقىٰ ولم يُمْطَر؟ ، وخَلِيفةٍ صَارَع فصُرِعَ كالمُعْتَصِم وكَيْف يُعْذَر؟ ؛ وما الذى يَكْتُبُ فى نَارٍ وقعت فى حَرَم النَّبىِّ صلَّى الله عليه وسلم ؟ وما الَّذى يَكْتب عن المَهْزُوم إلىٰ من هَزَمه فى معنى رُكُونه إلى الإحجام ؟ ؛ وكَيْف يُهَنِّى خليفةٌ خُلِـعَ فَرَجع ، وغُرِّبَ عن السِّجن وطَلَع ؟ ؛ وأَسَرَه العَدُوُّ ثم تَخَلص واستقام بعد مانَهَضه الدَّهْر بمَرَض ، أو تَمَرَّض فانْتَهَض؟ ؛ وكيف يُهَنِّى من زَوَّجَ بعـد موت أَبِيـه أُمَّه ، ويُعَزِّى والدا قَتَلَ ولده وولدا قتـل والِدَه ويُصَوِّب حُكْمَه ؟ ؛ ويَكْتُب عمن حَاصرَ حِصْنًا وتركه بعد تَسْهِيل المَسَالِك ، وكَيف يَكْتبُ فى نِيـلٍ لم يُوفِ لَا أَحْوجَ اللهُ لذلك ؟ ؛ ويُعَـزِّى كافرًا عن بَعْض الأعِزَّاء الألْزام ، ويُنْشِئُ عَهْد يَهُودِىٍّ بوزارة أمير المؤمنين عليه السلام؟ ؛ ويكتبُ تَقْليدًا لثلاثة أو أربعة من الحُكَّام ؛ ويَسْتَنْجِدُ بأموالٍ أو مَسَاكِينَ(؟)من عَدُوٍّ كافرٍ علىٰ كافر؟ ويُبَشِّر عدُوا بأَخْذِ بلاده منه ، ويَعْتَذِر عن مَلِك أَخَذَتْ شَوانيه وحُجِزت عنه؟ ؛ ويُهَنِّى خَصِيًّا بزَوَاجِه ، ويَعْتذرُ عمن فَرَّ وتَرك وَلَده تَحكُم الظُّبا فى أَوْداجِه؟ ؛

(١) كذا فى الأصول . ولعله فى إساءة .

ويكْتُب لملك بنىٰ مبانِىَ فاْحترقتْ أو وقعت، أو أجرىٰ خُيُولَ رهانٍ فسُبِقتْ خَيْلُه وٱنْقطعت؟؛ أو خرج لصَيْد فلم يجدْ ما يُصاد، أو ابرْزَة بندق ٱحْتفل فيها ولم يصْرعْ شيئًا من الواجب المُعْتاد؟؛ أو ركب أوّلَ يومٍ من تملُّكه فتقطَّر به الجواد، أو وُضِعَت له أنثىٰ فضَّلها بكلامٍ علىٰ ما يرْجُوه من ذُكُور الأولاد .

ومن هٰهُنا أكُفُّ القلَمَ عن شَوْطه، وأرْفع عنه ما وضَعه اللسان من سَوْطِه؛ خَوْفًا من الملال والصَّخَب، وكفَىٰ بالغرْفة عن معرفة النهر .

فاذا نَشِط هذا الكاتبُ من هٰذا العِقال، وتصرَّف فى فُنُون هذا المَقال، وخرج من هذه الأسْئلة خُروجَ السَّيْفِ من الصِّقال؛ ٱمتدَّتْ كَفُّ الثُّرَيَّا فى هذا النِّسْيان بمَسْح جَبْهته، وجاء بجواب هـذا النكث كما يقال : برمتـه؛ (؟) وأماط لِثامها، وشمَّر عن أزهارِها أكْمامَها ـ ٱنْقطعت الأطماعُ دون غايته، وبُسِطتْ أيْدى رسائِلِ البُلَغـاء لمُبايَعة رسالَته، بل أتَتْه وحمَل قلَمُه علىٰ أقلامِ فُرْسان الكلام سَوْداءَ رايته؛ وبانَ هنـالك ظُلْم العائب وحَيْفُه، فكان كمَن سُلّ لنَحْرِه سَـيْفُه؛ وعُذِر علىٰ توالى التَّأنِيب مُؤنِّبُه، وكان يومئذ له الوَيْلُ لا لمن يُكذِّبه، وٱمتاز هذا الفاضلُ بمـا تُحْدثُه هذه الواقعةُ من الفَخْر وتجْلُبه :

فعاجُوا فأثْنَـوْا بالَّذِى أنتَ أهْـلُه * ولَوْ سكَتُوا أثْنَتَ عليكَ الحقائِبُ!

والمسئول من إحسان سيِّدنا أن يَسُدَّ الخَلَل كيف ما وَجدَه، ويُصْلِح الخطأَ والخطَلَ كما عُوِّدتُه منـه وكما عوَّده؛ فإنَّه أميرُ هـذه الصِّناعة ونَحْنُ الرعايا، وشيخُ الفَصاحة ونحنُ الفُـقراءُ الذين كَمْ وجدنا فى زَوَاياه منها خَبَايا؛ وما هـٰذه الرسالة إلا يَدٌ ٱمتـدّتْ تسألُ من الحِلْم ما يَسَعُها، وهـٰذه السُّطورُ إلا حَبَائِلُ تتصـيَّدُ من عوائده ما ينْفعُها ويرْفعُها :

فأَرْخِ علَيها سِتْرَ معْرُوفِكَ الَّذِى * سَـتَرتَ به قِدْمًا علَيَّ عَوَارِى!

والله تعالى العالم أنها وَرَدتْ عن قَلْبٍ مَذْهُولٍ عن حُسْنِ الإيقان، مُعَدَّدٍ عليه نَوائبُ الدَّهْرِ بأنامِلِ الخَفَقان، مَرْمِيٍّ بسِهامِ الأعادِى فى قِسِيِّ الضُّلوع، غائِصٍ فى بَحْرِ الهَمِّ وكلما رُمْتُ أن يُلْقِىَ إلىَّ دُرَّ الكلام ألْقىٰ دُرَّ الدُّموع:

أَبْكِى فتجْرِى مُهْجَتِى فى عَبْرَتِى * وكأَنَّ ما أبْكَيْتُه أبْكَانِى!

لا يَدَعُ لِىَ الفِكْرُ فى قِلَّةِ ... ... (١) الإخْوان وَقْتًا أَسْتَنْبِطُ فيه مَعْنًى، ولا يُفْسِحُ لِىَ التَّعَجُّبُ من أبْناءِ الزَّمانِ لنَقْصِهم أنْ أُصَحِّحَ نَقْدًا ولا وَزْنا، أَجْنَحُ لِسِلْمِ الأيَّامِ فكَأَنِّى لحَرْبها جَنَحْتُ، وأَقْدَحُ فِكْرِتِى فى ٱستعطافِ الزَّمانِ فكَأَنِّى فيه قد قَدَحْتُ، فلو قَضىٰ الله لى بالمُنْيَة من المَنِيَّة لأَرَحْتُ الزَّمانَ وٱسْتَرَحْتُ:

فَالْأَرضُ تَعْـلَمُ أَنِّى مُتَصَـرِّفٌ * من فَوْقِهـا وكَأَنَّنِى من تَحْتِها!

ولا فَـرْقَ فيما بَيْنَنَـا غَـيْرَ أنَّنا * بمَسِّ الأذَىٰ نَدْرِى ومن مَاتَ لا يَدْرِى!

ولا بدّ لى أن أطَلِّقَ هـذه الصِّناعةَ طَلاقًا قَطْعِيا، لا طَلاقا رَجْعِيًّا، وأُجاهِرَها جِهارًا حَرْبِيًّا لا جِهارًا عَيْنِيا، وأَضَعُ صَعْدةَ حملها من أدبٍ عن بدنى، وأتولى قوس داله مع سهم بائها فما أصبتِ غيرَ كَبِـدى، «كأَنَّما القَوْسُ منها مَوْضِعَ الوَتَر»، «وقُلْتُ ٱذْهَبِى ياصَبْوَتِى بسَلامٍ» فماذا لَقِيتُ من آفاتها، ومُنِيتُ به من الخَوْفِ فى عَرَفاتِها، ومُطِرْتُ لا من عَوارِضِ قَطْرِها ولٰكِنْ من عَوارِضِ مُرْجِفاتِها:

وإنِّى رأيتُ الحُبَّ فى القَلْبِ والأذَىٰ * إذا ٱجتمعا لم يَلْبَثِ الحُبُّ يَذْهَبُ!

ومع هذا الحديث لم أشُكَّ أنَّ أحدًا سَيَنْتَقِدُ علىٰ تَشْبِيهِى، وطُرُقه قديمة فى ٱسْتِفتاحِ المُكَاتَبه، وٱسْتِنْجاحِ المُخاطَبه، ويقولُ: تِلْكَ أُمَّةٌ قد خَلَتْ، ودَوْلَةٌ فاضِلِيَّةٌ أَدْبَرَتْ مِثْلَ ما أقْبَلَتْ، فكيف تَبِعها وتَرَك طَرِيقةَ فُضَلاءِ عَصْرِه، وأبْناءِ مِصْرِه، فالجوابُ

(١) بياض بالأصل ولعله: «مصافاة الاخوان» أو نحوه.

ما قاله القَاضِى السَّعِيدُ بنُ سَناءِ المُلْكِ رحمه الله تعالىٰ ، فما كان أسعَدَ خَاطِرَه! ، وأكْثرَ ذَهَبَ لَفْظِه وجَوَاهِرَه!! :

إنِّى رأيتُ الشَّمْسَ ثم رَأيْتَها * ما ذَا علَيَّ إذا عَشِقْتُ الأحْسَنَا؟!

وذكرت أن الاس عدره ونسيت أن الاس أفعلها[1] .

انتهت إلىٰ هذا الموضع ، والديك قد نَعى بعيدَ الظَّلام ، وبَلَّغ عن الصُّبْح السَّلَام ، والأزهارُ قد سَلَبَتْه عَيْنَه فقام من كَرَاه يَصِيح ، ومَيْدانُ الغُصُون قد أَصْحَبَ بمَغْنَى الأَطْيارِ وشَغَبِ الرِّيح ؛ ونَسْرُ السَّماءِ قد فَرَّ من الغَـدَاةِ وبَازِيها ، والنُّجُوم قد حُمِلَتْ إلىٰ مَلْحَدِها من الغَرْبِ علىٰ نُعُوش دَياجيها ؛ والمَجَرَّةُ من الجَوْزاءِ عاطلةُ الخَصْرِ ، وخَاقَانُ الصُّبْح قد حَمَل علىٰ نَجَاشِيِّ الظَّلامِ رَايَةَ النَّصْر .

لا بَرِحَ سَيِّدنا مَعْصومَ الرَّوِيَّة والأرْتِجال ، مسجلا بشَجاعَة اليَرَاعة والحَرْبُ سِجال ، مَحْمُودَ المَوَاقِف والمَسَاعِى "والنَّقْسُ نَقْعٌ والطُّرُوس مَجَال" ، والسَّلام .

الصنف السادس

(من الرسائل ما تُكْتَب به الحَوادِثُ والمَـاجَرِيات)

ويختلف الحـال فيها باختـلاف الوَقَائِع : فإذا وقعتْ للأديب ما جَرِيَةٌ وأراد الكتابةَ بهـا إلىٰ بعض إخْوانِه ، حكىٰ له تِلْك المَـاجَرِيَةَ فى كتابه مع تَمْيِيق الكلام فى ذلك ، إما ٱبتداءً وإما جَوابًا ، عند مُصادَفَة وُرُود كتابه إذ ذاك إليه .

وهذه نُسْخَةُ رسالةٍ أنْشأها الإمامُ قاضِى قُضاةِ المُسلمين مُحْيِي الدِّين ، أبو الفَضْل يحيىٰ ، بنُ قاضى القضاة الإمامِ مُحْيِي الدِّين أبى المعـالى محمد ، بن علىّ ، بن محمد ،

---

(١) وردت هذه الجملة فى الأصل هكذا ولا معنى لهـا .

ابن الحُسَينِ، بن علىّ، بن عبد العزيز، بن علىّ، بن الحسين، بن محمد، بن عبدالرحمٰن، ابن القَاسِم، بن الوليد، بن القَاسِم، بن عبد الرحمن، بن أَبَانَ، بن عُثْمانَ، بن عفَّانَ رضى الله عنه، لمَّا وَرَد إلى القاهرة المحروسة فى التَّاسِع من جُمادىٰ الأولىٰ من سنة تِسْع وعشرين وستمائة، وتُعْرف "برسالة النِّمْس" وهى :

وردتْ رُقْعةُ سَيِّدنا أسعدَه الله بتَوْفِيقِه، وأوْضَح فى آكتساب الخَيْرات سُبُلَ طَرِيقِه؛ فوقفتُ عليها وُقُوف السَّارّ(١) بوُرودها، المُسْتَسْعِد بوُفُودِها، المُبْتَهِلِ إلى الله فى إبقاء مُهجَتِه التى يَتَشَرَّفُ الوجود بوُجُودِها :

ولَيْس بتَزْوِيقِ اللِّسانِ وصَوْغِهِ * ولٰكنَّه قد مَازَجَ اللَّحْمَ والدَّما!

وفَضَضْتُها عن مِثْلِ النَّوْرِ تَفْتَحُه الصَّبا، وبُرُودِ الرِّياضِ تَساهَمتْ فى آكْتساءِ وَشْيِها الأَهْضابُ والرُّبَا؛ يَكْبُو جَوَادُ البليغ فى مِضْمار وَصْفِها، ويَنْبو عَضْبُ لِسانه عن مُجاراتِها فى رَصْفِها؛ يُخْجِلُ مُحيَّا النهارِ بياضُ طِرْسِها، ويَوَدُّ الليلُ لو نَفَضتْ عليه صِبْغَةَ نِقْسِها؛ وتحسدُ الكواكبُ رائقَ مَعانيها، وتَتَمنَّى لو أُعِيرتْ فَضْلَ إشراقها وتَلالِيها؛ فى كلِّ فِقْرةٍ رَوْضةٌ وكلِّ معنًى كَأْسُ مُدام، وكلِّ أَلِفٍ سَاقٌ وكلِّ سِينٍ طُرَّةُ غُلام؛ وكلِّ واوٍ عَطْفةُ صُدْغٍ وكلِّ نُونٍ تَقْوِيسُ حَاجِب، وكلِّ لَامٍ مَشْقَةُ عِذارٍ وكلِّ صَادٍ خَطَّة شَارِب؛ تُصِيبُ من سامِعِها أقْصَىٰ ما يُراد بالنَّفْثِ فى العُقَد، وتَسْتولِى بلَفْظِها علىٰ لُبِّه آستيلاءَ الجَواد على الأَمد .

فلمَّا آجتليتُ منها المَعانى المُسْهبَة فى اللَّفظ المُوجز، وأجلْتُ طَرْفى منها ما بين نُزْهة المُطْمَئِنِّ وعُقْلَة المُسْتَوفِز، وأسلمتُ قيادى إلىٰ سِحْرِها المُحلَّل وإن جَنَىٰ قَتْلَ العَاشِقِ المُتَحرِّز — علمتُ أن سَيِّدنا أجرىٰ فى حَلْبَة السِّباقِ فحَازَ قَصَبَ سَبْقِها،

(١) كذا فى الأصل ولعله المسرور .

وذُلِّلتْ له البلاغةُ فتوغَّل فى شِعابها وطُرُقها، وحُكِّمَتْ يدُه فى أعِنَّة الفضائل فسلَّمت القَوْسَ إلىٰ بَارِيها، ودَرَجاتِ العُلَىٰ إلىٰ مُسْتَحِقِّيها، فَمَن وَائِل؟ ومَن سَحْبان؟، ومن عَبْدُ الحميد؟ وآبْنُ صُوحَان، وأىُّ خَبَرٍ يقابِلُ العِيَان؟ ومَن يُقاوِمُ ما هو كائِنٌ بما كان؟. فسألتُ خَاطِرِى الجامدَ أن يُعارِضَ بوَابِلِه طَلَّها، وأن يُقابِلَ بجُثْمانه ظِلَّها، وأن يُجارِيَها فى حَلْبة المُساجَلَةِ وإن دُعِىَ بالسُّكَيت، ولقد أسْمَعْتَ لو نَادَيتَ حَيًّا وكَيْف بنُطْقٍ من مَيْت، وأنَّىٰ يُطْمع فى مُجاراةِ البَحْرِ ولاتَ حِينَ لَعَلَّ أولَيْت، فوجدتُه أصْلَدَ من الصَّخْرة مَسًّا، وألْفَيْتُ بَاقِلًا لَدَيْه قُسًّا، فما كلُّ من طُرِقَ قَرىٰ، ولا مَنْ إذا خَلَقَ فَرَىٰ، وهٰذا المعهودُ من خَاطِرِى إذا كان جَامًّا فكَيْف وقد نَضَب مَاؤُه وكَدَّرتِ الحوادثُ بَحْرَ عِلْمِه والغِيَر، فمِنْ دُونِ أن تُسْتَخْرجَ منه الدُّررُ أن يَلِينَ لِضِرْسِ المَاضِغ الحَجَر، فبَذَل جُهْده لما شَعَّبتِ الهُمومُ سُبُلَه، وتَقَنَّع بالخَلَقِ من لا جَديدَ له.

هٰذا مع وَاقِعَةٍ وقعتْ له فأصْبَح مُتَشَتِّتا، وثَنَىٰ عِنَانَه عن كلِّ شىءٍ إليها مُتَلَفِّتا، وذلك أنَّه فى بَارِحَتِه آستولَىٰ عليه القَلَقُ بسُلْطانه، وآسْتلَبَتْ يَدُ الأَرق كَرَاه من بين أجْفانه، كأنَّه سَاورتْه ضَئِيلةٌ سُمُّها نَاقِع، أو مَدَّتْ إليه خَطاطِيفُ حُجْنٌ لها أيْدى الخُطُوبِ نَوَازِع :

إذَا اللَّيْلُ ألبَسَنِى ثَوْبَه * تَقلَّب فيه فَتًى مُوجَعُ

فتارةً فِكْرَتُه مُتَوجِّهةٌ نحو قِلَّة حَظِّه، وآونَةً لايَقَعُ إلَّا علىٰ ما يَقْذِفُه طَارِفُ لَحْظه، وإن يَدَ الخُمُول قد آسْتولتْ عليه، وأَزِمَّةَ المَطَالِب صُرِفَتْ عنه وحَقُّها أن تُصْرَف إليه، والسعادَة شاردةٌ عنه وما أجْدَرها أن تُطِيفَ ببَابه وتَسْتَقِرَّ بين يَدَيه :

لئِن كان أدْلَىٰ حابِلٌ فتعَذَّرَت * عَلَيْه وكانَتْ رَادَةً فتخَطَّتِ،

لَمَّا تَرَكْتُه رَغْبَةً عن حِبَالِه * ولٰكِنَّها كانَتْ لآخَرَ خُطَّتِ!!

ولقد جَهِد فى سِلْمِ الدَّهْرِ وهو يُحَارِبُه، "وكَيْفَ تُوَقِّى ظَهْرَ ما أنْتَ رَاكِبُه"؟ فما شَامَ بارِقَةَ أَمَلٍ إلا أخْفقتْ ورَجَع بخُفَّىْ حُنَيْن، وقَرَّتْ أعْيُنُ أعَاديه كلَّما سَخِنَتْ منه العَيْن، فلقد أصْبَح أفْرغ من حَجَّامِ سَابَاط وإن كان "أشْغَل من ذَاتِ النِّحْيَيْن".

وكلما تأمَّل جَدَّه العَاثِر النَّاكِص، ونَظَر رِزْقَه النَّاضِبَ النَّاقِص، وقابَلَه الدَّهْرِ بالوَجْه العَابِس الكَالِح، ومَنَّى نَفْسَه عُقْبىٰ يَوْمٍ صالِح، رَبَع عليها فَمَنْ لى بالسَّانِحِ بعد البَارِح؟، وناجَىٰ نفسه بإعْمال الركائب، والاضطراب فى المَشَارِق والمَغَارِب، وأن يَرىٰ بالجود طَلْعَةَ نَائِر وبالعرمِس غُرَّةَ آئب، ويَصِل التَّهْجِير بالسُّرىٰ، ويَبُتَّ من قيد الأوطان مُوثِقات العُرىٰ، وإن كَسَدتْ فَضِيلةٌ من فضائله، أو رَثَّتْ وَسِيلةٌ من وَسَائله، اكْتَسب بأخرىٰ من أَخَوَاتها، ونَفَث فى عُقَدِها ومتَّ بها وقال: أنا ابْنُ بَجْدَتِها، فإلامَ وعَلامَ وحَتَّى مَتىٰ، أُجاوِرُ من أنا فيهم أضْيَعُ من قَمَر الشِّتا؟، وحَالِى أظهرُ من أن يُقامَ عليه دَلِيل، و"إذا ذَلَّ مَوْلَى المَرْءِ فهو ذَلِيل":

ومَا أنَا كالعَيْرِ المُقِيم بأهْلِه * على القَيْدِ فى بُحْبُوحَةِ الدَّارِ يَرْتَعُ!

ثم اسْتَهْوَلَ تَقَحُّم الإغْوار والإنْجاد، واسْتَفْتَح لقَادِح زِنَادِ الحَظِّ الإكْداءَ والإصْلاد، وأقولُ: أخْطَأ مُسْتَعْجِلٌ أوكَاد، فأثُوبُ مَثَاب من حَلَب الدَّهرِ أشْطُرَه، وأَخَذَ إذا ارْتَفَع عن الدَّنِيَّة من حَظِّه أيْسَرَه، وبَنىٰ كما بَنىٰ سَلَفُه وقَرَّر ما قَرَّره، فأقولُ: ارفُضِ الدَّنِيَّة ولا تُلْوِ عليها، فتكونَ "أحْمَق من المَمْهُورَةِ إحدىٰ خَدَمَتَيْها"، "فالحُرَّة تَجُوع ولاَ تأكُل بثَدْيَيْها":

ولَسْنَا بأوَّلِ مَنْ فَاتَه * علىٰ رِفْقِه بَعْضُ ما يَطْلُبُ.
وقَدْ يُدرِكُ الأمْرَ غيرُ الأرِيب * وقَدْ يُصْرَعُ الحُوَّلُ القُلَّبُ!

وتارةً يخطُر أنْ لَو شَكَوْتُ حالى إلىٰ أصْدقائى من ذَوِى الجَاه، وسألتهم بالحاقِ بهم فى الآبتغاء من فَضْلِ الله؛ وأَحُضُّهم على آنْتهاز فُرْصَة الإحْسانِ قبل الفَوْت، وأَضْربُ لهم: "أَعِنْ أخَاكَ ولَو بالصَّوْت" فليس علىٰ مِثْلِى ممن يُخيفُه الدَّهْرُ فى ذلك من جُناح، "وهَلْ يَنْهَضُ البَازِى بغيرجَناح"؛ ثم أرىٰ أنهم لو فَضَل عنهم شيءٌ لجَادُوا، بل لو زُوِيتْ الأرض لهم لآزْدادُوا؛ ولو مُلِّكوا ظِلَّ الله لأصْبحتُ لدَيْهم ضَاحِيا، وما حَالِى بخَافٍ عليهم وكَفَىٰ بُرغَائِها مُنَادِيا، وقَبْلِى بَغَى علِىٌّ الأمْرَ ففَاتَه وأدْركَ الجِدَّ السَّعِيدَ مُعاوِيا؛ وإلىٰ كَمْ أُعَلِّلُ تَعْلِيلَ الفَطِيم بالخِضَاب:

سَئِمْتُ العَيْش حِينَ رأيتُ دَهْرِى ❊ يُكَلِّفُنِى التَّذَلُّلَ للرِّجَالِ!

وأُخْرَى يُسَلِّى نَفْسَه عن مُصَابِها ومَصَائِبها، ويُمَنِّيها كَرَّ الأيام بتَعاقُبِها، ويَقُصُّ عليها تَقَلُّبَ اللَّيالِى بالأمَم الماضية فى قَوالِبِها؛ وأنها ماقَدَّمَتْ لأحدٍ سعادةً إلا عَقَّبَتْها بتَغْيير، وما سَقَتْ صَفْوَ الأمانى بَشَرًا إلا شابَتْ كَأْسه بتَكْدِير؛ وأنَّ سَبِيلَ كلِّ أحدٍ منها سَبِيلُ ذِى الأَعْواد، وقُصَارَاىَ ولو آتخذْتُ الأرضَ مَسْكَنًا وأَهْلَها خَوَلًا سَبِيلُ رَبِّ القَصْرِ من سَنْدَاد، ولو عَمَّرتُ عُمْرَ نُوحٍ كنتُ كَأَنِّى وآدَم وقْتَ الوَفَاة علىٰ مِيعاد؛ فان شِئْتَ فارْفَع عَصَا التَّسْيارِ أوضَعْ، فما هُو إلّا: "حَارِبْ بجِدٍّ أودَعْ".

فبينا أنا أَعُومُ فى هذه الخَوَاطر مُتَفَكِّرًا، وأقْرَعُ سِنَّ النَّدَم علىٰ تَقَضِّى عُمْرى فى غير مَآرِبِى مُتَحَسِّرا، وأتَسَلَّى بمَصَارِع الأوّلين أخْرىٰ مُعْتَبِرا؛ ولو أنجزَتْنِى الأيامُ مَواعيدَ عُرْقوب، لأفْضَتْ بى إلىٰ أحْلَىٰ من مِيراثِ العَمَّة الرَّقُوب، ولقد تَقاعَس أمَلِى حتى قَنِعْتُ بحَالِى "وشَرٌّ مَّا أَلْجَأَكَ إلىٰ مُخَّة عُرْقُوب" ثم يُخاطِبُنى حِجَاى بأن تَثَبَّتْ وآصْبِرْ، فالليلُ طَوِيلٌ وأنت مُقْمِرٌ؛ فَستبلغ بك الأسْباب، ويَنْتَهِى بك إلى المَقْدورِ الكِتَاب، فلا تَعْجَلْ بَجَرْىِ المُذْكِيات غِلَاب.

فاسْتَرْوَحْتُ إلىٰ فتح بابٍ كان مُرْتَجا ، وآرْتَدْتُ باستجلاء مُحَيَّا السماء من بَعْض هَمِّي فَرَجا ، وآنْتَشَقْتُ من نسيم السَّحَرِ ما وجدتُ به من ضِيق فِكْرى مَخْرجا ؛ فَفتحْتُه عن شُبَّاكٍ كتَخْطِيط الأوْفاق ، أو كُرُقْعةِ شِطْرَنْج وُضِعَتْ بين الرِّفاق ؛ أُلْبِس من صِبْغة اللَّيلِ شِعارا ، وآتُّخِذَ لاَسْتِجْلاءِ وَجْه الغَزالةِ نَهارا ؛ جَلْدٍ على القيام والكَدّ ، صَبُورٍ على الحالَيْن فى الحَرِّ والبَرْد ؛ يُحَوِّل جُثْمانَ المَرْء عما واراه ، ويُبيحُ إنْسانَ الطَّرْف رَعْىَ حِمَاه ؛ يُديلُ من ظُلْمة اللَّيلِ ضَوْءَ النهار ، ويَنِم بما آسْتودَعْتَه من الأسرار ؛ يُشْرِف إلىٰ غَيْضَةٍ قد آلْتَفَّتْ أشجارُها ، وتهدَّلتْ ثِمَارُها ، ورَقَصتْ اغْصانُها إذ غَنَّتْ أطْيارُها ، وآطَّردَتْ بِصَافِي الزُّلالِ أنْهارُها ، ونَمَّتْ بعَرْف العَنْبرِ الشِّحْرِىّ أزْهارُها ؛ وقد قامتْ عَرائِسُ النَّارنْج علىٰ أرْجُلها ، تَخْتالُ فى حَلْيِها وحُلَلِها ؛ قد أُلْبِسَتْ من أوْراقِها خِلَعًا خُضْرا ، وحُلِّيَتْ من ثِمَارها تِبْرا ؛ ونَظَم قِدَاحُها فى جِيادِها لُؤْلُؤًا رَطْبا ، ورَنَّحها نَسِيمُ السَّحَرِ فمالتْ عُجْبا ؛ وقد مُدَّتْ فى أرْضِها من البَنَفْسَج مَفَارِشُ سُنْدُسٍ فُرْوِزَتْ بالجَداوِل ، كبِسَاطٍ أخْضَر سَلَّتْ أيْدى القُيُون عليه صَقِيلَاتِ المَعَاول ؛ وقد حَدَّقتْ عُيُونُ الرُّقباء من النَّرْجِس قائمةً علىٰ سَاق ، ولَعِبَتْ بها يَدُ النَّسيم فتمايلَتْ كعِناق المُحِبِّينَ عند الفِرَاق ، فآجْتَلَيْتُ مُحَيًّا وَسِيمًا تَتَبَلَّج أَسِرَّتُه ، ومَنْظَرًا جَسِيما تَرُوقُ بَهْجَتُه ؛ قد مَدّ السِّماطَ بساطًا أزْرقا ، بزُهْرِ الكَواكِب مُشْرِقا ؛ وطرَّزَه بالشَّفَقِ طِرَازًا مُذْهَبا ، وأبْدَىٰ تحته للاصْباح مَفْرِقًا أشْيَبا :

وَرَثَّ قَمِيصُ اللَّيْــلِ حتّىٰ كأنَّه * سَلِيبٌ بأنْفَاسِ الصَّبَا مُتَوَشِّحُ
ورَقَّــعَ مِنْــه الذَّيْلَ صُبْحٌ كأنَّه * وقد لاحَ شَخْصٌ أشْقَرُ اللَّوْن أجْلَحُ
ولَاحَتْ بَقِيَّــاتُ النُّجُوم كأنَّهــا * علىٰ كَبِــدِ الخَضْرَاءِ نَوْرٌ يُفَتَّـــحُ !

وجَنَح البَدْرُ للغُرُوبِ فتداعَتْ الكَواكِبُ تَتْبَعه كَوْكَبًا فكوكَبًا ، فكأنه مَلِكٌ آتَّخذ المَجَرَّة عليه مَضْرِبا ؛ وتَوَّج بالثُّرَيا إكْليلا ، وخَنَستْ الكَواكِبُ بين يديه تَوْقيرًا له

وتَبجِيلا ، واصْطَفَّتْ حَوْله خَدَمًا وجُنُودا ، ونَشَرتْ من أشِعَّتِها أَلْوِيَةً وبُنُودا ؛ وأخذتْ مَقاماتِها فى مَرا كِزِها بجُيُوشٍ عُبِّئَتْ لِلقَاء مُناجِزِها ، ومُسَابِقُها أخْذَ فُرْصَة النَّصْر ومُناهِزَها :

ولاحَ سُهَيْلٌ من بَعِيدٍ كأنَّه * شِهابٌ يُنَحِّيه عن الريح قابِسُ !

وٱنبرىٰ نَسِيمُ السَّحَر عليلا ، وجَرَّ علىٰ أعطاف الأزهار ذَيْلًا بَلِيلا ، ورَوىٰ أحاديث الرِّياض بلِسان نَشْرِه ، مُذِيعًا لأسرار خُزَاماه وزَهْرِه ؛ وغَرَّدَتْ خُطَباءُ الطَّيْر علىٰ مَنابِر الأغْصان ، وٱسْتنبطَتْ من قُلُوب المُحِبِّين دَفَائِنَ الأشْجَان ؛ وحَثَّ دَاعِى الفَلَاح ، طَائِفَةَ التُّقَىٰ والصَّلاح ، علىٰ أن تُؤَدِّى فَرْضَها ونَفْلَها ، وتَرْتَقِى بخُضُوعها بين يدى مَوْلاها دَرَجاتِ السَّعادة التى كانتْ أحَقَّ بها وأَهْلَها ؛ وهَتَفَ بَشِيرُ النُّجح بمن أحْيا لَيْلته لما تَمزَّق قَمِيصُ اللَّيل وٱنفرىٰ : "عِنْد الصَّباح يَحْمَدُ القَوْمُ السُّرىٰ" .

فَبَيْنا أنا أتفكَّر فى أنَّ جُمْلةَ ما عايَنْتُه سَيُصْبِح زَائِلا ، وعَن تِلْك الصِّبْغَة العَجِيبة حَائِلا ، وأتدبَّرُ : ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هٰذَا بَاطِلًا﴾ إذْ أهْدتْ إلىَّ الأيامُ إحْدَىٰ طُرَفِها وغَرائِبِها ، وكُبْرىٰ أَوابِدِها وعَجائِبِها ؛ فطَرَق سَمْعى من الشُّبَّاك نَبَأَه ، وتَلَتْها وَجْبَةٌ تَتْبَعُها وَثْبه ؛ فٱسْتَعَذْتُ من كَيْد الشَّيْطانِ المَرِيد ، وقلتُ : أَسَعْدٌ أم سَعِيد ؛ وإذا بِنَمِسٍ قد فَارَقَ وِجارَه إلىٰ وِجارِى ، وٱخْتارَنى على الصَّحراء جارًا فٱرْتَضَيْتُه لجِوَارِى ؛ فوَلَج مُسْتأْنِسا ، ومَرَح بين يَدَىَّ آنِسا ، وأرَانِى أحَدَ كَتِفَيْه فى الاسترسال لَيِّنًا والآخَر بالتَّمنُّع شَامِسا ؛ فمَدَّ له الحِرْص علىٰ جَوْرِه حَبائِلَ مَكْرِه وشِباكه ، ويَدُ الغَبَش تَحُول دُون قَنْصه وإمْساكه ؛ وبَقَايا الظَّلام تَقْضى بتَمنُّعِه ، وتَصُدُّ عن جَعْله من الوَثاق فى مَوْضِعه ؛ وأنا مُلازِمُه مُلازَمَة المُعْسِر لرَبِّ الدَّيْن ، حتى يَتَبَيَّن الصُّبْح لِذِى عَيْنَيْن .

فلما خشيتُ على صلاتي الفوتَ عدلتُ إلى تأدية فرضها ، وتوجيهها بين يدَى موجبها وعَرضها ؛ فلما انفتلتُ من مُصلّاى ، وانصرفتُ عن مناجاة مولاى ؛ برقت لى بارقه ، خُيّل إلىَّ أنها صاعقه ؛ فقلتُ : أَذَرّ قرنُ الغزاله ؟ ، وإلا فلاتَ حينَ ذُباله ؛ فقيل : إنَّ الغلامَ نظر إليه شزرا ، وهزّله المهنّد فشقَّ له من الظلماء فجرا ، وأبدى له وجهًا مكفهرا ، ورام أن يمطيه من المنية مركبًا وعرا ، كأنّه قد لاقى أسدًا هزبرا ، وأترع له كأس الحِمام بالوافى ، ورماه بثالثة الأثافى ؛ فعطفتُ عليه باللائمة منكرًا لجهله ، وهتفتُ به زاجرًا عن قبح فعله ، ثم عذرتُه : "ومَن لك بأخيك كُلِّه" ، وقلتُ له : ماذا تراك تصنع لو لاقيتَ أسدًا أغلبا ؟ ، لقد خِلتُ أنك ترتدُّ — وإن كنتَ وليدًا — أشيبا ؛ أمن هذا بادرتَ إلى السيف مخترطا ؟ ، "إنك لأجبنُ من المنزوف ضرطا" لقد أظهرتَ من الفشل ما جاوز قدرَ الحدّ ، ووضعتَ المزاح فى محلّ الجِدّ وقابلتَ الأسهلَ بالأشدّ ، فسُحقًا لك وبُعدا ، لقد قدح مُرجّيك بعدها زنادًا صلدا ، واستنبع الماءَ جلمدًا جلدا .

فصوّب طرفه فىَّ وهتف مناديا ، وأظهر وفاءً أزرى بالسموءل بن عاديا : أنجُ هربًا ولا إخالُك ناجيا ، إنى رُميتُ من الخطوب بأصعبها ، ولا يُنبّئك بالحروب كمجرّبها ، والغاصُّ باللقمة أخبرُ بها ؛ فلقد أوطأنى مالا أستقيل منه العثره ، وما لاقيتُ فى حربٍ كهذه المرّه ، "والعوانُ لا تُعلَّم الخِمرَه" ؛ لقد صرّح لى بالشرّ ولم يُجمجم ، وكشر عن أنيابه غير متبسّم ، "وحسبك من شرٍّ سماعُه" و"آسُتُ البائن أعلم" ؛ تاللهِ إنه لأجرأ من خاصى الأسد ، ولئن سبرتَه لتعلمَنّ ما بين الذئب والنقد ؛ ولقد رضيتُ نفسى من الغنيمة أن تؤوب بذَمائها ، لما تشبّثت بخنصرى تخضبها بدمائها ، فقلتُ : "أجفَلَ عن جنابك الخيرُ وأجلى" ، "أضرطًا وأنت الأعلى" ؟ ؛ ثم تضاحكتُ إليه لما شاهدتُ استعباره ، وأويتُ له إذ رأيتُ استكثاره الخطبَ واستكباره ؛ وقلتُ : من ضاف الأسد

قَرَاه أظْفَاره، ومن حَرَك الدَّهر أراه اقْتِدَارَه، وعَدَلتُ إلى الذَّلُول الشَّامِس، المُسْتأسِد المُسْتأنِس، ومَدَدْتُ يَدِى إليه فانْقاد لهــا طَائِعا، وخَضَع لإجابة دَعْوتِى سَامِعا .

فلمَّا حَازَه فى القَبْضَــةِ الإسَار، وبَطَل الإقْلالُ من ذلك اللَّفظ والإكثار، وقد كان أعزَّ من الأَبْلقِ العَقُوق، وأبْعدَ من بَيْضِ الأَنُوق، اسْتجليتُ صُورَتَه مُتَأَمِّلا، إذ لم يَبْقَ له سِوىٰ قَبْضتِى مَوْئِلا، فرأيتُ هَامةً نَخْمَه، وجُثَّة ضَخْمَه، وشِدْقًا أهْرَتا رَحْبا، ذا مِرَّةٍ على اختلاف الحَوَادث صَعْبا، وأنيابًا مُحَدَّدَةً عُصْلًا كالنِّصال، وطَرْفًا مُخالِسًا غيرَ غِرٍّ بالمَكْرِ والخَتَال، كأنَّه شِهَابٌ يتَوقَّد، أو شُعْلةُ نارٍ لم تَخْمد، وسامِعتَيْن تَتوجَّسانِ مادار فى الأوهام، وتُدْرِكانِ ما يناجِى به المَرْءُ نَفْسَه ولو فى الأحلام، قد نِيطَتْ بعُنُق صَغُرتْ هَامَتُه بالنسبة إليــه، إن اسْتَدْبرتَه قلتَ : هو مُشْرِفٌ عليهــا أو اسْــتَقْبلتَه قلتَ : هى مُشْرِفةٌ عليه، يَشْتمِلُ علىٰ نَحْرٍ خَصِيب، وصَدْرٍ رَحِيب، فيه نَزْعتا بياضٍ كهِلَالَينِ قُرِنا فى نَسَــق، أو نَجْمَىْ ذُؤَابة ظَهرا فى غَسَق، تُسَرُّ نفس الناظرِ إليها، ويُعْقَد خِنْصِر الاختيار فى حُسْنِ الشِّيَاتِ عليها، اتَّصل ذلك بمَنْكِب عَتِيد، وسَاعِدٍ شَدِيد، وبُرْثنٍ شَثْنٍ ومِخْلَبٍ حَدِيد :

ذَوَات أَشَافٍ رُكِّبَتْ فى أَكُفِّهــا ٭ نَوافِــذَ فى صُمِّ الصُّخُورِ نَواشِبِ،
مُعَقَّفَــةِ التَّرهِيف عُوجٍ كأنَّهــا ٭ تَعَقْرُبُ أَصْدَاغِ الحِسَانِ الكَواعِبِ ! !

قد جَاوَر جُؤْجُؤًا نَهْــدا، وقَابَل كَاهِلًا مُمتَــدّا، يكاد خَصْرُه ينعقد اضْطِرارا، وهِمَّته تَتَسعَّر نارا، برِجْلينِ تَسْــبِق فى الحُضْر يدَيْه، وتَقُــدُّ بأظْفارِها أُذُنَيْه، وذَنَبٍ كالرِّداءِ المُسْبَلِ يَجُرُّه اختيالًا ومَرَحا، ويَتِيهُ عُجْبا وفَرَحا، إن انْسابَ قلتَ : انْساب أُفْعُوان، أو صَالَ قلتَ : أَسَدُ خَفَّان، أو وَثَب سَبَق الوَهْم فى انْحِطاطه، أو طَلَب أدْرَك البَرْق من نَشَاطه، أو طُلِبَ فاتَ الطَّرْف فى انْخِراطه، أنْعَمُ مَسًّا من أرْنَب،

وأزهىٰ من ثعلب ؛ قد كساه الظَّلامُ خلعته ، وقبَّل الصباحُ طلْعتَه ؛ حازَ من القَنْدس صِقَالَه وبَهْجَتَه ، ومن الفَنَك لِينَه ونَعْمَتَه ؛ أُلْبِسَ رِدَاءَ الشَّـباب ، ونُزِّه عن تَزْوِيرِ الخضَاب ؛ إن آختلَس فما تأبَّط شرّا ، أو خاتَل أزرىٰ بالشَّنْفَرىٰ مكرًا ؛ أحدّ نفْسا من عَمْرو بْنِ مَعْدِى ، لا يُصْلِدُ قَادِحِ زِناد بَطْشه ولا يُكْدِى ؛ أنزقُ من أبِي عبَّاد ، وأصْوَل من عَنْترَة بْنِ شدَّاد ؛ أفْتكُ من الحْرِث بن ظَالِمٍ ، وأنْهر فَصْدًا للدَّمِ من حاتِمٍ ؛ لا يَلِينُ ولا يَشْكُو إلى ذِى تَصْمِيت ، "كأنَّه كَوْكَبٌ فى إثْرِ عِفْرِيت" ؛ يَكادُ عند المُخاتَلَةِ فى آنْسيابه ، يَفُوتُ الخاطِرَ أو يَخْرُجُ من إهَابه ؛ إنْ قارنَ طَيرًا أباحَه مِنْسَرًا كَمِنْسَرِ الأسَد ، أَغْلَبَ فيه شَغًا كأنَّهُ عِقْدُ ثمانين فى العَدَد ؛ فيُنْشده : ألَا عِمْ صباحًا أيُّها الطَّلَلَ البَالِى ، فلا يُحَسُّ له بعيْنٍ ولا أثرِ سَجِيس اللَّيالى ، فكأنَّ قُلُوبَها رَطْبًا ويَابِسًا لدىٰ وَكْرِهِ العُنَّابُ والحَشَفُ البَّالِى ؛ آعتاد قَنْص السَّانِح والبَارِح ، فما فات وِرْدَ المَنِيَّةِ مِنه غادٍ ولا رَائِح ؛ طَوِيلُ القَرا مُدْمَجُ الأعْظُم ، له مُخاتَلةُ سِرْحَانٍ وهَجْمَة ضَيْغَم ؛ أخن من نقبه(؟) ، وأظْلَم من حيَّه ، أطْيَشُ من فَرَاشَه ، وأسْبَقُ إلى الغايَات من عُكَّاشَه ؛ أخْطَفُ من عُقَاب ، وأشْجع من سَاكِن غَاب ؛ أَسْرَق من جُرَذٍ وأنْوَمُ من فَهْـد ، وألْيَن من عِهْنٍ وأخْشَن من قِدّ ؛ بأسُه قَضَاءٌ على الطَّيْر مُنْزَل ، وبَطْشُه مَلَكٌ بآجَالِها مُرْسَل .

فلما تأملتُ خَلْقَه ، وسبَرتُ بتَجْرِبَة الفِرَاسة خُلُقَه ؛ عَجَّلْتُ له جَرِيرًا مُسْتَحْصِد المِرَّةِ لِوَثَاقه ، وأحكمتُ شَدَّه فى مَحَلِّ خِنَاقِه ؛ وقلتُ له : إنِّى مُجَرِّبُك سَحَابَةَ هـذا النهار ، "ومَنْ سَلَكَ الجَدَدَ أمِنَ من العِثَار" ؛ فِعْلَ ذِى خِبْرَة بمَكْرِه ، وعلىٰ ثِقَةٍ من غَدْرِه ؛ فإن اللَّئيم ذُو صَوْلَةٍ بعـد الخُضُوع ، وفَضَحَ التَّطَبُّعُ شِيمَةَ المَطْبُوع ؛ وكَيْف الثِّقة به وإن آسْتَقرّ ولم يَنْبِس؟ وأنَّى الطُمأْنِينَةُ إليه وهو الأزْرَقُ المُتَلَمِّس؟ .

ثم ٱنصرفتُ إلى البَلَد لبَعْض شَانِى ، والاَجْتِماع بأخلَّائى وأَخْدَانِى ؛ وٱسْتَغرَقْتُ أَدِيمَ النهار فيما تَوجَّهْتُ له ، وقطعتُ عُمْر يَوْمٍ ما كان أطْوَلَه ! .

فلمـا قضيتُ نَهْمَتِى ، من نُجْعَتِى ، وحانت مع وُجُوب الشَّمْس رَجْعَتِى ، ألْفَيْتُه عَمَد إلى الوَثاقِ فقَرضه ، ووفَّاه بالكَيْل الوَافِى ما ٱقْتَرضَه ؛ وصالَ علىٰ شَيْخَةٍ نَسْتَسْعِدُ بدُعَائِها ، ونَفْزَعُ إن دَهَمنا هَمٌّ قبلَ نِدَاءِ أُولِى البَطْش إلى نِدَائِها ؛ ذاتِ خُلُقٍ عَظِيمٍ ، ومَنْطِقٍ رَخِيمٍ ، وقَلْبٍ رَحِيمٍ ، ووَجْهٍ ذِى نُضْرةٍ ونَعِيمٍ ؛ إن قامتْ أَحْيَت اللَّيلَ بالسَّهَر ، أو قَرأَتْ رَأَيْتَنا حَوْلَها زُمَرًا بعد زُمَر ؛ إن حَادَثْتَها نطقَتْ بالسِّحْر مُحلَّلا ، أو تارَكْتَها رَأَت الصَّمْتَ علىٰ كَثِيرٍ من النُّطْق مُفَضَّلا ؛ تسرُّ نَفْسَك فى حَالةِ الصَّخَب ، وتُرِيكَ وَجْه الرِّضا فى صُورَةِ الغَضَب ؛ فمَدَّ إليها يَدَ العُدْوان ، وأَطَاعَ بأذاها أَمْرَ الشَّيْطان ؛ ولم يَرْقُبْ فيها إلَّا ولا ذِمَّه ، وحَمَلها فحَمَّلَنا من أذاهَا غُمَّـه ؛ ومَزَّقَ قَشِيبَ أثْوابِها ، وحَكَّم مَخَالِبَه الحَدِيدَة فى إهَابِها ، فعظُم مُصَابُ من حَوَتْ دَارِى بمُصَابِها .

فلمـا وصلتُ رأيتُها باكِيَـةً ذاتَ قَلْبٍ مَرِيض ، وجَنَاحٍ مَهِيض ؛ فسَلَّيْتُها بأنَّ المَصائبَ تُلقَّاها الأبرار ، وتَرَفَّقتُ بها إلىٰ أن رَقَأَتْ تلك الأَدْمُع الغِزار ، وأوردتُ : «إنَّ جَرْحَ العَجْمَاءِ جُبَار» ؛ وقالتْ : إيهًا لكَ وَآها ، لقَد ٱرتَكَبتَ خُطَّةً ما أَلْيَقَها بعُذْرِك وأولاها ! ! ، "فلقدأَنْصَفَ القَارَةَ من رَامَاها" ثم آلَيْتُ أَلِيَّةً بَرَّه ، لأُوطِئَنَّه من الوَثَاق جَمْره ، ولأَقْتَصَّنَّ بهذه المَرَّة تلك المَرَّه ؛ وأتَيتُه بسِلْسِلَة تَنْبو أَنيابُه عن عَجْمها ، ولا تَثْبُت شَياطِينُ مَكْرِه برَجْمِها ؛ قد أبْدَع قَيْنُها الصَّنْعَة بإحكامِها ، وأتَىٰ بالعَجَب فى نِظَامِها ؛ فلِلّه هو ممن تَحَكَّمَ فيما يَقْطَع الجَلْمَـد ، بجَعَله من اللَّطافَة يُحَلُّ ويُعْقَد ؛ فاسْتَوْدَعْتُ عُنُقَه منها أمِينًا لا يَخْفِر وَثِيقَ ذِمَّتِـه ، ولا تَتطرَّقُ الاوهامُ إلىٰ تُهْمَتِه ؛ مُسْتَحكِمَ القُوّة فى الشَّـد ، فتغيَّظ تَغيُّظَ الأَسِير على القِدّ ، ونَظَر إلىَّ بطَرْف حَدِيد ،

وتَذَلُّلٍ بعد بَأْسٍ شديد، وبَصْبَص بذَنَبِه فقلتُ : "أمَكْرًا وأنْتَ فى الحَديد" . فلمّا أَيِسَ من الخَلَاص، تلوتُ : ﴿ ولَاتَ حِينَ مَنَاص ﴾ .

فلما تمَّ ما ذكرتُه، وأبْدَأْتُه وأعَدتُه، ورَدَتْ رُقْعةُ سيِّدنا على عَقابِيلِ[(١)] هذه الوَقْعة التى وَقَعتْ، وصَدَّتْ عن الجَوَاب ومنَعت، واقتضىٰ بى الحالُ كَتْب هذه الخُرافة وإن تَشَبَّثَتْ بأذْيال الجِدّ، فأخرجْتُها مَخْرَج الهُزْؤ وإن دلَّتْ علىٰ حَوْز قَصَباتِ المَجْد، ليُعلم أن فى الزَّوايا خَبايا، وإذا صَحَّ أنَّ الأصولَ عليها تَنْبُتُ الشَّجر "فأنا ٱبنُ جلا وطَلَّاعُ الثَّنَايا" .

هذا : وإنْ أبْقىٰ قِراعُ الخُطوبِ فى حَدِّى فُلُولا ، "فالفَحْل يَحْمِى شَوْلَه مَعْقُولا"؛ ولقد تَجَمَّعتِ الخُطوب علىَّ من كلِّ وِجْهةٍ وأَوْب، وطَرَقَتِ الرَّزايَا جَنَابِى من كلِّ صَوْب؛ وجَرَيتُ مع الخُطوب كفرَسَيِ الرِّهان، وما هَمَمْتُ بمَقْصِدٍ إلا سَقَط بِى العَشَاءُ علىٰ سِرْحَان؛ وبكلِّ حَبْلٍ يَخْتَنِقُ الشَّقِى، ولَعَمْرُكَ مايَدْرِى ٱمْرُؤٌ كيف يَتَّقِى؛ والجَلْد يرىٰ عَوَاقِبَ الأُمورِ فيَحْمَدُ عند النَّجاح عُقْبَى السَّيْر، ﴿ ولَوْ كُنتُ أعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ ﴾ .

تَجُوزُ المُصِيبَاتُ الفَتىٰ وهو عَاجِزٌ * ويَلْعَبُ صَرْفُ الدَّهْرِ بالحَازِمِ الجَلْدِ!

فسَطَّرتُ هذه الأحْرُفَ إلىٰ سيِّدنا ليوافِقَ خَبَرِى عند أصحابه خُبْرُه، "ومن يَشْتَرِى سَيْفِى وهذا أثرُه" وأعْلَم أنها سيُضْرَب بها فى بَابِها المَثَل، وقد "أورَدَها سَعْدٌ وسَعْدٌ مُشْتَمِل" .

(١) العقابيل جمع عقبولة وعقبول بالضم . وهى الشدائد .

وهـذه رسالة فى الشُّكرِ علىٰ نُزُول الغَيْث ، من إنشاء أبى عبـد الله محمد بن أبى الخِصَال الغَافِقى الأنْدَلُسِيِّ ، نقلتُها من خَطّ الشيخ شَمس الدِّين محمد بن محمد بن محمد آبن سَيِّد الناس اليَعْمُرىّ المِصْرىّ، وهى :

الحمدُلله الذى لايَكْشِفُ السُّوءَ سواه، ولايَدْعُو المضْطَرُّ إلا إيَّاه، نُنْزِلُ فَقْرنا بغِنَاه، ونَعُوذُ من سُخْطه بِرِضَاه، ونَسْتغفِره من ذُنُوبنا : ﴿ومن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلّا الله﴾ .

وأشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له إلهًـا عَلَا فَٱقْتَـدَر ، وأَوْرَد عِبادَه وأَصْـدَر ، وبَسَط الرِّزْق وقَدَر ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى بَشَّر وأنْذَر ، ورَغَّب وحَذَّر، وغَلَّب البُشْرىٰ على الإقْنَاط ، ودَلَّ على الصِّراط ، وأشارَ إلى السَّاعة بالأَشْراط ، ولم يَأْلُ أُمَّتَه فى الذَّبِّ والاحْتِياط ، صلَّى الله عليه وعلى الوُزَراء الخُلَفا ، والبَرَرةِ الأتْقِيا ، والأشِدَّاء الرُّحَما ، والأصْحاب الزُّعَمـا ، صـلاةً تَملأُ ما بين الأرض والسَّما ، وتُوافيهم فى كلِّ الأوقات والآنَا ، وتَضَعُ الثَّنَاءَ مَوْضِعَ الثَّنَا .

ولمـا لَقِحَتْ حَرْبُ الجَدْب عن حِيال ، وأشْفَق رَبُّ الصَّرِيحَةِ والعِيَال ، وتَنَادى الجِيرانُ للتَّفرُّق والزِّيَال ، وتَناوحَتْ فى الهُبُوب رِيحُها الجَنُوبُ والشَّمال ، وتَرَاوَحَتْ على القُلُوب رَاحَتا اليَمِين والشِّمال ، وأُحْضِرَتْ أنْفُسُ الأغْنِياء الشُّح ، ووَدُّوا أن لا تَنْشَأَ مُزْنَةٌ ولا تَسِـحّ ، وتَوَهَّم خَازِنُ البُرِّ أنَّ صَاعَه يَعْدِل صَاعَ الدُّرّ ، وخَفَّت الأَزْوَاد ، وماجت الأرْضُ وٱلتقت الرُّواد ، وٱنتزعت العازبَ الْقَصِىّ ، فأَلْقَت العِصِىّ ، وصَدَرَتْ بحَسَراتِها ، وقد أَسْلَمَتْ حَزَرَاتِها ، وأَصبحت كلُّ قُنَّةٍ فَدْعَاء ، وهَضْبَةٍ دَرْعاء ، (صفاه وها ونقبا وها) (؟)[1] ، والصُّبْح فى كل أُفُقٍ قطْرٌ أو قطع ، والأرْضُ كلُّها سَيْفٌ ونِطع ، والشّعر يشمر ذَيْله للنّفاق ، ويُضَمِّر خَيْلَه للسِّباق ، وجاء الجِدُّ وراح الهَزْل ،

(١) كذا فى الأصل ، ولم نصل إلى حله مع البحث والتنقيب .

وقُلْنا : هٰذه الشِّدَّة هـذا الأَزْل، ولِلْمُرْجِفِينَ فى المَدِينـة عَجَاجَةٌ ظَنُّوها لا تَلْبَد، وقِسِيٌّ نحو الغُيوب تُعْطَف وتُلَبَّد ؛ فما يَسْـقُط السَّائِلُ منهم إلا علىٰ نابٍ يَحْرُق، وشِهابٍ يَبْرُق؛ حتّىٰ إذا عَقَدُوا الأَيْمان، وأخَذُوا بزَعْمِهم الأمَان، وقالُوا : لا يُطْمع فى الغَيْث، وزُحَلُ فى اللَّيْث؛ فإذا فارق الأسد، لكَدَّ ما أفْسَد :

تَخَـرُّصًا وأحادِيثًا مُلَفَّقَـةً * لَيْسَتْ بنَبْعٍ إذا عُدَّتْ ولا غَرَبِ!

أنْشَأَ اللهُ العَنان، وقال له : كُنْ فكَان ؛ فبَيْنا النُّجومُ دَرَارِيّها الأعلام، وأغْفَالها التى لا تُحْمد عندهم ولا تُلَام؛ قد اخْتَلط مَرْعاها بالهَمَل، ولم تَدْرِ السـدّة بالحَمَل ؛ ولا علم الجَدْىُ بالزِّبْال، ولا أحَسَّ الثَّوْر بالرَّامى ذِى الشِّمال؛ إذ غَشِيَتْها ظُلَلُ الغَمام، وحَجَبَتْها أسْتارٌ كأجْنِحَةِ الحَمَام؛ وأخَذَتْ عليها فى الطُّرُوق، مَصادِرَ الغُرُوب والشُّرُوق؛ فما منها إلا مُقَنَّع بنَصِيف، أو مُزَمَّلٌ فى نِجادٍ خَصِيف؛ لم تُتْرَكْ له عَيْنٌ تَطْرِف، ولا ثُقْبَةٌ يَطْلعُ منها أو يُشْرف؛ فباتَتْ بين دُوَرٍ مُتَدارِكَة السُّـقُوط، ودُرَرٍ مُتَناثِرَة السُّموط، ودِيَمٍ مُنْحَلَّة الخُيُوط؛ وجُيُوشٍ مَنْصورةِ الأعلام، ثَابتَةِ الأقْدام؛ وكَتائِبَ صَادِقةِ الهُجومِ، صَائِبـةِ الرُّجُوم، تَطْلُبُ المَحْلَ ما بين التُّخُوم والنُّجوم؛ وما زالتْ ترميه بأحجاره، وتَحْتَرِشُه فى أجْحَارِه؛ وتَغْزُوه فى عُقْرِ دارِه، حتّىٰ عَفَّتْ علىٰ آثارِه، وأخَذَتْ للحَزْنِ والسَّهْل بثَارِه .

فيا أيُّها المُؤْمِنُ بالكَوَاكِب، أُنْظُر إلى الدِّيَم السَّوَاكِب؛ وٱسْبَح فى لُجَجِ سُيُولها، وارْتَع فى مَمَرّ ذُيولها؛ وسَبِّح بٱسْمِ رَبِّك العظيم الذى قَذَف بالحَقِّ على الباطل، وأعاد الحَلْيَ إلى العَاطِل؛ فبُرُودُ الظواهر مُخْضَرّه، وثُغُورُ الأزَاهِر مُفْتَرّه؛ ومَسَرَّات النُّفُوس مُنْتَشِرَه، والدُّنيا ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِره؛ وأرْواحُ الأدْواح حامِلَه، وأعْطافُ الأغصان مَائِله؛ وأوْرَاق الأوْرَاق تُفَصَّل، وأجْنِحَة الظِّلال تُرَاش وتُوصَـل؛ وخُطَباءُ الطَّيْر

تَرْوِى وتُخْبِر ، وشُـيوخُ المَحَارِبِ تُهَلِّل وتُكَبِّر ، وإنْ من شَىْءٍ إلا يَخْضَع لِجَبَرُوتِه ، ويَشْهَد لمَلَكُوتِه ، وتَلُوحُ الحِكْمَة ما بين مَنْطِقِه وسُكُوتِه .

فأما الخَطَاطِيفُ فقد سَـبَق هَا يِها ، ونَطَق شَادِيها ، وتَراجَعَ شُـكْرًا لله نَادِيها ؛ فعُشٌّ يُرَمّ ، ولَبِنَةٌ إلى أخرىٰ تُزَمّ ، وشَعَثٌ يُلَمّ ، وبَدْأَةٌ تُوَفَّىٰ وتُتَمّ ؛ وكأنَّهـا حَنَّتْ نَحْو المَشَاهِد ، وسابَقَتِ اللَّقَالِقَ إلى المَعَاهِد ؛ فظَلَّت اللَّقَالِقُ بعدها نُزَّاعا ، وسَقَطَتْ علىٰ آطامِها أَوْزَاعا ، وأَجَدَّتْ إقطاعا ، وأجَابَتْ من الخِصْبِ أمْرًا مُطَاعا ، وحَازَتْ من الحَدَائِق والبَسَاتِين إقْطَاعا ؛ وسَيُغَرِّد فى رَوْضَتِه المُكَّاء ، ويُضْحِكُه هـذا الوَابِلُ البَكَّاء ، وتَرُومه فلا تَلْحَظُه ذُكَاء ؛ تَحْتَه من الأفنان النَّاعِمَة قِلَاص ، وأحْصَنَتْه من الخضراء التُّبَّعِيَّـةِ دِلَاص ؛ فالوَيْل لأَهْـلِ الأَقْوالِ المُنْكَرات ، والنَّيْـلُ لأهلِ الثَّناء والخَيْرات ؛ والمَرْعَىٰ والسَّعْدان ، وأَرْضٌ بكَوا كِبِ النَّوْرِ تَزْدَان ، وبِقاعٌ تَدِينُ الغَيْث كما تُدَان ؛ أَذْكَرُها فذَكَرَت ، وسَكِرَتْ من أَخْلاقِه فشَكَرَت ، وعَرَّفَها ما أنْكَرَتْ ؛ كأنَّمـا أَعْدَاؤُها من أم خارجة نسب أو ملح ، قالت لهـا : خِطْبٌ فقال : نِكْح ، فَمَثَلَتِ الأزهارُ بسَبِيلِه ، ونَبَتَتْ فى مَسِيلِه ، وثَبَتَتْ كاللَّحْظَةِ فى شطِّىْ نَخِيلِه .

فمِن نَرْجِسٍ تَرْنُو الرَّوَانِى بأحْدَاقِه ، وتَسْتَعِير الشَّمْس بَهْجَة إشْرَاقِه ؛ ويَوَدُّ المِسْكُ نَفْحَةَ آنْتِشاقِه ، يَحْسُد السُّنْدُسُ خُضْرَةَ سَاقِه ، ويَتَمَنَّاه الحَمَام بَدَلًا من أطْواقِه ؛ كُحَلَّةِ نَدًى تَتَرَقْرَق ، أو غُصْنِ بَانٍ لا يزال يُورِق .

ومن عَرَارٍ تَغَنَّىٰ مُطَالِعُه علىٰ عَرَار ، وكَلِفَتْ به السَّوَارِى والغَوَادِى كَلَفَ عَمْرٍو بِعَرَار ؛ فجاء كسَوَالِف الغِيدِ تَرِفّ ، وكَوَمِيضِ الثُّغُور يَعْبَقُ ويَشِفّ .

ومن أُقْحُوانٍ جَرَىٰ على الثَّنايا الغُرّ ، وسُبِكَ من نَاصِعِ الدُّرّ ؛ يُقَبِّلُه النَّسِيمُ فَيَعْبَق ، ويصبح الجَوُّ بمـا (١) ويَغْبِق ، ويَسْتَقْبِله ناظِرُ الشمس فيُشْرِق .

(١) بياض بالأصل .

ومن بَنَفْسَجٍ كأطْواق الوُرْق، أَو كاليَوَاقيتِ الزُّرْق ؛ تَشَرَّفَ بأبْدعِ الخلق، وتَأَلَّف من الغَسَقِ والخَلَق؛ تَلْحَظُه من بين أوراقه نَوَاظِرُ دُعْجٌ بالأجفانِ وُقيتْ، وبدُمُوعِ الكُحْلِ سُقيَتْ؛ نَسِيمُه أَلْيَنُ من الحَرِير، ونَفَسُه أَعْطَرُ من العَبِير؛ يُفَاخِر به كانُونُ البرد، مُفَاخرة نَيْسان بالوَرْد .

وكلّ رَبْوَةٍ قد أَخذَتْ زُخْرُفَها وٱزَّيَّنَتْ، وبيَّنَتْ من آيات الله ما بيَّنَتْ ؛ كما تَتَوَّجَ في إيوَانِه كِسْرىٰ، وٱستَقبلَتْه وُفودُه تَتْرىٰ، وٱنقلبَتْ عن حُسْنِ نَادِيه النَّواظِرُ حَسْرىٰ، وكلّ تَلْعَةٍ مَذانِبُ نُصُولها تُسَلُّ ومَضارِبُ فُصُولِها لاتُثْنىٰ ؛ وأَرَاقِمِ تَنْساب، ولُجَيْن يُذْأب ويُذَاب ؛ علىٰ حافَاتِها نُجُومٌ من النَّوْرِ مُشْتَبِكه ، وجُيُوبٌ عن لَبَّاتِ الغَواني مُنْتَهَكه ؛ فلو ٱفْتُتِحَت الظُّهورُ والبُطُون ، ونَطَقَتِ السُّهول والحُزُون ، لقالتْ : ﴿ قُتِلَ الخَرَّاصُونَ الَّذينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ .

فشُكْرًا لرَبِّنا شُكْرا ، وسُحْقًا للذين بدَّلُوا نِعْمَةَ الله كُفْرا ؛ اللَّهُمَّ بارِئَ النَّسَم ، ودَارِئَ القَسَم ، ونَاشِرَ الرَّحْمة والنِّعَم ، ومُنْزِلَ الدِّيَم ، وبَاعِثَ الرِّمَم ، ومُحْيِيَ الأُمَم ؛ فإنَّا نُؤْمن بقَدَرِك : خَيْرِه وشَرِّه ، ونطوى غَيْثَك علىٰ غِرِّه ، ولا نَتَعرَّضُ لنَشْرِه حتَّى تأْذَنَ بنَشْرِه ؛ ونَعْتَقِد رُبُوبِيَّتَك كلَّ الاعتقاد ، ونَبْرأُ إليك من أهْلِ المُرُوق والإلْحاد ؛ ونَسْتَزِيدُكَ من مصالح العِبَاد ومَنَافِعِ البِلاد ؛ رِزْقُنا لَدَيْك ، ونَواصِينَا بيَدَيْك، وتوكُّلُنا عَلَيْك، وتَوَجُّهنا إليك ؛ ولا نُشْرِك بك في غَيْبِك أحدا ، ولا يَجِدُ عَبْدٌ من دُونك مُلْتَحَدا ؛ تبارَكْتَ وتعالَيْت ، وأَمَتَّ الحَيَّ وأحْيَيْتَ المَيْت ؛ لا هَادِيَ لمن أَضْلَلْتَ ولا مُضِلَّ لمن هَدَيْت، فاكْفِنا فِيمَنْ كَفَيْت ، وتَوَلَّنا فِيمَنْ تَوَلَّيْت ، إنَّك تَقْضِي ولا يُقْضىٰ عَلَيْك ، وتَقْرأ : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ﴾ الآية .

وهذه نُسْخة رسالةٍ ، كَتَب بها الصاحبُ فخر الدِّين عبدُ الرَّحمٰن بن مُكَانِس ، تَغمَّده الله برَحْمَتِه ، إلى الشَّيْخ بَدْرِ الدين البَشْتكى عند ما زَادَ النِّيلُ الزيادة المُفْرِطَة ، سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، وهى :

ربَّنا ٱجْعَلْنا فى هذا الطُّوفَانِ من الآمِنِين ، وسَلامٌ علىٰ نُوحٍ فى العَالَمِين .

ما تأْخِيرُ مَوْلانا بَحْرِ العِلْمِ وشَيْخِه عن رُؤْيَةِ هٰذا المـا ؟ ، وما قُعادُه عن زُرْقَةِ هـذا النِّيل الذى جُعِل الناسُ فيه بالتَّوْبَةِ كالمَلائكة لمَّا غَدا هو أيضًا كالسَّما ؟ ، وكَيْف لم يَرَ هذا الطُّوفَان الذى ٱسْتَحال للزِّيادة فما أشْبَه زِيادَتَه بالظَّما ، فهى كَزِيادَةِ الأصَابِع الدَّالَّة فى الكَفِّ علىٰ نَقْصِه ، وأولىٰ أن نُنْشِد بَيْتَ المَثَل بنَصِّه :

طَفَحَ السُّرُورُ عَلَىَّ حتَّىٰ إنَّه * من عُظْمِ ماقَدْ سَرَّنِى أبْكَانِى !

فإنه قَارَب أن يَمْتَزِجَ بنَهْر المَجَرَّة بل وَصَل وٱمْتَزج ، وأرانا من عَجَائِبه ما حَقَّق أنه المَعْنِىّ [بقَوْلِ القائل] : "حَدِّثْ عن البَحْرِ ولا حَرَج" ، وتَجاوزَ فى عَشْرِ الثَّلاثين الحَدّ ، وأرانا بالمعاينــة فى كلِّ ساحِلٍ منه ما سَمِعْناه عن الجَزْرِ والمَدّ ، وأساء فى دَفْعِه فلم يَدْفَع بالتى هى أحْسَن ، وأقْعَدَ المَـاشِىَ عن التَّسَبُّب والحَرَكَةِ حتَّى شَكَا إلى الله فى الحَالَيْنِ جَوْرَ الزَّمن ، وسَــقَى الناسَ من ماء حَيَاتِه المعهودةِ كما شَرِبُوا من المَوْتِ أصْعَبَ كَاس ، وسُــئِلَ ٱبْنُ أبى الرَّدَّادِ عن قياس الزيادة فقــال : زَادَ بلا قِيَاس ، ٱمْتَلأ اليَبَاب ، وهَالَ العُبَاب ، وضَاعَ العَدُّ وٱخْتَلَط الحِسَاب ، كَالَ فطَفَّف ، وزَار فما خَفَّف ، غَسَل الجُسُور ، وأعَادَ الإمْلاقَ بعَزْمه إلى البُحُور ، وبَرَع فكان أولىٰ بقَوْلِ الحِلِّىّ من ٱبن مَنْصُور :

بمَكَارِمٍ تَذَرُ السَّبَاسِبَ أبْحُرًا * وعَزائِمٍ تَذَرُ البِحَارَ سَبَاسِبَا !

جمع فى صُعُودِه إلى الجِبَال بين الحَادِى والمَلّاح، ودَخَل النَّاسُ إلىٰ أسْوَاقِ مِصْر وخُصُوصا سُوقُ الرَّقِيقِ علىٰ كلِّ جَارِيةٍ ذَاتِ أَلْوَاح ؛ وغَدا التَّيَّار يَنْسَابُ فى كلِّ يَمّ كالأَيْم، وأصْبَحَتْ هِضَابُ المَوْجِ فى سَماءِ البَحْرِ وكأنَّما هى قِطَعُ الغَيْم ؛ وآسْتَحالتِ الأفْلاكُ فكُلُّ بُرْجٍ مَائِى ، وتَغَيَّرتِ الألوانُ فكلُّ ما فى الأرْض سَمَائِى ؛ وحكَىٰ ماؤُه حُكَاكَةَ الصَّنْدَل لمَّا مسَّه شَيْطانُ الرِّيح فتَخَبَّط ، وزادَ فآسْتَحالَ نَفْعُه فتحقَّق ما يُنْسَب إلى الصَّنْدَلِ من الآستحالة إذا أَفْرَط ؛ فلقد حَكَتْ أمْواجُه وَدَوائِرُه الأعْكَان والسُّرر، وغَدا كلُّ حَىٍّ حَيَّا مَيتًا من زيادته لا كما قَالَ المَعَرِّى : حَيًّا مِنْ بَنِى مَطَر(١)، وتعالىٰ إلىٰ أن أَقْرَفَ اللَّيْمونَ الأخْضَر، وآحْمَرَّتْ عَيْنُه على النـاس فأذاقَهُم المَوْتَ الأحْمَر، ولقد صَعُبَ سُلُوكه وكَيْف لا؟ وهو البَحْر المَدِيد، وأصْبَح كلُّ جَدْوَلٍ منه جَعْفَرًا ويَزِيد :

فَلَسْتُ أَرَىٰ إلا إفَاضَةَ شَاخِصٍ * إليـه بعَيْنٍ أو مُشيرًا بأُصْبُعِ!

فلكم قال الهَرَم للسَّارِينَ ياسَارِيةَ الجَبَل، وأنْشَد وقَدْ شَمَّر سَاقَه للخَوْض : أنا الغَرِيقُ فَمَا خَوْفِى منَ البَلَل؟ وكَمْ قال أبو الهَوْل : لا هَوْلَ إلا هَوْلُ هذا البَحْر، وقال المسافرون : ما رَأَيْنا مثل هذا النِّيل من هُنا إلىٰ ماوَرَاءَ النَّهر، وقال المُؤرِّخون : لم نَنْقُل كهٰذه الزيادة من عهد النَّهْرَوَانِ وإلىٰ هٰـذا الدَّهْر .

وكَيْف يَسُوغُ لمولانا فى هذه الأيام غيرُ آرتشاف فَمِ الخُمُور؟ ولِمَ لا يُغيِّر مَذْهَبَه ويُطَيِّب علىٰ هـذه الخُلُج بالسَّلْسَلِ والدَّوْر ؟ ؛ وكَيْفَ وكَيْف؟!! ، ولِمَ لا يَتَّخِذُ مولانا حَمْوَ النِّيـلِ وبَرْدَه رِحْلَةَ الشِّتَاءِ والصَّيْف؟ ؛ وهو فى المبادرة إلىٰ عُلُوِّ المعـالى وغُلُوِّ المعانى، وآنتهاز الفُرَص فى بَلَاغ الآمال وبُلُوغ الأمَانِى :

(١) يشير الى بيت المعرى فى قوله :

وإن بخلت عن الأحياءِ كلهم * فأسـقِ المواطر حَيًّا من بنى مَطَر

آنظر سقط الزند (ج ١ ص ٣٠) .

عَجَبٌ من عَجَائِبِ البَرِّ والبَحْـــرِ ونَوْعٌ فَرْدٌ وشَكْلٌ غَرِيبُ!

نَعَــمْ :

مَنْ قَاسَكُمْ بِسِوَاكُمُ * قَاسَ البِحَارَ إلى الثِّمَادِ!

أَعْلَى الأَنَامِ فى العُلُوم قَدْرا ، و إمام النُّحَاةِ من عَهْد سيبَوَيْهِ وهَلُمَّ جرّا ، وشَيْخ العَرُوضيين على الحقيقة بَرّاً وبَحْرا :

وشَيْخ سَيْحُونَ والنِّيلِ والفُرَاتِ وَدِجْلَهْ ،

وشَيْخ جَيْحُونَ أيضا ، * وشَيْخ نَهْرِ الأُبُلَّهْ!

اِى وَاللهِ :

أقُولُها لَوْ بَلَغَتْ مَا عَسَىٰ : * الطَّبْلُ لا يُضْرَبُ تَحْتَ الكِسَا!

لا مَخْبأ لعِطْرٍ بعد عَرُوس ، أنتَ أعْوَمُ فى بُحُور الشِّعْر من آبن قَادُوس ، وأصْلَحُ إذا حَدَّثتَ من صَالِح بن عَبْد القُدُّوس ، وأشْهَىٰ إذا هَزَلْتَ من آبنِ حَجَّاجٍ إلىٰ النُّفُوس :

وَلَوْ أنَّ بَحْرَ النِّيلِ جَارَاكَ مازِحًا * وحَقِّكَ ما آسْتَحْلَىٰ له الناسُ زَائِدا!

نَعُود إلىٰ ما كُنَّا فيه من وَصْف النيل ، وذِكْر حاله الذى أصْبَح كما قال آبن عبدالظَّاهِر : كَوَجْهِ جَمِيل ؛ : فلو رآه مولانا وقد هَجَم علىٰ مِصْر بجاس خِلَال الدِّيار ، ودَخَل إلى المَعْشُوق فتركه كالعَاشِقِ المَهْجور لم يُرَ منه غيرُ الآثار ؛ لبَكَىٰ بعَيْنَىْ عُرْوَه ، وأوَىٰ من الرَّصَد وقد تَفَجَّرت من صَلْدِه عيون النّزّ إلىٰ رَبْوه ؛ أورَنَا لَرَوْض الجَزِيرَة وقد خَلَع حِلَاه ، وتَخَاذَلَتْ عَرَائِسُ أشجاره على الحالين بالمِياه . والنَّخِيل وقد قُتِلَتْ مُلَّاكُها ــ حينَ فَتَك ــ بالأَسَف ، وجَفَّ أحْمَرُ ثَمَرِها وأصْفَرُه فأرانا العُنَّاب والحَشَف . والجِيزَة وقد قلتُ لها : تَبًّا لجَارِكِ النِّيلِ إذ أفْسَدَكِ صُورةً ومَعْنى ، وسَكن مَغَانِيَك فَسَقَىٰ

دِيارَك بغير آستِثْنا . وقُراها الغَرْبيَّة وقد قلتُ لها حِينَ أَوَتْ إلىٰ أعالِي الأرض هَرَباً من المِيـاه ، وآعْتَصَمتْ بالجبَل الغَرْبيِّ : لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ . وكُلِّ سَفِينَةٍ وقد عَلَتْ علىٰ وَجْه المـاء ، وآرْتقتْ لآرتقاء البَحْـر إلىٰ أن آختلطتْ بالسَّماء ، وقد قالتْ لها أتْرابُها عند الفِرَاق : إلَّا تَرْجعي ، وقُلْنا لها نحن علىٰ سَبِيل التَّفَاؤُل : ياسَمَاءُ أَقْلِعِي ، والنِّيل تَبْدُو عليه القُلُوع خَافِيةً لبُعْدها فكَأَنَّها الخِيامُ بذى طُلُوح[1] ، وجارَ على النّاس بطُغْيانِه فكأَنَّمـا هو أخُو فِرْعونِ مِصْرَ أو آبنُ طُوفَانِ نُوح .

فلقد طَارَ النَّسْر مَبْلُول الجَنَاح ، ودَنَا نَهْر المَجَرَّةِ من السُّكَارىٰ بالشَّخَاتيت إلىٰ أن كاد يَدْفَعُه من قام بالرَّاح . ونَرْجِس البَسَاتِينِ وقد آبْيضَّت عيناه من الحُزْنِ فهو كَظِيم ، وفَارَق أحْبابَه من الرَّيَاحِينِ ولم يَبْق له غَيْرَ القَلَانِس صَدِيقٌ وغَيْرَ المـاءِ حَمِيم . والوَرْدِ وقد قِيل له : مالَكَ من آس ، وغُصْنِ البَانِ وقد قيل له : طُوبىٰ لمن عَانَقَك ولا بَاس . والأسماكَ وقد أَلْجَمَهم العَرَق ، والقُلْقَاس وقد شَـكا شَكْوىٰ آبن قلاقِس وآبنِه من الغَرَق . والقَصَب بالجيزَة وقد شَرِب ماءَ النِّز فهو بِئْسَ الشَّراب ، والقَصَب ببُولَاق لم يُنْجِـه من مُشَاهدة الغَرَقِ إلا كونُه غَاب ، والفَارِسىّ بالبَسَاتِين وقد تَرَجَّل ووَقَع فأرَانا كَيْف تَكْسِير الأقْصَاب ، وقيل للآس : عاجِلْ جِيرَانَك بالغِيطَانِ فالنَّاس بالنَّاس ، وبَادِرْ إلىٰ جَبْرِ ما كُسِر فالحاجَةُ تَدْعو المَكْسورَ فى الحالَين إلى الآس .

هــذا وأنا مُقيمٌ بالروضة إذْ زَهَتْ علىٰ سائر الرِّياض ، وسَلِمَ جَوْهَرُ حَصْبائِها من أكثر هذه الأعْرَاض ، وإن آعتَلَّتْ بالآسْتِسْقاءِ فهو عين الصِّحَّة كما يُنْسَب السَّقَم إلى العُيُون المِرَاض ، أو كما قَالَ المملوك قديمـا من قَصِيدَة فى بعض الأغْرَاض :

وقَائِل : فى لِحَاظِ الغِيد باقِيَــةٌ ＊ من السَّقَامِ وما ضَمَّتْ خُصُورُهُمُ

---

(١) ذو طلوح موضع .

وفى النَّسيم فقلتُ : الأمْرُ مُشْتَبِهٌ * عَلَيك فَٱلْزَم فأنتَ الحاذِقُ الفَهِمُ .
قلتُ الصَّحيح ولٰكنِّى بمُوجَبِه * أقولُ : تلك دَوَاةٌ بُرْؤُها السَّقَمُ !

قد أحاط بها النِّيلُ إحاطةَ المَرَاشِفِ بالَّلمَا ، فأشْرقتْ ضِياءً بين زُرْقته فكأنَّها البَدْر فى كَبِد السَّما :

بصَحْنِ خَدٍّ لم يَغِضْ مَاؤُه * ولم تَخُضْهُ أعينُ النَّاسِ !

مُتعطِّش مع هذا الطُّوفان لرَيَّاك ، مُتَشوِّف وإن كنتُ مُغازِلَ النُّجوم الأرْضية والسَّمائيَّة يا بَدْرُ لرُؤْيَاك ، لٰكنِّى يُسليني أنى ما نَظَرتُ إلى النِّيلِ إلا رأَيْتُك من سائر الجهات ، ولا لَمَحْتُ بيُوتَ البَحْرِ بل البُحُورِ إلا رَأَيْتُك عِمَارةَ الأبيات :

ولا هَمَمْتُ بشُرْبِ المَاء من عَطَشٍ * إلا رأيتُ خَيالًا مِنْكَ فى المَاءِ !

ولٰكنْ للعِيَانِ لَطِيفُ مَعْنًى * له طَلَبَ المُشَاهَدَةَ الكَلِيمُ !

فهَلُمَّ إلى التَّمتُّع برُؤْيةِ هذا النِّيل الذى لم تَرَ مِثْلَه العُيُون ، والنَّظَرِ إلىٰ سائر المَخْلُوقات لعُمُومه وكلٌّ فى فَلَك يَسْبَحُون ، فليس يَطِيبُ للتِّلميذ رُؤْية هذا البَحْر بغَيْرِ رُؤْيةِ شَيْخه ، ولا يَلَذُّ له التَّمَلِّى بمشاهدة هذا الفُلْكِ ما لم يُشْرِقْ وجْهه وذِهْنُه ببَدْرِه ومَرِّيخه ، فما هذا الإهمال ؟ ، ولَيْتَ شِعْرِى يا أَدِيبُ تَشَاغُلُك بأَىِّ الأعمال ؟ ، أَبا لكِتَابة ؟ فلتَكُن فى هذا النِّيل الذى هو كالطَّلْحِيَّة بغير مثال ، أو بالنَّثْر والنَّظْم ؟ ففى هذا البَحْر الذى منه تُؤْخَذ الدُّرر وفيه تُضْرَبُ الأمثال ، ولقَد وَلَّد فيه الفِكْرُ للمَمْلُوك ، كيفَ تَصَادُم الأكْفَاءِ وقَهْرُ المُلُوك للُمُلوك ، فإنه لم يُسْمع فى مَمْلَكة الإسلام ، ولا وُرِّخ فى عام من الأعْوام ، بمِثْلِ هذه الزيادة الزائده ، والجَرْيِ علىٰ خَرْقِ العادة التى لا جَعَل

الله بها صِلَةٌ ولا منها عَائده ؛ وغايةُ ما وَصَل إليه فى الماضى من عِشْرِينَ : فَضَيَّقَ بسَعَتِهِ المسَالِكَ ، وأوْجَبَ المهالك ، وتطرّق تَطَرُّقَ أهْلِ الجرائم والفَسَاد فقطع الطَّرِيقَ على السَّالك ، وأحْوَجَ مرّاتٍ إلى الاستضحاء لا أحْوَجَ اللهُ لذلك .

ودَلِيلُ ما شَمل به من الفساد ، وما عَامَل به البِلادَ وأهْلَ البلاد ، ما قاله أُدَبَاءُ كلِّ عَصْرٍ ، عند ما أبيح للمسافر فى مَدِّ عَرْضِه القَصْر .

فمن ذلك ما قاله مولانا القَاضِى الفَاضِل ، وما هو رحمه الله إلا بَحْرٌ طَفَح دُرُّه ، فللهِ دَرُّه ، من رسالةٍ :

وُرُودُ مِثالِه يتَضَمَّن نَبأَ سُطورِه العظيمةِ أَمْرَ طوفانِ النِّيلِ التى كأنَّها جَدَاوِلُه ، وأنّه جاد لمُؤَمِّلِه بنَفْسِه التى ليس فى يَدِه غيرُها فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُه ... .

ومنها : ولَمْ يَزَلْ يجرى لمُسْتَقَرٍّ له ، ويَضُمُّه شَيْئًا فشَيْئًا إلىٰ أن أدْرَكَ آخِرُه أوّلَه ؛ حتى إذا تكامل سُمُوُّ أمْواجِه حالًا علىٰ حَال ، وتَنَوَّر أقاصى الأرْض من بِنْيَةِ المِقْياس فأدناها النَّظَرُ العَال ؛ فلم يَتْرك بُقْعَةً كانت من قبلُ فارِغَةً إلا وكلُّها عند نَظَرِه مَاق ، ولَيْتَ هواه المُعْتَلّ كان عَدْلًا فحَمَّلَ كلَّ غَدِيرٍ ما أطاق ؛ وطالمَا جرىٰ بالصَّفا ولكن كدّر صَفَاه بهذا المَسْعىٰ ، والمَرْجُوّ من الله أن يَتْلُوَ ما أفسده هٰذَا المَاءُ ما يُصْلِحه خُرُوجُ المَرْعىٰ .

وما قاله القاضى مُحْيِي الدِّين بن عبد الظاهر ، سَقَى اللهُ تلك الألْفَاظَ النِّيلِيَّةَ صَوْبَ المَاطِر :

ويُنْهِى إليه أمْرَ النِّيلِ الذى سَرَّ فى أوائله الأنْفُسَ بأنفَسِ بُشْرىٰ ، ويَقُصُّ عليه نَبَأَه العظيمَ الذى ما يُرِينا من آية إلا هى أكْبَرُ من الأخْرىٰ ، ويَصِفُ له ما سَاقَه إلى الأرْضِ من كلِّ طَلِيعةٍ إذا تَنَفَّس اللَّيْلُ تفرّق صُبْحُها وتَفَرَّىٰ ؛ فهو وإن كان

خصَّ اللهُ البلاد المصرية بوفورِه ووَفَائِه، وأغنىٰ به قُطْرَها عن القَطْرِ فلم يحتجْ إلىٰ مَدِّ كَافِه وفَائِه ، ونَزَّهَه عن مِنَّةِ الغمام الذى هو إن جاد فلا بُدَّ من شَهْقَة رعده ودَفْعَة بُكَائِه ؛ فقد وَطِئَ بِلادَها بعَسْكَرِه العَجَّاج، و زَاحَم ساحَتَها بأفواجِ الأَمْواج؛ فعَمِل فيها بِذرَاعِه ، ودار عليها بخِنَاقِه وتَخَلَّلها بنِزَاعِه ، وحَمَلَها علىٰ سَوَارِى الصَّوَارِى تحت قُلُوعِه وما هى إلا عُمُد قِلَاعِه ؛ وزار زَرَابِىَّ الدُّورِ المبْثُوثَه ، وجَاس خِلَال الحَنَايا كأنَّ له فيها خَبَايا مَوْرُوثَه ؛ ومَرَق كالسَّهْم من قَنَاطِرِه المَنْكُوسه، وعلا زَبَدُ حَرَكَتِه ولولاه ظَهَرتْ فى بَاطِنِه من الأقمارِ والنُّجومِ أشِعَّتُها المَعْكُوسَه ؛ وحمل علىٰ بِرْكَة الفيلِ حَمْلَ الأُسُودِ على الأبطال ، وجَعَل المَجْنُونةَ من تيَّاره المُنْحَدِرِ فى السَّلاسِل والأغلال؛ والمَرْجُوُّ من الله أن يُزِيلَ أذَاه، و يُعِيدَ علينا منه ماعَهِدْناه؛ فانَّ له الإِيابَ الأَكْبَر، وفيه العَجَائِبُ والعِبرَ؛ فها وُجُودُ الوَفَاء، عند عَدَمِ الصفاء؛ وبُلُوغ الهَرَم، إذا ٱحْتَدَمَ وٱضطَّرم؛ وأمن كلّ فَرِيق، إذا قَطَع الطَّرِيق؛ وفَرِحَ قُطَّان الأوطان، إذا كُسِر وهوكما يقال : سُلْطَان ؛ إلىٰ غير ذلك من خَصَائِصه ، و بَرَاءَتِه مع الزيادة من نَقَائِصه ؛ طَالَمَا فتح أبوابَ الرَّحْمة بتَعْلِيقِه ، وفَازَ كلُّ أحدٍ عند رُؤْية مائه المُعَصْفَر بتَخْلِيقِه .

وما قاله المولى زينُ الدِّين عُمَرُ الصَّفَدِىّ تَغَمَّده الله بعفوه، و جَمَع له بين حلاوة الكَوْثَر وصَفْوِه :

وأما النِّيلُ فقد أخَذ الدَّار والسُّكَّان، وقال ٱبن الخَامل كما قال ٱبنُ النَّبِيه : الأمانَ الأمان ، وبَكَى النّاسُ عند ما رَأَوْه مُقْبِلًا عليهم بالطُّوفَان ؛ وٱنْسابَتْ أَرَاقِمُ غُدْرانِه فى الإقليم فٱبْتَلَعَتْ غُدْرانَ أرَاقِمه ، ومَحَا سَيْلُه المتدَفِّقُ مَعالِمَه المَجْهُولة فٱستعمل الأقلام فى إثْباتِ مَعَالِمه؛ وأحَاطَ بالقُرَىٰ كالمُحَاصِر فضَرَب بينها و بين السماء بسُور، وأخَذَ الطريقَ على السَّالِكِينَ فلا مَرْكَبَ إلا المَرَاكِبُ ولا عَاصِمَ إلا البُحُور .

وما قاله السديد ابنُ كاتبِ المَرْج ، نُصْرَةُ الأقباط ، وأحَدُ عُمُدِ الشِّعر المشهورة بالفُسْطاط ، فما أطْيَبَ مَدَائحه النَّبوِيَّة التى جعلها سُورًا بينه وبين النار ، وما أعْجَب رِثاءَه : جعل اللهُ قبْره بالرحمةِ كالرَّوض غِبَّ القِطَار ! ! ! :

يا نيلُ يا ملِكَ الأنْهارِ قد شَرِبَتْ * مِنْكَ البرايا شَرَابًا طَيِّبًا وَغِذَا ،
وَقَدْ دخلتَ القُرَى تَبْغِى مَنافِعَها * فعمَّها بعد فَرْطِ النَّفعِ منك أذَى .
فَقَالَ : يُذْكَرُ عنِّى أنِّى مَلِكٌ * وتَعْتَدِى نَاسيًا : إنَّ المُلُوكَ إذَا !

وما قالَه شيخُنا الشَّيْخُ جمالُ الدين بن نُبَاتة الذى أطاعَتْه من الآدَابِ جوانِحُ نَظْمِها ونَثْرِها ، وسُخِّرتْ له بُحُورُ الشِّعر فقالتْ له الآداب : آخْتَرْ من دُرِّها ، فسُبحانَ من يَسَّر له مُمْتنِعَ الكلام وهوَّنَه ، وجعله من الذين يَسْتمِعُون القَوْلَ فيتَّبِعُونَ أحْسَنَه ، فما أشَفَّ دَقِيقَ فِكْرِه الجَليل ، وما أكْثَرَ ما يَضْحَك زَهْرُ تَقَاطِيعِه علىٰ زَهْرِ مُقَطَّعاتِ النِّيل ، فما كان إلا مَخْصوصًا فى الأدب بحور الهِبَات ، وكلامُه فى العُذُوبة والبلاغة يُزْرِى بالفُرَات وآبنِ الفُرَات ، وإن قيل أىُّ أصْدقِ كَلِمَةٍ قالها شاعِرٌ بعد لَبِيد ، يقال قولُ آبن نُبَاتَة .

فلا عَجَبٌ للَفْظِى حِينَ يَحْلُو * فهذا القَطْرُ من ذَاكَ النَّبَاتِ ! :

وأما النِّيل فقد آستوىٰ على الأرض فثَبَتت فيها قَدَمُه ، وآمتدَّ نَصْلُ تيَّارِه كالسَّيْفِ الصَّقِيل فقَتَل الإقليمَ وهذا الآحْمِرارُ إنَّما هو دَمُه :

حُمْرَتُها من دِمَاءِ ما قَتَلَتْ * والدَّمُ فى النَّصْل شاهدٌ عَجَبُ !

فلم يترك وَعْدًا بل وعِيدًا إلا وَفَّاه ، ولا وَهْدًا بل جَبَلًا إلا أخْفَاه ، أقبل كالأسَدِ الهَصُورِ إذا آحتَدَّ وآضطَّرم ، وجاء من سِنِّ الجَنَادِل فتحدَّر وعَلَا حتى بلغ أقْصَى الهَرَم ، وعامَلَ البلادَ بالخُيَلاءِ وكيْفَ لا ؟ وهو سُلْطانٌ جائِرٌ أُيِّدَ بالنَّصْر ، قائلًا :

إن كُنْتُ بُليتُ بالاْحتِراق فى أرْضِكم فأنا أفيضُ بأن أرْمِىَ من بُرُوقِ تيّارِى بشَرَرٍ كالقَصْر .

هذا وطالمَا قابَلْنا قبلها بوَجْهٍ جَمِيل ، وسَمِعْنا عنه كلَّ خبرِ خَيْرٍ ثابتٍ و يَزِيدُ كما قال جَمِيل ، وكلَّ بَدِيعٍ من آثار جُودٍ يصبغ الثَّرىٰ فيَخْضَرُّ بخلاف المشهور عن صَبْغَةِ اللَّيْل ؛ وطالمَا خصصناه بدُعاءٍ فكانت الراحةُ به كمِقْياسه ذَاتَ بَسْطه ، وكَمنازِلِ الخِصْبِ بقُدُومه المُبارَك ذَات غِبْطه ، ومَنَحْناه بوَلاءٍ وثَنَاءٍ هذا يَدُور من الإخلاص بفُلْكٍ وهذا يَعْذُب من البِحَارِ بنُقْطه ؛ كَمْ وَرَد إلى البِلاد ضَيْفًا ومعه القِرَىٰ ، وكَمْ أتَى مُرْسَلًا بمُعجِز آيات الخِصْبِ إلىٰ أهْلِ القُرىٰ ؛ فهو جَوَادٌ قد خَلَع الرَّسَن ، ساهِرٌ فى مصالح الخَلْق وقد مَلَأَ الأمْنُ أجفانَهم بالوَسَن ، جامعٌ لأهل مِصْرَ من سُقْيَاهُ ومَرْعاه ووَجْهِه بين المَاءِ والخُضْرة والوَجْهِ الحَسَن ؛ كَمْ باتَ سَيْرُ مِقْياسه يشملُ بظِلّه الغائبِينَ والحاضرين ، وكَمْ رَفَع على الوَفَاءِ رايَةً صَفْراءَ فاقعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظرين ؛ وبَلَغ وبَلَّغ بجَرِيرِ التَّيَّار سَلامَه ، وباتَ الناسُ بوَفَائه من حِذارِ الغَلاءِ تحْتَ السِّتْر والسَّلامَه ، وخَلَّق صَدْرَ العَمُود وكيف لا يُخَلَّق بَشِيرِ العباد والبلاد ، ودَعَا مِصْرَ لأخْذِ زُخْرُفِها فسَوَاءٌ قِيل : ذَات العَمُود أو ذَات العِمَاد ، وبَسَط يدَه ببرَكة المَاءِ فقِيل : سلامٌ لكَ من أصْحابِ اليَمِين ، وخَضَّب بَنَانه وأقْسَم بحُصُول الخَيْرِ فقِيلَ لمَخْضُوبِ البَنَان يَمِين ؛ وأشار إلىٰ وُصُول المَدِّ المتتابع ، وقَبَضَ يدَه المخَلَّقَة على المَاء فوَفَتْ وما خَابَتْ فُرُوجُ الأصابع ؛ ونادىٰ رَائِدُ الوَفَاء ولكنْ كَمْ حَياةٍ فى الأرْض لمن يُنَادِى ، وتَمَّت أصابِعُ الزيادة ونَمَتْ حتّى قَال الناسُ : ما ذِى أصَابِعُ ذِى أيَادِى .

هذا وقد قُرِنَتْ زرابىُّ الدُّورِ المَبْثوثَةِ بالنَّمَارِق ، وقال المقياسُ : تَغطَّت منها الدَّرَجُ فنال الرَّجاء وظَهَرتِ الدَّقائق ؛ فهو جَمُّ المَنَافع ، عَذْبُ المَنَابِع ، يُشَار فى الحقيقة والمجاز إليه بالأَصَابِع .

فأعاده الله إلىٰ ذلك النَّفْع المعهود ، وأرانا منه الأمانَ من الطُّوفَان إلىٰ أن نَرِدَ الحَوْضَ المَوْرود ؛ وكَفَىٰ أهلَ مِصْرَ هذه المُصيبة التى إذا أصابَتْهم قالوا : إنّا لله وإنا إلَيْه رَاجِعُون ، ولا ٱبْتَلاهم بِمِثْل ما ٱبتَلىٰ به قومًا جعَلُوا أصابعهم فى آذَانِهم وٱسْتَغْشَوْا ثيابَهُم فإنَّما يَسْتَغْشِى ثِيَابَه منهم الفُقَراء فى المَطَر ويَجْعَلُ أصَابِعَه فى آذَانِه منهم المُؤَذِّنُون ؛ اللَّهُمّ إنكَ وليُّ النِّعمه ، وأوْلىٰ برحْمةِ خَلْقك من فَيْض هٰذه الرَّحْمه .

وما قاله صاحِبُنا الشيخُ شِهابُ الدين بن أبى حَجَلَةَ الذى كان أغْرَبَ من زَرْقاءِ اليمَامَه ، وأعْجَبَ اذا رَكِبَ بَغْلَته وزُرْزُورَه من أبِى دُلَامَه ؛ الأديبُ الذى كان حُجَّة العَرَب ، والنَّاثِرُ الذى كان بِنِسْبَتِه إلى الطُّيُور مُحَرِّكَ المَنَاطق وإلى الشِّعْر صَنَّاجَة الأَدب ، والنَّاظِمُ الذى كان إذا أنْشَدَ مَقَاطِيعَه فى التَّشْبِيبِ فاقَ على المَوَاصِيل ذَوَات الطَّرَب ؛ والصَّدِيقُ الذى كانتْ منه عَوَائِدُ الوفاء مَأْلُوفه ، وشَيْخُ الصُّوفِيَّة الذى لاعَجَب إذا كانتْ له المَقَاماتُ المَوْصُوفه ؛ أسْكَنه الله فَسِيحَ الجِنان ، وخصَّ ذلك الوَجْه الجميلَ بالعَارِض الهَتَّان ؛ من مَقَامَتِه الزَّعْفَرانيَّة عن أبى الرِّيَاش :

فٱعْتَنَقْتُه لَدَى السَّلام ، وقلتُ : ما وَرَاءكَ ياعِصَام ؛ فقد بَلَغَنا أن النِّيلَ تَزَايَدَ دَفْعُه ، وأدَّىٰ إلى الضَّرر نَفْعُه ؛ فقال : خُذِ العَفْو ، ولا تُكَدِّرْ بذِكْرِ النِّيلِ الصَّفْو ؛ فقد ٱمْتَزَج بالمُعْصِرَات ثَجَّاجُه ، وأعْيَىٰ طَبِيبَ الغِيطَانِ عِلَاجُه :

وشَرَّق حتَّىٰ ليس للشَّرْق مَشْرِقٌ * وغَرَّبَ حتَّىٰ ليس للغَرْبِ مَغْرِبُ !

قلتُ : فما فعل النَّغَيْر ، بجَزِيرَة الطَّيْر ؛ قال : لم يبْقَ بها هاتِفٌ يُبَشِّر بالصَّباح ، ولا ساعٍ يَسْعىٰ برِجْلٍ ولا طَائِرٌ يَطِير بجَنَاح ؛ إلا ٱتخذ نَفَقًا فى الأرض أو سُلَّمًا فى السَّماء ، أو أَوَى إلىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُه من الماء ؛ فاذَاق بها الحَمَامَ الحِمَامَ فى المُرُوج ، وتركَ أرْضَها

كسماءٍ مالها من فُروج، وتَلا على الحَمَام : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ﴾ . وكَمْ فى سماء مَائِها من نَسْرٍ واقع، وبُومَةٍ تُصَفِّر علىٰ دِيَارِها البَلَاقِع :

ومَنْهَـــل فيه الغُرَابُ مَيْتُ * سَقَيْتُ منه القَوْمَ وآسْتَقَيْتُ !

قلتُ : فمِصر؟ قال : زَحَف عليها بعَسْكَرِه الجَرَّار، ونفِط مائه الطَّيَّار .

قلتُ : فالجِيزَة ؟ قال : طَغَى المـاءُ حتَّىٰ علَا علىٰ قَناطِرِها وتَجَسَّر، ووَقَع بهـا القَصَبُ من قامَتِه حين عَلا عليه المـاءُ وتَكَسَّر؛ فأصْبَحَ بعد آخْضِرارِ بِزَّتِه شاحِبَ الإهاب، نَاصِلَ الخِضَاب، غَارِقًا فى قَعْرِ بَحْرٍ يَغْشَاه مَوْجٌ من فَوْقِه مَوْجٌ من فَوْقِه سَحَـاب؛ وقَطَع طريقَ زَاوِيَتِهـا علىٰ من بها من المُنْقَطِعينَ والفُقَراء، وترَكَ الطَّالِحَ كالصَّالِح يَمْشِى على المـاء؛ فتنادَوْا مُصْبِحِين، أَلَّا يَدْخُلَنَّهـا اليَوْمَ عليكم مِسْكين؛ وأدْرَكهـم الغَرَقُ فأَيِسُوا مِن الخَلَاص، وغَشِيَهم من اليَمِّ ما غَشِيَهُمْ وَلَاتَ حِينَ مَنَاص؛ وخَرَّ عليهـم السَّقْفُ من فَوْقِهم فهُدَّت قُوَاهُم، وآسْتَغاثُوا من كَثْرَةِ المـاء بالذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وقَليـلٌ مَّا هُم .

قلتُ : فالرَّوْضَة؟ قال : أحاط بها إحاطَةَ الكِمَامِ بزَهْرِه، والكَأْس بحُبَابِ خَمْرِه:

فَكَأَنَّها فيـــه بِساطٌ أخْضَر * وكأنَّه فيها طِـرَازٌ مُذْهَب!

فلم يَكُن لها بدَفْع أصَابِعه يَدَان، وكَمْ أنْشَدَ مَرْجُها حِينَ مَرَج البَحْرينِ يلْتَقِيان :

أَعَيْنَيَّ كُفَّا عن فُـؤَادِى فإنَّه * من البَغْيِ سَعْىُ آثْنَيْن فى قَتْلِ وَاحِد!

قلتُ : فدَارُ النُّحاس؟ قال : أنْحَس حالَها، وأفْسَدَ ما عليها وما لهَـا؛ فدخل من حَمَّامِها الطُّهْر، وقطع الطريقَ بالجـامع الظُّهر؛ فأَلْحَقَ مَجازَ بابه بالحقيقه، ورَقِىَ منه علىٰ دَرَجَتَينِ فى دَقِيقه؛ ثم آغْتَرَف ما جاوَرَه من الغُرَف غَرْفا، وأطلق من مائه الأحْمَرِ النَّارَ بمَوْرِدَة الحُلَفا .

قلتُ : فالخليج الحاكِمِىُّ ؟ قال : خرج عَسْكَرُ مَوْجِه بعد الكَسْر علىٰ حَمِيَّه ، ومَرَقَ من قِسِىِّ قَناطِرِه مُرُوقَ السَّهْم من الرَّمِيَّه .

قلتُ : فالمنشاة؟ قال : أصبحتْ للبَحْر مَقَرَّه، بعد أن كانتْ للعُيُون قُرَّه، وقيل لمنشئها : أنَّى يُحْيِى هٰذه اللهُ بعد مَوْتِها قال : يُحْيِيها الذى أنْشَأَها أوّلَ مَرَّه ؛ قَدْ مالَ علىٰ ما فيها من شُؤون الغِلال كلَّ المَيْل ، وتَرَكها تَتْلُو بفَمِها الذى شَفَتاه مِصْراعا بابها : ﴿ يٰأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ ﴾ .

قلتُ : فجَزيرةُ أروىٰ ؟ قال : قد أفْسَدَ جُلَّ ثِمَارِها، وأتَىٰ علىٰ مَغَانِيها فلم يَدَعْ شيئًا من رَدِيِّها وخِيارِها، أخْلَقَ ديباجةَ رَوْضِها الأُنُف، وتركَ قُلْقاسَها فى الجُرُوف علىٰ شَفَا جُرُف :

بعَيْنِي رأيتُ المَاءَ يَوْمًا وقد جَرَىٰ * علىٰ رَأْسِهِ من شَاهِقٍ فَتَكَسَّرَا !

طالما تَضَرَّع بأصابِعه إلىٰ رَبِّه، ولَطَم برُؤُوسِه الحيطانَ مما جرىٰ من الماء علىٰ قَلْبِه ؛ وتَمَثَّل بقول الأوّل :

وإنْ سَأَلُوكَ عن قَلْبِي وما قَاسَىٰ * فَقُلْ : قَاسَىٰ، وقُلْ : قَاسَىٰ ، وقُلْ : قَاسَىٰ ! ! !

لم يُفِدْه تَحَصُّنه من وَرَقِه بالدَّرَق والسَّتائِر، ولا حَنَّ عليه حينَ تَضَرَّع بأصابِعه فَضَحَّ أنّ الماءَ سُلْطانٌ جائِر .

قلتُ : فحِكْرُ ابن الأثير؟ قال : لم يَبْقَ منه غير الثُّلُث والثلثُ كَثِير ، قد أخْمَل من دُوره حَمائِلها ، وجَعَل عالِيَها سافِلَها ؛ فكَمْ دارٍ أعدم صاحبَها قَرارَه ، ونادىٰ فى عَرَصاتِها المُتَداعِية : إيَّاكِ أعْنِي فاسْمَعِي ياجارَه ؛ فأصْبحتْ بعد نفعها قليلةَ الجَدا ، مُسْتَولِيَةً عليها يَدُ الرَّدىٰ ، شَبِيهةً بدار الدُّنيا لأنها دارٌ متىٰ أضْحكتْ فى يَوْمِها أبْكَتْ غَدًا .

قلتُ : فبولاق ؟ قال : إمْلاق ، قد ٱلتفَّتْ بها من الزَّلَق السَّاقُ بالسَّاق ، فأتىٰ من النُّوتية على الصَّغير والكَبير، ومن المَراكب ومَمَرِّها على النَّقير والقِطْمير .

هذا بعد أن ترك جامع الخَطيرىّ علىٰ خَطَر، وحيطانَه يانعةَ الثَّمر، قد دنَا قِطَافُها، وحَان تِلافُها، فكأنى به وقد مَنع رِفْدَه، وتَلا علىٰ مِحْرابه سُورَة السَّجْدَه .

قلتُ : فجَزيرة الفيل ؟ قال : ٱقتلع أشْجارَها بشُرُوشها ، وترَك سَواقِيَها خاوِيةً علىٰ عُرُوشِها .

قلتُ : فالتاج والسبعة وجوه ؟ قال : هَجَم علىٰ حُرَمها ، وعَمَّ الوُجوهَ من فَرْقِها إلىٰ قَدَمِها ، فبَلَّ ثَرى المَوْتىٰ فى التُّخُوم ، وعَنَتِ الوُجُوهُ للحَىِّ القَيُّوم ، قلتُ : فما الحِيلَه؟ ، قال : تَرْكُ الحِيلَه :

دَعْها سَمَاوِيَّةً تَجْرِى علىٰ قَدَرٍ * لا تُفْسِدَنْها بِرَأْيٍ مِنْكَ راضى(؟)

طَالَ الكِتَاب ، وخَرَجنا عن فَصْل الخِطَاب :

ولَرُبَّما سَاقَ المُحَدِّثُ بعضَ ما * لَيْسَ النَّدِىُّ إليه بالمُحْتاجِ !

وكأنِّى بقائلٍ يقولُ : أليس من الكِبْر أن يَسْتَخْدِم هذا فى رسالته مُلُوكَ الكلام، ومن الحُمْق أن يُحَلِّيَ عَرائِسَ أفكاره بما للناس من حَلْيِ النِّثارِ والنِّظام ، فأقولُ : مُسَلَّمٌ أنَّ كُلَّ ما أوردتَه دُرَرٌ وجَواهِر، وعُقُودٌ كزَهْرِ الرَّبيع عُيون وُجُوهِها النواضر نَواظِر، ولٰكِنَّها هاهُنا أمْثل ، وجَمْع شَمْلِها علىٰ هٰذِى العَرُوس أجْمَل :

* وفِى عُنُقِ الحَسْناءِ يُسْتَحْسَنُ العِقْدُ ! *

وعلى الجُمْلة فيرجع الملوك إلى التَّواضُع وهو الأَلْيَقُ بالأدب ، فيقول : لا عَيْبَ على الفقيرة إذا تَجَمَّلَتْ بِحُلِيّ الغَنِيَّه ، ولا عَارَ على الجَوْهَرىّ إذا نَظَم سِلْكًا كانتْ دُرَرُه على الطُّرق مَرْمِيَّه ، ونَرْجِعُ إلىٰ ما ولَّده الفِكْرُ من عَجَبِ البَحْر، وما ظهر من دفع

الملوك لأمثالها عن جَرْيِها إلىٰ غاياتها بصُوَر القَمَر، فأقولُ : إنمـا قالتِ الأدباءُ ذلك لمـا جرىٰ من جَوْرِ النِّيـل على الأرض، ولمـا عَمَّ الناس من الإرْجافِ بُطولِ أذاه وهَرْجِه فكأنَّمـا هم فى يَوْم العَرْض ؛ وكلُّ ذلك وما وصـل إلىٰ هـذا الآرتفاع ، ورُبَّمـا كان أنْقَصَ من هذه الزيادة بقَرِيبِ الذِّراع .

وعلىٰ هذا القياس إنَّمـا دَفَع ضَرَرَه، وجَمَّل فى البلاد أثَرَه، وحَسَّنَ فى السَّماءِ خَبَره وفى الأرْضِ مَخْبَرَه ؛ السَّرِىُّ الذى آهْتِمامه بالمَعْروف مَعْروف ، وسَيْفُ الدِّين الذى سَهِر فى مصالح الرعايا لمَّـا تَنامُ مِلْءَ أجْفانِها السُّيوف؛ أتابِكُ العساكِر، والمَلِكُ الذى هو بالإسلام وله مَنْصُورٌ ونَاصِر؛ حَصَّن سائرَ الكُوىٰ بالجُسُور، ورَكَزَ على أفواه البَحْر والخَليجِ الأمَراءَ كما يَرْكُزُ المجاهدون على الثُّغُور ؛ وقابَلَ البَحْر من سَطَواته بمـا ليس له به قِبَـل ، ورَدَّ دَفْعَه بكلِّ دَفْعٍ من الرَّأْيِ والتَّدْبيرِ يُغْنِى عن البِيضِ والأَسَـل ؛ وحارَبه بجَيْشِ عَزْمٍ إلىٰ أن وَلَّىٰ هارِبًا مع التراع والقَناطِر، وجاهَدَه بجُنْدٍ رَكَزَهم علىٰ جَوَانِبِه لمَّـا تَحَقَّق أن البَحْر سُلْطانٌ جائِر؛ وحَصَره بالتَّضْيِيق عليـه كما تُحْصر البِرَك والتّراع ، وغَلَّ يَدَه عن التَّصَرُّف فسَقاه المَوْتَ كما سَقَى الناس أنواعَ النِّزاع ؛ فما هو إلا أن تَضَاءَل بنِيرانِ سَطَواته وآحْتَرق ، وذَلَّ خاضعًا وكَفَىٰ به تَضَرُّعًا بالأصابع وتَوسُّلا بالمَلَق، وأطاعَ لمَّا لم تُنْجِه مُجاهَرَتُهُ من تَيَّارِه بالسيوف ولا تَحَصّنُه من دارَاتِه بالدَّرَق .

علىٰ أنه تَطَاوَل لِيُضاهِىَ بأصابعه جُودَ أيَادِيه فقَصَّر، وتَحَسَّر فركب خَيْلَ خُيَلائه لِيُحَاكِىَ بَأْسَه فوقع من جُسُورِ عُجْبِه وتَقَطَّر، وسَمَتْ نَفْسُه كِبْرًا لأن يبلغ قَدْرَه فقيل: يا بَحْرُ هذا خَليفةُ اللهِ فى أرْضِه واللهُ أكْبَر؛ نَعَمْ :

رَأَى البَحْرُ الخِضَمُّ نَداه طَـامٍ * يَفِيضُ على الوَرَىٰ منـه بِحَارُ،
فَصَار البَحْـرُ مُلْتَطِمًا وأضْحَىٰ * على الحَـالَيْن ليس له قَـرارُ!

فلو زدتَ فى أيَّام غيره من المُلوك المُترَفين ، وفيمَنْ يُؤْثِر ٠لاذَّ نَفْسه علىٰ مصالح المُسْلمين ؛ كنتَ أيُّها المَلك بلغتَ قَصْدَك ، وفعلتَ فى أبناء مصْرِك جُهْدَك ؛ وكنتَ من الملوك الذين إذا دخلوا قَرْيةً آنتعلُوا فيها الأهِلَّه ، وأفسدوها وجَعَلوا أَعِزَّة أهْلِها أَذِلَّه ؛ لٰكن هبَّ قَبُولك إدْبارا ، ولاقتْ رِيحُك إعْصَارا ؛ فايْس لك به قِبَل ، «والسَّيْلُ أدْرىٰ بالجَبَل» ؛ فمالك سبيلٌ إلىٰ بلاده ، ولا طاقةٌ بإياب الخَيْر علىٰ عِناده ؛ فانه خَادِم الحَرَمَيْن ، والمدعوُّ له حتَّىٰ فى مَوَاقِف الحَرْب بين العَلَمَيْن ؛ حامِى السَّواحِل والثُّغور ، والمَخْدومُ بأيادى السَّحائِب وأصَابِع البُحُور ، و إن كنتَ يا أبا خالدٍ أبا جَعفرٍ فلستَ بمَنْصُور ؛ والرَّأْىُ أن تَقِفَ مُسْتَغْفِرا ، وتَقولَ مُعْتَذِرا ؛ : لم أُفْرِط بالزيادة فى أيامه ، ولم أَفِضْ علىٰ طَرَف المَيْدان إلا لِأَفُوزَ بتقبيل آثارِ جَوَادِّ خَيْله ومَوَاطِئ أقْدامه ، ونَتَّبِع نَواهِيَه ونَمْتَثِل أوَامِرَه ، ونَدْعُوَ له كالرعايا بطُول البَقَاءِ فى الدُّنيا وحُسْنِ الثواب فى الآخِرَه .

ونحنُ نسألُ الله كما بَلَّغ بك المَنَافِع ، أن يُرِينا كَوْكَبَ نَوْئِكَ عن قريبٍ راجع ؛ وكما أغْنىٰ بزيادتك عن الاسْتِسْقاء ، لايُحْوِجُنا فى نَقْصك إلىٰ الاسْتِضْحاء ، إنه سميعٌ مُجيب الدُّعاء ؛ بمَنّه وكَرَمه .

الفصل الثالث

من الباب الأول من المقالة العاشرة

(فى قدمات البندق)

جمع قدمة بكسر القاف وسكون الدال المهملة، وهى رسائل تشتمل على حال الرمى بالبندق، وأحوال الرماة، وأسماء طير الواجب، واصطلاح الرماة وشروطهم.

وهذه نسخة قدمة، كتب بها شيخنا الشيخ شمس الدين محمد بن الصائغ الحنفى الأديب رحمه الله، لصلاح الدين بن المقر المحيوى بن فضل الله، ونصها :

الحمد لله الذى سدد لصلاح الدين سهام الواجب، وشيد بنجاح المطلوب مرام الطالب، وجعل حصول الرزق الشارد بالسعى فى المناكب، وسهل الممتنع على القاصدين فما منهم إلا من رجع وهو صائب .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ولد ولا صاحب ، شهادة تزجر طير الإشراك بهذه الأشراك من كل جانب، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى قربه فكان قاب قوسين أو أدنى وهذه أعلى المراتب، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين رقوا فى العلياء لمراق لم يسم إليها طير مراقب، صلاة يسبق بها المصلى إلى بقاع شرف يشرق سناه فى المشارق والمغارب، ويرجع طائرا بالسرور ولا رجوع الطائر الشارد إلى المشارب .

وبعد، فإن الصيد من أحل الأشياء وأحلاها، وأجلها وأجلاها، وأبهرها وأبهاها، وأشهرها وأشهاها؛ وأفخرها قيمه ، وأغزرها ديمه ؛ بورود الطير فيه إلى المناهل تنشرح الصدور ، وبوقوعه فى شرور الشرك يتم السرور ؛ يحصل عند متعاطيه نشاطا ، ويزيده انبساطا ؛ ويشرح خاطره ، ويسرح ناظره ؛ ويملأ عينه قره ،

وقلبه مسرّه، يشجّع الجبان، ويثبّت الجنان، ويقوّى الشهوه، ويسوّى الخطوه، ويسوق الظّفر، ويشوق النّظر، ويروق منه الورد والصَّدر، ويفوق فيه الخُبْر على الخَبَر. قال بعض الحكماء: قلّما يغمش ناظرُ زهرةٍ، أو يزمن مُربع طريدةٍ، يعنى بذلك من أدمن الحركة فى الصَّيد ونظر إلى البساتين، فاستمتع طرفه بنضرتها، وأنيق منظرها.

ومن ذا الذى ينكر لذّة الاصطياد، والطّرب بالقنص على الإطّراد؟ ولله درّ القائل:

لولا طرادُ الصَّيد لم تكُ لذّةٌ * فتطاردى لى بالوصال قليلا.
هذا الشَّرابُ أخو الحياة وما له * من لذّةٍ حتّى يصيب عليلا!

يا حُسنه من فعل اعتلّت بالنّسيم موارده ومصادره، وفاقت أوائله فى اللّذاذة أواخره؛ ولله القائل:

إنّما الصَّيدُ همّةٌ ونشاطٌ * يُعقب الجسم صحّةً وصلاحا،
ورجاءٌ ينال فيه سرورٌ * حين يلقى إصابةً ونجاحا!

وما أطيب الاقتناص بعد الشّرود، وكيف يرى موقع الوصل بعد الصّدود:

وزادنى رغبةً فى الحبّ أن منعت * أحبّ شىءٍ إلى الإنسان ما مُنعا!

تقضى رياضات النّفوس السامية بمعاطاة كاسه، ومصافاة ناسه؛ لما فيهم من الفتوّه، وكمال المروّه، وصدق اللسان، وثبات الجنان، وطيب الأخلاق، وحفظ الميثاق، لا يعرفون غير الصّدق وإن كانوا يميلون إلى الملق، ولا يبغون بصاحبهم بديلا يعطفون عليه عطف النّسق، لا سيّما تعاطى صيد طيور الواجب، الذى سنّه الأكابر وجعلوا أمره من الواجب، وتشرّفت به هممهم العالية: تارةً إلى السّماء، وآونةً إلى مشارع الماء.

لا يَتِمُّ سرورُهم إلا برُؤيَةِ تَمّ كبَدْرِ التَّمام، ومِصْبَاحِ الظَّلام؛ يَفِرُّ من ظِلّه فِرَارا، ويُرِيكَ بَياضُ لَوْنه وسَوَادُ مِنقاره شَيْبًا ووَقارا؛ ولا يُدَاوِى هُموم لَغَبِهم مِثْلُ كُىّ، لأجْنحته الخَوافِقِ فى الخافِقَيْن نَشْرٌ وطَىّ؛ ولا تَبْتهج نُفُوسهم النَّفِيسةُ إلا بإوَزّه، يَزْدرِى دَلالُها بالكَاعِب المُعْتَزّه؛ ولا يُطرِبُ أسْماعَهم غيرُ لُغَات اللَّغْلَغَه، حين تَمتدُّ كأنها مُدامَةٌ فى الزُّجاجة مُفْرَغَه؛ ولا يُؤْنِسُهم إلا الأَنِيسَة الأَنِيسَه، والدُّرَّة النَّفِيسه؛ ولا يُذْهِب حَرَجَهم غيرُ الحُبْرُجِ الصَّادِح، المُسْتَوْقِف بحُسْنِه كلَّ غادٍ ورائِح؛ تَكادُ قُلوبهم تَطِير بالفَرَح عند رُؤْية النَّسْر الطائر، وتُجبَر خَواطِرُهم بكَسْر ذلك الكاسر؛ إذا عاينوا عِقْبانًا أعقبهم الفَرح، ونَزَح عنهم التَّرَح؛ وإن كَرَّ كُرْكِيٌّ فَرّ عنهم البُوس، ورَأَوْا علىٰ رَأْسه ذلك التَّاجَ الذى لم يَعْلُ مِثْلُه على الرُّؤُوس؛ وإن عَرَض غِرْنَوْقٌ غَرِقوا فى بِحَارِ أفكارهم، وجَدُّوا إلىٰ أن يَقَع بجَدْول أوْتارِهم؛ وإن لاح ضُوَعٌ كالذَّهب المَصُوغ، أَلْقَوْه فى الحِبَال وهو بدَمِه مَصْبُوغ؛ وإن مَرَّ مِرْزَمٌ كالخَوْدة الحَسْناء، ضَرَبوا له الآلَة الحَدْباء؛ وإن مَرَّ السَّبَيْطَر أجْنِحَتُه كالسَّحائب، جاءته المَرَامِى من كلّ جانب؛ وإن عَنَّ عَنْزٌ عَمَدوا إليه، حتّىٰ يُسْقَط فى يَدَيْه؛ قد تَعَالَوْا فى رُتَبِها، وتَغالَوْا فى وَصْفِ وَشْيِها.

وجَعلُوا كلّ آلةٍ صَنِيعَه، ورَبَّة جمالٍ مَنِيعه، وبَعِيدَة الرَّمْيِ بديعه: ـ

من كلّ قَوْسٍ هى فى العَيْن كالحاجب، أو النُّونِ التى أجادَها الكَاتِب؛ تُدَوِّر الطائرَ عند الرَّمْيِ وتُذِيبُه، وتَئِنُّ أَنِينًا أوْلىٰ به من تُصِيبُه. وبُنْدُقٍ جُبِلتْ طِينَتُه علىٰ صَوْب الصَّواب، يَسْتَنْزِل الطَّيْرَ ولو ٱسْتَتَرَ بذَيْل السحاب؛ كأنه النَّجْم الثَّاقب، والشِّهابُ الصَّائب؛ يَرَى الطَّيْرَ كالسحاب الوَاكِف، فينقَضُّ عليه انْقِضاضَ البَرْق الخَاطِف؛ ويَرْجِع النَّسْرُ من حَتْفه راتِعا، ويَغْدو بعد أن كان طَائِرًا واقِعا؛ ويَصِير بعد أن كان كاسِرًا مَكْسورا، وفى سِوَارِ القسيِّ مأسُورا؛ فهنالك يُلْقَى الغَالِبُ

وهو مَغْلوب ، والطير الوَاجِبُ وهو مَنْدُوب ؛ فحينئـذٍ تَنْشَرِحُ النفوس ، وتَطْرَبُ ولا طَرَبها بالكُؤُوس .

ولما كان بهذه المَنْزِلة العظيمه ، والمَرْتبة الجَسيمه ؛ تَعاطَتْه الملوكُ وأبناءُ المُلُوك ، ونَظَمُوا عِقْدَه بحُسْنِ السُّلوك ؛ وآرْتاضَتْ به النفوسُ الطَّاهِره ، وآعتاضَتْ به عن الكُؤُوس الدَّائِره ؛ ورَأَتْ به تَكْمِيـلَ الأدَوات ، وسامَتْ به فِعْـلَ الواجب و إنْ قيـل : إنَّ ذلك من الهَفَوات ؛ فهو تَعَبٌ تَنْشأ الراحةُ عنـه ، ولَعِبٌ لم يكن شيءٌ أشبهَ بالجِدِّ منه .

فلذلك قَصَد الجنابُ الكريمُ ، العالى ، الصَّلاحِىُّ ، صلاحُ الدُّنيا والدين ، ونجاحُ الطَّالبين ، سَليلُ الوُزَراء ، ونَجْل الكُبَرَاء ، وصَدْرُ الرؤساء ، وعَيْنُ العظماء ، آبنُ المقرّ المَحْيوىّ بن فَضْل الله ، أدام الله تعالىٰ علاه ، وكبَتَ عِداه ؛ وأعلىٰ مَعَاليَـه ، وشكر مَساعيَه ؛ وأطالَ حياتَه ، وأطاب ذَاتَه ـ أن يسلُكَ تلك المَسَالك ، ويُرِيض نَفْسَه الكريمةَ بذلك ، ويَتَحيَّلَ علىٰ تَحْصِيل اللذات بالتَّحوُّل ، عَمَلًا بقول الشاعر :

* تَنَقَّلْ فَلَذَّاتُ الهَوَىٰ فى التَّنقُّل ! *

وعَمَد إلىٰ تَحْصِـيل آلاتِه ، سائرًا كالبَـدْر فى هَالاتِه ؛ فسار مع سَرَايا كالنُّجُوم ، يتَفاكهونَ فى الحَديث بالمَنْثور والمَنْظوم ؛ ويَخْلِطون جِدَّ القول بِهَزْلِه ، كلَّما خُلِط لهم طَلُّ الجُودِ بوَبْلِه ؛ وآنْحدرُوا فى النِّيل بجَمْعِهم الصحيح ، وقَصَدُوا المَرامىَ العاليةَ ولم يَقْنَعوا من الأيام بالرِّيح ؛ وظَلُّوا يسـيرون فى تلك المَرَاكب ، التى كأنها قِطَعُ السَّحائب .

هذا وهم يَتَشَوَّفون إلى المَصَايِد ، ويُشْرِفون إلى الشَّوارِد ؛ فيَطْلُعون أحْيـانًا إلى البَرِّ مُتفرِّجين ، وبطِيبِ ذلك النسيم مُتأرِّجين :

نَسِيمٌ قد سَرىٰ فيهم بنَشْرٍ * فأذْكَرهم بمَسْراه السَّرِيَّا!
كَرَامَتُه ٱستقرّتْ حِينَ وَافَىٰ * له نَفَسٌ يُعِيدُ المَيْتَ حيًّا!

ويَجْنُون من الغُصْن الزَّاهى قدّا ، ويَجْتلُون من الوَرْدِ الزَّاهِرِ خَدّا ؛ ويتأمَّلُون ضِحكَ الأرض من بُكَاء السماء ، وشَماخَة القُضُب عند خَرِيرِ الماء ؛ لاتَذُوق أجْفانُهم طَعْمَ الكَرىٰ ، ولا يَمِيلُون عن السَّيْر ولا يَملُّون السُّرىٰ ؛ مامنهم إلا مَن إذا رَأَى الطَّيْر جائِشا ، عاد من وَقْتِه له حَائِشا ؛ بينما هم يَسِيرون مُتَفَرِّقين ، حتَّىٰ إذا لاح لهم طَيْرٌ تَدَاعَوْا إليه غير مُقَصِّرين وٱلْتَفُّوا مُحلِّقين ؛ ولم يزالوا كذلك يَنْهمون العَيْش ، بالدَّعة والطَّيْش ؛ حتَّىٰ إذا أقبل اليومُ المُبارك الثامنُ والعشرون من جمادىٰ الآخرة سنة تسع وثلاثين وسبعمائة ، وهو اليومُ الذى عَزَم فيه الجنابُ الصَّلاحِىُّ على الاصطياد ، بالبَنادِق الحِدَاد ؛ فتباشرتْ به الطُّيور ، وسَدَّت بأجْنِحَتِها الثُّغور ؛ وسَهُل عندها فيه نُزُول الرَّئيس ، فجَادتْ له بالنَّفِيس ؛ وخرجَتْ من قشْرِها ، وسَمَحتْ عند مَدِّ القَوْس بحَزِّ نَحْرِها ؛ ورَغِبَ كلٌّ منها أن يكون له بذلك أوْفَرُ القِسَم ، وتَرَجَّى أن يكونَ هو المكتوب له فى القِدَم .

ومَدّ يَدَه نحو السَّما ، فأصاب مِرْزَما ؛ فيَالَه من صَيْدٍ فاقَ به على الأكابر الصِّيد! ويَالَه من يَومٍ صار بَنَحْرِ الطَّيرِ يَوْمَ العيد! ! قام فيه بواجبِ ماشَرَعه الرُّماة من الشَّرع ، وذَكَّرنا بهذا الصَّرْع يوم ذلك الصَّرْع ؛ فلا زال سَهْمُه مسدّد الأغْراض ، وجَوْهَره مَحْمِيًّا من الأَعْراض ؛ يَجْرى بمُرادِه المَقْدُور ، ويُطِيعُه فى سائر الأمور .

وقد نظمتُ مُخَمَّسًا مشتملاً علىٰ ذِكْرِ طُيُور الواجبِ ، وطَرَّزْتُه بٱسْمِه ، لأن هذه القِدْمة قد قُدِّمتْ له وجُعِلتْ برَسْمِه ؛ غير أنى أعْتذرُ عنها ، لعَدَم مادّة عندى أسْتَمِدُّ منها :

جَلِّ كُؤوسًا عُطِّلتْ بالرَّاحِ، * ولا تُطِعْ فيها كَلَامَ لَاحِى،
وٱشْرَبْ هَنيئًا وٱسْقِنِي ياصَاحِ، * وٱذْكُرْ زَمانًا مرَّ بالأفْرَاحِ،
* هَبَّتْ به فيما مَضَى رِيَاحِى! *
أيامَ كنتُ أصْحَبُ الأكَابِرَا، * وأَغْتَدِى مع الرُّماةِ سَائرا،
ولا أزَالُ بالغِيار غَائِرا، * إذا رأيتُ فى المِيَاهِ طَائِرا،
* نَحَوْتُه من سَائرِ النَّواحِى! *
فتارةً كنتُ أصِيدُ النَّسْرا * وبَعْده العُقَاب يَحْكِى الجَمْرَا
والكُىَّ والكُرْكِىَّ صِدْتُ جَهْرا * وصِدْتُ غِرْنَوْقًا وعَنْزًا قَهْرا
* وكُنْتُ بالإوَزِّ فى ٱنْشِرَاحِ! *
وتَارةً تِمًّا كَبَدْرِ التِّمِّ * تَتْبَعُه أُنَيْسَةٌ كالنَّجْمِ،
ولَغْلَغٌ أسْوَدُ مِسْكُ الهَمِّ، * وحُبْرُجٌ عن الرُّماةِ مَحْمِى،
* والضُّوعُ مع سَبَيْطَرٍ(١) سَيَّاحِ! *
وكَمْ وكَمْ قد صِدْتُ يومًا مِرْزَمًا * أنْزلْتُه بالقَوْسِ من جَوِّ السَّما،
جَنَاحُه يَحْكِى طِرَازًا مُعْلَمًا * علَى بياضِ شِيَةٍ شِبْهِ الدُّما،
* كأنَّه لَيْلٌ علَى صَبَاحِ! *
حَيْثُ الصَّبا تُشْفَعُ بالقَبُولِ، * وشَمْلُنَا يُجْمَعُ بالشَّمُولِ،
فى مَجْلِسٍ ليس به فُضُولِى، * وجاءَنا التَّوْقِيع فى الوُصُول:
* فَسَادُكُمْ يُغفَرُ بالصَّلَاحِ! *

(١) ورد فى (ص ٦٧ ج ٢) من هذا الكتاب: بالشين المعجمة مضمومة.

السَّيِّدِ الفائقِ فى أفْعالِه، * والمُزْدَرِى بالبَدْرِ فى كَمالِه،
والمُشْتَرِى حُسْنَ الثَّنا بمالِه، * لا أحدٌ يَحْكيه فى نَوالِه:
* إلا أَخُوه مَعْدِنُ السَّماحِ! *
مَنْ سادَ فى الدُّنيا على الكُتَّابِ، * وصَانَ سِرَّ المُلْكِ فى حِجابِ،
عَلِيٌّ العَالِى على السَّحَابِ، * البَاذِلِ المَالَ بلا حِسَابِ! [(١)]

زاده الله نِعَما، وأجْرىٰ له فى النَّدىٰ يَدا وثَبَّت له فى العُلىٰ قَدَما؛ بمَنِّه وكَرَمه.

وهذه نسخةُ رسالةٍ فى صَيْد البُنْدقِ، من إنشاء الشَّيخ شهاب الدِّين أبى الثَّناء محمودِ بن سلمانَ الحَلَبِىِّ رحمه الله، وهى:

الرِّياضَةُ - أطالَ اللهُ بقاءَ الجَناب الفُلانىِّ، وجعل حُبَّه كقَلْب عَدُوِّه واجِبا، وسَعْدَه كوَصْفِ عَبْده للسارّ جَالِبا، وللمَضارّ حاجِبا - تَبْعثُ النفسَ علىٰ مُجانَبَة الدَّعة والسُّكون، وتَصُونُها عن مُشابَهَة الحَمائِم فى الرُّكُون إلى الوُكُون؛ وتَحُضُّها علىٰ أخْذ حَظِّها من كلِّ فَنٍّ حَسَن، وتَحُثُّها علىٰ إضافَةِ الأدوات الكامِلَةِ إلىٰ فَصاحَةِ اللَّسَن؛ وتأخذُ بها طَوْرًا فى الجِدِّ وطورًا فى اللَّعِب، وتَصْرِفُها من مَلاذِّ السُّموِّ فى المَشاقِّ التى يَسْتروحُ إليها التَّعب. فتارةً تَحْمِلُ الأكابرَ والعُظَماءَ فى طَلَب الصَّيْد علىٰ مُواصَلَةِ السُّرىٰ، ومُقاطَعَةِ الكَرىٰ؛ ومُهاجَرة الأوْطار، ومُهاجَمَة الأخْطار؛ ومُكابَدَة الهَواجر، ومُبادَرَة الأوَابد التى لا تُدْرَكُ حتى تَبْلُغَ القلوبُ الحَناجر؛ وذلك من مَحاسن أوصافِهم التى يُذَمُّ المُعْرِضُ عنها؛ وإذا كان المقصودُ من مَيْلِهم جِدَّ الحَرْب فهذه صُورةُ لَعِبٍ يُخْرَجُ إليها منها. وتارةً يدعوهم إلى البُرُوزِ إلى المَلَق، ويَحْدُوهم فى سُلوكِ طريقها مع مَنْ هو دونهم

(١) سقطت الشطرة الخامسة من قلم الناسخ.

علىٰ مُلازَمةِ الصِّدْق ومُجانَبَـةِ المَلَق؛ فيَعْتَسِفُون إليها الدُّجىٰ، إذا سَجى؛ ويَقْتَحِمون في بلوغها حرق النَّهار، إذا آنْهار؛ ويَتَنَعَّمون بوَعْثاءِ السَّـفر، في بُلُوغ الظَّفَر؛ ويَسْتَصْغِرُون رُكوبَ الخَطَر، في إدراك الوَطَر؛ ويُؤْثِرونَ السَّهَر على النَّوْم، واللَّيلةَ على اليَوْم؛ والبُنْدقَ على السِّهام، والوَحْدَة على الآلْتِئام .

ولمَّا عُدْنا من الصَّيْد الذى آتَّصل به حَدِيثُه، وشُرِحَ له قَدِيمُ أمْرِه وحَدِيثُه؛ تُقْنا إلىٰ أن نَشْفَع صَيْد السوانح، بِرَمْيِ الصَّوادِح؛ وأن نَفْعلَ في الطَّيرِ الجَوانِح، بأَهِلَّة القِسِيِّ ما تَفعل الجَوَارِح؛ تَفْضِيلًا لملازمة الآرتحال، على الإقامة في الرِّحال؛ وأخْذًا بقولهم :

لا يُصْلِحُ النَّفْسَ إذ كانت مُدَبِّرَةً * إلَّا التَّنَقُّلُ من حالٍ إلىٰ حَالِ !

فبرزنا وشَمْسُ الأصِيلِ تَجُود بنَفْسِها، وتَسِيرُ من الأُفُقِ الغَرْبِيِّ إلىٰ مَوْضع رَمْسِها؛ وتُغَازِلُ عيونَ النَّور بمُقْلةِ أرْمَد، وتنظُر إلىٰ صَفَحاتِ الوَرْدِ نَظَر المَرِيض إلىٰ وُجُوه العُوَّد؛ فكأنها كَئِيبٌ أضْحىٰ من الفِراق علىٰ فَرَق، أو عَلِيلٌ يقضي بين صَحْبه بقايا مُدَّة الرَّمَق ؛ وقد آخْضلّت عيونُ النَّوْرِ لوَدَاعِها ، وهَمَّ الرَّوْضُ بخَلْع حُلَّتـهِ المُوَهَة بذَهَب شُـعَاعِها :

والطَّلُّ في أعْيُنِ النُّوَّارِ تَحْسَبُه * دَمْعًا تَحَيَّرَ لم يَرْقَأْ ولم يَكِفِ:
كلُؤْلُؤٍ ظَـلَّ عَطْفُ الغُصْنِ مُتَّشِحًا * بعِقْدِه وتَبَـدَّىٰ منـه في شَـنَفِ.
يُضَمُّ من سُنْدُسِ الأوْراق في صُرَرٍ * خُضْرٍ ويُجْنَىٰ من الأزهار في صَدَفِ!
والشَّمْسُ في طَفَلِ الإمْسَاءِ تَنْظُرُ من * طَرْفٍ غَدَا وهو من خَوْفِ الفِرَاقِ خَفِي:
كعَاشِقٍ سَارَ عن أحْبابه وهَفَا * به الهَوَىٰ فتَرَاآهُـمْ علىٰ شَرَفِ.

إلىٰ أن نَضَى المَغْرِبُ عن الأُفُقِ حَلْيَ قَلائِدِها، وعَوَّضه عنها من النُّجومِ بخَـدَمِها ووَلائِدِها؛ فلَبِثْنا بعـد أداء الفَرْض لَبْثَ الأَهِلَّه، ومَنَعنا جُفُونَنا أن تَردَ النَّوم

إلا تجلّه؛ ونهضنا وبُرْد الليل مُوَشَّع، وعِقْدُه مُرَصَّع، وإكليلُه مُجَوْهَر، وأديمه مُعَنْبَر، وبَدْرُه فى خِدْر سِرارِه مُسْتَكِن، وبَحْرُه فى حَشَا مَطالِعه مُسْتَجِن، كأن آمتزاج لَوْنه بشَفَق الكواكب خَليطًا مِسْك وصَنْدَل، وكأنَّ ثُرَيَّاه لآمتداده مُعَلَّقَةٌ بأَمْراسِ كَتَّانٍ إلىٰ صُمِّ جَنْدَل :

وَلَاحَتْ نُجومُ اللَّيلِ زُهْرًا كأنَّها * عُقُودٌ علىٰ خَوْدٍ من الزَّنْج تُنْظَمُ،
مُحَلِّقَةً فى الجَوِّ تُحْسَبُ أنَّها * [طُيُورٌ] علىٰ نَهْرِ المَجَرَّةِ حُوَّمُ
إذَا لاحَ بَازِى الصُّبْحِ وَلَّتْ يَؤُمُّها * إلى الغَرْبِ خَوْفًا منه نَسْرٌ ومِرْزَمُ!

إلىٰ حَدائِقَ مُلْتَفَّه، وجَداوِلَ مُحْتَفَّه، إذا خَمَش النَّسيمُ غُصُونَها آعْتَنَقَتْ آعْتِناقَ الأحْباب، وإذا فَرَكَ مَرُّ المياه مُتُونَها آنْسابَتْ فى الجَداوِل آنْسِيابَ الحُبَاب، ورَقَصتْ فى المَنَاهِل رَقْصَ الحِبَاب، وإنْ لَثَمَ ثُغُورَ نَوْرِها حَيَّتْه بأنفاس المَعْشُوق، وإنْ أيقظ نَواعِسَ وُرْقِها غَنَّتْه بألحانِ المَشُوق، فنَسِيمُها وَان، وشَمِيمُها لعَرْف الجِنانِ عُنْوان، ووُرُودُها من سَهَر نَرْجِسها غَيْرَان :

وطَلُّها فى خُدُود الوَرْدِ مُنْبَعِثٌ * طَوْرًا وفى طُرَرِ الرَّيْحانِ حَيْرانُ!

وطَائِرُها غَرِد، ومَاؤُها مُطَّرِد، وغُصْنُها تَارةً يَعْطِفُه النَّسيمُ إليه فيَنْعَطِف، وتارةً يُعَلَّل تَحْت وَرَقَاتِه فتُحْسَبُ أنها هَمْزَةٌ علىٰ أَلِف، مع ما فى تلك الرياض من تَوافُقِ المَحاسن وتَبايُنِ التَّرْتِيب، إذ كلَّما آعتلَّ النَّسيمُ صَحَّ الأَرَجُ وكلَّما خَرَّ الماءُ شَمَخَ القَضِيب :

فَكَأَنَّما تلك الغُصُونُ إذا ثَنَتْ * أعْطَافَها رِيحُ الصَّبا أَحْبابُ:
فلَها إذا آفْتَرَقَتْ من آسْتِعْطافِها * صُلْحٌ ومن سَجْعِ الحَمَامِ عِتَابُ.
وكَأَنَّها حَوْلَ العُيُون مَوائِسًا * شَرْبٌ وهَاتِيكَ المِيَاهُ شَرَابُ!
فغَدِيرُها كَأْسٌ وعَذْبُ نِطَافِها * رَاحٌ وأَضْوَاءُ النُّجُومِ حُبَابُ!

يحيط بملَقِي نِطاقُها صَاف، وظِلَال دَوْحِها ضَاف، وحَصَاها لصفَاءِ مائِها فى نفْسِ الأمْرِ راكِدٌ وفى رَأْي العيْن طَاف؛ إذا دَغْدَغَها النَّسيمُ حَسِبْتَ ماءَها بتَمايُل الظِّلال فيه يتَبَرَّجُ ويَمِيل، وإذا اطَّردتْ عليه أنفَاسُ الصَّبا ظننتَ أفْياءَ تلك الغُصونِ تارةً تَمَوَّجُ وتارةً تَسيل:

فكأنه مُحِبٌّ هَامَ بالغُصون هوًى فمثَّلَها فى قَلْبِه، وكأنَّ النسيمَ كَلِفٌ بها غارَ من دُنُوِّها إليه فميلها عن قُرْبه:

والنَّـوْرُ مِثْـلُ عَرائِس * لُفَّتْ عَلَيهنَّ المُـلاءُ،
شَمَّرْنَ فَضْـلَ الأُزْرِ عن * سُـوقٍ خَلاخِلُهُنَّ مَاءُ،
والنَّهْـرُ كالمِـرْآةِ تَنْـ * ـظُرُ وَجْهَهَا فيه السَّماءُ!!!

وكأن صَوافَّ الطُّيور المُتَّسِقة بتلك الأرْضِ خِيام، أو ظِباءٌ بأعْلىٰ الرَّقْمَتيْنِ قِيام، أو أبَارِيقُ فِضَّةٍ رُؤُوسها لها أقْدام، ومنَاقيرُها المحْمَرَّة أوائلُ ما انْسَكَبَ من المُدَام؛ وكأنَّ رِقَابَها رِماحٌ أسِنَّتُها من ذَهَب، أو شُموعٌ أسْوَدُ رُؤُوسِها ما انْطَفَىٰ وأحْمَرُه ما الْتَهَب؛ وكُنَّا كالطَّيْرِ الجَليل عِدَّه، وكطِرَازِ العُمْر الأوّل جِدَّه:

مِنْ كُلِّ أبْلجَ كالنَّسِـيمِ لَطَافَةً * عَفِّ الضَّـمِير مُهَذَّبِ الأَخْلَاقِ،
مِثْـلَ البُـدُورِ مَلَاحةً، وكَعُمْرِها * عَدَدًا، ومِثْلَ الشَّمْسِ فى الإشْرَاق!

ومعهم قِسِيٌّ كالغُصون فى لطافَتِها ولِينِها، والأَهِلَّةِ فى نَحافَتِها وتَكْوِينِها، والأزَاهِرِ فى تَرَاقِيها وتلْوِينِها؛ بُطُونُها مُدَبَّجَه، ومُتُونها مُدَرَّجه؛ كأنها كواكبُ الشَّوْلَةِ فى انْعِطافها، أو أرْواقُ الظِّباء فى الْتِفَافِها؛ لأَوْتارِها عنـد القَوادِمِ أوْتار، ولبَنادِقِها الحَواصِـلَ أوْكار؛ إذا انْتُضِيَتْ لصَيْدٍ ذَهَب من الحَيَاةِ نَصيبُه، وإن انْتَصَتْ لِرَمْيٍ بَدَا لها أنها أحقُّ به ممن يُصيبُه؛ ولعـلَّ ذاكَ الصَّوْتَ زَجْرٌ لبُنْدُقِها أن يُبْطِئَ فى سَيْرِه،

أو يتخطّى الغَـرَض إلىٰ غيره ، أو وَحْشَـةٌ لمُفارَقة أفْلاذ كَبِـدها ، أو أَسَـفٌ علىٰ خروج بَنِيهـا من يَدِها ، علىٰ أنها طالمَـا نبذت بَنِيها بالعَـراء ، وشَفَعتْ لخَصْـمِها التَّحْذِيرَ بالإغْراء :

مِثْــلَ العَقارِبِ أذْنابًا مُعَـقَّدَةً * لمن تأمَّلها أو حقَّقَ النَّظَرا !

إنْ مَـدَّها قَمَـرٌ منهــم وعَايَنَه * مُسافِرُ الطَّيْرِ فيها أو نوىٰ سَفَرا ،

فهو المُسِيءُ ٱخْتِيارًا إذْ نوىٰ سفَرًا * وقَدْ رأىٰ طالِعًا فى العَقْرَبِ القَمَرا !

ومن البَنادِقِ كُراتٌ مُتَّفِقَةُ السَّرْد ، مُتَّحِدَةُ العَكْس والطَّرْد ، كأنمـا خُرِطَتْ من المَنْدلِ الرَّطْب أو عُجِنَتْ من العَنبَرِ الوَرْد ، تَسْرى كالشُّهُب فى الظلام ، وتَسْبِقُ إلىٰ مَقاتِلِ الطَّيْر مُسَدَّداتِ السِّهام :

مِثْل النُّجومِ إذا ماسِرْنَ فى أُفُقٍ * عَن الأَهِـلَّة لكن نُونُهـا راءُ .

مافاتَها من نُجُومِ اللَّيلِ إن رُمِقَتْ * إلا ثَبـاتٌ يُرىٰ فيها وأَضْواءُ ،

تَسْرى ولا يَشْعُرُ اللَّيلُ البَهِيمُ بها * كأنَّهـا فى جُفُونِ اللَّيلِ إغْفاءُ ،

وتَسْـمَعُ الطَّيْرَ إذ تَهْفُو قَوادِمُه * خَوافِقًا فى الدَّياجِى وهى صَمَّـاءُ ! ! !

يَصُونها جِراوَةٌ كأنَّها دُرْج دُرَر ، أو دُرْجُ غُرَر ، أو كِمامَةُ ثَمَر ، أو كِنَانَةُ نَبْــل ، أو غَمامة وَبْل ، حالِكَةُ الأَديم ، كأنَّمـا رُقِمَتْ بالشَّفَقِ حُلَّةُ لَيْلها البَهِيم :

كأنَّهـا فى وَضْـعِها مَشْرِقٌ * تَنْبَثُّ منه فى الدُّجى الأَنْجُمُ ،

أو دِيمَةٌ قد أطْلَعتْ قَوْسَها * مُلَوَّنًا وٱنْبَثَقَتْ تَسْــجُمُ !

فاتَّخذ كلٌّ له مَرْكَزًا ، وتقَضَّى من الإصابة وَعْدًا مُنْجَزا ، وضَمِنَ له السَّعْدُ أن يُصْبِحَ لمراده مُحْرِزا :

كَأَنَّهُمْ فى يُمْنِ أفعالِهِم * فى نَظَرِ المُنْصِفِ والجَاحِدِ:

قَدْ وُلِدوا فى طَالِعٍ وَاحِدٍ، * وأَشْرقُوا من مَطْلَعٍ وَاحِدِ!

فسَرتْ علينا من الطَّيْرِ عصابَه، أظَلَّتنا من أجْنِحَتِها سحَابَه؛ من كلِّ طائرٍ أقْلَعَ يرْتادُ مَرْتعا، فوجدَ ولٰكنْ مَصْرعا، وأَسَفَّ يبْتغى ماءً جَمًّا فوجدَ ولٰكنّ السُّمَّ مُنْقَعا، وحَلَّق فى الفَضاءِ يبْغى مَلْعباً فباتَ هو وأشْياعُه سُجَّدًا لمَحَاريب القِسِىِّ ورُكَّعا؛ فتبَرَّكْنا بذلك الوَجْه الجميل، وتَدارَكْنا أوائِلَ ذلك القَبِيل .

فاستقبلَ أوَّلُنا تَمامَ بَدْرِه، وعَظمِ فى نَوْعِه وقَدْرِه؛ كأنه بَرْقٌ كَرَعَ فى غَسَق، أو صُبْحٌ عَطَف علىٰ بَقِيَّة الدُّجىٰ عَطْفَ النَّسَق؛ تَحْسبه فى أسْدَافِ المنىٰ غُرَّةَ نُجْح، وتَخالُه تحتَ أذيالِ الدُّجىٰ طُرَّةَ صُبْح؛ عليـه من البياض حُلَّة وَقَار، وله كدُهْنِ عَنْبرٍ فوق مِنْقارٍ من قَار، له عُنُق ظَلِيم، والْتِفاتَةَ رِيم، وسُرىٰ غَيْمٍ يُصرِّفُه نَسِيم :

كَلَوْنِ المَشِيبِ، وعَصْرِ الشَّبابِ، * ووَقْتِ الوِصَالِ، ويَوْمِ الظَّفَر!

كأنَّ الدُّجىٰ غَارَ من لَـوْنِه * فأَمْسَـكَ مِنْقَارَهُ ثم فَـرّ!

فأرسل إليه عن الهلال نَجْما، فسقط منه ما كَبُر بمـا صَغُر حَجْما؛ فاستبشر بنَجَاحه، وكَبَّر عند صِياحِه، وحَصَّلَه من وَسَط المـاءِ بجَنَاحه .

وتلاه كُلُّ نقِيُّ اللِّباس، مُشْتَعِلُ شَيْبِ الرَّأس، كأنَّه فى عَرَانين شَيْبِه لا وَبْله كبيرُ أُنَاس؛ إن أَسَـفَّ فى طَيَرانِه فغَمام، وإن خَفَق بجَناحِه فقِلْعٌ له بيَدِ النَّسِيم زِمَام؛ ذو عَيْبَةٍ كالجِرَاب، ومِنْقَارٍ كالحِرَاب، ولَوْنٍ يَغُرُّ فى الدُّجىٰ كالنَّجْم ويَخْدَع فى الضُّحَىٰ كالسَّراب؛ ظَاهِرِ الهَرَم، كأنما يُخْبر عن عَادٍ ويُحَدِّثُ عن إرَم :

إن عَامَ فى زُرْقِ الغَدِيرِ حَسِبْتَه * مُبْيَضَّ غَيْمٍ فى أَدِيمِ سَمَاءٍ،

أوطَـارَ فى أُفُـقِ السَّماءِ ظَنَنْتَه * فى الجَوِّ شَيْخًا عائِمًا فى مَاءٍ،

مُتَناقِضُ الأوْصافِ فيه خِفّةُ الْـ * ـجُهّالِ تحت رَزانَةِ العُلَماءِ!

فَثَنى الثانى إليه عِنانَ بُنْدُقِه، وتوخّاه فيما بين رأسه وعُنُقِه، فخرّ كمارِدٍ انقضّ عليه نَجْمٌ من أُفُقِه؛ فتلقّاه الكَبير بالتّكبير، واختطفه قبل مصافحة الماء من وَجْهِ الغَدير.

وقارنَتْه إوَزّةٌ حلْباء دَكْناء، ومُلّتُها حَسْناء، لها فى الفَضاء مَجال، وعلى طَيَرانها خِفّةُ ذَوات التّبرّج وخَفَرُ رَبّاتِ الحِجال؛ كأنّما عَبّتْ فى ذَهَب، أو خاضَتْ فى لَهَب؛ تختالُ فى مِشْيتِها كالكاعِب، وتتأنّى فى خَطْوِها كاللّاعِب؛ وتعطِف بجيدها كالظّبْيِ الغَرير، وتتدافعُ فى سيْرها مَشْيَ القَطاةِ إلى الغَدير:

إذا أقْبلَتْ تَمْشي فخَطْرَةُ كاعِبٍ * رَداحٍ، وإن صاحَتْ فصَوْلَةُ حازِمٍ،

وإن أقْلَعَتْ قالتْ لها الرّيحُ: ليتَ لي * خَفَا ذى الخَوافِى أو قُوَى ذى القَوادِمِ.

فأنعِمْ بها فى البُعْدِ زادُ مُسافِرٍ، * وأحْسِنْ بها فى القُرْبِ تُحْفَةُ قادِمِ!

فلَوى الثالثُ جِيدَه إليها، وعَطَف بوجْهِ إقباله عليها؛ فلجّتْ فى ترَفّعها مُمْعِنَه، ثم نزلت على حُكْمِه مُذْعِنَه؛ فأعجلها عن استكمال الهُبُوط، واستولى عليها بعد استمرار القُنُوط.

وحاذَتْها لَغْلَغةٌ تَحْكِي لَوْنَ وَشْيِها، وتَصِفُ حُسْنَ مَشْيِها؛ وتُرْبِي عليها بغُرّتِها، وتُنافِسها فى المحاسن كضَرّتِها؛ كأنها مُدامةٌ قُطِبتْ بمائها، أو غمامةٌ شَفّتْ عن بعض نُجُوم سَمائها:

بغُرّةٍ بَيْضاءَ مَيْمُونَةٍ * تُشْرِقُ فى اللّيل كبَدْرِ التّمامْ!

وإن تبدّتْ فى الضُّحى خِلْتَها * فى الحُلّةِ الدّكْناء بَرْقَ الغَمامْ!

فنَهَض الرابعُ لاستقبالها، ورَماها عن فَلَك سَعْده بنَجْم وَبالِها؛ فجدّت فى العُلُوّ مُبْتَدَه، وتَطارَدتْ أمام بُنْدُقِه ولولا طِرادُ الصَّيْد لم تكُ لَذّه؛ وانقضّ عليها من يده

شِهابُ حَتْفِها، وأدركها الأجَلُ لخِفَّة طَيَرانها من خَلْفِها؛ فوقعتْ من الأُفُقِ فى كَفِّه، ونَفَر مافى بقايا صَفِّها عن صَفِّه .

واتَتْ فى إثْرِها أَنيسةٌ آنِسَه، كأنّها العَذْراءُ العَانِسَه، أو الأَدْماء الكَانِسَه؛ عليها خَفَر الأبكار، وخِفَّةُ ذَوَاتِ الأَوْكار، وحَلَاوةُ المَعَانى التى تُجْلىٰ على الأفكار؛ ولها أُنْسُ الرَّبِيب، وإدْلَال الحَبِيب، وتَلَفُّتُ الزائر المُرِيب من خَوْف الرَّقِيب؛ ذَاتُ عُنُقٍ كالإبريق، أو الغُصْنِ الوَرِيق، قَدْ جمعَ صُفْرة البَهارِ إلىٰ حُمْرة الشَّقِيق؛ وصَدْرٍ بَهِىِّ الملبوس، شَهِىٍّ إلى النفوس، كأنّما رُقِم فيه النهارُ باللَّيلِ أو نُقِش فيه العَاجُ بالآبَنُوس؛ وجَناحٍ يُنْجيها من العَطَب، يحكى لونُها المَنْدَلَ الرَّطْب لولا أنه حَطَب :

مُدَبَّجَــةُ الصَّــدْرِ تَفْوِيفُـــهُ * أَضَاف إلى اللَّيْلِ ضَوْءَ النَّهارِ!
لهـا عُنُــقٌ خَالَه من رَآه * شَــقَائِقَ قد سُيِّجَتْ بالبَهارِ!

فوثَبَ الخَامِسُ منها إلى الغَنِيمه، ونظم فى سِلْكِ رَمْيِه تلك الدُّرَّةَ اليَتِيمه، وحصَلَ تَحْصِيلَها بين الرُّماة على الرُّتْبة الجَسِيمه .

وأَتَىٰ علىٰ صَوْتِها حُبْرُجٌ تَسْبِق هِمَّتُه جَنَاحَه، ويَغْلِب خَفْقُ قَوَادِمِه صِياحَه؛ مُدَبَّجُ المطا، كأنّما خَلَع حُلَّةَ مَنْكِبَيْه على القطَا؛ يَنْظُرُ من لَهَب، ويَخْطُو علىٰ رِجْلَين من ذَهَب:

يَزُور الرِّياضَ، ويَجْفُو الحِياض * ويُشْبِه فى اللَّوْنِ كُدْرَ القَطا،
ويَغْوِى الزُّرُوعَ ويَلْهُو بهـا، * ولا يَرِدُ المـاءَ إلا خَطَـا!

فبَدَره السادسُ قبل ٱرتفاعِه، وأعانَ قَوْسَــه بامْتِداد بَاعِه، فخرَّ على الأَلَاءِ كبِسْطَامِ ٱبْنِ قَيْسٍ[1]، وٱنْقَضَّ عليه رَامِيه فحمله بحِذْقٍ وحمله بكَيْس .

(١) يشير الى قول الشاعر فى بسطام :
فَخَرَّ على الألَاءَةِ لم يُوَسَّـدْ * كأنّ جبينه سَيْفٌ صقيلُ :
الألاء، بوزن العلاء، شجرٌ والألاءة أخص منه .

وتعذّر على السّابع مَرامُه، ونبَا عن بُلُوغ الأرَب مَقامُه؛ فصَعِد هو وتِرْبٌ له إلىٰ جَبَل، وثَبَت فى موْقفه مَن لم يكن له بمرافقتهما قبلَ .

فعنّ له نَسْرٌ ذو قوائمَ شِداد، ومَناسِرَ حِدَاد . كأنّه من نُسُور لُقْمانَ بنِ عَاد؛ تحسبه فى السماء ثَالِثَ أخَوَيْه، وتخالُه فى الفَضَاء قُبَّتَـه المنسوبةَ إليه؛ قد حلَق كالفُقَراء راسَـه، وجعل ممـا قَصَّر من الدُّلُوقِ الدُّكْنِ لِباسَـه؛ وٱشتمَلَ من الرِّياش العَسَـلِيِّ إِزَارا، وأَلِفَ العُزْلَةَ فلا تَجِدُ له إلا فى قُنَن الجبال الشَّواهِقِ مَزَارا؛ قد شابتْ نَواصى اللَّيل وهو لم يَشِب، ومَضَت الدُّهورُ وهو من الحَوَادثِ فى مَعْقِل أَشِب :

مَلِيكُ طُيُورِ الأرضِ شَرْقًا ومَغْرِبًا * وفى الأُفُقِ الأَعْلىٰ له أخَوَانِ!

له حَالُ فَتَّـاكٍ، وحِلْيَةُ نَاسِكٍ، * وإسْراعُ مِقْدَامٍ، وفَتْرَةُ وَانِ!

فدَنَا من مَطَاره، وتَوَخّىٰ بِبُنْدقه عُنُقَه فوقع فى مِنْقاره؛ فكأنّمـا هَدّ منه صَخْرا، أو هَدَم به بِناءً مُشْمَخِرّا؛ ونظَر إلىٰ رَفِيقِه، مُبَشِّرًا له بمـا ٱمتاز به عن فَرِيقِه .

وإذا به قد أظلته عُقابٌ كاسر، كأنّمـا أضَلَّتْ صَـيْدًا أفلتَ من المَنَاسِر؛ إن حَطَّت فسَـحابٌ ٱنكشف، وإن أقامَتْ فكأنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًـا ويابِسًا لَدىٰ وكْرِهَا العُنَّابُ والحَشَف، بَعِيدةُ مابين المَنَاكِب :

إذا أقْلعتْ بَجَّتْ عُـلُوًّا كأنَّمـا * تُحَاوِلُ ثأْرًا عندبَعْضِ الكَوَاكِبِ!

يُرَى الطَّـيْرُ والوَحْشُ فى كَفِّها * ومِنْقارِهـا ذَا عِظَـامٍ مُزَالَه .

فلَوْ أمْكَنَ الشَّـمْسَ من خَوْفِها * إذا طَلَعتْ ماتَسَمَّتْ غَـزَالَه!

فوثب إليها الثامنُ وَثْبة لَيْث قد وَثِق من حَرَكاته بنَجاحها، ورماها بأوّلِ بُنْدقةٍ فمـا أخطأَ قادمَةَ جَناحها؛ فأَهْوَتْ كعَوْدٍ صُرِع، أو طَوْدٍ صُـدِع؛ قد ذَهَب بَاسُها،

وتَذَهَّب بدَمِها لِباسُها، وكَذَلك القَدَرُ يُخادِعُ الجَوَّ عن عُقابِه، ويَسْتَنْزِلُ الأعْصم من عِقَابِه؛ فحملها بجَناحِها المَهِيض، ورَفَعها بعد التَّرَفُّع فى أَوْجِ جَوِّها من الحَضيض، ونزَلَ إلىٰ الرُّفْقه، جَذِلًا برِبْحِ الصَّفْقَه .

فوجد التَّاسِعَ قد مرَّ به كُرْكِيٌّ طويل الشِّفَار، سَرِيعُ النِّفار، شَهِيُّ الفِراق، كَثِيرُ الاغتراب يَشْتُو بمِصْرَ ويَصِيفُ بالعِراق؛ لقَوَادمه فى الجَوِّ حَفِيف، ولأَدِيمه لَوْنُ سَماءٍ طَرَأَ عليها غَيْمٌ خفيف؛ تَحِنُّ إلىٰ صَوْته الجَوارِح، وتَعْجب من قُوَّته الرِّياح البَوَارِح؛ له أَثَرُ حُمْرةٍ فى رَأْسِه كوَمِيض جَمْرٍ تَحْت رَماد، أو بَقِيَّة جُرْحٍ تحت ضِماد، أو فَصِّ عَقِيقٍ سَفَت عنه بَقَايا ثِمَاد؛ ذُو مِنْقارٍ كسِنَان، وعُنُقٍ كعِنَان؛ كأنَّما يَنُوس، علىٰ عُودَيْن من آبَنُوس :

إذا بَدَا فى أُفُقٍ مُقْلِعًا * والجَوُّ كالماءِ تَفاوِيفُهُ :
حَسِبْتَه فى لُجَّةٍ مَرْكَبًا * رِجْلاه فى الأُفْق مَجادِيفُهُ!

فصَبَر له حتَّىٰ جازه مُجَلِّيا، وعَطَف عليه مُصَلِّيا؛ فخرَّ مُضَرَّجًا بدَمِه، وسَقَط مُشْرِفًا علىٰ عَدَمه؛ وطالَما أفْلت لَدَى الكَوَاسِر من أظْفَارِ المَنُون، وأصابه القَدَرُ بحَبَّةٍ من حَمَإٍ مَسْنُون؛ فكَثُر التكبيرُ من أجْلِه، وحَمَله علىٰ وَجْهِ الماء برِجْلِه .

وحاذاه غِرْنَوْقٌ حكاه فى زِيِّه وقَدْرِه، وٱمتاز عنه بسَوَادِ رَأْسِه وصَدْرِه؛ له رِيشَتَان مَمْدُودتان من رَأْسِه إلىٰ خَلْفِه، معقودتان من أُذُنَيْه مكان شَنْفِه :

له من الكُرْكِيِّ أوْصَافُهُ * سِوَىٰ سَوَادِ الصَّدْرِ والرَّاسِ.
إن شَالَ رِجْلا وٱنْبَرَىٰ قَائِمًا * أَلْفَيْتَه هَيْئَةَ بِرْجَاسِ!

فأصْغى العاشرُ له مُنْصِتا، ورَماه مُتَلَفِّتا؛ فخرَّ كأنَّه صَرِيعُ الأَلْحان، أو نَزِيفُ بِنْت الحَان؛ فأهوىٰ إلىٰ رِجْله بيَدِه، وٱنقضَّ عليه ٱنقضاضَ الكَاسِر علىٰ صَيْدِه .

وتبعه فى المَطار ضُوع[(١)]، كأنَّه من النُّضار مَصْنُوع؛ تَحْسَبه عاشِقًا قد مَدَّ صَفْحَته، أو بارِقًا قد بَثَّ لَفْحَتَه :

طَوِيلَةٌ رِجْلاهُ مُسْوَدَّةٌ * كأنَّما مِنْقارُهُ خَنْجَرُ:
مِثْلُ عَجُوزٍ رَأْسُها أَشْمَط * جاءَت وفِى رَقَبَتِها مِعْجَرُ!

فاستقبله الحادِى عَشَر ووَثَب، ورماه حِينَ حاذاه من كَثَب؛ فسقط كفارِسٍ تَقَطَّر عن جَوَادِه، أو وامِقٍ أُصِيبَتْ حَبَّةُ فُؤادِه؛ فحَمَلَه بساقِه، وعَدَل به إلىٰ رِفاقِه .

واقترن به مِرْزَمٌ له فى السماء سَمِىٌّ معروف، ذُو مِنْقارٍ كصُدْغٍ مَعْطوف؛ كأن رِياشَه فَلَقٌ اتَّصَل به شَفَق، أو مَاءٌ صافٍ عَلِق بأطرافه عَلَق :

له جِسْمٌ من الثَّلْج * علىٰ رِجْلينِ من نارِ:
إذا أَقْلَعَ لَيْلًا قُلْـ * ـتَ بَرْقٌ فى الدُّجىٰ سارِى!

فانتحاه الثانى عشر مُيَمِّمًا، ورماه مُصَمِّمًا؛ فأصابه فى زَوْرِه، وحَصَّله من فَوْرِه، وحصل له من السُّرور ما خرج به عن طَوْرِه .

والتحق به سَبَيْطَر، كأنه مِذَبَّةٌ مُبَيْطِر، يَنْحَطُّ كالسَّيْل، ويَكُرُّ على الكَواسر كالخَيْل، ويجمع من لَوْنَيْه بين ضِدَّيْن يُقْبِلُ منهما بالنَّهار ويُدْبِر باللَّيل؛ يتَلَوَّىٰ فى مِنْقاره الأَيْم، تَلَوِّىَ التِّنِّين فى الغَيْم :

تَراهُ فى الجَوِّ مُمْتَدًّا وفى فَمِه * من الأَفاعِى شُجاعٌ أَرْقَمٌ ذَكَرُ:
كأنَّه قَوْسُ رامٍ عُنْقُه يَدُها * ورِجْلُه رِجْلُها والحَيَّةُ الوَتَرُ!

---

(١) هو بضم الضاد المعجمة وكسرها مع فتح الواو. وورد فى الجزء الثانى (ص ٦٤) من هذا الكتاب : "صُوغ" وانظر ما كتبناه عليه فى الحاشية الثانية هناك .

فصوّب الثالثَ عَشر إليـه بُنْدُقَه، نقطع لَحيَـه وعُنُقَه؛ فوقع كالصَّرْح المُمَرَّد، أو الطِّرَاف المُمَدَّد .

وٱتَّبعه عِنَازٌ أصبح فى اللَّوْن ضِدّه، وفى الشَّكْلِ نِدّه؛ كأنَّه لَيلٌ ضَمَّ الصُّبحَ إلىٰ صَدْره، أو ٱنطوىٰ علىٰ هَالَةِ بَدْرِه :

تَرَاه فى الجَوّ عند الصُّبح حينَ بَدَا * مُسْوَدَّ أجْنِحَةٍ مُبيَضَّ حَيْزُومِ:

كَأَنَّه حَبَشِيٌّ عَامَ فى نَهَـرٍ * وضَمَّ فى صَدْرِهِ طِفْلًا من الرُّومِ!

فنهض تَمَـامُ القوم إلى التَّتِمَّه، وأسفرتْ عن نُجْحِ الجماعة تلك اللَّيْلَةُ المُدْلَهِمَّه؛ وغَدا ذلك الطَّيْر الواجِبُ وَاجِبا، وكَمُل العددُ به قبل أن تُطْلِعَ الشمسُ عَيْنًا أو تُبْرِزَ حاجِبا؛ فيالَها لَيْلَة حَضَرَنا بها الصادِحُ فى الفَضَاء المُتَّسِع، ولَقِيَتْ فيها الطيرُ ما طارتْ به من قَبْلُ علىٰ كلِّ شَمْلٍ مُجْتَمِع؛ وأصبحت أشْـلاؤُها علىٰ وَجْه الأرض كَفَرائِدَ خَانَها النِّظام، أو شَرْبٍ كأنَّ رِقَابَهـم من اللِّينِ لم يُخْلَق لهنّ عِظَام، وأصـبحنا مُثْنِين علىٰ مَقَامنا، مُنْثَنِين بالظَّفَرِ إلىٰ مُسْتَقَرّنا ومُقَامِنا؛ دَاعِين للولىٰ جُهْدنا، مُذْعِنِينَ له قَبِلَنَا أو رَدَّنا؛ حَامِلِين ما صَرَعْنا إلىٰ بين يديه، عَامِلِينَ على التَّشَرُّف بخِدْمته والآنتماءِ إليه :

فأَنْتَ الذى لم يُلْفَ مَن لا يَوَدُّه * ويُدْعىٰ له فى السِّرِّ أو يُدَّعىٰ لَه:

فان كَانَ رَمْىٌ، أَنْت تُوضِحُ طُرْقَه، * وإن كَانَ جَيْش: أنْتَ تَحْمِى قَبِيلَه!

والله تعالىٰ يجعل الآمَالَ مَنُوطةً به وقد فَعَل، ويجعله كَهْفًا للأَولياء وقد جعل؛ بِمَنِّـــه وكَرَمِهِ :

الفصـــــل الرابع

من البـاب الأوّل من المقـالة العـاشرة

(فى الصَّدُقات ، وفيـــه طَرَفان)

الطـــــرف الأوّل

(فى الصَّـــدُقات المُلُوكيّـــة وما فى معناها)

قد جرت العادة أنه إذا تزوّج سلطانٌ أو ولَدُه أو بِنْتُه أو أحدٌ من الأمراءِ الأكابرِ وأعيانِ الدَّوْلة أن تُكْتبَ له خُطْبةُ صَدَاقٍ تكون فى الطُّول والقِصَر بحسب صاحب العَقْد، فتطالُ للملوك وتُقَصَّر لمن دونهم بحسب الحال .

وهذه نسخةُ صَدَاقٍ، كُتِب به للملك السَّعيد بَرَكَة ، آبنِ السلطان الملك الظاهر بِيبَرس البُنْدُقْدارِىّ، علىٰ بنْتِ الأمير سَيْف الدِّين قَلَاوُون الصالحىّ الألْفِىّ قبل سَلْطَنته، بالقَلْعة المحروسة، من إنشاء القاضى مُحْيِى الدِّين بن عبد الظاهر، وهى :

الحمدُ لله مُوَفِّق الآمال لأسْعَدِ حَرَكَه، ومُصَدِّق الفَأْل لمن جَعَل عنده أعْظَم بَرَكَه، ومُحَقِّق الإقبال لمن أصبح نَسِيبُه سُـلْطانَه وصِهْرُه مَلِكَه؛ الذى جعل للأولياء من لَدُنْه سلطاناً نَصِيرا، ومَيَّز أقْدَارهم بآصْطِفاء تأَهُّلِه حتّىٰ حَازُوا نَعِيماً ومُلْكاً كَبِيرا؛ وأفْرد فَخَارَهم بتَقْرِيبه حتّىٰ أفاد شَمْسَ آمالهم ضِيَاءً وزاد قَمَرها نُورا، وشَرَّف به وُصْلتهم حتّىٰ أصبحَ فضلُ الله عليهم بها عظيماً وإنعامُه كَثِيرا؛ مُهَيِّئِ أسْبابِ التَّوْفيق العاجلة والآجِلَه، وجَاعِلِ رُبوع كلِّ إِمْلاكٍ من الأمْلاك بالشُّموس والبُدُور والأَهِلَّة آهِلَه، جامِعِ أطْراف الفَخَار لذَوِى الإيثار حتّىٰ حَصَلت لهم النِّعمةُ الشاملةُ وحَلَّت عندهم البَرَكة الكَامِلَه .

نَحْمَدُه علىٰ أن أحسنَ عند الأولياء بالنِّعمة الاستيداع، وأجْمل لتأْميلِهم الاسْتِطْلاع، وكَمَّل لأَخْيارِهم الأَجْناسَ من العِزِّ والأنواع، وأَتَىٰ آمالَهم بما لم يكن فى حساب أحْسابِهم من الابتداء بالتَّخْويل والابتداع؛ وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً حسنةَ الأَوْضاع، مَلِيَّةً بتَشْريف الألْسِنةِ وتكريم الأَسماع؛ ونُصَلِّى علىٰ سيدِنا محمدٍ الذى أعلى الله به الأقدار، وشَرَّف به المَوَالِىَ والأَصْهار، وجعل كَرَمَه دارًّا لهم فى كلِّ دار، وفَخْرَه علىٰ من اسْتَطْلَعه من المهاجرين والأنصار مُشْرِقَ الأنوار، صلّى الله عليه وعليهم صلاةً زاهيةَ الأَزْهار، يانِعَةَ الثِّمار.

وبعدُ، فلو كان اتصالُ كلِّ شىءٍ بحسب المُتَّصِل به فى تَفْضيله، لما استَصْلَح البَدْرُ شيئًا من المنازل لنُزُوله، ولا الغَيْثُ شيئًا من الرِّياض لهُطُوله، ولا الذِّكْر الحَكيم لِسانًا من الألْسِنة لتَرْتيلِه، ولا الجَوْهَرُ الثمينُ شيئًا من التِّيجانِ لحُلُوله؛ لٰكن ليَتَشَرَّف بَيْتٌ يَحُلُّ به القمر، ونَبْتٌ يَزُوره المَطَر، ولِسانٌ يتعوَّذُ بالآيات والسُّوَر، ونِثارٌ يَتَجَمَّلُ باللآلِئ والدُّرَر؛ ولذلك تجمَّلتْ برسول الله صلى الله عليه وسلم أصْهارُه وأصحابُه، وتشرَّفَتْ أنْسابُهم بأنْسابِه؛ وتَزَوّجَ صلَّى الله عليه وسلم منهم، وتَمَّتْ لهم مَزِيَّةُ الفَخار حتى رَضُوا عن الله ورَضِىَ عنهم.

والمُرَتَّب علىٰ هذه القاعدة الفاضلةِ نُورٌ يَسْتَمِدُّه الوُجود، وتَقْريرُ أمرٍ يقارن سَعْدَ الأخْبِيةِ منه سَعْدُ السُّعود؛ وإظهارُ خِطْبةٍ تقول للثُّريَّا لانتظام عُقُودها: كَيْفَ، وإبْرازُ وُصْلَةٍ يتجمَّلُ بتَرْصيع جَوْهَرِها مَتْنُ السَّيْف الذى يَغْبِطُه علىٰ إبداع هذا الجَوْهَرِ به كلُّ سَيْف؛ ونَسْجُ صِهارةٍ يَتِمُّ بها ـ إن شاء الله ـ كلُّ أمرٍ سَديد، ويَتَّفِقُ بها كلُّ توفيقٍ تَخْلَق الأيَّام وهو جَديد، ويُخْتارُ لها أَبْرَكُ طالعٍ: وكيف لا تكون البَرَكة فى ذلك الطَّالِعِ وهو السَّعيد؟.

وذلك بأن المَرَاحِمَ الشريفةَ السلطانيةَ أرادتْ أن تُحَصِّنَ المجلسَ الساميَّ بالإحسان المُبْتَكَر ، وتُفْرِدَه بالمَوَاهِب التي يُرْهَفُ بهـا الحدُّ المُنْتَضىٰ ويَعْظُم الجَـدّ المُنتظَر ، وأن تَرْفع من قَدْره بالصِّهارَةِ مِثْل ما رَفَعـه صلى الله عليه وسـلم من قَدْر صَاحِبَيْه : أَبي بَكْرٍ وعُمَـر، فخَطَب إليه أسْـعَدَ البَرِيَّه ، وأَمْنَع من تَحْمِيها السيوفُ المَشْرَفِيَّه ، وأَعَزَّ من تُسْبَل عليها سُتُور الصَّوْنِ الخَفِيَّه ، وتُضْرَبُ دونَها خُدُورُ الجَلَال الرَّضِيَّه ، وتَجَمَّلُ بنعوتها العُقُود : وكيف لا ؟ وهي الدُّرَّة الأَلْفِيَّه ، فقـال والدُها وهو الأميرُ المذكورُ : هكذا تُرْفَع الأقْدارُ وتُزان ، وكذا يكون قِرانُ السَّعْدِ وسَعْدُ القِرَان ! ! ! ، وما أسْـعد رَوْضًا أصبحتْ هـذه المَرَاحِم الشريفةُ السلطانيةُ له خَمِيلَه ! ، وأشْرَفَ سَـيْفًا غَدَتْ مِنْطَقَةُ بُرُوجِ سَمَائها له حَمِيلَه ! ، وما أعْظَمَها مُعْجِزَةً آتَتِ الأولياءَ من لَدُنْها سُـلْطَانا ! ، وَزادَتْهم مع إيمـانهم إيمـانا ! ، وما أَفْخَرها صِهَارةً يقول التوفيق لإبرامها : لَيْت ! ، وأَشْرَفَها عُبُودِيَّةً كَرَّمَتْ سَلْمانَها بأن جَعَلَتْه من أهْلِ البَيْت ! .

وإذْ قد حصلتْ الآسْـتخارةُ في رَفْع قَدْر المملوك ، وخَصَّصتْه بهـذه المَزِيَّة التي تقاصرتْ عنها آمالُ أكابر الملوك ، فالأَمْرُ لِمَلِك البَسِيطة في رَفْع درجات عَبِيده كيف يَشَاء ، والتَّصَدُّق بمـا يَتَفَوَّهُ به هذا الإنشاء ، وهو :

بسم الله الرحمن الرحـيم

هـذا كتابٌ مباركٌ تحاسـدَتْ مِلَحُ الخَطِّ وأقلام الخَطِّ علىٰ تحريره ، وتنافستْ مَطَالِع النُّوَّار ومَشَارِقُ الأَنْوار علىٰ نَظْمِ سُطُورِه ، فأضاءَ نُورُه بالجلالة وأشرق ، وهَطَل نَوْءُه بالإحسان فأَغْدَق ، وتَنَاسَبَتْ فيه أجناسُ تجنيس لَفْظ الفَضْل فقال الأعتراف : هذا ما تَصَدَّق ، وقال العُرْف : هذا ما أصدقَ مولانا السلطانُ : أَصْدَقَها ما مَلأَ خَزَائِنَ الأَحْساب فَخَـارا ، وشَجَرة الأَنْساب ثِمَـارا ، ومِشْكَاةَ الجلالة أنْوارا ، وأضافَ إلىٰ

ذلك ما لولا أدبُ الشَّرْعِ لكان أقَالِيمَ ومَدَائِنَ وأمْصارا؛ فبَذَل لها من العَيْنِ المِصْرِيّ ما هو باسِمِ والدها قد تَشَرَّف ، وبنُعُوتِه قد تَعَرَّف ، وبين يَدَىْ هِبـاتِه وصَـدَقَاتِه قد تَصَرَّف .

وهذه نسخةُ صداقِ المَقَام الشَّريفِ العالى السَّيْفِىّ أنُوك ، ولَدِ السـلطان الشَّهيدِ المَلك النَّاصِر «محمد بن قَلاوُون» علىٰ بِنْتِ المقرّ المَرْحوم السَّيفِىّ «بكتمر الساقى» . وكان العاقِدُ قاضِىَ القُضَاة جلالَ الدِّين القَزْوِينىّ، والقابِلُ السـلطانَ المَلِكَ النـاصر والِدَ الزَّوْج، وهى :

الحمـدُ لله مُسَيِّر الشَّمسِ والقَمَر، ومُيَسِّر حَياةِ كلِّ شىءٍ بآتصال الرَّوْض بالمَطَر، ومُبَشِّرِ المتَّقِينَ من دَرَارِىِّ الذَّرارِى بأسْعَدِ كَوْكَبٍ يُنْتَظَر ، وأحْمَـدِ عاقبةٍ تَهْتَزُّ لهـا أعطافُ عظماء الملوك علىٰ كِبَر، وتُجَابُ عن الأنجاب كما تَتَفَتَّح الأكمام عن الثَّمَر؛ الذى مَدَّ من الشَّجَرةِ المباركةِ الملوكيَّة فُروعًا آلْتَفَّتْ بَعْضها علىٰ بَعْض، ورَفَّتْ علىٰ من آستظلَّ بها فراقَبَ السماءَ على الأرض .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمِه التى أطَابَتْ لنـا جَنَى الغُرُوس ، وأطالَتْ منـا مُنَى النُّفُوس ، وأطافَتْ بمُلوكِنا حتَّىٰ مُدَّتْ لسُؤالهم الأيْدى وخَضَعَتْ لأمرِهم الرُّؤُوس؛ ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً نَتَّخِذها عِصْمةً نافعـه ، ونِعْمةً لِحُسْن العاقبـة جامِعَه ، ورحمـةً تُبارِكُ علىٰ أئمَّتِنا وعلىٰ أبنائهـم البُدُورِ الطالعه ، والأنوارِ الساطعه، والبُرُوقِ اللَّامعه، والغُيُوثِ الهَامِعه، والسُّيولِ الدَّافِعه، والسُّيُوفِ القَاطِعه، والأسُود التى هى عن حَرَمِ حَضْرتِها مَانِعه؛ ونشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أزَانَ من تمسك له بحَسَب، وشَرَّفَ من آعتزىٰ إليه بالقُرْبىٰ أو آعْتَزَّ منه بصِهْرٍ أو نَسَب؛

صلّى الله عليه وعلىٰ آلِه وأصحابِه الذين أرضاهم ورَضِىَ عنهم، وكَرَّمهم بِصلَتِه الشريفةِ لمـا زَوَّجَهم وتَزوَّج منهم، وسَلَّم تسليماً كثيراً .

أما بعدُ، فإنَّ من عادة الغَمام أن يتَفَقَّد الأرضَ بمَطرِه ، والبَحْرِ أن يَسْقِىَ الزُّرُوع بمـا فَاضَ من نَهرِه، والمَصَابِيح أن تمدَّ بأنوارها ما يتَوقَّد ، والسَّماءِ أن لا يَخْلُو أُفُقُها من ٱتِّصال فَرْقَدٍ بفرْقَد ؛ ولو توقَّفَتِ القُرْبىٰ علىٰ مُقارَبة كبـير ، أو مُقارَنة نَظِير ، لمـا صَلَحتِ الأغْمادُ لَمضَاجِع السُّـيوفِ ولا دَنَتِ الكَوَاكِبُ من الشَّمس والقَمَر المُنير ، ولا صافَحَتْ يَمِينٌ شِمَـالا ، ولا جَاوَرتْ جَنُوبٌ شَمالا ، ولا حَوَتِ الكَنَائِنُ سِهاما ، ولا جَمَع السِّلْكُ للجواهرِ نِظاما ، ولا طَمَح طَرْفٌ إلىٰ غايه ، ولا قَدَر لِسانُ إنسانٍ علىٰ تلاوة سُورَةٍ ولا آيه ، وإنّمـا الصَّدَقات الشَّريفـة المُلُوكية لهـا فى البَرّ عَوَائد، وفى الخَيْر سَجَايَا يَقْتدِى فيها الوَلَد بالوَالِد .

ولم يَزَلْ من المقام الشريف ، الأعْظمِ ، العَالى ، المَوْلَوىِّ ، السُّلطانِىِّ ، المَلَكِىِّ ، النَّاصرِىِّ ، أعَزَّ الله سُلْطانَه علىٰ من لاذ به تُسْبَلُ ذُيول الفَخَار ، وتُودَع فى هَالَاتِ أَقْمارِهم وَدَائِعُ الأَنْوار ، وتُؤَهِّل أَهِلَّتهم لأن يكون منها أحَدُ الأَبَوَيْنِ لذُرِّيَّته الأطهار ، وتَخْطُب من حُجُبِهم كلَّ مَصُونةٍ يَغُور بها بَدْر الدُّجىٰ وتَغَار منها شَمْسُ النَّهار .

وكان من تمـام النِّعمة الشريفة السلطانية ، النَّاصِريَّة ، علىٰ من تعرّض لسَحَابِها المَـاطِر ، ووَقَف للاَّعتراف من بَحْـرِها الزَّاخر ـ ما رفعتْ به ذِكْره إلىٰ آخر الأَبَد ، وأتَمَّتْ له السـعادةَ إذ كان يُعَدّ فى جُدُود من يُنْسب إليـه من وَلَد ؛ وأكَّدتْ له بالقُرْبىٰ مَزِيَّةَ مَزِيد ، وٱستخرجتْ من بَحْرِه جَوْهرةً لا يَطْمَعُ فى التَّطَوُّق بهـا كُلُّ جِيد ، وقالتْ : نَحْنُ أحقُّ بتكميل ما بَنَيْنا ، وتَخْوِيل الخُؤُولَةِ مَن أَوْلَيْنا ، وتَأْهِيل من قرّبِنَا عَيْنَـا وقَرَّبْناه إلينا ، وتَفْضِيل غَرْسِ نِعْمةٍ نحنُ غَرَسْناه وٱجْتَنَيْنا ثمراته بيَدَينا .

فاقتضىٰ حُسْنُ الآختيار الشريف المَلَكِيّ الناصريّ ، لولَده المقام العالى السَّيفْىّ ؛ أحسن الله لها الآختيار، وأجْرى بإرادتهما آقتدار الأَقْدار ـ أن تُزَفّ أتمُّ الشموس إلىٰ سُتُوره الرفيعه ، وتُصانَ أكمُل مَعاقِل العقائل بحُجُبِه المَنيعَه ؛ وتُحاطَ أشرفُ الدُّرَر فى مُسْتَوْدَعِه ، وتُناطَ أشْرَفُ الدَّرارِىّ بمَطْلَعِه ، وتُساقَ إليه الكَرِيمةُ حَسَبا ، العظيمةُ بأَبِيـه ـ عظَّم الله سُـلْطانَه ـ أبًا ؛ الذى كَمْ له فى خِدْمةِ الدولة القاهرة من مَناقِبَ كالنجوم ، ومَذَاهِبَ تَشَبَّه بها البرقُ فتَشَبَّث بأذْيالِ الغُيُوم ، ومَراتِبَ تقدّم فيها على كلِّ نَظِيرٍ قال : وما مِنَّا إلَّا مَن له مَقامٌ مَعْلوم ؛ مَن قَدْرُه لايُسَامىٰ ولا يسام ، ورَأْيُه لايُرامىٰ ولا يُرام ، وسَـيْفُه فى غير طاعتِنا الشَّريفةِ لا يَشِيمُ ولا يُشَام ، وهو «سَيْفُ الدولة» لا كما يُسَمَّى به من آستعارَ هذا اللَّقَبَ فى سَالِفِ الأيام ؛ كم له فى مَرَاضِى سُـلْطانِه من رَغْبةٍ بَذَل بهـا مالَدَيْه ، وسَمح فيها بولَدِه وهو أحبُّ شَىْءٍ إليه ، وجاد برُوحِه أو بمـا هو أعزُّ عليه ؛ كم نُبِّهَتْ بعزَائِمه السُّيوفُ من سِـنَاتِها ، كم وُهِبَتْ من مكارمه الأيامُ ما يُعَـدّ من حَسَناتِها ؛ كم آلْتَهبَتْ صَوارِمُه نارًا تَفَـجَّرتْ أنهارًا تُجُرِّتْ من جَنَباتِها ؛ كَمْ لسماء المُلْك بشُهُبِه من حَرَس ، وبقُضُـبِه من قَبَس ، وكَمْ قام وقَعَد فى مَصْلَحةٍ وكان أدْنَاهم من مَلِكه مَقامًا لمَّـا قامَ وأعْلَاهُم مجْلِسًا لمَّـا جلَس ؛ فَسَمِع المقامُ العالى السَّيْفىُّ وأطاع ، وآنتهىٰ إلىٰ ما بَرزتْ به مَرَاسِم والده ـ أنفذها الله ـ وآمتثل أمْرَه المُطاع ، وعَمِل برأْيه الشريف وهو ناصرُ السُّنَّة فقدّم فيها ما آستطاع ؛ وسَارَع إلىٰ ماأمَرَ اللهُ به من الأُلْفَةِ والآجتماع ، وآتّبع السُّنَّة النَّبوِيّة فى تكثير الأُمَّة ذُرِّية أَئِمَّةٍ مُلُوكِيَّـةٍ كلُّ واحدٍ منها له الأُمَّة أتْباع ؛ لعِلْمِه اليَقِـينِ أنه لو خَطَب له وَالِدُه فى أقطار الأرض إلىٰ جميع الملوك ، لم يَجِـدْ منهم إلا كلَّ مَلِك عظِيم وهو له عَبْدٌ مملوك ؛ فأحْيَىٰ سُنَّةً شريفةً مُلُوكِيَّـةً مابَرِحَتِ الخلفاءُ والمُلُوك تحفظ بها قُلُوب أوليائها علىٰ أمداد المَدَىٰ ، ويَكْفِى من هـذا مَيْمُونُ فعْلِ « المَأمونِ » لمَّـا تزوّج

« بُورَانَ » من أبيها « آبنِ سَهْلٍ » وخَطَب « المعتَضِدُ » إلىٰ « آبن طُولُون » آبْنَتَه « قَطْر النَّدَىٰ » .

ورأى والِدُها أعزَّه الله تعالىٰ قَدْرا هَالَه مهابَةً فسَلَّمَ وقال : لمَالِكِ التَّصرُّفُ وللمَلِد التَّصْرِيف ، وإذا آقتضَىٰ حُسْنُ النَّظَر الشَّريف تَشْريفَ عَبْدٍ فياحَبَّذَا التَّشْريف ؛ ويا حَبَّذا السَّبَبُ الذى آتصلتْ له بالمقام الشَّريف الأسباب ، وآحْتَفَلَتْ دِيَم النِّعَم وآحْتَفَّت للآجتماع علىٰ سُنَّةٍ وكِتَاب ، فتَحَاسدتْ علىٰ إثباته صُفْرُ الأصائل وحُمْر النَّعَم ، وتنافَسَتْ علىٰ رَقْمِ سُطوره صحائِفُ السَّحاب وصَفِيحُ الماء وصَليلُ السَّيْف وصَرِيرُ القَلَم ؛ وتمنَّت الكواكِبُ لو آجتمعتْ مواكِبَ فى يَوْمه المَشْهود ، والمَنَاقِبُ لو أنها حَوْلَه بمَقانِب خَافِقَةِ البُنُود ؛ ووَدَّتْ نَسماتُ الأسْحار لو كانت هى التى سَعَتْ بالآتِّفاق ، والحَمائِمُ لو أُبِيحَ لها أن تُغَرِّد وتَخْلع مافى أعناقها من الأطْواق ؛ بَل السُّيوفُ لمَّا رأتْ مَقامَ الجلالة أغْضتْ وغَضَّتِ الأحْداق ، والرِّماحُ لمَّا بَدَا لها سَرِيرُ الملك مائِلًا وقَفَتْ علىٰ سَاق .

فبرزت المَرَاسِمُ الشريفةُ ــ زادها الله شَرَفًا ــ بتَحْرِير هذا الكِتَاب الكَرِيم ، وتَنْضِيد ما يَصْلُح من الدُّرَرِ لهذا العِقْدِ النظيم ؛ ونَفَّذ المرسومُ العالى المولوىُّ السلطانىُّ ماأمر به وصَدَّق ، وتأَدَّب إجلالًا لمقام أبيه الشريف فأطْرق ، وتَواضَع للهِ فلم يقلْ : هذا ما تَصَدَّق ؛ بل قال : هذا ما أصْدَق المقامُ العالِى السَّيْفىُّ أُنُوك آبنُ مولانا السلطان الأعظم ، مالكِ رقاب الأُمَم ؛ المَلِك النَّاصر ، السَّيِّد الأجَلّ ، العالم ، العَادل ، الغَازى ، المُجاهِد ، المُؤَيَّد ، المُرابِط ، المُثاغِر ، المُظَفَّر ، المَنْصور ، الشَّاهنْشاه ، ناصر الدنيا والدِّين ، سُلطانِ الإسلام والمسلمينَ ، مُحْيِي العَدْل فى العالَمين ، مُنْصِف المَظْلومين من الظالمين ، مَلِك البَسِيطة ، ناصِر السُّنَّة ، رُكْنِ الشريعة ؛ ظلِّ الله فى أرْضه ،

القائم بسُنَّتِه وفَرْضِه ، وَارِثِ المُلْك ، مَلِكِ العَرَب والعَجَم والتُّرْك ، خداوند عالم بادشاه بنى آدم ، بهلوانِ جهان ، شهريارِ إيران ، إسْكَنْدرِ الزَّمان ، مُمَلِّك أصحاب المَنابِر والأسِرَّةِ والتُّخوتِ والتِّيجان ، فاتِح الأقْطار ، وَاهِبِ المَمَالك والأقَالِيم والأمْصار ، مُبِيدِ البُغاةِ والطُّغاةِ والكُفَّار ، صاحبِ البَحْرين ، حامِي الحَرَمين ، خادِمِ القِبْلتين ، كَفِيلِ العُبَّاد والعِباد ، مُقِيم شَعائِر الحَجِّ والجِهاد ، إمامِ المُتَّقِين ، قَسِيمِ أمير المؤمنين ، أبى المعالى محمد بن السلطان الشهيد الملك المنصور ، السَّيِّد ، الأجَلِّ ، العالِم ، العادِل ، المجاهِد ، المؤيَّد ، سيفِ الدِّين ، والدِ المُلوك والسلاطين ، أبِى الفَتْح «قلاوون» خلَّد الله سلطانه ، ونَصَر جُنودَه وجُيوشَه وأعْوانَه — : الجَنابَ الكَرِيمَ ، الرفيعَ ، المَنِيعَ ، المَصُونَ ، المَكْنونَ ، الجِهَةَ المُكَرَّمةَ ، المُفَخَّمةَ ، المُعَظَّمةَ ، بنتَ الجَنابِ الكَرِيم ، العالى ، الأميرىِّ ، الأجَلِّ ، الكَبِيرىِّ ، العالِمِىِّ ، العادِلىِّ ، المُمَهِّدىِّ ، المُشَيِّدىِّ ، الزَّعِيمىِّ ، المُقَدَّمِىِّ ، الغِياثِىِّ ، الغَوْثِىِّ ، الذُّخْرِىِّ ، الأوْحَدِىِّ ، الظَّهِيرىِّ ، الكافلىِّ ، السَّيفىِّ ، رُكْنِ الإسلام والمسلمين ، سَيِّدِ الأمراء فى العالَمِين ، نَصِيرِ الغُزَاةِ والمُجاهِدين ، زعيمِ الجيوش ، مقَدَّمِ العساكر ، عَوْنِ الأمة ، غِياثِ المِلَّة ، مُمَهِّدِ الدُّول ، مُشَيِّد المَمالك ، ظَهِيرِ المُلُوك والسلاطين ، عَضُدِ أمير المؤمنين ، بكتمر الساقى الناصرىّ ، ضاعف الله نعمته .

أَصْدَقها ما تَلقَّتْ به أنسابُها إجلالا ، وبَلَغتْ به أحْسابُها جَمَالا ، وطلعَتْ فى سماء المُلْك هِلَالا ، ولَبِستْ فَخَارا ، وقبَستْ أنْوارا ، وأَوَتْ إلى حِصْنٍ حَصِين ، ووَصَلَتْ إلى مَقامٍ أَمِين ، واس(؟) بأمْوال وبَنِين ، مالولا أَدَبُ الشَّرَف ، وتَجَنُّبُ السَّرَف ، والعَمَلُ بالشَّرع فى تَعْيِين مَعْلوم ، وتَبَيُّن مقْدارٍ مَفْهوم ، لخَرَج عن كلِّ وَصْفٍ مَحْدود ، وقَدْرٍ معدود ، ولمَا قام به مَوْجُود ، ولكان مما تَقِلُّ له المَمالك ولا يُسْتَكْثر لأجلِه الوُجُود .

قَدَّم لها من الذَّهَب العينِ المِصْرىّ المَسْكوكِ ما هو بنَقْدِ مـالك وآلدِه مَعْروف، ومن حُقُوقه مَقْبوضٌ وفى هِبَاتِه مَصْروف ، ما يُجْمِد مآلا، ويُنَمِّىٰ مالا ، ويأتى كلُّ دِينَارٍ منه ووَجْهُه بذكر الله وآسْمِ أبيه يتَلَالا .

أَصْدَقها علىٰ بَرَكَةِ الله تعالىٰ وعَوْنِه وتَوْفيقه كذا وكذا، عَجَّل لها كذا وكذا، قَبَضه وكيلُ والدها من وَكِيلِه ، قَبْضًا تامًّا كاملًا، وتَأَخَّر بعـد ذلك كذا وكذا دِينَارًا حالًّا، علىٰ ما أَمَرَ اللهُ به من إمساكٍ بمعروف أو تَسْرِيحٍ بإحْسَانٍ : ﴿ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ آتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ .

ووَلِىَ تَزْويجَها منه على الصَّـداق المُعَيَّن بإذْن والدها ـ أَعَزَّه الله تعالىٰ ـ المقدّم ذِكْره : ـ العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ، قاضِى القُضاة، حاكِمُ الحُكَّام، خطيبُ خُطَباءِ المسلمين، جلالُ الدِّين، خالصةُ أمير المؤمنين ، أَبُو المعالى ، محمد بنُ قاضِى القضاة سَـعْدِ الدِّين أبِى القاسم، عبدِ الرحمن آبنِ الشَّـيخ الإمامِ العالِم العلّامة إمامِ الدِّين، أبِى حَفْصٍ عُمَرَ بن أحمدَ القَزْوِينىّ الشافعىّ، الحاكم بالديار المصرية المحروسةِ وأعمالها وبِلادِها، وجُنْدها وضَواحيها، وسائرِ الممالك المضافةِ إليها، بالولاية الشَّرْعية، أدام الله أيَّامَه، وأعزَّ أَقْضِيتَه وأحْكامَه . فقبِل مولانا السلطانُ ـ خَلَّد الله مُلْكَه ـ لولده المسمَّى ـ أدام الله تعالىٰ نِعْمتَه ـ ذلك منه قَبُولًا شَرْعِيًّا، يخاطَبُ عليه شِفَاها بحُضُور من تَمَّ العَقْد بحُضُوره ، فى دار المُلْكِ بالقصْر الأَبْلَق ، بقَلْعة الجَبَل ، حرسها الله تعالىٰ ، بُكْرَة يوم السَّبت حادى عشرين من صَفَر سنة آثنتين وثلاثين وسبعمائة .

وهذه نسخةُ صَدَاق المَقَرِّ الشَّريف إبراهيم بن السلطان الشهيد الملك الناصر محمد آبن قلاوون، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابىّ بن فَضْل الله، وهى :

الحمدُ لله مُغْنِي المُلوك بالمُظافَره ، ومُكَثِّر زِينَة الأسماء بُنجُومهم الزَّاهِرَه ، ومُكَبِّر أقدار الأولياء بما تَمَّتِ النِّعْمَةُ به من شَرَف المُصاهَرَه .

نحمدُه علىٰ نِعَمه التى شَرَّفتْ قَدْرا ، وصَرَّفَتْ أَمْرا ، وأَطْلعتْ من هَالَة البَدْر المُنِير شَمْسًا لا تتخذ غير الأُفُق خِدْرا ، ولا تَتَمَنَّى الليالى والأيامُ إلا أن تُقَلِّدَها من الأَشِعَّة يَاقُوتًا ومن الكواكب دُرّا ؛ ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تجمعُ من حُماةِ الدِّين نَسَبًا وصِهْرا ، وتَرْفع فى أبناء الأبناء لها حَسَبًا وذِكْرا ؛ ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى عَصَم به ، وخصَّ صَفْوةَ الخَلْق فى المصاهرة باختلاط نَسَبِهم بنَسَبِه ؛ صلّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تَستوثِقُ بها الأَسْباب ، وتَسْتَوسِق الأنساب ، وتَبْقىٰ أنوارُها بملْكِ أبناء الملوك كَلِمةً باقِيةً فى الأعقاب ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ ، فلمَّا جمع اللهُ بمُلُوك البَيْت الشريف المنصوريّ ـ كَثَّر الله عَدَدَهم ـ شَتَات الإسلام ، ومحَا ببَوارِق جِهادِهم ما ٱمْتدَّ من ظَلَام ؛ حتَّى ٱنتهتِ النَّوْبةُ إلىٰ مَن أصبحتْ به الدولة القَاهِرة وكلُّ أَوْقاتِها أنوارُ صَبَاح ، ونُوّار أَقَاح ، وسَماء سَمَاح ، وأَسْمَىٰ نِعَمٍ لا تُعَدُّ إلا مَعَاقِد تِيجَانِ المُلُوك علىٰ كلِّ جَبِينٍ وَضَّاح ؛ المَقامِ الشريفِ العالِى المَوْلوىّ ، السُلْطانىّ ، المَلَكىّ ، النَّاصرىّ ، زاد الله شَرَفه ، وأعلىٰ علىٰ شُرُفات بُرُوجِ السماء غُرَفه ؛ فأَحَبَّ ـ لما أجراه اللهُ به وبمَن سَلَف من ملوك بَيْته الشريف من تأيِيد هٰذه الأمَّه ، وتأْيِيد ما شَمِلها بفُتُوحاتهم المُذْهَباتِ الفُتُوحِ من سَوَابغ النِّعمه ؛ ـ أن يَعْمل بقَوْل نَبِيِّه المُشَرَّف بموافقة ٱسْمِه ومُتَابَعَة حُكْمه فى التزويج ، وأن تَقَع مَوَاقِعُ أَمْطارِه علىٰ كلِّ أَرْضٍ حُرَّة فتُنْبِت كلَّ زَوْجٍ بَهِيج . وكان من بَنِيه ـ أدام الله سُعُودَهم ـ مَن يُطيع فى كلِّ أَمْرٍ أَمْرَه العالىَ أدام الله تَمْكِينه ، ولولا هذا لما رَضِى سوىٰ أقران الفُرْسان له قَرِينَه ؛ وكان من نُجَبائِهم إذا

عُدّت الأولاد، وأحِبَّائهم إذا كان كما يقال : الولَد ثمرةُ الفؤاد؛ ومَن هو لجملتهم جَمال، ولدَوْلتهم دَلال، ولغابِهم أَسَد الأَشْبال ـ من يَعْتَرِفُ كلُّ مَن عرفه بفضْله، ويؤمّلُ فى أبنائه ما لأبناء سَمِيّه إبراهيمَ صلى الله عليه وسلم من برَكةِ نَسْله .

بَرَز المرسومُ الشريفُ العالى، المَوْلوِىّ، السلطانىّ، المَلَكىّ، الناصِرىُّ، أنفذه الله فى الأقطار ـ بأن يُتَخَيرَ لمَغرِسِه الكريم، ونَسَبِه الصَّميم؛ وصَباحه المُشْرق، وسَماحِه المُغْدق؛ فصادف الإحسانُ مَوْضِعه، وٱنْتُخِبَ له من مَشْرِق البَدْرِ التَّمام مَطْلَعه؛ ومَن هو من هذه الدَّولة القاهِرة على الحَقِيقَة باليمين، ومَن هو البَحْر الزّاخِر ومن مَكْنُونه يُسْتخْرَج أنْفَرُ الثَّمين ؛ فبَادَر الخاطب إليه إلى ٱغتنام هذا الشَّرَف الذى لا يُطاوَل، وعاجَلَ هذه النِّعْمة التى لَولا فَضْلُ الله وصَدَقاتُ سُلْطانه ـ خلَّد الله مُلْكَه ـ ما كانتْ مما تُحاوَل ؛ وقال : إن رَضِيَتْ تلكَ السُّتور بهٰذه المَخْطوبَة ، أو أهَلَّتْ تلك السماءُ العَلْياءُ هٰذه المَحْجُوبه ؛ فهى لما أُهلَّتْ له فى خِدْمة ذلك المَقام الأمين، وهى كما شاء مالِكُها المُتَصدِّق من ذوات العِفَّة وإلا فهى مما مَلَكت اليمين؛ فأتَمَّتِ الصدقةُ الشريفةُ عَوارِفَها بما هو أشرفُ مَقاما، وأعظم لها فى رتبة الفَخَار فهى تَسْمُو بهذا ولا تُسامىٰ ؛ وشَرَّفته بما وَصَلَتْ إليه عند المَقَرِّ الشريف من المَقَامِ الكريم، ولم تكُنْ إلا من ذَوَاتِ العُقُودِ ولا كَيْد ولا كَرامة لما يَنْجلى به اللَّيْلُ البَهِيم ، ولا لما يَتَحلَّى فى جِيدِ الجَوْزاءِ من عِقْدِ دُرِّها النَّظِيم ؛ ولولا إجْلالُ المقامِ عن التطويل لما ٱختصر القائلُ فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا ما أصدق ... ...

الطـــرف الثـانى

(فى صَدُقاتِ الرُّؤَساء والأعيانِ وأوْلادِهم)

وهى على نَحْوٍ من الصَّدُقات المُلُوكِيَّة فى التَّرتيب، إلا أنها أخْصَر، ومن الألقاب بحَسَبِ أحوال أصحابها من أرْبابِ السيوف والأَقْلام .

وهذه نسخةُ صَدَاق جمال الدِّين عبد الله [بن سيف الدين أبى سعيد أمير حاجب] (١) على بنت بيدمر العمرىّ، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمدُ لله مُبَلِّغ كلِّ آملٍ ما يَرجُوه، ورَاعِى ذِمَم من لم يَنْسوا عَهْده ولم يُخْلِفُوه، ومُكَمِّل الخَيْر لكل ذى (١) يصدّ من يَجْفُوه، ومُجيبِ كُلِّ مُنِيبٍ يَدْعوه قائِمًا وقاعدا : ﴿ولَمَّا قامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوه﴾ .

نحمدُه حمدًا نُكرِّر فَضْله ونَتْلوه، ونُحُلّ مُعْضَلَه ونَجْلُوه؛ ونشهدُ أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً يتظافَرُ عليها الآمِرُ المُسْلم وبَنُوه، وتَبْيَضُّ بها وُجُوه الأوِدَّاء، وتَسْوَدُّ وجوهُ الأعداء، يوم تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وتَسْوَدُّ وُجُوه؛ ونشهدُ أن سَيِّدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى سَعِد بِه ذَوُوه، وصَعِد قَدْر صِهْره وحَمُوه، وشَرَّفَ نَسَبًا ما ٱلتقىٰ فيه علىٰ سِفَاحٍ هو ولا أَوّلُوه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً لا يزال بها الرَّوْض الأَرِجُ يَفُوه، والسِّحر يُبَلِّغُها ولو سَكَتَ وخُتِمَ بالبَرْقِ فُوه؛ وسلَّم تسليماً .

وبعدُ، فإن أَزْهىٰ زَهْرٍ طاب مُجْتَنوه، وطالَ باعًا فى الفَخَار مُجْتَبُوه؛ زَهْرُ كِمامَةٍ جَرَت عنها لأْمَةُ كَمِىّ، وأبرزَتْها سُنَّة الإسلامِ من حِجَابِ ذى أنْفٍ حَمِىّ؛ وطَلَعتْ من أُفُقٍ بَدْرِىّ طالَمَا سَنَح مُجْتَلُوه، وحِمىٰ سَيْفٍ أَمِنَ فى كَنَفِه بكِلَاءَتِه مُخْتَلُوه .

---

(١) بياض بالأصول والتصحيح من الصفحة التالية .

وكان الجنابُ الجمَالىُّ عبدُ الله بنُ المرحومِ سيفِ الدّين أبى سعيدٍ أمير حاجب، أدام الله تعالى عُلاه، ورَحِم أباه؛ هو ولَدَ ذلك الوالد، وطَارِفَ ذلك التالد، ونَشْوَ هٰذه الدولة الشريفـة الكامِلية التى أَخَذ منها حَظَّه بالتمـام والكمال، وأصبحتْ به كالغَادَةِ الحَسْـناءِ ذاتِ الحُسْنِ والجمَال؛ ولم يَمُتْ أبُوه فى أَيَّام سلطانهـا ـ خلَّد الله مُلْكه ـ حتَّى قَرَّتْ به عَيْنُه، وسَاوَاه فى الإمْرَةِ لولا تَفَاوُت العدَّة وقِدَمُ المُدَّة بَيْنه وبَيْنه؛ وجاء منه وَلَدٌ نَجِيب، وٱبنٌ شاعَ وذَاعَ سِرُّ أبيه وحُمِد وهٰذا عَجِيب!!!.

ولمـا ٱنْتَقلَ والِدُه رحمه الله تعالىٰ إلىٰ رحمة رَبِّه، وشَرِب بالكَأْس الذى لا بُدَّ لكلِّ حَيٍّ من شُرْبه ـ تطَلَّب مِثْـلَ ذلك الأَبِ ولم يَزَلْ يَجِدُّ حتَّىٰ وَجَد، وظَفِر بوالدٍ إن لم يكن وَلَدَه حقيقةً فإنه عنده مِثْلُ الوَلَد؛ وهو المَقَرّ بيدمر، وهوالوَالِد الذى لم يَفْقِد معه من وَالِده ذَرَّه، والأبُ الذى هو أرْأَفُ من كلِّ أُمٍّ بَرَّه؛ والنَّيِّرُ البَـدْرِىّ الذى سَعِد قِرانا، وصَعِد ودَاسَ بقَدَمِه أَقْرانا، وقَسَّم دَهْره شَطْرَيْنِ: نَهارَه للضُّيوف قِرًى ولَيْلَه لله قُرآنا.

هذا إلىٰ أنه طَالمَـا طَيَّب لزكاة أمْوالِه وثَمَّرها، وزَيَّن فى أعماله بمَدْرسةٍ عَمَّرها، وقَيَّد شَوَارِدَ حسناته وثَقَّفها؛ مع أنه شَيَّد الممـالكَ وسَدَّدَ أمُورها، وسَدَّ ثُغُورها؛ وحَمَىٰ ببِيضِ سُـيوفه السَّوادَ الأَعْظم، ورَمَىٰ بصوائبِ سِهامِه النَّوائبَ ولم تُسْتعظم؛ ولم تَزَل نُوَبُ الأيام تُجَرِّب منه مِسْوَرِيّا، وتُجَرِّدُ حُرًّا كريمـا جاء فى أوّلِ السَّنَة صَقْرا بَدْرِيّا؛ فكان من تمَـام بِرِّه بمن سَلَف إجابةُ ولَدِه، وإجَالةُ الرَّأْيِ فيما يكون سببا لصيانَةِ عَزْمَتِه وذَاتِ يَدِه؛ فأنعم له بعَقِيلَتِه المَنَّعَه، ورَبِيبَتِه التى غَدَت الشمس منها سَافِرَةً مُقَنَّعه؛ وقال: على الخَيْر والخِيرَه، وٱبنُ أخٍ كريم وجَدَعَ الحَلالُ أَنْفَ الغَيْره؛ وما أَسْنىٰ عَقْدا يكون مُتَوَلِّيه، ومُنْشِئَه إحساناً منه ومُسْنِيه؛ مَوْلًى به نُظِمَتْ عقودُ اللآلى، ورُقِمَت بعلَمِه أعلامُ الأَيَّام وذَوائبُ اللَّيالِى؛ وسُلِّمت القضايا به إلىٰ مُنَفِّذ

أحكامها، ومُنيـل الفَضْل لِحُكّامِها، البَحْرِ الزّاخر، والنَّجْمِ الذى كَمْ تركَ الأوّلُ منه للآخر، والغَمامِ إلا أنه قَضَتْ صَواعِقُه على الخُصُوم، والإمامِ الذى أجمعتْ عليه السُّنَّة ولم تُنْكِر الشِّيعَةُ أنه الإمامُ المَعْصُوم، والعالِم الذى ما برحَتْ بُرُوقُه تُشام، وحُقُوقه على أهْـلِ مِصْر والشَّام، والذى ولَّى الظُّلْمُ مُنْذُ وَلِى، واعترف ذَوُو الفَضْل والفَصْل فى القَضاء أَنَّ أتقاهم تَقِىُّ الدِّين وأقضاهم :

قَاضِى القُضاةِ أبو الحَسَن * بِبَقَائِه يُجْلَى الحَزَن،
و [هو](1) الذى فى حُكمه * يَجْرِى على أقْوَى [سَنَن](1)!
طَـوْدٌ إذا وَازَنْتَـهُ * بالطَّوْدِ فى حُكْمٍ وَزَن!
والبَحْـرُ طَىُّ رِدائِه * قَلَدَ(2) العُقُودَ بلا ثَمَن!

فأضاء المَحْفِل به وبالحاضرين، وقام شِعار الدين حتّى قال القائلُ : هذه سُيُوف المجاهدينَ وهٰذا سَيف المُناظِرين؛ وقيل: هـذا وَقْتُ جُودٍ قد حضر، ومَوْضِعُ سُرُورٍ يَنْبَغِى أن يُعَجَّلَ منه ما يُنْتَظر؛ فابْتَدَأَ السَعْد محياه الوَسِيم، وافْتَتح فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ... ...

وهٰـذه نسخةُ صَدَاق ناصر الدِّين مُحمد بن الخطيرى، من إنشاء المَقَرّ الشِّهابىّ بن فضل الله، وهى :

الحمـدُ لله الذى زاد الأُصُولَ الطَّيِّبةَ قُرْبا، وزانَ الأنسابَ الطّاهِرةَ بِصِلَةٍ تتأكَّد حُبّا، وصانَ كَرائِم البُيُوت القَديمةِ الفَخار بِمَن يُناضِلُ عن حَسَبِه ذَبّا، ويُناظِرُ العَلْياءَ فلم يَبْنِ إلا بين مَنازل النُّجوم بُيُوتًا ولم يُسْبِلْ سِوى السُّمْرِ سُمْرِ القَنا حُجُبا .

(١) بياض بالأصول، والتصحيح من المقام .
(٢) بمعنى جمع .

نحمده حمد من دعاه قبل بثّ النّسم فلبّى، واستدعاه لأخذ العهد عليه أمام تفريق القسم فما تأبّى، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تستنطق ألسنة وتشكر قلبا، وتستغدق أنواء السّرور فتضىء البشائر بروقا وتمطر الرّحمة سحبا؛ ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى قام فى تكثير الأمّة حتى زاد عددها على مواقع القطر وأربى، وقال مما أمر به: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وعلى أقربائه صلاة تضمّ آلا وصحبا، ماسارت الشّهب تقطع الآفاق شرقا وغربا؛ وسلّم تسليما.

وبعد، فإنّ أولى ما اشتبك وشيجه، واشتبه فى منابت الأيك بهيجه، وانتبه فى أرائك الخمائل أريجه، وانتدب لإتيانه الأفق وظهر عليه من ذهب العشاء تمويهه ومن لمع الصّباح تدبيجه ـ ما اتّبعت فيه الشريعة المطهّرة حيث لا تختلف الأئمّه، والسّنة النبويّة على من سنّها أفضل الصلاة والسلام فيما تأتلف به البعداء وتكثر لمباهاته الأمم يوم القيامة هذه الأمّه، وتدنو به الأجانب بعضهم من بعض ويجعل بينهم مودّة ورحمه، وتعدّ به أياد جمّة لا تحصر ويخلّد به فى العاقبة شرف الذّكر ويتعجّل به شرف النّعمه؛ وهو النّكاح الذى تشتدّ به الأواصر، وتعتدّ به الموارد لتمثيل أكثر الصّور من أزكى العناصر، وتمتدّ به همم الأبطال لما يستخرجه بحفدة أبنائه من أتمّ قوّة وناصر. وأكمله ما تماثلت فى أشرف البيوت العريقة وجوه نخاره، وتقابلت فى مطالع السّعود ـ حيث البدر المنير والشّرف الخطير ـ مشارق شموسه ومطالع أقماره.

وكان الأبوان فى أهل الفخار من جرثومة بسقا، وأرومة تفرّقت فروعها ثم تلاقى منها غصنان واعتنقا، من بيت ما حجبه إلا مواضى الصّفاح، ولا شهبه

إلا طَلائعُ الأَسِنَّة فى رُؤُوس الرِّماح، ولا سُحُبه إلا ما يَفِيضُ علىٰ جَنَباتِه من النُّفوس او يَفيضُ من السَّماح، ولا سُجُفُه إلا المَنَاقِبُ لولا أن الثُّرَيَّا جاذبَتْ ما يعرِضُ فى السماء أَثْنَاءَ الوِشَاح ؛ وكان هو الرَّاغِبَ إلىٰ عَمِّه، الخَاطِبَ إليـه ما لم يكن يُخْبَأُ إلا لقِسْمِه، الطَّامِحَ بنَظَرِه إلىٰ عَقِيلة الفَخَار فى غُرَفِها، الطَّامِعَ بخِطْبَةِ الشَّمْسِ شَمْسِ النَّهار إلا أنها فى بَيْتِ شَرَفِها، المُتَوَقِّعَ من كَرَم عَمِّه الإجابةَ التى لحَظَها بأَمَلِه، وتَوْلِيَة يَدٍ كَرِيمةٍ لا يَعْتدِلُ الزمانُ إلا إذا حُلِيَتْ شَمْسُها فى بَيْتِ حَمَلِه ؛ تَوقُّعًا لنَسْلٍ لا يزال به شَرَفُ هذا البَيْت الكَرِيم مَوْجودا، ونَسَبٍ إذا عَدَّ وَلَدٌ منه الآباءَ عَدَّ جَدَّيْنِ سَعِيدَيْنِ هٰـذا مَسْعُودا وهٰذا مَحْمُودا ؛ فتَلَقَّىٰ قصـدَه بإكرامٍ بَوَّأَه أكْنَافَ الشَّرَف، وأَوطَأَه فُرُشَ الكَرَامَةِ ممتَّعًا بنَعِيم التَّرَف، ٱبتـداءً للكَرَم المألوف، وٱتِّباعا للسُّـنَّة الشَّرِيفةِ إذ كان الأَقْرَبون أَوْلىٰ بالمعروف .

فتَبارَيا جُودًا سارعَ كلٌّ منهما فى أَدَاءِ حَقِّه إلى الواجب، وتَجَارَيا إليـه ليَلْحقا شَأْوَ أَبَوَيْهما وكلٌّ منهما يعـلم أنه العَيْن والعَيْن لا تَرْتفِعُ على الحَاجب ؛ وأَتَمَّ الجنابُ الشَّرَفىُّ محمودٌ ـ أدام الله نِعمته بحُسْنِ إجابته، ويُمْنِ رَغْبتِه فى أَهْلِ عُصْبَتِه، وأَهَّلَ جُنُودَه إلىٰ أن سَارُوا إلى الهَيْجاءِ تَحْت عِصَابَتِه ـ بأن فَوَّضَ هـذا الأمر إلىٰ أَخِيه الكبيرِ وَالدِ الخاطِبِ، وسَكَت وقال : هو فى التَّصرف وعَنِّى المخاطب ؛ وله الأَمْرُ ولولا الشَّرفُ بنِسْبةِ الأُخُوَّة إليه لمـا قُلْنا : إلا أنَّنا مِلْكُ يَده ، وإذا كان العَمُّ صِنْوَ الأَب فأَىُّ فَرْقٍ بين وَلَدِى ووَلَدِه؟ ، ولَئِن ٱخْتَصَّ فى نِسْبةِ هذه الزَّوْجة فى يَوْمه هذا فإنَّ أولادها لا تُعْرف إلَّا به فى غَدِه ؛ فكَمُل هـذا العَقْد، وأَشْرق به السَّعْد الطالِـعُ أَضْوأَ مِمَّـا قَدَّم وأَخَّر من النَّقْد ، وكان من تَمَـام التَّكْرِيم، أَنْ قال قَائِلُه :

بسم الله الرحمن الرحيـم ... ...

وهذه نسخةُ صداق القاضى تقِىِّ الدِّين، وهى :

الحمدُ لله الذى رَفع إلى المَنازل العليَّة من كان تقِيًا ، وجَمع شَمْل من لم يبرحْ لسَنَن السُّنَن تابِعًا وبها حَفِيًّا، وخلَع أثوابَ الثَّوابِ علىٰ من سرَّح طَرفَ طَرْفه فى روْض التأهُّل وجعله وَضيًا .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمِه التى من هزَّ جِذْع نَخْلِها تساقَط عليه رُطبًا جنِيًّا ، ونَشْـكره علىٰ فَضْله الذى كَمْ أجرىٰ لقَاصِـدِه من بَحْرِه المعروف سَرِيًّا ، ونشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً تمنحُ قائلَها فى غُرَف الجنَّة مكانًا عليًا، ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه الذى آتاه الله الكتابَ وجعله نَبِيًا، الآمِرَ أمَّتَه بالنِّكاح ليُكاثِرَ بهم الأُمَمَ يومَ يُقرِّبُه اللهُ نَجِيًّا ، صلّى الله عليه وعلىٰ آلِه وأصحابِه الذين كان يحُلّ منهم فى حَالَتِى الكَرم والكَرامات وَلِيًّـا ، ما أَطْلَعَ التوفيقُ فى آفاق الاتِّصالِ من الأَنْساب الكَرِيمـة كَوْكبًا دُرِّيًّا ، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعـدُ، فإن أَوْلىٰ السُّنَن بالاتباع سُنَّةُ النِّكاح، التى أَخْفىٰ نُورُ مِصْباحِها شَمْسَ الصَّباح، وخَفَقتْ علىٰ مَعالِمها أعلامُ النَّجاةِ والنَّجاح، وحُمِدَ المَسيرِ إلىٰ رُبُوعها الآهِلة بأَهِلَّة العِصْمة فى الغُدُوِّ والرَّواح ؛ يالها سُنة سُنَّةُ وجْهِها جَميله ، وأصابِـعُ نيلِ نَيْلِها بل أياديه جَزِيلَه ؛ بها تَحْمىٰ أشْجار النَّسَب ويَطيب جَناها، وتبلغُ النفوسُ من الصِّيانة أَقْصىٰ مُناها ؛ ويَظْفر أُولُو الرَّغْبة فيما أَحَلَّ الله بمَطْلُوبهم ، وتُؤلِّف بين من لَوْ أَنْفقتَ ما فى الأَرْض جميعًا ما أَلَّفْتَ بين قُلُوبِهم؛ وهى الوَسيلة التى تُكَثِّر سَوَادَ هٰذه الأمَّه، والذَّريعـةُ إلىٰ [بقَاء] النَّوْعِ الذى أظهرَ الله فى سَمـاء التَّكريم نَجْمَه ؛ وإليها الإشارةُ فى قوله تعالىٰ : ﴿ وَمِنْ آيَاتِه أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ موَدَّةً ورَحْمه ﴾ .

ولما كان كذلك رَغِب فى ٱقْتِناء آثَارِها، وٱهْتَدىٰ بالضَّوْءِ اللَّامع من أقْمارها؛ مَن يتشرفُ المَكَانُ بذِكْرِ وَصْفِه، ويتَعطر ما ٱنْتَشر فى طِيبِه من طِيبِ عَرْفِه؛ مَاجِدٌ عَمَر البلادَ السَّاحِليَّةَ بدوام دِيْنِه، وجَوَادٌ ما جاوره البَحْر إلا لِيَقْتبِسَ من كَرَمه؛ ورئيسٌ ٱمْتطىٰ ذِرْوة العَلْياء بحُسْنِ السُّلوك، وأَرْيَحِيٌّ لو لم يكن صَدْرًا لما أُودِعَ سِرَّ الملوك؛ إن تكلَّم أبْرَزَ لك الجَوْهر المَصُون، وإن كَتَب ضَحِكَتْ لبُكاء قَلَمِه ثُغُور الثُّغور والحُصُون؛ لِلّٰهِ نَسَبه المشهورُ بين الأَكابر الأَعْيان، وبَيْتُه المعمورُ بالعِينِ المَرْفُوعِ خَبَرُها إلىٰ فِتْيان؛ فَخَطب من عَلَا قَدْرُها، وٱشْتَهر بالحُسْنِ الجَمِيلِ ذِكْرُها؛ وجَلَّتْ عن أن تَرَى العُيُونُ لها فى الصَّوْنِ شَبِيها، وعَمَّت البِقَاعَ سُحُبُ بَرَكَةِ أبيها؛ أَكْرِمْ به عالِمًا عامِلَا، وإمامًا لم يزلْ يُبْدِى فَضْلا ويُسْدِى نائلا؛ كَمْ له من آثَارٍ مَشْهُوره، ومَناقِبَ مَأْثوره، وصَدَقاتٍ مَبْروره، ومَوَاطِنَ بذِكْرِ الله مَعْمُوره .

فقُوبِل بالبِشْر قَوْلُ رَسُوله، ورُدَّ رائِدُه مُخْبِرًا ببلُوغِ سُولِه؛ وقيل له بلِسَانِ الحَال:

هذا ما كانت تَنْتَظِرُ الآمال؛ يالَه عَقْدا غَلَتْ جَواهِرُ عُقُوده، وأنارتْ فى آفَاقِ الٱتِّفاقِ أَنْجُم سُعُوده؛ وتَمَايَلَتْ قُدُود أَغْصانِ الأَفْراح، وزَهَتْ مجالِسُ السُّرور بالٱنْشِراح؛ وهَبَّتْ قَبُول الإقبال، وقام القَلَم خَطِيبًا على مِنبر الطِّرْس فقال :

هذا ما أصدق... ... .

وهذه نسخةُ صداقٍ من إنشاء الشيخ صلاح الدين الصَّفَدىّ، للقاضى بَدْرِ الدين خَطِيب بَيْتِ الآثار، علىٰ بِنْتِ شمسِ الدِّين الخَطِيب من بَيْتِ الآثار، تُسَمَّىٰ سُولى، فى مُسْتَهل جُمادَى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وسَبْعمائة، فى مجلس مولانا قاضى القضاة تَقِيِّ الدين السُّبكىّ الشافعىّ، أدام الله أيَّامَه، وهى :

الحمدُ لله الذى زَيَّن سماءَ المَعالى ببَدْرِها، وأَنْبتَ فى رِياضِ السَّعادَةِ يانِعَ زَهْرِها، وأَلْهَم ذَوِى الهِمَم أن يَبْذُلوا فى الكَرائِم غَوالِىَ مَهْرِها .

نحمَـدُه علىٰ نِعَمِه التى حَلَّتْ ما صَفا من لِبَاسِها ، وسَوَّغَتْ ما صَفَا من رُضَابِ كَاسِها، وخَصَّنا بمـا عَمَّت به من أنواع أجْناسِها ؛ وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، أَعْلَمَنا فِى الإيمـان نَصَّها بالأداء، وبَنَى ٱسْمَها على الفَتْح كما فُتِح المضافُ فى النِّداء، ورفَعَ خَبَرها : إمَّا علىٰ رَأْيِ الرُّواة للشُّهرةِ وإما عَلىٰ رأى النُّحاةِ بالٱبتـداء ؛ ونشهدُ أن سيدَنا محمَّدًا عبـدُه ورسولُه الذى شَرَع النِّكاح لهذه الأُمَّه، ومَنَع السِّفاحَ فلم يكن أَمْرُنا علينا غُمَّه، ونَهَج الصَّوابَ فمـا ظَنُّك بالصَّباح إذا ٱبتلج عَقيبَ اللَّيلةِ المُدْلَهِمَّه ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين تَلَقَّوْا أَوامِرَه بالطاعه، وٱجْتَنَبوا نَواهِيَـه حتَّىٰ بلغوا جُهْد الٱسْتِطاعه، وفَهِمُوا مُرادَه بمُكاثَرَة الأُمَم فكان البِضاعُ عنـدهم خَيْرَ بِضَاعَه ؛ صلاةً رِضْوانُها يُضِىء إضاءةَ الكواكب فى أَبْرَاجِها، وغُفْرانُها يُكاثِرُ البِحارَ فى أَعْدادِ مَوْجِها ؛ ما ٱتَّصل سَبَبٌ بالنكاح ، وٱنْفَصل نَسَبٌ بالسِّفاح ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وبعـدُ ، فإن النِّكاح من مَحاسِنِ هذا الدين القَيِّم ، وفَضَائِل هـذا الشَّرْع الذى لا زال شَرَفُه بَدْرًا بين مُشْرِقاتِ النُّجوم وهو مُخَيِّم ؛ به يُحْفَظُ النَّسَبُ الشَّرُود، ويُرْعىٰ عَهْدُ القَرِينة الوَلُودِ الوَدُود .

وكان فلانٌ ممن أَشبه أباه، وأَبْيَنِ ما أَوْدعه من نَفَائِسِ العُلُوم وحَباه؛ تَصدَّر فى المَجالِس ، ودَرَّس فى المَدارِس ، وأَوْرد ما عنـده من النَّفائِس؛ كَيْفَ لا ؟ وهو سِبْط شـيخ الإسلام وإمَامِ المسلمين ، وقاضِي قُضاة الشَّافِعيَّـة وأَوْحَدِ المجتهدين؛ وقد أراد الآنَ إحْصانَ فَرْجه، وأن تَنْزِلَ الزُّهَرَةُ مع بَدْره فى بُرْجه .

فلذلك رَغِب إلى المَجْلس العـالى (المسمى) وخَطَب الجهـة المَصُونةَ المُحَجَّبة، النَّقِيَّة، التَّقِيةَ، العَفِيفةَ، الخَاتونَ، غُصْنَ الإسلام، شَرف الخَواتين، جَمَالَ ذَواتِ السُّتور، قُرَّةَ عين الملوك والسلاطين، السَّيِّدةَ "سُولى" بنتَ فلان، صان الله حِجَابَها ـ فأَكْرَم مَوَارِدَ قَصْدِه، وحَبَاه أَنْفَس دُرَّةٍ فى عِقْدِه .

فلذلك قام خَطِيبُ هذا الحَفْلِ الكريم، والنَّجْمُ الذى لم يَزَلْ نَجْمُه بالطَّالِـع المُسْتقيم، وقال :

بسم الله الرحمن الرحـيم ... ...

قلتُ : وهـذه نسخةُ صداقِ زَيْن الدِّين صَدَقة السَّيْفِيّ أزدمر، علىٰ بنت أمير المؤمنين «المُتوكِّل على الله» . أنشأتُه له فى خِلافةِ أَخِيها المستعينِ بالله العَبَّاسيّ، وهى :

الحمدُ لله مُسْتخرِجِ الدَّوْحَةِ الهاشِمِيَّةِ من أَطْيَبِ العَنَاصر، ومُفَرِّعِ النَّبْعَةِ العَبَّاسية من أَكْرَم صِنْوٍ انْعَقدتْ علىٰ فَضْـلِه الخَنَاصر، ومُخَصِّص بيْتِ الخـلافة منها بأعَزِّ جانِبٍ ذَلَّتْ لعِزِّه عُظَماءُ الملوكِ ما بين مُتَقَدِّم ومُعاصِر .

نحمدُه علىٰ أن صَانَ عقائِلَ الخُلَفاء بمَعاقِلِ الحَسَب، وحَصَر كَفَاءَتَها فى العِلْم والدِّين حيثُ لم يُكافَأ بحِرْفَةٍ ولا نَسَب ؛ ونشهدُ أن لاإلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له الذى سَنَّ النِّكاحَ وشَرَعه، وأرْغَم بالحِـلِّ أَنْفَ الغَيْرة لَدَى الإبَاءِ وقَمَعه ؛ شهادةً يُسْتَنْشَقُ من رَيَّا عَبِيرِها كُلُّ شَـذًى أَرِيج، وتُجْتَنَىٰ ثِمـارُ يَنْعِها بشريف النِّتاج من كلِّ زَوْجٍ بَهِيج ؛ ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفضلُ نَبيٍّ وَفُرَ فى الفَضْل سَهْمُه حتى لم يُسَاهَم، وأَكْرَمُ رسولٍ رَخَّص فى تَزْويج بَنَاتِه من صِحَابه وإلا فأَيْنَ كُفْءُ رسولِ الله من العَالَم ؟ ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين شَرَّفهم بقُرْبه، وقَرَن الصِّهْر

بالنَّسبِ فيهم نخصَّ مُصاهَرته أَخَصَّهُمْ به ؛ صلاةً تَصل سَبَبَ قائلِها بسَبَبِه ، وتجعلُ الفَخَار بها كلمةً باقِيَةً فى عَقِبِه ؛ وسلَّم تسليمًا كثيرا .

وبعدُ، فإنَّ أولىٰ ما أطال فيه المطيلُ ، وشُحِذَ فى وَصْفِه الذِّهْنُ الكَليل، ورُقِمَتْ مَحاسِنُ ذِكْرِه علىٰ صَفْحة النَّهار بذَائِبِ ذَهَبِ الأَصِيل ـ ما تَواصَلَتْ به الأَنْساب ، وتُوُصِّل بواسطته فى دَرَارِيِّ الدَّرَارِى إلىٰ شَرَف الأَحْساب؛ وتَوفَّرتْ عليه الدَّواعِى فآشْتدَّتْ به الأَوَاصِر، وحَسُنَتْ فى طريق قَصْدِه المَساعِى فتأَكَّدتْ به المَودَّةُ فى البَوَاطِن والظواهر . وهو النِّكاحُ الذى نَدَب اللهُ تعالىٰ إلىٰ مُعاطَاتِه، وحَضَّ على التَّحلِّى بحَلْيِه حتى أَلْحقه بالعِبادة فى بَعْض حالاته؛ طَلَبًا للتَّحْصِين الكافل بسُلُوك نَهْج الآستقامه، ورَغْبةً فى تَكْثِير النَّسْلِ الواقع [به] مُكاثَرةُ الأُمَمِ يومَ القيامَه .

هـذا وكَرَائِمُ بَيْتِ الخلافَه ، ورَبائِبُ مَحْتِدِ المَجْد والإِنَافَه ؛ فى حَيِّزٍ لو طَلَب مُناوِ مُكافَأتَها لطَلَب مُعْوِزا ، أو رَامَ مُقاوِمٌ مُضاهَاتَها فى عُلُوِّ الرُّتْبة لَرَامَ مُعْجِزا ؛ لِما آختصَّتْ به من السِّيادة التى لا يُرْقَىٰ إلىٰ مَنْزلتها، والمَعالِى التى لا تَسْمو النُّفُوسُ وإن شَمَخَتْ إلىٰ رُتْبَتِها ؛ إذ كان النَّظيرُ لشَرَفِ أُرُومَتِها مُمْتَنِعا، والنَّقِيضُ بما ثَبَت من طِيبِ جُرْثُومَتِها مُرْتَفِعا؛ فبَرْقُ مَعالِيها فى التَّطاوُلِ لا يُشَام ، وجَوْهَرُ فَخَارِها فى المآثِرِ لا يُسَامىٰ ولا يُسَام ؛ فعَزَّ بذلك فى الوُجُود مُكافِيها، وآمْتَنَع ـ خَوْفَ الهُجُوم بالآختطابِ ـ مُوافِيها ؛ إلا أن المَوَاقِفَ الشريفةَ المقدَّسةَ المُتوكِّليَّةَ ـ زاد الله تعالىٰ فى شَرَفِها، وأدام رِعايَتَها بحُلَّة الملوك وحِمايَتِها وكَنَفِها ـ مع ما آنفردتْ به من العِزِّ الشَّامِخ الذى لا يُساوَىٰ، والشَّرفِ البَاذخ الذى لا يُنَاوَىٰ؛ قد رَغِب تَفَضُّلُها فى أَهْلِ الفَضْل فمال إليهم، وآختصَّ بإقباله أَهْلَ الدِّين فأقبل بكُلِّيتِه عليهم ؛ مُحِلًّا لهم من شريف مقامه العَلِيِّ مَحَلَّ الآصطفاء ، ومُقدِّمًا لهم فى المُصاهَرَة علىٰ أبناء المُلُوك والخُلَفاء ؛ فوافَق

فى الفضل شَنَّ طَبقَه، وحاوَل سارّةَ النِّعم منها خيرُ خاطِبٍ فتلقَّى بقبولٍ : إنَّ الله تَصَدَّق عليكم بصَدَقه؛ فعند ذلك ٱبْتَدَر القلمُ مِنْبَر الطِّرْس فخَطَب، وخَطَب بالمحامِد لِسانُه اللَّسِنُ فكَتَب :

هذا ما أَصْدق العَبْدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ، الجَنابُ العَالى، الأَميرىُّ، الكَبيرىُّ، الشَّيْخىُّ، الإمامىُّ، العالِمىُّ، العامِلىُّ، العَابِدىُّ، الخاشِعىُّ، النَّاسِكىُّ، البَليغىُّ، المُفَوَّهِىُّ، الصَّدْرىُّ، الرَّئيسىُّ، الأَصيلىُّ، العَريقىُّ، الزَّيْنىُّ، أبو المعالى صَدَقَةُ ـ الجِهَةَ الشَّريفةَ العاليةَ، الكُبْرىٰ، المعظمةَ، المحجَّبةَ، المَصُونةَ، سَليلةَ الخلافةِ، فَرْعَ الشجرةِ الزَّكيَّة، جليلةَ المَصُونات، جَميلةَ المُحَجَّباتِ، سَارَّةَ، البِكْرَ البَالِغَ، ٱبنةَ سيِّدنا ومولانا المَقَامِ الأشرفِ، المقدّسِ، العَالِى، المَوْلَوِىِّ، السَّيِّدىِّ، الإمامىِّ، النَّبَوىِّ، المُتَوكِّلِ على الله "أبى عبدالله محمد" أميرِ المؤمنين، ٱبنِ المقامِ الأشرفِ العالى، المَوْلوىِّ، الإمامىِّ، المُعْتَضِدِ بالله "أبى الفَتْح أبى بَكْرٍ" بن الإمام المُسْتكفِى بالله "أبى الرَّبيع سُلَيمان" ٱبن الإمامِ الحاكِم بأمر الله "أبى العباسِ أحمد" لازال شَرَفُه باذِخا، وعِرْنِينه الشَّريفُ شامِخا، وذِكْرُ مَناقِبه العَلِيَّة لكلِّ مَنْقَبةٍ ناسِخا ـ صَداقًا جُمْلته كذا وكذا، زَوَّجَها منه بذلك فلانٌ، وقَبِلَه فلانٌ، وتَمَّ علىٰ بَرَكَة الله تعالىٰ وحُسْنِ تَوْفيقه، كاملةً شُروطه ولَوازِمه، مُباركةً عُوَذُه وتَمائِمُه، مَيْمونةً فَواتِحُه وخَواتِمُه، مُفْتَتَحةً بِطيب العَيْش أزاهِرُه مُفْتَرَّةً عن [نَوْرِه] إن شاء الله تعالىٰ كَمائِمُه .

الفصل الخامس

من الباب الأوّل من المقالة العاشرة

(فيما يُكتب عن العُلَماء وأهلِ الأَدَب مما جَرَت العادة بمراعاة النَّثْر المسجوع فيه، ومُحاوَلَة الفصاحة والبلاغة، وفيه طرفان)

الطرف الأوّل

(فيما يُكْتب عن العلماء وأهْلِ الأدب، ثم هو علىٰ صنفين)

الصنف الأوّل

(الإجازاتُ بالفُتْيا والتَّدْريس والرِّواية وعِرَاضَاتِ الكُتُب ونحوها)

أما الإجازة بالفُتيا، فقد جرتِ العادةُ أنه إذا تأَهَّل بعضُ أَهْلِ العِلْم للفُتْيا والتَّدْريس — أن يَأْذَنَ له شَيْخُه فى أن يُفْتِيَ ويُدَرِّس، ويَكْتُبَ له بذلك. وجَرَتِ العادةُ أن يكونَ ما يُكْتَبُ فى الغالب فى قَطْعِ عرِيضٍ، إما فى فَرْخَة الشَّامىِّ أو نَحْوِها من البَلَدِىّ، وتكونُ الكتابةُ بقَلَمِ الرِّقاعِ أَسْطُرًا متوالية، بين كلِّ سطرين نحوُ أُصْبُعٍ عريضٍ.

وهذه نسخةُ إجازَةٍ بالفُتْيا والتَّدْرِيس علىٰ مَذْهَبِ الإمام الشافعىّ رضى الله عنه وأرضاه، كُتِبَتْ لِى حين أَجازَنِى شيخُنا العلَّامة سِراجُ الدِّينِ أبو حَفْصٍ عُمَرُ بن أبى الحسن الشهير بابن المُلَقِّن، سَقَى الله تعالىٰ عَهْدَه، عند قدومه ثَغْرَ الإسكندرية، وأَنا مُقِيمٌ به فى شهور سنة ثمان وسبعين وسبعمائة، وكَتَب لى بذلك القاضى تاجُ الدِّين بن غنوم مُوَقِّعُ الحُكْم العزيز بالإسكندرية فى دَرْجِ وَرَقٍ شامىٍّ فى قَطْعِ الشامىّ الكامِل، وسِنِّى يومئذٍ إحدىٰ وعِشْرون سنةً، فَضْلًا من الله ونِعْمَة.

ونُسْخَتُها بعد البَسْمَلةِ الشريفة :

الحمدُ لله الذى رفَعَ للعُلَماء مِقْدارا ، وأجْزَل نِعَمَه عليهم إذْ أَعْلىٰ لهم مَنَارا ، ووَفَّق بسَواءِ الطَّرِيق مَن آقتدىٰ بهم إيرادًا وإصْدارا ، أَشْرعَتْ هِمَمُهم العَلِيَّةُ فى حَلْبة السِّباقِ فهى لا تُجارىٰ ، وتَحَلَّوْا بالمَفَاخرِ جَهْرًا وقد عَجَز غيرهم أن يَتَحلَّىٰ بها إسْرارا ؛ أَبْرز بهم فى هَالَاتِ المَفَاخِر أَقْمارا ، وأَزَالَ بِضياءِ عُلُومِهم رَيْبَ الشَّكِّ حتَّىٰ عاد لَيلُ الجَهَالةِ نهارا ؛ جَعَلهم لدِينِه أنصارا ، وصَيَّرهم نُخْبةَ أَصْفِيائه إذ أَوْدعهم من المَعَارِف أَسْرارا ، وآختَصَّهم بكَوْنِهم وَرَثَة أنبيائه : ونَاهِيكَ بها فَخَارا .

أحمَدُه حَمْدَ من هُدِىَ إلى الحَقِّ فجعله شِعارا ، وآستضاء بنُورِ الهُدَىٰ فلَجَأَ إلىٰ مولاه فى حَالَتَىْ سِرِّه وجَهْرِه آفْتِقارا ، وعَجَز عن شُكْرِ ما أسْدَىٰ إليه من النِّعَمِ لمَّا تَوالَى عليه وَبْلُها مِدْرارا ، وأشهدُ أن لا إِلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له تَصْدِيقاً وإقرارا ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه أرسلَه والأَصنامُ قد عُبِدَتْ جِهارا ، والكُفَّار قد أعرضوا عن الحقِّ آستكبارا ، فقام بأَمْرِ الله آنْتِصارا ، وقَهَر مَن أَعْرضَ عن الله آغْتِرارا ، وأَخْمد بِضياءِ نُورِه البَاطِلَ وأَهْدره إهْدَارا ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه صلاةً تَزِيدنا فى دِينِنا آسْتِبْصارا ، وتَحُطُّ عنَّا من ثِقْلِ الذُّنوب أَوْزَارا ، وتُبَوِّؤُنا إن شاء الله تعالىٰ فى دار الخُلُود قَرَارا .

أما بعدُ ، فقد وَضَحَ لذَوِى الأَبْصار والبَصَائِر ، وآتَّضَح عند ذَوِى الأَسْرار والسَّرائِر ، وآسْتَقَرَّ عند ذَوِى القُلُوب السَّلِيمه ، والعُقُولِ الرَّاجِحة المُسْتقيمه ؛ أنَّ منزلةَ عِلْمِ الشَّرِيعة عند الله تعالىٰ أَعْلى المَنَازِل ، وفَضْلَه أَفْضلُ المَآثِر وآثَرُ الفَضَائل ؛ وخُصوصًا معرفةُ تفاصيلِ أَحْكامِ أفعالِ المُكلَّفِين بالشَّرِيعة المُحَمَّدِيَّه ، التى مَن عَلِمَها وعَمِلَ بها وعَلَّمها فقد سَعِد السَّعادةَ الأَبَدِيه ؛ إذ هى الشريعةُ الجامعةُ لمصالح الدُّنيا والآخِره ،

النّاسخةُ لمـا خالَفها من الشَّرائع الغابِره ، الباقيةُ إلىٰ أن يأْتِىَ وَعيـدُ الله وكُلُّ شريعةٍ سواها دَاثِرَه ؛ فقد أَعْظم اللهُ تعالىٰ علىٰ مَن حَفِظها علىٰ عِبادِه المِنَّه ، إذْ جعله وِقايةً لهم من مَهَالك الجَهْل وجُنَّه ، ووعَده أن يَنْزِل فى أعلىٰ منَازل الجَنَّه ، لمـا شَهِدتْ به نُصُوص الكِتاب والسُّنَّه ؛ قال الله تعالىٰ لِنَبِيِّه صلَّى الله عليه وسلم : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ . فنبَّهه علىٰ أنَّ العِلْمَ أقوىٰ أسباب العِبَاده ، إذْ خَصَّه به وحَضَّه علىٰ أن يَطْلُب منه الزِّياده . وقال تعـالىٰ : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ والرَّاسِخُون فِى الْعِـلْمِ ﴾ . فثَنَّى بِذِكْرِهم بعده ، لكَوْنهم أفضلَ الخلَائِق عنده . وقال تبارك وتعالى آسمُه ، وتقدّس عِلْمُه : ﴿ إِنَّمَـا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِه العُلَمَاءُ ﴾ . فأوضح بذلك أنَّ أولياءه من خَلْقِـه العُلَماء ، إذ وصفهم وخَصَّهم بأنهم الخائِفُون منه الأَتْقِياء . وقال عليه السلام : "مَنْ يُرِدِ اللهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فى الدِّين" . وقال أيضا : "مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ له طَرِيقًا إلى الجَنَّـة" . وقال أيضا : "أَلَا إِنَّ الدُّنْيا مَلْعُونةٌ مَلْعُونٌ ما فيهـا إلا ذِكْرُ الله تعالىٰ وما وَالَاه ، وعَالِمٌ ومُتَعَلِّمٌ" .

ولمـا كان فلانٌ ــ أدام الله تعالىٰ تَسْديدَه وتَوْفيقَه ، ويَسَّر إلى الخيرات طَرِيقَه ــ مِمَّن شَبَّ ونَشَأَ فى طَلَب العِلْم والفَضِيله ، وتَخَلَّق بالأخلاق المَرْضِيَّة الجميلةِ الجَليله ؛ وصَحِبَ السَّادةَ من المشايخ والفُقَهاء ، والقَادَة من الأَكابِر والفُضَلاء ؛ وآشْتَغل عليهم بالعِـلْمِ الشريف آشتغالًا يُرضِى ، وإلىٰ نَيْل السعادة ــ إن شاء الله تعالىٰ ــ يُفْضِى ــ آستخار اللهَ تعـالىٰ سَيِّدُنا وشَيْخُنا وبَرَكَتُنا العَبـدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ ، الشيخُ الإمام العَلَّامه ، الحَبْرُ الفَهَّامه ، فَرِيدُ دهره ، ونَسِيجُ وَحْده ، جمال العُلَماء ، أَوْحَد الفُضَلاء ، عُمْدة الفُقَهاء والصُّلَحاء ، سراجُ الدِّين ، مُفْتِى الإسلام والمسلمين ، أبو حَفْص عمرُ آبنُ سيدنا العبْدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ ، الشيخِ الإمامِ العالمِ ، العامِلِ ، الأَوْحدِ ، الكامل ، القُدْوة ، المرحومِ نُور الدين أبى الحسن علىّ ، آبنِ سيدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ ،

الشيخِ الصالحِ، الزاهدِ، العابدِ، الخاشعِ، الناسكِ، القُدْوةِ، المَرْحومِ شِهابِ الدِّين، بَرَكةِ الصالحين، أبى العبَّاس أحمدَ، ٱبنِ سيدِنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ، الشيخِ الصالحِ، القُدْوةِ، العارفِ، المرحومِ، شَمسِ الدِّين، أبى عبد الله محمد الأنصارىِّ الشافعىِّ، أدام الله تعالىٰ النَّفْعَ به وببَرَكَتِه، وأشْرَكَنا والمسلمين فى صالح أدْعِيَتِه، بمحمدٍ وآله وصَحْبه وعِتْرَتِه.

وأَذِن وأجاز لفلان المسَمَّىٰ فيه، أدام الله تعالىٰ مَعاليه، أن يُدَرِّس مَذْهبَ الإمام المجتهِد المُطْلقِ العالم الرَّبَّانىِّ، أبى عبد الله محمدِ بن إدريس المُطَّلِبىِّ، الشافعىِّ، رضى الله عنه وأرضاه، وجعل الجَنَّةَ مُتَقَلَّبَه ومَثْواه؛ وأن يقرأ ما شاء من الكُتُب المصَنَّفة فيه، وأن يُفيد ذلك لطَالبيه، حيثُ حَلَّ وأقام، كيف ما شاء متىٰ شاء وأين شاء، وأن يُفْتِىَ مَن قَصد ٱستِفتاءَه خَطًّا ولفظا، علىٰ مقتضى مَذْهَبه الشريف المشار إليه: لعِلْمِه بديانته وأمَانَتِه، ومَعْرِفته ودِرَايَته، وأَهْلِيَّتِه لذلك وكفايَته.

فلْيَتَلَقَّ أيده الله تعالىٰ هذه الحُلَّة الشريفه، وليَترَقَّ بفَضْلِ الله تعالىٰ ذِرْوَة هذه المرتبة المُنِيفَه، وليعلَمْ قَدْرَ ما أنعم الله تعالىٰ عليه، وأسْدَىٰ من الإحسان الوَافِرِ إليه؛ وليُراقِبْه مراقبةَ من يعلم ٱطِّلاعَه علىٰ خَائِنَةِ الأَعْيِنِ وما تُخْفِى الصدور، وليُعامِلْه معاملةَ مَن يَتَحَقَّق أنه يعلم ما يُخْفِيه العبد وما يُبْدِيه فى الوُرُود والصُّدُور؛ ولا يَسْتَنْكِفْ أن يقول فيما لا يَعْلَم: لا أَعْلم: فذاك قَوْلُ سعدَ قائِلُه. وقد جاء: "جُنَّةُ العالِمِ لا أَدْرِى فإن أخْطَأَها أُصِيبَتْ مَقَاتِلُه" فالله تعالىٰ يرزقنا وإياه التَّوفيقَ والتحقيق، ويَسلكُ بنا وبه أقْرَبَ طريق؛ ويهدينا إلىٰ سواء السبيل، فهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

وكُتِب فى تاريخ كذا.

وكتب شيخُنا الشيخُ سراج الدين المشارُ إليه تحت ذلك بعد حمد الله تعالىٰ ما صُورتُه:

ما نُسِبَ إلىَّ فى هذه الإجازة المُبارَكَة من الإذْنِ لفلانٍ ـ أدام الله تعالىٰ النَّفْعَ به ، وأجزَلَ كلَّ خيْرٍ بسَببه ، بتَدْرِيس مَذْهب الإمام المُطَّلِبىّ ، محمدِ بن إدريسَ الشافعىّ ، قَدَّسَ الله رُوحَه ، ونَوَّرَ ضَرِيحَه ، والإفتاءِ به لفظًا وخَطًّا ـ صحيحٌ . فإنه ممن فَاقَ أقْرانَ عَصْره بذَكَائه ، وبَرَع عليهم بالاستحضار وتَحْرِير المَنْقُول ووَفَائه .

وقد اعْتَنىٰ وَفَّقه الله تعالى وإيَّاىَ من جملة محفوظاته بـ "مُخْتَصَر الجوامع" لشيخنا العَلَّامة كمالِ الدِّين النشائىّ تغمده الله تعالى بغُفْرانه ، فاستحضر بحَضْرَتى مواضِعَ منه جَمَّـه ، وأزال بِبديع فَصَاحَتِه جُمْلَةً مُدْلَهِمَّـه ، وأظهر من مُشْـكِلاته ما يعْجِزُ عنه اللبيب ، ومن أغَارِيبِه ما يقفُ عنده البارع الأَرِيبُ .

فليتَّقِ اللهَ حينئذٍ فيما يُبْدِيه ، ولْيَتَحَرَّ الصوابَ فى لَفْظِه وخَطِّه ولْيراقِبِ اللهَ فيه ؛ فإنه مُوَقِّعٌ عن الله تعالىٰ فَلْيحْذَرِ الزَّلل ، ومُحاوَلَةَ الخطإ والخَطَل ؛ ويَسْتَحْضِرْ ما اشتملتْ عليه من الجـلاله ، فإن الله تعـالىٰ تولَّاها بنَفْسِه حيثُ قال : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الكَلَالَه﴾ .

وأجَزْتُ له مع ذلك أن يروِىَ عنِّى مالِى من التآليف ، ومنها "جَامِعُ الجوامع" أعان اللهُ علىٰ إكماله ، وكذا شرح "صَحِيح الإمام أبى عبد الله محمـد بن إسمـاعيلَ البُخارىّ" . ومنها "البَدْرُ المنير ، فى تخريج الأحاديث والآثار الوَاقِعَـةِ فى الشَّرْح الكبير" للامام أبى القاسم الرَّافعىّ . وبه تكمُلُ معرفة الفَقيه ويَصِير محدِّثا فَقيها .

وأجزتُ له مع ذلك ماجاز لِى وعَنِّى رِوَايتُه بشَرْطه عند أهله ، زاده الله وإيَّاىَ من فَضْله . ومنها الكُتُب الستة : "البُخَارِىّ" و "مُسْلم" و "أبو دَاود" و "التِّرمذِىّ" و "النَّسائىّ" و "ابن مَاجَه" . والمسانيد : "مُسْـند أحمد" و "مُسْند الشافعىّ" وغير ذلك .

وكان ذلك فى تاريخ كذا . وكَتَب عمرُ بن علىّ بنِ أحمدَ الأنصارىُّ الشَّافِعىّ ، غفر الله لهم : حامدا ومُصَلِّيا ومُسَلِّما ، وأشهدَ عليه جماعةً من أهل العلم بآخره .

قلتُ : وتكون ألقاب المُجازِ علىٰ قَدْر رُتْبته ، مثل أن يُكْتبَ له : «الفقيرُ إلى الله تعالىٰ ، الشيخُ ، الإمامُ ، العالِمُ ، العاملُ ، الأوْحَدُ ، الفاضـلُ ، المُفيد ، البارِعُ ، عَلَمُ المفيدين ، رُحْلةُ القاصدين ، فلانُ الدين ، أبو فلان فلانُ بن فلان» (بحسب رُتَبِ آبائه) . وإنمـا أهملتُ ذِكْرَ الألقابِ فى هذه الإجازة ، من حيثُ إنه لايليقُ بأحدٍ أن يذكرَ ألقابَ نَفْسِه فى مُصَنَّفٍ له ، لأنه يصير كأنَّه أثنىٰ علىٰ نَفْسه .

وأمَّا الإجازة بعِرَاضةِ الكُتُب ، فقد جَرَتِ العادةُ أن بَعْضَ الطَّلَبة إذا حفظ كتابًا فى الفِقْه ، أو أصول الفِقْه ، أو النَّحْوِ ، أو غير ذلك من الفنون ، يَعْرِضُه على مشايخ العَصْر ، فيقطَعُ الشيخُ المعروضُ عليـه ذلك الكتاب ، ويَفتَحُ منه أبوابًا ومواضع ، يَسْتقرِئُهُ إيَّاها من أىِّ مكان ٱتَّفق ، فإن مضىٰ فيها من غير تَوَقُّفٍ ولا تَلَعْثُمٍ ، ٱستدلَّ بحفْظه تلك المواضـعَ علىٰ حِفْظه لجميع الكتاب ، وكتبَ له بذلك كلُّ من عُرِضَ عليـه ، فى وَرَقٍ مربَّعٍ صغيرٍ ، يأتى كلٌّ منهم بقَدْر ما عنده من المَلَكةِ فى الإنشاء ، وما يناسبُ ذلك المقامَ من براعة الاستهلال ونَحْوِها : فمن عالٍ ، ومن هابِطٍ . وربَّمـا خَفَّف بعضهم فكتبَ : «وكذلك عَرَضَ علَىَّ فلان» ، أو : «عُرِض علىّ وكتبه فلان» . إما رِياسَـةً وتأبيًا عن شُغْلِ فِكْرِه وكَدِّ نَفْسِه فيما يكتبه ، وإما عجزًا عن مُضَاهَاة من يكتب معه .

وقد ٱخترتُ أن أضَعَ فى هذا المحلِّ ماوافق الصنعةَ ، وجرىٰ علىٰ أسلوب البلاغة .

فمن ذلك ما كتب به الشيخُ الإمامُ العلَّامة ، لسانُ العرَب ، وحُجَّة الأَدب ، بَدْر الدين محمدُ بنُ أبى بكر المخزومىّ المـالكىّ ، للنَّجْلِ النبيل الذى تنتهى الألقاب ولانهاية

لمناقبه، شهابِ الدِّين أبى العباسِ أحمدَ ٱبنِ سيدنا الفقيرِ إلى الله تعالىٰ، ذى الأوْصاف التى تكِلُّ شَبَا الألْسُنِ عن حَدِّها، شمسِ الدِّين أبى عبد الله محمد العُمَرِىّ الشافعىّ، حين عرض عليه "عمدةَ الأحكام" للحافظ عبد الغَنِىّ، و"شُذُورَ الذَّهب" للشيخ جمال الدِّين بن هِشَام، فى رمضان سنة سبع عشرة وثمــانمــائة، وهو :

أما بعدَ حَمْدِ الله على كَرَمِه الذى هو عُمْدتنا فى النَّجاة يوم العَرْض ونَاهِيكَ بها عُمْدَه، وسَــنَدُنا الذى لايزال لِسَانُ الذَّوْق يَرْوِى حَدِيثَ حلاوته عن صَفْوانَ بن عَسَّال من طريق شُهْدَه؛ والصلاةِ والسلامِ علىٰ سيدنا محمدٍ الذى أحْيا برُوحِ سُنَّته الشريفــة كلَّ من جاء ومن ذَهَب، وأعْرَبَتْ كلماتُه النَّفِيســةُ عن عُقُود الجوهر و"شُــذُورِ الذَّهَب" وعلىٰ آله وصَحْبه الذين أحسنوا الرواية والدِّرايه، وبَنَوْا الأمْرَ علىٰ أسَاسِ التقوىٰ وأعربوا عن طُرُق الهِـدَايه؛ ما ٱنْهَلَّ من أفُقِ الكَرَم المحمدىِّ كلُّ عارضٍ صَيِّب، وتَحَلَّتِ الأسماعُ والأفواهُ من أخباره بنفائس الشُّذُورِ البديعة وحَلاوَةِ الكَلِم الطَّيِّب ــ فقد عَرَضَ علىّ الجَنابُ العالى البارِعىُّ، الأوْحدىُّ، الألْمعىُّ، اللَّوْذَعِىُّ، الشِّهابىُّ، شهابُ الدين، نُخْبةُ النُّجَبَاء، أوحدُ الألِبَّـاء، نَجْلُ السَّادَةِ العظماء، سُلالةُ الأعيان العلماء، أبو العَبَّاس أحمدُ ٱبنُ سيدنا المَقَرِّ الكريم العالى، المولوىِّ، العالمىِّ، الفاضلىِّ، البليغىِّ، المُفِيــدىّ، الفَرِيدىِّ، المُفَوَّهِىِّ، الشَّمْسِىِّ، العُمَرِىِّ، أطاب الله حَدِيثَــه، وجمع له بالإعْراب عن عُلُوِّ الهِمَّــة قَدِيمَ الفَضْــل وحَدِيثَه ــ طائفَةً متفرِّقَةً من "عُمْدة الأحكام" للحافِظ عبد الغَنِىِّ المَقْدِسىّ، و"شُذُورِ الذَّهَب" للعلامة جمــالِ الدِّين بن هِشَام رحمــة الله عليهما ــ عَرْضًا قَصُرت دونَه القرائحُ علىٰ طُول جَهْــدِها، وكانت الألفاظ المُورَدةُ فيه لأمَةَ حَرْبِ الفئَة الباغيــة عليه فأحْسَنَ عند العَرْض فى سَرْدهــا؛ وزَيَّن أبقاه الله تلك الأماكنَ بطَيِّب لَحْنِه وإعراب لَفْظه، وآذَنَ ٱمْتِحَانُه فيها بأنَّ جَواهِرَ الكتابَيْنِ قد حَصَلت بمجموعها فى خزَانة حِفْظه .

فحبـذا هو من حافظ روىٰ حديث فضـله عاليا، وتلا على الأسمـاع ما اقتضىٰ تقديمه على الأقران فلله دره مقـدما وتاليا؛ وسار فى حكم العرض على أعدل طريق وناهيك بالسيرة العمريه، وصان منطقه عن خالِ المعانى وكيف لا؟ وقد تمسـك بطريقة والده وهى "المقدمة الشمسيه"؛ وسابق أقرانه فكانت له زبدة التفضـيل فى حلبة السبـاق، وطابق بين رفع شأنه وخفض شانيه ولا ينكر لمن هو من هـذا البيت حسـن الطباق؛ واشتغل فلم يقع التنـازع فى حسن دخوله من باب الاشتغال، ونصب فكره لتحصيل العلم فتعين تمييزه علىٰ كل حال؛ وتوقدت نار ذهنه فتلظىٰ حاسده بالالتهاب، ورويت أحاديثه بالغة فى العلو إلىٰ سمـاء الفضل ولا بدع إذا رويت أحاديث الشهاب؛ وافتخر من والده بالفاضـل الذى ارتفـع فى ديوان الإنشاء خبره، وهز المعاطف بتوقيعه الذى لا يزال يحرره ويحبره؛ ووشى المهارق فكأنمـا هى رياض قد غرد فيها بسجعه، ونحاها بإنشائه الذى هو عمدة المتأدبين فلا عجب فى رفعـه؛ ونظم ببيانه نفائس الدرر فقدتها بالعين "صحاح الجوهرى"، وفتح بجيش بلاغته معاقل المعانى الممتنعة وحسبك بالفتح العمرى:

بيانه السحر قد أخـفى معاقده * لكن أرانا لسر الفضـل إنشاء
إذا أراد أدار الراح منطقـه * نظما ويطربنا بالنـثر إن شاء!

والله تعالىٰ يبهج نفسه بمـا يصبح به الحاسد وهو مكمد، ويقر عينه بهذا الولد النجيب حتى لا يبرح يقول: أشكر الله وأحمد؛ بمحمد وآله.

ومن ذلك ما كتب به الشيخ شمس الدين محمد بن عبد الدائم، لولدى نجم الدين أبى الفتح محمد، حين عرض عليه "المنهاج" فى الفقه للنووى، فى سنة ثلاث عشرة وثمـانمـائة، وهو:

الحمدُ لله الذى أوضح بنَجْم الدِّين مِنهاجَ الفِقْه وأناره ، وأَفْصَح لسانَه بكتاب من عنـد الله وأَثَارَه ، فسطعتْ أنوارُ شهابِه لمن ٱستنبطه وأثاره ، مَنْ يُرِد اللهُ به خيرًا يُفَقِّهْه فى الدِّين ويَرْفَع مَنَارَه ، والصـلاةُ والسلامُ علىٰ سـيدنا محمدٍ المخصوصِ بعموم الرِّساله ، والمنصوص فَضْـلُه بجميع أنواع الدِّلاله ، وعلىٰ آله وصَحْبِه نجومِ الهُـدىٰ ، وشُهُبِ التَّأَسِّى والاْقتِدا .

وبعدُ ، فقد عَرَض علىَّ الفَقيهُ الفاضلُ نَجْلُ الأفاضل ، وسَلِيلُ الأَماثِل ، ذُو الهِمَّة العَلِيَّه ، والفِطْنة الذَّكِيَّه ، والفِطْرَةِ الزَّكِيه ، نَجْم الدِّين ، أبو عبد الله محمدُ بن فلان : نفع الله به كما نَفَع بوالده ، وجَمَع له بين طَارِف العـلم وتَالِدِه ـ مواضِعَ متعدِّدةً من "المِنْهاج" فى فِقْه الإمام الشافعىّ المُطَّلِبِىِّ رضى الله عنه وعَنَّا به ، تأليف الحَبْر العلَّامة ولىِّ الله أبى زكريا بن شَرَف بن مرى النَّوَوِىّ ، سقى الله تعالىٰ ثَرَاه ، وجعل الجَنَّة مأواه ، دَلَّ حِفْظُه لهـا علىٰ حِفْظ الكتاب ، كما فَتَح الله له مَنَاهِجَ الخَيْر دِقَّه وجِلَّه ، وكان العَرْض فى يوم كذا .

وكتب عَلَّامةُ العَصْر الشيخُ عِزُّ الدِّين بن جَماعَةَ ما صورته :

كذلك عَرَض علىَّ المذكورُ باطِنَها عَرْضًا حَسَنا ، محرِّرًا مُهَذَّبا مُجَادًّا مُتْقِنا ، عَرْضَ من أَتْقَنَ حِفْظُه ، وزُيِّن بحُسْن الأَدَاءِ لَفْظُه ، وأُجْزِلَ له من عَيْن العناية حَظُّه ، مَرَّ فيه مُرُور الهِمْلاج الوَسَّاع ، فى فَسِيح ذى السِّباع . وقد دَلَّنِى ذلك منه ـ نفعه الله تعالىٰ ونَفَع به ، ووصل أسباب الخَيْر بسَبَبِه ، علىٰ عُلُوّ هِمَّته ، ووُفُور أَرْيَحِيَّته ، وتَوَقُّدِ فِكْرَته ، وٱتِّقادِ فِطْنَتِه ، وأَصْلُه فى ذلك كلِّه عَرِيق :

سَجِيَّـةٌ تِلْك منهـم غَيْرُ مُحْـدَثَةٍ * إنَّ الخلائقَ ـ فاعْلَمْ ـ شَرُّها البِدَعُ !

وقد أذنتُ له أن يَرْوِىَ عَنِّى الكتابَ المذكورَ، وجميعَ ما يجوزُ لى وعَنِّى رِوايَتُه من مُصَنَّفاتِى وغيرها من مَنْظوم ومَنْثُور، ومَنْقولٍ ومَعْقُول ومَأْثُور، بشَرْطه المعتبر، عند أهْلِ الأَثَر. وكتب فلانٌ فى تاريخ كذا .

ومن ذلك ما كتبتُه لمن آسمه «محمد» ولَقَبُه «شَمْسُ الدين» من أبناء بعض الإخوان :

وقد عَرَض علىّ "الأرْبعينَ حديثًا" للشيخ مُحْيِى الدِّين النَّوَوِىّ رحمه الله، و"الوَرَقَات" فى الأُصُول لإمام الحرمين، و"اللَّمْحَةَ البَدْرِيَّة" فى النَّحْو للشيخ أثير الدِّين أبى حَيَّانَ دَفْعةً واحدة، وهو لدُونِ عَشْرِ سنين، وهو :

الحمدُ لله الذى أطْلَع من دَرَارِىّ الأفاضل فى أُفُقِ النَّجابة شَمْسا، وأظهر من أفاضل الدَّرارِى ما يغُضُّ به المخالفُ طَرْفاً ويرفع به المُخَالِفُ رَأْسا، وألْحَقَ بالأصل الكريم فَرْعَه فى النجابة فطاب جَنًى وأعْرَقَ أصْلًا وزَكَا غَرْسا؛ وأبْرزَ من ذَوِى الفِطَرِ السليمة من فَاقَ بذكائه الأقرانَ فأدْرَكَ العَرَبِيَّةَ فى لَمْحَه، وسَما بفَهْمه الثاقب على الأمثال فأمْسَى وفَهْم "الوَرَقَاتِ" لديه كالصَّفْحَه، وخَرَق بكَرَمِ بدايته العادةَ فجَازَ الأربعين لدُونِ العَشْر وأتَى على ذلك بما يَشْهَدُ له بالصِّحَّه؛ والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمدٍ الذى عَمَّتْ بركةُ آسْمِه الشريف سَمِيَّه ففاز منها بأوفر نَصيب، وخُصَّ بإلهام التَّسمية به أولو الفَضْل والنُّهىَ فما سُمِّىَ به إلا كَرِيمٌ ولا سُمِّىَ به إلا نَجِيب؛ وعلى آله وصَحْبِه الذين أَينعتْ بهم رَوْضَةُ العلم وأزْهَرتْ، وأوْرَقت شجرةُ المعارف وأثْمَرتْ .

وبعدُ، فقد عَرَض علىَّ فلانٌ مواضع من كتاب كذا وكتاب كذا، فمَرّ فيها مُرُورَ الصَّبا، وجَرَى فى مَيْدانها جَرْىَ الجَواد فما حَادَ عن سَنَنِ الطريق ولا كَبَا . (١)

(١) يظهر أن بقية هذه النسخة سقطت من قلم الناسخ كما ترى .

وأما الإجازة بالمَرْوِيَّات علىٰ الاستدعاآت : ـ

فمن ذلك ما كتب به الشَّيْخُ صلاح الدين الصَّفَدِىُّ رحمه الله على استدعاء كَتَبَ له به القــاضى شِهابُ الدين أحمــدُ الحَنْبلىّ خطيبُ بَيْت الآلهة ، وكاتبُ الدَّسْتِ بالشَّأْم ، يطلب منه فيه الإجازَةَ لنَفْسِه ، وهو :

الحمدُ لله الذى إذا دُعِىَ أجاب ، وإذا أنْعَم على الأدِيبِ بذَوْق أَتَىٰ فى نَظْمِه ونَثْرِه بالعُجَاب ، وإذا وَهَب البليغَ فِطْرةً سَلِيمةً لم يكن علىٰ حِجَاهُ حِجَاب .

نحمَدُه علىٰ نِعَمِه التى منها البَلاغَه ، وإتقانُ ما لصناعة الإنشاء من حُسْنِ الصِّياغَه ، وصَيْدِ أوَابِدِ المعانى التى من أَعْمَل فِكْرَه فى اقْتِناصِها أو روَّىٰ [أَمِنَ] روَاغَه ، ونشهدُ أن لا إله إلا الله وحْدَه لا شريكَ له شهادةً فُطِر الضميرُ علىٰ إخلاصها ، وجُبِلَ الفكْر على اقْتِناء أَدِلَّتِهــا القَاطعةِ واقْتِناصِها ، وجُعِلتْ وِقايَةً لقائِلِها يوم يَضِيقُ على الخلائق فَسِيحُ عِرَاصِها ، ونشهدُ أن سيدَنا محمدًا عبدُه ورسولُه أفصحُ من نَطَق بهذا اللسان ، وجاء من هذه اللغة العَرَبِيَّة بالنُّكَتِ الحِسَان ، وحَثَّ على الخَيْر وحَضَّ على الإحسان ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِــه الذين رَوَوْا أقوالَه ، وبَلَّغوا لمن لم يَرَه سُنَنَه وأفعالَه ، وعَلِمُوا أنَّ هــذه الشِّرْعة المُطَهَّرةَ أَذْخَرها الله تعالىٰ له فلم تَكُنْ تصلحُ إلا لَه ، صلاةً هامِيَةَ الغُفْران ، نامِيةَ الرِّضْوان ، ما أجاب مُجِيبٌ لمن اسْتَدْعَىٰ ، وعَمِلَتْ إِنَّ فى المُبْتدإ نَصْبًا ولم تُغَيِّرْ على الخَبَر رفْعًا ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا إلىٰ يَوْم الدِّين .

وبعدُ ، فإن [عِلْمَ] الرِّوايَةِ من محَاسِن الإسلام ، وخَصَائِص الفُضَلاء الذين تَخْفِقُ لهم ذَوائبُ الطروس وتَنْتَصِبُ رِماحُ الأقلام ، ولم تَزَلْ رَغْبة السَّلَف تتوفَّرُ عليه ، وتُشير أناملُ إرشادهم للانام بالحَثِّ إليــه . قِيــل للإمام أحمد بن حَنْبل رضى الله عنــه ما تَشْتَهِى ؟ فقال : سَنَدٌ عَال ، وبَيْتٌ خَال . وما بَرِحَ الأَئِمَّة الكبار يَرْتحلون إلىٰ أقاصى

الأقاليم فى طَلَبِه، و يتحملون المَشَاقَّ والمَتَاعِبَ فيــه و يَتَجَمَّلون بسَبَبِه ؛ فقد ٱرْتحــل الإمامُ الشافعىُّ رضى الله عنه وغيرُه إلىٰ عَبْــد الرَّزّاق باليَمَن، وكان فيمَنْ أخَذَ عنــه ممن هو أحَقُّ بالتفضيل عليه قَمِن ؛ ولٰكنه فَنٌّ يحتاج إلىٰ ذَوْقٍ يُعاضِدُ من لا يُعانِدُه ، وأَمْرٌ لا يَصْــبِر عنه من أَلِفَه وما يَعْلَم الشَّوْقَ إلا من يُكَابِدُه ؛ فمــا عنــد من طَلَبَ الروايةَ أَجَلُّ من أبناء جِنْسِه ، ولا عنــد المُفِيدِ المُفِيدَ أحْلَىٰ من قوله : حَدَّثَنا فلانٌ أو أَنْشَدَنا فلانٌ لنَفْسِه ، ولٰكن :

مَا كُلُّ من طَلَبَ المَعَالِيَ نافِذًا * فيها ولا كُلُّ الرِّجال فُحُــولَا !

ولمــا كان الشيخُ الامامُ شهابُ الدِّين أبو العَبَّاس أحمدُ ٱبنُ الشيخ ..... ممَّن نَظَم فَوَدَّت الدُّرَر فى أفلاكه لو ٱتَّسَقَتْ ، وكَتَب فَرَقَم الطُّروسَ ووَشَّاها ، وغَشَّــاها من زَهَرات الرِّياض ما غَشَّاها ؛ وحَلَّ المُتَرْجَمَ فسَحَر عَقْلَ كلِّ لَبِيبٍ وخَابَ لُبُّه ، ووقع على القَصْد فيه فكأنَّه شيءٌ من الغَيْب خَصَّ الله به قَلْبَه ، وأتَىٰ فيه ببدائِــعَ ما تَساوَى ٱبنُ الصَّيْرَفِىِّ ولا ٱبن (١) عندها بحَبَّه ؛ وخَطَب فصَــدَع القُلُوب ، وأجْرَىٰ ذَنُوبَ المَدَامِــعِ من أهْلِ الذُّنوب ، وحَذَّر فكانت أسجاعُه كأَلْحَــانِ إسْحٰق وسَامِعُه يبكى بأجْفانِ يَعْقوب ؛ كأنَّمــا هو فى حُلَّة الخَطَابة بَدْرٌ فى غَمــامَه ، أو منبرُه غُصْنٌ وهوفوقه حَمامَه ، أو بَحْرٌ وفضائِلُه مِثْلُ أمْواجِه ودُرُّه يحكى كَلَامَه ؛ لو رآه "ٱبنُ نُبَاتَة" ماأورقت بالفصاحة أعْوادُه ، أو "ٱبنُ المُنَيِّر" مارُقِمتْ بالبلاغة أبْرادُه ، أو "ٱبن تَيْمِية" ما حَظِيَتْ بالحُــدُود أَجْدادُه ؛ فأراد أن يُشَرِّف قَــدْرِى ، و يُعَرِّف نُكْرِى ؛ فطلبَ الإجازة منى وأنا أحقُّ بالأخْذِ عنه ، وٱستدعىٰ ذلك مِنِّى : ورُبَّ حامِلِ فِقْهٍ إلىٰ من هو أَفقه مِنْه .

---

(١) بياض بالأصول ولعله : ولا ٱبن نباتة .

فنعم قد آستخرتُ الله تعالىٰ وأجزتُ له ما يجوز لى تسميعه ، وذكرتُ هنا شيئًا من مَرْوِيَّاتِى وأشياخى رحمهم الله وذكرتُ مُصنَّفاتى :

إجازة قاصرٍ عن كلِّ شىْءٍ * يَسيرُ من الرِّوايةِ فى مَفازَه :
لمَنْ ملكَ الفضائِلَ وٱقْتناها * وجازَ مدَى العُلىٰ سبْقًا وحازَه !

ومن ذلك ما كتب به الشيخُ العلَّامة شمسُ الدِّين محمد بن الصائغ على ٱستِدْعاءٍ لبعض من سأله الإجازة .

أقولُ بعد حَمْدِ الله الذى لا يُخَيِّبُ من ٱسْتَجْدىٰ كَرَمه ، ولا يَخيبُ من ٱسْتَدْعىٰ نِعَمَه ، والصلاةِ علىٰ سيدنا محمدٍ وآله وصَحْبِه وخدمه وما آسود مدمه (١) : (؟)

أثرْتَ الجوَىٰ بى إذ أردتَ جَوابِى * وعَظَّمْتَ خَطْبِى إذ قصدتَ خِطَابِى :
ومَنْ أنا فى الدُّنْيا أُجيبُ ومَنْ أنا ! * أُجيزُ ؟ مَضَى الأشياخُ تحْتَ تُرابِ !
عَجِيبٌ لطُلَّابٍ لدَيْنا تَخلَّفُوا * وكَمْ قد أتانا دَهْرُنا بعُجابِ !
نحن إلىٰ المويلحه أمر ناى * عربناه بالعذيب عذاب (١)

ياأخانا : إنَّ بِضاعتنا فى العِلْم مُزْجاه ، وصِناعتَنا فى الوَقْت مُرْجاه ، ونَسِيم أخباره عَليل ، وأدَب إخباره قليل ، وتَصانيفى وُجُوهُ أكثرها مُسْوَدّه ، وآمالى فى تَبْيِيضها لقِصَر الهِمَم ممتدّه ، سُئلت قديماً من بعض الفضلاء أن أُعِدَّها ، فكتبتُ فيها رسالةً لاأَعْرِف لصَقْلِ الأذهان حدَّها ، ومَنَّ الله بعد ذلك بتصانيفَ أُخَر ، ومَقاطِيعَ إن لم تكُن كالزُّهْر فهى كالزَّهَر ، ثم عَدّد نَيِّفًا وثلاثين مُصَنفا ، منها "مجمع الفرائد" فى ستَّ عشرةَ مجلَّدةً (٢) . ثم أنشد فى آخر ذلك :

(١) كذا فى الأصل ، ولم نهتد اليه مع دقة البحث .
(٢) فى كشف الظنون : تسعة عشر مجلدا .

ولَقَـد شَرَّفتَ قَـدْرِى * بنَفيسٍ من هَدَايَا :
بنِظَـامٍ شَـنَّفَ السَّمْـعَ * بِـدُرٍّ كالثَّنايَا .
فارْوِمِـنِّى وٱرْوِعَنِّى * وٱغْنَ عن شَدّ المَطايَا ،
وٱنْتَقِ الفَضْلَ وحَصِّلْ ، * وٱحْظَ مِنِّى بمَـزَايَا ،
وتَحَرَّ الصِّـدْقَ وٱعْلَمْ * أنهُ خَـيْرُ الوَصايَا ! ! !

أَجَزْتُ لك أن تَرْوِىَ هذه وغيرَها عنِّى ، ولك الفَضْلُ فى قَبُول ذلك منِّى .

الصـنف الثـانى

(التَّقريضات التى تكتب على المُصَنَّفات المُصَنَّفةِ والقصائد المَنْظومة)

قد جَرَت العادة أنه إذا صُنِّف فى فَنٍّ من الفنون أو نَظَم شاعِرٌ قصيدةً فأجاد فيها أو نحو ذلك ، أن يَكْتُبَ له أَهْلُ تلك الصناعة علىٰ كتابه أو قَصيدَته بالتَّقريضِ والمَدْح ، ويأتِىَ كلٌّ منهم بما فى وُسْعِه من البلاغة فى ذلك .

فمِن ذلك ما كتب به الشيخ صلاحُ الدين الصَّفَدِىُّ على مُصَنَّفٍ وضعه الشيخُ تاجُ الدِّين علىّ بن الدِّرهم المَوْصِلىُّ الشافعىُّ فى الٱستدلال على أن البَسْملةَ من أوّلِ الفاتحة ، وهى :

وقَفْتُ علىٰ هـذا التصنيف الذى وضـعه هذا العَـلَّامه ، ونَشَر به فى المَذْهَب الشافعىِّ أَعْلامَه ، وأصْبح ونِسْبَته إليه أشهرُ عَلَمٍ وأبْهر عَلَامَه ؛ فأُقْسِمُ ما سَامَ الرَّوضُ حَدَائقه ، ولا شَام أبُو شَامَةَ بَوارِقَه ؛ كلُّ الأئمة تعترفُ بما فيه من الأَدِلَّه ، وكلُّ التصانيف تقول أَمامَه : بِسْمِ الله ؛ كَمْ فيه من دليل لا يُعارَضُ بما يَنْقُضُه ، وكَمْ فيه من حُجَّـةٍ يَكِلُّ عنها الخَصْمُ لأنَّ عَقْلَه علىٰ مَحَكّ النَّقْدِ يَعْرِضُـه ؛ قد أيَّدَ ما ٱدَّعاه بالحَـديث والأَثَر ، ونَقل مَذْهب كلِّ إمامٍ سَـبَق وما عَثَر ؛ لقد سُرَّ الشافعىُّ بنَصّ

قَوْله الذى هَذَّبه ، وجَعَل أعلامَ مَذْهبِه مُذْهَبَه ؛ وأتى فيه بنُكَتٍ تُطْرِب من أَسْرار الحَرْف ، وفَوَائدَ عُرِف بها ما بين آبن الدِّرْهَم وبين البُونى من البَوْن فى تَفاوُت الصَّرْف :

أَكْرِمْ به مُصَنَّفًا * فاقَ تَصَانيفَ الوَرَى!
لَيْلُ المِدَادِ فيه بالْـ * ـمَعْنَى المُنيرِ أَقْمَرَا!
كَمْ فيه بُرْدُ حُجَّةٍ * قَدْ حَاكَه مُحَرَّرا،
وكَمْ دَليلٍ سَيْفُه * إذا آلْتَقَى خَصْمًا فَرَى.
فَلَمْ يَكُنْ من بَعْدِه * مُخَالِفٌ قَطُّ يُرَى!!

ومن ذلك ما كتب به المَقَرّ الشِّهابىُّ بن فَضْلِ الله على قَصيدةٍ ميميَّةٍ ، للشيخ غَرْس الدِّين خليل الصَّفَدِىّ المعروف بالصَّلاح الصَّفَدِىّ ، مَدَح بها الأميرَ سَيْفَ الدين ألجاى الدَّوادَار النَّاصِرِىّ ، فى شهور سنة تِسْعٍ وعشرين وسبعمائة ، وهى :

وقَفْتُ على هذه القصيدة التى أشْرَقَتْ معانيها فكادَتْ تُرَى ، وتَمَكَّنَتْ قَوافِيها فاسْتَمسَكَ بها الأَدَبُ لَمَّا كانَتِ المِيمَاتُ فيها كالعُرَا ؛ فوجدتُها مشتملةً من البلاغة بوَزْنِها على البَحْرِ المحيط ، لَطيفةً لا تُقَاسُ بأمثالها من الكلام المُرَكَّب لأنها من البَسيط ؛ فنَظَرتُ إليها مُكْتَسِبًا من بَيانِها سِحْرَ الحَدَق ، مُتَعَجِّبا من مُنْشِئِها لغَرْسٍ يُسْرِعُ الإثْمارَ فى الوَرَق ؛ ثم فَطِنتُ إلى أنَّ الممدوحَ بها أعَزَّه الله تعالى سَحَّتْ دِيَمُه فَرَوَّضَتِ الطروس ، وبَرَّحَتْ مَنَاقِبُه بما كان مَصُونًا فى أَخْبِيَةِ النُّفوس ؛ وقد آستوجبَ هذا المَادِحُ عَطْفَ الله تعالى قَلْبَه عليه من مَنَائحه حَظًّا جَزِيلا ، وحُبًّا يقول به لمن قصد المساواة به : لو كُنْتُ مُتَّخِذًا خَليلًا لآتخذتُ فُلانًا خَليلا :

مُـــدَبِّر المُـــلْكِ له * على العُـلىٰ مَقَاعِـــدُ،

تَهْـــوِى إلىٰ جَنَـابِه الْـــقُصَّـادُ والقَصَـــائِدُ!

قلتُ : وكتبتُ علىٰ قَصِيدةٍ نظمها شَرَفُ الدِّين عيسى بن حَجَّاج الشاعِرُ المعروفُ بالعَالِيةِ ، مَدَح بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم وضَمَّنها أنواعَ البَدِيع ، ضَاهَىٰ بها بَدِيعِيَّة الصَّفِيِّ الحِلِّيِّ ، فى شهور سنة ٱثنتين وتسعين وسبعمائة ، ما صُورَتُه :

أما بعدَ حمدِ الله الذى أحَلَّ سِحْرَ البَيَان ، وأَقْدر أَهْلَ البلاغة من بَدِيعِ التَّخَيُّل علىٰ ما يَشْهد بِصحَّته العِيَان ، وذَلَّل بِرَائِضِ أفْكارِهم صِعَابَ الألفاظ فٱمْتَطَوْا من مُتُون احَاسِنِها الجِيَــاد ، وأوْضَحَ لهم طُرُقَ الفصاحة فغَدَتْ لديهم ـ بحَمْدِ الله تعالىٰ ـ سَهْلَةَ القِياد ، وأحْيىٰ مَيِّتَ الأَدَبِ برُوحِ الأنفاس العِيسَوِيَّة وعَمَّر بأُنْسِها رُبُوعَه الخَالِيَـه ، وحَمَىٰ نفس الفَضْــل فى رُقْعة المُسَاجَلَة أن تَصِلَ إليها فَرازِنَة الدَّعاوىٰ ولا غَرْوَ أنَّ حَمَاها العاليه ؛ والصَّلاة علىٰ رسوله محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم أفْصحِ من نَطَق بالضَّاد ، وأُوتِىَ جَوامِعَ الكَلِمِ فلن تَحْصُر مَعَــانِىَ كلامِه الأَعْداد ـ فإنِّى وقفتُ على البَدِيعِيَّــةِ البَدِيعَــة التى نظمها الفاضِــلُ الأرْفع ، واللَّوْذَعِىُّ المِصْقَع ؛ أَدِيبُ الزَّمان ، وشاعِرُ الأَوَان ؛ شرفُ الدِّين أبو الرُّوحِ عِيسى العالية ـ أعلى الله تعالىٰ مَنَارَ أدَبِه ورَفَعَه علىٰ مُنَاوِيه ، وبلغ به من قَصَبِ السَّبْقِ ما يَمْتَنِــعُ أن يراه على البُعْد مُضَاهِيــه ـ فألْفَيْتُها الدُّرَّةَ الثمينة غيرَ أنها لاتُسَام ، والخَرِيدةَ المُخَدَّرَةَ إلا أنها لا يَلِيقُ بها الاحْتِشَام :

تَرُومُ ٱحْتِشامًا سَـــتْرَلَأْلَاءِ وَجْهِها ! * ومَنْ ذَا لِذَاتِ الحُسْنِ يُخْفِى ويَسْتُرُ؟ !

قد ٱتَّخَذَتْ من الاحتشام مَعْقِلًا وحِصْنًا لا يُغْشَىٰ ، وٱنْتَبَذَتْ من حُسَّادها مَكانًا قَصِيًّا فلا تخافُ دَرَكًا ولا تَخْشَىٰ :

ولَمْ أَدْرِ ـ والأَلْفاظُ منها شَرِيفَةٌ ـ * إلى البَدْرِ تَسْمُو أَمْ إلى الشَّمْسِ تَرْتَقِي ؟ !

أراد المُدَّعِى بلوغَ شَأْوِها الجَرْىَ فى مِضْمارِها فقِيلَ : كَلَّا ، ورَامَ المُلْحِدُ فى آياتها الغَضَّ منها عِنَادًا فأبَىٰ اللهُ إِلَّا :

مَا إنْ لها فى الفَضْلِ مِثْلٌ كائنٌ ! * وبَيانُها أَحْلَى البَيانِ وأَمْثَـلُ !

فأَمْسَوْا فى مُعارَضَتِها غير طَامِعِين ، وتَلَتْ عليهم آياتُ بَلاغَتِها : ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ :

كَمْ جَدَّلَتْ يَوْمَ الوَغَىٰ من جَنْـدَلٍ * صاحَتْ به فما أطَاقَ تَصَـبُّرًا !

وكيف لا تَخْضَعُ لها الأعناق ، وتَذِلُّ لها رِقابُ الشُّعَراء على الإطلاق ، وهى اليَتِيمَـةُ التى أَعْقَمَتِ الأفْهـامُ عن مِثْلها ، والفَرِيدةُ التى ٱعترف كلُّ طَوِيلِ النِّجادِ بالقُصُورِ عن وَصْلِها :

زَادَتْ عُلًى ، مَنْ ذا يُطِيقُ وِصالَها ؟ * ومَحَلُّها منـه الثُّرَيَّا أَقْـرَبُ !

وأَنَّىٰ بذلك وقد أخذتْ من المحاسنِ بِزِمامِها ، وأحاطَتْ من الطَّلاوة بِكَمامِها ، وأَحْدَقَتْ رِياضُ الأَدَبِ بحَـدائِقها ، وٱقتطفتْ من أفْنانِ الفُنُونِ ثِمـارَ مَعانٍ تَلَذُّ لناظِرِها وتَحْلُو لذائِقِها ؟ :

ولا تُعِـرْ غَـيْرَها سَمْعًـا ولا نَظَرًا * فى طَلْعةِ الشَّمْسِ ما يُغْنِيكَ عن زُحَلِ !

وتَصَرَّفَتْ فى جميع العلوم وإن كانت على البَـديع مَقْصُورَه ، وشَرُفَتْ بشَرَفِ مُتَعَلَّقِها فأصبحتْ بالشرف مَشْهُورَه :

أَهَانتِ الدُّرَّ حتَّىٰ ماله ثَمَنٌ ، * وأرْخَصَتْ قِيمةَ الأَمْثالِ والخُطَبَا !

لا جَرَم أضحتْ أمَّ القَصائد وكَعْبَةَ القُصَّاد ، ومَحَطَّ الرِّحالِ ومَنْهَلَ الوُرَّاد ، فأَرْبَتْ فى الشُّهْرة على "المَثَل السائر" ، وٱعترفَ بفَضْلِها جَزالةُ البادى وسُهُولةُ الحاضر :

فللأفاضـــلِ فى عَلْيائِهـا سَمَرٌ * إنَّ الحَديثَ عن العَلْياءِ أسْمارُ!

فأَعْجِبْ بها من بادِرَةٍ جَمعَتْ بين مُتَضادَّيْنِ سُمْرٍ وسَمَر، وقَرَنَتْ بين متباعِدَينِ زُهْرٍ وزَهَر، وجادَتْ بمستنزهين رَوْضٍ ونَهَر؛ وتَفَنَّنَتْ فى أساليب الكلام وجالَتْ، وطاوَعَتْها يَدُ المَقَالِ فقالتْ وطالَتْ؛ ودَعَتْ فُرْسانَ العَربيَّـةِ إلى المُبارَزَة فنَكَسُوا، وتَحقَّقَ المُفْلِقُون العَجْزَ عن مُؤاخَاتِها ولو حَرَصُوا :

فأَعْرِبَ عَنْ كُلِّ المَعَانِى فَصِيحُها * بمـا عَجَزتْ عنـه نِزَارٌ ويَعْرُبُ!

إن ذُكِرَتْ ألفاظُها فما الدُّرُّ المَنْثور؟ أو جُلِيَتْ مَعانِيها أخجَلتِ الرَّوْضَ المَمْطُور؛ أو آعْتُبِرَ تَحْرِيرُ وَزْنِها فاق الذَّهَب تَحْرِيرا، أو قُوبِلَتْ قَوَافِيها بغيرها زَكَتْ تَوْفِيرا وسَمَتْ تَوْقِيرا؛ أو تَغزَّلَتْ أسكتَتِ الوُرْقَ فى الأَغْصان، أو آمْتَدَحَتْ قَفَتْ إثْرَ «كَعْبٍ» وسَلَكتْ سَـبِيلَ «حَسَّان»؛ فإطْنَابُها ـ لفَصاحَتِها ـ لا يُعَـدُّ إطنابا، وإيجازُها ـ لبلاغَتِها ـ يَمُدُّ على المعانى من حُسْنِ السَّبْك أطْنَابًا :

أَيْنَ لِى مَغْزَاهَا أَخَا الفَهْـمِ إنَّهـا * إلى الفَضْلِ تُعْزَىٰ أو إلى المَجْدِ تُنْسَبُ؟

هذا وبَراعةُ مَطْلَعِها تحثُّ علىٰ سمـاع باقِيها شَغَفا، وبَدِيعُ مَخْلَصِها يَسْتَرِقُ الأسماعَ لَطَافةً ويَسْتَرِقُّ القلوبَ كلَفًا، وحُسْنُ آخْتِتامِها تكاد النُّفوسُ لحلاوةِ مَقْطَعِه تَذُوبُ عليها أَسَــفا :

لَهَا مِن بَرَاهِينِ البَيَانِ شَوَاهِـدُ : * إذِ الفَضْلُ وِرْدٌ والمَعَالى مَوَارِدُ!

وبالجملة فمآثِرُها الجميلة لاتُحْصىٰ، وجَمَائِلُها المأثورة لاتُعَدُّ ولا تُسْتَقْصىٰ؛ فكأنَّمـا «قُسُّ بن سَاعِدَة» يأتَمُّ بفَصاحَتِها، و«آبْنُ المُقَفَّع» يهتَـدِى بهَـدْيِها ويَرْوِى عن بلاغتهـا؛ «وآمْرُؤُ القَيْسِ» يقْتَبِسُ من صَـنْعة شِعْرِها، و«الأَعْشَىٰ» يَسْتَضِىءُ بطَلْعةِ بَدْرِها؛ فلو رآها «جَرِيرٌ» لرأىٰ أنَّ نَظْمَه جَرِيرةٌ آقترفها، أو سَمِعَها «الفَرَزْدَقُ»

لعرف فَضْلها وتحقق شَرَفَها ؛ أو بَصُربها « حَبِيبُ بنُ أَوْسٍ » لأَحَبَّ أن يكونَ من رُوَاتِها، أو اطّلَع عليها «المُتَنَبِّى» لتحيَّر بين جَمِيل ذاتها وحُسْن أدوَاتِها :

فلِلْبصائِرِ هَادٍ مِنْ فَضَائِلِهَا * يَهْدِى أُولِى الفَضْل إن ضَلُّوا و إن حَارُوا !

ولا نُطِيلُ فمَبْلَغُ القول فيها أنّ آيَتها المُحْكَمة ناسخَةٌ لما قبلها، وبُرْهانَها القَاطِعَ قاضٍ بأن لا تَسْمحَ قَرِيحةٌ أن تَنْسُج علىٰ مِنْوالِها ولا يَطْمَعَ شاعِرٌ أن يسلك سُبُلَها :

وآيَتُهَا الكُبْرىٰ التى دَلَّ فَضْلُها * علىٰ أنَّ مَن لم يَشْهدِ الفَضْلَ جَاحِدُ!

الطرف الثانى

(فيما يُكْتب عن القُضَاة، وهو علىٰ أربعة أصناف)

الصنف الأول

(التقاليد الحُكْمِيَّة ، وهى علىٰ مرتبتين)

المرتبة الأولى

(أن تُفْتتحَ بخطبة مفتتحةٍ بـ«الحمد لله»)

ثم يقال : «أمّا بعد» ثم يقال : «ولمَّا عَلِمنا من حال فلان الفُلَانىّ كذا وكذا، آستخرنَا الله تعالىٰ وفوّضنَا إليه كذا وكذا، فليباشِرْ ذلك» ويُوصِ بما يناسب . ثم يقال : «هذا عَهْدُنا إليك، وحُجَّتنا عند الله عليك، فآعلَمْ هذا وآعمَلْ به، وكُتِب ذلك عن الإذن الفلانىّ» .

وهذه نسخة تقليد :

الحمدُ لله الولىِّ الحَمِيد ، الفَعَّالِ لِمَا يُرِيد ، نحمدُه علىٰ ما أولانا من إحسانه فهو المَوْلىٰ ونحن العَبِيد، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له شهادةً توصِّلُنا إلىٰ

جَنَّة نَعِيمُها مُقِيم ، وتَقِينا من نَارٍ عَذابُها شَدِيدٌ أَلِيم ؛ وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه النبيُّ الكريم ، صلّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه المشتملين على الطاعة والقلْبِ السَّلِيم ؛ وسلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

أما بعدُ، فإن مَرْتَبةَ الحُكْمِ لا تُعْطىٰ إلَّا لأهْلِها ، والأقْضِيةَ لا يَنْتَصِبُ لها إلَّا من هُو كُفْءٌ لها ؛ ومن هو مُتَّصِفٌ بصفات الأمانة والصِّيانَه ، والعِفَّةِ والدِّيَانه ؛ فمَنْ هذه صِفَتُه ٱستحقَّ أن يُوجَّهَ ويُسْتَخْدَم ، ويَتَرَقَّىٰ ويتقدّم .

ولَمَّا عَلِمْنا من حَالِ فلانٍ الفلانىِّ الأوصافَ الحَمِيدَه ، والأفعالَ السَّدِيدَه ؛ فإنه قد حَوَىٰ المعرفة والعُلُوم ، والاَصْطِلاحَ والرُّسوم ، وجُمِعَتْ فيه خِصَالٌ حَمَلَتْنا علىٰ ٱسْتِنَابَتِه ، وقَوَّتْنا علىٰ نِيَابَتِه ؛ ــ ٱسْتَخرنا الله تعالىٰ وفَوَّضْنا إليه كذا وكذا .

فلْيُباشِرْ ذلك مُتَمَسِّكًا بحَبْلِ الله المَتِين ، ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ولْيجتَهِدْ فى إقامة الدِّين وفَصْلِ الخصومات ، وفى النَّظَرِ فى ذَوِى العدالات والتَّلَبس بالشهادات وإِقَامَةِ البَيِّنات ؛ فمَنْ كان من أهْلِ العَدَالةِ نَزِها ، وإلى الحَقِّ مُتَوَجِّها ؛ فلْيُراعِه ويُقَدِّمْه علىٰ أقرانه ، ومَن كان منهم خلاف ذلك فلْيُقْصِه ويُطالِعْنا بحَاله . ولْينظُرْ فى أمرِ الجوامع والمَسَاجد ويفعلْ فى ذلك الأفعالَ المَرْضِيَّه ، وفى أموال الأيتام يَصْرِفُ منها اللَّوازِمَ الشَّرْعيه ؛ فمن بَلَغ منهم رَشِيدًا أَسْلَمَ إليه ما عساه يَفْضُل له منها ، ويُقَرِّر الفُرُوض ، ويُزَوِّجُ الخالياتِ من الأزواج والعِـدَدِ والأَوْلياء ، من الأَزْواج الأَكْفَاء ؛ ويَنْدُبُ لذلك من يَعْلَمُ دِيانَتَه ، ويتَحقَّق أمَانَتَه ؛ ويَتَخَيَّر لكتابة الصُّكوك من لا يرتاب بصِحَّتِه ، ولا يَشُكُّ فى دِيَانَتِه وخِبْرَتِه ؛ وينظر فى أَمْرِ المتصَرِّفين ، ومَن عنده من المُسْتَخْدَمين ؛ فمن كان منهم على الطريقة الحميدة فلْيُجْرِه علىٰ عَادَتِه ، ولْيُبْقِه علىٰ خِدْمَتِه ؛ ومن كان منهم بخلاف ذلك فلْيَسْتَبْدِلْ به ولْيُقْصِه .

هذا عَهْدِى إليك ، وحُجّتِي غدًا عند الله عَلَيك ؛ فاعلَمْ هذا وآعْمَلْ به .

وكُتِب ذلك عن الإذْنِ الكريم الفلانىّ وهو فى محَلّ وِلَايَتِـه وحُكْمِه وقَضَائِه ، وهو نَافِذُ القَضَاء والحُكْم ماضِيهما ، فى التاريخ الفلانىّ . (ثم يَكْتُب الحاكِمُ علامَتَه والتاريخ) وحَسْبُنا الله ونِعْم الوَكِيل .

وهذه نُسْخة تَقْلِيد :

الحمدُ للهِ الحَكَمِ العَدْلِ الهادِى عِبادَه صِراطًا مُسْتقيمًا ، الحاكِمِ الذى لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وإِنْ تَكُ حَسَـنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ؛ المُثِيبِ من قـدّم له الطاعةَ من قَبْل أن يَأْتِىَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خِلَال ، الرَّقِيبِ علىٰ ما يَصْدُر من أفعالهم فلا يُغَيِّر مابِقَوْمٍ حتّىٰ يُغَيِّروا ما بأنْفُسِهم وإِذَا أَرادَ اللهُ بقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وما لَهُمْ مِنْ دُونِه مِنْ وَالٍ .

أحمدُه علىٰ نِعَمِه التى تُنْشِئُ السَّحابَ الثِّقال ، وأَسْـتعِيذُه من نِقَمه التى يُرْسِـلُها فيُصِيبُ بها من يَشَاءُ من عِبادِه وهو شَـدِيدُ المِحَال ؛ وأشهدُ أن لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُفِيد المُخْلِصَ بها فى الإقرار النَّجاةَ يومَ المآل ، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه الذى نَعَتَه بأكرمِ الشِّيَم وأشْرَفِ الخِصَال ، وعَرَّفه بما يجِبُ من عُبُودِيَّته فقال : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وأصحابه الذين آتَّبعوه فى الأقوال والأفعال ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا .

أما بعدُ ، فإن مَنْ حَسُنتْ سَرِيرَتُه ، وحُمِدَت سِيرتُه ، وعُرِف بوَرَعٍ وشُهِر بعَفَاف ، ودِيانَةٍ وخَيْرٍ وإنْصَاف ، وأضحىٰ نَزِهَ النَّفْس عن الأمور الدَّنِيَّه ، فَقِيهًا دَرِبًا بالأحكام الشَّرْعِيه ، عارفًا بالأوضاع المَرْضِيه ـ آستحَقَّ أن يُوَجَّه ويُسْتخدَم ، ويُرَقَّىٰ ويَتَقدَّم ،

ولمّا علمنا من حال فلانٍ الفلانىّ من الأوصاف الحَميده، والأفعال السَّديدَه ـ آستخَرْنا الله تعالىٰ وفوّضنا إليه كذا وكذا .

فَليَكُنْ متمَسِّكًا مُعْتَصِمًا بحَبْلِ الله القوِىِّ المتين، ﴿إنَّه مَنْ يتَّق ويَصْبِرْ فإنَّ اللهَ لَا يُضيعُ أجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ ولْيُباشِرْ ما قلَّدناه أعانه الله سبحانه وتعالىٰ، ويُرَاعِ حُقُوقَ الله تعالىٰ فى السِّرِّ والعَلَانية : فإنَّه مُعِينُ من آستعان به وتوكَّلَ عليه، وهَادِى من آستَرْشَدَه وفَوَّض أُمُوره إليه .

ولْيَجْتَهِدْ فى فَصْلِ الأحكام بين المتنازِعين، والمُساوَاةِ فى العَدْل بين المُتَحاكِمين؛ قال الله تعالىٰ : ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ .

وأن يَثْبُتَ فى الخُصُومات، ويَفْرِقَ بين الحَقَائق والشُّبُهات؛ ويُنْصِفَ كلَّ ظالِمٍ من ظَالمه بالشَّريعَةِ المحمَّديَّه، ليكون ذلك سَببًا للسعادة الأبَديَّه؛ ويَنْظُرَ فى أمْرِ الشهود : فمن كان منهم نَزِهًا، وإلى الحقِّ مُتَوجِّها؛ فلْيُراعِه، ومن كان منهم غير ذلك طَالَعنا بحاله . ويَنْظُرَ فى أمْرِ الجوامع والمَسَاجِد مُعْتَمِدًا فى ذلك قولَ الله العَزِيز القَاهِر : ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ .

ويَنْظُرَ فى أمْرِ الأيتام، ويَحْتاطَ علىٰ مالهم من الأموال، ويَفْعل فى ذلك علىٰ جَارِى عَادَة أمثاله من الحُكَّام؛ من نَفَقَةٍ وكُسْوَةٍ ولَوَازِمَ شَرْعِيَّه، فمن بَلَغ منهم رَشيدًا أسْلَمَ إليه ما فَضَل من مَالِه بالبيِّنة المَرْضِيَّه؛ ويُقَرِّر الفروضَ علىٰ مقتضى قول الله تعالىٰ : ﴿عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ﴾ . ويُزَوِّج النِّسوةَ الخاليَةَ من العِدَد والأوْلياء، ممّن رَغِبَ فيهنّ من الأكْفَاء؛ ويَنْدُب لذلك من يَعْلَمُ أمَانَتَه وخِبْرَتَه، وينظر فى أمْرِ المتصرّفين : فمن كان منهم على الطَّرِيقَةِ المأْثورة أجْراهُ علىٰ عَادَتِه،

وأبقاه علىٰ حُكْمِه وخِدْمَتِه ؛ ومن كان منهم خلافَ ذلك يُبْعِدُه ويُقْصِيه ، ويَسْتَبْدِلُ به غيرَه ليَبْقَىٰ مكانَه وفى تَصَرُّفه .

هــذا عَهْدى إليك ، وحُجَّتِى يوم القيامة عنــد الله عَلَيك ، فلتعلَمْ ذلك وتَعْمَلْ به إن شاء الله تعالىٰ . (ويُؤَرِّخ ، ويكون ذلك بخَطِّ الحاكم) ويكتبُ : «وحَسْبُنا اللهُ ونِعْمَ الوَكِيل» ويُتَوِّجُهُ بعلامَتِه الكَرِيمة .

وهذه نسخة تقليــــد :

الحمدُ لله ذِى الفَضْلِ والسَّخاء ، واللُّطْفِ فى الشِّدَّة والرَّخاء ؛ الذى من تَوَاضَعَ إليه رَفَعَه ، ومن أطاعه نَفَعَه ، ومن أَخْلَصَ له فى العبادة أمَالَ عنه كَيْدَ الشيطان ودَفَعَه ؛ الذى أحاط عِلْمُــه بالموارِدِ والمَصَادِر ، وآسْــتَوَتْ عنده أحوالُ الأوَائِلِ والأوَاخِر ، وآطَّلَع علىٰ ضمــائر النفوس ولا ينبغى لغيره أن يَطَّلِــعَ على الضمائر ؛ الخَافِضِ الرَّافِع ، والمُعْطِى المَــانِع ؛ فإليه الأمْرُ والتَّــدْبِير ، المُقْسِــطِ الجَامِع : ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

أحمده حمدًا يَقْضِى للسعادة بالتَّيْسِير ، وأشكُرُه شكرًا يُسَهِّل من المآرب العَســير ، وأشهدُ أن لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له سبحانه نِعْمَ المولىٰ ونِعْمَ النَّصِير ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه الذى أرسله بالهُدَىٰ والكِتَابِ المُنِير ، وجعَلَه للأُمَّة خيرَ بَشِيرٍ ونَذِير ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحَابَتِه شهادةً يَحُلُّ المخلصونَ بها جَنَّةً ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ .

أما بعدُ ، فإنَّ مَن كان عارِفًا بأحكام الشَّرِيعَه ، مُتَهَيِّئًا لنَيْل دَرَجاتها الرَّفِيعَه ، مستندًا إلىٰ بَيْتٍ مَشْكُور ، وقَدْرٍ موفور ، قُلِّدَ الأحكامَ الدِّينيَّه ، ليعملَ فيها بالشَّرِيعَة المُحَمَّدِيَّه .

ولمَّا علمنا فلانَ بنَ فلان بنِ فلانٍ الفلانيّ، قلّدناه كذا وكذا .

فباشِرْ أعانَكَ الله : محافظًا علىٰ تقوى اللهِ الذى إليه المَرْجِع والمَصير، قال الله تعالىٰ فى كتابه العزيز : ﴿ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ . وٱستَشْعِرْ خيفَةَ اللهِ وٱجْعَلْها نُصْبَ عَيْنك، وتمسَّكْ بالحقِّ وٱجْعَلْه حجابًا بين النار وبَيْنَك؛ وٱنْتَصِبْ لتنفيذ الأحكام ٱنْتِصابَ من يُراقِبُ اللهَ ويَخْشاه، وحاسِبْ نَفْسَك مُحاسَبَةَ من يتحقَّقُ أنه يطَّلِعُ عليه ويراه؛ وٱبْذُلْ فى إنصاف المظلوم من الظالم وُسْعَك، ورَحِّبْ للتحاكمين ذَرْعَك؛ وٱنْظُر فى أَمْرِ الشُّهود وحَذِّرهم أن يَزُوغُوا عن الحَقّ، وحاسِبْهم فيما جَلَّ ودَقّ؛ ولا تُرَخِّصْ لهم، وأَلْزِمْهم أن يتَّخِذُوا الصِّدْقَ مَنْطِقَهم؛ وٱنْهَهُم عن التَّسَمُّح فيها، وعَرِّفْهُمُ التَّحَرُّز عما يؤدِّى من التُّهَمَة والتَّطَرُّق إليها؛ وٱنظر فى أَمْرِ المتصرفين بباب الحُكْم العزيز نَظَرًا يؤدِّى إلىٰ صَلَاحِهم، ولا تُعَوِّلْ فى النيابة عنك إلا علىٰ من تَخْتارُه وتَرْتَضيه، ولا تُعَرِّجْ إلىٰ من هو مُسْتَنِدٌ إلىٰ غايةٍ ولا تَمِلْ إليه؛ وٱنْظُرْ فى أمر الأَحْباسِ نظرًا يحفَظُ أصولَها، ولا تُراعِ فى ٱستخلاص مايتعيَّنُ لها كبيرًا ولا صغيرا، ولا تُعامِلْ فيها إلّا ذَوِى الوَفَاء واليَسَار، وٱرْفُضْ معاملة من يَسْتَنِدُ إلى العُدْمِ والإعْسار؛ وٱفْعَلْ مايفعله مِثْلُك من الحُكّام، من إنشاء العَدالةِ والفَسْخِ والإنكاح وغير ذلك فقد قَلَّدْناكَ هذه الأَحْكام؛ فإن عَمِلْتَ فيها بتَقْوى الله تعالىٰ وطَاعَته يُعينُك علىٰ ذلك، وإن عَمِلْتَ غير ذلك فأنتَ واللهِ هَالِكٌ ثم هَالِك؛ وٱسْتَمِعْ نَصِيحَتِي، وٱفعلْ ما تُبَرِّدُ به جِلْدَتَك وجِلْدَتِى؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلتُ (١) : ورُبَّما كُتِب التقليدُ بصيغة كِتَاب، مِثْلُ أن يُكْتَب إلىٰ الذى يتَوَلَّى علىٰ قدرِ مَرْتبته، من : «صَدَرتْ هذه المكاتبة» أو : «هٰذه المكاتبة» ثم يقال :

(١) هذه هى المرتبة الثانية وإن لم يأت لها بعنوان فى الأصل .

«تتضمّن إعلامَه أنّ المجلس الفلانيّ» بلقبه، ويُدعَىٰ له: «لمَّا علِمْنا من حاله كذا وكذا ـ ٱستخَرْنا اللهَ تعالىٰ وفوّضنا إليه الحُكْمَ والقَضاءَ بمكانِ كذا، فليباشِرْ ذلك» علىٰ نحو ما تقدّم في التقليد الذي قبله .

الصـــــنف الثـانى

(إسجالاتُ العَدالة)

قد جرَت العادةُ أن أبناء العُلَماء والرُّؤَساء تَثْبت عدالَتُهم على الحُكَّام ، ويُسجَّل لهم بذلك ، ويحكُم الحاكِمُ بعَـدالةِ من تَثْبُت عَدالتُه لَدَيْه ، ويُشْهِدُ عليـه بذلك ، ويكتب له بذلك في دَرْجٍ عَرِيضٍ، إمَّا في قَطْع فَرْخة الشامىِّ الكاملة، وإما في نحو ذلك من الوَرَق البَلَدىّ، وتكون كتابته بقَلَم الرِّقاع وأسْطُره متوالية، بين كلِّ سَطْرين تقدير عَرْضِ أصبع أو نحو ذلك .

قلتُ : وهذه نُسْخة سِجِلٍّ أنشأتُه، كُتِبَ به لولَدى نَجْمِ الدِّين أبى الفَتْح محمد، وكُتِبَ له بها عند ثُبُوت عَدالَتِـه ، على الشَّيخ العَلَّامة ولىِّ الدِّين أحمدَ، ٱبنِ الشَّيْخ الإمامِ الحافِظِ زَيْنِ الدِّين عبدِ الرَّحيم العِراقىِّ، خليفةِ الحُكْمِ العزيز بمصرَ والقاهرةِ المحروستين، في شهور سنة ثَلاثَ عشرةَ وثمـانمـائةٍ، وهى :

الحمدُ لله الذى أَطْلعَ نَجْمَ العَدالة من سَماءِ الفضائل فى أُفُقِ مَعاليها، وأَنَار بدَرارِىِّ العُلَمـاء من حَنادِسِ الجهالة مُدْلَهِمَّ لياليها، وكَلَّل عُقُود النَّجابة من نُجَباءِ الأبناء بأغلىٰ جَوَاهِرها وأنْفَس لآليها ؛ وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً تُرَقِّى قائلَها إلىٰ أرفع الذُّرا، ويَمْتطِى مُنْتَحِلها صَهْوَة الثُّرَيَّا : وإنَّا لنَرْجُو فوقَ ذلك مَظْهرا ؛ وأشهدُ أن محمدًا عبـدُه ورسولُه المخصوصُ بمَحاسِنِ الشِّيَم ، والمَوْصوفُ بكَرَمِ المآثِرِ ومآثِرِ الكَرَم ؛ صلى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه الذين تمسَّكُوا من عُرا الدِّين بالسَّبَب

الأَقْوىٰ، وسَلَكُوا جادَّةَ الهِـدايَةِ فحَصَلُوا من أقصىٰ مُغَيَّاها على الغَـايَةِ القُصْوىٰ؛ وسَلَّمَ تسليمًا كثيرًا .

وبعدُ، فلمَّا كانت العدالةُ هى أُسَّ الشريعة وعِمادَها، ورُكْنَهَا الأعْظَمَ فى الآستناد إلى الصَّوابِ وسِنَادَها؛ لا تُقْبَل دونَها شهادةٌ ولا رِوَايَه، ولايصحُّ مع عَدَمِها إسْنادُ أمْرٍ ولا وِلَايَه ــ فقد بُنِيَت الشريعةُ المطَهَّرةُ علىٰ أرْكانِهـا ، واعْتَمَد الرُّواة فى صِحَّةِ الأخبار علىٰ أُصُولِهـا وتعلقتِ الحُكَّام فى قَبُولِ الشهادة بأحْضَانِهـا ؛ إذ هى المَلَكَة الحَامِلَة علىٰ مُلازَمَةِ التَّقْوىٰ ، والحَفِيظَةُ المـانِعَةُ من الوقوع فى هُوَّةِ البِدَعِ المُتَمَسِّكُ بسَبَبِها الأَقْوىٰ ؛ والحَكَمَةُ الثَّانِيَةُ عن الجِمَاحِ إلى آرتكاب الكبائر، والعِنَانُ الصَّارِفُ عن الجنوح إلى الإصرار على الصَّغائر؛ والزِّمامُ القَائِدُ إلىٰ صَلاح أعمـال الظواهر وسَلامة عَقَائد الضَّمائر .

ولمـا كان مجلسُ القاضى الأَجَلِّ ، الفَقيهُ ، الفاضِـلُ ، المشتغلُ ، المحصِّـلُ ، الأصيلُ ، نَجْمُ الدِّين، سَلِيلُ العلماء، أبو الفَتْح محمدُ بن فلان القَلْقَشَنْدىُّ الفَزَارىُّ ، الشَّافِعىُّ، خليفةُ الحُكْم العزيز بالقاهرة المحروسـة والِدُه، والحاكِمُ بالعَمَـلِ الفلانىِّ ومامعهما: أيَّدَ الله تعالىٰ أحكامَه، وأقَرَّ عَيْنَه بولَده ــ هو الذى وُلِدَ علىٰ فِراشِ الدِّيانه، وظَهَرتْ عليـه فى الطُّفُولية آثارُها، ونَشَأَ فى أحْياءِ الصِّيانه ، فرُوِيَتْ عنه بالسَّـنَدِ الصحيح أخبارُها، وآرْتَضع ثَدْىَ العِلْم حين بُزُوغِ نَجْمِه، وغَذِيَه مع لِبَانِ أُمِّه فآمْتَزج بَدمِه ولَحْمِـه وعَظْمِه ؛ وأَعْلَنَ مُنادِى نَشْأته بجميل الذِّكْر فأغْنَىٰ فيه عن الآسْتِخْبار، ولاحَتْ عليـه لوائحُ النَّجابة فقضى له بالكمال قبل أن يَبْلُغَ قمرُ عُمُره زَمَنَ الإبْدار ؛ فلم يَرِدْ مَنْهَلَ التكليف إلا وقد تَزَيَّن من مَحاسِنِ الفضائل بأكمل زَيْن، ولم يَبْلُغْ مَبْلَغَ العِلْم حتَّىٰ صار لوالده ــ ولله الحمدُ ــ قُرَّةَ عَيْن ــ رُفِعَتْ قِصَّةٌ مخبرةٌ عن حاله فيها من مضمون السؤال طَلَبُ الإِذْنِ الكريم بسَماعِ بَيِّنَـة المذكور، وكتابة إسجالٍ بعدَالَتِه،

فشملها الخطُّ الكريمُ العالى ، المَوْلَوِىُّ ، القاضَوِىُّ ، الإمامىُّ ، العالِمىُّ ، العاملىُّ ، العَلَّامىُّ ، الشَّيْخىُّ ، المحدِّثىُّ ، الحَافظىُّ ، الحَبْرِىُّ ، المجتهِدىُّ ، المحقِّقىُّ ، المدقِّقىُّ ، الوَحيدىُّ ، الفَريدىُّ ، الحُجِّىُّ ، الحُجَجىُّ ، الخَطيبىُّ ، البَليغىُّ ، الحاكمىُّ ، الجَلالىُّ ، الكَنَانىُّ ، البُلْقينىُّ ، الشافعىُّ ؛ شيخُ الإسلام ، الناظِرُ فى الأحكام الشرعية بالديار المصرية ، والممالك الشريفة الإسلامية : أدام اللهُ تعالىٰ أيَّامَه ، وأعزَّ أحكامَه ، وأحْسَنَ إليه ، وأسبغ نِعَمَه فى الدَّارَيْنِ عليه ـ لسَيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ ، الشَّيخ الإمامِ العالِمِ ، الحافظ ، ولىِّ الدِّينِ ، شرفِ العلماء ، أوْحَدِ الفُضَلاء ، مُفْتِى المسلمين ، أبى زُرْعة أحمدَ ٱبنِ سَيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ زَيْنِ الدِّين ، شيخِ الإسلام ، قاضِى المسلمينَ ، أبى الفضلِ عَبْدِ الرَّحيم ، ٱبنِ سَيِّدنا العبدِ الفقيرِ إلى الله تعالىٰ بَدْرِ الدين ، شرفِ العُلَماء ، أوْحَدِ الفُضَلاء ، مُفْتِى المسلمين ، أبى عبد الله الحسين العِرَاقىِّ الشافعىِّ ، خليفةِ الحُكْمِ العزيز بالقاهرة ومِصْرَ المحروستين ، والحاكمِ بالأعمال المُنُوفيَّة ، ومُفْتِى دار العَدْلِ الشريف بالديار المصرية : أيَّد الله تعالىٰ أحكامَه ، وأحسنَ إليه بالنظر فى ذلك على الوَجْهِ الشَّرعىِّ .

فحينئذ سَمِعَ سيدُنا العبدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ الشيخُ الإمامُ ، العالمُ ، الحافظُ ، ولىُّ الدِّين ، الحاكمُ المشارُ إليه : أحسنَ الله تعالىٰ إليه ـ البَيِّنَةَ بتَزْكِيَته ، وصَرَّحَتْ له بالشَّهادة بعدالته ، وقَبِلَها القبولَ الشرعىَّ السائغَ فى مثْلِه .

ثم أشهدَ علىٰ نَفْسِه الكريمةِ مَن حَضَر مجْلِس حُكْمِه وقَضَائِه ، وهو نافذُ القضاء والحُكْم ماضيهما ، وذلك فى اليوم المبارك يومِ الأربعاء الثامنِ والعشرين من شَهْر رجب الفَرْد سنةَ ثلاثَ عشرةَ وثمانمائة ـ أنَّه ثَبَتَ عنده وصَحَّ لديه : أحسن الله إليه ـ على الوَضْعِ المعتبر الشرعىِّ ، والقانون المُحَرَّر المَرْعِىِّ ؛ بالبينة العادلة المَرْضِيَّه ، التى

تَثْبُت بمثلها الحقوقُ الشَّرْعيَّه ـ عَدَالَةُ القَاضِى الأجلِّ، العَدْلِ ، الرَّضِىِّ ، نَجْمِ الدين محمدٍ المسمىٰ أعلاه : زاده الله تعالىٰ تَوْفيقا، وسَهَّل له إلى الخَيْرِ طريقا؛ وما ٱشتمل عليه من صِفَاتِها، وتحلَّىٰ به من أَدواتِها؛ ثُبُوتًا صَحِيحًا مُعْتبرًا، مستوفَى الشرائِطِ مُحَرَّرًا.

وأنه ـ أيَّد الله تعالىٰ أحكامه ، وسَدَّد نَقْضَه وإِبْرامَه ـ حَكَمَ بعَدَالتِه ، وقَبُولِ شهادته ؛ حُكْمًا تامًّا وجَزَمَه ، وقضىٰ فيـه قَضَاءً أبْرَمه؛ وأَذِنَ له ـ أيَّد الله تعالىٰ أحكامَه ـ فى تَحَمُّلِ الشهادة وأَدَائِها، وبَسْطِ قَلَمِه فى سائر أَنْدِيَتِها وأَرْجَائِها؛ وأجراه ـ أَجْرَى الله تعالى الخيراتِ علىٰ يَدَيْه ـ مُجْرىٰ أمثالِه من العُـدُول، ونَظَمَه فى سِلْك الشُّهَداءِ أَهْلِ القَبُول؛ ونَصَبه بين الناس شَاهِدًا عَدْلا، إذ كان صالحًا لذلك وأَهْلا.

فلْيَبْسُطْ بالشهادة قَلَمه، ولْيُؤَلِّفْ علىٰ شروط أَدائها كَلِمَه؛ ولْيَحْمَدِ اللهَ تعالىٰ علىٰ ما مَنَحه من مَلابِسِها الجميله ، وأَنَالَه من التَّرَقِّى لرتبتها الجَلِيـله ؛ ولْيتَّقِ اللهَ تعالىٰ فى مَوَارِده ومَصَادِرِه، ولْيَسْلُكْ مَسالكَ التقوىٰ فى أَوّلِ أَمْرِه وآخِرِه؛ وليعلَمْ أن مَن سَلَك الحَقَّ نَجا، ومن يَتَّقِ اللَّهَ يجعـلْ لَهُ مَخْرَجا . أوْزَعَه الله تعالىٰ شكر هـذه الرتبة العليه، والمَنْزِلةِ السَّنِيَّه .

وتقدّم أَمْرُ سـيدِنا العَبْدِ الفقيرِ إلى الله تعالى الشيخِ الإمام، العالِم ، الحـافظِ ، وَلِىِّ الدين ، الحاكِم المذكور ، وَقَاه الله تعالىٰ كُلَّ مَحْذُور ؛ بكتابة هـذا الإسجال ، فكُتِبَ عن إذنه الكريم، متضمِّنًا لذلك مسئُولا فيه، مُسْتَوْفيا شرائِطَه الشرعية . وأَشْهَدَ علىٰ نَفْسِـه الكريمة بذلك فى التاريخ المقـدّم ذِكْرُه بأعاليه، المكتوب بخَطِّه الكريم ـ شرفه الله تعالىٰ ، حَسْبُنا الله ونِعْمَ الوَكِيل .

قلتُ : والعادة أن يُعَلِّمَ فيه الحاكم عَلامةً تِلْوَ البسملة ، ويَكْتُبَ التاريخَ فى الوَسَط ، والحَسْبَلَةَ فى الآخِر ، كل ذلك بخَطِّه ، ويُشْهِدَ عليه فيـه من يَشْهد عليه من كُتَّاب الحُكْم وغيرهم ، كما فى سائر الإسجالات الحُكْمِيَّة .

الصـــنف الثـالث

(الكُتُب إلى النُّوّاب ومافى معنـاها)

وٱعلَمْ أنَّ الكُتُبَ التى تُكْتب عن القُضاة ألْفاظُها مُرْسلةٌ، لاجُنُوح فيها إلىٰ فَنّ البلاغة والسَّجْعِ إلا فى القَليل النَّادِر .

وهذه نسخةُ كتابٍ كُتِب به عن قاضى القُضَاة فَخْر الدِّين الشافعىّ، إلى الحُكَّام بالمملكة، وهو :

أدام الله فضائل الجَنَابات العَالِيَـة والمجالس العالية ، وجعلهم قَادَةً يُقْتدىٰ بهـم فى القَوْل والعَمَل، و و (١) الاُحْتِفال من يعتنىٰ بأمْرِه ويُحْتفل ، ولاسيَّما من سارتْ طريقَةُ فَضْله المُثْلىٰ فى الآفاق سَيْرَ المَثَل ؛ ولا زَالَ عَرْفُ مَعْروفهم علىٰ ذَوِى الفضائل يَفُوح، وجِيَاد جُودِهم تَغْدُو فى مَيْدان الإحسان وتَرُوح، ونيلُ نَيْلِهم يَسْرِى إلى القُصَّاد فيُحْمَد سُرَاه عند الغَبُوق كما يُحْمَد سُرَاه عند الصَّبُوح .

هذه المكاتبةُ إليهم تُقْرِيهم سلامًا ألْطَفَ من النَّسِيم، وتُهْدِى إليهـم ثَنَاءً مِزَاجُ كاتبه من تَسْنِيم ؛ وتُبْـدِى لعلومهم الكريمة أن الجناب الكَرِيمَ ، العالِىَ، الشَّيخىَّ ، الإمامىَّ ، الفاضلِىَّ ، البارِعىَّ ، الأوْحَدِىَّ ، الأكْملِىَّ ، البليغىَّ ، المقَدَّمِىَّ ، الخَطِيبىَّ ، البَهائِىَّ ، أوحدَ الفضلاء ، فَخْرَ العلماء ، زَيْنَ الخُطَباء ، قِبْـلةَ الأدَباء ، قُدْوة البُلَغاء ، صَفْوَةَ الملوك والسلاطين ، خَطِيبَ المَوْصِل — أدام الله المَسَرَّةَ به ، ووَصَـل الخَيْر بَسَبَبِه ، ونفعَ بفوائد فَضْله وأدَبه — ورَدَ علينا بطَرابُلُس المحروسةِ، فحصَلت المسَرَّةُ بذلك الوُرُود، وتَجدَّد بخِدْمته ماتقدم من وَثِيق العُهُود ؛ وأبْدىٰ لنا من نَظَرِه الفائِق الرَّقِيق ، وإنْشائِه المُغْنِى عن نَشْـوَة الرَّحيق ، وكِتَابَتِـه التى هى السِّحْر الحَلَالُ على

(١) بياض بالأصول .

التَّحْقيق ، ما نَزَّه الأَبْصارَ وشَنَّفَ الأسماع ، وقَطَعَ من فُرْسانِ الأدَبِ أَسْبابَ الأَطْماع ، فأزالَ عن القَلْبِ الكَئِيبِ فِكْرا ، وأَنْجَلَ من الرَّوْضِ الأَنِيقِ زَهْرا ، وأَحْمَل من المِسْكِ السَّحِيق عِطْرا ، وكَيْفَ لا ؟ وهو النَّفِيسُ الذى جُمِعَ فيه قَدِيمُ الأدَبِ وحَدِيثُه ، والجَلِيسُ الذى لا يُسْأَمُ كَلامُه ولا يُمَلُّ حَدِيثُه ، يالَهُ أَبِيًّا ليس فيما يُبْدِيه من الأدَبِ تَحْرِيفٌ ولا غَلَط ، وفاضِلًا لو لم يكنْ بَحْرًا لما كان الدُّرُّ من فِيه يُلْتَقَط ، يَمِينُه وفِطْنَتُه الكَرِيمتان ذَواتَا أَفْنان ، فهٰذه إن رَقَمَتْ طِرْسًا فرُوحٌ ورَيْحان ، أو بَذَلَتْ بِرًّا فعينان تَجْرِيان ، وهٰذه إن نَظَمتْ شِعْرًا فياقُوتٌ ومَرْجان ، أو نَثَرتْ تِبْرًا فثَمِينُ الدُّرِّ أَلْوان ، مابَرِح الفضلاءُ إلىٰ لِقَائِه يُسارِعُون ، وحَقَّ لهم أن يُسارِعُوا ومن أبواب مَعْروفِه يَقْتَبِسُون ، وكَيْفَ لا ؟ وهو الشِّهاب السَّاطِع ، والجَلِيلُ الذى لم نَزَلْ نُشِيرُ إليه بالأَصَابِع ، والنَّبِيلُ الذى تَجْرِى لفراقِه من عُيُونِ اللَّبِيبِ المَدامِع ، والنَّزِيل الذى يُنْشِدُه العَارِفُ عند وَدَاعِه :

* بِعَيْشِكَ خَبِّرْنِى مَتَىٰ أَنْتَ رَاجِع *

يَعْرِفُ المُحْسِنُ إحْسانَه فينشُرُ له من الثَّناء لِواء ، ويُجْمِلُ فى مَدْحِ صِفاتِه ونُعوتِه الإنشاءَ إن شاء ، ويُجْزِلُ فى ذَمِّ مستحِقِّ الذَّمِّ منه الهِجاء ، فأَكْرِمْ به مَدَّاحًا وأَعْظِمْ به هَجَّاء ، العُلَماء لحُضُورِه يترقَّبُون ، وإليه يتقرَّبون ، والفُضَلاء بفَضْله يَعْترِفُون ، ومن بَحْرِه يغْتَرِفُون ، والأُدَباء إليه يَسْتَبِقُون ، ومنه يَقْتَبِسُون ، والطَّلَبَةُ بأَذْيالِ فَضْله يتَمَسَّكُون ، وبنَشْرِ أثْنِيَتِه يتَمَسَّكُون ، وإخْوانُه فى اللهِ بوجُوده يَفْتَخِرون ، وإلىٰ جُوده يفْتَقِرُون ، كُلَّما عَرَضَتْ لهم حَاجَةٌ تمَسَّكُوا بإيثاره ، وكُلَّما عانَدَهم الدَّهْر سَأَوه الإمْداد بأنْصارِه ، فيُجَوِّدُ فى خِدْمتهم بيانَ بَنانِه ، ويُجَرِّدُ فى نُصْرتِهم سَيْفَ لِسانِه .

ثم من قبل أن نَبْلُغَ منه الوَطَر، ومن دُونِ أن يَكْتفِيَ منه السَّمْع والبَصَر، عَرَفْنا أنه قَصَــد التَّوَجُّه إلى البلاد الساحِليَّه، والأعمال الطَّرابُلُسِيَّه؛ لِيُمْلِيَ علىٰ أهْلِها من فضائله البَاهِرَة البَاسِــقَه، وألفاظه التي هي كالدُّرَرِ المُتَناسِــقَه؛ ويُجْلِيهم عَرائِسَ الأفكار من أفكاره، ويُجْنِيهم غَرائِسَ الأَثْمَــارِ من أشجار عِلْمِه، ويُرِيهم البَدِيهَة البديعه، والقَوافِيَ المُجِيبَة المُطِيعَه.

فلْيَتَقَدَّمْ الجمــاعةُ ـ أيدهم الله تعالىٰ ـ بإكرامه إكْرَامَ الأهْلِ والأصحاب، وتَلَقِّيه بالبِشْرِ والطَّلاقَةِ والتَّرْحاب؛ وإحْلالِه من الإحسان مَحَــلًّا ساميا، وإنْزالِه من الإفضــال مَنْزِلًا عَالِيا؛ والاعْتِناءِ الوَافِرِ بأمْرِه، واسْتِجلابِ بَثِّ حَمْــدِه وشُكْرِه؛ والْتِقاطِ دُرَرِ فوائِده، واكْتِسابِ غُرَرِ فرَائِده؛ والإصْغَاءِ إلى المَنْثُور والمَنْظُوم من أقواله، والتَّعَجُّبِ من حُسْنِ بَدَاهَتِــه وسُرْعة ارْتِجالِه.

ولْيُحْتَفَلْ كلَّ يومٍ بخِدْمتِه غاية الاحْتِفال، ويُعْتَنَ بأمْرِه اعتناءً لا يُشَارِكُه تقْصِيرٌ ولا إهمــال؛ ويُرْعَ له حقُّ الضَّيْفِ الجليل، والقَادِمِ الذي إذا رَحَلَ عن بَلَدِه أبقىٰ له بهــا الذِّكْرَ الجميل؛ ويُسَاعَدُ علىٰ ما تَوَجَّه بصَدَدِه كلَّ ساعةٍ يَعُودُ نفعها عليــه، ويُنْفِق ممــا آتاه الله ويُحْسِن كما أحْسَنَ الله إليه.

ونحن نُؤَكِّد على الجماعة ـ أيَّدهم الله ـ في ذلك كلَّ التأكيد، ونُبَالِــغُ فيه مُبالَغَةً ماعليها من مَزِيد؛ ونُحَذِّرُهُم من الإهمــال والتَّسْوِيف والتَّقْصِير، ومن مُقابَلَة جَنَابِه الكريم بالنَّزْرِ الحقــير والقَــدْرِ اليَسِير؛ فإكْرامُ هــذا الرجل ليس كإكْرامِ مَن لم يَسِرْ بسَيْرِه، وما هو إلا لعِلْمِه وفَضْله وخيرِه، وقد قال الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه: «وليْسَ من يُكْرَمُ لنَفْسه كالذي يُكْرَمُ لغَيْرِه».

فَلْتُعَظِّمُوه كلَّ التعظيم وتُنْزِلُوه منزلةً تَلِيق بأهْــلِ الفَضْلِ والإفضال، وتَرْفَعُوا له المقــامَ وتَحْفَظُوا له المَقَال؛ ليَعُودَ مُحَقِّقَ الآمال مُبَلَّغَ المَقَاصِــد، ناشرًا أَلْوِيَةَ الثَّناءِ

والمَحامِد ، مَشْمولًا بجميـل الصِّلَة والعائِد ؛ ونَحْنُ منتظرون ما يَرِدُ عنه من مكاتباته الكريمة بما وصل إليه من ... ... الحَسَنه (١) .

وفى هِمَمِهم العَلِيَّه ، ومكارِمِهم السَّنِيَّه ، ما يُغْنِي عن التأكيد بسَبَبِه والوَصِـيَّه ؛ والله تعالىٰ يُديمُ عليهم سابِـغَ الإفضال والإنعام، ويُجَمِّلُ بوجودهم وجُودِهم الأَحْكامَ والحُكَّام؛ بمَنِّه وكَرَمِه .

الصـــــنف الرابع
(ما يُكْتَب فى ٱفتتاحات الكُتُب)

فمن ذلك ما يُكْتب فى أوائل كُتُبِ الأوقاف .

وهذه نسخة خُطْبة فى ٱبتداء كِتابِ وَقْفٍ علىٰ مَسْجِد، وهى :

الحمدُلله جَامِعِ الناسِ ليَوْمٍ لارَيْبَ فِيه إنه لايُخْلِفُ الميعاد، ونَاصِرِ الدِّين المُحَمَّدِيِّ بنَبِيِّنَا صلَّى الله عليه وسلم وعلىٰ آله الكِرَامِ الأَمْجاد، ومُشَرِّفِ هذه الأمَّة بالأَئِمَّةِ والجُمَعَة والجماعات من أهْلِ الرَّشاد ، وجاعِلِ من ٱرْتضاه من أَرْبابِ سُـنَّةِ نَبِيِّه المختار من عباده العُبَّاد، ومُيَسِّرِ القُرُباتِ إليه لأهْـلِ السَّـدَاد ، ومُرِيد الأعمـال الصالحات مِمَّن أخلصـه بالطاعات ومَزِيدِ الإرْفاد، ومُفَضِّـل الأوقاف علىٰ أَفْضَلِ وُجُوهِ البِرِّ من جعـله للخَيْرِ أهْلًا بالنَّفْعِ المتعـدّى وكَثْرة الأَمْداد، ومُعَظِّمِ الأجْرِ لمن بَنَىٰ بيتًا للهِ بِنِيَّةٍ خَلِيَّةٍ من الرِّياء والعِنَاد، وقد قال رسولُ الله صـلَّى الله عليه وسـلم : "مَنْ بَنَىٰ مَسْجِدًا للهِ ولَوْ كَمَفْحَصِ قَطَاةٍ بَنَى اللهُ تعالىٰ له به قَصْرًا فى الجَنَّة" ونَرْجُو من كَرَمِ الله الآزْدِياد .

(١) بياض بالأصل ولعله : من المنازل الحسنة الخ أو ما أشبهه .

أحمدُه على مَوَادِّ نِعَمِه التى جَلَّتْ عن التَّعداد ، وأشْكُره شُكْرًا وافيًا وافرًا نجعلُه ذَخيرةً ليومِ التَّنادِ ، وأَسْتَمِدُّ من اللُّطفِ لَوَازِمَ الفَضْلِ الخَفِيِّ وهو الكَرِيم الجوَاد ، وأشهدُ أن لاإلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له وأنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه الخاتمُ الحَائمُ علىٰ حَوْضِه الوُرَّاد ، صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبِه ما أُصْغِىَ إلى الذِّكْر وأُجيبَ كلُّ داعٍ من حاضِرٍ أو بَادٍ .

وبعدُ ، فلمَّا كانتِ المَثُوباتُ مَضمونَةَ الأَجْرِ عند الكريم ، والأعمالُ متعدِّدةً فى التَّقْديم ، وكان بُنْيانُ المَسَاجد وافِرًا أجْرا ، لمن أقام بواجِبِ تِبْيانِ الظَّنِّ الجميل وسَدَّد إلى الخيرات سَيْرا ، وقد قال تعالىٰ : « أَنَا عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّ عَبْدِى بِى. فَلْيَظُنَّ بِى خَيْرا » . ورَأى العُقلاءُ أنَّ الأَوْقاف على المَسَاجد والجَوَامِع من أنفَسِ قَواعِدِ الدِّين وأعلىٰ ــ فلذلك قيل فى هذا الإسْجالِ المُبارَك :

هذا ما وَقَفَه وحَبَّسَه ، وسَبَّله وأبَّدَه فلان. وقَفَ وحَبَّس رَغْبةً فى مزيد الثَّواب ، ورَجاءً فى تَهوُّن تَهْويل يَوْمِ الحِساب ، واغْتِنامًا للأجْرِ الجَزيل من الكريم الوَهَّاب ؛ لقول الله تعالىٰ فى الآيات المَبْرورة : ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَهِ﴾ . وقَفَ بنيَّةٍ خَالِصَه ، وعَزيمَةٍ صالِحَه ، ونِيَّةٍ صادِقَه ؛ ما هو له وفى مِلْكه ، وحَوْزِه ويَدِه وتَصَرُّفِه ، من غيرِ مُنَاظِرٍ له فى ذلك ولا شَرِيك ، (ثم يَذْكُر الوَقْف) .

الفصل السادس
في العُمراتِ التي تكتَبُ للحاجّ

وهذه نسخةُ عُمْرةٍ اعتمرها أبو بكر بن محمد الأنصاري الخَزْرجيّ، عند مُجاوَرتِه بمكّةَ المشرفةِ في سنة سبعٍ، وسنة ثمانٍ، وسنة تسعٍ، وسنة عشر وسبعمائة، للسلطان المَلِكِ الناصر «محمد بن قلاوون»، وهي :

الحمدُ للهِ الذي جَعَل البَيْتَ مَثابَةً للناسِ وأَمْنا، وأَمَّنَ مَن فيه بالقائم بأمْرِ الله ومَنْ هو للإسلامِ والمُسْلمين خَيْرُ نَاصِر، وجَعَله ببكّةَ مُباركًا، ووَضَع الإِصْرَ بمَن كَثُرَتْ منه ومن سَلَفه الكَرِيم على الطَّائِفِين والعَاكفين الأَواصِر؛ وعَقَـدَ لِواءَ المُلْك بخير مَلِكٍ وهو واحدٌ في الجُودِ أَلْفٌ في الوَغَىٰ: ففي حَالَتَيه تُعْقَد عليه الخَنَاصِر، وأَطَاب المُقَام في حَرَمِ الله تعالىٰ وحَرَمِ سَـيِّدنا رَسُولِ الله صـلَّى الله عليه وسلم بمَن يَسْتَحِقُّ السَّلْطنة بذَاته الشريفة وشَرَفِ العَنَاصِر؛ وسهل الطَّرِيقَ، إلىٰ حَجِّ بَيْتِه العَتِيقِ، من المَشَارِقِ والمَغَارِب في دَوْلَةِ مَن أَجْمعتِ القُـلوبُ علىٰ مَحَبّته ووَرِثَ المُلْكَ كَابِرًا عن كَابِر، وأَنْطقَ الأَلْسِنَةَ بالدعاء له من كلِّ وَافِدٍ إلىٰ بَيْتِه الحَرَام على آختِلاف لُغَاتِهم واهْتَزَّتْ لوَصْفِ مَنَاقبِه المَنَابِر.

أحمدُه علىٰ ما بَلَّغ من جَزِيل إنْعامِه، وأشْكُره شُكْرًا أسْتَزِيدُ به من فَضْـلِه ونَوالِه وإكْرامِه، وأشهدُ أن لا إِلٰه إلا اللهُ وحدَه لاشريكَ له نعم الذَّخيرةُ لصاحِبِها يوم لِقَائه وعند قِيَامه، وأَقُولها خَالِصًا مُخْلِصًا ويَافَوْزَ من كانت آخرَ كَلَامِه؛ وأشهدُ أن سيدَنا محمَّدًا عبدُه ورسولُه أشرفُ مبْعوثٍ إلى الحَقِّ دُعِيَ فجاء بأشْرَفِ مِلَّه، فقال صلى الله عليه وسلم : «عُمْرَةٌ في رَمَضان تَعدِلُ حَجَّه» صلى الله عليه وعلىٰ جميعِ آله وأصحابه

خُصُوصا علىٰ خَلِيفَتِه فى أُمَّتِـه المَخْصوص بالسَّـبْق والمُؤَازَرَةِ والتَّصْـدِيق ، مولانا أبى بَكْر الصِّدّيق ، وعلىٰ مُظْهِرِ الأَذَانِ ومُصَـدِّقِ الخِطَاب ، مولانا أمير المؤمنين عُمَر بنِ الخَطَّاب ، وعلىٰ من جَمَـع على الأُمَّةِ آياتِ القُرآن ، مَوْلانا أميرِ المؤمنـين عُثْمانَ بنِ عَفَّان ، وعلى ٱبْنِ عَمِّـه ، وَارِثِ عِلْمِه ، الجـامع لجميع المآثِرِ والمَنَاقِب ، مَوْلانا أميرِ المؤمنين عَلِيِّ بنِ أَبِى طَالِب ، وعلىٰ بَقِيَّةِ الأنصار والمُهَاجِره ، سادَاتِ الدُّنيا ومُلُوكِ الآخِرَه ، وسلَّم تسليمًا كثيرا .

و بعدُ ، فإن الله تعالىٰ مَالِكُ المُلْكِ يُؤْتِيه مَن يَشَاءُ من عباده ، والخَيْرُ بيَدِه يُفِيضُه علىٰ خَلْقِـه فى أَرْضِـه و بِلَادِه ؛ فإذا أراد اللهُ تعالىٰ بعباده خَيْرًا نَصَر نَاصِرَهم و رَفَع عنهم الغَلَا ، ودَفَع عنهم العِدَا ، و وَلَّى عليهم خِيَارَهم ؛ فيُقِيمُه من خَيْر أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ للناس ، لِيُـذْهِبَ عنهم الضَّرَرَ و يُزِيلَ عنهـم البَاس ؛ و يأْمُرَ بالمعروف ويَنْهىٰ عن المُنْكَر ، ويُنْصِفَ المَظْلومَ من الظَّالم ويقيمَ مَنَار الشَّرْعِ المُطَهَّر .

ولمـا كان مولانا السلطانُ الأعْظَم ، والشَّاهِنْشاه المُعَظَّم ، المَلِكُ النَّاصِرُ ـ خَلَّد الله سلطانه ـ قد جمع فى المَحْتِدِ بين طَارِفٍ وتَالِد ، ووَرِثَ المُلْكَ عن أَشْرَفِ أَخٍ وأَعْظَم وَالِد ، وقامتْ على ٱسْتِحقاقه للسَّـلْطنة الدلائل ، وأَلِفَه سَرِيرُ المُلْك وعَرَفَ فيه من وَالِدِه ومن أَخِيه ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ الشَّمائِل ؛ فهُو المَـالِكُ الذى لم يَزَلْ المُلْكُ به آهِلًا ولم يَزَلْ له أَهْلا ، والسَّيِّد الذى لَبِسَ حُلَّةَ الفَخَار فلم نَجِدْ له فى السُّؤْدُدِ والفَخَار مِثْـلا ، والمَلِكُ الذى ما بَدَا لرَائِيهِ إلا قيـل : بَحْرٌ طَمَىٰ أو بَدْرٌ تَجَلَّىٰ ؛ والمُؤَيَّدُ الذى خَصَّه الله تعالىٰ بعُلُوِّ شأْنه وٱرْتِقَائه ، ولم يَرْضَ مَرَاقِدَ الفَرَاقِد لعَلْيَائِه ؛ والكَرِيمُ الذى سادَ الأَوَائِلَ والأَوَاخِر ، وأُضْفِيَتْ عليه حُلَلُ المَفَـاخِر ؛ والمَنْصُورُ الذى أُعْطى على الأَعْدَاءِ قُوَّةً ونَصْرا ، والنَّاصرُ الذى ٱتَّسَع مَجَالُ نَصْرِه فأخذ الكُفَّار حَصْرا ، وحكمت سُيُوفُه القَواضِبُ فَوَضَعَتْ عن الأولياء إِصْرا ؛ قد خَصَّه الله تعالىٰ بالعزِّ والنَّصْرِ كَرَّةً

بعد كَرَّه، وفَضَّلَه علىٰ سَائِرِ مُلُوك الإسلام بالحَجِّ وزِيارَةِ النَّبِيّ صلى الله عليه وسلم مَرَّةً بعد مَرَّه ؛ ومَرَّة أخرىٰ إن شاء الله تعالىٰ ومَرَّةً ومَرَّه !!! كم سَلَكَ سَنَن وَالِدِه وأَخِيه ـ رحمهما الله تعالىٰ ـ بالغَزَاة فكان له كُلُّ مَشْهَدٍ مَذْكور، وعُرِفَ تَقَدُّمه وإقْدَامُه فكان أعْظَم ناصِرٍ وأشْرفَ مَنْصور؛ يَحْمَدُه الله تعالىٰ والناسُ عن جميل ذَبِّه عن الإسلام وحَمِيدِ فعله، وٱسْتَقَلَّ الجَزِيل فيُنِيلُ الجَمِيلَ لمن أَمَّ أبْوَابَه الشريفةَ فلا يُسْتَكْثَر هذا من مِثْلِه ؛ ما حَمَلَتْ رَايَاته الشَّرِيفة كَتِيبَةً إلا نُصِرَتْ، ولا وَقَفَ بوجهه الكريم فى دَفْعِ طائفةِ الكُفْر إلا كُسِرَتْ ؛ ولا جَهَّزَ عساكِرَه المنصورةَ إلىٰ قَلْعةٍ إلا نَزَل أهْلُها من صَيَاصِيهم، ولا حَاصَرُوا ثَغْرًا للكُفَّار إلا أَخَذُوا بنَوَاصِيهِم ؛ ولا سَيَّرَ سَرِيَّة لمُوَاجَهَةِ مُحَارِبٍ إلا ذَلَّ علىٰ رَغْمِه، ولا نَطَق لِسانُ الحَمْد للمُجَاهِد أو سَارَ الشاهد إلَّا وَقَفَ الحَمْدُ علىٰ قَوْله وٱسمِه ؛ فاختاره الله تعالىٰ علىٰ عِلْمٍ على العالَمين، وٱجْتَباه للذَّبِّ عن الإسلام والمسلمين؛ وجعله لسُلْطانه وَارِثا، وفى الملك مَالِكًا، وللقَمَرَيْنِ ثالثا؛ ولأموره سِدَادا، ولثُغُور بلاد الإسلام سَدَّادا؛ وفَوَّضَ إليه القيامَ بمَصَالح الإسلام، والنَّظَرَ فى مَصالح الخاصِّ والعَامّ ؛ وعَدَق به أُمورَ الممالك والأملاك، وأَطْلَع بسعادته أيْمَنَ البُرُوجِ فى أثْبَت الأفلاك ؛ وحَمَى الإسلام والمسلمين من كُلِّ جانِبٍ شَرْقًا وغَرْبا، وملأ بمَهَابَتِه البِلادَ والعِبادَ رُعْبًا وحُبّا ؛ وبَسَط فى البسيطة حُكْمَه وعَدْلَه، ونَشَر على الخلائق حِلْمَه وفَضْلَه ؛ وفَرَض طاعَتَه علىٰ جميع الأُمم، وجَعَله سَيِّدا لملوك العُرْب والعَجَم ؛ وأَمَّن بمَهَابَتِه كلَّ حَاضِرٍ وبَاد، ونَوَّم سُكَّانَ الحَرَمين الشريفين من كَنَفِه فى أَوْطإِ مِهاد؛ وسَكَّنَ خَوَاطِرَ المجاورين من جميع المَخَاوِف، وصَانَ بالمُقَام فى مَكَّة الطَّائِفَ والعَاكِف ؛ قد حَسُنَ مع الله تعالىٰ سِيرَةً وسَيْرا، ودَلَّتْ أيامُه الشريفةُ أنه خَيْرُ مَلِكٍ أراد الله تعالىٰ برَعِيَّتِه خَيْرا؛ ورَاعَى الله فيما رَعَىٰ، وسَعَىٰ فى مصالح الإسلام عالِمًا أنْ لَيْسَ للإنْسَانِ إلَّا مَاسَعَىٰ.

قد مَلأَ أَعْين الرعايا بالطُّمَأْنِينَة والهُجُوع، وأَمَّنَهم فى أيَّامه الشريفة بالرَّخاء من الخَوْف والجُوع؛ وجَمَع لهم بين سَعادة الدُّنْيا والأُخْرىٰ، وسَهَّل لهم الدُّخُولَ إلىٰ بَيْته الحَرامِ بَرًّا وبَحْرا؛ وفَتَح الله تعالىٰ علىٰ يديه ـ خَلَّد الله تعالىٰ سلطانه ـ جَميعَ الأَمْصار، ومَلأَ من مَهَابَته جَميعَ الأقطار :

فسارتْ مَسِيرَ الشَّمْسِ فى كُلِّ بَلْدةٍ * وهَبَّتْ هُبُوب الرِّيح فى القُرْب والبُعْد!

فوجب على العَالَمِين أن يَدْعُوا لدَوْلَته الشريفةِ المباركة بطُولِ البَقاء، و[دَوَامِ] العُلُوِّ والآرتقاء؛ ووَجَبَ علىٰ كلِّ من الواصلين إلىٰ بَيْته الحرامِ وحَضْرة قُدْسه، أن يَبْتهِل بالدعاء له قبل أن يَدْعُوَ لنَفْسه؛ فكيف من هو مَمْلُوكُه وآبْنُ مملوكه ووَارِثُ عُبُودِيَّته، ومن لم يَزَلْ هو ووالِدُه وإخْوَتُه فى صَدَقاتِ والِده الشهيد ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وعَمِيم نِعْمَته؛ العَبْدُ الفقيرُ إلى الله تعالىٰ أبو بَكْر بن محمد بنِ المُكَرَّم الأنصاريّ الخَزْرَجىّ، فإنه لم يَزَلْ مدّة أيَّامه مُبْتَهِلًا بصالح دعواته، مُتَوسِّلًا إلى الله تعالىٰ بدوامِ نَصْره وطُول حَيَاته؛ طَائِفًا عند مَقَامه الشريف حول بَيْته الحَرَام، والمَشَاعِرِ العِظَام .

وأَحَبَّ أن يُتْحِفه بأشرف العبادة فلم يَجِدْ أجَلَّ مِقْداراً ولا أعظم أَجْرا، من عُمْرةٍ يَعْتَمِرُها عنه ويُهْدِى ثَوابَها لصحائِفه الشريفةِ ويَزِيد بذلك فَخْرا؛ فقام عنه بعُمْرَتين شريفتين آعتمرهما عنه فى رَمَضان، مكملتين بإحْرامِهما وتَلْبِيَتهما، وطَوَافِهما وسَعْيِهما؛ يَتَقَرَّبُ بذلك إلىٰ أبوابه الشريفة، ويَسْأَلُ الله تعالىٰ ويسأل صَدَقاته الشريفة أن ينعم عليه بنِصْف مَعْلوم صَدَقَةً عليه، وبنِصْفه لأولاده : ليَقْضِىَ بَقِيَّة عُمْره فى الثلاثة المساجد، ويَخُصّه بجَزِيل الدعاء من كُلِّ راكع وسَاجِد؛ وأن يكون ذلك مستمرًّا عليه مُدَّة حياته، وعلىٰ ذُرِّيَّته ونَسْله وعَقِبه بعد وَفَاته؛ لتشمل صدقاتُ مولانا السلطان ـ خَلَّد الله تعالىٰ ملكه ـ الأَحْياءَ والأَموات، ويَطِيب لغلْمانه

فى أيامه الشريفة الممات ؛ جعل الله تعالىٰ مولانا السلطان وارث الأعمار ، وأجرىٰ بدوام أيامه الشريفة المقدار ؛ وجعل كلمة الملك باقية فى عقبه ، وبلّغه من النصر والظفر والأجر غاية أربه ؛ وجعل أيامه كلها مسارّ وبشائر ، ودولته تسر النواظر ، وسعادته ليس لها آخر ؛ ويهنئه بما قد أتمه الله له من ملك والده الشهيد رحمه الله تعالىٰ :

[أُهنيكَ] بالمُلْكِ ياخيرَ مَنْ * أجارَ البَرايَا ومَنْ مَارَها ،
ومَنْ ليس للأرْضِ مَلْكٌ سِواه * تُميلُ له الخَلْقُ أبصارَها !
وأنْت الذى تَمْلِكُ الخافقَين * (١) وإعْصارَها ،
وتَمْلِكُ سَيْبَ تَكْفُورِها * وتَرْكَبُ بالجَيْش أوْعَارَها ،
وتَحْكُمُ فى المَرْءِ حُكْمَ المُلُوكِ * وتُنْشِدُ فى التَّخْتِ أَشْعارَها ،
وتَفْتَحُ بَغْدادَ دَارَ السَّلامِ * وتَنْفِى بمُلْكِكَ أكْدارَها ،
وتَأْخُذ بالعَسْكَرِ النَّاصِرِىِّ * قُصُورُ الخِلافَةِ أَوْتَارَها ،
ويَأْمَنُ فى ذلك العالَمُون * وتَحْمِى الأُسُودَ وأَوْكارَها ،
وتَبْقَىٰ إلىٰ أن تَعُمَّ البِلادَ * بنُعْمَىٰ تُتَابِعُ إدْرَارَها ،
ويَبْلُغَ مُلْكُكَ أَقْصَى البِلاد * وتُجْرِى العِبادَ وأَوْطارَها ،
ويَنْظِمُ سِيرَتَكَ النّاظِمُونَ * وتُعْيِي مَغَازِيكَ سُمّارَها ،

[والله يُبْقِيه] (١) بعدها دائما ناصر الدنيا والإسلام والمسلمين ، كما سماه والده ناصرالدُّنيا والدِّين ؛ إنه علىٰ مايشاء قدير ، وبالإجابة جدير ؛ وحسبُنا الله ونِعْمَ الوكيل .

---

(١) بياض بالأصول والتصحيح من المقام .

الباب الثانى

من المقالة العاشرة فى الهَزْلِيَّات[(١)]

اعلم أنه رُبَّما اعْتَنَتِ الملوكُ ببَعْضِه، فاقْتَرَحتْ علىٰ كُتَّابها إنشاءَ شَيْءٍ من الأمور الهَزْلِيَّة، فيحتاجون إلى الإتيان بها علىٰ وَفْق غَرَض ذلك المَلِك . كما وقع لمُعِين الدَّولة ابن بُوَيْه الدَّيْلَمِيِّ فى اقتراحه علىٰ أبى إسحٰق الصَّابِى كتابةَ عَهْدٍ بالتَّطَفُّل، لرَجُلٍ كان عنده اسْمُه عليكا، يُنْسَب إلى التَّطَفُّل، ويَسْخَر منه السلطانُ بسَبَبِ ذلك .

وهذه نسخةُ عَهْدٍ بالتَّطَفُّل، التى أنشأها أبو إسحٰق الصَّابِى لعليكا المَذْكُور :

هٰذا ما عَهِدَ علِيُّ بنُ أحمدَ المَعْرُوفُ بعليكا إلىٰ عَلِيِّ بن عُرْس المَوْصِلِيِّ، حين اسْتَخْلفه علىٰ إحياء سُنَنِه، واسْتَنابه فى حِفْظ رُسُومه؛ من التَّطَفُّل علىٰ أهل مَدِينَة السَّلَام وما يتَّصِلُ بها من أرْباضِها وأكْنافِها، ويَجْرِى معها فى سَوادِها وأطْرافِها؛ لِمَا توَسَّمه فيه من قِلَّة الحَيَاء، وشِدَّةِ اللِّقاء، وكَثْرة اللَّقْم، وجَوْدَة الهَضْم؛ ورآه أهْلًا له من سَدِّ مكانه، والرَّفاهَةِ المُهْمَلَةِ التى فَطِنَ لها، والرَّقَاعة المُطَّرَحَة التى اهْتَدىٰ إليها؛ والنِّعَم العائدةِ علىٰ لابسِيها بمَلَاذِّ الطُّعوم، وخِصْبِ الجُسُوم؛ ورَدًّا علىٰ من اتَّسعَتْ حاله، وأقْدَره اللهُ علىٰ غَرائِب المَأْكولات، وأظْفَره ببدائع الطَّيِّبات؛ آخِذًا من ذلك كُلِّه بنَصِيبِ الشَّريك المُناصِف، وضَارِبًا فيه بسَهْم الخَلِيط المُفَاوِض؛ ومُسْتعملًا للمَدْخَل اللَّطِيف عليه، والمُتَوَلَّج العَجِيب إليه؛ والأسْباب التى سَتُشْرَح فى مَواضعها من أَوَامِر هذا الكتاب، وتُسْتوفَى الدِّلالةُ علىٰ مافيها من رَشادٍ وصَواب؛ وبالله التَّوْفيق وعليه التَّعْويل، وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوَكِيل .

---

(١) ذكر المؤلف فى بيان محتويات الكتاب فى الجزء الأوّل (ص ٣٢) أن الباب الثانى فى الهزليات يشتمل على فصلين : الفصل الأوّل فيما اعتنت الملوك ببعضه . الفصل الثانى فى سائر أنواع الهزل، ولكنه لم يذكر هنا الفصل الثانى، فليتنبه .

أَمَرَه بتَقْوى الله التى هى الجانبُ العَزِيز، والحِرْزُ الحَرِيز، والرُّكْن المَنِيع، والطَّوْد الرَّفِيع، والعِصْمَة الكَالِئَه، والجُنَّة الوَاقِيَه، والزَّادُ النَّافِعُ يوم المَعَاد، وحيثُ الأمثلة من الأَزْواد، وأن يَسْتَشْعِر خِيفَتَه فى سِرِّه وجَهْرِه، ويُرَاقِبَه فى قَوْلِه وفِعْلِه، ويَجْعَل رِضَاه مَطْلَبَه، وثوابَه مَكْسَبَه، والقُرْبَةَ منه أَرَبَه، والزُّلْفىٰ لديه غَرَضَه، ولا يُخَالِفَه فى مَسْعاةٍ قَدَم، ولا يَتَعرَّضَ عنده لعاقبةِ نَدَم، ولا يُقْدِمَ علىٰ ما كَرِه وأَنْكر، ولا يَتَقاعَسَ عما أَحَبَّ وأَمَر.

وأَمَرَه أن يتأَدَّبَ بأدبِه فيما يَأْتِى ويَذَر، ويَقِفَ علىٰ حُدُودِه فيما أَبَاحَ وحَظَر؛ فإنه إذا كان ذلك هِجِّيراه ودَيْدَنَه، وجرَىٰ عليه مِنْهاجُه وسَنَنُه، تكفَّلَ اللهُ له بالنَّجاح والصَّلاح، وأَفْضىٰ به إلى الرَّشاد والفَلاح، وأَظْفَره بكُلِّ بُغْيَه، وأَوْصله إلىٰ كُلِّ مَشْيَه، ولم يُخْلِه من الفَوْز بما يَرْصد، والحَوْزِ بما يَقْصد؛ بذاك وَعَد، وكذاك يَفْعَل، وما تَوْفيقُنا إلا بالله، ولا مَرْجِعُنا إلا إليه.

وأَمَرَه أن يتأَمَّل آسْمَ التَّطْفِيلِ ومَعْناه، ويَعْرِفَ مَغْزاه ومَنْحاه، ويَتَصَفَّحَه تَصَفُّحَ الباحثِ عن حَظِّه بمَحْمُودِه، غيرِ القائلِ فيه بتَسْلِيمه وتَقْلِيده؛ فإنَّ كثيراً من الناس قد آسْتَقْبحه ممن فَعَله، وكَرِهَه لمن آستعمله، ونَسَبه فيه إلى الشَّرَهِ والنَّهَم، وحَمَلَه منه على التَّفَهِ والقَرَم؛ فمنهم من غَلِط فى آستدلاله، فأَسَاء فى مَقَالِه؛ ومنهم من شَحَّ علىٰ ماله، فدافع عنه بآحْتِيالِه؛ وكُلُّ الفريقين مَذْمُوم، وجَمِيعُهما مَلُوم؛ لا يتعلقان بعُذْرٍ واضح، ولا يَعْتَرِيان من لباسٍ فَاضح؛ ومنهم الطائفةُ التى ترىٰ فيها شَرِكَةَ العِنَان: فهى تَتَدَلَّه إذا كان لها، وتَتَدَلَّىٰ عليه إذا كان لغيرها؛ وترىٰ أن المِنَّة فى المَطْعَم للهَاجِم الآكل، وفى المَشْرَب للوَارِدِ الوَاغل، وهى أَحَقُّ بالحُرِّيَّه، وأَخْلَق بالخَيْرِيَّه، وأَحرىٰ بالمُرُوَّه، وأَولىٰ بالفُتُوَّه، وقد عرفت بالتَّطْفِيل، ولا عَارَ فيه عند ذَوى التَّحْصِيل،

لأنه مُشْتَقٌّ من الطَّفَلِ وهو وَقْت المَسَاء، وأَوَانُ العَشَاء؛ فلما كَثُر ٱسْتُعْمِلَ فى صَدْر النَّهار وعَجُزِه، وأوَّلِه وآخِرِه؛ كما قيـل للشَّمْس والقمر: قَمَرانِ وأحَدُهمـا القمر، ولأبى بَكْرٍ وعُمَر: العُمَران وأَحَدُهما عُمَر، وقد سَبَق إمامُنا بيَانَ رحْمَةُ الله عليه إلىٰ هـذا الأمر سَبْقًا أوجَبَ له خُلُود الذِّكر، فهو باقٍ بَقـاءَ الدَّهر، ومُتَجدِّدٌ فى كُلِّ عَصر؛ وما نعرف أحدًا نَالَ من الدُّنيا حَظًّا من حُظُوظِها فبَقِيَ له منه أَثَرٌ يخلفـه، وصِيتٌ يَسْتَبِدّ به إلا هو وَحْدَه، فبيَانٌ رِضْوانُ الله عليـه يُذْكر بتَطْفِيـلِه كما تُذْكَر الملوكُ بسِـيَرِها، فمَن بَلَغ إلىٰ نِهايَتِه، أو جَرَىٰ إلىٰ غايَتِـه؛ سَعِدَ بغَضَارَةِ عَيْشِـه فى يومه، ونَبَاهَةِ ذِكْرِه فى غَدِه؛ جعلنا اللهُ جميعًا من السابقين إلىٰ مَدَاه، والمَذْكُورين كذِكْرَاه.

وأمَرَه أن يَعْتمِدَ مَوائِدَ الكُبَراء والعُظَماء بغَزَايَاه، وسُمُطَ الأُمَراء والوُزَراء بسَرَايَاه؛ فإنه يَظْفَر منهـا بالغَنِيمَة البارِدَه، ويَصِلُ عليها إلى الغَرِيبَةِ النَّادِرَه، وإذا ٱسْتَقْراها وَجَد فيها من طَرَائِف الألوان، المُلِذَّة للسان، وبَدَائِع الطُّعُوم، السَّائِغَة فى الحُلْقوم، ما لا يجِدُه عند غيرهم، ولا يَنَاله إلا لَدَيْهـم؛ لحِذْقِ صِناعَتِهم، وجَوْدة أَدَوَاتِهـم، وٱنْزِياحِ عِلَلِهم، وكَثْرَة ذَاتِ بَيْنِهم؛ واللهُ يُوَفِّر من ذلك حَظَّنا، ويُسَدِّدُ نحوه لَحْظَنا، ويُوَضِّح عليه دَلِيلَنا، ويُسَهِّل إليه سَبِيلَنا.

وأمَرَه أن يَتَّبِع ما يَعْرِض لمُوسِرِى التُّجَّار، ومُجَهِّزِى الأمصار، من وَكِيرَةِ الدَّار، والعُرْس والإعْذار؛ فإنهم يُوَسِّعون علىٰ نفوسهم فى النَّوائِب، بحَسَب تَضْيِيقِهم عليها فى الرَّاتِب؛ ورُبَّمـا صَبَروا علىٰ تَطْفِيـل المُتَطَفِّلين، وأَغْضَوْا علىٰ تَهَجُّم الوَاغِلين؛ ليَتَحَدَّثُوا بذلك فى مَحَافِلِهم الرَّذْله، ويَعُدُّوه فى مَكَارِم أخلاقهم النَّذْله؛ ويقولُ قائِلُهم البَاجِحُ باتِّساع طَعَامِه، المُبَـاهِى بكَثْرة حُطَامِه؛: إنِّى كنتُ أرىٰ الوُجُوه الغَرِيبَةَ فأُطْعِمها، والأَيْدِىَ المُمْتَدَّةَ فأملَؤُها. وهٰـذه طائفةٌ لم تُرِدْ بمـا فعلَتْه الكَرَمَ والسَّعَه،

وإنما أرادت المَنَّ والسُّمْعَه ، فإذا آهْتَدَى الأرِيبُ إلىٰ طَرائِقِها وَصَل إلىٰ بُغْيَته من إعلانِ قَضِيَّتها ، وفاز بمُرادِه من ذَخَائِر حَسَنَتِها ، إن شاء الله .

وأمَرَه أن يُصادِقَ قَهَارِمَةَ الدُّورِ ومُدَبِّرِيها ، ويُرافِقَ وُكلاءَ المَطَابِخ وحَمَّالِيها ؛ فإنَّهم يَمْلِكون من أصحابهم أَزِمَّة مَطاعِمِهم ومَشَارِبِهم ، ويَضَعُونها بحيثُ يُحِبُّون من أهْل مَوَدَّاتِهم ومَعَارِفِهم ؛ وإذا عَدَّتْ هـذه الطائفةُ أحدًا من الناسِ خَلِيلًا من خُلَّانِها ، وآتَّخَذَتْه أَخًا من إخوانها ؛ سَعِدَ بمُرَافَقَتِها ، ووَصَلَ إلىٰ مَحابِّه من جِهَاتِها ، ومآرِبِه فى جَنَباتِهـا .

وأمَرَه أن يَتَعَهَّد أسْوَاقَ المُسَوِّقين ، ومَوَاسِم المُتبايِعِين ؛ فإذا رَأَىٰ وَظِيفةً قد زِيدَ فيها ، وأَطْعِمَةً قد آحْتَشَد مُشْـتَرِيها ؛ آتَّبعها إلى المَقْصد بهـا ، وشَيَّعها إلى المَنْزِل الحَاوِى لهـا ؛ وآسْتَعلم مِيقَاتَ الدَّعْوه ، ومن يَحْضُرها من أهْـل النِّسْيان والمُرُوَّه ؛ فإنه لا يَخْلُو فيهم من عَارِفٍ به يُرَاعِى وَقْتَ مَصِيرِه إليها لِيَتْبَعَه ، ويَكْمُنَ له لِيَصْحَبه ويَدْخُلَ معَـه ؛ وإنْ خَلا من ذلك آخْتَلط بزُمَرِ الدَّاخِلِين ، وعُصَبِ الرَّاحِلين ؛ فمـا هو إلا أن يَتَجاوزَ عَتَبَ الأَبْواب ، ويَخْرُجَ من سُلْطان البوّابين والحُجَّاب ؛ حتَّىٰ يَحْصُلَ حصولا قَلَّ ما حَصَل [عليه] أحدٌ قَبْلَه فانْصرفَ عنه إلا ضَلِيعًا من الطَّعَام ، بَرِيقًا من المُدَام ؛ إن شاء الله .

وأمَرَه أن يَنْصب الأَرْصاد علىٰ مَنَازِل المُغَنِّيات والمُغَنِّين ، ومَوَاطِنِ الأبليات(؟) والمُخَنَّثِين ؛ فإذا أتاه خَبَرُ جَمْعٍ يَضُمُّهُم ، ومَأْدُبَةٍ تَعُمُّهم ؛ ضَرَب إليهـا أعْناقَ إبِلِه ، وأَنْضَىٰ نَحْوَها مَطَايا خَيْلِه ؛ وحَمَل عليها حَمْـلةَ الحُوتِ المُلْتَقِم ، والثُّعْبانِ المُلْتَهِـم ؛ واللَّيْثِ الهَـاصِر ، والعُقَاب الكَاسِر ؛ إن شاء الله .

وأمَرَه أن يَتَجَنَّبَ مَجَامِعَ العَوَامِّ المُقِلِّين ، ومَحَافِلَ الرِّعاع المُقْتِرين ؛ وأن لا يَنْقُل إليها قَدَما ، ولا يُعَفِّر لمَأْكِلِها فَمًـا ؛ ولا يَلْقِى فى عَتَبِ دُورِها كَيْسانا ، ولا يعدّ الرَّجل

منها إنسانا ؛ فإنها عِصَابَةٌ يجتمع لها ضِيقُ النُّفوس والأحلام ، وقلّة الإحكام والأموال ؛ وفى التَّطْفيل عليها إجحافٌ بها يُوسَم ، وإزراؤه بمُرُوءة المُتطفِّل يُوصَم ؛ والتَّجنُّبُ لها أحرىٰ ، والازْوِرَار عنها أحجَى ؛ إن شاء الله .

وأمَرَه أن يَحْزِرَ الخِوَانَ إذا وُضع ، والطعامَ إذا نُقِل ؛ حتىٰ يَعْرِف بالحَدْس والتَّقْرِيب ، والبَحْثِ والتَّنْقيب ؛ عَدَدَ الألوان فى الكَثْرة والقِلَّه ، وافْتِنانَها فى الطِّيب واللَّذه ؛ فيُقَدِّر لنفْسه أن يَشْبَع مع آخِرِها ، ويَنْتَهِىَ منها عند انتهائها ؛ ولا يَفُوتُه النَّصيبُ من كثيرِها وقليلِها ، ولا يُخْطِئُه الحَظُّ من دَقيقِها وجَليلِها . ومَتىٰ أحَسَّ بقِلَّة الطَّعام ، وعَجْزِه عن الأقْوام ؛ أمْعَنَ فى أوَّله إمْعانَ الكَيِّس فى سَعَتِه ، الرَّشيد فى أمْرِه ، المَالِئِ لبَطْنِه ؛ من كُلِّ حارٍّ وبَارد ، وخَبِيثٍ وطَيِّب ؛ فإنه إذا فعل ذلك سَلِمَ من عَواقِب الأغْمارِ الذين يَكُفُّون تَطَرُّفا ، ويُقِلُّون تَأدُّبا ؛ ويَظُنُّون أن المَادّة تبلغهم فى آخر أمْرِهم ، وتَنْتَهِى بهم إلىٰ غاية سَعْيِهم ؛ فلا يَلْبَثوا أن يَخْجَلوا خَجْلة الوَاثِق ، ويَنْقلِبُوا بحَسْرة الخائب ؛ أعاذَنا اللهُ من مِثْل مقامهم ، وعَصَمنا من شَقَاء جُدُودِهم ؛ إن شاء الله .

وأمَره أن يَرُوضَ نَفْسَه ، ويُغالِطَ حِسَّه ؛ ويَضْرِبَ عن كَثيرٍ مما يَلْحَقُه صَفْحا ، ويَطْوِىَ دُونَه كَشْحا ، ويَسْتَحْسِنَ الصَّمَمَ عن الفَحْشا ؛ وإن أتَته اللَّكْزَة فى حَلْقِه ، صَبَر عليها فى الوُصُول إلىٰ حَقِّه ؛ وإن وَقَعتْ به الصَّفْعة فى رَاسه ، صَبَر عليها لمَوْقع أضْراسِه ؛ وإن لَقِيَه لاقٍ بالجَفَاء ، قابَلَه باللُّطْف والصَّفَاء ؛ إذ كان قد وَلَجَ الأبواب ، وخَالَط الأسْباب ؛ وجَلَس مع الحُضُور ، وامْتَزج بالجُمْهور ؛ فلا بُدَّ أن يلقاه المُنْكِرُ لأمْرِه ، ويَمُرَّ به المُسْتَغْرِبُ لوَجْهِه ؛ فإن كان حُرًّا حَيِيًّا أمْسك وتَذَمَّم ، وإن كان فَظًّا غَليظًا هَمْهَم وتَكَلَّم ؛ وتَجنَّب عند ذلك المُخَاشَنَه ، واستعمل مع المُخَاطِب له المُلاينَه ؛ ليُبَرِّد غَيْظَه ، ويَفُلَّ حَدَّه ؛ ويَكُفَّ غَرْبَه ، ويَأْمَن شَغَبَه ؛ ثم إذا طال المَدَىٰ

تكررت الالحاظُ عليه فعُرف ، وأَنِستِ النُّفوسُ به فَأُلِف ؛ ونال من المَحالِّ المُجْتَمَع عليها ، مَنَالَ من حُشِم وسئل الذَّهابَ إليها .

وقد بَلَغنا أن رَجُلًا من العِصَابَة كان ذا فَهْمٍ ودِرَايه ، وعَقْلٍ وحَصَافَه ، طَفَّلَ علىٰ وَلِيمَه ، لرجلٍ ذِى حالٍ عَظِيمَه ؛ فرَمَقَتْه فيها من القوم العُيُون ، وصُرِفتْ بهم فيه الظُّنُون ؛ فقال له قائلٌ منهم : من تَكُون أعزَّك الله ؟ فقال : أَنَا أوَّلُ من دُعِىَ إلىٰ هذا الحَقّ . قيل له : وكَيْفَ ذَاكَ ونحنُ لا نَعْرِفك؟ فقال : إذَا رأيتُ صاحِبَ الدَّارِ عَرَفَنِى وعَرَّفْتُه نَفْسِى . فَجِىءَ به إليه ، فلما رآه بَدَأَه بأن قال له : هَلْ قُلْتَ لطَبَّاخِك : أن يَصْنَع طَعامَك زَائدًا علىٰ عدد الحاضرين ، ومِقْدار حَاجَة المَدْعُوِّين ؛ قال : نعم ! قال : فإنَّما تلك الزيادةُ لى ولأَمْثالِى ، وبها يُسْتَظْهَر لمن جَرَىٰ مَجْراى ، وهى رِزْقٌ لنا أنزله الله علىٰ يَدكَ وبِك ، فقال له : كَرامَةً ورُحْبا ، وأَهْلا وقُرْبا ؛ والله لا جَلستَ إلا مع عِلْيَةِ الناس ووُجُوه الجُلَسَاء ، إذْ أَطْرَفتَ فى قَوْلك ، وتَفَنَّنْتَ فى فِعْلك . فلْيَكُنْ ذلك الرجُلُ إمامًا يُقْتَدَىٰ به ، ويُقْتَفَىٰ طَرِيقُه ، إن شاء الله .

وأَمَره بأن يُكْثِر من تَعاهُد الجوارِشنات المُنَفِّذَة للسُّدَد ، المُقَوِّيَة للمِعَد ؛ المُشَهِّيَة للطعام ، المُسَهِّلةِ لسُبُلِ الآنْهِضَام ؛ فإنها عِمادُ أَمْرِه وقِوَامُه ، وبها آنْتِظَامُه وآلْتِئامُه ؛ إذْ كانت تُعِينُ علىٰ عَمَلِ الدَّعْوتين ، وتُنْهِضُ فى اليومِ الواحدِ الأَكْلَتين ؛ وهو يتناولها كذا كالكاتب الذى يَقُطُّ أَقْلامَه ، والجُنْدِىِّ الذى يَصْقُلُ حُسَامَه ؛ والصَّانِع الذى يُحَدِّد آلَتَه ، والماهِر الذى يُصْلِح أَدَواتِه ، إن شاء الله .

هذا عَهْد عليكا بن أَحْمد إليك ، وحُجَّته لَكَ وعليك ؛ لم يَأْلُك فيه إرْشادًا وتَوْقيفا ، وتَهْذِيبا وتَثْقِيفا ، وبَعْثًا وتَبْصِيرا ، وحَثًّا وتَذْكيرا ؛ فكُنْ بأوامره مُؤْتَمِرا ، وبزَوَاجِرِه مُزْدَجِرا ؛ ولرسومه مُتَّبِعا ، وبحِفْظِها مُضطَّلِعا ؛ إن شاء الله تعالىٰ ، والسَّلامُ عليك ورحمةُ الله وبركاتُه .

الخاتمـــــة

فى ذِكْرِ أمورٍ تتعلق بديوان الانشاء غير أمور الكتابة ، وفيهـا أربعـــة أبواب

البـاب الأوّل

فى الكلام على البَرِيدِ، وفيـه فصلان

الفصـــــل الأوّل

فى مقدمات يحتاج الكاتِبُ إلى معرفتها ، ويتعَلَّقُ الغَرَضُ من ذلك بثـلاثة أمور

الأمر الأوّل

(مَعْرفة معنىٰ لَفظِ البَرِيدِ لُغَـةً وَٱصْطِلاحا) .

أما معناه لُغَةً ، فالمراد منـه مَسَافَةٌ معلومة مُقَـدَّرةٌ بٱثنى عَشَرميلًا ، واحْتَجَّ له الجَوْهَرِىّ بقول مُزَرِّدٍ يَمْدح عَرَابَةَ الأَوْسِىَّ :

فَدَتْكَ عَرَابَ اليومَ أُمّى وخَالَتِى ، * ونَاقَتِىَ النَّاجِى إليـــك بَرِيدُها !

يُرِيدُ سَيْرها فى البَرِيد . وقد قَدّره الفُقَهاءُ وعلمـاءُ المَسَالك والمَمَالك بأنه أربعةُ فَرَاسِخَ ، والفَرْسَخُ ثلاثة أمْيالٍ ، والمِيلُ ثَلاثةُ آلاف ذراعٍ بالهَـاشِمىّ ، وهو أربعـةٌ وعشرون أُصْبُعا ، كُلُّ أَصْبُعٍ سِتُّ شعيراتٍ مُعْترضاتٍ ، ظَهْر إحداها لبَطْنِ الأُخْرىٰ ، والشَّـعيرة سَبْعُ شَـعَرات معترضات من ذَنَبِ بَغْـلٍ أو بِرْذَوْنٍ .

قال الجَوْهرىّ : ويقال أيضا على البريد : المُرَتَّبُ، يقال : حُمِل فلانٌ على البَرِيد . قال : ويُطْلَقُ أيضا على الرَّسولِ بَرِيدٌ .

ثم ٱختلف فيه فقيل : إنه عَرَبِىٌّ . وعلىٰ هذا ذَهَب الخليل إلىٰ أنه مُشْتَقٌّ من بَرَدتُ الحَديد إذا أرسلتَ ما يخرجُ منه . وقيل : من أَبْردتُه إذا أرْسلْتَه . وقيل : من بَرَد إذا ثَبَت، لأنه يأتى بما تَسْتقِرُّ عليه الأخبار، يقال : * اليَوْمَ يَوْمٌ بارِدٌ سَمُومُه * أى ثَابِتٌ .

وذَهَب آخرون إلىٰ أنَّه فارِسِىٌّ معَرَّبٌ . قال أبو السعادات بنُ الأثير فى كتابه "النّهاية فى غَرِيبِ الحَدِيث" : وأصله بالفارسيَّة بريده دم، ومعناه مَقْصُوص الذَّنَب . وذلك أن مُلوكَ الفُرْس كانت من عادتهم أنهم إذا أقاموا بَغْلًا فى البريد قَصُّوا ذَنَبه، ليكونَ ذلك علامةً لكونه من بِغَال البريد . وأنشد الجَوْهَرِىُّ لآمْرِئِ القَيْس :

عَلَىٰ كُلِّ مَقْصُوصِ الذُّنَابَىٰ مُعَاوِدٍ * بَرِيدَ السُّرَىٰ باللَّيْلِ مِن خَيْلِ بَرْبَرَا .

الأمر الثانى

(أَوَّلُ من وَضَع البَرِيدَ وما آل إليه أَمْرُه إلى الآن)

أما فى الجاهِلِيَّة، فقد ذكر فى "التعريف" : أنَّ البريد كان موجودًا فى عَهْدِ الأكاسرة من مُلوكِ الفُرْس، والقَيَاصِرَة مُلُوك الرُّوم . قال : ولكن لا أَعْرِفُ هل كان على البريد المُحَرَّرِ أو كانت مَقَادِيرُه مُتفاوِتَةً كما هو الآن؟ . ثم قال : ولا أظُنُّه إلا على القَدْرِ المحرَّر، إذ كانت حِكْمَتُهم تَأْبَىٰ إلَّا ذلك .

وأمَّا فى الإسلام فقد ذكر أبو هِلالٍ العَسْكَرىُّ فى كتابه "الأوائل" : أنَّ أوَّلَ من وضَعَه فى الإسلام مُعاوِيَةُ بنُ أبى سُفْيان رَضِى الله عنهما . قال فى "التعريف" :

وذلك حينَ آستقرَّتْ له الخلافةُ، ومات أميرُ المؤمنين عليٌّ رَضى الله عنه، وسَلَّم له آبنُه الحَسَنُ عليه السلام، وخلا من المُنَازِع ، فوضَعَ البَرِيد لتُسْرِعَ إليه أخْبارُ بلاده من جميع أَطْرافها، فأَمَر بإحضار رِجَالٍ من دَهَاقِين الفُرْس وأهْلِ أعمال الرُّوم وعَرَّفَهم ما يُرِيد، فوضعوا له البَرِيد . قال : وقيل : إنما فُعِل ذلك زَمن عَبْد الملك آبن مَرْوانَ حين خَلَا وَجْهُه من الخَوَارِج عليه : كعَمْرِو بنِ سَعيدِ الأَشْدق، وعَبْد الله بنِ الزُّبير، ومُصْعَب بن الزبير، والمُخْتار بنِ أبى عُبَيْد .

والذى ذكره العَسْكرىُّ : أن عَبْدَ الملك إنما أَحْكمَه . وذُكِرَ عنه أنه قال لآبنِ الدغيدغة : ولَّيْتُكَ ماحضَر بَابِى إلا أَرْبعةً : المُؤَذِّنَ، فإنه دَاعِى اللهِ تعالىٰ فلا حِجابَ عليه . وطَارِقَ اللَّيلِ، فَشَرٌّ ما أَتَىٰ به ولو وَجَد خَيْرًا لنَامَ . والبَرِيدَ، فمتىٰ جاء من لَيْلٍ أو نَهارٍ فلا تَحْجُبْه، فربَّما أفسد على القوم سَنَةً حَبْسُهم البَرِيدَ ساعَةً . والطَّعامَ إذا أَدْرك، فآفتح البابَ وآرْفَع الحِجابَ وخَلِّ بين الناس وبين الدخول . ثم قال : ويُذْكر هذا الكلام عن زِيادٍ أيضا .

قال فى "التعريف" : وكان الوَلِيدُ بنُ عبدِ المَلك يحمِلُ عليه الفُسَيْفِسَاءَ وهى الفصُّ المُذْهَبُ من القُسْطَنْطِينِيَّة إلىٰ دِمَشْق، حتى صَفَّح منه حِيطانَ المسجد الجامع بها، ومَساجِدَ مَكَّةَ والمدينةِ والقُدْسِ .

قال : ثم لم يَزَلْ البريدُ قائمًا، والعملُ عليه دائمًا، حتى آنَ لبِناءِ الدَّوْلة المَرْوانيَّة أن يَنْتقِض، ولِحَبْلِها أن يَنْتَكِثَ ، فآنقطع ما بين خُراسانَ والعِرَاق، لآنصرافِ الوُجُوه إلى الشِّيعة القائمة بالدَّولة العَبَّاسِيَّة . ودام الأمْرُ علىٰ ذلك حتَّى آنقضَتْ أيامُ مَرْوانَ بنِ محمدٍ آخرِ خُلَفاء بنى أُمَيَّة، ومَلَك السَّفَّاحُ، ثم المَنْصور، ثم المَهْدىُّ، والبَرِيدُ لا يُشَدّ له سَرْج، ولا تُلْجَم له دَابَّةٌ . ثم إن المَهْدىَّ أغْزَى آبنَه هٰرُونَ الرشيدَ الرُّومَ، وأحَبَّ أن لا يزالَ علىٰ عِلم قَرِيبٍ من خَبَرِه ، فرتَّب فيما بينه وبين

مُعَسْكَرِ ٱبنِـه بُرُدًا كانت تَأْتِيه بأخباره، وتُرِيهِ مُتَجَدِّداتِ أيَّامه . فلما قَفَلَ الرشـيدُ قَطَع المَهْدِىُّ تلك البُرُدَ ، ودام الأمر علىٰ هذا بَاقِىَ مُدَّته ومُدَّةِ خلافة مُوسى الهَادِى بعده . فلمـا كانتْ خِلافةُ هٰرُونَ الرَّشيد، ذَكَر يومًا حُسْنَ صَنِيعِ أبيه فى البُرُد التى جعلها بينهما، فقال له يَحْى بنُ خَالِدٍ : لو أمَر أميرُ المؤمنين باجراء البَرِيد علىٰ ما كان عليه، كان صَلاحًا لمِلْكِه . فأمره به فقرَّره يحيي بنُ خَالدٍ، ورتَّبه علىٰ ما كان عليـه أيامَ بنى أُمَيَّة، وجَعَل البغالَ فى المراكز، وكان لا يُجَهَّز عليه إلا الخليفةُ أو صاحِبُ الخَبَر، ثم ٱستمرَّ علىٰ هذا . فلما دَخَل المأمونُ بلادَ الرُّوم ونزل علىٰ نَهْر البِرْذَوْنِ وكان الزمان حَرًّا، والفَصْل صيفًا، قعَدَ على النَّهر ودَلَّىٰ رِجْليه فيه وشَرِبَ ماءه ، فٱسْتَعْذَبَه وٱسْتَبْرَدَه وٱستطابه ، وقال لمن كان معـه : ما أطيَبُ ما شُرِبَ عليه هذا المـاءُ؟ ، فقال كلُّ رَجُلٍ برَأْيِه . فقال هو : أَطْيبُ ما شُرِبَ عليه هـذا المـاءُ رُطَبُ إزازَ ، فقالوا له : يَعِيش أميرُ المؤمنـين حتَّىٰ يأتِىَ العراقَ ويأكل مِـن رُطَبِها الإزاز ، فما ٱستَتَمُّوا كلامَهُم حتى أقبلتْ بِغالُ البريد تحمـل ألْطافًا فيها رُطَبُ إزاز ، فأُتِىَ المأمونُ بها فأكَلَ منها وأمْعنَ وشَرِبَ من ذلك المـاء . فكثُر تعَجُّبُ الحاضرين منه لسعادَتِه فى أنه لم يَقُمْ من مَقامه حتَّىٰ بلغ أُمْنِيَّتَه ، علىٰ ما كان يُظَنُّ من تَعَـذُّرِها . فلم يقم المأمون من مَقامِه حتَّىٰ حُمَّ حُمَّى حَادَّةً كانتْ فيها مَنِيَّتُه .

ثم قطع بَنُو بُوَيْهٍ البريدَ حين عَلَوْا على الخلافة وغَلَبوا عليهـا ، ليَخْفَىٰ على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحَرَكَاتِهـم أحْيانَ قَصْدِهم بَغْداد، وكان الخليفةُ لا يزال يأخذُهم علىٰ بَغْتَة .

ثم جاءتْ ملوكُ السَّلاجِقَة علىٰ هذا ، وأَهَمَّ مُلُوكَ الإسلامِ ٱخْتِلافُ ذات بينهم وتَنَازُعُهُم، فلم يكن بينهم إلا الرُّسُل على الخَيْل والبِغَال، فى كلِّ أرْضٍ بحَسَبِها .

فلما جاءت الدَّولَةُ الزَّنْكيَّة أقامتْ لذلك النَّجَّابةَ ، وأعدّتْ له النُّجُبَ المُنْتَخَبَةَ . ودام ذلك مُدّةَ زمانِها ثم زمانِ بني أَيُّوبَ إلى آنقراض دَوْلتهم . وتَبِعَها علىٰ ذلك أَوائِلُ الدَّولة التُّرْكية ، حتّىٰ صار المُلْك إلى المَلِك الظاهر بِيبَرْس رحمه الله ، وآجتمع له مُلْكُ مِصْر والشامِ وحَلَبَ إلى الفُراتِ ، وأراد تَجْهيز دَوْلته إلىٰ دِمَشْقَ فعَيَّن لها نائبًا ، ووَزِيرًا ، وقاضيًا ، وكاتبًا للانْشاء .

قال : وكان عَمِّي الصاحِبُ شرفُ الدِّين أبو محمد عبدُ الوَهّاب رحمه الله هو كاتبَ الإنشاء ، فلما مَثُل إليـه ليُوَدِّعَهُ ، أوصاه وصايا كثيرةً ، آكَدُها مُواصَلَتُه بالأخبار وما يَتَجَدَّدُ من أخبار التَّتار والفِرَنْج ، وقال له : إن قَدَرْتَ أن لا تُبَيِّتَنِي كلَّ لَيلة إلا على خَبَرٍ [ولا تُصَبِّحَنِي إلا علىٰ خَبَرٍ](1) فآفْعَلْ ، فعرّض له بمـا كان عليه البريدُ في الزَّمان الأوّل وأيامِ الخُلَفاء ، وعَرَضه عليه فحَسُن مَوْقِعُه منه وأمر به . قال عَمِّي : فكنتُ أنا المقرِّرَ له قُدّامَه وبين يَدَيْه . ثم ذكر أنه لم يَزَلْ باقيًا علىٰ ذلك إلىٰ أيّامه . ثم قال : وهو جَنَاحُ الإسلام الذى لا يُحَصّ ، وطَرَفُ قادِمَته التى لا تُقَصّ .

قلتُ : ولم يَزَل البريدُ بعد ذلك مُسْتقرًّا بالديار المصريَّة والممـالك الشّاميَّة إلىٰ أن غَشِيَ البـلادَ الشامية تمرلنْكُ صاحِبُ ما وراء النَّهْر ، وفَتَح دِمَشْقَ وخَرَّبهـا وحَرَّقها فى سَـنَة أربعٍ وثمـانمـائة ، فكان ذلك سببًا لحَصّ جَنَاح البريد وبُطْلانِه من سائر الممـالك الشامية . ثم سَرَىٰ هـذا السُّمُّ إلى الدِّيار المصرية فألحقها بالهَمَل ، ورَمَاها بعد الحَلْيِ بالعَطَل ، فذَهَبتْ مَعالِمُ البَريد من مِصْر والشام ، وعَفَتْ آثارُه ، وصار إذا عَرَض أمرٌ من الأمور السلطانية فى بَعْض نَواحي الديار المصرية أو الممالك الشامية ، رَكِبَ البريديُّ علىٰ فَرَسٍ له ، يسيرُ بها الهُوَيْنا سَيْرَ المُسافر إلى المكان الذى يُرِيدُه ، ثم يعود علىٰ هذه الصورة ، فيحْصُل بواسطة ذلك الإبطاءُ فى الذَّهاب والإِيَاب .

(1) الزيادة من التعريف (ص ١٨٧) .

الأمر الثالث

(بيانُ مَعَالِمِ البَرِيد)

اِعلَمْ أنه كان فيما تقدّم فى زَمَنِ الخُلَفاء للبريد شَخْصٌ مَخْصُوصٌ يتولّىٰ أمرَه بتَنْفيذ ما يَصْدرُ وتَلَقّى ما يَرِد، يُعبَّر عنه بـ«صَاحِب البريد» . وممن تعرّض إلىٰ ذِكْر ذلك أبو جَعْفَرٍ النَّحَّاسُ فى كتابه "صِناعة الكُتَّاب" فى الكلام علىٰ أرباب الوظائف ، وٱشْتِقاق أسْمائِهم . وقد أشار إليه الجوهرىُّ فى صَحَاحِه أيضا فقال : ويقال أَبْرَدَ صاحِبُ البريد إلى الأمير فهو مُبْرِدٌ يعنى أرسلَ إليه البريد .

ثم قد تقدّم فى مُقَدّمة الكِتَاب فى الكلام علىٰ صاحِبِ دِيوانِ الإنشاء وماله التَّحدُّثُ عليه ـ أن صاحِبَ دِيوانِ الإنشاء بالأبواب السلطانية هو المُتولّى لأمر البَرِيد وتَنْفيذِ أُمُوره فى الإيراد والإصدار . وكان للبريد ألْواحٌ من فِضَّةٍ مُخَلَّدَةٌ بديوان الإنشاء تحتَ أمْرِ كاتب السِّرّ بالأبواب السلطانية، مَنْقُوشٌ علىٰ وَجْهَى اللَّوح نَقْشًا مُزْدَوجًا ماصُورتُه : «لاإله إلا اللهُ محمدٌ رَسُولُ الله، أَرْسَلَه بالهُدَىٰ ودِينِ الحَقّ لِيُظْهِرَه على الدِينِ كُلِّه ولَوْ كَرِهَ المُشْرِكُونَ . ضُرِبَ بالقاهرة المحروسة » . وعلى الوَجْهِ الآخَرِ ما صُورتُه : « عِزٌّ لمولانا السُّلطانِ المَلِكِ الفُلانىّ : فلانِ الدُّنيا والدِّين، سلطان الإسلام والمسلمين، فلانٍ، ٱبنِ مولانا السلطانِ الشهيدِ المَلِكِ الفلانىّ فلانٍ ، خَلَّد اللهُ مُلْكَه » . وفى ذلك اللوح ثَقْبٌ مُعَلَّق به شُرَّابة من حَرِيرٍ أصْفَر ذات بَنْدَيْنِ، يجعلُها البَرِيدىُّ فى عُنُقِه، بإدْخاله رَأْسَه بين البَنْدَيْنِ ، ويُصيِّر اللوحَ أمامه تحت ثيابه ، والشُّرَّابَة خَلْفَه من فَوْق ثِيابه . فإذا خَرَج بريدىٌّ إلىٰ جِهَةٍ من الجهات، أُعْطِى لَوْحًا من تلك الألواح ، يُعلِّقُه فى عُنُقِه، علىٰ ما تقدّم ذكره ، ويذهب إلىٰ جِهَة قَصْدِه ، فكلُّ من رأىٰ تلك الشُّرَّابة خَلْفَ ظَهْرِه علم أنه بَرِيدىٌّ . وبواسطة

ذلك تُذْعِنُ له أربابُ المَرَاكز بتَسْليم خَيْلِ البريد . ولا يزالُ كذلك حتّىٰ يَذْهَب ويعودَ ، فيُعيدُ ذلكَ اللَّوْحَ إلىٰ دِيوانِ الإنشاء .

وكَذلك الحُكْم فى دواوين الإنشاء بِدمَشْق وحَلَب وغيرهما من الممالك الشامية ، لا يَخْتَلِف الحُكْم فى ذلك إلا فى الكِتابة بمحَلّ ضَرْب اللَّوْح . فإن كان بدِمَشْق كُتِب : «ضُرِبَ بالشَّام» . وإن كان بحَلَبَ كُتِب : «ضُرِب بحَلَبَ المحروسةِ» وكذلك باقى الممالك .

الفصل الثانى

من الباب الأوّل من الخاتمة فى ذِكْرِ مَرَاكِزِ البريد

وهى الأماكِنُ التى تَقِفُ فيها خَيْلُ البريد لتغيير خَيْلِ البَرِيدِيّة فيها فَرَسًا بعد فَرَس ، قال فى "التعريف" : وليستْ على المقدار المُقَدَّر فى البريد المُحَرَّر ، بل هى مُتَفاوِتَةُ الأبعادِ ، إذ أَلْجَأَت الضَّرورةُ إلىٰ ذلك : تارة لِبُعْدِ ماءٍ ، وتارة للأُنْس بقَرْيةٍ ، حتى إنك لتَرَىٰ فى [هذه][1] المَرَاكِز البريدَ الواحدَ بقَدْرِ بريدين . ولو كانت على التَّحْرير [الذى عليه الأعمال][1] لَمَا كان تَفَاوُتٌ . وقد ذكر منها المقرّ الشِّهابىّ بن فَضْل الله رحمه الله فى "التعريف" ما أَرْبىٰ فى ذلك على المقصود وزاد ، وهو بذلك أَدْرىٰ وأَدْربُ . وهأنا أذْكُر ما ذَكَره ، موضِّحًا لما يحتاج منه إلى التَّوْضِيح ، مع الزيادة عليه وتَقْرِيبِ التَّرْتِيب .

ويَشْتمل علىٰ ستة مَقَاصد :

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٤) .

المقصـــــــد الأوّل

(فى مَرْكَزِ قَلْعة الجَبَلِ المحروسة بالديار المصرية التى هى قَاعِدَةُ المُلْك، وما يتفرّع عنه من المَرَاكِز، وما تَنْتَهِى إليه مَرَاكِزُ كلِّ جِهَةٍ)

اِعلم أن الذى يتفرّعُ عن مَرْكَزِ القَلْعة ويَتَشَعَّبُ منه أَرْبَعُ جِهاتٍ، وهى: جِهَةُ قُوصَ من الوَجْه القبلىّ وما يتَّصِـلُ بذلك من أُسْوانَ وما يَلِيها من بلاد النُّوبَة، وعَيْذَابَ وما يليها من سَوَاكِن. وجِهَـةُ الإسْكَنْدَرِيَّة من الوَجْه البَحْرِىّ. وجِهَةُ دِمْياطَ من الوَجْه البَحْرِىّ أيضا، ومايتفرّع عنها من جِهَةِ غَزَّةَ من البلاد الشامية.

فأما مَرَاكِزُ قُوصَ وما يليها: فمن مَرْكَزِ قَلْعَةِ الجَبَل المحروسة، ومنها إلىٰ مَدِينَةِ الجِـيزَة، وهى قاعدةُ الأعمال الجيزيَّة، وقد تقدّم الكلام عليها فى الكلام علىٰ بلاد المملكة فى المقالة الثانية. ثم منها إلىٰ زَاوِيَة أمِّ حُسَين، وهى قَرْيَةٌ من عَمَل الجيزَة. قال فى "التعريف": والمَرْكَز الآنَ بمُنْيَة القَائِد وهى على القُرْب من زاوية أُمِّ حُسَينٍ المذكورة، ثم منها إلىٰ وَنا وهى بَلْدةٌ من عَمَلِ البَهْنَسَىٰ؛ ثم منها إلىٰ دَهْرُوط وهى بَلْدةٌ من عمل البَهْنَسَىٰ أيضا. ثم منها إلىٰ أقلوسنا(١)، وهى بَلْدةٌ من عَمَلِ الأُشْمُونَيْنِ. ثم منها إلىٰ مُنْيةِ بَنِى خَصِيبٍ، وهى مَدِينَةٌ من عَمَل الأُشْمُونَيْنِ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية. ثم منها إلىٰ مَدِينة الأُشْمُونَيْنِ وهى قاعدةُ بِلادِها، وقد تَقَدَّم الكلام عليها فى المقالة الثانية. ثم منها إلىٰ ذِرْوَة سِرْبَامَ وهى بَلْدةٌ من عمل الأُشْمُونَيْنِ علىٰ فَمِ الخليج اليُوسُفِىّ الوَاصل من النِّيل إلى الفَيُّوم، وتعرف بذِرْوَةِ الشريف، إضافةً إلى الشَّرِيف نَاصِرِ الدِّين محمد بن تَغْلب الذى كان عَصَىٰ بها فى زَمَنِ الظَّاهِر بيبرْس، وسَمتْ نَفْسُه إلى المُلْكِ حتَّىٰ كادَه الظَّاهِرُ وقَبَض عليه وشَنَقه بالإسكندرية، وبها

(١) فى معجم البلدان لياقوت: قَلُوسَنَا.

دِيَارُه وقُصُوره والجامعُ الذى أنشأه بها إلى الآن . ثم منها إلىٰ مدينة مَنْفَلُوط ، وهى قاعدَةُ الأعمال المَنْفَلُوطِيَّة التى هى أَجَلُّ خَاصِّ السُّلْطان . ثم منها إلىٰ مَدِينَةِ أُسْيُوطَ ، وهى قاعدَةُ الأعمال الأُسْيُوطِيَّة ، ومَقَرُّ نائِبِ الوَجْهِ القِبْلِيِّ الآن ، وقد تقدّم ذِكْرُها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ طِمَا ، وهى قَرْيَةٌ من عَمَل أُسْيُوطَ المقدّمةِ الذِّكْر علىٰ ضَفَّةِ النِّيل ، ثم منها إلى المَرَاغَةِ ، وهى بَلْدَةٌ من عَمَلِ إِخْمِيمَ . قال فى "التعريف" : ورُبَّما سُمِّيت المَرَائِغ . ثم منها إلىٰ بلسبورة وهى بَلْدة من عَمَل إِخْمِيم أيضا . قال فى "التعريف" : ورُبَّما قيل بلزبورة بإبدال السِّين زَايًا . ثم منها إلىٰ جَرْجَا ، وهى بلدة من العَمَل المذكور ، ثم منها إلى البُلْيَنَة ، وهى بَلْدَةٌ من عمل قُوص ، ويقال فيها البُلْيَنَا بابدال الهاء أَلِفًا . ثم منها إلىٰ هو ، وهى بَلْدَةٌ من عَمَل قُوص أيضا ، قال فى "التعريف" : ويليها الكَوْمُ الأحمر ، وهما من خَاصِّ السلطان ، وعندهما يَنْقَطِعُ الرِّيفُ فى البَرِّ الغربىّ ، ويكون الرَّمْل المتّصلُ بدَنْدَرىٰ ويسمَّىٰ خَانَ دَنْدَرىٰ ، وقد تقدّم الكلام علىٰ ذلك مستوفًى فى المقالة الثانية . ومنها إلىٰ مَدِينَةِ قُوص قاعدةِ الأعمال القُوصِيَّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية .

ثم من قُوصَ تَنْقطع مَرَاكِزُ البريد ، ويَتَشَعَّبُ الطريقُ إلىٰ جِهَةِ أُسْوانَ وبلادِ النُّوبة ، وجِهَة عَيْذَابَ وسَوَاكِن .

فمن أراد المَسِيرَ إلىٰ جِهة أُسْوان رَكِبَ الهُجْن من قُوصَ إلىٰ أُسْوان ، ثم منها إلىٰ بلاد النُّوبة .

ومن أراد المَسِيرَ إلىٰ عَيْذَابَ سار من قُوص إلىٰ كِيمَان قِفْط على القُرْب من قُوص .

قلتُ : ثم يَسِير فى قِفَارٍ وجبالٍ ، من كِيمَانِ قِفْط إلىٰ ماءٍ يسمىٰ ليطة علىٰ مَرْحلةٍ من الكِيمان ، به عينٌ تَنْبع وليستْ جارية ، ثم منها إلىٰ ماءٍ يسمى الدريج على القُرْب

من مَعْدن الزُّمُرُّذ ، به عَيْنٌ صغيرة يُسْتقىٰ منها من الماء ما شاء الله ، وهى لا تزيد ولا تَنْقُص . ثم منها إلىٰ حُمَيْثَرَة حيثُ قبر سَيِّدى أبى الحَسَنِ الشَّاذِلِىّ ، وهُناك عَيْن ماء يُسْتق منها . ثم منها إلىٰ عَيْذابَ ، وهى قريةٌ صغيرةٌ علىٰ ضَفَّةِ بَحْر القُلْزُم فى الشمال إلى الغَرْب ، وعلى القُرْب منها عينٌ يُسْتقىٰ منها .

وتَقْديرُ جميع المسافة من الكِيمانِ إلىٰ عَيْذابَ نحو عَشَرة أيامٍ بِسَيْر الأثقال . علىٰ أنه فى "مسالك الأبصار" قد ذَكَر أنَّ الطَّريقَ إلىٰ عَيْذابَ من شُعْبَةٍ على القُرْب من أُسْوان ، ثم يَسِير منها فى بلاد عَرَبٍ يُسَمَّوْنَ بنى عامرٍ إلىٰ سَوَاكِن ، وهى قَرْية حَاضِرة البَحْر صاحِبُها من العَرَب ، وكُتُبُ السلطانِ تنتهى إليه ، علىٰ ما تقدّم ذِكْره فى الكلام على المكاتبات .

وأما الإسْكَنْدرِيَّة فالمراكز المُوَصِّلة بها فى طريقين :

الطريق الأولىٰ : الآخِذَةُ على الجَبَل الغَرْبىّ ويسمَّى طَرِيقَ الحَاجِرِ . والمَسِيرُ فيها من مَرْكز القلعة المقدَّمِ ذِكْره إلىٰ مدينة الجِيزِيَّة . ثم منها إلىٰ جزِيرة القِطِّ ، وهى قريةٌ من آخِرِ عمل الجيزَةِ من الجهة البَحْرية . ثم منها إلىٰ وَرْدَانَ ، وهى قريةٌ من عَمَل البُحَيْرة . [ثم منها إلى الطَّرَّانَة][(١)] . ثم منها إلىٰ طيلاس وهى بَلْدةٌ من عَمَل البُحَيْرة أيضا وتعرفُ بزَاوِيَةِ مُبَارك . قال فى "التعريف" : وأهلُ تلك البلاد يقولون : أنْبَارَك . ثم منها إلىٰ مدينة دَمَنْهور وتعرف بدَمَنْهُور الوَحْش ، وهى قاعدةُ أعمال البُحَيْرة ، ومحلُّ مُقَامِ نائبِ السَّلْطنة بالوَجْهِ البَحْرىّ ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ لُوقين وهى قَرْيةٌ من عمل البحيرة . ثم منها إلى الإسْكَنْدَرِيَّة .

الطريق الثانية : الآخذة فى وَسَطِ العُمْران ، وتعرفُ بالوُسْطَىٰ .

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٨٩) .

وهى من مَرْكز القَلْعة إلىٰ مدينة قَلْيُوب قاعدة الأعمــال القَلْيُوبيّة ، وقد تقــدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ مَدينةِ مَنُوف العُلْيا ، وهى قاعِدَةُ الأعمال المَنُوفيّة ، وقد تقدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . ثم منها إلىٰ مدينة المَحلّة المعروفة بالمَحلّة الكُبْرىٰ ، وهى قاعدة الأعمــال الغَرْبيّة ، وقد تقــدّم الكلام عليها فى المقالة الثانيــة . وقد وَهِم فى "التعريف" فسماها مَحلّة المَرْحُوم بلدةٌ من بلاد الغَرْبيّــة غيرها . ثم منهــا إلى النَّحْرِيريّة ، وهى مدينةٌ من عَمَل الغَرْبيــة . ثم منها إلى الإسْكَنْدَرِيّة .

وأما الطريق إلىٰ دِمْياطَ وغَزَّةَ ، فمن مَرْكَز القَلْعــة إلىٰ سِرْيَاقُوس ، وهى بلدةٌ من ضَوَاحى القــاهِرة ، وليس المَرْكَز فى نَفْسِ البَلَد ، بل بالقَرْية المُسْتَجَدَّة بِجوارِ الخَانِقَاه النَّاصِرية التى أنشأها السلطانُ المَلِكُ الناصرُ محمدُ بنُ قَلَاوُونَ على القُرْب من سِرْيَاقُوس . قال فى "التعريف" : وكان قبل هــذا بالعُشّ ، وكان طويل المَدىٰ فى مكان مُنْقَطِع ، وكانت البَرِيديّة لاتزال تَتَشكّىٰ منه ، فصَلَح بنَقْله ، وحَصَل به الرِّفْق لأمورٍ لو لم يَكُنْ منها إلا قُرْبُه من الأَسْواق المجاورةِ للخانِقَاه النَّاصِريّة وما يوجدُ فيها ، وأُنْسه بمــا حَوْلها [لكفىٰ] . ثم منها إلىٰ بِئْر البَيْضاء ، وهى مَرْكَزُ بَرِيدٍ مُنْفَردٌ ليس حَوْله ساكنون . ثم منها إلىٰ مَدينة بِلْبِيْس قاعدةِ الأعمــال الشَّرْقية ، وقد تقــدّم الكلام عليها فى المقالة الثانية . قال فى "التعريف" : وهى آخرُ المراكز السُّلْطانية ، وهى التى تُشْــتَرىٰ خَيْلُها من الأموال السلطانية ويُقامُ لهــا السُّوّاسُ وتصرفُ لهــا العلُوفات . ثم منها إلى السَّــعيديّة . ثم من السَّــعيدية إلىٰ أُشْمُومِ الرُّمّان قاعدةِ بلاد الدَّقَهْلِيّة والمُرْتَاحِيّة ، وقد تقدّم ذكرها فى المقالة الثانية . ومنها إلىٰ دِمْياطَ ومَن أراد غَزّة . وقد تقدّم أنّ مَدينةَ بِلْبِيْس هى آخِرُ المَرَاكِزِ السلطانية . ثم السَّعيديّة ومابعدها

إلى الخرُّوبَة تُعرف بالشَّهارة، خَيْلُ البَريد بهـا مقترِةٌ على عُرْبانٍ ذَوِى إقطاعاتٍ، عليهم خُيولٌ مُوظَّفَةٌ يَحْضرُها أرْبابُها عنـد هِلَال كلِّ شَهْرٍ إلى المراكز، وتَسْتَعيدُها فى آخر الشَّهْر ويأتى غيرها، ومن هنـالك سُمِّيت الشَّهارة . قال فى "التعريف" : وعليهـم وَال من قِبَل السُّـلْطان يَسْتَعرِضُ فى رَأْسِ كلِّ شَهْرٍ خَيْـلَ أصحاب النَّوْبَة ويُدَوِّغها بالدَّاغِ السـلطانىّ . قال : وما دامتْ تستجدُّ فهى قائمة ، ومتى آكترىٰ أهـلُ نَوْبةٍ ممن قبلهم فَسَـدَتِ المراكز، لأن الشَّهْر لايَهِلُّ وفى خَيْلِ المُنْسَلِخ قُوَّة، لا سِيَّـا والعربُ قَليلة العَلَف .

وأوَّلُ هذه المَرَاكز السَّعيديةُ المقدَّمُ ذِكْرُها ، ثم منها إلى الخَطَّارة، ثم منها إلىٰ قَبْر الوايلى . قال فى "التعريف" : وقد آسْتُجِدّ به أبْنِيَةٌ وأسْوَاقٌ وبَسَاتِينُ حتَّىٰ صار كأنه قَرْيَة . ثم منها إلى الصَّالِحيَّة، وهى قريةٌ لَطيفة . قال فى "التعريف" : وهى آخِر مَعْمُور الديار المصرية ، ثم منها إلىٰ بئر عفرىٰ(١) ، وإلىٰ هـذا المركز يجلب المـاء من بئرٍ وراءه. ومنها إلى القُصَيْر . قال فى "التعريف" : وقد كان كَرِيمُ الدِّين وكِيلُ الخاصّ بَنَىٰ بها خانًا ومَسْجِدا ومِئْذَنَةً، وعَمِل ساقِيةً، فتهدَّم ذلك كُلُّه، ولم يوجد له من يُجَدِّده، وبَقِيتِ المِئْذَنةُ خاصَّة، ورُتِّب بها زَيْتٌ للتَّنْوير . قال : وهذا القُصَيْر يقارِبُ المركزَ القَديمَ المعروفَ بالعَاقُولة المُقارِبَ لقَنْطَرة الجِسْر الجارى تحتها فَوَاضِلُ ماء النيل أوَانَ زيادته إذا خرج إلى الرَّمْل . ثم منها إلىٰ حبوة . قال فى "التعريف" : وليس بها مَاءٌ ولا بناءٌ، وإنمـا هى مَوْقِفٌ يَقِف به خَيْلُ العرب الشَّهارة، ويُجْلَبُ المـاء إليها من بِئْرٍ وراءها . ثم منهـا إلى الغرابى . ثم منها إلىٰ قَطْيـا ، وهى قَرْيَةٌ صغيرةٌ بها تؤخذ المُرَتَّبات السلطانية من التُّجَّار الواردين إلىٰ مصر والصادرين عنها،

(١) الذى فى التعريف : بئر غزىٰ، آنظر ص (١٩٠) .

وهنـاك رَمْلٌ بالطريق يُخْتَم فى الليـل ويُحْفَظ ما حوله بالعُرْبان ، حتّى لا يَمُرّ أحدٌ لَيْـلًا . فيكونُ من القاهِرة إلىٰ قَطْيا آثنـا عَشَر بَرِيدًا . ثم منها إلىٰ صَبِيحة نَخْـلة مَعْن . قال فى " التعريف " : ومن الناس من يَقْتَصِر علىٰ إحدىٰ هذه الكلمـات فى تَسْميتها . ثم منها إلى المُطَيْلب ، ثم منها إلى السَّوادة . قال فى " التعريف " : وقد حُوِّلتْ عن مكانها فصار المُسافِرُ لا يحتاج إلىٰ تَعْرِيجٍ إليها . ثم منها إلى الوَرّادَة ، قال فى " التعريف " : وهى قريةٌ صـغيرةٌ بها مَسْـجدٌ علىٰ قارعة الطريق ، بنـاه المَلِكُ الأشرفُ « خَلِيل » بن المنصور قَلَاوُون تغمده الله برحمته ، حَصَل به الرِّفْقُ بمَبِيتِ السَّفّارة به . قال : وقد كان فَخْـرُ الدِّين كاتبُ المـاليك بَنَىٰ إلىٰ جانِبِه خانًا فَبِيعَ بعده . ثم منها إلىٰ بِئْر القَاضِى . قال فى " التعريف " : والمَدَىٰ بينهـما بَعِيدٌ جِدا يَمَلُّه السَّالِكُ . ومنها إلى العَرِيش . قال فى " التعريف " : وقد أحْسن كَرِيمُ الدِّين رحمـه الله بعَمَلِ ساقِيَةِ سَبِيلٍ به وبِنَاءِ خَانٍ حَصِينٍ فيه يَأْوِى إليـه من أَلْجَأَهُ المَساء ، ويَنامُ فيـه آمِنًا من طوارق الفَزَع . ثم منهـا إلى الخَرُّوبة ، وبها ساقيـةٌ وخانٌ ، بناهما فَخْرُ الدِّين كاتبُ المماليك ، حَصَل به من الرِّفْق والأَمْنِ ما بالعَرِيش . قال فى " التعريف " : وهذا آخر مراكز العَرَب الشَّهَّارة . ثم ممّـا يليها خَيْلُ السلطان ذَواتُ الإصْطَبْلاتِ والخَدَم تُشْتَرىٰ بمـال السلطان وتُعْلَف منه ، وأوّلهـا الزَّعْقَة ، ثم منها إلىٰ رَفَح ، ثم منها إلى السلقة . قال فى " التعريف " : وكان قبل هذا المَرْكَز بِبِئْر طرنْطاى حيثُ الجُمَّـيْز ويسمىٰ سَطر . قال : وكان فى نَقْله إلى السـلقة المَصْلَحَةُ . ثم منهـا إلى الدَّارُوم ، ثم منها إلىٰ غَزَّة . يكون من قَطْيـا إلىٰ غَزَّةَ أَحَدَ عَشَرَ مَرْكَزًا .

المقصـــد الثـانى

(فى مَرَاكِزِ غَزَّة وما يتَفَرَّع عنه من البلاد الشامية)

والذى يتَفَرَّعُ عنه مَرَاكِز ثَلَاثِ جِهَاتٍ، وهى : الكَرَكُ، ودِمَشْقُ، وصَفَدُ .

فأما الطريق إلى الكَرَك : فمن غَزَّة إلى ملاقس وهو مَرْكَز بَرِيدٍ، ثم منها إلى بَلَد الخليل عليه السلام، ثم منها إلى جنبا، ثم منها إلى الصَّافِيَة، ثم منها إلى الكَرَك .

وأما مراكز دِمَشق : فمن غَزَّة إلى الجِينِين، وهو مَرْكَز بَرِيد، ومنها إلىٰ بَيْتِ دَارِس، والناس يقولون : تدارس، وبها خانٌ بَناه ناصِرُ الدِّين خزندار تنكز . قال فى "التعريف" : وكان قديمًا بياسور، وكان قريبَ المدىٰ فنُقِلَ وكانتِ المَصْلحةُ فى نَقْله، ثم منها إلى قطرى . قال فى "التعريف" : وهو مَرْكَزٌ مُسْتَجدٌّ كان المُشِيرُ به طاجار الدوادار الناصرى، وبه بِئْرٌ سَبِيلٍ وآثارٌ له . قال : وقد حصل به رِفْقٌ عَظِيمٌ لبعد ما بين [لُدّ وبَيْتِ دَارِس][(١)] أو ياسور، ثم منها إلىٰ لُدّ، ثم منها إلى العَوْجَاء . قال فى "التعريف" : وهى زَوْراء عن الطَّرِيق، ولو نُقِلتْ منه لكان أَرْفَق، ثم منها إلى الطيرة . قال فى "التعريف" : وبها خَانٌ كان قد شَرَع فى بنائه ناصِرُ الدِّين دوادار تنكز ثم كَمُل بيَدِ غَيْره . ثم منها إلى قَاقُون، ثم منها إلى فَحْمَة [ثم منها إلىٰ جِينِين][(١)] . قال فى "التعريف" : وهى على صَفَد، يعنى القِيَام به، وبه خَانٌ لطَاجَار الدَّوادار، حَسَنُ البِنَاءِ جَلِيلُ النَّفْع، ليس على الطريق أَخَصُّ منه ولا أَحصَنُ، ولا أَزْيدُ نَفْعًا منه ولا أَزْيَن .

---

(١) بياض بأصله والتصحيح من التعريف (ص ١٩١) .

ومن أراد دِمَشْــقَ وما يليها سَارَ من جِينِينَ إلى ذَرْعِين . قال فى "التعريف" : ومنها ينزل علىٰ عَيْن جَالُوت ، وهو مَرْكَزٌ مُسْتَجَدٌّ حصل به أَعْظم الرِّفْق والرَّاحة من العَقَبَةِ التى كان [يُسْــلك] (١) عليها بين جِينِين و بَيْسَانَ مع طُولِ المَدَىٰ . ثم منهــا إلى بَيْسانَ، ثم منها إلى المَجَامِع . قال فى "التعريف" : وهو مَرْكَزٌ مستجدّ عِنْــد جِسْرِ سَامَة، كنتُ أنا المشيرَ به فى سنة إحدىٰ وأربعين وسبعمائة ، وحَصَل به الرِّفْق لبُعْدِ ما كان بين بَيْسانَ وزحر . قال : وقد كان الطريقُ قديمًـا من بَيْسان علىٰ طَيْبَةِ آسم ، ثم إلى أَرْبَد، وكانت غَايةً فى المَشَقَّة، إذ كان المسافرُ ما بين بَيْسان وطَيْبِةِ آسمٍ يحتاجُ إلىٰ خَوْض الشَّرِيعَة ، وبهــا معدّية للفَارِس دون الفَرَس ، وإنمــا يَعْبُر فيها الفَرَسُ سِبَاحَةً ، وكان فى هذا من المَشَقَّة ما لا يوصف، لا سيَّما أيامُ زيادة الشَّرِيعَةِ وكَلَبِ البَرْد : لقَطْع المَــاءِ ومُعانَاةِ العِقَــاب التى لا يَشُــقُّها جَنَاح العُقَاب . ولٰكن الأمير الطنبغا كَافِل الشَّامِ رحمه الله نَقَل هذه الطَّرِيقَ وجَعَلها على القُصَيْر حيثُ هى اليوم، ونَقَل المَرْكَزَ من الطَّيبة الى زحر حين غَرِقَ بعضُ البَرِيديَّة الجَبَلِيِّينَ بالشَّرِيعَة . ثم من المجامع المذكورة إلىٰ زحر، ثم منها إلىٰ أَرْبَد، ثم منها إلىٰ طفس، ثم منها إلىٰ الجامع . قال فى "التعريف" : وكان قديمًا فى المكان المسمَّىٰ برأس المــاء، فلما مَلَكه الأميرُ الكبيرُ تنكز كافِلُ الشَّامِ رحمه الله نَقَل المَرْكَز منه إلىٰ هذا الجامع ، فقَرُب به المَدَىٰ فيما بينه وبين طفس، وكان بَعِيدًا فما جاء إلا حَسَنًا . ثم منها إلى الصَّنَمَيْنِ، ثم منها إلىٰ غَبَاغِب، ثم منها إلى الكُسْوة، ثم منها إلىٰ دِمَشْقَ المحروسةِ .

وأما الطريق المُوَصِّلة إلىٰ صَفَد : فمن جِينِينَ المقدّمِ ذِكْرُها إلىٰ تِبْنِينَ، ثم منها إلىٰ [حِطِّين] (١) وبها قبر شُعَيْبٍ عليه السلام، ثم منها إلىٰ صَفَد .

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من التعريف (ص ١٩٢) .

المقصـــــد الثـالث

(فى ذِكْرِ مركز دِمَشْــقَ وما يتفرّعُ عنه من المراكز الموصّلة إلىٰ حِمْص وحَمَاة وحَلَب، وإلى الرَّحْبة، وإلىٰ طَرَابُلُس، وإلىٰ جَعْبَر، ومِصْياف وبَيْروت وصَيْدا وبَعْلَبَكَّ والكَرَك وأَذْرِعَات)

فأما طريق حَلَب : فقال فى " التعريف " : من دِمَشْـقَ إلى القُصَيْرِ . والذى رأيتُــه فى بَعْض الدَّسَاتِير أنه من دِمَشْــق إلىٰ خَانِ لَاچِينَ ، ثم إلى القُصَيْر . قال فى " التعريف " : ثم من القُصَـيْر إلى القَطِيفَة، ثم منها إلى القَسْــطَل . ورأيتُ فى الدُّسْتُور المَذْكُور أن من القُصَـيْر إلىٰ خان الوَالِى ، ثم إلىٰ خَانِ العَرُوس، ثم إلى القَسْطل ، ثم منها إلىٰ قَارا ، ثم منها إلىٰ بريج العَطَش ويقــال فيه البزيج أيضا . قال فى " التعريف " : وقد كان مَقْطَع طَرِيقٍ ، ومَوْضِــعَ خَوْف ، فَبَنَىٰ به قاضى القُضَاة نَجْمُ الدِّين أبُو العَبَّاس أحمدُ بن صصرى رحمه الله مَسْــجِدًا وبِرْكَةً ، وأَجْرى المــاءَ إلى البِرْكَةِ من مِلْكٍ كان له هُناك وَقَفَه علىٰ هذا السَّبِيل ، فبَدَّلَ الخَوْفَ أَمْنًا ، والوَحْشَــةَ أُنْسًا ، أثابه الله علىٰ ذلك . ثم منها إلى الغَسُولة ، ثم منها إلىٰ شُمْسِـينَ ، ثم منها إلىٰ حِمْص ، ثم منها إلى الرَّسْتَنِ ، ثم منها إلىٰ حَمَاة ، ثم منها إلىٰ لَطْمِين ، ثم منها إلىٰ طَرَابُلُس ، ثم منها إلى المَعَرَّة ، ثم منها إلى أنقراتا ، ثم منها إلىٰ إيادٍ ، ثم منها إلىٰ قِنَّسرِينَ ، ثم منها إلىٰ حَلَب .

وأما طريق الرَّحْبَة : فمن القَطِيفَة المقدَّمَةِ الذِّكْرِ إلى العطنة . قال فى "التعريف" : وليس بها مَرْكَز ، وإنَّمـا بها خَانٌ تُفَرَّقَ به صَدَقَةٌ من الخُبْزِ والأَحْذِيَةِ ونِعَالِ الدَّوابِّ إلىٰ جُلَيجِلَ ، ثم منها إلى المَصْنع ، ثم منها إلى القَرْيَتَيْنِ ، ثم منها إلى الحسير ، ثم منها إلى البَيْضاء ، ثم منها إلىٰ تَدْمُر ، ثم منها إلىٰ أَرَكِ ، ثم منها إلى السُّخْنَة ، ثم منها إلىٰ

قُبَاقِب، ثم منها إلى كَوَاثِل . قال في "التعريف" : وهو اليوم عُطْل. ثم منها إلى الرَّحْبة وهي حَدُّ هذه المملكة .

وأما طريق طَرَابُلُس : فمن الغَسُولَة المتقدِّمَة الذِّكر [إلى القصب، ثم منها إلى قَدَس](١) إلى أقمار، ثم منها إلى الشَّعْراء، ثم منها إلى عرقا، ثم منها إلى طَرَابُلُس .

وأما طريق جَعْبَر وما يليها : فمن حِمْص المتقدِّمَة الذِّكر إلى سَلَمْيَة ، ثم منها إلى بُغَيْدِيد، ثم منها إلى سُورِيَا، ثم منها إلى الحص، ثم منها إلى جَعْبَر، إلى عَيْن بذال، ثم منها إلى صهلان، ثم منها إلى الخَابُور، ثم منها إلى رَأْس عَيْن .

وأما طريق مِصْياف : فمن حِمْص المُقَدّمة الذِّكر إلى مِصْياف .

وأما طريق صَفَد : فمن دِمَشْق إلى بريج الفلوس، ومنه إلى أُرَيْنِبَة ، ومنها إلى لغران، ومنها إلى صَفَد .

وأما طريق بَيْروت : فمن دِمَشْق إلى خَان ميسلون، ومنها إلى زُبْدان، ومنها إلى الحُصَيْن، ومنها إلى بَيْرُوت .

وأما طريق صَيْداء : فمن دِمَشْق إلى خان ميسلون المقدّم الذِّكْر، إلى جَزِيرَة صَيْداء، إلى كَرَك نُوح ، ثم منه إلى بَعْلَبَكّ . قال في "التعريف" : واعْلَم أنَّ من صَيْدَاء إلى بَيْرُوت قَدْرُ مَرْكَز .

وأما بَعْلَبَكّ ، فلها طريقان : إحداهما من خَان ميسلون المقدَّم الذِّكر إلى كَرَك نُوح إلى بَعْلَبَكّ . والثانيةُ من دِمَشْق إلى الزَّبَدانِيّ إلى بَعْلَبَكّ .

ومن أراد من بَعْلبكّ حِمْص ، توجّه منها إلى القَصَب ، ثم إلى الغَسُولَة المتقدّمة الذِّكر، وبعدها شَمْسِين ، ثم حِمْص على ما تقدّم ذِكْرُه .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ١٩٤) .

وأما طريق الكَرَك : فمن دِمَشْق ـ فى المَرَاكز المذكورة فى الوُصُول من غَزَّة إلىٰ دِمَشْق ـ علىٰ عَكْس ما تقدّم ، إلىٰ طفس ، ومنها إلى القنيـة ، ومنها إلى البُرْج الأَبْيض ، ومنها إلىٰ حُسْبَان ، ومنها إلىٰ [ديباج][1] ومنها إلىٰ [اكريه][1] ومنها إلى الكَرَك .

وأما طريق أَذْرِعاتٍ ، مَقَرِّ وِلَايةِ الوُلاةِ بالصَّفْقة القِبْلِيَّـة : فمن طفس المقدّمة الذِّكْر إلىٰ أَذْرِعات . قال فى "التعريف" : فهـذه جملة مَرَاكز دِمَشْق إلىٰ كل جِهَـةٍ .

قال : فأما مقدار الولايات ، فمن كلّ واحدةٍ إلىٰ ما يليها ، حتىٰ يَتَوصَّلَ المسافرُ على البريد إلىٰ حَيْثُ أراد .

المقصـد الرابع

(فى مركز حَلَب وما يتفرّع عنه من المراكز الواصلة إلى البِيرَةِ وبَهَسْنىٰ وما يليهما ، وقَلْعةِ المسلمين المعروفة بقَلْعة الرُّوم ، وآيَاس مدينةِ الفُتُوحات الجَاهَانية ، وجَعْبَر)

فأما الطريق المُوَصِّلة إلى البِيرَة : فمن حَلَبَ إلى البَاب ، ثم منها إلى السَّاجُور ، ثم منها إلىٰ كلنـاس[2] ، ثم منها إلى البِيرَة ، وهى فى البَرِّ الشَّرقِيِّ من الفُرَات . قال فى "التعريف" : وهى أَجَلُّ ثُغُورها[3] .

(١) بياض بالأصل ، والتصحيح من التعريف (ص ١٩٤) .

(٢) لم يذكرها التعريف .

(٣) عبارة التعريف : « والبيرة أجل قلاع الاسلام ، وعقائل المعاقل التى لم تفترع على طول الأيام» فلعل ما هنا رواية عن نسخة أخرى وقعت بيد المؤلف (انظر ص ١٩٣) .

وأما طريق بَهَسْنىٰ وما يَليها : فمن حَلَب إلى السموقة، ثم منها إلىٰ سـندرا[1]، [ثم منها إلىٰ بيت الفار][2] ثم منها إلىٰ عَيْنتاب ، ثم منها إلىٰ بَهَسْنىٰ .

ثم منها يُدْخَلُ إلىٰ جهة قَيْسارِيَّة والبلادِ المعروفةِ الآن ببلاد الرُّوم وهى بلاد الدُّرُوب . قال فى "التعريف" : وقد اَسْتَضَفْنا نحنُ (يعنى أهلَ هـذه المملكةِ) فى هـذا الحِينِ القريبِ إلينا منها : قَيْسارِيَّة ودَرَنْدَة ، و إنمـا المستَقِرُّ المعروفُ أنَّ آخرَ حدِّ الممـالك الإسلامية من هذه الجهَة ـ بَهَسْنىٰ .

وأما طريق قَلْعَة المسلمين ومايَليها : فمن عَيْنتابَ المقدَّمة الذِّكر إليها، وهى وَسط الفُرات ، وهو خُلْجَانٌ دائِرَةٌ عليها . ثم من قلعـة المسلمين إلىٰ جسر الحجر ، ثم إلى الكَخْتا، وهى آخر الحدِّ من الطَّرَف الآخَر .

وأما طريق آياس: فمن حَلَبَ إلىٰ أرحَاب، ثم منها إلىٰ تِيزِينَ، ثم منها إلىٰ يَغْرا، ثم منهـا إلىٰ بَغْراس ، قال فى " التعريف " : وهى كانت آخرَ الحدِّ ممـا يلى بلاد الأَرْمَن . قال : وقد اَسْتَضَفْنا نحنُ فى هذا الحِينِ ما اَسْتَضَفْنا، فصار من بَغْراسَ إلىٰ باياس، وهى أوّل جِبل الأَرْمَن ، ثم من باياس إلىٰ آياس .

وأما طريق جَعْبَر: فمن حَلَبَ إلى الجَبُّول، ثم منها إلىٰ بالِس، ثم منها إلىٰ جَعْبَر . قال فى "التعريف" : هذه جُمْلة مراكز حَلَب . أما بقايا القِلاعِ ومَقَارُّ الولايات، فمن شُعَبِ هذه الطُّرُق، أو من واحِدَةٍ إلىٰ أُخْرىٰ .

---

(١) فى التعريف سندار .

(٢) الزيادة من التعريف (ص ١٩٥) .

المقصـــد الخامس

(فى مَرْكَز طَرَابُلُس وما يتفرّعُ عنه من المراكز المُوَصِّلة إلى جِهَاتِها)

فأما طريق اللّاذِقِيَّة : فمن طَرَابُلُس إلىٰ مَرْقية ، ثم منها إلىٰ بِلِنْياسَ ، ثم منها إلى اللّاذِقِيَّـة ، ثم منها إلى صِهْيَوْنَ ، وهى قَلْعـةٌ جَلِيلةٌ كانت دَارَ مُلْكٍ . ثم منهـا إلىٰ بَلَاطُنُس . قال فى "التعريف" : ومَن شاء فمن صِهْيَوْن إلىٰ بُرْزَيْه ، وهو حِصْنٌ سُمِّىَ باسم من عَمَره أو عُرِف بمِلْكِهِ ، ومن شاء فمن بَلَاطُنُس إلى العُلَيْقَةِ أوّلِ قلاع الدَّعْوةِ ممـا يلى بَلَاطُنُس ، ثم منها إلى الكَهْف ، ثم منها إلى القُدْمُوس ، ثم منها إلى الخَوَابى ، ثم منها إلى الرُّصَافَةِ ، ثم منها إلىٰ مِصْيافَ . قال فى "التعريف" : فهذه جملة مَرَاكِزِ طَرَابُلُسَ . فأما مَقَارُّ الولاياتِ فمن واحدةٍ إلىٰ أخرىٰ ، ثم ذَكَر جميع مراكز البَرِيد بالممـالك المحروسة .

قال : فأمّا من أطراف مَمَالِكنا إلىٰ حَضْرة الأردو ، حيث هو ملْكُ بَنِى هُولَاكُو ، فلهم مراكز تسمَّى خَيْل الأولاق وخيل اليام يُحْمَل عليها ، لا تُشْترى بمـال السلطان ولا يُكَلَّف ثَمَنها ، وإنمـا هى علىٰ أَهْلِ تلك الأرض ، نحو مَرَاكِزِ العَرَبِ فى رَمْل مِصْر ونحو ذلك .

المقصـــد السادس

(فى معرفة مَرَاحِلِ الحِجَاز المُوَصِّلةِ إلىٰ مَكَّة المُشَرَّفةِ والمَدِينة النَّبوِيَّة علىٰ ساكنها سيدنا محمد أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام ، إذْ كانتْ من تَتِمَّة الطُّرُق الموصِّلة إلىٰ بَعْض أقطار المملكة)

وكما ضُبِطَتْ تلك بالمَرَاكز فقد ضُبِطَتْ هـذه بالمَرَاحل . وعَادةُ الحُجَّاج أنهم يَقْطعون فى كلّ يومٍ ولَيْلةٍ منها مَرْحلتين بسَيْرِ الأَثْقال ، ودَبِيبِ الأقدام ، [ويَقْطعُونها

كلّها] فى شهر، بمـا فيه من أيَّام الإقامة بالعَقَبة واليَنْبع نحو ستّة أيام . أما من يُسافر على النُّجُبِ مُخفًّا مع الجِدِّ فى السَّيْر فإنه يَقْطعُها فى نحو أحَدَ عشَر .

ثم أوّل مَصيرهم من القاهرة إلى البِرْكة المعروفة ببِركَة الحَاجِّ، ثم منها إلى البُوَيْب، ثم منها إلى الطُّلَيْحاتِ، ثم منها إلى المنفرح، ثم منها إلىٰ مراكع موسىٰ، ثم منها إلىٰ عجرود، وبها بِئْر ومَصْـنَعُ ماءٍ مُتَّسعٌ يملأ منها . ثم منها إلى المنصرف، ثم منهـا إلىٰ وَادِي القِبَاب، وهو كثير الرَّمْل . ثم منها إلىٰ أوّل تِيهِ بنى إسْرائيلَ، وهو وَادٍ أَفْيَحُ مُتَّسعٌ . ثم منها إلى العُنُق، ثم منها إلىٰ نِخِل، وبها ماء طَيِّب . ثم منها إلىٰ جَسَـد الحىّ، ثم منها إلىٰ بِئْر بيدرا، ثم منها إلىٰ تمد الحصا، ثم منها إلىٰ ظَهْر العَقَبة، ثم منها إلىٰ سَطْحِ العَقَبة، وهو عُرْقُوب البَغْلة علىٰ جانب طَرَف بَحْر القُلْزُم، وفيها ماء طَيِّبٌ من حَفَائِر . ثم منها إلىٰ حَقْل علىٰ جانب طَرَف بحر القُلْزُم، وفيها ماء طَيِّب من الحفائر . ثم منها إلىٰ عُشِّ الغُرَاب، ثم منها إلىٰ آخر الشرفة، ثم منها إلىٰ مَغَارةِ شُعَيْب، وبها ماءٌ ومَصْـنَع . ثم منها إلىٰ وادى عَفَّان، ثم منها إلىٰ ذَاتِ الرَّخيم، ثم منها إلىٰ عُيُون القَصَب، وبه ماءٌ نابعٌ وأجَمَـةُ قَصَبٍ نابِتَـةٌ فيها . ثم منهـا إلى المُوَيْلِحَة، وبها ماءٌ فى آبار . ثم منها إلى المُدَرّج، ثم منها إلىٰ سَلْمَى مُجَاوِر بَحْر القُلْزُم، وبها ماء مِلْح . ثم منها إلى الأتيلات، ثم منها إلى الأَزْنَم، والناسُ يقولون: الأَزْلَم باللام بدل النون، وبه آبارٌ بها ماءٌ رَدِىءٌ يُطْلِق بَطْنَ مَن شَربه، لا يسقىٰ منه غالبًا إلا الجِمَالُ، وهى نِصْفُ الطَّرِيق . ثم منها إلى رَأْس وَادِى عَنْتَر . ثم منها إلى الوَجْه، وبه آبارٌ قليلةُ المَـاءِ، وما هو داخل الوَادِى يَعِزُّ المـاء فيه غالبًا ولا يُوجد فيـه إلا حَفَائِر، ويقال : إنه إذا طَلَعتِ الشَّمْسُ عليـه نَضَبَ ماؤُه، وفيه يقولُ بعض من حَجَّ من الشعراء وعَزَّ عليه وُجُودُ المـاء فيه :

إذَا قَلَّ ماءُ "الوَجْهِ" قَلَّ حَيَاؤُه، * وَلَا خَيْرَ فى "وَجْهٍ" بغَيْرِ حَيَاءِ !

ثم منه إلى المحَاطب، ثم منها إلىٰ أكرا، ثم منها إلىٰ رَأْس القَاع الصَّغير، ثم منه إلىٰ قَبْر القروىّ، ثم منـه إلىٰ كَلْخا، ثم منها إلىٰ آخرِ القَاعِ الصَّـغِير، ثم منه إلى الحَوْراء، وبها ماء غير صالح. ثم منها إلى العُقَيْق بضم العين تَصْغيرَ عَقِيق بفَتْحها، وهو مَضِيقٌ صَعْبٌ. ثم منها إلىٰ مَغَارَة نبط، وبها ماءٌ عَذْبٌ ليس بطريق الحجـاز أَطْيبُ منه. ثم منها إلىٰ وَادِى النُّور، ثم منها إلىٰ قَبْرِ أحمَدَ الأَعْرج الدَّلِيل، ثم منه إلىٰ آخرِ وادى النُّور، ثم منه إلىٰ رَأْس السَّبْع وَعْرات، ثم منها إلىٰ دَارِ البَقَر، ثم منها إلى اليَنْبُع، وهى النِّصْف والرُّبُع من الطريق، وبها تَقَع الإقامةُ ثلاثةَ أيامٍ أو نحوها، وبهـا يُودِعُ الحُجَّاجُ ما ثَقُل عليهم إلىٰ حِينِ العَوْدِ، ويَسْتَمِيرُون منها ممـا يَصِلُ إليها من الديار المصرية فى سُفُنِ بَحْر القُلْزُم. ثم منها إلى المحاطب فى الوَعْر. ثم منها إلىٰ رَأْسِ وادى بَدْر، وهى منزلة حَسَنةٌ بها عُيُونٌ تجرى وحَدَائِق. ثم منها إلىٰ رَأْس قَاعِ البزوة، ثم منه إلىٰ وَسْط قَاعِ البزوة، ثم منه إلىٰ رَابِـغ، وهو مقابل الجُحْفة التى هى مِيقَاتُ الإحْرام لأهل مِصْر، وبها يُحْرِمُ الحُجَّاجُ ولا يَغْشَوْن الجُحْفَة، إذ قد دَعَا النَّبِىُّ صلى الله عليه وسلم بنَقْل حُمَّى المدينة إليها بقوله: «وٱنْقُلْ حُمَّاها إلى الجُحْفَة» فلو مرّ بها طائِرٌ لَحُمَّ. ثم منها إلىٰ قُدَيْد بضم القاف. ثم منه إلى عَقَبة السَّوِيق، ثم منها إلىٰ خُلَيْص، وبه مَصْـنع ماء. ثم منها إلىٰ عُسْفَان، ثم منها إلىٰ مدرّج عَلِىٍّ، وهو كثير الوَعْر. ثم منه إلىٰ بَطْنِ مَرٍّ، والعامة يقولون: مَرْو، بزيادة واو، وبه عُيُونٌ تجرى وحَدَائِق. ثم منه إلىٰ مَكَّة المُشَرفةِ شَرَّفها الله تعالىٰ وعَظَّمها، ثم من مَكَّةَ إلىٰ مِنًى، وبها ماءٌ طيِّبٌ من آبار تُحْفَر، ثم منها إلى المَشْعَرِ الحَرَامِ والمُزْدَلِفَة، ثم منها إلىٰ عَرَفَةَ وهى المَوْقفُ، وإليها يَنْتَهى سَفَرُ الحُجَّاج.

ثم العَوْد فى المَنَازِل المتقدّمة الذِّكْر إلىٰ وادى بَدْر علىٰ عَكْسِ ما تقدّم.

الطريق إلى المدينة النَّبَـــوِيَّة
(علىٰ ساكِنِها أفْضَـلُ الصلاة والســلام)

من مِصْر فى المَرَاحِلِ المتقدّمةِ الذِّكْر ، إلىٰ وَادِى بَدْرٍ المُتَقَدِّمَةَ الذِّكْر ، إلى رأس وَادِى الصَّفْراء ، وبه عيونٌ تَجْرِى وحَدَائِقُ وأشجارٌ . ثم منهـا إلىٰ وَادِى بَنِى سَالِمٍ ، ثم منه إلىٰ وَادِى الغَزَالة ، ثم منه إلى الفَرْش ، ثم منه إلىٰ بِئْر عَلِيٍّ ، وبها ماء طَيِّب . ثم منهـا إلى المَدِينَة الشريفة النَّبَوِية علىٰ ساكنها أفضـلُ الصلاة والسلام والتحية والاكرام .

ومن شاءَ ذَهَبَ إليها من اليَنْبُع إلىٰ رأس نَقْب عَلِيٍّ عنـد طَرَف الجَبَل ، ثم إلىٰ وَادِى الصَّفْراء ، ثم فى المَرَاحِل المتقدّمة الذِّكْر إلى المَدِينَـة . وهى أقرب الطريقين للذَّاهِب من مصْر ، وتلك أَقْرَبُ للعائد من مَكَّة .

البـاب الثـانى

من الخاتِمة فى مَطارَاتِ الحمَام الرَّسَائِلِىّ ، وذِكْرِ أبْراجِها المقرَّرةِ بطُرُقِ الديار المصرية والبِلَاد الشَّامِيَّة ، وفيه فصلان

الفَصْـــــل الأوّل

فى مَطَـارَاتِه

قد تَقَدّم فى الكلام علىٰ أوصاف الحمَام ـ عند ذكر ما يُحْتاج إلىٰ وَصْفِه فى أواخر مَقَاصد المكاتبات من المَقَالة الرَّابِعة ـ أَنّ الحَمَام ٱسْمُ جِنْسٍ يقع علىٰ هَذا الحمَام المُتَعارف بين الناس ، وعلى اليَمَام والدَّباسىّ والقَمارِىّ والفَوَاخِتِ وغيرها ، وأنَّ المُتَبادِرَ إلىٰ فَهْم السامعِ عند ذكر الحَمَام هو هذا النَّوْع المَخْصوص ، وأن أَغْلاه قِيمةً وأعلاه رُتْبة الحَمَامُ الرسَائِلىُّ ، وهو الذى يَتَّخِذُه الملوكُ لحَمْلِ المكاتبات ، ويُعبَّر عنه بـ«الهَدْى» .
وتقدّم هناك الكلام علىٰ ذِكْرِ ألوانها على ٱختلافها ، وعَدَدِ الرِّيَاشِ المعتبرة فيها ، وهى رِيَاشُ أجْنِحَتِها وأَذْنابِها ، وبَيَانِ الفَرْق بين الذَّكَرِ والأنثىٰ ، وصِفَةِ الطائر الفَارِهِ ، والفِرَاسةِ فى نَجَابَتِه فى حال صِغَرِه ، والزَّمانِ والمكانِ اللائقين بالإفْراخِ ، وما يجرى مَجْرىٰ ذلك مما يحتاج إليه الكاتب عند وَصْفِه لبيان النَّجِيبِ منه من غيره ، فأغنىٰ عن ذِكْرِه هنا .

والمختصُّ منه بهـذا المكان ذِكْرُ الاعتناء بهذا الحَمَام ، وأَوَّلِ من ٱهتمَّ بشَأْنه ، واعْتَنىٰ بأمْرِه ، ومن قام به من الملوك ، ومَسَافات طَيَرانه ، وما يَجْرى هـذا المَجْـرىٰ .

فأما الاعْتِناءُ به والاهْتِمامُ بشَأْنِه ـ فقد اعتنىٰ به فى القَـديم خُلَفاءُ بَنِى العَبَّاس : كالمَهدِىّ ثَالث خُلَفائهم، والنَّاصِرِ منهم . وتنَافَس فيه رُؤَساءُ الناسِ فى العِرَاقِ لا سِيَّما بالبَصْرة . فقد ذكر صاحبُ "الروض المِعْطار" أنهـم تَنَافسوا فى اقْتِنائه ، ولَهِجُوا بذِكْرِه، وبَالغُوا فى أَثْمـانه، حَتَّى بلغ ثَمَنُ الطائرِ الفَارِهِ منها سَبْعمائة دِينارٍ . ثم قال : ويقال : إِنَّه بلغ ثَمَنُ طائرٍ منها جاء من خَلِيج القُسْـطَنْطِينِيَّة أَلْفَ دِينـار . قال : وكانتْ تُباع بَيْضتا الطَّائِرِ المشهورِ بالفَرَاهةِ بعشرين دِينـارًا، وأنه كان عندهم دَفَاتِرُ بأنْساب الحَمَام كأنساب العَرَب، وأنه كان لا يَمْتَنِـعُ الرجلُ الجَلِيـلُ ولا الفَقِيهُ ولا العَدْلُ من اتِّخاذ الحَمَام، والمُنافَسَة فيـه، والإخبار عنها ، والوَصْـف لأَثَرِها، والنَّعْتِ لَمشْهُورها، حتىٰ وَجَّه أَهْلُ البَصْرةِ إلى بَكَّار بن شَيْبَة البكرانىّ قَاضِى مِصْر، (وكان فى فَضْـلِه وعَقْلِه ودِينِه ووَرَعِه علىٰ مالم يَكُنْ عليـه قاضٍ) بحَمـامَاتٍ لهم مع ثِقَاتٍ، وكَتبوا إليه يسألونه أن يتولَّىٰ إرْسَالَهـا بنَفْسِه، ففَعَل . وكان الحَمَام عندهم مَتْجَرًا من المَتَاجِر، لا يَرَوْن بذلك بَأْسًا .

وذكر المَقَرّ الشِّهابىّ بنُ فَضْلِ الله فى "التَّعريف" أن الحَمَـام أوّل مانَشَأ بالديار المصرية والبلاد الشَّاميَّـة من المَوْصِلِ، وأنَّ أوّلَ من اعْتنىٰ به من المُلُوك [ونَقَله](1) من المَوْصِـلِ الشَّهِيدُ نُورُ الدِّين بن زَنْكِى صـاحِبُ الشَّام رحمه الله، فى سنة خَمْسٍ وستين وخمسمائة . وحَافَظ عليـه الخلفاءُ الفَاطِميُّون بمصْر، وبالَغُوا حتَّى أفْرَدُوا له دِيوانًا وجَرَائِدَ بأنْسَاب الحَمَام . وصَنَّف فيه الفَاضِلُ مُحْيِى الدِّين بن عَبْد الظاهر كتابًا سماه : "تَمَـائِم الحَمَـائِم" .

قلتُ : وقد سـبقه إلى التَّصْنِيف فى ذلك ـ أَبُو الحَسَن بن مُلاعِب الفَوَارِس البَغْدادِىّ ، فصنف فيه كِتابًا للنَّاصِرِ لدين الله الخليفةِ العباسىِّ ببَغْـداد ، وذَكَر فيه

(١) بياض بالأصول ، والتصحيح من "التعريف" (ص ١٩٦) .

أسمـاءَ أعْضاءِ الطَّائِرِ ورِيَاشِـه ، والوُشُوم التى تُوسَم فى كلِّ عُضْوٍ ، وألْوان الطُّيور وما يُسْتَحْسنُ من صفاتها ، وكيفيـة إفْراخِها ، وبُعْد المَسَافاتِ التى أرسلت فيها ، وذِكْر شيء من نَوَادِرِها وحِكَايَاتِها ، وما يَجْرِى هذا المجرىٰ . وأظنُّ أنَّ كِتابَ القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر نَتِيجَةٌ عن مُقَدِّمَته .

وأما مَسَافاتُ طَيَرانه ، فقد تقدّم أن الطائرَ الذى بِيعَ بألْف دِينـارٍ طَارَ من القُسْطَنْطِينِيَّة إلى البَصْرة ، وأن الحَمَـام أُرْسِلَ من مِصْر إلى البَصْرةِ بحَضْرة القاضى بَكَّارٍ قاضى مصر .

وذكر ابن سَـعِيدٍ فى كتابه "حَيَا المَحْـل وجَنَى النَّحْل" أنَّ العَزِيزَ ثانِىَ خُلَفـاءِ الفاطِمِيِّين بمصر ، ذَكَر لوَزِيرِه يَعْقُوبَ بن كِلِّس أنه ما رأى القَرَاصِـيَةَ البَعْلَبَكِّيَّةَ ، وأنه يُحِبُّ أن يراها . وكان بِدمَشْـق حَمَامٌ من مِصْرَ وبمِصْرَ حَمَـامٌ من دِمَشْقَ ، فكتب الوزيرُ لوَقْتِه بِطاقَةً يأمر فيها مَن هو تحت أَمْرِه بدِمَشْقَ أن يجمع ما بها من الحَمَامِ المِصْرِىِّ ، ويعلِّقَ فى كلِّ طائرٍ حَبَّاتٍ من القَرَاصِـية البَعْلَبَكِّيَّة ، ويُرْسِلَها إلىٰ مِصْر ، ففعـل ذلك ، فلم يَمْضِ النَّهارُ حتّىٰ حضرتْ تلك الحمائم بِمـا عُلِّق عليها من القَرَاصِية ، فجمعه الوَزِيرُ يعقوبُ بن كِلِّس وطَلَع به إلى العَزِيزِ فى يَوْمِه ، فكان ذلك من أَغْرِبِ الغَرائِبِ لَدَيْه .

وذكر أيضًا فى كتابه "المُغْرِب فى حلى المَغْرِب" أن الوَزِيرَ البازُورِىَّ المَغْرِبِىَّ ، وَزِيرَ المستنصر بالله الفاطمىِّ وجَّه الحَمَـام من تُونس من أفريقيـة من بلاد المغرب فجـاء إلىٰ مِصْر ، والعُهْدة عليه فى ذلك .

الفصــــــل الثـانى

من الباب الثـانى من الخاتمة فى أبراج الحَمَـام المقرَّرة لإطَارتها بالديار المِصْرية والبــلاد الشَّاميَّــة

وهى من القَوَاعد والطُّرُق، على ماتقدّم فى البريد .

أما فى المَسَافات فإنَّهـا تختلفُ، فإن مَطَاراتِ الحَمَـامِ رُبَّمـا زادت علىٰ مَرَاكز الـــبريد .

الأبْراجُ الاخِذَة من قَلْعة الجَبَل المحروسة إلىٰ جهات الديار المصرية

قال فى "التعريف" : وآعْلَم أن الحَمَـام قد آنقطع تَدْرِيجُه من مِصْر إلىٰ قُوصَ وأُسْوَانَ وعَيْذاب . وهـذا ظاهِرٌ فى أنَّ الحَمَـام كان يُدَرَّج إلىٰ هـذه الأمَاكِن، ثم أهْمِلَ تَدْرِيجُه بعـد ذلك . قال : ولم يَبْق منـه الآن إلا ما هو من القَاهِرةِ إلى الإسْكَنْدَرِيَّة، ومن القاهرة إلىٰ دِمْيـاط، ومن القَاهِرة إلى السُّوَيْس من طريق الحَاجِّ، ومن القَاهِرة إلىٰ بُلْبِيس متَّصِلًا بالشام .

قلتُ : وآهَلُ هـذه الأبراج كُلِّها بُرْجُ قَلْعةِ الجَبَل المحروسة، ومنهـا التَّدْريج إلىٰ سائر الجهَات .

ثم لم يذكر فى"التعريف" : الأبْراجَ الموصِّلَة إلىٰ أسْوان وعَيْذابَ والإسْكَنْدرِيَّة ودِمْيـاط .

الأبراج الاخذة من قَلْعة الجَبَل إلىٰ غَزَّة

من بُرُوج قَلْعة الجَبَل — إلىٰ بُلْبَيْس، ثم منها إلى الصَّالِحِيَّة، ثم منها إلىٰ قَطْيا، ثم منها إلى الورَّادَة، ثم منها إلىٰ غَزَّة .

الأبراج الآخذة من غَزَّة ومايتفرّع عنها

اِعلم أن الأبراج من غَزَّة تتشـعَّبُ فيها مَسَارِحُ الحَـمَام إلىٰ غير جِهَـةِ دِمَشْقَ وإلىٰ جِهَتِها .

فأمَّا غير جِهَـةِ دِمَشْقَ، فمن غَزَّةَ إلىٰ بَلَد الخَلِيل عليـه السلام ، ومن غَزَّة إلى القُدْس الشَّرِيف، ومن غَزَّة إلىٰ نَابُلُس .

وأما جِهَةُ الشَّام : فمن غَزَّةَ إلىٰ لُدّ، ومن لُدَّ إلىٰ قَاقُونَ، ومن قَاقُونَ إلىٰ جِينِينَ .

ومن جينِينَ تَتَشعَّبُ المَسَارِحُ إلىٰ غير جِهَةِ دِمَشْق و إلىٰ جِهَتِها .

فأمَّا ما إلىٰ غَيْر جِهَةِ دِمَشْق : فمن جِينِينَ إلىٰ صَفَدَ . وأمَّا ما إلىٰ جِهَةِ دِمَشْقَ : فمن جِينِينَ إلىٰ بَيْسانَ ، ومن بَيْسَانَ إلىٰ أَرْبَدَ ، ومن أَرْبَدَ إلىٰ طفْس، ومن طفْسٍ إلى الصَّنَمَيْنِ ، ومن الصَّنَمينِ إلىٰ دِمَشْقَ .

قال فى "التعريف" : ومن كلِّ واحدٍ من هـذه المَرَاكز إلىٰ ما جَاوَر ذلك من المَشَاهِير : مِثْـل من بَيْسانَ إلىٰ أَذْرِعاتٍ مَقَرِّ ولاية الوُلاة بالصَّفْقةِ القِبْلِيَّـة ، ومن طفْسٍ إليها ــ لإشعار وَإلى الولاة .

الأبراج الآخذة من دِمَشْق وما يتَفَرَّعُ عنها

تتشعَّبُ مَسارِحُ الحَمَام من دِمَشْق إلىٰ غير جِهَةِ حَلَبَ ، و إلىٰ جِهَتِها .

فأما إلىٰ غير جِهَةِ حلَب : فتُسَرَّح من دِمَشْقَ إلىٰ بَعْلَبَكَّ، ومن دِمَشْق إلى القَرْيتين .

وأما ما هو إلىٰ جِهَة حَلَب : فتُسَرَّح من دِمَشْق إلىٰ قارا(١)، ثم من قارا(١) إلىٰ حِمْص، ثم من حِمْص إلىٰ حَمَاةَ، ثم من حَمَاةَ إلى المَعَرّة، ثم من المَعَرةِ إلىٰ حَلب .

---

(١) سماها في معجم البلدان : قَارَة بالهاء .

الأبراج الآخذةُ من حَلَب وما يتفرّع عنها

بُرْجُ الحَمَـام من حَلَب إلى البِيرَةِ ، ومن حَلَبَ إلىٰ قَلْعَـةِ المسلمين ، ومن حَلَبَ إلىٰ بَهَسْنىٰ . قال فى " التعريف " : وإلىٰ بقيـة [ماله شأن[(1)]] ممَّـا حَوْلَهـا [ثم من القَرْيَتَين إلىٰ تَدْمُر ، ومنها إلى السُّخْنَة ، ومنها إلىٰ قُبَاقب ، ومنها إلى الرَّحْبة . وقد تعَطَّلَ الآن تَدْرِيجُ السُّخْنَة إلىٰ قُبَاقِب ، وإنما صار يَسُوق بِبَطَائِق تَدْمُرَ الواقعة بالسُّخْنَةِ منهـا إلىٰ قُبَاقِبَ ، ثم يُسَرَّح على الجناح من قُباقِب إلى الرَّحْبَة[(1)]] . قال : وبمـا ذُكِرتمَّ ذِكْرُ مراكِزِ الحَمَـام فى سائر المَمَـالك الإسلامية .

قلتُ : وقد تَعَطَّل تَدْرِيجُ الحَمَـام الآنَ .

---

(٢) الزيادة من التعريف ليتمّ الكلام .

الباب الثالث

من الخاتمة فى ذِكْر هُجْنِ الثَّلْج والمَراكِبِ المُعَدّة لَحمْلِ الثَّلْج الذى يحمل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصريّة،

وفيه ثلاثة فصول

الفصل الأوّل

فى نَقْل الثَّلْج

اِعلم أنَّ ماءَ نِيلِ مِصْر لما كان من الحَلاوة واللَّطافة علىٰ ما لا يُساوِيهِ فيه نَهْرٌ من الأنهار، علىٰ ماتقدّم ذِكْرُه فى الكلام على الديار المصرية فى المقالة الثانية، مَعَ شِدّةِ القَيْظ بها فى زَمَن الصيف، وسُخُونة الهواء الذى قد لايَتأَتّىٰ معه تَبْرِيدُ الماء، وكان الثَّلْج غيرَ موجودٍ بها، وكانت الملوكُ قد ٱعتادت الرَّفاهيَةَ مع ٱقْتِدارِها علىٰ تَحْصيلِ الأشياء العَزِيزة ، ووَلُوعِهم بجَلْبها من الأماكِنِ البعيدة ـ إكمالًا لحال الرَّفاهِيَةِ ، وإظهارًا لأُبَّهَةِ المُلْك ـ دَعَاهم كَمَالُ الرَّفاهِيَةِ والأُبَّهة إلىٰ جَلْبِ الثَّلْج من الشام إلىٰ مصر : لتَبْرِيدِ الماء به فى زَمَن الحَرِّ . علىٰ أنَّ ذلك كان فى غيرهم من الملوك التى لا تَثْلَجَ بحاضرتهم .

وقد ذكر أبو هلالٍ العَسْكَرِىُّ فى كتابه " الأوائل " أنَّ أوّلَ من حُمِلَ إليه الثَّلْجُ الحَجّاج بن يُوسُف بالعِراق . ثم لٱعتناء مُلوكِ مِصْر بالثَّلْج قرّروا له هُجُنًا تَحْمله فى البَرّ وسُفُنًا تحمله فى البَحْر، حتى يَصلَ إلى القلعة المحروسة .

الفصـــــل الثـانى

من الباب الثالث من الخاتمة فى المَرَاكِبِ المُعَدَّة لنَقْلِ الثَّلْج من الشام

قد ذكر فى "التعريف" أنها كانت فى أَيَّام المَلِك الظَّاهِر «بيبرس» تَغَمَّده الله برَحْمته ثَلَاثُ مَرَاكِبَ فى السنة، لا تَزِيدُ علىٰ ذلك . قال : ودامتْ علىٰ أيَّام سُلْطاننا (يعنى المِلكَ النَّاصِرَ «محمدَ بنَ قَلَاوُون») فى السَّلْطنة الثالثة، وبَقِيتْ صَدْرًا منها، ثم أخذت فى التزيُّد إلىٰ أن بلغتْ أحدَ عَشَرَ مَرْكبًا فى مملكتى الشام وطَرَابُلُس، ورُبَّمـا زادت علىٰ ذلك . قال : وآخِرُ عَهْدِى بها من السَّبْعة إلى الثمـانية تُطْلَب من الشام ولا تُكَلَّف طَرَابُلُس إلا المساعدة، وكلُّ ذلك بحَسَب اختلاف الأوقاتِ ودَوَاعى الضرورات .

قال : والمَرَاكِبُ تأتى دمْيـاطَ فى البَحْر، ثم يخرج الثَّلْج فى النِّيلِ إلىٰ ساحل بولاق، فيُنْقَلُ منـه على البِغَال السلطانية، ويُحْمَل الى الشرابْخاناه الشريفة، علىٰ ما تقدّم ذكره .

وقد جَرَتِ العـادةُ أن المراكب إذا سُفِّرَتْ سُفِّر معها من يَتَدَرَّكُها من ثَلَّاجِينَ لمداراتها . ثم الوَاصِلون بها فى البَحْر يعودون على البريد فى البَرِّ .

الفصـــــل الثـالث

من الباب الثالث من الخاتمة فى الهُجْنِ المُعَدَّة لنَقْل ذلك

قد ذكر فى "التعريف" أنه ممـا حَدَث فى الدَّولة الناصرية «محمد بن قلاوون» وآستمرَّ . وقد كان قبل ذلك لا يُحْمل إلا فى البَحْر خاصَّةً . ثم ذكر أن هذه المَراكزَ من دمَشْقَ إلى الصَّنَمين، ثم منها إلىٰ بَانِيَاسَ، ثم منها إلىٰ أَرْبَدَ، ثم منها إلىٰ بَيْسانَ،

ثم منها إلىٰ جِينِينَ ، ثم منها إلىٰ قَاقُون ، ثم منها إلىٰ لُدٍّ ، ثم منها إلىٰ غَزَّة ، ثم منها إلى العَرِيش ، ثم منها إلى الوَرَّادة ، ثم منها إلى المُطَيْلِب، ثم منها إلىٰ قَطْيا، ثم منها إلى القُصَيْر، ثم منها إلى الصَّالِحِيَّة، ثم منها إلىٰ بُلْبَيْس، ثم منها إلىٰ القَلْعَة .

قال : والمُسْتَقِرّ فى كلّ مَرْكَز ستُّ هُجُنٍ : خمسةٌ للأَحْمال، وهَجِينٌ للهَجَّان، تكونُ كلُّ نَقْلةٍ خَمْسةَ أحمال . وهـذه الهُجْن من الشام إلى العَرِيش على المملكة الشَّامِيَّة، خلَا جِينِينَ فإنها علىٰ صَفَد . ومن الوَرَّادةِ إلى القَلْعة هُجُنٌ من المَنَاخَاتِ السُّلْطانية ، والكُلْفة علىٰ مال مِصْر . ولا تَسْتَقِرُّ هذه الهُجْن بهذه المراكز إلا أَوَانَ حَمْل الثَّلج ، وهى : حَزِيرَانُ وتَشْرِينُ الثانى . وعِدَّة نقلاته إحدىٰ وسبعون نَقْلة ، مُتَقارِبٌ مُدَد ما بينها ، ثم صار يَزِيدُ علىٰ ذلك . ويُجَهَّزُ مع كلّ نقلة بَرِيدِىٌّ يتداركه، ويُجَهَّز معه ثَلَّاجٌ خَبِير بحَمْلِه ومُدَاراته، يُحْمل علىٰ فَرَس ببَرِيدٍ ثانٍ . قال : وٱستقرّ فى وَقْتٍ أن يُحملَ الثَّلَّاجُ علىٰ خَيْل الوِلَاية .

وٱعلَمْ أن الثَّلْجَ إذا وصـل على المَرَاكِب والهُجْنِ حتّى ٱنتهىٰ إلى القَلْعة ، خُزِنَ بالشرابخاناه السلطانية . قال فى "التعريف" : ومذ قرّر أن يُحمَل من الثَّلْج على الظَّهْر ما يُحمَـل ، ٱستَقرّ منه خاصُّ المَشْرُوب ، لأنه يَصِـلُ أَنْظَفَ وآمَنَ عاقِبَةً ، علىٰ أن المُتَسفِّرِين يأخذون الحَـاشِى منـه بحضور أَمير مجلس وشَادِّ الشَّرَابْخَاناه السـلطانية وخُزَّانِهـا . أما المَنْقول فى البَحْر فلمَـا عدا ذلك . قال : وللمُجَهِّزِين به من الخِلَـع ورسُومِ الإِنْعام رُسُومٌ مُسْتقِرّه، وعَوائِدُ مُسْتَمِرّه .

قلتُ : وقد جَرَت العادة أنّ وَاصِلَ الثَّلج فى كلّ نَقْلةٍ فى البَرِّ والبَحْر تُكتبُ به رَجْعةٌ من دِيوَانِ الإنشاء، وهذا هو وَجْه تَعلُّقه بديوان الإِنْشاء .

البـاب الرابـــــع

من الخاتمة فى المَنَاوِر والمُحْرِقات ، وفيـــه فصلان

الفصـــــل الأوّل

فى المَنَـاوِر

قال فى "التعريف" وهى مَوَاضِعُ رَفْعِ النَّارِ فى اللَّيلِ والدُّخان فى النَّهار .

وذلك أن مَمْلَكَةَ إِيرَانَ لمَّـا كانتْ بيَدِ هُولاَكُو من التَّتار، وكانتْ الحُرُوب بينهم وبين أَهْلِ هذه المَمْلَكَةِ، كان من جُمْلة آحتياط أَهْلِ هـذه المملكة أن جَعَلوا أماكِنَ مُرْتَفِعةً من رُؤُوس الجبال تُوقَد فيها النَّارُ ليلًا و[يُثَارُ] الدُّخَانُ نهارا، للإعلام بحَرَكَة التَّتار إذا قَصَدوا دُخولَ البلادِ لحَرْبٍ أو إغَارة . وهذه المَنَاوِر تارةً تكونُ علىٰ رُؤُوس الجبال ، وتارةً تكون فى أَبْنِيَةٍ عاليةٍ ، ومَواضِعُها معروفةٌ تَعَرَّف بهـا أَكْثَرُ السَّفَّارة، وهى من أقصَىٰ ثُغُور الإسلام كالبِيرَةِ والرَّحْبَة، وإلى حَضْرة السلطان بقَلْعَة الجَبَل، حتَّىٰ إنَّ المُتَجدِّدَ بالفُراتِ إن كان بُكْرَةً عُلِمَ به عِشَاءً ، وإن كان عِشَاءً عُلِمَ به بُكْرَةً. ولِمَا يُرْفَع من هذه النِّيران ، أو يدخَّنُ من هـذا الدُّخَان أَدِلَّةٌ يعرفُ بهـا آختلافُ حالات رُؤْيَةِ العَدُوّ والمخبر به بآختلاف حَالاَتِها، تارةً فى العَدَد، وتارةً فى غير ذلك . وقد أُرْصِدَ فى كلِّ مُنَوِّرٍ الدَّيادِبُ والنَّظَّارة ، لرؤية ماوراءَهم وإيراء ما أَمَامَهم ، ولهم علىٰ ذلك جَوامِكُ مُقَرَّرة كانت لا تزال دَارَّة . قال : وكان يُنَوِّرُ بمدينة عانَةَ من تلك المملكة قَوْمٌ من النُّصَّاح بحُجَّة أمرٍ سِوَى التَّنْوير، ويستر عليهم أهلُ البَلَد حُبًّا للموكنا، فترَىٰ [نَارُهُ أو دُخَانُه بخَرِبَة الرُّوم وبالحرف أيضًا، ويُرْفَعُ فيهما أو فى إحداهما فيرىٰ][1]

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠) .

من كلٍّ منهما بوادِى الهَيْكَل، ويُرفَع فيه فيُرىٰ [بالقَناطِر، ويُرْفع بالقناطر فيُرىٰ بالرَّحْبَة وقاها الله، ويُرْفع بهـا فيُرىٰ فى كَوَاثِلَ، ويُرْفع فيها فيُرىٰ فى مَنْظرة قُبَاقِب، ويُرْفع فيها فيُرىٰ فى حَفِير أسَدِ الدّين، ويُرْفع بهـا فُيرىٰ][١] بالسُّخْنَة، فيُرْفع فيها فيُرىٰ بمَنْظَرة أَرَكٍ، فيُرْفع فيها فيُرى بالبُوَيْب وهو قَنْطرةٌ [بين أَرَكٍ][١] وتَدْمُر، فيُرفَع فيهـا فيُرىٰ بمَنْظَرة تَدْمُر، فيرفع فيهـا فيُرىٰ بمَنْظَرة البَيْضَاء، فيرفع فيها فيُرىٰ بالحَيْر، فيرفع فيها فيرىٰ بجُلَيْجِل، فيُرْفع فيها فيُرىٰ بالقَرْيتَين، فيرفع فيها فيرىٰ بالعطنة، فيرفع فيها فيرىٰ بثَنِيَّة العُقَاب، فيُرْفع فيها فيُرىٰ بمِئْذَنَة العَرُوس، فيُرفع فيها لمَـا حَوْلها، إنْذارًا للرعايا وضَمًّا للأطراف، فيُرْفع حَوْل دِمَشْق بالجَبَل المُطِلّ علىٰ بَرْزَة فيُرىٰ بالمـانع، فيُرْفع به فيُرىٰ بتَلِّ قَرْية الكتيبة، ثم يُرفع فيها فيُرىٰ بالطُّرَّة، ثم يرفع فيرىٰ بجَبَل أَرْبَدَ وبجَبَل عَجْلُون، ثم يُرْفع بهما فيُرىٰ بجبَـل طَيْبة آسم، ثم يرفع بها فيُرىٰ بالمُنَوِّر المعمولِ بإزاء البِئْر الذى برأْس الجَبَل المُنْحَدِر إلى بَيْسانَ المَعْروفِ بعَقَبَة البَرِيد، لا عُدُولَ[٢] بطريق البريد الآن عنه، ويُرىٰ منه أطرافُ أعمالِ نَابُلُس [نحو جبال أبزيق وما حَوْلهـا، ويُرْفع من هذا المُنَوِّر الذى برأس عَقَبة البَرِيد فيرىٰ بالجَبَل المعروف بقَرْية جِينِينَ، ثم يُرفَع منه فيُرىٰ بجَبَل فَحْـمة، ثم يُرفع منه فيُرىٰ بشُرْفة قَاقُونَ، ثم يرفع منه فيرىٰ بأطْراف أعمال نَابُلُس][١] ويُرَىٰ علىٰ قَصْد الطريق بذِرْوة الجَبَل المُصاقِب لمجدل بابا، فيرفع منه فيُرىٰ بمَرْكز ياسور المَعْدول بالبريد الآن عنه، ثم يُرْفع منـه فيُرىٰ بالجبال المطِلّة علىٰ غزَّة، فيرفع بغزّة علىٰ أعَالِى الحَدَب المعروف بحَدَب غَزَّة، ثم [لا مُنَوِّر و][١] لا إِخْبَـارَ بشَأْنِ التَّتار إلا على الجَناح والبَرِيد .

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠٠ — ٢٠١) .

(٢) الذى فى التعريف : وقد عدل الآن طريق الخ فتنبه .

قال : ثم ٱعْلم أن جَمِيعَ ما ذكرناه مَناوِرُ تتشعَّب إلىٰ ما خَرَج عن جَادَّة الطريق إلى البلاد الآخذة علىٰ جَنْبٍ جنوبًا وشمَالا ، شرْقًا وغرْبًا . أما منذُ أصلح الله بين الفِئتَيْن، وأمَّنَ جَانِبَ الجِهتَين، فقد قلَّ بذلك الٱحْتِفال، وصُرِفَ عن البال. وهذه المناور رُسُومٌ قد عَفَتْ ، وجُسُومٌ [أكَلَت شُعُلَ النَّارِ أرْواحَها](١) فٱنْطَفت .

علىٰ أنه قد نَصَّ فى "التعريف" علىٰ مَنَاوِر طريقِ البِيرَة، ومناور طريق الرَّحْبَة، وهما من نَفْس المملكة .

قلتُ : وهذه المَنَاوِر مأخوذةٌ عن مُلوك الهِنْد . فقد رأيتُ فى بعض الكُتُب أنَّ ببلادهم مَنَاوِرَ علىٰ جِبالٍ مرتفعةٍ، تُرى النَّارُ فيها علىٰ بُعْدٍ أكثر من هذه .

علىٰ أن مُرَتِّبها بهذه المملكة أوَّلًا أتَىٰ بحِكْمةٍ مُلُوكيَّةٍ لا تُساوَىٰ مِقْدارا، إذ قد تَرقَّىٰ فى سُرْعة بُلُوغ الأخبار إلى الغَايَة القُصْوىٰ . وذلك أن البَرِيدَ يأتى من سُرْعة الخَبَر بما لم يأتِ به غيرُه، والحَمَامَ يأتى من الخَبَرِ بما هو أسْرعُ فى البريد، والمَنَاوِرَ تأتى من الخَبَر بما هو أسرع من الحَمَام . وناهيكَ أن يَظْهَر عُنْوانُ الخَبَر فى الفُراتِ بمصر فى مَسَافة يَوْمٍ ولَيْلة .

---

(١) الزيادة من التعريف (ص ٢٠١) .

الفصـــــل الثـانى

من الباب الرابع من الخـاتمة فى المُحْرِقَات

قال فى "التعريف": وهى مَوَاضِعُ ممَّـا يلى بِلادَنا من حَدِّ الشَّرْق داخلةٌ فى تلك المَمْلَكةِ (يعنى مملكةَ بَنِى هُولاكُو من التَّتار) يُجَهَّز إليها رجالٌ فتُحْرِقُ زَرْعها، كأرض البُقْعة والثَّرْثَارِ والقينة، و باشزة، والهَتَّاخ، ومَشْهد ٱبن عُمَر، والمُوَيْلِح، وبلادِ نِينَوىٰ من بَرِّ الموصِـل التى يقال، إن يُونُس عليه السـلام بُعِثَ إلىٰ أهْلِهـا، والوَادِى، والمَيْدان، والبَابِ، والصَّوْمَعَة، والمَرْجِ المعروفِ بَنِى زَيْد، والمَرْج المُحْتَرِق، ومنازل الأويراتية، وهى أطراف هذه المواضع إلىٰ جَبَـل الأكراد. و ببِلَاد سِـنْجَار ـ المنطق والمَنْظَرة والمَزْيدة، وتحتَ الجبال عند التُّليلات، وكذلك التارات، وأعالى جَبَل سنْجار وما والىٰ ذلك.

وذلك أنه كان من عادة التَّتر أنّهم لايكلفون عُلُوفَةَ خَيْلهم بل يَكِلُونها إلىٰ ماتُنْبِتُ الأرضُ، فإذا كانت تلك الأرضُ مُخْصِبةً سَلَكُوها، و إذا كانت مُجْـدِبةً تَجَنَّبُوها، وكانت أرضُ هذه البلاد المتقدمة الذِّكْر أرضًا مُخْصِبةً، تقومُ بِكفايةِ خَيْلِ القَوْمِ إذا قصـدوا بلادنا، فإذا أَحْرقُوا زَرْعها ونَبَاتَها ضَعُفُوا عن قَصْدِ بلادنا وحصل بذلك جميعُ الرِّفْقِ، والدَّفْعُ عن مباغَتَة الأطراف ومُهاجَمةِ الثُّغُور.

وكان طَريقُهم فى إحراقها أن يُجَهِّزوا إليهم الرجالَ ومعهم الثَّعالِبُ الوَحْشيَّة وكلابُ الصَّـيْد، فيَكْمُنون عنـد أُمَناءِ النُّصَّاح فى كُهوف الجبال و بُطُون الأَوْدِيَة، و يَرتَقِبُون يومًا تكون رِيحُه عاصفةً وهَواؤُه زَعْزَع، تُعَلَّق النارُ مُوثقةً فى أَذْناب تلك الثعالب والكلاب، ثم تُطْلَقُ الثَّعالِبُ، والكِلابُ فى أَثَرِهـا وقد جُوِّعَت، لتجدّ

الثعالبُ فى العَدْوِ ، والكِلابُ فى الطَّلَبِ ، فتُحرِقُ ما مَرَّتْ به من الزَّرْع والنَّبات ، وتُعْلِقُ الريحُ النارَ منه فيما جاوَرَه ، مع مايُلْقِيه الرَّجَّالةُ بأيديهم فى اللَّيالى المُظْلِمه ، وعِشاء الأيام المُعْتِمه . وكان يُنْفَق فى نَظِير هذا الإحراقِ من خزانة دِمَشْق جُمَلٌ من الأموال . قال : وكان الاهتمامُ بذلك فى أوّل الأمْرِ قبل أن يَفْطُنوا بقَصْد التَّحْريق ، ثم نَبَّههم علىٰ ذلك أهْلُ المُدَاجَاة ، فصاروا يَرْبطون عليها الطُّرُق ، ويُمْسِكُون منها بالأطراف ؛ وقُتِلَ عَدِيدٌ من الرجال بسَبَبِها ، وأَحْرقُوهم بأشَدّ من نارِها .

وذَكَر أنَّ ممـا كان يُجْتَنَب تَحْرِيقُه ـ أرضَ الجِبَال ، من حيثُ إنها بِلادُ بَقِيَّـة السَّلَفِ الصالح من ذُرِّيَّة شيخِ الإسلام الإمامِ الكبيرِ العارفِ بالله «عَبْدالقَادرِ الجيليّ» المعروف بالكِيلَانِيِّ ، نفع الله تعالىٰ ببركاته ، لتَعْظِيمهم من الجهتين ، مع مالَهم عنـد مُلوكنا من المكانة العَلِيَّة : لقَدِيم سَلَفِهم ، وصَمِيم شَرَفِهم ، ولِمَـا للإسلام وأهْلِه من إسْعافهم بمـا تَصِلُ إليه القُدْرةُ ويَبْلُغه الإمْكَان .

قلتُ : وبتَمام القَوْل فى هذا الطَّرَف قد تَمَّ ما كنتُ أُحَاوِلُه من التأليف ، وأَهْتَمُّ به من الجَمْع ؛ وباللهِ التَّوفيق ، وإليه الرَّغْبة ؛ وهو حسبِى ونِعْم الوَكِيل .

واعْلَم أن المصنَّفاتِ تتفاوَتُ فى الحُظُوظ إقبـالاً وإدْبارا : فمن مَرْغُوبٍ فيه ، ومَرْغُوبٍ عنه ، ومُتَوسِّطٍ بين ذلك . علىٰ أنه قَلَّ أن يَنْفُق تَأْلِيفٌ فى حياة مُؤَلِّفه ، أو يَرُوجَ تَصْنِيفٌ على القُرْب من زَمانِ مُصَنِّفه .

قال المَسْعُودىُّ فى كتابه "التَّنْبِيه والإشراف" وقد تَشْتَرِكُ الخواطِر ، وتَتَّفِقُ الضمائر ؛ ورُبَّمـا كان الآخِرُ أحْسَنَ تأليفا ، وأمْتَنَ تَصْنِيفا ؛ لحِكْمَةِ التَّجارِب ، وخَشْيةِ التَّتَبُّع ، والاحتراسِ من مَوَانِـع المَضارِّ . ومن هاهُنا صارتْ العلومُ نامِيـةً ، غيرَ مُتَنَاهِيـَة ، لوجود الآخِرِ ما لا يَجِـدُه الأوَّلُ ، وذلك إلىٰ غيرِ غَايَةٍ مَحْصُورة ، ولا نِهايَة مَحْـدُودة .

علىٰ أنَّ من شِيَم كَثِيرٍ من الناس إطْراءَ المُتَقَدِّمين، وتَعْظِيم كُتُبِ السَّالِفين، ومَدْحَ المَاضِي، وذَمَّ البَاقِي؛ وإن كان في كُتُب المُحْدَثِينَ ما هو أعظم فَائِده، وأكْثَر عائِدَه.

ثم حَكَى عن الجَاحِظ — علىٰ جلالة قَدْرِه — أنه قال: كُنْتُ أُؤَلِّف الكِتَابَ الكَثِيرَ المَعَاني، الحَسَنَ النَّظْم، وأَنْسُبُه إلىٰ نَفْسِي، فلا أَرَى الأَسْمَاعَ تُصْغِي إليه، ولا الإرادات تَتَيَمَّم نَحْوَه، ثم أُؤَلِّف ماهو أنْقَص منه رُتْبَةً، وأقل فائدةً، وأَنْحَلُه عَبْد الله بنَ المُقَفَّع، أو سَهْلَ بنَ هٰرُونَ، أو غيرَهما من المُتَقَدِّمين، ممَّنْ صارت أسماؤهم في المُصَنِّفِين، فيُقْبِلُون علىٰ كَتْبِها، ويُسارِعُون إلىٰ نَسْخِها، لا لِشَيْءٍ إلا لِنسْبَتِها للتقدّمين، ولِمَا يُداخِلُ أهلَ هذا العَصْر من حَسَدِ مَن هو في عَصْرِهِم، ومُنافَسَتِه على المَنَاقِب التي عُنِيَ بتَشْيِيدِها.

قال: وهذه طائِفَةٌ لا يَعْبَأُ بها كِبَارُ الناس، وإنَّما العَمَلُ على أَهْلِ النَّظَر والتَّأَمُّلِ الذين أَعْطَوْا كلَّ شَيْءٍ حَقَّه من القَوْل، ووَفَّوْه قِسْطَه من الحَقِّ؛ فلم يَرْفَعُوا المتقدِّمَ إذا كان نَاقِصًا، ولم يُنْقِصُوا المتأَخِّرَ إذا كان زَائِدًا؛ فلِمِثْلِ هٰؤلاء تُصَنَّفُ العُلُوم، وتُدَوَّن الكُتُب.

وإذا كان هٰذا نَقْلَ المَسْعُودِيّ عن الجَاحِظ الذي هو رَأْسُ المُصَنِّفِين، وعَيْنُ أَعْيانِهم، فَمَا ظَنُّكَ بغَيْرِه؟.

لٰكِنِّي أَحْمَدُ اللهَ تعالىٰ علىٰ رَوَاجِ سُوقِ تَأْلِيفِي، ونَفَاقِ سِلْعَتِه، والمُسارَعَة إلى اسْتِكْتابِه قبل انْقِضاء تَأْلِيفه، حتّىٰ إنَّ قَلَمَي التَّأليف والنَّسْخ يَتَسابَقَان في مَيْدانِ الطِّرْس إلىٰ اكْتِتابِه، ومُرْتَقِب نَجازِه للاسْتِنْساخ يُساهِمُهما في ارْتِقابِه. فَضْلًا من الله ونِعْمَة، ﴿ذٰلك فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾.

قال المُؤَلِّف : تَجَزْتُ تَأْلِيفَه فى اليَوْمِ المُبَارك ، يَوْمِ الجُمعة الثامنِ والعِشْرين من شَهْر شوّال، سنة أربعَ عَشْرة وثَمَانِمائةٍ .

ونُجِّزَتْ هذه النسخة فى يوم السبت المبارك التَّاسِعِ والعشرين من شَهْر صَفَر الخير، سنة تسعٍ وثمانين وثمانمائة .

فَرَغ منه كِتابةً وسِتَّةٍ قَبلَه ، فقيرُ رَحْمة ربه الغَنِيِّ الفاتح، عَبْدُ الرزَّاق بنُ عَبْد المُؤْمن ابن محمد الناسخ الشَّافعيّ، نَزِيلُ الصَّالِحيَّة النَّجْمِيَّة المعروفةِ بالسَّادةِ الحَنَابِلَةِ، بخطِّ بين القَصْرَيْن : غَفَر الله ذُنُوبه، وسَتَر عيُوبَه، وخَتَم له وللمسلمين بخَيْر، آمين

وحَسْبُنا اللهُ ونِعْم الوَكِيل، وصلَّى الله علىٰ سيدنا محمدٍ خَاتَمِ الأنبياء
وسَيِّد المرسلين ، وعلىٰ آله وصَحْبه أجمعين : سُبْحان رَبِّكَ
رَبِّ العِزَّةِ عمَّا يَصِفُون وسَلَامٌ على المُرْسلين
والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمين

(المطبعة الاميرية ١٦٩٤/١٩١٨/٣٠٠٠)

فهـــرس

الجـــــزء الرابع عشر

من كتاب صـبح الأعشى للقلقشـــندى

صفحة

الباب الرابع — من المقالة التاسعة فى الهدن الواقعة بين ملوك الإسلام وملوك الكفر، وفيه فصلان ٢

الفصل الأوّل — فى أصول تتعين على الكاتب معرفتها، وفيه ثلاثة أطراف ٢

الطرف الأوّل — فى بيان رتبتها ومعناها وذكر ما يرادفها من الألفاظ ٢

« الثانى — فى أصل وضعها ٤

« الثالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة الهدن، وفيه نوعان ٧

النوع الأوّل — ما يختص بكتابة الهدنة بين أهل الإسلام وأهل الكفر ٧

« الثانى — ماتشترك فيه الهدن الواقعة بين أهل الكفر والإسلام وعقود الصلح الجارية بين زعماء المسلمين، وهى ضربان ٩

الضرب الأوّل — الشروط العادية التى جرت العادة أن يقع الاتفاق عليها بين الملوك فى كتابة الهدن خلا ماتقدّم ... ٩

الضرب الثانى — مما يلزم الكاتب فى كتابة الهدنة — تحرير أوضاعها، وترتيب قوانينها، وإحكام معاقدها ١١

الفصل الثانى — فى صورة ما يكتب فى المهادنات والسجلات، ومذاهب الكتّاب فى ذلك، وفيه طرفان ... ١٦

الطرف الأوّل — فيما يستبدّ ملوك الإسلام فيه بالكتابة عنهم، وتخلد منه نسخ بالأبواب السلطانية، وتدفع منه نسخ إلى ملوك الكفر، وذلك على نمطين... ١٦

صفحة

النمـــط الأوّل — ما يكتب فى طرّة الهدنة من أعلى الدرج... ... ١٦

« الثـانى — ما يكتب فى متن الهدنة، وهو علىٰ نوعين ... ١٧

النـــوع الأوّل — ما تكون الهدنة فيـه من جانب واحد، وفيه مذهبان ١٧

المذهب الأوّل — أن تفتتح الهدنة بلفظ: «هذا ماهادن عليه» الخ ١٧

« الثانى — أن تفتتح المهادنة قبل لفظ: «هذا» ببعدية ... ٢٦

النـــوع الثانى — من الهدن الواقعة بين ملك مسلم وملك كافر — أن تكون الهدنة من الجانبين جميعا، وفيها للكتّاب ثلاثة مذاهب... ... ... ٢٩

المذهب الأوّل — أن تفتتح الهدنة بلفظ: «هـذه هدنة» ونحو ذلك ٢٩

الثانى — أن تفتتح الهدنة بلفظ: «آستقرّت الهدنة بين فلان وفلان» الخ ٣١

« الثالث — أن تفتتح المهادنة بخطبـة مبتدأة بـ«ـالحمد لله» ٧١

الطـــرف الثـانى — فيما يشارك فيـه ملوك الكفر ملوك الإســلام فى كتابة نسخ من دواوينهم... ... ... ٧٢

البـــاب الخامس — من المقالة التاسعة فى عقود الصلح الواقعة بين ملكين مسلمين، وفيه فصلان... ... ... ٧٩

الفصـــل الأوّل — فى أصول تعتمد فى ذلك ٧٩

« الثـانى — فيما جرت العادة بكتابتـه بين الخلفاء وملوك المسلمين علىٰ تعاقب الدول، مما يكتب فى الطرّة والمتن، وفيه نوعان ٨٤

صفحة

النـــوع الأوّل — ما يكون العقد فيه من الجانبين ٨٤

« الثـانى — ما يكون العقد فيـه من جانب واحد ، وفيه مذهبان ٩٧

المذهب الأوّل — أن يفتتح عقد الصلح بلفظ : «هذا» ٩٧

« الثـانى — أن يفتتح عقدالصلح بخطبة مفتتحة بـ«الحمدلله» وربمـا كرر فيها التحميد ١٠٠

البـاب السـادس — من المقالة التاسعة فى الفسوخ الواردة على العقود السابقة، وفيه فصلان ١٠٨

الفصـــل الأوّل — الفسخ، وهو ما وقع من أحد الجانبين دون الآخر ١٠٨

« الثـانى — المفاسخة، وهى ما تكون من الجانبين جميعا ... ١٠٩

المقـالة العـاشـــرة

فى فنون من الكتابة يتداولهـا الكُتَّاب وتتنافس فى عملها ليس لهـا تعلق بكتابة الدواوين السلطانية ولاغيرها، وفيها بابان ١١٠

البـــاب الأوّل — فى الحِدِّيّات، وفيه خمسة فصول (الصواب : ستة فصـــول)... ... ... ١١٠

الفصـــل الأوّل — فى المقامات ١١٠

« الثـانى — فى الرسائل، وهى على أصناف ١٣٨

الصـــنف الأوّل — الرسائل الملوكية، وهى على ضربين ١٣٩

الضرب الاوّل — رسائل الغَزْو، وهى أعظمها وأجَلُّها... ... ... ١٣٩

« الثـانى — « الصَّيْد ١٦٥

الصـــنف الثـانى — من الرسائل ـ ما يرد منها مورد المدح والتقريض ١٧٢

صفحة

الصـــنف الثالث — من الرسائل — المفاخرات ٢٠٤

» الرابـع — » » الأسئلة والأجوبة ٢٤٠

» الخامس — » » ما تكتب به الحوادث والماجريات ٢٥١

الفصـــل الثـالث — من البـاب الأول من المقالة العـاشرة ، في قدْمات البندق ٢٨٢

» الرابـع — من البـاب الأول من المقالة العـاشرة ، في الصَّدُقات ، وفيه طرفان... ... ... ٣٠٠

الطـــرف الأول — في الصدقات الملوكية وما في معناها ٣٠٠

» الثـاني — في صَدُقات الرؤساء والأعيان وأولادهم ٣١١

الفصـــل الخامس — من الباب الأول من المقالة العاشرة فيما يكتب عن العلمـاء وأهل الأدب ، ممـا جرت العادة بمراعاة النثر المسجوع فيـه ، ومحاولة الفصاحة والبلاغة ، وفيه طرفان... ... ... ٣٢٢

الطـــرف الأول — فيما يكتب عن العلمـاء وأهـــل الأدب ، وهو علىٰ صنفين ٣٢٢

الصنف الأول — الإجازات بالفتيا والتدريس والرواية وعراضات الكتب ، ونحوها ٣٢٢

» الثـاني — التقريضات التي تكتب على المصنفات المصنفة والقصائد المنظومة ٣٣٥

الطـــرف الثـاني — فيما يكتب عن القضاة ، وهو علىٰ أربعـة أصـــناف ٣٤٠

الصنف الأول — التقاليد الحكمية ٣٤٠

» الثـاني — إسجالات العدالة ٣٤٦

صفحة

الصنف الثالث — الكتب إلى النواب وما فى معناها ٣٥٠

« الرابع — ما يكتب فى آفتتاحات الكتب... ... ... ٣٥٣

الفصل السادس — فى العمرات التى تكتب للحاجّ ٣٥٥

الباب الثانى — من المقالة العاشرة فى الهَزْليات ٣٦٠

الخاتمة

فى ذكر أمور تتعلق بديوان الإنشاء غير أمور الكتابة، وفيها أربعة أبواب... ٣٦٦

الباب الأوّل — فى الكلام على البريد، وفيه فصلان ٣٦٦

الفصل الأوّل — فى مقدّمات يحتاج الكاتب إلى معرفتها، ويتعلق الغرض من ذلك بثلاثة أمور ٣٦٦

الأمر الأوّل — معرفة معنى لفظ البريد لغة وآصطلاحا ٣٦٦

« الثانى — أوّل من وضع البريد وما آل إليه أمره إلى الآن ٣٦٧

« الثالث — بيان مَعَالم البريد ٣٧١

الفصل الثانى — من الباب الأوّل من الخاتمة فى ذكر مراكز البريد، ويشتمل على ستة مقاصد ٣٧٢

المقصد الأوّل — فى مركز قلعة الجبل المحروسة بالديار المصرية التى هى قاعدة الملك، وما يتفرّع عنه من المراكز، وما تنتهى إليه مراكز كل جهة... ... ... ٣٧٣

« الثانى — فى مراكز غَزَّة، وما يتفرّع عنها من البلاد الشامية ٣٧٩

« الثالث — فى ذكر مركز دمشق وما يتفرّع عنه من المراكز ٣٨١

« الرابع — فى مركز حلب، وما يتفرّع عنه من المراكز ٣٨٣

« الخامس — فى مركز طرابلس، وما يتفرّع عنه من المراكز ٣٨٥

« السادس — فى معرفة مراحل الحجاز الموصلة إلى مكة المشرفة والمدينة المنوّرة... ... ... ٣٨٥

صفحة

البـــاب الثـانى ـــ من الخاتمة فى مطارات الحمـام الرسائلىّ، وذكر أبراجها المقترِنة بطرق الديار المصرية والبـلاد الشامية، وفيه فصلان... ... ... ٣٨٩

الفصـــل الأوّل ـــ فى مطاراته ٣٨٩

« الثـانى ـــ فى أبراج الحمـام المقـــرَّرة لاطارتهـا بالديار المصرية، والبلاد الشامية ٣٩٢

البـــاب الثـالث ـــ من الخاتمة فى ذكر هجن الثلج، والمراكب المعدّة لحمل الثلج الذى يحمـل من الشام إلى الأبواب السلطانية بالديار المصرية، وفيه ثلاثة فصول ٣٩٥

الفصـــل الأوّل ـــ فى نقل الثلج ٣٩٥

« الثـانى ـــ فى المراكب المعدّة لنقل الثلج من الشام... ... ٣٩٦

« الثالث ـــ فى الهجن المعدّة لنقل ذلك... ... ... ٣٩٦

البـــاب الرابـــع ـــ من الخاتمة فى المناور والمحرقات، وفيه فصلان ٣٩٨

الفصـــل الأوّل ـــ فى المنـاور ٣٩٨

« الثـانى ـــ فى المحرقات ٤٠١

(تم فهرس الجزء الرابع عشر من كتاب صبح الأعشى)

كلمـــة

فى التعريف بكتاب صبح الأعشىٰ

وترجمـــة مؤلفـــه

بقـــلم

حضرة الأســـتاذ الشيخ محمـــد عبد الرسول

رئيس التصحيح العربىّ بالقسم الأدبىّ

بالمطبعة الأمـــيرية

كلمة

فى التعريف بكتاب صبح الأعشى

وترجمـــة مؤلفـــه

بسم الله الرحمن الرحيم

نَحْمَدُ الله تعالى على ما مَنَح من الإعانة ووَهَب من التَّيْسِير، ونَشْكُره على ما أَولى من التَّوْفِيق فهو نِعْم المَوْلىٰ ونِعْم النَّصِير، ونُصَلّى ونُسَلِّم على سيدنا محمدٍ صُبْح الهِدايَة وشِهابِها السَّاطع، وعلى آله وأصحابه النُّجُومِ الثَّوابتِ والبُدُورِ الطَّوالع .

وبعدُ، فإنَّ الأُمَم بآثارها، والشُّعُوبَ بسِيَرِها وأَخْبارِها؛ ومن أَعْظَمِ الآثار قِيمَه، وأغْزَرِها دِيمَه؛ ما تُعْرف بواسطته نَتائج أفْكارِ القادَةِ العُلَماء، وتَتَبيَّن به قرائحُ الجَهابِذَة الحُكَماء .

ولم تَزَل الأُمَم الرَّاقِيَةُ فى سَالِف الدُّهور وإلى وَقْتِنا الحاضِر تُعْنَىٰ بشَأْنِ علمائها : على اختِلاف مَذَاهِبِهم، وتَبايُنِ مَشَارِبِهم؛ وتحِلُّهم من الكرامة والإجلال أَعلى الدَّرجات، وتَرْجِعُ فى أمرِ معَاشِها ومَعَادِها إلى آرائهم السَّديده، وأفْكارِهم الرَّشِيدَه؛ وتَعْمل بكُلِّ جُهْدِها فى إنشاء دُورِ الكُتُب وتَشْييدها، والمُبالَغَةِ فى تَنْسِيقها وتَرْتِيبها : لتَحْفَظ فيها دَفَاتِرهم وطَوَامِيرَهم التى أوْدعوها ثَمَرة أفْكَارِهم، ونَتِيجَةَ بحوثِهم .

ولقد أخَذَتْ مِصرُنا العَزِيزَة فى صَدْرِ الإسلام تُسابِقُ «البَصْرة والكُوفَة» فى هذا المَيْدان العظيم، مَيْدانِ التَّقدُّمِ والارْتِقاء .

وسارَتْ من بَعْدهما تُناهِضُ « بَغْـدادَ » دارَ السلام، ومَرْكزَ الخلافة العبّاسـيَّة وكَعْبةَ العالَم، وقِبْلةَ الآدابِ ــ مع ما كان يَبْذُله الخُلَفاء لعُلَمائها من أنواع التُّحَف، ويُفْرِغُونه عليهم من بِدَرِ الأموال : حُبًّا فى نَشْرِ العِلْم وبُلُوغِه إلى دَرَجة الكَمال .

ولم تَكُنْ فى ذلك أقلَّ حَظًّا من الأَنْدَلُس : جَنَّة العالَم وزينَةِ الدُّنيا، حتَّى فى أعْظَمِ عُصُورِها الذَّهَبِيَّةِ المَمْلُوءَةِ بالمَعَالِى والمَفَاخِر، يوم كانَتْ تَنْشُر على العالَم ألوِيَةَ الحَضارة، وتَتْلو عليه آياتٍ بَيِّناتٍ من الهُدَىٰ والفُرْقان .

وفَتَحتْ مِصْرُ ذِراعَيْها : مُرَحِّبَـةً بكلِّ وَافِدٍ عليهـا من أهْلِ العِـلْمِ والأَدَب، خصُوصًا بعدَ أن طَوَّحتْ يَدُ الرَّدىٰ بمُدُن العِراق وحَوَاضِرِ الأَنْدَلُس، ودارَتْ عليها الدَّوائِر، وذَهَب كلُّ ما كانَ لَهـا من آثارِ العِـلْمِ وأَعْمـالِ المَجْدِ والحَضَارة . فوَفَدَ عُلَماؤُها على هذا البَلَدِ الأَمِينِ ووَجَدُوا فيه ضَالَّتَهم المَنْشُودَةَ وأُمْنِيَّتَهم الكُبْرىٰ .

فأصبحَتْ مَيْدَانًا واسِعًا يَتسابقُ فيه طُلَّابُ العُلُوم والمَعارِف، ومَوْرِدًا عَذْبًا يَزْدَحِم عليه عُشَّاقُ الآدَاب ومُحِبُّو الحِكْمة، وجَنَّةً زاهِيَةً بأكابِرِ العُلَماءِ ونَوابِـغِ الحُكَماء .

وأَصْـبَح مُلُوكُها وأُمَراؤُها يَنْظُرون إلى العِـلْمِ والعُلَمـاءِ بعَيْنٍ مِلْؤُها الإعْظامُ والإجْلال، وأخَذُوا يساعِدُونهم، ويُبالِغُون فى إكْرامِهـم وإدْرارِ النِّعَم عليهـم، ويُشَجِّعُونهم على الإكثار من التَّأْلِيفِ والتَّصْنِيف فى العُـلُوم المختلفة . وصارُوا لا يُؤَسِّسُون مَسْـجِدًا للصَّلاة، ولا يَبْنُون مَدْرسـةً أو مَعْهَدًا من معاهِد العِلْم إلا ويُشَيِّدُون فى دَاخِلِه خِزَانةَ كُتُبٍ جامِعَةً، يُودِعُونهـا الكَثِيرَ من نَفَائس الأسْـفَار والمُصنَّفات فى كلِّ فَنّ ومَطْلَب : مَيْلًا منهم إلى نَشْر المعـارف، ورَغْبَةً فى تَخْلِيـدِ الذِّكْرِ وجَمِيلِ الأَثَر .

وقد كان لخُلَفـائها الفاطِميـينَ خِزَانةُ كُتُبٍ كُبرىٰ ، كانتْ من أجَلِّ الخـزَائن وأعْظَمِها شَأْنًا عندهم، وأكْثَرِها جَمْعًا للكتب النَّفِيسة من جميع العلوم والفُنُون .

يقال : إنَّه لم يكنْ فى جميع بِلادِ الإسلام دَارُ كتبٍ أعْظَم من التى كانتْ بالقَاهِرَة فى قَصْر الخُلَفاء الفاطميين .

ولم تَزَل الأمَّةُ المِصْريَّة الكَرِيمةُ سائرة على هـذا المَنْهَج القَوِيم : تَرِدُ مَناهِلَ العِلْمِ العَذْبة، وتَتَغذَّىٰ بِأَلْبانِه الطَّيِّبة ـ حتَّىٰ أصابها ما أصابَ غيرَها من الأُمَم الإسْلامية، فتَفرّقَتْ شِـيَعًا وأحزابًا ، وٱنْصرفَتْ عن الشُّؤُونِ العامّةِ ، وصار كلُّ واحدٍ لاهِيًا بذاته لا يشعر إلا بنفسه التى بين جَنْبَيه .

فقلَّ الٱحْتِفالُ بالعِلْم وأَهْـلِه ، وأُهْمِلتِ العِنايةُ بدُورِ الكُتُب وخَزَائنِ الأسـفار على كَثْرتِها ، وٱمْتـدَّتْ إليها يَدُ الخِيـانة تَعْبثُ بنَفائسها أنَّىٰ شاءتْ بدُونِ مُحاسِبٍ أو رَقِيبٍ . وٱسْتولَى المغِيرون على الديار المِصرية على أنْفَس ما كان مُودَعًا فيها من الكُتُب والآثارِ، ونَقَلوا منه إلىٰ بلادهم وممـالكهم ماشاء الله أن يَنْقُلوا .

وهَاهِى اليوم تُنَادِى أهـلَ مِصْر من وراءِ البِحار، وتُناجِيهم بمـا كان لسَـلَفِهم الناهِضِ من آثار العَمَل ودلائِل النُّبُوغ .

وما بَقِى فى تلك الدُّور والخَزَائن، مما زَهِدتْ فيه نُفُوس الطَّامِعين ـ صار رَهْنًا عليها، لاتقع عليه الأبصار، ولا يمرُّ بفِكْر : كأنَّه كَنْزٌ مَدْفونٌ لم يُهْتَدَ إليه بعدُ، أو سَجِينٌ حُكم عليه بالسِّجْن الأبَدِىِّ لا يَجِدُ لنَفْسه خَلَاصا .

تلك كانتْ حالةُ مِصْرَ حِيناً من الدَّهْرِ كادت تَذْهَبُ بكلِّ ما بَنىٰ أهْلُها فى الزَّمن السَّابقِ من مَجْـدٍ وأَسَّسُوا من قُوَّة ـ لَوْلا أنَّ الله تعالى أرادَ بها خيرًا ، فجلسَ علىٰ أَرِيكتِها ذلك المُصْلِح الكَبير، والعِصاميُّ الشَّهير، مُؤسِّسُ «مِصْرَ الحديثة» ساكِنُ الجنان "محمد على باشا" رأسُ العَائلة العَلَوِيَّة الكَرِيمة .

فانَّه — نَوَّرَ اللهُ ضَرِيحَه — أعاد لهـذه الأمةِ سَالِفَ مَجْدِها، ونَبَّه الأفْكار بعد طُول رُقادِها ، ونَشَرَ العُلومَ والمَعَارِفَ بين أبْنَائِها، وأرْسَلَ البِعْثاتِ العِلْمِيَّـة إلىٰ أَشْهرِ الجَامعاتِ بأورُوبَّا : ليَتعلَّموا أساليبَ التَّعليم الحَـديثَة، ويعودوا إلىٰ مصر بفُنُونٍ من التَّرْبيةِ والتَّهْذيب تدعو اليها سُنَّة التقدّم والارْتقاء .

وقَرَّب إليه العُلَمـاءَ والأدَباء ، وشَجَّعهـم على التَّأْليف والتَّصْنِيف . ووَصَـل اللَّيلَ بالنَّهار فى سَبِيل إنهاضِها وإسْعادِها، وأَسَّس المَدَارِسَ، وشاد دور الصناعات والمعامل فى حواضر هذا القطر السعيد .

وأَنْشأَ "المطبعة الأميرية الكبرى" ، وجَهَّزها بكلِّ ما يَلْزَم لها من الآلات والعُـدَد ، حتَّىٰ صارتْ من أرْقىٰ دُورِ الطِّباعة فى الشَّرْق ، واخْتـار لها نَوابِـغَ العُلماءِ وأَساطين الكُتَّاب : ليقوموا بتَصْحِيح مايُطْبع فيها . وإليها يَرْجع الفَضْل الأكبر فى تَقْوِيةِ النَّهْضَة العِلْمية فى مِصْر وغيرِها من البِلاد ، ونَشْرِ العـلوم والآداب العَرَبِيَّة فى جميع أَنْحاءِ العالَمِ .

وجاء من بَعْدِه حفيدُه أبو الأَشْبالِ، المَغْفورُ له "إسماعيل باشا" خديو مصر، فأنشأ "دَارَ الكُتُب" بالقاهرة، وجَمَع فيها ما بَقِىَ من الكُتُب فى خَزائِنِها المُتَفَرِّقة فى الدُّورِ والمَسَاجِد . وأَخذ الأمراءُ وغيرُهم من كِبَارِ الأُمَّة يَتَبَرَّعون لها بما فى دُورِ كتبِهم وخَزائِنِها من نفائس المصنفات .

واْهتَمَّ بها بعدَه وَلَدُه طَيِّب الذِّكْر "محمد توفيق باشا" خديو مِصْر فوَقَفَ عليها ألفًا وثَمانِمائَة فَدَّانٍ من أجْوَد أَراضِى القُطْر الزِّراعيَّة ، وجَعَلها إدَارةً مُسْتَقِلَّةً بعد أَنْ كانتْ عالةً على إدارة المَكَاتب، يُنْفق عليها من الأوقاف المُحَبَّسَةِ عليها .

واْمتلأتْ خَزَائِنها بنَفَائِس الأَسفار وجَلائِل المُؤَلَّفاتِ، من مِصر وغيرها من سائر المَمالك، بما كان يُنْفَق عن سَعَةٍ وكَرَمِ نَفْسٍ فى سَبِيل الحُصُول عليها .

وبها مَعْرِضٌ كَبِير حَوَىٰ كثيرًا من المصاحف الشريفة والآثار النَّفيسة، والمُؤَلَّفات القَدِيمَةِ، والمَخْطُوطات العَرَبِيَّة والنُّقود القديمة فى كلِّ دولةٍ من الدُّول الإسْلامية .

وهى علىٰ أَهْل هذا القُطْرِ السَّعِيد حَسَنَةٌ من أعظم الحَسَنات، وأثرٌ خالدٌ من الآثار الباقيات؛ ولها على العِلْم وأَهْلِه الأيادى التى لا تُنْكر، والمَفَاخِر التى تُذْكَر فتُشْكر؛ فقد أَعَدَّت للتردِّدين إليها قاعةً كُبرىٰ للمُطالَعة، وجَهَّزَتها بكلِّ ما يلزم لراحتِهم وتَسْهيل أَعْمالِهم — فأقبل عليها الطُّلَّاب والعُلَماء، والكُتَّاب والشُّعَراء، والمُتَرجِّمون والحُكَماء وغيرهم : يرِدون نميرها، ويُوَلُّون وُجُوهَهم شَطْرَها : على اْختِلاف لُغاتهم، وتَبايُنِ أَجْناسهم وطَبَقاتِهم .

ولما أشرفَ عليها حضرةُ صاحبِ السعادة "أحمد حشمت باشا" وزيرُ المَعَارف الأَسْبق وَجَّه — حفظه الله — عِنَايَتَه إلى تَنْظيمها تَنْظيما يكْفُل لَها التَّقَدُّمَ فى طريقِ الإصلاح اللَّائقِ بمكَانَتِها : لتأتِىَ بالثَّمَرَة المُطْلُوبة منها ، وتَقُوم بالخِدْمةِ الواجبةِ عليها : وذلك بنَشْر العلومِ والمَعَارفِ بين طَبَقاتِ الأُمَّة ، وطَبْع الآدابِ العَرَبيَّة وإذَاعَتِها بين أَبْنائِها .

فآختار طائفة مما فيها من نَفَائس الأَسْفارِ ونَوادِر المُؤَلَّفات ، وخُصُوصًا المُؤَلَّفات المِصْرِيَّة ، وأمر بأن تُطْبَع فى «القِسْم الأَدَبِىّ» بالمَطْبعة الأَميرِيَّة ، فتُشْرِق أنوارها على طلّاب العلم والحكمة ، ويعم النفع بها من قَرُب ومن بَعُد ؛ ضَنًّا بها أن تَبْقَىٰ مَقْصُورةً علىٰ قاعات المطالعة وغُرَفِها ، لا ينتفع بها غيرُ فَرِيقٍ من المقيمين فى مدينةِ القاهرة .

فكانَ أجل كِتَابٍ ظهر من هذه الكُتُب فى سماء الآداب العَرَبيَّة ، كِتَابُ :

"صبح الأعشى فى كتابة الإنشا"

(للقلقشندى)

التعريف بهذا الكتاب

مَهْما أطَالَ الكَاتِب فى وَصْفِ هـذا الكتاب ، وَجَوّد فِكْرِه ، وأَجْهَدَ قَلَمه فى التَّعْرِيف به و بقِيمَتِه العِلْمِيَّة والأَدَبِيَّة ـ فانه لا يبلغُ تَعْدادَ ما أُودِعَ فيه من الفَوائِد ، وآنْطَوىٰ تَحْته من الدَّقائق .

فهو كِتابٌ جَلِيلُ القَدْر ، عَظِيم النَّفْع ، كَبِير الفائِدَة ، لم يُنْسَجْ علىٰ منْوالِه فى عَالَم التَّألِيف فى فُنُون الأدَبِ والكِتابة . ولا نُعَدُّ مُبالغِين إذا قُلْنا : إنه أنفسُ كِتابٍ أُلِّفَ فى اللُّغةِ العَرَبِيَّة وتاريخ آدَابِها .

كِتابٌ بين لنا فيه القَلْقَشَنْدِيُّ مُؤَلِّفُه ـ رحمه الله ـ حالَةَ اللُّغَةِ العَرَبِيَّة الشَّرِيفَة ، وكَيْفَ كانت فى العُصُور الأُولَىٰ قبل الإسلام ، إلىٰ أن وَصَلَتْ إلىٰ ما وصَلَتْ إليه من الآنْتِشار بعد أَنْ صارت لُغَة القُرْآن الكريم ، لُغَة الشَّرِيعة الإسلامِيَّة السَّمْحةِ والدِّين الحَنِيف ، تَبَعًا لآنْتِشارهما فى أكْثَرِ أنْحاءِ الكُرَة الأَرْضِيَّة : فى بلاد فارِسَ وما وَرَاء النَّهْر ، فى بلاد الرُّوم ، فى البلاد المِصْرِيَّة (وقاها الله) فى بلاد أَفريقية والمَغْرِب الأَقْصَىٰ ، فى بلاد الأَنْدَلُس ، فى بلاد الهِنْد ، فى بلاد الصِّينِ ، فى بلاد كثيرة من أوروبا .

كِتابٌ بيَّن لنا فيه مُؤَلِّفُه كيف زَهَتْ هٰذِه اللُّغَة الشَّرِيفة فى عُصُور الخلفاء : من بنى أُمَيَّةَ وبنى العَبَّاس ، وغزرَتْ مادَّتُها ، وآتَّسَعَ نِطَاقُها ، ودَنَا قِطَافُها : فصَارَتْ لُغَة العِلْمِ والحِكْمَة ، لُغَة الأَدَبِ والشِّعْر ، لُغَة القَضاء والأَحْكَامِ ، لُغَة الجَدَل والمناظَرَة . كما صارتْ لُغَة التَّأليف والتَّصْنِيف : فى أَحْكام الدِّينِ ، وتَهْذِيب النُّفُوس ، وتَثْقِيف العُقُول ، ونِظَامِ المُلْكِ والمَمَالك ، وسِياسَة الأُمَمِ والشُّعُوب . وعلوم الفَلْسَفَة ، والرِّياضة ، والنُّجُوم ، والطِّبِّ ، والكيمياء ، وما أَشْبَهَهَا .

كِتَابٌ بين لنا فيه مُؤَلِّفُه الكِتَابة العَرَبِيَّة فى البلاد والممالك الإسلاميَّة، وما بَلَغتْه من دَرَجاتِ الرِّفْعَة والآرتقاء، ثم ما آلَتْ إليه بعد ذلك من الضَّعْف والوَهنِ، تَبَعًا لضَعْفِ اللُّغَة العَرَبِيَّة : باستيلاءِ المُغيرين على بِلاد الخلفاء وممالكهم، ممن لَيْسُوا من أهلها فى اللُّغَة، أو فى اللُّغَة والدين . كما بيّن لنا طَبَقَاتِ الكُتَّاب وأَهل الأدب، وما كان لهم عند الملوك من الرِّعاية وعظيم الآحْتِرام .

كِتَابٌ بَيَّنَ لنا فيه مؤلفه الخلافة الإسلاميَّة وشُرُوطَها ورُسُومها، ومَن وَلِيهَا : من الخُلَفاء الرَّاشِدينَ ومَرَاكِزِ ولاياتِهم، وخُلَفاءِ بَنِي أُمَيَّةَ بالشَّام والأَنْدَلُس، وخُلَفاءِ بَنِى العبَّاس ببَغْدَادَ ومِصْر، وخُلَفاءِ الفاطِمِيِّين بالديار المِصْرِيَّة، ومُدَّعِى الخلافَة من بقايَا المُوَحِّدِين بأفْرِيقِيَة .

كتابٌ بَيَّنَ لنا فيه مُؤَلِّفُه المَمَالك الإسلاميَّة فى المَشْرق والمغرب، وما بلغته من دَرَجاتِ المَجْد والحَضَارة، وحُدُودَها، وأَنْظِمَتَها، ورُسُومَها، وما آشْتَمَلَتْ عليه من الفَضَائِل والمحاسن، والخَوَاصِّ والعَجائب، وما بها من الآثار القديمة، ومن وَلِيهَا من المُلُوك والسلاطين جاهِلِيَّةً وإسلاما .

كِتَابٌ بَيَّنَ لنا فيه مُؤَلِّفُه — وهو هو ذلك المصرىّ الصَّمِيمُ، الذى أقلَّتْه أرضُ مِصْر، وأظَلَّتْه سماؤُها، وشَرِب حتى رَوِىَ من نيلِها — البِلادَ المِصْرية، وفَضَائلَها ومَحَاسِنَها، وخَوَاصَّها وعَجائِبَها، وما فيها من الآثارِ القَدِيمة . وبين نهر النِّيل ومَنْبَعَه ومَصَبَّه، وزِيادَتَه ونَقْصَه، ومقاييسَهُ، وما يَنْتَهِى إليه فى الزِّيادة، وما يَصِل إليه فى النُّقْصان، وخُلْجانَه المُتَفَرِّعة عنه، وجُسُورَه الحابِسَةَ لمائه . وبَيَّنَ بُحَيْراتِها، وجبالَها، وزُرُوعَها، ورَياحِينَها، وفَوَاكِهَها، ومَوَاشِيَها، ووُحُوشَها، وطُيُورها . وبَيَّنَ حُدُودَها، وآبتداء عِمارَتِها، وسَبَب تَسْمِيَتِها بمصر، وتَفَرُّعَ الأقَالِيم التى حَوْلَها

عَنْها . وبَيَّنَ أَعْمالَها وقواعِدَها القَدِيمَة، ومَبانِيَها العَظِيمة الباقية على مُرُور الأزمان . وبَيَّنَ قَواعِدَها الحَدِيثَة وما اشْتَمَلَتْ عليه من محَاسِنِ الأبنيــة . وبَيَّنَ من وَلِيَها من الملوك والسلاطين قبل الإســلام وبعده . وبَيَّنَ تَرْتِيبَ أحْوالهــا ، ومُعَامَلاتِها ، ونُقُودها ، وترتِيب مَمْلَكَتِها ، ووَظائِفَ دُوِلها القَدِيمَة والحَدِيثَة .

كِتَابٌ دوّن فيه مؤلفه عدّة كُتُبٍ أدَبِيَّة نَفِيسَة بتمامها ، وجَمَع فيه كثيرا مما تَفرّق فى غيره من المُؤَلَّفات .

ورَتَّبه على مُقَدِّمةٍ وعَشْر مقالاتٍ وخَاتِمة ، بناها بالإجمــال على التَّعْرِيف بحقيقة دِيوانِ الإنشاء وأصْلِ وَضْعِه فى الإسلام ، وتَفَرُّقِه بعد ذلك فى الممالك ، وبَيانِ كِتَابةِ الإنشــاءِ وتَفْضِيلها على سَائِرِ أنواعِ الكِتابة ، وصِفاتِ الكُتَّابِ وآدابِهــم ، ومَدْحِ فُضَلائِهم وذَمِّ حَمْقَاهُم .

ومَعْرِفةِ كلّ ما يحتاجُ إليه كاتِبُ الإنشاء فى الأمور العِلْمِيَّة والعَمَلِية : كمَعْرِفةِ المَوادِّ اللّازمةِ للمُنْشِئ : من الخَطِّ وتَوَابِعِه ولَواحِقِه وغيرِ ذلك .

ومعرفةِ المَسَالِكِ والممَــالِكِ (عِلم تَقْوِيم البُلْدان) : كمعرفة شَكْلِ الأرضِ وإحَاطة البَحْرِ بهــا ، وبيانِ جِهاتِها الأَرْبع وما آشتملتْ عليــه من الأقاليم السَّبْعة الطَّبِيعيَّة ، وبيانِ مَوْقِع الأقاليم العُرفِيَّة منها ، وذِكْر حُدُودها الجَامعة لهــا ، وما فِيها من الجِبالِ والبِحارِ والأنهــار ، والأقاليم والممــالك والبلدان ، ومُلُوكها فى القَدِيم والحَدِيث وما يَتْبع ذلك .

ومعرفة الأمور التى تَشْــترك فيها أنواعُ المُكاتَباتِ والوِلَايات وغيرهما : من ذِكْر الأسمــاء والكُنىٰ ومَواضِع ذكرهما فى المُكَاتبات ، وذِكْر الألقاب وأَصْل وَضْعِها ، وما كان يُلَقَّبُ به أهلُ كلِّ دَوْلة إلىٰ زَمَنــه ، وكَيْفية تَوْزِيع الأَعْمــال على كُتَّاب

الإنشاء ، ومَقَادِير قَطْع الوَرَق وما يناسبها من الأقلام ، وغير ذلك من قَوَانِين الكِتَابة وأَنْظِمَتها .

ومعرفةِ المُكاتبات العامَّة وأُصُولِها ومَقَاصِدِها ، فى القَدِيم والحديث ، ومُصْطَلَح المكاتبات الدائرة بين كُتَّاب الإسلام ، وكُتُبِ النَّبِيّ (صلَّى الله عليه وسَلَّم) إلى أَهْلِ الإسلام وغيرهم ، والكُتُبِ الصَّادِرة عن الصَّحابة والخُلَفاء والمُلُوك ومَن فى معناهم ، وبيانِ مذاهِبِ الكُتَّاب فيما تُفْتَتح به المكاتباتُ ، وما يُخاطَبُ به أَهْلُ الإسلام وغيرهم فيها ، وغير ذلك .

ومعرِفةِ الوِلايات وطَبَقاتها ، وما يَتْبعها من البَيْعاتِ والعُهُود ، ومَعْناهما ، والوِلَاياتِ الصادرة لأرباب المَنَاصِب : من أَصْحابِ السُّيُوف والأقلام وغيرهم .

ومعرفةِ الوَصَايا الدِّينِيَّةِ وما يُكْتب فيها فى القَدِيم والحَدِيث ، والمُسَامحاتِ والإطلاقاتِ وما يكتب فيهما ، والطَّرْخانيات وتَحْوِيل السِّنِينَ ، والتَّوفِيقِ بين السِّنِين القَمَرِيَّة والشَّمْسِيَّة ، وما يُكْتب فى التَّذَاكر التى يرجع إليها .

ومعرفة الإقطاعاتِ وأَصْلِ وَضْعِها فى الشَّرْع ، وما يكتب فيها فى القَدِيم والحَدِيث ، وأوّلِ من وَضَع دِيوانَ الجَيْش فى الإسلام .

ومعرِفة الأَيْمَانِ وما يَقَع به القَسَم ، والأَيْمَانِ التى أَقْسَم الله تعالى بها ، وما كان يَحْلِف بها العَرَب فى الجاهِلِيَّة ، وما يُقْسِم به أهلُ كُلِّ مِلَّةٍ ونِحْلة .

ومعرفةِ عُقُود الأمانات والصُّلْح ، والهُدَنِ الواقعةِ بين ملوك الإسلام وغيرهم .

وذكر فيه فُنُوناً كثيرةً يَتَداوَلُها الكُتَّاب والأُدَباءُ ويتَنافَسُون فى عَمَلِها ، لا تعلُّق لها بديوان الإنشاءِ : كعَمَل المَقَامات ، والرَّسائِلِ المُلُوكِيَّة المشتملةِ على الغَزْوِ

والصَّـيْد ، ورَسائِلِ المَدْح والذَّمِّ ، ورسـائِلِ المُفاخَراتِ بين الأشياء، والرَّسائِلِ المُشْـتملة على الأسـئلة والأجوبة ، والرَّسائِلِ المُكْتَتبـة بالحَوادثِ والمَـاجَريات وغيرها ، وكقِدْمات البُنْدُق ، والصَّدُقات المُلُوكية وغيرها ، والعُمراتِ التى تُكْتب للحَـاجِّ ، وذِكْرِ نُسَخٍ من ذلك كلِّه . وما يُكْتب عن العُلَمـاءِ وأهل الأَدَب : من الإجازةِ بالفَتْوىٰ والتَّدْرِيسِ والمَرْويَّات، وما يُكْتبُ على الكُتُب المصَنَّفةِ والقَصائد من التَّقْريظات ، وما يُكْتب عن القُضاةِ : من التَّقاليد الحُكْمية وإِسجالات العَدَالة وغير ذلك .

وتكلَّم فيـه على البَرِيدِ وأَوّلِ من وَضَـعه فى الجاهِلِيةِ والإسـلامِ ، وبيانِ مَعالِمِه ومَرَاكِزِه ، ومَطاراتِ الحَمَـام الرَّسائِلىّ وأبراجه بالدِّيار المِصرية والبلاد الشَّاميَّـة ، ومَرَاكِبِ الثَّلج والهُجْنِ المُعَدّة لنقْلِه ، والمَناوِرِ والمُحْرِقات .

وذكر فيه كثيرًا من الآيات القُرآنيـة الشَّريفة والأحاديث النَّبوية الكريمة ، والأَمْثال والحِكَم العَرَبيَّة، وأقوال الكَثِيرين من أَئِمَّة اللُّغة والتَّفْسير والحَديث والفِقْه وعلوم العربية .

وأتىٰ فيه علىٰ كَثِيرٍ من أسماءِ الكُتُب والفُنونِ، وكَثِيرٍ من أسماءِ مشاهِيرِ المُؤَلِّفين والعلماءِ والأُدباءِ والكُتَّاب والشُّعراءِ .

وأورد فيه من أصولِ الصَّـنْعةِ فى الكِتابة مايُغْنِى قارِئَه عن تَصَفُّح كَثِيرٍ من المؤلفات الأدبِيةِ وغيرها .

وضَمَّنه شيئًا كثيراً يفوقُ الحَصْر من الرسائِل البَلِيغة لمشاهير الكُتَّاب وأَهل الأَدب فى الشَّرق والغَرْب والقَديم والحَديث .

ولم يترك باباً من أبوابه ولا فصلا من فصوله دون أن يحليه من غرر منشآته لنفسه بالمعجب والمطرب .

ولم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا ذكرها، ولم يغادر شاردة ولا واردة إلا أحصاها .

فصار كتابه لذلك ـ كتاب تاريخ وسير، ولغة وأدب، وفقه وتفسير للقرآن والحديث، وشرح للأمثال والحكم العربية، وبسط لنظام الحكومات عامة والحكومة المصرية خاصة .

وعلى الجملة فهو كتاب ممتع، ودائرة معارف أدبية كبرى، يشهد لمؤلفه بالفطنة والذكاء، وطول الباع فى هذا الفن الجليل فن كتابة الإنشاء، وقوة التمكن فى اللغة العربية وآدابها، وينطق بماله من كثرة الاطلاع على دقيقها وجليلها .

وإن حسن نية مؤلفه، واعتماده على فضل الله تعالى فى النفع به ـ ساعدا على حفظه إلى هذا الزمن من أيدى العوادى، وانتشاره هذا الانتشار العظيم .

فقد قال فى خاتمة تأليفه لهذا الكتاب ـ تحدثاً بنعمة الله عليه ـ بعد أن ذكر أن المصنفات تتفاوت فى الحظوظ إقبالا وإدبارا : فمن مرغوب فيه، ومرغوب عنه، ومتوسط بين ذلك، وأنه قل أن ينفق تأليف فى حياة مؤلفه، أو يروج تصنيف على القرب من زمان مصنفه، وبعد أن استشهد على ذلك بما رواه المسعودى فى كتابه "التنبيه والإشراف" عن الجاحظ . قال :

لكنى أحمد الله تعالى على رواج سوق تأليفى ونفاق سلعته، والمسارعة إلى استكتابه قبل انقضاء تأليفه، حتى إن قلمى التأليف والنسخ يتسابقان فى ميدان الطرس إلى اكتتابه، ومرتقب نجازه للاستنساخ يساهمهما فى ارتقابه، فضلا من الله ونعمة : ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ .

ترجمـــة مؤلفـــه

أما مُؤَلِّفه "أبو العباس أحمد القَلْقَشَنْدِىّ" رحمه الله تعالى، فقَدْ تَرْجمه السَّخَاوىّ فى الجزء الأوّلِ من كتابه : "الضَّوْء اللّامع، فى أعيان القَرْن التاسِع" فقــال :

«هو أحمــدُ بن علىّ بن أحمدَ بن عبــد الله، الشّهاب بن الجَمَــال بن أبِى اليُمْن القَلْقَشندىّ، ثم القاهِرِىّ الشّافِعىّ .

ولِد سنة ستٍّ وخمسين وسَبْعِمائةٍ، وٱشتغل بالفقْه وغيره، وسمِعَ على ٱبن الشيخة . وكان أحدَ الفُضَــلاء، ممن بَرَع فى الفِقْــهِ والأَدَبِ وغيرهما . وكَتَب فى الإنشاءِ، وناب فى الحُكْم، وشَرَح قِطَعًا من "جامعِ المُخْتصرات" بل شَرَع فى نَظْمِه .

وعمِل "صُبْح الأعْشىٰ فى قَوَانينِ الإنشا" فى أرْبع مُجَلَّدات، جَمَــع فأوعىٰ . وكان يستحضِر أكثر ذلك مع "جَامِع المُخْتصرات" و"الحاوِى" . وألَّف كتابًا فى أنْسابِ العَرَبِ . وكان فيه تَواضُعٌ ومُرُوءةٌ وخَيْر .

مات يوم السَّبْت عاشر جمــادى الآخِرةِ ســنةَ إحدىٰ وعشرين وثمــانمــائةٍ، وله خمسٌ وستُّون سنةً . ذكره المَقْرِيزىّ فى "عُقُودِه" والعَيْنِىّ وآخرون . وسَمَّى المقريزىُّ والِدَه عَبْد الله وهو وَهَم» .

وترجمه صاحبُ "شَذَرات الذَّهب فى أخبار من ذَهَب" فقال :

« شهاب الدِّين أحمدُ بن علىّ بن أحمدَ القَلْقَشَندىّ الشافعىّ ، نَزِيلُ القاهرة . تَفَقَّه ومَهَر، وتعانى الأَدب، وكَتَب فى الإنشاء، ونَابَ فى الحُكْم . وكان يَسْتحْضر "الحاوى" ، وكَتَب شيئًا على "جامع المختصرات" . وصَنَّف كتابًا حافلا سَمَّاه "صُبْح الأَعشىٰ فى معرفة الإنشا" وكان مُسْتحضِرًا لأكثر ذلك، وصَنَّف غير ذلك . وكان مِفْضالًا وَقُورا فى الدَّولة إلىٰ أن تُوفِّىَ ليلة السَّبْت عاشِر جُمادى الآخرة ، عن خَمْس وستِّين سَنَة (١) » .

وقد وَقَفْنا علىٰ شىءٍ من تَرْجَمتِه وقت تَصْحِيحِنا لكتابه "صبح الأعشىٰ" نُورده هنا، إتْمامًا للفائدة، فنقول :

مـيـــــلاده ونسبته

وُلِد المُؤَلِّف فى سنة سِتٍّ وخمسين وسَبْعِمائةٍ كما ذكره السخاوىّ فى "الضَّوْء اللامع" ببلدةٍ يقالُ لها "قَلْقَشَنْدَة" من أَعمال مُديريَّة القَلْيوبِية بالدِّيار المصرية : من أَصْلٍ عَرَبىّ صَمِيم ، من بَنِى بَدْرِ بن فَزَارَةَ من قَيْس عَيْلان . وكان بَنُو فَزَارةَ وردُوا مِصْر مع من وَرَدها من العَرَب، أيَّام الفَتْح الإسْلامىِّ وبعده،

(١) سماه صاحب "كشف الظنون" مرة بأحمد بن علىّ ، ومرة أخرى بأحمد بن عبد الله ، وثالثة بأحمد بن عبد الله بن محمد .

وذكر فى عنوان "نهاية الأرب" للؤلف ، المطبوع ببغداد أنه : أحمد بن عبد الله بن أحمد بن عبد الله آبن سليمان بن إسماعيل القلقشندىّ ، الشهير بآبن أبى غدّة .

ووجد مكتوبا على بعض أجزاء "صبح الأعشى" الخطية المحفوظة بدار الكتب أنه أحمد بن عبد الله آبن أحمد بن محمد بن سليمان بن إسماعيل .

وَنزلُوا باقليم القَلْيوبِيَّة ، وٱستولىٰ بَنُو بَدْرٍ منهم علىٰ أجَلِّ بِلاده . وكانتْ لهم الرِّآسةُ والغَلَبة علىٰ جِيرانِهم من بنِي عَمِّهم بنى مَازِن بن فَزَارة . وكان بقَلْقَشَنْدَة فِرقتان : فِرَقَةٌ من بنى بَدْرٍ وفِرْقَةٌ من بنى مَازِن[1] .

نشأته وتربيته

ونَشَأَ نَشْأَةً حَسَنة ، وتَربّىٰ تَرْبية عِلْميَّة صحيحةً ، وتَوجَّه إلىٰ ثَغْر الإسْكَنْدرِية وأقام به مدّةً من عُمْره ، وطَلَب العلومَ الشَّرعِيَّةَ علىٰ مَشْهُورى العُلَماء فى عَصْره ، وٱشْتَغَل بفُنُون العَرَبِيَّة والأَدب حتَّى ٱجتمع له مِقْدارٌ وَافِرٌ منها . وٱطَّلع علىٰ كثير من الكُتُب والأسفار فى مختلف العُلُوم والفُنُون .

إجازته بالفُتْيا والتَّدْريس

وفى سنة ثمانٍ وسبعين وسبعِمائةٍ حِينما كان مُقيماً بثَغْر الإسْكَنْدرِيَّةِ أجازه الشَّيخُ سِراج الدِّين أبو حَفْصٍ عُمَرُ بن أبى الحسنِ الشَّهيرُ بابنِ المُلَقِّنِ ـ بالفُتْيا والتَّدْرِيس علىٰ مَذْهبِ الإمام الشافعيِّ رضى الله عنه ، ولم تَكُنْ سِنُّه إذ ذاك تَتَعدَّىٰ إحدىٰ وعشرين سنة ، كما أجازه بأن يَرْوِىَ عنه كلَّ ماله من التآليفِ فى الفِقْه والحَديث وغيرهما ، وأن يَرْوِى كلَّ ماجازت له رِوايتُه بشَرْطه عند أهْلِه ، كالكُتُب الصِّحاحِ السِّتَّة ، ومُسْنَدِ الشافعىّ ومُسْند أحمدَ بن حَنْبل وغير ذلك .

وكُتِبتْ هذه الإجازة بخَطِّ القاضِى تاجِ الدِّين بن غنوم مُوَقِّع الحُكْم العزِيزِ بمدينة الإسْكَنْدرِيَّة .

---

(١) أنظر "نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب" للمؤلف (ص ١٥٠) .

تَصَـــدُّره للإفادة

وجلس بعد ذلك للإفادة، فٱنْتفعَ الكثيرون من فِقْهه ووَرَعِه وأمانَته .

وعَرضَ عليه كثيرٌ من تَلاميذه ما حَفظوه من الكُتب وغيرها فى الفِقْهِ والأُصول وعُلوم العَرَبية، فأجازهم بما حَفِظُوه منها .

الْتِحاقُه بديوان الإنشاء

وفى شهورِ سنةِ إحدىٰ وتسعين وسبعمائة ٱلْتَحق بديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية بالديار المِصرية، وأنشأ مقامةً فى تَقْريظ القاضى بَدْرِ الدِّين، بن القاضى عَلاءِ الدين، بن القاضى مُحْيِي الدين، بن فَضْل الله : رئيس دِيوان الإنشاء وَقْتئذٍ، سماها "الكَواكب الدُّرِّية، فى المَناقِبِ البَدْرية" (١) بناها على التَّعريف بكِتابة الإنشاء وَعُلوِّ قَدْرِها، وعِظَم خَطَرِها، وأنها الحِرْفَةُ التى لايليقُ بطالِبِ العِلم غيرُها، والصِّناعةُ التى لايجوز له العدولُ عنها إلىٰ ماسِواها، وضَمَّنها كثيرًا من أُصُولِ الصَّنْعة فى الكِتابة وفروعها . إلا أنها لإيجازِها، مع ما ٱشتملتْ عليه من كثيرِ المعانى ـ ٱحتاجتْ إلىٰ شرحٍ وافٍ يكشِف إشاراتِها، ويُوضِّح عِباراتِها، فألَّف كِتابه "صبح الأعشىٰ" وجعله كالشَّرح لها .

وفرغ من تَأليفه فى يوم الجُمُعة الثامِنِ والعشرين من شَهْر شوّال سنة أربع عشرة وثمانمائة .

---

(١) ذكرت فى الجزء الرابع عشر من صبح الأعشى (ص ١١٢) .

قيمتُه فى الكتابة والإنشاء

كانتْ كِتابتُـه وإنشاؤه كإنشاء أهل عَصْره وكتّابهم ، مَبْناها على التَّخَيُّل والتزام المُحَسِّنات البَديعيَّة : من السَّجْع والجِناس والتَّوْرِية وغيرها ، والغُلُوِّ فيهـا ، على نَحْوِ ما كان من كِتابة « القاضى الفَاضِل » و « ابن نَبـاتَة » والقاضِى « شِهاب الدِّين ابن فَضْل الله العُمَرىّ » وأضرابهـم . غيرأنها كانت تَبْـدُو أخَفَّ رُوحًا وأعظم وُضُوحا من كِتابة أمثـاله .

وإنَّ من قَرأ مَقامَتَه التى أنشأها عند التحاقه بديوان الإنشاء ، عَرَف ما كان عليه : من غَزارة المـادَّة ، وسَلامةِ الذَّوق ، وقُوّة الذَّاكِرة .

مُؤَلَّفـــاتُه

وله تآليف كثيرة ، منهـا :

كِتابُ «صبح الأعشىٰ فى كِتابة الإنشا» وهو هذا الكتاب .

وكِتابُ « ضَـوْء الصُّبْح المُسْفِر وجنى الدَّوْحِ المُثْمِر » وهو مختصر كتاب «صـبح الأعشىٰ » . طبع الجزء الأوّل منــه فى مطبعة الواعظ بالقـاهرة فى سنة ١٣٢٤ هـ .

وكِتابُ « الغُيُوث الهوامِـع ، فى شَرْح جامِع المختصرات ومختصراتِ الجوامِع » فى علْم الفقه على مذهب الإمامِ الشافعىّ رضى الله عنه .

وكتابُ "نِهاية الأَرَب، فى معرفة قبائِل العرب" فى الأنساب، أَلّفه للمَقرّ الجَمَالىّ يوسف الأُمَوىّ(١)، وطُبع فى مطبعة الرياض بمدينة بَغْداد (دارِ السلام) .

وكتابُ "قلائد الجُمَان، فى قبَائل العُربان" فى أنساب العربِ أيضا(٢) .

وله غير ذلك رَسائلُ كثيرةٌ تزيد على المـائة أودعها كتابه "صبح الأعشىٰ" .

هـــذا : وقد أُسنِد إلينـا تصحيحُ كتابِه "صُبح الأعشىٰ" المطبوع علىٰ نَفَقة دار الكُتُب، بالقِسْم الأدبىّ بالمطبعةِ الأميرية . فقُمْنا نَحْوه بمـا يجب بإزاءِ مُؤَلِّف جليلٍ مِثلِه، وٱجْتهدنا فى تَهْذِيبه وتَنْقيحه بقَدْرِ الطّاقَة .

وٱسْتَعَنّا علىٰ ما وجدناه بأَصْلِه من التَّحْرِيف الكثير والتَّصْحِيف الغريب ـ زيادةً علىٰ ما فيه من الطَّمْس والسَّقَم فى مواضِعَ من بَعْض أجزائِه ـ بمُراجَعةِ كثيرٍ من المؤلفات فى الفُنُون المختلفة، ونُسَخ شتّىٰ من رسائِل الكُتّاب ودواوِينِ الشعراء وأَهل الأَدب، باحِثِين فيها عن كلِّ مَوْضوعٍ تكلَّم عنه المؤلِّفُ أو أَشار إليه فى كتابه . ومَتَى توَقّفْنا فى شىءٍ من مَسائله أثناء التَّصْحِيح : لعَدَم وُضُوحه ، أو لأن يَدَ النَّـاسخ مَسَخَتْه ، أو لغير ذلك ـ رَجَعنا إلى تلك ٱلكُتُب والرَّسائل فصَحَّحْناه منها، مع المُحافظَة التّامّة علىٰ عبارة الأَصلِ مَهْما بلغتْ من السَّقَم . وما لم نَقِفْ عليه فيها، أبْقيناه علىٰ حَالِه،

(١) كما ذكر ذلك المؤلف فى خطبته، وذكر صاحب "كشف الظنون" أنه ألفه لأبى الجود «بتر بن راشد» أمير العربان فى البلاد الشرقية والغربية .

(٢) نسبه صاحب "كشف الظنون" لوالد المؤلف، وذكر أنه نبه على ذلك فى كتابه "نهاية الأرب" . [وقد تصفحناه فلم نعثر على ذلك] .

ووَضَعْنا بجانِبِه علامةً تدلُّ على التَّوقُّف ، ووكلناه إلىٰ فَهْم القارِئ الكرِيم وعَبْقَرِيّتِه ، ناسبين كلَّ إصلاحٍ أدخلناه عليه إلىٰ مَوْضِعِه من كُتُب المُراجَعة .

وقيَّدنا أكثر كلِماتِه بالشَّكْل ، مُعْتَمِدين فى ضَبْطِها علىٰ معَاجِم اللُّغة المشهورة ، وبَذَلنا الجُهْـد فى تَقْرِيبِه إلى فَهْم القَارِئ ، بوَضْع علاماتِ التَّرقيم بين جُمَـلِه وأجزاءِ عِبـاراتِه .

ومَيَّزنا ما فيه من الآياتِ القرآنِية الكَرِيمة ، والأحاديث النَّبَوِيَّة الشَّرِيفة ، وأمْثالِ العَرَب وحِكَمِها ـ بعلاماتٍ مختلفةٍ تُمَيزها عن سِواها .

ووَشَّيْنا أكثر صَفَحاته بحواشٍ شَرَحْنا فى بعضها ما يُوجد فى مَتْنِه من غَرِيب اللُّغة ، وأَثْبَتنا فيها أسماءَ كلِّ الكُتُب التى اعتمدنا عليها عند التَّصْحِيح .

وها هُو ذا نقـدّمه لحضرات قُرَّائه الكِرام ـ من أكابر الكُتَّاب وأساطِينِ اللُّغَـة والأَدب ـ فى ثَوْبِه الجَـدِيد الذى يَسُرُّ النـاظِر ويَشْرَحُ الخـاطِر ، مُعْتَذِرِين إلىٰ حضراتهـم فيما يقِفون عليـه من خَطَإٍ مطبَعِيٍّ وقَع فيـه أثنـاء الطَّبْع ولم نَتنَبَّهْ له ، والكمالُ لله وَحْدَه .

وَفَّقنا الله تعالى إلىٰ ما يُحِبُّه ويرضاه ، وأعاننا على مَشَاقِّ هـذه الصِّناعة ، ووَهَبنا من لَدُنْه الصَّبرْ وحُسْنَ الثَّباتِ ، فهو حَسْبنا ونِعم الوَكِيل ؟

القاهرة فى ٦ جمادى الأولى سنة ١٣٣٨ (٢٧ ينـاير سنة ١٩٢٠)

محمد عبد الرسول
إبراهـيم